



تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار غريب

إهداء 2005

أ.د. محمد عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الأول من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

تفسير القرآن الكريم

تأليف

دكتور عبد الله محمود شحاتة

أستاذ بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة


للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

الكتاب : تفسير القرآن الكريم «الجزء الأول»

المؤلف : د / عبد الله محمود شحاته

رقم الإيداع : ٤٦٧٠

تاريخ النشر : ٢٠٠٠

الترقيم الدولي : 0 - 326 - 215 - I. S. B. N. 977

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناشر ولا يسمح
بإعادة نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى
شكل من أشكال النشر إلا بإذن كتابى من الناشر
الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والطابع : ١٢ شارع نوبار لاطوغلى (القاهرة)

ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس : ٣٥٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣,١ شارع كامل صدقى العقالة - القاهرة

ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق { ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
والمعرض الدائم { ت : ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣



مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله، وعلى خاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

هذا تفسير القرآن الكريم، أقدمه إلى أمتنا العربية والإسلامية، آملاً أن نجد فيه الهدى والرشاد وصلاح الدنيا والآخرة.

وقد طبعَ دار المعارف بالقاهرة الأجزاء الأولى منه من ١-٦، ثم نفدت هذه الأجزاء.

ورغب القراء في إعادة الطبع، فسارعتُ إلى قراءة التفسير مرة أخرى، وأضفت إليه ما رأيته لازماً؛ ونقلت التعليق والتوضيح، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة، والإشارة إلى المراجع والمصادر، من هامش الصفحات؛ إلى آخر كل جزء من أجزاء القرآن الكريم؛ وأمل أن يجد فيه لقارئ ما يفيد وينفع إن شاء الله.

وقد عرضتُ على دار غريب للطباعة والنشر، أن تقوم بنشر هذا التفسير، فقامت بإعادة الطبع والنشر على أكمل وجه.

وستتابع - إن شاء الله - تقديم الأجزاء التالية من القرآن الكريم؛ حتى يتم تفسير المصحف الشريف كاملاً، بمشيئة الله وعونه، والله ولي التوفيق.
وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. عبد الله شحاتة

القاهرة في ٢٤ رجب ١٤٢٠ هـ الموافق ١١/٢/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing & Translation

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

السيد الأستاذ / دار غريب للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
نبينا على السطلب الخاص بفحص ومراجعة (تفسير القرآن الكريم الجزء
الأول من الفاتحة إلى الآية ١٤١ من سورة البقرة)
تأليف الدكتور / عبد الله محمود شحاتة
نفيد أنه بمراجعة النص القرآني تبين أنه سليم في جوهر القرآن الكريم
ولا مانع من نشره وتداوله
مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث
النبيهية الشريفية .
والله الموفق
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

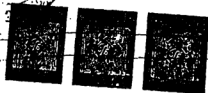
مدير عام
البحوث والتأليف والترجمة

تحريراً في :
١٤١٩ / ٧ / ٦ هـ

شكري محمد أحمد نس
٩٧/٨/٢٨

١٩٩٨/١٠/٢٦ م

على



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى الترمذى عن الحارث الأعور عن على بن أبى طالب- رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول :

« ألا إنها ستكون فتنة ، فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟

قال : كتاب الله - تعالى - فيه نبا ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو خيل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تلتبه الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد . (الجن ١) من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (١).

أما بعد :

فقد أنزل الله القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة رسالته المباركة، ثلاثة عشر عاماً قبل الهجرة، وعشر سنوات بعد الهجرة.

وكان الصحابة عربياً خلصا يفهمون القرآن الكريم ، ويدركون أهدافه ومراميهِ ويعيشون حياتهم فى كنف القرآن، وامثال ما يدعو إليه.

ولذلك كانت حاجتهم إلى التفسير غير كبيرة، لأن حياتهم كانت تطبيقاً عملياً لأمر القرآن ونهيه. سُئِلَتْ عائشة- رضى الله عنها - عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقالت : كان خلقه القرآن (٢).

وكان الصحابة إذا أشكل عليهم معنى من المعانى سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عنه فيوضحه ويبينه لهم قال - تعالى - : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . (التحل ٤٤)

وفى عهد الصحابة اتسع التفسير نسبياً ، وكان المسلمون إذا رغبوا فى توضيح آية، أو تفسير أمر غامض لجأوا إلى علماء الصحابة بالتفسير مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل- رضى الله عنهم- أجمعين.

وكان عصر الصحابة امتداداً لعصر الرسول الأمين؛ فالقرآن وحى السماء وتشريع الله للناس، وأحكام القرآن مطبقة، وأدابه وهديه نموذج يقتدى به.

ولما جاء عصر التابعين، انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار، وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء، فأخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن.

ومن أول ما دُوِّن من العلوم «التفسير»، ومن أقدم التفاسير «تفسير أبي العالية رفيع بن مهران الرياحي» المتوفى سنة ٩٠هـ، «ومجاهد بن جبر» المتوفى سنة ١٠١هـ، ثم تفسير «عطاء بن أبي رباح» المتوفى سنة ١١٤هـ.

وقد انقسمت جماعة المفسرين إلى ثلاث مدارس.

الأولى : مفسرو مكة المكرمة، وهم تلاميذ عبد الله بن عباس.

الثانية : مفسرو الكوفة، وهم تلاميذ عبد الله بن مسعود.

الثالثة : مفسرو المدينة، وهم أصحاب زيد بن أسلم.

وفي عصر تابعي التابعين اتجهت الهمم إلى جمع ما أثر من التفسير عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعن صحابته وعن التابعين بدون تفرقة بين المدارس الثلاث التي امتازت في عصر التابعين بروايات مخصوصة.

فدوَّنوا علم التفسير في الكتب الصغار والكبار، وصارت كتبهم أجمع للعلم من الكتب السابقة.

وأشتهر من بينهم مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠هـ.

وسفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١هـ.

ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧هـ.

وعبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢٠٧هـ. وغيرهم. وقد ضاع أكثر هذه التفاسير.

ولكن مضمون هذه التفاسير قد نقله محمد بن جرير الطبري (المتوفى سنة ٣١٠هـ) صاحب التفسير الكبير المتداول بين الناس الآن.

قال السيوطي : (وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين).

وقال النووي : أجمعت الأمة على أنه لم يصنف في التفسير مثل تفسير الطبري.

التفسير النقلي والعقلي :

كان جمهور الصحابة والتابعين وتابعيهم يتحرون التفسير بالمأثور. بل كان منهم من يفضل المشي في النار على القول في القرآن بالراءي.

وكان ابن جرير الطبري يورد المأثور من الأقوال في الآية، ويرجح بعضها على بعض وغالباً ما يعتمد في الترجيح على قوة السند، وقد أنكر بشدة على من فسر القرآن برأيه بدون اعتماد على شيء إلا على مجرد اللغة.

وقد انقسمت كتب التفسير إلى نوعين رئيسيين:
كتب التفسير بالمأثور، وكتب التفسير بالمعقول.

وقد وقف الناس في ذلك موقفين وانقسموا فريقين. فقوم تشددوا في التفسير فلم يروا أن يجزوا على تفسير شيء من القرآن ما لم يرد فيه قول للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو للصحابه كالذى روى عن عبد الله ابن عمر أنه قال : لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم سالم بن عبد الله والقياس ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع ، وفريق آخر لم يجدوا بأسا ولا حرجا من تفسير القرآن باجتهادهم معتمدين على درايتهم باللغة وأساليبها، وما يتصل بذلك من العلم بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ، وقال هذا الفريق : إن الله قد سبحانه بالنظر في القرآن واستنباط الأحكام منه. قال تعالى : لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطُونَهُ مِنْهُمْ. (النساء ٨٢).

وما ورد من ذم التفسير بالرأى مقصود به : من تكلم في القرآن بمجرد رأيه فقد أخطأ.

قال القرطبي : (انتهى عن التفسير بالرأى يحمل على وجهين : أحدهما أن يكون له في الشيء رأى، وإليه ميل من طبعه فيحمل تفسير الآية على هذا الرأى، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

أما الوجه الثاني فإنه يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهاره بالسمع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن. ومن بادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه؛ ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأى، والنقل والسمع لابد منهما لمن أراد التفسير، أولاً ليقى بهما موضع الغلط، ثم بعد ذلك ليتسع الفهم والاستنباط).

ونرى أن اليون غير شاسع بين التفسير النقلى والعقلى، فالمفسر لا غنى له عنهما : إذ إنه مطالب بمعرفة تاريخ التشريع، وأسباب النزول، ومعرفة المكي والمدنى، والناسخ والمنسوخ، وما أثر عن السلف في تفسير الآية، ثم هو مطالب باستخدام العقل والرأى إذا لم يجد أثراً في الآية أو وجد أثراً معلولاً أو مضطرباً.

ويعتبر ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ شيخ المفسرين وإمامهم، من الرواد الأوائل في التفسير، وقد جمع في تفسيره بين النقل والعقل.

بل إن الطبري أهم مرجع في التفسير النقلى، ومع ذلك يعتبر مرجعاً عظيم الأهمية من مراجع التفسير العقلى نظراً لما فيه من الاستنباط وتوجيه الأقوال، واختيار أولاه بالصواب اختياراً يعتمد على صحة السند، كما يعتمد على النظر العقلى والبحث الحر الدقيق، فهو قد احتكم إلى الشعر القديم بشكل واسع، متنبهاً في هذا ما أثاره ابن عباس سابقاً، كما اهتم بالمذاهب النحوية، والأحكام الفقهية وبعض مسائل علم الكلام.

التفسير في دور التخلف:

كما أن الصحيح يأكل الطعام فيزداد قوة، فإن المريض يأكل الطعام فيزداد مرضاً.

وفى عهد التقليد والجمود تحول التفسير إلى محاكات لفظية أو بحوث قواعد النحو والإعراب أو البلاغة والبيان، أو آراء الفرق والرد عليها، وغير ذلك من الاصطلاحات والفنون التى تصرف الناس عن هدى القرآن إلى ما كتبه المفسرون من علوم وهنون.

أنواع التفسير :

يمكن أن نقسم التفسير إلى نوعين على وجه الإجمال:

أحدهما : تفسير جاف لا يتجاوز حل الألفاظ، وإعراب الجمل، وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية وإشارات فنية، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات العربية منه إلى التفسير، وبيان مراد الله من هداياته.

والنوع الثاني : تفسير يجاوز هذه الحدود، ويجعل هدفه الأمل تجلية هدايات القرآن وتعاليم القرآن أو حكمة الله فيما شرع للناس هذا القرآن على وجه يجتذب الأرواح ويفتح القلوب، ويدفع النفوس إلى الاهتداء بهدى الله .

وهذا هو الخلق باسم التفسير، وفائدة هذا التفسير هي التذكير والاعتبار ومعرفة هداية الله في المعائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، ليفوز الأفراد والجماعات بخير الدنيا والآخرة.

مع القرآن الكريم :

إننا بحاجة إلى أن نستهدي القرآن الكريم غضا طربيا كما أنزله الله من السماء هدى ونورا، وشفاء ورحمة ويهدي للتي هي أقوم، ويبشر العاملين، ويحذر الغافلين، ويأخذ بيد الحياري ليكشف لهم جوانب الخير وتوازغ الشر.

وفي حاجة إلى معرفة ما أثر عن سلفنا الصالح من تفسير لكتاب الله وفهم آياته، فعليهم أنزل، وقد قال الأئمة : ينبغي أن يفهم القرآن من خلال اللغة التي كان الناس يتخاطبون بها وقت نزوله.

لقد تقاعلوا بهذا الكتاب وتسابقوا إلى حفظه وفهمه والعمل بأحكامه فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه والتزموا بأباده وصاروا بالقرآن أمة وسطا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله . ففهم هذا الإيمان إلى أن وجودوا بالنفس والتقيس، وأن يتحرروا من سلطان الهوى، وأعطاهم القرآن مفاتيح الأرض، ففتحوها وحققوا فيها العدل والهدى والخير والأمان والإيمان.

ونحن بحاجة إلى الاستفادة من تراث البشرية وتقديم علومها وفنونها .

إن المنهج الإلهي ليس عدواً للإبداع الإنساني، إنما هو منشئ لهذا الإبداع وموجه له الوجهة الصحيحة، وذلك كي ينهض الإنسان بمقام في الأرض، هذا المقام الذي منحه الله له، وسخر له من القوانين الكونية ما يعينه على تحقيقه، ونسق بين تكوين هذا الكون ليملك الحياة والعمل والإبداع، على أن يكون الإبداع نفسه عبادة لله ، ووسيلة من وسائل شكره على آلائه العظام.

هذا التفسير :

في ضوء كتاب الله ، ووحى السماء إلى الأرض ..

في ضوء التفسير المأثور وما صح نقله عن سلفنا الصالح.

في ضوء المنجزات العلمية وتجارب البشرية وخبراتها وعلومها وفنونها النافعة.

نحاول أن نقدم هذا التفسير للقرآن الكريم، راجين أن يهدينا الله إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا

ترتيب سور القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة، هي مدة الرسالة المحمدية، منها ثلاثة عشر عاماً في مكة، وعشر سنوات في المدينة.
وما نزل من القرآن في مكة يسمى بالقرآن المكي، وما نزل بالمدينة يسمى بالقرآن المدني، وعدد سور القرآن ١١٤ سورة باتفاق، منها ٨٥ سورة نزلت بمكة، ٢٩ سورة نزلت بالمدينة.

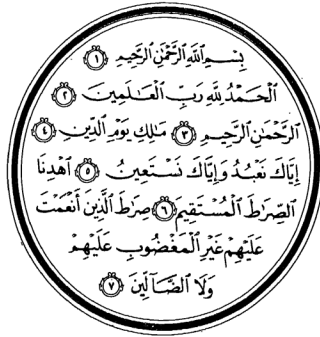
ترتيب السور المكية

١ - اقرأ باسم ربك	٢٣ - عبس	٤٥ - الواقعة	٦٧ - الفاشية
٢ - ن	٢٤ - القدر	٤٦ - الشعراء	٦٨ - الكهف
٣ - المزمّل	٢٥ - الشمس	٤٧ - النمل	٦٩ - النحل
٤ - المدثر	٢٦ - البروج	٤٨ - القصص	٧٠ - نوح
٥ - المسد	٢٧ - التين	٤٩ - الإسراء	٧١ - إبراهيم
٦ - التكوثر	٢٨ - قريش	٥٠ - يونس	٧٢ - الأنبياء
٧ - الأعلى	٢٩ - القارعة	٥١ - هود	٧٣ - المؤمنون
٨ - الليل	٣٠ - القيامة	٥٢ - يهوسف	٧٤ - السجدة
٩ - الفجر	٣١ - الهمزة	٥٣ - الحجر	٧٥ - الطور
١٠ - الضحى	٣٢ - المرسلات	٥٤ - الأنعام	٧٦ - المائدة
١١ - الشرح	٣٣ - ق	٥٥ - الصافات	٧٧ - الحاقة
١٢ - العصر	٣٤ - البلد	٥٦ - لقمان	٧٨ - المعارج
١٣ - العاديات	٣٥ - الطارق	٥٧ - سبأ	٧٩ - النبأ
١٤ - الكوثر	٣٦ - القمر	٥٨ - الزمر	٨٠ - النازعات
١٥ - التكاثر	٣٧ - ص	٥٩ - غافر	٨١ - الانفطار
١٦ - الماعون	٣٨ - الأعراف	٦٠ - فصلت	٨٢ - الانشقاق
١٧ - الكافرون	٣٩ - الجين	٦١ - حم عسق	٨٣ - الروم
١٨ - الفيل	٤٠ - يس	٦٢ - الزخرف	٨٤ - العنكبوت
١٩ - الفلق	٤١ - الفرقان	٦٣ - الدخان	٨٥ - المطففون
٢٠ - الناس	٤٢ - فاطر	٦٤ - الجاثية	
٢١ - الإخلاص	٤٣ - مريم	٦٥ - الأحقاف	
٢٢ - النجم	٤٤ - طه	٦٦ - الذاريات	

ترتيب السور المدنية

١ - البقرة	١٢ - الإنسان	٢٣ - الجمعة
٢ - الأنفال	١٣ - الطلاق	٢٤ - التفاين
٣ - آل عمران	١٤ - البينة	٢٥ - الصف
٤ - الأحزاب	١٥ - الحشر	٢٦ - الفتح
٥ - الممتحنة	١٦ - النصر	٢٧ - التوبة
٦ - النساء	١٧ - النور	٢٨ - المائدة
٧ - النزللة	١٨ - الحج	٢٩ - فاتحة الكتاب
٨ - الحديد	١٩ - المنافقون	
٩ - محمد ﷺ	٢٠ - المجادلة	
١٠ - الرعد	٢١ - الحجرات	
١١ - الرحمن	٢٢ - التحريم	

تفسير سورة الفاتحة



سورة الفاتحة

وتسمى سورة الفاتحة لأن الله عز وجل افتتح بها كتابه ، ولأن المسلم يفتح بها الصلاة . وقيل لأنها أول سورة نزلت من السماء ، فأول آيات نزلت من السماء هي الآيات الأولى من سورة اقرأ ، وأول سورة نزلت من السماء هي سورة الفاتحة .

وتسمى سورة الحمد ، وأم الكتاب ، وأم القرآن ، لأنها أصل القرآن ، أو لأنها أفضل سورة في القرآن ، فقد اشتملت على أصول العقيدة وعلى الأهداف الأساسية للقرآن ، ففيها الشاء على الله وتعظيمه ودعاؤه .. وتسمى الشافية لأن فيها شفاء ودواء .

وتسمى الصلاة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » (١) .

يبدأ المؤمن قراءة الفاتحة بقوله أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . وتعرف الجملة الأولى بالاستعاذة وتعرف الثانية بالتسمية أو البسملة .

وقد أمر الله بالاستعاذة عند أول كل قراءة فقال في سورة النحل المكبة : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . (النحل ٩٨) ، وإنما خضت القراءة بطلب الاستعاذة ، لأن القرآن مصدر هداية والشيطان

مصدر ضلال فهو يقف للإنسان بالمرصاد في هذا الشأن على وجه خاص ، فعلمنا الله أن نتقى كيده وشره بالاستعاذة .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

هي بداية مباركة لسور القرآن ولكل عمل يعمله الإنسان ، فيتجرد من حوله وقوته ، ويبارك العمل باسم الله وبركة الله وقدرته .

وقد تكلم المفسرون كثيراً في معنى البسملة وفي علاقة بعض ألفاظها ببعض ، قال بعضهم : معنى بسم الله : بدأت بعون الله وتوفيقه وبركته ، وهذا تلميح من الله لعباده ليذكروا اسمه عند افتتاح القراءة وغيرها حتى يكون الافتتاح ببركة اسمه عز وجل (٤) .

وقال الإمام محمد عبده : إنها تعبير يقصد به الفاعل إعلان تجرده من نسبة الفعل إليه ، وأنه لولا من يُعْتَوْن الفعل باسمه لما فعل ، فهو له وبإمره وإقداره وتمكينه ، فمعنى أَفْعَلْ كذا باسم فلان ، أَفْعَلْهُ مَعْنَوْنَا باسمه ولولاه ما فَعَلْتَهُ .

قال الأستاذ الإمام : وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات ، وأقربه ما يرى في المحاكم النظامية حيث يبتدئون الأحكام قولاً وعملاً وكتابة باسم السلطان أو الخديوي فلان .

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ : الحمد هو الشاء بالجمعيل على واهب الجمعيل ، و : لله ، علم على الذات الأقدس ، واجب الوجود ، ذي الجلال والإكرام ، وهي جملة خبرية معناها الشكر لله ، وفيها عرقان لله بالفضل والمنة كما ورد في الأثر : « يا ربى لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك » .

وفي الفتوحات الإلهية (٥) : أَلْحَمْدُ لِلَّهِ : الشكر لله المعبود للخواص والعوام ، المذروع إليه في الأمور العظام ، المرتفع عن الأوهام ، المحتجب عن الأفهام ، الظاهر بصفاته وآلائه للأنام .

رَبِّ الْعَالَمِينَ : الربُّ هو المالك المنصرف ، ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح والتربية .

والتصرف للإصلاح والتربية يشمل بربرييته العالمين - أى جميع الخلاق . قال في تفسير الجاللين : « أى مالكٌ جميع الخلق من الإنس والجن والملائكة والدواب وغيرهم ، وكلٌ منها يطلق عليه عالمٌ ؛ يقال عالم الإنس وعالم الجن إلى غير ذلك » .

والله سبحانه لم يخلق الكون ثم يتركه هملًا ، إنما هو يتصرف فيه بالإصلاح ويرعاه ويربيه ، وكل العوالم تحفظ وتتعهد برعاية رب العالمين .

والصلة بين الخالق والخلاق دائمة ممتدة في كل وقت وفي كل حالة .

لقد حكى القرآن عقائد المشركين وصور التخبط الذي كان يحيط بالبشرية في الجاهلية فمنهم من اتخذ أصناماً يعبدونها من دون الله ، ومنهم من جعل الآلهة المتعددة رموزاً للذات الإلهية وقالوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . (الزمر ٢) . وقال القرآن عن جماعة من أهل الكتاب : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ رُؤَبَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . (التوبة ٣١) .

وكانت عقائده الجاهليات السائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام ، تعج بالأرباب المختلفة ، بوصفها أرباباً صفراء تقوم إلى جانب كبير الآلهة كما يزعمون .

جاء الإسلام وفي العالم ركاًم من العقائد والتصورات والأساطير والفلسفات والأوهام والأفكار .. يختلط فيها الحقُّ بالباطل ، والصحيحُ بالزائف ، والدينُ بالخرافة ، والفلسفةُ بالأسطورة .. والضميرُ الإنسانيُّ تحت هذا الركام الهائل يتخبط في ظلمات وظنون ولا يستقر منها على يقين .

ومن ثمَّ كانت عناية الإسلام الأولى موجهةً إلى تحرير أمر العقيدة ، وتحديد التصور الذي يستقر عليه الضمير في أمر الله وصفاته ، وعلاقته بالخالق وعلاقة الخالق به على وجه القطع واليقين .

وكان من رحمة الله بالعباد إنقاذهم من الحيرة وإخراجهم من الضلال إلى الهدى بهذا الدين الحنيف بما فيه من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق وسهولة ويسر ، وتجاوب مع الفطرة .

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ : الرحمن صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة ، الرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه .

ونلاحظ أن الرحمن لم تذكر في القرآن إلا مُجَرَّى عليها الصفات ، كما هو شأن أسماء الذات .

قال تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ . ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . أما الرحيم فقد كثر استعمالها وصفاً فعلياً ، وجاءت بأسلوب التعدي والتعلق بالمنعم عليه . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ . وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . كما جاءت الرحمة كثيراً على هذا الأسلوب . وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، يَشْرُكُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ .

فالرحمن اسم الله يدل على قيام الرحمة بذاته سبحانه ، والرحيم صفة تدل على وصول هذه الرحمة للعباد .

تقول فلان غني بمعنى أنه يملك المال ، وفلان كريم بمعنى أنه ينقل المال إلى الآخرين .

ورحمة الله لا حد لها ، فهو الذي خلقهم وأوجدهم وسخر لهم الكون كله وأمدهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى ، ثم هو يفتح بابَه للتائبين ويعطى المسائلين ، ويجيب دعاء الداعين . قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة ١٨٦) .

وإن واجبتنا أن نفرس في أبنائنا محبة الله ، وأن نعوذهم على عبادته حباً له ، واعتراضاً بفضلته وإحسانه ، وذلك هو منهج الإسلام ، فإن الرب في الإسلام لا يطارد عباده مطاردة الخصوم والأعداء ، كآلهة الأولمب في نزواتها وثوراتها ، كما تصورها أساطير الإغريق ، ولا يدبر لهم المكائد الانتقامية كما تزعم الأساطير المزورة في العهد القديم ، كالذي جاء في أسطورة برج بابل في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين .

فإنَّه في الإسلام رحمن رحيم ، ليس مولعاً بالانتقام والتعذيب . وإن بعض الناس يحلو لهم أن يصوروا الإله منتقمًا جباراً لا همَّ له إلا تعذيبُ الناس وإلقاءهم في نار جهنم ، وهي نعمةٌ نائية عن روح الإسلام ، غريبة عن نصوصه وتشريعاته السمحة قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة ١٨٥) .

مالك يوم الدين ، في قراءة ملك يوم الدين .

إني إن الله هو المالك المتصرف يوم القيامة ، فالتناس في الدنيا يملكون ويحكمون ويتصرفون ، فإذا كان يوم القيامة وقفت الناس جميعاً للحساب الصغير والكبير، السوقة والأمير ، الوزير والخفير ، الملك والأجير ، كل الناس قد وقفت حفاة عراة ، متجردين من كل جاه أو سلطان أو رتبة أو منزلة ، وينادي الله سبحانه : لِمَنِ الْمُلْكُ اليوم ؟ فيكون الجواب : لله الواحد القهار .

ويوم الدين . هو يوم الحساب والجزاء ، قال ابن عباس . يوم الدين . هو يوم حساب الخلائق ، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إلا من عفا عنه فالأمر أمره . قال تعالى : أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ . (الأعراف ٥٤) .

والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية وأساس من أسس السعادة والنجاح للفردي والمجتمع .

فللمؤمن عندما يتيقن أن هناك يوماً للجزاء والحساب يدفعه إيمانه إلى مراقبة الله والتزام أوامره واجتباب نواهيه؛ ولهذا فإن التشريعات الإسلامية تأخذ طابعاً مميزاً في التطبيق ، فإن المؤمن ينفذها راغباً في ثواب الله راهباً من عقابه .

أما التشريعات الوضعية فإن تنفيذها مرتبط بالخوف من السلطة ، وعندما يتأكد الشخص من بعده عن أعين السلطة فإن هذا يهون عليه ارتكاب المخالفة .

أما القانون الإلهي فإنه مرتبط بسلطة عليا ، لا تغيب ولا تختفي ابداً، إنها سلطة الله الذي يعلم السر وأخفى ، ويطلع على الإنسان أينما كان وحيثما وجد . مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة ٧) .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك . فانت المستحق للعبادة ، وأنت نعم المولى ونعم النصير .

ومعنى العبادة خضوع لا يحد لعظمة لا تحد ، وهي تدل على أقصى غايات التذلل القلبي والحب النفسى، والفناء في جلال المعبود وجماله فناء لا يدانيه فناء .

هي سعادة المؤمن بأنه يقف بين يدي الله خاشعاً خاضعاً عابداً متبتلاً ، ذاكرةً لآيات الله ، معتزلةً بصلته بالله مناجياً إلهاً سميعاً بصيراً مجيباً .

والعبادة لله تحرر المؤمن من كل عبودية لغير الله ، لأنه يثق بأن الله هو الخالق الرزاق المعطي المانع ، وأن بيده الخلق والأمر وأن أمره بين الكاف والنون : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس ٨٢) .

وإذا صدقت عبودية المؤمن لله تحرر من عبوديته لكل العبيد ، هازداً عزاً بالله وثقة به واعتماداً عليه ،

وصار سعيداً بحياته راضياً عن سعيه ، وإثماً بأن هناك جزاء عادلاً في الآخرة . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة ٧، ٨) .

والمؤمن حين يقف بين يدي الله فيقول: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . يحس بسعادة أي سعادة ، حين يقف وهو المخلوق الضعيف ليخاطب الله القادر بقوله : إِيَّاكَ نَعْبُدُ . فأننا عابد في محرابك مستعين بك في أموري كلها .

قول عبد الله بن عباس ، وابن جرير الطبري :

١ - من ابن عباس قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ . إِيَّاكَ نُوَحِّدُ ونرجو يا ربنا ونخاف ، و . وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . على طاعتك وعلى أمورنا كلها .

٢ - وقال الطبري :

معنى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقراراً لك بالربوبية لا لغيرك . ومعنى : وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . وإيّاك ربنا نستعين على عبادتنا إِيَّاكَ ، وطاعتنا لك في أمورنا كلها - لا أحد سواك ، إذ كان من يكثر بك يستعين في أموره بمعبوده الذي يعبد من الأوثان دونك ، ونحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة .

اهدنا الصراط المستقيم .

الصراط المستقيم . هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وقد كثر كلام المفسرين في المراد بالصراط المستقيم . قال ابن عباس: الصراط المستقيم . هو الإسلام . وقال الإمام علي: الصراط المستقيم . هو كتاب الله تعالى ذكره . وقال أبو العالية: اهدنا الصراط المستقيم . الصراط هو الطريق ، والمعنى وفقنا إلى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه من بعده أبي بكر وعمر .

وكل هذه الآراء تلتقي على أن معنى الصراط المستقيم . هو : جملة ما يوصل الناس إلى سعادة الآخرة والدنيا من عقائد وأداب وأحكام من جهتي العلم والعمل ، وهو سبيل الإسلام الذي ختم الله به الرسائل السماوية ، وجعل القرآن دستوره الشامل ، ووكل إلى محمد صلى الله عليه وسلم تبليغه وبيانه .
صراط الذين أنعمت عليهم .

أي طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من الملائكة والنبیین والصديقين والشهداء والصالحين ، الذين أطاعوك وعبدوك .

أو هو طريق السعداء المهتدين الواصلين . قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنْبِيْهُ (٦٦) وَإِذَا لَايْتَأَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيْمًا (٦٧) وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيْمًا (٦٨) وَمَنْ يَعْطِ اللَّهُ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيْمًا (٧٠) . (النساء ٦٦ - ٧٠) .

عبدى ولعبدى ما سال . فإذا قال : أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ . قال: هذا لعبدى ولعبدى ماسال .

ولعل هذا الحديث الصحيح يوضح سر اختيار هذه السورة المباركة ليقراها المؤمن سبع عشرة مرة فى كل يوم وليلة ، أو ما شاء الله أن يرددها كلما قام يدعوه فى الصلاة .

فكانها فى الإسلام « مجمع أشعة » تثير بضوئها كل شئ وتبسط نورها فى قلب المؤمن فيزداد يقيناً وإيماناً . وهى نشيد إلهى يريده المؤمن معترفاً لله بالفضل، شاكراً له جميل نعمه ، مستهدياً إياه إلى الصراط المستقيم .

والنصف الأول من السورة يتعلق بالعقيدة والفكرة ، والنصف الثانى يتعلق بالسلوك والعمل .

والمتابع لأهداف القرآن الكريم، الواقف على مقاصده ومعارفه يرى أنه جاء تفصيلاً لما أجملته هذه السورة وحددته من صلاح العقيدة ، واستقامة السلوك .

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلْبَیِّ هِيَ أَقْرَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . (الإسراء ٩) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » (١) . وفى صحيح البخارى أن سورة الفاتحة رقية من الداء وشفاء من الأمراض ، فكانها شفاء حسى ومعنوى ، قال تعالى : وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . (الإسراء ٨٢) .

من الأدلة على وجود الله

هى أعقاب سورة الفاتحة

سُئِلَ الإمام الشافعى : بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ ؟ قال : بالنحلة نصفها يلسع ونصفها يعسل .

وُسُئِلَتْ رابعة : بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ ؟ قالت : عرفت ربي يبرى ولولا ربي ما عرفت ربي .

وَسُئِلَ الحلّاج : بِمَ عَرَفْتَ اللَّهَ ؟ قال : بجمعه بين الضدين ، فهو أول وآخر ، وظاهر وباطن ..

وقال قس بن ساعدة الإيادى :

يا معشر إباد : البعرة تدل على البعير ، وخطف السير يدل على المسير . سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ؟

وقال صلى الله عليه وسلم : « أحبوا الله لما يذكركم به من النعم ، وأحبواي بحب الله » . وقال تعالى : فَسَبِّحْحَانَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تَطْهَرُونَ (١٨) يُخْرِجُ النَّحْيَ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ النَّحْيِ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ

تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ . (الروم ١٧ - ٢١) .

وقال سببحانه : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ .
(آل عمران ١٩٠) .

وقال عز شأنه : أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَخْلُقْ اللَّهُ أَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل ٦١) .

وقد أمرنا الإسلام أن نتفكر في خلق الله ولا نتفكر في ذات الله ، فالعقل البشري لن يدرك حقيقة الذات الإلهية ولكنه يسلم بوجودها وإن لم يرها . كما أننا لم نلمس عقولتنا وإن شاهدنا آثارها ، وهذا معنى أن الله عرف بالعقل .

وحين يسأل الولد الصغير عن الله .. أين هو ؟ فإن الأمثل في الإجابة أن تكون تعريفاً للصغير بآثار الله في خلق السماوات والأرض والبحار والأشجار والشمس والقمر والليل والنهار والإنسان والحيوان والنبات ، وتكوين الجنين ومنحه السمع والبصر والقدرة والنعم كلها : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ . (التحل ٥٣) .

سأل فرعون نبي الله موسى عن الله ما هو ؟ وما هي ماهيته وذاته ؟ فأجابته موسى عن صفاته وأفعاله : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٢) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . (الشعراء ٢٣ - ٢٤) .

ولعل الأنسب للصغير أن نعرفه نعم الله بدلاً من أن نقول له كلام العلماء والأصوفيين : « إن الله ليس كذاً ولا كيفاً ولا يحده مكان ولا يحويه زمان وليس جسماً ولا حالاً في جسم وليس له أول ولا آخر ، بل هو منزّه عن الكم والكيف والطول والعرض ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك » .

ومن روائع الآيات قوله سببحانه :

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى ١١) .

لَا تَدْرِيكَ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . (الأنعام ١٠٣) .

ومن أقوالهم :

هو باطن ليس العيون تراه	..	هو أول هو آخر هو ظاهر
تبدل على أنه الواحد	..	وفى كل شيء له آية
وكل نعيم لا محالة زائل	..	لا كل شيء ما خلا الله باطل

من النظم الديني

حاولت تفسيراً لها أعياناً
يا شافي الأمراض من أرواكها
من بالمنايا يا سليم دهاكها
عجزت فنون الطب من عافاكها
فهوى بها من ذا الذي أرواكها
م بلا اصطدام من ذا يقود خطاكها
راع ولا مرعى من ذا الذي يرعاكها
شهداً وقل للشهد من حلاكها
إن لم تكن لتراه فهو يراكها
هذا الشذا الفواح نفع شذاكها
صدحاتها إلهام موسيقاكها
إلا انفصال قطرة لتدراكها
واستقبل القلب الخلى هواكها
فوجدت هذا السر في تقواكها
ولقيت كل الأئس في نجواكها

والكون مشحون بأسرار إذا
قل للطبيب تخطفته يد الردى
قل للسليم يموت لا من علة
قل للمريض نجا وعوفى بعد ما
قل للبصير وكان يحذر حفرة
بل سائل الأعمى يمر في وسط الزحمة
قل للجنين يعيش معزولاً بلا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت
الله في كل الحقائق مائل
يا منبت الأزهار عاطرة الشذا
يا مرسل الأطياف تصدح في الريا
يا مجرى الأنهار ما جريانها
رياء هانذا خلصت من الهوى
ويبحث عن سر السعادة جاهداً
وتركت أنسى بالحياة ولهوها

تفسير سورة البقرة

مقدمة سورة البقرة

سورة البقرة :

سورة البقرة مدنية ، وآياتها ٢٨٦ آية وهي أول سورة نزلت بعد هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة.

قصة التسمية :

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت في بني إسرائيل على عهد موسى - عليه السلام.

واختلف الناس بشأن قاتله ، ثم رفعوا الأمر إلى موسى - عليه السلام - ليحكم في هذه الجناية التي خفى مرتكبها .

وسأل موسى ربه : فأمرهم أن يذبحوا البقرة ، وأن يضربوا القاتل بلسانها ، فيجاء فيخبر عن قاتله .
وقد أكثر بنو إسرائيل من السؤال عن صفة البقرة ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولو ذبحوا
أي بقرة في أول الأمر لكفّتهم.

قال - تعالى - : **فَقُلْنَا اضْرِبْهُ بِغَضَبِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** . (البقرة ٧٣) .

الأهداف العامة لسورة البقرة

اشتملت سورة البقرة على الأهداف الآتية :

١ - بيان أصناف الخلائق أمام هداية القرآن ، وقد ذكرت السورة أنهم أصناف ثلاثة: **المؤمنون ، والكافرون ، والمنافقون** .

٢ - دعوة الناس جميعاً إلى عبادة الله ، وذكر أدلة التوحيد ، ومبدأ خلق الإنسان .

٣ - تعرضت السورة لتاريخ اليهود الطويل ، وناقشتهم في عقيدتهم ، ونكرتهم بنعم الله على أسلافهم ، وبما أصاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا صنوف العناد والتكذيب والمخالفة.

٤ - رسمت صورة واضحة لاستقبال بني إسرائيل للإسلام ورسوله وكتابه .

لقد كانوا أول كافر به ، وكانوا يلبسون الحق بالباطل ، وكانوا يأمرون الناس بالهـ - وهو الإيمان - وينسبون أنفسهم ، وكانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وكانوا يخادعون الذين آمنوا بإظهار .

الإيمان وإذا خلا بعضهم إلى بعض حذروا أنفسهم من اطلاع المسلمين على ما يعلمونه من أمر النبی وصحة رسالته .

وكانوا يريدون أن يردوا المسلمين كفاراً .. وكانوا يدعون من أجل هذا أن المهتدين هم اليهود وحدهم - كما كان النصراني يدعون هذا أيضاً - وكانوا يعانقون دعاءهم لجبريل - عليه السلام - بما أنه هو الذي حمل هذا الوحي إلى محمد دونهم ، وكانوا يكرهون كل خير للمسلمين ، ويتربصون بهم السوء . وكانوا ينتهزون كل فرصة للتشكيك في صحة الأوامر النبوية ، كما فعلوا عند تحويل القبلة - وكانوا مصدر إيعاء وتوجيه للمنافقين ، كما كانوا مصدر تشجيع للمشركين .

وتنتهى هذه الحملة بتأسيس المسلمين من الطمع في إيمانهم لهم ، وهم على هذه الحالة الملتوية القصد ، كما تنتهى بفصل الخطاب في دعواهم أنهم وحدهم المهتدون ، بما أنهم ورثة إبراهيم ، وتبين أن ورثة إبراهيم الحقيقيين هم الذين يمشون على سنته ويتقيدون بعهد مع ربه ، وأن وراثة إبراهيم قد انتهت إذن إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين به (٧) .

٥ - والنصف الأخير من السورة (٨) يتجه إلى التشريع الإسلامي ، الذي اقتضى أن يكون المسلمون جماعة متميزة عن غيرها في عباداتها ومعاملاتها وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك القصاص في القتل العمد ، وذكرت الصيام والوصية والاعتكاف ، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل ، وذكرت الأهلة وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في أوقات العبادة والزراعة وغيرها ، وذكرت الحج والعمرة وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه وغايته التي ينتهي إليها .. وذكرت الخمر والميسر واليتامى ، وحكم الحيض والتطهر منه ، والطلاق والعدة والخلع والرضاع ، وذكرت الأيمان وكفارة الحنث فيها ، وذكرت الإنفاق في سبيل الله ، وذكرت البيع والربا ، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة والرهن .

وكان يتخلل كل ذلك - على طريقة القرآن - ما يدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام ، وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ووعد ووعيد ، وإرشاد إلى سنن الله في الكون والجماعات ، ثم تختتم سورة البقرة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت في بيان أوصاف المتقين (٩) .

ومن ثم يتأسق البدء والختام في السورة ، وتتضح الروابط بين موضوعات السورة .

افتتاح السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

١- الْعَمَّ : هذه فاتحة سورة البقرة ، وقد تنوعت فواتح السور في القرآن الكريم تبعاً لتنوع موضوعاتها، فمنها ما بدئ بالثناء وإثبات الحمد لله ، كما في سورة الفاتحة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الفاتحة ٢) ، وكما في سورة الأنعام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ. (الأنعام ١) .

ومنها ما بدئ بالدعاء مثل : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ . (التحريم ١، الطلاق ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ. (الزمل ١) ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. (المدثر ١) .

ومنها ما بدئ بالقسم مثل: وَالصَّافَّاتِ . (الصافات ١) ، وَالذَّارِيَاتِ . (الذاريات ١) ، وَالطُّورِ . (الطور ١) ، وَالنَّجْمِ . (النجم ١) ، وَالْفَجْرِ . (الفجر ١) ، وَالشَّمْسِ . (الشمس ١) ، وَاللَّيْلِ . (الليل ١) ، وَالضُّحَى . (الضحى ١) ، وَالْعَادِيَاتِ . (العاديات ١) ، وَالْعَصْرِ . (العصر ١) .

حروف المعجم

من سور القرآن ما بدئ ببعض الحروف الهجائية التي لا تكون كلمات : مثل الف ، لام ، ميم . وفي القرآن صيغ مختلفة من هذه الفواتح ، منها ما هو ذو حرف واحد ، مثل : هـ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . (ص ١) ، ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . (ق ١) ، ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . (الليل ١) .

ومنها ما هو ذو حرفين مثل : طه . ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . (طه ١ ، ٢) . يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . (يس ١ ، ٢) ، حم ﴿١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (غافر ١ ، ٢) .

ومن السور ما بدئ بثلاثة أحرف مثل : طسم ، آلر ، آلّم .

وقد تكررت آلّم . هي بداية سورة البقرة وآل عمران ، والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة . ومن السور ما بدئ بأربعة أحرف مثل: آلّمّص ، آلّمّر ، ومنها ما بدئ بخمسة أحرف مثل: كهيعص ، حم ﴿١﴾ عَمَّيْ .

معاني هذه الفواتح

ليس لهذه الفواتح في اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة في معاني هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين :

أحدهما : أنها جميعاً مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

ثانيهما : أن لها معنى ، وقد ذهبوا في معانيها مذاهب شتى .

١ - فمنهم من قال هي : أسماء للسور التي بدئت بها ، أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشرع في أخرى .

٢ - ومنهم من قال : إنها رموز لبعض أسماء الله - تعالى - وصفاته ، فنسب إلى ابن عباس في : **كَيْهَيْتَ** أن الكاف من الملك ، والهاء من الله ، والياء من العزيز والصاد من المصور . ونسب إليه أنها إشارة إلى كاف ، هاد ، أمين ، عالم ، صادق ، وروى عن الضحاك في معنى : **الرَّ** . أن الله أرفع .

٣ - ومنهم من قال : إنها قسم ، أقسم الله به لبيان شرف هذه الحروف وفضلها إذ هي مباني كتابه المنزل على رسوله .

٤ - ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم .

٥ - ومنهم من قال : إن المقصود منها سياسة النفوس المعرضة واستدراجها إلى استماع القرآن والإنصات إليه ، فقد كان العرب يتواصون بعدم الاستماع إلى القرآن ، فلما سمعوا هذه الحروف أنصتوا إليها ثم استمعوا إلى ما بعدها .

٦ - ومنهم من ذهب إلى أن هذه الحروف ذكرت للتحدى وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وفي هذا دليل على أنه ليس من صنع البشر بل تنزيل من حكيم حميد ، وقد لاحظ أصحاب هذا الرأى أن فواتح السور مكونة في جملتها من أربعة عشر حرفاً ، هي نصف حروف الهجاء ، كما أنها حوت فوق ذلك من كل جنس من الحروف نصفه ، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ، وكأنه قيل « من زعم أن القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي ويركب عليه لفظاً معارضة للقرآن » ويؤيد هذا الرأى أن السورة الكريمة التي بدئت بحروف الهجاء تتحدث في الأعم الأغلب عن نزول القرآن وإعجازه .

سر الإعجاز

ولا يبعد أن يكون سر الإعجاز في هذه الحروف هو اشتغالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها :

فهي بداية للسورة ، وهي إشارة إلى أسماء الله تعالى ، أو صفاته ، وهي لون من التبيين الذي يقرع الأذهان ويلفت الغافلين ، وهي مما أقسم الله به لبيان شرف القرآن وفضله ، وهي مما استأثر الله بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهد محمود الإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها .

٢ - ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . هذا هو القرآن لاشك في نزوله من عند الله كما قال - تعالى -
في سورة السجدة : أَلَمْ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . (السجدة ١ ، ٢) (١٠).

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . أى بيان لهم وإرشاد إلى ما ينفعهم في دنياهم وآخرهم لما تضمنته آيات القرآن من العقائد والأحكام والأخلاق التي لا غاية وراءها « (١١) .

والمؤمنون في هذه الآية هم الذين سلمت فطرتهم فأصابته عقولهم من الرشاد ، ووجدوا في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على اتقاء سخط الله تعالى ، والسعى في مرضاته بحسب ما وصل إليه علمهم وأداهم نظرهم واجتهادهم « (١٢) .

إن القرآن هداية لمن آمن بالله وأخلص نيته وفتح قلبه على القرآن، عندئذ يتفتح القرآن عن أسرارهِ وأنواره ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه مستقيماً خائفاً حساساً ، مهياً للتلقى .

وقد عرف البعض التقوى بقولهم :

« هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل » ، وقيل التقوى هي : ذوبان الحشا لما سبق من الخطى . وورد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - سأل أبا بن كعب عن التقوى فقال له :

أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟.. قال : بلى ، قال : فما عملت .. ؟ قال شمريت واجتهدت . قال . فذلك التقوى.

فالتقوى حساسية في الضمير ، وشفافية في الشعور ، ومراقبة لله ، واستقامة على الطريق القويم.

المتقون وجزاؤهم

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣) ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ثم يأخذ السياق في وصف المتقين فيقول :

٣ - الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . الصفة الأولى من صفات المتقين هي الإيمان بالغيب ، أي التصديق القلبي به ، والمراد بالغيب ما غاب عن الحس من شئون الدين وقام الدليل على ثبوته ، فالله تعالى لا تدركه الأبصار ، والإيمان به من الإيمان بالغيب ، وما يتعلق بالملا الأعلى أو بأحوال يوم القيامة من بعث وحشر وحساب غيب .

• قال أبو العالية: يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ . يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث فهذا كله غيب » (١٢) .

ومن الإيمان بالغيب الإيمان بصدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، مع عدم رؤيته ، بل ذلك الإيمان أيضاً يضاعف لصاحبه الأجر مرتين ، لأنه تصديق بالنبي - صلى الله عليه وسلم - مع عدم مشاهدته .

روى الإمام أحمد عن أبي جمعة قال : « تغدينا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعنا أبو عبيدة ابن الجراح ، فقال : يا رسول الله ، هل أحد خير منا .. ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك .. ؟ قال : نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني » ورواه ابن مردويه بأطول من هذا وفي آخره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي ، بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجراً مرتين » (١٣) .

رُقِيمُونَ الصَّلَاةَ . يؤدونها تامة الأركان مستوفية الخشوع والخضوع مخلصين فيها لله .

قال ابن عباس : إقامة الصلاة : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع ، وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها .

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أي يخرجون زكاة أموالهم ويتصدقون وينفقون المال في وجوه البر ، وقد شرع الإتفاق قبل أن تشرع الزكاة ، لأنه الأصل الشامل الذي تخصصه نصوص الزكاة ولا تستوعبه ، « واختار

ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات، فإنه قال : وأولى التاويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم من أموالهم مؤدين ، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته من أهل وعيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الإنفاق والزكاة مدح محمود عليه ، (١٥) .

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته ، وهى طريق إلى الطهارة النفسية ، وإلى صدق الإيمان والتوكل على الله ؛ والإنفاق هو الإحسان إلى عباد الله ، وبذلك يتم للمؤمن قلب نقى موصول بالخالق ، وعمل نافع يفيد المخلوقين .

٤ - وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ . من صفات المتقين (الإيمان بما أنزل إليك) أى بالقرآن المنزل عليك ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ . على المرسلين ، فهم يؤمنون بالنبي وبالقرآن، ويؤمنون بالرسول أجمعين ، وبالكتب التى نزلت عليهم ، وهى التوراة والإنجيل والزبور وسائر الصحف السالفة ، فيؤمنون بها إيماناً إجمالياً لا تفصيلاً .

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ : أى يتيقنون بوقوع البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان (وإنما سميت « الآخرة » لأنها بعد الدنيا) (١٦) .

الإيقان : إتيان العلم ، والتصديق الجازم الذى لا شبهة فيه ولا تردد .

٥ - أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . يقول تعالى : أُولَئِكَ . أى المتصفون بما تقدم مر الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة والإنفاق من أموالهم ، والإيمان بالقرآن وبالكتب السابقة، والإيقان بالدار الآخرة والاستعداد لها بعمل الصالحات وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى. وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، (فى الدنيا والآخرة) (١٧) .

وهذه الآيات من أوائل ما نزل من القرآن فى المدينة ، وقد وصف القرآن المؤمنين السابقين بتقوى الله ، والإيمان بالغيب ، ثم بالسخاء والإيثار ، ثم بامتداد إيمانهم بالكتب والرسول واليقين بالآخرة بلا تردد ، ولا تراجع فى هذا اليقين ، وقد منحتهم الآيات وسام الهدى والاستقامة والسداد، ووسام الصلاح والنجاح والفوز ، وإنه لتكريم أى تكريم .

الكافرون

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

اشتملت بداية سورة البقرة على أربع آيات في وصف المتقين وهاتان الآيتان في وصف الكافرين، وسيأتى بعد ذلك وصف المنافقين ، تصف الآيتان موقف الكافرين في عهد البعثة المحمدية، فقد رفضوا الإيمان وقاوموا الدعوة ؛ ووقفوا في وجهها وعذبوا أتباعها وصموا آذانهم وأغلقوا قلوبهم واستغشوا ثيابهم حتى لا يسمعو القرآن ولا ينظروا في أدلته ولا يفكروا في هدايته، فلما رأى الله منهم شدة إعراضهم وقسوة قلوبهم وظلام نفوسهم طبع الله على قلوبهم فلم تتفتح وختم على سمعهم فلم تسمع الحق وجعل على أبصارهم غشاوة فلم تبصر أدلة الإيمان ، وقد تكرر مضمون الآيتين في مواضع عديدة من القرآن الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وحاشا لله أن يظلم الكافر ، ولكن الآيات الأخرى أفادت أن الكافرين هم الذين خبثت سرائرهم وقست قلوبهم فسلب الله هدايته عنهم جزاء كفرهم وعنادهم، قال تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين ٤) .

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (عن ابن عباس في قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يحصر على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله - تعالى - أنه لا يؤمن إلا من سبق له السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول) (١٨) .

٧ - خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

قال الراغب : المراد بالقلب في كثير من الآيات العقل والمعرفة . هـ (١٩) لقد أنكروا وجود الله ورفضوا قبول الرسالة وعموا وصموا وطبع على قلوبهم جزاء وفاقا لطبيعتهم المطموس العنيد، قال تعالى : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ . (النساء ١٥٥) وقال تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . (الصف ٥) .

وقد ذهب المعتزلة في تفسير هذه الآية مسلك التأويل ونكروا في ذلك عدة من الأقاويل .

منها أن القوم لما أعرضوا عن الحق وتمكن ذلك في قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم شبه بالوصف 'الخلقى' المجبول عليه .

ومنها أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه مثل قولهم : وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَبٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . (فصلت) (٢٠).

وقال ابن جرير الطبري : والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :

« إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب نزع واستعتب (٢١) . صقل قلبه (٢٢) وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي قال - تعالى - : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين ١٤) »
رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حسن صحيح (٢٣).

فأخير - صلى الله عليه وسلم - أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله - تعالى - والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ولا للكفر عنها مخلص (٢٤).

وجاء في التفسير الحديث (وتنبه هنا بهذه المناسبة من أن هذا إنما هو تسجيل لواقع أمر الكفار حينما نزلت الآيات لا على سبيل التأييد لأن معظم الذين وصفوا به قد آمنوا فيها بعد في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وأنه يظل قائماً بالنسبة للذين كفروا وماتوا وهم كفار) (٢٥).



المنافقون

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨ ﴾ يُخَادِعُونَ
اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠ ﴾

تناولت هذه الآيات وصف المنافقين ، وهو وصف ينطبق على كل منافق في كل زمان ومكان . (قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعلة وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبه) (٣١).

النفاق بالمدينة :

لم يظهر النفاق بمكة لضعف المسلمين هناك ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى النبي - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار ، وتوحدت دولة الإسلام حتى تم النصر في بدر (فاضطرب نفر من الكبراء أن يتظاهروا باعتناق الدين الجديد ، ومن هؤلاء عبد الله بن أبي بن سلول الذي كان قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه ملكاً عليهم قبيل مقدم الإسلام إلى المدينة ، وقد وصفتهم سورة البقرة بالنفاق والتلون وألقت عليهم الأضواء ، وذكر المنافقون في سورة التوبة بصفات متعددة منها التخلف عن الجهاد والتظاهر بالإيمان والتخلي

عن تبعاته وهرائضه ، كما ذكر المنافقون في سورة خاصة بهم تسمى سورة (المنافقون) ولا نكاد نجد سورة مدنية تخلو من ذكرهم ولفت الأنظار إلى أوصافهم وتحذير المؤمنين من كيدهم وخداعهم^(٣٧) .

٨ - وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

إنهم يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، إنما هم منافقون لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة شعورهم في مواجهة المؤمنين .

وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ : أى وما هم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين الذين يشعرون بعظيم سلطان الله ويعلمون أنه مطلع على سرهم ونجواهم إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أن ذلك يرضى ربهم ثم هم بعد ذلك منفهمسون في الشرور والمآثم من كذب وغش وخيانة وطمع ، إلى نحو ذلك مما حكاه الكتاب الكريم عنهم ونقله الرواة أجمعون^(٣٨) .

ويرى صاحب المنار : أن الآيات وإن انطبقت على المنافقين في عصر الرسالة إلا أنها أبرزت عنصر النفاق في كل زمان ومكان، وهى تتناول كل منافق في التاريخ إلى قيام الساعة^(٣٩) .

٩ - يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

الخداع (أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه له من الشر ليحسن الظن بك)^(٤٠) .

(ولما كان المولى سبحانه لا يخفى عليه سرهم ونجواهم فلذا يكون الخداع هنا بحسب زعمهم جهلاً منهم)^(٤١) .

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ . أى ما يعود ضرر خداعهم إلا عليهم^(٤٢) .

وَمَا يَشْعُرُونَ : الشعور إدراك ما فيه دقة وخفاء ، أى وما يفتنون لهذه العاقبة، إنهم يظهرون الإيمان ويُجِلُّونُ الكفر بقصد خداع الله والمؤمنين في حين أنهم لا يخدعون إلا أنفسهم لأن الله يعرف حقائقهم ولأن هذه الحقائق غير خافية على المؤمنين .

فقد كان المؤمنون يعرفون المنافقين بسيماهم الغالبة وصفاتهم العامة قال تعالى : وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . (محمد ٣٠) (٣٣) .

١٠ - فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(المرض : في الأصل هو السقم ، وهو نقىض الصحة ، بسبب ما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق به ، ويتوجب الخلل في أفعاله)^(٣٤) .

ويطلق المرض مجازاً على شكك القلوب وارتياحها ، فمرض القلوب هنا يقصد به شكهم في الدين وضعف يقينهم وفساد طبيعتهم ، وهذا هو ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم ويجعلهم يستحقون من الله أن يزيدهم مما هم فيه .

فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرْضًا، فالمرض أو الانحراف يبدأ يسيرا ثم تتفجر الزاوية وتزداد .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . ولهم عذاب اليم بسبب كذبهم ونفاقهم وقولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، والكذب أقبح الصفات (ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب في قوم إلا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة لأنه ينشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة ومن كان كذلك لا يترك قبيحًا إلا بالمعجز عنه نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه) (٣٥) .

الفساد والسفاهة

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١) ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣) ﴿

الفساد : خروج الشيء عن حد الاعتدال ، والصالح ضده ، والفساد في الأرض ، إثارة الفتن والحروب التي تؤدي إلى اختلال أمر المعاش والمعاد .

والسفاهة : خفة في العقل وفساد في الرأي، ومنه قيل ثوب سفيف : أى رديئ النسيج .

١١ - ١٢ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . تصف الآيات أخلاق المنافقين وقبح أفعالهم ، وسوء طويبتهم ، فهم إذا نُصحوا ونُهِوا عن الفساد وعن نفاقهم وخداعهم ودهمهم وكيدهم أنكروا وادعوا الصلاح مع أن ما هم فيه هو الفساد بعينه ولكنهم لا ينتبهون إلى ما هم فيه من تناقض (٣٦) .

ومن صفتهم كذلك التناول والتعالى على عامة الناس ليكسبوا لأنفسهم مقامًا في أعين الناس .

فإذا نصحهم المؤمنون بأن يصدقوا في إيمانهم وأن يؤمنوا بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن يخلصوا لله في عملهم كما أخلص المهاجرون والأنصار: قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ؟ . يعنون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين والأنصار .

أما المهاجرون فلأنهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا أوطانهم وتركوا ديارهم ليتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأما الأنصار فلأنهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم ، ولا يستبعد ممن انهلك في السفاهة وتعمادي في الغواية، ومن زين له سوء عمله قرأه حسنًا أن يسمى الهدى سفاهًا: أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ . لانحرافهم عن هدى الله: وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ . يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل وذلك أريد لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى (٣٧) .

اختيار الصلاة

﴿وَإِذْ لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

شياطينهم : رؤسائهم في النفاق أو كبار اليهود الذين يعرضونهم ويؤيدونهم .

الاستهزاء : السخرية

الطغيان : مجاوزة الحد في كل شيء .

العمه : ظلمة البصيرة كالعمى في البصر واثرة الحيرة والاضطراب ، وفي هذه الآيات بيان لأحوال المنافقين في معاملة المؤمنين والكفار .

١٤ - وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ..

شهم إذا لقوا المؤمنين سايروهم وخادعهم وقالوا إننا مؤمنون ، ثم إذا خلوا إلى شياطينهم الذين يعرضونهم ويوسوسون لهم أكدوا لهم بقايمهم في جانبهم وأن ما يتظاهرون به ليس إلا من قبيل الهزء والسخرية .

قاله هو الذي يهزأ بهم ، ويمهلهم ليقبوا مستمرين في رجسهم ، (يترددون حيارى ضللا لا يجدون إلى المخرج سبيلا) (٣٨) .

وما أبأس من يستهزئ به جبار السماوات والأرض وما أشقاء ...)

(وإن الخيال يمتد إلى مشهد مقزع غريب ، وإلى مصير من هوله تقشعر القلوب . وهو أن يقرأ) .

١٥ - اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

فيدعمهم يخطبون على غير هدى في طريق لا يعرفون غايته ، واليد الجبارة تتلقفهم في نهايته كالمفتران الهزيلة تتوالت في الفخ غافلة عن المقبض المكين . وهذا هو الاستهزاء الرعيب ، لاستهزائهم الهزيل الصغير (٣٩) .

١٦ - أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

أي هؤلاء قد رغبوا عن الهدى وسلوك الطريق المستقيم ومالوا إلى الضلال واشتروه ولكن لم تكن تجارتهم رابحة إذ هم أضاعوا رأس المال وهو الهدى واستبدلوا به الضلال فخسروا بذلك رأس المال وهو الهدى ولم ترجح

صفتهم في هذه البقرة. وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. أى راشرين في صنيعهم ذلك ، وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة (٤٠). وقد طال وصف المنافقين في هذه السورة وفي غيرها من السور لإلقاء الضوء عليهم وكشف حالهم وقضخ أعمالهم (على أن هذه الإطالة توحى كذلك بضخامة الدور الذي كان يقوم به المنافقون في المدينة لإيذاء الجماعة وتبين مدى التعب والقلق والاضطراب الذي كانوا يحدوثونه، كما توحى بضخامة الدور الذي يمكن أن يقوم به المنافقون في كل وقت) (٤١) داخل صفوف المسلمين، وزيادة في الإيضاح يمتضى السياق بضرب الأمثلة لهذه الطائفة ويكشف عن طبيعتها وتقلباتها وتارجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحاً .

هيئات المنافقين

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٧) ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُيٌّ فُهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) ﴿

المفردات :

مثلهـم : أى صفتهم وقصتهم العجيبة في الإيمان ثم الإحجام.

استوقد : بمعنى أوقد ، أو سعى حتى أوقد .

أضاءت : ضاءت النار وأضاءت ما حوله ، أى أظهرته بضوئها .

الصم : آفة تمنع السمع .

والبكم : الخرس .

العُيى : من لا يبصرون .

أمثال القرآن :

سلك القرآن إلى النفوس كل مسلك لتأكيد دعوته ، ومن مسالك القرآن إلى الهداية ضرب الأمثال للناس وإبراز المعقول في صور المحسوس ، وعرض الغائب في معرض الحاضر ، وهى ألوان من ضروب القرآن وإعجازه ، ودعوته الهادفة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد تنوعت أمثلة القرآن ومنها الأمثلة المصرحة (١٧) وهى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه وهى كثيرة فى القرآن منها ما يأتى :

١٧ - قوله تعالى في حق المنافقين: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ.

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ... إلى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(البقرة ١٧-٢٠).

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين : مثلاً نارياً في قوله : كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا . لما في النار من مادة النور ، ومثلاً مائياً في قوله : أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ . (٤٣) ، لما في الماء من مادة الحياة .

وقد نزل الوحي من السماء متضمناً لاستتارة القلوب وحياتها ، وذكر الله حظ المنافقين في الحالين ، فهم بمنزل من استوقد ناراً للإضاءة والنفع ، حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام ولكن لم يكن له أثر نورى في قلوبهم ، فذهب الله بما في النار من إضاءة : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ . وأبقى ما فيها من الإحراق ، وهذا مثلهم النارى .

وقد ذكر مثلهم المائى ، فشبههم بحال من أصابه مطر ، فيه ظلمة ورعد وبرق ، فخاوت قواه ووضع إصبعيه فى أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه ، لأن القرآن يزواجه وأوامره ونواهيته وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق (٤٤) .

التفسير :

هذه الآيات استمرار فى وصف المنافقين عن طريق ضرب مثل يجسم المعنى ، ويبرز أمر المناق الذى ظهر له نور الإسلام فاهتدى إليه ثم تركه ، وظل حائراً متردداً .

لقد اشتروا الضلالة بالهدى ، فلم تريح تجارتهم ولم يهتدوا ، وإن مثلهم كمثل الذى أوقد ناراً فى الظلمة ، فلم تكد تضيئ ما حوله حتى استحب العمى على الهدى بعد ما استوضح الأمر وتبينه عندئذ : ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ . الذى عرفوه ثم تركوه .

١٨ - صَمُّكُمْ عَمَّى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . لقد عطلوا ملكاتهم الفطرية وصاروا صورة شكلية للإنسان ، ليس فيهم قلب متفتح ولا عقل مفكر ولا أذن تسمع لصوت الحق ، ولا لسان ينطق بالصدق ، ولا عين تبصر نور الهدى ، وقد استحكمت أهواؤهم وغلبتهم شهواتهم ، فلا يرجعون عما هم فيه من الضلال .



حيرة المنافقين

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْصِعُمْ فِيءَ إِذَا نَهَمَ مِّنَ الصَّوَاعِقِ
 حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ
 مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

الصيـب : المطر الشديد الانهمار .
 السـماء : السحاب وهي في الأصل كل ما علاك .

فيه ظلمات ورعد وبرق : التكوين في الكل للتضخيم والتهويل كأنه قيل فيه ظلمات داجية ، ورعد قاصف
 وبرق خاطف . والبرق والرعد متلازمان غالباً ، ولكنا نرى البرق ثم نسمع
 بعده الرعد . لأن سرعة الضوء تفوق سرعة الصوت أضعافاً مضاعفة ، وظواهر
 الرعد والبرق والصواعق تحدث عند تكاثف السحب واختلاف درجات
 الحرارة بين طبقات الهواء ^(١٩) .

وإذا أظلم عليهم قاموا : بمعنى أقاموا أي توقفوا عن السير .

التفسير :

١٩ - أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ...

هذا مثال آخر ضربه الله لتردد المنافقين بين الهدى والضلال ، وحيرتهم بين الإيمان والكفر .

فمثالهم كمثال الذي يسير في ليلة شديدة المطر والرعد والبرق ، وقد اكتففته الظلمات وملاؤه الخوف من
 الصواعق ، واصططكت أذناه من الرعد حتى إنه ليسدها بيديه من شدته ، (ويتخطف البرق عينه ، فإذا لمع
 البرق وأضاء ما حوله سار ، غير أن البرق لا يلبث أن ينقطع فيقف حائرًا ذاهلاً ، وإن الله لو شاء لأخذ سمعهم
 وأبصارهم ، فهو القادر على كل شيء والمحيط بالمنافقين فلن يفلتوا منه) ^(٢٠) .

٢٠ - يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ .

قال ابن عباس : يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ . أي بشدة الحق . كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
 قَامُوا . أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه ، وتارة تعرض لهم الشكوك فتظلم قلوبهم فيقفون
 حائرين ^(٢١) .

والآيات قوية رائعة في تمثيلها ووصفها وتديدها ، لقد رسمت مشهداً حافلاً بالحركة مشوّياً ، بالاضطراب ، فيه تيه وضلال وفيه هول ورعب ، وفيه فزع وحيرة ، وفيه أضواء وأصداء ...

(وإن الحركة تفمر المشهد كله من الصيب الهائل إلى الظلمات والرعد والبرق إلى الحائرين المفزعين منه ، وإلى الخطوات المروعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام .. إن هذه الحركة هي المشهد لترسم - عن طريق التأثير الإيجابي - حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المناهقون .. بين لقائهم للمؤمنين ، وعودتهم للشياطين ، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكسون عنه فجأة ، بين ما يطلبونه من هدى ونور ، وما يضيئون إليه من ضلال وظلام .. فهو مشهد حسى يرمز لحالة نفسية ويجسم بصورة شعورية ، وهو طرف من طريقة القرآن .. في تجسيم أحوال النفوس كأنها مشهد محسوس) (٢٨).

★ ★ ★

عبادة الله

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ
الشَّجَرِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المضردات :

جعل الأرض فراشاً : مبسطة ممهدة كالفرش .

السماء ببناء : أى قبة مرفوعة محكمة البناء ، والبناء فى الأصل مصدر سمي به المبنى بيتا كان أو قبة أو خباء ، ومنه قولهم : بنى الرجل على زوجته إذا ضرب فوقها قبة ، والمراد أنه جعل السماء فوقهم سقفا مرفوعاً كالقبة ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا (الأنبياء ٢٢).

أنسدادا : شركاء ، والتند الشبيه والتظير

التفسير :

٢١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ...

بعد أن تم استعراض الصور الثلاث للمؤمنين والكافرين والمنافقين ، اتجه السياق إلى نداء الناس كافة هزاً لمشاعرهم وتشبيهاً لهمهم ثم دعوتهم جميعاً إلى عبادة ربهم المستحق للعبادة وحده ، اتقاء لغضبه واستحقاقاً لرضائه ، فهو الذى خلقهم جميعاً ودلهم على معرفته ، وأرشدهم لعبادته ، فالعبادة طريق إلى تقوى الله ، وإدراك حق الربوبية ، وهى وقاية من المعاصى وطريق لبلوغ درجة الكمال .

وإنما كثر النداء في كتابه تعالى على طريق : يَا أَيُّهَا النَّاسُ . لاستغلاله بأوجه من التأكيد وأسباب المبالغة كالإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد ، ولتأكيد معناه بحرف التنبيه ، ومعلوم أن ما نادى الله به عباده : من أوامره ونواهيهِ وعظائمه وزواجره ووعدهِ ووعدِهِ وغير ذلك .. مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعانٍ عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها ، وهم غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا بالأكّد الأبلغ (٤٩) .

٢٢ - الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ... مبسوطه مهتدة لتيسير الإقامة والحياة منها ، وأمدّها بكل مقومات الحياة وسخر فيها وسائل الراحة والمتاع ، ويسر فيها التوافق العجيب في الهواء والماء والنبات والمناخ والسطح والتربة .

وَالسَّمَاءَ بَنَاءً . لقد رفع الله السماء وزينها بالكواكب ، وهى بحرارتها وضوئها وجاذبية أجرامها وتناسقها وسائر النسب بين الأرض وبينها تمهد لقيام الحياة على الأرض وتعين عليها .

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . فأخرج به شتى أنواع الثمرات ، وأحيا به الأرض بعد موتها ، وأكمل به الحياة في جميع صورها ، وأشكالها ... وجعلنا من الماء كل شيء حي .

وفى ذلك النداء تبرز كليتان من كليات التصور الإسلامى هما : وحدة الخالق لكل الخلائق ، ووحدة الكون وتناسق وحداته وصداقته للحياة والإنسان .

فالأرض مفروشة والسماء مبنية بنظام ، والماء ينزل فيخرج به الثمرات ، رزقاً للناس ، والفضل يعود في هذا إلى الخالق الواحد .

فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . إنكم تعلمون قدرة الخالق ويديع صنعه ودقة إحكام خلقه ، فينبغى أن تفرّدوه بالعبادة ولا تعبدوا معه أصناماً ولا تقصدوا سواء ، ولا تتخذوا أنداداً أو شركاء مع الله .

إن الوجدانية عقيدة وسلوك ، ويقين جازم بقدرة الله وصدق الاعتماد عليه ، والإيمان بأنه الخالق الرازق ، وأن تصرف الإنسان سبب مباشر ، والمسبب الحقيقي هو الله وفى الحديث الشريف :

« إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً » (٥٠) .

(وهذه الآية دالة على توحيدهِ تعالى بالعبادة وحده لا شريك له ، وقد استدلل بها كثير من المفسرين - كالرازى مثلاً وغيره - على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية ، واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه) (٥١) .

التحدى والإعجاز

﴿وَأَن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

للَّه عز وجل كتابان : كتاب مفتوح مشاهد ، وهو كتاب الكون يدل على الله بنظامه واتساقه وإحكامه ، وكتاب مقروء وهو القرآن أنزله الله بلسان عربى مبين : أَلَمْ يَكُنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أَحْكَمَتِ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . (هود ١) فقد أحكمت آياته وفصلت معانيه، قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا . (الأنعام ١١٥) صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الكاذيب وغيرها من المجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل فى الشعر : إِنْ أَعَذِبَهُ أَكْذَبَهُ .

وقد اشتمل القرآن على أسمى درجات البلاغة والفصاحة ، ولَوْنٌ فى أساليب هدايته ونوعٌ فى طريق بيانه، فإذا تأملت أخباره وجدتها فى غاية الصديق والحلاوة ، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يطلق على كثرة الرد ولا يعل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهعات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهي اشتملت على الأمر بالمعروف الحسن النافع الطيب المحبوب والنهي عن كل قبيح دنئ .

وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأحوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائهم من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم بشرت به وحذرت وأندرت ودعت إلى فعل الخير واجتناب المنكرات، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم (٥٢).

ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى فارجو أن أكون أكثرهم تأيماً » (٥٢) .

لقد جمع القرآن بين السهولة والجزالة ، وخاطب الخاصة بما لا يصعب فهمه على العامة وظل مع ذلك فى الذروة العليا من أساليب البيان .

وأتى من أخبار الأمم السابقة بما أيدته الكتب المنزلة، وفى القرآن مع ذلك أخبار لم ترد فى هذه الكتب، كما انفرد القرآن بإضافات خاصة لبعض قصص الأنبياء، وقد أنزل على نبي أمى لم يقرأ كتب السابقين، وتكون القرآن من حروف عربية يؤلف العرب منها قصائدهم ونثرهم ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن وتحداهم الله أن يأتوا بعشر سور من مثله ، وكان ذلك فى سورة مكية .

وفى هذه الآيات تحداهم فيما إذا كانوا فى ريب من صحة ما أنزله على نبيه وصديق صلته به - الإتيان بسورة من مثله ، والاستمئانه على ذلك بمن يريدون من الشركاء والأنصار .

فإذا عجزوا عن استجابة هذا التحدى فإن الحجة تكون قد لزمتهم ، ومن إعجاز القرآن تقديره بأنهم سيظلون عاجزين عن ذلك أبداً .

وقد حذرتهم الآية من عذاب جهنم، التى تتميز غيظاً وتنفذ بالناس والحجارة وقد أعدت للكافرين وهيئت لعذابهم . ووقود النار هنا صنفان : الناس والحجارة، أما الإنسان فلأنه عبد غير الله أو كفر بالله وأشرك به وكذب الشرائع والرسول ولم يتدبر ما أنزله الله عليه .

أما الحجارة فلأنها أظهر ما عبده المشركون، وقد حشرت فى النار لبيان عدم جدوى عبادتهم لها، قال - تعالى : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** . (الأنبياء ٩٨) .

إعجاز القرآن :

أورد علماء البيان أنواع الأدلة على إعجاز القرآن ، وفى تفسير المنار بحث مسهب عن أنواع الإعجاز التى اشتمل عليها القرآن ، منها إعجازه بأسلوبه ونظمه ، وبلاغته وقصاحته، وبما فيه من علم الغيب من ماض وحاضر ومستقبل، ولسلامته من الاختلاف والتعارض والتناقض .

وباشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى ، والموافقة لكل زمان ومكان. ومن إعجاز القرآن عجز القرون التى ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكماً من أحكامه ، أو تكذب خبراً من أخباره .

ومن إعجاز القرآن اشتماله على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية ، التى لم تكن معروفة فى عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين ، من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله فى الخلق ٩.

ومن قدرة القرآن إبداعه فى رسم الحالات النفسية ومشاهد الكون وتجسيم المعنويات وتخير الأسلوب المناسب للفكرة التى يعرضها .

وهكذا تتكشف للناظر فى القرآن آفاق وآفاق ، من التماسق والاتساق، فمن نظم فصيح إلى سرد عذب ، إلى معنى مترابط، إلى نسق متسلسل إلى لفظ معبّر ، إلى تعبير مصور إلى تصوير مشخّص ، إلى تخيل مجسم إلى موسيقى داخلية ، إلى اتساق فى الأجزاء إلى تناسق فى الإطار ، وبهذا كله يتم الإبداع ويتحقق الإعجاز .

بُشْرَى

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتَاهُ مِثْلَ شِئِهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

البشـــــارة : الخير السار .

أُتُوا به متشابهها : يشبهه بعضه بعضاً في الشكل مع اختلاف الطعم .

أزواج مطهرة : نظيفة من الحيض والأذى والألم .

التفسير :

من شأن القرآن أن يقابل بَيِّنَ الأتقياء والأشقياء ، والعذاب والتعذيب فيضدها تتميز الأشياء .

وهذا معنى تسمية القرآن المثاني ، على أصح أقوال العلماء ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر أو عكسه ، أو حال السعداء ثم الأشقياء وعكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله .

لقد ذكر القرآن صفة النار التي أعدت للكافرين في الآية السابقة ثم بشر المؤمنين الذين استقاموا على أمر الله وقدموا الأعمال الصالحة بأن لهم جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ولهم في الجنة نعيم دائم وظل وارف وخيرات لا تحصى ، وثمار الجنة متشابهة في اللون ولكنها مختلفة في الطعم والمذاق ، وتقدم إليهم أطباق الثمار في الصباح والعشى ، فإن أتوا بالفاكهة في صحاف الدر والياقوت في مقدار بكرة الدنيا وأتوا بالفاكهة غيرها على مقدار عشاء الدنيا ، وإذا نظروا إلى رزقهم وجدوه متشابهة الألوان قالوا هذا الذي رزقنا به من قبل ، يعنى أطلعنا بكرة فإذا أكلوا وجدوا طعمه غير الذي أتوه بكرة فذلك قوله - سبحانه - : وَأَنُوتَاهُ مِثْلَ شِئِهَا . يعنى يشبهه بعضه بعضاً في الألوان مختلفاً في الطعم (٢٥) ، (وذلك أجلب للسور وأزيد في التعجب وأظهر للمزية ، وأبين للفضل ، وترديدهم هذا القول ونطقهم به - عند كل ثمرة يرزقونها - دليل على تناهى الأمر في استحكام الشبه ، وأنه الذي يستعمل تعجبهم ، ويستدعى استغرابهم ويفرط ابتهاجهم) (٢٥) .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ . من الحيض والاستحاضة ، ومن دنس الطباع وسوء الأخلاق ومن سائر مثالبهن وكيدهن .

وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ : خلوداً أبدياً على الدوام ، وهذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانتقطاع فلا آخر لهذه النعمة ولا انقضاء .

الأمثال في القرآن

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۚ بَاطِلٌ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَتَقَضُّونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات :

مثلا ما : أى مثل كان، وضرب المثل استعماله فيما ضرب له أى فيما ذكر له .

بعوضة : البعوضة واحدة البعوض وهو نوع صغير من الذباب .

الفاستقين : الخارجين عن طاعة الله.

ضرب الأمثال :

ضرب الله الأمثال في القرآن لتقريب المعنى إلى الأذهان ، وإظهار المقول في صورة المحسوس، وقد أخبر سبحانه أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله - تعالى - : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ . (الحج ٧٣) . وقال - سبحانه- : غُلِّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (العنكبوت ٤١) .

كما ضرب سبحانه مثلاً للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وللكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة (٥٦) . وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه في أمور كثيرة منها ، التذكير ، والوعظ والحث والزجر والتقرير ، وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس؛ فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص ، لأنها اثبت في الأذهان لاستعانة الذهن منها بالحواس ، ومن ثم كان الغرض تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالشاهد (٥٧) .

والأمثال في القرآن مقصود بها إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة . والعبرة في المثل ليست في الحجم والشكل ، وإنما الأمثال أدوات للتوير والتبصير ، وليس في ضرب الأمثال ما يعاب .

وما من شأنه الحياء من ذكره ، لأن العبرة ليست في لفظ المثل ، لكن في مدلوله وفي المعنى الذي يعبر

عنه .

فإذا رأيت إنساناً متردداً وقلت له (أراك تقدم رجلاً وتتأخر أخرى) ، كان المقصود هنا الإقدام على أمر ثم الإحجام عنه .

وضرب المثل بالذباب والعنكبوت ، مقصود به مدلول المثل لا لفظه ، (فما استكره السفهاء وأهل العناد والمراء واستقبروه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضرورياً بها المثل - ليس بموضع للاستكثار والاستغراب من قبل أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب وإدانة المتوهم من المشاهد. فإن كان الممثل له عظيمًا كان الممثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك) (٥٨).

التفسير :

يقرر - سبحانه - أنه لا يرد في حقه الحياء من ضرب الأمثال للناس في القرآن ، مهما بدا أنها بديهة أو تافهة كيموضة أو ما هو أعظم منها في الحجم كالذباب والعنكبوت وغيرهما ، فأما الذين آمنوا فيقبلون على تدبر هذه الأمثال ، لأنها وحى من الله لتعينهم على فهم المعاني الصحيحة .

وأما الكافرون منهم الذين يتمحلون ويتساءلون عن مدى مراد الله منها ، وليس غرضهم بهذا السؤال الاستفهام عن الحكمة من ضرب الأمثال ، ينعو العنكبوت والذباب ، بل غرضهم الإيذان بما فيها من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق أن يريد الله شيئاً من التمثيل بها لهذا يستحيل صدور التمثيل بها عن الله (وإنما يقول هذه الأمثال محمد من تلقاء نفسه) (٥٩) .

وأن الله ليضل بالأمثال القرآنية كثيرين ممن ساء اختيارهم وأظلمت قلوبهم، ويهدي بها كثيراً ممن حسن اختيارهم واستتارت قلوبهم .

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ . الذين فسدت قلوبهم من قبل وخرجت عن الهدى والحق إلى النفاق والضلال فجزاؤهم زيادتهم مما هم فيه ، قال ابن مسعود وغيره . يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا . يعنى به المنافقين . وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا . يعنى به المؤمنين (٦٠) .

سبب النزول :

روى المفسرون (٦١) عزوا إلى ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتابعين روايتين كسبب لنزول هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَرَّقَهَا ... :

الرواية الأولى : تذكر أن الله لما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت والنمل قال المشركون ، أو قال اليهود والمشركون معاً : ماذا أراد الله بذكر هذه الأشياء الخسيسة ، إنه أجل من أن يضرب بها الأمثال .

الرواية الثانية : جاء فيها أن الله لما ضرب المثليين السابقين للمنافقين قال المنافقون : الله أعلى وأجل من ضرب هذه الأمثال (٦٢) .

وقد ذكر صاحب التفسير الحديث أن الرواية الثانية هي الأكثر مناسبة للمقام . وأرى أن الرواية الأولى أكثر انساقاً مع مدلول الآية ، لأن ضرب الأمثال بالذباب والعنكبوت والنمل واستبعاد المنافقين أو المشركين أن يصدر ذلك عن الله أنسب للآية التي نفسرها .

وقد ذكر الرواية الأولى وحدها مقاتل بن سليمان في تفسيره ، وأوردها ابن كثير مع الرواية الأخرى من غير ترجيح لإحدهما ؛ والله حين يضرب المثل للمناقضين فيما سبق ضرب لهم مثلين أحدهما ناري والآخر مائي، وليس أحدهما بالحقير ولا بالصغير، وهذا يرجح عندى الرواية الأولى .

٢٧ - الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ... تصف هذه الآية الفاسقين بنقض العهد ، والرجوع عن الإيمان بعد معرفته ، أو برفض آلة التوحيد والإيمان وهى مبثوثة فى فطرة الإنسان .

وقال مقاتل بن سليمان: المراد بهم اليهود (فقد نقضوا العهد الأول ، ونقضوا بما أخذ عليهم فى التوراة أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأن يؤمنوا بالنبي - عليه السلام - وكفروا بيسى وبمحمد -عليهما السلام - وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض) (١٣) .

آراء فى تفسير عهد الله :

قال ابن كثير : (وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره بما أمرهم به من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه من معصيته، وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك وتركهم العمل به) .

وقال آخرون : بل هو فى كثر أهل الكتاب والمناقضين منهم ، وعهد الله الذى نقضوه : هو ما أخذ عليهم فى التوراة من العمل بما فيها ، واتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث والتصديق بما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته ، وإنكارهم وكنتمانهم علم ذلك عن الناس ، بعد إعطائهم الله الميثاق من أنفسهم ليبيننه للناس ولا يكتومونه .

فأخبر الله - تعالى - أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلا ، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله - وهو قول مقاتل بن حيان (١٤) .

وقال آخرون : بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق ، وعهد إلى جميعهم فى توحيدهم بما وضع لهم من الأدلة على ربوبيته ، وعهد إليهم فى أمره ونهيه ، ما احتج به لرسله من المعجزات ، التى لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله ، الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما ثبت لهم صحته بالأدلة، وتكذيبهم الرسل والكتب ، مع علمهم أن ما أتوا به حق ؛ وهو رأى حسن .

وقال آخرون : العهد الذى ذكره - تعالى - هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم، الذى وصف فى قوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا . (الأعراف ١٧١ - ١٧٢)، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به ، حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره (١٥) .

وهذه الآراء كما ترى قريبة من بعضها ، وقد تكون مرادة جميعها؛ ولذلك يقول الأستاذ سيد قطب: (وعهد الله المقصود مع البشر يتمثل فى عهود كثيرة : إنه عهد الفطرة المركزة فى طبيعة كل حي .. أن يعرف خالقه وأن يتجه إليه بالعبادة .. وهو عهد استخلاف فى الأرض . الذى أخذه على آدم ، وفى عهود كثيرة فى الرسالات لكل قوم "أن يعبدوا الله وحده ...") (١٦) .

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ : لقد أمر الله بصلة الرحم والقربى، وأمر بصلة العقيدة والأخوة الإنسانية والإيمان بجميع الرسل والكتب ، قال النسفى : هو قطعهم للأرحام وموالة المؤمنين أو قطعهم ما بين الأنبياء من الوصلة والاجتماع على الحق فى إيمانهم ببعض وكفرهم ببعض (١٧).

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ : بالمنع عن الإيمان والاستهزاء بالحق والعمل على تهيج الحرب بين المؤمنين وغيرهم.

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ : لقد خسروا فى الدنيا بافتضاحهم وتخبطهم وفسادهم ، وخسروا فى الآخرة بغضب الله وحرمانهم من رحمته ، واستحقاقهم العذاب الأليم، قال تعالى : أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (الرعد ٢٥).

★ ★ ★

نعم الله

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يُكَلِّمُ شَيْءٌ عَالِمٌ ﴿٢٩﴾

التفسير :

على أى أساس قام كفركم بالله تعالى ، وليس لكم حجة عليه إلا قولكم: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. (الزخرف ٢٣).

٢٨ - كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ . أى تجعلون وجوده وتعبدون غيره ؟

وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أى قد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود ، قال ابن عباس : كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ . أمواتا فى أصلا ب آباءكم ولم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ثم يميتكم موته الحق ثم يحييكم حين يبعثكم (٢٨) قال وهبى مثل قوله: أَمَاتْنَا الَّذِينَ وَأَحْيَيْنَا اثْنَيْنِ . (غافر ١١).

وفى الآية تعقيب تنبيذى بالكفر فى صيغة التساؤل الإنكارى عن جراتهم على الكفر بالله وانحرافهم عن سبيله ، وهو الذى أحياهم بعد أن كانوا أمواتاً ثم يميتهم ثم يحييهم ، وإليه مرجعهم فى النهاية (٢٩) .

لقد كان الإنسان فى عالم العدم فأحياه الله بالوجود فى هذه الدنيا ، ثم يموت عند خروج روحه وانتهاء أجله ثم يبعثه الله حين ينفخ إسرافيل فى الصور فيقوم الناس لرب العالمين، فالإنسان مدين لله بالوجود ، وببذ الله الموت والحياة والحساب والجزاء .

٢٩ - هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا .. خلق الله للإنسان جميع ما في الأرض من ماء ومعادن وبترول وغير ذلك ، وحته على تميمير الأرض واستخراج كلوزها واستغلال خيراتها، وفي هذه الآية دعوة صريحة إلى الاستفادة مما خلقه الله لنا في هذه الأرض .

(وهناك مظهر آخر من مظاهر القدرة والعظمة اختص الله بمعرفة سره ودقائقه ، وهو هذه السماوات السبع التي رفعها بقدرة وعلم هو كنهها وحقيقتها ومن ذا الذي يعلم المخلوق إلا خالقه) (٧٠).

فأله خالق الكون كله ، وهو خالق الأرض وباعث الحياة فيها ، وهو رافع السماء بغير عمد وهو العليم بكل شيء خلقه .

★ ★ ★

خليفة الله في الأرض

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٠)

تمهيد :

خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ومنحه الإرادة والاختيار وكرمه بالعقل، وسخر له الكون كله، وأخضع له الحيوانات وأسرار الوجود وأمدّه بالذكاء والمعرفة والقدرة على النظر والملاحظة والتجربة ، والترقى والاستزادة من المعارف؛ وبهذا كان صالحاً للخلافة في الأرض والتصرف فيها خليفة عن الله محققاً هدف الخالق من عمارة الأرض وإثارة التنافس والتسابق بين أفرادها وتزويدهم بالقدرة على اختيار طريق الهدى أو الضلال ، لتظهر حكمته من الخلق وليتبين المطيع من العاصي (٧١) .

٣٠ - وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ...

الملائكة : جمع ملك وهم ذوات نورانية خلقوا لطاعة الله فيما أمرهم به، ولهم قدرة على التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة، ولهذا كان الرسل يرونهم .

خليفة : أى خليفة منى لأن كان خليفة الله في أرضه ، وكذلك كل نبى، قال تعالى : يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ . (ص ٣٦).

لقد أراد الله أن يسلم هذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض، وأن يطلق يده فيها (وأن بكل إليه إيراد مشيئة الخلق في الإبداع والتكوين والتحليل والتركيب والتحويل والتبديل وكشف ما في هذه الأرض من

قوى وطاقات وكنوز وخامات، وتسخير هذا كله بإذن الله في المهمة الضخمة التي وكلها الله إليه ، (وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، وهب من القوى الخفية المشيئة الإلهية)^(٧٣) أو تعظيما لشأن آدم وتوحيها بفضلها بأن يشر بذكره في الملأ الأعلى قبل إيجاده ولقبه بالخليفة^(٧٤) .

الحكمة من إخبار الملائكة :

والغرض من إخبار الملائكة بخلافة آدم في الأرض ، هو أن يسألوا ذلك السؤال ويجابوا بما أجيئوا به حتى يعرفوا حكمته ، صيانة لهم من اعتراض الشبهة، أو الحكمة على تعليم العباد المشاورة في أمورهم ، قبل أن يقدموا عليها ، وعرضها على ثقاتهم ونصحاتهم - وإن كان المستشار بعمله وحكمته غنياً عن المشاورة)^(٧٥) .

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

لقد تشوقت الملائكة لمعرفة الحكمة في استخلاف ذلك المخلوق الذي سيمنح الإرادة والاختيار والقدرة على القتل وسفك الدماء ، مع أنهم أولى منه بالخلافة في الأرض، حيث إنهم يسبحون بحمد الله وينصرفون لعبادته وتقديس أسمائه وتحقيق القصد من خلقهم بعبادته فهم أولى بالخلافة في الأرض لأنهم معصومون من الخطأ .

وما علموا أن الأرض لو ملئت بالملائكة لانتصرفوا للعبادة وبقيت الأرض خراباً يباباً ، لعدم حاجة الملائكة إلى زراعتها وعمارتها ، (ويوحى قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة في الأرض ، أو إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن فطرة هذا المخلوق ، أو من مقتضيات حياته على الأرض ، ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض وأنه سيسفك الدماء ، ثم هم بفطرة الملائكة البريئة ، التي لا تنصّر إلا أن الخير المطلق هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسونه ويعبدونه ولا يفترون عن عبادته...) .

(لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا ، في بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها على يد خليفة الله في أرضه ، هذا الذي قد يفسد أحياناً وقد يسفك الدماء أحياناً ليت من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر ، خير أكبر وأشمل ، خير النمو والرقى الدائم، خير الحركة الهادمة البانية، خير المحاولة التي لا تكف، والتطلع الذي لا يقف والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير)^(٧٥) .

عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء والخبير بمصائر الأمور: قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ، إنى أعلم أن الأرض لا يمررها إلا إنسان يملك الإرادة والاختيار والطاعة والمعصية، ويكون جزاؤه الثواب والعقاب على المعصية. وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء ٢٥).

آدم

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣) ﴿

(عرض الله على آدم من أهراد كل نوع ما يصلح أن يكون نموذجاً : يتعرف منه على احوال البقية وإحكامها) .

٣١ - وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . اختلف في هذه الأسماء التي علمها الله - سبحانه - آدم - أعني الإنسان - والراى في هذا أن الله - سبحانه - أودع في الإنسان القدرة على البحث والنظر والكشف عن خصائص الأشياء وعلاها وأسبابها والوقوف على أسرارها المودعة فيها ، وحلها وتركيبها ..

وبهذه القدرة عرف حقائق كثير من الأشياء ، وهو جاد أبداً في الكشف عن المزيد منها يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل وعصراً إثر عصر ، وكلما عرف حقيقة وضع لها اسماً تعرف به .

فالمراد بالأسماء هنا هو مسميات تلك الأسماء ، والمراد بالمسميات خصائص هذه المسميات وحقائقها .

(والأسماء كلها لا يراد بها أسماء جميع الموجودات في هذا الوجود إذ إن آدم لا يمكن أن يحيط علمه بكل موجود ظاهر أو خفى ، قريب أو بعيد ، وإنما المراد - والله أعلم - المسميات التي تكشف حقائقها لآدم وذريته واهتدوا إلى التعرف عليها وتحديد موقفهم منها إيجاباً أو سلباً .

ففي دائرة هذه المعرفة كان امتحان الملائكة وكان عجزهم ، وكان إعلام آدم بما عجزوا عن معرفته .. فكان ذلك أبغى رد على اعتراض الملائكة وجملة الموقف الذي وقفوه من آدم .

(فالمراد من آدم هنا هو الإنسانية كلها ، وكان امتحان الملائكة فيما عرف أبناء آدم من أسرار هذا الوجود) (٣١) .

وفي تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن الله علم آدم الأسماء التي يتعارف بها الناس : إنسان ودابة وأرض وسهل ويعبر وجمال وحمار ، وأشياء ذلك من الأمم وغيرها .

(وفي الصحيح أن الله علم آدم أسماء كل شيء) (٣٧) .

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ . أى عرض المسميات المدلول عليها بالأسماء التي علمها آدم . فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ .

فالمعرض لنظر الملائكة ذوات مشخصة يراد من الملائكة أن يضعوا لها أسماء تدل عليها ، وتكشف عن حقيقة كل واحدة منها .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. أى فى زعمكم أنكم أحقاء بالخلافة ممن استخلفته، وإنما استبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء إظهاراً لعجزهم عن إقامه ما علقوا به رجاءهم من أمر الخلافة (٧٨).

٢٢ - قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. اعترفت الملائكة بالعجز عن معرفة الأشياء المعروضة عليها، واتجهت الملائكة إلى تقديس الله وتزنيه تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، واعتبرت بالعجز والقصور عما كلفوه، وأنه سبحانه العالم بكل المعلومات التى من جملتها استعداد آدم - عليه السلام - ، للخلافة بالأرض وعجز الملائكة عن هذه الخلافة .

٢٣ - قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْرُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .

امر الله آدم أن يخبر الملائكة بأسماء دواب الأرض والطير كلها ففعل .

فلما ظهر فضل آدم على الملائكة فى سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء قال الله للملائكة :

أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وَأَعْلَمُ مَا تُدْرُونَ . من قولكم. وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فى نفوسكم ، فلا يخفى على شيء، سواء عندى سرائركم وعلايتكم .



سجود الملائكة لآدم

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

فى هذه الآية تذكير بنعمة الله على نبينا آدم - عليه السلام - والآية ناطقة بالتعظيم لقدره ، والتتويه لشأنه حيث أمر الله الملائكة بالسجود له، والآية معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة، فقد عطف فيها قصة السجود على قصة الخلق لتستكمل بها نعمه - تعالى - التى تفضل بها على خلقه .

إنه التكريم فى أعلى صور لهذا المخلوق الذى يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، ولكنه وهب من الأسرار ما يرفعه على الملائكة ، لقد وهب المعرفة ، كما وهب سر الإرادة المستقلة التى تختار الطريق... إن ازدواج طبيعته وقدرته على تحكيم إرادته فى شق طريقه ، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه .

ولقد سجد الملائكة امتثالاً للأمر العلوى الجليل . إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . . وهنا تنبى خليفة الشر مجسمة ، عصيان الجليل سبحانه والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله ، والعزة بالإثم . . والاستغلاق عن الفهم .

إبليس :

تعرض القرآن للذكر إبليس فى أكثر من موضع كما ذكر القرآن الجن والشياطين والملائكة ، ولكن حديث القرآن عن الإنسان كان كثيراً ومستفيضاً . وقد أفاد القرآن عن الملائكة بأنها قوة من قوى الخير فى هذا العالم وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وتحدث القرآن عن الجن ، وتوجد سورة الجن ، وفى أكثر من موضع يذكر إبليس والشيطان والجن على أنها قوى خفية تتحرك فى المجال الإنسانى وترادف أن يراها ، وإبليس والشيطان يتكرران دائماً فى معرض التحذير منهما والتخويف من إغرائهما إذ كان من شأنهما العداوة للإنسان والنقمة عليه .

ويذكر إبليس وحده فى مقام دعوة الملائكة للسجود لأدم وامتناعه هو عن السجود استكباراً لذاته وعلواً على آدم الذى خلق من طين ، على حين أنه خلق من نار ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن إبليس كان من الملائكة ^(٧٩) . ثم إنه كان فى درجة دنيا فى هذا العالم الروحى فى درجة الجن ، وهم وإن أشبهوا عالم الملائكة فى أنهم خلقوا من شملة مقدسة إلا أن الملائكة كانوا من نور هذه الشملة على حين كان الجن من نارها ، كما يقول تعالى :- **وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** . (الحجر ٢٧) . ولهذا كان الملائكة صفاء خالصاً ، بينما كان الجن صفاء مشوباً بكدر ، وكان من الجن الأخيار والأشرار ، ولم يظل إبليس فى جماعة الجن بل أخرجه الله من بينهم ولعنه حين أبى أن يسجد لأدم ، فإبليس كان من عالم الجن ، ثم نزل إلى إبليس ، ثم تحول من إبليس إلى شيطان رجيم .

وإذا نظرنا إلى سياق الآية أدركنا أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة ؛ (إنما كان معهم فلو كان منهم ما عصى ، وصفتهم الأولى أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإبليس من الجن لقوله تعالى - فى آية أخرى .. **كَانَ مِنَ الْجِنِّ** . (الكهف ٥٠) ؛

« وإنما جاز استثنائهم من الملائكة لأنه لما كان بينهم عابداً بعبادتهم ؛ جعل منهم فإن من طالت إقامته مع قوم واندمج فيهم ، اعتبر منهم وإن لم يكن من قبيلتهم » .

وقد خلق الله الجان من مارج من نار ، وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة . والآن لقد انكشف ميدان المعركة الخالدة ، المعركة بين خليفة الشر فى إبليس وخليفة الله فى الأرض ، المعركة الخالدة فى ضمير الإنسان (المعركة التى ينتصر فيها الخير بمقدار ما يستعصم الإنسان بإرادته وعهده مع ربه ، وينتصر فيها الشر بمقدار ما يستسلم الإنسان لشهواته ويبعد عن ربه) ^(٨٠) .

الأكل من الشجرة

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٦﴾ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة واسكنه فسيح جناته وزوجه حواء وأباح له خيرات الجنة ما عدا شجرة واحدة هي رمز للمخالفة .

جاء في تفسير المنار للسيد رشيد رضا (٨١) .

(قال الأستاذ الإمام - محمد عبده - وتقرير التمثيل في قصة آدم هكذا : إن إخبار الله - تعالى - للملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهئية الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه ، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود في هذه الأرض . وسؤال الملائكة عن جعل خليفة في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم لا حد لهما وتصوريا لما في استعداده لذلك ، وتهيباً لبيان أنه لا يناقض خلافته في الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها ، بيان لاستعداد الإنسان لتعلم كل شيء في الأرض ، وانتفاعه به في استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها ، وتتصلهم في الجواب ، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله - تعالى - في ذلك .

وربما إبليس واستكباره عن السجود ، تمثيل لمعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خوافر السوء ، التي هي مثار التنازع والتخاصم ، والتعدي والإفساد في الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراد فيه كالملائكة ، بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ؛ ما يلذ له من مأكول ومشروب ومشعوم ومسموع في ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسبيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق أبو القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال : كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة ، كما عبر الله - تعالى - في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر .

والمعنى على هذا أن الله - تعالى - كوّن النوع البشري في أطوار ثلاثة :

١ - طور الطفولة وهو طور لا هم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب وكانه في جنة ملتفة بالأشجار وبانعة الثمار

٢ - طور التمييز الناقص : ويكون فيه الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

٣ - طور الرشد وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ويتلجئ فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا ، التى منها كل شئ وبإليها يرجع الأمر كله .

والإنسان فى أفرادها مثال الإنسان فى مجموعته ، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ساذجا سليم الفطرة ، مقتصرًا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونًا على دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبى ؛ ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفرادهم أيديهم إلى تناول ما ليس لهم طاعة للشهوة ؛ وميلًا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائمًا فى نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ؛ ويقف عندها سير الرغبات، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

ويبقى طور آخر من هذه الأطوار ، هو منتهى الكمال، وهو طور الدين الإلهى والوحي السماوى ، الذى به كمال الهداية الإنسانية ^(٨٢).

مجمّل تفسير الآيات :

علمت مما سلف أن الحكمة الإلهية اقتضت إيجاد النوع الإنسانى فى الأرض واستخلافه فيها ، وأن الملائكة فهموا أنه يفسد نظامها ويسفك الدماء فأعلمهم المولى بالحكمة من خلق آدم ، فقد أوجده الله مزودًا بالقدر على التعلم ، وقد علمه الله الأسماء كلها ، وأخضع له الملائكة إلا إبليس ، فقد أبى واستكبر عن السجود لما فى طبيعته من الاستعداد للتقصيان .

وهنا ذكر أنه تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها فيها ، ونهاهم أن يأكلوا من شجرة معينة ، وأعلمهم أن القرب منها ظلم لأنفسهم ، وأن الشيطان أزلهم عنها فأخرجهم من ذلك النعيم ، وأن آدم أناب إلى الله من معصيته فقبل توبته ، وقد سبقت هذه القصة تسليّة للنبي - صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر، فالضعف غريزة فيهم ينتهى إلى أول سلف منهم .

وهو أبوهم آدم عليه السلام فقد تغلبت عليه الوسواس . فلا تأس أيها الرسول الكريم على القوم الكافرين، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ^(٨٣) .

التفسير :

٣٥ - وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . أى قلنا له اتخذ الجنة مسكنًا لك ولزوجك، واختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة ما يدل عليه فهي إذاً فى السماء ؛ حيث شاء الله منها .

ومن قائل إنها جنة أخرى خلقها الله امتحانًا لآدم - عليه السلام ، وكانت بستانًا فى الأرض، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتاويلات ، فقال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه متعمين فيها ؛ وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ؛ ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .

قال ابن كثير : « وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهى في السماء أو في الأرض فالأكثر على الأول » (٨١).

وقد رجح الآلوسى في تفسيره (روح المعاني) أن الجنة في الأرض، واستدل على ذلك بأن الله خلق آدم ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة. ثم ساق عدداً من الأدلة في وصف جنة الآخرة بأنها لا تكليف فيها، ولا يدخلها إلا المتقون المؤمنون. فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.

وأرى أن نؤمن بأن الله أسكن آدم الجنة، ونفوض المراد منها إلى الله - سبحانه وتعالى :

وَكُلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا . أَى كَلَا مِنْهَا مِنْ أَى مَكَانٍ شِئْتُمَا ؛ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .
لم يبين لنا ربنا هذه الشجرة ؛ فلا نستطيع أن نعيّنها من تلقاء أنفسنا بلا دليل قاطع ؛ ولأن المقصود يحصل بدون التعيين .

« قال الإمام أبو جعفر بن جرير - رحمه الله - والصواب في ذلك أن يقال : إن الله - عز وجل شاءه - نهى آدم وذريته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها ، وأكل منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا في السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيل كانت شجرة التين ، وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم » (٨٥).

والقرآن الكريم إذ وقف بالشجرة دون أن يحدد نوعها فإنما ذلك لأنها معروفة معهودة لآدم ولزوجه ثم إن عدم تحديد نوعها في الحديث إلينا لا يمنع أن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا وإن لم يدخل فيه نوعها أياً كان .

فلنعاول فهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ليس لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التي معها إلا في تحديد ذاتها بالإشارة إليها .

فلتكن هذه الشجرة ما تكون .. شجرة كرم أو تين أو كافور بين العديد من مثيلاتها إلا أن النهى والتعريم وقع عليها دون غيرها .

وهذا التعريم لشجرة بعينها إنما هو امتحان لآدم وإبتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحجب الاستطلاع الذي هو غريزة قوية عاملة فيه (٨٦).

قال تعالى : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَفْسَيْهِ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً (طه ١١٥).

وقوله تعالى : فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . المراد من ظلمهما ظلم أنفسهما بأن مخالفة النهى كانت سبباً في حرمانهما مما كانا فيه من نعيم وراحة .

٣٦ - فَأَرْسَلْنَا الشَّيْطَانَ عَنْهَا فَاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . الزلل السقوط، يقال زل في طين أو منطلق يزل بالكسر زليلاً، وقال الفراء زل يزل بالفتح زللاً .

التفسير :

وسوس الشيطان لآدم وأغراه بالأكل من الشجرة فطرد الله آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا : وأوجب عليه أن يعمل ليكسب رزقه بعرق جبينه وكد يمينه ، وأن يمارس دوره في الحياة وفي خلافة الأرض ، وقد حذره الله من الشيطان وبين أن عداوة إبليس لآدم وذريته مستمرة إلى يوم القيامة .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ .

وبالتعبير المصور أزلهما (إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى) .

عندئذ تمت التجربة : « نسي آدم عهده وضعف أمام اللواية »^(٨٧) ، وعندئذ حققت كلمة الله وصرح قضائوه .

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

المأمور بالهبوط هو آدم وزوجه وإبليس ، وهو الماثور عن ابن عباس ومجاهد وكثير من السلف .

اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ . اهبطوا حال كون بعض أولادكم عدوا للآخر (بما ركزه الله فيهم من غرائز صالحة للخير والشر ، يستغلها الشيطان فيوسوس لهم ويزين القبح حسنا فتدفع الغرائز نحو البنى والمدوان على الناس إلا من اعتصم بالشرع وحكم العقل فكان من المخلصين^(٨٨) كما قال- تعالى - : لَا غَرِيْبُهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (الحجر ٣٩ - ٤٠) .

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

مستقر : أى قرار وأرزاق وآجال .

إلى حين : أى إلى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة^(٨٩) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها » رواه مسلم والنسائي^(٩٠) .

٣٧ - فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . أى الهم الله آدم أن يتوب إليه ، وأن يعتزف بذنبه وأن يطلب المغفرة من الله فيغفر الله له ، وقد فتح الله بابه لكل تائب .

فمن شأن الإنسان أن يخطئ ومن شأن الإله أن يغفر الذنب وأن يقبل التوبة وأن يفتح بابه للتائبين .

وقيل إن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه مفسرة بقوله تعالى :

قُلْنَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٩١) .

وعن ابن عباس : فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ . (قال : أى رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلى . قال : أى رب

الم تتفخ فيّ من روحك ؟ قال : بلى . قال : أرايت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى (رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٩٢) .

وقد أثبتت الآية التوبة لآدم وحده فقال تعالى : فَتَابَ عَلَيْهِ . مع أن حواء شريكة له في الذنب بإجماع العلماء ، لأن حواء تابعة له في الحكم إذ النساء شقائق الرجال في الأحكام؛ ولذا طوى ذكرهن في معظم الكتاب والسنة اكتفاء بذكر الرجال بإزاء الأحكام .

فكرة الخطيئة والتوبة في الإسلام :

نحس من خلال قصة آدم أن خطيئته فردية وأن توبته فردية فهو قد أكل من الشجرة هو وحواء بإغراء الشيطان وتزيينه السوء لهما ثم ندم آدم وتبتم حواء وتابا وقبل الله منهما التوبة فهو التواب الرحيم . وهو العليم بطبيعة الإنسان حيث يقول سبحانه الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْفَسَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) . (النجم: ٣٢) .

فأالله خالق الإنسان وهو العليم بضعفه ونزواته، ولذلك أرسل له الرسل وفتح له باب التوبة . (وليست هناك خطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده كما تقول نظرية الكتيبة، وليس هناك تكفير لاهوتي كالذي تقول الكتيبة إن عيسى عليه السلام (ابن الله بزعمهم) قام به بصلبه تخليصاً لبني آدم من خطيئة آدم . كلا، خطيئة آدم كانت خطيئته الشخصية والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة .. تصوير مريح صريح يحمل كل إنسان وزره ، ويوحى إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط) (٩٣) . إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .



الهدى والكفر

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المقدرات :

الهدى : الرشد بإرسال رسول ومعه كتاب وشرائع لهداية البشر .
الخوف : ألم الإنسان مما قد يصيبه من مكروه أو حرمانه من محبوب يتمتع به أو يطلبه .
الحزن : ألم يلح به إذا فقد ما يجب .

والآيات : مفريدها آية وهى العلامة الظاهرة، والمراد بها كل ما يدل على وجود الخالق ووحدانيته مما فى الكون ومما نشاهده فى الأنفس .

أصحاب النار : ملازموها فكانهم ملكوها فصاروا أصحابها.

الخلود : الدوام .

التفسير :

كرر الله تعالى أمره بالهبوط من الجنة إلى دار الدنيا لبيان أن ذلك أمر محتوم لا محالة ، وأن قبول التوبة لا يدفعه (أو لاختلاف المقصود، فإن الأول دل على أن هبوطهم إلى دار بلية يتعادون فيها ولا يخلدون والثانى أشعر بأنهم أهبطوا للتكليف فمن اتبع الهدى نجا ومن ضل عنه هلك) (١١). (يقول تعالى مُخْبِرًا عما أنذر به آدم وزوجه وإليس حين أهبطهم من الجنة ، والمراد الذرية : أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسول فَمَنْ تَبِعْ هُدَايَ . أى من أهبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . أى فيما يستقبلون من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا (١٥)).

(كما قال فى سورة طه : قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . (طه ١٢٣) . قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة) (١٦).

إن رحلة الإنسان فى هذه الحياة هى اختبار وإبتلاء، فقد أرسل الله إليه الرسل وأعطاه العقل والفكر وبين له سبيل الرشاد والهدى، فمن اتبع وصديق الإيمان والإحسان فلا خوف عليه فى دنياه ولا حزن عليه فى آخره، بل هو دائم الإبتهاج والسرور.

٣٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . وهذه الآية معطوفة على ما قبلها.

فمن اتبع الهدى فله الفوز والنجاة.

ومن كفر بآيات الله وكذب بالقرآن وجحد أدلة الربوبية والألوهية وعتا واستكبر فهو ملازم النار خالدًا فيها جزاء كفره وعناده.

فى ختام القصة :

توحى قصة آدم بما يأتى :

١ - التحذير من المعصية ، فهى طريق الشر والغواية .

٢ - الدعوة إلى التوبة والهداية .

٣ - فضل الله الإنسان بالعلم فكما زاد علمه كان جديرًا بخلافة الأرض.

٤ - المسئولية فردية فمن أخطأ استحق العقاب ومن أطاع استحق الثواب ومن تاب تاب الله عليه.

وفى القصة دعوة إلى الإيمان بالغيب والتسليم ، وانحناء أمام قدرة الله : والإيمان بالتصوص كما وردت، وتقويض المراد منها إلى الله تعالى ؛ يقول الأستاذ سيد قطب :

فأين هذا الذي كان ؟ وما الجنة التي عاش فيها آدم وزوجه حيناً من الزمان ؟ ومن هم الملائكة ؟ ومن هو إبليس ؟ كيف قال الله تعالى لهم ؟ وكيف أجابوه ؟ .

هذا وأمثاله في القرآن الكريم غيب من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ، وعلم بحكمته أن لا جدوى للبشر في معرفة كنهه وطبيعته ، فلم يهب لهم القدرة على إدراكه والإحاطة به بالأداة التي وهبهم إياها لخلافة الأرض، وليس من مستلزمات الخلافة أن نطلع على الغيب ^(٩٧) .

إن أبرز إحياءات قصة آدم هو أن الإنسان سيد هذه الأرض ، ومن أجله خلق كل شيء فيها ، فهو إذن أعز وأكرم وأغلى من كل شيء مادي ، ومن كل قيمة مادية ، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية ، فهذه الماديلع كلها مخلوقة من أجله ، من أجل تحقيق إنسانيته . فالإنسان مخلوق ليكون خليفة الله في الأرض .

وقد رفع الإسلام من شأن الإرادة في الإنسان ، فهي مناط العهد مع الله ، وهي مناط التكليف والجزاء، إنه يملك الارتقاء على مقام الملائكة ، يحفظ عهده مع ربه ، عن طريق تحكيم إرادته وعدم الخضوع لشهواته ؛ والاستعلاء على الغواية التي توجه إليه ^(٩٨) ، بينما يستطيع الإنسان أن يشقى نفسه بتقليب الشهوة على الإرادة ونسيان عهده مع الله .

ذلك وحى قصة آدم خليفة الله في أرضه (ومفروق الطريق في عهد آدم مع ربه ، إنه إما أن يسمع ويطيع لما يتلقاه من الله وإما أن يسمع لما يعلبه عليه الشيطان وليس هناك طريق ثالث .

إما الهدى وإما الضلال ، إما الحق وإما الباطل ، إما الفلاح وإما الخسران ، وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها القرآن كله بوصفها الحقيقة الأولى التي تقوم عليها سائر التصورات . وسائر الأوضاع في عالم الإنسان ^(٩٩) .



دعوة اليهود إلى الإيمان ..

﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِيْ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُوْا ۚ ۝١٠ وَءَامِنُوا بِمَا أُنْزِلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرِيْهِۦٓ ۚ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيَّيْتُ لَكُمْ قَلِيْلًا وَإِنِّيْ فَاتِنُوْنَ ۝١١ وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُوا الْحَقَّ وَانْتُمْ تَعْمَلُوْنَ ۝١٢ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ۝١٣﴾

المفردات :

إسرائيل

: لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ومعناه صفى الله وقيل : الأمير المجاهد ،
وينوه أولاده وهم اليهود .

عهد الله

: هو أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن يعملوا بشرائعه وأحكامه وأن يؤمنوا برسله .

عهديكم

ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً : البيع والشراء قد يطلق كل منهما مكان الآخر والمعنى لا تتبعوا آياتي بثمن قليل.
تلبسوا : تخلطوا.

المناسبة :

هذه الآيات بداية سلسلة طويلة في بنى إسرائيل وموقفهم من الدعوة الإسلامية .

(لقد احتوت الآيات السابقة بيان حالة ثلاث من الناس وهم: المؤمنون والكفار والمشركون ، والمنافقون ، فجاءت هذه الآيات لبيان حالة فئة أخرى وهم الكتابيون، ولما كان اليهود هم الفئة الأكبر عدداً والأرسخ قديماً والأوسع حيزاً ونفوذاً في المدينة فقد اقتضت حكمة التنزيل أن يدار الكلام عليهم)^(١٠٠).

مضمون الآيات :

لقد بدأت هذه الآيات هذه الجولة مع يهود المدينة .

فذكرت نعم الله على بنى إسرائيل وحنتهم على الوفاء بعهد واثقاء غضبه ، ودعت اليهود إلى الدخول في للدعوة الجديدة والإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفون صدقه من كتبهم فلا يصح أن يكونوا أول كافر بدعوته . ولا يصح أن يرفضوا الإيمان بمحمد طمعاً في عرض قليل من أعراس الدنيا . ولا يصح أن يتكلموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمنعوا الاعتراف به مع ادعائهم الإيمان بالله ، فيخلطون الحق بالباطل ويتكلمون الحق عن علم ومعرفة لا عن سهو أو جهل .

ثم دعته الآيات إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والركوع مع الراكعين ، دون انفراد .

جنسية يهود المدينة :

ذكر الأستاذ محمد عزة دروزة : (أن يهود المدينة إسرائيليين أصلاً وطائرون على الحجاز وأنهم كانوا يتكلمون بالعبرية ويحافظون على لغة آبائهم الأصلية ويقرأون كتبهم بها؛ ولذلك ربط القرآن أخلاق اليهود في الحجاز بأخلاق آبائهم ومواقفهم وخطبهم كسلسلة متصلة بعضها ببعض) .

ولقد ذكر ابن سعد في طبقاته^(١٠١) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أرسل سرية لقتل أبي رافع بن أبي الحقيق في خيبر ، وقد اختير رئيساً لها عبد الله بن عتيك لأنه كان يربط باليهودية ، أى يعرف العبرانية لغة اليهود ، حيث يدل ذلك على أن اليهود كانوا ما يزالون يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأصلية ، وبالتالي يدل على أنهم إسرائيليين .

والتبادر من وقائع التاريخ القديم أنهم جاؤوا من فلسطين في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، إثر الغربة الشديدة التي أنزلها بهم الرومان سنة ٧٠ بعد الميلاد، والتي شئت من بقى حيا منهم في أحاق الأرض .. وقد نزلوا في المدينة وأماكن أخرى في طريق يثرب - الشام مثل وادي القرى وخبير وفدك ومثاء وطيء ، وقد امتلكوا الأرضين فيها واستثمروها ، وأنشأوا كثيراً من بساتين النخل والعنب، بالإضافة إلى الزراعات الموسمية، واشتغلوا بالتجارة والصناعة والربا ، وقد شادوا الحصون والقلاع ليكون لهم بها منعة في الوسط الجديد الذي حلوا فيه ، والذي كان مباءة تجوال القبائل العربية ، وتكلموا اللغة العربية والعادات العربية ، واستطاعوا بما كان لهم من أموال ونشاط زراعى وتجارى وصناعى ومعارف دينية وغير دينية ، أن يحتلوا في نفوس العرب ويثبتهم مكانة ،

وأن يصحبوا عندهم ذوى نفوذ وتأثير ، والراجح أنهم قدموا أنفسهم للعرب كأبناء عم قديما لهم ، وقالوا لهم انتم أبناء إسماعيل ونحن أبناء إسحاق ، وكلانا أبناء إبراهيم ، وشهدوا لهم أن إبراهيم قد أسكن ابنه إسحاق قديماً بين ظهراني آبائهم ، وأن الكعبة والحجر هي مما أنشأه إبراهيم ، فثألوا بذلك كله ترحيبهم وثقتهم (١٠٢) .

القرآن واليهود :

والقرآن لا يعرض هنا قصة بنى إسرائيل؛ إنما يشير إلى مواقف منها ومشاهد باختصار أو بتطويل مناسب ، وقد وردت القصة في السور المكية التي نزلت قبل هذا ، ولكنها هناك كانت تذكر مع غيرها لتشبيات القلة المؤمنة في مكة ، بعرض تجارب الدعوة وموكب الإيمان الواصل منذ أول الخليقة ، وتوجيه الجماعة المسلمة بما يناسب ظروفها في مكة ، فأمّا هنا فالقصد هو كشف حقيقة اليهود ونواياها ، وتحذير الجماعة المسلمة منها ، وتحذيرها كذلك من الوقوع في مثل ما وقعت فيه قبليها يهود... وبسبب اختلاف الهدف بين القرآن المكي والقرآن المدني اختلفت طريقة العرض، وإن كانت الحقائق التي عرضت هنا وهناك عن انحراف بنى إسرائيل ومعصيتهم واحدة (١٠٣).

« وقصة بنى إسرائيل هي أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم ، والعناية بعرض مواقفها عناية ظاهرة ، توحى بحكمة الله في علاج أمر هذه الأمة المسلمة ، وتربيتها وإعدادها للخلافة الكبرى » (١٠٤).

التفسير :

٤٠ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِذَا فَرَغْتُمْ

(يقول تعالى أمراً بنى إسرائيل بالدخول في الإسلام ومتابعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ومهيئاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره : يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول يا بنى الكريم أوفوا بعهدي ، يا بنى الشجاع بارز الأبطال، يا بنى العالم اطلب العلم) (١٠٥).

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ لَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمًا مَتَعِدَّةً وَلَكِنَّمْ قَابَلُوهَا هَذِهِ النِّعْمَ بِالْجُحُودِ وَالْكُفُورِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : نِعْمَةٌ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ هِيَ :

اصطفاهم منهم الرسل ، وإزالته عليهم الكتب واستبقاؤه إياهم مما كانوا فيه من البلاء والفقر من فروع وقومه إلى التمكن لهم في الأرض وتنجير عيون الماء من الحجر ، وإطعام المن والسلوى (١٠٦).

وقد أمر الله الذرية أن تتذكر هذه النعمة ، وألا يقابلوها بالجحود حتى لا تنزل بهم نعمة الله وعقابه .

ومن ذلك قول موسى - عليه السلام - لهم : يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ . (المائدة ٢٠).

أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يعنى في زمانهم (١٠٧) .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ . والعهد هنا عهد الفطرة المعقود بين الإنسان وبارئه أن يعبد وحده لا شريك له، وهو العهد الذى لا يحتاج إلى البيان ولا يحتاج إلى برهان لأن فطرة الإنسان بذاتها تتجه إليه بأشواقها ولا يصدها عنه إلا الغواية والانحراف.

وقال ابن عباس : يمهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - (١٠٨) ، أن تؤمنوا به وأن تتصوروه (١٠٩) لأنهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة، وعهده تعالى إياهم هو أنهم إذا فعلوا ذلك ادخلهم الجنة.

وقيل العهد هنا هو عهد الله لأدم : فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة ٣٨ - ٣٩).

وهذه اليهود جميعها إن هي إلا عهد واحد في صميمها، إنه العهد بين البارئ وعباده ، أن يصفوا قلوبهم إليه وأن يسلموا أنفسهم كلها له، وهذا هو الدين الواحد، وهذا هو الإسلام الذي جاءت به الرسل جميعًا وسار موكب الإيمان يحمله شعارًا له على مدار القرون (١١٠) .

ووفاء بهذا العهد يدعو الله بنى إسرائيل أن يخافوه وحده وأن يفرّدوه بالخشية .

وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (قال ابن عباس : انزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النعمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره) (١١١).

وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ليعلمهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والاتعاظ بالقرآن وزواجه وامتثال أوامره وتصديق أخباره، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (١١٢).

٤١ - وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ (يعنى به القرآن الذي أنزله على النبي محمد الأُمى العربي بشيرا ونذيرًا وسراجًا منيرًا، مشتملاً على الحق من الله - تعالى - مصدقًا لما بين يديه من التوراة والإنجيل) (١١٣) .

وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَكُونُوا يَا أَهْلَ الْكِتَابِ أُولَ الْكَفْرِ بِهِ فَاتَمَّتْ أَحَقُّ بِالْإِيمَانِ لَأَن عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ دَلِيلُ صِدْقِهِ .

وقال ابن كثير : وأما قوله أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد أول كافر من بنى إسرائيل مباشرة؛ فإن يهود المدينة أول من حوّلوا بالقرآن ، فكفّروا به يستلزم أنهم أول من كفر من جنسهم.

وَلَا تَشْرَوْا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ : ولا تتبعوا آيات الله الواضحة الدالة على صدق محمد فيما ادعى ، لا تتبعوها بثمانٍ دنويٍ قليل من رياسة أو مال أو عادات قديمة ، فإن الدنيا كلها ثمن قليل حين تقاس إلى الإيمان بآيات الله ، وإلى عاقبة الإيمان في الآخرة ، وقال تعالى : قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فِيهَا . (النساء ٧٧).

وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ أى لا تتقوا غضب رؤسائكم ومرعوسيكم بدوامكم على الكفر ولكن إياي وحدي فاتقون: بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن متاع الدنيا.

روى ابن أبي حاتم عن طلق بن حبيب قال : التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء الله على نور من الله .

والتقوى : أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله ^(١١٤) .

٤٢ - وَلَا تَبْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَلَا تَغْلُظُوا الْحَقَّ الْمَوْجُودَ فِي التَّوْرَةِ بِالْبَاطِلِ .
الذي تختبرونه ، ولا تكتُموا وصف النبي ويشارته التي هي حق وأنتم تعلمون .

« ولقد زاول اليهود هذا التلبيس والتخليط وكتمان الحق في كل مناسبة عرضت عليهم ، كما فصل القرآن في مواضع كثيرة وكانوا دائماً عامل فتنة ولبلة في المجتمع الإسلامي ، وعامل اضطراب ، وخلخلة في الصف المسلم » ^(١١٥) .

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أى والحال أنكم عالمون بالحق وليس لكم عذر بالجهل، وما أقبح صدور الذنب ممن يرتكبه وهو عالم، وقال ابن كثير: ولا تكتُموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم ^(١١٦) .

٤٣ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ . بعد أن دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان أمرهم بصالح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب منهم إقامة الصلاة لتطهير نفوسهم، كما طلب إيتاء الزكاة لما فيها من التكافل والتعاون بين الأغنياء والفقراء، ثم دعاهم إلى الركوع مع الراكعين، أى أن يدخلوا في جماعة الإسلام مع المسلمين ويصلوا صلاتهم .

(وعبر عن الصلاة بالركوع ليعبرهم عن الصلاة التي كانوا يصلونها قبلاً إذ لا ركوع فيها) ^(١١٧) .

قال ابن جرير : هذا أمر من الله - جل ثناؤه - لمن ذكر من أحبار بنى إسرائيل ومنافقيها بالإجابة والتوبة إليه ، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والدخول مع المسلمين في الإسلام ، والخضوع له بالطاعة ، ونهى منه لهم عن كتمان ما قد علموه من نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد تظاهر حججه عليهم وبعد الإعذار لهم والإنذار ، وبعد تذكيره نعمه إليهم وإلى أسلافهم تعطفاً منه بذلك عليهم ، وإبلاغه إليهم في المذرة ^(١١٨) .

وقد قيل في قوله وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ حث على إقامة الصلاة في جماعة لما فيها من تآلف القلوب وتظاهر النفوس في المناجاة .

موافقة الأفعال للأقوال

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾
وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا الْكَبِيرَةُ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ۝﴾

المضردات :

- البر : سعة الخير ومنه البر والبرية للفضاء الواسع .
الصبر : حبس النفس على ما تكره ، أو هو احتمال المكروه بنوع من الرضا والاختيار والتسليم .
كبيرة : ثقيلة شديدة الوقع .
يظنون : يعتقدون .
لقاء الله : هو الحشر إليه .
إليه راجعون : يلقون الثواب والعقاب .

قصة الآيات :

روى عن ابن عباس وبعض التابعين وتابعيهم ، (أن اليهود قالوا لبعض أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - إن محمداً حق فاتبعوه ترشدوا)^(١١٩) .

وقد كان اليهود يبشرون ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - ونزل القرآن عليه ويستفتحون بذلك على العرب قبل الإسلام أنهم سيكونون حزيه ، فكيف يقابلونه بالكفر والجحود في أول عهد النبي في المدينة^(١٢٠) .

بشارة التوراة :

جاء في التوراة في صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - « أنه يقيم من إخوتهم نبياً يقيم الحق » وجاء في سفر تثنية الاشتراع (١٧) قال لي الرب : أحسنوا فيما تكلموا (١٨) سوف أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه (١٩) ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أكون المنتقم منه » .

وقد حرف اليهود هذه البشارة وأولوها بما يوافق أهواءهم .

التفسير :

٤٤ - أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ . هذا أسلوب للتوبيخ والتأنيب .

يقول تعالى كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر - وهو جماع الخير - أن تقسوا أنفُسكم فلا تأمروا بها تأمرون به الناس^(١٢١) .

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ تَقْرَمُونَ التَّورَةَ وتدرسونها أَفَلَا تَعْقِلُونَ أى أفلا عقل لكم بحبسكم عن هذا السفه والعقل فى الأصل : المنع والإمساك، سُمى به النور الروحى الذى تدرك به العلوم الضرورية والنظرية، لأنه يمسك النفس ويمنعها عن تعاطى ما يقيح ، ويعقلها على ما يحسن.

« والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم فى حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، بل على تركهم: له فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم» (١٢٢) كما قال شعيب عليه السلام : رَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ إِنَّ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (هود ٨٨) .

والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، ولكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم (١٢٣).

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (الصف ٢-٣).

٤٥ - وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ قال ابن جرير « استعينوا - أيها الأحياء من أهل الكتاب - بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من مرضى الله ، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته» (١٢٤).

« والآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم» (١٢٥) .

والصبر نصف الإيمان وهو اليقين الجازم بالقضاء والقدر والتسليم المطلق لإرادة الله مع الأخذ فى الأسباب ، أما الصلاة فهى الواحة الوارفة الظلال التى يلجأ إليها المؤمن من هجير الحياة فيتأجى الله ويستمد منه العون والمدد، وقد كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (١٢٦).

وروى ابن جرير أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو فى سفر ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فضلى ركبتين أطال فيها الجلوس ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (١٢٧) .

٤٦ - الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ الَّذِينَ يَتَّبِقُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ بِالْبَیْثِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ فيجازيهم على أعمالهم .

هؤلاء تسهل الصلاة عليهم فيمتون ركوعها وخشوعها ويستقبلون بها ربهم العليم بهم الذى يحسن جزاءهم ويكرم مؤتبيهم.

تذكير بالنعم

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

المفردات :

وانى فضلتكم على العالمين : أى على عالمى زمانهم .

الشفاعة : الشفع ضد الوتر ، لأن الشفع ينضم إلى الطالب فى تحصيل ما يطلب فيصير معه شفعا بعد أن كان وترًا .

العدل : الفدية ، أصل العدل (بالفتح) ما يساوى الشئ قيمة وقدرًا وإن لم يكن من جنسه (وبالكسر) المساوى فى الجنس والحجم .

التفسير :

٤٧ - يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ نادى الله بنى إسرائيل مذكرا لهم بسالف نعمته على آباؤهم وأسلافهم من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم، وتقضيل آباؤهم على سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى : وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (الدخان ٣٢). وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (المائدة ٢٠) .

قال أبو العالاية : فى قوله تعالى: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما ، وروى عن مجاهد وقناة نحو ذلك ، ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم (١٢٨) ، لقوله تعالى خطابا لهذه الأمة :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. (آل عمران ١١٠) .

وتقضيل بنى إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم وقيامهم بأمر ربهم ، فأما بعد ما عتوا عن أمر ربهم ، وجعدوا نعمته، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد غضب الله عليهم وكتب عليهم اللعنة والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد جزاء فسادهم وبنغيهم وعدوانهم.

٤٨ - وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

لما ذكرهم بنعم الله عليهم أولا ، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمته بهم يوم القيامة .

فى ذلك اليوم لا يفتنى أحد عن أحد شيئاً ، فالمسئولية فردية ولكل إنسان جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ولا يقتل من إنسان قضاء حق من الحقوق عن إنسان آخر قال تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . (فاطر ١٨) أى لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ولو استأذن الكافر فى شفاعته شقيق فإنه لا يجاب إلى رغبته قال تعالى : فَمَا تَتَفَتَّهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ . (المدثر ٤٨) وقال سبحانه فى وصف يوم القيامة : لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ (١٢٨).

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تاتى بذلك .

وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ : أى يمتعون من العذاب.

والخلاصة - أن ذلك يوم تنقطع فيه الأسباب وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا من دفع المكروه عن النفس بالقضاء أو بشفاعة الشافعين ، عند الأمراء والسلطين، أو بآنصار ينصرونها بالحق والباطل على سواها ، وتضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاص فى العمل قبل حلول الأجل ، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله .

(وقد كان اليهود كفيهم من الأمم الوثنية يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا . فيتهمون أنه يمكن تخفيض المجرمين من العذاب بفداء يدفع ، أو بشفاعة بعض المقربين ، فيغير رأيه وينقض ما عزم عليه .

فجاء الإسلام ومحا هذه العقيدة ليعلم المؤمنون أنه لا ينفع فى ذلك اليوم إلا مرضاة الله بالعمل الصالح والإيمان الذى يبلغ قرارة النفس ، ويتجلى فى أعمال الجوارح) (١٢٠).

قال ابن جرير : وتاويل قوله : وَلَا هُمْ يُصْرَوْنَ يعنى أنهم يومئذ لا ينصروهم ناصر ، كما لا يشفع لهم شافع ، ولا يقبل منهم عدل ولا هدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرشا والشفاعات ، وارتفع من القوم التعاون والتناصر ، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصرء .

فيجزى بالسيئة مثلاً ، وبالحسنة أضعافها (البقرة ٢٥٤)، وذلك نظير قوله تعالى: وَفَبَرِّهِمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (الصفات ٢٤ - ٢٦).

الشفاعة :

جاءت فى القرآن الكريم آيات تثبت الشفاعة ، وآيات تنفيها (ولا شك أن فى القيامة مواطن ويومها معدود بخمسين ألف سنة، فبعض أوقاتها ليس زماناً للشفاعة ، وبعضها هو الوقت الموعود وفيه المقام المحمود لسيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد وردت أى كثيرة ترشد إلى تعدد أيامها واختلاف أوقاتها منها . قوله تعالى : فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (المؤمنون ١٠١).

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . (الصفات ٢٧، والطور ٢٥) فيتعين حمل الآيتين على يومين مختلفين ووقتتين متبايرتين أحدهما محل للتساؤل والآخر ليس محلاً له (١٢١) .

قال الإمام محمد عبده فى تفسير المنار « فما ورد فى إثبات الشفاعة يكون على هذا من المشابهات فيه يقضى مذهب السلف بالتقويض والتسليم وأنها مزية يختص الله بها من يشاء يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة (الشفاعة) ولا تحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة فى لسان التخاطب العرفى » .

(وأما مذهب الخلف فى التأويل فلنا أن نعمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى (١٣٢) والأحاديث الواردة فى الشفاعة تدل على هذا، ففى رواية الصحيحين وغيرهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم - يسجد يوم القيامة ويثنى على الله - عز وجل - بشاء يلهمه يومئذ فيقال له « ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس فى الشفاعة بهذا المعنى أن الله - سبحانه - يرجع عن إرادته كان أرادها لأجل الشافع، وإنما هى إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الألفية عقيب دعائه، وليس فيها إظهار ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهاونون بأوامر الدين ونواهيه اعتماداً على شفاعة الشافعين، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحد فى الآخرة إلا طاعته ورضاه (١٣٣) ، « فما تقفهم شفاعة الشافعين ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ » (المثدر ٤٨-٤٩) . وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى . (الأنبياء ٢٨) .

★ ★ ★

قتل أطفال بنى إسرائيل

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤٩)

المفردات :

إذ :	بمعنى الوقت وهى مفعول فيه لفعل ملاحظ فى الكلام ، وهو اذكروا ، أى اذكروا وقت أن نجيناكم ، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث.
نجيناكم :	النجو المكان العالى من الأرض لأن من صار إليه يخلص وينجو ثم سُمى كل فائز ناجياً لخروجه من الضيق إلى السعة .
آل :	من آل يقول بمعنى رجع ، وآل الرجل أهله وخاصته وأتباعه لأنه يرجع إليهم فى قرابة أو رأى أو مذهب . ولا يضاف إلا لذى القدر والشأن من الناس .
فرعون :	اسم لمن ملك مصر قبل البطالسة ، كما يقال لملك الروم قيصر ، ولملك الفرس كسرى ، وللك اليمن تبع ، وللك الحبشة النجاشى .
سامه :	كافه .
السوء :	السيء القبيح .
سوء العذاب :	أشدّه وأفظعه .

البلاء : الاختبار والامتحان ، وهو تارة يكون بما يسر ليشكر العبد ربه ، وتارة بما يضر ليصبر ، وتارة غماً ليرغب ويهرب ، قال تعالى: وَتِلْكَ أَمْثَلُ الْبَلَاءِ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (الأنبياء ٢٥) .

التفسير :

٤٩ - وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٣٤) .

روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام ، وانضم إليه إخوته فيما بعد . وتكاثر نسلهم حتى بلغوا في مدى أربع مائة سنة نحو ستة آلاف ، حين خرجوا من مصر باضطهاد من فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تسيط اليهود في البلاد ومزاحمتهم للمصريين فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال في مختلف المهن والصناعات ، وهم في ذلك يزدادون نسلا ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم لا يشركون المصريين في شيء ولا يندمجون في غمارهم ، إلى ما لهم من أنانية وإباء وترفع على سواهم ، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريين ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ، ويستأثروا بخيراتها وينزعوها من بين أيدي أبنائها ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم فأمر فرعون القوابل أن يقتل كل ذكر إسرائيلي حين ولادته (١٣٥) .

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويغفونكم ما فيه إذلال لكم واستئصال لأعقابكم وامتنان لكرامتك حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نساءكم ، وفي ذلكم العذاب ، وفي النجاة منه امتحان لكم بالسراء ، ولتقلعوا عن السيئات التي تؤدي بكم إلى الإذلال في الدنيا والعذاب في الآخرة .

قال الإمام الرازي ما ملخصه :

« واعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة - أي نعمة إنجائهم من عدوهم - تتأتى من وجوه أهمها :

١ - أن هذه الأشياء التي ذكرها الله تعالى لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة ، صار تخليص الله عز وجل لهم من هذه المحن من أعظم النعم ، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من بالغ في إذلالهم ، ولا شك في أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة في الطاعة والبعد عن المعصية ، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليلزمهم الحجة وليقطع عندهم .

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل وكان عدوهم في نهاية العز إلا أنهم كانوا محقين ، وكان خصمهم مبطلاً لا جرم زال ذال المحقين وبطل عز المبطلين ، فكان الله تعالى يقول لهم لا تغفروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مراكزكم ، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم فإن الحق إلى جانبهم ومن كان الحق إلى جانبه فإن العاقبة لابد أن تكون له (١٣٦) .

وقد خوطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم - مع أن هذا الإنجاء كان لأسلافهم لأن في نجاة أسلافهم نجاة لهم فإنه لو استمر عذاب فرعون للأبناء لأضاهم ولما بقي هؤلاء الأبناء .

فلذلك كانت منة النجاة تحمل في طياتها مننًى ، منة على السلف لتخلصهم مما كانوا فيه من عذاب ، ومنة على الخلف لتمتعهم بالحياة بسببها ؛ وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه الأمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتبعية على أن حاشيته ويطانته كانت عوناً له ، في إذاقته سوء العذاب وإنزال الإذلال والإعنات بهم .

وجعلت هذه الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهى فى ظاهرها خير - لأن هذا الإبقاء عليهن كان المقصود منه الاعتداء على حيائهن ، واستعمالهن فى الخدمة بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب اليم .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : (فى ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه : أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعاً .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة ؛ فإن المرأة ^{لتنعم بالموت} إذا انتزع عنها تعهد الرجال لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد، فصارت هذه الخطة عظيمة فى المحن والنجاة فى العظم منها تكون بحسبها .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل المطويل ، وتحمل الكبد والرجاء القوى فى الانتفاع به من أعظم العذاب، فتعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدى إلى صيرورتهم مستقرشات الأعداء وذلك نهاية النذل والهوان (١٣٧).

وقد تكرر تكدير بنى إسرائيل بنعمة نجاتهم من عدوهم فى مواضع متعددة من القرآن الكريم وذلك لجلال شأنها ولحملهم على الطاعة والشكر .

قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . (الأعراف ١٤١).

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذُبُّونَ (١٣٨). أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ . (إبراهيم ٦).

نعم الله على بنى إسرائيل

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَبْظُرُونَ ٥٠﴾ وَإِذْ
وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا
عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ٥٣﴾

المفردات:

الفرق : الفصل بين الشيئين.

البحر : هو بحر القلزم (البحر الأحمر) فرقه الله اثنتي عشرة فرقة بعدد أسباط بنى إسرائيل.

السبط : ولد الولد وهو بن بنى إسرائيل مثل القبائل لدى العرب.

العفو : محو الجريمة بالتوبة.

الكتاب : التوراة.

الفرقان : الآيات التي أيد الله بها موسى ودلت على صدق نبوته وبها يفرق بين الحق والباطل، والشكر يكون لمن

فوقك بطاعته، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان إليه.

تمهيد تاريخي:

روى المؤرخون أن الله لما أرسل موسى إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الإيمان به ويطلب إليهم إطلاق
الشعب الإسرائيلي وترك تعذيبه، زاد فرعون في تعذيبهم وسامهم الخسف وشدد عليهم النكال والتعذيب.

ويؤيد ذلك ما جاء في سفر الخروج من التوراة: أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه سيجعل قلب فرعون قاسياً
على بنى إسرائيل ويزيد في النكال بهم ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته، فبعد أن دعا موسى إلى الإيمان
زاد فرعون ظلماً واعتوا فأمّر الذين كانوا يسخرون بنى إسرائيل في الأعمال الشاقة أن يزيدوا في القسوة عليهم
وأن يمنعوهم الثمن الذين كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) ويكلفونهم أن يجمعوه ويعملوا كل ما يعملونه
من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء.

فأعطى موسى وأخاه هارون الآيات فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب
العالمين رب موسى وهارون ورأى من الآيات ما رأى سمح بخروج بنى إسرائيل بل طردهم طرداً.

وفي سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب بعد أن أقاموا بمصر ثلاثين وأربعمئة سنة من عهد يوسف
عليه السلام، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأنجى الله بنى إسرائيل وأغرق فرعون ومن
معه.

وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى

على أيديهم لترشد الناس إلى أن السنن والنواميس الكونية لا تحكم على واضعها، ومذبرها هو الحاكم المتصرف فيها، وهي أيضاً سنة أخرى فى الكون، يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده.

التفسير:

٥٠ - وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . واذكروا من نعمتنا عليكم نعمة فرق البحر بكم وانفصاله بعد اتصاله حين ضرب موسى بعصاه فجعلنا لكم فيه طرقاً متعددة فولجتموها وسرتم فيها هرياً من فرعون وجنده، وبذلك تمت لكم النجاة وحصل الفرق لأعدائكم وقت أن عبروا وراكم وقد شاهدتموهم واليبحر يلغهم بأمواجه مشاهدة لا ليس فيها ولا غموض. ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاض ويحمل على الشكر وعرفان الفضل لله العلى الكبير.

وأسند سبحانه فرق البحر إلى ذاته الكريمة ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه بعنايته - سبحانه. وقوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ . بيان للمنة العظمى التى امتن بها عليهم والتى ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران:

أولهما . . نجاتهم.

وثانئهما . . إهلاك عدوهم، وكلاهما نعمة عظيمة.

وزعم بعض الناس أن عبور بنى إسرائيل البحر كان وقت الجزر، وفى بحر القلزم (البحر الأحمر) رفاق يتيسر للإنسان أن يعبر بها البحر إذا كان الجزر شديداً، ولما أتبعهم فرعون وجنوده ورآهم عبروا البحر مشى فى إثرهم وكان المد قد بدأ ولم يتم خروج بنى إسرائيل إلا وقد علا المد وطفى حتى أغرق فرعون وجميع من معه، وتحققت نعمة الله على بنى إسرائيل، وتم لهم التوفيق ولعدوهم الخذلان.

والأمر كما ترى معجزة إلهية، ومنة من الله على بنى إسرائيل بالعنيد من النعم ، ويبعد أن يكون حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وخاصة أن الآيات تفيد غرق فرعون وجميع من معه، ولو كان حادثة طبيعية لفر من الفرق كثير من أتباع فرعون قبل تمام المد لأن مد البحر وجزره يتم تدريجياً.

وقال تعالى: فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً . (الإسراء ١٠٢)

وقال سبحانه: فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (الذاريات ٢٠٨)

وقد صرحت آيات أخرى بأن فرق البحر كان بسبب ضرب موسى له بالعصا.

قال تعالى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزَلَّانَا تَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَخْبَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ . (الشعراء ٦١ - ٦٦)

وقد الحق المفسرون كثيراً من الإسرائيليات بتفسير هذه الآية، والقرآن الكريم غنى عن هذه الإسرائيليات التى لا تنهض على دليل من العقل أو سند من النقل.

والإسرائيليات عموماً تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول : ما كان موافقاً لما فى القرآن والسنة الصحيحة فنقبله.

الثانى: ما كان مخالفاً لما جاء فى القرآن والسنة الصحيحة فنرفضه.

الثالث: ما جاء بأمر جديد ليس معنا دليل على صدقه أو كذبه فننوقف فى قبوله.

وقد فسر القرطبي هذه الآية ثم كتب عدة ملحقات بها منها ما يأتى:

القول فى اختلاف العلماء فى كيفية إنجاء بنى إسرائيل:

(فذكر الطبرى أن موسى - عليه السلام - أوحى إليه أن يسرى من مصر بنى إسرائيل فأمرهم موسى أن يستعبروا الحلى والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبنى إسرائيل فسرى بهم موسى من أول الليل فلم يفرعون فقال لا يتبعهم أحد حتى يصبح الديكة فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك، وأمات الله تلك الليلة كثيراً من أبناء القبط فاشتعلوا فى الدفن وخرجوا فى الاتباع مشرقين كما قال الله فَأَتَّبَهُمُ مَّشْرِقِينَ . (الشعراء ٦٠).

ونهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بنى إسرائيل نيفا على ستمائة ألف وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتى ألف، وقيل إن فرعون أتبعه ألف ألف حصان سوى الإناث، وقيل دخل إسرائيل، وهو يعقوب عليه السلام - مصر فى ستة وسبعين نفساً من ولده إلى ولد ولده، فأسمى الله عددهم وبارك فى ذريته حتى خرجوا إلى البحر يوم فرعون وهم ستمائة ألف من المقاتلة سوى الشيخ والذرية والنساء. وذكر أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة قال: حدثنا شيبان بن سوار عن يونس بن أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود أن موسى - عليه السلام - حينما أسرى بينى إسرائيل بلغ فرعون فأمر بشاة فذبحت، ثم قال: لا والله لا يفرغ من سلخها حتى تجتمع على ستمائة ألف من القبط. قال: فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له: افرق. فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى . . وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك . . فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر . فضربه موسى بعصاه فأنفلق فكان كل فرقة كالطود العظيم . (الشعراء ٦٢). فكان فيه اثنا عشر فرقاً لاثنى عشر سبطاً لكل سبط طريق.

فلما خرج أصحاب موسى وقام أصحاب فرعون التطم البحر عليهم فأغرقهم، ويذكر أن البحر هو بحر القلزم.

وأن الله تعالى أوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضريك فبات البحر تلك الليلة يضطرب فحين أصبح ضرب موسى البحر وكانه أبى خالد (١٣٩) ذكره ابن أبى شيبة، أيضاً، وقد أكثر المفسرون من القصص فى هذا المعنى وما ذكرناه كاف (١٤٠).

(فصل) ذكر الله تعالى الإنجاء والإغراق، ولم يذكر اليوم الذى كان فيه فروى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدم المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (ما هذا اليوم الذى تصومونه) فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى، وأغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فتحن نصومه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (فتحن أحق وأولى بموسى منكم). فصامه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأمر بصيامه. وأخرجه البخارى أيضاً عن ابن عباس، وأن النبی - صلى الله عليه وسلم - قال لأصحابه: (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا) (١٤١).

(فضيلة) روى أبو قتادة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: (صيام يوم عاشوراء أحسب على الله أن يكفر السنة التي قبله). أخرجه مسلم والترمذي، وقال: لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال (صيام يوم عاشوراء كفارة سنة) إلا في حديث أبي قتادة (١٤٢).

وقوله تعالى: وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ جملة في موضع الحال ومعناه بإبصاركم فيقال إن آل فرعون طفوا على الماء فنظروا إليهم يغرقون وإلى أنفسهم ينجون ففي هذا أعظم المنة.

قال الفخر الرازي:

اعلم أن واقعة فلق البحر تضمنت نعمًا كثيرة على بنى إسرائيل في الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه:

أولها: أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا في موقف حرج لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدرهم عدوهم وأهلكهم وإن هم تقدموا أغرقوا فحصل لهم خوف عظيم جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها: أن الله تعالى خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريمًا ورعاية لهم.

ثالثها: أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب وتم لهم الأمن والاطمئنان وذلك نعمة عظيمة لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلًا لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الفرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل.

وأما نعم الدين فمن وجوه:

أولها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى تقترب من العلم الضروري.

ثانيها: أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعيًا لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبنى إسرائيل، ثم إن الله تعالى في لحظة واحدة جعل المميز دليلًا، والدليل عزيزًا والقوى ضعيفًا والضعيف قويًا، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق عز وجل.

٥١ - وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً أَنْ اتَّخِذْتُكَ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. أى اذكروا نعمة أخرى كفرتكم بها وظلمتم أنفسكم. وذلك أنهم بعد أن اجتازوا البحر سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه فوعده سبحانه أن يعطيه التوراة، بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلاً جسداً له خوار فعبده من دون الله. وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقه لهم، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، وقال لهم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل إلهًا، وكان الأولى أن تعبدوا الله الواحد الذي أنقذكم من فرعون وأنجاكم من البحر.

وقد حذف المفعول الثانى لاتخذتم وهو إلهها أو معبودًا لشناعة ذكره ولعلمهم بأنهم اتخذوه إلهًا.

وقوله تعالى: مِنْ بَعْدِهِ مَعْنَاهُ مِنْ بَعْدِ مَضِيِّهِ لِمَقَاتِ ربه إِلَى الطُّورِ وَغِيَابِهِ عَنْهُمْ، وَجُمْلَةٌ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ حَالِيَةً مَقِيدَةٌ لِاتِّخَاذِهِمْ لِيَكُونَ اتِّخَاذُهُمُ الْعَجَلَ مَعْبُودًا، مَقْرُونًا بِالْتَّمَعِ وَالظُّلْمِ مِنْ بَدَنِهِ إِلَى نَهَائِهِ، وَلِلْإِشْعَارِ بِانْقِطَاعِ عَزْهِمْ فِيمَا فَعَلُوا.

٥٢ - ثُمَّ عَفَرْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ: أَيْ ثُمَّ تَرَكْنَا مُعَاجِلَتَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَأَمَهَلْنَاكُمْ حَتَّى جَاءَكُمْ مُوسَى وَأَخْبَرَكُمْ بِكَفَارَةِ ذُنُوبِكُمْ لِيَعِدَّكُمْ بِهَذَا الْعَفْوِ لِلِاسْتِمْرَارِ عَلَى الشُّكْرِ فَإِنَّ الْإِنْعَامَ يُوجِبُ الشُّكْرَ عَلَى النِّعَمِ.

٥٣ - وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ: وَمَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّوْرَةَ وَفِيهَا الشَّرَائِعُ وَالْأَحْكَامُ لِكَيْ تَهْتَدُوا بِهَا إِلَى طَرِيقِ الْفَلَاحِ وَالرِّشَادِ فِي الدُّنْيَا، وَالْفُوزِ وَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ.

فالمُرَادُ بِالْكِتَابِ التَّوْرَةُ الَّتِي أُوتِيَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْفُرْقَانُ هُوَ مَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهَدَى وَالضَّلَالِ، وَقَدْ يُطْلَقُ لَفْظُ الْفُرْقَانِ عَلَى الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ الْمُنْزَلِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (الفرقان ١).

كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْمُعْجَزَةِ فِي قَوْلِهِ: لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ (الأنبياء ٤٨) أَيْ الْمُعْجَزَاتِ: لِأَنَّ هَارُونَ لَمْ يَوْتْ وَحْيًا، وَالْمُرَادُ بِالْفُرْقَانِ فِي الْآيَةِ الَّتِي نَفْسُهَا التَّوْرَةُ نَفْسُهَا وَيَكُونُ الْمُرَادُ بِالْعُطْفِ التَّقْسِيرِ.

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: (وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ بِتَأْوِيلِ الْآيَةِ مَا رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمِجَاهِدٍ، مِنْ أَنَّ الْفُرْقَانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ آتَاهُ مُوسَى فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْكِتَابُ الَّذِي فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ نِعْتٌ لِلتَّوْرَةِ وَصِفَةٌ لَهَا، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْآيَةِ حِينَئِذٍ: وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى التَّوْرَةَ الَّتِي كَتَبْنَاهَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ، وَفَرَّقْنَا بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيَكُونُ الْكِتَابُ نِعْمًا أَقِيمَ مَقَامَهَا اسْتِغْنَاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ التَّوْرَةِ، ثُمَّ عُطِفَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانُ إِذْ كَانَ مِنْ نِعَتِهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ بَيَانٌ لثَمَرَةِ الْمُنَّةِ بِإِيْتَاءِ التَّوْرَةِ لِأَنَّ إِيْتِيَانِ مُوسَى الْكِتَابِ وَالْفُرْقَانَ الْمَقْصُودُ مِنْهُ هِدَايَتُهُمْ وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

وَلَكِنْ بَنَى إِسْرَائِيلَ قَابِلُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالْجُحُودِ فَامْتَدَّتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى التَّوْرَةِ فَحَرَّفُوهَا، كَمَا شَاءَتْ لِهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ وَشَهَوَاتُهُمْ.

عبادة العجل

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِلَهُكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلَّوَمِنْ طَبِئَتْ مَا رَبَّرْتُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٥٧﴾

المفردات:

اتخاذكم العجل : أى عبادتكم العجل. فالمفعول الثانى محذوف تقديره: اتخاذكم العجل إلهًا أو معبودًا.

براه : ذراه وأوجده.

الصاعقة : نار محرقة تنزل من السماء، ومن أسباب الصواعق اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع بموجبيها أو اتحادها مع كهربية الأرض السالبة.

بعثناكم : أكثرنا نسلكم.

المن : مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع فى الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس.

السلى : السمانى (السمان) الطائر المعروف.

تمهيد:

ذكر الله من الآيات السابقة أنواعًا من النعم التى آتاهها لبنى إسرائيل، وفى هذه الآيات بين بلاده حسهم ومقابلتهم نعم الله عليهم بالجود والكنود.

فقد اتخذوا العجل إلهًا، ثم طلبوا من موسى أن يريهم الله عيانا حتى يؤمنوا به فأخذتهم الصاعقة وهم يرون ذلك رأى العين ، ثم أتبع ذلك ذكر نعمتين أخريين كفروا بهما، أولاها تظليل الغمام لهم فى التيه إلى أن دخلوا الأرض المقدسة، وإنزال المن والسلى عليهم مدة أربعين سنة.

التفسير:

٥٤ - وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ واذكروا يا بنى إسرائيل - لتتفعوا وتعتبروا - وقت أن قال موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيدًا عنهم، يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم وميظمت

بها إلى الحضيض بعبادتكم العجل، فإذا أردتم التكفير عن خطاياكم فتوبوا إلى بارئكم توبة صادقة نصوحاً، واهتلقوا أنفسهم لتأثالوا غفو ريكم فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة على المعصية.

ففعلمت ما أمركم به موسى فقبل الله توبتكم وتجاوز عن سيئاتكم إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ بأنه هو قابل التوبة واسع الرحمة.

«وقصة القتل المذكورة في التوراة التي يتدارسها اليهود إلى اليوم ففيها دعا موسى: من للرب فإلى؛ فاجابه بنو لاوى، فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا. فقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل. والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له» (١٤٣).

قال صاحب الكشف:

«حمل قوله فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ على الظاهر وهو البضع (١٤٤). وقيل معناه قتل بعضهم بعضاً، وقيل أمر من لم يعبد العجل أن يقتلوا العبيد، وروى أن الرجل كان يبصر ولده ووالديه وجاره وقريبه فلم يمكنهم المضى لأمر الله، فأرسل الله ضباباً وسحابة سوداء لا يتباصرون تحتها، وأمروا أن يحتبوا بأقنية بيوتهم ويأخذ الذين لم يعبدوا العجل سيوفهم، وقيل لهم اصبروا فلن الله من مد طرفه أو حل حيوته أو اتقى بيد أو رجل فيقولون آمين، فقتلهم إلى المساء حتى دعا موسى وهارون وقالاً: يارب هلكت بنو إسرائيل البقية الباقية، فكشفت السحابة ونزلت التوبة، فسقطت الشفار (١٤٥) من أيديهم وكان القتل سبعين ألفاً» (١٤٦).

وفي الدر المنثور: قال قوم موسى له: ماتوبيتنا؟ قال: يقتل بعضهم بعضاً. فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، والله لا يبالي من قتل حتى قُتل سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غُضِرن قتل وتيب على من بقى.

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله تعالى لطف بهم ورحمهم وقبل توبتهم، وعفا عن قتلهم أنفسهم، بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم في توبتهم، كما تضمنت - أيضاً - تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بنعم الله عليهم، لأنه لولا عفو - سبحانه - عن آبائهم لما وجدوا هم، وفيها كذلك إشارة إلى سماحة الشريعة التي أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم وإغراء لليهود المعاصرين له بالدخول في الإسلام؛ لأنه إذا كان آبائهم لم يقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم، فإن شريعة الإسلام تقول لهم: لقد جاءكم النبي الذي رفع عنكم إصركم والأغلال التي كانت على أسلافكم، فأمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون.

٥٥ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم مِّنَ الصَّاعِقَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . يرى جمهور

المفسرين أن القائلين لموسى أننا الله جهرة هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه وقد وردت آثار في تفسير ابن جرير الطبري وابن كثير. وقيل إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهرة هم عامة بنى إسرائيل يدون تحديد لهؤلاء السبعين (١٤٧).

ومعنى الآية: واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم وتعنتم في الطلب فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة: لن نؤمن لك ولن نصدقك في قولك إن هذا كتاب الله حتى نرى الله عياناً لا سائر بيننا وبينه، فيكون كالجهر في الوضوح. فأخذتكم العقوبة التي صمغتم بسبب جهلكم وتناولكم وأنتم تشاهدونها ببيوتكم.

قال ابن جرير:

الصاعقة كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل صوتا كان ذلك أو زلزلة أو رجفة، ومما يدل على أن الشخص قد يكون مصوبقا وهو حي غير ميت، قوله تعالى: وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا . (الأعراف ١٤٣) لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال: سُبْحَانَكَ بُتُّ إِلَيْكَ . (الأعراف ١٤٣)، وفي التوراة: (إن طائفة من بني إسرائيل قالوا: لماذا اختص موسى وهارون بكلام الله من دوننا، وشاع ذلك في بني إسرائيل وقالوا لموسى بعد موت هارون: إن نعمة الله على شعب إسرائيل لأجل إبراهيم وإسحاق فتمتع الشعب جميعه، وأنت لست أفضل منه فلا يعق لك أن تسودنا بلا مزية، وإننا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقيين) (١١٨)، وهكذا كان بنو إسرائيل يتمردون ويعاندون وسوط العذاب يصب عليهم صبا جزاء كفرهم وعنادهم.

قال الإمام ابن جرير:

ذكرهم الله تعالى بذلك اختلاف آياتهم وسوء استقامة أسلافهم مع أنبيائهم مع كثرة معانيثهم من آيات الله وعبرة ما تلج بأقلام الصدور، وتلمن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً . (البقرة ٥٥) وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال: فَادْهَبْ أُنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة ٧٤) ومرة يقال لهم: وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ . (الأعراف ١٦١) فيقولون حنطة في شعيرة، ويدخلون الباب من قبل أستاذهم، مع غير ذلك من أفعالهم التي أدوا بها نبيهم التي يكثر إحصاؤها) (١١٩).

٥٦ - ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يرى بعض المفسرين أن الله أحياهم بعد أن وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، وكانت تلك المنة لهم كالسكة القلبية لغيرهم، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وطُنَّ أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليعمد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

٥٧ - وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلًّا مِّن مَّطَيَّاتٍ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . تذكر هذه الآية بني إسرائيل بنعمة من أجل النعم عليهم وهي تظليلهم بالغمام في التيه بين مصر والشام وإنزال المن والسلوى عليهم، ولكن بني إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه؛ ولذا أرسل عليهم رجلاً من السماء بسبب ظلمهم وفستهم، وفي تفسير القمي (أن إسرائيل لما عبر موسى بهم البحر نزلوا في مفازة فقالوا: يا موسى أهلكتنا وقتلتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظل، ولا شجر، ولا ماء، وكانت تجر بالنهار غمامة تظلمهم من الشمس وينزل عليهم بالليل المن فيقع على النبات والشجر والحجر فيأكلونه وباللغى يأتيهم طائر مشوى يقع على مواضعهم فإذا أكلوا وشربوا ومر، وكان مع موسى حجر يضعه وسط المعسكر ثم

يضربه بعصاه فتفجر منه اثنتا عشرة عينا كما حكى الله فيذهب إلى كل سبط في رحله وكانوا اثني عشر سبطاً (١٥٠).

وهي تفسير ابن كثير رواية عن السدي تفيد ما ورد في تفسير القمي (١٥١).

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل من بين نعمي عليكم إظهاركم بالغمام وأنتم في التيه ليقيكم حر الشمس وحرارة الجو، ولولا منحي إياكم الطعام اللذيذ المشتته بدون تعب منكم في تحصيله لهلكتم، وقلنا لكم كلوا من طيبات ما رزقناكم وأشكروا الذي رزقكم هذه النعم، ولكنكم كفرتم بها، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شيء لأن الخلق جميعاً لن يبلغوا ضرى فيضروني ولن يبلغوا نقى فينفعونني.

وقوله تعالى: وَمَا ظَلَمُونَا مَعْطُوفٍ عَلَى مَحْذُوفٍ، أي رفضوا ولم يقابلوا النعم بالشكر. ويرى البعض أنه لا حاجة إلى التقدير وأن جملة: وَمَا ظَلَمُونَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَاقِبِلِهَا لأنها مثلها في أنها من أحوال بني إسرائيل (١٥٢).

قال الإمام ابن جرير في تفسير قوله تعالى: وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ هذا من الذي استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه، وذلك أن معنى الكلام: كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به، وعصوا ربه، ثم رسولنا إليهم، وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضررة علينا ومنقصة لنا، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضررة عليها ومنقصة لها، فإن الله تعالى لا تضرة معصية عاص ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم، ولا تتفع طاعة مطيع، ولا يزيد في ملكه عدل عادل، بل نفسه يظلم الظالم وحظها يبيض العاصي، وإياها ينفع المطيع، وحظها يصيب العادل (١٥٣).



تبديل القول

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

المفردات:

القرية: لغة مجتمع الناس ومسكن الثمل، ثم غلب استعمالها في البلاد الصغيرة، وليس ذلك المراد هنا بل المراد المدينة الكبيرة؛ لأن الرغد لا يتسنى إلا فيها.

:الهتئ ذو السعة.

والرغد

: هو أحد أبواب بيت المقدس ويدعى الآن (باب حطة)

والياب

: أي ناكسى الرعوس.

وسجداً

والحسن : من فعل ما يجعل فى نظر العقل ويحمد فى لسان الشرع.

فبدل . . قولاً غير انتهى قيل : أى جاء بذلك القول مكان القول الأول.

والرجز : العذاب.

تمهيد:

ذكر سبحانه فى هاتين الآيتين بعض ما اجترحوه من السيئات، فقد أمرهم الله أن يدخلوا قرية من القرى خاشعين لله فعصى بعضهم وخالف أمر ربه، فأنزل عليهم عذاباً من السماء جزاء ما ارتكبوه من المعاصى واقترفوه من الآثام.

التفسير:

ادكروا يا بنى إسرائيل - لتتعطوا وتعتبوا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه. وأبغنا لهم أن يأكلوا من خيرات هذه البلدة أكلاً هنيئاً ذا سعة، وقلنا لهم: ادخلوا من بابها راكمين شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم، فإن فعلتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم، وزدنا المحسن منكم خيراً جزاء إحسانه، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولاً آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون .

وقوله تعالى : فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً فيه إشعار بكمال النعمة عليهم واتساعها وكثرتها حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا .

وقوله تعالى: وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ . إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غايتهم، بأيسر الطرق وأسهل السبل، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين، وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ويمحو سيئاتهم.

وقوله تعالى: نَغْفِرْ لَكُمْ . بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم لله.

قال الإمام ابن جرير: نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ. أى تنفمذ لكم بالرحمة خطاياكم ونسترها عليكم، فلا نفضحكم بالقوة عليها، وأصل الغفر التغطية والستر، فكل سائر شيئاً فهو غافر، والخطايا جمع خطية بخير هَمَزَ كالمطايا جمع مطية^(١٥٤).

وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ. أى وسيزيد المحسنين ثواباً من فضلنا، وقد أمرهم بشيئين: عمل يسير وقول صغير، ووعدهم بغفران السيئات وزيادة الحسنات.

وقد أمرهم سبحانه أن يدخلوا باب المدينة التى فتحوها خاضعين وأن يلتمسوا منه مغفرة خطاياهم، ولأن تغلبهم على أعدائهم، ودخولهم الأرض المقدسة التى كتبها الله لهم نعمة من أجل النعم وهى تستدعى منهم أن يشكروا الله بالقول والفعل، لئى يزيدهم من فضله، فشان الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر.

ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات الخضوع لله تعالى عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب.

فعندما تم له فتح مكة دخلها على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها وهو يقول: «تائبون آييون حامدون لرينا شاكرون» (١٥٥).

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل عند دخول بيت المقدس؟ إنهم لم يفعلوا ما أمروا به، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله، بل خالفوا ما أمروا به من قول وفعل ولذا قال تعالى:

٥٩ - فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة، فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم وقالوا حبة فى شعيرة) (١٥٦).

وقال الإمام ابن كثير (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يقولوا حطة، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزؤوا وقالوا حنطة فى شعيرة، وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقتهم وخروجهم عن طاعته) (١٥٧).

والفعل (بدل) يقتضى بدلا ومبدلا منه، إلا أن مقام الإيجاز فى الآية استدعى الاكتفاء بذكر البديل دون ذكر المبدل منه. والتقدير فاختار الذين ظلموا بالقول الذى أمرهم الله به قولا آخر اخترعوه من عند أنفسهم على وجه المخالفة والعصيان.

وقوله تعالى: فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. والرجز فى لغة العرب هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أم بغيرها.

ولم يعين الكتاب هذا الرجز فنتركه مبهما، وإن كان كثير من المفسرين قالوا إنه الطاعون، وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بضروب من النقم عقب كل نوع من أنواع الفسوق والظلم، فاصيبوا بالطاعون كثيرا وسُكِّط عليهم أعداؤهم، وقوله بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أى بسبب تكرار فسقتهم وعصيانهم ومخالفتهم أوامر دينهم.

الاستسقاء

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠)

المضردات:

استسقى

طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته، قال أبو طالب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والانفجار، والانفجاس. والسكب بمعنى.

والمشرب

مكان الشرب.

ولا تعنوا في الأرض : لا تمتدوا حال كونكم مفسدين.

تمهيد:

ذكر سبحانه في هذه الآية نعمة أخرى آتاهها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لبح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فاجاب دعوته. وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا بالولم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا، فقد روى أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام، وقالوا: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى. وقالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر.

التفسير:

٦٠ - وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آبائكم العطش وهم في صحراء مجدبة فطلب موسى لهم السقيا من الله تعالى فاجابه الله إلى ما طلب وأوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط. وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقتلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من المن والسلوى، واشربوا بما فجرتنا لكم من الحجر الصلب من غير تعب منكم ولا مشقة.

ولا تتشروا فسادكم في الأرض فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيب المأكول والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد فيهم بزيادة النعم عليهم، وثلا يقابلوا النعم بال كفران.

قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿١﴾ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ . (العلق ٦، ٧)

والحجر الذى ضربه موسى لم يكن حجراً معيناً بل أى حجر من أحجار الصحراء. وأل في الحجر

لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجراً معيناً معروفاً لموسى عليه السلام يوحى من الله تعالى.

وقد أورد المفسرون فى وصف هذا الحجر آثاراً حكم المحققون بضعفها.

(قال الحسن: لم يكن حجراً معيناً بل أى حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر فى حجة موسى عليه السلام وأدل على قدرة الله، وقد سماه فى سفر الخروج الصخرة) (١٥٨).

والفاء فى قوله تعالى: فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا . للعطف على محذوف تقديره: ضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا، لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطاً، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب، وهم ذرية أبناء يعقوب عليه السلام الاثنى عشر ، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر.

وقوله تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ . مقول لقول محذوف تقديره: قلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وبذلك تكون الآية الكريمة، قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جلية ونصحتهم بأن يشكروا الله وحذرهم من الفساد والجحود.

★ ★ ★

غضب الله عليهم

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْسُكُنَا النَّصْرُ عَلَى طَعَامٍ وَحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَمِّلُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَرَأَيْتُمْ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا بِمَضْرِبٍ فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا ثُمَّ وَأَصْرْتُمْ عَلَيْهِمُ الدِّيلَةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾﴾

المفردات:

الصبر	: حبس النفس وكفها عن الشيء.
الطعام	: ما رزقوه فى التيه من اللبن والسلوى.
البقل	: ما تبتته الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما.
القوم	: الحنطة وقال جماعة منهم الكسائى إنه الثوم.

القضاء	: نوع من المأكولات أكبر حجماً من الخيار، وتسميه العامة القطة.
والاستبدال	: طلب شيء بدلا من آخر، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخص الدون.
والهبوط	: الانحدار والنزول.
المصر	: البلد العظيم.
ضربت عليهم	: أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت به.
الذلة	: الذل والهوان.
المسكنة	: الفقر، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعدته عن الحركة.

تمهيد:

ذكر فى هذه الآية حرماً آخر من جرائم أسلافهم التى تدل على كفرانهم بأنهم الله وترشد إلى أنهم دأبوا على إغناات موسى، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع حتى يياس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة.

وقد بلغ من إغنااتهم لموسى أن قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. (البقرة: ٥٥) وإن قالوا: لَنْ نُصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ. وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك من بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكراهية لوحدة الطعام، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون.

التفسير:

واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم وفساد أدواقهم، وإغنااتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ريك أن يخرج لنا مما تبيتة الأرض من خضرها وفاكهتها وحنظلها وعدسها ويصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فويخهم نبيهم موسى - عليه السلام - وقال: اتخيارون الذى هو أقل فائدة وأدنى لذة وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون.

انزلوا إلى أى مصر من الأمصار فإنكم تجدون فيه ما طلبتموه من البقول وأشباهاها. وأحاطت بنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله، بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكرار المعصيان والعدوان منهم.

ملحقات التفسير:

١ - فى الآية ما يشعر بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى عليه السلام، إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف، لَنْ . المفيد لتاكد النفى فقالوا لن نصبر.

قال الحسن البصرى: (يطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس ويصل ويقل ويؤم) (١٥٩).

٢ - وصفوا الطعام بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات. والعرب تقول لمن يجعل على مائدته فى كل يوم أنواعاً من الطعام لا تتغير إنه يأكل من طعام واحد «أو ضرب واحد لأنهما طعام أهل التلذذ، وهم كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عادتهم واشتهوا ما ألفوه» (١٦٠).

٣ - جملة: **أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** . من مقول موسى عليه السلام لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم وضعف عقولهم لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه خير منه وهو الما والسلى . قال الطبري : (أى قال لهم موسى: أتناخذون الذى هو أخس خطراً وقيمة وقدرًا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطراً وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم) ^(١٦١).

٤ - قوله تعالى : **اهْبِطُوا مِصْرًا** .

قال البيضاوى: أى انحدروا إليه من التيه . يقال هبط الوادى إذا نزل به وهبط منه إذا خرج منه .

وقال ابن كثير : مِصْرًا . هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف ^(١٦٢).

وقال الطبري: (فأما القراءة بالألف والتنوين «اهبطوا مصرًا» وهى القراءة التى لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك ^(١٦٣)).

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: (قرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أبى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان رضى الله عنه ^(١٦٤)).

والمعنى على القراءة الأولى: اهبطوا مصرًا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادي والفيافي، وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية: اتركوا المكان الذى أنتم فيه واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائماً - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

٥ - قوله تعالى : **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** . الفرق بين الذلة والمسكنة: أن الذلة هوان تجئ أسبابه من الخارج كأن يُغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل.

٦ - قوله تعالى : **وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ** . أى رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، وقد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط ^(١٦٥).

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ يَغْيِرَ الْحَقَّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.

ذَلِكَ . إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب.

والجملة الكريمة استئناف بياني جواب عن سؤال تقديره: لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب فعلنا بهم ذلك بسبب كفرهم بآيات الله وبالمعجزات التى من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال الما والسلى وانفجار العيون من الحجر . أو بالكتب المنزلة كالإنجيل والفرقان ^(١٦٦).

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ . فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا أَسْعِيَاءَ وَزَكْرِيَا وَيَحْيَى وَغَيْرِهِمْ . بَغْيَ الْحَقِّ . إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا .

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . أى جرهم العصيان والاعتداء والتمادى فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين، فإن صفار الذنوب سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها؛ كما أن صفار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحرى كبارها .

وقيل: كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم على حدود الله تعالى . وقيل: الإشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع (١٦٧) .

★ ★ ★ .

الإيمان

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٨)

المفردات:

آمَنُوا : صدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

هادوا : صاروا يهوداً يقال هاد يهود إذا دخل فى اليهودية، ويهود إما عربى من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهودا وكانهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (١٦٨) .

النصارى : جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى عليه السلام، سموا بذلك لأنهم نصررو المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة قسموا باسمها أو من اسمها (١٦٩) .

الصابئين: قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: أصل دينهم دين نوح عليه السلام، وقيل: هم عبدة الملائكة، وقيل: عبدة الكواكب .

وقد شاهدت هذه الطائفة حين كنت فى العراق ويسمون الصبية، ولهم طقوس خاصة بهم فى الزواج والموت وغير ذلك . وهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقررون ببعض الأنبياء . ويشتهرون فى بغداد بسوق معينة تسمى سوق الصابئة حيث يشتغلون بضرب الفضة وتزيينها ونقشها، وبيع قطع الفضة والنيكل بعد زخرفتها .

والإيمان المشار إليه فى قوله تعالى:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملاً

بمقتضى شرعه .

وقيل : من آمن من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصا ودخل في الإسلام دخولا صادقا (١٧٠) فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . إن هؤلاء الذين آمنوا عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح لهم أجروهم العظيم عند ربهم ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

قال الإمام الغزالي:

إن الناس في شأن بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

- ١ - من لم يعلم بها بالمرة وهذا ناج حتما .
- ٢ - من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالا أو عنادا واستكبارا وهذا مؤاخذ حتما .
- ٣ - صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته ووصفه، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقنع تحدى بالنبوة كاذبا، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعو اسمه لم يسمعو ضد أوصافه . وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب . ١ . هـ .

★ ★ ★

نقض العهد

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَتْكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

المضادات:

الطور : هو الجبل المعروف الذى نال على عليه موسى ربه - تعالى - ورفع الجبل فوق رؤوسهم كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه، قال تعالى فى سورة الأعراف . وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ . (الأعراف : ١٧١) والنتق هو الهز والزعزعة والجذب والاختلاع.

والخسران : ذهاب رأس المال أو نقصه .

التفسير:

٦٢ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ... هذا بيان لنعمة أخرى أنعمها الله على اليهود مع بيان

حالهم فيما عرض عليهم من التكليف، أى وذكروا وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تتبعوا موسى وتعملوا بالتوراة التى يجيئكم بها من عند الله . وَرَفَعْنَا فَرْقَكُمْ الطُّورَ . تخويفاً لكم.

فغن ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن موسى - عليه السلام - لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع الطور فظله فوقهم حتى أقبلوا، لأنهم ظنوا أنه واقع بهم^(١٧١).

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ . المراد من القوة: الجِد والاجتهاد كما قال ابن عباس: أى قلنا لهم، خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد مع حسن النية والإخلاص، فإن ذلك يدفعهم إلى النظر فى الآيات حتى يقتنعوا ويحسنوا العمل.

وهنا سؤال وهو أنه يؤخذ من الآية أن إيمانهم كان بالإلجاء والإكراه، وهذا يناهى التكليف الذى يقوم على الاختيار، فهو الذى يَكُونُ العقيدة الصحيحة المبنية على الإقناع ! ولهذا قال تعالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقرة: ٢٥٦) وقال لنبيه وكان حريصاً على إيمان الناس: .. أَقَانَتْ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس: ٩٩)

والجواب أن الاختيار كان موكولاً إليهم فى كل عروض الإيمان عليهم، ولما لم يمتثلوا، كانت آيات التخويف لهم بمنزلة مشروعية القتال للكنار، لإصلاح حالهم مع الله تعالى، فإن الحكمة تدعو إلى الأخذ بالقوة إذا فشل النصح والإرشاد، ولهذا ينبغى أن يؤدب الوالد بالقوة ابنه الموعج السلوك إذا لم ينفع معه تكرار النصح حتى لا يستمر فساده^(١٧٢).

وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : أى بعد أخذ الكتاب بقوة ادرسوا ما فيه وداوموا على تذكره حتى يرسخ فى قلوبكم، فإذا فعلتم ذلك صفت قلوبكم وارتقت فى السلوك إلى ريكم، وبهذا تصير نقية من أدران الرذائل، راضية مرضية عند ربها . والعاقبة للتقوى .

٦٤ - ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . هذا بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم، والمعنى ثم أعرضتم من بعد أخذ الميثاق عليكم وقبولكم إياه وذلك نقض للعهد تستحقون من أجله العقاب ولكن حال دون حلوله بكم فضل الله عليكم وإمهاله إياكم وتوفيقكم للتوبة، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم.

وبذلك تكون الآيات قد ذكرت بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقة أسلافهم ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم.

عقوبة اليهود

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الاعتداء

: تجاوز الحد في كل شيء.

السبت

: هو اليوم المعروف في الأسبوع واعتداؤهم فيه تجاوزهم في حكمه.

خاسئين

: صاغرين مطرودين.

فجعلناها نكالا

: النكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر به غيره. والمراد جعلنا عقوبتهم

عبرة لغيرهم ، تتكلمهم وتمنعهم عن مثل ما فعلوا .

لما بين يديها وما خلفها

: للمعاصرين لها ولبن بعدها من الأمم.

الموعظة

: ما يبقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه.

عدوان السبت:

ملخص قصة اعتداء بني إسرائيل في السبت: أن الله تعالى أخذ عليهم عهدا بأن يتقربوا لعبادته في ذلك اليوم. وحرّم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد سبحانه أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم فابتلاهم بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره، فكانت تتراعى لهم على الساحل في ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياضاً تتساب إليها المياه في ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض في يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجتمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت، وبين ما تشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهري لأمر الله ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد في يوم السبت فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسحهم قردة وجعلهم عبرة لمن عاصروهم ولبن أتى بعدهم. والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلاً في سورة الأعراف (١٧٣) كما جاءت الإشارة إليه في سورتي النحل والنساء.

التفسير:

٦٥ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ .. : أي ولقد عرفتم نبي الذين تجاوزوا منكم الحد الذي رسمه لهم الكتاب، وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوي، والتفرغ للعمل الأخرى يوم السبت.

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . أي حولهم الله إلى قردة صاغرين مطرودين مبغضين عن الخير أذلاء.

وَالْخَسْءُ: الطرد والإبعاد يقال: خسأت الكلب خساً وخسوءاً من باب منع - طرده وزجرته، وذلك إذا

قلت له: أخساً .

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

«وروى أن المسوخ لا ينسل ولا ياكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام» (١٧٤).

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى أنهم مسخوا مسخاً نفسياً فصاروا كالقردة فى شروها وإفسادها لما تصل إليها أبديةا.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: والآية ليست نصاً فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسح كل عاص فيخرجه من نوع الإنسان، إذ ليس من سنته فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمره ويتكبر الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بعجماوات الحيوان وسنة الله واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية أ هـ.

وفى هذا تأييد لرأى مجاهد، روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: «ممسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تمى زجراً».

وذلك على حد تمثيلهم بالحمار فى قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** . (الجمعة: ٥)

وقد نقل الحافظ ابن كثير آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين، فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة، وفى تفصيل قصتهم ثم قال: (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان (معنوياً) لا (صورياً) بل الصحيح أنه معنوى. صبرى والله تعالى أعلم (١٧٥).

٦٦ - **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** . أى فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها، أى يمتنع عن الاعتداء على حدود الله سواء منهم من وقعت فى زمانه أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . أى لهم، وهم من يقون أنفسهم من عقاب الله من كل أمة، أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بنى إسرائيل، خص المتقين لأنهم هم الذين ينتقمون بالمواظ.

قال الحافظ ابن كثير: المراد بالموعظة ها هنا الزجر، أى جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والتكال فى مقابلة ما ارتكبوهم من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد (١٧٦).

البقرة

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هَذَا قَالِ
 أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ
 لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا لَوْ نُفَعَالُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ
 النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ
 اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ
 مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا اتَّخَذَتْ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

المفردات:

البقرة

: اسم الأنثى. والثور اسم الذكر.

اتخذنا هزوا

: اتجعلنا موضع استهزاء أى سخيرة.

الجهل

: هنا فعل ما لا ينبغي أن يفعل، وقد يطلق على اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

لا فارض

: الفارض المسنة التى انقطعت ولادتها ، فمعنى لا فارض غير مسنة.

ولا بكر

: البكر الصغيرة التى لم تحمل بعد.

عوان بين ذلك

: نصف بين المسنة والفتية.

فاقع لونها

: الفاقع هو شديد الصفرة.

تسر الناظرين

: لحسنها.

إن البقر

: أى أن البقر الفاقع هو وسط بين الفارض والبكر.

تشابه علينا

: لاشتراك كل بقرة مع مثيلتها فى الأوصاف المطلوبة، فلا نستطيع أن نفرق بين البقر فيها، حتى نحصل على البقرة المطلوبة.

وإن شاء الله المهتدون

: إلى عينها لنذبحها، يظهرون بقولهم هذا، أنهم يريدون معرفة ما وقعت مشيئة الله عليه من هذا النوع من البقر، بذكر وصف مميز للمطلوب.

الدلول	: الرريض الذي زالت صعوبته، يقال دابة ذلول بينة، (الذل) بالكسر، ورجل ذلول بين الذل (بالضم)، فمعنى لا ذلول أى ليست مذلة وميسرة.
تثير الأرض	: أى تقلبها بالمحراث.
ولا تسقى الحرث	: أى ولا تروى الزرع.
مسلمة	: سليمة من العيوب وآثار العمل.
لاشية فيها	: لا لون فيها يخالف معظم جلدها، من وشى الثوب يشبه إذا زينه بخلوط مختلفة الألوان.
جئت بالحق	: جئت بحقيقة وصف البقرة ولم يبق فيها إشكال.
وما كادوا يفعلون	: وما هربوا من أن يذبحوها لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة.

قصة البقرة:

قال ابن كثير فى تفسيره (عن عبيدة السلماني: قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الراى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فنكروا ذلك له، فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملاء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضرىوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً ولم يورث قاتل بعد) (١٧٧).

التفسير:

٦٧ - وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً . أى واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبوا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتل ولم يعرف الجاني، فطلب بعض أهله وغيرهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله تعالى ليكشف لهم القاتل الحقيقي فقال لهم: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً .

ويجوز أن يكون المعنى، واذكروا محمد الوقت الذى قال فيه موسى لقومه . . والأمر هنا لكل من يصلح للخطاب، ليعرف ما كان عليه بنو إسرائيل من اللجاجة والعناد والفرار من الرشد: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً . ليكون وسيلة إلى معرفة القاتل.

* وتكبر لفظ (بَقْرَةً) يشير إلى أنهم لو ذبحوا أية بقرة بعد الأمر لكفهم ولكنهم كعادتهم - شددوا بتكرار الأسئلة فشدد الله عليهم (١٧٨).

وقد أمرهم الله بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات، لأنها من جنس ما عبده وهو العجل، وفى أمرهم

بذلك تهيؤ لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه، فكانه سبحانه يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلاد، لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وهذا استئناف بيانى، كأن سائلاً قال: ماذا قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن أمرهم بذبح البقرة، فكان الجواب، قَالُوا اتَّخَذْنَا حُزُواً . وهزوا أى سخرية وهو بتقدير مضاف أى: موضع هزو.

استبعدوا أن يكون ذبح البقرة له صلة بتبرئة المتهم بالقتل فظنوا لجهلهم أنه يسخر بهم، فسألوه مستكرين.

اتَّخَذْنَا حُزُواً . وكان حقهم أن يمتثلوا، ولا يقولوا مل قالوا، فقد عرفوا فى رسولهم الجد فى أمره كله، ولا سيما ما ينقله لهم عن الله تعالى.

قَالَ أَعْرُذْ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . أى التجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل.

وفى هذا الجواب تبرؤ وتقزى عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه، لأنه لا يليق بعبلاء الناس فضلاً عن رسل الله عليهم السلام.

قال الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله:

وقد نهيت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كامثال يضربونها فى مقام المزح والهزل^(١٧٩). وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخضوع، وليعمل به بتقبل وخضوع. ١ هـ (١٨٠).

٦٨ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بُكْرَ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ .

أى قال بنو إسرائيل لموسى، بعد أن عرفوا من جوابه الجد: اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها^(١٨١).

فقال لهم موسى إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

٦٩ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على أنفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سننها، سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها فأجابه بقوله: إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمرتمك بذبحها . صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا .

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه. ولذا يكون وصف الصفرة للتاكيد كأمس الدابر، وكما يختص الأصفر بالفاقع يختص الأسود بالخالك، والأخضر بالناضر، والأحمر بالقاني، والأبيض بالناصع.

قال ابن جرير الطبري (والفقوع في الصفرة نظير النصوع في البياض وهو شدته وصفاه) (١٨٢).
تسر الناظرين. أي تعجبهم وتشرح صدورهم، لشعورهم باللذة القلبية لحسن منظرها، وجمهور المفسرين يقولون.
إن الصفرة من الألوان السارة (١٨٣).

٧٠ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . كَرُّوا سَوَائِهِمُ الْأَوَّلَ لَطَلَبِ الاستكشاف الزائد بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها، فقالوا لموسى: سل من أجلنا ربك أن يزيد إيضاحاً لحال البقرة التي أمرنا بذبحها حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أنها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ومنفذون لما تكلفنا به.

وقولهم: وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ : فيه تخفيف لصورة عنادهم وإتيانهم بالمشيئة لتحسين الظن بهم.

وهي الحديث، (لو لم يستثوا - أي يقولوا إن شاء الله - لما بينت لهم صفتها إلى آخر الأبد) (١٨٤).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (وإنما لم يمتدوا في المرتين الأولىين واعتدوا في الثالثة لأن للثلاثة في التكرير وقفاً من النفس في التاكيد والسامة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة) (١٨٥).

وقولهم: لَمُهْتَدُونَ . أي إلى المطلوب ذبحه منها أو إلى معرفة القاتل بسببها قال الطبري: (وأما قوله تعالى: وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التيس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها، ومعنى اهتدائهم في هذا الموضع تبيينهم أن ذلك الذي لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر) (١٨٦).

٧١ - قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةً لَا شِيَةَ فِيهَا . أَي أَنَّهَا بَقَرَةٌ لَمْ تَذَلَّ بِالْعَمَلِ فِي الْحِرَاةِ وَالسَّقْيِ، فَلَهَذَا . لَا . نَاقِيَةً بِمَعْنَى غَيْرِ . وَلَا . فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ . مُزِيدَةً لِتَوْكِيدِ الْأَوَّلَى لِأَنَّ الْمَعْنَى (لَا ذَلُولَ تُثِيرُ وَتَسْقِي) (١٨٧)، وَأَعِيدَ فِي قَوْلِهِ: وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ . مِرَاعَاةً لِلِاسْتِعْمَالِ الْفَصِيحِ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: إِنَّهَا لَيْسَتْ مَذَلَّةٌ بِالْحِرَاةِ وَلَا مَعْدَةٌ لِلْسَّقْيِ فِي السَّاقِيَةِ بَلْ هِيَ مَكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ لَا عَيْبَ فِيهَا هـ. وَمَعْنَى . مُسَلِّمَةً . أَي سَلَمَهَا اللَّهُ مِنَ الْعَيُوبِ. وَمَعْنَى . لَا شِيَةَ : لَا لَوْنٌ فِيهَا يَخَالَفُ جَلْدَهَا الْأَصْفَرَ، وَالشِّيَةُ فِي الْأَصْلِ، مَصْدَرٌ وَشَاهُ شَيْهِ وَشِيَا وَشِيَةً، إِذَا خَلَطَ لَوْنُهُ بِلَوْنٍ آخَرَ.

قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . أَي جِئْتَ بِحَقِيقَةِ وَصْفِ الْبَقَرَةِ. وَمَا بَقِيَ إِشْكَالٌ فِي أَمْرِهَا، وَلَا وَجْهٌ لَنَا فِي طَلَبِ الْإِيضَاحِ بَعْدَ ذَلِكَ. فَذَبَحُوهَا . أَي فَحَصَلُوا الْبَقَرَةَ الْجَامِعَةَ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ كُلِّهَا فَذَبَحُوهَا.

وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . معناه وما قاربوا أن يفعلوا الذبح؛ والمقصود منه المبالغة في تباطئهم وتعمدهم. إطالة الزمن بكثرة المراجعات في وصف البقرة. وجملة. وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . حالية. قال الزمخشري: وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.

استئصال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وإنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتمتعهم، وقيل وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القتال، وروى أنه كان في بني إسرائيل شيخ صالح له عجلة تأتي بها الغيضة وقال: اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر، وكان يرأ بالديه، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها البيتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهباً وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير (١٨٨).

يؤخذ من الآية النهي عن كثرة السؤال، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدُّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ. (المائدة: ١٠١)

وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم » (١٨٩).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتي أضيأن أم ماعزة، فإن بينت لك قلت أذكر أم أنثى؟ فإن أخبرتك قلت أسوداء أم بيضاء؟ فإذا أمرتك بشيء فلا تراجعني.

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات (١٩٠). أخرجه الإمام أحمد وفسره الأوزاعي وقال: هي شداد المسائل وما لا يحتاج إليه من كيف وكيف.

وقال الأوزاعي: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه الغفيل، فلقد رأيتهم أقل الناس علماً.

★ ★ ★

الحياة

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَآلِمُونَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

المضردات:

فادأرأتم فيها

: أى تدافعتم وتخاصمتن فى شأنها وكل واحد يدرا عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه.

والله مخرج ما كنتم تكتمون : أى مظهره مهما كنتم.

التفسير:

٧٢ - وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا ..

واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا، فاختلقتن وتنازعتم فى قائلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن

نفسه، والله عز وجل مخبر لا محالة ما كنتم من أمر القاتل فقد بين سبحانه الحق في ذلك فقال على لسان رسوله موسى عليه السلام.

اضربوا القاتل بأي جزء من أجزاء البقرة، فضربتوه ببعضها فعادت إليه الحياة بإذن الله، وأخبر عن قاتله، وبمثل هذا الإحياء لذلك القاتل بعد موته يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، وبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليمد على بني إسرائيل جنائياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها فتقبلها بشغف واهتمام.

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله: **وَأُذِ قَتَلْتُمْ** . مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، ولأن المسئولية في القتل مشتركة بين الجميع حتى يتعين القاتل فيبرأ من عداة.

وقوله تعالى: **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** : مغناه، والله تعالى مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القاتل الذي قتلتموه، ثم تنازعتم في شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة: **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ** . معترضة بين قوله تعالى: **فَادَارَأْتُمْ** . وبين قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا** . وهادئة إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سينكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: (وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القاتل - مع أنه ليس أول قاتل طل دمه في الأمم - إكراماً لموسى - عليه السلام - أن يضع دم في قومه وهو بين أظهرهم ويمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم ويبين سافكه لضعف يقين القوم برسولهم موسى عليه السلام ، وكان ذلك مما يزيد شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين. فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى لموسى ورحمة بالقوم لئلا يضلوا)^(١٩١).

٧٣ - وقوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا** ..

أي اضربوا القاتل ببعض البقرة المذبوحة ولاقطع بتعين هذا البعض، وإن قيل: إنه اللسان أو الفخذ أو عجب الذنب، فضربوه بجزء منها، فأحياء الله تعالى ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به.

قال الزمخشري: (فإن قلت: هلا أحياء ابتداء، ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت: في الأسباب والشروط حكم وفوائد، وإنما شرط ذلك لما في ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم، من اللطف لهم وللآخرين في ترك التشديد والمصارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وإرتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابعة، والدلالة على بركة البر بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهائز بما لا يعلم

كنهه، ولا يطلع على حقيقته، من كلام الحكماء، بيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتأنق في اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره فتي السن غير قبح ولا ضرع، حسن اللون بريئاً من العيوب، يوثق من ينظر إليه، وأن يغالى بثمنه، كما يروى من عمر - رضى الله عنه - أنه ضحى بنجبية بثلاثمائة دينار^(١٩٢).

رأى تفسير المنار:

ذهب صاحب المنار إلى أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى. حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به الإحياء الحقيقي بعد الموت وأن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قريب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجنابة^(١٩٣).

والذي نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى. الإحياء الحقيقي للميت بعد موته وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقاؤها ضعيف لما يأتي:

١ - مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية^(١٩٤).

٢ - قال تعالى: كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

وهي قرينة على أن المراد بالإحياء رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل، ومادام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة^(١٩٥) ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس، وإحياء الموتى تشريع العقوبات صولنا لدماء الأحياء منهم. والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

٣ - الإراءة في الآية بصرية لا عقلية، وسياق الكلام يابى أن يصرف عن الظاهر وخاصة قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى^(١٩٦).

قِسْوة القلوب

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ أَلُنْهَرٌ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

المفردات:

القِسْوة : اليبس والصلابة.

يتفجر : يتفتح ويتشق بكثرة وسعة.

يهبط : يتردى وينزل.

الخشية : الخوف.

المناسبة:

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التي أتاهها موسى عليه السلام ما رأوا، كأنفجار الماء، ورفح الجبل، ومسحهم قردة، وإحياء القتيل إلى نحو ذلك، وصفهم بقسوة القلوب وضعف الوازع الديني فيها، حتى أصبحت كالصم الصلاد بل أشد منها قسوة.

التفسير:

٧٤ - ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..

ثم صليت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات، منها إحياء القتيل أمام أعينكم فهي كالحجارة في صلابتها ويوستها، بل هي أشد صلابة منها لأن من الحجارة ما فيه ثقوب متعددة وخروق متسعة، فتدفع منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن منها ما يتصدع تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته.

وقد شاهدوا كل ذلك حين ضرب موسى الحجر فتنجرت منه اثنا عشرة عينا وشاهدوا الجبل يندك دكا حين تجلى الله له.

ولكن قلوبهم كلت وعميت وأغلقت مفاتيحها فلا تتأثر بموعظة، ولا تتقاد للخير، ولا تقبل ما تؤمر به، مهما تماقبت عليها النعم والنعم والآيات.

والله تعالى حافظ لأعمالهم، يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها، فهو سبحانه يهمل ولا يهمل، وهو بكل شيء عليم.

واسم الإشارة . ذَلِكَ . مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة، أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة.

وقوله تعالى: وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَشْقَىٰ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكانه سبحانه يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها ويوبستها منها ما تحدث فيه المياه خروفاً واسعة تندفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة تتجم عنها العيون النابعة والآبار الجوفية المفيدة، ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعيه وامتنال، أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع ولا تنأثر بالعظات والعبر، ولا تتقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس. وقوله تعالى: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . تهديد لهم وتخويف حيث إنه سبحانه سيحاسبهم على أعمالهم وسيذيقهم ما يستحقون من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأوامره.

★ ★ ★

تحريفهم كلام الله

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذْ أَلْقَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعُضْهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمِيعًا لَّيْسَ لَهُ سَمِيعٌ لَّا نَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

المفردات:

أفـتطمعون أن يؤمنوا لكم : الهزئة لإنكار طمع المؤمنين في إيمان اليهود بعد ما علموا حالهم، أي استنكاره واستبعاده منهم، والفاء عطف ما بعدها على مقدر، والتقدير: (أتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم، أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) والمراد نهيمهم عن الطمع بعد علمهم بحالهم.

فريق منهم : جماعة منهم.

كلام الله : المراد به التوراة.

فتح الله عليكم : بين لكم خاصة، أو حكم وقضى عليكم.

ليحاجوكم

: ليخاصموكم وقيمون عليكم الحجة.

عند ربكم

: أى فى كتاب ربكم وشرعه كما تقول: هو: عند الله كذا، أى كتابه وشرعه.

تمهيد :

انقضى المقطع السابق من السورة فى تذكير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل، وباستعراض مشاهد الإنعام والجود، بعضها باختصار وبعضها بتطويل، وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم فى نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجذب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجديها، (فالآن يأخذ السياق فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل، ويبيصرها بأساليبهم ووسائلهم فى الكيد والفتنة، ويحذرهم كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم، فلا تتخذ بأقوالهم ودعائهم ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل، ويدل طول هذا الحديث وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنسوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود) (١٩٧).

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد، طامعين فى انضوائهم تحت لوائه؛ لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه فهم يشتركون معهم فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق والبعث والنشور، وكتابه مصدق لما معهم.

فقص الله فى هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ما أزال أطماعهم وأياسهم من إيمانهم.

التفسير :

٧٥ - أَفَتَقْطَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

ما كان ينبغى لكم أيها المؤمنون أن تطمعوا فى أن يؤمن اليهود بدينكم ويتقادوا لكم وقد اجتمعت فى مختلف فرقهم أشنات الرذائل التى تباعد بينهم وبين الإيمان بالحق، فقد كان فريق منهم (وهم الأحبار) يسمعون كلام الله فى التوراة ويفهمونه حق الفهم ثم يتعمدون تحريفه وهم يعلمون أنه الحق وأن كتب الله المنزلة لا يجوز تغييرها (١٩٨).

وجملة . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ . حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقطيع من إيمانهم قد علل بعلتين:

إحدهما: ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

ثانيتهما: ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد، وجملة . وَهُمْ يَعْلَمُونَ . حال مؤكّد لاستهجان قبح ما اجترعوا عليه من التحريف.

والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة فى ذلك (١٩٩).

٧٦ - وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنْتَبَهُتُمُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

وكان فريق من منافقيهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا مخادعين لهم بأنكم على الحق وأن محمداً هو النبي الذي جاء وصفه في التوراة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على غفلتهم إذ تترلق السننهم في أثناء خداعهم للمؤمنين بعبارات تفيد خصومهم ولا يستدعيها الخداع. أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟. اتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التي كتمناها عنهم كالإشارة بالنبي وعلاماته، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به، وتبليغ أممهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه. لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ. أى ليقيموا عليكم به الحجة في كتاب ربيكم وشرعه.

وقيل المراد بقوله : عِنْدَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة، أى لِيُحَاجُّوكُمْ به يوم القيامة، توبيخاً لكم، وزيادة في فضيحتكم على رموس الأشهاد؟.

وهذا الرأي غير مقبول، فإنهم عللون بأنهم محجوجون بما في كتابهم يوم القيامة، حدثوا به أو أخفوه، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين، إذا كان المراد بقوله : عِنْدَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة.

روى عن ابن عباس أن ناساً منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آبائهم، فقاتلت لهم اليهود : أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، أى بما حكم به عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم؟.

وقيل: إن علياً لما نازل قريظة يوم خيبر سمع سب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانصرف إليه وقال: يا رسول الله، لا تبليغ إليهم، وعرض له . فقال: أظنك سمعت شتمى منهم لو راوئى لكفوا عن ذلك. ونهض إليهم، فلما راوه أمسكوا. فقال لهم : « انتقضتم العهد يا إخوة القردة و الخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » فقالوا: ما كنت جاهلاً يا محمد فلا تجهل علينا، من حديثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا (٢٠٠).

والتعبير بالفتح في قولهم: بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . للإيذان بأنه سر مكتوم وياب مغلق في وجه غيرهم فلا ينبغي أن يطلع عليه سواهم.

٧٧ - أَوَّلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . كان اليهود يتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يَقُولُوا بِأَفْوَاحِهِمْ للمسلمين، أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين، وما يعلنونه من النفاق، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وأنه مطلع برسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي على كيدهم فتحصل المحاجة، كما حدث في آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم، فأى فائدة في اللوم والعتاب، فليرتدعوا عن ذلك ولينزجروا، وليدخلوا في الإيمان بقلوبهم.

والاستهزاء في: أَوَّلَا يَعْلَمُونَ : إنكارى مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم وقبح اللوم من أصحابهم لهم على إطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها في التوراة مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم.

أمانى باطلة

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلُ الَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلُ لَهُمْ مِمَّا كُتِبَتْ أَيْدِيهِمْ وَقَوْلُ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

المفردات:

أميون : جمع أمى وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى الأم، وإيداناً بأنه - فى الخلو عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه.

أمانى : جمع أمنية، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه مأخوذة من منى إذا قدر، والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة كما قاله ابن عباس ومجاهد.

قويل لهم : الويل فى الأصل مصدر لا فعل له من لفظه، مثل ويح، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب، وهى كلمة دعاء.

التفسير:

بعد أن بين سبحانه جنایات اليهود فى ماضيهم وحاضرهم وفى جملتها تحريفهم كتاب الله التوراة، من بعد ما عقوله، عقب ذلك بذكر فريق جاهل منهم تأثر بتحريف أجيالهم وضل بإضلالهم وهم الأميون.

٧٨ - وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . أى ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم، أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية من التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبني على البرهان القاطع والدليل الساطع.

(ومن هذه الأمنيات والأكاذيب: أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن الله سبحانه وهالى يعفو عنهم ويرحمهم، وإن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، وأنهم صفوة الإنسانية وشعب الله المختار لممارسة الأرض، وأنهم أبناء الله وأحباءه، وأن لهم السيطرة على الناس، وغير ذلك من الأمانى التى عنوها هؤلاء ضلوا، تبعاً لضالائل أجيالهم) (٢٠١).

ومن قوله تعالى وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملها الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين، وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على يقين من أمور دينهم، وإنما هم يظنون ظناً بدون استيقان، والظن لا يغنى عن الحق شيئاً.

ثم أنذر سبحانه الأحيار المحرفين للحق بالهلاك فقال:

٧٩ - قَوْلِ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَرَوَّلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

أى هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرفون كتاب الله وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسون فيها أكاذيبهم وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم، موهمين العوام أنها من عند الله ليحملوهم على اعتقادهم، والتعلق بالأمانى التى زينوها فى التوراة: يبتعون بهذا الفعل ثمنًا قليلًا هو الاحتفاظ بالرياسة، واكل أموال الناس بالباطل، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة، وهى افتراء الكذب على الله، ويختارون الباطل وينبذون الحق فيكونون بذلك كمن يبيع شيئًا نفيسًا غالى القيمة بثمن تافه.

قال السدى: كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ويعدّونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمنًا قليلًا^(٢٠٢).

وقال الزهرى عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غضا لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساومتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا سألكم عن الذى أنزل عليكم^(٢٠٣).

ومن أسباب تحريف التوراة، ضعف علماء اليهود وانصراف الناس، عنهم فعمد العلماء إلى أمور ترغب الناس فيهم والحقوها بالتوراة وقالوا: هذا من عند الله ليقبلوه عنهم فتتأكد رياستهم، وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ (آل عمران : ٧٥)، يعنون بالأميين العرب، ويعنون بأنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل. أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم، ومنه قولهم: لا يضرنا ذنب قنحن أبناء الله وأحباءه، وأن النار لن تمسنا إلا أياماً معدودات، إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال : قَوْلِ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ. من تحريف كلام الله وتبديله وسوء تأويله وَرَوَّلَ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ. بالباطل من جاء ورياسة ومال.

غرور وادعاء

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخِذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ نَعُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

المضردات:

لن تمسنا النار : لن تصيبنا، والمسن: اتصال أحد الشيئين بالآخر وإصابته له.

أياماً معدودة : يضبطها العد فهي إذن قليلة، والعرب تقول: شيء معدود أى قليل، وغير معدود أى كثير.

بلى : حرف جواب كنعيم، إلا أنها لا تقع إلا جواباً لنفى متقدم سواء أدخله استفهام أم لا، وتقيد إثبات ما بعدها.

الكسب : جلب النفع واستعماله فى السيئة من باب التهكم.

وأحاطت به خاطبته : الخطيئة : السيئة التى استمكنك من النفس وحملتها على تجنب الصواب عمداً،

وإحاطتها به : شمولها له واستيلائها على جميع تصرفاته، كما يحيط الثوب بلباسه.

تمهيد :-

ذكر الله فى هذه الآية ضرباً من ضربوب غرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لا يعذبهم دوماً بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبیب حبیبه وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم .

التفسير:

٨٠ - وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً . أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فمن لم تدرکه النجاة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم. وقيل إنها تمسهم أربعين يوماً ، هى المدة التى عبدوا فيها المجل.

روى الإمام أحمد والبخارى والنسائى وابن مردويه واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اجمعوا لى من كان من اليهود هنا ».

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أبوكم؟ » قالوا: فلان. قال: « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: « هل أنتم صادقى عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن

كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت في أبينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن أهل النار؟ فقالوا: تكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ فقالوا: نعم. فقال: (فما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضررك) (٢٠٤).

قُلْ أَتُخَذُّمُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ . أَيْ أَعِدْ إِلَيْكُمْ رِيكَمَ بِذَلِكَ وَوَعِدْكُمْ بِهِ وَعَدًا حَقًّا إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُونَ فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ .

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . أَيْ أَمْ أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، فَإِنْ مِثْلُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوَحْيِ بَيْلِهِ الرِّسَالِ عَنْهُ وَيَدُونَ هَذَا يَكُونُ افْتِتَاءً عَلَى اللَّهِ وَجَرَاءَةً عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ قَوْلُ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ كُفْرٌ صِرَاحٌ .

وخلاصة هذا: إن مثل ذلك القول يحتمل أمرين لا ثالث لهما:

إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه سبحانه بدون علم، وما دام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل، إذاً فإنتم يا معشر اليهود كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة.

قال الإمام الرازي: قوله تعالى: أَتُخَذُّمُ . ليس باستفهام بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل الله تعالى حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستفهم بل المراد التوبيخ على طريقة الاستدلال، وهي أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعي وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير (٢٠٥).

٨١ - بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى ليس الأمر كما ذكرتم، بل تمسكم النار وتمس غيركم دهرًا طويلاً ، فكل من أحاطت به خطيئته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل في شهواته، وأصبح سجين آثامه فجزاؤه النار خالدًا فيها أبداً لما اقترفت من أسبابها بانغماسه في الشهوات التي استوجبت ذلك العقاب، والمراد بالسبيته هنا الشرك بالله، وصاحبه مغلد في النار، وبعض العلماء حمل السبيته على معناه العام، وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله، فالعاصي مرتكب الكبائر يمكث فيها ردحًا من الزمان ثم يخرج منها متى أَرَادَ الله تعالى (٢٠٦).

وفي الآية تحذير من ارتكاب السيئات، فإنها تؤدي إلى التماذي فيها فلا يبالي صاحبها بالكفر، فعلى من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها، فإن لم يبادر بها، أحاطت الخطيئة بقلبه فأصبح مظلماً لا ينفذ إليه النور، فيكفر والعياذ بالله تعالى .

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والنسائي وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « إن العبد إذا ذنب ذنباً نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في القرآن: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (٢٠٧).

٨٢ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى والذين آمنوا بالله ورسوله

وأطاعوا الله فأقاموا حدوده وأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه، فأولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها والخلود فيها خلوداً أبدياً.

وهي هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معاً، كما روى أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: يارسول الله قل لي في الإسلام قولاً أو أقل فيه لعلني أعيه، فقال له النبي (ﷺ) « قل أمنت بالله ثم استقم » (٢٠٨) رواه مسلم.

★ ★ ★

الميثاق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٢)

المفردات:

الميثاق : العهد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم..

وبالوالدين إحساناً : أى تحسنون بالوالدين إحساناً مطلقاً بلا حدود.

والمساكين : الذين أذلتم الحاجة وأسكنتهم.

وقولوا للناس حسناً : أى قولوا لهم حسناً وهو ما تطيب به النفوس ومنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فى غير عنف ولا خشونة.

التفسير:

٨٢ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد وأمرناكم بالعمل على لسان رسلنا عليهم السلام، وأمرناكم فيه بالآتية سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقربائكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه أيضاً أن تقولوا للناس قولاً حسناً فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكتم كنزكم وأنتم وأسلافكم الميثاق وأعرضتم عنه إلا قليلاً منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريدا من التوجيه المحكم الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعمال الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئاً، ثم ثبث ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية. ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة وقربة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم في حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحاني، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا في حاجة إلى المال فهم في حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التي تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق، فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخضوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص يعد الأمر بعبادة الله، تقخيماً لشأنهما وتوكيداً لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتقموا بهذه الأوامر الحكيمة، ولكثهم عمو وصموا عنها فويخهم القرآن الكريم بقوله: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**.

فقد أفصحت الآية عما كان من أكثرهم، بعد أخذ الميثاق عليهم، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل به، وهم معرضون غير مكترئين بما يترتب على إعراضهم، أما القليلون منهم فإنهم التزموا العمل بالميثاق، وحافظوا على تنفيذه وهم المخلصون في إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تتسخ شريعتهم بالإسلام - ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وحافظ على هذا الميثاق الموجود في سائر الأديان كمعبد الله بن سلام وزيد بن سعة.

وقوله: **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**. لتأكيد توليهم، أى ثم توليتم وأعرضتم عن تنفيذ هذا الميثاق وأنتم قوم عادتكم التولى والإعراض عن المواثيق، وهى عادة ورثتموها عن آبائكم، ويؤخذ كونها عادة لهم من الجملة الاسمية الدالة على الثبوت. **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**.

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود في قوله: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ** لأنهم خلف لهؤلاء السابقين، في السير على نهجهم في نقض العهود وعدم احترام المواثيق فإنهم هم، فلذا خاطبوا بتوليهم وإعراضهم.

قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار (قد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه، ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شيء معرضاً عنه ومهملاً له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا التقييد **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**. لازماً لا بد منه وليس تكراراً كما يتوهم) (٢٠٩).

تناقض

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْهَتُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهَلْ تُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ إخراجَهُمْ أَفتُمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

المفردات:

لا تسفكون دماءكم

: تريقونها، بأن يقتل بعضهم بعضاً .

تظاهرون عليهم

: أصله تتظاهرون، فحذفت إحدى التامين تخفيفاً، أى تتعاونون عليهم.

الإثم

: هو الفعل الذى يستحق صاحبه الذم، واللوم.

العدوان

: تجاوز الحد فى الظلم.

أسارى

: جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ فى سبيل القهر والغلبة.

تفادوهم

: تتقذوهم بدفع الفداء، وهو ما يدفع فى ذلك الأسير.

خزى

: هوان.

يردون

: يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة : أثروا متاعها على نعيم الآخرة.

تمهيد:

ذكر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة، بأهم الأوامر التى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يفعلوها .

وهنا ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة بأن ينتهوا عنها فلم ينتهوا .

جاء فى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

يقول الله منكرًا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وما كانوا يعانوه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا فى الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهود أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استغفروا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: **أَفُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** . (٣١٠).

ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرون اليهود فيقولون لهم كيف تقاوتونهم ثم تصدونهم بأموالكم؟ كان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحي أن نخذل حلفائنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرائنا.

المعنى الإجمالى للآيات:

واذكروا - أيضا - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصينا فيه بالآى يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبإلا يخرج بعضكم بعضا من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد والالتزام به.

ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فتقضتم عهودكم وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملكتكم أو قرابتكم، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتهم وأخرجتمهم من ديارهم فى الأسر فاديتهم، فلم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم، كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم، وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدي عيوسهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله، جزاء فاعله الهوان فى الدنيا والعذاب الدائم فى الآخرة، وما الله بغافل عما تفعلون، ولا شك أن أولئك اليهود الذى نقضوا عهودهم وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بدنياههم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

فى أحقاب التفسير:

١ - جعل الله الأمة المتواصلة بالدين وحدة متكاملة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً فإذا اعتدى أحد على أخيه فكأنما يعتدى على نفسه ويضعف نفسه.

قال ابن كثير:

ولهذا قال تعالى: **وَأَذِّنْ لَنَا مِثَاقًا لَا تَسْجُدُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** . أى: لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرج من منزله ولا يظهر عليه كما قال تعالى:

فَقُتِلُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ . (البقرة: ٥٤) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال- عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (٣١١).

٢ - وقال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار:

وقد أورد سبحانه النهى عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث فى النفس أثرًا شريفاً، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر بوجوده ويتأثر فقال تعالى:

لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ . فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه يبعث نفسه وانتحر بيده، وقال تعالى: وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ . على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته، خاص بالقرآن الكريم (٢١٣).

٣ - قوله تعالى: وَإِنْ يَأْتِكُمْ أَسَارَى نَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بيان لتناقضهم وتزييفهم لأحكام الله تعالى.

أى أنتم يا معشر اليهود إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكائهم، وتبدلون عوضاً لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى فى أيدي أعدائكم. فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتكم حكمها فى مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة: وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بضمير الشأن للاهتمام بها والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليس خافياً عليهم، وقوله تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . توبيخ وتقريع لهم على تزييفهم بين أحكام الله.

والعنى: اهتمتكم أحكام كتابكم فى فداء الأسرى، ولا تتبعونها فى نهيكهم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه تعالى، بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

قال الأستاذ أحمد شاكر معلقاً على تفسير ابن كثير للآية الكريمة:

(ومما يملأ النفس ألماً وحزناً، أن صار أكثر الأمم التى تنسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا فى مثل هذا العمل الذى أمر الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزيًا فى الحياة الدنيا وعذاباً شديداً فى الآخرة، فنرى أكثر الأمم المنتسبة إلى الإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه فى التشريع فى شئونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعهم وتشريع رسول الله فى سنته لا يوافق هذا العصر، ويجعلون من حقهم أن يشعروا ما شاءوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه، أو يسطعنون قوانين أوروبا الوثنية الملحدة، ويشربونها فى قلوبهم، يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرتهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم) (٢١٣).

يقول الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سُمى سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفراً، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملي معتقداً أن الحكمة الصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ» (٢١٤).

يسوغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم ويتبعون شهواتهم ويعصون رسلكم فمنهم من كذبوه ومنهم من قتلوه.

التفسير:

٨٧ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ . هَذَا تَذَكُّيرٌ مِنَ اللَّهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بِضَرْبٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ فَقَابِلُوهَا بِالْكَفْرِ وَالْعِصْيَانِ . وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَرْسَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَيْهِمْ، وَأَتَاهُمْ التَّوْرَةَ فِيهَا هَدًى وَنُورٌ لِهَدَايَتِهِمْ فَحَرَّفُوهَا وَبَدَلُوهَا وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا .

وأرسل الله الرسل والنبيين من بعد موسى ليحكموا بشريعته ويقتضوا أثره (٢١٥).

ومن هؤلاء الرسل: يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى عليهم السلام، فلم يكن لبني إسرائيل عذر يعتدرون به عن مخالفة الشرائع أو تحريفها أو تغيير أوضاعها.

فقد توالى الرسل بعد موسى ليتوالى تفسير التوراة بما تلاها من أسفار رسل بني إسرائيل، ولطول الفترة بين موسى وعيسى فقد كانت خمساً وعشرين وتسعمائة ألف سنة على ما قيل. قال تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتَرَاءُ (المؤمنون : ٤٤).

حتى ختم الله أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات - وهى المعجزات - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. قال تعالى:

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ . أَيْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الْآيَاتِ الْوَاضِحَةَ الدَّالَّةَ عَلَى نُبُوته، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار ببعض المغيبات، وكذلك آيات الإنجيل.

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَيْ قَوَاهُ اللَّهُ بِجِبْرِيلَ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤَيِّدُ اللَّهَ بِهِ أَنْبِيََاءَهُ.

قال ابن كثير:

وروح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير الآية وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٨٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (الشعراء : ١٩٢-١٩٤)

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحيان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافع عن نبيك » (٢١٦).

رواه البخارى، ورواه أبو داود والترمذى موصولاً، وقال الترمذى حسن صحيح.

وعن أبي هريرة: (أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فخطب إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عنى، اللهم أيد بروح القدس؟ فقال: اللهم نعم) (٢١٧).

وفي بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم - وجبريل معك » (٢١٨).

وإنما خص عيسى عليه السلام بالذكر من بين أنبياء بنى إسرائيل لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى عليه السلام (٢١٩).

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟

أي أبلغ بكم الأمر أنكم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهوى أنفسكم استكبرتم عليه تجبراً وبقياً فى الأرض؟

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . أى فبعضاً منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام وبعضاً تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام. فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن العناد والجحود من طبيعتكم.

٨٨ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ . أى أمر اليهود على العناد الكفر وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم معللين عدم إيمانهم بأن قلوبهم مغطاة بأغطية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به - صلوات الله عليه - حتى تقفه عقولهم.

على حد قول مشركى مكة . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ (فصلت : ٥).

يعنون أن قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كذبوا، فإنه دين الفطرة، فلو تركوا فطرتهم كما خلقت عليه لقبائته وآمنت به، ولكنهم استكبروا وآثروا الضلالة على الهدى فلعنهم الله بكفرهم وأوهن يقينهم.

بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ . و . بَل . هنا للإضراب الإبطالى، ورد ما يقولون أى: ليس الأمر كما زعموا بل أبعدهم الله عن رحمته بأن خذلهم وتركهم وشأنهم، بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم فى قبول الحق، فاستحقوا أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته . وَمَا ظَنَّهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَلْعَنُونَ . (آل عمران : ١١٧).

فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ . أى فهم يؤمنون إيماناً قليلاً، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به، والذين آمنوا به كان قولاً باللسان تكذبه الأعمال، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم، فيكون هو المحرك لإرادتهم، وإنما يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة.

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير الطبرى: إنه لا يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ، فالخالفه لم تغير كل الشعب، بل غيرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل.

حسد وبغى

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ نَفْسِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءَ وَبِعَضْبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُوا بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ۖ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ آبِلِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

المفردات :

يستفتحون : يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح والنصرة.

فلعنة الله : اللعنة : الإبعاد والطرده من مواقع رحمة الله .

اشترؤا به : شرى واشترى يستعملان حينما بمعنى باع، وآخر بمعنى أخذ والمراد هنا الأول.

بغيا : البغى فى الأصل الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شىء .

بأعوا : رجعوا .

مهيين : فيه مهانة وإذلال .

وراءه : سواء كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام ما وراء هذا الكلام شىء .

تمهيد :

كانت اليهود تبشّر العرب بنبى سيطهر، ويقولون للعرب ستبعه وتتصبر به عليكم ، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل ولم يكن من نسل إسحاق تركوا دعوته حسداً وكبراً .

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبثته، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل ويشر بن البراء بن معرور ودأود بن سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث. وتصفونه بصفته ! فقال سلام بن مسلم أخو بنى النضير : ما جأنا بشيء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكركم فأنزل الله فى ذلك من قولهم. وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .

التفسير:

٨٩- وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

ولما جاءهم رسولنا بالقرآن وهو كتاب من عند الله مصدق لما أنزل عليهم من التوراة وموافق له في التوحيد وأصول الدين ومقاصده. وكانوا يستصرون بهذا النبي على مشركي العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذي جاء به موسى، ويخذل الوثنية التي تتحلونها.

فلما جاءهم الكتاب الذي عرفوا أنه من عند الله كفروا به، وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جحوداً وعناداً ف سجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم.

وقيل إن المراد بلفظ: مَا عَرَفُوا، هو النبي صلى الله عليه وسلم واستعمال: مَا . فـيمن يعلم كثير كتوله تعالى: وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . (الشمس : ٥) يعنى ومن بناها وعلى هذا تكون جملة: كَفَرُوا بِهِ . جواباً عن: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا .

أما جواب: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ . فـمقدر تقديره كذبوه، وقد دل عليه جواب الثانية. والمعنى عليه: فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجه ريب حسدوه لأنه من العرب أولاد إسماعيل وملاؤا الحسد قلوبهم غيظاً، ألا لعنة الله على أمثالهم من المعاندين الجاحدين.

٩٠- بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

كان اليهود ينتظرون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم حسدوه واستبدلوا بالإيمان الذى هيا الله لهم أسبابه ليسعدوا .. استبدلوا به الكفر الذى يؤدى بهم إلى الشقاء الدائم، وآثروه عليه فكان اختيارهم الكفر على الإيمان، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار.

ولما كانت الخسارة فى ذلك الاستبدال عظيمة قال سبحانه: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ . أى بشما باعوها به . أَنَّ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . فـالكل هو الثمن الذى باعوا به أنفسهم والمشتري الشيطان أو جهنم، وكل ذلك من باب التصوير والتمثيل لتهويل سوء ما اختاروه وتقبيحه.

وقوله تعالى: بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بدافع من البغى والحق ناقمين على غيرهم أن خصهم الله دونهم بإرسال رسول منهم منكرين على الله أن يكون له مطلق الخيرة فى أن ينزل من فضله على من يشاء من عباد.

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ . أى استوجبوا واستحقوا ورجعوا بغضب شديد مؤكداً لصدوره من الله تعالى.

وقال ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم (٢٢٠).

وقال الزمخشري: قَبَّأُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ . فصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه.

وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل بعد قولهم - عزيز ابن الله، وقولهم: يد الله مغולה، وغير ذلك.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ . أى ولهم عذاب مهين مثل جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

٩١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ امْكُفُوا بَمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا . أى وإذا دعوا إلى الإيمان والتصدق بما أنزل الله على نبيه محمد أنكروا وعارضوا وقالوا مستكبرين: إنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل على أنبيائهم، زاعمين أنه لا حق إلا عندهم يريدون بذلك أن يتحكموا فى وحى الله وفضله.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقا لها، وهو الحق الذى لا شك فيه، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل. ثم إن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما فى كتابهم هو كفر بكتابهم نفسه.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا: نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا . قل لهم: إن كنتم حقاً مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلاى شيء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم.

إن قتلهم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا، لا بما أنزل عليكم ولا بغيره، وأنكم كاذبون فى مدعائكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تتفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر عن عاقل فتقول له: إن كنت عاقلاً فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء على قوله تعالى: فَلِمَ تَقْتُلُونَ . واقعة فى جواب شرط محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله تعالى. وقد نسب القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم، لبيان وحدة الأمة وتكاملها، وأنها فى الطبائع والأخلاق المشتركة كالشخص والواحد، فما يصيبها من حسنة أو سيئة، فإنما مصدره الأخلاق الغالبة عليها فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين. إما بالعمل بها، وإما بترك الإنكار لها، (وللإشعار بأن الخلف يمشون على عمية السلف فى التمدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للمهد النبوى قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله تعالى عصمه منهم ونجاه من مكرمهم).

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: أَنْبِيَاءُ اللَّهِ . للتبنيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فضاء عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلهم بالتصديق والتوقير والمطاعة.

★ ★ ★

عصيان ومخالفة

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ يَمْوُتُ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَكَّمُ يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات:

البيّنات : جمع بينة وهي الآيات الدالة على صدقه، وحقيقة نبوته، كالتقلاب العصا حية، وقلق البحر، وانفجار العيون من الحجر.

العجل : هو ما صنعه لهم السامري من الحلي تمثالا على صورة العجل.

الطور : هو الجبل المعروف في شبه جزيرة سيناء.

واشربوا في قلوبهم : أشرب قلبه كذا أى حل محل الشراب، كان الشيء يساغ فهو يسرى في قلب المحب ويمارجه كما يسرى الشراب العذب البارد في اللهاة، وحقيقة أشربه كذا: جملة شارباً له.

التفسير:

٩٢ - وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . أى ولقد أرسلنا إليكم موسى بالآيات الواضحة، والأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته، فخالفتكم ذلك وعصيتكم أمره، وعبدتم عجل السامري من بعد ذلك، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه اللائق به، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله تعالى. وعبدتم العجل الذي لا يملك ضميراً ولا نفعا (٢٢١).

والتعبير بالجملة الاسمية: وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ . فيه دلالة على ثبات الظلم واستقراره فيهم، وأنه شأن من شئونهم، ولقد سبق التبكيت باتخاذهم العجل في قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ يَمْوُتُ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَكَّمُ يَا مُرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ . (البقرة: ٥١) وأعيد هنا بعبارة أخرى في سياق آخر، وهو أن الآيات البيّنات الدالة على النبوة والوحدانية. مثل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وقلق البحر وتظليلهم بالغمام

والمن والسلوى والحجر. هذه الآيات لم تزدهم إلا إيفالا في الشرك وانهماكاً في الوثنية. ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ: أى ثم اتخذتم العجل من بعد مجئ موسى بالبينات على رسالته. وصعده ما دعاكم إليه من توحيد الله بالعبادة.

والتعبير بقوله: مِنْ بَعْدِهِ . يفيد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة قامت الحجة عليهم.

والآية الكريمة فيها إبطال دعواهم بما أنزل عليهم لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً بنبيهم الذى جاء بالبينات لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

وقال ابن كثير:

مِنْ بَعْدِهِ . أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمنجاة الله كما قال تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ. (الأعراف: ١٤٨)

٩٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا ، وادكروا يا بنى إسرائيل، إذ أخذنا الميثاق المؤكد عليكم بأن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعملوا بشرعه، وكان أخذ الميثاق عليكم في موقف كله رهبة وخشوع وبيان لقدرة الله على عقاب من لم يمتثل إذ رفع فوقكم جبل الطور كأنه ظلة تظلكم، وظننتم أنه سيقع عليكم، وطلب منكم حينئذ أن تأخذوا ما آتاكم من الشرع بقوة: بأن تسمعوا سماع تدبر، وفهم وقبول وتعملوا بما جاءكم فيه من التكاليف بحزم وعزم، ولكنكم لم تلبثوا أن نقضتم العهد بمجرد أن زال عنكم هذا الموقف.

ومعنى قوله تعالى: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا . أى قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به من التوراة بجهد واجتهاد واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهيم، ثم حكى سبحانه جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال: قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .

أى كانت حالهم فى المخالفة مثل حال من قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك. وقال الزمخشري فى الكشاف:

(فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطلاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة) (٣٣٣).

وقد اختلف المفسرون: هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً أو أنهم فعلوا فعلاً مقام القول فيكون مجازاً؟

قال الضحار الرازى: (الأكثر من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة)

وقال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فغير عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى: فَقَالَ لَهَا رَبُّهَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (هصلت: ١١) قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز (٣٣٣).

وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . واختلط حب عبادة العجل بقلوبهم، تقليداً لسادتهم من الفراعنة: الذين كانوا يعبدونه ويقدمونهم، ولم ينتفعوا بتحرير الله لهم من ذل العبودية والقتل، حيث شق البحر لهم ونجاهم.

ولهذا انتهزوا فرصة ذهاب موسى - عليه السلام - لتلقى ألواح التوراة: فأرضوا حبهم لمبودهم القديم، وعبدوا صنما على شكل العجل، صنعه لهم موسى السامري من حليهم^(٢٢٤).

وفي تفسير ابن كثير: وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص إلى قلوبهم، وروى أحمد عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « حبك الشيء يعنى ويصم » ورواه أبو داود^(٢٢٥).

قُلْ بَشِّرْ سَمْعًا بِأَمْرِكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قل لهم يا محمد: بش الذي يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التي تقتضيها، عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق، وقولكم: سَمْعًا وَعَصِيًا. وإضافة الإيمان إليهم في قولهم: إِيْمَانُكُمْ . للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فإنه قدح في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لهذه الدعوى، وتقرير الإبطال: إِنْ كُنْتُمْ - فيما اقتصروا منه من الشرك والمعاصي - مؤمنين بها، عاملين بما فيها كما ادعيتهم، فبئسما يأمركم به إيمانكم المزعوم بها، إذ إن الإيمان الصادق بها لا يأمركم بما اقتصروا منه من الشرك والمعاصي، فليس فيها إباحة شيء من ذلك، وهذا برهان على عدم إيمانكم بها.

قال الطبري: قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم، إنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله وتأمّر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به، إنما ذلك نقى من الله تعالى عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل شأنه - أن الذي يأمر بذلك أهواؤهم، والذي يحملهم عليه البنى والبغى^(٢٢٦).

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ألوانا من الإعجاز البياني والنفسى تتطوى عليها الآيات السابقة في حجاج اليهود.

هفي تفسير الآية (٩١) من سورة البقرة: وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نؤمنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَكَفَرُونَ بِمَا رَأَوْهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . . .

قال الأستاذ دراز: هذه الآية قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تلخص فيما يلي:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تتطوى على مقصدين.

٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه. وفي ختام الآية ٩١: **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .**

يقول الأستاذ دراز:

لقد استوى القرآن إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبيحوا بإعلانه، فأوسعهم تكتيياً وتقنيداً، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه في قلوبهم. ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفضلة التي لا سبيل إلى إنكارها، في جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه وتمردهم على أوامره.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . تأمل كيف أن هذا انتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين كتابهم نفسه، وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصداقاً لك؟

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلاة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراء لا يزيد على أن يقول في الأمر: إن هذا (ظلم) وفي الثانية (بشما) صنعتم، أذلك ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان واهيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام.

بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراء في كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

لله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجنب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر (٢٣٧).

حرصهم على الحياة

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمَنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات:

خالصة : سائلة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

التمنى : هو الرغبة القوية فى الشيء.

يعمر : يطول عمره.

بمزحزحه : يبعده من العذاب.

البصير : العالم بكله الشيء الخبير به.

المعنى الإجمالى:

قل يا محمد لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم، وسائلة لكم دون غيركم وليس لأحد سواكم حق فيها، فليكن الموت محبباً إليكم ولتتمنوه حتى لا يبطئ عنكم هذا النعيم الذى تدعونه.

ولكنهم فى الواقع لا يرغبون فى الموت أبداً لما اقترفوه من ظلم لا يخفى أمره على الله، والله عليم بظلمهم ويكذبهم فيما يدعون.

بل إنك لتجدنهم أحرص الناس جميعاً على حياتهم على أى شكل عزيزة أو ذليلة، وحرصهم أكثر من حرص المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولاجنة، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ولن يبعد عنه تمميره مهما طال ما ينتظر من عذاب الله، والله عليم بأعمالهم محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

التفسير:

٩٤ - قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . لقد

ادعى اليهود دعاوى كثيرة، ادعوا الإيمان بما أنزل عليهم، فبينت الآيات السابقة كذب ادعائهم، بعبادتهم العجل، واقتراضهم كبائر الإثم.

وادعوا: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهي خالصة لهم دون غيرهم، فأبطل الله دعواهم بهذه الآية.

والعنى: قل لهم يا محمد: إن كانت لكم جنة الآخرة عند الله، وفي حكمه وكتابه خالصة لكم، وخاصة بكم من دون الناس جميعًا كما زعمتم: إذ قلتم لن يدخلها إلا من كان هودًا، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص لكم، والخاص بكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، فإن النفس تستعجل خيرها.

قال الإمام الرازى: وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قتلها كانت منقصة عليهم بسبب ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنازعتهم معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنقصة، ثم يتيقن أنه بعد الموت لا بد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لا بد أن يكون راغبًا فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة، ولا سبيل إليها إلا الموت، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب، وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة، لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت.

ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا، بل لن يتمنوا أبدًا، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائهم فى قولهم: إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس (٢٣٨).

٩٥ - وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . أى: لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله عز وجل لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه.

واختار ابن كثير فى تفسيره أن المراد من الآيتين الدعاء بالموت على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المبالغة.

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن ذلك يكون عن طريقة المبالغة بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منها.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه» (٢٣٩). وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا ومالا» رواه الإمام أحمد (٢٤٠).

وعلق ابن كثير على الكلام السابق بقوله:

وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب: منهم أو من المسلمين على وجه المبالغة، نقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس، نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْلَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ زَعَمْتُمْ (٧) قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) . (الجمعة ٦-٨)

فهم عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جاذمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** . (آل عمران : ٦١)

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: **قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا** . أى من كان فى الضلالة منا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه . (٣٢١).

وقد انتصر ابن كثير لرأى ابن عباس وبين أنه هو المتعين فى تفسير الآية . وهاجم رأى جمهور المفسرين الذى قالوا معنى . **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** . أى فى دعواكم فتمنوا الموت الآن، لم يتعرض هؤلاء للمباهلة .

وقد انتصر بعض المفسرين المحدثين لرأى الجمهور ورجحه لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضا إلى معناها (٣٢٢).

وأرى أن كلا التفسيرين محتلمان فى فهم الآية ولا حاجة بنا إلى إبطال أحدهما ولا يمنع أن يفهم منها المعنى الآخر، ومن أسرار الإعجاز القرآنى، أن الآية تقيد معنى وتشير إلى معنى وتستتبع معنى .

وهى فى ذاتها قطعة من الأدب الرفيع على السبك المحكم أو الرد المفحم أو الحجة البالغة .

ولعل من المعانى التى تشير إليها الآية أن المؤمن لا يهاب الموت ولا يهرب الردى ثقة منه بأن أجله محدود، ووزقه مقسوم، والموت رحلة إلى الآخرة، يشاهد فيها المؤمن ما أعد للأبرار، ويقدم على العزيز القفار، مطمئناً راضياً مرضياً .

وقد روى عن كثير من الصعابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال، معبرين بألسنتهم عما يجول فى صدورهم، من صدق الإيمان بما أعد للمؤمنين من الدار الآخرة، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يا حبيذا الجنة واقترابها طيبة ويارد شرابها

وأن عمار بن ياسر قال فى حرب صفين:

غدا نلقى الأحببه محمداً وصحبه

ويقول الشاعر:

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه

فحب الجبان النفس أوردته التقى

حريصاً عليها مستهاماً بها صبا

وحب الشجاع النفس أوردته الحرى

٩٦ - وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوْذُ أَحَدَهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ . إى أنهم يحبون الإخلاق إلى الأرض، ويعملون كل ما يوصلهم إلى البقاء فيها . فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون، وتلك سيرتهم فى كل زمان، وإن كان الكلام مع من كان فى عصر التنزيل .

وهكذا نجد القرآن الكريم يرسل من الحجاج، فيشأغبون ويعاندون، اعتزازا بشعبهم، واعتزازا بكتابهم .

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . أى وهم أشد حرصًا على الحياة من الذين أشركوا، ولم يؤمنوا بالله، ولا باليوم الآخر، وفى هذا توبيخ وإيلاء عظيم لهم، إذ المشركون لا يؤمنون ببعث، ولا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، فحرصهم عليها ليس بالغريب، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها .

وقوله : وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . معطوف على ما قبله بحسب المعنى، كانه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا، فقوله : أَحْرَصَ النَّاسِ فِيهِ كَلِمَةٌ (من) مقدرة بعد أحرص .

قال صاحب الكشف: وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بماقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقاً بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلت: إنهم علموا أنهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك، وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس لأنهم كانوا يقولون للموهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان (٣٣٣) .

يُوْذُ أَحَدَهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ . أى بلغ من شدة غلوهم فى الحرص على الحياة، أن الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة، ولو تجاوزت الحد الذى يبلغه الإنسان فى المادة، فكلمة (ألف سنة) كناية عن المدة الطويلة التى يود أن يحيها، وليس المراد خصوص العدد، لأن العرب تذكر الألف وتريد الكثرة .

وَمَا هُوَ بِمَرْحُومٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ . وما ذلك التعمير لو تم، بنافعه ولا مبعده من عذاب الله المحتوم، لأنه لا بد من الموت والعرض على الله، ليجازى على ما قدم فى دنياه .

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . أى والله عالم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون .

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود زعمهم الباطل بأن الجنة خالصة لهم، فأبطلت حججهم وكشفت مزاعمهم، وأخرست السننهم، وبينت أن الجنة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس، ولذلك حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، بسبب ما ارتكبوا من سيئات وما اقترفوا من أثام (٣٣٤) .

عداوة جبريل

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

المضردات:

ضد الصديق، يطلق على الواحد والمثنى والجمع المذكور والمؤنث.

العدو

أمين الوحي بين الله تعالى ورسله، وهو روح القدس.

جبريل

مصدق لما بين يديه : أى مؤيداً ما تقدمه من الكتب السماوية التى نزلت على من سبق نبينا من الرسل.

المراد بها آيات القرآن.

آيات

وأضحة الدلالة على معانيها.

بينات

الخارجون عن الحق إلى الباطل والفساد.

الفاسيقون :

طرحه وإلقاءه، من النبذ، وهو إلقاء الشيء وطرحه لعدم الاعتداد به.

نبذته

المعنى الإجمالى:

ذكر الله في آيات سابقة معاذير لليهود اعتذروا بها عن عدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم وقولهم إنهم ناجون حتما في الآخرة.

وفى هذه الآيات ذكر تلة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم فتدها كما فتد ما قبلها، تلك هى قولهم إن جبريل الذى ينزل على محمد الوحي عدوهم فلا يؤمنون بها يجرى به منه.

قد بين القرآن أن جبريل لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه إنما بأمر الله مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية، مصدقاً لكتابتهم نفسه، وليكون هداية وبشارة للمؤمنين.

فمن كان عدوا لجبريل أو ميكائيل أو لآى ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به الله، فإنه يكون عدوا لله وكافراً به. والله عدو للكافرين. وما ينزل جبريل على النبى إلا بآيات بينات لا يسع طالب الحق إلا الإيمان بها، وما يكفر بمثلها إلا المعاندون الخارجون من سنة القطرة . وكما

تذبذبوا في العقيدة والإيمان تذبذبوا كذلك فيما يبرمونه من **يهود**. فكانوا كلما عاهدوا المسلمين وغيرهم عهدا. نبذه فريق منهم لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

التفسير:

٩٧ - قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

قال الإمام ابن جرير الطبري: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا، على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وميكائيل ولي لهم) (٣٣٥).

ومن قبائح اليهود قولهم في جبريل - عليه السلام - هو عدونا، وأرادوا من هذا القول: أنهم لا يؤمنون بوحى يجىء به عدوهم فهم لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل هو الذى ينزل عليه بالوحى.

فهم يثبتون أن جبريل ملك مرسل من عند الله ومع ذلك يبغيضونه وهذا أحط درجات الانتحاط في العقل والعقيدة.

قال ابن كثير في معنى الآية: أى من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل.

وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه (٣٣٦)، كما قال: وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا. (مريم: ٦٤)

وقال تعالى: وَإِنَّهُ لَنَزَّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء: ١٩٢-١٩٤).

وقد نزل القرآن على قلب النبي الأمين مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية وهدى لقلوب المؤمنين وبشارة لهم بالجنة.

وقد ورد في البخارى وفي مسند الإمام أحمد وفي مسند الترمذى والنسائى روايات متعددة تقيد أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه بالوحى؟ فقال: جبريل، فقالوا ذاك عدونا، عادانا مرارا (٣٣٧).

وقيل: دخل عمر رضى الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمداً على أمورنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام. فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة. فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدواً لأحدهما فهو عدواً لله. ثم رجع عمر وتوجه نحو النبي صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ. (الآيات) (٣٣٨).

٩٨ - مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ . أى من كان عدوا لله بمخالفته أمره عنادا، والخروج عن طاعته مكابرة، وعدوا للملائكة برفضه الحق الذى جاءوا به من عنده تعالى لرسله، وعدوا لرسله بتكذيبهم وعدوا لجبريل وميكائيل خاصة، من كان عدوا لهؤلاء، وعداوتهم كفر، عاداه الله فإن الله عدو للكافرين، ومن عاداه باء بالعذاب المهين.

قال ابن كثير:

(يقول تعالى: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ) (ورسله) ليشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى اللَّهُ يَمْصُفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ . وجبريل وميكال - وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكال فى اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم فأعلمهم أنه من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا، لأنه أيضا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهو وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ بالبعث يوم القيامة (٢٣٩) ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم (٢٤٠). وميكال هو ميكائيل، وجبريل هو جبرائيل.

قال البيضاوى (وفى جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع فى المشهور وأربع فى الشواذ) (٢٤١).

عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن. قيل جبر: عبد، إيل: الله.

٩٩ - وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ .

نقد أنزلنا إليك القرآن حججا على نبوتك وعلامات واضحات عليها .

قال ابن كثير:

(وتلك الآيات هى ما حكاه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكتونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنا عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماءهم وما حرفة أوائلهم وأواخرهم ويدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله عليها نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صعيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات) (٢٤٢).

قال تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

وما يكفر بها إلا الفاسقون . أى ولا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدود الإيمان.

قال الحسن: إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي، وقع على أعظم أفراده من كفر أو غيره، ومن أشد هؤلاء الفاسقين فسقاً: اليهود إذ إنهم كفروا بالآيات البينات مع تأكدهم من صدق من جاء بها عناداً لمن ظهر الحق على يديه وحسداً له، فإنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

١٠٠ - أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . والاستفهام في: أَوْ كَلِمَاتٍ . للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم . والواو للمطف على مقدر يستدعيه المقام والتقدير: أكفروا بهذه الآيات وكلماء عاهدوا عهداً نبذوه فريق منهم . كَلِمَاتٍ . لإفادة تكرارهم لنبذ العهد .

قال الزمخشري: واليهود موسومون بالفدر وتقض العهد وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فتنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يقوا .

قال تعالى: الَّذِينَ عَاهَدُوا مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . (الأنفال: ٥٦)

★ ★ ★

السحر

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدْءَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات:

: تخبر وتحدث أو تقول .

تتلوا

على ملك سليمان : على عهد ملكه وفي زمانه.

السحر : إخراج الباطل في صورة الحق، وهو في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح الحاء فيهما، والسحر لغة كل ما لطف مأخذُه وخفى سببه، وسحره: خدعه، وجاء في كلامهم: عين ساحرة وعيون سواحر وفي الحديث « إن من البيان لسحرا » (٢٤٣).

والمراد هنا : أمر غريب يشبه الخارق المعجز وليس بالخارق إذ يجري فيه التعلم، كالذي حصل من سحرة فرعون، حيث أظهروا لموسى حبالهم وعصيانهم أنها تسعى.

ببابل : بلدة قديمة، كانت بالعراق ينسب إليها السحر.

هاروت وماروت : اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما علم السحر.

فتنة : ابتلاء واختبار.

اشتره : استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله.

خلاق : نصيب في الخير.

مثنوية : لأجر وثواب.

المعنى الإجمالي:

بين الله في هذه الآيات علة ما يصدر عن اليهود من جحود وعناد، ومعادة للنبي صلى الله عليه وسلم.

فقد جاءهم محمد برسالة سماوية تصدق ما معهم من التوراة وتطابق أوصاف ما في أسفارهم.

ولكن فريقاً منهم نبذ ما ذكر في التوراة عن رسالة محمد كانه لم يرد فيها ولم يعلموا شيئاً عنه.

ولقد صدقوا ما تتقوله شياطينهم وفجرتهم على ملك سليمان، إذ زعموا أن سليمان لم يكن نبياً ولا رسولاً ينزل عليه الوحي من الله بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحره، وأن سحره هذا هو الذي وطد له الملك وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح فتسبوا ذلك الكفر لسليمان وما كفر سليمان ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا، إذ تقولوا عليه هذه الأقاويل، وأخذوا يعلمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت مع أن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحداً حتى يقول له إنما تعلمك ما يؤدي إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذر، وتوق العمل به، ولكن الناس لم ينتصحو بهذه النصيحة، فاستخدموا مما تعلموه منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه. نعم كفر هؤلاء الشياطين الفجرة إذ تقولوا هذه الأقاويل من أقاويلهم وأساطيرهم ذريعة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء، وإن ما يؤخذ عنهم من سحر ليضر من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيد شيئاً، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم.

ولو أنهم آمنوا بالإيمان الحق وخافوا مقام ربهم لأتابهم الله ثواباً حسناً، ولكن ذلك الثواب خيراً لهم من كل ما يتوهمون من المنافع لو كانوا يميزون النافع من الضار.

التفسير:

١٠١ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بأنه جاءهم من عند الله فيه تعظيم له، فإن عظمة المرسل تقتضى عظمة رسوله، وفيه مع ذلك مهالفة فى استنكار كفرهم .

أى ولما جاءهم رسول عظيم من عند الله مصدق لما معهم من التوراة من حيث إنه جاء على الوصف الذى وصفته التوراة لخاتم الرسل . كما أن كتابه الذى جاء به موافق لما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين والأخلاق وأخبار الأمم .

نبد فريق من اليهود كتاب الله وهو التوراة التى بشرت بالنبى وأهملوها إهمالا تاما كأنهم لا يعلمون أنها من عند الله أو أن محمداً رسول الله .

والواقع أنهم يعلمون ذلك علما يقينا ولكنهم نكثوه مكابرة وعناداً وجريا على سنتهم فى نبذ اليهود، فإنه قد أخذ عليهم فى التوراة أنه إذا جاءهم هذا الرسول المنبوت، يؤمنون به وينصرونه، فنقضوا هذا العهد بكفرهم به .

وقوله تعالى: وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . كناية عن إعراضهم الشديد عنه وتوليهم عن تعاليمه .

جاء فى تفسير المنار:

ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم، أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتقصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ويبين صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه، فهو تشبيه تركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشئ وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوعى من النفس ويجرى على ترك الباقي^(٢١٤) .

هل السحر حقيقة أم خداع؟

السحر نوع من الابتلاء والاختبار، أو نوع من البلاء الذى يتعرض له الناس فى هذه الدنيا .

«السحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء، والسحر يؤثر مرضاً وثقلاً وعقداً وحجاً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار الموجودة والتى تعرفها عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به»^(٢١٥) .

رأى الإمام محمد عبده فى السحر:

يذهب الأستاذ الإمام إلى أن السحر تخيل للأعين وخداع للناظرين، ونستطيع أن نوجز آراءه فى السحر فيما يلى:

١ - السحر ليس جزءاً من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الإنسانية، متروك إلى بعوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحاتهم لحقائقه .

٢ - جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شئئين:

(أ) إما حيلة وشعوذة.

(ب) وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الكثيرون فيسمون العمل بها سحرًا لخفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير نفس فى نفس أخرى.

٣ - السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة، ولذلك قال سبحانه : **يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخيل أنها تسعى.

٤ - اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد ألدهماء أنهم يستجيبون له ويلقى ذلك فى روعهم ، وهذا الوهم يمنع صنع السحر ولا يستطيع الساحر أن يؤثر إلا فى شخص عزيمته هباءً ونفسه هواءً وعنده قابلية لتأثير غيره فيه، فينتهز ذلك الساحر ليوهمه بما يشاء^(٢٤٦).

مذهب الأشعرية:

مذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرًا حقيقيًا وليس كله حيلًا ومنه أنه أثر فى جسم النبى صلى الله عليه وسلم وخياله دون عقله وروحه فكان يخيّل إليه أنه أتى نساء ولم يكن آتاهن ولم يتجاوز هذا الحد^(٢٤٧).

تأمل فى الموضوع:

والتأمل فى موضوع السحر يرى أن بعضه خداع وخفة حركة وبراعة وحيلة وذكاء وتقرس.

وبعضه حقيقة نسلم بها كنوع من البلاء الذى يصيب الناس فى هذه الدنيا. قال تعالى : **وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسُوا وَلَئِنَّا تَرْجِعُونَ**.

وفى التراث الإسلامى والهدى النبوى ما يفيد أن هناك غدة أشياء تحمى الإنسان من السحر والحسد والشياطين منها ما يأتى:

١ - قراءة آية الكرسى.

٢ - قراءة: **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** . والمعوذتين.

٣ - قراءة خواتيم سورة البقرة من قوله تعالى: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ...**

٤ - إخراج صدقة.

٥ - قراءة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير) عشر مرات بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

٦ - قراءة: (باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وفى الأثر: من أعجبه شئ من أهل أو مال أو ولد فقال باسم الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروها.

٧ - الاعتقاد الجازم واليقين الصادق بأن الله هو النافع وهو الضار وهو المانع وهو الكافي وإن أحداً لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله. وهذا العنصر الأخير هو أهم شيء في الموضوع وهو الصخرة العاتية التي تتكسر عليها آثار كل حسد أو سحر أو شر.

آية السحر

١٠٢ - وَأَتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة، التي أفاقت أن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه ثم عطف هنا على هذه الجريمة - وهى نبذهم لكتاب الله - جريمة أخرى هى اتباعهم الشياطين بمزاولة السحر بدل كتاب الله.

والمعنى أن اليهود لما جاءهم الرسول بالقرآن نبذوه أو نبذوا التوراة التى بشرت به، واشتغلوا بالسحر. والمراد مما تتلوه الشياطين: أى المتمردون من الإنس والجن. وقد كانت الشياطين فى عهد سليمان تلقى كهان اليهود وتتلو عليهم قواعد السحر وتخبرهم كذبا: أن ملك سليمان وسلطانته على الإنس والجن، والطير والريح، لم يقم إلا على تلك القواعد، فكانوا يدونونها عن الجن فى كتب لديهم: توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت إلى اليهود فى المدينة فكانوا يشتغلون بها قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم، ولما بعث رفضوا كتاب الله وفضلوا عليه الاستمرار فى السحر.

وقد زعموا أن سليمان جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه، ثم استخرجها، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذباً وبهتاناً.

قال الزمخشري وقوله تعالى: عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ. أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها إلى الكهنة، وقد دوتوها فى كتاب يقرؤونها ويعلمونها للناس، وهذا ذلك فى زمان سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسحر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره (٢٤٨).

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ. تنزيه لسليمان عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زوراً وبهتاناً (٢٤٨).

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى صلى الله عليه وسلم سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح.

وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا. أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إلى سليمان ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا.

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . أى أن الشياطين يعلمون الناس السحر إغواء وإضلالاً . والجملة حال من الضمير ، والمراد من السحر ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشراوة وخبت النفس فإن التناسب شرط في التضامن والتعاون .

وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي .

وأما ما يتعجب فيه كما يفعله أصحاب الحيل بمعوقة الآلات أو الأدوية ، أو يصنعه صاحب خفة اليد فقير مذموم وتسميته سحراً من التجوز أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفى سببه (٢٥٠) .

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . أى اتبع اليهود ما كانت تقرؤه الشياطين على الكهنة من أبواب السحر من عهد سليمان .

واتبعوا أيضاً ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل .

(هاروت وماروت ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزاً بينه وبين المعجزة . وما روى أنهما مثلاً بشرين وركب فيهما الشهوة فتمعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصي والشرك ثم صعدتا إلى السماء بما تعلمتا منهما فمحكى عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفى على ذوى البصائر . وقيل رجلان سميّا ملكين باعتبار صلاحهما) (٢٥١) .

والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين للملائكة ، وإلقاؤه في قلوبهما وتعليمهما إياه .

فلما علمان الناس السحر لكى يتخلصوا بتعلمه من سيطرة السحرة من الصابئة ويتقوا شرورهم وكانا يمزجان التعليم بالتحذير: وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . أى ما يعلمان أحداً حتى ينصحا ويقولوا له إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان فلا تكفر ، باعتبار جواز العمل به .

أو يقولان: إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا (٢٥٢) .

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية:

أراد الله أن يبتلى به الناس فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر .

وأما (الفتنة) فهي: المحنة والاختبار (٢٥٣) .

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا مَا يَصْرِفُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة ، ما أنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، واختص الإفساد بين الزوجين بالذكر لأنه من الصور التي تظهر فيها مفسدة للسحر بأشد ما تكون ، فهذا أثر إبرازها ، ليعلم الناس منها مدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالمجتمع ، فإن إفساد الأسرة إفساد للمجتمع ، لما فيه من تشريد الأولاد الذين هم أساسه .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقره ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت» (٢٥٤).

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر، ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو بغض أو شك أو اتهام أو نحو ذلك.

والمرء عبارة عن الرجل وتأتيه امرأة ويثني كل منهما ولا يجعلان (٢٥٥).

وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. أي ما يضر السحرة بهذا أحداً كائن من كان إلا بعلم الله وإرادته، فهم إذن لا يستطيعون أن يعدّوا بسحرهم ضرراً دون إرادة الله.

قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، قال محمد بن إسحاق: إلا بتخليّة الله بينه وبين ما أراد.

وَيَعْلَمُونَ مَا يَظُرُهُمْ وَلَا يَفْقَهُهُمْ. من قيل أنه سبب في إضرار الناس، هذا مما يعاقب الله عليه من عرف بإيذاء الناس أيقضوه واجتنبوه ولا تقع لهم فيه، فإننا نرى منتهى هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم، وذلك حالهم في الدنيا، فما بالك بهم في الآخرة يوم يجزي كل عامل بما عمل.

وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ. ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر أن من استبدل السحر بكتاب الله وآثره على شرعه سبحانه، ليس له أي حظ من الجنة ولا أي نصيب من الخير يوم القيامة؛ لأنه لم يكن له إيمان ولا عمل صالح يكافئ عليه، الضمير في. عَلِمُوا. يعود إلى أولئك اليهود الذين تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

وهي تفيد أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، إنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. شَرَوْا: أي باعوا، وهي من الأضداد فتأتي بمعنى البيع والشراء.

بيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة ونعيمها.

المعنى: وليس هذا الذي باعوا به حظ أنفسهم من الخير، هو تعلم السحر والعمل به، لو كان عندهم علم وعقل لأدركوا أن هذا السحر ضار مقصد للنفس والعقل والناس، ولا تمتنعوا عن تعلمه والعمل به. قال ابن كثير: ليس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان فيهم علم بما وعظوا.

١٠٣ - وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُرُهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. أي لو أن أولئك اليهود التائبين لكتاب الله المتبعين للأوامر والأبواب، آمنوا بجمهم (صلى الله عليه وسلم) أو بالتوراة إيماناً حقاً، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر، كانت لهم مثوبة من عند الله، هي خير لهم من السحر، ولو كانوا من أولى العلم الذين

ينتفعون بما يعلمون، لم يفعلوا ذلك، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فكفروا وعصوا، فكانوا من الخاسرين .. وقريب منه ما ورد في قصة قارون من قوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ رَبِّكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ. (القصص: ٨٠)

الترهيب من السحر:

في الآية السابقة دليل على أن من يستخدم السحر ويؤمن به يكون من الكافرين، لأن قوله تعالى: وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ. حجة على أن السحر: ضرب من ضروب الكفر. وقد أطلق القول بكفر من يزاوله العلامة التفتازاني.

قال ابن كثير: (وقد يستبدل بقوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَوْا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف) (٢٥٦).

لكن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن إطلاق القول بأن السحر كفر خطأ وأنه يجب التفصيل فيه، فإن كان فيه رد ما لزم من شروط الإيمان فهو كفر وإلا فلا.

وعلى هذا فالمراد من السحر الذي هو كفر ما كان بالتقرب إلى الشيطان بالسجود له أو لصنم أو غيره، أو بالرقى بمبارات فيها شرك بالله تعالى، أو نحو ذلك مما يتنافى أصول العقيدة الإسلامية، كاعتقاد الساحر أن ما يستعين به في سحر مثل الجن والنجوم - لها قدرة على النفع والضرر (٢٥٧).

وعقاب السحر الذي هو كفر: قتل الذكور وحبس الإناث وضرهين ما لم تقع منهم توبة.

وأما ما ليس بكفر، وفيه إهلاك نفس، ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه الذكور والإناث، وتقبل توبة صاحبه إذا تاب، هذا رأى بعض الفقهاء.

والمشهور عن أبي حنيفة - رضى الله عنه - أن الساحر يقتل مطلقاً إذا علم أنه ساحر، سواء أكان ذكراً أم أنثى وتقبل توبته إذا تاب.

ومذهب مالك - رضى الله عنه - كما نقله القرطبي: أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفراً فإنه يقتل، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته.

(وقد روى الشافعى وأحمد بن حنبل عن بجاللة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً (٢٥٨). وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرته جارية لها فأمرت بها فقتلت (٢٥٩)، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قتل الساحر (٣٦٠).

طريقة فك السحر:

حكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر (٣٦١) فتدق بين حجرين، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بياقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد

للرجل الذى يؤخذ عن امرأته، قال ابن كثير: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان .

وفى الحديث: « لم يتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان (٢٦٢).

حديث شريف:

قال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والسحر، وأكل مال اليتيم (٢٦٣).

★ ★ ★

أدب الخطاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات:

راعنا : أى انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك، وأصله من المراجعة، فى الرعى. وهو الحفظ، والتدبير وتدارك المصالح.

انظرونا : انتظرنا وتأن بنا وأمهلنا .

المودة : محبة الشيء وتمنى حصوله.

تمهيد:

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين فى شأن له اتصال باليهود وبه انتقل من الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم وبين المؤمنين والنصارى.

١٠٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كان المسلمون إذا تلقى الرسول عليهم شيئاً من العلم يقولون راعنا يا رسول الله يريدون منها: انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه.

فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم هى كلمة (راعينو) العبرية التى معناها شرير.

وكان سعد بن عباد يعرف لغتهم فلما سمعهم يقولون ذلك قال لهم: عليكم لعنة الله لئن سمعتمنا من رجل منكم يقولها للنبي صلى الله عليه وسلم لأضرين عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها.

هأنزل الله الآية نهياً للمؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه اللفظة: قطعاً لألسنة اليهود، حتى لا يتخذونها ذريعة لسب النبي صلى الله عليه وسلم، وإذائه والاستهزاء به.

وامرهم أن يقولوا بدلا منها . انظروا . أى انتظروا وتأن بنا حتى نحفظ ونفهم ما تقول، فإنها تؤدي المعنى الذى يقصدونه بقولهم . راعياً . ولا يمكن لليهود أن يحرفوها إلى سبه - عليه السلام - والاستهزاء به .

وَأَسْمِعُوا . واحسنوا الاستماع فى قبول وامتنال مع وصى قلبى، حتى تحفظوا ما يلقيه عليكم ولا يفوتكم منه شئ.

وَالْكَافِرِينَ عَذَابُ أَلِيمٌ ، وأن الله ليدخر عذاباً أليماً يوم القيامة لهؤلاء المستهزئين بالرسول .

وقال ابن كثير: نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التتقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: أسمع لنا، يقولون (راعنا) ويورون بالرعونة كما قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ سَمِعٍ وَرَاعِنَا لُبًّا بِالْأَسْبِيهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا • (النساء : ٤٦)

قال ابن جرير الطبرى: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها نبيه صلى الله عليه وسلم (٣٦٤).

١٠٥ - مَا يَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكَ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . لا يجب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون: أن ينزل الله عليهم- أيها المؤمنون - شيئاً من الخير وذلك لعداوتهم وحسدهم لكم، فهم لا يحبون لكم الخير.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحي الصادق والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

وكذلك المشركون: كانوا يرون فى تنابع نزول القرآن، قوة للإسلام وتثبيتاً لدعائمه وأركانها، وهم يكرهون ذلك ويودون أن تدور الدائرة على المسلمين. ويستكبرون أن يكون نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم. وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أ هم يقسمون رحمت ربك . (الزخرف: ٣١-٣٢)

والنبوة فضل الله تعالى يهبها من يشاء من عباده ولا ينبغي لإنسان أن يعترض على فضله سبحانه.

قال صاحب الجوهرة:

ولم تكن نبوة مكتسبة به
بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن
يشاء جل الله وأهب المن

فأله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه يصطفى للنبوة من يشاء من عباده. الله يصطفى من
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ. (الحج : ٧٥)

وبذلك تكون الآية قد نبهت إلى أن الفضل والنبوة بيد الله، وهو الحكيم في تصرفه والعليم بما ينفع
الناس، كما أنها حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم، بأن ما يبيتونه لهم لن
يضرهم ما داموا معتمدين بكتاب ربهم وسنة نبيهم.

★ ★ ★

النسخ

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧ أَمْ تَرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ
وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَنَ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٠٨ ﴾

المفردات:

النسخ : في اللغة الإزالة، يقال نسخت الشمس الظل: أي أزالته.

الإنشاء

: إذهاب الآية من ذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه. (أو نسها) نبه لكم تركها
من نسي: بمعنى ترك، دخلت عليه الهمزة للتعدية، قال أبو علي وغيره من أئمة اللغة: هذا
متجه، لأنه بمعنى: نجعلك تتركها. وقرئ نساها - بفتح النون مهموزاً - من نساها إذا
أخره، أي تؤخر نزولها عليكم.

الولى

: من يلي أمرك أو يملكك كالولى.

النصير : المعين.

سبب النزول:

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم
عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، فقد أمر في حد الزنى بإيذاء الزانين باللسان، حيث

قال: (فَآذَوْهُمَا) ثم غيره وأمر بإسماكهن في البيوت حيث قال: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى تَتَوَقَّاهُنَّ الْمَوْتُ (النساء : ١٥) ثم غيره بقوله: فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . (التور : ٢) فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه يناقض بعضه بعضا، ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين ليثبطوا عزيمة من يريد الدخول فيه.

التفسير:

١٠٦ - مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أى شئ من الآيات والأحكام نهي عن التعبد به، أو نجعلكم تتركونه، نأتى بأفضل منه: مثوبة أو نفقا أو خفة على المكلفين، أو نأتى بمثله في ذلك، فإن تنزيل الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية، يكون وفقاً للحكم والمصالح، وذلك يختلف باختلاف الأحوال فرب حكم تقتضيه الحكمة في حال، وتقتضى نقيضه في حال أخرى. فلو لم يجز النسخ، لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام، وهذا الحكم غير مختص بالآية الواحدة كاملة، بل هو جار فيما فوقها وما دونها وتخصيصها بالذكر، باعتبار الغالب.

لقد كان هناك تدرج في تشريع الأحكام بما يتناسب مع كل مرحلة، فحين كان المسلمون في مكة قبل الهجرة ضعافاً في العدة والعدد أمرهم الله بالصبر والاحتمال، ولما هاجروا إلى المدينة وقامت دولتهم وقويت شوكتهم سمح الله لهم بالجهاد والقتال، وقال سبحانه:

أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ يَتَوَلَّوْا أَمْثِلْهُمْ وَأِنْ لَمْ يَجِدُوا لَكُمْ كَيْفَ يُقَاتِلُوا فَلا يَأْكُلْ أَمْوَالُكُمْ حَتَّى يَضْرِبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِعَدَّتِهِ كَبَدُوا فِي الْحَرْبِ وَالْجِدَارُ الَّذِي فِيهِ كَفَّتْ لِي وَالْأُتْرُوقُ وَالْأَنْفُسُ فَذَنْبِي وَأَكْبَرُ

رَبَّنَا اللَّهُ . (الحج : ٢٩ - ٤٠)

وقد قال بعض المفسرين إن هذا نسخ، أى نسخت آية القتال الأمر بالصبر والاحتمال - ولكن الزركشى في كتابه (البرهان في علوم القرآن) جعله من باب التدرج في التشريع.

فقد ناسب حال الضعف والقلّة الصبر والاحتمال كما ناسب حال القوة والكثرة، الدعوة للجهاد والقتال. فكلما كان المسلمون ضعافاً ناسبهم الصبر والمهادنة، وكلما كانوا أقوىاء ناسبهم الجهاد والمقاتلة.

وقال بعض المفسرين إن المراد من الآية الشريعة، والمراد من نسخها على هذا تغييرها بشريعة أخرى تاتى بعدها.

أى ما تغير شريعة من الشرائع المعلومة للناس كالنوراة والإنجيل والزبور أو جعلها منسية دارسة لا علم للناس بها، كالشرائع المجهولة لنا النازلة على بعض من قصهم الله علينا من الأنبياء، ومن لم يقصصهم علينا.

نأت بشريعة خير منها أو مثلها حسبما ينبغي لحال الأمة التى شرعت لها. ومن الباحثين من قال: المراد من الآية المعجزة، ونسخها تغييرها، ويكون معنى الآية: ولقد طلبوا منك يا محمد أن تأتيهم بالمعجزات التى جاءهم بها موسى وأنبياء بنى إسرائيل، وحسبنا أننا أيدناك بالقرآن، وأننا إذا تركنا تأييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنهى سابق أو أنسينا الناس أثر هذه المعجزة فإننا نأتى على يديه بخير منها أو مثلها فى الدلالة على صدقه فإله على كل شئ قدير.

ما هو النسخ:

النسخ فى اللغة الإزالة والإبطال، يقال نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وأبطلته.

والنسخ شرعاً: إزالة حكم شرعى سابق بخطاب ورد متأخراً عنه لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته بمقتضى النص الذى تقرر به أولاً.

وقد أنكرت النسخ طوائف من اليهود، زاعمين أن ذلك من البداء، وهو مستحيل على الله، وقد كذبوا، فإن النسخ هو النقل من حكم إلى حكم لضرب من المصلحة.

ولا خلاف بين العقلاء فى أن شرائع الرسل قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والأخروية.

وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه أولاً والعدول عنه كقولك لشخص امض إلى فلان ثم يبدو لك نقض الراى الأول فتقول لا تمض. على سبيل التناقض والتقلب فى الراى، وهذا محال على الله تعالى. لكمال علمه وحكمته.

ونسخ الحكم إما أن يكون بإيسر منه فى العمل كما نسخت عدة المتوفى عنه زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، وإما بمساو له كتسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة، وإما بأشق منه يكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين.

قال الأستاذ سيد قطب:

مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا نَأَتْ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا. سواء كانت المناسبة هى مناسبة تحويل القبلة، كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها، أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأمور والتشريعات والتكاليف، التى كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التى وردت فى التوراة مع تصديق القرآن فى عمومها للتوراة.

سواء كانت هذه أم هذه، أم هذه، أم هى جميعاً المناسبة التى اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك فى صلب العقيدة ... فإن القرآن يبين هنا ببياناً حاسماً فى شأن النسخ والتعديل، وفى القضاء على تلك الشبهات التى أثارها اليهود، على عاداتها وخطتها فى معارضة هذه العقيدة بشئى الأساليب.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الخطاب فيه لكل من لديه علم وعقل، والاستفهام للتقرير، والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلم المخاطب بأنه تعالى : عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . على قدرته على النسخ، والإتيان بما هو خير من المنسوخ أو مثله.

١٠٧ - أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٣٥). لما ذكر فى الآية السابقة أنه تعالى على كل شئ قدير ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو أنه تعالى له ملك السماوات والأرض واستشهد على ذلك بعلم كل ذى علم.

والمعنى : أنه سبحانه مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية وهو سبحانه المتصرف كما يشاء فى ذواتها

وأحوالها. وأنه سبحانه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدون به من ناسخ ومنسوخ.

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التعذيب، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير.

قال ابن كثير:

وقوله تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر، وهو المتصرف . فكما خلقهم كما يشاء، ليسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصحب من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشئ ما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة فى أمثال أمره، واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا: وأمثال ما أمروا به، وترك ما عنه زجروا، وفى هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - منهم الله - فى دعوى استحالة النسخ، إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا. وقال الإمام أبو جعفر الطبرى: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما ما أشاء وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجعدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وعلق ابن كثير على كلام الطبرى بقوله:

قلت: الذى يعمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، هم يعترفون بذلك ويصدقون عنه، أو ما يجاب به عن هذه الأدلة باجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهوراً من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، والأمر باتباعه فإنه يفيد وجوب متابعتة -عليه السلام- وأنه لا يقبل عمل إلا بشريعته وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مغاية إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً، كقوله: ثُمَّ أَتَمُّوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ . أو قيل إنها مطلقة. وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعتة، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى (٣٦٦).

١٠٨ - أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . نهى القرآن عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التعنت والافتراء كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكديباً وعناداً . قال تعالى:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

وقد اختلف المفسرون في سبب نزول الآية .. أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ . والراجح أنها نزلت في شأن اليهود حين قالوا يا محمد اثنتا بكتاب من السماء جملة، كما أتى موسى بالتوراة جملة.

واختار هذا الإمام الرازي وقال: إنه الأصح لأن الحديث من أول قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ، (البقرة: ٤٠) إلى حكايته عن اليهود ومحاجته معهم، ولأنه جرى ذكرهم قبل ذلك دون غيرهم.

وقيل إنها نزلت في المؤمنين توصية لهم بالثقة بالرسول صلى الله عليه وسلم وترك الافتراء عليه. وقد ذهب إلى هذا الرأي ابن كثير في تفسيره.

ويكون معنى الآية:

لا يصلح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كان تسأله أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم، فقالوا: أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء: ١٥٣) وقالوا: اجعل لنا إلهًا كَمَا لَهُمُ إِلَهَةٌ . (الأعراف: ١٣٨) ولو صرتم مثلهم لكتم ممن يختار الكفر على الإيمان ولخرجتم على الصراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم.

فالاستهزاء هي الآية الكريمة للإنكار وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم السؤال. وفي النهي عن إرادة الشيء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

قال ابن كثير:

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل حدوثها كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوهَا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّ لَكُمْ.

أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل وقوعه، فلعلة إن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » (٣٧٧).

وثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » (٣٧٨).

وفى صحيح مسلم: « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » (٣٦٩).

وروى البزار عن ابن عباس قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى . يعنى هذا وأشباهه (٣٧٠).

★ ★ ★

تحذير

﴿ وَذَكَرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَانَقِدُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَبَرٍ تَحَدُّوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات:

ود : تمنى وأحب .

فاعفوا واصفحوا : العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم عليه، وهو أبلغ من العفو، إذ قد يعفو ولا يصفح.

حتى يأتى الله بأمره : بإذنه ومعونته.

تجدوه عنه الله : تجدوا ثوابه عنده.

واقموا الصلاة : أدوها بأركانها وشروطها وهيئاتها فى أوقاتها، وأصله أعمل من قام الحق: ظهر وثبت، أى أظهروها على النحو الذى يرتضيه الشارع.

معنى الآيتين: ٥

ولقد تمنى كثير من اليهود أن يردوكم إلى الكفر بعد إيمانكم، مع أنه قد تبين لهم من كتابهم نفسه أنك على الحق، وما ذلك إلا أنهم يحسدونكم ويخشون أن ينتقل إليكم السلطان ويقتل من أيديهم، فاعرضوا عنهم، واعفوا واصفحوا حتى يأتى الله لكم بمسلك آخر يحالهم فهو القادر على أن يمتكنكم منهم، وهو على كل شيء قدير.

وحافظوا على شعائر دينكم، فاقموا الصلاة، واعطوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من أعمال طيبة وصدقة تجدوا ثوابه عند الله إن الله بما تعملون عليم، علم من يبصر ويرى.

متعلقات المعنى:

١ - قوله تعالى: **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا** . بيان اللون من ألوان الشرور التي يضمورها أهل الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنىهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق إلى الكفر الذي انتقدهم الله منه، وإنما أسند سبحانه هذا التمنى الذميمة إلى الكثرة منهم، إنصافاً للقلة المؤمنة التي لم ترض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

٢ - يشير قوله تعالى: **حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ** . إلى أن تمنى كفر المؤمنين لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوس اليهود، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

(والحسد): خلق النفس لرؤية نعمة بصيبيها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير، وتمنى زوال النعم المذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهة للجور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم، فإن لم تتم زوال النعمة عن شخص وإنما تمنى لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدر في المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه (٢٧١).

وفي الحديث الشريف: « ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد، والطيرة، والظن، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تتبع » (٢٧٢).

فهذه الأشياء تهجم على الإنسان، والمؤمن مطالب ألا يسترسل فيها فإذا حسد أو أحس ببوادر الحسد فلا ينبغي له العدوان أو القدح أو البغى على المحسود.

وإذا تطير وتشاء من شيء فلا يرجع ولا يسترسل في تشاؤمه بل يقل: « اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت، ولا يذهب البأس إلا أنت اللهم اكفنى السوء بما شئت إنك على ما تشاء قدير ».

وإذا ظن الإنسان بآخر فلا يسترسل في تتبعه، ولا يتابعه بالتجسس عليه، وبذلك يسلم المسلم من بوادر هذه الأمور الثلاثة حيث يوقفها عند حدها، ولا يسمح لها بالتعدى على الآخرين.

٣ - قوله تعالى: **مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** . يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت بعد أن ظهر لهم صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد أن تبين لهم أن الصفات التي وريت في التوراة بشأن النبي المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفروهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، ذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة. وتبشيرها بالنبي صلى الله عليه وسلم.

٤ - قوله تعالى: **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . أى لا تعاقبهم ولا

تؤمنهم حتى يأذن الله بالقتال في الوقت الذي يختاره لكم ، وقد أنزل الله تعالى بعد ذلك الإذن بقتال اليهود في قوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. (التوبة : ٢٩) كما أذن بإجلائهم عن المدينة.

ه - قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار:

قال الأستاذ الإمام: وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول:

لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقاء الجاهل، وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيدان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصبر الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه (٢٧٣).

١١٠ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.
أمر الله المسلمين بالمحافظة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة، والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب المسلمين والمعبرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ.

لترغبهم فى فعل الخير على وجه عام ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضاً أم نفلاً.

وجاءت جملة: إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، لتأكيد ذلك المعنى.

روى أن الإمام على كرم الله وجهه كان إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحال المفجرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثم قال: أما المنازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وأما الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعري ما عندكم؟ والذي نفسى بيده لو أن لهم فى الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى.

وفى الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » (٢٧٤).

أمانى كاذبة

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾﴾

المضردات:

هودا : جمع هائد، كعوذ جمع عائد، ومعنى الهائد فى الأصل التائب والمقصود هنا بالهود: اليهود.

أو نصارى : يعنون المسيحيين، جمع نصران ونصرانة، سموا بذلك نسبة إلى بلدة الناصرة التى كان ينزل بها عيسى، أو لأنهم أجابوا عيسى إلى نصره لما قال لهم: من أنصارى إلى الله؟.

الأمانى : واحدها أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورا، وضلالا واحلاما.

برهانكم : حجتكم.

إسلام الوجه لله : هو الانقياد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء.

التفسير:

قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، يعنون بذلك: أن المسلمين لن يدخلوها، تفتيرا للمسلمين من دينهم، وإثارة للفتنة بينهم، لأنهم كما تقدم يودون ردتهم.

وجمع بين كلام الفريقين فى النظم الكريم للإيجاز، وثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، لأن العداوة بين الفريقين معلومة (٧٧٥)، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون فقال تعالى: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أى قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس: هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم.

لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

١١٢ - بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . أى: بلى يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله، فأمن به ونزعه تعالى عن الولد (وهو محسن) فى جميع أعماله التى منها الإسلام.

والإحسان أداء العمل على وجه حسن أى مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشويف.

ومقصود الآية ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، وينال أجره اللائق به ولا يخاف في الدارين من لحوق مكروه ولا يحزن على فوت مطلوب.

وقد أخادت الآية الكريمة ما يأتى:

١ - إثبات ما نقوه من دخول غيرهم الجنة.

٢ - بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة إلا إذا أسلموا وجوههم لله.

٣ - بيان أن العمل المقبول عند الله تعالى يجب أن يتواخر فيه أمران أولهما: أن يكون خالصا لله وحده. ثانيهما: أن يكون مطابقا للشرعية التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

قال ابن كثير في تفسيره:

فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشرعية، فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) (٣٦) رواه مسلم من حديث عائشة.

فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال تعالى:

وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مُّثَرًّا . (الفرقان : ٢٣)

وقال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . (النور: ٣٩)

وروى عن أمير المؤمنين عمر: أنه تأولها في الرهبان، وأما إن كان العمل موافقا للشرعية فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَءَوْنَ النَّاسَ وَلَا يُذَكِّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . (النساء: ٢٩) وقال تعالى: قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَءَوْنَ * وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ . (الماعون: ٤-٧)

ولهذا قال تعالى: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف: ١١٠)

تهم متبادلة

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١١٣﴾

المضدرات:

قال الذين لا يعلمون : المراد بهم عبدة الأصنام والمعلطة ونحوهم من الجهلاء .

مثل قولهم : بأن قالوا عن أهل كل دين آخر: ليسوا على شيء .

التفسير:

انكرت اليهود رسالة المسيح مع أن التوراة بشرت به، ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به في التوراة لم يأت وسياى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من التدين.

والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشا عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق، ثم بين الله مدى جهلهم وعنادهم جميعاً فقال سبحانه: **وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ** . وهى جملة حالية، والكتاب للجنس، أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرؤون التوراة والنصارى يقرؤون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرها من كتب الله وآمن بها ألا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً .

كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين: لستم على شيء، والحق وراء هذه المزاغم، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا وتفرقوا طرائق قدا .

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . صدرت هذه الجملة بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكتنه ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع من هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد .

والضمير فى بينهم (راجع إلى الفرق الثلاث، وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى).

قال ابن كثير:

قوله تعالى: **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** . أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد

وفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجرور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج في الآية ١٧ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . وكما قال تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ (٢٧٧).

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، فإنه من المعلوم من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق وعقاب من كان على باطل.

قال الزمخشري: فَاللَّهُ يَحْكُمُ . بين اليهود والنصارى . يَوْمَ الْقِيَامَةِ . بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذي استحقه، وعن الحسن: حكم الله أن يكذبهم ويدخلهم النار (٢٧٨).

★ ★ ★

تخريب المساجد

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المفردات:

من أظلم : استفهام إنكارى بمعنى النقص، والمعنى: لا أحد أظلم.

مساجد الله : المراد بها جميع مساجد الله وأماكن عبادته، فالآية قاعدة عامة وإن كان سبب النزول خاصاً كما سيأتى.

لهم فى الدنيا خزي : هوان وذلة.

تمهيد:

تعددت اقوال المفسرين فيما تشير إليه الآية :

١ - هيرى بعض المفسرين أنها تشير إلى ما وقع من تيطس الرومانى إذ دخل بيته المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخرب المسجد حتى لم يبق منه حجراً على حجر، وهدم هيكل سليمان حتى لم يترك إلا بعض جدران مبثرة. وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاماً من اليهود.

٢ - ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية، روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبی صلى الله عليه وسلم من الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأُنزل الله. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ.

ويرجع ابن جرير الطبري القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

وقال ابن كثير: الذي يظهر والله أعلم القول الثاني: وأما اعتماد ابن جرير على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وإندادهم، قال تعالى: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ.

فإذا كان الرسول مطروداً منها مصدوداً عنها فأى خراب للكعبة أعظم من ذلك؟ وليس المراد بعماريتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، وإنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورضعها عن الدنس والشرك^(٢٧٩).

والمتأمل في الآية يرى أنها عامة، تشمل بذمها كل من عطل المساجد عن أداء رسالتها، أو أربب المؤمنين ومنعهم من دخولها.

قال القرطبي: وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموا، ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها^(٢٨٠). وظاهر الآية يفيد أنه لا يوجد أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله.

قال الزمخشري: إن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً: من أظلم ممن أذى الصالحين، كما قال عز وجل.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ . وَالْمَنْزِلَ فِيهِ الْأَخْنَسُ بَنِ شَرِيقِ.

وسعى في خرابها، بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان، ويبغى أن يراد بمن منع العموم كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين^(٢٨١).

أَوَلَيْكَ مَا كَانَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ . معناه ما ينبغي لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله تعالى لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه تعالى، أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم بقوة لهم على إفسادهم لدين الله وبيوته.

أى أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذى حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن .. فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ويمنعونهم من زيارة المسجد الحرام)^(٢٨٢).

قال ابن كثير: (وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب) (٢٨٢).

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَزَنٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. أى لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم. ولهم فى الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه فى النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه فى هوان ومذلة ثم يلقى العذاب العظيم فى الآخرة.

ويفسر قتادة الخزى فى الدنيا: بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون (والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد فى الحديث الاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة).

روى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة) وهذا حديث حسن (٢٨٤).

★ ★ ★

فضل الله

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنْكَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المفردات:

المشرق : موضع الشروق.

المغرب : موضع الغروب، والمراد بهما هنا: هما وما بينهما من الجهات والأماكن.

فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ : أى فهناك جهته، أى قبلته التى أمر عباده أن يتجهوا إليها فالوجه والجهة شئ واحد.

إِنْ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ : أى يوسع على عباده، أو لا يحصر ولا يتعدد، أو واسع العلم محيط بما تستطيعون علمه فلا يكلفكم ما يشق عليكم.

التفسير:

وردت عدة روايات فى معنى هذه الآية وأسباب نزولها، ومن هذه الروايات ما يأتى:

١ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ذلك.

١١٥ - ولهذا يقول تعالى: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ. روى أبو عبيدة القاسم بن.

سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما ذكر لنا والله أعلم، شأن

القبلة، قال الله تعالى: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ. فاتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى صلاته نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها فقال:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٢٨٥).

٢ - وقال ابن عمر وآخرون: نزلت هذه الآية إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيثما توجهت به راحلته من شرق أو غرب، وفى حال المسابقة وشدة الخوف.

أخرج مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه نزلت: فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ (٢٨٦). نقله القرطبي، ونقله أيضاً ابن كثير عن ابن جرير الطبرى.

٣ - وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض الله التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان علم الله جل شأؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشرق والمغرب كما قال تعالى: وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا. (المجادلة: ٧)

قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام (٢٨٧).

٤ - وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصولاً على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى لى المشرق والمغرب، فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى وهو قبلكم، فعليكم بذلك إن صلاتكم ماضية.

روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قال الترمذى: حسن صحيح (٢٨٨).

وقال: وقد روى من غير واحد من الصحابة (ما بين المشرق والمغرب قبلة) منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس.

٥ - قال ابن جرير: ويعتدل: فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، ثم روى عن مجاهد قال: لما نزلت ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ.

وإذا ربطنا الآية بما سبقها من أن الظالمين قد يمنعون المسلمين من الصلاة فى مساجد الله، رأينا أن المقصود من الآية الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد فى الحديث الشريف « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً فأينما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل » (٢٨٩).

وكان السابقون لا يصلون إلا فى بيعة أو كنائسهم وكان الآية توهم إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من أداء رسالتها وتخريبها لا يمنع من أداء العبادة، لأن لله المشرق والمغرب وما بينهما فأينما حل الإنسان واتجه بعباده إلى الله فهى مقبولة، والله تعالى راض عنه مقبل عليه. إن الله واسع . يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم بما ليس فى وسعهم . علم . بمصالحهم وبما يعملون فى مختلف أماكنهم.

تنزيه الله عن الولد

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَدِيرُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

المفردات:

اتخذ	من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل.
الولد	تطلق على الذكر والأنثى والواحد والجمع.
سبحانه	تنزيهاً وتبرئة لله لا ثقة به مما قالوا.
قانتون	منقادون خاضعون.
بديع	البديع بمعنى المبدع، والإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق.

بديع السموات والأرض : مبدعهما ومخترعهما على غير مثال سابق، وكما يأتي فعيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، يأتي فاعل كما هنا ونظيره السميع بمعنى المسمع في قول الشاعر: (أمن ريحانة الداعى السميع). وكل من أنشأ ما لم يسبق يقال له مبدع ومنه أصحاب البدع.

التفسير:

جاء الإسلام بتوحيد الخالق وتنزيهه عن الولد بين أهل كتاب ومشركين يزعمون أن لله ولداً.

فاليهود يزعمون أن عزيراً ابن الله، والنصارى يزعمون مثل ذلك لعيسى، والمشركون يزعمون مثله للملائكة فيقولون إنها بنات الله. ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو بعضها فإن أفرادها متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون، مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع. فيصح أن يكون الضمير في. وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. عائداً إلى الفرق الثلاث أو على بعضهم، فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يستند إلى القوم ما صدر عن بعضهم فحين قال: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ. (التوبة : ٣٠) أصبح من السائغ في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم.

سُبْحَانَهُ : أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك تعالى علواً كبيراً، لاقتضاء الوالدية الجنسية والتاسل والافتقار والتشبيه والحدوث.

بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : إضراب عن مقاتلهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد وشروع في الاستدلال على بطلانها. قال ابن كثير:

«أى ليس الأمر كما افترضوا وإنما له ملك السماوات والأرض وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم

ومقدريهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له. فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولدًا من شئئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟.

كما قال تعالى: **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَى بِكُونِ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.**

وقال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا. (مريم: ٨٨ - ٩٥)

وقال تعالى: **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.** (الإخلاص)

فقرر تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربية فكيف يكون له منها ولد؟

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال:

لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعاضهم (٣٩٠).

كُلُّ لُهُ قَاتِنُونَ : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شيء على مشيئته وإرادته، شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة من الخضوع، وإنما جاء **قَاتِنُونَ** . بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم.

وفصلت جملة: **كُلُّ لُهُ قَاتِنُونَ** . عن سابقتها لقصد استقلالها بالاستدلال على نفي أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله تعالى: **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.**

١١٧ - **بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.** أى مبدع السماوات والأرض ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، صفة مشبهة من أبداع، والذي ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله تعالى، وخص السماوات والأرض بالإبداع لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحانه الله، أنى يكون له ولد وهو مالك السماوات والأرض، تشهد له جميعها - بدلائلها عليه - بالوحدانية وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد به بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه

لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال - هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته (٢٩١).

وقوله تعالى: وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. معناه وإذا أراد سبحانه إحداث أمر من الأمور حدث فوراً. وَ كُنْ فَيَكُونُ. فعلا الكون بمعنى الحدوث، ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة وأردة على وجه التمثيل لحدوث ما تتعلق به إرادته سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والتون، ففي الكلام استعارة تمثيلية.

وقال الزمخشري: كُنْ فَيَكُونُ. من كان التامة أى أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول ثم، وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف. كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في توأله (٢٩٢).

ويرى آخرون أن الأمر بكن محمول على حقيقته، وأنه تعالى أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد حكنا بعض الشبهات الباطلة التي أوردها الضالون حول وحدانية الله، وردتا عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

★ ★ ★

تعنت وعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

المفردات:

- لولا : كلمة لحض الفاعل على الفعل وطلبه منه.
الآية : الحجة والبرهان.
التشابه : التماثل.
اليقين : هو العلم بالدليل والبرهان.

تمهيد :

اختلف المفسرون في المراد من الذين لا يعلمون:

١ - فقال ابن عباس هم اليهود، ويؤيد هذا الرأي أن السياق من أول السورة في الحديث عن اليهود. وأن القرآن قد حكى عنهم سؤالهم لموسى عدداً من الآيات على سبيل التعنت والمكابرة.

قال تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً . (البقرة : ٥٥)

٢ - وقال مجاهد هم النصارى، وهو اختيار ابن جرير الطبرى لأن السياق فيهم، قال ابن كثير: وفي هذا الكلام نظر، أى فهو لا يسلم أمام المناقشة، فليس النصارى وحدهم الذين . قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . (البقرة : ١١٦) وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ . (التوبة: ٣٠).

٣ - وأكثر أهل التفسير على أن المراد من . الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . هم مشركو العرب، ويؤيد هذا القول أن القرآن المكي قد حكى عنهم الكثير من التعنت والعتو وسؤالهم ما لا حاجة لهم به وإنما هو الكفر والمعاندة. قال تعالى: وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ . (الأنعام : ١٢٤)

وقال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٢)

وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا . (الفرقان : ٢١)

وقد عبر القرآن عنهم بالذين لا يعلمون استهجانا لذكرهم لقبح ما صدر عنهم، ولأن ما يحكى عنهم لا يصدر إلا عن الجهلاء.

ولا يبعد أن يكون المراد من الذين لا يعلمون جميع الطوائف المشتركة من اليهود والنصارى والعرب. ويكون الاميون من المشركين هم المقصودون قصداً اولياً، فكثيراً ما تحدثوا النبی صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله أو تأتيتهم خارقة من الخوارق المادية.

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ . أى مثل هذه الأسئلة التى يراد بها التعنت قد قالها من قبلهم من الأمم السابقة، أو من اليهود والنصارى.

إِذْ قَالُوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقالوا: لَنْ نُصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ . (البقرة : ٦١)

وقالوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ . (المائدة : ١١٢)

وَقَالُوا: اجْعَلْ لَنَا إِنْهَا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. (الأعراف : ١٢٨)

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ. أى: تشابهت قلوب السابقين مع قلوب اللاحقين فى الكفر والإعراض عن الحق والعناد والمكابرة.

والمعنى: أن تشابه أقوالهم نابع من تشابه قلوبهم، كما قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ أَتَوْا صُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.

فَدَبَّيْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَافِقُونَ. أى أننا لم نترك بلا آية بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالاً للريب.

قال ابن كثير:

أى قد وضعنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق وتابع الرسل وفهم منا جاءوا به من الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فاولئك الذين قال الله فيهم: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. (يونس : ٩٦)

★ ★ ★

البشير النذير

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢١﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَادِي وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

المفردات:

- الحق : هو الشيء الثابت المتحقق الذى لا شك فيه.
- بشيرا : البشير: المبشر وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به.
- نذيرًا : النذير : المخبر وهو المخبر بالأمر المخيف ليحذر منه.
- الجهيم : المتأجج من النار، وأصحابها الملائمون لها، والسؤال كناية عن المؤاخذه والولوم.

التفسير:

لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم ولست مسئولاً عن عدم اعتدائهم. وهذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لمهمته كى يتوجه إليها بكلية ولا يلتفت إلى معارضة أهل الكتاب والمشركين، بعدما سجل تمنعهم.

وعن ابن عباس قال: بشيراً بالجنة ونذيراً من النار.

وروى أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. (الأحزاب : ٤٥) وحرزا للأمة، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صغاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسبيبة السيئة، ولكن يعفو، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً (٢٣٢). انفرد بإخراجه البخارى ورواه ابن مردويه.

١٢٠ - وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيعَهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . تحذر هذه الآية الأمة المحمدية من اتباع اليهود والنصارى والتشريط فى أمور دينهم.

ولقد حرص السلف الصالح على التمسك بدينهم فقالوا عز الدنيا وشرف الآخرة.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى فزادوا فى التشبه بهم قليلا قليلا.

ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوروبا الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات يصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة، ثم صاروا يبنذون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد والرجعية - لينفروا الناس منها.

بل إن بعض الماجنات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى السفور، فئن لم يدفع المسلمون هذه المنكرات عن دينهم وبلادهم، ليسلطن الله عليهم عدوهم ولتستبدلن بهم قوماً غيرهم. قال تعالى: وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ. (٢٩٤)

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لرسوله غاية أعدائه من اقتراح الآيات، ويحذره منهم فقال ما معناه: إن اليهود والنصارى يقترحون الآيات تعجيزاً لا طلباً للهداية، فلو آتيتهم يا محمد بكل ما يسألون فلن يرضوا عنك ولن تتال رضاهم حتى تتبع دينهم الزائف المحرف.

قال ابن جرير الطبرى: يعنى جل ثناؤه بقوله: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما يعطك الله به من الحق، وقوله تعالى: **قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ**. يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل: **وَلَنْ أَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**. فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمة (٢٩٥).

ويعد أن ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ في بيان حال المؤمنين منهم فقال:

١٢١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. المراد بالذين أتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

قال قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن أسلم، واختاره ابن جرير الطبرى.

وحمل بعض المفسرين الآية على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والكتاب على القرآن. والرأى الأول أولى. فإن عرف القرآن جرى على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ولم يذكر المسلمون فيه إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين، كما أن السياق واللاحق في بنى إسرائيل.

ومعنى الآية:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ أَي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد. أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . أى يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وإنكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون في الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين، وهم الخاسرون في الآخرة، حيث خسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعده الله للكافرين.

أو معنى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ : ومن يكفر بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ويكتم سفته ونعته فقد خسر الهدى في الدنيا والسعادة في الآخرة.

ملحقات:

قال عبد الله بن مسعود: والذى نفسى بيده إن حق تلاوته: أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقراه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله.

وعن ابن عباس: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ . قال: يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ: **وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا**. يقول اتبعها، وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك (٢٩٦).

٢ - في الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه لا حظ لهم من الإيمان لأنهم لا يفقهون هداية الله فيه ولا تصل العظة إلى أفتدبهم بتلاوته.

قال تعالى: لِيَدَّبُّوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ. (ص: ٢٩). ولكن وأسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع (والقرآن حجة لك أو عليك).

★ ★ ★

أنعم الله

﴿يَبْنَى إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

المفردات:

إسرائيل

: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام.

اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم : تذكروا ما أنعمت به عليكم من الإنجاء من بطش القراعنة، وإنزال التوراة وغير ذلك. والمقصود من أمرهم بتذكروها أن يشكروها بالإيمان بما يجب الإيمان به.

وإنى فضلتكم على العالمين

: على عالمى زمانهم.

واتقوا يوما

: المراد باليوم يوم القيامة، وياتقائه: التحفظ من عقابه.

لا تجزى نفس عن نفس شيئا

: لا تحمل عنها شيئا من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عدل

: لا يقبل منها فداء.

تمهيد:

يذكر الله بنى إسرائيل بنعمه التى أنعمها عليهم، وقد سبق التذكير بهذه النعم فى الآيتين ٤٧، ٤٨ من هذه السورة. ولكنه كرر تذكيرهم بها هنا تأكيداً لوجوب شكرها بالإيمان، وليرتب على الكفر بها الوعيد الشديد يوم القيامة.

التفسير:

يا أبناء النبى إسرائيل تذكروا ما أنعمنا به من النعم على آبائكم. ومن أجل ما أنعم الله به عليهم التوراة، وفيها وصف النبى صلى الله عليه وسلم ونعته وأمره وأمته. قال ابن كثير: «يحذروهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى معهم من العرب

على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته.

وقد فضل الله اليهود على عالمي زمانهم بما آتاهم الله من التوراة دونهم وهذا التفضيل مرتبط بأسبابه وهو اتباع التوراة والعمل بها وتنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها، فإذا أهملوا أوامر الله، وكنموا بعضها، وحرفوا ويدلوا بعض ما فى التوراة، فقد فقدوا أسباب التفضيل واستحقوا اللعنة والطرده والغضب.

كما ذكر ذلك القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** . (الجمعة : ٥)

ومثل قوله سبحانه: **لَئِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَمِ فَعْلَاهُ لِنِاسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

١٢٣ - **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلَ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** . تقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى، كما تقول قضى يقضى زنة ومعنى. أى اتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدلين كتابى، المحرفين له عن وجهه، المكذبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم، عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئاً من الحقوق التى لزمتهما، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً كما ورد فى الصحيحين: «يا فاطمة بنت محمد سليمانى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً».

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى فداء مهما عظم لو وجدته.

وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ : ولا يشفع فيما وجب عليها من حق شافع (٢٩٧).

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ : أى لا يأتينهم ناصر ينصرهم فيمتنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم.

والتعريض لنفى الفداء والشفاعة والتصرة فى هذا اليوم، لأنها هى الأمور التى اعتادها بنو آدم فى تخليصهم إذا وقعوا فى شدة.

وقد كان اليهود يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء والإيمان الحق شيء آخر.

وفاء إبراهيم

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

المضردات:

ابتلى إبراهيم

: اختبره ببعض التكليف.

بكلمات

: هى ما كلفه الله به من التكليف.

إماماً

: قدوة للناس.

قال ومن ذريتي

: أى واجعل من أبنائى أئمة.

لا ينال عهدي الظالمين : العهد هنا الإمامة والنبوة، وينال بمعنى يدرك أو يصيب، وعهدي فاعل، والظالمين مفعول.

التفسير:

١٢٤ - وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . الابتلاء: الامتحان، وهو عند الخلق لاستجلاء ما خفى علمه لديهم، والمراد به فى حق الخالق تكليف العبد ببعض التكليف.

أى اختبر الله إبراهيم ببعض الأوامر فأتى بها على أتم وجه فكافأه الله على هذا الإتمام بأن جعله للناس - عامة - إماماً يؤتم به وقدوة يقتدى به فى جميع العصور والملا من بعده، وبخلاف كل نبي فإمامته خاصة بأمته، ولهذا جئ به موعظة وزجراً لأهل الكتاب والمشركين: الزاعمين أنهم يسبرون على منهاجه.

ولما بشر الله إبراهيم بهذه المكافأة، طلب إبراهيم مثلها لبعض ذريته فقال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي. أى واجعل بعض ذريتي إماماً للناس.

وجملة: قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي. واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر فى نفس السامع، فكانه قال: وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك البشارة العظمى؟ فكان الجواب: أن إبراهيم قد اتهمس الإمامة لبعض ذريته أيضاً.

أى قال إبراهيم: واجعل يا رب من ذريتي أئمة يقتدى بهم، وقد رد الله تعالى على قول إبراهيم بقوله: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

إنما قال إبراهيم: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي. ولم يقل وذريتي، لأنه يعلم أن حكمته تعالى فى هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مألوف عادة، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

أى قال الله لإبراهيم: لقد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدي الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله: جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.

فى هذه الجملة إيجاز بديع، إذ المراد منه إجابة طلب إبراهيم من الإنعام على بعض ذريته بالإمامة كما قال تعالى:

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ (العنكبوت : ٢٧) ، لكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلاً لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تتألم النبوة، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء. قال تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ . (الصفافات : ١١٣)

وقد تكرر دعاء إبراهيم لذريته فهو أب حان رحيم، ومن دعائه: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم : ٢٧) ومن دعائه أيضاً: رَبِّ اجْعَلْ لِي قِيمَةَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ . (إبراهيم : ٤٠)

الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم

لم يعين القرآن الكريم الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم، ومن ثم اختلفوا فيها، فقيل هى مناسك الحج، وقيل إنها الكواكب والشمس والقمر التى رآها واستدل بأقوالها على وحدانية الله تعالى. وقيل الأوامر والتكاليف التى آتاهن وفاء وقضاء، قال تعالى: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . (النجم : ٢٧) وهى شهادة من الله بالوفاء بالتزاماته.

قال ابن كثير: وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام.

فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات:

فروى عنه: ابتلاه الله بالناسك، وروى عنه : ابتلاه بالطهارة، خمس فى الرأس وخمس فى الجسد .

فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وقرق الرأس، وفى الجسد، تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، وتنف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء (٢٩٨).

قلت : وقريب من هذا ما ثبت فى صحيح مسلم: عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عشرة من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظافر وغسل البراجم وتنف الإبط وحلق العانة، وانتقاص الماء» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، قال وكيع: انتقاص الماء يعنى الاستنجاء (٢٩٩).

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الفطرة خمس : الختان والاستعداد وقص الشارب وتقليم الأظافر وتنف الإبط » ولفظه لمسلم (٣٠٠).

وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم قال تعالى: وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ .

قلت له: وما الكلمات التي ابتلى إبراهيم بهن فأتىهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهما، منها عشر آيات في براءة: الشَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ . (التوبة : ١١٢) إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . (المؤمنون : ١- ١٠) . وَ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . (المعارج : ١- ١٠) وعشر آيات في الأحزاب: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ . (الأحزاب : ٢٥) إلى آخر الآية فأتىهن كلهن، فكتب له، قال الله: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . (النجم : ٢٧)

رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم، وهذا لفظ ابن أبي حاتم.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قال: ابتلاه بالكواكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه (٣٠١).

قال ابن جرير الطبري: يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك. ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعمين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد لا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له (٣٠٢).

★ ★ ★

البيت الحرام

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

المفردات:

البيت الحرام	: المراد به الكعبة.
مثابة	: أى مرجعاً يثوب إليه هؤلاء الزوار أمثالهم.
أمناً	: موضع أمن.
مقام إبراهيم	: هو الحجر الذي كان يقوم عليه حين بناء الكعبة.
المصلّى	: موضع الصلاة أى الدعاء والثناء على الله تعالى.
عهداً	: عهد إليه بكذا إذا وصاه به.
طهرا بيتي	: نظفاه من كل ما لا يليق من الأوثان، وجميع الخبائث.

والعاكفين : أى المتكفين فى المسجد، الملازمين له زمناً ما .
والركع السجود : الركع جمع راكم، السجود جمع ساجد، المراد بهما المصلون.

تمهيد:

ذكر سبحانه العرب فى هذه الآية بنعم أسبغها عليهم ومن قلدنا جديهم، وهى جعل البيت الحرام مرجئاً للناس يقصدونه ثم يثيرون إليه، وجعله مأمناً لهم فى هذه البلاد، بلاد المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب.

التفسير:

١٢٥ - وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا . أى واذكروا وقت أن أمرنا بأن يصير البيت مرجئاً للحجاج: يرجعون إليه بعد أن يتفرقوا عنه، أو موضع ثواب يثاب الناس بالحج إليه والاعتمار فيه.

وَأَمْنَا : أى موضع أمن، والمقصود من جعل البيت مكان أمن أن الحج إليه يجعل الحاج مطمئناً إلى رحمة الله، فإنه مكفر لكثير من الذنوب.

كما جعل الله الحرم آمناً لاحترام الناس له وتعظيمهم إياه بعدم سفك دم فيه، حتى كان الرجل يرى قاتل أبيه فى الحرم فلا يتعرض له بسوء.

ونحو الآية قوله تعالى فى سورة العنكبوت. أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ألبالابل يؤمنون ونعمة الله يكفرون ؟ . (العنكبوت : ٦٧)

وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . أى وقتلنا لهم اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وفائدة ذكر هذا الأمر أن يستحضر السامع أو التالى المأمورين به وكان الأمر يوجه إليهم.

وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ له، فتحن مأمورون بالدعاء فى مقام إبراهيم، كما أمر به من كان فى عصره من المؤمنين.

روى ابن جرير عن جابر قال: استلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعة، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقراً : وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين، وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه (٣٠٢).

وروى البخارى عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عمر يقول: (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم طواف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين).

قال ابن كثير:

« فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام هو الحجر الذى كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، كلما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها، وهكذا حتى أتم جدارات الكعبة (٣٠٤).

وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . أَيْ وَوَصَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام أَنْ طَهَّرَا هَذَا الْبَيْتَ وَمَا حَوْلَهُ مِنْ كُلِّ رَجَسٍ مَعْنَى كَالشَّرِكِ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَوْ رَجَسٍ حَسَى كَالْفُجْوَ وَالرَّفَثِ وَالتَّزَاوُعِ فِيهِ، وَقَدْ أَمَرَ بِطَهْيَرِهِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ مِنْ أَجْلِ الطَّائِفِينَ بِهِ لِلتَّسَكُّعِ مِنْ أَهْلِ الْحَرَمِ، أَوْ الْوَاقِدِينَ عَلَيْهِ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَمِثْلَهُمُ الزَّائِرُونَ . فَالطَّهْيَرُ عَامٌ مِنْ أَجْلِ الْجَمِيعِ .

وَكَمَا أَمَرَ بِطَهْيَرِهِ مِمَّا ذَكَرَ لِلطَّائِفِينَ، أَشْرَكَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الْحُكْمِ الْمُتَعَتِّقِينَ فِيهِ عَنِ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَالْمُصَلِّينَ الَّذِينَ عَنَاهُمْ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قال ابن كثير:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ يَبْنِيَا الْكَعْبَةَ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالْمُصَلِّينَ إِلَيْهِ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . (الحج: ٢٦)

وَالْمَرَادُ مِنْ ذَلِكَ الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَشْرِكُونَ بِاللَّهِ عِنْدَ بَيْتِهِ الْمَوْسَسَ عَلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لِأَشْرِكِهِ لَهُ ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَصُدُّونَ أَهْلَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . (الحج: ٢٥) .

★ ★ ★

دعاء

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَنِيسَ الْمَصِيرِ ﴿١٢٦﴾﴾

المفردات:

الثمرات : المأكولات مما يخرج من الأرض والشجر .

الاضطرار : الإكراه ، يقال اضطررت فلانا إلى كذا : أَيْ الْجَأتُهُ إِلَيْهِ وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهِ .

التفسير:

١٢٦ – وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ... أَيْ: اضْرَعْ إِلَيْكَ يَا إِلَهِي أَنْ تَجْعَلَ الْمَوْضِعَ الَّذِي فِيهِ

بَيْتُكَ مَكَانًا إِلَيْهِ يَأْتِسُ النَّاسُ، وَيَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْخَوْفِ، وَيَجِدُونَ فِيهِ كُلَّ مَا يَرْجُونَ مِنْ أَمَانٍ وَاطْمَئِنَانٍ .

وَالْمِشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : هَذَا . مَكَّةُ الْمُكْرَمَةِ، وَالْبَلَدُ كُلُّ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ عَامِرَةٍ أَوْ غَامِرَةٍ .

والمقصود من الدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمن والخوف لا يلحقان البلد وإنما يلحقان أهل البلد.

وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرًا، كقوله تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . (آل عمران : ٩٧)

وقوله: أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم . (العنكبوت : ٦٧).

وقوله عز شأنه: إِيلَافَ قُرَيْشٍ . إِيْلَافُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . (قريش).

وقال في هذه السورة: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا . أى اجعل هذه البقعة بلدًا آمناً، وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة.

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . (إبراهيم : ٣٥) وناسب هذا هناك لأنه - والله أعلم - كأنه وقع دعاء ثانيًا بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق، الذى هو أصغر سنا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة (٣٠). ولهذا قال في آخر الدعاء: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ . (البقرة : ٢٣، ٢٤)

وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أى كما أسألك يا إلهى أن تجعل هذا البلد آمناً، أسألك كذلك أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم، ويفنيهم عن الاحتياج إلى غيرك وقوله وَأَرْزُقْ . مأخوذ من رزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من مأكول وغيره.

وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلدًا آمناً، وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يفنيهم، لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال الأمن، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب مطمئنة، وتفرقوا لذلك بنفوس مستقرة. وقال في دعائه: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . لأن أهل مكة قد يكون من بينهم كافرين: فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه، لذا اتبع قوله: وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ . بقوله : مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ . على وجه البذل فصار المعنى وارزق المؤمنين من أهله، على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البذل وهو هنا : مَنْ آمَنَ . هو المقصود بطلب الرزق.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم إنما هى خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأدياً مع الله، إذ سألته سؤالاً أقرب إلى الإجابة، ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال: وَمَنْ ذُرِّيَّتِي . فقال: لَا يَتَّعِلُّهُمْ الْفَقْرُ . (إبراهيم : ٣٩) أى غير المؤمنين ليسوا أهلاً لأن يدعو لهم بإجراء رزق الله عليهم.

ثم بيّن سبحانه مصير الكافرين بقوله:

وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . أى قال يا إبراهيم قد أجبت دعوتك ورزقت

مؤمنى أهل هذا البلد من الثمرات، ورزقت كفارهم أيضا، وأمتعتهم بهذا الرزق أمداً قليلا وهو مدة وجودهم فى الدنيا ثم أسوقهم إلى عذاب النار سوفاً اضطراباً لا اختيار لهم فيه ولا يمكنهم الانفكاك، وجملة: **ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ** - احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخيله النعم فى الدنيا يؤذن برضا الله، فلذلك ذكر العذاب هنا.

وهذا كقوله تعالى: **وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَبِمَا قُنَيْتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** * **نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ** - (لقمان: ٢٣، ٢٤) أى أن الله ينذرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقد أفادت الآية أن الله يرزق الكافر فى الدنيا كما يرزق المؤمن، وإن كان المؤمن أهلاً لكل خير، فبرز الكافر لاستدراجه، ولو حرم الله الكافرين من التوسعة فى الرزق فى الدنيا وخص بها المؤمنين، لانساقوا إلى الإيمان قسراً. وقد قضت حكمته - سبحانه - أن يكون الإيمان اختيارياً حتى يتجه إليه الإنسان عن طريق النظر فى آيات الله التى يبصرها قوم ويعمى عنها آخرون، ووصف التمتع بالقالة، لأن مدة الدنيا قليلة بالنسبة إلى الآخرة، ولتعرض متها إلى الزوال كل لحظة.

فى الصحيح : « إن الله يملئ للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** (٣٠٦) ».

★ ★ ★

بناء الكعبة

﴿وَإِذْ رَفَعُ بُرْهَمُ الْقَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١٢٩﴾

المضردات:

يرفع إبراهيم القواعد : القواعد: الأسس، جمع قاعدة، ورفعها البناء عليها.

مسلمين لك : أى منقادين لك، يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد.

المناسك : واحدها منسك (بفتح السين) من التسلك وهو ضاية الخضوع والعبادة، وشاع

استعماله فى عبادة الحج خاصة، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج

وأعماله.

الكتاب	: القرآن.
الحكمة	: أسرار الأحكام الدينية ومعرفه مقاصد الشريعة. قال ابن دريد: كل كلمة وعظمتك أو دعتك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح فهي حكمة. والحكمة أيضاً وضع الأمور في مواضعها.
ويزكيهم	: يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصي.
العزیز	: القوى الغالب.
الحكيم	: الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.
تمهيد:	

تشتمل الآيات على مشهد كريم لنبي بيت الله تعالى ويرفع بناء الكعبة المشرفة، ويسترسل في الدعاء والابتهال أن يتقبل الله منه عمله، فهو سبحانه مطلع وشاهد وعليم بالنوايا والسرائر.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . «فتغمة الدعاء وموسيقى الدعاء وجو الدعاء .. كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة .. وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل. رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى، ويتحرك ويشخص، وتفيض الحياة منه .. إنها خصيصة (التصوير الفني) بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد.

وماذا في شأيا الدعاء؟ إنه أدب النبوة، وإيمان النبوة، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود. وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم بهذا الإيعاء» (٢٠٧).

التفسير:

١٢٧ - وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ واذكر يا محمد أيضاً حين بنى إبراهيم فوق أسس الكعبة، ورفعها هو وإسماعيل ابنه وهما يقولان داعين: ربنا تقبل منا بناء هذا البيت الذي سيكون قبلة ومطافاً لعبادتك، إنك سميع للدعاء، عليم بما وراءه من النية والشعور.

وعبر بالمضارع فقال: وَإِذْ يَرْفَعُ. مع أن رفع القواعد كان قبل نزول الآية، وذلك ليخرجه في صورة الحاضر في الواقع لأهميته.

١٢٨ - رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

إنه نداء مصدر بهذا الاسم الكريم: ربنا.

إنه رجاء العون من ربهما أن يكون إسلامهما خالصاً لله، وأن يثبتهما على الإسلام والإيمان.

وأن يمتد إلى ذريتهما فيشملاهما بالهداية والتوفيق، حتى يكون بعض هذه الذرية جماعة مستسلمة ومنقادة.

لله في إيمانها وطاعتها، وَأَرَبْنَا مَنَاسِكَنَا. وعلمنا شرائع ديننا وأعمال حجنا كالطواف والسعى والوقوف، أو متعباتنا التي تقام فيها شرائعنا كمنى وعرفات ونحوهما.

وَتُبَّ عَلَيْنَا. وفقنا للتوبة والهداية إنك مانح التوبة والمتفضل بقبولها وأنت كثير الرحمة والإحسان.

وقد كان إبراهيم مسلماً لله خالص الإسلام، ليس في دينه شرك ولا وثنية ولا ادعاء بنوة لله.

قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (آل عمران: ٦٧)

وقد كان دين إبراهيم يسيراً في شرائعه وأحكامه، إذ جاء في صحائف ولم يأت في كتاب، كالإسلام واليهودية والنصرانية.

وقد امتاز الإسلام بأنه تناول كل فروع الحياة، وأعطاه الأحكام المناسبة لها، فكان لذلك صالحاً لكل زمان ومكان. وقد طلب إبراهيم وإسماعيل من ربهما أن يجعل من ذريتهما جماعة مسلمة له تعالى ولم يعمما الذرية لما وقر في نفسيهما من أن بعضهم سيكونون كفاراً، ولما عرفاه من طبائع البشر وسيرهم على هواهم، وتكرهم لشرائع رسلهم، وخصا ذريتهما بالدعاء، لأنهم أحق بالشفقة والدعاء لهم بالصالح المطلوب شرعاً.

والتوبة إلى الله معناها الرجوع إليه والالتجاء إلى حماه وطلب التوفيق منه والهدى.

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر، وتكون من ترك ما هو أولى أو من تقصير يؤدي إلى الاجتهاد. وعلى أحد هذين الوجهين تحمل التوبة التي يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها، وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة.

١٢٩ - رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

ونسألك أن تتم على ذريتنا نعمتك بأن تبعث فيهم رسولاً منهم لا من غيرهم يتحدث بلغتهم ويتلو عليهم آياتك ويعلمهم معاني القرآن وأسراره ويرشدهم إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب ويبين لهم أحكام الدين وأسرار الوحي وحكمة التشريع وأهداف الإسلام.

ويعلمهم الحكمة، أي وضع الأمور في نصابها ويربيهم فيحسن تربيتهم ويرشدهم إلى اتباع السنة النبوية التي بها يتم التقفه في الدين ويظهرهم من دنس الشرك وقبح العادات.

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ : الغالب الذي لا يقهر.

الْحَكِيمُ : المدبر عن حكمة وإتقان.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في أسمى درجات البلاغة والحكمة، لأن أول تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه، ثم بتعليم العلم النافع الذي تحصل به التزكية والتطهير من كل ما لا يليق التلبس به في الظاهر أو الباطن.

لقد كان إبراهيم أباً وفيّاً أكثر الدعاء لذريته، وطلب من الله أن يرزقها من الثمرات. ثم طلب من الله أن يبعث فيهم رسولا منهم يبين لهم الهداية والعبادة.

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل هي بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد قرون وقرون. بعثة رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل، يقرأ القرآن ويبلغ الوحي ويعلم المسلمين ويبشر بالجنة ويحذر من النار، ويؤدى رسالة ربه، فكان نوراً وهداية ودعوة مثمرة فيها الحياة والسعادة، جمعت العرب ووحدتهم ولقنتهم التوحيد والإيمان، والعلم والأحكام، وصاروا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم.

لقد كان اليهود والنصارى يدعون أنهم أولى بإبراهيم، ويربطون ديانتهم به، ويدعون دعاوى عريضة في الهدى والجنة بسبب وراثتهم لإبراهيم. فاستمعهم القرآن أن إبراهيم حين طلب الإمامة لبنيه وورثته قال له ربه. لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ. وحين طلب الرزق والثمرات والبركة خص بدعوته. مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وحين قام هو وإسماعيل ببناء البيت والتقرب إلى الله كانا يتضرعان إلى الله طلباً للقبول، والتوفيق على الإسلام، وهداية ذريتهما إلى طريق الإسلام، ومناسكه، وأن يبعث في هذه الذرية رسولا منهم، فاستجاب الله لهما وأرسل من أهل البيت الحرام محمداً عبد الله وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله والوارثة لدين الله.

وقد أورد الحافظ ابن كثير حديثاً طويلاً رواه البخارى فيه: أن إبراهيم أخذ ولده إسماعيل وأمه هاجر قرب بيت الله الحرام، وأخذت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات بحثاً عن الماء. ثم سمعت صوت ملاك يبشرها بنزع زمزم، ثم جاءت قبيلة جرهم واستأذنت من هاجر في أن تقيم حول البيت، وشب إسماعيل وتزوج من قبيلة جرهم.

ثم جاء إبراهيم وقد كبر ولده إسماعيل فأخبر إبراهيم ولده أن الله أمره أن يبني له بيتاً، فأعانه إسماعيل، فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. قال: فجعلنا بينينما حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(٢٠٨).

البشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم:

بشرت برسول الله صلى الله عليه وسلم التوراة والإنجيل، وكان صلى الله عليه وسلم استجابة لدعوة إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد صلى الله عليه وسلم رسولا في الأميين ورسولا إلى سائر العالمين.

روى الإمام أحمد عن العرياض بن سارية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني عند الله لخالتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بنى، ورؤيا أمى التى رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»^(٢٠٩).

ملة إبراهيم

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٣٠)

المفردات:

رغب : فى الشيء أحبه، ورغب عنه كرهه.

الملة : الطريقة، وغلب إطلاقها على الدين.

سفه نفسه : امتنها واستخف بها، مثل سفه - يفتح الفاء مشددة - وأصل السفه الخفة، فمن رغب عما يرغب فيه وهو ملة إبراهيم، فقد بالغ فى امتهان نفسه وإهانتها، والاستخفاف بها، وقيل: إن سفه مضمّن معنى جهل أى فقد جهل نفسه، أى: لم يفكر فيما ينفعها.

اصطفيناه : اخترناه للرسالة من بين سائر الخلق.

قصة الآية:

ذكر سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن، وأنه عهد إليه ببناء البيت.

وأردف ذلك بذكر أن ملة إبراهيم التي كان يدعو إليها هي التوحيد وإسلام القلب لله والإخلاص في العمل، ولا ينبغي التحول عنها ولا يرضى عاقل أن يتركها إلا إذا ذل نفسه واحتقرها.

وقد روى في سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرًا، إلى الإسلام، قال لهما: علمتما أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيًا اسمه أحمد، من آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر.

وقال أبو العالية وقتادة: نزلت في اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول، قول الله تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ. (آل عمران: ٦٧-٦٨)

وتفيد الآية أنه كان هناك صراع بين المسلمين من جهة واليهود والنصارى والمشرّكين من جهة أخرى، وأن هذه الطوائف الثلاث كانت تدعى الانتساب إلى إبراهيم والوراثة لدينه وملته، فجاءت الآية لترد على هؤلاء دعواهم لأنهم انصرفوا عن التوحيد الخالص إلى الوثنية والشرك ووصف الله بما لا يليق به.

التفسير:

١٢٠ - وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ. لا أحد يزهد في دين إبراهيم إلا شخص امتن

نفسه واحتقرها لأنه دين التوحيد الخالص.

وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ولقد اخترناه في الدنيا لرسالتنا من بين الخلق. وإنه في الآخرة لفي عداد الصالحين المشهود لهم بالثبات على الاستقامة والخير والصلاح.

قال ابن كثير ما خلاصته:

يقول تبارك وتعالى ردًا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرا من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه. فقال:

يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٨-٧٩).

وقال تعالى: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَاتَّبَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. (النحل: ١٢٠ - ١٢٢)

ولهذا وأمثاله قال تعالى:

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَى عَنْ طريقتة ومنهجه فيخالفها ويرغب عنها .
إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ . أى ظلم نفسه بسفهة وسوء تدبيره فترك طريق الحق واتبع طريق الضلالة والغى .
فأى سفه أعظم من هذا؟ أم أى ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

★ ★ ★

الإسلام

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَىءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢٢٢)

المفردات:

أسلم : أخلص لى العبادة .

التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى .

مسلمون : مخلصون بالتوحيد .

التفسير:

يبين القرآن سماحة إبراهيم ونقاء فطرته، وتوافقه مع الخير والهدى فقد دعاه الله إلى الإسلام بما أراه من الآيات ونصب له من الأدلة على وحدانيته فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرًا، لم يتلأأ ولم يرتب ولم ينحرف واستجاب فور تلقى الأمر.

١٣١ - إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . أَخْلَصْتُ دِينِي لِلَّهِ الَّذِي فَطَرَ الْخَلْقَ جَمِيعًا . وَقَدْ نَشَأَ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْمٍ عِبَادَةً أَصْنَامَ وَكَوَاكِبَ ، فَأَنَارَ اللَّهُ بِصِيرَتِهِ وَالْهَمَّهُ الْحَقَّ وَالصَّوَابَ وَالتَّوْحِيدَ الْخَالِصَ ، وَلَمْ يَكْتَفِ إِبْرَاهِيمَ بِنَفْسِهِ إِنَّمَا تَرَكَهَا فِي عَقِبِهِ وَجَعَلَهَا وَصِيَّةً فِي ذُرِّيَّتِهِ .

١٣٢ - وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ . أَيْ وَصَى بِهِذِهِ الْمِلَّةَ وَهِيَ الْإِسْلَامُ أَوْلَادِهِ ، وَوَصَّى بِهَا يَعْقُوبَ مِنْ بَعْدِهِ أَوْلَادِهِ أَيْضًا ، قَائِلِينَ لَهُمْ : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ سِوَاهُ . فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ : أَيْ فَاتَّبِعُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَاسْتَقِيمُوا عَلَى أَمْرِهِ حَتَّى يَدْرِكَكُمْ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ مُقِيمُونَ عَلَيْهِ .

قال ابن كثير: أى أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المراء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه (٣١٠).

★ ★ ★

الإسلام ملة الأنبياء

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدْنَا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

المفردات:

شهداء : جمع شهيد بمعنى شاهد، أى حاضر .
إذ حضر يعقوب الموت : وقت حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا .
الأمة : الجماعة، والإشارة إلى الأنبياء الثلاثة .
خلت : مضت وذهبت .

لها ما كسبت : ما عملت.

ولكم ما كسبتم : أى أنتم مجازون بأعمالكم.

التفسير:

١٣٣ - أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ . أى اكتمت يا معشر اليهود والنصارى المكذبين محمدًا، الجاحدين نبوته، شهداء حين حضر يعقوب الموت فتدعون أنه كان يهوديًا أو نصرانيًا، فقد روى أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم: الست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية (٣١١).

وخلاصة ذلك: أنتم لم تحضروا ذلك فلا تدعوا عليه الأباطيل وتتسبوه إلى اليهودية أو النصرانية فإنى ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة وبها وصوا بنيتهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم.

إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تُعْبَدُونَ مِنْ بَعْدِي : وجه يعقوب الوصية لبنيه فى صورة سؤال لبيان شدة اهتمامه بأمرهم، وليطلب يسأله جوابًا منهم يعبر عن رسوخ إيمانهم وعقدتهم النية على أن يخصصوا الإله الحق بعبادتهم: قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه، والعم شبيهه بالأب، روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « عم الرجل صنو أبيه » (٣١٢).

أى قالوا نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده ووجوب عبادته لا نشرك به سواء.

وقد كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام والكواكب والحيوان وغيرها، وكان يكفى فى جوابهم أن يقولوا نعبد الله، ولكنهم أطنبوا وأسهبوا اغتباطًا وتمسكًا بالحق، وإذًا بأنه عقيدة مشتركة بين الأنبياء الثلاثة كما هو عقيدته.

وذكروا إلهًا واحدًا للتأكيد، وللتلذذ بالإقرار بالوحدانية وأكدوا أيضا بقولهم: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ: ونحن له منقادون خاضعون معترفون له بالعبودية متوجهون إليه عند الملمات.

قال ابن كثير:

كما أن الإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم.

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون . (الأنبياء : ٢٥) والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث، فمنها قوله صلى الله عليه وسلم: « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » (٣١٣).

١٣٤ - تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

تِلْكَ . إشارة إلى إبراهيم وبنيه.

أى أن إبراهيم وذريته أمة قد انقضت ومضت، لها جزء ما كسبت من خير أو شر، فإن من سنة الله فى عباده أن يتحمل كل إنسان مسئولية عمله ولا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله هو، ولا يسأل عما عمل سواء.

قال تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَمْ تَرَ وَازِرَةً وَزُجْرًا أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . » (التجم : ٣٦ - ٣٩)

وجاء في الحديث: « يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم » (٣١٤).

وقال الغزالي: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه، والطمآن يروى إذا شرب والده وإن لم يشرب، فالعاصي ينجو بصلاح والده.

وقد كانت الدعوة إلى الإيمان بالله والعمل الصالح رسالة الأنبياء جميعًا، فهم هداة إلى التوحيد، ودعاة إلى مكارم الأخلاق، ومرشدون إلى إخلاص العمل لله، وإسلام الوجه له، واتباع تعاليم الإسلام.

وفى القرآن الكريم آيات صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء، وانتسب إليه اتباعهم، فتوح قال لقومه : وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . (يونس : ٧٢) وموسى قال لقومه : يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . (آل عمران : ٥٢)

والحواريون قالوا لعيسى: آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ . (يونس : ٨٤)

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرفت قلوبهم لدعوته وقالوا: آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . (التقصص : ٥٣)

لقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات مترابطة في بنية الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أن أكملت البنيان وملأت ما بقي من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: يجب أن نفهم أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة ليس نقصًا لها وإنما وقوفًا بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر.

مثل ذلك كمثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته فقصر غذاءه على اللبن.

وجاء الثاني في مرحلته التالية فقرر له طعامًا ولينا وطعامًا نشويًا خفيفًا.

وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها فأمر له بغذاء كامل.

لاريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقًا كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه. هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدق بعضها بعضا من ألفها إلى يائها (٣١٥).

قال صلى الله عليه وسلم: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فإنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٣١٦).

محاورة

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٥)

المفردات:

حنيفاً : مائلاً عن الباطل إلى الحق من الحنف بمعنى الميل أو مستقيماً من الحنف بمعنى الاستقامة ، فهو يستعمل في المعنى وضده .

التفسير:

وقالت اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق . وقالت النصارى لهم : كونوا نصارى تهتدوا .

قل لهم يا محمد: ليس الهدى في اتباع ملتكم ، بل الحق في أن تتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، فاتبعوا أنتم يا معشر أهل الكتاب ما اتبعناه ، لتكونوا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون في هداه .

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال :

قال عبد الله بن سوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله : وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا .

ومقصود الآية : إيمان اليهود والنصارى في اللجاجة وادعاء كل فريق منهم أن ملته هي الملة المثلّى ورغبته في أن يدخل المسلمين فيها .

والمسلم لا يتبع هذه الملة ولا تلك ، لأن كليهما قد حرّفت وخرّجت عن أصولها الصحيحة ، ومازجها الشرك ، وبعدت عن ملة إبراهيم . وإنما يتمسك المسلم بالإسلام الذي أحيا ملة إبراهيم نقية طاهرة .

الإيمان بالكتب والرسل

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مَنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنِ لَوَلَوْا فَإِنَّمَا
هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

المفردات:

الأسباط : جمع سبط وهو ولد الولد، من السبط وهو التتابع، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدا خرجت من كل
منهم ذريات كثيرة، أطلق على ذرية كل واحد منهم سبط بالنسبة لجدهم يعقوب. فالأسباط في
بنى إسرائيل، قبائل يهودية، تنتمي إلى أصل واحد كالقبائل العربية وكانوا اثني عشرة قبيلة كما
قال تعالى: قَطَعْنَاهُمْ اثْنِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا . (الأعراف : ١٦٠)

تولوا : أعرضوا .

صبغة الله : فطرة الله التي فطر الناس عليها فإنها حلية الإنسان، كما أن الصبغة حلية المصبوغ.

المعنى الإجمالي:

قولوا أيها المؤمنون آمنا بالله وما أوحى إلينا وما أوحى إلى النبيين والمرسلين كافة لا نفرق بين أحد منهم،
فلا تؤمن ببعض وتكفر ببعض كما يفعل غيرنا من أهل المال، ونحن لله مستسلمون، فإن آمن أهل الكتاب مثل
إيمانكم هذا فقد اهتدوا إلى سواء السبيل، وإن أعرضوا وتعادوا في عنادهم فإنما هم في نزاع مستمر وخلاف
فيحكم الله من شرهم وينصرك عليهم وهو السميع لما يقولون، العليم بما يعملون، والإيمان على هذا الوجه
صبغة الله حلاكم بها، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون.

التفسير:

١٣٦ - قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا .. أى قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في
اتباع ملتهم، قولوا لهم: ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف، وإنما الهداية في أن نصدق
بالله وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله لنعمل بما فيه.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ . والمراد بما أنزل إليهم الصحف التي أنزلها

الله إلى إبراهيم، والشار إليها بقوله تعالى: **إِنَّ هَذَا لَنَبِيِّ الصُّحُفِ الْأَوَّلَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى.**
(الأعلى: ١٨-١٩)

وَمَا أَوْتِيَ مُوسَى وَعِيسَى : وآمنا بالتوراة التي أنزلها الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعضهم ونكفر بالبعض الآخر كما فعلتم أنتم يا معشر اليهود إذ آمنتم بموسى وكفرتكم بعيسى ومحمد . وكما فعل النصارى إذ آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

فالمؤمنون يؤمنون بالأنبياء والرسل جميعاً بدون تفرقة بينهم، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . ونحن لدينا خاضعون بالطاعة متعوتون له بالمبودية.

ومن جمال هذه الآية أنها ابتدأت بالإيمان الذي هو فعل القلب واختتمت بالإسلام الذي هو فعل الجوارح.

قال الإمام الرازي: «فإن قيل كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان في زمانه، فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع قيام المعجزة على يديه، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق» (٢١٧).

١٣٧ - فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنُ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فإن آمن أهل الكتاب مثل إيمانكم، وصدقوا مثل تصديقكم، فقد اهتدوا إلى سواء السبيل.

وقال ابن جرير الطبري: «فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبيائه فقد اهتدوا».

حاصل معنى الآيتين:

قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل إلينا في القرآن وما أنزل إلى إبراهيم وذرياته من الأنبياء، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مخلصون، فإن ترتب على هذا البيان الشامل لما عند أهل الكتاب وما عندكم أنهم دخلوا في الإيمان بسبب اعتراف وشهادة مثل الشهادة التي ثبت لكم الإيمان بموجبها فقد اهتدوا إلى الحق، «وإن تولوا فإنما هم في شقاق» أي وإن أعرضوا عن الدخول في الإيمان بهذا الاعتراف، وهرقوا بين الرسل، فآمنوا ببعض، ولم يخلصوا لله، فما هم إلا غارقون في خلاف وعداوة، وليسوا طلاب حق.

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ : يكفي من الكفاية بمعنى الوقاية. والمعنى: هسيكك الله شرهم وينصرك عليهم فهو سميع لما يقولونه فيك، عليم بما يبيتونه لك ولأتباعك من مكر وكيد، وهو الكفيل بكف بأسهم وقطع دابرهم.

وقد أنجز الله وعده بتفريق كلمتهم، وقتل بنى قريظة وجلاء بنى النضير، وغير ذلك مما حاق بباقى اليهود، وكل ذلك بفضل الله .

١٣٨ - صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . صِبْغَةَ اللَّهِ : قال ابن عباس: دين الله، وانتصاب

صبغة الله إما على الإغراء كقوله (فطرة الله) أى الزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم بدلا من قوله ملة إبراهيم.

وقال سيبويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: آمَنَّا بِاللَّهِ كقوله وعد الله (٢١٨).

والاستقحام فى قوله: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِغَةً. للإنكار والنفى.

والمعنى: لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذى يصيغ عباده بالإيمان، ويظهرهم من أدران الكفر والضلال، فهى صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له، بخلاف ما يتلقنه أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأديان الباطلة فهو من الصبغة البشرية التى تجعل من الدين الواحد أدياناً مختلفة ومذاهب متنافرة.

وهذا التركيب: وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِغَةً. يدل بحسب أصل الوضع اللغوى على نفى أن يكون ديننا أفضل من دين الله، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه فى الحسن، وهذا الاحتمال لم ينفه التركيب بحسب أصل الوضع ولكن مثل هذا التركيب صار أسلوباً يفهم منه بمعونة مقام المدح نفى مساواة دين الله فى الحسن، كما يفهم منه نفى أن يكون هناك دين أحسن منه، وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق، والأخلاق الكريمة، والآداب السمعة، والعبادات الصحيحة، والسياسة الرشيدة، والمعاملات القائمة على رعاية المصالح.

وقوله تعالى: وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ. عطف على . آمَنَّا بِاللَّهِ . فى قوله تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ . والمعنى: قل لهم يا محمد إننا معشر المسلمين نعبد الله وحده وصيغته هى صيغتنا ولا نعبد غيره، فلا نتخذ الأحيار والرهبان أربابا يزيدون فى ديننا وينقصون، ويحلون ويحرمون، ويمحون من النفوس صبغة التوحيد، ليحلوا محلها بأهوائهم صبغة الشرك والكفر.

شبهة تفتضح وحجة تتضح

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ (١٢٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْعَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

المفردات:

اتحاجونا: اتجادلوننا، من حجه يحاجه حاجة وحجاجاً أى جادله.

والأسباط: هم أولاد يعقوب، والمراد بهم هنا أنبياءهم.

وما الله بغافل: أى وما الله بساه، بل هو عالم.

التفسير:

١٢٩ - قُلْ أَتُحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ. قولوا لهم اتجادلوننا فى الله زاعمين أنه لا يصطفى أنبياء إلا منكم؟

وهو ربنا وربكم وكل شيء، لا يختص به قوم دون قوم، يصيب برحمته من يشاء ويجزى كل قوم بأعمالهم، غير ناظر إلى أنسابهم ولا أحسابهم، وقد هدانا الطريق المستقيم فى أعمالنا ووزقنا صفة الإخلاص له.

ولم توصف أعمال المسلمين بالحسن، وأعمال سواهم بالسوء، تجنباً لنفور المخاطبين، واكتفاء بالتعريض اللطيف الذى توحى به جملة: وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ.

١٤٠ - أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

قولوا لهم: اتجادلوننا فى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبنائه الأسباط، زاعمين أنهم كانوا يهوداً أو نصارى مثلكم، مع أنه ما أنزلت التوراة والإنجيل اللذين قامت عليهما اليهودية والنصرانية إلا من بعد هؤلاء، وقد أخبرنا الله بذلك، أفأنتم أعلم أم الله؟ بل إن الله قد أخبركم أنتم بذلك فى أسفاركم، فلا تكتنموا الحق المدون فى أسفاركم هذه. ومن أظلم ممن كتم حقيقة يعلمها وسيجازيكم الله على ما تلجون فيه من باطل فما الله بغافل عما تعملون.

قال ابن جرير:

وهذه الآية احتجاج من الله تعالى لتبنيه صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى الذين ذكر الله قصصهم. يقول الله لتبنيه صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى: اتحاجوننا في الله وتزعمون أن دينكم أفضل من ديننا وأنكم على هدى ونحن على ضلالة ببرهان من الله فتدعوننا إلى دينكم فهاتوا برهانكم على ذلك فتنبهكم عليه.

أم تقولون إن إبراهيم ومن بعده كانوا هودًا أو نصارى على دينكم، فهاتوا برهاننا على ذلك فتصدقكم، فإن الله قد جعلهم أئمة يقتدى بهم. ثم قال الله تعالى لتبنيه: قل لهم يا محمد إن ادعوا أن إبراهيم ومن بعده كانوا هودًا أو نصارى - أنتم نصارى - أنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم الله؟ (٣١٩).

وقوله تعالى: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ. معناه قل لهم يا محمد إن الأنبياء المذكورين في الآية كانوا هودًا أو نصارى، إن ما زعمتموه من أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هودًا أو نصارى هو على خلاف ما يعلمه الله، لأنه سبحانه قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مبرئين عن اليهودية والنصرانية، وأن يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى بنيه بأن يموتوا على الإسلام، وأن التوراة والإنجيل ما أتيا إلا من بعد أولئك الأنبياء جميعًا، هكذا أخبرنا الله فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله؟ ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم، وإنما سيقولون الله أعلم، فإذا لزمهم هذا القول: قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة، وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حجتها بأجمع بيان وأحكامه.

قال ابن كثير: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ. يعني بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودًا ولا نصارى كما قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (آل عمران: ٦٧)

وقوله: ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟

قال الحسن البصري: كانوا يقرؤون في كتاب الله الذي أتاهم، أن الدين الإسلام، وأن محمدًا رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك وأقروا على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك (٣٢٠).

ويجوز أن تكون الشهادة التي عندهم من الله، هي أوصافه صلى الله عليه وسلم المكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل وقد عرفوا ذلك ولم يقرؤا به.

قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ. (الأعراف: ١٥٧)

وقد آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم فريق من أهل الكتاب وأخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته.

«وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين ولكنه يكابر ويقول: المقصود نبي لم يأت بعد، وقد تصدى لجميع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل ملقطة من أهل البحث والعلم في القديم والحديث، وبينوا وجه انطباقها على حال النبي صلى الله عليه وسلم بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريباً في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء ببعثه وعموم رسالته، ومن هذه البشائر ما جاء في سفر التثنية من التوراة: (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به)».

«والنبي المائل لموسى عليه السلام في الرسالة والشرعية المستأنفة هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإخوة بني إسرائيل هم العرب، لأنهم يجتمعون في إبراهيم عليه السلام، وقوله (وأجعل كلامي في فمه) يوافق حال النبي صلى الله عليه وسلم من الأمية وعدم تعاطي الكتابة» (٢٢١).

وفي ختام الآية يقول سبحانه:

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وفيه تهديد ووعد شديد، أي علمه محيط بعملكم وسيجزيك عليه.

١٤١ - تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . الأمة المشار إليها في

الآية: إبراهيم وأبناءؤه الرسل، ومعنى الآية:

أن أمامكم ديناً دعيتم إلى اتباعه، واقتربت دعوته بالحجة الواضحة، فانظروا في دلائل صحته وسمو حكمته ولا تردوه بمجرد دعوى: أن آباءكم السابقين كانوا على ما أنتم عليه الآن. دعوكم هذه لا تقيد «ولو فرضنا تسليمها لكم، فإن الشرائع تختلف باختلاف الأمم، فتلك أمة مضت لها عملها وفق شريعته وهذه أمة أخرى لها عملها حسب شريعته ولا تسألون عن أعمال آبائكم وشريعتهم بل عن أعمالكم أنتم، وفق شريعتكم التي شرعها الله لكم وهي الإسلام، فلا تمسكوا بشريعة كانت لمن قبلكم، بل تمسكوا بشريعة الإسلام التي نسختها، وقام الدليل على صحتها وقد تعبدكم الله بها» (٢٢٢).

وقد تكررت هذه الآية للمبالغة في تحذير أهل الكتاب من تركهم لدين الإسلام الذي كلفوا به، وادعائهم أنهم على دين آباؤهم الأنبياء.

والى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى في اتباع ملتهم، وأقامت الحجة على كذبهم واقتراثهم، وأرشدتهم إلى الدين الحق. ودعوتهم إلى الدخول فيه، وويختم على الحاجة في دين الله بغير علم، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتماداً منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئاً يوم الدين.

★ ★ ★

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.
تم الجزء الأول ويليهِ الجزء الثاني إن شاء الله، أتحدث في بدايته عن قصة تحويل القبلة
من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الأول)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

- (١) إلا إنها سكنت فتنة ... كتاب الله فيه نيا ما كان قبلكم هـ .
رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٠٦) ، والدارسى فى فضائل القرآن (٢٢٣١) . وأحمد (٧٠١) من حديث على بن أبى طالب . قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفى الحارث مقال . قال السيوطى فى «الدرة» : وأخرج ابن أبى شيبه والدارسى والترمذى وضعفه وابن جرير وابن أبى حاتم وابن الأثير فى المصاحف وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان عن على .. فذكره . قلت : وذكره الفتى فى تذكرة الموضوعات وقال : موضوع .
- (٢) كان خلفه القرآن هـ .
رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ح ١٢٣٣ . وأحمد مختصراً ح ٢٤١٣٩ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤١٣٩ .
- (٣) قسمت الصلاة بيني وبين عبدى ١٢ .
رواه مسلم فى الصلاة (٣٩٥) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٥٣) ، والنسائى فى الافتتاح (٩٠٩) ، وأبو داود فى الصلاة (٩٩٩٩) ، وابن ماجه فى الأدب (٣٧٨٤) . وأحمد (٧٢٩١ ، ٧٢٩١ ، ٧٢٩١) ، ومالك فى التمام (١٨٩) من حديث أبى هريرة . وصححه الترمذى .
- (٤) حاشية الجمل على تفسير الجلالين ٦١٧/٤ .
- (٥) ج ٤ ص ٦١٨ .
- (٦) ليس الإيمان بالتمنى . ولكن ما وفر فى القلب وصدقه العمل . ١٨ .
ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار الصليلى فى مسند الفردوس عن أنس . وقال السيوطى فى « الدر الثمور» : وأخرج ابن أبى شيبه عن الحسن قال : إن الإيمان ليس بالتمنى . إن الإيمان ما وفر فى القلب وصدقه العمل . فذكره هكذا موقوفاً .
- (٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١ / ٢٢ بتصرف .
- (٨) يقصد من آية البر رقم ١٧٧ إلى الآية ٢٨١ فى آخر السورة فلنفسه . أن الآيات من ١ - ١١٦ معظمها يتحدث عن اليهود . وأن الآيات من ١١٧ - ٢٨٦ معظمها يتجه إلى بيان التشريعات للمسلمين .
- (٩) د . عبد الله شحاتة أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم : ١٤ .
- (١٠) سورة السجدة : ٢٠ ، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير اختصار وتحقيق بقلم أحمد محمد شاكراً ١ - ٩٥ .
- (١١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الأول : ٢٩ .
- (١٢) تفسير المنار لمسيد محمد رشيد رضا .
- (١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٩٧/١ .
- (١٤) نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى ٢٨ .
رواه أحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٥٢٨ ، ١٦٥٢٩) ، والدارسى فى الرقائق (٢٧٤٤) من حديث أبى جمعة .
- (١٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ٩٩/١ .
- (١٦) عمدة التفسير عن ابن كثير ١٠٠/١ .
- (١٧) عمدة التفسير عن ابن كثير بتصرف ١٢٢/١ .
- (١٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٢/١ وفيه أيضاً وجمل (لا يؤمنون) خبر إن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون وقوله : (سواء عليهم أن نترهم أم لم نترهم) جملة محترضة هـ . ويجوز أن تكون جملة (لا يؤمنون) مؤكدة للثبوت فيها : (سواء عليهم أن نترهم أم لم نترهم) أى هم كفار فى كلا الحالتين فهذا أكد ذلك بقوله : (لا يؤمنون) .
- (١٩) تفسير القاسمى : ٤١/٢ .
- (٢٠) تفسير القاسمى ٤١/٢ ويشير السياق إلى الآية الخامسة من سورة فصلت وهى (وقالوا طوبى لنا إذا دعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب خامل إنا عاملون) . وقد رفض ابن كثير فى تفسيره هذه الوجوه كلها وقال : إن الله إنما حال بينهم وبين الإيمان جزاء وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق .
- (٢١) أى عاتب نفسه وتدم على ما فعل .
- (٢٢) أى عاد نظيفاً كالرأى التى يمسح ما عليها من غبار .

- (٢٣) إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء ٢٠ .
رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٢٣٢٤) ، وابن ماجه فى الزهد (١٢٤٤) ، وأحمد فى مسنده رقم (٧٨٩٢) من حديث أبى هريرة .
- (٢٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تعليق أحمد شاكر ١٠٢/١ وقد أخلص النزاع فى هذا المعنى فى شرح عجائب القلب وذكر أن الزنوب والمعاصى تظلم القلب وأن التوبة والتبدم يطردان الخبث عنه فيعود إليه الصفاء .
- (٢٥) التفسير الحديث : المصور مرتبة حسب النزول للأستاذ محمد عزة دروزة الجزء السابع ص ١٥٩ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاه .
- (٢٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٤/١ ، ١٠٥ .
- (٢٧) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم د . عبد الله شحاتة ص ١٢ .
- (٢٨) تفسير المراغى ٥٠/١ وهو اختصار لما ورد فى تفسير المنار ١٤٩/١ من غير تصريح بذلك .
- (٢٩) وقد ورد هذا المعنى فى التفسير الحديث ، وفى ظلال القرآن وفى كثير من كتب التفسير .
- (٣٠) تفسير المنار ١٤٩/١ .
- (٣١) تفسير المنار ١٤٩/١ والتفسير الوسيط الحزب الأول ص ٣٥ .
- (٣٢) تفسير المنار والتفسير الوسيط ٣٥/١ .
- (٣٣) ذكر القاسمى أن النبي لم يكن يعلم أعيان المنافقين وإنما كان يعرف صفاتهم العامة واستشهد بآيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) سورة التوبة : ١٠١ .
- (٣٤) تفسير القاسمى ٣٥/٢ وفيه أن قلب المؤمن سليم من العلة قال - تعالى - : (لا من أتى الله بقلب سليم) سورة الشعراء : ٨٩ .
- (٣٥) تفسير المنار نقلاً عن الشيخ محمد عبده ١٥٦/١ .
- (٣٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة ١٦٠/٧ .
- (٣٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٠٨/٢ .
- (٣٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١١٠/١ .
- (٣٩) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٨/١ .
- (٤٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١١٠/١ .
- (٤١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٩/١ .
- (٤٢) من أمثلة القرآن : الأمثال الكامنة والأمثال المرسله ومثال الكامنة قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » سورة الإسراء : ٣٩ .
- فإنه فى معنى خير الأمور أوسطها ، ومثال المرسله : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) سورة البقرة : ٢١٦ . (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) سورة الرحمن : ٦٠ .
- (٤٣) الصيب : المطر الشديد الاتهام .
- (٤٤) وقد ذكر الله المثلثين : المائى والتارى - فى سورة الرعد للحق والباطل - فقال تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها . فاحتمل السيل زبداً وأبياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) الرعد : ١٧ - شبه الوحي الذى أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، والسيل إذا جرى فى الأودية احتمل زبداً وغثاء فكذاك الهدى والعلم إذا سرى فى القلوب أثار ما فيها من الشهوات ليذهب بها ، وهذا هو المثل المائى فى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء ..) وهكذا يضرب الله الحق والباطل .
- وذكر التارى فى قوله : (ومما يوقدون عليه فى النار) فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ، عند سبكها تخرج النار ما فيها من الخبث وتصله عن الجوهر الذى ينتفع به ، فيذهب جفاء ، فكذاك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجهوها كما يطرح السيل والتارى ذلك الزبد وهذا الخبث ١٠٠ هـ نقلاً من علوم التفسير لذكر عبد الله شحاتة .. ص ٢٥ .
- (٤٥) تفسير القاسمى : ٥٨/٢ ، التفسير الوسيط ٤٨/١ .
- (٤٦) التفسير الحديث : ١٦٨/٧ ، يتصرف .

- (٤٧) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير : ١١٢/١ ، بتصريف .
- (٤٨) في ظلال القرآن : ٥٠/١ وقد أشار في الهامش قائلاً : (يراجع فصل : التخييل الحسنى والتجسيم في كتاب التصوير الفني في القرآن) .
- (٤٩) تفسير القاسمي، وقد عقب القاسمي على هذا الكلام بقوله - أفاده الزمخشري - أي أنه استفاد هذا المعنى من تفسير الزمخشري .
- (٥٠) رواء الإمام أحمد والترمذي : ٣٧/٤ - ٢٨ عن محمد بن إسماعيل وهو البخاري ثم رواء أيضاً عن طريق الطحاوي وقال الترمذي : (حديث حسن صحيح غريب) ١ هـ نقلًا عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير تحقيق شاكِر : ١١٧/١ .
- (٥١) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير : ١١٧/١ .
- (٥٢) عمدة التفسير عن ابن كثير : ١٢٠/١ .
- (٥٣) ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله ٤٠ .
- رواء البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ، وفي الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم في الإيمان (١٥٣) ، وأحمد في مسنده حديث رقم (١٥١٨) .
- (٥٤) تفسير مقاتل بن سليمان البلخي تحقيق دكتور عبد الله شحاتة : ٢٧/١ .
- (٥٥) تفسير القاسمي .
- (٥٦) قال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون *) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يؤتي الله الذين آمنوا بالتقوى الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) سورة إبراهيم ٢٤ - ٢٧ .
- (٥٧) علوم التفسير للدكتور عبد الله شحاتة : ٢٤٨ : نقلًا عن الإتيان للسيوطي : ١٣١/٢ . وانظر تاريخ التفسير للشيخ قاسم القيسى مطبعة العلمي بالعراق : ٩٩ وفيه نص كلام السيوطي .
- (٥٨) تفسير القاسمي : ٨٨/٢ وقد استفاد القاسمي هذه المعاني من تفسير الكشاف وعقب عليها بقوله : أفاده الزمخشري .
- (٥٩) تفسير مقاتل بن سليمان تحقيق دكتور عبد الله شحاتة : ٢٨/١ مطبعة المدني بالقاهرة .
- (٦٠) عمدة التفسير عن ابن كثير والنص طويل هناك ومحقق ومصحح من تفسير الطبراني : ٥٦٧/١ .
- (٦١) انظر تفسير الآيات في الطبري وابن كثير والخازن .
- (٦٢) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٧٤/٧ ، بتصريف يسير .
- (٦٣) تفسير مقاتل بن سليمان ، مطبعة المدني : ٢٨/١ .
- (٦٤) مر بك قول مقاتل بن سليمان أيضاً ، ومقاتل بن حيان مفسر ومقاتل بن سليمان مفسر آخر .
- (٦٥) العمدة في التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٦/١ تحقيق أحمد شاكِر مطابع دار المعارف ١٩٥٦ .
- (٦٦) في ظلال القرآن ٢٨/١ باختصار .
- (٦٧) تفسير النمنى : ٣٨/١ .
- (٦٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٧/١ .
- (٦٩) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٧٢/٧ .
- (٧٠) التفسير الواضح للأستاذ محمد محمود حجازي : ٢٦/١ .
- (٧١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٥٦/١ .
- (٧٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٥/١ .
- (٧٣) تفسير القاسمي : ٩٥/٢ .
- (٧٤) المرجع السابق .
- (٧٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٦٥/١ والمعنى وارد في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٩/١ وانظر القاسمي : ٩٥/٢ والتفسير الوسيط : ٣٧١ والتفسير القرآني : ٥٨/١ وتفسير مقاتل بن سليمان مؤسسة الحلبي : ٢٩/١ وتفسير المنار : ٣١٠/١ .

- (٧٦) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني : ٥٢/١ - ٥٣ .
- (٧٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢١/١ ، وقد روى حديث البخاري في التفسير من صحيحه أن الناس تستشغل بآدم يوم القيامة فتقول له لقد علمك الله أسماء كل شيء فانشرح لنا عند الله .
- (٧٨) تفسير القاسمي وقد نقله صاحب التفسير الوسيط .
- (٧٩) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآني للقرآن حيث استعرض آيات القرآن ومنها الآية ٢١ الحجر ، والآية ٥ الكهف ، ثم قال: وعلى هذا نستطيع أن نقول إن إبليس كان من الملائكة ٥٧/١ المجلد ١ .
- (٨٠) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٦٧/١ .
- (٨١) تفسير المنار ٢٨١/١ الطبعة الرابعة في سنة ١٣٧٢ هـ أصدرتها دار المنار ، وقد اختصر هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغي واستندت به أيضاً . انظر تفسير المراغي : ٩٤/١ .
- (٨٢) تفسير المنار ١٧٤/١ وقد تعبه السيد رشيد بقوله : وأقول الآن : إن توبة آدم بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله ، واعتراه مع حواء بظلمتهما لأنفسهما ، وظللهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبر المقتل .
- (٨٣) عرض تفسير المنار مجمل هذه الآيات في صفحة ٢٧٦ من الجزء الأول ، كما عرضها تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٨٩/١ وقد استندت منهما في معظم ما كتبت هنا .
- (٨٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٥/١ ثم قال: وسبأت الأعراف إن شاء الله تعالى .
- (٨٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٣٥/١ .
- (٨٦) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن ٧١/١ .
- (٨٧) في ظلال القرآن .
- (٨٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ٨١/١ .
- (٨٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٦/١ .
- (٩٠) خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ٥٦ .
- رواه مالك في الموطأ كتاب الصلاة (٢٤٣) ومسلم في الجمعة (٨٥٤) وأبو داود في الصلاة (١٠٤٦) والترمذي في الجمعة (٤٨٨؛ ٤٩١) والنسائي في الجمعة (١٣٧٣) (٨٩٤، ٢٧٦٠) من حديث ابن خزيمة .
- (٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٣٦/١ ، والآية من سورة الأعراف : ٢٣ .
- (٩٢) علق الشيخ أحمد محمد شاكر بقوله : هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة من روايات السدي بنحو هذا ثم نسب الحاكم فحورت لفظه من رواية الحاكم في المستدرک بشيء من الاختصار . وقد وافقه الذهبي على تصحيحه . إ هـ . وفي تفسير مقاتل بن سليمان (فتلقى آدم من ربه كلمات) بعد ما هبط إلى الأرض يوم الجمعة يعني بالكلمات : أي قال : رب أكان هذا شيء قدرت على قبل أن تخلقني فسبق لي به الكتاب أتى عامله وسبقك لي منك الرحمة حين خلقتني ؟ قال : نعم يا آدم . قال : يارب خلقتني بديك فسوييتي ونفخت في روحك فعمست فعمدت فدعوت لي برحمتك فسيفت رحمتك إلى غضبك . قال : نعم يا آدم . قال : أخرجتني من الجنة ، وأنزلتني الأرض يارب إن نبتة **فاصلحت** ترجمني إلى الجنة ؟ قال الله عز وجل له : نعم يا آدم . فتاب آدم وحواء يوم الجمعة فهد ذلك قالاً : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نتردد لنا ونرجعنا لنكون من الخاسرين) أهـ تفسير مقاتل : ٣٢/١ تحقيق الدكتور عبد الله شحاتة مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٦٩ .
- (٩٣) ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٧٢/١ .
- (٩٤) تفسير القاسمي ١١١/٢ وهو في التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث مع تغيير يسير .
- (٩٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٧/١ .
- (٩٦) المرجع السابق .
- (٩٧) في ظلال القرآن : ٦٩/١ .
- (٩٨) في ظلال القرآن : ٧٣/١ .
- (٩٩) المرجع السابق ٧٣/١ .

- (١٠٠) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزه بتصرف ١٨٢/٧ .
- (١٠١) ابن سعد : ج ٣ ص ١٢٤ .
- (١٠٢) التفسير الحديث (السورة مرتبة حسب النزول) للأستاذ محمد عزة دروزه ١٨٦/٧ .
- (١٠٣) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٨٠/١ .
- (١٠٤) المرجع السابق .
- (١٠٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٢٨/١ وقد نقلها مختصرة القاسمي في تفسيره .
- (١٠٦) نقلًا عن تفسير القاسمي ١١٤/٢ ، وقد ورد هذا على لسان مجاهد وعلى لسان ابن العالبي في تفسير ابن كثير .
- (١٠٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٢٨/١ .
- (١٠٨) المرجع السابق .
- (١٠٩) ورد هذا المعنى في الآية ١٢ من سورة المائدة وفيها (ولئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار) .
- (١١٠) في ظلال القرآن : ١٨/١ .
- (١١١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٢٨/١ .
- (١١٢) المرجع السابق .
- (١١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٢٨/١ .
- (١١٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٢٩/١ . وقال أحمد شاكر : طلق بن حبيب المعري : تابعي ثقة كان من أعبد أهل زمانه مترجم في التهذيب ، وترجمه أبو نعيم في الحلية ٢ : ٦٢ - ٦٦ .
- (١١٥) في ظلال القرآن : ٨٢/١ .
- (١١٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٠/١ .
- (١١٧) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي : ١٠٣/١ مع تصرف واختصار .
- (١١٨) نقلًا عن تفسير القاسمي : ١١٧/٢ ، وفي تفسير القاسمي : (وإبلاغاً إليهم في القدرة) وقد صوبتها إلى (المعنوية) .
- (١١٩) تفسير مقاليل بن سليمان : ٣٤/١ مطبعة المدني . وانظر تفسير الآيات في الطبري والخازن والبغوي وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير .
- (١٢٠) التفسير الحديث : ١٨٤/٧ وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١ .
- (١٢١) التفسير الحديث : ١٨٤/٧ وعمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١ .
- (١٢٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٠/١ .
- (١٢٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤١/١ .
- (١٢٤) المرجع السابق .
- (١٢٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير .
- (١٢٦) إذا حزبه أمر صلى ٦٥ .
- رواه أبو داود في الصلاة (١٢٩١) . وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٣٧٨٨) من حديث حذيفة .
- (١٢٧) عمدة التفسير وقد علق الشيخ أحمد شاكر عليه بقوله : هو في الطبري : ٨٥٢ وإسناده صحيح .
- (١٢٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١٤٥/١ .
- (١٢٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١٤٧/١ .
- (١٣٠) تفسير المراغي ١١٠/١ الطبعة الثالثة . مصطفى البابي الحلبي .
- (١٣١) تفسير القاسمي نقلًا عن الانتصاف على تفسير الكشاف .

- (١٣٢) قال هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره ولم يعدوه تأويلاً . انظر حاشية المنار : ٣٠٨/١ .
- (١٣٣) تفسير المنار نقلاً عن الإمام محمد عبده ٣٠٨/١ ، وقد نقل هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره المراغي بعد اختصاره ولم يشر إلى مراجعته .
- (١٣٤) الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى (انكروا نعمتي) في الآية السابقة من باب عطف المفصل على المجرى . أي انكروا نعمتي واذكروا إذ نجيتكم من آل فرعون .
- (١٣٥) تفسير المراغي : ١١٣/١ .
- (١٣٦) تفسير فخر الدين الرازي : ٣٦٠/١ .
- (١٣٧) تفسير فخر الرازي : ٣٥٨/١ .
- (١٣٨) الواو هنا الملقف ، وفي الآية التي تفسرها جملة (يذبحون ابنائكم) مفسر لما قبلها ولهذا جاءت بدون حرف عطف .
- (١٣٩) أي كنى موسى البحر .
- (١٤٠) تفسير القرطبي ١ / ٣٩٠ يتصرف واختصار .
- (١٤١) أنتم أحق بعبوس منهم ٧٣ .
- رواه البخاري في الصوم (٢٠٤) وفي تفسير القرآن (٤٧٣٧) ، ومسلم في الصيام (١١٣٠) ، وأبو داود في الصيام (٢٤٤٤) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٢٤) ، والدارمي في الصيام (١٧٥٩) ، وأحمد في مسنده حديث رقم (٣٦٣٩) و٢٨٢٧ ، ٣١٠٢ ، ٢١٥٤) من حديث ابن عباس .
- (١٤٢) صيام يوم عاشوراء أحسب على الله ٧٤ .
- رواه مسلم في الصيام (١١٣٦) في أثناء حديث طويل عن أبي قتادة ، والترمذي في الصوم (٧٥٢) مختصراً ، وابن ماجه في الصيام (١٧٢٨) وقال الترمذي : لا نعلم في شيء من الروايات أنه قال صيام يوم عاشوراء كفارة سنة إلا في حديث أبي قتادة ويحدثني أبي قتادة يقول أحمد وإسحاق .
- (١٤٣) تفسير المراغي : ١ / ١٢٠ ، مطبعة مصطفى الحلبي .
- (١٤٤) أي أدلوا أنفسكم وامتنعوا عن التكبر والتجبر وتواضعوا لأمر الله .
- (١٤٥) الشفار : السلاح .
- (١٤٦) تفسير الكشف : ١ / ٢٨١ ، وفيه فإن قلت : ما الفرق بين الفأوات ؟ قلت : الأولى للتسبيح لا غير لأن الظلم سبب التوبة ، والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم .
- (١٤٧) انظر تفسير ابن كثير : ١ / ٩٤ .
- (١٤٨) تفسير المراغي : ١ / ١٢١ .
- (١٤٩) تفسير ابن جرير الطبري : ١ / ٢٩٨ .
- (١٥٠) الميزان في تفسير القرآن العلامة السيد محمد حسين المصطفي : ١ / ١٩١ منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت لبنان ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣م .
- (١٥١) انظر تفسير ابن كثير : ١ / ٩٧ .
- (١٥٢) انظر تفسير الكشف للزمخشري .
- (١٥٣) تفسير ابن جرير الطبري : ١ / ٢٩٨ .
- (١٥٤) تفسير ابن جرير الطبري : ١ / ٢٠٢ .
- (١٥٥) تاليفون آييون ٨١ .
- رواه البخاري في الحج (١٧٩٧) ، وفي الجهاد (٢٩٩٥ ، ٣٠٤٨) وفي المغازي (٤١١٦) وفي الدعوات (٦٢٨٥) ، ومسلم في الحج (١٣٤٤) ، والترمذي في الحج (٩٥٠) ، وفي الدعوات (٢٤٤٧) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩ ، ٢٧٧٠) وأحمد (٤٨٨٢ ، ٤٩٤٠ ، ٥٢٧٢ ، ٥٧٩٦ ، ٦٢٧٥ ، ٦٢٣٨) مالك في الحج (٩٦٠) والدارمي في الاستئذان (٣١٨٢) من حديث ابن عمر . ورواه البخاري في الجهاد (٣٠٥٨ ، ٣٠٦٨) وفي الثياب (٥٦٢٨) وفي الأدب (٦١٨٥) ومسلم في الحج (١٢٥٣٥) ، وأحمد (١٢٥٣٥ ، ١٢٥٥٧) من حديث أنس . ورواه الترمذي في الحج (٢٤٤٠) وأحمد (١٨٠٠٨ ، ١٨٠٧٥ ، ١٨١٨٢ ، ١٨١٨٣) من حديث البراء بن عازب . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٣١١) من حديث ابن عباس .

(١٥٦) قيل لبني إسرائيل (ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة) فبدلوا ٨١.
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣) وفي التفسير (٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم في التفسير (٣٠١٥) والترمذي في التفسير (٩٩٦٦) وأحمد (٢٧٤٩٩) من حديث أبي هريرة.

(١٥٧) تفسير ابن كثير: ١ / ٩٩.

(١٥٨) تفسير المراغي: ١ / ١٣٦، وانظر في وصف الحجر تفسير الكشف: ١ / ٢٨١ حيث ذكر أن الحجر كان من رخام وقيل مثل رأس الإنسان وقيل إن طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان في الظلمة وكان يحمل على حمار. ونرى أن هذا الوصف تزيد من الإسرائيليات.

(١٥٩) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠١.

(١٦٠) تفسير البيضاوي: ١ / ٣٦.

(١٦١) تفسير الطبري: ١ / ١٠١.

(١٦٢) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠١.

(١٦٣) تفسير الطبري: ١ / ٣١٥.

(١٦٤) تفسير أبي حيان: ١ / ٢٢٢.

(١٦٥) تفسير الطبري: ١ / ٣١٥.

(١٦٦) تفسير البيضاوي: ١ / ٢٧.

(١٦٧) تفسير البيضاوي: ١ / ٢٧.

(١٦٨) تفسير البيضاوي: ١ / ٢٧.

(١٦٩) تفسير البيضاوي: ١ / ٢٧.

(١٧٠) تفسير البيضاوي.

(١٧١) انظر تفسير ابن كثير وتفسير الكشف للزمخشري.

(١٧٢) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الحزب الأول ص ١٢٣.

(١٧٣) انظر الآيات ١٦٣ - ١٦٦ من سورة الأعراف وفي أولها يقول تعالى: (وَأَسْأَلُهُمْ فِي الْقُرْبَةِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْيَوْمَ عَذَابٌ لَئِيمٌ) (١٦٣) وَكَانَتْ حَاصِرَةُ الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُرُونَ لِي السَّيِّئُ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِجَابُهُمْ يَوْمَ سَبِّهِمْ ذُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْشُكُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٤) الأعراف.

(١٧٤) تفسير المراغي: ١ / ١٣٩.

(١٧٥) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد محمد شاكر: ١ / ١٢٢ ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني: ٧٤ / ١، وقد ذهب الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسير المراغي: ١ / ١٤٠ إلى أن ابن كثير قال: والصحيح أن المسخ معنوي كما قال مجاهد لا صوري كما قال غيره. وبعبارة المراغي غير دقيقة كما ترى.

(١٧٦) أخرجه الإمام أبو عبد الله بن بطة وفي سننه (أحمد بن محمد بن مسلم) وإسناده الحافظ البغدادي ويأتي رجاله مشهورون على شرط الصحيح اهـ مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني: ١ / ٧٥.

(١٧٧) رواه أبو ابن حاتم وابن جرير عن عبيدة المملاني ١٠ هـ مختصر تفسير ابن كثير اختصار محمد علي الصابوني: ١ / ٧٦. وانظر تفسيره أبو حيان وابن جرير الطبري وفيهما النص أيضاً.

(١٧٨) وموضوع قصة البقرة موجود في التوراة في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر التثنية. وطريقة التبرئة فيها أن يذبحوا عجلة وأن يأتي كل منهم ويفعل يديه على جسمها ويترنوا من التهمة، فإن كان بريئاً سلم، وإلا أسابه الله بعقوبة الكذب.

(١٧٩) نشرت إحدى المجلات الهابطة صورة لرجل وإمرأة تلاقت أرجلهما، وكتبت تحت الصورة (والنكت الساق الساق). وهذا من الهزء بآيات الله، ولا ينبغي المؤمن أن يفعلها.

(١٨٠) مجلة لواء الإسلام: العدد السابع السنة الثانية ص ٨.

(١٨١) (ما) يسأل بها عن الحقيقة، ويسأل بها أيضاً عن الصفة، تقول مازيد؟ فيقال عالم أو طيب.

(١٨٢) تفسير الطبري: ١ / ٢٣٥.

(١٨٣) خاصة إذا انضم إليها الصحة والشباب والحيوية وتناسق اللون ووضوحه.

(١٨٤) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً موصولاً وابن جرير عن ابن عباس مرفوعاً معضلاً وغيرهما.

(١٨٥) تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٥٢٣.

(١٨٦) تفسير ابن جرير الطبري: ١ / ٢٥٨.

(١٨٧) انظر تفسير الكشاف للزمخشري: ١ / ٢٨٨.

(١٨٨) تفسير الكشاف: ١ / ٢٨٩. وفيه أنهم طلبوا البقرة الموصوفة ٤٠ سنة، ومثل هذه الأخبار لم ترد عن المصوم صلى الله عليه وسلم ومريده إلى الإسرائيليات التي لا يعلم صدقها من كذبها فنهت عن قبولها أو رفضها وحسبنا ما ورد في القرآن الكريم عن البقرة والمطلة في القصة لا تتوقف على ما أورده الزمخشري منقولاً عن الإسرائيليات.

(١٨٩) ما نهيتكم عنه فأجتروه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم ٩٥.

رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٢٨)، وسلم في الفضائل (١٢٢٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩) والنسائي في المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه في المنعم (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبي هريرة.

(١٩٠) «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأغلوطنات ٩٥.

أخرجه أبو داود في العلم (٢٦٦٥) وأحمد (٢٣١٧٦) من حديث معاوية. ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٢١٧٥) عن رجل من أصحاب النبي. تبييه ذكره بلفظ (الغلوطات). قال النجاشي في الفتيش. وفيه: عبد الله بن سعد قال أبو حاتم مجهول قال: ابن القطان صدق أبو حاتم لم يلقه لقلته وذكره الساجي في ضعفاء الشام.

(١٩١) تفسير التحرير والتنوير: ١ / ٥٢٩.

(١٩٢) تفسير الكشاف لأبي القاسم جاز الله محمود بن عمر الزمخشري المولود سنة ٤٦٧ والمتوفى ٥٢٨ هـ: ١ / ٢٩٠.

(١٩٣) يظهر إلى ما جاء في الفصل الحادي والعشرين من سفر ثنية الأشتراع:

{ إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتمتلكها وأقاما في الحقل لا يعلم من قتله يخرج شيوخك وقضايتك ويقسمون إلى المدن التي حول القتل فالمدينة القريبة من القتل، يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرق عليها وينحدر شيوخ تلك المدينة بالمجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرق فيه ولم يزرع ويكسرون عنق المجلة في الوادي.

ويقتل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتل أيديهم على المجلة المكسورة العنق في الوادي ويصرخون ويقولون أريدنا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر أغفر لشعبك إسرائيل الذي قديت يا رب ولا تجعل دم بري في وسط شعبك إسرائيل فيغفر لهم الدم) ١ هـ عن الميزان في تفسير القرآن للعلامة محمد حسين الطباطبائي: ط ٢ بيروت لبنان: ١ / ٢٠٠.

ونج المجلة في هذه القصة يكون وسيلة لإظهار الجاني فمن ارتكب أو امتنع اتجه الشك إليه وحاصرناه بالأسئلة حتى نصل إلى الحقيقة. فالإحياء هنا معنى على حد قوله تعالى: ولكم في القصاص حياة. أي حفظ للدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل النفس، وعلى حد قوله سبحانه: ومن أحيانا فكانما أحيانا الناس جميعاً. (فالإحياء معناه الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين) تفسير المنار: ١٥١ / ١.

(١٩٤) انظر تفسير الطبري: ١ / ٣٤٢.

(١٩٥) ناقش الأستاذ الشيخ محمود شلتوت أفكار الأستاذ الإمام فيما ذهب إليه من أن الإحياء حكمي لا حقيقي ونشر ذلك في مجلة رسالة الإسلام، ثم جمع ذلك في تقصير الأجزاء العشر الأولى من القرآن الكريم. ولم يكن ذلك المرجع معي وأنا أكتب هذا التفسير في مدينة العين بدولة الإمارات العربية المتحدة.

(١٩٦) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي: ١ / ٢٠٢. وقد أيد ما ذهبت إليه.

(١٩٧) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب: ١ / ٨٣.

(١٩٨) تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة: ١ / ٣١.

(١٩٩) تفسير الكشاف: ١ / ٢٩١.

(٢٠٠) انتقضت العهد يا أخوة القدرة والخنازير ١٠١.

قال السيوطي في الدر: وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم يوم

قريظة تحت صهيونهم فقال: «يا إخوان القردة والخنازير، ويا عبدة الطاغوت، فقالوا: من أخبر هذا الأمر محمد. ما خرج هذا الأمر إلا منكم» «أتدعونهم بما فتح الله عليكم» بما حكم الله ليكون لهم حجة عليكم.

(٢٠١) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، الحزب الثاني: ١ / ١١٨.

(٢٠٢) مختصر ابن كثير تحقيق محمد على الصاوي: ١ / ٨٢.

(٢٠٣) مختصر ابن كثير: ١ / ٨٢.

(٢٠٤) أهديت للنبي شاة فيها سم - اجمعوا لي ما كان من اليهود هنا - ١٠٤ .

رواه البخاري في الجزية والمواعدة (٢١٦٨) ، وفي المغازي (٤٢٤٩) مختصراً وفي الطب (٥٧٧٧) ، وأحمد (٢٧٣٣١) والدارمي في القدمة (٦٩) .

(٢٠٥) تفسير الفخر الرازي: ٢ / ١٤٣ .

(٢٠٦) تفسير الفخر الرازي: ١ / ١٥٤ .

(٢٠٧) إن المؤمن إذا أذنب كانت نكته سوداء ١٠٥ .

تقدم ص ٣١ .

(٢٠٨) قل أمنت بالله ثم استقم ١٠٥ .

رواه مسلم في الإيمان (٢٨) والترمذي في الزهد (٢٤١٠) وابن ماجه في الفتن (٢٩٧٢) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٤٩٩١، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣) والدارمي في الرقاق (٢٧١٠، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقي . وقال الترمذي: حسن صحيح .

(٢٠٩) تفسير المنار: ١ / ٣٧٠ .

(٢١٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٧٥ .

(٢١١) روى أحمد في المسند بنحوه: ٤ / ٢٧٠، (جاسي)، وكذلك روى مسلم: ٢ / ٢٨٤، والبخاري بنحوه: ١ / ٣٦٧ (فتح) وذكره الطبري في تفسيره: ١٤٦٣ . ملحقاً بغير إسناد . ١ - هـ نقلنا عن تعليق أحمد شاكر .

(٢١٢) تفسير المنار: ١ / ٢٧٢ .

(٢١٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٧٥ . هامش .

(٢١٤) مجلة لواء الإسلام: العدد ١١ السنة الثانية .

(٢١٥) قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ هَدًى وَإِنَّا لَوَاقِعُ الْبُحُورِ بِمَا اسْتَفْطَرْنَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَخَشَوْنَ اللَّهَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ ثُمَّ قِيلَ: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) سورة المائدة: ٤٤ .

(٢١٦) اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافع عن نبيك ١١١ .

رواه البخاري في المناقب (٢٥٣١) وفي المغازي (٤١٤٥) وفي الأدب (٦١٥٠) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٧، ٢٤٩٠) والترمذي في الأدب (٢٨٤٦) وأبو داود في الأدب (٥٠١٥) وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٣٩١٦) من حيث عائشة بنحوه .

(٢١٧) أجب عني، اللهم أيد بروح القدس ١١١ .

رواه البخاري في الصلاة (٤٥٣) وفي بدء الخلق (٣٢١٢) وفي الأدب (٦٢٥٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٧) والتمثالي في المساجد (٧١٦) وأحمد في مسنده حديث رقم (٧٥٨٨) من حديث سعيد بن المسيب .

(٢١٨) أجههم وجبريل معك ١١١ .

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٣) وفي المغازي (٤١٢٤) وفي الأدب (٦١٥٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٥) وأحمد في مسنده (١٨١٨٦، ١٨٢١٤، ١٨٢١٥) من حديث البراء .

(٢١٩) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: ٢ / ١٣٥ .

(٢٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٨٠، والنس في تفسير الطبري: ١٥٤٦ .

(٢٢١) تفسير سورتي الفاتحة والبقرة د . محمد سيد طنطاوي ص ٢٥٥ .

(٢٢٢) تفسير الكشاف: ١ / ٢٢٥ .

(٢٢٣) تفسير الفخر الرازي: ١ / ٤٢٢ .

(٢٢٤) في سورة طه يقول سبحانه: وَمَا أَصْلَبُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٢٢) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٢٣) قَالَ فَإِنَّا فَعَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَنَادٍ وَأَهْلُهَا السَّامِرِيُّ (٢٤) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَتُكْفِرُ بِالْعَهْدِ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكُمْ غُصْبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٢٥) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُورَارًا مِنْ رَبِّنَا الْقَوْمُ فَفَعَلْنَاكَ كَذَلِكَ الْفَى السَّامِرِيُّ (٢٦) فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِبِلًّا جَسَدًا لَا خَوَارَ لِقَاتُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى نَسِي (٢٧) فَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٢٨) طه: ٨٣ - ٨٩، كما ورد ذلك في سورة الأعراف الآية ١٤٨: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّمْ جِبِلًّا جَسَدًا لَا خَوَارَ لَهُمْ يَرَوْنَ إِلَهًا لَا يَمْلِكُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذَهُمْ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

(٢٢٥) حيك الشيء بمعنى ويسم ١١٨ .

رواه أبو داود في الأدب (٥١٢٠) وأحمد (٢١٨٦) من حديث أبي الدرداء . وذكره السيوطي في الجامع الصغير ونسبه لأحمد في مسنده والبخاري في التاريخ وأبو داود عن أبي الدرداء، الخرائطي في اعتلال القلوب عن أبي برة ، وابن عساكر عن عبد الله بن أنيس . وقال المناوي في التفيض : قال الحافظ العراقي : وإسناده ضعيف وقال الزركشي : روى من طرق في كل منها مقال وقال المصنف في الدرر كاصله الوقف أشبه، أشار بتعدد مخرجه وطرقه إلى دفع زعم الصنفاني وضعه وقوله فيه ابن أبي مريم كذب أبطله الحافظ العراقي بأنه لم يهجمه أحد بكذب ويكتفى بسكوت أبي داود فزعم وضعه بهت بل ولا نسلم حذفه بل ولا ضعفه بل هو حسن . قال الفقي في تذكرة الموضوعات : ابن داود ضعيف، قلت ذكره أبو الفرج والصنفاني في الموضوعات والقروني ذكره في المصاييح في المفخرة وهو موضوع وفي المقاصد فيه بنية وتوايح وفيه ابن أبي مريم ضعيف سيما وقد وقف البعض عليه وقد بالغ الصنفاني فحكم بوضعه ولهذا تعقبه العراقي قال وابن أبي مريم لم يهجم بكذب بل ولا شديد الضعف فهو حسن .

(٢٢٦) تفسير ابن جرير الطبري: ١ / ٤٢٤ .

(٢٢٧) عن كتاب التبا العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز من صفحة ١١٤ - ١٢٢ مع التلخيص والانتقاء .

(٢٢٨) تفسير الرازي: ١ / ٤٢٣ .

(٢٢٩) لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ١٢١ .

قال: السيوطي في الدرر : وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس .

(٢٣٠) لو أن اليهود تمنوا الموت لماثوا ، ولراوا مقاعدهم من النار ١٢١ .

رواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٢٦٦) من حديث ابن عباس . قال السيوطي في الدرر : وأخرج أحمد والبخاري ومسلم الترمذي والنسائي وابن مريويه وأبو نعيم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ولو أن اليهود تمنوا الموت لماثوا ، ولراوا مقاعدهم من النار . وقال - السيوطي - : وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لو تمنى اليهود الموت لماثوا : قال الهيثمي في المجمع : قلت هو في الصحيح بغير سياقه ، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح . وقال في موضوع آخر : رواه أحمد، وأبو يعلى ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح . قلت : لم أره في الصحيحين بهذا اللفظ .

(٢٣١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار وتعليق أحمد شاكر: ١ / ١٨٤ .

(٢٣٢) تفسير سورتي الفاتحة والبقرة، د. محمد سيد طنطاوي، ص ٢٦٦ .

(٢٣٣) تفسير الكشاف: ١ / ٢٩٨ .

(٢٣٤) قال الزمخشري:

والضمير في (ما هو) لأحدهم و(أن يعمر) فاعل بمزحجه، أي وما أحدهم بمن يزرحجه من النار تعميره، والزرحة : من النار تعميره والزرحة: التبيد والإنجاء، فإن قلت يود أحدهم ما موقعه؟ قلت هو بيان لزيادة حرصهم؛ على طريق الاستئناف، فإن قلت: كيف اتصل لو يعمر، بيود أحدهم؟ قلت هو حكاية لودادتهم ولو في معنى التمني، وكان القياس لو أعمر إلا أنه جرى على لفظ النجبة لقوله - يود أحدهم- فكذلك، حلف بالله ليفعلن، انتهى من تفسير الكشاف: ١ / ٢٩٨ .

(٢٣٥) تفسير ابن جرير الطبري: ١ / ٤٢١ .

(٢٣٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٨٨ .

(٢٣٧) إني سألته عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ١٢٥ .

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٨٠) من حديث أنس بن مالك : سمع عبد الله بن سلام يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يعترفه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني سألته عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي فما أول أشرافه الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما يدرع الولد إلى أبيه أو إلى أمه قال أخبرني بهن جبريل أتت قال جبريل قال نعم قال ذاك عبد اليهود من الملكة فقرا هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أما أول أشراف الساعة فتار تحشر الناس الحديث .

- (٢٣٨) تفسير ابن كثير ، وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير البيضاوي.
- (١٣٩) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩٠ .
- (٢٤٠) اللهم رب جبريل وميكائيل ١٣٦ .
- رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠) وأبو داود في الصلاة (٧٦٧) والترمذي في الدعوات (٢٤٢٠) والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٥٧) وأحمد (٢٤٦٩٩) من حديث عائشة وقال الترمذي : حسن غريب .
- (٢٤١) تفسير البيضاوي: ١ / ٣٢. وقد ذكر اللغات الثمانية في جبريل.
- (٢٤٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩١. ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني: ١ / ٩٥. بتصريف يسير.
- (٢٤٣) إن من البيان لسحراً ١٢٧ .
- رواه البخاري في التناج (٥١٤٦) وفي الطب (٥٧٦٧) والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٨) وأبو داود في الأدب (٥٠٠٧) (٤٦٣٧) ، ٥٣١٠ ، ٥٣٦٩ ، ٥٦٥٤ ومالك في الموطأ الجامع (١٨٥٠) من حديث ابن عمر . ورواه مسلم في الجمعة (٨٦٩) (١٧٨٥٣) من حديث عمار . ورواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٩) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الأدب (٥٠١١) وأحمد (٥٠١١) (٢٧٥٦) ، ٢٨١٠ ، ٢٨٥٦ ، ٣٠١٧ ، ٣٠٩٠ من حديث ابن عباس . ورواه أبو داود في الأدب (٥٠١٢) من حديث بريدة بن الحصيب . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٣٧٩٩ ، ٢٣٨٠٠) من حديث ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (١٥٤٢٤) من حديث معن بن يزيد .
- (٢٤٤) تفسير المنار: ١ / ٣٤٦ .
- (٢٤٥) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن، تأليف عبد الله محمود شحاتة ص ١٢٤ .
- (٢٤٦) منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن، تأليف عبد الله محمود شحاتة ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
- (٢٤٧) تفسير المنار: ج ٩ ص ٥٩ حاشية.
- (٢٤٨) تفسير الكشف: ١ / ٣٧٧ .
- (٢٤٩) تفسير القاضي البيضاوي: ١ / ٣٢ .
- (٢٥٠) المرجع السابق.
- (٢٥١) تفسير البيضاوي: ١ / ٣٣ .
- (٢٥٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ١٩٧ .
- (٢٥٣) صحيح مسلم: ٢ / ٢٤٦، وقوله في آخره نعم أنت، ضبطه النووي في شرحه: ١٧ / ١٥٧ (يكسر التون وإسكان العين وهي نعم الموضوع الممدوح).
- (٢٥٤) إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ١٢٢ .
- رواه مسلم في صفه القيامة (٢٨١٣) ، وأحمد (١٢٩٦٨ ، ١٤١٤٤ ، ١٤٤٠٠ ، ١٤٥٢٢ ، ١٤٦٩٩) من حديث جابر . وذكره الهيثمي في «المجمع» كتاب الفتن باب يثع إيليس سرايا عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من يثع إيليس على البحر لم يمت سرايا فيفتنون فاعظمهم عنده أعظمهم فتنة» . وقال . رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وقروا وفيهم ضعف .
- (٢٥٥) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ١٩٩، بتصريف.
- (٢٥٦) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير ١ / ١٩٩ تحقيق أحمد شاكر.
- (٢٥٧) التفسير التوسيع، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- (٢٥٨) هو جزء من حديث طويل في مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٦٥٧ وأبو داود في الخراج (٢٠٤٣) ، والشافعي في مسنده (٢٩٠) وفي فتح الباري على البخاري ٦ / ١٨٤ - ١٨٥ ، وتخرجه مفصل في شرح المسند.
- (٢٥٩) إن فسخة أم المؤمنين سحرها جارية ١٢٤ .
- الشافعي في مسنده (٢٩٠) قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني من رواية إسماعيل بن عياش عن المدنيين وهي ضعيفة ، وفيه رجالة ثقات .
- (٢٦٠) عمدة التفسير عن الحافظ، ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ٢٠٠ وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني: ١ / ١٠١ فقد أورد كلمة عن حكم السحر عند الأئمة الأربعة وغيرهم.

(٢٦١) هي شجرة النبق.

(٢٦٢) لم يتعود بمثلها ١٢٤.

رواه النسائي في الاستمارة (٥٤٣١) وأحمد (١٦٨١٨) من حديث عقبة بن عامر . قال الميوطي في الدر : وأخبر ابن الضريس وابن الأثيري والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال : بينما أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الجحفة والأبواء إذا غشنا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعض بـ «أعوذ برب الفلق» و«أعوذ برب الناس» ويقول : يا عقبة تود بهما فما تود متوذا بمثلها قال : وسمعتهم يؤمنا بهما في الصلاة .

(٢٦٣) اجتنبوا السبع الموبقات ١٢٤ .

رواه البخاري في الوصايا ح ٢٦٦٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٨٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١ ، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة .

(٢٦٤) -ختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني: ١ / ١٠٢ .

(٢٦٥) في ظلال القرآن ١ / ١٠٢ .

(٢٦٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢٠٨ .

(٢٦٧) إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم ١٤١ .

رواه البخاري في الاعتصام (٢٢٨٩) ومسلم في الفضائل (٢٢٥٨) وأبو داود في السنة (٤٦١٠) وأحمد (١٥٢٣، ١٥٤٨) من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٢٦٨) نهى عن قيل وقال وكثرة السؤال ١٤١ .

رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧) وفي الاستقراض (٤٤٠٨) وفي الأدب (٥٩٧٥) وفي الرقاق (٦٤٧٣) وفي الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم في الأفضية (١٧١٥) من حديث المغيرة بن شعبه .

(٢٦٩) ذروني ما ترككم ١٤١ .

رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم في الفضائل (١٣٢٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٩) والنسائي في المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه في المقدمة (٢) وأحمد (٧٢٢٠) من حديث أبي هريرة . وقد تقدم ص ٩٥ .

(٢٧٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١ / ٣٦٠ مع تصريف يمين.

(٢٧١) مجلة لواء الإسلام السنة الثالثة: العدد ٥ ص ٦ تفسير الأستاذ محمد الخضر حدين.

(٢٧٢) ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ١٤٢ .

قال العراقي في تخريج الأحياء : أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحمد من حديث أبي هريرة وفيه يعقوب بن محمد الأزجزي وموسى ابن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور ، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف والطبراني من حديث حارثة بن النعمان نحوه .

(٢٧٣) تفسير المنار: ١ / ٤٢١ .

(٢٧٤) إذا مات ابن آدم انقطع عمله ١٤٤

رواه مسلم في الوصية ح ٣٠٨٤ ، والترمذي في الأحكام ح ١٢٩٧ ، والنسائي في الوصايا ح ٢٥٩١ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٢٢٨ ، وأحمد ح ٨١٨٩ ، والدارمي في المقدمة ح ٥٥٨ . وهو بالنقل : إذا مات الإنسان الحديث . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٢٧٥) انظر تفسير الكشف: ١ / ٢٠٤ .

(٢٧٦) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ١٤٥ .

رواه مسلم في الأفضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤، ٢٤٩٤٤، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخاري في باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبي أوفى النجاشي أكل ربا خائن وهو خدام باطل لا يحل قال النبي صلى الله عليه وسلم الخديعة في النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقاً .

(٢٧٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢١٥ .

(٢٧٨) تفسير الكشف: ١ / ٢٠٦ .

(٢٧٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢١٧ ، بتصريف واختصار.

(٢٨٠) تفسير القرطبي: ١ / ٧٧ .

(٢٨١) تفسير الكشاف: ١ / ٣٠٦ .

(٢٨٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بتصريف يسير: ١ / ١٠٥ .

(٢٨٣) تفسير ابن كثير: ١ / ١٠٨ .

(٢٨٤) اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ١٤٩ .

رواه أحمد في مسنده حديث رقم (١٧١٧٦) عن بُسر بن أرطاة القرشي . وذكره السيوطي في الدرر وزاد نسبه للبخاري في تاريخه . وذكره السيوطي أيضاً في الجامع الصغير (١٤٥٦) ونسبه لابن حبان في صحيحه والحاكم في المستدرک . وقال الثناوي في الفتيش : إنما هو ابن أبي أرطاة كما . بينه الحافظ بن حجر فقال في الإصابة : الأصح ابن أبي أرطاة قال ابن حبان ومن قال ابن أرطاة فقد وهم اهـ . وقال : وقال يحيى : كان بُسر رجل سوء وأهل المدينة ينكرون سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم ملخصاً وقد رمز المصنف لسمعه وقد عرفت حال بسره أم من دونه فموقوفون في بعض طرقه المذكورة لا كلها قال الحافظ الهيثمي رجال أحمد واحد . إسناد الطبراني ثقات .

(٢٨٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر . وقال في تعليقه على الحديث ، وإسناده صحيح ، ورواه الحاكم في المستدرک: ٢ / ٣١٧ - ٣١٨ من طريق ابن جريج وقال: (صحيح على شرط الشيخين وذكره السيوطي في الدر المنثور ١ / ١٠٨) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم .

(٢٨٦) كان يصلي على راحلته مقبلاً من مكة ١٥٠

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٠٠) والترمذي في التفسير (٢٩٥٨) والنسائي في الصلاة (٤٩١) وأحمد في مسنده حديث رقم (٤٧٠٠) من حديث ابن عمر .

(٢٨٧) روى ابن كثير عن ابن جرير الطبري .

(٢٨٨) ما بين المشرق والمغرب قبله ١٥٠ .

رواه الترمذي في الصلاة (٢٤٤، ٢٤٤) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١١) من حديث أبي هريرة قال الترمذي: حديث أبي هريرة قد روى عنه من غير هذا الوجه وقد تكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه واسمه نجيع مولى بني هاشم قال محمد لا أرى عنه شيئاً وقد روى عنه الناس قال محمد وحديث عبد الله بن جعفر الخمرى عن عثمان بن محمد الأنصبي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أقوى من حديث أبي معشر وأصح . قلت : وأشار إليه النسائي تعليقاً في الصيام تحت حديث (٢٢٤٢) وقال : أبو معشر المدني اسمه نجيع وهو ضعيف وضعفه أيضاً كان قد اختلفت عنده أحاديث تناكر منها محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما بين المشرق والمغرب قبله ورواه مالك في الموطأ (٤٦٠) قال : وحديثي عن مالك عن نافع أن عمر بن الخطاب قال ما بين المشرق والمغرب قبله إذا توجه قبل البيت .

(٢٨٩) جملت إلى الأرض مسجداً وطهوراً ١٥٠ .

رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١، ٥٢٢) والنسائي في الغسل (٤٢٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٢٨٩) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٣٣) والترمذي في السير (١٥٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٥١٧) وأحمد (٧٢٢٥، ٧٣٥٥، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٢٥٦) ، (٢٢٧٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٧٠٣٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (١٩٣٣٦) من حديث أبي موسى .

(٢٩٠) لا أحد أصبر على أذى ١٥٢ .

رواه البخاري في الأدب ح ٦٠٩٩ . وفي التوحيد ح ٧٣٧٨ . ومسلم في صفة القيامة ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبي موسى مرفوعاً : ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله الحديث .

(٢٩١) نقل عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ، ١ / ٢٢٢ . وعلق ابن كثير بقوله : وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة .

(٢٩٢) تفسير الكشاف لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المعزلي ، ٤٦٧ - ٢٨٨ هـ ١٠٧٠ - ٢٠٧ .

(٢٩٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ٢٢٦ بتحقيق أحمد شاكر . قال وهو في المسند: ٦٢٢٢ وفي البخاري ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ (فتح) وفي الأدب المفرد ح ٢٨ ، ٢٩ ، وطبقات ابن سعد ١ / ٢ / ٨٨ .

(٢٩٤) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ، حاشية ١ / ٢٢٧ والآية من سورة محمد: ٢٨ .

- (٢٩٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١ / ٢٧٧ .
- (٢٩٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير. تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٨٨ .
- (٢٩٧) انظر تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة في موضوع الشفاعة .
- (٢٩٨) رواء الطبري ١١١٠ ، والحاكم في المستدرک ٢ / ٢٦٦ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .
- (٢٩٩) عشر من القطرة ١٦١ .
- ومسلم في الطهارة (٢٦١) والترمذي في الأدب (٢٧٥٧) والنسائي في الزينة (٥٠٤٠) وأبو داود في الطهارة (٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٢٩٣) وأحمد في مسنده حديث رقم (٢١٥٣٩) من حديث عائشة .
- (٣٠٠) خمس من القطرة ١٦١ .
- رواه مالك في الموطأ كتاب الجامع (١٧٠٩) والبخاري في اللباس (٥٨٨٩) ومسلم في الطهارة (٢٥٧) وأبو داود في الترجل (٤١٩٨) والترمذي في الأدب (٢٧٥٦) والنسائي في الطهارة (١٠٠ ، ١١) وفي الزينة (٥٠٤٣ ، ٥٠٤٤) وابن ماجه في الطهارة (٢٩٢) وأحمد في مسنده حديث رقم (٧٠٩٩) من حديث أبي هريرة .
- (٣٠١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير بتحقيق أحمد شاكر ١ / ٣٣٢ .
- (٣٠٢) المرجع السابق .
- (٣٠٣) استلم الركن فزمل ثلاثاً ١٦٣ .
- رواه مسلم في كتاب الحج في اثنا حديث طويل في صفة حجة صلى الله عليه وسلم (١٢١٨) والترمذي في الحج (٨٥٦) رواء النسائي في مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود في المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٤٢٥١) والدارمي في المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله .
- (٣٠٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٢٥ ، وقال أيضاً: كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عن البخاري، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه .
- (٣٠٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٤١ .
- (٣٠٦) رواء الشيخان والترمذي وابن ماجه من: حديث أبي موسى، انظر فتح الباري ٨ / ٣٦٧ ، نقلًا عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٤٢ . والآية من سورة هود: ١٠٢ .
- (٣٠٧) في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب ١ / ١١٤ .
- (٣٠٨) رواء عبد بن حميد مطولاً، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير مختصراً، ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولاً . ثم ذكر الحافظ ابن كثير حديثاً آخر في منامه عن ابن عباس أيضاً، من صحيح البخاري ثم قال: «والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواء في المستدرک وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد رواء البخاري كما ترى» .
- (٣٠٩) مسند أحمد بن حنبل ١٧٢١٧ ، ١٧٢١٨ ، ١٧٢٢٠ ، وأسانيده صحيح، ورواه الطبري ٢٠٧١ - ٢٠٧٢ . انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٥٣ .
- (٣١٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، تحقيق أحمد شاكر ١ / ٢٥٥ .
- (٣١١) أسباب النزول للنسايوري، طبعة الحلبي، ص ٢٧ .
- (٣١٢) عم الرجل صنو أبيه ١٧٢ .
- رواه مسلم في الزكاة (٨٢) وأبو داود في الزكاة (١٦٢٣) ، والترمذي في المناقب (٢٧٦١) وأحمد في مسنده حديث رقم (٨٠٨٥) من حديث أبي هريرة . ورواه الترمذي في المناقب (٢٧٦٠) وأحمد في مسنده حديث رقم (٧٢٧) من حديث علي . ورواه الترمذي في المناقب (٢٧٥٨) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٧٠٣٦) من حديث عبد المطلب بن ربيعة . ورواه البخاري في الزكاة (١٤٨٦) إلا أنه لم يذكر فيه محل الشاهد .
- (٣١٣) أولاد العلات: أولاد الضرائر، والمذكور هنا مختصر من حديث طويل رواء الشيخان وغيرهما والإمام أحمد في مسنده مراراً منها: ٨٢٣١ ، ٩٢٥٩ ، ٩٢٦٠ ، ٩٢٦٢ . وفي البخاري (والأنبياء أخوات لملائه أمهاتهم شتى ودينهم واحد) وانظر عمدة التفسير: ١ / ٢٥٧ .

(٣١٤) يابني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم ١٧٣

قال السيوطي في الدر : وأخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أوليائي يوم القيامة المقنون إن كان نسب أقرب من نسب ، فلا يأتيني الناس بالأعمال . وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم فأقول هكذا وهكذا إلا وأعرض في كل عطفيه ».

(٣١٥) بمن بحث بعنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) نشر بمجلة لواء الإسلام العدد ١١ ص ٦٨١ .

(٣١٦) مثل ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ١٧٤

رواه البخاري في الرقاق (٤٥٢٤) ، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٧) و الترمذي في الأمثال (٢٨٦٢) وأحمد (١٤١٧٢) من حديث جابر بن عبد الله .

ورواه البخاري في الرقاق (٤٥٢٥) ، ومسلم فيما تقدم (٢٢٨٦) ، وأحمد (٧٩١٧، ٧٤٣٦) من حديث أبي هريرة .

ورواه الترمذي في الأمثال (٣٦١٣) ، وأحمد (٢٠٧٣٧) من حديث أبي بن كعب .

(٣١٧) تفسير الفخر الرازي ١ / ٤١٧ .

(٣١٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١ / ٢٥٩ .

(٣١٩) تفسير ابن جرير الطبري : ١ / ٥٧٣ .

(٣٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير : ١ / ٣٦٠ .

(٣٢١) مجلة لواء الإسلام العدد : ١٤ السنة الثالثة ص ٨٢٧ ، ملخص من كلام الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين .

(٣٢٢) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر : ٢١٠ .



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم

الجزء الأول

محتويات الكتاب

رقم الصفحة	رقم الآيات	العنوان
٣		مقدمة الطبعة الثانية
٥		مقدمة
٩		ترتيب سور القرآن الكريم
١١		سورة الفاتحة
٢١		سورة البقرة
٢٥	٢٤١	افتتاح السورة
٢٥		حروف المعجم
٢٦		معاني هذه الفواتح
٢٨	٥-٣	المتقون وجزاؤهم
٣٠	٧، ٦	الكافرون
٣١	١٠-٨	المنافقة
٣٣	١٣-١١	الفساد والسفاهة
٣٤	١٦-١٤	اختيار الضلالة
٣٥	١٨، ١٧	هيئات المنافقين
٣٥		أمثال القرآن
٣٧	٢٠، ١٩	حيرة المنافقين
٣٨	٢٢، ٢١	عبادة الله
٤٠	٢٤، ٢٣	التحدي والإعجاز
٤٢	٢٥	بشرى
٤٣	٢٧، ٢٦	الأمثال في القرآن
٤٥		آراء في تفسير عهد الله
٤٦	٢٩، ٢٨	نعم الله
٤٧	٣٠	خلافة الله في الأرض
٤٩	٣٣-٣١	آدم
٥٠	٣٤	سجود الملائكة لأدم

رقم الصفحة	رقم الآيات	العنوان
٥١		إبـــــس
٥٢	٣٧ - ٣٥	الأكل من الشـــــجرة
٥٦		فكرة الخطيئة والتوبة في الإسلام
٥٦	٣٩ ، ٣٨	الهـــــدى والكفـــــر
٥٨	٤٣ - ٤٠	دعوة اليهود إلى الإيمان
٦٣	٤٦ - ٤٤	موافقة الأفعال للأقوال
٦٥	٤٨ ، ٤٧	تذكـــــير ربـــــالنعم
٦٦		الشـــــفاعة
٦٧	٤٩	قتل أطفال بنى إسرائيل
٧٠	٥٣ - ٥٠	نعم الله على بنى إسرائيل
٧٥	٥٧ - ٥٤	عبادة العجل
٧٨	٥٩ ، ٥٨	تبـــــديل القـــــول
٨١	٦٠	الاستـــــسقاء
٨٢	٦١	غضب الله عليهم
٨٥	٦٢	الإيـــــمان
٨٦	٦٤ ، ٦٣	نقض العهـــــد
٨٨	٦٦ ، ٦٥	عقوبة اليهود
٩٠	٧١ - ٦٦	البـــــقرة
٩١		قصـــــة البـــــقرة
٩٤	٧٣ ، ٧٢	الحـــــياة
٩٧	٧٤	قســـــوة القلوب
٩٨	٧٧ - ٧٥	تحريضهم كلام الله
١٠١	٧٩ ، ٧٨	أمـــــنانى باطلة
١٠٣	٨٢ - ٨٠	غـــــرور وادـــــعاء
١٠٥	٨٣	المـــــيثاق
١٠٧	٨٦ - ٨٤	تـــــناقـــــض
١١٠	٨٨ ، ٨٧	تكذيب وقـــــتل
١١٣	٩١ - ٨٩	حـــــسد ويغـــــى

العنوان	رقم الآيات	رقم الصفحة
عصيان ومخالفة	٩٢، ٩٣	١١٦
حرصهم على الحياة	٩٤ - ٩٦	١٢٠
عبادة جبريل	٩٧ - ١٠٠	١٢٤
المحرم	١٠١ - ١٠٣	١٢٧
أدب الخطأ	١٠٤ - ١٠٥	١٣٥
النسب	١٠٦ - ١٠٨	١٣٧
تحذير	١٠٩، ١١٠	١٤٢
أماني كاذبة	١١١ - ١١٢	١٤٥
تهم متباعدة	١١٣	١٤٧
تخريب المساجد	١١٤	١٤٨
فضل الله	١١٥	١٥٠
تنزيه الله عن الولد	١١٦، ١١٧	١٥٢
تعننت وعناد	١١٨	١٥٤
البشير النذير	١١٩ - ١٢١	١٥٦
أنعم الله	١١٢، ١٢٣	١٥٩
وفاء إبراهيم	١٢٤	١٦١
إيتاء إبراهيم		١٦٢
البيت الحرام	١٢٥	١٦٣
دعاء	١٢٦	١٦٥
بناء الكعبة	١٢٧ - ١٢٩	١٦٧
ملة إبراهيم	١٣٠	١٧١
الإسلام	١٣١، ١٣٢	١٧٢
الإسلام ملة الأنبياء	١٣٣، ١٣٤	١٧٣
محاورة	١٣٥	١٧٦
الإيمان بالكتاب والرسول	١٣٦ - ١٣٨	١٧٧
شبهة تفتضح	١٣٩ - ١٤١	١٨٠
تخريج الأحاديث		١٨٣
الفهرست		٢٠١

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثاني من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة



قول السفهاء

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

المفردات :

السفهاء : خفاف العقول أو الجهلاء.

ما ولّاهم : ما صرفهم.

صراط مستقيم : طريق قويم لا عوج فيه، والمراد به هنا طريق الحق .

المعنى الإجمالى :

إن ضعاف القول الذين أضلّتهم أهواؤهم عن التفكير والتدبر من اليهود والمشركين والمنافقين، سينكرون على المؤمنين تحولهم من قبله بيت المقدس التى كانوا يصلون متجهين إليها، ويعتقدون أنها أحق، إلى قبله أخرى وهى الكعبة، فقل لهم أيها النبى : إن الجهات كلها لله، لا فضل لجهة على أخرى بذاتها، بل الله هو الذى يختار منها ما يشاء ليكون قبله للصلاة، وهو يهdy بمشيئته كل أمة من الأمم إلى طريق قويم يختاره لها ويخصها به، وقد جاءت الرسالة المحمدية فنسخت ما قبلها من الرسالات وصارت القبلة الحقة هى الكعبة.

التفسير :

١٤٢ - سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا ..

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصلى فى مكة متجهاً إلى البيت الحرام.

فلما هاجر إلى المدينة اتجه إلى بيت المقدس، وكان ذلك بتوجيه من السماء؛ ليقطع الله صلة المسلمين بمكة، وليصرف نفوسهم عنها بعض الوقت، وليختبر مدى صدقهم وتبليتهم لأمر الله. قال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ . (البقرة ١٤٢)

وبعد أن توجه المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً، أمرهم الله أن يتحولوا بقبلة الصلاة إلى المسجد الحرام.

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يتمنى أن تكون قبلته إلى البيت الحرام، ويرفع وجهه إلى السماء ويستحي أن يلفظ بذلك، قال تعالى :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

وقد روى البخارى فى صحيحه عن البراء :

« أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان أول ما قدم المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبْل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها (١) صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون (٢) فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - قبْل مكة، فداروا كما هم قبل البيت » (٣).

وفى رواية ابن إسحاق وغيره، عنه، زيادة :

فأنزل الله تعالى : سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. الآية.

★ ★ ★

وقد أثار تحول القبلة ثائرة اليهود، وادعوا أن محمدا اشتبه عليه دينه وحن إلى دين آباءه وأثاروا كثيرا من المشاكل، فادعوا أن صلاة المسلمين السابقة إلى بيت المقدس تعتبر باطلة لأنها كانت إلى غير القبلة الصحيحة.

وقد دافع القرآن عن تحويل القبلة ورد على هؤلاء السفهاء من المشركين والمنافقين واليهود شكوكهم وشبهاتهم. فبين أن الكون كله ملك لله، وأيضا يتوجه الإنسان شرقا أو غربا فالأفق كله لله والصلاة كلها يتجه فيها المؤمن إلى الله.

والمؤمن يمثل أمر الله بالاتجاه إلى بيت المقدس عندما يأمره الله بذلك، وبالاتجاه إلى الكعبة عندما يأمره الله بذلك.

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أى قل لهم يا محمد، إذا اعترضوا على التحويل: إن الأمكنة كلها لله، ملكا وتصرفا، وهى بالنسبة إليه متساوية، وله أن يخص بعضها بحكم دون بعض، فإذا أمرنا باستقبال جهة فى الصلاة فليحكمة اقتضت الأمر، وما على الناس إلا أن يمتثلوا أمره، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبله لهم إلا امتثالا لأمر ربهم، لاترجيحاً لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم، فالله هو الذى يهدى من يشاء هدايته إلى السبيل الحق، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث اقتضت حكمته ذلك، ثم إلى الكعبة، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به.

★ ★ ★

وقد ذهب الإمام الزمخشري وغيره من المفسرين، إلى أن الله - سبحانه - أخبر بما سيقوله السفهاء قبل وقوعه، ليكون وقعه خفيفا على قلوب المسلمين عند حدوثه، لأن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع، لما يتقدمه من توطئ النفس، وأن الجواب العتيد^(١) قيل الحاجة إليه أقطع للخصم - وهى هذا أيضا إعجاز قرآنى، للإخبار بالغيب قبل وقوعه.

وذهب القرطبى وغيره إلى أن الفعل (سيقول) بمعنى قال، وأن الآية الكريمة أوردت الماضى بصيغة المستقبل، دلالة على استمرار ذلك القول وتجده.

★ ★ ★

أمة وسط

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَّا يُمِنتُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

المفردات :

(وسطا) : خيارا عدولا، وفى القرآن « قال أوسطهم » أى أعدلهم وخيرهم، والصلاة الوسطى هى : الفضلى.

العقب : مؤخر الرجل، ومعنى « ينقلب على عقبيه » يرجع إلى الخلف، والمقصود أنه يرتد عن دينه.

المعنى الإجمالى :

ولهذه المشيئة هديناكم إلى الطريق الأقوم وجعلناكم أمة عدولا خيارا بما وفقناكم إليه من الدين الصحيح والعمل الصالح لتكونوا مقررى الحق بالنسبة للشرائع السابقة، ويكون الرسول مهيمنا عليكم، ويسدكم بإرشاده فى حياته، وينهجه وسنته بعد وفاته.

وأما القبله (بيت المقدس) التى شرعناها لك حيناً من الدهر فإنما جعلناها امتحانا للمسلمين لتمييز من يذعن فيقبلها عن طواعية، ومن يغلب عليه هوى تعصبه العربى لتراث إبراهيم فيعصى أمر الله ويضل عن سواء السبيل.

ولقد كان الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس من الأمور الشاقة إلا على من وفقه الله بهدايته، وكان

امتثال هذا الأمر من أركان الإيمان، فمن استقبل بيت المقدس حين الأمر باستقباله فلن يضيع عليه إيمانه وعبادته رافة من الله به ورحمة.

التفسير:

١٤٣ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا

أى وكما هديناكم أيها المؤمنون إلى صراط مستقيم، بتوليكنم القبلة التى ترضونها، ومثل ما جعلنا قبيلكم أيها المسلمون وسطاً لأنها البيت الحرام الذى هو المثابة والأمن للناس؛ وجعلناكم أيضاً (أمة وسطاً) أى خياراً عدولاً بين الأمم ليتحقق التماسك بينكم وبين قبيلكم التى تتوجهون إليها فى صلواتكم، وتشهدون على الأمم السابقة بأن أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ونصحوهم بما ينفعهم، ولكى يشهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليكم بأنكم صدقتموه وأمتتم به.

ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى : **هُوَ أَجَبُّكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** . (الحج: ٨٧).

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم. فيدعى قومه، فيقال لهم : هل بلغكم؟ فيقولون : ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد. فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه، قال : فذلك قوله : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** . قال : الوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم « رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه ^(٥).

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ .

وما جعلنا قبيلتك السابقة بيت المقدس، ثم حولناك عنها إلى البيت الحرام إلا لنميز من يتبعك فى كليتهما ممن ينصرف عن اتباعك، فإن اتباع الرسول ولو فيما تكرهه النفس من آثار الإيمان والتسليم لمن هو أعلم بالحكمة، وهو الله - تعالى - فالحكمة فى تحويل القبلة تمييز الصادق فى الإيمان عن غيره ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه، وإنما دخل فيه على حرف بحيث يرتد عنه لأقل شبهة وأدنى ملابسة، كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة.

والارتداد على العقبين، هو الرجوع إلى الخلف، وهو تمثيل للارتداد عن الإسلام، ومخالفة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما فى كليهما من أسوأ حالات العود والارتداد.

وَأَنَّ كَانَتْ كَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ .

وإن كانت هذه الفعلة، وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة لكبيرة وشاقة على النفوس إلا على الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ . قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى ذلك.

قال تعالى : وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . (الإسراء: ٨٢)

وقال سبحانه: قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (فصلت: ٤٤) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ . أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله .

« وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك؟ فأنزل الله تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ » ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه^(١).

• إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ : إن الله يشمل الناس برأفته ورحمته، وبخاصة عباده المؤمنين الطائعين، فلهذا لا يضيع إيمانهم .

روى البخارى : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى امرأة من السبى، قد فُرِّقَ بينها وبين ولدها، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ألا تطرحه؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فو الله ، لئن أرحم بعباده من هذه بولدها^(٢).

الْقِبْلَةُ

﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلَبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُؤَيِّسَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِفَعْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٤)

المفردات :

: تردد وجهك، وتطلعك إلى السماء.

ثقلب وجهك فى السماء

: جهة وناحية.

شطر

: فى أى مكان وجدتم.

وحيثما كنتم

فلنولينك قبله ترضاها : أى فلنمكنك من استقبالكها، ومن قوله وليته كذا إذا صيرته واليا لنا ، أو لنحولنك إليها .

قول وجهك شطر المسجد الحرام : أى فاصرفه نحوه .

المعنى الإجمالى :

ولقد رأينا كيف كنت تتطلع إلى السماء عسى أن ينزل الوحي بتغيير قبله بيت المقدس إلى الكعبة لأنها قبله إبراهيم أبى الأنبياء، فها نحن أولاء نؤتيك مؤلك، فاستقبل فى صلاتك المسجد الحرام، واستقبلوه كذلك أبها المؤمنون فى أى مكان تكونون، وإن أهل الكتاب الذين ينكرون عليكم التحول عن قبله بيت المقدس قد عرفوا فى كتبهم أنكم أهل الكعبة، وعلموا أن أمر الله جارٍ على تخصيص كل شريعة بقبله، وأن هذا هو الحق من ربهم، ولكنهم يريدون هتنتكم وتشكيككم فى دينكم، والله ليس غافلاً عنهم وهو يجزيهم بما يعملون .

التفسير:

١٤٤ - قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ...

قد رأيناك تتجه بوجهك إلى السماء دائماً، تصرفه فى أرجائها، مردداً بصرك فى ضراعة ورجاء تطلماً للوحي بتحويل القبلة إلى الكعبة . وها نحن قد أجبنك إلى ما طلبت وأعطيناك ما سألت، ووجهناك إلى قبله تحبها، وتميل إليها : فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . أى فاصرف وجهك نحو المسجد الحرام لوجود الكعبة فيه، واجعله قبلتك فى الصلاة .

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ...

أى وأينما وجدتم فى بر أو بحر فولوا ووجوهكم لقاء المسجد الحرام ونحوه، وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع توهم أن يكون الخطاب فى الأول خاصاً بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأنه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطره، خصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أكد وأبلغ .

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبله له فيتوجه بصدرة إلى ناحيتها وجهتها حال تأدية الصلاة لربه، سواء أكان المصلى بالمدينة أم بمكة أم بغيرهما .

وفى ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ما يؤذن بكفاية مراعاة جهتها، ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء فى أن الكعبة قبله كل ألق، وأن من عاينها فرض عليه استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها، فإن خفيت عليه تحرى جهتها ما استطاع .

وفى الآية إشعار بانتشار الإسلام فى بقاع الأرض، وأن المسلمين ستفتح لهم البلاد، وأن عليهم - حيثما كانوا - أن يتجهوا فى صلاتهم نحو المسجد الحرام .

وَأَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ .

أى وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم، وانصرافكم عن بيت المقدس، وأثاروا الفتنة فى شأن تحويل القبلة ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق، لأن الذى أخبر به قد قامت الآيات البينات عندهم على أنه رسول من عند الله، أو أنه يصلى إلى القبيلتين، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم، وكما يعلم اليهود ذلك من كتابهم، يعلمه النصارى من كتابهم أيضاً .

والآية مؤكدة بعدة مؤكدات، هى إن واللام وذكر الحق ونسبته إلى الرب - سبحانه - لتقرير أنه وحى من الله .

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أى أن الله لا يخفى عليه ما يديره أهل الكتاب من الكيد للإسلام وسيحاسبهم عليه حساباً عسيراً، لأنهم يعلمون الحق، ويكتُمون ما يعلمون .

★ ★ ★

عناد

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٤٥)

المفردات :

آية : الآية هى المعجزة، أو الدليل القطعى .

المعنى الإجمالى :

وما كان إنكار أهل الكتاب عليكم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، فلئن جئتهم أبها الرسول بكل حجة قطعية على أن قبلك هى الحق ما تبعوا قبلك، وإذا كان اليهود منهم يطعمون فى رجوعك إلى قبلتهم ويعلمون إسلامهم على ذلك فقد خاب رجاءهم وما أنت بتابع قبلتهم، وأهل الكتاب أنفسهم يتمسك كل فريق منهم بقبلته، فلا النصارى يتبعون قبلة اليهود، ولا اليهود يتبعون قبلة النصارى، وكل فريق يعتقد أنه وحده على الحق، فاثبت على قبلك ولا تتبع أهواءهم، فمن اتبع أهواءهم بعد العلم ببطلانها، والعلم بأن ما عليه هو الحق فهو من الظالمين الراسخين فى الظلم .

التفسير:

١٤٥ - وَلَنْ آتِيَنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ .

ولئن جئت يا محمد اليهود ومن على طريقتهم في الكفر بكل برهان وحجة، بأن الحق هو ما جئتم به، من فرض التحول من قبلة بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام، ما صدقوا به لأن تركهم اتباعك ليس عن شبهة يزيلها الدليل، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما هي كتبهم من أنك على الحق المبين.

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم، لأنك على الهدى وهم على الضلال، وفي هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم، وترتيب لحقيقة القبلة وتحويلها إلى الكعبة، بعد أن أشاعوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قبلتهم، وأخبر بأنه ليس بتابع لها.

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى. فقال تعالى: وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ .

أي ما اليهود بمتبعين لقبلة النصارى، ولا النصارى بمتبعين لقبلة اليهود، فهم - مع اتفاقهم على مخالفتك - مختلفون في باطلهم، وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس والنصارى تستقبل مطلع الشمس.

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من اتباع أهل الكتاب، وجاء هذا التحذير في شخص النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى:

وَلَنْ آتِيَنَّ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

أي: لئن اتبعت يا محمد قبلتهم على سبيل الفرض والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل، إنك إذا لمن الظالمين لأنفسهم، المخالفين لأمرى، فالآية الكريمة: وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من اتباع آراء اليهود المنبثقة عن الهوى والشهوة، وقد سبق التوعيد في صورة الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهل الكتاب، تأكيداً للوعيد والتحذير، فكانه يقول: لو اتبع أهواءهم أفضل الخليقة، وأعلاهم منزلة عندي، لجازيته مجازاة الظالمين، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن على شاكلتهم من المشركين.

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (ص: ٢٦) فإنه تحذير عام لجميع المسلمين من اتباع الهوى، والخروج به عن طاعة الله.

وما أجدر المسلمين أن يتدبروا هذه الآيات، فقد أصبح الهوى عند بعض الناس إلهاً معبوداً حتى قاد بعضهم إلى سوء استخدام العلم فأسمى يهدد الإنسانية ومدنيتها وحضارتها قال تعالى :

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ . (البقرة : ٢٢).

★ ★ ★

معرفتهم للنبي (صلى الله عليه وسلم)

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات :

الممترين : الشاكين .

المعنى الإجمالي :

وإن أهل الكتاب ليعلمون أن تحويل القبلة حق، ومسلمون أنك النبي المنعوت في كتبهم بنعوت من جعلها أنه يصلى إلى الكعبة، ومعرفتهم نبوتك وقبلتك كمعرفتهم أبناءهم فى الوضوح والجلاء، ولكن بعضهم يخفون هذا الحق على علم به اتباعاً لهواهم، وتعصباً باطلاً لملتهم، وإنما الحق هو ما صدر لك من الله - تعالى - لا ما يضل به أهل الكتاب، فكونوا على يقين منه، ولا تكونوا من أهل الشك والتردد، ومن ذلك الحق أمر القبلة فامضوا عليه ولا تبالوا المعارضين.

التفسير :

١٤٦ - الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...

يقول - تعالى - إن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما يعرف أحدهم ولده. والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشئ بهذا ^(٨). وذكر الأبناء لأنهم الصق بأبائهم، فهم وآباؤهم أكثر خبرة ودراية بهم، واستيثاقاً من نسبهم بحكم الفطرة. فالآية تقرر: أَنَّ أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى يعرفون أن محمداً رسول الله معرفة حقيقية، كمعرفة الآباء للأبناء .

قال عمر لعبد الله بن سلام، وكان من أحيار اليهود قبل إسلامه: أتعرف محمداً - صلى الله عليه وسلم - كما تعرف ابنك ؟ قال : نعم، وأكثر لقد بعث الله أمة فى سماائه إلى أمة فى أرضه ببعته، فعرفته، أما ابنى فلا أدري ما كان من أمر أمه، فقبل عمر رأسه.

وَأِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

وان طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي من أنك على حق في كل شئونك ليتدأون في إخفائه وجعوده، وهم يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة.

جاء في تفسير المنار ^(٩) : « كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يَتَنَاقَلُونَ خبر بعثته (صلى الله عليه وسلم) فيما بينهم ويذكرون البشارات به من كتبهم، حتى إذا ما بعثه الله - تعالى - بالهدى ودين الحق آمن به كثيرون، وكان علماءهم يصرحون بذلك كمبد الله بن سلام وأصحابه من علماء اليهود، وتميم الدارى من علماء النصارى وغيرهم من الذين أسلموا في عصر النبي - صلى الله عليه وسلم، والروايات في هذا كثيرة، ومن أعجبها قصة سلمان الفارسي - رضى الله عنه ^(١٠).

وأما الذين أبوا واستكبروا فكانوا يكتُمون البشارات به في كتبهم ويؤولون ما بقى منها لمن اطلع عليه، ويكتُمونه عمن لم يطلع عليه، وقد أرى المتأخرون ولا سيما الإفرنج منهم على المتقدمين في المكابرة والتأويل والتضليل؛ لذلك وضع العلامة المحقق الشيخ رحمة الله الهندي هذه المسألة في كتابه (إظهار الحق) بأمر جعلها مقدمات لبشارات تلك الكتب به - صلى الله عليه وسلم « ^(١١).

ومن هذه المقدمات نرى :

إن الأنبياء الإسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى - عليهم السلام - أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش والإسكندر وخلفائه وحوادث أرض أدوم ومصر ونيوى وبابل، ويبعد كل البعد ألا يخبر أحد منهم عن خروج محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى كسر الجبابرة والأكاسرة وبلغ دينه شرقا وغربا وامتد دهرًا بحيث مضى على ظهوره أربعة عشر قرنًا ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا ^(١٢).

وقد بشرت التوراة والإنجيل بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلماء اليهود والنصارى يعرفون هذه البشارات ولكنهم ينكرونها لمرض في نفوسهم إلا من عصمه الله منهم فآمن.

جاء في الإصحاح الثانى والسبعين من إنجيل برنابا، على لسان المسيح - عليه السلام :

« إئتى قد آتيت لأهئى الطريق لرسول الله الذى سيأتى بقوة عظيمة على الفجار، ويبيد عبادة الأصنام من العالم ». ثم قال : « سينتقم من الذين يقولون : إنى أكبر من إنسان وسيجىء بحق أجلى من سائر الأنبياء .. وسيمتد دينه ويعم العالم ».

وجاء في الإصحاح السابع والستين منه : « تعزيتى فى مجيئ الرسول الذى سيبيد كل رأى كاذب فى، وسيمتد دينه، ويعم العالم بأسره .. ولا نهاية لدينه، لأن الله سيحفظه صحيحًا ».

والأنجيل الأخرى التى يعترف بها المسيحيون، والتوراة التى بين أيدينا الآن فيها إشارات عدة ترمز إلى النبى - صلى الله عليه وسلم ^(١٣).

١٤٧ - الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

اعلم يا محمد أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام هو الحق الذى جاءك من ربك وأن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذى لا شك فيه، فلا تكونن من الشاكين فى كتمانهم الحق مع علمهم به، أو فى الحق الذى جاءك من ربك وهو ما أنت عليه فى جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام.

والشك غير متوقع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة فى شخص نبيها - صلى الله عليه وسلم - إذ كان فيها حديثو عهد بكفر يخشى أن يفتنوا بزخرف من القول يروجوه لليهود.

قال الطبرى : « وذلك من الكلام الذى تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهى للمخاطب به، والمراد به غيره، كما قال - جل ثناؤه - : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ... » ثم قال: واتع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿١٤٨﴾ (الأحزاب : ١-٢) فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - والنهى له، والمراد به أصحابه المؤمنون به « ^(١٤).

★ ★ ★

لكل وجهة

﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُومَوْلِيهَا فَاسْتَيقُوا الْخَيْرَاتِ إِنَّمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٤٨)

المفردات :

وجهة : جهة .

موليها : متجه إليها .

فاستبقوا الخيرات : فاطلبوا السبق إليها .

المعنى الإجمالى :

إن هذه القبلة التى حولناك إليها هى قبلكم وقبلة أمتك، وكذلك لكل أمة قبلة تتجه إليها فى صلاتها حسب شريعته السابقة، وليس فى ذلك شيء من التفاضل، وإنما التفاضل فى فعل الطاعات

وعمل الخيرات، فسارعوا إلى الخيرات وتنافسوا فيها وسيحاسبكم الله على ذلك فإنه سيجمعكم يوم القيامة من أى موضع كنتم، ولن يفلت منه أحد، ويبدى كل شىء بما فى ذلك الإمامة والإحياء والبعث والنشور.

١٤٨ - وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَغْبِرُوا الْخَيْرَاتِ . . .

أى لكل أهل ملة قبله يتجهون إليها فى عبادتهم، فسارعوا أنتم جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التى تكسبكم سعادة الدارين، والتى من جملتها التوجه إلى البيت الحرام.

قال أبو العالبة : « لليهودى وجهة هو مولياها، وللنصرانى وجهة هو مولياها، وهداكم أنتم - أيها الأمة - إلى القبلة التى هى القبلة الحقة. وروى عن مجاهد وعطاء نحو هذا » (١٥).

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَغْبِرُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا (المائدة : ٤٨).

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هو - سبحانه - قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

كما أنه - سبحانه - قدير على كل شىء، وما دام الأمر كذلك فبادروا بالأعمال الصالحة شكرًا لريكم، وحافظوا على قبلكم، حتى لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهن فى الكفر والعناد.

★ ★ ★

الاتجاه إلى الكعبة

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ ﴿١٢٤﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المفردات :

ومن حيث خرجت : حيث ظرف مكان أى ومن أية جهة خرجت.

فول وجهك شطر المسجد الحرام : أى فوجه وجهك جهة المسجد الحرام.

المعنى الإجمالى :

فاستقبل المسجد الحرام فى صلاتك من كل مكان كنت فيه سواء أكان ذلك فى حال إقامتك أم فى حال سفرك وخروجك من مكان إقامتك، وإن هذا لهو الحق الموافق لحكمة ربك الرفيق بك، والله عالم علماً لا يخفى عليه شئ من عملكم.

والترم أمر الله فى القبلة واحرص عليه أنت وأمتك فاجعل وجهك فى ناحية المسجد الحرام من كل مكان خرجت إليه فى أسفارك، واستقبلوه حيثما كنتم من أقطار الأرض مسافرين أو مقيمين، لينقطع كل ما يحاجكم به المخالفون ويجادلونكم به، إذا لم تمتثلوا لأمر هذا التحويل. فسيقول اليهود: كيف يصلى محمد إلى بيت المقدس والنبي المنعوت فى كتبنا من أوصافه التحول إلى الكعبة.

وسيقول المشركون العرب، كيف يدعى ملة إبراهيم ويخالف قبلته؟ على أن الظالمين الزائغين عن الحق من الجانبين لن يقطع جدالهم وضلالهم، بل سيقولون: ما تحول إلى الكعبة إلا ميلا إلى دين قومه وحبا لبلده فلا تبالوا بهم فإن مطاعنهم لا تضركم، واخشونى فلا تخالفوا أمرى، وقد أردنا بهذا الأمر أن نتم النعمة عليكم وأن تكون القبلة التى وجهناكم إليها أدعى إلى ثباتكم على الهداية والتوفيق.

التفسير :

١٤٩ - وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

أى ومن أى مكان خرجت - يا محمد - قول وجهك تلقاء المسجد الحرام عند الصلاة، وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله فولوا وجوهكم فى صلاتكم تجاهه ونحوه. وتلك هى المرة الثانية التى تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم، وسيكرر مرة ثالثة فى الآية التالية.

ويوحى هذا التكرار بأن حملة ضالعة من اليهود وأشياعهم كانت تتقول على المسلمين وتحاول فتنتهم عند تحويل القبلة إلى البيت الحرام. فكرر الله - سبحانه - الأمر بالتوجه إليه لتأكيد أمر القبلة فى نفوس المسلمين حتى يستقر فى مشاعرهم، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح.

ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر بالتحويل ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلقت فوائدها .

وَأَنَّهُ لَلْحَقِّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

أى وإن الاتجاه إلى المسجد الحرام فى أى مكان، لهو الأمر الثابت الموافق للحكمة المنزل عليك من ربك، الذى والاك بفضلته وإحسانه، فلا تعدل عن استقبال القبلة التى شرعها لك، فإنه مطلع على عملك وعلى أعمال عبادك جميعا فيجازيهم حسبما عملوا .

١٥٠ - وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . .

وهو أمر للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام من حيث خرج، وإلى المسلمين أن يولوا وجوههم شطره حيثما كانوا، وبيان لعل هذا التوجه :
لئلا يكون للناس عليكم حجة .

والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية.

والمعنى : عليك أيها النبي ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا في صلاتكم إلى الكعبة المشرفة، لكي تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم ، فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس، إذا كان لكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة، فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التي قد تبدو مقبولة في نظر ضعاف العقول.
إلا الذين ظلموا منهم .

وهذه الجملة استثناء من الناس، والمعنى لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم، إلا المعاندين منهم القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حباً لدين قومه واشتياقاً لمكة. وهؤلاء الظالمون لا يقفون عند الحجة والمنطق، وإنما ينساقون مع العناد واللجاج، فهؤلاء لا سبيل إلى إسكاتهم فسيظلون إذن في لجاجهم فلا على المسلمين منهم.

فلا تخشَوْهُمْ وَخَشَوْني .

فلا تحفلوا بهم فتميلوا عما جاءكم من عندي، فأنا الذي أستحق الخشية بما أملك من أمركم في الدنيا والآخرة.

وَلَا تُؤْمِنُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

أى وأمرتكم بذلك لأتم نعمتى عليكم، ولعلكم تهتدون بامتثال ما أمرتكم به إلى سعادة الدارين.

ومن تمام نعمة الله على المسلمين: جمع الكلمة، وتوحيد الصف، وتوحيد القبلة، وتوحيد الهدف، وتغيير معالم الجاهلية وما فيه من شقاق ونزاع وخلاف إلى معالم الإسلام وما فيه من إيمان ، ورحمة، ووحدانية وعزة.

وقد كان المسلمون يجدون أثر النعمة في حياتهم العامة كما وجدوه في قلوبهم وهى مكانهم من الأمم حولهم.

ونجد في تكرار الأمر بشأن القبلة الجديدة معنى جديداً فى كل مرة.. فى المرة الأولى كان الأمر

بالتوجه إلى المسجد الحرام استجابة لرغبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد تقليب وجهه في السماء وضراعتة الصامته إلى ربه في قوله سبحانه :

فَدَرَأْنِي قَلْبِي وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَتُلَوِّكُنِي قَبْلَ تَرْصَاها قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (البقرة : ١٤٤)

وفى المرة الثانية كان لإثبات أنه الحق من ربه في قوله تعالى :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ (البقرة : ١٤٩)

وفى المرة الثالثة كان لقطع حجة الناس والتهوين من شأن من لا يقف عند الحق والحجة.. في قوله تعالى :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي (البقرة : ١٥٠)

وقال القرطبي نقلا عن غيره في تعليل التكرار :

إن موقع التحويل كان معنئاً في نفوسهم جداً فأكد الأمر، ليرى الناس الاهتمام به، فيخفف عليهم، وتسكن نفوسهم إليه. ويمكن حمل التكرار على أن الآية الأولى :

قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . لتشريع تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

وقوله بعد ذلك :

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . لتشريع الاتجاه إليها في الأسفار.

وقوله : وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ . لتشريع الاتجاه إليها من المقيمين في بقاع الأرض

المختلفة.

★ ★ ★

الرسول الهادي

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

المفردات :

يزكّيكم : يطهركم.

الكتاب : القرآن الكريم.

المعنى الإجمالي :

وإن توجهكم إلى المسجد الحرام لهو بإرسالنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آيات القرآن، ويظهر نفوسكم علميًا من دنس الشرك وسين الأخلاق والعادات، ويكملكم علميًا بمعارف القرآن والعلوم النافذة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون : فقد كنتم فى جاهلية جهلاء وضلالة عمياء.

التفسير :

١٥١ - كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ..

الخطاب للعرب. والآية متصلة بما قبلها والمعنى : ولأتم نعمتى عليكم فى أمر القبلة كما أتممتها بإرسال رسول منكم يتلو عليكم القرآن^(١٦).

وفى إرسال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيد من الشكر لأن إرساله منهم يسبقه معرفتهم لنشأته الطيبة، وسيرته العطرة، ومن شأن هذه المعرفة أن تحملهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به. ولأن فى إرساله فيهم وهو منهم شرفا عظيما لهم. ولأن المشهور من حالهم الأنفة الشديدة من الانقياد لغيرهم، فكان الرسول منهم ادعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته. وقوله : يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا .. صفة ثانية للرسول - صلى الله عليه وسلم.

قال الألويسى : « فى هذه الجملة إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأُمى للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بلاغتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التى ينتظم بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته »^(١٧).

وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

ويظهر نفوسكم ويمخلصها لله بوعظه وإرشاده حتى يكون عملكم خالصا لوجه الله - تعالى - وتتلاقى القلوب على محبة ورضوان من الله وتكونوا دائما فى نصرته دين الله، ويعلمكم كتاب الله وما فيه من أصول التوحيد، وشعائر الدين، ومناهج الخلق الفاضل ليكون ذلك دستوركم.

ويعلمكم الحكمة وهى سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما يصدر عنه من الأقوال والأفعال التى جعل الله الناس فيها أسوة حسنة. ومن معانى الحكمة، إصابة الحق والصواب، ووضع الأمور فى مواضعها.

وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أى ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحي، ومما لم يكونوا يعلمونه، وعلمهم إياه ... صلى الله عليه وسلم.

ولقد كان العرب قبل الإسلام في حالة شديدة من ظلام العقول وفساد العقائد .

« فانتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء وسجاياء العلماء، فماروا أعمق الناس علما، وأبرهم قلوبا، وأقلهم تكلفا، وأصدقهم لهجة » (١٨).

قال تعالى : لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (آل عمران : ١٦٤).

★ ★ ★

الذكر والشكر

﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (١٥٢)

التفسير :

١٥٢ - فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ..

فاذكروني بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به والبعد عما نهيتكم عنه، أذكركم بالثواب وبالثناء في الملأ الأعلى.

وفي الحديث الصحيح : « يقول الله - تعالى - من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه » (١٩).

وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قال الله - عز وجل - : يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتني في نفسي، وإن ذكرتني في ملأٍ ذكرتني في ملأٍ من الملائكة - أو قال في ملأٍ خير منهم، وإن دنوت مني شبرا دنوت منك ذراعا، وإن دنوت مني ذراعا دنوت منك باعا، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهول » صحيح الإسناد، وأخرجه البخاري (٢٠) . قال الإمام النووي : واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتحميد بل كل عامل لله بطاعة فهو ذاكِر لله.

وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ .

اشكروا لي ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له، وبأن تطيعوني في السر والعلن، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم ونعمى عليكم فأسلبكم إياها .

قال تعالى : لَنْ شُكِّرْتُمْ لَأُزِيدَنَّكُمْ وَلَنْ كُفِّرْتُمْ إِنْ عَادْتُمْ لَشَدِيدٌ . (إبراهيم : ٧)

وقد أعطى الله قارون المال الوفير، فلما ادعى أنه ناله بجهده وعلمه، وقال : إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

عندي . (القصص : ٧٨) خَسَفَ اللَّهُ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، وَلَمَّا أَعْطَى اللَّهُ سُلَيْمَانَ مَلَكَهُ الْوَاسِعَ قَالَ : هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ (النمل : ٤٠) . (فشكر الله فحفظ الله عليه نعمته) .

★ ★ ★

الصبر والصلاة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (١٥٣)

المفردات :

الصبر : ضبط النفس وقوة الاحتمال .

المعنى الإجمالي :

واستعينوا أيها المؤمنون في كل ما تأتون وما تذرون بالصبر على الأمور الشاقة، والصلاة التي هي أم العبادات، إن الله بقدرته القاهرة مع الصابرين فهو وليهم وناصرهم .

التفسير :

١٥٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ..

يعد الله المسلمين لما سيواجهونه من الفتن والمحن والحروب، ويدربهم تدريباً نفسياً على ملاقات الشدائد، واحتمال الأهوال، فيأمرهم - سبحانه وتعالى - : أن يستعينوا على خوض غمار الأحداث والمحن بسلحين رئيسيين هما : الصبر والصلاة . كما تقدم في قوله : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (البقرة : ٤٥) .

وقد ذكر الصبر في القرآن في نحو سبعين موضعاً، وأورد ابن قيم الجوزية في كتابه (عدة الصابرين) أكثر من عشرين فضيلة للصبر .

وبعض المفسرين يقسم الصبر إلى ثلاثة أنواع : صبر على ترك المحارم ، وصبر على فعل الطاعات؛ وصبر على المكار والمكاره والنوازل .

ومن أهم مواطن الصبر : الصبر عند لقاء العدو جهاداً في سبيل الله .

ولهذا كان ثواب الصابرين غير محدود بقوله - سبحانه - : إِنَّمَا يُرِيدُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (الزمر : ١٠) .

وأما الصلاة فهي أم العبادات ؛ ومعراج المؤمنين إلى منازل الصالحين، واستغراق المؤمن فيها علاج لما قد يتعرض له من أخطار الحياة .

وقد كان - صلى الله عليه وسلم - إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

يمنحهم السكينة والعزاء والعوض، وليس الصبر بلاذة في الإحساس واستسلاما للنوازل، وإنما هو ثبات على مكافحة البلاء.

★ ★ ★

حياة الشهداء

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥١)

المعنى الإجمالي :

«كَلَنْ يُوْدَى الصَّبْرُ إِلَّا إِلَى الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ، فَلَا تَقْعُدُوا عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَرْهَبُوا الْمَوْتَ فِيهِ فَمَنْ مَاتَ فِي الْجِهَادِ فَلَيْسَ بِمَيِّتٍ بَلْ هُوَ حَيٌّ حَيَاةً عَالِيَةً وَإِنْ كَانَ الْأَحْيَاءُ لَا يَحْسُونُ بِهَا.

التفسير:

١٥٤ - وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ .

أى لا تقولوا - أيها المؤمنون - لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه أنهم أموات، بمعنى أنهم تلقى نفوسهم وعدمو الحياة، وتصرفت عنهم اللذات، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الموت. بل هم أحياء في عالم غير عالمكم كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٥٤) فَرِحَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٥٥) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران : ١٦٩-١٧١).

وفى صحيح مسلم : « إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى فتاديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك إطلاعة فقال : ماذا تبغون؟ فقالوا : يا ربنا، وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى، لما يرون من ثواب الشهادة، فيقول الرب - جلا جلاله - : « إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون » (٢١).

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى، عن

عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » (٢٣) ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن الشهداء قد خصصوا بالذكر تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً (٢٤).

وحياة الشهداء عند ربهم حياة تكريم مصحوبة برزق من الله وفضل منه عليهم، وعلينا أن نفوض كيفية هذه الحياة وكُنْهها إليه سبحانه؛ لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا علام الغيوب.

★ ★ ★

بشرى للصابرين

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

المفردات :

ولنبلوئكم : ولنمتحننكم.

صلوات من ربهم : الأصل في الصلاة الدعاء، والصلاة من العبد دعاء، ومن الملائكة استغفار، ومن الله رحمة.

المعنى الإجمالي :

وسيصادفكم كثير من الشدائد فسنمتحنكم بكثير من خوف الأعداء والجوع وقلة الزاد والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، ولن يعصمكم في هذا الامتحان القاسي إلا الصبر، فبشر يا أيها النبي الصابرين بالقلب واللسان، الذين إذا نزل بهم ما يؤلمهم قالوا : إنا لله والله تعالى، وراجعون إليه، فليس لنا من أمرنا شيء، وله الشكر على العطاء، وعلينا الصبر عند البلاء، وعند المثوبة والجزاء، فهؤلاء الصابرون المؤمنون بالله لهم البشارة الحسنة بغفران الله وإحسانه، وهم المهتدون إلى طريق الخير والرشاد.

التفسير :

١٥٥ - وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . . .

جعل الله الدنيا دار اختبار وابتلاء قال تعالى :

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الملك : ٢)

ومن شأن الحكمة الإلهية أن تختبر الإنسان بالخير والشر، قال تعالى : وَلِتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥)

فإنَّه سبحانه يمتحن الإنسان بالمال والجاه والسلطان والنعمة وسعة الرزق حيناً، قال سبحانه - :
إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوكُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) ، كما يختبر الإنسان بالبلاء والشدة والفقر ونقص الأموال ونحو ذلك حيناً آخر .

قال تعالى : وَلِتَبْلُوكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَلِتَبْلُوا أَعْيَارَكُمْ . (محمد : ٣١)

ومعنى الابتلاء من الله : أن يعاملهم الله معاملة المختبر ليميز الصابر المجاهد المحتمل، من الضعيف فى دينه ونفسه، فمن صبر أذابه، ومن قنط أحل به عقابه : وَلِتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ . . .

والخوف يكون من قلة الموارد، ونحو ذلك .

ونقص الأموال بقلة الكسب والخسارة فى التجارة وغيرها .

ونقص الأنفس بالقتل والموت .

ونقص الثمرات بنحو الآفات فى المزارع والحوادث، وقيل المراد بالثمرات هنا الأولاد .

★ ★ ★

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ .

١٥٦ - الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

والمعنى : وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل أولئك الصابرين الذين من صفتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة فى أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم أو غير ذلك، قالوا بالسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله وقدره . إِنَّا لِلَّهِ . أى إنا لله ملكا وعبودية والمالك يتصرف فى ملكه ويقبله من حال إلى حال كيف يشاء .

وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وإنا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التى ليس فى استطاعتنا دفعها .

قال القرطبي :

جعل الله هذه الكلمات وهى قوله تعالى : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . ملجأ لذوى المصائب وعصمة للممتحنين، لما جمعت من المعانى المباركة، فإن قوله: إِنَّا لِلَّهِ . توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله: وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . إقرار بالهلاك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له .

قال سعيد بن جبير : لم تعط هذه الكلمات نبياً قبل نبينا ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف (٢٤).

وربما حزن الإنسان لفقد حبيب أو بكى لفراقه، وهذه رحمة وعاطفة فطرية فى الإنسان. ولكن المحرم هو الجزع المفضى إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء، أو إلى فعل ما حرّمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب، ولطم الخدود.

وقد ورد فى الصحيحين أن النبى - صلى الله عليه وسلم - بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإننا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

ثم يبين سبحانه ما أعدّه للصابرين من أجر جزيل فقال :

١٥٧- أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ .

تقع هذه الآية فى جواب سؤال تقديره بماذا بشر الله الصابرين ؟ والجواب هو : أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ...

والمعنى : أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم، وإحسان منه سبحانه يشملهم فى دنياهم وآخرتهم.

وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . إلى مطالبهم الدنيوية والأخروية، فإن من نال راحة الله لم يفته مطلب.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلوة: أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ. فهذان العدلان. وأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . فهذه العلوة (٢٥).

وقد ورد مدح الصبر والصابرين فى القرآن الكريم، قال تعالى: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥).

وقال سبحانه: إِنَّمَا يُؤْمِنُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر : ١٠).

وقال عز شأنه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران: ٢٠٠).

كما حفلت كتب السنة الصعاح بالحث على الصبر وبيان أجر الصابرين .

وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها » (٢٦).

وفى صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها، إلا أجره الله فى مصيبته وأخلف له خيراً منها . قالت : فلما توفى أبو سلمة قلت : من خير من أبى سلمة صاحب رسول الله؟ ثم عزم الله لى فقلتها، قالت: فتزوجنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٢٧).

★ ★ ★

الصفاء والمروة

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ سَائِرٌ عَلَيْهِ﴾

المضردات :

: هضبتان ملتحقتان حالياً بالمسجد الحرام يسعى بينهما الحاج والمعتمر.

الصفاء والمروة

: من علامات دين الله فى الحج والعمرة، والشعائر لغة جمع شعيرة، وهى العلامة. وكون الصفاء والمروة من شعائر الله أى من أعلام دينه ومتعبداته تعبدنا الله بالسعى بينهما فى الحج والعمرة. وشعائر الحج: معالمه الظاهرة للحواس، التى جعلها الله أعلاماً لطاعته ومواضع نسكه وعبادته، كالطواف والسعى والموقف والمرمى والمنحرف.

من شعائر الله

: أى قصد الكعبة لأداء المناسك فى موسم الحج، والحج لغة القصد، وشرعاً قصد الكعبة للنسك المشتغل على الوقوف بعرفة فى زمن مخصوص.

فمن حج البيت

: أى زار، والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر يعمر البيت الحرام بزيارته، وشرعا الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة، وهى الإحرام والطواف والسعى بين الصفاء والمروة.

أو اعتمر

فلا جناح عليه أن يطوف بهما : فلا إثم عليه فى أن يسعى بينهما.

ومن تطوع خيراً : أى ومن زاد خيراً على ما طلب منه.

المعنى الإجمالي :

وكما أن الله رفع شأن الكعبة بجعلها قبلة الصلاة، رفع أمر الجبلين اللذين يشارفانها، وهما الصفا والمروة فجعلهما من مناسك الحج. فيجب بعد الطواف السعى بينهما سبع مرات، وقد كان منكم من يرى حرجاً لأنه من عمل الجاهلية، ولكن الحق أنه من معالم الإسلام؛ فلا حرج على من يتوى الحج أو العمرة أن يسعى بين هذين الجبلين، وليأت المؤمن من الخير ما استطاع فإن الله عليم بعمله ومثيبه عليه.

التفسير :

١٥٨ - إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ .

السعى بين الصفا والمروة من معالم الحج ومناسكه فمن أراد الحج أو العمرة وجب عليه أن يسعى بينهما بالطواف سبعة أشواط لأن هذا السعى مطلوب للشارع ومعدود من الطاعات.

والمأمل في الآية يرى أنها نفت الحرج والمؤاخذه ممن سعى بين الصفا والمروة، ولم تأمر بهذا السعى. والوقوف على سبب نزول الآية يوضح الأمر.

روى البخارى عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله - عز وجل - : إِنْ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا .

وهي رواية الترمذى عن أنس أنهما : « كانا من شعائر الجاهلية ».

وهي رواية للنسائى عن زيد بن حارثة قال : « كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما « أساف ونائلة » كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما ».

ويؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يخرجون من السعى بين الصفا والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعى كان من شعائرهم في الجاهلية. وأنه كان في الجاهلية مقترناً بالتمسح بصنمين أحدهما على الصفا والثاني على المروة.

فلما جاء الإسلام أقر السعى بين الصفا والمروة، بعد أن أزال الأصنام وجعل الذكر لله - تعالى - وحده، وهذا وأمثاله من السياسة الشرعية في الإسلام، فإنه إذا أقر أمراً كان معروفاً في الجاهلية، لحكمة تقتضى إقراره جرده من مظاهر الوثنية، ووجهه إلى الله - تعالى - قصداً وذكرًا.

وقد اختلفت أقوال الفقهاء في حكم السعى بين الصفا والمروة. فمنهم من يرى أنه من أركان الحج

كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة، وإلى هذا الرأي ذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك في أشهر الروايتين عنه.

ومنهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم، وإلى هذا الرأي ذهب الأحناف، ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعي فلا يكون ركناً.
وقيل السعي بين الصفا والمروة مستحب.

قال ابن كثير:

والقول الأول أرجح؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - طاف بينهما، وقال: لتأخذوا عني مناسككم. فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل، والله أعلم^(٢٨).

واعلم أن السعي بين الصفا والمروة، شعيرة موروثة عن أم إسماعيل - عليه السلام - فقد جاء في حديث طويل رواه البخاري عن ابن عباس بعدما ذكر: أن إبراهيم - عليه السلام - جاء بهاجر وابنها إسماعيل، عند مكان البيت وتركهما، فقالت له: «يا إبراهيم: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟» ثم قالت: «أله أمرك بهذا؟» قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا.

ومضى ابن عباس في الحديث إلى أن قال: «حتى إذا نقد ما في السماء، عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي حتى أتت المروة فقامت عليه.. إلى أن قال «ف فعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «فذلك سعي الناس بينهما»، ومضى في الحديث إلى أن قال: «فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء «أى ماء زمزم»^(٢٩).

قال ابن كثير:

«فالسعي بين الصفا والمروة ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله - عز وجل - لينزع ما هو به من النقائص والعيوب؛ وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام»^(٣٠).

كتمان العلم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

المفردات :

البيّنات : الحجج الواضحات ، جمع بيّنة .

الهدى : ما يهdy إلى الحق والرشاد .

فى الكتاب : المراد به ما يشمل جميع الكتب السماوية، ومنها التوراة والإنجيل والقرآن .

يلعنهم الله : يطردهم من رحمته .

ويلعنهم اللاعنون : يسخط عليهم الناس .

ويبينوا : أى أظهروا ما كتموه .

المعنى الإجمالى :

وأولئك الذين أنكروا أمر دينكم فريقان : فريق من أهل الكتاب الذين يعرفون الحق ويخفونه على علم وعناد، وفريق المشركين الذين عميت قلوبهم عن الحق فاتخذوا أربابا من دون الله، فأهل الكتاب الذين عرفوا براهين صدقك، تبينوا الحق فى دينك ثم أخضوا هذه الدلائل وكتموها، أولئك يصب الله عليهم غضبه، ويبعدهم عن رحمته. ولا يستثنى منهم إلا من تاب وأحسن فرجع عن الكتمان، وتدارك أمره بإظهار ما كان يخفيه من وصف الرسول والإسلام؛ فإن الله يتقبل توبته ويمحو ذنبه، فهو الذى يقبل التوبة من عباده رافة منه ورحمة .

التفسير :

١٥٩ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ .

إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسله من آيات واضحة دالة على الحق، ومن علم نافع يهدى إلى الرشd من بعد ما شرحناه للناس فى كتاب يتلى، أولئك الذين فعلوا ذلك يلعنهم الله . بأن يبعدهم عن رحمته ويلعنهم اللاعنون . أى ويلعنهم كل من تتأتى منه اللعنة : كالملائكة والمؤمنين، بالدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله .

وتفيد هذه الجملة الأخيرة نهاية الغضب عليهم، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه، إما بلسان المقال أو الحال، أو يوم القيامة.

« قال أبو العالوية : نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد - صلى الله عليه وسلم » (٢١).

والآية الكريمة، وإن كانت نزلت في أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علماً نافعاً، أو غير ذلك من الأمور التي يقضى الدين بإظهارها، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وقد ورد في الحديث المسند من طرق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (٢٢).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً، ثم تلا قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ... إلى قوله « الرحيم » (٢٣).

هذا وينبغي أن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهياً قاطعاً عن كتم العلم الذي فيه منفعة للناس، إلا أنه يوجب على أتباعه وخصوصاً العلماء أن يحسنوا اختيار ما ينشرونه على الناس من علم، قال علماؤنا : « ليس كل ما يعلم يقال، ولا كل ما يقال جاء وقته، ولا كل ما جاء وقته حضر أهله ».

وقال ابن مسعود « ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ».

وفي هذا المعنى يقول - صلى الله عليه وسلم :

« حدثوا الناس بما يفهمون.. اتحبون أن يكتب الله ورسوله ؟ » (٢٤).

★ ★ ★

ركبت مرة مع سائق تاكسي في رمضان وكان مفطراً يدخل السيارة في رائحة النهار. فقلت له : لماذا لا تصوم ؟ قال : الصيام يجعلني سيئ الأخلاق على الناس، أشتهم أو أسوء معاملتهم، فافطرت وسأطعم مساكين أو أتصدق عليهم، وحاول أن يستشهد بالمعنى المفهوم له من قوله - سبحانه - وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ، والتمس مني الموافقة على ذلك. فقلت له : أنت قوى البنية، سليم الحواس، موفور الصحة، وتلك نعمة كبرى من الله تستحق منك الشكر، والصيام، ولو بعض أيام رمضان وأن تصلى الصلوات حتى تجد حلاوة الإيمان.

فإذا بليت بالإفطار فاستتر في مكان خال، ولا تدخن أمام جماهير المسلمين.

لقد كان هذا السائق يريد أن يستغل بعض العلم، في إطعام المساكين عند تعذر الصيام، والتمس

منى مساعدته فى ذلك فكتمت عنه علم هذه المسألة، لأنى رأيته صحيح الجسم ويريد أن يستغفرها فى إفطار رمضان بدون رخصة أو عذر.

★ ★ ★

١٦٠ - إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا قَوْلُكَ أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

أى إلا الذين رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا كتموه، فإن الله - عز وجل - يقبل توبتهم من رحمته ومغفرته، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب.

فالآية الكريمة قد فتحت للكاتبين العلم باب التوبة وأمرتهم بولوجه ويسرت لهم طريق الاستقامة والرجوع إلى الصواب .

وقد اشتملت الآية على أركان التوبة وهى :

- ١ - الإقلاع عن الذنب، ويشير إليه قوله تعالى : (تابوا) .
- ٢ - الندم على ما فات لأنه من تمام التوبة .
- ٣ - رد المظالم إن وجدت، ويشير إليه قوله : (وأصلحوا) .
- ٤ - العزم على الاستقامة فى المستقبل ويشير إليه قوله : (وبينوا) .

★ ★ ★

عذاب الكافرين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١٦١)

المعنى الإجمالى :

أما الذين استمروا على الكفر، وماتوا على ذلك دون توبة ولا ندم، فجزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وسيستمررون فى هذه اللعنة وفى النار، لا يخفف عنهم العذاب ولن يمهلوا ويؤخروا ولو طلبوا الإمهال والتأخير لم يجابوا إليه .

التفسير:

١٦١ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

إن الذين كفروا بالهدى الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصروا على الكفر فلم

يتوبوا غير مكترئين بما يقرع أسماعهم من آيات الهدى، وما تراه أبصارهم من دلائل الحق، وأقاموا على إصرارهم، حتى ماتوا وهم كفار، أولئك تستمر لعنة الله التى لازمتهم من أول كفرهم، ولعنة الملائكة والناس .

وجميع هؤلاء تستمر لعنتهم عليهم، بسبب إصرارهم على الكفر.

١٦٢ - خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

خالدين فى لعنة الله أو فى النار، لا يخفف عنهم العذاب بأنواعه يوم القيامة، فهم فيه معذبون بغضب الله ونار جهنم، والزمهير.

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ : أى لا يمهلون ولا يؤخرون ساعة دون عذاب، مأخوذ من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال.

وقوله تعالى : خَالِدِينَ فِيهَا : الضمير فى قوله: فِيهَا . راجع إلى النار، مع أنه لم يسبق ذكرها، للإيدان بأنها معروفة حاضرة فى الذهن وإن لم تذكر، تهويلاً لأمرها.

والخلود هو البقاء إلى غير نهاية، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة، وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول، أى البقاء إلى غير نهاية.

★ ★ ★

إله واحد

﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

المفردات :

إله : الإله : المعبود .

الرحمن الرحيم : صيغتان للمبالغة فى الرحمة الأولى سماعية والثانية قياسية، وتختص الأولى بالله تعالى ويجوز إطلاق الثانية على غيره.

التفسير :

١٦٣ - وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

والهكم الذى يستحق العبادة والخضوع، إله واحد فرد صمد. فمن عبد شيئاً دونه، أو عبد شيئاً معه فعبادته باطلة فاسدة، ثم هو بليغ الرحمة، فقد عمت رحمته فى الدنيا المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وعتت رحمته فى الآخرة أهل الإيمان : من وفى منهم، ومن قصر وتاب.

قال تعالى :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ (٥٢) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ. (الزمر : ٥٣-٥٤)

سبب النزول :

عن ابن عباس - رضى الله عنه - أن كفار قريش قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم : صف لنا ربك، فنزل قوله تعالى : وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ. ومع أن السبب خاص فالخطاب عام لكل من يصلح للخطاب.

وفي الحديث (٢٥) عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . و . اَلَمْ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ النُّحِيُّ الْقَيُّومُ . (ال عمران : ١-٢)

★ ★ ★

دلائل الإيمان

﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِثَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَافِعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَنَصْرَفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١٦٤)

المفردات :

اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما، أو اختلافهما بالزيادة والنقصان.

الفلك : اسم يطلق على سفينة أو أكثر.

وبث فيها من كل دابة : ونشر فيها من كل نوع من الدواب، والدابة ما يذهب ويمشى على الأرض.

وتصرف الرياح : قلبها جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، حارة وباردة إلى آخر أنواعها.

والسحاب المسخر : المنقاد لله يوجهه كيف يشاء.

المعنى الإجمالي :

أقام الله أدلة ملموسة في هذا الكون على وجوده وألوهيته، ومن ذلك السموات التي تسير فيها

الكواكب بانتظام دون تزاخم ولا صدام، تبعث الحرارة والنور لهذا العالم، والأرض وما فيها من البر والبحر وتعاقب الليل والنهار، وما في ذلك من المنافع، وما يجري في البحر من السفن تحمل الناس والمتاع، ولا يسيرها إلا الله فهو الذي يرسل الرياح التي يسير بها المطر.

والماء مصدر الخير وهو ينزل من السماء في دورات متتابة تبدأ بتبخير ماء البحر ثم تكاثفه ثم هطوله، وهو ما يسبب الحياة على الأرض. وتصريف الرياح وهبوبها في مهابها المختلفة، والسحاب المعلق بين السماء والأرض، أقامت هذه الأشياء كلها بهذا الإتيان والإحكام من تلقاء نفسها أم هي صنع العليم القدير.

التفسير :

١٦٤ - إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ . .

اتجهت هذه الآية إلى لفت أنظار الناس إلى مظاهر القدرة الإلهية في هذا الكون، ونبهت الأبصار والبصائر إلى عجائب هذا الكون ونظامه البديع.

أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ».

قال الألوسي :

ومن تأمل تلك المخلوقات التي وردت في هذه الآية وجد كلا منها مشتملاً على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى - ووحدانيته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له، ومجمل القول في ذلك أن كل واحد من هذه الأمور المحدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداها، مستتبعاً لآثار معينة وأحكام مخصوصة.. وفي الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية، وتنبية على شرف علم الكلام وفضل أهله، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة (٣).

وأول الأدلة في الآية : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وقد أشار القرآن الكريم إلى خلق السموات والأرض في كثير من آياته، كما أشار إلى نظام السماء وتناسق خلقها، وتزيينها بالنجوم، وجعل بعض النجوم هادية للسائرين.

قال تعالى: إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴿ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ لا يسمعون إلى الأُمْلَاءِ الْعُلَنِي وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . (الصافات : ٦-٨)

وقال سبحانه : وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . (النحل : ١٦)

وكل ما في السماء عجيب نافع، هشمشها المشرقة نهاراً، تبث في أرضنا الدفء، وتنتشر فيها

الضوء، وتبتب الزرع، وتستخلص من مياها المالحة بخارا حلوا نقيا، يصيره الله بقدرته سبحانه، ثم يعيده إلينا مطرا عذبا، فيسلكه في جوفها ينابيع، فتعيش به، ويعيش حيواننا على ما أوجد الله بسبب الشمس من الماء والنبات: **مَنْ هَلْ مِنْ خَالِيٍّ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**. (هاطر : ٣)، **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**. (المؤمنون : ١٤).

وكل ما في الأرض عجيب، فجبالها أوتاد لها ، تحفظها من أن تميد بنا ، وأنهارها وبحارها مصادر لأرزاقنا ، ومعايير لسفننا ، وسبب لحفظ حياتنا ، ومعادنها نتخذ من بعضها حلينا وعلمتنا ، ونتخذ من بعضها أوانينا وأدواتنا ومواد بنائنا وأسلحة دفاعنا وهجومنا على أعدائنا ، والسهل من الأرض نزرع فيه أقواتنا ، والتلال والهضاب نتخذ فيها الحصون والقلاع لترد عادية خصومنا ، والأشجار والزرع والطيور والحيوان لأرزاقنا ومنافعنا ، والهواء حياة لنفوسنا وحيواننا ونباتنا .

قال تعالى : **وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . (ق : ٧-٨)**

وقال - عز شأنه - : **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا . (نوح : ١٥ - ٢٠)**

والدليل الثاني على قدرته ووحدانيته ، قوله تعالى : واختلاف الليل والنهار .

واختلافهما : تعاقبهما ، فبينما الليل يلف الأرض بظلامه والناس فيه رهود ساكنون ، إذ ينبعث النهار من تحت إهابه ، فتسجع الطياري ، وتطير من الأوكار باحثه عن رزق الكريم الحليم ، ويهب النائمون من مراقدهم يبحثون عن أرزاقهم ، ويسعون في سبيل عيشهم ، فالاختلاف افتعال من الخلف ، وهو أن يجرى شيء عوضا عن شيء آخر يخلفه على وجه التعاقب .

ويجوز أن يكون المراد باختلافهما اختلافهما أنفسهما بالطول والقصر ، واختلافهما في جنسهما بالسواد والبياض .

قال تعالى : **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . (النبا : ١٠ - ١١) وقال سبحانه : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ تَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧١ - ٧٣)**

ومن العظمت التي تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف فلكل منهما مدة يستوفيهما من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد . قال تعالى : لا الشمس ينبغي لها أن تترك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . (يس : ٤٠)

والدليل الثالث فى الآية :

وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ .

وهذه الفلك وإن كانت من صنع الناس ، إلا أن الله تعالى هو الذى خلق الآلات والأجزاء التي صارت بها سفناً ، وهو الذى سخر البحر لتجري فيه مقبلة ومدبرة ، مع شدة أهواله إذا هاج ، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقاً حتى تصل إلى بر الأمان ، وهو الذى رعاها برعايته وهى أشبه بنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع ، وهى حاملة للكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والأمتعة المختلفة ، فسبحانه من إله قادر حكيم .

الدليل الرابع والخامس :

وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك ، عمرت به الأرض بعد خرابها ، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها ، لدليل سامع على قدرة الله ووحدانيته .

فهو سبحانه الذى أنزل المطر من السماء ، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعا من الدواب مختلفة حتى طبيعتها وأحجامها وأشكالها ، وألوانها ، وأصواتها ، ومكانها ، وماكلها ، وحملها وتسالسها ، ووجوه الانتفاع بها ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة ، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد حكيم قادر .

قال تعالى : وَإِنَّ لَهُمُ الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٢٤﴾ يَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . (يس : ٢٣ - ٢٦)

الدليل السادس :

وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ :

أى تغليبها وتكوينها .

فأحيانا تكون نسيماً عليلاً رطيباً ، ينعش الأرواح ، وأخرى تكون جافة حارة تضيق بها النفوس ،

وقارة تجدهما لينة رخاء ، وأخرى عاصفة هوجاء ، وأحياناً ريحا عقيماً : مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَهُ كَالرِّيمِ . (الذاريات : ٤٢) إلى غير ذلك مما تقتضيه حكمة الحكيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، ورتبه على حسب مشيئته ، وما ينبغي لمصالح أرضه ، ولو أمسك الريح ساعة لهلك كل شيء حتى على سطحها ، فمن فعل هذا سوى إله واحد ، حكيم عليم ، قهار مقتدر .

الدليل السابع :

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

فهذا السحاب جعله الله مصدر المطر الذي به حياة الكائنات ومخازن له متجددة من آن لآخر .

والسحاب في تكوينه ، وتسخيره ، وجعله بين السماء والأرض ورعده وبرقه ومطره آية عظيمة ، من آيات الخالق سبحانه . قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي السَّحَابَ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يَلْقَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ . (النور : ٤٣ - ٤٤) .

ثم ختم الله هذه الآية بقوله :

لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

أي لدلائل ساطعة وعلامات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها ، فإن من تأمل في كل آية مما سبق ، وجدها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالات على وجوده - تعالى - ووحدانيته ورحمته وسائر صفاته كما قال تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَبْصَارِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (آل عمران : ١٩٠ - ١٩١) .

★ ★ ★

قال الضخر الرازي :

واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية ، وهذه الأمور الثمانية (٣٧) ، التي عدّها الله تعالى نعماً دنيوية في الظاهر ، فإذا تفكر العاقل فيها واستدل به على معرفة الصانع صارت نعماً دينية ، لكن الانتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا تكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة المزاج ، فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول ، وانفتاح بصر الباطن ، فلذلك قال : لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٨) .

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَخَّطْنَا لَهُمْ عَمِلَهُمْ شَرًّا وَلَئِنَّا كُنَّا لَهُم بِحُجْرٍ مِّنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾

المضردات :

أنداداً : الأنداد : جمع ند ، وهو النظير والشبيه والمراد بها هنا الأوثان.

الأسباب : معناها اللغوي : الحبال ، جمع سبب والمراد بها في الآية ما يصل الرؤساء والأتباع بعضهم ببعض من الصلات ، كالذين الواحد والأنساب والأتباع.

كرة : رجعة إلى الدنيا .

حسرات : جمع حسرة ، وهي أشد درجات الندامة على شيء فات.

المعنى الإجمالي :

ومع هذه الدلائل الواضحة اتخذ بعض الناس ممن ضلت عقولهم أرباباً غير الله يطيعونهم ويعبدونهم كعبادة الله ويجعلونهم مثل الله ، والمؤمن يُسلم القيادة لله وحده، وطاعته له لا تنقطع ، أما هم فإن ولاهم لألهتهم يتزلزل عند النوائب فيلجئون إلى الله - سبحانه - وهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم لو عاينوا ما سينالهم من العذاب يوم الجزاء ، حين يكشف ملك الله يوم القيامة، وتكون الطاعة له وحده، لانتهوا عن جرهم وأقلعوا عن إثمهم.

في ذلك اليوم يرجو الأتباع أن ينجيهم رؤسائهم من الضلال فيتكرر الرؤساء لأتباعهم ويتبرعون منهم ويقولون : ما دعوناكم لطاعتنا في معصية ربكم ، وإنما هو هواكم وسوء تصرفكم ، وتتقطع بينهم الصلات والمودات التي كانت بينهم في الدنيا ويصير بعضهم لبعض عدوا .

وهنا يتبين الأتباع أنهم كانوا في ضلال حين اتبعوا رؤسائهم في الباطل، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا فيتذكروا لرؤسائهم كما تبرعوا منهم في هذا اليرم، وتبدو لهم أعمالهم السيئة فتكون حسرات عليهم ويندمون ، وقد ألقى بهم في النار فلا يبرحونها.

التفسير :

١٦٥ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...

إن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - في النفع والضرر، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله - تعالى ، أو يشابه حب المؤمنين لله .

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ .

والذين صدقوا بوحداية الله، أشد حبا له من حب أولئك المشركين لأوثانهم ورؤسائهم، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية وعن علم تام ببديع حكمته، وبإلغ حجته، وسعة رحمته، وعدالة أحكامه، وعزة سلطانه، وتفرده بالكمال المطلق، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم، لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الطنون والأوهام والتقاليد الباطلة.

وهذه شهادة من الله للمؤمنين يعتزون بها، ويجب أن يكونوا أهلاً لها.

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال في حبهيم لله - تعالى - لأنهم ضحوا في سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شيء لديهم، ولأنهم لم يعرفوا عملاً يرضيه إلا فعلوه، ولم يعرفوا عملاً يفضيه إلا اجتنبوه.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ .

(لو) شرطية، وجوابها محذوف لقصد التهويل ولتذهب النفس في تصويره كل مذهب (القوة) القدرة والسلطان .

والمعنى - كما قال الزمخشري - : ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشرتهم أن القدرة لله على كل شيء من العقاب والثواب، دون أندادهم، ويعلمون شدة عقابه للظالمين، لكان منهم مالا يدخل تحت الوصف، من الندم والحسرة على ظلمهم وضلالهم.

وقد قرأ نافع وابن عمر « ولو ترى » بالتاء على الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو لكل من يتأتى له الخطاب.

أي : لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم، أو أيها المخاطب لرأيت أمرا عظيما في الفضاغة والهول.

١٦٦ - إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّارُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ .

واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعتق يوم القيامة، ذلك اليوم الهائل الشديد الذي يتصل فيه الرؤساء من مرءوسيهم والأتباع من متبوعيههم حال رؤيتهم جميعاً للعذاب وأسبابه ومقدماته، وما أعد لهم من شقاء وآلام ، وقد ترتب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذئاب من روابط كانوا يتواصلون بها في الدنيا وصار كل فريق منهم يلعن الفريق الآخر ويتبرأ منه.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وفي قوله تعالى : وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . استعارة تمثيلية، إذ شبهت هيئتهم عند خيبة أملهم حين لم يجدوا النعيم الذي تعبوا لأجله مدة حياتهم وقد جاء إبانته في ظنهم فوجدوا عوضه العذاب، بحال المرتقى إلى النخلة ليحني الثمر الذي كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أي الحبل - عند ارتقاؤه فسقط هالكا، فكذلك هؤلاء قد علموا جميعاً حينئذ أن لا نجاة لهم، فحالهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة (٣٩) .

١٦٧ - وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ...

وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل بدون تعقل أو تدبر، لَيْتَ لَنَا رجعة إلى الحياة الدنيا فننتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا السبيل كما تبرءوا منا في هذا اليوم العصيب، ولنشفى غيظنا منهم لأنهم خذلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم.

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ .

كما أرى الله - تعالى - المشركين العذاب وما صاحبه من التبرؤ وتقطع الأسباب بينهم، يريهم سبحانه أعمالهم السيئة يوم القيامة فتكون حسرات ترد في صدورهم كأنها شر الجحيم .

والمقصود أن أعمالهم لا يجدون لها أثراً من الخير، بل يبذلها الله حسرات وزفرات حين يرون العذاب على كل عمل منها .

وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .

أي وما هم بخارجين من تلك النار التي عوقبوا بها بسبب شركهم، بل هم مستقرون فيها استقراراً أبدياً، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفى خروجهم من النار، وبيان أنهم ملقون ومخلدون فيها كما قال تعالى - في آية أخرى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا . (السجدة: ٢٠) .

وهكذا يسوق لنا القرآن الكريم ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تتصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة، حتى لكأنك أمام مشهد مجسم، ترى فيه الصور الشاخصة حاضرة، وذلك لون من ألوان بلاغة القرآن في عرضه للحقائق، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس وتؤتي ثمارها الطيبة في القلوب.

★ ★ ★

أكل الحلال

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

المفردات :

حلالا طيبا : حلالا لا شبهة فيه، أو لا تعافه النفوس.
خطوات : جمع خطوة بضم الخاء وفتحها كما قال الفراء، والمراد بالنهي عن اتباع خطوات الشيطان: ألا يسيروا تبعاً لوساوسه ومغرياته.
عدو مبين : أى عدو يبين العداوة واضحا.
إنما يأمركم بالسوء : أى ما يحرضكم إلا على ما يسوءكم ويحزنكم في عاقبته وهو المعاصى.
والفحشاء : ما اشتد قبحه من الذنب.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس كلوا مما خلق الله في الأرض من الحلال الذى لم ينزل تحريمه، المستطاب تستسيغه النفوس، ولا تسيروا وراء الشيطان الذى يزين لكم أكل الحرام أو تحريم الحلال، فقد علمتم عداوة الشيطان، وبيان قبح ما يأمركم به، وإنما يزين لكم الشيطان ما هو سيئ في ذاته، وما يقبح فعله، وتسيريون بسببه وراء الظنون والأوهام، فتتسبون إلى الله من التحريم والتحليل ما لم يأت دليل عليه من العلم اليقين.

التفسير:

١٦٨ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

نزلت هذه الآية فيمن حرّموا على أنفسهم بعض الطيبات ، فالمشركون لم يقتصروا على الإشراك

بالله - تعالى - بل ضموا إلى ذلك تحريم البَحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وهى أنواع من الإبل حرموا ذبحها وأكلها.

واليهود كانوا يحرمون لحم الإبل على أنفسهم.

والآية الكريمة وإن نزلت فى هؤلاء إلا أنها عامة فى الخطاب لهم ولن على شاكرتهم ممن يحرم حلالا كالسيخ من أهل الهند الذين يحرمون ذبح البقر وأكل لحمها؛ لأنهم يعبدونها، هؤلاء جميعا يناديهم ربهم :

يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض من حيوانها ونباتها وثمارها حلالا لا حرمة فيه طيبا لا تافها النفوس ، فلا تمنعوا أنفسكم من هذه المطاعم التى حرمتوها وهى حلال لكم، وتمنعوا بالطيبات فى غير سرف أو غرور، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم.

ولقد أمر الله عباده فى كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله :
تعالى - : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (الأعراف : ٣٢)

ونجد أنه لا ورع فى ترك المباح الذى أحله الله من حيث فيه متعة للنفس، فذلك هو التطلع فى الدين، وإنما الورع فى ترك الإكثار من تناول تلك المباحات، لأن الإكثار منها قد يؤدى إلى الوقوع فيما نهى الله عنه .

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ . الخطوات جمع خطوة كفرقة، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى، وتستعمل على وجه المجاز فى الآثار.

أى كلوا أيها الناس من الطيبات التى أحلها الله لكم، ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته ووساوسه وطرقه التى يحرم بها الحلال ويحلل الحرام، والتى يَمْدُفُهَا فى صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصى.

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . تعليل النهى عن اتباع الشيطان .

أى أنه عدو ظاهر العداوة لكم، فقد أخرج أبويكم آدم وحواء من الجنة حسدا لهما، والحسد كامن فى نفسه لذريتهما.

قال تعالى :

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦)

١٦٩ - إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إن الشيطان يوسوس لكم ويدعوكم إلى ما يحزنكم في العاجلة أو الآجلة، وبما يشتد فحشه وقبحه من الذنوب كالإشراك بالله وعقوق الوالدين والزنا وادعاء أن الله حلل ما لم يحلله مثل شرب الخمر وأكل الربا، أو حرم ما لم يحرمه كتحريم الطيبات وبعض الحيوانات .

قال الزمخشري : فإن قلت كيف كان الشيطان آمراً مع قوله : لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (الحجر: ٤٢).

قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر ، بأمر الأمر كما تقول : أمرتني نفسي بكذا ، وفيه رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم وسأوسه .

★ ★ ★

التقليد الأعمى

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

التفسير :

١٧٠ - وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ .

وقد اعتاد الضالون عن سبيل الهدى أن يتمسكوا بما توارثوا عن آبائهم في العقيدة والعمل، وإذا دعوا إلى ما جاء من هدى الله قالوا لا نعدل عما وجدنا عليه آبائنا، ومن أكبر الجهل ترجيح اتباع الآباء على طاعة الله واتباع هداة، فكيف إذا كان آبائهم لا يعقلون شيئاً من الدين ولا يستتبرون بنور الهداية والإيمان .

وسواء كان هؤلاء الذين تعنيهم الآية هم المشركون الذين تكرر منهم هذا القول كلما دعوا إلى الإسلام، وإلى تلقى شرائعهم وشعائيرهم منه، وهجر ما ألفوه في الجاهلية مما لا يقره الإسلام. أو كانوا هم اليهود الذين كانوا يصرون على ما عندهم من مآثور آبائهم ويرفضون الاستجابة للدين الجديد جملة وتفصيلاً. سواء أكان هؤلاء أم هؤلاء، وسواء أقالوا ذلك بلسان المقال أم قالوه بلسان الحال، فالآية تندد بتلقى شيء في أمر العقيدة من غير الله، وتندد بالتقليد في هذا الشأن والنقل بلا تعقل ولا إدراك.

والآية عامة تشمل كل أهل الباطل المقلدين لغيرهم فيه.

والتقليد في الباطل مَذْمُومٌ، أما التقليد لأهل العلم الأئمة في الحق فهو كما قال القرطبي فرض على العامي الذي لا يشتغل باستنباط الأحكام من أصولها فيما يحتاج إليه، مما لا يعلمه من أمر دينه عملاً بقوله تعالى: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. (التحل: ٤٣).

وتعتبر هذه الآيات مصدراً لتكوين الشخصية المستقلة الجديرة بالمسلم بحيث لا يكون إمعة، أو تابعاً لسواه دون روية أو تفكير .

★ ★ ★

ضلال الكفار

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمُّكُمْ عَنْهُ
فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١)

المفردات :

ينعق : يصيح ، والنعيق : التصويت على البهائم للزجر .
دعاء ونداء : الدعاء والنداء : استدعاء الآخرين، فهما بمعنى واحد، وقيل الأول، لطلب القريب، والثاني : لطلب البعيد .
صم : لا يسمعون .
بكم : لا يتكلمون .

المعنى الإجمالي:

وإن مثل ما يدعو أولئك الكافرين الجاحدين إلى الحق والهدى فلا يستجيبون له ولا يفقهون ما يدعوههم إليه كمثل راعي الغنم يناجيهما فلا تفقه منه شيئاً، ولا يقرع سمعها إلا الصوت ولا تعى غيره، فهم كذلك عن الحق صم الآذان، عمى البصائر، خرس الألسنة لا ينطقون بخير ولا يصدرون عن عقل.

التفسير :

١٧١ - وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صَمُّكُمْ عَنْهُمْ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

ومثل هادى الذين كفروا وداعيتهم إلى الحق وهم لا يعقلون كمثل الراعى الذى ينعى بماشيته، •
ويصيح بها، ليكفها عن الرعى فى مرعى وخيم يضرها، وكما أن البهائم لا تعى من الداعى إلا صوت الدعاء والنداء، دون أن تفهم غرضه وهو كفهم عن المرعى الوخيم العاقبة، لعدم تمييزها، فكذا هؤلاء المقلدون لم يدركوا من هاديتهم وداعيتهم إلى الحق ومحذرتهم من الباطل سوى الدعاء والنداء، لانهم اكفهم

فى التقليد الذى أغلق عقولهم، فلم تدرك ما يقول، وكما أن البهائم وقعت فى المرعى الوخيم العاقبة بجهلها ، فكذلك هؤلاء وقعوا فى مهوى الردى بإعراضهم عن الهدى.

قال الفخر الرازى : وللعلماء من أهل التأويل فى هذه الآية طريقتان :

أحدهما : تصحيح المعنى بالإضمار فى الآية، والثانى، إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار.

أما الذين أضماروا فذكروا وجوها :

الأول : كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثّل الذى ينقو، فصار الناق هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسائر الدعاة إلى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها، ووجه التشبيه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد ، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وألفاظه وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها .

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم ألتهتهم من الأوثان كمثّل الناق فى دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم، فشبه الأصنام فى أنها لا تفهم بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك من دعا بهيمة عد جاهلا فمن دعا حجراً أولى بالذم.

والفرق بين هذا القول والذى قبله ان ها هنا المحذوف هو المدعو، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى.

أما إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره: ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثّل الراعى إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلّة العقل فكذا ههنا .

ثم قال الفخر الرازى : ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسراً لقلبه، وتضييقاً لصدره، حيث يصير كالبهيمة ، فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد^(٤٠).

وفى ختام الآية وصف لهؤلاء الكفار بأنهم « صم » لا يسمعون ادعوة إلى الحق لانصرافهم عنه «بكم» عن إجابة الداعى إليها « عمى » عن آيات صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر.

« فهم لا يعقلون » : لا يدركون شيئاً لفقد الحواس، الثلاث التى هى أبواب العلم.

تحريم الميتة والدم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

المفردات :

الطيبات : المستلذات، أو الحلال من الرزق.

وما أهل به لغير الله : أى ما ذُبِحَ مذكوراً عليه اسم الله، وأصل الإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم أطلق على رفع الصوت مطلقاً، ومنه إهلال الصبى عند الولادة.

فمن اضطر غير باغ : فمن أجبرته الضرورة على تناول شيء مما ذكر لإنقاذ نفسه من الهلاك غير ظالم لغيره.

ولا عاد : ولا معتد بتجاوزه ما يمسك الرمق ويدفع الجوع.

المعنى الإجمالي:

لقد أبحنا للناس كل حلال خلقناه لهم فى الأرض ونهيناهم أن يتبعوا خطوات الشيطان فإن فعلوا اهتدوا، وإن أبوا فإننا نخص المؤمنين بهدايتنا ونبين الحلال والحرام، فبما أباحنا آمينوا أبيح لكم أن تأكلوا من لذيذ الطعام الطيب غير أنخيث، فاشكروا الله على ما أولاكم من نعمة التمكن من الطيبات وإباحتها ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم.

وليس المحرم ما زعمه المشركون، وما زعمه اليهود، وإنما المحرم عليكم ايها المومنون الميتة التى لم تذبح من الحيوان، ومثله فى التحريم لحم الخنزير، وما ذكر على ذبحه غير اسم الله من الوثن ونحوه، على أن من اضطر إلى تناول شيء من هذه المحظورات لجوع لا يجد ما يدفعه غيرها، أو لإكراه على أكله فلا بأس عليه.

التفسير :

١٧٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: أبحنا لكم أن تأكلوا من المستلذات، وأن تتغنوا بما أحلناه لكم من أرزاقنا التى مننا بها عليكم، وأمرناكم أن تشكروا الله على ما أنعم به عليكم، إن كنتم تخصصونه

بالعبادة ولا تشركون معه غيره فيها فإن من شأن المؤمن الذى يخص ربه بالعبادة أن يقتصر على ما أحله له، وألا يتوسع فى تناوله، حتى لا تطغى نفسه، وتتجاوز الحلال إلى الحرام.

نقل الأستاذ رشيد رضا عن الإمام محمد عبده قوله :

لا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفا بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله، فإن المشركين وأهل الكتاب كانوا فرقاً وأصنافاً، منهم من حرّم على نفسه أشياء معينة بأجناسها أو أصنافها كالبعيرة والسائبة عند العرب ، وكبعض الحيوانات عند غيرهم.

وكان المذهب الشافعى فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله تعالى، تعذيب النفس، وحرمانها من الطيبات المستلذة، واحتقار الجسد ولوازمه، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك.

ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطاً تعطى الجسد حقه والروح حقه، فأحل لنا الطيبات لتستريح دائرة نعمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية، فلم نكن جثمانيين محضاً كالأنعام، ولا روحانيين خلصاً كالملائكة ، وإنما جعلنا أناسى كملة بهذه الشريعة المعتدلة، فله الحمد والشكر والثناء الحسن^(١١).

★ ★ ★

١٧٣ - إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ ...

والميتة تأباها النفس السليمة ، وكذلك الدم، فضلاً عما أثبتته الطب بعد فترة طويلة من تحريم القرآن والتوراة قبله بإذن الله - من تجمع الميكروبات والمواد الضارة فى الميتة وفى الدم. ولا ندرى إن كان الطب الحديث قد استقصى ما فيهما من الأذى أم أن هناك أسباباً أخرى للتحريم لم يكشف عنها بعد للناس.

ويستثنى من تحريم الميتة السمك والجراد، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - مرفوعاً : « أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال ».

والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحى كثيراً كان أم قليلاً، وكذلك يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذى عبر عنه القرآن بالمسفوح فى قوله تعالى : قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا (الأنعام : ١٤٥).

والدم المسفوح هو الدم الجارى المهراق من البهيمة بعد ذبحها. أما الدم المتبقى فى أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيته فلا شئ فيه.

قال القرطبى : وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به البلوى، والذى تعم به البلوى هو الدم فى اللحم وعروقه.

« لحم الخنزير » وحرمة الخنزير شاملة للحمه وشحمه وجلده، وإنما خص لحمه بالذكر لأنه الذى يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمه.

ومن الحكم فى تحريم لحم الخنزير قذارته، واشتماله على دودة تضر ببدن آكله، وربما كان لتحريمه حكم أخرى لا تزال مجهولة لنا.

وَمَا أَهْلُ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ . أى ما ذبح، وقد ذكر عليه اسم غير الله، وإذا كانت المحرمات السابقة قد حُرمت لخبث ذاتها، فما ذكر اسم غير الله عليه، حرم لخبثه معنوياً، فقد ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه ولولا ذلك لكان حلالاً.

وسمى الذكر إهلالاً؛ لما فيه من الإهلال، أى رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لرفع الصوت مطلقاً، ومنه إهلال الصبى، والإهلال بالحج، وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قريبه إلى آلتهن سموا عليها أسماءها - كالألات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم، وسمى ذلك إهلالاً. فالمراد بما أهل به لغير الله هو ما ذبح للأصنام وغيرها.

وذهب عطاء والحسن ومكحول والشعبي وسعيد بن المسيب إلى تخصيص التحريم بما ذكر عليه اسم الصنم، ولهذا أباحوا ذبيحة النصرانى إذا ذكر عليها اسم المسيح، وقد خالفوا بذلك ظاهر النص، وما عليه الجمهور من التحريم، وقد شمل حكم الآية ذبيحة الوثنى والمجوسى، وكذا ذبيحة المعطل الذى لا يعتقد فى الله تعالى فهى حرام كذبيحة أهل اسم غير الله عليها.

وقد روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: إن قوماً قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : إن قوماً يأتوننا باللعن لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: سموا عليه أنتم وكلوه. قالت: وكانوا حديثى عهد بكفر^(٤٦).

فكان المحرم ليس ما لم نعلم أن اسم الله ذكر عليه، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه.

فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.

فمن ألجأته ضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات حالة كونه غير باغ؛ أى غير طالب المحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذاته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساعٍ فى فساد.

ولا عَادٍ . أى وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ . أى فلا إثم عليه فى أكله من هذه المحرمات.

وبهذا ترى لوئنا من الوان سماحة الإسلام ويسره في تشريعاته التي أقامها الله تعالى على رفح الحرج، ودفع الضرر، قال تعالى : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج : ٧٨) .

وقال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة : ١٨٥) .

وليس المراد من الآية حصر التحريم فيما ذكر، فإن المحرمات أوسع منها، ولكن المقصود رد اعتقاد المشركين أن الأكل منها حلال .

وختمت الآية بقوله - سبحانه - : إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

للإيدان بأن الحرمة باقية، إلا أنه - تعالى - أسقط الإثم عن المضطرَّ وَعَفَّرَ له لاضطراره .

★ ★ ★

جزاء من كتم العلم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

المضردات :

ويشترون به ثمنًا قليلا : ويأخذون بدله عوضًا قليلا .

ما يأكلون في بطونهم إلا النار : أى ما يكون من الطعام المشتري بهذا العوض إلا ما يؤدي بهم إلى النار .

ولا يزكيهم : ولا يطهرهم من دنس الذنوب .

اشتروا الضلالة بالهدى : باعوا الهدى بالضلالة، وجعلوها مكانه .

المعنى الإجمالى :

هذا وقد كان من العالمين بما أنزل الله فريق يخفى بعض الوحي لقاء عرض من أعراض الدنيا،

فإن اليهود كتموا كثيراً مما جاء فى التوراة من نعت الرسول خشية أن يسلم أهل ملتهم فيزول أمرهم وتضيع مكاسبهم ولذئذ مطاعهم، وإن مطاعهم من هذا السبيل لهى كالنار ياكلونها، لأنها ستقودهم إلى النار، وسيعرض الله عنهم يوم القيامة، ولا يطهرهم من دنسهم وأمامهم عذاب شديد موجه.

أولئك هم الآثمون الذين اختاروا الضلالة على الهدى فاستحقوا العذاب فى الآخرة بدل الغفران، فكانوا كمن يشتري الباطل بالحق، وما فيه ضلال بما فيه هداية، وأن حالهم لتدعو إلى العجب؛ إذ يصبرون على موجبات العذاب ويستطيبن ما يؤدى بهم إليه.

ولقد استوجبوا ما قدر لهم من الجزاء، لكفرهم بكتاب الله الذى أنزل بالحق والصدق، ولقد اختلفوا فيه اختلافاً كبيراً، دفع إليه حب الجدل ومجانبة الحق والانتماء للهوى : فحرفوه وأفسدوه وفسروه بغير معانيه.

التفسير :

١٧٤ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

قال الإمام الرازى : قال ابن عباس : هذه الآية نزلت فى رؤساء اليهود وأخبارهم كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا فلما بعث الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - خافوا انقطاع تلك المنافع فكتموا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .

ثم قال الإمام الرازى : والآية وإن نزلت فى أهل الكتاب لكنها عامة فى حق كل من كتم شيئاً من باب الدين يجب إظهاره. إذ العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب (٤٢).

والمعنى : إن الذين يخفون ما أنزل الله فى كتابه من الأحكام فى مقابل عرض قليل من أعراض الدنيا، وكل عرضها قليل وإن كان كثيراً، هؤلاء ما ياكلون فى بطونهم من هذا العرض الدنيوى إلا ما يؤدى بهم إلى النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام رحمة وإن كان يكلمهم بلسان ملائكة كلام سخط ومؤاخذه.

وَلَا يُزَكِّيهِمْ . أى ولا يطهرهم من دنس الذنوب.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى ولهم عذاب مؤلم ، بسبب كتمانهم الحق عن عباد الله .

١٧٥ - أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

فكانما هي صفقة يدفعون فيها الهدى ويقبضون الضلالة. ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب. فما أخسرها من صفقة وأغباها.. وبالسوء ما ابتاعوا وما اختاروا، وإنها لحقيقة. فقد كان الهدى مبدولاً لهم فتركوه وأخذوا الضلالة، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب. فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

فيالطول صبرهم على النار التي اختاروها اختياراً وقصدوا إليها قصداً. فياللتهم من طول صبرهم على النار.

قال العلماء :

إن فعل التعجب في كلام الله، المراد منه التعجب، أى جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل، وهو هنا صبرهم على النار، فيكون المقصود تعجب المؤمنين من جرأة أولئك الكافرين لما أنزل الله على أقرانهم ما يلقي بهم في النار شأن الواثق من صبره على عذابها المقيم.

وشبهه بهذا الأسلوب في التعجب - كما أشار صاحب الكشف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب السلطان: ما أصبرك على القيد والسجن، فأنت لا تريد التعجب من صبره، وإنما تريد إفهامه أن التعرض لما يفضيه لا يقع إلا بمن شأنه الصبر على القيد والسجن، والمقصود بذلك تحذيره من التماذى فيما يوجب غضب ذلك السلطان المستد.

★ ★ ★

١٧٦ - ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

ذلك الذي تقدم من الجزاء الشديد المترتب على الكتمان، حاصل بسبب أن الله نزل القرآن بالحق، فلا يصح أن يكتم أمره وأمر من جاء به، ولا أن يفترى عليه، وأن الذين اختلفوا في شأنه لفي خلاف بعيد عن الحق موجب لأشد العذاب، إن منهم من يقول : هو سحر . ومنهم من يقول : هو شعر. ومنهم من يقول : أساطير الأولين، ومنهم من يقول : افتراء على الله كذبا، أم به جنة، ومنهم من يقول : إنما يعلمه بشر.

ويرى بعض المفسرين : أن المراد بالكتاب: جنس الكتب التي أنزلها الله، وأن المعنى، ذلك العذاب بسبب أن الله نزل كتبه بالحق، فلا جرم أن يعذب من يكتمها، أو يكذبها. وأن الذين اختلفوا في شأن ما أنزله الله في كتبه: فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها أو آمنوا ببعضها، وكفروا بالبعض الآخر، وأسأموا تأويل بعضها.

لפי شقاقٍ بعيدٍ. شقاقٍ مع الحق، وشفاقٍ مع ناموس الفطرة، وشفاقٍ فيما بينهم وبين أنفسهم؛ وبعد شديدٍ عن الحق والصواب.

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألواناً من العقوبات الأليمة التي توعد الله بها كل من يكتم أمراً نهى الله عن كتمانها؛ لكي يقطع كل من يتأتى منه الخطاب عن هذه الرذيلة، وفاء للعهد الذي أخذه الله على الناس بصفة عامة، وعلى أولى العلم بصفة خاصة.

البر

في منتصف سورة البقرة نجد آية جامعة لخصال البر والخير هي قوله تعالى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبَّى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ وَعَهْدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّبْرِينَ فِي الْمَسَاءِ وَالضُّرَى وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

المفردات :

البر	كل ما يتقرب به العبد إلى الله من الإيمان والعمل الصالح وكل طاعة وقرية.
قبل المشرق والمغرب	: ناحيتهما
أتى المال	: أعطاه.
المسكين	: هو الدائم السكون لأن الحاجة أسكنته، والعجز قد أقعده عن طلب ما يكتفيه.
ابن السبيل	: هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أو بذى قرابة.
السائلين	: من أحتاجهم الحاجة إلى السؤال وتكفف الناس، والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة ويجب على السائل ألا يتعدها.
وفي الرقاب	: أى وفى تحرير الرقاب وعنتها
وأقام الصلاة	: أداها على أقوم وجه وأحسنه.

البأساء

: من البؤس وهو الفقر والشدة.

الضرأء

: كل ما يضر الإنسان من مرض أو فقد حبيب من أهل أو مال.

تمهيد :

تتعلق هذه الآية بتحويل القبلة. وذلك أن المسلمين في مكة كانوا يتوجهون إلى الكعبة في صلاتهم، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة أمرهم الله أن يتجهوا بصلاتهم إلى بيت المقدس، واستمرت صلاتهم إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً. ثم جاء الأمر الأخير بتوجههم في صلاتهم إلى الكعبة.

قال تعالى : **قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** . (البقرة: ١٤٤) وقد انطلقت أبواب اليهود تلوم المسلمين وتشككهم في حقيقة دينهم، وقالوا لهم : إن كان التوجه إلى بيت المقدس باطلاً فقد ضاعت صلاتكم طوال هذه الفترة .

وإن كان حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل وصلاتكم إليه ضائعة، وقد رد الله على اليهود شبهتهم ثم قال : **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ** . أى صلاتكم إلى بيت المقدس .

وإذا نحن تلمسنا حكمة التوجه إلى بيت المقدس في بداية الهجرة إلى المدينة نجد أن ذلك تم لحكمة تربوية هي تخليص المسلمين من كل نغرة عصبية. ذلك أن العرب كانوا يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم ويعودونه عنوان مجدهم القديم .

ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله وتجريدها من التعلق بغيره ، وتخليصها من كل نغرة وكل عصبية لغیر المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، فقد نزع المسلمين من الاتجاه إلى البيت الحرام واختار لهم الاتجاه فترة إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مخلصاً حتى إذا استسلم المسلمون واتجهوا إلى بيت المقدس صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى البيت الحرام.

قال تعالى : **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ أَسْمَاءَ لِّمَن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ** . (البقرة: ١٤٢)

التفسير :

١٧٧ - لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ ...

توجّه الخطاب في هذه الآية لأهل الكتاب، لأنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة، حين حولت إلى الكعبة، فقال الله لهم ما معناه ليس البر في أن تَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ، في أية ناحية من نواحي الأرض حتى يكون ذلك موضع اهتمامكم، ومثار فتنتكم للمؤمنين بغير حق. وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. يعني

ولكن البر الذي يحق الاهتمام بشأنه هو في إيمان من آمن بالله وبالحساب والجزاء في اليوم الآخر وفي إيمان من آمن بالملائكة وبالكتب المنزل .. إلخ.

وقد بين الإمام ابن كثير أن الخطاب في الآية موجّه إلى المسلمين وإلى اليهود: « فإن الله - تعالى- لما أمر المسلمين بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك، على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله - تعالى - بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله - عز وجل - وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ».

ولهذا قال: لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . الآية.

كما قال في الأضاحي والهدايا: لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُرْآنُ مِنْكُمْ . (الحج : ٣٧)

لقد ضرب الله مثلاً بالتوجه إلى المشرق والمغرب ليوضح عدم جدوى التمسك بظاهر الشعائر والطقوس الدينية حيث لا خير في مجرد استقبال الشرق أو الغرب في الصلوات، قاصداً بذلك أن يفهم الناس أن مجرد أداء الشعائر والعبادات الشكلية أو إظهار التقوى والورع ليس بالخير الحقيقي عند الله ولا وزن لذلك في عينه - تعالى .

وقد صورت هذه الآية جميع مكارم الأخلاق، وجمعت بين الإيمان والعمل، وبين حقوق الله وحقوق العباد، وبين جهاد النفوس وجهاد الأعداء ، وبين صلاح الأفراد والجماعات .

قال الثوري : « في هذه الآية أنواع البر كلها ».

وصدق فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله .

١ - مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ .

وهو الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ربّاً وخالقاً ورازقاً بيده الخير والأمر، وهو على كل شيء قدير .

٢ - وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وثواب وعقاب ليلقى كل إنسان جزاء عمله .

٣ - وَالْمَلَائِكَةِ .

والإيمان بالملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله .

٤ - وَالْكِتَابِ .

والإيمان بالكتاب وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها؛ وهو القرآن المبين على ما قبله من الكتب.

٥ - وَالتَّيِّبِينَ .

والإيمان بالتبيين هو الإيمان بالرسالات جميعاً وبالرسل أجمعين.

٦ - وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى .

أى أخرجهم وهو محب له راغب فيه ولكن غلب جانب الإيثار وضغى بالعاجلة فى سبيل الأجلة، وتحرر من عبودية المال وأنفقه فى وجوه الخير على: ذَوِي الْقُرْبَى . وهم أقرباؤه، روى الإمام أحمد فى مسنده أن الرسول ﷺ قال « الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوى الرحم ثنتان: صدقة وصلة » ورواه الترمذى وقال حديث حسن.

٧ - وَالتَّيَامَى .

وأنفق المال أيضاً عن رغبة وطيب نفس على اليتيم الذى فقد والده.

٨ - وَالْمَسْكِينِ . العاجزين عن الكسب.

٩ - وَأَيْنَ السَّبِيلِ .

وهو المسافر المتقطع عن ماله، وهو فى حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده، وفى هذا تنبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغى أن يكونوا فى التعاطف والتعاون على متاعب الحياة كالأسرة الواحدة.

١٠ - وَالسَّائِلِينَ .

الذين اضطروا إلى تكفف الناس لشدة عوزهم.

١١ - وَفِي الرِّقَابِ .

وفى تحرير الرقاب، وعق الأرقاء وتخليص الأسرى من يد العدو بفدائهم. وهذه الأصناف الستة التى ذكرت فى تلك الجملة الكريمة: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّه . . . ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر، ولكنها ذكرت كامثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة.

ومن ينظر فى القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين، وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سورهم تخلو من الحث على الإنفاق عليهم وبذل العون فى مساعدتهم،

وأيضاً هناك العديد من الأحاديث النبوية فى الحز على مد يد العون إلى ذوى القرباة والمعسرين، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتتهز بالتراحم، وتذل وتشقى بالتقاطع والتدابير بين أبنائها.

★ ★ ★

ثم ذكرت الآية ألوانا أخرى من البر تدل على قوة الإيمان، وحسن الخلق فقالت :

١٢ - وَأَقَامِ الصَّلَاةَ.

أى أداها كاملة الأركان فى أوقاتها مخلصاً فيها مناجيا ربه ساجداً لخالقه فالصلاة صلة بين المخلوق والخالق، وهى حصن الأمان وراحة النفس ودليل الإيمان بالله رب العالمين.

١٣ - وَأَتَى الزَّكَاةَ .

أى أعطى الزكاة المفروضة فى ماله وهى نسبة $\frac{1}{10}$ العشر من رأس المال أو $\frac{1}{2.5\%}$ ، وللزكاة أثرها فى تكافل المجتمع وترابطه وهى ركن عظيم من أعمال البر ومن ثم أجمع الصحابة على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأن مانعها يهدم ركناً من أركان الإسلام، وينقض أساس الإيمان..

١٤ - وَالْمُؤَفَّرُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا .

أى والذين يوفون بعهودهم إذا عاهدوا عليها ، وهذا شامل لما يعاهد عليه الناس بعضهم بعضا ولما يعاهد عليه المؤمنون ربهم من السمع والطاعة لكل ما أمر به.

ومثل العهود العقود فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة.

وفى الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده، كما أن الغدر والإخلاف هادم للنظام، مفسد للعمران.

ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من التناحور والبلاء.

١٥ - وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .

أى الصابرين لدى الفقر والشدة وعند الضر من مرض وفقد أهل وولد ومال، وفى ميادين القتال. والبيأساء من البؤس وهى ما يصيب الناس فى الأموال كالفقر والاحتياج.

والضراء من الضر وهى ما يصيبهم فى أنفسهم كالأمراض والأسقام، وحين البأس أى ووقت القتال فى سبيل الله لإعلاء كلمته.

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

أى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لخصال البر هم الصادقون فى إيمانهم وفى كل أحوالهم ، وأولئك هم المتقون لعذاب الله تعالى بسبب امتثالهم لأوامره .

وقد رسمت هذه الآية الكريمة منهجاً متكاملًا للحياة الإسلامية واشتملت على خمسة عشر نوعاً من أنواع البر الذى يهدى إلى الحياة السعيدة فى الدنيا وإلى رضا الله - تعالى - فى الآخرة . وقد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير وير فى العقيدة ، وير فى العمل ، وير فى الخلق .

- أما بر العقيدة فقد بينته أكمل بيان فى قوله تعالى : لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ . فقد جمعت فى هذه الجملة الكريمة ما لا يتم الإيمان إلا بتحقيقه .

- وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح فى قوله تعالى : وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى الْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ . ولا شك أن إنفاق المال فى تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم .

- وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكم عبارة فى قوله تعالى : وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل - أداء الصلاة ، وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود ، والتذرع بالصبر ، يدل على صفاء الإيمان ، وطهارة الوجدان وحسن الخلق .

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق .

إن سعادة المسلمين تكون فى عودتهم إلى دينهم ، وإلى كتاب ربهم وهدى نبيهم : وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . (الإسراء : ٨٢) .

القصاص

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ وَالْحَرْ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

المفردات :

القصاص : المساواة والمماثلة، وأصله من قص أثره واقتصه إذا اتبعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار.

القتلى : جمع قتل، والمعنى فرض عليكم اعتبار المماثلة والمساواة بين القتلى، فالحر يقتل بالحر، والعبد يقتل بالعبد والأنثى بالأنثى.

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .

وهذا العفو يكون بقبول الدية من أولياء الدم بدلاً من قتل الجاني، ومتى قبل ولى الدم هذا ورضيه فيجب إذن أن يطلبه بالمعروف والرضا والمودة، ويجب على القاتل أو وليه أن يؤديه بإحسان، وإجمال وإكمال تحقيقاً لصفاء القلوب، وشفاء لجراح النفوس وتقوية لأواصر الأخوة بين بقية الأحياء، وقد امتن الله على المؤمنين بهذا التشريع وبين ما فيه من رحمة بالامة .

قال ابن عباس : ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ . إشارة إلى الحكم بشرع القصاص والدية والعفو.

فإن هذه الأمة خيرت بينها توسعة وتيسيراً ولم يكن لليهود إلا القصاص، ولم يكن للنصارى إلا العفو، وإثبات الخيرة فضل من الله ورحمة فى حقنا لأن ولى الدم قد تكون الدية أثر عنده من القود إذا كان محتاجاً إلى المال وقد يكون القود أثر عنده إذا كان راغباً فى التشفى ودفع شر القاتل عن نفسه وقد يؤثر ثواب الآخرة فيعفو عن القصاص وعن بدله جميعاً وهو الدية ^(١١).

فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى نوع من العذاب عديد الألم فى الآخرة.

وعن قتادة : (العذاب الأليم أن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية) لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول نكث للمهود وإهدار للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب، ومتى قبل ولى الدم الدية، فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدى.

ومن ثم ندرك سعة آفاق الإسلام، وبصره بحوافز النفس البشرية عند التشريع لها ومعرفته بما فطرت عليه من النوازع: إن الغضب للدم فطرة وطبيعة. فالإسلام يلبّيها بتقرير شريعة القصاص. فالعدل الجازم هو الذى يكسر شره النفوس، ويفثا حق الصدور، ويردع الجاني كذلك عن التمادي. ولكن الإسلام فى الوقت ذاته يحبب فى العفو ويفتح له الطريق، ويرسم له الحدود، فتكون الدعوة إليه بعد تقرير القصاص دعوة إلى التسامى فى حدود التطوع لا فرضا يكبت فطرة الإنسان ويحملها ما لا تطيق.

وتذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة. نسختها آية المائدة التى نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقاً: وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ .. الآية. (المائدة : ٤٥)

قال ابن كثير فى التفسير : وذكر فى سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم حدثنا ، أبو زرعة يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثنى عبد الله بن لهيعة، حدثنى عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ. يعنى إذا كان عمداً الحر بالحر.. وذلك أن حين من العرب اقتتلا فى الجاهلية - قبل الإسلام بقليل. فكان بينهما قتلى وجراحات حتى قتل العبيد النساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتناول على الآخر فى العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم.. فنزل فيهم . الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى. منسوخة بقوله : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ.

وإذا علمنا أن النسخ فى القديم كان يطلق على مجرد التخصيص أو التوضيح ...

ولم يكن يعنى النسخ عند الأصوليين : « وهو رفع حكم شرعى لاحق لحكم شرعى سابق ».

إذا علمنا هذا، وراعينا سبب النزول أدركنا أن موضع هذه الآية غير موضع آية النفس بالنفس، وأن لكل منها مجالاً غير مجال الأخرى، وأن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين، أو من أفراد معينين على فرد أو أفراد معينين فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمداً.. فأما الآية التى نحن بصدها فمجالها مجال الاعتداء الجماعى - كحالة ذئك الحيين من العرب- حيث تعتدى أسرة على أسرة أو قبيلة على قبيلة، أو جماعة على جماعة. فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء ، فإذا أقيم ميزان القصاص كان الحر من هذه بالحر من تلك، والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك، وإلا فكيف يكون القصاص فى مثل هذه الحالة التى يشترك فيها جماعة فى الاعتداء على جماعة ؟.

وإذا صح هذا النظر لا يكون هنا نسخ لهذه الآية، ولا تعارض في آيات القصاص.

١٧٩ - وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

قال المفسرون : القصاص إزالة الحياة، وإزالة الشيء لا تكون نفس ذلك الشيء، فالمراد : لكم في شرع القصاص حياة، وأى حياة، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكما قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله^(١٤) ويحتمل أن يقال إن نفس القصاص سبب لنوع من الحياة وهى الحاصلة بالارتداد عن القتل لأن القاتل إذا قيد منه ارتد من كان يهيم بالقتل فلم يُقتل ولم يُقتل فكان القصاص سبب حياة نفسين^(١٥).

وقرأ أبو الجوزاء : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ . أى فيما قص عليكم من حكم القتل والقصاص، وقيل القصص : القرآن أى لكم فى القرآن حياة للقلوب.

والمأمل فى بلاغة الآية ومكانها مما قبلها يرى أن وقع الآية وجميل بيانها يتحقق بكلمة القصاص دون كلمة القصص، ويرى أن الحياة التى فى القصاص تنبثق من كف الجناة عن الاعتداء ساعة الابتداء.

فالذى يوقن أنه سيدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل .. جدير به أن يتروى ويفكر ويتردد . كما تنبثق من شفاء صدور أولياء الدم عند وقوع القتل بالفعل، شفاؤها من الحقد والرغبة فى الثأر . الذى لم يكن يقف عند حد فى القبائل العربية، حتى لتدوم معاركه المتقطعة أربعين عاماً كما فى حرب البسوس المعروفة عندهم . وكما نرى نحن فى واقع حياتنا اليوم، حيث تسيل الحياة على مذابح الأحقاد العائلية جيلاً بعد جيل، ولا تكف عن المنسيل.

وفى القصاص حياة على معناها الأشمل الأعم . فالاعتداء على حياة فرد اعتداء على الحياة كلها، واعتداء على كل إنسان حى، يشترك مع القتل فى سمة الحياة، فإذا كف القصاص الجانى عن إزهاق حياة واحدة فقد كفه عن الاعتداء على الحياة كلها . وكان فى هذا الكف حياة، حياة مطلقة لا حياة فرد ولا حياة أسرة ولا حياة جماعة . بل حياة.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . أى تحذرون القتل لخوف القصاص .

وقال النيسابورى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . يتعلق بمحذوف، أى أريتكم ما فى القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لتكونوا على بصيرة راجين أن تعملوا عمل أهل التقوى فى الحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالحكام وولاة الأمور^(١٦).

وقال الإمام محمد عبده معناه : « ثبتت لكم الحياة فى القصاص لتعديكم وتهيثكم للتوقى والاحتراس من سفك الدماء وسائر ضروب الاعتداء، إذ العاقل حريص على الحياة، ولوع بالأخذ بوسائلها، والاحتراس من غوائلها » (١٨).

حكمة التشريع الإسلامى فى القصاص (١٩) :

جعلت الشريعة القصاص عقوبة للقتل العمد والجرح العمد، ومعنى القصاص أن يعاقب المجرم بمثل فعله فيقتل كما قتل ويجرح كما جرح.

ومصدر عقوبة القصاص هو القرآن والسنة، فالله - عز وجل - يقول : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ ... إلى آخر الآيتين ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة.

ويقول - جل شأنه - وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. (المائدة: ٤٥).

وفى السنة « من قتل له قتيلاً فاهله بين خيرتين إن أحبوا فالقود وإن أحبوا فالقتل « أى الدية.

وفى السنة « من اعتبط مؤمناً بقتل فهو قود به إلا أن يرضى ولى المقتول ».

وليس فى العالم كله قديمه وحديثه عقوبة تفضل عقوبة القصاص فهو أعدل العقوبات إذ لا يجازى المجرم إلا بمثل فعله، وهى أفضل العقوبات للأمن والنظام، لأن المجرم حينما يعلم أنه سيجازى بمثل فعله لا يرتكب الجريمة غالباً.

والذى يدفع المجرم بصفة عامة للقتل والجرح هو تنازع البقاء وحب التغلب والاستعلاء، فإذا علم المجرم أنه لن يبقى بعد فريسته أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته، وإذا علم أنه إذا تغلب على المجنى عليه اليوم فهو متغلب عليه غداً، لم يتطلع إلى التغلب عليه عن طريق الجريمة، وأماناً على ذلك الأمثلة العملية نراها كل يوم، فالرجل العصبى المزاج السريع إلى الشر نراه أهدأ ما يكون وأبعد عن الشر وطلب الشجار إذا رأى خصمه أقوى منه أو قدر أنه سيرد على الاعتداء بمثله.

والرجل المسلح قد لا يثنيه شيء عن الاعتداء ولكنه يتراجع ويتردد إذا رأى خصمه مسلحاً مثله ويستطيع أن يرد على الاعتداء، والمصارع والملاكم لا يتحدى شخصاً يعلم أنه أكثر منه قوة أو مراناً أو جلدًا ولكنه يتحدى بسهولة من يظنه أقل منه قوة وأضعف جلدًا.

تلك هى طبيعة البشر، وضعت الشريعة على أساسها عقوبة القصاص، فكل دافع نفسه يدعو إلى الجريمة يواجه من عقوبة القصاص دافعاً نفسياً مضاداً يصرف عن الجريمة، وذلك ما يتفق تمام الاتفاق مع علم النفس الحديث.

وللمجنى عليه ولوليه حق العفو عن عقوبة القصاص فإذا عفا سقطت العقوبة، والعفو قد يكون مجاناً ، وقد يكون مقابل الدية ، ولكن سقوط عقوبة القصاص بالعفو لا يمنع ولى الأمر من أن يعاقب المجرم بعقوبة تعزيرية مناسبة.

ولقد كانت الشريعة عملية ومنطقية فى منح حق العفو للمجنى عليه أو وليه لأن العقوبة فرضت أصلاً لمحاربة الجريمة ، ولكنها لا تمنع وقوع الجريمة فى أغلب الأحوال.

أما العفو فيؤدى إلى منع الجريمة فى أغلب الأحوال ؛ لأنه لا يكون إلا بعد الصلح والتراضى وصفاء النفوس وخلوها من كل ما يدعو إلى الجريمة والإجرام.

فالعفو هنا يؤدى وظيفة العقوبة وينتهى إلى نهاية تعجز العقوبة عن الوصول إليها . جاء فى تفسير المنار :

وقد تقع فى كل بلاد العالم صور من جرائم القتل يكون فيها الحكم بقتل القاتل ضاراً وتركه لا مفسدة فيه، كأن يقتل الإنسان أخاه أو أجد أقاربه لعارض دفعه إلى ذلك، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت وإذا قتل يفقدون بقتله المعين والظهير، بل قد تكون فى قتل القاتل أحياناً مفاصد ومضار وإن كان أجنبياً من المقتول ويكون الخير لأولياء المقتول عدم قتله لدفع المفسدة أو لأن الدية أنفع لهم، فأمثال هذه الصور توجب ألا يكون الحكم بقتل القاتل حتماً لازماً فى كل حال بل يكون هو الأصل ويكون تركه جائزاً برضاء أولياء المقتول وعفوهم، فإذا ارتقت عاطفة الرحمة فى شعب أو قبيلة أو بلد إلى أن صار أولياء القاتل منهم يستكثرون القتل ويرون العفو أفضل وأنفع فذلك إليهم.

والشريعة لا تمنعهم منه بل ترغيبهم فيه، وهذا الإصلاح الكامل فى القصاص هو ما جاء به القرآن.

وما كان ليرتقى إليه بنفسه علم الإنسان^(٥٠).

الوصية

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المفردات :

كتب : فُوض .

خيـرا : مالا كثيرا .

الوصية : الإيـساء والتوصية وتطلق على الموصى به من عين أو عمل .

المعروف : ما لا يستكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرة التي تضرُّ بالورثة، وتقدر
الكثرة باعتبار العرف وتقاس بحسب حال الشخص لدى الناس .

خاف : عَلم .

الجنف : الخطأ .

الإثم : تعمد الإجحاف والظلم .

التفسير :

١٨٠ - كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
الْمُتَّقِينَ .

كتب الله عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت من مرض ثقيل،
أو شيخوخة مضعفة وكان عنده مال كثير قد جمعه من طريق حلال أن يوصى بجانب منه لوالديه
وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذي لا مضارة فيه بين الأقارب والوصية
على هذا الوجه تعتبر حقا واجبا على المتقين الذين اتخذوا التقوى والخشية من الله طريقاً لهم .

والمراد بالمعروف هنا العدل الذي جاءت به الشريعة بالأب يتجاوز بالوصية الثلث، وألا يوصى
للأغنياء ويترك الفقراء، أو يوصى للقریب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقرا ومسكنا .

قال القرطبي : اختلف العلماء فى هذه الآية هل هى منسوخة أو محكمة فقليل هى محكمة؛ ظاهرها العموم ومعناها الخصوص فى الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والمبدين وفى القرابة غير الورثة، قاله الضحاك وطاوس والحسن واختاره الطبرى^(٥١)

« وجمهور المفسرين القدماء - وفى مقدمتهم ابن عباس وابن عمرو على أن هذه الآية منسوخة بآيات الميراث فى سورة النساء وسندهم فى ذلك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - خطبهم على راحلته فقال : « إن الله قد قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية »^(٥٢) أخرجه أحمد والترمذى وصححه، والنسائى وابن ماجه، وكذلك ما أخرجه الإمام أحمد والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع فى خطبته يقول : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث »^(٥٣).

فهذا الحديث وذاك، أفهما أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبرهم أن آية الموارث نسخت وجوب الوصية للوالدين والأقربين المأخوذ من هذه الآية^(٥٤).

وحكمة الوصية لغير الوارث تتضح فى الحالات التى يعجب فيها بعض الأقارب من الميراث، لأن وجود الأصل الوارث والفرع الوارث كالأب والابن يعجب الحواشى كالأعمام والأخوال.

فالوصية لون من ألوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة.

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » قال ابن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ذلك إلا عندى وصيتى^(٥٥).

١٨١ - فَمِنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى فإنما إثم التبديل على من بدل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه.

والتغيير إما بإنكار الوصية، أو بالنقص فيها بعد علمها حق العلم.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يسمع أقوال المبدلين والموصين، ويعلم نياتهم ويجازيهم عليها.

١٨٢ - فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى إن خرج الموصى فى وصيته عن حدود العدل ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من

الناس، وتوقع أن شرا سيترتب على هذه الوصية التي فيها جور، أو شاهد نزاعاً بين الموص والموصى لهم، أن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق.

وعلى هذا المعنى يكون الضمير في قوله: **بَيْنَهُمْ** . يعود على الموصى والموصى لهم.

ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية الكريمة الواردة في الوصى أن الموصى إذا حاد في وصيته عن حدود العدل، فللوصى حينئذ أن يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ما شرعه الله ، وهو في هذه الحالة لا إثم عليه لأنه قد غيّر الباطل بالحق، وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أن الموصى إذا رأى الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمدا وأصلح بين الموصى لهم بردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه في هذا التغيير في الوصية والضمير في قوله « بينهم » عائد على الموصى لهم.

ويتعلق بالآية ما يأتي :-

١ - الوصية للأقربين أولى من الأجانب فالصدقة على القريب صدقة وصلة رحم.

٢ - روى الفخر الرازي رأى أبى مسلم الأصفهاني في الوصية، ومن رأيه أن الوصية للوارث باقية لم تتسخ، ولا منافاة بينها وبين الميراث فالميراث عطية من الله، والوصية عطية من المالك للوارث، فمن شاء أن يوصى لابن بار أو وارث أشد حاجة فله ذلك عنده ^(٥٦).

٣ - قال العلماء : المبادرة بكتابة الوصية ليست مأخوذة من هذه الآية، وإنما هي من حديث ابن عمر. وفائدتها : المبالغة في زيادة الاستيثاق، وكونها مكتوبة مشهودا بها وهي الوصية المتفق على العمل بها فلو أشهد العدول وقاموا بتلك الشهادة لفظاً لَعَمَلٍ بها وإن لم تكتب خطأ ^(٥٧).

٤ - روى الدار قطنى عن أنس بن مالك قال : كانوا يكتبون في صدور وصاياهم : هذا ما أوصى به فلان بن فلان أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وإن الله يبعث من في القبور، وأوصى من يترك بعده من أهله بتقوى الله حق تقائه وأن يصلحوا ذات بينهم : ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ^(٥٨) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ. (البقرة : ١٣٢).

الصيام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

فرض الله الصيام تهذيباً للنفس، وتعويدا على الطاعة، وتمرينا على تقوى الله ومراقبته.

وقد أثبت الطب الحديث أن للصيام فوائد طبية عدة فهو يفيد في علاج كثير من الأمراض كضغط الدم المرتفع وتصلب الشرايين والبول السكرى، ويصلح الجهاز الهضمى وهبوط القلب والتهاب المفاصل ويعطى الجسم والأنسجة فرصة للراحة والتخلص من كثير من الفضلات الضارة بالجسم كما أنه وقاية من كثير من الأمراض المختلفة^(٥٩).

وقد كان الصوم معروفاً عند الأمم السابقة، فقد عرف الصوم عند قدماء المصريين، ومنهم انتقل إلى اليونان والرومان ولا يزال الهنود الوثيون يصومون إلى الآن، وفى التوراة مدح للصوم والصائمين وليس فيها ما يدل على أنه فرض، وثبت أن موسى صام أربعين يوماً، كما أنه ليس فى الإنجيل نص على فرضية الصوم، بل فيه مدحه وعده عبادة. وأشهر صيام النصارى وأقدمه الصوم الكبير الذى قبل عيد الفصح، وهو الذى صامه موسى وكان يصومه عيسى والحواريون، وقد وضع رؤساء الكنيسة ضروباً أخرى من الصيام تختلف فيها المذاهب والطوائف.

★ ★ ★

١٨٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ.

لقد فرض الله الصيام لتهديب الإنسان وتربية المسلم وتصفية نفسه وإخلاص ضميره.

وقد أخبر الله أن الصوم عبادة معروفة عرفتها الأديان السابقة ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية.

وقد بين الله أن الصيام فرض علينا كما فرض على الأمم السابقة. لإثارة الهمم والعزائم للنهوض بهذه العبادة وتسهيل الصيام على المسلمين لأن الشيء الشاق تخف مشقته على الإنسان عندما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

★ ★ ★

١٨٤ - أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ . . .

أى أياما معينات بالعدد وهى أيام رمضان فالله لم يكن يفرض علينا صوم الدهر كله ولا أكثره تخفيفاً ورحمة بالمكلفين : « ولو علم المؤمن فضل رمضان لتمنى أن يكون السنة كلها ».

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

لقد شرع الله الإفطار للمريض والمسافر على سبيل الرخصة، وهما بالخيار إن شاء أظفرا وإن شاء صاما، إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه .

والذى نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر فى رمضان بسبب المرض أو السفر، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج، والحكم الشرعى يوجد حيث توجد مظنته وينتفى حيث تنتفى، وعلى المسلم أن يتقدر حال نفسه، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس فى الصوم معه مشقة أو عسر صام عملاً بقوله - تعالى: وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ . وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه أظفر عملاً بقوله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه، واستفتاء قلبه .

والثابت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه صام فى السفر وأظفر، وَخَيَّرَ بعض أصحابه بين الصوم والفطر .

روى الشيخان ومالك وأبو داود عن أنس بن مالك قال : « كنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فمنا الصائم ومنا المفطر فلا الصائم يعيب على المفطر ولا المفطر يعيب على الصائم » (١٠).

ومن صام وهو مريض أو مسافر فقد أدى الفريضة، ومن أظفر وجب عليه القضاء .

وروى عن عائشة أن حمزة الأسلمى قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « أصوم فى السفر - وكان كثير الصيام؟ فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « إن شئت فصم وإن شئت فافطر، وفى رواية مسلم أنه أجابه بقوله : « هى رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » (١١).

وأكثر الأئمة كمالك وأبى حنيفة والشافعى على أن الصوم أفضل لمن قوى عليه ولم يشق، ويرى أحمد والأوزاعى أن الفِطْرَ أفضل عملاً بالرخصة.

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ .

والذين يطيقون الصوم هم الشيوخ والضعفاء والزمنى الذين لا يُرجى براء أمراضهم والعمال الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم من المناجم، « والمجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة والحبلى والمرضع إذا خافتا على ولديهما . فكل هؤلاء يفطرون وعليهم الفدية، وهى إطعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهلهم بقدر كفايته أكلة واحدة بقدر شبع المعتدل الأكل، عن كل يوم يفطرونه » (١٧).

ومعنى « يُطِيقُونَهُ » يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشيء مع الشدة والمشقة، والوسع اسم للقدرة على جهة السهولة.

قال الراغب : (والطاقة اسم لحدار ما يمكن للإنسان أن يفعل به مشقة، وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بالشيء ومنه . رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . (البقرة : ٢٨٦) أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه: لاتحملنا ما لا قدرة لنا به) (١٨).

والعرب لا تقول فلان أطلق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر، فلا يقال - مثلاً - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد. وإنما يقال هو يطيق حمل قنطار من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة.

★ ★ ★

وللعلماء أقوال كثيرة فى المراد بقوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ . أشهرها ثلاثة آراء.

الراى الأول : أن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيّر الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء وكان ذلك فى بدء الإسلام، فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم، فرخص لهم فى الإقطار، الفدية ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم.

ويشهد لهذا القول ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال :

لما نزلت هذه الآية : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ . كان من أراد أن يفطر ويفتدى، حتى نزلت الآية بعدها فتسختها (١٩).

الرأى الثانى : أن قوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ...

ليس بمنسوخ بل هو محكم، وأنه نزل فى شأن الشيخ الكبير الهرم والمرأة العجوز، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا وأن يطعما عن كل يوم مسكينا، وأصحاب هذا الرأى يستدلون بما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ليست بمنسوخة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليهما أن يطعما مكان كل يوم مسكيناً^(٦٥).

الرأى الثالث : أن قوله تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ .

ليس بمنسوخ - أيضا - بل هو محكم وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه ، أى يقدرون على الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا فعليهم أن يطعموا عن كل يوم فطرته مسكينا . (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاعاً من تمر أو شعير أو قيمة ذلك)، ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب الرأى الثانى - وإنما أدخلوا فى حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ومن فى حكمهما ممن يشق عليهم الصوم مشقة كبيرة، وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية، إذ إن الواسع اسم للمقدرة على الشيء على جهة السهولة ، والطاق اسم للمقدرة عليه مع الشدة والمشقة. كما يستدلون أيضا على ما ذهبوا إليه بقراءة (يطِيقُونَهُ)^(٦٦) بضم الياء الأولى وتشديد الثانية - أى يتجشموه ويتكلفونه بمشقة وتعب، وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأى بناء على أن منطوق الآية يؤيده.

كما انتصر بعضهم للرأى الأول بناء على أن الأحاديث الصحيحة تسانده، وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية فى التدرج فى تشريع التكاليف التى فيها مشقة على الناس ، كما انتصر بعضهم للرأى الثانى الذى روى عنه ابن عباس.

فَمَا تَطْلُوعُ خَيْرٌ أَمْ خَيْرٌ لَهُ .

أى فمن زاد فى الفدية فذلك خير له لأن ثوابه عائد إليه ومنفعته له ، وهذا التطوع شامل لأصناف ثلاثة :

١ - أن يزيد فى الإطعام على مسكين واحد فيطعم بدل كل يوم مسكينين أو أكثر.

٢ - أن يطعم المسكين الواحد أكثر من القدر الواجب.

٣ - أن يصوم مع الفدية.

وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ .

أى وصومكم - أيها المرضى والمسافرون والذين يطبقونه - خير لكم من الفدية لما فيه من رياضة الجسد والنفس ومراقبة الله .

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

وجه الخيرية فيه وكونه لمصلحة المكلفين ، لأن الله غنى عن العالمين ، وما روى من قوله - عليه الصلاة والسلام - : « ليس من البر الصوم فى السفر » فقد خصص بمن يجهد الصوم ويشق عليه حتى يخاف الهلاك .

شهر رمضان

ورد فى هدى النبوة أنه « إذا جاء شهر رمضان ، فتحت أبواب الجنان ، وغلقت أبواب النيران ، ونادى من قبل الله - تعالى - يا طالب الخير أقبل ، ويا باغى الشر أدبر » ^(١٧).

وقد اختص الله شهر رمضان بعدد من الفضائل والمزايا يمكن أن نذكر عشرة منها :

١ - فهو شهر أنزل الله فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

٢ - وهو شهر الصوم وفى الصيام صفاء النفس ، وخشوع القلب ومراقبة الله - سبحانه وتعالى .

٣ - وهو شهر الصبر والاحتمال وتربية الإرادة ، وخلق عادات إسلامية سليمة .

٤ - وهو شهر الصدقة ، وصلة الرحم ، ففيه صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين . وفى الحديث: « كان - صلى الله عليه وسلم - أجود بالخير من الريح المرسلة وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ».

٥ - وفى السابع عشر من رمضان فى العام الثانى للهجرة كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى أول معركة هامة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وكان انتصار المسلمين فيها نقطة تحول أساسية بدأت قوة المسلمين بعدها فى النمو والازدياد .

٦ - وفى ٢٠ من رمضان سنة ٨ هـ، تم فتح مكة وخضعت أم القرى ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، ويعتبر فتح مكة من أهم الأمور التى اعتز بها الإسلام وتمكن بسببها من الصمود والانتشار .

٧ - وفى رمضان ليلة القدر ، وهى ليلة مباركة يضاعف الله فيها الثواب ، ويجعل ثواب العبادة فيها خيرا من ثواب العبادة فى ألف شهر، فهى منحة إلهية ومكافأة ربانية وعطاء سماوى يكافأ به الصائمون المخلصون، وقد أخفى الله ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان حتى يجتهد المسلمون فى أواخره فيحصلوا على قدر كبير من الثواب والأجر .

٨ - وفي شهر رمضان صلاة التراويح وهي عبارة عن صلاة عشرين ركعة بعد صلاة العشاء ويجوز أن تصلى ثمانى ركعات مع إطالة القراءة.

٩ - وفي ختام رمضان يأتي عيد الفطر مكافأة للصائم الذى أَرْضَى ربه وصام نهار رمضان وقام ليله ، فيكون الفرح والسرور فى عيد الفطر جزاء عاجلاً ، وله فى الآخرة ثواب أجل.

١٠ - وفي أعقاب رمضان يأتي صيام الأيام البيض. وهي ستة أيام من شهر شوال ، بمثابة مسك الختام لصيام رمضان.

وفى الحديث : « من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكانما صام السنة كلها » (١٨). وقد ورد ذكر شهر رمضان فى القرآن الكريم مرة واحدة فى الآية ١٨٥ من سورة البقرة.

★ ★ ★

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

شهر رمضان مبتدأ ، خبره الذى أنزل فيه القرآن ، أو بدل من الصيام فى قوله تعالى : « كتب عليكم الصيام ».

ومعنى نزول القرآن فى رمضان أن ابتداء نزوله كان فى شهر رمضان، تسمية للشئ باسم أوله.

وفى سورة القدر تحديد الليلة التى ابتداء فيها نزول القرآن ، قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ . (سورة القدر).

والملاحظ أن القرآن نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة هي

مدة الرسالة . قال تعالى: وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . (الإسراء : ١٠٦).

وقال عز شأنه - : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٢٢-٢٣).

روى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن أنه قال فى قول الله - عز وجل - : وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . قال : كان ينزل آية وآيتين وآيات، جوابًا لهم عما يسألون وردًا على النبى - صلى الله عليه وسلم.

قال ابن قتيبة : « ولو أتاهم القرآن نجما واحداً لمسبق حدوث الأسباب التى أنزل الله بها، ولتقلت جملة الفرائض على المسلمين، وعلى من أراد الدخول فى الدين».

وللعلماء فى كيفية نزول القرآن آراء ثلاثة :

الرأى الأول : وهو رأى الشعبى، أنه ابتداء إنزاله فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً فى أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النبى - صلى الله عليه وسلم .

فقول القرآن : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . من باب تسمية الشئ باسم أوله تيمناً به وتعظيمًا لشأنه، (ومبادئ الملل هى التى يؤرخ بها لشرفها وانضباطها) .

الرأى الثانى : وهو رأى مقاتل بن سليمان، أنه نزل إلى سماء الدنيا فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة، ينزل فى كل ليلة قدر ما قدر إنزاله فى تلك السنة، ثم ينزل به جبريل منجماً على رسول الله - صلى الله عليه وسلم.

الرأى الثالث : وهو رأى الجمهور، أن القرآن نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً فى ثلاث وعشرين سنة، وأصحاب هذا الرأى يذهبون إلى أن للقرآن تنزلات ثلاثة:

(أ) التنزل الأول إلى اللوح المحفوظ، قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مُّحْفَظٍ . (البروج: ٢١-٢٢).

(ب) التنزل الثانى من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا، ودليله قوله - سبحانه - : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .

(ج) التنزل الثالث من سماء الدنيا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى ثلاث وعشرين سنة، ودليله قوله - تعالى - : وَقرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا .

١٨٥ - شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ . . .

بين الله أن الحكمة فى تخصيص هذا الشهر بالعبادة والصيام هى أنه الشهر الذى أنزل فيه

القرآن وأفيضت على البشر فيه هداية الرحمن، فحق أن يعبد الله - تعالى - فيه ما لا يعبد في غيره. تذكرنا لإنعامه بهذه الهداية. وهى إنزال القرآن الذى هدانا الله - تعالى - به وجعله آيات بينات من الهدى أى من الكتب المنزلة، والفرقان الذى يفرق بين الحق والباطل، فوصفه بأنه هدى فى نفسه لجميع الناس، وأنه من جنس الكتب الإلهية، ولكنه الجنس العالى على جميع الأجناس فإنه آيات بينات من ذلك الهدى السماوى وكتب الله كلها هدى ولكنها ليست فى بيانها كالقرآن .

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الثَّوْبَ فَلْيُصِمِّهُ ...

أى من حضر منكم الشهر غير مسافر. أو من رأى منكم هلال الشهر، والمستيقن من مشاهدة الهلال بأية وسيلة أخرى يجب عليه الصيام كمن شاهده، ثم بين الله الرخصة للمريض والمسافر فقال سبحانه :

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ .

أى إذا كان الصوم يجهد المريض أو المسافر فله أن يفطر وعليه عدة ما أفطر من أيام آخر يصومها بدلاً من الأيام التى أفطرها فى رمضان.

وقد اختلف العلماء فى المرض المبيح للفطر على ثلاثة أقوال:

الأول : وهو قول أهل الظاهر : أى مرض كان وهو ما يطلق عليه اسم المرض.

الثانى : أن هذه الرخصة مختصة بالمريض الذى لو صام لوقع فى مشقة عظيمة تنزيراً للفظ المطلق على أحواله.

الثالث : وهو قول أكثر الفقهاء أن المرض المبيح للفطر هو الذى يؤدي إلى ضرر فى النفس أو زيادة علة غير محتملة كالمحموم إذا خاف أنه لو صام اشتدت حمّاه. فالمراد بالمرض ما يؤثر فى تقويته، قال الشافعى : إذا أجهده الصوم أفطر وإلا فهو كالصحيح.

واختلف العلماء أيضاً فى مقدار السفر المبيح للفطر فى رمضان فقال داود الظاهرى : أى سفر ولو كان فرسخاً. وقال الأوزاعى : السفر المبيح للفطر مسيرة يوم واحد. وقال الشافعى وأحمد ومالك : أقله مسيرة يومين أو ستة عشر فرسخاً. وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقله مسيرة ثلاثة أيام^(١٩).

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ .

اليسر فى اللغة السهولة، ومنه التيسير، قال- صلى الله عليه وسلم - بعثت بالحنيفية السمحة.

ومن كمال رأفته - تعالى - أنه نفى الحرج أولاً ضمناً بقوله : **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ** . ثم نفاه صريحاً بقوله : **وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ** . ويقول - سبحانه - في آيات أخرى . **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا** . (النساء : ٢٦-٢٨).

أى أن الله سبحانه يريد التيسير والرأفة وتسهيل طرق الهداية والعبادة حتى يأخذ بيد الإنسان إلى طريق الفلاح والرشاد .

وفى الحديث الشريف يقول النبى - صلى الله عليه وسلم - : **« يَسْرُوا وَلَا تَعْسَرُوا وَيَسْرُوا وَلَا تَتَفَرُّوا ... »** .

وهذه قاعدة أساسية فى تكاليف الإسلام كلها، فهي يسر لا عسر، وهى توحى للقلب الذى يتذوقها بالسهولة واليسر فى أخذ الحياة كلها، وتطبع نفس المسلم بطابع خاص من السماحة التى لا تكلف فيها ولا تعقيد . سماحة تؤدى معها كل التكاليف وكل الفرائض وكل نشاطات الحياة، كأنما هى مسيل الماء الجارى، ونمو الشجرة الصاعدة فى طمانينة وثقة ورضاء . مع الشعور الدائم برحمة الله وفضله وبره، وعظيم نعمائه على عباده .

وقد جعل الله الصوم للمسافر والمريض فى أيام أخرى لكى يتمكن المضطر من إكمال عدة أيام الشهر فلا يضيع عليه أجرها .

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ .

أى عدة صوم رمضان فيتدارك المسلم، ما فاتته من صيام بالقضاء .

أو المراد يجب إتمام صيام الشهر لمن كان مقيماً صحيحاً، وإتمام عدة أيام القضاء لمن أضر.

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ .

أى تذكروه وتكبروه شاكرين له هدايتكم وتوفيقكم لصيام رمضان .

قال الشافعى : سمعت من أراضى من أهل العلم بالقرآن : يقول : **وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ** . أى عدة صوم

رمضان : **وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ** . عند إكمالها، وإكمالها بغروب شمس آخر يوم رمضان .

وصيغة التكبير هى : **اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ**، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر والله الحمد .

قال الشافعي وما زاد من ذكر الله فحسن، خصوصاً الذكر المأثور مثل : الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله؛ ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، ولا شيء قبله ولا شيء بعده.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أى أن يستشعر الصائم فضل الله عليه ونعمه وتوفيقه فيغنى قلبه إلى الله راغباً حامداً معترفاً له بالربوبية شاكراً له نعمة التوفيق والهداية، وبذلك تظهر منه الله فى هذا التكليف الذى يبدو شاقاً على الأبدان والنفوس وتتجلى الغاية التربوية منه وهى إعداد المؤمن ليكون عبداً ربانياً مطيعاً لله مراقباً له معترفاً بفضله وجميل نعمائه.

★ ★ ★

الدعاء

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

تأتى هذه الآية فى شأيا الحديث عن الصيام ليستلهم المؤمن منها قرب الصائم من ربه، واستجابة الله - سبحانه - لدعائه، فإن الصوم لا يطلع عن حقيقته إلا الله. روى البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : يقول الله عز وجل - « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به » (٧٠).

١٨٦ - وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ.

ما أجمل هذه الآية وما أبدع التعبير فيها عن قرب الإله الكريم من العبد إذا دعاه.

وروى ابن ماجه فى سننه - بإسناده - عن عبد الله بن عمر كذلك ، قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » (٧١).

وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى

يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول : بعزتي لأنصركم ولو بعد حين .»

والدعاء فى حقيقته مظهر من مظاهر العبادة الحقّة فهو اعتراف لله بالربوبية وإنه على كل شيء قدير، وفى الدعاء عرفان من العبد بالذل والانكسار وإقرار بسمة العجز والافتقار وتصحيح نسبة العبودية، ويسن الدعاء فى جوف الليل ودبر الصلوات المكتوبات وبين الأذان والإقامة وعند السجود، وعند السحر فى الهزيع الأخير من الليل، وهو الوقت الذى تغار فيه النجوم وتنام العيون ويبقى الله الواحد القيوم .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول : « من يدعنى فاستجب له، من يسألنى فأعطيه، من يستغفرنى فأغفر له » (٧٢).

★ ★ ★

ليلة الصيام

﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةُ الصَّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَاتَّقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْبَلِّ وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾

المفردات :

ليلة الصيام : هى الليلة التى يصبح فيها المرء صائماً .

الرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن، قال الأزهري : الرفث، كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

اللباس : الملابس والمخالطة .

تختانون أنفسكم : أى تخونون أنفسكم بعمل شيء تعدونه حراماً .

الخيطة الأبيض : أول ما يبدو من بياض النهار كالخيطة الممدود رقيقاً ثم ينتشر .

الخيطة الأسود : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار، فالصبح إذا بدا في الأفق بدا كانه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل، يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود في جنب خيط أبيض.

الإتمام : الأداء على وجه التمام.

ولا تباشروهن : حقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر، أى ظاهر جلده والمراد بها ما أريد بالرفث.

الاعتكاف : هو المكث في المسجد طاعة لله وتقرباً إليه.

الحدود : واحدها حد، وهو في اللغة الحاجز بين شيئين، ثم سمي بها ما شرعه الله لعباده من الأحكام لأنها تحدد الأعمال وتبين أطرافها وغاياتها، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة، وكان عمله باطلاً. والمراد من الآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام.

التفسير :

في أول فرض الصيام كانت المباشرة والطعام والشراب تمتع لو نام الصائم بعد إفطاره، فإذا صبحا بعد نومه من الليل. ولو كان قيل الفجر - لم تحل له المباشرة ولم يحل له الطعام والشراب، وقد وقع أن بعضهم لم يجد طعاماً عند أهله وقت الإفطار، فغلبه النوم ثم صبحا فلم يحل له الطعام والشراب فواصل ثم جهد في النهار التالي وبلغ أمره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم، كما وقع أن بعضهم نام بعد الإفطار، أو نامت امرأته ثم وجد في نفسه ما دفعه للمباشرة ففعل وبلغ أمره إلى النبي - صلى الله عليه وسلم.

وبدت المشقة في أخذ المسلمين بهذا التكليف فردهم الله إلى اليسر ونزلت هذه الآية تحل لهم المباشرة ما بين المغرب والفجر (٧٢).

قال الإمام الرازي : وجمهور المفسرين على أن هذه الآية من قبيل النسخ لأنها قد نسخت ما كان حاصله في أول فرضية الصيام من أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد.

★ ★ ★

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل النسخ، وإنما هي إرشاد إلى ما شرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم، من إباحة غشيان أزواجهن ليلاً ومن جواز الأكل والشرب . حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ . (وكان الصحابة كانوا يتخرجون عن ذلك ظناً منهم أنه من تنمة الصوم، وروا أن لا صبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلاً فهين الله لهم أن ذلك حلال لا حرج

فيه، وأصحاب هذا الرأي يستشهدون لذلك بما رواه البخارى عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - : **عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَابْغُوا عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ** .

فالمقصود من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع ما توهمه بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرهم لأن الله تعالى رعوف رحيم بهم، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم^(٧٤).

★ ★ ★

١٨٧ - **أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ...**

أى أحل الله لكم ليلة الصيام قربان نساءكم، وقد علمنا الله النزاهة فى التعبير عن هذا الأمر حين الحاجة إلى الكلام فيه بعبارات مبهمه كقوله : **أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ** ، **أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ** ، **دَخَلْتُمْ بِهِنَّ** ، فلما تعشأها حملت .

والرفث فى الأصل الفحش من القول، وكلام النساء حين الجماع كنى به عن المباشرة للزوجة لها غالباً، يقال رفث فى كلامه، وأرفث فيه إذا أفحش فيه، والمراد فى الآية الجماع والمباشرة .
هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ .

أى رخص فى مباشرتهن ليلة الصيام، لأن كلا من الزوجين يسكن إلى صاحبه ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملابس له، وكانت العرب تسمى المرأة لباساً، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما موقع قوله : **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ** . قلت : هو استئناف كالبيان بسبب الإحلال، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتباهن فلذلك رخص فى مباشرتهن^(٧٥) . وفى هذا التعبير القرآنى ما فيه من الطاعة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستئثار كل واحد منهما بصاحبه .

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ .

قال الراغب : الاختيان مراودة الخيانة، ولم يقل تخونون أنفسكم لأنه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله تعالى : **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**^(٧٦) .

والمعنى : علم الله أنكم كنتم تراودون أنفسكم على مباشرة نساكم ليلاً، وعلى الأكل بعد النوم، قيل أن يظهر الفجر الصادق، بل إن بعضكم قد فعل ذلك، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم، أى معاً أثر ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك.

فَنَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ...

أى قبل توبتكم وعفا عن خيانتكم أنفسكم، إذا خالفتم ما كنتم تعتقدون حين فهمتم من قوله كما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . تحريم ملامسة النساء ليلاً، أو تحريمها بعد النوم كتحريم الأكل والشرب. قَالَانْ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ...

بهذا أزال الله عن المؤمنين الحرج، فأباح لهم أن يباشروا نساءهم ليلة الصيام، مع مراعاة أن الهدف ليس إرضاء الشهوات فحسب، بل إعفاف الزوجين، وحفظ النوع الإنسانى والتمتع بالحلال والتأمل في فضائل الله ونعمه على المؤمنين.

قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . (الروم: ٢١)
(بهذا ترتبط العلاقة المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترقى وترقى) (٧٧).

لقد سما الإسلام بين الزوج والزوجة فجعلها آية من آيات الله وجعل المتاع الجنسى حقاً مشروعاً، وإعطاء النفس حقها طاعة وعبادة إذا قصد بها طاعة الله.

وفى الحديث الشريف الصحيح « إن لربك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه».

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ...

أحلت هذه الآية للصائمين : أن يباشروا زوجاتهم، وأن يأكلوا ويشربوا من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

والخيط الأبيض كناية عن الشعاع الضوئى الممتد بعرض الأفق، فإذا بدأ ظهوره. تميز من فوقه الليل أسود اللون.

وهو الذى كُنْتُ عَنْهُ الْآيَةُ بِالْخَيْطِ الْأَسْوَدِ فَإِذَا اجْتَمَعَا عَلَى هَذَا النِّحْوِ كَانَ الْفَجْرُ.

فالفجر عبارة عن مجموع الخيطين الأبيض والأسود.

ثُمَّ أَتَمُّوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ

أى ثم استمروا فى صيامكم إلى ابتداء الليل بغروب قرص الشمس، وما يلزمه من ذهاب شعاعها من جدران البيوت والمآذن، ويتلو ذلك إقبال الليل قال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أدبر النهار وَأَقْبَلَ الليل وغابت الشمس فقد أخلت الصائم ».

وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ .

الاعتكاف هو الخلوة فى المسجد تقريبا إلى الله، ويستحب الاعتكاف فى رمضان وخصوصا فى العشر الأواخر، وكان - صلى الله عليه وسلم - يعتكف فى المسجد فى العشر الأواخر من رمضان، والاعتكاف لون من السمو النفسى والزهدي فى حطام الدنيا والتفرغ للطاعة والعبادة، ولا يكون الاعتكاف إلا فى المسجد، ولذلك نهى المعتكف عن مباشرة الزوجة فى فترة اعتكافه مراعاة لحرمة المسجد، وتجرداً من شهوات الجسد وسموا بالروح فى فترة من الفترات.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا .

تلك إشارة إلى ما تقدم من أحكام. وسمّاها حدودا لأنها حجزت بين الحق والباطل.

والنهى فى: فَلَا تَقْرُبُوهَا. أكد من لا تمتدوها لأنه يشير إلى البعد عنها، وعدم الاقتراب منها، لتكون هناك منطقة آمان، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

وعلى هذا النحو الدقيق وَضَّحَ اللَّهُ الأحكام للناس حتى لا يلتبس عليهم الحق بالباطل، وبهذا تصح عبادتهم وتسمو نفوسهم وتسكن التقوى فى قلوبهم (وكذلك تلوح التقوى غاية يبين الله آياته للناس ليلفوها، وهى غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا المخاضيون بهذا القرآن فى كل حين) (٧٨).

الرشوة

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾

المضردات :

المراد بالأكّل : المراد به مطلق الأخذ والاستيلاء ، وعبر عنه بالأكّل ؛ لأن الأكل أهم وسائل الحياة وفيه تصرف الأموال غالباً .

الباطل : فى اللغة الزائل الذاهب، ويقال : بطل الأجير يبطل بطلالة إذا تعطل واتبع اللهو، والمراد به هنا، كل ما لم يبح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس كالربا والميسر وثنم الخمر والرشوة وشهادة الزور و السرقة الغصب ونحو ذلك مما حرّمه الله تعالى .

والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى، وقوله بها أى الأموال .

الفريق : الفريق من الشيء، الجملة والطائفة منه .

الإثم : هو شهادة الزور أو اليمين الفاجرة أو كل فعل يستحق صاحبه الذم والعقاب، وجمعه آثام .

التفسير :

١٨٨ - وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

لا يأكل بعضهم مال بعض، وسمّاه ماله إشعاراً بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبهها إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الاحترام والحفظ لمالك أنت.

واستحلال الإنسان لمال غيره يُجرئ على استحلال أكل ماله إذا كان فى طاقته، وإذا فشا هذا الخلق فى أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعاضد والتباغض.

والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجوهها الكثيرة، وَيَدْخُلُ فيها الربا والرشوة والغضب والاحتيال والغش والتدليس والتلبيس وكل كذب وسوء .

: الخلاصة :

والخلاصة : أنه ينبغي للإنسان أن يطلب الكسب من الطرق المشروعة التى لا تضر احدا .

وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ . أَى وَلَا تَلْقُوا بِأَمْوَالِكُمْ إِلَى الْحُكَّامِ رِشْوَةً لَهُمْ .

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى لتأخذوا بعضا من أموال غيركم بواسطة يمين فاجرة أو شهادة زور . أو نحو ذلك مما تثبتون به أنكم على حق فيما تدعون، وأنتم تعلمون أنكم على الباطل .

★ ★ ★

وهذه الآية الكريمة أصل من الأصول التى يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخذ العلماء منها

حرمة أكل أموال الناس بالباطل وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشى بمال غيره .

روى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لعن الله الراشى

والمرتشى والرائش » ^(٧٩) وهو الوسطة الذى يمشى بينهما .

قال القرطبى : « من أخذ مال غيره لا على وجه إذن الشرع فقد أكله بالباطل ومن الأكل بالباطل

أن يقضى القاضى لك وأنت تعلم أنك مبطل، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء القاضى لأنه إنما يقضى بالظاهر » ^(٨٠) .

وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا إنما أنا

بشر، وإنما يأتينى الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له

بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها » ^(٨١) .

« فدللت هذه الآية الكريمة ، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشئ فى نفس الأمر فلا

يحل فى نفس الأمر حراما وهو حرام . ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم فى الظاهر فإن طابق

ما فى نفس الأمر فذاك، وإلا فلا يحكم أجره، وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ

بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . أى تعلمون بطلان ما

تدعون وترجون فى كلامكم، قال قتادة : اعلم يابن آدم، أن قضاء القاضى لا يحل لك حراما، ولا يحق

لك باطلا، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطئ ويصيب، واعلموا

أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل

للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا » ^(٨٢) .

★ ★ ★

الأهلة

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ أَنْتَقَى وَاتَّقُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

المفردات :

الأهلة : واحدها هلال وهو القمر في ليلتين أو ثلاث من أول الشهر لأن الناس يرفعون أصواتهم بالذكر حين رؤيته من قولهم، استهل الصبي إذا صرخ حين يولد، وأهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية.

المواقيت : واحدها ميقات وهو ما يعرف به الوقت، وهو الزمن المقدر المعين.

سبب النزول :

هذا مما سأل عنه اليهود واعترضوا به على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال معاذ : يا رسول الله - إن اليهود تفشاننا ويكثرئون مساءلتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوى ويستدير، ثم ينقص حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقيل : إن سبب نزولها سؤال قوم من المسلمين النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الهلال، وما سبب محاقه ^(٨٢) . وكما له، ومخالفته لحال الشمس، قاله ابن عباس وقتادة والريبع وغيرهم ^(٨٤) .

التفسير :

١٨٩ - يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج . . .

يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الأهلة، قل لهم يا محمد : إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس صومهم وزكاتهم وحجهم وغير ذلك من أمور دينهم كما يؤقتون بها أمورهم الدنيوية مثل مواعيد الزراعة والتجارة وسداد الدين، والسفر والقدم ونحو ذلك، ولو كان القمر على حالة واحدة لم يتيسر هذا التوقيت، وسواء أكان السؤال من اليهود، أو من بعض المسلمين عن الهلال فإن إجابة القرآن كانت من قبيل أسلوب الحكم، وهو إجابة السائل بغير ما يطلبه سؤاله بتزليل سؤاله منزلة غيره، تنبيهه له على أن ذلك المخالف هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهمل بالنسبة له .

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن اختلاف الأهلة بالزيادة، والنقصان، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها فكأنه - سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الأهلة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتمكم عليه، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة وأنتم لستم في حاجة إلى معرفة ذلك في هذا الوقت.

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا .

سبب النزول :

روى البخارى وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله الآية ^(٨٥).

وكانهم كانوا يتخرجون من الدخول من الأبواب، من أجل سقف الباب أن يحول بينهم وبين السماء؟.

وقال ابن عباس في رواية أبى صالح : كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا أحرم رجل منهم بالحج فإن كان من أهل المدر يعنى من أهل البيوت نقب في ظهر بيته فممنه يدخل وممنه يخرج، أو يضع سلما فيصعد منه ويتحدر عليه؛ وإن كان من أهل الوبر - يعنى أهل الخيام - يدخل من خلف الخيمة، إلا من كان من الحمس.

وروى الزهرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أهل زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجرته ودخل خلفه رجل أنصارى من بنى سلمة، فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : « لم دخلت وأنت قد أحرمت » فقال : « دخلت أنت فدخلت بدخولك ». فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « إني أحمس » أى من قوم لا يدينون بذلك. فقال له الرجل : وأنا دينى دينك، فنزلت الآية . وقيل إن هذا الرجل هو قطبة بن عامر الأنصارى.

« والحمس : قريش وكنانة وخزاعة وجشم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية، وسموا حمسا لتشديدهم فى دينهم، والحماسة الشدة » ^(٨٦).

ووجه الاتصال بين دخولهم البيوت من ظهورها، وبين سؤالهم عن الأهلة: التعريض بأن السؤال عن الأهلة، يعتبر كإتيان البيوت من ظهورها، وأن اللائق بحالهم ألا يسألوا عن هذا الأمر، الذى لم يستعدوا لإدراكه من الناحية العلمية.

والآية تعتبر مثلاً فيمن يباشر الأمور بطريقة غير مألوفة.

وَأَتُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ .

أى راقبوا الله فى أفعالكم والزمو قلوبكم التقوى التى تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتباب البدع والمنكرات.

ومن اتقى الله تفجرت بنابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وورقه الله الهدى والفلاح، وفاز بالحياة المطمئنة فى الدنيا، والنعيم الخالد فى الآخرة.

★ ★ ★

القتال

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنَّهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

المضردات :

سبيل الله : دينه لأنه طريق إلى مرضاته.

يقاتلونكم : أى يتوقع منهم قتالكم.

إن الله لا يحب المعتدين : إن الله لا يرضى عن الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام.

والثقف : الحنق فى إدراك الشئ علماً كان أو عملاً، وقد يستعمل فى مطلق الإدراك.

من حيث أخرجوكم : من مكة.

الفتنة : الابتلاء، من قولهم فتن الصائغ الذهب إذا أذابه فى النار ليستخرج منه

الزغل، ثم استعملت فى كل اختبار شاق كالإخراج من الوطن المحبب والفتنة فى الدين.

يكون الدين لله : أى ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه . فلا يفتن بصدده عنه ولا يؤذى فيه، ولا يحتاج إلى مداينة ومحاباة، أو استخفاء ومداواة.

★ ★ ★

سبب النزول :

أخرج صالح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن المشركين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية، وصالحوه على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما شاء .

« وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين، ورجع إلى المدينة، فلما كان من قابل تجهز لعمرة القضاء ، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام فنزلت هذه الآية، أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار » (٨٧).

التفسير :

١٩٠ - وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

القتال فى الإسلام قتال فى سبيل الله، لإعلاء كلمة الله ونصر دين الله . والعبرة فى الآية بمعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد نزلت الآية فى شأن أهل الحديبية تأمرهم بقتال من قاتلهم وهى مع ذلك خطاب لجميع المسلمين تأمر كل واحد أن يقاتل من قاتله (٨٨).

والمعنى : وقاتلوا من أجل إعلاء كلمة الله . الذين يبدعونكم بالقتال دفاعاً عن أنفسكم وحررتكم فى أداء العبادة، ولا تعتدوا بقتل النساء والصبيان والشيوخ المسنين ولا بغير ذلك من أنواع الاعتداء كالتخريب وقطع الأشجار، فإن الاعتداء من السيئات التى يكرهها الله - تعالى - ولا سيما حين الإحرام وفى أرض الحرم وفى الأشهر الحرم.

١٩١ - وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ...

المعنى : واقتلوهم حيث وجدتموهم فى حل أو حرم، وأخرجوهم من ديارهم كما سبق أن فعلوا ذلك بكم، حيث أخرجوكم من دياركم، ولم يكتفوا بهذا بل تناولوا من بقى منكم من المسلمين فى مكة بالتعذيب والتكيل ليرتدوا عن الإسلام.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .

أى والمحنة التى يفتن بها الإنسان بالإخراج من الوطن والحرمان من المال، والتعرض لأثوان القسوة والعذاب - للتأثير فى العقيدة - أشد من القتل لاتصال تعذيبها وألم النفس بها، ومن هنا قيل.

القتل بحد السيف أهون موقعا

على النفس من قتل بحد فراق

وقيل لبعض العلماء : ما أشد من الموت؟ قال : الذى يتمنى فيه الموت.

وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ .

أى لا تقاتلوا - أيها المؤمنون - أعداءكم عند المسجد الحرام احتراماً له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده، فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم فى قتلهم عنده، لأن المنتهك لحرمة المسجد الحرام إنما هو البادئ بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم - أيها المؤمنون - لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية قد حفظت للمسجد الحرام حرمة وهيئته ومكانته السامية لأن حرمة لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه . « دفعاً للصائل المعتدى، كما بايع النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه يوم الحديبية تحت شجرة الرضوان على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والأهم من تعيق والأحابيش عامن ثم كف الله القتال بينهم » (٨٩) فقال : وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ .

فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ .

فإن ابتدأ المشركون بقتال المسلمين فعلى المسلمين أن يقتلوه، وعبر بقوله: فاقتلوهم . بدل فقاتلوهم، للإيذان بأن على المسلمين ألا يمتنعوا من المغالبة وأن يسارعوا بقتلهم.

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

أى مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم.

★ ★ ★

١٩٢ - فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . « أى فإن تركوا القتال في الحرم وأنبأوا إلى الإسلام والتوبة فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله . فإنه - تعالى - لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه » (٩٠).

★ ★ ★

١٩٣ - وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِئَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ . . . اى قاتلوا المشركين حتى لا تكون لهم قوة يفتنونكم بها فى دينكم، وعليكم - ايها المسلمون- أن تقاتلوا المشركين وأن تكسروا شوكتهم وأن تقتضوا على جبروتهم حتى تزيلوا هذا الطاغوت من وجه الدعوة الإسلامية، وحتى يصير الناس أحراراً فى عقائدهم، ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر فيه لخشية غيره فلا يفتن بصدءه عنه ولا يؤذى فيه ولا يحتاج فيه إلى مدهانة ومحابة أو استخفاء ومداراة.

وقد كان المسلمون فى مكة مغلوبين على أمرهم، والمشركون هم أصحاب الحول والقوة، ثم هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ الجهاد فى سبيل الله، فحطم المؤمنون طواغيت الكفر والضلال ثم فتحوا مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

أى فإن انتهوا عما كانوا عليه وأذعنوا لتعاليم الإسلام فكفوا عن قتالهم فلا تعتدوا عليهم، لأن العقوبة والعدوان إنما تكون على الظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن غيهم وظلمهم.

حكمة مشروعية القتال

من هذه الآيات نلمح حكمة مشروعية القتال فى الإسلام .

فقد قاتل المسلمون دفاعاً عن أنفسهم، وحماية لعقيدتهم، ودفعاً لعدوان المعتدين، وتمكيناً لدين الله فى الأرض.

وقد مكث المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاماً لم يرفعوا سيفاً، ولم يقاتلوا معتدياً، وكان القرآن فى مكة ينزل على النبى - صلى الله عليه وسلم - فيأمره بالصبر الجميل ويدعوه إلى الهجر الجميل فيقول سبحانه : - وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ . (المدثر : ٧). وكقوله تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرْنَا آلُكَ الْعِزْمَ مِنْ رُسُلٍ . (الأحقاف : ٢٥).

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة آخى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار، ورعى الصحابة تربية إسلامية، وتقدم المسلمون للدفاع عن أنفسهم فقاتلوا المشركين فى غزوات متعددة منها غزوة بدر وأحد والخندق والحديبية ثم فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، ولم يكن القتال غاية ولكنه كان وسيلة من وسائل الدفاع، وسبيلاً إلى نشر الدعوة وضرورة للقضاء على أعداء الإسلام، وإزاحة طواغيت الكفر، وتمكين كل ذى دين من عبادة ربه حراً طليقاً.

قال تعالى : أَدْنِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ

كثيراً وَلْيَصْرُخِ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٩٤﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . (الحج : ٣٩-٤١).

قال القرطبي :

قوله تعالى : وَقَاتِلُوا ... هذه الآية أول آية نزلت في الأمر بالقتال ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله : ادْفَعُ بِالْيَدِ أَيْ أَحْسَنُ . (المؤمنون : ٩٦).

وقوله : لست عليهم بمسيطر . (الغاشية : ٢٢).

وقوله : فَاغْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ . (المائدة : ١٢).

وقوله : وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . (المزمل : ١٠).

وما كان مثله مما نزل بمكة .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة أمروا بالقتال فنزل : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ . قاله الربيع بن أنس وغيره.

وروى عن أبي بكر الصديق أن أول آية نزلت في القتال : أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا . (الحج : ٣٩).

والأول أكثر، وإن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين « (١١) ».

★ ★ ★

الشهر الحرام

﴿الْشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْدَدُوا عَلَيْهِ يَمِثِلْ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١١٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴿

المفردات :

الحرمة : واحداها حرمة وهي ما يجب احترامه والمحافظة عليه.

القصاص : المقابلة والمثّل.

إلقاء الشيء : طرحه حيث تراه، ثم استعمل في كل ما يطرح ويلقى مطلقاً.

سبيل الله : هي طريق الخير والبر المؤدى إلى إعزاز دينه كجهد الأعداء وصلة الأرحام.

انتهكة : الهلاك، والمراد به هنا الإمساك عن النفقة في الاستعداد للقتال وترك الجهاد.

التفسير :

١٩٤ - الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قُصَاصٌ ...

إذا استباح المشركون الشهر الحرام الذي لا يحل فيه القتال وقتلوكم فيه فقابلوا عدوانهم بمثله، واستبيحوا الحرب فيه كما استباحوا. فإن الحرمات فيها القصاص .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لما سار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معتمراً في سنة ست من الهجرة، وحسبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين، وأقصه الله منهم فنزلت في ذلك هذه الآية: الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قُصَاصٌ. وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغزى أو يُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ^(١٣).

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل في غيره من القتال ونحوه، والتعريف فيه - على الراجح - للجنس فهو يشمل الأشهر الحرم جميعاً وهي أربعة : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ورجب.

قال تعالى : إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . (التوبة : ٣٦).

وَالْحُرُمَاتُ قُصَاصٌ .

والذي ينتهك الحرمات لا تصان حرماته وإذا أقدم المشركون على قتال المسلمين في الحرم أو في الشهر الحرام وجب على المسلمين أن يقاتلوه م على سبيل القصاص والمجازاة بالمثل حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للغدر والإضرار بالمسلمين.

فَمَنْ عَتَدَ عَلَىكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَ عَلَيْكُمْ .

هذه الجملة هي النتيجة المنفرعة على ما سبق. وسمى جزاء الاعتداء اعتداء من باب المشاكلة.

وقد ورد هذا المعنى فى كثير من آيات القرآن حيث أمر - سبحانه - بالعدل حتى مع المشركين وأمر بالانتصاف من الظالمين.

قال تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . (النحل : ١٢٦).

وقال سبحانه : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا . (الشورى : ٤٠).

وقال عز شأنه : وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . (الشورى : ٤١).

قال الألويسى : (واستدل الشافعى بالآية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تغريق حتى لو أقاءه فى ماء عذب ولم يلق فى ماء ملح ، واستدل به أيضا على أن من غصب شيئا أو أتلفه لزمه رد مثله ، ثم إن المثل قد يكون عن طريق الصورة - كما فى ذوات الأمثال - وقد يكون عن طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له) (١٣).

قال القرطبى : (واختلف العلماء فىمن استهلك أو أفسد شيئا من الحيوان أو العروض التى لا تكال ولا توزن ، فقال الشافعى وأبو حنيفة وأصحابهما وجماعة من العلماء : عليه فى ذلك المثل ولا يعدل إلى القيمة إلا عند عدم المثل ، لقوله تعالى : فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ . وقوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . قالوا : وهذا عموم فى جميع الأشياء كلها ، وعضدوا هذا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حبس القصصة المكسورة فى بيت التى كسرتها ودفع الصحيحة وقال : « إناء بإناء وطعام بطعام » (١٤).

أخرج أبو داود عن عائشة - رضى الله عنها - قالت « ما رأيت صائغا طعاما مثل صافية ، صنعت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - طعاما فبعثت به فآخذنى أهكل (١٥) فكسرت الإناء فقلت : يا رسول الله ، ما كفارة ما صنعت؟ قال : « إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » (١٦) ، وقال مالك وأصحابه : عليه فى العروض لا تكال وتوزن القيمة لا المثل (١٧).

واقفوا الله واعلموا أن الله مع المتقين . أى راقبوا الله فى أعمالكم وفى الانتصار لأنفسكم وترك الاعتداء فيما لم يرخص لكم فيه واعلموا أن الله مع الذين يمثلون أمره ويجتنبون نهيه بالنصر والراعية والتأييد .

١٩٥ - وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْرُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

وابذلوا المال فى سبيل عزة الدين وإعلاء كلمة الإسلام وشراء الأسلحة وعدد الحرب المتطورة التى تماثل ما عند أعدائكم إن لم تزد عنها ولا تبخلوا على النفقة والجهاد لأن ذلك يمكن عدوكم منكم

فيسيطر على ممتلكاتكم ومقدساتكم وإذا بخلتم عرضتم أنفسكم للذل والهلاك في الدنيا ولعقاب الله في الآخرة.

وأحسنوا أعمالكم واتقنوها وأدوها على أحسن وجه إن الله يحب المحسنين، وفي الحديث الشريف « إن الله يحب من أحدهم إذا عمل عملاً أن يتقنه، قيل وما إتقانه يا رسول الله ؟ قال : إخلاصه من الرياء والبدعة ».

★ ★ ★

إن الآيات تحت على الجهاد وتنتهي عن العدوان والاعتداء، وتأمّر بالإتفاق في سبيل الله. وتعتبر البخل والشح نوعاً من الهلاك المعنوي، كما أن ترك الجهاد في سبيل الله إهدار لمنهج الإسلام وخروج عن طريقته الحكيمة.

قال القرطبي : في هذه الآية ثلاث مسائل :

الأولى : روى البخاري عن حذيفة : وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْرُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . قال نزلت في النفقة .

« قلت : وروى الترمذي عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم بن أبي عمران قال : كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفّاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة ابن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا : سبحان الله ألقى بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري فقال : أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا - معشر الأنصار - لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرّاً دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام، وكثر ناصروه فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها فأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - يرد علينا ما قلنا : وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَقْرُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركها الغزو، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم. قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح؟ وقال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور الناس: المعنى، لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل : ليس عندي ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخاري إذ لم يذكر غيره، والله أعلم » (٩٨).

وقال زيد بن أسلم : المعنى لا تسافروا في الجهاد بغير زاد وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو يكون عالة على الناس.

وسبيل الله هنا الجهاد ، واللفظ يتناول جميع سبله.

والباء في بأيديكم زائدة، التقدير تلقوا أيديكم.

وتظيره : ألم يعلم بأن الله يرى. (العلق : ١٤).

وقال المبرد : بأيديكم بأنفسكم فعبر بالبعض عن الكل ^(١٩) كقوله : فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (الشورى: ٣٠). بما قدمت يدك. (الحج : ١٠).

الثانية : اختلف العلماء في اقتحام الرجل في الحرب وحمله على العدو وحده.

وخلاصة الرأي : أنه إن علم وغلب على ظنه أن سيقتل من حمل وينجو فحسن، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يقتل ولكن سينكى نكابة أو سيبلى بلاء حسنا أو يؤثر أثرا ينتفع به المسلمون فجائز أيضاً ^(١٠٠).

الثالثة : قوله تعالى: وَأَحْسِنُوا . أى في الإنفاق في الطاعة وأحسنوا الظن بالله في إخلافه عليكم، وقيل : وَأَحْسِنُوا . في أعمالكم بامتثال الطاعات، روى ذلك عن بعض الصحابة ^(١٠١).

«ومضمون الآية : الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، والإحسان أعلى مقامات الطاعة» ^(١٠٢).

وفي صحيح البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - سئل عن معنى الإحسان فقال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ^(١٠٣).

أى أن تخلص في عبادتك مراقباً ربك متيقناً أنك تشاهده وتراه، فإن كنت لا تراه فإنه - سبحانه - مطلع عليك، وهذا الإحساس يعمق في قلبك تقوى الله وطاعته.

الحج والعمرة

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ ۖ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فَمَن فَعَلَ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٩٦﴾

المفردات :

الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يُقَالُ حَصَرَهُ عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه .

الهدى : يُطْلَقُ على الواحد والجمع وهو ما يهديه الحاج والمُعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على الفقراء .

المحل : (بكسر الحاء) مكان الحلول والنزول .

حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

المعنى الإجمالي :

أتِمُّوا الحج والعمرة خالصين لله بعيدين عن الرياء .

فإن منعتم من إتمامهما وأنتم محرمون فعليكم إذا أردتم التحلل أن تدبخوا ما تيسر لكم من الهدى ولا تتحللوا من إحرامكم بالحل حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذي يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم .

ومن كان مريضاً أو به جروح ولا يستطيع التمسك بالإحرام ومقتضياته فإنه يحلق رأسه وعليه فدية هي صيام ثلاثة أيام أو ذبح شاة أو التصديق بفرق على ستة مساكين (الفرق مكبال بالمدينة يزن ستة عشر رطلاً) .

فإذا زال الخوف من العدو فمن أتم العمرة وتحلل وبقي متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم (يذبح شاة أو يشترك مع سبعة في ذبح جمل أو بقرة) .

فإذا لم يجد ثمن الهدى فعليه أن يصوم ثلاثة أيام قبل يوم عرفة، وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده .

إلا إذا كان من أهل مكة، لأنهم يستطيعون أداء العمرة في جميع أيام السنة، ولذلك يفردون الحج ولا يضمنون إليه العمرة.

التفسير :

تعتبر هذه الآية وما بعدها من أجمع الآيات التي وردت في القرآن الكريم مبينة ما يتعلق بأحكام الحج وأدابه. ويفترق الحج عن العمرة في عدة أشياء هي :

- ١ - الحج فريضة مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلاً.
- أما العمرة فهي سنة مؤكدة عند الحنفية والمالكية وفرض عند الشافعية والحنابلة.
- ٢ - الحج له وقت معين يؤدي فيه من السنة. أما العمرة فتؤدي في أى وقت من أوقات السنة.
- ٣ - ليس في العمرة وقوف بعرفة، ولا نزول بمزدلفة، ولا رمى جمار، ولا جمع بين صلاتين ، ولا طواف قدوم.
- ٤ - ميقات العمرة الحل لجميع الناس ، وميقات الحج للمكئ الحرم.

٥ - أفعال العمرة أربعة هي :

- ١ - الإحرام من الميقات .
- ٢ - الطواف بالبيت .
- ٣ - السعى بين الصفا والمروة.
- ٤ - التحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير.

وأفعال الحج عشرة هي :

- ١ - الإحرام من الميقات .
- ٢ - الطواف بالبيت عند القدوم.
- ٣ - السعى بين الصفا والمروة.
- ٤ - الوقوف بعرفة.
- ٥ - المبيت بمزدلفة.
- ٦ - المبيت في منى الليلة التالية .
- ٧ - رمى الجمار ٤٩ حصاة أو ٧٠ حصاة.
- ٨ - ذبح الهدى لمن عليه هدى.
- ٩ - التحلل من الإحرام.
- ١٠ - طواف الإفاضة.

١٩٦ - وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ...

أى أتموا هذين النسكين خالصين لوجه الله. وقد كانت العرب تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتفاخر وقضاء الحوائج وحضور الأسواق دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد، ولا قرابة تمتد، فأمر الله المسلمين أن ينزهوا عبادتهم عن الأفعال القبيحة والأقوال السيئة، وأن يخلصوا أداؤها لله.

والتجارة لا تنافى الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها.

بدليل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ . (البقرة: ١٩٨).

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بإمرة أبى بكر - رضى الله عنه - وكانت تمهيدا لحجة النبى - صلى الله عليه وسلم - سنة عشر، وفيها أخبر أبو بكر المشركين الذين حجوا ألا يطوف بعد هذا العام مشرك، ونزلت الآية: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا . (التوبة: ٢٨).

فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ...

أى إن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما وأردتم أن تتحللوا فعليكم تقديم ما تيسر لكم من الهدى إبلًا أو بقرا أو غنما أو معزا.

يذبحه المحصر عند الأكثرين حيث أحصر لأنه - صلى الله عليه وسلم - ذبح بالحديبية، لما أحصر فيها وهى من الحل.

وعند أبى حنيفة - رحمه الله - يبعث به إلى الحرم، ويتفق مع من بعثه على يوم يذبح فيه فإذا جاء اليوم وظن أنه ذبح، تحلل، لقوله تعالى: وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ.

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار فى الآية ما كان بسبب عدو، كما حدث للمسلمين فى صلح الحديبية، أمّا إذا كان الإحصار بسبب مرض، فإن الحاج أو المعتمر على إحرامه حتى يبرأ من مرضه ثم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعا ويسعى بين الصفا والمروة، ويهذأ يتحلل من عمرته أو حجّه، ولا يتحلل بالذبح، إذ التحلل بالذبح عندهم لا يكون إلا فى حالة الإحصار بسبب العدو.

أمّا الأحناف فيرون أن الإحصار سواء أكان بسبب عدو أم مرض أو ما يشابههما فإنه يسوغ التحلل بالذبح إذ الآية عندهم تعم كل منع، وعلى من أحصر أن يقضى الحج أو العمرة فيما بعد.

ومن لا هدى معه وقت الإحصار ولا قدرة له عليه، أحل، ثم أهدى عندهما يقدر عليه، نقله

القرطبي عن الشافعي، ويرى بعض الفقهاء أن المحصر بعدُ لا يجب عليه القضاء وله ثواب الفريضة، بأن لم يسبق له حج ولا عمرة، وإلا وجب عليه أداؤها عندما يستطيع .

وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ... .

أى لا تتحللوا من إحرامكم بالحلُق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذى يجب أن يراق فيه دمه وهو الحرم.

وهذا رأى الأحناف، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت العتيق فهو اسم مكان لأن الله - عز وجل - قال فى آية أخرى: ثُمَّ مَجَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ. (الحج : ٢٣)

وعليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى الذى يرسله إلى البيت الحرام وينبج.

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذى حدث فيه الإحصار، دليلهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نحر هو وأصحابه هديهم بالحديبية وهى ليست من الحرم، وذلك عندما منعه المشركون من دخول مكة.

قال الإمام الرازى : ومنشأ الخلاف البحث فى تفسير هذه الآية، فقد قال الشافعي وغيره: المحل فى هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل : وقال أبو حنيفة : إنه اسم للمكان (١٠٤).

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ .

يجب على المحرم - إذا كان صحيحاً - ألا يخلع ملابس الإحرام ولا يحلق شعره أو يقصه طول مدة الإحرام، فإن كان مريضاً بمرض يحوجه إلى الحلُق، فله أن يلبس ملابس العادية، ويؤدى الفدية عن ذلك، ومن كان برأسه أذى من : حشرات ، أو جروح يستدعى علاجه أن يحلق ، حلق وهدى. والفدية هنا صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من الطعام أو ذبح شاة وتوزيعها على الفقراء.

وعن ابن عباس فى قوله : مَنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ . قال : إذا كان أو فاية أخذت أجزاء عنك، قال ابن أبى حاتم ، وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وغيرهم نحو ذلك، قلت وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير فى هذا المقام:

إن شاء صام، وإن شاء تصدق بفرق (١٠٥)، وهو ثلاثة أصح لكل مسكين نصف صاع، وهو مدآن وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزاء (١٠٦).

فَإِذَا أَمِتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ .

أى فإذا تمكنتم من أداء المناسك، فمن أدى العمرة فى موسم الحج ثم تحلل من إحرامه وتمتع بحظ الروح فى العمرة ويحظ الجسد فى التحلل من الإحرام. ثم أحرم بالحج يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة وأدى مناسك الحج فعليه ما استيسر من الهدى أى ما تيسر له الحصول عليه من الأنعام سواء الإبل أو البقر أو الغنم أو المعز يذبحه جبراً للتمتع عند قوم أو شكراً لله عليه عند آخرين، حيث تقرب إلى الله بالعمرة، قبل أن يتقرب إليه بالحج.

ويذبح الهدى يوم النحر ويأكل منه كالأضحية لأنه دم شكران على نعمة التمتع فأجاز أبو حنيفة الأكل منه.

وذهب الشافعى إلى أن التمتع فيه تقصير والهدى لجبر هذا التقصير ؛ ولهذا لا يأكل منه صاحبه عند الشافعى.

فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ .

أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده، أو عدم المال الذى يشتري به. فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج.

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلاً من الهدى زيادة فى الرخصة والرحمة وزيادة فى الرفق والتيسير، فقد جعله على مرحلتين إحداهما تكون فى وقت الحج، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنه، وثانيتها تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر فيصوم سبعة أيام.

تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ . . .

أى هذه الأيام الثلاثة. والأيام السبعة عشرة كاملة، ووصفها بالكمال للتأكيد كما تقول العرب رأيت بعينى، وسمعت بأذنى، وكتبت بيدي (١٠٧).

وقال الحسن، كاملة فى الثواب كمن أهدى، وقيل كاملة فى البذل عن الهدى يعنى العشرة كلها بدل عن الهدى، وقيل لفظها لفظ الإخبار ومعناها الأمر أى أكملوها فذلك فرضها (١٠٨).

ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

أى أن أهل الأفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج

وحده ثم العمرة وحدها، أما أهل الحرم فليسوا فى حاجة إلى ذلك، فلا متعة ولا قرآن لحاضرى المسجد الحرام. لأن فى إمكانهم أداء العمرة طول العام.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

ختم الآية بعد ذكر أحكامها بطلب التقوى جريا على النسق المطرد فى آيات الأحكام السابقة.

أى راقبوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاى عن نواهيه.

واعلموا أن الله شديد العقاب . أى لمن خالف أمره وانتهك حرمانه وركب معاصيه.

★ ★ ★

أشهر الحج

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ رَزَّ فِيهِ الْحَجَّ فَلَارَفَتْ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَاتَّقُوا إِنَّمَا وَلِيَّ الْآلِبِ ﴾ (١٩٧)

المضردات :

فرض فيهن الحج : أوجه على نفسه.

الرفث : لغة، قول الفحش. وشرعاً، قربان النساء.

الفسوق : لغة التنازع بالألقاب كما جاء فى قوله تعالى : وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ.

(الحجرات : ١١).

وشرعاً : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً فى الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخطط.

الجدال : المراء والخصام، ويكثر عادة بين الرفقة فى السفر؛ لأنه مشقة تضيق بها الصدور.

الزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر.

التقوى : هى ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتزه عن المنكرات والمعاصى.

التفسير :

١٩٧ - الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ

أى لأداء فريضة الحج أشهر معلومة لدى الناس، وهى شوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة، وهذا هو المروى عن ابن عباس.

ولا يصح عند الشافعية الإحرام به قبل أشهره ليتمه فى أشهره، ويصح مع الكراهة عند الحنفية.

فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سَوْقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ

فمن ألزم نفسه فى تلك الأشهر بالحج فعليه أن يبتعد عن الرفث، وهو جماع النساء أو ذكره لهن أو الكلام الفاحش مطلقا، وعليه أيضاً أن يبتعد عن كل إثم يشوب عبادته، وأن يتجنب المجادلة لأنها توغر صدور الرفقاء والخدم وغيرهم، فإن الوقت وقت مودة وصفاء وتسامح، والجميع يشتركون فى المناسك ويرغبون فى طلب الثواب، ثم حثهم على ضبط أنفسهم والابتعاد عما نهوا عنه فقال - سبحانه: - وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ.

هو تحريض وحث على حسن الكلام مكان الفحش، وعلى البر والتقوى فى الأخلاق مكان الفسوق والجدال.

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ^(١٠٩) فأنزل الله تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ .

وعليه أكثر المفسرين، قال الشعبى : الزاد التمر والسويق، قال ابن العربى : أمر الله - تعالى - بالتزود لمن كان له مال، ومن لم يكن له مال فإن كان ذا حرفة يحتاج إليها الناس فلا خطاب عليه. والمعنى تزودوا - أيها المسافرون - بالطعام واتقوا طلبه من غيركم والإنقال عليهم فإن خير الزاد اتقاء الأتقال على الناس « أو تزودوا بالماش يأخذ الزاد وخير الزاد اتقاء المنهيات فأمرهم أن يضمنوا إلى التزود التقوى، وجاء قوله : فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ. محمولاً على المعنى : لأن معنى: وَتَزَوَّدُوا . اتقوا الله فى اتباع ما أمركم به من الخروج بالزاد، قال أهل الإشارات: ذكروهم الله تعالى سفر الآخرة وحثهم على تزود التقوى فإن التقوى زاد الآخرة.

وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ . أى خافوا عقابى يا أصحاب العقول والأفهام.

عرفات

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٩٨﴾

المضردات :

الجنح : الحرج والإثم من الجنوح، وهو الميل عن القصد .

ان تبتقوا : أى أن تقصدوا وتطلبوا .

فضلاً من ربكم : المراد به الرزق من تجارة أو غيرها فى أيام الحج .

أفضتكم : اندفعتكم، يقال أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق .

عرفات : موقف الحاج على جبل عرفات فى أداء المناسك، وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه

الحاج، وهو التاسع من ذى الحجة .

الذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد .

المشعر الحرام : هو جبل المزدلفة يقف عليه الإمام، وسمى بهذا الاسم لأنه معلم للعبادة والشعائر،

وفى هذا المكان بنى مسجد حديث وقد روى الحاكم وصححه عن ابن عمر:

«المشعر الحرام المزدلفة كلها». والمشاعر : هى المعالم الظاهرة، وإنما سميت

المزدلفة « المشعر الحرام » لأنها داخل الحرم .

المعنى الإجمالى :

أباح الله للحاج مزاوله التجارة وابتغاء الرزق فى موسم الحج على أن يجعل همته الأساسية

متوجهة إلى أعمال الحج .

وإذا صدر الحاج من عرفات بعد الوقوف بها ووصلوا المزدلفة ليلة عيد النحر فليذكروا الله عند

المشعر الحرام ، وهو جبل المزدلفة بالتهليل والتكبير ، وليحمدوه على هدايته إياهم إلى الدين الحق

والعبادة القويمة فى الحج وغيره ، وقد كانوا قبل هداية الإسلام فى ضلال عن صراط الهدى والرشاد .

التفسير :

١٩٨ - لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ . . .

أى لا حرج ولا إثم فى الكسب أيام الحج إذا لم يكن الكسب هو المقصود بالذات.

روى البخارى عن ابن عباس قال : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم فنزلت : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ. أى فى مواسم الحج ^(١١٠).

وهكذا رواء عبد الرزاق وسعيد بن منصور، وروى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج يقولون : أيام ذكر، فانزل الله : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ .

وذهب أبو مسلم إلى أن المراد - التجارة بعد انقضاء أعمال الحج، والتقدير عنده، فاتقون فى أعمال الحج، ثم بعد ذلك لا جناح عليكم، وهو نظير قوله تعالى : فَإِذَا قُضِيََتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ. (الجمعة : ١٠).

فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ . . .

أى يطلب من الحاج إذا دفع من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتحميد والشاء والتلبية.

والوقوف بعرفة ركن لا يدرك إلا من أدركه، ولا نعلم خلافاً بين العلماء فى ذلك، إلا ما روى عن الحسن أنه قال : إنه واجب ، من أدركه فقد أداه، ومن لا فيكفيه الوقوف بجمع ^(١١١).

وظاهر عموم القرآن والسنة الثابتة يدل على أن عرفة كلها موقف، قال - صلى الله عليه وسلم- : « وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف » رواء مسلم ^(١١٢).

وقد اختلف فى الذكر المطلوب عند المشعر الحرام: فقال بعضهم المراد منه الجمع بين صلاة المغرب وصلاة العشاء بمزدلفة.

واستدلوا بقوله - صلى الله عليه وسلم - لمن وجده يصلى فى الطريق « الصلاة أمامك » وقال بعضهم : بل المراد - الذكر باللسان - من التسميع والتحميد والتهليل والتلبية ، وقد ورد عن ابن عباس أنه نظر إلى الناس وقال : كان الناس فى هذه الليلة لا ينامون .

وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَذَاكُمْ.

أَيُّ اذْكُرُوا اللَّهَ - تعالى - ذكراً مشابهاً لهديته لكم، أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه، ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه في الجاهلية، أو اذكروه لهديته إياكم.

وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ .

وانكم لولا هذه الهداية ليقبتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق، ولكن الله من عليكم بهذه الهداية فاكثروا من ذكره وشكروه عليها.

وقت الوقوف بعرفة :

وقت الوقوف بعرفة من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقف في حجة الوداع بعد أن صَلَّى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال : «لتأخذوا عنى مناسككم».

وقال في هذا الحديث : « فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ».

وهذا هو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي - رحمهم الله - وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتج بحديث عروة بن مضرٍس (١١٢) بن حارثة بن لام الطائي قال : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله، إنى جئت من جبل طيئ، أكلت راحتي وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل (١١٤) إلا وقفت عليه فهل لى من حج؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً - فقد تم حجُّه، وقضى تقبُّه » (١١٥) رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى. ويقال للجبل في وسط عرفات جبل الرحمة (١١٦).

فضل يوم عرفة :

قال القرطبي : يوم عرفة فضله عظيم وتوابعه جسيم يكفّر الله فيه الذنوب ويضاعف فيه الصالح من الأعمال - قال - صلى الله عليه وسلم - « صوم يوم عرفة يكفّر السنة الماضية والباقية » (١١٧) أخرجه الصحيح.

وقال - صلى الله عليه وسلم - « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ».

وقد استحب أهل العلم صوم عرفة لغير الحاج.

أما الحاج فيستحب له الفطر ليتقوى على الدعاء (١١٨).

الإفاضة

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

جمهور المفسرين على أن المراد من هذه الإفاضة - الإفاضة من عرفات .

روى البخارى ومسلم : أن قريشاً ومن دان دينهم من كنانة وجديلة وقيس، وهم الحمس (واحدهم أحمس وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال) كانوا يقفون فى الجاهلية بمزدلفة ترفعاً عن الوقوف مع العرب فى عرفات.

فأمر نبيه أن يأتى عَرَفَات ثم يقف بها ثم يفيض منها ليبطل ما كانت عليه قريش^(١٩٩).

١٩٩ - ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ...

فالمعنى : عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد تحقيقاً للمساواة وتركاً للتفاخر وعدم الامتياز لأحد عن أحد وذلك من أهم مقاصد الدين.

وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أى اطلبوا منه المغفرة فإن رحمته واسعة وهو سَتَّارٌ على عبادِهِ رحيم بهم، وتلمح حكمة القرآن فى لسه للقلوب ودعوته إلى التوبة وتغيّر المناسبة لتأكيد هذه الدعوة.

قال ابن كثير فى تفسيره : « كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت فى صحيح مسلم : « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً » وفى الصحيحين : أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين.

وروى البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « سيد الاستغفار أن يقول العبد «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي فاغفر لى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » من قالها فى ليلته فمات فى ليلته دخل الجنة ، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة »^(٢٠٠).

وفى الصحيحين أن أبا بكر قال : يا رسول الله ، علّمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى فقال قل : (اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم)^(٢٠١) والأحاديث فى الاستغفار كثيرة^(٢٠٢).

حسنة الدنيا والآخرة

﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا وَمَالُهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَدْ آتَاكَ اللَّهُ الْبَيِّنَاتِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝﴾

المفردات :

الخلق : الحظ والنصيب .

حسنة الدنيا : هي العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة، أو العلم والمعرفة .

حسنة الآخرة : هي الجنة أو رؤية الله - تعالى - والأولى التعميم في كل هذا .

تمهيد :

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : « كان أبي يطعم ويعمل الحملات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - : اذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا (١٣) .

ويروى أنهم كانوا يقفون بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتشادون فامرهم الله أن يذكره بعد قضاء مناسك الحج . كما كانوا يذكرون آبائهم في الجاهلية أو أشد ذكرهم إياهم .

وخطب النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع في اليوم الثاني من أيام التشريق، فأرشدهم إلى تلك المفاخرات فقال : أيها الناس إلا إن ريكم واحد وإن أبائكم واحد، إلا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إلا هل بلغت اللهم فاشهد .

التفسير :

٢٠٠ - فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا .

فإذا فرغتم من عبادتكم، وأدبتم أعمال حجاجكم، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آبائكم؛ بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أكثر من ذكركم لمآثر آبائكم، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذبا أدى إلى الخزي في الدنيا والعقوبة في الآخرة، وإن كان صدقا فإنه في الغالب يؤدي إلى العجب وكثرة

الغرور، أما إذا ذكر الله بإخلاص وخشوع فتوابه عظيم وأجره كبير؛ وفضلاً عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى إياه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذي خلق إياه وهو الله رب العالمين .

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ .

أى من الناس نوع يقول فى دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه فى الدنيا فنحن لا نطلب غيرها، وهذا النوع ليس له فى الآخرة من : خلاق . أى نصيب وحظ من الخير .

قال أبو وائل والسدى وابن زيد: كانت العرب فى الجاهلية تدعو فى مصالح الدنيا فقط، فكانوا يسألون الإبل والغنم والظفر بالعدو، ولا يطلبون الآخرة إذ كانوا لا يعرفونها ولا يؤمنون بها فتهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهى فى صيغة الخبر عنهم، ويجوز أن يتناول هذا الوعيد المؤمن أيضاً (١٢١).

إذا كان جلُّ اهتمامه فى ذكره ودعائه حظ الدنيا خاصة من الجاه والغنى والتصرة على الأعداء إلى نحو ذلك من الحظوظ العاجلة، والعبرة فى الآفة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تشمل كل من استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها، ولا يهتم إلا بها، صارفاً نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

★ ★ ★

٢٠١ - وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

إنهم يتوجهون إلى الله بالدعاء ثم يطلبون الحسنة فى الدارين ولا يعددون نوع الحسنة، بل يدعون اختيارها لله والله يختار لهم ما يراه حسنة لهم.

حسنة فى الدنيا والآخرة :

قال القرطبي: واختلف فى تأويل الحسنتين على أقوال عديدة ، فروى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن الحسنة فى الدنيا المرأة الحسنة وفى الآخرة الحور العين .

وقينَا عَذَابَ النَّارِ : المرأة السوء .

قلت وهذا فيه بعد ولا يصح عن على لأن النار حقيقة فى النار المحرقة وإطلاق المرأة على النار تجوز .

وقال قتادة : حسنة الدنيا العافية فى الصحة وكفاف المال . وقال الحسن : حسنة الدنيا العلم والعبادة .

وقيل غير هذا .

والذى عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعم الدنيا والآخرة، وهذا هو الصحيح فإن اللفظ يقتضى هذا كله .

فإن حَسَنَةً . نكرة فى سياق الدعاء، فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع .

وقيل : لم يرد حسنة واحدة، بل أراد أعطينا فى الدنيا عطية حسنة فحذف الاسم (١٢٥).

فضل الدعاء بهذه الآية :

هذه الآية من جوامع الدعاء لأنها جمعت بين خيرى الدنيا والآخرة.

وفى الصحيحين من أنس قال : « كان أكثر دعوة يدعو بها النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وحققنا عذاب النار » قال : فكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه (١٣٦).

★ ★ ★

وقد ذكرت الآيات من يطلب الدنيا وحدها، ومن يطلبها مع الآخرة، ولم تذكر من يطلب الآخرة وحدها لأن الدنيا مزرعة الآخرة، وهى نعم المطية إلى الجنة، والضرب فى مناكيبها طلباً للرزق عبادة والمؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وفى الآية إيماء إلى أن الفلو فى الدين والتشدد فيه مذموم خارج سنن الفطرة وقد نهى الله أهل الكتاب عنه وذمهم عليه. ونهى الله عنه النبى - صلى الله عليه وسلم.

وَقَدْ عَذَابَ النَّارِ : أى احفظنا من عذابها بالتوفيق للطاعة، والتتفير من المعصية.

٢٠٢ - أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

إن المؤمن خليفة الله فى الأرض وقد طلب من الخليفة ألا يحصر نفسه فى دائرة الأرض وعليه أن يتطلع إلى ما عند الله وأن يطلب فى دوائه حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا . واسم الإشارة يعود إلى الفريق الثانى فريق الإسلام أى لهم ثواب الحج أو ثواب الدعاء فإن دعاء المؤمن عبادة وقيل إن الإشارة تعود إلى الفريقين أى لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه.

وهو مثل قوله تعالى : وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا. (الأنعام : ١٣٢).

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فيوفى كل كاسب أجره عقب عمله، فالله - عز وجل - عالم بما للعباد وما عليهم فلا يحتاج إلى ذكر وتأمل إذ قد علم ما للمحاسب وما عليه.

وقيل المعنى لا يشغله شأن عن شأن فيعاسبهم فى حالة واحدة كما قال سبحانه : مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُكُمْ إِلَّا كُتُوبٌ وَاحِدَةٌ . (لقمان : ٢٨).

قال الحسن : حسابه أسرع من لمح البصر.

وقيل لعل بن أبى طالب - رضى الله عنه - كيف يعاسب الله العباد فى يوم؟ قال : كما يرزقهم فى يوم؛ ومعنى الحساب : تعريف الله عباده بمقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره بإيهم بما قد نسوه.

قلت والكل محتمل فيأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخفف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا (١٢٧).

وفى هذه الجملة الأخيرة من الآية وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم أجاب لهم دعاءهم وأعطاهم سؤالهم.

★ ★ ★

ذكر الله

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

المفردات :

أيام معدودات : أيام التشريق الثلاثة التي بعد يوم النحر، والتشريق تقديد اللحم.

تعجل : استعجل.

تحشرون : تجمعون.

المعنى الإجمالى :

واذكروا الله بالتكبير وغيره فى أيام معدودات ، هى أيام رمى الجمار بمنى، وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر، وليس يلزم أن يأتى الحاج الأيام الثلاثة بمنى ويرمى فيها، بل له أن يقتصر على يومين، لأن قوام الخير تقوى الله، لا مقدار العدد، واتقوا الله دائماً واعلموا أنكم إليه تحشرون ، وتسالون عن أعمالكم.

التفسير :

٢٠٣ - وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ . . .

أى كبروا الله فى أديار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار.

والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق التي بعد يوم النحر، والتشريق تقديد اللحم.

قال القرطبي : ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات فى هذه الآية هى أيام التشريق، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها، وهى أيام رمى الجمار (١٢٨).

فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثرُوا من ذكر الله فى هذه الأيام المباركة، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء، ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذى الحجة .

ولقد بين لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الأيام ينبغي أن تعمّر بذكر الله ويشكره على نعمه.

جاء في تفسير المنار :

« وإنما أمر - سبحانه - بالذكر في هذه الأيام ، ولم يأمر بالرمي لأنه من الأعمال التي كانوا يعرفونها ويعملون بها، وقد أقرهم عليها وذكر المهم الذي هو روح الدين وهو ذكر الله عند كل عمل من تلك الأعمال وتلك سنة القرآن يذكر إقامة الصلاة والخشوع فيها، وذكر الله - تعالى - ودعائه وتأثير ذلك في إصلاح النفوس، ولا يذكر كيفية القيام والركوع والسجود ككون الأول يفعل مرة في كل ركعة، والثاني يفعل مرتين، وإنما يترك ذلك لبيان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم- له بالعمل، وبينت السنة أيضاً أن ذكر الله - تعالى - في هذه الأيام هو التلبية والتكبير أذبار الصلوات، وعند ذبح القرابين ورمي الجمار وغير ذلك من الأعمال، فقد روى الجماعة عن الفضل بن العباس قال : كنت رديف رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من جمع (مزدلفة) إلى منى فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة، وروى أحمد والبخاري عن ابن عمر : أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يرمي الجمرة يكبر مع كل حصاة (١٢٩).

وورد في التكبير في أيام التشريق أحاديث كثيرة منها حديث ابن عمر في الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يكبر بمعنى تلك الأيام وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي مشاه في تلك الأيام جميعاً.

وأما الذكر في يوم عرفة ويوم النحر فهو التكبير لغير الحج، وله أهم، ففي حديث أحمد والشيخين أن محمد بن أبي بكر بن عوف قال : سألت أنسا ونحن غاديان من منى إلى عرفات عن التلبية كيف كنتم تصنعون مع النبي - صلى الله عليه وسلم؟ قال : كان يلبي الملبى فلا ينكر عليه، ويكبر المكبر فلا ينكر عليه (١٣٠).

وفي حديث أسامة عند النسائي أنه (ﷺ) رفع يديه يوم عرفة يدعو.

وقد قالوا : إن التلبية أفضل الذكر للحاج، وليلها التكبير في يوم عرفة والأضحية وأيام التشريق، وكيفية التلبية :

« لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لك لا شريك لك » هذا هو المرفوع، وله أن يزيد من الذكر والثناء والدعاء ما شاء ، والتكبير المرفوع صحيحاً : « الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا، ويزيدون » (١٣١).

وذكر الأستاذ سيد قطب أن « أيام الذكر هي في الأرجح يوم عرفة ويوم النحر والتشريق بعده » (١٣٢).

وهذا يخالف ما أجمع عليه العلماء من « أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام التشريق » (١٣٣)، وهي الأيام الثلاثة التي بعد يوم النحر.

وروى الإمام مسلم عن نبيشة الهذلي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله » (١٣٤).

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام، لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ...

يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالى أيام التشريق ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة، يرمى عند كل جمرة سبع حصيات، ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن ينقر ويترك المبيت بمنى فى الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال، كما يرى الشافعية - وبعده أو قبله - كما ترى الحنفية - فلا إثم عليه فى عدم مبيته بمنى فى الليلة الثالثة.

أى فمن تعجل فسافر فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التمتع ومن بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه كذلك إذا اتقى كل منهما الله ووقف عند حدوده. فإن التقوى هى الغرض من الحج ومن كل عبادة، والوسيلة الكبرى إليها كثرة ذكر الله - تعالى .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

اتقوا الله فى كل ما تاتون وتذرون ، واعلموا انكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم ليجازيكم على أعمالكم.

« وكل ذلك يدلنا على أن المهم فى العبادة ذكر الله - تعالى - الذى يصلح النفوس وينير الأرواح حتى تتوجه إلى الخير وتتقى الشرور والمعاصى فيكون صاحبها من المتقين » (١٣٥).

★ ★ ★

نموذج من الناس

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (٢٠٤) «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» (٢٠٥) «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ» (٢٠٦) «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» (٢٠٧)

المفردات :

يعجبك

: من الإعجاب بمعنى الاستحسان .

الند

: شديد الخصومة، يقال لده بلده، شدد خصومته .

الخصام

: الجدل .

تولى	: صار واليًا وقيل هي هنا بمعنى أدبر وانصرف.
سعى	: أسرع بالفتنة والتخريب.
الحرث والنسل	: الزرع والولد.
أخذته العزة بالإثم	: أى حملته الحمية على الإثم. كقولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه.
فحسبه جهنم	: كفته جزاء.
المهاد	: الفراش.
يشرى نفسه	: يبيعهها.
ابتغاء	: أى طلب.
مرضاة	: أى رضا.

المعنى الإجمالى :

وإذا كانت تقوى الله هي الأساس، فالخسران لفريق من الناس يختلف الذى تضمه قلوبهم عن الذى تنطق به ألسنتهم، أوتوا حلاوة فى صوغ الكلام، يعجبك قولهم فيما يحتالون به على جلب المنفعة فى الحياة الدنيا، ويؤيدون لك زعمهم بأن الله يعلم صدق قلوبهم فيما تقوله ألسنتهم، وأنهم لأشد الناس خصومة وأقسام عليك.

وإذا تولى ولاية يكون له فيها سلطان لا يكون سعيه للإصلاح بل للإفساد وإهلاك الزرع والنسل، والله لا يحبه، لأن الله - تعالى - لا يحب الفساد.

وإذا نصحت له حينئذ بالخوف من الله ثارت فى نفسه الحمية وظن ذلك هدمًا لعزته، وحمله على ارتكاب الإثم فيما نهايته عنه لجاجة وعنادًا. فحسبه على ذلك عذاب جهنم وليبش المستقر.

فما أبعد الفرق بين هؤلاء المنافقين، وبين المؤمنين الصادقين الذين يبيع أحدهم نفسه فى سبيل مرضاة الله وإعلاء كلمة الحق، ويكون هذا القسم مقابلًا للقسم الأول، ويكون توليه أمرًا من أمور الناس من رافة الله بعباده.

التفسير :

٢٠٤ - وَمَنِ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ .

بينت لنا هذه المجموعة من الآيات الكريمة نوعين من الناس أحدهما خاسر والآخر رابح لكى نتبع طريق الرابحين، ونهجر طريق الخاسرين.

تصف الآيات نموذجًا من المنافقين يعتمد على ثلاثة أوصاف :

- ١ - حسن القول بحيث يعجب السامع.
- ٢ - وإشهاد الله - تعالى على صدقه وحسن قصده.
- ٣ - وقلب الحقائق وإيقاع الفتنة والتخريب والفساد.

والمعنى : ومن الناس فريق يروك منطلقهم، ويعجبك ببيانهم، ويحسن عندك مقالهم، هانت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا، لأنك تأخذ الناس بطواهرهم، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستكتشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقاباً أليماً لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح.

هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه، ويضللهم بحلاوة لسانه، ويحلف بالآيمان المغلفة أنه لا يقول إلا الصدق، ويجادل عما يباطل بقوة وعنف ومغالبة، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها.

وَشَهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِي. أى يحلف بالله على أن ما في قلبه موافق لما يقول ويدعى، وفي معنى الحلف أن يقول الإنسان : الله يعلم أو يشهد بأننى أحب كذا أو أريد كذا، أو الله يشهد أنى صادق فيما أقول.

« وقال العلماء : إن هذا أكد من اليمين، وعن بعض الفقهاء أن من قاله كاذباً يكون مرتداً لأنه نسب الجهل إلى الله - تعالى ، وأقول إن أقل ما يدل عليه هو عدم المبالاة بالدين » (١٣٦).

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . قال القرطبي : « الألد : الشديد الخصومة والعداوة.. ولدته - بفتح الدال - ألد - بضمها - إذا جادلته فغلته، والألد مشتق من اللددين وهما صفحتا العنق، أى : فى أى جانب أخذ من الخصومة غلب، والخصام فى الآية مصدر خاصم، وقيل خصم كصعب وصعاب.

والمعنى أشد المخاصمين خصومة، وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » (١٣٧).

★ ★ ★

٢٠٥ - وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ.

وإذا أعرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع فى الإفساد بين الناس، وتقريق كلمتهم، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع والثمار والحيوان وما به قوام الحياة، فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس ومعيشتهم وعن إيذائه الشديد لهم.

وبعض العلماء يرى أن تولى مشتق من الولاية، يقال ولى البلد وتولاه، أى صار والياً له أميراً عليه، والمعنى على هذا الرأى .

وإذا صار والياً على قوم سعى بينهم بالفساد وعمل على تقاطعهم وتباغضهم.

قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . أى لا يرضى عن الذى يقع منه الإفساد فى الأرض، ويظهر للناس الكلام الحسن

وهو يظن لهم الفعل السيئ ، لأنه- سبحانه - أوجد الناس ليصلحوا في الأرض لا ليقسدوا، فالجملة الكريمة ذم للمفسدين ووعد لهم على خروجهم عن طاعة الله.

★ ★ ★

٢٠٦ - وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسِبُهُمْ رَبُّهُمْ أَغْفَاُ

رسمت الآيات صورة لهذا المناق فيما يأتي :

- ١ - حلاوة اللسان وفساد الباطن.
- ٢ - الحلف بالله كذبا ليرجع سلوكه.
- ٣ - الفجور في الخصومة، واقتراء التهم بالباطل.
- ٤ - نشر الخراب والدمار والفساد بين الناس.

وفي هذه الآية بيان لصفة خامسة لهذا النوع من الناس، فهو إذا فعل كل ما سبق ثم قيل له : « اتق الله » .. تذكرًا له بخشية الله والحياء منه والتعرج من غضبه .. أنكر أن يقال له هذا القول، واستكبر أن يوجه إلى صواب. وأخذته العزة، لا بالحق، ولا بالعدل، ولا بالخير ولكن « بالإثم » فاستعز بالإجرام والذنب والخطيئة ورفع رأسه في وجه الحق الذي يذكر به، وأمام الله بلا حياء منه، وهو الذي كان يشهده على ما في قلبه، ويتظاهر بالخير والبر والإخلاص والتجرد والاستحياء.

« إنها لمسة تكمل ملامح الصورة، وتزيد في قسمايتها وتمييزها بذاتها .. وتدع هذا النموذج حيا يترك. تقول في غير تردد : هذا هو . هذا هو الذي عناه القرآن، وأنت تراه أمامك مائلاً في الأرض الآن وفي كل آن» (١٢٨).

فَحَسِبُهُمْ رَبُّهُمْ أَغْفَاُ

أي هي مصيره وكفاه عذابها جزاء على كبريائه وحميته الجاهلية.

وَلَيْسَ الْمُهَادُ . المهاد الفراش يأوي المرء إليه للراحة، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، فالله - تعالى - يقسم تأكيداً للوعيد بأن الذي يرى عزته مانعة له عن الإذعان للأمر بتقوى الله سيكون مهاده ومأواه النار وهي بش المهاد وشره، لا راحة فيها ولا اطمئنان لأهلها.

فقد وصفها القرآن بأنها تكاد تميز من الغيظ.

وهي لا تبقى ولا تذر، لواحة للبشر.

وهي التي يكب فيها الغاوون وجنود إبليس أجمعون.

وهي التي وقودها الناس والحجارة.

وهي الحطمة التي تطلع على الأفتدة.

وهي التي تقول : هل من مزيد .

وهي التي يطعم أهلها الزقوم كالمهل يغلى في البطون كغلي الحميم.

والتي يتمنى أهلها الموت فيقال لهم: إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون.

وقال بعض المفسرين: إنه عبر بالمهاد الذي هو مظنة الراحة للتهكم.

وقد اختلفوا في سبب نزول هذه الآيات، فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنها نزلت في رجلين من المنافقين قالوا: لما هلكت سرية للمسلمين: ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

وروى ابن جرير عن السدي أنها نزلت في الأخنس بن شريق أقبل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وأظهر له الإسلام فأعجبه ذلك منه ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر، فأحرق الزرع وعقر الحمر. فإن صحت الروايتان فالظاهر أن من جعلهما سبباً حمل الآيات عليهما في الجملة، وإلا فانت ترى أن الآيات ليست مطابقة للحادثتين اللتين كانتا في وقتين مختلفين^(١٢٩).

قال الإمام الرازي :

« واختار أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة في حق كل من كان موصوفاً بهذه الصفات المذكورة.. ولا يتمتع أن تنزل الآية في الرجل ثم تكون عامة في كل من كان موصوفاً بتلك الصفات، ونزولها على السبب الذي حكيناه لا يمنع العموم.. والعمل على العموم أكثر فائدة، وذلك لأنه يكون زجراً لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة .. »^(١٣٠).



٢٠٧ - وَمَنِ النَّاسِ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .

ويشترى هنا معناها يبيع ، فهو يبيع نفسه كلها لله، ويسلمها كلها لا يستبقى منها بقية، ولا يرجو من وراء أداؤها وبيعها غاية إلا مرضاة الله، ليس له فيها شيء، وليس له من ورائها شيء، بيعة كاملة لا تردد فيها، ولا تحصيل ثمن، ولا استبقاء بقية لغير الله .

وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ .

أي رفيق بهم ورحيم بهم، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكلفهم بما هو فوق طاقتهم، وإنما كلفه بما تطيقه نفوسهم، وأنه أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة في الدنيا مع تقصيرهم فيما أمرهم به أو نهاهم عنه، وأنه كافأهم بالتعظيم المقيم على العمل القليل، وأنه جعل العاقبة للمتقين، لا للمفسدين، وأنه فتح باباً للتائبين، وتجاوز عن المخطئين وحثهم على الإنابة والاستقامة فقال سبحانه :

قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ . (الزمر : ٥٣ - ٥٤).

وقد أورد المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية، منها ما رواه ابن كثير أنها نزلت فى صُهيبي الرومى .

وذلك لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجر منه ويهاجر فعل، فتخلص منه وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية ..

وفى رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : عندما بلغه أن صهيبيًا دفع ماله للمشركين وهاجر بنفسه - ربح صهيبي، ربح صهيبي.

وهناك روايات أنها نزلت فيه، وفى عمار بن ياسر وفى خباب بن الارت وفى غيرهم من المؤمنين المجاهدين.

والآية وإن كانت نزلت فى حادثة معينة، أو انطبقت عليها، فإنها تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه فى سبيل إعلاء كلمة الله، ويدخل فى ذلك دخولاً أوليًا من نزلت فيهم الآية، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال الأستاذ سيد قطب :

والآية أبعد مدى من مجرد حادث ومن مجرد فرد وهى ترسم صورة نفس وتحدد ملامح نموذج من الناس. نرى نظائره فى البشرية هنا وهناك .

والصورة الأولى : تنطبق على كل منافق وراء ذلق اللسان. فظ القلب شرير الطبع شديد الخصومة، مفسود الفطرة.

والصورة الثانية : تنطبق على كل مؤمن خالص الإيمان، متجرد لله، مرخص لأعراض الحياة.. وهذا وذاك نموذجان معهودان فى الناس، ترسمهما الريشة المبدعة بهذا الإعجاز، وتقيهما أمام الأنظار، يتأمل الناس فيهما معجزة القرآن، ومعجزة خلق الإنسان بهذا التفاوت بين النفاق والإيمان؛ ويتعلم منهما الناس ألا ينخدعوا بمعسول القول، وطلاوة الدهان، وأن يبحثوا عن الحقيقة وراء الكلمة المزوقة، والنبرة المتصنعة، والنفاق والرياء والزواق كما يتعلمون منهما كيف تكون القيم فى ميزان الإيمان^(١١١).

السلام في الإسلام

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

المفردات :

السلام : بكسر السين وتفتح، الاستسلام والطاعة.

كافة : جميعاً.

خطوات : جمع خطوة بفتح الخاء وضمها.

فإن زللتم : أى فإن انحرقتم عن الصواب.

البيّنات : الآيات الواضحات.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الذين آمنوا كونوا جميعاً مسلمين فيما بينكم ولا تثيروا العصبية الجاهلية وغيرها من أسباب النزاع والخلاف، ولا تسيروا فى طريق الشيطان الذى يدفعكم إلى الشقاق فإنه لكم عدو مبين.

فإن انحرقتم عن هذا الطريق الذى دعيتم إليه جميعاً من بعد ظهور الحجج القاطعة على أنه طريق الحق، فاعلموا أنكم مؤاخذون بهذا الانحراف لأن الله عزيز يماقب من يعرض عن سبيله، حكيم يقدر العقوبة بقدرها.

التفسير :

٢٠٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية موجهة إلى مؤمنى أهل الكتاب.

جاء فى تفسير مقاتل بن سليمان ^(١٤٢) : أن عبد الله بن سلام، وسلام بن قيس، وأسيد وأسد ابنا كعب، ويامين وهم مؤمنو أهل التوراة استأذنوا النبی - صلى الله عليه وسلم - فى قراءة التوراة فى الصلاة، وفى أمر السبت، وأن يعملوا ببعض ما فى التوراة، فقال الله - عز وجل - خذوا سنة محمد - صلى الله عليه وسلم - وشراعه ، فإن قرآن محمد نسخ كل كتاب كان قبله . فقال : ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً . يعنى فى شرائع الإسلام كلها: وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ . يعنى تزيين الشيطان فإن السنة الأولى بعد ما بعث محمد - صلى الله عليه وسلم - ضلالة من خطوات الشيطان .

والوجه الثاني فى تفسير السلم هو المسألة والمصالحة.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إن إيمانكم يجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، مجتمعين غير متفرقين، كما أنه يجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالوهم متى سالكم، وأن تحاربوهم متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام، وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوى الذى يرد الاعتداء بمثله.

وقد ذكر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار، أن الوجه الأول ضعيف وأن الآية لم تنزل فى شأن مؤمنى أهل الكتاب وإنما نزلت تدعو المسلمين إلى التمسك بأهداب الإسلام وترك الشقاق والتنازع، والاعتصام بحبل الوحدة والأخوة، وهى بمعنى قوله - عز وجل - : **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**. (آل عمران ١٠٣) وقوله تعالى: **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا**. (الأنفال : ٤٦) وقوله - عليه الصلاة والسلام : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم أعناق بعض »^(١٤٣).

وبعض المفسرين ذكر أن المراد بالآية المناهقون ، والتقدير يا أيها الذين آمنوا بالسنتهم ادخلوا بكمليتهم فى الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان. وهو قول ضعيف ولا يؤيده سياق الآية الكريمة.

لأن الآية صريحة فى دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام، وإلى الإخاء الجامع ونبد التفرق والاختلاف والاعتداء.

وإن صحت الروايات فى أنها نزلت فى شأن مؤمنى أهل الكتاب فلا مانع أن تكون الآية موجهة لهم وتشمل المسلمين أيضا، فالعبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُرَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

الخطوة هى ما بين قدمي من يخطو.

أى ادخلوا فى السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه، إنه لكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل.

وفى قوله - تعالى - : **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُرَاتِ الشَّيْطَانِ**. إشعار بأن الشيطان كثيرا ما يجر الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة، ودرجة فدرجة، حتى يجعله يالفه ويفتحه بدون تردد، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، والعاقل من الناس هو الذى يبتعد عن كل ما هو من نزغات الشيطان ووساوسه، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

٢٠٩ - **فَإِنْ زُلْزِلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.**

فإن تحييتكم عن طريق الحق وعدلتكم عنه إلى الباطل، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب

والخطأ، والتي تدعوكم إلى اتباع طريق الحق فاعلموا أن الله عزيرٌ . لا يقهره ولا يعجزه الانتقام ممن زل حكيمٌ . لا يترك ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور في مواضعها .

وقال الفخر الرازي ، وقوله : فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . نهاية في الوعيد، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمع الوعيد بذكر العقاب وربما قال الوالد لولده: إن عصيتني فأنت عارف بي وأنت تعلم قدرتي عليك وسطوتي، فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره^(١١٤).

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

المفردات :

هل ينتظرون : استفهام في معنى النفي .

يأتيهم الله : يأتيهم أمره .

في ظلل من الغمام : الظلل جمع ظلة وهي ما أظلك من شعاع الشمس وغيره، والغمام: السحاب الأبيض الرقيق .

التفسير :

٢١٠ - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم البينات إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة في ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله .

وبتعبير آخر: هل ينتظرون ويتكاثرون حتى يأتيهم اليوم الرعب الموعود الذي قال الله - سبحانه - إنه سيأتي فيه في ظلل من الغمام، ويأتي الملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً؟ .

وفجأة، وبينما نحن أمام السؤال الاستكاري الذي يجمع طابع التهديد الرعب، نجد أن اليوم قد جاء، وأن كل شيء قد انتهى وأن القوم أمام المفاجأة التي كان يلوح لهم بها ويخوفهم إياها . وَقُضِيَ الْأَمْرُ . وطوى الزمان، واهلكت الفرصة، وعزت النجاة، ووقفوا وجهاً لوجه أمام الله، الذي ترجع إليه وحده الأمور: وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

إنها طريقة القرآن العجيبة ، التي تفرده وتميِّزه من سائر القول . الطريقة التي تحيي المشهد وتستحضره في التو واللحظة ، وتقف القلوب إزاءه وقفه من يرى ويسمع ويعاني ما فيه .

فإلى متى يتخلف المتخلفون عن الدخول في السلم، وهذا الفزع الأكبر ينتظرهم؟ بل هذا الفزع الأكبر يدهمهم، والسلم منهم قريبة، في الدنيا ، والسلم في الآخرة، يوم تشقق السماء بالغمام ونُزِّلَ الملائكة تنزيلاً، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، يوم يقضى الأمر.. وقد قضى الأمر . وإلى الله ترجع الأمور .

★ ★ ★

تبديل النعم

﴿سَلِّبْنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾

والعودة هنا إلى بني إسرائيل عودة طبيعية، فيها تحذير من موقف بني إسرائيل في التلذذ والنشوز، والتعنّت وسؤال الخوارق، ثم الاستمرار في العناد والجحود.. وهذه هي مزالق الطريق التي يحذر الله الجماعة المسلمة منها كي تتجو من عاقبة بني إسرائيل المنكودة.

المعنى الإجمالي :

سل بني إسرائيل كم سقنا إليهم الأدلة القاطعة على صدق الرسول، وفي ذلك نعمة هدايتهم إلى الله فكفروا بهذه الأدلة وعمدوا بتكذيبهم لها إلى تبدل الغرض منها، فبعد أن وضعت للهداية، أصبحت بالنسبة لكفر هؤلاء بها سبباً في زيادة ضلالهم وإلثمهم، ومن يبذل نعم الله بهذه الصورة يحق عليه العذاب لأن الله شديد العقاب .

التفسير :

٢١١ - سَلِّبْنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ...

سل فعل أمر من سأل وأصله أسأل فتقلت فتحة الهمزة إلى السين قبلها وصارت ساكنة فحذفت، ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى همزة الوصل فحذفت أيضاً، والمراد بهذا السؤال تقييدهم على جحودهم الحق بعد وضوح الآيات، لا معرفة إجابتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد، فيقول لمن حضره : سله كم أنعمت عليه؟.

قال الفخر الرازي :

اعلم أنه ليس المقصود: سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها، وذلك لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان عالماً بتلك الأحوال، بإعلام الله - تعالى - إياه، بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى .

أي سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها، لا جرم استوجبوا العقاب من الله - تعالى - وذلك تنبيه لهؤلاء الحاضرين، على أنهم لو زلوا عن آيات الله، لوقعوا كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم .. (١١٥).

ومن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التي أظهرها الله لبنى إسرائيل: عصا موسى التي ألقاها فإذا هي حية تسعى، والتي ألقاها فإذا هي تلقف ما صنعه السحرة، والتي ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم عليهم، وإنقاذهم من فرعون، وفرق البحر بهم، وإرسال المن والساوى عليهم، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وحدانية الله، وصدق موسى في رسالته ومع ذلك فمنهم من قال : أَرَأَيْتُمُ اللَّهَ جَهْرَةً (النساء : ١٥٢).

ومنهم من عبد العجل ، قال تعالى : وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَ أَلَم يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ . (الأعراف : ١٤٨).

ثم بين سبحانه سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال *

وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

أي ومن يبدل نعم الله من بعدما وصلت إليه واتضحت له، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان، وجحد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسيديها، من يبدل ذلك التبديل، فإن الله سيعاقبه عقاباً شديداً .

وما بدلت البشرية هذه النعمة إلا أصابها العقاب الشديد في حياتها على الأرض قبل عقاب الآخرة، وما هي ذى البشرية المنكودة الطالع في أنحاء الأرض تعاني العقاب الشديد، وتجد الشقوة النكدة ، وتعانى القلق والحيرة ويكال بعضها بعضاً .

ونظرة إلى التنقل السريع المحموم بين الأهواء والأزواج والصدقات والأزياء، بين فصل وفصل، لا بين الصباح والمساء، كل هذا يكشف عن الحيرة القاتلة، التي لا طمانينة فيها ولا سلام. وإن هو إلا عقاب الله لمن يحيد عن منهجه، ولا يستمع لدعوته : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.. وأن الإيمان الواثق لنعمة الله على عباده، لا يبدلها مبدل حتى يحيق به ذلك العقاب .. والعياذ بالله (١١٦).

سخرية

﴿ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢١٢)

المفردات :

التزيين : جعل الشيء زينا أى شديد الحسن.

المعنى الإجمالى :

وإن السبب فى الانحراف والكفر هو طلب الدنيا، فقد زين للذين كفروا شهوات الحياة الدنيا، فمضوا
يسخرون من الذين آمنوا، لانتغالهم بالحياة الآخرة، والله جاعل الذين آمنوا أعلى مكاناً منهم فى الآخرة، فاما
زيادة هؤلاء الكفار بالمال والزينة فى الدنيا فلا يدل على أفضليتهم ، لأن رزق الله لا يقدر على حساب الإيمان
والكفر، بل يجرى تبعا لمشيئته، فمن الناس من يزداد له الرزق استدراجاً، ومنهم من يقتر عليه اختياريًا .

التفسير :

٢١٢ - زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . . .

إن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها، وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار، وصارت متعها
وشهواتها كل تفكيرهم، أما الآخرة فلم يفكروا فيها ولم يبهتوا أنفسهم للقائها .

قال القرطبي :

والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر، ويزينها أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه، وخص الذين كفروا
بالذكر لقبولهم التزيين جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها، وقد جعل الله ما على الأرض
زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملا .

فالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى سَنَنِ الشَّرْعِ لَمْ تَقْتَنَهُمُ الزَّيْنَةُ، وَالْكَافِرَ تَمَلَّكَتْهُمُ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْتَنِدُونَ غَيْرَهَا (١٤٧).

وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا .

إن هدف المؤمن أن يرضى ربه، وأن يضخى بنفسه وماله من أجل نصرة دين الله، وتحقيق منهجه فى
الحياة ، وهدف الكفار الاستمتاع بالحياة الدنيا، فالدنيا كل همهم، وهم لذلك يسخرون من المؤمنين، الذين باعوا
الدنيا واشتروا ما عند الله، وصار هم المؤمنين مرضاة ربهم وتحقيق رسالة دينهم .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى

أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكَيْهِمْ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . (المطففين : ٢٩ - ٣٤).

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في المنافقين: عبد الله بن أبي حذبة، كانوا يتتبعون في الدنيا، أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين، وقرأ المهاجرين، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم.

ومنها أنها نزلت في أبي جهل ورؤساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار بن ياسر، وصهيب ابن سنان الرومي، وبلال بن رباح، وخياض بن الأرت، وسالم مولى أبي حذيفة، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة الدوسي^(١١٨) ، وفي نحوهم من الفقراء يقول الله - عز وجل - :

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَرَقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

يعني أن هؤلاء النفر من المؤمنين فوق المنافقين والكافرين يوم القيامة، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أعلى عليين، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار ويثس القرار.

فإذا استعلى بعضهم على بعض المؤمنين طائفة من الزمن في هذه الحياة القصيرة الفانية، بما يكون لهم من الأتباع والأنصار والمال والسلطان، فإن المؤمنين يكونون أعلى منهم مقاماً يوم القيامة في تلك الحياة العلية الأبدية^(١١٩).

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

وهو المانع الوهاب يمنح من يشاء ويفيض على من يشاء لا خازن لمعطائه ولا بواب، وهو قد يعطى الكافرين زينة الحياة الدنيا لحكمة منه، وليس لهم فيما أعطوا فضل، وهو قد يعطى المختارين من عباده ما يشاء في الدنيا أو في الآخرة، فالعطاء كله عنده، واختياره للأخير هو الأبقى والأعلى.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده :

« إن الرزق بغير حساب ولا سعى في الدنيا إنما يصح بالنسبة للأفراد، فإنك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار، أغنياء موسرين متمتعين بسعة الرزق، وكثيراً من الفريقين فقراء معسرين، والمتقى يكون دائماً أحسن حالاً وأكبر احتمالاً، ومحلاً لعناية الله - تعالى - به، فلا يؤله الفقر كما يؤلم الفاجر، فهو يجد بالتقوى مخرجاً من كل ضيق، ويجد من عناية الله رزقاً غير محتسب ، وأما الأمم فامرأها هللى غير هذا، فإن الله يعطى الأمة بعملها ويسلبها بزللها »^(١٢٠).

أمة واحدة

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

المفردات :

أمة : جماعة من الناس أمرهم ومقصدهم واحد .

مبشرين ومنذرين : واعدن المتقين بالجنة، ومتوعدين الكفار بالنار.

البيّنات : الأدلة المقننة الظاهرة .

بغيا : ظلماً وعدواناً .

المعنى الإجمالي :

وإن الناس طبيعة واحدة فيها الاستعداد للضلالة، ومنهم من قد تستولى عليه أسباب الهداية، ومنهم من تغلب عليه الضلالة، ولذلك اختلفوا فبعث الله إليهم الأنبياء هداة مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتب مشتملة على الحق، لتكون هي الحكم بين الناس فينقطع التنازع ولكن الذين انتقموا بهدى النبيين هم الذين آمنوا فقط، الذين هداهم الله في موضع الاختلاف إلى الحق، والله هو الذي يوفق أهل الحق إذا اخلصوا .

التفسير :

٢١٣ - كان الناس أمةً واحدةً فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين .

نقل الإمام محمد عبده عدة أقوال عن المفسرين السابقين في معنى هذه الآية، وناقشها ولم يقبلها .

ومن الآراء التي ناقشها أن الناس كانوا على ملة الهدى والدين القويم .

وقد رفض هذا الرأي لأن هداية الناس واجتماعهم لا تستوجب بعث النبيين مبشرين ومنذرين .

واختار أن يكون معنى هذه الآية :

خلق الله الإنسان أمة واحدة أي مرتبطاً بعضه ببعض في المعاش، لا يسهل على أفراد أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا، إلى الأجل الذي قدره الله لهم إلا مجتمعين . يماون بعضهم بعضاً، ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواء النفسية والبدنية قاصرة عن توفيقه جميع ما

يحتاج إليه، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته، فيستعين بهم في شأنه كما يستعينون به في بعض شأنهم؛ وهذا الذي يعبرون عنه بقولهم « الإنسان مدنى بالطبع » يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته، بل قدر له أن تكون منزلة أفراد من الجماعة، منزلة العضو من البدن، لا يقوم البدن إلا بعمل الأعضاء كما لا تؤدي الأعضاء وظائفها إلا بسلامة البدن ...

... « إن الله قضى أن يكون الناس أمة واحدة يرتبط بعضها ببعض، ولا سبيل لعقولهم وحدها إلى الوصول إلى ما يلزم لهم في توفير مصالحهم، ودفع المضار عنهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقهم؛ وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى ، القادر على إثابتهم وعقوبتهم، العالم بما يخطر في ضمائرهم، الذي لا تخفى عليه خافية من سرائرهم.

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فيه ...

أي وأنزل معهم الكتب السماوية التي توضح للناس العبادات وشرائع المعاملات، طبقاً للحق والعدل، فإذا حادوا عن سواء السبيل، عادوا إلى هذه الكتب السماوية يحتكمون إليها فتردهم إلى الصواب.

وَمَا اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ...

وما اختلف في الحق أو في الكتاب المنزل، إلا الذين أوتوه من أرباب العلم والدراسة، بعد ما جاءتهم الحجج الواضحات على وجوب الأخذ به، وعدم الاختلاف.

فالبغي، بغى الحسد : وبغى الطمع، وبغى الحرص، وبغى الهوى ، هو الذي قاد الناس إلى المضى في الاختلاف على أصل التصور والمنهج، والمضى في التفرق واللجاج والعناد.

قال الأستاذ محمد عبيد :

لكن قد يشوب طلب الحق شيء من الرغبة في عزة الرئاسة أو ميل مع أربابها أو خوف منهم أو شهوة خفية في منفعة أخرى فيلج ذلك بصاحب الرأي حتى يكون شقاق، ويحدث افتراق؛ ولا ريب أن هذا الشوب وإن كان قد يكون غير ملحوظ لصاحبه بل دخل على نفسه من حيث لا يشعر فهو من البغي على حق الله في عباده أولاً، والبغي على حقوق العباد الذين جاء الكتاب لتعزيز الوفاق بينهم ثانياً، أما العامة من الناس فلا جريمة لهم في هذا ؛ ولذلك جاء بالحصص في قوله : وَمَا اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ...

... فإذا كان الرؤساء قد جنوا هذه الجناية على أنفسهم وعلى الناس بسبب البغي الخاص بهم، فهل يقدر هذا في هداية الكتاب إلى ما يتفق الناس عليه من الحق ويرتفع به النزاع فيما بينهم؟ كلا فقد رأينا كل دين في بدء نشأته يقرب البعيد ويجمع المشتت ويلم الشعث ويمحق أسباب الخلاف من النفوس ويقرر بين الأخذين به أخوة لا تدانيها أخوة النسب في شيء. وهل يؤثر الأخ في النسب أخاه بماله على نفسه وهو في أشد الحاجة إليه كما كان يفعل أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة؟ وهل يبذل الأخ النفسى روحه دون أخيه ويؤثره بالحياة على نفسه كما آثره بالمال، كما كان يقع من أولئك الأبطال؟ هذا شأن الدين وهو باق

على أصله، معروف بحقيقته لأهله، تبيينه للناس رؤساؤه، ويمشئ بنوره فيهم علماؤه، لا خلاف ولا اعتساف، ولا طرُق ولا مشارب، ولا منازعات في الدين ولا مشاغِب (١٥١).

فَهْدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.

هداهم بما في نفوسهم من صفاء وبما في قلوبهم من رغبة في الوصول إلى الحق وبما في أرواحهم من تجرد.

وَالَّذِينَ آمَنُوا . هم أهل الإيمان الصادق في كل دين.

وقيل المراد من : الَّذِينَ آمَنُوا . أمة محمد - صلى الله عليه وسلم، هداهم الله لما اختلف فيه أهل الكتاب من الحق بإذنه - تعالى - وتيسيره ، فعرفوه .

ومن ذلك هدايتهم إلى تنزيهه - تعالى - عن الصاحبة والولد، وأن إبراهيم - عليه السلام - كان حنيفاً مسلماً . وما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً ، وأن مريم سيدة شريفة، وليست كما وصفها اليهود، وأن عيسى رسول الله، خلافاً لما زعم اليهود من نفي رسالته، ولما زعم النصارى من أنه ابن الله، إلى غير ذلك.

وفى هذا يقول الله - تعالى - : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصِلُ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل:٧٦).

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

والله وحده هو الهادي من يشاء من عباده إلى طريق الحق الذي لا يضل سالكه، فليس لأحد سلطان بجوار سلطانه، ولو أراد أن يكون الناس جميعاً مهديين لكانوا، ولكن حكمته اقتضت أن يختبرهم ليميز الخبيث من الطيب، فيجازي كل فريق بما يستحقه.

قال ابن كثير : وفى صحيح مسلم والبخارى عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » (١٥٢).

وفى الدعاء الماثور : « اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنفضل واجعلنا للمتقين إماماً » (١٥٣).

ابتلاء المؤمنين

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ
اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢١٤)

المفردات :

أم : تأتى بمعنى بل وهمزة الاستفهام، ويرى أبو عبيدة أنها للاستفهام وحده .

حسبتهم : ظننتهم .

خلوا : مضوا .

الْبَاسَاءُ : الفقر، أو الحرب، أو الشدة .

الضراء : المرض ، أو الضيق ، أو الضرر مطلقاً .

زلزلوا : الزلزلة: الحركة الشديدة، والمراد هنا : إصابتهم بالاضطراب النفسى ، الذى يهز النفس هزاً عنيفاً
ويزعجها .

المعنى الإجمالى :

فهل حسبتهم أن تدخلوا الجنة بمجرد إقراركم بكلمة الإسلام، بدون أن تصابوا بمثل ما أصاب الذين من
قبلكم ، فقد أصابتهم الشدائد والنوازل وزلزلوا حتى بلغ بهم الأمر أن قال رسولهم نفسه، وقالوا معه : متى نصر
الله ؟ فيبهر ربههم بوعده، فيجابون عندئذ : بأن نصر الله قريب .

التفسير :

٢١٤ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ...

سبب النزول : قال قتادة والسدى وأكثر المفسرين : نزلت هذه الآية هى غزوة الخندق إذ اجتمع للمشركون
مع أهل الكتاب، وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين وقطع دابرهم، وأصاب المؤمنين يومئذ ما أصابهم من الجهد
والشدة والجوع والحاجة وضروب الإيذاء .

وقيل إن الآية نزلت فى غزوة أحد، حين غلب المشركون المؤمنين، وشجوا رأس النبی - صلى الله عليه
وسلم - وكسروا رباعيته (١٥٤) .

وما ذكره المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة لا يمتنع عمومها . وإنها تدعو المؤمنين فى كل زمان
ومكان، إلى التدرع بالصبر والثبات تأسياً بمن سبقهم من المتقين، حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره .

الصبر في القرآن :

حث القرآن الكريم على الصبر في أكثر من سبعين موضعاً، وبين أن الله خلق الإنسان للاختبار والابتلاء والامتحان، فمن صبر وثبت نجح في الاختبار ، ومن هلع وسخط رسب في الاختبار.

ومن الآيات التي تؤيد هذا المعنى في القرآن الكريم قوله سبحانه : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . (آل عمران : ١٤٢) ، وهذه نزلت في غزو أحد لا محالة.

وقال تعالى : أَلَمْ يَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُقْرَأُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (العنكبوت : ٢٠١)

وروي البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ولا تعب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة » (١٥٥) .

معنى الجملة : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ : بل اطلنتم انكم بمجرّد إيمانكم تدخلون الجنة دون أن تتعرضوا للمشقة والابتلاء، كما تعرض المؤمنون الاتقياء من الأمم السابقة.

مُسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَصْرُ اللَّهِ ...

أي أصابهم الشدائد والأهوال، وتعرضوا لفظائع الحروب الظاهرة والخفية، واهتز كياناتهم اهتزازاً عنيفاً، حتى كاد اليأس يسيطر على نفوسهم، وحتى تطلع الرسول والمؤمنون معه من هول ما قاسوه إلى الله، استعجلاً لنصره، فهم لا يشكون في تحقيق وعده، ولكنهم يتعجلون حدوثه.

قال الزمخشري : وقوله: وَزُلْزِلُوا. أي أزعجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة، بما أصابهم من الأهوال والأقراغ. حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ : أي الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها. مَتَى نَصْرُ اللَّهِ . أي بلغ بهم الضجر، ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب النصر وتمنيه، واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليل على تنامي الأمر في الشدة وتماديهِ في العظم، لأن الرسل لا يتأدر قنر ثباتهم، واصطليارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمع وراءها (١٥٦).

والرسول هنا : للجنس لأن كل رسول جاهد في سبيل الله هو والمؤمنون به وتعرضوا للشدائد والأهوال، فلجأوا إلى الله - تعالى - يطلبون نصره.

« وقيل الرسول هنا : شعيا . وقيل أشعيا . وقيل : اليسع وعلى التبيين يكون المراد من الذين خلوا قوماً بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل » (١٥٧).

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

إنه مدخر لمن يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، الذين يثبتون على البأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة.

وفى هذه الجملة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب، منها إظهار الجملة الاسمية على الجملة الفعلية، فلم يقل مثلاً ستصبرون وتصبر الجملة بأداة الاستفتاح، ووقع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شيء.

وبذلك نرى أن الآيات من قوله تعالى: ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا .. إلى هنا، قد بينت لنا أقسام الناس في هذه الحياة ودعت المؤمنين إلى أن يتسكوا بجميع تعاليم الإسلام، وأن يزهدوا في زينة الحياة التي شغلت المشركين عن كل شيء سواها، وأن يشكروا الله على هدايته لهم إلى الحق الذي اختلف فيه غيرهم، وأن يوطنوا النفس على تحمل الآلام لكي يحقق الله لهم الآمال.

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن مما يعينهم على دفع الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم في طاعة الله، وأن يعدوا أنفسهم للقتال في سبيله.

★ ★ ★

تنظيم الصدقات

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِمْ عَلِيمٌ﴾ (٢١٥)

المضرات :

المساكين : هم من لا يجدون كفايتهم ولو مع العمل قال تعالى : أُمَّا السُّفِيَّةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ . (الكهف : ٧٩) .

ابن السبيل : الغريب المنقطع عن وطنه ولا مال معه، ويمكن إطلاقه على اللاجئ أو المهاجر، ولا مال يقيه.

المعنى الإجمالي :

يسألك المؤمنون في شأن الإنفاق، فقل لهم : إن الإنفاق يكون من المال الطيب، ويعطى للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، ومن انقطع عن ماله وأهله، وما تعملوه من عمل خير فإن الله يعلمه وهو يثيبكم عليه.

التفسير :

٢١٥ - يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّذِينَ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ .

سبب النزول : قال الألوسي : عن ابن جريج قال : سأل المؤمنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أين يضعون أموالهم؟ فأنزل الله تعالى : **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ . الآية .**

وفي تفسير مقاتل : لما أمر الله بالصدقة قال عمرو بن الجموح الأنصاري : يا رسول الله ، كم تنفق؟ وعلى من تنفق؟ فأنزل الله هذه الآية .

المعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شيء ينفقونه من أصناف الأموال؟ قل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجعلوه للوالدين قبل غيرهما ، ليكون أداء لحق تربيتهماء ووفاء لبعض حقوقهما ، وللأقربين وفاء لحق القرابة والرحم ، ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم والمساكين لفقرهم واحتياجهم ، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده .

ولقد سارت هذه الآية مع نوازح الفطرة ، فالإنسان يحب أول ما يحب أفراد أسرته الأقربين ، عياله ووالديه ، فحثته على الإنفاق عليهم ليمسح الهمهم وليوثق روابط الأسرة ، التى شاء الله أن تكون اللبنة الأولى فى بناء الإنسانية .

ثم سار الإسلام بالمتفق خطوة أخرى وراء أهله الأقربين ، وحثه على الإنفاق على اليتامى الصغار الضعاف ، ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ، ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال ولكنهم انقطعوا عنه وحالت بينهم وبينه الحوائل .

والإسلام بهذا يقود النفوس إلى الخير والتطهر والزكاة ، ويهدف إلى إعطاء هؤلاء المحتاجين وكفالتهم ، ويقود نفوس المجتمع كله إلى التماسك والتعاطف .

والأكثرون على أن الآية فى صدقة التطوع ، وقيل فى الزكاة . واستدل بها من أباح صرفها للوالدين .

والأول أرجح لعموم كلمة « خير » وخصوص الزكاة ، وكونها مقدرة .

وَمَا تَقْلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

وهذا تنذيل قصد به الحض على فعل الخير فى جميع مجالاته ولجميع الأفراد المحتاجين له . لأن المؤمن عندما يشعر بأن الله يرى عمله ، ويجازيه عليه بما يستحق ، يشجعه ذلك على الاستمرار فى عمل الخير .

القتال

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
 وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ
 الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمُ
 حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ
 كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
 فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢١٧)

المفردات :

كتب عليكم القتال : فرض عليكم قتال الكفار .

كره : بمعنى مكروه كخبز بمعنى مخبوز، أى مكروه طبعاً لمشقته .

الشهر الحرام : أحد الأشهر التى حُرِّم فيها القتال وهى : رجب ، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

الفتنة : المراد منها تعذيب المسلمين وإخراجهم من ديارهم وصددهم عن المسجد الحرام، وعن دين الله تعالى.

حبطت أعمالهم : بطلت وفسدت.

المعنى الإجمالى :

فإذا كان الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع فى داخله، فإن القتال حماية له من أعدائه فى الخارج؛ ولذلك فرض عليكم - أيها المسلمون - القتال لحماية دينكم، والدفاع عن أنفسكم، وإن نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرهًا شديدًا، ولكن ربما كرهتم ما فيه خيركم وأحببت ما فيه شركم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون، فاستجبوا لما فرض عليكم.

وقد كرهه المسلمون القتال فى الشهر الحرام فسألوك عنه، فقل لهم : نعم إن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير، ولكن أكبر منه ما حدث من أعدائكم من صد عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكة، وقد كان إذاؤهم للمسلمين لإخراجهم من دينهم أكبر من كل قتل، ولذلك أبيع القتال فى الشهر الحرام، فضع هذه الشرور فهو عمل كبير يلقى به ما هو أكبر منه، واعلموا - أيها المسلمون - أن سبيل هؤلاء معكم سبيل

التجنى والظلم، وأنهم لا يقبلون منكم العدل والمنطق، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يضعف أمام هجماتهم، ويرتد عن دينه حتى يموت على الكفر، فأولئك بطلت أعمالهم الصالحة في الدنيا والآخرة، وأولئك، أهل النار هم فيها خالدون.

التفسير :

٢١٦ - كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ...

فرض على المسلمين الجهاد وهو مكروه لهم، وتلك الكراهة أمر جبلي لما فيه من القتل والأسر وإتعايب البدن، وتلف المال ومنازقة الأهل والوطن، والحيلولة بين المقاتل وبين طمأنينته ونومه وطعامه، فهو مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد ومشقات تتلوها مشقات.

والإسلام يحسب حساب الفطرة، فلا ينكر مشقة هذه الفريضة ولا يهون من أمرها، ولكنه يعالج الأمر من جانب آخر بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولكن وراءه حكمة تهون مشقته، وتسهل صعوبته، وتحقق به خيراً مخبوءاً قد لا يراه النظر الإنساني القصير.

إن الإنسان لا يدري أين يكون الخير؟ وأين يكون الشر؟ لقد خرج المسلمون يوم بدر يطلبون غير قريش وتجارتها، وأراد الله أن تقع معركة حاسمة تدوى في الجزيرة العربية، وترفع راية الإسلام.

وكل إنسان في تجاربه الخاصة يستطيع حين يتأمل، أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العظيم، ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم.

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ .

وعسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة، وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات منكم مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تغلبون ويذهب أمركم.

قال الفخر الرازي : : معنى الآية : أنه ربما كان الشيء شاقاً عليكم في الحال، وهو سبب للمنافع الجلية في المستقبل، ولأجله حسن شرب الدواء المر في الحال لتوقع حصول الصحة في المستقبل. وترك الجهاد، وإن كان يفيده - أي بحسب ظنكم - في الحال صون النفس عن خطر القتل، وصون المال عن الإنفاق، ولكن فيه أنواع من المضار منها : أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم.. والحاصل أن القتال في سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء في الدنيا، وسبب لحصول الثواب العظيم للمجاهد في الآخرة.. (١٥٨).

وانشد أبو سعيد الضيرير :

جرأمرًا ترتضيـه

رب أمر ترتضيـه

ويدا المكروه فيـه

خفى المحبوب منه

وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون ذلك. فبادروا إلى ما يأمركم ففيه الخير دائماً.

والمقصود من هذه الجملة الحث على الجهاد، وامتنال أوامر الله سواء عرفت حكمته أم لم تعرف، لأن العليم بالحكم والمصالح هو رب العالمين.

★ ★ ★

٢١٧ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .

سبب النزول :

أخرج الطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى سننه، وابن جرير وابن أبى حاتم، ومقاتل بن سليمان وغيرهم من المفسرين ومن أصحاب السير فى سبب نزول هذه الآية قصة ملخصها ما يأتى :

بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً كلهم من المهاجرين وأعطاه كتاباً مختوماً، وأمره أن يتوجه قبل مكة، ولا يقرأ الكتاب حتى يسير ليلتين، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به، ولا يستكره أحداً من أصحابه، فسار عبد الله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل ببغلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد بها عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم ».

فقال عبد الله : سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، فأما أنا فتهاض، فتهضوا جميعاً وساروا نحو نخلة فمرت بهم عير لقريش فى طريقها نحو مكة فترددوا وهابوا الإقدام عليهم فى الشهر الحرام، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم فرمى وأقعد بن عبد الله ، عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا اثنين من المشركين، وأخذوا غيرهم، وعادوا إلى المدينة، فلما قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، فأنوقت الرسول الأسيرين والعير، فلم يأخذ منها شيئاً، فلما قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال ، سقط ما فى أيديهم، وظنوا أن قد هلكوا، وعنفهم إخوانهم من المسلمين.

وقالت قريش حين بلغهم أمر هؤلاء - قد سفك محمد الدم الحرام، وأخذ المال وأسر الرجال، واستحل الشهر الحرام. فنزلت هذه الآية.

واختلفت فى وقت حدوث ذلك، فبعض الروايات تقول : إن ذلك كان فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وهو حلال ولم يكن المسلمون قد شاهدوا هلال رجب.

وبعضها تقول : إنه كان فى آخر يوم من رجب. ولعل ذلك أرجح فإن الآية تؤيده، إذ فيها أنهم سألوا عن حكم القتال فى الشهر الحرام.

كذلك قرر الجواب ذلك ولكنه عذرهم، إذ بين أنه وإن كان القتال فيه عظيم الوزر، ولكن وزر المشركين أكبر من المسلمين ؛ لأنهم صدوا المسلمين عن المسجد الحرام وقتلهم، وأخرجهم من ديارهم بغير حق.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .

يسألك يا محمد عن حكم القتال في الشهر الحرام، قل لهم : القتال فيه أمر كبير مستنكر، وذنب عظيم مستقب، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس، وانتهاكاً لمحارم الله.

والسائلون، قيل هم المؤمنون، وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعلم والتماس المخرج لما حصل منهم. وقيل هم المشركون، وسؤالهم على سبيل التمييز للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه.

فالجواب تشريع إذا كان السؤال من المسلمين، وتبكي وتوبيخ إن كان من المشركين.

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها هي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وسميت بذلك لحرمة القتال فيها، قال في الشهر للجنس، وقيل للعهد؛ والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة عبد الله بن جحش وأصحابه.

قُلْ قَاتِلْ فِيهِ كَبِيرٌ : أي القتال فيه عظيم الوزر كبير الإثم.

وقد أثبت هذا الجواب حرمة القتال في الشهر الحرام، وأن ما اعتقده أهل الشرك من استحلال الرسول فيه باطل.

أما ما وقع من عبد الله بن جحش وأصحابه، فقد كان اجتهاذاً منهم، فقد رأوا أن قتال المشركين فيه حلال، لأنهم أخرجوهم من ديارهم، وصدوهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام وعذبوهم وهم بمكة. ومن اجتهد وأخطأ فله أجر، فكيف بمن اجتهد وأصاب، حيث أقر الله اجتهاده وعذره؟

وأعادة لفظ القتال، للاهتمام بأمر الحكم فيه. وتذكيره، للإيذان بأن أي قتال فيه مذموم وإن قل، وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى : **وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ** . (البقرة : ١٩١) وقوله : **وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ** . (النساء : ٨٩) فالقتال في الشهر الحرام نسخت حرمة بما ذكر.

وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ...

المعنى : وإذا كان القتال في الشهر الحرام إثماً كبيراً، فإن الصد عن دين الله، والكفر به، والصد عن زيارة المسجد الحرام بمكة للعمرة وإخراج أهله المسلمين منه - مجردين من أموالهم - كل هذا - أكبر جريمة وأبشع إثماً عند الله - سببانه - من القتال في الشهر الحرام.

وقد فعل المشركون هذا كله.

فقد قاوموا الدعوة الإسلامية، وعبدوا الأوثان، ومنعوا المسلمين من أداء شعائر العبادة بالمسجد الحرام، وعذبوهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بمكة.

فأي إثم أكبر من هذا ؟

ثم عطف على الحكم الجزئي السابق، حكمًا كليًا : يتناول ما تقدم، كما يتناول ما يماثل مستقبلًا، فقال - تعالى :

وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

أى ما يفتن به المسلمون ويعذبون به، أكبر إثمًا عند الله من القتل. وقد بالغ المشركون فى إيقاع الأذى بالمسلمين، لصرفهم عن دينهم، فقد عذبوا ياسرًا والد عمار؛ كانوا يكونونه بالنار ليرتد عن الإسلام حتى مات فى العذاب، وعذب أبو جهل، سُمية أم عمار زوجة ياسر تعذيبًا شديدًا، ثم طعنها بين فخذيها بحرية طعنة قضت عليها.

وأودى عمار بن ياسر فى الله ، حتى حملوه على كلمة الكفر فقالها تقية، وغفرها الله له.

وكان أُمية بن خلف يعذب بلالًا، فيجيعه ويعطشه ويمطره فى الرمضاء ويضع على صدره الصخر، ويكويه بالنار، ليرتد عن الإسلام.

وغيرهم كثير، ولم يسلم النبي - صلى الله عليه وسلم - من إيذاء قومه، وأخيرًا تأمروا على قتله للقضاء على رسالته السماوية، فتجاه الله بالهجرة إلى المدينة.

ومن هنا، كانت الفتنة أكبر من القتل، لأنها قتل بطنى: مصعوب بالتعذيب والتكيل.

وقيل المراد بالفتنة الشرك والكفر.

وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُوكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا.

أى هم لم يكتفوا بالصد عن سبيل الله والكفر به ولم يقتنعوا بتعذيبكم، وإخراجكم من دياركم، بل لايزالون يفتنونكم، بشن الحروب عليكم لإبادتكم، أو صرفكم عن دينكم القويم إن استطاعوا، وسيظل شأنهم مع المسلمين مستقبلًا كذلك.

ولاشك أن مقابلة العدوان بمثله أمر مشروع.

والتعبير بعرف الشرط (إن) لاستبعاد استطاعتهم صرفهم عن دينهم.

ثم حذرهم فقال :

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قُتِلَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أى من يستجيب منكم لأولئك المشركين، فيرجع عن دينه إلى دينهم، قيمته وهو كافر: بطل كل عمل صالح قديمه، وخسر الدنيا والآخرة.

وفى هذا، إنذار شديد، لمن تحدته نفسه - من ضعفاء الإيمان - بالارتداد.

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أى وأولئك المرتدون عن دينهم أهل النار، هم فيها خالدون إذا ماتوا وهم كافرون، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة.

أما من ارتد عن دينه، ولم يمت وهو كافر، بل تاب عن رده وكفره، فالله يقبل توبته بفضله.
واستدل الإمام الشافعى بالآية: على أن الردة لا تحبط الأعمال، حتى يموت صاحبها عليها.

★ ★ ★

ثواب الجهاد

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢١٨)

المفردات :

الهجرة : الانتقال من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إثارةً للثاني والهجر ضد الوصل، والاسم الهجرة.
جاهدوا : جاهد مفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود. والجهاد بالفتح : الأرض الصلبة.

المعنى الإجمالى :

إن الذين آمنوا إيماناً صادقاً دفعهم إلى الهجرة لنصرة الدين والجهاد لإعلان كلمته فأولئك ينتظرون عظيم ثواب الله لهم، وإن قصرُوا فى شيء، لأن الله غفور يغفر الذنوب، رحيم يرحم عباده بالهداية والثواب.

التفسير :

٢١٨ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واستقاموا على طريق الحق، وأذعنوا لحكمة واستجابوا لأوامر الله ونواهيه.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا : أى تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرة دينهم : وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . لإعلاء كلمته أُولَٰئِكَ . الموصوفون بتلك الصفات الثلاث : يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ . أى يؤملون تملق رحمته - تعالى - بهم أو ثوابه على أعمالهم : وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أى واسع المغفرة للتائبين المستغفرين عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين.

قال القرطبي :

إنما قال يرجون رحمة الله، وقد مدحهم، لأنه لا يعلم أحد فى هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ فى طاعة الله كل مبلغ لأمرين :

أحدهما : أنه لا يدري بم يختم له ؟.

والثاني : ثلثا يتكل على عمله.

سبب النزول :

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان وغيره من المفسرين أن الآية السابقة لما نزلت : اطمأن عبد الله بن جحش ومن معه إلى أنهم لم يرتكبوا إثماً في قتال المشركين في الشهر الحرام. ثم قال عبد الله بن جحش ومن معه : يا رسول الله، أنطمع أن يكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين. فانزل الله هذه الآية: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** . الذين آمنوا، وهاجروا إلى المدينة، وجاهدوا المشركين في سبيل الله ، أولئك يرجون رحمة الله يعني جنة الله.

فكانت هذه أول سرية، وأول غنيمة، وأول خمس، وأول قتيل وأول أسير كان في الإسلام (١٥٨).

★ ★ ★

الخمير والميسر

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

المفردات :

الخمير : ما أسكر من عصير العنب، ثم أصبح اسماً لكل ما أسكر، وسميت خمرا لأنها تستر العقل وتغطيه، من خمر الشيء إذا ستره غطاء.

الميسر : القمار من اليسر وهو السهولة، لأنه كسب بلا مشقة ولاكد.

الإثم : الذنب أو الشر أو الضرر.

العفو : الفضل والزيادة على الحاجة.

العنت : المشقة وما يصعب احتماله. يقال عنت العظم عنتاً إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر.

تمهيد :

جاء الإسلام رحمة مهداة، ورسالة عامة للناس أجمعين.

وحين قرر الإسلام ما يتصل بجانب العقيدة فإنه كان حازماً من أول لحظة فأعلن الوحدانية الخالصة لله، وقال سبحانه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (سورة الإخلاص).

وإذا عالج الإسلام أوضاعاً اجتماعية تدخل في عادات الناس وما تعودوا عليه فإنه يلجأ إلى الحكمة، والتدرج في التشريع، ومن ذلك تحريم الخمر، فقد جاء الإسلام والخمر منتشرة بين العرب، يشربونها عند الحرب لتمتعهم الشجاعة، ويشربونها في السلم لأنها تولد خيالات سارة، وتوهم الفقير بأنه غني، وتوهم الصعلوك بأنه أحد الملوك، على حد قول القائل:

فإذا سكرت فلإننى رب الخورنق والسدير
وإذا صحبوت فلإننى رب الشويهة والبعير

وللخمر مع ذلك آثار ضارة، منها آثار صحية وآثار اجتماعية، فهي تضر بالصحة وتذهب المال وتقتال العقل، وتجعل المخمور آلة للسخرية بين الناس.

وقد أحس كثير من العقلاء بضررها وامتنعوا عن تناولها زهداً في آثارها السيئة .

ولتمكن الخمر نفوس العرب، لم يحرمها الله مرة واحدة، بل حرمها بالتدريج.

هكذا أن لها منافع ومضاراً، ولكن ضررها أكثر من نفعها، وكان هذا لتحريك العقول نحو تركها، فما كثر ضرره وجب تركه. ثم حرم الله الخمر عند الصلاة، وبذلك ضيق أوقات السكر وحدها، ثم حرم الله الخمر تحريماً قاطعاً، وأمر بإجتنابها، وأكد النبي - صلى الله عليه وسلم - تحريمها، فأعلن ذلك بين المسلمين، فأراقوا الخمر في شوارع المدينة، امتثالاً لأمر الله، وهذا العمل يعبر عن صدق المؤمنين وامتثالهم لأمر الله واتباعهم لمرضاته.

روى الإمام أحمد عن عمر، أنه قال : « لما نزل تحريم الخمر قال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية التي في البقرة : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ . فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً^(١٦٠) ، فنزلت الآية التي في النساء : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى . (النساء : ٤٣)

فكان منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقرئين الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائدة : إِنَّمَا الْخَمْرُ

وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدة : ٩٠ - ٩١).

فقال عمر : انتهينا انتهينا، إنها تذهب المال وتذهب العقل (١٦١).

التفسير :

٢١٩ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ...

أي يسألونك عن حكم تناول الخمر ، أحلال أم حرام، ومثل هذا بيعها وشراؤها ونحو ذلك مما يدخل في التصرفات التي تخالف الشرع وعن حكم استعمال الميسر وفعله.

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ...

أي قل لهم : إن في تعاطي الخمر والميسر إثماً لأن فيهما أضراراً كثيرة ومقاسد عظيمة، وفيهما منافع للناس، وضررهما أكبر من نفعهما.

أما ضرر الخمر - من أي نوع اتخذت - فقد أثبتته الطب بما لا يدع مجالاً للشك فيه، فإن شرب الخمر يؤدي إلى التهاب الكبد وضعف المعدة، وضعف مقاومة الجسم للأمراض، وقد ثبت من بحوث عديدة بالمستشفيات العامة أن نسبة الوفيات - بين المدمنين ترتفع إلى خمسين في المائة، على حين لا تتجاوز نسبتها في غير المدمنين أربعمائة وعشرين في المائة (١٦٢).

وتأثيرها في العقول ملموس ، فقد تمت تجارب عديدة ثبت منها أن الغول (الكحول) المتولد في الخمر سبب مباشر لخمس الإصابات في مستشفى الأمراض العقلية (١٦٣).

معاني الخمر :

١ - الخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة ، وكل شيء غطي شيئاً فقد خمره، ومنه ه خمرؤا آتيتكم، فالخمر خمر العقل أي تغطيه وتستره.

٢ - سميت الخمر خمرًا لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر المعجين أي بلغ إدراكه، وخمر الرأي أي ترك حتى يتبين فيه الوجه.

٣ - سميت الخمر خمرًا لأنها تخلط العقل من المخامرة وهي المخالطة، ومنه قولهم دخلت في خمار الناس أي اختلطت بهم.

والمعاني الثلاثة متقاربة، فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت، ثم خالطت العقل، ثم خمرته، والأصل الستر (١٦٤).

الخمر والنبيذ :

أجمع جمهور العلماء على أن كلمة خمر تشمل كل شرب مسكر، سواء كان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك، وكلها سواء في التحريم. قل المشروب منها أم كثر، سكر شارب أو لم يسكر، ومن أدلتهم ما رواه الإمام مسلم عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يذمها لم يتب منها، لم يشربها في الآخرة » (١٦٥).

ومن أدلتهم أيضاً أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة خمر، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره، فكل ما خامر العقل من الأشرية وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره.

وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: « إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط، أما المسكر من غيره كالشراب المتخذ من التمر أو الشعير فلا يسمى خمراً بل يسمى نبيذاً ، وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره وإنما هو الخمر من العنب.

أما الأبيذة فكثيرها حرام وقليلها حلال، وإذا سكر منها أحد دون أن يعتمد الوصول إلى حد السكر فلا حد عليه.

ورأى الحنفية ومن وافقهم رأى ضعيف يرده النظر والخبر » (١٦٦).

قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطل ولا أزمة فلا يلتفت إليها، والصحيح ما روى الأئمة أن أنساً قال : حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا قليل، وعامة خمرها البسر والتمر. أخرجه البخاري؛ واتفق الأئمة على رواية « أن الصعابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ فكسروا دنانهم - أي أوانى الخمر - وبادروا إلى الامتنال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر، أي وأقرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك » (١٦٧).

وقال الألويسي : « وعندي أن الحق الذي لا يتبغى المدول عنه أن الشراب المتخذ مما عدا العنب، كيف كان وبأى اسم سمى، متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده حرام، وقليله ككثيره: ويعد شارب به ويقع طلاقه ونجاسته غليظة. وفي الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : « كل شراب أسكر فهو حرام » (١٦٨). وروى أبو داود : نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل مسكر ومفتّر - وصح « ما أسكر كثيره فقليله حرام ». والأحاديث متضافرة على ذلك : ولعمري إن اجتماع الفسق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا « الخمر » ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب « الخمر » ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما فلنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة، وتبيح شربها للأمة - وهيئات هيات - فالأمر وراء ما يظنون ، وإننا لله وإننا إليه راجعون » (١٦٩).

دعوى باطلة :

ادعى بعض المعاصرين أن القرآن لم ينص صراحة على تحريم الخمر، بل قال « فاجتنبوه ». وهو في نظرهم حث على الاجتناب وليس أمراً قاطعاً يدل على تحريم الخمر.

ونقول لهؤلاء : إن الله - عز وجل - حرم الخمر تحريمًا قاطعًا.

فذكر القرآن أنها رجس من عمل الشيطان ، وأمر باجتنابها ، ونهانا عن الاقتراب منها باستفهام تفریمی يدل على غاية التهديد فقال سبحانه : **فَهَلْ أُنْتُمْ مُتَهِنُونَ ؟**

وعندما سمع الصحابة الآيتين ٩٠ ، ٩١ من سورة المائدة قالوا : انتهينا ، وأريقنا الخمر في شوارع المدينة.

وقد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بروايات متعددة وأسانيد مختلفة تثبت حرمة الخمر وضررها.

قال - صلى الله عليه وسلم - : **« لعن الله الخمر وشاريها وساقيتها وبائعيها ومبتاعها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه »** (١٧٠).

« والأحاديث في تحريم الخمر أكثر من أن تحصى حتى قال العلماء : ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - تحريم الخمر بأخبار تبلغ بمجموعها رتبة التواتر، وأجمعت الأمة من لدن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى يومنا هذا على تحريمها ؛ وبذلك استقرت الحرمة حكمًا للخمر في الإسلام وصارت حرمتها من المعلوم من الدين بالضرورة ، ومن لوازم ذلك أن من استحلها وأنكر حرمتها، يكون خارجًا عن الإسلام، وأن من يتناولها طائفًا مختارًا يكون فاسقًا عن أمر الله خارجًا على حدوده عاصيًا لأحكامه » (١٧١).

حكم الخمر :

من أحكام الإسلام في الخمر ما يأتي :

حرمة تناولها، حرمة الانتفاع بذاتها، حرمة إهدائها، حرمة بيعها والانتفاع بمثلها، إهدار قيمتها، وجوب العقوبة عليها، إثبات مضارها الصحية والعقلية والمالية والنفسية.

الخمر أم الخيائث :

الخمر مفتاح كل شر، فالإنسان إذا سكر هذى، إذا هذى افتقرى وتجراً على المنكر القبيح « ثم إن الشارب يصير ضحكة للعقلاء فيلعب ببوله وعذرتة، وربما يمسح بهما وجهه، حتى رؤى بعضهم يمسح وجهه ببوله ويقول اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » (١٧٢).

بل إن الخمر دليـل إلى الزنا، ومن القولة المشهورة لأحد الفضلاء أيـشرب هذا نساؤكم؟ قالوا : نعم . قال : زنين ورُب الكعبة.

« و الخمر والميسر يجران إلى الإثم والمخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور وتعطيل الصلوات والتعوق عن ذكر الله ».

« روى النسائي عن عثمان - رضى الله عنه - قال : اجتنبوا الخمر فإنها أم الخيائث؛ إنه كان رجل ممن كان قبلكم تعبد فخلعته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريته ، فقالت له: إنا نعدوك للشهادة، فانطلق مع جارتيتها،

فطفت كلما دخل بابا أغلقتة دونه؛ حتى أفضى إلى امرأة وضئته عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لنقع على، أو تشرب من هذه الخمر كاساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فاسقين من هذه الخمر كاساً، فسقته، قال: زيدوني، فلم يبرح حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه (١٧٣).

« وروى أن الأعشى لما توجه إلى المدينة ليسلم لقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: لا تصل إليه فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إن خدمة الرب واجبة؛ فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف واجب، فقيل له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبح في العقل، وقد صرت شيخاً فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر. فقال: أما هذا فأبى لا أصبر عليه. فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات (١٧٤).

« وكان قيس بن عاصم المنقري شرايلاً لها في الجاهلية ثم حرّمها على نفسه وكان سبب ذلك أنه غمز عكة (١٧٥) ابنته وهو سكران، وسب أبويه، ورأى القمر فتكلم بشيء، وأعطى الخمار كثيراً من ماله فلما افق أخبر بذلك فحرّمها على نفسه، وفيها يقول:

رأيت الخمر صالحة وفيها	خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحا	ولا أشقى بها أبدا سقيما
ولا أعطى بها ثمناً حياتي	ولا أدمو لها أبدا نديما
فإن الخمر تنضح شاربها	وتجنبهم بها الأمر العظيما

★ ★ ★

ويقول أبو الطيب المتنبي:

وغير فؤادي للغواني رمية	وغير بنائي للزجاج ركاب
وللسر منى موضع لا يناله	صديق ولا يطغى إليه شراب
ولللخود منى ساعة ثم بيننا	فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا عزة وطماعة	يعرض قلب نفسه فيصاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة	فليس لنا إلا بهن لعاب

الميسر:

الميسر هو القمار بكسر القاف وهو في الأصل مصدر ميمي من يَسِرُ كالموعد من عد، وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة، لأن المال يجئ للكاسب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ ثم أصبح علماً على ما يتقارن عليه كالجزور ونحوه.

وقال القرطبي: «الميسر قمار العرب بالأزلام. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله فأيهما قمر صاحبه ذهب بماله وأهله فنزلت الآية» (١٧٦).

وصفة الميسر الذى كانت تستعمله العرب، أنه كانت لهم عشرة أقداح تسمى الأزام والأفلام أيضاً (واحدها قِدَح وزلم وقلم وهى قطع من الخشب) وأسمائها الفذ والتؤم والرقيب والجلس والنافس والمسبل والمعلّى والمنبح والسفع والرغد، لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها إما عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءاً ولا شيء للثلاثة الأخيرة.

فكانوا يعطون للفذ سهماً، وللتؤم سهمين، وللرقيب ثلاثة، وللجلس أربعة، وللنافس خمسة، والمسبل ستة، وللمعلّى سبعة، ومن ثم يضرب به المثل فيقال لذى الحظ الكبير من كل شيء (هو صاحب القدح المعلّى).

ومجموع هذه الأنصبة ٢٨ سهماً كالآتى :

$$٢٨ = ٧+٦+٥+٤+٣+٢+١$$

وكانوا يجعلون هذه الأزام فى الرعاية وهى الخريطة توضع على يد عدل يجعلها، ويدخل يده فيها ويخرج منها واحدا باسم رجل ثم لاحداً باسم رجل آخر وهكذا، فمن خرج له قدح من ثوات الأنصبة أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئاً وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصبة إلى الفقراء ولا يأكلون منها شيئاً، ويذمون من لم يدخل فيه ويسمونه البُرم (الوغد: الثيم عديم المروعة).

واتفق العلماء على أن كل ذلك حرام كالقمار على التردد والشطرنج وغيرهما إلا ما أباح الشرع من الرهان فى السباق والرماية ترغيباً فيهما للاستعداد للجهاد.

مضار الميسر :

« ومن مضرات الميسر إفساد التربية بتعويد النفس على الكسل وانتظار الرزق من الطرق الوهمية، وإضعاف القوى العقلية بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية، وإهمال المقامرين للزراعة والصناعة والتجارة التى هى أركان العمران، ومن أشهر مضرات القمار تخريب البيوت فجأة بالانتقال من الفنى إلى الفقر فى ساعة واحدة، فكم من عشيرة كبيرة نشأت فى الفنى والمز وانحصرت ثروتها فى رجل أضعافها عليها فى ليلة واحدة، فاصبحت غنية وأمست فقيرة لا قدرة لها على أن تعيش على ما تعودت عليه من السعة. ويشترك الميسر مع الخمر فى أن متعاطيها قلما يقدر على تركهما والسلامة من أثرهما، فللخمر تأثير فى الأعصاب يدعو صاحبه إلى العودة إليها، وأما الميسر فإن صاحبه كلما ربح طمع فى المزيد، وكلما خسر طمع فى تعويض الخسارة، ويضعف الإدراك حتى تعز مقاومة هذا الطمع الوهمى وهذا شر فى هاتين الجريمةين » (١٧٧).

إن من رحمة الله بهذه الأمة وإكرامه لها، أنه لم يترك شيئاً من أسباب الاضمحلال والفساد إلا حذرنا منه، وبين لها مضرتها وسوء عاقبتها، كما أنه - سبحانه - تدرج فى التشريع الإلهى وسلك سبيل اليسر والهداية إلى النفوس، رحمة منه بعباده، وتخفيفاً عنهم ، قال تعالى :

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا.

(النساء: ٢٦-٢٨).

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .

المعنى ويسألك ما الذي تنصdqون به من أموالهم فى وجوه البر، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم، وسهل عليكم إخراجة، ولا يشق عليكم بذله.

المراد العفو، ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة، إذ هذا القدر هو الذى يتيسر إخراجة، ويسهل بذله ولا يتضرر صاحبه بالتبرع به.

وهذا الجزء من الآية مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً، فهو فى الإنفاق فيما يحل، وما قبله فى الإنفاق فيما يحرم، وهو معطوف على : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ . عطف القصة على القصة.

وفى نصوص الدين ما يحث على التعاون والتراحم ، وما يوجه إلى المنهاج الوسط فى الإسلام، فليس من الخير أن ينفق الإنسان ماله كله ثم يبقى عائلة يسأل الناس، وليس من الحكمة أن يمسك الإنسان ماله ويخجل به على كل خير أو بر. ومن سماحة الإسلام أنه حث على الصدقة ورغب فى أن تكون من فائض مال الإنسان وفيما زاد عن حاجته وحاجة عياله وفيما استغنى عنه حتى تخرج الصدقة من يده سهلة سمحة، لا تتطلع نفسه إليها ولا تطمع فيها.

أخرج الشيخان وغيرهما، عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى : وأبدأ بمن تعول » (١٧٨).

وفى صحيح مسلم عن جابر « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لرجل: ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلهذى قرباتك، فإن فضل عن ذى قرباتك شيء فهكذا وهكذا » (١٧٩).

★ ★ ★

ويقول الإمام محمد عبده « إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل ماله فى مصالحها الهامة كإعداد القوة وتربية الناشئة.. تكون أعز وأقوى من أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئاً فى مثل ذلك، لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة إذ هو يعتبر نفسه جزءاً منها وهى كل له، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر.. وفى الحقيقة، إن مثل هذا الجمع لا يسمى أمة، لأن كل واحد من أفرادها يعيش وحده وإن كان فى جانبه أهل الأرض، فهو لا يتصل بمن معه ليمدهم ويستمد منهم .. » (١٨٠).

ثم ختم سبحانه الآية بقوله .

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

٢٢٠ - فى الدنيا والآخرة ...

أى مثل هذا البيان الواضح فى الخمر والميسر والإنفاق: يبين الله لكم آيات الأحكام وغيرها، لكى تتفكروا وتتدبروا فى شئون الدنيا والآخرة، فتأخذوا بما هو أصالح لكم من شئونهما وتجتمع لكم مصالح الروح والجسد

وتكونوا أمة وسطا، لا كمن ظنوا أن الآخرة لا تنال إلا بترك الدنيا وإهمال منافعها فخسروها وخسروا الآخرة. إذ الدنيا مزرعة الآخرة، ولا كالذين انصرفوا إلى اللذات، ففسدت أخلاقهم، وأظلمت أرواحهم. وصاروا كالبهائم وخسروا الآخرة والدنيا.

وهذه الآية وما مثلها ترشد إلى أن الإسلام هادٍ إلى سعة دائرة الفكر واستعمال العقل في مصالح الدارين معاً.

وقد حفل القرآن الكريم باستثارة العقل واللب، ودعوة الفكر إلى التدبر والتأمل والنظر والاعتبار. لأن الإسلام دين العقل والفطرة، ودين التأمل والنظر.

قال تعالى : **إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** . (آل عمران : ١٩٠).

★ ★ ★

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا عَنْهُمُ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ . . .

اليتم اسم يطلق على من فقد والده صغيراً ويظل الاسم يطلق عليه بعد بلوغه، وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمى يتيماً أبى طالب. واليتامى جمع يتيماً ذكراً كان أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكور فقط.

وقد عنى الإسلام بآمر اليتامى وأمر برعايتهم والعطف عليهم ومسح رءوسهم تعطفاً وتحنناً، وحذر من أكل أموال اليتامى ظلماً، وتوعد من يفعل ذلك بالنار والسعير، وقد ادعى بعض الأجانب أن القرآن لم يهتم بالصغير وهي دعوى باطلة. فقد عنى القرآن بالصغير وحسن تربيته وحثه على مكارم الأخلاق، وتوعده على الصلاة وحسن الخلق. وكان - صلى الله عليه وسلم - المثل الأعلى والقُدوة الحسنة للتربية المثالية.

كما عنى القرآن المكي والمدني بآمر اليتيم، فيقول - سبحانه - : **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ** . (الضحى : ٩).

وتحدثت الآيات ٢، ٩، ١٠ من سورة النساء عن اليتامى، وأمرت بالإحسان إليهم والمحافظة على أموالهم، وتدريبهم على بعض الأعمال حتى ينشأ اليتيم عارفاً بشئون الحياة، وعندما توعد القرآن أكل مال اليتيم بالنار والسعير تحرج المسلمون من مخالطتهم، فكان الأوصياء لا يخاطبون اليتامى، وعزلوا طعامهم وأموالهم، فأصابهم من ذلك حرج شديد ثم أذن الله للأوصياء بمخالطة اليتامى إذا كان القصد حسناً والرغبة في الإحسان إلى اليتيم متوافرة.

★ ★ ★

ونقل ابن كثير عند تفسير الآية ما يأتي : « روى ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت : **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** (الإسراء : ٣٤) .و. **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** وسيصلون سعيراً . (النساء : ١٠) .

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله : **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ** . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم ^(١٨١) . وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية، كمجاهد وعطاء والشعبي وقتادة.

فقوله : **قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ** . أى على حدة : **وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ** . أى وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم، لأنهم إخوانكم فى الدين، ولهذا قال : **وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** . أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح ، وقوله : **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَنَّكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ** . أى ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتي أحسن. قال تعالى : **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** . (النساء : ٢٤) بل جواز الأكل منه للفقير المعروف إما بشرط ضمان البذل لمن أيسر أو مجاًئاً ^(١٨٢) .

وقد راعى الإسلام المصلحة العامة، فأباح مخالطة الوصى لليتيم، إذا كان الوصى صادق النية فى مواساته وتعويضه عن أبيه ورعاية ماله وتثمييره.

كما أباح - سبحانه - للوصى أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف، أى بمقدار ما يبذل له من خدمات، أو بمقدار ما يؤجر به نفسه إذا كان محاسباً أو راعياً فيأخذ بمقدار تعبه من مال اليتيم، فإن كان الوصى غنياً أمسك يده وابتعد عن مال اليتيم .

قال تعالى : **وَاتَّبَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** . (النساء : ٦).

« ومدلول هذه الآية أنه يجب على وصى اليتيم أن يختبره بالتدريب العملى بعد النظرى، فيطلب منه أن يمسك حساب البيت أو يشتري لوازم الأسرة، فإذا بلغ الحلم وآتست فيه الرشده وحسن التصرف سلمت إليه ماله، وقد نهى القرآن عن تبديد مال اليتيم والإنفاق منه بالإسراف والتبذير قبل أن يكبر اليتيم ويسترد ماله» .

والوصى على اليتيم له أن يأخذ من مال اليتيم بمقدار ما يبذل له من رعاية وتثمين فإن كان الوصى غنياً فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم، وإن كان فقيراً أخذ ما يكفيه بالمعروف إذا كان الوصى يقوم برعاية المال كان يكون محاسباً أو وكيلاً أو راعياً أو ناظراً للزراعة فيبمقدار ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم ^(١٨٣) .

وفى ختام آية اليتامى يقول سبحانه :

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ.

أى لضيق عليكم بأن لم يجوز لكم مخالطتهم لترعوا مصالحهم دون مخالطة.

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

إن الله غالب على كل شيء لا يعجزه أمر إرادته، حكيم فى تشريع ما تقتضيه الحكمة وتتسع له الطاقة البشرية التى هى أساس التكليف.

قال تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦).

★ ★ ★

نظام الأسرة

تمهيد :

تتحدث الآيات : ٢٢١ - ٢٤٢ من سورة البقرة عن بعض أحكام آداب الزواج، والإيلاء والطلاق والعدة والنفقة والرضاعة والخطبة والمتعة، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها وبنائها على أفضل الدعائم وأحكم الروابط.

لقد حث الإسلام على الزواج باعتباره الوسيلة السليمة لإشباع الحاجة البيولوجية والرغبة الإنسانية فى الاجتماع والتكامل.

واعتبر الزواج آية من آيات الله، فيه المودة والرحمة والسكن والألفة، وأمر الرجل بحسن اختيار الزوجة، وبأن يكون الدين أساس هذا الاختيار، كما أمر ولى أمر الزوجة أن يختار لها التقى صاحب الخلق والأمانة.

وحث الزوجين على حسن العشرة والوفاء والاحتمال والصبر، وعدم التسرع فى الطلاق فعمل البغيض يصير حبيباً.

قال تعالى : وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا. (النساء : ١٩).

وحذر الإسلام من الطلاق واعتبره أبغض الحلال، لما يترتب عليه من تصدع الأسرة وضياح النشء، ورغم ذلك لم يوصد باب الطلاق تماماً، بل فتحه للحالات العسيرة التى لا أمل فى استمرار الزواج بينها، فالضرورات تبيح المحظورات ولكنها تقدر بقدرها.

وعند طلاق المرأة أوجب لها المتعة والنفقة والمكاملة والعفو والصفح استدامة للمودة بين الناس، وإبقاء على أسرة الخير والمعروف فى حالتى الزواج والطلاق. وذلك أسماً ما تتصف به البشرية، وأسماً ما يهتدى إليه الشعور الإنسانى، يهديننا إليه السميع البصير : فإنه عليم بخلقه حكيم فى كل ما يصدر عنه من أوامر وأحكام.

★ ★ ★

تحريم الزواج من المشركات

﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا مُمْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبَتْكُمْ
وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أَعْجَبَكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ
يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيَسِّرُ الْبَلَاءَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

المفردات :

تنكحوا المشركات : تتزوجوهن .

تنكحوا المشركين : تزوجوهم .

المشركين : المراد بهم هنا الكافرون مطلقا .

المشركات : المراد بهن الوثنيات ومن لا دين لهن .

ولأمة : الأمة، المرأة المملوكة .

سبب النزول :

ما روى الواحدى ^(١٨١) والسيوطى ، والقرطبى نقلًا عن مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت فى أبى مرثد الغنوى واسمه أيمى وفى عناق القرشية، وذلك أن أبى مرثد كان رجلاً صالحاً وكان المشركون قد أسروا أناساً بمكة، وكان أبو مرثد ينطلق إلى مكة مستغفياً فإذا كان الليل أخذ الطريق، وإذا كان النهار تعسف الجبال لثلا يراه أحد حتى يقدم مكة فيرصد المسلمين ليلاً فإذا أخرجهم المشركون للبراز تركوهم عند البراز والغائط، فينطلق أبو مرثد فيحمل الرجل منهم على عنقه حتى إذا أخرجهم من مكة كسر قيده بفهر ويلحقه بالمدينة، كان ذلك دأبه فانطلق يوماً حتى انتهى إلى مكة فلقبته عناق، وكان يصيب منها فى الجاهلية، فقالت: أبى مرثد مالك فى حاجة ؟ فقال لها : إن الإسلام قد حرم الزنا، فلما أيسست منه أنذرت به كفار مكة فضربوه ضرباً موجعاً ثم خلوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها، ثم قال : يا رسول الله ، أفتأذن لى فى تزوجها فإنها لتعجبنى فنزلت الآية .

التفسير :

٢٢١ - وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ . . .

أى لا تتزوجوا المشركات حتى يؤمن فتكاهن وهن مشركات حرام لا ينعقد، ويعتبر ملوّهن زنا .

وَلَا مُمْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا أَعْجَبَتْكُمْ .

ولأمة مؤمنة يتزوجها المسلم خير من مشركة حرة كانت أم أمة ولو أعجبكم بجمال أو مال أو حسب أو نسب.

وَلَا تُنْكَحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَدَّ الْمُؤْمِنُ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ...

« أى لا تزوجوا المسلمة من المشرك، وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يطأ المؤمنة بوجه لا فى ذلك من الغضاضة على الإسلام، والقراء على ضم التاء من تنكحوا » (١٨٥).

« والآية تحرم تزويج المؤمنات - سواء كن حرائر أم إماء - بكفار، على أى دين كانوا فلا يتعقد زواج المؤمنة من كاتى أو مشرك أو ملحد » (١٨٦).

قال تعالى: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حُلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ. (الممتحنة : ١٠).

لأن ولاية الأمر للرجل على المرأة ، فيخشى أن يفتتها فى دينها، أو يزيفها عن عقيدتها أو يفسد منها دون أن تصلح منه. ثم بين علة النهى عن مناكحة المشركين والمشركات فقال :

أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْبَيْتِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذِنِهِ .

أى أولئك المذكورين - من المشركين والمشركات - يدعون إلى الكفر المؤدى إلى النار فلا تصاهروهم حتى لا يفتنوكم ويفتتوا ذريتهم، والله يدعو بواسطة أوليائه من المؤمنين والمؤمنات إلى دواعى الجنة من الإيمان الخالص والعمل المشروع فكيف يلتقيان بالزواج؟.

وَيَبِّينَ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

أى ويوضح الأدلة على أحكام شريعته للناس فلا يذكر لهم حكماً إلا إذا بين لهم حكمته وأرشدهم إلى فائدته، والمسر فى تشريعه، لعلمهم بهذا يعتبرون ، فإن الأحكام إذا ذكرت بعلمها وأدلتها طبعاً فى النفوس وتقبلتها على الوجه المرضي، فصارت الأحكام طريقاً إلى الهداية والإقبال إلى الله وتهذيب الأرواح وتنقيتها من أدران الذنوب وأكدار المعاصي.

تعقيبات :

١ - المشرك فى لسان الشرع من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى- وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشيء بينك وبين غيرك شركة، فمن يعبد مع الله - إلهاً آخر يعد مشركاً وهو فى الآخرة من الخاسرين.

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة مشرك، ومشركين ومشركات فى القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان، وأنها صارت فى استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم ، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى، وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب، أو بوصف الكفر دون الشرك. وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين فى الآية عبدة الأوثان. وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومها المرأة الوثنية واليهودية، والنصرانية.

٢ - تنقيد الآية أنه لا يحل للمسلم أن يتزوج مشركة، ويباح له أن يتزوج كاتبة، كما يحرم زواج المسلمة من غير المسلمين. والحكمة أن الرجل ولي الأمر فجاز أن يتزوج الكاتبة لأنها تؤمن بالله واليوم الآخر، أما المرأة فيخشى على إيمانها وإسلامها أن تكون تحت رجل من أهل الكتاب.

٣ - ذهب الإمامية، وبعض الزيدية - إلى تحريم زواج المسلم من الوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ الشركات يشملهم جميعاً، وأصحاب هذا الرأي يجعلون آية المائدة: **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... (المائدة : ٥)**. منسوخة بالآية التي معنا نسخ الخاص بالعام.

٤ - الجمهور على أنه يباح للمسلم أن يتزوج مسيحية أو يهودية بمقتضى قوله تعالى : **وَمَا لَهُمْ أُولَئِكَ أَنْ يَدْعُوا إِلَى أَنْ يَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَئِنْ أُوتُوا لَيَكْفُرُنَّ بِهِمْ فَطَعْنَهُمْ مِنْ أَيْمَانِهِمْ فَاحْتَدَوْا بِهِمْ فَقَبُلْهُمْ وَكُفِّرْهُمْ كَيْفَ تُنَاصِحُونَ (البقرة : ٥٥)**.

وتلحظ أن الآية قيدت الإباحة بكون الكتابيات من المحصنات ، والمراد بهن في أظهر التفاسير العفيفات. فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرقات منه في أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرن ولا يتخيرن ، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرقات .

٥ - « إذا رأى ولي الأمر أن هناك خطراً على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامي من إباحة الزواج بالأجنبيات، فله أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدا للزريعة ومنعاً للشر وذلك من باب السياسة الشرعية لا من باب تحريم ما أحل الله؛ لأن الحل قائم على أصله والمنع وارد على الضرر الذي يلحق بالمسلمين.

» ولذلك سارت بعض الدول العربية على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات « (١٨٧).

٦ - الأصل في زواج الكتابيات أنه مباح، ويرى بعض العلماء أنه مكروه لأن الكتابيات قد دخل على عقيدتهن التحريف والتغيير ولأن الكاتبة لا تدين بالولاء للإسلام، ولما يخشى على الذرية منها.

٧ - ورد في تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير وغيرهم ما يفيد أن بعض الصعابة قد تزوج بكتابيات، فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين. وقد كره عمر بن الخطاب زواج المسلمين من الأجنبيات ، لئلا يزهّد الناس في المسلمات، ولغير ذلك من المعاني.

« قال شقيق : تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر : خل سبيلها، فكتب إليه، أنزع أنها حرام فأخلى سبيلها؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تعاطوا المومسات منه » وإسناده صحيح (١٨٨).

« وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب ، قال : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة » (١٨٩).

وروى الحسن عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « تتزوج نساء أهل الكتاب ، ولا يتزوجون نساءنا » (١٩٠).

٨ - كان ابن عمر يحرم زواج المسلم من النصرانية أو اليهودية لأنها مشركة تقول إن ربها عيسى. ولكن الجمهور على خلاف ذلك الرأي. قال القرطبي: وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية أو اليهودية قال: حرم الله الشركات على المؤمنين ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى. قال النحاس: وهذا قول خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة، لأنه قال بتحليل نكاح نساء أهل الكتاب من الصحابة جماعة، منهم عثمان وطلحة وابن عباس، ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جببر والحسن ومجاهد وفتحاء الأمصار عليه.

وأيضاً فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة للآية التي في سورة المائدة لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر ما نزل، وإنما الآخر ينسخ الأول أو يخصمه، وأما قول ابن عمر فلا حجة فيه لأن ابن عمر - رضي الله عنه - كان متوقفاً فلما سمع الآيتين في واحدة التحليل، وفي أخرى التحريم، ولم يبلغه النسخ توقف، ولم يؤخذ عنه ذكر النسخ وإنما تأول عليه وليس يؤخذ التامخ والنسخ بالتأويل (١٨١).

٩ - تابع القرطبي مسيرته مؤيداً لتحليل الزواج بالكتائب فقال: « وذكر ابن المنذر جواز نكاح الكتابات عن عمر بن الخطاب ومن ذكر من الصحابة والتابعين في قول النحاس، وقال في آخر كلامه: ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك » (١٨٢).

١٠ - وقال بعض العلماء: أما الآيتان فلا تعارض بينهما، فإن ظاهر لفظ الشرك لا يتناول أهل الكتاب، لقوله تعالى: « مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ » (البقرة: ١٠٥).

وقال: « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ. (البينة: ١) ففرق بينهم في اللفظ وظاهر العطف يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وأيضاً اسم الشرك عموم وليس بنص، وقوله تعالى وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... (المائدة: ٥) ... بعد قوله والمحصنات من المؤمنات نص فلا تعارض بين المحتمل وبين ما لا يحتمل (١٨٣).

١١ - قال الأستاذ سيد قطب « الجمهور على تحليل الزواج من الكتائب، ولكنى أميل إلى اعتبار الرأي القائل بالتحريم » (١٨٤).

ونحن لا نمنع التحريم لاعتبارات مختلفة تدخل في نطاق السياسة الشرعية. قال أستاذي المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى: عندما كتبت في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي لها سئلت عن حكم الزواج بالأجنبيات فاهتيت بأنه حرام. لأنى وجدت أن هناك شرطاً غير مكتوب خلاصته أن الترقية إلى أى منصب رفيع قاصرة على من تزوج من فرنسية. فاهتيت بتحريم الزواج من الفرنسيات حفاظاً على قوة المسلمين.

★ ★ ★

والخلاصة أن الزواج بالكتائب جائز، والجمهور على أنه مباح. وبعض الناس يعرّمه، والمختار أنه مكروه لاعتبارات طارئة. فإذا تزيت عليه مفاصد صار حراماً من باب سد الذرائع. ومراعاة القواعد الأصولية التي تقول: درء المفسد مقدم على جلب المصالح.

★ ★ ★

أحكام الحيض

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (٢٢٢) ﴿يَسْأَلُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٢٣)

المفردات :

الحيض : لغة السيلان يقال حاض السيل وفاض. وشرعاً : دم ذو أوصاف خاصة يخرج من الرحم في مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى.

أذى

: ضرر.

اعتزلوا النساء في المحيض : اتركوا غشيانهن في هذه المدة.

الطهر

: انقطاع دم الحيض.

التطهير

: الاغتسال بالماء إن وجد أو التيمم.

الحرث

: موضع النبت أى الأرض التى تستنبت شبيهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات.

أنى شئتم

: كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار متى كان المأتى واحداً وهو موضع الحرث.

تهديد :

شرع الله الشرائع ونظم حياة الناس، وهو خالقهم وهو أعلم بما يصلحهم، وقد حرم الله - سبحانه وتعالى جماع الرجل زوجته في أيام الطمث (الحيض) وهى فترة من الصيام الجنىس والابتعاد عن غشيان المرأة امتثالاً لأمر الله وحفاظاً على الصحة الجسدية والنفسية.

التفسير :

٢٢٢ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ .

سبب النزول :

أخرج مسلم وأحمد وأبو داود وغيرهم عن أنس - رضى الله عنه - « أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيت، أى لم يكونوا معهم في البيوت

فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « جَامِعُونَ فِي الْبُيُوتِ ، وَاصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » (١٨٥) أَيْ إِلَّا الْوَطْءَ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ أَثَاءَ الْحَيْضِ .

وكان اليهود يمتقدون أن الحائض نجسة وكل من مسها يكون نجسًا إلى المساء، وكذلك يتجنب كل ما تلمسه أو تجلس عليه أو تلبسه، فمن مس فراشها لا يطهر إلا بغسل ثيابه واستحمامه، ومع هذا يظل نجسًا إلى المساء وإن اضطلع معها رجل فكان طمئنها عليه يكون نجسًا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسًا إلى نحو ذلك من الأحكام، وللرجل الذي يسيل منه دم نحو هذه الأحكام.

وكان العرب في الجاهلية لا يساكنون الحيض، ولا يؤاكلونهم كما كانت تفعل اليهود والمجوس.

وكانت النصراني تهانوا في أمور الحيض، وكانوا مخالطين للعرب في كثير من المواطن، فكان هذا الاختلاف مدعاة للسؤال عن حكم الحيض في هذه الشريعة (١٩١).

والمعنى : يسألك المؤمنون عن دم النساء الذي يأتين شهريًا وعن الأحكام المترتبة على وجوده قال لهم : هو أذى ، إذ هو ضار بصحة الأجسام، فرائحته يتأذى منها في شمهها، وهو في ذاته شيء متقدر تعافه النفوس وتنفّر منه الطباع فعليكم - أيها المؤمنون - أن تمتنعوا عن مباشرة النساء في زمن حيضهن ولا تجامعنهن حتى يظهرن من ذلك .

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ...

فإذا تطهرن من الحيض فجامعنهن في المكان الذي أمركم الله بتجنبه في الحيض وهو القبل ولا تنعموه إلى غيره.

« وفيه نذير وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال، وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله : فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ . ، وليس له في ذلك مستند؛ لأن هذا أمر بعد الحظر، وفيه أقوال لعلماء الأصول ، منهم من يقول : إنه للوجوب كالمطلق، وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول : إنه للإباحة ويجملون تقدم النهي قرينة صارفة له عن الوجوب ، وفيه نظر.

والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب كقوله : فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ . (التوبة : ٥) ، أو مباحاً فمباح كقوله : وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، (المائدة : ٢٢) وقوله : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ . (الجمعة : ١٠).

وعلى هذا القول تجتمع الأدلة وهو الصحيح (١٩٧).

وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تفتسل بالماء أو تتيمم إن تمدد ذلك عليها بشرطه.

إلا أن أبا حنيفة يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض - وهو عشرة أيام عنده - أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تنقصر إلى غسل (١٩٨) .

وإذا انقطع دمها لأقل الحيض لم تحل حتى تفتسل أو يمضي عليها وقت صلاة كامل فتصبح الصلاة ديناً في ذمتها.

وسبب الخلاف أن الله - عز وجل - قال : **وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ** . الأولى بالتخفيف والثانية بالتشديد . وطهر يستعمل فيما لا كسب فيه للإنسان وهو انقطاع الدم، وأما تطهر فيستعمل فيما يكتسبه الإنسان وهو الأغتسال بالماء، فحمل أبو حنيفة : **وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ** . على انقطاع دم الحيض، وقوله : **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ** . على معنى فإذا انقطع دم الحيض، فاستعمل المشدد بمعنى المخفف.

وقال الجمهور بالعكس، إنه استعمل المخفف بمعنى المشدد والمراد ولا تقربوهن حتى يفتسلن بالماء، فإذا اغتسلن فاتوهن، بدليل قراءة بعضهم : **حَتَّى يَطْهَرْنَ** . بالتشديد، وبدليل قوله : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** .

أو يستعمل كل واحدة في معناها، ويؤخذ من مجموع الكلامين أن الله علق الحل على شيئين، انقطاع الدم، والتطهر بالماء، كقوله : **وَاتَّبَعُوا الْيَسَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ** . (النساء : ٦) فعلق الحكم - وهو جواز دفع المال - على شرطين : أحدهما بلوغ النكاح، وثانيهما إنباس الرشد.

ودافع الحنفية عن رأيهم بكلام أقرب إلى الفلسفة والتمحل (١٩٩).

والآية في بساطتها وفيما يظهر منها لأول وهلة متفقة مع رأي الجمهور وهو وجوب التطهر من الحيض قبل المخالطة بين الرجل والمرأة، وذلك أقرب إلى سنن الفطرة وإلى النظافة العامة، وأدعى إلى وجود الألفة والمودة بين الرجل والمرأة.

قال ابن عباس : **حَتَّى يَطْهَرْنَ** . أى من الدم؛ **فَإِذَا تَطَهَّرْنَ** . أى بالماء. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن وغيرهم (٢٠٠).

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ .

إن الله يحب عباده الذين يكتفون التوبة والإنابة والرجوع إلى الله والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصي والآثام، ويرضى عنهم في الدنيا والآخرة.

قال القرطبي : « التوابون » من الذنوب والشرك. « والمتطهرون » أى بالماء من الجنبات والأحداث.

وقال مجاهد : « التوابون » من إتيان النساء في أدبارهن « والمتطهرون » الذين لم يذنبوا.

فإن قيل كيف قدم بالذكر الذى أذن على من لم يذنب ، قيل قدمه لئلا يقطع التائب من الرحمة ولا يعجب المتطهر بنفسه.

وقد أخرج أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أتى حائضاً فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم » (٢٠١). والحديث للترهيب، والمقصود أنه فعل ما يفعله الكافرون.

بدليل ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أصبت امرأتى وهى حائض، فأمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعتق نسمة (٢٠٢).

قال القرطبي : « واختلفوا فى الذى يأتى امرأته وهى حائض ماذا عليه ؟ فقال مالك والشافعى وأبو حنيفة : يستغفر الله ، ولا شيء عليه. وقيل : يتصدق بدينار إذا كان دم الحيض أحمر أى فى أول أيام الحيض، ويتصدق بنصف دينار إذا كان دم الحيض أصفر أى فى آخر أيام الحيض، كما دلت على ذلك الآثار (٢٠٣).

★ ★ ★

٢٢٣ - نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ.

أى لا حرج عليكم فى إتيان نساؤكم بأى كيفية شئتم ما دام فى موضع الحرث، فالشارع لا يقصد إلى إعتاكم وحظر اللذة عليكم.

سبب النزول :

أخرج البخارى وجماعة عن جابر قال : « كانت اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها فى قبلها - أى فى فرجها - ثم حملت جاء الولد أحول .. فنزلت » (٢٠٤).

وقد أباحت الآية ما حرمة اليهود من إتيان المرأة - فى موضع الحمل - من جهة الخلف، إذ جوزت إتيان المرأة من أية جهة شاءها الأزواج ما دام ذلك فى موضع الحرث.

والحرث : الزرع أى موضع الزرع لكم، والكلام على التشبيه والتمثيل. والمعنى : نساؤكم موضع إنجاب الذرية لكم فأتوهم فى مكان الإنجاب كيف شئتم من الأمام أو من الخلف، أو تألمات على جنوبيهم. وفسر ابن عباس : أَنَّى شِئْتُمْ . بأى وقت شئتم من الليل والنهار.

وَقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ وَأَتُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ.

ثلاثة أوامر متتالية تدعو إلى العمل الصالح، واجتتاب المعاصى أى قدموا لأنفسكم كل عمل صالح يقرىكم إلى الله من تخير للزوجة، وعناية بالذرية وحسن تربية الأولاد وعمل على غرس مفاهيم الإسلام.

والأمر بالتقوى يتكرر عقب آيات الأحكام. ومعنى التقوى خشية الله وامتنال أوامره واجتتاب نواهيه.

والتكدير بقاء الله واليوم الآخر حتى يلقى كل إنسان جزاء عمله. وتختم الآية بهذه البشرى :

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

أى بشر المؤمنين بالفرج الجميل والجزاء الجزيل والثواب العظيم فى الدنيا والآخرة، فمن وجد الله وجد كل شئ، ومن فقد الله فقد كل شئ، ومن أطاع الله أطاع له كل شئ.

★ ★ ★

تعقيبات

١ - سن الحائض : متوسط السن التى تحيض فيها الفتيات ١٤ سنة ونصف ، وقد تكون السن التى تبدأ فيها رؤية الحيض عشر سنوات، وقد تكون ١٨ سنة. وتتغير السن بتغير الأجناس والبيئات، ففى اليهوديات تكون السن ١٣ سنة غالباً، وفى بلادنا الحارة ١٢-١٤ سنة. وفى البلاد الباردة ١٦ - ١٨ سنة أحياناً^(٢٠٥).

٢ - مدة الحيض : ومدة نزول الحيض من ٣ أيام إلى ٦ أيام ، ومدة الطهر بين الحيضتين ٢٨ يوماً ، وقد تكون فى بعض السيدات ٢١ يوماً أو ٢٥ يوماً، وقد اختلف الفقهاء فى مدة الحيض.

فقال الحنفية : أقل مدة الحيض ٣ أيام، وأوسطه خمسة، وأكثره عشرة. وقال الحنابلة و الشافعية : أقله يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر يوماً، وقال المالكية : أكثره خمسة عشر يوماً ولا حد لأقله.

٣ - علامات الحيض : فى مبدئه يكون الدم والمخاط الكثير ، وكرات : ليمونية وبعض بقايا أنسجة ويمد ذلك يكون دماً خالصاً ، وعند الانتهاء يبدأ المخاط فى الظهور ثانياً، ولا حيض أثناء الحمل.

والدم الذى يرى أثناء الثلاثة الأشهر من الحمل أحياناً يعتبر نزيفاً فى الأصح ولا يمكن حدوث حيض بعد الشهر الثالث من الحمل بحال.

٤ - النفاس : هو الدم الخارج عقب الولادة وأكثره أربعون يوماً ولا حد لأقله.

٥ - احكام الحيض والنفاس : يحرم على الحائض والنفاس كل ما يحرم على الجنب من مس المصحف والمكث فى المسجد، ولا يقبل منهما الصوم والصلاة أيام الحيض والنفاس.

وتتقضى الحائض والنفاس الصوم ولا تقضيان الصلاة، ويحرم جماع الحائض والنفاس.

٦ - صفة غسل الحائض : صفة غسلها من الجنابة، وليس عليها نقض شعرها، ويكفيها أن تحثو على رأسها ثلاث حثيات ثم تفيض الماء على بقية جسمها فتطهر كما ورد فى صحيح مسلم .

٧ - يباح للرجل أن يستمتع من زوجته الحائض بما شاء ما عدا الجماع، روى الجماعة إلا البخارى أن الرسول (ﷺ) قال : « اصنعوا كل شئ إلا الجماع » . وقال قوم : يباح للرجل من زوجته ما فوق السرة والركبة وما تحته^(٢٠٦).

« قال العلماء : مباشرة الحائض وهى متزرة على الاحتياط والقطع للذريعة ولأنه لو أباح فخذنها كان ذلك منه ذريعة إلى موضع الدم المحرم فأمر بذلك احتياطياً، والمحرم نفسه موضع الدم، فتنفق بذلك معانى الآثار، ولا تضاد، وبالله التوفيق » (٢٠٧).

٨ - الأضرار الناجمة عن الوطء حين الحيض :

★ فى المرأة :

(أ) يحدث التهاب فى مهبل المرأة .

(ب) يلهب الجهاز التناسلى .

(ج) الالتهاب المهبلى يسبب التهاب الفشاء المخاطى للمثانة وتشعر المريضة بالليل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه .

★ فى الرجل :

التهابات مختلفة فى أعضائه التناسلية، وتمتد الجراثيم أيضاً داخل القناة البولية، وقد يصيب المثانة والحالبين ويمتد الالتهاب حتى يصيب البروستاتا والخصية (٢٠٨).

٩ - ورد فى سبب نزول: نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . . . أن اليهود كانوا لا يأتون النساء إلا على حالة واحدة، وذلك أستر ما تكون المرأة. وكان الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً (٢٠٩)، ويتلذذون منهن مقبيلات ومدبرات ومستقيقات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب فذهب يصنع بها ذلك فانكرت عليه وقالت إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبى، حتى شرى (٢١٠) امرهما فبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله - عز وجل: فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ . أى مقبيلات ومدبرات ومستقيقات يعنى بذلك موضع الولد (٢١١).

١٠ - قال القرطبى : قوله تعالى: أَنَّى شِئْتُمْ . معناه عند الجمهور من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من أى جهة شئتم مقبلة ومدبرة . وإنى تجئ سؤالاً وإخباراً عن أمر له جهات، فهو أعم فى اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى) هذا هو الاستعمال العربى فى (أنى) . وقد فسر الناس (أنى) فى هذه الآية بهذه الانفاط.

وفسرهما سيبويه بـ (كيف) ومن (أين) باجتماعهما، وذهبت فرقة ممن فسرها بأين إلى أن الوطء فى الدبر مباح ومن نسب إليه هذا القول سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظى . وعبد الملك ابن الماجشون . وحكى ذلك عن مالك فى كتاب له يسمى كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب . ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر .

ثم علق القرطبى بقوله : والصحيح فى هذه المسألة ما بيناه . وما نسب إلى مالك وأصحابه من هذا باطل وهم مبرمون من ذلك لأن إباحة الإتيان بموضع الحرث لقوله - تعالى: فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ .

(وبأحاديث صحيحة حسان وشهيرة رواها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اثنا عشر صحابيًا يمتنون مختلفة كلها متواردة على تحريم إتيان النساء في الأدبار، ذكرها أحمد بن حنبل في مسنده وأبو داود والنسائي والترمذي وغيرهم، وقد جمعها أبو الفرج بن الجوزي بطرقها في جزء سماه تحريم العمل المكروه) (٢١٢).

١١ - وقد ذهب ابن كثير في تفسيره إلى تحريم إتيان النساء في أدبارهن وساق عددًا من الأحاديث الصحيحة. علّق عليها الأستاذ المحقق أحمد محمد شاكر بما يفيد صحتها وصحة إسنادها.

قال ابن كثير ... وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعامله. روى أحمد عن خزيمة بن ثبات الخطمي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يستحيى الله من الحق، لا يستحيى الله من الحق ثلاثا، لا تأتوا النساء في أعجازهن » (٢١٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه » وفي لفظ له « ملمون من أتى امرأته في دبرها » ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بنحوه » (٢١٤).

(وروى معن بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام).

« وروى أبو بكر النيسابوري عن مالك بن أنس أنه سئل : ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال ما أنتم قوم عرب .. هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ؟ لا تعد الفرج، قلت : يا أبا عبد الله ، إنهم يقولون إنك تقول ذلك؟ قال : يكذبون على يكذبون على، فهذا هو الثابت عنه. وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء، وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبير، والحسن وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء » (٢١٥).

اليمين والإيلاء

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٤) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥) ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٢٦) ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٢٧) ﴿

المفردات :

عرضة : عرض يتصرف على معان مرجعها إلى المنع لأن كل شيء اعترض فقد منع، ويقال للسحاب: عارض لأنه منع من رؤية السماء والشمس والقمر والكواكب. والعرضة كالغرفة المانع المعترض دون الشيء.

الأيمان

: الأمور المحلوف عليها.

اللفظ في اليمين

: ما يجرى على اللسان دون قصد مثل قول الإنسان أى والله، ولا والله، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين فلا يؤخذ الله به.

الإيلاء

: لغة الحلف وشرعاً حلف الرجل ألا يقرب امرأته.

التريص

: الانتظار والترقب. قال الشاعر:

تريص بها ريب المنون لعلها

تُطْلُقَ يوماً أو يموت حليها

فاءوا

: رجعوا من الفئ بمعنى الرجوع من حال إلى حال، ومنه قوله تعالى : حَتَّى نَفِيءَ إِلَى أُمْرِ اللَّهِ. (الحجرات : ٩) وقول الشاعر :

فغفأت ولم تقض الذي أقبلت له

ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

ويقال للظل بعبد الزوال فـ

لأنه رجع يعبد أن تقلص

عزموا الطلاق

: صمموا عليه، من العزم وهو عقد القلب على الشيء، والتصميم عليه، ويقال عزم على الشيء، إذا عقد نيته عليه.

الطلاق

: هو حل عقد النكاح الذى بين الرجل والمرأة. وأصله من الانطلاق وهو الذهاب يقال طلقت المرأة تطلق - من باب نصر - طلاقاً، إذا أصبحت مخلاة بدون رجل بعد أن كانت فى عصمة رجل معين.

المعنى الإجمالي :

- ١ - لا تجعلوا الحلف بالله حاجزاً بينكم وبين فعل الخير والبر والتقوى والإصلاح بين الناس.
- ٢ - سامح الله المؤمن في يمين اللغو وهو سبق اللسان بما لا يقصده، وشدد العقوبة على الأيمان الفاجرة التي يتعمد صاحبها الكذب.
- ٣ - من آلى من امراته بقصد تأديبها وتهذيبها وعلاج اعوجاجها ، فإن أقصى مدة لهجر الزوجة هي أربعة أشهر يراجع فيها نفسه، فإذا أن يعود إليها ويكثر عن يمينه وترجع الحياة بينهما كالسابق، وإما أن يعزم على الطلاق فيطلقها.

التفسير :-

٢٢٤ - وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لا تجعلوا الحلف بالله حاجزاً واماناً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس. والله سميع لما تفلظون به عالم بإيمانكم فلا ينبغي أن يكون الحلف بالله مانعاً عن عمل الخير، فإلله لا يرضى أن يكون اسمه حجاً دون الخير.

فكثيراً ما يسرع الإنسان إلى الحلف بالآ لا يفعل كذا ويكون خيراً، أو أن يفعل كذا ويكون شراً فهناك الله عن ذلك وأمرنا بتحرى وجوه الخير.

فإذا حلف الإنسان على ترك خير، فليفعل الخير وليكثر عن يمينه ولا يجعل اليمين مانعة له من المعروف.

قال ابن عباس : لا تجعل الله عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كثر عن يمينك واصنع الخير.

روى مسلم ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فليكثر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير » (٢١٦).

والآية توحى بالإقلال من الحلف حتى لا يعود عليه اللسان. وقد ذم الله المكثرين من الحلف فقال : وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مِثْنٍ . (القلم : ١٠).

قال الإمام الرازي : والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان، أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع. فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض في اليمين.

وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله، كان أكمل في العبودية، ومن كمال العبودية التعظيم، وأن يكون ذكر الله - تعالى - أجلاً وأعلى عنده من أن يستشهد به في كل غرض دنيوى، وأما قوله بعد ذلك « أن تبروا » فهو علة لهذا الشيء أى إرادة أن تبروا، والمعنى إنما نهيتكم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف - لما أن توفى ذلك من البر والتقوى والإصلاح، فتكونوا - يا معشر المؤمنين - بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - برة أتقيا مصلحين (٢١٧).

سبب النزول :

قال القرطبي وابن جرير الطبري وغيرهم :

نزلت في أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - إذ حلف ألا ينفق على مسطح ابن خالته وكان من الفقراء المهاجرين، وكان أبو بكر يعطف عليه ويرعاه ثم شارك مسطح في حديث الإفك وروج الكلام في اتهام السيدة عائشة - رضى الله عنها، فأقسم أبو بكر ألا يبر مسطحاً قريبه فأنزل الله هذه الآية، وأنزل أيضاً في شأن حديث الإفك ثلاث عشرة آية في سورة النور منها قوله تعالى :

وَلَا يَأْتِلَ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (النور : ٢٢).

فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى. ورجع عن يمينه وكفر عنها. وأجرى على مسطح ما كان ينفقه عليه.

★ ★ ★

٢٢٥ - لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلزمكم بكفارة ما صدر عنكم من الأيمان اللغوية فضلاً منه - سبحانه - وكرماً.

وقد اختلف أهل التأويل في المراد من اليمين اللغو على عدة أقوال هي :

١ - اليمين اللغو هي التي لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير قصد الحلف كقول القائل : لا والله ، وبلى والله ؛ « أى تجرى على لسانه ألفاظ اليمين بدون قصد اليمين ».

٢ - إن لغو اليمين هو أن يحلف على شيء أنه كان فيظهر أنه لم يكن أو شيء يعتقد أنه لم يكن فيظهر أنه كان.

٣ - هو يمين الغضبان الذى يخرج الغضب عن اتزانه.

٤ - هو يمين المكره.

٥ - هو يمين النامسى الذى يقسم وينسى قسمه فيخالف ما أقسم عليه.

٦ - هو دعاء الإنسان على نفسه كقوله : إن لم أفعل كذا فأصاب بكذا، قال زيد بن أسلم : لغو اليمين هو دعاء الرجل على نفسه : أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودى، هو مشرك، وهذا كله لا كفارة فيه على أرجح الأقوال.

وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمُ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ .

أى أن الله - سبحانه - رحيم بعباده لا يعاقبهم على أيمان اللغو غير المقصودة ولكنه يعاقب من أقسم به كاذباً معتمداً، لأنه مخادع منافق يقسم اسم الله فيخدع به الناس جلباً لمنفعة أو دفعاً لمضرة.

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

لا يعجل بعقوبة المسئئ لعله يتوب وينيب.

تعقيبات

١ - الأيمان ثلاثة :

(أ) يمين لغو : وهى التى لا يقصد بها الحلف أو يحلف ناسيا .

(ب) يمين منعقدة : وهو أن يعقد العزم ويحلف على فعل أمر أو تركه .

فإذا رأى الأولى أن يخالف ما أقسم عليه فعل الأولى وكفر عن يمينه بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

وإذا أقسم الحالف على فعل معصية أو ترك طاعة فواجب عليه أن يخالف ما أقسم عليه ويكفر عن يمينه .

(ج) يمين غموس أو فاجرة : وهو الحلف بالله متعمداً الكذب . وهى غموس لا كفارة لها إلا النفس فى نار جهنم .

روى مسلم وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار » (٢١٨) .

٢ - قال مالك فى الموطأ : « أحسن ما سمعت فى هذا أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه ، فلا كفارة فيه ، والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه آثم كاذب ليرضى به أحداً ، أو يعتذر لمخلوق ، أو يقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن يكون فيه كفارة ، وإنما الكفارة على من حلف ألا يفعل الشيء المباح له فعله ثم يفعله ، أو أن يفعله ثم لا يفعله ، مثل إن حلف ألا يبيع ثوبه بعشرة دراهم ، ثم يبيعه بمثل ذلك ، أو حلف ليضربن غلامه ثم لا يضربه » (٢١٩) .

٢ - قال ابن كثير فى تفسيره : « روى ابن أبى حاتم عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية وتقول : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ، ثم حكى نحو ذلك عن أبى هريرة ، وسليمان بن يسار ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، ومكحول ، وطاوس ، وقتادة ، وغيرهم » (٢٢٠) .

٤ - روى أبو داود عن سعيد بن المسيب : (أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسال أحدهما القسمة فقال : إن عدت تسانئى القسمة فكل مالى فى تاج الكعبة . فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب - عز وجل - ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك » (٢٢١) .

٢٢٦ - الَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْ نِسَابِهِمْ تُرْبَةً أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

٢٢٧ - وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

وردت الآية (٢٢٦) متممة لأحكام القسم ، ومكملة لتنظيم الأسرة على أساس من صلوات المودة والرحمة والتعاون المثمر ، وكذلك الآية ٢٢٧ ، وقد كان الإيلاء فى الجاهلية يستمر بدون توقيت .

« قال عبد الله بن عباس : كان إيلاء الجاهلية السنة والسنين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيداء المرأة عند المساء، فوكت لهم أربعة أشهر فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكى (٢٢٧).

والحياة بين الزوجين تتعرض لبعض الأعاصير والعواصف، فسمح الإسلام أن يهجر الرجل زوجته بعض الوقت كبعضاً لجماع الغرور وتهديداً للكبرياء والخيلاء.

وكان الناس فى صدر الإسلام يبالغون فى هذا الهجر ويزيدون فى مدته عن أربعة أشهر، والمرأة مخلوق محتاج للعطف والحنان محتاج لما يملأ عاطفته النفسية ويلبى رغباته البيولوجية فوكت الإسلام مدة الإيلاء بأربعة أشهر، فهي كافية للتهذيب والتأديب، وما زاد عنها يعتبر عدواناً تحكماً وتركاً للمرأة كالمعلقة لا هي متزوجة فتأوى إلى زوجها ولا هي مطلقة فتلتبس الأزواج.

ومعنى الآيتين : أن الله - تعالى - جعل للذين يخلفون على ترك مباشرة زوجاتهم مدة يراجعون فيها أنفسهم ، وينتظرون ما يستقر عليه أمرهم ، وهذه المدة هي أربعة أشهر، فإن رجعوا عما خلّفوا عليه من ترك مباشرة الزوجة، ورأوا أن المصلحة في الرجوع فإن الله - تعالى - يقرر لهم ما قرط منهم.

وإن استمروا على ترك مباشرة نسائهم وأصروا على ذلك بعد انقضائها فإن شرع الله - تعالى - يحكم بالتفريق بينهما؛ لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة.

قال الفخر الرازى : « كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره فيحلف ألا يقربها، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات بل، والغرض منه مضارة المرأة، ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك - أيضاً - فأنزل الله - تعالى - ذلك ، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل ، فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة فعلها، وإن رأى المصلحة في المفارقة عن المرأة فارقها.

تعقيبات

١ - الإيلاء شرعاً أن يقول الرجل لزوجته والله لا أقربك أربعة أشهر، أو أربعة أشهر فصاعداً . أو لا أقربك على الإطلاق.

٢ - جمهور العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة وإنما بانتهائها يأمره القاضى بالفيئة، فإن تقبل أمر القاضى بالرضا أمهله مدة يمكنه الفيئة فيها وإن لم يقبله بالرضا أمره بالطلاق فإن طلقها فيها وإلا فإن القاضى يطلقها عليه.

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهي الأربعة الأشهر، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها ويكنى مراجعته لنفسه في تلك المدة، وما دام لم يرجع إلى معاشرته امرأته خلالها فقد أثر فراقها ولا يصح أن نعطيه أية مهلة من الوقت بعدها .

٣ - ظاهر أقوال الفقهاء أن الإيلاء لا بد فيه من اليمين، وقالت المالكية إذا امتنع الرجل من الوطء قصد الإضرار من غير عذر ولم يحلف كان حكمه حكم المولى لأن الإيلاء لم يرد لعمته وإنما أريد لعمى سوء العشرة والضرر، وهذا حاصل إذا ضارها بدون يمين (٢٢٣).

٤ - يرى سيدنا عبد الله بن عباس والحسن البصري - رضى الله عنهما - أن هذا القانون ينطبق على الانفصال الناجم عن توتر العلاقات دون غيره. ولا ينطبق على الانفصال الذى يتم باتفاق الطرفين ورضاهما من أجل خير مشترك مع الاحتفاظ بعلاقات طيبة فيما بينهما.

وهناك فقهاء آخرون يرون أن قانون الإيلاء ينطبق على أية حالة من حالات الانفصال تتم بناء على حلف أو قسم بنقض النظر عما إذا كانت العلاقات بين الزوجين تظل حسنة أم سيئة ، ومن ثم يجب ألا يزيد الانفصال عن الأربعة أشهر المحددة (٢٢٤).

٥ - حكمة التوقيف بأربعة أشهر : والحكمة فى التوقيف بأربعة أشهر أنها أقصى مدة تستطيع أن تحملها المرأة. روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تشد :

وأرقنى أن لا حبيب إلا عيبه	تطاول هذا الليل واسود جانبيه
به قمر قد بدد الليل جانبيه	الاعيبه طورا كأن جبينه
لحسرك من هذا السرير جوانبيه	فوالله لولا الله تخشى عواقبيه
بأنفاسنا لا ينفع الدهر شاهده	ولكننى أخشى رقيباً موكله
وأكرام بعلى أن تنال من أركبيه	مخافة ربي والحياء يكفنى

فلما كان من الفد استدعى عمر تلك المرأة ، وقال لها : أين زوجك؟ قالت : بعثت به إلى العراق، فاستدعى عمر نساء فسألهن عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها؟ فقلن : شهرين، ويقل صبرها فى ثلاثة أشهر وينفذ صبرها فى أربعة أشهر، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين ووجه يقوم آخرين ، وهذا والله أعلم بقوى اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر (٢٢٥).

٦- قال القرطبي : واختلفوا أن من حلف ألا يطأ امرأته أكثر من أربعة أشهر ولم تطالبه امرأته ولا رفعته إلى السلطان ليوقفه (٢٢٦) ، لم يلزمه شيء عند مالك وأصحابه وأكثر أهل المدينة، ومن علمائنا من يقول : يلزمه بانتضاء الأربعة الأشهر طلقة رجعية، ومنهم ومن غيرهم من يقول : يلزمه طلقة بائنة بانتضاء الأربعة أشهر. والصحيح ما ذهب إليه مالك وأصحابه، وذلك أن المولى لا يلزمه طلاق حتى يوقفه السلطان بمطالبة زوجته له لينسئ فيراجع امرأته بالوطء ويكفر بيمينه أو يطلق، ولا يتركه حتى ينسئ أو يطلق ، والفئس الجماع فيمن يمكن مجامعتها.

قال سليمان بن يسار : كان تسعة رجال من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - يوقفون فى الإيلاء، قال مالك : وذلك الأمر عندنا، وبه قال الليث والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور، واختاره ابن المنذر (٢٢٧).

عدة المطلقة

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيُوَلِّهِنَّ أَصْحَابَهُنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المفردات :

المطلقات : المراد بهن فى الآية المدخول بهن من الحرائر ذوات الحيض أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن.

التربص

: التانى والتريث والانتظار.

القروء

: واحدها قرء (بضم القاف وفتحها) يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها، ومن ثم قال الحنفية والحنابلة المراد به الحيض، وقال المالكية والشافعية المراد به الطهر.

ما خلق الله فى أرحامهن : يشمل الحمل، والحيض، والطهر.

البعولة

: جمع البعل وهو الزوج، والبعولة ايضاً مصدر البعل، والمباعدة والبعل: الجماع.

المعنى العام للآية :

على المطلقات أن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها ثلاث حيضات بدون نكاح، ثم لها أن تتزوج بعد إن شامت، ولا يحل للمطلقة أن تكتن ما فى رحمها من الحمل أو دم الحيض، فالإيمان بالله وباليوم الآخر يدفعها إلى قول الصديق.

وأزواجهن لهم الحق فى مراجعة الزوجات المطلقات فى مدة العدة إذا كان الطلاق رجعيّاً فلا يصح أن تمتنع الزوجات عن الرجوع إليهم، وعلى الأزواج عند استعمال هذا الحق أن يقصدوا الإصلاح لا المضرة.

وللزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات بما لا ينكره الشرع الشريف، وللرجال على النساء درجة الرعاية والنفقة والعدالة.

والله - سبحانه - فوق عباده يشرع لهم ما يتفق مع الحكمة.

التفسير :

٢٢٨ - وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ...

وضع الإسلام أسس السعادة الزوجية فأمر بحسن اختيار الزوجة ثم وضع حقوق الرجل والمرأة فى نطاق الأسرة فصل نظام المطلق عند الحاجة إليه، وأبدع فى بيان هذه النظم. ومن ذلك بيان نظام العدة، والرجعة، والنفقة.

ومن أروع البيان ما ورد في هذه الآية قوله سبحانه : **وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ** .

وذلك لأن المرأة المطلقة كثيراً ما تشعر بعد طلاقها بأنها في حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها في حياتها الزوجية السابقة ليس لنقص فيها أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى، وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة، وهنا تبرز طريقة القرآن الحكمة في معالجة النفوس، إنه يقول للمطلقة: إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيباً، ولكن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، إذ لا يليق بالحرّة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج تنقلاً سريعاً، وأيضاً فإن نداء الفطرة وتعاليم الشريعة توجبان عليها الانتظار مدة ثلاثة قروء لكي تستبرئ رحمها حتى إذا كان هناك حمل نسب إلى الأب الشرعي له.

وفي قوله : **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ** . إشعار بأن هذا التريث يجب أن يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجي، فشان الحرّة الكريمة المؤمنة أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف، فقد تجوع الحرّة ولكنها لا تأكل بثديها - كما يقال في المثل .

وقد أشار الزمخشري إلى هذا المعنى بقوله :

« فإن قلت وما معنى ذكر الأنفس هنا ؟ قلت في ذكر الأنفس تهيج لهن على التريث وزيادة بحث، لأن فيه ما يستتقن منه فيحلمن على أن يتريصن. وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمعن أن يقمعن أنفسهن ويغلبن على الطموح، ويجبرن على التريث » (٢٢٨).

وقد أوجبت الآية أن تنتظر المطلقة مدة ثلاثة قروء قبل الزواج من رجل آخر.

والقروء جمع قرء يضم القاف وفتحها ويطلق على الطهر وعلى الحيض. ولذلك اختلف الفقهاء في المراد من القروء المعتبرة. المدة فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات. والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يمكن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك لهن أن يتزوجن إن شئن.

ومن أدلتهم : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد فسر القرء بمعنى الحيض، فقد جاء الحديث الذي رواه أبو داود عن فاطمة بنت أبي جحش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لها : « دعى الصلاة أيام أهراك » (٢٢٩).

ولاشك أن المراد بالقرء في هذا الحديث الحيض، لأنه هو الذي لا تصح معه الصلاة.

أما المالكية والشافعية، ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والزهري وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار أي الأوقات التي تكون بين الحيضتين للنساء.

ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يمكن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار (٢٣٠) بدون زواج

ثم بعد ذلك يتزوجن إذا شئن. ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : **فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ** . (الطلاق : ١) وقد بينت

السنة النبوية أن الطلاق لا يكون في الحيض. فلا يتصور أن يكون الطلاق في العدة إلا إذا فسرنّا القرء بالطهر لا بالحيض. وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدرون الأقراء ؟ الأقراء الأطهار (٣٣١).

والمسألة كما ترى محتملة للمعنيين.

قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار. قال الأستاذ الإمام محمد عبده « والخطب في الخلاف سهل لأن المقصود من هذا التريص العلم ببراءة الرحم من الزواج السابق، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار، ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القولين موافق لحكمة الشرع في المسألة (٣٣٢).

وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهَا إِنْ كُنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

قيل : المراد بما خلق الله في أرحامهن الحيض، وقيل الحمل، وقيل هما معاً. وهذا دليل على أن المرأة مؤتمنة على ما في رحمها، يقبل قولها فيه لأنه لا يعلم إلا من قبلها، وإنما حرم الله أن يكتمن ما في أرحامهن لأنه يتعلق بذلك حق الرجعة للرجل وعدم اختلاط الأنساب. وإذا لم تحافظ المرأة على ذلك فربما حرمت الرجل من حقه في المراجعة - إذا ادعت انقضاء العدة.

وربما ادعت انقضاء العدة وهي مشغولة بالرحم بالحمل من المطلق ثم تزوجت فادى ذلك إلى اختلاط الأنساب.

ولذلك لمست الآية قلوب المطلقات بذكر الله الذي يخلق ما في أرحامهن. واستجاشت كذلك شعور الإيمان بالله واليوم الآخر، فشرط هذا الإيمان ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، وذكر اليوم الآخر بصفة خاصة له وزنه هنا، فهناك الجزء « هناك العوض عما قد يفوت بالتريص، وهناك العقاب لو كتمن ما خلق الله في أرحامهن، وهو يعلمه لأنه هو الذي خلقه ولا يخفى عليه شيء منه. فلا يجوز كتمانها عليه - سبحانه - تحت تأثير أى رغبة أو هوى أو غرض من شتى الأغراض التي تعرض لنفوسهن » (٣٣٣).

« والآية تدل على أن من اثتمن على شيء فلا يحل له أن يخون، وهذا هو مقتضى الإيمان بالله واليوم الآخر » (٣٣٤).

وَيَعْلَمَنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا.

والمعنى : وأزواج المطلقات طلاقاً رجعيّاً أحق بردهن ومراجعتهن « في ذلك » أى في وقت التريص قبل انقضاء العدة : إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا. أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح لا الإضرار.

قال القرطبي :

« وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولاً بها تطليقة أو تطليقتين، أنه أحق برجعتهما ما لم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية منه ولا تحل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولى وإشهاد ليس على سنة المراجعة وهذا إجماع من العلماء..

قال المهلب : وكل من راجع في العدة فإنه لا يلزمه شيء من أحكام النكاح غير الإشهاد على المراجعة فقط وهذا إجماع من العلماء (٣٣٥) لقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ الْأُمُورُ مِنْكُمْ عَمَلُهَا أَوْ لَكُمْ عَلِيمٌ فَتَبَرَّأْ مِنْهَا فِيمَا رَجَعْتُمْ مِنْهَا وَلَمْ تُنكِحُوا فَأَنْتُمْ عَنْهَا طَاهَرُونَ ﴾ .

ومن هذا التشريع الإلهي العادل نتبين حكمة الإسلام من وراء مشروعية العدة. فهي فترة معقولة يراجع فيها الزوج نفسه، ويتبين حقيقة عواطفه ولعله خلال هذه الفترة يتبين أن في قلبه رمقا من مودة أو بقية من عاطفة، ولعل الحنين أن يعاود الزوجين إلى استئناف الحياة الزوجية فرارا من الطلاق وهو أبغض الحلول إلى الله (٣٣٦).

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

أي وللنساء من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات نحو الرجال، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه وذلك بالمعروف.

قال الألوسي :

« والمراد بالمماثلة في الوجوب لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال».

أي أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة، وأنها متماثلان في أن كل واحد منهما عليه أن يؤدي نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أي بما عرفته الطباع السليمة ولا تتركه، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما في شريعته . كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في خطبته في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (٣٣٧).

وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري إنه قال : يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا ؟ قال : « تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه، ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت » (٣٣٨).

وعن ابن عباس قال : إنني لأحب أن أتزين للمرأة، كما أحب أن تتزين لي المرأة لأن الله يقول : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . رواه ابن جرير والطبري وابن أبي حاتم وإسناده صحيح (٣٣٩).

وعن ابن عباس أيضاً : أي لهن من حسن الصعبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أوجبه عليهن لأزواجهن (٣٤٠).

وقال الطبري : لهن على أزواجهن ترك مضارتهن كما كان ذلك عليهن لأزواجهن.

وقال ابن زيد : تتقون الله فيهن كما عليهن أن يتقين الله - عز وجل - فيكم . والمعنى متقارب والآية تعم جميع ذلك من حقوق الزوجية (٣٤١) .

وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ ذَرَّةٌ : والدرجة فى الأصل ما يرتقى عليه من سلم ونحوه، والمراد به هنا المزية والزيادة أى : لهن عليهم مثل الذى لهم عليهم. وللرجال على النساء مزية وزيادة فى الحق بسبب حمايتهم لهن، وقيامهم بشؤونهن ونفقتهن وغير ذلك من واجبات.

قال الأستاذ محمد أبو زهرة : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين - الرجل والمرأة - فلا بد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم على تربية ناشئها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين. وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة، فوجد أن الرجل أملك لزاماً نفسه وأقدر على ضبط حسه، ووجده هو الذى أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرئاسة ولذا قال - سبحانه - الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ. (النساء : ١٣٤).

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل، وهى درجة تجعل له حقوقاً، وتجعل عليه واجبات أكثر، فهى موازنة كل الموازنة لصدر الآية، فإذا كان للرجل فضل درجة، فعليه فضل واجب (٢٤٢).

وَاللَّهُ عَزِيزٌ : أى منيع السلطان لا مُعْتَرِض عليه.

حَكِيمٌ : فى أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده، فعلى الرجل والمرأة أن يطلبأ عزمهما فيما شرعه الله فهو الملجأ والمعاد لكل دى حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما به لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم.

★ ★ ★

من كتب التفسير :

١ - قال القرطبى :

فى تفسير : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ .

« قول ابن عباس : « إني لأتزين لامراتى » قال العلماء : أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم فإنهم يعملون ذلك على البساطة والوفاق، فربما كانت زينة تليق فى وقت ولا تليق فى وقت، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب ، ألا ترى أن الشيخ والكهل إذا حف شاربه ليق به ذلك وزانه، والشباب إذا فعل ذلك سجع ومقت. لأن النعية لم توفر بعد، فإذا حف شاربه فى أول ما خرج وجهه سجع، وإذا وفرت لحيته وحف شاربه زانه ذلك. روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « أمرنى ربي أن أعفى لحيتى وأحصى شاربى » (٢٤٣). وكذلك فى شأن الكسوة ففى هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل على اللائق والموافق ليكون عند امرأته فى زينة تسرها ويعفها عن غيره من الرجال، وكذلك الكحل ، من الرجال من يليق به ومنهم من لا يليق به، فأما الطيب والسواك والخلال (٢٤٤) والرمى بالدرن (٢٤٥) وفضول الشعر والتطهير وقص الأظفار فهو بين موافق للجميع، والخضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة، وهو حلى الرجال.

ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجل فيعفها ويفنيها عن التطلع إلى غيره، وإن رأى الرجل من نفسه عجزاً عن إقامة حقها من مضجعها أخذ من الأدوية التى تزيد فى بهائه وتقوى شهوته حتى ينفها (٢٤٦).

٢ - من تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة :

« شرعت العدة استبراء للرحم أولاً ، وذلك أن الاستبراء للرحم من الحمل لا يكون مؤكداً إلا بعد ثلاث حيضات ، والحامل لا تحيض عادة ، وإن حاضت فإن ذلك يكون مرة أو اثنتين على الأكثر إذ أن الجنين يكون قد نما بعد هذه المدة إلى درجة يملأ تجويف الرحم فيمنع نزول دم الحيض ، ذلك تقدير لله في خلقه ، وما كان معلوماً عند العرب ، وما كان للنبي الأمي أن يعلمه ولكن الله أنزل عليه القرآن فعلمه وعلم أمته ، وشرعت العدة ثانياً ليكون عند المطلق فرصة المراجعة لزوجته إذ قد يكون طلق امرأته التي دخل بها تحت تأثير نوبة غضب جامحة فإذا تاب إليه رشده ندم على ما فعل فحينئذ يجد رحمة الله واسعة ، وشرعه حكيماً ، قد أعطاه الحق في أن يقول « راجعتك » فتعود إليه زوجته ولكن تحسب عليه المعلقة من ثلاث طلاقات (٢١٧) » .

★ ★ ★

الطلاق والخلع

﴿ الطَّلَقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٢٩)

المفردات :

الطلاق : اسم بمعنى التخليق كالسلام بمعنى التسليم ، والمراد به حل العقدة القائمة بين الزوجين بالفاظ مخصوصة .

مرتان : أى دفتان .

إمساك بمعروف : المراد به رجعة الزوجة بعد طلاقها مع أداء حقوقها وحسن عشرتها .

أو تسريح بإحسان : إخلاء سبيل الزوجة مع أداء حقوقها المالية وحفظ أسرارها ، وعدم الإساءة إليها .

الجناح : الإثم .

الاعتداء : تجاوز الحد في قول أو فعل .

الظلم : وضع الشيء في غير موضعه .

تمهيد في سبب النزول :

« ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد ، وكانت عندهم العدة معلومة مقدرة ، وكان هذا في أول الإسلام برهة ، يطلق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق ، فإذا كادت تحل من طلاقها راجعها ما شاء . فقال

رجل لامراته على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - : لا آويك ولا أدمك تحلين، قالت ، وكيف ؟ قال : أطلقك فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة، فذكرت ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فانزل الله - تعالى - هذه الآية بيّناً لعدة الطلاق الذي للمرء فيه أن يرجع دون تحديد مهر وولي، ونسخ ما كانوا عليه (٢٤٨) .

المعنى العام للآية :

الطلاق مرتان يكون للزوج بعد كل واحدة منهما الحق في أن يمسك زوجته برجعته أو إعادتها إلى عصمته بعقد جديد، وفي هذه الحال يجب أن يكون قصده الإمساك بالعدل والمعاملة الحسنة، أو أن ينهي الحياة الزوجية مع المعاملة الحسنة وإكرامها من غير مجافاة، ولا يحل لكم أيها الأزواج أن تأخذوا مما أعطيتهم شيئاً إلا عند خشية عدم إقامة حقوق الزوجية التي بينها الله - سبحانه وتعالى - والزم بها، فإن خفت ما معشر المسلمين ألا تؤدي الزوجات حقوق الزوجية سليمة كما بينها الله - تعالى - فقد شرع الله للزوجة أن تقدم مالا في مقابل افتراقها من زوجها ، وهذه هي أحكام الله المقررة فلا تخالفوها .

التفسير :

٢٢٩ - الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ

أي الطلاق المشروع مرتان أي مرة ثم مرة، فللرجل أن يطلق زوجته ، ثم يراجعها أثناء العدة - إذا شاء - دون توقف على رضاها، ثم له أن يطلقها مرة ثانية، ثم يراجعها أثناء العدة إذا شاء دون توقف على رضاها كذلك، وكل طلاق من هاتين الطلقتين تسمى طلاق رجعية .

أما إذا أمضت العدة بعد الطلقة الأولى أو الثانية - دون مراجعة لها - فإن الطلاق يصبح بائناً ، فلا يعود إليه؛ إلا بعقد ومهر جديدين، ويرضأ الزوجة أو وليها، فإذا طلقها الثالثة بعد أن راجعها مرتين فإنها تصبح حراماً عليه، لا تحل له حتى تتكح زوجاً غيره كما تشير الآية التالية .

ومعنى إمساكها بالمعروف - بعد الطلقة الثانية - أن يراجعها مع حسن العشرة والمودة والرحمة ، فذلك هو المعروف عند أرباب المروءات وهي لسان الشرع ونظر العقل .

« ومعنى تسريحها بإحسان - بعد الطلقة الثانية - أن يتركها دون مراجعة أو أن يطلقها الثالثة وأن يؤدي لها حقوقها من نفقة العدة وأجرة الرضاع و الحضانة لولده وجبر الخاطر وحسن المقالة » (٢٢٩) .

الحكمة في جعل الطلاق الرجعي مرتين :

الحياة الزوجية شركة تقوم على التعاون . من الله بها على عباده، وحث الإسلام على حسن العشرة والمكارمة بين الزوجين .

وقد تسوء الحياة ولا يتفق الزوجان ولا يتقابلان فأباح الإسلام أن يطلق الرجل زوجته طلاق رجعية .

وفي خلال العدة ، ربما ظهرت محبة الرجل للمرأة بعد فراقها، أو استبانت له الحاجة إليها وعظمت المشقة عليه في تركها والبعد عنها . وقد تكون المرأة ساذجة في كبرياتها وخيالاتها، ولا تؤدي ما ينبغي للرجل من

الحقوق والواجبات فإذا هى طلقت تذكرت مضار خلطها وأحست بما كان فيها من عيوب فى المعاملات الزوجية والشئون المنزلية وتمت أن لو كانت لها عودة تمكنت من إصلاح ما سلف منها . فإذا أبيح لها العودة إلى الحياة الزوجية كان فى هذا فرصة فى استدراك ما فات والعمل على الطريق السوى فيما هو آت .

وقد يحدث أن يعود الرجل سيرته الأولى أو يحدث من الزوجة ما يدعو إلى الفراق ثانية فيطلقها حين حدة الغضب مرة أخرى ثم يندم ، فأبيح له العودة مرة أخرى .

فإذا عاد إلى الملاق مرة ثالثة استبان أن رباط الزوجية قد وهن ، وأن التفور بينهما قد استحکم فيجبر أن يكون الفراق لا رجعة فيه مع أداء الزوج لحقوق الزوجة والإحسان إليها عند الفراق وعدم الإساءة إليها .

وفى هذا التشريع بذلك الترتيب غاية الرأفة والرحمة من الله بمعباده حفاظاً على رباط الأسرة وسعادة المجتمع .

وقد اختلف الأئمة فىمن يوقع الطلاق ثلاثاً مرة واحدة .

فذهب بعضهم إلى أنه يقع طلاق واحدة .

ومذهب الأئمة الأربعة : أنه يقع ثلاث طلاقات .

وقد أخذ قانون الأحوال الشخصية فى بعض البلاد العربية بالرأى الأول اتباعاً لرأى بعض كبار الصعابة وكبار التابعين .

وقد ساق القرطبى فى تفسيره أدلة الفريقين بإسهاب . ورجح مذهب الأئمة الأربعة .

كما وردت أدلة الفريقين فى أحكام القرآن للجصاص ، وأعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، ونيل الأوطار للشوكانى ، وأحكام القرآن لابن عربى وغيرها .

وقد روى الإمام أحمد ومسلم عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر - طلاق الثلاثة واحدة - فقال عمر : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان فيه أناة فلو أمضيته عليهم ، فأمضاه عليهم (٢٥٠) .

★ ★ ★

وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ .

لا يحل للزوج أن يأخذ شيئاً من صدق الزوجة ، الذى أوجبه الله ، لكى يقيها فى عصمته ، أو لكى يطلقها ، لأن ذلك مناف للمعروف والإحسان الذى أمر الله به والذى هو لائق بصلات المؤمنين بعضهم مع بعض فضلاً عن الزوجين .

ومثل الصداق فى الحكم سائر أموالهن ، وتخصيص الصداق بالذكر لرعاية العادة أو للتنبيه على أن تحريم الأخذ من غيره أولى .

قال ابن كثير : وقوله : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا . أى لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيّقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن إلا من صدقة أو ببعضه .

كما قال تعالى : وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَاثَةٍ مِّنْهُنَّ . (النساء : ١٩) .

فأما إن وهبت المرأة شيئاً عن طيب نفس منها ، فقال تعالى : وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا . (النساء : ٤) .

وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تقتدى منه بما أعطاهما ، ولا حرج عليها فى بذلها له ، ولا عليه فى قبولها ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ... الآية .

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه ، فقد روى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير (٢٥١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « المختلعات والمختلعات من المناقضات » (٢٥٢) .

الخلع :

الخلع هو أن تقتدى المرأة نفسها من زوجها بمال .

« وقد اختلف الأئمة - رحمهم الله - فى أنه : هل يجوز للرجل أن يفاذيها بأكثر مما أعطاه؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ . وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وغيرهم (٢٥٣) وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبى ثور واختاره ابن جرير .

« وقال أصحاب أبى حنيفة إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاه ولا تجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز فى القضاء . وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً فإن أخذ جاز فى القضاء » (٢٥٤) .

وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاه . وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء والزهرى وغيرهم (٢٥٥) .

حديث البخارى :

روى البخارى من حديث أيوب عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ، ولا دين ، ولكن لا أطيعه . فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتدريين عليه حديثه ؟ » قالت : نعم ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قبل الحديث وطلقها تطليقة (٢٥٦) .

واستبدلت طائفة من الفقهاء بحديث امرأة ثابت المذكور على أنه يجوز الخلع من غير اشتكاء ضرر فإنها تقول : إنها لا تعتب عليه في خلق ولا دين ولكنها لا تطيقه . وقالوا إن الآية لم تذكر الخوف من عدم إقامة حدود الله على جهة الشرط ، بل لأنه الغالب (٢٥٧) .

وذكر ابن جرير أن ابن عباس قال : إن أول خلع كان في الإسلام أخت (٢٥٨) عبد الله بن أبي : أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت : يا رسول الله ، لا يجمع رأسى ورأسه شيء أبداً ، إنى رفعت جانب الخباء فرأيتها قد أقبلت في عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً . قال زوجها : يا رسول الله : إنى أعطيتها أفضل مالى - حديقة - فلترد على حديثى ، قال - صلى الله عليه وسلم - : (ما تقولين) ؟ قالت : نعم وإن شاء زنته . قال : ففرق بينهما « (٢٥٩) . وقيل : إن هذه الآية نزلت في شأنهما .

قال القرطبي : « وهذا الحديث أصل في الخلع وعليه جمهور الفقهاء . قال مالك : لم أزل أسمع ذلك من أهل العلم وهو الأمر المجتمع عليه عندنا وهو أن الرجل إذا لم يضر بالمرأة ولم يسن إليها ولم تؤت من قبله وأحببت فراقه فإنه يحل له أن يأخذ منها كل ما افتدت به ، كما فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - في امرأة ثابت بن قيس ، وإن كان النشوز من قبله بأن يضيق عليها ويضرها رد عليها ما أخذ منها (٢٦٠) .

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهُمُ حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ

لقد طلب الله أن يكون تسريح المرأة بإحسان ونهى أن يأخذوا شيئاً مما آتوهن من المهر أو غيره ثم بين أنه لا يحل الأخذ إلا في حالة الخوف ألا يقيما حدود الله فإذا حصل الخوف جاز للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها بالخلع ، وجاز للرجل أن يأخذ هذا الفداء أى لا إثم على الزوج فى أخذه ولا على الزوجة فى إعطائه إياه .

★ ★ ★

« واختلف العلماء في الخلع : هل هو طلاق : فيعد طلاقاً أم هو فسخ فلا يعد طلاقاً .

فقال مالك والشافعى في أحد قوليه ، وأبو حنيفة والثورى وغيرهم هو طلاق بائن فيعد طلاقاً .

وقالت طائفة : هو فسخ لا ينقص عدد الطلاق إلا أن ينويه ، وبه قال ابن عباس وأحمد والشافعى في أحد قوليه وإسحاق وغيرهم ولهم في ذلك أدلتهم .

ويتربط على هذا الخلاف : أن من طلق زوجته تطليقتين ثم خالعهما ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك عند ابن عباس ومن يرى رايه لأنه لم يقع منه سوى تطليقتين والخلع لغو ومن جعله طلاقاً لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره . على القول بأنه طلاقه بائنة ، يجوز للزوج أن يعود بعده لزوجته إذا لم يسبقه طلقتان : بأن لم يسبقه طلاق أصلاً ، أو سبقه طلاق واحدة . ولكنه لا يعود إلا بعقد ومهر جديدين .

قال القرطبي : والصحيح أن الخلع طلاق لا فسخ .

قال القاضي إسماعيل بن إسحاق : كيف يجوز القول في رجل قالت له امرأته : طلقني على مال فطلقها أنه لا يكون طلاقاً وهو لو جعل أمرها بيدها من غير شيء فطلقت نفسها كان طلاقاً (٢٣١).

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا . . .

ما تقدم ذكره من أحكام الطلاق والرجعة والخلع حدود الله فلا تتجاوزوا ما أحله لكم إلى ما حرمه عليكم، وما أمرتكم به إلى ما نهيتكم عنه.

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

ومن يترك أحكام الله التي شرعها وبينها لعباده، فإنه ظالم لنفسه وغيره متبع لهواه.

والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وفعل ما لا ينبغي فعله. والظلم مخرب للعمران، مبيد للأمم، ولا سيما ظلم الأزواج للأزواج إذ الرابطة بينهما أمتن الروابط وأحكمها، فأى رجاء في الأمة إذا انحلت فيها عرى تلك الرابطة؟ وهى أشد وأمتن الروابط ٩.

★ ★ ★

من أحكام الطلاق

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣٠)

تهديد :

بين الله - سبحانه - في الآيات السابقة طريقة إيقاع الطلاق وأنه يكون على دفعات لا دفعة واحدة.

ثم أتبع ذلك ببيان حكم الفراق إذا كان بافتداء المرأة نفسها من الرجل.

التفسير :

وفي هذه الآية الكريمة يبين الله - سبحانه - حكم الطلاق المكمل الثلاث فقال تعالى :

٢٣٠ - فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ . . .

أى فإن طلق الرجل زوجته طلاقاً ثالثة بعد الطلقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منهما، فإنه في هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً شرعياً صحيحاً بأن يدخل بها ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .

فإن طلقها الزوج الثاني، وانقضت عدتها منه فلا إثم على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا بعقد جديد إن ظنا أن يقيما حدود الله ويتعاشرا بالمعروف ويحرص كل منهما على القيام بواجب الزوجية.

قال سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير : النكاح في الآية : العقد الصحيح فهو كاف في التحليل للأول وإن لم يجامعها ، ما لم يرد بالعقد مجرد إحلالها للأول. وإطلاق النكاح على العقد معروف لغة وشرعاً. ولكن هذا الرأي ضعيف لمخالفته لما جاءت به السنة الصحيحة ، وللعقمة المقصودة من هذا الزواج، وهي تخفيف الناس من البت في الطلاق حتى لا تصير نساؤهم إلى هذا المصير، ولتأديب من بت طلاق امراته.

« روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي، وأنا وأبو بكر عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالت : إن رفاعة طلقني البتة، وأن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدية، وأخذت هدية من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال : يا أبا بكر ، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما زاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على التسميم، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاعة ؟ لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك » رواه البخاري، وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم : « إن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات » وقد رواه الجماعة إلا أبا داود (٣٦٢).

وإذا تزوجها الزوج الثاني بقصد إحلالها للزوج الأول فقد قال أبو حنيفة وأصحابه : النكاح جائز للأول إن دخل بها الثاني وطلقها وله أن يمسكها إن شاء .

وفي رواية أخرى عنهم لا تحل للأول إن تزوجها ليحلها له. ولم يختلفوا في أن نكاح الزوج الثاني صحيح.

وحكى الماوردي عن الشافعي : أنه إن شرط التحليل قبل العقد، صح النكاح وأحلها للأول ، وإن شرطه في العقد بطل النكاح ولم يحلها للأول.

وقد جاء في تفسير القرطبي ما يأتي : « قال ابن العري : ما مرت بي في الفقه مسألة أعسر منها، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا مذهب سعيد. وإن قلنا الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإنزال مع مغيب الحشفة في الإحلال ، لأنه آخر ذوق العسيلة على مقالة الحسن . قال ابن المنذر : ومعنى ذوق العسيلة هو الوطء وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد بن المسيب قال : أما الناس فيقولون : لا تحل للأول حتى يجامعها الثاني، وأنا أقول: إذا تزوجها تزوجاً صحيحاً لا يريد بذلك إحلالها، فلا بأس أن يتزوجها الأول. وهذا قول لا نعلم أحداً وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج، والسنة مستغنى بها عما سواها (٣٦٢).

اللعنة على المحلل :

من الناس من يتخذ آيات الله هزوا فإذا حرمت المرأة على زوجها بعد طلاق الثلاث تحايل على إحلالها للزوج الأول بزواج صوري. وقد وردت الأحاديث الصحيحة تنهى عن هذا العمل . قال ابن كثير في تفسيره:

(فصل) والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها، كما هو المشروع من

التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطئاً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائفة أو معتكفة أو حائضاً أو نفساء، أو الزوج صائم أو محرّم أو منكف - لم تحل للأول بهذا الوطء.

واشترط الحسن البصري - فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله - عليه الصلاة والسلام - « حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك ».

فأما إذا كان الثاني إنما قصد أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة، فروى الإمام أحمد عن عبد الله، قال: « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله »، رواه الترمذي والنسائي (٣٦٤).

ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح، قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم: عمر وعثمان وابن عمر، وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس، وروى ابن ماجه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا أخبركم بالتيس المستعارة قالوا: بلى يا رسول الله، قال: هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له » (٣٦٥).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحلل - المحلل - والمحلل له » (٣٦٦).

وروى الحاكم عن نافع، قال: « جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له.. من غير مؤامرة منه - ليحلها لأخيه هل تحل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة. كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم. ثم قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣٦٧)، وهذه الصيغة مشعرة بالرفع.

وروى عن عمر أنه قال: لا أوتي بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما.

وروى البيهقي عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما، وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة » (٣٦٨).

وَلَيْسَ حَدُّهُ لَكَ يَنْبَغِيهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

أي وتلك الأحكام المذكورة التي تتصل بالطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك، هي حدود الله وأحكامه، بينها بياناً واضحاً مفصلاً، لقوم يعلمون حقها وأهميتها، فيحافظون عليها، ويتعمدون بتفنيدها، وذلك لا يدركه إلا عالم متدبر، أما الجاهل، فلا ينظر إلى العواقب، ولا يحافظ على حدود الله.

وتكررت جملة: تلك حدود الله. في أحكام الطلاق لإبراز أهميتها، وإظهار الذنب الكبير في مخالفتها.

الإمساك بالمعروف

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُنْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدُوْا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِمَا تَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

المفردات :

فليُنَّ أَجَلَهُنَّ : أى قارين نهاية عدتهن . يقال بلغ البلد إذا وصل إليه ، ويقال أيضاً بلغه إذا شارفه ودنا منه . يقول الرجل لصاحبه: إذا بلغت مكة فاعتسل بئى طوى، يريد دنوت منها، لأن ذا طوى قبلها .
وَالْأَجَلَ يطلق على المدة كلها، ويطلق على آخرها مجازاً . «قال الراغب : الأجل : المدة المضروبة للشيء» . قال تعالى : وَلْيَتْلَوْا أَجَلًا مُّسَمًّى (غافر : ٦٧) أى مدة معينة - والبلوغ الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشاركة عليه وإن لم ينته إليه ، فمن الانتهاء قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ (بلغ أربعين سنة) (الأحقاف : ١٥) .. وأما قوله : فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ (الطلاق : ٢) فالمشاركة فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها (٣١٨) .

الإمساك : المراجعة .

المعروف : ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً وعادة .

التسريح : ترك المراجعة حتى تنتهى عدتها .

الضرار : الضرر .

الاعتداء : الظلم .

آيات الله : أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك .

هزوا : أى مستهزأ بها بالإعراض عنها والتهاون فى المحافظة عليها . والهزء - بضمين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب، وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول ، وموقعه فى الإعراب مفعول ثانٍ لتتخذوا .

نعمة الله : هى الرحمة التى جعلها بين الزوجين .

من الكتاب : أى من آيات أحكام الزوجية .

الحكمة : سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح.

التفسير :

٢٢١ - وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيُنَّ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...

المعنى : وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقاً رجعيّاً، فليُنَّ أجلهن ، أى فشارفت عدتهن على الانتهاء ، وقاربت الانقضاء ، فعليكم أن تدبروا ملياً فى أمركم ، فإن رأيتم الأصلح فى بقائهن معكم فقفنوا ذلك وأمسكوهن بمعروف، أى بما هو المعروف من شرع الله الحكيم ، وبما تقرره الأخلاق الحسنة والعقول السليمة، وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم فى البقاء معهن فسرحوهن بمعروف، أى فأمضوا الطلاق، وتفارقوا بالطريقة التى يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن، ولا تنكروهن بسوء بعد انفصالكم عنهن ، فهذا شأن الأتقياء الصالحين، فقد سئل بعضهم : لم طلقت امرأتك ؟ فقال : إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله.

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا .

أى لا تراجعوهن إرادة الإضرار بهن والإيذاء لهن (لتعتدوا) عليهن، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك بمعروف وتوضيح لمعناه، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعته لامراته قبيل انتهاء عدتها لا لقصد الإبقاء على الزوجية وإنما لقصد إطالة عدة الزوجة، أو لقصد أن تقتدى نفسها منه بالمال.

وضرارا، منصوب على الحال فى تمسكوهن أو على أنه مفعول لأجله واللام فى لتعتدوا هى لام العاقبة أى لتكون عاقبة أمركم الاعتداء ، وحذف مفعول لتعتدوا ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى .

★ ★ ★

« قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لثلاث تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول العدة. فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه » (٢٧٠).

وأخرج ابن جرير وغيره عن السدى : أن رجلاً من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلق زوجته حتى إذا انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة راجعها ثم طلقها ، ففعل ذلك بها حتى مضت تسعة أشهر: يضارها، فأُنزل الله- تعالى - هذه الآية .

فلا يحل للرجل أن يراجع زوجته إلا إذا كان قد اعتزم العدل وأراد، فإن تعذر قيام الحياة الزوجية فلا يسوغ له أن يستأنفها معاندة للزوجة وعداوة لها فإن ذلك اعتداء وظلم ، ولهذا قال سبحانه :
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ...

أى ومن يفعل ذلك الإمساك المؤدى للضرر فقد ظلم نفسه بمخالفته أمر الله ويتعريض نفسه لعذاب الله.
وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا .

أى ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التى شرعها لكم فى شأن الطلاق وغيره مهزوماً بها بأن تعرضوا عنها وتتهاونوا فى المحافظة عليها والتمسك بتعاليمها . ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التافظ بالطلاق متوهماً أن ذلك لا يضر، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة .

جاء فى تفسير ابن كثير : « روى ابن جرير عن أبى موسى : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضب على الأشعرين ، فاتاه أبو موسى فقال : يا رسول الله ، أغضبت على الأشعرين ؟ فقال : يقول أحدهم قد طلقت .. قد راجعت .. ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قبل عدتها (٢٧١) .

وقال مسروق : هو الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة .

وقال الحسن وقتادة وغيرهما : هو الرجل يطلق ويقول كنت لاعباً . أو يمتق أو ينكح ويقول كنت لاعباً ..

فأنزل الله : وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا . فأنزل الله بذلك .

وروى الحاكم وصححه والبيهقى وأبو داود والترمذى وابن ماجه، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد : النكاح والطلاق والعق » (٢٧٢) .

وعن أبى عمرة وابن مردويه عن أبى الدرداء ، قال : « كان الرجل يطلق ثم يقول لعبت ويمتنع ثم يقول لعبت، فنزلت . والآية على هذا عامة فى جميع الأحكام .

وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ...

أى واذكروا نعمة الله عليكم فى إرسال الرسول بالهدى والبينات، أو بالإسلام والتزويج وجميع النعم، واذكروا كذلك ما أنزل عليكم من آيات الكتاب الحكيم، المنزل على رسولكم المبين لما يسعدكم من الشرائع والأحكام واذكروا أيضاً ما أنزل عليكم من حكمة الرسول ، وسنته التى بين بها آيات الله وتشريعاته .

يُعْظَمُ بِهِ ... أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم .

وَاتَّقُوا اللَّهَ ... أى هيما تأتون وهيما تدرنون .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

فلا يخفى عليه شيء مما تأتون وما تدرنون فيؤاخذكم بما تعملون من خير أو شر، ولا شك أن معرفة المسلم ذلك، توجب عليه الالتزام بأوامر الله ، واجتناب ما نهى الله عنه، ليكون بذلك فى وقاية من عذاب ربه العليم بكل شيء .

حق اختيار الزوج

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

المفردات :

فيلعنن أجلهن : أى وصلن إلى نهاية عدتهن، تماماً من غير نقصان ، ونلاحظ أن الآية السابقة بدأت بقوله تعالى : وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ . الآية، ومعنى فيلعنن أجلهن فى الآية السابقة أى فحاربن بلوغ أجلهن ونهاية عدتهن .

ومعنى : فَلَعَنَ أَجْلَهُنَّ . هى الآية التى معنا : وصلن إلى نهاية عدتهن .

فلا تعضلوهن : فلا تمنعهن من الزواج، والعضل الحبس والتضييق.

العظة : النصيح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل.

الزكاء : النماء والهجرة.

المعنى الإجمالى :

وإذا طلقتم النساء ، وتمت عدتهن وأرادت إحداهن أن تستأنف زوجاً جديداً من المطلق أو من آخر غيره فلا يحل للأولياء ولا للزوج المطلق أن يمنعهن من ذلك. إذا تراضى الطرفان على عقد جديد وإرادة حياة كريمة تؤدي إلى حسن العشرة بينهما. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله وباليوم الآخر، ذلك أدعى إلى تنمية العلاقات الشريفة فى مجتمعكم وأطهر فى نفوسكم من الأدناس والعلاقات المريبة والله يعلم من مصالح البشر وأسرار نفوسهم ما يجهلون الوصول إليه.

سبب النزول :

روى البخارى والترمذى : وقال حديث حسن صحيح: عن معقل بن يسار قال : « كانت لى أخت : فأتانى ابن عم لها، فأنكحها إياه فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة ولم يراجعها حتى انقضت عدتها فهو بها وهويت، ثم خطبها مع الخطاب ، فقلت له : يا لكع، أكرمتك بها وزوجتكها، ثم طلقها ، ثم جئت بخطبها، والله لا ترجع إليك أبداً وكان رجلاً لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه. فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلمها، فانزل الله هذه الآية قال : ففى نزلت هذه الآية ، فكفرت عن يميني ، وأنكحتها إياه » وفى رواية : « فلما سمعها معقل قال : سمعا لربى وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك؛ وأكرمك » (٢٣٢).

التفسير :

٢٣٢ - وَإِذَا طَلَقْتِ النِّسَاءَ فَلْيُنْفِ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ...

وإذا طلقتم النساء فليُنْفِ أَجَلَهُنَّ : أى انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن فلا تمنعهن من الزواج بمن يردن الزواج به : متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين وبقرة العقول السليمة ويجرى به العرف الحسن، فإن للزوجة حقاً ثابتاً فى اختيار زوجها لأنها هى التى ستعيش معه.

وكما يحرم العضل بالنسبة إلى زوجها الأول : يحرم بالنسبة إلى زوج جديد تم بينهما تراض شرعى.

ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

ذَلِكَ . النهى عن العضل والإضرار وما اتصل به من الأحكام.

يُوعَظُ بِهِ . أى يذكر به.

مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ : يغلب جانب المصلحة على هوى نفسه لأن شأنها شأن الإيمان :

العمل بالأحكام . لهذا خص بالذكر.

ذَلِكَ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ...

أى ذلك النهى عن ترك العضل على الشرط الذى تقدم ، فيه بركة وصلاح لحال متبعيه، وفيه طهر لأعراضهم وأنسابهم ، وحفظ لشرفهم وأحسابهم، فكم كان عضل النساء مدعاة للفسوق مفسدة للخلق وسبباً فى اختلال نظام البيوت ، وشقاء للذرية.

انظر إلى ولى يمنع من له الولاية عليها من الزواج بمن تحب ، ويزوجها بمن تكره : اتباعاً لهواه أو لعادات قومه كما كانت تفعل العرب من قبل ، أيرجى لمثل هذه صلاح أو أن تقيم حدود الله ، أم يخشى أن يغويها الشيطان بمن تحب، ويمد لها جبل الغواية حتى لا تقف، عند حد؟.

ولجعل الناس بوجوه المصالح الاجتماعية، كانوا لا يرون للنساء شأنًا فى إصلاح حال البيوت ولا فسادها، حتى جاء الإسلام وعلمهم من ذلك ما هم فى أشد الحاجة إليه من حسن معاملة النساء ؛ والرفق بهن ومعاملتهم بالحسنى : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ . (البقرة : ٢٢٨).

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى والله يعلم ما فيه صلاح أموركم من الأحكام والشرائع ، وأنتم لا تعلمون ذلك علمًا صحيحًا خاليًا من الأهواء والأوهام.

فالبشر جميعًا لم يهتدوا إلى هذه الأحكام مع تجاربهم الطويلة، بل عزيت حكمتها عن نفوس الكثيرين منهم بعد أن نزل بها الوحي وجاء بها الدين فلم يعملوا بها، وكان يجب عليهم أن يقيموها على وجهها ملاحظين ما لها من فوائد ومنافع أرشد إليها العلم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

الأحكام التي تؤخذ من الآية :

أورد القرطبي حديث معقب بن يسار الذي منع أخته من العودة إلى زوجها وأنزل الله هذه الآية فانتقاد لأمر الله . ثم قال القرطبي :

إذا ثبت هذا ففى هذه الآية دليل على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل كانت ثيباً ، ولو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلى وليها معقل .

فالحطاب إذاً فى قوله تعالى : **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ** . للأولياء ، وإن الأمر إليهم فى التزويج مع رضاهن ، وقد قيل : إن الخطاب فى ذلك للأزواج ، وذلك بأن يكون الارتجاع عضلاً ومنعاً من نكاح الغير بتطويل العدة عليها ، واحتج بها أصحاب أبى حنيفة على أن تزوج المرأة نفسها قالوا : لأن الله - تعالى - أضاف ذلك إليها كما قال : **فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَكَحَّ زَوْجاً غَيْرَهُ** . ولم يذكر الولي .

والأول أصح لما ذكرناه من سبب النزول والله أعلم (٢٧٤) .

راى المحقق أحمد شاكر :

الأستاذ المحقق أحمد شاكر من جهازة العلماء المعاصرين ، متضلّع فى علوم الحديث والتفسير وفروع الشريعة . وقد علّق على حديث معقل بن يسار المزنى - الذى منع أخته من العودة إلى زوجها فنزلت فيه الآية السابقة - بما يوجب اشتراط الولي فى الزواج منعاً للمفسدة وعملاً بنصوص الشريعة ودفعاً للفتنة عن النساء .

قال الأستاذ أحمد شاكر :

قال الترمذى - بعد روايته للحديث : وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيباً ، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار ، وإنما خاطب الله فى هذه الآية الأولياء فقال : **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ زَوْجَاهُنَّ** . ففى هذه الآية دليل على أن الأمر إلى الأولياء فى التزويج مع رضاهن .

وقال الطبرى ٢٧-٢٦/٥ (من طبعنا) : وفى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من قال : لا نكاح إلا بولى من العصبية وذلك أن الله - تعالى ذكره - منع الولي من عضل المرأة إن أرادت النكاح ونهاه عن ذلك ، فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير نكاح وإياها ، أو كان لها تولية من أرادت توليتها فى إنكاحها - لم يكن لنهى وليها عن عضلها معنى مفهوم ، إذ كان لا سبيل له إلى عضلها ، وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها أو إنكاح من توكله بإنكاحها - فلا عضل هنالك لها من أحد فهينى عاضلها عن عضلها .»

وهذا الذى قاله الترمذى وابن جرير بديهى واضح من معنى الآية وفقهها ، لا يخالف فى ذلك إلا جاهل ، أو ذو هوى وعصبية جامحة .

ثم الذى لا يشك فيه أحد من أهل العلم بالحديث ، أن حديث «لا نكاح إلا بولى» حديث صحيح ثابت بأسانيد تكاد تبلغ مبلغ التواتر المنوى الموجب للقطع بمعناه ، وهو قول الكافة من أهل العلم ، الذى يؤيده الفقه فى القرآن

ولم يخالف في ذلك - فيما نعلم - إلا فقهاء الحنفية ومن تابعهم وقلدتهم ، وقد كان لمتقدميهم بعض العذر، لعله لم يصل إليهم إذ ذاك بإسناد صحيح. أما متأخروهم ، فقد ركبوا رؤوسهم وجرفتهم العصبية ، فراحوا يذهبون كل مذهب في تضعيف الروايات أو تأويلها، دون حجة أو دون إنصاف.

وها نحن أولاء - في كثير من بلاد الإسلام التي أخذت بمذهب الحنفية في هذه المسألة - نرى آثار تدمير ما أخذوا به للأخلاق والآداب والإعراض مما جعل أكثر أنكحة النساء اللاتي ينكحن دون أوليائهن، أو على الرغم منهن - أنكحة باطلة تضعيع معها الأنساب الصحيحة .

وأنا أهيب بعلماء الإسلام وزعمائه، في كل بلد وكل قطر، أن يعيدوا النظر في هذه المسألة الخطيرة ، وأن يرجعوا إلى ما أمر الله به ورسوله من شرط الولي المرشد في النكاح حتى نتفادي كثيرًا من الأخطار الخلقية والأدبية .. (٢٧٥).

★ ★ ★

الرضاعة

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَ فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّقْوَاءُ اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

المفردات :

المولود له : أبو الولد، فإن الولد يولد له وينسب إليه.

رزقهن : نفقتهن.

وسعها : الوسع، الطاقة والاحتمال.

فصلا : فطاما للولد عن الرضاع.

جناح : الجناح الإثم.

أن تسترضعوا : أن تطلبوا مرضعات لأولادكم غير أمهاتهم...

المعنى الإجمالى :

وعلى الأمهات أن يقررن بإرضاع أولادهن مدة عامين تامين مراعاة لمصلحة الطفل، إذا طلب أحد الوالدين أو كلاهما استيفاء مدة الرضاعة تامة لاحتياج الولد إليها، ويلزم الوالد - باعتبار الولد منسوباً إليه - بالإلتفاق على الأمهات حينئذ ، بإطعامهن وكسوتهن على قدر طاقته ، بلا إسراف ولا تقتير، فإنه لا يلزم إنسان إلا بما يقدر عليه ويستطيعه ، ولا ينبغي أن يكون سبباً فى إلحاق الضرر بأمه، بأن يهضم حقها فى نفقتها ، أو حضانة ولدها، كما لا ينبغي أن يكون الولد سبباً فى إلحاق الضرر بأبيه. بأن يكلف طاقته، أو يحرم حقه فى ولده، وإذا مات الأب أو كان فقيراً عاجزاً عن الكسب ، كانت النفقة على وارث الولد لو كان له مال، فإن رغب الوالدان أو كلاهما فى إطعام الطفل قبل تمام العامين، وقد تراضيا على ذلك ، ونظرا إلى مصلحة الرضيع فلا تبعة عليهما، وإذا شئتم - أيها الآباء - أن تتخذوا مراضع للأطفال غير أمهاتهم ، فلا تبعة عليكم فى ذلك، ولتدفعوا إليهن النفقة والأجر بالرضا والمحاسنة، وراقبوا الله فى أعمالكم ، واعلموا أنه مطلع عليها مجازيك بها.

التفسير :

٢٣٣ - وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرُّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

المراد بالوالدات الأمهات، سواء أكن فى عصمة أزواجهن أم كن مطلقات ، لأن اللفظ عام فى الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات.

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات، لأن سياق الآيات قبل ذلك فى أحكام الطلاق.

وقد سماهن الله والدات، ولم يقل والأمهات يرضعن أولادهن، للإشارة إلى أنهن اللائى ولدن أولادهن، ومنهن يكون الغذاء الطبيعى المناسب لهذا المولود ، الذى جاء عن طريقهن.

قال الجمل : « وهذا الأمر للندب والوجوب. فهو يكون للندب عند استجماع شروط ثلاثة : قدرة الأب على استئجار الممرض، ووجود غير الأم، وقبول الولد للبن الغير، ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط^(٣٧).

والآية تحت الأم على إرضاع ولدها، لأن الإرضاع هو المطعم الطبيعى للمولود ، إذ إن لبن الأم يلائم حياة الطفل كل الملائمة، فيزداد حجماً بزيادة حجم المولود ، وتنوع محتوياته حسب حاجته، والرضاعة تقيد الأم ولا تضرها إلا فى أحوال شاذة، إذ إن الرضاعة تعمل على تحسين الحالة الصحية العامة للمرضع، بتشتيت الجهاز الهضمى وحمله على العمل للحصول على المواد الغذائية اللازمة للمولود ، وذلك فوق ما تقيد الرضاعة فى الجهاز التناسلى ، إذ تعيده إلى أوضاعه الطبيعية بعد عملية الولادة.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ. وقد حددت الآية مدة الرضاعة بحولين كاملين لمن أراد إتمام الرضاع.

وينبغي أن يكون الفطام تدريجيًا، ويجوز أن يفطم الصغير لأقل من عامين من ولادته ، إذا كانت صحته تعاونه على ذلك، أما إذا كانت صحته لا تعاونه ، ولا يستسيغ الطعام الخارجى ، فإنه يستمر حتى يتم حولين كاملين، ويعدّها يمكن أن يستغنى الطفل استغناء كاملاً عن لبن الأم.

وقد أثبت الأطباء الثقة أهمية لبن الأم وحنانها ورعايتها، فى تحسين أحوال الطفل النفسية والصحية.

لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ . إى أن هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاعة، فإذا أراد الأبوان أن ينقصا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك.

قال النسفى : والحاصل أن الأب يجب عليه إرضاع ولده دون الأم، وعليه أن يتخذ له ظئراً إلا إذا تطوعت الأم بإرضاعه، وهى مندوبة إلى ذلك ولا تجبر عليه، ولا يجوز استئجار الأم ما دامت زوجته أو معتدة^(٣٧٧).

ونرى أن الأب والأم كلاهما شريك فى التبعية وكلاهما مسئول تجاه هذا الصغير الرضيع، وهى تمده باللبن والحضانة ، وأبوه يدها بالفذاء والكساء لترعاه. وهناك تكامل وتعاون إنسانى وعاطفى فى رعاية الصغير، فالفطرة توجب على الأم كفالة الطفل وإرضاعه والعناية به : كما أوجب الله على الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن، من نفقة وكسوة بالمعروف ، أى بالطريقة التى تعارف عليها العقلاء دون إسراف أو تقتير.

رَعَى الْمَوْلُودَ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . والمراد برزقهن نفقتهن.

وقد أوجبت الآية على الوالد أن يتفق على أم رضيعه ويكسوها، سواء أكانت زوجة له أم مطلقة منه، وذلك اجرة لها على إرضاع ولدهما، بهذا قال الشافعى.

وعند الأخناف : لا تأخذ الزوجة اجرة على الرضاع، ما دامت فى عصمة الزوج أو العدة، اكتفاء بنفقتها المشروعة لها، وكل من النفقة والكسوة واجبان حسب المعروف بين الناس، بلا إسراف ولا تقتير بحيث تكون فى وسع طاقته .

لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا رُسْعَهَا ...

فكل منهما يؤدى واجبه فى حدود طاقته، فلا يلزم الوالد بما يشق عليه، بل يكون الأجر فى حدود طاقته. ولا تلزم الأم بالإرضاع ، دون نفقة كافية لها وللرضيع ، بل ينبغي أن يتعاون الطرفان، وأن يقوم كل طرف بواجبه نحو ولده .

لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ...

فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ليهدها فيه، أو تقبل رضاعه بلا مقابل. ولا ينبغي أن يكلفها بما ليس فى مقدورها، أو ما يخالف وظيفتها ، ولا ينبغي أن يمنعها شيئاً من نفقتها .

ولا تضار والدة زوجها بسبب ولدها، بأن تطلب منه ما ليس يعدل من الرزق والكسوة، وأن تشغل قلبه بالتفريط فى شأن الولد، وأن تقول له اطلب مرضعاً، بعد أن ألفها الرضيع.

وقد تمت الأم في الجملة الكريمة، لأن الشأن فيها أن يكون حنانها أشد، وعاطفتها أرق، ولأن مظنة إنزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب.

فالجملة الكريمة توجيه سديد، وإرشاد حكيم للأباء والأمهات، إلى أن يقوم كل منهما بواجبه نحو الأولاد الذين هم ثمار لهما.

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ.

والوارث هو من يصير إليه مال الميت بعد الموت بحق الإرث، والإشارة بقوله: ذلك. تعود إلى الحكم المتقدم وهو الرزق والكسوة، وترك الإضرار.

أي أن والد الرضيع إذا مات، قام وارثه بالرزق والكسوة، بالمعروف لوالدة الطفل التي ترضعه.

وقال الأئمة ما ملخصه: « والمراد بالوارث وارث الولد، فإنه يجب عليه مثل ما يجب على الأب، من الرزق والكسوة بالمعروف، إن لم يكن للولد مال، وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتادة.. وخلق كثير. وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من الصبي. وقال الشافعي: المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجباً على الأب.

وقيل: المراد بالوارث الباقي من الأبوين، وقد جاء الوارث بمعنى الباقي كما في قوله - صلى الله عليه وسلم: اللهم متمنى بسمي ويصري وأجعلهما الوارث مني » (٢٧٨).

وعلى أية حال فالجملة الكريمة تقرس معاني الإخاء والتراحم والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة، فالتقارر ينفق على العاجز، والغنى يمد الفقير بحاجته، وبذلك تسعد الأسرة وتسودها روح المحبة والمودة، وهكذا لا يضيع الطفل إن مات والده، فحقه مكفول وحق أمه في جميع الحالات.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ...

قال أقريطي: الفصال والفصل: الفطام، وأصله التفريق، فهو تفريق بين الصبي والثدي ومنه سمي الفصيل.

فإذا شاء الوالد والوالدة فطام الرضيع قبل استيفاء العامين لأنهما يريان مصلحة للطفل في ذلك الفطام، لسبب صبحي أو سواء، فلا جناح عليهما، إذا تم هذا بالرضا بينهما، وبالتشاور في مصلحة الرضيع الموكول إليهما رعايته، المقروض عليهما حمايته.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ...

أي: وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسرعوا أمراض أولادكم، ورضيت الأمهات بذلك، فلا إثم عليكم فيما تفعلون، ما دمتم تصدون مصلحة أولادكم، وعليكم أن تسلموا هؤلاء المراضع أجرحن، بالطريقة التي يقرها الشرع وتستحسنها العقول السليمة، والأخلاق القويمة.

يقول الزمخشري: «أمروا أن يكونوا - عند تسليم الأجر - مستبشري الوجوه ناطقين بالقول الجميل مطيئين لأنفس المراضع بما أمكن، حتى يؤمن تقريظهن بقطع معاذيرهن.

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

تختتم الآية بذلك الرباط الإلهي اللطيف ، فقد اشتملت الآية على مجموعة من الأوامر والتوجيهات بشأن معاملة الرضيع ونفقته، وهى أمور فى حاجة إلى المكارمة والإخلاص ، ومراقبة الله العليم بكل شئ، المطلع على جميع الأمور.

★ ★ ★

عدة المتوفى عنها زوجها

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

المفردات :

«وينذرون أزواجاً» : جمع زوج ، ويستوى فيه الذكر والمؤنث، والمقصود هنا الزوجات، أى : يتركون زوجات لهم فى عصمتهم وقت الوفاة.

يتربصن : ينتظرن فى بيت الزوجية.

المعنى الإجمالى :

والذين يتوفون منكم - أيها الرجال - ويتركون زوجات لهم غير حوامل، فعليه أن يمكنهم بعدهم دون تعرض للزواج، مدة أربعة أشهر هلالية وعشر ليال بأيامها، استبراء للرحم وحداداً على الأزواج، فإذا انتهت هذه المدة فلا تبعه عليكم - أيها الأولياء - لو تركتموهن يأتين من شريف الأعمال التى يرضاها الشرع، ليصلن بها إلى الزواج، فلا يبنى أن تمنعهن من ذلك، ولا يجوز لهن أن يأتين من الأعمال ما ينكره الشرع ويأباه، فإن الله مطلع على سرائركم ، ويعلم أعمالكم فيحاسبكم على ما تعملون.

التفسير :

٢٣٤ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ...

والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركون من خلفهم أزواجاً ، فعلى هؤلاء الأزواج اللاتي ارتبطن برجالهن، ارتباطاً قوياً متيناً ، ثم فرق الموت بينهما وبينهن، عليهن أن : يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

وغيراً... أى عليهن أن ينتظرن انقضاء عدتهن، فيحبسن أنفسهن عن الزواج وعن التزين، وعن التعرض للخطاب، مدة أربعة أشهر وعشر ليال، وفاء لحق الزوج المتوفى، واستبراء للرحم.

قال الأستاذ سيد قطب : « والمتوفى عنها زوجها كانت تلقى الكثير من العنت من الأهل وقرابة الزوج والجمع كله ..

وعند العرب كانت المرأة إذا مات زوجها دخلت مكاناً رديئاً، وليست شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً مدة سنة، ثم تخرج فتقوم بعدة شعائر جاهلية، من أخذ بمرة وقذفها، ومن ركوب دابة كالحمار... إلخ. فلما جاء الإسلام خفف عنها هذا العنت، بل رفعه كله عن كاهلها، ولم يجمع عليها بين فقدان الزوج واضطهاد الأهل بده... وإغلاق السبيل في وجهها دون حياة شريفة، وحياة عائلية مطمئنة.. جعل عدتها أربعة أشهر وعشر ليال، ما لم تكن حاملاً فعدتها عدة الحامل، وهى أطول قليلاً من عدة المطلقة. تستبرئ فيها رحمها، ولا تجرح أهل الزوج في عواطفهم بخروجها لتوها، وفى أثناء هذه العدة تلبس ثياباً محتشمة، ولا تتزين للخطاب. فاما بعد هذه العدة فلا سبيل لأحد عليها، سواء من أهلها أو من أهل الزوج، ولها مطلق الحرية فيما تتخذه لنفسها من سلوك شريف، فى حدود المعروف من سنة الله وشريعته، فلها أن تأخذ زينتها المباحة للمسلمات، ولها أن تتلقى خطبة الخطاب، ولها أن تزوج نفسها ممن ترضى، لا تقف فى سبيلها عادة بالية، ولا كبرياء زائفة، وليس عليها من رقيب إلا الله (٢٣٨).

والتعبير بقوله : يَبْرِئْنَ أَنْفُسِهِنَّ. تعبير دقيق حكيم : أى عليهن أن يمنعن أنفسهن عن النكاح، وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت هناك ضرورة لهذا الخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام. وذلك لأن المرأة المؤمنة الوفية، يأتى عليها دينها ووفائها لزوجها المتوفى عنها، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته، فإن هذا أمر مستهجن فى شرع الله، وفى عرف العقلاء من الناس، إذ هذه المدة التى جاءت فى الآية التى حددها الله - تعالى، لمعرفة براءة الرحم من الحمل، وهى التى تخفف فيها مرارة الفراق بين زوجين، يربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة.

والحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرأ أمران :

اولهما : ان الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط.

ثانيهما : أن مدة أربعة الأشهر هى المدة التى قدرها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال، ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر. فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإجداد على الأزواج فى حدود هذه المدة ومقاربة لها فى الجملة (٢٨٠).

فَإِذَا بَلَغَ أَحَدُهُمَا أَجَلَهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالْمَعْرُوفِ .

أى فإذا بلغن أجلهن، واستوفين عدة الوفاة الواجبة عليهن - كاملة دون نقص - واستبان حال الرحم، فلم يكن فيه حمل، فلا جناح عليكم - أيها المسلمون - فيما فعلن فى أنفسهن من زينة وغيرها مما امتنعن عنه إبان فترة العدة.

وحداد الزوجة على زوجها - أى ترك الزينة والطيب ونحوه - واجب عليها مدة عدتها التى حددها الله - تعالى - كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال:

« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر : أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » (٢٨١).

وهذا هو رأى جمهور العلماء .

وقال الحسن بن أبى الحسن : ليس الإحداد بشئ، إنما تتريص عن الزوج ولها أن تتزين وتطيب.

وهذا الرأى ضعيف لمخالفته للسنة .

وفى ختام الآية ، نجد القرآن يلمس القلوب ويحرك دواعى الامتثال لله . فيقول :

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أى إنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شئ، فإذا وقفت أنتم ونساؤكم عند حدوده، أسعدكم فى الدنيا وأجزل مثوبتكم فى الآخرة، وبذلك حملت الآية الكريمة المسلمين جميعاً ، مسئولية حماية الآداب العامة حفاظاً على المجتمع الإسلامى الفاضل.

★ ★ ★

التعريض بالخطبة

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

المفردات :

التعريض والتلويح : إيهام المقصود بما لم يوضع له حقيقة أو مجازاً . كقولك جئت لأسلم عليك، تلويحاً بأنك جئت لطلب دين أو عطاء ممن تخاطبه.

طلبهن للتزوج بهن .

خطبة النساء

أكننتم ، يقال كن الشئ فى نفسه يكنه، وأكنه يكنه ، أى أخفاه وغطاه.

أكننتم

لا تواعدوهن سرًا : لا تواعدوهن - فى العدة - زواجا .

ولا تعزموا عقدة النكاح : ولا تقصدوا قصدا جازمًا تنفيذ عقده .

حتى يبلغ الكتاب أجله : أى حتى ينال القرآن ما قرره من الوقت لانقضاء العدة .

المعنى الإجمالى :

ولا إثم عليكم - أيها الرجال - فى مدة العدة إذا لمحتم للمعتدة من وفاة بالزواج ، أو أضرمت ذلك فى قلوبكم ، فإن الله يعلم أنكم لا تصبرون عن التحدث فى شأنهن لميل الرجال إلى النساء بالفطرة، ولهذا أباح لكم التلويح دون التصريح ، فلا تمطوهن وعدا بالزواج إلا أن يكون ذلك إشارة لا نكر فيها ولا فحش، ولا تهرموا عقد الزواج حتى تنقضى العدة، وأيقنوا أن الله مطلع على ما تخفونه فى قلوبكم ، فخافوا عقابه، ولا تقدموا على ما نهاكم عنه، ولا تياسوا من رحمته فإنه غفور حلیم ، لا يعجل العقوبة لمن خالف امره .

التفسير :

٢٣٥ - وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ .

تتحدث هذه الآية عن خطبة المرأة فى فترة العدة . فأباحت شيئين ونهت عن شيئين :

أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة فى الأنفس وحديثها بها .

ونهت عن المواعدة سرًا على الزواج، لأن العدة فاصل بين عهدين من الحياة إلا من خلال كلام حسن، أو عبة طيبة لا نكر فيها ولا مخالفة لحدود الله ، كما نهت عن العزم والتصميم على الزواج وتنفيذه قبل انقضاء العدة .

وهذه الآية أدب إلهى كريم ، فالمرأة المعتدة لا تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسيرة البيت، وربما كان فى رحمها حمل لم يتبين، لذلك نهى الإسلام عن خطبة المعتدة ، كما نهى عن الزواج بها فى فترة العدة .

والإسلام دين القطرة، يعلم حاجة الرجل إلى المرأة، وعدم صبره عنها، فأباح له التعريض والتلميح بالقول الحسن . كان يقول لها : « إني أريد الزواج ، وإنى لأحب امرأة من أمرها وأمرها - يعرض لها بالقول المعروف - وإن النساء لمن حاجتى ، ولوددت أن الله كتب لى امرأة صالحة » (٢٨٢) .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَيْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ..

والمعنى : ولا حرج ولا إثم عليكم - أيها الرجال - المبتغون للزواج، فى التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها، للزواج منها بعد انقضاء العدة، كما أنه لا إثم عليكم كذلك فى الرغبة فى الزواج من المعتدة ، مع إخفاء ذلك وستره من غير كشف وإعلان، لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة، عمل يتنافى مع آداب الإسلام ومع تعاليم شريعته، ومع الأخلاق الكريمة، والعقول السليمة، والنفوس الشريفة .

« وقال القرطبي : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص فى تزوجها وتبنيه

عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رث وذكى جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه، وجوز ما عدا ذلك، ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعيّاً إجماعاً لأنها كالزوجة، وأما من كانت في عدة البينة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها « (٢٨٣) ».

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَّا تُرَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ...

وهذه الجملة كالتعليل لما قبلها، وقد أباح الله للرجل أن يفكر في الزواج من المرأة وأن تهفو نفسه إليها، وأن يذكرها مع نفسه، فذلك يتعلق بأمر فطري، والإسلام يلحظ ألا يحطم الميول الفطرية إنما يهذبها، ولا يكيث التوازع البشرية، إنما يضبطها، ومن ثم ينهى فقط عما يخالف نظافة الشعور، وطهارة الضمير، ولذلك حرم الوعد السري بين الرجل والمرأة المعتدة، وأباح الكلمة الطبية، والإشارة والتلميح بالمعروف.

وَلَا تَعْرِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ...

ولا تقصدوا قصداً جازماً تنفيذ هذا النكاح، حتى ينتهي ما كتب وفرض من العدة، إذ العاقل لا يستعجل أمراً قبل حلول وقته، وإنما الذي يسوغ لكم هو أن تنموا عقد الزواج بعد انتهاء العدة، ويعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وخفت حدته.

وإذا كان قد نهى عن العزم على العقد قبل فراغ العدة، فالنهى عن العقد من باب أولى، ومن المعلوم أن عقد النكاح في زمن العدة باطل، والمباشرة حينئذ زناً، والتفريق بينهما واجب، لأن من استحل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه، كالقاتل يعاقب بحرمانه من ميراث المقتول، وهذا رأى جمهور العلماء.

وقيل: يفسخ النكاح ويفرق بينهما، فإذا انتهت العدة حلت له. ولم يتأبد التحريم، ولكل فريق أدلته في كتب الفقه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ...

اعلموا أن الله مطلع عليكم رقيب على ضمائركم، وشهيد على أفعالكم، فاتقوا غضبه واحذروا بطشه، وتقوا بغفوه وحلمه وغفرانه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .

غفور . يغفر خطيئة القلب الشاعر بالله . حلیم . لا يعجل بالعقوبة، فلعل عبده الخاطئ أن يتوب.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام، بأسلوب حكيم، جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء.

الطلاق قبل الدخول

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى
الْمُوسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾

المفردات :

تمسوهن : المس هنا ، الجماع.

أو تفرضوا : أو هنا بمعنى الواو.

فريضة : المهر.

ومتعوهن : المتعة ، مقدار مالى تعطاه المطلقة قبل الدخول ، قصد به أن يكون تمويضا لها عما فاتها من زوجها ، وجبرا لما نالها من انكسار النفس.

الموسع : الفنى.

المقتر : الفقير.

قدره : طاقته .

المعنى الإجمالى :

ولا إثم عليكم - أيها الأزواج - ولا يجب عليكم المهر إذا طلقتم زوجاتكم قبل الدخول بهن ، وقبل أن تقدروا لهن مهرا ، ولكن أعطوهن عطية من المال يتمتعن بها لتخفيف آلام نفوسهن ، ولكن عن رضا وطيب خاطر ، وليدفعها الفنى بقدر وسعه ، والفقير بقدر حاله ، وهذه العطية من أعمال البر التى يلتزمها ذوو المروات وأهل الخير والإحسان.

التفسير :

٢٣٦ - لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ...

قال القرطبى : « قوله - تعالى - : لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ ... إلخ هذا أيضا من أحكام المطلقات ، وهو ابتداء إخبار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهرا أو لم يفرض، ولما نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن التزوج لمعنى الذوق، وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله ، وقصد دوام الصحبة؛ وقع فى نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزءا من هذا المكروه ، فنزلت الآية رافعة للجناح فى ذلك ، إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن » (٧٨٤).

لقد أثر القرآن الكريم والهدى النبوى أحسن الأثر فى نفوس المسلمين وتحرج بعضهم من طلاق المرأة قبل الدخول بها، فنزل هدى السماء يبيح للرجل طلاق المرأة قبل الدخول بها، إذا تبين له ضرورة ذلك، فإنهاى الحياة الزوجية قبل الدخول أخف وأيسر من إنهاؤها بعد الدخول.

ثم حثت الآية على المكارمة، وأوجبت على الرجل أن يمنح مطلقة عتية حسبما يستطيع، كنوع من أنواع التعويض، فقد علقت آمالها عليه، وحيست نفسها عن الأزواج من أجله، وفى هذه المتعة لون من ألوان الرد والمعذرة.

وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ ...

وتمتعوا المطلقات عندما يجتمع لهن أمران، عدم الدخول بهن وانتقاء تقدير مهر لهن، على الفنى ما يقدر عليه وعلى الفقير ما يقدر عليه.

وهذه المتعة واجبة عند كثير من فقهاء السلف، ومنهم على بن أبى طالب وابن عمر، وسعيد بن جببر، والزهرى، وغيرهم.

وقال بعض الفقهاء إنها مندوبة .

والآية ظاهرة فى رأى الأول لقوله تعالى :

مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

فقد جعلته حَقًّا واجبًا على المحسنين ، لا ينبغي أن يهملوه.

هذا بالنسبة للمطلقات قبل الدخول بهن، وقبل أن يقدر لهن المهر، أما غيرهن من المطلقات فالمتعة مندوبة فى حقهن عند الجمهور . وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوبة فى كل مطلقة وإن دخل بها ، إلا فى التى لم يدخل بها، وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، وهو نصف المهر المسمى، ولا متعة لها.

وليس للمتعة حد معروف فى الكتاب أو السنة ، ولكنها على ما قال الله تعالى : عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ ...

وقال ابن عمر ، أدنى ما يجزى فى المتعة ثلاثون درهماً .

ولعل الأنسب أن يترك تقدير المتعة إلى حال الشخص، والأمر المتعارف عليه بين الناس، حيث إنه لا يترك تغير الأحكام بتغير الأزمان.

والمعروف كلمة واسعة ، تشمل ما عرف حسنه، وما كان مناسباً للشخص ، وما يليق بأمثاله. وهو امر يختلف باختلاف الزمان والمكان.

نصف المهر

﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ يَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

المفردات :

فرضتم لهن فريضة : عينتم لهن مهراً .

يعفون : يسامحنكم .

أو يعفو الذي بيده عقد النكاح : الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج ، ومعنى يعفو هو أن يسامح المرأة المطلقة في النصف الذي يستحقه هو من المهر ، بأن يعطيها إياه كاملاً ، لأن الأصل أنه لو طلقها قبل الدخول بها ، يأخذ نصف المهر ويسترده منها إن كان أعطاها إياه ، فيكون عفاً منه أن يتجاوز لها عن هذا النصف .

المعنى الإجمالي :

وإذا طلقتم النساء قبل الدخول بهن ، بعد تقدير مهورهن ، فقد وجب لهن نصف المهر المقدر ، ويدفع إليهن ، إلا إذا تنازلت عنه الزوجة ، كما أنهن لا يعطين أكثر من النصف إلا إذا سمحت نفس الزوج ، فأعطاها المهر كله ، وسماحة كل من الزوجين أكرم وأرضى عند الله ، وألحق بأهل التقوى فلا يتركوها ، واذكروا أن الخير في التقضيل وحسن المعاملة ، لأن ذلك أجلب للمودة والتحاب بين الناس ، والله مطلع على ضمائركم ، وسيجازيكم على ما تفعلون .

التفسير :

٢٣٧ - وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا

الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ...

أي وإن طلقتم - يا معشر الرجال - النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن ، ومن بعد أن قدرتم لهن صداقاً معلوماً ، فالواجب عليكم في هذه الحالة أن تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق ، إلا أن تنازل المرأة عن حقها فتتركه لمطلقها بسماحة نفس ، بأن تكون هي الراغبة في الطلاق ، أو يتنازل الذي بيده عقدة النكاح ، وهو الزوج ، عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملاً ، أو ما هو أكثر من النصف لأنه هو الراغب في الطلاق .

وقيل المراد بمن بيده عقدة النكاح : هو ولي المرأة المطلقة ، الذي لا تزوج إلا بإذنه ، فإن له العفو عن نصف مهر البكر إذا طلقت ، والتفسير الأول هو المأثور ، وبه قال جمع من الصحابة .

وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

الخطاب هنا للرجال والنساء ، أى : وأن تعفو المطلقات عن حقهن فى النصف ، لأن الأزواج لم يدخلوا بهن .

وأن يعفو الأزواج بالزيادة على النصف ، جبراً لخاطر المطلقات قبل الدخول ، أقرب للتقوى ، وأدنى إلى تحصيل مرضاة الله ، الذى أمر بالتسامح والعفو واليسر .

ولا تنسوا الفضل بينكم . قال مجاهد : إتمام الرجل الصداق كله ، أو ترك المرأة النصف الذى لها .
إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

إن الله مطلع على أفعالكم . وفيه حث على أن يسود شعور السماحة ، والتفضل والتجمل بين الناس ، عند انقسام عرى الزوجية ، لتبقى القلوب نقية خالصة موصولة بالله فى كل حال .

روى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها ، فأعطاهما الصداق كاملاً ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أنا أحق بالعفو منها (٢٨٥) .

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه ، فأين المسلمون اليوم من هذه انوصايا والأحكام ؟

★ ★ ★

المحافظة على الصلاة

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ۚ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٣٨)

المفردات :

الوسطى : تأنيث الأوسط ، وهى الفضلى ، ووسط الشيء : خيره وأعدله .

قانتين : القنوت ، الطاعة والعبادة ، وأصله الدوام على الشيء : ومن هنا سُمى المداوم على الطاعة قانتاً .

فإن خفتم : الخوف ، الفرع من أى مصدر يبعث عليه .

فرجالاً : جمع راجل ، أى فصلوا راجلين .

أوركباناً : جمع راكب ، أى راكبين على الإبل وغيرها مما يركب كالمصفحات والدبابات وغيرها .

المعنى الإجمالى :

احرصوا على إقامة الصلوات كلها، وادوموا عليها، واحرصوا على أن تكون صلواتكم هي الصلاة الفضلى بإقامة أركانها، والإخلاص الكامل لله فيها، وأتموا طاعة الله - تعالى - وذكره مخلصين له خاشعين لجلاله.

فإذا أدركتم الصلاة وأنتم خائفون فلا تتركوها، بل صلوا كما استطعتم، مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف عنكم فصلوا الصلاة مستوفية الأركان كما علمتموها، ذاكرين الله فيها، شاكرين له ما علمكم إياه وما من به عليكم من نعمة الأمن.

التفسير :

٢٣٨ - حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ .

من شأن القرآن الكريم أن يحث على التقوى وطاعة الله بين آيات الأحكام، حملاً للنفس على امتثال أمر الله، وتنفيذ أحكامه بروح طيبة وقلب سليم.

وقد تكررت الدعوة إلى المحافظة على الصلاة في القرآن الكريم، فهي أول الأركان، وهي الصلة بين المخلوق والخالق، وهي الدواء العملى، والعلاج الروحى لمشاكل الدنيا، وأمورها المتعددة وفتنتها وملابيحها، فى وسط زحام هذه الحياة يجد المؤمن أن الصلاة واحة وارفة الظلال، يتطهر لها بالماء الطهور، ويقف بين يدي ربه خاشعاً خاضعاً، مكبراً لله راکماً ساجداً، متأملاً عظمة الله، مرتلاً لآيات القرآن الكريم، فيخرج من الصلاة وقد تطهرت نفسه، وغسلت ذنوبه، فيزيده ذلك إيماناً وتصميماً على طاعة الله ومرضاته، قال- تعالى- **إِنَّمَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** (العنكبوت: ٤٥).

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والمحافظة على الصلاة تقتضى أداؤها فى أوقاتها، وإتمام ركوعها وسجودها، وحضور القلب، والخشوع والتدبر والتأمل، فى معنى ما يقول من القرآن، ومن التسميع والتكبير، وبذلك تكون الصلاة وسيلة إلى مرضاة الله ورعايته وعنايته، كما ورد فى الحديث الشريف . « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ، ما ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشئ، ما يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ووطيت الصحف ».

قال الإمام الرازى : « وقوله « حافظوا » بصيغة المفاعلة التى تكون بين اثنين، للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب، فكانه قيل : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذى أمرك بها، وهذا كقوله **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** . (البقرة : ١٥٢) وفى الحديث « احفظ الله يحفظك » أو أن تكون المحافظة بين المصلى والصلاة، فكانه قيل : احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة، بمعنى أنها تحفظك من ارتكاب المعاصى، وتشفع لصلتها يوم القيامة(٢٣٨).

والصلاة الوسطى: والصلاة الوسطى هي إحدى الخمس ، وقد اختلفوا في تحديدها ، وللعلماء في ذلك ثمانية عشر قولاً ، أوردها الشوكاني في « نيل الأوطار » أصحها رواية ما ذهب إليه الجمهور من كونها صلاة العصر ، لحديث عند أحمد ومسلم وأبي داود مرفوعاً « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » (٢٨٧).

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح ، وقيل صلاة الظهر وقيل صلاة المغرب ، وقيل العشاء وقيل الجمعة ، وقال بعضهم إنها غير معروفة ، وأن الله - تعالى - أيهم الصلاة الفضلى التي ثوابها أكثر ليحافظ المؤمنون على كل صلاة (٢٨٨).

قال ابن كثير : وكل هذه الأقوال فيها ضعف ، بالنسبة إلى التي قبلها ، ومعترك النزاع في الصبح والعصر ، وقد أثبت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أي إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر.

وخصت صلاة العصر بالذكر ، لأنها تقع وقت اشتغال بعض الناس بالعمل ، أو لأنها وقت الراحة والكسل بالنسبة إلى طائفة أخرى من الناس ، أو لأنها في ختام صلاة النهار ، وزحمة أعمال اليوم ، فهي فرصة أخيرة في النهار يتأجج فيها المؤمن ربه ، ويذكره بلسانه وقلبه . ويتضرع لمناداته ومناجاته وعبادته.

وَقُومُوا لِلَّهِ فَانْتِن . اتجهوا إلى الله عابدين خاشعين متبتلين ، ففي هذا القنوت سعادة الأرواح ، وشفاء النفوس ، وسلامة الظاهر والباطن ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

★ ★ ★

٢٣٩ - فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا .

أمر الله بالصلاة وأوجب أدائها ، في قنوت وخشوع ، في حالة الصعلة والأمن.

والصلاة فرض أساسي وركن رئيسي من أركان الإسلام ، لا يسقط عن الإنسان بالخوف أو المرض أو العجز ، فلا بد من أدائها على أي صورة تيسر للإنسان أدائها .

فالمرضى أحوج إلى دعاء الله ، والخائف أحوج إلى ذكر الله ، واستمداد الأمن والطمأنينة منه . ومن ثم تجب الصلاة في ميدان القتال وأثناء المعركة ، كما ذكر القرآن ذلك في سورة النساء (٢٨٩).

أما إذا زاد الخوف ، وحدث القتال بالفعل ، فإن المحارب يؤدي الصلاة على أية حالة تيسر له أدائها .

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا . أي إذا اشتد الخوف من عدو أو سبيل جارف ، ففي مثل هذه الأحوال يصلى الخائف فرداً بلا جماعة ، سواء أكان رجلاً أي ماشياً على قدميه ، أم راكباً أي وسيلة من وسائل الركوب ، كالدواب والسيارة والطيارة ، وتكون قبلته حيثما توجهت دابته ، أو عريته أو طائرته ، ولا يلزمه ركوع ولا سجود ، إذا كان هذا يضره . ويكفيه عنها الإيماء بالراس ، بطريقة لا تعرضه للتهلكة ، ولا ينقص عدد ركعات صلاة الخوف عن صلاة المسافر ، وهي ركعتان في الريعية واثنان في الصبح وثلاث في المغرب .

هكذا قال مالك والشافعي وجماعة من العلماء .

وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة وغيرهما يصلى ركعة إيماء .

روى مسلم، عن بكير بن الأخنس عن مجاهد، عن ابن عباس قال : «فرض الله الصلاة على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - في الحضر أرباعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة» (٢٩٠).

وضعت هذا الرأي بأن الأخنس انفرد بهذا الحديث، وليس بحجة عند الانفراد، والصلاة أولى ما يحتاج فيه. فإذا أمتع فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فإذا زال خوفكم، فصلوا لله صلاة الأمن، كما علمكم من شأنها ما لم تكونوا تعلمون على لسان نبيه، حيث عرفتم كيفيتها منه، ولم يكن لكم بها علم من قبل.

والكلام جار مجرى الامتتان من الله عليهم بذلك، فقد كانوا من قبل يعبدون الأوثان ولا يعرفون عبادة الله.

★ ★ ★

المتعة والنفقة

﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلَمَّا طَلَّقْتَ مَتْعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

المفردات :

: ويتركون ورامع

وينفون

: فليؤصوا وصية.

وصية

متاعاً إلى الحول غير إخراج : أى أن المتوفى يؤصى قبل موته أن تمتع امرأته حولاً كاملاً بالسكنى والنفقة غير مخرجة من بيت زوجها مدة الحول.

: فلا إثم.

فلا جناح

: أى يمتنع بنفقة العدة، والمتاع ما يمنحه الأزواج للمطلقات تطبيراً لنفوسهن.

وللمطلقات متاع

المعنى الإجمالى :

والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات لهم، فقد أوصى الله بهن أن يقمن فى بيت الزوجية عاملاً كاملاً مواساة لهن وإزالة لوحشتهم، ولا يحق لأحد أن يخرجهن، فإن خرجن بأنفسهن فى أثناء العام فلا إثم عليهن،

أيها الأولياء - أن تتركوهن يتصرفن في أنفسهن بما لا يتكره الشرع الشريف عليهن، وأطيعوا الله في أحكامه واعملوا بما شرع لكم فإنه قادر على أن ينتقم ممن يخالف أمره، وهو ذو حكمة بالغة لا يشرع لكم إلا ما فيه المصلحة، وإن غابت حكمتها عن علمكم.

وللنساء اللاتي يطلعن بعد الدخول حق في أن يعطين ما يتمتعن به من المال جبراً لخطأهن، يدفع إليهن بالحسنى، على قدر غنى الزوج وفقره، لأن ذلك مما تجبه تقوى الله، ويلزم به أهل الإيمان.

يمثل هذه البيانات والتشريعات الواضحة المحققة للمصلحة، بين الله لكم أحكامه ونعمه وآياته لتتدبروها، وتعملوا بما فيها من الخير.

التفسير:

٢٤٠ - وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ .

هذه الأحكام تنمة ما في السورة من أحكام الأزواج، وقد جاء ذكر الصلاة أثناء الحديث عن أحكام المطلقات، حقاً للمؤمنين على مراقبة الله وطاعته عند انقضاء الحياة الزوجية وانتهائها.

ومعنى الآية: والذين يتوفعون قرب الوفاة منكم - أيها المسلمون - ويتركون بعدهم زوجات، كتب الله عليكم - أيها الأزواج - قبل الاحتضار، وصية لهن: بأن يتمتعن بعدكم بالنفقة والسكنى إلى نهاية عام كامل بعد الوفاة، غير مخرجات من مساكنهم طيلة الحول: أى لا يخرجهن منه أولياء الميت.

وجمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة، فقد راعى القرآن التدرج في التشريع، فشرع عدة المتوفى عنها زوجها سنة كاملة؛ ولم يكن لها حق في الميراث؛ وإنما لها الحق في السكنى والنفقة في منزل الزوج.

وقد علم أنه كان من عادة العرب إلزام المرأة ببيت زوجها المتوفى سنة كاملة.

فبينت هذه الآية أن عدة المرأة المتوفى عنها زوجها سنة، ثم نسخت هذه الآية بقوله تعالى:

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (البقرة: ٢٣٤).

والآية التي معنا وإن تأخرت تلاوة، إلا أنها متقدمة في النزول.

قال المفسرون: إن المتوفى عنها زوجها: كانت تجلس في بيته حولاً، وينفق عليها من ماله ما لم تخرج من المنزل، فإن خرجت لم يكن على الورثة جناح في قطع النفقة عنها، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر؛ ونسخت النفقة بالربع والثمن في سورة النساء (٢٩١).

قال ذلك ابن عباس وقتادة وغيرهما.

قالوا: ومما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: «نسخت بأية الميراث بما فرض الله لهن من الربع والثمن، ونسخ أجل الحول بأن جعل أجلها أربعة أشهر وعشراً» (٢٩٢).

وبعض المفسرين الآخرين ، ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة ، وممن ذهب إلى هذا الرأي مجاهد ، فقد قال ما ملخصه : دلت الآية الأولى وهى : **يَرْبِضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** . على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها ، ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام أصول . وأن ذلك من باب الوصية بالزوجات ، أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهن حوالاً كاملاً ، ولا يمنع من ذلك لقوله «غير إخراج» فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر ، أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله تعالى : **فَإِنْ خَرَجَ ... الآية** .

ومن المفسرين الذين أيدوا هذا رأى الإمام ابن كثير فى تفسيره فقال : ورأى مجاهد له اتجاه ، وفى اللفظ مساعدة له ، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس ابن تيمية (٢٩٣).

كما روى هذا رأى الطبرى عن مجاهد . وقال القرطبى : ما ذكره الطبرى عن مجاهد صحيح ثابت.

كما أيداه أيضاً الإمام الفخر الرازى فى تفسيره ، فقد قال بعد أن ساق بعض الأدلة التى تثبت ضعف قول من قال بالنسخ : «كان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل» (٢٩٤).

ويتضح لك أن أصحاب رأى الثانى لا يرون معارضة بين هذه الآية ، وبين آية : **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْبِضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ، لأن الآية التى معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها ، وإنما تتحدث عن حقها فى البقاء فى منزل الزوجية بعد وفاة زوجها ، وأن هذا الحق ثابت لها فإن شأته بقيت فيه ، وإن شأته خرجت منه على حسب ما تراه مصلحة لها ، ولأنها لا يوجد فى أفاضها أو معانيها ما يلزم المرأة بالتريص والامتناع عن الأزواج مدة معينة.

أما الآية الثانية فتراها واضحة فى الأمر بالتريص أربعة أشهر وعشراً وهى العدة التى يجب أن تمتنع فيها المرأة التى مات عنها زوجها : عن التزين والتعرض للزواج ، إذن فلا تعارض بين الآيتين ، ومتى انتفى التعارض انتفى النسخ.

ثم ختم الله الآية بقوله :

والله عزيز حكيم .

فهو - سبحانه - قوى قادر غالب على أمره ، حكيم فيما شرع لعباده من آداب وأحكام.

★ ★ ★

٢٤١ - وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ .

تستجيش هذه الآية شعور التقوى فى نفس المؤمن ، وتحتة على تقديم المتعة إلى المطلقة .

وللعلماء آرايان فى هذه المتعة :

الرأى الأول : أنها أمر زائد على النفقة ، أوجبه الله للمرأة على مطلقها جبراً لوحشة الفراق ، وإزالة ما قد يكون بين الزوجين من شقاق ، وتخفيفاً لما قد يحيط بجو الطلاق من تنافر وتخاصم وعدم وفاق . قال

ابن كثير : وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروضاً لها، أو مطلقة قبل المسيس ، أو مدخولاً بها، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف ، واختاره ابن جرير، وهو قول عن الشافعي (٢٩٥).

وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامراته التي طلقها، زيادة على الحقوق المقررة لها شرعاً، ليكون التسريح بإحسان.

الرائ الثاني : أن المراد بالمتاع نفقة المعتدات .

ومعنى كون هذا المتاع: بِالْمَعْرُوفِ . أن يكون حسب العرف بين الناس ، ويحيث يكون على نحو ما قال الله: وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسَعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدْرَهُ . (البقرة : ٢٣٦).

★ ★ ★

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله :

٢٤٢ - كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أي : يمثل هذا البيان الحكيم الواضح ، لأحكام النكاح والطلاق والعدة بأنواعها، والمتعة وغير ذلك ، يبين الله لكم آياته كلها في شريعته، لكي تدركوا أسرارها ، وتعلموا أغراضها ، فتتفادوها عن يقين واقتناع.

★ ★ ★

وإلى هنا تكون سورة البقرة قد بينت لنا في أكثر من عشرين آية ، بعض الأحكام التي تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها ، بأسلوب مؤثر حكيم، وبطريقة تهدي إلى أفضل الأخلاق، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وإن المتأمل في هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية، ليوقن بأن هذا القرآن إنما هو عند الله ، الذي شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

★ ★ ★

الموت والحياة بيد الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٢٤٣)

المضردات :

الم تر : تعجب وتقرير لمن سمع بقصتهم ، وقد يخاطب به من لم ير ولم يسمع فإنه صار مثلاً فى التعجب.

حذر الموت : أى من حذر الموت .

المعنى الإجمالى :

تنبه - أيها النبی - إلى القصة العجيبة واعلمها ، وهى حالة القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الجهاد ، خشية الموت فيه ، وهم أُلُوف كثيرة ، فغضى الله عليهم بالموت والهوان من أعدائهم ، حتى إذا استيسلت بقيتهم ، وقامت بالجهاد ، أحيا الله جماعتهم به ، وإن هذه الحياة العزيزة بعد الذلة المميتة من فضل الله ، الذى يستوجب الشكران ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

التفسير :

٢٤٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ..

المعنى : ألم ينته علمك إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلُوف - وكانوا فوق عشرة آلاف - لأن العشرة فما دونها جمع قلة ، فيقال فيها : آلاف ، ولا يقال ألُوف إلا لجمع الكثرة الذى يزيد على العشرة ..

ولذا روى عن ابن عباس : أنهم كانوا أربعين ألفاً ، كما فى بعض الروايات عنه ، وكان خروجهم بهذه الكثرة ، خوفاً من الموت ، وحذراً منه ، مع أن الحذر لا يمنع من القدر ، فإذا جاء أجلهم ممأ - أو متفرقين - لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

ويرى بعض المفسرين : أن هذه الآية الكريمة : تنبئنا عن قوم من بنى إسرائيل ، دعوا إلى الجهاد فى سبيل الله ، فخرجوا من ديارهم فراراً منه ، حتى لا يموتوا - مع أنهم كانوا ألُوفاً ، فلا ينبغى لهم أن يفروا - لأن من عاداتهم أن يجبنوا عن القتال ، كما حدث عندما أمرهم موسى - عليه السلام - بقتال الجبارين ، فقالوا له : فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) . فنامتهم الله جميعاً ، عقاباً لهم على فرارهم ، ثم أحياهم ليبين لهم قدرة الله عليهم ، وأنه لا ينفعهم الفرار من القتال ، إن كان الموت فيه مكتوباً عليهم ، فقد يموت المرء بدون قتال ، كما حدث لهم .

ويقول صاحب هذا الرأى : إنه - تعالى - بعد أن أحياهم أمرهم بالقتال فقال لهم: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. (البقرة : ٢٤٤) لعلهم يعتبرون بذلك فيخلصوا فى الجهاد.

وقال ابن عطية منكراً لهذا وأمثاله من القصص : وهذا القصص كله لين الأسانيد . وإنما اللازم من الآية أن الله - تعالى - أخبر نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - إخباراً فى عبارة التنبيه والتوقيف ، عن قوم من البشر، خرجوا من ديارهم فراراً من الموت، فأماهم الله ثم أحياهم ليروا - هم وكل من خلف من بعدهم - أن الإمامة إنما هى بيد الله - تعالى - لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا لاغترار مغتر. وقد جعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمره للمؤمنين من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - بالجهاد . هذا قول الطبرى . وهو ظاهر معنى الآية .

ويرى الشيخ محمد عبده: أن هذا مثل لا قصة واقعية ، وأن الموت هنا مجازى.

وخلاصة رايه : أن هؤلاء القوم فروا أمام أعدائهم دون قتال، وتركوا أوطانهم غنيمة للأعداء، فعاشوا أذلاء مشردين، فى حياة أشبه بالموت. فلما عرفوا جنائيتهم على أنفسهم - عادوا إلى جهاد أعدائهم، وتحرير أوطانهم . فاستردوا كرامتهم، وعاشوا حياة كريمة جديرة بالمجاهدين الأبطال .

ويرى آخرون : أنها تتحدث عن قوم نزل ببلادهم وباء الطاعون ، فعمها بأسباب الموت . فظنوا أن فرارهم من هذا الوباء سيكفل لهم النجاة من الموت، فأماهم الله عقاباً لهم ، فلكل أجل عند الله كتاب وقدر. وقد فاتهم أنهم سينقلون معهم وباء الطاعون ، إلى بلاد خالية منه. وتلك جريمة أخرى. وفى هذا يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « إن هذا السقم، عذب به الأمم قبلكم ، فإذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض - وأنتم فيها - فلا تخرجوا فراراً منه .. » إلخ ، أخرجه الإمام أحمد عن عمر. وللشيخين نحوه.

وهذا الإرشاد منه - صلى الله عليه وسلم - مطابق لأحدث النظم الصحية، وهو ما يعرف اليوم ، بالجحر الصحى.

والتعبير بقوله تعالى : فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . إما على ظاهره، وإما مجاز عن تعلق إرادة الله تعالى بموتهم دفعة واحدة.

وقيل : هو تمثيل لإماتهم ميتة نفس واحدة ، فى أسرع زمان، بأمر مطاع لمأمور مطيع .

والله يعلم مقدار المدة التى ظلوا فيها أمواتاً. ولكنها لابد متراخية فترة عن إماتهم. كما يوحى به نعتف بثم فى قوله تعالى : ثُمَّ أَحْيَاهُمْ . أى ثم أعادهم الله إلى الحياة مرة أخرى، بعد فترة موت، ليستوفوا أجالهم، وليؤمنوا بقضاء الله وقدره، وليكونوا عبرة يعتبرون بها هم وغيرهم، وليظهر فضل الله الذى عبر عنه قوله تعالى : إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ . بما أنعم به عليهم من نعمة الحلق، ونعمة البقاء، والرزق، وبما يريهم من الآيات الباهرة. والحجج القاطعة، التى تتفهم فى دينهم.

ويؤن الأستاذ سيد قطب الحكمة المقصودة من الآية بقوله : « إن الحذر من الموت لا يجدى ، وإن الفزع والهلع لا يزيدان حياة، ولا يمدان أجلاً، ولا يردان قضاء، وإن الله هو واهب الحياة، وهو آخذ الحياة، وأنه

متفضل في الحالتين حين يهب، وحين يسترد، والحكمة الإلهية الكبرى كامنة خلف الهبة وخلف الاسترداد، وأن مصلحة الناس متحققة في هذا وذلك، وأن فضل الله متحقق في الأخذ والمنح سواء « (٢٩٦) ».

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

أي أن الله - تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجدهم بهذه الصورة الحسنة، وخلق لهم عقولاً ليهتدوا بها إلى طريق الخير، وسخر لهم الكثير مما في هذا الكون، فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه، ولكن الذي حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم.

وفى قوله : وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ . إنصاف للقلة الشاكرة منهم ومديح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم.

★ ★ ★

فضل القتال والصدقة

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٤٤) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

المفردات :

سبيل الله : السبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث . وإذا أطلق انصرف إلى الجهاد .

يقرض : الإقراض ، إعطاء شخص مالا لغيره ، ليرده إليه بعد حين .

ويبسط : يوسع على من يشاء .

المعنى الإجمالي :

وإذا علمتم أن الفرار من الموت لا ينجي منه، فجاهدوا وابذلوا أنفسكم لإعلاء كلمة الله، وأيقنوا أن الله يسمع ما يقول المتخلفون وما يقول المجاهدون، ويعلم ما يضمركل في نفسه فيجازي بالخير خيراً وبالشر شراً.

والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى المال فقدموا أموالكم ، فأى امرئ لا يبذل أمواله لله طيبة بها نفسه، وقد وعد الله أن يردها عليه مضاعفة أضعافاً كثيرة، والرزق بيد الله فضيق على من يشاء ويوسع لمن يشاء لما فيه مصلحتكم. وإليه مصيركم فيجازيكم على ما بذلتم، ومع أن الرزق من فضل الله وعنايته وأنه هو الذى يعطى ويمنع ،سمى المنفق مقرضاً للحث على الإنفاق والتحبب فيه، وتأكيد الجزاء المضاعف في الدنيا والآخرة.

التفسير :

٢٤٤ - وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

هذه الجملة معطوفة على جملة « ألم تر » من جهة المعنى ، فإن « ألم تر » بمعنى : انظروا وتفكروا . وإنك لترى الأمر بالجهاد منثوراً في هذه السورة ، ضمن آيات الأحكام مذكراً به من آن لآخر ، لأنه من أشق التكاليف ، وعليه يدور بقاء هذا الدين ، الذي يترىص به أعداؤه . فلو لم يجاهدوا لهلكوا ، وضاع دينهم . وقد بدأ الحديث عن الجهاد - في هذه السورة - بقوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ . (البقرة : ١٥٤) حتى وصل إلى هذا التكليف الكريم ، ثم ينتهي في آخر السورة : بالحث على الإنفاق في سبيله .

والخطاب هنا ، لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم .

والجهاد في سبيل الله : هو ما كان لإعلاء كلمة الله ، فلا يكون الجهاد في سبيل الله ، إلا إذا كان هم المقاتل ومقصده ، إحياء دينه ونشره والدفاع عنه . فإن لم تكن تلك نيته ، فإنما يقاتل لأمر دنيوي . ومن كان ذلك ، لا يحصل على الثواب ، الذي أعد الله لمن يجاهدون في سبيله .

وهي مضمون الآية الكريمة : تحذير لكل مسلم من أن يجبن عن القتال حذر الموت ، بقوله : وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فإن الموت قدر لا بد منه . قال- تعالى-: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ . (الجمعة : ٨) إذ الموت أجل يبلغه المرء فيموت ، سواء أكان على فراشه ، أم كان في حرب ضروس .

كما أن فيها رمزاً إلى وعدهم بحسن الجزاء ، وكأنه يقول : واعلموا أنه سميع عليم ، فلا يخفى عليه مجاهد أو قاعد . فمن قعد عنه ، عوقب أشد العقاب . ومن جاهد ، جوزى أعظم الجزاء .

★ ★ ★

ثم حرصهم على الإنفاق في سبيل الله بأموالهم ، بعد أن أمرهم ببذل أنفسهم فقال :

٢٤٥ - مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .

بهذا الأسلوب الاستفهامي البليغ ، يدفعنا الله - تعالى - دفئاً إلى المشاركة بالمال ، في الإعداد للقتال ؛ إعداداً نرهب به عدو الله وعدو دينه ، لتكون كلمة الله هي العليا .

وقد صورت الآية إعطاء الباذل ماله في سبيل الله يبتغى ثوابه بصورة تقديم قرض إلى مقترض ، للإيدان بأن ثوابه محقق ، ولازم لزوم أداء الدين .

وفى الآية لطف من الله بعباده، وتوثيق لثوابه، وأنه لازم الأداء : تفضلاً منه وتحقيقاً لوعده الذى لا يتخلف ، حيث جعل نعمته التى أنعم بها على عباده - إذا أنفقوها فى سبيل الله - كأنها قرض يقدمونه له - سبحانه - مباشرة ، مع أنه غنى عن عباده ، فهو الذى يقول : **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** . (محمد : ٢٨) .

والمراد بكون القرض حسناً : أن يكون حلالاً طيباً . ومع أن القرض مع الناس يؤدى بمثله ، فإنه - تعالى - بين لعباده أن القرض معه يؤدى مضاعفاً ، إذ قال : **فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** . عوضاً عن هذا القرض الذى قدموه خالصاً لله . وتلك المضاعفة ، تكون فى وقت تشتد فيه حاجتهم إلى هذا الريح الوفير ، وهو يوم القيامة .

وقد بين الله هذه المضاعفة فى أواخر السورة إذ يقول : **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** . (البقرة : ٢٦١) .

وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى يضيق الرزق على بعض ، ويوسعه على بعض ، أو يضيقه تارة ، ويوسعه أخرى ، حسبما تقتضيه الحكمة .

وإذا علمتم أنه - تعالى - واهب الأرزاق ، يوسعها ويضيقها كما يشاء وأن ما عندكم هو من بسطه وعطائه ، فأنفقوا مما وسع عليكم، ولا تبخلوا بما هو من فضله ، فإنه مجازيكم على إنفاقكم جزاء مضاعفاً ، حسبما وعدكم .

★ ★ ★

رغبة في القتال

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْتُ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَالُنَا أَلَّا نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

المفردات :

ألم تر إلى المأ

: المأ من القوم، وجوهمهم وأشرفهم، وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه. سمو بذلك، لأنهم يملأون القلوب مهابة، والعيون حسنا وبهاء، والمقصود به هنا - وفي كل القرآن - الرجال : كالقوم، والرهط، والنفر. والرؤية - هنا - علمية : ضمنت معنى الانتهاء . فعديت بحرف الجر (إلى) . والاستفهام : للتعجب والتشويق لهذه القصة.

هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا : فقد قاربتم عدم القتال إن كتب عليكم كما يتوقع منكم، فحسب للتوقع. والمراد : تقرير أن المتوقع منهم كائن ، ولا بد من وقوعه.

المعنى الإجمالي :

تتبع الآية إلى النبا العجيب عن جماعة من بني إسرائيل بعد عهد موسى طلبوا من نبيهم في ذلك الوقت أن يجعل عليهم حاكماً يجمع شملهم بعد تفرق، ويقودهم تحت لوائه إعلاءً لكلمة الله واسترداداً لعزتهم، سألهم ليستوثق من جدّهم في الأمر: ألا ينتظر منكم أن تجبنوا عن القتال إذا فرض عليكم ؟ فانكروا أن يقع ذلك منهم قائلين: وكيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد طردنا العدو من أوطاننا، فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال ، أحجموا إلا جماعة قليلة منهم، وكان إحجامهم ظلماً لأنفسهم ونبيهم ودينهم ، والله عليم بالظالمين.

التفسير :

٢٤٦ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَبْتُ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

كان العبرانيون جيراناً لبني إسرائيل . وكان يحكمهم ملك يقال له جالوت - ولما فسق بنو إسرائيل ، وقتلوا أنبياءهم - سلطهم الله عليهم، فهزمهم، وظهروا عليهم ، وأخذوا كثيراً من بلادهم ، وأسروا من أشرفهم عدداً كبيراً، وضربوا عليهم الجزية، وأخذوا ثوراتهم ، واستباحوا نساءهم. فلما رأوا ما حل بهم عادوا إلى رشدهم ، وقالوا لنبيهم يوشع - عليه السلام - : أقم علينا ملكاً يضم شتاتنا، وتتصاع لهذا الملك جماعتنا ، ونقاتل تحت لوائه في سبيل الله وشريعته وقد كفانا كل ما لقيناه من ذل الهزيمة والاستعباد .

وكان الملك فيهم هو الذى يسير بالجموع. أما النبى ، فهو الذى يقيم أمره ويرشده ويشير عليه ، فيطيع الملك أمره كسائر بنى إسرائيل.

والخطاب فى قوله : أَلَمْ تَرَ . لكل من تتأتى منه الرؤية والعلم.

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا .

هل : هنا - للتحقيق فهى بمعنى « قد » و « عسى » تفيد التوقع : وأدخلت « هل » عليها لتحقيق ما يتوقعه النبى ، « أَلَّا تُقَاتِلُوا » خبر « عسى ».

والمعنى : قال لهم نبيهم مجيباً لهم : أتوقع عدم قتالكم، إن كتب عليكم القتال ، وذلك التوقع محقق عندى وثابت ، وقد بنى توقعه هذا على تاريخهم فى الجهاد ، وجبنهم طول حياتهم أمام عدوهم ، وقولهم لموسى - عليه السلام - حينما دعاهم للجهاد: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) فأجابوا نبيهم :

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا .

والمعنى : وأى شئ يمنعنا من أن نقاتل فى سبيل الله ، ويصرفنا عنه مع وجود مقتضيه ، فقد أخرجنا الأعداء من ديارنا: وطنى علينا قوم جالوت ، فاستباحوا أبناؤنا ونساءنا، وهذه حال تقتضى الجهاد، الذى تركناه طلباً للسلامة والعافية ففقدناهما، فاسأل ربك ما طلبناه منك: من تنصيب ملك علينا: نقاتل معه، لنسترد أرضنا وكرامتنا ومقدساتنا .

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ .

أى : فلما فرض عليهم قتال أعدائهم - بعد ما اختار لهم نبيهم ملكا كطلبهم وبرزوا لقتاله، وشاهدوا جده فى قتالهم - ولَّوْا فراراً وجبناً، إلا نفرًا قليلاً منهم : أثروا أخراهم على دنياهم، طمعاً فيما عند الله وإيماناً بأنه قد قدرت عليهم آجالهم ، فلا ينجيهم من الموت فرار، إن كان مكتوباً عليهم، فصبروا مع ملكهم طالوت على قتال عدوهم جالوت .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

أى جميعاً ، ومنهم الذين تركوا القتال من بنى إسرائيل ، وناقضت أعمالهم أقوالهم، فهو مجازيهم على ظلمهم ، بتوليهم وسائر معاصيهم.

مؤهلات المَلِك

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

المفردات :

طالوت : اسم أعجمي قيل هو المسمى في التوراة باسم شاول، وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك، لأن طالوت كان طويلاً جسيماً .

أنى يكون : كيف يكون، أو من أين يكون .

سعة من المال

: كثرة وفيرة من المال .

التابوت

: صندوق التوراة ، وبعض المقدسات .

فيه سكينة من ربكم

: هي التابوت طمأنينة لقلوبكم، لما فيه من علوم وشرائع وبركة وهداية .

وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون : تلك البقية هي قطع الألواح، وعصا موسى وثيابه، وعمامة هارون إلى غير ذلك .

تحمله الملائكة

: نزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، حتى وضعته بين يدي طالوت .

المعنى الإجمالي :

وقال لهم نبيهم إن الله استجاب لكم، فاختار طالوت حاكماً عليكم، فاعترض كبراًؤهم على اختيار الله قائلين: كيف يكون ملكاً علينا ونحن أولى منه، لأنه ليس بذي نسب ولا مال ، فرد عليهم نبيهم قائلأ : إن الله اختاره حاكماً عليكم لتوافر صفات القيادة فيه، وهي سعة الخبرة بشئون الحرب، وسياسة الحكم مع قوة الجسم،

والسلطان بيد الله يعطيه من يشاء من عباده، ولا يعتمد على وراثة أو مال، وفضل الله وعلمه شامل، يختار ما فيه مصالحكم.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِن دَلِيلُ صَدَقِي عَلَى أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ طَالُوتَ حَاكِمًا ، هُوَ أَن يَعُودَ إِلَيْكُمْ صُنْدُوقُ التَّوْرَةِ الَّذِي سَلَبَ مِنْكُمْ تَحْمِلَهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَفِيهِ بَعْضُ آثَارِ آلِ مُوسَى وَآلِ هَارُونَ ، الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وَعِنْدَ إِحْضَارِهِ تَطْمِئِنُّ قُلُوبُكُمْ ، وَإِن فِي ذَلِكَ لَدَلِيلًا يُدْفِعُكُمْ إِلَى اتِّبَاعِهِ وَالرِّضَا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ تَذَنُّعُونَ لِلْحَقِّ وَتُؤْمِنُونَ بِهِ .

التفسير :

٢٤٧ - وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ...

أى قال لهم نبيهم بعد أن أوحى الله إليهم بما أوحى، إن الله تعالى، وهو العليم الخبير بأحوال عباده قد اختار لكم، ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكاً عليكم، وقائداً لكم فى قتالكم لأعدائكم، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به.

قَالُوا أُنَئِىْ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ...

تشير هذه الجملة إلى طبيعة بنى إسرائيل، من اللجاجة والمناد، لقد كانوا يطلبون ملكاً يقاتلون تحت لوائه، فلما اختار الله لهم طالوت، أنكروا اختياره وتعجبوا منه، وقالوا : كيف يكون له الملك علينا، والحال أننا أحق بالملك منه، لأننا أشرف منه نسباً، إذ منا من هو من نسل الملوك، أما طالوت فليس من نسلهم، وفضلاً عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا، فكيف يكون هذا الشخص ملكاً علينا ؟.

فانت تراهم لانعدام المقاييس الصحيحة عندهم، ظنوا أن المؤهلات الحقيقية لاستحقاق الملك والقيادة، إنما تكون بالنسب وكثرة المال، أما الكفاءة العقلية، والقوة البدنية، والقدرة الشخصية، فلا تؤهل للملك فى نظرهم، وكل هذا غش فى التصور، كما أنه من سمات بنى إسرائيل المعروفة.

قال بعض المفسرين : « وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصصة بسبب معين من أسباط بنى إسرائيل، وهو سبب لاوى بن يعقوب، وسبب المملكة بسبب يهوذا، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد بنيامين » (٢٩٧).

واستبعد الأستاذ محمد عبده هذا القول من المفسرين وقال : « ولا يصح كلامهم فى بيت الملك لأنه لم يكن فيهم ملوك قبله، ونفهم سعة المال التى تؤهله للملك فى رأى القائلين لا تدل على أنه كان فقيراً، وإنما العبرة فى العبارة هى ما دلت عليه من طابع الناس، وهى أنهم يرون أن الملك لابد أن يكون وارثاً للملك، أو ذا نسب عظيم يدبر به الملك، والسبب فى هذا أنهم قد اعتادوا الخضوع للشرقاء والأغنياء، وإن لم يمتازوا عليهم بمعارفهم وصفاتهم الذاتية، فبين الله أنهم مخطئون فى زعمهم أن استحقاق الملك يكون بالنسب وسعة المال، (٢٩٨)

قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسَاطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

إن الله فضله واختاره للملك ومنحه عدة مؤهلات هي :

١ - الاستعداد الفطري للملك.

٢ - السعة في العلم الذي يكون فيه التدبير ، ويشمل ذلك معرفته بأحوال أمته ، واستثمار قوى الخير فيها .

٣ - بسطة الجسم الملتزم لصحة الفكر على قاعدة « العقل السليم في الجسم السليم » ، والشجاعة والقدرة على المدافعة والهيبة والوقار .

٤ - توفيق الله وتسخيره لأسباب الملك .

قال الأستاذ محمد عبده :

والاستعداد هو الركن الأول في المرتبة ، فلذلك قدّمه ، والعلم بحال الأمة ومواضع قوتها وضعفها وجودة الفكر في تدبير شؤونها هو الركن الثاني في المرتبة ، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة . اتخذها من هو مستعد لها سراجاً يستضيئ برأيه في تأسيس مملكته أو سياستها ، ولم ينهض به رأيه إلى أن يكون هو السيد الزعيم فيها .

« وكمال الجسم في قوام وروائه هو الركن الثالث في المرتبة ، وهو في الناس أكثر من سابقه ، وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك ، لأن المزايا الثلاث إذا وجدت سهل على صاحبها الإتيان بالمال ، وإننا لنعرف في الناس من أسس دولة وهو فقير أمي ، ولكن استعداده ومعرفته بحال الأمة التي سادها وشجاعته كانت كافية للاستيلاء عليها ، والاستعانة بأهل العلم بالإدارة ، والشجعان على تمكن سلطته فيها » (٢٩٩) .

وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ : قاله - سبحانه - إذا أراد أمراً هياً له الأسباب ، ثم قال له : كن فيكون .

« فأيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته ، إنما يكون بجعله مستعداً للملك في نفسه ، ويتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك » (٣٠٠) .

وَاللَّهُ وَاسِعٌ . الفضل والعطاء ، عليم . يشئون عبادَه خبير بأحوالهم وأعمالهم .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بيدك الخير إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (آل عمران : ٢٦) .

★ ★ ★

٢٤٨ - وقال لهم نبئهم إن آية ملكي أن يأتيكم التابوت فيه سبينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة ...

وقال لهم نبئهم ليقنعهم بأن طالوت جدير بالملك .

إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ . أى علامة ملكه، أن يأتيكم صندوق فيه ألواح التوراة، وبعض المقدسات على يدي طالوت.

وكان أعداؤهم الذين شردوهم من الأرض المقدسة التي غلبوا عليها، على يد نبيهم يوشع بن نون، بعد فترة التيه ووفاة موسى - عليه السلام - قد سلبوا منهم مقدساتهم ممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم، من آل موسى وآل هارون، وقيل : كانت فيه نسخة من الألواح التي أعطاه الله لموسى على الطور .. فجعل لهم نبيهم علامة من الله أن تقع خارقة يشهدونها، فيأتيهم التابوت بما فيه : نُحْمَلُ الْمَلَائِكَةُ . فتفيض على قلوبهم السكينة .. قال لهم : إن هذه الآية تكفي دلالة على صدق اختيار الله طالوت ، إن كنتم مؤمنين حقاً . ويبدو من السياق أن هذه الخارقة قد وقعت فانتهى القوم منها إلى اليقين .

قال الزمخشري : قوله : وَيَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ . هي رضراض الألواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة، وكان الله قد رفعه بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون إليه، فكان ذلك آية لاصطفاء الله لطلالوت ، فإِن قلت : من هم « آل موسى وآل هارون » ؟ قلت : الأنبياء من بني يعقوب بعدهما، ويجوز أن يراد مما تركه موسى وهارون والآل مقحم لتفخيم شأنهما « (٣٠١) ».

وقال ابن كثير : « قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون » (٣٠٢) .

وقيل : إن حمل الملائكة للتابوت مجاز عن الإبصار له ، كما تقول : حمل فلان متاعه إلى مكة ، أى أوصله إليها .
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ .

أى أن في ذلك الذى أتاكم به طالوت لآية عظيمة وعلامة ظاهرة لكم تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله ، وبالحق الذى جاء به أنبيأؤه.

اختبار الجنود

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ ۖ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَّا ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثُبْتُ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ يَا ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ وَقَتَل دَاوُدُ جَالُوتَ ۖ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ۝ ﴾

المفردات :

فصل

: خرج .

مبتليكم بنهر

: أى مختبركم به، ليظهر الصادق منكم والكاذب فى طاعة الملك، والجهاد فى سبيل الله، لإخراج العدو من البلاد التى أخذها منكم.

يطعمه

: يذوق طعمه .

اغترف، غرفة

: الغرفة ، ما يفرغ .

لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده : لا قوة لنا على حربه، فضلاً عن الانتصار عليه .

يظنون

: هى هنا بمعنى يوثقون بالبحث ، على حد قوله تعالى : إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاق

حِسَابِيَةٍ . (الحاقة : ٢٠) .

ملاقو الله

: أى مبعوثون إليه .

برزوا

: ظهوروا واصطفوا للقتال ، على بارز من الأرض .

المعنى الإجمالى :

فلما خرج بهم طالوت قال لهم إن الله مختبركم بنهر تمرنون عليه فى طريقكم فلا تشربوا منه إلا غرفة، فمن شرب منه أكثر من ذلك فليس من جيشنا، ولا من جمعنا، لخروجه على طاعة الله ، ولن يصحبني إلا من لم يشرب منه أكثر من غرفة، فلم يصبروا على هذا الاختبار وشربوا منه كثيراً إلا جماعة قليلة ، فاصطحب هذه القلة الصابرة واجتاز بها النهر ، فلما ظهرت لهم كثرة عدد عدوهم قالوا : لن نستطيع اليوم قتال جالوت وجنوده لكثرتهم وقتلتنا ، فقال نفر منهم - ثبت الله قلوبهم لرجائهم فى ثواب الله عند لقاءه - لا نخافوا فكثيراً ما انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، فاصبروا فإن الله مع الصابرين.

ولما تقدم المؤمنون لقتال جالوت وجيشه اتجهوا إلى الله ضارعين داعين له أن يملأهم بالصبر، ويثبى عزائمهم ويثبتهم فى ميدان القتال ، وأن ينصرهم على أعدائهم الكافرين.

فهزموا عدوهم بإذن الله - تعالى - وقتل داود - وهو أحد جنود طالوت - جالوت قائد الكفار، وأعطاه الله الحكم بعد طالوت والنبوة والعلم النافع وعلمه مما يشاء ، وسنة الله أن ينصر الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون ، ولولا أن الله يسلط جنوده على المفسدين لمحو فسادهم ، ويسلط الأشرار بعضهم على بعض ، لما عمرت الأرض ، ولكن الله دائم الإحسان والفضل على عباده .

التفسير :

٢٤٩ - فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا
مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ..

فلما خرج طالوت بالجنود من بيت المقدس لقتال أعدائهم ساروا فى أرض قفرة أصابهم عطش شديد، ثم مروا بنهر فى الطريق ، فطلب منهم القائد ألا يشربوا منه ورخص لهم فى غرفة واحدة باليد .

فانقسم أتباع طالوت إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم شرب كثيراً مخالفاً أمر طالوت.

٢ - قسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده.

٣ - قسم لم يشرب أصلاً قليلاً ولا كثيراً مؤثراً العزيمة على الرخصة، وهذا القسم هو الذى اعتمد عليه طالوت اعتماداً كبيراً فى قتاله لأعدائه.

نقل القرطبى عن ابن عباس أنه قال : « شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفار شرب الهيم (٢٠٢) ، وبقى بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً ، وأخذ بعضهم الغرفة، فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممن أخذ الغرفة (٢٠٤) .

قال الأستاذ سيد قطب : « هنا يتجلى مصداق حكمة الله فى اصطفاء هذا الرجل ، إنه مقدم على معركة، ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والنذل فى تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبية،

فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة ، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة ، والإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصدد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحمل تكاليفها . فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء . فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره . صموده أولاً للرغبة والشهوة، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب.. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش. ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية .

فشريوا منه إلا قليلاً منهم .

شربوا وارتبوا . فقد كان أباح لهم أن يقترب منهم من يريد غرفة بيده، تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف ، وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم ، انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقة على عاتقه وعاقبهم . وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة، والجيش ليست بالعدد الضخم ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الحازمة، والإيمان الثابت المستقيم على الطريق (٢٥٥).

فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

المعنى : فلما جاوز طالوت النهر، وتركه هو والذين آمنوا معه، وهم القليل الذي نفذ أمره، وصدق إيمانه بربه . ونظروا إلى كثرة عدوهم وهم قليل، فأوجس بعضهم خيفة، وقالوا : لا طاقة لنا اليوم . بقتال « جالوت وجنوده » أي لا قدر لنا على محاربتهم ، فضلاً عن غلبتهم . وهؤلاء - وإن كانوا من المؤمنين معه، المنفذين لأمره في اغتراء الفرقة - إلا أنهم قالوا إظهاراً لواقع الحال، ورجاء المعونة من الله، وليس نكوصاً وامتناعاً عن القتال.

قال الذين يظنون أنهم ملائكة الله

أي قال أفضلهم وخلصاؤهم ، الذين يتيقنون أنهم ملائكة جزاء الله يوم القيامة .

كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

أي كم من جماعة - قليلة العدد والعدة - استعصمت بإيمانها بالله - وتوكلت عليه- غلبت فئة كثيرة العدد والعدة، بإرادة الله ونصره ؟ فإن النصر من عند الله، لا بكثرة الجنود . فلا ينبغي لنا أن نستقل أنفسنا فتجني عن لقاء عدونا .

ثم ختمت الآية بهذه البشرى :

والله مع الصابرين .

أي معهم بالنصر والتأييد .

وهذه الجملة إما : من جهته - تعالى - تقريراً لكلامهم ، ودعاء للسامعين إلى مثل حالهم، وإما : من كلام هؤلاء الذين يظنون أنهم ملائكة الله ، قالوا ذلك تشجيعاً وترغيباً في الصبر.

٢٥٠ - وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

ولما واجه حزب الإيمان أعداء الله، وصاروا إلى براز الأرض، المتكشف منها، متأهبين لحرب جالوت وجنوده ، قالوا ذاكرين عبوديتهم : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً . عظيمًا غامرًا من عندك، يشملنا ويعمنا، ويقوى نفوسنا . وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا : بطمأنينة نفوسنا عند اللقاء ، فإن طمأنينة النفس تهب القوة، وتثبت الأقدام . وَأَنْصَرْنَا . بفضلك ، وأعنا بقوةك : عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . الجاحدين لألوهيتك ونعمك المتوالية عليهم.

٢٥١ - فَهَرَمُوهُمْ يَإِذْنِ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ . . .

أى : فاستجاب الله دعاءهم، فهزموهم بإرادة الله - تعالى - ونصره لهم، بسبب إيمانهم واعتمادهم عليه، وصبرهم في ملاقات العدو واستمسكهم بأسباب النصر، وعدة الحرب. وَقَتْلَ دَاوُدَ : أحد جنود طالوت؛ جَالُوتَ . زعيم العبرانيين ، وانتصرت القلة المؤمنة، على الكثرة الكافرة.

وفى ذلك ترغيب للمؤمنين فى الجهاد، وتحذير من الضعف والفرار حذر الموت. ثم مات طالوت ملك بنى إسرائيل ، فتولى الملك داود. وَأَتَاهُ اللَّهُ . - بسبب شجاعته وعقله ودينه - الملك ، ووهبه الحكمة، وعلمه مما يشاء الله تعليمه إياه، من العلم الذى اختصه به - عليه السلام .

وبذلك دفع الله يداود عن بنى إسرائيل معرة الجبن والهزيمة.

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ.

وهكذا يدفع الله بالصالحين - من الناس - المفسدين فى الأرض المعطلين مصالح العباد، ولولا ذلك لفسدت الأرض، ووقع الناس فى الفوضى.

وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فيدفع الله بعضهم بقوة بعض ، رحمة بهم.

آيات الله

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٥٢)

المعنى الإجمالى :

تلك القصة من العبر التي نقصها عليك بالصدق لتكون أسوة لك ودليلاً على صدق رسالتك، ولتعلم أننا سننصرك كما نصرنا من قبلك من الرسل.

التفسير :

٢٥٢ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

أى : تلك الآيات التي حدثاك فيها عن قصة أولئك القوم وما جرى لهم، هي آيات الله التي لا ياتياها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، تتلوها عليك يا محمد عن طريق جبريل ثلاثاً ملتبسة بالحق الثابت الذي لا يحوم حوله الباطل. وإنك يا محمد - لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ - أرسلك الله - كما أرسلهم - ومن ثم نطو عليك هذه الآيات ونزودك بتجارب البشرية كلها في جميع عصورها، وتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحلها، ونورثك ميراث المرسلين .

★ ★ ★

وبعد، فهذه قصة الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، وإن فيها لعبراً متعددة، وعظات متنوعة لقوم يعتقلون . ومن العبر التي تؤخذ منها :

١ - أن الشعور بالظلم والهوان، والابتلاء بالمحن والهزائم ، والوقوع تحت أيدي المعتدين ، كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلوية ، وعزتها المفصوبة، حتى تتال حقا ممن سلبه منها أو تموت دونه ، لأن النفوس الأبية تشعر دائماً بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة. يدل على ذلك قوله تعالى : وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا . (البقرة : ٢٤٦) .

٢ - أن الناس في كل زمان ومكان ، يلجأون - خصوصاً عندما تنزل بهم الشدائد - إلى من يتوسمون فيهم الخير والصلاح ، لى يرشدوهم إلى ما يأخذ بيدهم إلى طريق السعادة، ولكى يهدوهم إلى أفضل السبل التي تتقدهم مما هم فيه من بلاء، ولكى يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح. ألا ترى إلى الملأ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى نبي لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم من الذل ما أصابهم : ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . إنهم لم يلجأوا إلى نبيهم بيثون إليه شكواهم، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال في سبيل الله إلا لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى ، والعقل السليم والخلق القويم ، والأسوة الحسنة .

٣ - أن القائد يجب أن تتوافر فيه صفتان : قوة العقل ، وقوة الجسم ؛ لأنه متى توافرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقوم بقيادة أتباعه بنجاح، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف

مبلغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم، وإلا يكلفهم ما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره. انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : **إِنَّ اللَّهَ مَبْتَلِيكُمْ بَنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** . وهكذا القواد العقلاء يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم.

٤ - أن الفئة القليلة المؤمنة كثيراً ما تنتصر على الفئة الكبيرة الكافرة، لأن المؤمنين الصادقين يحملهم إيمانهم على اليقين بقاء الله وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته، وعلى الإقدام الذي يربع الكافرين، ويخيف الفاسقين، وصدق الله إذ يقول : **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** .

٥ - أن هزائم الأمم يمكن إزالتها متى توافرت لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء، والجند الأشداء على أعدائهم الرحماء فيما بينهم، وأن من شأن المؤمنين حقاً أنهم مع مباشرتهم للأسباب، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه القتال، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر، مع كل ذلك لا يفترون ولا يتطاولون، بل يعتمدون على الله - تعالى - اعتماداً تاماً، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء، ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم، انظر إلى الصفوة المؤمنة من جند طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده، لقد قالت كما حكى القرآن عنها : **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَدْمَانَا** وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ...

٦ - أن من سنن الله في خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعاً دائماً بين الحق والباطل، ونزاعاً موصولاً بين الأخيار والأشرار ، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطفيانهم في الأرض، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين، ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس.

٧ - أن القصة الكريمة تصور لنا ما جيل عليه بنو إسرائيل من نقض العهد وكذب في القول : **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ** . ومن تطاول على أنبيائهم ، وعصيان لأوامرهم ، واعتراض على توجيهاتهم ، وتفضيل للجاء والمال على العقل والعلم : **قَالُوا أَتَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ** . ومن خور عند الابتلاء والاختبار ، وحماس في ساعة السلم وتكوص في ساعة الجد، تأمل قوله تعالى : **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ** فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثاني)

خرج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

- (١) أي: جهة البيت .
- (٢) أي: في صلاة العصر.
- (٣) صلى نحو بيت المقدس عشرة أو سبعة عشر شهرا ٦ .
(٤١، ٣٩٩، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢)، ومسلم (٥٥٥)، والتسائي (٤٨٨، ٤٨٩، ٧٤٢)، والترمذي (٢٩٦٢)، وأحمد (١٨٠-١٨٠) من حديث البراء .
- (٤) العتيق: المهيا والمعد .
- (٥) عمدة التفسير من الحفاظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر . وفي هامشه: أن هذا الحديث في البخاري ٨/٣٦٤، ١٢٠-١٢٠، ١٣١/١٢، ٣٦٦/١٢ . ورواه الطبري: ٢١٧ - ٢١٨١ ورواه أحمد في المسند: ١١٢٠٢ ويرواية أخرى في المسند أيضا رقم: ١١٥٧٩ . والترمذي (٢٩٦١) .
- (٦) انظر في حديث البراء: البخاري ٨٩/١، ٩٠/٨، ١٢٠/٨ (فتح الباري وفي حديث الترمذي عن ابن عباس، الترمذي ٧٠/٤ .
- (٧) أترون هذه طارحة ولدها في النار قلنا: لا، وهي تقدر على ٩ .
رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٣٧٥٤)، من حديث عمر بن الخطاب .
- (٨) انظر تفسير ابن كثير . ١٩٤/١ .
- (٩) فصل تفسير المنار القول تفصيلا كادخيا في بيان وشارات كتب أنبياء بني إسرائيل بنينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ٣٣٠/٩ - ٣٣٠ .
- (١٠) انتقل سلمان من الجوسية إلى النصرانية ومنها إلى الإسلام ثبما لما أخبره به قيس من النصراني بأن نبيا سيظهر في بلاد العرب .
- (١١) تفسير المنار: ٣١/٩ .
- (١٢) تفسير المنار ٣٢١/٩، يتصرف .
- (١٣) من أمثلة هذه الإشارات: سفر التنقيح: ١٨/١٨، ٢/٢٢، والمزامير إصباح: ٤٥ حيث أورد في صفحة ١٧ مطابقة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وإنجيل متى: ١٧/٤، ١٠/١٢، ٢٤/١٢، وإنجيل يوحنا (راجع تفسير المنار ٢٤٠/٩ - ٢٨٢) .
- (١٤) تفسير ابن جرير الطبري: ٢٧/٢ .
- (١٥) عمدة التفسير من الحفاظ ابن كثير: ٢٧٠/١ .
- (١٦) الكاف في أول الآية التشبيه وهي في موضع نصب ؛ على أنها نعت لمصدر محذوف، وما مصدرية والتقدير: لقد حولت القبلة إلى شطر المسجد الحرام ؛ لأنتم نعمتني عليكم إتماما مثالا: إتمام نعمتي عليكم بإرسال رسول منكم .
- (١٧) تفسير الألوسي: ١٨/٢، طبعة منير النمشقي .
- (١٨) عمدة التفسير من الحفاظ ابن كثير ٢٧٢/١ .
- (١٩) أنا عند ظن عديبي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في ٢٢ .
رواه البخاري (٧٠٥، ٧٠٥، ٧٥٠)، ومسلم (٢١٧٥)، والترمذي (٢٣٨٨، ٢٦٠٢)، وابن ماجه (٢٨٢٢)، وأحمد (١٠٣٠٦، ١٠٣٢٦، ١٠٤٠٢، ١٠٥٦٦، ١٠٧٢٨٣، ٢٧٣٩٥، ٨٨٣٢، ٩٠٨٧، ٩٤٥٧) .
- (٢٠) المسند: ١٢١٢٢ نقل عن عمدة التفسير: ٢٧٢/١ .
- (٢١) أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر ٢٤ .
رواه مسلم في الإمامة (٣٥٠٠) والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٢٧) والدارمي في الجهاد (٢٣٠٢) وابن ماجه في الجهاد (٢٧١٩) من حديث عبد الله بن مسعود . ورواه أحمد (٢٥٩١٣) والترمذي في فضائل الجهاد (١٥٦٥) من حديث كعب بن مالك، وقال: هذا حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود في الجهاد (٢١٥٨) وأحمد (٢٣٦٧) من حديث ابن عباس، ورواه ابن ماجه (١٤٩٢) من حديث أم بشر بنت البراء بن معمر .
- (٢٢) المسند: ١٥٨٤٢، وقد رواه الطبري في التفسير ؛ وقوله تعلق هو بفتح أوله وضم ثالثة من باب: قتل، قال ابن الأثير: أي: تاكل .
- (٢٣) عمدة التفسير من الحفاظ ابن كثير: ٢٧٤/١ .
- (٢٤) تفسير القرطبي: ١٧٦/٢ .
- (٢٥) حديث عمر هذا رواه الحاكم في المستدرک: ٢٧٠/٢ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والعدل بكسر العين: نصف الحمل يكون على أحد جنبي اليمعير، والملاوة: ما يوضع بين العدلين وهي زيادة في الحمل، وكذلك الصابرون أعطوا لوابهين وزيدوا أيضا، وانظر عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٢٧٥/١ .

- (٢٦) أخرجه البخاري في كتاب الطب ١٤٨/٧ ، وأخرجه في كتاب البر والصلة: ١٢/٨ .
- (٢٧) صحيح مسلم: كتاب الجنائز: ٢٨/٢ .
- (٢٨) عمدة التفسير: عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١ .
- (٢٩) في الحديث « زمزم طعام طعم وشفاة سقم » رواه ابن أبي شبة واليزار من حديث أبي ذر كما في الجامع الصغير ، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١ .
- (٣٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٨/١ .
- (٣١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٢٧٩/١ .
- (٣٢) رواه أحمد في المسند: ٧٥٦١ من حديث أبي هريرة ورواه ابن حبان في صحيحه: ٩٥ بتحقيق أحمد شاكر ، والحاكم في المستدرک: ١٠١/١ . انظر عمدة التفسير: ٢٧٩/١ هامش .
- (٣٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب حفظ العلم: ٤٠/١ .
- (٣٤) أورده الفردوسي وذكره القرطبي . وهو عن علي بن أبي طالب من قوله ، رواه البخاري في العلم (١٢٧) .
- (٣٥) رواه أحمد في المسند ٤١٦/٦ طبعة الحلبي ، ورواه أبو داود: ١٤٩٦ ، قال المنذرى: وأخرجه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى: حديث حسن . وهو في ابن ماجه: ٢٨٥٥ هـ . نقلا من عمدة التفسير للحافظ ابن كثير .
- (٣٦) تفسير الألويسي: ٣٢/٢ .
- (٣٧) يشير إلى ما ذكره الله في الآية من نعم هي: ١- خلق السماء . ٢- خلق الأرض . ٣- اختلاف الليل والنهار . ٤- الفلك التي تجري في البحر . ٥- ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . ٦- وبث فيها من كل دابة . ٧- وتصريف الرياح . ٨- والسحاب المنخر بين السماء والأرض .
- (٣٨) تفسير الفخر الرازي: ٢٢٩/٤ .
- (٣٩) تفسير التحرير والتلويز: ٩٣/٢ للشيخ: محمد الطاهر بن عاشور .
- (٤٠) تفسير الفخر الرازي: ٨٥ ، بتصريف وتلخيص .
- (٤١) تفسير المنار: ٩٦/٢ .
- (٤٢) سموا الله عليه: وكلمه ٥٠ .
- رواه البخاري (٢٠٥٧) ، وأبو داود (٢٨٢٩) ، وابن ماجه (٢١٧٤) ، والدرامي (١٩٧٦) من حديث عائشة .
- (٤٣) تفسير الفخر الرازي: ٢٨/٥ ، بتصريف .
- (٤٤) تفسير التيسابوري: ١٤٩/٢ .
- (٤٥) تفسير التيسابوري: ١٤٩/٢ - ١٥٠ .
- (٤٦) المرجع السابق .
- (٤٧) تفسير التيسابوري: ١٥٢/٢ ، بتصريف .
- (٤٨) تفسير المنار: ١٤٧/٢ .
- (٤٩) مقتبس من كتب التشريع الإسلامي والتفسير ، وخاصة تفسير المنار: ١٢٥/٢ - ١٤٧ والتشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي: ٢٥٣ ، ٦٦٣/١ .
- (٥٠) تفسير القرطبي: ١٦٢/٢ . ط٢ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية .
- (٥١) تفسير القرطبي: ١٦٢/٢ . ط٢ مصور عن طبعة دار الكتب المصرية .
- (٥٢) إن الله قد قسم لكل إنسان نصيب ٦٥ .
- رواه النسائي في الوصايا (٣٥١٢) ، وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٢) وأحمد (١٧٢١١ ، ١٧٢١٦ ، ١٧٢١٧) .
- (٥٣) إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ؛ فلا وصية لوارثه ٦٥ .
- رواه أبو داود في البيوع (٣٥٦٥) ، والنسائي في الوصايا (٣٦١٤ ، ٣٦٤٢) ، وابن ماجه في الوصايا (٢٧١٣ ، ٢٧١٤) .

(٥٤) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٢/٢٧٩ وقد ذهب إلى ذلك ابن كثير في تفسيره، وانظر تعليق الأستاذ: أحمد شاكر على تفسير الآية: ١٨/٢ حيث صحح أسانيد الحديث (لا وصية لوارث).

(٥٥) ما حق امرئ مسلم له شيء يبيع يلبثين إلا ووصيته ٦٥.
رواه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٣٧)، وأبو داود (٢٨٦٢)، والترمذي (٩٧٤، ٢١١٨)، والدارمي (٢١٧٥)، النسائي (٦١٥، ٦١٦، ٦١٨، ٦١٩)، ومالك (١٩٢)، وابن ماجه (٦٩٩، ٢٧٠٢)، وأحمد (٤٨٨٤، ٥٠٩٧، ٥١٧٥، ٥٤٨٩، ٥٨٩٤، ٦٠٦٥) من حديث عبد الله.

(٥٦) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١٨/٢ فقد حمل على هذا الرأي وقده.

(٥٧) تفسير القرطبي: ٢١٧/٢ المسألة الموقفة عشرين.

(٥٨) المرجع السابق: ٢٦٨/٢ المسألة ٢١.

(٥٩) تفسير فاتحة الكتاب والبقرة . هدية مجلة منبر الإسلام عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ص ٢٥.

(٦٠) كما مع التبي فمننا الصائم ومننا المفطر ٦٨.

رواه النسائي في الصيام (٢٣٠٩، ٢٣١٠)، وأحمد (١١٠٧٩).

(٦١) إن شئت فسم وإن شئت فاقطر ٦٨.

رواه البخاري (١٩٤٣)، ومسلم (١١٢١)، والترمذي (٧١١)، والنسائي (٢٣٠٦، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨)، وابن ماجه (١٦٦٢)، وأحمد (٢٥٠٧٩)، والدارمي (١٧٠٧) من حديث عائشة، ورواه مسلم (١١٢١)، وأحمد (١٥٦٠٧) والنسائي (٣٠٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٦، ٢٢٩٧، ٢٢٩٨، ٢٢٩٩، ٢٣٠٠، ٢٣٠١، ٢٣٠٢، ٢٣٠٤، ٢٣٠٥) من حديث حمزة بن عمرو.

(٦٢) تفسير المراغي: ٧٢/٢.

(٦٣) مفردات القرآن: ٢١٢ . للراغب الأصفهاني.

(٦٤) انظر تفسير القرطبي: ٢٨٨/٢ والحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة البقرة: ٣٠/٦ وأخرجه مسلم: في كتاب الصوم.

(٦٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير - سورة البقرة باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا مَعْرُوفَاتُ ...﴾ (٣٠/٦).

(٦٦) انظر تفسير القرطبي: فقد أورد عن ابن عباس - إن كان الإنسان عنه صعيحا - أن يطبقونه ورد فيها (يطبقونه) على معنى يكلفونه مع الشقة اللاحقة لهم: ٢٨٨.

(٦٧) إذا جاء رمضان : فتحت أبواب الجنة ٧١.

رواه البخاري (١٨٩٨)، ومسلم (١٠٧٩)، وأحمد (٨٤٦٩)، والنسائي (٢١٠٠)، والدارمي (١٧٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٦٨) من صام رمضان ، واتمه سبعا من شوال ٧١.

رواه مسلم في الصيام (١١٦٤)، والترمذي في الصوم (٧٥٩)، وأحمد (١٤٠٦).

(٦٩) انظر تفسير الخازن: ١/١٢٥.

(٧٠) كل عمل ابن آدم له إلا الصيام : فإنه لي وأنا أجزي به ٧٦.

رواه البخاري (١٩٠٤، ٥٩٣٧)، ومسلم (١١٥١)، وأحمد (٧٦٦٦، ٧٧٣٠، ١٠٣١٤، ٢٧٦٥)، والنسائي (٢٢١٦، ٢٢١٨، ٢٢١٧) من حديث أبي هريرة.

(٧١) للصائم عند فطره دعوة ما ترد ٧٦.

رواه ابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

ورواه الترمذي في صفه الجنة (٢٥٢٥) وفي الدعوات (٢٥٩٨)، وابن ماجه (١٧٥٢)، وأحمد (٧٩٨٣) وقال الترمذي: ليس إسناداه بذلك القوى، قلت: وهو نفي: ثلاثة لا ترد دعوتهم.. والصائم حتى يفطر... الحديث.

(٧٢) ينزل الله إلى سماء الدنيا ٧٦.

رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، وفي الدعوات (٣٢٢١)، وفي التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك في الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود في الصلاة (١٢١٥)، وفي السنة (١٢٣٢)، والترمذي في الصلاة (٤٤٦)، وفي الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمي في الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٢٨، ٧٥٦٧، ٧٧٣٣، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٧، ١٢٧٢٠) من حديث أبي هريرة. ورواه الدرامي في الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم، ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجعفي، ورواه أحمد (٢٨١١، ٢٨٥٦) من حديث ابن مسعود، ورواه الدرامي في الصلاة (١٤٨٣) من حديث علي.

- (٧٣) انظر تفسير القرطبي للآية: ٢١٥/٢.
- (٧٤) تفسير القرطبي: ٢١٤/٢.
- (٧٥) تفسير الكشاف للزمخشري: ٢٣٠/١.
- (٧٦) مفردات القرآن للأغلب الأصفهاني ص ٦٣ والآية من سورة يوسف: ٥٣.
- (٧٧) في ظلال القرآن: ١٢٥/٢.
- (٧٨) في ظلال القرآن: ١٧٦/٢.
- (٧٩) لعن الله الرافضى والمرثضى.
- رواه أبو داود في الأفضية (٣٥٨٠)، والترومذى في الأحكام (١٢٢٧)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٣)، وأحمد (٢١٨٩٢) من حديث أبي هريرة.
- (٨٠) تفسير القرطبي: ٢٣٨/٢.
- (٨١) إنكم تختصمون إليَّ ٨٢.
- رواه البخارى في المظالم والقصب (٢٤٥٨) وفي الشهادات (٢١٨٠) وفي الأحكام (٧١٨١، ٧١٨٥)، ومسلم في الأفضية (١٧١٣)، وأبو داود في الأفضية (٢٥٨٣)، والترومذى في الأحكام (١٣٣٩) وقال: محدث حسن صحيح، وابن ماجه في الأحكام (٢١٧)، ومالك في الموطأ ٢ / ٧.
- (٨٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤٤/٢.
- (٨٣) الحاق (بتثليث الميم) أن يستمر القمر ليلتين فلا يرى غدوة ولا عشية.
- (٨٤) تفسير القرطبي: ٢٤١/٢.
- (٨٥) كانوا إذا أحرموا في الجاهلية ٨٤.
- رواه البخارى في التفسير (٤٥١٢) من حديث البراء.
- (٨٦) تفسير القرطبي: ٢٤٥/٢، وتفسير مقاتل بن سليمان تحقيق د. عبد الله شحاتة: ٩٢/١، نشر دار الشروق بالقاهرة.
- (٨٧) تفسير القرطبي: ٢٤٧/٢.
- (٨٨) تفسير القرطبي: ٢٥٠/٢.
- (٨٩) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤٨/٢.
- (٩٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٤٨/٢.
- (٩١) تفسير القرطبي: ٢٤٧/٢.
- (٩٢) المسند: ١٤٧٦٧ (٣٤٥:٣ ج ١) ، نقلًا عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير ١٩٤/٢.
- (٩٣) انظر تفسير القرطبي: ٢٥٧/٢ والألوسی ٧٧/١.
- (٩٤) تفسير القرطبي: ٢٥٧/٢.
- (٩٥) الأكل (على وزن أعمل) الرصة . أى: ارتعدت من شدة البردة.
- (٩٦) تفسير القرطبي: ٢٥٧/٢.
- (٩٧) تفسير القرطبي: ٢٥٨/٢.
- (٩٨) كنا بمعينة الروم فأخرجوا لنا ٩٢.
- رواه الترومذى في التفسير (٢٩٧٢).
- (٩٩) تفسير القرطبي: ٣٦٣/٢.
- (١٠٠) تفسير القرطبي: ٣٠٣/٢ . باختصار ، ونرى أن أعمال القناصة والقدائين من هذا البلاء الحسن.
- (١٠١) تفسير القرطبي: ٣٦٥/٢.
- (١٠٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٥٢/٢.
- (١٠٣) الإحسان: أن تعبد الله ٩٣ . رواه البخارى (٤٧٧٧، ٥٠٠)، وأحمد (٩٢١٧) من حديث أبي هريرة.

- (١٠٤) تفسير القدر الرازي: ١٦٣/٥ نقلًا عن التفسير الوسيط للقرآن الكريم . وتفسير سورة الفاتحة والبقرة للدكتور: محمد سيد طنطاوي مطابع في مركز الطباعة الحديثة - بيروت .
- (١٠٥) الفرق: يفتح الفاء والراء مكيا بالمدنية يزن ١٦ رطلاً.
- (١٠٦) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٥٦/٢.
- (١٠٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.
- (١٠٨) تفسير القرطبي: ١٠٢/٢ . وصيام ثلاثة أيام في الحج (الأفضل أن يصومهم ما بين أن يهل بالحج إلى يوم عرفة ليكون يوم عرفة مفطرًا فذلك أتبع للسنة وهو رأي الشافعي وأحمد بن حنبل، وعن أحمد أيضًا جائزًا أن يصوم الثلاثة قبل أن يهجم، وقال الثوري والأوزاعي: يصومهم من أول أيام العشر . انظر تفسير القرطبي: ٣٩٩/٢.
- (١٠٩) كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ١٠٠.
- رواه البخاري في الحج (١٥٢٢)، وأبو داود في المناسك (١٧٣٠).
- (١١٠) كانت عكاظ ومجنة ونو المجاز ١٠١.
- رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٥١٩).
- (١١١) تفسير آيات الأحكام: ١٠٨/١ للشيخ: محمد علي السائيس مطبعة صبيح.
- (١١٢) وقتت ها هنا وعرفة كلها موقف ٨٤.
- رواه مسلم في الحج (١٢١٨) وأبو داود في المناسك (١٩٠٧) والنسائي في مناسك الحج (٣٠١٥) وأحمد (١٤٠٨٩) من حديث جابر، ورواه أبو داود في المناسك (١٩٢٥) والترمذي في الحج (٨٨٥) وابن ماجه (٣٠١٠)، وأحمد (٥٦٣) من حديث علي.
- (١١٣) مضرس: بضم الميم وفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء المكسورة وقد ورد الحديث بطوله في مسند الإمام أحمد ١٦٢٧٨، ١٦٢٧٨ (١٦٢/٣) ١٥ حلبى (وأبو داود ١٩٥٠ ، ورواه أيضًا البخاري في التاريخ الكبير ، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٦٧/٢.
- (١١٤) (الجيل المستطيل من الرمل ، وقيل: الضخم منه وجمعه جبال ، وقيل: الجبال في الرمل كالجبال في غير الرمل) ، قال الخطابي: الجبال ما دون الجبال في الارتفاع ا هـ . نقلًا عن هامش تفسير القرطبي: ٤١٦/٢ .
- (١١٥) من شهد سلاتنا هذه فوفق معنا ١٠٣.
- رواه الترمذي في الحج (٨٩١) وابن ماجه (٣٠١٦) والدرامي في المناسك (١٨٨٨) من حديث عروة بن مضرس الطائي.
- (١١٦) عمدة التفسير لابن كثير ٦٧/٢، وتفسير القرطبي: ٤١٦/٢ وفي حاشيته معنى وقضى ثقته: أتى بما عليه من المناسك.
- (١١٧) صوم عرفة يكفر السنة الماضية ١٠٣.
- رواه مسلم (١١٦٢)، وأبو داود في الصيام (٢٤٢٥)، والترمذي في الصيام (٧٥٢، ٧٤٩) وابن ماجه في الصيام (١٧٣٠، ١٧٣٨)، وأحمد (٢٢٠٢٤) من حديث أبي قتادة.
- (١١٨) تفسير القرطبي ٢٠/٢.
- (١١٩) البخاري: ١٢٩/٨ (فتح) ومسلم: ٣٤٨/١ والطبري: ٣٧٣١ نقلًا عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٦٧/٣.
- (١٢٠) سيد الاستغفار ١٠٤.
- رواه البخاري (٦٣٧٦، ٦٣٧٦)، والترمذي (٣٣٩٣) من حديث شداد بن أوس.
- (١٢١) اللهم ، إني ظلمت نفسى ظلمًا كثيرًا ١٠٤.
- رواه البخاري في الأذان (٨٣٤) ومسلم في الذكر (٢٧٠٥ / ٤٨)، كلاهما عن أبي بكر.
- (١٢٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٧١/٢.
- (١٢٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٧١/٢.
- (١٢٤) تفسير القرطبي: ٤٣٢/٢ .
- (١٢٥) تفسير القرطبي: ٤٣٢/٢ .

- (١١٦) اللهم آتأ في الدنيا حسنة ١٠٦ .
رواه البخاري (٢٣٨٩، ٥٤٣٢)، وأبو داود (١٥١٩) وأحمد (١١٥٧٠، ١١٦٢٨، ١٢٧٧٤، ١٢٧٧٤، ١٣١٦٨، ١٣٢٥٢، ١٣٦٥٣) من حديث أنس بن مالك .
- (١٢٧) تفسير القرطبي: ٤٣٥/٢ .
- (١٢٨) تفسير القرطبي: ١/٣ .
- (١٢٩) كان يرمى الجمرة يكر مع كل حصاة ١٠٨ .
رواه البخاري (١٧٥١، ١٧٥٣) .
- (١٣٠) كان بابي للمبى فلا ينكر عليه .
رواه البخاري (٩٧٠)، والدارمي (١٨٧٧) من حديث أنس بن مالك .
- (١٣١) تفسير المنار: ٢٣٨/٢ - ٢٣٩ ، بتصريف واختصار .
- (١٣٢) في ظلال القرآن: ١٢٧/٢ .
- (١٣٣) نقل القرطبي إجماع العلماء على ذلك في تفسير القرطبي: ١/٣ .
- (١٣٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم .
- (١٣٥) تفسير المنار: ٢٣٩/٢ .
- (١٣٦) تفسير المنار: ٢٤١/٢ .
- (١٣٧) في ظلال القرآن: ١٣٤/٢ .
- (١٣٨) في ظلال القرآن للأستاذ: سيد قطب: ١٣٢/٢ .
- (١٣٩) تفسير المنار: ٢٤٩/٢ .
- (١٤٠) تفسير الفخر الرازي: ٢١٦/٥ .
- (١٤١) في ظلال القرآن: ١٣٤/٢ .
- (١٤٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ١٠٤/١ ، تحقيق د. عبد الله شحاحه . وقد ورد ذلك في تفسير الألويسي: ٩٧/٢، وفي تفسير المنار: ٢٥٦/٢ .
- (١٤٣) لا ترجعوا بعدى كفارًا ١١٦ .
رواه البخاري (١٢١، ٤٤٠٥، ٦٨٦٩، ٧٠٨٠)، ومسلم (٦٥)، والدارمي (١٩٢١)، وابن ماجه (٣٩٤٢)، وأحمد (١٨٦٨٦، ١٨٧٣٢، ١٨٧٧٤)، والنسائي (٤١٣١) من حديث جرير، ورواه البخاري (٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٧٠٧٧، ٧٠٧٩)، ومسلم (٦١)، وأبو داود (٤١٨٦)، والترمذي (٢١٩٣)، وأحمد (٥٥٧٢، ٥٧٧٥)، والنسائي (٤١٢٥، ٤١٢٦)، من حديث عبد الله، ورواه أحمد (١٩٩٣٦، ١٩٩٤٨) من حديث ثقيف بن الحارث .
- (١٤٤) تفسير الفخر الرازي: ٢٣١/٥ .
- (١٤٥) تفسير الفخر الرازي: ٣/٦ .
- (١٤٦) في ظلال القرآن: ١٤٥/٢ ، بتصريف واختصار .
- (١٤٧) تفسير القرطبي: ٢٩/٣ .
- (١٤٨) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاحه: ١٠٥/١ - ١٠٦ .
- (١٤٩) تفسير المنار: ٢٧٢/٢ .
- (١٥٠) تفسير المنار: ٢٨٥/١ .
- (١٥١) تفسير المنار: ١٩٢/٢ .
- (١٥٢) اللهم رب جبرائيل وميكائيل ١٢٣ .
رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٧) والترمذي في الدعوات (٤٢٠) والنسائي في قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٥٧) وأحمد (٢١٦٩٩) من حديث عائشة . وقال الترمذي: حسن غريب .

- (١٥٣) تفسير ابن كثير: ٢٥٠/١.
- (١٥٤) تفسير المنار: ٢٠٤/٢؛ وتفسير القرطبي: ٣٤/٣.
- (١٥٥) ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ١٢٥.
- رواه البخاري (٥٤٢)، ومسلم (٢٥٧٢)، وأحمد (١١٣٦١) من حديث سعد بن مالك.
- (١٥٦) تفسير الكشاف: ٢٥٦/١.
- (١٥٧) تفسير الألوسي: ١٠٤/٢.
- (١٥٨) تفسير الفخر الرازي: ٢٩/٦.
- (١٥٩) أورد السيوطي في أسباب النزول هذا السبب مختصراً؛ وأورده الواحدى في أسباب النزول مسمياً من عدة طرق.
- (١٦٠) اللهم . بين لنا في الخمر بياناً شافها ١٢٥.
- رواه أبو داود في الأشربة (٣٦٧٠)، والنسائي (٥٥٤٠)، وأحمد (٢٨٠) من حديث عمر بن الخطاب.
- (١٦١) المسند للإمام أحمد: ٢٧٨، نقلاً عن عمدة التفسير للحافظ ابن كثير: ٨٨-٨٩.
- (١٦٢) التفسير الوسيط، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع: ٢٥٢، وانظر تفسير الجواهر للشيخ: مفتاوى جوهرى، وتفسير المنار: ٣٢١/٢.
- (١٦٣) التفسير الوسيط: ٣٥٤.
- (١٦٤) تفسير القرطبي: ٥١/٢ يتصرف.
- (١٦٥) كل ممكن خمر ١٣٦.
- رواه مسلم (٢٠٠٣)، وأحمد (٤٨١٥)، والترمذي (١٨٦١)، وأبو داود (٣٦٧٩).
- (١٦٦) تفسير القرطبي: ٥٢/٢.
- (١٦٧) أحكام القرآن لابن العربي: ١٤٩/١.
- (١٦٨) كل شراب أسكر فهو حرام ١٢٧.
- رواه البخاري (٥٤٢، ٥٥٨٥)، ومالك (١٥٩٥)، ومسلم (٢٠٠١) وأبو داود (٣٦٨٢)، وأحمد (٣٣٥٦٢)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، والترمذي (١٨٦٣)، والدارمي (٢٠٩٧)، والنسائي (٥٥٩١) من حديث عائشة.
- (١٦٩) تفسير الألوسي: ١١٣/٢.
- (١٧٠) لمن الله الخمر وشاربها ١٠٤.
- رواه الترمذي في كتاب البيوع (١٢٩٥) وابن ماجه في كتاب الأشربة (٣٢٨١) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أنس وقد روى نحو هذا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبي ﷺ. ورواه أبو داود في كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وأحمد في مسنده حديث رقم: ٤٧٧٢، ٥٣٧٧، ٥٨٣٣، وابن ماجه في كتاب الأشربة (٣٢٨٠) من حديث عبد الله بن عمر، وذكره السيوطي في زيادات الجامع الصغير من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: أثنى جيريل فقال: يا محمد . إن الله عز وجل لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وساقها، ومستقيها، ونسبه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب والضياء، قال الهيثمي في المجمع كتاب البيوع باب في الخمر ولعنها؛ وعن عبد الله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ الخمر وشاربها وساقها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وأكل ثمنها. وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه عن ابن أبي عيسى الحناط وهو ضعيف، ما أسكر كثيرة فقليله حرام ١٢٧ رواه أبو داود في الأشربة (٣٦٨١) والترمذي في الأشربة (١٨٦٥) والنسائي في الأشربة (٥٦٠٧) وابن ماجه في الأشربة (٣٢٨٢) وأحمد (١٤٩٣) من حديث جابر . نهى عن كل ممكن ومفتتر ١٣٧ رواه أبو داود في الأشربة (٣٦٨٦) وأحمد (٣١٠٩٤) من حديث أم سلمة . قلت: في إسناده شهر بن حوشب، وفيه مقال.
- (١٧١) الدعوة الإسلامية والإعلام الدينى . د. عبد الله شحاتة: ٢٩٣.
- (١٧٢) تفسير القرطبي: ٧/٣.
- (١٧٣) تفسير القرطبي: ٥٥/٣.
- (١٧٤) تفسير القرطبي: ٥٦/٣.

- (١٧٥) المكنة: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمناً ، انظر تفسير القرطبي: ٥٦/٣.
- (١٧٦) تفسير القرطبي: ٥٢/٢.
- (١٧٧) الدعوة الإسلامية والإعلام الديني ، د. عبد الله شحاتة: ٣٩٤.
- (١٧٨) خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ١٤٠.
- رواه البخاري (١٤٦٦ ، ٥٢٥٦)، وأبو داود (١٦٧٦)، وأحمد (٢٧٧٨)، والدارمي (١٦٥١)، والنسائي (٢٥٤٤) من حديث أبي هريرة.
- (١٧٩) صحيح مسلم: ٢٨٤/١ بقصة في أوله . وكذلك رواه أحمد في المسند ١٤٣٢٣ ورواه الطبري ٤١٧١ بنحوه دون ذكر القصة أ هـ . نقلًا عن هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٠/٢.
- (١٨٠) تفسير المنار: ٢٣٩/٢.
- (١٨١) الطبري: ٤١٨٣ . وأبو داود: ٢٨٧١، والحاكم: ١٠٣/٢ . وقال صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ورواه أحمد مختصراً: ٣٠٠٢ وكذلك رواه الحاكم: ٢٧٨/٢ ، ٢٧٩ مرة أخرى وصححه ووافقه الذهبي أ هـ . نقلًا عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.
- (١٨٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩١/٢.
- (١٨٣) تفسير سورة الإسراء، ووعيد الله لبني إسرائيل د. عبد الله شحاتة: ١٣٤-١٣٥.
- (١٨٤) انظر لباب النقول في أسباب النزول للواحدى: ٣٩، وأسباب النزول للسيوطي: ٢٤، وتفسير مقاتل بن سليمان بتحقيق د. عبد الله شحاتة مطبعة المدني: ١١٣/١ ، وقرآن بتفسير القرطبي: ٦٧/٢.
- (١٨٥) تفسير القرطبي: ٧٢/٢.
- (١٨٦) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية الحزب الرابع: ٣٦١.
- (١٨٧) تفسير القرآن الكريم ، الأستاذ: الشيخ محمد أبو زهرة ، مجلة لواء الإسلام، للسنة الخامسة ، العدد ١٢، سنة ١٩٥٢ م ، بتصرف يسير.
- (١٨٨) ورد ذلك في الطبري: ٤٢٢٣ وشقيق هو ابن سلمة وألّ التامى الكبير، وكلمة المومسات - حرفت في الطبري طبعة بولاق ومطبوعة في ابن كثير، والدر المنثور « المومسات » وهو تحريف فيج. وقد ورد الصواب في البيهقي: ١٧٢/٧، والجصاص: ٢٢٢/١، والقرطبي: ١٦٨/٢. نقلًا عن عمدة التفسير لابن كثير تحقيق أحمد شاكر . وفي رواية « أن حذيفة قال لعمر: أحلال هي أم حرام يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر هي حلال ولكن في نساء الأعاجم خلافة فإذا أقبلتم عليهن غلبكم على نساءكم ».
- (١٨٩) الطبري: ٤٢٢٢، وإسناده صحيح متصل وكذلك رواه البيهقي في المسنن الكبرى: ١٧٢/٧، وانظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير.
- (١٩٠) تتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا ١٤٧.
- ذكره السيوطي في الدر، من حديث جابر، ونسبه لابن جرير.
- (١٩١) تفسير القرطبي: ٦٨/٢.
- (١٩٢) تفسير القرطبي: ٦٨/٢.
- (١٩٣) تفسير القرطبي: ٦٩/٢.
- (١٩٤) في ظلال القرآن: ٢٤١/٢.
- (١٩٥) جامعوهم في البيوت، وأصنعوا كل شيء إلا النكاح ١٤٩.
- رواه مسلم في الحيف (٣٠٢) وأحمد (١١٩٤٥ ، ١٣١٦٤) من حديث أنس.
- (١٩٦) تفسير القرطبي: ٨١/٢، وتفسير مقاتل بن سليمان: ١١٥/١، وأسباب النزول للسيوطي: ٢٥، وأسباب النزول للواحدى: ٤٠، ولتفسير المرازى: ١٥٦/٢ والتفسير الوسيط: ٣٦٢/٤.
- (١٩٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.
- (١٩٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.
- (١٩٩) انظر تفسير آيات الأحكام بإشراف الشيخ محمد علي الساييس: ١٢٠/١.
- (٢٠٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ٩٧/٢.

- (٢٠١) من أتى حالضاً : فقد كفر بما أنزل على محمد . ١٥١ .
رواه الترمذى فى الطهارة ج ١٢٥ ، وأبو داود فى الطب (٣٩٠٤) ، وابن ماجه فى الطهارة (٦٣٩) ، وأحمد (٩٠٢٥) ، والدارمى فى الطهارة ج (١١٣٦) .
- (٢٠٢) يا رسول الله أصبت امرأتى وهى حائض ، ١٥١ .
رواه البخارى (٦٦٦٤) ، ١٠٨٧ ، وأحمد (٦٩٠٥) .
- (٢٠٣) تفسير القرطبى: ٨٧/٢ ، وتفسير الألويسى: ١٢٤/٢ .
- (٢٠٤) كانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من خلفها .
رواه البخارى فى التفسير (١٥٢٨) ، ومسلم فى النكاح (١٤٢٥) ، وأبو داود فى النكاح (٢١٦٢) ، والترمذى فى التفسير (٢٩٧٧) ، وابن ماجه فى النكاح (١٩٢٥) ، والدارمى فى الطهارة (١١٢٢) ، ٢٢١٤ من حديث جابر ، ورواه الترمذى فى التفسير (٢٩٧٩) ، وأحمد (٢٦١٠٢) من حديث أم سلمة .
- (٢٠٥) فقه العبادات ، د. عبد الله شحاتة: ٦٩ ، نقلاً عن مذاكرة الدكتور حامد الفوايى .
- (٢٠٦) (اصنعوا كل شيء إلا الجماع ١٥٢ .
تقدم ص ١٤٩ .
- (٢٠٧) تفسير القرطبى: ٨٧/٢ .
- (٢٠٨) فقه العبادات د. عبد الله شحاتة ص: ٧٤ .
- (٢٠٩) شرح الرجل جاريته إذا وطئها ثائمة على قفاها .
- (٢١٠) شرى امرءاً (من باب رضى) عظم وتقامم وانجوا فيه .
- (٢١١) روى أبو داود عن ابن عباس ، نقلاً عن تفسير للقرطبى: ٩٢/٢ ، وانظر أيضاً تفسير ابن كثير وغيره .
- (٢١٢) تفسير القرطبى: ٩٥/٢ ، وقد ساق عدداً من الأحاديث النبوية لتأييد قوله .
- (٢١٣) لا تأتوا النساء فى أعجازهن ١٥٤ .
رواه الترمذى فى الرضاغ (١١٦٤) ، ١١٦٥ ، وأحمد (٦٥٧) ، من حديث على بن مطلق . روى الدارمى فى الطهارة (١١٤٤) ، وفى النكاح (٢٢١٢) ، وأحمد (٢١٢٤٧) من حديث خزيمه بن ثابت .
- (٢١٤) للمستند : ٧١٧ ، ٨٥١٢ ، ٩٧٢٠٩ ، ١٠٢٠٩ . وقد فصلنا تخريجه فى أولها وأسانيده صحاح اه نقلاً عن تعليق أحمد شاكر على عمدة التفسير لابن كثير : ١ - ١٠١ .
- (٢١٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١٠٢/٢ .
- (٢١٦) من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ١٥٦ .
- مسلم فى الأيمان (١٢ / ١٦٥٠) ، والترمذى فى النذور والأيمان (١٥٣٠) ، وقال: «حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح» ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات (٢/٧٧٢) ، وكلمه عن أبى هريرة ، وأبو داود فى الأيمان والنذور (٢٧٧٧) ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والنذور (٤/١٧٧٤) ، وكلامهما عن عبيد الرحمن بن سمره . وحديثه لا ندر فى معصية ١٥٨ روى أبو داود (٢٢٩٢ ، ٢٢٩٠) ، والترمذى (١٥٢٥) ، ١٥٢٤ ، وابن ماجه (٢١٢٥) من حديث عائشة .
- (٢١٧) تفسير الفخر الرازى: ٨٠/٦ .
- (٢١٨) من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه ١٥٨ . روى البخارى (٧٤٤٥) ، وأحمد (٢١٣٤١) ، ٢٩٣٦ .
- (٢١٩) تفسير القرطبى: ١٠٠/٢ .
- (٢٢٠) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١٠٥/٢ .
- (٢٢١) أبو داود: ٢٣٧٢ . وهو حديث صحيح روى ابن حبان فى صحيحه ٤٧٨/٦ (من مخطوطة الإحسان) ورواه الحاكم: ٣٠٠/٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى . اه نقلاً عن عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير .
- (٢٢٢) تفسير القرطبى: ١٠٣/٢ .
- (٢٢٣) تفسير آيات الأحكام بإشراف الشيخ محمد على السابيس: ١٣٦/١ .

- (٢٧٤) أبو الأعلى المودودي ، تفهيم القرآن: ١/ ١٥٠ ، تريب أحمد إدريس .
- (٢٧٥) تفسير القرطبي: ١٠٨/٣ .
- (٢٧٦) أي: ليخبره بين مراجعة زوجته أو تطليقها .
- (٢٧٧) تفسير القرطبي: ١٠٥/٢ . وقد كان القرطبي مالكي المذهب يؤيد مذهب غيره أحياناً ويناصر مذهب المالكية في أغلب الأحيان كما ترى هنا .
- (٢٧٨) تفسير الكشاف: ٢٧١/١ .
- (٢٧٩) دعى الصلاة أيام إقرائك ١٦٢ . رواء البخاري (٢٢٨، ٢٠٦، ٢٣١) ، ومالك (١٢٧) والتمثالي (٢٠٢) ، وأبو داود (٢٨٢) من حديث عائشة .
- (٢٨٠) إن طلقت المرأة في الحيض ؛ لم تعد بالحيض التي وقع فيها الطلاق بإجماع الفقهاء ولا تنتهي عدتها عند من يقول: إن القروء هي الحيضات إلا إذا حاضت بعد الحيضة التي طلقت فيها ثلاث حيضات كوامل، ومن طلقت في طهر حسب هذا الطهر قرأاً عند من يقول: إن الأقراء هي الأطهار ، فتعتمد بعده بطهريين كاملين .
- (٢٨١) تفسير النخز الرازي: ٩٤/٦ .
- (٢٨٢) تفسير المنار: ٢٧١/١ .
- (٢٨٣) في ظلال القرآن: ٢٤٦/٢ .
- (٢٨٤) تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السليسي: ١٣٩/١ .
- (٢٨٥) تفسير القرطبي: ١٢٠/٢ .
- (٢٨٦) أرشد الإسلام إلى بحث حكمين من أهل الزوجين، كما أرشد إلى أن الطلاق لا يصح أن يقع إلا في طهر لم تجتمع المرأة فيه وهي أمور مع غيرها تؤخر الطلاق وتجعله لا يتم إلا في أضيق الحدود .
- (٢٨٧) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١١١/٢ .
- (٢٨٨) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر: ١١١/٢ .
- (٢٨٩) عمدة التفسير تحقيق أحمد شاكر: ١١١/٢ .
- (٢٩٠) تفسير القرطبي: ١٢٤/٢ .
- (٢٩١) تفسير القرطبي: ١٢٤/٢ .
- (٢٩٢) مجلة لواء الإسلام السنة السادسة العدد ٢، تفسير القرآن الكريم لفضية الأستاذ الشيخ: محمد أبو زهرة .
- (٢٩٣) أمرني ربي أن أعفى لحيثي وأعفى شاربى ١٦٥ . ذكره الهندي في الكنز (١٧٢١٨) عن ابن سعد عن عبد الله بن عبد الله مرسلاً . بالنظر: لكن ربي أمرني أن أحفى شاربى وأعفى لحيثي .
- (٢٩٤) يريد به: استعمال الخلال وهو من السنة .
- (٢٩٥) أي: إزالة الأوساخ والاستحمام .
- (٢٩٦) تفسير القرطبي: ١٢٤ /٣ .
- (٢٩٧) هامش صفحة ٩١ تفسير سورتي فاتحة الكتاب والبقرة . هدية مجلة منبر الإسلام عدد ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ هـ . (تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) .
- (٢٩٨) تفسير القرطبي: ١٢٦/٢ .
- (٢٩٩) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية ٣٧٨/٤ .
- (٣٠٠) تفسير القرطبي: ١٢٠/٢ ، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السابري وعلق على هذا الحديث بقوله: وإمضاء الثلاث إبطال للرخصة الشرعية والرفق للمشار إليه بقوله - تعالى: ﴿... لَمَّا لَلَّ اللَّهُ يَحْدُثْ بِذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: (٢٠))
- (٣٥١) المسند: ٢٨٣/٥ (حلى) ، وأبو داود: ٢٢٢٦ . وابن ماجه: ٢٠٥٥ . والطبري: ١٨٤٤ . والحاكم: ٢/ ٢٠٠ والبيهقي: ٢١٦/٧ . ومسححه الحاكم والذهبي ، وفي الفتح: ٣٥٤/٨ ، أنه: « صححه ابن خزيمة وابن حبان » اهـ . نقلًا عن هامش عمدة التفسير الحافظ ابن كثير: ١١٢/٢ .

(٢٥٢) للمختلطات والمختزعات: من المناققات ١٦٩. ذكره الهيثمي في المجمع (٧٥٣٦) وقال: وعن عقبه بن عامر مرفوعاً: إن المختلطات والمختزعات من المناققات. رواء الطبراني وفيه فیس بن الربیع وثقه الثوري وشعبة وفيه ضعف، وبقيته رجاله رجال الصحيح. رواء الترمذي (١١٩٨) من حديث ثوربان وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوي.

(٢٥٣) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير باختصار وتصرف: ١١٥-١١٦.

(٢٥٤) القضاء أي: حكم القاضي، أي: ولا يجوز ديانة فيما بينه وبين الله؛ لأنه أكل أموال الناس بالباطل.

(٢٥٥) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١١٦/٢.

(٢٥٦) فتح الباري: ٢٤٩/٩ - ٢٥٤. وفي بعض طرق الحديث أنها قالت: (لا أطيقه يعني: يفتناً). وهذا الحديث من إفراد البخاري من هذا الوجه دون مسلم، نص على ذلك الحافظ في الفتح: ٤٣٦/٩ نقلًا عن هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١١٥/٢. وقد ورد أيضاً في تفسير القرطبي: ١٢٩/٣ والتفسير الوسيط لمجمع البحوث، حزب: ٢٨٠/٤.

(٢٥٧) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الحزب الرابع، ص ٣٨٠.

(٢٥٨) اسمها: جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول والروايات فيها (حبيبة بنت سهل الأنصاري)، (وجميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول) وانظر هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير: ١١٤/٢.

(٢٥٩) تفسير القرطبي: ١٢٩/٣، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السائيس: ١٤٤/١.

(٢٦٠) تفسير القرطبي: ١٢٩/٣.

(٢٦١) تفسير القرطبي، المسألة الحادية عشرة: ١٤٣/٢ - ١٤٤.

(٢٦٢) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر، وقد ذكر في الهامش أن هذا الحديث ورد في السند: ٣٤/٦ (حلب) وصحيح مسلم ٤٠٧/١ - ٤٠٨ ورواه الطبري ٤٨٩٢ عن طريق عبد الرزاق. وذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره بروايات متعددة من الصحيحين وغير واحد (الرحمن بن الزبير) بفتح الزاي وكسر الباء معاصي معروف من بني قريظة مترجم في الإصابة وغيرها. وحديث: لا حتى تذوقني عصيائه ١٧٢. البخاري (٥٢٦٠، ٥٢٦١، ٥٢٦٢، ٥٢٦٣، ٥٢٦٤، ٥٢٦٥، ٥٢٦٦، ٥٢٦٧، ٥٢٦٨، ٥٢٦٩، ٥٢٧٠، ٥٢٧١، ٥٢٧٢، ٥٢٧٣، ٥٢٧٤، ٥٢٧٥، ٥٢٧٦، ٥٢٧٧، ٥٢٧٨، ٥٢٧٩، ٥٢٨٠، ٥٢٨١، ٥٢٨٢، ٥٢٨٣، ٥٢٨٤، ٥٢٨٥، ٥٢٨٦، ٥٢٨٧، ٥٢٨٨، ٥٢٨٩، ٥٢٩٠، ٥٢٩١، ٥٢٩٢، ٥٢٩٣، ٥٢٩٤، ٥٢٩٥، ٥٢٩٦، ٥٢٩٧، ٥٢٩٨، ٥٢٩٩، ٥٣٠٠، ٥٣٠١، ٥٣٠٢، ٥٣٠٣، ٥٣٠٤، ٥٣٠٥، ٥٣٠٦، ٥٣٠٧، ٥٣٠٨، ٥٣٠٩، ٥٣١٠، ٥٣١١، ٥٣١٢، ٥٣١٣، ٥٣١٤، ٥٣١٥، ٥٣١٦، ٥٣١٧، ٥٣١٨، ٥٣١٩، ٥٣٢٠، ٥٣٢١، ٥٣٢٢، ٥٣٢٣، ٥٣٢٤، ٥٣٢٥، ٥٣٢٦، ٥٣٢٧، ٥٣٢٨، ٥٣٢٩، ٥٣٣٠، ٥٣٣١، ٥٣٣٢، ٥٣٣٣، ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٣٦، ٥٣٣٧، ٥٣٣٨، ٥٣٣٩، ٥٣٤٠، ٥٣٤١، ٥٣٤٢، ٥٣٤٣، ٥٣٤٤، ٥٣٤٥، ٥٣٤٦، ٥٣٤٧، ٥٣٤٨، ٥٣٤٩، ٥٣٥٠، ٥٣٥١، ٥٣٥٢، ٥٣٥٣، ٥٣٥٤، ٥٣٥٥، ٥٣٥٦، ٥٣٥٧، ٥٣٥٨، ٥٣٥٩، ٥٣٦٠، ٥٣٦١، ٥٣٦٢، ٥٣٦٣، ٥٣٦٤، ٥٣٦٥، ٥٣٦٦، ٥٣٦٧، ٥٣٦٨، ٥٣٦٩، ٥٣٧٠، ٥٣٧١، ٥٣٧٢، ٥٣٧٣، ٥٣٧٤، ٥٣٧٥، ٥٣٧٦، ٥٣٧٧، ٥٣٧٨، ٥٣٧٩، ٥٣٨٠، ٥٣٨١، ٥٣٨٢، ٥٣٨٣، ٥٣٨٤، ٥٣٨٥، ٥٣٨٦، ٥٣٨٧، ٥٣٨٨، ٥٣٨٩، ٥٣٩٠، ٥٣٩١، ٥٣٩٢، ٥٣٩٣، ٥٣٩٤، ٥٣٩٥، ٥٣٩٦، ٥٣٩٧، ٥٣٩٨، ٥٣٩٩، ٥٤٠٠، ٥٤٠١، ٥٤٠٢، ٥٤٠٣، ٥٤٠٤، ٥٤٠٥، ٥٤٠٦، ٥٤٠٧، ٥٤٠٨، ٥٤٠٩، ٥٤١٠، ٥٤١١، ٥٤١٢، ٥٤١٣، ٥٤١٤، ٥٤١٥، ٥٤١٦، ٥٤١٧، ٥٤١٨، ٥٤١٩، ٥٤٢٠، ٥٤٢١، ٥٤٢٢، ٥٤٢٣، ٥٤٢٤، ٥٤٢٥، ٥٤٢٦، ٥٤٢٧، ٥٤٢٨، ٥٤٢٩، ٥٤٣٠، ٥٤٣١، ٥٤٣٢، ٥٤٣٣، ٥٤٣٤، ٥٤٣٥، ٥٤٣٦، ٥٤٣٧، ٥٤٣٨، ٥٤٣٩، ٥٤٤٠، ٥٤٤١، ٥٤٤٢، ٥٤٤٣، ٥٤٤٤، ٥٤٤٥، ٥٤٤٦، ٥٤٤٧، ٥٤٤٨، ٥٤٤٩، ٥٤٥٠، ٥٤٥١، ٥٤٥٢، ٥٤٥٣، ٥٤٥٤، ٥٤٥٥، ٥٤٥٦، ٥٤٥٧، ٥٤٥٨، ٥٤٥٩، ٥٤٦٠، ٥٤٦١، ٥٤٦٢، ٥٤٦٣، ٥٤٦٤، ٥٤٦٥، ٥٤٦٦، ٥٤٦٧، ٥٤٦٨، ٥٤٦٩، ٥٤٧٠، ٥٤٧١، ٥٤٧٢، ٥٤٧٣، ٥٤٧٤، ٥٤٧٥، ٥٤٧٦، ٥٤٧٧، ٥٤٧٨، ٥٤٧٩، ٥٤٨٠، ٥٤٨١، ٥٤٨٢، ٥٤٨٣، ٥٤٨٤، ٥٤٨٥، ٥٤٨٦، ٥٤٨٧، ٥٤٨٨، ٥٤٨٩، ٥٤٩٠، ٥٤٩١، ٥٤٩٢، ٥٤٩٣، ٥٤٩٤، ٥٤٩٥، ٥٤٩٦، ٥٤٩٧، ٥٤٩٨، ٥٤٩٩، ٥٥٠٠، ٥٥٠١، ٥٥٠٢، ٥٥٠٣، ٥٥٠٤، ٥٥٠٥، ٥٥٠٦، ٥٥٠٧، ٥٥٠٨، ٥٥٠٩، ٥٥١٠، ٥٥١١، ٥٥١٢، ٥٥١٣، ٥٥١٤، ٥٥١٥، ٥٥١٦، ٥٥١٧، ٥٥١٨، ٥٥١٩، ٥٥٢٠، ٥٥٢١، ٥٥٢٢، ٥٥٢٣، ٥٥٢٤، ٥٥٢٥، ٥٥٢٦، ٥٥٢٧، ٥٥٢٨، ٥٥٢٩، ٥٥٣٠، ٥٥٣١، ٥٥٣٢، ٥٥٣٣، ٥٥٣٤، ٥٥٣٥، ٥٥٣٦، ٥٥٣٧، ٥٥٣٨، ٥٥٣٩، ٥٥٤٠، ٥٥٤١، ٥٥٤٢، ٥٥٤٣، ٥٥٤٤، ٥٥٤٥، ٥٥٤٦، ٥٥٤٧، ٥٥٤٨، ٥٥٤٩، ٥٥٥٠، ٥٥٥١، ٥٥٥٢، ٥٥٥٣، ٥٥٥٤، ٥٥٥٥، ٥٥٥٦، ٥٥٥٧، ٥٥٥٨، ٥٥٥٩، ٥٥٦٠، ٥٥٦١، ٥٥٦٢، ٥٥٦٣، ٥٥٦٤، ٥٥٦٥، ٥٥٦٦، ٥٥٦٧، ٥٥٦٨، ٥٥٦٩، ٥٥٧٠، ٥٥٧١، ٥٥٧٢، ٥٥٧٣، ٥٥٧٤، ٥٥٧٥، ٥٥٧٦، ٥٥٧٧، ٥٥٧٨، ٥٥٧٩، ٥٥٨٠، ٥٥٨١، ٥٥٨٢، ٥٥٨٣، ٥٥٨٤، ٥٥٨٥، ٥٥٨٦، ٥٥٨٧، ٥٥٨٨، ٥٥٨٩، ٥٥٩٠، ٥٥٩١، ٥٥٩٢، ٥٥٩٣، ٥٥٩٤، ٥٥٩٥، ٥٥٩٦، ٥٥٩٧، ٥٥٩٨، ٥٥٩٩، ٥٦٠٠، ٥٦٠١، ٥٦٠٢، ٥٦٠٣، ٥٦٠٤، ٥٦٠٥، ٥٦٠٦، ٥٦٠٧، ٥٦٠٨، ٥٦٠٩، ٥٦١٠، ٥٦١١، ٥٦١٢، ٥٦١٣، ٥٦١٤، ٥٦١٥، ٥٦١٦، ٥٦١٧، ٥٦١٨، ٥٦١٩، ٥٦٢٠، ٥٦٢١، ٥٦٢٢، ٥٦٢٣، ٥٦٢٤، ٥٦٢٥، ٥٦٢٦، ٥٦٢٧، ٥٦٢٨، ٥٦٢٩، ٥٦٣٠، ٥٦٣١، ٥٦٣٢، ٥٦٣٣، ٥٦٣٤، ٥٦٣٥، ٥٦٣٦، ٥٦٣٧، ٥٦٣٨، ٥٦٣٩، ٥٦٤٠، ٥٦٤١، ٥٦٤٢، ٥٦٤٣، ٥٦٤٤، ٥٦٤٥، ٥٦٤٦، ٥٦٤٧، ٥٦٤٨، ٥٦٤٩، ٥٦٥٠، ٥٦٥١، ٥٦٥٢، ٥٦٥٣، ٥٦٥٤، ٥٦٥٥، ٥٦٥٦، ٥٦٥٧، ٥٦٥٨، ٥٦٥٩، ٥٦٦٠، ٥٦٦١، ٥٦٦٢، ٥٦٦٣، ٥٦٦٤، ٥٦٦٥، ٥٦٦٦، ٥٦٦٧، ٥٦٦٨، ٥٦٦٩، ٥٦٧٠، ٥٦٧١، ٥٦٧٢، ٥٦٧٣، ٥٦٧٤، ٥٦٧٥، ٥٦٧٦، ٥٦٧٧، ٥٦٧٨، ٥٦٧٩، ٥٦٨٠، ٥٦٨١، ٥٦٨٢، ٥٦٨٣، ٥٦٨٤، ٥٦٨٥، ٥٦٨٦، ٥٦٨٧، ٥٦٨٨، ٥٦٨٩، ٥٦٩٠، ٥٦٩١، ٥٦٩٢، ٥٦٩٣، ٥٦٩٤، ٥٦٩٥، ٥٦٩٦، ٥٦٩٧، ٥٦٩٨، ٥٦٩٩، ٥٧٠٠، ٥٧٠١، ٥٧٠٢، ٥٧٠٣، ٥٧٠٤، ٥٧٠٥، ٥٧٠٦، ٥٧٠٧، ٥٧٠٨، ٥٧٠٩، ٥٧١٠، ٥٧١١، ٥٧١٢، ٥٧١٣، ٥٧١٤، ٥٧١٥، ٥٧١٦، ٥٧١٧، ٥٧١٨، ٥٧١٩، ٥٧٢٠، ٥٧٢١، ٥٧٢٢، ٥٧٢٣، ٥٧٢٤، ٥٧٢٥، ٥٧٢٦، ٥٧٢٧، ٥٧٢٨، ٥٧٢٩، ٥٧٣٠، ٥٧٣١، ٥٧٣٢، ٥٧٣٣، ٥٧٣٤، ٥٧٣٥، ٥٧٣٦، ٥٧٣٧، ٥٧٣٨، ٥٧٣٩، ٥٧٤٠، ٥٧٤١، ٥٧٤٢، ٥٧٤٣، ٥٧٤٤، ٥٧٤٥، ٥٧٤٦، ٥٧٤٧، ٥٧٤٨، ٥٧٤٩، ٥٧٥٠، ٥٧٥١، ٥٧٥٢، ٥٧٥٣، ٥٧٥٤، ٥٧٥٥، ٥٧٥٦، ٥٧٥٧، ٥٧٥٨، ٥٧٥٩، ٥٧٦٠، ٥٧٦١، ٥٧٦٢، ٥٧٦٣، ٥٧٦٤، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦، ٥٧٦٧، ٥٧٦٨، ٥٧٦٩، ٥٧٧٠، ٥٧٧١، ٥٧٧٢، ٥٧٧٣، ٥٧٧٤، ٥٧٧٥، ٥٧٧٦، ٥٧٧٧، ٥٧٧٨، ٥٧٧٩، ٥٧٨٠، ٥٧٨١، ٥٧٨٢، ٥٧٨٣، ٥٧٨٤، ٥٧٨٥، ٥٧٨٦، ٥٧٨٧، ٥٧٨٨، ٥٧٨٩، ٥٧٩٠، ٥٧٩١، ٥٧٩٢، ٥٧٩٣، ٥٧٩٤، ٥٧٩٥، ٥٧٩٦، ٥٧٩٧، ٥٧٩٨، ٥٧٩٩، ٥٨٠٠، ٥٨٠١، ٥٨٠٢، ٥٨٠٣، ٥٨٠٤، ٥٨٠٥، ٥٨٠٦، ٥٨٠٧، ٥٨٠٨، ٥٨٠٩، ٥٨١٠، ٥٨١١، ٥٨١٢، ٥٨١٣، ٥٨١٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦، ٥٨١٧، ٥٨١٨، ٥٨١٩، ٥٨٢٠، ٥٨٢١، ٥٨٢٢، ٥٨٢٣، ٥٨٢٤، ٥٨٢٥، ٥٨٢٦، ٥٨٢٧، ٥٨٢٨، ٥٨٢٩، ٥٨٣٠، ٥٨٣١، ٥٨٣٢، ٥٨٣٣، ٥٨٣٤، ٥٨٣٥، ٥٨٣٦، ٥٨٣٧، ٥٨٣٨، ٥٨٣٩، ٥٨٤٠، ٥٨٤١، ٥٨٤٢، ٥٨٤٣، ٥٨٤٤، ٥٨٤٥، ٥٨٤٦، ٥٨٤٧، ٥٨٤٨، ٥٨٤٩، ٥٨٥٠، ٥٨٥١، ٥٨٥٢، ٥٨٥٣، ٥٨٥٤، ٥٨٥٥، ٥٨٥٦، ٥٨٥٧، ٥٨٥٨، ٥٨٥٩، ٥٨٦٠، ٥٨٦١، ٥٨٦٢، ٥٨٦٣، ٥٨٦٤، ٥٨٦٥، ٥٨٦٦، ٥٨٦٧، ٥٨٦٨، ٥٨٦٩، ٥٨٧٠، ٥٨٧١، ٥٨٧٢، ٥٨٧٣، ٥٨٧٤، ٥٨٧٥، ٥٨٧٦، ٥٨٧٧، ٥٨٧٨، ٥٨٧٩، ٥٨٨٠، ٥٨٨١، ٥٨٨٢، ٥٨٨٣، ٥٨٨٤، ٥٨٨٥، ٥٨٨٦، ٥٨٨٧، ٥٨٨٨، ٥٨٨٩، ٥٨٩٠، ٥٨٩١، ٥٨٩٢، ٥٨٩٣، ٥٨٩٤، ٥٨٩٥، ٥٨٩٦، ٥٨٩٧، ٥٨٩٨، ٥٨٩٩، ٥٩٠٠، ٥٩٠١، ٥٩٠٢، ٥٩٠٣، ٥٩٠٤، ٥٩٠٥، ٥٩٠٦، ٥٩٠٧، ٥٩٠٨، ٥٩٠٩، ٥٩١٠، ٥٩١١، ٥٩١٢، ٥٩١٣، ٥٩١٤، ٥٩١٥، ٥٩١٦، ٥٩١٧، ٥٩١٨، ٥٩١٩، ٥٩٢٠، ٥٩٢١، ٥٩٢٢، ٥٩٢٣، ٥٩٢٤، ٥٩٢٥، ٥٩٢٦، ٥٩٢٧، ٥٩٢٨، ٥٩٢٩، ٥٩٣٠، ٥٩٣١، ٥٩٣٢، ٥٩٣٣، ٥٩٣٤، ٥٩٣٥، ٥٩٣٦، ٥٩٣٧، ٥٩٣٨، ٥٩٣٩، ٥٩٤٠، ٥٩٤١، ٥٩٤٢، ٥٩٤٣، ٥٩٤٤، ٥٩٤٥، ٥٩٤٦، ٥٩٤٧، ٥٩٤٨، ٥٩٤٩، ٥٩٥٠، ٥٩٥١، ٥٩٥٢، ٥٩٥٣، ٥٩٥٤، ٥٩٥٥، ٥٩٥٦، ٥٩٥٧، ٥٩٥٨، ٥٩٥٩، ٥٩٦٠، ٥٩٦١، ٥٩٦٢، ٥٩٦٣، ٥٩٦٤، ٥٩٦٥، ٥٩٦٦، ٥٩٦٧، ٥٩٦٨، ٥٩٦٩، ٥٩٧٠، ٥٩٧١، ٥٩٧٢، ٥٩٧٣، ٥٩٧٤، ٥٩٧٥، ٥٩٧٦، ٥٩٧٧، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩، ٥٩٨٠، ٥٩٨١، ٥٩٨٢، ٥٩٨٣، ٥٩٨٤، ٥٩٨٥، ٥٩٨٦، ٥٩٨٧، ٥٩٨٨، ٥٩٨٩، ٥٩٩٠، ٥٩٩١، ٥٩٩٢، ٥٩٩٣، ٥٩٩٤، ٥٩٩٥، ٥٩٩٦، ٥٩٩٧، ٥٩٩٨، ٥٩٩٩، ٦٠٠٠، ٦٠٠١، ٦٠٠٢، ٦٠٠٣، ٦٠٠٤، ٦٠٠٥، ٦٠٠٦، ٦٠٠٧، ٦٠٠٨، ٦٠٠٩، ٦٠١٠، ٦٠١١، ٦٠١٢، ٦٠١٣، ٦٠١٤، ٦٠١٥، ٦٠١٦، ٦٠١٧، ٦٠١٨، ٦٠١٩، ٦٠٢٠، ٦٠٢١، ٦٠٢٢، ٦٠٢٣، ٦٠٢٤، ٦٠٢٥، ٦٠٢٦، ٦٠٢٧، ٦٠٢٨، ٦٠٢٩، ٦٠٣٠، ٦٠٣١، ٦٠٣٢، ٦٠٣٣، ٦٠٣٤، ٦٠٣٥، ٦٠٣٦، ٦٠٣٧، ٦٠٣٨، ٦٠٣٩، ٦٠٤٠، ٦٠٤١، ٦٠٤٢، ٦٠٤٣، ٦٠٤٤، ٦٠٤٥، ٦٠٤٦، ٦٠٤٧، ٦٠٤٨، ٦٠٤٩، ٦٠٥٠، ٦٠٥١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٣، ٦٠٥٤، ٦٠٥٥، ٦٠٥٦، ٦٠٥٧، ٦٠٥٨، ٦٠٥٩، ٦٠٦٠، ٦٠٦١، ٦٠٦٢، ٦٠٦٣، ٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ٦٠٦٦، ٦٠٦٧، ٦٠٦٨، ٦٠٦٩، ٦٠٧٠، ٦٠٧١، ٦٠٧٢، ٦٠٧٣، ٦٠٧٤، ٦٠٧٥، ٦٠٧٦، ٦٠٧٧، ٦٠٧٨، ٦٠٧٩، ٦٠٨٠، ٦٠٨١، ٦٠٨٢، ٦٠٨٣، ٦٠٨٤، ٦٠٨٥، ٦٠٨٦، ٦٠٨٧، ٦٠٨٨، ٦٠٨٩، ٦٠٩٠، ٦٠٩١، ٦٠٩٢، ٦٠٩٣، ٦٠٩٤، ٦٠٩٥، ٦٠٩٦، ٦٠٩٧، ٦٠٩٨، ٦٠٩٩، ٦١٠٠، ٦١٠١، ٦١٠٢، ٦١٠٣، ٦١٠٤، ٦١٠٥، ٦١٠٦، ٦١٠٧، ٦١٠٨، ٦١٠٩، ٦١١٠، ٦١١١، ٦١١٢، ٦١١٣، ٦١١٤، ٦١١٥، ٦١١٦، ٦١١٧، ٦١١٨، ٦١١٩، ٦١٢٠، ٦١٢١، ٦١٢٢، ٦١٢٣، ٦١٢٤، ٦١٢٥، ٦١٢٦، ٦١٢٧، ٦١٢٨، ٦١٢٩، ٦١٣٠، ٦١٣١، ٦١٣٢، ٦١٣٣، ٦١٣٤، ٦١٣٥، ٦١٣٦، ٦١٣٧، ٦١٣٨، ٦١٣٩، ٦١٤٠، ٦١٤١، ٦١٤٢، ٦١٤٣، ٦١٤٤، ٦١٤٥، ٦١٤٦، ٦١٤٧، ٦١٤٨، ٦١٤٩، ٦١٥٠، ٦١٥١، ٦١٥٢، ٦١٥٣، ٦١٥٤، ٦١٥٥، ٦١٥٦، ٦١٥٧، ٦١٥٨، ٦١٥٩، ٦١٦٠، ٦١٦١، ٦١٦٢، ٦١٦٣، ٦١٦٤، ٦١٦٥، ٦١٦٦، ٦١٦٧، ٦١٦٨، ٦١٦٩، ٦١٧٠، ٦١٧١، ٦١٧٢، ٦١٧٣، ٦١٧٤، ٦١٧٥، ٦١٧٦، ٦١٧٧، ٦١٧٨، ٦١٧٩، ٦١٨٠، ٦١٨١، ٦١٨٢، ٦١٨٣، ٦١٨٤، ٦١٨٥، ٦١٨٦، ٦١٨٧، ٦١٨٨، ٦١٨٩، ٦١٩٠، ٦١٩١، ٦١٩٢، ٦١٩٣، ٦١٩٤، ٦١٩٥، ٦١٩٦، ٦١٩٧، ٦١٩٨، ٦١٩٩، ٦٢٠٠، ٦٢٠١، ٦٢٠٢، ٦٢٠٣، ٦٢٠٤، ٦٢٠٥، ٦٢٠٦، ٦٢٠٧، ٦٢٠٨، ٦٢٠٩، ٦٢١٠، ٦٢١١، ٦٢١٢، ٦٢١٣، ٦٢١٤، ٦٢١٥، ٦٢١٦، ٦٢١٧، ٦٢١٨، ٦٢١٩، ٦٢٢٠، ٦٢٢١، ٦٢٢٢، ٦٢٢٣، ٦٢٢٤، ٦٢٢٥، ٦٢٢٦، ٦٢٢٧، ٦٢٢٨، ٦٢٢٩، ٦٢٣٠، ٦٢٣١، ٦٢٣٢، ٦٢٣٣، ٦٢٣٤، ٦٢٣٥، ٦٢٣٦، ٦٢٣٧، ٦٢٣٨، ٦٢٣٩، ٦٢٤٠، ٦٢٤١، ٦٢٤٢، ٦٢٤٣، ٦٢٤٤، ٦٢٤٥، ٦٢٤٦، ٦٢٤٧، ٦٢٤٨، ٦٢٤٩، ٦٢٥٠، ٦٢٥١، ٦٢٥٢، ٦٢٥٣، ٦٢٥٤، ٦٢٥٥، ٦٢٥٦، ٦٢٥٧، ٦٢٥٨، ٦٢٥٩، ٦٢٦٠، ٦٢٦١، ٦٢٦٢، ٦٢٦٣، ٦٢٦٤، ٦٢٦٥، ٦٢٦٦، ٦٢٦٧، ٦٢٦٨، ٦٢٦٩، ٦٢٧٠، ٦٢٧١، ٦٢٧٢، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٢٧٥، ٦٢٧٦، ٦٢٧٧، ٦٢٧٨، ٦٢٧٩، ٦٢٨٠، ٦٢٨١، ٦٢٨٢، ٦٢٨٣، ٦٢٨٤، ٦٢٨٥، ٦٢٨٦، ٦٢٨٧، ٦٢٨٨، ٦٢٨٩، ٦٢٩٠، ٦٢٩١، ٦٢٩٢، ٦٢٩٣، ٦٢٩٤، ٦٢٩٥، ٦٢٩٦، ٦٢٩٧، ٦٢٩٨، ٦٢٩٩، ٦٣٠٠، ٦٣٠١، ٦٣٠٢، ٦٣٠٣، ٦٣٠٤، ٦٣٠٥، ٦٣٠٦، ٦٣٠٧، ٦٣٠٨، ٦٣٠٩، ٦٣١٠، ٦٣١١، ٦٣١٢، ٦٣١٣، ٦٣١٤، ٦٣١٥، ٦٣١٦، ٦٣١٧، ٦٣١٨، ٦٣١٩، ٦٣٢٠، ٦٣٢١، ٦٣٢٢، ٦٣٢٣، ٦٣٢٤، ٦٣٢٥، ٦٣٢٦، ٦٣٢٧، ٦٣٢٨، ٦٣٢٩، ٦٣٣٠، ٦٣٣١، ٦٣٣٢، ٦٣٣٣، ٦٣٣٤، ٦٣٣٥، ٦٣٣٦، ٦٣٣٧، ٦٣٣٨، ٦٣٣٩، ٦٣٤٠، ٦٣٤١، ٦٣٤٢، ٦٣٤٣، ٦٣٤٤، ٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ٦٣٤٧، ٦٣٤٨، ٦٣٤٩، ٦٣٥٠، ٦٣٥١، ٦٣٥٢، ٦٣٥٣، ٦٣٥٤، ٦٣٥٥، ٦٣٥٦، ٦٣٥٧، ٦٣٥٨، ٦٣٥٩، ٦٣٦٠، ٦٣٦١، ٦٣٦٢، ٦٣٦٣، ٦٣٦٤، ٦٣٦٥، ٦٣٦٦، ٦٣٦٧، ٦٣٦٨، ٦٣٦٩، ٦٣٧٠، ٦٣٧١،

(٢٧٥) هامش عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير للمحقق أحمد شاكر: ١٢٤/٢.

(٢٧٦) حاشية الجمل على الجلالين: ١٨٨/١.

(٢٧٧) تفسير النسفي: ٩٢/١.

(٢٧٨) تفسير الألوسي: ١/١٤٧.

(٢٧٩) في ظلال القرآن: ٢/٢٠٩.

(٢٨٠) انظر تفسير الآبة الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ: محمد أبو زهرة في مجلة لواء الاسلام ، العدد الثامن ، السنة السادسة ، سنة ١٩٥٢م.

(٢٨١) لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ١٨٥ .

رواه البخارى (١٢٨٠، ٥٣٣٤)، ومسلم (١٤٨٦) وأبو داود (٢٢٩٩)، والترمذى (١١٩٥)، الداريمى (٢٢٨٤)، وأحمد (٢٦٢٢٥) من حديث رمة بنت أبى سفيان . ورواه البخارى (٥٣٣٥) وأبو داود (٢٢٩٩)، وأحمد (٢٦٢١٤)، والترمذى (١١٩٦) من حديث زينب بنت جحش . ورواه البخارى (٥٣٤٣) من حديث نسبية بنت كعب.

(۲۸۲) رواه البخاری وغیره عن ابن عباس .

(٢٨٢) تفسير القرطبي: ١٨٨/٣.

(٢٨٤) تفسير القرطبي: ١٩٦/٣.

(٢٨٥) تفسير الكشاف للزمخشري: ٢٨٦/١ ، بتصريف يسير.

(۲۸۶) تفسیر الفخر الرازی: ۱۵۷/۶.

(٢٨٧) شغلونا عن الصلاة الوسطى ١٩٢. رواه مسلم (٦٢٧) وأحمد (٩٩٧) والنسائي (٤٧٣).

(٢٨٨) انظر تفسير المنار: ٢/٣٣٣.

(٢٨٩) سورة النساء: ١٠٢ وهى: ﴿ وَإِذَا كُنْتُمْ فَتَنًا قُلْتُمْ لِقُلُوبِهِمْ قُلُوبُهُمْ مُتَّكِلَةٌ عَلَيْهِمْ فَلَا تَلْجَأُ الْفَتَنَةُ إِلَى أَنْ يُضْلِفَهُمُ إِلَّا مَنْ أِشْرَكَ بِاللَّهِ إِنَّهُ يَمْلِكُ الْوَدَّاعِينَ ﴾

(٢٩٠) فرض الله الصلاة على ليمان رسولوه في الحضرة أربعاً ١٩٢، رواه البخاري (٣٥٠) ومسلم (٦٨٥) والنسائي (٤٥١) من حديث عائشة.

(٢٩١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ٢٨٩/١، والتفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية: ٤/٨٠٨.

(٢٩٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطلاق ، باب نسخ متام المتوفى عنها زوجها بما فرض لها من الميراث .

(۲۹۲) تفسیر ابن کثیر: ۱/۲۹۷.

(٢٩٤) تفسير الفخر الرازي: ١٨٦/٦، وانظر تفسير المنار: ٤٤٢/٢ فقد عرض رأي الجمهور ثم عرض رأي من خالفه وهما مجاهد وأبو مسلم وناقش الآراء ورجح قول أبي مسلم على قول مجاهد.

(۲۹۵) تفسیر ابن کثیر: ۱/۲۹۷.

(٢٩٦) في: ظلال القرآن: ٢/٢٢٢.

(٢٩٧) حاشية الحمل: ٢٠١/١.

(٢٩٨) تفسير المنار: ٢/ ٤٧٠.

٤٧٠/٢: still empty (٢٩٩)

$$f(Y)/Y : \text{still surjective } (Y, \cdot)$$

(٣٠١) تقويم الكشاف: ١/ ٢٩٢.

(٢٠٢) تقويم ابن کلب: ٢٠١/١.

(٣٠٣) الهيم: الإبل التي يصيبها داء فلا تروى من الماء . واحدها: أهيمة والأنثى: هيمة .

(٣٠٤) تفسير القرطبي: ٣/٢٥٤ .

(٣٠٥) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب: ٢٢٩/٧ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم

الجزء الثاني

محتويات الكتاب

الموضوع	الآية	رقمها	رقم الصفحة
قول السفهاء	سيقول السفهاء من الناس	١٤٢	٢٠٥
أمة وسط	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	١٤٣	٢٠٧
القبلة	قد نرى تقلب وجهك في السماء	١٤٤	٢٠٩
عناد	ولئن أتيت ...	١٤٥	٢١١
معرفتهم للنبي (ﷺ)	الذين أتيناكم الكتاب	١٤٧، ١٤٦	٢١٣
لكل وجهة	ولكل وجهة هو موليها	١٤٨	٢١٥
الاتجاه إلى الكعبة	ومن حيث خرجت	١٤٩، ١٥٠	٢١٦
الرسول الهادي	كما أرسلنا فيكم رسولا منكم	١٥١	٢١٩
الذكر والشكر	فاذكروني أذكركم	١٥٢	٢٢١
الصبر والصلاة	يا أيها الذين آمنوا	١٥٣	٢٢٢
حياة الشهداء	ولا تقولوا لمن يقتل	١٥٤	٢٢٣
بشرى للصابرين	ولنبأونكم بشيء ..	١٥٥-١٥٧	٢٢٤
الصفاء والمروة	إن الصفاء والمروة	١٥٨	٢٢٧
كتمان العلم	إن الذين يكتُمون	١٥٩، ١٦٠	٢٣٠
عذاب الكافرين	إن الذين كفروا	١٦١، ١٦٢	٢٣٢
إله واحد	والهكم إله واحد	١٦٣	٢٣٣
دلائل الإيمان	إن في خلق السموات	١٦٤	٢٣٤
من مشاهد القيامة	ومن الناس من يتخذ	١٦٥-١٦٧	٢٣٩
أكل الحلال	يا أيها الناس كلوا	١٦٨، ١٦٩	٢٤٢
التقليد الأعمى	وإذا قيل لهم اتبعوا	١٧٠	٢٤٤
ضلال الكفار	ومثل الذين كفروا	١٧١	٢٤٥
تحريم الميتة والدم	يا أيها الذين آمنوا	١٧٢، ١٧٣	٢٤٧
جزاء من كتم العلم	إن الذين يكتُمون	١٧٤-١٧٦	٢٥٠
الببر	ليس الببر	١٧٧	٢٥٣

الموضوع	الآية	رقمها	رقم الصفحة
القصص	يا أيها الذين آمنوا كتب	١٧٩، ١٧٨	٢٥٩
الوصية	كتب عليكم إذا حضر	١٨٢-١٨٠	٢٦٤
الصيام	يا أيها الذين آمنوا كتب	١٨٤، ١٨٣	٢٦٧
شهر رمضان	شهر رمضان الذي	١٨٥	٢٧٢
الدعاء	وإذا سألَكَ عبداً	١٨٦	٢٧٦
ليلة الصيام	أحل لكم ليلة الصيام	١٨٧	٢٧٧
الرشوة	ولا تأكلوا أموالكم بينكم	١٨٨	٢٨٢
الأهـلة	يسألونك عن الأهلة	١٨٩	٢٨٤
القتال	وقاتلوا في سبيل الله	١٩٣-١٩٠	٢٨٦
الشهر الحرام	الشهر الحرام بالشهر الحرام	١٩٥، ١٩٤	٢٩٠
الحج والعمرة	وأتموا الحج والعمرة لله	١٩٦	٢٩٥
أشهر الحج	الحج أشهر معلومات	١٩٧	٣٠٠
عـرفـات	ليس عليكم جناح	١٩٨	٣٠٢
الإفـاضـة	ثم أفـيضوا	١٩٩	٣٠٥
حسنة الدنيا والآخرة	فإذا قضيت مناسككم	٢٠٢-٢٠٠	٣٠٦
ذكر الله	واذكروا الله	٢٠٣	٣٠٩
نموذج من الناس	ومن الناس من يعجبك	٢٠٧-٢٠٤	٣١١
السلام في الإسلام	يا أيها الذين آمنوا	٢٠٩، ٢٠٨	٣١٧
من مشاهد القيامة	هل ينظرون	٢١٠	٣١٩
تبديل النعم	سل بني إسرائيل	٢١١	٣٢٠
سخـرية	زين للذين كفروا	٢١٢	٣٢٢
أمة واحدة	كان الناس أمة واحدة	٢١٣	٣٢٤
ابتلاء المؤمنين	أم جـسـمـيـتم	٢١٤	٣٢٧
تنظيم الصدقات	يسألونك ماذا ينفقون	٢١٥	٣٢٩

الموضوع	الآية	رقمها	رقم الصفحة
القتال	كتب عليكم القتال	٢١٦، ٢١٧	٢٣١
ثواب الجهاد	إن الذين آمنوا	٢١٨	٢٣٦
الخمر والميسر	يسألونك عن الخمر والميسر	٢١٩، ٢٢٠	٢٣٧
نظام الأسرة			٢٤٧
تحريم الزواج من المشركات	ولا تنكحوا المشركات	٢٢١	٢٤٨
أحكام الحيض	ويسألونك عن الحيض	٢٢٢، ٢٢٣	٢٥٢
اليامين والإيلاء	ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	٢٢٤-٢٢٧	٢٥٩
عدة المطلق	والمطلقات يتربصن	٢٢٨	٢٦٥
الطلاق والخلع	الطلاق مـــــــرتان	٢٢٩	٢٧٠
من أحكام الطلاق	فإن طلقها فلا تحل	٢٣٠	٢٧٥
الإمساك بالمعروف	وإذا طلقتم النساء فبلغن	٢٣١	٢٧٨
حق اختيار الزوج	وإذا طلقتم النساء فبلغن	٢٣٢	٢٨١
الرضاعة	والوالدات يرضعن أولادهن	٢٣٣	٢٨٤
عدة المتوفى عنها	والذين يتوفون منكم	٢٣٤	٢٨٨
التعريض بالخطبة	ولا جناح عليكم فيما عرضتم به	٢٣٥	٢٩٠
الطلاق قبل الدخول	لا جناح عليكم إن طلقتم	٢٣٦	٢٩٢
نصف المهر	وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن	٢٣٧	٢٩٥
المحافظة على الصلاة	حافظوا على الصلوات	٢٣٨، ٢٣٩	٢٩٦
الزكاة والنفقة	والذين يتوفون	٢٤٠-٢٤٢	٢٩٩
الموت والحياة بيد الله	ألم، تر إلى الذين خرجوا	٢٤٣	٤٠٣
فضل القتال والصدقة	وقد اتلوا في سبيل الله	٢٤٤، ٢٤٥	٤٠٥
رغبة في القتال	ألم تر إلى المـــــــلأ	٢٤٦	٤٠٨
مؤملات الملك	وقال لهم نبيهم	٢٤٧، ٢٤٨	٤١٠
اختبار الجنود	فلما فصل طالوت بالجنود	٢٤٩-٢٥١	٤١٤
آيات الله	تلك آيات الله نتلوها	٢٥٢	٤١٨

ترجمه الله الجزء الثاني، ويليهِ الجزء الثالث بإذن الله





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار غريب

إهداء ٢٠٠٥

أ.م.د. محمد أحمد شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْ كَلَمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾

المفردات :

تلك : يشار بها إلى المؤنث ، ويعامل جمع الذكور معاملة المؤنث بتأويله بالجماعة؛ لهذا أنث اسم الإشارة هنا ، أى تلك جماعة الرسل.
من كلم الله : أن كلمه بلا واسطة ومن غير سفير، وهو موسى عليه السلام.
البيّنات : الحجج والأدلة.
بروح القدس : أى بالروح القدس؛ أى المظهر، وهو جبريل عليه السلام.

الأنبياء والرسل

النبوة من النبأ بمعنى الخبر، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحي إلى من اختاره من عباده لتلقى ذلك، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التي بين النبي والخالق جل جلاله، وهى علاقة الوحي والإنباء.
والرسالة ، تعنى تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الآخرين بشرع أو حكم معين ، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التي بين النبي وسائر الناس وهى علاقة البعث والإرسال.
فإذا لاحظت فى النبى الحالة التى بينه وبين الله عز وجل فهى النبوة وإذا لاحظت حالته التى بينه وبين الناس فهى الرسالة.
والنبي من أوحى الله إليه بأمر ولم يكلفه بالتبليغ، والرسول من أوحى الله إليه بشرع وكلفه بالتبليغ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسول.
الوحي :

الوحي لغة هو الإعلام فى خفاء.

وشرعاً : إعلام الله تعالى من اصطفاة من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من الوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.

صور الوحى :

أشار القرآن فى آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحى، حيث قال تعالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ (الشورى : ٥١) .
وقد ورد فى صحيح البخارى وصف الوحى، وبدء الوحى وكيفية الوحى.

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال، يا رسول الله، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس - وهو أشده علىَّ ، فيفصم عني وقد وعيت منه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول » .

قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(١).

الأنبياء الذين بعثهم الله عز وجل :

أول نبي أرسله الله تعالى مؤيداً بالوحى والأحكام هو آدم أبو البشر ، وآخر الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أسماء خمسة وعشرين نبياً مرسلأ وهم آدم ، إدريس ، نوح ، هود ، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، سليمان ، داود ، إلياس ، إيلسع ، يونس ، زكريا ، يحيى ، عيسى ، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وهناك أنبياء آخرون لم يتعرض القرآن لذكرهم ، ولكن أخبرنا عنهم فى الجملة : قال تعالى : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (النساء : ١٦٤) .

فيجب الإيمان بأن الله أرسل رسلاً وأنبياء كثيرين إلى كل أمة وجماعة، وفى مختلف الأمكنة والعصور .

قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر : ٢٤) .

وعلى هذا فلا بد أن يكون عدد الأنبياء على مر العصور قد تجاوز الآلاف، وقد حدد بعض العلماء عددهم بـ ١٢٤ ألفاً ، ولكننا لا نرى دليلاً يحملنا على التزام تحديددهم بهذا العدد .

قال النسفى : وتحديد عددهم لا يؤمن معه أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو فيهم^(٢) .

(وأفضل الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد فضل الله أولى المرسل من الرسل وهم خمسة إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم . وينبغى أن نعلم أن النبوة التى أكرم الله بها الأنبياء حقيقة واحدة لا تتفاوت ولا تختلف ما بين نبي وآخر ، قال ، تعالى : لَا تَفَرِّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقرة : ٢٨٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم « لا تخيرونى على موسى ، ولا تفضلونى على الأنبياء »^(٣) .

قال ابن كثير في التفسير :

ورد في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل ، وقد قال تعالى : **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** .

(فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين :

« لا تفضلوني على الأنبياء » .

فالجواب من وجوه :

(أحدها) : أن هذا كان قبل أن يعلم بالترتيب وفي هذا نظر .

(الثاني) : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع .

(الثالث) : أن هذا نهى عن التفضيل عند التغاض والتشاجر ^(١) .

(الرابع) : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية .

(الخامس) : ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به .

صفات الأنبياء :

جملة ما يجب للأنبياء أربع صفات :

١ - الذكورة ، فلا تكون النبوة والرسالة لأنثى ، والوحي إلى أم موسى معناه الإلهام والأمر المتجه إلى مريم قد يكون نداء من ملك مثل جبريل حين قال :

فَإِذَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي .. (مريم : ٢٤) وهذا بمجرد لا يعنى النبوة ولا يستلزمها .

٢ - الأمانة وتعنى بها الصدق ، وعصمتهم من الكذب وحفظ الله ظواهرهم وبواطنهم عن التلبس بأمر منهى عنه .

٣ - العصمة عن الوقوع في الذنوب :

فالأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها ومعصومون عن الصفات فيما ذهب إليه الجمهور .

٤ - كمال العقل والضبط والعدالة .

إذ هي من مستلزمات أداء الرسالة .

والرسل بعد توافر هذه الشروط فيهم ، ليسوا من وراء ذلك إلا بشرًا كسائر الناس يأكلون ويشربون وينكحون ويمشون في الأسواق . وتعرض قلوبهم لكل ما يتعرض له قلب الإنسان من مشاعر الحب والكراهية والبغض والرحمة ، دام أن أم شيئاً من ذلك لا يستوجب إثمًا ، أو يستلزم شيئاً من خلاف الصفات الأربع التي ذكرناها ، وتعرض أجسامهم للأسقام والأوجاع ، ثم تنتهي إلى الموت شأن البشر جميعًا ، قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . (الفرقان ٢٠) .

عود إلى تفسير الآية :

٢٥٣ - تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

هؤلاء الرسل الكرام - الذين بعثهم الله تعالى إلى الناس برسالاته وهدهاء في مختلف البقاع والأزمان. فضّل الله تعالى بعضهم على بعض في المكانة والمعجزات ، وإن كانوا جميعاً قد تأخّوا في شرف النبوة والرسالة.

منهم من كَلَّمَ الله ، بين الله بعض مظاهر التفضيل.

فمن الأنبياء من فضّله الله بتكليمه مباشرة ودون وسيط مثل موسى عليه السلام قال تعالى :

قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (الأعراف : ١٤٤).

وتشير كتب السنة إلى أن الله كلم محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ، ورفّع بعضهم درجاتهم من أول العزم ، ومنهم خليل الله ، ومنهم كليمه ، إلى غير ذلك مما يمتاز به بعض الرسل على بعض .

وعلينا أن نكف عن الموازنة بينهم تكريماً لهم عن أن يكونوا مجالاً للمناقشة والجدال والتعصب الجنسى أو الدينى . وأن نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه قال تعالى :

آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ (البقرة ٢٨٥).

والإجماع منعقد على أن أفضل الرسل جميعاً محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن رسالته عامة للبشرية جميعاً ، ممتدة من عصره إلى آخر الزمان.

أما كل منهم فرسالته محصورة في قوم ، وتنتهى رسالته ببعثه خلفه ، جاء في تفسير الكشاف للزمخشري :

وقوله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ . أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء ، فكان بعد تقاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة.

والظاهر أنه أراد محمداً صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتي ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقبة إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتي الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وفي هذا الإيهام من تفضيل فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتهبه والمتميز الذى لا يلبس (٥).

وروى مسلم وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع » (٦).

وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أعطينا عيسى ابن مريم الآيات الباهرات، والمعجزات الواضحات، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإخبار قومه، بما ياكلونه ويذخرونه فى بيوتهم، وفضلاً عن هذا فقد قويناه بجبريل عليه السلام.

- وجاء فى ظلال القرآن :

« والحكمة فى ذكر عيسى ابن مريم واضحة، فقد نزل القرآن ، وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى - عليه السلام - وبنوته لله - سبحانه وتعالى - أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والانسوت. أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة فى الكأس، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى غرقت الكنائس والمجامع فى الجدل حولها، وجرت الدماء أنهاراً فى الدول الرومانية، ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى - عليه السلام ، وذكره فى معظم المواضع منسوباً إلى أمه مريم. أما روح القدس فالقرآن يعنى به جبريل عليه السلام - فهو حامل الوحي إلى الرسل ، وهذا أعظم تأييد وأكبره، وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بالسكينة والتثبيت والنصر فى مواقع الهول والشدة فى ثلثيا الطريق ... وهذا كله التأييد (٧) » . ا. هـ.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا .

- يقول الشيخ محمد عبده :

لو شاء الله تعالى أن تكون سنته فى الإنسان ، أن يعذر المختلفون من أفرادهم بعضهم بعضاً، ويوطن كل فريق نفسه على أن ينتصر لرايه بالحجة، ويسعى إلى مصلحته بالقطنة لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه، ولكنه جعلهم درجات فى الفهم والحزم وأودع فى غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم والنضال دون مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول وعمل، فالقوى بالراى يعارب بالراى، والقوى بالسيف يقاوم بالسيف، فكان الاختلاف فى الراى والمصالح معاً ، مع عدم العذر مؤدياً إلى الاقتتال لا محالة.

هكذا خلق الإنسان ، فلا يقال : لِمَ خلقه هكذا ؟ لأن هذا بحث عن أسرار الخلقة كبير أذن الحسان وصغر أذن الجمل، ولذلك قال : وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له (٨).

- اقتتال المسلمين :

قدم تفسير المنار بحثاً مستفيضاً ، عن اقتتال المسلمين وآثاره المدمرة نختمه فيما يأتى :

نهى القرآن عن الاختلاف والتفرق فى الدين ، قال تعالى :
واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً (آل عمران ١٠٣-١٠٤).

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْماً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (الأنعام : ١٥٩).

وإذا وقع التنازع لاختلاف وجب رده إلى الله ورسوله وتحكيم الكتاب والسنة فيه ولا يجوز أن يتمادى المسلمون على التفرق والاختلاف بحال قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (النساء : ٥٩).

أما الاقتتال بين المسلمين بسبب الاختلاف ، فاوله ما كان بين علي ومعاوية ، ثم ما كان من حروب الخوارج ثم الشيعة ، ومنه ما كان بين المصريين والوهابيين ^(٩) ومن أراد تمام العبر في ذلك فليرجع إلى كتب التاريخ ولاسيما تاريخ بغداد وحادثة خروج التتر، التي كانت أول حادثة زلزلت سلطان المسلمين في الأرض، ودمرت بلادهم تدميرًا ، لقد كان الخلاف بين الشافعية والحنفية من أسبابها ، وابن العنقي الوزير الشيعي هو الذي دعاهم إلى بغداد سنة ٦٥٦ هـ فخربوها وقتلوا فيمن قتلوا الشرفاء شيعة وغير شيعة وبيخه هولاكو على خيافته فمات غمًا .

والفتن التي كانت بين الشيعة والسنة في الشرق والغرب كثيرة، وتاريخ بغداد مملوء بالفتن بين الشافعية والحنابلة ، وكان أشد الخلاف بين هؤلاء على الجهر بالبسملة في الصلاة يسفكون الدماء لذلك .

ولا ينسئ الرجوع إلى التاريخ الفتنة بين الشافعية والحنفية، إذ تقلد ابن السمعاني مذهب الشافعي ، فقد كان ذلك من أسباب خراب مرو عاصمة خراسان ^(١٠).

والاختلاف في الدين مفسد للأمم، مزلزل للكيان الاجتماعي، مدمر لروابط الألفة بين الناس، وقد بين القرآن علاجه للمسلمين ، وهو تحكيم الله تعالى فيما اختلفوا فيه، وبيان وجهة النظر بالحكمة و الموعظة الحسنة والنقاش الهادئ المستتير ، لإحقاق الحق بلا كبير ولا تمويه .

قال تعالى : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (التحل ١٢٥).

لقد اختلف اليهود في دينهم فاقتتلوا ، والنصارى كانوا أشد منهم في ذلك ، فتفرقوا طرائق قديدا، وكان أهل المذهب الواحد يتشعبون شعبا يقاتل بعضها بعضا .

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . لقد امتحن الله عباده بصنوف النعم، بل جعل الله الموت والحياة للاختبار والابتلاء، قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (المالك : ٢).

وقد اختلف أتباع الرسل بعد ما جاءتهم الآيات البينات والدلائل الواضحة المؤيدة للحق .

فمنهم من آمن لطيب سريره ، وحسن اختياره ، ومنهم من كفر لخبت نيته وسوء رايه، ولو شاء الله لآمنا جميعًا، ولم يقتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد من ترك عباده لاختيارهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب .

ويدفع المؤمنون شر الكافرين وفسادهم ، ثم يجزى كلا على حسب عمله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين (البقرة : ٢٥١).

★ ★ ★

﴿يَتَائِبُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

المفردات :

الخلة : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين ، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها ، أى لشدة الحاجة إليها . ومنه سمي الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه .

والشفاعة : مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرتة ، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه .

والمعنى :

عليكم - أيها المؤمنون - أن تنفقوا فى وجوه الخير كإعانة المجاهدين ، ومساعدة الفقراء والباحثين من أموالكم التى رزقكم الله إياها بفضله وكرمه ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة ولا مبايع حتى تقدموا عن طريقها ما تقتدون به أنفسكم ، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم ، ولا شفيع يشفع لكم من سيئاتكم إلا أن ياذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرما .

فآلية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله ، لأنه أهم عناصر القوة فى الأمة ، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكامل .

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل القرض والنفل ، والأمر به لمطلق الطلب ، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها .

وقوله : مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ . إشعار بأن هذا المال الذى بين أيدي الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فمن الواجب شكرها بالإنفاق بجزء منه على الإنفاق فى وجوه الخير ، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم .

وفى قوله : مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ ... إلخ . حث آخر على التعجيل بالإنفاق ، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تمويض ما فقدوه من طاعات . فكانه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه .

و « من » فى قوله : مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ . للتبويض . وفى قوله : مِّن قَبْلِ ، لابتداء الغاية . ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئاً مما رزقناكم .

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأتى بها ، أما شفاعة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد أذن الله له بها وقبلها منه ، وقد وردت - أحاديث صحيحة ببلغ التواتر المعنوى فى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين ، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم وآله - قال : أُعْطِيتَ خَمْسًا لَمْ يَعْطَيْنِ نَبِىٌّ قَبْلِي : تُصْرَتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتِ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَمَطْهَرًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِىُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً ^(١١) .

ثم ختم - سبحانه وتعالى - الآية بقوله : وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة ، الغى على الرشد ، والشر على الخير ، والبخل على السخاء .

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم ، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفى إغاثة المحتاجين .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ما كان نافعا فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توصدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة ، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير .

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإتفاق فى وجوه الخير . وذكرهم بأهوال يوم القيامة ، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه وتعالى - فبينت كمال سلطانه ، وشمول علمه ، وسابغ نعمه على خلقه . استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (٢٥٥)

قال بعضهم : هذه آية الكرسي أفضل آية في القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات. هذا هو التحقيق في تفضيل بعض آيات القرآن على بعض. وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « لكل شيء سنم وإن سنم القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة القرآن - أي أفضله - وهي آية الكرسي » (١٢).

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجلية، أما الجملة الأولى والثانية فتمثل في قوله تعالى :

٢٥٥ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

ولفظ الجلالة الله يقول العلماء ؛ إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « ال » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله .

قال القرطبي : قوله الله هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع . فאלله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو - سبحانه - (١٣).

ولفظ، إله قالوا إنه من إله نفسه يأله أي عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود . وقيل هو من إله أي تحير... وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته - سبحانه - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله (١٤).

و الحي أي الباقي الذي له الحياة الدائمة التي لا فناء لها . لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعترية الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواء يعترهم الموت والقناء .

و القَيُّوم أي : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم . وهو مبالغ في القيام . « وأصله قويم - بوزن فيعمل - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره ».

والمعنى : الله - عز وجل - هو الإله الحق المنفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواء، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياتهم ورعايتهم وحياتهم وإماتهم.

والجملة الثالثة قوله تعالى : لا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ . وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة ولأن السَّنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسَّنة : الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك ، ويقال له غفوة يقال : وسن الرجل يوسن وسنا وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعى والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبداً، ولايجب علمه شيء حجياً قصيراً أو طويلاً، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السَّنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفى السَّنة يدل على نفى النوم بالأولى ، فتفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله : لا تَأْخُذُهُ . دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذاً، وتقهرك الكثير من أجناس المخلوقات قهراً ، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزّه عن ذلك ومبهر من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله سبحانه فى الجملة الرابعة : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . تقرير لانفراده بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكاً له فهو حقيق بأن يكون قائماً بتدبير أمرها .

والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما فى هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور « له » لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده وليس لأحد سواه شيء معه .

والاستقهام فى قوله فى الجملة الخامسة : مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ للنفى والإنكار أى : لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه - قال تعالى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى (النجم : ٢٦).

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الألوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفْعاً على وجه الشفاعة والإنسكانة والخضوع فضلاً عن أن يستقل بدفعه عناداً أو مناصبة وعداوة. وفى ذلك تبيّس للكفار حيث زعموا أن ألهتهم شفعا لهم عند الله ، (١٥).

وقوله سبحانه في الجملة السادسة : **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** . تأكيد لكمال سلطانه في هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شيء.

والضمير في : **أَيْدِيهِمْ** ، **خَلْفَهُمْ** . يعود إلى **مَا** في قوله قبل ذلك : **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** . وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليباً لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله تعالى في الجملة السابعة : **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ، مطوَّف على قوله : **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ، لأنه مكمل لمعناه . والمراد بالعلم المعلوم . والإحاطة بالشيء معناها العلم الكامل به.

أى : لا يعلمون شيئاً من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذي أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله . فهو كقوله تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ** ... (الجن ٢٦-٢٧).

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى - ولتقصان علم سواء، إذ إن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل ، وهذا القليل ناقص لأنه ليس علم إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشيء، ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبيّجاده ، إذ العلم الكامل بالشيء لا يكون إلا لله رب العالمين.

ثم قال تعالى في الجملة الثامنة : **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** .

قال الراغب : الكرسي في تعارف العامة اسم للشيء الذي يقعد عليه، وهو في الأصل منسوب إلى الكرسي أى الشيء المجتمع، ومنه الكراسية لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشيء كرس ... (١٦).

وللعلماء اتجاهان مشهوران في تفسير معنى الكرسي في الجملة الكريمة.

فالسلف يقولون : إن لله - تعالى - كرسيًا، علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس في مقدور البشر.

والخلف يقولون : الكرسي في الآية كناية عن عظم السلطان، وتفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشف تلخيص حسن لأقوال العلماء في ذلك ، فقد قال - رحمه الله - : وفي قوله : **وَسِعَ كُرْسِيُّهُ** ، أربعة أوجه : أحدها أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبطئته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ، ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد ...

والثاني : وسع علمه ، وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذي هو كرسي العلم.

والثالث : وسع ملكه، تسمية بمكانه الذي هو كرسي الملك .

والرابع : ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شئ. وعن الحسن الكرسى هو العرش (١٧).

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال « كرسية علمه » (١٨) ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال جبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالصفحتين التاسعة والعاشره فقال تعالى : **وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.**

يُؤْذُهُ : معناه يثقله ويشق عليه . يقال آذى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة .

العلي : هو المتعالى عن الأشياء ، والأنداد ، والأمثال ، والأضداد ، وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث . وقيل : هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن ...

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، وهو المتعالى عن الأشياء والنظائر ، المسيطر على خلقه ، العظيم فى ذاته وصفاته ، فى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته ، وعظيم رعايته لخلقه ، وتنزيهه - سبحانه عن مشابهة الحوادث .

وبعد ، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل ، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أثر من صفات الله الجلية ، ونعموته المجيدة ، وألوهيته الحققة ، وقدرته النافذة ، وعلمه المحيط بكل شئ ، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله - تعالى - ، ووجوب إفراده بالعبادة .

وقد تكلم العلماء طويلاً عن تناسق جملها ، وبلاغة تركيبها ، ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشف : « فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ما ورد ؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العالمين فما كان ذكرها له كان أفضل من سائر الأذكار » .

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ما جاء عن أبى بن كعب أن النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - سألته : **أى آية فى كتاب الله أعظم ؟** قال : **الله ورسوله أعلم .** فرددها مراراً ثم قال : آية الكرسى . فقال له الرسول - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - **« ليهنك العلم أبا المنذر »** (١٩).

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه قال : **« إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسى »** (٢٠).

وروى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية

فقال ابن مسعود : على الخير سقطت . سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول : **أعظم آية فى القرآن : الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... الآية (٢١).**

وبعد أن ساق - سبحانه في آية الكرسي الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتزجيه عن صفات الحوادث، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلي لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه، فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

المفردات :

الإكراه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد.

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشد أى اهتدى. والمراد هنا : الحق والهدى.

والغى : ضد الرشد والمراد به، مصدر من غوى يغوى إذا ضل فى معتقد أو رأى.

ويرى بعض العلماء أن نفي الإكراه هنا فى معنى النهى، أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح فى دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ، ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة ، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيد الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخيرية. والمعنى : ليس فى الدين الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان فى النفس، إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد ، لأن مبنى هذا الدين على التمكن والاختيار ، وهو منامد الثواب والعقاب، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار ، ولبطل الامتحان.

أو المعنى - كما يرى بعضهم - أن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد، وعلى أن الكفر به غي وضلال ، أن يدخل عن طوعية واختيار فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد.

فالجملة الأولى وهى قوله تعالى : **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** . تتقى الإجبار على الدخول فى الدين. لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه ، إذ التدين إذعان قلبى ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة، فإذا أكره عليه الإنسان ازداد كرها له ونفوراً منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

والجملة الثانية وهى قوله تعالى : **قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** . بمثابة العلة لنفى هذا الإكراه على الدخول فى الدين ، أى قد ظهر الصريح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران، وما دام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التى تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام ، ومن كفر بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره .

ثم قال تعالى : **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا .** الطاغوت : اسم لكل ما يطفى الإنسان ، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس فى الضلال، وكل ما عبد من دون الله .. وهو مأخوذ من طغى يطفى .. كسعى . طغياً وطغياناً . أو من يطغو طغواً وطغواناً ، إذا جاوز الحد وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والفجور .

والعروة : فى أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشئ من عراء، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها، وتجمع على عراء . والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره .

والوُثْقَى : مؤنث الأوثق، وهو الشئ المحكم الموثق . يقال وثق - بالضم وثاقة أى : قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم .

والانفصام : الانكسار ، والفصم كسر الشئ وقطعه .

والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، وآمن بالله - إيماناً خالصاً صادقاً، فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التى لا انقطاع لها، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط .

والفاء فى قوله : **فَمَنْ يَكْفُرُ...** . للتفريع . والسين والتاء فى استمسك للتأكيد والطلب . وقوله : فقد استمسك بالعروة الوثقى . فيه .. كما يقول الزمخشري تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصور السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به وجملة : لا انفصام لها . استئناف مقرر لما قبله أو حال من « العروة » والعامل : استمسك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : **وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** . أى سميع للأقوال وهمسات القلوب، وخالج للنفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

قال القرطبي ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين.. « لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلتهم ولم يرض إلا الإسلام . وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية ..

والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمى - أيته العجوز - تسلمى ، إن الله بعث محمداً بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب . فقال عمر : اللهم أشهد وتلا : لا إكراه في الدين . (٢٢) .

والذى تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدوين لا يكون مع الإكراه.. كما أشرنا من قبل .. ولأن الجهاد ما شرع في الإسلام لإجبار الناس على الدخول في الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم، ورد العدوان ، وإعلاء كلمة الله ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول في الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوا بالعداوة .

ولأن الروايات في سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه في الدين ، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت في رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلماً ، فقال للنبي - صلى الله عليه وسلم - ألا أستكرههما فإنهما قد آبيا إلا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية (٣٣).

وهي رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول في الإسلام فاختمصوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية.

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، وهنا يمكن القول بأن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون ، وآية يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ... (التحريم : ٩) . جاءت لحض النبي - صلى الله عليه وسلم - وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا في طريق دعوته، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هي العليا.

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين، فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

التفسير :

المولى : الناصر والمعين والحليف . مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة.

والمعنى : الله انشى بيده ملكوت كل شيء : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا . أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر ، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأهواء. أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بمسيرتهم، وانتكاسهم في المعاصي من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة . أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدا .

وافرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، أما الظلمات فقد تعددت فتونها والوانها وأسبابها . وفي تقديم : الَّذِينَ كَفَرُوا ، في قوله :

« الَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطراً على قلوبهم ، لأن كفرهم بالله تعالى هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر .

وقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا ، مبتداً و : أُولَئِكَ هُمُ . مبتداً ثان ، و : الظَّالِمُونَ . خبره . والجملة خبر المبتداً الأول .

ولم - يقل سبحانه - والظالمون ولى الذين كفروا ، للاحتراز عن وضع اسم الظالمين على مقابل لفظ الجلالة .

هنا قيل : وهل كان الكافرون في نور ثم أخرجوا منه ؟ فالجواب أن المراد بخروجهم خروجهم من النور الفطرى الذى جُبل عليه الناس كافة ، أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أن تحمّل كل عاقل على الدخول فى الإسلام . وقيل المراد بهؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ثم كفروا به بعدها ، والإشارة فى قوله أولئك تعود إلى الذين كفروا . وفى التعبير بـ « أَصْحَابُ النَّارِ » إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلزم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه وقوله :

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، تأكيد لبقيتهم فيها واختصاصهم بها .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقّت أحسن البشارات للمؤمنين ، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى .

ثم ساق القرآن بعد ذلك الأمثلة للمؤمنين المهتدين ، وللضالين المغرورين فقال تعالى :

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّى
الَّذِى يُعْجِبُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ
الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢٥٨)

« حاج » أى جادل وخاصم ، والمحاجة المخاصمة والمغالبة بالقول ، يقال حاججته فحججته أى خاصمته
بالقول فتغلّبت عليه ، وتستعمل المحاجة كثيراً فى الخاصمة بالباطل ، ومن ذلك قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ . وقوله تعالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونَنِ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .. (الأنعام : ٨٠) .

والمعنى : لقد علمت أيها العاقل قصة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته فما نحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطوره .

والمراد به - كما قال ابن كثير - نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ملك بابل، وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية ، أو هى محاجة فى نظره السقيم، ورأيه الباطل .

والضمير فى قوله فى ربه يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمرود لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه، والإضافة - على الرأى الأول- للتشريف ، ولإيضاح أن أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم . وقوله أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ بيان لإقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطفنان ، أى سبب هذه المحاجة لأن أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها فى غير ما خلقت له فقلوبه أَنَّ آتَاهُ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف الجر. وهو مطرد الحذف مع أَنَّ وَأَنَّ .

وقوله : إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ . حكاية لما قاله إبراهيم - عليه السلام - لذلك الملك فى مقام التذليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة. أى قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدتها، ويميت الأرواح ويفقدتها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك .

وقول إبراهيم - كما حكاه القرآن : رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ . مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو « رِبِّى » والخبر هو الموصول وصلته .

وعبر بالمضارع فى قوله يُحْيِى وَيُمِيتُ . لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر .

أى رى هو الذى يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهداً فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخضع للعبادة والخضوع وأن تقنع عما أنت فيه من كفر وطفنان وضلال .

وقوله إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ... ظرف لقوله حَاجٌّ أو بدل اشتمال منه وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضَحَ حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم : رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ، جواب لسؤال سابق غير مذكور، وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله ، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن

النكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلها فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود من ربك ؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة، لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة. وقدم ذكر الحياة على الموت هنا، لأن من شأن الدليل أن يكون غاية فى الوضوح والقوة، ولشاك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة ها هنا فى الذكر ، (٢٤).

ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال : قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ . أى قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضاً - أحيى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية . قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عمن يحكم بقتله ويقتل من شاء أن يقتله .

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الإحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن - : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعل مشاركا لله - تعالى - فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحا فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها، فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت، فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذف إبراهيم - عليه السلام - بها فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - فُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أى : غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه . و « بُهِتَ » فعل ماض جاء فى صورة الفعل المبني للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفعل . وقوله الَّذِي كَفَرَ هو فاعله . والبهت : الانقطاع والحيرة . وقرئ بوزن - علم ونصّر وكرم.

والفاء فى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ ... إلخ ، فصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحيى وتميت وإن قدرتك كقدرة الله ، فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .

وعبر عن هذا المبهوت بقوله : الَّذِي كَفَرَ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أى لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهيهم حجة ولا برهاناً، بسبب ظلمهم وطفيتهم وإيتارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكمت للناس لوئاً من الوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون .

ثم ساقَت السورة الكريمة قصتين تدلان بآبلغ الدلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور، استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول :

★ ★ ★

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَيْسَتْ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ ۖ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا الْحَمَاءَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ۖ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَإِذْ قَالَ لِإِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ۖ قَالَ أُولَئِمُ تَوَمَّنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۖ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾

قال الألوسي ما ملخصه : قوله : « أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ » معطوف على ما سبقه - وهو قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ » والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لأرايت محدثاً . أى أو أرايت الذى مر على قرية... وحذف لدلالة « أَلَمْ تَرَ » عليه . وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية... وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرايت - شيئاً عجيباً - كالذى حاج إبراهيم فى ربه ، أو كالذى مر على قرية .. » .

والذى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ قيل هو عزيز بن شرخيا ، وقيل حزقيال بن بوزي ، وقيل غير ذلك . والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها « بختنصر » البابلى .. والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن . وجملة « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » فى موضع الحال من الضمير المستتر فى مَرَّ . والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها ، والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من القرية ، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها تكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرايت ... ومعنى « وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا » أن جدرانها ساقطة على سقوفها أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها ، أصبحت خالية من أهلها ، وفارغة ممن كان يعمرها . وأصل الخواء الخلو . فيقال خوت الدار وخويت

تخوى خواء إذا سقطت وخلت، والعروش جمع عرش وهو سقف البيت، ويسمى العريش. وكل شيء يهيا ليظل أو يكن فهو عريش وعرش.

وقوله تعالى : قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار.

والمعنى : أو أرايت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها وقارعة ممن كان يسكنها، فهالها أمرها، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب: كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم ؟ فقوله أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون أَنَّى هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية.

وقال القرطبي : قوله : قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . معناه من أى طريق وبأى سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن فى المدن الخربة التى تبعد أن تعمر وتسكن: أَنَّى تعمر هذه بعد خرابها. فكان هذا تلهف من الواقف المتعبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته... » (٢٥).

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة ، لا عن أصل الإعادة. لأنه كان مؤمناً بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشتوق إلى عمارتها، واعتراف بالعجز عن طريق الإحياء ، فماداً كانت نتيجة هذا التساؤل ، كانت نتيجة كما حكاها القرآن : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام « ثم بعثه » أى إحياء يبعث روحه إلى بدنه قَالَ كَمْ لَبِثْتَ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال « قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » .

وقال سبحانه : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، ولم يقل ثم إحياء ، للدلالة على أنه عاد كهيشته يوم مات عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية، وللإشعار بسرعه وسهولة تأنيه على البارئ سبحانه .

قال ابن كثير : كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه، فلما استقل سوياً قال الله له بواسطة الملك كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٦).

وقوله تعالى : كَمْ لَبِثْتَ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماداً قال له بعد بعثته ؟ فقيل : قال كم لبث ؛ ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على آتم وجه ، ولتحسم مادة استباده بالمرّة.

وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يوماً أو وقتاً والناصب. لها قوله لبث .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على الله - تعالى - فهو القائل : مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيِيكُمْ إِلَّا نُفُوسُ وَاحِدَةٍ . (لقمان ٢٨).

وفى الحديث الشريف : « والله لتموتن كما تاملن ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان وإيالسوء سوءاً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ».

وقوله تعالى : قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ ، معطوف على مقدر، أى : ليس الأمر كما قلت أنك لبثت يوماً أو بعض يوم، إنك لبثت مائة عام. ثم أرشده - سبحانه - إلى التأمل فى أمور فيها أبغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - : فَأَنْظِرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا .

قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة، ولم تذهب طراوته ، فكأنه لم تمر عليه السنوات. ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سَنَوَهُ لتصغيرها على سَنِيَّةٍ وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات ، ولقولهم: سَنَنَتْهُ إذا عاملته سنة فسنة، وَتَسَنَّهْ عند القوم إذا قام فيهم سنة. أو الهاء فيه للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنة واوا ، وأصلها سنوة لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات .

وقوله : نُنْشِزُهَا أى نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه، وأصله من النشز - بفتحتين وبالسكون - وهو المكان المرتفع. وقرئ نُنْشِزُهَا بضم النون والراء أى نحييها ، من أنشز الله الموتى أى أحياهم.

والمعنى : قال الله تعالى لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها : إنك لم تلبث يوماً أو بعض يوم فى الموت كما تظن ، بل لبثت مائة عام ، فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمراً آخر من دلائل قدرتنا ، فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بلبقى على حالته، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله، مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة.

وقوله : وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ ، معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لضمون ما سبق ، والتقدير : فلما ما فعلنا لئلا تشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلاً على صحة البعث.

وقوله : وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا . أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدتها.

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده.

قال ابن كثير : قال السدي وغيره : تفرقت عظام حمارة يميناً وشمالاً حوله فتظر إليها وهي تلوح في بياضها ، فبعت الله ريحاً فجمعهما من كل موضع ، ثم ركب كل عظم في موضعه ، ذلك كله بمرأى من العزيز .

وجاء الضمير في قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شيء واحد فكانه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أى : فلما تبين له بالأدلة الناصعة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأؤمن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شيء قدير ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء ، والفاء في قوله فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ .. عاطفة على مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكسهاها لحمًا فلما تبين له ذلك وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وفاعل « تبين » مضممر يفسره سياق الكلام والتقدير : فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

تلك هي القصة الأولى التي ساقها الله - تعالى - كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور ، أما القصة الثانية التي تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن في قوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى أَيْ : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعتظ وقت أن قام إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً خالقه - سبحانه - رب أرني بعيني كيف تميد الحياة إلى الموتى .

وفي قوله : رَبِّ تَصَرِّحْ بِكَمَالِ آدَبِهِ مَعَ خَالِقِهِ - عز وجل - فهو قبل أن يدعو يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحق ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك في قدرة الله ولا في صحة البعث وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل ، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان ، فإن العيان يفرس في القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والأطمئنان .

وقد ذكر المفكرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسباباً منها أنه لما قال للنمرود : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة ، وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ . أى : اتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شيء؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال ، وهي معطوفة على مقدر ، والاستفهام للتقرير . وهنا يحكى القرآن الكريم جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول : قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُظْمِنَ قَلْبِي . أى قال إبراهيم في الرد على سؤال ربه له : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ بلى يا رب أمنت بك وبقدرتك وبيوحدانيتك إيماناً صادقاً كاملاً ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبي سكوناً وأطمئناناً وإيماناً ، لأن من شأن المشاهدة أن تفرس في القلب سكوناً أعمق ، وأطمئناناً أشد ، وإيماناً أقوى . وأنا في جميع أحوالى مؤمن كل الإيمان بقدرتك وبيوحدانيتك يارب العالمين .

قال القرطبي ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شكاً في إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاندة. وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرته به، ولهذا جاء في الحديث « ليس الخبر كالمعاينة » : قال الأخفش : لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه.

وأما قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه أنه لو كان شكاً لكننا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك في إبراهيم - عليه السلام - أخرى ألا يشك، فالحديث مبنى على نفي الشك عن إبراهيم ، وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر ألفاظه الآتية لم تمل شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية - ... « (٢٧).

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف قال له : أَوَلَمْ تَزْمِن . وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجلية للسامعين و بَلَى إيجاب لما بعد النفي معناه : بلى أمنت. وقوله : وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي . أى ليزداد سكوناً وطمانينة بمضامنة علم الضرورة - أى علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري ، فأراد بطمانينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك ، فإن قلت : بم تعلقت اللام فى قوله : لِيَطْمَئِنَّ . قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمانينة القلب « (٢٨).

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : قَالَ فَخَذَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرَّهُنَّ إِنَّكَ تُمْ أَجْعَلُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .

قوله : فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ . أى فاضممهن إليك - قُرئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال - صارهُ يصنوره ويصيره ، أى أماله وضمه إليه. ويقال - أيضاً صار الشيء بمعنى قطعه وفصله، والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تتلبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء . ثُمَّ أَجْعَلُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . أى ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءاً من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك ، والفاء فى قوله : فَخَذَ . هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تنصص عن شرط مقدر أى : إذا أردت ذلك فخذ .

وقوله : مِنَ الطَّيْرِ . متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كائنات من الطير، أو متعلق بقوله : خُذْ . أى خذ من الطير . والطير اسم جمع - كركب وسفر ، وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر . قالوا : وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك.

ومما قالوه فى اختيار الطير لهذه الحالة : إن الطير من صفاته الطيران، وإنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته لتسوية تاتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وقوله : ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيَّ كُلَّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا . معطوف على محذوف دل عليه قوله : جُزْءًا . لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح . والتقدير : فاذبحهن ثم اجعل ... إلخ . وقوله : ثُمَّ ادْعُهُنَّ . أى قل لهن تعالين ياذن الله .

وقوله : يَا تَيْبُكَ . جواب الأمر فهو فى محل جزم : سعيًا . منصوب على المصدر النوعى ، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل : يَا تَيْبُكَ إتيانًا سريعًا .

قال الفخر الرازى : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهن . وأن إبراهيم قطع أعضائها ولحموها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض - وفعل كما أمره الله ، ثم قال لهن تعالين ياذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله- . ثم قال : ولكن أبا مسلم أنكر ذلك ، وقال : إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثلاً قرب الأمر عليه به ، والمراد بصرهن إليك الإمامة والتمرين على الإجابة . أى : فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأنتك ، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحد حال حياته : ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْبُكَ سعيًا . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة « (٢٦) » .

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذى أماته الله مائة عام ، والذى جاء ذكره فى الآية السابقة ، ولأن ظاهر الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض لا يجوز تحميل الأنفاظ ما لا تحتمله ، وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلاً عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين .

ثم ختم - سبحانه- الآية بقوله : وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى واعلم أن الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم فى كل شئونه وأفعاله ، وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد سافتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله - تعالى - وعلى أنه المستحق للعبادة والخضوع ، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه .

ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق فى سبيله ، ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب ، فقال تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان . وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت ثمانية آلاف ، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف ، وأربعة آلاف أقرضتها لربي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » (٢٦١) . وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة فصحبها في حجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال أبو سعيد الخدري - رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - رافعا يديه يدعو لعثمان ويقول : « يارب عثمان إني رضيت عن عثمان فارض عنه » (٢٦٢) .

ونزل هاتين الآيتين في شأن صدقة هذين الصعابين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجها وبذل ماله في سبيل الله .

و « المثل » الشبه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لماتلة مضربه لمورده الذي ورد فيه أولاً . ثم استعير للصفة أو الحال أو للقصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه الآية .

و « الحبة » كما يقول القرطبي - اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البر فكثيراً ما يراد بالحب .

و سَبُلَةٌ بوزن فتعلة - من أسبل الزرع إذ صار فيه السنبيل ، أى استرسل بالسنبيل كما يسترسل الستر بالإسبال . وقيل : معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه . والجمع سنابل .

والمعنى : مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، أى : في طاعته كمثال حبة أقيت في أرض طيبة ، أصابها الغيث ، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأبنت في الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .

فأنت ترى أن الخالق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التي يبذلها المؤمن في سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم ، بحال الحبة التي تلقى في الأرض النقية فتخرج عوداً مستويًا قائماً قد تشعب إلى سبع شعب ، في كل شعبة سنبلة ، وفي كل سنبلة مائة حبة . وفي هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق في وجوه الخير ، ومن الترغيب في فعل البر ولا سيما النفقة في الجهاد في سبيل الله .

قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمئة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمي الزرع لمن يزره في الأرض الطيبة » (٢٣).

وقال سبحانه : كَمْثِلْ حَبَّةِ أَتَبْتُ . فأسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن المنبت في الحقيقة هو الله ، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات ولأنها هي الأصل لما تولد عنها .

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ . أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاءضاعفاً كثيرة لمن يشاء من عباده ، فيعطى بعضهم سبعمئة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك ، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق فمتى خرجت منه بنية خالصة ، وقلب سليم ، ونفس صافية، ومن مال حلال ووضعت في موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة تزيد على سبعمئة ضعف، إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود ، وثوابه ليس له حساب محدود .

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى والله - تعالى - عطاؤه واسع ، وجوده عميم ، وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنبات عباده وبأقوالهم وبسائر شئونهم ، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله .

٢٦٢ - مَثَلُ الَّذِينَ يُبْغُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . استئناف جيء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله . ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم . وقوله : ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَّا وَلَا أَدَى . تحذير للمتصدق من هاتين المصفتين الذميتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة .

والمن معناه : أن يتناول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا . كأن يقول على سبيل التفاخر والتعيير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن في اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه بنعمة . وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى - : وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ . (القلم : ٣) . أى غير مقطوع وغير ممنوع ، ومُنَّه سُمي الموت ممنوناً لأنه يقطع الأعمار، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة . والمراد بالمن في الآية المن المذموم هو بمعنى إظهار الاصطناع إليهم (٢٤) .

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاً له، وكانوا يقولون : إذا صنعتهم صنيعاً فانسوها ولبعضهم .

وإن امرؤ أسدى إلى صنيعه وذكر غيرها - إنه للثيم

وفى نواحي الكلم : « صنوان : من منح سائله ومنً، ومن منح نائله وضنً، والمراد بالأذى هي الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولاً يؤذيه، أو يفعل معه فعلاً يسيء به إليه، وهو أعم من المن، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه (٢٤) .

وجاء العطف بتم في الجملة الكريمة، لإظهار التفاوت الشديد في الرتبة بين الإنفاق الذي يحبه الله، وبين الإنفاق الذي يصاحبه المن والأذى، ولإشعار بأن المن والأذى يفيضان عند الإنفاق ويعد، فعلى المنفق أن يستمر في أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق ويعد حتى لا يذهب ثوابه، إذ المن والأذى ميطان للثواب في أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبيناً أن « ثم » هنا تقيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت في الرتبة : وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها، وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه، فهى على هذا لم تخرج على الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقاءه، وعليه حمل قوله - : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** . أى : داوموا على هذه الاستقامة دواماً متراخياً ممتد الأمد .. وكذلك قوله تعالى هنا : **ثُمَّ لَا يُلَبِّسُونَ مَا بَنَوْا وَمَا بَنَوْا إِلَّا شَرًّا** . أى : يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى... (٣٥).

وكرر - سبحانه - النفي فى قوله : **ثُمَّ لَا يُلَبِّسُونَ مَا بَنَوْا وَمَا بَنَوْا إِلَّا شَرًّا** . لتأكيد وشموله لأفراد كل واحد منهما، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين: «لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغي بها وجه الله، فلا تسلم عليه».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال : **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** . أى : لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم، عند مربيهم مالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه فى مستقبلهم، ولا هم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرم.

ثم كرر سبحانه التحذير من المن والأذى، منادياً المؤمنين بأن يجتنبوا فى صداقاتهم هاتين الرذيلتين، مبيناً أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٤﴾ يَتَابِعُهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ
 وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ
 صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝٢٦٥﴾

٢٦٤ - قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . والمعنى : قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ . بأن تقول
 المسائل كلامًا جميلًا طيبًا تجرب به خاطره، ويحفظ له كرامته . وَمَغْفِرَةٌ . لما وقع منه من الحاف في السؤال .
 وستر لحاله وصفه عنه . خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى . أى خير من صدقة يتبعها المتصدق لأذى للمتصدق عليه .

لأن الكلمة الطيبة للسائل ، والستر عليه ، والعفو عنه فيما صدر منه كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند
 الله ، وإلى تهذيب النفوس ، وتأليف القلوب ، وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال . أما الصدقة التي
 يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها ، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين
 يعرضون على حفظ كرامتهم ، وعلى صيانة ماء وجوههم ، لأن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرًا في
 نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التي يعسر الشفاء منها .

قال القرطبي : روى مسلم في صحيحه أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « الكلمة الطيبة صدقة ،
 وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » (٢٦٤) فعلى المستؤل أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب ، ويقابله
 بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورًا إن أعطى ومعذورًا إن منع . وقد قال بعض الحكماء : ألق صاحب الحاجة
 بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره » (٢٦٥) .

وقوله : **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ** . مبتدأ ، وساغ الابتداء بالكرة لوصفها وللعطف عليها ، وقوله : وَمَغْفِرَةٌ . عطف
 عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله . وقوله : خَيْرٌ . خبر
 عنهما ، وقوله : يَتْبَعُهَا أَذَى . في محل جر صفة لصدقة .

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله : وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . أى والله - تعالى - فى غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات
 المتصدقين ، وإنما أمرهم بهما لمصلحة تعود عليهم . أو غنى عن الصدقة المصحوبة بالأذى فلا يقبلها . حلِيمٌ .
 فلا يجعل بالعقوبة على مستحقها ، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل . والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة
 على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

٢٦٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى . نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيمهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس ؛ ولذا جاء في الحديث الشريف : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ».

ثم أكد - سبحانه - هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثلين قال في أولهما : كَالَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى ، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبيغي به رضا الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله ، وكفر بحساب الآخرة .

وفي هذا تفسير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بهما في إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وقوله : كَالَّذِي . الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كإبطال الذي ينفق ماله رياء الناس .. أو في محل نصب على الحال من فاعل : تَبْطُلُوا . أى لا تبطلوها مشابهين الذي ينفق ماله رياء الناس

وقوله : رِئَاءَ . منصوب على أنه مفعول لأجله ، أى : كالذي ينفق ماله من أجل رياء الناس . وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - فيه : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا .

« الصفوان » اسم جنس جمع واحد صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشيء مما يشويه. يقال : يوم صفوان أى صافى الشمس . وقيل هو مفرد كعجر . و « الوابل » المطر الشديد . يقال : وبلت السماء تبل وبالا وبولا؛ اشتد مطرها . و « الصلدة » هو الشيء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه . ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعرا ، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئا مأخوذ من صلد يصلد فهو صلد .

والمعنى : يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله ، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفعه رياء وحبا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئا ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر أنه منتج فتزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته ، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس لا يصلح لإنبات أى شيء عليه .

فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتكتشف حقيقته ويراه الراى عاريا من أى شيء يستتره . وكذلك المنافق المرائي فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث لأن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائما عما تحته وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه .

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقته بالْمَنِّ والأذى وبين الحجر الأملس ، وأن الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ** . يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالْمَنِّ والأذى . فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالْمَنِّ والأذى فيكون مثلكم كمثال الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتاً للزرع فنزل المطر فآزال التراب فبطل إنتاجه ، فالْمَنُّ والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع ، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس .

والذي نراه أن عودة الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ** . على الذي ينفق ماله رثاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور ، ولأن التشبيه في قوله : **فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ** . قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذي ينفق ماله رثاء الناس لأنه مفرد مثله ، خلاف قوله : **لا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى** . فإن الضمير فيه بلفظ الجمع ، فمن الأولى أن يعود الضمير في قوله : **فَمَثَلُهُ** . إلى المرائي لتوافقهما في الإفراد .

ثم قال تعالى : **لَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا** . أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالْمَنِّ والأذى ، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرُونَ على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها ، وأذهب ثمرتها وأزال ثوابها .

أو المعنى : إن أولئك المنافين ليس عندهم قدرة على شيء من المال الذي بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله - هو - سبحانه - الذى أنعم به عليهم ، فعليه أن يشكروه على هذه النعمة ، وأن ينفقوه بدون مَنٍّ أو أذى أو مراعاة ، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** . أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان .

والجملة الكريمة تدبيل مقرر لمضمون ما قبله ، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالْمَنِّ والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين ، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التى لا تليق بهم .

والذى ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المَنِّ والأذى في ثلاث آيات متواليات ، كما حذرهم من الرياء ، وساق أكثر من تشبيه لتبجيع الصدقات التى لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد فى النهي ؟ والجواب عن ذلك : أن المَنِّ والأذى فى الإنفاق كثيراً ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب ، أو رغبة فى إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف ، وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة ، ولا يتلاقى مطلقاً مع الحكم التى من أجلها شرعت الصدقات - بل إنه ليتأفف معها تتأفراً تاماً ، لأن الصدقات شرعها الله تنهذب النفوس ، وتطهر القلوب ، وتربط بين الأغنياء والفقراء برياط المحبة والمودة والإخاء فإذا ما صاحبها المَنُّ والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له ، لأنها تثير فى نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات ، وتثير فى نفس الآخذ شعوراً بالحق والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه ، وبذلك تنقطع الروابط ، ويتمزق المجتمع ، وتتحول المحبة إلى عداوة .

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمَنِّ والأذى فقال ما ملخصه : وإنما كان المَنُّ مذمومًا لوجوه، **الأول** : أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة ، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة ، وفي حكم المسيء إليه بعد أن أحسن إليه. **والثاني** : أن إظهار المَنِّ يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر عن طريقه ذلك. **الثالث** : أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفعه منة على الغير. **الرابع** : أن المعطى في الحقيقة هو الله ، ومتى اعتقد العبد ذلك استثار قلبه ، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول ، وعن الآثار إلى المؤثر، وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسيء إلى الفقير بأن يقول له : فرج الله عني منك، وأنت أبدًا تأتي إليَّ بما يؤلم .. إلخ » (٢٨).

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التي نهت عن المَنِّ والأذى، ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب (٢٩). «وروي النسائي عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا منان » (٣٠).

★ ★ ★

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَّى أَكْלَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُبِصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٦٥﴾ أَيْ بَدَأَ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾

المفردات :

إبتغاء مرضاة الله : طلبًا لرضوانه.

وتثبيتًا من أنفسهم : أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإحسان بأطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص.

الجنة : البستان ، وأصل الجن ستر الشيء عن الحاسة، يقال جنه الليل وأجنه، أى ستره ، وسميت الجنة بذلك لأنها تظل ما تحتها وتستتره.

الريوة : المكان المرتفع من الأرض، وأشجار الرُّبى أحسن منظراً، وأزكى ثمرًا للطايفة الهواء وفعل الشمس فيها .

أتت أكلها ضعفين : أخرجت ثمرها ضعفاً بعد ضعف ، فتكون الثنية للتكثير، أو فأدت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

الطل : المطر الخفيف وجمعه طلال ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها فيكفيها .

إعصار : الإعصار الريح التى تهب بشدة فتجتاح ما أمامها .

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه مثل الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعون ذلك بالبن والأذى، ومثل الذين ينفقون أموالهم رياء الناس ، قفى على ذلك بذكر مثل للذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم.

٢٦٥ - وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَّبِعُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْنَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ

أى مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوان الله ، وتمكيناً لأنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان، باطمئنان حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها، كمثال جنة التربة ملتفة الشجر ، عظيمة الخصب، تثبت كثيراً من الغلات نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مثقلاً ما كانت تفل ، وإن لم يصبها الوابل فطل ومطر خفيف يكفيها، لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها، وهكذا كثير البر كثير الجود، إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره ، فخير دائم وبيره لا ينقطع .

وإنما قال من أنفسهم أى بعض أنفسهم ، جاء فى تفسير الكشاف (فإن قلت فما معنى التبعض ؟ قلت معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله تعالى : وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ^(٤١) . (الصف : ١١) .

فينبغى أن قصد بأعمالنا رضا الله ، وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والبالغة فى حب المال .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى إنه عليم بأحوال عبادہ ، فهو يجازى المخلصين بما يرضيهم ، كما سيجازى المنافقين والمرائين بما يستحقون .

٢٦٦ - أَيْدُوحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ

الاستفهام في هذه الآية للنفي، والمعنى : لا يجب أحد أن يحدث له ما أوردته الآية الكريمة، وهو أن يكون له بستان فيه نخيل وأعناب - وهما من أنفس أشجار الفواكه المعروفة وأكثرها نفعاً - والأنهار تتخلل هذه الأشجار، ويملك في هذا البستان - إلى جانب النوعين السابقين - جميع أنواع الأشجار المثمرة.

والحال أنه قد أصابه الكبر، الذي أقعده عن الكسب، من غير تلك الحديقة اليبانة، وله فضلاً عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها، فيفقدوها صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها. ويبقى هو وأولاده في حالة شديدة من البؤس والحيرة، والغم والحسرة، لحرمانه من تلك الحديقة التي كانت معطاً آماله.

وقد وصف الله الجنة هنا بثلاث صفات :

١ - ففيها نخل وأعناب.

٢ - وتجري من تحتها الأنهار.

٣ - وهي زاخرة بأنواع الثمار.

أما صاحبها فقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، ثم هو يرى جنته ومحل آماله قد احترقت وهو في أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها.

ولكان الله يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر، احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بارتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعاً يوم القيامة، وأنتم في أشد الحاجة إليها في هذا اليوم العصيب، فيكون مثلكم في الحزن والحسرة كمثل هذا الشيخ الكبير الذي احترقت جنته وهو في أشد الحاجة إليها.

وروى ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل صالحاً حتى إذا كان عنده آخر عمره، أحوج ما يكون إليه عمل العمل السيئ^(١٢).

★ ★ ★

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طِبِّتٍ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُغِصُوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَمِيدٌ﴾

المفردات :

من طبيبات ما كسبتم : من حلال ما كسبتم ، والطيب الجيد المستطاب.

ومما أخرجنا لكم من الأرض : أي ومن طبيبات ما أخرجنا لكم من باطن الأرض ، من النباتات والحبوب والثمار والمعادن وغيرها.

ولا تيمموا الخبيث : ولا تقصدوا بما تتفقون الرديء والحرام، واليتمم في اللغة : القصد .
 أن تغمضوا فيه : الإغماض في اللغة، غمض البصر، مأخوذ من الغموض وهو الخفاء، والمراد هنا
 أن تتساهلوا في أخذه وتتساهلوا، من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا
 غمض بصره، ويقال للبايع أغمض أى لا تستقص، كأنك لا تبصر.
 عَمِيْد : أى مستحق للحمد على نعمة العظام.

المعنى :

انفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها ، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من
 الخبيث الرديء ، والحال أنكم لا تأخذونه أن أعطى هبة أو شراء أو غير ذلك ، إلا أن تتساهلوا في قبوله،
 وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم في قبول ما هو رديء ، فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله تعالى
 ينهاكم عن ذلك، لأنه من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه ، ولا يعطى
 من شيء إلا ما يحب أن يعطى إليه . ففى الحديث الشريف : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ».

سبب النزول :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً قال : نزلت هذه الآية في الأنصار ، كانت الأنصار إذا
 كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطواناتين في مسجد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ، فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله في أفناء البسر يظن
 أن ذلك جائز فانزل الله فيمن فعل ذلك : وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ (٤٣).

★ ★ ★

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

المضردات :

الشيطان يعدكم الفقر : يخوفكم من الفقر إذا أنفقتم شيئاً من الأموال أو الثمرات.
 ويأمركم بالفحشاء : يغريكم ويحضكم على البخل بالصدقات ، وقيل المراد بالفحشاء جميع المعاصي.
 المغفرة : الصفع عن الذنب.
 وفضلاً : أى زيادة في الرزق ، أو ثواباً في الآخرة أو الأمرين معاً.
 واسع : أى صاحب سعة، والمراد بها هنا : سعة النعمة والمغفرة.

التفسير :

٢٦٨ - الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ أى أن الشيطان يخوف المتصدقين الفقر ويغريهم بالبخل، ويخيل إليهم أن الإنفاق يذهب المال، ولا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لحاجات الزمان.

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء في الحال ومن ضعف بسبب قلة المال، وأصل الفقر في اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير، تشبيهاً له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة ، وقاصمة الظهر.

وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفَرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً . أى أن الله وعدكم على لسان نبيكم، وبما أودعه في القطرة السليمة من حب الخير والرغبة في البر - مغفرة لكثير من خطاياهم ، وفضلاً : أى زيادة في الخير والبركة في المال والسعة في الرزق والثواب في الآخرة ، قال تعالى : وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (سبأ : ٢٩).

وروى البخارى ومسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » (٤٤) . ومعنى الدعاء للمنفق بالخلف أن يسهل له أسباب الرزق ، ويرفع شأنه عند الناس، والبخيل المحروم من مثل هذا ، ومعنى الدعاء على المسك بالتلف أن يذهب ماله حيث لا يفيد.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى والله تعالى واسع الجود والعطاء والرحمة، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها ، فلا يخفى عليه من أطاع شيطانه وهواه، ومن امتثل أوامر مولاه.

★ ★ ★

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا
وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ (٢٦٩)

المفردات :

الحكمة : هى إصابة الحق فى قول أو فعل أو رأى ، وهى من الملكات النفسية العليا، التى يمنحها الله من هو أهل لها.

التفسير :

للعلماء فى المراد بالحكمة فى الآية الكريمة أقوال كثيرة:

قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل.

قال مالك : وإنه ليثق في قلبى أن الحكمة هي الفقه في دين الله، وأمر يدخله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه عالماً بامر دينه بصيراً به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه في دين الله.

وقال ابن عباس : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمة ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

روى البخارى ومسلم والنسائى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها » (٤٥).

٢٦٩ - يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ... أى يعطى الله فضل إصابة الحق في القول والعمل، أو يعطى العلم النافع الذى يكون معه العمل من يشاء من عباده الأخيار .

... وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا :

ومن يعطه الله نعمة التمييز بين الحق والباطل ، ويبسر له الاهتداء إلى العلم النافع، والاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شرفائه يكون سعيداً في دنياه و آخراه .

وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ . والألباب جمع لب وهو في الأصل خلاصة الشيء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شيء فيه، والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة، التى تخلصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة، أى : وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجعة والنفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به .

★ ★ ★

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٢٧)

المفردات :

من نفقة : النفقة ، ما ينقده الإنسان من المال في خير أو شر .

اونذرتكم من نذر : هو ما يوجب الإنسان على نفسه من غير أن يلزمه الله به قبل نذره ثم يصير بالنذر واجب الأداء شرعاً .

التفسير :

هذه الآية مسوقة للحث على تقية النفقات والنذور وتخليهما من شوائب الشر .. ومعناها : وما أنفقتم أيها المكلفون من نفقة قليلة أو كثيرة أو نذرتم من نذر هان أو عظم، فإن الله يعلمه بجميع أحواله وأوصافه. من طيب أو خبيث ، ابتغاء وجه الله به أو ابتغاء وجه سواء .

(وهذه الجملة الكريمة مع إجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين ، والوعيد الشديد للمتمردين ، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تغفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص وسيحضه على المسارعة في الخيرات) (٤١).

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . وما للظالمين الذين يضعون الأمور في غير مواضعها، ويبدلون المال في غير وجوهه المشروعة، ويضنون به على مستحقه « من أنصار » ينصرونهم يوم الجزاء.

قال تعالى : مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ (غافر : ١٨) .

إن العالم الإسلامي غنى بثرواته وكثوره، وإن الله مطلع وشاهد أين تنفق هذه الكنوز والثروات، ولو أنفق من هذه الكنوز في مصارف الزكاة والصدقات المطلوبة لارتفع شأن هذه الأمة واستردت مكانتها وعادت خير أمة أخرجت للناس تآمر بالمعروف وتنتهي عن المنكر وتؤمن بالله ...

★ ★ ★

﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَعْيَائِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ (٢٧١)

المفردات :

إن تبدوا الصدقات : إن تظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.

فَنِعْمًا هِيَ : فتنعم شيئاً هذه الصدقات التي أبديتوها ، وفي الكلام مضاف مقدر، أى فتنمناً إظهارها.

التفسير :

٢٧١ - : إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ .. أى إن أظهرتم الصدقات فتنم شيئاً إظهارها، لحمل الغير على الاقتداء بكم.

وإن تُخْفُوهَا : أى إن تستروها عن أعين الناس.

وَتُؤْتُوهُا الْفُقَرَاءَ : أى وتعطوها من يستحقها من الفقراء فالإخفاء خير لكم وأفضل لكم وأفضل عند الله من الإظهار.

قال ابن كثير : والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين . (الحشر : ١٦) . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١٧).

وأخرج الطبراني مرفوعاً : « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » (١٨).

وقال الألويسي : والأكثر على أن الصدقة سرا أفضل من الصدقة علناً ، وعلى أن هذه الأفضلية فيما إذا كان - كل من صدقتي السر والعلانية - تطوعاً ممن لم يعرف بمال « أي لم يعرف بغنى » وإلا فإبداء الفرض لغيره (أي لغير المتطوع المذكور) أفضل لنفي التهمة ، وكذا الإظهار أفضل لمن يقتدى به وأمن نفسه . انتهى وعن ابن عباس - رضي الله عنه - « صدقة السر في التطوع تفضل على علانياتها سبعين ضعفاً ، وصدقة الفريضة علانياتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً ، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها » (١٩).

وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ . أي ويمحو عنكم بعض ذنوبكم بسبب الصدقات ، لأن فعل الحسنات يمسح السيئات .

قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُنَا لِلذَّاكِرِينَ . (هود : ١١٤) .

والله بما تعملون خبير : أي يعلم علماً دقيقاً بكل ما تعلمونه وسيجزيكم عليه .

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسُكُمْ ۖ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لِأَنْبِعَاءِ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٢٧٢) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (٢٧٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٤)

قال القرطبي ما ملخصه : قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . هذا الكلام متصل بذكر الصدقات ، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين .

روى سعيد بن جببر مرسلا عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة ، فلما كثر الفقراء من المسلمين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم » (٥٠) .

فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام . وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك . ثم قال : قال علماءنا : هذه الصدقة التي أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع ، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

« أمرت أن أأخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها إلى فقرائكم » (٥١) .

والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك ، ولكن الله - تعالى - يهدي من يشاء هدايته إلى نور الإيمان ، وطريق الحق . وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجب عليكم إيمانكم من سماحة في الخلق ، وعطف على المحتاجين ولو كانوا من المخالفين لكم في الدين .

وعلى هذا المعنى الذي يؤيده سبب النزول يكون الضمير في قوله هُدَاهُمْ . يعود على غير المسلمين .

ومن المفسرين من يرى أن الضمير في قوله هُدَاهُمْ . يعود إلى المسلمين المخاطبين في الآيات السابقة ، فيكون المعنى : لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعاً مهتدين إلى الإتيان بما أمروا به

ومنتهين عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء فى صدقتهم، ولكن الله وحده الذى يهدى من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

قال الألوسى : وعلى هذا رأى تكون الجملة معترضة جىء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال .. ثم قال : والذى يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير هُدهُم . إلى الكفار ، وحينئذ لا التفات وإنما هناك تلوين الخطاب فقط (٥٢).

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق فى وجه الخير فقال : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ . أى : ما تقدمونه من مال فى وجه البر أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود بالسعادة فى الدنيا، وبالثواب الجزيل فى الآخرة، فتكونوا أسخياء فى الإحسان إلى الفقراء ، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذى : يَعِدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ . (البقرة : ٢٦٨).

و « ما » شرطية جازمة لتنفقوا ، وهى منتصبة به على المفعولية ، و « من » للتبعية وهى مع مجرورها متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل اسم الشرط، والتقدير: أى شئ تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به فى الآخرة غيركم .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وقوله تعالى : وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ . يحتمل وجوها الأول : أن يكون المعنى : ولستم فى صدقتكم على أقاريكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهدأؤهم حتى يمنكم ذلك من الإنفاق عليهم . **الثانى** : أن هذا وإن كان ظاهره خبرا إلا أن معناه نهى أى : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله . **الثالث** : أن قوله : وَمَا تُنْفِقُونَ . أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله . وفى ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا الشئ لوجه زيد فهو أشرف فى الذكر من قولك : فعلته له . لأن وجه الشئ أشرف ما فيه ، ثم كثر حتى صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضاً فإن قولك: فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت له فقط وليس لغيره فيه شركة (٥٣).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرْفُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . أى : أن ما تنفقوا من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم لماره ومنافعه فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فإنكم بسبب هذا الإنفاق تزكو أموالكم ، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما فى الآخرة فإنكم تتألون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . أى لا تنقصون شيئاً مما وعدكم الله به على نفقتكم فى سبيله .

قال الجمل : وهاتان الجملتان أى قوله تعالى : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يَرْفُ إِلَيْكُمْ . وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسُكُمْ . وقوله : وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . جملة من

مبتدأ وخبر في محل نصب على الحال من الضمير في : إِلَيْكُمْ . فالعامل فيها : يَوْفَ . وهي تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : يَوْفَ إِلَيْكُمْ . لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا . ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم في طاعة الله - تعالى - اندراجاً أولياً « (٥٤) .

هذا ، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمل الآيات التي وردت في الحض على بذل المال في وجوه الخير ، فقد كرر فيها فعل : تَنَفَّقُوا . ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله ، وجيء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب ، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكي يسهل حفظها وتأملها فتجری على الألسنة مجرى الأمثال وتتألقها الأمم والأجيال .

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال في وجوه الخير ، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هي أولى الناس بالعون والمساعدة ، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة في إكرام أفرادها وسد حاجتهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويراً كريماً نبيلاً تستجيش به المشاعر ، وتحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول :

٢٧٢ - لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْضِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنَاءَ مِنَ التَّفَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا

لقد وصفهم الله - تعالى - أولاً بالفقراء ، أي الذين هم في حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضروريات الحياة .

وقوله : لِلْفُقَرَاءِ . متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق ، والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه الإنفاق في سبيل الله ، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد .

والجملة استئناف بياني ، فكانهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هي ؟ فاجابوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم .

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب في عطائهم للفقراء ألا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف . وأيضاً ففي هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذي قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى .

قال القرطبي : والمراد بهؤلاء الفقراء ، فقراء المهاجرين وغيرهم ، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر . وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة (٥٥) وكانوا نعو أربعمائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولا مال فبنت لهم صفة في المسجد النبوي بالمدينة فقيل لهم : « أهل الصفة » (٥٦) .

أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهي قوله تعالى : الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

والإحصار في اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء .

والمعنى : اجعلوا الكثير مما تتفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصرنا أنفسهم ووقفوها على المطامع المتنوعة التي من أعظمها الجهاد في سبيل الله ، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم في حالة شديدة من الناقة والاحتياج .

وعبر في الجملة الكريمة بالفضل أَحْصَرُوا . بالبناء للمجهول ، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم في مباشرة الأسباب ، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم .

وقوله : فِي سَبِيلِ اللَّهِ . تكريم وتشريف لهم ، أي أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إثارهم إعلاء كلمة الله على أي شيء آخر ، ففي سبيل الله هاجروا ، وفي سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وفي سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها : لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ وَالضَرْبُ فِي الْأَرْضِ هُوَ السَّيْرُ فِيهَا لِلتَّكْسِبِ وَالتَّجَارَةِ وَغَيْرِهِمَا .

أي أنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب انشغالهم بالجهاد ، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم .

والصفة الرابعة من صفاتهم هي قوله تعالى : يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ .

والتعفف : ترك انشئ والتزهد عن طلبه ، بقهر النفس والتغلب عليها . يقال : عف عن الشيء إذا كف عنه ، والحسبان بمعنى الظن .

أي يظنهم الجاهل بجاهلهم ، أو الذي لا فُرَاسَةَ عنده ، يظنهم أغنياء من أجل تجميلهم وتعففهم عن السؤال ، أما صاحب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ، فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره .

و مِنْ . هي قوله : مِنَ التَّعَفُّفِ . للتعليل ، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان .

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهي قوله تعالى : تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ . والسيما والسيما : العلامة التي يعرف بها الشيء ، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة .

والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى في هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : قال مجاهد : سبَّاهُمْ . التسخع والتواضع أى تعرقهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى - : تعرفهم بسيماهم - أى بآثر الجهد من الفقر والحاجة . وقال الضحاك : أى بصفرة ألوانهم وورثاة ثيابهم ... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شئ آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعا فى قلوب الخلق ، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحية ، لا علامات جسمانية . ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت ، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة ، وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا ... » (٥٧).

وقد ذكر - سبحانه - فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشارة بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فرائسهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستقيمة والحنى المرفه ، والفراسة الصائبة ، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ ، فى الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » (٥٨).

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله تعالى : لا يسألون الناس إلحافاً . والإلحاف - كما يقول صاحب الكشف - : هو الإلحاح بأى يفارق - السائل المسئول - إلا بشئ يعطاه . من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده . ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا . وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف » (٥٩).

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلاً تعففاً منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كان يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم ، لأن سؤالهم كان يفتيه عن ذلك .

وإنما جاء النفى بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده للموازنة بينهم وبين غيرهم ، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافاً فهم لا يسألون مطلقاً لا بإلحاف ولا بدونه ، والنفى بهذه الطريقة فيه تمييز للملحقين وثاء على المتعففين ؛ ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون ألينة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافاً والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً ، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر طياش مهذار سفيه ، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بدم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يفتنى عن ذلك ، بل غرضك التنبيه على مذمة الثانى . فالأمر هنا كذلك لأن قوله : لا يسألون الناس إلحافاً . بعد قوله : يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ . الفرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم » (٦٠).

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعفين عن السؤال ، وتذم الملحقين فيه ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذي يتعفف. اقرأوا إن شئتم : لا يسألون الناس إلحافاً . (٦١).

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عمر - رضی اللہ عنہما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم ، (٦٢).

روى مسلم - أيضاً - في صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقلنا : علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. والصلوات الخمس.. وتطييعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحداً يناوله إياه ، (٦٣).

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه ، لأن السؤال ذل يربا بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه.

وقوله : وما تَفْقُرُوا من خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . تحريض للمؤمنين على البذل والسخاء وتربية لنفوسهم على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير، أى : وما تَفْقُرُوا من خير سواء أكان المنفق قليلاً أم كثيراً سراً أم علناً فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله :

٢٧٤ - الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ . وقوله : الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم في كل الأمان وفي كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين في الليل وفي النهار، وفي الغدو وفي الأصال ، في السر وفي العلن وفي كل وقت وفي كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم . وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله - تعالى - .

وقد بين الله - تعالى - في ثلاث جمل حسن عاقبتهم ، وعظيم ثوابهم، فقال في الجملة الأولى: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم.

والجملة الكريمة خبر لقوله : الَّذِينَ يَنْفَقُونَ ودخلت الفاء في الخبر لأن الموصول في معنى الشرط فتدخل الفاء في خبره جوازاً ، والدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق في سبيل الله .

وقال في الجملة الثانية : وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . أى : لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم في مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح.

وقال في الجملة الثالثة : ولا هم يحزنون . أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم : لأنهم دائماً في اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان. وقد روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق ب درهم ليلاً، وب درهم نهاراً، وب درهم سراً ، وب درهم علانية فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - ما حملك على ذلك ؟ فقال : أريد أن أكون أهلاً لما وعدنى ربي . فقال - صلى الله عليه وسلم - : لك ذلك فأنزل الله هذه الآية « (٦١) ».

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهي تنطبق على كل من بذل ماله في سبيل الله في عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد : فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ وانتهت بقوله تعالى :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق في سبيل الله بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل، كما يراها قد بينت أحكام الصدقة وآدابها ، والأوقات التى تذهب بخيرها، وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها. ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين ، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضاً بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها الله لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا الله ومثوبته فى آخرهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين ، أتبعها بصورة مضادة لها وهى صورة الربا والمرايين . ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق ، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتيجتها الرخاء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعاون والتكافل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتيجته محق البركة من المال ، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نقر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيراً شديداً وحذرهم من سوء عاقبته تحذيراً مؤكداً فقال - تعالى - :

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَنْظِلُمُونَ وَلَا تَنْظَلُمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُوعُسُفٍ فَنظَرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

٢٧٥ - الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. استئناف قصد به

الترهيب من تعاطي الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازي - عبارة عن تنقيص المال - في الظاهر - بسبب أمر الله في ذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه فكانا متضادين .

والأكل في الحقيقة : ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشئ وأخذ بحرص وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن معظم مكاسب الناس تتفق في الأكل.

والربا في اللغة : الزيادة المطلقة، يقال : ربا الشيء يريو إذا زاد ونما، ومنه قوله تعالى : وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . (الحج : ٥).

أى : زادت .

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال .

وقوله : **يَتَخَيَّلُ** . من التخيل بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق . يقال : خبطته أخبطه خبطاً أى ضربته ضرباً متوالياً على أنحاء مختلفة . ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه . ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

رأيت المتأيا خبط عشواء من تصب
تمته . ومن تخطئ يعمر فيهرم

والمس : الخيل والجنون . يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون .

وأصل المس اللمس باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه .

والمعنى : الذين يأكلون الربا . أى يتعاملون به أخذاً وإعطاء : لا يَقْرَؤُونَ . يوم القيامة للقاء الله إلا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه يقوم قياماً منكراً مفزعاً بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه .

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة ، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا .

وهنا نحب أن نوضح أمرين : أما الأمر الأول فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك ..

قال الألوسى : وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إياك والذنوب التى لا تغفر . الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة . وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط » ^(١٥) . ثم قرأ الآية . وهو معاً لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له ... ثم قال : وقال ابن عطية : المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالتخبط المصروع كما يقول لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن . ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ، ولما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غير داع سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات » ^(١٦) .

والذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين ، فى الدنيا والآخرة ، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر ، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر يسبب جشعهم وشرهم فى جمع المال ، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم .. ومن يتبتح أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم ، أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم .

وقد رجَّح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : « إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك فى أمر الدنيا متخبطاً .. وأكل

الربا بلا شك أنه يكون مفرطاً في حب الدنيا متهاكاً فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجاباً بينه وبين الله - تعالى - فالخبط الذي كان حاصلًا له في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة وأوقعه في ذلك الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندي من غيره (٢٧).

وأما الأمر الثاني فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضاً أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذي مسه الشيطان لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشري ومن تابعه ينكرون ذلك، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل؛ لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشري في تفسيره: وتخطب الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخطب الإنسان فيصرع. والمس الجنون. ورجل ممسوس - أي مجنون - وهذا أيضاً من زعماتهم، وأن الجنى يمسّه فيختلط عليه، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم في الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات (٢٨).

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشري ومن تابعه الإمام القرطبي فقد قال: «وهي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبايع، وأن الشيطان لا يسلك في الإنسان ولا يكون منه مس. وقد روى النسائي عن أبي اليسر قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك أن يتخطبني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديناً» (٢٩).

وقال الشيخ أحمد بن المنير: ومعنى قول الزمخشري أن تخطب الشيطان من زعمات العرب، أي من كذباتهم وزخارفهم التي لا حقيقة لها، كما يقال في الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخطب الشيطان بالقدرة - أي المعتزلة - في زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال: واعتقاد السلف وأهل السنة أن هذه الأمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها، والقدرة ينكرون كثيراً ما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم، من ذلك السحر، وخطبة الشيطان، ومعظم أحوال الجن. وإن عترفوا بشيء من ذلك فعلى غير الوجه الذي يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع في خبط طويل لهم (٣٠).

والذي نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون، ولأنه لا يسوغ لنا أن نؤول بغير ظاهره بسبب اتجاه لا دليل عليه.

وقوله: «مَنْ أَلْمَسَ». متعلق بيقومون، أي لا يقومون من المس الذي حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا». بيان لزعهم الباطل الذي سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة ذلك . يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل استحلوه عن طريق الربا ، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم قيام المتخبط ، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الربا الذى تتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع . فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشيء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً فى الحل حتى شبهوا به البيع « (٧١) » .

وقوله : **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا** . جملة مستأنفة ، وهى رد من الله - تعالى - عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع .

قال الألوسى : وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان ، على أن بين البابين فرقاً ، وهو أن باع ثوباً يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو مقابلة شيء من الثوب . وأما إذا باع درهماً بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض ، ولا يمكن جعل الإمهال عوضاً إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال « (٧٢) » .

وقوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** .

تقرع على الوعيد السابق فى قوله : **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا** . إلخ .

والمجئ بمعنى العلم والبلاغ . والموعظة : ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره .

أى : فمن بلغه نهى الله - تعالى - عن الربا ، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه ، : **فَلَهُ مَا سَلَفَ** . أى : فلله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه . لأن الله تعالى يقول بعد ذلك : **وَأِنْ تَبَيَّنَ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ** .

وقوله : **وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** . أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه .

قال ابن كثير : وقوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ** ... إلخ من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله تعالى : **غَفَا اللَّهُ عَنْ سَلَفٍ** . (المائدة : ٩٥) . وكما قال النبى - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس » (٧٣) .

ولم يأمرهم برد الزيادات الماخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى : **قُلْ مَا سَفَّ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ .** أى فله ما كان قد أكل من الريا قيل التحريم (٧٤).

و من . فى قوله : **فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ** شرطية وهو الظاهر . ويحتمل أن تكون موصولة . وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء . وقوله : **قُلْ مَا سَفَّ** . هو الجزاء أو الخبر . و **مَوْعِظَةٌ** . فاعل جاء . وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل ولكون الموعظة ها بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر .

وفى قوله : **مَنْ رَبِّهِ** . تضخيم لشأن الموعظة ، وإغراء بالامتثال والطاعة ، لأنها صادرة من الله - تعالى - المربى لعباده .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده ، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى ، ولم يجعل تشريعهم بأثر رجعى بل جعله للمستقبل ، إذ الإسلام يجب ما قبله . فما أكله المرابى قبل تحريم الريا فلا عقاب عليه فهو ملك له ، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم . وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الريا .

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالريا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال : **وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** .

أى ومن عاد إلى التعامل بالريا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار المলামون لها ، والمالكون فيها بسبب تعديهم لما نهى الله عنه .

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة الله . والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وكلمة **خَالِدُونَ** . التى تدل على طول المكث .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال :

٢٧٦ - **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّيَاءَ وَيُبْرِئِ الصَّدَقَاتِ** . . .

والمحق : نقصان والإزالة للشئ حالا بعد حال . ومنه محاق القمر ، أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ، فكانه زال وذهب ولم يبق منه شئ .

أى : أن المال الذى يدخله الريا يحقه الله ، ويذهب بركته ، وأما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « أعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالريا تحصيل المزيد من الخيرات ، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال ، لما كان الأمر كذلك بين -

سبحانه - أن الربا وإن كان زيادة في المال إلا أنه نقصان في الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصاناً في الصورة إلا أنها زيادة في المعنى . واللائق بالماعل ألا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعي والصوارف بل يعمل على ما أمر به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرياء الصدقات يحتمل أن يكون في الدنيا وأن يكون في الآخرة. أما محق الربا في الدنيا فمن وجوه إحداها: أن الغالب في المرابي وإن كثر ماله أن تثول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه ، ففى الحديث : « الربا وإن كثر فإلى قل » . وثانيها : إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص سقوط العدالة وزوال الأمانة.. وثالثها : أن الفقراء يملكونه ويغضونه بسبب أخذه لأموالهم . ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له في الحقيقة فلا يترك في يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق في الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقي هو العقاب وذلك هو الخسار الأكبر.

وأما إرياء الصدقات في الدنيا فمن وجوه منها : أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم في ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتقطع عنه الأطماع..

وأما إرياءها في الآخرة فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن الله تعالى يقبل الصدقات ويأخذها يمينه فيريها كما يرى أحدكم مهره ، أو فلوة حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد » (٧٥). ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرابين . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: **وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ** . و « كفار » من كفر بمعنى ستر وأخفى وجحد فهو صيغة مبالغة لكافر.

و أثيم . فعيل بمعنى فاعل فهو صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو المكثّر من ارتكاب الآثام المبطن عن فعل الخيرات.

أي : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجهود بها، والتمادى في ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه . وهم في الحالتين آثمون معاقبون بعيدون عن محبة الله ورضاء. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين في إيمانهم والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملّة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

ويعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال تعالى :

٢٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا . أَيْ إِيمَانًا كَامِلًا بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ . أَيْ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَصْلَحُ بِهَا نَفْسُهُمْ وَالَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا الْإِحْسَانُ إِلَى الْمُحْتَاجِينَ ، وَالْإِبْتِعَادُ عَنِ الرِّبَا وَالْمَرَابِينَ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ . بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا ، بِأَنْ يُؤَدِّعَهَا فِي أَوْقَاتِهَا بِخُشُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَأَتَوْا الزَّكَاةَ . أَيْ أَعْطَوْهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا بِإِخْلَاصٍ وَطِيبِ نَفْسٍ .

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة . لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . أَيْ لَهُمْ ثَوَابُهُم الْكَامِلُ عِنْدَ خَالِقِهِمْ وَرَازِقِهِمْ وَمَرْيَمِهِمْ .

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . يَوْمَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ . وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . لِأَيِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، لِأَنْ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَمَانٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - يَجْعَلُهُمْ فِي فَرَحٍ دَائِمٍ ، وَفِي سُرُورٍ مُقِيمٍ .

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله وبنهاهم عن التعامل بالربا فيقول :

٢٧٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ أَيْ اخْشَوْهُ وَصُونُوا أَنْفُسَكُمْ عَنِ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي تَفْضِي بِكُمْ إِلَى عِقَابِهِ .

وقوله : وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ، أَيْ : اتْرَكُوا مَا بَقِيَ فِي ذِمِّ الَّذِينَ عَامِلْتُمُوهُمْ بِالرِّبَا وَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِلَّا رِعْوسَ أَمْوَالِكُمْ فَحَسَبِ ، هَذَا مُقَابِلَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلَ ذَلِكَ قُلْهُ مَا سَلَفَ أَيْ مَا سَلَفَ قَبْضُهُ مِنَ الرِّبَا قَبْلَ نَزُولِ الْآيَةِ فَهُوَ لَكُمْ ، وَمَا لَمْ تَقْبِضُوهُ فَانْتُمْ مَأْمُورُونَ بِتَرْكِهِ .

وقوله : مِنَ الرِّبَا . متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل : بقي . أَيْ اتْرَكُوا الَّذِي بَقِيَ حَالُ كَوْنِهِ بَعْضُ الرِّبَا ، وَمِنْ لِلتَّبَعِيزِ . أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِبَقِي .

و وَذَرُوا . فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل ، وأصله : وَذَرُوا . فحذفت فاؤه ، والماضى منه « وذر » .

وقوله : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . حض لهم على ترك الربا ، أَيْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ حَقَّ الْإِيمَانِ فَامْتَثِلُوا أَمْرَ اللَّهِ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا مِمَّا زَادَ عَلَى رِعْوسِ أَمْوَالِكُمْ .

قال ابن كثير : نزل هذا السياق في بنى عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبنى المغيرة من بنى مخزوم ، كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم فتشاوروا . وقالت بنو المغيرة : لا نؤدى في الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت

هذه الآية ، فكتب بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه . فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كله . وهذا تهديد شديد ووعد أكيد لكل من استمر على تعاظم الربا بعد الإنذار « (٧٦) » .

ثم هدّد الله - تعالى - كل من يتعامل بالربا تهديداً عنيفاً فقال :

٢٧٩ - فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئاً بعد نهيككم عن ذلك ، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبداً .

وقوله : فَأْذَنُوا . من أذن بالشئ يأذن إذا علمه . وقرئ : فَأْذَنُوا . من أذنه الأمر وأذنه به : أعلمه إياه : أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله .

وتتكرر « حرب » للتحويل والتعظيم ، أى فكونوا على علم ويقين من أن حرباً عظيمة ستزل عليكم من الله ورسوله .

قال بعضهم : والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب . وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة . وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة ، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية ، وكما حارب أبو بكر الصديق مانعى الزكاة .

وقال ابن عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فيها وإلا ضرب عنقه « (٧٧) » .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال :

وَأِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .

أى : وإن تبتتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله فلكم رؤوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها ، وبذلك لا تكونون ظالمين لغيرائكم ، ولا يكونون هم ظالمين لكم ، لأن من خذ رأس ماله بدون زيادة كان مقتصداً ومتفضلاً ، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقاً فى معاملته .

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدونه من ديونهم فقال تعالى :

٢٨٠ - وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنُظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ .

العسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال . يقال : أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال .

النظرة : اسم من الإنظار بمعنى الإمهال . يقال : نظره وانتظره وتظيره ، تأنى عليه وأمهله هى الطلب .

والميسرة : مقفلة من اليسر الذي هو ضد الإعسار . يقال : أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله . والمعنى : وإن وجد مدين معسر فامهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون ، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له : إما أن تقضى وإما أن تربى ، أى تدفع زيادة على أصل الدين .

و « كان » هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين إن لم يذكر ، وقوله « فنظرة » الفاء جواب الشرط . ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة .

ثم حيب - سبحانه - إلى عباده التصديق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال تعالى : وَأَنْ تَصَدُّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : فإن فعلتم هذا يكون أكثر ثواباً لكم من الإنتظار .

وجواب الشرط فى قوله : إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصديق خير لكم فلا تتباطؤوا فى فعله ، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصديق بالدين على المعسر ثوابه جليل عند الله - تعالى - .

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر ، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : « من نَفَسَ عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة » (٧٨) .

وروى الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال : « من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » (٧٩) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربه فليفرج عن معسر » (٨٠) .

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه عن الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال ، وبالإستعداد للأخرة وما فيها من حساب فقال .. تعالى - : وَأَنْقُضُوا يَوْمَ تَرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُولَفُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أى : واحذروا - أيها المؤمنون - يوماً عظيماً فى أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله ، ولا يظلم ربك أحداً .

فالأية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى - .

قال الألبوسي : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هي آخر ما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ، واختلف في مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال . وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحداً وعشرين يوماً . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الرِّيا وآية الدين ... (٨١) .

هذا ، والمتدبر في هذه الآيات التي وردت في موضوع الرِّيا، يراها قد نفّرت منه تنفيراً شديداً، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات ، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفرغ منها النفوس ، وتشتمل منها القلوب ، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا في معاملاتهم ما شرعه الله لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به .

وقد تكلم الفقهاء (٨٢) وبعض المفسرين عن الرِّيا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاماً مستفيضاً، قال بعضهم: الرِّيا قسمان : رِّيا النسيئة ، ورِّيا الفضل .

فريّا النسيئة : هو الذي كان معروفاً بين العرب في الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدهعون المال على أن يأخذه في موعد معين، فإذا حل الأجل طوّل المدين برأس المال كاملاً، فإذا تعذر الأداء زادوا في الحق وفي الأجل .

ورِّيا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين ، أو رطل من العسل برطلين ، أو شعير كيلة بكيلتين .

وكان ابن عباس في أول الأمر لا يحرم إلا رِّيا النسيئة وكان يجيز رِّيا الفضل اعتماداً على ما روى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال - : « إنما الرِّيا في النسيئة » (٨٣) ولكن لما تواتر عنه الخبر بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل يدا بيد » (٨٤) رجع عن قوله . لأن قوله - صلى الله عليه وسلم - « إنما الرِّيا في النسيئة » محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة تحرم وبيعاً والتفاضل كبيع الحنطة بالشعير . تحرم فيه النسيئة وبيعاً فيه التفاضل .

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الرِّيا في القسمين : أما رِّيا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما في قوله تعالى : **وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاَ .**

وأما رِّيا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذي رواه عبادة بن الصامت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر . والملاح بالملاح . مثلاً بمثل، سواء بسواء، يدا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدا بيد » (٨٥) .

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع، وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء المبينة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها في العلة . وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر ... (٨٦) .

ومن الحكم التي ذكرت في أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ المال من الغير بدون عوض ، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق في الكسب والتجارة والصناعة ، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال ، وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا .

ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في التحذير من تعاظم الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » (٨٧) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن جابر عن عبيد الله قال : « لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه » (٨٨) .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا في التصديق على المحتاجين وأن يجتنبوا الربا والمرابين . وبين لهم أن أموالهم تزكو وتتمو بالإنفاق في وجوه الخير . وتمحق وتذهب بتعاظم الربا ، بعد أن وضع كل ذلك ساق لهم آية جامعة ، متى اتبعوا توجيهاتها استطلعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق ، وأشرف وسيلة ، وأن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئاً من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا ، استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرْ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ ذَٰلِكُمْ أَفَسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ مُسَوِّفٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

قال ابن كثير : قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا تدايَنْتُمْ بدين إلى أجلٍ مُسمى فاكْتُبُوهُ . هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك في آخر الآية حيث قال : ذَلِكُمْ أَفْطً عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا . وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ : يا أيها الذين آمنوا إذا تدايَنْتُمْ ... الآية .

وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » (٨٩).

ومعنى تَدَايَنْتُمْ . تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا . وحقيقة الدين - كما يقول القرطبي - « عبارة عن كل معاملة كان أحد الموضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا ، والدين ما كان غائبا » (٩٠).

والأجل في اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره . وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه في المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال : أجل الشيء يأجل إذا تأخر والأجل نقيض العاجل.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضاً بالدين إلى وقت معين ، فآفكثبوا هذا الدين، لأن في هذه الكتابة حفظاً له، وضبطاً لمقداره، ومنعاً للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ، أى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت: ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه في قوله : فآفكثبوه. إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فآفكثبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتتويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإن قلت : ما فائدة قوله : مُسَمًّى . قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوماً كالتوقيف بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية « (١) ».

وجمهور العلماء على أن الأمر في قوله « فآفكثبوه » للندب، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك « فإن آمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي آثمن أمانته »، ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها .

وقال الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثماً، لأن الأصل في الأمر أنه للوجوب ...

وقوله : وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ . بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى : عليكم أيها المؤمنون - إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق.

وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين في كتابته، لأن الله تعالى يقول : وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلْقُرْآنِ . (المائدة : ٨) . فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصاً تتوافر فيه إجابة الكتابة والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوافر فيه الاستقامة وتحري الحق . ومفعول « يكتب » محذوف ثمة بالفهامة ، أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالطرف بينكم للإيدان بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين لأن في هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها .

والجار والمجرور هو : بِالْعَدْلِ . متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادراً على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : ولا يَأْب كاتبٌ أن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فليَكْتُبْ.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتدابين ديونهما بالطريقة التى علمه الله بأن يتحرى العدل والحق فى كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف ومجرورها فى قوله تعالى : كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ . نعت لمصدر محذوف والتقدير: فليكتب كتابه مثل ما علمه الله - تعالى : بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها ، فعليه أن ينفع غيره بها ، فهو كقوله تعالى : وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . (القصص : ٧٧) وفى الحديث الشريف « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرك »^(٩٧) وفى حديث : « من كتب علماً يعلمه الله الجاهم بالجاه من نار يوم القيامة »^(٩٨).

وقوله : فليَكْتُبْ . تفريع على قوله : ولا يَأْب كاتبٌ . أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : ولا يَأْب كاتبٌ . ويجوز أن يكون توكيداً للأمر الصريح فى قوله وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتبٌ بالعدل .

قال القرطبي : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب ، وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر على كاتب غيره فيضرب صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره^(٩٩).

والى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين ، وبينت كيفية الكتابة ، وأشارت إلى إجابة الكاتب لها ، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى لها .

ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال تعالى : وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتْلِ اللَّهُ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا .

والإملاء معناه الإملاء ، فهما لغتان معناهما واحد . وقد جاء القرآن بالفتن فقال تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الفرقان : ٥).

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً به وبالحقوق التى يجب عليه الوفاء بها . وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئاً ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يمل على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة ، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه

ولأنه لو أملى الدائن فريماً يزيد في الدين ، أو يملأ شيئاً ليس محل اتفاق بينه وبين المدين ، ولأن المدين في الغالب في موقف ضعيف فاعطاء الله - تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره ، ولكنه في الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله ، وعدم الإنقاص من الدين الذي عليه . وأن ذلك لتشريع حكيم عادل لا ظلم فيه للدائن ولا للمدين .

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذي عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال تعالى : **فإن كان الذي عليه الحق وهو المدين : سفيهاً . أى جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متلافياً مبذراً لا يحسن تدبير امره .**

أو ضعيفاً . بأن يكون صبيهاً أو شيخاً تقدمت به الشيخوخة .

أو لا يستطيع أن يعمل هو . بأن يكون عيباً أو أخرساً أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات .

فلينال وليه بالعدل . أى فعلى ولي امره أو من يهمله شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحرراً الحق والعدل فيما يكلف به .

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها في شأن الديون ، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فيه فقال تعالى : **وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ .** أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة ، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقاً وتثبيتاً . **والمسين والثناء في قوله : « واستشهدوا » للطلب .**

قال الألويسي : « وفي اختيار صيغة المبالغة في : **شَهِيدَيْنِ .** للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكان فيه رمزاً إلى العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك ، والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف في ذلك » (٩٥) .

وقوله : **من رَجَالِكُمْ .** متعلق بقوله : **وَأَشْهَدُوا .** ومن لا ابتداء الغاية . ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف صفة لشهيدتين ومن للتبويض ، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام في معاملتهم .

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : **فإن لم يكنوا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن تَرْضُونَ مِنَ الشَّهَدَاءِ .**

وقوله : **مَنْ تَرْضُونَ .** متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان . أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كاثنتون مرضيين عندكم بعدالتهن .

وهذا الوصف وإن كان في جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشدد في اعتباره ، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوافر كثيراً .

وقوله : من الشُّهَدَاء . متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المقدر في «ترضون» العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلكم بعدالهم ، وثقتكم بهم .

وقوله تعالى : مِنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ . أدق في الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضياً في دينه وخلقه ولكنه يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته في وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه في الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصي، فجاء - سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكي يقول للناس : اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها بدون التأثير بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا ، وشهادة النساء مع الرجال عند الحنفية في الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شيء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز في الأموال وتوابعها خاصة . ولا تقبل في أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة .

ثم بين - سبحانه - العلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة فقال : أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى .

قال الترطبي : معنى تضل تنسى . والضلال إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً^(١٦) .

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد في الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل واحدة منهما الأخرى . إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالحوادث قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة أخرى في الشهادة بحيث تتذكran الحق فيما بينهما .

والعلة في الحقيقة هي التذكير، ولكن الضلال لما كان سبباً في التذكير، نزل منزلة العلة . وذلك كأن تقول : أعددت السلاح خشية أن يجيء العدو فادفعه فإن العلة هي الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجيء العدو سبباً فيه نزل منزلته .

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب في أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة، أمر الشهود أيضاً بعدم الامتناع عن الشهادة فقال تعالى : وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . أى : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدي إلى ضياع الحقوق، والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقيق الحق، ونشر العدل بين الناس ، فعلى من أشهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما أمرهم الله - تعالى - . ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .

السام : الضجر والمأل . يقال : سئمت الشيء أسأمه سأمًا وسأمة أى ملته وضجرتة .

والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون - ألا تسأموا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيراً أم صغيراً ، لأن الكتابة في الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها ، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم ، ولأن الدين قد يكون صغيراً في نظر الفنى الملىء إلا أنه كبير في نظر الفقير المعسر ، ولأن التهاون في شأن الدين الصغير قد يؤدي إلى التهاون في شأن الدين الكبير ، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وإن تكتبوا ما بينكم .

والضمير في قوله : أن تكتبوه . يعود إلى الدين أو إلى الحق . وقوله : صغيراً أو كبيراً . حال من الضمير . أى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلاً أو كثيراً ، وقدم الصغير على الكبير اهتماماً به وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى .

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله - تعالى - به ، فقال : ذلكم أقسط عند الله .

واسم الإشارة : ذلكم . يعود إلى كل ما سبق ذكره في الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتثال عنهما ، ومن تحرى الحق والعدل .

و أقسط . بمعنى أعدل . يقال : أقسط فلان في الحكم يقسط إقساطاً إذا عدل فهو مقسط . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (المائدة : ٤٢) .. ويقال : قاسط إذا جار وظلم . قال تعالى : وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥) .

أى : ذلكم الذى شرعناه في أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل في علم الله - تعالى - ، وكل ما كان كذلك فهو أعدل وأفضل وأحكم في ذاته ؛ لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له ، وتلك هي الفائدة الأولى . أما الفائدة الثانية فهي قوله - سبحانه - : وَأَقْرُمُ لِلشَّهَادَةِ . ومعنى وأقروم . أبلغ في الاستقامة التي هي ضد الأعوجاج أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها ، وأما الفائدة الثالثة فهي قوله : وَأَدْنَى أَلْأَرْتَابُوا . أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة . أى أن الأوامر والتواهي السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل في علم الله - تعالى - ، وأعون في إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ ، وأقرب إلى عدم الشك في جنس الدين وقدره وأجله ، وإذا تواضعت هذه الفوائد الثلاث في المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا قُعدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح - سبحانه - هي التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا .

والتجارة الحاضرة التي تدور بين التجار : وهي التي يجري فيها التقابض في المجلس أو التي يتأخر فيها الأداء زمناً يسيراً . وسميت الحاضرة ، لأن البيع والتمن كلاهما حاضر .

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة في التجارة الحاضرة التي تكثر إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو - سبحانه - : **وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** . (الحج ٧٨). ولأن أمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقايض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالدين فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التي يجري فيها التقايض لا جناح عليكم في عدم كتابتها .

وقيل : الاستثناء متصل والجملة مستثناة في موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لا لأنه أمر بالكتابة في كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة . والتقدير: أمركم بالكتابة والإشهاد في كل معاملة إلا في حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة و **تِجَارَةً** قرأها الجمهور بالرفع على أنها اسم تكون ، والخبر جملة **تُدِيرُونَهَا يَنْتَكُم** أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها تامة .

وقراها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة أي : إلا أن تكون التجارة حاضرة .

وقوله - تعالى - : **وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ** . أمره - سبحانه - بالإشهاد عند البيع، وهذا أمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء . ويرى الظاهرية أنه للوجوب .

قال صاحب الكشاف : هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقاً ناجزاً أو كائناً - أي مؤجلاً - لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة . وعن الضحاک : « هي عزيمة من الله ولو على باقية بقل » (١٧) .

ثم نهى - سبحانه - عن المضارة فقال : **وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى وَلَا يَضَارُّكَ أَتَى** .

والمضارة : إدخال الضرر . والفعل : **يَضَارُّ** . احتمل أن يكون مبنياً للفاعل ، وأن أصله « ولا يضار - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنياً للمفعول . وأن أصله لا يضار بفتح الراء الأولى .

والمعنى على الأول : نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضرراً بأحد المتعاقدين ، بأن يبخس الكاتب أحدهما ، أو يشهد الشاهد بغير الحق .

والمعنى على الثاني : وهو الظاهر - نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضرراً بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان ، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفي ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة ؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك : **وَأِنْ تَقَمَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ** .

أى : وإن فعلوا ما نهيتهم عنه أو تخالفوا ما أمرتهم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرتم أهلاً للعقوبة، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته . ويتذكركم بنعمه فقال : **وَأَقْرَأُوا اللَّهَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .**

أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له ، وهو - سبحانه - بكل شئ عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

ويعد : فهذه هى آية الدِّين التى هى أطول آية فى القرآن ، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات ، وأنجح الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تلغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل ، لكل الجوانب التشريعية، والاحتراست التام من كل المبررات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق. العدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى- والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس ولا باهتزاز فى القلب.

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاهها ذلك دليلاً على سموها وفضلها ؛ وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وتبججهاها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية.

﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فُلِّقُوا
الَّذِي أُوتِيتُمْ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عِندَ اللَّهِ قَلْبٌ مُتَمَرِّدٌ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾

المفردات :

وإن كنتم على سفر : أى مسافرين فعلا، ولذا عبر بقوله : على سفر . إشعارًا بمباشرتهم له وتمكنهم منه تمكن الراكب مما يركبه .

فريهان مقبوضة : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من الأعيان ذات القيمة ضمانًا لدينه ، وهو فى الأصل مصدر ، وشاع استعماله فى العين المرهونة حتى أصبح حقيقة عرفية فيها .

التفسير :

٢٨٢ - وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ . . . لاحظ فى الآيات لوْنًا من ألوان التدرج فى التشريع ، فقد بين الله أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض .

وقد يعتمد الدائن على أمانة المدين ، وسلامة ذمته ، فيجب على المدين أن يقدر هذه الأمانة ، قال تعالى :
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . (النساء : ٥٨) .

معنى الآية :

وإذا كنتم - أيها المتدانيون - مسافرين ، ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم الدين ، فالذى يستوثق به حينئذ ، رهن يقبضها الدائنون ، ويتبقى عندهم حتى أداء الدين فتد إلى المدين .

وإذا أودع أحدهم آخر ودعية تكون أمانة عنده وقد اعتمد على أمانته ، فليؤد الوديع المؤمن الأمانة عند طلبها وليخش الله الذى رياه وتولاه بالعناية حتى لا يقطع عنه نعمته فى الدنيا والآخرة .

ولا تخفوا الشهادة بما علمتم إذا دعيتم لأدائها ، ومن يكتم الشهادة بالحق فهو آثم خبيث القلب ، والله مطلع على أعمالكم ، عليم بما تعملون من خير وشر وسيجازيكم عليها حسب ما تستحقون .

فى أعقاب الآية :

١ - أخذ مجاهد بظاهر الآية فلم يجز الرهن إلا فى السفر ، وقيد الضحاك فى السفر بفقدان الكاتب ، ولكن الراجح جواز الرهن سفرا وحضرا .

قال القرطبي : ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود ، متمسكين بالآية ولا حجة فيها لهم ، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط ، فالمراد به غالب الأحوال ، وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره ^(٩٨) .

٢ - روى البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « رهن درعه فى المدينة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير »^(٩٩) ومن الواضح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما رهن درعه كان مقيماً ولم يكن مسافراً .

٣ - أخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى : **فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ** . أن الرهن لا يتم إلا بالقبض فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية ، وهذا مذهب الأحناف والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطلب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركناً من أركانه ولا شرطاً لتمامه .

٤ - حث القرآن على أداء الشهادة بالحق ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ . (النساء: ١٣٥).

وهذه درة فى جبين التربية الإسلامية، ودليل على عناية القرآن بتكوين شخصية المسلم وتثبيت معالم الحق والفضيلة، ومحاربة الجبن والرديلة، وقد نهى القرآن عن كتمان الشهادة.

وفى هذه الآية :

وَلَا تَكْمُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْمُمْهَا فَإِنَّهُ أُمُّ قَلْبٍ . وقد نسب الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة من أعمال القلب، وإذا أثم القلب أثم صاحبه، لأن العبرة بأفعال القلوب، ولذا رفعت المواخضة عمن يفعل المعصية ناسياً، لأنه لا قصد له فيها .

« ولأن القلب رئيس الأعضاء ، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكانه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان منه »^(١٠٠).

روى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »^(١٠١).

★ ★ ★

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

المفردات :

تبدوا ما فى أنفسكم : تظهروه

يحاسبكم به : أى يبينه لكم، ويجازيكم عليه.

التفسير :

٢٨٤ - اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... الآية . اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْزَائِهِمَا ، وَمَا اسْتَقَرَّ فِيهِمَا ، لَا يَشَارِكُهُ فِي خَلْقِهَا أَوْ مَلِكُهَا ، أَوْ التَّصَرُّفِ فِيهَا شَرِيكَ ، فَلَهُ أَنْ يُلْزِمَكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَاد - بِمَا يَشَاءُ مِنَ التَّكَالُيفِ وَعَلَيْكُمْ - أَيُّهَا الْعِبَاد - أَنْ تَطِيعُوهُ وَلَا تَعْصُوهُ .

وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - يَحَاسِبُكُمْ أَيُّهَا الْعِبَاد - عَلَى نِيَاتِكُمْ ، وَمَا تَكْسِبُهُ قُلُوبُكُمْ سِوَاءَ الْخَفِيَّتِمُوهُ أَمْ أَظْهَرْتُمُوهُ .

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته ، كمن عزم على السرقة وأصر عليها ثم وجد الشرطي فتركها .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إِنْ أَلَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسَّوَسْتَ بِهِ صُدُورُهَا ، مَا لَمْ يَمْعَلْ أَوْ تَكَلَّمَ »^(١٠٢) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربه تعالى قال : « إِنْ أَلَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالْمَسِيئَاتِ - ثُمَّ بَيْنَ ذَلِكَ - فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعَفَ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً »^(١٠٣) .

وروى عن أبي هريرة قال : « جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا : إِنْ نَجِدْ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَلَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ ، قَالَ : وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ . وَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - عَنِ الْوَسْوَسةِ ، قَالَ : تِلْكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ »^(١٠٤) .

وفي كتب التفسير أن الصحابة لما سمعوا هذه الآية رقت قلوبهم ودمعت عيونهم ، وخافوا أن يحاسبهم الله على خطرات نفوسهم ، وهم لا يملكونها ولا يستطيعون التحكم فيها ، حيث قال سبحانه : وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفِّرُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ . (البقرة : ٢٨٤) .

فلما فعلوا نسخها الله فأنزل : لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦) .

وروى ابن جرير الطبري عن مجاهد والضحاك أنه قال : هي محكمة لم تتسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة ، وأنه تعالى قد يحاسب ويفقر ، وقد يحاسب ويعاقب .

وقد ورد في الصحيحين ومن طرق متعددة وعن قتادة عن صفوان بن محرز قال : بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال : يا بن عمر : ما سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في النجوى ؟ قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يَدْنُو الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَفَّهُ فَيَقْرُرُ بِذَنْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُ كَذَا ؟ » ، فيقول : رَبِّ أَعْرِفُ

مرتین، حتی إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ . قال : إني قد سترتها عليك في الدنيا وإنی أغفرها لك اليوم. قال : فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رموس الشهداء : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . (هود : ١٨) (١٠٥).

وجاء في تفسير الألوسی : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية في الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التي تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث في النفس - أي من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس، هاجس ذكروا

فخاطر فحديث النفس فاستمعا

يليه هم فعزم كلها رفعت

سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا (١٠٦).

وجاء في ظلال القرآن :

« وهكذا يعقب على التشريع المدني البحث بهذا التوجيه الوجداني البحث ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء في ممالك الأرض والسماء ، فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية، ضمانات القلب الوجدانية .. وهي الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام في قلوب المسلمين في المجتمع المسلم .. وهى والتشريع في الإسلام متكاملان، فالإسلام يصنع القلوب التي يشرع لها، ويصنع المجتمع الذي يقن له صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريعاً ، وتقوى وسلطاناً ، ومنهجاً للإنسان من صنع خالق الإنسان ، فأنى تذهب شرائع الأرض، وقوانين الأرض، ومناهج الأرض؟ أنى تذهب نظرة إنسان قاصر ، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية ، يتقلب هواه هنا وهناك ، فلا يستقر على حال ، ولا يكاد يجتمع اثنان على رأى ولا على رؤية ولا على إدراك ؟ ..

ألا إنها الشقوة للبشرية في هذا الشرود عن منهج الله وشرعه.

الشقوة التي بدأت في الغرب هرباً من الكنيسة الطاغية الباغية هناك .. ومن إلهها الذي كانت تزعم أنها تنطق باسمه، وتحرم على الناس أن يتفكروا أو يتدبروا ، وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر .. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس ، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها، ولكهم لم ينفوا عند حد الاعتدال ، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانها .. ثم تخلصوا من كل دين يتودهم في حياتهم الأرضية بمنهج الله .. وكانت الشقوة وكان البلاء (١٠٧).

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا ؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشرعيته وقانونه ؟ ما بالنا وديننا السمع القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحطم عنا الأثقال ، ويؤدى إلى الرقى والفلاح ؟ (١٠٨).

﴿أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾

المفردات :

وملائكته : الملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل، خلقوا للطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

التفسير :

٢٨٥ - آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ

هذا ختام سورة البقرة أطول سورة في القرآن ، السورة التي اشتملت على التشريع وساهمت في بناء الفرد، وتكوين المجتمع.

قال الزجاج - رحمه الله - : لما ذكر الله - عز وجل - في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد، وقصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والرياء والدين ، ختمها بقوله : آمَنَ الرُّسُلُ. لتعظيمه وتصديق نبیه - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله، وغيره ليكون تأكيداً له (١٠٩).

معنى الآية :

آمَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا - إجمالاً وتفصيلاً، وآمَنَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ كَذَلِكَ. كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ . كل من النبی وأفراد المؤمنين، صدق بالله وما يتصف به من كل كمال، وما يتنزه به عن كل نقص، وصدق بملائكته وطهارتهم من المعاصي أنهم منفذون لأوامر الله تعالى ، وأن بعضهم سفراء بينه تعالى وبين رسله الأكرمين، وآمَنَ بِكُتُبِهِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى رُسُلِهِ مَتَّعِبًا بِهَا عِبَادَهُ، وآمَنَ بِرُسُلِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ مَبْلُغُونَ لِكُتُبِهِ وَشَرَائِعِهِ إِلَى خَلْقِهِ.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . بل نؤمن بهم جميعاً فهم رسل الله إلى خلقه، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعاً ، ولا نقول كما قال الضالون : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ . (النساء : ١٥٠).

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا : أى قالوا : بلغنا الرسول شمعنا القول سماع تدبر وفهم، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهي طاعة إذعان وانقياد .

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا : أى اغفر لنا غفرانك ، أو نسألك غفرانك ذنوبنا .

وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أى الرجوع بالموت والبعث إليك وحدك لا إلى غيرك، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . (الشعراء : ٨٨-٨٩).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

تختتم السورة بهذه الآية الكريمة ، وفيها يسر التشريع وسماحة الإسلام، فتكاليفه في تناول البشر، الصلوات الخمس ، والصوم شهر في السنة ، والزكاة نسبة قليلة من المال ، والحج فريضة لمن استطاع إليه سبيلا، وعند المرض والسفر يباح للإنسان قصر الصلاة وجمعها وبياح للصائم في رمضان الفطر والقضاء، وفي كثير من تشريعات الإسلام تتجلى سماحة هذا الدين ومراعاته لطبيعة الإنسان.

فالشرعية يسر كلها، ورحمة كلها، وعدل كلها، قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة : ١٨٥).

وقال سبحانه : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ . (المائدة : ٦).

ويقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « يَسْرُوا وَلَا تَعْسُرُوا ، وَيَسْرُوا وَلَا تَتَفَرُّوا .. » (١١٠).

ومجمل معنى الفقرة الأولى : إن الله لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزئاً بعمله : إن خيراً فخير. وإن شراً فشر .. ومن هذه الفقرة تتضح المسؤولية الفردية، وتحمل الإنسان لتبعات عمله، فهو أهل للجزاء الحسن إذا أحسن، وهو مستحق للمؤاخذة إذا أساء ، قال تعالى :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (الجاثية : ٢١).

وتسترد الآية في دعاء رضى ندى يملأ القلب نورا والنفوس خيراً وبركة.

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . ربنا لا تعاقبنا إن وقعنا في النسيان لما كلفتنا إياه، أو أهملنا أسباب السلامة فوقنا في الخطأ بسبب ضعف أو قصور.

فقد فتحت باب التوبة للتائبين ، وقيلت رجوع المذنبين إليك، ولم تغلق في وجههم باب رحمتك.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا.

(الزمر : ٥٢).

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا . الإصر، معناه العبء الثقيل ، مأخوذ من أصره يأصره أى حسسه، والمراد به : التكاليف الشاقة، أى ربنا ولا تحمل علينا عبئاً ثقیلاً، كما حملته على الذين من قبلنا ولا تشدد علينا في التشريع كما شددت على اليهود بسبب تعنتهم وظلمهم.

فمن شرائعهم قتل النفس فى التوبة أو فى القصاص ، لأنه لا يجوز غيره فى شريعتهم، وقطع موضع النجاسة من الثوب، ونحوه ، وصرف ربع المال فى الزكاة.

قال تعالى : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي نَفْسٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شَحْوُهُمَا إِيَّاهُ مَا حَمَلَتْ ظُهُرُهُمَا أَوْ** **الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** . (الأنعام: ١٤٦).

على أن الإصر الأكبر الذى رفعه الله عن هذه الأمة هو إصر المبودية للبشر، عيودية العبد للعبد، فآله ينادينا فى القرآن بأنه قريب لا يحتاج إلى واسطة : **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي فَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** . (البقرة: ١٨٦).

ولا بأس أن ننقل هنا طائفة مما حمله بنو إسرائيل من الأصار والعناء ننقله عن أسفارهم. فى سفر الخروج فى الإصحاح الحادى والعشرين:

(١٥) ومن ضرب إياه أو أمه يقتل قتلاً.

(١٦) ومن سرق إنساناً وياعه أو وجد فى يده يقتل قتلاً.

(١٧) ومن شتم إياه أو أمه يقتل قتلاً.

وفى سفر اللاويين ، فى الإصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه أصار كثيرة منها :

(٢٣) وكل متاع خرف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه.

وفى الإصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم ، والفرق بين ولادتها ذكراً وأنثى ، وأنها فى الأول تكون نجسة أسبوعاً، ثم ثلاثاً وثلاثين يوماً ، وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يوماً.

وفى الإصحاح الخامس عشر أحكام الحائض ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجساً إلى المساء . (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمئتها يكون نجساً وكل ما تجلس

عليه يكون نجساً . (٢١) وكل من مس ثيابه يغسل ثيابه.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا وَلَا نُحِبُّكَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ إِيَّاكَ لَا تَكْلِفُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ مِنَ التَّكْلِيفِ.

والطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بقوله تعالى لا نُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ إِيَّاكَ ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : لا تحملنا ما لا قدرة لنا به ^(١١١).

إنهم يتوجهون إلى الله راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون كى لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه، وإلا فهى الطاعة والتسليم، إنه طمع الصغير فى كرم الكبير وبره وتيسيره.

ومن دعاء المؤمنين :

وَاغْفِرْ عَنَّا وَارْحَمْنَا . إِنَّهُ تَبْتَغِي الْمُؤْمِنَ وَإِخْلَاصَهُ فِي طَلَبِ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ .

اَغْفِرْ عَنَّا : يكرمك بأن تمحو عنا ما أَلَمْنَا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَتَتَجَاوَزَ عَنْهَا .

وَاغْفِرْ لَنَا : سامحنا واشملنا برحمتك وغفرانك وسترك .

وَارْحَمْنَا : برحمتك الواسعة، فهم طلبوا من الله أن يعفوا عنهم بأن يسقط عنهم العقاب ، وأن

يفقر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته ، ثم

ختموا دعاءهم بقوله :

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .. أَنْتَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرُ الْمُتَّقِينَ فَاجْعَلْنَا أَهْلًا لِعَوْنِكَ وَتَوْفِيقِكَ ،

وَانصُرْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ فَضْلَكَ وَنِعْمَتَكَ، وَهُوَ خَتَامُ يَدٍ عَلَى كَمَالِ الْإِيمَانِ وَنَهَايَةِ الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ .

لِلرَّحْمَنِ، وَالرَّغْبَةِ فِي إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَنُصْرَةِ الدِّينِ وَهَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ .

وفي تفسير ابن كثير عنوان عن :

(ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نعمنا الله بهما) .

(الحديث الأول) قال البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «من قرأ بالآيتين -

من آخر سورة البقرة كفتاه» (١١٢) . ثم نقل عشرة أحاديث نبوية في فضل الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة .

وقد ورد في صحيح مسلم عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى قال عقب كل دعوة من هذه

الدعوات : قد فعلت .

أى لما قال المؤمنون : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَاْنَا ، (قَالَ اللَّهُ - عز وجل - قد فعلت) رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا (قَالَ : قد فعلت) وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا . (قَالَ : قد فعلت) أخرجه مسلم

في كتاب الإيمان .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا

بيوتكم مقابر إن الشيطان ينقر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » ولفظ الترمذي : « وإن البيت الذي تقرأ فيه

سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (١١٣) .

وأخرج سعيد بن منصور والترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لكل شيء سنم ، وإن سنم القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي » (١١٤) .

هائدة

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن ، تجد ملكاً له الملك كله ، وله الحمد كله ، أزمة الأمور كلها بيده ، ومصدرها منه ، وموردها إليه ، مستويا على العرش ، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبده ، مطلقاً على أسرارهم وعلانياتهم ، منفرداً بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطى ويمنع ، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقدر ويقضى ، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقتها وجليلها ، وصاعدة إليه ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه . ولا تسقط ورقة إلا بعلمه .

فتأمل كيف تجده يثى على نفسه ، ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم ، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتعجب إليهم ، بنعمه وآلائه ، يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحذرهم من نقمه ، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه ، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ، ويثى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذم أعداءه بسئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصنق الصادق ويكذب الكاذب ، ويقول الحق ، ويهدى السبيل . ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وآلامها ، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل جهة ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويذكرهم غناؤه عنهم ، وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضلته ورحمته ، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته ، وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه اللطف عتاب ، وأنه مع ذلك مقبل عشراتهم ، وغافر ذلاتهم ، ومقيم أعدارهم ، ومصلح فسادهم ، والرافع عنهم ، والحامى عنهم ، والناصر لهم ، والكفيل بمصالحهم ، والمنجى لهم من كل كرب ، والموفى لهم بوعده ، وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه . فهو مولاهم الحق ، وينصرهم على عدوهم ، فنعم المولى ونعم النصير . وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكاً عظيماً ، جواداً رحيماً جميلاً هذا شأنه ، فكيف لا تحبه ، وتنافس فى القرب منه ، وتتفق أنفاسها فى التودد إليه ، ويكون أحب إليها من كل ما سواه ، ورضاء أثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلج بذكره ، ويصير حبه والشوق إليه ، والانس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها ، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتعج بحياتها ؟.

أمهات المسائل الواردة في سورة البقرة

- ١ - دعوة الناس جميعاً إلى عبادة ربهم.
- ٢ - عدم اتخاذ أنداد له.
- ٣ - ذكر الوحي والرسالة، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزّل على عبده، وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله.
- ٤ - ذكر أسس الدين وهو توحيد الله .
- ٥ - إباحة الأكل من جميع الطيبات .
- ٦ - ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج، والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.
- ٧ - الأمر بإنفاق المال في سبيل الله .
- ٨ - تحريم الخمر والميسر .
- ٩ - معاملة اليتامى ومخالطتهم.
- ١٠ - أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.
- ١١ - تحريم الربا والأمر بترك ما بقي منه.
- ١٢ - أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة، وحكم النساء والرجال في ذلك.
- ١٣ - وجوب أداء الأمانة.
- ١٤ - تحريم كتمان الشهادة.
- ١٥ - خاتمة ذلك كله، الدعاء الذي طلب إلينا أن ندعوه به ..

خاتمة من تفسير البقاعى

(... ولما بشرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبته على الأخف فالأخف، على سبيل التعليل، إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً، ولا مما قارفوه خطأ ولا حمل عليهم ثقبلاً، بل جعل شريعتهم حنيفةً سمحاء، ولا حملهم فوق طاقتهم، مع أن له جميع ذلك، وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم، فلم يخلجهم بذكر سيئاتهم، ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلاً للخلافة، فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر، ويظهر دينهم على كل دين، إذ كان - سبحانه وتعالى - هو الداعى عنهم، وليكون الدعاء محمولاً على الإصابة ومشمولاً بالإجابة.

فقال تعالى : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِيَّاهُ تَعَاقِبُنَا ، إِنْ نُسِئْنَا أَمْزَكْ وَنُهِيكْ ، أَوْ أَخْطَاْنَا إِيَّاهُ فَلَعْنَا خِلَافَ الصَّوَابِ تَقْرِيطًا وَنَحْوَهُ (١١٥).

* * *

اللهم اجعل هذا القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزنا ، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك ، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير سورة البقرة عصر الجمعة ٢٣

من ربيع الثانى سنة ١٤٠١ هـ الموافق

٢٧ من فبراير (شباط) سنة

١٩٨١ بمدينة العين بدولة

الإمارات العربية

المتحدة والحمد لله

رب العالمين

★ ★ ★

سورة آل عمران

سورة آل عمران

سورة آل عمران سورة مدنية ، وآياتها مائتان ، نزلت بعد الأنفال ، والمراد بعمران هو والد مريم ، أم عيسى - عليهما السلام - وآل عمران هم عيسى ويحيى ومريم وأمها .

وتسمى الزهراء : لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب في شأن عيسى عليه السلام.

والأمــــــــــــــــان : لأن من تمسك بها فيها أمن من الغلط في شأنه.

والكـــــــــــــــــز : لتضمنها الأسرار العيسوية.

والمجــــــــــــــــادلة : لنزول نيف وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نصارى نجران.

وسورة الاستغفار : لما فيها من قوله تعالى: وَالْمُتَّغِفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . (آل عمران : ١٧).

من أهداف سورة آل عمران

- ١ - بيان معنى الدين ، ومعنى الإسلام ، فليس الدين هو كل اعتقاد فى الله إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع :
توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر.
- ٢ - توحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله ، فلا يقوم شئ إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلق إلا الله تعالى.
- ٣ - تصوير حال المسلمين مع ربهم ، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق .
- ٤ - التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة .
- ٥ - بيان أن اللذائذ الدنيوية زائلة ، والآخرة خير وأبقى .
- ٦ - محبة الله سبحانه لا تتم إلا بمتابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم .
- ٧ - بيان قصص بعض المصطفين الأخيار : كمریم وزكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - وما جرى لعيسى من المعجزات ، والرد على من ادعى أنه ابن الله .
- ٨ - أمر النبى أن يدعو أهل الكتاب إلى المباهلة والدعاء بأن ينزل الله لعنته على الكافرين.
- ٩ - بيان أنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يؤمنوا بجميع الرسل ، وأن من صفة محمد كونه مصدقاً لما معهم .
- ١٠ - بيان أفضلية البيت الحرام على غيره ، وأن حجّه واجب على المستطيع .
- ١١ - ذكر غزوة أحد ، وبيان أن طريق الجنة : الجهاد والعمل الصالح ، وأن كثيراً من الأمم حاربت مع أنبيائهم .
- ١٢ - النبى صلى الله عليه وسلم رحيم بأمته ، ولو كان سيئ الأخلاق لابتعد الناس عنه ، وقد حث القرآن على مشاورة أصحابه والعزم والتوكل على الله . وقد تفضل الله على الخلق برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
- ١٣ - بيان حال الشهداء وفضلهم ومنزلتهم السامية عند الله .
- ١٤ - بيان أن بعض أهل الكتاب آمنوا ، وحث المؤمنين على الصبر والمراعاة والتقوى والتمسك بالوحدانية المطلقة .

﴿ ١ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿ ٢ ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿ ٣ ﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿ ٤ ﴾

المفردات :

الحى : ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة.

القيوم : القائم على كل شئ بكلامته وحفظه.

الفرقان : القرآن ، أو جميع الكتب السماوية ، لأنها تفرق بين الحق والباطل.

ذو انتقام : ذو عقوبة شديدة لمن عصاه، لا يقدر على العقاب بمثلها أحد.

التفسير :

. آلِ

تحديثاً عن فواتح المور فى أول سورة البقرة ، وتكلمنا عن الحروف المقطعة التى بدت بها بعض السور.

وأراء العلماء فى هذه الفواتح ترجع إلى رأيين اثنين.

أحدهما : أنها جميعاً مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه - وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين.

ثانيهما : أن لها معنى وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى . فمنهم من قال هى أسماء للسورة، ومنهم من قال هى رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، ومنهم من قال هى حروف للتنبيه، ومنهم من ذكر أنها حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مراد من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد .

٢ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

رغم أن بعض الناس قد يؤلهون أرباباً كثيرة، ويعبدون أشياء عدة إلا أن الحقيقة الخالدة هى أن كافة المخلوقات تنتمى إلى الله الذى لم يكن له شريك أزلاً ولا شريك له أبداً، فهو الله الحي القيوم ، واهب الحياة للخلق أجمعين لا عون ولا مدد إلا منه ، وهو المعين ولا معين سواه، لا شبيه له فى صفاته ، ولا ند له فى ذاته، ولا مثيل له، ولا شريك له ، ولذا فاتخاذ إله آخر - أيا كان - مع الله فى الأرض أو السماء . إن هو إلا زور ويهتان مبين .

روى ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانوا نحو ستمين راکباً ، وخاصموه فى عيس ابن مريم وقالوا: من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم : الستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال أستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : أستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال أستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء . وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غُذي كما يغذي الصبي ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا : بلى . قال كيف يكون هذا كما زعمتم ، فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً ، فأنزل الله : **أَسْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .** إلى آخر الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ، أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفي عقيدة التثليث بادئ ذي بدء ، ثم أتبع ذلك بما يؤكد من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى ، فكيف تقوم به قبل وجوده .

ويذكر البيضاوى فى تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) رواية تفيد أن الرسول (ﷺ) قال : إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور (١١٦) .

فى البقرة : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .**

وفى آل عمران : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .**

وفى طه : **وَعَبَّ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .**

٣ - **نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ...**

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ يعنى القرآن ، وللقُرآن أسماء كثيرة وردت متفرقات فى ثاىا الكتاب العزيز فهو القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والذكر ... وغير ذلك من الأسماء العديدة التى أوردها السيوطى فى كتابه (الإتقان) وقد عبر عن القرآن بالكتاب، للإيدان بأنه هو الكتاب المتميز الذى ينصرف إليه هذا الاسم عند الإطلاق ، والألف واللام فيه للعهد أى الكتاب المعهود . أو الإشارة إلى أنه مشتمل على ما فى غيره من الكتب السماوية من المقاصد المشتركة بين الأديان فكانه جنس الكتب السماوية ، والألف واللام فيه على هذا للجنس .

بِالْحَقِّ أى بالصدق الذى لا شبهة فيه .

فقد أنزل الله القرآن متلبساً بالحق فى جميع صوره من توحيد الله وتنزيهه عن الصحابة والولد، وإخباره عن أحوال الأمم السابقة ، وشهادته بنبوة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبين ما جاء به من العبادات والمعاملات والأخلاق وأحوال الآخرة ، فكل هذه الصور من الحق ، نزل بها القرآن .

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .

الضمير في يديه يعود على الكتاب ، والمعنى أن الكتاب العزيز مصدق لما قبله من الكتب السماوية التي أنزلها الله على رسله ، ومحقق لها فيما نزلت به ، فإن الله سبحانه لم يبعث رسولا قط إلا بالدعوة إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، مثل صحف إبراهيم ، وزيور داود ، وتوراة موسى .

قال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التي هي صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب في كل ذلك (١١٧) .

التَّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ . أى أنزل التوراة على موسى وأنزل الإنجيل على عيسى .

٤ - مَنْ قَبْلُ هَدَىٰ لِلنَّاسِ . أى أنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن لأجل هداية الناس حين أنزلهما على موسى وعيسى، فلم يكن فيهما شيء من الضلال الذي يشتملان عليه الآن (١١٨) .

وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، المراد بالفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، والمعنى الأقرب أن المقصود بالفرقان هو القرآن الكريم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه فصل بين الحق والباطل في أمر عيسى، لأن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن عيسى عليه السلام وبينت حقيقته ، ونفت أن يكون ابنا لله . وناقشت من ذهب إلى تأليهه. وذهب مفسرون آخرون إلى أن القرآن فصل بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، فقد أحل الحلال وحرم الحرام، وفرض الفرائض، وسن الأخلاق الرفيعة ...

أخرج ابن جرير ، عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه - أى القرآن - الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى - عليه السلام - وغيره .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ . المراد بالكافرين : النصارى الذين نزل صدر السورة بسببهم أو كل كافر فيدخل هؤلاء فيه دخولا أولياً .

والمراد بآيات الله : الكتب المنزلة على الرسل، أو ما يعمها وغيرها كالأيات والمعجزات .

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . العزيز : الغالب الذي لا يغلب ، والانتقام : العقوبة، وكلمة عزيز : للإشارة إلى القدرة التامة على العقاب .

والجملة سبقت لتقرير الوعيد السابق عليها

التوراة والإنجيل

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في تفسير هذه الآيات ما يأتي :

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (١١٩) وأن المقصود بالإنجيل أناجيل العهد الجديد الأربعة الشهيرة (١٢٠) ومن هنا ظهرت هذه المشكلة.

أي هذه الكتب يا ترى هي كلام الله حقاً ؟ وهل يصدق القرآن فعلاً كل ما ورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هي منشورة في بطنها، وأن الإنجيل ليس هو الأنجيل الأربعة بل هو موجود بين سطورها.

فالمراد بالتوراة أصلاً تلك الأحكام التي نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته وإلى وفاته أي في مدة تقارب اثنين وأربعين عاماً كانت منها تلك الوصايا العشر التي دوّنها الله على الواح وأعطاهها له. أما بقية الأحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتي عشرة نسخة منها وأعطاهها لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وأعطى نسخة من بين هذه النسخ إلى بني لاوى أحد أسباط بني إسرائيل كي يحفظوها. وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة، وقد ظل سليماً محفوظاً ككتاب مستقل حتى أول تدمير لبيت المقدس، وكانت نسخة بني لاوى والألواح الحجرية توضع في تابوت العهد ويعرفها بنو إسرائيل باسم (التوراة). غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل إلى حد أنه حين حدث ترميم الهيكل السليماني في عهد (يوسياه) ملك يهوذا . عثر كبير الكهان على التوراة موضوعة في مكان ما في (خلقياء) وأعطاهها إلى كاتب الملك كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدمها للملك كاككتشاف مذهش عجيب (انظر الملوك الثاني إصحاح ٢٢ من ١٢٠٨).

وحين فتح (بختنصر) اورشليم وأحرق الهيكل والمدينة بأكملها وسواها بالتراب فقد بنو إسرائيل نسخ التوراة الأصلية ، التي كانت لديهم أعداد جد قليلة منها، وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بني إسرائيل من الأسر البابلي في عهد الكاهن عزرا (عزير) إلى اورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دون عزرا كل تاريخ بني إسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة عشر الأولى من العهد القديم.

والأسفار الأربعة من هذا التاريخ التي تحوى سيرة موسى عليه السلام وهي الخروج واللاويين والعدود والتثنية أدرجت فيها آيات التوراة التي كانت في يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها.

فالتوراة الآن إذن هي تلك الأجزاء المتفرقة التي تنتثر فيها سيرة موسى عليه السلام بين صفحات العهد القديم، ونستطيع أن نتبينها من بين هذا السرد التاريخي بعلامة واحدة هي أننا إذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال الله لموسى كذا... أو قال موسى : الرب إلهكم يقول كذا... فلتعلم أن جزءاً من التوراة قد بدأ هنا . ثم إذا استأنف سرد السيرة فلتعلم أن هذا الجزء قد انتهى. وإذا ما أسهب مصنف التوراة في شرح وتفسير شيء ما في موضع وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما إذا كان هذا الجزء من التوراة أم من الشرح

والتفسير . ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا إلى حد ما التفسير والشروح التى أضيفت وألحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح .

والقرآن يسمى هذه الأجزاء المتناثرة (التوراة) ويصدقها ، والحقيقة أننا لو جمعنا هذه الأجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف فى الأحكام الجزئية فى بعض المواضع ، والمتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس إحساساً واضحاً بأن كلا الرافين صادر من منبع واحد .

كذلك فالإنجيل فى أصله هو تلك الخطب والأقوال التى قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبياً من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات فى حياته أم لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دونوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة . على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بربح من الزمن أدرجت فيها - إلى جانب البيان التاريخى - تلك الأقوال والخطب التى وصلت إلى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة . وكتب متى ومرقس ولوقا ويوحنا التى تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الإنجيل الأصيل وإنما الإنجيل الحق هو أقوال المسيح التى أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها أو التفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا ... أو علم المسيح الناس كذا ... فهذه هى أجزاء الإنجيل الأصيل ، والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالإنجيل ويصدقها ولو جمع أمرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وإزالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب (١٢١) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۚ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾

المفردات :

لا يخفى : لا يغيب .

يصوركم : يخلقكم على ما شاء من صورة .

الأرحام : جمع رحم وهى مكان الحمل مشتق من الرحمة .

التفسير :

٥ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . إن الله واسع العلم ، لا يخفى عليه شيء كائن فى الأرض ولا فى السماء ، لعلمه بما يقع فى العالم من كلى أو جزئى ، فهو العالم بما كان وما يكون ، وهو مطلع على

كفر من كفر بآيات الله، وإيمان من آمن بها، وهو مجازيهم عليه، والمسيحيون يؤمنون بالوهية عيسى غافلين عن أنه بشر محدود المعرفة فكيف يكون إلهاً ؟.

وعبر عن علمه - تعالى - بذلك إيذاناً بأن علمه سبحانه بالكائنات، ولو كانت في أقصى غايات الخفاء ليس من شأنه أن يكون فيه شائبة خفاء بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الوضوح والجلالة (١٢٢).

٦- هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .

هو الذي يمتنعكم الصورة التي يشاء ويمتلك الخصائص المميزة لهذه الصورة ، وهو وحده الذي يتولى التصوير بمحض إرادته ومطلق مشيئته .

قال أبو السعود في التفسير :

(يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها في قبول الأحوال المتغيرة من كونكم نطفاً ثم علماً ثم مضجاً غير مخلقة ثم مخلقة وفي الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات) .

لا إله إلا هو . إذ لا يتصف بشيء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته .

العزيز الحكيم . المتناهى في القدرة والحكمة؛ ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

وفي هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى في عيسى عليه السلام ونشأته ومولده قاله هو الذي صور عيسى (كيف يشاء) . لا أن عيسى هو الرب، أو هو الله أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتي الناسوتي ، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد .

★ ★ ★

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلُ الْبَيْتِ ۚ ﴾ (٧)

المفردات :

محكمات : واضحات .

متشابهات : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها فاشتبه أمرها على الناس .

زَيْغٌ : ميل عن الحق إلى الباطل .

ابتغاء الفتنة : طلباً لها .

الراسخون في العلم : الثابتون فيه .

الألبساب : العقول الخالصة .

المعنى العام للآية :

وهو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بيّنة المقاصد، هى الأصل وإليها المرجع، وآخر متشابهات يديق معناها على أذهان كثير من الناس ، وتشتهى على الراسخين فى العلم وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعت العلماء على العلم ، والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد، وفى البحث فى الدين .

وشأن الزائفين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا الله ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند الله ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين محكمه ومتشابهه، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة .

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى :

١ - المحكم والمتشابه

المحكمات : من أحكم الشيء بمعنى وثّقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه الحكم والحكمة، وحكمة الفرس، قيل وهى أصل المادة .

والمتشابه : يطلق فى اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يشتهى من الأمر أى يلتبس قال فى الأساس (وتشابه الشيطان ، واشتهى ، وشبهته به، وشبهته إياه واشتهت الأمور وتشابهت : التبهت لإشياء بعضها بعضاً، وفى القرآن المحكم والمتشابه) .

٢ - آراء العلماء فى المحكم

(أ) هو الحلال والحرام ... روى عن ابن عباس ومجاهد .

(ب) هو ما علم العلماء تأويله ...

(جـ) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان .

(د) هو ما لم يحتمل من التاويل إلا وجهاً واحداً .

(هـ) هو الأمر والنهى والوعيد والحلال والحرام .

(و) عن ابن مسعود : قال أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه، وأمثال ، فأحل الحلال، وحرم الحرام ، وآمن بالمتشابه، وأعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال .

(ز) قال ابن عباس هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ . هن أصل الكتاب اللاتي يعمل عليهن في الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

٣ - آراء العلماء في المتشابه

(أ) هو ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

(ب) هو الحروف المقطعة في فواتح السور كقوله آلم . ونحو ذلك . وقد جاء في تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا في المحكم والمتشابه على أقوال :

(أحدهما) أن المحكمات هي قوله : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... (الأنعام : ١٥١) إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها (١٣٣) والمتشابهات هي التي تشابهت على اليهود وهي أسماء حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور .

(ثانيها) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ .

(ثالثها) أن المحكم ما كان دليلاً واضحاً لاثبات دلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج في معرفته إلى التدبر والتأمل .

(ورابعها) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال (١٢٤) .

٤ - الوقف والوصل

في قوله تعالى :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا .

للعلماء في تفسير هذه الآية رأيان :

١ - رأى بعض السلف وهو الوقف على لفظة الجلالة ، وجعل قوله : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . كلاماً مستأنفاً ، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله .

(ب) أن قوله : يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا . ظاهر في التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشيء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض .

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كابن كعب وعائشة .

٢ - ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ : **الْعِلْمُ** . ويجعل قوله : **يَقُولُونَ آمَنَّا** . كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين في العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون في العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذي لا اضطراب فيه، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم (١٢٥) ويشهد لصحة هذا الرأي أمران :

أحدهما : أن الله تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ، فلا ينبغي أن يكون فيه الغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها، فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى **هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ** : أي مرجعه عند الاشتباه .

وثانيهما : أن الله تعالى أثنى على الراسخين في العلم بقوله : **وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها في كشف التشابهات والتذكر بها .

٥ - الحكمة في وجود المتشابه

(أ) امتحان قلوب المؤمنين في التصديق به .

(ب) هو حافظ للعقول إلى النظر فيه .

(ج) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة .

قال الزمخشري : **فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟**

قلت: لو كان كله محكما لتعلق الناس به، لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك، لمطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به (١٣٦) .

ولما في المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما في تقادح العلماء وإتباع القرائح - في استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجلييلة، والعلوم الجمّة، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة في كلام الله ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره - وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم- ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه ... اهـ .

٦ - زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى نبوة عيسى لله ، ثم أثبتتها حين ذكر أنه روح منه، وهذا زيف منهم يبتغون به الفتنة، فإن المراد من قوله « روح منه » أنه صادر من الله ، فكما أن كل شيء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى، وصدق الله إذ يقول : **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (الإخلاص : ٣ - ٤) .

٧ - صفات الله

جاء في القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجهاً وبيدين وجهة هي السماء ومكاناً هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تتركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .
فراى رجال السلف الصالح متابعة الصعابة والتابعين فى موقفهم منها .

« فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمناها ببحث ولا تأويل ^(١٢٧) » وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة » ^(١٢٨) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير سورة آل عمران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه، كاليد والوجه والاستواء، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع.

بدأت المشكلة: حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الأنفاظ وأمثالها : تأويلا لها، أو نفياً لمعناها، أو تفسيراً أو شرحاً ... (...) والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها، وليس معنى ذلك ، أن هذه الأنفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم، وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو كما وصفه، وحق بالمعنى الذى أراد - وعلى الوجه الذى قال ، وأن لا يحاول لها تفسيراً ولا تأويلا .

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

« أمروها كما جاءت » - يقول الإمام الرازى فى كتابه (أساس التقديس) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها ، شىء غير ظواهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها » .

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد وهى أصل هذا الكتاب .

والذين فى قلوبهم زيغ، يتركون الأصول الواضحة، ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بليلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة أننا به كلٌّ من عند ربنا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد .

روى الإمام أحمد أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سمع قومًا يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) (١٢٩).

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّ رَبِّهِمْ فِيهِ الْيَوْمُ ۝ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادُ ۝ ﴾

المضردات :

لا ترغ قلوبنا : لا تملها عن الحق .

من لَدُنْكَ : من عندك .

ليوم لا رب فيه : ليوم لا يصح أن يشك فيه وهو يوم القيامة .

التفسير :

٨ - رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

هذه الآية من تنمة كلام الراسخين في العلم فهم أمام المتشابه من القرآن ، يؤمنون به ، ويصدقون بأنه كلام الله وينحنون بعقولهم أمام كلام ربهم قائلين : آمنا به كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبَّنَا ثُمَّ يَدْعُوا سَائِلِينَ اللَّهَ الثبات على الحق والاستمرار على الهدى ، ولن يكون ذلك إلا بتوفيق الله لهم .

ويذهب الشريف الرضى في تفسيره هنا إلى أنه دعاء بالتثبيت على الهداية ، وإمدادهم بالألطف التي معها يستمرون على الإيمان ، وعلى طريق المعتزلة يسوق الشريف تفسيره في نطاق جدلى ينتهى إلى الجواب السليم فيجربى تساؤلا بقوله : وكيف يكون مزيقا لقولهم بالا يفعل اللطف ؟ ثم يتولى الإجابة قائلا :

من حيث كان المعلوم له متى قطع إمدادهم بالطافه وتوفيقه زاغوا وانصرفوا عن الإيمان ، ويمضى شارحا ضاريا المثل قائلا : ويجربى هذا مجرى قولهم :

اللهم لا تسلط علينا من لا يرحمنا ، ومعناه لا تغل بيننا وبين من لا يرحمنا فيتسلط علينا .

وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . هم يعرفون أنهم لا يقدرون على شىء إلا بفضل الله ورحمته ، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله .. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاح .

روى ابن أبى حاتم عن أم سلمة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١٣٠) ثم قرأ : رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

والوهاب : كثير الهبات والعطايا أى إنك أنت وحدك الوهاب لكل موهوب، وفيه دليل على أن الهدى بتوفيق الله ، والضلال بعدم الإعانة منه، لتقصير العبد فى سلوك سبيله ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده، من غير أن يجب عليه شيء .

٩ - رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ

أى أنت يا ربنا ، جامع المهتدين والزائغين ، لحسابهم وجزائهم فى يوم لا ينبغى أن يرتاب فى وقوعه .
ليجزى كل إنسان بما عمله فى الدنيا من خير وشر .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ . هذه الجملة من كلام الله بعد أن تم كلام الراسخين فى العلم . كان القوم لما قالوا : « إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » صدقهم الله فى ذلك وأيد كلامهم بقوله « إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ » وقيل هو كلام الراسخين .

والمعنى على هذا :

إنك لا تخلف وعدهك للمسلمين والكافرين بالثواب والعقاب .

والتأكيد بـان ، وإظهار لفظ الجلالة بدلا من الضمير يفيد تأكيد نفى الريب، كما يفيد تأكيد قيام الساعة تأكيداً حاسماً .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ١٠ ﴿كَذَٰبٌ أَلْفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُّبُهُمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١١ ﴿

المفردات :

وقود النار : وقود النار - بالفتح - ما توقد به النار ، وبالضم : الاشتعال .

كذاب : الداب ، العادة ، والصنيع والحال ، و الشأن والأمر .

التفسير :

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ . التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع- المضار .

وَلَا أَوْلَادُهُمْ . الذين بهم يتناصرون ، وعليهم يعتمدون .

مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . أى من عذاب الله شيئاً من الإغناء أى لن تدفع عنهم شيئاً من عذابه .

قال تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨ ، ٨٩).

وَأُولَئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ . يفتح الواو اى حطبها وقرئ بالضم بمعنى اهل وقودها ، واكثر اللغويين على أن الضم للمصدر اى التوقد ، والفتح للحطب .

وقال الزجاج المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح ، وهذا كقوله تعالى : إِنُّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . (الأنبياء : ١٨).

١١ - كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . قال ابن عباس كصنيع آل فرعون ، أو كسنة آل فرعون ، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة .

والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كهر ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال : لا يزال هذا دأبى ودأبك .

وقال امرؤ القيس :

كذابك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكىت دارها ورسمها .

والمعنى فى الآية :

لن تغنى عن هؤلاء الكفار أموالهم ولا أولادهم ، شأنهم فى هذا شأن آل فرعون حيث لم يغن عنهم ما ملكوه من أموال طائلة ، وما أنجبهوا من أبناء عديدين ، فأغرقوا وأدخلوا ناراً بسبب كفرهم ، وكما دخلوا النار بكفرهم فسيدخلها كل كافر مفسد .

والذين من قبلهم . أى الأمم الكافرة التى كذبت الرسل .

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بَيَانٍ وَتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبني على السؤال المقدر . والآيات : المعجزات والبراهين التى أيد بها الرسل ، أو الأدلة على وجود الله ووحدانيته أو هما معاً .

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ أَى عاقبهم وأهلكهم بسببها وقد استعمل الأخذ لأن من ينزل به العقاب يصير كالماخوذ الماسور الذى لا يقدر على التخلص .

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى الأخذ بالذنب ، فيه تهويل للمؤاخذه وزيادة تخويف للكفرة ، وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ للجميع وتكملة له .

﴿ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ١٢ ﴾

المفردات :

المهاد : الفراش .

سبب النزول :

روى أبو داود فى سننه والبيهقى فى الدلائل عن طريق ابن إسحاق عن ابن عباس :

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال :

يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا . فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش : كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنك لم تكن مثنا .. هأنزل الله :

قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَتُحْشَرُونَ . إلى قوله : لأُولَى الْأَبْصَارِ . وحكم الآية يعم جميع الكافرين ، وإن نزلت بسبب اليهود :

المعنى : قل ، يا محمد لهؤلاء الكفار : ستغلبون - ألبتة - عن قريب وستحشرون بعد موتكم إلى جهنم وبئس الفراش : جهنم ، التى مهدتموها لأنفسكم بذنوبكم وآثامكم .

والتعبير عن جهنم بالمهاد ، للتهكم بهم ، فإن المهاد هو الفراش الذى يهدد ليستراح عليه ، ولا مهاد ولا راحة فى السعير ، وقد صدق الله وعده بقتل يهود بنى قريظة (١٢١) ، وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر (١٢٢) وضرب على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ، حيث أخبر القرآن به قبل وقوعه .

★ ★ ★

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّكَاتِ فَقَتِلْ فِي سَيْدِ اللَّهِ وَآخَرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولَى الْأَبْصَارِ ١٣ ﴾

المفردات :

آية : الآية هنا ، العبرة والعظة .

فتنة : الفتنة ، الطائفة من الناس .

الأبصار : البصائر والمقول .

التفسير :

١٣ - قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا . . .

أى قل لأولئك اليهود الذين غرقتهم أموالهم واعتزوا بأولادهم وأنصارهم لا تغرنكم كثرة العدد ولا المال والولد، فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تنفيذ ما تدعون.

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين.

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها.

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

فَفَتْةٌ تَقَابَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى فئة مؤمنة فى أعلى درجات الإيمان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله.

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ . أى فئة أخرى كافرة ، والمراد بها كفار قريش.

وكان المسلمون فى بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معهم فرسان وستة أدرع وثمانية سيوف، وأكثرهم رجالة. وكان المشركون قريباً من ألف .

يَرَوْنَهُمْ مِنْهُمْ . أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريباً من ألفين، أو مثلى عدد المسلمين.

والمراد من الرؤية الظن والحسبان ، وقد كثر الله المسلمين فى أعين المشركين ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم ، أو أنزل الله الملائكة حتى صار عدد المسلمين كثيراً فى نظر المشركين .

رَأَى الْعَيْنَ . أى رؤية ظاهرة لا لبس فيها .

لقد كانت هناك مواقف مختلفة للمعركة . فقبل المعركة قاتل الله المسلمين فى أعين المشركين حتى يجترئوا عليهم كما قاتل الله المشركين فى أعين المسلمين ، ليزداد حماس المسلمين ويقينهم بالنصر.

قال تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمِيمَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . (الأنفال : ٤٤).

فلما بدأت المعركة والتحم الجيشان ، كثر عدد المسلمين فى أعين الكفار ليهابوهم وتتزلزل أقدامهم ، فيفشلوا وينهزموا .

ويحتمل أن المسلمين كثروا أولاً فى أعين المشركين ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التّصاف والتقى الفريقان قاتل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدّم كل منهما على الآخر ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً .

ومضمون الآيات يرجح الرأي الأول ، والعبرة أنه كان هناك تقليل للعدد في مواطن ، وتكثير للعدد في مواطن أخرى من المعركة ، وأن ذلك كان سبباً من سبل النصر .

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ . وَاللَّهُ يَقْوَىٰ بِنَصَرِهِ وَعَوْنِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَالنَّصْرُ وَالظَّفَرُ ، إِنَّمَا يَحْصِلَانِ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ وَنَصَرِهِ لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَلَا بِقُوَّةِ الشُّوْكَةِ ، وَلَا بِقُوَّةِ السِّلَاحِ : وَقَدْ تَقَفَّ بَعْضُ الْمُقَاتِلَاتِ فِي طَرِيقِ النَّصْرِ وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ دَائِمًا لِلْمُتَّقِينَ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . إِنْ فِي التَّكْثِيرِ وَالتَّقْلِيلِ ، وَغَلْبَةِ الْقَلِيلِ مَعَ عَدَمِ الْعِدَّةِ عَلَى الْكَثِيرِ الشَّاكِي السِّلَاحِ لَعِبْرَةٌ أَيْ لاعتباراً وآية وموعظة لأُولِي الْأَبْصَارِ لِذَوِي الْعُقُولِ وَالْبَصَائِرِ .

★ ★ ★

﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴾ (١٤)

المفردات :

حب الشهوات : حب المشتبهات للنفس .

المقنطرة : المجمة أو المضمة .

المسومة : الراعية في المرمى ، مأخوذ من سوّم خيله ، إذا أرسلها في المرمى ، أو المطهمة الحسان .

والأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز .

والحرث : مصدر مراد به المزروع .

التفسير :

في آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكسبة والخيل والأرض الخضراء والأنعام .. وهي خلاصة الرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى .

وقد بدأت الآية أنواع المشتبهات بقولها :

١ - مِنَ النَّسَاءِ وَهَـذِهِمْ عَلَى الْكُلِّ لِأَنَّ التَّمَتُّعَ بِهِنَّ أَكْثَرُ وَالِاسْتِئْثْنَاءُ بِهِنَّ أَتَمُّ ، إِذْ يَحْصِلُ مِنْهُنَّ أَتَمُّ اللَّذَاتِ .

٢ - وأبين والمراد بهم الأولاد الذكور للتكثر بهم والتفاخر والزينة، وقيل المراد بهم الأولاد مطلقاً كما قال تعالى: **أَمَّا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فَبَنَاتُكُمْ** . (الأنفال : ٢٨) وفى الحديث (الولد مجبنة مبخلة) (١٣٢). والعلة فى حب الزوجة، وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع، وهى حكمة مطردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى.

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول، لأن الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة . فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده، وكم من غنى عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، بسبب حب والدهم لغير أهم.

٣ - **وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ** أى الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والقناطر جمع قنطار، ويطلق أحياناً على المال الكثير بغير عدد وقد يستعمل فى مقدار كثير معين من المال وهو ١٢ ألف أوقية.

وفى القاموس القنطار مائة رطل من الذهب والفضة ووصف القناطر بالمقنطرة للمبالغة، فمن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشق منه للمبالغة ، كقولهم الوف مؤلفة، ويدر مبدرة، وإبل مؤبلة، ودرهم مدرهمة، وظل ظليل.

ونهم المال هو الذى ترسمه القناطر المقنطرة ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال : والأموال ، أو الذهب ، والفضة، ولكن القناطر المقنطرة توحى بالنهم الشديد لتكديس الأموال، ذلك أن التكديس ذاته شهوة، بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى.

وحب المال غريزة فطرية، وقد يبلغ النهم بالإنسان فى جمع المال أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد فيفتن فى الوصول إليه القنوت المختلفة، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام.

وقد أباح الإسلام الملكية ولكنه هدبها وقلم أظافرها وأوجب أن يكون تملك المال من طرق سليمة، كما أوجب فيه الزكاة، وغير ذلك من الواجبات، وبذلك يكون المال نعمة لا نقمة، فتعم المال الصالح للرجل الصالح.

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب) (١٣٤).

٤ - **وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ** . : التى ترعى فى الأودية، يقال : سام الدابة : رعاها، وأسامها : أخرجها إلى المرعى كما قال تعالى : **مَنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ** . (التحل : ١٠).

وقال ابن جرير : المسومة المألّمة ، التى عليها السيمياء وهى العلامة.

وقال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوصاف والفرق التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غرا، وقال النابغة :

بسمر كالقصداح مسومات
عليها معشر أشباه جن

وقال ابن جرير : إن معنى المظهمة والمألّمة والرائعة واحد.

وكل من الخيل الراعية التي تقتنى للتجارة، والمطهمة التي يقتنيها الكبراء والأغنياء للمفاخرة، من متاع الدنيا الذي يتنافس فيه، ومن الناس من يفلو في حب الخيل وأشبابها حتى يفوق عنده كل حب.

٥ - وَالْأَنْعَامُ . وهى الإبل والبقر والغنم، والأنعام مال أهل البادية بها ثروتهم، وفيها تكاثرهم وتفاخرهم، ومنها معاشهم ومراققتهم .

وقد امتن الله بالأنعام على عباده فقال :

وَالْأَنْعَامُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَنَحْمِلُ أَوْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَلِيهِ إِنَّا بِأَنْفُسِكُمْ لَرَبَوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ لِرَكْبِهَا وَزِينَةٌ وَيَخْتَلُونَ مَا لَا تَعْلَمُونَ : (النحل : ٥ - ٨).

٦ - وَالْحَرْث . أى الزرع والنبات والشجر على اختلاف أنواعه وهو قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر.

ذلك مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . أى ذلك الذى ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الأولى.

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . واللّه عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه فى الآجل.

والإسلام دين وسط فهو لم يعزّم التمتع بالطيبات ، فإن التمتع بها حلال كما قال - سبحانه - قُلْ مِنْ حَرَمِ رَبِّهِ اللَّهُ الَّذِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (الأعراف : ٣٢).

فالزوجة الصالحة نعمة والدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة.

وينبغى أن تكون وسيلة للعفة والاستقامة والذرية الصالحة.

والابن الصالح نعمة، والمال نعمة وهو وسيلة لإخراج الزكاة والصدقة. وكذلك الخيل والأنعام والحرث.

ولكن على المؤمن ألا يشتغل بها عن طاعة الله، وألا يجعلها أكبر همٍّ أو شاغلا له عن آخرته.

فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال فهو السعيد فى الدارين.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة : ٢٠١).

﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ بِبَصِيْرٍ بِالْعٰبِدِيْنَ ۝١٥
الَّذِيْنَ يَقُولُوْنَ رَبَّنَا اِنِّسْآءَ اَمْكَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝١٦﴾
وَالصّٰدِقِيْنَ وَالْقَنِيَّتِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْاَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المفردات :

أُوْنِيْكُمْ : الهزمة للاستفهام ، والمراد منه : التنبية والتشويق إلى ما ينبئهم به . والإنباء : الإخبار . فكانه يقول : إني مخبركم بخير يستدعي انتباهكم وشوقكم إلى سماعه ، فاستمعوا إليه .

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ : وزوجات مطهرة من الأدناس حسية ومعنوية .

وَالْقَانَتِيْنَ : والمطيعين لله ، الخاضعين له ، المقربين بعبوديتهم له .

بِالْاَسْحَارِ : الأسحار جمع سحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

وَرِضْوَانٌ : الرضوان : الرضا العظيم .

التفسير :

١٥ - قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالاً ، أمر رسوله بتفصيل ذلك الجميل للناس مبالغة في الترغيب .

والعنى : قل لقومك وغيرهم : أخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره ، وجئ بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه . وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير في ذاتها ، ولاشك في ذلك إذ هي من أجل النعم التي أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض في سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها .

ثم أجابهم عن هذا الاستفهام المشوق فقال :

لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . .

جبل ما أعدّه للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين :

نوعاً جسمانياً نفسياً وهو الجنات وما فيها من الخيرات ، والأزواج المطهرات .

ونوعاً روحياً عقلياً وهو رضوان الله تعالى .

قال القاسمي :

و لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . خبر المبتدأ الذي هو : جَنَاتٌ

و تَجْرِي . صفة لها و عِنْدَ رَبِّهِمْ . صفة للجَنَاتِ في الأصل قدم فانتصب على الحال، والعندية مقيدة لكمال علو رتبة الجَنَاتِ وسمو طبقتها .

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١٣٥) .

خَالِدِينَ فِيهَا . أي ماكثين فيها أبداً لا ينفون عنها حولا .

وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ . من الدنس والخبث والأذى والحيض وغير ذلك مما يمتري نساء الدنيا .

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ . أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده، وهذه اللذة الروحانية تتممة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها كوناً قال تعالى : وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ٧٢) .

روى الشيخان عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم نتمتع أحداً من خلقك ؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك قالوا: يا ربنا أى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً (١٣٦) .

وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ : أي عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا .

١٦ - الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَفْغَرُ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . هؤلاء الملتقون هم الذين يقولون :

ربنا إننا صدقنا بالذي أنزلته على رسولك محمد وسائر من سبقه من الرسل، فأغفر لنا ذنوبنا واحفظنا من عذاب النار. قال الحاكم : في الآية دلالة على أنه يجوز للداعي أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله، ثم يدعو، ويؤيده ما في الصحيحين من حديث أصحاب الغار (١٣٧) وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تقرير الباري تعالى عنهم .

١٧ - الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ .

الصَّابِرِينَ . على البأساء والضراء وحزن البأس .

وَالصَّادِقِينَ . في إيمانهم وأقوالهم ونياتهم .

وَالْقَاتِنِينَ . الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ الْخَاضِعِينَ لَهُ .

وَالْمُنْفِقِينَ . أموالهم في حقوق الله تعالى، وحقوق ذويهم، وفي أنواع البر التي ندبهم الله ورسوله إليها .
وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . أى هم يعيدون الله ويصلون بالليل، وفي آخر الليل يستغفرون الله تعالى .
وَالْأَسْحَارُ جمع سحر . وهو الهزيع الأخير من الليل قبل الفجر .

روى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتني فأطعك وهذا السحر فاغفر لى ، فنظرت فإذا هو ابن مسعود . وثبت في صحيح البخارى ومسلم وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفر لى فأغفر له ؟ » (١٣٨) .

وفي رواية لمسلم : « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟ » وفي رواية « حتى ينفجر الفجر » .

« ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بنى لا يكن الديك أحسن منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة في تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف الإلهية وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة، والرغبة وإفرة، مع هريه تعالى وتقدس من عباده .

قال السيوطى : فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات . وقال الرازى : واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان وفى كل العبودية » (١٣٩) .

لطيفة :

قال الزمخشري : الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها .

★ ★ ★

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

المفردات :

شهد الله أنه لا إله إلا هو : أى بيّن لعباده ذلك بالأدلة الواضحة، فكان ذلك منه شهادة، أى شهادة، أما شهادة الملائكة وأولى العلم فهى: إقرارهم بذلك .

قائماً بالقسط : أى قائماً بالعدل فى تدبير الكون .

التفسير :

١٨ - شهد الله أنه لا إله إلا هو . أى علم وأخبر، أو قال أو بين أنه لا معبود حقيقى سوى ذاته العلية .

وتطلق هذه الشهادة على ما أقامه القرآن من الأدلة على وحدانيته، كقوله تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء : ٢٢).

وقوله عز شأنه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . (الإخلاص : ١).

وقوله تعالى : فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . (محمد : ١٩).

وكما شهد الله بأنه لا إله إلا هو ، فقد شهد الملائكة الذين : لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦).

وكذلك أصحاب العلم والفكر السديد من الأنبياء والمرسلين ، ومن آمن بهم، وكل من فكّر فى آيات الله الكونية فآمن به . هؤلاء جميعاً ، شهدوا لله بالوحدانية ، حال كونه قائماً بالقسط والعدل فى تدبيره للكون، فبعدله قامت السموات والأرض .

....والعدل هنا هو : الحكمة فى التدبير ، الذى استقامت به أمور الكون.

لا إله إلا هو . كرره تأكيداً وليضيف إليه قوله : الْعَزِيزُ ، فلا يرام جنباه .

الْحَكِيمُ . لا يصدر عنه شئ إلا على وفق الاستقامة .

(وقال العارف الشعرائى فى كتاب « الجواهر والدرر » : سألت أخى أفضل الدين : لِمَ شهد الحق تعالى

لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال :

لينبه عباده على غناء عن توحيدهم له، وإنه هو الموجد نفسه بنفسه- فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر فى الأدلة كالبشر، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلى الإلهى ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها، فلذلك قُدموا فى الذكر على أولى العلم . وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فتناسب ذكرهم فى الوسط فاعلم ذلك « (١٤٠).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنْ يَكْفُرٍ شَائِتٍ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٩﴾
 فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
 ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
 بِالْعِبَادِ ۝٢٠﴾

المفردات :

بِقِيَّةٍ بَيْنَهُمْ : ظلماً قائماً فيهم، وحسداً موجوداً في بيئتهم .

إِنْ حَاجُّوكَ : أى جادلوك .

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ : أخلصت ذاتي ونفسي له تعالى .

وَالْأُمِّيِّينَ : المراد بهم، من لا يكتبون من مشركي العرب من غير الكتابيين لشيوخ الأمية فيهم .

التفسير :

١٩ - إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ الإسلام هنا معناه إخلاص الوجه لله تعالى، فاليهودية إسلام في مدتها والمسيحية إسلام في فقرتها والرسالة المحمدية إسلام بمعنى إخلاص الوجه لله والامتثال لطلاعته.

وتسمية أتباع الدين الإسلامي في العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزماني قال تعالى :

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا لِبِرَائِهِمْ هُوَ سَمَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (الحج : ٧٨).

وإذا تتبعنا المعنى اللغوي لكلمة إسلام والمعنى الشرعي لها خرجنا بالنتائج الآتية :

- إن الدين وإسلام الوجه لله، والتوحيد والإسلام كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً.

- إن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم هو إسلام الوجه لله، أو التوحيد أو التدين الصادق أو الإسلام. يقول ابن الأنباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ في المعنى اللغوي للإسلام: المسلم معناه المخلص لله في عباداته، من قولهم سلم الشيء لفلان خلس له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

والإسلام لا يشير إلى شخص معين، ولا إلى شعب معين ولا إلى إقليم معين، ولا يحُد بالبعثة المحمدية. فرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هي الإسلام بنص القرآن الكريم.

قال تعالى : مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (آل عمران: ٦٧).

ومن دعاء يوسف الصديق :

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف : ١٠١).

- وقال سيدنا موسى لقومه :

يَا قَوْمُ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ . إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (يونس : ٨٤).

وفى شأن عيسى يقول القرآن الكريم :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (آل عمران : ٥٢-٥٣).

معنى الآية :

إن الأمة المرضية عند الله هي الإسلام ، فلا يقبل من أحد دين غيره بعد رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أرسله الله مصداقاً لما سبقه من الرسل والكتب ومهيماً عليها يقر صحتها ويقوم عوجها وينسخ ما قبله من الأديان والشرائع.

وكما أن الإسلام هو دين هذه الأمة الذي رضيه لها، فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأمهم من قبل محمد، فهو دين الله دائماً في جميع الأزمان، لاشتغاله على توحيدته تعالى وتزجيده عن الصلابة والولد واحتوائه على أصول الشرائع المشتركة بينها .. أما الفروع، فإنها مختلفة باختلاف الأمم قال تعالى : لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا . (المائدة : ٤٨).

فإن ما يصلح منها لأمة لا يصلح لأمة أخرى.

« فالصيام مشروع في جميع الأديان، ولكن كلفه يختلف باختلاف الأمم. والميراث مشروع في جميع الشرائع، ولكن كلفه يختلف باختلاف الأمم. وهكذا الأمر بالنسبة لباقي الأحكام » (١٤١).

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَلْتُوا إِلَهُكُمُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنُبِيِّهِمْ . لقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أن يصدق بعضهم بعضاً وأن يؤمنوا بالنبي محمد عند ظهوره، وكان اليهود ييشرون بنبي سيظهر ويستفتحون به ويدعون الله أن ينصرهم بسببه.

ومن دعاء اليهود في حروبهم مع المشركين :

(اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان).

وكانوا يقولون لأعدائهم المشركين :

قد أظلم زمان بنى يخرج بتصديق ما قلنا ، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما ظهر الإسلام آمن بعضهم كعبد الله بن سلام ، وزيد بن سعدة من أحبار اليهود ، وكفر أكثرهم من بعد ما جاءهم العلم اليقيني بأنه الحق ، إذ جاء الإسلام ونبيه وفق أوصافه ونعوته فى كتبهم .

وما كان اختلافهم فيه - من بعد ما آتاهم العلم - إلا بغيا وحسداً .

قال تعالى : **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . (النساء : ٥٤)**

بَغْيًا بَيْنَهُمْ . أى حسدا كائنا بينهم ، وطلباً للرئاسة . وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع .

وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

المعنى :

ومن يجحد آيات الله الشاهدة بأن الإسلام هو الدين عند الله فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب ، فإنه سريع الحساب .

قال أبو السعود فى التفسير :

فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ قائم مقام جواب الشرط ، علة له . أى ومن يكفر بآياته تعالى فإن حسابه يأتى عن قريب ، أو يتم حسابه بسرعة فإن الله سريع الحساب .

وإظهار الجلالة لتربية الهابة وإدخال الروعة ، وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبهى دلالة على كمال شدة عقابهم (١٤٢) .

٢٠ - **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِ ...**

المعنى :

فإن جادلوك أهل الكتاب ، أو جميع الناس فى الدين بعد ما جاءهم العلم به ، وظهرت لهم براهيته ، فقل لهم أسلمت وجهى لله ، أى أخلصت ذاتى ونفسى له ومن آمن معى أخلصوا له أنفسهم كذلك .

وإطلاق الوجه على الذات كلها ، لأنه ترجمان النفس ، وعليه تظهر آثارها ، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته .

والمراد من الآية أن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب ذلك ليعلموا أنه ليس مستولاً عن انحرافهم وكفرهم ، وأن تبعة ذلك عليهم وحدهم ، وأنه سائر فى طريق عبادة الله وحده هو

وأتباعه ، دون أكرثات بضالهم لأن المحاجة والجدل معهم لا فائدة فيهما ، بعدما جاءهم العلم بأن ما عليه هو الحق .

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلْتُمْ ... أَيْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْأُمِّيِّينَ أَيْ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ وَهُمْ مُشْرِكُو الْعَرَبِ الَّذِينَ عَرَفُوا بِهَذَا الْوَصْفِ لَعَدَمِ مَعْرِفَةِ سُوَادِهِمُ الْأَعْظَمِ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، قُلْ لَهُمْ : هَلْ أَجْدَى مَعَكُمْ هَذَا وَاسَلْتُمْ مُتَّبِعِينَ لِي كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ . أَمْ أَنْتُمْ بَعْدَ عَلَى الْكُفْرِ .

قال الزمخشري : يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة ، فهل أسلتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ، ولم تبق من طرق البيان والكف طريقاً إلا سلكته : هل فهمتها؟ ومنه قول الله عز وعلا **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** . (المائدة: ٩١) بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر ، وهى هذا الاستفهام استقصار وتعمير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن النصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق . انتهى .

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا : أى خرجوا من الضلال فتنبهوا أنفسهم .

وَأَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم فما عليك إلا تبليغهم وقد فعلت ، فخلصت بذلك من التبعة . **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .** عليم بأحوالهم فلا تخفى عليه أعمالهم فيجزى من أسلم بإسلامه ، ويعاقب من أعرض على إعراضه . والجملة وعد ووعد قال ابن كثير : هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى : **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** . (الأعراف: ١٥٨) .

وقد أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عريهم وعجمهم ، كتابيهم وأميينهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك ، وروى البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : **«عُطِيتْ خَمْسًا لَمْ يَعْطُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي ، نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةُ ، وَأُرْسِلُ كُلَّ نَبِيٍّ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبِعَثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً»** (١٤٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ ﴾ وَأُولَئِكَ
الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَأْلَهُمُ النَّصِيرُ ٢٢ ﴾

المفردات :

المراد بالذين يكفرون بآيات الله هم اليهود خاصة .

بغير الحق : بغير شبهة لديهم .

القسط : العدل .

فبشرهم بعذاب أليم : البشارة والبشرى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه، واستعمالها في الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

حبطت أعمالهم : بطلت أعمالهم الحسنة، فضاع ثوابها .

التفسير :

٢١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

إن الذين ينكرون آيات الله فيكفرون بما يجب الإيمان به ، ويقتلون أنبياءهم بغير جريمة تقتضى القتل، ويقتلون الواعظين المذكرين الذين يأمرونهم بالعدل من صفوة الناس ، فأنذرهم يا محمد بعذاب شديد الإيلام، والمراد بهم اليهود ، فإنهم قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهى عن منكر فعله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام.

روى ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً ، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ... » (١٤٤).

ثم قال « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل فأمرؤا قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار » (١٤٥).

« و الصفات المذكورة فى الآية توحى بأن التهديد كان موجهاً لليهود فهذه سمتهم فى تاريخهم يعرفون بها حتى ذكرت، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهاً للتصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية

المسيح عليه السلام ، وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ما هم في كل زمان .. » (١٤٦).

٢٢ - أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

اسم الإشارة هنا مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامي أمرهم في الضلال وبعد منزلتهم في فظاعة الحال ، والموصول بما في حيز صلته خبره، أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة، الذين بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والחסنات ولم يبق لها أثر في الدارين (١٤٧) أما في الدنيا فيبطل المدح بالذم، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم ، وأما حيوط أعمالهم في الآخرة ، فيبطل الثواب بالعذاب الأليم.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . ينصرونهم من عذاب الله .

وقد دلت الآية على عظم حال الأمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله ، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه ، وإن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين ، وقد روى أبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١٤٨).

★ ★ ★

﴿الَّذِينَ الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات :

الم تر : استفهام لتعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - من حالهم .

أوتوا نصيبا من الكتاب : أعطوا حظا منه ، والكتاب : اسم جنس لكل كتاب سماوى ، والمقصود من النصيب التوراة والإنجيل .

وهم معرضون : وهم منصرفون .

أيام معدودات : يقصدون بها أيام عبادتهم للعجل .

وغيرهم : وأطعمهم .

ما كانوا يفترون : ما كانوا يكذبون من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات.

ووفيت كل نفس ما كسبت : وأعطيت كل نفس جزاء ما عملته من خير أو شر وافياً.

التفسير :

٢٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال :

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المدراس - مدرسة اليهود لدراسة التوراة - على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً ، فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فهلما إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأنزل الله الآية (١٤٨).

والخطاب فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ . لكل من تتأتى منه الرؤية أو للنبي - صلى الله عليه وسلم - ، والاستفهام للتعجب من حالهم ، أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ، كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها ، ومن المفسرين من ذكر أن الآية إشارة إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، لما زنا منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم ، فأبوا ، وقالوا : لا نجد فى كتابنا إلا التحميم (١٥٠) ، فجاء بالتوراة فوجد فيها الرجم ، فرجما ، ففضبوا فشنع عليهم بهذه الآية .

أخرج البخارى فى كتاب التفسير ، سورة آل عمران باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاؤا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - برجل منهم وامرأة قد زنيا . فقال لهم : « كيف تعملون بمن زنا منكم ؟ » قالوا نحممهما ونضريهما ، فقال لهم : « لا تجدون فى التوراة الرجم ؟ » فقالوا لا نجد فيها شيئاً ، فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبت ، فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم ، فقال : ما هذه الآية ؟ فلما رأوا ذلك قالوا هى آية الرجم فامر بهما فرجما قريباً من موضع الجنائز عند المسجد (١٥١)

قال بعض المفسرين . ومن ثمار هذه الآية ، أن من دعى إلى كتاب الله تعالى وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة ، وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول : سمعاً وطاعة ، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْبَاقُونَ . (النور ٥١) ، والمقصود من الفريق الذى تولى مثهم : علماءهم ، فهم الذين كانوا يديرون النقاش والكلام مع الرسول - صلى الله عليه وسلم .

٢٤ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

المعنى :

ذلك : إشارة إلى التولى والإعراض.

بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات : أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم . وبسبب هذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب

وخلاصة ذلك أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوا، انكالا على احتمال نسبهم بالأنبياء واعتماداً على مجرد الانتساب إلى هذا الدين ، واعتقاداً أن هذا كافٍ فى نجاتهم.

ومن استخف بوعيد الله تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمت الدين . ويتهاون فى أداء الطاعات ، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح الميئات . وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيراً من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش ، إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلاً . فإن فاتته ذلك عذب على قدر خطيئته ، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة . وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالنون فى النار مهما كانت أعمالهم . والقرآن قد ناطل أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفاته أهله ، وبالععمل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن . كما جعل المنفرة لمن لم تحط به خطيئته . أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يوماً ، وهى مدة عبادة اليهود العجل .

وقال الشيخ محمد عبده : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شيء اهـ . والسباق يفيد اعتقاد اليهود بأنهم لا يعذبون إلا مدة قليلة ، لزمعهم أنهم أبناء الله وأحبائه ، وخدعهم فى دينهم ما كانوا يفترونه من هذا الزعم الذى لا نصيب له من الصحة .

٢٥ - فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ : أى كيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا شك فى مجيئه .

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعد لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلص منه .

وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعليلاتهم وأباطيلهم تلمح بما لا يكون .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . أى ورات كل نفس ما عملت من خير أو شر محضراً لا نقص فيه ثم جوزيت عليه وكان منشأ سعادتها أو شقاءها ، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص ، إذ لا امتياز لشعب على شعب وإن تسمى بعضهم بشعب الله ، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله فإن

الجزء إنما يكون من جنس العمل في ذلك اليوم : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . (آل عمران : ٢٠) .

★ ★ ★

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

اللهم

: أصله يا الله ، فحذف (يا) وعوض عنها الميم وشددت لكونها عوض عن حرفين ،

ولا تجمع الميم مع (يا) إلا شذوذاً كقول الشاعر :

إنى إذا ما حدث ألتأ أقول يا اللهم يا اللهم

مالك الملك

: الملك - بضم الميم وفتحها وكسرهما - معناه الاحتواء . أى الحيازة مع القدرة على

التصرف . مأخوذ من : ملك الشيء يملكه : احتواه قادراً على حرية التصرف فيه .

وهو بهذا المعنى يطلق على : ملك الله وملك غيره ، ومعنى : مالك الملك : صاحب

السلطان والتصرف المطلق .

بيدك الخير

: بقدرتك منح الخير ومنعه .

تولج الليل في النهار : الولوج الدخول ، والإيلاج : الإدخال ، ويراد به زيادة زمان الليل في النهار ، فيطول الليل

ويقصر النهار وتولج النهار في الليل معنى عكس المعنى السابق .

وتخرج الحي من الميت : أى وتكون الأحياء من المواد الأولية التى لا حياة فيها : كالهواء والماء والغذاء والتراب .

وتخرج الميت من الحي : وتجعل الحي يموت ، فتخرجه بذلك من جنس الأحياء .

سبب النزول :

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما فتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة وعد

أمته ملك فارس والروم ، قتال المناهقون واليهود : هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من

ذلك . ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ هاتنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول .

سياق الآية :

بينت الآيات السابقة ان الدين عند الله الإسلام وناقشت أهل الكتاب فى إحقاقهم عن الإيمان بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بنفيا وحسدا مع علمهم بصدقه ومعرفتهم بأمارات نبوته، ثم بينت هذه الآية أن الملك لله يؤتية من يشاء من عباده .

٢٦ - قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ .

أى أنت يا ربنا سبحانه لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، هانت تؤتى الملك من تشاء من عبادك إما تبعا للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال بحسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع، كما نزع من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم.

وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ : هى الدنيا والآخرة ، بأسباب العزة والكرامة.

وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ : أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة.

يَبْدَأُ الْخَيْرُ : أى بقدرتك الخير كله لا بقدره أحد غيرك تتصرف فيه قبضاً وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك.

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : فقدرتك لا حدود لها ، وعطاؤك غير منقوص ، وأنت قادر على أن تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء .

من كتب التفسير :

١ - جاء فى تفسير ابن السعدي :

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما دخل الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها الماويل فوجهوا سلمان إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكان مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون وقال: أضاعت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاعت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاعت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن امتى ظاهرة على كلها فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون بمنىكم ويمدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها افتتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت هذه الآية : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ... (١٥٧)

٢ - جاء في التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر:

الملك - بضم الميم - في حق الله تعالى هو - على ما قاله المحققون - صفة قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بما سواه ، تعلق التصرف التام ، المقتضى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولا يصح إطلاقه- بهذا المعنى - على غير الله تعالى .

وهو أخص من الملك - بكسر الميم - فإنه صفة تقتضى الاستيلاء والتسلط على شئ بطريق مشروع، وتجعله صاحب الحق في التصرف فيه ، من غير نظر إلى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولهذا يصح إطلاقه على غير الله تعالى .

٣ - جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تعليقاً في

الهامش على قوله تعالى : تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ . هو ما يأتي :

« دورة الحياة والموت هي معجزة الكون وسر الحياة نفسها والسمات الرئيسية في هذه الدورة أن الماء وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين والأملاح غير العضوية في التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتيريا إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في النبات والحيوان ، أما في الشق الثاني من هذه الدورة فتعود هذه المواد إلى عالم الموت في صورة نفايات الأحياء ونواتج أيضها وتفسها .

ثم في صورة أجسامها كلها عندما تموت وتستسلم لعوامل التحلل البكتيري والكيمائي التي تحيلها إلى مواد غير عضوية بسيطة مهية للدخول في دورة جديدة من دورات الحياة ، وهكذا في كل لحظة من الزمان يخرج الخالق القدير حياة من الموت وموتاً من الحياة، وهذه الدورة المتكررة لا تتم إلا في وجود كائن أودعه الله سر الحياة كبذرة النبات مثلاً.

والآية الكريمة تذكر أولى الأبواب بالمعجزة الأولى وهي خلق الحياة من مادة الأرض - لإخراج الميت من الحي وهذا هو الإعجاز بعينه .

٢٧ - تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزِّقُ مِنَ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يطيل الله الليل في بعض فصول السنة . بإضافة جزء من النهار إليه ، ويطيل النهار في بعض فصولها ، بزيادة جزء من زمان الليل فيه ، ويخرج الحي من المواد الأولية الميتة التي خلق منها ، كالماء والتراب وبعض عناصر الهواء، ويخرج الميت من الحي بأن يقدده أسباب الحياة فيموت ويعود إلى أصله ، ويرزق من يشاء رزقه بغير حساب أى رزقاً واسعاً بغير تضييق عليه.

وكما يرزق من يشاء بغير حساب ، يضيئه على من يشاء لحكمة تقتضيه؛ ولم يذكر ذلك في الآية لعلمه من أمثاله فيما سبق ، ولأن من يملك الإعطاء يملك المنع.

ويرى بعض المفسرين : أن إخراج الحى من الميت ، معناه إخراج الجنين من النطفة ، أو الفرح من البيضة ، وإن إخراج الميت من الحى ، معناه إخراج النطفة من الحيوان أو البيضة من الدجاجة .

ولكن هذا الرأى لا يقبل إلا على سبيل التشبيه ، بجعل النطفة - أو البيضة بجانب الحيوان الذى يتكون منها- كالشيء الميت ، لعظم الفرق بينهما ، أما على الحقيقة فلا ، لأن النطفة مليئة بالكائنات الحية المتحركة ، كما يتبين ذلك تحت آلة التكبير - المجهر ، ومثلها البيضة .

وكذا القول بأن المراد من الميت الذى يخرج من الحى : النطفة أو البيضة التى يخرجها الله من الحيوان ، لا يصح أن يقبل إلا على سبيل المجاز ، لما قدمناه .

وقال الحسن فى معنى الآية : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، فعلم الحياة والموت على المجاز ، وروى هذا التفسير عن أئمة أهل البيت .

ويمكن تفسيرها مجازاً بمعنى : يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والذكى من البليد والبليد من الذكى ، وإلى غير ذلك قال القفال ، والكلمة محتملة لكل ما ذكر ، أما الكفر والإيمان فقد قال تعالى :

أَوْ مَن كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . (الأنعام : ١٢٢) .

يريد كان كافرًا فهديناه فجعل الموت كفرًا والحياة إيمانًا ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعلها قبل ذلك ميتة فقال :

يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (الروم : ٥٠) .

وقال سبحانه : فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدَنٍ مِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (هاطر : ٩) .

وقال عز شانه : كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنَّا أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (البقرة : ٢٨) .

★ ★ ★

﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢٨)

المفردات :

: أصدقاء ، أو أنصار .

أولياء

من دون المؤمنين : متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين .

فليس من الله في شيء : فليس من دين الله في شيء .

إلا أن تتقوا منهم تقاة : إلا لتقوا أنفسكم وتحفظوها مما يتقى ويحذر منهم .

المصير : المرجع .

سبب النزول :

روى عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبي الحقيق ، وقيس بن زيد والكل من اليهود - يبايئون نفرا من الأنصار ليقتلهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر :

اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مبايعتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فابى أولئك النفر إلا مبايعتهم وملازمتهم ، فانزل الله هذه الآية .

التفسير :

٢٨ - لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ...

تقرر الآية أن موالاة الكافر خطر على من والا، وأنها لا تكون إلا عند الضرورة ، لاتقاء ضرر يكون من ناحيته ، على ألا تبلغ الموالاة درجة المباينة بخفايا المؤمنين .

والموالاة تطلق لغة على الحب والصداقة والمباينة بالأسرار ، وتطلق على النصرة وكلا المعنيين تصح إرادته ، ولهذا لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين ، بأى معنى من معانى الموالاة ، ومن يفعل ذلك فليس من دين الله في شيء وقد يذكر ذلك صريحاً في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة: ٥١).

وقد تكرر النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين في عديد من آى القرآن لخطورتها على كياناتهم فهم دائماً يتربصون بهم الدوائر ، ويبغونهم الفتنة ، وفى المسلمين سماعون لهم ، وهم المناقون وضعايف النفوس .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ... (المتحنة : ١).

وقال عز شانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (النساء : ١٤٤).

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاتهم حتى يأمنوا شرهم ، عليهم أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين ، لا يتجاوزونهم إلى الكافرين لغرض من الأغراض ، إلا أن يتقوا أو يحفظوا أنفسهم من ضرر من شأنه أن

يتقى ويحذر. فإذا اضطُر المسلمون لمولاتهم دهاغاً عن الوطن، أو المال أو العرض، فلهم ذلك في حدود الضرورة.

وأجاز المحققون من العلماء: الاستعانة بالكفار، بشرط الحاجة والوثوق .. أما بدونها فلا تجوز .

واستدل لذلك، بأن النبي - صلى الله عليه وسلم -، استعان بيهود بنى قينقاع، ورضخ لهم ^(١٥٢) واستعان بصقوان بن أمية في هوازن.

على أن بعضهم ذكر أن الاستعانة المنهى عنها، هي استعانة الدليل بالعزیز، أما غيرها فلا.

جاء في تفسير القاسمي :

واعلم أن الموالاة التي هي المباينة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار لا تجوز، فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباينة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم في الدين، وفيما فيه تعظيم لهم.

فإن قيل في سبب نزول الآية : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - منع عبادة بن الصامت من الاستعانة باليهود على قريش ^(١٥٤) وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش، وفي هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم.

وقد ذكر الراضى أنه يجوز الاستعانة بالفاسق على حرب المبتلين، قال : وقد حالف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن تقضوه يوم الأحزاب، وحده - صلى الله عليه وسلم - الحلف بينه وبين خزاعة. قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آباءنا عليهم السلام، وقد استعان على عليه السلام بقتلة عثمان. ولعل الجواب والله أعلم أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها، ويحمل على هذا استعانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - باليهود، وممنوعة مع عدم الحاجة أو خشية مضرة منهم، وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . حال . أى متجاوزين المؤمنين إليهم، استقلالاً أو اشتراكاً، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ . أى ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء تقع عليه اسم الولاية . يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً. وهذا أمر معقول، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ^(١٥٥).

إِلَّا أَنْ تَقُتْلُوا مِنْهُمْ تَقَاتٌ أَى تخافوا منهم محذورا، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه، روى البخارى في كتاب الأدب، باب المداراة مع الناس . عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال: «إننا لنكشر» ^(١٥٦) في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». ^(١٥٧).

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ : أى ذاته المقدسة فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتأهى المنهى فى القبح. وفى إضافة تحذيرهم إلى نفسه وإلى ذاته العلية، إيدان ببلوغ المنهى عنه منتهى الخطورة.

★ ★ ★

﴿قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

المفردات :

محضراً : يحضره ملائكة الله فى الصحف .

أمدًا بعيداً : غاية أو مسافة بعيدة .

التفسير :

٢٩ - قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هذه الآية واضحة الصلة بما قبلها ، وهى توحى بأن صلات متعددة من القرابة أو التجارة أو غيرهما ، كانت تربط بين معسكر المسلمين ومعسكر الكافرين .

وتبين هذه الآية أن الله مطلع وشاهد لما يخفيه الإنسان وما يظهره، وقد شمل علم الله كل ما فى السموات والأرض، فقد أحاط بكل شيء علماً، وهو على كل شيء قدير .

والآية فيها تحذير واضح من موالة المؤمنين للكافرين ، وتهديد بأن الله عالم بخفايا النفوس، ومطلع على الظاهر والباطن .

٣٠ - يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . . . تعرض الآية مشهداً من مشاهد القيامة ، وهو يوم الحساب والجزاء، وفى هذا اليوم يقف الإنسان وجهاً لوجه أمام عمله الذى قدمه فى الدنيا ، فالخير شاخص أمام صاحبه، يفرح به وتشتد سعادته . .

وتجد كل نفس أيضاً : ما عملته من سوء وشر فى الدنيا محضراً يوم القيامة فى صحائفها لتساء به، وتتمنى حين تراه لو أن بينها وبينه مسافة بعيدة بعد المشرقين .

وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . يخوفكم الله من نفسه إن خالفتم ما كلفكم به، ومن رافة الله ورحمته هذا التحذير وهذا التذكير ، وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالمعباد .

★ ★ ★

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾
قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

التفسير :

قال القرطبي : روى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إننا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت في نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : « إنما نعظم المسيح حباً لله تعالى وتعظيماً له » فأنزل الله الآية ردا عليهم . رواه محمد بن إسحاق.

والمعروف أن سبب النزول قد يتعدد لنازل واحد من القرآن الكريم ، والعبرة مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إن تعاليم الإسلام واضحة، وأوامره واجبة الاتباع وحب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هياماً بالوجدان، ولكنه التزام بأحكام الشرع ، واتباع لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل ما جاء به قال - صلى الله عليه وسلم - « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » (١٥٨) فقد أتم الله الدين ، وأكمل على المسلمين نعمة الإسلام ، ووجب عليهم الاتباع دون الابتداع ، فمن ادعى أن عقله أو رأيه أو حكمه أصوب من حكم الله ، فقد احتكم إلى أحكام الجاهلية ، وخالف منهج القرآن وهدى نبي الإسلام .

روى البخارى في صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١٥٩).

وروى البخارى في صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (١٦٠).

وجاء في تفسير ابن كثير :

هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله - وليس على الطريقة المحمدية - بأنه كاذب في دعواه، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله.

إن العمل بشرع الله يورث المسلم إخلاصاً وحبا لله ولرسوله ، وأفضل درجات العبادة أن يعبد المؤمن ربه حبا له ، وشوقاً إلى لقاءه ورغبة في مرضاته ، وإذا داوم العبد على طاعة الله أحبه الله وغفر ذنبه وهداه إلى الطريق القويم .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : « إني أحب فلاناً فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى في السماء فيقول : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول في الأرض . » (١١١)

وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال : فيبغضونه . ثم توضع له البغضاء في الأرض .

٣٢ - قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إن حقيقة الإسلام هي طاعة الله والرسول في جميع الأوامر والنواهي ، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فقد أغلق باب الهدى وأعرض عن الإيمان .

والإعراض عن الإيمان ، والنفور من شرع الله يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

« أما لو كان توليه وإعراضه مجرد ترك لما أمر به ، اتباعاً لشهوته - مع اعتقاده أن ذلك حرام ، وأنه مذنب فيما يفعل ، ومقتصر على حقه تعالى - فإن الكفر بالنسبة له كفر للنعمة وعدم قيام بشكرها . والله لا يحب من عصاه بكفر أو فجور » (١١٢) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٣) ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

المضردات :

اصطفى :

اختار ، والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء .

وآل إبراهيم وآل عمران : المراد بالآل فيهما من كان من ذريتهما من الأنبياء .

ذرية :

الذرية هي أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفاً في الصغار والكبار ، وللواحد والكثير .

التفسير :

٣٣ - إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أي أن الله اختار هؤلاء ، وجعلهم صفوة العالمين ، بجعل النبوة والرسالة فيهم .

فأولهم : آدم . خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما في ذلك من الحكمة .

وثانيهم نوح : وهو الأب الثاني للبشر ، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلاسل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله في الفلك العظيم ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت في البلاد وفشت فيهم الوثنية . فظهر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه نبيا مرسلًا ، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون ، من ذريته وآله كإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب والأسباط وكان من أرفع أولاده قدرا ، وأنبههم ذكرا آل عمران وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران ، وينتهي نسبها إلى يعقوب عليه السلام ، وختمت النبوة بولد إسماعيل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - المبعوث رحمة للعالمين . وقد دعا إبراهيم ربه أن يبارك له في ذريته ، وأن يرسل فيهم رسولا يعلمهم هدى السماء ، ويرشدهم إلى الخير والمعروف ، ومن دعا إبراهيم ربنا وأبعث فيهم رسولا منهم ياتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم . (البقرة : ١٢٩) .

ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم » . (١٦٣) .

على العالمين . أى على زمانهم ، أى اصطفى كل واحد منهم على عالمي زمانه .

وقد فضلهم الله بما آتاهم من النبوة والكتاب في معظمهم ، وفى مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر ، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها ، وإمدادها في مصلاها برزق الله في غير أوانه ، واختيارها لتكون اما لعيسى : الذى شاء له مولده أن يكون بغير أب .

٣٤ - ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى ذرية يشبه بعضها بعضا في الخير والقضيلة التي كانت سببا في اصطقاتهم ، وهذه الذرية هي التي ذكرها الله في سياق الكلام عن إبراهيم بقوله : وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا نَفَضْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمَنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) (الأنعام : ٨٤ - ٨٧) .

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦ ﴾

المفردات :

نذرت لك ما في بطني : النذر ما يوجه الإنسان على نفسه.

محراً : خالصاً، أى أوجبت على نفسي أن يكون ما في بطني لخدمة بيتك خالصاً.

أعنيها بك : أجبرها بك ، وأصل العوذ الاتجاء إلى سواك والتعلق به، يقال عاذ بفلان إذا استجار به.

الرجيم : المرجوم، المطرود من الخير.

التفسير :

٣٥ - إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ امرأة عمران هي حنة بنت فاقوذا ، كما رواه إسحاق بن بشر عن ابن عباس والحاكم عن أبي هريرة .. وكانت هذه السيدة عاقراً لا تلد ، وكانوا أهل بيت من الله بمكان فتحركت نفسها يوماً لأن تكون أما فلاذت بربها ودعته متضرعة أن يهب لها ولداً، ونذرت إن حقق الله أميتها ، أن تجعل ولدها محرراً . أى خالصاً للعبادة وخدمة بيت المقدس عتيقاً من سوى ذلك ، فلا تشغله بشيء من أمورها .

فَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى تقبل منى قريانى وما جعلت لك خالصاً، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا .

(قال أبو منصور في « التاويلات » : جعلت ما في بطنها لله خالصاً لم تطلب منه الاستئناس به ولا ما يطمع الناس فيه من أولادهم ، وذلك من الصفوة التي ذكر الله عز وجل، وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولداً أن يطلب للوجه الذي طلبت امرأة عمران وذكرها حيث قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً . (آل عمران : ٣٨).

وما سال إبراهيم : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . (الصافات: ١٠٠)

وقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (الفرقان : ٧٤) . هكذا الواجب أن يطلب الولد ، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستتصار والاستعانة بأمر المعاش بهم) - انتهى .

٣٦ - فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَي فلما وضعتها أنثى على خلاف ما كانت تأمله - قالت متجسرة حزينة على فوات رجائها .

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . قالت ذلك وهي لا تعلم بمكانة ما وضعت ، والله وحده هو الذى يعلم بشأنها ، وما علق بها من عظام الأمور ودقائق الأسرار، وقالت في تحسرها : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى . فى خدمة بيت المقدس ، فإنها مقصورة على العلمان دون الإناث فكانها تقول : ماذا أصنع فى نذرى يارب؟ .

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس، وإن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدائنه فلتكن من العابدات القانتات ، ومعنى مريم : العابدة .

وقد أطلقت عليها اسم مريم فى اليوم الذى ولدت فيه وهى السنة فى شريعتنا أيضاً .

فقد أخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ولد لى ولد سميت باسم أبى إبراهيم » . (١٦١) .

وأخرج الشيخان أيضاً أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حمل إليه وليد فحنكه وسماه عبد الله .

وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

وإنى أجبرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل بنى آدم يعمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » (١٦٥) . والمراد أن الشيطان يطعم فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمها ببركة هذه الاستعاذة .

★ ★ ★

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لِلْهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٣٧)

المفردات:

فَقَبَّلَهَا : أى قبل مريم - فى النذر - مكان الذكر .

أَنْبَتَهَا : أى رباها تربية طيبة .

- وكفلها زكريا** : وجعل زكريا كافلاً وضامناً لها، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام.
- المحارب** : المحارب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح «هو مقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلام ذي درج قليلة يكون من فيه محجوباً عن من في المعبد.
- أنتى لك هذا** : أى من أين هذا، والأيام أيام قحط وجذب.
- بغير حساب** : أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته.

التفسير:

- ٣٧ - فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت . :
- وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . أى رباها تربية حسنة كما يربى الثبات فى الأرض ونماها صلاحاً وعفة وسداد رأى.
- وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . أى جعل زكريا كافلاً لها، لتقتبس منه العلوم والمعارف ولتمضى على سنته من الصلاح، وكان زوج اختها كما ورد فى الصحيح «فإذا بيع يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» ويحيى ابن زكريا عليهما السلام.
- وهكذا تهيأت لها البيئة الصالحة كما تهيأت لها الوراثة الصالحة فكانت سيدة نساء العالمين.
- كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا . وجد ألواناً من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان.
- قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا . أى من أين لك هذا والأيام أيام جذب وقحط، أو من أين لك هذا ولا كافل لك سوى؟
- قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . الله يرزق الناس جميعاً بتسخير بعضهم لبعض، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله، وليس فى هذا دلالة أنه من خوارق العادات.
- ويحتمل أن تكون جملة : إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . من كلام الله تعالى وليس من كلامها، سيقت: للإيدان بأنه لا يتبغى أن تعجب من هذا الرزق، فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب.
- والرزق قد يكون حسبياً وقد يكون معنوياً يشمل الهدى والتقى والبركة والتوفيق لمصالح الأعمال. وفى الحديث الشريف... « ما رزق المرء بعد تقوى الله خيراً من المرأة الصالحة ».

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٢٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝٣٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِيِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝٣١﴾

المفردات :

هناك : أى في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم في المحراب أو في ذلك الوقت،

وهناك يشار به إلى المكان والزمان.

الذرية : الولد، وتقع على الواحد والكثير.

طيبة : الطيب: ما تستطاب أفعاله وأخلاقه.

سميع الدعاء : أى مجيبه.

مصدقاً بكلمة من الله : كلمة الله عيسى عليه السلام، حيث جاء بقوله تعالى (كن) من غير توسط أب.

وحصوراً : الحصور الذي لا يباشر النساء، أو هو الذي يمنع نفسه من المعاصي.

أنى يكون : كيف يحصل لى.

بلغنى الكبر : أدركتني الشيخوخة.

وامراتي عاقر : عقيم لا تلد.

آية : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل.

ألا تكلم الناس : أى لا تقدر على كلامهم من غير آفة.

إلا رمزا : الإشارة بيد أو رأس أو غيرها.

بالعشى : الوقت من الزوال إلى الغروب، وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل.

الإبكار : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

التفسير:

٣٨ - هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء .

أو فى تلك الحالة التى شاهدها، قال زكريا فى نفسه إن الذى جاء مريم بهذا الرزق لقادر على أن يصلح لى زوجتى ويرزقنى منها ذرية، فعند ذلك، قام فى المحراب، وابتهل إلى الله تعالى قائلاً:
«رب هب لى من عندك ذرية صالحة مباركة، إنك كثير الإجابة لمن يدعوك».

قال علماؤنا: وهفت النبوة فى كتاب الله مرتين تتعلم من الصالحين، الأولى: عندما وقف موسى أمام الخضر يقول له : هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنَّمَا عَلَّمْتُ رَسُولًا . (الكهف: ٦٦). والثانية: عندما وقف زكريا أمام مريم وسألها: أَأَنْتِ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران: ٣٧). فتعلم زكريا من مريم التبتل إلى الله وإخلاص الدعاء، والتعلم هنا من مشاهدة الحال، أكثر من سماع الأقوال.

٣٩ - فَجَاءَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ .

ناداه جبريل عليه السلام وهو من جنس الملائكة كما تقول فلان ركب السفن وهو إنما ركب سفينة واحدة، ويرى ابن جرير وغيره أن المراد جماعة من الملائكة، إذ لا ضرورة تدعو إلى التاويل وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد .

نادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المسجد، أن الله تعالى يبشرك بولد ذكر سماه الله يحيى، وقد أحياء الله من أبوين كبيرين وحملت البشارة طائفة من البشريات فهو غلام ذكر.

وهو مؤمن يصدق بعيسى عليه السلام الذى سمي كلمة الله لأن الله خلقه بقوله (كن) فكان، ومعنى تصديقه به إيمانه بأنه رسول الله، وهو بذلك يكون أول من آمن به، ويحيى أكبر من عيسى . ومن صفات يحيى أنه سيكون سيّدا، والسيد من يسود قومه، ثم أطلق على كل فائق فى الدين والدنيا، كما قال بعض المحققين . ويمكن أن يجتمع فيه الأمران: الرئاسة فى قومه، والتفوق فى الدين فإنه نبي الله، ومن الصالحين .

ومن صفات يحيى أيضاً أنه حصور .. وفسره ابن عباس، بأنه الذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك، ولعل هذا لأن انهماكه فى العبادة شغله عنهن .

وفسر الحصور بعض المفسرين: بأنه المبالغ فى حصر النفس وحبسها عن المعاصى والشهوات .

ومن صفات يحيى التى بشر بها والده زكريا .

أنه سيكون نبيا من الصالحين .

أى سيوحى إليه إذا بلغ سن النبوة، وسيكون فى أعلى مراتب الصلاح .

وإذا أسند الفعل إلى الملائكة جاز تذكره بتأويل الجمع كقوله تعالى : **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ**
بَابٍ . (الرعد: ٢٣) . وجاز ثانيه على تأويل الجماعة مثل قوله تعالى:

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ . والملائكة لا توصف بالذكورة ولا بالأنوثة، فهم عباد مكرمون
لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٤٠ - قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وأمرأتى عاقراً قال كذلك الله يفعل ما يشاء . لما بشرته
الملائكة بذلك، وتحقق من البشارة، تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع، فقد كان عمره (١٢٠) سنة وعمر
زوجته ٩٨ سنة وهى عقيم لا تلد فى صباها فكيف تلد فى شيخوختها؟

قال الشيخ محمد عبيد :

إن ذكرى لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها،
والرازق لها عندها، هو من يرزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما
فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته فتطرق بهذا الدعاء فى حال غيبته، وإنما يكون الدعاء
مستجاباً إذا جرى به اللسان بتقنين القلب حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوزن بسماع دوائه واستجابة
دعائه سأل ربه عن كيفية الاستجابة وهى على غير السنة الكونية فأجابه بقوله:

قال كذلك الله يفعل ما يشاء : أى الله يفعل ما يشاء مثل ذلك من الأفعال الخارقة للعادة، الخارجة عن القياس.

٤١ - قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا . أى قال: رب اجعل لى علامة تدلنى
على الحمل، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور، وقيل ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها . قال الله: علامتك،
ألا تقدر على مكالمة الناس ثلاثة أيام متوالية من غير آفة.

وتقييد عدم الكلام بالناس، مؤذن بأنه كان غير محبوبس عن ذكر الله تعالى، وكان حديثه مع الناس فى
هذه المدة مقصورا على الإشارة باليد أو الرأس أو نحوهما وهذا معنى : **إِلَّا رَمْزًا** . وإنما جعلت آيته ذلك
لتخليص المدة لذكره تعالى شكراً على ما أنعم به عليه، وقيل: كانت عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد
مشاهدة الملائكة إياه.

وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا : أى ذكرنا كثيرا .

وَسَبِّحْ بِالنَّشِيِّ وَالْإِبْكَارِ : أى سبح الله ونزهه عما لا يليق به فى وقت العشى - من الزوال إلى الغروب -
وفى وقت الإبطار - من الفجر إلى الضحى .
والمراد من العشى والإبطار جميع الأوقات، والذكر: يتناول ما كان باللسان والقلب.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيئُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمُ أَنْهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المفردات :

إن الله اصطفاك : قبلك واختارك لخدمة بيت المقدس وكان ذلك خاصا بالرجال .
وطهرتك : من الأدناس، أو طهرتك بالإيمان عن الكفر وبالطاعة عن العصيان .
واصطفاك على نساء العالمين : اختارك عليهن، بأن تكوني أما لعيسى من غير أب، - وجعلك وإياه آية للعالمين، ولم يكن ذلك لأحد من النساء .

اقتنى لربك

: داومى على طاعته .

واسجدى

: واخضعى .

واركعى مع الراكعين

: الركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة .

ياقون أقلامهم

: أى الأقلام التى يكتبون بها التوراة أو السهام والأزلام التى يضربون بها القرعة ويقامرون بها .

يختصمون

: يتنازعون فى كفالتها .

التفسير :

٤٢ - وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . الملائكة هنا يمكن أن تطلق على جبريل بدليل قوله تعالى فى سورة مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . (مريم: ١٧) .

ويجوز أن يكونوا جماعة من الملائكة قالت لمريم:

يا مريم، إن الله اختارك لخدمة بيته، ولم يكن يخدمه قبلك إلا الرجال، وطهرتك من الأدناس حسية كانت أو خلقية أو اعتقادية، وبرأك من العيوب واختصك بولادة نبي دون أن يمسك رجل، فكنت فريدة فى ذلك بين نساء العالمين لطهرتك وفضلك . أو فضلك على نساء أهل زمانك، كما فضل آسية امرأة فرعون على نساء أهل زمانها، وفضل الله خديجة زوج النبي على نساء أهل زمانها، وفضل الله فاطمة بنت محمد على نساء أهل زمانها، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف .

٤٣ - يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . وقالت الملائكة لمریم :

داومی علی طاعة ربك واخضعی له ، وصلى مع المصلين ، وقد أمرها الله بذلك حتى لا يحدث لها فتور أو غفلة . بعد ما علمت مكانتها عند الله تعالى .

٤٤ - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . أى هذه أخبار قصصناها عليك من أخبار مريم وزكريا ، لم تشهدا أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأها فى كتاب ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك ، والزاماً للمعاندين الجاحدين .

وصدق الله العظيم وَمَا كُنْتُمْ تُقَالُونَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِذَا لَرَبِّكَ إِذَا لَرَبِّكَ الْمُطِيعُونَ . (العنكبوت : ٤٨) .

وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْفُلُونَ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى وما كنت يا محمد معاني لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على وجه القرعة : وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . بسببها تنافسا فى كفالتها مع زوج خالتها زكريا ، فكان زكريا يريدها ، لأن خالتها معه ، ولأنه كان رئيس الأخبار ، ويرى أنه أحق بها لذلك . وكان كل واحد من القراء يريدها لأنها ابنة علمهم ، فاقترحوا حلا لهذه المشكلة أن يقترعوا :

وطريقة الاقتراع لم يرد بها خبر صحيح ، وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم ، فأبهم ثبت فى جريه الماء فهو كافلها ، فالتقوا أقلامهم ، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت (١٦٦) .

وأيا كانت كيفية القرعة التى اتفقوا عليها ، فإن هذه القرعة كانت سبيلا إلى فوز زكريا عليه السلام بكفالة مريم .

وفى هذه الآية دليل على أن القرعة سبيل مشروع لتمييز الحقوق . والاستهام (١٦٧) ورد فى القرآن فى موضعين ، هذا الموضع وقوله تعالى : فَسَاهُمْ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . (الصافات : ١٤١) . وروى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأبهم خرج سهمها سافرت معه (١٦٨)

وإنباء القرآن بما وقع فى كفالة مريم من نزاع وخصام ولجوء المتنازعين إلى القرعة ، دليل على نبوته - صلى الله عليه وسلم - ، لأن ذلك لا يعلم إلا عن طريق الوحى .

قال تعالى :

وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يَكْفُلُونَ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتُمْ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى ما كنت عندهم فى الحالين ، حتى تعلم أمرهم . وإنما أعلمك الله بوحيه .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥ ﴾ وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٤٧ ﴾

المضردات :

: التبشير، الإخبار بالبشارة وهي الخبر السار، وأطلق عليه ذلك لظهور أثره على البشرية.

يبشرك

: لفظ معرب وأصله مشيحا، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية.

المسيح

: صاحب جاه وكرامة.

وجيها

: المهدي هنا فراهش الطفل الرضيع.

المهدي

: من جاوز الثلاثين إلى الأربعين، وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة.

الكهل

والكهل من خطه الشيب في جلال ووقار، وهو بين حالي الغلومة والشيوخوخة، ومنه اكتهلت الروضة إذا عمها النوار.

ولم يمسنني بشر : المس هنا، كناية عن الجماع.

تمهيد :

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بذكر قصة عيسى وقد ذكر هنا طرْفًا من القصة، وفي سورة مريم نجد جانبًا من القصة يناسب جو السورة ويؤكد ما فيها، وهنا نجد جانبًا آخر، مما يؤكد أن القصص في القرآن يأتي لعدة أغراض منها.

١ - بيان قدرة الله تعالى.

٢ - تأكيد ما تهدف إليه الآيات السابقة على القصة.

٣ - تحذير الكفار والطفلة من مصارع السابقين.

٤ - تثبيت المؤمنين عن طريق استلھام مضمون القصة ومحتواها.

التفسير :

٤٥ - إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.

المعنى :

اذكر يا محمد، حين قالت الملائكة لريم: يا مريم، إن الله يخبرك بخبر يسرك، هو: أنه سيمن عليك بفلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم ذى جاه وشرف فى الدنيا بما يظهره الله على يديه من المعجزات، وبما اتصف به من الصلاح والتقوى، وذى جاء فى الآخرة بظهور صدقه وعلو درجته ومن المقربين إلى الله والناس، المحبوبين لديهم.

ويلحق بالآية ما يأتى:

١ - المراد من الملائكة هنا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى فى سورة مريم فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم.

٢ - إطلاق لفظ كلمة على عيسى عليه السلام، لأنه خلق بغير أب بمقتضى كلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) وكما قال سبحانه إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران : ٥٩). وبما أن كُنْ كلمة، فلذا سمى (كلمة).

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شئ خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد فى تكوينه، وحمل أمه به، ما جعله الله سببا للحمل فى العادة، وهو تلقيح ماء الرجل للمرأة، اضيف إلى الله واطلقت الكلمة على هذا المكون إيدانا بذلك، بخلاف الأشياء فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية.

٣ - المسيح لقب لعيسى عليه السلام، وهو من الألقاب ذات الشرف، كالفارق لعمر، وهو لقب عبرى ومعناه القائم على عبادة الله، ومع كونه لقبًا، فقد صرحت الآية بأنه اسم له والألقاب إذا اشتهرت صارت أسماء.

٤ - قال القاسمى :

اسم الوليد الذى يميزه لقبًا الْمَسِيحُ وعلمًا عِيسَىٰ معرب يسوع ، ويسوع بالسين المهمله كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها يشوع بالمعجمة، إلا أنها عبرانية، والمسيح بمعنى الممسوح أو المدهون. قال البقاعى، وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس فكان طاهرًا متاهلًا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركًا، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح.

٤٦ - وَيَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

ويشرتها الملائكة بأنه يكلم الناس طفلا فى المهد مثلما يكلمهم وهو رجل ذو جلال ووقار فكلامه فى كلتا الحالتين كلام رصين، مفيد نافع، ومن كلامه فى طفولته ما نطق به عقب ولادته : قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢٣) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٢٤) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا . (مريم: ٣٠ - ٣٢).

أما كلامه في كهولته فهو كلام الوحي والرسالة، والكهل من وخله الشيب، أو من جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين.

قال الأعرابي: يقال للغلام مراهق، ثم محتل ثم يقال تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع، ثم كهل. وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، قال الأزهرى، وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ . أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من التبيين والصديقين.

٤٧ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

تلقت مريم البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تتاجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان.

ومن أين لى ولد ولم يتصل بى بشر، والمولود لا يولد إلا من نكاح أو من سفاح وأنا لم أتزوج زوجاً حلالاً ولست من أهل البغى والسفاح.

وفى سورة مريم : قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢١) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيٌّ هَيْنَ وَنَجْعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢٠ - ٢١).

لقد بلغها جبريل أن الله يفعل ما يشاء ولو خالف القياس بدون معاناة ولا صعوبة، ولا يحتاج تحقيق المراد إلى قوله تعالى «كن» بل يكفى أن يريده الله فيتحقق فى الحين الذى اراده سبحانه فيه، والأمر بكن محمول - عند الأكثرين - على أنه تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقف، وأجاز بعضهم: أن يكون ذلك على الحقيقة، بأن يتعلق كلام الله النفسى: الذى هو بمعنى كن، على ما أراد الله تكوينه، فيكون ويحدث.

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (٤٨) ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِى الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤٩) ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٥٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (٥١)

المفردات :

الأكمه : من ولد أعمى.

الأبرص : من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره.

التفسير :

٤٨ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .

فى جملة ما بشرت به الملائكة مريم عن ولدها عيسى المنتظر أن الله تعالى يعلمه الكتابة بالقلم كما قاله ابن عباس وابن جريج أو يعلمه الخط والنظر فى الكتب والعلم الصحيح ويفقهه فى التوراة، ويعلمه أسرار أحكامها، وقد كان المسيح عليهما بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه.

وتعليم المسيح : الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل صالح لأن يكون موهبة إلهية، ولأن يكون بعلوم، روى أنه لما ترعرع أسلمته أمه إلى المعلم، ولكن لا ندرى ماذا علمه المعلم، ولعله علمه ما تضمنته الآية من الكتابة والتوراة، أما الإنجيل فقد أنزله الله عليه، والحكمة يراد بها وضع الشيء فى موضعه، أو حسن التصرف، وحسن الفهم والاستنباط، وهى أقرب إلى الموهبة، ويمكن أن تنمى بالجد والعمل، قال تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ سورة (البقرة : ٢٦٩).

٤٩ - وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .

لقد أرسل الله المسيح رسولا إلى بنى إسرائيل، وهذا يؤذن بخصوص بعثته إليهم، روى أن الوحي آتاه وهو ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء.

أَنِّي قَدْ جَنِّتُكُمْ بِأَيِّهِ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . أى ويجعله الله رسولا إلى بنى إسرائيل، يخبرهم: انى قد جنتكم ببرهان من ريكم على نبوتى هو أنى أنشئ لكم من الطين تمثالا كهية الطير وشكله، فأنفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرا بأمر الله الذى جعل ذلك معجزة وبرهانا على أنه أرسلنى إليكم، فإن مثل ذلك لا يقدر عليه البشر، لأنه مما اختص الله به، فإذا أمكن الله بعض عبادہ من ذلك، فذلك يعتبر تأييدا من الله له فى دعوى الرسالة.

وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ . وأشفى الأكمه الذى ولدته أمه أعمى فيصير بصيرا، وأشفى من يجلده برص، وهو بياض يخالف لون سائر الجلد. وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء فى عصر عيسى، وقد كان الطب متقدما جدا فى عهده، فأراهم الله المعجزة من جنس ما برعوا فيه، وقد جرت السنة أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر فى زمنه.

فأعطى موسى العصا واليد البيضاء، حيث كان المصريون قد برعوا فى السحر، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حنقه أطباء عصره، وأعطى محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن حيث كان العرب قد برعوا فى البيان واشتهروا بالفصاحة والبلاغة وهنون القول.

وتفيد الآية أن قدرة المسيح على شفاء المرضى كانت بإذن الله، وأن إحياء الموتى كان بإذن الله.

وفى كل معجزة من هذه المعجزات كان المسيح يلجأ إلى الله ويدعوه، فيحقق الله دعاءه، دون ممارسة الوسائل الطبية.

والأمر متعلق بإرادة الله وقدرته والله على كل شىء قدير.

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ . وأخبركم بما تاكلونه فى بيوتكم، ولم أشاهدهم، وما تدخرونه للمستقبل من مال وطعام لا سبيل لى إلى عمله.

والمراد: الإخبار بهذين النوعين بخصوصهما، وقيل المراد أنه يخبرهم بالمغيبات.

واقصر على ذكر هذين الأمرين لحضورهما لديهم فلا يبقى لهم شبهة، ولا شك أن صدقه فيما أخبر به شاهد على صدقه فى دعواه الرسالة إليهم.

إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . إن فى ذلك لحجة ودلالة على صدقى فى دعوى الرسالة إن كنتم مصدقين بآيات الله.

وقد ذكر في الإنجيل أنه عليه السلام رد بصر أعميين في كفر ناحوم، وأعمى في بيت صيدا، ورجل ولد أعمى في اورشليم، وشفى عشرة مصابين بالبرص في السامرة، وأبرأ أبرص في كفر ناحوم، وأقام ابن الأرملة من الموت في بلدة نايين، وأحيا ابنة جيروس في كفر ناحوم والعازر في بيت عينا.

٥٠ - وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلُلْكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . وَارْسَلْتُ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّلشَّرِيعَةِ التَّوْرَةِ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَى مُوسَى وَلَأَبَيِّحَ لَكُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ بَعْضَ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنْ قَبْلُ وَقَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى صَدَقِ رِسَالَتِي فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي.

(والآية تكشف عن طبيعة المسيحية الحقبة فالتوراة التي تنزلت على موسى - عليه السلام - وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) - هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح - عليه السلام -، وجاءت رسالته مصدقة لها مع تعديلات تتعلق، بإجلال ما حرم الله عليهم وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاصٍ وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم، ثم شاعت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أي دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على الشعائر والعبادات وحدها كذلك، فهذا لا يكون دينًا، فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراد الله للبشر، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية، وعن القيم الخلقية، وعن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهي، وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراد الله.

(وهذا ما حدث للمسيحية.. فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة، وعجزت المسيحية عن أن تكون نظامًا شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة، فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، وهي تصدق بالتوراة وتؤيدها، ولكن العداء بين اليهودية والمسيحية جعل كل فريق يرفض ما عند الفريق الآخر^(١٦٦)).

قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . (البقرة: ١٤٥).

٥١ - إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . يعلن المسيح حقيقة التوحيد والإيمان بالله وحده هذا الاعتقاد الذي قامت عليه جميع الرسالات السماوية، ويؤيد المسيح عليه السلام أن المعجزات التي جاءهم

بها لم يَجِئْ بها من عند نفسه، فما له قدرة عليها وهو بشر، إنما جاءهم من عند الله، ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله، ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء، - فما هو برب وإنما هو عبد، وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله ... ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .. وما عداه عوج وانحراف وما هو قطعاً بالدين.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا لِمَكَرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

فلما أحس : أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس، ويستعار للعلم بلا شبهة وفي الأساس: أحسست منه مكرًا، وأحسست منه بمكر، وما أحسنا منه خيرا، وهل تحس من فلان بخير.

والأنصار : جمع نصير، وهو من يؤيدك وينصرك.

الحواريون : جمع حواري، وهو الصفي والناصر. يقال: فلان حواري فلان، خاصته من أصحابه وناصريه.

التفسير :

٥٢ - فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ . فلما شعر عيسى من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء، فقد صبح أنه لقي من اليهود شذائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما أدرى فى بيته لغد؟ فيخبرهم، فيسخرّون منه، حتى طال ذلك به ويهم، وهوما يقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسبحان فى الأرض. وفى هذا عبرة وتسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

ولما اشتد الكرب بعيسى، واستيقن بالخطر المهدق اتجه إلى من خلصت نيته من قومه بقوله :

مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ..

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْخَوَارِثِ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ. (الصف: ١٤).

قال المسيح للمخلصين من قومه وخاصتهم، من ينصروني ويؤيدوني وأنا متجه إلى الله داعياً لدينه، لا يصرفه عن ذلك صارف ولا يمنع ما عني.

فاستجاب له الخلاص المتقون.

قال الحواريون نحن أنصارُ الله. أي قال خاصة أصحابه وناصريه: نحن أنصار دين الله، والباذلون كل ما في الوسع في تأييد دعوتك، وسننضم معك في نصرة الله وتبليغ دعوته.

آمنًا بالله وأشهد بأننا مسلمون. اعلتوا إيمانهم وأظهروا استعدادهم للبذل والتضحية، وأشهدوا المسيح بأنهم مسلمون متقادون لكل ما يريده الله منهم.

٥٢ - رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَأَتَّبِعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . بعد أن لبوا دعوة عيسى عليه السلام، اتَّجَّهُوا إلى الله تعالى قائلين، رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِكَ، وَأَتَّبِعْنَا الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَامْتَلَنَّا مَا آتَى بِهِ مِنْ عِنْدِكَ.

فاكتبنا عندك ببركة هذا الإيمان - مع الشاهدين من جميع الأمم: بصدق الأنبياء والمرسلين. ولا تجعلنا من المعاندين المكابرين، الذين ينكرون الحق مع وضوح دليله.

٥٤ - وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . ومكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة.

ومكر الله فابطل مكرهم فلم ينجحوا فيه، ورفع عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل.

قال ابن عباس: لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، دخل عيسى خوخة فيها كوة، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله، فدخل الخوخة فالتقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت، فقتلوه وصلبوه، فلما منهم أنه عيسى.

وقد جاء في إنجيل برنابا ما يصدق هذا المروي عن ابن عباس وفيه أيضاً:

أن الخبيث هو يهوذا وكان من الحواريين المناهقين، وهو الذي دلهم على مكانه، وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة، وأوصاهم وقال: ليكن منكم من يذهب يهوذا إلى ملك اليهود وأخبره بمكانه، ومكان حواريه، فلما توجه إليه الملك، برجاله ودخلوا عليه البيت لم يجدوه فقد رفعه الله إليه وألقى شبه عيسى على يهوذا فأمر الملك بقتله، فقال له: أنا يهوذا؟ فقال الملك: إن كنت يهوذا فأين عيسى؟ فقال يهوذا: إن كنت عيسى فأين يهوذا؟ فلم يعبا الملك بهذه المعارضة، وصلبه لشبهه بعيسى. ومن العجيب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل مع أنه وجد بمكتبة بابا روما، وترجم إلى اللغة الإيطالية، ثم إلى الإنجليزية، وغيرهما من لغات العالم، ولم يوجد بالعربية إلا بعد ترجمته من الإنجليزية أخيراً.

التفسير :

٥٥ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْثُوكَ وَارْفَعُكَ إِلَيَّ وَمُظْهَرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُورًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

اختلف العلماء في المراد من التوفى هنا .

١ - فمن العلماء من قال : إنه على حقيقته المعروفة ، وإنه مرتبط بالآية السابقة .

والمعنى : ومكر اليهود بعيسى يريدون قتله ، ومكر الله فأحبط تدبيرهم ، وقال سبحانه وتعالى لعيسى : إني مَرْثُوكَ حين يأتي أجلك ، ولن أسلطهم عليك ليقْتُلُوكَ ، وقد حقق الله وعده له إذ القى شبهه على يهوذا فقتلوه ، وأنجى عيسى ورفعوه إليه ، وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - للناس ، ثم يتوفاه بعد ذلك ، كما ورد في السنة الصحيحة .

فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء ، مشفوعة بالبخارة برفعته .

٢ - ومن العلماء من ذهب إلى أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإمامة العادية وأن الرفع بعده للروح ، ولا غرابة في خطاب الشخص وإرادة روحه فالروح هي حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان بروحه .

والمعنى : إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كما قال في إدريس عليه السلام «ورفعناه مكاناً عليا» ونظرنا في تفسير هذه الآية يحكم علينا أن نشفع القرآن بالسنة الصحيحة التي تقيد أن عيسى عليه السلام قد رفع حيا بدون وفاة ، وتقيد أنه سينزل آخر الزمان ليحدد ما درس من شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص ^(١٧١) ، فلا يسعى عليها ، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » ^(١٧٢) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كيف أنتم إذا أنزل فيكم ابن مريم وامامكم منكم » ^(١٧٣) .

وبما أن عيسى سينزل آخر الزمان ، فلا بد أن يبقى حيا إلى حين ينزل ويبيلج شرع الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ، إذ لو مات قبل ذلك ، لكان نزوله هذا بعتاً له في الدنيا ولا بعث إلا في الآخرة .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن حديث الرفع والنزول في آخر الزمان حديث آحاد يتصل بأمر اعتقادي ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر ، ولا يوجد هنا واحد منهما ، وقالوا ربما كان المراد بنزول المسيح وحكمه في الأرض غلبة روحه ، وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والمتمسك بقشورها دون لبائها ^(١٧٤) وسئل الشيخ محمد عبده عن المسيح الدجال وقتل عيسى له فقال : « إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبايح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها ،

والأخذ بأسرارها وحكمها، وإن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار ، وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبيّنة لذلك فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك « (١٧٥) .

ونرى أن الدين لا يؤخذ بالرأى، وأن الحديث الصحيح قاطع الدلالة في هذا الموضوع فينبغي أن نقبل حكمه وقد مدح الله المؤمنين بأنهم يؤمنون بالحكم . ويفوضون إلى الله معرفة المتشابه مع الإيمان بما ورد على وجه الإجمال، وتقويض حقيقة المراد إلى الله تعالى .

جاء في ظلال القرآن ما يأتي :

« لقد أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله ، وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أَرَادَهُ اللهُ ، وأبطل الله مكر المكابرين .. »

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه ... فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله ، ولا طائل وراء البحث فيها ، لا في عقيدة ولا في شريعة، والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة ، ودون ما راحة بال في أمر موكل إلى علم الله.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . أى أنجيك مما كانوا يريدون بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القباثع ونسبة السوء إليه.

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . من إكرام الله لعيسى أنه قد جعل الذين اتبعوه في الدين وآمنوا به فوق الذين كفروا والمراد أنهم أعلى منهم روحاً وأحسن خلقاً وأكمل أدباً . وقيل فوقعهم في الحكم والسيادة وإن يكن هذا غير مطرد بالنسبة لليهود والنصارى . والمعروف الذي يحدثنا به التاريخ أن كل جماعة تتمسك بدينها وأدابه وإخلاقه لا بد أن تكون فوق الجميع (١٧٦).

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أى ثم مصيركم إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ . فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به . وحينئذ يبين لهم الحق في كل ما اختلفوا فيه.

٥٦ - فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

المعنى :

فأما الذين كذبوك وهم اليهود أو كفروا بالحق وحادوا عنه، أو جحدوا نبوة المسيح أو جعلوه إلهاً أو ابناً

لله، كل خارج عن الحق سيقع في العذاب الشديد في الدنيا، بالقتل أو الأسر أو الضيق النفسى وعدم الهداية والسعادة. وفي الآخرة ينتظرهم عذاب أشد وأكثى، وما لهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله.

٥٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

إن الجزء من جنس العمل، فالكاfer ينتظره العقاب في الدنيا والآخرة والمؤمن ينتظره الثواب في الدنيا والآخرة. إنه سبحانه يوفى المؤمنين أجورهم في الدنيا بطمأنينة النفس وهدوء البال وسعة الرزق، والتصور والعون، يستوى في ذلك الأفراد والجماعات، فالتقاعدة الإلهية العامة هي أن كل من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله سبحانه وتعالى يكتب له الفوز والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. يقول سبحانه فيما يتعلق بالأفراد:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (النحل : ٩٧).

ويقول سبحانه عن الجماعات :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . (الأعراف : ٩٦).

وفي ختام هذه الآية نجد هذه القاعدة الأصلية.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . فالظلم خروج عن قوانين الفطرة، وجور في العدل، ووضع للشئ في غير موضعه، والظالم يتعرض لغضب الله في الدنيا ولعقوبته يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم :

«إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته» . ثم قرأ : وكذلك أَخَذُكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود : ١٠٢) .

والظالم يتعرض للقصاص العادل في يوم الجزاء، أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١٧٧).

٥٨ - ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .

أي هذه الأنبياء التى أنبأك بها عن عيسى وأمه مريم وأمهها، وزكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل تقرؤها لك على لسان جبريل، وهو القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فهى المومنين إلى لب الدين وفقه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشرى.

وفىها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جنتهم به من الحق.

﴿إِنَّمِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ
 تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
 فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا
 اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

المفردات :

إن مثل عيسى : المثل : الحال الغريبة والشأن البديع.

كـن فيكون : أى صر بشرا ، فصار بشرا ، والتعبير بالمضارع بدل الماضى ، لتصويره بصورة الحاضر
 المشاهد، إيدانا بفرايته فلا تكن من المُمْتَرِينَ الامتراء الشك، أو الجدال أى لا تكن من
 الشاكين ، أو من المجادلين فى شأنه بعد وضوح الحق ، والخطاب لكل مكلف .

حاجك : أى جادللك.

ثم نبتهل : أى ثم ندع الله ، مضارع من الابتهاال وهو الدعاء .

وما من إله : ما : نافية ، ومن : لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية ، وهى كلمة (إله) .

سبب النزول :

نزلت هذه الآيات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند حضور وفد نجران ، وكان من جملة
 شبههم أن قالوا : يا محمد لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، وزعموا أن
 معنى كونه « كلمة الله ، وروح الله » أن الله حل فى أمه ، وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إنسانا وإلهًا ، فضرب
 مثلا بأدم ليرد به على الكافرين والمفتونين .

التفسير :

٥٩ - إنَّمِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . إن حال عيسى - وصفته
 العجيبة فى خلقه من غير أب - كحال آدم أبى البشر، أراد الله خلقه من تراب، ثم قال له : صر وكن بأمرى
 بشرا سوياً : ذا لحم ودم ، وعظام وأعصاب وعقل وإرادة فصار بشراً كما أراد الله .

وتم بذلك خلقه من تراب دون أب أو أم ، فكان بذلك أعجب من خلق عيسى من أم دون أب .

وإذا كنتم أيها النصارى لا تقولون بالوهمية آدم، ولا ببنوته لله، فكيف تقولون بالوهمية عيسى، أو ببوته لله،
 وهو دون آدم فى غرابة خلقه، والآية دليل على صحة القياس ، وشرعية النظر والاستدلال . فقد احتج الله عليهم
 بخلق آدم من غير أب ولا أم ، وحيث لم يقولوا بالوهمية آدم، وجب القول بعدم الوهمية عيسى من باب أولى .

٦٠ - الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . أى هذا الذى أخبرتك به هو الحق فى شأن عيسى عليه السلام، قدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق والتتره عن الشك فيه .

والخطاب قد يوجه للنبي، ويراد به كل من يجادل فى شأن عيسى و كل من يخالجه شك فى أمره . وتظهر فائدة ذلك من وجهين :

١ - أنه إذا سمع - صلى الله عليه وسلم - مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس .

٢ - أنه إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء، إذ إنه - صلى الله عليه وسلم - على جلالة قدره قد خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟ .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب فى هذه الآية ليس للنبي - صلى الله عليه وسلم - إذ لا يصح أن يكون الرسول شاكاً أو مجادلاً بالباطل وإنما الخطاب لمن يجادل فى شأن عيسى ، أو يشك فى أمره .

والمعنى :

الحق فى شأن عيسى، نازل من ربك أيها المجادل فى شأنه فلا تكون من الشاكين فى أمره ، بعد ما أسفر الصبح لدى عيني ، بهذه الحجة القاطعة لكل ريب. ويصح أن يكون الامتراء بمعنى المجادلة بالباطل، أى فلا تكون بعد هذا الحق النازل من ربك من المجادلين فيه بالباطل . والخطاب فيه كسابقه لغير الرسول، من المجادلين والشاكين ، أو هو لكل من يتأتى منه الخطاب.

٦١ - فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الخطاب فى هذه الآية للرسول - صلى الله عليه وسلم - لقد بينت الآيات السابقة حقيقة عيسى عليه السلام بما فيه كفاية وغناء لطالب الإيضاح والبيان .

وهنا يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة، وحول هذا الحق المبين .. والمعنى ، فمن جادلَكَ فى شأن عيسى بعد هذا البيان فلا تجادلهم فى شيء منه، وأفجمهم وقل لهم : تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ . ويضرب كل منا إلى الله تعالى ويدعوه أن يجعل لعنته على الكاذبين منا .

وقد حدث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما نزلت هذه الآية أخبر وقد نجران بها ودعاهم إلى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبنائهم ، ليبتل الجميع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين .

وحضر الرسول فى الموعد، ومعه الحسن والحسين، وفاطمة وعلي، فلم يجدهم، فقد تشاوروا فيما بينهم، فقالوا للمعاقب - وكان صاحب رأيهم : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبي قط فبقى

كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فاتوا النبي - صلى الله عليه وسلم- فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، ونتركك على دينك ، وأن نرجع على ديننا ، ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا : يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . فأمر النبي أبا عبيدة بن الجراح أن يخرج معهم ، ويقضى بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه (١٧٨).

وأخرج أبو نعيم في الدلائل ، عن الضحاك وابن عباس : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ، ومقدارها ألف حلة في صفر ومثلها في رجب، ودرهم ، وذلك بعد أن أشار عليهم يهود المدينة بالصالح وعدم الملاعة وقالوا : هو النبي الذي نجده في التوراة (١٧٩).

قد يقول قائل : إن الجزية فرضت بعد فتح مكة ، ووجد نجران جاء قبلها فكيف يقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ؟ الجواب أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة وجاء فرض الجزية بعد ذلك على وفق ما صنعه الرسول ، وقد أجيب بأجوبة أخرى ، فارجع إليها إن شئت في تفسير ابن كثير.

٦٢ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

إن هذا الذي قصصناه عليك في شأن عيسى هو القصص الحق المطابق للواقع الذي لا يصح العدول عنه إلى ما عليه النصراني في شأنه : من أنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ . فلا شريك له في ملكه بأي وجه من الوجوه ولا معبود بحق سواه .

إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . أي الغالب الذي لا يقهر ، المتقن لما يصنعه ويدبره .

٦٣ - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ .

فإن أعرضوا عن اتباعك في دينك ، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التي جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فجزأوهم وعقابهم عند الله وإن الله عليم بحال المفسدين فيجازيهم على فسادهم وإفسادهم . وأظهر في مكان الإضمار ، فلم يقل عليم بهم بل قال عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ لإظهار فسادهم ، واستحقاقهم للعقوبة ، وفي هذا تهديد بليغ لهم .

﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا أَنْ نَجْعِلَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰئَانْتُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

المفردات :

أهل الكتاب :	اليهود والنصارى .
تعالوا :	اقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه .
إلى كلمة :	إلى العمل بكلمة ، والمراد بها هنا الكلام الآتى بيانه فى الآية الكريمة .
سواء بيننا وبينكم ولا يتخذ بعضنا بعضا :	مستوية عادلة نعمل بها جميعاً ، ولا نخلف فيها .
أريابا من دون الله :	الرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا ما له حق التشريع من تحريم وتحليل .
مسلمون :	منقادون لله مخلصون له .
تحتاجون :	تجادلون .
حنيفاً مسلماً :	الحنيف : المائل عن العقائد الزائفة ، المسلم : الموحد المخلص لله .
تمهيد :	

بين الله فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام ، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم دعا أهل الكتاب إلى المبالغة فأعرضوا ، وبذلك انقطعت مجتهدهم .

وهنا يدعوا القرآن إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعاً ، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر النبى أن يقول لهم : اشهدوا بأننا مسلمون .

التفسير :

٦٤ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ...

قل يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مقالة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب، وأمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن ثم بين هذه الكلمة فقال :

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . لا صنمًا ولا كوكبًا ، ولا نارًا ، ولا ملائكة ولا غير ذلك .

وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ . فلا يتخذ اليهود عزيزًا ابنا الله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولون إنه ثالث ثلاثة.

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية، وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى وعيسى ، ومحمد خاتم النبيين . وقد جاء فى أسفار العهد القديم، نصوص عديدة، ناطقة بتوحيد الله وتزييه عن الشريك (١٨٠).

وقد كان اليهود موحدين وفى التوراة يقول الله لموسى « إن الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى ».

ومنع شقاء اليهود اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله . وسار النصارى على هذا المنوال، وزادوا مسألة غفران الخطايا، وهى مسألة كان لها أثر خطير فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس ، فقامت طائفة جديدة تطلب الإصلاح وهى فرقة (البروتستانت) وقالت: دعونا من هؤلاء الأرياب، وخذوا الدين من الكتاب ، ولا تشاركوا معه شيئًا سواء من قول فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقى صليب من ذهب، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتَّخَذُوا أَجْرَاهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال : أما كانوا يحللون لكم ويحرمون ، فتأخذون بأقوالهم . قال : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذلك (١٨١).

ثم قال الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم :

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . أى فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة فاعلموا أنهم لزمتمهم الحجة، ولكنهم إن أبوا الحق عنادا فقولوا لهم : أنصفونا ، واشهدوا - معترفين لنا بأننا مسلمون مخلصون لرينا .

وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسل كتابه إلى قيصر ملك الروم يدعوه للإسلام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسين :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (١٨٢) .

٦٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنازعوا عنده فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودي ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ... أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ؟ .

وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ؟ .

وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالى ألف سنة (١٨٣) .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . إن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعا له .

٦٦- هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

المعنى :

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم من أمر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فعندكم التوراة والإنجيل تعرفون منهما أمرهم، وإن كنتم غيرتم فيها وبدلتم فلماذا تحاجون فى أمر دين إبراهيم، وأنتم لا علم لكم بتفاصيله ولا بما جاء فى صحفه ؟ .

والله يعلم وأنتم لا تعلمون . أى والله يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ولم يأتكم به الرسل من امر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه .

٦٧- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ما كان إبراهيم يهوديا كما ادعى اليهود ، ولا نصرانيا كما ادعى النصارى، ولكن - حنيفا أى مثالا غن الأديان الباطلة، مسلما: أى على طريقة الإسلام من التوحيد .

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب .

وليس المراد بكونه مسلماً ، أنه كان على مثل ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعده ، وإنما المراد أنه كان متحققاً بمعنى الإسلام ، الذي يدل عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله في عمل الخير تحقيقاً لقوله سبحانه إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ . (آل عمران : ١٩) .

٦٨ - إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

روى عن ابن عباس أنه قال : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أننا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهودياً ، وما بك إلا الحسد فانزل الله تعالى هذه الآية .
ومعنى الآية :

إن أولى الناس بإبراهيم ونصرته وولايته - هم الذين سلكوا طريقة منهاجه في عصره فوجدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين وهذا النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذي لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء .

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . بالنصر والمعونة والمحبة .

★ ★ ★

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾
﴿ ٦٩ ﴾ يَتَّهَلَّأُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿ ٧٠ ﴾ يَتَّهَلَّأُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿ ٧١ ﴾ ﴾

المفردات :

ودت الشيء أحبه .

ودت

جماعة وهم الأخبار والرؤساء .

طائفة

لو بمعنى أن ، أي أن يضلوكم .

لويضلونكم

وما يضلون إلا أنفسهم : الإضلال هنا بمعنى الإهلاك مجازاً فالعنى : وما يهلكون إلا أنفسهم بمعنى إضلالكم ، أو بمعنى : الإخراج عن الهدى ، فالعنى : وما تعود عاقبة الإضلال إلا على أنفسهم ، أو بمعنى الخداع ، فهم يخدعونكم ، وما يخدعون إلا أنفسهم في الحقيقة .

وما يشعرون : وما يفطنون لذلك .

بآيات الله : الآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وانتم تشهدون : أى تعلمون ما يدل على صحتها من التوراة والإنجيل .

تلبسون : تخططون .

تمهيد :

قال المفسرون : إن اليهود دعوا معادا وحذيفة وعمارا إلى دينهم فأنزل الله : وَذُتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلِمُونَكُمْ ... الآية (١٨٤) .

وقيل نزلت في اليهود والنصارى .

ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا .

وليس الإضلال خاصاً بالدعوة ، بل كانوا يلغون ضرورياً من الشك في النفس ليصدوها عن الإسلام من أغربها ما في الآية الآتية (٧٢) .

والمعنى :

أحببت طائفة من أهل الكتاب أن يهلكوك بالتكفير والإخراج عن الإيمان ، وما يهلكون إلا أنفسهم بما يفعلون ، وما يفطنون لذلك ، لزعمهم أنهم على الحق .

٧٠ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ . لأى سبب تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنتم تشهدون بصحتها بما جاء في كتبكم من نعمته والبشارة به .

أو : لماذا تكفرون بآيات القرآن النازل من عند الله ، وأنتم تعلمون من التوراة والإنجيل ما يدل على صحتها ، ووجوب الاعتراف بها ؟ .

٧١ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يا أهل الكتاب ، لماذا تسترون الحق بالباطل ، أو تخططونه به ، وذلك بتحريفكم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلكم لها ؟ لماذا تكتُمون الحق في شأن محمد ويشارته الموجودة في كتبكم ، وأنتم تعلمون أنه حق ، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى ؟ .

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ
وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٢) وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى
اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٣) يَخْنُصْ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤)

المفردات :

أوله ، سمى وجهًا لأنه أول ما يواجهك منه .

وجه النهار

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم : أى كراهة أن يؤتى مثل ما أوتيتم .

أو يحاجوكم عند ربكم : أى يحاجوكم به عند كتاب ربكم بالتحاكم إليه .

التفسير :

٧٢ - وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

سبب النزول :

قال الحسن والسدي : توأما اثنا عشر رجلا من أئمة يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض :
ادخلوا فى دين محمد أول النهار - باللسان دون الاعتقاد - واكفروا آخره ، وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا
علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه ، فإذا فعلتم ذلك . شك أصحابه فى دينهم ،
وقالوا : إنهم أهل كتاب وهم أعلم به فيرجعون عن دينكم إلى دينكم .. (١٨٥) وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال :
(صلى يهود مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرا منهم ليرى الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد
أن كانوا اتبعوه) (١٨٦) . قال الشيخ محمد عبده : هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام مبنى
على قاعدة طبيعية فى البشر ، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه ، وقد فقه فى هذا هرقل
صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما دعاه إلى الإسلام :
(هل يرجع عن دين محمد من دخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا) .

وقد أرادت هذه الطائفة أن تقش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما
رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته
ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة من إخبار الله تعالى عن توأمتهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيل كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما - أخبر
الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجرا .

الثاني : انه تعالى لما اطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها اثر فى قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف.

الثالث : ان القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتليس.

٧٢ - وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تواصى اليهود بالآل يطعموا المسلمين على شيء من أسرار كتابهم كالبيشارة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأمارته وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .

من معانى الإيمان فى اللغة الثقة والطمأنينة.

والمعنى : ولا تتقوا إلا بأبناء ملئكم من اليهود . ولا تطمثوا إلا إليهم . فلا تضيعوا أسرارنا للمسلمين فإن ذلك يفسد علينا تدبيرنا .

وقد انتهى كلام اليهود عند قولهم : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ . كما رجحه الفراء .

قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ . أى قل يا محمد لهؤلاء المتأمرين توبيخاً لهم : ان الهدى هدى الله ، فلا يتوقف على إظهاركم ما عندكم من البشائر بنبوة محمد ، والعلامات الدالة عليه ، ولا يزيله كفركم آخر النهار بعد إيمانكم أوله ، فمن أراد الله هداة أقتعه بما أيد به رسوله من الآيات البينات ، وأورثه الطمأنينة التامة فى قلبه وحفظه من كيد الكائدين، وكشف له دسائسهم ومؤامراتهم.

ثم أمر الله رسوله أن يقول لليهود :

أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ .

وفى الكلام جملة مقدره يقتضيهما المقام، والتقدير أنكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم به عند ربكم ؟.

وجاء فى تفسير القاسمى :

أن بعد الألف على الاستفهام فى قراءة ابن كثير وتقديرها فى قراءة غيره ، أى دعاكم الحسد والبغى حتى قتلتم ما قتلتم ودبرتموه الآن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من الشرائع والعلم والكتاب.

أو كراهة أن يُحَاجُّوكُمْ أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم عِنْدَ رَبِّكُمْ أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتهم بعد البيان الواضح فيفضحكم. ا هـ.

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

أى قل لهم إن الرسالة فضل من الله ومنة واللّه واسع العطاء وهو العليم بالمستحق فيعطيه من هو له أهل. وفى هذا إيمان إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجعلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء.

ويرى بعض المفسرين : أن الآية كلها يمكن أن تكون خطابا من الله للمؤمنين على جهة التثبيت لقلوبهم وتوثير بصائرهم، وحفظهم من تشكيك اليهود وتزويرهم فى دينهم.

والمعنى :

ولا تصدقوا - يا معشر المؤمنين - إلا من تبع دينكم أما غيرهم فاحذروهم، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى الله أنزله على محمد ، أما ما يقوله أعداء الإسلام فهو من تزويرهم ، فلا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الهدى والحق ولا أن يحاجوكم بما لديهم من دينهم عند ريكم فلا قدرة لهم على ذلك قل إن الفضل بيد الله ... إلخ.

وجاء فى تفسير المنار وغيره ، تفسيرات أخرى للآية ، لا تغلو من مأخذ .

٧٤ - يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب مشيئته لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يعيث من يشاء نبيا وبيعته رسولا ، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله وعظيم إحسانه، لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، فالله لا يحابى أحدا، لا فردا ولا شعبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

★ ★ ★

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

تأمنه : من أمنت به معنى ائتمنته ، ويقال أمنت به كذا أو على كذا .

قنطار : المراد به هنا العدد الكثير أو المال الكثير، كما أن المراد بالدينار العدد القليل.

قنطار

ليس علينا في الأميين سبيل : يعنون بالأميين العرب، بجهلهم وقتئذ بالكتابة والقراءة.

سبيل : مؤاخذه وذنب، ومعنى كلامهم: ليس علينا فيما نأخذ من أموالهم مأخذ ولا حساب.

التفسير :

٧٥ - وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ ...

هذه الآية من أظهر الأدلة على سماحة القرآن ، فقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الكتاب . والكلام هنا موصول عنهم والآية تتصفهم، وتذكر أن منهم أمناء يؤدون الأمانة مهما كثر مقدارها، ومنهم خونة يجحدون الأمانة مهما قل عددها .

فمن الأمناء عبد الله بن سلام استودعه عريى قرشى ألفاً ومائتي أوقية ذهباً - حين كان ابن سلام على يهوديته - فلما طلبها القرشي أداها إليه كاملة، ومن الخونة رجل اسمه فتحاص بن عازروا استودعه رجل آخر من قريش ديناراً فجحدته، ثم بينت الآية السبب في هذا السلوك فقالت : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ أي ليس علينا إثم في أكل أموالهم فلا حساب ولا عقاب في أكل أموال العرب.

وخلاصة رأيهم - أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له بل هو مبغض عنده محقر لديه، فلا حقوق له ولا حرمة لماله، فكل ما يستطيع أخذه منه فلا ضير فيه، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو في الدين واحتقار المخالف وهضم حقوقه .

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم في الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندينا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فرد الله عليهم بقوله :

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وهم إذ يقولون هذا - يكذبون على الله تعالى - عن عمد وعلم بأنهم كاذبون . لأن ما جاء من عند الله فهو في كتابه ، والتوراة التي بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ولا أكل أموالهم بالباطل .

أخرج عبد الرزاق عن أبي صمصمة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاء، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال ابن عباس هذا كما قال أهل الكتاب : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ . إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم (١٨٧) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سميد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ قال نبي الله - صلى الله عليه وسلم - « كُتِبَ أَعْدَاءُ اللَّهِ ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » (١٨٨) .

ويستفاد من الآية ما يأتي :

- ١ - لا يعمل لمسلم أن يخون أحدا ولو خالفه في الدين.
- ٢ - لا يصح لمسلم أن يتصف بالخيانة مع من خانه.
- ٣ - قال القرطبي : في الآية رد على الكفرة الذين يجرمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.
- ٤ - استدل أبو حنيفة بالآية على ما ذهب إليه من مشروعية ملازمة الغريم بقوله تعالى : **لَا يُؤْذِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَاتِمًا** أى بالمطالبة والملازمة والإلحاق في استخلاص حقه.
- ومن هدى السنة ما رواه أبو داود والترمذى والحاكم والطبرانى والبخارى في التاريخ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : **« أَدِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَكَ ، وَلَا تَخَنْ مِنْ خَائِكَ »** (١٨٩).

والله تعالى يقول : **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا** . (المائدة : ٨) .

ولا نستطيع أن نبرح هذه الآية حتى نؤكد إنصاف القرآن لأهل الكتاب فهو لم يجردهم جميعاً من الأمانة أو الإيمان ، ومن هذا الإنصاف قوله تعالى :

لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . (آل عمران : ١١٣) .

ثم يقول سبحانه :

٧٦ - **بَلَىٰ مَن أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** . أى بلى عليكم في الأميين سبيل وعليكم الوفاء بعهودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل ، أو ائتمك على شيء وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له في حينه دون حاجة إلى الإلحاف في الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحنمت الشريعة .

وفى هذا إيمان إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيلياً وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره .

وقد أمر القرآن بالوفاء بالعهد والأمانة قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ** .

- ومدح الله إبراهيم الخليل بقوله : **وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** . (النجم : ٢٧) .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (١٩٠) .

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (١٩١) وفى رواية « ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (١٩٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٧)

المفردات :

يشترون : يستبدلون .

بعهد الله : بأمر الله المؤكد .

ثمنًا قليلًا : عوضًا قليلًا .

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم .

ولا يزكهم : ولا يطهرهم .

التفسير :

٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

سبب النزول :

ذكرت لهذه الآية أسباب نزول عديدة .

نذكر منها : ما أخرجه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حلف على يمين هو فيها حاجر ليقطع بها حق امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » .

فقال الأشعث بن قيس : فإِنَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجِئْتُهُ ، فَقَدِمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - : أَلَيْكَ بَيْتَةٌ ؟ قُلْتُ : لَا . فَقَالَ لِلْيَهُودِي : احْلِف . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا يَحْلِفُ فَيَنْهَبُ مَالِي . فَانْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ... الآية (١٩٣) .

وما أخرجه ابن جرير ، عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف ، وحیی بن الأخطب : حرقوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرهما ، وأخذوا على ذلك الرشوة .

والمعنى :

إن الذين يستبدلون بما عاهدهم الله عليه ، من بيان نعت محمد وعدم كتمانها ، ويتفاوضون عن إيمانهم الكاذبة الفاجرة ، بالأثمان القليلة من أعراض الدنيا الزائلة - مهما عظمت - أولئك لا نصيب لهم في ثواب الآخرة ، ولا حظ لهم في نعمها .

وَلَا يَكْلِبُهُمُ اللَّهُ كَلَامًا فِيهِ لُطْفٌ بِهِمْ .

وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِعَيْنِ رَحْمَتِهِ تَعَالَى .

وَلَا يَرْكَبُهُمْ أَى يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة . بل يأمر بهم إلى النار . ولهم عذاب اليم على الكتمان ، واستبدالهم عهد الله ، والحلف زورا ، واستحلالهم أخذ المقابل على التزوير .

قال القرطبي : وقد دلت هذه الآية والأحاديث على أن حكم الحاكم لا يحل المال في الباطن بقضاء الظاهر ، إذا علم المحكوم له بطلانه .

وفى حديث صحيح عن أم سلمة ، قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنكم تختصمون إلي ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فاقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من النار .. فليأخذها أو ليتركها » (١٩٤) .

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ أَلِ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٨)

المفردات :

يلوون ألسنتهم بالكاتب ، يميلونها بالكاتب ، عدولا به عن الحق تحريفاً أو تاويلاً .

والى : الميل . يقال : لوى برأسه إذا أماله . والكاتب التوراة والإنجيل .

التفسير :

٧٨ - وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

روى الضحاك عن ابن عباس : أن الآية نزلت في اليهود والتصارى جميعاً . وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا بكتاب الله تعالى ، ما ليس منه .

والمعنى :

وإن من أهل الكتاب الخائنين ، جماعة من علمائهم : يحرفون كلام الله ، ويميلون به عن القصد ، لتظنوا - أيها المسلمون - حينما تسمعونهم : أن ما حرفوه هو من صميم كتابهم الذي أنزله الله على رسولهم . وما هو - في الحقيقة - من الكتاب ، بل من كلامهم ويؤكدون نسبته إلى الكتاب بقولهم : هو من عند الله . وما هو من عند الله بل من عند أنفسهم . ويقولون على الله الكذب بنسبته إليه ، وهم يعلمون أنهم عليه - سبحانه - يكذبون ، وكما وقع التحريف في القراءة ، وقع في تأويل النصوص في الكتابة .

ولهذا ترى التناقض والتكاذب والتهافت بين نسخها .

فمن يقرأ الأناجيل الأربعة يجد الاختلاف بينها واسع النطاق . وبخاصة : فيما تورده عن صلب المسيح عليه السلام ، وكذلك التوراة .

وأما احتجاج الرسول بقوله : فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (آل عمران : ٩٣) .

فيحمل على أن رسول الله كان يعلم ببقاء بعض ما يقى بالفرض سالماً عن التغيير . فإنهم لم يغيروا جميع ما في التوراة : إما لجهلهم بدلالة ما بقى عى المقصود ، أو لصرف الله إياهم عن تغييره .

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٩) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات :

والحكم

: أى الحكمة . وهى إصابة الحق .

ريائيين

: منسوبين إلى الرب سبحانه . والألف والنون يزدان للمبالغة كثيراً كالحيانى العظيم اللحية ، وربانى الغليظ الرقبة . والمراد من الريانى : العالم الفقيه ، الراسخ فى علوم الدين . وقيل : الحكيم التقى .

بعد إذ أنتم مسلمون : منقادون مستعدون للدين الحق .

التفسير :

٧٩ - مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ .

لا يزال الكلام متصلاً مع وفد نجران ، فإنه روى : أن السورة - كلها - إلى قوله : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ... نزلت بسببهم .. ذكره القرطبي .

وروى ابن إسحاق وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام - أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له : الرئيس : أو ذلك تريد منا يا محمد ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثي ، وما بذلك أمرني » فانزل الله تعالى الآية (١٩٥) .

وأخرج ابن أبي حاتم قال : كان ناس من يهود : يتعبدون الناس - من دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه . فقال : مَا كَانَ لِبَشَرٍ ... الآية .

وأيا كان سبب النزول ، فمعنى الآية : ما صح وما استقام لبشر اصطفاؤه ربه لتبليغ الرسالة إلى خلقه ، وأعطاه الكتاب الذي يرشد الناس إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة - أي حسن التصرف في الأمور - وأعطاه النبوة العاصمة من الخطأ ، ثم يتكرر لربه الذي اختاره لهداية خلقه فيقول للناس : كونوا عبيداً لى إلهاً مع الله أو أفراداً : متجاوزين توحيد الله إلى ما طلبته منكم . ولكن يقول لهم : كونوا علماء عاملين ، كاملين في العلم والعمل ، لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه ، فاولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

والتعبير بلفظ (ثم) لاستبعاد حصول ذلك القول من الرسول .

وإذا كان لا يصح لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة : أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه فلا يصح له أن يدعوهم إلى عبادة غيره من باب أولى .

وبهذه الآية حصل الرد البليغ من الله تعالى على النصارى الذين ألوهوا المسيح وعبدوه ، وعلى اليهود الذين ألوهوا عزيراً وقديسوه ، وعلى من زعم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، يقصد بنبوته : أن يدعو الناس إلى عبادته ، وعلى الأحبار الذين يتعبدون الناس من دون ربهم : بتحريفهم كتاب الله عن موضعه لمصلحتهم .

وخلاصة الرد : أن رسل الله براء مما يصنعه أتباعهم . فإنه لا يعقل أن يأمرهم بهذا الكفر . وذلك هو ما يقوله عيسى عليه السلام ، لربه لما يسأله : أَلَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَبْنِيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ . ثم قال : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (المائدة : ١١٦ ، ١١٧) .

والآية توجب على أهل العلم أن يقرنوه بالعمل، حتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها .

٨٠ - وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ...

وَلَا يَأْمُرُكُمْ : بالنصب ، معطوف على يَقُولُ في الآية السابقة، داخل معه في حيز ما لا يجوز على الرسل .

المعنى :

ما كان ليُشِرَ آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً .. أيليق به - وهو رسول الله - أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مخلصون منقادون لربكم؟

ومن قرأ : وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِالرَّفْعِ ، فعلى الاستئناف .

والمقصود من القراءتين واحد . وهو استحالة حدوث ذلك من الرسول .

وإذا كان سبب النزول وفد نجران . فلا إشكال في قوله تعالى لهم : « بعد إذ أنتم مسلمون » فإن الإسلام يراد منه حينئذ ، والاستعداد للدين الحق، إرخاء للنعان ومجاراة لهم.

وقيل إن سبب نزول الآيتين ، ما أخرجه عبد بن حميد عن الحسن قال :

بلغنى أن رجلاً قال : يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ؟ أهلا نسجد لك ؟ قال : « لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرضوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى » (١٩٦) . وعلى هذا ، فالإسلام على ظاهره .

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

المفردات :

ميثاق النبيين : الميثاق ، العهد الوثيق المؤكد .

لما آتيتكم : اللام موطنة للقسم . وما : بمعنى الذى . كما نقله سيبويه عن الخليل . أى للذى آتيتكموه . وقيل : إن ما شرطية بمعنى إن . وهو الظاهر .

وحكمة : أى نبوة . سميت حكمة ، لأنها منبها .

إصرى : عهدى وميثاقى .

التفسير :

٨١ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ .

واذكر يا محمد ، لأهل الكتاب ، كيف أخذ الله العهد على النبيين جميعاً : لئن آتيتكم من كتاب تبلغونه لأممكم ، وحكمة - أى نبوة ورسالة إليهم - ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتصدقن بأنه مرسل من عندى إلى الناس ، ولتنصرنه بالتبشير به ، وحض أممكم على أن تؤمن به ، إذا بعث إليهم وتنصره ، تؤيده فيما جاء به ٩ .

قال تعالى لهم بعد أخذ الميثاق عليهم : هل أقررتم بالإيمان به ونصرته وأخذتم على ذلكم عهدى وقبلتموه لنتفذه وتعملوا به ٩ . قالوا : أقررنا ووافقنا . قال الله تعالى : فليشهد بعضهم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض .

والمراد من الرسول الذى يجيئهم مصدقاً لما معهم : كل رسول يعاصرهم أو يأتى بعدهم فالآية الكريمة ، تفيد : أن الله تعالى ، أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضاً ويؤيده ولا يمارضه ، ويوصى باتباعه . فإن دين الجميع واحد . قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء بنو علات (١٧٧) أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (١٨٨)

وبمعموم الرسول ، أخذ سعيد بن جبير وقتادة وطاوس والسدى والحسن . وهو ظاهر الآية . قال طاووس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء : أن يؤمن بما جاء به الآخر .

ومن العلماء من قال : المراد من الرسول ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الأرجح ، وبه قال الإمام على رضى الله عنه . فقد أخرج عنه ابن جرير قال : « لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم : لئن بعث - وهو حى - ليؤمنن به ولينصرنه - ويأمره فيأخذ العهد على قومه » .

وسواء أكانت الآية عامة فى تأييد جميع الرسل بعضهم لبعض ، وحث أممهم على اتباعهم ، أم خاصة بتأييدهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ونصرتهم بحث أممهم على تأييده إن بعث - فالغرض من الآية : أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - وقد أيداه الله بالمعجزات المحققة لرسالاته وجاء مصدقا لما مع الأنبياء قبله فهو مؤيد من المرسلين قبله ، وأن على أهل الكتاب المعاصرين له : أن يؤمنوا به ، امتثالاً لما جاء عنه فى كتب رسلم . فإن كتب المرسلين توصى بالإيمان بكل رسول .

والقرآن الكريم جرى على هذا المنهج قال تعالى : قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣٦) .

٨٢ - فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ :

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا الميثاق والإقرار والشهادة فأولئك هم الخارجون فى الكفر إلى أحشى مراتبه ، المستحقون لأشد العقاب .

ولما كان دين الأنبياء واحداً ، ودين محمد هو دين الأنبياء جميعاً - أتبع هذا التهديد قوله :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا
وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى
وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات :

أسلم : دان بالإسلام . أو انقاد وخضع .

والأسباط : الأسباط ، الحفدة . والمراد بهم هنا : ذرية يعقوب عليه السلام . فهم حفدة لأبيه إسحاق وجده إبراهيم .

ومن يبتغ : ومن يطلب .

التفسير :

٨٣ - أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ :

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب النزول ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم » فغضبوا وقالوا : والله ما نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك . فأنزل الله هذه الآية (١٩٩) .

وعلى أى حال كان سبب النزول ، فالكلام - فى هذه الآية - مع أهل الكتاب الذين استمسكوا بدينهم ، ونازعوا فى الإسلام ، وأعرضوا عنه .

فبعد أن أخبرهم الله تعالى أنه أوصى الأنبياء بتأييده ونصرته ، وأنذر من تولى عنه ، وويخهم على إعراضهم ، وأنكره عليهم - قال ما معناه :

أيتولى هؤلاء عن الإسلام إلى أديانهم المحرفة المنسوخة ، فيبغون بذلك ديناً غير دين الله : كيف يطلبون غير دينه سبحانه وتعالى ، وقد استسلم وخضع له - من فى السموات والأرض طائعين وكارهين : فمشيئة الله نافذة فيهم ، وقدره جار عليهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا . فالصحيح مستسلم لقدر الله ، محب لما وهبه الله من صحة . والعليل منقاد لقدر الله بمرضه طوعاً وكراً ..

وهكذا كل أقدار الله تجري في خلقه ، فيخضعون لها ، وإن جرت على غير ما يحبون ويشتهون . فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . فكيف يتمرد أهل الكتاب على دين هذا الإله القوى الفعال ، ويكفرون به . مع أنهم إليه يرجعون مقهورين ، فيحاسبهم على طغيانهم وكفرهم .

وتحتمل أن يكون المراد به : ما يشمل العقلاء وغيرهم ، ويكون المعنى : ولشيئته تعالي . خضع وانقاد جميع الكائنات في السموات والأرض : طائفة أو مسخرة . كما هي قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ كَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ (الحج : ١٨) .

٨٤ - قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالْيَبُوسُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ :

لما بين الله تعالى : أنه أخذ الميثاق على كل نبي : أن يؤمن بغيره من الأنبياء ، وأنه لا يصح لأهل الكتاب أن يكفروا بدين الله الذي أنزله على محمد - وهو ممن أخذ الله الميثاق على الإيمان بهم ودينهم - لما بين الله هذا كله - أمر نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، أن يؤمن بمن سبقه من الأنبياء والألا يفرق في الإيمان بين أحد من رسله ، ليكون في الإيمان بهم ، كما كانوا في شأن إخوانهم الأنبياء ، وهو خاتمهم .

المعنى :

قل يا محمد ، معبراً عن نفسك ، وعن المؤمنين : آمنا بالله وما أنزل علينا من القرآن العظيم آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأنبياء من إبنائهم والأسباط من كتب . وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل ، وما أعطى سائر الأنبياء من ربهم من مختلف الكتب : لا نفرق بينهم ، فلا نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم ، ونحن له منقادون : نطيعه فيما أمرنا به ، وننتهي عما نهانا عنه .

٨٥ - وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

ومن يطلب دينا غير دين الإسلام يتدين به : عقيدة وعملاً ، فلن يقبله الله منه ، لأنه غير ما شرعه الله لخلقه . وإذا كان الله لا يقبل دينا غير الإسلام - فكل من دان بغيره ، يكون في الآخرة من الخاسرين ، لأنه محروم الثواب ، خالد في العقاب .

روى أحمد في مسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده ، لو أصبح فيكم موسى بن عمران ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم » (٢٠٠) .

وروى أبو يعلى ، والبزار ، وأورده ابن كثير : « لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا اتباعي » وفي رواية : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي » .

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُم لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

المفردات :

لعنة الله : أى الطرد من رحمته .

ولا هم ينظرون : أى ولا هم يمهلون . فعذابهم مستمر . أو لا ينظر إليهم ، ولا يعتد بهم .

التفسير :

٨٦ - كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ .

سبب النزول :

أخرج عبد بن حميد وغيره ، عن الحسن : أنهم - أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - فى كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق . فلما بعث من غيرهم ، حسدوا العرب على ذلك فانكروا . وكفروا بعد إقرارهم .

المعنى :

أى سبيل لأن يهدى الله قوماً كفروا بمحمد ، بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ، امتثالاً لما جاء فى كتبهم ، وعلموا أن الرسول محمد حق حينما رأوه بعد مبعثه - مطابقاً لما جاء عنه فى كتبهم ، وجاءتهم الآيات الواضحات والمعجزات الشاهدات بصدقه : والله لا يهدى القوم الظالمين لأنفسهم بكفرهم ، ما داموا مصرين على عنادهم وحسدهم للرسول ، على ما آتاه الله من فضله .

٨٧ ، ٨٨ - أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْنَهُم لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

بعد أن بين الله شناعة الكفر بعد الإيمان ، ووضح أن شريعة الرسول حق بما أيده الله به من الآيات ، أتبعه عقاب أولئك الكافرين . وذكر أن : أولئك الذين كفروا - بعد ما جاءهم الرسول مؤيداً بالآيات والمعجزات بعد ما عقدوا العزم على الإيمان به حين يبعث - يلعنهم الله - ويطردهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة ، وتطلب لهم الطرد من رحمة الله ، ويلعنهم الناس أجمعون ، من أهل الإيمان أتباع الحق ، خالدين فى اللعنة - أو فى جهنم - التى هى مقر الملعونين : لا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يمهلون بأن يؤخر عنهم العذاب من وقت لآخر ، بل العذاب موصول مستمر .

ويجوز أن يكون معنى : **وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ** وَلَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نظر رحمة، لا يعتد بهم . فهم مهملون متروكون في عذابهم.

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها إلى قوله تعالى : **وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ** - وإن نزلت في أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد مبعثه، مع أنهم كانوا مجمعين على الإيمان به حين يبعث- لكنها عامة الحكم في كل من يكفر بعد الإيمان ، فتشمل المرتدين بعد الإسلام.

٨٩ - **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

يعنى : أى من تابوا من بعد كفرهم، وأصلحوا ما أفسدوه بالندم والإقبال على الطاعة بعد الإبداء عنها فإن الله يفر لهم ويرحمهم ، لأن الله عظيم الغفران، بليغ الرحمة، وذلك من عظيم كرمه، ووافر رحمته.

وقيل : معنى أصلحوا : دخلوا في الصلاح . كما يقال : أصبحوا : دخلوا في الصباح، وعلى هذا يكون الفعل لازماً غير متعد، بخلافه على المعنى السابق فهو متعد.

★ ★ ★

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ١٠١** **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ١٠٢** **أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ١٠٣** **لَنْ نَسْأَلَ الْبِرَّ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا مَحْبُوبٌ ١٠٤** **وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ١٠٥** ﴾

المفردات :

وأولئك هم الضالون : الذين أخطأوا طريق النجاة.

ولو افتدى به : معطوف على شرط مقدر يقتضيه المقام . والتقدير : لو أنفق فيما يراه خيرا في الدنيا ولو افتدى به في الآخرة.

لن نسالوا : لن تصيبوا ولن تدرخوا .

البر : الخير والإحسان .

مما تحبون : بعض ما تحبون فلا ينفقونه كله.

التفسير :

٩٠ - **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .**

تمهيد :

علم اليهود بنبوّة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يبعث وذلك من خلال إشارات الأنبياء به ، فلما بعثه الله رسولا نبيا من نسل إسماعيل جحدوا نبوته حقدا وحسدا .

قال الشيخ محمد عبده :

كان اليهود يعرفون بإشارات الأنبياء بمحمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء في زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات ، وظهرت فيه البشارات ، ثم أنهم كفروا به وعاندوه، بعد مجيئه بالبينات لهم، وظهرت الآيات على يديه ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الضالين (٢٠١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهادتهم أن الرسول حق ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك ، وبالحرّوب والكفاح، وبالتمادي في الكفر والمعاصي.

لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ : لأن الشر قد تغلغل في نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والحيّر .

وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ عن طريق الحق ، المخطئون سبيل النجاة.

قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس : أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فإرسلا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ (٢٠٢).

وقد اختار الطبري رأى قتادة وعطاء والحسن في أن هذه الآية نزلت في اليهود كفروا بيمسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد والقرآن وبالذنوب التي اكتسبوها .

وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى ، كفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد إيمانهم بنعمته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم

وعلماء القرآن يذكرون أن سبب نزول الآية قد يتعدد، ويعبر عنه بتعدد السبب والنازل واحد .

وسواء أكان سبب النزول اليهود وحدهم، أو اليهود والنصارى، أو تكرر الردة من بعض الناس، فإن الآية بعمومها تشمل كل من يكفر بعد إيمان ، فيدخل في حكمها من ارتد عن الإسلام.

وظاهر الآيات يخالف ما صرح به القرآن في غير موضع كقوله سبحانه وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . (الشورى : ٢٥) . والجواب أن التوبة لمن أناب إلى الله ورجع إليه صادقاً في حياته وهو متمتع بصحته وقوته .

ما الذين يصرون على الكفر، ويزدادون كفراً، والذين يلجون في هذا الكفر حتى تقلت الفرصة المتاحة وينتهى أمد الاختيار ويأتي دور الجزاء، هؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة.

قال تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧-١٨).

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٢٠٣).

من تفسير القاسمى :

« وقد أشكل على كثير من المفسرين قوله تعالى لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مع أن التوبة مقبولة عند الجمهور ، فأجابوا بأن المراد عند حضور الموت.

قال الواحدى : فى الوجيز: لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت وتلك التوبة لا تقبل .
وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون ، وقيل لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا ، لارتدادهم وازديادهم كفرا . وبقي للمفسرين وجوه أخرى هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

ولا أرى هذه الآية إلا كاية النساء :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . (النساء : ١٣٧)
وكلتاها مما يدل صراحة على أن من تكررت ردة لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد ، وذلك لرسوخه فى الكفر.

وقد أشار القاشانى إلى أن هذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان :

قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأماراة على قلوبهم فيهم وتمكنت، وتناهاوا فى الفى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد حتى صار ذلك ملكة لا تزول.

وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصير على قلوبهم رينا، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا فإشار إلى القسم الأول بقوله ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إِلَى آخِرِهِ ، وإلى الثانى بقوله إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا - انتهى (٢٠٤).

٩١ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد القيامة حيث يرى الكافر ما أعد له من العذاب الشديد فيتمنى أن يفتدى نفسه من النار بملة الأرض ذهباً ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (المائدة : ٣٦) .

وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرايت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكتفت مقتدياً؟ قال : فيقول: نعم ، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم ألا تشرك بى شيئاً هابيت إلا أن تشرك » (٢٠٥) .

وقدر الزمخشري الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .. هـ . فإذا رفضت الفدية في هذه الحالة كان تبئها على أن ثم أحوالاً آخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة .

وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس في ذلك اليوم .

ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى في يدي هذه (٢٠٦) .

وقال ابن كثير : من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قرية . كما سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ويفك العاني، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » (٢٠٧) . وفي ختام الآية نجد هذا الوعيد .

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ أولئك المصرون على الكفر حتى ماتوا ، لهم عذاب شديد الإيلام «وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يدهمون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم في الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم .

٩٢ - لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

في هذه الآية استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أي لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار بناء على أن تعريف البر للجنس ، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته إذا كان للمهد . حتى تنفقوا في سبيل الله تعالى مما تحبون ، أي تهوونه ويمعجبكم من كرائم أموالكم . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .. أي شيء تنفقونه في سبيل الله طيباً أو خبيثاً فالله مجازيك به بحسب ما يعلم من نيتكم ، ومن موقع ذلك في قلوبكم، فرب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبر ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره .

وفى الآية حث على إنفاق الجيد، وإخلاص النية، وابتغاء وجه الله والدار الآخرة.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ. (البقرة: ٢٦٧).

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء « موضع » وكانت مستقبلية المسجد، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قام أبو طلحة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وإن أحب أموالي إلى بيرحاء، وإنها صدقة لله عز وجل أرجو برها وذخرها عند الله، فضمها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يا بغي. ذلك مال رابع، ذلك مال رابع، وقد سمعت ما قلت. وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين ». قال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه (٢٠٨).

وفى الصحيحين أن عمر قال: يا رسول الله لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخبير، فما تأمرني به قال: « احبس الأصل وأسبل الثمرة » (٢٠٩).

وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد الله بن عمر قال: حضرتني هذه الآية، ذكرت ما أعطاني الله، فلم أجِد شيئاً أحب إلي من جارية لى رومية، فقلت: هي حرة لوجه الله، فلو أنى أعود في شيء جعلته لله، لنكحتها، يعنى تزوجتها، فأنكحتها ناهماً (مولى كان يعبه كأحد أولاده).

وآثار السلف في الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضاة الله كثيرة ...



وسلام على المرسلين ... والحمد لله رب العالمين

تم تفسير الجزء الثالث، ويليه تفسير الجزء الرابع إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثالث)

خرج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

- (١) أحياناً يأتي مثل مصلصلة الجرس ٦ .
رواه البخاري في بدء الوحي (٢) وفي بدء الخلق (٢٢١٥) ومسلم في الفضائل (٢٣٢٢) والترمذي في المناقب (٢٦٢٤) والنسائي في الافتتاح (٨٣٢ ، ٨٣٢) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) ومالك في الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة، ونظر كتاب "علوم الدين الإسلامي" للكتور عبد الله شحاتة، وفي أوله موضوع (الوحي والقرآن).
- (٢) انظر العقائد النسفية وشرحها للسعد : ص ٤٤٦ ، وقد ورد ذكر (١٨) ثمانية عشر نبياً في سورة الانعام الحكية ليذكر الله المشركين أن إرسال الرسل سنة الله في خلقه، وهي نعمة الله على عباده، قال تعالى: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ابن ريك حكيم عليم (٢٥) وروينا له إسحاق ويحطوب كلاً هدياً ونوحاً هدياً من قبل ومن قرئته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك جزى المحسنين (٢٦) وذكرنا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (٢٧) وأسما عجل وإسحق ويونس ولوطاً وكلنا فضلنا على العالمين (٢٨) ومن آياتهم ودرياتهم وأخوانهم وإخوتهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٢٩) ذلك هدى الله لغيره به من يشاء من عباده ولو أشر كوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (الأنعام ٨٢ - ٨٨) .
- (٣) لا تفضلوا بين أنبياء الله ٧ .
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٥) ومسلم في الفضائل (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئاً كرهه فقال لا والذي أصطفى موسى على البشر... فقال لم لمطمت وجهه فذكره فغضب النبي ﷺ حتى رأى في وجهه ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله .. الحديث .
- (٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ج ١ صفحة ٢٧٧ .
- (٥) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٩٧ .
- (٦) أنا سيد ولد آدم ولا فخر ٩
رواه مسلم في الفضائل (٢٣٧٢) وأبو داود في السنة (٤٦٧٢) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبي هريرة. رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٨) وفي المناقب (٣٦١٥) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبي سعيد. ورواه أحمد (٢٥٤٢ ، ٣٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
- (٧) في ظلال القرآن ج ١ صفحة ٢٨٢ .
- (٨) تفسير المنار ج ٣ صفحة ٨ .
- (٩) وانظر يا أخى إلى الحرب التي تثار بين هذا القطر وذلك من أقطار المسلمين وتراق فيها الدماء بسبب تحكم الأهواء . مع قول النبي الأمين «إذا انتفى المؤمنان بسيفيهما فالتال والمقتول في النار».
- (١٠) تفسير المنار ج ٢ صفحة ٨ - ١٢ .
- (١١) أعطيت خمسا لم يعطهن نبي ١٢ .
رواه البخاري في التيمم (٢٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١ ، ٥٢٢) والنسائي في الفسل (٤٢٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٢٨٩) وأحمد (١٢٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٢) والترمذي في السير (١٥٥٢) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٢٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس. ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٣٣٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .
- (١٢) لكل سنم وإن سنم القرآن سورة البقرة ١٢ .
رواه الترمذي في تفسير القرآن (٧٨٧٨) من حديث أبي هريرة . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير وضعفه . قلت : وذكره السيوطي في الدر وزاد نسبته لسعيد بن منصور ومحمد بن نصر وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب .

- (١٣) تفسير القرطبي ج ١ صفحة ١٠٢ .
- (١٤) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٢١ .
- (١٥) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٩ .
- (١٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٤٢٨ بتلخيص .
- (١٧) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٠٣ .
- (١٨) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٧٦ .
- (١٩) أي آية في كتاب الله أعظم .. ليهلك العلم أيا للتذرع ١٦ .
رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨١٠) وأبو داود في الصلاة (١٤٦٠) ، وأحمد (٢٠٧٧١) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .
- (٢٠) إن أعظم آية في القرآن آية الكرسي ١٦ .
يشير إلى حديث أبي بن كعب المتقدم .
- (٢١) أعظم آية في القرآن ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ ١٦ .
ذكره السيوطي في الدر وقال : وأخرج ابن مردويه والشيрази في الألقاب والهروري في فضائله .
- (٢٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٨٠ .
- (٢٣) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١١ .
- (٢٤) تفسير الفخر الرازي .
- (٢٥) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٩٠ .
- (٢٦) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١٤ .
- (٢٧) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٩٧ .
- (٢٨) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٠٨ .
- (٢٩) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٤ .
- (٣٠) بارك الله لك فيما أمسكت ٢٨ .
قال السيوطي في الدر : وأخرج الهزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة . قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبي هريرة والأخرى عن أبي سلمة مرسله . قال ولم نسمع أحدا أسنده من حديث عمر بن أبي سلمة إلا طالوت بن عباد ، وفيه عمر بن أبي سلمة ولقنه المجلي وأبو حنيفة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات . .
- (٣١) رخصت عن عثمان فارض ٢٨ .
ذكره الهندي في الكنز (٢٢٨١١) ونسبه لأبي نعمان وابن عساكر . عن أبي سعيد رضي الله عنه .
- (٣٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١٦ .
- (٣٣) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٩ .
- (٣٤) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣١١ .
- (٣٥) حاشية تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢١١ للشيخ أحمد بن المنير .

- (٢٦) الكلمة الطيبة صدقة ٣١ .
رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) وأحمد (٨٠٤٩ ، ٢٧٣٠٠ ، ٢٧٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (٢٧) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٠٩ .
- (٢٨) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٩ .
- (٢٩) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ٢٤ .
رواه مسلم في الإيمان (١٠٦) والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣ ، ٢٥٦٤) وفي البيوع (٤١٥٨) وفي الزينة (٥٢٣٢) وأبو داود في البيوع (٤٠٨٧) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨ ، ٢٠٨١١ ، ٢٠٨٩٥ ، ٢٠٨٩٩ ، ٢٠٩٢٥ ، ٢٠٩٧٠ ، ٢١٠٣٤) والدارمي في البيوع (٢٦٠٥) من حديث أبي ذر . ورواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٩) وفي الشهادات (٢٦٧٢) وفي الأحكام (٧٢١٢) وفي التوحيد (٧٤١٦) ومسلم في الإيمان (١٠٧) والترمذي في السير (١٥٩٥) والنسائي في الزكاة (٢٥٧٥) وفي البيوع (٤٤٦٢) وأبو داود في البيوع (٢٤٧٤) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٠) (٧٣٩٢ ، ٩٨٦٦ ، ٩٨٦٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم رجل خلف على سلمة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل خلف علي يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم ورجل منع فقول الله اليوم أمتك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .
- (٤٠) لا يدخل الجنة مومن خمر ٢٤ .
قال السيوطي في الدر : وأخرج الطبراني وابن مردويه فذكره من حديث ابن عباس . والحديث بهذا النحو روى عن غيره من الصحابة فرواه النسائي في الأشربة (٥٦٧٢) والترمذي في الأشربة (٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو . ورواه أحمد (١٠٨٨٢ ، ١١٣٧٢) أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
- (٤١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣١٢ .
- (٤٢) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢١٨ .
- (٤٣) ورد في تفسير ابن جرير عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، وورد في تفسير ابن كثير . وفي مختصر تفسير ابن كثير تحقيق معتمد على الصابوني ج ١ صفحة ٢٤٠ ، وانظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب الخامس صفحة ٤٦٠ وفيه أيضاً الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٤٤) ما من يوم يصبح فيه المباد إلا ملكان ينزلان ٢٨ .
رواه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .
- (٤٥) لا حصد إلا في اثنين ٢٨ .
رواه البخاري في العلم (٧٣) وفي الزكاة (١٤٠٩) ، وفي الأحكام (٧١٤١) وفي الاعتصام (٧٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ورواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢١) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبي هريرة . ورواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩) مسلم في صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (١٥٣٦ ، ٦٣٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .
- (٤٦) التفسير الوسيط للقرآن الكريم : تفسير سورتي الفاتحة والبقرة للدكتور محمد سيد طنطاوي جامعة بنغازي . صفحة ٧٦٩ .
- (٤٧) سبعة يظلمهم الله في ظله ٤٠ .
رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) وفي الزكاة (١٤٢٣) وفي الرقاق (٦٤٧٩) وفي الحدود (١٨٠٨) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاء (٥٢٨٠) وأحمد (٩٢٧٣) ومالك في الجامع (١٧٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

- (٤٨) صدقة السر تطمئن غضب الرب ٤٠
رواه الترمذى فى الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة (٦٥٨) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . قال المرفاى فى تخريج الإحياء أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة وزواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب والبهيق فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف .. ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف جداً .
- (٤٩) روى ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية ، ونقله ابن كثير عنه فى تفسير هذه الآية .
- (٥٠) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم ٤١ .
قال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن أبى شيبه عن سعيد بن جبير قال رسول الله ﷺ لا تصدقوا إلا على أهل دينكم . فأنزل الله ﷻ عليكم هداهم إلى قوله ﴿وما تفعلوا من خير يوف إليكم﴾ فقال رسول الله ﷺ : تصدقوا على أهل الأديان وقال : وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضيضاء عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﷻ ليس عليكم هداهم إلى آخرها . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سالك من كل دين.
- (٥١) أمرت أن أخذ الصدقة من أغنيائكم ٤١ .
قال فى المجمع : كتاب الإيمان باب منه : وعن رجل من بنى عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أيتلج ؟ فقال ﷺ لخادمته - أخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له فيلق السلام عليكم أدخل ؟ قال : سمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أدخل ؟ قال : فاذن أو قال فدخلت فقلت : بما أتيتان؟ قال : لم أتك إلا بغير أيتكم أن تميدوا الله وحده لا شريك له قال شعبة أحسبه قال وحده لا شريك له وأن تدعوا الثلاث والعزى وأن تصلوا بالنليل والنهار خمس صلوات وأن تصوموا من السنة شهراً وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم قال فقال : هل بقى من الغيب شئ لا تعلمه قال : قد علم الله عز وجل خيراً كثيراً وإن من الغيب ما لا يعلمه إلا الله عز وجل الخمس وإن الله عنده الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﷻ قلت عند أبى داود طرف منه . وقد رواه أحمد وأحمد ورجالهم كاهل ثقات أئمة .
- (٥٢) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ٤٥ بتصريف وتلخيص .
- (٥٣) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٣ .
- (٥٤) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ٣٣٥ . بتصريف يسير .
- (٥٥) الصفة . بضم الصاد وتشديد الفاء . اسم الموضع بناء النبى . صلى الله عليه وسلم . فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم يبكة وماجروا إلى المدينة لإعلام كلمة الله .
- (٥٦) تفسير القرطبى ج ٢ صفحة ٣٣٩ .
- (٥٧) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٦ .
- (٥٨) اتقوا فراسة المؤمن ٤٥
الترمذى فى التفسير (٢١٢٧) وقال : "حديث غريب" .
- (٥٩) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢١٨ .
- (٦٠) تفسير الفخر الرازى ج ٧ صفحة ٨٧ .
- (٦١) ليس المسكين الذى تردد القصة ٤٥ .
البيخارى فى الزكاة (١٤٧١) ومسلم فيها (١٠٢٩) واللسائى فيها (٢٥٧١) والدارمى فيها ٢٧٩/١ والموطأ فى صفة النبى ﷺ ٩٣٢/٢ وأحمد ٣١٦/٢ عن أبى هريرة .
- (٦٢) لا تزال المسألة بأحكام ٤٥ .
مسلم فى الزكاة (١٠٤٠) . وأحمد ٨٨٠ ١٥/٢ . كلاهما عن عبد الله بن عمر ؓ .

- (٦٣) ألا يتأيمون رسول الله ... أن تعبدوا الله ٤٥ .
رواه مسلم في الزكاة باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣) وأبو داود في الزكاة باب كراهية المسألة (١٦٤٢) والنسائي في الصلاة باب البيعة على الصلوات الخمس، وابن ماجه في الجهاد باب البيعة (٢٨٦٧) من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.
- (٦٤) ما حملك على هذا ... لك ذلك ٤٦ .
ذكره القرطبي في "الجامع" وقال : وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت في علي بن أبي طالب .. فتكره .
- (٦٥) إياك والذنوب التي لا تغفر ٤٨ .
قال الميوطي في الدر : وأخرج الطبراني عن عوف بن مالك .. فذكره .
- (٦٦) تفسير الألوسي صفحة ٤٩ .
- (٦٧) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٩٦ .
- (٦٨) تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ صفحة ٣٢ .
- (٦٩) اللهم إني أعوذ بك من التردى ٤٩ .
رواه أبو داود في الصلاة (١٥٥٢) وأحمد (١٥٠٩٧) النسائي في الاستعاذة (٥٥٣١ ، ٥٥٣٢) من حديث أبي اليسر رضي الله عنه.
- (٧٠) الإتيان على الكشاف لابن المنير ج ١ صفحة ٣٢٠ من الكشاف .
- (٧١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٢١ .
- (٧٢) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٥٠ .
- (٧٣) كل ربا في الجاهلية موضوع ٥٠ .
رواه مسلم في الحج في أشاء حديث طويل في صفة حجة ﷺ (١٢١٨) والترمذي في الحج (٨٥٦) رواه في مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود في المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤) وأحمد (١٤٢٥١) والدارمي في المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
- (٧٤) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٢٧ .
- (٧٥) إن الله تعالى يقبل الصدقات ٥٢ .
البخاري في الزكاة (١١١٠) وفي التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٤) ، وأحمد ٣٢١/٢ ، ٤١٩ ، كلهم عن أبي هريرة . ولفظه : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب . ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يأخذها بيمينه فيريها .
- (٧٦) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٣٠ ، بتصريف يسير .
- (٧٧) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ١٠٦ .
- (٧٨) من نفس عن غريمه أو معا عنه ٥٥ .
رواه أحمد (٢٢٠٥٢ ، ٢٢١١٧) والدارمي في البيوع (٢٥٨٩) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
- (٧٩) من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر ٥٥ .
قال الميوطي في الدر : وأخرج الطبراني عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه . قال الهندي في الكنز (١٥٤١٨) : عن عاصم بن عبيد الله بن أسعد بن زرارة ، وهو منقطع وهذا يدخل فيمن أسند عنه من الصحابة الذين ماتوا في حياة النبي ﷺ لأن أسعد بن زرارة مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، قال البغوي : بلنسى أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأول ميت صلى عليه النبي ﷺ . ونحن باليقين وذلك قبل بدر قال الهيثمي في المجمع : رواه الطبراني في الكبير من طريق عاصم بن عبيد الله عن أسعد ، وعاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرارة .

- (٨٠) من أراد أن تستجاب دعوته ٥٥ .
رواه أحمد (١٣٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.
- (٨١) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ٥٤ .
- (٨٢) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢١٧ ، وتفسير المنار ج ٣ صفحة ١٠٦ .
- (٨٣) إنما الريا في النسبة ٥٦ .
- البخاري في البيوع (٢١٧٨ ، ٢١٧٩) ومسلم في المساقاة (١٥٩٦) والنسائي في البيوع (٤٥٩١) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
- (٨٤) الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل ٥٦ .
رواه مسلم في المساقاة (١٥٨٧) وأبو داود في البيوع (٢٣٤٩) ، كلاهما عن عبادة بن الصامت .
- (٨٥) الذهب بالذهب والفضة بالفضة ٥٦ .
رواه البخاري في البيوع (٢١٧٠) ومسلم في المساقاة (١٥٨٦) وأبو داود في البيوع (٢٣٤٨) والترمذي في البيوع (١٢٤٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائي في البيوع (١٥٥٨) وابن ماجه في التجارات (٢٢٥٣) والدارسي في البيوع ٢/٢٥٨ . كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
- (٨٦) تفسير آيات الأحكام بتصرف وتلخيص . للشيخ محمد علي السائيس ج ١ صفحة ١٦١ .
- (٨٧) اجتنبوا السبع الموبقات ٥٦ .
رواه البخاري في الوصايا ٣٣٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٨٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١ ، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (٨٨) لمن رسول الله أكل الريا ٥٦ .
رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨) من حديث جابر بن عبد الله . ورواه مسلم في المساقاة (١٥٩٧) عن عبد الله قال لمن رسول الله ﷺ أكل الريا ومؤكله قال قلت وكان به وشاهديه قال إنما نحدث بها سمعنا ، وأبو داود في البيوع (٢٣٣٢) والنسائي في الطلاق (٢٤١٦) وابن ماجه في التجارات (٢٢٧٧) وأحمد (٣٧١٧ ، ٣٧٢٩ ، ٣٧٩٩ ، ٣٨٧١ ، ٤٠٧٩ ، ٤٢٧١ ، ٤٢٧٢ ، ٤٣١٥ ، ٤٣٨٩) والترمذي في البيوع (١٢٠٦) وقال : حديث عبد الله حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في الزينة (٥١٠٣) ، وأحمد (٦٣٦ ، ٨٤٦ ، ٩٨٢ ، ١٢٩١ ، ١٣٦٨) من حديث علي . ورواه البخاري في البيوع (٢٠٨٦ ، ٢٢٢٨) ، وفي المطلق (٥٣٤٧) وفي اللباس (٥٩٤٥ ، ٥٩٦٢) عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال لمن النبي ﷺ الواشمة والمستوشمة أكل الريا ومؤكله ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغي ولمن المسورين . قلت : لفظه : وكتابه وشاهديه فيه نظر . والصحيح مع الحديث هو : لمن رسول الله ﷺ أكل الريا ومؤكله .
- (٨٩) من أسلف فيسلف في كيل معلوم ٥٧
البخاري في السلم (٢٢٤٠) ومسلم في المساقاة (١٦٠٤) وأبو داود في البيوع (٢٤٦٣) ، كلهم عن ابن عباس .
- (٩٠) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٣٧٧ .
- (٩١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٢٤ .
- (٩٢) تعين صانعاً وتصنع لأخرق - الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله .
رواه مسلم في الإيمان (١٣٦) عن أبي ذر : قال : قلت : يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل؟ قال : « الإيمان بالله ، والجهاد في سبيله » قال قلت : أي الرقاب أفضل؟ قال : « أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمناً » قال قلت : فإن لم أفعل؟ قال : « تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » قال قلت : يا رسول الله ! أرايت إن ضمنت عن بعضي العمل؟ قال : « تكف شرك من الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك » .

- (٩٣) من كتم علماً يعلمه ٥٩ .
رواه أبو داود في العلم (٣٦٥٨) والترمذي في العلم (٣٦٤٩) وابن ماجه في المقدمة (٢٦٦) وأحمد (١٠٢١٩ ، ١٠١٠٩) من حديث أبي هريرة ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (٣٦٤) من حديث أنس . ورواه ابن ماجه أيضاً في المقدمة (٣٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
- (٩٤) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٨٥ .
- (٩٥) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٥٧ .
- (٩٦) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٩٧ .
- (٩٧) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٧٧ .
- (٩٨) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٤٠٧ .
- (٩٩) رهن درعه عند يهودي ٦٤ .
رواه البخاري في البيوع (٢٢٠٠) وفي الرهن (٢٥٠٩) من حديث عائشة . ورواه البخاري في الرهن (٢٥٠٨) وابن ماجه في الأحكام (٢٤٢٧) من حديث أنس رضي الله عنه .
- (١٠٠) تفسير النسفي ج ١ صفحة ١٤٢ .
- (١٠١) الا إن في الجمد مضنة ٦٥ .
رواه البخاري في الإيمان ج ٥٠ . ومسلم في المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجه في الفتن ح ٢٩٧٤ ، والدارمي في البيوع ح ٢٤١٩ .
- (١٠٢) إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست ٦٦ .
رواه البخاري في الأيمان والندور (٦٦٦٤) ، ومسلم في الأيمان (١٢٧) ، كلاهما عن أبي هريرة .
- (١٠٣) إن الله كتب الحسنات والسيئات ٦٦ .
رواه البخاري في الرقاق ح ١٠١٠ ومسلم في الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٢٢٢٨ . من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
- (١٠٤) وقد وجدتموه ... ذلك صريح الايمان ٦٦ .
رواه مسلم في الإيمان (١٢٢) من حديث ابن مسعود . وأحمد ح ٢٢٥/١ وأبو داود في الأدب (٥١١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (١٠٥) يدين المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ٦٦ .
رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٤) ومسلم في التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجه في المقدمة (١٨٣) . كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه .
- (١٠٦) تفسير الألوسي ٦٤/٣ .
- (١٠٧) يراجع في هذا الموضوع كتاب الإنسان بين المادية والإسلام وكتاب معركة التقاليد لـ محمد قطب .
- (١٠٨) ظلال القرآن بقلم سيد قطب المجلد الأول ، طبعة دار الشروق . ج ١ ص ٣٢٨ .
- (١٠٩) نقلًا عن تفسير المقاسمي ج ٣ صفحة ٧٧٨ .
- (١١٠) يسروا ولا تسبوا ٦٩ .
رواه البخاري في الأدب (٦١٢٤) ومسلم في الأشربة (١٧٣٣) البخاري في المغازي (٤٣١٤ ، ٤٣٤٢) من أبي بردة . والدارمي في المقدمة ٧٣/١ عن ابن عمر بنحوه .
- (١١١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني صفحة ٣١٢ .

- (١١٢) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٧١ .
- رواه البخاري في المغازي (٤٠٠٨) وفي فضائل القرآن (٥٠١٠ ، ٥٠٤٠ ، ٥٠٥١) ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٧ - ٨٠٨) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٨١) وأبو داود في الصلاة (١٢٩٧) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٣٨ ، ١٢٩٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.
- (١١٣) لا تجلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر ٧١ .
- رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٠) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) وقال : "هذا حديث حسن صحيح . وأحمد ٢/٢٨٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ثلاثه من أبي هريرة .
- (١١٤) لكل شئ شأن ، وإن شأن القرآن ٧١ .
- تقدم صفحة ١٣ .
- (١١٥) انظر تفسير القاسمي : ١/٣٣٢ .
- (١١٦) إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور ٨٠ .
- رواه ابن ماجه في الدعاء (٢٨٥٦) عن القاسم : قال : اسم الله الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، في سور ثلاث : البقرة وآل عمران وطه .. وقال الميوسقي في الدر : وأخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء والطبراني وابن مردويه والهروي في فضائله والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي أمامة يرفعه قال : اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث سور : سورة البقرة ، وآل عمران . وطه ، قال أبو أمامة : فالتسمتها فوجدت في البقرة في آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ (آل عمران ٢) وفي طه ﴿وعزت الوجود للحي القيوم﴾ (طه الآية ١١١) . وقال أيضاً : وأخرج ابن جريج وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿الم﴾ و﴿حم﴾ و﴿طس﴾ : قال : هو اسم الله الأعظم . وقال أيضاً : وأخرج عثمان بن سعيد الدارمي وابن ماجه وابن جرير ، عن خاتمة بنت علي قالت : كان ابن عباس يقول في ﴿كهيعص﴾ و﴿حم﴾ و﴿يس﴾ وأشياء هذا . هو اسم الله الأعظم . قال المتأولي في فيض القدير : وقد اختلف في الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً أفردها المصنف وغيره بالتأليف . قال ابن حجر وأرجحها من حيث السند الله لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .
- (١١٧) تفسير القاسمي ج ٤ صفحة ٧١٩ .
- (١١٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الأزهر الحزب الخامس صفحة ٥١٣ .
- (١١٩) هي التكوين والخروج والولدين والعد والتثنية .
- (١٢٠) هي إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا .
- (١٢١) أبو الأعلى المودودي تفهم القرآن الجزء الأول من الفاتحة إلى آل عمران تعريب أحمد إدريس ٢٠١٠ .
- (١٢٢) قال أبو السعود محمد بن محمد العماد المتوفى سنة ٩٥١هـ في تفسيره ج ٢ صفحة ٦ ما يأتي :-
- (والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسماء التقوية للحكم وكلمة هي متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ مؤكدة لعمومة المستفاد من وقوعه في (سباق النفي ، أي لا يخفى عليه شئ ما كان في الأرض ولا في السماء ، أعني ما أن يكون ذلك بطريق الاستقراء فيها أو الجزئية منها وقيل متعلقة بيقضي ، وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنها قطران وتقدم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفي بينهما للدلالة على الطريق من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا للمستعنيين للتقارب بالنسبة إلى علوئنا) .
- (١٢٣) نص الآيات هو : **قُلْ نَعَالِيهِمْ أَلَمْ يَحَرِّمْ رَبُّكُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالَّذِينَ آمَنُوا فَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِسْلَاقِ بَحْنٍ نَزَوْتُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذُكِّرَكُمْ عَنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأُولُوا الْكَيْفَالِ وَالْيَمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْفُلْ نَفْساً إِلَّا رُسْمُهَا وَإِذَا قُتِلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ أَنَّا ذُوقْنَا مِنْهُمْ الْعَذَابَ أَوْ لَوْ أَنَّ ذُكِّرْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) وَهَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذُكِّرَكُمْ عَنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْجَوْنَ (١٧٢) وَالْأَنْعَامَ (١٧٣) .**

- (١٢٤) تفسير المازي : ١٣٦/٢ . وهذه الأربعة ذكرها الرازي في تفسيره .
- (١٢٥) تفسير المازي : ١٠٠/٢ .
- (١٢٦) وهو التنكير المعنى والتدبر في الآيات .
- (١٢٧) د . عبد الله شحاتة ، علوم القرآن ، والتفسير ، دار الاعتصام : صفحة ٢٨٥ .
- (١٢٨) المثل والنحل : ١١٨/١ .
- (١٢٩) إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله ٨٨ .
- رواه مسلم في العلم (٣٦٦٦) ، وأحمد ١٨٥/٢ .
- (١٣٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبي ٨٩ .
- الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجه في الدعاء (٢٨٢٤) كلاهما عن أنس ، وأحمد ١٨٢/٤ عن الثواس بن سيمان والحاكم في المستدرک ٢٨٨/٢ .
- (١٣١) أخرجه البخاري في كتاب المغازی باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومغبره إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم .
- (١٣٢) ورد ذلك في البخاري ، في كتاب المغازی ، وفي كتاب السير .
- (١٣٣) الولد مجيبة مبخلة ٩٤ .
- رواه ابن ماجه في الأدب (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامري في الزوائد : إسناده صحيح . رجاله ثقات .. وقال الهيثمي في المجمع : الولد شمة القلب ، وإنه مجيبة مبخلة محزنة رواه أبو يعلى واليزار وفيه عطية المعوف وهو ضعيف . إن الولد مبخلة مجبهة روى البزار ورجاله ثقات . إن الولد مبخلة مجبهة وإن آخر وصلة ومثلها الله بوج . قلت رواه ابن ماجه غير ذكر بوج . رواه أحمد والطبرانی إلا أنه قال آخر وصلة ومثلها رب العالمين ، ورجالهما ثقات .
- (١٣٤) لو كان لابن آدم واديان ٩٤
- رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم في الزكاة (١٠٨٤) والترمذي في الزهد (٣٣٣٧) وأحمد (١١٨١٩) عن أنس . ومسلم فيما تقدم (١٠٥٠) من حديث أبي الأسود .
- (١٣٥) تفسير القاسمي : ٨٠٦/٤ .
- (١٣٦) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ٩٧ .
- رواه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم في الجنة (٧٨٢٩)
- (١٣٧) إن ثلاثة آراهم المنيث إلى غار - حديث أصحاب الغار - ٩٧ .
- رواه البخاري في الإجارة (٢٧٢٧) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣) وأبو داود في البيوع (٣٢٨٧) وأحمد في مسنده (٥٩٣٧) من حديث ابن عمر .
- (١٣٨) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة ٩٨ .
- رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥) ، وفي النعوات (٦٣٢١) ، وفي التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك في الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥) وفي السنة (٤٣٢٢) ، والترمذي في الصلاة (٤٤٦) ، وفي الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارسي في الصلاة (١٤٧٨) ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٥٧ ، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٧٧٣٢ ، ٨٧٥١ ، ٩٤٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ١١٦٢٠) من حديث أبي هريرة ورواه الدارسي في الصلاة (١١٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٢ ، ١٦٣٠٣) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهني ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارسي في الصلاة (١٤٨٣) من حديث علي رضي الله عنه .

(١٣٩) تفسير القاسمي : ٨٠٩/٤ .

(١٤٠) تفسير القاسمي : ٨١١/٤ .

(١٤١) التفسير الوسيط . مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٣٦ .

(١٤٢) تفسير أبي السعود : ١٨/٢ .

(١٤٣) أعطيت خمسا .. جعلت لى الأرض ١٠٣

رواه البخارى فى التيمم ح ٣٢٢ ، وفى الصلاة ح ٤١٩ ، ومسلم فى المساجد ح ٨١٠ ، وأحمد ح ٣٦٠٦ ، والنسائى فى التمس والتميم ح ٤٢٩ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٣٥٣ ، وفى السير ح ٣٣٥٨ .

(١٤٤) رجلاً قتل نبياً ١٠٣ .

قال المصطفى فى الدر : وأخرج أحمد عن ابن مسعود . أن رسول الله ﷺ قال " أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي . وإمام شاذلة وممثل من المثلين " أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عبيدة بن الجراح قال " قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبياً ، أو رجل أمر بالترك ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً أول النهار فى ساعة واحدة . فقام مائة وسبعون رجلاً من عبيد بنى إسرائيل . فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر . فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم . فهم الذين ذكر الله " ذكره فى المجمع من حديث ابن مسعود : روى الطبرانى فى الكبير وفى الصحيح منه قصة المصور وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف . وقال فى موضع آخر : روى الطبرانى وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس . وبقية رجاله ثقات . ورواه البزار إلا أنه قال وإمام شاذلة . ورجاله ثقات . وكذلك روى أحمد . وذكره من حديث أبي عبيدة قال : روى البزار وفيه ممن لم أعرفه ثتان .

(١٤٥) تفسير أبي السعود : ١٩/٢ .

(١٤٦) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٣٨٢/١ مطبعة دار الشروق .

(١٤٧) تفسير أبي السعود : ٢٠/٢ .

(١٤٨) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ١٠٤ .

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٤) والترمذى فى الفتن (٢١٧٤) وابن ماجه فى الفتن (٤١١١) وأحمد فى مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبي سعيد . وقال الترمذى : حديث غريب . ورواه النسائى فى البيعة (٤٢٠٩) وأحمد فى مسنده (١٨٣٤٩) . (١٨٣٥١) من حديث طارق بن شهاب . ورواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠١٢) وأحمد فى مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبي أمامة .

(١٤٩) على ملة إبراهيم ودينه ١٠٥ .

قال المصطفى فى الدر : أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء رافع بن حارثة . وسلام بن مشكم . ومالك بن الصنف . ورافع بن حرملة . قالوا : يا محمد الست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه . وتؤمن بما عندنا من التوراة . وتشهد أنها من حق الله ؟ فقال النبي ﷺ بلى . ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق . كنتم منها ما أمرتم أن تبيئوا للناس فبرئتم من أحداكم . قالوا : فإننا نأخذ مما فى أيدينا فإننا على الهدى والحق ولا تؤمن بك ولا تنيك . فانزل الله فيهم ﴿ قل يا أهل الكتاب استمعوا على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ إلى قوله ﴿ القوم الكافرين ﴾ . أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " دخل رسول الله ﷺ بيت المدارس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له التمان بن عمرو . والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم . فأبيا عليه . فانزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿ وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾ .

(١٥٠) جاء فى مختار الصحاح مادة ح م م .

(حمة تمحيماً) سغم وجهه بالقحم .

والحميم الماء الحار . وقد (استحم) أى اغتسل بالحميم هذا هو الأصل . ثم صار كل اغتسال استعمالاً بأى ماء كان .

- (١٥١) كيف تعملون بن زنا .. رجم اليهوديين ١٠٥
ذكره الهندي في الكنز (١٢٥٤٩) ونسبه لعبد الرزاق .
- (١٥٢) أؤتد رأيت يا سلمان .. أضافت لي منها قصور الشام ١٠٨
رواه في المجمع بن حديث ابن عباس وقال : رواء الطبراني ورواه رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم الغنبري وهما قهتان . وقال السيوطي في الدر : وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طريق كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده .. فنكره .
- (١٥٣) أي أعطاهم مالاً قليلاً في مقابل معونتهم .
- (١٥٤) كان عبادة بن الصامت بدرياً نقيباً ، وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال عبادة يا نبي الله ، إن معي خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معي فاستظهر بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... الآية .
- (١٥٥) ورد هذا المعنى في تفسير الزمخشري للآية .
- (١٥٦) تكشر : نيش ، وتنبسم .
- (١٥٧) إنا لنكشر في وجوه أقوام ١١٢ .
ذكره البخاري تعليقاً في الأدب باب المداواة مع الناس قال : وينكر عن أبي الدرداء : إنا لنكشر في وجوه أقوام ، وإن قلوبنا لتلتهم .
- (١٥٨) لا يؤمن أحدهم حتى يكون هواه تبهاً لما جئت به ١١٤ .
البخاري في شرح السنة (٢١٣/١) والخطيب في تاريخ بغداد ٢٦٩/٤ ، وذكر ، ابن رجب الحنبلي حديث ٤١ ، وقال : حسن صحيح . واستشهد بها التلوي في فضي القدير وقال : أخرجه الحسن بن سفيان وغيره قال ابن حجر ورواه ثقات وصححه النووي في الأربعين وذكره الهندي في كنز العمال (١٠٨٤) ونسبه للحكيم وأبو نصر السجزي في الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو .
- (١٥٩) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ١١٤ .
رواه مسلم في الأفضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤ ، ٢٤٩٤٤ ، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخاري في باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبي أوفى التاجي أكل ربا خائن وهو خداع بامل لا يحل قال النبي ﷺ : الخديعة في النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقاً .
- (١٦٠) ثلاث من كن فيه وجد ١١٤ .
البخاري في الإيمان (١٦ ، ٢١) ، ومسلم في الإيمان (٤٢) ، والنسائي في الإيمان (٤٩٨٨) ، كلهم عن أنس بن مالك رضى الله عنه .
- (١٦١) إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ١١٤ .
البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧) .
- (١٦٢) التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٥٤ بتصريف واختصار .
- (١٦٣) أتا دعوة أبي إبراهيم ١١٦ .
رواه أحمد في مسنده (١٦٧٠٠ ، ١٦٧١٢) من حديث عرياض بن سارية . ورواه (٢١٧٥٨) من حديث أبي أمامة .
- (١٦٤) ولد لي ولداً سميت باسم أبي إبراهيم ١١٧ .
أخرجه مسلم في الفضائل (٣٢١٥) وأبو داود في الجنائز (٣١٢٦) وأحمد (١٣٠٢) .
- (١٦٥) كل بني آدم يمسه شيطان يوم ولادته ١١٧ .
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٢٣٤١) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٦) وأحمد (٧٨١٩ ، ٧٨٥٥ ، ٨٠٥٧) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

- (١٦٦) تفسير القاسمي : ٨٤٢/٤ .
- (١٦٧) الاستهلام : إجراء القرعة .
- (١٦٨) كان إذا أراد السفر أقرع ١٢٣ .
- البخاري في الهبة (٢٥٩٢) وفي الشهادات (٣٦٦١ ، ٣٦٦٨) وفي الجهاد (٢٨٧٩) وفي المغازي (٤١٤١) وفي التفسير (٤٥٧٠) وفي النكاح (٥٢١١) ومسلم وفي فضائل الصحابة باب في فضل عائشة (٢٤٤٥) وفي التوبة (٢٧٧٠) ، وأبو داود في النكاح باب في القسم بين النساء (٢١٢٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧٠) وفي الأحكام باب القضاء بالقرعة (٣٣٤٧) والشافعي في مسنده (٧٨) والدارمي في النكاح (٢٢٠٨) وفي الجهاد (٢٤٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .
- (١٦٩) هذه الأحكام مستقاة من تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٠٠/١ بتصرف وتلخيص .
- (١٧٠) "رب أعنى ولا تمن على " ١٣١ .
- الترمذي في الدعوات (٢٥٥١) وأبو داود في الصلاة (١٥١٠) وابن ماجه في الدعاء (٢٨٢٠) وأحمد (١٩٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .
- (١٧١) القلاص : جمع قلووس ، وهي الناقطة الشابة .
- (١٧٢) "وَالله لينزلن ابن مريم حكماً " ١٢٢ .
- رواه مسلم في الإيمان (١٥٥) وأحمد (١٠٠٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
- (١٧٣) "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم " ١٢٢ .
- والحديث رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥)
- أي أن عيسى لن يأتي بشرع جديد ينسخ به شريعته بل ينزل داعياً للإسلام الذي نزل على محمد . صلى الله عليه وسلم . وهو دعوة جميع الأنبياء . ومعنى وإمامكم منكم أن قبيلة المسلمين ستكون بأيديهم وقادهم واحد منهم .
- (١٧٤) انظر تفسير المنار : ١٦١/٣ . وقد نقل هذا الكلام أحمد مصطفى المراغي في تفسير المراغي : ١٦٩/٣ . ولم ينسبه إلى المنار .
- (١٧٥) تفسير المنار ٣/٢٦١ .
- (١٧٦) التفسير الواضح د . محمد محمود حجازي : ٦٤/٣ .
- (١٧٧) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات ١٢٤ .
- رواه مسلم في البر (٢٥٧٨) من حديث أبي هريرة . وأحمد (٥٦٢٩ ، ٦١٧١) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .
- (١٧٨) انظر القرطبي ، وابن كثير ، وقد ورد هذا المعنى في رواية أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي حتمن صحيح . وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصاوي ١/٢٨٩ ، كما روى في صحيح ومسلم وغيرهما .
- (١٧٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني : ٢٨٩/١ .
- (١٨٠) راجع سفر الخروج فقرة ١٦٠ ١٦٠٠ راجع سفر أشعيا فقرة ٩ .
- (١٨١) أما كانوا يعلمون لهم الحرام ١٢٩ .
- رواه الترمذي في التفسير (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغليف بن عيين ليس بمعروف في الحديث .
- (١٨٢) من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ١٣٩ .
- رواه البخاري في بدء الوحي (٧) وفي الجهاد (٢٩٤١) وفي التفسير (٤٥٥٣) وفي الاستئذان (٦٢٦١) ومسلم وفي الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود في الأدب (٥١٣٦) والترمذي في الاستئذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

- (١٨٣) تفسير المراغي : ١٨١/٣ .
- (١٨٤) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٣٧٤ .
- (١٨٥) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٣٧٤ .
- (١٨٦) تفسير المنار وانظر باب النقول في أسباب النزول للسيوطي ففيه روايات أخرى في سبب نزول الآية .
- (١٨٧) تفسير ابن كثير .
- (١٨٨) "كذب أعداء الله" ١٤٦ .
- قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سماعيل بن جبيرة قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ .. فذكره .
- (١٨٩) "اد الأمانة إلى من ائتمنك" ١٤٦ .
- أبو داود في البيوع (٣٥٣٥) والترمذي في البيوع (١٣٦٤) وقال : «هذا حديث حسن غريب» .
- (١٩٠) "لا إيمان لمن لا أمانة له" ١٤٧ .
- رواه أحمد في مسنده (١١٩٧٥) ، ١٢١٥٧ ، ١٣٧٨٧ ، (١٣٢٢٥) من حديث أنس بن مالك .
- (١٩١) "أربع من كن فيه" ١٤٧ .
- رواه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٥٨) عن عبد الله بن عمرو .
- (١٩٢) "ثلاث من كن فيه كان منافقاً .. آية المنافق ثلاث" ١٤٧ .
- يشير إلى رواية : آية المنافق ثلاث ، أخرجها البخاري في الإيمان (٣٣) وفي الشهادات (٢٨٢) وفي الوصايا (٢٧٤٩) وفي الأدب (٦٠٩٥) ومسلم في الإيمان (٩٥) والترمذي في الإيمان (٢٦٣١) وأحمد (٨٤٧٠) .
- (١٩٣) "من حلف على يمين هو فيها فاجر" ١٤٧ .
- رواه البخاري في المساقاة (٢٣٥٧) وفي الخصومات (٢٤١٧) وفي الرهن (٢٥١٦) وفي الشهادات (٢٦٦٧ ، ٢٦٧٣ ، ٢٦٧٧) وفي التفسير (٤٥٥٠) وفي الإيمان والنذور (٦٦٥٩ ، ٦٦٦٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٨) وأبو داود في الإيمان (٢٢٤٣) والترمذي في البيوع (١٣٦٩) وفي التفسير (٢٩٩٦) وابن ماجه في الأحكام (٣٣٢٣) وأحمد (٣٥٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .
- (١٩٤) "إنكم تختصمون إلي" ١٤٨ .
- رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأفضية (١٧١٣) ، وأبو داود في الأفضية (٣٥٨٣) ، والترمذي في الأحكام (١٣٣٩) وقال : «حديث حسن صحيح» وابن ماجه في الأحكام (٣١٧) ، ومالك في الموطأ ٧/٢ .
- (١٩٥) "معاذ الله أن نعيد غير الله" ١٥٠ .
- قال السيوطي في الدر : أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحزاب من اليهود والنصارى .. فذكره .
- (١٩٦) "لا ولكن أكرموا نبيكم" ١٥١ .
- قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : "بلغني أن رجلاً " .
- (١٩٧) أي بنو ضرات .
- (١٩٨) الأنبياء بنو علات ١٥٢ .
- رواه مسلم في السلام باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) بإلفاظ : الأنبياء أولاد علات ، وليس بيني وبينه نبي ، ورواه البخاري في الأنبياء (٢٤٤٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

- (١٩٩) كلا الفريقين يرى من دين إبراهيم ١٥٣ .
ذكره القرطبي في الجامع .
- (٢٠٠) والذي نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ١٥٤ .
رواه أحمد (١٥٤٣ ، ١٧٨٧١) من حديث عبد الله بن ثابت . وذكره الهندي في الكنز (١٠١١) ونسبه لابن سعد وأحمد والحاكم في
الكنى والطبراني والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن ثابت الأنصاري . قال الهيثمي في الجمع : رواه أحمد والطبراني ورجاله رجال
الصحيح إلا أن فيه جرير الجعفي وهو ضعيف .
- (٢٠١) تفسير المنار : ٢٩٩/٢ .
- (٢٠٢) أخرجه البزار . قال ابن كثير في إسناده جيد .
- (٢٠٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ ١٥٧ .
الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧) وقال : "حديث حسن غريب" . وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢) وقال البيهقي في الزوائد : "في إسناده
الوليد بن مسلم ، وهو مدلس . وقد عنفنه . وكذلك مكحول النمشقي " . وأحمد ١٣٢/٢ ، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر رضي الله عنهما .
- (٢٠٤) تفسير القاسمي ج ٤ صفحة ٨٨٥ بتصريف واختصار .
- (٢٠٥) يقال للرجل يوم القيامة : آرايت إن كان مالك ما على الأرض ١٥٨ .
رواه البخاري في الأنبياء باب : قول الله تعالى (٢١٥٦) وفي الرقاق باب : من توفق الحساب عذب (٦١٧٣) وباب : صفة الجنة والنار
(٦١٨٩) ومسلم في صفة القيامة باب طلب الكافر الفداء (٢٨٠٥) وأحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .
- (٢٠٦) تفسير القاسمي : ج ٤ صفحة ٨٨٨ بتصريف .
- (٢٠٧) إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي ١٥٩ .
رواه مسلم في الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٣٦٥) عن عائشة قالت " قلت يا رسول الله : إن ابن
جدعان ، كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال " لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم
الدين " وكذلك رواه أحمد .
- (٢٠٨) بلغ ذلك مال رابع ١٦٠ .
رواه البخاري في الزكاة (١٤٦١) وفي الوصايا (٣٧٦٩) وفي التفسير (١٥٥٥) وفي الأشربة (٥٦١١) ومسلم في الزكاة (٩٩٨) وأحمد
(١٢٠٣٠) ومالك في الجامع (١٨٧٥) والدارمي في الزكاة (١٦٥٥) "وبير جاء" ، روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها مع اللد والقصر
وهو اسم حديقة بالمدنية . وفي الفائق أنها فيعلم من الرجاء وهو الأرض الظاهرة وفي كتاب في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بير
(حاء) وهو تصحيف وتحريف .
- (٢٠٩) أحبس الأصل وأسبل الثمرة ١٦٠ .
رواه النسائي في الأحباس (٣٦٠٣ ، ٣٦٠٤ ، ٣٦٠٥) وابن ماجه في الأحكام (٣٣٩٧) وأحمد (٥٩١١ ، ٦٤٢٤) من حديث ابن عمر
رضي الله عنهم جميعاً .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث
بحمد الله وبها تم الجزء الثالث

محتويات الكتاب

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	أولاً : سورة البقرة	
٢٥٣	﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾	٤٣٩
٢٥٤	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا ﴾	٤٤٥
٢٥٥	﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾	٤٤٧
٢٥٦	﴿ لا إكراه فى الدين ﴾	٤٥١
٢٥٧	﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾	٤٥٣
٢٥٨	﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾	٤٥٤
٢٥٩	﴿ أو كالذى مرّ على قرية ﴾	٤٥٧
٢٦٠	﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى ﴾	٤٥٧
٢٦١	﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٣
٢٦٢	﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٣
٢٦٣	﴿ قول معروف ومغفرة ﴾	٤٦٦
٢٦٤	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم ﴾	٤٦٦
٢٦٥	﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٩
٢٦٦	﴿ أيودّ أحدكم ﴾	٤٦٩
٢٦٧	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا ﴾	٤٧١
٢٦٨	﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾	٤٧٢
٢٦٩	﴿ يؤتى الحكمة من يشاء .. ﴾	٤٧٣
٢٧٠	﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾	٤٧٤
٢٧١	﴿ إن تبدوا الصدقات فتعمّا هى ﴾	٤٧٥
٢٧٢	﴿ ليس عليك هدام ﴾	٤٧٧
٢٧٣	﴿ للفقراء الذين أحصروا ﴾	٤٧٧
٢٧٤	﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٧٧
٢٧٥	﴿ الذين يأكلون الربا ﴾	٤٨٤
٢٧٦	﴿ يمحى الله الربا ﴾	٤٨٤
٢٧٧	﴿ إن الذين آمنوا ﴾	٤٨٤
٢٧٨	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾	٤٨٤

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٢٧٩	﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ ﴾	٤٨٤
٢٨٠	﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾	٤٨٤
٢٨١	﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ ﴾	٤٨٤
٢٨٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ ﴾	٤٩٥
٢٨٣	﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾	٥٠٣
٢٨٤	﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾	٥٠٤
٢٨٥	﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾	٥٠٧
٢٨٦	﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾	٥٠٨
	أمهات المسائل الواردة في سورة البقرة	٥١٢
	ثانيًا : تفسير سورة آل عمران	٥١٥
	سورة آل عمران	٥١٦
	من أهداف لتسوية آل عمران	٥١٧
١	﴿ اَلَمْ ﴾	٥١٨
٢	﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾	٥١٨
٣	﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾	٥١٨
٤	﴿ مِنْ قَبْلِ هَدَى لِلنَّاسِ ﴾	٥١٨
	التوراة والإنجيل	٥٢١
٥	﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴾	٥٢٢
٦	﴿ هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ ﴾	٥٢٢
٧	﴿ هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾	٥٢٣
	المحكم والمتشابه	٥٢٤
	صفات الله	٥٢٧
٨	﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ هُلُوبَنَا ﴾	٥٢٨
٩	﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ﴾	٥٢٨
١٠	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُفْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾	٥٢٩
١١	﴿ كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾	٥٢٩
١٢	﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	٥٣١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
١٣	﴿ قد كان لكم آية ﴾	٥٣١
١٤	﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾	٥٣٣
١٥	﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾	٥٣٦
١٦	﴿ الذين يقولون ربنا ﴾	٥٣٦
١٧	﴿ الصابرين والصادقين ﴾	٥٣٦
١٨	﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾	٥٣٨
١٩	﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾	٥٤٠
٢٠	﴿ فإن حاجوك ﴾	٥٤٠
٢١	﴿ إن الذين يكفرون ﴾	٥٤٤
٢٢	﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾	٥٤٤
٢٣	﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا ﴾	٥٤٥
٢٤	﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار ﴾	٥٤٥
٢٥	﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾	٥٤٥
٢٦	﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾	٥٤٨
٢٧	﴿ تولج الليل في النهار ﴾	٥٤٨
٢٨	﴿ لا يتخذ المؤمنون ﴾	٥٥١
٢٩	﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم ﴾	٥٥٤
٣٠	﴿ يوم تجد كل نفس ﴾	٥٥٤
٣١	﴿ قل إن كنتم تحبون الله ﴾	٥٥٥
٣٢	﴿ قل أطيعوا الله ﴾	٥٥٥
٣٣	﴿ إن الله اصطفى آدم ﴾	٥٥٦
٣٤	﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾	٥٥٦
٣٥	﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾	٥٥٨
٣٦	﴿ فلما وضعتها قالت ﴾	٥٥٨
٣٧	﴿ فتقبلها ربها ﴾	٥٥٩
٣٨	﴿ هنالك دعا زكريا ﴾	٥٦١
٣٩	﴿ فتداته الملائكة ﴾	٥٦١
٤٠	﴿ قال رب أنى يكون لى غلام ﴾	٥٦١

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٤١	﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾	٥٦١
٤٢	﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾	٥٦٤
٤٣	﴿ يا مريم اقنتى لربك ﴾	٥٦٤
٤٤	﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾	٥٦٤
٤٥	﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم ﴾	٥٦٦
٤٦	﴿ ويكلم الناس فى المهد ﴾	٥٦٦
٤٧	﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ﴾	٥٦٦
٤٨	﴿ ويعلمه الكتاب ﴾	٥٦٩
٤٩	﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾	٥٦٩
٥٠	﴿ ومصدقا لما بين يدى ﴾	٥٦٩
٥١	﴿ إن الله ربي وربكم ﴾	٥٦٩
٥٢	﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾	٥٧٢
٥٣	﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾	٥٧٢
٥٤	﴿ ومكروا ومكر الله ﴾	٥٧٢
٥٥	﴿ إذ قال الله يا عيسى ﴾	٥٧٤
٥٦	﴿ فأمّا الذين كفروا ﴾	٥٧٤
٥٧	﴿ وأمّا الذين آمنوا ﴾	٥٧٤
٥٨	﴿ ذلك نتلوه عليك ﴾	٥٧٤
٥٩	﴿ إن مثل عيسى ﴾	٥٧٨
٦٠	﴿ الحق من ربك ﴾	٥٧٨
٦١	﴿ فمن حاجك فيه ﴾	٥٧٨
٦٢	﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾	٥٧٨
٦٣	﴿ فإن تولوا فإن الله ﴾	٥٧٨
٦٤	﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا ﴾	٥٨١
٦٥	﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون ﴾	٥٨١
٦٦	﴿ ها أنتم هؤلاء حاجتكم ﴾	٥٨١
٦٧	﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ﴾	٥٨١
٦٨	﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾	٥٨١

رقم الآية	الآية المفصلة	رقم الصفحة
٦٩	﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ ﴾	٥٨٤
٧٠	﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ ﴾	٥٨٤
٧١	﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ﴾	٥٨٤
٧٢	﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	٥٨٦
٧٣	﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾	٥٨٦
٧٤	﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾	٥٨٦
٧٥	﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ ﴾	٥٨٨
٧٦	﴿ بَلَىٰ مِنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ ﴾	٥٨٨
٧٧	﴿ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾	٥٩١
٧٨	﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾	٥٩٢
٧٩	﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ ﴾	٥٩٣
٨٠	﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ ﴾	٥٩٣
٨١	﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾	٥٩٦
٨٢	﴿ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾	٥٩٦
٨٣	﴿ أَغْفِرَ دِينَ اللَّهِ ﴾	٥٩٨
٨٤	﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾	٥٩٨
٨٥	﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ﴾	٥٩٨
٨٦	﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا ﴾	٦٠٠
٨٧	﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾	٦٠٠
٨٨	﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾	٦٠٠
٨٩	﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾	٦٠٠
٩٠	﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾	٦٠١
٩١	﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾	٦٠١
٩٢	﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُتَفَقَّحُوا ﴾	٦٠١
	خَتَامُ الْجُزْءِ الثَّالِثِ	٦٠٥
	تَخْرِيجُ أَحَادِيثِ وَهَوَاشِ الْجُزْءِ الثَّالِثِ	٦٠٧
	الْقَهْرُسُ	٦٢٢

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غريب
الطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

﴿ أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٣) ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٩٤) ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٩٥) ﴿

المفردات :

حَلَا : أى حلالا، وهو مصدر نعت به ؛ ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كما قال تعالى : (لَا هُنَّ حُلٌّ) .

إسرائيل : هو يعقوب عليه السلام ، وبنوه : ذريته .

افترى على الله الكذب : أى اختلقه، والقرية هى الكذب .

حنيفاً : أى مائلاً عن العقائد الباطلة، فالحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال .

المعنى الإجمالى :

اعترض اليهود على استباحة المسلمين بعض الأطعمة كلحوم الإبل والبانها ، وأدّعوا أن ذلك حرّمته شريعة إبراهيم ، فرد الله سبحانه دعواهم ببيان أن تناول كل الأطعمة كان مباحاً لبني يعقوب من قبل نزول التوراة إلا ما حرّمه يعقوب على نفسه لسبب يختص به فحرموه على أنفسهم .. وأمر الله نبيه أن يطلب منهم أن يأتوا من التوراة بدليل يثبت أن شريعة إبراهيم تحرم ذلك إن كانوا صادقين ، فعجزوا وأفحموا .

التفسير :

جاء فى تفسير النيسابورى ^(١) ما يأتى :

بعد أن قرر سبحانه الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد توجيهه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب فى هذا الباب أجاب عن شبهة اللقوم ، وتقرير ذلك من وجوه :

أحدها : أنهم كانوا يعوثون في إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ^(٢) ، فأورد عليهم أن الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه، وعلى أولاده وهو النسخ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم، وتضييحاً، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً، فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء .

وثانيها : أن اليهود قالوا له إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل، وألبانها وتفتى بحلها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم ، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلا أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة .

وثالثها : لما نزل قوله تعالى : **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّت لَّهُمْ** . (النساء : ١٦٠) . وقوله : **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ** . (الأنعام : ١٤٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثير من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم غاظهم ذلك واشمازوا وامتعصوا من قبل أن ذلك يقتضى وقوع النسخ^(٣) ومن قبل أنه تسجيل عليهم بالبغي والظلم وغير ذلك من مساوئهم فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت : **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** .^(١)

من إشارات الآية :

يمكن أن نلاحظ في هذه الآية بيانا لخصال اليهود وعنادهم ولجأتهم في الخصومة، ويتضح ذلك من الآتي :

١ - لقد أنكروا النسخ وقالوا هو شبيه بالبداء وذلك لا يليق بالله تعالى ، والبداء هو أن تعمل عملاً أو تقر رأياً ثم يبدو لك أن الأفضل ترك هذا العمل، أو تغيير هذا الرأي، وهذا أمر يليق بالمخلوق لقصر رأيه وتبدل أفكاره وحكمه، ولا يليق بالخالق، ومن هنا أنكروا النسخ.

وقد بين القرآن أن من سنة الله التدرج في التشريع ومراعاة مصالح الناس واختيار ما يناسب مراحل حياتهم ، فقد أمر المسلمين بالصبر في مكة، ثم أمروا بالجهاد في المدينة، وحرمت الخمر على مراحل، وأبىح زواج النعمة في أول عهد المسلمين بالإسلام، وعند خروجهم للجهاد، ثم حرّم زواج النعمة وهو الزواج المؤقت.

وهكذا نجد أن من حكمة الله نسخ الأحكام وتبديلها بما هو أنسب لعباده ، قال تعالى : **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسْهَأُ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . (البقرة : ١٠٦) .

٢ - نلاحظ عناد اليهود ومكابرتهم حيث ادعوا أن تحريم لحوم الإبل وألبانها قديم من عهد الرسل السابقين، فكذبهم الله تعالى .

٣ - ادعى اليهود أن التوراة حرمت عليهم لحوم الإبل وألبانها اتباعاً لطريقة إسرائيل حيث حرّمها على نفسه ثم حرمت على ذريته وأبنائه متابعاً لأبيهم ، فطلب الله منهم أن يأتوا بالتوراة إن كانوا صادقين.

(وبالرجوع إلى التوراة في مظان هذا الموضوع، لم نجد فيها أساسا لدعواهم أن ذلك التحريم شرعه الله في أى عهد من عهود النبوات، ولا لدعواهم أن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة، ولا لدعواهم أن الله حرّمها عليهم بتحريم يعقوب لها على نفسه، ولقد كان اليهود يدعون أن ذلك شرع قديم، ولكن الرسول كشف الغطاء عن الحق فيبتها ويأبى لهم - بذلك - أنهم في ضلالهم يمهون)^(٥).

في أعقاب الآية :

قد يقول إنسان : إن الله تعالى قد مدح اليهود وأثنى على إيمانهم ووصفهم بصفات طيبة، مثال ذلك آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . (البقرة : ٤٧) . والجواب أن الله مدح اليهود عندما آمنوا بموسى واتبعوا تعاليم التوراة ودفعوا تكاليف الإيمان فكان كل هذا سببا في مدحهم والثناء عليهم وتقضيلهم على أهل زمانهم، ثم لما حرقوا التوراة، واعتدوا في السبت، واتهموا مريم في شرفها، وظهر منهم العدوان والعناد وإنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد استحقوا عقاب السماء ؛ ولذلك لعنهم الله وغضب عليهم واستحقوا عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة .

ونجد آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا ، مثل قوله تعالى : فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . (المائدة : ١٣) . وقوله عز شأنه : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرَ فَعْلُوهُ لُبْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩) .

٢ - من مسند الإمام أحمد :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضی الله عنهما قال : حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن خلال نسالك عنها لا يعلمن إلا نبى ، قال سلونى ما شئتم . قالوا أخبرنا: أى الطعام حرّم إسرائيل على نفسه؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم .^(٦) (أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا شديدا وطال سقمه، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الأشياء إليه، وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لَحْمَانِ الإبل، وأحب الشراب إليه البانها فقالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم أشهد عليهم^(٧) .. إلى آخر الحديث .

وتفيد الآثار أن يعقوب عليه السلام اشتكى مرضا فنذر لله تعالى لئن شفاه الله من هذا المرض ليحرمن على نفسه لحوم الإبل والبانها أو عروقها .

قال ابن جرير الطبرى : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول ابن عباس الذى رواه الأعمش عن حبيب عن سعيد عنه أن ذلك العروق ولحوم الإبل لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمها كما كان عليه من ذلك أو أكلها .

ويرى الشيخ محمد عبده : أن المراد بإسرائيل في قوله تعالى : **إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ** . هو شعب بني إسرائيل.

وتابعه على هذا الرأي السيد رشيد رضا في تفسير المنار حيث قال :

والتبادر عندى أن المراد بما حرّمه إسرائيل على نفسه : ما امتنعوا من أكله وحرّموه على أنفسهم، بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعمد مثل ذلك في جميع الأمم ، ومنه تحريم العرب للبحيرة والسائبة ^(٨) وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم . ا هـ .

وعند التحقيق ترى أيها القارئ أن رأى الشيخ محمد عبده مرجوح لا راجح ، و خصوصاً إذا عرفنا أسباب نزول الآية وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن سبب نزولها .

وفائدة قوله تعالى : **مَنْ قَبْلُ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ** . أنه لو كان الله شرع له ولبنى إسرائيل ذلك لذكر في التوراة ، لأنه سابق على نزولها على موسى .

٩٤ - **فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . فمن اختلف الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة **فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . لأنفسهم بالكفر، ولن أضلوهم بالإغواء.

وما في الآية من تهديد ينتظم كل من افترى الكذب على الله بعد ما تبين له الحق، واليهود داخلون في ذلك بالأولى .

٩٥ - **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** . أى يا محمد قل لليهود- بعد ظهور كذبهم فيما زعموا .

ظهر صدق الله في كل ما أخبر به على لسان نبيه، وفيما شرعه القرآن ، وإن الله لصادق في كل حين، ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة .

فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فاتبعوا ملة إبراهيم فقد كان على الحنيفية السمحة، ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب، وهو دين محمد فكل من أرادوا الصدق حقاً فعليهم بدين إبراهيم، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه، والذى هو أول بيت خصص للعبادة.

لقد جاء إبراهيم برسالة الإسلام ، وجاء الرسل بهذه الرسالة السامية، ثم جاء القرآن بالرسالة الإسلامية واضحة بينة كاملة تامة .

كما قال تعالى : **قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** . (الأنعام : ١٦١).

وقال تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَتِيعَ مَلَأَ إِبْرَاهِيمَ حُبًّا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل : ١٢٣).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

اول بيت : أول موضع لعبادة الله وحده.

وضع للناس : خصص لعبادتهم.

بكة : من أسماء مكة، وبكة علم على البلد الحرام، وقيل بكة : للبيت ، ومكة البلد، أضله من البكة وهو الازدحام.

آيات بينات : دلائل واضحات.

مقام إبراهيم : أى محل قيام إبراهيم، وهو الحجر الذى قام عليه لما ارتفع بناء البيت، أو هو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

آمنًا : أى أوجب الله الأمان لمن يأوى إليه فلا يمتدى عليه بقتل أو أذى.

حجج : بالكسرة هو لغة فى مصدر حج يحجج.

سبب النزول :

روى عن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فانزل الله هذه الآية (٩).

التفسير :

إن أول بيت أقيم لعبادة الله وحده، هو البيت الحرام بمكة، فقد بناه إبراهيم عليه السلام - بأمر الله، وعاونه فى البناء ولده إسماعىل، وأمر الله أن يؤذن فى الناس بالحج إليه، قال تعالى : وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧) .

قال النيسابورى فى تفسيره :

والبيت الحرام أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة.

واعلم أن الغرض الأصلي من ذكر هذه الأوليّة، بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس، ولا تأثير لأوليّة البناء في هذا المقصود وإن كان الأرجح ثبوت تلك الأوليّة أيضاً ..

ومن فضائل البيت الحرام أن الأمر ببناؤه الربّ الجليل والمهندس جبريل وبانيه الخليل، وتلميذه ابنه إسماعيل، ومنها أنه محل إجابة الدعوات ومهبط الخيرات والبركات ومصعد الصلوات والطاعات.

ومن فضائل البيت الحرام أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة وتتحرّف عنها ألبتة إذا وصلت إلى محاذاتها.

ومنها أن الحيوانات المتضادة في الطباع لا يؤذى بعضها بعضاً عنده كالكلاب والقطاب.

ومن فضائل البيت أمن مكانه فلم ينقل ألبتة أن ظالماً هدم الكعبة أو خرب مكة بالكعبة، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختصر بالكعبة، وقصة أصحاب الفيل الذين صدهم الله عن البيت الحرام معروفة مشهورة (١٠).

ومن بركات البيت الحرام قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض، استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم : ٣٧).

ومن بركات البيت الحرام: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهي فريضة الحج، وإليه يتجه المسلمون في صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

الوضع والبناء :

أخرج الشيخان، واللفظ لمسلم، عن أبي ذر - رضی الله عنه - قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عاماً، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة، فصل (١١).

قال ابن القيم في زاد المعاد تعقيباً على هذا الحديث، قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل القائل، فإن سليمان كان له من المسجد الأقصى تجديد لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد بناء جده إبراهيم للكعبة بهذا المقدار أي بأربعين عاماً (١٢).

أوليّة زمان شرف ومنزلة :

ذهب بعض المفسرين إلى أن أوليّة البيت الحرام زمانية بالنسبة إلى وضع البيوت مطلقاً. فقالوا إنّ الملائكة بنته قبل خلق آدم، وإن بيت المقدس بنى بعده بأربعين عاماً. قال الشيخ محمد عبده : إذا صح الحديث فلا شيء في العقل يحيله ولكن الآية لا تدل عليه ولا يتوقف الاحتجاج بها على ثبوته.

وبيت المقدس المعروف الذى انصرف إليه الإطلاق قد بناء سليمان بالاتفاق . والمعروف أنه تم بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام (١٣).

وذهب آخرون إلى أنه أول البيوت فى الشرف والرفعة ، (وعن على أن رجلاً قال له : هو أول بيت؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة) (١٤).

(هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما بُلِّغ على أنه دين، والموضوعات المروية فى بناء الكعبة كثيرة، ولا حاجة إلى إضاعة الوقت فى ذكرها وبيان وضعها) (١٥).

من تفسير الفخر الرازى :

قال الفخر الرازى : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه ، الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبله جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً، فأجاب الله عنه بقوله : **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ..** فبين سبحانه أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبلة أولى .. (١٦).

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض، وقيل : المراد بها كونه أولاً فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثاراً ليس فيها ما يعتمد عليه (١٧).

لَلَّذِي بِبَكَّةَ بكة لغة فى مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيراً ومنه ضريبة لازم وضريبة لازب ، وقيل : مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وفى الصحاح بكة اسم مكة.

وأما اشتقاق بكة فمن قولهم بكه إذا زحمه ودفعه، وعن سعيد بن جبير سميت بكة لأنهم يتباكون فيها أى يزحمون فى الطواف ، وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة، قال بعضهم : رأيت محمد بن على الباقر يصلى ، فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدهمها، فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يُبَكُّ بعضهم بعضاً، تمر المرأة بين يدى الرجل وهو يصلى ، والرجل بين يدى المرأة وهى تصلى، ولا بأس بذلك فى هذا المكان ، ويؤكد هذا قول من قال : بكة موضع المسجد لأن المطاف هناك وفيه الازدحام.

وقيل : سميت بكة لأنها تيك أعناق الجبابرة أى تدقها ، لم يقصدها جبارٌ بسوء إلا اندقت عنقه .. (١٨). **مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ** أى كثير الخير والبركة والنماء والزيادة لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب .

قال : صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (١٩).

وفى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال قتادة : إن الله بكَّ به الناس جميعاً ، فيصلى النساء أمام الرجل ولا يفعل ذلك ببلد غيرها ، وقال شعبة عن إبراهيم : بكَّة البيت والمسجد ، وقال عكرمة : البيت وما حوله بكَّة وما وراء ذلك مكة ، وقال مقاتل بن حيان : بكَّة موضع البيت وما سوى ذلك مكة .

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : (مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، وأم القرى ، والقدس لأنها تطهر من الذنوب ، والمقدسة ، والحاطمة ، والرأس ، والبلدة ، والبنية ، والكعبة) .

وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ . أى هو بذاته مصدر هداية ، لأنه قبلتهم ومعتبدهم وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير ، ولعله لا تمر ساعة من ليل أو نهار وليس فيه أناس يتوجهون إلى ذلك البيت يصلون ، فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية ؟ (٢٠) .

قال النيسابورى فى تفسيره :

(ولو استحضر العاقل فى نفسه أن الكعبة كالنقطة ، وصفوف المتوجهين إليها فى الصلوات فى أقطار الأرض واكتافها ، كالنواير المحيطة بالمركز ، ولأشك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية ، وأسرارهم نورانية ، وضمايرهم ربانية ، علم أنه إذا توجهت تلك الأرواح الصافية إلى كعبة المعرفة ، واستقبلت أجسادهم هذه الكعبة الحسية اتصلت أنوار أولئك الأرواح بنوره ، وعظم لمعان الأضواء الروحانية فى سره) (٢١) .

٩٧ - فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ... الآية ، أى فى البيت دلالات واضحات على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام .

منها : مقام إبراهيم - وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت . أو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

ومنها : وجوب الأمن لداخله استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، بقوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا .. (البقرة : ١٢٦) .

ومنها : وجوب الحج إليه استجابة لنداء إبراهيم ، كما فى قوله تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧) .

وكما ثبت هذا بالقرآن ، فهو ثابت أيضاً تاريخياً . ومعروف بالتواتر لدى العرب جيلاً بعد جيل .

ومع دلالة هذه الآيات البينات على أولية البيت الزمنية ، فهى - كذلك - أدلة واضحة على فضله وعلو شأنه .

وقد عرضت الآية فرضية الحج بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

والحج : أحد الأركان الخمسة للإسلام . فمن استطاعه لزمه ، وندب إليه تعجيله . والاستطاعة : تكون بوجود الزاد والماء والراحلة ، والقدرة البدنية ، وأمن الطريق .

والمقصود من الزاد : ما يكفيه من الطعام مدة سفره في حجه ، زائداً على نفقة من تلزمه نفقته ممن يعول . والمراد من الراحة : وسيلة الانتقال أيا كانت .

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

أى ومن أنكر الفريضة أو تهاون فيها ، فوبال ذلك عائد عليه وحده ، لأن الله سبحانه غنى عن العالمين . فلا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم . وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ . (النمل : ٤٠) .

وفى أسلوب الآية وختامها بقوله تعالى :

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ما يدل على أهمية فريضة الحج وعظيم منزلتها عند الله ، وأنه فريضة لا يحل لأحد أن ينكرها ، وإلا كان كافراً بشريعة الله . كما لا يجوز له أن يتكاسل عنها ، حتى لا يكون كافراً بنعم الله عليه ، غير شاكر له على أفضاله .

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مِنْ ءَمَنَ تَبَغُّوهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَآبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَنْ يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

المفردات :

بآيات الله : المراد بها ، الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها آيات القرآن الكريم .
شهود : مشاهد لما تعملون ، رقيب عليه .
تصدون عن سبيل الله : تمنعون الناس عن طريقه ، وهو الإسلام .
تبغونها عوجاً : تريدونها معوجة .
وانتم شهداء : تشهدون بأنها سبيل مستقيمة .
يعتصم بالله : يمتسك بدينه .

التفسير :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . . الآية .

المعنى : أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يوبّخ كفار أهل الكتاب على كفرهم بما جاء به من الحق، فقال تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . . الآية .

وإنما دعاهم بقوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ للمبالغة في توبيخ كفرهم، فإن من كان على بينة من كتاب الله : تهدى إلى الحق- يكون كفره أشد قبيحاً من غيره. فقد جاء في كتابهم من الأمارات الواضحة، ما يشهد بصدق محمد صلى الله عليه وسلم ، وضحة نبوته، إذ كانوا يتحدثون بذلك قبل بعثته. فلما بعث ، تفرقوا واختلّفوا .

وقد ختمت الآية بقوله عز وجل : وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ . لتشديد التوبيخ، وتأكيد الإنكار عليهم، وتهديدهم على هذا الكفر القبيح :

٩٩ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصُورُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ . . الآية .

وهذا أمر آخر من الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم ، بتوبيخهم على الإضلال ، إثر أمره إياه بتوبيخهم على الضلال .

وتكرير الخطاب يَا أَهْلَ الْكِتَابِ . لتأكيد المبالغة في التوبيخ، لأن ذلك العنوان- كما يستدعي منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم- يستدعي منهم كذلك، دعوة الناس إليه، وترغيبهم فيه. فصدّهم عنه- بعد كفرهم به، وهم يعلمون أنه حق - في أقصى مراتب القبح، وأبعد درجات الجحود ، إذ لم يكتفوا بكفرهم وضلالهم، بل أضعفوا في الإضلال وأوغلوا في الفتنة، فاحتالوا لفتنة المسلمين ، وصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه. وادّعوا أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليست في كتبهم، ولا وجدت البشارة به عندهم.

ثم أفصح عن غايتهم من جحودهم وكفرهم، فقال سبحانه من قائل : تَبَوَّعْنَاهَا عِزًّا وَآتَيْنَاهُمْ شُهَدَاءَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي تريدون أن تكون سبيل لله معوجة، وأنتم تشهدون أنها لا تحوم حولها شائبة اعوجاج.

ثم ختم الآية بقوله تعالى : وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وهى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

ولما كان كفرهم صريحا ظاهرا، ختمت الآية الأولى بشهادة الله تعالى على ما يعملون.

ولما كان صدقهم للمؤمنين ، بطريق السر والخفية، ختمت الآية الثانية بما يحسم حيلتهم من إحاطة علمه- سبحانه وتعالى - بأعمالهم.

١٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِعَانِكُمْ كَافِرِينَ .

كان اليهود في المدينة يكوّنون طابورا خامسا يثيرون الفتن والقتال، ويشيعون الفرقة في صفوف المسلمين ، وكان لليهود في الجاهلية قوة وقدرة مالية، فكانت لهم زراعة وثروة ومنزلة في المدينة المنورة ، وكانت تسمى (يثرب) فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ووحد صفوفهم وجمع كلمتهم وانتقلت سيادة المدينة وزعامتها إلى جماعة المسلمين ، وقد أذهب ذلك نيران الحقد والبغض في نفوس اليهود، فأنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤).

وكان شيوخ اليهود يضرمون نيران العداوة والفتنة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة .

وقد ورد في تفسير الطبري والنيسابوري وغيرهما، كما ورد في أسباب النزول للسيوطي، وأسباب النزول للواحدي أن سبب نزول هذه الآية محاولة اليهود تقريظ صفوف المسلمين .

قال زيد بن أسلم : مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا قد غبر (٢٣) في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفهم وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة، فقال : قد اجتمع ملائكة بنى قيلة (٢٤) بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شابا من اليهود كان معه، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم بعثت وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار، وكان يعاثر يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتناخروا حتى تواءب رجلان من الحيين أوس بن قيطي أحد بنى حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتناولوا ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعا، وغضب الفريقان جميعا وقالا : ارجعا، السلاح السلاح، موعدهم الظاهرة ، وهى حرة، فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعوامهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، اتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا . الله الله . ففرق القوم أنها نغمة من الشيطان وكيد من عدوهم فالتقوا السلاح من أيديهم ويكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يعنى الأوس والخزرج إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب . يعنى شاسا وأصحابه يردوكم بعد إيمانكم كافرين . قال جابر ابن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده، وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرنا من ذلك اليوم (٢٥).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

أى إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم ، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنييتكم القديمة وكفرهم بالله بعد إيمانكم.

وقد وصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقية بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافاً لمن لم يفعل ذلك منهم.

ونعتهم بأنهم أَوْتُوا الْكِتَابَ . للإشعار بأن تضليلهم متعمد وبأن تأمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

وقوله : يَرُدُّوكُمْ . أصل الرد الصرف والإرجاع، إلا أنه هنا مستعار لتغيير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير ، كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا

ورد وجوههن البيض سودا

أى يصيروكم بعد إيمانكم كافرين، والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثانى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . (البقرة : ١٠٩).

١٠١ - وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ .

أى : كيف يتصور منكم الكفر أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه ، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر.

وهذا كقوله تعالى : وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِمُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ . (الحديد : ٨).

قال ابن كثير : وكما جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوماً : « أى المؤمنين أعجب إيماناً ؟ قالوا : الملائكة ، قال وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : نحن، قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأى الناس أعجب إيماناً ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً فيؤمنون بما فيها .»

وقوله : وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . جملتان حاليتان من فاعل تَكْفُرُونَ . وهو ضمير الجماعة، وهاتان الجملتان هما محط الإنكار والاستبعاد.

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول فيهم وأزع لهم عن الكفر، وداهع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان.

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

ومن يعصم بالله فقد هبني إلى صراط مستقيم . أى ومن يستمسك بدين الله - وهو الإسلام ، ويلتجئ إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

قال الطبرى ، وأصل العصم المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه، والممنوع به معصم به، ولذلك قيل للحبل عصام، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام، وأفصح اللغتين إدخال الباء كما قال عز وجل : واعتصموا بحبل الله جميعاً .

وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر :

إذا أنت جازيت الإخاء بمثله

وأسيتني ثم اعتصمت حباليا

فقال : اعتصمت حباليا ولم يدخل الباء، وذلك نظير قولهم تناولت بالخطام وتناولت الخطام، وتعلقت به وتعلقتة^(٢٥).

وفى ختام الآية نجد أنها محتملة لمعنيين :

المعنى الأول : أن الكفر بعيد عنكم ، ولا يتأتى منكم الكفر لأن الوحي ينزل عليكم والرسول بينكم. وفى هذا المعنى ما يؤمن إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغونه من تفريق المؤمنين ، لأن الوحي والنبي عصمة لهم.

المعنى الثانى : استقهام إنكارى عن احتمال كفرهم مع أن معهم أسباب الإيمان.

قال ابن جرير الطبرى : يعنى بذلك جل ثاؤه :

وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم وأنتم تتلى عليكم آيات الله يعنى حجج الله عليكم التى أنزلها فى كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيكم رسوله حجة أخرى عليكم لله، مع أى كتابه ، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق ويصيركم الهدى والرشاد ، وينهاكم عن الفى والضلال.

يقول لهم - سبحانه وتعالى - فما وجه عزركم عند ربكم فى جحودكم نبوة نبيكم وارتدادكم على أعقابكم ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم^(٢٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾

المضردات :

حق تقاته : أى حق تقواه.

بحبل الله : أى بالإسلام أو القرآن. استعمار له كلمة الحبل حيث إن التمسك به سبب النجاة ، كما أن التمسك بالحبل سبب السلامة.

ولا تفرقوا : أى ولا تتفرقوا، حذف إحدى التائين تخفيفاً.

فألف : أى فجمع.

شفا حفرة : الشفا طرف الشيء وحرفه مثل شفا البئر وشفا حفرة. ومنه يقال فلان أشفى على الشيء إذا أشرف عليه، كأنه بلغ شفا أى حده وحرفه.

التفسير :

١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ .

التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتزليل ، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل التقوى : هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ.

وقيل تقوى الله : هى ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

ومعنى الآية : راقبوا الله تعالى، وأطيعوا أمره واجتنبوا مخالفته، بحيث يطاع ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر به.

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . أى لا تقابلوا ريكم إلا وأنتم على حالة الإسلام الصحيح.

والمراد : داوموا على التخلق بأخلاق الإسلام لأن من شب على شيء شاب عليه، ومن شاب على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

قال الزمخشري في الكشاف : وَلَا تَمُوتُنَّ . معناه ولا تكونين على حال سوى حال الإسلام إذا أدرركم الموت، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتني إلا وأنت على حصان، فانت لا تنهض عن الإتيان، ولكلك تنهض عن خلاف الحال التي شرطت عليه في وقت الإتيان.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة نسختها الآية الكريمة : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). والجمهور على أنها غير منسوخة.

قال النيسابوري :

لما حذر الله المؤمنين من فتن أهل الكتاب أمرهم بمجامع الطاعات ومعاهد الخيرات فأولها لزوم سيرة التقوى.

وعن ابن عباس : لما نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ . هو أن يطاع فلا يعصى طرفه عين، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى، أو هو القيام بالواجبات كلها والابتعاد عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذ في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، شق ذلك على المسلمين فنزلت فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . والجمهور على أنها غير منسوخة لأن معنى حق تقاته واجب تقواه، وكما يحق أن يتقى ، وهو أن يجتنب جميع معاصيه.. فلم يبق فرق بين الآيتين (٣٧).

والمراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ . هو عين المراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

والاستثناء مفرغ في قوله : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التي هي حال الداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه.

١٠٣ - وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا .. الآية.

أى : كونوا جميعاً متمسكين بكتاب الله وبيدته ويهوده، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم في الجاهلية.

ثم يذكر الله المسلمين بنعمته عليهم، نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع، والارتفاع على حزازات الصدور، والتفاني في غاية أسمرى من الشخصيات الزائلة والأمجاد الفارغة، والفخر بالعصبيات والأنساب.. وإنها معجزة تلك التي تحول شتات العرب إلى وحدة، وعداوتهم إلى مودة، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذي لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيراً.

(والنص هنا يعمد إلى مكنى المشاعر والروابط (القلب) فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكنى العميق فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ . وهو تعبير مصور مقصود.

كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه ، بل مشهدا حيا متحركا يتملأه الخيال ويتوقع في كل لحظة حركة كانت ستكون لو لم تدركهم معجزة الإيمان وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . . . فيتصور الخيال هؤلاء الأناس على شفا حفرة من النار، ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعه، حتى تتم حركة الإنتقاذ المفاجئة (٢٨).

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . أى يمثل هذا البيان الواضح ، يبين الله لكم سائر آياته ، لكي تثبتوا على الهدى، وتزدادوا فيه اعتصاما وقوة.

والقرآن حافل بالدعوة إلى الوحدة والأخوة والتماسك والتكافل والتراحم، والتحذير من الفرقة و العداوة والبغضاء والسخرية والاستهزاء.

ويمثل هذا الهدى الإلهي، والتوجيه النبوي رأيا وحدة لم يعرف التاريخ لها نظيرا، وحدة الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وحدة الألفة والمودة على الدين الجديد والنور الجديد والدعوة الإسلامية الخالدة .

قال تعالى : وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاملتهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (٢٩).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » (٣٠).

١٠٤ - وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

والمراد بالأمّة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس ديني أو دنيوي... والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه. والمنكر ضد ذلك.

والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص، تبذل أقصى طاقتها وجهدها في الدعوة إلى الخير الذي يصلح من شأن الناس، وفي أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والقول السليمة، وفي نهيمهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله وتتفر منه الطباع الحسنة.

وقد دلت الآية على أن الأمّة يجب عليها أن تخصص طائفة منها تقوم بالدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه: فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . وهذا لا يعنى سائر أفراد الأمّة، من القيام بهذا الواجب كل بحسب طاقته .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى وأولئك القائلون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح.

(وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها وركن مشيد من أركانها وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها) (٣١).

وقد أورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث النبوية الشريفة فى الدعوة إلى المحافظة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيام كل فرد من الأمة بهذا الواجب بحسب قدرته وطاقته .

وهذان حديثان نبويان من تفسير ابن كثير :

١ - جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وفى رواية : «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» (٣٢).

٢ - وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « الذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم تدعونه فلا يستجب لكم » (٣٣).

وجاء فى كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تحت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها ما يأتى :

(١) روى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة، فلقننى : فيما استطعت والنصح لكل مسلم (٣٤).

(ب) روى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى : عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: « يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلٍّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ . (المائدة : ١٠٥) وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » (٣٥).

(ج) روى الترمذى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله (٣٦).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

المعنى الإجمالي :

حث الآيات السابقة على لزوم الوحدة والجماعة ، ودعت إلى الاعتصام بحبل الله ، وتخصيص طائفة من الهداة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهنا تحذر الآيات من الفرقة ، وتدعو إلى الاعتبار بالذين تفرقوا واختلّفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، في ذلك اليوم الذي تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه .

التفسير :

١٠٥ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

احذروا الفرقة والاختلاف ، واعتبروا بمن سبقكم من الأمم ، وهم اليهود والنصارى ، حيث تفرق كل منهما فرقا مختلفة يكفر بعضها بعضا ، واختلّفوا باستخراج التاويلات الزائفة ، وكتم الآيات الناطقة ، بسبب ما أخذوا إليه من حطام الدنيا ، ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات . أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق ، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف .

والاختلاف المنهى عنه في هذه الآية ، إنما هو الاختلاف في الأصول ، أما الاختلاف في الفروع ، الناشئ عن الاجتهاد في فهم النصوص ، فأمر ثبت في عهد رسول الله ﷺ وأقره ، ومن ثم كان للمجتهد المخطئ أجر كما أن للمصيب أجرين ، لأن الاختلاف في الفروع أفسح المجال للرخص ، والمسلمون بحاجة إليها (٣٧) .

ومن الأحاديث التي ذمت الخلاف ، ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي عامر (عبد الله بن نحى) قال : حججنا مع (معاوية بن أبي سفيان) ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهى الجماعة - وأنه سيخرج في أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب (٣٨) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » (٣٩) .

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان سوء عاقبة المتفرقين والمختلفين في الحق فقال : وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب أليم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل.

(فإنت ترى القرآن الكريم قد نهى عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير والطف إشارة، وذلك بأن بين لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به- سبحانه - المواطنين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون .

ثم بين لهم سوء عاقبة التفرق والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفر بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً، ورمى بعضهم بعضاً بالزيف والضلال، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم) (١٠).

١٠٦ - يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

المراد ببياض الوجوه، بهجتها وسرورها ويسواد الوجوه حزنها وكآبتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَنْظُرُ أَن يُغْفَلَ بِهَا فَافِرَةٌ . (القيامة: ٢٢-٢٥).

وقوله سبحانه : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . (الزمر : ٦٠).

وقوله عز شأنه : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَاسِقَةٌ * تَرَهَقَهَا قُتْرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢).

قال الزمخشري فى تفسيره : (البياض من النور والسواد من الظلمة : فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم يستواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب، نعوذ بالله ويسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله) (١١).

وذهب بعض العلماء إلى أن السواد والبياض محمولان على حقيقتهما ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة، فوجب الحمل على ذلك .

جاء في تفسير التيسابورى :

وهى أمثال هذه الألوان للمفسرين قولان :

أحدهما : وإليه ميل أبى مسلم أن البياض مجاز عن الفرح والسواد عن الغم وهذا مجاز مستعمل قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل : ٥٨) .

ولما سلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية قال له رجل : يا مسودّ وجوه المؤمنين .

ولبعض الشعراء فى الشيب قوله :

يا بياض القرون سودت وجهى

عند بياض الوجوه سود القرون

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهريهما، وهما النور والظلمة إذ الأصل فى الإطلاق الحقيقية، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وانبضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمدت وأسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب.

قالوا والحكمة فى ذلك أن يعرف أهل الموقف كل صنفًا فيعظمونهم، أو يصغرونهم بحسب ذلك، ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور.

وقد اختار الفخر الرازى أن التعبير القرآنى فى الآية محمول على المجاز لا على الحقيقة . فقال

وهذا مجاز مشهور، قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل: ٥٨).

ويقال لفلان عندى يد ببيضاء، وتقول العرب لمن نال بغيته وقاز بمطلوبه: أبيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل.. ويقال لمن وصل إليه مكروه: أريد وجهه واغبرّ لونه، وتبدلت صورته ، وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن رأى ما يسره أبيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه أسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه (٤٧).

ومن الطرائف ما روى أن شخصين أحدهما أبيض والآخر أسود تقابلا، فقال الاسود:

ألم تر أن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شئ فاعلم

وأن سواد المسك لا شئ مثله

وأن بياض اللفت حمل بدرهم

فقال الأبيض :

ألم تر أن بياض البدر لا شيء مثله
وأن سواد الفصح حمل بدرهم
وأن رجال الله بيض وجوههم
وأن سود الوجوه مأواهم جهنم

وهى مغالطة من الأبيض لأن سواد أهل النار ليس سواد الخلقة ولكنه سواد الظلمة والمعصية.

وفى الأثر (كم من وجه صبيح ولسان فصيح وجسم مليح غدا بين أحشاء النار يصيح) .

وكان زعيم المنافقين حسن الهيئة جميل الصوت ، يجيد تزويق الكلام فقال فيه القرآن : وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَبَٰعْثُكُمُ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُّسْنَدٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ فَإِنَّهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُفَكَّرُونَ . (المنافقون : ٤) .

وقد ورد فى هدى النبوة « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .
ومما تقدم يتضح أن الراجح فى سواد الوجوه وبياضها ، هو أنهما محمولان على المجاز لا على الحقيقة ،
وأن بياض الوجه لا يقرب صاحبه إلى الله ، وأن سواد الوجه لا يبعد صاحبه عن الله ، وإنما يقرب الإنسان من
الله العمل الصالح ، ويبعده عن الله العمل الطالح .

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أى أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم - على سبيل التوبيخ أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم .

والاستفهام فى قوله تعالى : أَكْفَرْتُمْ . للتوبيخ والتعجب من حالهم . قال الألوسى : والظاهر من السياق أن هؤلاء هم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإيمان به قبل مبعثه ، وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما يجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ . (الأعراف : ١٧٢) . ويحتمل أن يراد بالإيمان ، الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان لتمكنهم بالنظر الصحيح ، والدلائل الواضحة ، والآيات البينة من الإيمان بالله - تعالى - ورسوله صلى الله عليه وسلم ^(١٣) .

وقوله : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه .

١٠٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى وأما الذين ابيضت وجوههم بركة إيمانهم وعملهم الصالح ففي رَحْمَةِ اللَّهِ ، أى ففى جنته ونعيمها لأنها محل الرحمة ومكانها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى خلودا أبديا سرمديا فى نعيم لا يحد بحد ولا تبلغ العقول مداه .

ومما تقدم نجد أن الناس فريقان يوم القيامة .

كفار اسودت وجوههم ، ومؤمنون ابيضت وجوههم . وقد ذكر بعض العلماء أن الذين اسودت وجوههم يوم القيامة هم الخوارج لأنهم كفروا بعد إيمانهم .

وقال آخرون : عنى بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان .

وقال آخرون بل الذين عنوا بقوله أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بالسنتهم وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم .

قال ابن جرير الطبرى - بعد أن ذكر هذه الآراء .

وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرناه على أبى بن كعب، أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذى يويخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذى أقروا به يوم قيل لهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَلَاؤا بلى شهدنا . (الأعراف : ١٧٢) . وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين أحدهما سوداء وجوههم، والآخر بيضاء وجوههم ، فمعلوم إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان أن جميع الكفار داخلون فى فريق من اسود وجوهه، وأن جميع المؤمنين داخلون فى فريق من ابيض وجهه .

١٠٨ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَوِيهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . هذه الحقائق التى تتصل بعذاب الكافرين ونعيم المؤمنين أو هذه الآيات البينات والحجج الواضحات تَنْتَوِيهَا عَلَيْكَ . يا محمد بِالْحَقِّ . أى محقين عادلين فيما بيناه من جزاء لعباد حسب أعمالهم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . أى ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه .

١٠٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

أى الجميع ملك له وحده : خلقا وتديبرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا .

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يتول التصرف فى شئون الدنيا والآخرة فيحكم بالحق والعدل، والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه، وأن يكون لكل شيء وزنه، وألا يترك الناس سدى، وألا يكون الخير والشر سواء .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ أَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرَ آلَهِمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ١١٠ . لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدَّ بَارِ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿ ١١١ ﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا يُحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبِلَ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿ ١١٢ ﴾

المضردات :

أمة	: الأمة : الجماعة .
الفاسيقون	: الخارجون عن طاعة الله .
يولوكم الأديار	: يعطوكم ظهوركم منهزمين .
ضربت عليهم الدلة	: أحيطوا بالدلة كما تحيط الخيمة بمن ضربت عليه، والمراد بالدلة: الهوان والصغار .
ثقفوا	: وجدوا .
بحبل	: بعهد .
باعوا	: رجعوا .
المسكنة	: الضعف والحاجة الناشئة عن فطرة فيهم .

١١٠ - كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. الآية.

والمعنى :

وجدتم خير أمة أخرجت للناس لأنكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ . أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم، والعقل السليم (٤١).

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. أُخْرِجَتْ .. إنه لتعبير يلتفت للنظر، لفظ أخرج، ويناؤه للمجهول... وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة، تخرج هذه الأمة لإخراجها، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .

إنها للفظه تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الديب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة .. فيها لها من يد قادرة مدبرة، تشي بها لفظه مصورة معبرة (٤٥).

والخطاب في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : **كُنْتُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَاصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمَّا أَتَى بَعْدَهُم وَاتَّبَعَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ** .

جاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

قال ابن عباس في قوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ، قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال في الآية : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . أَى خِيَارًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** .. (البقرة : ١٤٣) .

وفي مسند أحمد وجامع الترمذى من رواية حكيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » (٤٦) وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذى .

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات ، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، ويعتبه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبي قبله ولا رسول من الرسل (٤٧).

وقد ساق ابن كثير في تفسيره أحاديث كثيرة في فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقل منها الأستاذ محمد على الصابونى خمسة عشر حديثاً نبوياً شريفاً في كتاب (مختصر تفسير ابن كثير) منها ما رواه البخارى ومسلم، ومنها ما رواه الإمام أحمد ومنها ما روى في كتب السنن. وسننقل منها هذا الحديث الشريف :

روى مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فظننت أنهم أمتى فقيل : هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم ، فقيل : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشبهوكوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فآخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم، قال : (أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : سبقك بها عكاشة (٤٨) .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لقد بين الحق سبحانه وتعالى سبب أفضلية هذه الأمة فقال : **تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُزَمُّونَ بِاللِّهِ . وَهُمْ ثَلَاثُ رَكَائِزَ :**

الأمر بالمعروف : والدعوة إلى الخير والكمال والسير على الصراط المستقيم .

والنهي عن المنكر : والتحذير من الفعل القبيح والسلوك المستهجن والنهي عن ارتكاب الفواحش ، واقتراف المعاصي .

والإيمان بالله : اليقين الجازم بوجوده وطاعته ، وإخلاص العبادة له ، والتمسك بأمره والبعد عما نهى عنه .

والآية الكريمة وسام علوى لهذه الأمة إذا قامت بدورها وأدت واجبها وأطاعت خالقها واهتدت بسنة نبيها ورسولها .

فهل وعت الأمة الإسلامية هذا التنويه ٩ .

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان والفسوق والعصيان ، والأثرة والتنازع والاختلاف ، والتخلف والتأخر ، وضعف الهمم والمزائم . كل هذا يدمى قلوب المؤمنين الصادقين .

ولا صلاح لأخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : (إيمان صادق وعمل مخلص وتحمل تبعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

قال ابن كثير : بعد أن ساق طائفة من الأحاديث النبوية في فضل الأمة المحمدية - : فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** .

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتادة : بلغنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** . ثم قال : (من سره أن يكون من هذه الأمة فيؤد شرط الله فيها) رواه ابن جرير .

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .

أى **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ** . بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم **لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** : أى لكان إيمانهم خيراً لهم في دنياهم وآخرتهم ، ولنالوا الخيرية التي ظفرت بها الأمة الإسلامية ، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم ، لامتناع الإيمان الصحيح منهم .

مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، كعبد الله ابن سلام وأضرابه .

وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . أى المتمردون في الكفر ، الخارجون عن الحدود .

١١١ - **لَنْ يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُبْلُوكُمْ أَلَيْسَ الْأَذَىٰ تَمَّ لَا يُبْصَرُونَ** .

سبقت هذه الآية لتطمئن المؤمنين الصادقين ، بأن هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب لن يستطيعوا إلحاق أى ضرر بالغ بهم ، ما داموا معتمدين بدينهم ، وكل ما يستطيعون أن يلحقوه بهم لا يتعدى أن يكون ضررا يسيرا كالطعن ، والشتم ، والسخرية والتهديد والوعيد .

وَأِنْ يَفْقَاتِلْكُمْ يَبْزُكُمُ الْأَذْدَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ .

بشرت الآية المسلمين بثلاث بشارات :

الأولى : أنهم فى مأمن من الضرر البالغ من جهة أهل الكتاب .

الثانية : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم ، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .

الثالثة : أن أهل الكتاب لن يحرزوا نصرا على المؤمنين ، ولن تكون لهم شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد هزيمتهم أمام المؤمنين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة : (بنى قينقاع) (وبنى النضير) (وبنى قريظة) ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة فى غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أيدى الأبدى ودهر الداهرين . ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم بملة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

١١٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا بِحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ ...

إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعمد من الله أو بعمد من الناس .

وقال الشيخ محمد عبده : إن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومى الحقوق رغم أنوفهم ، إلا بحِجْلٍ مِنَ اللَّهِ . وهو ما قرره شريعته لهم ، إذا دخلوا فى حكمكم من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم إذهابهم وهضم شيء من حقوقهم ، وَحِجْلٍ مِنَ النَّاسِ . هو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور ، أى فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وإنما جاءهم من غيرهم (٤٩) .

وأجاز بعض المفسرين : أن يراد من حبل الناس ، لجوعهم إلى قوة غالبية فى الأرض من غير المسلمين ، يستظلون بحمايتهم ، ويستمدون منهم العون والقوة ، كما هو شأنهم فى هذا الزمان (٥٠) .

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ . أى رجعوا به مستحقين له : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . أى فرضت عليهم والصقت بهم ، فاليهودى يشعر فى نفسه - دائماً - بالفقر ، وإن كان موسرا غنيا ، وبالضعف وإن كان قويا .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .

(يكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، المتبعتان بدورهما عن العصيان والاعتداء، وإذن فهو الجزء العادل، إنه الذلة في مقابل التمدد، والمسكنة في مقابل التطاول، والهزيمة في مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ريك بظلام للمبيد) (٥١).

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . إى ذلك الكفر، والقتل للأنبياء ، كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر على حدود الله.

وتلك طبيعة اليهود دائماً: تمرد على الدين، واعتداء على حرمان الله وحقوق عباده.

وقد ارتكب اليهود هذه القبائح وهم عالمون بجرمهم مخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار.

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره هنا . قلت : معنا أنه قتلهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا، ولا أقسدا في الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم (٥٢).

خاتمة :

إن الله تعالى لا يحابى أمة من الأمم ولا شعبا من الشعوب، لقد نصر المؤمنين عندما كانوا أهلا للنصر، لقد مكثهم الله في الأرض وأورثهم عروش الأكاسرة والقياصرة، وأذل لهم اليهود وهم شعب غليظ الرقبة، وفتح لهم البلاد ومكثهم من العباد، فلما أعرض المسلمون عن هدى الله وشرعه، مكن منهم عدوهم جزاء وفاقا لأعمالهم.

ومن هنا نعلم أن الشرط في نفى ضرر اليهود الذى يؤثر فى الأمة الإسلامية هو أن تكون مؤمنة ببرها حق الإيمان، متبعة لهدى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم .

جاء فى تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فإن قال قائل : ولكن اليهود قد انتصروا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين، فهل تخلف وعد الله ٩.

والجواب على ذلك أن وعد الله - تعالى - ما تخلف ولن يتخلف، وقد حققه - سبحانه - لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ، ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم، فقد قُربوا فى دينهم. وأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات وتفرقوا شيعا وأحزابا، وتكبروا الطريق القويم، ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية .. فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف، وسلط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم (٥٣). لأن الله تعالى : لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ. (الرعد : ١١) . وإذا عاد المسلمون

إلى أمر ربهم وتعاليم دينهم عاد إليهم المجد والعز والرفعة والنصر. وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. (الحج : ٤٠).

★ ★ ★

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى أَلَيْلٍ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات :

قائمة : مستقيمة عادلة، من أقامت العود فقام، على معنى : استقام.

آناء الليل

: ساعاته وأوقاته .

ويسارعون في الخيرات : يبادرون إليها، ويتنافسون فيها .

فلن يكفروه : فلن يحرّموا ثوابه، وحسن الجزاء عليه، والأصل في الكفر: الستر ، أى : لن يحجب

عنهم ذلك الأجر .

١١٣ - لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى ليس أهل الكتاب متساوين في الكفر وسوء الأخلاق بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشعره مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الآخرون من أهل الكتاب وضيعوه.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب، أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه في السر والعلن.

(كعبد الله بن سلام) و (وأسد بن عبيد) و (ثعلبة بن شعبة) و (النجاشي ومن آمن معه من النصارى)، هؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله-ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

روى عن قتادة أنه كان يقول في الآية : (ليس كل القوم هلك قد كان لله فيهم بقية) وروى عن ابن عباس أنه قال في الأمة القائمة (أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه) (٥٤).

قال الإمام محمد عبده : هذه الآية من العدل الإلهي في بيان حقيقة الواقع وإزالة الإبهام السابق، وهي

دليل على أن دين الله واحد على السنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأسر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين (٥٥).

مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ.

أى مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام.

واختار ذلك الزمخشري فى الكشف.

ورجح بعض المفسرين أن معناها موجودة ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به.

كما فى قوله تعالى : إِنْ لَمْ يَدْعُوا إِلَى اللَّهِ فَيُدْعِ عَلَيْهِ قَائِمًا .

أى ملازمًا لمطالبته بحققك.

ومنه قوله تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأَوَّلُوا الْعِلْمَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . أى ملازمًا له (٥٦).

وفى ذلك تعريض بالمنحرفين عن الحق، بأنهم لا يعدّون من أهل الوجود ، وإنما حكمهم حكم العدم، وفى مثلهم قال الشاعر :

فكانهم خلقوا وما خلقوا	خلقوا وما خلقوا لمكرمة
فكانهم رزقوا وما رزقوا	رزقوا وما رزقوا سماح يد

يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى يقرءون القرآن حال صلاتهم من الليل.

والمعنى الإجمالى للآية : ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبايح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله آناء الليل وأطراف النهار .

وآناء الليل أى أوقاته وساعاته ، والمراد بها صلاة العشاء، أو الصلاة بين المغرب والعشاء، أو الصلاة فى منتصف الليل، وهو الوقت الذى غارت فيه النجوم ونامت العيون وبقي الله الواحد القيوم .

قال الطبرى فى تفسير الآية ، وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها متقاربة المعانى ، وذلك أن الله تعالى ذكره وصف هؤلاء القوم بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل وهى آنأؤه ، وقد يكون تأليها فى صلاة العشاء تأليا لها آناء الليل، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومن تلاها جوف الليل، فكل تال له ساعات الليل غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصلحها أحد من أهل الكتاب (٥٧).

وقد نقل الفخر الرازي في هذه الآية قولين :

(الأول) : أن المراد بهذه الأمة القائمة عبد الله بن سلام وأصحابه من المسلمين.

(الثاني) : كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان ، أى يتلون ما عندهم من مناجاة الله ودعائه والثناء عليه عز وجل وهى كثيرة فى كتبهم ، وقد رجح الراى الثانى الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فى تفسير المنار.

ونقل صاحب المنار نقلاً من زيور (مزامير) داود عليه السلام:

كقوله فى المزمور السادس والثلاثين (٥ - يارب فى السموات رحمتك ، أمانتك إلى الغمام ٦ - عدلك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة ، ٧ - ما أكرم رحمتك يا الله ، فبنو البشر فى ظل جناحك يحتمون ٨ - يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم ، ٩ - لأن عندك ينبوع الحياة بنورك نرى نورا ، ١٠ - آدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمين القلب) .

وقوله فى المزمور الخامس والعشرين : (١ - إليك يا رب أرفع نفسى ٢ - يا إلهى عليك توكلت ، فلا تدعنى أخزى ، لا تشمت بى أعدائى ٣ - أيتضا كل منتظريك لا يخزون ، ليخز الغادرون بلا سبب ٤ - طرقتك يارب عرقتي ، سبلك علمنى ، ٥ - درينى فى حقل علمنى ، لأنك أنت إله خلاصى ...) .

وأمثال هذه الأدعية والمناجاة كثيرة جدا ، وإذا رآها العربى البليغ غريبة الأسلوب ، فليذكر أنها ترجمة ، ضعيفة وأن قراءتها بلغة أهل الكتاب أشد تأثيراً فى النفس من قراءة ترجمتها هذه (٥٨) .

أما السجود الذى أسنده إليهم ، فهو إما عبارة عن صلاتهم ، وإما استعمال له بمعنى اللغوى وهو التواضع والتذلل كما فى قوله تعالى فى خطاب مريم : **وَأَسْجُدِيْ وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ** . (آل عمران : ٤٣) .

١١٤ - **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** .

تستمر هذه الآية فى رسم صورة وضيفة لمن آمن من أهل الكتاب.

فقد آمنوا إيماناً عميقاً بالله وباليوم الآخر ، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان فأمرؤا بالمعروف وأرشدوا الناس إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونهوا عن المنكر ، وحذروهم من الكفر ، وسارعوا إلى فعل الخيرات ، منتقلين فى كل أعمالهم من خير إلى خير ، وهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين .

قال الفخر الرازى : واعلم أن وصفهم بالصالح فى غاية المدح ، ويدل عليه القرآن والمعقول .

أما القرآن فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم : **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ** . (الأنبياء : ٨٦) .

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : **وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** . (النمل : ١٩).

وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد سواء كان ذلك في العقائد أو في الأعمال ، فإذا كان الصلاح معناه الأمل والأفضل ، كان الصلاح دالا على أكمل الدرجات (٥٩).

من تفسير الطبري :

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

يعنى بقوله عز وجل : **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** : يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم ، وليسوا كالمشركين الذين يجحدون وحدانية الله ويمبدون معه غيره ، ويكذبون بالبعث بعد الممات ، وينكرون المجازاة على الأعمال والثواب والعقاب ، وقوله : **وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** . أى يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، **وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ** . أى وينهون الناس عن الكفر بالله وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله ، يعنى بذلك أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما أتاهم به من عند الله . **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** . أى يبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك . ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب ، هم من عداد الصالحين ، لأن من كان منهم فاسقا فقد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته ، وعصيانه بربه ، واعتدائه في حدوده (٦٠).

١١٥ - **وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** (٦١).

أى : ما يقدمونه من أفعال الخير ، لن يضيع عند الله ثوابه ، ولا ينقص جزاؤه ، وإنما سيجازيهم الله عليه بما هم أهل له من ثواب جزيل وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . أى لا يخفى عليه عمل الأتقياء ، ولا يذهب لديه أجر من أحسن عملا .

(فانت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد انصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة . وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق ، وأنهم يتلون آيات الله أثناء الليل وأطراف النهار ، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله في صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأنهم يأمرون بالمعروف ، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون في الخيرات ، وأنهم من الصالحين .

ثم بشرهم سبحانه ، بحسن الجزاء ، لأن الله عليهم بأحوال عبادهم ولن يضيع أجر من أحسن عملا (٦٢).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

سياج الأمم ، وأساس رفعتها وتوقها ، وقانون بقائها التناصح والتواصى بالحق والصبر ، وقد مدح الله أمة الإسلام بأنها خير أمة إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والإيمان

بالله، ومدح طائفة من أهل الكتاب بثباتهم على الحق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أخرج أبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل، أنه كان الرجل يلقي الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (المائدة : ٧٨، ٧٩). ثم قال : كلا والله : لتأمرن، ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أي ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم (١٢).

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمَا وَلَمَّا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

المفردات :

حَرْثٌ قَوْمٌ : زرعهم .

صِرٌّ : برد شديد .

التفسير :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا، فقليل : هم بنو قريظة والنضير من اليهود، وقيل : هم مشركو قريش عامة، وقيل : هم أبو سفيان ورهطه خاصة، وقيل : إن الكلام في الكفار عامة لعموم اللفظ فهو على إطلاقه ويدخل فيه اليهود وكذا مشركو مكة دخولا أوليا، قالوا : إنهم كلهم كانوا يعتزون بكثرة الأموال ويعيرون النبي ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون : لو كان محمد على الحق ما تركه ربه في هذا الفقر، وقيل : هم المنافقون (١٤).

والمعنى :

إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به ، واغترفوا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا ، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً - ولو يسيراً - من عذاب الله ، الذى سيحقيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم .

وليس المراد : خصوص الأموال والأولاد ، بل كل ما يعتبره الإنسان وسيلة قوة ومنعة ، وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان - فى الغالب - يدفع عن نفسه بالفداء بالمال ، أو الاستعانة بالأولاد .

وقد حكى القرآن غرور المترفين بالأموال والأولاد فقال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَاذِبُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبا : ٢٤-٢٥) . فآذبرهم الله تعالى بأن الكافر لا ينفعه شيء من ذلك فى الآخرة ، ولا مخلص له من العذاب ولا محيص عنه .

وَأُولَئِكَ الْمُتَصَفُّونَ بِالْكَفْرِ أَصْحَابُ النَّارِ أَهْلُهَا الْمَلَائِمُونَ لَهَا هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا يبرحونها أبداً .

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

وقال سبحانه : وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٧) .

١١٧ - مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ .

قال أكثر المفسرين : الصر : البرد الشديد .

وفى الصحاح : الصرُّ بالكسر برد يضر بالنبات والحرث .

وقيل : الصرُّ : السموم الحارة ، وعن ابن عباس فيها صرٌّ أى نار . وعلى القولين الغرض من التشبيه حاصل سواء كان برداً مهلكاً أو حراً محرقاً (٦٥) .

وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً . . . شيئاً متصوب على أنه مفعول أى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئاً من الإهانة والدفع ، وتكرير شيئاً للتقليل .

وفى تفسير ابن كثير صرٌّ أى برد شديد ، وقال عطاء : برد وجليد ، أو فيها صرٌّ . أى نار ، وهو يرجع إلى القول الأول ، فإن البرد الشديد ، ولاسيما الجليد يحرق الزرع والثمار كما يحرق الشيء بالنار .

وترسم الآية مشهداً حسياً ينبض بالحركة ، يصور ضياع أعمال الكافرين ، وذهاب ما ينفقون فى حياتهم الدنيا من أموال .

قال النيسابوري : والظاهر أن الضمير في ينفقون عائد إلى جميع الكفار ، وذلك أن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا فلا يبقى له أثر في الآخرة ، في حق المسلم فضلاً عن الكافر ، وإما أن يكون لمنافع الآخرة ، فالكفر مانع عن الانتفاع به ، ولعلمهم كانوا ينفقون في الخيرات كالإحسان إلى الضعفاء والأراامل راجين خيراً كثيراً في المعاد لكتهم إذا قدموا الآخرة رأوا كفرهم مبطلاً لأثار تلك الخيرات، فكان كمن زرع زرعاً وتوقع منه نفعا كبيراً فأنصابت جائحة فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.

ولعلمهم كانوا ينفقون فيما ظنوه خيراً وهو معصية كإتفاق الأموال في إيذاء الرسول ﷺ وفي تخريب ديار المسلمين .

ولا يبعد أيضاً تفسير الآية بغيبتهم في الدنيا فإنهم أنفقوا أموالاً كثيرة في تجهيز الجيوش والإغارة على المسلمين ، وتحملوا المتاعب ، ثم انقلب الأمر عليهم وأظهر الله الإسلام وأعز أهله ، فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الحيرة والحسرة ، وقيل: المراد بالإتفاق ههنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة (١٦).

وجاء في ظلال القرآن :

(وننظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب ، إنها عاصفة باردة تلجية، تحرق هذا الحرث بما فيها من صر - واللفظة ذاتها كأنما هي مقدوف يلقي بعنف فيصور معناه بجرسه التفاض - وإذا الحرث كله مدمر خرب .

إنها لحظة تم فيها كل شيء، تم فيها الدمار والهلاك، وإذا الحرث كله يباب.. ذلك مثل ما ينطق الذين كفروا في هذه الدنيا، ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد.. كله إلى هلاك وفناء دون ما متعة حقة ، ودون ما جزاء (١٧).

وقوله تعالى : أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . أي أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصي فدمرتهم ، وأهلك ما فيه من ثمار، وهم أخرج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار.

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ . بإحباط الأجر وذهاب الثواب على ما أنفقوا وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان أو بترك النظر في الآيات البينات بعد ما ظهرت لهم، أو بالجهود بعد النظر ونهوض الحجة (١٨).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ هَآئِنْتُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَصَاؤَ عَلَيْهِمُ الْآنَا مِثْلَ الْغِيظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ مِّنَ اللَّهِ عِلْمٌ بَذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْكُمُ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

المضردات :

بطانة : بطانة الرجل، خاصته وموضع سره . مأخوذ من بطانة الثوب . من دونكم : من غير ملكتهم .

لا يألونكم خبالا : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا في إنزال الخيال بكم . والخيال: الشر والفساد .

ودوا ما عنتم : العنت : المشقة . وللمعنى : هم تمنوا ما يشق عليكم .

البغضاء : الحقد والكراهية .

بذات الصدور ، بما انطوت عليه القلوب من الأسرار . فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى .

التفسير :

١١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ... الآية .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين والكافرين ، حذر المؤمنين من موالاة الكافرين، وجعلهم موضع تقصير، باطلأعهم على بواطن أمورهم فقال :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا .

أى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء: تجعلونهم مواضع سرهم ومشورتكم، لأنهم لا يدخرون وسعا في إلحاق الشر والفساد بكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . أى : أحبوا أن يقع بكم ما يشق عليكم من أنواع المحن والبلاء في شئون دينكم ودنياكم.

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . أى : قد ظهرت الكراهية من أفواههم، على فلتات ألسنتهم . وما تخفى صدورهم أكبر . وما تنطوى عليه صدورهم من الحقد والكراهية لكم أكبر مما ظهر على أفواههم.

قد أوضحنا لكم الآيات الدالة على شديد بغضهم لكم. فلا توالوهم إن كنتم من ذوى العقول الواعية، فإن مقتضى العقل السليم: ألا يتخذ الإنسان أحدا من غير ملته صقيا له ومحل ثقة.

وفى هذا البيان ما يقطع عذرهم، إذا ما خالفوا عن أمر ربهم، واتخذوا أوليائهم من أعدائهم.

١١٩ - هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ... الآية .

لما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين، وبين أنهم يبغضونهم ولا يدخرون وسعا فى خيائهم، عقب ذلك بما يؤكد وجوب الانتهاء عن موالائهم. فقال :

هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .

أى : أنكم تخلصون لهم، وتودونهم، وترجون لهم الخير. ولكنهم لا يحبونكم، ولا يرغبون إلا فى خباكم وفسادكم، ثم إنكم - إلى جانب حبكم لهم - تؤمنون بكل ما أنزل من الكتب السماوية، وبالرسل الذين أنزلت عليهم.

وَإِذَا قُلُوبُكُمْ قَالُوا آمَنَّا . نفاقا لكم وخداعا حتى تستبطنوهم وتخبروهم بأسراركم، فيستغلوا مودتكم فيما ينفعهم، وفيما يجلب الخيال فيكم .

وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ :

أى : إذا هارقوكم، وخلصوا إلى أنفسهم، عضوا أناملهم من الغيظ حسرة وأسفا، حيث لم يجدوا إلى التشفى والنيل منكم سبيلا.

وعض الأنامل فى الآية، كناية عن شدة الغيظ.

قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : موتوا بغيطكم من بقائنا على الإسلام، فإن الله متم نعمته ومكمل دينه، ومعل كلمته، ولو كره الكافرون.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . فيعلم ما تتطوى عليه ضمائرهم، وتكنه سرائهم من البغضاء والحسد . ويكفى المسلمين شرة، ويجازيكم عليه.

١٢٠ - إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْرَهُمْ وَإِنْ تَصِيْكُمْ سَيِّئَةً يَفْرِحُوا بِهَا ... الآية .

المعنى : إن نالكم خير- ولو كان قليلا - أحزنهم، وإن نزلت بكم مصيبة فادحة يفرحوا بها ويشمتوا بكم.

وَإِنْ تَصَبَّرُوا . على عداوتهم وكيدهم . وَتَّقُوا . الله فى كل أموركم : بفعل الواجبات وترك المنهيات. ومن ذلك ترك محبتهم وإطلاعهم على أسراركم.

لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . أَى لَ يَنَالُ مِنْكُمْ مَكْرَهُمْ وَحِيلُهُمُ الَّتِي يَدْبِرُونَهَا لَكُمْ شَيْئًا قَلِيلًا مِنَ الضَّرَرِ ،
يحفظ الله الذى وعد به ، ما دمتم تتقون الله وتخشون عقابه .

إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ . مِنَ الْكَيْدِ لَكُمْ ، وَمَحَاوِلَةِ إِلْحَاقِ الْأَذَى بِكُمْ .

مُحِيطٌ . لَا يَعْزِيبُ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

ومقتضى علمه تعالى بما يعملون : أن يحاسبهم ويجزيهم عليه .

وقرئ بقاء الخطاب تَعْمَلُونَ . والخطاب للمؤمنين .

والعنى : إن الله محيط بما تعملونه ، أيها المؤمنون ، من الصبر والتقوى وسائر الطاعات . والإذعان لما
نهاكم عنه من مودة من ليس على دينكم ، وإطلاعهم على أسراركم .

وفيه إشارة إلى أن الامتثال مدعاة للقلب والفوز والانتصار ، وأن المخالفة عن أوامر الله ، سبيل الندامة
والهلاك (١٢١) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ
أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا
وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المفردات :

غدت : أصل الغدو ، الذهاب أول النهار ، ثم استعمل فى مطلق الخروج .

همت طائفتان منكم ان تفشلا : أشرفتا على الهزيمة .

تبوئ المؤمنین مقاعد للقتال : تنزلهم الأماكن المناسبة للقتال .

بدر : اسم لكان بين مكة والمدينة كانت به الغزوة المعروفة باسمه .

بدر

وانتم اذلة	: قليلو العدد والعدة .
من فورهم	: أى من ساعتهم.
مسهوئين	: مسومين بكسر الواو المشددة، متخذين سمة، أى علامة تميزهم، وفتحتها، بمعنى معلّمين من الله تعالى.

١٢٠ آية :

نلاحظ أن سورة آل عمران تحدثت عن وحدانية الله وجلاله وعن مظاهر قدرته ورحمته، وعن جوانب من قصة آل عمران، وعن التشبهات التى ساقها اليهود واللوان الحرب النفسية وساقّت للمؤمنين من التوجيهات والعظات ما يهدى قلوبهم ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم من خلال ١٢٠ آية فى بداية السورة .

٦٠ آية :

ثم تحدثت سورة آل عمران ، من جوانب متعددة من غزوة أحد فى حوالى ٦٠ آية من الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠ .

قصة غزوة أحد

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد انتصر أتباعها انتصارا مؤزرا على كفار قريش...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين، فجمعوا جموعهم، وخرجوا فى جيش كبير، ومعهم بعض نساءهم حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال ..

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل.

واستشار النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم - ومعظمهم من الشباب - الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يميل إلى رأى هذا الفريق إلا أنه أثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، نظرا لكثرة عدد القاتلين بذلك.

ثم دخل النبى - صلى الله عليه وسلم - بيته ، ثم خرج منه وقد ليس آلة حربه، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكروها النبى - صلى الله عليه وسلم - على القتال ، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم ، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد : « ما ينبغى لنبى ليس لأُمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتكم إلا الخروج. فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه ... » (٧٠).

ثم خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل « أحد » إلا أن « عبد الله بن أبي بن سلول » انسحب في الطريق بثلاث الناس محتجا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبي - صلى الله عليه وسلم - الخطبة لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا، وقال لهم: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا تؤتينا من قبلكم .

وفي رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : «احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تتصرونا. وإن رأيتمونا نغتم فلا تتركونا» (٧١).

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبي - صلى الله عليه وسلم - لأتباعه أن يجادلوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم في هذا الالتحام « أمت أمت ».

وما هي إلا جولات في أوائل المعركة، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار، ولم يبق عن المشركين شيئا ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستتهاز للعزائم.

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده، فحثوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

ورأى الرماة الهزيمة وهي تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم « عبد الله بن جبير » أن يمنهم عن ترك أماكنهم عملاً بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا في جمع الغنائم والأسلاب ...

وأدرك خالد بن الوليد - وكان مشركا - أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحرق بهم، وأخذ في مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة في حماية ظهورهم ..

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله « خالد » ومن معه.

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذي حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر.. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم ..

وأصيب النبي - صلى الله عليه وسلم - خلال ذلك بجروح بالغة، وأشيع أنه قد قتل إلا أنه - صلى الله عليه وسلم - جعل يصيح بالمسلمين : إلى عباد الله، إلى عباد الله .. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين ..

ومرت على المسلمين ساعة من أخرج الساعات في تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كان المشركون يهاجمون النبي - صلى الله عليه وسلم - بعناد وحقد، وكان المسلمون مستميتين في الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم.

وكان لهذه الاستماتة آثارها في تراجع المشركين ، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين ..

وخشى النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة: فقال لعل بن أبي طالب: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، فإن هم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. فوالذي نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها .

قال على : فخرجت في آثارهم فرأيتهم جنّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة .

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه - : قل له : نعم بيننا وبينك موعد .

وانتهت غزوة أحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع ... وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

التفسير :

١٢١ - وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتطؤوا وقت خروجك مبكرا من حجرة زوجك عائشة إلى غزوة أحد .

تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعَ لِلْقِتَالِ . أى تزلهم وتسوّى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال بحيث يكونون في أحسن حال وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم .

وتشير الآية إلى ما فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم، وبرسم الخطة الحكيمة التي تكفل لهم النصر .

فجعل للجيش ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على ظهر الجبل، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك .

واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم ونياتكم وأعمالكم، فيجازى كل إنسان على حسب قوله ونيته وعمله. والمقصود من هذه الجملة غرس الرهبة في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم في غزوة أحد، حيث خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ - إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(الهم) : هو حديث النفس وإتجاهها إلى شيء معين دون أن تأخذ في تنفيذه، فإذا أخذت في تنفيذه صار إرادة وعزما وتصميما .

تَفْشَلًا : من الفشل وهو الجبن والخور والضعف، يقال فشل فشلاً فهو فشل أى جبان ضعيف القلب.

والمعنى : اذكر يا محمد حين همت طائفتان - وهما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال، وتتبعنا عبد الله بن أبي سلول عندما اتخذ ثلث الناس وقال : يا قوم علام تقتل أنفسنا وأولادنا؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٢).

وعن ابن عباس قال : أضمرنا أن يرجعوا فعزم الله لهم الرشد فتبثوا .. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه ... ولو كانت عزيزة لما ثبتت معها ولاية الله (٧٣).

وَعَلَى اللَّهِ فليتَرَكِلِ الْمُؤْمِنُونَ .

التوكّل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ فى الأسباب ، فإذا لم يأخذ الإنسان فى الأسباب كان توكلا لا توكلا .

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليكل المؤمنين أمورهم، بعد اتخاذ الأسباب التى أمرهم- سبحانه - باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم سبحانه بتأييده ورعايته .

إن حديث القرآن فى سورة آل عمران عن غزوة أحد استمر قرابة ستين آية، ولم يسر القرآن فى أحداث الغزوة حسب ترتيب خروجها وأحداثها . بل حسب مشيئة الحق سبحانه فى أن ينتزع منها العبرة والعظة، ويصور الجو الذى صاحبها، وبذلك تتحول الغزوة إلى نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات، والنتائج والاستدلالات، يبدأ السياق منها؛ ثم يستطرّد حولها ثم يعود إليها ثم يجول فى أعماق الضمائر، وفى أغوار الحياة، ويكرّر هذا مرة بعد مرة، والقرآن بهذا يأسو جراح المؤمنين ويثبت إيمانهم ، ويشحذ عزائمهم ، ويتخلل ذلك تربية وتعليم وبيان لسنن الله ونواميسه، وبهذا كان القرآن كتاب الحياة، أنشأ أمة وأقام دولة ورعى أجيالاً . - وصنع ضمائر وحرك همما وعزائم ، صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ - . (النمل : ٨٨).

١٢٢ - وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تشير الآية إلى معركة بدر وكانت يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢هـ، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذل الشرك وأهله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فارسان وسمعون وبعيرا، والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف، فى سوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيول المسوّمة (٧٤)، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله.

وغيرية بدر لا تزال إلى الآن في الطريق بين مكة والمدينة، وهي أقرب إلى المدينة منها إلى مكة، وقد زُرَتْ هذه القرية وشاهدت مكان المعركة، واستشعرت فضل الله وعونه ومدده الذي أمدَّ به المؤمنين في غزوة بدر، فنصرهم على عدوِّهم ، مع قلة المسلمين وقلة عدتهم، وكثرة عدوهم واستكمال عدته، ولو تمت أمور هذه الغزوة بمقاييس القوة والاستعداد - دون التوكل على الله - لكان النصر لقرش دون المسلمين، ولكن النصر جرى على سنة الله من نصر المؤمنين المتقين الصابرين المتوكلين على الله ، قال تعالى : **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذْهَلُ** .

وليس المراد بالذلل أنهم كانوا ضعاف النفوس، أو كانوا راضين بالهوان.. وإنما المراد أنهم كانوا قليلي العدة والعدد، فقراء في الأموال وفي وسائل القتال.

قال تعالى في آية أخرى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا . (التوبة : ٢٥) .

وقال الإمام أحمد عن سماك قال : سمعت عياضاً الأشعري قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء، وقال عمر : إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة، فكتبنا إليه أنه قد جأش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا أنه قد جاء في كتابكم تستمدوني، وإنى أدلكم على من هو أعرز نصرا، وأحصن جندا، الله عز وجل فاستصبروه، فإن محمد صلى الله عليه وسلم قد نصر في يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاكم كتبنا، هذا فقاتلوه ولا تراجعوني. قال : فقاتلناهم فهزمناهم، أربع فراسخ، وأصبنا أموالا كثيرة (٧٥).

فَاتَّقُوا اللَّهَ . فى الثبات والصبر وامتنال أوامره واجتتاب نواهيه.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . اى لعل الله ان ينعم عليكم بالنصر فتشكروه عليه .

١٢٤ - إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ .

المعنى : اذكر يا محمد إذ تقول للمؤمنين يوم بدر : ألن يكفيكم أن يمدكم ريكم بثلاثة آلاف منزلين من الله، لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم ، وإن أنتم توكلتم عليه وصبرتم .

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين أحدهما أن قوله تعالى: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ .

والقول الثاني : يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتُ مِنْ أَهْلِكَ تُبْرَىٰ ۖ مِنْهُنَّ مَقَاعِدٌ لِلْقِتَالِ وذلك يوم أحد.

(والقول الأول قول أكثر المفسرين لأن الكلام متصل بقصة بدر ، ولأن العدة والعدد يوم بدر كانا أقل وكان الاحتياج إلى المدد أكثر » (٧٦).

١٢٥ - بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

بَلَىٰ . أى نعم ، يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله ، ولكنه سبحانه يمدكم بأنكم إن تَصْبِرُوا . على قتال أعدائكم ، وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه وَتَتَّقُوا . الله وتخشوه وتجتنبوا معاصيه ويأتوكم مِّن فُورِهِمْ هَذَا . أى ويعايلكم المشركون مسرعين ليحاربوكم ، وقد أعددت أنفُسكم لقتالهم ، إذا فعلتم ذلك - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة .

فى أعقاب الآية :

إذا كان الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين؟ أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟.

يرى كثير من العلماء أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .

قال القرطبى : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر ، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم وتقوية قلوبهم ، ولتخذيّل المشركين وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

قال صاحب تفسير المنار :

ليس فى القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل ، وإنما جاء ذكر الملائكة فى سياق الكلام عن غزوة بدر فى سورة الأنفال ، على أنها وعد من الله تعالى بإمداد المؤمنين بألف من الملائكة .

وفسر هذا الإمداد بقوله عز وجل :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَفَتَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَائِلِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . (الأنفال : ١٢) .

قال ابن جرير الطبرى فى معنى التثبيت :

« يقول قووا عزمهم ، وصححوا نياتهم ، فى قتال عدوهم من المشركين » .

وقيل : كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم .

ونقل صاحب المنار نقولاً كثيرة فى تفسير هذه الآية ، وفى تفسير سورة الأنفال رجح فيها أن معونة الملائكة للمؤمنين كانت معنوية وأن الملائكة لم تدر القتال (٧٧) .

وقال النيسابورى :

أجمع أهل التفسير وأرباب السير أنه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، وعن ابن عباس أنه 'لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضرّيون، ومنهم من قال : إن نصر الملائكة بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وبإشعار المؤمنين بأن النصر لهم.

هل هذه مناقشة مجدية :

فى كتب التفسير الكبرى مثل تفسير الطبرى والنيسابورى وفخر الدين الرازى وتفسير المنار، نجد نقاشا قويا بحجج وأسانيد وأدلة عقلية ونقلية حول موضوعين :

الأول : هل أمدّ الله تعالى المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد المذكور فى الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة آل عمران ٩.

فبعض المفسرين يرى أن الله أمدّ المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، وقال آخرون : لم يزد المدد على ألف من الملائكة.

الموضوع الثانى : هل باشرت الملائكة القتال بنفسها، أم اقتصرت مهمتها على تثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ٩ .

والذى يطعن إليه القلب أن الله تعالى أمد المؤمنين، وإن ذلك كان من أسباب النصر.

أما النقاش فى عدد الملائكة يوم بدر وهل كان ألفا أو خمسة آلاف؟ والنقاش فى عمل الملائكة يوم بدر، فهو لون من ألوان الترفّ العلقى. إنّ الملائكة من عالم الغيب ويكفيها كتاب الله، ويكفى المسلم أن يعتقد بأن الله أوحى للملائكة بأن تثبت المؤمنين وتساعدهم فى اكتساب النصر، ولا يضير المسلم أن يجهل عدد الملائكة التى تنزلت، ولا يزيد فى يقينه أن يعتقد أن الملائكة باشرت القتال ، أو اقتصرت مهمتها على التثبيت ، وآراء الفريقين تحتلها النصوص . ولا نريد أن نرجح رأى فريق ، بل نحن أقرب إلى التسليم والتفويض وقولنا : آمنا به كل من عند ربنا .

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ۝١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٩﴾

المفردات :

فينقلبوا خائبين : هيرتدوا منقطعى الآمال.

يكسبهم : الكبت : شدة الغيظ، أو وهن يقع فى القلب.

ليقطع طرفا : لينقص فريقا من الكافرين بالقتل والأسر.

التفسير :

١٢٦ - وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

أى وما جعل الله الإمداد بالملائكة ولا الوعد به ، إلا بشارة لكم بالنصر، وتطمئنا لقلوبكم حتى تثبتوا أمام عدوكم ، وليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يقلب ، الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه حكمته ، فالمدد بالملائكة أو غيرها سبب ظاهر ، والسبب الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

(ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم ويفتروا بها دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل، ونسوا خالقها اتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطاً) (٧٨).

والمؤمن الحق قوى الإيمان بربه، واثق بقدرة خالقه، فهو سبحانه يقول للشراء كن فيكون ، لكنه سبحانه جعل للنصر أسبابا، وجعل لهذا الكون نواميس وقوانين، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بقدرة القادر، فعلينا بطاعة الله وامتنال أمره واجتنب نهيهِ، فمن أطاع الله أطاعه كل شيء . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتُورُوا اللَّهَ بِنَصْرِكُمْ يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

١٢٧ - لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ .

إن النصر من عند الله ، وقد نصر الله المؤمنين فى بدر، وهو سبحانه حكيم فى إنزاله النصر ، وحكمة هذا النصر أن ينقص جانباً من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل ، وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنمية .

أَوْ يُكَبِّتَهُمْ وَيَذِلَّهُمْ وَيَغِيظُهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا بِسَبَبِ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ هَزِيمَةٍ، فَيَعُودُوا إِلَى دِيَارِهِمْ مُنْكَسِرِينَ مَدْحُورِينَ، فَقَدْ كَانُوا يَقْصِدُونَ إِطْلَاقَ نُورِ الْإِسْلَامِ فَخَابَ قَصْدُهُمْ ، وَطَاشَ سَهْمُهُمْ ، وَعَادُوا وَقَدْ فَتَقَدُوا الْكَثِيرِينَ مِنْ وَجْهِهِمْ وَصَنَادِيدِهِمْ ، أَمَّا الْإِسْلَامُ فَقَدْ أَزْدَادَ نُورَهُ تَالِقًا، وَأَزْدَادَ أَتْبَاعَهُ إِيْمَانًا عَلَى إِيْمَانِهِمْ ، وَرَزَقَهُمُ اللَّهُ النِّصْرَ الْمُبِينَ.

١٢٨ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

كانت الحرب سجلا بين المؤمنين والكافرين ، وأرسل النبي ﷺ سبعين قارئاً لتعليم القرآن لبعض القبائل ، فقتلهم المشركون ، وقد اشتد حزن الرسول ﷺ لموت القراء ودعا على المشركين (٨٧).

وقد حدث مثل ذلك في غزوة أحد ، عندما لحقت الهزيمة بالمسلمين وأصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجراح في وجهه الشريف، وسال الدم منه فقال : « كيف يقلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » ، فأنزل الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (٨٠).

وتقيد الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو في صلاة الصبح بعد الركوع، إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، فيدعو بنجاة المستضعفين في مكة، وربما دعا على المشركين الذين يقتلون المسلمين ويعذبونهم ، روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم ، حتى أنزل الله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

والآية تشير إلى حكمة إلهية عليا يريد الله تحقيقها في هذا الكون، وهي أن يدفع المؤمنون ضريبة الإيمان بالجهاد والكفاح واحتمال الابتلاء ، قال تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١٧٨) إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود : ١١٨ ، ١١٩).

وقال عز شانه أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (الأنكبيوت : ٢ ، ٣).

أو تشير الآية إلى أن وظيفة الرسول البلاغ ، قال تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . (القصص : ٥٦). وقال سبحانه : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق في قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم .

والمعنى : أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، وله حكمة يريد تحقيقها ، وليس لك يا محمد من التصرف في أمر عبادى شيء ، بل الأمر لله ، فإما أن يتوب عليهم بالإيمان ، أو بتوجيههم للاعتبار ، فإن انتصار المسلمين قد يكون فيه للكافرين عظة وعبرة ، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم ، فيتوب الله عليهم من كفرهم ويختم لهم بالإسلام والهداية .

أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

أو يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم ، أو يعذبهم بالقتل والخزى والعذاب يوم القيامة ، لأنهم ظلموا أنفسهم حين حرموها من النظر والاعتبار والهداية ، وأصروا على الكفر واستحبوا العمى على الهدى وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . (النحل : ٢٣) .

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . جملة معترضة بين المتعاطفات في الآيتين ١٢٧ ، ١٢٨ وتقدير الآيتين هكذا :

(ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر ، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم في الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شيء إنما أنت رسول من عند الله تعالى مأمور بإنذارهم وجهادهم) .

وقد رجَّح هذا الوجه صاحب الكشف فقال :

وقوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . اعتراض ، والمعنى : أن الله مالك أمرهم ، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم ، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شيء ، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم .

وقيل إن أَوْ . بمعنى (إلا أن) كقولك : لألزمك أو تقضيني حقي . على معنى : ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتشقى منهم ^(٨١) .

١٢٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

سيقت هذه الآية لتأكيد ما تقدم ، من أن الأمر كله بيد الله وحده .

ومعنى الآية :

إن لله جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكا وتصرفا وتدبيراً ، لا ينازعه في ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه ، فضلاً منه وكرماً ، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلاً منه ، ومغفرته أقرب ورحمته أرجى لأنه كثير المغفرة والرحمة .

وتلاحظ أن الآيات السابقة من الآية ١٢٢ إلى الآية ١٢٩ ، قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها، وتذكير المؤمنين بما هم به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزر، منحه الله لهم مع قتلهم وضعفهم، حتى يعرفوا أن النصر ليس بكثرة العدد والعدة ، وإنما النصر يأتي مع صفاء النفوس ونقاء القلوب ومضاء العزائم، والطاعة التامة لله ورسوله ، ثم تحدثت الآيات عن حكمة إلهية عليا في هذا الكون ، وبينت أن بيد الله سبحانه وتعالى الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُم مَّضْغَةً وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

المفردات :

الربا : هو ربح المال ، يقال ربا المال يربو رباه أى زاد، وأربى الشيء على الشيء أى زاد عليه .

أضعافا مضاعفة : أى زيادات مكررة، وأضعافا جمع ضعف، وضعف الشيء: مثله الذى يصير به اثنين .

مضاعفة : فيه إشارة إلى تكرار التضعيف مرة بعد مرة .

التفسير :

١٣٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُم مَّضْغَةً وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

من شأن القرآن أن يعنى بتربية المؤمنين وإرشادهم وتعليمهم ، وفى الآية السابقة دروس وعبر من غزوة أحد وغزوة بدر ، وفى الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ دروس فى تحريم الربا وتحذير من عقاب آكله .

وهى سنة القرآن فى تخزين المؤمنين بالموعظة، والأمر والنهى والترغيب والترهيب، والانتقال بالنفس البشرية من خير إلى أمر إلى نهى .. رغبة فى حمل النفس على تقبل الأوامر ، واجتناب النواهى ، والتزام الطاعة .

قال الإمام الرازى :

لما شرح الله عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب ، فقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَهُم مَّضْغَةً .. (٨٢) .

وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلاً - إلى أجل فإذا حل الأجل، ولم يكن المدين واجداً لذلك المال، قال: زدني في المال حتى أزيد في الأجل، فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضاعفها فهذا هو المراد من قوله: **أَضَاعَفَا مَضَاعَفَةً** (٨٣).

(وكان يهود المدينة من أشهر المتعاملين بالربا، فنهى الله سبحانه المؤمنين أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء، فإن الربا يجتث مال الفقير، ويضيع جهده، ويزيد في ثراء الأغنياء مع الدعة والراحة.. وهو الذي يقطع أواصر المودة والتعاطف بين الناس) (٨٤).

وقد سبق الحديث عن الربا في الآية ٢٧٥، ٢٧٦ من سورة البقرة. وفيهما ما يدل على تحريم الربا قليله وكثيره، عاجله وآجله وأن ليس للدائن سوى رأس ماله.

قال تعالى: **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٧٥) **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**. (البقرة: ٢٧٥، ٢٧٦).

وقد ابتدأ سبحانه الآية التي نفسرها بقوله:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا ..

ليبين أن الربا ليس من شأن المؤمنين وإنما هو من سمات الكافرين الفاسقين.

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطي الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح، وأن يتحروا الحلال في كل أمورهم.

وخصه بالنهي لأنه كان شائعاً في ذلك الوقت، ولأنه - كما يقول القرطبي - هو الذي أذن فيه بالحرث في قوله تعالى: **فَإِنْ لَّمْ تَسْعَوْا فَاذْهَبُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**. والحرب يؤذن بالقتل، فكانه يقول لهم: إن لم تنتهوا الربا هزمتهم وقتلتهم (٨٥).

والمراد من الأكل الأخذ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به، ولشيوعه في الماكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع.

والربا معناه الزيادة، والمراد بها هنا تلك الزيادة التي كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير: عن عطاء قال: كانت ثقيف تداين بنى المنيرة في الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون.

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف ، يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له « تقضيئى أو تزيدنى » (٨٦).

وقوله : أضعافاً . حال من الربا ، وقوله : مضاعفةً . صفة له .

والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشيء مثله ، وضعفاه مثلاه ، وأضعافه أمثاله .

وهذا القيد وهو قوله : أضعافاً مضاعفةً . ليس لتقييد النهى به ، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتبويج من كان يتعاملى الربا بتلك الصورة البشعة .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيراً شديداً ، فقال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله تعالى عنه هنا بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسبة ، أو ربا الجاهلية ، وقد حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع - أى مهدر - وأول ربا أبداً ربا عمى العباس بن عبد المطلب » (٨٧).

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسبة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا ، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه : « البر بالبر مثلاً بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلاً بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلاً بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلاً بمثل يدا بيد . والتمر بالتمر مثلاً بمثل يدا بيد . والملح بالملح مثلاً بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » (٨٨).

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كتمح بقمح ، ولا بد من قبضها . وإذا اختلف الجنس كتمح بشعير جازت الزيادة ، ولا بد من القبض فى المجلس ، والتأخير يسمى ربا النساء ، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل .

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة؛ ليرجع إليها من شاء فى مظانها . ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشية الله وتقواه فقال : وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى : واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين معارمه ساتراً ووقاية ، لعلكم بذلك تتألون الفلاح فى الدنيا والآخرة .

ثم حذرهم - سبحانه - من الأعمال التي تقضى بهم إلى النار فقال: **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** أي: صوبوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع في الأعمال السيئة كتعاطي الريا وما يشابه ذلك ، لأن في هذه الأعمال السيئة ما يؤدي بكم إلى دخول النار التي هيئت للكافرين .
وفى التعقيب على النهي عن تعاطي الريا بتقوى الله وابتغاء النار، إشعار بأن الذي يأكل الريا يكون بعيدا عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقاً لدخول النار التي أعدها الله تعالى للكافرين والفاستقين عن أمره .

قال صاحب الكشف : كان أبو حنيفة إذا قرأ هذه الآية : **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** . يقول : هي أخوف آية في القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه في اجتنب محارمه (٨٩) .

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه، أمرهم - سبحانه - بطاعته وطاعة رسوله فقال : **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** .

أي أطيعوا الله في كل ما أمركم به ونهاكم عنه، وأطيعوا الرسول الذي أرسله إليكم ريكم لهدايتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق : **إِنْ رَحِمْتُ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ** . (الأعراف : ٥٦) .

وفي ذكر طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقترنة بطاعة الله تعالى تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال تعالى : **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا** . (النساء : ٨٠) .

★ ★ ★

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الشَّرَاءِ وَالْبُرَاءِ وَالْكَتْمِ الظَّيْفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات :

هيئت :

أعدت

السراء : الرجاء واليسر .

الضراء : الشدة والعسر .

الكاظمين الغيظ : المسكين عند امتلاء نفوسهم به . فلا ينتقمون ممن غاظهم . وأصل الكظم : شد فم القربة عند امتلائها . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر .

فلحشة : الفاحشة ، كل ما عظم قبحه من الذنوب .

يصبروا : يقيموا .

التفسير :

١٣٣ - وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. الآية .

لما حذر الله في الآيات السابقة ، من الأفعال المستتعبة للعقاب ، عقبه بالحث على الأفعال المستتعبة للثواب ، فقال : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . أى : بادروا وسابقوا إلى كل ما يحقق لكم مغفرة ربكم لذنوبكم ، ويوصلكم إلى نيل مرضاته ، ودخول جنته الواسعة . وذلك يكون بإقبالكم على طاعته ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه .

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . أى : كعرضها . وليس المراد التحديد ، وإنما هو كناية عن غاية سعتها ، وعظيم رحبتها بما هو - فى تصور المخاطبين - أوسع الأشياء وأرحبها . وخص العرض بالذكر - مع أنه دون الطول - للمبالغة فى البسط والسعة ، ويطلق العرض أيضاً على السعة .

ويجوز أن يراد منه هذا المعنى هنا .

أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . أى : هيأها الله لعباده الذين يتقون عذابه ، بامتنال أوامره واجتناب معارمه .

ثم وصف الله عباده المتقين ، ببعض صفاتهم التى تؤهلهم لمغفرته ، ودخول جنته فقال :

١٣٤ - الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .. الآية .

أى فى اليسر والعسر ، والفرح والحزن ، والمنشط والمكره .

والمراد : أنهم ينفقون فى كل أحوالهم ، فهى دائرة بين السراء والضراء . وهذه هى الصفة الأولى .

وإنما ابتدئ بالإنتفاق ، لأن الجود بالمال - وبخاصة فى حال العسرة والشدة - من أشق الأمور على النفوس .

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص ، لأن حاجة المسلمين إلى الإنتفاق - آنذاك بل وكل آن - كانت أشد ، لمجاهدة العدو ، ومواساة المسلمين .

ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلاً عنه . ولذلك يقترن النهى عن الربا - فى القرآن - بالحث على الصدقة .

وحذف مفعول يُنْفَقُونَ . ليعم كل ما يصلح للإنفاق ، أو لأن المراد وصفهم بالإتفاق دون نظر إلى ما ينفقون كما تقول : فلان يعطى ويمنع . لا تقصد إلا وصفه بالإعطاء والمنع .
وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ .

صفة ثانية . وكظم الغيظ : حبسه وكنمه مع القدرة على إمضائه . والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين الغضب - على ما قيل - أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام ألبتة ، ولا كذلك الغيظ . والغيظ أصل الغضب . وكثيراً ما يتلازمان .

وكظم الغيظ من أجل الأخلاق وأنبلها وأحبها إلى الله .
وفى الحديث الشريف : « من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفعه ، ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً »^(٩٠) .
وعبر فى الصفة الأولى بالفعل المضارع يُنْفَقُونَ . قصد الإرادة أن يجعلوا الإتفاق من آن لآخر .
وعبر بالكاظمين وهو اسم فاعل : لقصد الثبات والاستمرار على ضبط النفس .
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

هذه صفة ثالثة ، جاءت على اسم الفاعل ، للدلالة على الثبات والدوام أيضاً .
والعفو : ترك عقوبة من يستحق العقوبة من الناس ، لتنب جناه . وهو أكمل من كظم الغيظ ، لأن الغيظ ، مجرد ضبط النفس ، ولا يلزمه الإغضاء عن الإساءة .
أما العفو ، فيقتضى تناسى الإساءة واعتبارها كأن لم تكن .

وفى الحديث الصحيح : « .. وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً »^(٩١) .
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

أى كل المحسنين ، ويدخل فيهم ، من تقدم ذكرهم .
والحب : ميل القلب إلى المحبوب . .
والمراد به - فى الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان .
والمعنى : أن الله يرضى عن المحسنين جميعاً ، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء .
والإحسان يشمل : إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه الأكمل .

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٩٢).

ويشمل أيضاً : إيصال النفع إلى الغير، ودفع الضرر عنه .

ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصاً لوجه الله : لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ، ولا يكون مكافأة على

إحسان سابق وصل إليه .

وفى الحديث الشريف : « ليس الواصل بالمكافئ » (٩٣). والمراد بالواصل : المحسن .

وقال الثوري : الإحسان : أن تحسن إلى من أساء إليك . فإما من أحسن إليك ، فإنه متاجرة كتقذ السوق:

خذ منى وهات .

ولمكانة الإحسان عند الله، أثاب عليه بأعلى أنواع الثواب ، وهو محبته سبحانه وتعالى - كما قال فى ختام

الآية : **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** .

١٣٥ - **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ** ولم

يَصْرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

هذه هى الصفة الرابعة من صفات المتقين . عطفت على ما قبلها . وقوله تعالى : **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** .

جملة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه : مشيرة إلى ما بينهما من التفاوت فى الفضل. فإن درجة الأولين

من التقوى أعلى، وحظهم أوفى.

ويجوز أن يكون **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** . معطوف على **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ** . فكانه لما ذكر

الصفى الأعلى من المتقين وهم : المتصفون بتلك الأوصاف الجميلة - ذكر من دونهم فقال : **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا**

فَاحِشَةً .

أى أتوا بمعصية تفاقم قبحها، وعظم شرها وخطرها .

أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ .

أى جنوا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر.

ذَكَرُوا اللَّهَ .

أى تذكروا عظمته وجلاله، وحقه فى أن يعبد ولا يعصى ، وأنه الذى يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن

السيئات .

فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ . عتب تذكرهم لله .

والمراد بالاستغفار : الإقلاع عن الذنب ، والندم على فعله ، والعزم على عدم معاودته ، ورد المظالم لأصحابها .

أما التوبة بمجرد اللسان ، فذلك توبة الكذابين .

وهي مثل هذه التوبة الكاذبة ، يقول بعض العارفين : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار .

ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .

أى لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن العاصين ، غيره سبحانه .

وهي هذا دعوة منه تعالى إلى الالتجاء إليه ، وطلب عفوه ومغفرته ، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، ولا حيلة للمذنب إلا طلب فضله سبحانه والتماس رحمته .

وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا . هذا عطف على فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .

وجملة : ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ . متوسطة بين المتعاطفين .

ومعنى وَلَمْ يَصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا . أنهم لا يقيمون على معصية من المعاصي: كبيرة كانت أم صغيرة . بل يرجعون إلى الله ويتوبون إليه من قريب .

وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أن من تاب تاب الله عليه ، وأن إقامتهم على الذنب - ولو كان صغيراً - قبيح ، لا يليق بمؤمن ، لأن الصغيرة لا تبقى صغيرة مع الإصرار كما أن الإصرار على الذنب يتنافى مع الاستغفار .

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر » (٩٤) .

١٣٦ - أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

أُولَئِكَ . أى الموصوفون بما تقدم من الصفات .

جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ . أى جزاؤهم على هذه الصفات التى تحلو بها : ستر خطاياهم ، وعدم مؤاخذتهم عليها .

وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . أى تجرى من تحت قصورها الأنهار المختلفة التى ذكرها الله فى قوله : مثل الجنة التى وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فيها أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (محمد : ١٥) .

وهذه الجنات ، ضمن تلك الجنة : التى أخبر سبحانه ، أن عرضها السموات والأرض .

خَالِدِينَ فِيهَا أَى مَأْكُتٍ فِيهَا ، لَا يُبَخَّرُونَ مِنْهَا أَبَدًا . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر : ٤٨) .

وَنَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . ذَلِكَ الْمَذْكُورُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ وَالْجَنَاتِ .

★ ★ ★

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
 ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْرٌ
 حَسْبُكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَلُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴿

المفردات :

خلت : مضت .

سنن : السنن، الطرائق ، والمراد منها عقوبات الأمم المكذبة .

موعظة : التذكير بما يرقق القلب من : مرغبات فى الطاعة، ومنفرات عن المعصية .

تهنوا : تضعفوا .

الأعلون : المتفوقون بالدين، الظاهرون على العدو .

مس : المس ، الإصاية .

قرح : القرع ، الجرح ، أو ألمه .

نداولها : نجعلها متبادلة . فتجعل الغلبة لهؤلاء مرة، ولهؤلاء مرة أخرى .

وليمحص : لينقى ويخلص .

ويمحق : يسخق ويهلك .

التفسير :

١٣٧ - قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يشبه أن تكون هذه الآيات فى التعقيب على غزوة أحد، ولعل إنساناً يتساءل عن سر هزيمة المؤمنين أو

تعرضهم للبلاء ، وعن سر انتصار الكفار أو حصولهم على المال والغنى والسلطان في هذه الدنيا . فبين سبحانه في هذه الآية ما يجيب على هذا التساؤل :

والمراد بالسنن هنا : وقائع في الأمم المكذبة أجراها الله تعالى على حسب عادته ، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وقسوتهم عن أمره .

والمعنى : أنه قد مضت من قبل زمانكم طرائق سننها الله تعالى ، فالحق يصارع الباطل ، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنّه - سبحانه - من سنة في النصر والهزيمة .

وقد جرت سننه في خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين ، وأن يملأ للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فإن كنتم في شك من ذلك : فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

أي فسيروا في الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التي انتهت إليها المكذبون من تخريب ديارهم وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله فسيروا في الأرض . الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم ، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير في الأرض ، كان المقصود حاصلاً^(٩٥) .

فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .

المقصود بهذا التعبير ، تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب وتقرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المتأملين .

لأن هؤلاء المكذبين مكّن الله لهم في الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ، ولكنهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم الله بسبب طغيانهم .

فهذه الآية وأشباهها من الآيات ، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم ، وإلى الاتعاظ بأيام الله ، وبالتاريخ وما فيه من أحداث ، وبالأثار التي تركها السابقون فإنها دليل واضح وشاهد يتحدث كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

١٣٨ - هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

اختار الطبري وبعض المفسرين أن تكون الإشارة في هذه الآية راجعة إلى ما تقدم ذكره من بيان سنن الله وقوانينه في النصر والهزيمة . والمعنى : هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة ، فيه بيان للناس من العمى ، وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين^(٩٦) .

أما ابن كثير فقد ذهب إلى أن اسم الإشارة يعود إلى القرآن الكريم فقال :

هذا بيانٌ للناس . يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليئها .

وهْدَى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . يعنى القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم .

ومَوْعِظَةً . أى زاجر عن المحارم والمآثم (٩٧).

لِّلْمُتَّقِينَ . الذين طلبوا الحقَّ وسلوكوا طريقه .

وقد رجح الأستاذ سيد قطب أن المراد بهذه الآية هو القرآن الكريم فيقول :

والسنن التي يشير إليها السياق في الآية السابقة هي :

عاقبة المكذبين عنى مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال ، والابتلاء لتمحيص السرائر ، وامتحان مدى الصبر على الشدائد ، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكاشرين « إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيتها ... وهؤلاء العرب الذين وجَّه إليهم القول أوّل مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم - قبل القرآن - تسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى ، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا ، إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله ، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة ، فضلاً عن الربط بين سكان هذه الأرض ، فضلاً عن الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعاً ... فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة ، وارتجال الفكرة ، إلى رابطة البشرية واطراد السنّة ، وهى نقلة بعيدة ، لم تتبع من عوامل البيئة ، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة ، بل حملتهم إليها ، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

هذا بيانٌ للناس وَهْدَى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

أجل هذا بيان للناس ، للناس كافة ، فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا يبالغونها لولا هذا البيان الهادى ، الذى لا يهدى به ولا يعطل إلا الذين تفتحت أرواحهم ، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين (٩٨).

١٣٩ - وَلَا تَهْوَوا وَلَا تَحْزَنْوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

(الوهن) هو الضعف وأصله ضعف الذات ، قال تعالى حكاية عن زكريا : قال ربّ إني وهن العظم مني ...

(مريم : ٤) . أى ضعف جسمى ، وهو هنا مجاز عن خور العزيمة ، وضعف الإرادة ، وانقلاب الرجاء يأساً والشجاعة جبناً واليقين شكاً ؛ ولذلك نهوا عنه .

والحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحبّ أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق.

والقرآن هنا يأسو جراحهم ويمسح أحزانهم، ويبعث فى نفوسهم القوة والعزيمة والأمل والرجاء فيقول لهم:
لا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تيأسوا من رحمة الله وفضله، ولا تحزنوا لما أصابكم من جراح وآلام وقبلى.

وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم، ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم، فلکم وراثه الأرض
التي وعدكم الله.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء،
فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة، والصمود فى وجه الأعداء، والإصرار على قتالهم حتى تكون
كلمة الله هى العليا.

١٤٠ - إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِرْعَوْنُ عَنْ الْقَوْمِ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فِرْعَوْنُهُمْ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... الآية.

الفرع بالفتح والضمّ الجراح والآلام.

والمعنى:

إن تكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد فأنتم قد أنزلتم بهم من
الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم، فأنتم أولى أن
تتماسكوا بسبب إيمانكم ويقينكم، وقيل: إن المعنى إن كانت قد أصابكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم
بجراح مثلها فى المعركة ذاتها .

قال الزمخشري: والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتهم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم،
ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى ألا تضعفوا . ونحوه ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم
يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً . (النساء : ١٠٤) .

وقيل: كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (٩٩).

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَادَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .

نَادَاوُلُهَا من المداولة وهى نقل الشيء من واحد إلى آخر.

والمعنى: إن الدنيا هى دول بين الناس، لا يدوم سرورها ولا غمها لأحد، ومن أمثال العرب: الحرب
سجال، والأيام دول.

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، فيتبين المؤمن ويمتازون من المنافقين المستورين .

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن انكشافهم يجعل هذا العلم متعلقاً بأعمالهم بعد أن كان متعلقاً بنواياهم ، والإسلام يعتبر العمل دائماً ويحاسب عليه فهو هنا يجرى على قانونه.

ومداولة الأيام وتوالى الشدة والرخاء وسيلة عملية لا تخطئ، ومحك صادق لا يظلم ، والرخاء فى هذا كالشدة، فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تترأخى بالرخاء وتتحلّ، والنفس المؤمنة حقاً، تصبر للضرء، ولا تستخفها السراء ، ويقينها أن ما أصابها من خير أو شر فبإذن الله.

جاء فى التفسير الوسيط :

وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

أى تلك الأيام نداولها بين الناس لوجوه من المصالح وضروب من الحكم، وليعلم الله المؤمنين المتميزين، علماً مقترناً بالواقع .

والمراد بالعلم هنا : العلم التجيزى بالواقع، وهذا لا ينافى علمه بهم قديماً . والمقصود أنه يبرز - فى الواقع - ما سبق فى علمه عنهم قديماً من تمييزهم بإيمانهم عن سواهم ، ليجزى كل بما عمل، لا بما علمه الله أولاً فى شأنه (١٠٠). وذلك هو المقصود بقوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ . (آل عمران : ١٧٩) .

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . بيان لحكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس . والشهداء جمع شهيد . أى وليختار أناساً منكم يكرمهم بالشهادة فى الدفاع عن الدين . قال القرطبي : وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ . أى يكرمكم بالشهادة . أى ليقبل قوماً منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم.

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء المختارين يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويعلمهم كذلك شهداء على الناس . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ . (التوبة : ١١١) . وجميع المؤمنين الصادقين سيكونون شهداء على الأمم السابقة يوم القيامة، كما قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . (البقرة : ١٤٣) .

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . أى والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرته الحق، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ونصرة شريعته .

١٤١ - وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

التمحيص : الاختبار والابتلاء، والتطهير، والمعنى : ولقد فعل سبحانه ما فعل فى غزوة أحد، لكى يظهر المؤمنين ويصفىهم من الذنوب ويخلصهم من المنافقين المتدسين بينهم، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيتهم ويطردهم.

فالأيات قد ذكرت أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد ، وهى تحقق علم الله وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشهادة ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا .

١٤٢ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .

أَمْ . هنا أفادت الانتقال من الكلام السابق إلى الكلام اللاحق ، واستبعاد أن يظنوا دخول الجنة بدون جهاد وصبر عليه.

والمعنى : بل أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولما يتحقق جهاد المجاهدين منكم، وصبر الصابرين عليه ، فيعلم الله ذلك واقفاً دالاً على صدق الإيمان ، مستتبعا لدخول الجنان ..

وكلمة لَمَّا وإن أفادت نفي ما بعدها من الجهاد والصبر، ولكنها تقيد توقع حصولهما منهم ، وقد وقعا فعلا فى الغزوات التى تلت أحد (١٠١).

قال الطبرى : المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تتألوا كرامة ريكم ولما يتبين لعبادى المؤمنين، المجاهدون منكم فى سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم فى ذات الله من ألم ومكروه (١٠٢).

ويصح أيضاً أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، ويكون المعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم (١٠٣).

والآية الكريمة تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه كل إنسان ، وإنما هو طريق محضوف بالمكانه والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا (١٠٤).

وجاء فى تفسير المنار : والجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته، ومن الجهاد جهاد النفس الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر، ومن أمثلته مجاهدة الإنسان لشهواته وإلّا سيما فى سن الشباب ، وجهاده بماله وما يبتلى به من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

قال الإمام محمد عبده : .. إن لله في كل نعمة عليك حقاً، وللناس عليك حقاً، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس ، فلا بد من جهادها يسهل عليها أداؤها ، وربما يفضل بعض جهاد النفس، جهاد الأعداء في الحب فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة سالحة في الناس أو يدعوهم إلى خيرهم من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلماً يصبر عليه أحد، وناهيك بالتصدي لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم ، وما الخاصة في ضلالهم إلا أصعب مراسا من العامة .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

المفردات :

تمنون : أى ترغبون .

الموت : المراد به هنا، القتال . وقيل : وهو على حقيقته ، طلباً للشهادة .

تلقوه : أى تلقوا سببه، وهو القتال .

رايتموه : أى رأيتم الموت، برؤية من يموت في الحرب .

خلت : مضت .

ومن ينقلب على عقبيه : من يردت عن دينه أو ينهزم .

التفسير :

١٤٣ - وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ .. الآية .

هذا خطاب من الله تعالى ، عاتب فيه الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الخروج من المدينة إلى أحد للقاء المشركين، الذين نزلوا عنده قادمين من مكة، لقتال المسلمين انتقاماً ليوم بدر .

ولما التقى الجمعان انهزم فريق منهم ، ولم يثبتوا أمام المشركين . وكان هؤلاء هم الذين ألحوا في الخروج ، ممن لم يشهدوا بدراً، وتمنوا أن يحضروا مع النبي صلى الله عليه وسلم لينالوا به شرف الشهادة إن ماتوا ، أو أجر الجهاد وكرامة المجاهدين إن رجعوا كأصحاب بدر .

وقد عرف مما جاء في غزوة أحد : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان - أول الأمر - يميل إلى البقاء في

المدينة، حتى إذا هاجمها كفار مكة، صدهم المسلمون متحصنين بها .. الرجال يضربونهم بالسيوف والسهام والنساء والصبيان يقذفونهم بالحجارة ، وبكل ما تصل إليه أيديهم ، لولا موقف الملحين .

والملحنى : ولقد كنتم تحبون الموت فى سبيل الله، وترغبون فى الشهادة من قبل أن تلقوه، وأنتم بالمدينة .

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . أى فقد تحققت أمنيتمكم ، إذ استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبتكم وأذن لكم بقاء عدوكم، فرأيتم الموت الذى تمنيتموه حين سقط شهداؤكم .

وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . فما بالكم لم تبتغوا فى قتال عدوكم ، ولو صبرتم لما هزمته .

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. الآية .

لما التقى الجمعان فى أحد، ظهر المسلمون على المشركين فى أول اللقاء وجعلوا يتعقبونهم ويجمعون الفنائم فى إثرهم، ولكن الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهور المسلمين - أثناء قتالهم - رأوا المسلمين منتصرين على المشركين: يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم. فتركوا أماكنهم ليشاركوا إخوانهم فى جمع الغنائم مخافين أمر الرسول فيما فعلوا . فانتبه المشركون لما فعل الرماة، فاحتلوا مكانهم فوق الجبل، وجعلوا ينضحون المسلمين بالتبلى. واستطاعوا بذلك أن ينالوا من المسلمين ، حتى رمى ابن قميئة الرسول عليه السلام بحجر فشج رأسه، وكسر ربايعته . ثم أقبل يريد قتله، فدافع عن النبى مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة - وهو يرى أنه قتل رسول الله - فصاح قائلًا . قتل محمدًا، وصرخ بها صارخ، فسمعها المسلمون، فسرى الوهن فى نفوس كثير منهم، حتى قال بعض المستضعفين : ليت عبد الله بن أبى يآخذ لنا أمانًا من أبى سفيان..

وقال ناس من المنافقين : لو كان نبيا - حقا - لما قتل .. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

والتقى أنس بن النضر ، بالمنهزمين من المسلمين، فقال لهم : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حى لا يموت ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا كراما على ما مات عليه .

وشاء الله أن يحفظ رسوله لأمته، وأن يظهر كذب ابن قميئة .

فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى عباد الله . وكان حوله - حينئذ - أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، وجماعة من المسلمين ، فأقبل المنهزمون بعد ما سمعوا صوته عليه السلام ، فأنزل الله عتابًا للمنهزمين وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. إلى نهاية الآية فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابٍ الآخرة وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . (آل عمران : ١٤٨) .

والمعنى : وما محمد إلا رسول كسائر من مضى قبله من الرسل : مهمته التبليغ والزام الحجة . وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء سُنَّه الله في الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . (الأحزاب : ٦٢) .
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . (الزمر : ٣٠) .

إِنَّمَا مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبَتْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ .

أى توليتم مدبرين من القتال ، منهزمين أمام الكفار ، أو ارتدتم عن دينكم ، كما وقع من بعض المنافقين .

وعلى كل : فالمراد ، أنه لا ينبغي أن تجعلوا وفاة الرسول - بموت أو قتل - سببا فى توليكم منهزمين عن قتال الكفار وجهادهم ، استبعاداً لقتله . فقد مضى من قبله أمثاله من الرسل . وما كان موتهم أو قتلهم سببا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ، ولا فى تخليهم عن جهاد أعدائهم .

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا . هذا وعيد من الله لكل من تهتز عقيدته ، أو يفر من المعركة أمام أعداء الإسلام .

والمعنى : ومن يدبر عن دينه لأى سبب ، أو يهزم أمام الكافرين ولا يستبسل فى الدفاع عن دينه ووطنه . فلن يضر الله . بما فعل من توليه مدبراً شَيْئًا . أى أقل ضرر . وإنما يضر نفسه : بتعرضها لسخط الله . وازدراء الناس له ، كما يضر قومه ، فإن الله سبحانه وتعالى لا تتفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . أى وسيجزى الله من شكروهم بصبرهم على دينهم ولقاء عدوهم ، جزاء يليق بكرمه . ومن ذلك النصر على الأعداء وحسن ثواب الآخرة .

والتعبير بقوله : وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . يفيد أن جزاءهم متوقع قريباً ، فإن السنين للتقريب ، وقد حقق الله وعده ، ونصرهم فيما استقبلوه من غزوات . وما عند الله فى الآخرة أعظم وأكرم .

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجْدٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

المفردات :

يأذن الله : أمره وقضائه .

مؤجلاً : مؤقتاً بوقت معلوم .

وكأين من نبى : وكثير من الأنبياء .

ريثيون : منسوبون إلى الرب بالتقوى والصلاح مفردة ريثى .

وهنوا : الوهن، شدة الضعف فى القلب .

استكانوا : ذلوا وخضعوا لما يريد بهم عدوهم .

واسرافنا فى امرنا : أى تجاوزنا الحد فى ارتكاب الكبائر .

التفسير :

١٤٥ - وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب

الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين .

الحياة بيد الله . والموت بيد الله ، وفى الآية تعريض بمن خارت قواهم يوم أحد ، وضعفت عزائمهم .

وانكسرت نفوسهم حين أشيع أن النبى قد مات . فبين القرآن أن النبى بشر يبلغ عن الله الرسالة ، ويؤدى الأمانة

ويدركه الموت .

قال ابن كثير : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله (١٠٥) . أى لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفى

المدة التى ضريها الله له ، ولهذا قال : كتاباً مؤجلاً . كقوله : وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى

كتاب . (فاطر : ١١) . وكقوله : هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده . (الأنعام : ٢) .

وهذه الآية فيها تشجيع للجناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام لا ينقص من العمر والإحجام لا يزيد فيه ، كما قال ابن أبي حاتم عن حبيب بن ظبيان : قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدي) : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطقة - بمعنى دجلة - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا . ثم أفتح فرسه دجلة ، فلما أفتح الناس ، ورأهم العدو قالوا : ديوان .. فهربوا .

كتابا مؤجلا . أى كتب لكل نفس أجلها ، كتابا مؤقتا بوقت معلوم ، لا يتقدم ولا يتأخر ، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو ، فالجبن لا يزيد في الحياة ، والشجاعة لا تنقص منها ، والحدز لا يدفع القدر ، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك .

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . أى من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها ، وليس له في الآخرة من نصيب .

وفيها تعريض بمن خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة ، الذين تركوا أماكنهم جريا وراء الغنائم ، فلم يحصلوا منها شيئا ، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم ، وكان فعلهم هذا من أسباب هزيمة المسلمين في غزوة أحد .

وحصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة ، لأنها مبدولة للبر والفاجر .

قال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ . (الشورى : ٢٠) .

وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . (الإسراء : ١٨) .

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . ومن يريد بعلمه وجهاده ثواب الآخرة ، وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل ، أعطيناه الأجر كاملا ، مع ما قسمنا له في الدنيا .

وسنجزئ الشاكرين . أى سنعطهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة ، بحسب شكرهم وعملهم .

جاء في تفسير المنار : ولا تسمن التقاليد الشائعة ، قارئ هذه الآيات عن سنن الله التي أثبتت في كتابه ، فيظن أن عطاة تعالى ، وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا ، بل الإرادة تجري على السنن التي اقتضتها الحكمة وكل شيء عنده بمقدار . (الرد : ٨) . ولإرادة الإنسان دخل في تلك السنن والمقادير ، ولذلك

قال : مَنْ كَانَ يُرِيدُ . وَمَنْ أَرَادَ . فاعرف قيمة إرادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك، فلا تجعلها كتفوس الحشرات التي تعيش زمنا محدودا، ثم كان لم تكن شيئا مذكورا (١٠٦).

* * *

الإرادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير، وترفع الوضيع وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص، حتى تحيط بكرة الأرض، بل تكون أكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة، في عالم العقول والأرواح، وإذا كان يريد بعلمه دار البقاء فإن وجوده يكون كبيرا بحسب كبر إرادته، وواسعا بسعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من أخذوا إلى الشهوات ، وكان حظهم من علمهم كحظ الحشرات، وغيرها من الحيوانات: أكل وشرب وفساد وبغى من القوى على الضعيف (١٠٧).

وهذه الآية الكريمة : يجوز أن تكون خاصة بأهل أحد، وأن تكون عامة لهم ولغيرهم، وهو أرجح، فإنها من القواعد العامة في الدين.

١٤٦ - وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبُّهُ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

إن كثيرا من النبيين الذين خلوا قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم، المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهه قلوبهم وفي أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون ، لا أرباب مبدعون.

فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النسي نفسه، لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربهم ، لا في سبيل شخص نبيهم .

وَمَا ضَعُفُوا . عن الجهاد

وَمَا اسْتَكَانُوا . أى ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم .

قال قتادة : وَمَا ضَعُفُوا . أى : وما تضعفوا لقتل نبيهم وَمَا اسْتَكَانُوا . أى ما ارتدوا عن نصرتهم ولا دينهم (١٠٨).

* * *

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . أى يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأحوال في سبيل الله.

جاء في ظلال القرآن :

(كم من نبي قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون ، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والقتل والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء... وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار، الذي يكافح عن عقيدة، ويكافح في سبيل الله.

والله يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعض قواهم، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون ولا يستسلمون للشدائد والأعداء (١٠٩).

* * *

وتلاحظ أن ترتيب الأوصاف جاء في نهاية الدقة، بحسب حصولها في الخارج ، فإن الوهن الذي هو خور في العزيمة، إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذي هو لون من الاستسلام والفشل، ثم تكون بعدهما الاستكانة، -التي يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة في حياته ، كان الموت أكرم له من هذه الحياة .

* * *

وجاء في تفسير الكشاف :

(الربيون) : هم الريانيون ، منسوبون إلى الرب سبحانه وتعالى ، وقرئ بالحركات الثلاث فالتفت على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب : ربيون وربيون ، وربيون . والربيون نسبة إلى الرب، وزيادة الألف والنون فيه كزيادتها في جسماني.

وقال الزجاج : الربيون الجماعات الكثيرة واحدها ربي .

١٤٧ - وما كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

ما كان قولهم - في حال الشدة وملاقاة الأعداء- مع ثباتهم وقوتهم في الدين ، إلا طلب المغفرة من الله.

وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . أى وتقريطنا وتقصيرنا في واجب طاعتك.

وَتَبَّثْ أَقْدَامَنَا . أى ثبتنا في مواطن الحرب، وثبتنا على الصراط المستقيم ، حتى لا ترحزننا الفتن.

وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . بك ، الجاحدين لأياتك ، المعتدين على أهل دينك .

* * *

والدعاء هنا يعبر عن قلب خاشع ويقين صادق، ورجاء مخلص في غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام، والنصر على القوم الكافرين .

قال الزمخشري في الكشف :

وقوله : وما كَانَ قَوْلُهُمْ - (١١٠) ... إلخ . هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم ، مع كونهم ريانين هضما لها واستقصارا ، والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وخضوع، هو أقرب إلى الاستجابة .

١٤٨ - فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

والفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي أن هؤلاء الريانيين الذين أخلصوا في الجهاد والدعاء، أعطاهم الله أجر الدنيا ، من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، كما أعطاهم حَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ . بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته ، والتعظيم بدار كرامته ، وهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال الشيخ محمد عبده - وخص الله ثواب الآخرة بالحسن، لمزيد في تعظيم أمره، وتبنيه على أنه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمفغصات .

* * *

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت تأديباً للمؤمنين ، وتوبيخاً لمن فرط منهم، وتربية وتعلima وتهذيباً لهم .

* * *

وفي ختام تفسير هذه الآيات الكريمة يمكن أن نستخلص منها الحقائق الآتية :

- ١ - محمد صلى الله عليه وسلم بشر من البشر، وسيموت كما يموت سائر البشر .
- ٢ - رسالة محمد (ﷺ) عالمية خالدة لا تموت بموته ، وعلى أتباعه أن يحملوا عبء تبليغ الإسلام رسالة الله إلى البشر .
- ٣ - الأجل بيد الله، والحذر لا يمنع القدر ، ولن يموت إنسان قبل انتهاء أجله، فلا داعي للجبين والتخاذل، فالجهاد فريضة، والشهيد يبلغ أرفع مراتب الجنات .
- ٤ - الحق له رجاله على مر التاريخ ، وكثير من الريانيين جاهدوا مع أنبيائهم ، وتحملوا تبعات الإيمان في ثبات وصدق، ودعاء صادق لله، وقد حقق الله لهم الرجاء فأعطاهم النصر في الدنيا والجنة في الآخرة .

★ ★ ★

﴿يَتَّيْنَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ
 أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾
 سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
 سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ
 صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ هَٰذَا إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ
 فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ
 عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

المفردات :

يردوكم على أعقابكم :	أى يردوكم إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية.
ومأواهم :	المأوى، المكان الذى يرجعون إليه .
مَثْوَى :	مَثْوَى الإنسان ، مكان إقامته الدائمة .
تحسبونهم :	أصل معناه ، تبطلون حسبهم، والمراد : تستاصلونهم قتلا .
فشلتم :	جبنتم وضعف رأيكم ، وأصابكم الخور فهزمتم .
وتنازعتم :	اختلفتم كلمتكم ، واختلفتم .
ليبتليكم :	ليختبركم .

التفسير :

١٤٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ

* * *

عندما عاد المسلمون من غزوة أحد ، ولم يكتب لهم فيها النصر، حاولت جهات كثيرة أن تثبط عزيمتهم ، وأن تشككهم فى الإسلام .

* * *

قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد، لو كان نبيا ما أصابه فارجعوا إلى إخوانكم، واطلبوا الأمان منهم، وادخلوا في دينهم، وابتعوا فئة تطلب الأمان لكم من أبي سفيان رأس المشركين يومئذ .

* * *

وقيل : نزلت بسبب قول أهل الكتاب للمؤمنين : لو كان محمد نبيا حقا لما غلب، ولما أصاب أصحابه ما أصابهم.

جاء في تفسير الألوسي :

والمراد من الذين كفروا: إمّا المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم في أحد، ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم ... وإمّا أبو سفيان وأصحابه، فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم .. وإمّا اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا يلصقون الشبه في الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا لما غلب أعداؤه... وإمّا سائر الكفار^(١١١).

وخصوص السبب لا يمنع إرادة العموم من اللفظ.

قال الطبري في التفسير :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا . يعنى الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم ونصحهم.

يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . يحملوكم على الردة بعد الإيمان ، والكفر بالله وآياته ورسوله.

فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ . فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له ، خاسرين . هالكن قد خسرتم أنفسكم ، وضللت من دينكم وذهبت دنياكم وآخرتكم^(١١٢).

وتلقى كتب التفسير هنا ، على أن الهزيمة الجزئية التى أصابت المسلمين فى غزوة أحد، كانت مجالا لطمع الطامعين ودسائس الكفار والمنافقين فى المدينة، ممن انتهزوا الفرصة ليضطخوا من عزائم المسلمين، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد، لذلك نزل القرآن ينصح المؤمنين بالتماسك والتأزر والصمود، والاستغناء بالإسلام وبالقرآن عن نصيحة الكافرين والمنافقين، وهى قاعدة لا تختص بزمانها ولا مناسبتها ، بل تمتد فى الزمان والمكان ما دام الإنسان .

ثم فتح القرآن لهم باب الأمل والرجاء، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لا يخذل أوليائه.

١٥٠ - بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

بل الله ناصركم إن امتثلتم أمره، واجتبتهم نهيته، وأعددتهم لعدوه ما استطعتم من قوة، وكنتم كالبنين المرصوص يشد بعضه بعضاً .

جاء في تفسير المنار :

بل الله مَوْلَاكُمْ . فلا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أبي شيعة . ولا أن تصفوا لإغواء من يدعونكم إلى موالاتهم ، فإنهم لا يستطيعون لكم نصراً، ولا أنفسهم ينصرون ، وإنما الله هو المولى القادر على نصركم (١١٣).

وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . أى هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستصروا غيره .

١٥١ - سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَوْئِ

الظالمين .

تبين هذه الآية سبيلاً من سبل النصر ، التى يمنحها الله لعباده المؤمنين ، عندما يأخذون بالأسباب ويستحقون عناية السماء ، فعند الله جنود كثيرة ، وأسلحة متنوعة ، يساعد بها من يستحق المساعدة . منها سلاح الريح ، أرسله على المشركين في غزوة الأحزاب ، ومنها سلاح الرعب القاه في نفوس المشركين في أعقاب معركة أحد ، حين عزموا أن يعودوا ليستأصلوا شأفة المسلمين ، فقفذ الله الرعب في قلوبهم فانهمزموا (١١٤).

ومنها ما يشبه الصواريخ ، ألقاها على أصحاب الفيل فجعلهم كعصف مأكول ، أى هالكين كزرع اكنته الماشية . ومن أسلحة الله الملائكة ، أنزلها على المسلمين يوم بدر ، وعند الله أسلحة كثيرة . وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٢١) .

والرعب : هو الخوف والفرع .-

والسلطان : الحجة والبرهان .

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفاً وفزعاً ، بسبب إشراكهم مع الله آلهة أخرى ، ليس لهم حجة على صحة ألوهيتها ، ومرجعهم الذى يرجعون إليه يوم القيامة هو النار ، وساء هذا المثلوى والمستقر للكافرين (١١٥).

وهل هذه الآية خاصة بيوم أحد ، أو هي عامة في جميع الأزمان ، ذكر كثير من المفسرين أنها خاصة بيوم أحد لأن سياق الكلام في غزوة أحد .

فالكفار في غزوة أحد قد انتصروا على المسلمين وهزموهم ، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم ، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب ، وسار المشركون إلى مكة (فلما كانوا في بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً ، فقلنا

الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قادرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلاية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب في قلوبهم (١١٦).

وقال بعض المفسرين : الآية غيـز خاصة بيوم أحد ، بل هي عامة في كل معركة ، يتقابل فيها المؤمنون مع الكافرين ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

فالأية بيان لسنة إلهية عامة :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين .

قال الإمام محمد عبيد :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين ، وإذا كان الكافرون قد جحدوا وعاندوا وكابروا الحق كما فعل الكافرون في عهد البعثة المحمدية (١١٧).

وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيرا ما يقع في قلوب المسلمين ، ولا يقع في قلوب الكافرين؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أسلافهم ، من الثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل الله ، وتمنى الموت في الدفاع عن الحق ، فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم . وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين ، وما يكون له من آثار ، فحال المسلمين اليوم لا يقع حجة على القرآن ، لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق.

فالقرآن باق على وعده ، ولكن هات لنا المؤمنين ولك من إنجاز وعد الله ما تشاء (١١٨) قال تعالى : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . (النور : ٥٥) .

١٥٢ - ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين .

تحسونهم : أى تقتلونهم ، يقال حسسته أحسه أى قتلته . وفى المختار ، إذ تحسونهم أى تستأصلونهم قتلا . وفى حاشية الجمل : تحسونهم : أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا ، من حسه إذا أبطل حسه .

وكان ذلك فى مطلع المعركة حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويخمدون حسهم قبل أن يليهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد .

حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . وهو تقرير لحال الرماة ، وقد ضعف فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الفنائم ووقع النزاع بينهم وبين

من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله . وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه في ميدان المعركة هكذا أن يظل في انتصاره ، وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا .

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ . أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين فانهزمتم وفررتم ، ليكون في هذا ابتلاء لكم وامتحان بما أصابكم منهم من الكر عليكم والإيقاع بكم .

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهواتكم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم ، ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل إن محمدا قد مات ، ومن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين ، عفا الله عنكم ، فضلا منه ومنه تجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار والله ذو فضل على المؤمنين .

★ ★ ★

﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ رِيمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَفْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَمْرُكُلَهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١٥٤)

المضردات :

تصعدون : تشتدون في العدو منهزمين .
ولا تكونون على أحد : ولا تلتفتون إليه لجدكم في الهرب ، فرارا من الطلب .
أخراكم : مؤخرة جيشكم .

اثابكم غما بغم	: جزاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة ، أو غما متصلا بغم.
امنة	: أمنا وسلاما .
يفشى	: يغطى .
اهتمتهم أنفسهم	: شغلهم الاهتمام بها .
لبرز	: لخرج ولظهر .
مضاجعهم	: المراد بها مصارعهم فى أرض الموقعة .
وليبتلى	: ليختبر وهو العليم .
وليصحس ما فى قلوبكم	: وليطهرها من الشبهات وينقيها .

التفسير :

١٥٣ - إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بَغْمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج، والصعود أيضاً الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد .

أى اذكروا - أيها المؤمنون - وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بضر ، وادى بعد أن اختلت صفوفكم، واضطرب جمعكم، وصرتم لا يرجع بعضكم على بعض، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب، والحال أن رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ . أى يناديكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم ، والمراد أن الرسول ﷺ كان يدعو المنهزمين إلى الثبات ، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

جاء فى نور القرآن ما يأتى :

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى الفاظ قلائل فهم مصعدون هربا فى اضطراب ورجب ودهشة، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر- والرسول يدعوهم وهم مصعدون، إنه مشهد كامل فى الفاظ قلائل.

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم غمًّا يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشئ يفوتهم، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه .. كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل ما يفوتهم من عرض، وكل ما يصيبهم من مشقة ، ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها خيرا وشرها، بعد هذه التجربة الأليمة لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ . والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

وفى تفسير الجلالين فَأَنَابَكُمْ فِجَازَكُمْ . غَمًّا الهزيمة . يَغْمُ بسبب غمكم للرسول . وقيل الباء بمعنى على أى مضافا على غم .

قالت المعتزلة : وليس الغرض تسليط الكفار على المسلمين ولكن الغرض ألا يبقى فى قلوب المؤمنين اشتغال بغير الله ، ولا يحزنوا بالإدبار ولا يفرخوا بالإقبال .

وقال النيسابورى (١١٩) : (المراد أنكم قلتم لو بقينا فى هذا المكان وامتنلنا وقعنا فى غم فوات الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتهم الغنيمة وقعتم فى غموم آخر كل واحد منها أعظم من ذلك، فيصير هذا مانعا لهم من أن يحزنوا على فوات الغنيمة من وقعة أخرى. ثم كما زجرهم على تلك المعصية بزاجر دنيوى زجرهم بزاجر أخروى فقال : وَاللَّهِ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم فيجازيكم بحسب ذلك) (١٢٠).

١٥٤ - ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ .. الآية.

الأمنة - بفتحتن - مصدر كالآمن ، يقال آمن وأمانا وأمنة. والنُّعاس ، هو الفتور فى أول النوم .

المعنى الإجمالى :

ثم أسبغ الله عليكم بعد الغم نعمة الأمن ، وكان مظهرها نعاسا يغشى فريقى الصادقين فى إيمانهم ، وتنويعهم لله ، أما الطائفة الأخرى فقد كان همهم أنفسهم لا يعنون إلا بها ، ولذلك ظنوا بالله الظنون الباطلة كظن الجاهلية ، ويقولون مستكرين : هل كان لنا من أمر النصر الذى وعدنا به شئ ؟ قل - أيها النبى - الأمر كله فى النصر والهزيمة لله ، يصرف الأمر فى عباده إن اتخذوا أسباب النصر، أو وقعوا فى أسباب الهزيمة ، وهم إذ يقولون ذلك يخفون فى أنفسهم أمرا لا يبدونه، إذ يقولون فى أنفسهم : لو كان لنا اختيار لم نخرج فلم تغلب، قل لهم : لو كنتم فى منازلكم وفيكم من كتب عليهم القتل لخرجوا إلى مصارعهم فقتلوا ، وقد فعل الله ما فعل فى أحد لمصالح جمّة، وليختبر ما فى سرائركم من الإخلاص ، وليظهر قلوبكم ، والله يعلم ما فى قلوبكم من الخفايا علما بليغا .

النوم فى المعركة :

عندما اشتد خوف المسلمين فى غزوة بدر أرسل الله عليهم النوم فهذأت أعصابهم ، واطمأنت نفوسهم، واشتد يقينهم برعاية الله لهم، ثم أنزل الله المطر فى غزوة بدر فكان نعمة على المؤمنين، حيث ثبتت الأرض من تحتهم ، وتطهروا ، وكان المطر وبالا على المشركين . قال تعالى :

إِذْ يُغَشِّكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . (الأنفال : ١١) .

وكان النوم فى غزوة بدر فى ليلة المعركة قبل أن تبدأ .

أما في غزوة أحد فالراجح أنه كان في أعقاب المعركة، بعد أن انتهت وأصاب المؤمنين فيها جراح وآلام، فأرسل الله عليهم النوم فهذا روعهم واستعدوا لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد، ولما علم المشركون بذلك أسرعوا بالعودة إلى مكة .

قال الإمام محمد عبده :

اختلف المفسرون في وقت هذا النعاس ، فقال بعضهم : إن ذلك كان في أثناء المعركة، وإن الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع، إلا المنافقين فإنهم أهمتهم أنفسهم فاشتد جزعهم. وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال *إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ* . وإنما هذه في غزوة بدر . وقد مضت السنة في الخلق بأن من يتوقع في صبيحة ليلته هولاً كبيراً ومصاباً عظيماً- فإنه يتجاهى جنبه عن مضجعه، ويبيت بليلة اللسوع فيصبح خاملاً ضعيفاً، وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشاً يزيد على ثلاثة أضعاف جيشهم سيحاربههم غداً، وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ، يضرّيون أحماساً في أسداس ، ويفكرون بما سيلاقون في غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده، وأصبحوا على همة ونشاط في لقاء عدوهم، فالنعاس لم يكن يوم بدر في وقت الحرب بل قبلها .

وأما النعاس يوم أحد فقد قيل : إنه كان في أثناء الحرب ، وقيل إنه كان بعدها . وقد اتفق المفسرون وأهل السير على أن المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شيء من الضعف والوهن، لما أصابهم يوم أحد من القتل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم ، فكانوا بعد انتهاء المعركة قسمين :

أقوياء الإيمان : الذين حزنوا وتألوا من التقصير في أسباب النصر، فأرسل الله عليهم النعاس، راحة لأجسامهم ويسلاً لجراحهم، وما من أمة إلا وفيها الأقوياء والضعفاء.

وضعفاء الإيمان : اشتد هلمهم ، ويشوا من النصر، وصب الله عنهم عنايته ، فلم يرسل عليهم النوم ، بل شغلهم بأنفسهم فذلك قوله تعالى : *وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ* . فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها من المنافقين كما قيل (١٢١).

وقال السيد رشيد رضا :

هذا وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الأستاذ الإمام في هذه الطائفة. فتقاناوا : إن المراد بها المنافقون منهم الذين كانت تهمة أنفسهم، إذ كان هم المؤمنين محصوراً فيما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان في غشيان النعاس ونزول الأمانة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة (١٢٢).

وتحرير الكلام في هذه المسألة أن الله تعالى بين لنا في كتابه ثلاث حقائق :

(الحقيقة الأولى) أنه تعالى هو خالق كل شيء والذي بيده ملكوت كل شيء، وبمشيئته يجري كل شيء،

فلا قاهر له على شيء ، وهو القاهر فوق كل شيء.

(الحقيقة الثانية) أن خلقه وتدييره إنما يجري بحسب مشيئته .

وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة قال تعالى : قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ .

(الحقيقة الثالثة) أن من جملة سننه فى خلقه وقدره فى تدبير عبادہ أن الإنسان خلق ذا علم ومشیئة وإرادة وقدره ، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له ، والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل ويعلمه تناط، سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جدا .

وإننا نرى الكتاب العزيز يذكر بعض هذه الحقائق الثلاث فى بعض الآيات ويسكت عن الأخرى ، لأن المقام يقتضى ذلك - ولكل مقام مقال - ولكنه ينكر على من يجعل شيئاً منها ، ويبين للناس خطأه .

وكذلك الآية التى نحن بصدد تفسيرها تشير إلى بعض هذه الحقائق فى قوله تعالى : قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . (١٣٣) .

أى بيده مقاليد الأشياء يقدر ويدبر كيف يشاء ، وقد قضى بأن يخرج المسلمون فى أحد ، وأن يهزموا لحكم يعلمها سبحانه ، وليستقيدوا من دروس الهزيمة فلا يفعلوا ما يؤدى إلى مظلها .

لقد كانت غزوة أحد ابتلاء وامتحاناً تميز به طوائف الناس أمام هذا النوع من البلاء .

فمنهم أقوياء الإيمان ، وضعفاء الإيمان ، والمناقضين .

قال تعالى : وَلَيَبْتَغِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلَيُمَصِّحَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن ، وليعاملكم - سبحانه - معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تتلوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب ، وليخلص ما فى قلوبكم من المحن والأدران ، فإن القلوب يعتريها بحكم العادة أدران وأمراض من الغفلة وحب الشهوة ، فاقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل بها من المحن والبلاء ، ما يكون بالنسبة لها كالدواء لمن عرض له داء .

واللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أى عليم بأسرارها وضمايرها الخفية التى لا تشاركها ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . (آل عمران ٥ :) . وقال سبحانه : وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) .

ومع معرفته سبحانه بكل شيء وإحاطة علمه بالظاهر والباطن فقد اقتضت حكمته أن يمتحن عبادہ ، وان يختبرهم ليظهر الخبيث من الطيب ، ويتبين المؤمن من المنافق . وتظهر الخفايا المستكنة واضحة ظاهرة فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، ثم يكون الجزء من جنس العمل . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصَّابِرِينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَّو كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمَيِّتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَٰكِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَٰكِنْ مِّمُّكُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَآلِ اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

المفردات :

استزلهم : أوقعهم في الزلل بما زينه لهم .

ضربوا في الأرض : أوغلوها فيها .

غزى : جمع غاز . وهو المقاتل .

التفسير :

١٥٥ - إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفورٌ حلِيمٌ .

المعنى الإجمالي :

إن الذين انصرفوا منكم عن الثبات في أملاكهم - يا معشر المسلمين - يوم التقى جمعكم وجمع الكفار للقتال في غزوة أحد ، إنما جرهم الشيطان إلى الزلل والخطأ بسبب ما ارتكبوا من مخالفة الرسول . ولقد تجاوز الله عنهم ، لأنه كثير المغفرة واسع الحلم .

الضار من المعركة :

حذرت آيات القرآن ، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم من التولى يوم الزحف أى الفرار يوم القتال .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأُدْبَارَ ﴿١٦٥﴾ ومن يُولُوهُم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله وأما وجه جهنم وبئس المصير . (الأنفال : ١٥ ، ١٦) .

كما أمر القرآن بالثبات والاحتمال والاستعانة بذكر الله ليكون كل ذلك مددا وقوة لنفسية المحارب . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا فَعَشَلُوا فَأَثَابَهُمْ بِبَغْوٍ وَأَخْبَرُوا أَنَّهُمْ لَمَّا دُخِلَ فِي الدِّنَارِ لَوِثِمًا وَالْمَرْكُومَ (٤٦-٤٥) .

* * *

وفى غزوة أحد . خالف الرماة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم فاضطرب نظام المعركة، وهجم المشركون على بقية الرماة فقتلوههم، وأصابوا المسلمين إصابات بالغة، وقد فرَّ بعض المسلمين من المعركة متوجهاً نحو المدينة ، كما أن بعض المسلمين لم يثبت بجوار النبي صلى الله عليه وسلم ، بل فرَّ إلى الجبل أو إلى غهريه عندما اضطربت الصفوف .

« ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين، وكلهم كان يفتدى النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقول وجهي لوجهك الفداء، ونفسي لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودَّع » (١٢٤) .

قال صاحب المنار :

وهناك وجه آخر فى تفسير هذه الآية ، وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تغلوا عن القتال من الرماة وغيرهم، كالذين انهزموا عندما جاءهم العدو من خلفهم ، واستدل القائلون بهذا الوجه بما روى من أن عثمان بن عفان عوتب فى هزيمته يوم أحد، فقال : إن ذلك خطأ عفا الله عنه .

* * *

ولقد قال المفسرون فى صدد جملة بَعْضٍ مَا كَسَبُوا . إنها تعنى عصيان رسول الله ، وحب الغنيمة . وكراهية الموت .

* * *

وهذه الآية فيها تحذير للمسلمين من التولى يوم الزحف، وتحذير لهم من طاعة الشيطان ، والاستماع إلى وسوسته ، لأن طاعة الشيطان طريق إلى المعصية والوهن والضعف، ومن سنة الله أن يعاقب الإنسان حيناً فى الدنيا للتعليم والتأديب ، وأن يصفح عنه أحياناً لمعرفته سبب عاقبته بضعف البشر قال تعالى : وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ نَصِيبٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْرِفُ عَنْ كَثِيرٍ . (الشورى : ٣٠) .

قال الأستاذ محمد عزة دروزة :

ولقد علم الله إخلاصهم وما أصابهم من خسائر فى الأرواح وجروح فى الأجساد ، وحزن وجزع، فاقترض حكمته أن يغفر لهم ذلتهم، وأن ييسرهم بهذه البشرى تهديئة لروحهم، وتضميدا لجراحهم، وأن يكفى بما وجهه إليهم فى الآيات من عتاب ، وتحذير وتنبية ، وفى ذلك ما فيه من معالجة ربانية جليلة، للموقف العصيب ، وتأمل فى عفو الله وحلمه وغفرانه فى كل موقف مماثل ، إذا لم تشبه شائبة من سوء نية وخبط طوية (١٢٥) .

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .. الآية.

هذه الآية تحذير للمؤمنين بأن لا يكونوا كالكفار ، الذين ينسون الله وقضاءه وحكمته ، ويقولون لمن يخرج غازياً أو سائحاً أو تاجراً فيموت أو يقتل ، إنه لو لم يخرج لما مات أو قتل.

وذلك جهل منهم بأن الله قدر الآجال ، وأن الضرب في الأرض أو الغزو ، لا يكون سبباً في الموت أو القتل .

قال الفخر الرازي : وذلك لأن في تطبيع معية الحياة ، وكراميه ، موت والقتل ، فإن قيل للمرء : إذا تحررت من السفر والجهاد ، فأنت سليم طيب العيش ، وإن اندفعت إلى أحدهما وصلت إلى الموت والقتل - فالتغالب أن ينفر طبعه عن ذلك ، ويرغب في ملازمة البيت ، وكان ذلك من مكاييد المنافقين في التفتير من الجهاد .

* * *

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ . أى قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة في نفوسهم ، قال ابن كثير : أى خلق الله هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم .

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ . فالمتى يأتي للقاعد في بيته متى جاءه ، كما يأتي المجاهد في حربه كذلك ، وربما أصابت النية القاعد ولم تنزل بالغازي .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى علمه وما نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء .

* * *

« ولقد احتوت الآية على قوة ناهضة ، من شأنها أن تمد المؤمن بالصبر والرضا والتسليم لحكم الله ، والجرأة والإقدام ، وإيثار ما عند الله على حطام الدنيا ، وعدم الاستماع لوسوسة المنافقين ، ومرضى القلوب المماثلة في كل زمان ومكان » (١٦١).

١٥٧ - وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

ولئن قتلتم أيها المؤمنون في الجهاد ، أو متم في أثنائه على فراشكم بدون قتل ، فإن مغفرة الله لكم ورحمته بكم خير من حياة أولئك الكفار المقطوعة صلتهم بالله ، الهابطة إلى الأرض ، ومما يجمعون فيها من مال ومناجاة .

١٥٨ - وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

وإنكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم في الجهاد ، فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكليف الإيمان ، وجاهدتم في سبيله حتى وافاكم الأجل الموعد ، الذي لا ينقص منه الجهاد .

* * *

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب في الجهاد ، من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر وللغازي ، مع اقتحامهما لموارد الحتوف ، وقد يميم المقيم والقاعد في بيته مع حيازته لأسباب السلامة .

وإن الذين يموتون على الإيمان الحق ، أو يقتلون وهم يجاهدون في سبيل الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا ، وأن كل من مات أو قتل فمرجه إلى الله عز وجل وهو سبحانه مطلع وشاهد . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .



﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات :

لنت لهم : رفقت بهم .

فظا : القظ ، سبى الخلق .

غليظ القلب : قاسيه .

يخذلكم : يمنع عنكم النصر .

التفسير :

١٥٩ - فيما رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ... الآية .

بيان لعظم حلم النبي صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله به وبهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم ، كما سبق بيانه .

أى : فيسبب رحمة واسعة من الله بك وبهم - وفَّقك الله للصنع عنهم : فلتت لهم ورفقت بهم ، ولم تغلظ عليهم في الملام . مع أنهم فعلوا ما يقتضى أشد التعنيف . إذ ترك أكثر الرماة أماكنهم فوق الجبل ، واشتغلوا بجمع الغنيمة . فمكثوا المشركين من صعوده مكانهم ، وقلب ميزان المعركة لصالحهم . وترتب عليه أن أكثر الجيش فرّ ، وترك الرسول في قلة من أصحابه ، فقال له من أذى المشركين ما ناله ، حتى أرجفوا بقتله ... فكان لين

الرسول معهم - بعد ذلك - رحمة من رحمة الله به وبهم . إذ كان سببا في بقاء الإسلام ، وجمع قلوب المسلمين .

ولذا قال سبحانه وتعالى :

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .

أى : ولو كنت جافى الطبع، قاسى القلب ، فعاملتهم بقسوة، وعنفتهم على ما كان منهم ، وأشعنت عنهم غضبا عليهم - لنفرت قلوبهم منك، فتفرقوا عنك ، ولم تستطع أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل .

فليته صلى الله عليه وسلم معهم - على خطيئهم وعقوبتهم - لم يكن عن ضعف وإنما كان ناشئا عن الرحمة التى فطره الله عليها .

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ .

قال صاحب الكشاف : اعف عنهم فيما يتعلق بحقك ، واستغفر لهم فيما يتعلق بحق الله .

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ .

أى : فى أمر الحرب وغيره ، من كل أمر له خطر ولم ينزل فى شأنه وحى ، استظهارا برأيهم . وتطيبيا لنفوسهم ، ورفعا لأقدارهم ، وتقريراً لسنة التشاور فى الأمة الإسلامية .

وقد جاء فى الكشاف : وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده .

وقيل : كانت العرب ، إذا لم يشاوروا فى الأمر ، شق عليهم ذلك . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه، لئلا يتقل عليهم استقلاله بالرأى دونهم . وكان صلى الله عليه وسلم ، يدرك - تمام الإدراك - ما للمشاورة من أثر فى الوصول إلى الصواب .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » (١٣٧) .

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

أى : فإذا استقر رأيك ، وسكنت نفسك - بعد المشاورة ، فامض الأمر ولا تتردد ، وتوكل على الله فى تنفيذها ما عزمته عليه فإنه هو المعين لك فى أمور الدين والدنيا .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . عليه فى جميع أمورهم . وإنما يحبهم لأنهم اخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سواه ، إذ لم يروا فى غيره غناء .

وحب الله لهم ، مجاز عن توفيقه وإرشاده لهم فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الآخرة .

والمراد أنه لا ناصر لكم سواه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الأمر كله لله .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . أمر للمؤمنين بأن يخلصوا الله تعالى بالتوكل عليه ، والثقة به ، فى جميع الأخذ فى الأسباب .

والمراد بالتوكل ، غير التوكل الذى هو ترك الأخذ بالأسباب ، مما يقع فيه كثير من المسلمين ، بناء على خطئهم فى فهم المراد من التوكل . وهذا التوكل محرم شرعا ..

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَمْ مِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِنْ جَهَنَّمَ وَلَا يَبْصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِبَصِيرِ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

يغل . يخون . فالغلول : الخيانة وأخذ الشيء خفية . وخص - فى الشرع - بالسرقة من المغنم قبل القسمة . وفى قراءة (يُغْل) بضم الياء وفتح العين ، أى ينسب إلى الغلول .

باء بسخط : رجع بغضب شديد من الله .

التفسير :

١٦١ - وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ .. الآية .

أى ما صح وما استقام - عقلا وشرعا - لنبي من الأنبياء أن يخون فى المغنم وغيرها ، أو ينسب إلى الخيانة .

وفى هذا تنزيه لمقامه صلى الله عليه وسلم ، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، ومنها قسمة الغنائم ، وتنبيه على عصمته عليه السلام . فإن النبوة تنافى ذلك .

والمراد : تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم ، عما ظنه الرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد ، حرصا على الغنيمة ، وخوفا من أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئا فهو له .. فيحرموا - فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم معاتبًا متعجبًا « ظننتم أنا نغل ٩٩ فنزلت الآية (١٦٨) .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « اتهم المنافقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء فقد ، فانزل الله الآية » .

وَمَنْ يَفْعَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. الآية.

أى ومن يخزن يأت بما خان فيه يوم القيامة ، يحمله أمام أهل المحشر، ليفتضح أمره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى عاقبة الغلول وجزائه ، وأنه من الكبائر.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان على ثقل (١٢٩) النبى - صلى الله عليه وسلم - رجل يقال له كركرة فمات فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو فى النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها « (١٣٠).

وقد امتنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من صلاة الجنازة على من غل (١٣١).

ثُمَّ تُؤْتَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ .

أى : تعطى كل نفس مكلفة جزاء ما عملت - من خير أو شر - وافيًا تامًا، قليلًا كان أو كثيرًا.

والغالب داخل فى هذا العموم دخول أوليا.

وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ .

أى : وكل الناس لا يظلمون بنقص فى ثواب ما عملوه من الخير، أو زيادة فى العقاب على ما اقترفوه من الشر إن الله لا يظلم مثقال ذرة وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا . (النساء : ٤٠) .

١٦٢ - أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ .. الآية.

المعنى : أغفلتم عن عدل الله ، فحسبتم أن من أتبع رضوان الله وسعى فى تحصيله : بفعل الطاعات وترك المنهيات ، كمن رجع بفضب شديد من الله عليه ، بسبب الكفر والمعاصي، ومنها الغلول ؟ ..

أى : لا يستوى من أتبع رضوان الله - بالتزام شريعته ، فاستحق ثواب الله ونعيمه - ومن حاد عنه، فاستحق غضبه وشديده عقابه ، فلا محيد له عنه .

وَمَا أُوَاهُ جَهَنَّمَ .

أى : مقربه ومثواه جهنم : يلقى فيها عذاب الهون ، جزاء تقريطه فى أوامر الله تعالى ونواهيه .

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أى : وبئس مآله ومرجه السيئ : جهنم .

١٦٣ - هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ .. الآية .

أى : المتبعون رضوان الله والذين باعوا بسخطه ، ذوو درجات ومنازل متفاوتة فى الثواب والعقاب .

فأصحاب الثواب متفاوتون في الدرجات . والمستحقون لغضب الله وعذابه ، متفاوتون كذلك . والدرجات تكون في النعيم ، وتكون في العذاب . يدل على ذلك قوله تعالى : **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا** . (الأنعام : ١٣٢) .
بعد قوله تعالى : **ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** . (الأنعام : ١٣١) .

والمراد بقوله تعالى : **عِنْدَ اللَّهِ** . في علمه تعالى وحكمه .

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

أى : بصير بالأعمال التي عملوها من خير أو شر . سيجازيهم عليها : كلا بحسبه من ثواب أو عقاب .

★ ★ ★

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَزَكَرِيَّهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (١٦٤) **أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ**
أَنفُسِكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

المضردات :

من

: المن، التفضل والإنعام من غير مقابل .

من أنفسهم : من جنسهم .

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة .

أنى هذا : من أين هذا ؟

التفسير :

١٦٤ - لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم .. الآية .

أى : أنعم الله تعالى وتفضل على المؤمنين ببعثه الرسول فيهم من جنسهم : عربيا مثلهم : نشأ بينهم . وعرفوا أخلاقه وصفاته .

وإذا كان الرسول إليهم من جنسهم ، كان ذلك أبلغ في الامتنان . حيث يسهل عليهم مخاطبته ومجالسته ، ومعرفة أمور الدين منه .

وبعثته صلى الله عليه سلم فيهم - وهو منهم - شرف للعرب ، وفخر عظيم لهم . وإن كانت رسالته عامة للعالمين أجمعين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . (الأنبياء : ١٠٧) .

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ . وهو القرآن ، بعد أن كانوا أهل جاهلية . لم يطرق أسماعهم شيء من الوحي .

وَيُزَكِّيهِمْ . أى ويظهرهم مما كانوا فيه من دنس الجاهلية ، وخبث المعتقدات . حيث دعاهم إلى العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة .

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ .

أى : ويعلمهم القرآن وشرائعه ، وحكمه وأحكامه ، والسنة وما اشتملت عليه من بيان لميهم الكتاب .
وتفصيل لمجمله .

وإن كانوا من قُلِّ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

أى : وإنهم كانوا - من قبل بعثته - لفى ضلال ، وإضلال ، واضح الدلالة على الجهالة ، ظاهر لكل من علل على عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم .

١٦٥ - أو لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا .. الآية.

كلام مستأنف ، سيق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة بعد معركة أحد ، إثر إبطال بعض آخر منها .

والمعنى : أفلتتم ما فعلتم من أسباب الهزيمة ولما أصابكم مصيبة يوم أحد بقتل سبعين شهيداً منكم قد أصبتم مثليها . يوم يدر بقتل سبعين من كفار قريش وأسر سبعين منهم - لما حدث هذا - قلتهم : من أين هذا الذى أصابنا وقد وعدنا الله النصر ؟

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ . بسبب عصيانكم أمر رسول الله ، حيث أمركم بالثبات فى مكانكم فمعضيتهم

إن الله على كل شيء قدير . فهو ينصركم حين تستحقون النصر، ويكتب عليكم الغلبة حين تقتصرون فى التزام أسبابه .

وفى ختام الآية بما ذكر : ما يرشد إلى أن الأمر كله بيده جلّت قدرته ، سبحانه وتعالى .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَيَا ذُنَّ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَ مَيْدِ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ يَأْفُوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ تَكُنْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

المفردات :

يوم التقى الجمعان : أى يوم أحد ، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين .

وليظهر : وليظهر ويميز .

نافقوا : النفاق ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

فادروا عن أنفسكم الموت : أى يوم أحد ، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين .

التفسير :

١٦٦ - وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ .. الآية .

أى : وما نزل بكم من استشهاد بعضكم ، يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ، وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان فَيَا ذُنَّ اللَّهِ . أى فكأن بقضاء الله وقدره ، حسبما جرت به سنته فى خلقه وتلك الأيام نداولها بين الناس . (آل عمران : ١٤٠) .

وفى ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ومواساة لهم فيما أصابهم . فالؤمن إذا عرف ذلك ، يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره .

وليَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : وليظهر المؤمن الصادق من غيره ، وليميز الخبيث من الطيب .

١٦٧ - وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ... الآية .

أى : وليظهر غير الصادقين فى إيمانهم .

وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا .

أى : قيل للمنهزمين مع عبد الله بن أبي - رأس المنافقين - تمالوا قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء دينه ونصرة نبيه ، أو دافعوا عن أنفسكم وأموالكم ، إن لم تقاتلوا لوجه الله . وممن قال لهم ذلك : عبد الله بن عمرو ابن حرام .

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قَتَلًا لَاتَّبِعْنَاهُمْ .

هذا استئناف بياني ، أى قالوا : لو كنا نعلم أنكم تلقون قتلاً لاتبعناكم وسرنا معكم . أو قالوا استهزاء : نعلم فنون الحرب وأسابيلها لاتبعناكم .

ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال :

هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .

أى هم - يوم قولهم ذلك - أقرب للكفر منهم للإيمان ، حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وقالوا ذلك كاذبين .

وإنما لم يصرح القرآن بحقيقة كفرهم ، لنطقهم بالشهادتين . وهم - فى الواقع - لا إيمان فى قلوبهم .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

هذه جملة - تبين حال المنافقين الدائمة ، لا فى هذا اليوم فقط ، أى أنهم يتكلمون بكلمة التوحيد وليس فى قلوبهم منه شئ ، لإضمارهم الكفر والعداوة والبغضاء لأهل الإسلام .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

أى : والله سبحانه عليم بما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد ، ويأن ما قالوه بأفواههم ، ليس كائناً فى قلوبهم ، بل مغالفاً له .

١٦٨ - الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا .. الآية .

أى : الذين قالوا فى حق إخوانهم فى الدين ، أو توى قراباتهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقاتلوا ، وقد قعدوا هم عن مشاركتهم والجهاد معهم .

لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . أى لو أطاعونا فى ترك السير مع الرسول والمؤمنين ، ما قتلوا . كما أننا لم نقتل .

وفى ذلك ما يدل على أن المنافقين ، حرضوا المؤمنين على التخاذل والتعود عن الجهاد .

قُلْ فَادْرَءُوا . أى قل لهم يا محمد : إن كان القعود ينجى من الموت كما تزعمون . فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فيما تزعمون من أن الموت لم يقع بكم ، لأنكم قعدتم وجبنتم . قال تعالى : قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . (الأحزاب : ١٦ ، ١٧) .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

كانت حياة المسلمين في المدينة مقعمة بالجهاد والاستشهاد ، كان للمسلمين شهداء في بئر معونة ، وشهداء في غزوة بدر ، وشهداء في غزوة أحد ، وفي غيرها من الغزوات (١٢٢) .

وكان المنافقون يثبطون المسلمين عن الجهاد ، ويدعونهم إلى القعود في المدينة خوفاً من الموت أو القتل . فبينت هاتان الآيتان فضل الشهادة ، ومنزلة الشهداء .

قال الواحدي : الأصح في حياة الشهداء ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم في أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتعممون .

وقد ورد هذا المعنى في سورة البقرة حيث قال سبحانه :

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . (البقرة : ١٥٤) .

ولقد روى المفسرون أحاديث عديدة في سياق هذه الآيات ، كتفسير وتوضيح ، وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في الحث على الجهاد ، ومن أحاديث فضل الجهاد ما يأتي :

روى البخاري عن ابن المنكر أنه سمع جابراً يقول : لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه ، فجعل أصحاب رسول الله ينهاونني والنبي ﷺ لم ينه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تبكيه - أو ما تبكيه - ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع) (١٢٣) .

وروى الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأتو إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا من يبلغ إخواننا أننا

فى الجنة ترزق لثلاً يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا فى الحرب^(١٦٩)، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم .
فأنزل الله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . (١٧٠).

(قال أبو الضحى نزلت هذه الآية فى أهل أحد خاصة ، وقال جماعة من أهل التفسير : نزلت الآية فى شهداء بئر معونة . وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق فى المغازى . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور تحسروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور وأبائنا وأبنائنا فى القبور ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تنقيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم) (١٦٩).

والآية تبين منزلة الشهداء فهم فى حياة سارة ونعيم لذىذ ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات ، وإن كان المعنى اللغوى للموت - بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلًا للشهداء كثيرهم من الموتى ، إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء تؤمن بها كما ذكرها الله تعالى ، ولا ندرك حقيقتها لأنها من شؤون الغيب .

قال القرطبى فى تفسير الآية :

(فقد أخبر الله تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون ، والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة ، ثم منهم من يقول : ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون ، كما يعيا الكفار فى قبورهم فيعذبون ، وصار قوم إلى أن هذا مجاز ، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للنعيم فى الجنة ، وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون ، وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف ..) (١٧٠).

والآية تثبت للشهداء حياة على نحو ما ، تؤمن بها ونفوس معرفة حقيقتها لله ، جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

١٦٩ - وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ... وَلَا تظنن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلومها يرزقون عند ربهم رزقاً حسناً .

١٧٠ - فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ ... يتألق السرور بالبشر من وجوههم ، بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا ، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا أحياء مقيمين على منهج الإيمان والجهاد ، وبأنه لا خوف عليهم من مكروه ، ولا هم يحزنون لفوات محبوب .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى:

(أى أن هؤلاء الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله ، من شرف الشهادة ومن الفوز برضا الله . ويسرون بما تبين لهم ، من حسن مآل إخوانهم ، الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة ، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم ، سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها .

فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم في الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم ما زالوا على قيد الحياة (١٣٨) .

والآيتان من أروع ما يتلى للحث على الجهاد وبيان فضل الشهادة ، وبيان منزلة الشهداء ، وجلال ثوابهم وطيب مقامهم ، ورقة منزلتهم ، وهي منزلة يتمناها المؤمن الصادق، حياة الشهيد في جوار ربه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة ومرة ومرة ، لما يرى من فضل الشهادة . إن الشهيد قد قدم روحه ، وضحي بنفسه . فكان له الجزء الأوفى من جنس عمله ، وكان له حق على الله أن يحفظه من النار وأن يدخله الجنة ، وأن يسكنه في أعلى منازل الجنان .

جاءت أم حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : يا رسول الله : إن حارثة قد قتل في الجهاد فأخبرني أهو في الجنة أم في النار ؟ فإن كان في الجنة صبرت وإن كان في النار بكيت ، فقال ﷺ : اتق الله يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها (١٣٩) .

وقد تمثل المؤمنون المعاني الكريمة لهذه الآيات والأحاديث ، فحملوا راية الجهاد في سبيل الله ، وكان العباد والزهاد والمنقطعون للعبادة في المساجد يرون أن لهم ثوابا عظيما على عبادتهم ، وكانت هناك مساجلات أدبية بين المتعبدين في المساجد ، والمجاهدين في ميادين الحرب .

روى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه قال : أملى على عبد الله بن المبارك هذا الأبيات بطرسوس ، وأرسلها إلى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ .

يا عابـد الحـرمين لو ابصـرتنا

لعلـمت أنـك في العـبـادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه

فنجورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله في باطل

فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا

وهج السنايك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا

قول صحيح صادق لا يكذب

لَا يَسْتَوِي غِبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي
 أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانِ نَارٍ تَلْهَبُ
 هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطَلِقُ بَيْنَنَا
 لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

فلما قرأ هذه الآيات الفضيل بن عياض ذرفت عيناه في المسجد الحرام وقال : صدق أبو عبد الرحمن، فقد صح في الحديث عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله علمني عملاً أنا به ثواب المجاهدين في سبيل الله ، فقال له الرسول ﷺ : « هل تستطيع أن تصلي فلا تفتري، وتصوم فلا تقطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هو الذي نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله » رواه البخاري (١١٠).

★ ★ ★

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧١)

المعنى الإجمالي :

تتألق وجوه الشهداء بما من الله به عليهم من نعمة الشهادة ، ونعيم الجنة وعظيم الكرامة ، وبأنه لا يضيع أجر المؤمنين .

فهذه الآية استئناف مبين لما هم عليه من سرور يتعلق بذواتهم بعد أن بين سبحانه سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم .

أى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، كما أنهم يستبشرون أيضاً لأنفسهم بسبب ما أنعم الله عليهم به من نعم جزيلة - ويسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة وسمو المنزلة، وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما يهتمون أيضاً بأحوال إخوانهم الذين تركوهم في الدنيا ، وفي ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم .

والآية وإن نزلت في شهداء غزوة أحد ، إلا أن حكمها عام في جميع شهداء المؤمنين المجاهدين في سبيل الله.

★ ★ ★

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ
وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ
فِي سَلَامٍ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٤﴾﴾

المضردات :

القرح : الجرح .

حسبنا الله : كافينا وحافظنا .

الوكيل : المتصرف ، أو الكافي، أو الكافل .

قصة الآيات :

ورد في كتب التفسير ^(١١١) عدة روايات عن أسباب نزول هذه: منها أنها نزلت في غزوة حمراء الأسد،
ومنها أنها نزلت في غزوة بدر الصغرى، وتلتقى الروايات على أن حرباً نفسية كانت في أعقاب غزوة أحد، حاول
المشركون منها تثبيط همم المسلمين ليكسبوا جولة بدون معركة عسكرية ، ولكن المسلمين المخلصين لبوا نداء
الرسول وخرجوا في طلب المشركين ثم عادوا ظافرين غانمين إذ لم يجدوا عدوا وإنما سجلوا نصراً معنوياً .

قال الفخر الرازي :

اعلم أن الله مدح المؤمنين على غزوتين تعرف لإحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية : بغزوة بدر
الصغرى، وكتاهما متصلة بغزوة أحد .

أما غزوة حمراء الأسد فهي المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح في سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه
بعد أن انصرفوا من أحد ، ويلغوا الروحاء ندموا ، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل
الواجب أن نرجع نستأصلهم ، فهموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريههم من نفسه ومن أصحابه قوة .
فتدب أصحابه إلى الخروج في طلب أبي سفيان ، وقال : لا أريد أن يخرج الآن معي إلا من كان معي في القتال
في أحد .

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد، وهي مكان على بعد
ثمانية أميال من المدينة، فالتقى الله الرعب في قلوب المشركين فانهزموا ١٠ هـ .

١٧٢ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته، وليوا نداه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال.

١٧٣ - الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أى هم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي، ومن واقفه وأذاع قوله : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم ، فآخشوهم ولا تخرجوا للقائهم.

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت في غزوة أحد الصغرى، ذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد ، يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، وهذا مما اعتاده العرب في حروبهم .

فلما جاء الموعد خرج النبي على رأس فريق من أصحابه حتى بلغ بدرًا فلم يجدوا قريشا ، وشهدوا سوق بدر، وكان لهم فيها ربح تجارى عظيم ، ولم يلقوا كيدا أو سوءا . وابن سعد يذكر وقوع الغزوتين وأسبابهما التي ذكرها المفسرون (١٤٢).

روى أن أبا سفيان خرج في العام التالي لغزوة أحد، في جيش من أهل مكة حتى نزل (مجنة) ، من ناحية (مر الظهران) ، فالتقى الله الرعب في قلبه فهذا له الرجوع ، فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إني واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر، وأن هذا عام جذب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جراحة ، فذهب إلى المدينة فخطبهم ، ولك عندي عشرة من الإبل ، أضعها في يدى سهيل بن عمرو فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لمعاد أبى سفيان ، فقال لهم : أتوكم في دياركم ، فلم يفلت منكم أحد إلا شريد. افترضوا أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ٩ فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسى بيده لا أخرجن ، ولو لم يخرج معى أحد » فخرج معه سبعون راكبا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرًا الصغرى فإقام بها ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا ، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة ، وكان معه ألفا رجل، فسماء أهل مكة جيش السوق، وقالوا لهم : إنما خرجتم لتسروا السوق.

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات ، فباعوا واشتروا أدما وزبيبا فربحوا ، وأصابوا بالدرهم درهمين - وانصرفوا إلى المدينة سالين غانمين.

وفى ذلك يقول الله تعالى : فَزَادَهُمْ إِيمَانًا . أى فزادهم هذا التخذييل إيمانا بالله ورغبة في الجهاد ، واستعدادا للتضحية، وقالوا فى يقين صادق : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . الله كافينا ، يرد عنا أعداءنا وينصرنا، ونعم الكفيل الله تعالى .

١٧٤ - فَاتَّقِبُوا نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ . . .

فعاد المسلمون من بدر الثانية بنعمة السلامة مع الرغبة في الجهاد وفوزهم بثوابه . وقد تظاهرت عليهم نعم الله ، فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، وريحوا في تجارتهم ، ونالوا فضل الله عليهم في إلقاء الرعب في قلوب عدوهم فلم ينلهم أذى .

وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ . أى حرصوا على فعل ما يرضى الله تعالى عنهم ، من المبادرة إلى فعل الطاعات ، ومنها خروجهم لبدر الصغرى ، وترك المنهيات ففازوا برضوان الله وتأييده ونصره .

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أى ذو إحسان عظيم على العباد .

في أعقاب الآيات :

من المفسرين من ذكر أن الآيات نزلت في غزوة حمراء الأسد ، في أعقاب غزوة أحد .

ومنهم من ذكر أنها نزلت في غزوة بدر الصغرى ، وهى بعد غزوة أحد بسنة كاملة .

وهناك احتمال أن الآيات نزلت بعد الحادثتين كلتيهما ، وقد رجح الأستاذ محمد عزة دروزة أن الآيات نزلت في غزوة حمراء الأسد لأنها متكاملة مع ما سبقها .

والمبتدأ أن الآيات لم تنزل مستقلة ، وليست منفصلة عن سابقتها ، وكلمة الَّذِينَ متصلة نظماً بكلمة الْمُؤْمِنِينَ التى كانت خاتمة الآيات السابقة ، وأن السلسلة كلها نزلت دفعة واحدة ، عقب أحداث وقعة أحد ومشاهدها .

والآيات تحتوى صورة رائعة لاستغراق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته والجهاد في سبيلها ، وعمق إيمان الفئة المؤمنة التى كانت حوله ، وصبرها وتقانيها وقوة روحها واستغراقها في تأييد النبي وطاعته .. وبخاصة في الحالة التى نزلت فيها الآيات ، حيث خرجوا إلى عدو يزيد عليهم أضعافاً كثيرة ، ويفوقهم في الوسائل ، وكانت جراحهم دامية وأجسادهم متعبة بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان مجروحاً في وجهه مشجوجاً في جبهته ، مكسورة رباعيته مكلومة شفته السفلى متوهناً منكبه الأيمن من ضربة أصابته وركبته مشجوجتان (١٤٣) . ويزيد في روعة الصورة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يندب معه إلا الذين شهدوا معركة أحد وقتلوا فيها ولم ينهزموا . وقد روى أن عددهم كان سبعين (١٤٤) . ومما رواه المفسرون من واقع هذه الصورة خروج الجرحى حرصاً على ثواب غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك أن شاباً (١٤٥) استشهد أبوه في المعركة ولم يكن شهدها بنفسه لأن أباه آلى عليه أن يتخلف إلى جانب سبيع أخوات له ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه الإذن بالانضمام إليه بعد أن أخبره بعنزة الذى منعه من شهود المعركة ، وفى كل هذا عظيم الأسوة والتلقين لكل مسلم في كل ظرف ومكان (١٤٦) .

وفى معنى هذه الآيات قوله تعالى : وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . (الأحزاب : ٢٢) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

المفردات :

الشيطان : الشيطان هنا هو شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم وهو نعيم بن مسعود .

يخوف أولياءه : أى يخوفكم أنصاره من المشركين .

يسارعون فى الكفر : أى يسارعون فى نصرته والاهتمام بشئونه والتهوين من شأن المؤمنين وتخوينهم .

حطًّا فى الآخرة : أى نصيبا من الثواب فيها .

اشترؤا الكفر بالإيمان : أى أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشتري من إعطاء شيء وأخذ غيره بدلاً منه .

نملئ لهم : الإملاء : الإهمال والتخلى بين العامل وعمله ليلبغ أقصى مدهاء ، من قولهم : أملئ لفرسه

إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، منه المملأ للأرض الواسعة، والمملوان : الليل والنهار .

سياق الآيات :

انتهت غزوة أحد بفوز المشركين ، وأصيب النبی صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بجراح وآلام وانكسار .

عندئذ أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدهم ، ويقولون لهم إن محمدا طالب ملك، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ويسرف فى الحزن، فنزلت هذه الآيات تسلياً للرسول الأمين وتربية للمؤمنين .

التفسير :

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخْرِفُ أَوْلِيَائَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ .

بين الله سبحانه للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم بأعدائكم لتجنبوا عن لقاءهم ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذى يخوف أتباعه فيجعلهم جبنا ولستم منهم ، فلا تحفلوا بتخويفهم وخافوا الله وحده إن كنتم صادقى الإيمان قائمين بما يقرضه عليكم هذا الإيمان .

وجاء فى التفسير الحديث :

فى هذه الآية تنبيه وتثبيت للمؤمنين ، فالشيطان يثير فى نفوسهم الخوف من أوليائه، ليقعدهم عن القتال، فليهممهم ألا يستمعوا لوساوسه، ولا يخافوهم بل يخافوا الله وحده إن كانوا مؤمنين حقا ١٠ هـ .

وتفيد الآية أن المؤمن لا يكون جباناً ولا ذليلاً ، لأن الموت والحياة بيد الله ، وإذا عرضت للإنسان أسباب الخوف فليستحضر فى نفسه قدرة الله الذى بيده كل شيء، وهو يجبر ولا يجار عليه .

إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف، ويعود نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية .
إذا عرضت للإنسان أسباب الخوف، فعليه أن يغالبها بصرفها عن ذهنه، وشغلها بما يضادها وينهب بآثارها، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى ينط به التكليف .

١٧٦ - وَلَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا .

كان المنافقين مواقف شائنة فى غزوة أحد ، فقد عاد عبد الله بن أبى بلث الناس ، ولما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد ، بسبب موقف المنافقين أولا ، ويسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين ثانيا ، ورجعوا إلى المدينة ، أظهر المنافقون كثيرا من الشماتة والبغضاء ، وقالوا فى حق الذين قتلوا فى المعركة .. لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . (آل عمران : ١٥٦) .

ولما استعرض الرسول الأمين هذه المواقف الشائنة حزن وتالم ، فأنزل الله هذه الآية لتسلية ، أى لا ينبغي يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضرُوا أوليائى بشيء من الضرر . وقد استفاد المسلمون من هذه الغزوة ، إذ عرفوا أعداءهم ، المنبئين فيما بينهم من المنافقين ، فأخذوا حذرهم . يُرِيدُ اللَّهُ الْأَلَاءَ بِكُمْ لِيَجْزِيَ الْمُجْرِمَ فِي الْأَخِرَةِ . أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة بسبب ما أبدوه من أسباب الفرقة والتخذييل والشماتة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وعقاب اليم فوق عذاب الحرمان من نعيم الجنة .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ... (المائدة : ٤١) .

١٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والاشتراء في الآية الكريمة بمعنى الاستبدال ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فقد شبه - سبحانه - الكافر الذي يترك الحق الواضح ، الذي قامت الأدلة على صحته ، ويختار بدله الضلال الذي قامت الأدلة على بطلانه بمن يكون في يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها ، ويأخذ في مقابلها سلعة رديئة فاسدة .

والمعنى إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن يضرروا دين الله ولا رسوله ، ولا أوليائه بشيء من الضرر ، وإنما يضررون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام ، بسبب إيثارهم النفي على الرشد ، والكفر على الإيمان والشر على الخير .

١٧٨ - وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ ..

أى لا يعتقدون الذين كفروا أن إمهالنا لهم ، وعدم تعجيلنا بمعقوبيتهم ، على كيدهم للإسلام - خير لأنفسهم ، فإن الله يمهالهم ويؤخر عقوبتهم ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

أى يستدرجهم الله تعالى ويرخى لهم الحبل على الغارب ، ليرتموا في مراعى الشر ، ثم يستحقون العذاب المهين في الآخرة مقابل اعتزازهم في الدنيا بالكفر والمعاصي ، والكيد للإسلام والمسلمين والبادئ أظلم .

وفي معنى الآية قوله تعالى : يَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وقوله سبحانه : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . (القلم : ٤٤) .

وقوله عز شأنه : فَلَا تَعْجَلْ أَمُورَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾

المفردات :

ليذر : ليرك.

يميز : يفرق ويمزل.

يجتبي : ليرك.

التفسير :

١٧٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ . . .

أى : ليس من شأن الله تعالى ، ولا من حكمته وسنته فى خلقه ، أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه ، من اختلاط المؤمن بالمنافق ، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم ، بألوان المصائب والشدائد ، حتى يظهر المؤمن الطيب المخلص ، ويستبين أمر المنافقين الذين هتكت أسمائهم وعرفت أسماؤهم ، وحقيقة نواياهم .

ولم تجر سنة الله بإطلاع أحد من خلقه على شئ من غيبه . قال تعالى : **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا** . (الجن : ٢٦ ، ٢٧) .

فأله تعالى يصطفى من رسله من يريد اصطفاؤه فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، كما حدث للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أطلعه الله على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله ، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعہ برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لحريهم ، وأطلعه على أحوال بعض المنافقين **فَأَمُونُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ** . أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، أو داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله .

وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . وإن تصدقوا فى إيمانكم وتتقوا ريكم بالتزام طاعته ؛ يدخلكم الجنة جزاء ، ونعم الجزاء إذ هى جزاء عظيم .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يُبْخُلُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١٨٠) لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يُظْلِمَ لَلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عِهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقْرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بَالِغِنَا قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

المضردات :

: أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه.

ما آتاهم

: أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم : تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بما يسب به ويذم .

سيطوقون ما بخلوا به

: أى ما يتوارثه أهلها من مال غيره .

ميراث السموات والأرض

: أى سنعاقب عليه ولا نهمله .

سنكتب ما قالوا

: أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك المحسوسات ، والحريق المحرق المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم .

ونقول ذوقوا عذاب الحريق

: أى أمرنا فى التوراة وأوصانا .

عهد إلينا

: ما يقترب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من (النار): التى تنزل من السماء .

القربان

: هى المعجزات الواضحة .

البيّنات

: واحدها زيور ، وهو الكتاب .

الزبر

: الواضح .

المنير

تمهيد :

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربه فى جنات النعيم .

وهنا شرع يبحث على بذل المال فى الجهاد - والمال شقيق الروح - فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير ، وأن الوارثين والمورثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده .

ثم ذكر مقالة لليهود قد قالوها ، ثم كذبهم فيها ثم سألوا رسوله وأبان له أن تكذيبهم لك ليس ببعد منهم بل سبقوا من قبل بمثله من الأنبياء السابقين .

* * *

التفسير :

١٨٠ - وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ

أى ولا يظن أحد أن يبخل الباخلين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيراً لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغي أن يصدر من عاقل .

والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يحتاج البلاد ويهدد استقلالها ، ويصبح أهلها أدلة بعد أن كانوا أعزة ، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعاً .

ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس .

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ إن الله أباح لنا الطيبات لتستمتع بها ، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل ما يكسبون ويبيعون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . (البقرة : ٣) .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيباً فى بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ، ووكّل أمر ذلك إلى اجتهد المؤمن الذى يتبع عاطفة الإيمان التى فى قلبه ، وما تحدثه فى النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه ، إذا هو تذكر أن فى ماله حقاً للسائل والمحروم .

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ . أى هو شرّ عظيم لهم ، وقد نفى أولاً أن يكون خيراً ثم أثبت كونه شراً ، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن فى منعه خيراً له ، لما فى بقاء المال فى يده من الانتفاع به فى التمتع بالذات ، وقضاء الحاجات ودفع الفوائد والآفات .

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . أى سيجعل ما بخلوا به من المال طوقاً فى أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه ، ولا يجدون إلى دفعه سبيلاً ، كما يقال : طوقنى الأمر أى الزمنى إياه .

وخلاصة هذا - أن العقاب على البخل لازم لا بد منه .

وقال مجاهد : إن المعنى : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك حين كان ممكناً ميسوراً ، ونظير هذا قوله تعالى : وَيُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَبِيعُونَ . (القلم : ٤٢) .

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي ، وأنهم يطوقون بطوق يكون سبباً لعذابهم فتصير تلك الأموال حيات تلتوى فى أعناقهم . فقد روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع (ثعبان) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بهزمته (شدقيه) يقول أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا الآية » (١١٧) .

والله ميراث السموات والأرض . أى لله وحده لا لأحد سواه ، ما فى السماوات والأرض ما يتورث من مال وغيره ، فينتقل من واحد إلى آخر لا يستقر فى يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد ، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون . ويبقى مالك الملك ، وهو الله رب العالمين .

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه ، ولا ينفقونه فى سبيله ، وابتغاء مرضاته .

وفى الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل ، وصاحبه فان غير باق ، فلا ينبغي أن يستبقى الفانى ما هو مثله فى الفناء ، بل عليه أن يضع الأشياء فى مواضعها التى لها ، وبذا يكون خليفة الله فى أرضه محسناً للتصرف فيما استخلف .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ما تتجلى عليه جوانحك ، فيجازى كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله فى تزكية نفسه أو تدميرها ، ونبته فى فعله كما جاء فى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » .

١٨١ - لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ .

أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة ، ولم يخف عليه ، وسيجزئهم عليه أشد الجزاء .

وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد ، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء فى نحو « سمع الله لمن

حمده » ويضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى فى نحو قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا

وَتَشْعِكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُزَكُمَا . (المجادلة : ١) . إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم فى أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعانى التى ذكرناها آنفا .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : مِنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا . (البقرة : ٢٤٥) . فقالوا : يا محمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء؟ فأنزل الله لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ . الآية .

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا . أى سنعاقبهم على ذلك عقابا لا شك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه ، وهذا استعمال شائع فى اللغة .

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ . أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسبة إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه .

وهذا يدل على أن الأمم متكافئة فى الأمور العامة ، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، ثلثا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فتستحق العقوبة فى الدنيا بالضيق والفقر ، والعقوبة فى الآخرة بتدنيس نفوسها ، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطلبه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستتهجن ما تستهجنه - عد شريكا له فى إثمه ومستحقا لمثل عقوبته .

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة .

ذلك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا ، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألوانا من العذاب ، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب ، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق ، كما أدقمت أولياء الله فى الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة - ذوقوا ما أنتم فيه ، فاستم بمتخلصين منه ، وهذا قول يلحق للتشقى الدال على كمال الغيظ والغضب .

١٨٢ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ . أى أن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته بسبب أعمالكم فى الدنيا كقتل الأنبياء ، ووصف الله بالفقر ، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدى ، من قيل أن أكثر أعمال الإنسان تزاوُل باليد ، وليفهد أن ما عذبوا هو من عملهم على الحقيقة ، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه .

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، ويكونه تعالى عادلا فى حكمه وفعله ، لا يجوز ولا يظلم . فلا يعاقب غير المستحق للعقاب ، ولا يجعل المجرمين للمتقين ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَاءَ مَا مَحْبَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ . (الجاثية : ٢١) . وقال : أَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۖ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (القلم : ٣٦٢٥) .
وقال : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص : ٢٨) .

والخلاصة - أن ترك عقاب أمثالك مساواة بين المحسن والمسيء وضع للشئ في غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثير الظلم مبالغاً فيه .

١٨٣ - الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وفتحاص بن عازواء وهى جماعة آخرين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا، وقد عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون للنار دوى خفيف حين تنزل من السماء فإن جثثنا بهذا صدقتك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به .

ودعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، وأكل النار للقرآن لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد عليهم بقوله :

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أى قل مويخا لهم ومكذبا: قد جاءكم كثيرون من قبلى كزكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقرآن الذى تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجترأتم على قتلهم ؟ وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد (وبذلك وصفوا فى التوراة) قساة القلوب لا تفقهون الحق ولا تدعنون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشادا، بل تمنيتا وعنادا .

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان فى عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم لأنهم راضون عما فعلوه، معتقدون أنهم على حق فى ذلك ، والأمة فى أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفا عند العرب وغيرهم، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويؤاخذونها بها .

والخلاصة : أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إيجابتكم إلى ملتصكم بالإتيان بالقرآن، إذ لا فائدة منه .

١٨٤ - فَإِنْ كَذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . أى فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالبيانات الساطعة، والمعجزات الواضحة والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استتارة الحجة والدليل - فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تمنيتهم ، فتلك سنة الله فى

خليقته . فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات ، وهزوا القلوب بالزواج والعطات ، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة فلم يغن ذلك عنهم شيئاً ، فصبروا على ما نالهم من أذى وما نالهم من سخرية واستهزاء .

وفى هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طلياع البشر فى كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والداعى إليه ، ويسفه أحلام معتقيه . فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك ، ولا أن يفندوا حجتك ، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق ، وتحرى سبل الخير .

★ ★ ★

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

المفردات :

توفون أجوركم : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة .

زحج عن النار : نحى عنها .

فاز : سعد ونجا .

متاع : المتاع : ما يتمتع به مما يباع ويشترى .

الغرور : إصابة الغرة والغفلة ممن تخدعه وتغشه .

التفسير :

١٨٥ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . الآية .

كل نفس سيدركها الموت لا محالة ، قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . (الرحمن : ٢٦) . وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيًا يوم القيامة ، فمن نحى عن النار وأبعد عنها وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية ، والتعيم المخلد ، وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحقق للغرور .

قال ابن كثير : وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت التلطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم ، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة .

(وليس في هذه الآلة ما يدعو إلى نفذ اليد من الدنيا ومتعتها وطيباتها والنشاط فيها في مختلف المجالات ، وإنما هدفها هو التذكير بحتمية الموت ، وحث الناس والمسلمين بخاصة على الاستمسك بحبل الله وتوابعه ، والقيام بواجبهم نحوه ونحو الناس ، والاستكثار من العمل الصالح الذي هو وحده النافع المنجي لهم في الحياة الآخوية) (١٨٨).

★ ★ ★

﴿ تَبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ نَصَرُوا
وَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (١٨٦) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ
مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١٨٧)

المفردات :

تَبْلَوْنَ في أموالكم وأنفسكم : لتختبرن فيها بالإصابة ببعض البلياء .
من عزم الأمور : من الجد في الأمور . مأخوذ من عزم الأمر ، أى جد فيه .
ميثاق : الميثاق : العهد .
فنبذوه وراء ظهورهم : أى طرحوه خلفها . والمقصود : أنهم أهملوه ولم يعملوا به .
وأشتروا به ثمنا قليلا : واستبدلوا بهذا الميثاق ، مقابلا قليلا ، من أعراض الدنيا .

التفسير :

١٨٦ - تَبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً
وَإِنْ نَصَرُوا وَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

أى والله لتختبرن وتمتحنن في أموالكم بالفقر والمصائب وفى أنفسكم بالشدائد والأمراض والجراح
والآلام ، ولتسمعن من اليهود والنصارى وكفار العرب والمشركين أعدائكم الأذى الكثير كالطعن في دينكم
والاستهزاء بعقيدتكم والتفنن فيما يضركم .

وإن تصبروا على تلك الشدائد ، وتقابلوها بضبط النفس وقوة الاحتمال ، وتتقوا الله في الأقوال
والأعمال ، فإن الصبر والتقوى منكم من عزم الأمور والجد فيها ، وهو فضيلة يتنافس فيها المتنافسون ، وأنتم بها
أحق وأولى .

وقد ورد في القرآن والسنة ما يوضح حقيقة هذه الحياة، ويبين أن الله يمتحن المؤمن بالبلاء والاختبار ،
 رفعاً لدرجته وتكفيراً لسيئاته، وتمييزاً للمؤمن من المنافق، قال تعالى : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
 وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاغِبُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

وقال سبحانه : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَلَيَوْلُوْا أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١) .

وروى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : (قلت : يا رسول الله أى ، الناس أشد بلاء ؟ قال :
 الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلئ الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه
 رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة) (١٤٩) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على
 الأذى . فهي سنة الدعوات تحتاج إلى بلاء وصبر ومقاومة وصمود ، قال تعالى : وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
 يَرَوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا كَذِبًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ١٠٩) .

وفى تفسير ابن كثير حديث طويل رواه البخارى ، عن عروة بن الزبير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وسلم ذهب يعود سعد بن عباد بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فمر على مجلس فيه (عبد الله بن أبى
 ابن سلول) فدعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء ، إنه لا أحسن مما
 تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه .

فقال عبدالله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاعفنا به فى مجالسنا ، فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون
 والمشركون واليهود ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ، ثم سار النبى ﷺ حتى دخل على سعد بن عباد
 فأخبره بما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول ، فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح ، هوالذى أنزل عليك
 الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلاح أهل المدينة على أن يتوجهوا لك ، فلما ظهر الإسلام
 غص به ، فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم (١٥٠) .

١٨٧ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

بشرت التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الإنجيل ، وفى الآية تقرير بأن الله قد أخذ
 عهداً من أهل الكتاب بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم ، ويظهروا ما فيها من أحكام الله ، ولا يكتُموا ما فيها من
 الحقائق .

ولكن أهل الكتاب لم يعملوا بذلك العهد بل نبذوه خلف ظهورهم واستبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا ، هو الرياسة الدنيوية والجاه والمال الحرام ، فبئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة .

قال ابن كثير : هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب ، الذين أخذ الله عليهم العهد على السنة الأنبياء ، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينهوا بذكره في الناس ، فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكنتموا ذلك وتعضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة ، بالدون الطفيف ، والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم (١٥١) .

والآية ، وإن نزلت توبيخاً وتهديداً ووعيداً لأهل الكتاب على كتمانهم العلم ، وعدم بيان الحق لأغراض دنيوية ، ففيها تحذير ضمني للعلماء عن أن يسلكوا سبيلهم ، فيحل بهم مثل عقابهم ، وقد جاء ذلك صراحة في قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (١٥٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن

ماجه .

★ ★ ★

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٨﴾

المفردات :

يفرحون بما آتوا : يفرحون بما جاءوا به نفاقاً أو رياء من الأقوال أو الأفعال .

بمفازة من العذاب : بمنجاة منه .

ملك السموات والأرض : سلطانه عليهما خلقاً وملكاً وتديباً وتصرفاً .

التفسير :

١٨٨ - لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يزال الكلام موصولاً مع أهل الكتاب : فالآية نازلة فيهم :

أخرج الإمام أحمد ، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان بن محمد ، قال : اذهب يا رافع «بوابه» إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معذباً ، لتعذبين أجمعين . فقال ابن عباس : وما لكم وهذه ، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب .

ثم تلا ابن عباس : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ . وتلا ابن عباس لا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وقال ابن عباس : سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستعمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أوتوا كتمانهم ما سألهم عنه .

وروى نحوه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم ..

وقيل: نزلت في المنافقين : لما رآه البخارى ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخارى عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم . خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الغزو ، اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا ، فنزلت : لا تَحْسِنَ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا الآية.

وعلى هذا ، فالمراد من حب المنافقين أن يحمدا بما لم يفعلوا : أنهم أرادوا أن يحمدهم المؤمنون بسروورهم الذى أظهره نفاقا بنصر المؤمنين ، ولم يكن سرورا نابعا من قلوبهم . فاعتبره الله تعالى فى حكم المنافى .

وقد جاء التصريح بسروورهم الظاهر بالنصر، فى رواية طويلة ، لابن مردويه، فى تفسيره ، جاء فيها : وإن كان لهم نصر وفتح ، حلفوا لهم ليرضوهم. ويحمدهم على سرورهم بالنصر والفتح.

ولا مناقاة بين ما قاله ابن عباس ، وما قاله أبو سعيد الخدرى، فى سبب النزول، فالآية عامة فى جميع ما ذكر - وهى - وإن نزلت لهذا السبب الخاص ، أو ذاك ، أو لهما معا - فهى بعموم لفظها، عامة لكل من يأتى بشيء من الحسنات: بظاهره أو بحقيقته ، فيفرح به فرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار عنه من الفضائل. كأن يقولوا فيه : هو صادق فيما قال . أو مخلص فيما فعل. أو عظيم الإحسان والمبرات، أو نحو ذلك مما ليس فيه .

ويدخل فى هذا العموم : من نزلت فيهم الآية ، دخولا أوليا .

والخطاب فى قوله تعالى : لا تَحْسِنَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب.

والمعنى : لا تظنن الذين يفرحون - فرح إعجاب - بما جاءوا به مما ظاهره الخير، وباطنه النفاق أو العجب، أو التجرد عن النية الصالحة، ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، بأن يقال : إنهم صادقون، أو مخلصون، أو محسنون ، أو غير ذلك من الصفات الجميلة : التى أرادوا أن تقال فى شأنهم على وجه الحمد والثناء ، وهم منها براء .

فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ . فَلَا تَظُنُّنْهُمْ بِمَنْجَاةٍ مِنَ الْعَذَابِ الْآخَرِ ، وَإِنْ أَهْلَتُوا مِنَ الْمَوَازِئِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

والمقصود من نهيه صلى الله عليه وسلم : أن يظننهم ناجين من العذاب، هو التوبيخ على أنهم معذبون حتما على نياتهم الخبيثة، ونفاقهم الممقوت ، وليس المقصود نهيه حقيقة عن ظنه نجاتهم . فهو « عليه السلام » عليم باستحقاقهم العذاب، ما داموا مصرين على ما هم عليه من الطوية الخبيثة ، طبقاً لما نزل عليه من شرع الله تعالى .

وذكر قوله : فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ . بعد قوله : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ لتأكيد الوعيد ، لطول الكلام .

أما قوله : بِمَقَازَةٍ فهو المفعول الثاني لـ تَحْسَبَنَّ الأول .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هذه الجملة قصد بها : أن العذاب الذي لا ينجو منه هؤلاء ، وليسوا منه بمقازة ، هو عذاب بليغ الإيلام في شدته ومدته ونوعه . وليس عذاباً هيناً ، يمكن احتماله .

١٨٩ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : له تعالى « وحده » السلطان فيهما خلقا وتديرا ، وإحياء لمن فيهما وإماتة ، وتعذيبا وإثابة .

ومن كان كذلك ، لا يقال : إنه فقير ، وبعض عباده أغنياء ، كما زعم اليهود ، إذ قالوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . (آل عمران : ١٨١) .

ولا يقلت من عقابه من أحب أن يحمد بما لم يفعل ، كما فعلوا هم وغيرهم .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فكما قدر على خلق السموات والأرض ، يقدر على بعث الخلائق وجزائهم على

أقوالهم وأفعالهم ونياتهم : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْهَا النَّاسَ فَاعْلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
 (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾

المفردات :

الذين يذكرون الله قياما : فى صلاتهم .

وقعودا : فى تشهدهم وفى غير صلاتهم .

وعلى جنوبهم : نياما ، وهى حالات ابن آدم كلها .

ما خلقت هذا باطلا : عبثا ولا لعبا ، إلا لأمر عظيم .

التفسير :

١٩٠ - إنَّ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

ذكر الله سبحانه هنا آيتين فقط هما خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار ، لأن المقصود إثارة الانتباه ولفت القلوب والأفئدة إلى بديع صنع الله .

(والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح، الذى لا تفتأ صفحاته تقلب فتنبى فى كل صفحة منه آية موحية تستجيش فى الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب وفى (تصميم) هذا البناء ، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان (وأولو الأبواب) : أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يغلون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته ، وقوام فطرته ، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .. (ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لو استقننا أنفسنا من همود الإلف وخمود التكرار، لاهتزت له مشاعرنا ولأحسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلل.. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً، ولا يمكن أن يكون جزأها، ولا يمكن أن يكون باطلاً^(١٥٣) . (ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى (الجاذبية) أو غير الجاذبية ، هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى فى كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه المعجينة الكونية ،

واستقبال التواميس الهائلة الدقيقة التي تحكمها وتحفظها.. وهذه أيا كان اسمها عند الباحثين من بنى الإنسان هي آية القدرة وآية الحق، في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار).

(والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا، وهو في الوقت ذاته تصوير إيماني، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلفته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب (معرفة) للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبده يد الله (١٩١).

عبادة النبي صلى الله عليه وسلم :

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة آل عمران إذا قام من الليل لتجده. قال البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : إِنَّ فِي حَلَقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ . الآيات ، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فضلى ركعتين ثم خرج فضلى بالناس الصبح (١٩٠).

والآيات واردة في الأذكار والدعاء، فمن شأن المؤمنين أن يتأملوا في خلق السموات وارتقاعها واتساعها وجلالها وجمالها ، وفي خلق الأرض وانخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من بحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع . وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى في تماقبيهما وكون كل منهما خلفه للآخر، أو في تفاوتيهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده.

لَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ لآدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته.

لَأَوَّلِي الْأَلْبَابِ أى لأصحاب العقول التامة ، والأفئدة المنقطة .

الْبَيْنِ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . فهم يستغرقون في تذكر خالقهم ، ويذكرونه في جميع أحوالهم ، وإنما خص الأحوال المذكورة لأنها الأحوال المعهودة التي لا يخلو عنها الإنسان غالبا ، وليس ذلك لتخصيص الذكر بها (١٩١).

وقيل المراد بالذكر هنا الصلاة، كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك » (١٩٧).

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . يتأملون في كتاب الكون وفي يد الله المبدعة وهي تحركه وتقلب صفحاته وتبدع نظامه، وهو أمر لا يتيسر إلا لأصحاب الفطرة السليمة ، وفي لحظة تمثل صفاء القلب وشفافية الروح وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي، كما تمثل الاستجابة والتأثير والانطباع.. إنها لحظة العبادة، وهي بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال.

فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثاً ولا باطلاً . وقد ذم الله الغافلين ومدح أهل الفكر والعبادة بالقلب والتأمل القائلين : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا . إى ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (المؤمنون : ١١٦-١١٥) .

سُبْحَانَكَ . نتزهت عن أن تخلق هذا الكون باطلاً .

سُبْحَانَكَ . نتزهت عن العبث وأن تخلق شيئاً بغير حكمة .

فَقَدْ عَذَابَ النَّارِ . إن قلوبهم المتدبرة ، وأفئدتهم المستبصرة ، انطلقت مع أسئلتهم بذلك الدعاء الطويل ، الخاشع الواجب الراجف المنيب ، ذى النغم العذب ، والإيقاع المنساب ، و الحرارة البادية فى المقاطع والأنغام .

وقد رأيت أديهم فى الدعاء فقد بداوا بتسبيح الله وتزيهه ثم عقبوا بالدعاء ، وفى الحديث الصحيح : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بعد بما شاء . رواه أبو داود (١٥٨) .

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن أسئلتهم مستغرقة بذكر الله تعالى ، وأبدانهم فى طاعة الله وقلوبهم فى التفكير فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله الوقاية من عذاب النار ، ويسألونه المغفرة لذنوبهم ، والنجاة يوم القيامة .

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴾ (١١٦)

المفردات :

أخْرَجْتَهُ : أهلكته أو فضحته ، أو أهنته .

التفسير :

١٩٢ - رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ... الآية .

أى أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار فإنك من تدخله النار تكون قد أخْرَجْتَهُ أى أهنته وفضحته على ربوس

الأشهاد :

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ . أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار .

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١٩٣)
 رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَئِذَا خَلْنَهُمْ جَنَّتْ بَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا نُنْهَرُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴿

المفردات :

الأبرار : جمع بر - والبر والبار ، هو كثير البر والإحسان.

لا تخزنا : لا تهنا ، ولا تقضضنا .. أو لا تهلكنا .

فاستجاب : بمعنى أجاب .

هاجروا : تركوا الشرك أو تركوا الأوطان والعشائر .

التفسير :

١٩٣ - رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ

الأبرار .

المنادى : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب المنادى : هو القرآن .

والمنعى ربنا إِنَّا سَمِعْنَا داعيا : يدعو الناس للإيمان بأن آمنوا بربكم فاستجبنا لدعائه وبادرنا إلى الإيمان

بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفرها وتوفنا مع الأبرار ، طلبوا من الله ثلاثة أشياء : غفران الذنوب المتقدمة ،

وتكفير السيئات المستقبلية ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا في درجاتهم

يوم القيامة ، قال تعالى : وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّاهِدِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا . (النساء : ٦٩) .

١٩٤ - رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .

أو ربنا وأعطنا من الثواب ما وعدتنا به على السنة رسلك .

وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . لَا تفضحننا ولا تهتك سترنا يوم القيامة ، بإدخالنا النار التى يخزى من دخلها .

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل، فقد وعدت بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة .

قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ . (النور : ٥٥) .

وقال عز شانه وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينَ طِبَيبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة : ٧٢) .

١٩٥ - فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ . . .

أى فاستجاب لهم ربهم دعاءهم ، لصدقهم فى إيمانهم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم بتحقيق ما سألوا .

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ . أى لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره .

مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْثَى . بيان لعامل وتأكيد لعمومه، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل، سواء أكان هذا العامل ذكراً أم أنثى .

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ . جملة معترضة، لبيان سبب اشتراك النساء مع الرجال ، فى الثواب وجزاء الأعمال الصالحة، فالذكر مفقود فى وجوده إلى الأنثى ، والأنثى مفقودة فى وجودها إلى الرجل، ويجوز أن يكون المعنى : بعضكم من بعض فى الطاعة والعمل الصالح ، أى انتمأ متماثلان فلا وجه للتفرقة بينكما فى الثواب ، فإن المماثلة فى العمل ، تستدعى المماثلة فى الأجر .

قال ابن كثير : أى جميعكم فى ثوابى سواء .

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا . بأن تركوا أوطانهم إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله .

وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ . أى ضايقتهم المشركون بالأذى حتى خرجوا فراراً من ظلم الظالمين أو اعتداء المعتدين .

وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي . من أجل ديني قال تعالى : وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (البروج : ٨) .
وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . وجاهدوا المشركين واستشهدوا . وقد ثبت في الصحيحين أن القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلا الدين (١٥٩) .

لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . لا غفرنا لهم ، ولا سترناها عليهم .

وَلَا دُخْلَنَهُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . أى تجرى في خلالها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ . أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندي ، لا يقدر عليه غيري ، والله تعالى عنده خير الجزاء ، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب . ولبين اختصاصه بالثواب الحسن ، كأن كل جزء للأعمال في الدنيا لا يمد حسنا ، بجوار ما أعده سبحانه في الآخرة لعباده المتقين .

والآية كما ترى تعرض نماذج بشرية مخلصة في الدعاء والعمل ، لقد هاجروا من وطنهم ، وتحملوا الأذى في سبيل عقيدتهم ، وأقبلوا على الجهاد والشهادة ، فاستحقوا مغفرة لذنوبهم ، وثوابا عظيما من خالقهم ورازقهم .

وقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة مهاجرا ، التفت إليها وقال : «يامكة لأنت أحب بلاد الله إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت » . (١٦٠) .

النساء في القرآن

تفيد الآيات السابقة إخلاص الدعاء من المؤمنين ، واشتراك الرجال مع النساء في الهجرة والإخراج والأذى والقتال وأن الجنسين متضامنان تضامنا وثيقا ، ولعل قرن المرأة بالرجل في هذا المقام ويهذأ الأسلوب من أقوى مؤيدات مساواتهما في الشريعة الإسلامية في الحقوق والواجبات العامة ، ومن أقوى مؤيدات أهلية المرأة في نظر الشريعة لكل واجب علم ، ولقد قرنت الأنثى بالذكر في مواضع عديدة من القرآن المكي والمدني .

ففي سورة البروج المكية يقول سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَمْشُوا بِهِنَّ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أُخْرِي . (البروج : ١٠) .

وهي سورة الأحزاب المدنية يقول سبحانه : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِمِينَ وَالصَّالِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٢٥) .

وقد روى الترمذى عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، لا أسمع الله تعالى ذكر النساء فى الهجرة (١٩٦) .
فأنزل الله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ (١٩٧) .

★ ★ ★

﴿ لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ نَجْوَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا نُنْزِلُ أَمْثَلًا مِنْ ذَلِكَ مَاءً عِنْدَ اللَّهِ وَوَعْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّازِبِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

تقلب الذين كفروا فى البلاد : التقلب : التقل . والمراد هنا : تتقلبهم للتكسب بالاتجار والزراعة وغيرها ، وتقلبهم

فى النعمة .

: تمتع يسير .

متاع قليل

: المأوى ، محل الإقامة .

ثم ماواهم

: المكان المهد .

المهاد

: النزول ، ما يقدم للضيف عند نزوله ، أو المنزل . ومنه قول الله تعالى : . . . كَانَتْ

نزلاً

لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . (الكهف : ١٠٧) .

التفسير :

١٩٦ - لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ .

الخطاب فى لَا يَغُرَّتْكَ . إما للنبي صلى الله عليه وسلم ، لتثبته على ما هو عليه من عدم اغتراره
بتمتعهم . فكانه قال له : دم على ما أنت عليه من عدم الاغترار بتقلبهم فى النعمة ، وتيسطهم فى المكاسب
والتاجر والمزارع . وهذا كقوله تعالى للرسل : فَلَا تَطْعُمُ الْمُكْذِبِينَ . (القلم : ٨) . أى استمر على ما أنت عليه
من عدم طاعتهم .

وقيل : الخطاب « وإن كان له صلى الله عليه وسلم » فالمراد به : نهى المؤمنين عن الاغترار بما فيه الكفار
من التمتع ، كما يوجه الخطاب إلى رئيس القوم ، والمراد به أتباعه .

وقيل : هو خطاب لكل من يصلح له من المؤمنين .

ذكر المفسرون بأسانيدهم : أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن
أعداء الله « تعالى » فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهاد ... هنزلت الآية .

والمعنى : لا يخدعك ما هم عليه من سعة الرزق، وإصابة الريح، ورخاء العيش، فتظنه خيراً متصلاً وممتعاً دائماً.

١٩٧ - مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

أى هو متاع قليل . مهما عظم ، فى جانب ما ذكر من ثواب الله للمؤمنين فعملاً قريب يؤتون ، فينقضى نعيمهم الذى استدرجهم الله به ، ويمسسون مرتنتين بأعمالهم السيئة .

ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . ثم إنهم - بعد ذلك التمتع باليسير والتعم القليل - صاثرون إلى عذاب جهنم التى مهدوها وهيئوها لأنفسهم بكفرهم، وساء ما يمهدون لأنفسهم : جهنم .

والتعبير بالمهاد عن النار ، للتكلم بسوء اختيارهم . فإن العاقل لا يهين لنفسه مكان عذاب وهوان يقيم فيه .

١٩٨ - لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ .

لما حذر الله المؤمنين من الاغترار بما فيه الكافرون من نعيم فان ، أتبعه بيان حسن عاقبة المؤمنين ، ليزدادوا صبراً على ما هم فيه من شطف العيش، انتظاراً لهذا النعيم المقيم .

والمعنى : هذا حال الذين كفروا ومآلهم الفطيط لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقُوا رَبَّهُمْ . بالإيمان والعمل الصالح، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها لا يبرحونها أبداً .

نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . رزقاً كريماً من عند الله ، أو منزلاً عظيماً من عنده .

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ . أى ما أعدّه الله لمن أطاعه من النعيم الكثير الدائم، خير للأبرار ، وأبقى مما يتقلب فيه الكفار ، من قليل زائل ، ونعيم حائل ، وحطام فان .

وصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصعبه فى اليوم فليُنظر بَمَ يرجع » (١٦٢).

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

المضردات :

خاشعين لله : خاضعين له .

لا يشترون : لا يستبدلون .

اصبروا : الصبر، حبس النفس على المكاره .

ورابطوا : المراقبة، الملازمة في سبيل الله .

التفسير :

١٩٩ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أى وإن من اليهود والنصارى لفريقا يؤمن بالله إيماناً حقاً، منزها عن الإشراك بكل مظاهره، وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، ولا يزالون مع هذا الإيمان خاضعين لله، خائفين من عقابه طالبين رضاه ، لا يستبدلون بآيات الله ، التى أنزلها فى التوراة والإنجيل عوضاً قليلاً، هو عرض من أعراض الدنيا الفانية، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

فالأية وصفتهم بخمس صفات هى :

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بالقرآن .

٣ - الإيمان بالتوراة والإنجيل .

٤ - الخشوع والخضوع لأمر الله .

٥ - عدم التفريط فى أحكام الله، وعدم بيعها بأى عرض من أعراض الدنيا .

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سورته ، وذلك من إنصاف القرآن، فهو كتاب حق أنزله الله الحق ، وقد نزل بالحق، ليحق الحق ويبطل الباطل .

ويتبادر للذهن أن هذه الآية استهدفت الاستدراك على ما جاء في الآيتين ١٨٦، ١٨٧ من التنديد بأهل الكتاب، الذين يناوئون الدعوة النبوية، ويؤذون المسلمين ويكتمون ما عندهم من البينات.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿ يَوْمُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . (آل عمران : ١١٣، ١١٤) .

وفي تفسير الطبري والطبرسي والخازن وابن كثير ، وغيرهم من المفسرين ، روايات عديدة في مناسبة نزول هذه الآية وفيمن عنته، منها أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية، فإن النبي لما بلغه موت النجاشي دعا إلى الصلاة عليه ، فقال المنافقون : إنه يصلي على رجل من غير دينه، فنزلت هذه الآية ، ومنها أنها نزلت في عبد الله بن سلام ، أحد أحبار اليهود وغيره من أفراد اليهود، الذين آمنوا بالرسالة المحمدية، ومنها أنها نزلت فيمن آمن بهذه الرسالة من أهل الكتاب عامة .

وذكر المفسرون أن من أسلم من أحبار اليهود لم يبلغ عددهم عشرة وفيهم عبد الله بن سلام وزيد بن سعدة.

وأما النصراني فكانوا كثيرين ، فقد أسلم أربعون من أهل نجران وإثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم.

٢٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا . أى على المشقات والطاعات ، وما ينالكم من المكاره والشدائد.

وَاصْبِرُوا . أى غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الجهاد، لا تكونوا أقل منهم صبرا وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر.

وَرَابِطُوا . أى أقيموا على مرابطة الغزو في نحر العدو بالترصد ولاستعداد لحريهم ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ . (الأنفال : ٦٠) .

والرباط مأخوذ من ربط الخيل وشدّها .

وليس بلازم أن يكون الرباط بالخيول في كل حال أو زمان أو مكان ، إذ المقصود رصد حركات العدو، والتهاب لصدده عن البلاد الإسلامية ، وليس بلازم أن يكون في أطراف الإقليم فحسب ، بل في أى مكان منه، يمكن أن يصل إليه العدو، ولو في قلب الوطن ، ففي هذا الزمان يمكن أن يصل العدو بطائرته إلى أماكن متعددة في وطن عدوه، فالرباط في هذه الحالة ، يكون بالإقامة في كل مكان يظن أن يقصده العدو، مع التاهب بكافة أنواع الأسلحة المضادة لهجومه أو استطلاعه، واستعمال أحدث أنواع الأجهزة لرصده: أرضا أو بحرا ، أو جوا .

وجمهور المفسرين ^(١٦٤) على أن المراد بالرباط في الآية هو الجهاد في سبيل الله ، وبعض المفسرين ذهب إلى أن المراد بالرباط والمرابطة هو المكث في المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

روى مسلم ^(١٦٥) والنسائي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » ^(١٦٦).

وعند التأمل نجد أن الرباط يشمل الجهاد في سبيل الله - وعلى وجه الخصوص حراسة الثغور وحماية الأماكن التي نتوقع فيها هجوم العدو عليها - كما يشمل عمارة المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

على أن إطلاق الرباط على الجهاد أمر معروف مألوف كثير الورد وخاصة أن سياق السورة يرشح هذا المعنى ، لكن من إعجاز القرآن أن الكلمة تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

وقد أورد المفسرون طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في فضل الجهاد والرباط . منهم ابن كثير فقد ساق ثمانية أحاديث نبوية شريفة عن فضل الجهاد وثواب المجاهدين عند تفسير الآية ، وقريب من ذلك ورد في تفسير القاسمي ، والتفسير الحديث .

فضل الجهاد

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله - ﷺ - قال :

تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ^(١٦٧) إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ^(١٦٨) طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماء، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ^(١٦٩) وإن كان في الساقاة كان في الساقاة وإن استأذن لم يؤذن له ^(١٧٠).

وروى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله - ﷺ - قال :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان » ^(١٧١) .

وقال ﷺ : « حرمت النار على عين سهرت في سبيل الله » ^(١٧٢)

فضل سورة آل عمران

سورة آل عمران تسمى الزهراء أى المضيئة ، وتسمى سورة البقرة الزهراء الأولى وآل عمران الزهراء الثانية.

روى مسلم (١٧٣) والترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة ، وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما ضياء ونور، أو كأنهما حزقان (١٧٤) تحاجان عن صاحبهما (١٧٥).

* * *

قافية السورة

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقارئ فى كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، يجد أنه يتحدث فى كل لطيفة عن سورة من السور ويقدم للقارئ إحصاء بعدد الحروف الواردة فى ختام آياتها .

والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فهى ليست حرفاً متحداً، ولكنها مدّ متشابه مثل (بصير ، حكيم، مبین مريب) أو (أولو الألباب ، الأبصار، النار ، قرار) أو (خفيا، شقيا ، شرقيا ، شيا) .

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران ، تغلب فيها القافية الأولى ، ولم تبعد عنها إلا فى موضعين: أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء ، والثانية جو الدعاء المنغم المرثل .

* * *

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى أن رسول الله ﷺ قام من الليل فرفع رأسه إلى السماء، فقال : «سبحان الملك القدوس » (ثلاث مرات) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها (١٧٦).

وإن السورة تشتمل على أصول العقيدة، وفضائل الجهاد، ومنازل الشهداء، وثواب الصابرين ، وتختتم بهذا التشديد السماوى فى التأمل والدعاء المنيب الرخى، وفى ختام السورة وصية بالصبر والمصابرة والمراعاة والتقوى، وهو ختام مناسب لسورة آل عمران وفيها غزوة أحد وحكمة الابتلاء والاختبار .

* * *

والحمد لله رب العالمين

★ ★ ★

سورة النساء



الأهداف العامة

سورة النساء

سورة النساء سورة مدنية وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزاً لها عن سورة النساء الصغرى، وهى سورة الطلاق.

وقد عنيت سورة النساء ببيان أحكام النساء واليتامى، والأموال والموارث والقتال، وتحدثت عن أهل الكتاب وعن المنافقين ، وعن فضل الهجرة ووزر المتأخرين عنها ، وحثت على التضامن والتكافل والتراحم، وبينت حكم المحرمات من النساء. كما حثت على التوبة ودعمت إليها كوسيلة للتطهر ، ودليل إلى تكامل الشخصية، واستعادة الثقة بالنفس والشعور بالأمن والاطمئنان.

وعدد آيات سورة النساء (١٨٦) آية ، وعدد كلماتها (٢٧٤٥) كلمة.

* * *

الوصية بالنساء واليتامى

بينت سورة النساء أن الزواج شركة تعاونية أساسها المودة والرحمة والوفاء والألفة. وسوت السورة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات، ثم بينت أن للرجال درجة على النساء وهى درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه على الزوجة والأسرة ، وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد أو التسخير وإنما هى زيادة فى المسئولية الاجتماعية .

وقد حث القرآن الزوجة على طاعة زوجها، فيما يجب فيه الطاعة، والاحتفاظ بالأسرار المنزلية والزوجية التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين، كما أمر الرجل أن يقوم بحق الأسرة وأن ينفق عليها ، وأن يفى بالتزامه نحوها ، وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعاً من الكفاح والجهد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه.

اليتامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه. وحذرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنًا على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يتسلم أمواله .

وقد توعدت السورة أكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد، وقد مهدت لهذه الأحكام في آياتها الأولى فطلبت تقوى الله وصلة الرحم، وأشعرت أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة، أى أن اليتيم وإن كان من غير أسرئكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم، وأعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم، ويحيط بما فى نفوسكم ويعلم ما تضرعون من خير أو شر فيحاسبكم عليه. ويعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة، ويحذروهم من الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُرْبًا كَبِيرًا . (النساء : ٢) .

أى لا تخطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخلط والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تخرج اتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى مادام القصد حسنا والنية صداقة فى نفع اليتيم ، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها .

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (النساء : ٦)

* * *

المال والميراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال واستثماره ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط فى النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها فى أيدي السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها ، كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة ، وعن طريق الصناعة والزراعة، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرّد الفراغ من أداء العبادة المفروضة . قال تعالى :

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ . (الجمعة : ١٠) .

وتحدثت سورة النساء عن الموارث ونصيب كل وارث ، فأمرت أن نبدأ أولاً بتفدية وصية الميت وتسديد ديونه، ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث وتستخلص منها ما يأتى :

أولاً : أن مبنى التوريث في الإسلام أمران : نسبي وهو القرابة ، وسببي وهو الزوجية .

ثانياً : أنه متى اجتمع في المستحقين ذكور وإناث أخذ الذكر ضعف الأنثى.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيب الذكر والأنثى مطلقاً على الإسلام وقالوا : إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة، وهي إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته في الحياة فهو ينفق على نفسه، وعلى زوجة، وعلى أبنائه، ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهراً ويلزم زوجها بنفقتها في مأكليها ومشربها ومسكنها وخدمها ، وذلك فوق تبعاته العائلية التي لا يلحق الأنثى مثلها .

وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضي بحرمان الأنثى بقاها أو حصر الميراث في أكبر الأبناء وحده كما كان الحال في بعض البلاد إلى وقت قريب ، نجد تشريعاً آخر يقضي بمساواتها بالذكر .

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه في التوريث وسط لا إفراط فيه ولا تقريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاه نصيباً مناسباً لظروفها في الحياة وأعطى أخاه نصيباً مناسباً لتبعاته في الحياة ، وهذا هو شأن الإسلام في أحكامه وشرائعه، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

* * *

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهما، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصاص على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرهما وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة .

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضيق فكان الله - سبحانه - قد نهى عن التعدد .

قال تعالى : **وإن خِفْتُمْ أَلا تَقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلا تَعْدِلُوا . (النساء : ٣) .**

إى أن خفتم ألا تعدلوا في تكاح اليتيمات الثلاثي تحت وصايتكم، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع في مالهن، لا الحب والرغبة في معاشرتهن، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهضموهن حقوقهن في مهر أمثالهن.. إن خفتم ألا تعدلوا في اليتيمات فاطلبوا الزواج من سواهن من النساء .

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو مثنى وثلاث ورباع ولكن بشرط العدل بينهما، العدل في المعاملة، وفي الحقوق الظاهرة، أما العدل في الشعور الباطن فلا قبل به

لإنسان ولا تكليف به لإنسان، ما اتقى في إظهاره في المعاملة، وتأثيره على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد في نفسه ضعفاً عن ذلك العدل، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةٌ .

والنص الشرطي يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بوحدة في هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور.

ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تُعَدِّلُوا . أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالإقتصار على الزوجة الواحدة واجب.

وفى ختام الآية وصية جديدة بالإقتصار على الزوجة الواحدة لأنه ادعى إلى العدل والاستقرار، والبعد عن الظلم وكثرة العيال.

* * *

شبهة تفتضح ، وحجة تتضح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المفسول ، فمثلاً (كانتى) يقول : « إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتن أو أن يجعل أداة متعة ».

وفى الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوهن حقوق الزوجية فى النفقة أو الميراث أو إلصاق الولد، بينما الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات يقول تعالى :

مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . (النساء : ٢٥) .

ويقول الرسول ﷺ :

« إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقيات فإذا تزوجتم فلا تطلّقا ».

نشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهم فى أوروبا انتشار الأمراض السرية الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل، وهل غفل الأوروبيون عن المصير السيئ الذى ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت والنش يقتل ؟. تبهوا لذلك ، فصدرت قوانين تقول مثلاً : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم الحقتانهم به فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء، فهم تقادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق.

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم محمد عبد الله دراز، أنه شاهد أثر الحروب في ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة التي مات زوجها في الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ما ينبج منها . وذكر لنا أن جمعية تألفت في ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق .

ومع ذلك فالإسلام لم يحرض على تعدد الزوجات بل قال :

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهي رخصة ضرورية لحياة الجماعة في حالات كثيرة، وهي صمام أمن في هذه الحالات ، ووقاية ليس في وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء في حالة إخلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التي تجعل عدد الإناث في الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو حالات مرض الزوجة أو عقمها، ورغبة الزوج في الإبقاء عليها أو حاجتها هي إليه ، أو في الحالات التي توجد في الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة، أو لا تجد كفايتها في زوجة واحدة.. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل، فيها غير تعدد الزوجات يقضى إلى عواقب أوحش خلقيا واجتماعيا، ضرورة تواجهه ضرورة . ومع هذا فهي مقيدة في الإسلام، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم والجور، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط.

★ ★ ★

التضامن الاجتماعي

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله في العبادة، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين ، والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير، والمحتاج ، ومساعدة الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكبر والرياء، ونهت عن الكفر والجور ومعصية الله والرسول . وذلك في جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا . (النساء : ٣٦) .

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى « التضامن الاجتماعي » ، وتحذير من البخل والشح ، وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله في إدارته وتثميته وإنفاقه في نواحي الخير والبر، وقد فرض الله حقوقا للفقراء من مال الأغنياء ، فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق في سبيل الله . وجعل طرق البر متعددة، منها صدقة الفطر في عيد الفطر، والأضحية في عيد الأضحي ، و الهدى في موسم الحج . وجعل الله موردا لا ينقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التي أوجبها مثل كفارة الظهار، وكفارة اليمين ، وكفارة

صوم رمضان . وفي كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم . كما أوجب الله الوفاء بالنذر ، ولم يجعل الزكاة تطوعاً بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها . ونلاحظ أن الزكاة تتفاوت في نسبتها فتبدأ من ٥ ٪ ، وهي زكاة المال وتصل إلى ٢٠ ٪ ، وهي زكاة الركاز والمعادن والبتروئ . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما في زكاة المال . وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما في زكاة الزراعة وزكاة الركاز .



المحرمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية ، كما انفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء ، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا . (النساء : ٢٢) .

ولاشك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر معقوت تنفر منه الفطر السليمة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاعة ومن النسب ، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاعة ، وحرمت أم الزوجة التي دخل بها زوجها ، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

الحكمة في هذا التحريم :

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنات ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلاً لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما هو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهي بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه ، ومثل هذا يقال في درجات القرابة الأخرى . فالخاله لها ما للأم ، والعمة لها ما للاب ، والأخت وبناتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التي هي قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق تكاهن واقتراشهن ، ولا يمكن أن يتصور في هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب ، وضعف النسل وسوء المنقلب .

ومثل هذا يقال أيضاً في نكاح من حرمن من جهة الرضاع ، فإن المرضع أم في الكرامة ولها حق الأم في وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتصق منها ما يلتصق به الرجل بالزوجة .

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام ، فإن المرأة تفار من ضررتها ، وتفعل الكثير في سبيل إبعادها عن زوجها . ولو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة في أختها

وفى أمها. ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب ، وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد. قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرُّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ . لَا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . (النساء : ٢٣) .

* * *

مصادر التشريع في الإسلام (١٧٧)

أمرت سورة النساء بالعدل في الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها. وبَيَّنَّتْ أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقي والتقدم والسعادة في الدنيا والآخرة .

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التي يجب أن يرجع إليها المسلمون في تصرفاتهم وأحكامهم وهي :

(أولاً) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

(ثانياً) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول.

(ثالثاً) رأى أهل الحل والعقد في الأمة من العلماء وأرباب النظر في المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة ، والتعليم ، كل في دائرة معرفته واختصاصه، والعمل به هو طاعة أولى الأمر.

وهذه المصادر في الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم في القرآن، فنرجع إلى السنة حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذي لم يرد في القرآن ، أو لبيان المراد مما ورد في القرآن، ولا نلتجئ إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم في السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم، وهذا الاجتهاد هو عنصر « الشورى » الذي عليه أمر المسلمين ، ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التي أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع في الشريعة الإسلامية، وقد أنتفع به المسلمون كثيراً ، واتسع به نطاق الفقه الإسلامي ، وبخاصة فيما ليس منصوصاً عليه في كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما في المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف في لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثاً مستفيضاً ، بينوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلمته ، وما ينقضه وما لا ينقضه وما يجرى فيه وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء.

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضاً النظر في تعريف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التي عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت في نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التي يرجع إليها في تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأي وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا في أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنعهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، في دائرة ما رسمه من الأصول التشريعية، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ، ولم يقيد ، في كل شيء بمفصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة، كما لم يلزم أهل أي عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا. وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التي ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم- أو هال من ينتمون إليهم من أرياب الحكم والسلطان - أن يكون في الأمة من يرفع لواء الحرية في الرأي والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم .

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا في تحصيل الوسائل التي يكونون بها أهلاً للاجتهاد في معرفة حكم الله الذي وكل معرفته - رافة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين .

وَلَوْ رَدُّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَبْطِنُوهُ مِنْهُمْ . (النساء : ٨٣) .

واقرا في هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعَظْمِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . (النساء : ٥٨ ، ٥٩) .

★ ★ ★

القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كياناتهم الخارجى ، وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول الله تعالى : فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٧٤) .

وبينت السورة أهداف القتال في الإسلام، وهذه الأهداف تتحصر في رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التي يثيرها أرياب المظالم والأهواء، ومن ذلك نعم أن الإسلام

حينما شرع القتال نأى به عن جوامح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، واتخذ طريقاً إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة. وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التي أمر بها الله ، ولفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسباباً ووسائل هي :

١ - تقوية الروح المعنوية للأمة فقد نزل القرآن روحاً وحياة ومنهجاً ورسالة . وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد . فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر في أكثر معاركها ، لأن لها من يقينها وإيمانها ما يكفل لها النصر والغلبة .

٢ - إعداد القوة المادية وتنظيمها ، قال تعالى : **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** . (الأنفال : ٦٠) . ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ، ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية استعمالها .

٣ - الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغي أن تأخذ المحارب نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعاً وخشوعاً لعظمة الله ، ويزيد في طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه : **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ** . (محمد : ٧) .

٤ - الصبر على البأساء ثقة والتزاماً بأن مع اليوم غدا ، وبأن الأيام دول يوم لك ويوم عليك ، وأن الشجاعة صبر ساعة ، وليس الصبر هنا صبر الدليل المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** . (آل عمران : ٢٠٠) .

٥ - ومن أسباب النصر ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وأن الرزق محدود فالشجاعة لا تنقص العمر ، والجهن لا يزيده . ومن أسباب النصر طاعة الله والتزام أوامره واجتباب نواهيه ، قال تعالى : **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ** . (آل عمران : ١٢٦) .

٦ - ومن أسباب النصر اخذ الحذر والحيلة والابتعاد عن اتخاذ بطانة مقربة من المنافقين والمخدين والخونة ، قال تعالى : **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا** (النساء : ٨٨) .

٧ - تذكر فضل الجهاد ثواب البذل والتضحية، وصقوبة التخاذل والفرار من الجهاد، وتذكر ما أعد الله للمجاهدين والمكافحين في سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة ، قال تعالى :

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . (النساء : ١٠٠) .

ثانياً
تفسير سورة النساء
١ - ٢٣

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾

المفردات :

بث : نشر وفترق ، ومنه وزرأي مؤثثة . (الفاشية : ١٦) .

الأرحام : جمع رحم وهو فى الأصل مكان تكوّن الجنين فى بطن أمه ثم أطلق على القرابة .

رقيبا : الرقيب : الحفيظ المطلع على الأعمال .

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس اتقوا الله ربكم الذى خلقكم وأوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها ، ومنهما نشر فى الوجود رجالا كثيرا ونساء، فأنتم جميعا تنتهون إلى تلك النفس الواحدة ، واتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون ، ويسأل باسمه بعضكم بعضا فيما تتبادلون من أمور ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوا قريبتها ويعيدها، إن الله دائم الرقابة على أنفسكم لا تغفى عليه خافية من أموركم (١٧٨).

فى أعقاب الآية :

١ - الناس جميعاً من أصل واحد ، تجمعهم رحم عامة تربط بين البشر جميعاً ، قال تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. . (الحجرات : ١٣) .

٢ - ينتهى نسب الناس إلى آدم، وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم من تراب ، ثم خلق حواء من ضلع آدم ليسكن إليها وتكون له سكناً وأمناً . قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً . (الروم : ٢١) .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، فاستمتع بها وفيها عوج واستوصوا بالنساء خيراً » (١٧٨).

والحديث يكرر الوصية بالنساء ، ويوصى بالصبر والاحتمال والمداورة ، لأن المرأة مجموعة من المواطنين ، فقد شاء الله أن تكون عاطفة المرأة أكثر من عاطفة الرجل ، لتتعمل المرأة آلام الحمل والولادة والرضاع والكفالة ، وأن يكون جانب العقل في الرجل أكثر ، ليتحمل البحث في سبيل الرزق ورعاية الأسرة ، وبالعقل والعاطفة تتم رعاية الأسرة ، وتلبى حاجة الرجل إلى المرأة ، وحاجة المرأة إلى الرجل .

٢ - جمهور المحدثين والفقهاء على أن الناس جميعاً تناسلت من نفس آدم - عليه السلام - وليس هناك سوى آدم واحد ، وقد خلقت حواء من آدم وخلق الناس من آدم وحواء .

٤ - قال الفخر الرازي في تفسيره : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . والمراد من هذا الزوج هو حواء ، وفي كون حواء مخلوقة من آدم قولان :

الأول : وهو الذي عليه الأكثرون ، أنه لما خلق الله - تعالى - آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه ، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها ، لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه ، واحتجوا عليه بقول النبي ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتمت بها » .

والقول الثاني : وهو اختيار أبي مسلم الأصفهاني - أن المراد من قوله تعالى : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . أي من جنسها وهو كقوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . (النحل : ٧٢) .

وكقوله : إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ . (آل عمران : ١٦٤) .

وقوله : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... (التوبة : ١٢٨) .

قال القاضي : والقول الأول أقوى ، لكى يصح قوله : خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة (١٨٠) .

٥ - قال صاحب الكشاف : ومعنى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ... إراد بالتقوى تقوى خاصة ، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ريكم الذى وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه ، وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة (١٨١) .

٦ - من سألك بالله شيئاً فأعطه ما دمت تجد سبيلاً للعطاء ، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من استعاذ بالله فأعذه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تملوا أن قد كافأتموه » (١٨٢) .

والحديث في معنى وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ . أى يسأل بعضكم بعضاً بالله ، فيقول أسالك بالله كذا .

٧ - حُثَّ الآية على صلة الرحم ، والإحسان إلى الأقارب ، وقد تكررت هذه الوصية في القرآن والسنة ، قال تعالى : **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا** . (النساء : ٣٦) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » (١٨٣) .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « الرحم معلة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » (١٨٤) .

وأخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها » .

وهذه الأحاديث تلتقى مع الآية فى تأكيد الوصية بالأرحام ، قال تعالى : **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ الْأَرْحَامَ . أَى اتَّقُوا الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا ، فَمَنْ وصل رحمه وصله الله ، ومن قطع رحمه قطعه الله .**

قال تعالى : **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ** . (محمد : ٢٢) .

فصلة الرحم سبب البركة وهدوء النفس ، واستقامة الذرية وصلاحها ، أما قاطع الرحم فهو مطرود من رحمة الله .

أرحم عباد الله يرحمك الذي

عم البرية فضله ونواله

فالراحمون لهم نصيب وأفر

من رحمة الرحمن جل جلاله

★ ★ ★

﴿وَأَنذَرْتُكُمْ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَلْفَاظُكُمْ لَا تَبْدَلُوا الْحَيَاةَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

المفردات :

وَأَنذَرْتُ : المراد بإتيانها أن يحافظوا عليها ولا يتعرضوا لها بسوء ، حتى يسلموها لليتامى عند البلوغ والرشد كاملة ، إلا ما صرف منها فى ضرورات اليتامى وحاجاتهم .

اليتامى : جمع يتيم ، وهو من مات أبوه ، واليتامى جمع ذكرا أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكرا فقط وخصه الشرع بالصغير دون البلوغ.

ولا تتبدلوا : أى لا تستبدلوا ، يقال تبدل الشيء بالشيء واستبدل به إذا أخذ الأول بدل الثانى ، فالباء داخلة على المتروك.

الخبيث : الحرام .

بالطيب : بالحلال.

حوبا كبيرا : إثماً عظيما .

التفسير :

٢ - وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

المعنى الإجمالى :

وملكوا اليتامى ما يستحقون من مال واحفظوه لهم ولا تعطوهم الردىء وتحرموهم الجيد، ولا تأخذوا أموالهم وتضيفوها إلى أموالكم إن ذلك كان إثماً كبيراً.

من تفسير الآية للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ..

أمرنا الله بتوصيل مال اليتيم إليه بعد بلوغه ، وبعد أن أمرنا بإعطاء اليتامى أموالهم أكد هذا الأمر تأكيد العليم الخبير بطبائع النفوس الإنسانية وجميع حيلها ، ولو كان القرآن من عند محمد لوجب أن يكون إنسانا عالميا يحيط بكل ما فى الأرض والسماء ، ويغوص إلى خفايا النفوس، ويصل إلى أدق طبائع البشر، وما خفى واستتر من غرائزهم ، وهو الأمل الذى لم يزل من قبله الكتاب ولا خطه يمينه . ففى هذا التحليل القادم دليل على أن القرآن من عند الله ، وإليك هذا التحليل والتوقيع .

قد يتحائل الإنسان على أكل مال اليتيم بآربع حيل :

١ - الأولى الاستبدال : بأن يأخذ قطعة أرض من مال اليتيم ويعطيه بدلها، زاعما أن ذلك له أصلح، وهو فى الواقع قد أخذ لنفسه الأحسن ، وهنا يبدو جمال التسمية فى قوله تعالى : وَلَا تَبْدُلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ فجعل الكثير الحسن من مال اليتيم خبيثاً لأنه حرام ، وحق الغير ، وأخذ ظلم ، فكان خبيثاً لا تألفه نفس المؤمن الطاهر ، وجعل القليل من ماله الحلال طيباً طاهراً ، لأنه حقه الحلال ، أى ولا تأخذ الكثير الخبيث ، الذى يؤول إلى النار من مال اليتيم ، بدل القليل الطيب الحلال من مالك.

٢ - الحيلة الثانية أن يقول الوصى : إنى لا أريد أن أشعره بالوحدة، والانتقطاع، فلن أترك ماله على حدة، بل سأضمه إلى ليجد فى أبا رحيمًا، وفى أبنائى إخوة ، وفى رعايتى ماله شركة ومواساة، ثم يأخذ من مال اليتيم بذلك ما لا حق له فيه أما إذا أردت ضمه إليك مواساة وتعويضا عن أهله ، وكنت صادق النية فى ذلك ، فالله هو الذى يتولى جزاءك. قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالَفُوهُمْ فَيَرْحَمُواكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ . (البقرة : ٢٢٠) .

٣ - الحيلة الثالثة : أن يتزوج اليتيمة ذات المال ، للاستيلاء على مالها بحجة أنها تحت رعايته فقال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . أى إن خفتُم الجور على اليتيمة فتزوجوا من الآخرين بعدا عن الظلم.

٤ - والحيلة الرابعة : هى الإشراف والتبذير فى مال اليتيم قبل أن يكبر حقدا عليه أن يسترد ماله عند البلوغ فيصير غنيا والوصى فقير ، فقال سبحانه فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا .

هذا هيكل تقريرى أو صورة واضحة عن اليتيم ، وكل ما يمكن من صور التحليل على أكل ماله نهى عنها القرآن وحذرنا منها .

وأحب أن تسيروا فى طريق التفسير بهذا المنوال التربوي، والمنهاج العلمي، والنظر إلى الفكرة ككل، وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه، بل تناملوا تفصيلها وتنسيقها (١٨٥).

★ ★ ★

تعدد الزوجات

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٢)

المفردات :

ألا تقسطوا : أى ألا تعدلوا ، من أقسط أى عدل، وأما قسط فمعناه ظلم وجار ، قال تعالى : وأنا

الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥) .

فى اليتامى : المراد اليتيمات.

فانكحوا : تزوجوا .

ما طاب لكم : ما حل : أو ما مالت إليه نفوسكم .
 مثنى وثلاث ورباع : أى اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا ، وأربعا أربعا .
 ألا تعولوا : ألا تجوروا وتظلموا .

التفسير :

٢ - وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا .

المعنى الإجمالى :

وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة، فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى ، بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، إذا وثقتم بالقدرة على العدل، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط، أو استمتعوا بما ملكت أيديكم من الإماء ، وإن زواج الواحدة أقرب إلى العدل، وأبعد عن الظلم والجور.

سبب نزول الآية :

روى البخارى وغيره : « عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - : أنه سألها عن هذه الآية ، فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، تشركه فى حاله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط، فى صداقتها، فيعطيهما مثل ما يعطيها غيره، فتها أن ينكوهن إلا أن يسقطوا لهن ، ويبلغن بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن » . الحديث، رواه البخارى فى كتاب التفسير .

آراء فى تفسير الآية :

١ - روى الطبرى عن ابن عباس وعكرمة : أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدما مال على مال يتيمة الذى هو فى حجره فأنفقه أو تزوج به ، فنها عن التزوج فوق الأربع .

٢ - وقال آخرون معنى الآية : فكما خفتم فى اليتامى أن تجوروا عليهم فكذلك فتخوفوا فى النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب منهن مثنى وثلاث ورباع ، إذا اطمأننتم إلى تحقيق العدل بينهن وإلا فاشتصروا على الواحدة .

٣ - وقال آخرون : وإن خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى ، فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا ما لا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع . وقد أجاز السيد رشيد رضا أن تكون الآراء السابقة كلها مقصودة للآية فقال : « وقد يصح أن يقال إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعاني، من قبيل رأى الشافعية الذين يجيزون استعمال اللفظ المشترك فى كل ما يحتمله الكلام من معانيه، واستعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا » (١٨٦) .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد بلتاجي :

« ... ومن هنا معنى الآية يتضمن أمراً إلى أولياء الفتيات اليتامى بالإقسطاء فيهن عند إرادة التزوج بهن، ثم هو في نفس الوقت أمر إلى هؤلاء الأولياء بالألا يسرفوا على أنفسهم بكثرة الزوجات، فيحملهم ذلك على التعدي على أموال اليتامى ، الذين هم في رعايتهم وتحت وصايتهم- وقد كان هذا وما سبقه موجوداً عند نزول القرآن الكريم - ثم هو أيضاً أمر إلى المسلمين باتقاء الله في النساء ، وتجنب الزنا بهن لأن الله - تعالى - أباح التزوج منهن ، فلم يعد بالمسلم حاجة مقبولة إلى الزنا ، ثم هو في الوقت نفسه أمر إلى المسلمين بوجوب اتقاء الله في العدل في النساء عند إرادة التزوج منهن والخشية من ظلمهن في ذلك ، كما يخاف كل منهم أن يظلم أيتيم إذا كان تحت رعايته، ثم إن الآية بعد كل هذا تشتمل على إباحة تعدد الزوجات بشرط العدل » (١٨٧).

مذاهب في تفسير الآية

١ - قال بعض أئمة الشيعة والظاهرية : يجوز جمع تسع نساء حيث اعتبروا كلمات (مثنى وثلاث ورباع) معدولة عن اثنين وثلاث وأربع وجمعوا هذه الأرقام $2+3+4=9$. وهو كلام مرفوض مخالف لما يفيد النص العربي البليغ فإن الطفل هو الذي إذا أراد أن يقول تسعة قال $2+3+4=9$ ، أما القرآن فهو أبلغ أسلوب .

والعمل متواتر من العهد النبوي والخلفاء الراشدين بعدم جواز جمع أكثر من أربع في عصمة رجل في وقت واحد ، وهذا العمل مؤيد بالكتاب والسنة والإجماع ، وهو الحق الذي يجب الالتزام به والوقوف عنده (١٨٨).

حكمة التعدد

الإسلام دين وسط، وهو شريعة الله العليم الخبير ، وقد كان العرب في بيئة ذاع فيها التفاخر بالأنساب ، والاعتزاز بكثرة الأبناء، وإهمال شأن المرأة وهضم حقوقها ، فلم يقفوا في تعدد الأزواج عند حد .

« وقد سلك الإسلام طريقاً وسطاً هو إباحة التعدد إلى حد محدود (١٨٩) ، لما في هذا من منافع ، لا ينبغي لمشرع أن يفض الطرف عنها ، ومنها :

١ - أن طبيعة الرجل الجنسية قد تقوى فلا يقنع بامرأة واحدة، فإذا سددنا عليه باب التعدد فتح لنفسه باب الزنا والمخالأة الداعرة، فتتهدك الأعراض وتضيع الأنساب، وذلك شر عظيم . وفي فتح باب التعدد تهديد لكثرة النسل الذي تعتز به الأمة ، وإن ديناً يحرم الزنا ، ويعاقب عليه أقسى العقوبات ، جدير به أن يفتح باب التعدد، إشباعاً للغريزة ودفعاً للشهر ، ورغبة في كثرة النسل الحلال.

٢ - وقد تكون المرأة عقيماً لا تلد ، أو تصاب بما يمنعه من مزاوله الحياة الجنسية ، ويرى الزوج من الوفاء لها ألا يتخلى عنها في محنتها ، وألا يمنعه عطفه وأنسه ورعايته ، أهليس من الحكمة أن تمكنه من هذا الوفاء، بإباحة التزوج عليها حتى لا تلجئه إلى سلوك طريق آخر ؟.

٣ - ولما كان الرجال أكثر من النساء تعرضاً لأسباب الفناء - كان عددهم أقل من عددهن، وخاصة في أعقاب الحروب ، فإذا لم نبح للرجل أن يعمل بالزواج أكثر من واحدة، كانت النساء عرضة للفاقة ، وللاتجار بالأعراض ، والعمل للتخلص من النسل فتقتل الأيدي العاملة.

وليس بمعجيب أن يكون عدد النساء في العالم أكثر من عدد الرجال، وأن يباح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ضمناً لبقاء النوع ، فقد جرت عادة الخالق - سبحانه - أن يخلق من بذور النبات وبويضات الحيوان ملايين البذور والبويضات ضمناً لبقاء أنواعها ، ويكون استئثار المرأة بالرجل حينئذ أثره ممقوتة ضارة بالجماعة^(١٩٠)

فهم خاطئ

ذهب بعض الناس إلى منع تعدد الزوجات مدعياً أن آيتين في سورة النساء ترشدان إلى ذلك .

الآية الأولى تقول : **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** . (النساء : ٣) .

والآية الثانية تقول : **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغَلَّةِ** .

(النساء : ١٢٩) .

بل إنهم عند الاستشهاد بالآية ١٢٩ من سورة النساء هذه استشهدوا بالجزء الأول منها وهو **وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا** .

أن **تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** . وقالوا : إن التعدد ممنوع في القرآن لأن الآية رقم ٣ من سورة النساء اشترطت العدل لإباحة التعدد .

والآية رقم ١٢٩ بينت أن العدل غير مستطاع حتى لمن حرص على تحقيقه بين النساء .

قال الأستاذ أحمد شاكر .. (وزاد الأمر وطم، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التي تقتسب للإسلام، وضعت في بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة ، بل صرحت تلك الحكومة بأن تعدد الزوجات- عندهم - صار حراماً، ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام ، بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه ، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح إن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، جراً على الله واقتراء على دينه^(١٩١) .

مناقشة :

العلاقات الزوجية متداخلة ، منها ما هو مادي ، ومنها ما هو معنوي ، فالحبة والهوى القلبى أمور معنوية لا يتحكم فيها الإنسان ، وهى المشار إليها بقول النبى - ﷺ : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »^(١٩٢) .

أما الأمور المادية مثل الأكل والنفقة والكسوة والمسكن وأشباهها فيمكن العدل فيها بين النساء . وهى التى عناها القرآن ، حين أرشد الرجال إلى العدل فيها ، وبين أن العدل فى ميل القلب أمر غير مستطاع لأن القلوب متقلبة ، وما يسمى القلب قلباً إلا لأنه يتقلب ، ولأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

فإذا اتبع الإنسان هوى قلبه ، مال إلى الزوجة التي يعيها ، وأعطاهها حظوظاً مادية زائدة . وترك الأخرى لا تستمتع بمثل هذه الحظوظ المادية . ولذلك وجه القرآن المسلم بأن يعدل في قسمته بين النساء في المسكن والمآكل والملبس ، وأمر بالتسوية بينهما ، ونهى عن محاباة المحبوبة ، وهجر ضررتها حتى تصير كالمرأة المعلقة ، وهى التى هجرها وتركها بدون طلاق ، فلا هى مطلقة تنتظر الأزواج ، ولا هى متزوجة زوجاً يقر عينها ، ويحسن عشرتها ، ويوفى لها حقها ، ويعدل بينها وبين ضررتها أو ضرائرها . فى الأمور المادية التى يمكن العدل فيها .

وقد روى الإمام أحمد وغيره أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » (١٩٣) .

والمراد بالميل هنا الظلم فى القسمة بين الزوجتين ، وتفضيل إحدهما على الأخرى فى النفقة والمسكن والملبس ، وهى التى عنها القرآن بقوله : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـعْلُوقَةِ . (النساء : ١٢٩) .

وفى ختام الآية فتح القرآن الباب أمام الأزواج ليعاولوا العدل ولينصفوا الزوجة الأخرى ويحسنوا إليها مراعاة لأمر الله وأتقاء عقابه وحسابه ، فقال - سبحانه - : وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـعْلُوقَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . (النساء : ١٢٩) .

قال الطبري شيخ المفسرين : وَإِنْ تَصْلَحُوا أَعْمَالَكُمْ - أيها الناس - فتعدلوا فى قسمتكم بين أزواجكم ، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً يستر عليكم ما قد يكون سلف منكم فى ذلك رحيماً . بكم يقبل توبتكم فيه .

رشيد رضا والتعدد :

يقول الأستاذ رشيد رضا فى موضوع : الإصلاح الإسلامى فى تعدد الزوجات ما يأتى :

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . (النساء : ٣) .

القول : الجور ، أى ذلك الاختصار على امرأة واحدة ، أو ملك اليمين أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور والظلم ، المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه .

والآية تدل على تحريم التعدد على من يخاف على نفسه ظلم زوجة محبابة لأخرى ، وتفضيلاً لها عليها ، وعلى تحريمه بالأولى إذا كان عازماً على هذا الظلم بأن كان يريد أن يضارها لكرهها لها ، ثم قال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء أيضاً وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . فإذا قرنت هذه القضية بقضية فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . أنتجتنا وجوب الاختصار على امرأة واحدة ، ولكنه قال بعدها : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَـعْلُوقَةِ .

فعلم به أن غير المستطاع هو العدل في الحب وأثره من ميل النفس ، فيجب ضبط النفس في أثره ، وما يترتب عليه من المعاملة المستطاعة ، في النفقة والمبيت وغيرها ، وهو العدل المشروط في الأولى .

وهناك ثلاث مسائل قطعية :

الأولى : أن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ، ولم يندب إليه ، وإنما ذكره بما يدل على أنه قلما يسلم فاعلة من الظلم المحرم ، وحكمة هذا وفائدته أن يتروى فيه الرجل الذي تطالبه نفسه به ، ويحاسبها على قصده وعزمه ، وما يكون من مستقبل أمره في العدل الواجب .

الثانية : أنه لم يحرمه تحريماً قطعياً لا هوادة فيه ؛ لما في طبيعة الرجال وعاداتهم الراسخة بالوراثة في جميع العالم من عدم اقتصرهم في الغالب على التمتع بامرأة واحدة - ومن حاجة بعضهم إلى النسل في حال عقم المرأة أو كبرها أو علة أخرى مانعة من الحمل ، ومن كثرة النساء في بعض الأزمنة والأمكنة ، ولا سيما أعقاب الحرب بحيث تكون الألوف الكثيرة منهن ، أيام لا يجدن رجالاً يحسنونهن وينفقون عليهن ، مع وجود الأقوياء الأغنياء القادرين على إحسان امرأتين أو أكثر .

الثالثة : أنه لهذا وذلك تركه مباحاً ، إلا أنه قيده بالعدد فلا يتجاوز أربعة ، وبالقدر على العدل والرغبة فيه ، وبهذه الشروط نتقى ضرره ونرجو خيره .

وقد رأينا بأعيننا وسمعنا بأذاننا من أهل عصرنا ، أن من المتدينين المتقين رجالاً لم يرزق ولداً من زوجته الأولى ، فخطب زوجة ثانية رزق منها أولاداً وعاش الجميع كعيشة الأخوات في حجر والدهن ، وقد كان هذا هو أكثر حال المسلمين ، في قرون الإسلام الأولى ، ولكنه قل في هذا الزمن ، بما طرأ على أكثر الشعوب الإسلامية من الجهل بالإسلام ، وبحكمه وأدابه في الزواج . وقد حمل شيخنا الأستاذ الإمام محمد عبده في سياق تفسيره للآية في الأزهر ، حملة منكرة شديدة على هذه المفسدة في مصر ، وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة ، مع كثرة هذا التعدد الإفسادي ، الذي صار يجب منعه عملاً بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الثابتة في الحديث ^(١٩٤) ، وقاعدة تقديم درء المفسد على جلب المصالح ، وهي متفق عليها ، وقد نشرنا أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد ، لغیر ضرورة مبيحة لا مفسدة فيها ^(١٩٥) .

ملحق بالتفسير

- ١ -

قام المستشار محمد الدجوى ببحث عن الحالة المدنية لمن تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٩٦٠م .

واسفر البحث عن أولئك المشايخ الأجلاء ، وعدتهم بضعة عشر شيخاً ، لم يتزوج واحد منهم بزوجة ثانية ، بل اقتصر على زوجة واحدة ، وذلك لأنهم فهموا أحكام الدين ووعوا تعاليمه وتشربوا بروحه .

- ٢ -

يرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن أوروبا أباحت تعدد الخيلات والعشيقات ، ثم أباحت للإنسان ، أن يعترف بنسب أولاده من عشيقته ، فهم تقادوا اسم الزوجة فقط.

ولكن الإسلام حارب اتخاذ الأخدان والخيلات ، فقال سبحانه : مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . (النساء : ٢٥) .

وقال عز شأنه مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . (النساء : ٢٤) .

- ٣ -

ذهب فريق من العلماء إلى أن التعدد مباح ، لا يتوقف جوازه على شيء وراء أمن العدل ، وعدم الخوف من الجور ، والقدرة على القيام بواجبات الأسرة القديمة والجديدة ، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، والأستاذ أحمد شاکر ، والأستاذ على عبد الواحد وافي ، والدكتور محمد بلتاجي .

ومن العلماء من يرى أن الأصل في الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تتحقق بها المودة والرحمة ، ويباح التعدد عند الضرورة مثل عقم الزوجة ، أو مرضها مرضاً شديداً يمنعها من أداء وظيفتها ، ويمكن أن يفهم هذا ، أي من كلام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ محمد المدني .

ومن العلماء من يرى أن يكون تعدد الزوجات بإذن القاضي ، ومنهم من يرى ترك الناس إلى ضمائرهم ودينهم مع العناية بالتربية الدينية ، وإرشاد الناس إلى آداب الإسلام .



﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتَيْنِ نَحْلَةً فَإِن طِبَن لَّكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴾

المفردات :

وآتوا : الإيتاء : الإعطاء والمناولة ، أو الالتزام .

صدقاتهن : جمع صدقة بضم الدال ، وهو المهر .

نحلة : أي عطية من غير عوض ، من نحلة ينحله نحلة .

هنيئاً : أي سائفاً من هناء الطعام يهنؤه أي ساغ له .

مريئاً : أي سائفاً ، الهنء ما يلذ للآكل ، والمرىء ما سهل هضمه وحسنت عاقبته ، والمراد أنه لا تبعه ولا عقاب عليه ، أي حلالاً طيباً .

التفسير :

٤ - وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

هناك حقوق للمرأة على زوجها، وحقوق للرجل على زوجته ، فمن حقوق المرأة ، المهر وهو الصداق، والنفقة ، والعشرة بالمعروف.

ومن حقوق الزوج الطاعة أو القوامة ، والأمانة أو المحافظة على المال والعرض، وحسن العشرة أيضاً .
والآية تأمر الأزواج بإعطاء النساء مهورهن عن طيب خاطر ، فإذا طالبت نفس المرأة وتنازلت لزوجها عن شيء من صداقها فلا مانع من أخذه والانتفاع به .

وعلاقة الآية بالحديث عن اليتامى، أنها استطراد فى بيان حق المرأة، وسواء أكانت يتيمة أو غير يتيمة، واحدة أو أكثر ، فيجب أن تأخذ حقها فى الصداق.

والصداق دليل المصادقة، وتحمل المسئولية ، وآية المودة وتوثيق عرى الصلة بين الزوجين كى تدوم الألفة وتعظم المحبة.

والصداق ليس شراء للمرأة ، فمعنى قول الإنسان لفتاة هل ترضين أن تكونى زوجتي؟ أى هل ترضين أن تكونى شريكة أكون أنا مديرها والمسئول عنها ؟ فتقول له جداً أو مزاحاً ؟ أو هل أنت صادق فى عرضك؟
فالصداق دليلٌ مُمَادى على تحمل المسئولية .

ثم أتبع القرآن ذلك بقوله : نِحْلَةً . أى عطية عن طيب نفس وصدق رغبة بدون مقابل أو عوض .

وأهل اللغة يقولون إن النحل بدون مقابل :

ويعض الفقهاء يقول : إن الصداق ثمن البضع ، ونقول لهم : لو أننى اشتريته يا فقهاء لكنت أستطيع بيعه لآخر ، ثم إن الله سَمَى المهر صداقاً، وجعله نحلة أى هبة وهدية بدون عوض .

لكن القرآن يقول : فَمَا اسْتَعْتَمَ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . (النساء : ٢٤) .

بعد أن سماه القرآن صداقاً ونحلة، جعله فريضة فرضها الله ، وألزمنا بها كما يلزم الإنسان أجر العامل .

فالزوجة قد استمعت بزوجها كما استمتع هو بها ، لكن لما كانت المسألة ليست جزاء الاستمتاع المادى ، بل هى حق فرضه الله للمرأة، لأنها قبلت أن تنتقل من بيت أسرتها إلى بيت زوجها، وقبلت أن يكون لزوجها القوامة عليها، وقبلت أن يكون لزوجها الرئاسة والطاعة، لهذا فرض الله لها النفقة والصداق، وجعل ذلك فريضة لازمة، كما يلزم الإنسان أن يعطى الأجر لمن عمل له عملاً، قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . (النساء : ٣٤) .

فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا .

والضمير يعود على المهر ، أى إذا طابت نفوسهن ورضيت عن طيب خاطر ورغبة صادقة ، أن تتنازل إحداهن لزوجها عن شيء من صداقها ، فقد أباح الله له أخذه والانتفاع به ، وأحل له التصرف فيه حالاً طيباً .

ومن دقائق اللغة ، أن القرآن قال : فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا . ولم يقل عقلاً . لأن الرجل قد يحتال على المرأة حتى تهب له شيئاً من الصداق ، أو يلوح لها بالزواج فتترضاه بشيء من الصداق ، وتتنازل له بحكم عقلها ، ولكنه تنازل ظاهرى .

يقول الحكيم الترمذى : أى أن عقلها يوازى الأمور ، ويفضل التضحية بالمال لترضية زوجها ، فهى موضع شككية لا حقيقة .

ولذلك فإن القرآن قال : فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا (١٦٦) .

وقال الزمخشري فى الكشف فى تفسير الآية :

وفى الآية دليل على ضيق المسالك فى ذلك ، ووجوب الاحتياط ، حيث بنى الشرط على طيب النفس : فَإِنْ طَبِنَ . ولم يقل فإن وهين أو سمح إنعلاماً بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر .

والمعنى : فإن وهين لكم شيئاً من الصداق ، وتجاخت عنه نفوسهن طيبات ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم ، فكلوه هنيئاً مريئاً .

الخطاب فى الآية :

الخطاب فى الآية للأزواج ، لأن الضمائر فى الآية السابقة لهم ، وبعض المفسرين يرى أن الخطاب فى هذه الآية للأولياء ، فقد كان الولي فى الجاهلية يزوج ابنته أو أخته ، ويأخذ الصداق لنفسه ، فأنزل الله الآية لمنع ذلك . ولا مانع من أن يجعل الخطاب عاماً للمسلمين ، فيشمل الأزواج والأولياء ، فالزوج مطالب بإعطاء المرأة صداقها ، والولى مطالب بدفعه لها بعد تسلمه من الزوج ، وللزوجة كامل الحق فى التصرف فى المهر بعد ذلك .

من الأحكام التى تؤخذ من الآية :

١ - لا بد فى النكاح من صداق يعطى للمرأة ، قال القرطبي : هو مجمع عليه ولا خلاف فيه .

٢ - الصداق ملك المرأة ، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاعت .

٣ - يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضاها واختيارها - مهرها ، أو جزءاً ، سواء أكان مقبوضاً معيناً ، أم كان فى الذمة . ويشمل ذلك الإبراء الهبة .

ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت ، وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة ، فأيا امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .

﴿لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

المفردات :

السفهاء : جمع سفيه، والمراد من السفهاء هنا : ضعاف العقول والأفكار الذين لا يحسنون التصرف.

قيامًا : ما تقوم به أموركم، وتصلح شئونكم .

التفسير :

٥ - وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

المعنى العام :

ولا تعطوا ضعاف العقول ممن لا يحسنون التصرف في المال أموالهم التي هي أموالكم ، فإن مال اليتيم وضعيف العقل مالكم، ويعنيكم أمره وإصلاحه حتى لا يضيع المال ، فقد جعله الله قوام الحياة، وأعطوهم من ثمراتها النصيب الذي يحتاجون إليه في العام، وأكسوهم وعاملوهم بالحسنى، وقولوا لهم قولاً يرضيهم ولا يؤذيهم ولا يذللهم.

في أعقاب الآية :

١ - اختلف المفسرون في تعيين المخاطبين بقوله تعالى : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .

قال بعضهم المراد بذلك الأوصياء على اليتامى، والمراد من السفهاء اليتامى غير العقلاء.

وقال بعضهم الخطاب في الآية الكريمة للأباء، والمراد من السفهاء الأولاد الذين يفسدهم المال ويشجعهم على سوء الفعل.

والواقع أن السفهاء تشمل جميع السفهاء ، من صبي ویتیم وزوجة صغيرة ..

فالمسألة ليست خاصة ، بل الآية دستور عام ينادى جميع الناس، حاكمين ومحكومين ، وأوصياء وأباء.

والمراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، لسوء تصرفاته سواء أكان من اليتامى أم من غيرهم.

٢ - يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

كانه يقول المال وإن كان ملكاً لزيد وعبيد ، إلا أنه حق للدولة، فالجماعة مسئولة عن إضاعة هذه الأموال، أي الأمر عام ، أيها الولي على الدولة لا تولّ وزيراً للمالية يبدد الأموال، أيها الرجل المضارب لا تدفع مالك إلى مبدد مبدّر.

فالمجموع موزع على المجموع ، والغرض منه الوحدة والتكافل (١٩٧).

٢ - عنى الإسلام بالمحافظة على المال وتثمينه ، وحث القرآن على العمل واكتساب الرزق، وبين أن المال قوام الحياة، فقال : **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .**

وهى من أعجب الأوامر التى تأتى فى دستور روحى، وفيها أعظم وصية لتثمين المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحياة.

وليس ذلك بغريب عن روح القرآن ، فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة ، والصادر والوارد فى قوله سبحانه : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْشَ مِنْهُ شَيْئًا .** (البقرة : ٢٨٢).

٤ - قال القرآن : **وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .**

أى اجعلوا الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم ، وذلك بالاتجار فيها ، واستثمارها فتكون نفقتهم من غلتها وربيعها ، لا من أصل المال ، وهذا هو سر التعبير فيها ولم يقل : منها .

روى الترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : **« ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ، ولا يتركه حتى تاكله الصدقة »** (١٩٨).

٥ - القول المعروف برفع الروح المعنوية للسفيه ، ويخلق عنده الأمل فى أن يسترد ماله وصحته وإنسانيته.

والمعروف كلمة عامة تشمل كل ما عرف حسنه ، وكل ما يناسب حال السفيه ، من كلمة حانية أو عطف ومودة ، أو بشاشة ورحمة، أو زرع الأمل والثقة فى المستقبل ، مثل أن يقول : المال مالك ، وما أنا إلا حارس أحفظه لك من الضياع ، وعند الكبر- أو الرشد أو التدبر للأمر - أردت إليك وتصبح أنت كامل التصرف مطلق الحرية، ونحو ذلك من العبارات التى تزيل اليأس والقنوط، وتغرس الأمل والرجاء.

٦ - تفيد الآية وجوب العناية بالأموال وتثمينها ، وتيسيرها لإفادة الناس بها ، يقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : (فليس لأحد أن يقول مالى مالى ، هو مالى وحدى لا ينتفع به سواى ، فالمال مال الجميع ، والمال مال الله ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ، ودفع للملمات ، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه، لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله ، ويبيّن فى كتابه، حتى إذا ما أحل بذلك فانسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه ، أو أخذ منه - قهراً عنه - ما يرى الحاكم أخذه من مثله) (١٩٩).

٧ - من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب الحجر على السفهاء ، وجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام والصغار ومن فى حكمهم ، ممن لا يحسنون التصرف (٢٠٠).

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعَفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

المفردات :

وابتلوا : الابتلاء : الاختبار والتجربة .

ببلغوا النكاح : أى بلغوا سن النكاح ، أو بلغوا الحلم وهو حد التكليف ، وقدر بخمسة عشر عاما .

آنستم : أبصرتم وتبينتم .

رشدا : حسن تصرف فى الأموال .

إسرافا : الإسراف : مجاوزة الحد المعتاد فى التصرف .

بدارا : البدار : المسارعة فى الشيء .

أى لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبشرين كبرهم ، أى مسرعين فى تبذيرها قبل أن يكبروا

فيتسلموها منكم .

فليستعفف : العفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، والمراد فليتقنه عن الأكل من مال اليتيم .

التفسير :

٦ - وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... الآية .

أى عليكم - أيها الأولياء والأوصياء - أن تختبروا اليتامى ، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور وحسن التصرف فى الأموال ، ويتمرنهم على ما يليق بأحوالهم ، حتى لا يجرى وقت بلوغهم إلا وقد صار فى قدرتهم أن يصرفوا أمورهم تصرفا حسنا ، فإن تبينتم منهم رشدا بعد البلوغ ، وهداية إلى حسن التصرف وحفظ الأموال ، فادفعوا إليهم أموالهم ، من غير تأخير عن حد البلوغ .

ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل ، ومبشرين بالأخذ ، خشية أن يكبروا فيتنزعوها من أيديكم .

ومن كان من الأوصياء على اليتامى غنيا فليستعفف عن الأكل من أموالهم ، وليبالغ فى إعفاف نفسه ، وإبعادها عن أخذ شيء من مال اليتيم ، ومن كان فقيرا فليأخذ من مال اليتيم بقدر حاجته ، من سد الجوع وستر العورة لا يزيد عن ذلك .

فإذا سلمتموهم أموالهم فليكن ذلك أمام شهود ، إثباتا للحق وحماية لأنفسكم ، وتأكيذا لحفظ مال اليتيم .

والله من ورائكم هو المحاسب والمراقب ، وكفى به حسيبا ومراقبا .

فى رحاب الآية :

١ - عَنِ الْقُرْآنِ بَرِيَّةَ الْيَتِيمِ وكفالاته ورعايته وتكوين شخصيته ؛ لأنه فرد من أفراد الأمة والأمة مجموعة أفراد ، وقد أمر فى الآية السابقة بالقول المعروف معه ، والتوجيه السديد ، وفى هذه الآية حث على التدريب العملى بالاختبار ، كان تسأله أنا اشتريت هذا الثوب كم يساوى ؟ فإذا توسم الوصى فيه الخير أعطاه قليلا من المال ليتصرف فيه حتى إذا بلغ الحلم وأنس فيه الرشد دفع إليه المال ، وقد علق دفع المال على شرطين ، البلوغ والرشد ، فإذا رشد وهو صغير لا يدفع إليه حتى يكبر ، والكبر وحده لا يكفى بل لابد من الكبر مع الرشد ، والرشد عند كثير من المفسرين يكون فى المال والدين والخلق .

يقول الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق :

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى . يأمر باختبارهم وتدريبهم على التصرف ، والقيام على بعض الشؤون لينظر أيعسنون أم يسيئون ؟ فإذا أحسنوا وسعت لهم دائرة الاختبار ، وإذا أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، وإذا أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، حتى يصلوا إلى درجة الرشد ، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف ، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شؤونها بأنفسهم ، ويدخلوا بها فى معترك الحياة ^(٢٠١) .

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمَ الْفَاءَ فِي قَوْلِهِ : فَادْفَعُوا . واقعة فى جواب الشرط : فَإِنْ آنَسْتُمْ . والشرط وجوابه واقع جواب إذا .

* * *

٢ - سن البلوغ :

ظاهر الآية يدل على أن أموال اليتامى لا تدفع إليهم إلا إذا بلغوا راشدين .

والبلوغ إما بالاحتلام للذكور ، وبالحيض للإناث ، وإما بالسن وهو عند الشافعى والحنابلة ١٥ سنة ، وعند المالكية ١٧ سنة .

وفرق الحنفية بين الذكور والإناث فجعلوه للذكور ١٨ عاماً ، وللإناث ١٧ عاماً ، وكل ذلك بالحساب القمري .

فإذا بلغ غير رشيد فلا يسلم له ماله عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو حنيفة : يسلم له إذا بلغ ٢٥ سنة وإن ثبت رشده ، لأنه يصلح أن يكون جداً ، وهو يستحى أن يحجر على مثله .

* * *

٣ - آجرة الوصى :

اختلف العلماء حول قوله سبحانه :

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

١ - منهم من قال إن هذه الآية مع شدتها منسوخة بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا . (النساء : ١٠) .

٢ - ومنهم من يرى أن الآية غير منسوخة ولكنها أرشدت الفنى إلى العفة عن مال اليتيم، وأن يقصد بعمله ورعايته وجه الله .

وأباحث للفقير أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضاً، ثم إذا أيسر قضاء ، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسراً فلا شيء عليه (٢٠٢) .

وعن عمر : يأخذ الوصى الفقير ما يسد جوعته ، ويوارى سواته ، ثم إذا استغنى رد ما أخذ .

وعن عمر : إلا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم، إن استغنى استعفت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت .

٤ - الوصى له حالتان :

أن يكون ولياً فعلياً ، يتصرف فى مال اليتيم ويرعى شئونه، محاسباً أو وكيلًا، أو راعياً فبقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم .

أو أنه ما دام سلم نفسه لليتيم يرعى أمره فلأخذ ما يكفيه وما ينفق به على نفسه .

كالقاضى فى مال الدولة فإنه يأخذ المال والمرتب وإن كان غنياً، ورد هذا القول بأن هناك فرقاً بين المقامين .

فالقاضى يأكل من مال الدولة وهو مال عام ، والوصى هنا يأكل من مال خاص .

والرأى الأخير أمثل الآراء ، فالوصى إن شغل بمال اليتيم ورعايته فله الأكل بالمعروف زائداً على أجرته إن كان فقيراً، وله الأجر فقط إن كان غنياً .

يقول الإمام فخر الدين الرازى :

اختلف العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أم لا ؟ .

فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله ... لأن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبى، وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياساً على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها، فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم وكذا هنا ..

٥ - الإشهاد عند تسليم المال لليتييم :

أمر الله بالإشهاد عند تسليم أموال اليتامى إليهم، كما أمر بالإشهاد عند كتابة الدين، فقال : **وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ** . (البقرة : ٢٨٢) .

والإشهاد يكون في الأمور الهامة ، وفي الأمور المالية بالذات منعاً للخصومات والمنازعات ، وإبراء لذمة الأوصياء، ولكي يكون اليتامى على بينة من أمرهم.

وقد ذهب الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أن الإشهاد واجب عند تسليم اليتيم ماله ، لقوله تعالى : **فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ** . وهو أمر وظاهر الأمر أنه للوجوب ، وليس معنى الوجوب هنا أن الوصى يأتى إذا لم يشهد ، بل معناه أن الإشهاد لايد منه في براءة ذمته، بأن يدفع لليتييم ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين ، حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فعينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم على أن الوصى لم يدفع إليه ماله .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الأمر في قوله تعالى : **فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ** . للندب، وأن الوصى إذا ادعى ذلك يصدق ويكتفى في تصديقه بيمينه، لأنه أمين لم تعرف خيانتته ، إذ لو عرفت خيانتته لعزل.

٦ - ختام الآية :

قال سبحانه : **فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** .

يعنى أنكم قد تبرؤون أمام القضاء، ولكن الله دقيق في حسابه ورقابته لا تخفى عليه خافية فراقبوا الله قبل رقابة القضاء .

★ ★ ★

المواريث

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ (٧)

سبب النزول :

جاء في تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله : **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ** ... الآية .

أى الجميع فيه سواء في حكم الله - تعالى - يستون في أصل الوراثه، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميث من زوجية أو قرابة.

وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله - ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

* * *

٧ - لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

والمعنى :

للكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون ، أى مما تركه آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم ، كالأخوة والأخوات، والأعمام والعمات.

وللإناث نصيب مما تركه آبائهن وأمهاتهن وأقاربهن.

والمقصود من الآية إثبات حق النساء فى الميراث ، سواء أكانوا صغاراً أم كباراً وإثبات حق الذكور فى الميراث كباراً كانوا أم صغاراً .

وبهذا، بطل ما كان عليه أهل الجاهلية من توريث البالغين من الرجال فقط ، حيث جعل للجميع حظاً ونصيباً فى الإرث.

وكان يكفى أن يقال : لكل واحد نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ولكنه - تعالى - شاء أن يفصل فيجعل للرجال نصيباً ، وللنساء نصيباً ، مما تركه الوالدان والأقربون ، إيذاناً بأصالة النساء فى استحقاق الميراث، ومنعاً من صرف هذا المجل إلى الرجال وحدهم، على ما كانت عليه عادة الجاهلية ، ومبالغة فى إبطال هذه العادة الظالمة .

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . سواء أكانت التركة كثيرة أم قليلة ، عقاراً أو منقولاً ، فلا يحق لبعض الورثة أن يستأثر ببعض الميراث دون الآخرين .

وتقديم القليل على الكثير - فى الآية - للتنبيه على وجوب دخوله فى الميراث بين المستحقين ، لأنه مظنة التهاون فيه .

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . نصيباً مقطوعاً فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ، فلا سبيل إلى التهاون فيه ، بل لا بد من إعطائه لمن يستحقه كاملاً غير منقوص .

* * *

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (٨)

المفردات :

أولو القربى : أصحاب القرابة غير الوارثين.

فأرزقوهم منه : فأعطوهم من المال الموروث.

التفسير :

٨ - وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ . ممن لا نصيب لهم في الميراث ، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة وأذلّتهم وصاروا في حاجة إلى العون والمساعدة.

فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ . أى فأعطوهم من الميراث الذى تقسمونه، شيئاً يعينهم على سد حاجتهم ، وتفريج ضائقتهم.

وقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . أى قولاً لينا جميلاً، مثل : ودننا لو أعطيناكم أكثر من هذا ، ومن القول المعروف دعاؤكم لهم بالبركة، وعدم منكم عليهم.

وليس المراد من حضور ذوى القربى واليتامى والمساكين ، أن يكونوا مشاهدين للقسمة ، جالسين مع الورثة، لأن قسمة الأموال لا تكون عادة عند حضور هؤلاء الضعفاء ، وإنما المراد من حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة ، والدراية بأحوالهم ، وأنهم في حاجة إلى العون والمساعدة.

ويتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ - يرى بعض العلماء أنه للوجوب ، لأنه هو المستفاد من ظاهر الأمر ، ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا للوجوب ، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كباراً ، وأما إذا كانوا صغاراً فليس على أوليائهم إلا القول المعروف.

وقد رجح القرطبى كون الأمر للندب لا للوجوب ، (وجمهور فقهاء الأمصار على أن هذا الإعطاء على سبيل الاستحباب) (٢٠٣).

٢ - هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟

من العلماء من قال : إن هذه الآية قد نسخت بآية الموارث التى بعدها ، وهى قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ

فجعل الله لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة (٢٠٤).

ومن العلماء من ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست بمنسوخة، وفي البخاري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : هي محكمة وليست بمنسوخة (٢٠٥).

وفي تفسير القرطبي عن ابن عباس قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية قد نسخت ، لا ، والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس (٢٠٦).

وعن الحسن كانوا يعطون التابوت والأواني ، وورث الثياب ، والمتاع الذي يستحق من قسمته .

وعن يحيى بن يعمر (٢٠٧) ثلاث آيات تركهن الناس (٢٠٨)، هذه الآية ، وآية الاستئذان يا أيها الذين آمنوا لستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ... (النور : ٥٨) .

وقوله تعالى : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. (الحجرات : ١٣) .

ومن المفسرين من رجح أن هذه الآية لا تعارض بينها وبين آية الموارث ، لأن هذه الآية إنما تأمر بما يؤدي إلى التعاطف والتراحم بين الناس ، وهذا أمر لا يتنسخ ، بل هو ثابت في كل زمان ومكان.

ثم إن هذه الآية الأمر فيها على سبيل الندب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب (٢٠٩).

★ ★ ★

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (١)

المضدرات :

وليخش : الخشية : الخوف والحدس .

قولاً سديداً : عدلاً وصواباً .

خلاصة معنى هذه الآية : عاملوا اليتامى بمثل ما تحبون أن يُعامل به أولادكم من بعدكم.

والآية وصية إلى الأولياء برعاية اليتامى رعاية أبوية مخصصة ، فيها الحنان ، والعطف والمحافظة على مال اليتيم ، وقد لمس القرآن شغاف القلوب، قلوب الآباء المرفهة الحساسة ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسوري الجناح، لا راحم ولا عاصم كي يعطفهم هذا على اليتامى، الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء ، فربما تعرض أبناؤهم غداً لمثل هذا الموقف ، فليعاملوا اليتامى بمثل ما يرغبون أن تعامل به أبناؤهم من بعدهم .

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . فليتقوا الله في كل شأن من شئونهم ، وفي أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها ، وليقولوا لليتيم ما يقوله الوالد لولده ، من القول الجميل ، والهادي له إلى حسن الأداب ، ومحاسن الأفعال .

والسديد : المصيب العدل الموافق للشرع .

يقول الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وهي الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يفضيوا للحق، وأن يأخذوا على أيدي أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى ، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليهم ، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك وأن يأكل قلوبهم ضعيفهم ، فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته ، ويكسب النفوس ضراوة على عمله (٢١٠).

★ ★ ★

﴿ إِنِّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
وَيَصِيدُونَ سَعِيرًا ۝١٠﴾

المفردات :

يأكلون في بطونهم نارا : أى يأكلون ما يؤدي بهم إلى النار ، ليعاقبوا فيها على ما أكلوه .

يصيدون سعيرا : أى وسيدخلون نارا هائلة ، من صلى النار - بكسر اللام - أى قاسى حرها ، والسعير : النار الموقدة ، من سرعت النار أوقدتها .

التفسير :

تحدثت السورة عن اليتيم ، وحذرت من أكل ماله بالباطل ، وكشفت الحيل والألاعيب التي يلجأ إليها الأوصياء : نجد ذلك في الآية الثانية والثالثة ، والسادسة ، والثامنة والتاسعة من سورة النساء .

وفي هذه الآية العاشرة تأكيد لما سبق ، وتحذير من أكل مال اليتيم ظلما وعذوانا ، وسأقت ذلك في صورة حسية مفزعة ، صورة النار في البطون ، وصورة السعير في النهاية ..

« إن هذا المال - مال اليتيم - لهو نار ، وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم إلى السعير ، فهي النار إذن تشوى البطون والجلود ، هي النار إذن من باطن وظاهر .. هي النار مجسمة في هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار » (٢١١).

« وقد أكد الله الوعيد في أكل مال اليتيم ، رحمة من الله - تعالى - باليتامى لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته ، وكثرة عقوه وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا في الضعف إلى الغاية القصوى ، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى » (٢١٢).

وهى أسباب النزول للواحدى ، وتفسير القرطبى والكواشى ، أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله ، فأنزل الله - تعالى - فيه : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا . أَيْ بغير حق إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .** أى المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار :

وَيَسِيلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَالَ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا . أى سيدخلون النار المستعرة ، يماسون حرها ويشتتون بحريقها .

قال تعالى **فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى .** (الليل : ١٤ ، ١٥) . تقول : صليت اللحم إذا شويته ، فإن أردت أنك أحرقته قلت أصليته (٢١٣) .

وللمفسرين فى تفسير قوله تعالى : **إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .** اتجاهان :

أولهما : أن الآية على ظاهرها ، وأن الأكلين لمال اليتامى ظلما سيكلون النار يوم القيامة .

واستدلوا بقوله - ﷺ - : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تاجع أهواهم نارا . قيل ، يا رسول الله ، من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا** .. (٢١٤) .

وثانيهما : أن الكلام على المجاز لا على الحقيقة ، وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار .

وقد أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ** .. الآية . (البقرة : ٢٢٠) . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢١٥) .

قال الفخر الرازى : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك وهو بعيد ، لأن هذه الآية فى المنع من الظلم ، وهذا لا يصير منسوخاً ، بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى إن كانت على سبيل الظلم فهى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية ، وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر ، كما فى قوله تعالى : **وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ** .. (٢١٦) . (البقرة : ٢٢٠) .

دعوى باطلة :

يدعى بعض المفرضين أن القرآن لم يهتم بالصغار .. وهذه دعوى باطلة ، فقد عنى القرآن باليتيم وحث على إكرامه ورعايته ليكون عضوا صالحا فى المجتمع . وكانت التربية تتم بالقنوة والأسوة ، وفى سورة لقمان وصايا حكيم لابنه ، وفى آيات كثيرة نجد وصية للآباء برعاية أبنائهم وحسن توجيههم ، ووقايتهم من النار ، وأمرهم بالصلاة ، وكذلك فى السنة المطهرة .

وقد ادعى بعض المغرضين أن التشريع الإسلامي مأخوذ عن التشريع الروماني ، وهذه دعوى باطلة لما يأتي :

١ - التشريع الروماني مأخوذ عن الألواح الاثني عشر ، والتشريع الروماني في سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونه ، وكان يرجع إليه كقانون ، وأحياناً يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون . فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشرعية نزلت كاملة شاملة .

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم ، وإفاضة القول في الوصية به ، فالقانون الروماني يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد . بينما القانون الإسلامي على التقيض من ذلك كله ، توصية باليتيم ، وتحذير من أكل ماله بشئ الطرق ، ولم يجعل للوصى الحق في أخذ شيء من المال إلا | كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

من هدى السنة :

١ - في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتوليء ، بوه الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢١٧) .

٢ - روى البخاري وغيره عن سهل بن سعد عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا » . وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأشار وفرج بين أصبعيه السبابة والوسطى (٢١٨) .

وكان سلوك النبي الكريم قدوة حسنة في رعاية اليتامى وكفالتهم ، ليكونوا لبنة صالحة لا يحقدون على المجتمع ، ولا يضررون الشر لمن ظلم ، ونجد الوصية باليتيم في القرآن المكى والمدنى .

فمن القرآن المكى قوله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . (الإسراء : ٣٤) .

وقال تعالى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . (الضحى : ٦-١١) .

ومن القرآن المدنى ، ما ورد في الآيات العشر الأولى من سورة النساء وفيها وصايا متكررة باليتيم .

ومن القرآن المدنى قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة : ٢٢٠) .

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمْنُلْ حَظُّ الْأُنثَيَيْنِ إِن كَانَ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا يُؤْتِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

المعنى العام للآية ١١ :

يا مكرمكم الله في شأن توريث أولادكم وأبيوكم - إذا متم - بما يحقق العدل والإصلاح ، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين إذا كان الأولاد ذكورا وإناثا ، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنتين فلهن الثلثان من التركة ، ويفهم من مضمون الآية أن الثنتين نصيبهما كنصيب الأكثر من ثنتين ، وإن ترك بنتا واحدة فلها نصف ما ترك ، وإن ترك أبيا وأما هلكل واحد منهما السدس ، وإن كان له ولد معها ، ولد ذكر أو أنثى فإن لم يكن له ولد وورثته أبواه . فقط فلأمه الثلث والباقي للأب ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب ، ولا شيء للإخوة ، تعطى هذه الأنصبة لمستحقيها ، بعد أداء ما يكون عليه من دين وتفضي ما وصى به ، هذا حكم الله فإنه عدل ورحمة ، وأنتم لا تدرون الأقرب لكم نفعاً من الآباء والأبناء ، والخير فيما أمر الله ، فهو العليم بمصالحكم الحكم الحكيم فيما فرض لكم .

المعنى العام للآية ١٢

للزوج نصف ما تركت الزوجة إن لم يكن لها ولد منه أو من غيره ، فإن كان لها ولد فلزوجها الربع ، من بعد وصية توصى بها أو دين ، وللزوجة - واحدة أو متعددة - الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له منها أو من غيرها ولد ، فإن كان له ولد فللزوجة الثمن ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، وولد الابن كالولد فيما تقدم .

وإن كان الميت رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد ، وترك أخاً لأم أو أختاً لأم ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث يستوى في ذلك ذكرهم وأنثاهم بمقتضى الشركة ، من بعد أداء الديون التي عليه ، وتنفيذ الوصية التي لا تضر الورثة ، وهي التي لا تتجاوز ثلث الباقي بعد الدين ، فالزمو - أيها المؤمنون - ما وصاكم به الله ، فإنه عليم بمن جار أو عدل منكم ، حليم لا يعاجل الجائر بالعقوبة (٢١٩).

الموارث في الإسلام :

نظام الموارث الذي بيّنه القرآن الكريم أعدل لنظام للتوريث عرف في كل القوانين ، وقد اعترف بذلك علماء القانون في أوروبا ، وهو دليل على أن القرآن من عند الله ، إذ إنه لم يكن مثله ولا قريب منه معروف عند الفرس ولا عند الرومان ، ولا في أي شريعة أخرى قبله .

وقد اتبع النظم العادلة الآتية :

١ - أنه جعل التوريث بتظيم الشارع لا بإرادة المالك ، من غير أن يهمل هذه الإرادة ، فقد جعل له الوصية بالمعروف في الثلث ، ليتدارك الإنسان تقصيراً دينياً فاته ، مثل أداء الزكاة ، وإعانة الفقراء والمحتاجين من الأقارب الذين لا يستحقون ميراثاً .

٢ - في توزيع الميراث يعطى الأقرب فالأقرب من غير تفرقة بين صغير وكبير ، ولذلك كان الأولاد أكثر حظاً من غيرهم في الميراث ، لأنهم امتداد لشخص المالك ، ولأنهم في الغالب ضعاف ، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث ، بل تشاركهم الأم والجدة ، والأب والجد وإن كانوا يأخذون نصيباً أقل من الأولاد .

٣ - أنه يلاحظ في التوريث مقدار الحاجة ، فالأولاد مقبلون على الحياة ؛ لذلك كان نصيبهم أكبر ، والآباء مدبرون عنها ولذلك نصيبهم أقل .

٤ - اتجه الشارع في الميراث إلى توزيع التركة دون تجميعها ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأولاد دون البنات ، ولا للأولاد دون الآباء ، ولم يحرم من لبسوا من عود النسب كالإخوة والأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، فالميراث يمتد إلى ما يقارب القبيلة ولكن يأخذ الأقرب فالأقرب .

٥ - لم يحرم المرأة من الميراث كما كان يجري عند العرب ، بل جعل لها حقاً معلوماً يتناسب مع واجباتها ، فالمرأة إذا كانت بنتاً فهي في كفالة أبيها ، وإذا كانت زوجة فهي في كفالة زوجها ، وعلى زوجها النفقة عليها وعلى أولاده منها ، فكان من العدالة أن يكون الغنم بالغرم ، وأن يكون ميراث البنت على مقدار النصف تقريباً من نصيب الابن . وهذا من عدالة الإسلام فهو لم يحرم المرأة ، ولم يسو بينها وبين الرجل ، بل أعطاها النصف ،

وجعل لأخيها ضعف نصيبها ، لأن أخاها سيتزوج ويفتح بيتا وينفق على زوجته وأولاده ، أما هي فتدورها ونصيبها في أنها يجب لها المهر والنفقة والكسوة والسكنى ، وكل تكاليف الحياة لها ولأولادها فريضة على زوجها . قال تعالى : لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ .. (المطلاق : ٧) .

المستحقون للتركة :

تحدثت هاتان الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة النساء عن الميراث ونصيب كل وارث ، كما تحدثت الآية الأخيرة من سورة النساء عن ميراث الكلاله (٢٢٠) ، فإذا انضم إلى هذه الآيات الثلاث ، الأحاديث الواردة في الميراث أدركنا نصيب المستحقين للتركة ، وأصحاب الفروض وهم : الزوج ، والزوجة والبنت ، وبنات الابن ، والآب والجد الصحيح ، والأم ، والجدة الصحيحة ، والأخوات الشقيقات والأخوات لأب ، والجد مع الإخوة ، وأولاد الأم .

ومن المستحقين للتركة ، العصبية النسبية ، وهم كل من يأخذ ما بقى من التركة بعد إلحاق الفرائض بأهلها ، ويجوز جميع التركة عند الانفراد .

ومنهم العاصب بنفسه ، وهو كل ذكر لم يدخل في نسبته إلى الميت أنثى ، ولا يحتاج في عصوبته إلى غيره ، وهو منحصر في جهات أربع :

- ١ - جهة البنوة ، كالابن ، وابن الابن وإن نزل .
- ٢ - جهة الأبوة كالآب والجد وإن علا .
- ٣ - جهة الأخوة كالأخ الشقيق وابنه ، والأخ لأب وابنه .
- ٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق ، وابنه ، وعمه لأب وابنه .

* * *

أصحاب الفروض :

أصحاب الفروض كل من له سهم مقدر في كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - أو بالإجماع ، وهم اثنا عشر : الزوجان ، واثان من الفروع : البنت وبنات الابن . وأربعة من الأصول : الأب والجد ، والأم والجدة . وأربعة من الحواشي وهم : الأخت الشقيقة أو لأب ، أو لأم ، والأخ لأم . وهذا بيان لتصيب كل وارث من هؤلاء .

١ - الزوج :

للزوج حالان :

١ - أن يأخذ النصف وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوجة مذكراً أو مؤنثاً من هذا الزوج أو من غيره . كالابن وابن الابن والبنت وبنات الابن .

٢ - أن يأخذ الربع عند وجود الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً (٢٢١) .

٢ - الزوجة :

للزوجة حالان :

- ١ - أن تأخذ الربع ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج مذكرا أم مؤنثا ، من هذه الزوجة أم من غيرها .
- ٢ - أن تأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا (٢٢٢).

٣ - البنات :

للبنات ثلاث حالات :

- ١ - أن يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما تبقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٢ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا لم يكن معها أخ ولا أخت .
- ٣ - أن تأخذ الثلثان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن (٢٢٣).

٤ - بنات الابن :

لبنات الابن ست حالات ، الثلاث التي للبنات عند عدم البنات والأبناء ويزاد عليها ما يأتي :

- ١ - أن تحجب بالبنين إلا إذا كان بحذائها أو أنزل منها غلام فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى .
- ٢ - أن تحجب بكل غلام أعلى منها درجة ، فهبت الابن تحجب بالابن... وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا .

٥ - الأب (٢٢٤) :

للأب ثلاث حالات :

- ١ - أن يأخذ السدس بالقرض فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل وحده أم مع غيره .
- ٢ - أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون المذكر .
- ٣ - أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، والأب لا يحجب من الميراث بحال .

٦ - الجد الصحيح :

هو كل أصل مذكر لا تدخل في نسبته إلى الميراث كإبي الأب، وأبي أب الأب، فإن دخل في نسبته إلى الميت أنشأ كإبي الأم وأبي أم الأب، فهو الجد الفاسد، وهو من ذوى الأرحام .
و الجد الصحيح كالأب عند عدم الأب.

٧- الأم (٢٣٥) :

للأم ثلاث حالات :

- ١ - أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة أو الأخوات من أى نوع .
- ٢ - أن تأخذ ثلث التركة إذ لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من نفس الإخوة أو الأخوات ، لا من فروعهم .
- ٣ - أن تأخذ ثلث الباقي بعد نصيب أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب وأحد الزوجين ، وليس معها فرع وارث ، ولا جمع من الإخوة والأخوات . .

٨- الجدة الصحيحة :

هى كل أصل مؤنث لا يدخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، كام أبى الأم ، فهى الجدة الفاسدة ، وهى من ذوى الأرحام . وتأخذ الجدة السدس ، وتحجب بالأم ، سواء أكانت الجدة ابوية أم أمية وتحجب الأبوية بالأب .

٩- الأخوات الشقيقات :

للأخوات الشقيقات خمس حالات :

- ١ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت .
- ٢ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق .
- ٣ - أن يرثن بالتعصيب بالغير ، إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو مابقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٤ - أن يرثن بالتعصيب مع الغير ، وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر ، فلهن ما يبقى بعد أصحاب الفروض .
- ٥ - أن يحجبن بالفرض الوارث المذكر ، وهو الابن وإن نزل .

١٠- الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياسا على بنات الأبناء مع بنات الصلب . فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات .

١١- أولاد الأم (٢٣٦) :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

- ١ - أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكرا كان أم مؤنثا .

- ٢ - أن يأخذ الاثنان فاكتر الثلث : يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكورا فقط أم إناثا أم ذكورا وإناثا .
 ٣ - الحجب بالفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، وبالأصل الوارث المذكر أبا أو جذاً ، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها .

* * *

مبادئ فى التورث :

نستطيع أن نستخلص من آيات الموارث المبادئ الآتية :

- ١ - مبنى التورث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية .
 ٢ - متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث ، أخذ الذكر ضعف الأنثى ، إلا فى الإخوة الأم ، فإنهم يستوون فى النصيب ، لأنهم يدلون إلى الميت بالأم . وهم سواء فى الانتساب إليها .
 ٣ - الأبناء و الزوجان والأبوان لا يسقطون فى أصل الاستحقاق ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق .
 ٤ - لا إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين ، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، لأن وجود عدد من الإخوة يقلل كاهل الأب . فاستحق زيادة فى الميراث لرعايتهم وكفالتهم .
 ٥ - يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة ، قال تعالى : **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ .** وقد تكررت فى الآيتين ١١ و ١٢ من سورة النساء أربع مرات لتنبية الأذهان إلى وجوب العناية بأمرين قبل تقسيم التركة .
 الأول : أداء الديون التى على الميت .
 الثانى : تنفيذ وصيته فى حدود ثلث ماله .

- ٦ - لا ينبغي للإنسان أن يمس إلى ورثته حين مشارفته الموت ، بالوصية لمن ليس محتاجاً إليها ، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه ، وورثته فى حاجة إليه ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : **غَيْرَ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ .** وقوله : **وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ .** أى يوصيك الله أن تتفدوا أحكامه وأن تبعدوا عن الإضرار بالورثة ، أو حرمان البنات ، أو تفضيل بعض الأولاد على بعض ، أو منع بعض المعصبة من أخذ حقوقهم ، تحت ستار البيع والشراء ، أو تحت ستار الوصية أو الاعتراف بالديون .

وجدير بالمؤمن ألا يختم حياته بوزر عظيم ، يفرط بسببه فى تنفيذ الأحكام التى فرضها الله ، فאלله عليم حكيم فيما شرع ، وعلينا أن ننفذ أحكامه وأن نخضع لأوامره ، ففى ذلك عز الدنيا وشرف الآخرة .

★ ★ ★

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)
 وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

المفردات :

حدود الله : شرائعة وأحكامه ، وقد أطلق عليها الحدود لشبهها بالحدود والحواجز ، حيث إن المكلف لا يجوز أن يتعداها إلى غيرها .

التفسير :

١٣ - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... الآية

المعنى العام :

هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة ، بحسب قربهم من الميت ، واحتياجهم إليه ، هي حدود له فلا تعتدوها .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته .

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ . لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، قال تعالى : لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر : ٤٨) .

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وهذا الجزاء هو الفوز الحقيقي البالغ العظمة ، فقد حصل صاحبه على أسنى المطالب ، ونجا من كل المكروه ، ولا فوز يدنو من ذلك الفوز .

١٤ - وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

ومن خالف أمر الله ، وبذل في حدود الموارث وغير ، فقد استهان بما فرض الله ، وجعل نفسه مشرعا ومقتنا ، ولم يرتض بحكم الله .

قال ابن كثير :

أى لكونه غير ما حكم الله به ، وضاد الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ؛ ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعبدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » (٢٣٧) قال ثم يقول أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسَكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

الفاحشة : معناها لغة ، الفعلة الشديدة القبح ، والمراد منها هنا الزنى ، لأنه أقبح الفواحش .

فأمسكوهن : احبسوهن .

سبيلا : السبيل : الطريق الموصل ، سواء أكان سهلا أم صعبا .

التفسير :

١٥ - واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا

المعنى العام :

واللاتي يأتين الزنا من النساء إن شهد عليهن أربعة من الرجال العاقلين ، يمسكن في البيوت محافظة عليهن ، ودفعا للفساد والشر حتى يأتينهن الموت ، أو يفتح الله لهن طريقا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبة .

التدرج في التشريع :

بدأ القرآن الكريم بدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلما استقر الإيمان في القلوب تحدث القرآن المكي عن الزنا وضرره ، ومدح عباد الرحمن ببعدهم عنه ، وفي سورة الفرقان المكية يقول سبحانه :

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ

أثَامًا . (الفرهان : ٦٨) .

وفى سورة الإسراء ، وهى من أواخر ما نزل بمكة ، إذ نزلت قبل الهجرة بسنة وشهرين ، يقول :
وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

والآية تنهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنا ، وتأمريهم بالبعد عن مقدماته ، كالتقبل والمسة والخلوة بالأجنبية ، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وتبين أن الزنا فاحشة وذنب كبير ، يترتب عليه فساد الأنساب ، وهتك الأعراض واختلاط الذرية ، وانتشار الأمراض المؤذية الفتاكة ، وساء سبيلًا . أى ساء مآل الزنا وعاقبته فى الدنيا والآخرة .

وفى العهد المدنى حرم الله الزنا بتدرج مناسب ، ففى العام الثانى من الهجرة نزلت الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة النساء ، وفيهما نجد الزنا جريمة اجتماعية ، ويترك عقاب الزناة للأسرة التى تتكفل بحبس الزانيات ، وإيداء ومعاينة الرجال الزناة ، وفى العام السادس من الهجرة أنزل الله سورة النور ، وجعل فيها الزنا جريمة جنائية ، تتولى تنفيذ عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . حيث قال سبحانه : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . (النور : ٢) .

من مختصر ابن كثير :

كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال . وَاللَّائِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ . يعنى الزنا . مِن نَّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . فالسبيل الذى جعله الله هو النامخ لذلك .

قال ابن عباس - رضى الله عنه - كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم ، وهو أمر متفق عليه .

روى مسلم وأصحاب السنن عن عباد بن الصامت عن النبى - ﷺ - قال : « خذوا عني ، خذوا عني ، وقد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » (٢٢٨) .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزانى إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا لأن النبى - ﷺ - رجم معازرا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قوله والله أعلم (٢٢٩) . وعند أبى حنيفة التغريب فى حق البكر منسوخ (٢٣٠) وأكثر أهل العلم على ثبوته (٢٣١) .

١٦ - وَالَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تُورًا رَّحِيمًا .

المعنى العام :

والرجل والمرأة اللذان يزنيان وهما غير متزوجين ، فلهما عقوبة محددة ، إذا ثبت الزنا بشهادة شهود أربعة عدول.

قال ابن عباس : عقوبتها الشتم والتعيير والضرب بالنعال أو باليد، أى مطلق الإيذاء المناسب لهما .
فإن تابا بعد العقوبة فلا تذكروهما بما ارتكبا، ولا تعيروهما به ، إن الله يقبل برحمته توبة التائبين.

التعليق على الآية:

اختلف العلماء فى المراد بقوله : وَاللَّذَانِ .

- فمنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا .
- ومنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب ، و المختار عند كثير من العلماء هو الرأى الأول .

قالوا : وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور ، حيث جعل حكم الزانين اللذين لم يحصنا جلد مائة.

ومن العلماء من قال : إن هذه الآية غير منسوخة بآية النور ، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنها مجرد الإيذاء، وذكرت مفصلة بينة المقدار فى سورة النور ، أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجل، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل ، وأنه لا نسخ بين الآيتين.

رأى أبى مسلم الأصفهاني :

لأبى مسلم الأصفهاني رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين ، فهو يرى أن المراد بالآية ١٥ من سورة النساء . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ إلى آخر الآية النساء السحافات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض، وحدثهن الحبس.

والمراد بالآية ١٦ : وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا الثلاثون من الرجال، وحدثهم الإيذاء، وأما حكم الزناة هسيأتى فى سورة النور.

وقد ردَّ عليه الألوسى ، وزيف قوله لأنه لم يقل به أحد (٣٣٢).

* * *

ومن العلماء من رجح أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ بعضه بالكتاب فى سورة النور ، وبعضه بالسنة فى حديث عبادة بن الصامت فى صحيح مسلم (٣٣٣).

ورجح أبو الأعلى المودودى فى تفسير سورة النور أنه لا نسخ فى هذه الآيات وأنها تمثل مرحلة معينة من باب التدرج فى التشريع.

فالزنا فى مكة لم يكن عليه عقوبة ، بل بين الله أنه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه ، ولم يشرع أى عقوبة عليه .

وفى العام الثانى من الهجرة ، بين أن الزنا مخالفة اجتماعية ، والأسرة هى المسئولة عن علاج هذه الحالة بالحبس أو الإيذاء . كما نجده فى الآية ١٥ ، ١٦ من سورة النساء .

فلما استقر الإسلام واشتدت دولته وحكومته ، جعل الله عقوبة الزانى الجلد وجعل الزنا جريمة جنائية تتولى عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . وكان ذلك فى العام السادس من الهجرة . والله اعلم .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَفَنُ وَالَّذِينَ يَمْوُتُونَ وَهُمْ كَافِرًا ۖ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٨﴾

المفردات :

السوء : القبح ، والمراد المعاصى مطلقاً .

بجهالة : الجهالة : الجهل والسفَه وارْتكاب ما لا يليق بالعقل ، وليس المراد عدم العلم فإن من لا يعلم ، لا يحتاج إلى التوبة ، وقال الزجاج : الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية .

التفسير :

١٧ - إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

المعنى العام :

إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السيئات فى حال الحماقة والبطش وعدم التبصر ، ثم يبادرون بالتوبة قبل حضور الموت ، فهؤلاء يقبل الله توبتهم ، وهو عليم لا يخفى عليه صدق التوبة ، حكيم لا يخطئ فى تقدير .

التوبة فى القرآن والسنة :

فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، ودعا عباده إلى التوبة وتعهده بقبولها من التائبين ، وذلك أن كل بنى آدم خطأ ، وخير الخطائين التوابون .

ولم يجعل الله وسطاء بينه وبين عبادِهِ، فقد خلقهم ورزقهم وهو أعلم بهم ، وفى القرآن الكريم آيات عديدة تحت على التوبة وتدعو إليها ، وتبين فضل الله العظيم فى قبولها .

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٢) .

وقال سبحانه : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (آل عمران : ١٣٥) .

وقال عز شأنه : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَيْبَكَ وَالِاسْمُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُرُوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . (النجم : ٣٢) .

وفى الحديث الصحيح : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى : يا عبادى ، هل من داع فاستجب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فاتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر... » .

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله عز وجل : « يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطمعته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تضلون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ... » (٣٣٤) .

* * *

التوبة من قريب :

قال تعالى :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ (٣٣٥) .

ومعنى : ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء ، ولا يسترسلون فى الشر استرسالاً ويستمرئونه ، ويتعودون عليه دون مبالاة .

ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكابه للمعصية ، كان ذلك أرحى لقبولها عند الله - تعالى - وهذا ما يفيدُه ظاهر الآية .

ومنهم من فسر قوله : مِن قَرِيبٍ . بما قبل حضور الموت ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف ، فقال : « من قريب » أى من زمان قريب ، والزمان القريب : ما قبل حضرة الموت ، ألا ترى إلى قوله : « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن .. » فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة ، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب .

وجاء في تفسير ابن كثير ، ما يفيد أن التوبة من قريب أى قبل الموت ، ونقل من الآثار والأحاديث النبوية الشريفة ما يؤيد ذلك . فقال عن ابن عباس : **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت .

وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب .

وقال قتادة والسدى : ما دام فى صحته .

وقال الحسن البصرى : **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** . ما لم يفرغ (٣٣١) .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ » .

١٨ - وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أَوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

المعنى العام :

وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات، ويقترفون المعاصي، ويستمررون على ذلك، بدون أن يستيقظ ضميرهم أو يشعرون بالندم، إلى أن ينزل بهم الموت فيقول أحدهم : إنى أعلن التوبة الآن .

كما لا تقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، وقد أعد الله للفريقين عذابا أليما .

* * *

فى رحاب الآية :

نفس الآية قبول التوبة من فريقين :

١ - الذين يرتكبون السيئات صغیرها وكبیرها ، ويستمررون على ذلك بدون توب أو ندم ، حتى إذا حضرهم الموت ورأوا هوله قال قائلهم : إنى تبث الآن .

٢ - الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم لدعوة الناس إلى التوبة فى الحياة الدنيا ، وإلى العمل الصالح ، والإنسان يملك الوقت والصحة والحياة والقدرة على العمل .

قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

وحين أدرك الغرق فرعون أعلن توبته مضطراً عندما رأى شبح الموت ، وهى توبة غير حقيقية لأن الإنسان لا يملك بديلاً لها .

قال تعالى : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ . (يونس : ٩٠-٩٢) .

وقد سئل رسول الله ﷺ - أى الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح (٣٣٨). الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد صار المال إلى فلان (٣٣٩) .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١٩)

المفردات :

كرها : مكروهين بدون رضاهن .

ولا تعضلوهن : العضل : المنع والحبس والتضييق .

بفاحشة : كل ما فحش قبحه قولاً أو فعلاً، والمراد بها هنا : نحو الزنا والنشوز .

مبينة : واضحة ظاهرة .

التفسير :

١٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ..

هيم بمدم من - ياب . بطل الله - سبحانه - عادات كانت للجاهلية ، فى شأن اليتامى وأموالهم . وميراث النساء . واستطرد الحديث ، إلى وجوب الحفاظ على عفتهم وتاديبهم ، إن ارتكبن الفاحشة ، استكمالا لعناصر إصلاح الأسرة .

وفى هذه الآية ، ينهى عن عادات جاهلية أخرى ، تتعلق بالنساء فى أنفسهن وأموالهن .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن ابن عباس ، قال : « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بأمراته : إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها » فنزلت هذه الآية (٢٤٠).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ .

أى : لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن تراثوا من أقاربكم زوجاتهم بعد وفاتهم، كما تورث الأموال والمقارات. ويتقولا : نرثهن كما نرث أموالهم.

كُرْهًا . كارهات لذلك، بأن تتزوجوهن أو تزوجوهن من غيركم، بدون رضاهن، أو تمنعهن من الزواج. كأنما تتصرفون فى أموال ورثتموها ، فإن ما كان من أفعال الجاهلية المنكرة ، لا يليق بكم - أيها المؤمنون .

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ . أى ولا تضيعوا - أيها الأزواج - على زوجاتكم اللاتى كرهتموهن لدماثة أو سامة ومال، وتحبسوهن لديكم ، مع سوء العشرة، ليفتدين أنفسهن منكم ببعض صداقكم لهن، فتأخذوهن منهن بدون رضاهن.

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ . أى إلا أن يرتكبن فعلة واضحة القبح ، ظاهرة الشناعة تجعلها - وحدها - المسئولة عن هدم الحياة الزوجية : كالزنا أو النشوز. وعندئذ ، يكون من العدل أن يأخذ الزوج المظلوم بعض ما آداء لها صداقًا ليخالفها عليه ، إذ هى التى هدمت بيته بظلمها وعدوانها.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . أى بما عرف فى الشرع حسنه ، من الإنفاق قدر طاقتكم، من غير إسراف، ومن القسم بالعدل، والقول اللين ، وانمساطة الوجه، لتعيشوا سعداء.

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ . وستتم عشرتهن لدمايتهن، أو سوء فى خلقهن يمكن احتماله ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، وذهاب الحب، واصبروا على معاشرتهم قَسَمًا أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . فلعلكم تكرهون شيئاً بحكم النفس والهوى، ويجعل الله - تعالى - فيه خيراً كثيراً : دنيوياً كان أو آخروياً، وأنتم لا تعلمون ذلك الخير ولا تدركونه، بسبب كراهتكم لهن. فاحسنوا إليهن وعاشروهن بالمعروف ، لتروا ثمرة ذلك ، فإن المعروف يستعقب الخير دائماً.

﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِدَالَ زَوْجَ مَكَانٍ زَوْجٍ وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

المضردات :

قِنْطَارًا : هو مائة رطل كما في القاموس والعرف، والمراد منه الشيء الكثير.

بُهْتَانًا

: البهتان: الكذب الذى يواجه به المكذوب عليه فيحيره، والمراد به هنا الظلم الذى يتحير من ارتكابه.

أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ : الإفضاء إلى الشيء : الوصول إليه بالملازمة . والمراد به هنا الاتصال الجنسي، أو ما يكون بين الزوجين فى خلوة .

ميثاقًا غليظًا

: عهدًا وثيقًا قويًا .

التفسير :

٢٠ - وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِدَالَ زَوْجَ مَكَانٍ زَوْجٍ ... الآية

كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد التزوج بامرأة أخرى ، بهت التى تحته - أى رماها بالفاحشة التى هى منها بريئة - حتى يلجئها إلى أن تطلب طلاقها منه فى نظير أن تفتدى نفسها بصداقها أو ببعضه (٢١). فنهوا عن ذلك .

ومعنى الآية :

إذا رغبت تَزُوجَ امرأة ترغبون فيها لتقوم مكان زوجة سابقة رغبتم فى طلاقها وفراقها، وكنتم قد أعطيتهم هذه الزوجة التى ترغبون فى فراقها مهرا كبيرا ومالا كثيرا فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئا، تأخذونه على وجه البطلان والإثم المبين.

تعليق :

تحت الآية على الفراق بالمعروف ، وهى تستكمل عدة تشريعات سماوية أنزلها الله بشأن المرأة.

فقد أحل الله لها الميراث، وجعل لها نصيبًا مفروضًا، وأحل الله لها الصداق وجعله حقا ثابتًا، وأمر بحسن معاملتها، وعشرتها بالمعروف ، ونهى عن المسارعة إلى الطلاق، ووعد الصابر على زوجته بالخير وحسن العوض. وهنا يتوج هذه الوصاية بتأكيد أن المهر حق ثابت للمرأة، لا يجوز لرجل أن يسترده، إذا كره زوجته أو رغب فى فراقها، بل ينبغى أن يفارق بالمعروف ولا يأخذ من الصداق قليلا ولا كثيرا، فقد عاشرها عشرة الأزواج، واستحل منها ما أحله الله بين الزوجين ، فكيف يبيع لنفسه أن يأخذ مالا بالبهتان والإثم ؟!

قال صاحب الكشف : والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تنقذه به وهو برى منه ، لأنه يبهت عند ذلك - أى يتحير .

٢١ - وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَنَّ مِنْكُمْ مِثْقَالَ غَلِيظًا

والمعنى : بأى وجه من الوجوه تستحلون - يا معشر الرجال - أن تأخذوا شيئاً من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهن ، والحال أنكم قد اختلط بضعكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباساً لصاحبه ، وأخذن منكم عهداً وثيقاً مؤكداً لا يحل لكم أن تنقضوه أو تخالفوه .

وفى الحديث الشريف : « استوصوا بالنساء خيراً ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم فروجهن بكلمة الله » (٢٤٢) .

التعبير بكلمة أفضى :

قال الفخر الرازى ، وأصل أفضى من الفضاء الذى هو السعة ، يقال فضا يقضو فضاء وفضاء إذا اتسع والمراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة ، لأن الوصول إلى الشيء قطع للفضاء الذى بين المتواصلين .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

ويدع أفضى بلا مفعول ، يدع اللفظ مطلقاً ، يشع كل معانيه ويلتقى كل ظلاله ، ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات ، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب ، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء وفى كل نظرة ود إفضاء ، وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم وأمل إفضاء ، وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء ، وفى كل لقاء فى طفل إفضاء (٢٤٣) .

كل هذه المعانى تجعل الرجل يخجل أن يسترد بعض ما دفع لزوجته وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى فى لحظة الفراق الرهيب .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن الرجل إذا فارق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئاً ما دام الفراق بسببه ومن جانبه ، كما أنه لا ينبغي أن يأخذ منها أكثر مما أعطاهما إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها .

٢ - اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء ، واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة ، قال الحنفية : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والمدة دخل بها أو لم يدخل ، وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها ، واتفقوا أن لا ميسيس ، وطلبت المهر كله كان لها (٢٤٤) .

٣ - جواز الإصداق بالمال الكثير ، لأن الله قال : وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِطَارًا . والقنطار المال الكثير .

روى أن عمر - رضى الله عنه - قال على المنبر : لا تغالوا فى المهور ، فقامت إليه امرأة فقالت : يابن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنع ، وقرأت هذه الآية . فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر ، ورجع عن النهى فى المغالاة (٢٤٥) .

ومن العلماء من يبين أن الذى رجع عنه عمر هو إلزام الناس بعدم المغالاة .

والآية المذكورة ، وإن كانت تقيد جواز الإصداق بالمال الجزيل ، إلا أن الأفضل عدم المغالاة فى ذلك ، مع مراعاة أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما .

وقد ورد ما يفيد التنبذ إلى التيسير فى المهور ، فقد أخرج أبو داود ، والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - ﷺ - « خير الصداق أيسره » (٢٤٦) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة » (٢٤٧) .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٢٢) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَالنِّسَاءُ الَّتِي أَنْزَعْتُمْ مِنْ الْأَخَوَاتِ مِنْ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢٣)

المفردات :

سلف

: مضى وتقدم .

فاحشة

: فعلة شديدة القبح .

مقتا	: بغضا شديدا .
وساء سبيلا	: وفيح طريقا .
وربائبكم	: جمع ربيبة وهى بنت امرأة الرجل من غيره .
فى حجوركم	: الحجر : الحصن . والمراد فى كفالتكم وتحت رعايتكم .
وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم	: زوجات أبنائكم . وسمت الزوجة حليلة ، لحملها للزوج .

التفسير :

٢٢ - وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَنْهَوْنَ عَنْ نِكَاحِ آبَائِكُمِ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

روى ابن أبى حاتم عن عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار ، قال : لما توفى زيد أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى أتى رسول الله - ﷺ - فقالت : إن أبا قيس توفى ، فقال : « خيرا » ، ثم قالت : إن ابنه قيسا خطبني وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعده ولدا فما ترى ؟ فقال لها : « ارجعى بيتك » فأنزل الله تعالى قوله (٢١٨) . وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَنْهَوْنَ عَنْ نِكَاحِ آبَائِكُمِ مِنَ النِّسَاءِ .

وذكر الواحدى وغيره أنها نزلت فى الأسود بن خلف ، كما ذكروا أنها نزلت فى صفوان بن أمية وامرأة أبيه فاختة بنت الأسود .

ويجمع بين هذه الروايات بتعدد الأسباب والمنزل واحد . قال القرطبى : كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه ، وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة ، وكانت فى قريش مباحة مع التراضى .. إلخ .

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، وهكذا قال عطاء وقتادة (٢١٩) .

المعنى :

لا تتزوجوا من تزوج آبائكم من النساء لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة ، لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج فإنه معفو عنه ، فمن كان متزوجا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذا الآية ، ويجب عليه أن يفارقها ، فإنها أصبحت محرمة عليه .

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

الفاحشة أقبح المعاصى ، والمقت أشد البغض ، وكانوا يسمونه نكاح المقت لأنه أمر معقوت بغيض .

وساء سبيلا . أى وبئس طريقا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله هبة لبيت المال .

والحكمة من تحريم نكاح زوجة الأب ما يأتي :

- ١ - أن امرأة الأب في منزلة الأم .
 - ٢ - ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه في خياله ندا له ، وكثيرا ما يكره الزوج زوج امراته الأول فطرة وطبعًا .
 - ٣ - ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب .
- لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب .
- لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب أشد التحريم ، وشنع على فعله وجعله كالزنا أو أشد .

قال تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) . وزاد هنا كلمة ومقتًا . أى غضبا من الله على فاعله فقال سبحانه : وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

٢٣ - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرِبَائِيكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

المعنى الإجمالى :

حرم الله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم ، وبَنَاتِكُمْ ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبَنَاتُ الْأَخِ ، وبَنَاتُ الْأُخْتِ ، والمحرمات لغير النسب : أمهات الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة ، وأمّهات الزوجات ، وبَنَاتُ الزوجات من غير الأزواج إذا دخل بهن ، وزوجات أبناء الصلب ، والجمع بين الأختين ، وما سلف فى الجاهلية فإنه معفو عنه ، إن الله غفور لما سلف قبل هذا التحريم ، رحيم بكم فيما شرع لكم .

حكمة التحريم

يحاول العلماء التماس الحكمة من تحريم نكاح الأقارب عن طريق الاجتهاد ، واستنباط حكمة التحريم للأمور الآتية :

١ - يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضىو الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن ، لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتاصل فى الذرية .

٢ - العلاقة بين الإنسان وبعض هذه الطبقات المحرمات علاقة قوية مؤكدة لأنها علاقة القرابة القريبة التى تكون بين الإنسان وأمّهاته أو أخواته أو عماته أو خالاته ، فبين الإنسان وبينهن علاقة رعاية وعطف واحترام

وتوقير، فلا يصح أن تتعرض هذه العلاقة القوية إلى بعض هزات الزواج ، فإن الزواج أحياناً يصاب بالفشل أو الضعف أو الطلاق أو النزاع، وهى أمور ينبغى أن تحفظ هذه القرابة القريبة من التعرض لها .

٣ - الفطرة الإنسانية السليمة تأبى أن يتصل ذو القرابة القريبة من الرجال أو النساء اتصال شهوة ومتمعة جنسية، وترى ذلك أشبه بتمتع الإنسان بنفسه لما بينه وبين إقاربه الأقربين من قوة الارتباط، وكثرة الاختلاط، ولهذا كان أكثر المحرمات فى الإسلام محرماً فى الجاهلية (٢٥٠).

٤ - قد يلحق القرابة القريبة ما يماثلها فى قوة الاتصال ، واستحقاق الاحترام والترفع عن المطامع الجنسية، كقرابة الرضاع، فإن اشتراك المرضع مع الأم فى بناء بنية الرضيع ، وإطلاعه منه على مثل ما اطلعت، جعلها أما بعد الأم ، وينتها أختاً بعد الأخت، وأما جدة بعد الجدة ، وهكذا . ولاشك فى أن التمتع بهؤلاء كالتمتع بنظائره من القربيات الصليبات تمجه الفطر السليمة .

المحرمات من النساء

اشتملت هذه الآية وحدها على تحريم ثلاثة عشر نوعاً من المحرمات ببيانها كالاتى :

سبع يحرم نكاحهن من النسب أى القرابة - وهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت.

وست أخريات يحرم نكاحهن من الرضاعة والمصاهرة وهن : الأمهات من الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبناتهن، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين .

ويتضح لنا أن المحرمات بالنسب أربعة أصناف :

١ - الأصل وإن علا، والمراد به الأم وأما وإن علت . وأم الأب والجدة كذلك ، قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .

٢ - الفرع وإن نزل، والمراد به البنت وما تتاسل منها وبنت الابن وإن نزل ، وما تتاسل منها : وَبَنَاتُكُمْ .

٣ - فرع الأبوين وإن نزل وهو الأخوات مطلقاً وبناتهن وبنات أبنائهن وإن نزلن وبنات الأخوة، وبنات أبنائهن كذلك : وَآخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ .

٤ - أول بطن فقط من فروع الجد والجدة ، والمراد به العمات والخالات. قال تعالى : وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ .

أما بنات العمات والخالات ، وبنات الأعمام والأخوال وفروعهن فمحلات لعدم ذكرهن فى المحرمات ، ودخولهن بذلك فى قوله تعالى : وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَلِقَوْلُهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي

أَتَيْتُ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ بِمِثْلِكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَّاكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ . (الأحزاب : ٥٠) .

المحرمات بالمصاهرة

يحرم بالمصاهرة أربعة أصناف:

- ١ - زوجة الأصل والمراد بها زوجة الأب والجد وإن علا ، قال تعالى : وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ .
- ٢ - زوجة الفرع ، والمراد بها زوجة الابن وابن الابن أو البنت وإن نزل ، قال تعالى : وَحَلَائِلُ أَبْنَانِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ .

٣ - أصول الزوجة ، وهي أمها وأم أبيها وإن علت ، وتحرم بمجرد العقد الصحيح لإطلاق النص في قوله تعالى : وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ .

٤ - فروع الزوجة ، وبه بنتها وبنت بنتها أو ابنها وإن نزلت ، والآية دالة على حرمة الريبيبة ، أما من عداها من فروع الزوجة فحُرمت بالإجماع ، ولا خفاء في دلالة الآية على اشتراط الدخول على الزوجة لتحريم بنتها ، قال تعالى : وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ .

وفي كتب الفقه نجد هذه القاعدة : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

المحرمات بالرضاع

يحرم بالرضاع أربعة الأنواع التي تحرم بالنسب وهي :

- ١ - الأصل الرضاعي وإن علا ، وهو الأم التي أرضعت وأمهات نسبا أو رضاعا وإن علت ، وأم الأب والجد الرضاعيين .
- ٢ - الفرع الرضاعي وإن نزل ، وهو البنت التي رضعت لبناً در من أمراةك لولدك الصلبي وبنتها وإن نزلت وابنها كذلك .
- ٣ - فرع الأبوين الرضاعيين ، وهو الأخوات من الرضاع شقيقات أو لأب أو لأم ، وبناتهن إن نزلن ، وبنات الإخوة من الرضاع كذلك .
- ٤ - أول بطن من فروع الجد والجددة الرضاعيين وهو العمات والخالات .

روى الإمام أحمد في مسنده والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه أن رسول الله - ﷺ - قال : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (٢٥١) .

مقدار الرضاع المحرم

الرضاع المحرم : يكون بوصول لبن المرأة إلى الجوف ، مصا من الثدي أو شربا من نحو إناء أو مطبوخا .
ورضعة واحدة تكفى في التحريم عند أكثر العلماء .

ولا تحريم عند الشافعى إلا بخمس رضعات متفرقات لحديث ثبت عنده بذلك ، وقد رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تحرم المصاة ولا المصتان » (٢٥٢) وفى رواية عنها أنه قال : « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصاة والمصتان » (٢٥٣) ، ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . واعتبر أبو حنيفة فى إثبات حكم الرضاع ستة أشهر بعد الحولين ، واعتبر مالك بعد الحولين - شهرا أو نحوه .

الجمع بين الأختين

يحرم على الرجل أن يجمع بين أختين فى النكاح، فلا يتزوج الرجل امرأة، ثم يضم إليها أختها بطريق الزواج، وهذا بإجماع العلماء ، قال تعالى : وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قال ابن كثير : والمعنى : وحرم الله عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عقونا عنه وغفرنا له، فدل أنه لا مشوية فيما يستقبل لأنه استثنى ما سلف .. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح بومن أسلم وتحتة أختان خير فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة ، فقد روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان، فأمرنى النبى - ﷺ - أن أطلق إحداهما (٢٥٤) .

وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . إلى آخر الآية النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء (٢٥٥) .

الجمع بين المرأة وعمتها

كما يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد ، كذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك ، فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها » (٢٥٦) .

وفى رواية للطبرانى أنه قال : « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

وأنشر في تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدي إلى تقطيع الأرحام إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من المناخسة والكيد وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم ، فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة صيانة للأسرة من التمزق والصراع وحماية لها من الضعف والوهن وسموا بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد ، وأن عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة في الجاهلية لأنه - كان وما زال غفارا للذنوب ستارا للعيوب رحيمًا بعباده ومن رحمته بهم أنه لا يعذبهم من غير نذير ، ولا يواخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح .

* * *

إن هذا التشريع الإلهي ، صمام الأمان لحماية الأسرة والنهوض بالمرأة والرجل على السواء ، وفي هذا التشريع ما يدل حقا على أنه من عند الله الحكيم العليم . فأتى لمحمد الأُمى بمثل هذا التشريع المتكامل في شئون اليتامى ، وفي شئون الميراث ، وفي شئون الأسرة ، وفي شئون المحرمات ، وفي سائر أحكام العبادات والمعاملات ، إلا أن يكون من عند الله .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

لقد حرم الله في آية تالية وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ . أي حرم ذوات الأزواج من النساء في الآية ٢٤ .

وعقب الله على تشريع هذه الأحكام بقوله سبحانه : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا . (النساء : ٣٦-٣٨) .

* * *

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

الحمد لله حمدا كثيرا ، وطيبا طاهرا مباركا فيه كما يرضى ربنا ويحب ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

تم بحمد الله تفسير الجزء الرابع فجر السبت ١٢ يناير سنة ١٩٨٣ .

ويليه تفسير الجزء الخامس إن شاء الله .

والله ولي التوفيق

★ ★ ★

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الرابع)

خرُج أحاديثة

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

- (١) تفسير غرائب القرآن وغرائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري : ٥/٤ بهامش تفسير الطبري .
الطبعة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٥ هـ .
- (٢) النسخ في اللغة الإزالة ، تقول نسخت الشمس الأثر إذا أزالته ، وفي الشرع : رفع الشارع حكم النص بعد أن يكون ثابتاً ، وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مهيمنة على ما سبقها ونسخها لها . وقد أنكر اليهود النسخ في الأحكام وقد رد عليهم القرآن وأبطل حجتهم .
- (٣) أي أن بعض الأطعمة والطهيات كانت حلالاً لليهود ثم حرم الله عليهم بعض الأطعمة عقوبة لهم لأنهم شغب غليظ الرقبة أي متكبر عن تنفيذ أحكام الله . وتحريم الحلال على اليهود نسخ للأحكام السابقة .
- (٤) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ٦/٤ .
- (٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب السابع ، ص ٦٢١ .
- (٦) أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة
رواه أحمد في مسنده ج ٢٣٨٤ ، عن شهر - ابن حوشب - عن ابن عباس ، قلت : وشهر بن حوشب هذا فيه مقال .
- (٧) تفسير الطبري : ٥/٤ ، طبعة بولاق ، الطبعة الأولى ، ١٣٣٥ هـ .
- (٨) البحيرة : كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر يحرروا أذنفاً أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تترك ولا تحمل ، وكان الرجل يقول إن شفتي فتافتي سائبة ويحملها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها .
- (٩) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ٨/٤ .
- (١٠) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ١١/٤ ، ينصرف .
- (١١) المسجد الحرام
رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ج ٣١١٥ ، ٣١٧٢ ، ومسلم في المساجد ج ٨٠٩ ، والنسائي في المساجد ج ٦٨٣ ، وأحمد ج ٢٠٤٩٥ ، من حديث أبي ذر الغفاري ، واللفظ لمسلم .
- (١٢) انظر تفسير المنار ٦/٤ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٤ ، وتفسير سورة آل عمران للدكتور محمد سيد طنطاوي ، ص ٢٤٢ .
- (١٣) تفسير المنار : ٧/٤ .
- (١٤) تفسير الفخر الرازي : ١٥١/٨ .
- (١٥) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢٤٢ .
- (١٦) تفسير الفخر الرازي : ١٥١/٨ .
- (١٧) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢٤٢ .
- (١٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري مطبعة بولاق : ١٢/٤ .
- (١٩) صلاة في مسجدي هذا
البخاري في فضائل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم في الحج (٥٠٦/١٣٩٤) ، والترمذي في الصلاة (٣٢٥) وقال : « حديث حسن صحيح » ، والنسائي في المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٠٤) ، كلهم عن أبي هريرة وأنظر تفسير النيسابوري : ١٢/٤ - ١٣ .
- (٢٠) تفسير المنار : ٧/٤ .
- (٢١) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ١٣/٤ .

- (٢٢) كبر واسن
- (٢٣) قيلة : هي قيلة بنت كاهل بن عنزة وهي أم الأوس والخزرج .
- (٢٤) تفسير الطبري : ١٦/٤ . والنيسابوري : ٢٢/٤ . وأسباب النزول للواحدي : ٦٦ - ٦٧ .
- (٢٥) تفسير الطبري : ١٩/٤ . وقد استشهد بعدد من أبيات الشعر لتأييد المعنى .
- (٢٦) تفسير الطبري : ١٨/٤ .
- (٢٧) تفسير النيسابوري : ٢٧/٤ .
- (٢٨) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٢/٤ بتصرف .
- (٢٩) مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم
البخاري في الأدب (٦١١) . ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦/٦) . وأحمد ح ١٧٦٢٢ . ١٧٦٤٨ . عن الثعلبي بن بشير .
- (٣٠) إن الله يرزقكم ثلاثاً
رواه مسلم في الأفضلية ح ٢٢٣٦ . ومالك في الجامع ح ١٥٧٢ . وأحمد ح ٨١٤٤ من حديث أبي هريرة .
- (٣١) تفسير سورة آل عمران ، د . محمد سيد طنطاوي : ٢٦٦ .
- (٣٢) من رأى منكم منكراً فليغيره ١٦
مسلم في الإيمان ح ٧٠ . والترمذي في الفتن ح ٢٠٩٨ . وقال : حديث حسن صحيح ، والتمسائي في الإيمان ح ٤٩٢٢ . ٤٩٢٣ . وأبو داود في الصلاة ح ٩١٣ . وفي الملاحم ح ٣٧٧٧ . وابن ماجه في إقامة الصلاة ح ١٦٦٥ . وفي الفتن ح ٤٠٠٢ . وأحمد ح ١٠٦٥١ . ١١٠٩١ . ١١٤٤٢ . من حديث أبي سعيد الخدري .
- (٣٣) والذي نفسى بيده لتأمن بالمعروف
رواه الترمذي في الفتن ح ٢١٦٩ . وأحمد ح ٢٢٧٩٠ . ٢٢٨١٦ من حديث حنيفة بن اليمان . وقال الترمذي : " حديث حسن " .
- (٣٤) بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة
رواه البخاري في الإيمان ح ٥٧ . ٥٨ . وفي مواقيت الصلاة ح ٥٢٤ . وفي الزكاة ح ١٤٠١ . وفي البيوع ح ٢١٥٧ . وفي الشروط ح ٣٧١٤ . ٣٧١٥ . وفي الأحكام ح ٧٢٠٤ . ومسلم في الإيمان ح ٥٦ . والترمذي في البر ح ١٩٢٥ . والتمسائي في البيعة ح ٤١٧٤ . ٤١٧٥ . ٤١٨٩ . وأحمد ح ١٨٦٨١ . ١٨٦٨٢ . ١٨٧٠٩ . ١٨٧١٣ . ١٨٧٤٣ . ١٨٧٦٠ . والدارمي في البيوع ح ٢٥٤٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلي . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٣٥) أيها الناس إنكم تقرعون هذه الآية
رواه الترمذي في الفتن ح ٢١٦٨ . وفي تفسير القرآن ح ٢٠٥٦ . وأبو داود في الملاحم ح ٤٢٣٨ . وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٠٥ . وأحمد ح ١٧ . ٣٠ . ٥٤ . من حديث أبي بكر الصديق . وقال الترمذي : حسن صحيح . ورواه أيضاً من حديث أبي ثعلبة الخشني .
- (٣٦) الترغيب والترهيب : ٢٢٣/٢ .
- (٣٧) التفسير الوسيط، لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٢ .
- (٣٨) إن أهل الكتابين افتتروا
رواه أحمد في مسنده ح ١٦٤٩٠ . وأبو داود في السنة ٤٥٩٧ ، كلامها عن معاوية بن أبي سفيان "رواه أبو داود في السنة ح ٥٩٦ . ٤٥٩٦ . من حديث أبي هريرة . ورواه الترمذي في الإيمان ح ٢٦٤١ . من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذي : حديث حسن غريب مفسر . قلت : في إسناده : عبد الرحمن بن زياد الأفرقي ، وهو منكهم فيه . ورواه ابن ماجه في الفتن ح ٣٩٩٢ . من حديث عوف بن مالك . ورواه أيضاً

فى نفس الباب ح ٢٩٩٣ . من حديث أنس بن مالك . والدارمى فى السير ٢/٢٤١ ، من حديث معاوية أيضاً إلا أنه لم يذكر فيه : ... كما يتجارى الكلب .

الكلب يفتح البلام مرض يصيب الإنسان من أثر عضه الكلب العقور . وهذا المرض يؤثر فى سائر الجسم حتى فى سجايا المخ ثم يفتك بصاحبه .

(٢٩) مختصر تفسير ابن كثير للصايونى : ٣٠٧/١ .

(٣٠) د . محمد سيد طنطاوى . تفسير سورة آل عمران : ٢٦٩ .

(٣١) تفسير الكشف : ٢٩٩/١ .

(٣٢) تفسير الفخر الرازى : ١٨١/٨ .

(٣٣) تفسير الألويسى : ٢٦/٤ .

(٤١) جاد فى تفسير المنار : ٤٧/٤ . ٤٨ . كلام خلاصته ما يأتى :

فى قوله تعالى : ﴿ كنتم ﴾ ثلاثة أوجه :

(الوجه الأول) : أنها تامة بمعنى وجدتم خير أمة ، وهى لا تحتاج إلى خير ويكون قوله ﴿ خير أمة ﴾ بمعنى الحال .

(الوجه الثانى) : أنها ناقصة ، والمعنى حينئذ كنتم فى علم الله أو قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة أخرجت للناس .

(الوجه الثالث) : أن كان هنا بمعنى صار . أى صرتم خير أمة . وهذا أضعف الأقوال .

(٤٥) فى ظلال القرآن ١٥/٤٠ .

(٤٦) أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها

رواه الترمذى التفسير ح ٣٠٠١ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ . وأحمد ح ١٩٥٠٥ ، ١٩٥١٣ ، ١٩٥٢١ ، ١٩٥٢٥ ، ١٩٥٤٥ . والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٦٠ ، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية البهزى . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصايونى : ٣٠٨/١ .

(٤٨) عرضت على الأمم : فجعل يمر التنبى رعمه الرجل ٢٢

البخارى فى الرقاق (٦٥٤١) ومسلم فى الإيمان (٣٧٤/٢٢٠) .

(٤٩) تفسير المنار : ٥٦/١ .

(٥٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٨ .

(٥١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٦/٤ .

(٥٢) تفسير الكشف : ٢١٧/١ .

(٥٣) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٨٦ بتصريف .

(٥٤) تفسير الطبرى : ٦/٤ وتفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٥) تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٦) اختار هذا الراى الشيخ محمد عبيد فى تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٧) تفسير الطبرى : ٢٧/٤ .

(٥٨) تفسير المنار : ٦٠/٤ .

- (٥٩) تفسير الفخر الرازي : ٢٠٣/٨ ، بتصريف .
- (٦٠) تفسير الطبري : ٣٧/٤ ، بتصريف سير .
- (٦١) ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ ما شرطية ، وفعل الشرط قوله ﴿ يفعلوا ﴾ وجوابه قوله ﴿ ظن يكفروه ﴾ .
- (٦٢) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي : ٣٠٠ .
- (٦٣) إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل
رواه أبو داود في الملاحح ٤٣٣٦ ، والترمذي في التفسير ح ٣٠٤٧ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٠٦ من حديث عبد الله بن مسعود
- (٦٤) تفسير المنار ٦٢/٤ ، باختصار شديد .
- (٦٥) تفسير النيسابوري : ٥١/٤ .
- (٦٦) تفسير النيسابوري : ٥١/٤ - ٥٢ .
- (٦٧) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٧/٤ .
- (٦٨) تفسير المنار ٦٥/٤ .
- (٦٩) التفسير الوسيط إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر - الحزب السابع ، ص ٦٤٦ .
- (٧٠) ما ينبغي لشيء إذا ليس لأمره أن يترعها
البخاري في الاعتصام معلقا ، وأحمد ٣٥١/٣ ، والدارمي عن جابر بن عبد الله . والألمة : الدرر ، وقيل : البيلاح ، ولأمة الحرب
إداته . انظر : النهاية ٢٢٠/٤ .
- (٧١) احموا ظهورنا
رواه أحمد ح ٣٦٠٤ من حديث ابن عباس .
- (٧٢) تفسير الكشاف : ٤٠٩/١ ، بتصريف .
- (٧٣) المرجع السابق بتصريف .
- (٧٤) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ .
- (٧٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ . تحقيق محمد علي الصابوني .
- (٧٦) تفسير النيسابوري بهادش تفسير الطبري : ٢٢/٤ .
- (٧٧) تفسير المنار : ٩٤/٤ .
- (٧٨) د . محمد سيد طنطاوي ، تفسير سورة آل عمران : ص ٢٣٤ .
- (٧٩) أن النبي قُتِلَ شهراً يدعو على رعل ، ودكان
البخاري في الجناز (١٣٠٠) ، ومسلم في المساجد (٢٩٧/٦٧٧) التفسير (٩٥) .
انظر تفسير النيسابوري ، وقد ورد هذا المعنى في تفسير ابن كثير عن البخاري .
- (٨٠) كيف يُلَاحَظ قوم شحوا بينهم ١٩
ذكره البخاري تعليقا في المغازي ، ووصله مسلم في الجهاد ح ١٧٩١ ، والترمذي في التفسير ح ٣٠٠٢ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٧ .
وأحمد ح ١١٥٤٥ ، ١٢٢٢٠ ، ١٢٢٢٥ ، ١٣١٥٨ ، من حديث أنس بن مالك . ورد ذلك في صحيح مسلم . وسند الإمام أحمد .

- (٨١) تفسير الكشاف : ٤١٣/١ .
- (٨٢) تفسير الفخر الرازي : ٣/٩ .
- (٨٣) المرجع السابق .
- (٨٤) التفسير الوسيط، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف حزب ٦٥٤/٧ .
- (٨٥) تفسير القرطبي : ٢٠٢/٤ .
- (٨٦) تفسير ابن جرير الطبري : ٩٠/٤ .
- (٨٧) ألا إن ربا الجاهلية موشوع
رواه مسلم في الحج ١٢١٨ ، وأبو داود في المناسك ح ١٩٠٥ ، وفي البيهق ح ٢٢٢٤ ، وابن ماجه في المناسك ح ٣٠٥٥ ، ٣٠٧٤ ، والدارمي في المناسك ح ١٨٥٠ .
- (٨٨) الثبر بالبر مثلا بمثل
البيهقي في البيهق ٢١٧٠ ومسلم في المساقاة ١٥٨٦ وأبو داود في البيهق ٢٢٤٨ والترمذي في البيهق ١٢٤٤ وقال : « هذا حديث حسن صحيح، والنسائي في البيهق ٤٥٥٨ وابن ماجه في التجارات ٢٢٥٢ والدارمي في البيهق ٢٥٨/٢ . كلهم عن عمر بن الخطاب .
- (٨٩) تفسير الكشاف : ٤١٤/١ .
- (٩٠) من كظم غيظا وهو قادر على أن ينقذه
رواه الترمذي في البر والصلة ح ٢٠٢١ ، وفي صفة القيامة ح ٢٤٩٢ ، وأبو داود في الأدب ح ٤٧٧٧ ، وابن ماجه في الزهد ح ٤١٨٦ . وأحمد ح ١٥٢١٠ من حديث معاذ بن أنس الجهني . وقال الترمذي : حديث حسن غريب . قلت : وليس فيه : «ملا الله جوفه أمنا وإيماننا » إنما يقترنه بلفظ : «دعا الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق يغيثه في أي الحور شاء » .
- (٩١) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بغو ٤٤
رواه مسلم في البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمي في الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبي هريرة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٢) أن تعبد الله كأنك تراء
رواه البيهقي في الإيمان ح ٥٠ ، وفي تفسير القرآن ح ١٧٧٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٩٠٨ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٦١٠ ، والنسائي في الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود في السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبي هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٣) ليسن الواصل بالمكانف
رواه البيهقي في الأدب ح ٥٩٩١ ، والترمذي في البر والصلة ح ١٩٠٨ ، وأبو داود في الزكاة ح ١٦٩٧ ، وأحمد ح ٦٤٨٨ ، ٦٧٤٦ ، ٦٧٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (٩٤) ما أصغر من استغفر
رواه الترمذي في الدعوات ح ٢٥٥٩ ، وأبو داود في الصلاة ح ١٥١٤ من حديث أبي بكر الصديق . وقال الترمذي : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبي نصيرة وليس إسناده بالقوى .
- (٩٥) تفسير الفخر الرازي : ١٢/٩ .
- (٩٦) تفسير الطبري : ١٠١/٤ صفوة التفسير لمحمد علي الصابوني : ٢٣١/١ .
- (٩٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٣٢١/١ .

- (٩٨) في ظلال القرآن . للأستاذ سيد قطب : ٢٨/٤ .
- (٩٩) تفسير الكشاف : ٤١٨/١ .
- (١٠٠) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٧ ص ٦٦٦ .
- (١٠١) تفسير المنار : ١٢٨/٤ ، نقلاً عن تفسير الكشاف .
- (١٠٢) تفسير الطبري : ٧١/٤ .
- (١٠٣) تفسير المنار : ١٢٨/٤ .
- (١٠٤) قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ولما يعلم الله الذين جامدوا منكم ﴾ بمعنى ولما تجاهدوا ، لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقه لأنه منتف بالمتقانه . يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيراً ، يريدُ ما فيه خير حتى يعلمه .
- وقال الدكتور محمد سيد طنطاوي : والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة ، وتقالوا كرامة ربيكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا في سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعيه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه .
- (١٠٥) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ أن تموت ﴾ في محل رفع اسمها ، وقوله ﴿ لنفس ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبراً لها ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . أي ما كان لها أن تموت في حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب ، إلا ماؤونا لها منه سبحانه ، والباء في قوله ﴿ إلا ياذن الله ﴾ للمصاحبة .
- وقوله ﴿ كتابا ﴾ مفعول مطلق مؤكّد لضمون الجملة قبله ، وعامله مضمّر والتقدير : كتب الله ذلك كتاباً مؤجلاً . أي له أجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو أت لا ريب فيه . وقوله ﴿ مؤجلاً ﴾ صفة لقوله ﴿ كتابا ﴾ .
- (١٠٦) تفسير المنار : ١٣٩/٤ .
- (١٠٧) تفسير المنار : ١٤٠/٤ .
- (١٠٨) تفسير المنار : ١٤١/٤ .
- (١٠٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٥/٤ .
- (١١٠) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ قولهم ﴾ بالنصب خبرها ، واسمها الاسم المتحصل من أن وما بعدها . في قوله ﴿ إلا أن قالوا ﴾ والاستثناء مفرغ ، أي : ما كان قولهم في ذلك المقام ، وفي غيره من المواطن ، إلا قولهم هذا الدعاء ، أي هو دأبهم ودينهم .
- (١١١) تفسير الألويسي : ٨٧/٤ .
- (١١٢) تفسير الطبري : ٨٠/٤ .
- (١١٣) تفسير المنار : ١٤٥/٤ .
- (١١٤) تفسير الطبري : ٨١/٤ .
- (١١٥) مختصر من تفسير الطبري للأية : ٨١/٤ .
- (١١٦) تفسير الفخر الرازي : ٣٢/٩ باختصار وحذف .
- (١١٧) انظر تفسير المنار : ١٤٧/٤ ، والفخر الرازي : ٣٢/٩ .
- (١١٨) تفسير المنار : ١٤٧/٤ ، بتصريف .
- (١١٩) هامش تفسير الطبري : ١٠٧/٤ - ١٠٨ .
- (١٢٠) د . عبد الله شحاتة : في نور القرآن ، ٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- (١٧١) تفسير المنار : ٤ / ١٥٤ ، بتصريف .
- (١٧٢) تفسير المنار : ٤ / ١٥٤ ، بتصريف واختصار .
- (١٧٣) تفسير المنار : ٤ / ١٥٦ ، بتصريف واختصار .
- (١٧٤) تفسير الفخر الرازي : ٥١ / ٩ .
- (١٧٥) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٨ / ١٧٠ .
- (١٧٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٨ / ١٧٢ .
- (١٧٧) أخرجه ابن أبي شيبة في ممنه ، والبخاري في الأدب ، وأشار إليه الترمذي في آخر باب الجهاد .
- (١٧٨) حكاة الواقدي عن الكلبي ، ومقاتل .
- (١٧٩) متاع لسافر .
- (١٨٠) هو في النار
- رواه البخاري في الجهاد والسيرح ٣٠٧٤ ، وابن ماجه في الجهاد ح ٢٨٤٩ ، وأحمد ح ٦٤٥٧ من حديث عبد الله بن عمرو .
- غلها : سرقها من التزنية ، رواه البخاري نقلا عن تاج الأصول : ٤ / ٣٩١ . كتاب الجهاد .
- (١٨١) انصر أبا داود في كتاب الجهاد - باب تعظيم الغلول .
- (١٨٢) سحر ، سحبرسي والطبري والخازن في تفسير الآية . وفيها روايات أنها نزلت في حق شهداء بدر أو أحد أو بدر واحد . أو شهداء بدر مموّنة .
- (١٨٣) ما زالت للملاكمة تظله بأجنحتها
- رواه البخاري في الجنائز ح ١٣٤٤ ، ١٢٩٢ ، وفي الجهاد ح ٢٨١٦ ، وفي المغازي ح ٤٠٨٠ ، ومسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٧١ .
- والتسائي في الجنائز ح ١٨٤٢ ، ١٨٤٥ ، وأحمد ح ١٣٧٧٥ ، ١٢٨٨٢ من حديث جابر بن عبد الله .
- أخرجه البخاري ومسلم والتسائي ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني : ١ / ٣٣٦ .
- (١٨٤) لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم
- رواه أبو داود في الجهاد ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٢٢٨٤ ، من حديث ابن عباس . قلت : في إسناده محمد بن إسحاق ، وقد عنّنه .
- (١٨٥) أسباب النزول للواحدى : ٧٣ .
- (١٨٦) المرجع السابق : ٧٤ .
- (١٨٧) تفسير القرطبي : ٤ / ٣٦٨ .
- (١٨٨) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي : ٤٤٤ .
- (١٨٩) يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة
- رواه البخاري في الجهاد ح ٢٨٠٩ ، وفي المغازي ح ٣٩٨٢ ، وفي الرقاق ح ٦٥٥٠ ، ٦٥٦٧ ، وأحمد ح ١٢٧٨٨ ، ١٢٨٢٨ ، ١٢٣٣٧ ، ١٢٣٧٦ .
- ١٢٥٩٩ ، ١٣٦٠٢ من حديث أنس بن مالك .
- (١٩٠) هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدا فتقوم ولا تقتر
- رواه البخاري في الجهاد والسيرح ٢٧٥٨ ، والتسائي في الجهاد ح ٣١٢٨ ، وأحمد ح ٨٣٣٥ من حديث أبي هريرة ، ولفظه : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدا فتقوم ولا تقتر وتسموم ولا تقطر " . قال : ومن يستطيع ذلك . قال أبو هريرة : " إن هرس المجاهد ليست في طوله فيكتب له حسنات " . اهـ

- (١٤١) تفسير ابن كثير والألباني والفخر الرازي والطبري والطبرسي والخازن .
- (١٤٢) ج ٣ ص ٩٠ - ٩١ و ١٠٠ - ١٠٢ .
- (١٤٣) هذه رواية ابن سعد .
- (١٤٤) انظر تفسير الطبري والخازن .
- (١٤٥) هو جابر بن عبد الله ، وهو الوحيد الذي سمح له بالخروج إلى حمراء الأسد ممن لم يشهدوا غزوة أحد . وانظر تفسير ابن كثير .
- (١٤٦) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٨٧/٨ .
- (١٤٧) من آتاه الله مالا ظلم يؤد زكاته
- رواه البخاري في الزكاة ج ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائي في الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجه في الزكاة ح ١٧٨٧ . وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبي هريرة .
- (١٤٨) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٤/٨ .
- (١٤٩) الأنبياء ثم الأمل فالأمل
- يؤب به البخاري في كتاب المرضى ، ورواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٢ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمي في الرقاق ح ٢٧٨٢ من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .
- (١٥٠) يا سعد ألم تسمع ما قال أبو الحباب
- رواه البخاري في تفسير القرآن ح ٤٥٦٦ ، وفي الأدب ح ٦٢٠٧ ، وفي الاستبذان ح ٦٢٥٤ ، وفي الاستبذان ح ٦٢٥٤ ، ومسلم في الجهاد والسير ح ١٧٩٨ ، وأحمد ح ٢١٢٦٠ من حديث أسامة بن زيد .
- (١٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني : ٣٤٥/١ .
- (١٥٢) من سئل عن علم فكتمه
- رواه الترمذي في العلم ح ٣٦٤٩ ، وأبو داود في العلم ح ٢٦٥٨ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٢٦٦ ، وأحمد ح ٧٥١٧ ، ٧٨٨٣ ، ٧٩٨٨ ، ٨٣٢٨ ، ٨٤٢٤ ، ٨٤٤٨ ، ١٠٠٤٨ ، من حديث أبي هريرة ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه في المقدمة ح ٢٦٤ من حديث أنس بن مالك .
- (١٥٣) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .
- (١٥٤) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .
- (١٥٥) بت عند خالتي ميمونة
- رواه البخاري في الوضوء ح ١٢٨ ، وفي الأذان ح ٦٩٩ ، ٨٥٩ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٥٦٩ ، ٤٥٧٠ ، ومسلم في صلاة المسافرين ح ٧٢٢ . والنسائي في الإمامة ح ٨٠٦ ، وفي التطبيق ح ١١٢١ ، وأبو داود في الصلاة ح ١٢٥٦ ، ١٢٦٥ ، وابن ماجه في الطهارة ح ٤٢٣ ، وفي إقامة الصلاة ح ٩٧٢ ، وأحمد ح ١٩١٥ ، ٢١٦٠ ، ٢١٨٤ ، ٢٣٩١ ، ٢٣٩٤ ، ٢٣٦٢ ، ٢٣٧٩ ، ٢٥٠٤ من حديث ابن عباس .
- مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٢٤٦.
- (١٥٦) انظر تفسير القاسمي : ١٠٦٦/٤ .
- (١٥٧) صلى قائما فإن لم تستطع فقاعد
- رواه البخاري في الجمعة ح ١١١٧ ، والترمذي في الصلاة ح ٣٧١ ، وأبو داود في الصلاة ح ٩٥٢ ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ح ١٢٢٢ . والنسائي في قيام الليل ح ١٦٦٠ ، وأحمد ح ١٩٢١٨ من حديث عمران بن حصين .
- مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني : ٢٤٦/١ .

- (١٥٨) إذا صلى أحدكم قليلاً بالتحميد . رواه الترمذى فى الدعوات ح ٢٤٧٧ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٨١ ، وأحمد ح ٢٢٤١٩ من حديث فضالة بن عبيد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .
أخرجه أبو داود فى ٨ كتاب الوتر . ٢٣ باب الدعاء حديث ١٤٨١ نقلًا عن تفسير القاسمى ١٠٦٨/٤ .
- (١٥٩) نعم وأنت صابر محتسب - القتل فى سبيل الله .
رواه مسلم فى الإمارة ح ١٨٨٥ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٧١٢ ، والنسائى فى الجهاد ح ٢١٦٥ ، وأحمد ح ٢٢٠٢٦ ، ٢٢٠٧٩ ، ٢٢١٢٠ ، ومالك فى الجهاد ح ١٠٠٢ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٤١٢ من حديث أبى قتادة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . قلت : ولفظه : "نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لى ذلك".
- (١٦٠) يا مكة لأنت أحب بلاد الله إلى
رواه الترمذى فى المناقب ح ٢٩٣٦ ، من حديث ابن عباس بلفظ : " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك " . وقال : حديث حسن صحيح غريب . رواه أحمد ح ١٨٢٤٢ من حديث أبى هريرة بنحوه .
- (١٦١) لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة
رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٢٠٢٢ من حديث أم سلمة .
- (١٦٢) انظر علوم القرآن للمؤلف ، موضوع أسباب النزول . وانظر أيضاً المرأة المسلمة بين الماضى والحاضر للمؤلف ، وانظر تفسير الآيات فى كتاب التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٢٠١/٨ .
- (١٦٣) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصعبه
رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٢٢٢ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧ ، ١٧٥٤٨ ، ١٧٥٥١ ، ١٧٥٥٢ ، ١٧٥٥٩ ، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى حديث حسن صحيح .
صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٤٠ (باب قضاء الدنيا) .
- (١٦٤) انظر تفسير الطبرى والطبرسى وابن كثير والخازن والبغوى والزمخشري .
- (١٦٥) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة .
- (١٦٦) إلا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا
رواه مسلم فى الطهارة ح ٢٥١ ، والترمذى فى الطهارة ح ٥١ ، والنسائى فى الطهارة ح ١٤٢ ، وأحمد ح ٧١٦٨ ، ٧١٧٢ ، ومالك فى الداء للصلاة ح ٣٨٦ من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه فى المساجد ح ٧٧٦ ، وأحمد ح ١٠٦١١ من حديث أبى سعيد الخدرى .
- (١٦٧) تمس عبد درهم ! تمس عبد الدينار ! تمس عبد الخميصة !
البخارى فى الجهاد ٢٨٨٧ ، وفى الرقاق ح ٦٤٢٥ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٥٢ ، ٤١٢٦ من حديث أبى هريرة . الخميصة التوب المخطط .
- (١٦٨) قوله : وإذا شيك فلا تنتش أى : إذا أصابه شوكه فلا وجد من يخرجها منه بالناقش .
- (١٦٩) قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة .
- (١٧٠) ريام يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه
مسلم فى الإمارة ح ١٩١٢ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٦٦٥ وقال : حديث حسن ، والنسائى فى الجهاد ح ٣١٦٧ ، وأحمد ح ٢٢٢٢٢ ، ٢٢٢٢٦ من حديث سلمان الفاريسى .
- (١٧١) أخرجه مسلم فى ٣٢ - كتاب الإمارة .

- (١٧٣) حرمت النار - عيانان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ٩٧ .
يشير إلى حديث " عيانان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين بالنت تحرس في سبيل الله " رواه الترمذى في فضائل الجهاد ١٧٣٩ وقال : " حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زيوق . قلت : شعيب هذا ، ضعفه بعضهم .
- (١٧٣) أخرجه مسلم في ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها .
- (١٧٤) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله مسلم في صلاة للمسافرين ٨٠٥ ، والترمذى في فضائل القرآن ح ٢٨٨٣ ، وقال : غريب وأحمد ح ١٧١٨٥ . من حديث نواس بن سمعان .
- (١٧٥) حرقان : سريان أو مجموعتان
- (١٧٦) المراد الآيات التي تبدأ من قوله تعالى : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ آية ١٩٠ إلى آخر السورة وهي ١١ آية .
- (١٧٧) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ، ط ٢ ، ص ٢٠٧ .
- (١٧٨) المنتخب في تفسير القرآن الكريم : ١١٢ .
- (١٧٩) استوصوا بالنساء خيراً
- رواه البخارى في أحاديث الأنبياء ح ٣٣٣١ ، وفي النكاح ح ٥١٨٦ ، ومسلم في الرضاع ح ١٤٦٨ . وأحمد ح ١٠٠٧١ ، والدارمى في النكاح ح ٢٢٢١ من حديث أبي هريرة .
- (١٨٠) تفسير الفخر الرازى : ١٦١/٩ .
- (١٨١) تفسير الكشف : ٤١٢/١ .
- (١٨٢) من استأذ بالله فاعينوه .. من سألكم بالله فأعطوه
أبو داود في الزكاة ١٦٧٢ ، والنسائى في الزكاة ٢٥١٧ ، وأحمد ح ٦٨/٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، كلهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه .
- (١٨٣) من سره أن يبسط له في رزقه
البخارى في البيوع ٢٠٦٧ ، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٧ ، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٣ ، كلهم عن أنس .
- (١٨٤) الرحم معلقة بالعرش
رواه مسلم في البر والصلة ح ٢٥٥٥ ، من حديث عائشة .
- (١٨٥) محاضرات في التفسير لطلبة السنة الرابعة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة . مخطوط . أملاء على الطلبة د . محمد عبد الله دراز في العام الجامعى ١٩٥٤-١٩٥٥م .
- (١٨٦) تفسير المنار : ٢٨٥/٤ . أنظر التراث للجمع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد ١٨ جزء ٤ ص ٢٨٥ طبعة ثانية مأخوذة عن الطبعة الأولى .
- (١٨٧) د . محمد بلتاجى : دراسات في أحكام الأسرة . مكتبة الشباب بالقاهرة : ٤٧١ .
- (١٨٨) د . محمد عبد الله دراز تفسير سورة النساء . مخطوط ، والمرأة في القرآن والسنة لحمد عزة دروزة . ص ١١٧ .
- (١٨٩) على حسب الله ، الزواج في الشريعة الإسلامية الطبعة الأولى ص ١١٥ .
- (١٩٠) راجع مطالبة بعض الأوربيات بتعدد الأزواج للرجل الواحد : ٣٦٠/٤ من تفسير المنار . وراجع كلاما حسنا للمرحوم الشيخ أحمد شاكر في من يريد منع التعدد : ١٠٢/٣ - ١٠٩ ، عمدة التفسير للحافظ ابن كثير .
- (١٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر : ١٠٢ ، هامش .

- (١٩٢) اللهم هذا قسمي فيما أملك
رواه أبو داود في التكاثر ح ٢١٢٤ ، والترمذي في التكاثر ح ١١٤٠ ، والنسائي في عشرة النساء ح ٣٩٤٢ ، وابن ماجه في التكاثر ح ١٩٧١ ، وأحمد ح ٢٤٥٨٧ ، والدارمي في التكاثر ح ٢٢٠٧ من حديث عائشة ، واللفظ لأبي داود ، وأشار الترمذي إلى تضمينه .
- (١٩٣) من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى
أبو داود في التكاثر ٢١٢٣ والترمذي في التكاثر ١١٤١ ، والنسائي في عشرة النساء ٣٩٤٢ وابن ماجه في التكاثر ١٩٦٩ .
- (١٩٤) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس .
- (١٩٥) نداء للجنس اللطيف يوم المولد النبوي الشريف ، تأليف رشيد رضا ، ص ٤٥ .
- (١٩٦) الضمير في ﴿ منه ﴾ يعود إلى الصدقات أي المهور ، ﴿ نفسا ﴾ منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النعمه في قوله : ﴿ ملين ﴾ .
والتمييز معول عن الفاعل ، والأصل فإن طابت أنفسهن عن شره منه فكلوه .
- (١٩٧) محاضرات في التفسير لمطالبة ليسانس كلية دار العلوم سنة ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .
- (١٩٨) ألا من ولي يتيمًا له فليجير فيه
رواه الترمذي في الزكاة ح ٦٤١ ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال : في إسناده مقال لأن المشي بن الصباح يضعف في الحديث .
- (١٩٩) تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت - الأجزاء العشرة الأولى ص ١٨٣ .
- (٢٠٠) تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوي . ص ٥١ .
- (٢٠١) تفسير القرآن الكريم . الطبعة الثالثة : ١٨٤ للأستاذ محمود شلتوت .
- (٢٠٢) تفسير الفخر الرازي : ١٩٠/٩ .
- (٢٠٣) التفسير الوسيط ، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٨ ص ٧٦٠ .
- (٢٠٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٠/١ .
- (٢٠٥) هي محكمة وليست بمنسوخة .
- رواه البخاري في تفسير القرآن ح ٤٥٧٦ من قول ابن عباس .
- (٢٠٦) تفسير القرطبي : ٤٩/٥ .
- (٢٠٧) وهو أول من نطق بالمصاحف وتوفي سنة ١٢٩ هـ .
- (٢٠٨) تبصرة المتذكر ، وتذكرة المتبصر . لأحمد بن يوسف الموصلي الكواشي تحقيق السيدة/ مفيدة آدم محمد زين : ٦٣٢ .
- (٢٠٩) تفسير سورة النساء . للأستاذ / محمد سيد طنطاوي : ٦٧ .
- (٢١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٢ .
- (٢١١) في ظلال القرآن : ٨٩/٤ .
- (٢١٢) تفسير الفخر الرازي : ١٠٠/٩ .
- (٢١٣) انظر اللسان : ٢٠١/١٩ ، وانظر تفسير الكواشي المسمى (تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر) تحقيق الأستاذة مفيدة آدم : ٦٣٣ . رسالة ماجستير بإشراف المؤلف .

- (٢١٤) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ . وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ .
رَوَاهُ النَّسَائِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٦٦٩ ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧١ . مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ .
- (٢١٥) تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ : ٤٥٧/١ .
- (٢١٦) تَفْسِيرُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ : ٢٠٢/٩ .
- (٢١٧) اجْتَبَيْتُمَا السَّبْعَ الْمَوْقِفَاتِ
رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٧٦٧ . وَمُسْلِمٌ فِي الْإِيمَانِ ح ٨٩ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٦٧١ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧١ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .
- (٢١٨) أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ
رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمُلَاقَاحِ ح ٥٣٠٤ ، وَفِي الْأَدَبِ ح ٦٠٠٥ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْبَرِّ وَالصَّلَةِ ح ١٩١٨ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْأَدَبِ ح ٥١٥٠ . وَاحْمَدُ ح ٢٣٣١٢ . مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَمَالِكٌ فِي الْجَامِعِ ح ١٧٦٨ بِإِسْنَادٍ .
- (٢١٩) الْمُتَخَبُّطُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ . الْمَجْلِسُ الْأَعْلَى لِلشُّعُونَ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ: ١١٥
- (٢٢٠) قَالَ تَعَالَى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلُوبُ اللَّهِ يَفْتِكُمُ فِي الْكَلَامَةِ إِنْ أَمَرُوْهُ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا نِسَاءً فَلَهُمَا النِّصْفَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجُلًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النِّسَاءُ / ١٧٦) .
- (٢٢١) قَالَ تَعَالَى : وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ مِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَوْصِيْنَ بِهَا أَوْ فَرِي . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٢) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ مِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَوْصِيْنَ بِهَا أَوْ فَرِي . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٣) قَالَ تَعَالَى : يُوْصِيْكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَرِثْنَ مِمَّا تَرَكَ وَلَهُنَّ النِّصْفُ كُلُّهُنَّ وَلَوْ عَلَى الْوَصِيَّةِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً وَلاَ وَلَدٌ لَكُنَّ عِشْرَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدُ وَالْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِالْأَخِ . وَالْأُخْتُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْإِخْوَةُ لِأَنَّ هَذَا قَطْعٌ ، أَنْظِرِ الْمِيرَاثَ فِي الشَّرْعِ الْإِسْلَامِيِّ لِلْأَسْتَاذِ عَلَى حَسَبِ اللَّهِ : ٥٦ .
- (٢٢٤) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ مِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَوْصِيْنَ بِهَا أَوْ فَرِي . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٥) قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَقِّ الْأُنثَيْنِ مِمَّا تَرَكَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يَوْصِيْنَ بِهَا أَوْ فَرِي . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٦) قَالَ تَعَالَى : وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا النِّصْفُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ وَلَهُنَّ الْوَرْثَةُ إِنْ كُنَّ عِزًّا وَلَهُنَّ أَمْوَالٌ فَلَهُنَّ النِّصْفُ . (النِّسَاءُ / ١٢) .
- (٢٢٧) إِنْ الرَّجُلُ لِيَمْلِكُ سِتِينَ سَنَةً بِطَلْعَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ يَجُورُ فِي وَصِيَّتِهِ
رَوَاهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣٧٠٤ ، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْوَسَائِلِ ح ٣١١٧ ، وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ . وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْوَسَائِلِ ح ٢٨٧٦ ، وَاحْمَدُ ح ٧٦٨٤ . مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ .
مَخْتَصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : ٣٦٦ . وَنَقَلَ حَدِيثًا آخَرَ عَنْ أَبِي دَاوُدَ فِي بَابِ الْإِشْرَارِ فِي الْوَصِيَّةِ . وَهُوَ فِي نَفْسِ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ .
- (٢٢٨) خَذُوا عَنِّي خِذَايَ عِنْدَ عَنِّي جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
مُسْلِمٌ فِي الْحُدُودِ ١٦٩٠ وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْحُدُودِ ٤٤١٥ وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْحُدُودِ ١٤٢٤ وَقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَابْنُ مَاجَةَ فِي الْحُدُودِ ٢٥٥٠ وَالدَّارِمِيُّ فِي الْحُدُودِ ١٨١/٢ ، كُلُّهُمْ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ، وَاحْمَدُ ح ٤٧٦/٣ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْحَقِيقِ .
- (٢٢٩) مَخْتَصَرُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : ٣٦٦/١ بِتَصَرُّفٍ وَاخْتِصَارٍ .
- (٢٣٠) الْمَيْسُوطُ : ٤٤/٩ .
- (٢٣١) أَنْظِرِ الْمُدُونَةَ : ٢٣١/٦ . وَالْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ : ١٦٥٨ .

- (٢٣٢) تفسير الألوسی : ٢٣٦/٥ .
- (٢٣٤) تفسير سورة التماء للأستاذ/ محمد سيد طنطاوى : ١٠٦ .
- (٢٣٤) يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى
- مسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٧ ، وأحمد ١٦٠/٥ ، كلامهما عن أبى ذر رضى الله عنه .
- (٢٣٥) لفظ التوبة مبتدأ ، وقوله : ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف خبر ، وقوله ﴿ على الله ﴾ متعلق بمحذوف صفة للتوبة أى إنما التوبة الكليئة على الله كائنة للذين يعملون السوء بجهالة .
- (٢٣٦) أى تدركه غرغرة الموت .
- (٢٣٧) إني الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ
- الترمذى فى الدعوات ٣٥٣٧ وقال : "حديث حسن غريب" ، وابن ماجه فى الزهد ١٢٥٢ وقال البوصيرى فى الزوائد : "هى إسناد الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه ، وكذلك مكحول الدمشقى" ، وأحمد ١٢٢/٢ ، ١٥٢ كلهم عن ابن عمر .
- (٢٣٨) أن تصدق وأنت صحيح صحيح
- رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤١٩ ، وفى الوصايا ح ٢٧٤٨ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٠٣٢ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٥٤٢ ، وفى الوصايا ٣٦١١ وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٥ ، وابن ماجه فى الوصايا ح ٢٧٠٦ ، وأحمد ح ٧١١٩ ، ٩٤٢٦ . من حديث أبى هريرة .
- (٢٣٩) أى : أفضل الصدقة وأفضل الأعمال الصالحة ما عمله الإنسان فى مسعته وقوته والدنيا مقبلة عليه ، وهو قادر على الطاعة والمعصية ، ولا تؤخر الصدقة إلى أن يهجم الموت فتوصى بالمال لفلان وفلان ، ممن لهم عليك ديون أو صدقات واجبة ، أو صلة للرحم . أو أى عمل صالح توصى به . (وقد صار المال إلى فلان) أى : أصبح المال ملكا لورثتك .
- (٢٤٠) كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه
- رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٧٩ موقوفا على ابن عباس .
- (٢٤١) رواء الطبرانى عن ابن عباس .
- (٢٤٢) استوصوا بالنساء خيرا
- تقدم تخريجه رواء الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه مسلم فى صحيحه عن جابر فى خطبة حجة الوداع .
- (٢٤٣) فى ظلال القرآن : ٩٨/٤ .
- (٢٤٤) تفسير القرطبى : ١٠٢/٥ .
- (٢٤٥) رواء الإمام أحمد .
- (٢٤٦) خير الصداق أيسره
- ذكره أبو داود فى النكاح تحت حديث رقم ٢١١٧ تعليقا من حديث عمر بن الخطاب ، وهو بلفظ : خير النكاح أيسره . أخرجه أبو داود فى باب «من تزوج ولم يسم صداقا حتى مات» من كتاب النكاح : ٢٢١/٢ .
- (٢٤٧) إن أعظم النساء بركة أيسرن مؤونة
- أحمد ٨٢/٦ ، ١٤٥ ، والبيهقى فى المنان الكبرى فى الصداق ٣٣٥/٧ .
- (٢٤٨) انظر تفسير ابن كثير : ٤٦٨/١ ، ومختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ ، وتفسير القرطبى : ١٦٧٤ ، وأسباب النزول للواحدي : ٩٨ .
- (٢٤٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ .

(٢٥٠) حجة الله البالغة : ٩٨/٢ .

(٢٥١) يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

رواه البخاري في الشهادات ح ٣٦٤٥ ، وفي النكاح ح ٥٢٣٩ ، ومسلم في الرضاع ح ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٧ ، والنسائي في النكاح ح ٢٣٠١ ، ٣٣٠٢ ، ٣٣٠٦ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٥٥ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، وأحمد ح ٢٤٨٦ ، ٢٦٢٨ ، ٢٣٦٥ ، ٢٢٧٢٢ ، ومالك في الرضاع ح ١٢٧٨ ، ١٢٩١ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٤٧ ، ٢٢٤٨ ، ٢٢٤٩ .

(٢٥٢) لا تحرم المصاة ولا المصتان

رواه مسلم في الرضاع ح ١٤٥٠ ، والترمذي في الرضاع ح ١١٥٠ ، والنسائي في النكاح ح ٣٣٠٩ ، ٣٣١٠ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٦٣ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٤١ ، وأحمد ح ١٥٦٨٩ ، ٢٣٥٠٦ ، ٢٤١٢٣ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٥١ .

(٢٥٣) لا تحرم الرضعة

رواه مسلم في الرضاع ح ١٤٥١ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٤٠ من حديث أم الفضل .
مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٢/١ .

(٢٥٤) أسلمت وعندي امرأتان أختان

أبو داود في الطلاق ح ٢٢٤٣ ، والترمذي في النكاح ح ١١٢٩ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٥٠ ، وأحمد ح ١٣٢/١ ، كلهم عن فيروز الديلمي .

(٢٥٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٤/١ .

(٢٥٦) لا تنكح المرأة على عمها ولا على خالتها

البخاري في النكاح ح ٥١٠٨ - ٥١١٠ ، ومسلم في النكاح ح ١٤٠٨ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٦٥ ، والترمذي في النكاح ح ١١٢٦ ، وأحمد ح ١٠١/٢ ، ٤٢٢ .

★ ★ ★ .

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الرابع

محتويات الكتاب

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
	أولاً : سورة آل عمران ٩٣-٢٠٠	
٩٣	﴿ كل الطعام كان حلالاً لنبي إسرائيل ... ﴾	٦٢٧
٩٤	﴿ فمن افترى على الله الكذب ... ﴾	٦٢٧
٩٥	﴿ قل صدق الله ... ﴾	٦٢٧/
٩٦	﴿ إن أول بيت وضع للناس ... ﴾	٦٣١
٩٧	﴿ فبها آيات بينات ... ﴾	٦٣١
٩٨	﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون ... ﴾	٦٣٥
٩٩	﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون ... ﴾	٦٣٥
١٠٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا ... ﴾	٦٣٥
١٠١	﴿ وكيف تكفرون ... ﴾	٦٣٥
١٠٢	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ... ﴾	٦٤٠
١٠٣	﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ... ﴾	٦٤٠
١٠٤	﴿ ولتكن منكم أمة يذمهم ... ﴾	٦٤٠
١٠٥	﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ... ﴾	٦٤٤
١٠٦	﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... ﴾	٦٤٤
١٠٧	﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ... ﴾	٦٤٤
١٠٨	﴿ تلك آيات الله ... ﴾	٦٤٤
١٠٩	﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ... ﴾	٦٤٤
١١٠	﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ﴾	٦٤٩
١١١	﴿ لن يضروكم إلا أذى ... ﴾	٦٤٩
١١٢	﴿ ضربت عليهم الذلة ... ﴾	٦٤٩
١١٣	﴿ ليسوا سوا ... ﴾	٦٥٤
١١٤	﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ... ﴾	٦٥٤
١١٥	﴿ وما يفعلوا من خير ... ﴾	٦٥٤

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٦	﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ... ﴾	٦٥٨
١١٧	﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا ... ﴾	٦٥٨
١١٨	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ... ﴾	٦٦١
١١٩	﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ... ﴾	٦٦١
١٢٠	﴿ إن تمسسكم حسنة تصؤهم ... ﴾	٦٦١
١٢١	﴿ وإذا غـ... دوت من أهلك ... ﴾	٦٦٣
١٢٢	﴿ إذ همّت طائفة تـ... ان منكم ... ﴾	٦٦٣
١٢٣	﴿ ولقد نصبركم الله ببر... ﴾	٦٦٣
١٢٤	﴿ إذ تقـ... ول للمؤمنين ... ﴾	٦٦٣
١٢٥	﴿ بلى إن تصـ... روا وتتـ...وا ... ﴾	٦٦٣
١٢٦	﴿ وما جعله الله إلا بشـ...رى لكم ... ﴾	٦٧١
١٢٧	﴿ ليقطع طرفا من الذين كفروا ... ﴾	٦٧١
١٢٨	﴿ ليس لك من الأمرـ... رشىء ... ﴾	٦٧١
١٢٩	﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ... ﴾	٦٧١
١٣٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تاكلوا الربا ... ﴾	٦٧٤
١٣١	﴿ واتقـ...وا النار ... ﴾	٦٧٤
١٣٢	﴿ وأطـ...عوا الله والرسـ...ول ... ﴾	٦٧٤
١٣٣	﴿ وسارعوا إلى مغـ...فرة من ربكم ... ﴾	٦٧٧
١٣٤	﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ... ﴾	٦٧٧
١٣٥	﴿ والذين إذا فـ...علوا فـ...احشة ... ﴾	٦٧٧
١٣٦	﴿ أولئك جزاؤهم مغـ...فرة ... ﴾	٦٧٧
١٣٧	﴿ قد خلت من قـ...بلكم سنن ... ﴾	٦٨٢
١٣٨	﴿ هذا بيـ...ان للناس ... ﴾	٦٨٢
١٣٩	﴿ ولا تهـ...نوا ولا تحـ...زنوا ... ﴾	٦٨٢
١٤٠	﴿ إن يمـ...سكم قـ...رح ... ﴾	٦٨٢

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤١	﴿ ولِيَـمـحـصـ الله الذين آمنوا ... ﴾	٦٨٢
١٤٢	﴿ أم حسـبـكم أن تدخلوا الجنة ... ﴾	٦٨٢
١٤٣	﴿ ولقـد كنـتم تمنون الموت ... ﴾	٦٨٨
١٤٤	﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾	٦٨٨
١٤٥	﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ... ﴾	٦٩١
١٤٦	﴿ وكأين من نبي قاتل معه ربيون ... ﴾	٦٩١
١٤٧	﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ... ﴾	٦٩١
١٤٨	﴿ فأتاهم الله ثواب الدنيا ... ﴾	٦٩١
١٤٩	﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ... ﴾	٦٩٦
١٥٠	﴿ بل الله مـولـاكم ... ﴾	٦٩٦
١٥١	﴿ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ... ﴾	٦٩٦
١٥٢	﴿ ولقد صدقكم الله وعده ... ﴾	٦٩٦
١٥٣	﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ... ﴾	٧٠٠
١٥٤	﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ... ﴾	٧٠٠
١٥٥	﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ... ﴾	٧٠٥
١٥٦	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ... ﴾	٧٠٥
١٥٧	﴿ ولئن قتلتكم في سبيل الله ... ﴾	٧٠٥
١٥٨	﴿ ولئن متم أو قتلتم ... ﴾	٧٠٥
١٥٩	﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ... ﴾	٧٠٨
١٦٠	﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ... ﴾	٧٠٨
١٦١	﴿ وما كان لنبي أن يغفل ... ﴾	٧١٠
١٦٢	﴿ أفمن اتبع رضوان الله ... ﴾	٧١٠
١٦٣	﴿ هم درجات عند الله ... ﴾	٧١٠
١٦٤	﴿ لقد من الله على المؤمنين ... ﴾	٧١٢
١٦٥	﴿ أولما أصابتكم مصيبة ... ﴾	٧١٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦٦	﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ... ﴾	٧١٤
١٦٧	﴿ وليعلم الذين نافقوا ... ﴾	٧١٤
١٦٨	﴿ الذين قاتلوا لإخوانهم ... ﴾	٧١٤
١٦٩	﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ... ﴾	٧١٦
١٧٠	﴿ ففرحين بما آتاهم الله من فضله ... ﴾	٧١٦
١٧١	﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ... ﴾	٧١٩
١٧٢	﴿ الذين استجابوا لله والرسول ... ﴾	٧٢٠
١٧٣	﴿ الذين قال لهم الناس ... ﴾	٧٢٠
١٧٤	﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ... ﴾	٧٢٠
١٧٥	﴿ إنما ذلكم الشيطان ... ﴾	٧٢٣
١٧٦	﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ... ﴾	٧٢٣
١٧٧	﴿ إن الذين أشكروا الكفر بالإيمان ... ﴾	٧٢٣
١٧٨	﴿ ولا يحسبن الذين كفروا ... ﴾	٧٢٣
١٧٩	﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين ... ﴾	٧٢٦
١٨٠	﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله ... ﴾	٧٢٧
١٨١	﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا ... ﴾	٧٢٧
١٨٢	﴿ ذلك بما قسدت أيديكم ... ﴾	٧٢٧
١٨٣	﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ... ﴾	٧٢٧
١٨٤	﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل ... ﴾	٧٢٧
١٨٥	﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾	٧٣٢
١٨٦	﴿ لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ... ﴾	٧٣٣
١٨٧	﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ... ﴾	٧٣٣
١٨٨	﴿ لا تحسبن الذين يفرحون ... ﴾	٧٣٥
١٨٩	﴿ ولله ملك السموات والأرض ... ﴾	٧٣٥
١٩٠	﴿ إن في خلق السموات والأرض ... ﴾	٧٣٨

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩١	﴿ الذين يذكرون الله ... ﴾	٧٣٨
١٩٢	﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتَه ... ﴾	٧٤٠
١٩٣	﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ... ﴾	٧٤١
١٩٤	﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا ... ﴾	٧٤١
١٩٥	﴿ فاستجاب لهم ربهم ... ﴾	٧٤١
١٩٦	﴿ لا يغيرنك قلب الذين كفروا ... ﴾	٧٤٤
١٩٧	﴿ من يهينك فقليل ... ﴾	٧٤٤
١٩٨	﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ... ﴾	٧٤٤
١٩٩	﴿ وإن من أهل الكتاب ... ﴾	٧٤٦
٢٠٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ... ﴾	٧٤٦
٧٤٨	فضل الجهاد	
٧٤٩	فضل سورة آل عمران	
٧٤٩	قافية السورة	
٧٥٠	سورة النساء	
٧٥١	أولاً : الأهداف العامة لسورة النساء	
٧٥٢	الوصية بالنساء واليتامى	
٧٥٣	الحال والميراث	
٧٥٤	تعدد الزوجات	
٧٥٥	شبهة تفتضح ، وحجة تتضح	
٧٥٦	التضامن الاجتماعي	
٧٥٧	الحرمات من النساء	
٧٥٨	مصادر التشريع في الاسلام	
٧٥٩	القتال وأسباب النصر	
٧٦١	ثانياً : تفسير سورة النساء ١ - ٢٣	
٧٦٢	﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ... ﴾	١

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... ﴾	٧٦٤
٣	﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ... ﴾	٧٦٦
٤	﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ... ﴾	٧٧٢
٥	﴿ وَلَا تَوْنُوا السَّعْيَ فَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ ... ﴾	٧٧٥
٦	﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ ... ﴾	٧٧٧
٧	﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ ... ﴾	٧٨٠
٨	﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقَسَمَةَ ... ﴾	٧٨٢
٩	﴿ وَلِيُخْشِ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴾	٧٨٣
١٠	﴿ إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ... ﴾	٧٨٤
١١	﴿ يُوَصِّصِيكُمْ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... ﴾	٧٨٧
١٢	﴿ وَلَكُمْ نَصْفٌ مِمَّا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ... ﴾	٧٨٧
١٣	﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... ﴾	٧٩٣
١٤	﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾	٧٩٣
١٥	﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ... ﴾	٧٩٤
١٦	﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ ... ﴾	٧٩٤
١٧	﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ ... ﴾	٧٩٧
١٨	﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ... ﴾	٧٩٧
١٩	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ... ﴾	٨٠٠
٢٠	﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ ... ﴾	٨٠٢
٢١	﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ ... ﴾	٨٠٢
٢٢	﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ... ﴾	٨٠٤
٢٣	﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... ﴾	٨٠٤
٨١١	تخريج الأحاديث والهوامش	
٨٢٦	محتويات الكتاب	

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه

الجزء الخامس بإذن الله





تفسير القرآن الكريم
بسم الله الرحمن الرحيم

د عبد الله شحاته

دار غريب

١٤٢٥ هـ 2005

أ.د. محمد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غيب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تحريم الخيلات

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَنِكَاحُكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْنَّ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٥﴾

المفردات:

المحصنات: واحدته: محصنة (يفتح الصاد) يقال: حصنت المرأة (بضم الصاد) حصنا وحصانة: إذا كانت عفيفة فهي حاصن وحصان (يفتح الصاد) ويقال: أحصنت المرأة: إذا تزوجت: لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته، وأحصنها أهلها: زوجها.

ما ملكت أيمانكم: أي: بالسبي في حروب دينية، وأزواجهن كفار في دار الحرب: فينفسخ عند ذلك نكاحهن، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحمل حملها وحيض غيرها ثم طهرها.

الإحصان: العفة.

المسافح: الزاني.

الاستمتاع بالشيء: هو التمتع به.

الأجور: واحدها: أجر: وهو في الأصل الجزاء الذي يعطى في مقابلة شيء ما من عمل أو منفعة، والمراد به هنا: المهر.

فريضة: أي: حصة مفروضة محددة مقدرة.

لا جناح: أي: لا حرج ولا تضيق.

الاستطاعة، كون الشيء في طوعك لا يتعاضى عليك، والطول الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب.

المحصنات، هنا: الحرائر.

الفتيات، الإماء.

محصنات، أى: عقيقات.

مسافحات، مستأجرات للبقاء.

الأخــدان، واحداهم: خدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبتذل نفسها لكل أحد.

الفاحشة، الفعل القبيحة وهى: الزنى.

المحصنات، هنا: الحرائر.

المــذاب، هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن؛ لأنه لا ينتصف.

المــتت، الجهد والمشقة.

تمهيد:

هاتان الآيتان من تنمة ما قبلهما من المعنى فقد ذكر فى أولهما بقية ما يحرم من النساء وحل سوى من تقدم، ووجوب إعطاء المهور، وذكر فى الآية الثانية حكم نكاح الإماء وحكم حدهن عند ارتكاب الفاحشة، لكن من قسموا القرآن ثلاثين جزءا جعلوهما أول الجزء الخامس، مراعاة للفظ دون المعنى إذ لو راعوه لجعلوا أول الخامس: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**.

٢٤ - **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...** أى: حرم الله عليكم نكاح المحصنات أى: المتزوجات. **وَالْمُحْصَنَاتُ**، معطوف على قوله تعالى: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**. والمعنى: وكما حرم الله عليكم نكاح أمهاتكم وبناتكم ... إلخ. فقد حرم عليكم أيضا نكاح ذوات الأزواج من النساء عامة، حرائر وغير حرائر إلا ما سبيتم وملكتن منهن فى حرب بينكم وبين الكفار، فإن نكاحهن السابق ينفسخ بالسبى فيصرن حلالا لكم بعد استبراء أرحامهن.

وقد كان الإسلام مضطرا إلى هذه المعاملة؛ لأنها معاملة بالمثل، والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه وقد جاء الإسلام والرق كنهر يجرى فحاول الإسلام توسيع المصب وتضييق المنبع؛ حتى يجف نهر الرق. وقد حرم الرق الآن؛ وروح الإسلام تبارك هذا التحريم.

كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. أى: كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا، فالزموا ما كتب الله عليكم فى تحريم ما حرم، ولكم فيما عدا هؤلاء المؤمنات المحرمات، أن تطلبوا النساء اللاتى أحلهن الله لكم

عن طريق ما تقدمونه لهم من أموالكم كمهور لهم وبذلك تكونون قد أحصنتم أنفسكم ومنعتموها عن السفاح والفجور والزنى.

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً. أَى: وأى امرأة من النساء اللواتى أحللت لكم تزوجتموها فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه وتتفقوا عليه عند العقد، فريضة فرضها الله عليكم.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاوَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ. ولا حرج عليكم فيما تم بينكم عن تراض من تنازل زوجة عن بعض مهرها، أو زيادة زوج فيه.

إن الله كان ولم يزل مطلعاً على شئون العباد مدبراً لهم فى أحكام ما يصلح به أمرهم.

٢٥ - وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ... أَى: ومن لم يجد منكم - أيها الأحرار المؤمنون - سعة من المال تمكنه من القيام بتكاليف الزواج من إحدى الحرائر المؤمنات؛ فلينكح أمة من الإماء المؤمنات؛ لخفة تكاليف الزواج منها، ويتخذ منها زوجة دون غضاضة فى ذلك الزواج، فقد يكون فى قوة إيمان الأمة ما يعوضه خيراً مما فاته من نكاح الحرة، والله وحده هو الذى يعلم حقيقة إيمانكم، الذى هو أساس التفاضل بينكم عنده سبحانه وتعالى، فأنتم جميعاً أمام الله سواء؛ أكرمكم عند الله أتقاكم.

فَإِنْ كُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ. أَى: فإذا رغب أحدكم أن يتزوج إحدى الإماء المسلمات، فليكن نكاحه إياها بإذن وليها ومالكها، وليؤد لها مهرها، من غير إضرار أو نقص بل المهر المتعارف لأمثالهن، مع حسن التعامل وتوفية الحق، واختاروهن عفيفات، فلا تختاروا زانية معلنة ولا خلية، فإن أتيت الزنى بعد زواجهن؛ فقويتن نصف عقوبة الحرة، وإباحة نكاح المملوكات عند عدم القدرة جائز لمن خاف منكم المشقة المفضية إلى الزنى، وصبركم عن نكاح المملوكات مع العفة خير لكم. والله كثير المغفرة عظيم الرحمة.

التيسير

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنسَانَ الضَّعِيفَ﴾ (٢٨)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنسَانَ الضَّعِيفَ﴾ (٢٦)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنسَانَ الضَّعِيفَ﴾ (٢٧)

التمهيد:

بعد أن ذكر أحكام النكاح فيما سلف على طريق البيان والإسهاب، ذكر هنا: عللها وأحكامها كما هو دأب القرآن الكريم أن يعقب ذكر الأحكام التي يشرعها للعباد ببيان العلل والأسباب؛ ليكون في ذلك طمأنينة للقلوب، وسكون للنفوس؛ لتعلم مغبة ما هي مقدمة عليه من الأعمال، وعاقبة ما كلفت به من الأفعال، حتى تقبل عليها وهي مثلجة الصدور عالمة بأن لها فيها سعادة في دنياها وأخرها، ولا تكون في عماية من أمرها؛ فتتفيه في أودية الضلالة، وتسير قدما لا إلى غاية.

٢٦ - يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنسَانَ الضَّعِيفَ . يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين؛ لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم، ويتوب عليكم من الإثم والمحارم واتباع الشهوات والمعاصي، ويريد الله أن يرجع بكم إلى طريق طاعته والله مطلع على شئونكم مدبر في أحكامه لما يصلح أمركم.

٢٧ - وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُطَهِّرَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي فِيكُمْ وَيُطَهِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنسَانَ الضَّعِيفَ . والله سبحانه يريد أن يتوب عليكم فيفتح لكم باب التوبة والأمل، ويريد أتباع الشياطين من اليهود، والنصارى، والزناة أن تميلوا عن الحق، وتنحرفوا إلى الضلالة انحرافا عظيما؛ حتى تكونوا مثلهم وهذا شأن المنحرفين دائما يريدون أن يكون الناس على طريقتهم؛ حتى يسلموا من ذمهم ولومهم.

٢٨ - يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنكُمُ الْإِنْسَانَ الضَّعِيفَ . يريد الله أن ييسر عليكم بتشريع ما فيه سهولة لكم وتخفيف عليكم، وقد خلق الإنسان ضعيفا أمام غرائزه وميوله، فيناسبه من التكاليف ما فيه يسر وسعة، لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ عُدُوَّكَ وظُلْمًا فَنُصِيبْهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ٣٠﴾

تمهيد:

بعد أن ذكر فيما سلف كيفية معاملة اليتامى وإيتاء أموالهم إليهم عند الرشد وعدم دفع الأموال إلى السفهاء، ثم بين وجوب دفع المهور للنساء وأنكر عليهم أخذها بوجه من الوجوه، ثم ذكر وجوب إعطاء شيء من أموال اليتامى إلى أقاربهم إذا حضروا القسمة، ذكر هنا قاعدة عامة للتعامل في الأموال؛ تطهيرا للأنفس في جمع المال المحبوب لها فقال:

٢٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَأْخُذْ بَعْضُكُم مَالُ بَعْضٍ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَى: بأنواع المكاسب غير المشروعة كأنواع الربا، والقمار، والسرقة، والغصب، والرشوة، واليمين الكاذبة، وشهادة الزور، ونحو ذلك مما حرمه الله.

ويبين وسيلة من وسائل الكسب الحلال، وهى التجارة القائمة عن تراض يتعامل الناس فيها معا، ويقيمونها بينهم كما بينها رسول الله ﷺ، وفصلها الفقهاء في كتبهم، ويلحق بالتجارة كل أسباب التملك التى أباحها الشارع كالهبة، والصدقة، والإرث.

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ. أَى: بارتكاب محارم الله وتعاطى معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. فيما أمركم به ونهاكم عنه.

روى الإمام أحمد وأبو داود: أن عمرو بن العاص كان أميرا على الجيش فى سرية ذات السلاسل فأصبح جنبا فى ليلة باردة شديدة البرد؛ فتييم وصلى بأصحابه ثم أخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، احتلمت فى ليلة باردة وأشفتت إن اغتسلت أن أهلك؛ فذكرت قول الله عز وجل: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. فتييمت ثم صليت؛ وضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا^(١).

وفى الصحيحين: «من قتل نفسه بشيء عذب به إلى يوم القيامة»^(٢).

وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه؛ فهو فى نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسنى سما فقتل نفسه؛ فسمه فى

يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا»^(٣).

٣٠ - وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدْوَانًا وظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ... ومن يقدم على فعل ما حرم الله، معتديا فيه ظلما فى تعاطيه. أى: عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا. فسوف ندخله نارا يحترق فيها، وكان ذلك على الله هينا ميسورا.

★ ★ ★

﴿إِنْ جَتَنِتُّوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(٦)

المفردات:

الاجتناب: ترك الشيء جانبا، والكبائر واحدها كبيرة وهى المعصية العظيمة، والسيئات: واحدها: سيئة، وهى الفعل الذى تسوء صاحبها عاجلا أو آجلا، والمراد بها هنا: الصغيرة.

نكفر: نغفر ونمح.

مدخلا كريما: أى: مكانا كريما وهو الجنة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل النفس، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد، وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات، نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها، وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها، ووعد من تركها بالمدخل الكريم.

التفسير:

٣١ - إِنْ جَتَنِتُّوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ. أى: إن تتركوا جانبا كبائر ما ينهاكم الله عنه ارتكابها من الذنوب والآثام؛ نمح عنكم صفائرها فلا نؤاخذكم بها.

وقد اختلف فى عدد الكبائر فقليل: هى سبع: لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هى يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»^(٤)، وفى رواية لهما عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم

بأكبر الكبائر» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وكان متكئا فجلس وقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها؛ حتى قلنا: ليته سكت»^(١).

وفيهما أيضا من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يعلن الرجل والديه، وقالوا: وكيف يعلن الرجل والديه؟! قال: يسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه»^(٢).

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها، ومجموعها يزيد على سبع؛ ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل: الكبائر سبع. قال: هي إلى سبعين أقرب. إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار، ومراده: أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطه غضب أو ثورة شهوة، وصاحبه متمكن من دينه، يخاف الله ولا يستجل محارمه، فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس؛ لم يكن ليجتريه تهاونا بالدين، إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله؛ فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه، ويكفر عنه.

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة ينظر الله إليه، ورؤيته إياه حيث نهاه، فهو مهما كان صغيرا في صورته، أو في ضرره، يعد كبيرا من حيث الإصرار والاستهتار، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن في أعراضهم) - لمن تعود - كل ذلك كبيرة ولا شك.

وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تمس إليه الحاجة، ولم يرد الحصر والتحديد.

وقال بعض العلماء: الكبيرة كل ذنب رتبَّ عليه الشارع حداً أو صرح فيه بوعيد.

وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا. أي: وندخلكم مكانا لكم فيه الكرامة عند ربكم وهي الجنات التي تجري

من تحتها الأنهار والعرب تقول: أرض كريمة، وأرض مكرمة، أي: طيبة جيدة النبات، قال تعالى:

فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. (الشعراء: ٥٧، ٥٨)

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَعَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾

المفردات:

التمنى: تشهى حصول الزمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.
من فضله: أى: إحسانه ونعمه المتكاثرة.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل الأموال بالباطل، وعن القتل، وتوعد فاعلهما بالويل والثبور، وهما من أفعال الجوارح: ليصير الظاهر طاهرا من المعاصى الوخيمة العاقبة - نهى عن التمنى، وهو التعرض لها بالقلب حسدا؛ لتطهر أعمالهم الباطنة فيكون الباطل موافقا للظاهر، ولأن التمنى قد يجر إلى الأكل، والأكل قد يقود إلى القتل، فإن من يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

التفسير:

٣٢ - وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ. أى: إن الله كلف كلا من الرجال والنساء أعمالا فما كان خاصا بالرجال لهم نصيب من أجره لا يشاركهم فيه النساء، وما كان خاصا بالنساء لهن نصيب من أجره لا يشاركهن فيه الرجال وليس لأحدهما أن يتمنى ما هو مختص بالآخر وقد أراد الله أن يختص النساء بأعمال البيوت، والرجال بالأعمال الشاقة التى فى خارجها؛ ليتقن كل منهما عمله، ويقوم بما يجب عليه مع الإخلاص.

وعلى كل منهما أن يسأل ربه الإعانة والقوة على ما نيط به من عمل، ولا يجوز أن يتمنى ما نيط بالآخر، ويدخل فى هذا النهى تمنى كل ما هو من الأمور الخلقية كالعقل والجمال؛ إذ لا فائدة فى تمنىها لمن لم يعطها، ولا يدخل فيه ما يقع تحت قدرة الإنسان من الأمور الكسبية؛ إذ يحمد من الناس أن ينظر بعضهم إلى ما نال الآخرون ويتمنوا لأنفسهم مثله أو خيرا منه بالسعى والجهد.

والخلاصة: أنه تعالى طلب إلينا أن نوجه الأنظار إلى ما يقع تحت كسبنا، ولا نوجهها إلى ما ليس فى استطاعتنا، فإنما الفضل بالأعمال الكسبية، فلا تتمنوا شيئا بغير كسبكم وعملكم.

فعلى المسلم أن يعتمد على مواهبه وقواه في كل مطالبه، بالجد والاجتهاد مع رجاء فضل الله فيما لا يصل إليه كسبه إما للجهل به وإما للعجز عنه فالزارع يجتهد في زراعته ويتبع السنن والأسباب التي سنّها الله لعمله، ويسأل الله أن يمنح الآفات والجوائح عنه ويرفع أثمان غلاته إلى نحو أولئك مما هو بيد الله.

روى عكرمة: أن النساء سألن الجهاد فقلن: وددنا أن الله جعل لنا الغزو فنصيب من الأجر ما يصيب الرجال؛ فنزلت: **وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ**. أي: لا تتمنوا نصيب غيركم، ولا تحسدوا من فضل الله عليكم واسألوا الله من إحسانه وإنعامه؛ فإن خزائنه مملوءة لا تنفذ، روى أنه ﷺ قال: «سألو الله من فضله؛ فالله يحب أن يسأل وإن من أفضل العبادَةِ انتظار الفرج».

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. وبذا فضل بعض الناس على بعض بحسب مراتب استعدادهم، وتفاوت اجتهادهم في معترك الحياة، ولا يزال العاملون يستزيدونه ولا يزال ينزل عليهم من جوده وكرمه ما يفضلون به القاعدين الكسالى حتى بلغ التفاوت بين الناس في الفضل حدا بعيدا، وكاد التفاوت بين الشعوب أن يكون أبعد من التفاوت بين بعض الحيوان وبعض الإنسان.

★ ★ ★

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلًى مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ (٣٣)

المعشرات:

الموالى: من يحق لهم الاستيلاء على التركة، مما ترك. أي: وارثين مما ترك، والذين عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ. هم الأزواج، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد، والمتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليدين، قاله أبو مسلم الأصفهاني.

تمهيد:

بعد أن نهى سبحانه عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن تمنى أحد ما فضل الله به غيره عليه من المال؛ حتى لا يسوقه التمنى إلى التعدى، وهو وإن كان نهيا عاما فالسياق يعين المراد منه، وهو المال؛ لأن أكثر التمنى يتعلق به ثم ذكر القاعدة العامة في حيازة الثروة وهى الكسب؛ انتقل إلى نوع آخر تأتى به الحيازة وهو الإرث.

التفسير:

٣٣ - وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ . أَيْ: إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا، ومن النساء اللواتي لهن نصيب مما اكتسبن، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم.

ثم بين هؤلاء الموالى فقال:

الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ. أَيْ: إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول، والفروع، والحواشي، والأزواج.

فَأَتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ. أَيْ: فأعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ولا تنقصوهم منه شيئا.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا. أَيْ: إن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى الذركة وغيرها، فلاطمعن من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئا، سواء أكان ذكرا أم أنثى، كبيرا أم صغيرا. وجاءت هذه الآية: لمنع طمع الوارثين فى بعض.

★ ★ ★

قوامة الرجال

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَإِذَا ضَلَّحْتُ فَتَنَنْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ وَاهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

المفردات:

يقال: هذا قيم المرأة وقوامها؛ إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها وما به الفضل قسمان: فطرى: وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة، ويتبع ذلك قوة العمل وصحة النظر فى مبادئ الأمور

وغاياتها، وكسبى: وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء والقيام برياسة المنزل.

الْقَنُوتُ: السكون والطاعة لله وللأزواج.

الحافظات للغيب: أى: اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة.

تخافون: أى: تظنون.

نشزت الأرض: ارتفعت عما حوالىها، ويراد بها هنا: معصية الزوج والترفيع عليه.

البغى: الظلم وتجاوز الحد.

الشقاق: الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين فى شق: أى: جانب، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه.

الحكم: من له حق الحكم والفصل بين الخصمين، ويعث الحكمين: إرسالهما إلى الزوجين؛ لينظرا فى شكوى كل منهما، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما.

تمهيد:

لما نهى سبحانه كلا من الرجال والنساء عن تمنى ما فضل الله به بعضهم على بعض، وأرشدهم إلى الاعتماد فى أمر الرزق على كسبهم وأمرهم أن يؤتوا الوارثين أنصبتهم، وفى هذه الأنصبة يستبين تفضيل الرجال على النساء - ذكر هنا أسباب التفضيل.

٣٤ - الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ. الرجال لهم حق الصيانة والرعاية للنساء، والقيام بشئونهن؛ بما أعطاهم الله من صفات تهيتهم للقيام بهذا الحق، فقد خص الله الرجال بأمر منها:

الإمامة، والولاية، والميراث، والشهادة، والجهاد، والجمعة، والجماعات، وولاية الزوج على زوجته ولاية رعاية ومودة ورحمة لا ولاية غلظة ورهبة، كما أن ولاية الزوج على زوجته، تهين للزوجة الاستقرار فى البيت ورعاية شئون الأسرة.

والرجل أقدر - بطبيعته - على السعى والكدح فى سبيل تحصيل رزقه، ورزق أسرته؛ ليهين لها حياة سعيدة هائلة.

النساء قسمان:

قسم يفهم ويقدر قوامه الرجل على المرأة، فيلتزم بما أمر الله وهن الصالحات؛ فالصالحات مطيعات لله ولأزواجهن، حافظات لكل ما يغيب عن أزواجهن بسبب أمر الله بهذا الحفظ وتوفيقه لهن فى القيام بواجبهن، وهن يحفظن على الأزواج أموالهم وأعراضهم فى جميع الحالات.

أما القسم الثانى من النساء:

فهو قسم مكابر يرغب فى التعالى والخروج عن طاعة الزوج وقد شرع الإسلام العلاج لهذا النوع من النساء على النحو الآتى:

١ - الوعظ والإرشاد، والتوجيه، والتذكير بما أمر الله ورسوله من طاعة الزوج، والتزام أمره، والتحذير من شماتة الأعداء وتصدع شمل الأسرة.

٢ - الهجر والإعراض فى المضجع ويتحقق ذلك بهجرها فى الفراش مع الإعراض والصد.

٣ - الضرب اليسير غير المبرح، وهو ما كان بنحو سواك أو عصا صغيرة. وهو أمر معنوى أكثر منه حسى. وهو خاص ببعض النساء ومن لا تستقيم بالوعظ ولا بالهجر، ويجب ألا يكون الضرب قاسيا ولا شديدا. ويعض الناس لا يتقبل عقوبة الضرب. ونحن نشاهد هذه العقوبة فى الجيش وفى غيره!. وليست هذه العقوبة لجميع الناس، بل لفئة جاحدة لا تريد أن تخضع لقانون الله ولا أن تلتزم بشئون الأسرة.

فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا. أى: فإن أطعنكم بواحدة من هذه الخصال التأديبية: فلا تبغوا ولا تتجاوزوا ذلك إلى غيرها، فابدعوا بما بدأ الله من الوعظ، فإن لم يقد فبالهجر، فإن لم يقد فبالضرب الخفيف غير مبرح ولا مهين، عند التمرد، فإذا لم يغن فليجأ إلى التحكيم، ومتى استقام لكم الظاهر فلا تبحثوا عن السرائر.

إن الله فوقكم وينتقم منكم إذا أذيتموهن أو بغيتن عليهن ونلمح أن فى نهاية الآية تهديدا ووعيدا لكل من يتكبر على زوجته، أو ينتهز الفرصة لإذلالها والعدوان عليها، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإذا دفعك قوتك إلى ظلم غيرك؛ فتذكر قدرة الله عليك وفى الحديث القدسى: «يا عبادى؛ إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما؛ فلا تظالموا».

ويقول الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا الظلم شيمته يفضى إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعوك عليك وعين الله لم تنم

٣٥ - وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حُكَمَا مِنْ أَهْلِهِ وَحُكَمَا مِنْ أَهْلِهَا ...

المعنى:

وإن علمتكم أن بين الزوجين شقاقا قد استفحل خطره؛ فوجهوا إليهما حكما من أهل الزوج، وحكما من أهل الزوجة؛ لينظرا فيما بينهما من نزاع وشقاق فإذا خلصت نية الحكمين، وقصدا بصدق إلى التوفيق بين الزوجين؛ وفقهما الله تعالى إلى إزالة أسباب الخلاف والشقاق.

وينبغي أن نختار الحكمين من أهل الخبرة والحكمة والصلاح والمعرفة بشئون الصلح: لنحفظ البيوت والأسر من التصدع والأطفال من التشرد. فالإسلام حريص على دعم الأسرة وقيامها على المودة والرحمة والألفة كما أن الإسلام أمر بالصبر والصفح، وحسن الخلق والعشرة بالمعروف بين الزوجين.

★ ★ ★

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَاءً آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

المضردات:

عبادة الله: الخضوع له، والاستشعار بتعظيمه في السر والعلن بالقلب والجوارح، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته؛ إذ لا يقبل عملاً بدونها.

الإحسان إلى الوالدين: قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما، والسعى في تحصيل مطالبهما، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة، وعدم الخشونة في الكلام معهما.

ذو القربى: صاحب القرابة من أخ، وعم، وخال، وأولاد هؤلاء.

الجار ذو القربى: هو الجار القريب الجوار.

الجار الجنب: هو البعيد القرابة.

الصاحب بالجنب: الرفيق في السفر، أو المنقطع إليك، الراجي نفعك ورفدك.

ابن السبيل: هو المسافر أو الضيف.

ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ: عبيدكم وإماءكم.

المُخْتَال: ذو الخيلاء والكبر.

الْمُشْكُورِ، الَّذِي يَعِدُّ مَحَاسِنَهُ؛ تَعَاظِمًا وَتَكْبِيرًا.

أَصْنَعْنَا هَيَأُنَا وَأَعْدَدْنَا.

الْمُهَيَّيْنِ؛ ذُو الْإِهَانَةِ وَالذَّلَّةِ

وَرِثَاءِ النَّاسِ؛ أَيْ: لِلْمَرَاءَةِ وَالْفَخْرِ بِمَا فَعَلَ.

الْقَرِيِّنِ، الصَّاحِبِ وَالْخَلِيلِ . وَمَاذَا عَلَيْهِمْ . أَيْ ضَرَرٌ يَحِقُّ بِهِمْ لَوْ آمَنُوا وَأَنْفَقُوا ؟

تمهيد:

كان الكلام من أول السورة في وصايا ونصائح، كإبتلاء اليتامى قبل تسليمهم أموالهم، والنهي عن إيتاء الأموال للسفهاء، وعن قتل النفس، والإرشاد إلى كيفية معاملة النساء، وطرق تأديبهن تارة بالموعظة الحسنة وأخرى بالقسوة والشدة، مع مراقبة الله عز وجل في كل ذلك.

فناسب بعدئذ التذكير بحسن معاملة الخالق بالإخلاص له في الطاعة، وحسن معاملة الطوائف المختلفة من الناس، وعدم الضن عليهم في أوقات الشدة بالمال، مع قصد التقريب إلى الله لقصد الفخر والخيلاء.

- التفسير:

٣٦ - وَعِبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ.

هذه آية تأمر بمكارم الأخلاق وهي سبل من سبل التكافل والتراحم بين المسلمين.

وَعِبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. أَيْ: وَحُدُوا اللَّهَ وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ صَنَمَا أَوْ غَيْرَهُ؛ فَهُوَ سِبْحَانَهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالنِّعْمَةِ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ.

كما أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ورعايتهما خصوصا في مرحلة الكبر والشيخوخة.

كما أمر بصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب، والتجاوز عن هفواتهم، كما أمر برعاية اليتيم والإحسان إليه؛ لأنه فقد أباه فيجب أن يرعاه المجتمع ويحنو عليه، كما أمر برعاية المسكين المحتاج بأن ينسر له العمل والنصح ويشمل ذلك إنشاء الملاجئ، والمستشفيات، ودور الحضانه، ودروس تقوية التلاميذ، وإنشاء صندوق لرعاية المحتاجين. وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ. أَيْ: أَحْسِنُوا إِلَى الْجَارِ الَّذِي قَرِبَ مَكَانًا أَوْ دِينًا أَوْ نَسَبًا، وَإِلَى الْجَارِ الْبَعِيدِ مَكَانًا أَوْ دِينًا أَوْ نَسَبًا.

جاء في تفسير ابن كثير:

قال ابن عباس: وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى. يعني: الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ. الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ.

وروى ابن جرير أن الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى. يعني: الْجَارِ الْمُسْلِمَ، الْجَارِ الْجُنُبِ. يعني: الْيَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ، وَقَالَ مَجَاهِدٌ: الْجَارِ الْجُنُبِ. الْفَرِيقُ فِي السَّفَرِ.

وقد وردت الأحاديث بالصواب بالجار منها ما رواه الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنه سيورثه»^(٣٧).

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ. عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة، وقال ابن عباس ومجاهد: هو الرفيق في السفر، وقال الطبري والزمخشري: وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ. «هو الذي صحبك إما رفيقا في سفر، أو جارا ملاصقا، أو شريكا في تعلم علم، أو قاعدا إلى جنبك في مجلس أو غير ذلك، ممن له أدنى صجة التأمّت بينك وبينه فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه». وابن السّيل. أي: المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ. أي: الممالك من العبيد والإماء، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا. أي: متكبرا في نفسه يأنف عن أقاربه وجيرانه فخورا على الناس يرى أنه خير منهم.

قال ابن جرير عن أبي رجاء الهروي: لا تجد سيئ الملكة إلا وجدها مختالا فخورا، ولا عاقا إلا وجدها جبارا شقيا ثم تلا: وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا. (مريم: ٣٢)

٣٧ - الَّذِينَ يَبْخُلُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَيَخْفُونَ عَنْهَا ظُهُورَهُمْ وَاللَّهُ مُنْقِضُ مَا هُمْ بِفَاعِلِينَ... وَضَحَّتِ الْآيَةُ المختال الفخور وهو المتكبر الذي لا يشكر الله على نعمه.

ومعنى الآية:

الذين يبخلون بأموالهم؛ فلا ينفقونها في وجوه البر والإحسان ولا يكتفون بهذا بل يأمرؤن غيرهم بالبخل ويحرضونهم عليه، ويخفون ما أنعم الله به عليهم؛ حتى لا يطمع الناس في أموالهم وإحسانهم. وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. أي: وأعدنا للكافرين عذابا مخزيا مذلا لكبرياتهم وسماهم الله كفارا؛ للإيذان بأن هذه الأخلاق وأعمال لا تصد إلا من الكفور لا من الشكور.

٣٨ - وَالَّذِينَ يَبْتَفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. أي: ولا يحب الله - كذلك - الذين يبتفقون أموالهم للرياء وللسمعة، لا شكرًا لله على نعمه، ولا اعترافا بما أوجب الله عليهم من حق في أموالهم. ولا يصدقون بوقوع اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب؛ لأنهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر؛ لتحروا مرضاة الله، ولما رأوا أحدا أبدا.

وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا. أي: ومن يكن الشيطان له صاحبًا فبئس هذا صاحب صاحبها؛ لأنه يضلّه ويقوده إلى الهلاك.

والآية تشير إلى أن البخيل والمتكبر ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس صاحب والخليل.

٣٩ - وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا.

الاستفهام هنا للتعجب والإنكار. أى: وما الذى كان يصيبهم لو آمنوا بالله إيماناً صحيحاً يظهر أثره فى العمل، وفى هذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم، إذ هم لو أخلصوا: لما فاتتهم منفعة الدنيا ولغازوا مع ذلك بسعادة العقبى: فكثيراً ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم، ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحداً يعرف ما عمل، فيكون الأول قد رجح بخفى حنين فى حين أن الثانى فاز بسعادة الدارين.

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا. فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى إنفاقه ولا يبالى بعلم الناس، فهو سبحانه الذى لا ينسى عمل العاملين ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً.

★ ★ ★

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
 ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾
 يَوْمَئِذٍ يُوَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

المضردات:

المِثْقَال: أصله المقدار الذى له ثقل مهما قل، ثم أطلق على المعيار المخصوص للذهب وغيره.
 الذَّرَّة: أصغر ما يدرك من الأجسام ومن ثم قالوا: إنها النملة، أو رأسها، أو الخردلة، أو الهباء (ما يظهر فى نور الشمس الداخلى من الكوة).

ولذلك روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه أدخل يده فى التراب ثم نفخ فيه فقال: كل واحدة من هؤلاء ذرة!

الظلم: النقص كما قال تعالى: كُلُّنَا الْجُنَيْنُ ءَاتَتْ أَكُلَهَا وَلَمْ نَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا. ومن لدنه: من عنده.
 الحديث: الكلام.

تمهيد:

بعد أن بين عز اسمه صفات المتكبرين وسوء أحوالهم، وتوعدهم على ذلك بأشد أنواع الوعيد، زاد الأمر توكيداً وتشديداً فنذكر أنه لا يظلم أحداً من العاملين بوصاياهم لا قليلاً ولا كثيراً، بل يوفيه حقّه بالقسطاس المستقيم، وفى هذا أعظم الترغيب لقاعلى البر والإحسان وحفز لهمهمم على العمل، وفى معنى الآية قوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ.

التفسير:

٤٠ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ. أَيْ: إِنَّهُ تَعَالَى لَا يَنْقُصُ أَحَدًا مِنْ أَجْرِ عَمَلِهِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا مَا وَإِنْ صَغُرَ كَثْرَةُ الْهَبَاءِ: بَلْ يُوفِيهِ أَجْرَهُ، كَمَا لَا يُعَاقِبُهُ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْعُقُوبَةِ، إِذْ إِنْ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ تَابِعَانِ لِتَأْتِيرِ الْأَعْمَالِ فِي النَّفْسِ بِتَزَكِّيَّتِهَا أَوْ تَدَسِّيَّتِهَا: فَالْعَمَلُ يَرْفَعُهَا إِلَى أَعْلَى عَلِيَيْنِ أَوْ يَهَيِّطُ بِهَا إِلَى أَسْفَلِ سَافِلَيْنِ، وَلِذَلِكَ دَرَجَاتٌ وَمَثَاقِيلُ مُقَدَّرَةٌ فِي نَفْسِهَا لَا يَحِيطُ بِدَقَائِقِهَا إِلَّا مَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

والخلاصة: إِنْ الظلم لا يقع من الله تعالى: لأنه من النقص الذي يتنزه عنه وهو ذو الكمال المطلق والفضل العظيم، وقد خلق للناس مشاعر يدركون بها ما لا يدركه الحس، وشرع لهم من أحكام الدين وآدابه ما لا تستقل عقولهم بالوصول إلى مثله في هدايتهم وحفظ مصالحهم، وهى تسوق إلى الخير وتصرف عن الشر وأيدها بالوعد والوعيد، فمن وقع بعد ذلك فيما يضره ويؤذنه كان هو الظالم لنفسه: لأن الله لا يظلم أحدا.

وَأَنْ تِلْكَ حَسَنَةٌ يُضَاعَفُهَا. أَيْ: إِنَّهُ تَعَالَى مَعَ كَوْنِهِ لَا يَنْقُصُ أَحَدًا مِنْ أَجْرِ عَمَلِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ يَزِيدُ لِلْمَحْسَنِ فِي حَسَنَاتِهِ، فَالْحَسَنَاتُ جَزَاؤُهَا بِقُدْرَتِهَا، وَالْحَسَنَاتُ يُضَاعَفُ اللَّهُ جَزَاءَهَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ أَوْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ. (الأنعام: ١٦٠). وقال: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً. (البقرة: ٢٤٥).

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا. أَيْ: إِنَّهُ تَعَالَى لَوَاسِعَ فَضْلِهِ لَا يَكْتَفِي بِجَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ عَلَى إِحْسَانِهِمْ فَحَسْبُ، بَلْ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَيُعْطِيهِمْ مِنْ لَدُنْهِ عَطَاءً كَبِيرًا، وَاسْمُ هَذَا الْعَطَاءِ أَجْرًا وَلَا مُقَابِلَ لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ: لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ تَابِعًا لِلْأَجْرِ عَلَى الْعَمَلِ سُمِيَ بِاسْمِهِ لِمَجَاوَرَتِهِ لَهُ، وَفِي ذَلِكَ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ لِغَيْرِ الْمُحْسِنِينَ، إِذْ هُوَ عِلَاوَةٌ عَلَى أَجُورِ أَعْمَالِهِمْ، فَلَا مَطْمَعَ لِلْمُسِيئِينَ فِيهِ.

٤١ - فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا. أَيْ: إِذَا كَانَ لِلَّهِ لَا يُضِيعُ مِنْ عَمَلِ الْعَامِلِينَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فَكَيْفَ يَكُونُ النَّاسُ إِذَا جُمِعَ اللَّهُ وَجَاءَ بِالشُّهَدَاءِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ أَنْبِيَائُهُمْ؟ فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا لَهَا بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ.

وهذه الشهادة عبارة عن عرض أعمال الأمم على أنبيائهم (لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين) ومقابلة عقائدهم، وأخلاقهم، وأعمالهم بعقائد الأنبياء، وأعمالهم، وأخلاقهم، فمن شهد لهم بينهم بأنهم على ما جاء به وما أمر الناس بالعمل به: فهم ناجون، ومن تبرأ منهم أنبيائهم لمخالفة أعمالهم وعقائدهم لما جاءوا به: فأولئك هم الخاسرون وإن ادعوا اتباعهم والانتماء إليهم.

وقوله: وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا. يراد به شهادة محمد ﷺ - خاتم المرسلين - على أمته كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا. أى: إن هذه الأمة بحسن سيرتها؛ تكون شاهدة على الأمم السالفة وحجة عليها فى انحرافها عن هدى المرسلين، والرسول ﷺ بسيرته وأخلاقه الغالية وسننه المرضية؛ يكون حجة على من تركها وتساهل فى اتباعها، وعلى من تغالى فيها وابتدع البدع المحدثه من بعده.

روى البخارى، والترمذى، والنسائى وغيرهم من حديث ابن مسعود أنه قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على. قلت: يا رسول الله اقرأ عليك، عليك أنزل؟ قال: نعم أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء حتى آتيت إلى هذه الآية: فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ... إلخ، فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان! «^(٨).

فانظر كيف اعتبر بهذه الشهادة الشهيد الأعظم ﷺ فبكى لتذكر هذا اليوم، وهل نعتبر كما اعتبر ونستعد لهول ذلك اليوم؛ باتباع سنته ونجتهد فى اجتناب البدع والتقاليد التى لم تكن فى عهده؛ وبذا نكون أمة وسطا لا تفریط عندها فى الدين ولا إفراط، لا فى الشئون الجسمية ولا فى الشئون الروحية، أو نظل فى غوايتنا، تقليدا للأباء؛ لنكون كما قال الكافرون: إِنْ أَوَّلَّيْنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ. (الزخرف: ٢٢)

٤٢ - يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ. أى: إذا جاء ذلك اليوم الذى نأتى فيه بشهيد على كل أمة، يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يتبعوا ما جاء، أن يصيروا ترابا تسوى بهم الأرض؛ فيكونوا وإياها سواء كما قال تعالى: فى سورة النبأ: ... وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا. (النبأ: ٤٠)

وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا. أى: أنهم يودون لو يكونون ترابا فتسوى بهم الأرض ولا يكونون قد كتموا الله وكذبوا أمامه على أنفسهم بإنكار شركهم وضلالهم كما قال تعالى: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفترون. (الأنعام: ٢٢-٢٤)، أى: فهم حينئذ يكذبون وينكرون شركهم إما اعتقاداً منهم أن ما كانوا عليه ليس بشرك، وإما هو استشفاع وتوصل، وإما مكابرة وظنا أن ذلك يجديهم ويدفع عنهم العذاب، فيشهد عليهم الأنبياء المرسلون أنهم لم يكونوا متبعين لهم فيما أحدثوا من شركهم، بل كانوا مبتدعين ذلك من عند أنفسهم، فقد قاسوا ربهم على ملوكهم الظالمين وأمرائهم المستبدين الذين يتركون عقاب بعض المسيئين بشفاعاة المقربين، فإذا شهدوا عليهم تمنوا لو كانوا قد سويت بهم الأرض وما افترضوا ذلك الكذب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

المفردات :

الْفَائِطُ: المنخفض من الأرض كالوادي، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة؛ للستر والاستخفاء عن الناس.

ملازمة النساء: الإفضاء إليهن.

تَيَمَّمُوا: اقصدوا .

الصَّعِيدُ: وجه الأرض.

الطَّيِّبُ: الطاهر.

العَفُوُّ: ذو العفو، والعفو عن الذنب: محوه وجعله كأن لم يكن.

الْمَغْفِرَةُ: ذو المغفرة.

المَغْفِرَةُ: ستر الذنوب بعدم الحساب عليها.

تمهيد:

بعد أن وصف سبحانه الوقوف بين يديه يوم العرض والأحوال التي تؤدي إلى تمنى الكافر عدم فيقول: يا ليتني كنت ترابا! والتي تجعله لا يستطيع أن يكتف الله حديثا، وذكر أنه لا ينجر في ذلك اليوم إلا من كان طاهر القلب والجوارح بالإيمان به والطاعة لرسوله، وصف في هذه الآية الوقوف بين يديه في مقام الأنس، وخضرة القدس، المنجى من هول الوقوف في ذلك اليوم، وطلب فيه استكمال القوى العقلية وتوجيهها إلى جانب العلى الأعلى بألا تكون مشغولة بذكرى غير طاهرة من الأنجاس والأخبار؛ لتكون على أتم العدة للوقوف في ذلك الموقف الرهيب، مستشعرة تلك العظمة والجلال والكبرياء.

٤٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا.

يأبىها الذين آمنوا، لا يحل لكم أن تؤدوا الصلاة وأنتم في حالة السكر؛ حتى تكونوا بحيث تعلمون ما تقولونه قبل أدائها، ولا في حالة الجنابة؛ حتى تغتسلوا ولا تقربوا مواضع الصلاة (وهو المسجد) حال كونكم جنباً إلا في حال عبوركم من جانب إلى جانب.

روى ابن جرير: أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم فيريدون الماء ولا يجدون ممراً إلا في المسجد فأنزل الله تعالى: وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ .

وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا. أى: وإن كنتم مرضى ويضركم الماء، أو مسافرين، وفي الأسفار يصعب وجود ما يكفي من الماء عادة فقد أباح الله لكم التيمم وهو ضربتان ضربة للوجه وضربة لليدين وكذلك إذا جاء أحدكم من المكان المعد لقضاء الحاجة أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماء تنظفون به لفقدته؛ فاقصدوا تراباً طيباً كذلك، فاضربوا به أيديكم، وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه؛ إن الله من شأنه العفو العظيم والمغفرة.

وتفيد الآية ما يأتي:

- ١ - يسر الإسلام وسماحته، وتيسير الله على عباده قال تعالى: مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (المائدة: ٦).
- ٢ - من الواجب على المسلم عندما يتهيأ للصلاة أن يتجنب كل ما يتعارض مع الخشوع: لأن الصلاة مناجاة وذكر لله، قال تعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. (طه: ١٤).
- ٣ - استدلوا بهذه الآية على أن المسلم منهى عن الصلاة حال النعاس أو ما يشبهه.
- ٤ - التيمم مباح للمسلم عند فقد الماء، أو عند وجود الماء ولكن هناك عارض يمنعه من استعماله كمرض أو نحوه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَدَّ عَلَيْنَا لِيَّا بِلِسَانِهِمْ وَطَعَنَ فِي الَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَأَنْظِرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

المضردات :

أَلَمْ تَرَ : أى: ألم تنظر؟

نَصِيحًا : حظًا.

السَّبِيل : الطريق القويم.

وَلِيًّا : أى: يتولى شئونكم.

نَصِيرًا : معينا يدفع شرهم عنكم.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا : هم: اليهود.

غَيْرَ مَسْمُوعٍ : يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع: مكروها، وأن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه.

وَرَدَّ عَلَيْنَا : إما بمعنى: ارقبنا وانظرنا؛ نكلمك، وإما بمعنى: كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها، وهى: (راعينا).

لِيَّا بِلِسَانِهِمْ : أى: فقلنا بها وتحريفًا.

طَعَنَ فِي الدِّينِ : قدحًا فيه.

أَقْوَمَ : أعدل وأسد.

إِلَّا قَلِيلًا : أى: إلا قليلا من الإيمان لا يعبا به.

تمهيد :

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية، ووعدها فاعلها بجزيل الثواب، وأوعده تاركها بشديد العقاب، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم، وحرفوا كتابهم، واشتروا الضلالة بالهدى؛ لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيم

عليهم كما هيمن على من قبلهم، فإذا هم قصروا: أخذهم بالعقاب الذى رتبته على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة، والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لابد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصول إلى إصلاح الأنفس، وذلك هو الأثر المطلوب منها، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب.

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرايين وأحكام الدين الظاهرة، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفس كما أَرَادَهُ اللهُ.

فأرشدنا سبحانه إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل، والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب؛ حتى ينالوا مرضاته ويكونوا أهلا لكرامته، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم.

٤٤ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن يُضِلُّوا السَّبِيلَ.

ألم ينته إلى علمك حال هؤلاء الأخبار من اليهود الذين أعطوا حظا ومقدارا من علم التوراة؟!

إن كنت لم تعلم أحوالهم أو لم تنظر إليهم فهاك خبرهم وتلك هى حقيقتهم، إنهم يشترون الضلالة وهى البقاء على اليهودية، بعد وضوح الآيات لهم الدالة على صحة دين الإسلام، وهم لا يكتفون بتلبسهم بالضلال الذى أشربته نفوسهم، بل يريدون منكم يا معشر المسلمين أن تتركوا دين الإسلام الذى هو السبيل الحق، وأن تتبعوهم فى ضلالهم وكفرهم.

٤٥ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَانِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا.

الله أعلم بأعدائكم أيها المؤمنون، وقد أخبركم بأحوالهم وبما يبيتون لكم من شرور؛ فاحذروهم، ولا تلتفتوا إلى أقوالهم، وأعدوا العدة لتأديبهم: دفاعا عن دينكم وعقيدتكم، وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا يتولى أموركم ويصلح بالكم وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا يدفع عنكم مكرهم، وشرهم فلا تطلبوا ولاية غير ولايته وتكفيكم نصرته؛ فلا تستعينوا بسواه. وعليكم باتباع السنن التى وضعها الله فى هذه الحياة، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصلحتهم الخاصة.

٤٦ - مَنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَا بِلْسِنَتِهِمْ.

من اليهود فريق يميلون الكلام عن معناه، ويفسرونه بغير مراد الله تعالى كذبا منهم وافتراء وتضليلا وإنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. أى: سمعنا قولك، وعصينا أمرك وروى عن مجاهد أنهم قالوا للنبي ﷺ: (سمعنا قولك ولكن لا نطيعك). وكذلك كانوا يقولون له: اسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ.

أَي: اسمع كلامنا لا أسمعك الله، في الموضع الذي يقول فيه المتأدبون للمخاطبين: اسْمَعْ غَيْرُ مُسْمِعٍ. أَي: لا سمعت مكروها. فاللفظ يسوقونه ومرادهم منه الدعاء عليه ويوهمون أن مرادهم الدعاء له.

ويقولون: رَاعِنًا. وهى كلمة تحتل الخير على معنى: (انظرنا وتمهل علينا نكلمك) وتحتل الشر على معنى: (راعيئنا) أَي: اشمطنا بالرعونة والحق، أو جعله راعيئا من رعاة الغنم.

ومن تحريفهم قولهم: (السام عليكم) أَي: الموت عليكم، لَيَّا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ. أَي: صرفا للكلام عن ظاهره إلى إرادة الشتم والسب، وقدحا في الدين بالاستهزاء والسخرية.

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ. أَي: لو أنهم استقاموا وقالوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. بدل قولهم: سمعنا وعصينا وقالوا: اسْمَعْ دُونَ أَنْ يَقُولُوا: غَيْرُ مُسْمِعٍ. وقالوا: انظُرْنَا بدل رَاعِنًا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مَا قَالُوهُ، وأعدل منه سبيلا ولكن الله طردهم من رحمته؛ بإعراضهم فلا تجد منهم من يستجيبون لداعى الإيمان إلا عددا قليلا.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكُتُبِ آمِنُوا بَمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ فَرَدِّهَا عَلَى أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

المفردات:

الكتاب: التوراة.

الطمس: إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارته، وإما بأن تسفوها الرياح، ومنه الطمس على الأموال في قوله: رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ. (يونس: ٨٨) أَي: أزلها وأهلكها، والطمس على الأعين في قوله: وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ. (يس: ٦٦) إما إزالة نورها، وإما محو حدقتها.

الوجه: تارة يراد به الوجه المعروف وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد كما قال تعالى: أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ (آل عمران: ٢٠)، وقال: وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ (لقمان: ٢٢)، وقال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا. (الروم: ٣٠).

الأدبار: واحدها: دبر، وهو الخلف واللقفا.

الارتداد: هو الرجوع إلى الوراء، إما في الحسيات وإما في المعاني، ومن الأول: الارتداد والفرار في القتال ومن الثاني: قوله: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ. (محمد: ٢٥)

تلعنهم: نهلهم. كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ. أَي: كما أهلكنا أصحاب السبت، وقيل: مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن.

تمهيد:

بعد أن نعى أهل الكتاب فى الآية السالفة اشتراءهم الضلالة بالهدى بتحريفهم بعض الكتاب وإضاعة بعضه الآخر، ألزمهم هنا بالعمل بما عرفوا وحفظوا بأن يؤمنوا بالقرآن؛ ذلك أن إيمانهم بالثورة يستدعى الإيمان بما يصدقها وحذرهم من مخالفة ذلك، وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور.

التفسير:

٤٧ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ. أى: يأيتها اليهود والنصارى، آمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معكم، من تقرير التوحيد والابتعاد عن الشرك، وما يقوى ذلك الإيمان من ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتلك هى أصول الدين وأركانه والمقصد الأسمى من إرسال جميع الرسل، ولا خلاف بينهم فى ذلك، وإنما الخلاف فى التفاصيل، وطرق حمل الناس عليها وهدايتهم بها، وترقيتهم فى معارج الفلاح بحسب السنن التى وضعها الله فى ارتقاء البشر، بتعاقب الأجيال، واختلاف الأزمان.

مَنْ قَبِلَ أَنْ نَطْمِسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا. أى: آمنوا قبل أن يحل بكم العقاب من طمس الوجوه، والرد على الأدبار: أى: من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم بها من كيد الإسلام، ونردها خاسرة إلى الوراء بإظهار الإسلام ونصره عليكم، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والقوة والعلم والمعرفة.

وجعل بعضهم الرد على الأدبار حسيا فقال: نردهم على أدبارهم بالجلاء إلى فلسطين والشام، وهى بلادهم التى جاءوا منها.

وخلاصة المعنى: آمنوا قبل أن نعمى عليكم السبيل بما نبصر المؤمنين بشئونكم ونغريهم بكم، فتردوا على أدباركم بأن يكون سعيكم إلى غير الخير لكم.

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ النَّارِ. أى: آمنوا قبل أن تقعوا فى الخيبة والخذلان وذهاب العزة؛ باستيلاء المؤمنين عليكم وإجلائكم عن دياركم كما حدث لطائفة منكم، أو بالهلاك كما وقع بقتل طائفة أخرى وهلاكها.

ثم مهدهم وتوعدهم فقال:

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا. المراد من الأمر: الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. (يس: ٨٢)، إنما أمره بإيقاع شىء ما نافذ لا محالة، ومن هذا ما أوعدتم به قال ابن عباس: يريد لا راداً لحكمه ولا ناقض لأمره، فلا يتعدى عليه شىء يريد أن يفعله، كما تقول فى الشىء الذى لا شك فى حصوله: هذا الأمر مفعول وإن لم يفعل بعد.

والخلاصة: إنه يقول لهم: أنتم تعلمون أن وعيد الله للأمم السالفة قد وقع ولا محالة؛ فاحترسوا وكونوا على حذر من وعيده لكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ
إِنَّمَا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ
فَتِيلًا ۝٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْرَوْنَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكُفِّي بِهِ إِنَّمَا مَيْدَنًا ۝٥٠﴾

المضردات:

يقال: افترى فلان الكذب؛ إذا اعتمله واختلقه، وأصله من الفرى، بمعنى: القطع، وتركية النفس؛ مدحها، قال تعالى: فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . (محمد: ٢٢) والظلم: النقص، والفتيل: ما يكون في شق نواة التمر مثل: الخيط، وبه يضرب المثل في الشيء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة، قال الراغب: الإثم والآثام: اسم للأفعال المبطئة عن الثواب: أى: من الخيرات التى يثاب المرء عليها وقد يطلق الإثم على ما كان ضارا.

تمهيد:

بعد أن هدد سبحانه اليهود على الكفر، وتوعدهم عليه بأشد الوعيد كطمس الوجوه والرد على الأدبار، ثم بين أن ذلك الوعيد واقع لا محالة بقوله: وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مُقْعُولًا.

ذكر هنا أن هذا الوعيد وشديد التهديد إنما هو لجريمة الكفر، فأما سائر الذنوب سواء فالحق قد يغفرها ويتجاوز عن زلاتها.

أخرج ابن المنذر عن أبى مجلز قال: لما نزل قوله تعالى: فُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. (الزمر: ٥٣) قام النبى ﷺ على المنبر فتلاها على الناس، فقام إليه رجل فقال: والشرك بالله، فسكت، ثم قام إليه فقال: يا رسول الله والشرك بالله تعالى فكست مرتين أو ثلاثا فنزلت هذه الآية:

٤٨ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.

بعد أن عدد مثالب اليهود، بين أنهم إذا دخلوا فى الإسلام واتبعوا طريق الإيمان، غفر الله لهم كما يغفر سبحانه لكل مؤمن.

والمعنى: إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصى لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة، فمن مات من المسلمين بدون توبه من الذنوب التى اقترفها فأمره مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه وأدخله الجنة.

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا. أئى: ومن يجعل لغير الله شركة مع الله قيوم السموات والأرض - سواء أكانت الشركة بالإيجاد أو بالتحليل والتحرير - فقد اخترع ذنبا عظيم الضرر تستصغر فى جنب عظمتة جميع الذنوب والآقام فهو جدير بألا يغفر، وما دونه قد يمحي بالغفران.

٤٩ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ قِتِيلًا.

ألم ينته علمك يا محمد إلى هؤلاء الذين يثنون على أنفسهم ويمدحونها بما ليس فيهم مدعين أنهم على الحق، والله وحده هو الذى يعلم الخبيث من الطيب فيزكى من يشاء، ولا يظلم أى إنسان قدره مهما كان ضئيلا.

روى ابن جرير عن الحسن أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى حيث قالوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. (المائدة: ١٨).

جاء فى تفسير المراغى ... وفى الآية موضعان من العبرة:

١ - أن الله يجزئ عامل الخير بعمله ولو مشركا؛ لأن لعمله أثرا فى نفسه يكون مناط الجزاء. فيخفف عذابه عن عذاب غيره كما ورد فى الأحاديث: إن بعض المشركين، يخفف عنهم العذاب بعمل لهم، فحاتم الطائي بكرمه، وأبو طالب بكفالاته النبى ﷺ ونصره إياه، وأبو لهب لعنته جاريته ثوبية حين بشرته بمولد النبى ﷺ.

٢ - أن يحذر المسلمون الغرور بدينهم كما كان أهل الكتاب فى عصر التنزيل وما قبله، وأن يبتعدوا عن تزكية أنفسهم بالقول واحتقار من عداهم من المشركين، وأن يعلموا أن الله لا يحابى فى نظم الخليفة أحدا لا مسلما ولا يهوديا ولا نصرانيا^(٩).

٥٠ - انْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا.

أئى: انظر كيف يكذبون على الله بتزكية أنفسهم وزعمهم أن الله يعاملهم معاملة خاصة بهم، لا كما يعامل سائر عباده وكفى بالكذب على الله ذنبا واضحا يكشف عن خبيث طويتهم.

سقطات اليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ ﴾ (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۖ ﴾ (٥٢) أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ إِذْ أَلَّا يُوقِنُونَ أَنَّ النَّاسَ نَجِيرًا ۖ ﴾ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۖ ﴾ (٥٤) فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۖ ﴾ (٥٥)

المضردات:

بِالْجِبْتِ، الجبت: كل ما عبد من دون الله، ويطلق أيضا على الكاهن، والساحر، والسحر. **الطَّاغُوتِ**، الطاغوت: كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس فى الضلال يصرف عن طريق الخير، ويغرى بالشر.

نَجِيرًا، النجير فى الأصل: هو النقرة التى تكون فى ظهر النواة. ويضرب به المثل فى القلة والضلالة، فالمراد به: أقل القليل.

يَحْسُدُونَ النَّاسَ، الحسد: تمنى زوال نعمة الغير.

الْحِكْمَةَ، العلم النافع، أو النبوة.

صَدَّ عَنْهُ، انصرف عنه، وأعرض.

سَعِيرًا، نارا مسعرة يعذبون فيها.

التفسير:

٥١ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... الآية

روى ابن أبى حاتم، عن عكرمة: أن حى بن أخطب، وكعب بن الأشرف اليهوديين، خرجا إلى مكة فى جماعة من اليهود؛ ليحالفوا قريشا على محاربة رسول الله ﷺ، وينقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه؛ فقال لهم كفار قريش: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكرمكم؛ فاسجدوا لآلهتنا، حتى نطمئن إليكم.. ففعلوا.

فهذا إيمانهم بالجبت والطاغوت؛ لأنهم سجدوا للأصنام، وأطاعوا إبليس فيما فعلوا. وقال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب، وتعلم، ونحن أميون لا نعلم. فأينا أهدى سبيلاً: نحن أم محمد؟ فقال: ماذا يقول محمد؟ قال: يأمر بعبادة الله وحده، وينهى عن الشرك. قال: وما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت: نسقى الحاج، ونقرى الضيف، ونفك العاني. وذكروا أفعالهم. فقال: أنتم أهدى سبيلاً؛ فنزلت.

وروى - من غير وجه - نحو ذلك .

وهذه الآية: تعجب من حال أخرى من أحوال أهل الكتاب، وتوبيخ لهم على ارتكابهم جريمة من أشنع الجرائم، وهى سجودهم للأصنام، وشهادتهم بأن عبدة الطاغوت أحسن ديناً من أهل الإسلام. على الرغم من أنهم أهل كتاب. وأعرف من غيرهم بالدين الصحيح.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد - أو كل من يستحق أن يخاطب - إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، ورزقوا حظاً منه، وإلى حالتهم العجيبة الداعية إلى الدهشة والعجب، وهى أنهم - مع كونهم أهل كتاب - يؤمنون بالأصنام ويطيعون الشيطان، ويقولون فى شأن الذين آمنوا للذين كفروا - من أجل مخالفتهم - هؤلاء الكفار الجاهليون: أهدى سبيلاً، وأقوم طريقاً من الذين آمنوا بمحمد؟!

فبين بذلك مناط التعجب من حالهم.

يا للعجب من قوم: أهل كتاب، وأتباع رسل، يقولون عن المؤمنين بمحمد: إن الكفار - من مشركى مكة - أهدى منهم سبيلاً ! وإنما وصفهم الله بأنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، ولم يفهم بأنهم أوتوا الكتاب؛ لأن حالهم تتنافى مع الكتاب كله، حيث يؤمنون ببعضه، ويكفرون ببعضه.

٥٢ - أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. بعد أن ذكر الله أحوالهم المثيرة للدهشة والعجب، عقب ذلك بتقريعهم، وبيان العقاب المستحق لهم، فقال: أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ... الآية

والمعنى: أولئك الموصوفون بالصفات السابقة، المرتكبون لهذه الجرائم البشعة، هم الذين حكم الله عليهم بالطرده من رحمته؛ بسبب كفرهم وعصيانهم ومن يلعنه الله ويبعده من رحمته؛ فلن تجد له نصيراً ينصره من عذاب الله الذى ينزل به.

٥٣ - أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُوَثِّقُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أى: ليس لهم نصيب من الملك، حتى يكون لهم الحق فى الإعطاء والمنع، والحكم بالهداية وغيرها؛ فقد زال ملكهم قبل بعثة محمد ﷺ، بمئات السنين ولو بقى لهم من الأمر شيء، لما أعطوا أحداً أقل قليل من الخير.

ثم بين الله تعالى سر هذا العناد والتمادى فى الضلال، فذكر أنه يرجع إلى حسدهم للنبي ﷺ وأتمته، وسيطرة الحقد على نفوسهم، فويخهم على ذلك بقوله:

٥٤ - أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. أَى: أنهم ليس لهم دليل يستندون إليه، وسبب يتمسكون به فى تكذيبهم. بل هم يحسدون الناس، وهم النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله، وأنعم به عليهم حيث: أعطاهم النبوة، والكتاب، والحكمة.

ولا غرابة فى هذا، ففضل الله واسع، وقد آتى الله آل ابراهيم - أَى: إبراهيم ومن معه - الكتاب، والحكمة، والنبوة، وآتاهم الله مع ذلك ملكا عظيما واسعا.

ومن ذلك ما أعطاه الله تعالى يوسف عليه السلام، من السلطان فى مصر.

وما أعطاه الله تعالى داود وسليمان عليهما السلام، من النبوة والملك العظيم فلا غرابة - بعد هذا - أن يؤتى الله محمدا ﷺ - وهو من أولاد إبراهيم - مثلما أعطى إخوانه الأنبياء.

٥٥ - قَمِنَ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا.

فى هذه الآية بيان لموقف أهل الكتاب من شريعة إبراهيم عليه السلام، والتصديق برسالته.

أَى: فمن أهل الكتاب، من آمن بإبراهيم وما أنزل عليه، ومنهم من كفر به وصد عنه. وقد أعطى الله الكفار الجزاء المناسب لهم، وهو أنهم يصلون سعيرا: أَى: يقاسون نارا مسعرة ملتتهبة، وكفى بجنهم سعيرا. ولا حاجة بعدها إلى ما هو أشد منها، إذ ليس هناك ما هو أقوى منها حرارة وأكثر اضطرابا وأشد تعذيبا.

★ ★ ★

عذاب النار

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا نُصِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَّهُمْ جُلُودًا أُخْرَاهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخِلَتْ لَهُمْ ظِلَالٌ ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

المضردات:

نصليهم نارا: نذيقهم حرها، ونشوبهم بها.

نُصِجَتْ جُلُودُهُمْ: احترقت وذابت.

ظِلَالٌ ظَلِيلًا، ظلا وارفا مستديما: لا يصاحبه حر ولا برد.

التفسير:

٥٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا... الآية
بعد أن عدد الله جرائم أهل الكتاب، وأحوالهم المقتضية للتعذيب، وعددهم عليها بالسعير، اتبع ذلك بيان جزاء الكفار على وجه العموم: الشاملين لأهل الكتاب، وغيرهم فقال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...
والمعنى: إن الذين جحدوا آياتنا الدالة على ألوهيتنا، والمنزلة على أنبيائنا - عليهم الصلاة والسلام - وفي مقدمتها القرآن الكريم: الذي هو آخر الكتب وأوفاهها، وأوضحها دلالة.
سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا. أى: سوف ندخلهم ناراً هائلة يوم القيامة.
كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ. أى: كلما احترقت جلودهم، وتعطلت عن الإحساس بالألم.
بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا. أى: جلوداً جديدة أخرى؛ ليستمر عذابهم، ويدوم لهم بها، وذوقهم لها؛ لأنهم كانوا مصرين على الكفر إلى ما لا يتناهى.

فحكم الله تعالى عليهم بالعذاب الشديد الذي لا يتناهى: جَزَاءً وَفَاقًا (النبا: ٢٦).
وأكد الله هذا الوعيد بقوله: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: هو - فى ذاته - قوى لا يعجزه شيء، ولا يستعصى عليه أمر، حكيم فى أفعاله ومن حكمته: تعذيب العاصى على قدر ذنبه.

٥٧ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.
بعد أن ذكر الله عذاب الكفار، أتبعه بيان ثواب المؤمنين، جريا على عادة القرآن الكريم، فى اتباع الترهيب بالترغيب؛ وقرن الوعد بالوعيد، إظهارا للفرق بين الحالين، وتقريراً للعدل بين الفريقين. فقال:

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ إِنَّمَا كَانَ صَبْرُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِأَنَّ لَهُمُ الْوَعْدَ بِالْآخِرَةِ. وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: أى: عملوا الأعمال النافعة لهم. وللناس جميعا، فى الدنيا والآخرة.
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. أى: سندخلهم يوم القيامة جنات عالية تجري من تحت أشجارها وقصورها، وتفيض الخيرات فى كل أنحاءها. لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا حَرٌّ وَلَا بُرْدٌ وَلَا ضَجٌّ. (الحج: ٤٨).
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. فلا يعتريهم خوف من زواله.
لَهُمْ فِيهَا زَوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ. أى: ويتنعمون فيها بزوجات طاهرات من الأدناس الحسنة والمعنوية.
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا. أى: وسيدخلهم الله - الكريم القادر - ظلا ظليلا، لا يعتريه ضيق الحر، ولا مس البرد. ولهم فيها الثواب العظيم، والنعيم المقيم.

ويشتان بين هذا وبين ما يقاسيه الكفار. مما بينته الآية السابقة.
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ. (فاطر: ١٩-٢١)

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨)

المفردات:

أن تؤدوا الأمانات، جمع أمانة، وهى ما يؤتمن عليه الإنسان: لله أو للناس وأداؤها: ردها وحملها إلى أصحابها.

التفسير:

٥٨ - إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا... الآية

الخطاب فى هذه الآية عام لجميع المكلفين كما أن الأمانات تعم جميع الحقوق المتعلقة بالذمم سواء كانت حقوق الله أو العباد.

والمعنى: إن الله تعالى يأمركم أيها المؤمنون أن تؤدوا ما ائتمنتم عليه من الحقوق سواء أكانت هذه الحقوق لله تعالى أم للعباد وسواء أكانت فعلية أم قولية أم اعتقادية.

ومعنى أدائها إلى أهلها: توصيلها إلى أصحابها كما هى من غير بخس أو تطفيف أو تحريف أو غير ذلك مما يتنافى مع أدائها بالطريقة التى ترضى الله تعالى.

وقد ذكر المفسرون أن الأمانة على أنواع:

١ - أمانة العبد مع ربه، وتشمل قيامه بحقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة، والزكاة، والصيام، والكفارات، والנדور.

٢ - أمانة العبد مع الناس. ومن ذلك: رد الودائع إلى أربابها، وعدم الغش، وحفظ السر.

ويدخل فى ذلك غدل الأمراء مع الرعية: لأن الحكم أمانة (فيجب على الولاة تأدية ما لديهم من الأمانات ورد الظلالمات وتحري العدل فى أحكامهم)^(١).

٣ - أمانة الإنسان مع نفسه بأن يختار لنفسه ما هو الأصلح والأنفع له فى الدين والدنيا.

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ. أى: كما أمركم الله تعالى أيها المؤمنون بأداء الأمانات إلى أهلها فإنه يأمركم - أيضا - إذا حكمتم بين الناس أن تجعلوا حكمكم قائما على الحق والعدل: فإن الله تعالى ما أقام ملكه إلا عليهما، ولأن الأحكام إذا صاحبها الجور والظلم أدت إلى شقاء الأفراد والجماعات.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (النحل: ٩٠)

وقال تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (ص: ٢٦).

إِنَّ اللَّهَ نَعِمًا يَعْظُمُكُمْ بِهِ. أَيْ: نعم الشيء الذي يعظكم الله به أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس؛ إذ لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم في الدارين وأن الله دائماً سميع لما يقال، بصير بما يفعل، فيعلم من أدى الأمانة ومن خان، ومن حكم بالعدل أو جار؛ فيجازى كلا بعمله.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

المضردات:

وأولى الأمر منكم: أصحاب الحل والعقد. من الرؤساء والعلماء.

تنازعتم: اختلفتم.

فرُدُّوه إلى الله والرسول: أَيْ: ارجعوا في معرفته إلى كتاب الله، وسنة رسوله.

تأويلًا: مآلاً ومرجعاً وعاقبة، أو أحسن تأويلاً من تأويلكم.

التفسير:

٥٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ...

أَيْ: أطيعوا الله واعملوا بكتابه، وأطيعوا الرسول؛ لأنه موضع للكتاب ومبين له وهو القدوة العملية

قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (الأحزاب: ٢١).

وأولى الأمر منكم. من الولاة والرؤساء والعلماء وغيرهم.

جاء في تفسير المراغي:

وهذه الآية مبينة لأصول الدين في الحكومة الإسلامية وهي:

١ - الأصل الأول: القرآن الكريم والعمل به: طاعة الله تعالى.

٢ - الأصل الثاني: سنة رسوله ﷺ، والعمل به: طاعة الرسول ﷺ.

٣ - الأصل الثالث: إجماع أولى الأمر وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة كالتجار، والصناع، والزراع، ورؤساء العمال، ومديرى الصحف، ورؤساء تحريرها، ورجال الأحزاب ممن تثق بهم الأمة.

٤ - الأصل الرابع: عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة فى الكتاب والسنة، وهذه سبيلها الاجتهاد والرد إلى الله والرسول وذلك هو القياس.

فهذه الأربعة الأصول هى مصادر الشريعة، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة والاجتهاد وتحرى الصواب والحكم بما يروونه موافقا لروح الكتاب والسنة. ويجب على الحكام الحكم بما يقرؤونه.

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين:

الأولى: الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن: (الهيئة التشريعية).

الثانية: جماعة الحاكمين والمنفذين وهم الذين يسمون: (الهيئة التنفيذية).

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. أئ: إن اختلفتم فى شىء لم يرد فيه نص صريح فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله: فارجعوه إلى هذين الأصلين وليكن حكمكم فيه بالقياس على ما يشبهه من الأمور وبذلك فتح القرآن للمسلمين باب الفهم والبحث والاجتهاد.

وقد سأل رسول الله ﷺ معاذًا حين أرسله قاضيا: ما تطعن إن عرض لك قضاء؟

قال للرسول: أقضى بكتاب الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أقضى بسنة رسول الله.

قال الرسول: فإن لم تجد؟

قال معاذ: أجتهد رأى ولا آلو.

فقال الرسول ﷺ: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى الله ورسوله^(١).

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. أئ: ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. أئ: الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله خير لكم وأصلح وأحسن عاقبة ومآلا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ يُمْسِكُمْ قَدَمَاتٍ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

المعزجات:

الطَّاغُوت: الطاغوت في الأصل: كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، يصرف عن الخير، ويغري بالشر.

يَصُدُّونَ: يعرضون.

وَمُسْكِمَاتُهُمْ: خوفهم.

وقل لهم في أنفسهم: أي: واعظا لهم - بينك وبينهم - ليكون أدعى للقبول، أو في شأن أنفسهم: كاشفا عن خبثها.

قولا بليغا: مؤثرا واصلا إلى حقيقة المراد.

التفسير:

٦٠ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ...

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه تخاصم يهودى ومنافق، ودعا اليهودى المنافق إلى التحاكم إلى رسول الله ﷺ. ودعا المنافق إلى التحاكم إلى كعب بن الأشرف... فنزلت الآية.

والمعنى: ألم ينته علمك يا محمد، إلى هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالكتب التي أنزلت على من قبلك من الرسل؟!!

إن شأن هؤلاء لعجيب: لأنهم - مع زعمهم الإيمان بذلك - يريدون أن يتخذوا من كاهن

اليهود - رأس الضلال - حاكما فى قضاياهم. وقد أمرهم الله أن يكفروا بمن يدعوهم إلى الشر ويبيدهم عن الخير ويريد الشيطان أن يوقعهم فى ضلال بعيد، لا خلاص لهم منه باتباعهم دعاة الشر.

٦١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا. أَيْ: ومن عجب أمر هؤلاء المنافقين: أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى كتاب الله تعالى وإلى رسوله ﷺ، أصروا على الكفر، وأعرضوا عما تدعوهم إليه إعراضا شديدا.

٦٢ - فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. هذا بيان لسوء عاقبتهم جزاء جنایاتهم ومخالفاتهم، وتعجب من حالهم.

أى: فيا عجبا ... كيف يكون حال هؤلاء المنافقين - وقت نزول المصائب بهم - بسبب ذنوبهم! ثم جاءوك ملتجئين إليك فى ذلك، يعتذرون عن قبائح أعمالهم، ويحلفون بالله ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى من عداك إلا الإحسان والتوفيق. أى: المداراة والمصانعة. لا اعتقاد منا صحة تلك الحكومة. كما أخبر الله عنها بقوله: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فُضِّبَ حُجُوجُهُمْ عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. (المائدة: ٥٢).

٦٣ - أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا.

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ. أى: أولئك هم المنافقون الموغلون فى الكفر والنفاق، الذين لا يخفى على الله أمرهم، ويعلم ما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد، وسيجزئهم على ذلك.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ. أى: أعرض عن قبول معذرتهم واجزهم عما فى قلوبهم من الكيد والنفاق.

وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا. أى: انصحهم - فيما بينك وبينهم بعيدا عن الناس - ليكون ذلك أدعى إلى قبولهم - بكلام بليغ رادع لهم. أو قل لهم. فى شأن أنفسهم وما انطوت عليه من الخبث والقبايح: قولا مؤثرا يردهم عن غيهم، ويعود بهم إلى رشدهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴿

المضردات:

فلا وربك، اللام لتأكيد القسم.

شجر بينهم، اختلط عليهم من الأمور.

حرجاً، ضيقاً.

٦٤ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... الآية . أى: وما أرسلنا رسولا من الرسل، لأمر من الأمور، إلا ليطيعه الناس بسبب إذنه تعالى لهم فى طاعته، وأمره لهم بأن يتبعوه، فإن طاعة الرسول طاعة لله. مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ. (النساء: ٨٠).

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ.

فى هذا بيان لما كان يجب عليهم أن يفعلوه حين ظلموا أنفسهم. أى: ولو إنهم حين ظلموا أنفسهم - بترك طاعة الله تعالى - يبادروا بالمجئ إليك معتذرين عن جرائمهم، مبالغين فى التضرع إلى الله، والتوبة إليه من ذنوبهم، حتى تقوم شفيعا لهم إلى ربك، طالبا منه المغفرة لهم.

لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا. أى: لو أنهم فعلوا ذلك: لوجدوا أبواب التوبة مفتحة لهم، ورحمته تعالى محيطه بهم.

وفى هذه الآية، إرشاد لسائر العصاة والمذنبين، إذا وقع منهم ذنب أو خطيئة أن يبادروا بالتوبة والندم: كى يفوزوا بغفران الله لهم.

٦٥ - فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ... الآية

روى البخارى بمسنده، قال: خاصم الزبير رجلا فى شرح^(١٧) من الحرية، فقال النبى ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى: يارسول الله، لأن كان ابن عمك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ. ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك»^(١٨).

فاستوفى النبي ﷺ، للزبير حقه كاملا فى الحكم، حين أحفظه الأنصارى، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة .. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ... الآية

لقد أقسم الله - سبحانه - بذاته، وهو الذى تولى تربيتك أيها الرسول، وأنعم عليك بنعمة النبوة، وأدبك بأدب القرآن، أقسم: أن هؤلاء الذين أعرضوا عن التحاكم إليك فيما اختلط عليهم، لا يدخلون فى عداد المؤمنين الصادقين؛ حتى تتحقق فيهم صفات ثلاث:

أولاهما: أن يهرعوا إليك - أيها الرسول - لتحكم بينهم فيما اختلط عليهم.

ثانيها: أن ترضى نفوسهم - وتستمر راضية دون حرج أو ضيق - بحكمك وقضائك.

ثالثها: أن يسلّموا بحكم رسول الله ﷺ تسليما كاملا، ويدعنوا له إذعانا صادقا، ويقوموا على تنفيذه بنفوس راضية.

★ ★ ★

﴿وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيْهًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

المفردات:

كُتِبْنَا: قدرنا.

ما يوعظون به: ما يؤمرون به من طاعة الله.

تنبينا: تحقيقا لإيمانهم.

التفسير:

٦٦ - وَلَوْ أَنَا كُتِبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ... أى:

لو فرضنا على هؤلاء المنافقين ما فرضنا على من قبلهم من المشقات، وشددنا التكليف عليهم فأمرناهم بقتل النفس، والخروج من الأوطان كما فرض ذلك على بنى إسرائيل؛ ما استجاب ولا انقاد إلا نفر قليل منهم وهم المخلصون من المؤمنين.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا. أَيْ: ولو أنهم فعلوا ما أمروا به، وتركوا ما نهوا عنه؛ لكان ذلك خيرا لهم فى مصالحهم، وأشد تثبिता لهم فى إيمانهم؛ إذ الأعمال هى التى تطبع الأخلاق والفضائل فى نفس العامل، فالصلاة والزكاة والصدقة والعفة كلها تثبت الإيمان وتنمى الشخصية.

٦٧ - وَإِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا.

وإذا قاموا بحق التكليف الإلهى الذى يكون فى وسعهم؛ لأعطاهم الله على ذلك الثواب العظيم، والتوفيق والهدى الذى يوصلهم إلى جنة النعيم.

٦٨ - وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.

ولهديناهم إلى طريق العمل الصالح على الوجه المرضى الموصول إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

★ ★ ★

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ (٦٩) ﴿ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (٧٠)

المفردات:

أنعم الله عليهم؛ تفضل الله عليهم بنعمه.

رفيقاً؛ مرافقا ومؤنسا.

التفسير:

٦٩ - وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.

ومن يعمل بما أمره الله به ورسوله، ويتجنب ما نهى الله عنه ورسوله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بالهداية والتوفيق فى الدنيا والآخرة من أنبيائه؛ وأتباعهم الذين صدقوهم، واتبعوا مناهجهم والشهداء فى سبيل الله، والصالحين الذين صلحت سريرتهم وعلايتهم ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهن وحسن رفيق أولئك الأبرار!

٧٠ - ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا. تلك المنزلة العظيمة لمن أطاع الله ورسوله هي الفضل الكبير من الله وهو عليم بالأعمال ومثيب عليها. وكفى به سبحانه وتعالى مجازيا لمن أطاع، عالما بمن يستحق الفضل والإحسان.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ جَمِيعًا ۖ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۖ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾

المضردات:

حِذْرُكُمْ: الحذر والحدّز بمعنى واحد وهو: التيقظ والاستعداد والمراد: احتسروا واستعدوا.
فَانْفِرُوا: انفروا: الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء والمراد: اخرجوا إلى الجهاد.
ثُبَاتٍ: جمع ثبة وهي الجماعة أى: اخرجوا جماعة تلو جماعة.
لَيُبَطِّئَنَّ: ليبطئن غيره عن القتال أو لبطئن هو أى: يتباطأ.

التفسير:

٧١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... الآية

يأيها الذين آمنوا، خذوا حذركم واحترسوا من عدوكم، واستعدوا دائما لملاقاته؛ فإن الاستعداد له قد يمنع الحرب، ويكون بتنظيم الجيوش وإعداد العدة المناسبة في كل عصر وحين، وبث العيون (المخابرات والجواسيس) ودراسة حاله وبلده وطرقه ... إلخ. مما هو معروف في الأصول الحربية، وإذا أخذتم حذركم؛ فاخرجوا إليه جماعات إن اقتضى الحال ذلك وإلا فأعلنوا التعبئة العامة واخرجوا إليه مجتمعين وفي هذا إشارة إلى تنظيم الأمة عسكريا، وتعليم شبابها الفنون العسكرية حتى إذا دعا داعي الوطن وجدنا الكل يحمل السلاح، أما الجبهة الداخلية فلا تخلو أمة من الأمم من الجبناء الرعايد والمنافيين الذين يثبطون الهمم، ويعوقون عن القتال، ويقعدون عنه لفرط حبهم للدنيا وانخلاع قلوبهم من الحرب؛ لضعف إيمانهم وخور عزيمتهم فاعرفوهم وعالجوا ضعفهم ولذا يقول القرآن:

٧٢ - وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبْتَغَىٰ فَرَأَنُ أَصَابَتَكُمْ مُصِيبَةٌ ... الآية. وإن منكم لجماعة يثبطون الهمم ويقعدون عن الحرب فإن أصابكم مصيبة في الحرب كالهزيمة أو القتل مثلاً قالوا: قد أنعم الله علينا وتفضل حيث لم تكن معكم.

٧٣ - وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ مَوَدَّةٌ ... الآية. ولئن أصابكم فضل من الله وانتصار على العدو قالوا: يا ليتنا كنا معكم فأخذنا نصيبنا من الغنيمة، كأنه لم تكن بينكم وبينهم مودة وصلة إذ الصلة والمودة التي يظهرونها تقتضى أن يكونوا معكم في السراء والضراء، والله أعلم بقلوبهم وما عندهم من الحسد والحقد، ولكنه سُمي مودة؛ تهكما بهم وبحالهم.

★ ★ ★

﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِّنْ لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

المضردات:

يشرون، يبيعون؛ لأن شري؛ من كلمات الأضداد.

والمستضعفين؛ المستذلين وهي معطوفة على فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

الولدان؛ جمع وليد وهو الصبي، أو العبد.

وليًّا؛ معنيًا.

الطاغوت؛ في الأصل كثير الطغيان، ويطلق على كل رأس في الضلال، وقيل: الشيطان.

التفسير:

٧٤ - فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ...

كان القرآن ينزل في أعقاب غزوة أحد يأسو جراح المؤمنين، ويبارك جهاد المجاهدين، ويبين أن الأيام دول، وأن المؤمن يمتحن ويبتلى ولكن العاقبة للمتقين.

ورد في الآيتين السابقتين ذكر القرآن طائفة من المنافقين تبطئ عن الجهاد، وتتبط المؤمنين عنه، فإذا انهزم المؤمنون؛ فرحوا وشمّتوا وإذا انتصر المؤمنون ندموا على تخلفهم عن القتال؛ لحرمانهم من الغنائم.

وفي هذه الآيات يأمر الله المؤمنين بالقتال في سبيله، والأمر موجه إلى من باعوا الحياة الدنيا؛ طلباً لثواب الآخرة. وجادوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله؛ وتقدير الكلام: إذا تباطأ المنافقون عن الجهاد؛ فليُسرع إليه المؤمنون الصادقون.

جاء في ظلال القرآن:

«إن المسلم لا يقاتل لمجد شخصي، ولا لمجد بيت، ولا لمجد طبقة، ولا لمجد دولة، ولا لمجد أمة، ولا لمجد جنس، إنما يقاتل في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله في الأرض، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة»^(١٤).

وحين يخرج المسلم ليقاتل في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله، وتمكين منهجه في الحياة، ثم يُقتل؛ يكون شهيداً، فينال مقام الشهداء عند الله، فإذا انتصر على العدو كان له ثمرة النصر، وجزاؤه الغنيمة في الدنيا، والأجر العظيم في الآخرة.

وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.

والمقاتل في سبيل الله بين غايتين: الاستشهاد في سبيل الله، أو النصر على الأعداء، ولا ذكر للهزيمة في الآية الكريمة؛ لأن المؤمن المجاهد لا يرتد على عقبه، ولا يستسلم للهزيمة بأي حال.

جاء في تفسير القرطبي في هذه الآية ثلاث مسائل منها:

المسألة الثالثة: ظاهر الآية يقتضي التسوية بين من قتل شهيداً أو انقلب غانماً، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسلي، فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر وغنيمة أو أجر إن لم يغنم»^(١٥).

٧٥ - وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا.

يستنهض القرآن هم المسلمين في المدينة: للدفاع عن المستضعفين المستبدلين بمكة، الذين يتعرضون لأنواع العذاب والנקال، وهم ضعفاء لا يستطيعون مقاومة المعتدين.

والمعنى: أى شئ لكم حتى لا تقاتلوا؟! أى لا عذر لكم فى ترك القتال فلاستفهام فى الآية الكريمة، لإنكار واستقباح التخلف عن الجهاد فى سبيل الله، وفى سبيل إنقاذ المستضعفين من الشيوخ الكبار، والنساء، والأطفال.

جاء فى ظلال القرآن:

ومشهد المرأة الكسيرة والولد الضعيف، مشهد مؤثر مثير، لا يقل عنه مشهد الشيوخ الذين لا يملكون أن يدفعوا - وبخاصة حين يكون الدفع عن الدين والعقيدة - وهذا المشهد كله معروض فى مجال الدعوة إلى الجهاد، وهو وحده يكفى؛ لذلك يستنكر القعود عن الاستجابة لهذه الصرخات. وهو أسلوب عميق الوقع، بعيد الغور فى مسارب الشعور والإحساس^(١٧).

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا. أى: لا عذر لكم فى ترك القتال؛ لتخليص المستضعفين، الذين عذبهم المشركون بمكة، فأتجهوا إلى الله عز وجل ضارعين قائلين: اللهم ربنا، هب لنا الخروج من مكة، والهجرة منها؛ فراراً بديننا، من أهلها الطغاة الظالمين، وهب لنا بفضلك وليا، يتولى أمورنا ويحمينا منهم، وهب لنا من عندك من ينصرنا عليهم. أخرج البخارى عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمى من المستضعفين. فهى من النساء، وهو من الولدان^(١٨).

وعن مجاهد قال: أمر المؤمنون أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة ونسبة الظلم إلى أهل مكة، تشريف لها عن نسبة الظلم إليها، فهو مقصور على أهلها المشركين.

٧٦ - الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا.

لقد وضَّح القرآن المنهج ورسم طريق العقيدة السليمة من الإيمان بالله، وامتنال أوامره، واجتناب نواهيه؛ كما رعى القرآن المسلمين تربية إسلامية، فرعى يقينهم ووجدانهم، وضميرهم وقلوبهم وعقلهم، وقدم لهم غذاء العقيدة بالقصص والمشاهد، وأخبار القيامة والبعث والجزاء؛ فنشأ المؤمنون نشأة متكاملة؛ كأنهم خلقوا من جديد بالعقيدة والإيمان والإسلام، وحين بدأ القتال اكتسح الإسلام الأعداء، بقوة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

فمعارك الإسلام فى الجزيرة العربية: فى بدر، وأحد، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين، والطائف، وغزوة تبوك، كتب فيها النصر للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة.

وقل، يمثل ذلك فى انتصار الإسلام على الفرس والروم ومصر، بل لقد انتصر الإسلام بالفكرة والعقيدة فى بلاد كثيرة، وهناك انتصار آخر هو انتصار اللغة العربية بحيث صار العلماء فى البلاد التى فتحها الإسلام يعتنقون الإسلام طوعا واختياراً، ويدرسون بهذه اللغة، ويقدمون للبشرية نتاج أفكارهم، وما كان للغة العربية هذا المجد قبل الإسلام، لكن القرآن والوحى، والحديث النبوى، والتراث الإسلامى؛ كل هؤلاء أخصبوا اللغة العربية؛ حتى سماها بعض الباحثين: اللغة الإسلامية.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . .

قال الزمخشري:

رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا، بإخبارهم أنهم إنما يقاتلون فى سبيل الله؛ فهو وليهم وناصرهم، وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان؛ فلا ولى لهم إلا الشيطان، وكيد الشيطان للمؤمنين، إلى جنب كيد الله للكافرين، أضعف شىء وأوهنه^(٨).

وتبقى الآية على جلالها ترسم حقيقة واقعية.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . تحت راية الله فهم جند يقاتلون من أجل منهج الله ودين الله.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ . أى: فى سبيل الطغيان والاستعلاء، وشتان بين من يقاتل فى سبيل الحق والعدل، والمبادئ والمثل العليا، ومن يقاتل عدوانا وظلما، وتمكيناً للطغاة الجبارين، وفى آخر الآية دعوة إلى جهاد الشيطان والانتصار عليه وعلى أتباعه.

جاء فى تفسير القرطبي:

الطَّاغُوتِ . يذكر ويؤنت، والطاغوت هو الشيطان والدليل على ذلك قوله تعالى:

فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . أى: مكره ومكر من اتبعه، ويقال: أراد به يوم بدر حين قال للمشركين: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفَتَاتُ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ . (الأنفال: ٤٨).

﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۖ ﴾ (٧٧)

أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ۚ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۖ ﴾ (٧٨)

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۖ ﴾ (٧٩)

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ ﴾ (٨٠)

المفردات:

كفوا أيديكم : اقبضوها وامنعوها عن القتال

متاع الدنيا : ما يتمتع به من زخرفها وزينتها ولذائنها .

فتيلاً : الفتيل: الخيط الموجود في شق النواة، يضرب به المثل في القلة والحقارة .

بروج مشيدة : حصون مرتفعة منيعة محكمة .

يفقهون : يفهمون فهمًا دقيقًا .

شهيدها : شاهدًا على صدق رسالتك، أو مطلعًا بصيرًا .

تولى : أعرض .

حفيظًا : رقيبًا، أو مسيطرًا .

التفسير:

٧٧- أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... الآية. روى ابن أبي حاتم

بسند. عن ابن عباس، أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عِزَّةٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما

حواله الله إلى المدينة ، أمره بالقتال فكفوا ، فأنزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ^(١٩) أي: أَلَمْ يَنْتَه إِلَى عِلْمِك - يامحمد - حال أولئك الذين كانوا يَتَمَنُّونَ القتال - وهم بمكة - قبل أن يأذن رسول الله ﷺ لهم فيه؛ رغبة في التخلص من إيذاء المشركين المستمر لهم ؟!

وكان رسول الله ﷺ ، يستمهلهم ويقول لهم - وهم بمكة - : كفوا أيديكم عن قتال المشركين حتى يأذن الله فيه، وتفرغوا لتطهير أنفسكم وتركيتها: بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة^(٢٠) ، وإعدادها للجهاد حين يأذن الله به فيه ؟!

والاستفهام لتعجب رسول الله ﷺ ، ومن معه ، وكل من يتأتى منه ذلك إلى يوم القيامة - تعجب لهم - من حال هؤلاء الذين تحدثت الآية عن شأنهم . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . أي: فلما فرض الله القتال على المؤمنين - بعد الهجرة - استولى الخوف على الكفار - على نفوس فريق منهم، وهم المنافقون، وتهيبوا قتال الناس خشية القتل أو الأسر، وملاً الرعب قلوبهم فأصبحوا يخافون قتال الكفار كخوف المتقين من الله . بل أصبح خوفهم من الناس أشد من خوف المتقين من ربهم.

وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ . أي: وقالوا - في ضيق ورعب وجزع من الموت - يا ربنا، لم فرضت علينا القتال؟ هلا أخرت فرضه علينا إلى مدة قريبة؟ حبا في التمتع بالدنيا . والمدة القريبة غير محدودة فهي - عندهم - انتهاء آجالهم دون قتال أو: يا ربنا، هلا زدتنا في مدة الكف إلى وقت آخر ، قابل للتجديد؟ حذرا من الموت، وهربا من الجهاد؛ فقال الله لرسوله ﷺ: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا...

متاع الدنيا كله قليل، فما بال أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين؟ وما قيمة هذا الإمهال لأجل قصير، إذا كان متاع الحياة الدنيا بطولها في جملته قليلا؟ ما الذي يملكون تحقيقه من المتاع في أيام أو أسابيع أو شهور أو سنين ، ومتاع الدنيا كله ، والدنيا بطولها قليل ؟!

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى . أي: وثواب الآخرة خير لكم من المتاع القليل، لمن اتقى الله، ولم يخش إلا الله، وتأتى التقوى هنا في موضعها للمقابلة بين من يخاف الناس ومن يخاف الله، فالذى يخاف الله لا يخاف الناس، والإنسان لا يملك لك نفعا أو ضرا إلا بإذن الله .

وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . والفتيل: الخيط الموجود في شق النواة؛ أي: إن الله هو الذى يجازى الأتقياء جزاء الكريم العليم ، ولا ينقصون من أجورهم شيئا مهما كان قليلا، قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٨، ٧)

٧٨- أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ... هذه الآية تقرّر قاعدة عامة، وإن كان المراد بها المنافقين، أو ضعفة المؤمنين، الذين قالوا: لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ. أَيْ: إِلَى أَنْ نَمُوتَ بِأَجَالِنَا^(٣١).

والمعنى: فى أى مكان تكونون فيه - فى ساحة القتال، أو بين أهليكم مواطن أمنكم، أو خوفكم، سينزل بكم الموت عند انتهاء أجالكم، ولو كنتم فى حصون منيعة أو قصور عالية.

جاء فى تفسير القرطبي:

قال ابن عباس: البروج: الحصون والأطام والقلاع، ومعنى مشيدة: مطوّلة أو محصنة بالشّد وهو الجصّ، والمشيد والمشيد سواء، ومنه: وَقَصُرَ مَشِيدٌ. (الحج: ٤٥)، وفى هذه الآية تأنيب للجبناء أو المنافقين، الذين ضاقوا بما فرض الله عليهم من القتال، وإبراز لحماقة تفكيرهم، فإن الجبن لا يطيل عمراً وإنما يجلب ذلاً، والشجاعة لا تنقص أجلاً وإنما تورث عزاً.

وإن تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

هذا بيان لنقيصة أخرى من نقائصهم، فهم يتطيرون بالنبى - فيظنون - حاشاه - شوّما عليهم أو هم يريدون عامدين تجريح قيادة الرسول ﷺ: تخلصا من التكالييف التى يأمرهم بها.

فقد كانوا يقولون: إذا حلت بهم نعمة، من سعة فى الرزق، وكثرة فى الأموال والأولاد، هذا الذى أصابنا من النعم من عند الله، قالوا ذلك، لا عن إيمان بالله، واعتراف بفضله، بل قالوه: تهوينا لشأن النبى ﷺ، وإشارة إلى أنه لا يأتيتهم بخير، يدل على ذلك ما حكاه القرآن عنهم بقوله:

وإن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ. أَيْ: وإن يصيبهم جَدْبٌ وقحط، ونقص فى الأموال والأولاد ونحو ذلك؛ قالوا: أصابنا ذلك بشؤمك الذى لحقنا ...

قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ. إن الله هو الفاعل الأول، والفاعل الأوحد، لكل ما يقع فى الكون وما يقع للناس، فهو وحده الذى يملك النفع والضّر ولا يقع فى ملكه إلّا ما يريد.

فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَقِيقَتًا. فما شأن هؤلاء القوم؟ وماذا أصاب عقولهم، حتى أصبحوا بعيدين عن الفهم والإدراك لما يسمعون ولما يقولون، ولا يفهمون أن كلا من الخير والشر من عند الله وحده، وأن الله هو الباسط القابض وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

٧٩- مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ... الآية

قررت الآية السابقة أن كل ما يقع فى الكون فهو بإرادة الله العليا، وقضائه وقدره.

ونحن نؤمن بالقضاء والقدر، ونؤمن بأن بيد الله الخلق والأمر، ومع هذا فإن للعبد كسبا واختيارا، وإرادة محدودة مسئولة. والجمع بين إرادة الله، وإرادة العبد يحتاج إلى شيء من الانحناء والتسليم.

فبالنسبة لأحداث الكون كلها فهي من عند الله، ويحكمته وبالنسبة لأعمال الإنسان، فهو إذا اختار طريق الهدى: أعانه الله عليه وسد خطاه، وإذا اختار طريق الضلال: سلب الله عنه الهدى، ووكله إلى نفسه فكان هو السبب فيما يصيبه من بلاء في الدنيا أو عذاب في الآخرة.

فآلية الثانية مختلفة عن الآية الأولى:

الآية الأولى: تشير إلى أن كل ما يقع في الكون بإذن الله، والآية الثانية: تشير إلى أن العبد إذا أطاع الله: أيداه الله بتوفيقه، وإذا عصاه: وكله الله إلى نفسه.

قال الزمخشري:

مَا أَصَابَكَ. يَا إِنْسَانُ: خطاباً عاماً مِنْ حَسَنَةٍ. أَيْ: مِنْ نِعْمَةٍ وَإِحْسَانٍ فَمِنْ اللَّهِ. تَفْضِيلاً مِنْهُ وَإِحْسَاناً وَامْتِنَاناً وَامْتِحَاناً.

وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ. أَيْ: مِنْ بَلِيَّةٍ وَمُصِيبَةٍ فَمِنْ عِنْدِكَ: لِأَنَّ السَّبَبَ فِيهَا بِمَا اكْتَسَبْتَ يَدَاكَ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ. (الشورى: ٣٠) وعن عائشة رضي الله عنها: «ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها، حتى انقطاع شمع نعله إلا بذنب وما يعفو الله أكثر»^(١).

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا. أَيْ: رَسُولًا لِلنَّاسِ جَمِيعًا لَسْتُ بِرَسُولِ الْعَرَبِ وَحْدَهُمْ أَنْتَ رَسُولُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ. (سبأ: ٢٨) وقال تعالى: قُلْ يَٰ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا. (الأعراف: ١٥٨).

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. على صدق رسالتك، وأنت أبلغت ما أنزل الله عليك، وأدّيت واجبك أكمل أداء، بإخلاص ويقين: تبشر الناس وتنذرهم، والله تعالى خير شهيد على ذلك.

وفى تقرير رسالته ﷺ تطمين لقلبه، وتقوية لعزمه، كما أن فيه زيادة كبت لهم، وتأكيدهم، وعدم فقهم.

٨٠- مَنْ يَطْعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا.

أرسل الله رسوله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل ففتح به الرسالات، وأنزل عليه وحى السماء، وجعل طاعة الرسول فيما يبلغه عن ربه واجبة: لأن طاعته طاعة لوصي الله وأمر الله، قال تعالى: وَمَا يَطِغُ عَنْ أَلْهَوَى * إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. (النجم: ٣، ٤).

فليس لمسلم أن يخالف الرسول فيما يبلغه عن ربه، قال تعالى: فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (النور: ٦٣).

وأما ما رآه الرسول من الأمور الخارجة عن دائرة التبليغ والرسالة، مما هو خاص بشئون الدنيا، فليست أوامر، بل إرشادات، ولذا راجعه المسلمون في بعض الآراء، كما حدث في تأبير النخيل فرجع ﷺ ونزل على رأيهم^(٢٣) وقال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»^(٢٤) رواه مسلم.

وجاء في تفسير ابن كثير:

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ، بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله تعالى على وعلى آله وسلم: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصانى»^(٢٥) وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن الأعمش.

وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا. ومن أعرض عن طاعتك، وعن اتباع الحق الذى جئت به؛ فاترك أمره إيلنا فسنجازيه - فإنما أرسلناك مبعثاً ولم نبعثك مسيطراً ولا رقيباً على أعمالهم قال تعالى: فَلَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ. (الفاشة: ٢١، ٢٢).

وفى الحديث «ومن يطع الله ورسوله؛ فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله؛ فإنه لا يضر إلا نفسه».

★ ★ ★

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُنْشِئُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقَوْلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٨١) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْقُرْآنَ أَنْ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢)

المضردات:

برزوا من عندك : خرجوا من مجلسك ظاهرين .

بيت طائفة : دبروا ليلاً أو في السر . في أى وقت من ليل أو نهار .

يتدبرون القرآن : يتأملون فيه، ويتفكرون في معناه .

اختلافها كثيراً : تناقضا فى معانيه، وتباينا فى نظمه .

التفسير:

٨١- وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِدَدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ... الآية

تحكى هذه الآية شأنًا آخر من شئون المنافقين، يعتمد على الختل والتلون والتستر وعدم المواجهة بالحقيقة، فهم أمام النبي ﷺ يظهرون الطاعة والامتثال والموافقة بألسنتهم، فإذا انصرفوا من مجلسه وذهبوا بعيداً عنه .

بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ . قال ابن كثير: أى: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه .

وفى التفسير الوسيط:

دبر زعماؤهم فى السر - فى الليل أو النهار - مخالفة أمره ﷺ، ونقض الذى قالوه بألسنتهم فى مجلسه معتقدين أن هذا التدبير الخفى لن يعلمه الرسول ﷺ، وفاتهم أن الله يعلم كل ما يتآمرون عليه، وقد سجله عليهم وأنه سيكشفه لرسوله ﷺ، وأنه سيعاقبهم على هذا النفاق - فى الآخرة - أشد العقاب، كما ينبئ عنه قوله تعالى: وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ .

أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد، والمعنى فى هذا التهديد بالجزاء والعقاب .

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . أى: اصفح عنهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تأبه بهم ولا بمؤامراتهم؛ وفوض أمرك إلى الله وحده يكفك أمرهم .

وقال تعالى: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . (الطلاق: ٣) .

وليس معنى التوكل على الله، أن يترك الإنسان الأخذ بالأسباب، فهذا هو التواكل وهو مذموم، وإنما المراد به الأخذ بالأسباب، مع تفويض الأمر إلى الله والاعتماد عليه، وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . أى: كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه .

٨٢- أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . التدبر: التفكير والتأمل فى المعنى .

وتثبت هذه الآية أن القرآن لم يصل إلى شغاف قلوبهم، وإنما قرءوه بألسنتهم، وتطالبتهم الآية أن يتدبروه بيقظة وانتباه، وتحضهم على التأمل فيه.

والمعنى: أيعرض هؤلاء المنافقون عن القرآن، فلا يتأملون فيه، ليعلموا أنه من عند الله!؟

فلو تدبروه: لأيقنوا أنه من عند الله لا من عند غيره؛ لأن طاقة البشر لا تستطيع الإتيان بهذا الكمال، فى بيان العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والإخبار الصادق عن الماضى والمستقبل، وعالم الغيب وما يجرى فيه .. كل ذلك فى أسلوب بديع متقن بالغ الغاية فى الكمال والتحدى .

إن العلوم التي تقوم على التجارب قد تنقض اليوم، ما أبرمته بالأمس، وتهدم غدًا ما بنته اليوم .
وفى كتاب للمستشرق: مورييس بوكاي بعنوان: (التوراة، والإنجيل، والقرآن فى ضوء العلم) .
أثبت فيه أن العلم قد نقض بعض ما جاء فى التوراة عن بدء الخليقة، وحادث الطوفان، وغير ذلك. كما نقض العلم بعض ما جاء فى الأناجيل .

لكن العلم لم ينقض حقيقة واحدة مما جاء فى القرآن الكريم، فقد تكلم القرآن عن حقائق علمية تتصل بالسماء والأرض، والجبال والبحار، والليل والنجوم والشمس والقمر، والحيوان والنبات والإنسان وغير ذلك، ومع تطور العلم تطورًا ملحوظًا فى القرن التاسع عشر، والقرن العشرين الميلاديين، فإن هذا العلم جاء يؤكد صدق القرآن؛ لأن هذا القرآن أنزل على رسول الله ﷺ، وهو أمى نشأ بين أمة أمية، ولم يكن لديه أجهزة علمية، أو معاميل ليكتشف بها هذه الحقائق الكثيرة التى حفل بها القرآن، وقد كان النبى رجلاً عادياً عازفاً عما عليه قومه، فلما نزل عليه الوحي: تفجر فمه بالحكمة فى قواعد الإيمان، والأخلاق والسلوك، والتشريع والقضاء ونظام الحكم، والعقوبات، والعبادات، والمعاملات .

فدل ذلك على أن هذا الوحي ليس من صنع محمد، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

وقد تحدى العرب أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، وطالت مدة التحدى، مع وجود الحافز والباعث لهؤلاء الكفار، أن يبطلوا حجة فقد قاتلوه وقاتلهم، وأفنوا الأموال والأعداد من الرجال فى سبيل القضاء على دعوته، فلو كان فى استطاعتهم أن يأتوا بمثل القرآن لأتوا به، لكن العجز قد لزمهم، وسجل القرآن هذا العجز بقوله: قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . (الإسراء: ٨٨) .

والمعهود فى كبار الأدباء أن تتفاوت آثارهم قوة وضعفاً، وسمواً وضعوا، ولا يسلم أحد من هذا وإن كان عبقري الموهبة رائع البيان .

أما القرآن الكريم فجميع آياته طبقة عليا من البلاغة والبيان، والسلامة من التناقض والاضطراب مع طول مدة نزوله فقد نزل فى ٢٣ عاماً، ومع هذا نجده آية واحدة فى حسن السبك وجمال النظم، وبراءة الاستهلال وتصريف القول ؛ فقد حكى عن الأمم السابقة، وساق مشاهد الكون، وتناول أخبار القيامة ومشاهد الآخرة، قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه: ١١٣)

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره ثلاث روايات لحديث ينهى عن الاختلاف والمراء وضرب القرآن بعضه ببعض ومن هذه الروايات ما يأتى:

عن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فإنا لجلوس إذا اختلف اثنان في آية، فارتفعت أصواتهما، فقال: «إنما هلكت الأمم قبلكم: باختلافهم في الكتاب»^(٢٧) رواه مسلم والنسائي.

★ ★ ★

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣)

المضردات:

أذاعوا: خبر عن سرايا الرسول ﷺ.

الأمم: النصر.

الخوف: الهزيمة.

أذاعوا به: نشره وأفشوه.

يستنبطونه: يستخرجون حقائقه المستورة الخفية، ومقاصده البعيدة.

التفسير:

٨٣- وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ... الآية

تقدم هذه السورة ألوانا من التربية الإسلامية وآدابها، ومن هذه الآداب: التثبت في القول، وألا يحدث الإنسان بكل ما يسمع، وألا ينقل الأخبار إلا بعد التيقن من صدقها. روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع»^(٢٨).

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال»^(٢٩) أي: الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين.

وفى الصحيح «من حدث عنى بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين»^(٣٠) وقد نقل ابن كثير في تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، تدعو المسلمين إلى التثبت في القول، وعدم نشر الإشاعات والأراجيف، والرجوع إلى الثقات، وإلى أولى الأمر: للتثبت من الأخبار، والتيقن من الأمور قبل المشاركة في إذاعتها وترويجها.

ونلّج أن بعض المنافقين، أو بعض ضعاف النفوس ممن شهوتهم الكلام، كانوا يروجون أخبار النصر والأمن، وأخبار الهزيمة والخوف، وهذه الأمور تسهل للعدو مهمة التجسس، ومعرفة مواطن الضعف والقوة لدى المسلمين .

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ .

فواجب على كل مسلم أن يردّ هذه الأخبار إلى أولى الحل والعقد من المسلمين؛ فإنهم هم الذين يستطيعون تقييم هذه الأخبار، وتقدير ما إذا كان من المصلحة العامة للدولة إذاعتها أو كتمانها، كذلك هم - بأطلاعهم على خفايا الأمور - أعرف بصحة تلك الأخبار أو فسادها .

قال ابن كثير:

ونذكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته^(٣٠)، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فاستأذن على رسول الله ﷺ، فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ فقال لا، قال عمر: فمقت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . فكانت أنا استنبطت ذلك الأمر.

ومعنى يستنبطونه: يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين إذا حفرها واستخرجها من قعرها^(٣١).

والذين يستنبطون الحقائق، هم الذين يطلعون على خفايا الأمور، أو المراد بهم الذين رجعوا بهذه الأخبار - حينما سمعوا - إلى الرسول وأصحابه، فإنهم يعرفون - عن طريقهم - ما خفى عليهم أمره من هذه الأخبار . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا .

ولولا حفظ الله لكم، وتثبيتة لقلوبكم؛ لوقعت فيهم في المناقون، وضعفاء الإيمان وذوو الغفلة، ولولا رحمة الله بهذه الأمة؛ لضل الكثير من أبنائها، باتباع سبيل الشيطان، ولكان مصيرها الضياع والانزлам، وضعف الثقة في النفوس .

لكن من عناية الله بهذه الأمة، أن جعل فيها قلة ممتازة، تتميز بقوة العزيمة، وثبات الإيمان، وعدم تصديق الأراجيف أو إذاعتها، وهذه القلة بمثابة الأساس المتين الذي يقوم عليه البناء ويعتمد عليه، ويصح أن يكون المراد بقوله: لَا تَبْغُتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا . إلا في قليل من أعمالكم .

وبالتأمل فيما تضمنته الآية الكريمة من إرشادات حكيمة، يتضح أن القرآن الكريم، قد سبق جميع النظم الحربية، في وضع أقوى الوسائل لمواجهة ما يسمى الآن: الحرب النفسية، أو حرب الأعصاب. وهى التى تدير الحرب العسكرية .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ (٨٤)

المضردات:

لا تكلف إلا نفسك : لا تكلف إلا فعل نفسك .

وحرض المؤمنين : وحثهم ورغبتهم .

تنكيلا : تعذيبا وإيلا ما .

التفسير:

٨٤ - فَقاتِلْ في سَبيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

هذه الآية تفريع على ما سبق من بيان حال المنافقين وضعاف الإيمان، وأنهم مُخَذَّلون بإذاعتهم ما يسمعون، قبل التثبت من صحته.

وهي أمر من الله تعالى لرسوله، ولكل قائد، وكل قادر على القتال من المؤمنين المخلصين، أن يندفع ولو منفرداً إلى الجهاد في سبيل الله، عند النفير العام، غير ملتفت إلى المثبطين والمرجفين .

وفي الآية حث على تحمل المسئولية الفردية، وقيام كل فرد بواجبه، وبذلك تتلاحم الصفوف، ويجتمع المسلمون يداً واحدة، كالبنيان المرصوص .

ويفهم من الآية، أن على القائد أن يتقدم جنده، وأن يضرب لهم المثل بنفسه عملياً، وأن يحرض المؤمنين على الجهاد، ويحثهم عليه، كما فعل رسول الله ﷺ يوم بدر؛ وهو يسرى الصفوف، فقد قال لهم: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» .^(٣٦)

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً؛ وجبت له الجنة» .^(٣٧)

قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدّها عليّ يا رسول الله؛ ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة؛ ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا . فإذا حرّض القائد جنوده على القتال والجهاد، انبعثت الرغبة في الشهادة، ولا ريب أن الاستعداد للحرب وأخذ العدة والتأهب للقتال،

من شأنه أن يلقي الرعب في قلوب الكفار فيكفون على التحرش بالمسلمين، ولذلك قيل: لا شيء يمنع من الحرب مثل الاستعداد لها .

فإن استعداد المسلمين وأخذهم العدة من شأنه أن يحمل الكفار على التفكير والتروى قبل مواجهة المسلمين، فيتوقفون عن قتالهم، ويكف الله بهذا عن المسلمين شر قوتهم وشدة بأسهم .

وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا . فهو سبحانه أشد قوة من كل ذى قوة، وأشد تعذيباً من كل قادر على التعذيب، وهو سبحانه قادر عليهم فى الدنيا والآخرة. قال تعالى: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيُثَبِّتَ بَعْضُكُمْ عَلَى الْآخِرَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ الَّتِي هُمْ فِيهَا * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٤ - ٧)

★ ★ ★

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (٨٥) وَإِذْ أَحْبَبْتُمْ بَنِي حِثْيَاءَ فَحَبِوْا بِأَحْسَنِّ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المضردات :

من يشفع شفاعة : الشفع في الأصل: الضم. ومنه الشفعة. وهى ضم ملك الشريك . ومن الشفع: الشفاعة. كأن المشفوع له كان فردا، فجعله الشفع شفعاً. وتطلق الشفاعة على التوسط لإيصال شخص إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو خلوص من مضرة ما.

نصيباً : النصيب: الحظ، وهو قابل للزيادة ، وأكثر ما يستعمل في الخير .

كِفْلٌ : الكِفْلُ: الوزر والإثم، أو المقدار المساوى، وأكثر ما يستعمل في الشر .

مُقْتَدِرًا : مقتدراً، أو حافظاً وشاهداً .

حَسِيبًا : محاسباً ومجازياً، أو كافياً ، أو حفيظاً .

التفسير:

٨٥ - مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ... الآية

من يسع في أمر فيترتب عليه خير - لفرد أو جماعة - كان له نصيب من أجر ذلك الخير، الذي ترتب على سعيه .

وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سيئةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا .. أي: ومن يسع في أمر فيترتب عليه شر، كان عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه، وهذا عام في الأمرين.

قال ابن كثير في تفسيره : (أي من يسع في أمر فيترتب عليه خير؛ كان له نصيب من ذلك) .
وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سيئةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا . أي: يكن عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «اشفعوا تَوْجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء» (٣٤) .

وقال مجاهد بن جبير: (نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض) .
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِلًا .. أي: مقتدرًا على مجازاة كل إنسان من المحسنين والمسيئين، بما يستحقه من جزاء، وقال مجاهد: مُّقْبِلًا . شهيدًا، حسيبًا، وقيل قديرًا وقال الضحاك: المقيت الرزاق .

٨٦ - وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا .

حث الإسلام على صلة الرحم، وعمل على إشاعة المودة والمحبة والتراحم بين المسلمين، ومن أسباب المودة: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وصلة الأرحام .

روى أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم» (٣٥) .

ورد السلام فريضة والزيادة على تطوع، فينبغي أن ترد السلام على المسلم وأن تزيد عليه .

روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله؛ فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته؛ فقال له: «وعليك» فقال الرجل: يا نبي الله بأبي أنت وأمي! أتاك فلان وفلان فسلمنا عليك، فرددت عليهما أكثر مما رددت علي، فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً، قال الله تعالى: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها .. فرددناها عليك» (٣٦) . قال ابن كثير: وهكذا رواه ابن أبي حاتم،

وابن مردويه ولم أره في المسند وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ.

وروى الإمام أحمد بن عمران بن حصين: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم يا رسول الله: فرد عليه السلام ثم جلس فقال: «عشر»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله: فرد عليه ثم جلس، فقال: «عشرون»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: فرد عليه السلام، ثم جلس فقال: «ثلاثون»^(٣٧) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والبخاري.

وجاء في التفسير الوسيط:

والرد على تحية الإسلام واجب وإنما التخيير بين الزيادة وتركها. ولا يرد على من سلم أثناء الخطبة، وتلاوة القرآن جهراً، ورواية الحديث، وعند دراسة العلم، وعند الأذان والإقامة. ولا يسلم على لاعب النرد، والشطرنج، والمغنى، والقاعد بقضاء حاجته، والعاري في الحمام.

والسنة أن يسلم الماشي على القاعد، والراكب على الماشي، وراكب الفرس على راكب الحمار، والصغير على الكبير، والعدد القليل على العدد الكثير، وإذا التقيا بادر كل منهما إلى إلقاء السلام على صاحبه، وخيرهما الذي يبدأ.

وجاء في تفسير ابن كثير:

عن ابن عباس قال: من سلم عليك من خلق الله: فاردد عليه وإن كان مجوسياً؛ ذلك بأن الله يقول: فَحْيُوا بِأَحْسَنِ مِثْلِهَا أَوْ رُدُّوْهَا..

فأما أهل الذمة فلا يبدعون بالسلام، ولا يزدون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليكم فقل: وعليك»^(٣٨).

وروى أبو داود بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»^(٣٩). ورواه مسلم أيضاً.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ... وختمت الآية بما يحرك وجدان المسلم نحو الامتثال والمحافظة، على ما يوطد روابط المحبة والمودة بين الناس، والحرص على إفشاء السلام، وعلى رد التحية أو الزيادة عليها، وعلى ما يملأ قلب المؤمن خوفاً من الله وحذراً من عقابه، فهو سبحانه سريع الحساب، ولا تخفى عليه خافية. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. (الزلزلة: ٧، ٨)

٨٧- اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . إخبار بتوحيد الله وتفرد بالألوهية لجميع المخلوقات.

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ . هو الذي يجمع الناس - بعد قيامهم من قبورهم - يوم القيامة ليجازي كلًا بما قدمت يداه، وهذا الجمع لا ريب فيه؛ أو هذا اليوم أت لا شك في مجيئه .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا . أى: لا أحد أصدق منه فى حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا محدث أصدق منه، وحين يدخل أهل النار النار، ويدخل أهل الجنة الجنة، يقول الذين اتقوا ربهم: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . (الزمر: ٧٤).

★ ★ ★

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتَرِيدُونَ أَنْ نَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ (٨٨) وَدَوَّالُوا تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُواهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقُولُوا أَوْ يَفْعَلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَقْتُمُوهُمْ فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٩٠)

المفردات :

فِتْنَتَيْنِ : فرقتين .

أَرَكْسَهُمْ : ردهم إلى الكفر ونكسهم .

أَوْلِيَاءَ : أعوانا ونصراء ؛ توالونهم .

مِيثَاقٌ : عهد .

حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ : ضاقت صدورهم .

اعْتَرَلُوكُمْ : تركوا قتالكم .

وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ : وألقوا إليكم السلام والاستسلام .

التفسير:

٨٨ - فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا تفيد هذه الآية وجود بعض المنافقين خارج المدينة؛ لأن المنافقين داخل المدينة كشفتهم السور المدنية، وذكرت خصائصهم، وأمرت المسلمين بمهادنتهم؛ حتى يكشف أمرهم، وحتى يقطع المسلمون مصادر قوتهم حيث أخرج المسلمون اليهود من المدينة؛ فضعف أمر المنافقين بعد ذلك .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية عدة أقوال:

ذكر ابن الجوزي في كتابه: زاد المسير في علم التفسير ١٥٢/٢: أن هناك سبعة أقوال في سبب نزولها، (ويمكن أن نختار أربعة أقوال منها) :

١- أن قوما أسلموا، فأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها، فخرجوا فاستقبلهم نفر من المسلمين، فقالوا: ما لكم خرجتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، واجتوبناها، فقالوا: أما لكم في رسالة الله أسوة؟ واختلف بشأنهم؛ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم: لم ينافقوا؛ فنزلت هذه الآية .

٢- أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد، ورجع ناس ممن خرج معه، فافترق فيهم أصحاب رسول الله، ففرقة تقول: نقتلهم؛ وفرقة تقول: لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية، هذا في الصحيحين من قول زيد بن ثابت .

٣- أن قوما كانوا بمكة تكلموا بالإسلام، وكانوا يعاونون المشركين فخرجوا من مكة لحاجة لهم، فقال قوم من المسلمين: اخرجوا إليهم، فاقتلوه، فإنهم يظاهرون عدوكم، وقال قوم: كيف نقتلهم وقد تكلموا بمثل ما تكلمنا به؟! فنزلت هذه الآية .

٤- نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي؛ حين تكلم في عائشة بما تكلم به. رواه ابن جرير الطبري ١٣/٩ ورجع ابن جرير قول من قال: إنها نزلت في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في قوم كانوا ارتدوا بعد إسلامهم من أهل مكة .

ونحن نعلم في قواعد علوم القرآن أنه إذا تعددت الروايات في سبب نزول الآية وبعضها صحيح وبعضها ضعيف أخذنا بالرواية الصحيحة، فإذا كانت الروايات كلها صحيحة وأمکن الجمع بينها؛ حكمنا بتعدد الأسباب والمنزل واحد، فيمكن أن يكون حدث أكثر من سبب أدى إلى نزول هذه الآية.

والجو العام للسيرة النبوية يؤدي إلى ترجيح ما رجحه ابن جرير الطبري واختاره الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن حيث رجح أن الآية نزلت في منافقين كانوا بعيدين عن المدينة، ولعل بعض المسلمين كانت تربطهم بهم قرابة، أو مشاركة في تجارة أو منفعة؛ فأراد القرآن أن يضع قاعدة للمسلمين، تؤكد أن الترابط والتعاون والعمل ينبغي أن يتم على أساس العقيدة والإيمان .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا . والخطاب في الآية عام لجميع المؤمنين .

والمعنى: لم تختلفون في القول بكفر هؤلاء المنافقين، وتفتقرون في هذا الأمر فرقتين، وقد ردَّهم الله إلى الكفر، كما كانوا بسبب ما اقترَفوه من الاحتيال على رسول الله ﷺ وخديعته، أو معاونة المشركين في إيذاء المسلمين بمكة، حيث بيَّتوا الشر وأضَمروا الردَّة ؟

ليس لكم أن تختلفوا في شأنهم .. بل كان يجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتفقوا على القطع بكفرهم؛ لظهور أدلة هذا الكفر وذلك النفاق .

لقد يسر الله لهؤلاء المنافقين طريق الإيمان الصادق، ولكنهم تنكبوا طريق الصواب، واختاروا الضلالة على الهدى؛ فسلبهم الله معونته وتوفيقه، وردَّهم إلى الكفر بسبب ما عملوا .

وكلمة أَرَكْسَهُمْ فيها أربعة أقوال:

- ١- ردَّهم .
- ٢- ركست الشيء وأركسته: لغتان أى: نكسهم وردهم فى كفرهم .
- ٣- أوقعهم .
- ٤- أهلهم^(١) .

فأما الذى كسبوا فهو كفرهم وارتدادهم .

أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ . أى: ترشدوه إلى الثواب بأن يحكم لهم بحكم المؤمنين؛ لأن قوما من المؤمنين قالوا: إخواننا وتكلموا بكلمتنا، فبين القرآن خطأ هذا الاتجاه بعد أن ظهر للعيان نفاقهم .

وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ... فإنما يضلُّ الله الظالين، أى: يمدُّ لهم فى الضلالة حين يتجهون هم بجهدهم وينتهي إلى الضلالة، وعندئذ تغلق فى وجوههم سبل الهداية، بما بعدوا عنها وسلخوا غير طريقها، ونبذوا العون والهدى، وتنكروا لمعالم الطريق^(٢) .

٨٩ - وَدُّوا أَنْ تُكَفِّرُوا كَمَا كَفَرُوا فَكُونُوا سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ... الآية

يفصح القرآن عن حقيقة مشاعر هؤلاء المنافقين، فهم لم يكتفوا بكفرهم، ورجوعهم إلى الضلال، بل يطمنون أن يقضوا على معالم الحق والإيمان .

والقرآن يلمس مشاعر المؤمنين لمسة قوية، مفزع لهم وهو يقول لهم: وَدُّوا أَنْ تُكَفِّرُوا كَمَا كَفَرُوا فَكُونُوا سَوَاءً ... فقد كانوا حديثى عهد بنبذ الكفر، وتدبَّق حلاوة الإيمان، فمن حاول أن يردَّهم إلى هذه الضلال، وظلام الجاهلية؛ وجب أن ينفروا منه، وأن يبعدوا عنه .

فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أى: إذا كان الأمر كما علمتم؛ فلا تتخذوا من هؤلاء المنافقين أولياء وأصدقاء، حتى يهاجروا من مكة إلى المدينة؛ إخلاصاً لله، وطلباً لمرضاته .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ .. فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، والهجرة الصحيحة، فذلك هو الدليل المادى على نفاقهم وخداعهم.. فَأَسْرِوهُمْ إِنْ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ، واقتلوهم إذا تمكنتم منهم، فى أى مكان تجدونهم فيه؛ دفعاً لشُرهم، ورداً لكيدهم .

وَلَا تَخْذُلُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . أى: ولا تجعلوا منهم - فى هذه الحالة - ولياً يتولى شيئاً من مهام أموركم، ولا نصيراً تستنصرون به على أعدائكم .

إن الإسلام يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له: فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته، بل ويحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم، وهو يمتنعهم بخير الوطن الإسلامى، بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام وهو يدعمهم يتحاکمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام.

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه جهاراً نهاراً فى العقيدة، ولكنه لا يتسامح مع من يقولون: إنهم يوحدون الله، ويشهدون بالإسلام ديناً، ويمحمد رسولا، ثم يناصرون أعداء الإسلام، وينضمون إلى معسكر الكافرين؛ لأن فى هذا خداعاً للإسلام والمسلمين .

٩٠ - إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ... الْآيَةُ

استثنى الإسلام من هذا الحكم - حكم الأسر والقتل - لهذا الصنف من المنافقين، الذين يعينون أعداء الإسلام؛ من يلجأون إلى معسكر بينه وبين الجماعة الإسلامية عهد - عهد مهادنة أو عهد ذمة - ففى هذه الحالة يأخذون حكم المعسكر الذى يلتجئون إليه ويتصلون به .

من ذلك نلمح رغبة الإسلام فى السلام والوفاء، واحترام العهود والمواثيق .

فهو يجعل من يلجأ ويتصل ويعيش بين قوم معاهدين - عهد ذمة أو عده هدنة - شأنه شأن القوم المعاهدين يعامل معاملتهم ويسالم مسالمتهم .

أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ... وهذه فئة تريد أن تقف على الحياد، فيما بين قومهم وبين المسلمين من قتال؛ إذ تضيق صدورهم أن يقاتلوا المسلمين مع قومهم، كما تضيق صدورهم أن يقاتلوا قومهم مع المسلمين؛ فيكفوا أيديهم عن الفريقين؛ بسبب هذا التخرج من المساس بهؤلاء أو هؤلاء .

فهؤلاء ليس للمسلمين تسلط عليهم؛ لأن الله كف المسلمين عن قتالهم؛ بما ألقى فى قلوبهم من الميل إلى المودة .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ . أَيْ: ولولا ذلك الذى ألقاه الله فى نفوسهم: من الميل إلى الموادة، والرغبة فى الحياد: لكانوا قوة تضاف إلى قوة الأعداء، وتزيد فى آلام المسلمين .

وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق، يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره، ومن كف لجانب من العداء والأذى، كان سيضاعف العباء على عاتق المسلمين^(١٢) .

وجاء فى تفسير القرطبى أن هذه الآية فيها خمس مسائل منها:

المسألة الخامسة: قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ .. تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين: هو بأن يقدرهم على ذلك ويقوِّهم، إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصى، وإما ابتلاء واختباراً كما قال تعالى: وَلِتَبْلُوَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْيَارَكُمْ .. (محمد: ٣١) . وإما تمحيصاً للذنوب كما قال تعالى: وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .. (آل عمران: ١٤١) .

ولله أن يفعل ما يشاء، ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء، ووجه النظم والاتصال بما قبل: أَيْ: اقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم، إلا أن يهاجروا، وإلا أن يتصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق، فيدخلون فيما دخلوا فيه قلوبكم، وإلا الذين جاءوكم، وقد حصرت صدورهم عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، فدخلوا فيكم فلا تقتلوه^(١٣) .

فَإِنْ عَزَّزْتُكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلْوْكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ... أَيْ: وما دام هؤلاء الذين جاءوكم مترججين من قتالكم وقومهم، وقد اختاروا العزلة وعدم القتال، وسارعوا إلى السلم والمسالمة فليس لكم عليهم - أيها المسلمون - أى سبيل أو أدنى تسلط .

قال ابن كثير: أَيْ: فليس لكم أن تقاتلوهما ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره^(١٤) .

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْبَازُوا بِكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾﴾

المضردات :

أركسوا ———— : انقلبوا .

شققتموهم : وجدتموهم .

سلطانا مبينا : حجة ظاهرة .

التفسير :

٩١ - سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ ... ينبه الله - سبحانه - المسلمين في هذه الآية الكريمة إلى طائفة أخرى من المنافقين يلقون المسلمين بوجه، ويلقون كفار قومهم بوجه آخر .. يقصدون بذلك أن يظفروا بالأمن من الجانبين، وهذا الفريق من المنافقين لا يترك قتال المسلمين تحرجا، ولكن يتركه مراوغة لتحقيق مآربه .

سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُواكُمْ وَيَأْمِنُوا قَوْمَهُمْ ...

قال ابن جرير الطبري: هؤلاء فريق آخر من المنافقين كانوا يظهرون الإسلام لرسول الله ﷺ وأصحابه: ليأمنوا به عندهم من القتل والسياء، وأخذ الأموال، وهم كفار، يعلم ذلك منهم قومهم، إذا لقوهم كانوا معهم، وعبدوا ما يعبدونه من دون الله، ليأمنوهم على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وذرائعهم يقول الله:

كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ... يعني: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم ^(٩١).

كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ...

أُرْكَسُوا فِيهَا .. أي: انهمكوا فيها والفتنة هنا بمعنى الشرك، حكى ابن جرير عن مجاهد: أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، ويعودون إلى عبادة الأصنام، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا: فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ^(٩٢).

فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُوا عَنْكُمْ وَلِقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا بِأَيْدِيهِمْ فَخَذُوا مِنْهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ... أَيْ: فَإِنْ لَمْ يَجْتَنِبْ هَؤُلَاءِ قِتَالَكُمْ، وَيَطْلُبُوا الصَّلَاحَ مَعَكُمْ، وَيَمْدُوا يَدَ السَّلَامِ وَالْأَمْنِ إِلَيْكُمْ، وَيَكْفُرُوا شَرَهُمْ وَأَذَاهُمْ عَنْكُمْ، وَيَقِفُوا مَوْقِفَ الْحِيَادِ وَيَعْلَنُوا بِخُذُوعِهِمْ بِالْقُوَّةِ أُسْرَى لَدَيْكُمْ، وَاقْتُلُوهُمْ فِي أَى مَكَانٍ تَدْرِكُونَهُمْ وَتَظْفَرُونَ بِهِمْ عِنْدَهُ، (فَإِنْ دُمَاءَهُمْ لَكُمْ حِينَئِذٍ حَلَالٌ) (٩٢).

وَأُولَئِكَمُ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا.. وَالسُّلْطَانُ الْمُبِينُ . أَيْ: وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ الْحُجَّةَ الْوَاضِحَةَ عَلَى جَوَازِ أَخْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، بِسَبَبِ ظُهُورِ عِدْوَانِهِمْ لَكُمْ، وَانْكَشَافِ حَالِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْغَدْرِ بِكُمْ، وَالْخِيَانَةِ وَالْكِيدِ لَكُمْ .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٤﴾﴾

المفردات :

فتحرير رقبة : فعتق رقبة .

يصدقوا : يتصدقوا بالدية، بالتنازل عنها .

ميثاق : عهد .

خالدا فيها : ماکثا مکتا طويلاً .

التفسير :

٩٢ - وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً .. أَيْ: وَمَا أَذْنُ اللَّهِ لِمُؤْمِنٍ وَلَا أَبَاحَ

لَهُ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا يَقُولُ: مَا كَانَ ذَلِكَ لَهُ فِيمَا جَعَلَ لَهُ رَبُّهُ، وَأَذْنُ لَهُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْبُتَّةِ (٩٤) .

لقد حرص الإسلام على حفظ العقول والأعراض والأموال والأرواح وقد حرم الله قتل النفس. وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(٩١).

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ... أى: وما صح وما استقام لمؤمن صادق الإيمان، فيما أتاه ربه فى شريعة الإسلام، أن يقتل إنساناً مؤمناً بغير حق إلا خطأ.

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ... أى: ومن وقع منه القتل الخطأ، فالجواب عليه فى هذه الحالة أن يعتق نفساً مؤمنة، وأن يؤدى إلى ورثة القتل دية يقتسمونها كما يقتسمون الميراث، والدية عوض عن دم القتل، وهى مائة من الإبل أو قيمتها بالدرهم أو الدينير، وقد قدرها عمر رضى الله عنه بألف دينار على من يتعاملون بالذهب، وأثنى عشر ألف درهم على من يتعاملون بالفضة.

روى أبو داود عن عمر رضى الله عنه: (على أهل الإبل مائة بدنة، وعلى أهل البقر مائتا بقرة، وعلى أهل الشاة ألف شاة، وعلى أهل الطل مائتا حلة) وتتحمل عشيرة القاتل عنه دفع الدية، فإن لم تكن له عاقلة؛ وجبت على بيت المال، فإن لم يكن فيه؛ وجبت فى مال القاتل، ولا تسقط هذه الدية، إلا فى حال تنازل أهل القتل عنها، وهذا التنازل نوع من المعروف وكل معروف صدقة^(٩٢).

قال تعالى: **إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا**. أى تجب الدية إلا أن يعفو أهل القتل بالتنازل عنها تطوعاً وصدقة، هذا إذا كان المقتول خطأ مؤمناً: من قوم مؤمنين.

فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ... أى: فإن كان المقتول خطأ من قوم كفار معادين للمؤمنين - وهو مؤمن - فالواجب فى هذه الحالة، عتق رقبة مؤمنة، وفكاكها من قيد الرق، وإطلاق حريتها؛ كفاً عن هذا القتل الخطأ، ولا دية ... لأنها تعود على أعداء المسلمين المحاربين، ولا يجوز أن يدفع المسلمون أموالهم إلى عدوهم؛ ليتقوى عليهم بسببها، ويحاربهم بها. روى ابن جرير الطبري عن قتادة: **فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**. ولا دية لأهله؛ من أجل أنهم كفار، وليس بينهم وبين الله عهد ولا ذمة.

وعن ابن عباس قال: كان الرجل يُسلم ثم يأتى قومه فيقيم فيهم وهم مشركون، فيمر بهم الجيش لرسول الله ﷺ فيقتل فيمن يقتل، فيعتق قاتله رقبة ولا دية له.

وقال آخرون: بل عنى به الرجل من أهل الحرب، يقدم دار الإسلام فيسلم، ثم يرجع إلى دار الحرب، فإذا مر بهم الجيش من أهل الإسلام هرب قومه، وأقام ذلك المسلم منهم فيها، فقتله المسلمون وهم يحسبونه كافراً.

روى الطبري في رواية أخرى عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ. هو المؤمن يكون في العدو من المشركين، يسمعون بالسرية من أصحاب محمد ﷺ، فيفرون، ويثبت المؤمن فيقتل، ففيه تحرير رقية مؤمنة^(٩١).

والروايات متقاربة في المعنى، وكلها تثبت معنى الآية أو الفقرة من الآية.

قال ابن كثير:

أى: إذا كان القاتل مؤمناً ولكن أوليائه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقية مؤمنة ولا غير.

وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهلهم وتحرير رقية مؤمنة ... أى: وإن كان المقتول خطأ، من قوم كفار بينكم - أيها المسلمون - وبينهم عهد وميثاق، وليسوا أعداء لكم؛ فالواجب - فى هذه الحالة - المبادرة بأداء دية تسلم إلى أهل القاتل؛ تعويضاً عن دمه، كما يجب - كذلك - عتق نفس مؤمنة؛ لأن دماء هؤلاء قد عصمت؛ بحكم ما بينهم وبين المسلمين من ذمة وميثاق.

وقد روى ابن جرير الطبري: أن أهل التأويل اختلفوا فى صفة القاتل الذى هو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، أهو مؤمن أو كافر؟ فقال بعضهم: هو كافر إلا أنه لزم قاتله دية؛ لأن له ولقومه عهداً، فوجب أداء دية إلى قومه؛ للعهد الذى بينهم وبين المؤمنين، وأنهم مال من أموالهم ولا يحل للمؤمنين شئ من أموالهم بغير طيب أنفسهم، وقال آخرون: بل هو مؤمن فعلى قاتله دية يؤديها إلى قومه من المشركين؛ لأنهم أهل ذمة.

وعلق الطبري على القولين بقوله:

وأولى القولين فى ذلك بتأويل الآية، قوله: من قال عنى بذلك المقتول من أهل العهد (سواء أكان مؤمناً أم كافراً) لأن الله أبهم ذلك، ولم يقل وهو مؤمن، فكان فى تركه وصفه بالإيمان الذى وصف به القاتل الماضى ذكره قبل، الدليل الواضح على صحة ما قلنا، فإن ظن ظان أن فى قوله تبارك وتعالى: فدية مسلمة إلى أهلهم، دليلاً على أنه من أهل الإيمان؛ لأن الدية عنده لا تكون إلا لمؤمن، فقد ظن خطأ؛ وذلك أن دية الذمى وأهل الإسلام سواء؛ لإجماع جميعهم على أن ديات عبيدهم الكفار، وعبيد المؤمنين من أهل الإيمان سواء. وذهب قوم إلى أن ديات أهل العهد والميثاق على النصف أو على الثلث من ديات أهل الإيمان، قال الطبري: والراجع أن دياتهم وديات المؤمنين سواء^(٩٢).

وقال الإمام ابن كثير فى تفسيره:

وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ... أى: فإن كان القاتل، وأوليائه أهل ذمة أو هدنة، فلم يجرى قتلهم، فإن كان مؤمناً؛ فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً؛ عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب

فى الكافر نصف دية المسلم، وقيل ظلثها؛ كما هو مفصل فى كتاب الأحكام، ويجب أيضا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة^(٩٣).

وفى التفسير الوسيط ما يأتى:

وفى هذا القسم من أقسام القتل الخطأ، لم يوصف المقتول بالإيمان أو الكفر؛ مما يشعر بأن وجود عهد ودية بين المسلمين، يسوى بين الجميع فى الدية والغدية، وبذلك يرتفع الإسلام إلى أعلى مستوى من رعاية حقوق المعاهدين والذميين، وهو تشريع فى رعاية العهد، وحرمة الدم ولا يُسَامَى أبداً، وحرمة الدم الإنساني واضحة فى إيجاب عتق الرقيق فى جميع حالات القتل^(٩٤).

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ ... أى: فمن لم يجد الرقيق بأن لم يملكه، ولا يملك ما يوصله إليه؛ بأن عجز عن ثمنه، أو عجز عن شرائه مع اليسار بثمنه، فالواجب على القاتل فى هذه الحالة الانتقال إلى البدل، وهو صيام شهرين متتابعين: لا يقع بين أيامهما إفطار بغير عذر يبيح الفطر.

قال ابن كثير: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابَعَيْنِ ... أى: لا إفطار بينهما بل يَسْرُدُ صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض، أو حيض، أو نفاس؛ استأنف؛ واختلفوا فى السفر هل يقطع أم لا على قولين.

تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ ... يعنى: تجاوزا من الله لكم؛ إلى التيسير عليكم بتخفيفه ما خفف عنكم، من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه صوم شهرين متتابعين^(٩٥) والصوم المتتابع فيه قمع الشهوة، وإظهار التوبة، وصفاء النفس، وإظهار الأدب بامتنال أمر الله وطاعة أمره.

وقال ابن كثير فى تفسير الآية:

واختلفوا فيما لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا كما فى كفارة الظهار، على قولين:

أحدهما: نعم، كما هو منصوص عليه فى كفارة الظهار، وإنما لم يذكر ههنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير؛ فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام، لما فيه من التسهيل والترخيص.

والقول الثانى: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أخر بيانه عن وقت الحاجة.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ... أى: كان الله ولا يزال، عظيم العلم بما يصلح عباده، فيما يكلفهم من فرائضه؛ بالغ الحكمة فى كل ما شرعه من الأحكام.

٩٣ - وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُعْتَمِدًا فَقَدْ آوَاهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ...

أى: ومن يقتل مؤمنا قاصداً قتله؛ فجزاؤه الذى يستحقه على اقتراف تلك الجريمة الشنيعة، دخول

جهنم ماكتا فيها مكتا طويلا، إلى أن يشاء الله إخراجهم من النار فيخرجه منها؛ إذ ليس المراد من الخلود هنا دوام البقاء في جهنم أبداً ؛ فإن الخلود فيها أبداً جزاء الكافرين .

وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ .. أى: وانتقم منه، وأبعدعه سبحانه عن رحمته .

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ... أى: وقد هياأ الله في جهنم لمن تعمد قتل المؤمن، عذاباً رهيباً، لا يدرك الإنسان غايته لشدة بشاعته .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره:

وهذه الآية تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك فى غير ما آية، فى كتاب الله حيث يقول سبحانه فى سورة الفرقان: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ . (الفرقان: ٦٨) .

وقال تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَعْنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (الأنعام: ١٥١) .

والآيات والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا فمن ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» .^(٩٦)

وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : «لنزول الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم»^(٩٧) .

وفى الحديث الآخر «لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله فى النار»^(٩٨) .

وفى الحديث الآخر: «من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة: جاء يوم القيامة مكتوبيا بين عينيه: آيس من رحمة الله»^(٩٩) .

من تفسير الطبرى،

ساق الطبرى عدة آراء فى صفة القتل الذى يستحق صاحبه أن يسمى متعمداً .

فقال بعضهم: العمد ما كان بحديدة، وشبه العمد ما كان بخشبة، وقال آخرون: كل ما عمد الضارب إتلاف نفس المضروب فهو عمد، إذا كان الذى ضَرَبَ به الأغلب منه أن يقتل، وقد رجح الطبرى هذا الرأى .

وأما قوله: فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا .

فقد اختلف أهل التأويل فى معنى هذه الجملة .

١- فقال بعضهم: معناه: فجزاؤه جهنم إن جازاه الله وإن شاء تجاوز عنه .

٢- وقال آخرون: عنى بذلك رجلاً بعينه كان أسلم فارتد عن إسلامه وقتل رجلاً مؤمناً قالوا: فمعنى الآية: ومن قتل مؤمناً مستحلاً قتله: فجزاؤه جهنم خالداً فيها .

وقد ساق الطبرى أحاديث تثبت ذلك، وفيها: أن النبى ﷺ قال: «أظنه قد أحدث حدثاً، أما والله لئن كان فعل: لا أقيله فى حل ولا حرم ولا سلم ولا حرب؛ فقتل يوم الفتح» (١٠٠) قال ابن جريج وفيه نزلت هذه الآية، وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا .

٣- وقال آخرون: معنى ذلك: إلا من تاب .

قال مجاهد فى هذه الآية: إلا من ندم .

٤- وقال آخرون: ذلك إيجاب من الله الوعيد لقاتل المؤمن متعمداً، كائناً من كان القاتل، على ما وصفه فى كتابه، ولم يجعل له توبة من فعله، قالوا: فكل قاتل مؤمن عمداً، فله ما أوعده الله من العذاب والخلود فى النار، ولا توبة له، وقالوا: نزلت هذه الآية بعد التى فى سورة الفرقان .

وفى الحديث الصحيح (١٠١) الذى رواه الإمام أحمد، ورواه البخارى، ومسلم، أن رجلاً قال ابن عباس- بعد أن كفَّ بصره - أفرايت إن تاب قاتل المؤمن عمداً، وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال ابن عباس ثكلته أمه! وأنى له التوبة؟ فوالذى نفسى بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أمه قتل رجلاً متعمداً! جاء يوم القيامة آخذاً بيمينه أو بشماله، تشخب أوداجه دماً، فى قُبُل عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى يقول: سل هذا فيم قتلنى؟! والذى نفس عبد الله بيده، لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ وما نزل بعدها من برهان (١٠٢) .

وقد وردت عدة آثار فى هذا المعنى، تفيد أن عبد الله بن عباس قال فى شأن هذه الآية، التى تحدثت عن جزاء قتل المؤمن عمداً: لقد نزلت فى آخر ما نزل من القرآن، وما نسخها شيء. وعن الضحاك بن مزاحم قال: ما نسخها شيء منذ نزلت، وليس له توبة .

قال الطبرى:

وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب، قول من قال: معناه:

ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه - إن جازاه - جهنم خالداً فيها؛ ولكنه يعفو ويتفضل على أهل .

الإيمان به ورسوله، فلا يجازيهم بالخلود فيها، ولكنه - عز ذكره - إما أن يعفو بفضله فلا يدخله النار، وإما أن يدخله إياها ثم يخرجها منها؛ بفضل رحمته لما سلف من وعده عباده المؤمنين بقوله: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. (الزمر: ٥٣).

لقد قال تعالى عن المشرك: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ. (النساء: ١١٦).

والقتل دون الشرك.

تعقيب على الآية.

بعض الناس يستدل بهذه الآية على أن مرتكب الكبيرة في النار.

قال ابن كثير في تفسيره:

والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب، وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً؛ بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته، وأرضاه عن طلابته قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... إلى قوله ... إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ... وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ... على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ. (النساء: ١١٦)

فهذه الآية عامة في جميع الذنوب، ما عدا الشرك.

وثبت في الصحيحين: خبر الإسرائيلي الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لي من توبة فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه؛ فهاجر إليه فمات في الطريق فقبطته ملائكة الرحمة. (١٧٧).

وإذا كان هذا في بني إسرائيل، فلأن يكون في هذه الأمة: التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الأصار والأغلال؛ التي كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة (١٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَكُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفْرًا فَتَيَّنُوا رَبِّ اللَّهُ كَانِ يَمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ۖ﴾

المضردات :

ضربتم فى سبيل الله : سافرتم للغزو .

فتبينوا : فاطلبوا بيان الأمر والكشف عنه وتثبتوا .

ألقى إليكم السلام : حيّاكم بتحية الإسلام .

تبتغون عرض الحياة الدنيا : تطلبون متاعها الزائل ، ونعيمها الفانى : من مال وغيره .

التفسير :

٩٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ... حرص الإسلام على حفظ الأعراض والأموال والدماء والعقول .

وقد ورد فى كتب الصحيح وغيرها أسباب نزول هذه الآية وموجزها: أن أحد المسلمين كان فى سرية للجهاد فتفرق الأعداء، وبقي رجل فى غنمه فلما أدركه المسلم، قال الرجل: السلام عليكم إني مسلم، فقتله المسلم، واستاق ماله؛ فنزلت هذه الآية، تأمر بالتثبت والتروى وعدم التسرع فى قتل إنسان بعد إعلان إسلامه؛ إذ ربما كان الدافع الرغبة فى ماله وفى عرض الحياة الدنيا .

وقد ساق ابن جرير الطبرى ثمانى عشرة رواية فى سبب نزول هذه الآية، منها: ما يفيد أن القاتل هو أسامة بن زيد، والقتيل هو مرادس بن نهيك، ومنها: ما يفيد أن القاتل هو المقداد بن الأسود، ومنها: ما يفيد أن القاتل غيرهما؛ ويمكن الجمع بينهما بتعدد الأحداث ونزول الآية عقب كل منها.

وقد وردت روايات بهذا المعنى فى البخارى والترمذى، والحاكم، وغيرهم.

وجاء فى تفسير مقاتل بن سليمان ما يأتى:

بعث رسول الله ﷺ سرية عليها أسامة بن زيد إلى بنى ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى مرادس ابن نهيك معه غنمه له وجمل أحمر، فلما رآهم أوى إلى كهف جبل، واتبعه أسامة، فلما بلغ مرادس الكهف، وضع فيه غنمه، ثم أقبل إليهم فقال: «السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول

الله» فشد عليه أسامة فقتله من أجل جملة وغنمه، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك؛ قال لأسامة: «كيف أنت ولا إله إلا الله»، قال: يا رسول الله، إنما قالها متعوذاً، تعوذُ بها .

فقال له رسول الله ﷺ: «هلاً شققت عن قلبه فنظرت إليه؟» قال: يا رسول الله، إنما قلبه بضعة من جسده ^(٩٥)، فأنزل الله خبر هذا، وأخبره إنما قتله من أجل جملة وغنمه فذلك حين يقول: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ..

فلما بلغ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ: أى: فتأب الله عليكم؛ حلف أسامة أن ألا يقاتل رجالاً يقول: لا إله إلا الله بعد ذلك الرجل، وما لقي من رسول الله ﷺ فيه ^(٩٦) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَصَدَّقُوا رَسُولَهُ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، إِذَا سِيرْتُمْ مَسِيرَةَ اللَّهِ فِي جِهَادِ أَعْدَائِكُمْ .

فَتَبَيَّنُوا . فتأنوا فى قتل من أشكل عليكم أمره؛ وابتحثوا عن الحقيقة، وتثبتوا من حال من تقاتلونهم، ولا تقدموا على قتل أحد، إلا إذا علمتموه يقينا حربا لكم والله ولرسوله .

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ ءَلَقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ .. وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ اسْتَسْلَمَ لَكُمْ فَلَمْ يقاتلكم، مظهرًا لكم أنه من أهل ملتكم ودعوتكم .

لَسْتُ مُؤْمِنًا .. أى: إنك إنما أظهرت الإسلام، طلبًا للنجاة، بنفسك ومالك، وليست مخلصًا فى إسلامك. وفى الأثر: فقال رسول الله ﷺ للمقداد بن الأسود: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة من قبل!» ^(٩٧) .

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . تريدون متاع الحياة الدنيا بالاستيلاء على مال الرجل وهو متاع قليل زائل.

فَبِعَدِ اللَّهِ مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ . من رزقه وفواضل نعمه فهى خير لكم إن أطعتم الله فيما أمركم به ونهاكم عنه. كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ. كفارًا مثلهم، أو تستخفون بدينكم كما استخفى هذا الذى قتلتموه وأخذتم ماله . فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . أى: هداكم الله إلى الإسلام، أو إعلان الإيمان، أو التوبة على الذى قتل ذلك الرجل، فعليكم أن تفعلوا بالداخلين فى الإسلام كما فعل بكم .

فَتَبَيَّنُوا . تكرير للأمر بالتبيين؛ ليؤكد عليهم .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . فيعلم ما تخبئه النفوس، وتضمرة القلوب، وبواعثها على العمل وغايتها التى لا تنكشف للناس .

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

المضردات :

القاعدون : المتخلفون عن الجهاد .

أولى الضرر : أصحاب الأمراض والعاهات .

التفسير :

٩٥ - لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ... الآية . بين الله سبحانه فضل الجهاد ومنزلة المجاهدين، وصرف القول، وسلك العديد من الطرق: لبيان فضيلة هذه الفريضة .

وقد بين هنا فضل المجاهدين على القاعدين، وهو أمر معروف لأول وهلة، ولكنه ساقه هنا: ليحفز به القاعدين، ويبعث الهمم فيهم إلى الرغبة في الجهاد، وقد ورد في كتب السنة وصحيح البخاري أمر خاص يتصل بهذه الآية: ودقة هذا الكتاب، والحكمة في نزوله منجما: حتى يرى مصالح البشر.

روى البخاري عن زيد بن ثابت: أن النبي ﷺ أُملي عليه:

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . فجاء ابن أم مكتوم وهو يملأها على قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذه على فخذي، فثقلت على حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ. ^(٩٦)

أي: لا يستوى المتخلفون من المؤمنين الأصحاء، الذين قعدوا عن الخروج للجهاد: بدون عذر أو مرض أو غير ذلك لا يستوى هؤلاء، والذين خرجوا للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في الأجر والثواب، وعلو الدرجة عند الله تعالى .

وكيف يستوى من تخلف - بدون أذار - مع الذين بذلوا أرواحهم راضين صابرين: لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى؟!

جاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى:

قوله تعالى: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ . يعنى: عن الجهاد، والمعنى: أن الجهاد أفضل، قال ابن عباس: وأريد بهذا الجهاد غزوة بدر^(٩٦) وقال مقاتل: غزاة تبوك، والضرر .

والضرر: هو العذر الذى يمنع صاحبه من الجهاد .

وقال بعضهم: هو العجز بالزمانة والمرض .

وقال ابن عباس: هم قوم كانت تحبسهم عن الغزاة أمراض وأوجاع .

وقال الزجاج: الضرر: أن يكون ضريراً أو أعمى أو زماً .

فَقَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . أى: فضل الله المجاهدين، الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، لإعلاء كلمة الحق، ابتغاء مرضاة الله، على الذين قعدوا عن الجهاد بغير عذر درجة عظيمة لا يعلم قدرها إلا الله .

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى .. أى: وكلأ من فريقى المجاهدين والقاعدين من المؤمنين، وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة: لتحقيق الإيمان الصادق فيهما .

قال ابن كثير: وفيه دليل على أن الجهاد ليس بفرض عين . بل فرضه على الكفاية^(٩٧) .

وفى هذه الأيام صار الجهاد فنا من الفنون المعقدة، فالمقاتل يحتاج إلى جهود كثيرة لدراسة فنون السلام والمناورة، أو الطيران أو الإشارة أو حل رموز الشفرة .

ولا يباح لمن كان عليه دور معين، أن يتخلف عن القتال بدون عذر: فقد توعد الله الغار من الزحف بالغضب والعذاب .

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ ذَرَّةٌ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ بَرَسَ الْمَصِيرُ . (الأنفال: ١٥، ١٦) .

وَقَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . فيه تأكيد لمزيد أجر المقاتلين، وزيادة درجاتهم لمسايرتهم لتنفيذ أمر الله، واستجابتهم لنداء الله .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ١١١) .

٩٦ - دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً... أى: منازل عالية لا يحبط الوصف بفخامتها، وجلال قدرها، تفضل الله بها على المجاهدين، مع مغفرة الذنوب، والرحمة التي يحيطهم بها، ويحفظهم بشمولها .
وهذه الآية مفسرة للأجر العظيم فى الآية السابقة والمراد بالدرجات درجات الجنة .

روى البخارى ٩/٦، ١٣/٣٤٩ عن أبى هريرة مرفوعا: «إن فى الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(٧١) .

وروى مسلم ٣/١٥٠١ عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً؛ وجبت له الجنة» فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدّها علىّ يا رسول الله! ففعل، ثم قال «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال وما هى يا رسول الله؟ قال: الجهاد فى سبيل الله، الجهاد فى سبيل الله»^(٧٢) .

وقال ابن زيد: الدرجات: هى السبع التى ذكرها الله تعالى فى براءة حين قال: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (التوبة: ١٢٠، ١٢١) .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.. أى: كان ولا يزال على الدوام، عظيم الغفران لذنوب عباده، واسع الرحمة بكل شئ .

فإن قيل: ما الحكمة من أن الله تعالى ذكر فى أول الكلام درجة وفى آخره درجات ؟ فعنه جوابان:

- ١- أن الدرجة الأولى تفضيل المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر؛ منزلة، والدرجات تفضيل المجاهدين على القاعدين من غير أولى الضرر؛ منازل كثيرة، وهذا معنى قول ابن عباس .
- ٢- أن الدرجة الأولى درجة المدح والتعظيم، والدرجات منازل الجنة^(٧٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ قَالُوا لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعُوهُمْ وَعَمَّنْهُمُ كَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ ﴾

المضردات :

مستضعفين : عاجزين عن القيام بما وجب عليهم .

الويلدان : الصغار أو المراهقين أو الأرقاء .

لا يستطيعون حيلة : لا يجدون سببا موصلا إلى الغرض .

التفسير :

٩٧ - إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ... تبين هذه الآية موقف المسلمين الذين تخلفوا

عن الهجرة من مكة إلى المدينة، مع قدرتهم على هذه الهجرة .

وقد ورد في كتب التفسير: أنها تشير إلى جماعة من المنافقين.

جاء في تفسير ابن كثير عن الضحاك: نزلت في ناس من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ﷺ

بمكة، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا فيمن أصيب، فنزلت هذه الآية الكريمة عامة، في كل

من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم

لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وينص هذه الآية .

وجاء في تفسير الطبري، عدد من الآثار في سبب نزول هذه الآية، تفيد هذه الآثار في جملتها:

أن الآية نزلت فيمن تخلف عن الهجرة؛ وأثر البقاء في دار الكفر .

عن ابن عباس قال:

كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم،

فأصيب بعضهم؛ فقال المسلمون: «كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها ! فاستغفروا لهم» فنزلت:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ . الآية .

قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية وأنه لا عذر له .

قال: فخرجوا من مكة فلحقهم المشركون، فأعطوهم الفتنة ^(٧٤) فنزلت فيهم: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . (النكبت: ١٠) .

فكتب المسلمون إليهم بذلك فحزنوا وأيسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (النحل: ١١٠)، فكتبوا إليهم بذلك «إن الله قد جعل لكم مخرجاً» فخرجوا فأدرتهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل ^(٧٥).
إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ .. أَى: تتوفاهم .

فَالْيَإِى أَنفُسِهِمْ .. أَى: فى حال ظلمهم لأنفسهم حيث أسلموا وآثروا البقاء بين ظهراني المشركين فى دار الكفر، وتحملوا الذل والهوان والقهر - وهم قادرون على التخلص مما هم فيه - من كبت وإذلال- إلى بلد يأمنون فيه على دينهم وأموالهم وأنفسهم .
إن هؤلاء حين تقبض الملائكة أرواحهم، أَى: ملك الموت وأعوانه .

قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ .. أَى: فى أى شئ كنتم من أمر دينكم الذى يأمركم بالهجرة، والمراد: لم مكنتم هنا وتركتهم الهجرة، قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ . قالوا: معتردين فى وقت لا ينفع فيه الاعتذار: كنا نعيش مهقورين تحت أيدي الكفار: لا نقدر على الخروج من مكة، ولا الذهاب فى الأرض .

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا .. أَى: إن عذرهم عن ذلك التقصير غير مقبول، حيث كان فى إمكانكم الهجرة إلى الحبشة أو إلى المدينة، وللحاق بإخوانكم المهاجرين، والانضمام إلى صفوفهم، ليزدادوا بكم قوة ومنعة .

من تفسير الزمخشري:

وفى هذه الآية دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله، وأدوم على العبادة، حقت عليه المهاجرة .

اللهم، إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى؛ فاجعلها سبباً فى خاتمة الخير، ودرك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك، بعكوفى عند بيتك، بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة ^(٧٦).

قَالُوا لِكَمْ مَآوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .. أَى: فجزاء هؤلاء الذين تخلفوا عن الهجرة أن يكون مسكنهم جهنم؛ لتركهم الفريضة المحتومة - فقد كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام - أو لنفاقهم وكفرهم، ونصرتهم أعداء الله على رسول الله ﷺ ^(٧٧).

٩٨ - إِلَّا الْمُسْتَغْفِرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا .

هذا عذر من الله لهؤلاء المستضعفين في ترك الهجرة؛ لأنهم لا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين أي: لكن الضعفاء من الرجال والنساء والولدان أي: الأطفال والمراهقين الذين لا يقدرّون على حيلة في الخروج من مكة، ولا على نفقة ولا قوة .

وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا .. أي: لا يعرفون الطريق إلى المدينة .

أو لا يعرفون طريقاً يتوجهون إلى إن خرجوا هلكوا^(٧٨) .

٩٩ - فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا . أي: فهؤلاء المستضعفون سيرجى لهم

العفو من الله، لأنه كثير العفو واسع المغفرة .

قال الألوسي: وفيه دليل على أن ترك الهجرة أمر خطير؛ حتى أن المضطر الذي تحقق عدم وجوبها عليه، ينبغي أن يعد تركها ذنباً، ولا يأمن، ويترصّد الفرصة ويعلق قلبه بها^(٧٩) .

★ ★ ★

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (١٠٠)

المضردات :

مُرَاعِمًا : متحولاً يتحول إليه، ومكاناً يتنقل فيه .

وَسَعَةً : السعة: البسطة في العيش ، والزيادة في الرزق .

فقد وقع أجره على الله ، أي: ثبت ثوابه عنده .

التفسير :

١٠٠ - وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ... الآية

كانت الآيات السابقة في تحذير المسلمين من القعود عن الهجرة . من مكة عند القدرة عليها،

ويعث الرجاء في نفوس المستضعفين بأن الله سيعفو عنهم .

وهذه الآية جاءت بعدها؛ للترغيب في تلك الهجرة : ببيان ثوابها ومنزلتها عند الله تعالى.

وكونها طريقاً للنص، وإنزال الأعداء، وياًباً واسعاً للرزق. وذلك جرياً على عادة القرآن الكريم: من

الجمع بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب .

سبب النزول:

لما نزلت الآيات السابقة في التحذير من القعود عن الهجرة: خرج ضمرة بن جندب مهاجراً إلى رسول الله ﷺ، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ: فنزلت الآية: وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أوردته ابن كثير عن ابن عباس .

وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعَماً كَثِيراً وَسَعَةً ... أي: ومن يعمد إلى مثل تلك الهجرة - في سبيل إعلاء كلمة الله، والمحافظة على دينه - يجد في الأرض متسعاً لهجرته، ورحاباً فسيحة، يستطيع التنقل فيها، والتحول إليها، والاستمتاع بخيراتها، واتخاذ الموقع المناسب لضرب الأعداء والنجاة من شرهم .

وفي ذلك ما فيه الإهانة لهم، وإرغام أنوفهم . كما يجد - إلى جانب ذلك - سعة في الرزق، وبسطة في العيش ... فلا عذر لأحد من الأقوياء في القعود عن الهجرة والبقاء في دار الكفر: مكتوم الأنفاس، متعرضاً لأذى الكفار . قال تعالى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّاءُ فَاعْبُدُونِ. (العنكبوت: ٥٦).

وليست الهجرة - بصفة عامة - للهرب من العدو؛ وإنما هي ضرب من الجهاد: للقضاء على سيطرة الأعداء، وتحول من موقع إلى موقع آخر، يمكن منه ضرب العدو، وإلحاق الأذى والذل به، والتمكن من إقامة شعائر الدين في حرية وطلاقة .

فهى في الأصل: الانتقال من مكان إلى مكان . والمراد بها : الهجرة من أرض الكفر إلى أى مكان يأمن فيه الإنسان على نفسه وماله ودينه .

وقد هاجر بعض المسلمين - في أول الإسلام - إلى الحبشة .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك من مكة إلى المدينة . وكانت واجبة قبل فتح مكة . وهى التى نزلت فيها آيات الترغيب والترهيب .

ولما تم فتح مكة، واستقر الأمر فيها للمسلمين، وأعز الله فيه الإسلام، لم تعد هناك حاجة إلى الهجرة من مكة . ولهذا قال ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»^(٨٠) .

وتشمل الهجرة بالمعنى العام: الهجرة في طلب العلم، والهجرة في طلب الرزق، والهجرة في نشر الدعوة الإسلامية في البلاد التى لم تصلها أو التى هى فى حاجة إليها . وكلها مما رغب الله فيه.

وقد تطلق الهجرة على هجر الذنوب والمعاصي، كما فى قول الرسول ﷺ : «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٨١) .

هذا، وقد تكفل الله تعالى، في هذه الآية الكريمة، بثواب الهجرة كاملاً لمن خرج من بيته بنية الهجرة: لا يريد بذلك إلا وجه الله واللاحاق برسول الله، ثم حلَّ به الموت قبل أن يصل إلى مقصده، وإن أدركه أمام باب داره التي خرج منها . فقال جل شأنه:

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ.. أَى: لإعلاء كلمة الله، فهي ضرب من الجهاد .

ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ: أَى: يلحقه، وينزل به قبل أن يبلغ مقصده .

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ: أَى ثبت ثوابه عنده، وكان في ضمانه تعالى؛ بمقتضى وعده وتفضيله؛

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا: أَى: كان - ولا يزال - عظيم المغفرة لما فرط من الذنوب، التي من جملتها:

العود عن الهجرة من غير عذر إلى وقت الخروج إليها .

رُحِيمًا : كثير الرحمة بعباده حيث قبل توبتهم، وغفر ذنوبهم .

فهذه الآية الكريمة: تطمئن المهاجر على رزقه في مهجره؛ حتى لا يتقاعس عن الهجرة، فترفع

عنه جميع الأعباء، وتفتح له سبل السعادة في الدنيا، وتعدّه بعظيم الثواب في الآخرة حتى لو حال الموت بينه وبين ما يتمناه: من إتمام الهجرة في سبيل الله، بعد أن شرع فيها .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ١٠١﴾

المضردات:

ضربتم في الأرض : سافرتم .

جُنَاحٌ : حرج وإثم

أن تقصروا من الصلاة : أن تخففوها من رباعية إلى ثنائية .

يفتنكم : يتعرض لكم بما تكرهون من الإغارة عليكم أثناء الصلاة .

التفسير:

١٠١ - وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ... الآية

بعد أن رغبت الآية السابقة في الهجرة - وهي مبنية على السفر والخوف من العدو - جاءت

هذه الآية تبين كيفية الصلاة في السفر، وفي حال الخوف من العدو: من جواز قصرها، وتفضيلاً من الله على عباده .

والكلام عن الصلاة في هذا الموطن: للدلالة على أنها وسائل الأمن عند الخوف، وعلى عظم شأنها، وبيان أنها لا تسقط بحال من الأحوال .

والمعنى: وإذا سافرتُم في الأرض - أيها المسلمون :-

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ : حرج وإثم .

أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ : فتصلوا الرباعية - وهي الظهر والعصر والعشاء - ركعتين .. أما الصبح فلا تقبل القصر ؛ لأنها قصيرة بطبيعتها، وكذلك المغرب لا تقبل القصر؛ لأنها وتر النهار .

وظاهر الآية: إباحة القصر لمطلق السفر، طال أم قصر .. ولكن الفقهاء اختلفوا في تحديد مسافة القصر ومدته، كما اشترط بعضهم أن يكون سفراً مباحاً .. وتفصيل ذلك في موضعه من كتب الفقه. وظاهر قوله تعالى:

إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا . اشترط الخوف في السفر في جواز القصر . ولكن السنة النبوية بينت أنه يجوز القصر في السفر مع الأمن، كما يجوز فيه عند الخوف .

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: جواباً لمن سأله عن القصر حالة الأمن: «صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فاقبلوا صدقته !» ^(٨٧) . وقد بين الله سبب الترخيص - في القصر في السفر - عند الخوف من العدو بقوله :

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا : أي: كانوا لكم أعداء ظاهرة العداوة، مجاهرين بها. فتجنبوا لعداوتهم واحذروها، وكونوا متيقظين لهم في الصلاة وغيرها .

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَرُيُوسُوا فَلْيَصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُوا عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١٠٢)

المضردات:

طائفة، جماعة.

وليأخذوا حذرهم، وليكونوا متيقظين للعدو، محترسين منه.

فيميلون عليكم، فيهجمون عليكم.

ميلة واحدة، هجمة واحدة يقضون بها عليكم، فلا يحتاجون بعدها إلى هجمة أخرى.

التفسير:

١٠٢- وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ... الآية

لما بين الله حكم القصر في السفر عند الخوف عقبه ببيان كيفية صلاة الخوف.

سبب النزول:

روى الدارقطني، عن أبي عياش الزرقى، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبيلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر. فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: يأتي عليهم صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام - بهذه الآية بين الظهر والعصر: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ (٨٧).

ومعنى: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ: وإذا أردت أن تصلى بهم إماما، فلتصل طائفة منهم معك، بعد أن تجعلهم طائفتين، ولتقف الطائفة الأخرى تجاه العدو: لمراقبته، وحراسة المسلمين منه. وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ:

أى: ولتأخذ الطائفة التى تصلى معك أسلحتهم؛ ليتقوا بها العدو عند المفاجأة. فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ. أى: فإذا فرغت الطائفة التى تصلى معك من سجود الركعة الأولى؛ فليصرفوا للحراسة خلفكم. وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ: أى: ولتأت الطائفة الأخرى التى كانت فى مواجهة العدو للحراسة والمراقبة، والتى لم تصل بعد، فليصلوا معك الركعة الثانية، وهى الأولى لهم .

وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ: أى: يجب أن يكونوا دائماً متيقظين لمخادعات العدو، وليأخذوا أسلحتهم معهم؛ ليتقوه بها إن بادءوهم؛ لأن الأعداء يتمنون أن يخالوا منكم غرة فى صلاتكم، فيحملوا عليكم حملة واحدة: منتهزين فرصة انشغالكم بالصلاة . كما قال تعالى: وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعِيَّتُمْ فَيُمْبِلُونَ عَلَيْكُمْ مِثْلَ بَاحِدَةٍ وَالْمُتَعَتَّة: ما يتمتع به المحارب من لوازمه فى السفر .

والأمر هنا: للوجوب: لقوله تعالى بعده:

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ: أى: ولا إثم عليكم فى أن تتركوا أسلحتكم عندما يكون بكم تأذ من المطر أو المرض . وهذا الرخصة لا تعطى إلا فى حال العذر الذى بينه الله فى الآية فى قوله تعالى: وَخُذُوا حِذْرَكُمْ. أى كونوا على حذر دائم، وبخاصة فى تلك الحالة التى وضعت فيها أسلحتكم .

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا: يهينهم ويخزيهم ويذلهم، يتحقق بعضه على أيديكم بالنصر عليهم؛ إذا اتبعتم النصيحة، ونهضتم بالتكليف، وكنتم دائماً على صلة بالله، وفى موقف اليقظة والاستعداد بما تستطيعون من قوة، ويتحقق بعضه الآخر بالعذاب الذى يلاقونه يوم القيامة من الله بسبب كفرهم ومحاربتهم أوليائه . فاهتموا بأموركم ولا تهملوا مباشرة الأسباب .

هذا نموذج من نماذج تأدية الصلاة فى الميدان حين التريص والتهيو .

وقد دلت الآية على أهمية الصلاة وضرورتها، وما للجماعة فيها من ميزة ومنزلة، حتى فى أشد حالات الخوف .

فالصلاة هى المدد الروحى الحافز للعزائم على النصر: إذ هى صلة بالله رب العالمين، القادر على كل شئ، وهو مالك الأسباب جميعا للنصر وغيره. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. (آل عمران: ١٢٦).

فعلى المسلمين أن يحرصوا على أداء الصلوات: استدراكاً لعون الله . وفى الحروب الحديدة عليهم تأدية الصلاة بالكيفية التى تناسب وضعهم من العدو، بحيث لا يعرض أمنهم للخطر .

وقد بين الشرع طريقتها فى كل حال .

ومنها: أنه إذا التحم الجيشان، فللجندى أن يصلى مستقبل القبلة أو غير مستقبلها، وعلى أية كيفية ممكنة ولو بالإيماء .

وفى ذلك يقول الله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا. (البقرة: ٢٣٩).

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ۝﴾

التفسير:

١٠٣ - فإذا قضيتُم الصلاة... الآية. أى: فإذا أدبتموها على هذا النحو.

فادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ .. : يأمر الله - تعالى - بكثرة الذكر عقب صلاة الخوف وإن كان ذلك مشروعا فيه بعد غيرها أيضا - ولكن ههنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها، ومن الرخصة فى الحركات الكثيرة التى لا تباح فى غيرها - وكما يذكرونه بالسنتهم يذكرونه بقلوبهم.

فإذا اطْمَأْنَنْتُمْ . أى : سكنت قلوبكم من الخوف، وأمنتم بعدما وضعت الحرب أوزارها .

فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . أى: أدوها بأركانها وشروطها كاملة فى مواقيتها .

إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا . أى: أقيموها كذلك ؛ لأنها كانت فى حكم الله، ولا زالت مكتوبة مفروضة محددة الأوقات: لا يجوز إخراجها عن أوقاتها فى أمن .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَلَا تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝﴾

التفسير:

١٠٤ - وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. أى: لا تضعفوا ولا تتوانوا فى طلب الكفار أهل الحرب. لقتالهم؛ لأنكم، إن تكونوا تألمون فإنهم يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَلَا تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ . فليست الآلام مختصة بكم. بل هى أمر مشترك بينكم وبينهم . وتزيدون عليهم : أنكم ترجون وتطمعون من الله تعالى. فيما لا يخطر لهم ببال . من نصر دينه الذى أمركم بالجهاد فى سبيله . ومن الثواب الجزيل . والنعيم المقيم فى الآخرة فأنتم تنصرون الله وهو معكم على عدوكم . ومن كان الله معه؛ فهو من المنتصرين . وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا : عظيم العلم بكل شئ، فيعلم ما فيه مصلحتكم فى دنياكم وأخراكم، عظيم الحكمة فيما يأمركم به وينهاكم عنه؛ فجدوا فى الامتثال لأمره ؛ فإن عواقب الامتثال حميدة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنُحْكِمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠٦ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝١٠٨ هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝١٠٩ ﴾

المفردات :

خصيما ، مجادلاً، ومدافعا.

يختانون أنفسهم : يخونونها بالظلم والشر؛ لأن وبال ذلك يعود عليها.

يبيتون ، يدبرون خفية.

التفسير :

١٠٥ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لِنُحْكِمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

اختار الله رسوله بشرا من بين الناس؛ ليكون قدوة عملية في سلوكه وله أن يجتهد في الحكم بين الناس وهذا هو رأى الجمهور.

وقال بعضهم: ليس له أن يجتهد؛ لأن الوحي ينزل عليه والوحي قطعى، والاجتهاد ظنى.

وأجيب عن ذلك بأن الوحي قد لا ينزل عليه فى كل وقت: فقد تأخر عنه الوحي خمسة عشر يوما.

ثم إن الاجتهاد من صفة العلماء إذا توفرت لديهم شروطه والرسول نوع مختار من البشر يتمتع بالذكاء والفتنة والأمانة فهو أولى أن يتمتع بهذه النعمة، وأن يعمل عقله فى ما لم ينزل عليه وحى بشأنه.

فإذا تخاصم إليه رجلان فمن حقه أن يقضى بينهما، بما ينقدح فى ذهنه بأنه الحق والصواب، ولا يجب عليه انتظار الوحي؛ لأن الوحي من شئون الرسالة والدين ونظام الشريعة. أما شئون الدنيا والقضاء بين الناس فى خصوماتهم العادية، فهو من شئون الناس؛ والرسول ﷺ يقضى بينهم بأصول دينه الذى أوحى إليه، وبما ينقدح فى ذهنه من الحكم بعد الاستماع إلى أطراف القضية.

وقد ساق الإمام ابن كثير في تفسيره طائفة من الأحاديث تتعلق بهذه الآية. منها ما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جليلة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو ما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها!»^(٨٤)

سبب نزول هذه الآية وما بعدها:

ذكر ابن الجوزي ثلاثة أقوال في سبب نزول هذه الآية.

وقال ابن كثير: ذكر مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في سارق بنى أبيرق على اختلاف سياقاتهم وهي متقاربة.

وقال ابن الجوزي:

جمهور العلماء على أن المشار إليه بالاستخفاف والتبذير: قوم طعمة بن أبيرق وقد بيتوا: احتيالهم في براءة صاحبهم بالكذب.

وقصة الآية:

أن طعمة بن أبيرق سرق درعا لقتاده بن النعمان؛ وكان الدرع في جراب فيه دقيق؛ فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب، حتى انتهى إلى الدار، ثم خبأها عند رجل من اليهود، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد عنده، وحلف: مالى بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلما حلف تركوه، واتبعوا أثر الدقيق؛ حتى انتهوا إلى منزل اليهودي فأخذوه، فقال: دفعها إلى طعمة بن أبيرق، فقال قوم طعمة: انطلقوا إلى رسول الله ﷺ؛ حتى نبئوا صاحبنا وندافع عنه، فمال رسول الله ﷺ إلى كلامهم، وهم أن يجادل عن طعمة بن أبيرق، وأن يعاقب اليهودي؛ فنزلت هذه الآيات كلها: تبرئ اليهودي وتلطخ طعمة بعار السرقة^(٨٥) وفي ذلك نلمح صدق القرآن فهو يتحيز إلى الحق، ويدافع عن يهودي برىء، ويوجه الاتهام إلى مسلم خائن؛ لأن القرآن كلام الله الحق، ومن أصدق من الله حديثاً؟!

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ.

إننا أنزلنا إليك القرآن الكريم ناطقاً بالحق، داعياً إليه وإلى التمسك به؛ لتحكم بين الناس على اختلاف عقائدهم، بما عرفك الله وأوحى به إليك، ولا تكن مجادلاً عن الخائنين؛ فينتصروا على البرءاء.

قال ابن الجوزي:

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ . أى: لتقضى بينهم، وفي قوله: بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ. قولان:

أحدهما: أنه الذي علّمه، والذي علّمه ألا يقبل دعوى أحد على أحد إلا ببرهان.

والثاني: أنه مما يؤدي إليه اجتهاده^(٨٦).

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا.

قال الزجاج: لا تكن مخاصما، ولا دافعا عن خائن، واختلفوا هل خاصم عنه أم لا على قولين:

أحدهما: أنه قام خطيبا فعذره.

والثاني: أنه هم بذلك ولم يفعله.

قال القاضي أبو يعلى: وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن غيره في إثبات

حق أو نفيه، وهو غير عالم بحقيقة أمره؛ لأن الله تعالى عاتب نبيه على مثل ذلك.

١٠٦ - وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

أى: واستغفر الله مما هممت به في أمر طعمة وبراءته لظاهر الحال.

قال الألوسى فى تفسيره روح المعانى:

والهم بالشىء خصوصا إذ يظن أنه الحق ليس بذنب حتى يستغفر منه، لكن لعظم النبى ﷺ،

وعصمة الله تعالى له، وتنزيهه عما يوهم النقص - وحاشاه - أمره بالاستغفار؛ لزيادة الثواب،

وإرشاده إلى التثبوت، وأن ما ليس بذنب مما يكاد يعد حسنة من غيره؛ إذا صدر منه عليه الصلاة

والسلام بالنسبة لعظمته، ومقامه المحمود يوشك أن يكون كالذنب؛ فلا متمسك بالأمر بالاستغفار

فى عدم العصمة كما زعمه البعض، وقيل: يحتمل أن يكون المراد وَاسْتَغْفِرِ لأولئك الذين برءوا ذلك

الخائن. إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا. مبالغا فى المغفرة والرحمة لمن استغفره، وقيل: لمن استغفر له^(٨٧).

١٠٧ - وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ... الآية

أى: تدافع. وتوحى هذه الآية بأن قوم طعمة بن أبيرق، بيتوا أمرا سريا لتبرئة طعمة، والصاق

التهمة بيهودى برىء، وهم بذلك قد خانوا غيرهم؛ ولكن القرآن جعلهم خائنين لأنفسهم؛ لارتكابهم

ما يشين هذه النفس، وما يحط من شأنها عند الله.

أو خائنين لمبادئ الجماعة الإسلامية وقوانينها؛ وهى القيام بالقسط والعدل وعلى نفس

الإنسان أو الوالدين والأقربين.

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف:

يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ يخونونها بالمعصية، كقوله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ. (البقرة: ١٨٧)

جعلت معصية العصاة خيانة منهم لأنفسهم، كما جعلت ظلماً لها: لأن الضرر راجع إليهم، (فإن قلت): لم قيل لِلْخَائِنِينَ. وَيَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ. وكان السارق طعمه بن أبيرق وحده ؟ .

(قلت): لوجهين:

أحدهما: أن قومه شهدوا له بالبراءة ونصروه فكانوا شركاء له فى الإثم.

والثانى: أنه جمع ليتناول طعمة، وكل من خان خيانة، فلا تخاصم لخاصن قط، ولا تجادل عنه^(٨٨).
إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا.

أى: لا يرضى عن يكثر من الخيانة والإثم، بارتكاب المعاصى، وانتهاك محارم الله، واتهام غيرهم بهتانا وزوراً.

«والذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ولا أن يحامى عنهم أحد، وقد كرههم الله للإثم والخيانة»^(٨٩).

١٠٨ - يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ... الآية
يستترون من الناس؛ مخافة أن يظهر أفعالهم بالإثم «والناس لا يملكون لهم نفعا ولا ضراً بينما الذى يملك النفع والضرر معهم مطلع عليهم وهم يزورون من القول ما لا يرضاه، فأى موقف يدعو إلى الزاوية والاستهزاء أكثر من هذا الموقف ؟ !»^(٩٠).

قال الزمخشري فى الكشف:

وكفى بهذه الآية ناعية على الناس ما هم فيه من قلة الحياء والخشية من ربهم مع علمهم - إن كانوا مؤمنين - أنهم فى حضرته^(٩١).

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا...

أى: وكان الله بجميع أعمالهم - عليما - شامل العلم، فلا تخفى عليه خلات نفوسهم، وخفايا أسرارهم، وهم تحت عينه وفى قبضته.

١٠٩ - هَآئِنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... الآية

تجىء هذه الآية فى مقام الإنكار، على هؤلاء الذين جادلوا عن طعمة بن أبيرق، وألصقوا التهمة بيهودى برىء.

والمعنى: هبوا أنكم بذلتكم الجهد فى المخاصمة عن أشارت إليه الأخبار فى الدنيا .

فما جدوى الجدل فى الدنيا، إذا كان ذلك لا يغنى عنهم من عذاب الله شيئاً ؟ !

فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيُّ: فمن يخاصمه في ذلك اليوم الثقيل الذي تنطق فيه كل جارية بما اجترحت. يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. (النور: ٢٤)

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. أَيُّ: حافظا ومحاميا من بأس الله تعالى وانتقامه وأصل معنى الوكيل: الشخص الذي توكل الأمور له وتسند إليه، وتفسيره: بالحافظ والمحامي؛ مجاز من باب استعمال الشيء في لازم معناه^(٩٢).

★ ★ ★

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٠﴾
وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَى نَفْسِهِ ١١١ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ
خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ رَدَّهَا بِرِيءًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١١٣﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ١١٤ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ ١١٥ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٦﴾

المفردات :

بِهْتَانًا : البهتان : أفحش الكذب .

خطيئة : صغيرة .

إثمًا : كبيرة .

التفسير :

١١٠ - وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا .

فتح الإسلام باب التوبة على مصراعيه، ولم يجعل وساطة بين العبد وربّه، ويسرّ للمذنب باب التوبة والندم، وأخبر الله بقبول توبة التائبين في كل وقت من أوقات الليل والنهار، وبين الإسلام أن خطيئة البشر ليست لعنة أبدية، وإنما هي كبوة يمكن للعبد أن يستقيم بعدها ويطلب المغفرة من الله بالتوبة النصوح، والندم والاستقامة .

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا. أَيُّ: أمرا قبيحا يسوء به غيره، كما فعل طعمة بن أبيرق باليهودى .

أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ. بما يفعله من الذنوب التي يغضب بها الله وقيل: السوء ما دون الشرك، والظلم: الشرك، وقيل: السوء الصغيرة، والظلم: الكبيرة.

ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ. يطلب مغفرة الله بالتوبة الصادقة.

يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. لما استغفره منه، كائنًا ما كان الإثم المرتكب.

رَحِيمًا. متفضلا على عباده رحيمًا بهم.

قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ. (الأعراف: ١٥٦)

وفيه حث لمن نزلت الآية بشأنهم من المذنبين على التوبة والاستغفار.

١١١ - وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ... الآية

ومن يفعل ذنبًا من الذنوب؛ فإنما يعود جزاؤه على نفسه لا يتعدها إلى غيره.

جاء في ظلال القرآن:

ليست هناك خطيئة موروثه في الإسلام، كالتى تتحدث عنها تصورات الكنيسة، كما أنه ليست هناك كفارة غير الكفارة التى تؤديها النفس عن نفسها، وعندئذ تنطلق كل نفس حذرة مما تكسب، مطمئنة إلى أنها لا تحاسب إلا على ما تكسب .. توازن عجيب ! فى هذا التصور الفريد، هو إحدى خصائص التصور الإسلامى وأحد مقوماته التى تطمئن الفطرة وتحقق العدل الإلهى المطلق، المطلوب أن يحاكيه بنو الإنسان

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا. بكل شيء ومنه الكسب.

حَكِيمًا فى كل ما قَدَّرَ وقضى، ومن ذلك لا تحمل وازرة وزر أخرى.

١١٢ - وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.

ومن يرتكب خطيئة صغيرة أو إثماً، أو كبيرة من المعاصى ثم يتهم بها بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً. فى رمية البريء وإثماً فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البريء، وقد احتملها معه وكأنما البهتان والإثم حملاً يُحمل على طريقة القرآن فى تجسيم المعنى، وإبراز الصورة الأثمة لشخص يذنب ويلقى تبعة الذنب على الأبرياء.

١١٣- وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ... الآية

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ. أى عصمته وأطافه بك بإعلامك عن طريق الوحي بما دبّره وأخفوه. لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ. من قوم طعمة بن أبيرق.

أَنْ يُضِلُّوكَ. عن القضاء بالحق، وتوخي طريق العدل، مع علمهم بأن الجانى هو صاحبهم، فقد روى أن ناساً منهم كانوا يعلمون كنه القصة (١٢٣).

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ. وما يعود ضرر ذلك إلا على أنفسهم ؛ لوقوعهم فى الضلالة والكذب والافتراء، وتضليل العدالة.

وَمَا يَضُرُّوكَ مِنْ شَيْءٍ. فقد تكفل الله بحفظك وعصمتك .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ. وهو القرآن الكريم .

وَالْحِكْمَةَ. بيان ما فى الكتاب، وإلهام الصواب، وإلقاء صحة الجواب فى الروح (١٢٤).

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ. من أخبار الأولين والآخرين

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. بالنبوة والرسالة وجميع الفضائل التى خص الله بها رسوله، فكان خاتم الرسل، وصاحب الشفاعة وأمه آخر الأمم، وكتابه آخر الكتب، وملايين المآذن تردد اسمه عند كل أذان .

وَضَمَّ إِلَهِهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إذا قال فى الخمس المؤذن: أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ الْجَامِعَ بين الحق والحكمة، أو أنزل عليك القرآن والسنة، وعلمك ما لم تعلمه من العلوم والمعارف الربانية .

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا. لا تحويه عبارة ولا تحيط به إشارة .

ومن ذلك: النبوة والرسالة، وإرشادك إلى أخطاء المخطئين.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجَوْنَهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ
بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾
وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ
مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

المفردات :

نجواهم : النجوى: المسارة بالحديث بين اثنين فأكثر . قاله الزجاج . وعرفها بعضهم :
بالحديث الذي ينفرد به اثنان فأكثر ، سرًا أو جهراً . وعلى كل ، فضمير نجواهم
للناس عامة ؛ لأن الحكم عام .

أو معروف : هو ما عرف حسنه شرعا أو عرفا . فينظم أصناف البر والخير .
ابتغاء مرضاة الله : طلباً لرضاه .

يشاقق الرسول : يخالفه فيما أمر به ، أو نهى عنه .

نؤله ما تولى : حقيقة معنى نؤله : نجعله واليا ، يقال : تولاه . بمعنى: تقلده واضطلع به ، وولاه
غيره . جعله واليا ، ومضطلعا بالأمر .

والمعنى المقصود : هو أن توفيق الله تعالى - يتخلى عنه .

التفسير :

١١٤ - لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجَوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ... الآية

لما بين الله تعالى - قبل هذه الآية - أنه أنزل على رسوله ﷺ الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم
يكن يعلم : أتبعه ذكر بعض ما أنزله عليه من الكتاب والحكمة مما يدعم أواصر المحبة بين الناس،
ويقضى على أسباب النزاع بينهم . كما أن فيه رداً على من كان يحرض رسول الله ﷺ على أن
يقضى لصالح من سرق الدرع وخباها عند اليهودي، فيبرئه ويقضى على اليهودي !!

والمعنى : لا خير في أحاديث الناس فيما بينهم، إلا في حديث من أمر بصدقة - واجبة كانت
أو متطوعا بها، أو أمر بما عرف حسنه شرعا أو عرفا، ولم يعارض قاعدة شرعية، وتقبله العقول
الخالصة من الهوى بالرضاء، أو أمر بإصلاح بين الناس؛ حتى يحل الثوام محل الخصام .

فهذه الجهات الثلاث، هي التي تكون النجوى - أى: الحديث الجانبى فيها - خيرا مشروعا مثابا عليه .

أما الأحاديث الجانبية التي يتآمر فيها المتآمرون على الإضرار بعباد الله، أو يتناجى فيها المتناجون بالمعاصى والهذيان؛ فلا خير فيها ولا ثواب عليها، بل يعاقب عليها؛ لأنها كانت فى معصية الله تعالى .

فإنما يثاب الإنسان على المعروف، إذا ترك الامتنان والإعجاب به، ولا يتم المعروف - كما قال ابن عباس - رضى الله عنهما : - «إلا بثلاث : تعجيله، وتصغيره، وستره . فإذا عجلته هنأته^(١٥) وإذا صغّرته عظّمته، وإذا سترته أتممته» .

وقد دعت الآية الكريمة إلى فضيلة الإصلاح بين الناس، وجعلتها خيرا مثابا عليه؛ لما لها من الأثر العظيم فيهم، حيث تُحلُّ الوثام محل الخصام، والراحة النفسية محل القلق، والتفكير فى الخير مكان التفكير فى الشر؛ فيسود الأمن والسلام .

وقد أباح الإسلام الكذب الأبيض فى سبيل الإصلاح، مع أن الكذب - بصفة عامة - حرام؛ لأن هذا غير ضار بأحد . وهو مؤدُّ إلى مصلحة مؤكدة، كأن تقول لكلا الخصمين عن صاحبه : سمعته يثنى عليك ويصفك بطيب النية، وحسن الطوية والمروءة، ونحو ذلك مما يلين قلب الخصم نحو أخيه فى حين أنك لم تسمع ذلك منه .

وفى ذلك يروى حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه - أم كلثوم بنت عقبة - أنها أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس، فيمنى خيرا أو يقول خيرا» وقالت : لم أسمع به يرخص فى شيء مما يقوله الناس، إلا فى ثلاث : فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها^(١٦) .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . أى : ومن يتناجى ويتحدث مع غيره - فى خلوة - بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس، ويرشده إليها وينصحه بها؛ فسوف يعطيه الله على ذلك ثوابا جزيلا : يناسب عظمة المنعم .

وإذا كان هذا ثواب التناجى بها، والإرشاد إليها، فثواب فعلها أعظم .

أما أن يأمر بها الإنسان ولا يفعلها، فذلك جرمه عظيم، ووعيده شديد، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . (الصف: ٣، ٢)

١١٥- وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

المعنى : ومن يخالف الرسول فيما أمر به عن الله تعالى أو نهى عنه، ويتبع غير طريق المؤمنين فى عقيدته أو عمله، بأن يكفر أو يترك الواجبات، أو يفعل المنهيات - من بعد ما ظهر له ما يهديه من أدلة اليقين وأحكام الدين - نتركه وما تولاها وانصرف إليه، وقام به من الكفر والمعاصى .. فلا نلطف به لصرف قواه إليه، وعدم مراجعته نفسه فيه، وندخله جهنم فيخلد فيها إن كان كافرا ويعاقب فيها على قدر معصيته إن كان عاصيا .. وقبحت جهنم مصيرا !

فلا ينبغي لعاقل أن يقترب من المعاصى ما يجعلها مصيرا له ومآلا .

الأحكام :

استدل الإمام الشافعى - رضى الله عنه - بهذه الآية، على أن الإجماع من أهل الحق حجة .

جاء فى تفسير روح المعانى للالوسى ١٤٩/٥ .

عن المزنى أنه قال : «كنت عند الشافعى يوما، فجاء شيخ عليه لباس صوف وبهده عصا، فلما رآه ذا مهابة، استوى جالسا، وكان مستندا إلى الأسطوانة^(١٧) وسوى ثيابه : فقال الشيخ : ما الحجة فى دين الله تعالى ؟ قال الشافعى : كتابه . قال : وماذا ؟ قال سنة نبيه ﷺ . قال : وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة . قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله تعالى ؟ فتدبر الشافعى ساعة ساكتا فقال له الشيخ : أجلتكم ثلاثة أيام بلياليهن، فإن جئت بآية، وإلا فاعتزل الناس .. فمكث ثلاثة أيام لا يخرج. وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر، وقد تغير لونه، فجاء الشيخ وسلم عليه وجلس، وقال : حاجتى : فقال : نعم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى : وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى... الآية. فدلّت الآية على أن اتباع سبيل المؤمنين فيما يذهبون إليه من الأحكام فرض؛ لورود الوعيد فيمن لم يتبع سبيلهم . قال الشيخ : صدقت وقام وانصرف^(١٨) .

والآية لا تغيد الخلود فى النار لمن يرتكب المعاصى، بل تغيد عقوبتهم بالضرورة إلى النار، وذلك لا يقتضى التأبيد، خلافا لمن زعم ذلك من الخوارج، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة كافر خالد فى النار، ويجسم دعواهم قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...

روى الترمذى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال : ما فى القرآن آية أحبُّ إلى من هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...

وفيما يلى نص تفسيرها .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (١١٦) **إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَاوَانِ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا** (١١٧) **لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا** (١١٨) **وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ وَلَا مِئِينَئِهِمْ وَلَا مَرْثَهُمْ فَلْيُبَيِّنْ لَهُ مَا آتَاكَ الْوَحْيَ وَلَا تَصَدِّقْ بِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَنَّ اللَّهَ يَتَّخِذُ الشَّيْطَانَ وَلِئَامًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا** (١١٩) **يَعِدُّهُمْ وَيُمِئُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا** (١٢٠) **أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا** (١٢١)

المضردات :

مادون ذلك : ما سوى الشرك من المعاصي .

ضلالا بعيدا : أى : بعدا عن الحق عظيما .

إن يدعون : ما ينادون ، أو ما يعبدون .

الإنتاوا : أى : معبودات كالإناث فى الضعف ، وعدم القدرة على الإسعاف بالمطلوب .

وفيهما معانٍ أخرى ، ستأتى فى الشرح بمشيئة الله .

شيطانا مريدا : الشيطان هنا : إبليس - لعنه الله - والمريد : بمعنى : المتمرد على الطاعة .

أو المتمرد للشر . من قولهم : شجرة مرداء . وهى التى سقط ورقها .

لعنه الله : طرده من رحمته .

لا تخذنى : الاتخاذ : أخذ الشيء على وجه الاختصاص .

نصيبا مفروضا : حظا مقسوما . وسيأتى بيانه فى الشرح .

ولامنينهم : أى : لأعلنهم بالأمانى الكاذبة .

فليبيننك آذان الأنعام : الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز . وغلب استعمالها فى الإبل خاصة . وتبينك

الأنعام : تقطيع آذانها أو شقها . وكانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية وسيأتى بيانه .

فليغيرن خلق الله : صورة أو صفة ، كقذف عين الفحل . وسيأتى بيانه ، وكخصاء العبيد ، وإتيان

الذكور بدل الإناث .

وليئسا من دون الله : أى : معبودا وناصرا ، متجاوزا ، وتاركا له .

عبادته قد أطاع الشيطان وسلك طريقه وترك طاعة الله ومنهاج دينه فذلك هو الضلال البعيد والخسران المبين^(١٠٧).

وجاء فى تفسير ابن كثير: روى الترمذى عن على رضى الله عنه قال: ما فى القرآن آية أحب إلى من هذه الآية إن الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ... الآية^(١٠٨).

١١٧- إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا...

نقل ابن جرير الطبرى عدة آراء فى معنى الإناث، وقد اختصرها ابن الجوزى فى زاد المسير فقال: وللمفسرين فى معنى الإناث أربعة أقوال:

١- الإناث بمعنى: الأموال؛ قال الحسن: كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة فهو إناث.

٢- الإناث: الأوثان، وهو قول عائشة ومجاهد.

٣- أنها الملائكة، كانوا يزعمون أنها بنات الله، قال تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا. (الزخرف: ١٩).

٤- إن الإناث: اللات والعزى ومناة كلهن مؤنث، روى عن الحسن قال: لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه أنثى بنى فلان، فنزلت هذه الآية، قال الزجاج: والمعنى ما يدعون إلا ما يسمونه باسم الإناث.

قال الطبرى: وأولى التأويلات بالصواب قول من قال:

عنى بذلك الآلهة التى كان مشركو العرب يعبدونها من دون الله، ويسمونها الإناث من الأسماء كالكالات والعزى ونائلة ومناة وما أشبه ذلك.

وانما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية؛ لأن الأظهر من معانى الإناث فى كلام العرب، ما عرف بالتأنيث دون غيره، فإذا كان ذلك كذلك، فالواجب توجيه تأويله إلى الأشهر من معانيه.

وإذا كان ذلك كذلك فتأويل الآية:

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا. ما يدعو الذين يشاقون الرسول، إلا ما سموه بأسماء الإناث، كالكالات والعزى وما أشبه ذلك.

وحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله، وعبدوا الأوثان والأصنام، حجة عليهم فى ضلالهم وكفرهم، أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأرباباً، والإناث من كل شيء أخس، فهم يقرون للخسيس من الأشياء بالعبودية، على علم منهم بخساسته، ويمتنعون عن إخلاص العبودية للذى له ملك كل شيء ويبيده الخلق والأمر^(١٠٩).

وَأَن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا وما يعبدون أو ما ينادون في الواقع إلا شيطاناً شريراً عاتياً متمرداً، خارجاً عن الطاعة، وهو إبليس؛ فهو الذي زين لهم دعاءها وعبادتها؛ فأطاعوه، فكانت طاعتهم له عبادة.

١١٨ - لَعْنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

لَعْنَهُ اللَّهُ . طرده وأبعده عن رحمته؛ لتمرده واستكباره عن طاعة ربه، وعدم سجوده لآدم، فأخرجه الله من الجنة مذموماً مدحوراً مطروداً من رحمة الله في عاجله وأجله .

وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . أي: بعد أن لعنه الله وطرده من جواره، قال يخاطب الله تعالى: لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . يريد تأكيد استيلائه - بالوسوسة - على إرادة أبناء آدم عدوه؛ حتى يسخرها في سبيل الغواية والفساد عقيدة وعملاً حتى كأنهم نصيب مفروض مقطوع له. قال الزجاج: الفرض في اللغة: القطع، والفرض فيما ألزمه الله العباد جعله حتماً عليهم قاطعاً.

وقال مقاتل: النصيب المفروض: أن من كل ألف إنسان واحد في الجنة وسائرهم في النار، وفي تفسير القرطبي ٣٨٨/٥ قلت: وهذا صحيح معنى، يعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة: «ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»^(١٠٦) أخرجه مسلم، وبعث النار: هو نصيب الشيطان .

وفي تفسير ابن كثير: وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . أي: معينا مقدراً معلوماً. قال قتادة: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة^(١٠٧) .

وقال ابن قتيبة: أي: حظاً أفترضه لنفسى منهم فأضلهم^(١٠٨) .

١١٩ - وَلَا ضَلِيلَهُمْ وَلَا مَنِيعَهُمْ فَلَيْتَكُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ ...

يوكد الشيطان اللعين تأكيداً بعد تأكيد، أنه سيضل عباد الله عن الحق .

قال الألوسي: وَلَا مَنِيعَهُمْ . الأمانى الباطلة، وأقوالهم: ليس وراءكم بعث، ولا نشر، ولا جنة، ولا نار، ولا ثواب ولا عقاب، فافعلوا ما شئتم، وقيل: أمنيهم بطول البقاء في الدنيا فيسوفون في العمل. وقيل: أمنيهم بالأهواء الباطلة، الداعية إلى المعصية، وأزين لهم شهوات الدنيا وزهراتها، وأدعو كلا منهم إلى ما يميل إليه طبعه فأصدّه بذلك عن الطاعة .

وَلَا مَنِيعَهُمْ فَلَيْتَكُنَّ آذَانُ الْأَنْعَامِ . يوكد الشيطان أنه سيأمرهم بتبكيك آذان الأنعام؛ فيطيعون أمره .. وتبكيك آذان الأنعام: تقطيعها أو شقها .

وهذا إشارة إلى ما كانت الجاهلية تفعله: من شق أو قطع أذن الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكراً؛ وتحريم ركوبها، وسائر وجوه الانتفاع بها^(١٠٩) .

وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْنُ خَلْقَ اللَّهِ. إن الشيطان يوسوس للإنسان؛ ليخرجه عن فطرة الله، ويزحزحه عن منهج الله، ويدعوه إلى تغيير خلق الله؛ لتحقيق شهواته وأوهامه ولذائذه، كما يزين الشيطان لأتباعه تغيير فطرة الله تعالى وهي الإسلام.

ومن تغيير خلق الله: ترجل النساء، وتخنث الرجال، واللواط والسحاق، وعبادة الشمس والقمر والنار والحجارة مثلاً، واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالاً، ولا يوجب لها من الله سبحانه زلفى^(١٠٠).

ويلحق بذلك خصاء العبيد وهو حرام منهي عنه.

وهناك تغيير أمرت به السنّة، كالختان ووسم البهائم لحاجة تعريفها حتى لا تختلط بغيرها، والوسم: كى البهائم بمكواة يسمونها: الميسم.

جاء فى صحيح مسلم عن أنس قال: «رأيت فى يد رسول الله ﷺ الميسم وهو يسم إبل الصدقة والفقى، وغير ذلك؛ حتى يعرف كل مال فيؤدى فيه حقّه ولا يتجاوز به إلى غيره»^(١٠١).

كما يستثنى من تغير خلق الله الخضاب بالحناء.

وبالكتم - وهو السواد - لإرهاب العدو، والوشم لحاجة، وخضب اللحية وقص ما زاد منها على السنة ونحو ذلك^(١٠٢).

وَمَنْ يَخْذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. فى المراد بالولى قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الربّ.

والثانى: من الموالاة: أى: ومن يجعل الشيطان صاحبا يتبعه وينقاد له، متجاوزاً أوامر الله تعالى، بإيثار ما يدعو إليه الشيطان على ما يأمر به الله.

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. أى: فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لغائتها.

١٢٠ - يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا.

يعد الشيطان عباد الله على معصيته أحلى الوعود المكذوبة، ويمنّيهم بأحلى الأمانى الباطلة. وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. وهو إيهام النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد والأمر إما بالخواطر الفاسدة، وإما بلسان أوليائه.

والغرور: الأمانى الكاذبة والباطل، أو يقول له: سيطول عمرك وتنال من الدنيا مرادك.

حتى إذا صحصص الحق، واحتاج المغرورون إلى الشيطان، قال لهم عدو الله: ما جاء فى الآية

٢٢ من سورة إبراهيم:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ.

١٢١- أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا .

أولئك الذين يتخذون الشيطان وليا من دون مستقرهم جميعا فى جهنم ولا يجدون عنها معدلا يعدلون إليه ولا مهربا ينجيهم من عذابها .

يقال: وقع فى حيص بيص، وحاص باص : إذا وقع فيما لا يقدر على التخلص منه، قال ابن يعيش شارح المفصل ١١٤/٤ تقول العرب: وقع الناس فى حيص بيص: إذا وقعوا فى فتنة واختلاط من أمرهم لا مخرج لهم منها .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢)

المفردات :

خالدين فيها أبداً : مقيمين فى الجنة دائماً لا يبرحونها .
قِيلًا : أى: قولاً .

التفسير:

١٢٢- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا .

قال الطبرى :

الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدوا الفرائض التى فرضها الله عليهم: سوف يدخلهم الله يوم القيامة ؛ بساتين تجرى من تحتها الأنهار باقين فى هذه الجنات دائماً (١٢٢) .

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا . أى: عده الله لهم يقيناً صادقاً ؛ وذلك على العكس من وعود الشيطان الكاذبة وأمانيه الفارغة، فكلها غرور وأباطيل، وغش وخداع .

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا. ومن أحد أصدق من الله قولاً ووعداً؟ ! فهو الذى إذا قال صدق، وإذا وعد وفى، وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته : «إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وبشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار» (١١٣).

★ ★ ★

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَحِثُّ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (١٢٦)

المفردات :

بامانيكم : الأمانى : جمع أمنية . و خلاصة ما قاله الراغب فى معناه : أنها هى الصورة الحاصلة فى النفس ، المترتبة على التمنى . أما التمنى : فهو الرغبة الشديدة فى شىء يقدره الشخص فى نفسه .

وليًّا : أحدا يلى أمر الدفاع عنه بالقول .

ولا نصيرا : ينصره ويمنعه بالقوة من العقاب .

نقيرا : النقيير هو النقرة فى ظهر النواة . وهو مثل يضرب للقلة والحقارة .

أسلم وجهه : الوجه هنا مجاز عن الذات أى : أخلص ذاته ونفسه لله .

حنيفا : مائلا عن الأديان الباطلة .

واتخذ الله إبراهيم خليلا : الخليل - كما قال الزجاج - : هو من ليس فى محبته خلل .. ا هـ . فمعنى اتخذ إبراهيم خليلا : أنه تعالى ، أحبه حباً لا نقص فيه ، واصطفاه اصطفاء كاملا .

مُحِيطًا : عليما شامل العلم .

التفسير :

١٢٢- لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية.

لما بين الله سوء مصير من اغتر بوعود الشيطان وأمانيه الكاذبة، وعقبه بذكر حسن مصير المؤمنين الصالحين، أتبع ذلك بيان أن الأمر - بعد الموت - لا يكون بالتمنى من هؤلاء وأولئك، بل

يكون بالعمل الصالح، فإن الآخرة هي دار الجزاء .. والجزاء من جنس العمل . فمن يعمل سوءاً يجز به سوءاً ومن يعمل خيراً يجز به خيراً . ولا يظلم ريك أحداً .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم: عن السدي، قال: التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى، فقال اليهود للمسلمين: نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم، ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى: مثل ذلك. فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم، ونبينا ﷺ بعد نبيكم، وديننا بعد دينكم، وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم، فنحن خير منكم، ونحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق. ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا؛ فأنزل الله: **لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ ... الآية .**

وقال القرطبي: من أحسن ما قيل في سبب نزولها، ما رواه الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس . قال: قال اليهود والنصارى لن يدخل الجنة إلا من كان منا، وقالت قريش: ليس نبعث فأنزل الله: **لَيْسَ بِأَمَانِيَكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ... الآية .**

وليس هناك ما يمنع نزول الآية للسببين، فحكمهما عام: للمسلمين وأهل الكتاب والمشركين ومن في حكمهم من سائر الكافرين، كما سيتضح في الكلام على المعنى .

والمعنى: ليس الفوز بدخول الجنة والتقلب في نعيمها الذي وعده الله الصالحين، حاصلًا بأمانيتكم - أيها المسلمون - ولا بأمانتي أهل الكتاب، فإن الأمانى - وحدها - لا تحقق هذه الغاية العظيمة، وإنما يحققها - مع الإيمان - العمل الصالح . أما العمل النافع وحده فلا يحققها؛ لخلوه من قصد وجه الله تعالى، وهذا يستلزم الإيمان . كما أن عدم البعث ليس بأمانى من أنكروا البعث، فإنه حاصل، وسيجزى بعده الناس على أعمالهم: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .** (الزلزلة: ٨، ٧) ولذا قال الله بعده:

مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . من يعمل عملاً سيئاً، سواء أكان من كسب القلوب: كالكفر، والحقد، والحسد، وسوء الظن بالمسلمين، أم كان من كسب الجوارح: كالقتل، والسرقة، وأكل مال اليتيم، والتطفيف في الكيل والميزان - يعاقبه الله عليه بما يسوءه، ولا يجد له أحدًا ينقذه منه، من ولي يدافع عنه بالقول والشفاعة، أو نصير ينصره بالقوة ... فالكل مقهور لله الواحد القهار.

ولما نزلت هذه الآية، كان لها أثر شديد في نفوس المؤمنين .

يصوره ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى بكر رضى الله عنه - أنه قال للرسول - ﷺ - بعد أن سمعها: «يا أبى أنت وأمى يا رسول الله! وأينا لم يعمل سوءاً، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه!»^(١١٤)

وما أخرجه الإمام مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : «لما نزلت هذه الآية، شق ذلك على المسلمين، وبلغت منهم ما شاء الله تعالى - فشكوا ذلك إلى رسول الله - ﷺ - فقال : سَدُّوا وقاربوا، فإنَّ كُلَّ ما أصاب المسلم كفارة، حتى الشوكة يشاكها، والنكبة ينكبها» ^(١١٤).

ومن هذا الحديث، نفهم أن الله تعالى، يكفر الخطايا بالبلايا - صغرت أم كبرت - والأحاديث الواردة في هذا كثيرة .

ولهذا أجمع العلماء أن مصائب الدنيا وهمومها - وإن قلت مشقتها - تكفر بها الخطايا؛ إذا صبر صاحبها .

والأكثرون على أنها ترفع بها الدرجات، وتكفر بها السيئات .
وهو الصحيح المعول عليه .

ومما صح في ذلك عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتبت له بها درجة، ومحييت عنه بها سيئة» ^(١١٥) أورده الألبوسي .

١٢٤- وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْلُغُونَ نَقِيرًا .
إنها العدالة الإلهية في عقاب المسيء ومكافأة المحسن ؛ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

وكان أهل الجاهلية يحجبون البنات من الميراث ويقولون: إنما يرث من يركب الفرس ويمسك السيف، ويحمي القبيلة، فسموا الإسلام بالبنات وليدة وناشئة وزوجة وأما، وجعلها شريكة للرجل في الإيمان والعمل الصالح والولاء، وجعل لها الحق في البيع والشراء، وتملك الأموال والعقار .

وفى هذه الآية يوضع قاعدة عامة هي :

من يعمل شيئاً من الأعمال الصالحة - من الذكور والإناث - في حال إيمانه؛ فأولئك المؤمنون الصالحون يدخلون الجنة، ولا ينقصون شيئاً من الثواب على أى عمل، ولو كان مشبهاً للنقيض في القلة، والنقيض نقرة في ظهر النواة، يضرب بها المثل في أدنى الأمور .

قال الأستاذ سيد قطب: وهذه الآية نص صريح على وحدة القاعدة في معاملة الذكر والأنثى، وفي اشتراط الإيمان لقبول العمل .

وهذه الألفاظ الصريحة تخالف ما ذهب إليه الأستاذ، الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله في تفسير جزء عم عند قوله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. إذ رأى النص لعمومه هذا يشمل المسلم وغير المسلم بينما النص صريح الصريحة الأخرى تنفي هذا تماماً، وكذلك ما رآه الأستاذ، الشيخ: المراغى رحمه الله، وقد أشرنا إلى هذه القصة في جزء عم «الجزء الثلاثين من الظلال» ^(١١٧) .

١٢٥- وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ..

يحتاج العمل المقبول إلى ركنين أساسيين:

الأول: الإخلاص لله تعالى بهذا العمل، وأن يقصد به وجه الله، وأن يبعد به صاحبه عن الرياء والسمعة.
الثاني: أن يكون العمل موافقا للشرع، فقد حسنه الشرع فلا حسن إلا ما حسنه الشرع .

ومتى فقد العمل واحداً من هذين الركنين فسد، فمن عمل عملاً لغير الله لم يقبله الله، ومن عمل عملاً غير موافق لأصول الدين وقواعده وأحكامه كان مردوداً عليه، والآية تثبت ذلك والاستقحام منها بمعنى: النفي الإنكارى، والمعنى: لا يوجد أحسن - فى الدين - ممن أخلص نفسه وذاته لله، فلم يعرف لها ربا سواه، ولم يتوجه بوجهه لغيره سبحانه، يفعل ذلك وهو محسن فى عمله بألا يترك واجبا، ولا يفعل محرما .

وَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا. قال ابن كثير: (وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة) فمن آمن بالله رباً وبمحمد رسولا، واختار الإسلام ديناً: صار متبعاً لملة إبراهيم عليه السلام فى العقائد وأصول الأحكام.
ومعنى حنيفاً: أى: مائلاً عن الأديان الزائفة: حال من إبراهيم عليه السلام ويجوز أن يكون حالاً من فاعل وَاتَّبِعْ. أى: سار على الإسلام لملة إبراهيم حال كونه مائلاً عن الأديان التى تشرك بالله سبحانه وتعالى.
وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا .. تذييل جىء به: للترغيب فى اتباع ملته عليه السلام والمعنى: أحب الله إبراهيم حبا كاملاً، لا خلل فيه ينقصه عن الكمال .

قال الألوسى : واتخذ الله خليلاً: لإظهاره الفقر والحاجة إلى الله تعالى، وانقطاعه إليه، وعدم الالتفات إلى من سواه، كما يدل على ذلك قوله لجبريل عليه السلام حين قال له يوم ألقى فى النار: ألك حاجة؟ أما إليك فلا، ثم قال: حسبى الله تعالى ونعم الوكيل، والمشهور أن الخليل دون الحبيب^(١١٨).
وليس فى الآية ما يفيد قصر الخلّة على إبراهيم؛ فقد اتخذ الله نبينا محمد - ﷺ - خليلاً أيضاً.
وروى مسلم: أن رسول الله ﷺ قال : «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنه أخى وصاحبى وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً»^(١١٩).

وروى الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه: أن رسول الله ﷺ قال : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، ويبدى لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ - آدم فمن سواه - إلا تحت لوائى، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر!»^(١٢٠).

١٢٦- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا...

إنه سبحانه غنى عن الخليل أو المعين، فهو سبحانه مالك السماوات والأرض؛ متصف بالهيمنة والقهر والعلم والسلطان. وهذه الألوهية الحقّة، تستدعى إخلاص العبادة والتوجه والعمل له سبحانه. فهو مالك كل شيء، وهو بكل شيء محيط، وهو مهيمن على كل شيء، وفي ظل هذا التصور الإسلامى يصلح الضمير ويصلح السلوك وتصلح الحياة.

★ ★ ★

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعَّاتِ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٢٧)

المفردات :

الكتاب : القرآن .

يتامى النساء : اللاتى لا حول لهن .

وترغبون أن تنكحوهن : تطمعون فى مالهن من الميراث والصداق ، فتتزوجوهن لذلك ، أو تمنعوهن من

الزواج ، وتعزلوهن لذلك .

والمستضعفين من الولدان : الأطفال اليتامى .

بالقسط : بالعدل .

التفسير :

١٢٧- وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ... الْآيَةِ

الربط : فى هذه الآية - وما تلاها - رجوع إلى ما افتتحت به السورة من أمر النساء واليتامى.

وكان المسلمون قد بقيت لهم أحكام، سبق لهم السؤال عنها، فلم يجبههم الرسول - ﷺ -
انتظاراً للوحى .

روى أشهب عن مالك رضى الله عنهما، قال : كان النبى - ﷺ - يسأل فلا يجيب، حتى ينزل عليه الوحى، وذلك فى كتاب الله : وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ . (البقرة : ٢٢٠) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ . (البقرة : ١٦٩) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ . (طه : ١٠٥).

سبب النزول :

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، عن ابن جبير، قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً، فلما نزلت الموارث فى سورة النساء؛ شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال، والمرأة التى هى كذلك، فيرثان كما يرث الرجل؟! فرجوا أن يأتى فى ذلك حدث من السماء . فانتظروا، فلما رأوا أنه لا يأتى حدث قالوا: لنن تم هذا، إنه لواجب ما عنه بدُّ ثم قالوا : سلوا .. فسألوا رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول ورجح هذا شيخ الإسلام: أبو السعود، كما قاله الالوسى .

ونحن نقول : إن سبب النزول لا يقتضى أنهم لم يسألوا إلا عما جاء فيه، بل سألوا عن غيره أيضاً، ولهذا تضمنت الفتوى جواب سؤالهم الوارد فى سبب النزول، كما تضمنت عدة أحكام، ستأتى فى الآيات التالية، تتعلق بأمر النساء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ .

المعنى : ويستفتيك المسلمون - يا محمد - فى أحكام الإناث، فيطلبون منك بيان ما يشكل عليهم من أحكامهن، مما يجب لهن أو عليهن .

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ .

المعنى : قل الله يفتيكم فى حكمهن ويبينه لكم . وكذا ما يتلى فى أمرهن، مما سبق نزوله قبل هذه الآية، فهو أيضاً يفتيكم . ويبين لكم الحكم الشرعى الذى تسألون عنه .

والمقصود من الآية الكريمة : أن الله سيفتيكم - مستقبلاً - فيما لم ينزل حكمه من شأن النساء، وأن ما سبق نزوله فيهن ويتلى عليكم . تظل الفتيا أيضاً فى أمرهن، فيكتمل بالفتاوى - السابقة واللاحقة - أحكامهن المشروعة .

وقد أشار المولى سبحانه بقوله :

وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ ... الآية . إلى ما سبق فى صدر هذه السورة عنهن وعن المستضعفين من الولدان ابتداء من قوله : وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْظُلْمِ ... إلى آخر آيتى الموارث .

فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّائِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ... أَيْ : ويفتيكم أيضا فيما يتلى عليكم فى شأن يتامى الإناث، اللاتي لا توتونهن - أيها الأولياء - ما كتب لهن من الميراث والصداق، وقد رغبتم فى الزواج بهن؛ طمعا فى الميراث والصداق فقد أوجب عليكم فيما نزل بشأنهن أول السورة - أن تقسطوا فى شأنهن، بألا تطمعوا فى أموالهن الموروثة، وأن تعطوهن من الصداق أعلى سنتهن، وتعديلا بينهن وبين ضراتهن : فى القسم والنفقة وحسن العشرة ..

أو يكون المعنى: وإن أنتم رغبتم عن الزواج بهن، فلا تعضلوهن عن الزواج بغيركم؛ طمعا فى أموالهن.

وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ. أَيْ : ويفتيكم فيما يتلى عليكم فى شأن المستضعفين من الأولاد والصغار اليتامى : ذكورا وإناثا . فقد أوجب عليكم - فيما سبق - أن تحافظوا على أموالهم، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، وأفهمكم أن أكل أموالهم ذنب كبير، وأوجب عليكم أن تؤدوا أموالهم إليهم عند بلوغهم رشدهم دون ماطلة .

وبالجملة: فقد أوجب عليكم - هنا، وفيما مر فى صدر هذه السورة - أن تقوموا لليتامى بالقسط والعدل، فى أمرهم كله. فلا تحاولوا أن تعودوا لما كنتم عليه فى الجاهلية، من توريث الرجال الذين يدافعون عن القبيلة وحرمان الصغار والنساء، فذلك جور لا يوافق عليه الإسلام ولا يقره.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ... أَيْ : وما تفعلوا - أيها الأولياء - من خير فى حقوق من تقدم ذكرهم، فإن الله كان به عليما قبل أن يخلقكم، كما هو عليم به عند فعلكم له فيجزيكم عليه خير الجزاء .

وإنما اقتصرت الآية على ما يفعلونه من الخير، مع أنه يعلم ما يفعلونه من شر أيضا، ويجازى عليه بمثله : للإيذان بأن الشر لا ينبئ أن يقع منهم وتحريضا على فعل الخير والاستدامة عليه .

وتكرار هذه الوصية باليتامى والنساء الضعاف - مع ما سبق فى أول السورة - لاجتماع ما عسى أن يكون عالقا بالرجال من أطماع فى أموال الضعاف من يتامى النساء والولدان .

﴿وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِغْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

المفردات :

خَافَتْ : علمت أو توقعت .

بَعْلِهَا : زوجها .

نُشُوزًا : أى : ترفعا (١٢٨) .

أَوْ إِعْرَاضًا : أى : ميلا وعدم اهتمام .

فَلَا جُنَاحَ : فلا حرج ولا إثم .

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ : أى : جعل الشح حاضرا فى الأنفس ملازما لها ، والشح : البخل الشديد .

كَالْمِغْلَقَةِ : المرأة المعلقة ؛ هى التى ليست مطلقة ولا صاحبة زوج ، كما قال ابن عباس

رضى الله عنه . أو هى المسجونة . كما قال قتادة رضى الله عنه .

يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ : أى : يغن الله كليهما من غناه الواسع .

التفسير :

١٢٨- وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... الآية

رسم القرآن الكريم سبيل الحياة الزوجية، وأداب العشرة بين الزوجين فى الخلاف والوفاق .

وقد رعى القرآن فطرة الإنسان فالله خالق الإنسان وهو أعلم به، وقد تكبر الزوجة، أو يزهده

الرجل فيها، أو يعزم على طلاقها، وترى الزوجة أنها فى حاجة إلى بقائها فى عصمة الزوج وجواره؛

فتتنازل له عن شىء من مهرها أو عن بعض حقوقها فى المبيت، فإذا فعلت ذلك جاز للزوج أن يقبل

ذلك . ويجب ألا يتمادى فى الظلم بل يكون عادلاً مع تنازل الزوج.

وفى الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: قالت: لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة^(١٢٢).

وفى صحيح البخارى: عن هشام عن أبيه عروة قال: «لما أنزل الله فى سودة وأشباهاها: وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا. وذلك أن سودة كانت امرأة قد أسنت ففرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ، وضنت بمكانها منه، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه؛ فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ^(١٢٣) وكذلك رواه أبو داود، والحاكم فى مستدركه.

وقال البخارى: حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة:

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا ... قالت: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية.

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا^(١٢٤).

معنى الآية: إذا رأت الزوجة من زوجها تغييراً فى معاملته أو انصرافا عنها وإعراضاً.

وأمارات النشور: الغلظة والجفاء.

وأمارات الإعراض: أن يقلل من محادثتها ومؤانستها، وأن يتساهل فى تحقيق رغباتها؛ إما لدمايتها، أو لكبر سنّها، أو لغير ذلك.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ... أى: فلا إثم على الزوجة فيما تفعله؛ لإصلاح ما بينها وبين زوجها، من إعفائه من صداقتها أو نفقتها أو بعضهما، أو من مسكن أو كسوة، أو فيما تعطيه من مالها، أو فيما تنزل له عنه من نصيبها فى القسم، تستعطفه بذلك، وتستديم المقام فى عصمته والتمسك بالعقد الذى بينه وبينها من النكاح، ولا إثم على الزوج فى قبول ذلك منها، فإن ذلك لا يعتبر رشوة حتى يتحرجا منها، بل يعتبر سبيلاً إلى عودة المودة واستمرار الزوجية بينهما، وذلك أسمى فى نظر الدين من تلك الماديات اليسيرة التى تعينت لعودة المودة بينهما.

روى أبو داود والطيالسى عن ابن عباس:

«فما اصطلاحا عليه من شىء فهو جائز»

وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ...

قال الطبرى: يعنى: والصلح يترك بعض الحق؛ استدامة للحرمة وتمسكاً بعقد النكاح، خير من طلب الفرقة والطلاق^(١٢٥).

وروى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(١٢٨).

سأل رجل الإمام علياً عن قول الله عز وجل .

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ... فقال : يكون الرجل عنده المرأة فتنبو عيناه عنها . من دمايتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذرها، فتكره فراقه، فإن وضعت له شيئاً من مهرها حلَّ له وإن جعلت له من أيامها فلا حرج^(١٢٩) .

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ...

قال الطبري : أحضرت أنفس النساء الشح بأنصبائهن من أزواجهن في الأيام والنفقة، فتأويل الكلام: وأحضرت أنفس النساء أهواءهن؛ من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن .

من المفسرين من قال : عنى بذلك .

«وأحضرت أنفس الرجال والنساء الشح» .

المعنى :

وجعل البخل والحرص على النفع الذاتي، حاضراً في الأنفس ملازماً لها، لا يغيب عنها؛ لأنه من طبيعتها، فلذا لا تكاد الزوجة تفرط في حقوقها عند الزوج، ولا يكاد الزوج يجود بالإنفاق وحسن المعاشرة لمن لا يريد لها .

وإذا كان ذلك هو ما فطرت عليه النفوس، فينبغي - لكل من الزوجين - أن يقدر حرص الآخر على مصلحته، فلا يهدرها تماماً، فترضى الزوجة حرص الزوج بالبذل والتضحية، ويرضى الزوج حرص الزوجة فلا يقسو عليها في مطالبه^(١٣٠) .

وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... وإن تحسنوا - أيها الرجال - في أفعالكم إلى نساءكم إذا كرهتم منهن دمامة أو خلقاً، أو بعض ما تكرهون منهن بالصبر عليهن، وإيفائهن حقوقهن وعشرتهن بالمعروف^(١٣١)

وَتَقُوا. الله فيهن بترك الجور منكم عليهن وعدم إكراههن على ترك شيء من حقوقهن .

قال ابن كثير : وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسوا لهن أسوة بأفعالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

١٢٩- وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ .

العدل بين النساء مطلوب فى الأمور المادية وهى النفقة والكسوة والمبيت وما يتصل بذلك من حقوق الزوجة، أما العدل فى الأمور القلبية من الحب وما يتصل به فغير مستطاع. وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل ثم يقول: «اللهم، هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى: القلب .

وهناك آيتان فى سورة النساء تتحدثان عن هذا الموضوع: الآية الثالثة من سورة النساء حيث قال سبحانه :

وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسِطُوا فِي الْبَتَاءِ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرِبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذْنَى أَلَّا تَعُولُوا .

والآية ١٢٩ من سورة النساء - التى نتكلم عن تفسيرها - وهى:

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

وقد فهم بعض الناس فهما خاطئاً مؤداه: أن الإسلام نهى عن تعدد الزوجات؛ لأنه قال فى الآية الثالثة من سورة النساء. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .

وقال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ. أى: ومادام العدل غير مستطاع؛ فقد وجب الاقتصار على زوجة واحدة .

وهذا فهم خاطئ .

لأن قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . يتكلم عن العدل المادى فى المأكل والسكن والمبيت.

وقوله سبحانه: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ. يتكلم عن العدل فى الحب وميل القلب.

فإن الله خالق الإنسان وهو أعلم به .

وإذا كان العدل فى أمور الحب غير مستطاع . فإن على الإنسان ألا يفساق وراء الأسباب الداعية إلى الميل بقدر طاقته ويعفى عما خرج عن الطوق .

أى: إذا عجزتم عن تحقيق العدل فى الحب وميل القلب؛ فلا تميلوا إلى من تحبونها كل الميل

بحيث تتركون الضرة الأخرى أشبه بالمرأة المعلقة التي تركها زوجها فلا هي متزوجة تتمتع بحب الزوج ورعايته وعطفه ولا هي مطلقة تلتمس الأزواج ويتقدم لها الخطاب .

قال تعالى : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ ...

قال الطبري : وإنما أمر الله جل ثناؤه بقوله : فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ . الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا فيه العدل بينهن ، من القسمة بينهن ، والنفقة وترك الجور .. في ذلك بتفضيل إحداهن على الأخرى فيما فرض عليهم العدل بينهن فيه ، إذ كان قد صفح لهم عما لا يطبقون العدل فيه بينهن مما في القلوب من المحبة والهوى (١٣٠) .

وَأِنْ تَصَلُّحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قال الطبري : وإن تصلحوا أعمالكم - أيها الناس - فتعدلوا في قسمكم بين أزواجكم ، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف .

وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي الْمِيلِ الزائد لإحداهن .

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . يغفر لكم ما سبق من التقصير في حق بعض الزوجات ويتوب عليكم من الميل إلى بعض الزوجات دون بعض .

١٣٠ - وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ... الآية

فإن قبلت المرأة التي قد نشز عليها زوجها ، الصلح بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها ، وطلبت حقها منه من القسم والنفقة وما أوجب الله لها عليه ، وأبى الزوج عليها ذلك فتفرقا بطلاق الزوج لها ؛ فإن الله يغنه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوضه الله من هو خير له منها ، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه .

وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ... أي : كان الله ولا يزال واسع الغنى كافياً ، حكيماً . في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

المفردات :

ولقد ووصينا ، ولقد أمرنا أمرا مؤكدا .

الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، المراد بهم: أهل الكتب السماوية السابقون جميعاً: اليهود، والنصارى، وغيرهم .

حَمِيدًا ، مستحقاً للحمد ، وإن لم يحمده الحامدون .

وكفى بالله وكيلًا ، وكفى به قيما وكفيلًا : توكل إليه الأمور .

التفسير :

١٣١ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... الآية

ولله جميع ملك ما حوته السماوات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها .

وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله : وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَةِ تَذَكُّرًا مِنْهُ لخلقه بالجوء إلى ذلك الباب عند الشدائد والخطوب، فمن كان له ملك السماوات والأرض خلقا وملكا وتصرفا لا يتعذر عليه إغناء الزوجين بعد فرقتهما، ولا إيناسهما بعد وحشتهما .

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ...

قال الطبري : رجع جل ثناؤه إلى عذل من سعى في أمر بني أبيرق وتوبيخهم، ووعد من فعل

فعل المرتد منهم فقال : وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ .. يقول :

ولقد أمرنا أهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل وإيَّاكم وأمرناكم وقلنا لكم ولهم: اتَّقُوا اللَّهَ

يقول : احذروا الله أن تعصوه وتخالفوا أمره ونهيه (١٣١) .

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... وقلنا لهم ولكم : إن تكفروا وتجدوا وصيته

إياكم فتخالفوها؛ فإنكم لا تضررون غير أنفسكم؛ فالله غني حميد لا يضره كفركم ومعاصيكم،

ولا ينفعه إيمانكم وتقواكم وفى الآية الثامنة من سورة إبراهيم: وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا . أى: كان قبل أن تكونوا، ولا يزال بعد ما كنتم .

غَنِيًّا . عن عباده غير محتاج إلى سواه .

حَمِيدًا . أى: محمودا فى جميع ما يقدره ويشعره .

١٣٢- وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا .

ولله ملك جميع ما حوته السماوات والأرض، وهو القيم بجميعه، والحافظ لذلك كله، لا يعزب عنه علم شيء منه، ولا يؤوده حفظه وتدبيره؛ فهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء .

١٣٣- إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ... أى: هو قادر على إهلاككم وإفنائكم وتبديلكم بناس آخرين غيركم؛ لموازرة نبيه محمد ﷺ ونصرته .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا ...

قال الطبرى : وكان الله على إهلاككم وإفنائكم، واستبدال آخرين غيركم قديرًا يعنى: ذا قدرة على ذلك (١٣٣) .

كما قال تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ... (محمد: ٢٨) .

قال بعض السلف:

ما أهون العباد على الله: إذا أضاعوا أمره .

وقال عز شأنه: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٦، ١٧) .

١٣٤- مَنْ كَانَ يَرْجِدُ لِقَاءَ اللَّهِ فَعَدَّ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... من كان قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط: فقد ضيع على نفسه خيرا أكثر فإنه لو قصد وجه الله بعمله: لحصل على ثواب الدنيا والآخرة، فعند الله من هذه وهذه، وإذا سألته أعطاك وأغناك كما قال تعالى : فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (البقرة: ٢٠٠ - ٢٠٢) .

وقال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ... (الشورى : ٢٠).

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ... أى : وكان الله سميعاً لما يقول العباد، بصيراً بأعمالهم ونياتهم فيجازى كلا على حسب حاله .

وذهب الطبرى إلى أن معنى الآية :

وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا . أى : من المنافقين الذين أظهرُوا الإيمان لأجل ذلك .

فإن الله مجازيه به جزاءه فى الدنيا .

وجزاؤه فى الآخرة العقاب والنكال .

كما قال فى الآية الأخرى :

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتَهَا تَوَفَّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ... (هود : ١٥، ١٦) .

والإمام ابن كثير نقل رأى الطبرى وقال: إن هذا التفسير للطبرى فيه نظر : فإن قوله تعالى : فَعَبَدَ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . ظاهر فى حصول الخير فى الدنيا والآخرة .

أى بيده هذا وهذا فلا يقتصر قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة: فإن مرجع ذلك إلى الذى بيده الضر والنفع وهو الله الذى لا إله إلا هو .

★ ★ ★

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفَرًا مِمَّنْ بَالِغُ سُدَّتِهِ ءَلِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوَالِدِينَ
وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ
تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِى نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالِكِتَبِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

المفردات :

كُوفَرًا مِمَّنْ بَالِغُ سُدَّتِهِ : قائمين بالعدل مع المواظبة عليه ، والمبالغة فيه .

وَأَنْ تَلَوْنَهُمْ : وإن تملوا ألسنتكم بالشهادة ، بالإتيان بها على غير وجهها .

أَوْ تَعْرِضُوا : أى : تتركوا إقامتها أو تقيمها على غير وجهها .

التفسير:

١٣٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ... الآية .

هذه الآية - والتي بعدها - فيها امتداد للحديث عن العدل، الذي سبق طرف منه في الآيات السابقة. وبين الإيمان والعدل رباط وثيق؛ لأن الإيمان الصحيح، يقتضى إقامة العدل والقسط بين الناس .

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا، كونوا مواظبين على العدل فى جميع الأمور، مجتهدين فى إقامته كل الاجتهاد؛ لا يصرفكم عنه صارف . وكونوا شهداء ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين . وذلك بأن تقيموا شهادتكم بالحق خالصة لوجه الله، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، مهما يكن أجره، ولو عادت الشهادة بالضرر عليكم، أو على الوالدين والأقربين . فإن الحق أحق أن يتبع، وأولى بالمراعاة من كل عاطفة وغرض .

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ... أى: إن يكن المشهود عليه غنياً يَرجى نفعه . أو فقيراً يَنتير فقره الرحمة، فلا تتأثروا بذلك كله فى شهادتكم . فالله أولى بالأغنياء والفقراء، وأحق منكم برعاية ما يناسب كلا منهما . ولولا أن أداء الشهادة على وجهها فيه مصلحة لهما، لما شرعه الله . فراعوا أمره - تعالى - فإنه أعلم بمصالح العباد منكم .

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْلَمُوا ... أى: فلا تتبعوا فى شهادتكم - على هذا أو ذاك - هواكم: كارهين إقامة العدل فى شهادتكم من أجل الرغبة فى مصلحتهما؛ لأن اتباع الهوى والميل، ضلال لا يليق بالمؤمنين . وإقامة العدل حق وهدى: يجب على المؤمنين - وجوباً مؤكداً - أن يتصفوا به .

وَأِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ... أى: وإن تميلوا ألسنتكم عن الشهادة بالإتيان بها على غير وجهها الذى تستحقه أو تعرضوا عنها وتتركوا إقامتها وتهربوا من أدائها - فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ . من التحريف، أو الكذب، أو ترك الشهادة وكتمانها خبيراً . وعليماً .

قال تعالى: وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ... (البقرة: ٢٨٣).

قال الطبرى: وهذه الآية عندى تأديب من الله جل ثناؤه عباده المؤمنين أن يفعلوا ما فعله الذين عذروا بنى أبيض - فى سرقتهم ما سرقوا وخيانتهم ما خانوا - عند رسول الله ﷺ لهم عنده بالصلاح فقال لهم: إذا قمتم بالشهادة لإنسان أو عليه؛ فقولوا فيها بالعدل . ولو كانت شهادتكم على أنفسكم وأبائكم وأمهاتكم وأقربائكم، ولا يحملنكم غنى من شهدتم له، أو فقره أو قرابته ورحمة منكم على الشهادة له بالزور، ولا على ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها (١٣٧) .

والآية بعد كل هذا تظل معلما رفيعا، ومنارة هادية إلى الشهادة بالحق ولو كان ذلك على الإنسان أو قرابته أو من يهيم أمرهم لأى سبب كان كراعية الجار، أو الطمع فى جاره، أو منصب عند حاكم، أو انتصار لطائفة أو مذهب، أو نحو ذلك وما جاء فى الآية إنما هو من باب ضرب المثل .

جاء فى تفسير ابن كثير :

ومن هذا قول عبد الله بن راحة لما بعثه النبي ﷺ يحرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم فأرادوا أن يرشوه؛ ليرفق بهم؛ فقال : والله لقد جئتمكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعداكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

١٣٦- يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلٰى رَسُولِهِ ۚ وَالْكِتَابِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ... الآية

يخاطب الله تعالى بهذه الآية أهل الكتاب فقد كان لهم نوع من الإيمان والتصديق ولكنه إيمان غير كامل . فقد آمن اليهود بموسى وبالتوراة وكفروا بعتسى وبالإنجيل، كما آمن النصارى بموسى ويعيسى وكفروا بمحمد ﷺ .

قال الطبرى فى تفسير الآية :

يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا . بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل، وصدقوا بما جاءهم به من عند الله .
ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ . صدقوا بالله وبمحمد رسوله، أنه لله رسول، مرسل إليكم وإلى سائر الأمم قبلكم.
وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلٰى رَسُولِهِ . وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكتاب الذى نزل الله عليه وهو القرآن الكريم .

وَالْكِتَابِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ . وآمنوا بالكتاب الذى أنزله الله من قبل القرآن وهو التوراة والإنجيل.

وقال ابن كثير : وَالْكِتَابِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ .. جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن نزل؛ لأنه نزل منجما على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم .

وأما الكتب السابقة فكانت تنزل جملة واحدة؛ لهذا قال تعالى : وَالْكِتَابِ الَّذِى اُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ .

وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَآلِوْمِ الْآخِرِ ... ومن يكفر بمحمد ﷺ وبما جاء من عند الله، فقد كفر بجميع ما أمر الله به؛ لأنه فرق بين الرسل وقال : نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ .. وهذا خروج عن دين الله وهديه واتباع للضلال والهلاك .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ... فقد بعد عن الحق بعدًا سحيقًا: لأن الخروج عن دين الله وهديه يتبعه الهلاك والضلال والوبار .

ومن المفسرين من قال: معنى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . أى: استمروا واثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله وبالقرآن الكريم وبالكتب السماوية السابقة على القرآن وهى: التوراة، والإنجيل، والزيور، وإلى هذا المعنى ذهب الإمام ابن كثير فى تفسيره حيث قال : يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتثبيته والاستمرار عليه كما يقول المؤمن فى كل صلاة: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

أى: بصُرنا فيه وزدنا هدى وثبتنا عليه، فأمرهم بالإيمان به ورسوله كما قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ . (الحديد: ٢٨).

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّعَنَ اللَّهُ لَعْنَةً يُعَذِّبُهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَةَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ أَنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾

المضردات :

ازدادوا كفرا : عادوا واستمروا فيه .

بشر المنافقين : أنذرهم .

أيتفون : يطلبون .

العزّة : الغلبة والقوة .

يخوضوا : يدخلوا .

التفسير:

١٣٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا ... الآية

هذه الآية، بينت حال بعض الكافرين، وهم المنافقون الذين ترددوا بين الإيمان الظاهر أمام المؤمنين، وبين الكفر، حينما يلتقون بالكافرين أمام المؤمنين .

والمعنى : إن المنافقين الذين أظهروا الإيمان أمام المؤمنين رياء، ثم كفروا أمام أوليائهم الكافرين، ثم عادوا إلى إظهار الإيمان حين لقائهم بالمؤمنين، ثم كفروا عند عودتهم إلى الكافرين، ثم ازدادوا في دخيلة أنفسهم كفرا وجودا، واستمروا عليه - إن هؤلاء :

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . أى : هؤلاء المنافقون المذكورون، قد حكم الله بأنهم محرومون من أن يغفر الله لهم كفرهم ومعاصيهم، ومحرومون من أن يهديهم الله إلى الحق؛ لإصرارهم على الكفر والنفاق .

وقيل: إن المراد من هؤلاء : قوم تكرر منهم الارتداد، وأصروا على الكفر وتمادوا في الغي والضلال.

١٣٨ - بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

بعد أن أوصد الله في وجه هؤلاء المنافقين أبواب الرحمة والهداية، نتيجة تكرر الكفر منهم، أمر الله رسوله أن ينذرهم بأنه أعد لهم في الآخرة عذابا شديدا بالإيلام، وعبر عن الإنذار بالتبشير؛ تهكما بهم وسخرية منهم، وإيناسا لهم من المبشرات كلها، وأنها - بفرض وقوعها كما هي هنا - فليس لها رصيد إلا العذاب الأليم : لتلاعبهم بالعقيدة وسخریتهم بها .

١٣٩ - الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

أى: أولئك هم الذين يوالون الكافرين ويتخذونهم أعوانا وأنصارا لما يتوهمونه فيهم من القوة ويتكبرون ولاية المؤمنين، ويقولون للكافرين إذا خلا بهم إنا معكم إنما نحن مستهزئون .. (البقرة: ١٤).

أَيَتَعَوَّنَ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ : أى: أيطالبون بموالاتة الكفر: القوة والغلبة ؟ والاستفهام إنكارى أى: أيطالبون العزة ممن لا يستطيع أن يمنحها لهم؟

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ...

قال الشوكاني : هذه الجملة تعليل لما تقدم من توبيخهم بابتغاء العزة عند الكافرين وجميع أنواع العزة وأفرادها مختص بالله سبحانه، وما كان منها مع غيره فهو من قبضه وتفضله كما فى قوله: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . (المنافقين: ٨) والعزة : الغلبة، يقال: عَزَّهُ يَعْزُهُ عِزًا : إذا غلبه .

١٤٠- وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... الآية

وقد نزل عليكم - يا معشر المؤمنين في القرآن - أنكم إذا رأيتم أولئك الكافرين يستهزئون بكتاب الله تعالى، وسمعتهم منهم ذلك فاتركوا مجالسهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

قال الشوكاني : أى: لا تقعدوا معهم ماداموا كذلك؛ حتى يخوضوا فى حديث غير حديث الكفر والاستهزاء بها والذي أنزله الله عليهم فى الكتاب هو قوله تعالى :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .. (الأنعام: ٦٨).

وقد كان جماعة من الداخلين فى الإسلام يقعدون مع المشركين واليهود حال سخريتهم بالقرآن واستهزائهم به فنهوا عن ذلك ^(١٢١) .

إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ .. أى: إنكم إن فعلتم ذلك ولم تنتهوا فأنتم مثلهم فى الكفر، ولستم بمؤمنين كما تزعمون فإن المرء بجليسه .

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا .. أى: يجمع الفريقين : الكافرين والمنافقين فى الآخرة فى نار جهنم؛ لأن المرء مع من أحب .

قال ابن كثير : أى: كما أشركوهم فى الكفر، كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين .

★ ★ ★

﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنَ اللَّهِ فَالُوا لَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأَلَوْا لَمْ نَسْخُحْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالٍ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لِآلِ هَؤُلَاءِ وَلَا لِآلِ هَؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن يَهْدِيَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾

المضردات :

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ، يَنْتَظِرُونَ وَقُوعَ أَمْرِ بِكُمْ .

هَتَّحَ مِنَ اللَّهِ ، نصر منه .

أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ، ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا .

يَخَادِعُونَ اللَّهَ ، يفعلون مع الله ما يفعل المخادع . وهو إظهار ما لا يبطن .

يَسْرَءُونَ النَّاسَ ، يظهرون للناس غير ما انطوت عليه صدورهم .

مَذْذِبِينَ ، مترددين بين المؤمنين والكافرين .

التفسير :

١٤١ - الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ ... الآية

هذه الآية - وما بعدها - تبين لنا بعض سمات المنافقين وصفاتهم، التي كانوا عليها . وأول صفة ذكرت لهم، هي التريص والانتظار ؛ لاستغلال المواقف استغلالاً دنيئاً لمصلحتهم . وهو ما بيّنه الله بقوله :

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ . أى: فإن كان لكم نصر على أعدائكم - بمعونة الله - تزلفوا لك، وراحوا يطالبون بالمغانم قائلين: أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ . بالعون حتى نصرتم على الأعداء؟

وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ . من الغلبة في الحرب على المؤمنين .

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ... أى: قال المنافقون للكافرين: ألم نحطكم بعوننا ومساعدتنا، وإطلاعكم على أسرار المؤمنين؛ حتى صارت لكم الغلبة عليهم .

وَلَمَّا نَعَضَّكُمْ مَنْ الْمُؤْمِنِينَ . أى: ندفع عنكم صولة المؤمنين بتنبيطنا إياهم، وتباطئنا في معاونتهم، وإشاعة الأخبار التي توهم قلوبهم، وتضعف عزائمهم . فاعرفوا حقنا عليكم، وهاتوا نصيبنا مما غنمتم .

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : فهو مطلع على دخائل الجميع محقين ومبطلين، فيثبت أولياءه المؤمنين المخلصين، ويعاقب أعداءه المنافقين يوم الجزاء .

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا .

قال ابن كثير: أى: لن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى :

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .. (غافر: ٥١) .

وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلوكه من مصانعتهم الكافرين؛ خوفاً على أنفسهم منهم، إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم كما قال تعالى: **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فِضْضِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ تَادِمِينَ ... (المائدة: ٥٢).**

ويفسر بعض العلماء هذه الفقرة على أنها ستكون يوم القيامة: قال الإمام على: «ذاك يوم القيامة». وقيل: إنه سبحانه لا يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين ما داموا عاملين بالحق غير راضين بالباطل، ولا تاركين للنهي عن المنكر كما قال تعالى: **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ. (الشورى: ٣٠).**

قال ابن العربي: وهذا نفيس جداً^(١٣٥).

١٤٢- **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... الآية**

هذا كلام مبتدأ يتضمن بعض قبائح المنافقين وفضائحهم. ولا شك أن الله لا يخادع؛ فإنه عالم بالسرائر والضمائر.

ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم؛ يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس، وجزت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً - فكذا يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده .. **وَهُوَ خَادِعُهُمْ. أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق، وعن الوصول إليه فى الدنيا، وكذلك يوم القيامة^(١٣٦).**

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى ... الآية. أى: يصلون وهم متثاقلون، لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وما قيامهم للصلاة مع المصلين، إلا مظهر من مظاهر خداعهم.

يُرَاءُونَ النَّاسَ .. أى: يقصدون بصلاتهم الرياء والسمة ولا يقصدون وجه الله.

قال ابن كثير: أى لا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الصبح، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:

«أنقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»^(١٣٧).

وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ... هذه الجملة معطوفة على يُرَاءُونَ. أى: لا يذكرونه سبحانه إلا ذكراً

قليلاً، أو لا يصلون إلا صلاة قليلة ووصف الذكر بالقلّة: لعدم الإخلاص، أو لكونه غير مقبول أو لكونه قليلاً في نفسه .

أو يراد بالقلّة: العدم؛ لأن ذكرهم غير مقبول، فلا فائدة فيه .

١٤٣ - مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ ... الآية

المذبذب: المتردد بين أمرين، والمذبذبة الاضطراب قال ابن جنى : المذبذب: القلق الذى لا يثبت على حال .

لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ... أى: ليسوا منسوبين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين فظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين: ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك.

قال ابن جرير عن قتادة يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك .

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ ... أى: يخذله ويسلبه التوفيق ويصرفه عن طريق الهدى .

فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ... أى: طريقاً يوصله إلى الحق .

فإنه: مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ . (الأعراف: ١٨٦)

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ
تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مِثْلًا ۖ إِنَّ الْكَافِرِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ
وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُمْ نَصِيرًا ۚ ﴾ (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴿١٤٦﴾
مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۖ ﴾ (١٤٧)

المفردات :

سُلْطَانًا مِثْلًا : حجة ظاهرة .

أَوْلِيَاءَ : تُصْرَاء .

الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ : الطبقة السفلى .

وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ : اتخذوه ملجأً وملاذاً .

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا : أى: كان - ولا يزال - مثيباً على الشكر .

التفسير :

١٤٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية

بعد أن بين الله صفات المنافقين، الناطقة: بأنهم كفار في حقيقة أمرهم، نهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين - جميعا - أولياء، فإنهم لا يضمرون الخير لهم . فقال : يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا الكفار أولياء وأحباء ونصراء من دون المؤمنين ؛ لأنهم لا يؤمن جانبهم .

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ... أى : أترغبون - بموالة الكفار - أن تكون لله عليكم حجة واضحة فى عذابه إياكم ؛ إذ إنكم اتخذتم أعداء أولياء لكم . وهم يغيثون لكم الهزيمة، ولديكم الزوال. كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ... (المتحنة: ١) .

وهذا لا يمنع من عقد معاهدات السلام معهم إذا كان فى ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى: مصاحبتهم ومصادقتهم، ومناصحتهم، وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم .

وقال الإمام الشوكاني: أى: لا تجعلوهم خاصة لكم وبطانة توالونهم من دون إخوانكم من المؤمنين كما فعل المنافقون من موالاتهم للكافرين .

١٤٥ - إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... الآية

أى: فى الطبقة التى فى قعر جهنم وهى سبع طبقات .

قال ابن عباس : أى: فى أسفل النار، وذلك لأنهم جمعوا مع الكفر الاستهزاء بالإسلام وأهله .

وتفيد الآية: أن النار دركات، كما أن الجنة درجات .

وَأَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ... أى: ينقذهم مما هم فيه ويخرجهم من أليم العذاب .

١٤٦ - إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ...

تستثنى هذه الآية من تاب عن النفاق قبل أن يموتوا، وأصلحوا أعمالهم ونياتهم، وبدلوا الرياء بالإخلاص واعتصموا بالله . أى: تمسكوا بكتاب الله ودينه .

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ... أى: جعلوا قلوبهم نقية خالية من الشرك خالصة للإيمان وقصدوا بعملهم وجه الله .

قال ابن أبى حاتم: عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال : «أخلص دينك؛ يكفك القليل من العمل» (١٣٨) .

إن الإخلاص إكسیر العبادة وروحها وسر قبولها قال تعالى :

وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ... (البينة: ٥).

فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ... أى: هؤلاء الذين تابوا إلى الله وأصلحوا أعمالهم ونياتهم يدخلون فى عداد المؤمنين إيماناً حقيقياً وإنه لشرف عظيم أن يدخل الإنسان فى عداد المؤمنين .

وَسَوْفَ يُؤْتِيكَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ... أى: يعطيهم الأجر الكبير فى الآخرة وهو الجنة .

١٤٧- مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ...

أى: منفعة له سبحانه فى عذابكم ؟ إن شكرتم وآمنتم أيتشفى من الغيظ - حاشا لله - ؟ وأم يدرك به الثأر، أم يدفع به الضر، ويستجلب النفع ؟ وهو الغنى عنكم ؟ !

قال الإمام الشوكاني فى تفسيره : فتح القدير :

هذه الجملة متضمنة لبيان أنه لا غرض له سبحانه فى التعذيب إلا مجرد المجازاة للعصاة .

والمعنى : أى منفعة له فى عذابكم إن شكرتم وآمنتم، فإن ذلك لا يزيد فى ملكه، كما أن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه ؟ !

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا . أى: يشكر عباده على طاعته: فيثيبهم عليها ويتقبلها منهم .

والشكر فى اللغة: الظهور يقال: دابة شكور: إذا ظهر من سمنها فوق ما تُعطى من العلف .

فإنه سبحانه وتعالى يعطى على العمل القليل الثواب الجزيل وهو واسع العلم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض .

فما أعظم فضله، وما أجزل نعمه، وما أكثر عطاءه. وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ إذا قام من الليل : «اللهم، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد. أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد . لا إله إلا أنت وعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق» (١٣٩).

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، تمت كتابة تفسير القرآن الكريم (الجزء الخامس) ضحى يوم الأربعاء ٢٨ شوال ١٤٠٧ هـ الموافق ٢٤ يونيو ١٩٨٧ م بمنيل الروضة القاهرة، والحمد لله رب العالمين .

اللهم لك الحمد والشكر كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الخامس)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمّد صالح سعيّد فهمي

(١) احتلمت في ليلة باردة:

رواه أبو داود في الطهارة (٣٣٤) وأحمد في مسنده (١٧٣٥٦) عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فاشقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعه من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إن الله كان بكم رحيمًا فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا!.

(٢) من قتل نفسه بشيء عذب به:

رواه البخاري في الجنائز (١٣٦٤) في الأدب (٦٠٧٤، ٦١٠٥) في الأيمان والنذور (٦٦٥٣) مسلم في الأيمان (١١٠) وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٧) والترمذي في الطب (٢٦٣٦) والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٧٠) والدارمي في الديات (٢٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٩٥٦، ١٥٩٥٠) من حديث ثابت بن الضحك وكان من أصحاب الشجرة حدثه أن رسول الله ﷺ قال: من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة ومن لعن مؤمنًا فهو كقتله ومن قذف مؤمنًا بكفر فهو كقتله.

(٣) من تردى من جبل فقتل نفسه:

رواه البخاري في الطب (٥٧٧٨) ومسلم في الأيمان (١٠٩) والترمذي في الطب (٢٠٤٣، ٢٠٤٤) والنسائي في الجنائز (١٩٦٥) وابن ماجه في الطب (٣٤٦٠) (٧٣٣٩، ٩٨٣٩، ٩٩٦٤) والدارمي في الديات (٢٣٦٢) من حديث أبي هريرة مرفوعًا: من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبداً ومن تحصى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبداً.

(٤) اجتنبوا السبع الموبقات:

رواه البخاري في الوصايا ح ٢٧٦٧، ومسلم في الأيمان ح ٨٩، والنسائي في الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود في الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبي هريرة.

(٥) ألا أنياكم بأكر الكبائر:

رواه البخاري في الشهادات ح ٢٤٦٠، وفي الأدب ح ٥٥١٩، ٥٥٢٠، ومسلم في الأيمان ح ١٢٦، ١٢٨، وأحمد ح ١٩٤٩٩، ١٩٤٩١، ١١٨٨٦.

(٦) إن من أكبر الكبائر أن يعلن الرجل والديه:

رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣) وأبو داود في الأدب (٥١٤١) وأحمد في مسنده (٦٩٩٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٧) ما زال جبريل يوصيني بالجار:

رواه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٤) وأبو داود في الأدب (٥١٥١) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٢) وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٣) وأحمد في مسنده (٢٣٧٣٩، ٢٤٠٧٩، ٢٤٤٢١، ٢٥٠١٢، ٢٥٤٨٢) من حديث عائشة. ورواه البخاري في الأدب (٦٠١٥) ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥) من حديث ابن عمر. ورواه أبو داود في الأدب (٥١٥٢) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) وأحمد في مسنده (٦٤٦٠) من حديث عبد الله بن عمرو. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقد روى هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ أيضاً. ورواه أحمد في مسنده (٥٥٥٢) من حديث عبد الله بن مسعود. ورواه أحمد في مسنده أيضاً (٧٤٧٠، ٧٩٨٥، ٩٤٥٣، ١٠٢٩٧) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد في مسنده (١٩٨٣٧، ٢٢٥٨٣) عن رجل من الأنصاريين.

(٨) اقرأ علي؛ أحب أن أسمعهم غيري:

رواه البخاري في التفسير (٤٥٨٢) وفي فضائل القرآن (٥٠٥٠، ٥٠٥٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٨٠٠) والترمذي

في التفسير (٣٠٢٤) وأبو داود في العلم (٣٦٦٨) وابن ماجه في الزهد (٤١٩٤) وأحمد في مسنده (٣٥٩٥، ٣٥٩١، ٤١٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٩) تفسير المراغي ٥/ ٦١.

(١٠) فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٨٠.

(١١) الحمد لله الذي وفق:

رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٢) والترمذي في الأحكام (١٣٧٢) والدارمي في المقدمة (١٦٨) وأحمد في مسنده (٢١٥٠٢، ٢١٥٥٦، ٢١٥٩٥) عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضى بكتاب الله ﷻ قال: فإن لم تجد في كتاب الله ﷻ؟ قال: فبسنه رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله ﷻ، قال: أجتهد رأيي ولا ألو. فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷻ لما يرضى رسول الله ﷻ. قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بم متصل. وقال الزيلعي في نصب الراية: وأخرجاه أيضًا عن أناس من أصحاب معاذ: أن رسول الله ﷻ مرسلًا قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بم متصل، انتهى. وقال البخاري في «تاريخه الكبير»: الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفي عن أصحاب معاذ، عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح، ولا يعرف إلا بهذا، مرسل، انتهى. وفيه كتاب، ورواه النسائي في آداب القضاء (٥٣٩٩) والدارمي في المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما في كتاب الله ﷻ فإن لم يكن في كتاب الله ﷻ فبسنه رسول الله ﷻ فافض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن في كتاب الله ﷻ ولا في سنة رسول الله ﷻ ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيرًا لك والسلام عليكم.

(١٢) الشرح: مسيل الماء.

(١٣) اسق يا زبير:

رواه البخاري في المساقاة أيضًا (٢٣٦١، ٢٣٦٢) وفي الصلح (٢٧٠٨) وفي التفسير (٤٥٨٥) من حديث عروة قال: خاصم الزبير رجل من الأنصار فقال للنبي ﷺ: يا زبير اسق ثم أرسل فقال الأنصاري: إنه ابن عمك، فقال عليه السلام: اسق يا زبير ثم يبلغ الماء الجدر ثم أمسك فقال الزبير: فأحسب هذه الآية نزلت في ذلك؟ فقال وريك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم.

ورواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٠) ومسلم في الفضائل (٢٣٧٥) وأبو داود في الأقضية (٣٦٣٧) والترمذي في الأحكام (١٦٣٢) وفي التفسير (٣٠٢٧) والنسائي في آداب القضاء (٥٤٠٤) وابن ماجه في المقدمة (١٥) وفي الأحكام (٢٤٨٠) وأحمد في مسنده (١٥٦٨٤) عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراح الحرة التي يسقون بها النخل.. الحديث، ورواه أحمد في مسنده (١٤٢٢) من حديث الزبير ابن العوام.

(١٤) في ظلال القرآن ٢/ ٧٠٧.

(١٥) تضمن الله لمن خرج في سبيله

رواه البخاري في الإيمان (٣٦) وفي فرض الخمس (٣١٢٣) وفي التوحيد (٧٤٧٥، ٧٤٦٣) رواه مسلم في الإمارة واللفظ له - (١٨٧٦) ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائي في الجهاد (٣١٢٢، ٣١٢٣) وفي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣) والدارمي في الجهاد (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٨٧٥٧، ٨٩٢٣) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادًا في سبيل الله ﷻ.. الحديث، وقد روى الحديث بأكثر من لفظ منها: انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان.. الحديث. ومنها: أعد الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادًا في سبيله وإيمان.. وفي إحدى الروايات: تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد.. الحديث.

(١٦) في لُلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٥ / ٧٠٨، طبعة دار الشروق الحادية عشرة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(١٧) كنت أنا وأُمي من المستضعفين:

رواه البخاري في الجہاد (١٣٥٧) وفي تفسير القرآن (٤٥٨٧) من حديث ابن عباس رضی اللہ عنہما يقول: كنت أنا وأُمي من المستضعفين: أنا من ولدان وأُمي من النساء.

(١٨) تفسير الكشف ١ / ٢٨١.

(١٩) إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم:

رواه النسائي في الجہاد (٣٠٨٦) من حديث ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: يا رسول الله إنا كنا في عز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أذلة فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا فأنزل الله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾. وذكره السيوطي في الدر ونسبه لابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه.

(٢٠) كانت الزكاة غير محددة المقادير في مكة - قبل الهجرة - وكان ذلك متروكا لتقدير المسلمين، ثم تم تحديدها بالمدينة.

(٢١) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٢٨٢.

(٢٢) ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب:

رواه البخاري في المرضي باب: ما جاء في كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها). ورواه البخاري فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن وأذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياهم). رواه الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبي هريرة قال: لما نزلت ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: قاربوا وسددوا. وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها. هذا حديث حسن غريب.

(٢٣) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية الحزب التاسع، ص ٨٥٩.

(٢٤) أنتم أعلم بأمر دياركم:

رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) وأحمد في مسنده (١٢١٣٥) من حديث أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلحقون فقال: لو لم تغفلوا لصلح قال: فخرج شيصا فمر بهم فقال: ما لنخلكم قالوا: قلت: كذا وكذا قال: أنتم أعلم بأمر دياركم.

(٢٥) من أطاعني فقد أطاع الله:

رواه البخاري في الجہاد (٢٩٥٧) وفي الأحكام (٧١٣٧) ومسلم في الإمارة (١٨٣٥) والنسائي في البيعة (٤١٩٣) وفي الاستعانة (٥٥١٠) وابن ماجه في المقدمة (٢) وفي الجہاد (٢٨٥٩) (٧٣٨٦، ٨٣٠٠، ٨٧٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعا: من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني.

(٢٦) إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب:

رواه مسلم في العلم (٢٦٦٦)، وأحمد ٢ / ١٨٥.

(٢٧) كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع:

رواه مسلم فى المقدمة (٥) وأبو داود فى الأدب (٤٩٩٢) من حديث حفص بن عاصم - عن أبي هريرة - قال: قال رسول الله ﷺ كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع. قال أبو داود ولم يذكر حفص أبا هريرة قال أبو داود ولم يستند إلا هذا الشيخ يعنى على بن حفص المدائنى. ورواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع. ورواه أيضاً من حديث أبي الأحوص عن عبد الله قال: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع.

(٢٨) إن الله كره لكم قيل وقال:

رواه البخارى فى كتاب الزكاة (١٤٧٧) وفى الاستقراض (٢٤٠٨) وفى الأدب (٥٩٧٥) وفى الرقاق (٦٤٧٣) وفى الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم فى كتاب الأقضية (١٧١٥) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٢٩) من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب:

رواه أحمد (١٧٧١٩، ١٧٧٤٦، ١٧٧٧٦) من حديث المغيرة بن شعبة. ورواه مسلم فى المقدمة، والترمذى فى العلم (٢٦٦٢) من حديث المغيرة بن شعبة أيضاً إلا أنه بلفظ: من حدث عني. ورواه مسلم فى المقدمة، وأحمد (١٩٦٥٠، ١٩٧١٢) من حديث سمرة بن جندب. ورواه ابن ماجه فى المقدمة (٤٠) من حديث على، ثم أسنده من حديث سمرة. قال الترمذى: هذا حديث صحيح وروى شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سمرة عن النبي ﷺ هذا الحديث وروى الأعمش وابن أبي ليلى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن على عن النبي ﷺ وكان حديث عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن سمرة عند أهل الحديث أصح قال: سألت أبا محمد عبد الله بن عبد الرحمن عن حديث النبي ﷺ: من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين، قلت له: من روى حديثاً وهو يعلم أن إسناده خطأ يخاف أن يكون قد دخل فى حديث النبي ﷺ أو إذا روى الناس حديثاً مرسلأ فأسنده بعضهم أو قلب إسناده يكون قد دخل فى هذا الحديث فقال: لا إنما معنى هذا الحديث إذا روى الرجل حديث ولا يعرف لذلك الحديث عن النبي ﷺ أصل فحدث به فأخاف أن يكون قد دخل فى هذا الحديث.

(٣٠) لا حينما سأله عمر: أطلقت نساءك؟ حديث الإيلاء:

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلاء: رواه البخارى فى العلم (٨٩) وفى المظالم ح (٢٤٦٨، ٢٤٦٩)، وفى التفسير ح (٤٩١٣، ٤٩١٤، ٤٩١٥)، وفى النكاح ح (٥١٩١، ٥٢٠٣)، وفى الطلاق ح (٥٢٦٧)، وفى اللباس ح (٥٨٤٣)، وفى الأدب (٦٢١٨)، وفى أخبار الأحاد ح ٦٧٢١، ومسلم فى الطلاق ح (١٤٧٩)، والترمذى فى التفسير ح (٣٣١٨)، والنسائى فى الطلاق ح (٢٤٥٥)، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥٢٥، وأحمد فى مسنده ٣٤١.

(٣١) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٠ .

(٣٢) قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض:

رواه مسلم فى الإمارة (١٩٠١) وأحمد فى مسنده (١١٩٩٠) من حديث أنس بن مالك قال: بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينفلر ما صنعت عير أبى سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير رسول الله ﷺ قال: لا أبرى ما استفتنى بعض نسائه قال: فحدثه الحديث قال: فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونهم فى ظهورهم فى علو المدينة فقال: لا إلا من كان ظهره حاضراً فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض قال: يقول عمير بن الحمام الأنصارى: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم قال: يخ بخ فقال: رسول الله ﷺ ما يحكمك على قولك: يخ بخ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

(٣٣) يا أبا سعيد من رضى الله ربا:

رواه مسلم في الإمامة (١٨٨٤) والنسائي في الجهاد (٢١٣١) وأحمد في مسنده (١٠٧١٨) من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا سعيد من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وحببت له الجنة فحُجِبَ لها أبو سعيد فقال أعدّها على يا رسول الله ففعل ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض قال: وما هي يا رسول الله قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله.

(٣٤) اشفعوا تؤجروا:

رواه البخاري في الزكاة (١٤٣٢) وفي الأدب (٦٠٢٧، ٦٠٢٨)، وفي التوحيد (٧٤٧٦) ومسلم في البر (٢٦٢٧) وأبو داود في الأدب (٥١٣١) والترمذي في العلم (٢٦٧٢) والنسائي في الزكاة (٢٥٥٦) (١٩٢٠٧، ١٩٠٨٧) من حديث أبي موسى قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طُلبت إليه حاجة قال: اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء. ورواه أبو داود في الأدب (٥١٣٢) والنسائي في (٢٥٥٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله ﷺ قال: إن الرجل ليسألني الشيء فأمنعه حتى تشفعوا فيه فتؤجروا وإن رسول الله ﷺ قال: اشفعوا تؤجروا.

(٣٥) لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا:

رواه مسلم في الإيمان (٥٤) وأبو داود في الأدب (٥١٩٣) والترمذي في الاستئذان (٢٦٨٨) وابن ماجه في المقدمة (٦٨) وفي الأدب (٣٦٩٢) (٨٨٤١، ٩٤١٦، ٩٨٢١، ١٠٢٧٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم. ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠) وأحمد في مسنده (١٤٣٣، ١٤١٥) من حديث الزبير بن العوام أن النبي ﷺ قال: دب إليكم داء الأمم فيلكم: الحسد والبغضاء هي المألفة لا أقول: تحلق الشعر ولكن تحلق الدين والذي نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أنبئكم بما يثبت ذاكم لكم أفشوا السلام بينكم. وقال الترمذي: هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن عبيد بن الوليد عن مولى الزبير عن النبي ﷺ ولم يذكروا فيه عن الزبير.

(٣٦) وعليكم السلام:

قال الهيثمي في المجمع: عن سلمان قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. قال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال له رسول الله ﷺ: وعليك. فقال الرجل: يا رسول الله أتاك فلان وفلان فحببتهما بأفضل مما حبيتني. فقال رسول الله ﷺ: إنك لو أن لم تدع شيئاً، قال الله عز وجل ﴿وَإِذَا حُبِبْتُمْ فَحَبِّبُوا أَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رَدُّهَا﴾ فرددت عليك التحية. وقال: رواه الطبراني وفيه هشام بن لاحق قواه النسائي وترك أحمد حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وذكره السيوطي في الدر وزاد نسبتاً لأحمد في الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند حسن.

(٣٧) عشر في السلام:

رواه أبو داود في الأدب (٥١٩٥) والترمذي في الاستئذان (٢٦٨٩) والدارمي في الاستئذان (٢٦٤٠) وأحمد في مسنده (١٩٤٦) من حديث عمران بن حصين أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم قال: قال النبي ﷺ: عشر ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله فقال النبي ﷺ: عشرون ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال النبي ﷺ: ثلاثون. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وعن سهل بن حنيف رواه البيهقي في السنن، وعن ابن عمر رواه البيهقي في شعب الإيمان.

(٣٨) إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم:

رواه مالك في الموطأ كتاب الجامع (١٧٩٠) وأحمد في مسنده (٤٥٤٩) من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فلانما يقول: السلام عليكم فقل: عليكم.

(٣٩) لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا:

تقدم ص ٧٩.

(٤٠) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ٢/ ٢٥٤، ١٥٥٢.

(٤١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢/ ٧٣١.

(٤٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٢/ ٧٣٤.

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي ٥/ ٣١٠.

(٤٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٣.

(٤٥) تفسير الطبري تحقيق محمود محمد شاكر الطبعة الثانية دار المعارف بمصر ٩/ ٢٦.

(٤٦) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ٩/ ٢٧ وفيه أيضا والفئة في كلام العرب: الاخبار. والإكراس: الرجوع: فتأويل الكلام: كلما رثوا إلى الاختيار؛ ليرجعوا إلى الكفر والشرك؛ رجعوا إليه. تفسير الطبري ٩/ ٢٨.

(٤٧) الطبري ٩/ ٢٩.

(٤٨) تفسير الطبري ٩/ ٣٠.

(٤٩) لا يخل دم امرئ مسلم إلا بإحدى:

رواه البخاري في الدييات ح ٦٣٧٠، ومسلم في القسامة ٣١٥٧، ٣١٦٧، والترمذي في الدييات ح ١٣٢٢، وفي الحدود ح ١٣٦٤، والنسائي في تحريم الدم ح ٣٩٥٩، وفي القسامة ح ٤٦٤٢، وأبو داود في الحدود ح ٣٧٨٨، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٢٥، وأحمد ح ٣٤٣٨، ٣٨٥٩، ٤٠٢٤، والدارمي في الحدود ح ٢١٩٦.

(٥٠) على أهل الإبل مائة بدنة:

رواه أبو داود في الدييات (٤٥٤٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كانت قيمة الدية على عهد رسول الله ﷺ ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم ودية أهل الكتاب يومئذ النصف من دية المسلمين قال: فكان ذلك كذلك حتى استخلف عمر رحمه الله فقام خطيبا فقال: ألا إن الإبل قد غلت قال: ففرضها عمر على أهل الذهب ألف دينار وعلى أهل الورق اثني عشر ألفا وعلى أهل البقر مائتي بقرة وعلى أهل الشاة ألفي شاة وعلى أهل الحلال مائتي حلة قال: وترك دية أهل الذمة لم يرفعها فيما رفع من الدية.

(٥١) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ٩/ ٤٠.

(٥٢) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ٩/ ٤٣، ٤٤ باختصار وتصرف.

(٥٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٣٥.

(٥٤) التفسير الوسيط: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب العاشر ص ٨٨١.

(٥٥) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ٩/ ٥٦.

(٥٦) أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء:

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٣) وفي الدييات (٦٨٦٤) ومسلم في القسامة (١٦٧٨) والترمذي في الدييات (١٣٩٧) والنسائي في تحريم الدم (٣٩٩٣) وابن ماجه في الدييات (٢٦١٥، ٢٦١٧) وأحمد في مسنده (٣٦٦٥، ٤٢٠١) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال النبي ﷺ أول ما يقضى بين الناس بالدماء.

(٥٧) لزوال الدنيا أهون:

رواه الترمذى فى الديات (١٣٩٥) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٩٧) من حديث عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم. ثم رواه الترمذى موقوفاً وقال: وهذا أصح من حديث ابن أبى عدى - يعنى الموقوف -.

ورواه ابن ماجه فى الديات (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق.

(٥٨) لو اجتمع أهل السماوات والأرض على قتل رجل مسلم:

قال السيوطى فى الدرر: وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس قال: «قتل بالمدينة قتيلاً على عهد النبى ﷺ لم يعلم من قتله، فصدع النبى ﷺ المنبر فقال: أيها الناس قتل قتيلاً وأنا فيكم ولا نعلم من قتله، ولو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ لعذبهم الله إلا أن يفعل ما يشاء».

(٥٩) من أعان على قتل مسلم:

رواه ابن ماجه فى الديات (٢٦٢٠) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على قتل مؤمن بخطر كلمة لعى الله عن وجهه ومكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله. قال البوصيرى فى الزوائد: فى إسناده يزيد بن أبى زياد، بالغوا فى تضعيفه، حتى قيل: كأنه حديث موضوع. وقال الزيلعى فى نصب الراية: وهو حديث ضعيف.

قال السيوطى فى الدرر: وأخرج ابن عدى والبيهقى فى البعث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعان على دم امرئ مسلم بخطر كلمة، كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله». وقال الهيثمى فى المجمع: وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: من شرك فى دم حرام بخطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله. رواه الطبرانى وفيه عبد الله بن خراش ضعفه البخارى وجماعة ووثقه ابن حبان وقال: ربما خطأ، وبقيته رجاله ثقات.

(٦٠) أظنه قد أحدث حدثاً:

قال السيوطى فى الدرر: أخرج ابن جريج وابن المنذر من طريق ابن جريج عن عكرمة «أن رجلاً من الأنصار قتل أخاً مقبس بن ضبابة، فأعطاه النبى ﷺ الدية فقبلها، ثم وثب على قاتل أخيه فقتله. قال ابن جريج، وقال غيره: ضرب النبى ﷺ ديتة على بنى النجار، ثم بعث مقبسا، وبعث معه رجلاً من بنى فهر فى حاجة للنبى ﷺ، فاحتمل مقبس الغهرى - وكان رجلاً شديداً - فضرب به الأرض، ورضخ رأسه بين حجرين، ثم ألقى يتغنى: قتلت به فهراً وحملت عقله سرّاً بن النجار أرباب قارع فأخبر به النبى ﷺ فقال: أظنه قد أحدث حدثاً. أما والله لئن كان فعل لا أؤمنه فى حل ولا حرم، ولا سلم ولا حرب، فقتل يوم الفتح. قال ابن جريج: وفيه نزلت هذه الآية ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ الآية.

(٦١) ثكلته أمه قتل رجلاً متعمداً:

رواه أحمد فى مسنده (٢١٤٣، ٢٦٧٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٢٩) والنسائى فى تحرى الدم (٣٩٩٩) وفى القسامة (٤٨٦٦) من حديث ابن عباس أن رجلاً أتاه فقال: أرأيت رجلاً قتل رجلاً متعمداً قال: ﴿جزاره جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ قال: لقد أنزلت فى آخر ما نزل ما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحى بعد رسول الله ﷺ قال: أرأيت إن تاب وأمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؟ قال: وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً بغيره يوم القيامة أخذاً قاتله بيمينه أو يسارته وأخذاً رأسه بيمينه أو شماله تشخب أوداجه دماً فى قبل العرش يقول: يا رب سل عبدك فيه قتلنى. وقال الترمذى: حديث حسن.

(٦٢) تفسير الطبرى تحقيق محمود شاكر ٩ / ٦٣ قال: رواه أحمد فى المسند برقم ٢١٤٢ بطوله وهو حديث صحيح، وقوله (تشخب أوداجه دماً) أى تسيل دماً له صوت فى خروجه، مثل صوت الحالب لضرع الشاة (والأوداج) جمع ودج بفتحين، وهى العروق التى تكشف الحلقوم وما أحاط بالعرق التى يقطعها الذابح (قيل) بضمين ما يستقبل من شيء، ويعنى به: ما بين يدي العرش ومعنى (وما نزل بعلمها من برهان) أى: ما جاء نبى بعد نبيكم، ولا نزل كتاب بعد كتابكم.

(٦٣) أن رجلا قتل مائة نفس:

رواه البخارى فى الأنبياء باب: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ (٢٢٨٢) مسلم فى التوبة باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَمِّينَ السَّيِّئَاتِ﴾ (٢٧٦٦) وابن ماجه فى الديات باب هل لقاتل مؤمن ثوبة؟ (٢٦٢٢).

(٦٤) تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٧.

(٦٥) (البُضْعَةُ) بفتح السين: القطعة من اللحم.

(٦٦) هلا شقت عن قلبه:

رواه البخارى فى المغازى (٤٢٦٩) وفى الديات (٦٨٧٢) ومسلم فى الإيمان (٩٦) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٣) وأحمد فى مسنده (٢١٢٣٨) من حديث أسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمتهم ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله فكف الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته فلما قدما بلغ النبى ﷺ فقال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله قلت: كان متعوذا فما زال يكررها حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم.

(٦٧) كان رجل مؤمن يخفى إيمانه:

رواه البخارى فى الديات (٦٨٦٥) المقداد بن عمرو الكندى حليف بنى زهرة، وكان شهد بدر مع النبى ﷺ أنه قال: رسول الله إبنى لعيت كافرا فاقتلتنا فضرب يدى بالسيف فقطعها ثم لاذ منى بشجرة وقال: أسلمت لله أقتله بعد أن قالها قال رسول الله ﷺ: لا تقتله قال: يا رسول الله فإنه طرح إحدى يدى ثم قال ذلك بعد ما قطعها أقتله قال: لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلة قبل أن تقتله وأنت بمنزلة قبل أن يقول كلمته التى قال وقال حبيب بن أبى عمرة: عن سعيد عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ للمقداد: إذا كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته فذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل.

(٦٨) يُمْلَأُ: يضم أوله، وكسر الميم وتشديد اللام؛ هو مثل يملؤها، والرض: الدق، وسرى كشف، وروى البخارى عن البراء قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْعَى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكبه، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا حرارته فأمر الله ﷺ ﴿غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ﴾. وقد جاء فى المسند ٥ / ١٨٤ والبخارى ٨ / ١٩٥. وأبو داود ٣ / ١٧ والترمذى ٤ / ٩٢، والسنائى ٩ / ٦، نقلا عن زاد المسير لابن الجوزى، المكتب الإسلامى ٢ / ١٧٣.

(٦٩) البخارى ٨ / ١٩٧.

(٧٠) تفسير ابن كثير ١ / ٥٤١.

(٧١) إن فى الجنة مائة درجة:

جزء من حديث، رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٢٧٩٠، وفى التوحيد ح ٧٤٣٢، وأحمد ح ٧٨٦٣، ٨٢١٤، ٨٢٦٩، من حديث أبى هريرة مرفوعا: من آمن بالله ورسوله ... الحديث. ورواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩، وأحمد ح ٢١٥٨٢، من حديث معاذ بن جبل مرفوعا: من صام رمضان وصلى الصلوات ... الحديث. ورواه الترمذى أيضا فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠، وأحمد ح ٢٢١٨٧، ٢٢٢٣٢، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا: فى الجنة مائة درجة ... الحديث. وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما.

(٧٢) يا أبا سعيد من رضى بالله ربا:

تقدم ص ٧٦.

(٧٣) زاد المسير فى علم التفسير، لابن الجوزى، المكتب الإسلامى ٢ / ١٧٦.

(٧٤) كفروا بعد إسلامهم.

(٧٥) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر، ١٠٣ / ٩ وأفاد أن هذا الأثر خرجه ابن كثير في تفسير ٥٥٢ / ٢، وخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢ / ٢٥٠، وهو في السنن الكبرى للبيهقي ١٤ / ٩، وقد رأى المحقق محمود شاكر توثيق رواية هذا الأثر.

(٧٦) تفسير الكشاف ١ / ٢٩٣، وهو دعاء عالم آثر جوار الله في البيت الحرام؛ حتى سمى جبار الله.

(٧٧) تفسير الألوسي: روح المعاني ٥ / ١٢٦.

(٧٨) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ٢ / ١٧٩، ونسب الرأي الأول إلى ابن عباس وعكرمة ومجاهد، والثاني إلى ابن زيد.

(٧٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة محمود الألوسي ٥ / ١٢٧.

(٨٠) لا هجرة بعد الفتح:

رواه البخاري في الجهاد (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) والترمذي في السير (١٥٩٠) والدارمي في السير (٢٥١٢، ١٩٩٢، ٣٣٢٥) عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا. ورواه البخاري في المناقب (٣٨٩٩) وفي المغازي (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر. ورواه مسلم في الإمارة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا. وفي الباب: عن أبي سعيد الخدري، ومجاشع بن مسعود.

(٨١) والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه:

رواه البخاري في الإيمان (١٠) وفي الرقاق (٦٤٨٤) ومسلم في الإيمان (٤٠) وأبو داود في الجهاد (٢٤٨١) والنسائي في الإيمان (٤٩٩٦) وأحمد في مسنده (٦٤٧٩، ٦٧٦٧، ٦٩١٤، ٦٩٤٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهم عن النبي ﷺ قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. ورواه ابن ماجه في الفتن (٢٩٣٤) وأحمد في مسنده (٢٣٤٣٨) من حديث فضالة بن عبيد قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع ألا أخيركم بالمؤمن؟ من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب. ورواه البخاري في الإيمان (١١) ومسلم في الإيمان (٤٢) والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٤) عن أبي موسى رضى الله عنه قال: قالوا يا رسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال من سلم المسلمون من لسانه ويده. ورواه مسلم في الإيمان (٤١) والدارمي في الرقاق (٢٧١٢) وأحمد في مسنده (١٤٧٨٨) من حديث جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. ورواه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٧) والنسائي في الإيمان (٤٩٩٥) وأحمد في مسنده (٧٨١٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دماءهم وأموالهم قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد في مسنده (١٢١٥١) من حديث أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ المؤمن من آمنه الناس المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر السوء والذي نفسى بيده لا يدخل الجنة عبد لا يأمن جاره بوائقه.

(٨٢) صدقة تصدق الله بها عليكم:

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٦٨٦) وأبو داود في الصلاة (١١٩٩) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٣٤) والنسائي في تقصير الصلاة (١٤٣٣) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٦٥) والدارمي في الصلاة (١٥٠٥) من حديث يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب قلت: ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن ختمت أن يفتككم الذين كفروا وقد آمن الناس فقال: عجبت مما عجبت منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته.

(٨٣) رواه أحمد، وأصحاب السنن، واللفظ لأحمد.

(٨٤) ألا إنما أنا بشر وإنما أقتضى:

رواه البخاري في المغالمة (٢٤٥٨) وفي الشهادات (٢٨٠) وفي الحيل (٦٩٦٧) وفي الأحكام (٧١٦٩، ٧١٨١، ٧١٨٥) وفي الأقضية (١٧١٣) ومسلم في الأقضية (١٧١٣) ومالك في الموطأ كتاب الأقضية (١٤٢٤) وأبو داود في الأقضية

(٣٥٨٣) والترمذي في الأحكام (١٣٣٩) والنسائي في آداب القضاة (٥٤٢٢) وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) (٢٥٩٥٢) من حديث أم سلمة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلى من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها.

(٨٥) انظر تفسير ابن الجوزي زاد المسير ١٩٠/٢، وتفسير ابن كثير ٥٥١/١، وكذلك الكشف وروح المعاني وغيرها.

(٨٦) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ١٩١/٢ المكتب الإسلامي ونقل في الهامش عن ابن كثير أنه قال: احتج بهذه الآية من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد وبما ثبت في الصحيحين «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضى بنحو ما أسمع...».

(٨٧) اللؤلؤ: روح المعاني ١٤٠/٥.

(٨٨) تفسير الكشف للزمخشري ٢٩٧/١.

(٨٩) في ظلال القرآن ٧٥٤/٥.

(٩٠) في ظلال القرآن ٧٥٤/٥.

(٩١) تفسير الكشف ٢٩٧/١.

(٩٢) اللؤلؤ: روح المعاني ١٤٢/٥.

(٩٣) تفسير الكشف ٢٩٨/١.

(٩٤) ابن الجوزي زاد المسير، ونقله عن أبي سليمان الدمشقي.

(٩٥) أى: جعلته هنيئاً لأخذه مسعفاً بمطلوبه.

(٩٦) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس

رواه البخارى في الصلح (٢٦٩٢) ومسلم في البر (٢٦٠٥) وأبو داود في الأدب (٤٩٢٠، ٤٩٢١) وأحمد في مسنده (٢٦٧٢٨) من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيراً أو يقول خيراً.

(٩٧) الساربه أو العمود.

(٩٨) روى عنه: أنه قرأ القرآن ثلاث مرات يتفقد هذا الحكم حتى ظفر به.

(٩٩) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ٢٠٣/٢.

(١٠٠) ألا أنياكم بأكبر الكيثار:

تقدم ص ١٣.

(١٠١) تفسير الطبري ٢٠٦/٩ تحقيق محمود شاكر.

(١٠٢) تفسير الطبري بصرف.

(١٠٣) تفسير ابن كثير ٥٥٥/١ وقد علق الترمذي عليه بقوله: هذا حسن غريب.

(١٠٤) تفسير الطبري تحقيق محمود شاكر ٢١١/٩ باختصار وتصرف .

(١٠٥) ابعت بعث النار:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) وفي تفسير القرآن (٤٧٤١) وفي الرقاق (٦٥٢٠) رواه مسلم في الإيمان (٢٢٢) (١٠٨٩٢) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: أخرج بعث النار قال: وما بعث النار قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فعنده يشيب الصغير ويضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﷻ قالوا: يا رسول الله وأينا ذلك الواحد قال: أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف ثم قال: والذي نفسي بيده إنني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود. ورواه مسلم في الفتن (٢٩٤٠) وأحمد في مسنده (٦٥١٩) من حديث عبد الله بن عمر وجاءه رجل فقال: ما هذا الحديث الذي تحدث به تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال: سبحان الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يحرق البيت ويكون ويكون ثم قال: قال رسول الله ﷺ يخرج الدجال في أمي فيمكث أربعين ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد لا أصغي ليتها ورفع ليتها قال: وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال: ينزل الله مطرا كأنه اللؤلؤ أو الظل نعمان الشاك فتفتت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ثم يقال: يا أيها الناس هلم إلي ريكم ﷻ وقفوفهم إنهم مسئولون ﷻ قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين.. الحديث. ورواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٦٨، ٣١٦٩) (١٩٣٨٣، ١٩٤٠٠) من حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ لما نزلت ﷻ يا أيها الناس اتقوا ريكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﷻ إلى قوله ﷻ ولكن عذاب الله شديد ﷻ قال: أنزلت عليه هذه الآية وهو في سفر فقال: أندرأى أن يوم ذلك فقالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذلك يوم يقول الله آدم: ابعت بعث النار فقال: يا رب وما بعث النار؟ قال تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة.. الحديث.

(١٠٦) تفسير ابن كثير ٥٥٩/١ .

(١٠٧) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير ٢٠٤/٢ المكتب الإسلامي .

(١٠٨) تفسير روح المعاني للألوسي ١٤٩/٥ .

(١٠٩) المرجع السابق ١٥٠/٥ كلب الشطرخ بإسراف وإدمان؛ لتضييع الوقت فإن كان اللعب قليلا؛ جاز .

(١١٠) رأيت في يد رسول الله ﷺ الميسم:

رواه مسلم في اللباس (٢١١٩) وفي فضائل الصحابة (٢١٤٤) (١٢٦١٤، ١٦٣٧٤) من حديث أنس بن مالك قال رأيت في يد رسول الله ﷺ الميسم وهو يسم إبل الصدقة.

(١١١) تفسير روح المعاني ١٥٠/٥ .

(١١٢) تفسير الطبري ٢٢٦/٩ .

(١١٣) إن أصدق الحديث كتاب الله:

رواه البخاري في الأدب (٦٠٩٨) وفي الاعتصام (٧٢٧٧) والدارمي في المقدمة (٢٠٧) وابن ماجه في المقدمة (٤٦) من حديث عبد الله: إن أحسن الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها ﷻ وإن ما تودعون لآت وما أنتم بمعجزين ﷻ. ورواه أحمد في مسنده (١٣٩٢٤، ١٤٠٢٢، ١٤٥٦٦) والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨) والدارمي في المقدمة (٢٠٦) وابن ماجه في المقدمة (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وإن أفضل الهدى هدى محمد وشر الأمور

محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يرفع صوته وتحمر وجنتاه ويشد غضبه إذا ذكر الساعة كأنه منذر جيش قال ثم يقول أنتم الساعة بعثت أنا والساعة هكذا - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى - صحبتكم الساعة ومستكم من ترك ما لا فلاح له من ترك ديناً أو ضيعاً فإلى وعلى، والضياح يعنى: ولده المسكين.

(١١٤) وأينما لم يعمل سوءاً ١٩:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٢٩) وأحمد فى مسنده (٢٤) من حديث أبى بكر الصديق قال: كنت عند رسول الله ﷺ فأنزلت عليه هذه الآية ﴿من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً﴾ فقال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ألا أقرئك آية أنزلت على قلت: بلى يا رسول الله قال: فأقرئنيها فلا أعلم إلا أنى قد كنت وجدت انتقاماً فى ظهري فتمطأت لها فقال رسول الله ﷺ: ما شأنك يا أبا بكر قلت: يا رسول الله بأبى أنت وأمى وأينما لم يعمل سوءاً وإننا لمجزون بما عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: أما أنت يا أبا بكر والمؤمنين فتجزون بذلك فى الدنيا حتى تلقوا الله وليس لكم ذنوب وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا به يوم القيامة قال أبو عيسى: هذا حديث غريب وفى إسناده مقال وموسى ابن عبيدة يضعف فى الحديث ضعف يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل ومولى بن سباع مجهول وقد روى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن أبى بكر وليس له إسناده صحيح أيضاً وفى الباب عن عائشة قال السيوطى فى الدرر: وأخرج أحمد وهناد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى وابن جرير وأبو يعلى وابن المنذر وابن حبان وابن السنن فى عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان والضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق أنه قال: «يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به﴾ فكل سوء جزيناه؟ فقال النبى ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تنصب، ألست تمرض، ألست تحزن، ألست تصيبك الأرواء؟ قال: بلى. قال: فهو ما تجزون به».

(١١٥) سددوا وقاربوا:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: لما نزلت ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ فقال: «قاربوا وسددوا. وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة يتكبهها» هذا حديث حسن غريب.

(١١٦) ما من مسلم يشاك شوكة:

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها). ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها).

(١١٧) فى ظلال القرآن ٧٦٢/٥ ومن العلماء من يرى ترك الأمر إلى مشيئة الله وحكمته؛ فهو الحكيم فيما يصنع، الحير بما يستحق كل إنسان من الجزاء العادل؛ ولا يظلم ربك أحداً.

(١١٨) روح المعاني ١٥٤/٥.

(١١٩) لو كنت متخذاً خليلاً:

رواه البخارى فى الصلاة (٤٦٦) وفى المناقب (٣٦٥٤، ٣٩٠٤) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٦٠) (١٠٧٥٠) من حديث أبى سعيد الخدرى قال: خطب النبى ﷺ فقال: إن خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فيكى أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقلت فى نفسى: ما يبكى هذا الشيخ إن يكن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله فكان رسول الله ﷺ هو العبد. وكان أبو بكر أعلمنا قال: يا أبا بكر لا تبهك إن أمن الناس على صحبتي ومالي أبو بكر ولو كنت متخذاً خليلاً من أمتى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الإسلام ومودة لا يبقين فى المسجد باب إلا سد إلا باب أبى بكره. ورواه البخارى فى الصلاة (٤٦٧) وفى المناقب (٣٦٥٦) وفى الفرائض (٦٣٨) والدارمى فى الفرائض (٢٩١٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٢٨، ٣٣٧٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ

ﷺ قال: لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخي وصاحبي». ورواه البخاري في المناقب (٣٦٥٨) (١٥٦٧٥، ١٥٦٨٠) عبد الله بن أبي مليكة قال: كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير في الجد فقال: أما الذي قال رسول الله ﷺ: «لو كنت متخذاً في هذه الأمة خليلاً لاتخذته» أنزله يعني أبا بكر. ورواه مسلم في المساجد (٥٣٢) من حديث جندب قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاركم عن ذلك». ورواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٣) والترمذي في المناقب (٣٦٥٥) وابن ماجه في المقدمة (٩٣) وأحمد في مسنده (٣٥٧٠، ٣٦٨١، ٤٣٩١، ٤٣٩٢) من حديث عبد الله بن مسعود يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلاً. ورواه أحمد في مسنده (١٥٤٩٢) والترمذي في المناقب (٣٦٥٩) من حديث ابن أبي الملعون عن أبيه أن رسول الله ﷺ خطب يوماً فقال: «إن رجلاً خيره ربه بين أن يعيش في الدنيا ما شاء أن يعيش ويأكل في الدنيا ما شاء أن يأكل وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه» قال: فيكي أبو بكر فقال أصحاب النبي ﷺ: «ألا تعجبون من هذا الشيخ إذ ذكر رسول الله ﷺ رجلاً صالحاً خيره ربه بين الدنيا وبين لقاء ربه فاختار لقاء ربه قال: فكان أبو بكر أعلمهم بما قال رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: بل نغديك بأبياتنا وأموالنا فقال رسول الله ﷺ ما من الناس أحد آمن إلينا في صحبته وذات يده من ابن أبي قحافة ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً ولكن ود وإخاء إيمان مرتين أو ثلاثاً وإن صاحبكم خليل الله. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. ورواه الترمذي في المناقب (٣٦٦١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ألا وإن صاحبكم خليل الله». وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(١٢٠) أنا سيد ولد آدم :

رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٧) وأبو داود في السنة (٤٦٧٣) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبي هريرة. رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) وفي المناقب (٣٦١٥) وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبي سعيد. رواه أحمد (٢٤٤٢، ٢٤٨٧) من حديث ابن عباس ﷺ.

(١٢١) وفعله: نشز يشز: بوزن: يحكر، ويعرف .

(١٢٢) لما كبرت سودة :

رواه البخاري في الهبة (٢٥٩٤) وفي الشهادات (٢٦٨٨) وفي النكاح (٥٢١٢) وأبو داود في النكاح (٢١٣٨) وابن ماجه في النكاح (٢١٣٨) وابن ماجه في النكاح (١٩٧٢) وأحمد في مسنده (٢٤٣٣٨، ٢٣٨٧٤) عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأبتهن خرج سهمها خرج بها معه وكان يقسم لكل امرأة منهن يوماً وليلتها غير سودة بن زعفة وهبت يومها وليلتها لعائشة زوج النبي ﷺ تبتغي بذلك رضا رسول الله ﷺ. ورواه النسائي في النكاح (٣١٩٦) ابن عباس قال توفي رسول الله ﷺ وعنده تسع نسوة يصيبهن إلا سودة فإنها وهبت يومها وليلتها لعائشة.

(١٢٣) لما أنزل الله في سودة:

رواه أبو داود في النكاح (٢١٣٥) من حديث هشام بن عروة عن أبيه قال: قالت عائشة: يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا وكان قل يوم إلا وهو يطوق علينا جميعاً فيدين من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومها فيبيت عندها ولقد قالت سودة بنت زعفة حين أسنت وقررت أن يغارها رسول الله ﷺ: يا رسول الله يومي لعائشة فقبل ذلك رسول الله ﷺ منها قالت: نقول: في ذلك أنزل الله تعالى وفي أشباهها أراه قال: «وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً». لم أره في البخاري بهذا اللفظ، وانظر ما قبله، وما بعده.

(١٢٤) الرجل يكون عنده المرأة ليس بمستكره:

رواه البخاري في المظالم (٢٤٥٠) وفي الصلح (٢٦٩٤) وفي تفسير القرآن (٤٦٠١) وفي النكاح (٥٢٠٦) ومسلم في

التفسير (٣٠٢١) من حديث عائشة رضى الله عنها فى هذه الآية ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجهلك من شأنى فى حل فنزلت هذه الآية فى ذلك.

(١٢٥) تفسير الطبرى ٢٦٨/٩.

(١٢٦) أبغض الحلال إلى الله الطلاق :

رواه أبو داود فى الطلاق (٢١٧٧، ٢١٧٨) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠١٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنه.
ورواه أبو داود فى الطلاق (٢١٧٧) مرسلًا. قال الحافظ فى التلخيص: ورجح أبو حاتم والدارقطنى فى العلل والبيهقى المرسل.

(١٢٧) تفسير ابن كثير ٥٦٣/١.

(١٢٨) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية - الأزهر الحزب العاشر ص ٩٣٠.

(١٢٩) تفسير الطبرى ٢٨٣/٩.

(١٣٠) تفسير الطبرى ٢٩٢/٩.

(١٣١) تفسير الطبرى ٢٩٥/٩.

(١٣٢) تفسير الطبرى ٢٩٨/٩.

(١٣٣) تفسير الطبرى ٣٠٣/٩.

(١٣٤) فتح القدير تأليف محمد بن على الشوكاني ٥٢٦/١.

(١٣٥) فتح القدير للشوكاني ٥٢٨/١.

(١٣٦) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ٤٥٠/١.

(١٣٧) أنقل الصلاة على المنافقين :

ذكر البخارى تعليقاً فى مواقيت الصلاة باب ذكر العشاء والعمامة، ثم وصله فى الأذان (٦٥٧) ومسلم فى المساجد (٦٥١) وابن ماجه فى المساجد (٧٩٧) (٩٢٠٢، ٩٦٨٧، ٩٧٥٠، ١٠٤٩٦) والدارمى فى الصلاة (١٢٧٣) من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فىهما لأتوهما ولو حبوا لقد هممت أن أمر المؤذن فيقيم ثم أمر رجلاً يؤم الناس ثم أخذ شعلاً من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد. ورواه أحمد فى مسنده (٢٠٧٥٨، ٢٠٧٦٧) وأبو داود فى الصلاة (٥٥٤) والنسائى فى الإمامة (٨٤٣) والدارمى فى الصلاة (١٢٦٩) من حديث أبى بن كعب أنه قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فقال: شاهد فلان فقالوا: لا فقال: شاهد فلان فقالوا: لا فقال: شاهد فلان فقالوا: لا فقال: إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلوات على المنافقين ولو يعلمون ما فىهما لأتوهما ولو حبوا والصف المقدم على مثل صف الملائكة ولو تعلمون فضيلته لا يتدبرتموه وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع رجل وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تبارك وتعالى.

(١٣٨) أخلص دينك يكفك القليل من العمل :

قال السيوطى فى الدر: وأخرج ابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب عن معاذ بن جبل: أنه قال لرسول الله حين بعثه إلى اليمن: أوصنى. قال: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل».

قال المناوى فى الفيض: قال الحاكم: صحيح ورواه الذهبى وقال العراقي: رواه الديلمى من حديث معاذ وإسناده منقطع.

(١٣٩) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض:

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ح ١٢٨٨، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٤٠، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٠١، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٥، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٣٤٥، وأحمد ح ٢٥٧٥، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤٥١، والدارمى الصلاة ح ١٤٤٨.

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٤	﴿والمحصنات من النساء ...﴾	٨٣٢
٢٥	﴿ومن لم يستطع منكم طولا ...﴾	٨٣٣
٢٦	﴿يريد الله ليبين لكم ...﴾	٨٣٦
٢٧	﴿والله يريد أن يتوب عليكم ...﴾	٨٣٦
٢٨	﴿يريد الله أن يخفف عنكم ...﴾	٨٣٦
٢٩	﴿يأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أموالكم ...﴾	٨٣٧
٣٠	﴿ومن يفعل ذلك عدوانا ...﴾	٨٣٧
٣١	﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ...﴾	٨٣٨
٣٢	﴿ولا تآمنوا ما فضل الله به ...﴾	٨٤٠
٣٣	﴿ولكل جعلنا موالى مما ترك ...﴾	٨٤١
٣٤	﴿الرجال قوامون على النساء ...﴾	٨٤٢
٣٥	﴿وإن خفتن شقاق بينهما ...﴾	٨٤٢
٣٦	﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ...﴾	٨٤٥
٣٧	﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ...﴾	٨٤٥
٣٨	﴿والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ...﴾	٨٤٥
٣٩	﴿وماذا عليهم لو ءامنوا ...﴾	٨٤٥
٤٠	﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة ...﴾	٨٤٨
٤١	﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ...﴾	٨٤٨
٤٢	﴿يومئذ يود الذين كفروا ...﴾	٨٤٨
٤٣	﴿يأيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ...﴾	٨٥١
٤٤	﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا ...﴾	٨٥٣
٤٥	﴿والله أعلم بأعدائكم ...﴾	٨٥٣
٤٦	﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم ...﴾	٨٥٣
٤٧	﴿يأيها الذين أوتوا الكتاب ...﴾	٨٥٥
٤٨	﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ...﴾	٨٥٧
٤٩	﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ...﴾	٨٥٧
٥٠	﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب ...﴾	٨٥٧
٥١	﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ...﴾	٨٥٩
٥٢	﴿أولئك الذين لعنهم الله ...﴾	٨٥٩
٥٣	﴿ألم لهم نصيب من الملك ...﴾	٨٥٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٤	﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ...﴾	٨٥٩
٥٥	﴿فَمَنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ...﴾	٨٥٩
٥٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...﴾	٨٦١
٥٧	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٨٦١
٥٨	﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ...﴾	٨٦٣
٥٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾	٨٦٤
٦٠	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾	٨٦٦
٦١	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا...﴾	٨٦٦
٦٢	﴿فَكَيفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ...﴾	٨٦٦
٦٣	﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ...﴾	٨٦٦
٦٤	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ...﴾	٨٦٨
٦٥	﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	٨٦٨
٦٦	﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا...﴾	٨٦٩
٦٧	﴿وَإِذَا لَا تَرَىٰ بُرْهَانَ...﴾	٨٦٩
٦٨	﴿وَلَوْ هَدَيْنَاكُمْ...﴾	٨٦٩
٦٩	﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾	٨٧٠
٧٠	﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ...﴾	٨٧٠
٧١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾	٨٧١
٧٢	﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لِمَنْ لِيَبْطِئَنَّ...﴾	٨٧١
٧٣	﴿وَلَيْئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلُ مِنَ اللَّهِ...﴾	٨٧١
٧٤	﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٨٧٢
٧٥	﴿وَمَالِكُمْ لَا تَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٨٧٢
٧٦	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٨٧٢
٧٧	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ...﴾	٨٧٦
٧٨	﴿أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ...﴾	٨٧٦
٧٩	﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ...﴾	٨٧٦
٨٠	﴿مَنْ يَطْعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾	٨٧٦
٨١	﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا...﴾	٨٨٠
٨٢	﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ...﴾	٨٨٠
٨٣	﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ...﴾	٨٨٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٤	﴿فقاتل في سبيل الله...﴾	٨٨٥
٨٥	﴿من يشفع شفاعة حسنة...﴾	٨٨٦
٨٦	﴿وإذا حييتم بتحية...﴾	٨٨٦
٨٧	﴿إلا الله لا إله إلا هو...﴾	٨٨٦
٨٨	﴿فمالكم في المنافقين فئتين...﴾	٨٨٩
٨٩	﴿ودوا لو تكفروا كما كفروا...﴾	٨٨٩
٩٠	﴿إلا الذين يصلون إلى قوم...﴾	٨٩٤
٩١	﴿ستجدون آخرين يريدون...﴾	٨٩٦
٩٢	﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً...﴾	٨٩٦
٩٣	﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً...﴾	٨٩٦
٩٤	﴿يأيتها الذين ءامنوا إذا ضربتم...﴾	٩٠٢
٩٥	﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين...﴾	٩٠٤
٩٦	﴿درجات منه ومغفرة...﴾	٩٠٤
٩٧	﴿إن الذين توفاهم الملائكة...﴾	٩٠٧
٩٨	﴿إلا المستضعفين من الرجال...﴾	٩٠٧
٩٩	﴿فأولئك عسى الله...﴾	٩٠٧
١٠٠	﴿ومن يهاجر في سبيل الله...﴾	٩٠٩
١٠١	﴿وإذا ضربتم في الأرض...﴾	٩١١
١٠٢	﴿وإذا كنتم فيهم...﴾	٩١٣
١٠٣	﴿فإذا قضيتُم الصلاة...﴾	٩١٥
١٠٤	﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم...﴾	٩١٥
١٠٥	﴿إننا أنزلنا إليك الكتاب...﴾	٩١٦
١٠٦	﴿وأساتف فرأاه...﴾	٩١٦
١٠٧	﴿ولا تجادل عن الذين يختانون...﴾	٩١٦
١٠٨	﴿يستخفون من الناس...﴾	٩١٦
١٠٩	﴿هأنتم هؤلاء جادلتم...﴾	٩١٦
١١٠	﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه...﴾	٩٢٠
١١١	﴿ومن يكسب إثماً...﴾	٩٢٠
١١٢	﴿ومن يكسب خطيئة...﴾	٩٢٠
١١٣	﴿ولولا فضل الله عليكم...﴾	٩٢٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٤	﴿لَا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ...﴾	٩٢٣
١١٥	﴿وَمَن يَشَاقِقِ الرَّسُولَ...﴾	٩٢٣
١١٦	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ...﴾	٩٢٦
١١٧	﴿إِنَّ يَدْعُونَ مِّن دُونِهِ...﴾	٩٢٦
١١٨	﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ...﴾	٩٢٦
١١٩	﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ...﴾	٩٢٦
١٢٠	﴿يَعْتَدُهُم وَيُمْنِيَنَّهُمْ...﴾	٩٢٦
١٢١	﴿أُولَئِكَ مَاؤَاهُم جَهَنَّمُ...﴾	٩٢٦
١٢٢	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلِمُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٩٣١
١٢٣	﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِى...﴾	٩٣٢
١٢٤	﴿وَمَن يَعْمَلْ مِّن الصَّالِحَاتِ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى...﴾	٩٣٢
١٢٥	﴿وَمَن أَحْسَنُ دَنِيَا مِمَّنْ أَسْلَمَ...﴾	٩٣٢
١٢٦	﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ...﴾	٩٣٢
١٢٧	﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى النِّسَاءِ...﴾	٩٣٦
١٢٨	﴿وَإِن أَمَرْتُ خَـ____صَافَةً...﴾	٩٣٩
١٢٩	﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا...﴾	٩٣٩
١٣٠	﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ...﴾	٩٣٩
١٣١	﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا...﴾	٩٤٤
١٣٢	﴿وَلِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ...﴾	٩٤٤
١٣٣	﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيْهَا النَّاسُ...﴾	٩٤٤
١٣٤	﴿مَن كَانَ يَرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا...﴾	٩٤٤
١٣٥	﴿يَا أَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ...﴾	٩٤٦
١٣٦	﴿يَا أَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا...﴾	٩٤٦
١٣٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾	٩٤٩
١٣٨	﴿بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ...﴾	٩٤٩
١٣٩	﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾	٩٤٩
١٤٠	﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ...﴾	٩٤٩
١٤١	﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ...﴾	٩٥١
١٤٢	﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ...﴾	٩٥١
١٤٣	﴿مَذْذَبِينَ بِبَيْنِ ذَلِكَ...﴾	٩٥١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤٤	﴿يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا...﴾	٩٥٤
١٤٥	﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل...﴾	٩٥٤
١٤٦	﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا...﴾	٩٥٤
١٤٧	﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم...﴾	٩٥٤
	تخريج أحاديث وهوامش	٩٥٧
	فهرس	٩٧٢

تم بحمد الله الجزء الخامس . . ويليه الجزء السادس بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (١٤٨) **إِنْ**
يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوفًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

المضردات :

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، أى لا يرضى الله عن إفشاء القبيح من القول فى الناس ؛ بذمهم
 وذكر معانيهم .

التفسير :

١٤٨ - لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا. حث الإسلام على
 الالتزام بأداب النطق والخطاب وحذر من السخرية والاستهزاء والهمز واللمز.

وفى الأثر (إن الله يبغض الفاحش من القول) وفى الآية بيان أن الله سبحانه وتعالى يحب
 للمؤمنين أن يلتزموا النطق بالكلمة الطيبة والأسلوب الهادئ الجميل، ويكره سبحانه للمؤمنين أن
 يجهروا بالسوء من القول - كالسب والشتم والتجريح والإهانة - إلا فى حالة وقوع ظلم عليهم، ففى
 هذه الحالة يجوز لهم أن يجهروا بالسوء من القول حتى يرتدع الظالم عن ظلمه. وهذا الحق الذى
 أعطى للمظلوم يشمل أن يشكو ظالمه أمام القضاء.

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا... أى أن الله سميع للجهر والسر، عليم بكل شئ، وهو تذييل قصد به
 التحذير من التعدى فى الجهر المأذون فيه، ووعده للمظلوم بأنه تعالى يسمع شكواه ودعائه أى: وَكَانَ
 اللَّهُ سَمِيعًا لكل ما يسر به المسرون أو يجهر به المجاهرون.

عَلِيمًا... بما يدور فى النفوس من بواطن وهواجس، وسيجازى كل إنسان بأقواله وأعماله.

قال القرطبي :

والذى يقتضيه ظاهر الآية أن للمظلوم أن ينتصر من ظالمه - ولكن مع اقتصاد - إن كان
 مؤمنا، فأما أن يقابل القذف بالقذف ونحوه فلا.. وإن كان كافرا فأرسل لسانك وادع بما شئت من
 الهلكة ويكل دعاء كما فعل النبى ﷺ حيث قال : «اللهم اشد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين

كسنى يوسف»^(١) وروى أبو داود عن عائشة أنها (سُرِقَ لها شيء فجعلت تدعو عليه) أى على السارق فقال ﷺ (لا تَسْبُحْهُ عَنْهُ) ^(٢) أى لا تخفُفِي عنه العقوبة بدعائك عليه ^(٣).

جاء فى التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية:

ومن الجهر بالسوء من القول : إذاعة (التمثيليات والأفلام) المشتعلة على القصص الفاجرة، التى تبرز فيها الرذيلة، وتسَلطُ الأضواء على ممثلات الإغراء الجنسى، وتسمع فيها العبارات المخجلة، والأصوات المنكرة المغرية بالإثم، وترى فيها الصورُ المُفسدة لأخلاق الذكور والإناث، الكبار منهم والصغار، فذلك يبغضه الله ولا يحبه، بل إنه تعالى يعاقب عليه أشد العقاب، لخطورته على الأخلاق. ومن الجهر بالسوء : نشر كتب الجنس وصوره التى تحرّض الشباب على الفسق والانحلال الخلقى، وتستأصل المناعة الخلقية - فى شبابنا المسلم - من أصولها ^(٤).

١٤٩ - إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا. المراد بالخير : ما يعم كل ضروبه من الكلمة الطيبة، والثناء الجميل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصدقة ونحو ذلك من خصال الخير الكثيرة.

والمعنى: إن تظهروا فعل الخير بأنواعه المختلفة، أو تستروه وتجعلوه سرا بينكم وبين ريكم، أو تعفوا عن سوء صدر من سواكم نحوكم، من جهر بكلام يؤذيكُم، أو إسرار به، أو ظلم لحق بكم منهم، فقد تخلّقتُم بأخلاق الله تعالى، فإن الله كان ولم يزل كثير العفو عن عصاه عظيم القدرة على عقوبته، ولكنه يؤثر العفو مع القدرة على العقاب، فاعفوا واصفحوا عن أساء إليكم وأنتم قادرون على الانتقام منه.

فالأية تدعو الناس إلى فعل الخير سواء أكان سراً أم جهراً كما تدعو إلى العفو عن المسيء.

قال تعالى: وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. (الشورى: ٤٠)

قال ابن كثير : وفى الحديث الصحيح (ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) ^(٥).

وقال الفخر الرازى : اعلم أن معاهد الخير على كثرتها محصورة فى أمرين: صدق مع الحق، وخلق مع الخلق، والذى يتعلق بالخلق محصور فى قسمين : إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله تعالى : إِنْ تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوا.. إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله : أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ.. إشارة إلى دفع الضرر عنهم، فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير وأعمال البر ^(٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝١٥١ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٥٢﴾

المضردات :

يكفرون بالله ورسوله ، أى يؤذى مذهبهم إلى الحكم بكفرهم بالله ورسله ، على ما سيأتى بيانه . ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ، بأن يؤمنوا بالله ويكفروا ببعض الرسل ، فيحصل بذلك التفريق بين الله ورسله فى الإيمان ، وهذا التفريق أدى بهم إلى الكفر بالله ؛ لعصيانهم أمره ، وإلى الكفر برسله ، لأنهم يصدق بعضهم بعضا .

التفسير :

١٥٠ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ... الآية

بين سبحانه رذائل أهل الكتاب وأباطيلهم وسوء مصيرهم، بعد حديثه القريب عن المنافقين فقال سبحانه :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، والمراد بهؤلاء الكافرين : اليهود والنصارى فاليهود كفروا بالله تعالى فجعلوه جسماً ينزل إلى الأرض ، ويأكل ويشرب ، ويغالب غيره ، فيغلب تارة ويغلب أخرى ، ويقود جيوشهم فتنصر تارة وتهزم أخرى ، وكفروا بعبسى ومحمد وآمنوا بغيرهما ، وبذلك فرقوا بين الله ورسوله الذين لم يؤمنوا بهما ، وأقصوهما عن شرف الرسالة ، وبذلك آمنوا ببعض الرسل ، وكفروا ببعض الآخر ، وخالفوا بذلك أمر الله ، وكانوا به كافرين بجميع الرسل .

وجاء فى تفسير الآية للدكتور محمد طنطاوى :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، بأن يجحدوا وحدانية الله وينكروا صدق رسله عليهم الصلاة والسلام . ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، أى يريدون أن يفرقوا بين الإيمان بالله تعالى ، وبين الإيمان برسله ، بأن يعلنوا إيمانهم بوجود الله تعالى وأنه خالق هذا الكون إلا أنهم يكفرون برسله أو ببعضهم ^(٩) .

وإرسال الرسل، وإنزال الكتب أمر لا بد من الإيمان به لأن الله تعالى يريد لعباده الهداية والإرشاد إلى طرق الخير، فأرسل الرسل ليكونوا هداة للبشرية ودعاة إلى الخير، وحجة على العصاة يوم القيامة، قال تعالى: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**. (النساء: ١٦٥)

قال القرطبي: نص سبحانه على أن التفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله كفر، وإنما كان كفرا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا رسالة الرسل فقد ردوا عليهم شرائعهم، ولم يقلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها. فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر، لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر^(٨).

وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ. فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعبسى وبمحمد والنصارى آمنوا بعبسى وكفروا بمحمد ﷺ فهم آمنوا ببعض الرسل، وكفروا ببعض الآخر، وكانوا بذلك كافرين بالرسل جميعا، لأن دين الله واحد، فالكفر برسول من الرسل كفر بما جاء به سائر الرسل، ولأن كل رسول وصى أمته أن يؤمنوا بالرسل الذين يبعثهم الله بعده. فمن كفر بأحدهم فقد كذب الرسل الذين سبقوه وجحد وصيتهم.

وَيُرِيدُونَ أَن يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا. أى: ويريدون أن يتخذوا طريقا وسطا بين الإيمان والكفر مع أنه لا وسط بينهما إذ الحق واحد، لا ينتقص منه، وليس بعد الحق إلا الضلال.

١٥١- **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا**. أى: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الشائنة، هم الكافرون المبالغون في الكفر حقا، فلا عبرة بما يزعمونه من الإيمان.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. أى: وأعدنا لهؤلاء الكافرين عذابا يهينهم ويذلهم، جزاء التفريق بين الله ورسله، والإيمان ببعض والكفر ببعض الآخر.

١٥٢- **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**. والذين آمنوا بالله حق الإيمان. وبما يجب له من صفات الكمال، وآمنوا بجميع الرسل حق الإيمان ولم يفرقوا في الإيمان بين رسول ورسول بل آمنوا بهم جميعاً.

أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. أئى: أولئك الذين آمنوا بالله ورسله دون التفريق بينهم فى الإيمان سوف يؤتيهم الله تعالى أجورهم التى وعدهم إياها، لأنهم هم المؤمنون حقاً دون من سبقهم ممن يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. أئى: كان وما زال كثير المغفرة والرحمة لمن تلك صفاتهم وهذه نعوتهم. وبذلك تكون الآيات الكريمة قد قابلت بين مصير الكافرين، ومصير المؤمنين؛ ليميز الخبيث من الطيب، وليرتدع الناس عن الكفر وليستجيبوا لداعى الإيمان.

★ ★ ★

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾

المضدرات :

جـهـرة، علانية .

الصاعقة، النازلة المهلكة .

سلطانا مبينا، تسلطا ظاهرا على قومه .

الطـور، الجبل المعروف .

بميثاقهم، بعهدهم .

ادخلوا الباب، المراد به : باب المدينة التى أمروا بدخولها .

سجـدا، خاضعين .

لا تعدوا فى السبت، لا تظلموا فيه أنفسكم ، بصيد الحيتان التى حرم عليكم صيدها فيه .

ميثاقا غليظا، عهدا وثيقا مؤكدا .

التفسير:

١٥٣ - يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ... الآية.

سبب النزول :

روى ابن جرير فى تفسيره عن ابن جريج، قال : إن اليهود قالوا لمحمد ﷺ : (لن نباعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى إلى فلان أنك رسول الله وإلى فلان أنك رسول الله...) وعن قتادة : إنهم سألوه أن ينزل على رجال منهم بأعيانهم كُتِّبَ تأمر بتصديقه واتِّباعه^(٩). والمراد بأهل الكتاب هنا: اليهود خاصة.

والمراد بنزول الكتاب : أن تنزل عليهم آيات القرآن مكتوبة كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. أو إنزال كتب على أقوام من كبار اليهود ليصدقوا محمدًا.

والمعنى : يسألك اليهود يا محمد على سبيل التعنت والعناد أن تنزل عليهم كتابا من السماء مكتوبا جملة : كما جاء موسى لأبائهم بالتوراة مكتوبة فى الألواح جملة.

أو يسألونك أن تنزل على رجال منهم بأعيانهم كتابا من السماء تطلب منهم تصديقك.

وسؤال اليهود هذا : مقصدهم من ورائه التعنت والجود، ولو كانوا يريدون الإيمان حقا لما وجهوا إليك هذه الأسئلة المتعنتة، لأن الأدلة القاطعة قد قامت على صدقك، وأن ما ينزل عليك من القرآن هو وحى من عند الله، لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله.

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً. أى: لا تحزن من أسئلة اليهود فإن طبعهم فيه العناد والمكابرة، فقد سأل آبائهم موسى ما هو أكبر من ذلك حيث قالوا له: أَرْنَا اللَّهَ عَيَانًا بِحَاسَةِ الْبَصَرِ.

ومعنى جَهْرَةً : من الجهر وهو ضد الإخفاء، يقال: جهر البئر واجتهرها إذا أظهر ماءها.

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى. وهم النقباء السبعون لأنهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت.

وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة فى قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَى إِنَّ نُومَانَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ... (البقرة: ٥٦، ٥٥).

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ. أَيْ: أَنْ اللَّهَ أَهْلَكَهُمْ بِمَا شَاءَ مِنْ أَلْوَانِ الْإِهْلَاكِ لِتَجَاوِزَهُمْ حَدَّ الْأَدَبِ وَالْحَقِّ. ويبدو أن المراد بالصاعقة هنا: (ذلك الصوت الشديد المجلجل المزلزل المصحوب بنار هائلة، والذي كان من آثاره أَنْ صَعَقُوا: أَيْ خَرُّوا مَغْشِيَا عَلَيْهِمْ، أَوْ هَلَكُوا بِسَبَبِ ظَلَمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وَفَسَوْقَهُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبْرِيُّ: وَالصَّاعِقَةُ: كُلُّ أَمْرٍ هَائِلٍ رَأَى الرَّائِي أَوْ عَايَنَهُ أَوْ أَصَابَهُ، حَتَّى يَصِيرَ مِنْ هَوْلِهِ وَعَظَمِهِ شَأْنُهُ إِلَى هَلَاكِ وَعَطْبٍ وَذَهَابٍ عَقْلٍ، صَوْتًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ نَارًا أَوْ زَلْزَلَةً أَوْ رَجْفَةً..)

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْيَبَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. أَيْ: ثُمَّ اتَّخَذَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ مَعْبُودًا لَهُمْ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ الشَّاهِدَةُ بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ، الْنَافِيَةِ لِعِبَادَةِ آلِهَةٍ سِوَاهُ.

فَلَقَدْ أَرَاهِمُ اللَّهُ عَلَى يَدِ مُوسَى آيَاتٍ عَظِيمَةً، مِنْهَا: انْشِقَاقُ الْبَحْرِ يَسِيرُونَ فِيهِ، وَقَدْ مَهَّدَ اللَّهُ لَهُمْ اثْنِي عَشَرَ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ، يَتَخَلَّلُهَا الْمَاءُ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ.

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ اللَّهَ فَجَّرَ لَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ عَيْنًا، عِنْدَمَا ضَرَبَ مُوسَى الْحَجَرَ بِعَصَاهُ، وَقَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنْاسٍ مِنْهُمْ مَشْرِيقَهُ.

وَمِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي وَقَعَتْ أَمَامَهُمْ أَنْهُمْ رَأَوْا عَصَا مُوسَى تَبْتَغِعُ مَا جَاءَ بِهِ السَّحَرَةُ مِنَ السَّحَرِ الْعَظِيمِ، وَهُمْ قَدْ شَاهَدُوا الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَقَدْ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا بِدَعْوَةِ مُوسَى رَبِّهِ.

قَالَ تَعَالَى: فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ. (الأعراف: ١٣٣).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَلَقَدْ عَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَحْجُورًا. (الإسراء: ١٠١).

فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا. أَيْ: عَفَوْنَا عَنْ اتِّخَاذِهِمُ الْعِجْلَ إِلَهًا بَعْدَ مَا تَابُوا وَأَقْلَعُوا عَنْ عِبَادَتِهِ لِأَنَّ التَّوْبَةَ تَحِبُّ مَا قَبْلَهَا.

وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا بَيْنَا وَابْضًا عَلَى قَوْمِهِ، فَقَوَّى فِيهِمْ أَمْرَهُ وَضَعْفَتْ مَعَارِضَتُهُمْ لَهُ، وَظَهَرَ انْكَسَارُ نَفْسِهِمْ فَقَبِلُوا أَمْرَهُ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ - بِالْإِذْنِ وَالْحِزْنِ - عَلَى مَا صَنَعُوا تَوْبَةً مِنْهُمْ.

وَفِيْمَا تَقْدَمُ بِشَارَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالْإِنْتِصَارِ عَلَى الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ، وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ لَهُ هَذِهِ الْبَشَارَةَ،

فقد أجلاهم عن المدينة بعد غزوات بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير جزاء ما فعلوا مع النبي ﷺ من نكث العهود والخيانة فى أوقات الشدة.

١٥٤ - وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا.

تشير الآية إلى جانب من عناد اليهود وقسوة قلوبهم، فقد جاءهم موسى بألواح التوراة، فاستقبلوا العمل بما جاء فيها من التكليف، ولم يأخذوها بعزم وقوة، بل بتناقل وتراخ وعدم اقتناع، لأن قلوبهم لا تزال مشدودة إلى عبادة العجل، فلذا رفع الله فوقهم الجبل تهديداً لهم، ليقبلوا العمل بالتوراة، ويأخذوها بقوة وعزم ويعطوا الميثاق والعهد على ذلك.

قال تعالى: وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلِ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. (الأعراف: ١٧١).

وهكذا كان شأن اليهود : عصيان لما يؤمرون به وعقاب أو تهديد بعقاب من الله، حتى يستقيموا على الجادة.

والمعنى : ورفعنا فوقهم الطور بسبب ميثاقهم ليعطوه، ويتعهدوا بالعمل بالتوراة.

قال ابن كثير : (وذلك أنهم حين امتنعوا عن الالتزام بأحكام التوراة وظهر منهم إباء عما جاء به موسى - عليه السلام - رفع الله على رؤوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا، وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى ما فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم).

وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا. أى: وقلنا لهم على لسان أنبيائهم: ادخلوا باب القرية التى أمرناكم بدخولها ساجدين لله، أى: ادخلوها متواضعين خاضعين لله، شاكرين فضله وكرمه، ولكنهم خالفوا ما أمرهم الله به، مخالفة تامة.

واختلف فى هذا الباب الذى أمروا بدخوله سجداً، فقيل: هو باب بيت المقدس. روى ابن المنذر وغيره عن قتادة : كنا نتحدث أنه باب من أبواب بيت المقدس.

وقيل : باب إيلياء.

وقيل : باب أريحاء.

وقد أمروا أن يسألوه تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم فيقولوا حطة.

قال تعالى في الآيتين ٥٨ ، ٥٩ من سورة البقرة :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَرِيزِدُ الْمُحْسِنِينَ * قَبِلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

ولكن بنى إسرائيل لما دخلوا منتصرين، تنكروا لما أمرهم الله به من الخضوع والخشوع لله سبحانه.

بل سخروا بالخشوع والاستغفار واستبدلوا بهما عملاً مآجنا، وقولا هانذا.

روى البخارى فى تفسير سورة البقرة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

«قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا: حطة؛ دخلوا يضحون على أستاذهم، وقالوا: حنطة؛ حبة فى شجرة»^(١٠).

وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ. أَيْ: وقلنا لهم كذلك لا تعتدوا فى السبت ولا تتجاوزوا الحدود التى أمركم الله بالتزامها فى يوم السبت، والتى منها ألا تصطادوا فى هذا اليوم، ولكنهم خالفوا أمر الله، وتحالوا على استحلال محارمه.

وقد تحدث القرآن عن عدوان اليهود فى السبت فى كثير من آيات القرآن الكريم قال تعالى :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. (البقرة ٦٥، ٦٦).

وقال سبحانه : وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ لَبُّوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. (الأعراف: ١٦٣).

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا. أَيْ: وأخذنا منهم عهداً مؤكداً كل التأكيد وموثقا كل التوثيق، بأن يعملوا بما أمرهم الله به، ويتركوا ما نهاهم عنه.

ويجوز أن يكون المراد بالميثاق الغليظ هنا، هو ما أخذه الله منهم بعد رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة. تهديداً لهم؛ فقد أعطوا موسى عليه السلام عهداً بالعمل بالتوراة، ولكنهم نقضوا عهودهم. كما تجده فى الآية الآتية.

﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) ﴿وَبِكَفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦)

المفردات :

فيما نقضهم ميثاقهم: أى: فسبب نقضهم ومخالفتهم للعهد الوثيق المؤكد وما فى قوله: فِيمَا نَقَضَهُمْ: لتوكيد هذا النقص، فإنها كثيرا ما توصل بالكلام لهذا الغرض كقوله تعالى: فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ. أى: فبرحمة مؤكدة من الله كنت لنا معهم.

قلوبنا غلف: أى: مغلفة ومغطاة بأغشية تمنعها من قبول ما جاء به الرسول. وغلف: جمع أغلف. وهو: ما له غلاف.

طبع الله عليها بكفرهم: أى: تخلى عن هدايتها بسبب إصرارهم على الكفر.

بهتاناً عظيماً: كذباً فظيماً؛ يبهت من يقال فيه، ويدهشه، ويحيره.

التفسير:

١٥٥ - فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ... أى: فنقض بنو إسرائيل الميثاق الغليظ الذى أخذناه عليهم، فسبب هذا النقص لعناهم وعاقبتهم، كما لعناهم وعاقبتناهم بسبب كفرهم بآيات الله الكونية العجيبة التى أجزاها الله على يد موسى، إذ عبدوا العجل بعدها، وقالوا: أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً.

وكذلك آيات التوراة فقد أخفوا ما جاء فيها من بشارات عن النبى ﷺ، أو أساءوا تأويلها ليبرروا كفرهم.

وكما لعناهم بذلك، لعناهم بقتلهم أنبياءهم بغيا وحسداً دون شائبة من الحق كما فعلوا ببيحى وزكريا وشعيب وغيرهم - ولعناهم وعاقبتناهم بقولهم:

قُلُوبُنَا غُلْفٌ. أى: مغطاة بأغشية غليظة من الصدود والرفض لدعوتك يا محمد، فلن تصل إلينا براهميتك فلا تتعب نفسك معنا.

وقريب من هذا قوله تعالى حكاية عن المشركين:

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ... (فصلت: ٥).

وقيل : إن قوله: غُلْفٌ : جمع غلاف - كُتِبَ وكتاب وعليه يكون المعنى :

وَقَالُوا قَلْبُنَا غُلْفٌ أئى: أوعية للعلم شأنها فى ذلك شأن الكتب فلا حاجة بنا إلى علم جديد.

والتأويل الأول أقرب إلى سياق الآية فقد ردَّ الله عليهم بقوله : بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

والمعنى: ليست قلوبهم مغطاة بأغطية تحجب عنها إدراك الحق كما زعموا، بل الحق : أن الله تعالى ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة، وإيثارهم الغى على سبيل الرشاد.

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أئى: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، ليس له وزن عند الله لفقدانه العناصر الضرورية لصحته، ومن هذه العناصر: صدق اليقين، ومحبة الله، وإخلاص الوجه له، وقريب من ذلك قوله تعالى:

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ... (الحجرات: ١٤).

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فقوله: إِلَّا قَلِيلًا: نعت لمصدر محذوف أئى: إلا إيماناً قليلاً، كإيمانهم بنبوّة موسى عليه السلام، وإنما كان إيمانهم هذا لا قيمة له عند الله، لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم، يعتبره الإسلام كفراً بالكل كما سبق أن بينّا فى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا... (النساء: ١٥٠، ١٥١).

ومنهم من جعل قوله: إِلَّا قَلِيلًا. صفة لزمان محذوف أئى: فلا يؤمنون إلا زماناً قليلاً.

ومنهم من جعل الاستثناء فى قوله: إِلَّا قَلِيلًا. من جماعة اليهود المدلول عليهم بالواو فى قوله فَلَا يُؤْمِنُونَ. أئى: فلا يؤمنون إلا عدداً قليلاً منهم: كعبد الله بن سلام وأشباهه. والجملة الكريمة وهى قوله: طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ. معترضة بين الجمل المتعاطفة، وقد جئ بها للمسارعة إلى ردّ مزاعمهم الفاسدة وأقاويلهم الباطلة^(١١).

١٥٦ - وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بَهْتَانًا عَظِيمًا.

المراد بالكفر هنا : كفرهم بعبسى عليه السلام.

والبهتان : هو الكذب الشديد الذى لا تقبله العقول، بل يحيرها ويدعشها لغرابته ويعدده عن الحقيقة.

والمعنى : إن من أسباب لعن اليهود وضرب الذلة والمسكنة عليهم، كفرهم بعبسى عليه السلام، وهو الرسول المبعوث إليهم ليهديهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

وافترأوهم الكذب على مريم أم عيسى، فقد اتهموها فى عرضها لأنها حملت بعبسى وهى غير متزوجة، وقد برأها الله من السفاح على لسان وليدها الذى أنطقه الله عقب الوضع، فبرأ والدته وأخبر المشاهدين بأنه عبد الله، وأنه أتاه الكتاب وجعله نبيا... إلخ.

وقد وردت هذه المعانى فى الصفحة الأولى والثانية من سورة مريم، وتكررت فى عدد من السور مثل سورة آل عمران، والأنبياء والتحريم.

قال تعالى : وَالَّتِى أَحْضَنْتَ فَرْجَهَا فَفَتَحْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ « إِنَّ هَذِهِ أُمُّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. (الأنبياء ٩١، ٩٢).

★ ★ ★

﴿ وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

المضردات :

شبه لهم : أى : ألقى شبهه على غيره لينجو من القتل فاشتبه عليهم .

لفى شك منه : أى : لفى حيرة وتردد ، وليس إلى الجزم - بأنه عيسى - من سبيل .

التفسير :

١٥٧ - وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ...

أى : ولعن الله اليهود. بسبب قولهم على سبيل التَّبَجُّع والتفاخر: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم فنسبوه إلى أمه تهكماً به، وغمزاً له ولأمه، بما هو معروف من رأيهم فيها إلى يومنا هذا.

وكلمة رسول الله إن كانت من قول اليهود فهي من باب التهمك بدعواه أنه رسول الله. كما قال المشركون في حق رسولنا ﷺ: **يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**. (الحجر: ٦).

فكانهم يقولون: إنا قتلنا المسيح الذي يزعم أنه رسول الله، ولو كان كذلك، لما استطعنا قتله. وأما إن كانت من قول الله تعالى وليست من قولهم فهي استئناف من الله تعالى أريد به مدح عيسى عليه السلام ورفع منزلته.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

(ولا شك أن ما صدر من اليهود في حق عيسى عليه السلام من محاولة قتله، واتخاذ كل وسيلة لتنفيذ غايتهم ثم تفاخرهم بأنهم قتلوه وصلبوه لا شك أن كل ذلك يعتبر من أكبر الجرائم لأنه من المقرر في الشرائع والقوانين أن من شرع في ارتكاب جريمة من الجرائم واتخذ كل الوسائل لتنفيذها، ولكنها لم تتم لأمر خارج عن إرادته فإنه يعدّ من المجرمين الذين يستحقون العقاب الشديد)^(١١).

واليهود قد اتخذوا كافة الطرق لقتل عيسى ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون لأسباب خارجة عن إرادتهم، ومعنى هذا أنه لو بقيت لهم أية وسيلة لإتمام جريمتهم لأسرعوا في تنفيذها فهم يستحقون عقوبة المجرم في نيته وفي تفكيره وفي شروعه لارتكاب ما نهى الله عنه.

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ .

وذلك أنهم تآمروا على قتله مع الحاكم الرومانى الذى كان يحكم بيت المقدس، بعد أن أفهموه أن دعوته خطر على الحكم الرومانى وعلى الشعب، فظاهروهم الحاكم الرومانى على قتله، واتخذوا من أحد أتباعه جاسوساً عليه يرصد حركاته وتنقلاته، وكان اسمه يهوذا الإسخريوطى، وقد جعلوا له فى مقابل ذلك ثلاثين درهما.

ثم جاءت قوة من الرومان يتقدمهم يهوذا، ودخلوا على المسيح، فألقى الله شبه المسيح على يهوذا، ورفع عيسى إليه، فقبض الرومان على يهوذا ليصلبوه ويقتلوه، فقال لهم: أنا يهوذا، فقالوا: بل أنت عيسى، فإن كنت يهوذا كما تدعى فأين عيسى ؟ فقال يهوذا لهم: فإن كنت عيسى - كما قلت - فأين يهوذا ؟

فلم يأبهوا لقوله، وأخذوه وصلبوه، هذه هى إحدى الروايات التى ذكرت فى الرجل الذى ألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه مكانه^(١٢).

وفى تفسير ابن كثير ما يُفيد أن الله تعالى ألقى شبه المسيح على أحد تلاميذه المخلصين حينما أجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه سيرفعه إليه: فقال لأصحابه :

أيكم يرضى أن يلقي عليه شبهى فيقتل ويصلب وهو رفيقى فى الجنة، فقال رجل منهم: أنا، فألقى الله عليه صورة عيسى عليه السلام، فقتل ذلك الرجل وصلب^(١١).

والذى يجب اعتقاده بنص القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإنما رفعه الله إليه، ونجاه من مكر أعدائه، أما الذى قتل وصلب فهو شخص سواه.

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن.. أى: وإن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفي شك دائم من حقيقة أمره، أى: فى حيرة وتردد ليس عندهم علم ثابت قطعى فى شأنه أو فى شأن قتله، ولكنهم لا يتبعون فيما يقولونه عنه إلا الظن الذى لا تثبت به حجة ولا يقوم عليه برهان.

ولقد اختلف أهل الكتاب فى شأن عيسى اختلافاً كبيراً؛ فمنهم من زعم أنه ابن الله، وادعى أن عيسى عنصرأ إليها مع العنصر الإنسانى، وأن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى، ثم أفاض الله عليه بعد ذلك العنصر الإلهى، ومنهم من قال: إن مريم ولدت العنصرين معاً.

ولقد اختلفوا فى أمر قتله، فقال بعض اليهود: إنه كان كاذباً فقتلناه قتلاً حقيقياً، وتردد آخرون فقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا وإن كان المقتول صاحبنا فأين عيسى. وقال غيرهم: لا نَظَنُّ أنهم قتلوه، فالوجه وجه عيسى والجسد لجیره.

وبالجملة فإن أمارات القطع – بأنه هو أو غيره – لم تكن متوافرة لديهم فلذلك شكوا، واختلفت أقوالهم فى شأنه.

وجاء فى التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر:

(ومن عجب أن تنص أناجيل المسيحيين، على أن المسيح أخبر حواربيه أنهم جميعاً سيشتكون فيه ليلة الصلب^(١٢) فكيف ساغ لهم القطع بقتله وصلبه، حتى ألزموا أنفسهم تأويلات سخيفة، ناشئة عن اعتقادهم ألوهيته وصلبه، إذ زعموا أنه صلب ليقتدى أهل الخطايا جميعاً !!

وهذا زعم لا يقبله عاقل، فإن كان إلهاً أو ابن إله كما زعموا: يستطيع أن يغفر لمن شاء، وألا يحكم فى جسده أسلحة أعدائه، كما أنه – باستسلامه لهم – تسبب فى زيادة خطاياهم بقتله، وهذا عكس المطلوب.

ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. بعد أن أثبت الله شك المختلفين فى أمره، وأنهم لا ينزعون – فيما قالوه فى شأنه – عن يقين، بل عن حيرة وتردد فى أمره، أكد ذلك بقوله: ما لهم به من علم. أى: ليس

لهم بما قالوه فى قتل عيسى علم نأشئ عن أدلة يقينية إلا أتباع الظن، أى: لكن يتبعون - فيما قالوه - الظن والتخمين.

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين.

ويجوز أن تكون يقيناً حالاً مؤكدة لنفى القتل أى: انتفى قتلهم إياه انتفاء يقيناً. فاليقين منصب على النفى، أى: أن نفى كونه قد قتل أمر متيقن مؤكد مجزوم به - كقولك ما قتلوه حقاً أى حق انتفاء قتله حقاً.

١٥٨ - بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: بل رفعه الله إلى موضع، تولى الله فيه حفظه وحمايته، حتى لا يجرى فيه حكم أعدائه.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أى: وكان الله ولم يزل عزيزاً. أى: منيع الجنب، لا يلجأ إليه أحد إلا أعزه وحماه، حكيماً. فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور.

وجمهور العلماء على أن الله تعالى رفع عيسى إليه بجسده وروحه لا بروحه فقط.

قال الشيخ حسين مخلوف فى تفسيره (صفوة البيان) :

والجمهور على أن عيسى رفع حياً من غير موت ولا غفوة، بجسده وروحه إلى السماء، والخصوصية له - عليه السلام - هى فى رفعه ويقائه فيها إلى الأمر المقدر له.

وفسر بعضهم الرفع فى قوله تعالى: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. بأنه رفع بالروح فقط.

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن عيسى رفع بجسده وروحه. ومنها ما رواه الشيخان (والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية) الحديث، وانظر كتاب التصريح بما تواتر فى نزول المسيح للكشميرى تحقيق الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة^(١١).

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١٥٩)

التفسير:

١٥٩ - وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ... الآية

للمفسرين فى تفسير هذه الآية اتجاهان : الأول أن الضمير فى قوله: قَبْلَ مَوْتِهِ. يعود إلى عيسى عليه السلام - وعليه أن يكون المعنى : وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى - عند نزوله فى آخر الزمان - قَبْلَ مَوْتِهِ. أى: قبل موت عيسى.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا. أى: وفى يوم القيامة يشهد عيسى على أهل الكتاب بأنه قد أمرهم بعبادة الله وحده، وأنه قد نهاهم عن الإشراك معه آلهة أخرى.

وقد انتصر لهذا الاتجاه كثير من المفسرين وعلى رأسهم شيخهم ابن جرير فقد قال : وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال فى تأويل ذلك :

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى).

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير بقوله :

ولا شك أن الذى قاله ابن جرير هو الصحيح؛ لأن المقصود من سياق الآيات بطلان ما زعمته اليهود من قتل عيسى وصلبه. أما الاتجاه الثانى فيرى أصحابه أن ضمير قَبْلَ مَوْتِهِ. يعود إلى الكتابى المدلول عليه بقوله: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

وحاصل المعنى على هذا : أن كل يهودى ونصرانى - وهو يحتضر - يؤمن بعيسى قبل أن تزهر روحه فيعتقد أنه - أى عيسى - عبد الله ورسوله، لأن حقائق الحق تنكشف للمحتضر، ولكن هذا الإيمان لا ينفعه، لأنه حدث فى وقت انقطع فيه عنه التكليف، لأن وقت الغرغرة من عالم الآخرة. ويؤيد هذا الرأى قراءة أبى : لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ. بضم النون وصيغة الجمع.

وقد جنح إلى هذا الرأى ابن عباس، كما نقله عنه ابن المنذر وغيره، واختاره أبو السعود والكشاف، وتفسير الجلالين.

والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض على المسارعة إلى الإيمان بعيسى عليه السلام - قبل أن يضطروا إليه عند الموت - مع عدم فائدته.

﴿فِظْلُمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٦١)

المضردات :

الذين هادوا، هم اليهود، هادوا : أى : تابوا من عبادة العجل .
أعدنا، أعدنا لهم قبل قدومهم .

التفسير :

١٦٠ - فِظْلُمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... الآية

الحديث لا يزال موصولا فى شأن أهل الكتاب.

والمعنى : فبسبب ظلم عظيم من الذين هادوا - أى : تابوا من عبادة العجل - حرمانا ما كان حلالا لهم من الطيبات، ولو أنهم لم يقعوا فى هذا الظلم الشديد لما حرم الله عليهم هذه الطيبات التى هم فى حاجة إليها.

وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا. أى : ويمنعهم كثيرا من الناس عن الدخول فى دين الله.

قال مجاهد : صدوا أنفسهم وغيرهم عن الحق.

١٦١ - وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ. أى : وحرمانا عليهم الطيبات - أيضا - بسبب أخذهم الربا

فى أموالهم التى يقرضونها غيرهم.

وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ. أى : بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة.

وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. أى : وأعدنا فى الآخرة للكافرين منهم خاصة عذابا شديدا للإبلا.

وقد استفيد مما تقدم : أن العقوبات الدنيوية يقع أثرها على الكافر والمؤمن والعاصى والطائع، وهى للعصاة عقاب، وللمطيعين ابتلاء، وفى ذلك يقول الله تعالى :

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً. (الأنفال : ٢٥).

أما العقوبات فى الآخرة فإنها ستختص بالعصاة والكفار، ولذا قال تعالى فى عقوبة الآخرة: وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا.

فخص الكافرين بالعذاب، وقال فى عقوبة الدنيا: فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ، فعم جميع اليهود بتحريم ألوان من الطيبات.

★ ★ ★

﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١٦٢)

التفسير:

١٦٢ - لَكِنَّ الرَّاْسِخُوْنَ "١" فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...

بعد أن حكى القرآن مخازى اليهود فى آيات سابقة وسجل عليهم أسئلتهم المتعنتة وسوء أدبهم مع الله وعبادتهم العجل، وعصيانهم لأوامر الله ونواهيه ونقضهم للعهود والمواثيق وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم: قلوبنا غلف، وبهتهم لمريم القانطة العابدة الطاهرة، وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله...

تأتى هذه الآية رقم ١٦٢ من سورة النساء؛ لتحقق الحق وتمدح الراسخين فى العلم منهم مدحا عظيما، وتبشرهم بالأجر الجزيل.

سبب النزول :

أخرج البيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن عباس أن هذه الآية نزلت فىمن آمن من أحبار أهل الكتاب إيماننا صادقا : كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد، وثعلبة بن سَعْتَة، وأسد بن سعيه وغيرهم.

ومعنى الآية :

لقد كفر عامة اليهود بما أنزل عليهم لجَهْلِهِمْ وعنادهم وكبرهم، لكن الثابتون فى العلم منهم، والصادقون فى الإيمان بكتابتهم، كعبد الله بن سَلَام وغيره من علمائهم، يؤمنون بما أنزل إليك من

القرآن، وبما أنزل من قبلك من الكتب التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، وليسوا متعصبين لدينهم بالباطل كسائر بنى قومهم.

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ^(١٦٨) وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. هذه بقية أوصاف المؤمنين من علماء أهل الكتاب فقد وصفوا بالصفات الآتية :

١ - الرسوخ فى العلم.

٢ - الإيمان الكامل بما أوحاه الله إلى أنبيائه من كتب وهدايات.

٣ - إقامة الصلاة.

٤ - إيتاء الزكاة.

٥ - الإيمان بالله وباليوم الآخر وبما فيه من حساب وجزاء.

أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا. أى: أولئك العلماء الراسخون فى العلم من أهل الكتاب، الذين حفزهم رسوخهم فى العلم على الإيمان بما أنزل إليك، وما أنزل إلى سائر المرسلين، وحفزهم أيضا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالله واليوم الآخر - هؤلاء العلماء سنؤتيهم فى الآخرة أجرا عظيما، بخلاف من عداهم ممن أصروا على الكفر، واستحقوا أن يُعَذَّبَ الله لهم عذابا عظيما.

★ ★ ★

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشُاَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدِينَادَاوُدَ زَبُورًا ^(١٦٦) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ^(١٦٧) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ^(١٦٨) لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ^(١٦٩) ﴾

المفردات :

والأسباط، جمع سبط وهو الحفيد والمراد بهم : حفدة يعقوب - عليه السلام - أو أبناؤه الاثنا عشر وذرائعهم . فإنهم حفدة إبراهيم وإسحاق .

وقيل : الأسباط - فى ولد إسحاق - كالقبايل فى العرب : ولد إسماعيل . وقد بعث منهم عدة رسل . فالمراد: أوحينا إلى الأنبياء منهم ، إذ ليسوا جميعا أنبياء .

زبــــــــــــورا، أى: مكتوبا وهو الكتاب المنزل على داود عليه السلام . ويسمى : المزامير فى العهد القديم.
حجــــــــة، معذرة يعتذر بها .

التفسير:

١٦٢ - إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ... الآية.

تمهيد:

حكى الله تعالى فى الآيات السابقة جرائم اليهود ومنها: كفرهم بعبسى ومحمد وزعمهم أنهم صلبوا المسيح.

ثم ذكر هنا أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان، وأنه سبحانه أرسل سائر الرسل مبشرين ومنذرين، ثم دعا النصارى إلى عدم الغلو فى شأن المسيح باعتقادهم فيه أنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة، فليس هو ابن الله كما يزعم النصارى، وليس ابن زنى كما يزعم اليهود، فكلما الفريقين واقع بين الإفراط والتفريط.

وتفيد هذه الآية أن الله أرسل الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وليس محمد ﷺ بدعا من الرسل، فقد أوحى الله إليه كما أوحى إلى الرسل جميعا من عهد نوح إلى عهد محمد، وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار، للإعذار للناس قبل الحساب.

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...

إنا أوحينا إليك يا محمد بكلامنا وأوامرنا ونواهيها، كما أوحينا إلى نوح وإلى سائر الأنبياء الذين جاءوا من بعده. قال الجمل : (وإنما بدأ الله تعالى - بذكر نوح - لأنه أول نبي بعث بشريعة، وأول نذير على الشرك، وكان أول من عذبت أمته لردهم دعوته... وكان أطول الأنبياء عمرا...).

والكاف فى قوله: كَمَا نَعْتَ لمصدر محذوف و(ما) مصدرية أى: إنا أوحينا إليك إحياء مثل إحيائنا إلى نوح - عليه السلام - وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ.

أى: أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى نوح والأنبياء من بعده.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا. وقد خص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر تشريفا وتعظيما لهم.

وَعَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا. وخص داود بالذكر ونص على إعطائه الزبور للإشعار بعظمته وعظمة ما فيه ولأن كل ما فيه تسبيح وتقديس وحكم ومواعظ.

١٦٤ - وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ. أَيْ: وأرسلنا رسلاً منهم من ذكرنا أخبارهم لك يا محمد في غير هذه السورة. مثل: صالح وهود ولوط وغيرهم من المرسلين. وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ. أَيْ: وأرسلنا كذلك رسلاً كثيرين لم نذكر لك قصصهم في القرآن الكريم ولم نوح إليك بهم في غير القرآن.

وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. أَيْ: وكلم الله موسى - بدون وساطة جبريل - تكريماً له عليه السلام - وقوله: تَكْلِيمًا. مصدر مؤكد لقوله تعالى: وَكَلَّمَ. لرفع احتمال المجاز.

قال ابن كثير :

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن وهم :

(آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ).

وقال ثعلب :

في تفسير قوله تعالى : وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. لولا التأكيد لجار أن تقول : قد كلمت فلانا بمعنى كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولا فلما قال تَكْلِيمًا لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله تعالى ^(١٩).

١٦٥ - رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ.

المقصود من هذه الآية بيان مهمة الرسل، فهم مبشرون بالجنة من أطاع، وينذرون بالنار من عصى. وقد خلق الله هذا الكون وأبدع نظامه حتى صار شاهداً للعاقل على وجود الله وتقديره وقدرته. ومع ذلك فقد اقتضت رحمته بعباده أن يرسل الرسل ضماناً لهداية الله الناس؛ لأن العقل قد يعجز عن إدراك حقائق الأمور ونتائجها.

والرسل عليهم الصلاة والسلام : إنما جاءوا لينبهوا إلى النظر في عجائب الكون وما فيه من دلائل ويبينونها، وهم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى الناس، ويبينون لهم أحكامهم وشرائعهم.

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. أَيْ: وكان الله ولم يزل عزيزاً. وهو القادر الغالب على كل شيء، حَكِيمًا. أَيْ: بالغ الحكمة في كل ما يدبر من شئون الكون.

ومن ذلك تدبير أمر النبوة، وتخصيص كل نبي بنوع من الوحي والإعجاز، على النحو الذي اقتضت حكمته، مراعاة للزمان والمكان الذي بعث فيه كل رسول.

تذييل :

جاء في رسالة التوحيد - للشيخ محمد عبده - كلام نفيس عن حاجة البشر إلى إرسال الرسل وعن وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام. حيث قال :

الرسل يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته، ويبينون الحد الذي يجب أن يقف عنده في طلب ذلك العرفان، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان إليه، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة.

الرسل يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم، وتنازعت مصالحهم ولذاتهم، فيفصلون في تلك المخاصمات بأمر الله الصادع. ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة، ولا يفوت به المصالح الخاصة.

الرسل يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة، يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق. مع بيان الحق الذي تُهدر له، وحظر تناول شيء مما كسبه الغير إلا بحق، مع بيان الحق الذي يبيح تناوله، واحترام الأعراض، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأُبضاع.

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية إلى طلب الرغائب السامية آخذين في ذلك كله بطرق من الترغيب والترهيب، والإنذار والتبشير حسبما أمرهم الله - جل شأنه -.

يفصلون في جميع ذلك ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرضهم لسخطه عليهم، ثم يحيطون ببيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبي، لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره...

وبهذا تطمئن النفوس، وتتلاج الصدور، ويعتصم المرزوء بالصبر، انتظاراً لجزيل الأجر أو إرضاء لمن بيده الأمر، وبهذا ينحل أعظم مشكل في الاجتماع الإنساني، لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله إلى اليوم^(٢٠).

١٦٦- لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. ترد هذه الآية رداً على جحود اليهود لنبوة محمد ﷺ، فقد أنكروا رسالته وجحدوا نبوته.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم : إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله، فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله قوله : لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ.^(٢١)

أى: إذا تعنت اليهود ولم يشهدوا لك بالرسالة فإن الله عز وجل يشهد بأن القرآن الكريم الذى أنزل إليك بواسطة جبريل الأمين، قد أنزله بعلمه ومعرفته محتويا على علم الله وتشريعاته من الحلال والحرام والآداب والأحكام، والملائكة تشهد بصدق محمد وبأن ما أنزل عليه حق، وبأنه من عند الله وكفى بالله شهيدا على صدقك حيث أيدك بالمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، المغنية عن شهادة هؤلاء المعاندين، وقد عرفت شهادة الملائكة بشهادة الله: فإن من شهد الله له، شهدت له ملائكته.

من تفسير ابن كثير :

جاء فى تفسير ابن كثير لقوله تعالى : لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ . أى: فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به. كما قال تعالى وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ. (البقرة: ٢٥٥)، وقال: وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا. (طه: ١١٠).

وقال ابن أبى حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا.

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

المفردات :

صَدُّوا: صد عن الأمر: أَعْرَضَ عَنْهُ . وَصَدَّه عَنْ الْأَمْرِ: صرفه عنه ومنعه منه .
سَبِيلِ اللَّهِ: السبيل : الطريق ، يذكر ويؤنث قال تعالى: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي . (يوسف: ١٠٨)

التفسير :

١٦٧ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْحَقِّ الَّذِي

جاءهم به محمد ﷺ وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ. وأعرضوا عن طريق الإسلام ولم يكتفوا بذلك بل منعوا غيرهم أيضاً من سلوكه قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا. أى: قد ضلوا ضلالاً بلغ الغاية فى الشدة والشناعة. والمراد بالذين كفروا: اليهود أو ما هو أعم.

١٦٨- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا. أى: لم يكن من تدبير الله الحكيم العليم، أن يغفر الذنوب لمن اختاروا الضلالة على الهدى، وماتوا وهم كافرون إذ لا غفران للكافرين. ولم يكن أيضاً من الحكمة فى التدبير: أن يهدى الله تعالى إلى الصراط المستقيم قوما أصروا على الكفر، وابتعدوا عن الحق عناداً، فلا يستمعون نداء الخير والفلاح إذ أصموا دونه أذانهم، وأغلقوا قلوبهم فهم لا يفقهون.

١٦٩- إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا.

قال صاحب الطلال :

وما فى هذا ظلم، فلقد اختاروا الضلالة على الهدى، وكل موجبات الإيمان حاضرة، ولقد سلكوا طريق جهنم فأغلق الله عليهم كل طريق سواه، جزاءً وفاقاً على ضلال الاختيار^(٣٦). والأبد: مدة الزمان الذى لا يتجزأ ولا غاية له، وتأكيد الخلود بالأبدية يدل على دوام العذاب بلا نهاية.

والمعنى: أن أجسامهم تبقى فى جهنم، لا تبلى ولا تذهب حساسيتها؛ ليذوقوا العذاب دواما وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا. أى: وكان إيصال العذاب إليهم شيئاً فشيئاً، ودوام تعذيبهم فى جهنم، أمراً يسيراً على الله.

★ ★ ★

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفسير:

١٧٠- يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ... الآية. أى: يا أيها المكلفون من الناس جميعاً، قد جاءكم الرسول المشهود له بالصدق فى رسالته، بالهدى ودين الحق من ربكم فآمنوا به وصدقوه وأطيعوه؛ يكن إيمانكم خيراً لكم فى الدنيا والآخرة.

فالخطاب فى هذه الآية الكريمة للإنسان أياً كان، سواء أكان عربياً أم غير عربى، أبيض أم أسود بعيداً أم قريباً؛ لأن رسالته ﷺ - عامة شاملة للناس جميعاً.

وهذه الآية الكريمة تحت الناس جميعاً على الإيمان بالرسول ﷺ لأنه لم يجتهد بشئ باطل، وإنما جاءهم بالحق الثابت الموافق لفطرة البشر أجمعين، ولأنه لم يجتهد بما جاءهم به من عند نفسه، وإنما جاءهم به من عند الله تعالى، ولأنه لم يجتهد بما يقضى بهم إلى الشرور والآفام، وإنما جاءهم بما يوصلهم إلى السعادة فى الدنيا وإلى الفوز برضا الله فى الآخرة.

تلك هى عاقبة المؤمنين، أما عاقبة الكافرين فقد حذر سبحانه منها بقوله :

وَأَن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. أئ: وإن تكفروا - أيها الناس - فلن يضرب الله كفركم، فإنه - سبحانه - له ما فى السموات والأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً، وكان الله تعالى عليماً علماً تاماً بأحوال خلقه، حكيماً فى جميع أفعاله وتدبيراته.

★ ★ ★

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَنَلُّوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

المضردات :

لَا تَنَلُّوا: الغلو؛ مجاوزة الحد. غُلُو النَّصَارَى فى دينهم: إفراطهم فى تعظيم عيسى، حتى جعلوه إلهاً أو ابناً لله، وغُلُو الْيَهُود: مبالغتهم فى الطعن فى عيسى حتى انتهوه وأمه بما لا يليق.

الْمَسِيحُ: أصل المسيح: الممسوح، وسمى به عيسى.

كَلِمَتُهُ: المراد بها: عيسى - عليه السلام - وأطلقت الكلمة عليه: لأنه جاء بكلمة: كُنْ.. بدون أب.

روح مِنْهُ: رحمة منه؛ لأنه رحمة من الله لمن آمن به.

تمهيد:

أنصف القرآن عيسى. فقد اتهم اليهود أمة بالزنى، كما أنصفه من ادعاء النصارى بأنه إله أو نصف إله. والمسيحية ديانة من ديانات التوحيد.

قال صاحب الظلال :

(والثابت من البحث العلمى فى تطور العقائد المسيحية أن عقيدة التثليث لم تصاحب المسيحية الأولى، إنما دخلت إليها بعد فترة، ودخلت إليها فى خطوات متدرجة ودخلت إليها مع الوثنيين الذين دخلوا فى المسيحية ولم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة، وقد ظل الموحدون المسيحيون يقاومون إلى ما بعد القرن الخامس الميلادى على الرغم من كل ما لقوه من اضطهاد.

وما تزال فكرة التثليث تصدم عقول المثقفين من المسيحيين، فيحاول رجال الكنيسة أن يجعلوها مقبولة لهم بشتى الطرق وبالإحالة إلى مجهودات لا ينكشف سرها للبشر إلا يوم يكشف الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الأرض^(٣٢).

١٧١- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. وأهل الكتاب لفظة تعم اليهود والنصارى، ولكن سياق النص هنا، يخصصها بالنصارى.

وغلوا النصارى فى دينهم : أنهم أفرطوا فى تقديس عيسى عليه السلام - حتى أخرجه من مرتبة البشرية واتخذوه إلها من دون الله وجعلوه ابنا له.

من تفسير ابن كثير :

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا... ينهى - سبحانه - أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير فى النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلها من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله.

وفى الصحيح عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا : عبد الله ورسوله»^(٣٣).

وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ. أى: ولا تفكروا على الله كذبا لا أساس له، ولا دليل يعتمد عليه، وهو قول النصارى: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. (التوبة: ٣٠).

وهذا القول يناقض الدليل الواضح والقول الثابت إذ الإله لا يلد، ولا يولد، فإن ذلك أمانة الحدوث، وعلامة الاحتياج.

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ. أَى: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، أرسله سبحانه لهداية الناس إلى الحق، وليس إلها من دون الله، ولا ابنا لله كما تدعون. وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ. أَى: وعيسى كلمة الله، أَى: أنه تَكُونُ فى بطن أمه، وجد بسبب كلمة الله وأمره: (كن) كما قال تعالى: إِنَّ مِثْلَ عَيْسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. (آل عمران: ٥٩).

وَرُوحٌ مِنْهُ. أَى: ونفخة منه لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل فى درع مريم، فكان عيسى بإذن الله فنسب إلى أنه روح من الله: لأنه بأمره كان، وسمى النفخ روحاً: لأنه ريح تخرج من الروح. قال تعالى: وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ. (الأنبياء: ٩١).

وقيل: المراد بقوله: وَرُوحٌ مِنْهُ. أَى: وذو روح من أمر الله: لأنه سبحانه خلقه كما يخلق سائر الأرواح. وقيل: الروح هنا بمعنى: الرحمة، كما فى قوله تعالى: وَأَيُّهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ. أَى: برحمة منه ونعمة. أَى: أن عيسى - عليه السلام - لما كان رحمة من الله لقومه ونعمة عظيمة منه عليهم، من حيث إنه كان يرشدهم إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة، سمى روحاً منه - سبحانه وتعالى - وكانت منه تشريفاً وتعظيماً له عليه السلام. والمعنى: أن عيسى روح عظيمة، وهبة، جلية، مبتدأة من الله.

تفسير للشيخ محمد أبو زهرة :

قال الشيخ أبو زهرة رحمة الله عليه: وقوله: وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ. أَى: خلقه بكلمة منه وهى كُن كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله: لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر يذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده وكلمته كُن وبذلك سمى كلمة الله.

وتعلّق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته - تعلق باطل - فما كانت الكلمة من الله إلها يعبد، وإنما سمى بذلك: لأنه أنشأه بروح مرسل منه وهو جبريل الأمين، وقد يقال: إنه نشأ بروح منه سبحانه أَى: أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان كما قال

تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (السجدة: ٧ - ٩).

والرأى الأول أولى، وعلى ذلك يكون معنى قوله: وَرُوحٌ مِّنْهُ. أى: أنه نشأ بنفخ الله الروح فيه من غير توسط سلالة بشرية ونطفة تتشكل إنساناً وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل.

وسمى الله تعالى- عيسى- روحاً باعتباره نشأ من الروح مباشرة؛ ولأنه غلبت عليه الروحانية.

وبهذا يزول الهمم الذى سيطر على عقول من غالوا فى شأن عيسى فتحلوه ما ليس له، وما ليس من شأنه، إذ جعلوه إلهاً، أو ابن إله^(٣٤).

ويقول الأستاذ سيد قطب :

إن كل مخلوق يوجد بكلمة من الله، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. (يس: ٨٢). فالكلمة هى توجه الإرادة، وليس عيسى بدعاً فى ذلك فهو كلمة الله، وَرُوحٌ مِّنْهُ. هو هذا الروح الذى كان به آدم إنساناً، وجسده لا يزيد عنصراً واحداً على عناصر التراب، ولا يتميز إلا بهذا الروح الذى تلقاه من الله، هذا الروح كذلك تلقته مريم - على نحو لا ندركه نحن، ولم تدركه هى، بل عجبت أن يكون لها ولد ولم يمسهما بشر - فكان منه عيسى كما كان منه آدم، كلاهما تلقاه أول مرة فإذا هو إنسان حى لا عن ولادة معهودة، ولكن عن طريق مباشر، وكلاهما فيه سواء مع بعض الاختلاف^(٣٥).

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ. أى: إذا كان ذلك هو الحق فى شأن عيسى، فأمنوا بالله إيماناً حقاً بأن تفردوه بالالوهية والعبادة، وأمنوا برسله جميعاً بدون تفریق بينهم، ولا تغالوا فى أحد منهم بأن تخرجه عن طبيعته وعن وظيفته.

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً. ولم يقل: ولا تؤمنوا بثلاثة للإشارة إلى أن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه تارة يقولون: الأب والابن والروح القدس، أى: إنهم ثلاثة متفرقون، وتارة يقولون: الأقانيم (الصفات) ثلاثة والذات واحدة.

جاء فى تفسير الكشف للزمخشري :

والذى يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم، ألا ترى إلى قوله تعالى: أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. (المائدة: ١١٦)

وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم^(٣٧).

وقد أفاض بعض العلماء في الرد على مزاعم أهل الكتاب في عقائدهم^(٣٨).

انتهوا خيراً لَكُمْ. أى: انتهوا عن الشرك والتثليث يكن الانتهاء عن ذلك خيراً لكم؛ لأنكم به تخرجون من العقيدة الناشئة عن الضلال والأوهام إلى العقيدة المبنية على الحجة والبرهان.

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ. أى: إنما الله واحد بالذات منزّه عن التعدد بأى وجه من الوجوه، متفرد فى ألوهيته، هو سبحانه الخالق لهذا الكون والمدير لأمره.

سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ. تنزه الله تنزيهاً عظيماً، لا حدود له، عن أن يكون له ولد؛ لأن اتخاذ الولد دليل الضعف وأمانة الحدوث، وصفة العاجز المحتاج إلى من يعينه فى حياته، ويخلّفه بعد مماته.

قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (الشورى: ١١)

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. أى: كل ما فى السماوات وما فى الأرض ملك إرادته فما هو محتاج، ونسبة كل شىء إليه سبحانه هى نسبة الخلق إلى الخالق والمملوك إلى المالك، يستوى فى ذلك كل ما فى الكون وكل من فى الكون.

والمتمأل يرى أنه سبحانه - فى كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكا لما فى السماوات والأرض؛ ليكون دليلاً عليه، إذ المعنى: تنزه الله عن أن يكون له ولد؛ لأن له ما فى السماوات وما فى الأرض.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. أى: إن الله سبحانه، كاف وحده فى تدبير المخلوقات وفى حفظ هذا الكون فلا يحتاج إلى ولد يعينه ولا إلى إله آخر يدبر أمر الكون معه.

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنَكَفُوا فَسَيَكْثُرُونَ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝﴾

المضردات :

لَنْ يَسْتَنْكِفَ : لن يأنف ولن يستكبر ، وأصله من النكف . وهو تنحية الدمع عن الخد بالإصبع .
 الْمُقَرَّبُونَ : الذين قريهم الله تعالى ورفع منازلهم على غيرهم .
 يَسْتَكْبِرُ : أصل الاستكبار: طلب الكبر والترفع عن الناس من غير استحقاق .

التفسير :

١٧٢ - لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ . المسيح عيسى ابن مريم لن يأنف ولن يمتنع عن أن يكون واحداً من عباد الله؛ لأنه عليه السلام - وهو نبي الله ورسوله - يوقن أنه من خلق الله . ويعلم أن الكل عبيد الله ، وأن العبودية لله لا تنقص من قدره ، ولا من قدر رسل الله وملائكته . فالعبودية لله مرتبة لا يابهاها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء .

وقد تحدثت آيات القرآن عن هذا المعنى في أكثر من موضع وأجابت عنه إجابة مقنعة ، داحضة للافتراء .

قال تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا . (مريم: ٨٨ - ٩٥)

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ . أى: وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا ولن يمتنعوا عن أن يكونوا عبيداً لله؛ لأنهم مطفرون على الطاعة .

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم: ٦)

والمقصود بهذا الاستطراد : تقوية الرُّدْ على النصارى وتأكيده حيث زعموا أن عيسى إله مع الله فلن يكون عبداً له، ولما كان منشأ ذلك عندهم، أن عيسى خلق من غير أب، بين الله لهم أن الملائكة خلقوا من غير أب ولا أم، ولهم عند الله تلك المكانة العالية، وأنهم أكمل حالاً فى العلم بالمغيبات، وفى القدرة على حمل ما لا يستطيعه البشر، وهم - مع ذلك - لا يأنفون من وصفهم بالعبودية، بل يعتزّون بأنهم عباد الله... فكيف يأنف عيسى من ذلك ؟ والعبودية لله أعلى مراتب الشرف، وأعظم درجات الكمال، كما قال الشاعر :

ومما زادنى عجباً وتيها وكدت بأخمصى أطأ الثرى
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

وَمَنْ يَسْتَكْبِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا. أى: ومن يأنف من عبادة الله ويمتنع عنها، ويأبى الخضوع لطاعة الله، ويستكبر عن كل ذلك، فسيجد يوم القيامة ما يستحقه من عقاب بسبب استنكافه واستكباره، فإن مردّ العباد جميعاً إليه - سبحانه - وسيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته.

١٧٣- فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. أى: فأما الذين حققوا فى نفوسهم هذين الوصفين العظيمين : الإيمان والعمل الصالح فيجزئهم الله على ذلك جزء وافياً ثابتاً لا شك فيه، ويزيدهم الله فى الثواب والجزاء بمنه وفضله فلهم سعادة الدارين، ولهم الحسنى وزيادة.

جاء فى تفسير (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب :

إن الذين أقروا بعبوديتهم لله هم الذين آمنوا فعرفوا حقيقة الصلة بين الخالق والمخلوق، وعملوا الصالحات: لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لتلك المعرفة، وما يريد الله أن يعبدوه: لأنه بحاجة إلى عبادتهم، ولا لأنها تزيد فى ملكه تعالى أو تنقص منه شيئاً.

ولكن يريد أن يعبدوه وحده: ليستعملوا على كل من سواه، وليرفعوا جباههم أمام المتجبرين والطغاة، معتزين بالله، وليعملوا الخير يبعثون بالخير قريه ورضاه، وليتجردوا من شهواتهم وعصبائاتهم وملابساتهم الأرضية متطلعين إلى وجهه فى علاه، وليرتفعوا عن ثقله الأرض وضرورتها، وهم يطلعون إلى ذلك الأفق الوضئ الكريم: لهذا يوفيههم أجورهم، ويزيدهم من فضله: لأنهم عرفوا، ولأنهم عملوا، ولأنهم أصلحوا فى الأرض، ولأنهم زادوا فى محصول الحياة.

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَكْفَوْا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. أَيْ: وأما الذين أنفوا وتعظموا عن عباداته وطاعته فسيعذبهم عذابا موجعا شديداً.

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. أَيْ: ليس لهم من يتولاهم أو ينصرهم من عذاب الله.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمُ إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾﴾

المفردات:

برهان، البرهان: الحجة والمراد به هنا: محمد ﷺ؛ لأن مهمته إقامة البرهان على إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وقيل: المراد به: المعجزات، أو القرآن.

نور، المراد به: القرآن الكريم؛ لأنه ينير الطريق للمساكين.

واعتصموا به، عصموا بالإيمان به أنفسهم من المعاصي وحفظوها.

في رحمة منه، المراد بالرحمة هنا: الجنة.

التفسير:

١٧٤ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ... الآية

تأتى الآيتان ١٧٤، ١٧٥ من سورة النساء دعوة إلى الناس كافة بالتأمل في صدق الدعوة المحمدية، وهى آخر رسالات السماء إلى الأرض وقد اشتملت هذه الرسالة على أسباب السعادة الدنيوية والأخروية.

قال صاحب الظلال:

إن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله، وهى نور كاشف للظلمات والشبهات، فمن اهتدى بها، واعتصم بالله من الشبهات المهلكة، فسجد رحمة الله توفيه، وسجد فضل الله يشمل، وسجد فى ذلك النور هدى إلى الصراط المستقيم^(٣٩).

وقال الفخر الرازى: اعلم أنه تعالى - لما أورد الحجة على جميع الفرق من المنافقين والكفار واليهود والنصارى، وأجاب عن جميع شبهاتهم، عمم الخطاب، ودعا جميع الناس إلى الاعتراف برسالة محمد ﷺ، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ.

والبرهان هو - محمد - ﷺ وإنما سماه برهاناً لأن حرفته إقامة البرهان على تحقيق الحق وإبطال الباطل والنور المبين هو القرآن الكريم وسماه نوراً، لأنه سبب لوقوع نور الإيمان في القلب^(٢٠١).

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا. وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ، أعظم الكتب التي أنزلناها لهداية البشر، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وسمّاه: نوراً مبيناً، إذ هو كالنور، يضيء الطريق، ويظهر الحق، ويهدي إلى سبيل الخير والرشاد.

وقد تحدثت الآية عن نعمتين عظيمتين:

النعمة الأولى: إرسال محمد ﷺ أعظم نعم الله على الناس.

النعمة الثانية: إنزال القرآن هدى للمتقين.

والناس - بالنسبة لهاتين - النعمتين الجليلتين - فريقان: فريق المؤمنين وقد بين الله حالهم العظيم في الآية التالية. وفريق الكافرين، ولم تذكر الآيات هنا عقاب الكافرين إهمالاً لهم، أو لأن عاقبتهم السيئة معروفة لكل عاقل بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمر الله.

١٧٥ - فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا.

جاء في تفسير ابن كثير:

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ. أى: جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم.

وقال ابن جريج: آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن.

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ. أى: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً فى درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم. وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. أى: طريقاً واضحاً قصداً قواماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات.

وفى حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «القرآن

صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين»^(٢٠٢).

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ رِثَةٌ إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ بِمَا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

المضردات:

يستفتونك، الاستفتاء، طلب الفتيا، والفتيا والفتوى: اسم من أفتى العالم؛ إذا بين الحكم.
الكلالة، الذى لا ولد له ولا والد. وقيل الكلالة: مصدر من تكله النسب أى: تطرفه. كأنه أخذ طرفيه من جهة الوالد والولد: فليس له منهما أحد، فسمى بالمصدر. ومن هنا أطلقت على الميت الذى لم يترك والدا ولا ولدا «مَنْ كَلٌّ» إذا ضعف. وهذا قول على وابن مسعود. وقال سعيد بن جبير: هى الوارث الذى ليس ولداً ولا والدًا: لأن هؤلاء الوارثين يتكفلون الميت من جوانبه، وليس فى عمود نسبه. كالإكليل يحيط بالرأس، ووسط الرأس خال منه.

التفسير:

١٧٦ - يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ...

روى الشيخان عن البراء أن هذه الآية هى آخر آية نزلت من الفرائض.

وروى الترمذى عن جابر بن عبد الله، يقول: «مرضت فأتانى رسول الله ﷺ يعودنى».

فقلت: يا رسول الله، كيف أقضى فى مالى؟ أو كيف أصنع فى مالى؟ فلم يجبنى شيئا - وكان له تسع أخوات - حتى نزلت آية الموارث يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ. قال جابر: «فى نزلت».

يَسْتَفْتُونَكَ. أى: طلب الصحابة منك أن تبين لهم الحكم فى ميراث الذى لم يترك ولدا ولا والدًا.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ. أى: قل لهم يا محمد: الله يبين لكم حكم ميراث الكلالة.

إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ. من مات وليس له والد أو ولد وهى الكلالة.

وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ. أى: وله أخت شقيقة أو أخت لأب فلها نصف ما ترك أخوها.

أما الإخوة لأُم، فقد سبق بيان ميراثهم في قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ (النساء: ١٢).

وَهُوَ بَرِّئُهَا إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ. أى: وأخوها الشقيق أو لأب يرث جميع ما تركت إن لم يكن لها ولد.

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ. أى: إن كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما المتوفى.

بدليل القصة التي نزلت فيها الآية، فقد كانت لجابر بن عبد الله رضى الله عنه تسع أخوات في رواية الترمذى، وقياساً على ميراث البنات.

وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ.

أى: وإن كان الورثة مختلطين إخوة وأخوات فللذكر منهم مثل نصيب الأختين.

يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا.

أى: يوضح الله لكم شرائع دينكم ويفصلها: كراهة أن تضلوا عن الطريق السوى فتمنعوا مستحقاً، وتعطوا غير مستحق.

والآية صريحة في أن من تعدى حدود الله فى أحكام الميراث: فقد ضل طريق الحق، وأخطأ سبيل الرشاد.

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. أى: والله الذى يبين تلك الفرائض لعباده وشرعها لهم، قد أحاط بكل شيء علماً، فعلمه تام بما يصلح المجتمع الإسلامى من الشرائع والأحكام.

من الفوائد فى سورة النساء:

لفظة (من) تكون للتبويض وقد تأتى لابتداء الغاية كما فى قوله تعالى: وَرُوحٌ مِّنْهُ.

يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر الإمام الواقدى ذات يوم فقال له: إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله، وتلاه هذه الآية: وَرُوحٌ مِّنْهُ. فقال الواقدى: قال تعالى: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ. (الباقية: ١٣)، فيجب إذا كان عيسى جزءاً من الله أن يكون ما فى السموات وما فى الأرض جزءاً منه، فانقطع النصرانى وأسلم. وفرح الرشيد بذلك فرحاً شديداً ووصل الواقدى بصلة عظيمة^(٣٧).

فى ختام السورة

تلك سورة النساء:

- * بينت أحكام النساء ونظمت المجتمع الإسلامى تنظيما دقيقا حكيما.
- * نظمته فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، ونظمته فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية. أما فيما يتعلق بأوضاعه الداخلية، فقد ساقَت السورة الآداب، والأحكام، والتوجيهات التى تكون مجتمعاَ فاضلا.
- * مجتمعا تقوم الأسرة فيه على دعائم ثابتة من الأمان والاطمئنان والمحبة والمودة والوئام.
- * مجتمعا رجاله يكرمون نساءه ويعاشروهن بالمعروف، ونساؤه يحترمن رجاله ويؤدين ما عليهن نحوهم من حقوق بأدب وعفة وإخلاص.
- * مجتمعا حكامه يحكمون بالعدل ويراقبون الله فى أقوالهم وأعمالهم، والمحكومون فيه يطيعون حكامهم فيما يأمرونهم به من حق وخير.
- * مجتمعا يرى أفرادُه أن خياراته وأمواله... هى أمانة فى أعناقهم جميعا.
- * وأن ثمارها ومنافعها ستعود عليهم جميعا؛ لذلك فهم يحرسون على استغلال ما يملكونه منها فيما يرضى الله، وفيما يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير والصلاح والفلاح.
- * وأما فيما يتعلق بأوضاعه الخارجية، فإن سورة النساء قد كشفت عن رذائل المنافقين، وعن العقائد الفاسدة التى يتشبث بها أهل الكتاب.
- * ولقد ساقَت السورة الكريمة جانبا من الآيات المرغبة فى الجهاد والشهادة وطلب الثواب من الله.
- * إنها سورة النساء الكبرى، تحدثت عن النساء وأحكامهن وميراثهن.
- * ويلحق بهذه الأحكام سورة النساء الصغرى وهى سورة الطلاق.
- * ولم يكن للنساء فى الجاهلية كبير شأن، حتى نزل القرآن الكريم. فأمر بإكرامهن، وإحسان معاملتهن، والوفاء بحقوقهن؛ حتى ينشأ المجتمع كريما فى رجاله ونسائه.

والله ولى التوفيق، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة المائدة

أولاً: مدخل إلى سورة المائدة

١ - تاريخ النزول:

نزلت سورة المائدة بعد سورة الفتح، وكان نزول سورة الفتح بعد صلح الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة المائدة فيما بين صلح الحديبية وغزوة تبوك.

ونلاحظ أن سورة المائدة من أواخر ما نزل من السور بالمدينة، فقد روى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال: فأحلوه وما وجدتم فيها من حرام: فحرموه.

والم تأمل يرى أن السورة قد امتد نزول آياتها خلال السنوات الأربع الأخيرة من حياة الرسول ﷺ بالمدينة: فقد ابتدأ نزولها في السنة السابعة للهجرة، وفيها آية نزلت في حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة قبل وفاة النبي بثمانين يوماً وهي قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**. (المائدة: ٣).

وفى كتب التفسير: أن سورة المائدة نهائية كلها أي: نزلت جميع آياتها نهاراً^(١). مدينة كلها إلا قوله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**. فإنها نزلت بعرفة، وعدد آيات سورة المائدة ١٢٠ آية، وعدد كلماتها ٢٨٠٤ كلمة.

٢ - قصة التسمية:

سميت سورة المائدة بهذا الاسم؛ لأنها السورة الوحيدة التي تحدثت عن مائدة طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يسألها ربه. وذلك في قوله تعالى:

إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۖ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَكُنُوا عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. (المائدة: ١١٢، ١١٣)

والخواريون هم خلاصاء عيسى عليه السلام الذين صفت قلوبهم من الكفر والنفاق وبادروا إلى الإيمان بعيسى وتلقوا عنه التعاليم ثم انتشروا في القرى: لبثها بين الناس.

المائدة

تكلم العلماء عن المائدة التي سألتها الحواريون عيسى، هل نزلت أم لا؟ وجمهور المفسرين على أنها نزلت بالفعل. وقد تعددت الروايات بعد ذلك عن أوصافها وما احتوت عليه من ألوان الطعام والشراب، وحسبك أن ترجع إلى أى تفسير من كتب التفاسير المتداولة: لتقرأ فى أوصافها وأوصاف ما وضع عليه الشيء الكثير، مما يجعلك ترجح أن كثيرا مما ورد فى أوصاف هذه المائدة من افتراء المقتريين أو أساطير الإسرائيليين.

وألفاظ القرآن الصريحة تغيد: أن عيسى طلب من ربه أن ينزل مائدة من السماء تكون كافية لقومه جميعا وتكون عيدا وسعادة لأول قومه وآخرهم، والمائدة: طعام ورزق، وكل طعام ورزق إنما هو من عند الله، وقد وعد الله أن ينزلها عليهم. ولم يذكر القرآن إن كانت بمفهومها الضيق كما طلبها الحواريون، أو بمفهومها المطلق كما قد يريده الله ويفهمه عيسى ويلهمه الحواريون فيكون حينئذ وعدا بنعمة من الله عليهم طعاما ورزقا يشمل أولهم وآخرهم وترجمة للمفهوم الضيق الذى أرادوه للمائدة بمفهوم أوسع قد يشمل الطعام وسواه من الرزق: ليكون ذلك ابتلاء وفطنة لأتباع المسيح بوجه عام.

والله أعلم بما كان مما سكنت عنه القرآن. وليس لنا من مصدر آخر نستفتيه واثقين فى مثل هذه الشئون إنما هو رأى نبيه بجوار آراء السلف عليهم رضوان الله.

٣ - ظواهر تنفرد بها سورة المائدة:

تنفرد سورة المائدة بجملة من الظواهر لا تكاد نجد شيئا منها فى غيرها من السور، حتى فى أطول سور القرآن وهى البقرة، ذلك أنها لم تتحدث عن الشرك ولا عن المشركين على النحو الذى ألف فى القرآن من محاجتهم وتسفيه أخلامهم وتحقير شركائهم، وأنها لم تعرض فى قليل ولا فى كثير إلى ما عهد فى أكثر السور المدنية التى نزلت قبلها من الحث على القتال والتحريض عليه ورسم خطط النصر والظفر بأعداء الله المشركين كما نراه فى سورة البقرة وآل عمران والنساء والأفعال والتوبة: لأن المسلمين فى ذلك الوقت لم يكونوا بحاجة إلى شئ من هذا الحديث، لقد اندحر الشرك وصار المشركون فى قهر وذلة ويأس.

ولكن إذا كان المشركون قد انقضى عهدهم والمسلمون قد علا شأنهم فإن المسلمين فى حاجة إلى إكمال التشريع المنظم لشئونهم على وجه يضمن لهم دوام السعادة ويحفظ لهم السيادة، ولهم بعد ذلك صلات خاصة بطوائف من أهل الكتاب يعيشون فى ذمتهم وعهدهم ويخالطونهم فى حياتهم ومعاملاتهم، ومن هنا تدبين أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا فى حاجة إلى ما يعينهم فى الجانبين: جانب أنفسهم وجانب علاقتهم بأهل الكتاب، وبذلك دار كل ما تضمنته سورة المائدة على

أمرين بارزين: تشريع المسلمين فى خاصة أنفسهم وفى معاملة من يخالطون، وإرشادات لطرق المحاجة والمناقشة وبيان الحق فى المزاعم التى كان يثيرها أهل الكتاب مما يتصل بالعقائد والأحكام، وفى سياق هذه المحاجة تعرض السورة لكثير من مواقف الماضيين من أسلاف أهل الكتاب مع أنبيائهم تسلياً للنبي ﷺ من جهة وتنديداً بهم عن طريق أسلافهم من جهة أخرى.

٤ - تشريع القرآن؛

نزل القرآن على رسول الله ﷺ: لينشئ به أمة وليقيم به دولة، ولينظم به مجتمعاً، وليرى به ضمائر وأخلاقاً وعقولا؛ وليربط ذلك كله برباط قوى يجمع متفرقه ويؤلف أجزائه ويشدها كلها إلى منزل هذا القرآن، وإلى خالق الناس الذى أنزل لهم هذا القرآن.

ومن ثم نجد فى كثير من سور القرآن تشريعا إلى جانب موعظة، وقصة إلى جانب فريضة، ونجد التشريع الذى ينظم العلاقات الاجتماعية والدولية، إلى جانب التشريع الذى يحل ويحرم ألوانا من الطعام أو ألوانا من السلوك والأعمال.

وهذه السورة - سورة المائدة - مثل لتلك السور التى تلتقى فيها التربية الوجدانية بالتربية الاجتماعية بتشريع الحلال والحرام فى الطعام والزواج، بتشريع المعاملات الدولية فيما بين المسلمين وغير المسلمين، بتعليم بعض الشرائع التعبدية، ببيان الحدود والعقوبات فى بعض الجرائم الاجتماعية، بالمثل والموعظة والقصة، بتصحيح العقيدة وتنقيتها من الأسطورة والخرافة فى تناسق واتساق.

٥ - الوفاء بالعقود؛

تبدأ سورة المائدة ابتداء إلهيا للمؤمنين أن يوفوا بالعقود فتقول:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ...

والعقود: جمع عقد وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره، وأساسه قد يكون شيئا فطريا تدعو إليه الطبيعة، وقد يكون شيئا تكليفيا تدعو إليه العقيدة، وقد يكون شيئا عرفيا يدعو إليه الالتزام والتعاهد والعقد العرفي، أى: المتعارف عليه من عامة الناس، يكون بين الفرد والفرد كما فى البيع والزواج والشركة والوكالة والكفالة إلى آخر ما تعارفه الناس ويتعارفونه من وجوه الاتفاقات، والكلمة عامة فى الآية فإنها تأمر بالوفاء بالعقود، فتشمل العقود كلها على اختلاف أنواعها

وأشكالها، وتدخل فى العقود: المعاملات والمعاهدات بظاهر اللفظ، كما تدخل إقامة الحدود وتحريم المحرمات بوصفها. داخلة فى عقد الإسلام بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله.

وعلى وجه العموم فإننا نجد سياق السورة كله يدور حول العقود والمواثيق فى شتى صورها حتى حوار الله والمسيح يوم القيامة الوارد فى نهاية السورة نجده سؤالاً عما عهد به إليه وعما إذا كان قد خالف عنه كما زعم الزاعمون بعده.

٦ - الظروف التى نزلت فيها السورة^(٢١)

نزلت سورة المائدة بعد أن قلمت أظفار المشركين وانزوى الشرك فى مخابئه المظلمة وصار المسلمون فى قوة ومنعة كانوا بها أصحاب السلطان والصولة فى مكة وفى بيت الله الحرام، يحجون آمنين مطمئنين، وقد نكست أعلام الشرك وانطوت صفحة الإلحاد والضلال، وقد أتم الله نعمته على المسلمين بفتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا.

وسورة المائدة وإن ابتدأ نزولها فى السنة السابعة إلا أن نزولها قد استمر إلى السنة العاشرة بدليل أن فيها آية من آخر ما نزل من القرآن وهى قوله تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...

روى أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر رضى الله عنه فقال: إن فى كتابكم آية تقرؤونها لو علينا أنزلت - معشر اليهود - لاتخذنا اليوم الذى أنزلت فيه عيداً، قال عمر: وآية آية؟ قال:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا. (المائدة: ٣)

فقال عمر: إني والله لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه والساعة التى نزلت فيها، نزلت على رسول الله عشية عرفة فى يوم جمعة والحمد لله الذى جعله لنا عيداً.

وقد روى أن النبى ﷺ قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال:

«يأيها الناس، إن سورة المائدة آخر ما نزل؛ فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها».

٧ - أفكار السورة وأحكامها:

انفردت سورة المائدة بعدة مسائل فى أصول الدين وفروعه، وبتفصيل عدة أحكام أجملت فى غيرها إجمالاً. ومن هذه الأحكام ما يأتى:

١ - بيان إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذى ارتضى لهم بالقرآن وإتمام نعمته عليهم بالإسلام.

٢ - النهى عن سؤال النبي ﷺ عن أشياء من شأنها أن تسوء المؤمنين إذا أبديت لهم لما فيها من زيادة التكليف.

٣ - بيان أن هذا الدين الكامل مبنى على العلم اليقيني فى الاعتقاد والهداية فى الأخلاق والأعمال، وأن التقليد باطل لا يقبله الله تعالى.

٤ - بيان أن أصول الدين الإلهى على ألسنة الرسل كلهم هى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فمن أقامها كما أمرت الرسل من أية ملة - من ملل الرسل كاليهود والنصارى والصابئين - فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم فى الآخرة ولا هم يحزنون.

٥ - وحدة الدين واختلاف شرائع الأنبياء ومناهجهم فيه.

٦ - هيمنة القرآن على الكتب الإلهية.

٧ - بيان عموم بعثة النبي ﷺ وأمره بالتبليغ العام وكونه لا يكلف من حيث كونه رسولا إلا التبليغ، وأن من حجج رسالته أنه بين لأهل الكتاب كثيرا مما كانوا يخفون من كتبهم، وهو قسمان: قسم ضاع منهم قبل بعثة النبي ﷺ، وقسم كانوا يكتُمونه اتباعا لأهوائهم مع وجوده فى الكتاب حككم رجم الزانى، ولولا أن محمدا الأمين مرسل من عند الله لما علم شيئا من هذا ولا ذاك.

٨ - عصمة الرسول ﷺ من أذى الناس، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، فكم حاولوا قتله فأعياهم وأعجزهم.

٩ - بيان أن الله أوجب على المؤمنين إصلاح أنفسهم أفرادا وجماعات، وأنه لا يضرهم من ضل من الناس إذا هم استقاموا على صراط الهداية.

١٠ - تأكيد وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما بينه الله تعالى من لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم. وتعليقه ذلك بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه.

١١ - نفى الحرج من دين الإسلام.

١٢ - تحريم الغلو فى الدين والتشدد فيه ولو بتحريم الطيبات وترك التمتع بها.

١٣ - قاعدة إباحة المحرم للمضطر ومنه أخذ الفقهاء قولهم: الضرورات تبيح المحظورات.

١٤ - قاعدة التفاوت بين الخبيث والطيب وكونهما لا يستويان فى الحكم، كما أنهما لا يستويان فى أنفسهما وفيما يترتب عليهما.

١٥ - تحريم الاعتداء على قوم بسبب بغضهم وعداوتهم؛ لأنه يجب على المؤمنين أن يلتزموا الحق والعدل.

١٦ - وجوب الشهادة بالقسط والحكم بالعدل والمساواة فيهما بين غير المسلمين كالمسلمين ولو للأعداء على الأصدقاء وتأكيد وجوب العدل فى سائر الأحكام والأعمال.

- ١٧ - الحياة شركة ذات أطراف لا يجوز أن يجور فيها طرف على طرف.
- ١٨ - التعاون على البر والتقوى له وسائله وسبله حسب الزمان والمكان، ومنه تأليف الجمعيات الخيرية والعلمية وتحريم التعاون على الإثم والعدوان.
- ١٩ - بيان أن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قياما للناس، أي: يقوم عندها أمر دينهم ودنياهم فعندها يتم الحج والعمرة وعندها يتم الإحرام والأمان والسلام ولها يتوجه المسلمون في الصلاة، فهي رمز للوحدة والأخوة والإيمان.
- ٢٠ - النهي عن موالاتة المؤمنين للكافرين.
- ٢١ - تفصيل أحكام الوضوء والغسل والتيمم مع بيان أن الله تعالى يريد أن يطهر الناس ويزكيهم بما شرع لهم من أحكام الطهارة وغيرها.
- ٢٢ - تفصيل أحكام الطعام، وبيان حرامه وحلاله.
- ٢٣ - تحريم الخمر وهو كل مسكر وتحريم الميسر وهو القمار.
- ٢٤ - بيان محظورات الإحرام في الحج.
- ٢٥ - تفصيل أحكام الصيد للمحرمين وغيرهم في أوائل السورة وأواخرها.
- ٢٦ - حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض ويخرجون على أئمة العدل، وحد السرقة وما يتعلق بالحد كسقوطه بالتوبة الصادقة.
- ٢٧ - أحكام الأيمان وكفارتها.
- ٢٨ - تأكيد أمر الوصية قبل الموت وأحكام الشهادة على الوصية.
- ٢٩ - الأمر بالتقوى في عدة آيات من السورة.
- ٣٠ - بيان تفويض أمر الجزاء في الآخرة إلى الله تعالى وحده.

٨ - النداءات الإلهية للمؤمنين:

اشتملت سورة المائدة على ستة عشر نداء وجهت للمؤمنين خاصة، يعتبر كل نداء منها قانونا ينظم ناحية الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم وفيما يختص بعلاقتهم بأهل الكتاب.

فالنداء الأول: يطلب الوفاء بالعقود:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ. (المائدة: ١)

والنداء الثاني: يطلب المحافظة على شعائر الله وعدم إحلالها:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ. (المائدة: ٢)

والنداء الثالث: يطلب الطهارة حين إرادة الصلاة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا. (المائدة: ٦)

والنداء الرابع: يطلب القوامية لله والشهادة بالعدل ويحذر من الظلم.

والنداء الخامس: يطلب تذكر نعمة الله على المؤمنين بكف أيدي الأعداء عنهم.

والنداء السادس: يدعو إلى تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله.

والنداء السابع: يحذر من اتخاذ الأعداء أولياء من دون المؤمنين.

والنداء الثامن: يلفت نظر المؤمنين إلى أن المسارعة في موالات الأعداء ردة عن الدين.

والنداء التاسع: يدعو إلى شدة الحذر من موالات الأعداء.

والنداء العاشر: يذكر تحريم الطيبات التي أحلها الله.

والنداء الحادى عشر: تحريم الخمر والميسر.

والنداء الثاني عشر، والثالث عشر: يتعلقان بتحريم قتل الصيد فى حالة الإحرام.

والنداء الرابع عشر: يتعلق بالنهاى عن سؤال ما ترك الله بيان حكمه توسعة على عباده:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ. (المائدة: ١٠١)

والنداء الخامس عشر: يتعلق بتحديد المسئولية التى يحملها المؤمنون فى الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والنداء السادس عشر: يتعلق بكيفية الشهادة على الوصية فى حالة السفر.

وجملة هذه النداءات تربية عملية للمؤمنين وبيان الطريق السوى التى يجب اتباعها فى الشعائر والعبادات والمعاملات والمعاهدات. والنداء للمؤمنين بصفة الإيمان؛ تذكيرا لهم بأن عليهم أن يعملوا بمقتضى هذا الإيمان وقوامه التصديق الباطنى بوجود الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

الأمر بالتقوى

حث القرآن على تقوى الله وطاعته وذيل كثيرا من أحكامه ببيان شأن التقوى، وأهميتها، وفي النداء السادس من سورة المائدة حث على تقوى الله والتماس الأسباب المساعدة على هذه التقوى فيقول سبحانه:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. (المائدة: ٣٥)

وتقوى الله هي تقدير العظمة الإلهية وامتلاء النفس بها امتلاء يدفع المؤمن إلى المسارعة وشدة الحرص على تحقيق أوامر الله وتشريعاته، والتقوى تدفع المؤمن إلى إنعام النظر وقوة التفكير في ملكوت السماوات والأرض؛ لمعرفة أسرار الله في كونه، وسنته في خلقه، ثم الاتجاه إلى هذه الأسرار والعمل على إظهار رحمة الله فيها بعباده والوقوف على السنن التي ربط بها بين الأسباب والمسببات، بين السعادة وأسبابها، والشقاء وأسبابه، بين العلم وأسبابه والغنى وأسبابه، والعزة وأسبابها ... وهكذا.

وبذلك ترى أن التقوى هي ذلك المعنى القلبي الذي تغنى به الإرادات الإنسانية في ملكوت العظمة الإلهية، وهي الباعث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهي المحققة للإحسان في طاعة الله ورسوله، فهي المبدأ، وهي المنتهى، وهي الأولى، وهي الآخرة.

٩ - أهل الكتاب:

أرسل الله محمدا ﷺ على حين فترة من الرسل بعد أن درست معالم الحق والفضيلة، وبعد أن ضيع أهل الكتاب بعض تعاليمه وأخفوا بعضه ونقضوا ميثاقهم مع ربهم.

وقد واجهتهم سورة المائدة بأخطائهم فوصفتهم بالتعصب المقيت والغلو في الدين واتباعهم أهواء من ضل قبلهم من الوثنيين وغيرهم، وادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه. وقد بين الله لهم حقيقة الأمر وهي أنهم بشر ممن خلق الله لا مزية لهم على سائر البشر في أنفسهم وذواتهم، إنما يمتاز بعضهم عن بعض بالعلوم الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا بالنسب والانتماء إلى الأنبياء والصالحين وصدق القائل:

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول: هأنذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

وقد وجه الله الخطاب لأهل الكتاب عامة بأن الرسول ﷺ قد جاء ليكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من كتاب الله الذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه، ويعفو عن كثير مما

أنقلهم به الله من تكاليف وحرمة عليهم من طيبات عقابا لهم على مخالفتهم وانحرافاتهم فالفرصة إذن ساحة ليتداركوا ما فات ولينجوا مما كتب عليهم في الدنيا: عقابا لهم على الخلاف والإخلاف:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (المائدة: ١٥، ١٦).

وتوالى نداء القرآن لأهل الكتاب؛ ليقطع حجتهم ومعدرتهم أن يقولوا: إن فترة كبيرة مرت عليهم لم يأتهم فيها بشير يقربهم إلى الله أو نذير يخوفهم الانحراف فيها هو ذا بشير ونذير:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (المائدة: ١٩)

وقد وصفت سورة المائدة التوراة والإنجيل أحسن وصف وذكر من أخبار التوراة قصة ابني آدم بالحق ومن أحكامها عقوبات القتل وإتلاف الأعضاء والجروح، ومن أخبار الإنجيل والمسيح ما هو حجة على الفريقين وبين أن الكتباين أنزلا نورا وهدى للناس وأنهم لو كانوا أقاموهما؛ لكانوا في أحسن حال ولسارعوا إلى الإيمان بما أنزله الله على خاتم رسله مصدقا لأصلهما، ولكنهم اتخذوا الإسلام هزوا ولعبا في جملته وفي عبادته ووالوا عليه المناصبين له من أعدائه فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم.

١٠ - اليهود:

ناقشت سورة المائدة اليهود خاصة فذكرتهم بنعم الله عليهم وبميثاق الله مع نقباء بني إسرائيل النائبين عنهم، فما الذي كان من بني إسرائيل؟

لقد نقضوا ميثاقهم مع الله .. قتلوا أنبياءهم بغير حق، وبيتوا الصلب والقتل لعيسى ابن مريم، وحرفوا كلمات التوراة عن معانيها وعن مواضع الاستشهاد بها، واشتروا بهذا التحريف ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا، ونسوا بعض شرائع التوراة وأهملوها، وخانوا محمدا - رسول الله - أحد الرسل الذين أخذ عليهم الميثاق أن ينصروهم فباعوا بالطرد من رحمة الله وقست قلوبهم؛ ببعدهم عن هذه الرحمة.

وإن من صفات اليهود الغالبة عليهم الخيانة والمكر، وقول الإثم والمبالغة في سماع الكذب وأكل السحت، والسعي بالفساد في الأرض، وفي إيقاد نار الفتن والحرب، وقد قتلوا رسل الله إليهم وتمردوا على

موسى إذ أمرهم بدخول الأرض المقدسة وقتال الجبارين فعاقبهم الله بالتيه فى الأرض، وأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين فعاقبهم الله على ذلك كله باللعن على ألسنة الرسل، وبالعصب والسخ، وهذه الصفات التى غلبت عليهم فى زمن البعثة وقبل زمن البعثة تثبتتها توارىخهم وتوارىخ غيرهم، ومن المعلوم أنها لم تكن عامة فيهم ولا شاملة لجميع أفرادهم ولذلك قال سبحانه :

مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . (المائدة: ٦٦)

١١ - النصارى :

مما جاء فى النصارى خاصة أنهم نسوا - كاليهود - حظا مما ذكروا به، وأنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وقد رد الله عليهم هذه العقيدة بالأدلة العقلية وبراءة المسيح منها ومن منجليها يوم القيامة، وبين لهم حقيقة المسيح وأنه عبد الله ورسوله وروح منه. ولقد أخذ الله الميثاق عليهم أن يلتزموا بتعاليم رسولهم، ولكنهم نسوا جانباً من تعاليمه وأهملوا جانب التوحيد وهو أساس العقيدة وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لا تكاد تعد. إذ أن هناك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومه الكبيرة: الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت والمارون؛ اليوم ومن قبل اليعقوبيون والملكانيون والنساطرة.

وقد اشتدت العداوة بين هذه الفرق. وشهدت المسيحية آثارها منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقية والنساطرة، وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة. فلا يكاد الإنسان يتصور العداة الذى بين الكاثوليك والبروتستانت أو بينهم وبين الأرثوذكس أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم قال تعالى:

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (المائدة: ١٤)

وقد بينت سورة المائدة أن اليهود أشد الناس عداوة للمؤمنين؛ وأن النصارى أقرب الناس مودة إليهم:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَّيْسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . (المائدة: ٨٢)

القرآن من عند الله

جملة الآيات الواردة فى أهل الكتاب تشهد لنفسها أنها من عند الله تعالى لا من عند محمد بن عبد الله العربى الأُمى الذى لم يقرأ شيئا من الكتب، على أن تلك الآيات ليست موافقة لها ولهم موافقة الناقل للمنقول عنه، وإنما هى فوق ذلك تحكم لهم وعليهم وفيهم وفى كتبهم حكم المهيم السميع العليم.

١٢ - عدالة أحكام السورة الخاصة بأهل الكتاب:

لو كان هذا القرآن من وضع البشر لشرع معاملة أهل الكتاب الموصوفين بما ذكر - ولا سيما الذين ناصبوا الإسلام العداء عند ظهوره - بأشد الأحكام وأقساها.

ولكنه تنزيل من حكيم حميد أمر في هذه السورة بمعاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط وحكم بحل مآكلهم وتزويج نساءهم وقبول شهادتهم والعفو والصفح عنهم. وهذه الأحكام التي شرعت هذه المعاملة الفضلى لهم؛ نزلت بعد إظهار اليهود للمسلمين منتهى العداوة والغدر. ولكن السورة تضمنت تأليف قلوبهم واكتساب مودتهم.

وقد ختم الله سورة المائدة بذكر الجزاء في الآخرة وسؤال الرسل عن جواب أممهم لهم. ثم براءة المسيح ممن جعله إلها وتفويضه الأمر كله لله الحق فهو سبحانه المتفرد بالعلم والقدرة والألوهية.

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (المائدة: ١٢٠)

★ ★ ★

ثانياً : تفسير سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبَيِّنُ عَلَيْكُمْ
غَيْرُ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَّمَ إِنَّ اللَّهَ يُحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾

المفردات:

أوفوا بالعقود : الوفاء: الإيتاء بالشئء وافياً. والعقود: جمع عَقْد . والمراد هنا : العهد المؤثَق.
بهيمة الأنعام : البهيمة: هى ما لا عقل له من الحيوان . وخصصت - فى العرف - بذوات الأربع.
والأنعام: هى الإبل والبقر والغنم .. وأُنْحِقَ بها ما يماثلها .. كالطُيَافِ وبقر الوحش
وحمره . والإضافة هنا: بيانية أى بهيمة هى الأنعام .
حرم : أى: محرمون بالحج أو العمرة .

التفسير:

١- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ ينادى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين، أمراً بإيham
بالوفاء بجميع العقود .
وهذا أمر عام يشمل جميع ما ألزم الله به عباده، وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية.
وما يعقده العباد - فيما بينهم - من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به .
جاء فى ظلال القرآن:

إنه لا بد من ضوابط للحياة، حياة الفرد مع نفسه، وحياته مع غيره، هذه الضوابط لا بد لها من
احترام يضمن ألا تنتهك وألا يستهتر بها، وألا يكون الأمر فيها للأهواء والشهوات .
والعقود: هى هذه الضوابط التى تنظم العلاقات: لأنها تقيم حدود الحرية فلا تدعها فوضى،
وتجعل الحياة شركة ذات أطراف، لا يجوز فيها طرف على طرف .
والعقود فى معناها الواسع تشمل الديانات والشعائر والعبادات والمعاملات، والمعاهدات؛ لأن
هذه كلها عقود ترتبط بها نفس الفرد وضميره، ويتحدد بها عمله وسلوكه .. فالأمر بالوفاء بالعقود

أمر بإقامة ضوابط للحياة، ما استكن منها وما ظهر على السواء . ما تعلق منها بالضمير وما تعلق منها بالسلوك، ما كان بين المرء وربه، وما كان بينه وبين غيره .

والإسلام يربط هذه العقود كلها بالله، ويجعل الوفاء بها فريضة، ويوجه الأمر للذين آمنوا فكتبوا بقلوبهم عقد الإيمان، أن يفوا بسائر العقود التي ارتبطوا بها مع عقد الإيمان .^(٣٦)

أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ . أى: أحلت لكم - أيها المؤمنون - أكل بهيمة الأنعام : من الإبل والبقر والغنم، وما شابهها من الظباء وبقر الوحش، والحرر الوحشية .

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ . استثنى من هذه الأطعمة ما سيتلى في الآية الثالثة من هذه السورة (وأخر هذا البيان مؤقتاً ووقف عند هذا الإجمال: ليتناول في الآية الأولى كليات مجملة بالتحريم فيكون التحليل عاما والتحريم عاما قبل التفصيل^(٣٧) .

غَيْرَ مُحْلَىٰ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ . أى: أحلت لكم هذه الأشياء من غير أن تستحلوا الصيد وأنتم محرمون . فلا يجوز لكم الاصطياد - أو الانتفاع بالمصيد - ما دمت محرمين، فإذا تحللت من إحرامكم، فلا جناح عليكم أن تصيدوا، أو تنتفعوا بالمصيد، ولكن في غير الحرم .

أما الحرم، فلا يحل الاصطياد فيه، ولا الانتفاع فيه، سواء في ذلك المحرم وغير المحرم . وهكذا يقيم الإسلام منطقة أمان في بيت الله الحرام وما حوله، كما يقيم فترة أمان في الأشهر الحرم: حتى يتمرن الإنسان على السلام والأمن والأمان .

قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص: ٥٧)

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ . أى: أن الله سبحانه يقضى في خلقه بما يشاء، ومن ذلك تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه حسبما يعلمه سبحانه من المصالح لعباده، لا حسب شهواتهم وأهوائهم - فعلى العباد أن يمتثلوا أمره تعالى، ويجتنبوا نهيه، وفاء بعهده، سواء أدركوا حكمة التشريع، أم لم يدركوها .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٠﴾

المفردات:

شعائر الله : جمع شعيرة، وهى: العلامة، والمراد: ما جعل شعارا وعلامة للنسك. من مواقف الحج.
الشهر الحرام : الأشهر الأربعة التى حرمها الله وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم ، ورجب .
الهـدى : ما يهـدى إلى الحرم الشريف من الأنعام .
القلائد : جمع قلادة، وهى: ما يُعلّق فى عنق الأنعام. علامة على أنها هدى .
والمراد: ذوات القلائد .

أَمِيْن : قاصدين .

لا يجرمَنَّكم : لا يحملنكم .

شَنَاٰن : بُغْض .

صَدُّوكُمْ : منعوكم .

الـــــــبر : كلمة تجمع وجوه الخير .

الإثم والعُدوان : الإثم : الذنب مطلقا . والعُدوان : خاص بما يقع على الغير .

التفسير:

٢- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ... أى: لا تستبيحوا وتنتهكوا أية شعيرة من شعائر الدين: فى الحج أو غيره؛ لأنه يؤدى إلى الاستخفاف بالشرع، وذلك كفر بالله تعالى؛ لأنه هو المشرع.

جاء فى صفوة التفاسير للصايرنى :

أى: لا تستحلوا حرمانات الله، ولا تتعدوا حدوده، قال الحسن: يعنى شرائعه التى حددها لعباده، وقال ابن عباس : ما حرم عليكم فى حال الإحرام .

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ . أى: ولا تستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم، وذلك لحرمة القتال فيها، والأشهر الحرم هى: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ . كذلك نهاهم الله عن أن يعتدوا على الهدى الذى يهدى إلى الحرم، من الأنعام، لينتفع به عباد الله، أو أن يعتدوا على ما قلد من هدى الأنعام، فجعلت فى عنقه قلادة من لحى شجر الحرم للدلالة على أنه مهدى إلى بيت الله الحرام .

وخصَّ القلائد بالنهى عن الاعتداء عليها - مع أنها داخلة فى الهدى - تشريعاً لها واعتناءً بها . والمراد من إحلال الهدى والقلائد المنهى عنه - غضبها أو منعها من بلوغ محلها أو إصابتها بسوء .

وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً . أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام لحج أو عمرة، نهى تعالى عن الإغارة عليهم، أو صدمهم عن البيت كما كان أهل الجاهلية يفعلون .

وتكرار لآ . أربع مرات فى وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلَا الْهَدْيَ ، وَلَا الْقَلَائِدَ ، وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ . للدلالة على أن قوة التحريم فى كل واحدة .

ونذكر كل واحدة من هذه المنهيات الخمس منفردة، مع أنها مجملة فى شعائر الله ؛ لأهميتها .

يَتَتَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً . أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام - الذى من دخله كان آمناً - وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغباً فى رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه، ولا تهيجوه، قال مجاهد وعطاء فى قوله: يَتَتَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً . يعنى بذلك التجارة .

وقال ابن عباس: وَرِضْوَاناً : أى: يترضون الله بحجهم .

وقد ذكر عكرمة والسدى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى (الحطيم بن هند البكرى) كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت .

فأنزل الله عز وجل : وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَوْنَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ^(١٣٧) .

وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا . أى: إذا فرغتم من إحرامكم، وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد، وهذا أمر بعد الحظر .

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا . أى: ولا يحملنكم بغض قوم كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فقتلتموهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد، وهذا المعنى نجده أيضاً فى قوله سبحانه: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى .

وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السماوات والأرض، وقال ابن أبي حاتم، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه، حين صدهم المشركون عن البيت، وقد اشتد ذلك عليهم، فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة، فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله هذه الآية، والشتان هو البغض، وهو مصدر من شناه أشنؤه شناناً.

وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . أَيْ: تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما يقرب إلى الله .

قال ابن كثير:

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات - وهو البر - وترك المنكرات - وهو التقوى - وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .

روى البخارى وأحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قيل: يا رسول الله، هذا نصرت مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره» . (٣٨).

وفى الصحيح «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (٣٩).

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أَيْ: خافوا عقابه؛ فإنه تعالى شديد العقاب لمن عصاه .

قال صاحب الظلال:

«وهو تعقيب لتهديد من لا يتقى، ومن لا يفى بالعقد الأول، ومن تجرّفه دفعة الشتان إلى شاطئ العدوان . إنها قمة في ضبط النفس، وفي سماحة القلب، وفي انتهاج العدل، يحدو إليها هذا القرآن ويأخذ بيد البشر في طريق الإيمان، دون ما عنت ودون ما حرج، فهو يعترف للنفس البشرية بأن من حقها أن تغضب، ومن حقها أن تكره، ولكن ليس من حقها أن تعتدى على الناس مطاوعة لما فيها من شتان، ثم يحدو لها بعد ذلك بنشيد البرّ ونشيد التقوى، لتتخلص من عقابيل الشتان، فيكون في هذا تربية للنفس، بعد أن يكون فيها ضمان للعدل، في غير ما كبت للفطرة ولا إعانت» (٤٠).

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ
وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا
بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَمُوتُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ
أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي
مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾﴾

المفردات:

أهلٌ لغير الله به : الإهلال: رفع الصوت. والمراد مما أهل لغير الله به: ما ذكر غير اسم الله عليه عند الذبح.

المنخنقة : ما مات خنقاً .

الموقوذة : هي التي ضربت حتى ماتت .

المتردية : ما سقطت من علو فماتت .

والنطيحة : ما نطحها غيرها حتى ماتت .

السبع : كل حيوان مفترس .

ذكيتم : ذبحتم ذبحاً شرعياً .

النصب : جمع نصاب . وقيل: واحد الأنصاب ، وهي أحجارٌ نصبوها حول الكعبة. وكانوا
يذبحون عليها ويعظمونها .

تستقسموا : تطلبوا معرفة ما قسم وقدر لكم .

بالأزلام : جمع زلم، وتسمى القداح ، وهي سهام كانت عندهم في الجاهلية يطلبون بها
معرفة ما قسم لهم بتناولها ، من نحو كيس وضعت فيه .

فسق : خروج عن طاعة الله .

يئس : اليأس : انقطاع الرجاء .

مخصصة : شدة الجوع .

متجانف لإثم : مائل إلى الإثم ، من الجنف ، وهو : الميل .

التفسير:

٣- حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... الآية

بعد أن ذكر الله - سبحانه - أنه أحل بهيمة الأنعام، شرع في بيان المحرمات منها التي استثناهما بقوله: إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، وهي عشرة أنواع:

١ - الْمَيْتَةُ. وهي التي ماتت بدون تذكية مشروعة: لأن الغالب فيها: أنها ماتت من مرض، فلا يحل أكلها؛ لما فيها من الضرر؛ ولأنها تعافها الأنفس .

٢ - وَالدَّمُ. والمراد به: الدم السائل. وحكمة تحريمه: أن فيه من الجراثيم والفضلات ما يؤدي من يتناوله. بخلاف المتجمد منه، وهو الكبد والطحال وما يتخلل اللحم، فإن هذه ليست من الدم المسفوح، وليست محرمة .

٣ - وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ. والمراد: لحمه ودهنه، وكل شيء فيه . وذلك: لخبثه وللأضرار التي تنشأ عن أكله .

٤ - وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . أصل معنى الإهلال: رفع الصوت، وكان أهل الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم؛ رافعين أصواتهم بذلك .

والمراد منه: ما ذبح على غير اسم الله؛ لأن الذبح لغير الله فيه تعظيم لذلك الغير . والآكل من هذا المذبوح مشارك في التعظيم لغير الله .

٥ - وَالْمُنْخَنِقَةُ. وهي التي ماتت خنقاً ولم تذبح، وذلك: لاحتباس الدم فيها سواءً أكان الخنق بفعلها أم بفعل غيرها، فإنها لا تحل .

٦ - وَالْمَوْقُوذَةُ. وهي التي قذفت بمنقل كالحجارة ونحوها، حتى ماتت. من الوقذ . أي: من الضرب، ولم تذبح ذبحاً شرعياً .

٧ - وَالْمُتَرَدِّيةُ. وهي التي سقطت من مكان عال، أو هوت في بئر فماتت من التردى .

٨ - وَالنَّطِيحَةُ. وهي التي نطحتها غيرها فأماتتها .

٩ - وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ: أي: ما افترسها السبع وأكل منها، فلا يؤكل ما بقى، وكذا الحكم لو افترسها فماتت ولم يأكل منها . وهذه الأنواع من المنخنقة - وما عطف عليها - إن أدركت وبها حياة فذكيت ذكاة شرعية؛ حلَّ أكلها .

واشترط الأحناف فى الحياة. أن تكون فوق حياة المذبح .

وقال غيرهم: يكتفى فيه أن تدرك وبها حياة فى الجملة كأن تطرف عينها . أو تضرب برجلها أو غير ذلك . فمتى أدركها الإنسان وبها مثل هذا النوع من الحياة فذكأها – أى: ذبحها – حل أكلها.

١٠- وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ: والنصب حجارة نصبها أهل الجاهلية حول الكعبة . وكانوا يذبحون عليها، تقرباً للأصنام . وهو حرام ؛ لأن فى هذا الذبح تعظيماً للأصنام، وهو إشراك بالله سبحانه وتعالى. وهذه المحرمات التى ذكرها الله تعالى، إنما حرمت لأن فيها إضراراً بالصحة والعقيدة .

وَأَنْ تَسْقِسُوا بِالْأَزْلَامِ . كانوا يستقسمون بالأزلام، أى: يطلبون معرفة ما لهم وما قدر عليهم، عن طريق الأزلام .

والأزلام: قطع من الخشب على هيئة السهام، وتسمى القداح . وهى ثلاثة: مكتوب على أحدها: أمرنى ربى؛ وعلى الآخر: نهانى ربى . والثالث: غفل من الكتابة . وكانوا فى الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً، أو غزواً، أو زواجاً أو بيعاً أو نحو ذلك . أتى إلى بيت الأصنام أربابهم: ليطلب معرفة ما قسم له من هذا الذى أراد: أيقدم عليه ؟ أم يحجم عنه ؟ فيحرك هذه الأزلام، فإن خرج الذى عليه، أمرنى ربى؛ أقدم على الفعل. وإن خرج على الذى عليه، نهانى ربى؛ أمسك. وإن خرج الثالث وهو الغفل؛ أعاد ثانياً حتى يخرج الأمر أو النهى .

وهذا من الخرافات والأوهام، التى لا يقدم عليها إلا من سيطر على عقله الجهل . وجعل نفسه ألعوبة فى أيدي الكهان، ومن يدعون معرفة الغيب .

والإسلام برىء من كل ذلك: فطلب معرفة الحُظِّ – عن طريق التنجيم وضرب الرمل والودع، وفنجان القهوة وما شابه ذلك – من الأمور التى لم يشرعها الله .

وإنما حرم الاستقسام، ومعرفة النصيب على هذا الوجه وما شابهه ؛ لأن خروج ورقة أو نحوها: عليها أمرنى ربى أو : نهانى ربى – رجم بالغيب، وتقولُ على الله تعالى؛ لأنه لا يمكن تعرف أمر الله أو نهيهِ بمثل هذا الطريق ؛ لأن الله لم يعط هذه الكائنات – أو غيرها – معرفة قدره الذى استأثر بعلمه . قال تعالى: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (لقمان: ٣٤)، فكيف نطلب العلم عن طريقها وفاقد الشيء لا يعطيه ؟

وإن أولئك الذى يلجأون إلى العرافين والمنجمين ونحوهم، إنما يتركون جانب الله العليم القديم، ويركضون إلى أدعياء يجهلون كل شيء عن مراد الله تعالى، ويعرضون أنفسهم لسخط الله، إلى جانب إهدار عقولهم وبذل أموالهم فيما يضرهم ولا ينفعهم .

ولقد علمنا رسول الله ﷺ - الاستخارة في الأمور كلها. وهي من الالتجاء إلى الله تعالى: أن يقدر الخير لفاعلها ويرضيه به .

روى البخارى من حديث جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها، كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدر بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم . فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال: عاجل أمرى وأجله - فاقدره لى، ويسره لى، ثم بارك لى فيه . وإن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمى حاجته - شر لى فى دينى ومعاشى، وعاقبة أمرى - أو قال: فى عاجل أمرى وأجله - فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى - أو أرضنى - به »^(١) .

هذه هى الاستخارة المشروعة لمن أراد أن يوفقه الله لعمل الخير، وخير العمل .

ذَلِكُمْ فَسَقُوا. المشار إليه، هو: كل ما ذكر من المحرمات السابقة: لأن ارتكاب شيء منها خروج عن طاعة الله تعالى، وعن دينه وشرعه . ولذلك كانت فسقا .

الْيَوْمَ يَنْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ. المراد باليوم: يوم نزول هذه الآية، وهو عشية عرفة: عام حجة الوداع كما رواه الشيخان عن عمر رضى الله عنه .

وقد أخبر سبحانه وتعالى، عباده المؤمنين، بأن الكفار قد انقطع رجائهم من زوال دين الإسلام، أو النيل منه ومن أتباعه . فقد بدل الله المؤمنين من ضَعْفهم قوة، ومن خوفهم أمناً، ومن فقرهم غنى. فوجب عليهم ألا يَخْشَوْا إلا الله، وألا يرهَبوا أحداً سواه .

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. وقد أكمل الله الدين لعباده، فبين حلاله وحرامه. فليسوا فى حاجة إلى تحليل أو تحريم بعد ذلك . وما كان من حكم غير منصوص، جاء عن طريق: الإجماع، أو القياس - فهو مستمد من الكتاب أو السنة .

وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي. وأتم الله عليهم نعمة النصر على الأعداء، والغلبة عليهم. فأصبحت لهم اليد العليا، ودخلوا مكة ظافرين منتصرين، وأدوا المناسك آمنين مطمئنين، وهُدِمَت معالم الجاهلية، وأبطلت مناسكها، وانتشر الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . واختار الله لهم الإسلام ديناً .. فمن طلب الهدى فى غيره، فقد ضل سواء السبيل، وخسر خسارنا مبينا: وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (آل عمران: ٨٥).

وينزل قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا. عرف رسول الله ﷺ، أن رسالته تمت، وأن أجله اقترب، وأنه عما قريب – لاحق بالرفيق الأعلى .

فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . هذا الجزء من الآية يتصل بقوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ . إلى قوله: وَأَنْ تَسْقِسُمُوا بِالْأَزْلَامِ . وقد توسط قوله تعالى: ذَلِكَمْ فَسُقْ . إلى هنا؛ لتأكيد التحريم لما تقدم ذكره؛ لأن تحريم هذه الخبائث، من جملة الدين الكامل.. أى: ما ذكر من المحرمات السابقة – محظور تناول أى شئ منه فى حالة الاختيار، ولكن قد يقع الإنسان فى الأضرار بأن تصيبه مخمصة – أى مجاعة – فتضطره إلى تناول شئ من هذه المحرمات؛ إنقاذاً لحياته؛ لأنه لا يجد غيرها أمامه. فكان من رحمة الله بعباده: أَنْ رَفَعَ الْحَرَجَ عَنِ الْمَضْطَرِ إِذَا تَنَاوَلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَحْرَمَاتِ، بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ. أى: غير مائل إلى الإثم . وذلك بتجاوزه حد الضرورة. ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. أى: لا يؤاخذ الله من يضطر إلى ذلك. وهذا من مظاهر رحمته سبحانه .

وقد قررت الآية مبدأين من مبادئ التشريع، بنى عليهما كثير من فروع الشريعة :

أولهما: أن الضرورات تبيح المحظورات .

ثانيهما: أن الضرورة تقدر بقدرها .. وهذا من يسر الإسلام وسماحته قال تعالى: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج: ٧٨)

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤﴾
 ﴿الْيَوْمَ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَلٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَلٌ لَهُمْ ۝٥﴾
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِهِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

المفردات:

الطَّيِّبَاتُ : ما طاب من الأطعمة وحل .

الجَوَارِحُ : واحدها: جارحة . وهى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور .

مُكَلِّبِينَ : مبالغين فى تدريبها على الصيد . فالمكَلَّبُ : مُؤَدَّب الجوارح ومدربها على الصيد .

الْمُحْصَنَاتُ : العفيفات .

مُسَافِحِينَ : مجاهرين بالزنى .

أَخْدَانٍ : جمع خدن . وهو الصديق فى السر . يطلق على الذكر والأنثى . والمراد من قوله:

وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ : وَلَا مُسِيرِينَ بِالزنى مع الصديقات .

حَبِطَ عَمَلُهُ : بطل عمله .

التفسير:

٤- يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ لما ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة آية التحريم تحرَّج المسلمون أن يتناولوا شيئاً قبل أن يستيقنوا من حله .

لذلك سألوا رسول الله ﷺ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ ؟

جاء فى تفسير ابن كثير وغيره :

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جبير، أن عدى بن حاتم، وزيد بن المهلهل الطائيين - وكانا أهل صيد - قالوا: يا سول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة .

وإن الكلاب تأخذ البقر والحمر والظباء، فمنه ما ندرك ذكاته ومنه ما تقتله فلا ندرك ذكاته، وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا؟ فنزلت الآية: **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ** ...
 أى: يسألك المؤمنون: ماذا أحل لهم من الطعام؟ فقل لهم يا محمد: أحل لكم ما تستطيعون أكله وتشتهونه مما حل لكم.

قال صاحب الظلال:

وهو جواب يستحق الانتباه، إذ يلقي فى حسهم أنهم لم يحرموا طيباً ولم يمنعوا عن طيب، وأن كل الطيبات ما تزال لهم حلالاً. فلم يحرم إلا الخبيث، والواقع أن كل ما حرم تستقره الفطرة السليمة بطبعها من الناحية الحسية كالميتة والدم ولحم الخنزير، أو ينفر منه الضمير السليم كالذى أهل به لغير الله، وما ذبح على النصب أو الاستقسام بالأزلام.

وهو يضيف إلى الطيبات ما أمسكته الجوارح كالصقر والبهائم - ومثلها كلاب الصيد - المعلمة على الصيد، التى كلبها أصحابها، أى: علموها كيف تكلب الفريسة وتكبلها وتصطادها، وتحفظ بها لا تأكلها، واشترط لحل ما تكلبه الجوارح وتمسكه أن تكون قد أمسكته لحساب أصحابها لا لحسابها هى، وآية ذلك ألا تأكل منه عند صيده؛ ولا تقربه إلا إذا غاب عنها صاحبها فجاعت فإنها إن تكن أمسكت الفريسة لنفسها ولتطعم منها: حرمت الفريسة على الناس، وتركت للذى صاها لنفسه من الجوارح .. **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ**. فلا بد من ذكر اسم الله عند إطلاق الجارح أو كلب الصيد؛ ليكون الصيد حلالاً.

من كتب التفسير:

جاء فى تفسير ابن كثير، وصفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابونى والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ما نوجزه فيما يأتى:

وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ .. أى: اذكروا اسم الله على هذه الجوارح التى علمتموها عند إرسالها.
 روى البخارى وأصحاب السفن من حديث عدى بن حاتم: أن النبى ﷺ قال: «إذا أرسلت كلابك المعلمة، وذكرت اسم الله عليه؛ فكل مما أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون إنما أمسك على نفسه». (١٧).

وعلمة المعلم أن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر وأن يمسك الصيد فلا يأكل منه، وأن يذكر الله عند إرساله، فهذه أربع شروط لصحة الأكل من صيد الكلب المعلم ..

وقد قال بعض الفقهاء : بحرمة أكل الصيد الذي أكل منه الجارح ولم يدركه الصائد حيا: لأنه أمسكه على نفسه، وقال مالك والليث: يؤكل وإن أكل منه الكلب .

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إذا أكل الكلب من الصيد فلا يؤكل منه، ويؤكل صيد البازي وإن أكل منه: لأن تأديب سباع الطير إلى حد ألا تأكل منه متعذر، بخلاف الكلاب، فإنه غير متعذر، وإذا أدرك الصائد ما أكل منه السبع حيا حياة مستقرة، فذكاه - أي: ذبحه - حل أكله اتفاقا؛ لقوله تعالى: وَمَا أَكَلَ السَّيِّئُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ. وإن كانت حياته غير مستقرة ونكاه، فالحكم كذلك عند الجمهور لعموم الآية. قال أبو طلحة الأودي: «سألت ابن عباس عن ذئب عدا على شاة فشق بطنها، ثم انتثر قصبها - أي أمعاؤها - فأدركت ذكاتها، فذكيتها، فقال: كل، وما انتثر من قصبها فلا تأكل» .

قال إسحاق بن راهويه: السنة في الشاة، على ما وصف ابن عباس، فإنها - وإن خرجت أمعاؤها - فهي حية بعد، وموضع الذكاة منها سالم، وإنما ينظر - عند الذبح - أحية هي أم ميتة؟ ولا ينظر إلى ما أصابها: هي تعيش معه أم لا؟ قال ابن إسحاق: ومن خالف هذا: فقد خالف جمهور الصحابة وعامة العلماء .

وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ . هذا أمر بتسمية الله تعالى عند إرسال الكلب والطير على الصيد، فالحكم في التسمية عنده كالحكم فيها عند الذبح .

وقيل: هو أمر بالتسمية على الصيد عند الأكل منه .

قال اللؤسى: وهو بعيد، وإن استظهره أبو حيان^(١٣) .

واستدل العلماء بهذه الآية على جواز تعليم الحيوان وضره للمصلحة: لأن التعليم يحتاج إلى ذلك، وعلى إباحة اتخاذ الكلب للصيد، ومثله للحراسة، والانتفاع به فيما يحقق المصالح العامة، مثل تعقب اللصوص، وإنقاذ الغرقى، وقيادة العميان .

٥ - الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ..

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ . أي: أبيع لكم المستلذات من الذبائح وغيرها، وفي هذا دليل على سماحة الإسلام ويسره ورغبة الله الكريم في أن يتمتع عباده بالطيبات من الحلال في الطعام . والثياب والزواج والمسكن والدابة وشئون الحياة في غير ما إسراف ولا خيلاء. وفي الحديث النبوي الشريف: «كل ما شئت والبس ما شئت ما تجنبك انتتان الإسراف والمخيلة»^(١٤)

وَعَلَامُ الدِّينِ أَوْتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ: أى ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم .

وَعَلَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ: أى: ذبائحكم حلال لهم فلا حرج أن تطعموهم وتبيعوهم لهم .

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ: أى: وأبيع لكم - أيها المؤمنون - زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات.

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ: أى: وزواج الحرائر من الكتابيات - يهوديات

أو نصرانيات - وهذا رأى الجمهور، وقال عطاء: قد أكثر الله المسلمات وإنما رخص لهم يومئذ .

إِذَا اتَّيَمَوْهُنَّ أُجُورُهُنَّ: أى: أعطيتموهن مهورهن، وقيد حل المحصنات من المؤمنات، ومن أهل

الكتاب بإتيانهن لتأكيد وجوبها، لا لتوقف الحل على إتيانها، فإن الزواج يحل بالصداق المؤجل، كما يحل إذا تم بدون مهر - وللزوجة مهر المثل .

وسمى الله المهور أجورا: لأنها عوض عن الاستمتاع بهن كما قال ابن عباس وغيره .

وتسمى صداقا: لأنها مشعرة بصدق رغبة باذليها فى الزواج، وقد فرضت لذلك: إعازا للمرأة

وتكريما لها .

وقد أوجب الله أن يكون الغرض من الزواج، الإحصان والعفة، فقال تعالى: مُحْصِنِينَ غَيْرَ

مُسَافِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ ..

يشترط القرآن أن يكون المهر سبيلا إلى الإحصان والزواج الحلال، ولا يجوز أن يكون المال

وسيلة للسفاح والزنى فاتخاذ العشيقة والزنى بها محرم على الرجل والمرأة على السواء، والأخذان:

جمع خدن وهو الصديق ذكرا كان أم أنثى، هنا فى صفة التفاسير للصابونى .

مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ: أى: حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى .

وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ: أى: وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرا، قال الطبرى:

المعنى: ولا منفردا ببغية قد خادنها وخادنته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها .

وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ: أى: ومن ينكر شرائع الإيمان وفروعه، وقوانينه وأحكامه، التى من جملتها:

ما بين من الأحكام المتعلقة بالحل والحرمة .

فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ . فقد بطل عمله، فلا يعتد به، وضل سعيه، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . ويكون في الآخرة من الهالكين .

وتعبير ومن يكفر بالإيمان فيه جدة وطرافة فالكفر في هذه المرة ليس بالله ولا باليوم الآخر، ولا بالدين ولا بشيء منه إنما هو الكفر بالإيمان ذاته. والتنكر لوجدان الإيمان ذاته، ومن فارقهُ: فقد حبط عمله؛ لأنه انبت وابتعد عن الهدى والاعتقاد أصلاً، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

في أعقاب الآية :

«نطلع في هذه الآية على صفحة جديدة من صفحات السماحة الإسلامية؛ فالإسلام لا يكتفى بأن يترك أهل الكتاب لما يعتقدون» .

لا يكتفى بأن يترك لهم هذه الحرية، إنما يشملهم بجو من المشاركة الاجتماعية، والمودة والمجاملة والخلطة فيجعل طعامهم حلاً للمسلمين، وطعام المسلمين حلاً لهم، وكذلك يجعل العفيفات من نساءهم طبيبات للمسلمين، يقرن ذكرهن بالعفيفات من المسلمات وهي سماحة لا يفيض بها إلا الإسلام من بين سائر الأديان .

فإن الكاثوليكى المسيحى ليتخرج من نكاح الأرثوذكسية أو البروتستانتينية أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المتحللون عندهم من العقيدة .

وهكذا يبدو أن الإسلام هو العقيدة الوحيدة التى تسمح بقيام مجتمع عالمى لا عزلة فيه بين المسلمين وأصحاب الديانات الكتابية الأخرى، ولا حواجز بين أصحاب العقائد المختلفة التى تظلمها راية المجتمع الإسلامى .^(١٥)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا! وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

المفردات،

قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ : أردتم القيام إليها وأنتم محدثون .

المرافق : جمع مرفق؛ وهو ما يصل الذراع في العضد .

الكَعْبَيْنِ : العظمين الناتئين من الجانبين . عند مفصل الساق والقدم .

الغَائِطُ : المنخفض الواسع من الأرض . وهو هنا: كناية عن قضاء الحاجة .

لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ : كناية عن الاتصال الجنسي ، أو مطلق المباشرة .

صَعِيدًا : الصعید: وجه الأرض البارز .

طَيِّبًا : طاهرا .

ميثاقه : عهده .

واثقكم به : عاهدكم به .

التفسير،

٦- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... الآية

تأتى هذه الآية فى سلسلة الحديث عن الطيبات، فقد أحل الطيبات من الزوجات ومن الطعام . وهنا حديث عن طيبات الروح وهى: الوضوء والتيمم؛ فالوضوء نظافة للجسد، وطهارة للوجد والروح، وروى مالك وأحمد ومسلم وابن جرير عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء، فإذا غسل يديه،

خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء، فإذا غسل رجليه، خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، حتى يخرج نقيا من الذنوب. ^(١٦)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ إِلَى الصَّلَاةِ وَأَنْتُمْ مُحَدَّثُونَ فَتَوَضَّأُوا بِغَسْلِ وَجُوهِكُمْ، والوجه معروف، وحده طولاً من منبت الشعر المعتاد إلى أسفل الذقن، وحده عرضاً ما بين شحمتي الأذنين، ولا عبرة بالصلع أو غيره.

وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ. أي: اغسلوا الوجه والأيدى مع المرافق.

وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ. وأرجلكم. بالنصب عطفاً على وُجُوهَكُمْ، داخلها فيها في حكم الغسل فواجب الرجلين هو الغسل عند الأكثرين.

والمعنى: امسحوا رؤوسكم واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين معهما.

قال الرمخشى: وفائدة المجيء بالغاية إِلَى الْكَعْبَيْنِ. لدفع ظن من يحسبها ممسوحة؛ لأن المسح لم تضرب له غاية في الشريعة، وفي الحديث «ويل للأعقاب من النار» ^(١٧) وفي قراءة وَأَرْجُلَكُمْ بِالْجَرِّ، عطفاً على رُءُوسِكُمْ. ولا يفيد ذلك أن الواجب في الرجلين هو المسح، بل للإيذان بأنه لا ينبغي الإسراف في غسلهما، والمسح هنا محمول على الغسل كما صرح به كثير من أهل اللغة.

يقال للرجل إذا توضع: تمسح، ويقال: مسح المطر الأرض: إذا غسلها.

ويرى الشيعة الإمامية: أن الواجب في الرجلين هو المسح، أخذاً من قراءة الجر.

وأوجب داود الظاهري: الجمع بين المسح والغسل فيهما؛ مراعاة للقراءتين.

والأرجح هو رأى جمهور الفقهاء.

والمذكور في الآية من فرائض الوضوء: غسل الوجه، وغسل اليدين مع المرفقين، ومسح الرأس، وغسل الرجلين مع الكعبين.

على خلاف بين الفقهاء في المقدار الممسوح من الرأس، فيرى المالكية والحنابلة أن المراد: مسح جميع الرأس، ويرى الحنفية أن المراد: ربع الرأس من أى جانب، ويرى الشافعية أن المراد بمسح الرأس: البعض ولو شعرة.

وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا. أي: إن كنتم في حالة جنابة بمخالطة أو احتلام أو غيره، فلا بد من أن تتطهروا بالغسل، وهو تعميم الجسد كله بالماء، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ. أي: وإن كنتم مرضى

ويضرركم الماء أو كنتم مسافرين ولم تجدوا الماء، ومن العلماء من أباح التيمم للمريض والمسافر مطلقاً، ورأى أن التيمم رخصة من الله للمريض، ورخصة للمسافر سواء قدر على استخدام الماء أم لا، وقد بسط هذا القول الشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا فى تفسير المنار .

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ . أَى: أتى من مكان البراز. أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ . أَى: جامعتموهن .

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا . أَى: ولم تجدوا الماء مع طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به .

فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ . هو أن يمسح وجهه بيديه: بضريتين يضر بهما على الصعيد، إحداهما للوجه، والثانية لليدين.

ويكفيه هذا التيمم عن كل من الطهارتين، أو مجموعهما حتى يجد الماء أو يقدر على استعماله بزوال عذره .

وهو تيمم لكل فريضة مع نوافلها، أو يصلى به ما شاء من فرائض ونوافل ؟ خلاف بين الفقهاء .

مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ . أَى: ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء والغسل والتيمم تضيقاً عليكم أو تكليفكم بما يشق عليكم.

وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ . ولكن يريد بما شرعه لكم منها أن يطهركم من الأدناس والأقذار، والذنوب والأوزار: لأن الوضوء والغسل فيهما نظافة للجسم، وطهارة من الذنوب والخطايا .

وَلِيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ . ببيان شرائع الإسلام، فى الوضوء والغسل والتيمم .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . ولكى تشكروه دائماً على نعمه، بطاعتكم إياه فيما أمركم به .

٧ - وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ... الآية

أَى: تذكروا نعم الله عليكم إذ هداكم للإيمان وأرسل إليكم محمداً ﷺ .

وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . أَى: واذكروا ميثاقه وعهده الذى أخذه عليكم بالسمع والطاعة، والمراد بالميثاق هنا: هو الميثاق الذى أخذه عليهم، حين بايعهم الرسول ﷺ فى العقبة الثانية، سنة ثلاث عشرة من النبوة على السمع والطاعة فى حال اليسر والعسر، والمنشط والمكره، كما أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبادة بن الصامت .

وإضافة الميثاق إلى - تعالى - مع صدوره عن النبى ﷺ؛ لكون المرجع إليه سبحانه وتعالى.

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أى: راقبوا الله فإنه عليم بخفايا نفوسكم فيجازيكم عليها.

وذات الصدور: تعبير مصور عن النيات التى اشتملت عليها الصدور.

أى: راقبوا الله فى سركم وعلايتكم، وفى كل ما تأتون وما تذررون؛ فهو سبحانه مطلع على السرائر، عليم بخفايا الصدور لا تخفى عليه خافية.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

المفردات:

قَوَّامِينَ: أى: قائمين حق القيام.

بِالْقِسْطِ: بالعدل.

لَا يَجْرِمَنَّكُمْ: لا يحملنكم.

شَنَاَنُ: بغي وعداوة.

خَبِيرٌ: عالم بكل الأمور على وجه الدقة.

التفسير:

٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... الآية

أى: كونوا مبالغين فى الاستقامة بشهادتكم لله وصيغة قوام للمبالغة.

والآية توجيه من الله لعباده المؤمنين أن يكون دأبهم دائما القيام لله بحقوقه، فى أنفسهم بالعمل الصالح، وفى غيرهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ: أن يؤدوا الشهادة بالعدل على وجهها الصحيح، من غير مراعاة لقربة أو صداقة، ومن غير محاباة أو مجاملة.

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا. أى: ولا يحملنكم بغض قوم أو عداوتهم - على أن تجوروا فى حكمكم، أو تغيروا فى شهادتكم.

اعْدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى. أى: أن العدل هو أقرب الطرق الموصلة إلى تقوى الله وخشيته، وأنسب الطاعات لها .

وَاتَّقُوا اللَّهَ . راقبوه فى أعمالكم؛ فالتقوى ملاك كل أمر .

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . إن الله سبحانه وتعالى - عليم بدقائق أموركم وسيجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

★ ★ ★

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ ﴾

التفسير:

٩ - وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. تكفل الله بجزاء المؤمنين الذين قاموا بواجب الإيمان وقدموا الأعمال الصالحة بأن يغفر ذنوبهم ويجزل ثوابهم بالأجر العظيم وهو وعد من الله العادل الذى لا يخلف وعده سبحانه المتفضل بالجزاء والثواب .

١٠ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... الآية. أى: كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله، وآياته التى أقامها فى الأنفس والأفاق؛ للدلالة على وحدانيته، وكمال قدرته وسائر صفاته .

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. هؤلاء يستحقون عذاباً شديداً فى نار تتأجج يلازمونها ملازمة صاحب الدار لداره .

★ ★ ★

﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا
إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

المضردات:

يبسطوا إليكم أيديهم : يبطشوا بكم .

فكف أيديهم عنكم : فمنعهم عن إيذاكم .

التفسير:

١١- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... الآية

ورد في سبب نزول هذه الآية، ما رواه مسلم وغيره من حديث جابر - أن المشركين رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم بعسفان، قد قاموا إلى صلاة الظهر معاً، فلما صلوا، ندموا ألا كانوا أكبوا عليهم. وهموا أن يوقعوا بهم، إذا قاموا إلى صلاة العصر بعدها؛ فرد الله - تعالى - كيدهم، بأن أنزل صلاة الخوف وقد يكون هذا عندما هم المشركون يقتال المسلمين في عام الحديبية^(١٢).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ. أى: اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم.

إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَسْطُوْا اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ. أى: يبطشوا بكم بالقتل والهلاك.

فَكَفَّ اَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ. أى: عصمكم من شرهم، ورد أذاهم عنكم.

وَاقْتُوا اللَّهَ. بامتنال أمره واجتناب نهيه. وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. أى: فليثق المؤمنون بالله فإنه كافيههم وناصرهم.

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

المعطرات:

ميثاق: الميثاق: العهد المؤكد - بين طرفين - فى شأن هام.

نَتَقِيْبَا ، النقيب: هو كبير القوم ، المعْنَى بِشَأْنِهِمْ .

إِنْسِي مَعَكُمْ ، ناصركم ومعينكم .

عَزَزْتُمُوهُمْ ، أزرتموهم ونصرتموهم .

أَفَرَضْتُمْ اللَّهَ ، أَنْفَقْتُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ نَفَقَةً طَيِّبَةً .

لَعَنَاهُمْ ، اللعن: الطرد من الرحمة .

قَاسِيَةً ، شديدة غليظة ، لا تقبل خيرا .

خَائِنَةٌ مِنْهُمْ ، خيانةٍ وَغَدِرٍ مِنْهُمْ .

التفسير:

١٢- وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ... الآية.

بعد أن أمر الله - سبحانه وتعالى - بالوفاء بالعهد، وَذَكَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمِيثَاقِهِ الَّذِي وَاثَقَهُمْ بِهِ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ - ذَكَرَ بَعْضَ مَا صَدَرَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ، وَمَا كَانَ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَيْهَا: لِيَتَعِظَ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَعْمَلُوا عَلَى حِفْظِ نِعَمِ اللَّهِ - تعالى - بِمِرَاعَاةِ حَقِّ الْمِيثَاقِ، وَتَحْذِيرِهِمْ مِنْ نَقْضِهِ، فَقَالَ:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ . أَيْ: لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ الْعَهْدَ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ: أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِى التَّوْرَةِ، وَيَقْبِلُوهَا بِجَدٍّ وَنَشَاطٍ.

وقد أخذ الله عليهم مواعيق فرعية تتصل بما كلفهم الله به، ومنها ما سيأتى فى الآية التى معنا. وقد سبق بيان بعض المواعيق التى أخذت عليهم؛ فى سورتى البقرة، وآل عمران. فارجعُ إليها وإلى شرحها إن شئت .

وَعَبَّأْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَاقِيًا . وَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْ يَخْتَارَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا دِينِيًّا يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَ الْأَسْبَاطِ، وَيَقُومُونَ عَلَى رِعَايَتِهِمْ، ففعل، وَبِعَثْمِهِمْ يَتَحَسَّسُونَ الْعَدُوَّ لِيَقَاتِلُوهُ .

وَقَالَ اللَّهُ إِنِّ مَعَكُمْ . بِالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَلَى أَعْدَانِكُمْ. أَوِ الْمُرَادُ مِنْهُ: أَنَّهُ مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ: يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ وَيَعْلَمُ ضَمَائِرَهُمْ، وَأَنَّهُ مَجَازِيهِمْ عَلَى مَا يَحْدُثُ مِنْهُمْ .

لَنْ أَقِمَّتُمْ الصَّلَاةَ . أَيْ: أَدَيْتُمُوهَا حَقَّ أَدَائِهَا .

وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ . أَيْ: وَأَعْطَيْتُمُوهَا مُسْتَحَقِّيَهَا . مِنْ مَالٍ طَيِّبٍ . وَكَسَبَ حَلَالٍ .

وَأَمَّنْتُمْ بِرُسُلِي . كلهم .

وَعَزَّزْتُمُوهُمْ . نصرتموهم وجاهدتم الأعداء معهم .

وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . أى : أنفقتم فى سبيل الله : عن طيب نفس دون منْ أو حُبٍّ للفخر والرياء .

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ : لأمحون ذنوبكم .

وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . أى : ولأدخلنكم - فى الآخرة - جناتٍ تجري من تحت أشجارها الأنهار . تتنعمون فيها بما أعد لكم من النعيم .

وقد أكد الله - تعالى - وعيده بالقسم وغيره من التوكيدات؛ ليحملهم على تنفيذ ما عاهدوا الله عليه .

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . أى : فمن كفر منكم - بعد ذلك الوعد بالنصر، وتكفير السيئات وإدخال الجنات، بأن نقض العهد والميثاق - فقد حاد عن الصراط السوى: الذى رسمه الله لهم؛ كى يسيروا عليه .

ولكن بنى إسرائيل لم يوفوا بعهدهم، ونقضوا الميثاق، الذى أخذه الله عليهم؛ فعاقبهم الله تعالى، وفى ذلك يقول سبحانه :

١٣- فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ... الآية

تعرض الآية النتائج المترتبة على موقفهم من الميثاق . فتقول:

فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ . أى : فبحسب نقضهم عهدهم المؤكد

لَعَنَاهُمْ . أى : طردناهم من رحمتنا عقوبة لهم ؛ لأنهم قد فسدت فطرتهم .

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً . أى : أورثنا قلوبهم الغلظة والقسوة . فهى لا تلين، ولا تنفذ إليها الحجة، ولا تؤثر فيها الموعظة .

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . أى : يغيرون كلام الله فى التوراة، بالمحو والإثبات والزيادة والنقصان، وسوء التأويل .

وَسَبَّوْا حُطًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ . أى : وأعرضوا عن بعض ما أمروا به فى التوراة، من اتباع الرسول ﷺ والإيمان به، وغير ذلك . وإنما قال: يُحَرِّفُونَ، ولم يقل: حَرَّفُوا؛ للدلالة على أن هذا الخلق طبع فيهم ؛ تتجدد آثاره أننا فأننا .

ولذا قال الله - تعالى - لنبيه عقب ذلك .

وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ . أَيْ: إن الغدر والخيانة عادة مستمرة لليهود . منتقلة فيهم، من الأصول إلى الفروع . فلا تزال - أيها الرسول - تطلع من هؤلاء اليهود المعاصرين . على خيانةٍ إثر خيانة . فهم قومٌ لا عهد لهم، ولا وفاء عندهم .

لقد دمغتهم الكتب السماوية بالغدر والخيانة والقسوة، فرماهم نبيهم أرميأ بالكذب والسرقة والزنى والشرك . وأنهم حولوا بيت الله إلى مغارة لصوص^(١٩) .

ورماهم السيد المسيح - عليه السلام - بأنهم مثل القبور المبيضة من الخارج، المليئة بالجيف من الداخل، ووصفهم بأنهم الحيات، أولاد الأفاعى . وأنهم قَتَلُوا الأنبياء والحكماء، وجعلوا بيت الله مغارة لصوص^(٢٠) .

والآيات القرآنية العديدة تؤيد هذه الصفات .

إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ . وهم من آمنوا بك، واتبعوك كعبد الله بن سلام وأمثاله من الذين آمنوا بالله ورسوله، فلا تظن بهم سوءاً، ولا تخف منهم خيانة: لأن الله طهرهم بالإسلام .

فَأَعَفُ عَنْهُمْ وَاَصْفَحَ . فاعفُ عما فرط من هؤلاء اليهود، واصفح عمن أساء منهم وعاملهم بالإحسان: تأليفاً لهم، فلعل الله أن يهديهم .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وأنت أحق الناس بالاتصاف بالإحسان واتباع ما يحبه الله .

★ ★ ★

﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْهُمُ مَقَاتِلَهُمْ فَكَفَرُوا بِمَا
ذَكَرُوا بِهِ فَأَعْرَضْنَا عَنْهُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ
يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١٦)

المفردات:

نصــــارى : جمع نصران، كندمان وندامى ، ولم يُستعمل إلا بياء النسب، وقد صارت كلمة «نصرانى» لقباً لكل من اعتنق المسيحية . قيل: لقبوا أنفسهم بذلك، على معنى أنهم أنصار الله . وقيل: نسبة إلى الناصرة بلدة بالشام، واستقر بها المسيح بعد رجوع أمه به من مصر إلى الشام .

حَظًّا ، نصيباً أو مقدارا .

فأغرينا بينهم العداوة ، أى: فألقينا بينهم العداوة .

التفسير:

١٤- وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ... الآية

أى: ومن الذين ادعوا أنهم أنصار الله، وسمّوا أنفسهم بذلك . أخذنا منهم أيضا الميثاق على توحيد الله والإيمان بمحمد رسول الله .

فَسَوْفَ حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ .. أى: فتركوا ما أمروا به فى الإنجيل من الإيمان بالأنبياء ونقضوا الميثاق.

فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . أى: ألزمتنا والصقنا بين فرق النصارى العداوة والبغضاء إلى قيام الساعة .

قال ابن كثير : ولا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضا، ويلغى بعضهم بعضا، وكل فرقة تمنع الأخرى دخول معبدها .

وقال صاحب الظلال : لقد نسى النصارى جانباً من تعاليم السماء، نسوا الجانب الأساسى فيها، وهو التوحيد الذى تقوم عليه، وعند هذا الانحراف كان الخلاف بين طوائف النصارى التى لا تكاد تعد، إذ إن هنالك فرقا كثيرة صغيرة داخل كل فرقة من الفرق المعلومة الكبيرة:

الأرثوذكس، والكاثوليك، والبروتستانت، والمارون؛ اليوم، ومن قبل كان اليعقوبيون، والملكانيون والنساطرة .

وهذه العداوة التى يشير إليها النص إنما جاءت من انقسام النصارى من قديم إلى فرق، نشأت من الانحراف عن التوحيد، وتفرقت بها السُّبُل، وهى عداوة حقيقية شهدت المسيحية منذ القرن الأول للميلاد، وكانت على أشدها بين الملكانية واليعاقبة والنساطرة، وهى اليوم على أشدها بين الفرق القائمة فلا يكاد الإنسان يتصور العداء الذى بين الكاثوليك والبروتستانت، أو بينهم وبين الأرثوذكس، أو بين الموارنة والبروتستانت أو سواهم^(١١) .

وَسَوْفَ يَنْبَهُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وسيجازيهم الله - يوم القيامة - بما صنعوا فى الدنيا من نكث العهد، ونقض الميثاق، وتحريفهم الكتاب الذى أنزل عليهم .

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

المفردات:

نور: المراد به: محمد ﷺ.

كتاب مبين: هو القرآن.

سبل السلام: طرق النجاة والسلامة.

التفسير:

١٥- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ... الآية.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير، عن عكرمة أنه قال: إن نبي الله تعالى أتاه اليهود يسألونه عن الرجم، فقال عليه الصلاة والسلام: أيكم أعلم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا، فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام، والذي رفع الطور، وبالمواثيق التي أخذت عليهم، حتى أخذه أكل: (رعدة) فقال: إنه لما كثر فينا: جلدنا مائة وحلقنا الرأس فحكم عليهم بالرجم، فأنزل الله تعالى الآية.

وتفيد كتب أسباب النزول أن التوراة كانت فيها عقوبة الرجم وأن الزنى لما كثر في أشراف اليهود أسسوا عن تطبيق هذه العقوبة، ثم زنى رجل وامرأة من اليهود ولجأ اليهود إلى رسول الله ﷺ لينفذ حكم الله فيهما.

فطلب التوراة فأحضرها فوضعها الرسول ﷺ على وسادة وقال: أمنت بك وبمن أنزلك. وأثبت لهم الرسول ﷺ أن حكم الزاني المحصن هو الرجم، وأن هذا الحكم سبق أن جاءت به التوراة.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ...

الخطاب لليهود والنصارى:

أى: يا معشر أهل الكتاب، قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه فى كتابكم، من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، وغير ذلك مما كنتم تخفونه. وَيَقْفُوا عَنْ كَثِيرٍ. أى: يتركه ولا يبينه، وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه، ولو ذكر كل شىء لفضحكم.

قال فى التسهيل: وفى الآية دليل على صحة نبوته: لأنه بين ما أخفوه وهو أسمى لم يقرأ كتبهم^(١٦)

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ. وهو محمد ﷺ: لأنه أنار الطريق، ووضع السبيل إلى الحق، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيَ إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا. (الأحزاب: ٤٥، ٤٦)

وَكِتَابٌ مُبِينٌ. أى: كتاب واضح ظاهر الإعجاز وهو القرآن الكريم.

١٦- يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ. يهدى الله - بهذا القرآن - من يطلب رضوانه ويبحث عنه، ويقفوا أثره، يهديه إلى سبل السلام الروحى بالاطمئنان إلى عقيدة واضحة سليمة.
وإلى سبل السلام الدينى فلا يكون سببا فى تفرق الناس شيئا، وإلى سبل السلام الاجتماعى والإنسانى.
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ. أى: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته.
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صراط الله الواحد المستقيم، الذى لا يتشعب ولا يتعرج ولا تضل فيه الخطوات.

★ ★ ★

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٧- لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية

خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه الجنة وخلق حواء من آدم؛ لتكون له مسكناً وأماً.
فآدم مخلوق بدون أب أو أم، وحواء من أب دون أم وعيسى من أم دون أب . قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (ال عمران: ٥٩)
فقدرة الله على الخلق والإيجاد معروفة ملموسة، قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس: ٨٢)

وهو سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، ومن قدرة الله أن أتم خلق عيسى بواسطة نفخ جبريل فى جيب درع مريم .

ولما كان خلق عيسى بدون أب، غلا فيه النصارى فزعموا أنه إله أو ابن الله، ولهذا القول الشنيع حكم القرآن عليهم بالكفر ورد عليهم بما يبطل عقيدتهم حيث قال:

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ...

أى: قل لأولئك الكفار - يا محمد - من يقدر أن يمنع الله من شيء أراحه .. ومن ذلك أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً؟ .. لا أحد يستطيع ذلك ... وهم يقرّون به .

وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه - شيئاً؟ فكيف يكون إلهاً وهو لا يستطيع دفع الهلاك عن نفسه ؟

يقول صاحب الظلال: العقيدة المسيحية انتهت إلى: أن تجعل المسيح هو الله - وإن كانت تقول: بالتثليث كذلك - باعتبار قولهم: الله الأب والله الابن، والله روح القدس، وتفسيرهم لهذا التعقيد بأن الله واحد ولكن الأقانيم ثلاثة موحدة فى الله الواحد .. والإسلام يقول: فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا. فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله، وذات عيسى رسول الله، ويقيم التوحيد كاملاً دقيقاً واضحاً لا يحتاج إلى تأويلات غامضة يعز على العقل قبولها: لأنه يعز عليه تصورهما من وراء تلك المعميات^(٤١)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. فهو سبحانه وحده له ملك جميع الموجودات، وله وحده التصرف المطلق فيها، إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً فلا شريك له فى ذلك .

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ . أى: يبدع ما يشاء من المخلوقات - على أى صورة- وفقاً لحكمته جلا وعلا.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وهو القادر على كل شيء من الخلق وغيره، ومن ذلك: أنه خلق عيسى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم .

★ ★ ★

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ فَلَمَّ يَعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

سبب النزول،

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أصاب، ويحري بن عمرو، وشاس بن عدي، فكلّموه وكلمهم رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الله وحده وحزهم نعمته، فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحبّاه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم:

١٨- وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ^(١٨) ... الآية

أى: نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء، ونحن أحبّاه؛ لأننا على دينه .

قال ابن كثير: أى: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا .

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ . أى: قل لهم - يا محمد - إن كنتم كما زعمتم: أبناء الله وأحبّاه، فلاى شيء يعذبكم بذنوبكم، وأنتم مقرون بأنكم ستعذبون على ما ارتكبتم من خطايا كما حكى القرآن عنكم:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً . (البقرة: ٨٠) وهذا يتنافى مع دعوكم القرب من الله ومحبة لكم؛ وإن فلا مزية ولا فضل لكم على سائر البشر ولستم بأبناء الله ولا بأحبّائه .

قال صاحب الظلال: واليهود والنصارى يقولون: إنهم أبناء الله وأحبّاه، فيزعمون لله تعالى بنوة - على تصور من التصورات إلا تكن بنوة الجسد فهى بنوة الروح، وهى أيا كانت تلقى ظلا على عقيدة التوحيد - ويزعمون أن لله تعالى صلة بالخلق، لا تنبع من قيامهم بالحق، ولكن تنبع من عواطف خاصة من الله لذوات اليهود والنصارى^(١٩) .

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ . أى: ما أنتم إلا بشر كسائر البشر من خلق الله، من غير مزية لكم عليهم .

يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ. أَيْ: يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ. بما يعمل من الطاعات، وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ. بما يقدمه من المعاصي، فالأمر كله موكل إلى سنته التي تسري على الجميع سواء، ولا تعترضها عواطف خاصة، ولا صلات شخصية، وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا. فهو مالك الجميع وخالق الجميع والمتصرف في الجميع، وهذه هي الصلة العامة التي تربط كل المخلوقات به، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. ومصير البشر جميعا ومرجعهم إليه تعالى وحده فيجازي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وليس له - سبحانه وتعالى - من خلقه بنون ولا بنات، وليس لأحد عنده من فضل أو مزية على غيره إلا بالإيمان والعمل الصالح.

وفى الأثر: الخلق كلهم عيال الله، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح. قال تعالى: فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. (الزلزلة: ٧، ٨)

★ ★ ★

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

المضردات:

فترة من الرسل، أَيْ: بعد مدة خلت من الرسل.

التفسير:

١٩- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ...

أرسل الله محمداً ﷺ بعد فترة من انقطاع الرسل: ليصحح لأهل الكتاب دينهم ويرشدكم إلى الجادة والصواب.

وقد ولد ﷺ سنة ٥٧٠ ميلادية.

ثم أنزل الله عليه الوحي والرسالة سنة ٦١٠ ميلادية.

ثم هاجر من مكة إلى المدينة سنة ٦٢٣ ميلادية.

ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ٦٣٣ ميلادية.

وكان عمره الشريف ٦٣ سنة.

أى: أن الفترة بين ميلاد المسيح وميلاد الرسول ﷺ ستة قرون إلا قليلا .

قال ابن كثير: والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس السبل، وتغيير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والذيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان قد ظهر فى سائر العباد^(٥٦) .

يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ . يوضح لكم ما اندرس من أحكام، ويبلغكم ما احتاج إليه العصر من شرع جديد، ويصحح ما حدث فى كتبكم من تحريف .

روى البخارى عن أبى هريرة أنه ﷺ قال:

«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه ليس بينى وبينه نبي»^(٥٧)

أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ . أى: لئلا تحتجوا وتقولوا: ما جاءنا من بشير يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم البشير والنذير محمد ﷺ .

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . (الأحزاب: ٤٥)

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

قال ابن جرير: أى: قادر على عقاب من عصاه وثواب من أطاعه .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَنَنْقَلِبُوهَا خَسِرِينَ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات:

ملوكا: أحرارا، عندكم ما تملكون به من أموركم، بعد أن كنتم مملوكين للفراغة .

المقدسة: المعظمة، حيث جعلت مسكن الأنبياء .

تردوا على أذيباركم: ترجعوا على أعقابكم: بعدم امتثال ما أمرتم به .

التفسير:

٢٠- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... الآية

من شأن القرآن أن يلون فى الموعظة، وأن ينتقل القارئ من الخطاب إلى الغائب: ترويحاً للنفس وتنشيطاً للذهن .

والمعنى: واذكر لهم - أيها الرسول - ما حدث من أسلافهم وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه ناصحاً لهم:

يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . تذكروا إنعام الله عليكم، وموسى يذكرهم بألوان النعم التى تفضل الله بها عليهم. ومنها على سبيل المثال:

١- فجر الله لهم من الصخر ينباع فى جوف الصحراء .

٢- أنزل الله عليهم المنّ والسلوى طعاماً سائغاً من أيسر سبيل .

٣- أرسل إليهم الرسل والأنبياء .

٤- فضّلهم على عالمى زمانهم حين اتبعوا أمر التوراة والتزموا بتعاليم السماء .

٥- نجاهم من فرعون وأغرق فرعون وقومه .

٦- ملكهم شئون أنفسهم بعد أن كانوا عبيداً لفرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم فنجاهم منه وجعل أمر أنفسهم بأيديهم .

٧- أنزل التوراة على موسى وفيها الهداية والرحمة لهم .

إلى غير ذلك من النعم؛ ومنها أيضاً قصة البقرة التى أمروا بذبحها وضرب قتيل بذنبها فيقوم ويقول: قتلنى فلان .

إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا . أى: لأنه جعل فيكم أنبياء كثيرين، ولم يبعث فى أمة من الأمم من الأنبياء مثل ما بعث فى بنى إسرائيل .

وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا . أى: جعلكم أحراراً تملكون أمر أنفسكم وأموالكم، بعد أن كنتم عبيداً مستذلين لفرعون وجنده .

وقال عبد الرزاق عن ابن عباس فى قوله: وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا .

قال: الخادم والمرأة والبيت .

وعنه قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار؛ سمي ملكا .

وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار، رواه ابن جرير .

وقال السدي في قوله: وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا، قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله. وقد ورد في الحديث: «من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» .^(٥٨)

وروى ابن جرير الطبري، أن رجلا قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: ألسنا من فقراء المهاجرين؟

فقال عبد الله له: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال نعم .

قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم .

قال: فأنت من الأغنياء .

فقال الرجل: إن لي خادما، قال: فأنت من الملوك .

وَأَتَاكُمْ مَالٌ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . وأعطاكم من النعم ما لم يعط غيركم من العالمين، إذ نجاكم من عدوكم، وشق البحر لكم، وأغرق فرعون وجنوده، وأظلكم بالغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى وغير ذلك .

٢١- يَأْقُومُوا إِدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ... أئى: ادخلوا بيت المقدس وماحوله، ويقال لها: إيليا وتفسيرها: بيت الله.

الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . أئى: قدر لكم دخولها؛ لتنشروا التوحيد بين أهلها . وموسى بهذا يستحثهم على الجهاد والشجاعة والكرامة؛ ليستردوا بيت المقدس من يد العماليق .

وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ .

وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ . أئى: ولا تنكصوا عن الجهاد، وقد حذر القرآن من التخلّى عن الجهاد والفرار من الميدان، وعبر عن الفرار بصورة زرية، صورة إنسان يفرّ من الميدان ويعطى العدو دبره .

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ * وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ

إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . (الأنفال: ١٥، ١٦)

فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . فترجعوا خاسرين في دنياكم وأخراكم .

قال في التسهيل: روى أنه لما أمرهم موسى بدخول الأرض المقدسة خافوا من الجبارين الذين فيها، وهموا أن يرجعوا إلى مصر^(٢٢).

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْنَتُكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مَوَظِّعِينَ ﴿٢٣﴾

المفردات:

جَبَّارِينَ: جمع جبار، وهو العاتى الذى يقهر الناس ويجبرهم على ما يريد منكم.

التفسير:

٢٢- قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. أئ: قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: إن الأرض التى وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على كل من يقاتلهم، ولا قدرة لنا على لقائهم - وهم الكنعانيون ومن جاورهم - وإنا لن ندخل هذه الأرض المقدسة مادام هؤلاء الجبارون فيها.

فإن يخرجوا منها لأى سبب من الأسباب التى لا شأن لنا بها: فإننا ندخلها دون حرب وقتال.

وهذا مطلب عجيب، إذ كيف يخرج أهل البلد الأقوياء الجبارون من بلدهم طواعية، ليدخلها هؤلاء الجبناء فاتحين^(٢٣).

٢٣- قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ... الآية

أئ قال رجلان من الذين يخافون الله، قد أنعم الله عليهما بنعمة التوفيق والسداد، والمراد بالرجلين: يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وكانا من الاثنى عشر نقيباً.

ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ. أئ: قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما: ادخلوا على أعدائكم باب مدينتهم وفاجئوهم بسيوفكم، وبأغتوهم بقتالكم إياهم، ولا تدعوا لهم فرصة للتفكير والاستعداد لكم.

فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ. فإذا فعلتم ذلك: أحزمت النصر عليهم، وأدركتكم الفوز، فإنه «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا».

قال الزمخشري: فإن قلت من أين علما أنهم غالبون؟ قلت: من جهة إخبار موسى بذلك، ومن جهة قوله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ. وقيل: من جهة غلبة الظن وما تبينه من عادة الله في نصر رسله، وما عهد من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفنا من حال الجبابرة ^(٣١).

وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. أى: اعتمدوا على الله في قتال أعدائكم بعد أخذ العدة وتوفير الأسباب فالتوكل أخذ بالأسباب مع الاعتماد على الله تعالى، وبدون الأخذ بالأسباب يعتبر ذلك تواكلا، والتواكل مدعاة للهزيمة.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. أى: إن كنتم مؤمنين بالله حق الإيمان مصدقين بوعدته واثقين بنصره.

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَادِحُونَ﴾ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴿

المضردات:

فافرّق: فافصل.

الفاّسقين: الخارجين عن الطاعة.

يتيّهون في الأرض: يتحيرون ولا يهتدون.

فلا تأس: فلا تحزن.

التفسير:

٢٤ - قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ... الآية

أى: قالوا غير عابئين بالنصيحة، بل معلنين العصيان والمخالفة: يا موسى، إنا لن ندخل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها في أى وقت من الأوقات ما دام هؤلاء الجبارون يقيمون فيها: لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ.

أى: فَإِنْ كُنْتَ مَصْمُوماً عَلَى دُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبِّكَ لِقِتَالِ سَكَانِهَا الْجَبَابِرَةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا - وَكَأَنَّهُمْ يَصُورُونَ اللَّهَ بِأَنَّهُ إِلَهُ مُوسَى وَحْدَهُ، وَلَيْسَ إِلَهًا لِلْجَمِيعِ - أَمَا نَحْنُ فَإِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ مُنْتَظَرُونَ وَهُوَ تَأْكِيدٌ مِنْهُمْ لِعَدَمِ دُخُولِ تِلْكَ الْأَرْضِ .

أى: إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ فِي مَكَانِنَا لِنَنْبِرِحَهُ، وَلَنْ نَتَقَدَّمَ خُطْوَةً إِلَى الْأَمَامِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَجْدٍ وَخَيْرٍ يَأْتِينَا عَنْ طَرِيقِ قِتَالِ الْجَبَارِينَ، فَنَحْنُ فِي غِنَى عَنْهُ وَلَا رَغْبَةَ لَنَا فِيهِ .

٢٥- قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . أى: قَالَ مُوسَى بِأَنَّا شَكَاوَهُ وَحَزَنَهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَعْتَذِرًا إِلَيْهِ مِنْ فَسُوقِ قَوْمِهِ وَسَفَاهَتِهِمْ وَجِبْنِهِمْ:

رَبِّ، إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَمْلِكُ لِنَصْرَةِ دِينِكَ أَمْرَ أَحَدٍ أَلْزَمَهُ بِطَاعَتِكَ سِوَى أَمْرِ نَفْسِي، وَأَمْرَ أَخِي هَارُونَ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجِبْنَاءِ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى الطَّاعَةِ وَالِاسْتِجَابَةِ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ .

فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . أى: إِنْ قَوْمِي قَدْ خَرَجُوا عَنْ طَاعَتِي، وَفَسَقُوا عَنْ أَمْرِكَ وَمَا دَامَ هَذَا شَأْنُهُمْ؛ فَافْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ بِقَضَائِكَ الْعَادِلِ، بِأَنْ تَحْكُمَ لَنَا بِمَا نَسْتَحِقُّ، وَتَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْحَكَمُ الْعَدْلَ بَيْنَ الْعِبَادِ .

٢٦- قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ... الْآيَةَ

يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ مِنَ التِّيهِ وَهُوَ الْحَيْرَةُ، يُقَالُ: تَاهَ يَتِيهِ وَيَتَوَهَّ إِذَا تَحَيَّرَ وَضَلَّ الطَّرِيقَ، وَوَقَعَ فَلَانَ فِي التِّيهِ أى: فِي مَوَاضِعِ الْحَيْرَةِ .

فَلَا تَأْسَ . أى: فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَسَى وَهُوَ الْحُزْنُ، يُقَالُ: أَسَى - كَتَبْتُ - أى: حُزِنْتُ . فَهُوَ أَسِينٌ مِثْلُ حَزِينٍ، وَأَسَا عَلَى مُصِيبَتِهِ - مِنْ بَابِ عَدَا - أى: حُزِنْتُ .

أى: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا مُوسَى، إِنَّ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الْجِبْنَاءِ الْعَصَاةِ مَدَّةَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، يَسِيرُونَ خِلَالَهَا فِي الصَّحْرَاءِ تَائِهِينَ حَيَارَى لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ أَمْرٌ وَلَا يَسْتَقِرُّ لَهُمْ قَرَارٌ، جَزَاءَ جِبْنَتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ عَنْ لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَاسْتِهَانَتِهِمْ بِأَوَامِرِ اللَّهِ .

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . فَلَا تَحْزَنْ يَا مُوسَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْجِبْنَاءِ، إِذْ عَوَّقُوا بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ فَإِنَّا مَا عَاقَبْنَاهُمْ بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ إِلَّا بِسَبَبِ خُرُوجِهِمْ عَنْ طَاعَتِنَا، وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى أَوَامِرِنَا، وَجِبْنَتِهِمْ عَنْ قِتَالِ أَعْدَائِنَا، وَسَوْءِ أَدْبِهِمْ مَعَ أَنْبِيَائِنَا .

من تفسير الفخر الرازي:

جاء في تفسير الفخر الرازي ما يأتي:

اختلف الناس في أن موسى وهارون عليهما السلام هل بقيا في التيه أو لا ؟

فقال قوم: إنهما ما كانا في التيه: لأن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ودعوات الأنبياء مجابة، ولأن التيه كان عذابا والأنبياء لا يعذبون .

وقال آخرون: إنهما كانا مع القوم في ذلك التيه، إلا أن الله سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها برداً وسلاماً .. وإنهما قد ماتا في التيه وبقي يوشع بن نون - وكان ابن أخت موسى ووصيه بعد موته - وهو الذي فتح الأرض المقدسة بعد انقضاء مدة التيه .

وقيل: بل بقي موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة^(١٣).

ملاحق بتفسير الآيات :

١- يدعى اليهود أن الأرض المقدسة حق لهم بدليل قوله تعالى: ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ .

والجواب: أن الله كتب لهم دخولها بشرط الجهاد والطاعة، ولكنهم تناقلوا عن الجهاد وامتنعوا عن دخول الأرض المقدسة بالجهاد والكفاح فحرمها الله عليهم .

قال الفخر الرازي: إن الوعد بقوله: الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . مشروط بقاء الطاعة، فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط^(١٤) .

وبذلك ترى أن دعوى اليهود بأن الأرض المقدسة ملك لهم، بدليل قوله تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ . لا أساس لها من الصحة، ولا يشهد لها عقل أو نقل .

٢- لماذا كانت مدة التيه ٤٠ سنة .

الجواب عن ذلك: أن بنى إسرائيل قد نشأوا في الذل وتعودوا المهانة، ولذلك امتنعوا عن قتال الجبارين، وعن دخول الأرض المقدسة: فكتب الله عليهم التيهان في قطعة محدودة من الأرض، لا يعرفون لهم هدفاً أو مقراً، وأن يستمروا على تلك الحال ٤٠ سنة، حتى يفنى الذل والقهر وينشأ جيل عزيز قادر على المطالبة والتغلب .

ولقد كان بنو إسرائيل - في هذا الوقت - في سيناء - ثم إن اليهود لما دخلوا فلسطين - بعد هذه العقوبة - مكثوا فيها مدة محدودة، ثم أشركوا بالله، وأفسدوا في الأرض فسلط الله عليهم من ينتقم منهم ويطردهم من بيت المقدس .

٣- من مقدمة ابن خلدون:

قال ابن خلدون: ويظهر من مساق قوله تعالى: **قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ...**

ومن مفهومه أن حكمة ذلك التيه مقصودة، وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر، وأفسدوا من عصبيتهم، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف القهر ولا يسام بالمذلة، فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر، فسيحان الحكيم العليم ...^(١٤).

حكمة عقوبة التيه لبني إسرائيل:

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا ما يأتى:

«إن الشعوب التى تنشأ فى مهد الاستبداد وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها .. وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثية ومكتسبة، حتى تكون كالفرائز الفطرية، والطباع الخلقية، وإذا أخرجت صاحبها من بيئتها، ورفعت عن رقبته نيرها، ألفيته ينزع بطبعه إليها، وينقلت منك ليتقمح فيها، وهذا شأن البشر فى كل ما يألّفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر....

أفسد ظلم فرعون فطرة بنى إسرائيل فى مصر، وطبع عليها بطابع المهانة والذل. وقد أراهم الله - تعالى - من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى - عليه السلام - وبين لهم أنه أخرجهم من مصر؛ ليتقدهم من الذل إلى الحرية ... ولكنهم كانوا مع هذا كله إذا أصابهم ضرر يتطيرون بموسى، ويذكرون مصر ويحنون إليها ...

وكان الله - تعالى - يعلم أنهم لا تطاوعهم أنفسهم المهينة على دخول أرض الجبارين، وأن وعده - تعالى - لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته فى طبيعة الاجتماع البشرى، إذا هلك ذلك الجيل الذى نشأ فى الوثنية والعبودية ... ونشأ بعده جيل جديد فى حرية البداءة. وعدل الشريعة، ونور الآيات الإلهية، وما كان الله ليهلك قوما بذنوبهم، حتى يبين لهم حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم.

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله - تعالى - بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، فأبوا واستكبروا؛ فأخذهم الله بذنوبهم. وأنشأ من بعدهم قوما آخرين ...

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التى ضربها الله لنا، وأن نعلم أن إصلاح الأمم من بعد فسادها بالظلم والاستبداد. إنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداءة واستقلالها وعزتها، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها «^(١٥).

خاتمة

فى هذه الآيات تسليية للرسول ﷺ بذكر تاريخ اليهود وبيان عاداتهم وعادات أسلافهم، ونكولهم عن الجهاد، وضعفهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، مع أن بين أظهرهم كليم الله وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم^(٢٧).

قال الإمام ابن كثير: وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضى الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم فى قتال قريش فقد قالوا فأحسنوا .

لقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتل إنا هنا قاعدون. ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكما مقاتلون^(٢٨).

★ ★ ★

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْكَ لِأَفْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِآيَاتِي وَلَكُمْ مَعَكُمْ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

المضردات:

واتل عليهم: وأقرأ على اليهود والنصارى . أو على أمتك يا محمد .

نبأ ابني آدم: خبرهما .

قرباناً: القرбан: ما يتقرب به إلى الله من ذبيحة أو صدقة أو نحوهما .

بسطت: مددت .

تبوء: ترجع .

بإسمى وإشمتك: بذنبى وذنبك .

التفسير:

٢٧- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ...

- الضمير فى عليهم: يعود على بنى إسرائيل أو على جميع الذين أرسل الرسول ﷺ لهدايتهم.

- والقربان: اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من صدقة أو غيرها، ويطلق في أكثر الأحوال على الذبائح التي يتقرب إلى الله تعالى بذبحها .

وخلاصة ما ذكرته كتب التفسير ^(٩٨) .

أن حواء أم البشرية كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى، وكان آدم عليه السلام يزوج ذكر بطن لأنثى بطن آخر ولا يحل للذكر زواج توأمة .

فولد مع قابيل أخت جميلة وولد مع هابيل أخت دون ذلك؛ فأبى قابيل إلا أن يتزوج توأمة لا توأمة هابيل، وأن يخالف سنة النكاح، وقال: أنا أحق بتوأمى من هابيل ولم يكثر بزجر أبيه إياه، فدعاهما آدم أن يقربا قربانا إلى الله، وذكر لهما أن من قبل الله قربانه فهو صاحب الحق في التزوج بالأخت الجميلة .

فقدم قابيل زرعاً - وكان صاحب زرع - وقدم هابيل كبشاً - وكان صاحب غنم فتقبل من أحدهما وهو هابيل، ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل، وكانت علامة التقبل أن تأكل نار نازلة من السماء القربان المتقبل وتترك غير المتقبل ^(٩٩) .

وتأكد بذلك حق هابيل في الزواج من توأم قابيل؛ فحقد قابيل على هابيل وقتله، وكان ذلك أول قتل يقتل على ظهر الأرض .

معنى الآية:

واثل - يا محمد - على اليهود أو على أمتك وعلى الناس جميعا خبر ابني آدم: قابيل وهابيل بالحق والصدق حين قدم كل منهما إلى الله قربانا، ولم يكونا على درجة واحدة من الإخلاص فيما تقربا به، فتقبل الله قربان المخلص، ولم يتقبل قربان غيره؛ فامتلاً قلبه غيظاً وحسداً على أخيه التقى الذى قبل قربانه، مع أنه لا ذنب لللقى في رفض الله قربان الشقى؛ لأن المذنب هو الشقى بعدم إخلاصه لله تعالى . ثم حكى سبحانه ما دار بين الأخوين:

قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَيْ: قَالَ الشَّقِيُّ لِأَخِيهِ التَّقَى: وَاللَّهُ لَأَقْتُلَنَّكَ بِسَبَبِ قَبُولِ قَرْبَانِكَ . وَقَدْ أَكَّدَ الشَّقِيُّ كَلَامَهُ بِلَا مِ الْقَسَمِ وَنَوَّنَ التَّوَكِيدَ. قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَيْ: قَالَ التَّقَى لِأَخِيهِ: إِنَّهُ لَا ذَنْبَ لِي فِي قَبُولِ الْقَرْبَانِ، وَإِنَّمَا الذَّنْبُ ذَنْبِكَ فِي عَدَمِ إِخْلَاصِكَ وَعَدَمِ تَقْوَاكَ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي رَفْضِ قَرْبَانِكَ وَقَبُولِ قَرْبَانِي .

قال الزمخشري: فإن قلت كيف كان قوله: إنما يتقبل الله من المتقين جواباً لقوله: لأقتلنك . قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على نوعه بالقتل، قال له: إنما أتيت من قبل

نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلى، فلم تقتلنى؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان، وفيه دليل على أن الله تعالى - لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق.

٢٨- لَنْ يَسُطَّ إِلَى يَدِكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لَا تُقَاتِلْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

أى: تالله لئن مددت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك: لأننى أخاف عقوبة الله رب العالمين إن أنا قتلتك، والآية الكريمة تصوّر ما بين الأخيار والأشرار من تضادّ، فقابيل مصمم على قتل أخيه، وهابيل مصمم على عدم العدوان؛ خوفا من الله منشئ الكون وصاحب النعم وهو سبحانه حرّم قتل النفس، لقد كان هابيل حكيما فى تحرك كل معانى الخير فى نفس قابيل وتذكيره بأن القاتل لا يخاف الله، ولا يمثل أمره .

جاء فى تفسير الألوسى:

قيل: كان هابيل أقوى من قابيل، ولكنه تهرّج عن قتله واستسلم له؛ خوفا من الله تعالى؛ لأنّ المدافعة لم تكن جائزة فى ذلك الوقت، وفى تلك الشريعة. أو تحريا لما هو الأفضل، والأكثر ثوابا وهو كونه مقتولا لا قاتلا .

٢٩- إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ .

هابيل بهذه الآية يتوجّ نصائحه السابقة فقد نصحه ولوّن فى عرض نصائحه على النحو الآتى:

أولاً: أرشده إلى أن الله تعالى يتقبل الأعمال من المتقين لله الممثلين لأمره.

ثانيا: أرشده إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من مودة وتسامح .

ثالثا: بين له أنه لا يمنع من بسط يده إليه بالقتل إلا الخوف من الله رب العالمين .

رابعا: أرشده إلى أن ارتكابه لجريمة القتل سيؤدّي به إلى عذاب النار يوم القيامة بسبب قتله

لأخيه ظلما وحسداً .

ومعنى الآية:

إنى أريد باستسلامى لك، وعدم قتلك - ابتداء أو دفاعاً - أن ترجع بإثم قتلك لى، وإثمك الذى من أجله لم يتقبل قربانك، وإذا أصبرت على قتلى، ولم تخف رب العالمين، فإنك ستكون بذلك من أصحاب النار الملازمين لها، وهذا عقاب الظالمين المعتدين .

وهو يريد بكل ذلك أن يوقظ ضميره، وأن يعلمه بالمصير المحزن الذي ينتظر القاتلين وأنه لا ينبغي لأخ أن يقاتل أخاه .

★ ★ ★

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٣٠ ﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِرَبِّهِ كَيْفَ يُوَارِئُ سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقِيهِ أُعْجِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِئُ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ٣١ ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ٣٢ ﴾

المقرّدات:

فطوّعت : فسهلت ويسرت .

يبحث في الأرض : أى : يحفر في الأرض

سوء أخيه : السوءة في الأصل : العورة . والمراد بها هنا : جسد أخيه الذى قتله .

ياوويلتا : كلمة جزع وتحسر ، والويلة والويل بمعنى : الهلكة . كأنه ينادى هلاكه ليحل به :

لينقذه مما حل به من الدواهي .

من أجل ذلك : أى : بسبب ذلك .

بالبيّنات : بالحجج الواضحات

لمسرفون : لمجاوزون الحد في الطغيان

التفسير :

٣٠ - فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

أى : سهلت له نفسه العدوان والقتل . فقتل شقيقه ظلماً عمداً فأصبح من الخاسرين في الدنيا :

لقتله الأخ الذى يجب أن يحميه ويدافع عنه، وأصبح من الخاسرين في الآخرة لارتكابه جريمة القتل وإزهاق الروح .

وفى الأثر: الإنسان بنیان الله ملعون من هدم بنیان الله .

والآية تصور صراع النفس أمام هذه الحادثة، فالحسد والعدوان يدعوانه إلى القتل، ولكن الضمير ودواعي الخير يحذرانه من القتل، بيد أن النفس الأمارة بالسوء يسرت له العدوان، وهونته عليه حتى اقترف جريمة القتل .

قال القرطبي:

قوله: قَطَّوعَتْ لَهُ نَفْسُهُ . أى: سَوَّلَتْ وسهلت نفسه له الأمر وشجعت وصورته له أن قتل أخيه طوع سهل، يقال: طاع أى: سهل وانقاد «وطوعه فلان له أى: سهله»^(٧٠) .

فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ . لقد خسر الدنيا بقتل أخيه وشقيقه الذى هو رحم يجب أن يصلها، وخسر الآخرة: لأن القاتل عمدا يصلى جهنم يتلظى بعذابها .

قال الألوسى: أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه .

قال: قال رسول الله ﷺ:

« لا تقتل نفس ظلماً: إلا كان على ابن آدم الأول كفل فى دمها: لأنه أول من سنَّ القتل »^(٧١)

وأخرج ابن جرير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال: إنا لنجد ابن آدم القاتل، يقاسم أهل النار العذاب، عليه شطر عذابهم^(٧٢) .

٣١- فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارَى سَوْءَ أَخِيهِ ...

تحيرُ القاتل بعد أن ارتكب جريمته، ورأى جثة أخيه أمامه فى العراء، معرضة لنهش السباع والطيور، ولم يكن الدفن معروفاً للبشرية قبل هذه الحادثة، التى راح ضحيتها - لأول مرة - إنسان كان مملوءاً حيوية ونشاطاً، فأصبح جثة هامدة، يتسرب إليها العفن، ويسرع إليها التنن ويؤذى ريحها الأنوف .

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ . أى: يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا فى الأرض .

لِيُرِيَهُ . أى: ليعلم ذلك القاتل ويعرفه .

كَيْفَ يُوَارَى سَوْءَ أَخِيهِ . كيف يستر فى التراب جسم أخيه بعد أن فارقته الحياة .

قال القرطبي: قال مجاهد: بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم حفر فدفننه؛ فتعلم قابيل ذلك من الغراب، وكان ابن آدم هذا أول من قتل^(٧٣) .

قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأَوَارِي سَوْءَةَ أَخِي. أَيْ: فنادى قابيل متحسراً جزعاً يا ويلتا، وكلمة: يا ويلتا: أصلها يا ويلتى، وهى كلمة جزع وتحسّر تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة، كأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من ينادى .

أَيْ: قال القاتل لأخيه ظلماً: يا فضيحتى، ويلتى أقبلتى، فهذا وقتك؛ لأننى قد نزلت بى أسبابك. والتفت قابيل للغراب قال:

أضعفت عن الحيلة التى تجعلنى مثل هذا الغراب، فأستر جسد أخى فى التراب كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه فى الأرض ما أراد دفنه .

فَأَصْبَحَ مِنَ الْبَادِمِينَ . أَيْ: ندم قابيل على قتل أخيه بعد ما رأى وعاش فى آثار جريمته، قال صاحب المنار: والندم الذى ندمه قابيل، هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر من الخطأ فى فعله، فإذا ظهر له أن فعله كان شراً له لا خيراً، وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله، والتألم من تعدى حدوده، وهذا هو المراد بحديث «الندم توبة»^(٢٤). وأما الندم الطبيعى الذى أشرنا إليه، فلا يعدّ وحده توبة^(٢٥).

٣٢- مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... الآية

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . أَيْ: من أجل المذكور فى تضاعف قصة بنى آدم، أو من أجل فظاعة القتل ظلماً وسوء آثاره فى الدنيا والآخرة قضينا وأوجبنا على بنى إسرائيل فى كتابهم أَنَّهُ أَيْ: الحال والشأن مَنْ قَتَلَ نَفْسًا . واحدة من النفوس الإنسانية بِغَيْرِ نَفْسٍ . توجب القصاص . أو بغير فساد فى الأرض يوجب القصاص كالردة وزنى المحصن، وقيل: الفساد فى الأرض: قطع الطريق، وسفك الدماء، وهتك الحرم، ونهب الأموال، والبغى على عباد الله بغير حق، وهدم البنيان وتغيير الأنهار .

فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا . إذ النفس الواحدة تمثل النوع الإنسانى كله، فالجرأة على قتل نفس بغير حق عدوان على الجنس آدمى كله، وعن مجاهد قال: المعنى: أن الذى يقتل النفس المؤمنة متمعداً جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً، فلو قتل الناس جميعاً لم يزد على هذا .

وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . أَيْ: ومن أحيا نفساً ليس عليها قصاص ولا حد بأن أنقذها

من التهلكة أو الغرق أو الحرق أو الهدم، أو عفا عمن وجب قتله أو حال دونّ قتل نفس ظلما بالنصيحة أو القوة .

فَكُنَّا أَحْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعًا . أى: وجب على الكل شكره، وقيل: كأنما أحيا الناس جميعا فى الأجر .

وفى هذه الآية الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء وحفظ النفوس من العدوان عليها، حيث شبه سبحانه قتل النفس الواحدة بقتل الناس جميعا وإحياءها بإحياء الناس جميعا .

وبعض المفسرين يرى أن المراد بالنفس الواحدة، نفس الإمام العادل: لأن القتل فى هذه الحالة يؤدى إلى اضطراب أحوال الجماعة، وإشاعة الفتنة فيها .

قال القرطبي: روى عن ابن عباس أنه قال: من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيا الناس جميعا^(٣٧) . وجمهور المفسرين على عموم معنى الآية وشمولها لكل نفس إنسانية .

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ . أى: ولقد جاءت رسلنا لبني إسرائيل بالآيات البينات، والمعجزات الواضحات .

ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ . أى: بعد الذى كتبناه عليهم من شرائع، وبعد مجيء الرسل إليهم بالبينات .
فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ . أى: مسرفون فى قتل الناس غير مبالين به، وفائدة ذكر فى الأرض . لتوضيح أن إسرائف بنى إسرائيل فى القتل والمعاصى لم يكن فيما بينهم فحسب، بل انتشر شره فى الأرض، ونحن إلى الآن نشاهد أصابع اليهود وراء أنواع القتل والاغتيال، وإثارة الفتن والحروب بين الناس .

ولا يزالون يسرفون فى القتل ويفسدون فى الأرض، ونسمع الآن ثورة أطفال الحجارة، وعدوان اليهود على العرب والمسلمين فى فلسطين مع إسرائف فى القتل وعدوان على الأطفال الأبرياء .

وسياتى فى الآية ٦٤ من سورة المائدة قوله تعالى: كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .

ملاحق بتفسير الآية

١- خص الله بنى إسرائيل بالذكر فى هذه الآية: لكثرة سفكهم للدماء، وقتلهم الأنبياء، ولأن الحسد كان منشأ جريمة القتل، والحسد غالب عليهم .

٢- قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع، وجعل حكمه كحكمهم؟ قلت: لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله، وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهدم ما كرم على الله، وهتكت حرمة، وعلى العكس، فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع في ذلك.

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

المضردات:

يحاربون الله ورسوله: المحارب: من يحمل السلاح على الناس في البر أو البحر أو الجو، دون إثارة منهم له. والمغتال كالمحارب. ويشمل القراصنة في البر والبحر والجو، كقطاع الطرق ...

ويسعون في الأرض فساداً، أى تمردوا على ما شرعه الله من الأمن والطمأنينة للإنسانية كلها.

أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ: المقصود بالأرض: الأرض التي يكتسبون فيها نفوذاً حراماً. ينفون منها إلى حيث لا نفوذ لهم، ولو سجناء. شلاً للجريمة.

التفسير

٣٣- إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ... الآية

لما بين الله - قبل هذه الآية - أن قتل النفس الواحدة له خطورته عند الله تعالى، وأنه يعتبر - عند قتل الناس جميعاً، أتبع ذلك هذه الآية الكريمة، التي تضمنت من التشريع، ما يردع المعتدى الأثيم، ويكفه عن ترويع الناس والإفساد فيما بينهم. فقال تعالى: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ.

والآية نزلت في قطاع الطريق: كما قاله كثير من المفسرين والفقهاء، وأصحاب الرأي .. نقل ذلك الطبرسي وغيره .

والمقصود من محاربتهم الله ورسوله: قطعهم الطريق على الناس، وإفسادهم في الأرض وترويع الأمنين .

وجعل عملهم هذا حرباً لله ورسوله : إنما هو لتمردهم على ما شرعه الله سبحانه وتعالى، من وجوب الكف عن إيذاء الناس، وتوفير أسباب الأمن والسلام لهم .

المعنى: أفادت الآية، أن الذين يسعون في الأرض فساداً، بقطعهم الطريق على الناس: يسلبونهم أموالهم أو أعراضهم أو يقتلونهم، أو يقطعون أطرافهم - يعاقبون بتقتيلهم أو تصليبهم^(٧٧) أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نفيهم من الأرض .

وبيان ذلك في مسائل:

١- أن وصف المحارب لله ولرسوله، يطلق على من حمل السلاح على الناس في مدينة أو قرية، أو في طريق أو صحراء، وكابرههم عن أنفسهم وأموالهم، دون إثارة منهم له، أو ثأر أو عداوة .

٢- أن المغتال كالمحارب، وهو أن يحتال في قتل إنسان؛ ليأخذ ماله وإن لم يشهر السلاح . بأن دخل عليه بيته، أو صحبه في سفر فأطعمه سماً فقتله، فَيَقْتُلُ حِداً لا قَوْدًا أي: يقتل قصاصاً .

٣- اختلف العلماء في حكم المحارب . فمنهم من قال : يعاقب بقدر ما فعل . فمن أخاف السبيل وأخذ المال: قُطِعَت يده ورجله من خلاف . وإن أخذ المال وقتل: قُطِعَت يده ورجله ثم صُلِبَ وقتل . فإذا قُتِلَ ولم يأخذِ المالَ: قُتِلَ . وإن لم يأخذِ المالَ ولم يَقْتُلْ: نُفِيَ . وبهذا قال النخعي، وعطاء وغيرهم .

وقال أبو يوسف: إذا أَخَذَ المالَ وَقُتِلَ: صُلِبَ وَقُتِلَ على الخشبة .

قال الليث: بالحربة : مصلوباً .

وقال أبو حنيفة: إذا قُتِلَ: قُتِلَ . وإذا أخذ المال ولم يَقْتُلْ: قُطِعَت يده ورجله من خلاف، وإذا أخذ المالَ وَقُتِلَ: فالسلطان مخير فيه: إن شاء قطع يده ورجله، وإن شاء لم يقطع وقتله وصلبه .

وقال الشافعي: إذا أخذ المال: قُطِعَت يده اليمنى، وحسبت^(٧٨) ثم قُطِعَت رِجْلُهُ اليسرى وحُسِمَت . وَخُلِيَ سَبِيلُهُ: لأن هذه الجناية زادت على السرقة بالحراية .

وإذا قُتِلَ، قُتِلَ، وإذا أَخَذَ المالَ وَقُتِلَ: قُتِلَ وَصُلِبَ .

وروى عنه أنه قال: يُصَلَّبُ ثلاثة أيام، وأنه يكره أن يُقَتَلَ مصلوبًا، بل يصلبُ بعد القتل؛ لنهى رسول الله ﷺ عن المَقْتَلَةِ. ^(٧٩) وبمثل قوله قال أحمد.

وقال أبو ثور: الإمام مخير على ظاهر الآية. وكذا قال مالك وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعمر بن عبد العزيز، ومجاهد، والضحاك، والنخعي، كلهم قال:

الإمام مخير في الحكم على المحاربين؛ يحكم عليهم بأى الأحكام التى أوجبها الله تعالى؛ من القتل والصلب، أو القطع، أو النفي؛ أخذًا بظاهر الآية.

وروى عن ابن عباس، أنه قال: إن كان فى القرآن «أو» فصاحبه بالخيار. وهذا هو الأظهر، وهو ما نرجحه.

٤- النفي من الأرض: اختلف فى معناه:

فمن الشافعى: أنهم يُخْرَجُونَ من بلد إلى بلد، ويطلبون لتقام عليهم الحدود. وبه قال الليث ابن سعد، والزهرى.

وقال مالك: ينفى من البلد الذى أحدث فيه الحاربة إلى غيره، ويحبس فيه كالزانى.

وقال الكوفيون: نفىهم: سجنهم ... فيُنْفَى من سعة الدنيا إلى ضيقها.

حكى مكحول عن عمر قال: أحبسه حتى أعلم منه التوبة. ولا أنفيه من بلد إلى بلد فيؤذنيهم.

قال القرطبي: والظاهر أن الأرض فى الآية هى أرض النازلة - أى: مكان الجريمة - ثم قال:

ينبغى للإمام - إذا كان هذا المحارب مخوف الجانب؛ يظن أن يعود إلى حاربة، أو إفساد - أن يسجنه فى البلد الذى يغرب إليه. وإن كان غير مخوف الجانب؛ سُرِحَ.

قال ابن عطية: وهذا صريح مذهب مالك، أن يغرب ويسجن حيث يغرب. وهذا على الأغلب فى أنه مخوف. ورجحه الطبرى؛ لأن نفيه من أرض النازلة هو نص الآية، وسجنه بعد، بحسب الخوف منه.

فإن تاب وفهمت توبته؛ سُرِحَ.

٥- لا يراعى فى المال الذى يأخذه المحارب نصاب، كما يراعى فى السارق. وقيل: يراعى أن يكون ربع دينار. وهو نصاب القطع.

قال ابن العربى: قال الشافعى، وأصحاب الرأى: لا يقطع من قطاع الطريق، إلا مَنْ أخذ قدر ما تقطع فيه يد السارق.

وقال مالك: يُحَكَّم عليه بحكم المحارب . وهو الصحيح: لأن الله تعالى - وَتَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الْقَطْعُ فِي السَّرْقَةِ، فِي رِبْعِ دِينَارٍ . ولم يوقت في الحراية شيئاً، بل ذكر جزاء المحارب، فاقترضى ذلك توفية الجزاء - على المحاربة - عن حقه .

ثم إن هذا قياس أصل على أصل. وهو مختلف فيه . وقياس أدنى على أعلى. وذلك عكس القياس وكيف يقاس المحارب على السارق . وهو يطلب خطف المال، فإن شعر به فر، حتى إن السارق إذا دخل بالسلاح يطلب المال، فإن منع منه، أو صيح عليه وحارب عليه، فهو محارب: يُحَكَّم عليه بحكم المحارب. قال القاضي ابن العربي: كنت في أيام حكمي بين الناس: إذا جاءني أحد بسارق - وقد دخل الدار يسكن يحبسه على قلب صاحب الدار وهو نائم، وأصحابه يأخذون مال الرجل - حكمت فيهم بحكم المحاربين .. فافهموا هذا من أصل الدين، وارتفعوا إلى يفاع العلم عن حضيض الجاهلين . ١ هـ نقول: وهذا ما يسميه علماء القانون: «سرقة بالإكراه» .

وفي المسألة أحكام عظيمة، وتفاصيل نفيسة ينبغي لأهل القضاء أن يعرفوها؛ ليطبقوها على الذين يعيثون في الليل والنهار فساداً .

فليتعرفها هؤلاء القضاة من مظانها في كتب التفسير المطولة . المعنية بأحكام القرآن، وفي كتب الفقه .

ولينفذوها في أولئك المحاربين لله ورسوله؛ قطعاً لدابرهم .

ثم ختم الله الآية بقوله :

ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . أئى ذلك الذى مر من جزاء المحاربين، خزى وذل وفضيحة لهم في الدنيا .. ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

وإنما بولغ في جزاء قطاع الطريق؛ لأنهم يسدون سبيل الكسب والتجارة على الناس، ويلزموهم البيوت، ويقطعون الأرزاق عن عباد الله، ويروعونهم في مآمنهم، فلذا شرع لهم أشد العقاب، قطعاً لدابرهم.

٣٤-إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أفادت هذه الآية: أن توبة المحاربين - بعد القدرة عليهم - لا تنفعهم، بل لا بد من أن تقام عليهم الحدود التى وجبت في الآية السابقة.

أما إن تابوا قبل القدرة عليهم وإمساكهم؛ فإن حق الله يسقط عنهم، بقوله تعالى: فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أما حقوق آدميين من قصاص وغيره، فلا تَسْقُطُ بالتوبة، فإن شاءوا عَفَوْا، وإن شاءوا استوفوا منهم حقوقهم، قصاصاً عادلاً.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَنَافِيَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهٖ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

المفردات:

وابتغوا: واطلبوا.

الوسيلة: هي ما يتوسل به، ويتقرب إلى الله من فعل الطاعات، وترك المعاصي.

التفسير

٣٥- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... الآية

أى: راقبوا الله تعالى فى أقوالكم وأعمالكم وتقربوا إليه بالعمل الصالح، «الوسيلة: هى القرية، وهى فعيلة من توسلت إليها أى: تقربت، قال عنقرة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلى وتخضبى

والجمع: الوسائل، قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيننا والوسائل^(٨٠)

والوسيلة، هى درجة فى الجنة وهى التى جاء الحديث الصحيح بها فى قوله ﷺ:

«من قال حين يسمع النداء - أى: الأذان - : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته؛ حلت له شفاعتى يوم القيامة»^(٨١)

والآية أرشدت المسلمين إلى الأمور الآتية:

١- تقوى الله وطاعته والتزام أوامره واجتناب نواهيه.

٢- التقرب إليه بما يرضيه .

٣- الجهاد فى سبيله .

ثم رتبت على ذلك الفلاح والفوز والنجاح، حيث قال سبحانه وتعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وقد أطلال الألوسى فى تفسير هذه الآية الكريمة، وكتب قرابة خمس صفحات، يوضح فيها أن الوسيلة ليست الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى وبين العباد .

فطلب الدعاء من الأحياء جائز، والتوسل بهم إلى الله تعالى جائز، فقد صح أن النبى ﷺ قال لعمر بن الخطاب: «لا تنسنا يا أختى من دعائك»^(٨١)

ونقل الألوسى كلاما طويلا خلاصته أن التوسل لا يكون إلا بالأحياء، ولم يرد عن أحد من الصحابة أنه طلب من ميت شيئا، ففى صحيح البخارى عن أنس أن عمر رضى الله عنه - كان إذا أقحطوا: استسقى بالعباس رضى الله عنه فقال:

«اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك - ﷺ - فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبك فاسقنا؛ فيسقون».^(٨٢)

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. أى: واجهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء، وكذلك جاهدوا أعداءكم؛ حتى تكون كلمة الله هى العليا، رجاء أن تفوزوا بالفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٣٦- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إن الذين كفروا لو أن لكل واحد منهم منفردا ما فى الأرض - جميعا - من أموالها وزروعها وكنوزها ونقائسها ومنافعها - وضعفه معه - وقدموا كل ذلك؛ ليخلصوا به أنفسهم من عذاب يوم القيامة، ما قبله الله منهم؛ لأن سنته قد اقتضت أن تكون نجاة الإنسان من العذاب يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا، ولهم عذاب أليم شديد الإيلام .

قال الفخر الرازى: والمقصود من هذا الكلام التمثيل للزوم العذاب لهم؛ فإنه لا سبيل لهم إلى الخلاص .

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعتك؟ فيقول: شرّ مضجع، فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنّت تفتدى به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك: ألا تشرك بالله شيئاً، فيؤمر به إلى النار»^(٨٦).

٣٧- يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . أى: يتمنى الكفار أن يخرجوا من النار - بعد أن اصطلوا بسعيرها - وذاقوا عذابها وآلامها، وما هم بخارجين منها، بل يبقون فيها ولهم عذاب دائم لا ينتهى أبداً ..

«وهذه الآية خاصة بالكافرين كما يفيد نصحها، أما المسلمون المذنبون، الذين أدخلوا النار بسبب معاصيهم فإنهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة»^(٨٧).

وجاء في تفسير القرطبي: قيل لجابر بن عبد الله: إنكم يا أصحاب محمد تقولون: إن قوما يخرجون من النار والله تعالى يقول: وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا. فقال جابر: إنكم تجعلون العام خاصاً، والخاص عاماً، إنما هذا فى الكفار خاصة، فقرأت الآية كلها من أولها إلى آخرها فإذا هى فى الكفار خاصة .^(٨٨)

أخرج مسلم وابن المنذر وابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة»^(٨٩).

★ ★ ★

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْلَبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾﴾

المضردات:

نكالا من الله: أى: عقاباً من الله، ينكل به السارق، أى: يردع عن معاودة السرقة، ويحذر به هو وغيره من فعلها .

قال صاحب القاموس: النكال: ما نكلت به غيرك كأننا ما كان .

وقال أيضاً: ونكل به تنكيلاً: صنع به صنيعاً يحذر غيره .

والله عزيز ، أى : غالب ، فلا يفوته المعتدون .
حكيم ، فى شرع هذا الحد : لما فيه من الردع .

التفسير

٣٨- وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

بعد أن بين حكم قاطع الطريق، تكلم عن عقوبة السارق والسارقة، وفى سورة التور بدأ الله بالزانية فقال تعالى:

الرَّائِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . لَّأَنَ الزَّانِيَ مِنَ الْمَرْأَةِ أَفْحَشُ ، وَلَأنَّ الْحَبْلَ يَظْهَرُ مِنْهَا ، وَلَأنَّ أَسْرَتَهَا تَصِيبُهَا الْمَعْرَةُ ، وَلَأنَّ شَهْوَةَ الْاِسْتِمْتَاعِ عَلَى النِّسَاءِ أَغْلَبُ ، وَحُبُّ الْمَالِ عَلَى الرِّجَالِ أَغْلَبُ ، وَالرِّجْلُ عَلَى السَّرْقَةِ أَجْرَأُ ^(٨٨) فَنَاسِبٌ أَنْ يَبْدَأَ فِى السَّرْقَةِ بِالرِّجْلِ ، وَفِى الزَّانِي بِالْمَرْأَةِ .

والسارق: هو الذى يأخذ مال غيره خفية من حرز مثله، ولا شبهة له فيه، دون طعن بسلاح أو تهديد به، فإن طعن بسلاح أو هدد به - وهو ما يُعرف الآن: بالسطو المسلح - فحكمه حكم قاطع الطريق، الذى يسعى فى الأرض فساداً .

ولا يعاقب السارق هذا العقاب إلا إذا كان بالغاً عاقلاً، غير مالك للمسروق منه ولا ولاية له عليه: فلا تقطع يد صبي ولا مجنون، ولا يد سيد أخذ مال عبده، ولا يد عبد سرق مال سيده بإجماع الصحابة، ولا يقطع الوالدان بسرقة مال ولدهما: لقوله ﷺ: «أنت وما لك لأبيك» ^(٨٩) وقيل: تقطع يد الابن إذا سرق مال أبويه . والراجح أنه لا يقطع: لأن الابن ينسبط فى مال أبيه كالعادة .

وإذا استكمل هذه الشروط: فلا تقطع يده إلا إذا سرق ما قيمته ربع دينار .

روى الشيخان عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً» ^(٩٠) . وقال أبو حنيفة وصاحبه والثورى: لا تقطع يد السارق إلا فى عشرة دراهم كيلاً، أو دينار ذهباً أو وزناً، ولا يقطع حتى يخرج بالمتاع من ملك الرجل، وحجتهم حديث ابن عباس قال: قَوْمُ الْمُجَنِّ الذى قطع فيه النبى ﷺ بعشرة دراهم، ورواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: كان ثمن المجن يومئذ عشرة دراهم، أخرجهما الدارقطنى وغيره .

ومن العلماء من قال: لا تقطع اليد إلا فى خمسة دراهم، ومنهم من قال: لا تقطع اليد إلا فى أربعة دراهم، ومنهم من قال: لا تقطع اليد إلا فى ثلاثة دراهم، ومنهم من قال: تقطع اليد فى كل ما له قيمة على ظاهر الآية، وهو قول الخوارج .

قال القرطبي: وهذه أقوال متكافئة والصحيح منها ما قدمناه لك . ا هـ .

وإن التضخم، وتدنى قيمة النقود، تجعل رأى الحنفية أولى بالاعتبار .

روى ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم فى المستدرک والبيهقى فى السنن عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ادعوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام لأن يخطئ فى العفو خير من أن يخطئ فى العقوبة»^(٩١) .

وعلى الحاكم أن يتثبت بعناية من واقعة السرقة، وظروفها ودواعيها، وأن يعدل عن القطع عند وجود شبهة .

وتقطع يد السارق اليمنى من الكوع عند المفصل الذى بين الساعد والكف . فإن سرق ثانياً: قطعت رجله اليسرى من مفصل الرجل .

فإن سرق ثالثاً: قطعت يده اليسرى، فإن سرق رابعاً: قطعت رجله اليمنى، فإن سرق بعد ذلك عَزُرَ بما يراه الحاكم رادعاً مانعاً، وروى عن أحمد أنه لا تقطع اليد اليسرى ولا الرجل اليمنى وهو قول أبى بكر وعمر وعلى وأبى حنيفة، وروى عنه أنها تقطع، وبه قال مالك والشافعى^(٩٢) .

وقال عطاء: تقطع يده اليمنى خاصة ولا يعود عليه القطع، ذكره ابن العربى وقال: أما قول عطاء فإن الصحابة قالوا قبله خلافاً^(٩٣) .

وتثبت السرقة بالبيئة والإقرار .

ملاحظة:

يرى بعض الفقهاء أن جاحد العارية تقطع يده كالسارق، وأكثر الفقهاء يرون أنه لا قطع عليه، لقوله ﷺ: «لا قطع على خائن»^(٩٤) .

أما من ذهب إلى أن جاحد العارية تقطع يده كالسارق فقد استدل بما رواه الشيخان عن عائشة قالت: كانت امرأة تستعير المتاع وتجده، فأمر النبى ﷺ بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة فكلموه فكلّم النبى ﷺ فقال ﷺ: «لا أراك تكلمنى فى حد من حدود الله تعالى، ثم قام النبى ﷺ خطيباً وقال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه، والذى نفسى بيده لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»^(٩٥) .

قال: فقطع يدها .

وجاء فى البخارى أنها سُرقت، وجاء فى مسلم أن المرأة المذكورة كانت تستعير المتاع وتجده .

وقد توسع العلماء والفقهاء والمفسرون فى تفسير هذه الآية وخصوصا التفسيرات التى عنيت بالأحكام الفقهية، ومثال ذلك أن القرطبى بين أن هذه الآية فيها سبع وعشرون مسألة كتبها فى ١٥ صفحة ومن نماذج تفسير القرطبى ما يأتى:

المسألة الثانية عشرة: قوله تعالى: فَأَقْطَعُوا. القطع معناه: الإبانة والإزالة، ولا يجب إلا بجمع أوصاف تعتبر فى السارق وفى الشيء المسروق، وفى الموضع المسروق منه وفى صفته .

١- فأماً ما يعتبر فى السارق فأربعة أوصاف وهى: البلوغ، والعقل، وأن يكون غير مالك للمسروق منه، وألا يكون له عليه ولاية؛ فلا يقطع العبد إن سرق مال سيده، وكذلك السيد إن أخذ مال عبده لا قطع بحال، ولا قطع على صبي ولا مجنون .

٢- وأما ما يعتبر فى الشيء المسروق فثلاثة أوصاف :

(أ) النصاب .

(ب) أن يكون مما يتمل ويملك ويحل بيعه .

(ج) ألا يكون للسارق فيه ملك كمن سرق ما رهنه أو ما استأجره .

٣- وأما ما يعتبر فى الموضع المسروق منه فوصف واحد وهو الحرز لمثل ذلك الشيء المسروق.

وجملة القول فيه: أن كل شيء له مكان معروف فمكانه حرزه، وكل شيء معه حافظ فحافظه حرزه، فالدور والمنازل والحوانيت حرز لما فيها، غاب عنها أهلها أو حضروا .
والقبر والمسجد حرز لما فيهما، والخزانة فى مكاتب الناس - أو الحكومة - حرز لما فيها، وظهور الدواب حرز لما تحمل^(١٧) .

فَأَقْطَعُوا أَيَدِيَهُمَا. والخطاب هنا لولاة الأمر الذين يرجع إليهم تنفيذ الأحكام والحدود . وجمع سبحانه اليد فقال: أَيَدِيَهُمَا. ولم يقل: يديهما بالتننية؛ لأن فصحاء العرب يستقلون إضافة المثنى إلى ضمير التننية.

قال القرطبى:

قوله تعالى: جزاء بما كسبَا. مفعول من أجله، وإن شئت كان مصدراً، وكذا: نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ. أى فيه بيان لسبب هذه العقوبة وللحكمة التى من أجلها شرعت .

أى: اقطعوا أيديهما جزاءً لهما بسبب فعلهما الخبيث، وكسبهما السيئ وخيانتهما القبيحة، ولكي يكون هذا القطع لأيديهما نكالاً. أى: عبرة وزجرًا - من الله تعالى - لغيرهما: حتى يكف الناس عن ارتكاب هذه الجريمة .

يقال: نكَل فلان بفلان تنكيلا، أى: صنع به صنيعا يحذر غيره .

وسميت هذه العقوبة نكالاً: لأنها تجعل غير من نزلت به يخاف من ارتكابها؛ حتى لا ينزل به ما نزل بمرتكبها من قطع ليد، وفضيحة لأمره، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَالله غالب على أمره، حكيم فى شرائعه وتكاليفه .

قال الأصمعي: قرأت هذه الآية، وإلى جنبى أعرابى فقلت: والله غفور رحيم، سهواً فقال الأعرابى: كلام من هذا؟ قلت: كلام الله، قال: أعد؛ فأعدت: والله غفور رحيم، فقال: ليس هذا كلام الله: فتنبّهت فقلت: وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فقال: أصبت هذا كلام الله، فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا، قلت: فمن أين علمت أنى أخطأت؟ فقال: يا هذا عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع^(٣٧) فقد فهم الأعرابى أن مقتضى العزة والحكمة، غير مقتضى المغفرة والرحمة، وأن الله تعالى - يضع كل اسم موضعه فى كتابه .

٣٩- كَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . سبب نزولها: أن امرأة كانت قد سرت فقالت: يا رسول الله، هل لى من توبة فنزلت هذه الآية^(٣٨) .

قال ابن كثير : أى: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأماً أموال الناس فلا بدّ من ردّها إليهم أو ردّ بدلها، وهذا عند الجمهور .

فإن كانت توبته قبل أن يرفع أمره إلى القضاء فلا قطع، كما قال عطاء وجماعة من الفقهاء استناداً إلى قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (المائدة: ٣٤).

فإنه وإن نزل فى قطاع الطريق فحكمه عام فى جميع الحدود عند هؤلاء العلماء، وإن كانت توبته بعد أن رفع أمره للقضاء، أقيم عليه الحدّ فلا يسقط الحد بالتوبة، بل تنفذ العقوبة بالنسبة لأحكام الدنيا، ويقبل الله التوبة رجاء القبول فى الآخرة .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ - فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نغديها، فقال رسول الله

ﷺ «اقتلعوا يدها» فقطعت اليمنى، فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله؟ قال نعم، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك، فأنزل الله تعالى: فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ^(١٧٩)

وروى ابن ماجه عن ثعلبة الأنصارى: أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى سرت جملاً لبني فلان فطهرنى، فأرسل إليهم النبى ﷺ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا، «فأمر به فقطعت يده وهو يقول: الحمد لله الذى طهرنى منك، أردت أن تدخلنى جسدى النار» ^(١٨٠)

٤٠- أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية مسوقة لبيان حق الله فى أن يشرع لعباده ما تقدم من عقاب قاطع الطريق والسارق والعفو عن التائب منهما .

والمعنى: ألم تعلم أن الله له السلطان الكامل على السماوات والأرض وما فيهما، ومن كان كذلك: فإن له كامل الحق فى أن يعذب من شاء من المعتدين، وأن يغفر لمن شاء من التائبين .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فهو سبحانه عظيم القدرة، فلا يمنعه عن تشريعه الحكيم مانع، ولا يدفعه عن جزائه لهم فى الدنيا والآخرة دافع .

★ ★ ★

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعْنَاهُمْ لِكَذِبٍ سَمِعْنَاهُمْ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

المضردات:

يسارعون فى الكفر، يجدون فيه .

ومن الذين هادوا، أى: من اليهود .

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ : يَسْتَوْنُ تَأْوِيلَهُ .
 فَتَنَّتْهُ : إِخْلَالَهُ لِسَوْءِ اخْتِيَارِهِ .
 خُزِّي : هَوَانٌ وَمَذَلَةٌ .

التفسير:

٤١ - يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

وردت عدة أسباب لنزول هذه الآية نجدها في تفسير ابن كثير والقرطبي وغيرهما .
 قيل: إنها نزلت في المنافقين .

وقيل: إنها نزلت في ابن صوريا: آمن ثم كفر .

وأرجح الأقوال أنها نزلت في اليهود عندما حرفوا حكم التوراة ، وكانت التوراة تنص على أن عقوبة الزاني المحصن هو الرجم بالحجارة حتى يموت ، فلما كثر الزني في أشراف اليهود: بدلوا حكم الرجم إلى الجلد وتسويد الوجه .

ثم تحاكموا إلى رسول الله ﷺ بشأن رجل وامرأة قد زنيا من اليهود ، ورجوا أن يحكم بغير الرجم . فسألهم عن حكم الله في التوراة فقالوا: الجلد فنأشدهم الله أن ينطقوا بالحق ، فقالوا: إنه الرجم؛ فقال ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» .

ثم أمر أن يرمج الزانيان فرجما .

وقد ورد هذا المعنى في صحيح البخاري ومسلم^(١٠١) .

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ أراد الله سبحانه وتعالى أن يُسَلِّيَ رسوله الكريم ويواسيه؛ حتى لا يحزن بما يفعله المنافقون واليهود وغيرهم .

فناداه الله تعالى بوصف الرسالة: تشريفاً له وتكريماً ، وحثه على السلوى والصبر وعدم الحزن من هؤلاء المعادين ..

«والنهي عن الحزن وهو أمر نفسي لا اختيار للإنسان فيه ، والمراد به هنا: النهي عن لوازمه كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام وتعز السلوى»^(١٠٢)

يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ : أى: يذهبون إليه بسرعة من غير مواناة ولا تدبر ولا تفكر ، فهم ينتقلون بحركات سريعة في ثنايا الكفر ومداخله ، دون أن يزعجهم وازع من خلق أو دين .

قال أبو السعود: والمسارة فى الشيء: الوقوع فيه بسرعة ورغبة . وإيثار كلمة فى . على كلمة (إلى) للإيماء إلى أنهم مستقرون فى الكفر لا يبرحونه، وإنما ينتقلون بالمسارة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها ، كإظهار موالاة المشركين ، وإبراز آثار الكثير للإسلام ونحو ذلك .

مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ . وهم المنافقون، وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا . يعنى: اليهود أى: أن المسارعين فى الكفر فريقان: فريق المنافقين الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ، وفريق اليهود سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ . هذا الوصف يعود إلى الفريقين، أو إلى اليهود خاصة ، أى: الذين يسارعون فى الكفر هم سماعون للكذب أى: كثيرو السماع للكذب من أبحارهم ورؤسائهم، واللام فى قوله: لِلْكَذِبِ للتقوية أى: أنهم يسمعون الكذب كثيرا سماع قبول وتلذذ، ويأخذونه ممن يقوله - من أعداء الإسلام - على أنه حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها .

سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ . أى: لم يحضروا مجلسك، وهم طائفة من اليهود ، كانوا لا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ تكبرا وتمردا ، ولكن يوجهون إليه بعض أتباعهم: ليحضروا مجلسه وينقلوا إليهم كلامه .

يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ . من جملة صفات القوم المذكورين، أى: أنهم يميلون بالتوراة ويحرفون الكلام الوارد فيها ويؤولونه على غير تأويله من حيث لفظه أو من حيث معناه ، ولعل المراد: أنهم حرفوا التوراة ومما حرفوه: الرجم على الزاني والزانية ، جعلوا بدله تسويد الوجه .

يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ... أى: يقولون لأتباعهم السماعين لهم: إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ . أى: إن أفتاكم محمد بما تريدون - وهو الجلد - فخذوه واعملوا بموجبه.

جاء فى زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى:

«وذلك أن رجلا وامرأة من أشراف اليهود زنيا، فكرهت اليهود رجمهما ، فبعتوا إلى النبی ﷺ ، يسألونه عن قضائه فى الزانيين إذا أحصنا ، وقالوا: إن أفتاكم بالجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فلا تعملوا به»^(١٠٣)

وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا . أى: وإن أفتاكم محمد بغير ما أفتيناكم به فاحذروه قبول حكمه، وإياكم أن تستجيبوا له أو تميلوا إلى ما قاله لكم .

وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . ومن يقض الله بكفره وضلالته؛ فلن تستطيع - أيها الرسول الكريم - دفعه عن الضلالة؛ لأنك لا تملك له من الله شيئا فى دفع الفتنة عنه .

فقد اقتضت حكمته أنه يمنح هدايته وتوفيقه وعونه ، لمن سار فى طريق الهدى وآثر الحق ورغب فى السير على الطريق القيم؛ أما من أعرض عن الهدى وتنكب الجادة ، فإن الله تعالى يسلب هداه وتوفيقه عنه ويتركه مفتونا متنكبا طريق الجادة .

قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . (طه: ١٢٤ - ١٢٦)

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ . أى: هؤلاء المذكورون - من المنافقين واليهود - هم الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الكفر والضلالة، بطهارة الإيمان والإسلام؛ لأنهم منهمكون فى الضلالة ، مصرّون عليها ، معرضون عن طريق الهداية والرشاد .

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ . أما خزي المنافقين: فبهتك سترهم، وإطلاع النبى على كفرهم ، وخزي اليهود: بفضيحتهم فى إظهار كذبهم؛ إذ كتموا الرجم، وبأخذ الجزية منهم .

قال مقاتل: وخزي قريظة بقتلهم وسبيهم ، وخزي النضير بإجلائهم ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ؛ بدخلهم النار ، والخلود فيها .

★ ★ ★

﴿ سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٤٢)

المفردات:

أَكَّالُونَ: كثيروا الأكل .

لِلْسُّحْتِ: السحت: الحرام. كالربا ونحوه .

بِالْقِسْطِ: بالعدل .

التفسير:

٤٢- سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ إن هؤلاء المنافقين واليهود من صفاتهم - أيضا - أنهم كثيرو السماع للكذب ، وكثيرو الأكل للمال الحرام بجميع صوره وألوانه ، ومن كان هذا شأنه فلا تنتظر منه خيرا ولا تؤمل فيه رشدا .

وجاءت هاتان الصفتان - سماعون وأكالون - بصيغة المبالغة ، للإيذان بأنهم محبوبون حبا جما لما يأباه الدين والخلق الكريم ، فهم يستمرون سماع الباطل من القول ، كما يستمرون أكل أموال الناس بالباطل .

قال ابن الجوزي:

وفى المراد بالسحت ثلاثة أقوال:

أحدها: الرشوة فى الحكم .

والثاني: الرشوة فى الدين .

والثالث: أنه كل كسب لا يحل .

فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ . أى: فإن جاءك اليهود متحاكمين إليك، فأنت بالخيار بين أن تحكم بينهم، لأنهم اتخذوك حكما، أو تعرض عنهم: لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق.

قال الشوكاني فى فتح القدير:

وقد أجمع العلماء على أنه يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين المسلم والذمى إذا ترافعا إليهم، واختلفوا فى أهل الذمة إذا ترافعوا فيما بينهم، فقل: يجب الحكم بينهم ، وقيل: هو جائز وله أن يردهم، ولا يحكم بينهم بشيء .

وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا . أى: وإن اخترت الإعراض عن الحكم بينهم فلن يقدروا على الإضرار بك: لأن الله عاصمك من الناس .

وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ . أى: وإن اخترت الحكم بينهم، فالواجب أن يكون الحكم بينهم بالعدل، الذى أمرك الله به وأنزله عليك .

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . (النساء: ٥٨)

وقال سبحانه: وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . (المائدة: ٤٩)

وقريب منه قوله تعالى: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ . (ص: ٢٦)

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ : وهو ختام للآية مقرر لما قبله من وجوب الحكم بالعدل إذا ما اختار أن يقضى بينهم .

يقال: أقسط الحاكم فى حكمه: إذا عدل وقضى بالحق فهو مقسط أى: عادل، ومنه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ.

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا»^(١٠٤)

فى أعقاب الآية :

١- ذهب فريق من العلماء إلى أن هذه الآية منسوخة وأن النبى ﷺ كان مخيراً بين الحكم بين اليهود أو الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك بقوله تعالى :

وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ. والراجع أن الآية غير منسوخة، وأن التخيير لا يزال قائماً، أما قوله تعالى: وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ. فهو بيان لكيفية الحكم عند اختياره له .

★ ★ ★

﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣)

التفسير:

٤٣- وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ الآية. أى: أن أمر هؤلاء اليهود لمن أعجب العجب! لأنهم يحكمونك يا محمد فى قضاياهم مع أنهم لم يتبعوا شريعتك، ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحاً واضحاً فيما يحكمونك فيه، فالاستفهام فى قوله: وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ. للتعجب من أحوالهم حيث حكموا من لا يؤمنون به فى قضية حكمها بين أيديهم ظناً منهم أنه سيحكم بينهم بما اتفقوا عليه مما يرضى أمواءهم وشهواتهم .

ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . أى: ثم يعرضون من بعد حكمك الموافق لما فى كتابهم .

وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . تبذيل مقرر لمضمون ما قبله، فهم غير مؤمنين بالتوراة: لتحريفهم بعض أحكامها. وغير مؤمنين بك: لإعراضهم عن حكمك الموافق لما فى التوراة .

★ ★ ★

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشِينَ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤٤)

المضردات،

والربانيون : جمع رباني؛ وهو المنسوب إلى الرب. والمراد: الزهاد والعباد .

والأحبار : جمع حبر؛ وهو: العالم، أو رؤساء العلماء عند اليهود .

استحفظوا : كلفوا من الله بالمحافظة عليه .

شهداء : أي: رقباء يحمونه من التغيير والتبديل .

التفسير،

٤٤- إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... الآية

هذا كلام مستأنف لبيان علو شأن التوراة فهو سبحانه الذي أنزلها من عنده لتكون مصدر

هداية للناس إلى سبيل الله مشتملة على الأحكام والتكاليف والشرائع .

ومشتملة على النور من بيان للعقائد السليمة والمواعظ الحكيمة والأخلاق القويمة .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي :

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة على نبيينا موسى مشتملة على ما يهدي الناس إلى الحق من أحكام

وتكاليف وعلى ما يضيء لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة .

يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ..

النَّبِيُّونَ . هنا هم أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى .

الَّذِينَ أَسْلَمُوا . صفة للنبينين أي: أخلصوا وجوههم لله

قال الشوكاني: وفيه إرغام لليهود بأن أنبياءهم كانوا يدينون بدين الإسلام، الذي دان به محمد ﷺ .

فلا يقال لنبي من الأنبياء: إنه يهودي أو نصراني، بل كانوا جميعا مسلمين .

لِّلَّذِينَ هَادُوا . أَيْ: رجعوا عن الكفر، والمراد بهم اليهود .
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ
الرَّبَّانِيُّونَ . العلماء الحكماء
الْأَحْبَارُ . العلماء

وقال مجاهد: الرَّبَّانِيُّونَ: الفقهاء العلماء وهم فوق الأحبار، وقال ابن عباس: الرَّبَّانِيُّونَ: هم الذين يسوسون الناس بالعلم، ويربونهم بصغاره قبل كباره .

والجبر والحبر: الرجل العالم وهو مأخوذ من التحبير وهو التحسين، فهم يحبرون العلم أَيْ: يبينونه ويزينونه، وهو محبرٌ فى صدورهم (١٠٥)

بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ . أَيْ: أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل، والمحافظة على تطبيق أحكامها، وأن يكونوا رقباء على تنفيذ حدودها، وتطبيق أحكامها؛ حتى لا يهمل شيء منها .

والعنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق، وضياء لهم من ظلمات الباطل، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبياءهم الذين أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا له العبادة والطاعة، ويحكم بها أيضا الربانيون والأحبار الذين التزموا طريقة الأنبياء .

وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود، بسبب أنه تعالى حملهم أمانة حفظ كتابه والقيام على تنفيذ أحكامه، وشرائعه وتعاليمه .

قال الفخر الرازى:

قوله تعالى: بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.

حفظ كتاب الله على وجهين .

الأول: أن يحفظ فلا ينسى .

الثانى: أن يحفظ فلا يضيع، وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين:

أحدهما: أن يحفظوه فى صدورهم ويدرسوه بألسنتهم .

الثانى: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه (١٠٦) .

فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوِ اللَّهَ

الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه، ولذلك خُصَّ العلماء بها في قوله: **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** .. (١٠٧) (فاطر: ٢٨)

فبالخشية خوف يشوبه تعظيم ومحبة للمخشي، بخلاف الخوف فهو أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب أو مرهوب مبعوض مذموم .

والمعنى: إذا كان شأن التوراة، أن تنفذ أحكامها وتعاليمها فلا تخافوا يا علماء اليهود، أحدًا من الناس كائنًا من كان، وعليكم أن تطبقوا أحكام الله كما أنزلها الله وأن تجعلوا خشيتكم مني وحدي، لا من أحد من الناس فأنا الذي بيدي نفع العباد وضرهم .

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا . أى: لا تتركوا الحكم بما أنزل الله: خوفا من أحد أو رغبة في مصلحة أو رشوة.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى في تفسير سورة المائدة .

والاشتراء هنا معناه: الاستبدال، والمراد بالآيات: ما اشتملت عليه التوراة من أحكام وتشريعات وبشارات بالنبى ﷺ .

والمراد بالثمن القليل: حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمال والجاه، وما إلى ذلك من متع الحياة الدنيا .

أى: ولا تستبدلوا بأحكام آياتي التى اشتملت عليها التوراة، أحكاما أخرى تغايرها وتخالفها لكى تأخذوا فى مقابل هذا الاستبدال ثمنا قليلا من حظوظ الدنيا .

وهذا الثمن لا يكون إلا قليلا - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا - بالنسبة لطاعة الله والرجاء فى رحمته ورضاه .

وهذا النهى، وإن كان موجها إلى رؤساء اليهود وأخبارهم، إلا أنه يتناول الناس جميعا فى كل زمان وكل مكان؛ لأنه نهى عن رذائل يجب أن يبتعد عنها كل إنسان يتأتى له الخطاب . وإلى هذا المعنى أشار الآلوسى بقوله: **فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا** .. خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات - إذ انتقل من الحديث عن الأخبار السابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبى ﷺ - ويتناول غير أولئك المخاطبين بطريق الدلالة (١٠٨).

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.

هذه الآية، وما يأتى من قوله تعالى: **فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** .

وقوله تعالى: فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. نزلت كلها في الكفار وعلى هذا رأى أكثر المفسرين .
فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة^(١٠٩).

صفحة من تفسير القرطبي

قال القرطبي^(١١٠) قوله تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ.

وَالظَّالِمُونَ وَالْفَاسِقُونَ. نزلت كلها في الكفار؛ ثبت ذلك في صحيح مسلم من حديث البراء، وقد تقدم. وعلى هذا المعظم فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة. وقيل: فيه إضمار؛ أي ومن لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن، وحجدا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام فهو كافر؛ قاله ابن عباس ومجاهد، فالآية عامة على هذا.

قال ابن مسعود والحسن: هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار، أي: معتقدا ذلك ومستحلا له؛ فأما من فعل ذلك، وهو معتقد أنه راكب محرم؛ فهو من فساد المسلمين، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

وقال ابن عباس في رواية: ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلا يضاهي أفعال الكفار. وقيل: أي: ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله؛ فهو كافر، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع؛ فلا يدخل في هذه الآية، والصحيح الأول، إلا أن الشعبي قال: هي في اليهود خاصة، واختاره النحاس؛ قال: ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها: أن اليهود قد ذُكِرُوا قبل هذا في قوله: لِلَّذِينَ هَادُوا. فعاد الضمير عليهم، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك، ألا ترى أن بعده وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ. فهذا الضمير لليهود بإجماع؛ وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص. فإن قال قائل: من إذا كانت للمجازاة فهي عامة إلا أن يقع دليل على تخصيصها؟ قيل له: من. هنا بمعنى الذي مع ما ذكرناه من الأدلة؛ والتقدير: واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون؛ فهذا من أحسن ما قيل في هذا.

ويرى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات أمي في بنى إسرائيل؟ قال: نعم هي فيهم، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل. وقيل: الْكَافِرُونَ. للمسلمين، وَالظَّالِمُونَ لليهود، وَالْفَاسِقُونَ للنصارى؛ وهذا اختيار أبي بكر بن العربي، قال: لأنه ظاهر الآيات، وهو اختيار ابن عباس وجابر بن زيد وابن أبي زائدة وابن شبرمة والشعبي أيضا. قال طاوس وغيره: ليس بكفر ينقل عن الملة، ولكنه كفر دون كفر^(١١١).

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ
كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات:

قصاص : القصاص: عقاب الجاني بمثل ما جنى .

تصدق : أى: عفا عن الجاني .

كفارة له : محو لذنوبه وأثامه .

التفسير:

٤٥ - وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ
وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... الآية.

أى: وكتبنا على اليهود فى التوراة القصاص بقتل النفس بالنفس كبيرة أو صغيرة، ذكراً أو أنثى،
وشرع من قبلنا يلزم إذا لم ينسخ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ. أى: أن العين إذا فقتت، أو قلعت عمداً ولم يبق فيها مجال
للإدراك، فيجب أن تُقْفَأ عين الجاني أو تقلع بها، وقال القاضى أبو يعلى: ليس المراد قلع العين بالعين،
لتعذر استيفاء المماثلة، لأننا لا نقف على الحد الذى يجب فيما ذهب ضوءها وهى قائمة، وصفة ذلك أن
تشد عين القالع، وتحمى مرآة، فتقدم من العين التى فيها القصاص حتى يذهب ضوءها.

وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ. إذا جدد جميعه فإنه يجدد أنف الجاني به. وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ. أى: تقطع الأذن بالأذن،
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ. أى: وكذلك السن إذا قلعت أو كُسرت تؤخذ بها، لا فرق بين الثنايا، والأنياب، والأضراس،
والرباعيات، وأنه يؤخذ بعضها ببعض، ولا فضل لبعضها على بعض، وينبغى أن يكون المأخوذ فى
القصاص من الجاني هو المماثل للمأخوذ من المجنى عليه، كالأذن اليمنى مثلاً دون اليسرى .

وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ. ^(١١٧) فيقتص من الجاني بجرح مثل ما جرح، إن كان لا يحدث من القصاص تلف
النفس، ويعرف مقدار الجرح عمقا أو طولاً أو عرضاً، وقد قدر أئمة الفقه أرض كل جراحة بمقادير معلومة.

جاء في التفسير الوسيط:

ويتم القصاص إذا كانت المساواة ممكنة فإذا تعذرت المساواة كما إذا فقأ أعمى عين مبصرة، أو كان فيها خطر على حياة المقتص منه كما إذا فقأ أعور عين مبصر ففي ذلك دية الجراح (١١١) فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ . أى: فمن عفا عن القصاص من الجاني بقبول الدية، أو مع التنازل عنها فهو كَفَّارَةٌ لَهُ. أى: فهو كفارة للمتصدق يكفر الله بها عنه ذنوبه .

وعبر عن العفو والتصدق: للترغيب فيه، وإظهار جزيل ثوابه، والقصاص المذكور فى الآية، إنما يكون حال العدوان العمد، أما الخطأ أو شبهه ففيه الدية .

فى أعقاب الآية:

١- ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله : وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ . وفى هذه الآية قال : وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . والكفر أعظم من الظلم .

قال ابن كثير :

هذه الآية مما ويخت به اليهود وأيضاً قرّعت عليهم، فإن عندهم فى نص التوراة أن النفس بالنفس، وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً فأقادوا النضرى من القرطى، ولم يقيدوا القرطى من النضرى، وعدلوا إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطاحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار، ولهذا قال هناك: وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ؛ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال هنا: فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فى تنمة الآية: لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض ... اهـ .

٢- استدل جمهور الفقهاء بعموم هذه الآية على أن الرجل يقتل بالمرأة. وقد روى أنه ﷺ قتل مسلماً بذمى (١١٢) وذهب بعض الفقهاء إلى أن الرجل لا يقتل بالمرأة، بل تجب عليه ديتها، وإلى أنه لا يقتل مؤمن بكافر، وأجاب العلماء بأن الآية عامة تفيد قتل النفس بالنفس وما روى فى الحديث لا يقتل مؤمن بكافر (١١٣) والمراد بما روى الحري .

٣- قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ وَالْبَحْرُ وَالْعَدُوُّ وَالْأُنثَى بِالْأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَى بِعدَدٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (البقرة: ١٧٨) .

تذكر بعض الروايات أن هذه الآية منسوخة نسختها آية المائدة التي نزلت بعدها وجعلت النفس بالنفس إطلاقاً .

وعند التحقيق نجد أن آية النفس بالنفس مجالها مجال الاعتداء الفردي من فرد معين على فرد معين، فيؤخذ الجاني ما دام القتل عمداً .

فأما آية البقرة فمجالها مجال الاعتداء الجماعي حيث تعدى أسرة على أسرة أو جماعة على جماعة فتصيب منها من الأحرار والعبيد والنساء فإذا أقيم ميزان القصاص؛ كان الحر من هذه بالحر من تلك والعبد من هذه بالعبد من تلك، والأنثى من هذه بالأنثى من تلك، وإلا فكيف يكون القصاص في مثل تلك الحالة التي يشترك فيها جماعة في الاعتداء على جماعة، وإذا صح هذا النظر، وعلمنا أن سبب نزول آية البقرة أن حيين من العرب اقتتلا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهما قتلى وجراحات فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلفوا ألا يرضوا حتى يُقتل بالعبد منا الحر منهم، وبالمراة منا الرجل منهم فنزل الحرُّ بالحرِّ والعبدُ بالعبدِ والأنثى بالأنثى .

إذا أمعنا النظر فلن يكون هناك تعارض بين الآيتين . آية البقرة في الاعتداء الجماعي، وآية المائدة في الاعتداء الفردي^(١١٦) .

٤- لم يكن لليهود إلا القصاص . ولم يكن للنصارى إلا العفو وخيرت الأمة الإسلامية بين القصاص، وقبول الدية والعفو، وقد رغب القرآن في العفو وحث عليه قال تعالى: **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** . (الشورى: ٤٠) وقال سبحانه: **وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ** . (آل عمران: ١٣٤) وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيتصدق بها؛ إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به»^(١١٧) ومن هذه الآية وغيرها نرى أن الإسلام قد جمع فيما شرع من عقوبات بين العدل والرحمة، فقد شرع القصاص؛ زجراً للمعتدى، وإشغافاً له بأن سوط العقاب مسلط عليه إذا ما تجاوز حده، وجبراً لخاطر المعتدى عليه، وتمكيناً له من أخذ حقه ممن اعتدى عليه، ومع هذا التمكين التام للمجنى عليه من الجاني، فقد رغب الإسلام المجنى عليه في العفو والصَفْح حيث قال: **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ** .

٥- قال ابن العربي: نصَّ الله سبحانه وتعالى على أمهات الأعضاء وترك باقيها للقياس عليها فكل عضو فيه القصاص إذا أمكن ولم يخش عليه الموت، وكذلك كل عضو بطلت منفعته وبقيت صورته فلا قود فيه، وفيه الدية لعدم إمكان القود فيه .

وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. أَيْ: أَنْ هَذَا الظُّلْمُ الصَّادِرُ مِنْهُمْ ظُلْمٌ عَظِيمٌ بِالْغَى إِلَى الْغَايَةِ .

★ ★ ★

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

المضردات:

وقَفَّيْنَا: أَتَبَعْنَا .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ : لِمَا تَقَدَّمَه .

التفسير:

٤٦- وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... وَأَتَبَعْنَا عَلَىٰ آثَارِ أَوْلَٰئِكَ النَّبِيِّينَ الَّذِي أَسْلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ، وَالَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَةِ كَمُوسَى وَهَارُونَ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ- أَتَبَعْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ نَاهِجًا نَهَجَهُمْ فِي الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ. وَأَعْطَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ مُشْتَمِلًا عَلَى الْهُدَايَةِ إِلَى الْحَقِّ وَالنُّورِ الَّذِي يَسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَحُلِّ الْمَشْكَلَاتِ .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ. أَيْ: وَمُؤَيِّدًا لَهَا غَيْرُ مُخَالَفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ الْمَسِيحِ ابْنِي إِسْرَائِيلَ: وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ. (آل عمران: ٥٠) ولهذا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنجِيلَ نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ ^(١١٨).

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. أَيْ: وَجَعَلْنَا الْإِنجِيلَ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى عِيسَى هُدًى يَهْتَدِي بِهِ، وَزَاجِرًا عَنْ ارْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتَمِّ لِمَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ عِقَابَهُ .

٤٧- وَلَيَحْكُمَنَّ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ... الآية

أمر من الله تعالى لأهل الإنجيل من المسيحيين بأن ينفذوا الأحكام الواردة في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، وهذا الأمر ممتد إلى البعثة المحمدية؛ لأن البشارة وردت بمحمد في الإنجيل . فهم مأمورون بأن يعملوا بما فيه، ومن جملة ما فيه: دلائل رسالته ﷺ ووجوب اتباعه فيما يجيء به .

وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . أى: ومن لم يحكم بما أنزل الله في الإنجيل، ولم يتبع ما ورد فيه من البشارة بمحمد ﷺ والإيمان برسالته، فأولئك هم المتمردون الخارجون عن حكمه .

جاء في تفسير المنار ^(١١٩) .

وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك نكتة التعبير بالكفر في الأولى وبوصف الظلم في الثانية، وبوصف الفسوق في الثالثة .

ففي الآية الأولى: كان الكلام في التشريع وإنزال الكتاب مشتملاً على الهدى والنور والتزام الأنبياء وحكماء العلماء بالعمل والحكم به .. فكان من المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له مؤثراً لغيره عليه؛ يكون كافراً به .

وأما الآية الثانية: فلم يكن الكلام فيها في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان بل في عقاب المعتدين على الأنفس أو الأعضاء ... فمن لم يحكم بحكم الله في ذلك؛ يكون ظالماً في حكمه .

وأما الآية الثالثة: فهي في بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب وترغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته ...

فمن لم يحكم بهذه الهداية ممن خاطبوا؛ فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج من محيط تأديب الشريعة ^(١٢٠) .

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ ۖ فَاسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝﴾

المفردات:

مهيمنا عليه : مسيطراً .

شريعة : شريعة .

ومنهاجاً : طريقاً واضحاً في تطبيق هذه الشريعة .

ليبلوكم : ليختبركم .

فاستقيموا الخيرات ، أى: فليستبق كل منكم الآخر إلى فعل الخيرات .

التفسير:

٤٨- وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ... الآية

المراد بالكتاب الأول: القرآن، وأل فيه للعهد، والمراد بالكتاب الثاني: جنس الكتب السماوية

فيشمل التوراة والإنجيل .

وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . أى: رقيباً على ما سبقه من الكتب السماوية وأميناً وحاكماً عليها؛ لأنه هو الذى

يشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها .

والمعنى:

لقد أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب الجامع لكل

ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه متلبساً بالحق الذى لا يحوم حوله باطل،

وجعلناه مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ . أى: مؤيداً لما فى هذه الكتب التى تقدمته من دعوة إلى عبادة

الله وحده، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق وجعلناه كذلك مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ . أى: أميناً ورقيباً وحاكماً على

كل كتاب سبقه .

قال ابن كثير:

جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمتها، جعله أشملها وأعظمها وأكملها: لأنه سبحانه جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره، فلهاذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل سبحانه بحفظه بنفسه فقال: **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** . (الحجر: ٩)

فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . أى: فاحكم بين أهل الكتاب بالحق الذى أنزل إليك فى كتابه الكريم؛ فإنه المرجع السماوى الصحيح، المحفوظ من التحريف، وكل ما لا يتوافق فى التوراة والإنجيل منسوخ يحرم العمل به .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ . أى: أهواء أهل الملل السابقة، ولا تعدل أو لا تنحرف عما جاءك من الحق . أى: الحق الذى أنزل الله عليك، فإن كل ملة من الملل تهوى أن يكون الأمر على ما هم عليه، وما أدركوا عليه سلفهم، وإن كان باطلاً منسوخاً أو منحرفاً عن الحكم الذى أنزله الله على الأنبياء، كما أرادوا فى الرجم ونحوه مما حرفوه من كتب الله ^(١٢١) .

لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً . أى: لكل أمة منكم يا بنى آدم جعلنا شريعة تناسب أحوالها وزمانها **وَمِنْهَا جَاءَ** . أى: طريقاً واضحاً تسير عليه فى تنفيذ أحكام شريعتهم . فقد جعل الله التوراة لأهلها، والإنجيل لأهلها، والقرآن لأهلها. وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شريعة ولا منهاج إلا ما جاء به محمد ﷺ ^(١٢٢) .

وقال ابن كثير:

هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعبادى فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» ^(١٢٣) .

أى: فى التوحيد الذى أرسل به كل رسول أرسله، وضمّنه كل كتاب أنزله .

قال تعالى: **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** . (الأنبياء: ٢٥)

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً . بشريعة واحدة، وكتاب واحد، ورسول واحد .

وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ . أَيْ: ولكن أنزل إليكم شرائع ومناهج مختلفة: ليعاملكم معاملة من يختبركم فيما آتاكم من الشرائع ومدى امتثالكم لأحكامها، هل تعملون بها مدعين لها، معتقدين أن في اختلافها نفعاً لكم في معاشكم ومعادكم ؟ وهل تستجيبون لدعوة خاتم أنبيائه: الذي جاءكم بالشرعة التي ختمت بها الشرائع، لتكون شريعة الناس كافة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فَاسْتَقْبُوا الْخَيْرَاتِ : أَيْ: فليسبق كل منكم غيره إلى فعل الخيرات.

قال الشوكاني: أَيْ: فسابقوا أيها المسلمون غيركم من أصحاب الشرائع الذين عملوا على أساسها بطاعة الله، واعملوا بطاعة الله على أساس شريعتكم.

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى:

«لو شاء الله تعالى أن يجعل الأمم جميعاً أمة واحدة تدين بدين واحد وبشرعة واحدة لفعل، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك، وإنما شاء أن يجعلكم أمماً متعددة: ليختبركم فيما آتاكم من شرائع مختلفة فى بعض فروعها ولكنها متحدة فى جوهرها وأصلها فيجازى من أطاعه بما يستحقه من ثواب، ويجازى من خالف أمره بما يستحقه من عذاب.

وإذا كان الأمر كما وصفت لكم؛ فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة وتنافسوا فى عمل الخيرات بكل عزيمة ونشاط . اهـ .

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أَيْ: إلى الله وحده مصيركم ومرجعكم فيخبركم عند الحساب: بما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا، ويجازيكم بما تستحقون، ويفصل بين المحق منكم والمبطل، والعامل والمفرط .

﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التفسير:

٤٩- وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ أى: إن جاءوك لحكم بينهم فأردت أن تحكم: فليكن حكمك طبقا لما أنزل الله عليك لا طبقا لما تهواه أنفسهم أو طبقا لما فى كتبهم من التحريف .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن هذه الآية نزلت فى كعب ابن أسد، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس وغيرهم، فقد قالوا فيما بينهم: انهبوا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أننا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإننا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدق فأبى ذلك رسول الله ﷺ - فأنزل الله الآية: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . التى يسىرون عليها ويتبعون طريقها: فإنها أهواء زائغة باطلة .

وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . واحذرهم أن يضلوك أو يصدوك عن بعض ما أنزلنا إليك ولو كان أقل قليل، بأن يصوروا لك الباطل فى صورة الحق أو بأن يحاولوا حملك على الحكم الذى يناسب شهواتهم .

وقد كرر سبحانه على نبيه ﷺ وجوب التزامه فى أحكامه بما أنزل الله: لتأكيد هذا الأمر فى مقام يستدعى التأكيد: لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته - ﷺ - وإغرائه بالميل إلى الأحكام التى تتفق مع أهوائهم .

وإعادة: مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ . لتأكيد التحذير، بتسهيل الخطاب إذا تمكنوا من صرفه عن ذلك .

فَإِن تَوَلَّوْا . أى: أعرضوا عن قبول الحق المنزل، وأرادوا غيره، مما يتفق مع أهوائهم .

فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ . ألا وهو ذنب التولى والإعراض عن حكم الله والرغبة فى خلافه .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي:

فاعلم أن حكمة الله قد اقتضت أن يعاقبهم بسبب هذه الذنوب متى اقترفوها بتوليهم عن حكم الله وإعراضهم عنك وانصرافهم عن الهدى والرشاد إلى الغي والضلال؛ لأن الأمة التي لا تخضع لأحكام شرع الله وتسير وراء لذائنها ومتعها وشهواتها وأهوائها الباطلة لابد أن يصيبها العقاب الشديد بسبب ذلك .

وَأَنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ. اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله ومتضمن تسليية الرسول ﷺ عمَّا لقيه من مخالفيه ولا سيما اليهود.

أى: وإن كثيرا من الناس لخارجون عن طاعتنا ، ومتعمدون على أحكامنا، ومتبعون لخطوات الشيطان الذى استحوذ عليهم، وإذا كان الأمر كذلك فلا تبتئس يا محمد عما لقيته من أصحاب النفوس المريضة، بل اصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم .

★ ★ ★

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

التفسير:

٥٠- أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ هذا إنكار وتعجب من حالهم وتوبيخ لهم .

والمعنى: أينصرفون عن حكمك بما أنزل الله ويعرضون عنه فيبغون حكم الجاهلية مع أن ما أنزله الله إليك من قرآن فيه الأحكام العادلة التي ترضى كل ذى عقل سليم ومنطق قويم .

قال الألوسي: روى أن بنى النضير لما تهاكموا إلى رسول الله ﷺ - فى خصومة قتيل وقعت بينهم وبين بنى قريظة، طلب بعضهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل .

فقال ﷺ: «القتلى بواء» أى: متساوون .

فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بحكمك؛ فنزلت هذه الآية (١٢٤) .

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . أى: ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه سبحانه أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شىء والقادر على كل شىء والعاقل فى كل شىء .

روى الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أبغض الناس إلى الله تعالى - من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلين ومن طلب دم امرئ بغير حق ليريق دمه»^(١٢٤).

ومجموع هذا الربع يبدأ ببدء الرسول الكريم بعدم المبالاة بما يصدر عن أولئك الذين يسارعون في الكفر، ثم خُيرَت الآيات الرسول ﷺ بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم إذا ما تحاكموا إليه .

ثم وبخت الآيات اليهود على إعراضهم عن أحكام الله العادلة التي أنزلها لعباده، ووصفت المعرضين عن حكمه سبحانه بالكفر تارة والفسق تارة أخرى .

ويعد أن مدحت التوراة والإنجيل، عقيبت ذلك ببيان منزلة القرآن الكريم، وأنه الكتاب الجامع في هدايته وفضله لكل ما جاء في الكتب السابقة .

ثم ختمت الآية بالتحذير من خداع اليهود ومكرهم وتوعدت كل من يرغب عن حكم الله إلى غيره بسوء العقوبة وشديد العذاب .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ قَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَعَنُوكُمُ حِطَّتْ آَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

المفردات:

أولياء: أحباب، أو أصدقاء، أو نصراء .

في قلوبهم مرض: شك ونفاق .

أن تصيبنا: أن تتركنا وتستأصلنا . من أصاب الشيء: أدركه واستأصله .

دائرة: الدائرة: الهزيمة، أو الداهية. يقال: دارت عليهم الدوائر . أي: نزلت بهم الدواهي .

التفسير:

٥١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ... الآية

خطاب من الله تعالى لجميع المؤمنين يحذرهم فيه من مصافاة اليهود والنصارى مصافاة الأحباب ومعاشرتهم معاشرة الأصدقاء والنصرء .

وقد روى ابن جرير أن هذه الآية وما بعدها نزلت في عبد الله بن أبيّ حينما تشبث بمخالفة اليهود وقال: إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من مواليّ .

وقيل: إنها نزلت في أبي لبابة الأنصاري حين قال لبني قريظة إذا رضوا بحكم سعد بن معاذ: إنه الذبح. ثم أدرك أبو لبابة بعد ذلك أنه خان الله ورسوله .

والخطاب في الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي:

أى: يأيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا يتخذ أحد منكم أحداً من اليهود والنصارى ولياً ونصيراً، أى: لا تصافوهم مصافاة الأحباب، ولا تستنصروا بهم؛ فإنهم جميعاً يد واحدة عليكم يبقونكم الغوائل، ويترصبون بكم الدوائر، فكيف يتوهم أن تكون بينهم موالاة لكم؟

لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . أى: لا يتخذ أحد منكم أحداً منهم ولياً يعتمد عليه ويستنصر به ويتودد إليه ويخالطه مخالطة الأصفياء .

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . أى: لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء؛ لأن بعض اليهود أولياء لبعض منهم وبعض النصارى أولياء لبعض منهم، والكل يضررون لكم البغضاء والنش، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم، لكنهم متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين .

قال تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ (آل عمران: ٢٨) .

وقيل: مراد هذه الفقرة أن اليهود يوالون النصارى، والنصارى يوالون اليهود على عداوة النبي ﷺ وعداوة ما جاء به، وإن كانوا في ذات بينهم متعادين متضادين .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . أى: ومن يتودد إلى اليهود والنصارى ويستنصر بهم فإنه من جملتهم وليس مع جماعة المؤمنين .

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم والطعن في دين الإسلام؛ كانت كذراً وخروجاً عن دين الإسلام، وإن كانت على سبيل المصافاة والمصادقة؛ كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالاة، وبحسب اختلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالاة.

قال الفخر الرازي:

قوله: وَمَنْ يَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ . قال ابن عباس: يريد كأنه مثلهم، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين .

روى عن أبي موسى الأشعري أنه قال: قلت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن لى كاتباً نصرانياً؛ فقال: مالك قاتلك الله ألا اتخذت حنيفياً، أما سمعت قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ .

قلت: له دينه، ولى كتابته، فقال: لا أكرمهم إذ أمانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أذنبهم إذ أبعدهم الله، قلت: لا يتم أمر البصرة إلا به، فقال: مات النصراني والسلام .

يعنى: هب أنه مات فماذا تصنع بعد، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره^(١٣٦)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أى: إن الله لا يوفق إلى قبول الحق، أولئك الذين ظلموا أنفسهم باختيار الضلالة على الهدى، وظلموا غيرهم بإيذائهم ومضاررتهم، وتدبير الكيد لهم، فلا يهدى إلى الإيمان من ظلم نفسه من المسلمين . بموالاته غير المؤمنين، واتباع غير طريق المسلمين .

وفى ختام الآية بهذا: زجر شديد للمؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى، وأنه ظلم للإسلام، لا يهدى الله صاحبه .

٥٢- فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ... الآية

نزلت هذه الآية فى المنافقين. كانوا يصلون حباليهم باليهود خوفاً من وقوع هزيمة بالمسلمين.

روى ابن الجوزى أن اليهود والنصارى كانوا يجلبون الطعام والميرة للمنافقين ويقرضونهم فيؤادونهم فلما نزلت: لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . قال المنافقون: كيف نقطع مودة قوم إن أصابتنا سنة وسعوا علينا، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس. ومن قال: نزلت فى المنافقين ولم يعين مجاهد وقتادة^(١٣٧) والمراد بالمرض الشك والنفاق. ومعنى: يُسَارِعُونَ فِيهِمْ . أى: يسارعون فى موالاتهم، أو معاونتهم على المسلمين.

والمعنى: يا محمد ترى أولئك المنافقين الذين ضَعُفَ إيمانهم وذهب يقينهم، يسارعون فى مناصرة أعداء الإسلام مسارعة الداخل فى الشيء أى: أنهم مستقرون فى مودتهم .

يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ . أى: يقولون فى أنفسهم، أو للناصحين لهم بالثبات على الحق: اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التى يدور بها الزمان، كأن تمسنا أزمة مالية، أو ضائقة اقتصادية، أو أن يكون النصر فى النهاية لهؤلاء الذين نواليهم فنحن نصادقهم ونصافقهم: لنتقى شرهم ولتنال عونهم فى الملهمات والضوائق .

فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . وهو وعد من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين بأن يحقق لهم الغلبة على أعدائهم والقضاء عليهم. والمراد بالفتح: فتح مكة، أو فتح خيبر أو فتح بلاد المشركين أو نصر الإسلام وإعزازه، وكل ذلك قد كان. أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ . أى: أن يأتى الله بأمر من عنده لا يكون للناس فيه فعل البتة مثل: القضاء على اليهود وقطع دابرهم، أو هو الخصب والسعة للمسلمين، بعد أن كانوا فى ضيق من العيش، أو هو الجزية التى تفرض على اليهود والنصارى، أو هو إظهار أمر المنافقين. والحق أن كل ذلك قد حققه الله للمسلمين .

فَيُضْهِجُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . أى: فيصبح هؤلاء المنافقون بعد أن جاء الفتح والنصر، أسفين متحسرين بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد أو خائب «أو إذا ما عاينوا عند الموت فيبشروا بالعذاب» (١٢٨) .

٥٣- وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ... الآية

أى: يقول الذين آمنوا لليهود على جهة التوبيخ، هؤلاء المنافقون، الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد بالمناصرة والمعاضدة فى القتال - ويحتمل أن يكون القول من المؤمنين بعضهم لبعض: أى: هؤلاء الذين كانوا يظفون أنهم مؤمنون فقد هتك الله اليوم سترهم، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ . أى: بطلت الأعمال التى كانوا يعملونها، أو كل عمل يعملونه فصاروا خاسرين فى الدنيا والآخرة .

ملحق بالآيات عن علاقة المسلمين بغيرهم

هل النهى الوارد فى الآيات القرآنية عن موالاة غير المسلمين على إطلاقه ؟

والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة :

القسم الأول: وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم ؛ ولم يبدر منهم ما يقضى إلى سوء الظن بهم ... وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولا مانع من

مودتهم والإحسان إليهم كما فى قوله - تعالى - : لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (الممتحنة: ٨).

والقسم الثانى: وهم الذين يقاتلون المسلمين، ويسبئون إليهم بشتى الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم، ولا تجوز موالاتهم، وهم الذين غناهم الله فى الآيات التى معنا وفيما يشبهها من آيات كما فى قوله - تعالى - : إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . (الممتحنة: ٩).

والقسم الثالث: قوم لا يعلنون العداوة لنا ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدى عليهم ...

ومهما تكن أحوال غير المسلمين: فإنه لا يجوز لولى الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية، أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يطلعون على الأمور التى يؤدى إفشاؤها إلى خسارة الأمة فى السلم أو الحرب .

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى، عقب ذلك ببدء آخر وجهه إليهم، وبين لهم فيه أن موالات أعداء الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين، وأنهم إن ارتدوا: فسوف يأتى الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم، وأن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولايتهم لله ولرسوله وللمؤمنين... فقال تعالى:

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَدَّدَ مِنْكُم عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَضَّلَ اللَّهُ يُونُسَ مِن نَّشَاءِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

المضردات:

يُـرـتـدـ: يرجع عما هو عليه .

أذِلَّةٌ: جمع ذليل، لين، رحيم، متواضع لا بمعنى مهين. أي: رحماء متواضعين .

أعِزَّةٌ: أقوياء أشداء .

لَوْمَةً: المرة من اللوم، ولامة: كدره بالكلام، لإتيانه ما لا ينبغي .

التفسير:

٥٤- يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ... الآية. من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى الكفر وإنكار ما جاء به الإسلام من تكاليف .

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ . بآناس آخرين .

يُحِبُّهُمْ . يرضى عنهم إذ هداهم إلى خيري الدنيا والآخرة .

وَيُحِبُّونَهُ . ويحرصون على طاعته وينصرون دينه .

أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . أى: يظهرون العطف والحنو والتواضع للمؤمنين، ويظهرون الغلظة والشدّة والترفع على الكافرين .

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . يجمعون بين المجاهدة في سبيل الله، وعدم خوف الملامة في الدين، بل هم متصلبون لا يبالون بما يفعله أعداء الحق وحزب الشيطان، من الازدراء بأهل الدين، وقلب محاسنهم مساوئ، ومناقبهم مثالب؛ حسداً وبغضا وكراهية للحق وأهله^(١٢٣) .

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى: ما تقدم من الأوصاف العظيمة، والفضائل الجليلة من محبة الله لهم، ومحبتهم لله تعالى، وحنوهم على المؤمنين، والشدّة على الكفار والجهاد في سبيل الله - دون خشية أحد - إنما هو لطف الله وإحسانه، يتفضل بمنحه من يشاء من عباده، وذلك بتوقيفه للعمل على تحصيله والحرص على التحلي به .

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . كامل القدرة، كثير الأفضال، كامل العلم، محيط بكل شيء وقد تحدثت الآية عن يرتدون قبل أن تقع ردتهم، فكان ذلك إخباراً عن مغيبات، وكان معجزة للرسول ﷺ، وإعجازاً للقرآن الكريم، وقد ارتد من العرب في أواخر عهد الرسول ﷺ ثلاث فرق :

١- بنو مدلج: تحت رئاسة الأسود العنسي تنبأ باليمن، ثم قتله فيروز الديلمي .

٢- بنو حنيفة: أصحاب مسيلمة الكذاب وقد قتل في حروب الردة .

٣- بنو أسد: قوم طلحة بن خويلد وقد هُزم وهرب إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

وقد قبض الله أباً بكر الصديق فجهز الجيوش لقتال المرتدين، واستطاع القضاء على هذه

الفتنة، وضمّ المسلمين بعد أن كادوا يتفرقون وقد اختلف المفسرون في المراد بهؤلاء القوم الذين يأتي الله بهم، فقال بعضهم: أبو بكر الصديق ومن معه من المؤمنين .

وقال بعضهم : المراد بهم الأنصار .

وقال مجاهد: أهل اليمن .

وقال آخرون: كل من تنطبق عليه هذه الصفات الجليلة: فكل من أحب الله وأحبه الله، وتواضع للمؤمنين وأغلظ على الكافرين وجاهد في سبيل الله دون أن يخشى أحداً سواه فهو منهم .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمْ الْعَالِيُونَ ٥٦ ﴾

المضردات :

حَرْبُ اللَّهِ : الحزب في اللغة: القوم الذين يجتمعون لأمر حزبهم. وحزب الرجل: أصحابه الذين يكونون معه على رأيه. وأظهر ما قاله المفسرون في بيان معناه: أنهم الذين يطيعون الله فيما أمر ونهى ، فينصرهم الله .

التفسير :

٥٥- إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ .

جاء في تفسير الطبري: أن جابر بن عبد الله قال: جاء عبد الله بن سلام للنبي ﷺ فقال: إن قوما من بنى قريظة والنضير قد هجرونا وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك: لبعد المنازل، فنزلت هذه الآية، فقال: رضينا بالله ورسوله وبالمؤمنين وأولياء .

كما وردت عدة أقوال فيمن نزلت فيهم هذه الآية .

ف قيل: إنها نزلت في أبي بكر الصديق . وقيل: نزلت في علي بن أبي طالب، وقيل: الآية عامة في

جميع المؤمنين .

ومعنى الآية:

أن الوليَّ حقاً، الجدير بأن يستنصر به: هو الله تعالى وحده، وكذلك رسوله ﷺ والمؤمنون، فإن الاستعانة بهم استعانة بالله تعالى .

وقد جاءت هذه الآية تحريضاً للمؤمنين على الاستنصار بالله وبرسوله والمؤمنين، وتحذيراً من موالة غيرهم .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . أئ: إنما وليكم الجدير بالولاء هو الله وحده وكذلك رسوله والمؤمنون .

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . أئ: الذين يحافظون على أداء الصلاة في أوقاتها ويعطون الزكاة لمستحقها وهم خاشعون خاضعون لأمر الله لا يتكبرون على أحد من الفقراء .

جاء في تفسير زاد المسير لابن الجوزي:

والمراد بالركوع ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه ركوع الصلاة .

ثانيها: أنه صلاة التطوع بالليل والنهار، وإنما أفرد الركوع بالذكر: تشريفاً له .

ثالثها: أنه الخشوع والخضوع وأنشدوا:

ولا تهن الفقير علك أن تر كع يوماً والدهر قد رفعه

أئ: لا تتناول على الفقير فريماً أصابك الذل والفقر يوما . وارتفع شأن هذا الفقير فصار غنياً أو عظيماً .

ذكر ابن كثير والفخر الرازي وغيرهم من المفسرين أن الآية عامة في حق جميع المؤمنين، فكل من كان مؤمناً حقاً فهو نصير لجميع المؤمنين .

ونظيره قوله تعالى: وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . (التوبة: ٧١) .

قال الراغب: «الركوع: الانحناء وتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة، وتارة يستعمل في التذلل والتواضع إما في العبادة، وإما في غيرها ... (١٣٠)» .

٥٦- وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ .

ذكر الشوكاني في سبب نزول الآية:

أنه لما حاربت بنو قينقاع من اليهود رسول الله ﷺ تمسك عبد الله بن أبي حلفه معهم، أما عبادة ابن الصامت، فمشى إلى رسول الله ﷺ وتبرأ من حلفهم، وكان له من حلفهم مثل ما لعبد الله بن أبي، لكنه خلعهم إلى رسول الله ﷺ . وقال: أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم .

قال الطبري:

«أى من فُوض أمره إلى الله، وامتنل أمر رسوله وولى المسلمين فهو من حزب الله» (١٣١). وهم المؤمنون القائمون بنصر شريعة الله، الذين يطيعون أمره ويجتنبون نهيه، فكان لهم النصر على أعدائهم.

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾

المضردات :

هُزُوءًا - هَذَا بفلان: سَخِرَ مِنْهُ، وَاسْتَخَفَّ بِهِ. وَاتَّخَذَهُ هُزُوءًا أَي: جَعَلَهُ مَوْضِعَ سَخِرِيَةٍ مِنْهُ.

التفسير :

٥٧ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ... الْآيَةِ

ورد فى تفسير القرطبى، وتفسير الألوسى وغيرهما روايات فى أسباب نزول هذه الآية من ذلك ما يأتى:

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال: كان رفاعة بن زيد بن القابوت وسويد بن الحارث قد أظهرَا الإسلام وناققا، وكان رجال من المسلمين يوادُونهما، فأنزل الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا ... الْآيَةِ. (١٣٢)

وروى عن ابن عباس أن قوما من اليهود والمشركين ضحكوا من المسلمين وقت سجودهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات (١٣٣).

والآيات فى حد ذاتها خطاب من الله تعالى لجمع المؤمنين ينهاهم عن موالاة المتخذين للدين هُزُوءًا ولَعِبًا، وهذا النهى يعم كل من حصل منه ذلك من المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع المنتمين إلى الإسلام (١٣٤)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ... أى: لا تجعلوا أيها المؤمنون - أولئك الذين تلاعبوا بدينكم من أهل الكتاب والكفار واستهزؤوا به وسخروا منه، بإظهار الإسلام بألسنتهم مع الإصرار على الكفر بقلوبهم - أولياء أبدًا.

وصدر أهل الكتاب فى الذكر: لزيادة التشنيع عليهم؛ لأنهم أعرف بالتدين السليم ممن سواهم، ممن كفروا ولا دين لهم .

وَأَقْوَىٰ اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وهذه الجملة تذييل قصد به استنهاض همتهم لامتنال أمر الله تعالى، والهلب نفوسهم؛ حتى يتركوا موالاة أعدائهم بسرعة ونشاط .

أى: واتقوا الله فى سائر ما أمركم به وما نهاكم عنه، فلا تضعوا موالاةكم فى غير موضعها، ولا تخالفوا لله أمرا إن كنتم مؤمنين حقا .

٥٨- وَإِذَا نَادَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . ورد فى سبب نزول هذه الآية أن منادى رسول الله ﷺ كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها قالت اليهود: قاموا لا قاموا، صلوا لا صلوا، على سبيل الاستهزاء والضحك، فنزلت هذه الآية (١٣٥) .

وروى أن الكفار لما سمعوا الأذان؛ حسدوا رسول الله ﷺ والمسلمين على ذلك وقالوا: يا محمد لقد ابتدعت شيئا لم نسمع به فيها مضى من الأمم فمن أين لك صياح مثل صياح العير، فما أقبحه من صوت، وما أسمى من أمر (١٣٦) . ومعنى الآية:

وإذا ناديتم - أيها المؤمنون - بعضهم بعضا إلى الصلاة عن طريق الأذان اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعا لسخريتهم وعبثهم وتهكمهم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لأن الهزؤ واللعب شأن أهل السفه والخفة والطيش، فكيف بمن يهزأ بشعائر دين الله تعالى:

والصلاة هى شعار المؤمنين وفيها صلة روحية بالله تعالى وفيها عبادة وطهارة وذكر وخشوع وتبتل، وليس فيها شيء مما يدعو إلى السخرية .

قال ابن كثير:

هذا تغيير من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهى شرائع الإسلام المطهرة . المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها هزوا،

يستهنئون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهـم الفاسـد، وفكرهـم البارد كما قال القائل :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم^(١٢٧).

وقال القرطبي في تفسير الآية: ولم يكن الأذان بمكة قبل الهجرة، وإنما كانوا ينادون الصلاة جامعة، فلما هاجر النبي ﷺ وحرفت القبلة إلى الكعبة أمر بالأذان، وبقيت الصلاة جامعة للأمر يعرض، والأذان فرض على الكفاية، وقيل: سنة مؤكدة، وقيل: مستحب لساكن المصر أن يؤذن ويقيم فإن استجزأ بأذان الناس وإقامتهم أجزأه^(١٢٨).

★ ★ ★

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثْلَ مَا لَا أَنْءَ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَتٰقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّٰهِ مِنْ لَعْنَةِ اللّٰهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ وَلِخَنَازِيرٍ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

المفردات :

تَقِيْمُونَ ، تعيـبون علينا وتذكرون منا .

الطَّاغُوتِ ، رأس الضلال . وقيل: الشيطان ، أو كل معبود من دون الله .

مَثُوبَةً ، المثوبة والثواب : الجزاء على الأعمال خيـرها ، وشرها ، وكثر استعماله في الخير .

التفسير :

٥٩- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مِثْلَ مَا لَا أَنْءَ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ...

سبب نزولها: أن نفرا من اليهود أتوا رسول الله ﷺ فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فذكر جميع الأنبياء، فلما ذكر عيسى، جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم ديناً شراً من دينكم، فنزلت هذه الآية والتي بعدها^(١٢٩).

ومعنى نعمت: بالغت في كراهية الشيء، والمعنى: هل تكرهون منّا إلا إيماننا وفسقكم لأنكم علمتم أننا على الحق، وأنكم فسقتم .

وجاء في التفسير الرسيط :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْمُونُ مِنَّا . أَيْ: ما تذكرون منا وتعيبون علينا إلا إيماننا بالله وما أنزل إلينا من القرآن المجيد وإيماننا بما أنزل من قبل إنزال القرآن الكريم: من التوراة والإنجيل المنزلين عليكم، وسائر الكتب السماوية، وكذلك إيماننا بأنكم قوم فاسقون متمردون على الحق خارجون عن الطريق المستقيم للصالح الإنساني، مكذبون بنبوّة محمد الذي بشرت به كتبكم وجاء لخلاصكم^(١١٠).

وقال الشوكاني في فتح القدير في معنى الآية:

هل تعيبون أو تسخطون أو تذكرون أو تكهون منا إلا إيماننا بالله وبكتبه المنزلّة، وقد علمتم بأننا على الحق.

وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ . بترككم للإيمان والخروج عن امتثال أوامر الله . ا هـ .

ومن بلاغة القرآن الكريم وإنصافه في الأحكام واحتراسه في التعبير، أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم، بل جعل الحكم بالفسق منصبا على الكثيرين منهم حتى يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب، وشبهه بهذا قوله في آية أخرى: **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** . (المائدة: ٦٦)

وفي الآية ما يسمى عند علماء البيان تأكيد المدح بما يشبه الذم وبالعكس . فمن الأول قول القائل:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

وقول الآخر:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

أما تأكيد الذم بما يشبه المدح ففي هذه الآية وما يشبهها . أَيْ: ما ينبغي أن ينقموا شيئا إلا هذا، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئا، إذا فليس هناك شيء ينقمونه، ومادام الأمر كذلك، فينبغي لهم أن يؤمنوا به ولا يكفروا، وفيه أيضا تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع^(١١١)

٦٠- قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مُتَوَبِّعًا عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ

وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ .. الآية

بين الله سبحانه لرسوله أن هناك قوماً فيهم من العيب ما هو أولى بالعيب، وهو ما هم عليه من الكفر الموجب للعن الله وغضبه ومسخه^(١١٢).

والمعنى:

قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت والتنبية على ضلالهم: هل أخبركم أيها اليهود، بمن هم شر وأسوأ من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة؟

هم أولئك الذين طردهم الله من رحمته، وأبعدهم عن رضوانه وحل عليهم سخطه، وهم:

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ . أئى: وجعل منهم من يشبه القردة فى التقليد الأعمى، والخنازير فى الانغماس فى كل ما هو قدر.

وكذلك جعل منهم الذين عبدوا الكهنة ورؤساء الضلال .

وفى المراد بالطاغوت هنا قولان :

أحدهما: الأصنام .

والثانى: الشيطان .

وفى القرطبى وابن كثير، وابن الجوزى عشرون قراءة فى كلمة وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ وفيها وجهان.

أحدهما: أن المعنى: وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت .

الثانى: أن المعنى: من لعنه الله وعبد الطاغوت. أئى: خدم الطاغوت وأطاع الظلم والباطل والفساد. والآية وردت على سبيل المشاكلة والمجاورة لتفكير اليهود الفاسد وزعمهم الباطل .

فكانه سبحانه يقول لنبيه :

إن هؤلاء يا محمد ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شرا، قل لهم:

لئن كنتم تعيبون علينا إيماننا وتعتبرونه شرا لا خير فيه فشر منه عاقبة ومالاً ما أنتم عليه من لعن وطرده من رحمة الله، وما أصاب أسلافهم من مسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير . وما عرف عنكم من عبادة لغير الله .. وشبه بهذه الآية فى مجازاة الخصم قوله تعالى: وَإِنَّا وَإِبَائِكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (سبأ: ٢٤)

أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا . أئى: هؤلاء الموغلون فى الاتصاف بتلك القبائح والخبائث التى أوقعتهم فى سوء المصير . هم فى شر المكانة وأخطأ المقام فى الدنيا والآخرة .

وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . أئى: وهم أكثر ضلالا عن طريق الحق المستقيم من سواهم، فهم فى الدنيا يشركون بالله وينتهكون محارمه وفى الآخرة مأواهم النار ويئس القرار .

﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا إِلَيْنَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ٦١﴾
 وَرَبِّ كَبِيرٍ أَمْنَهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢
 لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا
 يَصْنَعُونَ ٦٣﴾

المفردات :

الإثم : الذنب وكل المعاصي ، ويطلق على الكذب .

والعدوان : مجاوزة الحد في الظلم .

السُّحْت : الحرام .

لَوْلَا : هلاً . وهى هنا : للتحضيض .

الرَّبِّيَّانِيونَ : العلماءُ العارفون بالله ، يكونون في اليهود وغيرهم .

الأحبار : علماء اليهود، وقيل : هما في اليهود : لأن الحديث ما زال متصلاً ببيان شأنهم .

التفسير :

٦١ - وَإِذَا جَاءَ وَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ... الآية

نزلت هذه الآيات في ناس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به : نفاقاً وخداعاً ومكرًا .

فإذا خرجوا من عنده خرجوا بالكفر كما دخلوا دون أن يتأثروا بما سمعوه من هدى الرسول وإرشاده فأنزل الله هذه الآيات لإظهار نفاقهم .

والمعنى : وإذا جاءوا إليكم أيها المؤمنون - أولئك اليهود - أظهروا أمامكم الإسلام وقالوا لكم : آمناً بأنكم على حق ، وحالتهم وحقيقتهم أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر، وخرجوا من عندكم وهم متلبسون به أيضاً، فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندكم وقلوبهم كما هى لا تتأثر بالمواعظ التى يلقيها الرسول ﷺ : لأنهم قد قست قلوبهم، وفسدت نفوسهم .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ . أى : والله أعلم بما كانوا يخفونه من نفاق وخداع وبغض للمسلمين وتدبير للكيد لهم وإلحاق أبلغ الضرر بهم .

وقد قال تعالى فى شأنهم أيضا: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الدِّينِ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (آل عمران: ٧٢)

٦٢- وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

أى: وترى - أيها الرسول الكريم - كثيرا من هؤلاء اليهود يسارعون فى ارتكاب الآثام والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريث .

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . تذييل. قصد به تقبيح أعمالهم التى يأبأها الدين والخلق الكريم .

وفى هذه الآية نجد أن الله تعالى قال: وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ . ولم يقل: وتراهم: لأن قليلا منهم كانت فيهم إنسانية فيستحيون، فيتركون المعاصى .

وأكثر ما يستعمل لفظ المسارعة فى الخير قال تعالى: نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ . (المؤمنون: ٥٦)

فاستعماله هنا يدل على أنهم كانوا يرتكبون المعاصى وكانهم على حق فيما يفعلون.

٦٣- لَوْلَا يَهْدَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

أى: هلا قام العلماء بالنهى عن التسابق إلى ارتكاب المعاصى والانغماس فى الشهوات؟

السُّحْتَ: هو المال الحرام كالربا والرشوة، سمى سحقا من سحته إذا استأصله: لأنه مسحوت البركة أى: مقطوعها، أو لأنه يذهب فضيلة الإنسان ويستأصلها، واليهود أرغب الناس فى المال الحرام وأحرصهم عليه، والرَّبَّانِيُّونَ: جمع ربانى وهم العلماء الحكماء البصراء بسياسة الناس وتدبير أمورهم والقيام بمصالحهم . وَالْأَحْبَارُ: جمع حبر، وهم علماء اليهود وفقهاؤهم المفسرون لما ورد فى التوراة من أقوال وأحكام .

جاء فى فتح القدير للشوكانى عند تفسير الآية :

أى: لقد ترك علماؤهم نهيبهم عن المنكر الذى يقولونه بألسنتهم، وما يأكلونه من الحرام والرشا والظلم .

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . فبئس الصنيع من علمائهم هذا التهاون فى إبقائهم واقعين فى الحرام دون إنكار ولا تغيير، فويح سبحانه الخاصة وهم العلماء التاركون للأمر والنهى عن المنكر، بما هو أغلظ وأشد من توبيخ فاعلى المعاصى، فهم أشد حالا، وأعظم وبالا من العصاة، فرحم الله عالما قام بما أوجبه الله عليه من فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر^(١٤٧) .

وقال ابن جرير: كان العلماء يقولون: ما فى القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها .

وقال ابن كثير: روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى، وهم أعز منه وأمنع ولم يغيروا؛ إلّا أصابهم الله منه بعباب»^(١١١).

وروى ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم؛ بركوبهم المعاصى، ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا؛ أخذتهم العقوبات؛ فمروا بالمعروف، وانهاوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا^(١١٢).

وجاء فى تفسير القرطبي للآية:

روى سفيان بن عيينة قال: حدثنى سفيان بن سعيد عن مسعر قال: بلغنى أن ملكا أمر أن يخسف بقرية فقال: يا رب، فيها فلان العابد، فأوحى الله إليه: «أن به فابدا، فإنه لم يتمعر»^(١١٣) وجهه فى ساعة قط»^(١١٤).

وفى صحيح الترمذى «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»^(١١٥).

★ ★ ★

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَئِنْ يَدُكَ كَبِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَعْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدَوْا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾

المعزجات :

يد الله : اليد فى كلام العرب تكون: للجراحة، وللنعمة، وللقوة، وللقدرة، وللصلة، وللتأييد، وللنصرة .

مغلولة : الغل: قيد من الجلد، أو الحديد يوضع فى اليد أو العنق . ومرادهم بذلك: أنها مقبوضة، بخيلة بالعطاء .

مبسوطتان ، البسط: المد بالعطاء، والمراد منه هنا: الجود والإعطاء .

أوقدوا نارا للحرب ، أَوْقَدَ النار: أشعلها. والمراد هنا: أثاروا الفتنة، ودبروا المكائد التي تؤدي إلى وقوع الحرب بين الناس .

التفسير:

٦٤- وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدِ اللَّهُ مَغْلُوبَةً ... الآية

سبب النزول:

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي:

قال عكرمة: إنما قال هذا فنحاص بن عازوراء وأصحابه، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ: قل ما لهم، فقالوا: إن الله بخيل، ويد الله مقبوضة عنا في العطاء، فالآية خاصة في بعضهم، وقيل: لما قال قوم هذا ولم ينكر الباقون؛ صاروا كأنهم بأجمعهم قالوا هذا .

وقال الحسن: المعنى: يد الله مقبوضة عن عذابنا .

وقيل: إنهم لما رأوا النبي ﷺ في فقر وقلة مال وسمعوا: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا. (البقرة: ٢٤٥)

ورأوا النبي ﷺ قد كان يستعين بهم في الديات قالوا: إن إله محمد فقير وربما قالوا: بخيل، وهذا معنى قولهم: يُدِ اللَّهُ مَغْلُوبَةً . فهو على التمثيل كقوله: وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُوبَةً إِلَى عُنُقِكَ. (الإسراء: ٢٩).

ويقال للبخيل: جعد الأنامل، ومقبوض الكف، وكز الأصابع ومغلول اليد^(١٤٨) .

والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال، لا سيما في دفع المال وإنفاقه فأطلقوا اسم السبب على المسبب وأسندوا الجود والخير إلى اليد والكف فقيل للجواد: فياض اليد، مبسوط الكف، وقيل للبخيل: مقبوض اليد، كز الكف ...

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدِ اللَّهُ مَغْلُوبَةً . أي: أن الله بخيل علينا بما عنده من المال والعطاء والرزق، أو المراد: أنه فقير لا يجد ما يعطيه لنا، حيث قالوا في الآية ١٨١ من سورة آل عمران: إِنَّ اللَّهَ فَخِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .

وهذا نوع من جرأة اليهود على الله وسوء أدبهم معه وتوبيخ لهم على جحودهم نعم الله التي لا تحصى .

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعَنُوا بِمَا قَالُوا . وهو دعاء عليهم بالشح المرير وبالبخل الشنيع بأن يخلق سبحانه فيهم الشح الذى يجعلهم منبذين من الناس، ومن ثم كان اليهود أبخل خلق الله، وحكم عليهم بالطرده من رحمة الله تعالى.

قال الآلوسى: ويجوز أن يكون المراد بغل الأيدي: الحقيقة أن يغلوا فى الدنيا أسارى، وفى الآخرة معذبين فى أغلال جهنم، ومناسبة هذا لما قبله حينئذ من حيث اللفظ فيكون تجنيسا، وقيل من حيث اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما تقول: سبى الله دابره أى: قطعه؛ لأن السب أصله القطع ^(١٠٠) وقد حقق الله قضاءه فيهم، فكانوا أبخل الناس فى الدنيا، وأحرصهم على المال، وباعوا فى الآخرة بالخلود فى النار .

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . أى: ليس الأمر كما زعمتم أيها اليهود، بل هو سبحانه الواسع الفضل، الجزيل العطاء، وما من شيء إلا عنده خزائنه .

فبسط اليد هنا: كناية عن الجود والفضل والإنعام منه - سبحانه - على خلقه وقد أشير بثنية اليد إلى تقرير غاية جوده وغناه .

فإن أقصى ما تصل إليه همة الجواد السخى أن يُعطى بكلتا يديه .

وقوله: يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ . جملة مستأنفة واردة؛ لتأكيد كمال جوده، والدلالة على أنه ينفق على مقتضى حكمته ومشينته، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقبضه ممن يشاء؛ لحكمة يعلمها ولا نعلمها.

قال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (الشورى: ٢٧)

وقال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران: ٢٦)

وروى البخارى، ومسلم، وأحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: أنفق أنفق عليك» ^(١٠١) وقال رسول الله ﷺ: «يمين الله ملائ لا يغيضها نفقة، سحاء» ^(١٠٢) الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما فى يمينه، قال: وعرشه على الماء ويبدده الأخرى القبض يرفع ويخفض. ^(١٠٣)

قال القرطبي:

يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ. يرزق كما يريد، ويجوز أن تكون اليد في هذه الآية بمعنى: القدرة أى: قدرته شاملة، إن شاء وسع وإن شاء قتر.

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا. المراد بالكثير: علماء اليهود ورؤساؤهم، أى: إذا نزل شيء من القرآن فكفروا به: ازداد كفرهم.

والقرآن بطبيعته كتاب هداية وشفاء للنفوس من ضلالها لكن اليهود قوم أكل الحقد قلوبهم واستولى الحسد على نفوسهم فهم يضمنون إلى حقدهم القديم وكفرهم السابق كفرا جديدا بكل ما نزل عليك يا محمد.

قال تعالى: وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا. (الإسراء: ٨٢)

وقد أكد الله هذه الجملة بالقسم المطوَّى وبالإلام الموطنة له، وينون التوكيد الثقيلة؛ لكى ينتفى الرجاء فى إيمانهم وليعاملهم النبى ﷺ على أساس مكنون نفوسهم الخبيثة وقلوبهم المريضة بالحسد والخداع.

وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قال ابن عطية: وكأن العداوة. شيء يُشْهَد يكون عنه عمل وحرب، والبغضاء لا تتجاوز النفوس.

والمعنى: وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة، العداوة الدائمة والبغضاء المستمرة، فلا تتوافق قلوبهم، ولا تتطابق أقوالهم أبداً إلى يوم القيامة.

ولقد كانوا كذلك طوال تاريخهم، منذ أن أرسل إليهم الرسل، ودأبوا على قتل الأنبياء بغير حق، ثم كذبوا محمداً ﷺ، واستمروا على اقتتراف جرائمهم، وازدادوا فيها، قال تعالى: بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى .. (الحشر: ١٤)

كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ. أى: كلما هموا بحرب لرسول الله ﷺ أفسد الله عليهم خططهم وأحبط مكرمهم، وألقى الرعب فى قلوبهم، أو كلما حاربوا أحداً أو جماعة غلبوا وهزموا، وقد كان أمرهم كذلك على مدى التاريخ.

جاء في تفسير القرطبي:

وقيل: إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله - التوراة - أرسل الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فأرسل عليهم تيطس الرومى، ثم أفسدوا فبعث عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث عليهم المسلمين فكانوا كلما استقام أمرهم شتتهم الله كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا. أى: أهاجوا شرًا، وأجمعوا أمرهم على الحرب قهرهم الله ووهن أمرهم فذكر النار مستعار^(١٥١).

والعرب كانوا إذا أرادوا حربا بالإغارة على غيرهم أوقدوا نارا يسمونها: نار الحرب.

وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. أى: أن حال هؤلاء اليهود أنهم يجتهدون فى الكيد للإسلام وأهلها، وأنهم يسعون سعيًا حثيثًا للإفساد فى الأرض عن طريق إثارة الفتنة وإيقاظ الأحقاد بين الناس.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ. بل يبغضهم ويمقتهم: لإيثارهم الضلالة على الهدى والشر على الخير.

وقد كانت أصابع اليهود وراء نيران الحروب والعداوة فى تاريخهم الطويل.

ومنذ القدم واليهود كلما جمعوهم وأعدوا عدتهم لإيذاء الناس، أو إشعال نار الفتنة على عباد الله: شتت الله شملهم، وخيب رجاءهم ودمركيدهم.

★ ★ ★

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَتَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٥ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

المضردات :

أقاموا التوراة والإنجيل : تغذوا ما فيها من الأحكام التى شرعها الله لخير الإنسانية ، والتزموا بالمحافظة على أداؤها .

لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم : المراد: لو سَّعَ الله عليهم أرزاقهم .

منهم أمة مقتصدة : الاقتصاد فى اللغة: الاعتدال من غير غلو ولا تقصير أى: من اليهود طائفة معتدلة، وهم الذين آمنوا إيمانًا حقيقيًا بمحمد ﷺ .

وكثير منهم ساء ما يعملون، كثير من اليهود ظلوا على الكفر وأفرطوا فى العداوة والبغضاء فبئس ما عملوا .

التفسير:

٦٥ - وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

والمعنى: ولو أن أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به من حق ونور واتقوا الله تعالى وأقبلوا على طاعته بصدق وإخلاص لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . أى: غفرنا ذنوبهم وسترنا عليهم فى الدنيا ولَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ فى الآخرة .

قال الفخر الرازى:

واعلم أنه سبحانه لما بالغ فى ذمهم وفى تهجين طريقتهم عقب ذلك ببيان أنهم لو آمنوا واتقوا؛ لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا، أما سعادات الآخرة فهى محصورة فى نوعين: أحدهما: رفع العقاب، والثانى: إيصال الثواب، أما رفع العقاب: فهو المراد بقوله: لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ .

وأما إيصال الثواب: فهو المراد بقوله: وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

وأما سعادات الدنيا فقد ذكرناها فى قوله بعد ذلك وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .

٦٦ - وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... الآية

والمعنى: لو أن أصحاب الكتاب عملوا بما فى التوراة والإنجيل وأقاموا الحدود ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه .

وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَّبِّهِمْ . أى: القرآن الكريم .

لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . يعنى: المطر والنبات أى: لوسعنا عليهم فى أرزاقهم وأكلوا أكلا متواصلا .

قال القرطبي:

ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . (الطلاق: ٣، ٢)

وقوله سبحانه: وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . (الجن: ١٦)

وقوله عز شأنه: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . (الأعراف: ٩٦)

فجعل التقوى من أسباب الرزق كما فى هذه الآيات ووعد بالمزيد لمن شكر فقال: لئن شكرتم لأزيدنكم . (إبراهيم: ٧)

مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ . وهم المؤمنون منهم كالنجاشى وسلمان، وعبد الله بن سلام وغيرهم من المؤمنين بالرسول السابقين وبمحمد ﷺ، وقيل: أراد بالاعتصام: قوما لم يؤمنوا ولكنهم لم يكونوا من المؤذنين المستهزئين .

وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وجماعة كبيرة من أهل الكتاب أكثروا من فعل السيئات، وأعرضوا عن الإيمان وحرّفوا الكتب وكذبوا الرسل وأكلوا السحت، وكان من حالهم ما يثير العجب والدهشة .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٦٧)

المضردات :

يَعْصِمُكَ : يحفظك وينجيك .

التفسير :

٦٧- يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

وردت روايات فى سبب نزول هذه الآية، منها: أن رجلاً حاول قتل النبي ﷺ فحاول بينه وبين ما يريد، فانزل الله تعالى هذه الآية، كما ورد فى تفسير ابن كثير . وأورد الفخر الرازى عشرة أقوال فى سبب نزولها ثم قال: واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمل الآية على أن الله تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير، وما بعدها بكثير لما كان كلاما عن اليهود والنصارى، امتنع لقاء هذه الآية الواحدة على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها ...

فالأية عامة لتثبيت قلب النبي ﷺ وأمره بالمضى فى تبليغ رسالته بدون خوف من أعدائه .

لقد ناداه الله بعنوان الرسالة فى هذه السورة الكريمة مرتين .

دعاه في الأولى منها إلى عدم الحزن على مسارعة الكفار في إنكار رسالته .

ودعاه في هذه الآية إلى تبليغ جميع ما أنزل عليه من الآيات البينات: لعموم رسالته للبشر أجمعين .

والمعنى: يأيتها الرسول الكريم، المرسل إلى الناس جميعا، بلغ: أى: أوصل إليهم ما أنزل إليك من ربك . أى: كل ما أنزل إليك من ربك من الأوامر والنواهي والأحكام والآداب والأخبار .. دون أن تخشى أحدا إلا الله .

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . وإن لم تبلغ كل ما أنزل إليك من ربك: كنت كمن لم يبلغ شيئا مما أوحاه الله إليه، لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها، وتقصيرا في أداء الأمانة، وحاشاه ﷺ أن يقصر في حق الله تعالى.

جاء في الصحيحين أن سائلا سأل الإمام عليا رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما كان في كتاب الله ؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطينه الله رجلا في القرآن .^(١٠٠)

وروى البخارى والترمذى: «من حدثك أن محمداً كتم شيئا مما أنزل عليه: فقد كذب»^(١٠١).

لقد قال الله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر: ٩) وفيها دلالة على أن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه الذي أمر الرسول بتبليغه فبلغه .

قال الزهرى - فيما رواه البخارى - من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم، وقد شهدت أمتي له بتبليغ الرسالة في حجة الوداع، وقد أدى هذه الشهادة أربعون ألفا حضروا معه حجة الوداع .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . أى: بلغ الرسالة، والله تعالى - يحفظك من كيد أعدائك ويمنعك من أن تطلق نفسك بشيء من شبهاتهم واعتراضاتهم، ويصون حياتك من أن يعتدى عليها أحد بالقتل أو الإهلاك .

وهذا لا ينافي ما تعرض له - ﷺ - من بأساء وضراء وأذى بدني، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالت دماؤه، وشج وجهه، وكسرت ريعيته في غزوة أحد، والمراد بالناس هنا: المشركون والمنافقون واليهود ومن على شاكلتهم في الكفر والضلال والعناد .

ولقد تضمنت هذه الجملة الكريمة معجزة كبرى للرسول ﷺ، فقد عصم الله تعالى حياة الرسول ﷺ من أن يصيبها قتل أو إهلاك على أيدي الناس مهما دبروا له من مكر وكيد، لقد نجاه من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله في دار الندوة ليلة هجرته إلى المدينة .

ونجاه من كيد اليهود عندما هموا بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورهم .
ونجاه من مكروهم عندما وضعت إحدى نسايتهم السم في طعام قدم إليه، إلى غير ذلك من الأحداث التي نجاه الله منها .
وقد أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلاً حتى نزلت والله يعصمكم من الناس . فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله»

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . تذييل قصد به تعليل عصمته ﷺ، وتثبيت قلبه، أي: إن الله - تعالى - لا يهدي القوم الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم العمى على الرشد... ولا يوصلهم إلى ما يريدون من قتلك، ومن القضاء على دعوتك، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَازِدَتْ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨)

المفردات:

حتى تقيموا: حتى تؤديوا أداء كاملاً على أحسن وجه .

طغياناً: الطغيان: تجاوز الحد في الضلال .

فلا تأس: فلا تحزن .

التفسير:

٦٨- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ... الآية

ادعى اليهود أنهم على ملة إبراهيم، وأنهم متمسكون بالتوراة وأنهم على الحق والهدى، ولن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ^(١٧٧) فأُنزل الله تعالى هذه الآية .

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى:

يا أهل الكتاب، لستم على شيء يعتد به من العقيدة الصحيحة: حتى تلتزموا بما أنزل الله في التوراة والإنجيل، وحتى تؤمنوا بمحمد ﷺ، ولا تفرقوا بين الرسل .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا . (النساء: ١٥٠، ١٥١) .

والمعروف أن اليهود والنصارى حَرَفُوا التوراة والإنجيل، ولم يعملوا بما بقى بين أيديهم منها، فارتكبوا المنكرات واتبعوا الشهوات .

وَمَا أَنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۚ أَيْ: لستم على شيء يعتد به من أمر الدين حتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ريبكم من قرآن كريم يهdy إلى الرشd .

وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ... أمعن اليهود فى الضلال والإضلال وجاوزوا الحد فى الكفر والعناد، وكان الأولى بهم أن يستجيبوا لهداية القرآن ويستمعوا لآياته بقلوب مفتوحة راغبة فى الاستفادة .

لكنهم بدلا من أن يزدادوا إيمانا بما أنزل الله إليك، ازدادوا إمعانا فى الكفر والطغيان، إلا قليلا منهم استجابوا للحق فأمنوا بما أنزله الله عليك من الآيات البينات، وبقي الكثيرون على ضلالهم القديم .

فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . أَيْ: إذا كان شأن الكثيرين كذلك فلا تحزن عليهم، ولا تتأسف على القوم الكافرين فإنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى، وحسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين. وليس المراد: نهيه ﷺ عن الحزن والأسى؛ لأنهما أمران طبيعيان لا قدرة للإنسان عن صرفهما، وإنما المراد نهيه عن لوازمهما .

كالإكثار من محاولة تجديد شأن المصائب، وتعظيم أمرها، وبذلك تتجدد الآلام ويحزن القلب.

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالنَّصَارَىٰ مِّنْ أُمَّةٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمَ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات:

الصَّابِرُونَ، المائلون من عقيدة إلى عقيدة، والمراد: أتباع بعض الرسالات السماوية السابقة.

التفسير:

٦٩- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ... الآية

إن أتباع الديانات السابقة من المؤمنين برسالة محمد ﷺ ومن اليهود المتمسكين برسالة موسى عليه السلام قبل المسيحية ممن لم يحرفوا كتب أنبيائهم .

ومن الصابئين الذين تمسكوا بملة إبراهيم عليه السلام قبل نسخها .

(والصابئة: فرقة تعيش في العراق ولهم طقوس دينية خاصة بهم، ومن العسير الجزم بحقيقة معتقدهم؛ لأنهم أكتم الناس لعقائدهم. ويقال: إنهم يعبدون الملائكة أو الكواكب) .

ومن المسيحيين الذي تمسكوا بالمسيحية، ولم يحرفوها قبل بعثة محمد ﷺ .

هؤلاء جميعا إذا آمنوا بالله تعالى إيمانا صحيحا غير ملتبس بالشرك، واستمسكوا بهذا الإيمان، واتبعوا أنبياءهم وما جاء على ألسنتهم من التبشير بمحمد ﷺ وآمنوا به عند مبعثه، وآمنوا بالبعث والنشور والجزاء، وعملوا الأعمال الصالحة؛ إن هؤلاء جميعا يظفرون بالثواب الجزيل على ما قدموه من إيمان وعمل صالح .

مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . إن كل من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر - فإن الله تعالى يرضى عنه ويثيبه ثوابا حسنا .

ولا خوف على هؤلاء المؤمنين من عقاب ولا يعترهم حزن من سوء الجزاء فلا يخافون بخسا ولا رهقا ولا يحزنهم الفزع الأكبر .

يقول الدكتور طنطاوى:

والإيمان المشار إليه فى قوله: مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى والصابئين . بمعنى: صدور الإيمان منهم على النحو الذى قدره الإسلام فمن لم تبلغه دعوة الإسلام وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر، ويقوم بالعمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه؛ فله أجره على ذلك عند ربه .

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق، ولكنهم لم يقبلوها فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم مؤمنون بدين آخر؛ لأن شريعة الإسلام قد نسخت ما قبلها، والرسول ﷺ قال: لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى^(١٠٨) .

وبعض العلماء يرى أن معنى مَنْ ءَامَنَ . أى: من أحدث من هذه الفرق إيمانا بالنبي ﷺ وبما جاء من عنده .

قالوا: لأن مقتضى المقام هو الترغيب فى دين الإسلام .

والآية الكريمة مسوقة للترغيب فى الإيمان والعمل الصالح .

وقد بدأت الآية بحرف إنَّ وهو حرف ينصب الاسم ويرفع الخبر وكان مقتضى ذلك أن تكون هكذا.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ . لكن جمهور القراء قرأها وَالصَّابِغُونَ، وقرأ ابن كثير بالنصب .

ورفع: الصَّابِغُونَ؛ إبرازا لأنهم أيضا ناجون شأنهم شأن المؤمنين والنصارى واليهود، ودفعاً لما

يسبق إلى الأذهان من أنهم عبدة أوثان .

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين:

وقوله : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا . أى: إيماننا حقاً لا نفاقاً، وخبر إن محذوف وتقديره: فلا خوف عليهم

ولا هم يحزنون، دل عليه المذكور .

وَالَّذِينَ هَادُوا: مبتدأ فالواو لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله: وَالصَّابِغُونَ وَالنَّصَارَى عطف على

هذا المبتدأ وقوله: فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة وقوله : مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

بدل من كل منها بدل بعض من كل، فهو مخصص فكأنه قال: «الذين آمنوا من اليهود ومن النصارى

والصابغين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالإخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكر مشروط

بالإيمان لا مطلقاً ...»^(١١٩)

★ ★ ★

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ
فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

المفردات:

ميثاق: العهد القوي.

فتنة: الاختبار بالنار، ومعناها هنا: العذاب.

التفسير:

٧٠ - لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ... الآية

أخذ الله العهد المؤكد على بني إسرائيل بعبادته وحده وأداء جميع أوامره واجتناب جميع نواهيه .
كما أرسل سبحانه إليهم رسلا ذوى عدد كثير وأولى شأن خطير: لكى يتعهدوهم بالتبشير والإنذار، بحيث لم يبق لهم عذر فى مخالفة العهد أو نقض الميثاق، وقد ذكر هذا الميثاق فى أماكن أخرى فى القرآن الكريم .

ففى الآية ١٢ من سورة المائدة يقول سبحانه:

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

وقال سبحانه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. (البقرة: ٨٣)

وقل عز شأنه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ ... (البقرة: ٨٤)

كَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ . أى: أخذنا الميثاق المؤكد عليهم^(١٦٦)
وأرسلنا إليهم رسلاً كثيرين لهدايتهم، ولكنهم نقضوا الميثاق، وعصوا الرسل وقابلوهم بالحدود والعدوان والتكذيب، ولم يقتصروا على التكذيب بل قتلوا بعض هؤلاء الرسل .

والتقدير، كلما جاءهم رسول بما يخالف أهواءهم، استكبروا ولجوا فى العناد فكذبوا فريقا من الأنبياء وقتلوا فريقا منهم، كما قال تعالى لهم: ... أَفَكَلَمَّا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . (البقرة: ٨٧)

٧١ - وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ...

فِتْنَةٌ . من الفتن وهو إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته .. والمراد بها هنا: الشدائد والمحن والمصائب التى تنزل بالناس .

فَعَمُوا وَصَمُوا . من العمى الذى هو ضد الإبصار ومن الصمم الذى هو ضد السمع، وقد استعير هنا للإعراض عن دلائل الهدى والرشاد التى جاء بها الرسل .

والمنعني: لقد ظن اليهود أنهم لن يصيبهم بلاء بتكذيبهم للرسل وقتلهم لهم فأمنوا عقاب الله وتمادوا في فنون البغي والفساد، وعموا وصموا عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل واشتملت عليها الكتب السماوية .

ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ . أَيْ: ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَبْلَ تَوْبَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ فُسَادٍ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رءُوسِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى فَعَادُوا إِلَى فُسَادِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ وَعَدْوَانِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا عِدَّةً قَلِيلًا مِنْهُمْ بَقِيَ عَلَى تَوْبَتِهِ وَإِيمَانِهِ .

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . أَيْ: وَاللَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَهُ عِلْمٌ مِنْ يَبْصِرُ كُلَّ شَيْءٍ دُونَ أَنْ تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَسِبْجَازِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

وتفيد الآية: أن فساد اليهود وعماهم وصممهم عن الحق قد حصل مرتين، واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه:

الأول: أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى ثم تاب الله عليهم حيث وفق بعضهم للإيمان ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد ﷺ .

الثاني: أن العمى الأول كان في زمن بختنصر البابلي، وقد غزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم .

ثم عموا مرة ثانية: فسلط الله عليهم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م.

قال القفال^(١٧١): ذكر الله تعالى في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا . (الإسراء: ٤١)

قال الدكتور محمد سيد طنطاوي^(١٧٢) بعد أن نقل عن الفخر الرازي آراء المفسرين ثم عقب قائلاً:

«والذي نراه أن تحديد عماهم وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجريمة أو جرائم معينة تابوا بعدها - هذا التحديد غير مقنع، ولعل أحسن منه أن نقول:

إن القرآن الكريم يَصَوِّرُ ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة وطبائع معوجة، ومن نقض للعهود والمواثيق ... فهم أخذ الله عليهم العهود فنقضوها، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم، وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالحقط والوباء والهزائم... بسبب مفاسدهم؛ تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم، ورفع عنهم عقابه، فعادوا إلى

عمامهم وصممهم - إلا قليلا منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار، فأصابهم - سبحانه - بغتن لم يتب عليهم منها ..

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ. (العنكبوت: ٤٠).

★ ★ ★

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مِنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢)

التفسير:

٧٢- لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... الآية

بعد أن تحدث الله عن اليهود ونقضهم الميثاق، وتكذيبهم وقتلهم الأنبياء، شرع هنا فى الكلام عن النصارى فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ.

قال الفخر الرازى: وهذا هو قول اليعقوبية، لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلها، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حل فى ذات عيسى واتحد بذات عيسى اهـ.

والمعنى: أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذبا وزورا: إن الله المستحق للعبادة هو المسيح ابن مريم مع أنه بشر ولا يصح أن يكون إلها.

ونسبة المسيح إلى مريم، للإيذان بأنه ليس له حظ من الألوهية وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ.

أى: قال المسيح مكذبا من وصفه بالألوهية:

يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ. وحده ولا تشركوا به شيئا فهو ربى الذى خلقنى وتعهدي بالتربية والرعاية، وهو ربكم الذى أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات. ومع أن الأنجيل قد حرقت، لكنها بقيت فيها بقية ناطقة بالتوحيد تؤيد أن المسيح عبد الله ورسوله، ومن ذلك ما قاله المسيح: «وهذه هى الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع: المسيح الذى أرسلته» يوحنا ١٧-٣٠.

قوله: «وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُم بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ» .

وقوله: «لَلرَّبِّ إِلَهَك نَسْجِدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ نَعْبُدُهُ» متى ٤ - ١٠ .

وقوله: «لَيْسَ لِأَعْمَلٍ لِمَشِيئَتِي بَلْ لِمَشِيئَةِ الَّذِي أَرْسَلَنِي» يوحنا ٦ - ٣٨ .

إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ . إِنْ الْحَالُ وَالشَّأْنُ ، أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَ مَأْوَاهُ النَّارَ . أَيْ: جَعَلَ مُسْتَقَرَّهُ وَمَكَانَهُ النَّارَ بِدَلِّ الْجَنَّةِ .

والجملة الكريمة تحذير من الاشراك بالله وبيان عاقبة الشرك فقد جمعت الآية بين العقوبة السلبية وهى حرمان المشرِك من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى الاستقرار فى النار .

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . أَيْ: مَنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَقَابِلُوا نِعَمَ اللَّهِ الْمُتَوَالِيَةَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ لَا يَنْقُذُهُمْ أَحَدٌ مِنْ عِقَابِهِ وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْكَرِيمَةُ ، يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ كَلَامِ عِيسَى الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى: لِتَأْكِيدِ مَا قَالَهُ الْمَسِيحُ مِنْ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّرِكِ بِاللَّهِ تَعَالَى .

★ ★ ★

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

التفسير:

٧٣ - لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ... الآية

لقد كفر الذين قالوا كذباً وزوراً: إن الله واحد من آلهة ثلاثة، والحق أنه ليس فى هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين.

جاء فى التفسير الوسيط ما يأتى:

نصت الآية على كفر من قال: إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

والتثليث هو العقيدة السائدة بين الطوائف المسيحية، حيث يطلقون على الله - سبحانه - لقب الأب ويشركون معه الابن وهو عيسى، وروح القدس وهو جبريل .

لقد ادعوا أن المسيح ابن الله؛ لأنه ورد وصفه بهذا أربعاً وأربعين مرة في العهد الجديد - وهو يضم الأناجيل الأربعة والرسائل الملحقة بها .

وهذا اللقب لم ينحصر في المسيح ولم يقتصر عليه، بل أطلق على آدم وعلى إسرائيل، وعلى داود، وعلى الملائكة وعلى المؤمنين جميعاً .

ومع هذا فقد ورد أيضاً في العهد الجديد وصف المسيح بما يقرب من ضعفى هذا العدد بأنه ابن الإنسان ثمانية وسبعين مرة^(١٢٢) .

وطبيعى أن هذين الوصفين يهدمان البنية بمعنى الألوهية وإذا انهدمت البنية فقد انهدمت تبعاً لها الأبوة .

أما روح القدس : فهو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة المقربين، وهو بهذا من خلق الله وكلامهم فيه مضطرب مختل .

وأما كلمة التثليث: فقد اعترف كبار علماء اللاهوت - في قاموس الكتاب المقدس - أنها « لم ترد في الكتاب المقدس، ويظن أن أول من صاغها واخترعها واستعملها ترتيليان في القرن الثاني للميلاد، وقد خالفه كثيرون ولكن مجمع نيقية أقر التثليث سنة ٣٢٥ ميلادية، ثم استقر التثليث بعد ذلك عند الكنيسة المسيحية، على يد أوغسطينوس في القرن الخامس^(١٢٣) .

ومن هنا يتضح أن التثليث ثبت بعد المسيح عليه السلام بأكثر من ثلاثة قرون وربع القرن، وأنه دخيل على المسيحية الحق الموحدة .

وبهذا استحق القائلون به الحكم بالكفر الصريح، وقال كبار الباحثين: إن التثليث تسرب إلى المسيحية من العقائد الوثنية الهندية القديمة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ . والحق أنه لا يمكن عقلاً أن يكون الإله إلا واحداً .

أما تعدد الآلهة فهو وصم لها بالقصور والحاجة إلى الآخرين، ولو كان كل واحد قادراً على ما يخلق الآخرون فما فائدة التعدد، ولو كان كل واحد منهم عاجزاً فلا يصلحون جميعاً للألوهية، وإن كان البعض قادراً والبعض عاجزاً فالقادر هو الإله وحده .

وَأِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى: وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة، ويعتصموا بعروة التوحيد .

لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أى: ليصيب الذين استمروا على الكفر منهم عذاب شديد .

وهذه الجملة تحذير من الله تعالى لهم عن الاستمرار في هذا القول الكاذب، والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع رأى السيد والفكر القويم .

٧٤- أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ... الآية

هذه دعوة من الله لهم إلى التوبة من معتقداتهم الفاسدة. والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام. أى: أيسمعون ما يسمعون من الحق الذى يزهد باطلهم ومن النذر التى ترقق القلوب .. فلا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطلب مغفرته .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . والحال أنه سبحانه عظيم المغفرة واسع الرحمة يقبل توبة التائبين ويغفر للنادمين ويرحم كل من جاء إليه. قال تعالى : غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ . (غافر: ٣) .

★ ★ ★

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۚ كَآنَا يَأْكُلُ الرِّيحَ لَا نَبْصِيرُ ۚ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنْتَ يَوْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

التفسير:

٧٥- مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... الآية

ناقشت آيات سابقة اليهود ثم أتبع ذلك بمناقشة النصارى فى تأليه المسيح . وهنا تفيد الآيات أن عيسى عليه السلام رسول من البشر كسائر الرسل الذين سبقوه، مثل: نوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى أحد منهم الألوهية، وأما أم عيسى فما هى إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها عز وجل، أو التصديق له فى سائر أمورها .

ونسبة عيسى إلى مريم للدلالة على أنه ولد من غير أب، فإن الولد ينسب إلى أبيه لا إلى أمه وللدلالة على بشريته وبشريتها فإن التوالد من صفات البشر .

والأناجيل التي بين أيدينا تؤيد ما ذكره القرآن الكريم .

فقد جاء في إنجيل يوحنا ١٧ - ٣ - أن المسيح قال مخاطباً ربه : «أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» .

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ . الصديق: هو الذي يلتزم الصدق والحق .

ومريم من سلالة طاهرة . ونشأت في بيئة طيبة .

وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَاتِنِينَ . (التحريم : ١٢) .

كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . وأكل الطعام : يستدعى الحاجة إليه للانتفاع به ويستدعى شرب الماء والإخراج وغير ذلك من صفات البشر .

قال الزمخشري : لأن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفذ، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاق وأمزجة مع شهوة ... وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك ^(١٧٦) .

انْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ نَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . أى: انظر يا محمد : كيف نبين لهم الأدلة المنوعة على حقيقة عيسى وأمه بيانا واضحا ظاهراً .

ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم، واستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .

قال ابن الجوزي في زاد المسير يُؤْفَكُونَ: يُصْرَفُونَ عن الحق ويُعَدَلُونَ يقال: أفك الرجل عن كذا: إذا عدل عنه، وأرض مأفوك: محرومة المطر والنبات . كأن ذلك صرف عنها وعدل .

٧٦ - قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ... الْآيَةِ

أى: قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم فى الكفر والشرك - قل لهم: أتعبدون معبودات غير الله تعالى، هذه المعبودات التى لا تملك أن تصيبكم بشيء من الضرر كالمرض والفقير، ولا تملك أيضاً أن تنفعكم بشيء من النفع كبسط الرزق ودفع الضرر وغير ذلك مما أنتم فى حاجة إلى .

فالآية الكريمة تنفى أن يكون هناك إله سوى الله تعالى يستحق العبادة والخضوع لأنه سبحانه هو المالك لكل شيء والخالق لكل شيء . أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . (الأعراف: ٥٤)

وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. أى: كيف تعبدون من لا يسمع نجواكم، ولا يعلم أموركم الخفية، ونياتكم الباطنة وتتركون عبادة الله المحيط علمه بالأمور والشئون وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ؟ .

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧) لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُكْرِمِ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

التفسير:

٧٧- قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ... الآية

بين الله فيما سبق انحراف اليهود والنصارى عن دينهم القويم ثم دعاهم إلى التوبة والاستغفار .
وهنا ينهاهم عن الغلو فى الدين ومجاوزة الحد .

قال الزمخشري: دلت الآية على أن الغلو فى الدين غلوٌان: غلو حق: وهو أن يفحص عن حقائقه، ويفتش عن أباعد معانيه، ويجتهد فى تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون ... وغلو باطل: وهو أن يتجاوز الحق ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه كما يفعل أهل الأهواء والبدع والضلال^(١٧٧).

ومعنى الآية: قل لهم يا محمد، يأهل الكتاب لا ينبغي لكم أن تتجاوزوا القصد، ولا أن تخرجوا عن الحق والصواب كأن تعبدوا غير الله مع أنه هو الذى خلقكم ورزقكم، وكأن تصفوا عيسى بأوصاف هو برىء منها .

روى أحمد والنسائى وابن ماجه عن النبى ﷺ قال: «إياكم والغلو فى الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين»^(١٧٨).

وروى البخارى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»^(١٧٩).

وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْرَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . أَيْ: لا ينبغي لكم أن تنقادوا لشهوات الأحرار والرهبان من أسلافكم وعلمائكم ورؤسائكم الذين قد ضلوا من قبل بعثة النبي ﷺ، بتحريفهم للكتب السماوية .

فأضلوا كثيراً ممن اتبعوهم وقلدوهم ووافقوهم على أكاذيبهم .

وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . أَيْ: عن الطريق الواضح الذي أتى به النبي ﷺ وهو طريق الإسلام .

٧٨- لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ... الآية

اللعن هو الطرد من رحمة الله .

والمعنى: لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان نبيين كريمين هما داود وعيسى عليهما السلام. أَيْ: لعنهم الله سبحانه فى الزبور على لسان داود، وفى الإنجيل على لسان عيسى.

وقد كان داود قائدا مظفراً قادهم إلى النصر بعد الهزيمة ومهد لم الملك .

وعيسى عليه السلام آخر أنبيائهم، وقد لقي منهم أشد أنواع الإيذاء، وقد حاولوا قتله فنجّاه الله من كيدهم الأثيم، ولذا سماهم عيسى: أولاد الأفاعى^(١٧٨) .

وقيل: إن أهل أيلة لما اعتدوا فى السبت قال داود:

اللهم ألبسهم اللعنات مثل: الرداء ومثل المنطقة على الحقوين؛ فمسخهم الله قردة .

وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى؛ قال: اللهم عذب من كفر من أصحاب المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت^(١٧٩) .

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . أَيْ: استحقوا اللعن والطرده بسبب عصيانهم وتمردهم واستمرارهم فى البغى والعدوان حتى كذبوا بعض أنبيائهم، وقتلوا بعضهم، وبالفعل فى إيذاء الآخرين .

٧٩- كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ... الآية

أَيْ: أن من مظاهر عصيان الكافرين من بنى إسرائيل أنهم أهملوا واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل كانوا يرون المنكرات ترتكب فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها وهذا شر ما تصاب به الأمم فى حاضرها ومستقبلها: أن تفشو فيها المنكرات والردائل فلا تجد من يستطيع تغييرها وإزالتها .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنهما قوام الأمر، وسياج الدين .

روى الشيخان عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (١٧٧) .

وقد مدح الله أمة الإسلام بخصيصة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . (آل عمران: ١١٠)

وروى الإمام أحمد والترمذي، وأبو داود عن النبي ﷺ قال: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسهم في مجالسهم أو في أسواقهم واكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (١٧٨) .

وكان ﷺ متكئاً فجلس - فقال: لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطراً» (١٧٩) .
أي: تحملوهم على الحق حملاً .

وفى رواية لأبي داود وابن ماجه والترمذي: «والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم» (١٨٠) .

لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . واللام في لبس لام القسم .

أي: أقسم لبس ما كانوا يفعلون، وهو ارتكاب المعاصي والعدوان وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال صاحب الكشف:

قوله: لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . للتعجب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم، فها حسرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المناكير، وقلة عبثهم به، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب .

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
 أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ لَأَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ آيَاتِنَا وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَتَسِقُونَ ﴿٨١﴾

المضردات :

يَتَوَلَّوْنَ : يوالون ويناصرون .

سَخِطَ : غضب غضبا شديدا .

أُولِيَاءُ : نصراء .

فَاسِقُونَ : خارجون عن شعائر الدين .

التفسير :

٨٠- تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... الآية

أى: ترى أيها الرسول الكريم كثيرا من بنى إسرائيل يوالون مشركى قريش ومناقى المدينة
 وكانوا على صلات وثيقة بالروم فهم يوالون كل مناهض للإسلام؛ حسداً للرسول الكريم وكراهية
 للإسلام والمسلمين .

والذى يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية يرى أن اليهود كانوا دائما يضعون العراقيل فى طريقها
 ويناصرون كل محارب لها، ففى غزوة الأحزاب انضم بنو قريظة إلى المشركين ولم يقيموا وزنا
 لليهود والمواثيق التى كانت بينهم وبين المسلمين، وظلت عداوة اليهود للإسلام والمسلمين مستمرة
 فى الماضى والحاضر، قال تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. (المائدة: ٨٢)
 ونشاهد الآن فى فلسطين ثورة الحجارة: وقيام اليهود بالقتل والقمع، والعُدوان على الشباب والشيوخ
 والأطفال الأبرياء والنساء .

وفى الحديث الصحيح : «لن تقوم الساعة حتى تقتالوا اليهود فيختبئ أحدهم وراء الحجر
 فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله» .

لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. أى: ليس ما قدمت لهم أنفسهم من أقوال كاذبة
 وأعمال قبيحة وأفعال منكرة استحقوا بسببها سخط الله عليهم .

وَلِيَّ الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ . أَيْ: وسيكون جزاءهم على هذا فى الآخرة الخلود فى النار ومقاساة عذابها الأليم .

٨١- وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ رَبًّا وَخَالِقًا، وَنَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى، وَيُؤْمِنُونَ بِالتَّوْرَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ إِيْمَانًا سَلِيمًا وَلَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ هَذَا الْإِيْمَانُ الصَّادِقُ؛ لَكَفَوْا عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَأَصْفِيَاءَ؛ لِأَنَّ تَحْرِيمَ مَوَالِيهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ مُتَّكِدَةٌ فِي التَّوْرَةِ وَفِي كُلِّ شَرِيعَةٍ أُنْزِلَتْهَا اللَّهُ عَلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ .

وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . أَيْ: ولكن أكثر اليهود، خرجوا عن الجادة، وانحرفوا عن الديانة الحقّة إلى موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين، وقد ذكّر سبحانه وصف الكثيرين منهم بالصفات الذميمة؛ إنصافاً للقلة المؤمنة، وتمييزاً لها عن تلك الكثرة الكافرة الفاسقة .

إن الآيات الكريمة السابقة تحدّثت طويلاً عن أهل الكتاب عامة وعن اليهود خاصة فذكرت نقضهم للعهود والمواثيق التى أخذها الله عليهم، وذكرت دعاوَاهم الباطلة ومسالكتهم الخبيثة لكيد الإسلام والمسلمين وتحدّثت عن المصير المؤلم الذى ينتظرهم، كما سلك القرآن الكريم منهجاً قوياً فى دعوتهم إلى الدين الحق وإلى التصديق بالنبي محمد ﷺ .

خاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السادس)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) اللهم اشدّد وطأتك على مضر:

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠٤، ومسلم فى المساجد ح ٦٧٥، والنسائى فى التتبيق ح ١٠٧٤، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٤٢، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٤٤، وأحمد ح ٧٢١٩، ٧٤١٥، والدارمى فى الصلاة ح ١٥٩٥.

(٢) لا تسبخنى عنه:

رواه أبو داود فى الصلاة (١٤٩٧) وفى الأدب (٤٩٠٩) وأحمد فى مسنده (٢٣٦٦٣، ٢٤٥٣٠، ٢٤٥٣١، ٢٥٢٧٠) من حديث عائشة قالت سرت ملحفة لها فجعلت تدعو على من سرقها فجعل النبى ﷺ يقول لا تسبخنى عنه قال أبو داود لا تسبخنى أى لا تخففى عنه.

(٣) جاء فى محيط الخيوط:

سُبَّخَ عنه الحمى خففها ومنه قول الشاعر:

فسبخ عليك اللهم واعلم بأنه
إذا قدر الرحمن شيئا فكانت
وسبَّخ الحرُّ سكَّنه، وسبَّخ العرق سكن من ضربان وألم. وسبَّخ الحر سكن وقت.

(٤) التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية، الحزب الحادى عشر ص ٩٥٠.

(٥) ما نقص مال من صدقة

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩، وأحمد ح ٧١٦٥، ٨٧٨٢، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبى هريرة، وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(٦) تفسير الفخر الرازى ٩/١.

(٧) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تفسير سورة النساء، للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، ص ٤٨٤ ط ٢.

(٨) تفسير القرطبى ٦ / ٤.

(٩) تفسير الطبرى ٦/٧.

(١٠) قيل لى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا:

رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء (٣٤٠٣) وفى التفسير (٤٤٧٩، ٤٦٤١) ومسلم فى التفسير (٣٠١٥) والترمذى فى التفسير (٩٩٩٦) وأحمد (٢٧٤٤٩) من حديث أبى هريرة.

(١١) د. محمد سيد طنطاوى، تفسير سورة النساء ص ٤٩٦ ط ٢.

(١٢) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة النساء ص ٤٦٨.

(١٣) تفسير الألوسى ١٠/٦، وقد ورد ذلك أيضا فى إنجيل برنابا.

(١٤) تفسير ابن كثير ٥٧٤/١.

(١٥) جاء فى إنجيل متى إصحاح ٢٦ فقرة ٣١ وإنجيل مرقس ١٤ فقرة ٢٧ - أن السيد المسيح قال لحواريه (كلكم يشكون فى هذه الليلة) يقصد الليلة التى قتل فيها، وهذا مصدق لما جاء فى القرآن من شكهم فيه.

(١٦) صفوة التفسير للأستاذ محمد على الصابونى ١ / ٣١٧.

(١٧) ﴿لكن﴾ حرف استدراك مهمل، و﴿الراسخون﴾ مبتدأ خبره جملة ﴿أولئك سنوتهم أجرا عظيماً﴾ وما بينهما صفات للراسخين في العلم من جهة المعنى، ولكنها عطف عليها تنزيلاً للاختلاف في العنوان منزلة الاختلاف في الذات.

(١٨) المقيمين وصف في المعنى لكلمة ﴿الراسخون﴾ وقد عدل عن رفعه بالعطف إلى قطعة ونصبه لإرادة المدح، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود و﴿المقيمون﴾ وقد أثرها سيد قطب في تفسيره.

(١٩) البحر اخیط ٣/ ٣٩٨.

(٢٠) رسالة الترحيد للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١١٧ وما بعدها نقلاً عن تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٥٢١.

(٢١) تفسير ابن جرير الطبري ٦/ ٣١.

(٢٢) في ظلال القرآن ٦/ ١٦٩.

(٢٣) يقول صاحب رسالة الأصول والفروع أحد شراح العقيدة المسيحية: (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا، ونرجو أن نفهمه فهما أكثر جلاءً في المستقبل حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السماوات والأرض)... نقلاً عن كتاب النصرانية للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة. اهـ وانظر في ظلال القرآن ٦/ ١٨.

(٢٤) لا تطروني كما أطرت:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥) (٦٨٣٠) والدارمي في الرقاق (٢٧٨٤) وأحمد في مسنده (١٥٥، ١٦٥، ٢٣٣) من حديث عمر قال قال رسول الله ﷺ لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنا عبد فقولوا عبده ورسوله.

(٢٥) مجلة لواء الإسلام السنة ١٨ العدد ٩ تفسير القرآن الكريم للشيخ محمد أبو زهرة.

(٢٦) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦/ ١٩.

(٢٧) تفسير الكشف ١/ ٥٩٤.

(٢٨) انظر تفسير الألوسي ٦/ ٢٦ - ٣٦، وتفسير القاسمي ٥/ ١٧٦٥.

(٢٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦/ ٢١٩.

(٣٠) تفسير الفخر الرازي ١١٩/١١ طبعة عبدالرحمن محمد.

(٣١) القرآن صراط الله المستقيم:

رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن (٢٩٠٦)، والدارمي في كتاب فضائل القرآن (٢٣٣١)، وأحمد (٧٠١) من حديث علي بن أبي طالب. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال. قال السيوطي في «الدرر»: وأخرج ابن أبي شيبه والدارمي والترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي... فذكره. قلت: وذكره الفتنى في تذكرة الموضوعات وقال: موضوع.

(٣٢) تفسير أبي السعود ١/ ٤٠١.

(٣٣) اهتم العلماء بأسباب نزول الآيات وتاريخ نزولها وبيان ما نزل منها نهاراً وما نزل ليلاً وما نزل شاء وما نزل صيفاً وما نزل بالمدنية وما نزل بأماكن أخرى غير مكة والمدينة. وهي عناية بالغة تكاد أن تجعل لكل آية سجلاً خاصاً وذلك من حفظ الله لكتابه، ومن الكتب التي عنت بذلك، كتاب أسباب النزول للواحدي وكتاب أسباب النزول للسيوطي. ومن كتب علوم القرآن: كتاب البرهان في علوم القرآن ليدر الدين الزركشي. والإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي.

(٣٤) للسيد رشيد رضا في تفسير المنار طريقة حكيمة في اتباع تفسيره المطول بخلاصة للسورة. وأنصح بمراجعة هذه الخلاصة قبل قراءة تفسير المنار. وانظر خلاصة سورة المائدة ج ٧ ص ٢٧٦، فقد استعنت بها في كتابة هذا الموضوع. وانظر أيضا تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ص ٢٧٥ ط ٣.

(٣٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦ / ٢٦

(٣٦) المرجع السابق

(٣٧) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ١ / ٤٧٧.

(٣٨) انصر أخاك ظالماً أو:

رواه البخاري في المظالم (٢٤٣٣، ٢٤٤٤) وفي الإكراه (٩٦٥٢) والترمذي في الفتن (٢٢٥٥) وأحمد في مسنده (١١٥٣٨، ١٢٦٦٦) من حديث أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً قال تأخذ فوق يديه. رواه مسلم في البر (٢٥٨٤) والدارمي في الزقاق (٢٧٥٣) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال لينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً فإن كان ظالماً فلينبهه فإنه له نصرة وإن كان مظلوماً فلينصره.

(٣٩) من دعا إلى هدى:

رواه مسلم في العلم ٢٧٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٢٠٦، والدارمي في المقدمة ٥١٣، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩، وأحمد ٨٩١٥، والترمذي في العلم ٢٦٧٤ من حديث أبي هريرة. ورواه ابن ماجه في المقدمة ٢٠٥ من حديث أنس إلا أنه يلفظ: أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبعه فإن له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً وأيما داع دعا إلى هدى فاتبعه فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئاً.

(٤٠) في ظلال القرآن ٢٨/٦.

(٤١) إذا هم أحدكم بالأمر — الاستشارة —:

البخاري في الجمعة ١١٦٦، وفي الدعوات (٦٣٨٢)، وفي التوحيد ٧٣٩٠ وأبو داود في الصلاة (١٥٣٨)، والترمذي في الصلاة (٤٨٠) والنسائي في النكاح ٣٢٥٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٨٣، وأحمد ١٤٢٧٩. كلهم من حديث جابر ومعنى «فاقدره لي»: أي اجعله مقدوراً لي، أو قدره. وقيل: معناه يسره لي.

(٤٢) إذا أرسلت كليك المعلم:

رواه البخاري في الوضوء (١٧٥) وفي الذبائح (٥٤٧٥، ٥٤٧٦، ٥٤٨٥، ٥٤٨٦) ومسلم في الصيد (١٩٢٩) وأبو داود في الصيد (٢٨٥٤) والترمذي في الصيد (١٤٧٠) والنسائي في الصيد (٤٢٦٣) والدارمي في الصيد (٢٠٠٢) وأحمد في مسنده (١٧٧٨١، ١٨٨٨٢، ١٨٩٠٠) من حديث عدي بن حاتم قال سألت النبي ﷺ فقال: «إذا أرسلت كليك المعلم فقتل فكل وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسكه على نفسه. قلت: أرسل كلبى فأجد معه كلباً آخر. قال: فلا تأكل فإنما سميت على كليك ولم تسم على كلب آخر». ورواه البخاري في الذبائح (٥٤٧٨، ٥٤٨٨، ٥٤٩٦) وأبو داود في الصيد (٢٨٥٢، ٢٨٥٥، ٢٨٥٦) والترمذي في الصيد (١٤٦٤) وفي السير (٣٩٨٢) وفي الأطعمة (١٧٩٧) (١٧٢٧٩، ١٧٢٨٣، ١٧٢٩٦) وابن ماجه في الصيد (٣٢٠٧) من حديث أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله ﷺ في صيد الكلب إذا أرسلت كليك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ما ردت عليك يدك.

(٤٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ١/٨٥٤

والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية حزب ١ ص ١٠١٨، وصفاة التفاسير للأستاذ محمد على الصابوني ٣٢٨/١، وفي تفسير ابن كثير عن صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا يا رسول الله إن قوما يأتوننا حديث عهدهم بكفر بجلهم لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: (سماؤا أنتم وكلوا).

(٤٤) كل ما شئت والبس ما شئت:

ذكره البخاري تعليقا في اللباس باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ وقال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان سرف أو مخيلة.

(٤٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦/٣٢٢ بصرف واختصار.

(٤٦) إذا توضأ العبد المسلم خرج من وجهه:

رواه مسلم في الطهارة (٢٤٤) والترمذي في الطهارة (٢) ومالك في الموطأ كتاب الطهارة (٦٣) والدارمي في الطهارة (٧١٨) وأحمد في مسنده (٧٩٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب.

(٤٧) ويل للأعقاب من النار:

رواه البخاري في العلم (٩٦، ٦٠) وفي الوضوء (١٦٣) ومسلم في الطهارة (٢٤١) وأبو داود في الطهارة (٩٧) والنسائي في الطهارة (١١١) وابن ماجه في الطهارة (٤٥١) والدارمي في الطهارة (٧٠٦) وأحمد في مسنده (٦٧٧٠) من حديث عبد الله بن عمرو قال تخلف عنا النبي ﷺ في سفرة سافرناها فأدركتنا وقد أرققنا الصلاة ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فننادى بأعلى صوته ويل للأعقاب من النار مرتين أو ثلاثا. رواه البخاري في الوضوء (١٦٥) ومسلم في الطهارة (٢٤٢) والترمذي في الطهارة (٤١) وابن ماجه في الطهارة (٤٥٣) وأحمد في مسنده (٧٠٨٢) من حديث أبي هريرة قال أسبغوا الوضوء فإن أبا القاسم ﷺ قال ويل للأعقاب من النار. رواه مسلم في الطهارة (٢٤٠) وأحمد في مسنده (٢٣٩٥٥) من حديث سالم مولى شداد قال دخلت على عائشة زوج النبي ﷺ يوم توفي سعد بن أبي وقاص فدخل عبدالرحمن بن أبي بكر فتوضأ عندها فقالت يا عبدالرحمن أسبغ الوضوء فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول ويل للأعقاب من النار. ورواه أحمد في مسنده (١٣٩٨٣) من حديث جابر قال رأى رسول الله ﷺ قوما يتوضئون فلم يمس أعقابهم الماء فقال ويل للأعقاب من النار.

(٤٨) سبب نزول صلاة الخوف:

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٤٠) من حديث جابر قال غزونا مع رسول الله ﷺ قوما من جبهة فقاتلونا قتالا شديدا فلما صلينا الظهر قال المشركون لو ملنا عليهم ميلا لاقتطعناهم فأخبر جبريل رسول الله ﷺ ذلك فذكر ذلك لنا رسول الله ﷺ قال وقالوا إنه ستأتيهم صلاة هي أحب إليهم من الأولاد فلما حضرت العصر قال صفنا صفين والمشركون بيننا وبين القبلة قال فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا وركع فركعنا ثم سجد وسجد معه الصف الأول فلما قاموا سجد الصف الثاني ثم تأخر الصف الأول وتقدم الصف الثاني فقاموا مقام الأول فكبر رسول الله ﷺ وكبرنا وركع فركعنا ثم سجد معه الصف الأول وقام الثاني فلما سجد الصف الثاني ثم جلسوا جميعا سلم عليهم رسول الله ﷺ وقال أبو الزبير ثم خص جابر أن قال كما يصلي أمراؤكم هؤلاء.

(٤٩) سفر أرميا: ٧، ٨ - ١١

(٥٠) إنجيل متى: إصحاح ٢٣ بقرة: ١٣، ١٤، ٢٧، ٢٣ - ٣٥

(٥١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤١ / ٦

(٥٢) التسهيل ١٧٢/١

(٥٣) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٣/٦

(٥٤) مختصر تفسير ابن كثير ٥٠٠/١ تحقيق محمد علي الصابوني.

(٥٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٣/٦.

(٥٦) مختصر تفسير ابن كثير ٥٠٠/١.

(٥٧) أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣، ٣٤٤٤) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) (٢٧٤٦٨).
(٢٧٢٤٠) من حديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبي.

(٥٨) من أصبح منكم آمناً في سربه:

رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه في الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمي عن أبيه وكانت له صحبة قال قال رسول الله ﷺ من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا. قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية، وحيزت جمعت.

(٥٩) التسهيل ١٧٣/١.

(٦٠) راجع القصة بتمامها في سفر العدد - إصحاح ١٣، ١٤، ١٥ (لتطلع على جبهتهم وعلهم وما صاحب ذلك من الأساطير).

(٦١) تفسير الكشاف ١٢٦/١

(٦٢) تفسير الفخر الرازي ١٩٩/١١

(٦٣) تفسير الفخر الرازي ١٩٧/١١.

(٦٤) مقدمة ابن خلدون.. نقلا عن تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوي ص ١٥٠.

(٦٥) تفسير المنار ج ٦ ص ٣٣٧ - بتصرف وتلخيص -.

(٦٦) هذا المعنى مستخلص من تفسير الطبري وتفسير ابن كثير.

(٦٧) إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل:

رواه البخاري في المغازي (٣٩٥٢) وفي التفسير (٤٦٠٩) وأحمد في مسنده (٣٦٩٠) من حديث ابن مسعود قال شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول كما قال قوم موسى (انذهب أنت وريك فقاتلا) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وصره يعني قوله. ورواه أحمد في مسنده (١١٦١١) من حديث أنس قال لما سار رسول الله ﷺ إلى بدر خرج فاستشار الناس فأشار عليه أبو بكر رضي الله عنهم ثم استشارهم فأشار عليه عمر رضي الله عنهم فسكت فقال

رجل من الأنصار إنما يريدكم فقالوا يا رسول الله والله لا نكون كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام (انذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن والله لو ضربت أكباد الإبل حتى تبلغ برك الغداه لكنا معك.

(٦٨) جاء في التفسير الوسيط لجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: لم نجد سنداً لذلك في السنة.

(٦٩) تفسير القرطبي ٦ / ١٢٠ نقل عن أبي حيان.

(٧٠) تفسير القرطبي ٦ / ١٣٨.

(٧١) لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم:

البخاري في الأنبياء ٣٣٣٦، وفي الدييات ٦٨٦٧، وفي الاعتصام ٧٢٢٩، مسلم في القسامة ١٦٧٧، الترمذي في العلم ٢٦٧٣، النسائي في تحريم الدم ٣٩٨٥، ابن ماجه في الدييات ٢٦١٦، وأحمد ٣٦٢٣، ٤٠٨١، ٤١١٢.

(٧٢) تفسير القرطبي ٦ / ١١٥.

(٧٣) تفسير القرطبي ٦ / ١١٥.

(٧٤) الندم توبة:

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢) وأحمد في مسنده (٤٠٠٢، ٣٥٥٨) من حديث ابن معقل قال دخلت مع أبي على عبد الله فسمعت يقول قال رسول الله ﷺ الندم توبة فقال له أبي أنت سمعت النبي ﷺ يقول توبة قال نعم. قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين. قال المنار في الغيض: قال في شرح الشهاب هو حديث صحيح وقال ابن حجر في الفتح حديث حسن.

(٧٥) تفسير المنار ٦ / ٣٤٧.

(٧٦) تفسير القرطبي ٦ / ١٤٦.

(٧٧) مادة الفعل لما فيه من الزيادة على القصاص، من أنه لا يسقط بالعفو، لكونه حق الشرع، والمراد من التصليب: التصليب مع القتل.

(٧٨) الحسم: الكي لمنع سيلان الدم.

(٧٩) نهى رسول الله ﷺ عن المثلة:

رواه البخاري في المظالم (٢٤٧٤) وفي الذبائح (٥٥١٦) وأحمد في مسنده (١٨٢٦٥) من حديث عبد الله بن يزيد الأنصاري قال نهى النبي ﷺ عن النهي والمثلة. ورواه النسائي في تحريم الدم (٤٠٤٧) من حديث أنس قال كان رسول الله ﷺ يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة. ورواه أبو داود في الجهاد (٢٦٦٧) من حديث الهياج بن عمران أن عمران أبى له غلام فجعل الله عليه لئناً قدر عليه ليقطعن يده فأرسلني لأسأل له فأتيت سمره بن جندب فسألته فقال كان نبي الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة فأتيت عمران بن حصين فسألته فقال كان رسول الله ﷺ يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة. ورواه أحمد في مسنده (١٧٦٨٦) من حديث المغيرة بن شعبه قال نهى رسول الله ﷺ عن المثلة.

(٨٠) تفسير القرطبي ٦ / ١٥٩ طبعة دار الكتب المصرية.

(٨١) اللهم رب هذه الدعوة التامة:

رواه البخاري في الأذان (٦١٤) وفي التفسير (٤٧١٩) وأبو داود في الصلاة (٥٢٩) والترمذي في الصلاة (٢١١) والنسائي في الأذان (٦٨٠) وابن ماجه في الأذان (٧٢٢) وأحمد في مسنده (١٤٢٠٩) من حديث جابر بن عبد الله أن

رسول الله ﷺ قال من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامهما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة.

(٨٢) لا تنسنا يا أخى من دعائك:

رواه أبو داود فى الصلاة (١٤٩٨) والترمذى فى الدعوات (٣٥٦٢) وابن ماجه فى المناسك (٢٨٩٤) وأحمد فى مسنده (١٩٦) من حديث عمر رضى الله عنهم قال استأذنت النبى ﷺ فى العمرة فأذن لى وقال لا تنسنا يا أخى من دعائك فقال كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا قال شعبة ثم لقيت عاصما بعد بالمدينة فحدثنيه وقال أشركنا يا أخى من دعائك. قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى وفيه عاصم بن عبيد الله بن عاصم وفيه كلام كثير لغفلته وقد وثق.

(٨٣) اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبك:

رواه البخارى فى الجمعة (١٠١٠) وفى المناقب (٣٧١٠) من حديث أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبدالمطلب فقال اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا قال فيسقون.

(٨٤) يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٥٧، ٦٥٣٨) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٠٣) من حديث أنس يرفعه إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفقدى به قال نعم قال فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى فأبيت إلا الشرك.

(٨٥) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ١٢ ص ١٠٦٦.

(٨٦) تفسير القرطبي ١٥٩/٦ طبعة دار الكتب المصرية.

(٨٧) يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة:

رواه مسلم فى الإيمان (١٩١) وأحمد فى مسنده (١٤٤١٤) من حديث جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ إن قوما يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم حتى يدخلوا الجنة. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٥٩) وأحمد فى مسنده (١٣٤٢٧) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال يخرج قوم من النار بعد ما مسهم منها سفح فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٦٦) وأبو داود فى السنة (٤٧٤٠) من حديث عمران بن حصين رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال يخرج قوم من النار بشفاعته محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين.

(٨٨) انظر تفسير القرطبي ١٧٥ / ٦.

(٨٩) أنت ومالك لأبيك:

رواه ابن ماجه فى التجارات (٢٢٩١) من حديث جابر بن عبدالله أن رجلا قال يا رسول الله إن لى مالا وولدا وإن أبى يريد أن يحتاج مالى فقال أنت ومالك لأبيك. قال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات على شرط البخارى ورواه ابن ماجه فى التجارات (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (٦٨٦٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال إن أبى احتاج مالى فقال أنت ومالك لأبيك وقال رسول الله ﷺ إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من أموالهم. ورواه الشافعى فى مسنده (٦٣٩) من حديث محمد بن المنكدر: أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال إن لى مالا وعيالا وأنه يريد أن يأخذ مالى ويطعمه عياله فقال النبى ﷺ: «أنت ومالك لأبيك». قال الزيلعى فى نصب الرأية: قال ابن القطان: إسناده صحيح، وقال المنذرى: رجاله ثقات، وقال فى التنقيح: ويوسف بن إسحاق من الثقات المخرج لهم فى «المصحيحين» قال: وقول الدارقطنى فيه: غريب تفرد به عيسى عن يوسف لا يضره، فإن غرابة الحديث والتفرد به لا يخرجانه عن الصحة. قال المناوى فى الفيض: قال ابن حجر فى تخريج التهذيب: رجاله ثقات لكن

قال البزار: إنما يعرف عن هشام عن ابن المنكر مرسلًا وقال البيهقي: أخطأ من وصله عن جابر (طب) وكذا البزار (عن سمرة) بن جندب قال الهيثمي: فيه إبراهيم بن عبد الحميد ولم أجد من ترجمه وبقية رجاله ثقات وقال ابن حجر: فيه من طريق ابن مسعود هذا معاوية بن يحيى وهو ضعيف وأما حديث سمرة فإن العقبلي بعد تخريجه عنه قال: وفي الباب أحاديث فيها لين وبعضها أحسن من بعض وقال البيهقي: روى من وجوه موصولة لا يثبت مثلها وقال ابن حجر في موضع آخر قد أشار البخاري إلى الصحيح إلى تضعيف هذا الحديث.

(٩٠) تقطع يد السارق في ربع دينار:

رواه البخاري في الحدود (٦٧٨٩، ٦٧٩٠، ٦٧٩١) ومسلم في الحدود (١٦٨٤) ومالك في الموطأ كتاب الحدود (١٥٧٥) وأبو داود في الحدود (٤٣٨٣، ٤٣٨٤) والترمذي في الحدود (١٤٤٥) والنسائي في قطع السارق (٤٩١٤) وابن ماجه في الحدود (٢٥٨٥) والدارمي في الحدود (٢٣٠٠) وأحمد في مسنده (٢٣٥٥٩) من حديث عائشة قال النبي ﷺ تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً.

(٩١) ادعوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم:

رواه الترمذي في الحدود (١٤٢٤) من حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ ادعوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام أن يخطئ في العقوبة. قلت: في إسناده يزيد بن زياد. قال الزيلعي في نصب الراية: ورواه الحاكم في «المستدرک»، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي في «مختصره»، فقال: يزيد بن زياد، قال فيه النسائي: متروك، انتهى. وقال الترمذي في «علله الكبير»: قال محمد بن إسماعيل: يزيد بن زياد منكر الحديث، ذاهب، انتهى. ورواه الدارقطني، ثم البيهقي في «سنيهما» مرفوعاً، وقال البيهقي: الموقوف أقرب إلى الصواب. قلت وذكره أيضاً من حديث علي وقال: وأما حديث علي: فأخرجه الدارقطني في «سننه» (٢) عن مختار التمار عن أبي مطر عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ادعوا الحدود»، انتهى. ومختار التمار ضعيف.

(٩٢) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٥٤ / ٢.

(٩٣) تفسير القرطبي ١٧٢ / ٦.

(٩٤) لا قطع على خائن:

رواه أبو داود في الحدود (٤٣٩٢) والترمذي في الحدود (١٤٤٨) والنسائي في قطع السارق (٤٩٧١) وابن ماجه في الحدود (٢٥٩١) والدارمي في الحدود (٢٣١٠) وأحمد في مسنده (١٤٦٥٢) من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال لا يقطع الخائن ولا المنتهب ولا المختلس. قال المناوي في الفيض: قال ابن حجر رواه ثقات إلا أنه معلول بين ذلك أبو حاتم والنسائي. قال الزيلعي في نصب الراية: وسكت عنه عبدالحق في «أحكامه»، وابن القطان بعده، فهو صحيح عندهما، وفرقه أبو داود، فرواه بهذا الإسناد، ليس على المنتهب قطع، ومن انتهب نهباً مشهورة، فليس منا، وقال بهذا الإسناد: ليس على الخائن، ولا على المختلس قطع، انتهى. قال أبو داود: وهذان الحديثان لم يسمعهما ابن جريج من أبي الزبير.

(٩٥) أتشفع في حد من حدود الله:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ح ٣٤٧٥، وفي الحدود ح ٦٧٨٨، ومسلم في الحدود ح ١٦٨٨، والترمذي في الحدود ح ١٤٣٠، والنسائي في قطع السارق ح ٤٨٩٩، وأبو داود في الحدود ح ٤٢٧٣، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٤٧، والدارمي في الحدود ح ٢٣٠٢.

(٩٦) تفسير القرطبي ١٦٩/٦ بصرف واختصار شديد، وتنظيم.

(٩٧) تفسير المنار ٣٨٤/٦، زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٥٤ / ٢.

(٩٨) تفسير ابن كثير ٥٦/٢ وزاد المسير لابن الجوزي ٣٥٥/٢

(٩٩) اقطعوا يدها فمن تاب من بعد ظلمه:

رواه أحمد في مسنده (٦٦٩) من حديث عبدالله بن عمرو أن امرأة سُرقت على عهد رسول الله ﷺ فجاء بها اللذين سرقتهم فقالوا يا رسول الله إن هذه المرأة سرقتنا قال قومها فنحن نغديها يعني أهلها فقال رسول الله ﷺ اقطعوا يدها فقالوا نحن نغديها بخمس مائة دينار قال اقطعوا يدها قال فقطعت يدها اليمنى فقالت المرأة هل لي من توبة يا رسول الله قال نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فأنزل الله عز وجل في سورة المائدة ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح﴾ إلى آخر الآية. قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وبقيته رجاله ثقات.

(١٠٠) الحمد لله الذي طهرني منكم:

رواه ابن ماجه في الحدود (٢٥٨٨) من حديث ثعلبة الأنصاري أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنني سُرقت جملاً لبني فلان فطهرني فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا إنا افتقدنا جملاً لنا فأمر به النبي ﷺ فقطعت يده قال ثعلبة أنا أنظر إليه حين وقعت يده وهو يقول الحمد لله الذي طهرني منك أردت أن تدخلني جسد النار. قلت: في إسناده ابن لهيعة.

(١٠١) اللهم إني أول من أحيا أمرك:

رواه مسلم في الحدود ح ١٧٠٠، وأبو داود في الحدود ح ٤٤٤٨، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٥٨، وأحمد ح ١٨٠٥٤ من حديث البراء.

(١٠٢) تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوي ص ٢٠١

(١٠٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٥٨/٢.

(١٠٤) إن المقسطين على منابر من نور:

رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) والنسائي في آداب القضاة (٥٣٧٩) وأحمد في مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبدالله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا.

(١٠٥) تفسير القرطبي ١٨٩/٦، وقد نقل أكثر من أي من العلماء في معنى ﴿الربانيون والأحبار﴾ كما أجاد في نقل الآراء عن معنى آخر الآية.

(١٠٦) تفسير القصر الرازي ١٢ / ٤.

(١٠٧) المفردات في غريب القرآن ص ١٤٩ للراغب الأصفهاني.

(١٠٨) تفسير سورة المائدة للدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢١٩ نقلاً عن تفسير الآلوسي ١٤٥/٦.

(١٠٩) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب ١٢ ص ١٠٨٠.

(١١٠) تفسير القرطبي ٦ / ١٩٠.

(١١١) قال في البحر: يعني أن كفر المسلم ليس مثل كفر الكافر. قلت وهو كفر النعمة عند الإباضية

(١١٢) ورد مثل هذه الأحكام في سفر الخروج. الإصحاح ٢١: ٢٣ - ٢٥ وفي سفر اللاويين الإصحاح ٢٤: ١٧/ ٢٠

(١١٣) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية حزب ١٢ ص ١٠٨٢

(١١٤) تفسير ابن كثير ٦١/٢

(١١٥) لا يقتل مؤمن بكافر:

رواه أبو داود في الجهاد (٢٧٥١) وفي الديات (٤٥٠٦) وأحمد في مسنده (٦٦٥٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال لا يقتل مؤمن بكافر ومن قتل مؤمناً متعمداً دفع إلى أولياءه المقتول فإن شاءوا قتلوه وإن شاءوا أخذوا الدية. ورواه ابن ماجه في الديات (٢٦٦٠) من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده. ورواه الترمذي في الديات (١٤١٢) والنسائي في القسامة (٤٧٣٥)، من حديث القرآن وما في الصحيفة قلت وما في الصحيفة قال العقل فكذلك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر. وقال عيسى حديث علي حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود في الديات (٤٥٣٠) والنسائي في القسامة (٤٧٣٥) من حديث علي رضي الله عنهم أن النبي ﷺ قال المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده.

(١١٦) في نور القرآن د. عبدالله شحاتة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٣ م ص ٣٢.

(١١٧) ما من رجل يجرح في جسده جراحة:

رواه أحمد في مسنده (٢٢٢٨٦، ٢٢١٩٣) من حديث عباد بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من رجل يجرح في جسده جراحة فيصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به.

(١١٨) تفسير ابن كثير ٦٤/٢.

(١١٩) نقلا عن تفسير سورة المائدة د. محمد سيد طنطاوي ص ٢٣٤.

(١٢٠) تفسير المنار ٤/٤.

(١٢١) فتح القدير للشوكاني.

(١٢٢) فتح القدير للشوكاني.

(١٢٣) أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم:

تقدم ٩٦

(١٢٤) تفسير الآلوسي ١٥٦/٦.

(١٢٥) أبغض الناس إلى الله من يتبنى في الإسلام سنة الجاهليين:

رواه البخاري في الديات (٦٨٨٢) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم ومبغض في الإسلام سنة الجاهلية ومطلب دم امرئ يغير حق ليهرق دمه.

(١٢٦) تفسير الفخر الرازي ١٢/١٦.

(١٢٧) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٧٨/ ٢

(١٢٨) تفسير الطبري ٢١٨/٦

(١٢٩) فتح القدير للشوكاني.

(١٣٠) المفردات في غريب القرآن ص ٢٢.

(١٣١) تفسير الطبري ٢٢٢/٦

(١٣٢) تفسير الآلوسي ١٧١/٦.

(١٣٣) تفسير القرطبي ٢٢٣/٦.

(١٣٤) تفسير فتح القدير للشوكاني.

(١٣٥) تفسير الطبري ٢٢٤/٦، والدر المنثور للسيوطي ٢ / ٢٩٤.

(١٣٦) تفسير الطبري ٢٢٤/٦.

(١٣٧) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٢.

(١٣٨) تفسير القرطبي ٦ / ٢٢٦.

(١٣٩) رواه ابن عباس وانظر تفسير القرطبي ٢٣٢/٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٨٦/٢.

(١٤٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الحزب الثاني عشر ص ١١٠٤.

(١٤١) تفسير القاسمي ٦ / ٢٥٩ بتصرف واختصار.

(١٤٢) تفسير الشوكاني (فتح القدير).

(١٤٣) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني، اختصار محمد سليمان الأشقر ص ١٤٩.

(١٤٤) ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي:

رواه أحمد في مسنده (١٨٧٣١) من حديث جرير قال قال رسول الله ﷺ ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعم منه وأمتع لم يغيروا عليه إلا أصابهم الله عز وجل منه بعقاب.

(١٤٥) تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤.

(١٤٦) أن به فابدا فإنه لم يتمع:

قال الهيثمي في المجمع: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: أوحى الله إلى ملك من الملائكة أن اقلب مدينة كذا وكذا على أهلها قال: إن فيها عبدك فلانا لم يعصك طرفة عين قال: اقلبها عليه وعليهم فإن وجهه لم يتمع (أي لم يتغير من التألم والغضب) في ساعة قط. رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف وكلاهما ضعيف ووثق عمار بن سيف بن المبارك وجماعة ورضى أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(١٤٧) يتمع وجهه: يتغير.

(١٤٨) إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه:

رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) والترمذي في الفتن (٢١٦٨) وأحمد في مسنده (٣١، ٣٠) من حديث قيس قال: قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم﴾ قال عن خالد وإنما سمعنا النبي ﷺ يقول إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب.

(١٤٩) تفسير القرطبي ٦ / ٢٣٨.

(١٥٠) تفسير الآلوسي ١٠٨/٦، والتفسير الوسيط حزب ١٢ ص ١١١١.

(١٥١) أنفق أنفق عليك:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٤٨) وفى التنفقات (٥٣٥٢) وفى التوحيد (٧٤٩٦) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجه فى الكنز (٢١٢٢) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال قال الله

(١٥٢) عين الله مالى:

رواه البخارى فى التوحيد (٧٤٩٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال إن يمين الله مالى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه وعرشه على الماء ويده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض.

(١٥٣) انظر تفسير القرطبي، وفيه: السح الصب الكثير، ويغيض: ينقص، وبالهامش «الليل والنهار» قال النووى:

هو ينصب الليل والنهار ورفعهما بالنصب على الظرف، والرفع على الفاعل.

(١٥٤) تفسير القرطبي ٦ / ٢٤٠.

(١٥٥) لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة:

رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٤٧) وفى الدييات (٦٩١٥، ٦٩٠٣) والترمذى فى الدييات (١٤١٢) والنسائى فى القسامة (٤٧٣٥) والدارمى فى الدييات (٢٣٥٦) وأحمد فى مسنده (٦٠٠) من حديث أبى جحيفة قال قلت لعلى يا أمير المؤمنين هل عندكم سوداء فى بيضاء ليس فى كتاب الله قال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما علمتكم إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن وما فى الصحيفة قلت وما فى الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مؤمن بكافر. وقال أبو عيسى حديث على حديث حسن صحيح. ورواه مسلم فى الإيمان (٧٨) من حديث أبى ذر قال قال على والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلى أن لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق.

(١٥٦) من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦١٢) وفى التوحيد (٧٥٣١) ومسلم فى الإيمان (١٧٧) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٧٨، ٣٠٦٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت من حدثك أن محمدا ﷺ كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب والله يقول ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

(١٥٧) انظر تفسير الآلوسى: الطبرى وغيرهم حيث أوردوا ذلك فى أسباب نزول الآية.

(١٥٨) لو كان موسى حيا:

رواه أحمد (١٥٤٣٧، ١٧٨٧١) من حديث عبدالله بن ثابت. وذكره الهنذلى فى الكنز (١٠١١) ونسب لابن سعد وأحمد والحاكم فى الكنز والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن عبدالله بن ثابت الأنصارى قال الهنذلى فى المجمع: رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جابرا الجعفى وهو ضعيف.

(١٥٩) حاشية الجمل على الجلالين ١ / ٥١١.

(١٦٠) وردت إشارة كاملة إلى هذا المقاطع فى سفر تنبيه الاشتراع وهو أحد أسفار التوراة التى يأتينهم، الإصحاح: ٢٩ - ٣٣.

(١٦١) نقلا عن تفسير الفخر الرازى ١٢ / ٥٧.

(١٦٢) تفسير سورة المائدة ٣١٠.

(١٦٣) راجع قاموس الكتاب المقدس: ١٠٨، ١٠٩.

(١٦٤) قاموس الكتاب المقدس ٢٣٢ ، ٢٣٣

(١٦٥) تفسير الكشاف ١/٦٦٥.

(١٦٦) تفسير الكشاف ١/٦٦٦.

(١٦٧) إياكم والغلو في الدين:

رواه النسائي في مناسك الحج (٣٠٥٧) وابن ماجه في المناسك (٣٠٢٩) وأحمد في مسنده (١٨٥٤) من حديث ابن عباس قال قال لى رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته هات القطلى فلقطت له حصيات هن حصي الحذف فلما وضعتهن فى يده قال بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو فى الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين.

(١٦٨) لا تطروني كما أطرت النصارى:

تقدم ص ٣٦.

(١٦٩) إنجيل متى: ١٢ - ٣٤، ٢٣ - ٣٣.

(١٧٠) تفسير الألوسي ٦/٢١١.

(١٧١) من رأى منكم منكرا:

مسلم فى الإيمان ح ٧٠، والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال: حديث حسن صحيح، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢، ٤٩٢٣، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٦٣، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥، وفى الفتن ح ٤٠٠٣، وأحمد ح ١٠٦٥١، ١١٠٣٤، ١١٠٩١، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى.

(١٧٢) لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماءهم:

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٤٧) وأحمد فى مسنده (٣٧٠٥) من حديث عبدالله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماءهم فلم ينتهوا فجالسهم فى مجالسهم وواكلهم وشاربهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنتهم (على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) قال فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئا فقال لا والذي نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا. وقال الترمذى: حسن غريب.

(١٧٣) لا والذي نفسى بيده حتى تأطروهم:

انظر ما قبله.

(١٧٤) والله لتأمرن بالمعروف وتنهون:

رواه الترمذى فى الفتن ح ٢١٦٩، وأحمد ح ٢٢٨١٦، ٢٢٧٩٠ من حديث حذيفة بن اليمان، وقال الترمذى: حديث حسن.



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم الجزء السادس

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤٨	﴿لَا يَحِبُّ إِلَهُ الْجَهْرُ بِالسُّوءِ...﴾	٩٧٧
١٤٩	﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ...﴾	٩٧٧
١٥٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٩٧٩
١٥١	﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا...﴾	٩٧٩
١٥٢	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٩٧٩
١٥٣	﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ...﴾	٩٨١
١٥٤	﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ...﴾	٩٨١
١٥٥	﴿فَبِمَا نَقْضُهِمْ مِيثَاقَهُمْ...﴾	٩٨٦
١٥٦	﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ...﴾	٩٨٦
١٥٧	﴿وَقَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ...﴾	٩٨٨
١٥٨	﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...﴾	٩٨٨
١٥٩	﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ...﴾	٩٩٢
١٦٠	﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا...﴾	٩٩٣
١٦١	﴿وَأَخَذْنَاهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نَهَوْنَا عَنْهُ...﴾	٩٩٣
١٦٢	﴿وَلَكِنَّ الرَّاكِضِينَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ...﴾	٩٩٤
١٦٣	﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا...﴾	٩٩٥
١٦٤	﴿وَرَسُولًا قَدْ قُصَصْنَا عَنْهُمْ عَلَيْكَ...﴾	٩٩٥
١٦٥	﴿رَسُولًا مَبْشُرِينَ وَمُنْذِرِينَ...﴾	٩٩٥
١٦٦	﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ...﴾	٩٩٥
١٦٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا...﴾	٩٩٩
١٦٨	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا...﴾	٩٩٩
١٦٩	﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ...﴾	٩٩٩
١٧٠	﴿يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ...﴾	١٠٠٠
١٧١	﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾	١٠٠١
١٧٢	﴿لَنْ يَسْتَكَفَى الْمَسِيحَ...﴾	١٠٠٦
١٧٣	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾	١٠٠٦
١٧٤	﴿يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرْهَانٌ...﴾	١٠٠٨
١٧٥	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ...﴾	١٠٠٨
١٧٦	﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ...﴾	١٠١٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة المائدة	١٠١٣
—	أولا - مدخل إلى سورة المائدة	١٠١٤
—	ثانيا - تفسير سورة المائدة	١٠٢٥
١	﴿يأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود...﴾	١٠٢٥
٢	﴿يأيها الذين ءامنوا لا تحلوا شعائر الله...﴾	١٠٢٧
٣	﴿حرمت عليكم الميتة والدم...﴾	١٠٣٠
٤	﴿يسئلكم ماذا أحل لهم...﴾	١٠٣٥
٥	﴿اليوم أحل لكم الطيبات...﴾	١٠٣٥
٦	﴿يأيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة...﴾	١٠٤٠
٧	﴿واذكروا نعمة الله عليكم...﴾	١٠٤٠
٨	﴿يأيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء...﴾	١٠٤٣
٩	﴿وعد الله الذين ءامنوا وعملوا الصالحات...﴾	١٠٤٤
١٠	﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا...﴾	١٠٤٤
١١	﴿يأيها الذين ءامنوا اذكروا نعمت الله...﴾	١٠٤٤
١٢	﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل...﴾	١٠٤٥
١٣	﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم...﴾	١٠٤٥
١٤	﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى...﴾	١٠٤٨
١٥	﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا...﴾	١٠٥٠
١٦	﴿يهدى به الله من اتبع رضوانه...﴾	١٠٥٠
١٧	﴿ولقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾	١٠٥١
١٨	﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه...﴾	١٠٥٣
١٩	﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل...﴾	١٠٥٤
٢٠	﴿وإذا قال موسى لقومه...﴾	١٠٥٥
٢١	﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة...﴾	١٠٥٥
٢٢	﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين...﴾	١٠٥٨
٢٣	﴿قال رجلان من الذين يخافون...﴾	١٠٥٨
٢٤	﴿قالوا يا موسى إننا لن ندخلها...﴾	١٠٥٩
٢٥	﴿قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى...﴾	١٠٥٩
٢٦	﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة...﴾	١٠٥٩
—	حكمة عقوبة التيه لبنى إسرائيل	١٠٦٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٧	﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم...﴾	١٠٦٣
٢٨	﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى...﴾	١٠٦٣
٢٩	﴿إنسى أريد أن تبوأ بإثمى وإثمك...﴾	١٠٦٣
٣٠	﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه...﴾	١٠٦٦
٣١	﴿فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض...﴾	١٠٦٦
٣٢	﴿من أجل ذلك كتبنا...﴾	١٠٦٦
٣٣	﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله...﴾	١٠٧٠
٣٤	﴿إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم...﴾	١٠٧٠
٣٥	﴿بأيها الذين ءامنوا اتقوا الله...﴾	١٠٧٤
٣٦	﴿إن الذين كفروا لو أن لهم...﴾	١٠٧٤
٣٧	﴿يريدون أن يخرجوا من النار...﴾	١٠٧٤
٣٨	﴿والسارق والسارقة فاقطعوا...﴾	١٠٧٦
٣٩	﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح...﴾	١٠٧٦
٤٠	﴿لم تعلم أن الله له ملك...﴾	١٠٧٦
٤١	﴿بأيها الرسول لا يحزنك...﴾	١٠٨١
٤٢	﴿سماعون للكذب أكالون للسحت...﴾	١٠٨٤
٤٣	﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة...﴾	١٠٨٦
٤٤	﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور...﴾	١٠٨٧
—	صفحة من تفسير القرطبى	١٠٩٠
٤٥	﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس...﴾	١٠٩١
٤٦	﴿وقفينا على ءاثارهم بعبسى ابن مريم...﴾	١٠٩٤
٤٧	﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه...﴾	١٠٩٤
٤٨	﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق...﴾	١٠٩٦
٤٩	﴿وأن أحكم بينهم بما أنزل الله...﴾	١٠٩٩
٥٠	﴿أفحكم الجاهلية يبغون...﴾	١١٠٠
٥١	﴿بأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا اليهود...﴾	١١٠١
٥٢	﴿فتري الذين فى قلوبهم مرض...﴾	١١٠١
٥٣	﴿ويقول الذين ءامنوا أهؤلاء...﴾	١١٠١
—	علاقة المسلمين بغيرهم	١١٠٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٤	﴿يأيها الذين ءامنوا من يرتد منكم ...﴾	١١٠٥
٥٥	﴿إنما وليكم الله ورسوله ...﴾	١١٠٧
٥٦	﴿ومن يتول الله ورسوله ...﴾	١١٠٧
٥٧	﴿يأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا الذين ...﴾	١١٠٩
٥٨	﴿وإذا ناديتكم إلى الصلاة ...﴾	١١٠٩
٥٩	﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا ...﴾	١١١١
٦٠	﴿قل هل أنبئكم بشر ...﴾	١١١١
٦١	﴿وإذا جاءكم قالوا ءامنوا ...﴾	١١١٤
٦٢	﴿وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم ...﴾	١١١٤
٦٣	﴿لولا ينهاهم الربانيون والأحبار ...﴾	١١١٤
٦٤	﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة ...﴾	١١١٦
٦٥	﴿ولو أن أهل الكتاب ءامنوا واتقوا ...﴾	١١٢٠
٦٦	﴿ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل ...﴾	١١٢٠
٦٧	﴿يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ...﴾	١١٢٢
٦٨	﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء ...﴾	١١٢٤
٦٩	﴿إن الذين ءامنوا والذين هادوا ...﴾	١١٢٥
٧٠	﴿لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل ...﴾	١١٢٧
٧١	﴿وحسبوا ألا تكون فتنة ...﴾	١١٢٧
٧٢	﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...﴾	١١٣٠
٧٣	﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ...﴾	١١٣١
٧٤	﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ...﴾	١١٣١
٧٥	﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول ...﴾	١١٣٣
٧٦	﴿قل أتعبدون من دون الله ...﴾	١١٣٣
٧٧	﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوفى دينكم ...﴾	١١٣٥
٧٨	﴿لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل ...﴾	١١٣٥
٧٩	﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ...﴾	١١٣٥
٨٠	﴿ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ...﴾	١١٣٨
٨١	﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي ...﴾	١١٣٨
—	خاتمة	١١٣٩
—	تخريج أحاديث وهوامش الجزء السادس	١١٤١
—	محتويات الكتاب	١١٥٥





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار عريب

١٤٢٥ هـ 2005

أ.م.د. محمد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
الطباعة والنشر والتوزيع
الساحرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهبَانًا وَآلَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَعَافِرُوهَا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا فَكُنْ بِمَعِ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا نَلَاكُم بِإِلَهِكُمْ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَهُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا اجْنَبْ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾

المفردات :

قسيسين : جمع قسيس ؛ وهو رئيس ديني مسيحي .

ورهباناً : الرهبان ؛ جمع راهب ، وهو المتبتل : المنقطع للعبادة وحرمان النفس من الاستمتاع بالزوج والولد .

تفيض من الدمع : أى تملئ أعينهم بالدمع حتى يتدفق من جوانبها ؛ لكثرة .

التفسير :

٨٢ - لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا الآية

أسباب النزول :

تعددت الروايات فى سبب نزول هذه الآية ولكنها تلتقى فى أن بعض طوائف النصارى ، استمعوا إلى القرآن الكريم فتأثرت به نفوسهم وفاضت أعينهم بالدمع وأعلنوا الإسلام .

ويذهب جمهور المفسرين إلى أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة ومن معه من القيسيين والرهبان . وجميع الروايات : تدل على أنه أسلم وهو ومن معه .

وكتب السيرة تفيد أن قيصر ملك الروم تلقى دعوة الرسول ﷺ في رفق وأناة . كذلك تلقى المقوقس عظيم القبط دعوة الرسول ﷺ في مودة ولين وأرسل إلى رسول الله بعض الهدايا .

رأى الطبري : ساق الطبري عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات ، منها ما يفيد أنها نزلت بعد أن أسلم النجاشي ثم عقب الطبري على الروايات بقوله :

والصواب في ذلك من القول عندى : أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا : إنا نصارى ، أن نبى الله يجدهم أقرب الناس مودة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم ، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك : أصحاب النجاشي ، ويجوز أن يكون أريد بذلك : قوم كانوا على شريعة عيسى فأدركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق ، ولم يستكبروا عنه ^(١) .

تَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ...

أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين الحق ، ستجد أشدهم عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهم اليهود والذين أشركوا .

وعداوة المشركين للمسلمين معروفة السبب ؛ فالمشرك لا يؤمن بالله الواحد المنزه عن النظر والمثيل ، والمؤمن يؤمن بالله الواحد الخالق الرازق ، فلا عجب أن يحمل المشركون للمسلمين العدا ؛ لاختلاف مناهج الإيمان من الأساس . واختلاف تصوّر الفريقين للألوهية .

إلى جوار أن مشركى مكة كانوا على جانب من الغنى والجاه والسلطان والجبروت ورأوا أن الإسلام يحذ من طغيانهم وجبروتهم وما اعتادوه من استعلاء وكبرياء ، وكانوا يرون أن الأغنياء والعظماء أولى بالرسالة والنبوة وقالوا : تَوَلَّاهُ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْنَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

وقد جاهر كفار مكة بالعداء للإسلام والمسلمين وما زالوا بالمسلمين يعذبونهم ويضطهدونهم حتى أخرجوهم من ديارهم وصادروا أموالهم .

أما اليهود :

فهم أهل كتاب وتوحيد وعقيدة تؤمن بالله واليوم الآخر لكنهم في نفس الوقت أهل حقد وحسد وعناد ؛ فقد حقدوا على العرب أن يكون نبيهم من نسل إسماعيل لا من نسل إسحاق . وأغلنوا العداء للإسلام ورسوله . وشنوا على الإسلام الحروب الطاغية بقوة السلاح ، أو بالداسات والمؤامرات كما

عرف عن اليهود قسوة القلب وتحريف التوراة وقتلهم الأنبياء ، وأكلهم أموال الناس بالباطل والإسراف فى التمرد والعصيان .

وقد تعرض الإسلام فى مكة لعنت المشركين وحربهم وظلمهم حتى حاولوا قتل الرسول ﷺ أو حبسه أو نفيه فأمره الله بالهجرة إلى المدينة ، وقام اليهود بدور بارز فى فتنة المؤمنين وإشاعة الأراجيف ، وبث الفرقة فى صفوف المسلمين ومن هنا قال القرآن الكريم .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا .

لقد كان اليهود أشد الناس عدا للاسلام فحاربوه بالسلاح والكيد والتآمر .

ولذلك قدمهم القرآن على الذين أشركوا ، وهم كفار مكة ومن سار على نهجهم .

أما النصارى ، فقد سارعت طائفة منهم لاعتناق الإسلام كما أكرم ملك الحبشة المهاجرين من أصحاب رسول الله ﷺ ، وحاول المشركون أن يوغروا صدره عليهم ولكنه لم يستجب لهم ، وأكرم المسلمين ، قال تعالى :

وَلَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى . أى : لتجدن يا محمد ، أقرب الناس محبة ومودة لك وللمؤمنين الذين قالوا : إنا نصارى .

أى : الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهج إنجيله فهؤلاء فيهم مودة للإسلام فى الجملة ، وفى قلوبهم رافة ورحمة : قال تعالى :

وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً . (الحديد : ٢٧) فى كتابهم : من ضريك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر : ليس القتال مشروعاً فى ملتهم .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . ففيهم من يتولى تعليمهم دين المسيح وهم القسس جمع قسيس وقس ، وقد يجمع على قسوس ، وبهذا التعليم والتوجيه والتربية : تظل تعاليم السماء ووحى السماء رطباً فى نفوسهم .

وفيهم الرهبان وهم جمع راهب وهو العابد ، مشتق من الرهبة وهى الخوف ، كراكب وركبان ، وفارس وفرسان ، ويطلق الرهبان على الواحد وعلى الجمع .

والرهبان هم الزاهدون فى الدنيا المتفرغون للعبادة فى الصوامع والخرب .

وهذه الفقرة وصفت النصارى بثلاث صفات :

(١) العلم .

(ب) العبادة .

(ج) التواصل .

فهم لا يتكبرون عن الاستجابة للحق والاستماع إليه ، والبكاء عند سماع القرآن ، والدخول في دين الإسلام .

٨٢ - وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ... الآية .

هذه الآية استمرار في وصف النصارى واستجابتهم للإيمان ؛ قيل : نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم .

قال : فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة .

وقال السهيلي : هم وفد نجران ، وكانوا نصارى ، فلما سمعوا القرآن من النبي ﷺ بكوا مما عرفوا من الحق وآمنوا ، وكانوا عشرين رجلاً ، وكان قدومهم على الرسول ﷺ بمكة .

وأما الذين قدموا عليه بالمدينة من النصارى من عند النجاشي فهم آخرون وفيهم نزل صدر سورة آل عمران .

مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ . أى : مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ . فبكاؤهم من أجل الفرح والاهتداء إلى دين الإسلام الحق .

يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . لقد قابلوا معرفة الإسلام واستماع القرآن بالبكاء والتأثر حتى إذا اطمأنت نفوسهم ؛ أعلنوا إسلامهم وقالوا : ربنا آمنا بنبيك محمد ورسالته فتقبل منا .

فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . أى : مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به .

عن ابن عباس في قوله : فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . أى : مع محمد ﷺ وأمه هم الشاهدون ، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ ، وللرسل أنهم قد بلغوا .

وقال أبو على : فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك .

٨٤ - وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .

والمعنى أى شئ يمنعنا من الإيمان بالله وكل ما حولنا يوحى إلينا بالإيمان فلماذا لا نؤمن بالله ونصدق بما جاءنا من الحق بعد ما تبين لنا صدق الرسول ﷺ ، وصحة رسالته ؟!

أى : لا شيء يصرفنا عن ذلك ، وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى :
وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ... الآية . (آل عمران : ١٩٩) وهم
الذين قال الله فيهم : وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . (القصاص : ٥٣) .

٨٥ — فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لقد أُنسوا
الاستماع وأحسنوا الإدراك ، وأحسنوا الإيمان ، وأحسنوا القول ، وساروا فى طريق العمل الصالح .

فجأزاهم الله وكافأهم ، وأسعدهم بما أعد لهم من جنات ، تجرى الأنهار من تحت قصورها
وأشجارها خالدين فيها أى : ماكتين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون . وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . أى : فى
اتباعهم الحق وانقيادهم له ، حيث كان وأين كان ومع كان .

وهذا الجزاء الحسن يعم كل من أحسن إحسانهم . قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ .
(الرحمن : ٦٠)

٨٦ — وَالَّذِينَ قَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . أى : الذين لا يفتحون قلوبهم للحق ، ولا
يؤمنون بأنه من عند الله : فلهم جزاء آخر يليق بهم .
وفى التفسير الوسيط .

المعنى : والذين كفروا — من اليهود والنصارى والمشركين ومن لا دين لهم ، ودأبوا على
التكذيب عناداً واستكباراً ، بعدما وضع الحق ، وقامت الأدلة على صدق الرسول محمد ﷺ ، أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . أى : هم أهلها والداخلون فيها .

فى أعقاب الآيات :

نلمح من الآيات أن المراد بها فئة من النصارى آمنت برسول الله ﷺ واستجابت لدعوة الإيمان
فى قولها وسلوكها .

وهناك فئات أخرى جحدت رسالة محمد ﷺ وبيتت له الكيد والحقد والعناد ، والكفر والتكذيب
فليس هؤلاء بأقرب الناس مودة للذين آمنوا إنما هم حرب عليهم فى تاريخهم القديم والحديث .

ولقد شهد المسلمون من فظائع الصليبيين ما شهدوا فى الشرق ، وشهدوا منهم فى الأندلس
ما تقشع لهول الأبدان ، ولا يزال الحقد الصليبي يظهر تحت ستار الآيات الشيطانية وغيرها ، مما
يجعل المسلمين على حذر فأهل الكتاب ثلاثة أصناف كما سبق أن ذكرنا ،

١ - صنف يظهر الولاء للإسلام والمسلمين وهؤلاء لا حرج علينا في إحسان معاملتهم وبرهم وإكرامهم .

٢ - صنف يبحث عن عورات المسلمين ومثالبهم وهؤلاء يحرم علينا موالاتهم .

٣ - صنف على الحياد وهؤلاء لا بأس من معاملتهم مع الحيطة والحذر .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التفسير :

٨٧ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

والمعنى يا أيها الذين آمنوا إيماننا حقاً ، لا تحرموا على أنفسكم شيئاً من الطيبات التي أحلها الله لكم فإنه سبحانه ما أحلها لكم إلا لما فيها من منافع وفوائد تعينكم على شئون دينكم ودنياكم .

ولا تتجاوزوا حدود الله بالإسراف أو بالتقتير أو يتناول ما حرمه عليكم ، فإنه سبحانه لا يحب الذين يتجاوزون حدود شريعته وسنن فطرته وهدى نبيه ﷺ .

٨٨ - وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا . أى تمتعوا بأنواع الرزق الحلال من أكل وشرب ولباس ، وغير ذلك من الطيبات وخص الأكل بالذكر لأنه معظم مقاصد الرزق .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ . أى اجعلوا أنفسكم في وقاية من غضب الله الذي آمنتم به فلا تتجاوزوا ما شرعه الله لكم .

وعن الحسن البصري رضى الله عنه أن الله أدب عباده فأحسن أدبهم فقال : لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ . (الطلاق : ٧) . ما عاب الله قوماً وسع عليهم الدنيا ففتنهم بها وأطاعوا ، ولا عذر قوماً زواها عنهم فعصوه .

وتمثل هاتان الآياتان مع غيرهما من هدى القرآن والسنة منهج الإسلام الوسط فهو لم يحرم الطيبات وإنما حرم الإسراف واتباع الشهوات .

وقد كان عليه الصلاة والسلام نموذجًا عمليًا في ذلك فهو يأكل ما يجده أكل اللحم بالثريد وشرب اللبن ، والماء الصافي وكان يأكل الخشن من الطعام ويصوم ويجوع ويطوى ، ويتمتع بالنعمة ويصبر مع الشدة ، ويعلم أصحابه فن حب الحياة وشكر نعم الله ، والبعد عن تحريم الحلال .

قال القرطبي : قال علمائنا : في هذه الآية وما شابهها من الأحاديث الواردة في معناها ، ردُّ على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه .

قال الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ولذلك ردَّ النبي ﷺ التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ وسُنَّه لأُمَّته واتبعه على مناهجه الأئمة الراشدون .

إن التفاضل بين المؤمنين يكون باستقامة النفس وسلامة العبادة وكثرة إيصال النفع للناس.. ولا يكون بالانقطاع عن الدنيا وتحريم طيباتها التي أحلها الله تعالى .

وقد ورد في القرآن والسنة ما يؤيد وسطية الإسلام قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُتُمَ إِياهُ تَعْبُدُونَ . (البقرة: ١٧٢) .

وقال عز شأنه : يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . (الأعراف: ٣١) .

وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة في معنى هذه الآيات منها ما يأتي :
- روى الشيخان عن عائشة أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم لا أكل اللحم ، وقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا ، وكذا . لكني أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم وأكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١) .

- وعن ابن عباس : أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإنني حرمت على اللحم فنزلت :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ .^(٢)

— وروى سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود قال : كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء فقلنا ألا نستخصي ، فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك ، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبد الله . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ ^(١) الآية ، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة ، والله أعلم .

★ ★ ★

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ بِطَعَامٍ عَشْرَةَ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨٩)

المفردات :

بِالْـلَّغْوِ : اللغو في اليمين : الحلف من غير قصد القَسَم .

بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ : أصل العقد : نقض الحل . فَعَقَدَ الْإِيمَانَ وتعهدها : توكيدها بالقصد والتصميم .

فَكَفَرْتُمْ بِهِ : أصل الكفارة من الكُفْر . وهو : الستر والتغطية ، ثم صارت — في اصطلاح الشرع — اسماً لأعمال تكُفّر — أي تمحو — بعض الذنوب .

من أوسط ما تطعمون أهليكم : الأوسط : المعتدل من كل شيء . والمراد هنا : الأغلب من الطعام ، الذي هو وسط بين الدون الذي يُتَقَشَّفُ به ، وبين الأعلى الذي يُتَوَسَّعُ به .

أو تحرير رقبة : أي إعتناق رقيق مملوك له .

تهديد في : أنواع الأيمان :

تنقسم الأيمان إلى ثلاثة أقسام :

يمين اللغو : وهو ما يسبق إليه اللسان بالحلف بدون قصد مثل قوله : لا والله ، وبلى والله ، أو من حلف على شيء يعتقد أنه صادق فيه ، وكان الأمر بخلافه ، كمن حلف أنه ليس معه نقود أو قلم ، ثم تبين وجود نقود أو قلم في جيبه ، بدون أن يعلم بوجوده .

أما اليمين المتعقدة : فهي الحلف على شيء أن يفعل أو لا يفعل عاقداً العزم مؤكداً النية على ذلك فإذا حدث في هذا اليمين فتلزمه الكفارة وهو مخير في هذه الكفارة بين ثلاثة أشياء .

١ - إطعام عشرة مساكين يغديهم ويعيشهم ، أو يعطى لكل مسكين نصف صاع من قمح أو صاعاً من شعير .

٢ - إعطاء كل مسكين ثوباً يستره ويصلح للصلاة فيه .

٣ - إعتاق رقبة .

قال في البحر المحيظ : وأجمع العلماء على أن الحادث مخير بين الإطعام والكسوة والعتق .

فإذا عجز المسلم عن أداء أى واحد من الثلاثة المذكورة فكفارة اليمين له صيام ثلاثة أيام واشترط الأحناف والحنابلة التتابع فى الأيام .

وقال الشافعى ومالك : لا يجب التتابع ، واختار الطبرى أنه كيفما صامهن مفرقة أو متتابعة أجزاءه .

٨٩ - لَا يُؤْخَذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ... الآية يسر الله التشريع والأحكام فقال تعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . ومن هذا التيسير أنه رفع عن هذه الأمة ما حدثت به نفسها ، ورفع عنها إثم ما سبق إليه اللسان ، بدون قصد من القلب ، كقول الحالف لا والله وبلى والله .

كما سامح المؤمن فى الحلف على شىء أنه فعله أو لم يفعله معتقداً صدق ذلك ثم تبين أن الأمر بخلافه . يسمى ذلك اليمين اللغو وهى يمين نرجوا أن يسامحنا الله فيها .

وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ . أى ولكن يؤخذكم بما عاقدتمكم بما وثقتم الأيمان عليه بالقصد والنية إذا حنثتم .

فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ . أى كفارة اليمين عند الحنث أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذى تطعمون منه أهليكم .

جاء فى فتح القدير للشوكانى :

المراد بالوسط هنا : المتوسط بين طرفى الإسراف والتقتير ، وليس المراد به الأعلى كما فى غير هذا الموضع : أى أطعموهم من المتوسط مما تعتادون إطعام أهليكم منه ، ولا يجب عليكم أن تطعموهم من أعلاه ، ولا يجوز لكم أن تطعموهم من أدناه ، وظاهره أنه يجزئ إطعام عشرة حتى يشبعوا .

وقد روى عن على أنه قال : لا يجزئ إطعام العشرة غداء دون عشاء حتى يغديهم ويعيشهم ، قال أبو عمرو : هو قول أئمة الفتوى بالأمصار .

وقال الحسن البصرى وابن سيرين : يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبراً وسمناً أو خبراً ولحماً .

وقال عمر بن الخطاب وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبو مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبو قلابة ومقاتل : يدفع إلى كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر .

وقال أبو حنيفة نصف صاع بر ، وصاع مما عده .

(أَوْ كِسْوَتُهُمْ) أى كسوة المساكين لكل مسكين ثوبٌ يستر البدن .

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) أى إعتاق عبد مملوك لوجه الله .

(فَمَنْ لَمْ يَجِدْ لِفَصِيحٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ) أى فمن لم يجد شيئاً من الأمور المذكورة فكفارته صيام ثلاثة أيام .

(ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ) أى ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم وحنثتم .

(وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) أى احفظوها من الابتذال ولا تسارعوا إلى الحلف ، وإذا حنثتم فلا تتركوها بغير تكفير .

(كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أى مثل ذلك التبيين يبين الله لكم الأحكام الشرعية ويوضحها لتشكروه على هدايته وتوفيقه لكم .

★ ★ ★

فى أعقاب الآية :

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال :

لما نزلت : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ لَكُمْ . فى القوم الذين كانوا حرّموا على أنفسهم اللحم والنساء ، قالوا : يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التى حلّفنا عليها ؟ فأُنزل الله : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْشِ فِي أَيْمَانِكُمْ .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

المضردات :

الخمر : هي كل ما خامر العقل وغيبه .

الميسر : القمار .

الأنصاب : الأصنام المنصوبة جمع نصب .

والأزلام : هي قدام أى قطع رقيقة من الخشب على هيئة السهام ، كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم .

رجس : قذر .

البغضاء : البغض .

ويصدكم : أى : ويمنعكم يقال صدّه يصدّه منعه عن أمر .

فيمّا طعموا : أى : فيما تناولوا قبل التحريم .

تمهيد :

عرف العرب الخمر ومدحوها فى أشعارهم وتحدثوا عن أسباب شربها فهى تولد فيهم الشجاعة والجرأة وتنسيهم آلام الفقر على حد قول الشاعر :

فإذا سكرت فإننى ربّ الخورنق والسدير
وإذا صحوّت فإننى ربّ الشهوية والبعير

وقد كان الشارع حكيمًا فى التدرج فى التشريع فقد حرم الخمر بالتدريج ، كما حرم الزنا بالتدريج .

تقول عائشة رضی الله عنها : (لو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقال الناس : لا نترك الخمر أبداً ، ولو نزل أول ما نزل لا تقرّبوا الزنا لقال الناس : لا نترك الزنا أبداً ، وإنما نزل أول ما نزل آيات تدعوا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر حتى إذا استقر الإيمان في القلوب حرم الله الخمر وحرم الزنا)^(٩).

لقد نزلت آيات في مكة تحذر من الزنا ولم تشرّع عقوبة للزنا بمكة ، ففي سورة الفرقان مدح الله عباد الرحمن بصفات متعددة منها بعدهم عن الزنا ، وفي سورة الإسراء وهي من أواخر ما نزل بمكة يقول الله تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا. وفي سورة النور التي نزلت في أعقاب غزوة بنى المصطلق حوالي سنة ٦ للهجرة أنزل الله تحريم الزنا وشرع عقوبة رادعة له واعتبر الزنا جريمة جنائية يجب على شرطة الدول وإدارتها معاقبة الزناة وإقامة الحد عليهم بشروط معينة .

وكذلك تحريم الخمر مرّ بمراحل ثلاث :

المرحلة الأولى : بيان أن ضرر الخمر أكثر من نفعه ، والمعروف أن ما كثر ضرره وجب تركه.

قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِّنَ مَّنَافِعِ النَّاسِ وَإِنَّهُمَا كَبِيرٌ مِّنْ نَّفَعِهِمَا . فترك الخمر بعض الناس ، ولم يتركها الجميع .

ثم قال تعالى : لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ . فترك الخمر بعض الناس ، وشرى بها بعضهم في غير أوقات الصلاة .

ثم حرم الله تعالى الخمر تحريماً قاطعاً مبيّناً مفسداً وأثامها . محذراً من إفسادها لدين المسلم وقواه العقلية لما وردت أحاديث كثيرة بروايات متعددة في تحريم الخمر وتحريم صنعها ، والاتصال بها على أي نحو من الأنحاء .

حتى قال العلماء : ثبت عن النبي ﷺ تحريم الخمر بأخبار بلغ بمجموعها رتبة التواتر ، وأجمعت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا على تحريمها وبذلك استقرت الحرمة حكماً للخمر في الإسلام ، وصارت حرمتها من المعلوم من الدين بالضرورة^(١٠) .

التفسير :

٩٠- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أكد الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر بأساليب متعددة نظراً لأن مدمن الخمر يصعب عليه التخلص منها لما تتركه من آثار كيميائية ولها تأثير على الأعصاب والمخ والدم ، كما أنها سبب في كثير من الأمراض والمدمن إما أن يفقد منزلته أو يفقد اتزانه .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف: (أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد، منها: تصدير الجملة، بإنما، ومنها: أنه قرنهما بعبادة الأصنام، ومنها قوله ﷺ: (شارب الخمر كعابد الوثن) ومنها: أنه جعلهما رجساً، كما قال: (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ومنها: أنه جعلهما من عمل الشيطان، والشيطان لا يأتي منه إلا الشرُّ البحت، ومنها: أنه أمر بالاجتناب ومنها: أنه جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب فلاحاً كان الارتكاب خيبة ومعصية، ومنها: أنه ذكر ما ينتج منهما من الويل، وهو وقوع التعادى والتباغض بين أصحاب الخمر والقمار، وما يؤديان إليه من الصدِّ عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة. انتهى.

وهذه الآية الكريمة بينت مضر الخمر، (وَالْمَيْسِرُ) وهو القمار (وَالْأَنْصَابُ) وهي الأصنام المنصوبة للعبادة (وَالْأَزْلَامُ) وهي الأقداح التي كانت عند سدة البيت وخدام الأصنام.

قال ابن عباس ومجاهد: الأنصاب حجارة كانوا يذبحون قربانهم عندها، والأزلام: قداح كانوا يستقسمون بها.

ذكر سبحانه أن هذه الأربعة - الخمر والميسر والأنصاب والأزلام (رَجَسَ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أى قدر ونجس تعافه العقول وخيب مستقدر من تزيين الشيطان. (فَاجْتَنِبُوا لَكُمْ تَقْلِيحُونَ). أى ابتعدوا عنه وكونوا فى جانب آخر بعيدين عن هذه القاذورات لتفوزوا بالثواب العظيم.

٩١- إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ... الآية. أى ما يريد الشيطان بهذه الرذائل إلا إيقاع العداوة والبغضاء بين المؤمنين فى شربهم الخمر. ولعبهم بالقمار وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ. أى ويمنعكم بالخمر والميسر عن ذكر الله الذى به صلاح دينكم وأخرتكم، وعن الصلاة التى هى عماد دينكم.

قال أبو حيان: ذكر الله تعالى فى الخمر والميسر مفسدتين إحداهما دنيوية والأخرى دينية، فأما الدنيوية فإن الخمر تثير الشرور والأحقاد وتثول بشاربها إلى التقاطع، وأما الميسر فإن الرجل لا يزال يقامر حتى يبقى سليباً لا شئ له، وينتهى إلى أن يقامر على أهله وولده، وأما الدينية فالخمر لقلبة السرور والطرب بها تلهى عن ذكر الله وعن الصلاة، والميسر - سواء كان غالباً أو مغلوباً - يلهى عن ذكر الله^(٩).

فَهَلْ أَتَمُّ مَنُتَهَرٍ. وهذا الاستفهام من أشد أساليب النهى عن الخمر والميسر، ولذلك قال عمر عندما سمعها انتبهنا رينا انتبهنا.

قال أبو حيان في البحر المحيط : وهذا الاستفهام من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل : قد تلى عليكم ما فيهما من المفساد التي توجب الانتهاء فهل أنتم منتهون أم باقون على حالكم ؟

في أعقاب الآية :

وردت الأحاديث الصحيحة في تحريم الخمر ومن ذلك ما يأتي :

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «يأيتها الناس إن الله يبغض الخمر ، ولعل الله سينزل فيها أمراً ، فمن كان عنده شيء منها فليبعه ، ولينتفع به» وما لبثوا إلا يسيراً حتى قال ﷺ : «إن الله حرم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية يريد (إِنَّمَا أُحْزِمُوا وَأُكْسِرُوا) وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع ، فاستقبل الناس بما كان عندهم منها طرق المدينة فسفكوها»^(٩).

- وروى أحمد ومسلم والنسائي ما يأتي :

لقى النبي ﷺ رجلاً يوم الفتح براوية من خمر فقال له أما علمت أن الله حرمها ؟ فأقبل الرجل على غلامه وقال له اذهب فبيعها فقال له الرسول ﷺ إن الذي حرم شربها حرم بيعها فأمر بها فأفرغت في البطحاء^(١٠).

ومن هذه الأحاديث وغيرها تقرر حرمة الانتفاع بالخمر على أي نحو من الأنحاء ، فيحرم أن تدخل في الطعام بأي قدر كان ، ويحرم أن يصف بها الشعر ، كما تفعله بعض السيدات ، ويحرم تقديمها في موائد المسلمين مجاملة لغير المسلمين .

المخدرات :

أن الخمر هي كل ما أسكر كما ورد . «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»^(١١).

إن بعض المخدرات أشد فتكاً بصحة الإنسان من الخمر . ولذلك أجمع فقهاء الإسلام على حرمة المخدرات وقرروا أن استحلالها كاستحلال الخمر وجاء في كتبهم (ويحرم أكل البنج والحشيش والأفيون لأنها مفسدة للعقل ، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة ويجب تعزير أكلها بما يردعه).

وقال ابن تيمية (إن فيها من المفساد ما ليس في الخمر فهي أولى بالتحريم ، ومن استحلها ، وزعم أنها حلال فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتداً ولا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين).

وقال ابن القيم : «يدخل في الخمر كل مسكر ، مائعا كان أو جامداً ، عصيراً أو مطبوخاً ، واللقمة الملعونة ، لقمة الفسق والفجور التي تحرك القلب الساكن إلى أخيب الأماكن» ويعني باللقمة الملعونة (الحشيشة) هذه اللقمة وغيرها من المخدرات تذهب بنخوة الرجال . وبالمعانى الفاضلة في الإنسان

وتجعله غير وفئ إذا عاهد ، وغير أمين إذا أوْتَمَنَ ، وغير صادق إذا حَدَّثَ ، تميت فيه الشعور بالمستولية ، والشعور بالكرامة .

وثبت طبيياً أن للمُخدرات الحديثة كالكوكايين والهروين والأقراص المصنعة أثاراً قوية على المخ وسائر ملكات الإنسان ، بل فيها قتل معنوي ، وسحق للقيم وهي تُشْمِتُ بنا الأعداء ، وتُحْزِنُ الأصدقاء .

ويمكن التغلب عليها بالإيمان واليقين الصادق بالله وباليوم الآخر ، وبقوة العزيمة ، ومعونة الأطباء والعلماء .

يجب أن يقوم البيت بواجبه في رعاية الفتيان والفتيات ، ويجب أن تقوم وسائل الإعلام بالتنوعية الحقيقية ، وأن ينهض المسجد والمدرسة والأجهزة المعنية برعاية المدمنين وتوجيههم ، والأخذ بيدهم إلى الشفاء ، يجب تحذير الجميع من هذه المخدرات ومن تناولها مطلقاً فإن المرة الأولى يمكن أن تجرَّ صاحبها إلى الإدمان ، وإلى العجز التام عن العودة إلى الجادة والاستقامة ، ولقد سبق القرآن إلى تحريم الخمر ، وهي كلُّ ما خامر العقل وستره سواء أكان خمرًا . أم أي صنف من المخدرات وجب علينا جميعاً أن نستجيب لأمر الله ففيه الحياة الحقيقية قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . (الأنفال : ٢٤) . وقال سبحانه : يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ . (الأعراف : ٥٧) . وقال ﷺ : «البرَّ ما اطمأنت إليه النفس والإنم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(١١)

ولم تظهر هذه المخدرات في حياة الرسول ﷺ وإنما ظهرت مع سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ ، وأفتى العلماء بتحريمها لأنها تفسد العقل وتصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، بل هي أشدُّ فتكاً بالجسم والعقل من الخمر .

وقد جاء الإسلام ليحافظ على العقول ، وجعل العقل واللب والفؤاد والقلب أسمى أدوات الخطاب وأوجب علينا التفكير والتدبر ، وحرَمَ الغفلة والضياح . قال تعالى : وَلَا تَقْلُوا بِأَلْسِنِكُمْ إِلَى الْهَلْكَةِ . (البقرة : ١٩٥) وقال سبحانه : وَلَا تَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ (النساء : ٢٩) .

وروى ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله الخمر وشاربها ، وساقبها وبائعها ، ومبتاعها وعاصرها ومعصرها ، وأكل ثمنها ، وحاملها والمحمولة إليه»^(١٢) .

اغذرات وباء فتاك :

إن مما يدعو للحزن والأسف أن يتهافت الشباب على هذه المخدرات ويدَّعي أن تحريمها لم يذكر في القرآن الكريم وهذه المخدرات قتل معنوي للإنسان خصوصاً الهروين والكوكايين ففي الشِّمَّةِ

الأولى يفقد المخ ٣٣ ٪ من مقوماته ، وفى الشمة الثانية يفقد المخ ٦٦ ٪ من مقوماته وفى الشمة الثالثة يفقد المخ ٩٩ ٪ من مقوماته ويصبح المدن آلة فى يد الإدمان ، وهذا قتل وتدمير لكرامة الإنسان قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَلَفَضْلُنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . (الإسراء : ٧٠) . وفى القرآن الكريم : وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ . (البقرة : ١٩٥) .

إن هذه المخدرات هلاك لجيل من الشباب والفتيان والفتيات ، وعدوان على مستقبل الأمة ، وامتهان لكرامة الوطن والمواطن ، لأن المدمن لا يستطيع أن يضبط عمله ولا أن يصون نفسه ، ولا أن يدافع عن وطنه وفى الحديث الشريف «البرُّ ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى الصدر وكهرت أن يطلع عليه الناس» ^(١٧) .

إذا ثبت أن المخدرات ضارة بالصحة وبالعقل والتفكير وجب الابتعاد عنها تمامًا كما أمر الله بالابتعاد عن الخمر لأنها تستر العقل ، والمخدرات تستر العقل وتفسد المخ فهى أشد ضررًا من الخمر ، وكل ما ثبت ضرره وجب تركه من أصول الذين «لا ضرر ولا ضرار» ^(١٨) فترك الضرر واجب شرعًا ، والإقلاع عن المخدرات واجتنابها نهائيًا واجب شرعًا ، ومقصد من مقاصد الشريعة حفاظًا على أنفسنا وعلى أمتنا قال تعالى :

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ... (النساء : ٢٩) .

من وسائل العلاج :

إن الابتعاد عن المخدرات لا يكفي معه الكلام أو النصح بل يحتاج إلى خطة متكاملة حتى يصبح البعد عن الإدمان سلوكًا عامًا .

وهذا السلوك يحتاج إلى تكاتف المختصين بالأمر من أطباء الصحة وعلماء النفس والتربية والاجتماع والإعلام والصحافة وخبراء التربية الإسلامية ، والدينية .

إن قيام المسجد والكنيسة وسائر دور العبادة بالدور المطلوب منها ، وبالواجب المنوط بها ، سيؤدى إلى استقرار حكم التحريم لهذه المخدرات ، ومن الواجب أن تتسع صدورنا لمناقشة المدمن ، وتشجيعه على الاعتراف والحديث : فهو مريض يحتاج إلى العلاج ، قبل أن يحتاج إلى الفتوى ومن العلاج أن نحترم إنسانيته وأن نفتح أمامه باب التوبة والأمل ، حتى يتغلب على اليأس والإجباط .

كما ينبغي للأسرة أن تتقبل المدمن ، وأن تتكاتف فى رعايته حتى يقلع عن الإدمان . ويجب العناية بدو الاستشفاء والعلاج من الإدمان ، وتزويد هذه الدور بالمختصين ، لأنها استثمار حقيقى للإنسان وقد خلق الله الكون كله من أجل الإنسان ، وسخر له الشمس والقمر والليل والنهار ،

والسما والارض ، واستخلف الإنسان فى عمارة الكون ، وإصلاح الحياة ، والمؤمن الصالح أهل للخلافة فى هذه الأرض ، ولا صلاح إلا بالاستقامة والجِد والعمل والأمل .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ... (الكهف : ٣٠) .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

٩٢- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ... الآية .

هذا أمر من الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وتحذيره من مخالفة الله ومخالفة رسوله وقريب من ذلك قوله تعالى : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا . (النساء : ٨٠)

وفى الآية ترغيب فى طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله وتحذير من المخالفة فمن خالف رسول الله وأعرض عن هدى السماء فإنه لا يخالف المرسل وإنما يخالف المرسل ، وهو ﷺ ليس مسيطرًا ، ولا مكلفًا بالهداية قال تعالى : إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ . (الشورى : ٤٨) .

وقال سبحانه : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

قال الشوكانى فى فتح القدير : أى فإن أعرضتم عن الامتثال فقد فعل الرسول ما هو الواجب عليه من البلاغ الذى فيه رشادكم وصلاحكم ، ولم تضروا بالمخالفة إلا أنفسكم ، وفى هذا من الزجر ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه .

قال السفى :

أى : فاعلموا أنكم لم تضروا بتوليكم الرسول لأنه ما كلف إلا البلاغ المبين بالآيات ، وإنما ضررتم أنفسكم حين أعرضتم عما كلفتموه .

٩٣- لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

سبب النزول :

لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو يشربها، ويأكل الميسر، وماتوا وهى فى بطونهم فكان الجواب أنهم ماتوا قبل تحريمها ، فلم يكن عليهم فى شربها إثم وكانوا أتقياء .

قال القرطبي :

وهذه الآية نظير سؤالهم عمن مات إلى القبلة الأولى فنزلت وما كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ... الآية (البقرة: ٤٣).

والمعنى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ أَى إِثْمٌ أَوْ عَقُوبَةٌ (فِيمَا طَعَمُوا) أَى فِيمَا تناولوه من طعام أو شراب قبل تحريمه ، وكذلك لا إِثْمٌ عَلَى من مات قبل التحريم والخمر فى بطنه .

إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . إِذْ اتَّقُوا اللَّهَ وَخَافُوهُ وَعَمِلُوا الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةَ .
ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا أَى ثُمَّ اسْتَمَرُّوا عَلَى تَقْوَاهُمْ وَامْتَلَأَ قُلُوبُهُمْ بِخَشْيَةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ الْحَقِّ بِهِ سُبْحَانَهُ .
ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا ثُمَّ تَأَكَّدَ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَى التَّقْوَى وَلِحَسَانِ الْعَمَلِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ .
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . أَى يَرْضَى عَنْهُمْ وَيَشْمَلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ .

والإحسان : أسمى أنواع العبادة : وهى عبادة الله مع الإخلاص وصدق النية ، وفى الحديث الصحيح «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فَإِنْ لَمْ تَكُن تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١٤) .

والآية تشتمل على جانب من مظاهر رحمة الله بعباده ، فإنه لا يُولِخُذُ النَّاسَ عَلَى الْفِعْلِ إِلَّا مِنْ بَدَايَةِ تَحْرِيمِهِ ، فَمَنْ مَاتَ شَارِبًا لِلْخَمْرِ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا فَلَا جُنَاحَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ .

وتلحظ أن الآية ختمت بوصف التقوى وتكرير التقوى ، والمقصود من ذلك ، وجوب امتلاء قلب المؤمن بتقوى الله ، واستمراره على ذلك حتى يصل إلى مرتبة الإحسان فى العبادة .

قال الطبري :

الانتهاء الأول : هو الانتهاء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق .

والانتهاء الثانى : الثبات على التصديق .

والثالث الإحسان والتقرب بالنوافل .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْبُلُوا لَكُمْ إِلَهُ يَشَىٰ وَمَنِ الصَّيْدُ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّذَوِّ قُرْبَىٰ ۚ وَبِالْأَمْرِ ۖ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ۚ مَلْفٌ وَمَن عَادَ فَسِتْنَمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَالسَّيَارَةُ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا ذُمَّ حُرْمًا ۚ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾

المفردات :

اسبُلُونَكُمْ : الابتلاء : الاختبار .

يشىء من الصيد : الصيد : ما صيد من حيوان البحر ، ومن حيوان البر الوحشية ، ومن الطيور .
تناله أيديكم ورماحكم : يراد به كثرته وسهولة اصطياده .

روى عن ابن عباس : أنه ما تناله الأيدي : الصغار والفراخ من الصيد . وما يؤخذ وينال بالرماح الكبار .

ليعلم الله من يخافه بالغيب : أي ليعاملكم معاملة المختبر ، الذي يريد أن يعلم الشيء علم وقوع - وإن كان سبحانه وتعالى يعلمه علم غيب - فهو علام الغيوب .

وأنتم حرم : جمع حرام . ويطلق على الذكر والأنثى . يقال : رجل وامرأة حرام . أي رجل محرم وامرأة محرمة : بحج أو عمرة .

من النعم : الأنعام من الإبل والبقر والغنم .

أوعدل ذلك العذل (بفتح العين) : المعادل للشيء ، والمساوى له ، مما يدرك بالعقل والعذل (بكسر العين) : المساوى للشيء مما يدرك بالحوس .

ليذوق وبال أمره : الويال : من الويل والويل . وهو : المطر الثقيل ، وطعامٌ وبيلٌ أي ثقيل . ويقال للأمر الذي يخشى ضرره : هو وبال .

أحل لكم صيد البحر، البحر المراد به : الماء الكثير الذى يوجد فيه السمك ، كالأنهار ، والبرك ونحوها .. وصيد البحر ما يصاد منه مما يعيش فيه عامة .

وطعامه متعا لكم ؛ وطعام البحر : ما قذف به إلى ساحله .

وللسيارة ؛ والسيارة هم المسافرون ، يتزودون منه .

الذى إليه تحشرون ؛ أى تجمعون وتساقون إليه يوم القيامة .

التفسير :

٩٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْلُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أََيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ .

تهديد :

خلق الله الإنسان للاختبار والابتلاء فمن أطاع فله الجنة ، ومن أساء فله النار .

قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُلْوَكَمُ أَكْرَمُ عَمَلًا . (الملك : ٢) .

وقد كان الصيد أحد معاش العرب فابتلاهم الله بتحريمه مع الإحرام وفى الحرم ، كما ابتلى بنى إسرائيل ألا يعتدوا فى السبت .

عن مقاتل قال : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم فى رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْلُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أََيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ .

والمعنى : أى ليختبرنكم الله - وأنتم محرمون - ببعض من الصيد يسهل عليكم تناوله ، بحيث تناله أيديكم بدون حاجة إلى سهام أو جوارح ، أو بطيور صغار تستطيعون أخذها بأيديكم ويطيور كبار تستطيعون صيدها برماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب . ليميز عن الله من يخافه منكم خفية عن الناس ، كما يخافه بمرأى من الناس ومسمع منهم ، فالخوف بالغيب برهان الإيمان .

جاء فى حاشية الجمل : وقوله (بالغيب) حال من فاعل يخافه أى يخاف الله حال كونه غائباً عن الله ، ومعنى كون العبد غائباً عن الله ، أنه لم ير الله تعالى .

أو حال من المفعول : أى يخاف الله حال كونه - تعالى - ملتبساً بالغيب عن العبد أى غير مرئى له . (فَمَنْ اعْتَدَىٰ) فاصطاد .

(بَعْدَ ذَلِكَ) أى بعد الابتلاء .

(قُلْهُ عَذَابُ الْيَمِّ) أى شديد الإيلام عظيم الإهانة لأن التعدى بعد الإنذار ، دليل على عدم المبالاة بأوامر الله ، ومن لم يبال بأوامر الله ساءت عاقبته وقبح مصيره .

هذا ولقد نجحت الأمة الإسلامية ، وخصوصاً سلفها الصالح فى هذا الاختبار ، فقد تجنب أبناءها وهم محرمون صيد البر مهما أغراهم قربه منهم ، وحبهم لصيده والانتفاع به .

بينما أخفق بنو إسرائيل فيما يشبه هذا الاختبار فقد نهاهم الله عن الصيد فى يوم السبت ، فكانت الأسماك تظهر لهم فى هذا اليوم امتحاناً من الله لهم ، فما كان منهم إلا أن تحايلا على صيدها بأن حبسوها فى يوم السبت ، ليصيدها فى غيره .. فاستحق اليهود اللعنة والمسح واستحقت الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

٩٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ... الآية .

لما كان قتل الصيد فى حال الإحرام - ذنباً كبيراً كرر النهى عنه فى هذه السورة .

أى : لا تَتَسَبَّبُوا فى قتل الصيد ، ولا تباشروا القتل فى حال الإحرام .

قال القرطبي :

هذه الآية خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى ، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور فى قوله تعالى قبل هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَلْوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ . وروى أن أبا اليسر واسمه عمرو بن مالك الأنصارى كان محرماً عام الحديبية بعمرة ، فقتل حماماً وحشياً فنزلت هذه الآية .

وتفيد الآية النهى عن قتل الصيد لمن كان مُحَرَّماً بحج أو عمرة ، سواء أكان الصيد مأكول اللحم أو غير مأكول وهذا رأى الجمهور ، وخصه الشافعية بما يؤكل لحمة فقط ، لأنه الغالب فيه عرفاً . أما الحيوانات الخطرة على حياة الإنسان فإنه يباح قتلها فى الحرم .

قال ﷺ : «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»^(١) وفى رواية الحية بدل العقرب . رواه الشيخان عن عائشة .

وقد ألحق مالك وأحمد بالكلب العقور : الذئب ، والسبع والنمر ، والفهد ، لأنها أشد ضرراً منها ، وهكذا كل ما يكون خطراً على حياة الإنسان .

وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ... الآية . أى : ومن تعمد منكم قتل الصيد ، أو كان له دخل فى قتله ، وسواء أقتله فى الحرم أم خارجه ، وكذلك من قتله فى الحرم - وهو غير محرم - فعليه فى كل حالة مما ذكر جزاء من النعم مماثل لما قتله إن وجد .

قال ابن كثير وفي قوله تعالى :

فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنْ النَّعَمِ... الآية . دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافاً لأبي حنيفة حيث أوجب القيمة سواء أكان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي ، قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه وإن شاء اشترى به هدياً .

والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببذنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز .. وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بثمن يحمل إلى مكة ^(١٧)

وقوله تعالى : مُتَعَمِّدًا ليس قيداً لوجوب الجزاء والكفارة ، فإن الخطأ مثل العمد في الكفارة المذكورة ، فالتعبير بقوله متعمداً لبيان الواقع ، لأن الآية كما سبق نزلت في أبي اليسر ، لما قتل عمداً حماراً وحشياً وهو محرم .

يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ . أى يحكم بالجزاء أو بمثل ما قتل رجلان معروفان بالعدالة بين المسلمين ، فإذا حكما بشيء لزم .
هَذَا بِالْغُلَامَةِ .

المعنى : أنهما إذا حكما بالجزاء فإنه يفعل به ما يفعل بالهدى من الإرسال إلى مكة والنحر هناك ، ولم يرد الكعبة بعينها ، فإن الهدى لا يبلغها ، وإنما أراد الحرم ولا خلاف في هذا .
أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا .

المعنى : أن من قتل الصيد وهو محرم ، أو قتله في الحرم وهو غير محرم ، فهو مخير بين ثلاثة أمور :
١ - الجزاء بالمثل . ٢ - إطعام المساكين . ٣ - الصيام .

فأما الإطعام فبقيمة ما قتل من الصيد يعطى لكل مسكين مدّ وأما الصيام فإنه يصوم عن كل مدّ يوماً وبهذا نرى أن المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاء من النعم مماثل للصيد المقتول في الخلقة والمنظر ، أو عليه ما يساوى قيمة هذا الجزاء طعاماً لكل مسكين مدّ ، أو عليه ما يعادل هذا الطعام صياماً ، عن كل مدّ يوم .

أما أبو حنيفة فيرى أن المماثلة إنما تعتبر ابتداء بحسب القيمة فيقوم الصيد المقتول من حيث هو ، فإن بلغت قيمته قيمة هدى يخير الجاني بين أن يشتري بها هدياً يهدي إلى الحرم ، ويذبح في

الحرم ويتصدق بلحمه على الفقراء ، وبين أن يشتري بالقيمة طعاماً للمساكين يوزع لكل مسكين مد ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً .

وعندئذ أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقاً ، وأدق في تعرف المثل ، وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح ، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة ^(٩٨) .

يَذُوقُ وَيَأْلُ أَمْرُهُ . أى أوجب الله هذا الجزاء السابق على قاتل الصيد ليدوق عقاب جنايته لهتكه حرمة الإحرام أو الحرم .

عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ . أى عفا الله عما تقدم من قتلكم الصيد قبل نزول هذه الكفارة .

وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ . أى ومن عاد إلى قتل الصيد - بعد نزول هذه الآية - فينتقم الله منه ، وعليه مع ذلك الكفارة . وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . فهو سبحانه العزيز الذى لا يغالب ولا يقاوم ، المنتقم الذى لا يذفع انتقامه .

ويذلك نرى الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين من التعرض للصيد فى حالة إحرامهم وبينت الجزاء المترتب على من يفعل ذلك ، وهددت من يستهين بحدود الله بالعذاب الشديد .

٩٦- أَسْلَ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ... الآية . المراد بالبحر ما يعم المياه العذبة والملحة ، والمراد بصيده : ما صيد منه ، فهو حلال كله ، سواء أكان صيده للطعام كالسمك ، أم لغيره من وجوه النفع الأخرى كاللؤلؤ والمرجان .

وَطَعَامُهُ . أى وأكل ما يصلح للأكل منه ، سواء أخذ من البحر حياً أم ميتاً .

أخرج الإمام أحمد وأهل السنن ومالك والشافعى عن أبى هريرة أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضعنا به عطشنا ، أفنتوضأ بماء البحر؟

فقال رسول الله - ﷺ - «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» ^(٩٩) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - «أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال» ^(١٠٠) .

وقد احتج بهذه الآية من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً.. وقد استثنى بعضهم الضفادع ، وأباح ما سواها .. وقال أبو حنيفة لا يؤكل ما مات فى البحر ، كما لا يؤكل ما مات فى البر لعموم قوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ .

وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا . أى وحرم عليكم اصطياد حيوان البر - أو طيره - ما دمتم محرمين ، بخلاف ما صاده غير المحرمين أو ما صدتمون قبل إحرامكم ، فليس محرماً عليكم أن تأكلوه ولو فى حال إحرامكم .

وقد ذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد إلى أنه لا بأس بأكل المحرم الصيد إذا لم يصد له ولا من أجله .

وقال أبو حنيفة : أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال ، إذا اصطاده الحلال ، سواء صيد من أجله أو لم يصد .

وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . أى قفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها واعلموا أن مرجعكم وحشركم إليه وحده ، وسيجازيكم على أعمالكم التى عملتموها فى دنياكم .

والحكمة من تحريم الصيد البرى على المحرمين ما يأتى :

١ - تكريم منطقة الحرم فى منطقة أمان للإنسان والحيوان والطيور .

٢ - تعويد المؤمن على السلام عملياً حتى إنه لا يقتل صيداً ولو وجد قاتل أبيه فى الحرم لا يقتله حتى يخرج إلى منطقة الحل .

٣ - توفير الصيد حول الحرم لأهل مكة وحدهم حتى ينتفعوا به .

★ ★ ★

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُ شَيْءًا عَلَيْهِ ۖ ﴾ (٩٧)

المفردات :

قيماً للناس : ما يقوم به أمر الناس ؛ ويصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

والشهر الحرام : (أل) فى الشهر ، للجنس . فيعم الأشهر الحرم الأربعة . وهى : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرم ورجب . وقيل : «الشهر» هو شهر ذى الحجة .

والهدى : ما يهذى إلى الحرم من الأنعام قريبة إلى الله ، للتوسعة على فقراء الحرم .

والقلائد : جمع قلادة ، وهى كل ما علق على أسنمة الأنعام وأعناقها ، علامة على أنها لله . والمراد بالقلائد : ذوات القلائد إذا ساقوها هدياً .

التفسير:

٩٧ - جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ ... الآية .

اقتضت حكمة الله تعالى ورحمته بعباده أن يُصِيرَ الكعبة التي هي البيت الحرام قِيَامًا لِلنَّاسِ أى به قوامهم فى إصلاح أمر دينهم ودنياهم فهي مركز الإسلام الأول .

فصلاح أمر الدين بالحج إلى البيت الحرام وأداء المناسك والعبادات ، وصحة الصلاة باستقبال البيت الحرام ، وصلاح أمر الدنيا عن طريق تبادل المنافع ، وبذل الأموال والشعور بالأمان والاطمئنان ، وتوثيق الصلات الدينية والدنيوية .

فقد جعل الله الكعبة معظمة فى القلوب ، يفد الناس إليها من كل فج عميق لأداء المناسك ، وصار ذلك سبباً فى إسباغ النعم على أهلها ، إجابة لدعوة سيدنا إبراهيم الخليل : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم ٣٧) .

وقد حقق الله دعوة سيدنا إبراهيم ، فصارت الكعبة ملاذاً للناس ، وأمناً لأهلها على أنفسهم وأموالهم ، فلو وجد الإنسان قاتل أبيه أو أخيه عند الكعبة لم يجز له أن يقتله .

وكذلك جعل الله الأشهر الحرم منطقة زمنية يحرم فيها القتال وذلك لأن الناس يتفرغون للتجارة والعمل والإنتاج والإفادة ، فتطمئن الأفئدة ، ويحصل التآلف والتزاويع والتدابير والتقاطع والتعاوى .

كما أن الهدى والقلائد ، التي يسوقها المحرمون إلى الحرم فيها ما فيها من التوسعة على الفقراء ، وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء .

ويشير الإمام القرطبي فى تفسيره إلى الحكمة من جعل هذه الأشياء قِيَامًا للناس فيقول :

إن الله تعالى خلق الخلق على سليفة الآدمية من التحاسد والتقاطع والسلب والغارة ، فلم يكن يد فى الحكمة الإلهية من وازع يحملهم على التآلف .

فجعل الله الخليفة فى الأرض حتى لا يكون الناس فوضى ، وعظم فى قلوبهم البيت الحرام ، وأوقع فى نفوسهم هيئته فكان من لجأ إليه معصوماً به ، وكان من اضطهد محمياً بالالتجاء إليه ، كما جعل الله الأشهر الحرم ملجأً آخر ، وقرر فى نفوسهم حرمتها فكانوا لا يطلبون فيها دماً ، ولا يروعون فيها نفساً ، ثم شرع لهم الهدى والقلائد فمن علق قلادة على بعيه أو على نفسه لم يروعه أحد حيث لقيه .

والهدى : ما يهدى للبيت الحرام وفى ذبحه منافع للفقراء وقيام لمعيشتهم ، وثواب للأغنياء ، ورفع لدرجتهم

والقلائد : أى الحيوانات التى توضع فى رقبتها قلادة من ورق الشجر ، فمن رآها علم أنها ستقدم للبيت الحرام فترك سبيلها حتى تذبح ، وتوزع على فقراء الحرم ، وتخصيص القلائد بالذكر - مع شمول الهدى إليها - لبيان أن الشرع أباح تقليد الهدى ، لما فيه من إظهار شعائر الله ، والمبالغة فى منع التعرض لها .

ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ أَنَّا اللَّهُ يَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . أى شرع الله هذه الأحكام السابقة لتعلموا أنه سبحانه يعلم علماً شاملاً ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكونات نفوسهم ، وهتاف أرواحهم .. لأن تشريع هذه الشرائع المستتعبة لدفع المضار ، ولجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه سبحانه يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ، وعلى أنه بكل شىء عليم فلا تخفى عليه خافية والجملة الأخيرة فى الآية توكيد ، لإحاطته تعالى بما كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون .

★ ★ ★

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَنُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثَرَةُ
الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِ الْآلِبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

التفسير :

٩٨ - اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . تعتمد التربية الإسلامية على التوازن والتكامل والجمع بين الخوف والرجاء ، فإذا اشتد الخوف صار يأساً ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وإذا قوى الرجاء وزاد عن حده تحول إلى تمن وطاعة وفى الحديث «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل» (١) ألا وإن أقواماً غرتهم الأمانى فخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله وكذبوا على الله ولو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل» .

اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . أى اعلموا - أيها الناس - أن الله شديد العقاب لمن انتهك حرمانه وتجاوز حدوده .

وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لمن تاب من ذنبه وعاد إلى ربه وندم على ما فرط منه .

وقد جمعت الآية بين الخوف والرجاء ، تحذيراً من المعصية وترغيباً في التوبة والإنابة .

وتلك طريقة القرآن الحكيمة ، لأنها طريقة العليم الخبير الذى خلق الإنسان ، وقدر له أسباب الهداية، وحذره من الغواية قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق: ١٦) .

٩٩- مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

والمعنى : أى على رسولنا محمد ﷺ إلا أن يبلغ دعوة ربّه وأن يدعو الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وليس عليه الهداية أو الضلال ، وإنما ذلك بيد الله وحده فهو سبحانه بيده الملك والأمر وهو المطلع على السرائر وهو المجازى والمحاسب .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . فهو سبحانه يعلم ما تظهرون وما تخفون من طاعة ومعصية ، فيحاسبكم عليه ويجازيكم به إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

١٠٠- قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ... الآية .

والمعنى : أمر الله تعالى رسوله الأمين أن يبلغ أمته هذه القاعدة السليمة : لا يستوى فى ميزان الله ولا فى ميزان العقلاء الخبيث والطيب ، حتى ولو كان الفريق الخبيث كثير العدد براق الشكل تعجب الناظرين هيئته ، فلا تغتر به أيها العاقل، ولا تؤثر فى نفسك كثرتة ، وسطوته ، فإنه مهما كثر وظهر وفشا .. فإنه سىء العاقبة ، سريع الزوال، لذته تعقبها الحسرة ، وشهوته تثلوها الندامة .

أما الفريق الطيب أو الشىء الطيب فهو محمود العاقبة ، لذته الحلال ، يباركها الله ، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وطريقه المستقيم - مهما قلّ سالكوها - هى الطريق التى توصل إلى كل خير وفلاح .

ولا شك أن العقل عندما يتخلص من الهوى سيختار الطيب على الخبيث ، لأن فى الطيب سعادة الدنيا والآخرة . وما أحسن قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : «ما تمتع الأشرار بشيء إلا وتمتع به الأخيار ، وزادوا عليه رضا الله عز وجل» .

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ . أى إذا كان الطيب راجحاً ومحموداً مهما قل ، والخبيث مردولاً ومرجوحاً مهما كثر .

فراقبوا الله يا أصحاب العقول السليمة لعلكم بسبب هذه التقوى تدركون الفلاح والنجاح فى دنياكم وآخرتكم .

قال الفخر الرازى :

لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الترغيبات الكثيرة فى الطاعة ، والتحذيرات من المعصية أتبعها بوجه آخر يؤكد ما فقال : فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى فاتقوا الله بعد هذه البيانات الجلية والتعريفات القوية ، ولا تقدموا على مخالفته لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة .

★ ★ ★

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنۡ أَشْيَآءٍ إِنۡ بُدِّلَكُمۡ سَوۡكُمۡ وَإِنۡ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِـنَّ يُنۡزَلَ إِلَيكُمۡ ءَمْرًا مِّنۡ عِندِ اللَّهِ وَهِيَ لِلَّهِ عِندَهُ عَفۡوٌ رَّحِيمٌ ۝١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنۡ قَبْلِكُمۡ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

التفسير :

١٠١- يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنۡ أَشْيَآءٍ إِنۡ بُدِّلَكُمۡ سَوۡكُمۡ ... الآية .

سبب النزول :

روى البخارى - بسننه - عن أنس بن مالك قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط ، وقال فيها «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً» ^(١٢١) قال : فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم - لهم حنين - فقال رجل : من أبى ؟ فقال فلان .. فنزلت هذه الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم سألوا رسول الله ﷺ عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وذكر المفسرون روايات متعددة فى سبب نزول الآيتين ومنها ما رواه البخارى أيضاً عن أنس عن النبى ﷺ وفيه : «فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم به ما دمت فى مقامى هذا ، فقام إليه رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : «النار» فقام عبد الله بن حذافة وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه ، فقال من أبى يا رسول الله ؟ فقال أبوك حذافة .. ^(١٢٢) .

قال القرطبى: ويحتمل أن تكون الآية نزلت جواباً للجميع ، فيكون السؤال قريباً بعضه من بعض.

المعنى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا باللهِ حق الإيمان ، لَا تَسْأَلُوا نَبِيَكُمْ ﷺ أو غيره عن أشياء تتعلق بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية أو بغيرها ، هذه الأشياء (إِنْ تُبَدِّلْكُمْ) وتظهر (تُسَوِّمُكُمْ) أى تغمكم وتحزنكم وتندموا ، على السؤال عنها لما يترتب عليها من إحراجكم ومن المشقة عليكم ، ومن الفضيحة لبعضكم .

فالآية كما يقول ابن كثير : تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إِنْ ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها ، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا ، فإننى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدُّلُكُمْ .

السؤال نوعان : سؤال يمكن الاستغناء عنه وسؤال يحتاج الإنسان إلى معرفته فيما يتعلق بتفصيل أحكام نزل بها القرآن الكريم أو شرح لها .

والمعنى لا تكثرُوا أيها المؤمنون من الأسئلة التى لا خير لكم فى السؤال عنها ، وإن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن مجملة ، فتطلبوا بيانها لكم حينئذ لا احتياجكم إليها .

من تفسير القرطبي :

قال القرطبي : قوله تعالى : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدُّلُكُمْ . فيه غموض ، وذلك أن فى أول الآية النهى عن السؤال ، ثم قال : وَإِنْ تَسْأَلُوا ... الخ . فأباحه لهم ففعل : إن المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه ، فحذف المضاف ، ولا يصح حمله على غير الحذف .

قال الجرجاني : الكناية فى (عَنْهَا) ترجع إلى أشياء أخر ، كقوله تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ يعنى آدم ، ثم قال : ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً أَيْ : ابن آدم ، لأن آدم لم يجعل نطفة فى قرار مكين ، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله ، وعرف ذلك بقرينة الحال .

فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء - أخر - حين ينزل القرآن من تحريم أو تحليل أو حكم ، أو مست حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم حينئذ تبدل لكم فقد أباح - سبحانه - هذا النوع من السؤال ^(١٤) .

فَعَا اللَّهُ عَنْهَا . أى هناك أشياء سكوت عنها القرآن ، ولم يكلفكم فيها بشيء ، فلا تسألوا عنها ، ولكن إن سألتكم عنها ينزل عليكم التكليف بحكمها ، أى فلا تكثرُوا من السؤال ^(١٥) .

قال رسول الله ﷺ «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فبحرم من أجل مسأله»^(٣٦).

وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ . والله واسع المغفرة والحلم والصفح ولذا لم يكلفكم بما يشق عليكم ، ولم يؤاخذكم بما فرط منكم من أقوال وأعمال قبل النهي عنها .

١٠٢- قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ . أى قد سأل مثل هذه المسائل المنهى عنها ، قوم من قبلكم فأجيبوا ، ثم لم يعملوا ، فأصبحوا بها كافرين ، لأنهم استنقلوا الإجابة عما سألوا عنه ، وتركوا العمل بما تطلعوا إلى معرفته .

قال الآلوسی : «واختلف فى تعيين القوم : فعن ابن عباس هم قوم عيسى سأله إنزال مائدة ثم كفروا بها ، وقيل : هم قوم صالح - عليه السلام - سأله الناقة ثم عقروها وكفروا بها ، وقيل : هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا أخبروهم كذبوهم ...»

من تفسير ابن كثير :

قال ابن كثير : ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته فالأولى الإعراض عنها ..

فقد روى الإمام أحمد ومسلم والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ذرونى ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٣٧) .

وروى الدارقطنى وأبو نعيم عن أبى ثعلبة الخشنى . أن النبى ﷺ قال :

«إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تقربوها ، وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»^(٣٨) .

من تفسير القاسمى :

قال القاسمى : رحمه الله تعالى عقب تفسيره للآيتين ما يأتى : رأيت فى موافقات الإمام الشاطبى فى هذا الموضوع مبحثاً جليلاً قال فيه :

الإكثار من الأسئلة مذموم ، والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح ... وهذه مواضع يكره السؤال فيها :

١ - السؤال عما لا يقع في الدين ، كسؤال عبد الله بن حذافة من أبي يا رسول الله ؟ فأجابه أبوك حذافة .

٢ - أن يسأل عن صعاب المسائل وشرارها ، كما جاء في سنن أبي داود في النهي عن الأغلوطات ^(٣٩) وهي المسائل يغالط بها العلماء ليزلوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة .

٣ - أن يبلغ بالسؤال إلى حد التكلف والتعمق ، وعلى ذلك يدل ما أخرجه مالك في الموطأ عن يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج في ركب ، فيهم عمرو بن العاص ، حتى وردوا حوضاً ، فقال عمرو بن العاص ، يا صاحب الحوض ، هل ترد حوضك السباع ؟ فقال عمر يا صاحب الحوض ، لا تخبرنا ، فإننا نرد على السباع وترد علينا ^(٤٠) .

٤ - السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله تعالى : فَأَمَّا الَّذِينَ لِي قُلُوبُهُمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ . وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضاً للخصومات أسرع التنقل .

٥ - السؤال عما شجر بين السلف الصالح ، وقد سئل عمر ابن عبد العزيز عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن أُلطخ بها لساني .

٦ - سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة عند الخصام وقد ذم القرآن هذا اللون من الناس فقال : وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . (البقرة : ٢٠٤) ، وقال سبحانه : بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . (الزخرف : ٥٨) . وفي الحديث : «إن من أبغض الرجال إلى الله تعالى الألد الخصم» .

هذه جملة من المواضيع التي يكره السؤال فيها ويقاس عليها ما سواها وليس النهي فيها واحداً ، بل فيها ما تشدد كراهته ، ومنها ما يخف ومنها ما يحرم ، ومنها ما يكون محل اجتهاد .

والنهي في الآية مقيد بما لا تدعو إليه الحاجة من الأسئلة لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (الأنبياء : ٧) . وفي الحديث : «قاتلهم الله ، هلاً سألوا إذ لم يعلموا ، فإنما شفاء الجهل بالسؤال ^(٤١)» .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ (١٠٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ (١٠٤) ﴾

المفردات :

بحيرة : البحيرة ؛ هى الناقة التى يبحرون أذنفا . أى يشقونها إذا أنتجت خمسة أبطن ، خامسها أنثى .

سائبة : السائبة ؛ هى الناقة التى تُسيبُ بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت ولا يحمل عليها شيء ، ولا يُجْزُ ويرها ، ولا يُحْلَبُ لبنُها إلا لضعيف .

وصيلة : الوصيلة هى الشاة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً : كان لآلهتهم . وإذا ولدت أنثى : كانت لهم ، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

حام : الحامى : هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون : حمى ظهره فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

التفسير :

١٠٣ - مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ .

١ - البحيرة : الناقة كان أهل الجاهلية يبحرون أذنفا ، أى يشقونها ، ويجعلون لبنها للطواغيت فلا يحتلبها أحد من الناس ، وجعل شق أذنفا علامة لذلك .

٢ - السائبة : الناقة تسيب . أو البعير يسيب بنذر على الرجل : يقول إن شفيت من مرضى أو بلغت منزلى فناقى سائبة أى لا تطلب ولا تتركب ، ولا تحبس عن رعى ولا ماء .

٣ - الوصيلة : هى الشاة التى تصل أخاها ، فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآلهتهم ، وإذا ولدت أنثى كانت لهم وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

٤ - الحامى : هو الفحل إذا نتج من صلبه عشرة ، قالوا : قد حمى ظهره ، فلا يُركب ولا يمنع من كلاً ولا ماء .

والمعنى : ما شرع الله تعالى شيئاً مما حرّمه أهل الجاهلية على أنفسهم فى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام وهذه الحيوانات إنما حرم أهل الجاهلية أكلها والانتفاع بها من عند أنفسهم بدون علم أو برهان .

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . حيث حرّموا هذه الأشياء تديناً وتعبداً ولم يحرمها الله عليهم ، ثم نسبوا هذا التحريم إلى الله كذباً وزوراً والمراد بالذين كفروا هنا هم الرؤساء والزعماء الذين يأتون للعوام بالأحكام الفاسدة . والمزاعم الباطلة وينسبونها إلى دين الله كذباً وزوراً .
وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . أن ذلك افتراء ، لأنه قلدوا فيه آباءهم .

والمراد هنا العوام والدُهماء الذى يقلدون الرؤساء والكهان بدون تدبر أو تبصّر .

وقد عبر سبحانه بقوله : وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ : إنصافاً للقلة العاقلة التى خالفت هذه الأوهام الباطلة واستجابت للحق عند ظهوره .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سِيبَ السَّوَابِثِ وَعَبَدَ الْأَصْنَامَ أَبُو خَزَاعَةَ عَمْرُو بْنُ لَحَى وَإِنِّى رَأَيْتُهُ يَجْرِ أَمْعَاءَهُ فِى النَّارِ»^(٣٧) .

١٠٤ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا . أى : إذا نصّحهم الرسول والمؤمنون والدعاة والهداة باتّباع كتاب الله تعالى وهدى رسوله ﷺ قالوا : لن نؤمن بالقرآن ولا بالرسول ويكفينا ما وجدنا عليه آبائنا من عقائد وتقاليد وعادات ... فلا نلتفت إلى ما سواه .

أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . وهذا ردّ عليهم بأسلوب التأنيب والتعجيب من جهالاتهم وخضوعهم للباطل بدون مراجعة أو تفكير . والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ .

والمعنى : أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آبائنا ، ويغفلون على أنفسهم باب الهداية ، ليبقوا فى ظلمات الضلالة ... أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ الْحَقِّ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ لَا نطماس بصيرتهم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

التفسير:

١٠٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ... الآية .

المعنى : الزموا أنفسكم واحفظوها ، لا يضرركم ضلال من ضلَّ من الناس ، إذا اهتديتم للحق أنتم في أنفسكم ، وقد دلت الآيات القرآنية ، والأحاديث المتكاثرة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجوباً متحتماً ، فتحمل هذه الآية على من لا يقدر على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو لا يظن التأثير بحال من الأحوال ، أو يخشى على نفسه أن يحل به ما ضره ضرراً يسوغ معه الترك (٣١) .

وإذا تأملنا سياق الآية وجدنا أنها مسوقة لتسلية المؤمنين ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم إذا لم يجدوا أذنًا صاغية لدعوتهم .

فكانها تقول لهم : إنكم - أيها المؤمنون - إذا قمتم بما يجب عليكم ، لا يضرركم غيركم .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العقو والعناد من الكفرة : يتمنون دخولهم في الإسلام ف قيل لهم : (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها في طريق الهدى (لَا يَضُرُّكُمْ) الضلال عن دينكم : إذا كنتم مهتدين .. وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن من تركهما مع القدرة عليهما لا يكون مهتدياً ، وإنما هو بعض الضلال ، الذين فصلت الآية بينهم وبينه .

وقد نقل القرطبي في تفسيره ما يأتي :

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن قيس بن أبي حازم قال : خطبنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتتأولونها على غير تأويلها :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ ... الآية . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أو شك أن يعمهم الله بعذاب من عنده» (٣٢) .

وروى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أبي أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية أية ؟ فقلت قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ ... قال :

أما والله لقد سألت عنها جبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ - فقال : انتمروا بالمعروف ، وتناهاوا عن المنكر ، حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، فإن من ورانكم أياماً : الصابر فيهن ، مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم^(٣٩) .

وزاد في رواية أخرى « قيل يا رسول الله ، أجر خمسين مناً أو منهم؟ » قال : (بل أجر خمسين منكم).

والخلاصة : أن الآية الكريمة لا ترخص في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسقط وجوبها عن القادر عليهما .

قال تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... الآية . (آل عمران : ١١٠).

وقال سبحانه : وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .. (آل عمران : ١٠٤) .

وقد لعن الله اليهود ، لأنهم : كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ... الآية . (المائدة : ٧٩) .

ونقل الفخر الرازي في تفسيره عن عبد الله بن المبارك أنه قال :

هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه سبحانه قال : عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ يعني أهل دينكم ، ولا يضركم من ضل من الكفار ، وهذا كقوله ، فاقتلوا أنفسكم ، يعني أهل دينكم ، فقوله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ) يعني أن يعظ بعضكم بعضاً ، ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات ، وينفره من القبائح والسيئات .

إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . أى إليه وحده رجوعكم جميعاً ، من ضل ومن اهتدى ، فيخبركم - عند الحساب - بما قدمتم من أعمال ، ويجزيكم على حسب ما علمه من هدايتكم أو ضلالكم وفي هذا وعد للمهتدين ، ووعيد للضالين ، وأنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره قال تعالى : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ... الآية . (فاطر : ١٨) .

وقال سبحانه : يَوْمَئِذٍ يُبْدِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لَّيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شُرًّا يَرَهُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَيْتُمْ لَا فَنَشْتَرِي بِمَعْنَانَا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّآ إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُدْرَعَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا عَدْتِنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْعَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

المفردات :

شهادة بينكم : الشهادة : قول صادر عن علم حصل ، بطريق البصر أو السمع ، أو بهما جميعا .

إن أنتم ضربتكم في الأرض : أى : سافرتم فيها .

تحبسونهما : أى : تمسكونهما ، وتمنعونهما من الانطلاق والهرب .

إن ارتببتم : أى : شككتكم فى صدقهما فيما يقران به .

من الأثمين : أى : العاصين .

فإن عُدْرَعَلَى : عثر من العثور على الشيء ، وهو : الاطلاع عليه من غير سبق طلب له .

وأعثره عليه : وقفه عليه ، فأعلمه به ، من حيث لم يكن يتوقع ذلك .

التفسير :

١٠٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ... الآية .

لما بين الله تعالى - فى الآية السابقة - أن المرجع إليه وحده بعد الموت ، وأنه هو الذى يتولى الحساب ، وجزاء المحسن والمسيء ، أرشدنا سبحانه - فى هذه الآية - إلى أنه يلزم - فى الوصية قبل الموت - الإشهاد عليها ، حفاظاً على أداء الحقوق الموصى بها لمستحقها .

سبب النزول :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال: « خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى ابن بدء، فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم. فلما قدما بتركته، فقدوا جاماً من فضة مخصوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله ﷺ، بالله تعالى: ما كتمتما ولا اطلعتما. ثم وجد الجام بمكة. فقيل اشتريناه من تميم وعدى. فقام رجلان من أولياء السهمى، فحلفا بالله، لشهادتنا أحق من شهادتهما. وإن الجام لصاحبهم.

وفيهما نزلت: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ** ^(٣٧).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ الثَّانِ ذَوَاتِ عَدْلٍ ... الآية .

اعلم الله سبحانه المؤمنين : أن الشهادة المشروعة بينهم - حين الوصية - هى شهادة اثنين من أصحاب العدالة والتقوى : يشهدهما الموصى على وصيته، فيتحملان هذه الشهادة، لأدائها عند الحاجة .

(مِنْكُمْ) : أى من المؤمنين، وقيل: من أقارب الموصى .

أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ.

أى : من غير المسلمين فكأنه قال: أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين .

إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ .

أى : إن أنتم سافرتم فى الأرض، ونزلت بكم مصيبة الموت، وأردتم الإيصاء. فأشهدوا عَدْلَيْنِ من أقارب الموصى أو من المؤمنين أو آخرين من أهل الذمة. أى فأشهدوا عدلين منكم معشر المؤمنين. وقيل عَدْلَيْنِ من أقارب الموصى. وذلك إذا تيسر وجودهما. فإن لم يتيسر وجودهما - بسبب السفر مثلاً - فيجوز اختيار اثنين من أهل الذمة. وقيل من غير أقارب الموصى له .

تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ .

تمنعونهما من الانصراف للتحليف بعد الصلاة. والمراد بالصلاة التى يُحْسَبَانِ بعدها، صلاة العصر؛ لأنه وقت اجتماع الناس؛ ولأن الحُكَّام كانوا يجلسون للقضاء فى هذا الوقت بين الخصوم.

وقيل: بعد أى صلاة كانت؛ لأن الصلاة داعية إلى النطق بالصدق، ونهاية عن الكذب لقوله

تعالى: «... إِنْ الصَّلَاةُ تَنَهَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...». (العنكبوت: ٤٥) .

والمأثور عن النبي ﷺ، أنه حلف عديا وتميما الدارى بعد العصر .

وقد جرى العمل على هذا بين المسلمين .

فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ .

فيقسمان عند ارتياب الورثة وشكهم، فإذا لم تكن ريبة. فَيُصَدَّقُ الشاهدان، لأمانتهما وعدم الارتياب فيهما.

لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَا كَانَ ذَا قُرْبَى .

أى : لانتبدل بالقسم بالله عرضاً زائلاً من الدنيا. فلا نحلف بالله كاذبين، ولو كان القسم يحقق مصلحة لبعض الأقارب، طمعاً فى عرض الدنيا.

وَلَا تَكُنَّمُ شَهَادَةَ اللَّهِ. أى ويقول الحالفان - فى يمينهما - ولا نكنتم الشهادة التى أمر الله تعالى بإقامتها. كما قال تعالى: وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ... الآية . (الطلاق : ٢) وكقوله سبحانه:

وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتَمَ قَلْبُهُ ... الآية . (البقرة : ٢٨٣) .

إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ .

أى: أننا إذا اشترينا بالقسم ثمناً. أو راعينا فيه قرابة. بأن كذبنا فى الشهادة - ابتغاء المنفعة لأنفسنا أو لقرابتنا أو كتمنا الشهادة كلها أو بعضها - كنا من الواقعين فى الإثم، المستحقين للعقوبة من الله عليه.

١٠٧ - فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْثَانِ .

فإن اطلع - بعد القسم - على أن الشاهدين الحالفين استحقا إثماً، بسبب الكذب أو الكتمان فى الشهادة، أو الخيانة فى شئ من التركة: التى تحت أيديهما - فعدلان آخران من أقرباء الميت: الذين وجب عليهم أداء الشهادة والقسم.. وهذان الشاهدان هما: الأوليان بالشهادة والقسم. من سائر أقرباء الميت، لقوة قرابتهما من الميت واستحقاقهما فى وصيته. فيحلفان بالله قائلين. لشهادتنا أحق وأولى بالقبول من شهادة الشاهدين الأثمين السابقين. وما تجاوزنا الحق فيما شهدنا به، وأقسمنا عليه .

إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : إنا - إذا اعتدينا عليهما، ونسبنا إليهما الباطل، وأقسمنا زوراً وبهتاناً - لنكون حينئذ، من الظالمين لهما بالكذب عليهما، ولأنفسنا بتعريضها لسخط الله وعقابه.

١٠٨ - ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ... الآية .
بيان للحكمة فى مشروعية الشهادة وهذه الأيمان.

والمعنى: أن ذلك التشريع الحكيم، الذى شرعناه، أقرب إلى أن يؤدى المؤمن على الوصية .
الشهادة على وجه الحق والعدل، بلا تغيير ولا تبديل، مراقبة لجانب الله، وخوفاً من عقابه .

فإن فى أداء الشاهدين للقسم - على مآل من الناس بعد الصلاة - ما يبعث الرهبة من الله
والخوف من عذابه، والرغبة فى مثويته وعظيم أجره .

والذى لا يرتقى إلى هذه المرتبة - من مخافة الله ومراقبته - فإنه - قطعاً - يخاف الافتضاح
والتشهير به، برد اليمين على الورثة الأقربين، حيث يقوم بالشهادة واللف الأوليان، والأحقان
بوصية الموصى .

وفى ذلك من الخزي والفضيحة ، ما فيه .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا .

أى : واتقوا الله تعالى - وراقبوه واسمعوا، وأطيعوا، واحذروا أن تحلفوا كاذبين فى أيمانكم، أو
أن تخونوا فى الأمانات التى تحت أيديكم . فإن لم تتقوا - ولم تسمعوا ما أمرتم به، وما نهيتم عنه -
كنتم الفاسقين الخارجين عن طاعة الله .

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . إلى سبيل الرشاد .

★ ★ ★

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾
 ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي أَمَرْتُكَ أَنْ تَقُولَ لِلنَّاسِ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ لَآتِيَنَّهُ السَّعِيرُ
 الْقُدُسُ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
 وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ
 طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ
 كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَدَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٠﴾

المفردات :

بـروح القدس : هو ملكُ الوحي، جبريل عليه السلام.

الـكِتَاب : الكتب السماوية، أو الكتابة.

والـحِكْمَة : العلم الصحيح الذي يبعث الإنسان على إصابة الحق؛ في الرأي والقول والعمل.

والـتَّوْرَة : الكتاب الذي أنزله الله على موسى، أساساً لشريعته. ولا يسمى به إلا الذي كان
 قبل التحرير. فما يتداوله اليهود الآن، يحرم تسميته التوراة.

والـإِنْجِيل : الكتاب الذي أنزله الله على عيسى: أساساً لشريعته. وينطبق عليه ما انطبق على
 التوراة في التسمية.

تـخْلُقُ : تصوّر.

الـأَكْمَامَة : من ولد أعمى.

والـأَبْرَص : المريض ببياض الجلد. والبرص: مرض جلدي يُغَيِّرُ لون البشرة إلى
 البياض.

سـحـر مـبـيـن : السحر؛ تمويه وتخيل. به يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته.

التفسير:

١٠٩ - يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ... الآية .

تمهيد:

ذكر الله تعالى فيما سبق الدعوة إلى إقامة الشهادة على وجهها، وحذر من شهادة الزور، وأمر بتقوى الله ثم عقب على ذلك بذكر أحوال القيامة

قال الفخر الرازي : اعلم أن عادة الله - تعالى - جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام، أتبعها إمّا بالإنبياء، وإما بشرح أحوال الأنبياء أو بشرح أحوال القيامة، ليصير ذلك مؤكداً لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع، وهنا لما ذكر فيما سبق أنواعاً كثيرة من الشرائع أتبعها بذكر أحوال القيامة.

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ... الآية .

بمعنى: اذكر أيها المكلف ذلك اليوم الهائل الشديد، يوم يجمع الله الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام، في شتى الأمكنة والأزمان، فيقول لهم: ماذا أجبتكم من أقوامكم ؟

أى : ما الإجابة التى أجابكم بها أقوامكم ؟

أهى إجابة قبول ؟ أم إجابة رفض وإباء.

ويما أن الله تعالى يعلم جواب الأمم لرسلم فالمقصود من السؤال توبيخ قومهم، كما كان سؤال الموءودة توبيخاً للوائد .

قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

أى لا علم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكلّ شىء، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به أقوامنا. إلا أن علمنا لا يتعدى الظواهر، أما علمك أنت يا ربنا فشامل للظواهر والبواطن.

وقيل : من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم.

(وقيل معناه: لا علم لنا بما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة^(٢٧))

١١٠ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدِ إِذْ أَتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... الْآيَةِ .

يستمر هذا الدرس فى بيان حقيقة الألوهية، ويستعرض ذلك فى مشهد من مشاهد القيامة ويذكر عيسى هنا حيث أن الناس قد أسرفوا فى القول حوله.

قال صاحب الظلال:

يلتفت الخطاب إلى عيسى ابن مريم على الملأ ممن ألوهه وعبدوه وصاغوا حوله وحول أمه مريم التهاويل يلتفت إليه يذكره نعمة الله عليه، وعلى والدته، ويستعرض المعجزات التى آتاه الله إياها، ليصدق الناس برسالته (٣٨).

وقال ابن كثير قوله : اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ. أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر، وجعلنى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى . وَعَلَى الْوَلَدِ. حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة . إِذْ أَتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ. وهو جبريل، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك، وكبرك، فأنطقك فى المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لى بالعبودية.

تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمُهْدِ وَكَهْلًا. أى تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك، وضمن تكلم معنى تدعو، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب (٣٩).

وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده فى المهد بالنطق السليم ويؤيده فى الكهولة بالتبثيت. وقيل المراد بروح القدس روح عيسى حيث أيدته سبحانه بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية وسيطرت.

وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ .

يبين الحق سبحانه عدداً من النعم على عيسى فقد جاء إلى الأرض لا يعلم شيئاً فعلمه الكتابة، أى أن عيسى لم يكن أمياً، بل كان قارئاً وكتابتاً، وقيل المراد به ما سبقه من كتب النبيين كزبور داود وصحف إبراهيم، أى جنس الكتاب فيشمل الكتب السابقة لأنها جميعاً متفقة فى أصول الشريعة.

وعلمتك . الْحِكْمَةَ. أى سداد الرأى، وإصابة الحق، وفهم أسرار العلوم.

والتَّوْرَةَ. التى أنزلتها على موسى.

والْإِنْجِيلَ. الذى أنزلته عليك لتكتمل بهما رسالتك.

وخصهما بالذكر، لأنهما أهم الكتب التي أنزلها الله على أنبياء بنى إسرائيل، ومنهما تؤخذ شريعة عيسى . وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ يَأْذِيهِ فَتَفْخُجُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَذْيِهِ.

وهذه معجزة خارقة للعادة لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله فكان عيسى عليه السلام يصور من الطين مثل صورة الطير بأمر الله وتيسيره، ثم ينفخ فى هذه الصورة فتكون طيراً حقيقياً بتيسير الله. ليكون ذلك آية تدل على صدقه.

وَتَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ يَأْذِيهِ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى يَأْذِيهِ.

وتذكر يا عيسى نعمتى عليك، حين تبرئ الأكمة - وهو من ولد أعمى - فتمنحه الإبصار بإذن الله وتيسيره.

وتبرئ (الأبرص) وهو المريض بهذا المرض العضال . يَأْذِيهِ . وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى يَأْذِيهِ.

وانذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون.. وكل ذلك بإذنى ومشيئتى وإرادتى وقد ذكر المفسرون أن إبراء عيسى للأكمة والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء، وكان دعاؤه: يا خى يا قيوم، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح ^(١٠).

وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

من الله على عيسى بالعديد من النعم، وهنا ذكره بنعمته وقت أن صرف عنه أذى اليهود حين جاءهم بالمعجزات الواضحات سواء ما ذكر منها هنا، أم فى موضع آخر، كإخبارهم بما يأكلون وما يذخرون فى بيوتهم، فقال الكافرون منهم، ما هذا الذى جئت به إلا سحر بين واضح.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

المفردات:

الحواريين : واحد هم حوارى، وهو: من أخلص سرا وجهرا فى مودتك.
وحواريوا الأنبياء: المخلصون لهم.

التفسير:

١١١ - وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَّسُولِي ... الآية .

ذكر الله تعالى نعماءه على عيسى وأمه، وإن كانت معظم النعم خاصة بعيسى إلا أن الارتباط كامل بين الإبن وأمه فكل نعمة على الإبن هي نعمة على الأم.

والحواريون هم المخلصون في العبادة أو الذين أخلصوا قلوبهم لله، والحدود العينية، خالصة البياض، والحدود شديدة بياض العين، مع شدة سواد العين، وحواري الرجل خلاصه ومنه قول النبي ﷺ في الزبير بن العوام: لكل نبي حواري وحواري الزبير.

والمراد بالوحي هنا الإلهام أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا أو أمرتهم بذلك في الإنجيل على لسانك .

والمعنى: اذكر نعمتي عليك - يا عيسى - حين أوحيت إلى الحواريين بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك وقلت لهم:



أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَّسُولِي.

أي آمنوا بأنني أنا الواحد المستحق للعبادة ورسولي عيسى بأنه مرسل من جهتي قالوا آمنا بالله ورسوله وأشهد بأننا مخلصون وقد عدد الله على عيسى سبعا من النعم «إذ أبدتك.. وإذ علمتك.. وإذ تخلق.. وإذ تبرئ.. وإذ تخرج الموتى.. وإذ كففت.. وإذ أوحيت»^(١١)

وإنما ذكر الله تعالى قوله: وَإِذْ أَوْحَيْتُ. في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبولا عند الناس محبوبا في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان.

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرِزْقَنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

المضردات :

هل يستطيع ربك: هل يستجيب ربك.

مائدة: المائدة: الخوان الذى عليه الطعام، أو الطعام نفسه.

تكون لنا عيداً: العيد: السرور، أو موسم السرور.

وآية منك: أى علامة على صدقى فى دعوتى ونبوتى.

التفسير :

١١٢ - إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ... الآية .

المعنى: واذكر أيها المتأمل، حين قال الحواريون: يا عيسى ابن مريم، هل يستجيب لك ربك إذا سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء.

وقد اختلفت التأويلات فى قولهم هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ؟

فقليل إن الاستفهام هنا على المجاز لأن الحواريين كانوا مؤمنين، ولا يعقل من مؤمن أن يشك فى قدرة الله .

فقليل: إن معنى يَسْتَطِيعُ يطيع، والسين زائدة كاستجاب بمعنى أجاب.

أى أن معنى الجملة الكريمة: هل يطيعك - ربك يا عيسى إن سألته أن ينزل علينا مائدة من السماء، وقيل إن المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، ويؤيد ذلك قراءة

هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ. بالتاء ويفتح الباء فى رَبُّكَ قال معاذ: أقرأنا النبى ﷺ هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ. وقال معاذ أيضاً: وسمعت النبى ﷺ مراراً يقرأ بالتاء^(١٧).

قَالَ أَتَقْرَأُ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. أى اتقوا الله وقفوا عند حدوده، واملئوا قلوبكم خشية وهيبة منه، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فإن المؤمن الصادق فى إيمانه يبتعد عن طلب الخوارق، ولا يقترح على الله.

١١٣ - قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَكَوْنِ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ .

شرح الحواريون أسباب طلبهم للمائدة، فهم لم يسألوا ذلك تعنتاً. ولا شكاً فى قدرة الله أو نبوة عيسى.

وإنما طلبوا نزول المائدة لأربعة أسباب:

١ - الأكل منها فتناهم بركة السماء حين يأكلون من طعام فريد لانظير له عند أهل الأرض.

٢ - زيادة اليقين والاطمئنان حين يرون هذه الخارقة أمامهم ويذكروا ذلك بدعاء إبراهيم لربه أن يشاهد كيفية إحياء الموتى حتى يطمئن قلبه، قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْثَقْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ... الآية . (البقرة : ٢٦٠) .

٣ - العلم بأن عيسى قد صدقهم فى دعوى النبوة والرسالة.

٤ - ليكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة.

١١٤ - قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ.

والمعنى : تضرع عيسى إلى الله ربه وخالقه أن ينزل عليهم مائدة من السماء فيها طعام يكفيهم جميعاً من أولهم إلى آخرهم، ويكون أيضاً يوم نزولها عيداً وسروراً وبهجة لمن سيأتى بعدنا ممن لم يشاهدها.

وآية منك : واجعلها علامة من لدنك، ترشد القوم إلى صحة نبوءتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك، ويزداد يقينهم بكمال قدرتك.

وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. وهذا تذييل بمثابة التعليل لما قبله، أى أنزلها علينا يا ربنا وارزقنا من عندك رزقاً هنيئاً رغداً، فإنك خير الرازقين وخير المعطين، وكل عطاء من غيرك لا يغنى ولا يشبع.

١١٥ - قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلْتُ عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَعْنَكُمْ إِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.

استجاب الحق سبحانه وتعالى لدعاء عيسى عليه السلام، ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله تعالى على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحدًا من العالمين فقد مضت سنة الله تعالى من قبل بهلاك من يكذبون بالرسول بعد المعجزة، حيث لا عذر لمن يرى الآيات تترى في الرسول ثم يطلب معجزة على النحو الذي اقترحه، فيجاب لها، ثم بعد ذلك يكفر، ونحن نثق بأن الأمر كان معجزة في حد ذاتها فنزلت مائدة من السماء عليها طعام كثير يكفى جميع الموجودين.

أما صفة المائدة، وأنواع طعامها، فلم يجئ فيها دليل يعول عليه .

قال ابن جرير الطبري : «وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال: كان عليها مأكول، وجائز أن يكون هذا المأكول سمكاً وخبزاً، وجائز أن يكون من ثمار الجنة، وغير نافع العلم به، ولا ضار الجهل به، إذا أقر تألي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل^(١٢).

وهذه القصة لم ترد في الأنجيل الموجودة في أيدينا، والقرآن الكريم قد بين كثيراً مما أخفاه أهل الكتاب، أو ضاع منهم علمه بسبب ما، والقرآن مهيم على هذه الكتب السابقة ومتمم لها. وبعض القصص ورد في القرآن ولم يرد في التوراة أو الأنجيل، لأن التحريف قد دخل في التوراة والأنجيل ولم يدخل في القرآن الكريم .

قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . (المائدة : ١٥) .

وقد ورد في كتب التفسير وصف للمائدة وأنواع الطعام التي نزلت، مثل ما روى أن الملائكة نزلت بالمائدة عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم^(١٣).

قال ابن كثير : وهذه أخبار أسانيدها ضعيفة ولا تخلو عن غرابة ونكارة^(١٤).

هل نزلت المائدة بالفعل ؟

تفيد الآيات القرآنية أن الحواريين قد طلبوا من عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وأن عيسى قد دعا ربه فعلاً أن ينزلها.

وإنما يسأله الله تعالى عن هذا القول وهو يعلم أنه لم يقله، توبيخاً للنصارى وقطعاً لحجتهم، وقيل: يقول أيضاً لقصد تعريف المسيح عليه السلام بأن قومه قد غيروا بعده وقالوا عليه ما لم يقله، من اتخاذه رباً من دون الله، وعبادته وأمه من دون الله، مع أن الله سبحانه ما بعثه إليهم إلا ليعبدوا الله وحده.

وقد نعى الله على الذين اتخذوا المسيح إلهاً في مواضع عدة من هذه السورة.

وعبادة أمه كانت معروفة في الكنائس الشرقية والغربية وسمى الذين عبدوها (المريميون)... وهذه العبادة منها:

ما هو صلاة ذات دعاء وثناء على المعبود.

ومنها: ما هو استغاثة، واستشفاع.

ومنها: ما هو صيام ينسب إليها، ويسمى صيام العذراء.

وكل ذلك يقتدرن بخشوع وخشوع لذكرها ولصورها ولتمائيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها، وأنها تنفع وتضر في الدنيا والآخرة، إما بنفسها أو بواسطة ابنها ويسمونها: (والدة الإله).

قَالَ سُبْحَانَكَ أَيُّ أَنْزَهَكَ تَنْزِيهَاً عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ إِلَهٌ آخَرُ.

مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ أَيُّ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَدْعِيَ لِنَفْسِي مَا لَيْسَ مِنْ حَقِّهَا، فَأَنَا مَرْيُوبٌ وَلَسْتُ بِرَبٍّ، وَعَابِدٌ وَلَسْتُ بِمُعْبُودٍ، ثُمَّ رَدَّ الْعِلْمَ كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ حَيْثُ قَالَ: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ أَيُّ: إِنْ كُنْتُ قُلْتُ هَذَا الْقَوْلَ وَهُوَ: اتَّخَذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. فَأَنْتَ تَعْلَمُهُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ، لِأَنَّكَ أَنْتَ - يَا إِلَهِي - تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي أَيُّ مَا فِي ذَاتِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي ذَاتِكَ.

والمراد: تعلم ما أعلم، ولا أعلم ما تعلم، وتعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبيك، وتعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل.

إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ أَيُّ إِنَّكَ أَنْتَ المحيط بجميع الغيوب لا يخفى عليك شيء منها، في الأرض ولا في السماء ومن كان كذلك، فلا تخفى عليه براءتي.

١١٧ - مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَيُّ مَا أَمَرْتَهُمْ إِلَّا بِمَا أَمَرْتَنِي أَنْ أبلغهم إياه وهو عبادتك وحده لا شريك لك فأنت ربِّي وربهم، وأنت الذي خلقتني وخلقتهم، فيجب أن ندين لك جميعاً بالعبادة والخضوع والطاعة.

وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ . أَيْ : وكنت مراقبًا لأحوالهم، مرشدا لهم مدة بقائى بينهم .

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَيْ فلما رفعتنى إليك حياً إلى السماء بعد أن توفيتنى من حياة الأرض، كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم .

وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .

ومذهب الجمهور : هو أن عيسى ابن مريم رفع إلى السماء حياً وهو باق على الحياة التى كان عليها فى الدنيا حتى ينزل إلى الأرض فى آخر الزمان .

وقال صاحب الظلال : وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله سبحانه، قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه وبعض الآثار تفيد أنه حى عند الله، وليس هنالك - فيما أرى - أى تعارض يثير أى استشكل بيد أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده، فالشهداء كذلك يموتون فى الأرض وهم أحياء عند الله، أمّا صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً، وكذلك صورة حياة عيسى - عليه السلام - وهو هنا يقول لربه: إننى لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتى.

ومن الباحثين من يرى أن معنى: فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي. أَيْ: أمتنى وزعموا أن رفعه إلى السماء كان بعد موته.

وذهب غيرهم إلى معنى: فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي. أَيْ وفيتنى أجرى كاملاً أو أخذتنى وافياً بالرفع إلى السماء حياً، إنجاء لى مما دبروه من قتلى من التوفى وهو أخذ الشئ وافياً أى كاملاً، وقد جاء التوفى بهذا المعنى فى قوله تعالى: يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ زِينَتَكَ وَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ ذَلِكُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى . «ولا يصح أن يحمل التوفى على الإماتة، لأن إماتة عيسى فى وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتنان بها، ورفع إلى السماء جثة هامة، سخر من القول، وقد نزه الله السماء أن تكون قبوراً لجثث الموتى، وإن كان الرفع بالروح فقط، فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة، فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حياً بجسده وروحه وقد جعله الله آية والله على كل شئ قدير»^(٤١).

وقد دلت الآية الكريمة على أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوى، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم وقد روى البخارى عن ابن عباس قال :

خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا - أى غير مختونين - ثم قرأ: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعُدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ. ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى

يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ. فيقال لى: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(١٧).

١١٨ - إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. فوض عيسى عليه السلام الأمر إلى الله فى هذا الموقف الرهيب، أى إن تعذب يا إلهى قومى فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم بقدرتك. وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ. أى وإن تغفر لمن أقلع منهم وآمن، فذلك تفضل منك، وأنت فى مغفرتك لهم عزيز لا يمتنع عليك ما تريد، حكيم فى جميع أفعالك.

وهذا القول من عيسى قاله على سبيل الاستعطاف، وفى هذا القول تبرؤ من القدرة على الحكم فى أمته يوم القيامة، بل الحكم فيهم إلى الله وحده.

قال ابن الأنبارى: معنى الكلام: لا ينبغي لأحد أن يعترض عليك، فإن عذبتهم، فلا اعتراض عليك، وإن غفرت لهم - ولست فاعلا إذا ماتوا على الكفر - فلا اعتراض عليك وقال غيره: العفو لا ينقص عزك، ولا يخرج عن حكمك^(١٨).

★ ★ ★

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

التفسير :

١١٩ - قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. فى هذا الموقف العظيم يتبرأ عيسى ممن اتخذه إلهًا، ويقوِّض الأمر إلى الله تعالى.

وفى هذا المشهد نجد قول الحق سبحانه إن هذا اليوم يوم الجزاء يوم يأخذ الصادق فى الدنيا جزاء صدقه بنعيم لا يحده فى جنة تجرى من تحتها الأنهار. هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ. إنها كلمة رب العالمين فى ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين وهى الكلمة الأخيرة فى المشهد.

جاء في التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى:

والمراد باليوم فى قوله: هَذَا يَوْمٌ ... يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس بما كسبت، وقد قرأ الجمهور برفع يَوْمٌ من غير تنوين على أنه خبر لاسم الإشارة، أى قال الله تعالى، إن هذا اليوم هو اليوم الذى ينتفع الصادقون فيه بصدقهم فى إيمانهم وأعمالهم، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات فى ديناهم.

أى إن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة^(١٩).

لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أى إن لهم هذا النعيم الجماعى فى الجنات، وما يتبعها من عيشة هنية، ولهم نعيم روحانى متمثل فى تكريم الله لهم ورضاه عنهم ورضاهم عنه بما جازاهم به مما لم يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. أى ذلك الانتفاع الحسى والمعنوى هو الظفر بالمطلوب على أتم الأحوال.

قال الفخر الرازى: اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب، وحقيقة الثواب: أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقية: فإنه أينما ذكر الثواب قال: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا. وأينما ذكر العقاب للفساق من أهل الإيمان، ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبید، وأمّا قوله: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ. فتحت أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها، جعلنا الله من أهلها^(٢٠).

١٢٠ - لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. يأتى ختام هذه السورة متناسقاً مع موضوعاتها معلقاً على تلك القضية الكبرى التى زعمت لله ولداً ومع ذلك المشهد العظيم الذى يتفرد الله فيه بالعمل ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل ويفوضون إليه الأمر كله، ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم.

جاء فى فتح القدير للإمام الشوكانى:

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. دون عيسى وأمه وسائر من ادّعت لهم الربوبية، ودون سائر مخلوقات الله تعالى.

وَمَا فِيهِنَّ. أى من جميع الخلائق كلهم ملك لله تعالى، فليس له ولد ولا والد.

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. أى فلن يحتاج منهم إلى نصير ينصره.

وهذه الآية مسك الختام لهذه السورة الكريمة التى اشتملت على كثير من التشريعات التى تتعلق بالحلال والحرام، وبالعبادات والحدود والقصاص والأيمان، كما اشتملت على أمور تتعلق بأهل الكتاب، فذكرت حكم أطعمتهم وحكم زواج المحصنات من نسائهم، كما ذكرت أقوالهم الباطلة فى شأن عيسى وأمه وردت على مزاعمهم وفندت أقوالهم بالحجة البالغة ولا عجب فالقرآن كتاب: لِإِبْرَآئِيلَ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. (فصلت ٤٢).

تم تفسير سورة المائدة، ويتبعه تفسير سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.

(اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)،

اللهم وفق وأعن وتقبل، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الخميس ٩ رمضان ١٤١٠ هـ الموافق ٥ / ٤ / ١٩٩٠ م

بسلطنة عمان بجامعة السلطان قابوس.

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the central text.

تفسير سورة الأنعام

دروس من سورة الأنعام

١ - كيف أنزلت ؟

سورة الأنعام سورة مكية وهى أول سورة مكية فى ترتيب المصحف فسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كلها سور مدنية أما سورة الأنعام فهى أول سورة مكية، توضع فى السبع الطوال من سور القرآن الكريم.

وقد جاءت عدة روايات تذكر فضل سورة الأنعام وتبين أنها نزلت جملة واحدة مشيعة بالملائكة.

قال الإمام الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب» :

«إن هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة . أحدهما : أنه نزلت دفعة واحدة والثانى : أنها شيعها ألفا من الملائكة والسبب فى ذلك أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين».

ويقول القرطبى :

قال العلماء : هذه السورة أصل فى محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور وهذا يقتضى إنزالها جملة واحدة لأنها فى معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة وعليها بنى المتكلمون أصول الدين.

وعدد آيات سورة الأنعام (١٦٥) آية وعدد كلماتها (٣٠٥٣) كلمة.

٢ - لم سميت بسورة الأنعام ؟

سميت هذه السورة بسورة الأنعام، والأنعام نوات الخف والظلف: وهى الإبل والبقر والغنم بجميع أنواعها، لأنها هى السورة التى عرضت لذكر الأنعام على تفصيل لم يرد فى غيرها من السور، فقد ورد ذكر الأنعام فى مواضع كثيرة من القرآن عرضاً، أما سورة الأنعام، فقد جاءت بحديث طويل عن الأنعام، استغرق خمس عشرة آية، من أول الآية ١٣٦ إلى آخر الآية ١٥٠. وقد تناول الحديث عن الأنعام فى هذه الآيات من السورة جوانب متعددة، تتصل بعقائد المشركين فبينت السورة ما فى عقائدهم من الخلل والفساد، إذ كانوا يحرمون بعض الأنعام على أنفسهم، ويجعلون قسمًا من الأنعام لألتهم وأصنامهم: وقسمًا لله، ثم يجورون على القسم الذى جعلوه لله فيأخذون منه لأصنامهم.

٣ - تاريخ نزول السورة :

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة المحمدية، أي عقب أمر النبي ﷺ أن يصدر بالدعوة ويعلنها للناس بعد أن أسر بها ثلاث سنين.

وتميزت الفترة التي نزلت فيها سورة الأنعام بقسوة المشركين وعنفهم في مقاومة الدعوة الإسلامية وإنكارها، فقد بدأت الدعوة سرا ثم جهر النبي بدعوته في مكة، ونزلت سورة الأنعام بعد الجهر بالدعوة بسنة واحدة، فاستعرضت الأدلة على توحيد الله وقدرته ثم ساقته أدلة المشركين وشبههم فأبطلتها وقندتها .

وقد أخذ المشركون بالنجاح الذي صارت عليه دعوة الإسلام حتى استطاعت أن تستعلن بعد الخفاء، وأن تتحدى في صوت عال ونداء جهير، بعد أن كان المؤمنون بها يلجئون إلى الشخاب والأماكن البعيدة ليؤدّوا صلاتهم، ورأى المشركون أن محمداً ماض في إعلان دعوته وتلاوة ما أنزل عليه من الكتاب، وفيه إنذار لهم وتغنيذ لمعتقداتهم وتسفيه لآرائهم، وإنكار لآلهم، وتهكم بأوثانهم وتقاليدهم البالية، فكان منهم من يستمع للقرآن متأثراً بقوته أو متذوقاً لبلاغته، ومنهم من يبعد عنه خوفاً منه . يَوْمئذٍ واجهت دعوة الحق أعداءها مسفرة واضحة متحدية، ووقف هؤلاء الأعداء مشدوهين مضطربين، يشعرون في أعماق نفوسهم بصدقها وكذبهم، ويتربعون يوماً قريباً لانتصارها وانهزامهم، ولا يجدون لهم حيلة إلا المكابرة والمعارضة المستميتة بما درجوا عليه من العقائد الباطلة، وبإدعائهم كذب الرسول، ويزعمهم أن إرسال الرسل من البشر أمر لم يقع من قبل، وأن الله لو شاء إبلاغ عباده شيئاً لأنزل إليهم الملائكة، وأنكر كفار مكة البعث والدار الآخرة، واستماتوا في الدفاع عن عقائدهم وآلهتهم، ونسوا أن محمداً عاش فيهم عمراً طويلاً لم يقل فيهم يوماً قولة كاذبة، ولم يخن فيهم يوماً أمانة أو تومن عليها، وأنهم لذلك كانوا يلقبونه بالصادق الأمين.

ولكنهم فكروا فقط في أن الدعوة الجديدة يجب أن تموت في مهدها، ويجب أن تكتم أنفاسها قبل أن تنبعث حرارة هذه الأنفاس إلى البلاد والقبائل والشعوب.

ووجهت الدعوة الإسلامية بهذا النضال وتحملت جميع مقتضياته وأثقاله، وكانت سورة الأنعام مثالا لتحقيق هذه الدعوة الإسلامية في هذه الفترة. فقد جمعت كل العقائد الصحيحة، وعنيت بالاحتجاج لأصول الدين، وتفنيد شبه الملحدين، وإبطال العقائد الفاسدة، وتركيز مبادئ الأخلاق الفاضلة.

٤ - مميزات الملكى والمدنى :

وضع العلماء ضوابط تميز السور المكية من المدنية، واستنبطوا خصائص الأسلوب والموضوعات التى تناولتها كل مجموعة منها.

فمن خصائص السور المكية ما يأتى :

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده وإثبات الرسالة وإثبات البعث والجزاء وذكر القيامة وهولها والنار وعذابها والجنة ونعيمها، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية والآيات الكونية.

٢ - وضع الأسس العامة للفضائل الأخلاقية التى يقوم عليها كيان المجتمع، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى ظلماً، وأداء البنات، وما كانوا عليه من سوء العادات.

٣ - ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة زجراً للكافرين حتى يعتبروا بمصير المكذابين قبلهم، وتسلياً لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن على الانتصار عليهم.

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة، بما يُصيغُ الأذان ويشدد قرعه على المسامع، وينبه القلوب ويحرك الأفئدة.

ومن خصائص السور المدنية ما يأتى :

١ - بيان العبادات والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث، وفضيلة الجهاد، والصلات الاجتماعية، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب وقواعد الحكم ومسائل التشريع.

٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ودعوتهم إلى السلام، وبيان تحريفهم لكتب الله، وتجنُّبهم على الحق، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم.

٣ - الكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسيتهم، وإزاحة الستار عن خباياهم، وبيان خطرهم على الدين.

٤ - طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها.

٥ - خصائص السور المكية واضحة فى سورة الأنعام :

«سورة الأنعام مثل كامل للخصائص المكية، إنها حشد من الصور الفنية العجيبة واللمسات الوجدانية الموحية، والمنطق الطبيعى الحى .. وهى كلها من أولها إلى آخرها تنبض بإيقاع واحد، وتترقق بماء واحد وتفيض بينبوع زاخر متدفق»^(١).

«إن موضوعها الذى تعالجه من مبدئها إلى منتهاها هو موضوع العقيدة، بكل مقوماتها ويكل مكوناتها، وهى تأخذ بمجامع النفس البشرية وتطوف بها فى الوجود كله، وراء ينابيع الحقيقة وموحياتها المستترة والظاهرة فى هذا الوجود الكبير ... إنها تطوف بالنفس البشرية فى ملكوت السماوات والأرض، تلحظ الظلمات فيها والنور، وترقب الشمس والنجوم، وتسرح فى الجنات المعروشة وغير المعروشة، والحياة الباطلة والجارية، وتقف على مصارع الأمم الخالية، وأثارها البائدة والباقية، ثم تسبح مع ظلمات البحر والبر وأسرار الغيب والنفس، والذى يخرج من الميت والميت يخرج من الحى ومع الحبة المستكنة فى ظلام الأرض، والنطفة المستكنة فى ظلام الرحم. ثم تموج بالجن والأنس، والطير والوحش، والأولين والآخرين والأحياء والأموات، والحفظة من الملائكة على النفس بالليل والنهار .

إنه الحشد الكونى الذى يزحم أقطار النفس، وأقطار الحس، وأقطار اللمس وأقطار الخيال... ثم إنها للسمات المبدعة المحببة، التى تنتفض المشاهد بعدها والمعانى أحياء تمرح فى النفس والخيال. وإذا كل مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض كأنما تتلقاه النفس أول مرة، ولم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان. إلا أنها القدرة المبدعة تتبدى فى صورة من صورها الكثيرة فما يقدر على بث الحياة هكذا فى الصور والمشاعر والمعانى إلا الله الذى بث فى الوجود الحياة^(٥٧).

٦ - الأغراض الرئيسية لسورة الأنعام :

إن الأغراض الرئيسية التى استهدفتها هذه السورة الكريمة هى تركيز العقائد الأساسية الثلاث التى كان المشركون يؤمنون ويتنازعون فيها، وهذه العقائد الأساسية هى :

أولاً : توحيد الله. ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية، بلفت النظر إلى آثار الربوبية، وإلى صفات الله الخالق المتصرف، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك، وشبهات المشركين، وتقدير أن العبادة والتوجه والتحریم والتحليل، إنما ترجع إلى الله.

ثانياً : الإيمان برسوله الذى أرسل، وكتابه الذى أنزل، وبيان وظيفة هذا الرسول ورد الشبهات التى تثار حول الوحي والرسالة.

ثالثاً : الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من ثواب وعقاب وجزاء.

وسوف نتناول كل غرض من هذه الأغراض بالتوضيح :

(أ) وحدة الألوهية :

لقد بدأت سورة الأنعام بتقرير الحقيقة الأولى فى كل دين وعلى لسان كل رسول، تلك الحقيقة التى تؤمن بها الفطر السليمة ويدل عليها العالم بأرضه وسمائه. وما فيه من مخلوقات ناطقة

وصامته ظاهرة وخفية، وما فيه من تحولات وتقلبات ونور وظلمات؛ وهذه الحقيقة هي أن الإله الذى له (الحمد) المطلق والتنزيه الذى لا يحد هو الله، لأنه هو الذى «خلق» وهو الذى «جعل»؛ فالخلق إنشاء وإبداع، والجعل تصريف وتقليب، والعالم أجمع فى دائرتيهما؛ فلا ينفك شىء منه عن كلا هذين المظهرين: «خلق» و«جعل» ومقتضى ذلك أن المخلوق المجهول، لا يمكن أن يتسامى إلى مرتبة الخالق الجاعل فيعبد كما يعبد؛ ويقصد كما يقصد؛ ذلك هو مطلع السورة (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون). وكل ما جاء فى هذه السورة إنما هو بيان وتفصيل؛ أو تمثيل وتطبيق على هذه الحقيقة أحياناً بصفة مباشرة، وأحياناً بوسائط تقرب أو تبعد .

وهذا هو المعنى الذى يعبر عنه بعض العلماء بأنه الحكم بتوحيد الألوهية استدلالاً بوحدانيتها الربوبية، وذلك فى القرآن كثير فأول فاتحة الكتاب:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وأول الكهف :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ.

وأول فاطر :

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا.

ولو ذهبنا نتتبع هذا المعنى فأوغلنا فى التتبع، ورأينا الكثير من الآيات فإن هذا هو أصل الأديان كلها وهو الحقيقة الأولى كما تجلى ذلك فى سورة الأنعام. وقد ساقَت السورة عدداً من الأدلة على توحيد الله، فهى تلفت النظر إلى مظاهر الملك التام، والسلطان القاهر فى الخلق والتصرف الكامل، والعلم المحيط فتقول :

قُلْ يَمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ. (الأنعام ١٢).

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. (الأنعام ١٣).

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. (الأنعام ٥٩).

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ. (الأنعام ٦٠).

وهى تلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شىء، لأن هذا النظر لا بد أن يثمر الإيمان بالله .

بل تلتفت نظر الإنسان إلى نفسه، ليتفكر في داخله كيف خلق؟ وكيف يفكر وكيف يعيش وكيف يموت؟

وبهذا تكون الحجة عامة لكل ذى عقل سليم وفطرة صافية وإخلاص في تطلب الحقيقة من دلائلها الماثلة في آفاق السماوات والأرض ولذلك يقول جل شأنه:

سُبْحَانَ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. (فصلت ٥١)

(ب) قضية الوحي والرسالة:

كما تحدثت سورة الأنعام عن الألوهية والربوبية، وافتت الناس إلى مظاهرها في الخلق والتصرف والتدبير المحكم، تحدثت عن حقيقة ثانية تنبئ على الإيمان بهذه الحقيقة الأولى: ذلك أن من شأن الإله الرب أن يهدي عباده ويرشدهم إلى ما تصلح عليه أمورهم وتقوم عليه سعادتهم في دنياهم وأخراهم.

ومن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس من الضلالة إلى الهدى وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد عنيت سورة الأنعام بهذه الحقيقة، فتحدثت في كثير من آياتها عن الوحي والرسالة من جوانب شتى، بعضها يتصل بإثبات الوحي وبيان حكمته والرد على منكره، وبعضها يرجع إلى بيان ما هو من وظيفته، وبعضها يتصل بموقف الناس أمام الرسالات الإلهية، وبعضها يتعلق الآداب التي رسمها الله للرسول وما ينبغي أن يكون عليه سلوكه مع مخالفه وموافقته. قال تعالى:

وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ. (الأنعام ١٩).

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. (الأنعام ١١٤).

تكذيب المرسلين:

عرضت السورة لموقف المكذبين من الرسالة وبينت أن التكذيب سنة قديمة. فعلى الرسول أن يصبر ويصابر حتى لا يضيق صدره بتكذيبهم إياه؛ ولا ييأس من هدايتهم. وبينت السورة حسن عاقبة المرسلين. وسوء عاقبة المكذبين قال تعالى :

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ. (الأنعام ٣٣، ٣٤).

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْهَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. (الأنعام ١٠).

نبوة محمد ﷺ:

أثبت القرآن الوحي والرسالة؛ ثم أثبت نبوة محمد ﷺ بالدليل القاطع والحجة البالغة. فقد نشأ هذا النبي يتيمًا فقيرًا أميًا في بيئة مشركة جاهلة؛ فمن أين له هذا الكتاب المحكم الذي اشتمل على مبادئ الإصلاح العالمي كلها؛ والذي لم يستطع العلم في أزهى عصوره أن يهدم حقيقة من الحقائق التي جاء بها.

إن القرآن قد تحدى العرب ببلاغته وقوة بيانه فعجزوا عن الإتيان بمثله أو بعشر سور منه؛ أو بسورة واحدة .

وقد تحدى القرآن الزمان كله بخلوده وصحته؛ وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ. (الأنعام ٩١).

(ج) قضية البعث والجزاء :

نزلت سورة الأنعام في السنة الرابعة من البعثة بعد أن أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة وأن يعلن عن العقيدة الإلهية ويقرر حقيقة البعث والجزاء علناً أمام المشركين.

وقد سلكت سورة الأنعام طريقاً شتى في الاستدلال على قضية البعث فقد استدلّت عليه بخلق السموات والأرض في مقدمتها العنوانية:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. (الأنعام ١).

فمن خلق السماوات والأرض بقدرته، فهو قادر على إحياء الموتى وإعادة خلق الإنسان فخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وكررت هذه الحقيقة وأكدت في آياتها بصور شتى فذكرت أن البعث حق، وأن الله بيده الخلق والأمر والبدء والإعادة والحساب والجزاء قال تعالى:

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ. (الأنعام ١٢).

وقال سبحانه :

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. (الأنعام ١٦٤).

وقد لون القرآن في قضية البعث والجزاء واستدل عليها بعدد من الأدلة، منها: أن الحكمة والعدل يقضيان بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه كما يقضيان بأن ينال المحسن إحسانه والمسيء إساءته حتى يطهر المسيء من دنس النفس ويكون أهلاً لرحمة الله الكاملة، وهذان شأنان هامين إذ كثيراً ما يرحل الناس عن الدنيا دون أن يسهل طريق النقاء لمن دس نفسه، ودون أن يعرفوا الحق فيما اختلفوا فيه وإن فلا بد من دار أخرى يلقي الإنسان فيها الجزاء أمام حاكم عادل عليم خبير بكل ما قدم الإنسان .

وقد تعرض أحد القضاة الفرنسيين لتاريخ القضاء في فرنسا وأصدر كتاباً ذكر فيه عددا من الحالات حكم فيها بالإعدام أو الإدانة على متهمين ثم برأتهم الأيام والحقائق، وأحصى عدداً من الحالات برأ القضاء فيها متهمين ثم أثبتت الأيام وحقائق الأحداث أنهم مدانون .

ثم عقب القاضي بقوله: إنه لا بد من جزاء وحساب أمام قاض آخر لا تخفى عليه خافية ولا تغيب عنه حادثة في دار أخرى ليعوض الناس عن أخطاء القضاء في الدنيا وليكون حكمه فيصلاً ومنصفاً للمظلومين وراذعاً للمجرمين.

وفي القرآن الكريم آيات عدة تؤكد هذا المعنى، قال تعالى :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. (الأنعام ٧٠).

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. (الجاثية ٢٦).

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لُعبٌ وَلَهْوٌ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (الأنعام ٣٢).

وقد لون القرآن ونوع في أدلته على إثبات البعث، وعرض مشاهد القيامة واضحة للعيان. وعرضت سورة الأنعام لشأن البعث باعتباره أمراً كائناً ليس موضع إنكار، ولا محلاً لريب وصورته فيه مواقف المشركين وما سيكونون عليه في ذلك اليوم كأنهم حاضرون معروضون أمام الناس يتأملهم الإنسان ويرى فعلهم وقولهم : قال تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَرُونَ. (الأنعام ٢٢ - ٢٤).

وقال سبحانه :

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. (الأنعام ٩٤).

إلى غير ذلك مما تضمنته السورة من الوصف العيني لمظاهر البعث الذى يأخذ القلب وينير الوجدان .

٧ - قصة إبراهيم الخليل :

حفلت سورة الأنعام بذكر طرف من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، فإبراهيم أبو الأنبياء، والرسول الذى دافع عن التوحيد وتحدى عباد الأصنام، وأخذ يتأمل بفكره فى ملكوت السماوات والأرض، ليرشد قومه عن طريق الحوار إلى فساد اعتقادهم ودليل خطئهم فى تأليه الكواكب والقمر والشمس وغيرها. جن عليه الليل وستره الظلام فرأى كوكبا مما يعبدون وهو بين جماعة منهم يتحدثون ويسمرون فجاءهم فى زعمهم وحكى قولهم فقال هذا ربى فلما أفل هذا الكوكب. وغاب هذا النجم تحت الأفق تفقدته فلم يجده ويحث عنه فلم يره فقال لا أحب الآلهة المتغيرة من حال إلى حال.

ولما رأى القمر بازغا وهو أسطع نورا من ذلك الكوكب وأكبر منه حجما وأكثر نفعا قال:

هَذَا رَبِّى. استدراجاً لهم واستهواء لقلوبهم، فلما أفل هذا أيضاً واحتجب، واختفى نوره واستتر قال: لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. (الأنعام ٧٧).

بين لهم أن الله مصدر الهداية، ومانح التوفيق عند الشك والحيرة. ثم رأى إبراهيم الشمس بازعة يتألق نورها وينبعث منها شعاعها وقد كست الدنيا جمالا وملأت الأرض حياة وبهاء، وأرجاء الكون نوراً وضياء، فقال: هذا ربى، هذا أكبر من كل الكواكب، وأكثر نفعا وأجل شأنا، فلما أفلت كغيرها، وغابت عن عبادها، رماهم بالشرك وقال:

إِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. فهذه الكواكب التى تنتقل من مكان إلى مكان وتتحول من حال إلى حال لابد لها من خالق يدبرها ويحركها وإله ينظمها ويسيرها، فهى لا تستحق عبادة ولا تعظيماً.

وبعد أن أعلن إبراهيم انصرافه عن آلهتهم، وبراءته من معبوداتهم أفاض الحديث عن إخلاصه لله بعبادته وخضوعه فقال:

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (الأنعام ٧٩).

ولقد كان إبراهيم جريئاً في إعلان إيمانه، وإخلاصه لربه، ومجادلة قومه وإفهامهم أن غير الله لا ينفع ولا يضر. وإن الله وحده هو النافع الضار، والمعطى المانع، وهو على كل شيء قدير. وقد ناقش إبراهيم أباه، وأوضح له طريق الهدى، وأخلص الدعاء لأبيه أن يلهمه الله طريق الهداية والرشاد، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه. وهكذا كان إبراهيم عملياً في دعوته، عملياً في هجرته وعزلته.

وقد ظهرت قدرة إبراهيم وإخلاصه وتضحيته، حين حطم الأصنام، ولام قومه على عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وظهرت بطولية إبراهيم حين امتحنه الله بذبح ولده إسماعيل، فامتنل إبراهيم لأمر ربه وخاطب ابنه قائلاً :

يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَيَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. (الصافات ١٠٢).

وصدق الأب في طاعة ربه، وصدق الابن في الوفاء والامتنال، وعزم الأب على ذبح ابنه وأخلص النية، فلما رأى الله منه صدق النية فدى إسماعيل بكبش عظيم وأصبحت الأضحية سنة في كل عام، يذبحها الغني المقتدر ويوزع من لحمها على الفقراء وعلى الأصدقاء، ذكرى للتضحية والفداء. واقتداء بإبراهيم الخليل، وكم لإبراهيم من مواقف جليلة عظيمة في مصر، وفي فلسطين، وفي جوار بيت الله الحرام، وفي بناء الكعبة وهو يخلص الدعاء لله في كل عمل. وقد مدحه القرآن ووصفه بأحسن الصفات إذ يقول جل جلاله :

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. (النحل ١٢٠).

٨ - الوصايا العشر :

افتتح الربع الأخير من سور الأنعام بالدعوة إلى عشر وصايا هي النهي عن الإشراك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهي عن قتل الأولاد مخافة الحاجة، والنهي عن مقاربة الفاحشة في السر أو العلن، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها. ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم وإتمام الكيل والميزان، كما أمرت بالعدل في كل شيء وأمرت بالوفاء بالعهد والاستقامة على الصراط القويم.

الوصية الأولى: من هذه الوصايا العشر التي وردت بسورة الأنعام هي قوله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. (الأنعام ١٥١).

وهي الأساس الذي يصلح عليه أمر الناس، فإن المجتمع الذي يقوم على إثثار الله على كل ما سواه هو المجتمع الفاضل المثالي السعيد، أما المجتمع الذي يشرك بالله أحداً أو يشرك بالله شيئاً، فإنه مجتمع منحط، تسيره المادة الصماء التي لا روح فيها ولا صلاح ولا قرار معها.

والوصية الثانية: وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. (الأنعام ١٥١).

فالوالدان سبب في حياة الولد فيجب أن يشكرهما ويحسن إليهما خصوصاً في حالة الكبر والشيخوخة.

والوصية الثالثة: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ. (الأنعام ١٥٣).

إن قتل الإنسان لابنه اعتلال في الطبع أو خلل في العقل، فإن الولد بضعة من الوالد، والشأن حتى في الحيوان أن يضحي الوالد من أجل أولاده ويحميهم ويتحمل الصعاب في سبيلهم، وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك»^(١٣)، إذ أن الله ييسط الرزق لمن يشاء: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا. (هود: ٦).

والوصية الرابعة: وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ. (الأنعام ١٥١).

والفواحش هي كل فعل تنكره العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والمجتمع الذي يؤمن بأن هناك (فواحش) يجب أن تجتنب و(محاسن) يجب أن تلتزم هو المجتمع السليم الجدير بالانمو والارتقاء.

والوصية الخامسة: وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ. (الأنعام ١٥١).

فالإنسان بنيان الله، ومن هدم بنيان الله ملعون، وبذلك يقرر الإسلام عصمة الدم الإنساني إلا بالحق، ويعتبر من يعتدي على نفس واحدة بغير حق كأنه اعتدى على الإنسانية كلها. وهو المبدأ الذي يعتبر أن الجريمة اعتداء على المجتمع كله.

والوصية السادسة: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. (الأنعام ١٥٢).

فاليتيم عارض يعرض في كل مجتمع، ومن شأن المجتمعات الناضجة أن ترعى اليتامى وأن تحافظ على صلاحهم في أنفسهم وفي أموالهم. وعلى الوصى أن يعامل اليتيم كما لو كان ابناً من أبنائه فيحسن توجيهه وتأديبه ورعايته وكفالاته حتى ينشأ اليتيم مواطناً صالحاً وعضواً نافعاً.

والوصية السابعة: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ. (الأنعام ١٥٢).

فالمؤمن عادل فى بيعه وشرائه يضبط الكيل ويعطى الحق ويأخذ الحق.

والوصية الثامنة: وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا . (الأنعام ١٥٢).

والعدل هو أساس الحكم السليم، العدل فى القول، والعدل فى الحكم، والعدل فى الشهادة، والعدل فى كل فعل وعمل.

والوصية التاسعة: وَبِعْهِدِ اللَّهُ أَوْفُوا. (الأنعام ١٥٢).

والوفاء خلة حميدة، وصفة طيبة من الصفات التى يتحقق بها الخير والصلاح وتستقر عليها أمور الناس.

والوصية العاشرة: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ. (الأنعام ١٥٣).

وهذه الوصية الأخيرة هى الجامعة لكل ما جاءت به دعوة الحق فهى تدعو إلى السير على طريق الله وشرعة الله وأوامر الله، والابتعاد عن طرق الشيطان، فطريق الله سبيل النجاح فى الدنيا والآخرة، وفى سورة الفاتحة: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

المضردات :

ثم الذين كفروا بربهم يعدلون : أى يسوون به غيره، تعالى الله عن ذلك .

ثم قضى أجلا : هو أجل الموت .

وأجل مسمى عنده : أجل القيامة .

تمتتروون : تشكون، يقال امترى فى الأمر يمتري امتراء شك فيه، والمرية الشك .

وجهركم : أى وعلنكم، يقال جهر بقراءته يجهر بها جهراً أى أعلنها .

التفسير :

١ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... الآية. الثناء الجميل والحمد كله مستحق لله تعالى، الذى أنشأ بقدرته هذه العوالم العلوية والسفلية وأوجد ما فيها من مخلوقات ناطقة وصامتة، وظاهرة وخافية وأحدث ما يتعاقب عليها من تحولات وتقلبات ونور وظلمات .

وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ أى جعل الله ظلام الليل ليكون سكناً. وجعل نور النهار ليكون مجال نشاط الناس وسر الحياة لزروعهم وحيواناتهم .

ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ. أى بعد هذا الخلق الكبير فى خلق السماء وما أظلت، وخلق الأرضين وما أقلت، وتسخير الليل والنهار، فإن الذين كفروا يشركون بالله، ويعدلون به ويساوون به ما لا يقدر على شئ وهذا نهاية الحمق .

وقد بدئت خمس سور بالحمد لله. هي: سورة الفاتحة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف وسورة سبأ، وسورة فاطر.

فأول سورة الفاتحة: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وأول سورة الأنعام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ.

وأول سورة الكهف: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا.

وأول سورة سبأ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحُكْمُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

وأول سورة فاطر: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٍ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٢ - هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ... الآية.

هو الذى خلق آدم عليه السلام من الطين، ثم تناسل منه أبناؤه من نطفة ثم علقه ثم مضغه، وكل فرد قد قدر عليه وهو فى بطن أمه رزقه وأجله وشقى أو سعيد .

فمعنى ثُمَّ قَضَى أَجَلًا : عينى حكم بالموت على الإنسان عند نهاية عمره.

وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ : يعنى القيامة والبعث، وقيل الأجل الأول ما بين أن يخلق الإنسان إلى أن يموت والأجل الثانى ما بين أن يموت إلى أن يبعث.

ومن شأن القرآن أن يقابل بين الظلمات والنور، والكفر والإيمان، وهنا قابل بين الأجل الأول وهو الحياة ونهايتها الموت والأجل الثانى من الموت إلى البعث.

وكل هذه الأمور من شأنها أن تبعث فى النفس اليقين بوجود الإله الخالق الرازق.

تُحْمُ أُنْمُ تَمْتَرُونَ. ثم إنكم بعد كل هذه الأدلة على وحدانية الله، وعلى أن يوم القيامة حق، تشكون فى ذلك، وتجادلون المؤمنين فيما تشكون فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

قال الشوكانى فى فتح القدير : «أى كيف تشكون فى البعث مع مشاهدتكم فى أنفسكم من ابتداء والانتهاى ما يذهب بذلك، فإن من خلقكم من طين، وصيركم أحياء تعلمون وتعقلون، وخلق لكم هذه الحواس والأطراف، ثم سلب ذلك عنكم ، فصرتم أمواتا، وعدتم إلى ما كنتم عليه من الجمادية، لا يعجزه أن يبعثكم، ويعيد هذه الأجسام كما كانت، ويردّ إليها الأرواح .

٣ - وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ. وهو الله المالك المتصرف المعبود في السماوات وفي الأرض .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ . (الزخرف : ٨٤) .

يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ . يعلم ما انطوت عليه قلوبكم ، وما تفعلون بجوارحكم علانية .

وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . من الخير والشر ، فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم .

وتتوالى الآيات كلها تبين عظمة القدرة الخالقة لهذا الكون الموجودة للإنسان ، لتنبيه الجاحد وتوقظ الحس والمشاعر ، وتدعو الغافل والمستخف بشرائع الله ، أن يعود إلى الله ، وأن يخشاه ، ويقى محارمه ، لأن الله يطلع على كل ما ظهر وما بطن .

★ ★ ★

﴿ وَمَا أَنبِئُهم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهمْ أَنْبَتُهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّنَّهمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ أَكْزَرُوا وَرَسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

من آيات ربهم : المراد بالآيات : القرآن ، أو ما يعمه ، من الآيات الكونية .

معـرـضـين : الإعراض : الانصراف عن الشيء .

من قـرـن : القرن : مدة من الزمان يعيش فيها أهل عصر . وقد يطلق على أهله ، وهو المراد هنا ، وأشهر الأقوال أن القرن مائة سنة .

مكناهم في الأرض : أي جعلنا لهم فيها مكانا .

وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا : أي وَأَرْسَلْنَا المطر أو السحاب عليهم كثير الدر بالمطر .

التفسير:

٤ - وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وما تأتيتهم من حجة من حجج ربهم. دالة على وحدانية الله وصدق رسوله - سواء أكانت قرآنية أم كونية - إلا قابلوها بالإعراض، واستقبلوها بالنبد والاستخفاف.

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان كفرهم بآيات الله، وإعراضهم عنها بالكلية، بعد بيان كفرهم بالله - تعالى - وإعراضهم عن بعض آيات التوحيد، وامترائهم فى البعث وإعراضهم عن أدلته ^(٤١).

٥ - فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ... الآية. أى فقد زادوا - على إعراضهم - تكذيبهم بالحق لما جاءهم على لسان محمد ﷺ، من غير تريت ولا تفكر والآية السابقة بينت إعراضهم عن التأمل فى الدلائل والبيّنات وهذه الآية بينت تكذيبهم بالآيات ثم استهزاءهم بها.

فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. أى فسوف تأتيتهم العقوبات التى توعدهم الله بها، جزاء تكذيبهم بالحق وإصرارهم على هذا التكذيب.

قال الزمخشري فى الكشاف :

فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ الشَّيْءِ الذى كانوا يستهزئون وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأى شئ استهزؤا وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو فى يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

٦ - أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ ... الآية. أعموا عن الحق وأعرضوا عن دلائله ولم يروا بتدبر وتفكر، كم أهلكنا من قبلهم من أقوام كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا. حيث منحناهم الغنى والسعة والاقتدار على التعميد فعمروا الأرض وبنوا الحصون والقصور.

وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ . عدد الله النعم على هؤلاء السابقين حيث أرسل المطر متتابعاً وجعله نافعا بغزارة وكثرة، وعبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها.

وصفهم القرآن هنا بأنهم كانوا منعمين بالمياه الكثيرة التى يسيرون مجاريها كما يشاءون، فيبنون مساكنهم على ضفافها، ويتمتعون بالنظر إلى مناظرها الجميلة .

وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ. أى صيرنا الأنهار تجري من تحت مساكنهم. ويبن مزارعهم فيمتعون بحسن مزارها، وجمال جريانها، ولا يجدون صعوبة فى الانتفاع بها .

فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. أَى فكَفَرُوا بنعمة الله وجدوا فضل الله عليهم، فأهلكناهم بسبب ذنوبهم إذ الذنوب سبب الانتقام وزوال النعم .

والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران :

أحدهما : أن الذنوب ذاتها تهلك الأمم، إذ تشيع فيها الترف والغرور والفساد فى الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل وتذهب قوتها.

والمظهر الثانى : إهلاك الله تعالى لها عقاباً على أوزارها^(٤٥).

جاء فى طلال القرآن للأستاذ سيد قطب :

وتفيد الآيات أن الذنوب والفساد سبيل إلى هلاك الأمة والأفراد، إما بقارعة من الله عاجله كما كان يحدث فى التاريخ القديم، مثل غرق قوم نوح، وهلاك عاد وثمود ومدين وقوم لوط .

وإما بالانحلال البطيء الفطرى الطبيعى الذى يسرى فى كيان الأمم مع الزمن وهى توغل فى متاهة الذنوب !

«وأماننا فى التاريخ القريب - نسبياً - الشواهد الكافية على فعل الانحلال الأخلاقى، والدعارة الفاشية، واتخاذ المرأة فتنة وزينة، والترف والرخاوة، والتلهى بالنعيم، أماننا الشواهد الكافية من فعل هذا كله، فى انهيار الإغريق والرومان - وقد أصبحوا أحاديث - وفى الانهيار الذى تتجلى أوائله وتلوح نهايته فى الأفق فى أمم معاصرة، كفرنسا وانجلترا كذلك - على الرغم من القوة الظاهرة والثراء العريض»^(٤٦).

وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ. من سنن الله إهلاك المفسدين إما بقارعة وإما بتسليط بعضهم على بعض حتى يهلك الفاسد، ويتولى الملك قوة جديدة امتحاناً وابتلاء لها وقد تكون صالحة أو طالحة، فالظالم سوط الله فى الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه قال تعالى: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ. (البقرة ٢٥١) .

وهلاك المفسد وعقوبة الظالم لا ينقصان من ملك الله تعالى شيئاً، فهو سبحانه كلماً أهلك أمة أنشأ من بعدها أخرى وفى الحديث القدسى:

«يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص

ذلك من ملكي شيئاً يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلأ مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله وفي وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(٧).

ويقول الله تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ. (محمد ٣٨).

★ ★ ★

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِي نَقَرُوا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾﴾

المضردات :

فى قِرطَاس : القرطاس ؛ - بتثليث القاف ، والكسر أشهر - ما يكتب فيه .

فلمسوه بأيديهم : اللمس ؛ كالمس ؛ إدراك الشيء بظاهر البشر . وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه . والمراد هنا : الأول .

إن هذا إلا سحر : أى خداع وتمويه .

لقضى الأمر : أى لتم أمر إهلاكهم .

ثم لا ينظرون : أى لا يمهلون طرفة عين .

وللبسنا : أى خلطنا .

التفسير :

٧ - وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ... الآية. لقد بلغ الحزن والأسف من الرسول ﷺ كل مبلغ لإصرار قومه على الكفر مع وضوح الدليل والحجة على صدقه فبين القرآن له هنا فسادهم وجودهم وعنادهم حتى لو ظهر الدليل على صدقه واضحاً للعيان ملموساً باليد.

ومعنى الآية :

إننا لو نزلنا عليك كتاباً من السماء فى قرطاس - كما اقترحوا - فشاهدوه بأعينهم وهو نازل عليك ولمسوه بأيديهم منذ وصوله إلى الأرض، وياشروه بعد ذلك بجميع حواسهم بحيث يرتفع عنهم

كل ارتياح، ويزول كل إشكال ... لو أننا فعلنا ذلك استجابة لمقترحاتهم المتعنتة، لقالوا بلغة العناد والحدود ما هذا الذي أبصرناه ولمسناه إلا سحر مبين.

والقرطاس بكسر القاف وقد تفتح وتضم، ما يكتب عليه من رق أو ورق أو من غيرهما، ولا يطلق على ما يكتب فيه قرطاس إلا إذا كان مكتوباً.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى :

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل ١٤) .

وقوله سبحانه: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام ٣٣) .

وقوله تعالى: وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ . (الحجر ١٥، ١٤) .

٨ - وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ . يحكى القرآن لونا آخر من اقتراحات المشركين التى تؤيد تعنتهم وجحودهم للحق، فالرسول أمامهم عرف بينهم بالصدق والأمانة وحسن الخلق، والقرآن أمامهم يلمسون إعجازه وتفوقه وسلاسته وسلامته من كل عيب، ويدركون أنه فوق مستوى البشر ومع كل ذلك يقترحون ألوانا من الاقتراحات ومنها ما حكاها القرآن الكريم فى عدد من السور، وكمثال لذلك ما ورد فى سورة الإسراء وهو يتضمن مثل هذا الاقتراح بمجئ ملك أو ملائكة تصدق الرسول فى دعواه الرسالة واقتراحات عدة تدل على التعنت. وتدل على الجهل بكثير من الحقائق الكونية، وكثير من القيم الحقيقية.

قال تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ الْأَرْضِ مَائِدًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرُوهُ قُلٌ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا . (الإسراء ٨٩ - ٩٥).

فقد اقترحوا فى هذه الآيات تفجير ينابيع الأرض فى مكة حتى تنبت الجنان والبساتين ، أو نزول عذاب من السماء أو مجئ الله والملائكة يصدقون رسالته أو أن يملك محمد بيتاً من الذهب ، أو يصعد فى السماء شريطة : أن يأتى بكتاب معه من السماء يؤيد صدقه .

وكان جواب القرآن إننى بشر يوحى إلى برسالة تخاطب العقل والفطرة وتقدم الأدلة العقلية على صدقها .

وقد كذبت أمم السابقين بسبب استكثارهم أن يختار الله بشراً ثم يوحى إليه بالرسالة، مع أن هذا لا غرابة فيه فالرسول ينبغي أن يكون بلسان قومه ليبين لهم، ولو كانت الأرض فيها ملائكة تمشى فى منطقة منها لأرسل الله إليهم ملكاً مثلهم يحمل رسالة الله إليهم .

وقد كان تصور عرب الجاهلية عن الملائكة تصوراً فجاً فيه الكثير من الأخطاء فقد زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن الله قد اختار زوجة من الجن لتنجب له الملائكة، وسموا بعض الآلهة بأسماء الملائكة، وقد صحح القرآن ضلالاتهم فى سورة النجم وفى غيرها من السور .

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ رَوَى ابْن المنذر، وابن أبى حاتم، عن محمد بن إسحاق فى سبب نزول هذه الآية قال :

«عاد رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ، فقال زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث وأبى بن خلف، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس، ويورى معك فأنزل الله فى ذلك قوله: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ....»

أى قال الكافرون للنبي ﷺ هلا كان معك يا محمد ملك لكى يشهد بصدقك، ونسمع كلامه ونرى هيئته، وحينئذ نؤمن بك ونصدقك.

وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ. لقد جرت سنة الله فى إنزال الملائكة أن يرسلهم لإهلاك المكذبين، كما أرسلهم إلى قوم لوط، أو جرت سنته فى أن من طلب آية أو معجزة ثم تحقق إرسال الآية ولم يؤمن أن يهلكه الله ولا ينظره فقد أعطى ثمود الناقة آية فعقروها: فَذَمَّمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا. (الشمس ١٤، ١٥). أو أن الله لو أرسل ملكا فى صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم، لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون من غير تأخير أو انتظار.

ومن أجل هذا لم يستجب لأهل مكة حتى لا ينزل بهم عذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ وتحقيقاً لوعده: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. (الأنفال ٣٣) .

٩ - وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكِنَّا عَلَيْنَاهُمْ مَا يَلْسُونُ. أى لو استجبنا لهم فى إنزال ملك لمثلناهم رجلا ليقوّوا على مشاهدته وسماع كلامه، لعدم استطاعتهم رؤية الملك على صورته الأصلية.

ومن أجل هذا كانت الملائكة تأتي الرسل على هيئة البشر أحياناً، وكان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي، وقد رآه النبي ﷺ على صورته الأصلية مرتين وذكر ذلك في أول سورة النجم.

ولو جعل الله الملاك بشراً لآانسوا به لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته التي تمثل بها وحينئذ، يقعون في نفس اللبس والاشتباه.

قال الإمام القرطبي:

قوله تعالى: وَكَوْجَعَلْنَاهُ مَلَكًا لِّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا. «لأن كل جنس يأتي بجنسه، وينفر من غير جنسه، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكاً لنفروا من مقاربتهم، ولما آانسوا به، ولدخلهم من الرعب من كلامه، والافتقار له، ما يكفهم عن كلامه، ويمنعهم عن سؤاله فلا تعم المصلحة، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورتهم لآانسوا به وليسكنوا إليه لقالوا لست ملكاً، وإنما أنت بشر فلا نؤمن بك، وعادوا إلى مثل حالهم»^(٥٨).

والخلاصة أن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الرسول بشراً من جنس وقومه وأن يؤيده الله بالمعجزات حتى يمكن الاقتداء به في قوله وفعله وسلوكه.

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ... الآية. (إبراهيم ٤).

وقال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا.

(الأحزاب ٢١).

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

المفردات:

فحاق: حاق به الأمر: أحاط به. ولا يكاد يستعمل إلا في الشر.

التفسير:

١٠ - وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. سخر الكفار من

رسل الله واستهزؤوا بهم، فحاق بالكافرين الخسف والزلازل والطاعون والغرق، قال تعالى: وَيَضَعُ

الْفَلَكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَيْهِ مَا لَمْ مِنْ قَوْمِهِ سَجَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنَّ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ. (هود ٣٨، ٣٩).

لقد وقف الكفار موقف العناد من رسل الله وهددوهم بالطرد والأذى والتنكيل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتَعَوَّذُ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. (إبراهيم ١٣).

وتأتى هذه الآية لبيان مسلك الكفار فى إيذاء الرسل والسخرية بهم كما جاء فى قوله تعالى: وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. (الحجر ١١).

وقد أنزل الله بالمستهزئين بالرسول ما يستحقونه من العذاب فأغرق الله قوم نوح.

وأغرق فرعون وقومه وأهلك هامان وجنوده.

وفى الآية ما يأتى :

١ - تعليم النبى ﷺ سنن الله مع الأمم.

٢ - تسلية للرسول ﷺ وعزاء له مما يلقي من المشركين من عناد، وتثبيت قلبه.

٣ - بشارة له بحسن العاقبة، وما سيكون له من نصر وتأيد، حيث أهلك سبحانه المستهزئين به قال تعالى : إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ. (الحجر ٩٥).

والخلاصة :

لا تحزن يا محمد من إيذاء الكفار لك فهذا شأن الدعاة والرسل، ولقد أودى من سبقك من الرسل الكرام وسخر السامعون منهم فصبروا على ما كُذِّبوا وأودوا وجاءهم فى النهاية نصر الله الذى وعدهم، أما أعداء الرسل فقد نزل بهم من العذاب والنكال ما يستحقونه جزاء استهزائهم، قال تعالى: الَّذِينَ طَفَوْا فِي الْبِلَادِ فَاكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِمٌ مُرِيدٌ. (الفجر ١١: ١٤).

١١ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ. كانت للعرب رحلة إلى الشام ورحلة إلى اليمن بحثاً عن طلب المعاش، فأمرهم الله أن يسيروا فى الأرض وطلب منهم التأمل والاعتبار. بما أصاب الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها وخرجت على منهج الله.

إن هذا التفسير التربوى للتاريخ جزء من منهج القرآن الكريم حيث فتح العيون والأبصار للتأمل والاعتبار وحيث بين القرآن أن سنن الله باقية خالدة ومن هذه السنن مكافأة العاملين ومعاقبة الظالمين.

إن هذه الآية دعوة إلى الرحلة والسياحة والتأمل والاعتبار فمن قوانين الله مكافأة العاملين حيث قال تعالى: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. (الأنبياء ١٠٥) ، ومن قوانين الله إهلاك المكذبين. قال تعالى: ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ. (سبا ١٧) .

والسعيد من اتعظ بغيره، وقد كان ﷺ يتحین الفرصة لتحريك العظة والاعتبار في قلوب المؤمنين . وفي غزوة تبوك مر على قرى قوم لوط، فاستحث راحلته، وحنى ظهره مشفقاً ضارعاً إلى الله، وقال ﷺ: «لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم»^(١٤) .

★ ★ ★

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾
 وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَلْحَدًا وَلِيَأْخُذَ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يَطْعَمُهُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلُّ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾
 مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْنَاهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

كتب على نفسه الرحمة : أى أوجبها على نفسه، فضلاً منه وكرماً .

ولله ما سكن : سكن؛ من السكنى . والمعنى: ما اشتمل عليه الليل والنهار . وقيل: سكن هنا؛ من السكون

والمعنى وله ما سكن في الليل والنهار وما تحرك . فاكفى بأحد الضدين عن الآخر . كما

جاء في قوله تعالى: «... سَرَّائِلَ تَفِيكُمُ الْحَرُّ...» أى والبرد .

ولـ : أى ناصراً ومعيناً .

فطاطر : أى خالق يقال فطر الله الإنسان فطره . فطرة أى خلقه .

وهو يطعم ولا يطعم : أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد .

من يُصرف عنه يومئذ ، أى من يُبعد عنه العذاب يوم القيامة .

التفسير :

١٢- قُلْ لَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ... الآية. أى قُلْ يا محمد لهؤلاء المشركين الجاحدين المعرضين عن دعوتك : لمن هذا الكون بكل ما فيه من يملك السماء وما فيها من شمس وأقمار وملائكة وأبراج وأفلاك ؟

ومن يملك الأرض وما فيها من نبات ، وإنسان وحيوان وحشرات وإنس وجن وغير ذلك من المخلوقات ؟

إن الإجابة الصحيحة التى يعترفون بها ولا يستطيعون إنكارها ، أن هذا الكون كله قد خلقه الله . قال تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . (العنكبوت : ٦١) .

وإنما أمر الرسول ﷺ أن يتولى الإجابة عنهم لأن هذا الجواب معترف به منهم لا يسعهم إنكاره .

قال الإمام الرازى : وقوله : قُلْ لَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ . سؤال ، وقوله : قُلْ لِلَّهِ . جواب فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم الجواب ثانياً ، وهذا إنما يحسن فى الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ فى الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ، ولا يقدر على دفعه دافع ، وهنا كذلك لأن القوم كانوا معترفين بأن العالم كله لله وتحت تصرفه وقهره وقدرته^(١) .

قال الزمخشري :

والمقصود من السؤال هنا ، التبكيت والتوبيخ .

كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . أى أوجهها على نفسه لعباده فضلاً منه ومنه فهور سبحانه خالق الكون ومبدعه على غير مثال سابق ، وهو سبحانه يسمع النداء ويجيب الدعاء ، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، وهو سبحانه قريب من عباده ، متحنن على خلقه ، وهو سبحانه قَسَمَ الرحمة مائة جزء أنزل جزءاً واحداً فى الدنيا يتراحم به الناس وأخر ٩٩ جزءاً يرحم بها عباده يوم القيامة ، وهو سبحانه ، يتلطف ويتحنن على عباده فيفتح بابيه بالليل ليتوب مسيء النهار ويفتح بابيه بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وفى الحديث الصحيح : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى يا عبادى : هل من داع فأستجب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له حتى يطلع الفجر^(٢)» .

ومن رحمة الله بعباده أنه يجمعهم للجزاء والثواب والعقاب يوم القيامة ، وبذلك يثق المؤمن أن وراء هذه الدنيا داراً أخرى هي دار الجزاء العادل ، والفاجر يرتدع وينزجر ولا يتمادى فى فجوره ، ومن رحمة الله أن جعل جزاء الحسنة عشر أمثالها وجعل جزاء السيئة سيئة مثلها ، وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : «إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى» (٣١) .

وقد أفاض الأستاذ سيد قطب عند تفسير هذا المقطع من الآية فى بيان فضل الله ورحمته وكرمه ولطفه وإنعامه على عباده .

ثم نقل طائفة كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة فى بيان رحمة الله وفضله ، ثم نقل جانباً من سعة رحمة النبى ﷺ وتربيته لأصحابه على معانى الرحمة حيث بين لهم أن امرأة بغياً رأت كلباً فى يوم حار يطيف ببئر قد أخرج لسانه من العطش فنزعت خفها فسقته به فغفر الله لها (٣٢) وفى رواية عند مالك والشيخين أن رجلاً سقى كلباً فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم لأجراً ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر . (٣٣) .

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ . وهذا الجمع من سعة فضل الله ورحمته وعدله بين عباده فقد جمعهم لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء ، وقد أكد هذا المعنى بلام القسم وينون التأكيد الثقيلة ، وبقوله سبحانه لا ريب فيه . أى أنه يوم لا يتنبى لأحد أن يرتاب فيه لوضوح أدلته .

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ستكون خسارتهم شديدة يوم القيامة ، هؤلاء الذين عطلوا أماكن الإدراك فى أنفسهم ، فعموا أعينهم عن الحق ، وصموا أذانهم عن سماع النصيح ، وأغلقوا قلوبهم عن التفتيح لنداء الإيمان ، وأهدروا قواهم العقلية وعطلوها عن النظر فى آيات الله .

لقد خسروا أنفسهم فلم تعد لهم نفس تؤمن ، إن هؤلاء لم يخسروا شيئاً ويربحوا شيئاً ، إن خسارتهم كاملة فقد خسروا أنفسهم وخسروا بواعث الإيمان وخسارتهم أكبر الخسائر فى الدنيا وعند البعث والجزاء .

قال الآلوسى : فى تفسيره روح المعانى :

الفاء فى قوله: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . للدلالة على أن عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر مسبب عن خسارتهم ، فإن إبطال العقل والانهماك فى التقليد أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان .

١٣ - وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قيل المراد ما سكن في الليل والنهار ، وما تحرك فيهما .

قال القرطبي: سكن معناه هداً واستقر والمراد ما سكن وما تحرك فحذف لعلم السامع، وقيل: خصّ السكان بالذكر لأن ما يعمه السكون أكثر مما تعمه الحركة .

وقال الشوكاني في تفسيره فتح القدير :

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى كل شئ فإن الأشياء منها ما هو ساكن كل الوقت وهو الجمادات، ومنها ما يسكن في الليل وهو أغلب الحيوانات ، ومنها ما يسكن في النهار ككثير من الطيور والحشرات والسباع .

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . المطلع على كل شئ المجازي على الفتيل والقطمير ، فهو يسمع دبيب النمل في الليلة الظلماء تحت الصخرة الملساء . يَتْلُمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . (غافر: ١٩) .

ومن كان كذلك فلا يغيب عنه إيمان مؤمن ، ولا كفر كافر ولا دعوة داع ، ولا حاجة محتاج .

١٤ - قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّجِدَ وَلَيْلًا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ... الآية . أى: قل لهم يا محمد - موبخاً وزاجراً - بأى عقل أبحتم لأنفسكم الإشراك بالله ، واتخذتم من دونه معبوداً سواء مع أنه باعترافكم هو الخالق لكم وللسموات والأرض ، ولكل شئ ؟

وهو سبحانه الرازق يرزق غيره ولا يرزقه غيره، فهو الذى يرزق الكائنات الحية ويطعمها ، ويمدها بما يحفظ وجودها ويقاءها وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه .

وكيف يصح أن يكون مصدر العطاء محتاجاً إلى عطاء ؟

وكيف يتخذ المضلون من البشر أولياء مع الغنى الحميد الفعال لما يريد .

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى قل أيها الرسول بعد إيراد هذه الآيات والحجج الدالة على وحدانية الله ، إنى أمرت من خالقي أن أكون أول من يسلم له وجهه ويخصه بالعبادة، كما أنى نهيت عن أن أكون من المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى . «وصح عطف الجملة الثانية الإنشائية على الأولى خبرية لأن الأولى خبرية فى اللفظ، ولكنها إنشائية فى المعنى فكانت فى قوة الجملة الطلبية والتقدير :

كُنْ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١٥) .

١٥- قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . أَيْ قُل يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ ، الذِي دَعَوْتُ إِلَى مَشَارَكَتِهِمْ فِي عِبَادَةِ آلِهَتِهِمْ ، إِنِّي أَخَافُ عَذَابَ يَوْمٍ تُشَبِّهُ فِيهِ الْوِلْدَانُ . «وهذه الآية جملة מזלזلة على قلوب المشركين في ذلك الزمان ، وقلوب المشركين بالله في كل زمان .

جملة מזלזلة تصوّر العذاب في ذلك اليوم العظيم يطلب الفريسة، ويحلّق عليها ويهجم ليأخذها، فلا تصرفه عنها إلا القدرة القادرة التي تأخذ بخطامه فتقلّبه عنها» .^(١٦)

١٦- مَنْ يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ . تصوّر الآية هول هذا العذاب فمن نجاه الله منه وصرف عنه هذا العذاب في اليوم الآخر فقد شملته الرحمة الإلهية ، وهذا هو الفوز الأكبر ، قال تعالى: فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

وفي الآيات الخمس ١٢-١٦ من سورة الأنعام .

نجد القرآن قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: قل خمس مرات وهو أسلوب إنذارى تلقيني كثير استعماله في هذه السورة ، لأنه يلقي النبي ﷺ الحجج التي تنزل كيان المشركين ، وتأتى على بنيانهم من القواعد .

وفضلا عن ذلك فهو لون من التفنن في أسلوب الدعوة إلى الله يحتاج إليه المرشدون والدعاة .

لأن التزام أسلوب واحد في إقامة الحجة على الخصم يقضى إلى السآمة والملل ، ومن هنا فقد لون القرآن في أساليبه حتى تناسب العقول على اختلاف مداركها . قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه: ١١٣) .

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُنَّ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

المفردات:

وإن يمسسك الله: الإصابة. يقال: مسه السوء والكبر والعذاب والتعب أي أصابه ولحق به .

بضـــــر: أي ببلية كمرض أو فقر .

لأنذركم به: الإنذار إخبار فيه تخويف بخلاف التبشير فإنه إخبار فيه سرور .

ومن بلغ: معطوف على ضمير المخاطبين، أي لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه من الأسود والأحمر .

التفسير:

١٧- وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخِيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ...

بينت الآيات السابقة أن الله سبحانه هو المتصرف في اليوم الآخر، وبينت هذه الآية أن الله سبحانه هو المتصرف في شئون الدنيا .

والخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يتأتى منه الخطاب .

والمعنى وإن يصيبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا التي يختبر الله بها عباده، فلا يرجي لكشف هذا الضر غيره، إذ لا راد لقضائه ولا معقب لأمره إلا ما كان من لطفه ورحمته بعبدته حتى يستقبل القضاء برضا ويحتمله بصبر .

وإن يمسسك بخير كصحة وغنى وقوة وجاه فهو وحده قادر على حفظه عليك وإدامته لك، كما قدر على إعطائك إياه، فهو على كل شيء قدير . ومن جملة ذلك المس بالضر والخير .

والآية أصل في سلامة العقيدة وحسن اليقين، وصدق الإيمان والفتنة: بأن الله هو النافع وهو الضار فلا يجوز أن يلجأ الإنسان إلى الشفعاء والوسطاء والمتكهنات والأولياء، بل يسأل الله تعالى وحده ويخلص في الدعاء، ويأخذ في الأسباب التي تعين على دفع الضر وجلب الخير .

روى الترمذى وقال حديث حسن صحيح عن ابن عباس قال: «كنت رديف النبي ﷺ على بغلته فقال: يا غلام، إني أعلمك كلمات:

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١٧).

ومن دعاء الرسول ﷺ «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» (١٨).

وفى معنى الآية قوله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (فاطر: ٢).

١٨- وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ. قال ابن كثير: «هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجباه، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمته جلاله وكبريائه الأشياء، وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه». وهو الحكيم فى تدبير مراده، الخبير بمواضع نعمه ونقمه.

١٩- قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلِىَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ... الآية. أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذى يخاصمونك فيما تدعو إليه: أى شيء فى هذا الوجود شهادته أكبر شهادة، وأعظمها بحيث تقبلونها عن تسليم وإذعان؟

ثم أمره أن يجيب على هذا السؤال، بأن شهادة الله هى أكبر شهادة وأقواها وأزكاها، لأنها شهادة من يستحيل عليه الكذب أو الخطأ. إنه الله رب العالمين، هو الشهيد بينى وبينكم.

وأوحى إلى هذا القرآن أنذركم به ومن بلغ. لقد أنزل الله الوحي بهذا القرآن لأجل أن أنذركم به. «وأنذر من بلغ إليه من الناس جميعا.. بجميع شعوبهم. وأصنافهم، من موجود ومعدوم سيوجد فى الأزمنة المستقبلية، فأحكام القرآن شاملة للبشر والجن جميعاً ممن كان منهم موجوداً يوم الرسالة أو يوجد بعدها إذا بلغتهم دعوة الإسلام وسمعوا بهذا القرآن، وهو نذير لهم بأنهم مسؤولون عن استجاباتهم لدعوة الله وعن أعمالهم فى الدنيا عند لقاء الله» (١٩).

قُلْ لَا أَشْهَدُ . فأننا لا أشهد معكم بأن مع الله آلهة أخرى لكون هذه الشهادة من أبطل الباطل .

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ . أى أشهد بوحداية الله وأتبرؤ من الأوثان وعابديها ، ولا أقدم ولائى ولا يقينى ولا ثقتى ولا رجائى إلا لهذا الإله الواحد الأحد الفرد الصمد .

وَأَنبِئْ بِرِئْءِ مِمَّا تَشْرِكُونَ . أى من الأصنام التى تجعلونها آلهة أو من إشراككم بالله وقد أشارت الآية إلى ما يأتى :

١ - وجوب تبليغ رسالة الرسول ﷺ وفى الصحيح «بلغوا عنى ولو آية» الحديث .

٢ - شهادة الله لرسوله تتجلى فيما يأتى :

(أ) قوله: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا».

(ب) شهادة كتب الله السابقة به ، وبشارة الرسل السابقين به .

(ج) تأييد الرسول بالآيات الكثيرة التى من أعظمها القرآن فهو المعجزة الخالدة الدائمة .

٣ - شهادة الرسول لله بالوحداية ، وتتجلى فى هذه الآية الكريمة .

أى أن الآية مشتملة على شهادة الله لرسوله بالرسالة وشهادة الرسول لله تعالى بالوحداية والألوهية وأن الرسول برئى من إلحاد الملحدين وكفر الكافرين .

★ ★ ★

﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ٢١ ﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آتَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ٢٢ ثُمَّ لَنَنزِفَنَّ مِنْ أَلْفَاوَالٍ وَأَلْفِ نَارٍ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ٢٣ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢٤ ﴾

التفسير :

٢٠ - الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ... الآية . إن علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يعرفون صدق ما جاء به محمد ﷺ معرفة تماثل معرفتهم لأبنائهم الذين هم من

أصلا بهم ، فهى معرفة بلغت حد اليقين ، وذلك بسبب ما عندهم من الأخبار والأنباء من الرسل المتقدمين ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه وصفته وولده ومهاجره ، وصفة أمته .

ويجوز أن يكون المعنى :

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ . يعرفون صدق القرآن ، وإعجازه وقوته وأنه كتاب الله ، كما يعرفون أبناءهم معرفة حقيقية ، لكنهم يعرضون عن الاعتراف بالحق .

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . أى أن الكفار الخاسرين لأنفسهم بعنادهم ، وإعراضهم ، وتبردهم هم الذين لا يؤمنون بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشري: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ . من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . به .

وهذه الآية مكية . لأن سورة الأنعام كلها مكية والسياق يؤكد أنها مكية ، وذهب بعض العلماء إلى أنها مدنية وهو قول ضعيف .

قال الشيخ محمد المدنى فى تفسير سورة الأنعام :

«ويظهر أن القائلين بأن الآية مدنية . لمّا وجدوا الحديث فى هذه الآية عن أهل الكتاب . ووجدوا أن هذه الآية نظيرة لآية أخرى مدنية تبدأ بما بدأت به وهى قوله تعالى فى سورة البقرة : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (البقرة : ١٤٦) .

ومن المعروف أن صلة الإسلام بأهل الكتاب إنما كانت بعد الهجرة . وفى المدينة دون مكة ، لمّا وجدوا هذا قرروا أن الآية مدنية ، فالمسألة ليست إلا اجتهاذاً حسب رواية مسندة وهو اجتهدا غير صحيح (٣٠) .

وقد رجح الأستاذ سيد قطب وغيره من العلماء : أن الآية مكية ، واستنبط من الآية ما يشير إلى أن طائفة من اليهود والمستشرقين يعرفون أهمية القرآن وقوة الإسلام ، ويجهدون أنفسهم فى دراسات استشرافية يحاولون فيها تقديم هذا الدين بعيدا عن منابع قوته .

فقد ألفوا أن الحملات الصليبية والغزو الفكرى يستثير الهمم عند المسلمين للدفاع عن هذا الدين .

فلجأوا إلى حيلة أخرى هي مدح هذا الدين ومن خلال هذا المدح يقدمون الإسلام المستأنس ، المتفرغ للعبادة والإيمان البعيد عن الحكم والسياسية ومصادر القوة وشئون الحياة ، والقرآن بهذه الآية يلفت أنظار المسلمين حتى لا يفتروا ببناء المستشرقين على الإسلام ثم يدسّون السم في العسل وينبغي أن تأخذ كلام المستشرقين عن الإسلام بتحفظ ^(٧١) .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين: روى أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر: الله أنزل على نبيه بمكة: الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .

فكيف هذه المعرفة ؟ قال عبد الله بن سلام يا عمر ، لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بابني !! قال عمر : كيف ذلك ؟

فقال أشهد أنه رسول حقا، ولا أدري ما تصنع النساء ^(٧٢) .

٢١- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... الآية. أى لا أحد أظلم ممن اختلف على الله الكذب، فنسب إلى التوراة أو الإنجيل أو القرآن ما لم يكن فيها .

أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ . من المعجزة الواضحة البينة ، أو من آيات القرآن العظيم ، فجمع بين كونه كاذباً على الله، ومكذباً بما أمره الله بالإيمان به .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . إن هؤلاء الذين سقطوا فى أقصى درجات الكذب لن يفوزوا ولن يفلحوا «فلا عبرة بما تراه العيون القصيرة النظر ، فى الأمد القريب، فلاحاً ونجاحاً ... فهذا من الاستدراج المؤدى إلى الخسار واليوار ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟» ^(٧٣) .

٢٢- وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . أى أذكر لهم خبر

يوم القيامة يوم يجمع الله عنده بين العابدين وبين المعبودين من دون الله .

ثم نسأل الذين أشركوا ، أين الشركاء ؟

الذين كنتم تزعُمون فى الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله وأنهم يقرّبونكم إليه زلفى، ويشفعون

لكم عنده والسؤال هنا سؤال تقييع وتشهير . أى أين هى لتنفعكم ؟

قال القرطبي: وهو سؤال إفضاح لا إيضاح . وقد يخهم الله بقوله: أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ . مع أنهم

محشورون معهم ، لأنه لا نفع يرجى من وجودهم معهم ، فلما كانوا كذلك نزلوا منزلة الغائب، وجعل

وجودهم لعدم نفعه كعدم وجودهم . كما تقول لمن جعل أحدًا ظهورًا بعينه في الشدائد ، إذا لم يعنه وقد وقع في ورطة بحضرته، أين فلان؟ فتجعله لعدم نفعه ، وإن كان حاضراً كالغائب^(٧١) .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُم مَّا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . (الأنعام : ٩٤) .

٢٣- ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . يتلفت القوم إلى الشركاء فلا يجدون لهم أثراً، ويخيل إليهم من ضلالهم أن فتنتهم وكفرهم الذى لزموه مدة أعمارهم وافتخروا به قد اختفى، وأنهم لن يؤخذوا بهذا الجرم الذى لا يقوم شاهد على وجوده، فيقولون كذباً وبهتاناً : وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ .

أو أنهم حين كشف الحجاب ورأوا البيعت والحشر والحساب والجزاء وأن الملك فى ذلك اليوم لله وحده أعلنوا إيمانهم بالله، وتبرعوا من الشرك فى وقت لا ينفع فيه ذلك وقريب منه رجاء المشركين أن يعودوا إلى الدنيا ليؤمنوا حيث يقولون: لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَوِّنُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ١٠٢) .

قال أبو إسحاق الزجاج: تأويل هذه الآية لطيف جداً ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين فى حبه، فذكر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقتلوا عليه ، وافتخروا به ، وقالوا إنه دين آبائنا ، لم يكن حين رأوا الحقائق إلا أن تبرعوا من الشرك ، وأقسموا على عدم التدبير به .

ونظير هذا فى اللغة ، أن ترى إنساناً يحب شخصاً مذموم الطريقة ، فإذا وقع فى محنة بسببه تبرأ منه، فيقال له: ما كانت عاقبة محبتك لفلان : إلا أن تبرأت منه وتركته .

وجاء فى تفسير القرطبي ما يأتى:

قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص دنوبهم ، ولا يتعاضم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك ، قالوا : إن ربنا يغفر الذنوب ، ولا يغفر الشرك، فتعالموا نقل: إنا كنا أهل ذنوب، ولم نكن مشركين.

فقال الله تعالى: أما إن كنتموا الشرك فاختموا على أفواههم فيختم على أفواههم ، فتتطق أيديهم وتشهد أنجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك ، يعرف المشركون : أن الله لا يكتُم حديثاً، فذلك قوله:

يَوْمَئِذٍ يُوَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسْوَىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا . (النساء : ٤٢) .

٢٤- انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ... الآية. أى انظر وتأمل وتعجب أيها العاقل كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم حين قالوا: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . فأنكروا ما وقع منهم فى الدنيا من الشرك. وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . أى زال وذهب افتراءهم ، وتلاشى وبطل ما كانوا يظنونونه من أن الشركاء يقرّبونهم إلى الله، وفارقهم ما كانوا يعبدون من دون الله، فلم يغن عنهم شيئاً .

قال الزمخشري :

فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور ، مع أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما خبرة ودهشاً: ألا تراهم يقولون رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، وَنَادُوا يَامَالِكُ ابْقِصْ عَلَيْنَا رَبِّكَ .. وقد علموا أنه لا يقضى عليهم^(٢٥) .

★ ★ ★

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ فِيءِ آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٍ بَرَوَّا كَلَّ ءَابِئِهِ لَا يُؤْمِنُونَهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ مُجِئِينَ لَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

المفردات:

أَكِنَّةٌ ، الْأَكِنََّةُ: الأغطية. جمع كنان .

وقرأوا بالفتح: الثَّقَلُ في السمع، يقال: وَفَرَّتْ أَدْنُهُ من باب تَعِبَ ووعِدَ صَمَتٌ وَثَقُلَ سَمْعُهَا.

يَجَادِلُونَكَ ، يخاصمونك وينازعونك .

أَسَاطِيرُ ، أباطيل .

وَيَتَنَوَّعُونَ عَنْهُ ، أى: يبعدون عنه .

التفسير:

٢٥- وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ... أى ومن هؤلاء المشركين والمكذابين من يستمع إليك استماع استعلاء وانتقاد فلا تتفتح قلوبهم للحق ولا تستجيب للهدى، فقد جعل الله عليها أغطية معنوية، من التكبر والعناد فلا يفقهون القرآن ولا يستجيبون لداعى الرحمن .

جاء فى كتب التفسير^(٧٦) روى عن ابن عباس قال:

حضر عند النبى ﷺ أبو سفيان ، والوليد بن المغيرة ، والنضر بن الحارث ، والحارث بن عامر ، وأبو جهل ، فى جمع كثير ، واستمعوا إلى النبى ﷺ ، وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر يا أبا قتيلة ، ما يقول محمد ؟ فقال الذى جعل الكعبة بيته ، ما أدرى ما يقول ، إلا أنى أراه يحرك شفتيه ، ويتكلم بأساطير الأولين ، مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية – وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى ، يحدث قريشاً بما يستملحونه ، قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول محمد حقاً ، فقال أبو جهل : كلاً ... فأنزل الله الآية : وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .

قال السيد رشيد رضا : وجعل الأكنة على القلوب ، والوقر فى الآذان فى الآية من تشبيه الحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية ، فإن القلب الذى لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالعاء الذى وضع عليه الكن أو الكتان ، وهو الغطاء حتى لا يدخل فيه شىء ، والآذان التى لا تسمع الكلام سمع فهم وتدبر كالآذان المصابة بالنقل أو الصمم ، لأن سمعها وعدمه سواء .^(٧٧)

وقال الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة :

«وهنا يسأل سائل : إذا كان منع الهداية من الله تعالى بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها ، وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر ، فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حساباً عسيراً بالعذاب الآليم ؟

والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، يسير الأمور وفق حكمته العليا ، فمن يسلك سبيل الهداية يرشده وينير طريقه ويثبتته ، ومن يقصد إلى الغواية ويسير فى طريقها تجيئه النذر تبعاً إنذاراً بعد إنذار ، فإن أيقظت النذر ضميره ، وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وأمن بعد كفر ، ومن لم تجر فيه النذر المتتابة ، ولم توقظ له ضميراً ، ولم تبصره من عمى ، فقد وضع الله تعالى على قلبه غشاوة وفى آذانه وقراً^(٧٨) .

وَأَنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ... الآية .

لقد عطلوا منافذ الإدراك فى قلوبهم ونفوسهم فإذا شاهدوا الآيات الدالة على صحة نبوة النبى محمد ﷺ أعرضوا عنها عناداً واستكباراً مع وضوح حجتها وظهور الحق فيها .

لأن قلوبهم وأسماعهم مستغرقة فى أنانيتهم وعنجهيتهم ، فلا تستجيب للإيمان ولا تقبل الهدى .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . والمعنى أنهم بلغوا من الكفر والعناد أنهم إذا جاءوك محاولين منكرين للحق لم يكتفوا بمجرد عدم الإيمان ، بل يبحثون عن أسباب الرد والتكذيب ، ويتلمسون أوجه الشبهات البعيدة فيصفون القرآن بأنه يحكى أساطير الأولين، حين يحكى عن أخبار الأمم الغابرة من باب التمثل والتماس أوهى الأسباب .

ورد أن مالك بن النضر كان يحفظ أساطير فارسيه عن رستم واسفنديار من أبطال الفرس وكان يجلس مجلساً قريباً من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو القرآن ، فيقول للناس: إن كان محمد يقص عليكم أساطير الأولين، فعندى أحسن منها ، ثم يروح يقص عليهم مما عنده من الأساطير فيصرفهم عن الاستماع إلى القرآن الكريم .

٢٦- وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ ... الآية. النهى : الزجر ، والنأى : البُعد . والمعنى أن هؤلاء المشركين لا يكتفون بمحاربة الحق، بل يزجرون الناس عن اتباعه، ويبيدون أنفسهم عن الاستماع إليه والإنصات إلى صوت القرآن وجمال الوحي وقريب منه قوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت: ٢٦) .

وَأَن يُلْكَؤْنَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . إنهم حين يحاربون الإيمان فى أنفسهم، ويمنعون غيرهم عن الإيمان، لا يلهكون أحداً بهذا التصرف الأحق إلا أنفسهم . وما يشعرون بهذا البلاء الذى جلبوه على أنفسهم، حيث عرضوها لسخط الله فى الدنيا وعقابه فى الآخرة .

وقيل إن هذه الآية نزلت فى أبى طالب حيث كان ينهى الكفار عن إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم أو التعرض له بسوء ، ولكنه فى الوقت نفسه يبتعد عن دعوته فلا يؤمن بها . مع اعترافه بأن الإسلام هو الدين الحق، ومما روى عنه فى هذا المعنى قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة	وأبشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى	فلاقد صدقت وكنت قبل أمينا
وعرضت ديناً قد عرفت بأنه	من خير أديان البرية ديننا
لولا الملامة أو حذار مسبة	لوجدتني سمحاً بذاك يقينا

وإذا تأملنا السياق وجدنا أنه في الحديث عن المشركين منهم الذين كانوا يَحْرُضُونَ الناس على إيذاء النبي ﷺ وعلى الابتعاد عنه .

وهذا يرجع أن الآية لم تنزل في أبى طالب ، وإنما نزلت في مشركى مكة .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٧ ﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢٨ ﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا أَحْيَانُنَا الدُّنْيَا وَمَا حُنَّ بِمَبْعُوثِينَ ٢٩ ﴾

المضردات،

ولوترى إذ وقعوا على النار : حُسِسُوا عليها يوم القيامة ، ومن معانى الوقف الحبس .

يَٰلَيْتُنَا نُرَدُّ : أى إلى الدنيا

بل بدا لهم ما كانوا يخفون : أى ما كانوا يخفون من نفاقهم وقبح فعالهم .

التفسير :

٢٧- وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . من أسلوب القرآن التنويع وتصريف القول .

وقد كان يحكى عن الكافرين إعراضهم عن الإيمان ومنعهم الناس منه، وهنا يعرض مشهداً رهيباً ، تذهب النفس فيه كل مذهب .

تَو . شرطية حذف جوابها لتذهب النفس فى تصوّره كل مذهب وذلك أبلغ من ذكره .

والمعنى : لو ترى يا محمد أو أيها السامع ، ما يحل بهؤلاء الكفار المعاندين من الفزع حين حُسِسُوا بقرب النار، معانين لها ، لرأيت شيئاً مخيفاً لا يحيط به الوصف ، وهولاً مفزعاً لا تدركه العبارة .

وحين يعاينون هذه الأهوال يتمنون الرجوع إلى الدنيا ، والإيمان بما كذبوا به فى حياتهم .

وفى التعبير بقوله تعالى عَلَى النَّارِ . مما يشعر بأنهم سيسقطون فيها وتبتلعهم ، وأنه لا مفر من ذلك .

فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . أى يقول هؤلاء المشركون حين يرون النار ويحبسون عليها ، ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحاً ، ولا نكذب بآيات الله وحججه التي نصبها على وحدانيته وصدق رسله ، بل نكون من المصدقين بالله ورسله والمتبعين لأمره ونهيه . وفى تمنيههم الرد إلى الدنيا ، دليل على أنهم يلجأون حتى إلى المستحيل ، وهو عودتهم إلى الدنيا ، لشدة الضيق والحرج الذى هم فيه .

٢٨- بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ... الآية . والمعنى ليس الأمر كما يوهمه كلامهم فى التمنى من أنهم يريدون العودة إلى الدنيا للهداية والإيمان ، بل ظهر لهم ما كانوا يخفون من النفاق والكفر وسوء الأعمال ، وعرفوا أنهم هالكون بشركم فعدلوا إلى التمنى والمواعيد الكاذبة . ويحتمل أن المراد: ظهر لهم حقيقة ما كانوا يخفونه فى قلوبهم من صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى أخباره ، وإن ادعوا فى مجامعهم تكذيبهم له .

وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. ولو ردوا إلى الدنيا حسبما تمنوا لعادوا لفعل ما نهوا عنه من القبائح التى رأسها الشرك .

وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فى وعدهم بأن يكونوا مؤمنين ، وإنما يقولون ذلك لمجرد الخلاص مما هم فيه . كما عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند فالآية الكريمة تصور ما طبع عليه هؤلاء الجاحدون من فجور وعناد وإفتراء ، لأنهم حتى لو أجيبوا إلى طلبهم - على سبيل القرض والتقدير- لما تخلفوا عن كفرهم ، واتباع شهواتهم ، ومحاربتهم للأنبياء والمصلحين .

٢٩- وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَعْرِينَ . أى قال هؤلاء المشركون ليس هناك حياة سوى الحياة الدنيا ، ننعيم فيها بكل ما نشتهى ، ونتمتع بما استطعنا من متع وليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء .

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية تنتمى للآية السابقة لها من حيث المعنى .

والتقدير . ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر وسوء الأعمال .

وقالوا ما الحياة إلا حياتنا الدنيا . ويكون قوله تعالى وَأَنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . جملة اعتراضية .

وفى تفسير هذه الآية تكلم صاحب الظلال كلاماً طويلاً عن حكمة الإيمان بالحياة الآخرة، فهى تجعل المؤمن غير محصور فى هذه الدنيا، بل يمتد إيمانه عبر الزمان والمكان، فيؤمن بدار آخرة فيها جنان عرضها السماوات والأرض، ومن هذا الإيمان يقوى يقينه حين يجاهد لإصلاح هذه الدنيا وإخفاق الحق ومحاربة الباطل .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ۝٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ لِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٣٢﴾

المفردات:

جاءتهم الساعة : الساعة : القيامة .

بغتة : فجأة .

ياحسرتنا : الحسرة : الندم الشديد على ما فات .

على ما فرطنا : التفريط : التقصير .

أوزارهم : أثامهم الكبيرة .

لعب ولهو : اللعب واللهو كلاهما ، الاشتغال بما لا يفيد العاقل ولا يهيمه .

التفسير:

٣٠ - وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ... الآية .

تتوالى مشاهد القيامة على هؤلاء المكذبين، فمن مشهد الحشر والمحاكمة، إلى مشهد الوقوف على النار وهنا مشهد الوقوف على أمر ربهم فيهم . فهو المالك المتصرف فى ذلك اليوم .

والمعنى: ولو ترى - أيها المتأمل - هؤلاء المعاندين المكذبين ، وقد حبسوا على ما يكون من قضاء ربهم فيهم، لهالك أمرهم ولرأيت مالا يحيط به نطاق الكلام .

وجعلهم موقوفين على ربهم ، لأن من تفقه الملائكة، وتحبسهم فى موقف الحساب امتثالاً

لأمر الله فيهم كما قال تعالى: وَقُتُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (الصفات: ٢٤). يكون أمرهم مقصوراً على الله ، حيث لا سلطان فيه لغيره عز وجل : يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ. (الانفطار: ١٩).

فهم وقد انتهى بهم الموقف إلى ما هم فيه من بلاء ، لا يقتصر أمرهم على ذلك ، بل يسألون سؤال تأنيب وتبكيث : أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ . أى أليس هذا البعث الذى تنكرونه كائننا موجوداً ، وهذا الجزء الذى تجدونه حاضراً ؟

قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا . قالوا بلى: أى ما نحن فيه من الشدائد والأحوال حق نستحقه ولا شك فيه، وهكذا اعترفوا بما أنكروا وأكدوا اعترافهم بالقسم .

قَالَ فُلُوقُ الْعَذَابِ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أى فباشروا العذاب ، وانغمسوا فى آلامه وأحواله بسبب كفركم الذى كنتم مصيرين عليه دائبين فيه .
والذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بالعذاب بعد أن وقعوا فيه .

٣١- قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... الآية. لقد خسروا فى الدنيا حين ضحوا بالحق والعدل والإيمان وأقبلوا على الشهوات وغرهم حطام الدنيا عن الآخرة، وخسروا فى الآخرة حين رأوا ما أعد الله للمؤمنين ، كما خسروا العزاء الروحى ، الذى يغرس فى قلب المؤمن الطمأنينة والصبر عند البلاء لأن المؤمن يعتقد أن ما عند الله خير وأبقى ، بخلاف الكافر فإن الدنيا منتهى آماله .

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً . أى وما زال هؤلاء على التكذيب حتى فاجأتهم الساعة بغتة بغير انتظار .

قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا . أى قالوا متحسرين بأسلوب النداء ، للإشارة إلى شدة وقع المفاجأة عليهم ولذلك نادوا الحسرة نداء تفجع وقالوا: يا حسرتنا أقبلى فهذا أوانك، فإننا لم نستعد لهذا اليوم بل أهملناه ولم نلتفت إليه .

وعلى ذلك يكون المراد بالساعة يوم القيامة ، وقيل المراد بالساعة وقت مقدمات الموت . فلما كان الموت من مبادئ الساعة سمى باسمها ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من مات فقد قامت قيامته» (٧٩).

وسميت القيامة ساعة ، لسرعة الحساب فيها ، ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة ، فانية ، وأخرى باقية .

وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ . أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم .

والعنى: أنها لزمتمهم الآثام فصاروا مثقلين بها كأنها على الظهر .

وقيل إن الكلام على حقيقته ، وأنهم سيحملون ذنوبهم على ظهورهم فعلاً حيث إن الذنوب والأعمال ستجسم يوم القيامة ، وبهذا رأى قال كثير من أهل السنة .

أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ . أى يئس ما يحملون . أى يحشرون وما أثموا به على ظهورهم بغية تعذيبهم به .

قال الأستاذ سيد قطب: ومشهدهم كالدواب الموترة بالأحمال وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ .

بل الدواب أحسن حالاً ، فهي تحمل أوزاراً من الأثقال ولكن هؤلاء يحملون أوزاراً من الآثام ، والدواب تحط عنها أوزارها فتذهب لتستريح ، وهؤلاء يذهبون بأوزارهم إلى الجحيم ، مشيعين بالتأثيم .

٣٢- وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... الآية . أى أن هذه الحياة التى نعتها الكفار بأنها لا حياة

سواها وما هى إلا لهو ولعب لمن يطلبها بأناية وشرة ، من غير استعداد لما يكون وراءها من حياة أخرى فيها الحساب والجزاء وفيها النعيم الذى لا ينتهى .

فالحياة الدنيا لعب ولهو لمن اتخذوها فرصة للتكاثر والتفاخر وجمع الأموال من حلال وحرام ، ولم يقيموا وزناً للأعمال الصالحة التى كلفهم الله تعالى بها .

أما بالنسبة للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، فإن الحياة الدنيا تعتبر وسيلة إلى رضا الله الذى يظفرون به يوم القيامة .

وَلِلَّذِينَ آمَنُوا خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ . أى وللحياة الآخرة ، أكثر نفعاً وأعظم أجراً للذين اتقوا ربهم وأطاعوا أمره واجتنبوا نواهيه ، فكانوا فى الدنيا عاملين للخير ، سابقين لأهل الدنيا فى الدنيا وسابقين لهم فى الآخرة .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أى أفلا تعقلون عما فى الآخرة من ثواب ونعيم ، فلا تعقلون أن الانصراف إلى الدنيا مهلك ، وأن العمل للآخرة والإقبال عليها ، هو السعادة والنجاة ؟

والاستفهام فى قوله تعالى: أَفَلَا تَعْقِلُونَ . للحث على التدبر والتفكر والموازنة بين اللذات العاجلة الفانية فى الدنيا وبين النعيم الدائم الذى يكون فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .**

أى أنتم لقصر نظركم تفضلون الدنيا لأنها أمام عيونكم الفانية ، والآخرة أطول نعيماً وأبقى خلوداً ولو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى لوجب إثبات ما يبقى على ما يفنى فكيف والحال إن الدنيا من خزف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى :

إنما الدنيا كـبيت نسجته العنكبوت
كل ما فيها كـعمري عن قريب سيموت
إنما يكفيك منها أيها الرغاب موت

★ ★ ★

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَنَةِ اللَّهِ يَـحْجَدُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴿

المفردات :

لَيَحْزَنُكَ : الحزن؛ الشعور بالألم عند وقوع مكروه .

يَـحْجَدُونَ : الجحد والجحد : نفى ما فى القلب إثباته أو إثبات ما فى القلب نفيه .

كَلِمَاتِ اللَّهِ : المراد من كلمات الله ؛ وعده للمؤمنين ، وعيده للكافرين .

نَبِيًّا : النبأ؛ الخبر ذو الشأن العظيم .

كَبُرَ عَلَيْكَ : شق عليك .

نَفَقًا : الطريق النافذ، والسرب فى الأرض النافذ فيها، وله مدخل ومخرج .

أَوْ سُلَّمًا : السلم الدرج، مشتق من السلامة لأنه يسلك إلى الوضع الذى تريده .

الْجَاهِلِينَ : الجهل هنا ضد العلم، والمراد منه الجهل بما ينبغى العلم به .

التفسير:

٣٣- قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . كان صلى الله عليه وسلم حريصاً على هداية قومه، وكان يشق عليه تكذيبهم لهم ، وهنا يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم .

قد أحاط علمنا بحزنك مما يقوله هؤلاء المعاندون، وأنت مشفق عليهم من لجاجهم وشططهم ، ونحن معك أيها الحزين الأسف على كفر قومه .
إنهم لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر .

ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم لقد كانت فيها طبقات من الأغنياء والمترفين وهم أعرف الناس بصدق محمد وصدق رسالته ولكن الحرص على منافع الدنيا ، وقوة الجود والإعراض عن الحق دفعتهم إلى المكابرة والعناد وعدم الدخول في الإسلام .

وقد وردت روايات متعددة تدل على اعترافهم بصدق الرسول ، ولكن الحسد والغيرة والدوافع الشخصية والأنانية تحركت في صدورهم فمنعتهم من الاستجابة للحق .

قال سفيان الثوري عن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك يا محمد ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

وقد أورد صاحب الظلال طائفة من الروايات والأحاديث تؤيد اعتراف القوم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

من ذلك ما رواه ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري: أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق . خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلي من الليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائهم لأوقعتهم في نفس شيتاً ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه وفعلوا مثل ذلك في الليلة الثالثة، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك .

والقصة طويلة وهي تؤكد تصديق باطنهم للنبي ثم مكابرة عقولهم ، ورفضهم الإنعان حرصاً على مصالحهم الدنيوية .

وعن أبى يزيد المدنى أن النبى ﷺ لقي أبا جهل فصافحه فقال رجل لأبى جهل: ألا أراك تصافح هذا الصابى؟

فقال والله إنى لأعلم أنه لنبى ، ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

فآية الكريمة مسوقة على سبيل الاستئناف لتسلية النبى ﷺ عما كان يصيبه من المشركين. وفى معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاغِعٌ نفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف: ٦) .

ومنها قوله تعالى: فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . (فاطر: ٨) .

ومنها قوله تعالى: فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . (يس: ٧٦) .

ومن ذلك قوله تعالى: فى شأن قوم فرعون وتكذيبهم بمعجزات موسى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل: ١٤) .

٣٤- وَلَقَدْ كَلَّمْتُ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنَاهُمْ نَصْرَنَا ... الآية. هذه الآية من جملة التسلية لرسول الله ﷺ ببيان ما عاناه الرسل السابقون بالدعوة ، حتى جاءهم نصر الله .

أى فاقتد بالرسل الذين من قبلك ، ولا تحزن ، واصبر كما صبروا على ما كذبوا به وأودوا ، حتى يأتيك نصرنا ، كما أتاهم ، وأنت منصور على المكذبين ، ظاهر عليهم ، وقد كان ذلك والحمد لله .

وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ . أى لا مغير لكلمات الله وآياته التى وعد فيها عباده الصالحين بالنصر على أعدائه ، فسنه الله مستمرة وقوانينه باقية وأحكامه لا تنقض ، ووعد لا يتخلف .

بيد أن الله لا يعجل لعجلة العباد ويمهل ولا يهمل ومن قوانينه أن يبارك المجاهدين ، وأن ينصر المرسلين .

قال تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١) .

وقال سبحانه: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِمُرْسِلِينَ • إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ • وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الصفات: ١٧٨ : ١٧٣) .

وقال تعالى: إِنَّا كُنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . (غافر: ٥١) .

وبعض العلماء المحققين يرى أن المراد بكلمات الله شرائعه وصفاته وأحكامه وسننه في كونه، ويدخل فيها دخولا أو ليّا ما وعد الله به أنبياءه وأوليائه من النصر والظفر ، وهذا الرأي أرجح من سابقه لأنه أعم وأشمل .

وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمُورِ . أى ولقد قصصنا عليك من أخبار الرسل ما يثبت قوّادك ويطمئن نفسك ويبين كيفية إنجاء الله لهم ومن معهم من المؤمنين، وكيف أهلك الله المكذّبين .

قال تعالى: وَكَلا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ . (هود: ١٢٠)

٣٥- وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ... الآية.

كان النبي ﷺ يكبر عليه إعراض قومه ، ويتعاطفه ويحزن له ، وقد شاءت إرادة الله تعالى أن يعطى الإنسان الفعل والإرادة والاختيار ، والتنوع فى الاستعدادات، والتنوع فى استقبال دلائل الهدى وموجبات الإيمان ، والتنوع فى الاستجابة لهذه الدلائل والموجبات، قال تعالى: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود: ١١٨، ١١٩) .

ومعنى الآية :

وإن كان يا محمد شق عليك إعراض قومك عن الإيمان ، وظننت أن إتيانهم بما اقترحوه من آيات يكون سبباً فى إيمانهم ، فإن استطعت أن تطلب مسلّكاً عميقاً فى جوف الأرض، أو درجاً ترتقى عليه إلى السماء لتأتيهم بما اقترحوا من مطالب فافعل، فإن ذلك لن يفيد شيئاً لأن هؤلاء المشركين لا ينقصهم الدليل الدال على صدقك ، ولكنهم يعرضون عن دعوتك عناداً وجوداً .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى . أى ولو شاء الله هداية الناس جميعاً، لجمعهم على ذلك، ولكن لم يرد ذلك ، حتى يتحقق معنى التكليف والاختبار والابتلاء والامتحان ، وكافاً الإنسان أو يعاقب حسب اختياره بدون قسر أو إجبار، والله الحكمة البالغة وهو الحكيم العليم .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . بحكمة الله فى خلقه ويسنته التى اقتضاها علمه .

قال الإمام الشوكانى: فإن شدة الحرص ، والحزن لإعراض الكفار عن الإجابة ، قبل أن يأذن الله بذلك هو صنيع أهل الجهل ، ولست منهم .

وقال الأستاذ سيد قطب : من عدل الله تنوع الجزاء على الهدى والضلال لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني ولكنه أمرهم بالهدى ، وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية ، وتلقى الجزاء العادل فى نهاية المطاف ، فاعلم ذلك ولا تكن ممن يجهلون .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ .. يا لهول الكلمة ! ويا لحسم التوجيه ! ولكنه المقام الذى يقتضى هول الكلمة وحسم التوجيه.

وفى القرآن الكريم: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (القصص: ٥٦)

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٦)

المفردات:

إنما يستجيب : الاستجابة، هي الإجابة المقارنة للقبول .

والموتى : الكفار . تشبيها لهم بالموتى .

التفسير:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ . بين الله فى آيات سابقة إعراض المشركين عن سماع دعوة الإسلام والاستجابة لها ، بسبب تعطيل مواهبهم عن التلقى والقبول . فقد أعرضوا بقلوبهم عن الاستجابة للحق فختم عليها جزاء عنادهم وكفرهم .

وفى هذه الآية يوضح الحق سبحانه للنبي ﷺ أهل الإيمان والاستجابة ، ومعنى الآية .

ما يجيبك يا محمد إلى الهدى، ويقبل منك شريعة الإسلام إلا الأحياء بقلوبهم الذين يسمعون سماع تفهم حسبما تقضيه العقول وتوجهه الأفهام .

وهؤلاء المشركون الذين لم يجيبوك ، ولم يهتدوا بهديك يشبهون الموتى ، لفقدهم ما يميز الأحياء عن الأموات ، من السماع والتدبر .

وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ . الواو للاستئناف وجوباً ولزم الوقف قبلها .

والمعنى: والموتى يحييهم الله يوم القيامة .

لَمْ يَلِيْزُ جُوعًا . للحساب والجزاء ، فلا يشق عليك إغراضهم وأمرهم إلى الله الذى سيتولى عقابهم حين يبعثهم .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُنْصِرُ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات:

لَوْلَا : حرف يدل على الحث والتضييض مثل: هلاً .

نَزَّلَ : المقصود من التنزيل ؛ الإظهار .

آيَةً : الآية ، العلامة ، والمراد بها هنا : معجزة كونية تلجئهم إلى الإيمان .

كجعل الصفا ذهباً .. وسنوضح ذلك .

دَابَّةٌ : الدابة؛ ما يذب على الأرض ، أى يمشى على هيئته .

أُمَمٌ : جمع أمة بمعنى : جماعة .

التفسير:

٣٧- وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ . تذكر هذه الآية جانباً من تعنت المشركين ، فقد أنزل الله القرآن على رسوله ، وهو خطاب الله الأخير اشتمل على فنون الإعجاز فهو معجز بنصه وروحه ولفظه ومحتواه تحدى به العرب والإنس والجن وسيظل آية باقية محفوظة إلى يوم القيامة .

بيد أن المشركين لم تكفهم هذه الآية العقلية بل طلبوا آية مادية تضطربهم إلى الإيمان كنزول الملائكة برأى ومسمع منهم ، أو تنق الجبل أو تحويل الصفا ذهباً ، أو تفجير أرض مكة ينابيع وبساتين وزحزحة الجبال من قلب مكة إلى ما حولها ، أو يكون للنبي ﷺ بيت من ذهب ، إلى غير ذلك من الآيات الملموسة التى اقترحوها فى سورة الإسراء فى الآيات ٩٠ : ٩٣ .

والمتمأمل فى هذه الآيات المادية يرى أن الباعث عليها هو التعنت والعناد .

فلو كانوا طلاب حق لكفاهم ما أيد الله به رسوله من القرآن كما أيد الله ببعض المعجزات المادية التى وردت فى السنة الصحيحة ومنها .

انشقاق القمر ، ونزول المطر بدعاء النبي ﷺ ورفع بدعائه أيضاً، وتكثير الماء والطعام وحنين الجذع ، وغير ذلك .

وقد بين الحق سبحانه الحكمة في عدم الاستجابة لمطالب المشركين فقال: قُلْ إِنْ أَلَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . لقد مضت سنة الله في إنزال الآيات المادية أن يهلك المكذبين إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وهو يعلم أنهم سيجحدون بالآيات بعد وقوعها كما وقع من الأقوام قبلهم .

فيحق عليهم الهلاك ، بينما يريد الله أن يهملهم ليؤمن منهم من يؤمن ، فمن لم يؤمن استخرج الله من ظهره ذرية مؤمنة ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم في إهمالهم ، وذلك بعدم الاستجابة لاقتراحهم الذي لا يعلمون جرائره قال تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الإسراء: ٥٩) .

وقل عز شأنه: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال: ٣٣) .

٣٨- وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ... الآية.

لفت القرآن نظر المخاطبين في هذه الآية إلى بديع خلق الله وجميل صنعه .

فكل ما يدب على وجه الأرض من حيوان وحشرات وهوام وزواحف وفقاريات .

وكل ما يطير بجناحيه في الهواء - وهذا يشمل كل طائر من طير أو حشرة أو غير ذلك من الكائنات الطائرة - ما من خلق حي في هذه الأرض كلها إلا وهو ينظم في أمة ذات خصائص واحدة، وذات طريقة في الحياة واحدة كذلك ، شأنها في ذلك شأن أمة الناس .

والمقصود من قوله: إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ . بيان أن حيوانات الأرض والبحر، وطيور الجو، إنما هي جماعات وطوائف لها مثل ما لنا من الخصائص في الجملة .

فالنمل مثلاً أمة أرضية لها تدبيرها في السعي على رزقها ، وجمعه في أبحارها ، استعداداً لفصل الشتاء ، لتقتات به وهي مختبئة فيها طول الفصل . كما أن لها أميرة منها توجهها ، وتنظم مصالها ، ولها لغة تتفاهم بها .

كما يدل على ذلك قوله تعالى: حَتَّى إِذَا تَوَّأْنَا عَلَىٰ وَادِ الثُّمُلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (النمل: ١٨) .

وقد فهم سليمان عليه السلام لغتها قال تعالى: فَتَسَمَّ صَاحِبُكَ مِنْ قَرْيَةٍ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ. (النمل: ١٩).

كما فهم سليمان صوت الهدهد، وتبين أن للهدهد رسالة فاضلة حيث اكتشف وجود مملكة سبأ وحملهُ سليمان رسالة إلى بلقيس، وتمت القصة بإسلام بلقيس ودخولها في طاعة الله رب العالمين، وكذلك للنحل لغة ومملكة ورئيسة يطلق عليها لغة «اليعسوب» وهذه الأميرة توجه أمتها من النحر وتدبر أمرها، ولها نظام في السعي على الرزق وبناء بيوت هندسية دقيقة تجمع فيها العسل، وتحتضن البيض إلى غير ذلك من شئونها المختلفة.

قال تعالى: وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الْمَمَرَاتِ ... الآية. (النحل: ٦٨: ٦٩).

وهكذا شأن سائر الحيوانات الأرضية والبحرية والطيور الجوية، فالآية فتحت آفاقا من العلم عن أمم أخرى: لها خصائص تقرب من خصائصنا، ظلت مجهولة حتى عرفها الباحثون أخيراً عن طريق التجربة.

مَا قَرَّظْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ.

مَا قَرَّظْنَا. ما ضيعنا أو ما أهملنا

الْكِتَابِ. اللوح المحفوظ، أو كتاب الكون، أو القرآن الكريم.

والمعنى:

١ - لقد أثبتنا في اللوح المحفوظ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

٢ - أو أن هذا الكون منظم بديع قد أتقن الله صنعه ويسر لجميع المخلوقات أرزاقها وحياتها ومعاشها. كما يسر حركة الكون بما فيه من سماء وفضاء وأرض وأفلاك وأملاك.

٣ - أو ما تركنا في القرآن شيئاً من الأشياء الهامة في الدنيا والدين، ومن جملتها بيان أنه تعالى مراع لصالح جميع مخلوقاته على ما ينبغي.

قال الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن :

إن هذه الآية القصيرة ، لتهز القلب بما ترسم من آفاق الإشراف الشامل أو التدبير الواسع، والعلم المحيط والقدرة القادرة لله ذى الجلال .

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. تحشر جميع الأمم من أول آدم إلى يوم القيامة وتقف أمام الله للحساب والجزاء.

وقيل المراد من الحشر المذكور حشر الكفار والمراد بالحشر لازمه وهو الحساب والجزاء .

وقيل المراد من الحشر حشر دواب الأرض وطيور الجو كما يحشر الناس، فينصف الله بعضهم من بعض روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال :

«لَتَرُدُنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» ^(٨٠) .

والشاة الجلحاء : التي ليس لها قرن .

وهذه الحيوانات وإن كان القلم لا يجرى عليها فى الأحكام ولكنها تؤاخذ فيما بينها .

والحديث مقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه، أنه لا بد لكل أحد منه .

وقد صحح هذا الوجه الإمام القرطبى فى تفسيره للآية .

وقال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

فإن قلت ما الغرض من ذكر هذه الآية ، قلت الدلالة على عظم قدرة الله وسعة سلطانه ، وتدبير الخلائق متفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف وهو حافظ لما لها ، وما عليها ، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن وأن المكلفين ليسوا مخصصين بذلك دون من عداهم من سائر الأمم...

وفى ختام الآية . ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ. ويرى بعض العلماء أن المراد بحشر البهائم موتها،

ويرى آخرون أن المراد بعثها يوم القيامة لقوله تعالى وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ .

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوهُمْ وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

المفردات:

صُمُّوهُمْ : جمع أصم، وهو ؛ من ثَقُلَ سمعه .

وبُكِّمُوا : جمع أبكم وهو من لا يستطيع الكلام خلقه ففعله بكم بكم بكم .

صِرَاطٍ : طريق جمعه صُرُط ، وأصله السراط بالسين .

التفسير:

٣٩- وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوهُمْ وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ ... الآية. بينت الآية السابقة أن الكون كله منظم مهياً للمعاش، يدلُّ دلالة واضحة على أن يدًا حكيمة ترعاه وتمسك توازنه ونظامه بيد أن بعض الأشقياء يعرض عن رؤية هذه الدلالات ببصيرته، أو يعرض عن استماع آيات القرآن استماع تفهم أو استجابة، هؤلاء الذين كذبوا بآيات الله القرآنية أو الكونية ولم يهتدوا بهدائها، مثلهم كمثّل الصم الذين لا يسمعون، البكم الذين لا يتكلمون، الذين احتوتهم الظلمات فلا يبصرون، فكيف يهتدى هؤلاء إلى سواء السبيل وهم بهذه الهيئة ؟

مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. هذه الجملة مقررّة لما سبق من حالهم، مقيدة أنهم مقيمون على الضلال فلا يستغرب تكذيبهم.

والمعنى : مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضْلِلْهُ . لفساد طويته واختياره الضلالة على الهدى وَمَن يَشَاءُ . هدايته - لحسن اختياره - يجعله على طريق مستقيم في العقيدة والأخلاق ويوفقه لصالح الأعمال .

★ ★ ★

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَيْنَاكُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ آتَيْنَاكُمْ السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

المفردات:

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

السَّاعَةُ : هي القيامة. وسميت بذلك لأنها تَفْجَأُ الناس في ساعة علمها عند الله . والمراد بها أهوالها.

وتنسئون: وتتركون.

التفسير:

٤٠- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، تبكيتم لهم على عبادة الله تعالى ، أخبروني عن حالكم عندما يداهمكم عذاب الله الدنيوى كزلزال مدمر . أوريح صرصر عاتية ، أو تفاجنكم الساعة بأهوالها وشدايدها، ألستم فى هذه الأحوال تلتجئون إلى الله وحده ، وتنسون ألهتكم الباطلة لأن الفطرة حينئذ هى التى تنطق على ألستكم بدون شعور منكم؟ وما دام الأمر كذلك فلماذا تشركون مع الله آلهة أخرى ؟

إن أحوالكم هذه لتدعو إلى الدهشة والغربة ، لأنكم تلتجئون إليه وحده عند الشدائد والكروب ، ومع ذلك تعبدون غيره ، ومن لا يملك ضراً ولا نفعاً .

ثم أكد سبحانه أنهم عند الشدائد يلجئون إلى الله تعالى، فقال :

٤١- بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْأَلُونَ مَا تُشْرِكُونَ . أى ليس غير الله تدعون ، بل خصوصه - وحده - بالدعاء دون ألهتكم ، فيكشف ما تلتمسون كشفه إن شاء ذلك ، لأنه هو القادر على كل شئ، وتَسْأَلُونَ مَا تُشْرِكُونَ . أى تغيب عن ذاكرتكم عند الشدائد والأحوال تلك الأصنام الزائفة والمعبودات الباطلة .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْتَهُم بِالْأَسَاسِ وَالضَّرَ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

المضادات:

بالأساس: بالدامية والشدّة .

والضَّرَّاء: والضَّر .

لعلهم يتضرعون : لكي يدعوا الله في تذليل وخضوع .

فلولوا : بمعنى هلاً . وهى هنا : للتوبيخ والتنديد وسيأتى لذلك مزيد بيان فى الشرح .

التفسير:

٤٢- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَإِ لَعْلَهُم يَتَضَرَّعُونَ . هذا كلام مستأنف لتسليية الرسول ﷺ بذكر ما حدث لإخوانه المرسلين من إعراض أقوامهم وعدم تأثرهم بالزواجر ، فإن البلوى إذا عمت هانت .

والمعنى: ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى أقوامهم ، فكان هؤلاء الأقوام أعتى من قومك فى الشرك والجحود ، فعاقبناهم بالفقر الشديد ، والبلاء المؤلم . لعلمهم يخضعون ويرجعون عن كفرهم وشركهم.

فالآية الكريمة تصوّر لوئاً من ألوان العلاج النفسى الذى عالج الله به الأمم التى تكفر بأنعمه وتكذب أنبياءه ورسله ، إذ أن الآلام والشدائد علاج للنفس المغرورة بزخارف الدنيا ومتعها، إن كانت صالحة للعلاج .

ثم بين سبحانه أن تلك الأمم لم تعتبر بما أصابها فى شدائد فقال سبحانه .

٤٣- فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ولولا هنا للنفى، أى أنهم ما خشعوا ولا تضرعوا وقت أن جاءهم بأسنا .

وقيل إنها للحث والتحضيض ، بمعنى هلاً ، أى فهلاً تضرعوا تائبين إلينا وقت أن جاءهم بأسنا.

والمعنى: فهلاً حين جاءهم بأسنا وشدتنا ابتهلوا إلينا خاضعين مستغفرين، ولكنهم استمروا فى غيهم وقد حال بينهم وبين الالتجاء إلى الله أمران:

الأول: قسوة قلوبهم أى أنها غلظت وجمدت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة .

الثانى: تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة بأن يوحى إليهم بأن ما هم عليه من كفر وشرك وعصيان هو عين الصواب ، وأن ما اتاهم به أنبيائهم ليس خيراً لأنه يتنافى مع ما كان عليه آبائهم.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات:

نسوا ما ذكروا به : تركوا الاتعاظ بما حُوفوا به ، وهو: البأساء والضراء .

بغتة : فجأة .

مبلسون : متحيرون ، آيسون من النجاة .

فقطّع دابر القوم : فأهلك آخرهم . من دبّره : إذا كان خلفه، وقطّع دابرهم:

كناية عن إهلاكهم حتى آخرهم وهذا يستلزم - قبل ذلك - إهلاك أولهم بالضرورة.

التفسير:

٤٤ - فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ .

والمعنى: فلما أعرضوا عن النذر والعظات التي وجهها إليهم الرسل، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق وأسباب القوة والجاه ، حتى إذا اغتروا ويطروا بما أُوتوا من ذلك أخذناهم بالعقاب فجأة فإذا هم متحيرون يائسون .

والتعبير بقوله تعالى: فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ . يرسم صورة بليغة لإقبال الدنيا عليهم من جميع أقطارها بجميع ألوان نعمها ، وبكل قوتها وإغرائها ، فهو اختبار لهم بالنعمة بعد أن ابتلاهم بالبأساء والضراء.

وكان الأخذ بغتة وفجأة ليكون أشد وقعاً وأفظع هولاً ، أى أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مبالغتين لهم، أو حال كونهم مبالغتين فقد فاجأهم العذاب على غرة بدون إمهال .

وإذا في قوله تعالى: فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فجائية ، والمبلس الباهت الحزين اليائس من الخير الذي لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا - على معاصيه - ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . (٨١)

٤٥- فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أى فأهلك الله تعالى أولئك الأقوام عن آخرهم بسبب ظلمهم وفجورهم ، والحمد لله رب العالمين الذى نصر رسله وأوليائه على أعدائهم .
وقد ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . تعليم لنا إذ أن زوال الظالمين نعمة تستوجب الحمد والثناء على الله تعالى.

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴾ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾

المفردات:

وختم على قلوبهم: أى غطاها فأصبحت لا تعقل .

نُصْرَفُ الْآيَاتِ ، الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، ومعنى نصرف الآيات هنا، أى نكرها على وجوه شتى .

جَهْرَةً ، أى علناً: يقال جهر بصلاته يجهر جهراً . أعلنها .

التفسير:

٤٦- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ . أى قل أيها الرسول لقومك : أخبرونى - إن أذهب الله سمعكم وأبصاركم، وغطى على قلوبكم ، فصرتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون - أى هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه يأتىكم بما أخذ منكم .

قال الأستاذ سيد قطب:

وهذا مشهد تصويرى يجسّم لهم عجزهم أمام الله من جانب ، كما يصور له حقيقة ما يشركون به من دون الله من جانب ، ولكن هذا المشهد يهزّمهم من الأعماق ، ليدركوا أن الله قادر على أن يفعل بهم هذا ، قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار وأن يختتم على القلوب، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدّي وظائفها . وأنه سبحانه إن فعل ذلك ، فليس هناك من إله غيره يرد بأسه .

ثم التفت القرآن عنهم إلى التعجب من حالهم فقال :

انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ . أى انظر وتعجب يا محمد كيف نبين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب : ما بين حجج عقلية، وتوجيه إلى آيات كونية، وترغيب وترهيب وتنبية وتذكير ثم بعد ذلك كله يعرضون عن الحق .

٤٧- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ .

والمعنى: قل لهم أيها الرسول الكريم أخبرونى عن مصيركم إن أتاكم عذاب الله مباغتاً ومفاجئاً لكم من غير ترقب ولا انتظار ، أو أتاكم ظاهراً واضحاً بحيث ترون مقدماته ومباده ، هل يهلك به إلا القوم الظالمون؟

والاستفهام فى قوله تعالى: هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ . للتقرير .

أى هل يهلك - انتقاماً بهذا العذاب أو ذاك - سواكم أيها القوم الظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصى .

وقد صحت مقابلة البغّة بالجهرّة، لأن البغّة ما كانت مقدماتها خفية ، فقويت بالجهرّة الظاهرة التى تسبقها علامات .

وقيل عذاب البغّة ما كان ليلاً لأن الغالب فيه ذلك وعذاب الجهرّة ما كان نهاراً . قال تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَّاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . (يونس : ٥٠) .

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

المفردات:

مبشرين ومنذرين: التبشير: الإخبار بما يسر، والإنذار: التخويف مما يضر.

يمسهم العذاب: أى يصيبهم.

يَفْسُقُونَ: يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصي

التفسير:

٤٨- وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

قال القاضى أبو السعود: هذا كلام مستأنف مسوق لبيان وظائف منصب الرسالة على الإطلاق وتحقيق ما فى عهدة الرسل عليهم السلام، وإظهار أن ما يقترحه الكفرة عليه - عليه السلام - ليس بما يتعلق بالرسالة أصلاً، وصيغة المضارع لبيان أن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية^(٤٨)

ومعنى الآية: وما نبعث المرسلين إلا مبشرين للمؤمنين الصالحين بحسن الثواب، ومنذرين للمكذبين الفاسقين بسوء العقاب، لا ليقترح عليهم غير ما جاءوا به من الآيات، فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح فى عمله فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالجاهدين، ولا من عذاب الآخرة الذى يحل بالمكذبين، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم.

٤٩- وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

هذه الآية كشف للوجه الآخر من دعوة الرسل، وأنه إذا آمن بهم كثير من الناس فقد كفر بهم كثير من الناس أيضاً ولكل من المؤمنين والكافرين حسابه وجزاؤه ..^(٤٩)

يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . والفسوق هو الخروج، يقال فسق الفرخ من البيضة إذا خرج منها والفساق هو من يخرج عن حدود الله . قال تعالى: إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . (الكهف: ٥٠)

وفى قوله تعالى: يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ. إشارة إلى أن عذاب الله شديد لا يطاق وأن مسّة من هذا العذاب تحيل حياة من تصيبه إلى شقاء دائم وبلاء متصل. نعوذ بالله من عذاب الله. (٨٤).

★ ★ ★

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

المفردات:

خزائن الله : المراد بها: خزائن مقدوراته ؛ كما قال الجبائي .

الأعمى والبصير : المراد بهما ؛ الضال والمهتدى .

التفسير:

٥٠- قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ .. الآية. هذه الآية الكريمة تردّ على المشركين في ما اقترحوه على الرسول ﷺ من معجزات أو آيات .

وتبيّن أن وظيفة الرسول هي تبليغ الرسالة التي كلف بها فهو لا ينشأ الرسالة ولكن يبلغ ما كلف به من الله تعالى .

والنبي لا يملك للناس سعة من الرزق، لأنه يرزق مثلهم ، ولا يرزق غيره، قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ . فخزائن الله يُعطى منها ما يشاء لمن يشاء .

والنبي لا يعلم الغيب ، ولا يدري ما يطلع به يومه أو غده فعالم الغيب والشهادة هو الله .

والنبي بشر من البشر وإنسان من الناس ، هو مثلهم مقيد بقيود هذا الجسد البشري ، وليس هو ملك من ملائكة الرحمن ، يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الإنسان من خوارق ومعجزات .

وكان المشركون قد طلبوا من النبي أن يقلب الجبال ذهباً ، وأن يفجر ينابيع الأرض ليزرعوا على مياهها الصحراء ، واقترحوا عليه أن يرقى في السماء كما تفعل الملائكة، واستكثروا عليه أن يأكل الطعام أو أن يمشى في الأسواق كما يفعل سائر الناس .

إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . أى ما أفعل إلا اتباع ما يوحي

إلى، من غير أن يكون لدى مدخل ما في الوحي أو في الموحى به بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلاً.

إن الرسل بشر يوحى إليهم برسالة ليبلغوها للناس ولا يتطلعون إلى صفات تزيد عن صفات البشر كعلم الغيب، أو ملك خزائن الله، أو تملك صفات الملائكة.

إنما الرسل عباد الله يتبعون تعاليم الوحي في تبليغ الوحي للناس والعمل بمقتضاه ليكون الرسول قدوة عملية أمام قومه.

قال تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

من أجل هذا كان الرسول بشراً، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء ويولد له الأولاد، ويموت بعض أولاده، ويحزن عليهم ويتعرض للبلاء في غزوة أحد وغيرها من المعارك حتى تتم القدوة والأسوة العملية في حياة الناس.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . أى لا يمكن أن يستوى الضالّ الشبيه بالأعمى - فى عدم تبيين الحقائق - بالمهتدى الشبيه بالمبصر فى استجلاء الأمور.

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . استفهام إنكارى للحث على التفكير والتأمل ليستقبلوا آيات . النور والهدى. إن أرادوا لأنفسهم النجاة والخير.

★ ★ ★

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٥١)

المفردات:

وَأَنْذِرْ: الإنذار، التخويف.

وَلِيٌّ: ناصر.

شَفِيع: الشفيع؛ من يرجو رفع ضرر، أو جلب خير لغيره.

التفسير:

٥١- وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ.

والمعنى: اتجه يا محمد بهذا الكتاب إلى الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وأُنذر به الذين يخافون سوء الحساب يوم القيامة ، حالة أن ليس لهم من دونه ولى ينصرهم، ولا شفيع يخلصهم، ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه .

فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم ، الذى ليس فيه - من دون الله - ولى ولا شفيع، أحقّ بالإنذار وأسمع له، وأكثر انتفاعاً به ... لعلهم أن يتوقوا فى حياتهم الدنيا، ما يعرضهم لعذاب الله فى الآخرة .

فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موح ، بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقى والحذر ، فلا يقعون فيما نهوا عنه بعد ما تبين لهم .

قال الإمام الشوكاني فى فتح القدير :

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ . لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حلّ بهم من الخوف من الله، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر لجحوده به وإنكاره له ، فإنه لا يؤثر فيه ذلك .

فيشمل كل من آمن بالبعث من المسلمين ، وأهل الذمة وبعض المشركين، وإن لم يكن مصدقاً به فى الأصل لكنه يخاف أن يصح ما أخبر به النبى ﷺ ، فإن من كان كذلك تكون الموعظة فيه أنجع والتذكير له أنفع .

لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ . لا ولى لهم يوالىهم ، ولا نصير يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عند الله لينجيهم من عذابه .

وفيه رد على من زعم من أهل الكتاب أن آباءهم يشفعون لهم وعلى من زعم من الكفار أن أصنامهم تشفع لهم .

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾
 ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات:

بالغداة والعشى: الغداة والغداة أول النهار، والعشى جمع عشية، وهي آخر النهار.

فتنا: ابتلينا، يقال فتنه يفتنه فتنة، أى ابتلاه وأضلّه وأحرقه واختبره.

التفسير:

٥٢- وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. أى لا تبعد أيها الرسول عن مجالسك هؤلاء المؤمنين الفقراء الذى يدعون ربهم صباح مساء، ويريدون بعلمهم وعبادتهم وجه الله وحده، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك فهم أفضل عند الله من الأغنياء والمتغترسين، والأقوياء الجاهلين.

جاء فى تفسير ابن كثير، فى سبب نزول الآية، ما رواه الإمام أحمد وغيره، ونقله الأستاذ سيد قطب بأسلوبه فقال:

إن جماعة من أشرف العرب، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام، لأن محمداً ﷺ يؤوى إليهم الفقراء والضعاف، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخبّاب وسلمان وابن مسعود ومن إليهم وعليهم جباب فتوح منها رائحة العرق، لفقرهم ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش فى مجلس واحد، فطلب هؤلاء الكبراء إلى الرسول ﷺ أن يطردهم عنه.. فأبى.. فافتقروا أن يخصص لهم مجلساً، ويخصص للأشراف مجلساً آخر، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف، كى يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم فى المجتمع الجاهلى! فهم صلى الله عليه وسلم رغبة فى إسلامهم أن يستجيب لهم فى هذه، فجاء أمر الله تعالى: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ.

وروى مسلم عن سعد بن أبى وقاص، قال: كنّا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ اطرد هؤلاء عنا لا يتجترئون علينا! فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل الآية (٥٢).

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ .

إن الله تعالى هو الذى سيتولى حسابهم وجزاءهم ولن يعود عليك من حسابهم شيء ، كما أنه لا يعود عليهم من حسابك شيء فهم مجزيون بأعمالهم، كما أنك مجزى لعملك .

وكان الأغنياء قد طعنوا وعابوا على النبىء مجالسة الفقراء ، وطعنوا فى هؤلاء الفقراء وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف، وما يسببه وجودهم فى مجلس النبىء ﷺ من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام .

فبين الحق سبحانه أن الله لا ينظر إلى صور الناس ولا إلى أموالهم ، وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم .

وهؤلاء الفقراء، الراغبون فى الإسلام ، لا يعيبهم فقرهم ما دامت قلوبهم غنية بالإيمان والرغبة فيما عند الله .

قال الإمام الشوكانى :

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ . أى حساب هؤلاء هو على أنفسهم، ما عليك منه شيء، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء ، فعلام تطردهم ؟
أى فأقبل عليهم ، وجالسهم ، ولا تطردهم .

فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . أى إن طردتهم كنت من الظالمين . وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من الظالمين.

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

فإن قلت: أما كفى قوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ . حتى ضم إليه: وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قلت كيف جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة، وقصد بهما مؤدى واحد، وهو المعنى فى قوله: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى . ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه .

وجاء فى تفسير الآية للدكتور محمد سيد طنطاوى .

وهنا تخريج آخر لقوله:

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ . بأن المعنى : ما عليك شيء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء ، وما من حسابك فى الفقر والغنى عليهم من شيء .

أى أنت مبشر ومنذر ومبلغ للناس جميعاً، سواء منهم الفقير والغنى، فكيف تطرد فقيراً لفقره، وتقرّب غنياً لغناه؟ إنك إن فعلت ذلك كنت من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك. ^(٨٧).

وفى هذه الآية دليل على أن الإسلام لا يميّز بين الناس بالمال والرياسة، بل بالإيمان والعمل الصالح، وإن كانوا فقراء معدمين، وعلى أن الأمراء مطالبون بإعطاء الفقراء حقهم من مجالس العلم ودوره، وألا يمنعهم عن محاسبة الأغنياء فيها.

٥٣— وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . شَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى، أَنْ يَخْتَبِرَ بَعْضَ النَّاسِ بِالْغِنَى وَالْجَاهِ وَأَنْ يَمْنَحَ بَعْضَ النَّاسِ الْهَدَايَةَ وَالْعِلْمَ مَعَ فَقَرِهِمْ .

ومن الناس من لم يدرك هذه الحكمة السامية فى توزيع أرزاق العباد، فالمال رزق والهداية رزق والتقوى رزق والله أعلم حيث يوزع أرزاقه ومواهبه .

وقال الدكتور سيد طنطاوى:

ومعنى الآية: ومثل ذلك الفتن، أى الابتلاء والاختبار، جعلنا بعض البشر فتنة لبعض ليتربى على هذا الفتن أن يقول المفتونون الأقوياء فى شأن الضعفاء: أهؤلاء الصعاليك خصّهم الله بالإيمان من بيننا! وقد ردّ عليهم بقوله: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . أى أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم، فيوقفهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ^(٨٧) .

وقد ذكر القرآن أن هذا المعنى فى كثير من آياته، مثل: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ . (الأحقاف: ١٨) .

وفى قصص الأنبياء السابقين، نجد الأغنياء يقولون لنوح عليه السلام: وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لِطَفْلِ إِبْرَاهِيمَ الرَّأْيَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْكَ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . (هود: ٧٢) .

وفى سورة الكهف يقول الله تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ لَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ . (الكهف: ٢٨ : ٢٩) .

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا مَّيْجَنًا لَّنَا فَنَرَاكَ تَابًا مِّن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَّيْسَتَيْن سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

المفردات:

بجَهالة : بِنَفْسِهِ وسوء رأى .

وَلَيْسَتَيْن : وللتضع .

سبيل المجرمين : طريق أهل الذنوب .

التفسير:

٥٤ - وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا
مَّيْجَنًا لَّنَا تَابًا مِّن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية تخص السابقين
إلى الإسلام الذين سخر منهم الكبراء والأشراف ، فقد أمر الرسول ﷺ أن يبدأهم بالسلام ، وأن يبشرهم
بما لزم الله به نفسه من رحمة عبادته وقبول توبتهم ، متى تابوا وأصلحوا .

قال الإمام الشوكاني في فتح القدير:

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا : هم الذين نهى الله عن طردهم وهم المستضعفون من المؤمنين فَقُلْ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ . تطييباً لخاطرهم وإكراماً لهم، وقد كان النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية إذا رآهم بدأهم
بالسلام.

كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . أى أوجب ذلك على نفسه إيجاب فضل وإحسان، وقيل: كتب ذلك فى
اللوح المحفوظ، وقيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه . بإبلاغه إلى أولئك تبشيراً بسعة مغفرة الله
وعظيم رحمته .

ويرى بعض المفسرين : أن هذه الآية الكريمة ليست خاصة بالمنهى عن طردهم من ضعفاء
المؤمنين .

بل هى دستور عام لجميع المؤمنين المقصرين إذا ما تابوا وأصلحوا .

والمعنى: وإذا جاءك - يا محمد - الذين آمنوا، وقد أصابوا بعض الذنوب، فقل تبشيراً لهم: سلام عليكم، أى مسالمة من الله ريكم، وتلك المسالمة هى أنه تعالى قضى على نفسه بالرحمة لعباده: تفضيلاً، وذلك أنه من عمل منكم سوءاً أى ذنباً - بجهالة - أى سفهٍ وسوء رأى فشأنه تعالى: أنه غفار للذنوب رحيم بعباده فلا تقنطوا من رحمة الله (٨٨).

ومن المعروف فى كتب علوم القرآن أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالآية عامة لجميع المؤمنين، وما فيها من رحمة الله بعباده، وتوبته على المذنبين، ورحمته بالعصاة، ومغفرته للنادمين، أمر قد ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

فالتوبة النصوح، إذا قرنت بالندم على فعل الذنوب، وصدق الالتجاء إلى الله، والانتقال من فعل الذنب، إلى فعل الصلاح وامتنال المأثورات واجتناب المنهيات هذه التوبة جديرة بالقبول إن شاء الله.

قال تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا. (الفرقان: ٧٠: ٧١).

وقال عز شأنه: **يَبَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**. (الحجر: ٤٩: ٥٠).

وقال سبحانه: **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ**. (غافر: ٣).

وقال تعالى: **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**. (الزمر: ٥٣).

وقال تعالى: **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**. (آل عمران: ١٣٥: ١٣٦).

وقال تعالى: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**. (النساء: ١٧).

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى يا عبادى هل من داعٍ فاستجب له، هل من مستغفر فأغفر له، هل من تائب فأتوب عليه، هل من طالب حاجة فأقضيها له حتى يطلع الفجر (٨٩).

وفى الحديث الشريف: «إن الله يمد يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويمد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» (٩٠).

وفى القرآن الكريم: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ . (البقرة: ٢٢٢).

٥ هـ - وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَعِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ . وَضَحَّ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ قَاعَةَ أُسَاسِيَّةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلدَّعَاةِ وَالْهَادِيَةِ فَالنَّاسُ جَمِيعًا أَمَامَ اللَّهِ سَوَاءٌ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلَا لِأَبْيَضٍ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، النَّاسُ يَتَفَاخِلُونَ عِنْدَ اللَّهِ بِالتَّقْوَى وَيَدْرِكُونَ ثَوَابَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

وموازين الناس عند الله هي مدى اقترابهم من الحق والصدق والخير والمعروف .

وقد وضحت الآيات السابقة أن أبواب الدعوة يجب أن تظل مفتوحة أمام الجميع، وكذلك أبواب المساجد والمعاهد والمدارس، لا ينبغي أن يكون الفقر عائقاً لصاحبه عن أن ينال حقه، وأن يأخذ نصيبه .

إن هذه المبادئ التي حملها وحى السماء إلى الناس في بدء الإسلام قد أرسيت قيماً، وبينت أسساً من أسمى ما اهتمت إليها البشرية في تاريخها .

وهذه الآية تعقيب على ما سبق من توضيح الحقائق أمام الأغنياء والفقراء في وقت واحد ومكان واحد .

ومعنى الآية: ومثل ذلك التبيين الواضح في صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام تبين سائر الآيات لما له من فوائد كثيرة، وَلِتَسْتَعِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ . أى ولأجل أن يظهر بها طريق المجرمين فعندئذ يحذرهم المسلمون ويتحاشونهم لأن طريق المجرمين غير طريق المؤمنين، ولأن معرفة الخير لا تكفى في هذه الحياة، بل ينبغي أن نعرف الشر حتى نحذره، ونعرف طريق المجرمين وأعمالهم حتى نتجنب هذا الطريق .

وقد حذّر القرآن الكريم من الخمر والميسر والكفر والكبر والظلم وسائر الموبقات. كما حذّر من سلوك طريق المجرمين .

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعُظُّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (النحل: ٩٠) .

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجُلُونَ بِهِ لَفُضِّي أَلا مُرْبِيَّتِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات:

تدعون: تعبدون.

بينه: حجة.

يقض الحق: يتبع الحكمة.

التفسير:

٥٦- قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.

تستمر سورة الأنعام في بيان حقيقة الألوهية، وتوحيد الربوبية، فالإله واحد، واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله.

وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك.

«وقد كان المشركون يدعون رسول الله ﷺ أن يوافقهم على دينهم، فيوافقوه على دينه! وأن يسجد لألهتهم فيسجدوا لإلهه،! كان ذلك يمكن أن يكون!

وكان الشرك والإسلام يجتمعان في قلب! وكان العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه، وهو أمر لا يكون أبداً»^(٥٦).

ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يريدون منك أن تترك إليهم إن الله نهاني وصرفني بفضل، وبما منحني من عقل مفكر عن عبادة الآلهة التي تعبدونها من دون الله، وقل لهم بكل صراحة وإيجاز وحسم إنني لست متبعاً لما تملية عليكم أهواؤكم وشهواتكم من انقياد للأباطيل، ولو أنني ركنت إليكم لضللت عن الحق وكنت خارجاً عن طائفة المهتدين.

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

«اعلم أنه تعالى - لما ذكر فى الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ، ذكر فى هذه الآية أنه تعالى نهى عن سلوك سبيلهم فقال :

إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهى أخس مرتبة من الإنسان بكثير ، وكون الأشرف مشغولاً بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل ، وأيضاً فالقوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبوها ، ومن المعلوم بالبدئية أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه ، فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى ومضادة للدين» أ. هـ .

٥٧- قُلْ إِنِّى عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ... الآية . والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذى يريدون منك اتباع أهوائهم كيف يتأتى لى ذلك وأنا على شريعة واضحة وملة صحيحة ، لا يعترئها شك ولا يخالطها زيغ لأنها كائنة من ربى الذى لا يضل ولا ينسى .

والتنوين فى كلمة بَيِّنَةٍ للتفخيم والتعظيم ، وهى صفة لموصوف محذوف ، أى على حجة بيينة واضحة محقة للحق ومبطله للباطل فأنا لن أترجح عنها أبداً .

وفى هذا تعريض بالمشركين بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، وإنما هم قد اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

مَا عِندى مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ . أى ليس فى مقدورى أن أنزل بكم ما تستعجلونه من العذاب ، وإنما ذلك مرجعه إلى الله وحده ، فهو وحده الذى يقض الحق ويخبر به ، وهو وحده الذى يفصل فى قضايا خلقه ، وهو خير الفاصلين فى شئون عبادته ، وهو يرى الحكمة فى إمهالككم فأمهلكم .

«وبذلك يجرد الرسول - ﷺ - نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل فى شأن القضاء الذى ينزله الله بعباده ، فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر يوحى إليه ليليل وينذر ، لا لينزل قضاء ويفصل ، وكما أن الله سبحانه هو الذى يقض الحق ويخبر به ، فهو كذلك الذى يقضى فى الأمر ويفصل فيه .. وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله سبحانه وتعالى وخصائصه ، عن ذوات العبيد» (١٧) .

٥٨- قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ . أى لو كان العذاب الذى تستعجلون به عندى وفى قبضتى لطلبت من ربى أن يجعل به غضباً لأجله بسبب كفركم .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف:

أى لأهلككم عاجلاً غضباً لربى ، وامتناعاً من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعاً . ا. هـ .

لَفُضِّي الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . بإنزال هذا العذاب بكم والتخلص من كفركم وشرككم .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ . فهو يمهلهم عن علم ، ويملى لهم عن حكمة ، ويحلهم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ثم ينزل بهم العذاب الأليم .

★ ★ ★

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يُعَلِّمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (٥٩)

المفردات:

مَفَاتِحُ : جمع مِفْتَاحٍ أو مِفْتَاح - بكسر الميم فيهما ، وهو أداة الفتح . والمراد بمفاتيح الغيب: أسباب علمه .

فى كتاب مبين : الكتاب المبين هو علم الله .

التفسير:

٥٩- وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيُعَلِّمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ... الآية . تصور هذه الآية علم الله تعالى الشامل المحيط لهذا الكون ، فلا يند عن علم الله شئ فى الزمان ولا فى المكان ، فى الأرض ولا فى السماء ، فى البر ولا فى البحر ، فى جوف الأرض ، ولا فى طبقات الجو ، من حى وميت ويابس ورطب .

أى أن الله سبحانه وتعالى استأثر بعلم الغيب فلا يعلمه أحد سواه ، إنه هو الذى خلق الإنسان ، وكتب أجله ووزقه . وشقى أو سعيد ، وهو المحيط علماً بما فى البر والبحر وخصهما بالذكر لأنهما مشاهدان أمام الإنسان وهما رمز لإحاطة علم الله الشامل بكل ما فى الكون .

والمنعنى: ويعلم ما فى البر والبحر من أجزائهما ، وما ظهر أو خفى فيهما : من الإنسان والحيوان والنبات والسوائل ، والجوامد ، والأدهنة والأبخرة ، وعناصرها وذراتها ، ومكونات هذه الذرات .

وقد صرح الحق سبحانه بشمول علمه لكل كلى وجزئى ، ولكل صغير وكبير ، ولكل دقيق وجليل فقال سبحانه .

وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رُطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . أَيْ وما تسقط ورقة ما من شجرة من الأشجار ، ولا حبة فى باطن الأرض وأجوافها ، ولا رطب ولا يابس من الثمار أو غيرها ، إلا ويعلمه علماً تاماً شاملاً ، لأن ذلك مكتوب ومحفوظ فى العلم الإلهى الثابت .

ويمكن أن نضيف إلى تفسير هذه الآية ما يأتى :

قامت الشيوعية وأظهرت تبرمها بالأديان ، وادعت أن الإنسان يخطط لنفسه ويصنع مستقبله بعلمه وعمله وظن الناس أن التطور العلمى سيحدد مستقبل الإنسان ، وإذا بالعلماء يصرون أن الإنسان كلما زاد علمه كلما زاد إدراكه بالجهل ، واتساع دائرة ما لا يعلمه . أَيْ أن زيادة العلم تشعر الإنسان بزيادة الجهل بحقائق كثيرة فى هذا الكون ، وبذلك تراجعت الفلسفة الشيوعية ، وانسحبت الشيوعية من أوروبا الشرقية بعد مرور (٧٠) سبعين عاماً على نشأتها وعاد الإيمان إلى الناس ، وعادت ثقفتهم فى الإيمان بالغيب .

الإيمان بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر عاد الناس إلى الكنائس فى موسكو نفسها ، وفى غيرها من البلدان التى كانت شيوعية ، ولم يكن الذاهبون إلى الكنائس من كبار السن فقط بل كان فيهم الشباب والفتيان .

يتعلق بهذه الآية أيضاً: أن علم الغيب مقصور على الله تعالى، أما ظن الغيب بأمارات فإنه ممكن لمن يأخذ بأسباب هذه المعرفة كما يحدث عن الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر، حين يخبرون بهبوب الرياح بشدة أو باعتدالها ، ويكسوف الشمس يوم كذا ، ويخسف القمر ليلة كذا ، وكما يحدث عن علماء الفلك حين يخبرون بزمَن نزول المطر ، أو نزول درجة الحرارة أو صعودها .

أو نحو ذلك، فيقع الأمر كما قالوا .. وكما يفعله الأطباء بحكم العادة عندهم إذ يقولون : لمن حلمة ثديها الأيمن سوداء جنيحك نكر ، ولمن حلمة ثديها الأيسر كذلك جنيحك أنثى فيقع الأمر كما قالوا . ونحو ذلك مما يخضع لقواعد علمية أو أمارات ظنية .

أما العارفون الذين يدعون علم الغيب كقول أحدهم :

إنك ستكسب كذا ، أو تتزوج فلانة فهو آثم جاحد .

قال القرطبي في تفسير الآية:

قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه، إلا من اصطفى من عباده، والله تعالى يقول: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ.

ثم قال: وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان ولا سيما بالديار المصرية، فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم، اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقراء والدين فلجأوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب^(٩٢).

وقد ورد في السنة الصحيحة النهي عن الذهاب إلى العرافين والمنجمين، جاء في صحيح مسلم: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»^(٩٣).

وروى البخاري بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم أحد ما يكون في غدٍ إلا الله، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يدرى أحد متى يجيء المطر»^(٩٤).

وهذا الحديث يوافق قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ. (لقمان: ٣٤).

وهنا نجد بعض الناس يتساءلون عن توصل العلم إلى معرفة نوع الجنين، والجواب أن علم الله بما في الأرحام علم شامل يمتد إلى معرفة أجله ورزقه وسعادته أو شقاوته وهذه أمور لا يعلمها إلا الله تعالى.

ولا ينبغي أن نطاول العامة في محاولة معرفة المستقبل عند العرافين فقد روى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٩٥).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات:

يتوفاكم بالليل : التوفى لغة: قبض الشيء بتمامه، وأكثر ما يستعمل فيه قبض الروح. والمراد

منه هنا : الإنامة؛ أى يُنيمكم في الليل .

جرحتكم : كسبتم .

يبعثكم : يوقظكم .

أجل مسمى : وقت محدد لكل واحد ينتهي إليه عمره .

القاهر: الغالب .

توفته : قبضت روحه .

التفسير:

٦٠ - وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هذه الآية امتداد لسعة القدرة الإلهية فهو سبحانه عالم الغيب ، وهو سبحانه

بيده الخلق والأمر والإيجاد والعدم والموت والحياة .

والإنسان له مومتان صغرى وكبرى فالصغرى النوم والكبرى الموت .

«والنفس صورة من صور الوفاة ، بما يعترى الحواس من غفلة وما يعترى الجس من سهوة ،

وما يعترى العقل من سكون ، وما يعترى الوعى من سبات - أى انقطاع - وهو السر الذى لا يعلم

البشر كيف يحدث ، وإن عرفوا ظواهره وآثاره»^(٩٧) .

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ . فهو سبحانه مطلع على جميع حركاتكم وسكناتكم ويعلم ما كسبت

جوارحكم من الخير والشر .

ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ . أى فى النهار يعنى اليقظة .

يُنْفِضِ أَجَلَ مُسَمًّى . لأجل أن يقضى كل فرد أجله المسمى فى علم الله تعالى والمقدر له فى هذه الدنيا، فقد جعل سبحانه لأعماركم أجالاً محدودة لا بد من قضائها وإتمامها .

ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . أى: ثم إليه وحده يكون رجوعكم بعد انقضاء حياتكم فى هذه الدنيا فيحاسبكم على أعمالكم التى اكتسبتموها فيها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

فالآية الكريمة تسوق للناس مظهرًا من مظاهر قدرة الله وتبرهن لهم على صحة البعث والحساب يوم القيامة ، لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم فى أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى .

ومما يتعلق بهذه الآية ما يأتى:

١ - قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِنْكَ أَلْبِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الزمر: ٤٢) .

تفيد هذه الآية أن هناك وفاتان ، وفاة صغرى بالنوم ووفاة كبرى بالموت ، وتجتمع أرواح النائمين وأرواح الميتين فى فترة نوم النائم، والله تعالى يمسك روح الميت عنده ويرسل روح النائم إلى أجل مسمى ، إلى وقت انقضاء أجله .

٢ - تخصيص الليل بالنوم والنهار بالكسب ، جرياً على المعتاد لأن الغالب أن يكون النوم ليلاً وأن يكون الكسب والعمل نهاراً قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . (النبا: ١٠ ، ١١) .

٦١ - وَهُوَ أَقَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . تصور الآية قدرة الله وهى فوق جميع القدر .

فهو سبحانه صاحب السلطان القاهر ، وهم تحت سيطرته وقهره، هم ضعاف فى قبضة هذا السلطان لا قوة لهم ولا ناصر ، هم عباد والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون . وهذه هى العبودية المطلقة للألوهية القاهرة .

إن الله تعالى هو الغالب على عباده والمتصرف فيهم إيجاباً وإعداداً وإحياءً وإماتة، وتعديناً وتنقيماً إلى غير ذلك من شئون القهر والسلطان : لا يشركه فيها شريك ولا يردُّه عن مراده أحد .

وُرُسِلَ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ . أى: ويرسل عليكم ملائكة تحفظ أعمالكم وتحصيها ، وتسجل ما تعملونه من خير أو شر .

قال تعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ . (الانفطار: ١٠ ، ١١) .

وقال سبحانه: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . (ق: ١٨) .

وجاء فى كتاب الجوهرة ، وهى منظومة فنية فى علم التوحيد :

بكل عبد حافظون وكَلُوا وكتابون خيرة لمن يهملوا
من أمره شيئاً ولو ذهل حتى الأنين فى المرض كما نُقِل

وتفيد الآية رقابة الحق سبحانه على كل نفس، وشعور النفس بأنها غير منفردة لحظة واحدة، وغير متروكة: لذاتها لحظة واحدة، فهناك حفيظ عليها رقيب يحصى كل حركة .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف:

فإن قلت إن الله تعالى غنى بعلمه عن كتاباة الملائكة . فما فائدتها .

قلت فيها لطف للعباد لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم، والملائكة الذى هم أشرف خلقه، موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم، ويكتبونها فى صحائف تعرض على رءوس الشهاد فى مواقف القيامة ، كان ذلك أزر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء ^(١٨) .

حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رُسُلَنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . أى حتى إذا احتضر أحدكم ، وحان أجله قبضت روحه ملائكتنا الموكلون بذلك حال كونهم لا يتوانون ولا يتأخرون فى أداء مهمتهم .

نقل الدكتور محمد سيد طنطاوى عن حاشية الجمل ما يأتى :

قال الجمل : فإن قلت إن هناك آية تقول : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا . وثانية تقول: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

والآية التى معنا تقول تَوَفَّاهُ رُسُلَنَا .

فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

فالجواب على ذلك أن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه، ولملك الموت أعوان من الملائكة ، فيأمرهم بنزع روح ذلك العبد من جسده، فإذا وصلت

إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت نفسه ، وقيل المراد من قوله: تَوَفَّهُ رُسُلُنَا . ملك الموت وحده ، وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له ^(١٩) .

٦٢- ثُمَّ رَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ . ثم رجع الجميع إلى الله تعالى ، وأعيد جميع المتوفين - مكلفين وغيرهم - إلى الله مولاهم ومالكهم الحق ، الذى أنشأهم ، والذى أطلقهم للحياة ما شاء ، ثم ردهم إليه عند ما شاء ، ليقضى فيهم بحكمه بلا معقب .

أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ . فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب ، وهو لا يبطئ فى الحكم ، ولا يسهل فى الجزاء ، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الفكر والروية والتدبر .

وكيفية الحساب ، لم يرد فى شأنها خبر عن المعصوم عليه السلام ، ولا تحيط بها عقول البشر .

فلذا يجب الإيمان بحصول الحساب وتفويض الأمر فى كيفيته إلى علام الغيوب .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات:

ظلمات البر والبحر: شدايدهما .

تضرعاً وخفية: إعلاناً وإسراراً .

كـ كـرب: الكرب؛ هو الغم والحزن الذى يأخذ بالنفس - كالكربة بضم الكاف .

التفسير:

٦٣- قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ، من الذى ينجيكم من شدايد البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالها المرعبة ، وشدايدها المدهشة إنكم فى هذه الحالة تلجأون إلى الله وحده تدعونه إعلاناً وإسراراً بذلة وخضوع وإخلاص قائلين لئن أنجيتنا يا ربنا من هذه الشدايد والدواهي المظلمة لتكونن من المستديمين لشركك .

قال الزمخشري فى الكشف: وظلمات البر والبحر مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب ، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل .

٦٤- قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ . قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى ينجيكم من هذه المخاوف والأهوال ، ومن كل غم يتنزل بكم ، لا يشاركه فى إنجائكم من ذلك شريك كما تعرفون وتشهدون، ثم أنتم - بعد إنعامه عليكم وإجابة دعائكم - تشركون معه غيره مخلفين بذلك وعدكم ، حانثين فى أيمانكم .

فهل يليق بعامل أن يشرك بالله آلهة تخلت عنه وقت الشدة، وهل يليق بعامل أن يترك شكر الله الذى أسدى له النعمة .

وفى الآية كما نرى دليل من أدلة الإيمان هو دليل الغطرة ، فالإنسان عند الشدة واللهافة والكوارث العظام لا يلجأ إلا إلى الله ، حتى إن أحد الملحدين الكافرين كانت له ابنة وحيدة اشتد بها المرض وأصبحت على حافة الموت ، ولم ينفع معها علاج ولا دواء ، فجأ الملحده على ركبته أمام ابنته وتضرع إلى الله قائلا يا رب اشف ابنتى .

قال تعالى: حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِرِيحٍ طَبِيعَةٍ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رَبِّحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَلَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَغْتَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُوتُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِآيَاتِهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (يونس : ٢٢ : ٢٣) .

من تفسير الفخر الرازى:

جاء فى التفسير الكبير لفخر الدين الرازى :

«والمقصود من ذلك أنه عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً، لأن الإنسان فى هذه الحالة يعظم إخلاصه فى حضرة الله ، وينقطع رجاءه عن كل ما سواه وهو المراد من قوله : تَضَرَّعًا وَخَفِيَّةً .

ثم يقول فى مكان آخر :

«ولفظ الآية يدل على أنه عند حصول الشدائد ، يأتى الإنسان بأمر أحدها الدعاء، وثانيها التضرع، وثالثهما الإخلاص بالقلب، وهو المراد من قوله خفية ورابعها التزام الاشتغال بالشكر، ونظير هذه الآية قوله تعالى: وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ . وبالجمله فعاده أكثر الناس أنهم إذا شاهدوا الأمر الهائل أخلصوا، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به^(١٠٠) .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ إِنَّظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ۝٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝٦٦ لَّكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

المفردات:

أوليسكم شيعة ، أو يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء ، كل فرقة تشابه هوى .

بأس بعض : البأس ، الشدة .

كيف نصرف الآيات : كيف نبين ونلون الحجج .

بوكيل : بحفيظ .

التفسير:

٦٥- قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ إِنَّظِرْ كَيْفَ نَصْرُفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . هذا كلام مستأنف لبيان قدرة الله تعالى على إيقاعهم فى المهالك وفيه وعيد ضمنى بعذابهم إن بقوا على شركهم .

والمنى :

قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين : إن الله تعالى قادر على أن يرسل عليكم عذابا عظيما من فوقكم من جهة العلوق كما أرسل على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل والحجارة ؛ أو من تحت أرجلكم أى من جهة السفلى كالغرق وخسف الأرض ، كما حدث لفرعون وقارون ، أو أن يخلطكم فرقا مختلفة الأهواء: تشايح كل فرقة رأيا وتناصره، فتصبح الأمة فى بلاء وجدال وصراع ، وفى خصومة ونزاع ، فينشِب القتال وتآكل الأمة بعضها بعضاً، ويذيق بعضها بأس بعض .

أنظر أيها الرسول الكريم - أو أيها العاقل ، كيف تنوع الآيات والعبير والعظات ، بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى لعلمهم يفقهون الحق ويدركون حقيقة الأمر ، فينصرفوا عن الجحود والمكابرة، ويكفوا عن كفرهم وعنادهم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: أَفَأَمْسِمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَابِلُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ زُكِيْلًا ۝ أَمْ أَمْسِمْ أَنْ يُعَذِّبَ فِيهِ نَارَةُ أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا . (الإسراء: ٦٨، ٦٩) .

وعندما يجد الإنسان آثار الفيضانات المدمرة أو الزلازل والبراكين ، أو آثار القنابل المهلكة أو تسرب الغاز السام من المعامل ، أو إخفاق صاروخ فى الانطلاق إلى مساره ، أو الحروب التى يذيق الناس بعضهم بأس بعض يتبين جانباً من المعنى الإلهى فى هذه الآية، وأن الإنسان سيظل مريباً لقدرة الله القادرة .

والآية خطاب من الله تعالى للمشركين، لكن القرآن معناه عام ولا يحمل وعده أو وعيده على أناس بأعيانهم بل يشمل كل من يتأتى منه الخطاب إلى يوم القيامة .

وعن مجاهد إن الآية عامة فى المسلمين والكفار .

وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة . أن الله تعالى قد استجاب لدعاء نبيينا محمد ﷺ فحفظ الأمة المحمدية من العذاب الإلهى من فوقها أو من تحتها .

لكنه تعالى ابتلاها باختلافها شيعاً ، وإنافة بعضها بأس بعض عندما تستحق هذا الابتلاء

روى البخارى ، عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال:

«لما نزلت هذه الآية: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ . قال ﷺ: «أعوذ بوجهك» ، أو مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ . قال: «أعوذ بوجهك» ، أو يَلْبِسُكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ . قال: «هذه أهون وأيسر» .

وروى مسلم بسنده عن النبى ﷺ قال: «سألت ربى ثلاثا: سألته ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها ، وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم .. فمنعنيها» والمراد بالسنة القحط والجذب^(١٠١) .

٦٦- وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ... الآية .

وكَذَّبَ قومك بالقرآن الذى اشتمل على تصريح الآيات المقتضية للتصديق، وهو الحق المطابق للواقع ، فكيف استهانوا بتكذيبه .

قل لهم يا محمد لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . أى: لم يفوض إلى أمركم فأمنعكم من التكذيب وأجبركم على التصديق ، فأنا لست بقميم عليكم ، وإنما منذر وقد بلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين .

٦٧- لُكِّلَ نَبَأُ مُسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . قال الراغب : النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة : والمستقر: وقت الاستقرار .

والمعنى : لكل خبر من أخبار القرآن زمان استقرار ، يستقر ويقع فيه مدلوله ، وسوف تعلمون حال خبركم في الدنيا والآخرة ومبلغه من الصدق .
أى ستعلمون صدق القرآن عند تحقيق ما وعدكم به فى دنياكم وأخراكم . قال تعالى: وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات:

يَخُوضُونَ : يندفعون .

فأعرض عنهم : فاتركهم .

وإمّا ينسيتك الشيطان : إمّا ، أصله : «إن» الشرطية المدغمة فى «ما» «وما» صلة للتأكيد أى وإن أنساك الشيطان.

بعد الذكرى : بعد التذكّر .

ولكن ذكرى ، ولكن تذكير ووعظ .

التفسير:

٦٨- وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ... الآية .

سبب النزول:

قال ابن جريج إن قريشا كانوا يستهزئون بالقرآن ويقولون فيه إنه سحر ، وشعر وأساطير الأولين ، وما حلا لهم من الأكاذيب .

فنزلت الآية: تأمر النبي ﷺ أن يعرض عنهم إعراض منكراً عليهم إذا سمع ذلك منهم، ولا يجلس معهم ولا يجادلهم، فجعل النبي ﷺ إذا استهزءوا قام، فحذروا، وقالوا لا تستهزئوا فيقوم.

والمعنى:

وإذا رأيت أيها النبي الكريم أو أيها المؤمن العاقل، الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والظعن والاستهزاء، فأعرض عنهم، وانصرف عن مجالسهم، وأرهم من نفسك التسمي عن مجالستهم، حتى يدخلوا في حديث غيره، فلك حينئذ مجالستهم، لأن آيات الله من حقها أن تعظم وأن تحترم لأن تكون محل استهزاء.

وَمَا يُنْسِيكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . أى: وإما ينسبك الشيطان ما أمرت به من ترك مجالسة الخائفين على سبيل الغرض والتقدير فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم، والاستهزاء بها، وقد جاء الشرط الأول. بإذا لأن خوفهم في الآيات محقق. وجاء الشرط الثانى. بيان لأن إنساء الشيطان له قد يقع وقد لا يقع.

رأى العلماء فى نسيان الرسول

يرى بعض العلماء أن ما جاء فى الآية من نسيان الرسول إنما هو على سبيل الغرض، إذ لم يقع منه نسيان لترك مجالستهم عندما يخوضون فى آيات القرآن.

ولهذا استعملت إن الشرطية فهى لمجرد الغرض لما ليس محقق الوقوع، وذلك على حد قوله تعالى: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (الزمر: ٦٥).

ويرى بعض آخر من العلماء. أن الخطاب فى الآية للنبي ﷺ، والمراد غيره من المؤمنين ولكن جهود العلماء على جواز النسيان على النبي ﷺ فى الأفعال.

فقد ورد فى صحيح البخارى أن النبي ﷺ صلى بالمسلمين الظهر فسلم على رأس ركعتين، وفى القوم رجل فى يديه طول يسمى ذو اليمين فقال أَقْصَرْتُ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فقال النبي ﷺ: كل ذلك لم يكن.

فقال ذو اليمين: بل بعض ذلك قد كان، صليت بنا الظهر ركعتين.

فقال ﷺ لأصحابه: أحق ما يقوله ذو اليمين؟

قالوا: نعم، فأتم النبي الصلاة أربعاً.

ثم قال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون . فإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحرك الصواب فليتم عليه ، ثم ليسجد سجدة (١٠٧) .

وفى الحديث الصحيح : «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى» (١٠٧) .

ما يؤخذ من الآية :

أخذ العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - وجوب الإعراض عن مجالسة المستهزئين بآيات الله أو برسله .

قال القرطبي : من خاض فى آيات الله تركت مجالسته وهجر ، مؤمنا كان أو كافرا .

روى الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت ، قال رسول الله ﷺ : «من قرأ صاحب بدعة فقد أعانته على هدم الإسلام» (١٠٨) .

وقال صاحب المنار : وسبب هذا النهي ، أن الإقبال على الخائضين والقعود معهم ، فيه إقرار لهم على خوضهم ، وإغراء لهم بالتمادى فيه .

قال تعالى : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . (النساء : ١٤٠) .

٢ - جواز مجالسة الكفار مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض فى حالة الخوض ، وأيضا فقد قال تعالى : حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ .

٣ - استدُل بهذه الآية على أن الناسى غير مكلف .

وفى الحديث الشريف : «إن الله رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» (١٠٩) .

٦٩- وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَقُولُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

روى البيهقي عن ابن عباس قال : لما نزلت وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم ... إلخ .

قال المسلمون : كيف نقعد فى المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً ؟

لئن كان علينا أن نخرج من الحرم كلما استهزؤوا بالقرآن، لم نستطيع أن نستقر في المسجد الحرام ونطوف ، فنزلت الآية وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ .

أى: وما على الذين يتقون الله شىء، من حساب الخائضين على ما ارتكبوا من جرائم وأقام ، ما داموا قد أعرضوا عنهم ، ولكن عليهم مع ترك مجالستهم - أن يذكرهم ويعظوهم لعل أولئك الخائضين يجتنبون ذلك ويتقون الله فى أقوالهم وأفعالهم .

★ ★ ★

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَّرَبِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٠)

المفردات:

ذر : اترك .

عَرَّتْهُمْ : خدعتهم .

تَبْسَلَ نَفْسٌ : الإيسال: المنع، ومنه أسد باسل، لأن فريسته لا تفلت منه . ومعنى تَبْسَلَ نَفْسٌ تَمْنَعُ من النجاة .

وإن تعدل كل عدل، تُغَدِّرُ نفسها كل فداء .

حَمِيمٌ : ماء شديد الحرارة. وقد يطلق على الماء البارد. والمراد منه فى الآية المعنى الأول. لقوله تعالى : .. وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

التفسير:

٧٠ - وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ... الآية.

المعنى الإجمالى للآية من فتح القدير للشوكاني :

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً أى اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الحق - الذى كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه - لعباً ولهواً ولا تقلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت ، وإن كنت مأموراً . بإبلاغهم الحجة .

وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . حتى آثروها على الآخرة ، وأنكروا البعث .

وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ . الإرسال تسليم المرء نفسه للهلاك .

فاللعنى : ذكر بالقرآن لعل أحداً يتذكر فينجو بنفسه من العذاب قبل أن يحبط بها فلا تجد مخلصاً .

وَأَنْ تُعْدِلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا . وإن بذلت تلك النفس التى سُلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك .

أُولَئِكَ . المتخذون دينهم لعباً ولهواً ، هم الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا . أى هؤلاء الذين سُلِمُوا للهلاك بما كسبوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وهو الماء الحار ، يشربونه فيقطع أمعاءهم .

تمهيد :

حرص المشركون على إبطال دعوة الإسلام بكل سبيل وقد عرضوا على النبی ﷺ أن يترك مجالسة الفقراء ، أو يجعل لهم مجلساً خاصاً بهم ، وقد رفض القرآن عرضهم ، فاتخذوا هدفاً آخر ، وهو السخرية والاستهزاء بالقرآن، يريدون بذلك صرف المسلمين عن دينهم، وعن كتاب ربهم، فأمر الله رسوله ألا يبالى بهم ، وأن يمضى فى سبيله وتبيلغ رسالة ربه .

والآية ٧٠ من سورة الأنعام هذه تستعرض عنت المشركين وسوء فعالهم ، وتضع أمامهم أهوال عذاب يوم القيامة ليتصوروا هول ما هم قادمون عليه، علّ هذا أن يسوق لهم العبرة والموعظة النافعة قبل فوات الأوان .

توضيح :

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . أى اترك يا محمد المشركين الذى جعلوا دينهم شيئاً يشبه اللعب واللهو، حيث عبدوا الأوثان وجعلوها آلهة ، وأباحوا أكل الميتة ، وحرّموا البحيرة والسائبة، وغير ذلك من الأمور .

وقيل المعنى: اترك يا محمد هؤلاء الغافلين الذين اتخذوا دينهم الذى كلفوا به وهو الإسلام لعباً ولهواً حيث سخروا من تعاليمه واستهزءوا بها .

وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . حيث اطمأنوا إليها ، واشتغلوا بلذاتها ، وزعموا أنه لا حياة بعدها .

قال الإمام الرازي ما ملخصه: «ومعنى ذرهم: أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا تقم لهم في نترك وزناً، وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه قال له بعده وَذَكِّرْ بِهِ وإنما المراد ترك معاشرتهم وملافتهم، لا ترك إنذارهم وتخويفهم ...

وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ.

وحذّر بهذا القرآن أو بهذا الدين الناس مخافة أن تهلك نفوسهم بما كسبته من الكفر والمعاصي إذ ليس لها من غير الله نصير أو شفيع يدفع عنها السوء.

وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا. العدل عنها الفداء

والمعنى: ومهما قدمت من فداء فلن يؤخذ منها.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقِيلَ مِنْ أَثَرِهِمْ مَلَأَ الْأَرْضَ ذُخْبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. (آل عمران: ٩١).

قال الإمام الرازي ما معناه:

إن وجوه الخلاص في الدين ثلاثة:

١ - ولي يتولى الدفاع ودفع المحذور.

٢ - شفيع يشفع للمذنب.

٣ - فدية تقبل منه ليحصل الخلاص بسببها.

وهذه الثلاثة لا تفيد في الآخرة البتة.

فليس أمام العصاة إلا الإيسال، الذي هو الارتهان والاستسلام.

وإذا تصور الإنسان كيفية العقاب على هذا الوجه، يكاد يردد إذا أقدم على معاصي الله (١٠٦)

أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. أى أولئك الذين حبسوا للهلاك ومُنِعُوا من النجاة بسبب كفرهم ومعاصيهم، لهم في جهنم شراب من ماء شديد الحرارة، تتقطع به أمعاؤهم، ولهم من فوق ذلك عذاب مؤلم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب استمرارهم وإصرارهم على كفرهم.

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبًا هُدًى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٧١)

المضردات:

ونرد علي أعقابنا : ونرجع إلى الوراء بالعودة إلى الشرك. وسيأتي لذلك مزيد بيان في الشرح .

استهوته الشياطين : ذهبت بهواه وعقله .

يدعونه إلى الهدى : المراد بالهدى الطريق الهادي إلى المقصد، جعل نفس الهدى للمبالغة .

التفسير:

٧١- قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ... الآية. ثبت بالقرآن والسنة أن المشركين عرضوا

على رسول الله ﷺ المال والجاه والسلطان ، والملك، نظير أن يترك دعوة الإسلام ، فقال كلمته الخالدة لعنه أبى طالب : «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

وقد عرض المشركون مثل هذه العروض على أبى بكر الصديق، وعلى غيره من المسلمين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، قال السدى: قال المشركون للمؤمنون اتبعوا سبيلنا . وتركوا دين محمد،

فأنزل الله عز وجل :

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ... والمعنى: قُلْ يَا مُحَمَّد: للمشركين، أو قل أيها العاقل لهؤلاء المشركين، الذى يحاولون ردّ المسلمين عن الإسلام، قل لهم: أتعبد من دون الله ما لا يقدر على نفعنا إن دعوناه ، ولا ضرنا إن تركناه ، ومن شأن الإله الحق أن ينفع ويضر ، فكيف يليق بنا أن نعبد آلهة خالية من النفع والضر ؟

وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ .. أى نرجع إلى الشرك الذى كنا فيه بعد أن هدانا الله إلى الإسلام،

وأنقذنا من الكفر والضلال .

يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها: قد ردّ على عقبيه .

قال العلامة أبو السعود: « والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالردّ على الأعقاب، لزيادة تقييده، بتصويره بصورة ما هو علم فى القبح » ا. هـ .

وهو الرجوع إلى الورا إيجاباً بغير رؤية موضع القدم .

كَأَلَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ . وهم الغيلان ، أو مردة الجنّ ، يدعونه باسمه واسم أبيه وأمه فيتبعها ويرى أنه فى شىء ، فيصبح وقد ألقتة فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله ^(١٠٧) .

خَيْرَآنَ . أى أمسى حيران لا يدرى كيف ينجو من المهالك ويصل إلى غايته .

لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَبَا . أى له رفاق لم يستجيبوا إلى استهواء الشياطين ، بل ثبتوا على الطريق المستقيم ، وجعلوا يدعونه إلى الطريق المستقيم قائلين له : انتننا لكى تنجو من الهلاك ، ولكنه لحيرته وضلاله لا يجيبهم ولا يأتهم .

من تفسير ابن كثير :

جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية: إن مثل من يكفر بالله بعد إيمانه، كمثّل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضلّ الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم ، ويقولون : انتننا فإننا على الطريق ، فأبى أن يأتهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد ﷺ - هو الذى يدعو إلى الطريق ، والطريق هو الإسلام .

قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . أى قل أيها الرسول لدعاة الضلال : إن هدى الله - هو الإسلام - هو الطريق الهادى إلى السلامة فى الدنيا والآخرة ، وما عداه فهو الضلال والخذلان، وأمرنا لنسلم وجوهنا لله رب العالمين .

﴿وَأَنۢ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۖ﴾ (٧٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٣)

التفسير:

٧٢- وَأَنۢ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ... وأمرنا بأن نقيم الصلاة ونؤديها في أوقاتها مستوفية لأركانها وشروطها، وأن نتقى الله ونخشاه، في أمرنا كله فلا نقصر في طاعة ولا نلزم بمعصية.

وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . أى: تحشرون إليه وحده، وله الحكم وحده يوم القيامة في المحشر وما بعده، ولا ينفحكم يومئذ إلا ما قدمتموه من الأعمال الصالحة ورأسها الصلاة والتقوى.

٧٣- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ... الآية. أى هو الذى خلق السماوات والأرض وما فيهما - خلقاً مشتملاً على الحكمة الرفيعة، ومنها أن يُعرف بآياته فيها فيُعبد ويقصد، ولم يخلقها عبثاً وباطلاً. وقضاؤه المتصف بالحق والصواب - دائماً - نافذ، حين يقول لشيء من الأشياء كُن فَيَكُونُ. ذلك الشيء ويوجد بأمره فوراً، وفق تدبيره وإرادته. وفى آية أخرى يقول سبحانه.

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. (يس: ٨٢).

قَوْلُهُ الْحَقُّ. قوله سبحانه هو الحق الكامل، يأمر بالبعث والحشر فتطيعه الخلائق، أى فكيف تدعوا من دونه ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرتد على أعقابنا.

وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ. أى إن الملك لله تعالى وحده فى ذلك اليوم فلا ملك لأحد سواه.

وَالصُّورُ قَرْنٌ يَنْفَخُ فِيهِ النُّفْخَةُ الْأُولَى لِلْفَنَاءِ. والثانية للإنشاء.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. (الزمر: ٦٨).

واعلم أن الملك دائما لله فى الدنيا والآخرة ، ولكن الله أعطى بعض عباده الملك ظاهراً وصورة فى الدنيا، ويوم القيامة لا يجدون لملكهم ظلاً ولا أثراً ، وفى هذا المعنى قال تعالى: لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر: ١٦) . الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ... (الفرقان: ٢٦)

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . الغيب ما غاب عن الناس فلم يدركوه ، والشهادة الزمور التى يشهدها الناس ويشاهدونها، ويتوصلون إلى علمها .

فالله هو العالم بما غاب وبما حضر من كل شيء .

وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

– الحكيم – صاحب الحكمة فى جميع أفعاله .

– الخبير – المطلع على خفايا الأمور وظواهرها .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۖ إِلَٰهَةٌ إِنَّكَ آَرَتَكَ ۖ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٤)

التفسير :

٧٤- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۖ إِلَٰهَةٌ إِنَّكَ آَرَتَكَ ۖ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

بهذه الآية تبدأ قصة إبراهيم عليه السلام ، وقد ذكرت فى القرآن أكثر من مرة ، لكنها تركز فى كل مرة على جانب من جوانب القصة ، وقد كان إبراهيم عليه السلام أمة وحده ، فيه أخلاق الرجال وفيه الوفاء والعزيمة ، وفيه جانب البحث والتأمل ومحاولة هداية قومه عن طريق الحوار ، وفيه صدق العزيمة ، ولو أردنا أن نسجل عناوين لقصة إبراهيم فسنجدها كالاتى :

إبراهيم وآية البعث ، إبراهيم يتلطف فى دعوة أبيه .

إبراهيم يحطم الأصنام ، إبراهيم يلقي فى النار .

إبراهيم ونمرود ، إبراهيم يهدى قومه عن طريق الحوار .

إبراهيم فى مصر ، إبراهيم يؤمر بذبح إسماعيل .

إبراهيم وإسماعيل فى بناء الكعبة ، سلام على إبراهيم .

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً... أَيْ وَادَّكَرَ يَا مُحَمَّد وَذَكَرَ قَوْمَكَ لِيَعْتَبِرُوا وَيَتَعَذَّلُوا ، وَقَدْ
أَنْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ مَنكَرًا عَلَيْهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ .

اتَّخَذَ أَصْنَامًا ءَالِهَةً . أَيْ أَتَجْعَلُهَا آلِهَةً لَكَ تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسُوءَكَ فَعَدْلَكَ .

وَأَرَزَّرَ أَبَإَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ ، وَقِيلَ إِنَّ اسْمَ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ «تَارَخ»
وَقِيلَ كَانَ لَهُ اسْمَانِ أَرَزَّرَ وَتَارَخَ ^(١٠٨) .

وَكَانَ أَرَزَّرَ وَقَوْمُهُ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ ، وَالشَّمْسَ ، وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ .

إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . أَيْ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ فِي عِبَادَتِهَا فِي ضَلَالٍ عَنِ
الْحَقِّ ، ظَاهِرِينَ ... وَفِي هَذَا تَبَكُّيٌّ وَتَقْرِيعٌ لَهُمْ عَلَى هَذَا الْمَسْلَكِ ، الَّذِي يَتَنَافَى مَعَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ
السَّلِيمُ وَالْفِطْرَةُ الصَّحِيحَةُ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْأَلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : أَنَّ أَرَزَّرَ بَزْنَةُ آدَمَ عِلْمَ أَعْجَمِي لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ
مِنْ قَرْيَةٍ مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ ، وَقِيلَ إِنَّ أَرَزَّرَ لَقَبَ لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ وَاسْمَهُ الْحَقِيقِيِّ تَارَخَ .

وَذَكَرَ الشَّيْخُ الْقَاسِمِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ :

أَنَّ الْآيَةَ حِجَّةٌ عَلَى الشَّعْبَةِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ آبَاءِ الْأَنْبِيَاءِ كَافِرًا ، وَأَنَّ أَرَزَّرَ عُمُ
إِبْرَاهِيمَ لَا أَبُوهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِطْلَاقِ الْحَقِيقَةِ ، وَمِثْلُهُ لَا يَجُزُّ بِهِ مِنْ غَيْرِ نَقْلِ .

كَمَا نَقَلَ الشَّيْخُ الْقَاسِمِيُّ أَنَّ ثَمَرَةَ الْآيَةِ الدَّلَالَةُ عَلَى وَجُوبِ النَّصِيحَةِ فِي الدِّينِ لَا سِيَّمَا لِلْأَقْرَابِ
فَإِنَّ مَنْ كَانَ أَقْرَبَ فَهُوَ أَهَمُّ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ .

وَقَالَ تَعَالَى: قُلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا .

وَقَالَ ﷺ «أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ ثُمَّ بِمَنْ تَعُولُ» ^(١٠٩) .

وَلِهَذَا بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَلَى وَخَدِيجَةَ وَزَيْدَ ثُمَّ بِسَائِرِ قُرَيْشٍ ثُمَّ بِالْعَرَبِ ثُمَّ بِالْمَوَالِ .

وَبَدَأَ إِبْرَاهِيمَ بِأَبِيهِ ثُمَّ بِقَوْمِهِ ، وَتَدَلَّ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ النَّصِيحَةَ فِي الدِّينِ لَيْسَتْ مِنَ الْعُقُوقِ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

يَلْقَى إِبْرَاهِيمَ أَبَاهُ أَرَزَّرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَلَى وَجْهِهِ أَرَزَّرَ قِطْرَةٌ وَغَبِرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ أَلَمْ أَقُلْ
لَكَ لَا تَعْسَنِي ؟ ، فَيَقُولُ أَبُوهُ ، قَالَ يَوْمَ لَا أَغْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ يَا رَبُّ أَنْتَ وَعَدْتَنِي أَنْ لَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يَبْعَثُونَ فَأَيُّ خَزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : إِنِّي حَرَمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ ^(١١٠) .

﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِي إِنْ يُرَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِيًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

المضردات:

جن عليه الليل : ستره بظلامه .

أفـل : غرَبَ وغَاب .

بـازعًا : مبتدئًا في الطلوع والظهور .

التفسير:

٧٥- وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . أى وكما أرينا إبراهيم الحق، وعرفناه ضلال قومه واضحًا، وأريناه الحق فى مخالفتهم، نعرفه ونظهر له ملك السماوات والأرض ليستدل به على وحدانيتنا .

وجاء فى فتح القدير للشوكانى:

وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . أى ما فيها من الخلق .

وقيل: كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش، وإلى أسفل الأرضين، وقيل رأى من ملكوت السماوات والأرض ما قصه الله فى هذه الآية .

نُرَى . أى أريناه، فهو حكاية حال ماضية . وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر فأراد أن ينبههم على الخطأ .

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . أى أريناه ما أريناه من عجائب الخلق، وغرائب الملكوت ليكون نبيًا ذا علم، وليكون علمه عن يقين، لا يخالجه شك فى عظمة الله، وقدرته على كل شيء .

٧٦- فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . كان قوم إبراهيم يعبدون الأصنام والنجوم والكواكب والقمر والشمس فأراد مُجَارَاتِهِمْ تمهيداً لهدايتهم .

وجن عليه الليل أى ستره بظلامه وتغشاه بظلمته وأصل الجَنُّ الستر عن الحاسة ، يقال جَنَّهُ الليل وجن عليه يَجَنُّ جَنًّا وجنوناً ، ومنه الجن والجِنَّة بالكسر ، لأن الجن لا يرى .

والجِنَّة بالفتح وهى البستان الذى يستر بأشجاره الأرض .

والمجنّ التى تستر المحارب ، والأجِنَّة المستورة فى بطون أمهاتها، والمجنون الذى غاب عقله وذهب .

ومعنى الآية : فلما ستر الليل بظلامه إبراهيم قال هذا ربى ، قال ذلك على سبيل الفرض وإرخاء العنان، مجارات مع عباد الأصنام والكواكب ليكرُّ عليه بالإبطال ويثبت أن الرب لا يجوز عليه التغيير والانتقال .

قال الشوكاني فى فتح القدير : وكان هذا منه عند قصور النظر لأنه فى زمن الطفولية ، وقيل أراد قيام الحجة على قومه كالحاكي لما هو عندهم ، وما يعتقدونه لأجل إلزامهم .

وقال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ فى دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعاً صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها .

وقول إبراهيم هَذَا رَبِّي . قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله ، كما روى غيره ، متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ، وأنجى من الشغب ، ثم يكرُّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة . هـ .

والقصة كلها درس فى عقيدة الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وبيان قدرة الله الذى لا أول له ولا آخر بل هو الأول والآخر .

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . فلما غاب النجم قال لا أحب عبادة الأرباب ، المنتقلين من مكان إلى مكان ، ومن حال إلى حال ، لأن الأفول غياب وشأن الإله الحق أن يكون دائم المراقبة لتدبير أمور عبادته .

٧٧- فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. أى وحين أبصر إبراهيم القمر - مبتدئاً فى الطلوع والظهور قال مستعظماً شأنه : هَذَا رَبِّي. مجازاة لقومه فما أفَلَ وغاب قال إبراهيم عليه السلام ، إرشاداً لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من الله تعالى:

لئن لم يرشدنى ربى إلى الحق ، ويثبتنى عليه ، لأكونن من جملة القوم الذين بُعدوا عن الصراط المستقيم .

وإنما استدل على بطلان كون القمر إلهاً بعد أقوله، ولم يستدل على ذلك بمجرد ظهوره، مع أن أقوله محقق ، لأنه أراد أن يقيم استدلاله على المشاهدة لأنها أقوى وأقطع لحجة الخصم .

٧٨- فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. أى فحين أبصر إبراهيم عليه السلام الشمس مبتدئة فى الظهور والطلوع، قال مشيراً إلى الشمس، هذا الذى أبصره هو ربى - وهو أكبر من الكواكب ، ومن القمر - قال ذلك ليشد انتباههم إلى التأمل والنظر، فى التفسيرات الكونية حتى يصلوا منها إلى معرفة الإله الصانع القدير .

فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . أى فلما غابت الشمس واحتجب ضوءها ، جاهر إبراهيم لقومه بالنتيجة التى يريد الوصول إليها فقال: يا قوم إِنِّي بَرِيءٌ من عبادة الأجرام المتغيرة التى يغشاها الأقول ، وبرىء من إشراككم مع الله آلهة أخرى .

لقد تدرج إبراهيم مع قومه فى ثلاثة مواقف .

فى عبادة النجم ، ثم عبادة القمر ، ثم فى عبادة الشمس .

كما تدرج فى أسلوب دعوته لقومه ، وتصريحه بضلالهم .

قال صاحب الانتصاف:

والدليل على ذلك أنه ترقى فى النوبة الثالثة إلى تمام المقصود والتصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تَمَّ قيام الحجة ، وتبليغ الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود ^(١١١) .

٧٩- إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ. لقد فرغ إبراهيم من الاتجاه نحو آلهة متغيرة ، تظهر وتختفى، واتجه بقلبه نحو الإله الحق ، الذى لا يتغير ولا يتحول ، وأعلن ذلك فى صراحة ووضوح قائلاً:

إنى وجهت قلبى وفطرتى وعبادتى ، لخالق الكون الذى خلق السماوات والأرض على غير مثال سابق .

حَقِيقًا . مائلاً عن الأديان الباطلة والعقائد الزائفة كلها إلى الدين الحق .

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى ولست من الذين أشركوا مع الله بعض مخلوقاته فى عبادته .

وبذلك ثبت أن إبراهيم ليس مع قومه فى عقيدتهم .

★ ★ ★

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

وحاجه قومه : وجادله قومه .

وسع ربي كل شيء علماً : أحاط علمه بكل شيء .

سلطاناً : حجة .

يلبسوا إيمانهم بظلم : لم يخلطوه ببشر .

التفسير :

٨٠ - وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ... الآية . أى جادلوه فى التوحيد الذى توصل إليه ، وحاولوا أن يقنعوه بصحة اتخاذ الآلهة الأخرى ، وخوفوه من ضررها وغضبها .

قال : أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ .

أى أتجادلوننى فى شأنه تعالى - وفى أدلة وحدانيته ، والحال أنه سبحانه قد هدانى إلى الدين الحق ، وإلى إقامة الدليل عليكم بأنه هو المستحق للعبادة .

وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ... أى لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع .
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا . أى لكن إن شاء ربى وقوع شىء ، من الضرر لى يذنب عمله فالأمر إليه ،
وذلك منه لا من معبوداتكم .

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا . أى أحاط ربى علما بكل شىء ، فلا يقع فى ملكه إلا ما شاء هو ، وليس
لآلهتكم مشيئة حتى أخافها .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أى أتعرضون أيها الغافلون عن التأمل فى أن آلهتكم جمادات غير قادرة على
شىء مآ ، فلا تتذكرون أنها عاجزة عن إلحاق ضرر بى ؟
وهذه أمور بدهية ، لكن القوم من طول ما ألفوا الباطل وعبادة الأصنام ، توهموا أن لها قدرة
على إلحاق الضرر بمن ترك عبادتها .

٨١ - وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ... الآية أى كيف
ساغ لكم أن تظنوا أنى أخاف معبوداتكم الباطلة ، وهى مأمونة الخوف لأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنتم لا
تخافون إشتراككم بالله خالقكم ، دون أن يكون معكم على هذا الإشارك حجة أو برهان من العقل أو النقل.
قال الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن :

«إنه منطق المؤمن الواقى المدرك لحقائق هذا الوجود ، إنه إن كان أحد قمينا بالخوف فليس
هو إبراهيم - وليس هو المؤمن الذى يضع يده فى يد الله ويمضى على الطريق - وكيف يخاف آلهة
عاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله مالم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء .

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ . أى أينما فى موقف الأمن من وقوع المكروه الذى
تخوفوننا به ؟

قال الشوكانى فى فتح القدير :

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ . ؟ فريق المؤمنين بالله القوى القادر ، الكافرين بالصنم العاجز ، أم فريق
المؤمنين بالصنم العاجز الكافرين بالله القوى القادر ؟
فأخبرونى أى الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف .

إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة .

٨٢- الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . هذا جواب السؤال السابق فى الآية قبلها ، وهو تأييد من المألا الأعلى لسيدنا إبراهيم عليه السلام وبيان واضح لمن يستحق الأمن ، وهم المؤمنون الذين أخلصوا إيمانهم من الشرك .

أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ . اليقين والثقة والاطمئنان .

وَهُمْ مُهْتَدُونَ . أى: إلى الطريق المستقيم دون من سواهم .

من السنة الصحيحة:

ورد فى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت: الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ، قال الصحابة وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ^(١١٢) .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ . شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله: فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال: إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . إنما هو الشرك .^(١١٣) .

ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة ندرك مدى جدية الصحابة فى تلقى أوامر القرآن ونواهيها، لقد كانوا يدركون أنه أوامر للتنفيذ ، وكانوا يفزعون حين يظنون أن هناك مفارقة بين طاعتهم المحدودة ، ومستوى التكليف المطلوب .

إنه مشهد رائع لهذه النفوس ، التى حملت هذا الدين وكانت ستاراً لقدر الله ، ومنفذاً لمشيئته فى واقع الحياة .

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٨٢﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٨٣ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ٨٤ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَثَمُوزًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ٨٥ وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٨٦ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٨٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِقَوْمٍ لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ٨٨ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ أَقْتَدَهُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ٩٠﴾

المفردات:

حجتنا آتيناهنا إبراهيم : أى أدلنا التى أرشدنا إبراهيم إليها .

حكيم عليم : بالغ الحكمة واسع العلم .

وهبنا : أنعمنا .

واجتبيناهم : أى اخترناهم واصطفيناهم .

صراط : أى طريق جمعه صراط وأصله سراط .

لحيط : أى لبطل ويقال حيط عمله يحبط جبوها . أى بطل وسقط ثوابه .

والحكمة : أى الحكمة أو فصل الخطاب . والقدرة على الفصل فى الأمور على أساس من الحق والصواب .

أقتداه : أى تأس واتبع طريقهم بالاقتداء . والهاء للوقف .

التفسير:

٨٣- **وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** . هذه الآية إشارة إلى تلك الدلائل التي أرشد الله إبراهيم إلى الاحتجاج بها على وحدانية الله وإبطال شرك قومه الذي كانوا عاكفين عليه ، وهى تبدأ من قوله تعالى : **وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** . وفى هذا إشادة بمكانة إبراهيم عليه السلام ، وبالدلائل التى أرشده الله إليها .

وقد عدد الإمام الرازى وجوه نعم الله على إبراهيم وإحسانه إليه .
 فأولها : قوله تعالى: **وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ** . والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة ، وهديناه إليها، وأوقفنا عقله على حقيقتها .
 وثانيها : أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية وهى قوله : **نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ** .
 وثالثها : أنه جعله عزيزاً فى الدنيا وذلك لأنه - تعالى - جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وذريته .

ويقرر معنى الآية على النحو الآتى :

وتلك الحجة التى لا يمكن نقضها أو مغالبتها فى إثبات الحق ، وتزييف الباطل ، أعطيناها ، إبراهيم وأطمناها إياها ، فلما قدم إبراهيم أدلته على توحيد الله ، ويطلان عبادة الأصنام ، علت حجته وارتفعت منزلته ، وسقطت حجة المشركين وبهت الذى كفر .

وهكذا يرفع الله من يشاء درجات متصرفاً فى هذه بحكمته وعلمه :

نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ . لقد كانت سعادة إبراهيم ورفعته فى وضوح حجته ، وتبليغ رسالته وكشف بطلان عبادة الأصنام .

يقول الإمام الشافعى: إن سعادة العالم فى حجة تتبخر اتضاحاً أو فى شبهة تتضاءل افتضاحاً.

ويقول الإمام الرازى : فى هذه الآية دليل على أن كمال السعادة فى الصفات الروحانية لا فى الصفات الجسمانية .

فقد رفع الله قدر إبراهيم حين أتاه الله الحجة والبينة .

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . أى بالغ الحكمة وواسع العلم بحال خلقه فيعلم حال من شاء رفعه .

٨٤- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا .. الآية. أى وهبنا لإبراهيم فضلاً منا وكرمًا : إسحاق وهو ولده من زوجته سارة ، ويعقوب وهو ابن إسحاق لتقر عينه ببقاء عقبه إذ فى رؤية أبناء الأبناء سرور للنفس وراحة للفرّاد ، وقد تربى يعقوب فى حجر إبراهيم فنسب إليه ، وهو ابن ابنه وليس ابنه. كُلًّا هَدَيْنَا . أى كل من إسحاق ويعقوب هديناه الهداية الكبرى فقد جعلنا كلاً منهما نبياً .

وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ. أى وهدينا نوحاً - النبی السابق على إبراهيم - إلى التوحيد والدعوة إليه. وقد امتن الله على إبراهيم بالهداية فى أصوله ، والهداية فى ذريته وهذه من أكبر النعم .

قال الإمام ابن كثير : «وكل من نوح وإبراهيم له خصوصية عظيمة أما نوح فإن الله لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة ، جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليل إبراهيم فلم يبعث الله بعده نبياً إلا من ذريته ، كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ . (الدديد: ٢٦) .

ثم قال تعالى: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وسيذكر هنا سبعة عشر نبياً غير إبراهيم عليه السلام ، أحسنوا أداء الرسالة فأحسن الله لهم الجزاء ، وخلق ذكركم ومآثرهم ، ومثل ذلك الجزاء الحسن . يجزى الله به كل محسن ، قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ . (الرحمن : ٦٠) .

٨٥- وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . أى وكذلك هدينا زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، فكل واحد من هؤلاء الأنبياء من جملة الصالحين المستقيمين .

٨٦- وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . أى فضلنا كل واحد من هؤلاء بالنبوة على سائر العالمين فى عصره فالأنبياء أفضل البشر .

والمذكور من الرسل فى هذه الآيات من أول قوله تعالى : وتلك حُجَّتُنَا ثمانية عشر نبياً هم من الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً وهناك سبعة آخرون يجب الإيمان بهم تفصيلاً ، وقد ذكرنا فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، وهؤلاء السبعة جمعهم نظاماً فى منظومة فنية فى علم التوحيد من قال:

إدريس هود شعيب صالح وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

٨٧- وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . أَى ومن آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم من هديناه إلى الطريق المستقيم فمن هنا للتبعيض .
وَاجْتَبَيْنَاهُمْ . أَى قرباناهم واخترناهم .

٨٨- ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... الآية . أَى ذلك الاجتباء والهداية والتفضيل المفهوم مما تقدم إنما هو هدى الله ، يرشد إليه من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك .
وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ولو فرض أن أشرك بالله أولئك المهديون المختارون لبطل وسقط عنهم ثواب ما كانوا يعملونه من أعمال صالحة . فكيف بغيرهم .

قال ابن كثير: فى هذه الآية تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملاسته ، كقوله تعالى: وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (الزمر: ٦٥).
٨٩- أُولَئِكَ الَّذِينَ عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ .. الآية . أولئك: أَى هؤلاء الأنبياء المذكورون سابقاً .

الَّذِينَ عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ . أَى جنسه المتحقق فى ضمن أى فرد كان من أفراد الكتب السماوية .
والمراد بإيتائه: التفهيم التام لما اشتمل عليه من حقائق وأحكام ، وذلك أعم من أن يكون بالإنزال ابتداءً أو بالإيراث بقاءً ، فإن المذكورين لم ينزل على كل واحد منهم كتاب معين .

وَالْحُكْمَ . أَى الحكمة وهى علم الكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام أو الإصابة فى القول والعمل ، أو القضاء بين الناس بالحق .
وَالنُّبُوَّةَ . الرسالة .

فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِكَافِرِينَ . فإن يكفر بهذه الثلاث التى اجتمعت فىك يا محمد هؤلاء المشركون من أهل مكة ، فلن يضرك كفرهم ، لأننا قد وفقنا للإيمان بها قوماً كراماً ليسوا بها بكافرين فى وقت من الأوقات ، وإنما هم مستمرون على الإيمان بك والتصديق برسالتك وهم أصحاب النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار وقد وفقناهم لحمل الرسالة حتى كأنهم موكلون بها .

٩٠- أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... الآية. أى هؤلاء الأنبياء الذين وفقهم الله تعالى إلى منهج الحق والخير فاقتد بهم يا محمد ، وسر على طريقتهم من التوحيد وأصول الدين لأن دعوة الأنبياء فى أصولها واحدة .

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا . أى قل أيها الرسول الكريم لمن بعثت إليهم لا أطلب منكم على ما أدعوكم إليه من خير ، وما أبلغكم إياه من قرآن أجراً قليلاً أو كثيراً .

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . أى ما القرآن إلا عظة وإرشاد للنقلين : الإنس والجن وهو تذكير للخلق كافة ، الموجودين عند نزوله ومن سيوجد من بعد .

★ ★ ★

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيَسْتَفْتُونَ بِهِ وَأَعْلَمُ مَا لَمْ يَرَوْا تَعَالَى أَمْرًا وَلَا آيَاتُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُنتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

المفردات:

وما قدروا الله حق قدره: وما عظموه حق تعظيمه .

قراطيس: جمع قراطاس وهو الورق ويقال له قراطاس وقراطاس أيضا .

فى خوضهم : فى باطلهم .

يلعبون : يلهون .

أم القري : مكة سميت بذلك لأنها قبلة أهل القري ومحجهم وأعظم القري شأنًا ، وقيل :

لأنها مكان أول بيت وضع للناس .

افترى : اختلق والفرية الكذبة .

غميرات : جمع غمرة ، وغمرة الشيء شدته ومزدهمة وغمرات الموت شدائده وسكراته .

عذاب الهون : أى الهوان يريد العذاب المتضمن لشدة وإهانة ، وإضافته إلى الهون لعراقته فيه .

فرادى : منفردين جمع فرد .

ما حولناكم : ما أعطيناكم .

وراء ظهوركم : فى الدنيا .

تقطع بيتكم : تشتت جمعكم .

ضل عنكم : ضاع ويطل .

التفسير :

٩١- وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... الآية .

والمعنى : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوه حق معرفته فى اللطف بعباده وفى الرحمة بهم ، بل أخلوا بحقوقه إخلالاً عظيماً ، إذ أنكروا بعثة الرسل ، وإنزال الكتب ، وقالوا تلك المقالة الشنعاء ، ما أنزل الله على بشر شيئاً من الأشياء ، قاصدين بهذا القول : الطعن فى نبوة النبى ﷺ ، وفى أن القرآن من عند الله .

قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ . أَى قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد رُدًّا عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِي أَنزَلَ التوراة على موسى .

نورًا . أَى أنزلنا التوراة واضحة فى نفسها تضىء للناس طريق العلم .

وهُدًى للناس . والتوراة مرشدة للناس إلى الطريق المستقيم وهى هداية تعصمهم من الأباطيل والضلالة .

تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ يُدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا . أَى تجعلون هذا الكتاب الذى أنزله الله نورًا وهداية للناس

أوراقاً مكتوبة مفرقة ، لتتمكنوا من إظهار ما تريدون منها ، ومن إخفاء الكثير منها على حسب ما تمليه عليكم مصالحكم ، وشهواتكم .

والمراد من هذه الجملة ثم المحرفين لكتب الله وتوبيخهم على هذا الفعل الشنيع .
وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ .

قال الشوكاني : والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا ﷺ من الأمور التي أوحى الله إليه بها ، فإنها اشتملت على ما يعلموه من كتبهم ، ولا على لسان أنبيائهم ، ولا علمه آبائهم .
قُلِ اللَّهُ . أَيْ أَنْزَلَ اللَّهُ .

ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يُلْعَبُونَ . فى باطلهم يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون .

وفى أمره - ﷺ - بأن يجيب عنهم ، إشعار بأن الجواب متعين لا يمكن غيره ، وتنبية على أنهم بهتوا بحيث أنهم لا يقدرون على الجواب .

ملحق فى مكية الآية أو مدنيتهما :

للمفسرين فى هذه الآية قولان :

١ - الأول أن الآية مكية فسورة الأنعام كلها مكية ، والسياق كله حديث عن المشركين الذين قالوا :
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ .

وإنما ألزمهم الله بإزالة التوراة لأنهم كانوا يعرفون ذلك ولا ينكرون أن الله قد أنزل التوراة على موسى .

وقد اختار هذا الرأى ابن جرير الطبرى وابن كثير .

٢ - الرأى الثانى أن هذه الآية مدنية ، وكون سورة الأنعام مكية لا يمنع من وجود بعض آيات مدنية منها كما نص عليه كثير من العلماء .

جاء فى لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ما يأتى :

أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة مرسلاً قال :

جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فخاصم النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تجد فى التوراة أن الله يبغض الحبر السمين - وكان حبراً سميناً -

فغضب وقال : هل أنزل الله على بشر من شيء؟ فقال له أصحابه : ويحك ولا على موسى ، فأنزل الله : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ .^(١١٤)

والم تأمل فى سياق الآية يجد أن الخطاب كان موجهاً إلى أهل مكة ، وتفدينا كتب علوم القرآن أن المشركين كانوا يلجئون إلى اليهود يسألونهم عن محمد ودينه وربما وجه اليهود إلى النبى ﷺ أسئلة على لسان المشركين فقد قال اليهود للمشركين ، أسألوه عن الروح وعن ذى القرنين وعن أهل الكهف .

إذا علمنا هذا ترجح لدينا أن الآية مكية وقد التفت الخطاب فيها لليهود باعتبارهم عنصر الشغب الذى يقف وراء مشركى مكة .

«وتوجيه الخطاب إلى اليهود لا يتنافى مع كون الآية مكية ، لأنه ليس بلازم أن يكون كل قرآن مكى خطاباً لغير اليهود»^(١١٥) .

٩٢- وَهَذَا كَيْبُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ... الآية .

— وهذا القرآن كتاب أنزلناه على قلبك يا محمد وهذا الكتاب من صفاته أنه مُبَارَكٌ . أى كثير الفوائد لاشتغاله على منافع الدين والدنيا .

فقد اشتمل القرآن على أشرف العلوم وأكملها وهى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه كما اشتمل على بيان السبيل إلى طهارة الأخلاق وتزكية النفس ؛ وتشريع العبادات والمعاملات كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره . ثم قد جرت سنة الله بأن الباحث فى القرآن والمتمسك به يجعل له عز الدنيا وسعادة الآخرة .

مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ . موافق للكتب التى سبقته فى التوحيد وفى تنزيه الله ، وفى أصول العقائد . وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .

أى ولتنذر بهذا الكتاب أُمَّ الْقُرَى : مكة وَمَنْ حَوْلَهَا : من أطراف الأرض شرقاً وغرباً لعموم بعثته — ﷺ — قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ . (الشورى : ٧) .

وسميت مكة بأُمِّ الْقُرَى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومكان حجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنًا وغيرها كالتبعية لها ، كما يتبع الفرع الأصل .

وقد ثبتت عموم بعثته ﷺ بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

قال تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... الآية . (سبا: ٢٨) .

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال :

أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى :

١ - نصرت بالعرب مسيرة شهر .

٢ - وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا .

٣ - وأحللت لى الغنائم .

٤ - وأعطيت المشفاعة .

٥ - وأرسل كل نبي إلى قومه خاصة ويعثت إلى الناس عامة .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية على عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار : « وزعم بعض اليهود المتقدمين وغيرهم أن المراد بمن حولها بلاد العرب ، واستدلوا به على أن بعثة النبي ﷺ خاصة بقومه من العرب ، والاستدلال باطل وإن سلم التخصيص المذكور فإن إرساله إلى قومه لا ينافى إرساله إلى غيرهم ، وقد ثبتت عموم رسالته من آيات أخرى . ا. هـ .

وإذا تأملت وجدت أن النبي ﷺ ذكر لقومه عندما جمعهم أنه رسول الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة .

ومن الأدلة على عموم رسالته قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ... (الأنبياء: ١٠٧) .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أى والذين يؤمنون بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب يؤمنون بهذا الكتاب الذى أنزله الله هداية ورحمة لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة، وحرص على العمل الصالح الذى ينفعه .

وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أى يؤدونها فى أوقاتها مقيمين لأركانها وآدابها فى خشوع واطمئنان، وخصت الصلاة بالذكر لكونها أشرف العبادات وأعظمها خطرا بعد الإيمان .

فهى عماد الدين ، وسبيل إلى طهارة النفس ونظافة القلب وهى الصلة بين المؤمن وربّه ، قال

تعالى: **أَتْلُو مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكُرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ...** (العنكبوت: ٤٥) .

٩٣- **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ...** الآية .

قال الإمام الشوكاني في فتح القدير :

أى كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء ، عليهم السلام ، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، فزعم أنه نبي ، وليس بنبي ، أو كذب على الله فى شيء من الأشياء .
أَوْ قَالَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ . أو ادعى نزول الوحي عليه ، ولم ينزل عليه شيء ، وقد صان الله أنبياءه عما تزعمون عليهم ، وإنما هذا شأن الكذابين رءوس الضلال ، كمسيلمة الكذاب ، والأسود العنسى وسجاح .

وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . أى ولا أحد أظلم - أيضاً - ممن قال بأنى قادر على أن أنزل قرآنًا مثل الذى أنزله الله ، كالذين حكى القرآن عنهم : **وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ...** (الأنفال: ٣١) .

وهيهات أن يكون لأحد قدرة على الإتيان بمثل القرآن فليس فى مقدور بشر أن يأتى بمثله قال تعالى : **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** . (النساء: ٨٢) . وقال سبحانه : **قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** . (الإسراء: ٨٨) .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ . أى ولو ترى أيها الرسول الكريم أو أيها العاقل حالة أولئك الظالمين وهم فى غمرات الموت أى فى شدائده وكرباته وسكراته لرأيت شيئاً فظيعاً هائلاً ترتعد منه الأبدان ، فجواب الشرط محذوف .

وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ . أى والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم باسطوا أيديهم إليهم بالإمانة والعذاب قائلين على سبيل التوبيخ والزجر: **أَخْرِجُوا إِلَيْنَا أَرْوَاحَكُمْ مِنْ أَجْسَادِكُمْ** وسلموها إلينا .

وقيل المعنى : **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْغَمَرَاتِ الَّتِي وَقَعْتُمْ فِيهَا** ، أو **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ أَيْدِينَا** وخلصوها من العذاب .

وفى آية أخرى يقول الله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَلَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرُبُونَ وجُوهَهُمْ وَأَذَانَهُمْ .
(الأنفال : ٥٠) .

اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . أى تقول لهم الملائكة اليوم تجزون عذاب الهول والهلوان بسبب أنكم كنتم فى دنياكم تفترون على الله الكذب فتذكرون إنزال الله كتيبه على رسله ويسبب ادعائكم أن الله شركاء ، ويسبب إغراضكم عن التأمل فى آيات الله والتصديق بها . فكان ما جازيتكم به من عذاب الهون جزاء وفاقاً .

٩٤- وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... الآية . من شأن القرآن أن ينقل المشاهد إلى ما يريد عرضه أمامه أنه واقع مشاهد .

فالآية السابقة عرضت مشهد الملائكة وهى تستخرج أرواح الظالمين .

وهذه الآية نقلت المشاهد إلى مشاهد القيامة وقد بعث الله الظالمين فرادى مجردين من أموالهم وسلطانهم وأهلهم وأولادهم .

ومضمون الآية :

ويقول الله للظالمين : ولقد جئتمونا للحساب والجزاء منعزلين ومنفردين عن الأموال والأولاد وعن كل ما جمعتموه فى الدنيا من متاع . أو منفردين عن الأصنام والأوثان التى زعمتم أنها شفعاؤكم عند الله .

كما أوجدناكم - فى أول حياتكم الأولى - بدون مال ولا متاع ولا ولد .

وَرَكَّعْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . أى وتركتم ما أعطيناكم من النعم فى الدنيا ، ولم تحملوا منها معكم شيئاً .

وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ . أى ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً على شركهم : وما نبرص معكم من زعمتم أنهم سيفشعون لكم عند الله تعالى من الأوثان والأصنام الذين توهتم أنهم شركاء لله تعالى فى الربوبية واستحقاق العبادة . منكم كما يستحقها الله تعالى - وقد حكى القرآن عن المشركين قولهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى . (الزمر : ٣) .

لكنهم لم يجدوا أثراً للأصنام ، ولا لشفاعتهم ولا لعبادتهم لهم .

لَقَدْ قَطَعَ بَيْنَكُمْ أَي انْفَصَمَت الروابط بينكم ، وتشتت جمعكم

وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ أَي ذهب وضاع عنكم ، ما كنتم تزعمون فى الدنيا ، من أن الأصنام شفعاء لكم عند الله ، ومن أنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّرَّامَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبَةٍ أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

المفردات :

فَالِقٌ : الْفَالِقُ : الشَّقَّ .

النَّوَى : ما فى داخل الثمرة ؛ تمرًا أو غيره .

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ : يخرج النبات الحى من التربة الميتة ، والزرع من الحب ، والشجر من النوى .

تُؤْفَكُونَ : أى تصرفون يقال أفكه عن الأمر يأفكه أى صرفه عنه إلى غيره .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ : الإصباح فى الأصل مصدر أصبح سُمى به الصبح ، وفالق الإصباح أى شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل ، أو عن بياض النهار .

سَكَنًا : السكن كل ما يسكن إليه ويؤنس به ، والسكن الرحمة .

حُسْبَانًا : مصدر حسب أى يحسب بهما الأوقات .

فمستقر ومستودع: أى فلكم استقرار فى الأصلاب، أو فوق الأرض، واستيداع فى الأرحام أو تحت الأرض.

يَفْقَهُونَ: يفهمون.

خَضْرَاءُ: أى شيئاً أخضر، يقال هو أخضر وخضر.

مَتَرَاكِبُهُمْ: أى بعضه فوق بعض.

قَنَازٍ: القنن ما يحمل من التمر، وهو كالعنقود للعنب.

دَانِيَةً: قريبة التناول.

مَشْتَبَهَا وَغَيْرَ مَشْتَبَاهِ: بعضه متشابه فى الهيئة والطعم، وبعضه غير متشابه.

إِذَا أَثْمَرَ: إذا أخرج ثمره صغيراً.

وَيَنْعَمَ: أى وانظروا إلى حالته حينما ينضج.

التفسير:

٩٥ - إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ... الآية .

تستعرض الآيات دلائل القدرة الإلهية، وأثار رحمة الله فى إعمار الكون، وسوق المطر وإنبات النبات وتسخير الشمس والقمر، وهذه من لطائف القرآن وخصائصه، فهو لم يجمع الآيات الكونية فى سورة واحدة، وإنما كان يتخلل حديثه لفت الأنظار إلى آثار القدرة، ونحن فى الآيات السابقة شاهدنا أدلة الوجدانية، ونفى الشركاء، وتفرد الإله بالألوهية.

وهنا نجد أدلة القدرة والعظمة، وبيان أن وراء هذا الكون البديع يداً حانية تحفظ توازنه، وتمده بمقامات الحياة وبصنوف النعم. قال تعالى: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِنَّكُمْ تَبْجُرُونَ ... (النمل: ٥٣).

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى .

إن الله وحده هو الذى يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامي، وكذلك الزروع على اختلاف أصنافها والله وحده هو الذى يشق النواة الصلبة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية. وفى ذلك أكبر دلالة على قدرة الله التى لا تحدّ وعلى أنه هو المستحق للعبادة لا غيره.

ونجد عجائب فى طبيعة الشجرة أو النخلة .

كما يذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسير الآية قائلًا :

إنه إذا وقعت الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من الماء أظهر الله تعالى فى تلك الحبة والنواة من أعلاها شقا ومن أسفلها شقا آخر، فالأول يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء، والثانى يخرج منه الشجرة الهابطة فى الأرض. وهنا عجائب .

لأن الذى يغوص فى الأرض أطراف بسيطة فى غاية الدقة واللطافة، ولكنها تغوص فى الأرض الصلبة بقدرة الله العزيز الحكيم. لتكون الجذور التى تثبت الشجرة أمام الأعاصير والرياح.

وفى تكوين الورقة الواحدة وما فيها من عروق وأوتار دليل من دلائل القدرة الإلهية. وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقه تلك الورقة من الحبة والنواة.

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ.

أى يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو كالنطفة والحبة.

وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ.

فهو يخرج الخلايا الميتة من النبات والحيوان، كما يخرج الأطافر والشعر. وبقايا الغذاء من الخلايا الحية من الإنسان والحيوان، وحينما يموت النبات والحيوان والإنسان، تتحلل أجسامها جميعا فتعود إلى العناصر الترابية التى كانت قد تكونت منها وهى بضعة عشر عنصراً على اختلاف فى النسب بين الحيوان والنبات.

ذَلِكُمُ اللَّهُ.

أى صانع ذلك الصنع العجيب هو الله ذو القدرة العجيبة، المستحق للعبادة دون سواه.

فَأَنى يُفْقَهُونَ.

فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من كمال قدرته ويديع صنعه؟

وكيف تصرفون عن عبادة الله إلى عبادة آلهة أخرى؟

٩٦ - قَالُوا الْإِصْبَاحُ.

أى فالىق ظلمة الإصباح وهى الغبش عن بياض النهار حيث يضىء الوجود، ويستنير الكون ويستفيد الناس من ظلام الليل بالهدوء والسكن، ومن نور النهار بالسعى والعمل.

وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا.

يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم، ويستريحون من التعب والنصب.

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا.

أى وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب مقدر لا يتغير ولا يتبدل وبهما تحسب الأوقات، التي تؤدي فيها العبادات والمعاملات.

ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

أى ذلك الذى تقدم من ظهور الإصباح ، وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا جار وحاصل، بتقدير العزيز. الذى أحسن كل شيء خلقه وأبدع تصويره .

العليم. الذى وسع علمه كل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وقد وردت هذه الخاتمة كثيرًا فى القرآن، بعد ذكر خلق الليل والنهار والشمس والقمر مما يدل دلالة واضحة . على أن نظام هذه الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والكواكب والفضاء والهواء والليل والنهار من أقوى الأدلة على سعة علم الله وعظيم تدبيره .

وقد بين الإمام الرازى فى تفسيره الكبير : أن فى الآية أنواعًا من الأدلة على وجود الصانع وكمال قدرته، منها فلق الحب والنوى، ومنها حركة الأفلاك التى ينتج عنها فلق ظلمة الليل بنور الصبح، وهذه أعظم فى كمال القدرة من فلق الحب والنوى، لأن الأحوال الفلكية أعظم فى القلوب وأكثر وقعًا من الأحوال الأرضية.

٩٧ — وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ... الآية .

هذا لون من ألوان قدرته تعالى وأنعمه على عباده ومعنى الآية:

وهو الذى جعل وأنشأ لكم هذه الكواكب النيرة لتتهدوا بها إلى الطرق والمسالك خلال سيركم فى ظلمات الليل بالبر والبحر حيث لاترون شمسًا ولا قمرًا .

ومن آثار النجوم، أنها زينة للسماء وأيضًا هى رجوم للشياطين وشهبًا تقذف بها الجن قال تعالى: إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقْدَلُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفُ الْخَطْفَةِ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ... (الصافات : ٦ : ٨) .

وقال عز شأنه: وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ... (الملك : ٥) .
قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

أى : وقد وضعنا وبيننا الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى ، ورحمته بعباده ، لقوم يعلمون وجه الاستدلال بها ، فيعملون بموجب علمهم ، ويزدادون إيماناً على إيمانهم .

٩٨ - وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ... الآية .

أى وهو سبحانه الذى أوجدكم من نفس واحد هى نفس أبيكم آدم عليه السلام قال تعالى:
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... الآية .
(النساء : ١) .

وفى هذه الجملة تذكير بنعم الله على خلقه فإن رجوع الناس إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والترحم .

وفى خطبته ﷺ فى حجة الوداع إشارة إلى هذا المعنى حيث قال ﷺ :
«أيها الناس إن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ... (الحجرات : ١٣) .

فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ : أى فلكم مستقر على ظهر الأرض، ومستودع فى باطن الأرض.

وقيل المستقر ما كان فى الرحم والمستودع ما كان فى الصلب.

٩٩ - وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ... الآية .

هذا تذكير بنعمة أخرى من نعم الله الجليلة، الدالة على كمال قدرته.

والمعنى: وهو سبحانه الذى أنزل من السحاب ماءً فأخرجنا به نبات كل صنف من أصناف النباتات والثمار المختلفة فى الكم والكيف والطعوم والألوان .

قال تعالى: **وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِيَوَانٌ وَغَيْرُ صِيَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُّلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ...** (الرعد: ٤).

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا.

هذا تفصيل لأنواع ما يخرج من الأرض، أى فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له، نباتًا غصًا أخضر، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة.

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا.

أى نخرج من ذلك النبات الأخضر حبا ركب بعضه فوق بعض كما فى السنبل من القمح والشعير. **وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ.**

الطَّلْع: أول ما يخرج ويبدو من ثمر النخل كالكيزان، أى ويخرج بأمر الله تعالى من طلع النخل عذوقه وهى عناقيد البلح.

والقنوان جمع قنو وهو العرجون بما فيه الشماريخ، والدانية القريبة التى ينالها القمام والقاعد. قال الزجاج: المعنى منها دانية، ومنها بعيدة، فحذف الثانية.

وفى التفسير الوسيط: أى: ومن طلع النخل، قنوان يحمل تمرها ويكون فى متناول الأيدى وهو الدانى القريب، أو فى غير متناول الأيدى وهو البعيد، ونبه على الأولى لزيادة النعمة فيها.

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ.

هذه الجملة معطوفة على نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ.

أى فأخرجنا بهذا الماء نبات كل شىء وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب.

والتمر والعنب هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا، قال تعالى: **وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.** (يس: ٢٤)

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مِثْلَهَا وَغَيْرَ مِثْلَهَا.

أى وأخرجنا الزيتون والرمان متشابهها فى الحجم واللون وغير متشابهها فى الطعم. مما يدل على كمال القدرة وحكمة المبدع الخالق جل جلاله.

النَّظُرُ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ.

أى انظروا نظر اعتبار إلى ثمر الزيتون والرمان إذا أخرج ثمره، كيف يخرج ضئيلاً لا يكاد ينتفع به، وإلى يَنْعِهِ أى وإلى حال إدراكه ونضجه حيث يصبح ذا نفع عظيم ولذة كاملة وملاءمة للجسم كل الملاءمة.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

إن فيما ذكرنا من أنواع النبات والثمار وفيما أمرتم بالنظر إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم، لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. ويصدقون أن الذى أخرج أنواع النبات والثمار المشاهدة أمامكم قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى للحساب والجزاء.

قال تعالى:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ افْتَرَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لُمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (نصفت: ٣٩).

★ ★ ★

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

المفردات:

الجن : المراد بهم الشياطين ، أو ما يعمهم والملائكة .

وخرقوا ، أى اختلقوا، وافتروا.

التفسير:

١٠٠ - وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ... الآية .

عدد الله سبحانه وتعالى فيما سبق عدداً من أنعمه على عباده التى تقتضى الاعتراف له بالألوهية، وتفرد سبحانه عن الشريك، لأنه هو الذى يخلق وينعم وحده .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ .

أى جعلوا الجن شركاء لله فعبدوهم وعظموهم كما عبده تعالى وعظموه.

ولم المراد بالجن هنا أقوال:

الأول : الملائكة حيث عبدوهم وقالوا إنهم بنات الله وتسميتهم جنًا مجازًا لاستتارهم عن الأعين كالجن .

الثاني : أن المراد بالجن هنا الشياطين، حيث أطاعوهم كما يطاع الله.

الثالث : أن المراد بالجن هنا إبليس فقد عبده قوم وسموه ربًا ومنهم من سماه إله الشر والظلمة وخص الباري بأنه إله الخير والنور .

وقد تكون العبادة حقيقة وقد تكون مجازًا قال تعالى:

أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ • وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. (يس : ٦٠ ، ٦١).
وَخَلَقَهُمْ.

أى اتخذوا له سبحانه شركاء، وقد خلقهم وحده فلا يصح أن يعبد سواه.

وجملة وَخَلَقَهُمْ. حال من فاعل جعلوا أى وجعلوا الله شركاء الجن والحال أنهم قد علموا أن الله وحده هو الذى خلقهم دون الجن وليس من يخلق كمن لا يخلق.

وَعَرَّفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

أى واخترقوا واقتروا الله سبحانه بنين وبناات بغير علم بحقيقة ما يقولون، بل عن جهل خالص بالله ويعظمته، إذ لا ينبغي ما دام إلهاً أن يكون له بنون وبناات أو صاحبة أو أن يشاركه أحد فى خلقه، فلا يجوز أن ينسب إليه تعالى إلا ما قام الدليل على صحته.

وفى هذا تنبيه على تنزيه الله تعالى عن افتراء المفترين حيث ادعى المشركون أن الملائكة بنات الله، وادعى اليهود أن عزيزاً ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ.

سُبْحَانَهُ. أى تنزيها له وتقديساً

وَتَعَالَى. أى تباعد وارتفع عن قولهم الباطل

عَمَّا يُصِفُونَ. عما يصفه به هؤلاء الضالون من الأنداد والأولاد والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات:

بديع السموات والأرض: منشئهما ابتداءً، من غير مثال سبق. وهو صيغة مبالغة. من بدعه؛ بمعنى: اخترعه.

أنسى يكون له ولد: من أين يكون له ولد. أو كيف يكون له ولد؟

صاحبة: زوجة.

وكيـل: تستعمل هذه الكلمة بمعنى: حفيظ. وبمعنى: من يوكل إليه الأمر. ومن

يتولاه.. وكل تصح إرادته هنا.

لاتدركه الأبصار: إدراك الشيء؛ الوصول إليه، والإحاطة به.

الأبصار: جمع بصر. وهو حاسة النظر. وقد يطلق على العين. لأنها محل النظر والإبصار.

اللطيف: العليم بدقائق الأمور وخوافيها.

التفسير:

١٠١ - بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً... الآية. الله سبحانه وتعالى

خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق ولا شريك يعينه.

أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً. أى كيف يكون له ولد كما يزعمون، ولم تكن له زوجة يأتى منها الولد.

وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ. أى وخلق كل شيء من الموجودات، ومنهم الملائكة والمسيح وعزير.

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. أى عالم بكل المعلومات، لا تخفى عليه خافية، وقد وسع علمه جميع المخلوقات.

وفي الآية دليل على نفى الولد عن الله تعالى من وجوه :

١ - أن الله هو خالق السماوات والأرض، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون له ولد، لأن ما ادعوه ولدًا، لا يقدر على مثل ذلك، ومن شأن الولد أن يكون قادرًا على مثل ما يقدر عليه أبوه.

٢ - من شأن الولد أن يتولد من ذكر وأنثى متجانسين، والله تعالى ليس له زوجة.

٣ - إن الله وحده هو العليم بكل خلقه، وما زعموه ولدًا ليس كذلك. فلا يصلح أن يكون ولدًا لله. لأنه فقد صفته، وهى العلم بكل شئ.

١٠٢ - ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أى ذلكم المتصف بالأوصاف العلية السابقة هو ربكم لا رب لكم غيره.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . هو الإله المستحق للعبادة وحده لا من زعمتم من الشركاء.

خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ. هو الخالق لكل شئ، أى ما كان منه وما يكون، وإذا كان الأمر كذلك فاعبدوا الله وحده غير مشركين به ولا متخذين له ولدًا.

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. أى وهو مع تلك الصفات الجليلة، رقيب على عبادته حفيظ عليهم يدبر أمورهم، ويمسك بنظام هذا الكون كله بما فيه ومن فيه ليعصمه من الخلل قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. (فاطر: ٤١).

١٠٣ - لَا تَدْرِيكَ الْبَصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. أى لا تبلغ كنه حقيقته الأبصار، فالمنفى هو الإدراك والإحاطة به، ويراه المؤمنون فى الآخرة لقوله تعالى: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاهِيَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ... (القيامة: ٢٢، ٢٣).

وقد استدل المعتزلة بالآية ١٠٣ من سورة الأنعام هذه على امتناع رؤية البشر لله تعالى فى الآخرة.

أما أهل السنة. فيرون أن رؤية الله تعالى ممنوعة فى الدنيا لأن عيوننا فانية والله باقر والفانى لا يرى الباقي فإذا كان يوم القيامة ودخل المؤمنون الجنة منحوا أبصارًا باقية، وكانت رؤيتهم لله تعالى رؤية تكريم وإنعام، وقد ثبتت بالكتاب والسنة .

قال الإمام الشوكاني فى تفسيره فتح القدير: والرؤية فى الآخرة قد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواترًا لا شك فيه ولا شبهة.

وقال الإمام ابن كثير : تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات .

وقد روى الشيخان عن جرير بن عبد الله البجلي قال :

كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا. ثم قرأ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ^(١٠٤).

وأرى أن المكلف يكفيهِ أن يؤمن بالله رباً وخالقاً ورازقاً وأن يؤمن بأنه متصف إجمالاً بكل كمال ومنزه إجمالاً عن كل نقص، أما الخلاف حول نفي الرؤية أو ثبوتها، وأشبه ذلك فيكفي المسلم فيه تفويض الأمر إلى الله تعالى ويكفيه أن يقول كما قال القرآن الكريم آمناً به كلٌّ من عند ربنا وما يُدَكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ . (آل عمران : ٧) .

★ ★ ★

﴿ فَجَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصْرِفُ الْأَيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ (١٠٧) ﴾

المضردات :

بصائر : جمع بصيرة، وهي : النور الذي تبصر به النفس والقلب. أما البصر : فهو نور العين. وأطلقت البصائر على آيات القرآن، تشبيهاً لها بها، في إظهار الحق .

نصرفه الأيـات : نبينها أو ننقلها من نوع إلى نوع، مأخوذ من الصرف والتصريف وهو نقل الشيء من حال إلى حال .

درست : أي درست الكتب الإلهية المتقدمة .

حفيظاً : حارساً من حفظه بمعنى حرسه .

التفسير:

١٠٤ - قَدْ جَاءَكُمْ بِضَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ... الآية. أى قد جاءتكم حجج وبراهين واضحة من عقلها أبصر الحق، وذلك فيما أورده القرآن فى هذه السورة وفى غيرها.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير الآية : البصائر جمع بصيرة وهى للقلب بمنزلة البصر للعين، فهى النور الذى يبصر به القلب، كما أن البصر هو النور الذى تبصر به العين، والمراد بها آيات القرآن ودلائله التى يفرق بها بين الهدى والضلالة، أى قد جاءكم أيها الناس من ربكم وخالفكم هذا القرآن بآياته وحججه وهداياته لكى تميزوا بين الحق والباطل، وتتبعوا الصراط المستقيم ^(١١٧).

فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. أى فمن أبصر الحق وعلمه بواسطة تلك البصائر وأمن به فنفع ذلك راجع لنفسه عائد عليها، إذ أنه بذلك يرزق سعادة الدنيا، والنجاة فى الآخرة.

وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا. ومن تعامى عن الحق، ولم يذعن للحجة ولم يتعقلها، فضرر ذلك عائد على نفسه، راجع إليها إذ أنه سيعاقب على ذلك، بالعذاب فى نار جهنم.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... الآية (الإسراء: ٧).

وقوله عز شأنه: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... الآية (فصلت: ٤٦).

واختتمت الآية بقوله تعالى: وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ. أى لست رقيباً عليكم أحصى عليكم أعمالكم، وأحفظكم من الضلال وإنما على البلاغ والإنذار، وقد فعلت.

١٠٥ - وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ لِقَوْمٍ لَّا يُقُولُوا دَرَسْتَ وَلَتُبَيِّنَنَّ لَهُمْ تِلْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لقد صرف الله فى آيات القرآن الكريم، ولئن فى أساليبه وحججه حيث اشتمل على الوعد والوعيد والوصف وبيان قدرة الله وأدلة عظمته وآثاره فى خلق السماوات والأرض وما فيهما. وفى خلق الإنسان والحيوان والنبات وسائر الموجودات.

وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيَّاتِ. أى وكما فصلنا الآيات الدالة على التوحيد فى هذه السورة تفصيلاً بديعاً محكمًا، فنصل الآيات ونبينها وننوعها فى كل موطن لتقوم الحجة على الجاحدين، ولتزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم.

وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ. وسوف يقول المشركون إذا سمعوا هذا البيان إنك يا محمد لم تأت بهذا من عند الله. وإنما درست علم أهل الكتاب وتعلمت منهم. وجملة. وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ. جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها، للمسارة إلى تسليية النبي ﷺ عن معارضتهم.

فإن المراد منها ألا يعتد بما يقولون من الأكاذيب والتهم الباطلة.

قال القرّاء :

وَلْيَقُولُوا دَرَسْتَ. معناه تعلمت من اليهود لأنهم كانوا معروفين عند أهل مكة بالمعرفة والعلم.

— وفى قراءة دَارَسْتَ. بزيادة الألف وفتح التاء أى دارست غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية كأهل الكتاب من المدارس بين الإثنين أى قرأت عليهم وقرءوا عليك. وهاتان القراءتان متواترتان.

وَلْيُسَيِّئْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. والمعنى ولنبيين ونوضح هذا القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه وبالباطل فيجتنبونه، فهم المنتفعون به دون سواهم.

١٠٦ — اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. أمره الله تعالى ألا يشغل خاطره بهم، وألا يبال بافترائهم وكذبهم، بل عليه أن يشغل نفسه بتبليغ الوحي اعتقاداً وقولاً وعملاً مع الإعراض عن المشركين وجملة لا إله إلا هو معترضة لتأكيد إيجاب الاتباع.

١٠٧ — وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ. أى أن الله تعالى قادر على أن يجعلهم كلهم مؤمنين غير مشركين فالأمر بيده، ولكنه تركهم لما يدور عليه أمر التكليف وهو الاختيار.

ولما تركهم لاختيارهم، لم يحسنوا الانتفاع بآياته فتخلّى عن معونتهم.

وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا. أى رقيباً يحصى أعمالهم ويجازيهم عليها.

وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ. أى قيّم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم.

والمراد: دع أمرهم لنا فنحن أعلم بأعمالهم، وأقدر على جزائهم، ولا تشغل نفسك بغير تبليغهم إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. (الشورى: ٤٨).

﴿وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِسْهُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنْشِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلَبُ أَمْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

المفردات:

ولا تسبوا: السب: الشتم.

عدوا: اعتداءً وتجاوزاً للحق.

جهد أيمانهم: أي بقدر جهدهم وطاقتهم في أيمانهم.

ونقلب أعمداتهم: ونحول قلوبهم.

يعمّهون: يتحيرّون.

التفسير:

١٠٨ - وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِسْهُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... الآية . أى: ولا تسبوا أيها المؤمنون آلهة المشركين الباطلة، فيترتب على ذلك أن يسبّ المشركون معبودكم الحق جهلاً منهم وضلالاً.

سبب النزول:

روى معمر عن قتادة قال: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فیسب الكفار الله عدواً بغير علم فنزلت. (١١٨)

وقال ابن عباس: قالت قريش لأبى طالب: إما أن تنهى محمدًا وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها، وإما أن نسبُ إلهه ونَهْجُوهُ فنزلت الآية .

قال صاحب الكشف: فإن قلت سبّ الآلهة الباطلة حق وطاعة، فكيف صح النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟

قلت رب طاعة علم أنها تؤدي إلى مفسدة، فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة، كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية، ووجب النهي عنه كما يجب النهي عن المنكر.

وقال السيوطي: «وقد يستدل بهذه الآية على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى. وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى منه».

وقال الشوكاني في فتح القدير: «وفى هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق والناهي عن الباطل إذا خشى أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم، ومخالفة حق ووقوع في باطل أشد، كان الترك أولى به، بل كان واجباً عليه»^(١١١)

قال القرطبي: قال العلماء وهذه الآية الكريمة حكمها باق في هذه الأمة على كل حال، فمتى كان الكافر في متعة وخيف أن يسبب الإسلام أو النبي أو الله تعالى، فلا يحل لمسلم أن يسبب صلبانهم، ولا دينهم ولا كنانهم، ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك، لأنه بمنزلة البعث على المعصية.

وفى الآية دليل على وجوب سد الذرائع^(١١٢)

كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ. أى مثل ذلك التزيين الذى حمل المشركين على الدفاع عن عقائدهم الباطلة جهلاً منهم وعدواناً، زينا لكل أمة من الأمم عملهم من الخير والشر، والإيمان والكفر، فقد مضت سنتنا في أخلاق البشر أن يستحسنوا ما تعودوه، وأن يتعلقوا بما ألفوه. قال ابن عباس: زَيْنًا لأهل الطاعة الطاعة، ولأهل الكفر الكفر.

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ لِيُنَبِّئَهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. ثم إلى مالك أمرهم رجوعهم بالبعث بعد الموت، فيخبرهم ويجزيهم بما كانوا يعملونه باختيارهم من طاعة أو معصية، وفقاً لما تأثرت به نفوسهم، وكسبت أديبهم من دواعى هذه الأعمال، وهو وعيد بالجزاء والعذاب.

جاء في التفسير الوسيط. بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر: وقد دلت الآية الكريمة على أن الأعمال تظهر لبعض الناس في الدنيا بغير صورتها الحقيقية التى تكون لها فى الآخرة. فالكفر والمعاصى، تبدو فى الدنيا بصورة تستحسنها نفوس الكفرة والعصاة.

والإيمان والطاعات تظهر لديهم فيها على العكس من ذلك ولذا قال ﷺ (حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ).

فإذا بعثوا يوم القيامة عرفهم الله الأعمال بحقائقها وجزاهم على تقصيرهم، وهذا هو قوله سبحانه.

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مُّرجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٠٩ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا... الآية . أى أقسم أولئك المشركون بالله مجتهدين فى إيمانهم مؤكدين إياها بأقصى ألوان التأكيد. معلنين أنهم لئن جاءتهم آية من الآيات الكونية التى اقترحوها عليك يا محمد ليؤمنن بها أنها من عند الله، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبري بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال: كلّم نفر من قريش رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد: تخبرنا أن موسى كان معه عصا ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا بآية من الآيات حتى نصدقك، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أى شىء تحبون أن آتيكم به؟»

قالوا: تجعل لنا الصفا ذهبًا، فقال لهم: «فإن فعلت تصدقوني؟» قالوا نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون.

فقام رسول الله ﷺ يدعو فجاهه جبريل فقال له إن شئت أصبح الصفا ذهبًا على أن يعذبهم الله إذا لم يؤمنوا، وإن شئت فأتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال ﷺ بل أتركهم حتى يتوب تائبهم، فأنزل الله تعالى قوله:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا. إلى قوله تعالى: وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ. (الأنعام: ١١١).

قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ. أى قل لهم يا محمد إن أمر المعجزات والأمور الخارقة للعادة التى اقترحتم الإيمان عقب مجيئها. عند الله لا عندى فهو وحده القادر على الإتيان بها دونى، وهو سبحانه يأتى بالآيات حسب حكمته ومشيئته إن شاء أتى بها وإن شاء منعها. أما أنا فليس ذلك إلى.

وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وما يدريكم أيها المؤمنون الرافعون فى إنزال الآيات والمعجزات طمعًا فى إيمان هؤلاء المشركين. أنها إذا جاءت لا يصدقون بها !!

فأنا أعلم أنهم لا يؤمنون، وأنتم لا تعلمون ذلك ولذا توقعتم إيمانهم .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف: يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها.

١١٠ - وَقُلْ أَفَلَدَيْتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... الآية. أى ونحو قلوبهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا بما أنزل من القرآن أول مرة.

جاء في حاشية الصاوى على الجلالين: وهو استئناف مسوق لبيان أن خالق الهدى والضلال هو الله لا غيره، فمن أراد له الهدى حوّل قلبه الله تعالى ومن أراد الشقاوة حول قلبه لها.

وقال الشوكاني في فتح القدير: وَقُلْ أَفَلَدَيْتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ. معطوف على لَا يُؤْمِنُونَ.

والمعنى: نقلب أفئدتهم وأبصارهم يوم القيامة على لهب النار وحرّ الجمر.

كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا: فى الدنيا.

وَنَذَرُهُمْ: أى: نهملهم ولا نعاقبهم.

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ: أى: ونتركهم فى ضلالهم يتخبطون ويترددون متحيرين.

وقد دل قوله تعالى: وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. على أن تقلبيه تعالى لأفئدتهم وأبصارهم ليس بطريق الإجبار والقهر، بل بأن يخليهم وما انطوت عليه نفوسهم فى الطغيان.

إن الله تعالى ألهم الإنسان رشده ومنحه العقل والإرادة والاختيار. فإذا سار فى طريق الخير والحق يسر له ذلك وأعانه وشرح صدره وأمدّه بالهدى والتوفيق، وإذا تكبر الإنسان على هداية السماء وأعرض عنها، سلب الله عنه الهدى عقوبة على إعراضه فالله لا يظلم أحداً من خلقه.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ. (يونس: ٤٤).

وقد علم الله منهم البعد عن الاستجابة إلى دعوة الله والبعد عن الإيمان برسوله حتى لو أنزل إليهم ملائكة السماء عياناً، وأحيا لهم الموتى فكلموهم وأخبروهم بصدق محمد، وجمع لهم كل شيء من الخلائق عياناً ومشاهدة وأعطاهم جميع الآيات التى اقترحوها ما كانوا ليؤمنوا إلا من سبقت له الهداية والمشيئة من الله بالهداية.

قال تعالى: **وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ.** (الأنعام : ١١١) .

وهذه الآية الكريمة يبدأ بها الجزء الثامن إن شاء الله والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويحب. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

★ ★ ★

تم تفسير الجزء السابع، يليه تفسير الجزء الثامن إن شاء الله رب العالمين.

اللهم ربنا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشْدًا . (الكهف : ١٠) .

اللهم يسر لنا إتمام هذا العمل حتى نكمل تفسير كتابك الكريم على النحو الذي تحبه وترضاه، وهب لنا الإخلاص والتوفيق والقبول لنا وللقارئین وسائر المؤمنين.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

★ ★ ★

كلمة الختام

أخى المؤمن :

لقد دار الزمان دورته، وجربت البشرية نظمًا وضعية من صنع البشر، ثم أفاق فتوجدت أنها أخطأت كثيرًا.

ونحن المسلمين أولى الناس بالعودة إلى تراثنا وديننا وكتاب ربنا فهو الهدى والنور.

عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ إنه ستكون فتن، قلنا ما المخلص منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله تعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الجد ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، لم تسمعه الجن حتى قالت إنا سمعنا قرآنًا عجيبًا يهdy إلى الرشd فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا .

أخى المؤمن : نحن فى حاجة إلى مدارس القرآن وفهمه واستكنا هديه وروحه وحكمته فهو

النور والهدى والدواء والشفاء قال تعالى: **وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**. (الإسراء: ٨٢) .

فى القرآن الكريم شفاء لأمرضنا ، ودواء لمشاكلنا ونور يضىء لنا الطريق ، وفى هدى النبى ﷺ وعمله وسنته وأقواله وأفعاله نبراس ونمذج يقتدى به قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**. (الأحزاب: ٢١) .

وهذه الصحوة الإسلامية فجر جديد، وروح جديد، ونور جديد يحتاج منا مدارس القرآن وتلاوته وحفظه وترتيبه وتجويده والتغنى به وفى الحديث الشريف: «اقرأوا القرآن فإن الله يأجركم بكل حرف منه عشر حسنات»^(١٢٢) .

أخى المؤمن: العهد هو المحافظة على الصلاة والطهارة وإقامة أركان الإسلام والتوبة النصوح

فضع يدك فى يد الله، ولتكن بيعة صداقة وعهد لله صادق على طاعة الله ومرضاته وسلوك الطريق المستقيم، وثق أنك ستجد الأمان والرضا والسعادة فى طاعة الله وفى حب كتاب الله وفى الاقتداء بهدى رسول الله ﷺ، قال رجل يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً أو أقل فيه لعلى أعيه. فقال له النبى ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم»^(١٢٣) .

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَتَنَّاوُا عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نُولَا مَنْ عَفُوًّا رَحِيمٌ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا أُولُو حُظٍّ عَظِيمٍ . (فصلت : ٣٠ : ٣٥) .

وصلُّ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السابع)

خَرَجَ أَحَادِيثُهُ
الْأَسْتَاذ
مَهْمَالَه سَعِيدَه فَهْمَه

(١) تفسير الطبري ٣ / ٧ .

(٢) من رغب عن سنتي فليس مني :

رواه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (١٤٠١)، والنسائي في النكاح (٣٢١٧)، وأحمد (١٣١٦٠، ١٣١٢٢)،
 (١٣٦٣١). ورواه ابن ماجة في النكاح (١٨٤٦) بلفظ: «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني.. الحديث. كلهم
 من حديث أنس، ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار، ورواه الدارمي في النكاح (٢١٦٩) من حديث
 سعد بن أبي وقاص.

(٣) إني إذا أصبت اللحم انتشرت للنساء:

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٥٤) من حديث ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ: إني إذا
 أصبت اللحم انتشرت للنساء وأخذتني شهوتي فحرمت علي اللحم فأَنْزَلَ الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما
 أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب
 ورواه بعضهم عن عثمان بن سعد مرسلًا ليس فيه عن ابن عباس ورواه خالد الحذاء عن عكرمة مرسلًا.

(٤) كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء:

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦١٥) وفي النكاح (٥٩٧٦) ومسلم في النكاح (١٤٠٤) وأحمد في مسنده (٣٩٧٦) من
 حديث عبد الله رضي الله عنه قال كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء فقلنا ألا نخصمي فنهانا عن ذلك فرخص لنا
 بعد ذلك أن نتزوج المرأة بالثوب ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم).

(٥) لو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر:

رواه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩٣) من حديث يوسف بن ماهك قال إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها
 إذ جاءها عراقي فقال في الكفن خير قالت ويحك وما يضرك قال يا أم المؤمنين أرىني مصحفك قالت لم قال لعل أولف
 القرآن عليه فإنه يقرأ غير مؤلف قالت وما يضرك أيه قرأت قبل إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر
 الجنة والنار حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر
 أبداً ولو نزل لا تزنا لقالوا لا ندع الزنا أبداً لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب (بل الساعة موعدهم والساعة
 أدهى وأمر) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده قال فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور.

(٦) الفتاوى للإمام الأكبر محمود شلتوت. ص ٣٦٤ دار القلم.

(٧) البحر المحیط ٤ / ١٥ .

(٨) يا أيها الناس إن الله يغيض الخمر:

رواه مسلم (١٥٧٨) من حديث أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة قال يا أيها الناس إن الله
 تعالى يعرض بالخمر ولعل الله سيزل فيها أمراً فمن كان عنده منها شيء فليبيعه ولينتفع به قال فما لبثنا إلا يسيراً
 حتى قال النبي ﷺ إن الله تعالى حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع قال فاستقبل
 الناس بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها.

(٩) أما علمت أن الله حرمها:

رواه مالك في الموطأ كتاب الأشربة (١٥٩٨) ومسلم في المساقاة (١٥٧٩) والنسائي في البيوع (٤٦٦٤) والدارمي في الأشربة (٢١٠٣) وفي البيوع (٢٥٧١) وأحمد في مسنده (٢٠٤٢) من حديث ابن عباس أن رجلاً أهدى لرسول الله ﷺ راوية خمر فقال له رسول الله ﷺ هل علمت أن الله قد حرمها قال لا ففسار إنساناً فقال له رسول الله ﷺ بم ساررت فقال أمرته ببيعها فقال إن الذي حرم شربها حرم بيعها قال ففتح المزانة حتى ذهب ما فيها.

(١٠) كل مسكر خمر:

رواه مسلم (٢٠٠٣)، وأحمد (٤٨١٥)، والترمذي (١٨٦١)، وأبو داود (٣٦٧٩).

(١١) الر ما اطمانت إليه النفس:

رواه مسلم في البر (٢٥٥٣) والترمذي في الزهد (٢٣٩٨) والدارمي في الرقاق (٢٧٨٩) وأحمد في مسنده (١٧١٧٩) عن النّوّاس بن سعيان الأنصاري قال سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكهرت أن يطلع عليه الناس.

(١٢) لعن الله الخمر:

رواه أبو داود في كتاب الأشربة (٣٦٧٤)، وأحمد في مسنده حديث رقم (٤٧٧٢، ٥٣٦٧، ٥٦٨٣)، وابن ماجه في كتاب الأشربة (٢٣٨٠) من حديث عبدالله بن عمر. والترمذي في كتاب البيوع (١٢٩٥) وابن ماجه في كتاب الأشربة (٣٣٨١) وقال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث أنس وقد روى نحو هذا عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبي ﷺ. وذكره السيوطي في زيادات الجامع للصغير من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: أتاني جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه ويأتعها ومبتاعها وساقطها ومسقيها. ونسبه للطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک والبيهقي في الشعب والضياء. قال الهيثمي في المجمع كتاب البيوع باب في الخمر وثمنها: وعن عبدالله بن مسعود قال: لعن رسول الله ﷺ الخمر وشاربها وساقطها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ويأبيعها ومبتاعها وأكل ثمنها. وقال: رواه البزار والطبراني في الكبير وفيه عيسى بن أبي عيسى الحناط وهو ضعيف.

(١٣) الر ما اطمنت إليه النفس:

تقدم تخريجه.

(١٤) لا ضرر ولا ضرار:

رواه أحمد في مسنده (٣٢٦/٥) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠) من حديث عبادة بن الصامت. قال البوصيري في الزوائد: حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. ورواه أحمد في مسنده (٣١٣/١) وابن ماجه فيما تقدم (٢٣٤١) والدارقطني (٢٢٨/٤) من حديث ابن عباس. قال البوصيري في الزوائد: في إسناده جابر الجعفي متهم. ورواه الدارقطني (٢٢٨/٤) والحاكم في المستدرک (٥٨/٢) والبيهقي (٦٩/٦) من حديث أبي سعيد الخدري. قال البيهقي: تفرد به عثمان بن محمد الدارودي. قلت: وهو ضعيف. ورواه مالك في الموطأ كتاب الأقضية (٣١) والبيهقي (٦٩/٦) من حديث يحيى المازني مرسلًا، وهو أصحها. وروى الحديث من طرق أخرى كثيرة، وكلها لا تخلو من ضعف.

(١٥) الإحسان أن تعبد الله:

رواه البخارى فى الإيمان ح (٥٠)، وفى تفسير القرآن ح (٤٧٧٧)، ومسلم فى الإيمان ح (٨، ٩)، والترمذى فى الإيمان ح (٢٦١٠)، والنسائى فى الإيمان ح (٤٩٩٠، ٤٩٩١)، وأبو داود فى السنة ح (٤٦٩٥)، وابن ماجه فى المقدمة ح (٦٣)، ٦٤، وأحمد ح (٣٦٩، ٣٧٦، ٥٨٢٢، ٦١٢١)، من حديث أبى هريرة، ومن حديث عمر بن الخطاب. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

(١٦) خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٣١٤) ومسلم فى الحج (١١٩٨) والترمذى فى الحج (٨٣٧) والنسائى فى مناسك الحج (٢٨٨١) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٨٧) والدارمى فى المناسك (١٨١٧) وأحمد فى مسنده (٢٣٥٣٢) من حديث عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال خمس فواسق يقتلن فى الحرم الفأرة والعقرب والحديا والغراب والكلب العقور. ورواه مالك فى الموطأ فى كتاب الحج (٨٠٠) من حديث عروة بن الزبير يرفعه.

(١٧) تفسير ابن كثير ٩٩ / ٢ .

(١٨) تفسير د / محمد سيد طنطاوى: سورة المائدة ص ٣٩١، نقلا عن تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد السادس من السنة ٢٢ .

(١٩) هو الطهور ماؤه الحل ميتته:

رواه مالك فى الموطأ كتاب الطهارة (٤٣) وأبو داود فى الطهارة (٨٣) والترمذى فى الطهارة (٩٦) والنسائى فى الطهارة (٥٩) وفى المياه (٣٣٢) وابن ماجه فى الطهارة (٣٨٦) والدارمى فى الطهارة (٧٢٩) وفى الصيد (٢٠١١) وأحمد فى مسنده (٨٥١٨) من حديث أبى هريرة قال سأل رجل النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توشأنا به عطينا أفنتوضأ بماء البحر فقال رسول الله ﷺ هو الطهور ماؤه الحل ميتته. وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢٠) أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد:

رواه ابن ماجه فى الصيد (٣٢١٨) وفى الأطعمة (٣٣١٤) وأحمد فى مسنده (٥٦٩٠) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال أحلت لكم ميتتان دمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال.

(٢١) ليس الإيمان بالتصنى:

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس. وقال السيوطى فى «الدر المنثور»: وأخرج ابن أبى شيبه عن الحسن قال: إن الإيمان ليس بالتحللى ولا بالتصنى، إن الإيمان ما وفر فى القلب وصنقه العمل. فذكره هكذا موقوفاً.

(٢٢) لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٢١) وفى الرقاق (٦٤٨٦) ومسلم فى الصلاة (٤٢٦) والنسائى فى السهو (١٣٦٣) وابن ماجه فى الزهد (٤١٩١) والدارمى فى الرقاق (٢٧٣٥) وأحمد فى مسنده (١١٥٨٦) من حديث أنس رضى الله عنه قال خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلاً قط قال لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا قال فغضى

أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنثين فقال رجل من أبي قال فلان فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم). ورواه البخاري في الجمعة (١٠٤٤) وفي النكاح (٥٢٢١) ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (٤٤٤) والنسائي في الكسوف (١٤٧٤) من حديث عائشة رضی الله عنها أن رسول الله ﷺ قال يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته تزني يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. ورواه البخاري في الرقاق (٦٤٨٥) والترمذي في الزهد (٢٣١٣) وأحمد في مسنده (٩٢٩٤) من حديث أبي هريرة رضی الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. ورواه الترمذي في الزهد (٢٣١٢) وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠) وأحمد في مسنده (٢١٠٠٥) من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون إن السماء أظت وحق لها أن تنط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفراشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله والله لودت أنى كنت شجرة تعضد. وقال الترمذي: حسن غريب.

(٢٣) لا تسألوني عن شيء إلا أخبركم به ما دمت في مقام:

رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٤) ومسلم في الفضائل (٢٣٥٩) وأحمد في مسنده (١٢٢٤٨) من حديث أنس بن مالك رضی الله عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أمورا عظاما ثم قال من أحب أن يسأل عن شيء فليسال عنه فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبركم به ما دمت في مقام هذا قال أنس فأكثر الناس البكاء وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلوني فقال أنس فقام إليه رجل فقال أين مدخلي يا رسول الله قال النار فقام عبدالله ابن حذافة فقال من أبي يا رسول الله قال أبوك حذافة قال ثم أكثر أن يقول سلوني سلوني فبكر عمر على ركبتيه فقال رضيها بالله ربا وبالإسلام دينها ويحمد ﷺ رسولاً قال فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ثم قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لقد عرضت على الجنة والنار أنفا في عرض هذا الحادث وأنا أصلي فلم أر كاليوم في الخير والشر.

(٢٤) تفسير القرطبي ٦ / ٣٢٣ .

(٢٥) زبدة التفسير من فتح القدير: محمد سليمان الأشقر ط أولى الكويت.

(٢٦) إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم:

رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٩) ومسلم في الفضائل (٢٣٥٨) وأبو داود في السنة (٤٦١٠) وأحمد (١٥٢٣، ١٥٤٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢٧) فروني ما ترككم:

رواه البخاري في الاعتصام (٧٢٢٨)، ومسلم في الفضائل (١٣٣٧)، والترمذي في العلم (٢٦٧٩) والنسائي في المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه في المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبي هريرة.

(٢٨) إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها :

ذكره الهندي في كنز العمال (٩٨٠) ونسبه للطبراني وأبى نعيم في الحلية والدارقطني في السنن. قال الهيثمي في المجمع: عن أبي ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حذورا فلا تعتدوها، وغفل عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها. رواه الطبراني في الكبير وهو هكذا في هذه الرواية وكان بعض الرواة ظن أن هذا معنى وسكت فرواها كذلك والله أعلم ورجاله رجال الصحيح.

(٢٩) نهى رسول الله ﷺ عن الأغلوطات:

أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٦٥) وأحمد (٢٣١٧٦) من حديث معاوية. ورواه أحمد في مسنده حديث رقم (٢٣١٧٥) عن رجل من أصحاب النبي. تنبيه: ذكره بلفظ (الغلوطات). قال المناوى في الفيض: وفيه عبدالله بن سعد قال أبو حاتم مجهول قال ابن القلقان صدق أبو حاتم لو لم يقله لقلناه وذكره الساجي في ضعفاء الشام.

(٣٠) يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع:

رواه مالك في الموطأ كتاب الطهارة (٤٥) من حديث يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب خرج في ركب فيهم عمرو بن العاص حتى وردوا حوضاً فقال عمرو بن العاص لصاحب الحوض يا صاحب الحوض هل ترد حوضك السباع فقال عمر بن الخطاب يا صاحب الحوض لا تخبرنا فإننا نرد على السباع وترد علينا.

(٣١) تفسير سورة المائدة، د. محمد سيد طنطاوي ص ١٣٤ نقلاً عن تفسير القاسمي. باختصار.

(٣٢) إن أول من سب السوائب:

رواه أحمد في مسنده (٤٢٤٦) من حديث عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال إن أول من سب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجر أمتعاه في النار. والحديث رواه البخاري في الجمعة (١٢١٢) وفي تفسير القرآن (٤٦٢٤) ومسلم في الكسوف (٩٠١) والنسائي في الكسوف (١٤٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ رأيت جهنم يحطم بعضها ورأيت عمراً يجر قصبه وهو أول من سب السوائب. ورواه البخاري في المناقب (٣٥٢١) وفي تفسير القرآن (٤٦٢٣) وأحمد في مسنده (٧٦٥٣) من حديث سعيد بن المسيب قال البهيرة التي يمنع درها للطواغيت ولا يحبطها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبونها لأنهم فلا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سب السوائب.

(٣٣) فتح القدير للشوكاني.

(٣٤) أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية:

رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٨)، وفي تفسير القرآن ح (٣٠٥٦)، وأبو داود في الملاحم ح (٤٣٣٨)، وابن ماجه في الفتن ح (٤٠٠٥)، وأحمد ح (١٧٠١، ٣٠، ٢١، ٥٤) من حديث أبي بكر الصديق، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣٥) بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر:

رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤١) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٥٨) من حديث أبي أمية الشعباني قال سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية (عليكم أنفسكم) قال أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ فقال بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فليكن يعني بنفسك ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر الصبر فيه مثل قبض على الجمر للعامل فيه مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله وزادني غيره قال يا رسول الله أجر خمسين منهم قال أجر خمسين منكم.

(٣٦) خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري:

رواه البخاري في الوصايا (٢٧٨٠) وأبو داود في الأقضية (٣٦٠٦) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٦٠، ٣٠٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدى بن بداء فمات السهمي بأرض

ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخصوصا من نهب فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا ابتعناه من تميم وعدى فقام رجلا من أوليائه فحلفا (لشهادتنا أحق من شهادتهما) وإن الجام لصاحبهم قال وفيهم نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت).

(٣٧) تفسير الكشاف ١ / ٦٩٠ .

(٣٨) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢ / ٩٧٧ . دار الشروق.

(٣٩) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٥ باختصار.

(٤٠) تفسير الآلوسي ٣ / ١٦٩ .

(٤١) تفسير الفخر الرازي.

(٤٢) تفسير القرطبي ٦ / ٣٦٤ .

(٤٣) تفسير ابن جرير الطبري ٧ / ١٣٥ .

(٤٤) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٦ .

(٤٥) تفسير ابن كثير ٢ / ١١٩ .

(٤٦) تفسير صفوة البيان لمعاني القرآن لفَضيلة الشيخ حسين مخلوف ص ٢١٣ .

(٤٧) إنكم محشورون حفاة عراة غرلا:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم في الجنة (٢٨٦٠) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣) وفي تفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائي في الجنائز (٢٠٨١) والدارمي في الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد في مسنده (١٩١٦، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين) وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول أصحابي أصحابي فيقال إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح (وكننت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني) إلى قوله (العزیز الحكيم). ورواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم في الجنة (٢٨٥٩) والنسائي في الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٦) وأحمد في مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضی الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ تحشرون حفاة عراة غرلا قالت عائشة فقلت يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض فقال الأمر أشد من أن يهمهم ذلك. ورواه الدارمي في الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال قيل له ما المقام المحمود قال ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسية يسط الرحل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويحياكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى اكسوا خلیای فیؤتی بریعتین بیضاوین من رباط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغطني الأولون والآخرون.

(٤٨) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢ / ٤٦٦ .

(٤٩) تفسير سورة المائدة، د. محمد سيد طنطاوي ص ٤٦٣ .

(٥٠) التفسير الوسيط: (تفسير سورة المائدة) د. طنطاوي ص ٤٦٤ نقلا عن تفسير الفخر الرازي ١٢ / ١٣٨ .

(٥١) في ظلال القرآن ٧ - ٤٢، ط ٢.

(٥٢) في ظلال القرآن ٧ - ٤٣.

(٥٣) وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨٦). من حديث عبد الله بن مسعود قال سألت النبى ﷺ أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت إن ذلك لعظيم قلت ثم أى قال وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك.

(٥٤) تفسير الألوسى ٧ / ٩١.

(٥٥) التفسير الوسيط: د. طنطاوى نقلا عن تفسير سورة الأنعام للشيخ محمد أبو زهرة، مجلة لواء الإسلام السنة ٢٣ العدد الخامس ص ٢٤٢.

(٥٦) في ظلال القرآن: سيد قطب الجزء السابع صفحة ١٠٣٨ المجلد ٢.

(٥٧) لو أن أولكم وآخركم:

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد ١٦٠/٥، كلاهما عن أبى ذر رضى الله عنه. وأوله عند مسلم وأحمد: يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى. وعند الترمذى: يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته. وقال الترمذى: حديث حسن.

(٥٨) تفسير القرطبي ٦ / ٣٩٤.

(٥٩) لا قرأوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة ح (٤١٥) وفى أحاديث الأنبياء ح (٣١٣٠، ٣١٢)، وفى المغازى ح (٤٠٨٦، ٤٠٧٦)، وفى تفسير القرآن ح (٤٢٣٣)، ومسلم فى الزهد ح (٥٢٩٣، ٥٢٩٢)، وأحمد (٤٣٣٣، ٥٠٩٠). من حديث عبدالله بن عمر بلفظ: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين... الحديث.

(٦٠) التفسير الكبير: فخر الدين الرازى ٤ / ١٤.

(٦١) ينزل الله إلى سماء الدنيا:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٣٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (١٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٣، ٨٧٥١، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٣، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم. ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على.

(٦٢) إن رحمى تغلب غضى:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٤) وفى التوحيد (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٣، ٧٥٥٤) ومسلم فى التوبة (٢٧٥١) والترمذى فى الدعوات (٣٥٤٣) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٩) وفى الزهد (٤٣٥٩) وأحمد فى مسنده (٧٤٧٦) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لما قضى الله الخلق كتب كتابا عنده غلبت أو قال سبقت رحمتى غضبى فهو عنده فوق العرش.

(٦٣) أن امرأة بغيا رأته كليا فى يوم حار يطيف بهي:

رواه مسلم فى السلام (٢٢٤٥) وأحمد (١٠٢٠٥)، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أن امرأة بغيا رأته كليا فى يوم حار يطيف بهيتر قد أدبل لسانه من العطش فنزعت موقها فغفر لها.

(٦٤) فى كل كيد رطبة أجر:

رواه البخارى فى المساقاة (٢٣٦٣) وفى المظالم (٢٤٦٦) وفى الأدب (٦٠٠٩) ومسلم فى السلام (٢٢٤٤) ومالك فى الموطأ كتابه الجامع (١٧٢٩) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٥٠) وأحمد فى مسنده (٨٦٥٧) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بهى فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له قالوا يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا قال فى كل كيد رطبة أجر.

(٦٥) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوى، ص ٦٨.

(٦٦) فى ظلال القرآن ٢ / ١٠٥٥.

(٦٧) يا غلام إني أعلمك:

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الألقام وجفت الصحف. قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح. قال العجلونى فى كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه، وكذا اللضاعى عن أبي هريرة رضى الله عنه، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى، فقال يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله - الحديث، وفيه قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقضوا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقضوا عليه، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا، وأوردته الضياء فى المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ يا ابن عباس احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين.

(٦٨) اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت:

رواه البخارى فى الأذان (٨٤٤) وفى الدعوات (٦٣٣٠) وفى القدر (٦٦١٥) وفى الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم فى المساجد (٥٩٣) وأبو داود فى الصلاة (١٥٠٥) والنسائى فى السهو (١٣٤١) والدارمى فى الصلاة (١٣٤٩) وأحمد فى مسنده

(١٧٦٧٣) من حديث رواه كاتب المغيرة بن شعبة قال أُملى على المغيرة بن شعبة في كتاب إلى معاوية أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

(٦٩) فتح القدير للشوكاني.

(٧٠) سورة الأنعام والأهداف الأولى للإسلام: للشيخ محمد المدني ص ٥ .

(٧١) هذا المعنى مستخلص من تفسير في ظلال القرآن ٢ / ١٠٦١ ، ١٠٦٢ .

(٧٢) حاشية الجمل ٢ / ١٥ .

(٧٣) في ظلال القرآن ٢ / ١٠٦٣ .

(٧٤) تفسير الآلوسي ٣ / ١٢١ .

(٧٥) تفسير الكشاف ٢ / ١٣ .

(٧٦) انظر تفسير الخازن. وتفسير الآلوسي ٧ / ١٢٥ .

(٧٧) تفسير المنار ٧ / ٣٤٧ .

(٧٨) مجلة لواء الإسلام لسنة ٢٣ العدد ٩ تفسير القرآن للشيخ محمد أبو زهرة .

(٧٩) من مات فقد قامت قيامته:

قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.. قال العجلوني في كشف الخفاء: ورواه الديلمي عن أنس رفعه بالفظ إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته والطبراني عن المغيرة بن شعبة قال يقولون القيامة وإنما قيامة الرجل موته، ومن رواية سفيان عن أبي قبيس قال شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال أما هذا فقد قامت قيامته وروى عن أنس أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكركم في غنى كدره عليكم وإن ذكركم في ضيق وسعه عليكم . الموت القيامة . إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته . يرى ما له من خير وشقاء . الهندي في الكنز (٤٢١٢٣) أكثروا ذكر الموت، فإنكم إن ذكركم في غنى كدره، وإن ذكركم في ضيق وسعه عليكم، الموت القيامة، إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته، يرى ما له من خير وشر. وقال رواه العسكري في الأمثال - عن أنس، وفيه داود بن المحبر - كذاب - عن عنبسة بن عبد الرحمن - متروك منهم - عن محمد بن زاذان - قال البخاري: لا يكتب حديثه. وذكره الفتنى في تذكرة الموضوعات وقال: ابن أبي الدنيا ضعيف وهو من قول الفضيل بن عياض، وفي المقاصد هو للديلمي عن أنس رفعه.

(٨٠) لتؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة

رواه مسلم في البر (٥٨٢٨) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠) وأحمد في مسنده (٧١٦٣) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لتؤدُنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة . حتى يقاد للشاة الجلاحم من الشاة القرناء.

(٨١) إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب:

رواه أحمد في مسنده (١٦٨٦٠) من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على

معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله ﷺ (فلما نسوا ما ذكروا به ففتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون). قال المناوي في فيض القدير: قال الهيثمي: رواه الطبراني عن شيخه الوليد بن العباس المصري، وهو ضعيف. وقال العراقي إسناده حسن، وتبعه المؤلف فرمز لحسنه.

(٨٢) تفسير أبي السعود: المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم المجلد الثاني ص ١٣٥.

(٨٣) عبد الكريم الخطيب: التفسير القرآني للقرآن المجلد الثاني الجزء السابع ص ١٨٧.

(٨٤) المرجع السابق.

(٨٥) في ظلال القرآن المجلد الثاني ص ١١٠٠، والتفسير الوسيط: تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوي ص ١١٠، وتفسير ابن كثير ٣ / ١٠٤.

(٨٦) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوي مفتي الديار المصرية الطبعة الرابعة ص ١١١.

(٨٧) تفسير سورة الأنعام، د. محمد سيد طنطاوي ص ١١٢.

(٨٨) التفسير الوسيط، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الرابع عشر ص ١٢٥٠، ١٢٥١.

(٨٩) ينزل الله إلى السماء الدنيا:

تقديم تخريجه .

(٩٠) إن الله عز وجل يسطر يده بالليل:

رواه مسلم في التوبة ح (٤٩٥٤)، وأحمد ح (١٨٧٩٣، ١٨٧٠٨).

(٩١) في ظلال القرآن. سيد قطب، المجلد ٢ ص ١١٠٩.

(٩٢) في ظلال القرآن: سيد قطب المجلد الثاني ص ١١١١.

(٩٣) تفسير القرطبي ٣ / ٧.

(٩٤) من أتى عرفاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة:

مسلم في السلام (٤١٣٧)، وأحمد ح (٢٢١٣٨، ١٦٠٤١)، عن بعض أزواج النبي ﷺ.

(٩٥) مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله:

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢٧، ٤٦٩٧، ٤٧٧٨) وفي التوحيد (٧٣٧٩) وأحمد في مسنده (٤٧٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تفيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله.

(٩٦) من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر:

رواه أحمد في مسنده (٩٢٥٢) من حديث أبي هريرة والحسن عن النبي ﷺ قال من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

(٩٧) في ظلال القرآن: سيد قطب، المجلد الثاني ص ١١٢١ .

(٩٨) تفسير الكشاف ٢ / ٣٣ .

(٩٩) حاشية الجمل على الجلالين ٢ / ٤٠ .

(١٠٠) تفسير الفخر الرازي ٢ / ٦٢ بتصرف.

(١٠١) انظر تفسير ابن كثير وبه طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عقب تفسير الآية.

(١٠٢) أقصر الصلاة أم نسيت:

رواه البخاري في الصلاة (٤٨٢) وفي الأذان (٧١٤) وفي الجمعة (١٢٢٨، ١٢٢٩) وفي الأدب (٦٠٥١) وفي أخبار الآحاد (٧٢٥٠) ومسلم في المساجد (٥٧٣) ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (٢١٠، ٢١١) وأبو داود في الصلاة (١٠٠٨، ١٠١٥) والترمذي في الصلاة (٣٩٩) والنسائي في السهو (١٢٢٤) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٤) والدارمي في الصلاة (١٤٩٦، ١٤٩٧) وأحمد في مسنده (٧١٦٠) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من التنتين فقال له ذو الديدن أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ أصدق ذو الديدن فقال الناس نعم فقام رسول الله ﷺ ف صلى اثنتين أخريين ثم سلم ثم كبر فسجد مثل سجوده أو أطول. أما قوله: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون» فرواه مسلم في المساجد (٥٧٢) وأبو داود في الصلاة (١٠٢٠، ١٠٢٢) والنسائي في السهو (١٢٤٢) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٣٢، ١٢١١) وأحمد في مسنده (٣٥٩١) من حديث عبدالله صلى رسول الله ﷺ قال إبراهيم زاد أو نقص فلما سلم قيل له يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء قال وما ذاك قالوا صليت كذا وكذا قال ففني رجله واستقبل القبلة فسجد سجدتين ثم سلم ثم أقبل علينا بوجهه فقال إنه لو حدث في الصلاة شيء أنبأتكم به ولكن إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني وإذا شك أحدكم في صلاته فليتحجر الصواب فليتم عليه ثم ليسجد سجدتين.

(١٠٣) إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت:

أنظر ما قبله:

(١٠٤) من قرء صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام:

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٩٠٨٢) ورمز لضعفه. قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه ابن عدى من حديث عائشة، والطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن بسر بأسانيد ضعيفة قال ابن الجوزي: كلها موضوعة. وذكره الفغني في تذكرة الموضوعات.

(١٠٥) إن الله تجاوز عن أمي خطأ والنسيان:

رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣) من حديث أبي ذر الغفاري قال قال رسول الله ﷺ إن الله تجاوز عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. ورواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال إن الله وضع عن أمي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع. والظاهر أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نعيم في الطريق الثاني وليس بعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان

يدلس. قال المناوي في فيض القدير: (عن ابن عباس) قال الزيلعي: سنده ضعيف، ورواه الطبراني باللفظ المذكور وقال الهيثمي وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وفيه كلام لا يضر وبقيته رجاله رجال الصحيح وقال ابن حجر أخرجه الفضل التميمي في فوائدہ بإسناده وابن ماجة بلفظ رفع بدل وضع ورجاله ثقات إلا أنه أعل بطله غير قاضية فإنه من رواية الوليد عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس وقد رواه بشر بن بكر عن الأوزاعي فزاد عبيد بن عمير بن عطاء وابن عباس وأخرجه الحاكم والدارقطني انتهى. وذكره الهيثمي في المجمع من حديث ثوبان عن رسول الله ﷺ قال: إن الله تجاوز عن أمتي ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه. وقال: رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف. قال المناوي في فيض القدير: (ثوبان) رمز المصنف لصحته وهو غير صحيح فقد تعقبه الهيثمي بأن فيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو ضعيف. هـ وقصارى أمر الحديث أن النووي ذكر في الطلاق من الروضة أنه حسن ولم يسلم له ذلك بل اعترض باختلاف فيه وتباين الروايات ويقول ابن أبي حاتم في العلل عن أبيه هذه أحاديث منكرة كأنها موضوعة وذكر عبدالله بن أحمد في العلل أن أباه أنكره ونقل الخلال عن أحمد بن زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف الكتاب والسنة وقال ابن نصر: هذا الحديث ليس له سند يحتج بمثله. هـ. وقد خفي هذا الحديث عن الإمام ابن الهمام فقال: هذا الحديث يذكره الفقهاء بهذا اللفظ ولا يوجد في شيء من كتب الحديث. وذكره الهيثمي في المجمع من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال مثله مثل حديث قبله عن النبي ﷺ وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه. وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وذكره الهيثمي في المجمع من حديث عمر بن النبي ﷺ قال مثله. قلت مثل حديث قبله عن النبي ﷺ وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه. وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر وبقيته رجاله رجال الصحيح.

(١٠٦) د. محمد سيد طنطاوي، تفسير سورة الألعام ص ١٤١ نقلا عن تفسير الفخر الرازي ٤ / ٦٥، مع التصرف والتنظيم.

(١٠٧) فتح القدير للشوكاني.

(١٠٨) فتح القدير للشوكاني.

(١٠٩) وأبدأ بمن تعول:

رواه البخارى في الزكاة (١٤٢٦) وفي النفقات (٥٣٥٦، ٥٣٥٥) ومسلم في الزكاة (١٠٤٢) وأبو داود في الزكاة (١٦٧٦)، (١٦٧٧) والترمذي في الزكاة (٦٨٠) والنسائي في الزكاة (٢٥٣٤) وأحمد في مسنده (٧١١٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعول. ورواه البخارى في الزكاة (١٤٢٨) ومسلم في الزكاة (١٠٣٤) والنسائي في الزكاة (٢٥٤٣) والدارمي في الزكاة (١٦٥٣) وأحمد في مسنده (١٤٨٩٣، ١٤٩٠٢، ١٥١٠٠) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول وخير الصدقة عن ظهر غنى ومن يستغف يعفه الله ومن يستغف يغنه الله. ورواه مسلم في الزكاة (١٠٣٦) والترمذي في الزكاة (٢٣٤٣) وأحمد في مسنده (٢١٧٦٢) من حديث أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شرك ولا تلام على كفاف وأبدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى. ورواه أحمد في مسنده (٤٤٦٠) من حديث الفقيه بن حكيم قال كتب عبدالعزيز بن مروان إلى ابن عمر أن ارفع إلى حاجتك قال فكتب إليه ابن عمر إن رسول الله ﷺ كان يقول إن اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول ولست أسألك شيئا ولا أريد زرقا زرقنيه الله منك. ورواه أحمد في مسنده (١٤١٢٢) من حديث جابر بن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ أفضل الصدقة عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى.

(١١٠) قال يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة:

رواه البخارى في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه قال يوم لا أعصيك فيقول

إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأى خزي أخزى من أبى الأبعد فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ ملتطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار.

(١١١) الانصاف على الكشاف لأحمد بن المنير ٢ / ٤٠ .

(١١٢) أينما لم يظلم :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩) وفى التفسير (٤٦٢٩، ٤٧٧٦) وفى استتابة المرتدين (٦٩١٨، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٦٧) وأحمد فى مسنده (٤٢٢٨، ٣٥٧٨) من حديث عبدالله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحاب رسول الله ﷺ أينما لم يظلم فأنزل الله عز وجل (إن الشرك لظلم عظيم).

(١١٣) إنه ليس الذى تعنون:

تقدم فى الذى قبله.

(١١٤) إن الله يغضب الغر السمين:

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف فذكره.

(١١٥) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام ص ١٧٤ الطبعة الرابعة.

(١١٦) إنكم سترون ربكم:

رواه البخارى فى التفسير ح (٤٥٨١)، وفى التوحيد ح (٧٤٤٠)، ومسلم فى الإيمان ح (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى.

(١١٧) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأنعام الطبعة الرابعة ص ٢٠٢ .

(١١٨) انظر تفسر ابن كثير.

(١١٩) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسر تأليف محمد بن محمد الشوكاني وفاته بصنعاء ١٢٥٠ هـ دار الفكر ٢ / ١٥٠ .

(١٢٠) تفسير القرطبي ٧ / ٦٠ .

(١٢١) اقروا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه:

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج محمد بن نصر وأبو جعفر النحاس فى كتاب الوقف والابتداء والخطيب فى تاريخه وأبو نصر السجزي فى الإبانة عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «اقرأوا القرآن، فإنكم تؤجرون عليه. أما إني لا أقول (ألم) حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر، فتلك ثلاثون». ورواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٩١٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

(١٢٢) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم في الإيمان (٣٨) والترمذي في الزهد (٢٤١٠) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٢) وأحمد في مسنده حديث رقم (١٤٩٩١، ١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣، ١٨٩٣٨) والدارمي في الرقاق (٢٧١٠، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبدالله الثقفي. وقال الترمذي: حسن صحيح .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم (الجزء السابع)

(محتويات الكتاب)

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٢	﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عداوةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ...﴾	١١٥٩
٨٣	﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ...﴾	١١٥٩
٨٤	﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ...﴾	١١٥٩
٨٥	﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾	١١٥٩
٨٦	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ...﴾	١١٥٩
٨٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ...﴾	١١٦٤
٨٨	﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾	١١٦٤
٨٩	﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللِّغَوِ فِي أَيْمَانِكُمْ...﴾	١١٦٦
٩٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾	١١٦٩
٩١	﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعداوةَ وَالْبَغْضَاءَ...﴾	١١٦٩
٩٢	﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا...﴾	١١٦٩
٩٣	﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا...﴾	١١٦٩
٩٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشْيَءٍ مِنَ الصَّيْدِ...﴾	١١٧٧
٩٥	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ...﴾	١١٧٧
٩٦	﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْمَسِيرَةِ...﴾	١١٧٧
٩٧	﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ...﴾	١١٨٢
٩٨	﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ...﴾	١١٨٤
٩٩	﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ...﴾	١١٨٤
١٠٠	﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ...﴾	١١٨٤
١٠١	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُكُمْ...﴾	١١٨٦
١٠٢	﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ...﴾	١١٨٦
١٠٣	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِثَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ...﴾	١١٩٠
١٠٤	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ...﴾	١١٩٠
١٠٥	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾	١١٩٢
١٠٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ...﴾	١١٩٤
١٠٧	﴿فَإِنْ عَثَرَ عَلَى أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا...﴾	١١٩٤
١٠٨	﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا...﴾	١١٩٤
١٠٩	﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ...﴾	١١٩٨
١١٠	﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الْوَلَدَةِ...﴾	١١٩٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١١	﴿وَإِذَا أُوْحِيتْ إِلَى الْوَحَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِى وَيَرْسُولِى ...﴾	١٢٠١
١١٢	﴿إِذْ قَالَ الْوَحَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ...﴾	١٢٠٣
١١٣	﴿قَالُوا نَرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا ...﴾	١٢٠٣
١١٤	﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ...﴾	١٢٠٣
١١٥	﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّى مَنزِلُهَا عَلَيْكُمْ ...﴾	١٢٠٣
١١٦	﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ...﴾	١٢٠٦
١١٧	﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ...﴾	١٢٠٦
١١٨	﴿إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ ...﴾	١٢٠٦
١١٩	﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ...﴾	١٢٠٩
١٢٠	﴿لِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ...﴾	١٢٠٩
	تفسير سورة الأنعام	١٢١٣
	دروس من سورة الأنعام	١٢١٤
١	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...﴾	١٢٢٦
٢	﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً ...﴾	١٢٢٦
٣	﴿وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ ...﴾	١٢٢٦
٤	﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ...﴾	١٢٢٨
٥	﴿فَنَقُذْ كُذِّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ...﴾	١٢٢٨
٦	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ ...﴾	١٢٢٨
٧	﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ...﴾	١٢٣١
٨	﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ...﴾	١٢٣١
٩	﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ...﴾	١٢٣١
١٠	﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ ...﴾	١٢٣٤
١١	﴿قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا ...﴾	١٢٣٤
١٢	﴿قُلْ لِمَنْ مَفَاتِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ...﴾	١٢٣٦
١٣	﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ...﴾	١٢٣٦
١٤	﴿قُلْ أَغْيَرِ اللَّهُ أَتُخْذُ وَلِيًّا ...﴾	١٢٣٦
١٥	﴿قُلْ إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...﴾	١٢٣٦
١٦	﴿مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ...﴾	١٢٣٦
١٧	﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ...﴾	١٢٤١
١٨	﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ...﴾	١٢٤١
١٩	﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ ...﴾	١٢٤١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم...﴾	١٢٤٣
٢١	﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا...﴾	١٢٤٣
٢٢	﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم...﴾	١٢٤٣
٢٣	﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين...﴾	١٢٤٣
٢٤	﴿وانظر كيف كذبوا على أنفسهم...﴾	١٢٤٣
٢٥	﴿ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة...﴾	١٢٤٧
٢٦	﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه...﴾	١٢٤٧
٢٧	﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار...﴾	١٢٥٠
٢٨	﴿بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل...﴾	١٢٥٠
٢٩	﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا...﴾	١٢٥٠
٣٠	﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم...﴾	١٢٥٢
٣١	﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله...﴾	١٢٥٢
٣٢	﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو...﴾	١٢٥٢
٣٣	﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون...﴾	١٢٥٥
٣٤	﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبوا...﴾	١٢٥٥
٣٥	﴿وإن كان كبير عليك إعراضهم...﴾	١٢٥٥
٣٦	﴿إنما يستجيب الذين يسمعون...﴾	١٢٥٩
٣٧	﴿وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه...﴾	١٢٦٠
٣٨	﴿وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه...﴾	١٢٦٠
٣٩	﴿والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات...﴾	١٢٦٤
٤٠	﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتكم الساعة...﴾	١٢٦٤
٤١	﴿بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء...﴾	١٢٦٤
٤٢	﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك...﴾	١٢٦٥
٤٣	﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا...﴾	١٢٦٥
٤٤	﴿فلما نسوا ما ذكروا به...﴾	١٢٦٧
٤٥	﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا...﴾	١٢٦٧
٤٦	﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم...﴾	١٢٦٨
٤٧	﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة...﴾	١٢٦٨
٤٨	﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين...﴾	١٢٧٠
٤٩	﴿والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يفسقون...﴾	١٢٧٠
٥٠	﴿قل لا أقول لكم عندى خزائن الله...﴾	١٢٧١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥١	﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ...﴾	١٢٧٢
٥٢	﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشى يريدون وجهه ...﴾	١٢٧٤
٥٣	﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ...﴾	١٢٧٤
٥٤	﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ...﴾	١٢٧٧
٥٥	﴿وكذلك نفصل الآيات ...﴾	١٢٧٧
٥٦	﴿قل إنني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ...﴾	١٢٨٠
٥٧	﴿قل إنني على بينة من ربي وكذبت به ...﴾	١٢٨٠
٥٨	﴿قل لو أن عندي ما تستعجلون به ...﴾	١٢٨٠
٥٩	﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ...﴾	١٢٨٢
٦٠	﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ...﴾	١٢٨٥
٦١	﴿وهو القاهر فوق عباده ...﴾	١٢٨٥
٦٢	﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ...﴾	١٢٨٥
٦٣	﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ...﴾	١٢٨٨
٦٤	﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ...﴾	١٢٨٨
٦٥	﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا ...﴾	١٢٩٠
٦٦	﴿وكذب به قومك وهو الحق ...﴾	١٢٩٠
٦٧	﴿لكل نبي مستقر وسوف تعلمون ...﴾	١٢٩٠
٦٨	﴿وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ...﴾	١٢٩٢
٦٩	﴿وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ...﴾	١٢٩٢
٧٠	﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ...﴾	١٢٩٥
٧١	﴿قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ...﴾	١٢٩٨
٧٢	﴿وأن أقيموا الصلاة واتقوه ...﴾	١٣٠٠
٧٣	﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ...﴾	١٣٠٠
٧٤	﴿وإذا قال إبراهيم لأبيه أتعبد أصناما آلهة ...﴾	١٣٠١
٧٥	﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ...﴾	١٣٠٣
٧٦	﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي ...﴾	١٣٠٣
٧٧	﴿فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ...﴾	١٣٠٣
٧٨	﴿فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ...﴾	١٣٠٣
٧٩	﴿إنني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا ...﴾	١٣٠٣
٨٠	﴿وحاجه قومه قال أحتاجون في الله وقد هدان ...﴾	١٣٠٦
٨١	﴿وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ...﴾	١٣٠٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٢	﴿الذين ءامنوا ولم يلجسوا إيمانهم بظلم ...﴾	١٣٠٦
٨٣	﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ...﴾	١٣٠٩
٨٤	﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ...﴾	١٣٠٩
٨٥	﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ...﴾	١٣٠٩
٨٦	﴿وإسماعيل وإلـيسع ويونس ولوطا ...﴾	١٣٠٩
٨٧	﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم ...﴾	١٣٠٩
٨٨	﴿ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ...﴾	١٣٠٩
٨٩	﴿أولئك الذين ءاتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ...﴾	١٣٠٩
٩٠	﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ...﴾	١٣٠٩
٩١	﴿ومما تقدموا الله حقق قدره ...﴾	١٣١٣
٩٢	﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك ...﴾	١٣١٣
٩٣	﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ...﴾	١٣١٣
٩٤	﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ...﴾	١٣١٣
٩٥	﴿إن الله فـالـسق الحب والـنـوى ...﴾	١٣٢٠
٩٦	﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا ...﴾	١٣٢٠
٩٧	﴿وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها ...﴾	١٣٢٠
٩٨	﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ...﴾	١٣٢٠
٩٩	﴿وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ...﴾	١٣٢٠
١٠٠	﴿وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ...﴾	١٣٢٦
١٠١	﴿بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ...﴾	١٣٢٨
١٠٢	﴿ذلكم الله ريكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ...﴾	١٣٢٨
١٠٣	﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ...﴾	١٣٢٨
١٠٤	﴿قد جاءكم بصائر من ريكم فمن أبصر فلنفسه ...﴾	١٣٣٠
١٠٥	﴿وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ...﴾	١٣٣٠
١٠٦	﴿اتبع ما يوحى إليك من ريك لا إله إلا هو ...﴾	١٣٣٠
١٠٧	﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ...﴾	١٣٣٠
١٠٨	﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ...﴾	١٣٣٣
١٠٩	﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ...﴾	١٣٣٣
١١٠	﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ...﴾	١٣٣٣
—	كلمة الاختتام	١٣٣٨
—	تخريج أحاديث وهوامش	١٣٤١
—	فهرس الموضوعات	١٣٥٦

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَوْ أَنَّا زِلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِ الْمَكِينَةَ وَقَلَّمَهُمُ الْمَوْتِ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

المضردات :

حشرنا : جمعنا وعرضنا .

قبلا : أى : مقابلة ومعاناة حتى يواجههم ، أو هو جمع قابل بمعنى : مقابل لحواسهم . أو جمع قبيل بمعنى : كفيل - أو جمع قبيلة بمعنى : جماعة .

التفسير :

١١١- وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَقَلَّمَهُمُ الْمَوْتِ وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ... الآية .

كان أهل مكة يقترحون على النبي ﷺ أن يأتيهم بآيات ومعجزات كونية غير ما أيده الله بها . والقرآن هنا يبين أن الإيمان يقين يهتدى إليه التفتح للحق ، والاتقياء له ، وأهل مكة قد صموا آذانهم عن سماع أدلة الحق .

فلو نزلت إليهم الملائكة ، حتى يروههم عياناً ، ويسمعوا تأييدهم لرسالة محمد ﷺ ، ويخبروهم بصدقه .

وَقَلَّمَهُمُ الْمَوْتِ . الذين ماتوا من قومهم شاهدين بصدق نبوة محمد ﷺ .

وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا . أى : وجمعنا كل شيء من الآيات الكونية ، مقابلة ومواجهة ، أو جماعة جماعة وقبيلة قبيلة .

مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . أى : لو فعلنا كل ذلك ؛ ما استقام لهم الإيمان ؛ لسوء استعدادهم وفساد فطرتهم ، إلا أن يشاء الله إيمانهم فيؤمنوا - وهو سبحانه - القادر على كل شيء .

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . فيقترحون الآيات سفهاً ، دون رغبة فى الإيمان .

وأجاز بعضهم أن يكون المعنى : ولكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فلذا يقترحون نزول الآيات طمعاً في إيمانهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْفِتْنِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . (الأعراف : ١٤٦) .

★ ★ ★

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

المضردات :

شياطين ، جمع شيطان ، وهم المتمردون من الجن أو الإنس .

يُوحَى : يوسوس .

زخرف القول ، أى : القول المزين ظاهره ، الباطل باطنه .

ولتصغى ، ولتميل .

أفئدة ، قلوب .

وليقتربوا ، وليكتسبوا القبائح .

التفسير :

١١٢- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا... الآية.

فى هذه تسلية لرسول الله ﷺ فقد كُذِّبَ رُسُلٌ من قبله ، وكأنما تواطأ الكفار ، وتواصوا على تكذيب المرسلين.

والمعنى : وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك - جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء من شياطين الإنس والجن ذوى الضرار ، يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين ظاهره الفاسد باطنه ، ومن ذلك ما ألقاه شياطين الجن فى نفوس شياطين مكة ، من اقتراح آيات ومعجزات خاصة على رسول الله ﷺ.

وقد وردت فى تفسير ابن كثير عدة روايات ، تفيد أن النبي ﷺ أمر المسلمين أن يستعيذوا بالله من شياطين الإنس والجن ، فقد قال ﷺ لأبى ذر : «يا أبا ذر ، هل تعوذن بالله من شياطين الجن والإنس؟» قال أبو ذر : لا يا رسول الله ثم قال : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : «نعم هم شر من شياطين الجن»^(١) .

قال ابن كثير: ومجموع روايات هذا الحديث تفيد قوته وصحته .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

أى : ولو شاء ربك ألا يفعل هؤلاء الشياطين ما فعلوه ، من معاداة الأنبياء ، ومن الإيحاء بالقول الباطل : لثم له ذلك ، ولكنه تعالى تولى عنهم ؛ لانصرافهم عنك .

فدعهم يا محمد وما يفترون من الكفر ، وغيره من ألوان الشرور فسوف يعلمون سوء عاقبتهم .

١١٣- وَلَتَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ... الآية .

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى : يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...

والمعنى : يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغفروا به الضعفاء ، ولتميل إلى هذا الزخرف الباطل فى القول ، قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، لموافقتهم لأهوائهم وشهواتهم ، وليرضوه لأنفسهم ، وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، من الأعمال السيئة ، فإن الله سيجازيهم عليها بما يستحقونه .

قال أبو حيان التوحيدي فى تفسير الآية :

وترتيب هذه المفاعيل فى غاية الفصاحة : لأنه أولاً يكون الخداع ، فيكون الميل ، فيكون الرضا ، فيكون الاقتراف . فكل واحد مسبب عما قبله .

وقد جعل القرآن عدم إيمانهم بالآخرة ، سبباً لإصغائهم إلى شياطين الإنس والجن ، وما يزخرفونه لهم من الكفر والمعاصى ؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون البعث والحساب والجزاء ؛ لفكروا فيما يليق به الشياطين ، ولخافوا سوء عاقبته .

★ ★ ★

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتَغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّل لِّكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

المضردات ،

ابْتَغَى : أطلب .

حَكَمًا : حاكماً يفصل بينى وبينكم .

مفصلاً ، مبيناً .

المعتريين ، الشاكِّين .

التفسير :

١١٤ - أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبِعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ... الآية .

روى أن مشركى مكة قالوا لرسول الله ﷺ ، اجعل بيننا حكماً من أحبار اليهود ، أو من أساقفة النصارى ، ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزل قوله تعالى :

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبِعِي حَكْمًا ^(١) ... الآية .

والمعنى : قل لهم يا محمد : أصبح غير الله حكماً يفصل بينى وبينكم ، فيظهر باطلكم ، الذى اعتمدتم فيه على زخارف الشياطين ، وبين الحق الذى جئت به مؤيداً بالبراهين ، وهو سبحانه الذى أنزل إليكم القرآن مفصلاً ومبيناً فيه الحق والباطل .. ولا حكم خير منه !!!

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .

أى : والذين آتيناهم الكتاب ، أى : التوراة والإنجيل ، من اليهود والنصارى ، يعلمون علم اليقين ، أن هذا القرآن منزل عليك من ربك بالحق ؛ لأنهم يجدون فى كتبهم البشارات التى تبشر بك ، ولأن هذا القرآن الذى أنزله الله عليك ، مصدق لكتبهم ومهيم عليها .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . أى : من الشاكِّين ؛ لأن عدم اعتراف بعضهم بذلك ، مرده إلى الحسد والجحود ، وهذا النهى إنما هو زيادة فى التوكيد ، وتثبيت اليقين .

قال ابن كثير : وهذا كقوله تعالى : فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَأَسْأَلِ الَّذِينَ يَفْرَوْنَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . (يونس : ٩٤) .

قال : وهذا شرط والشرط لا يقتضى وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا أشك ولا أسأل» ^(٢) .

وقيل : الخِطَابُ هنا لكل أحد ، على معنى : أن الأدلة على كون القرآن منزلاً بالحق من الله سبحانه وتعالى ، قد بلغت من الوضوح والقوة ، بحيث لا تترك مجالاً للافتراء والشك فيها من أحد من العقلاء .

فكأنه يقول : فلا تكن - أيها العاقل - من المتشككين ، فى كون القرآن منزلاً فى ربك بالحق ، وأنه هو الحكم بين الرسول وبين الكافرين .

وقيل : الخطاب للنبي ﷺ والمقصود أمته : لأنه - ﷺ - حاشاه من الشك .

١١٥- وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

المراد بكلمة ربك : القرآن الكريم ، وفى قراءة (كَلِمَاتُ رَبِّكَ) أى : أن هذا القرآن كامل من حيث ذاته ، صادقاً فى أخباره ووعدته وعيده ، عادلاً فى أحكامه ، فقد بلغ الغاية القصوى فى ذلك ، لا مبدل لهذا الكتاب ، فهو محفوظ بعناية الله تعالى من عبث العابثين ، وتبديل المبدلين . وإنما تكفل الله بحفظ القرآن دون غيره : لأنه تضمن شريعة الله الباقية إلى قيام الساعة ، الصالحة لكل زمان ومكان ، بخلاف ما تقدمه من الكتب ، فإنه كان لوقت محدود .

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى : السميع لكل ما فى شأنه أن يسمع ، العليم بكل ما يسرون ، وما يعلنون ، وفى لازم ذلك الجزاء العالى ، وإثابة الطائع وتعذيب العاصى .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنِ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

المفردات :

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، ما يتبعون فى عقائدهم وأحوالهم إلا التخمين الباطل .

وَأَنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وما هم إلا يكذبون على الله سبحانه . وأصل الخرص : الظن والتخمين . ومنه خرص النخل وهو تقدير ما عليها من التمر ظناً .

التفسير :

١١٦- وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية .

المبراد بأكثر من فى الأرض : أهل الكتاب الذين تركوا هداية أنبيائهم ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، وكذلك أُمم الوثنية .

والمعنى : وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ . فى عقائدهم وأهوائهم .

يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . وهو الدين القويم الذى شرعه الله لعباده .

ويجوز أن يكون المعنى : أن الطبيعة الغالبة في البشر هي اتباع الظنون والأهواء ؛ لأن طلب الحق متعب، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتحصيل ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين في أحكامهم.

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . ما يتبع أكثر الناس إلا الظن المقضى إلى الباطل ، الذي لا يستند إلى دليل ، وما هم إلا يكذبون في غزو أحكامهم إليه تعالى افتراءً وزوراً .

ومن ذلك زعمهم : أن الله اتخذ ولداً ، وأن الأوثان تقربهم إلى الله زلفى ، وأن الله أحل أكل الميتة ، وشرع البحيرة والسائبة .

قال الإمام الشوكاني في تفسيره «فتح القدير» :

وَأِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

لأن عادة الله في خلقه جرت على أن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، أما أكثر الناس فإنهم يتبعون في أمور الدين أهواءهم .

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . الذي لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة ، وأنها تقربهم إلى الله . وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أى : يحدسون ويقدرّون . ١ هـ

والخرص والتخمين والتقدير بمعنى واحد ، وهو جائز في بعض المعاملات ، وفي تقدير الزكاة في الرطب والعنب ، بتقديرهما تمراً أو زبيباً ، وإخراج الزكاة وفقاً لهذا التقدير .

إلا أن هذه الأمور لا تجوز في العقائد ؛ لأنها لا تبنى إلا على الدليل القطعى .

١١٧ - إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

هذه الآية تقرير للآية السابقة ، وتأكيد لما يفيد مضمونها ، أى : إن ربك الذى لا تخفى عليه خافية ، هو أعلم منك ومن سائر خلقه ، بمن يضل عن طريق الحق ، وهو أعلم منك ومن سائر الخلق أيضاً بالمهتدين السالكين .

لقد قررت الآيات ما يأتى :

١ - تكفل الله بحفظ كتابه من التغيير والتبديل .

٢ - الطبيعة الغالبة في البشر هي اتباع الظنون والأهواء ؛ لأن طلب الحق متعب ، والكثيرون لا يصبرون على مشقة البحث والتحصيل ، والقليلون هم الذين يتبعون اليقين في أحكامهم .

٣ - الله وحده هو الذى يعلم الضالين والمهتدين من عباده .

★ ★ ★

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا
مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا
لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾

التفسير :

١١٨- فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ .

كان المشركون المكيون يأكلون الميتة ، ويأكلون مما ذكر اسم أوثانهم عليه عند ذبحه ، ويمتنعون
عن ذبح البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من الإبل ، ويحرمون ذبحها ، وقد ناقشهم القرآن فى هذه
السورة كثيراً فى أمر ذبائحهم الباطلة ، وتشريعاتهم الباطلة ، التى يزعمون أن الله شرع لهم ما أحلوا وما
حرموا .

فأنزل الله هذه الآية أمراً للمسلمين أن يخالفوهم ، فيأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح .

والمعنى : لا تحرموا مما ذكر اسم الله عليه شيئاً على أنفسكم ، ولا تمتنعوا عن أكله تديناً لأن كل ما
ذكر الذابح عليه اسم الله فهو حلال ، إن كان مما أباح الله أكله .

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس . قال : أتى ناس إلى النبی - ﷺ - فقالوا : يا رسول الله ، إنا
نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله ، فأنزل الله - فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ... إلى قوله : وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ
إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ .

وكان المشركون يستحلون الميتة ويرون أن الله هو الذى قتلها فهى أولى بالأكل .

فخاطب الله المسلمين بهذه الآيات مشرعاً للمسلمين ناقضاً لتشريعات المشركين .

١١٩- وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ...

أى : أى مانع يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وأى فائدة تعود عليكم من ذلك ؟
فالاستفهام هنا إنكارى ، لدفع التخرج من تناوله ، إذا كان مما حرمة المشركون زوراً ، واقتراءً على الله ،
من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فإنها حلال فى شرع الله ، كسائر ما ذبح مذكوراً عليه اسم الله .

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ . أَيْ : بين لكم المحرمات من الأطعمة ، بياناً مفصلاً يدفع الشك ويزيل الشبهة ، بقوله تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (المائدة : ٣) .

فكونوا عند حدود الله فلا تعتدوها .

إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ . أَيْ : لكن ما اضطررتم إلى أكله من المحرمات ، فإنه حلال لكم ، بقدر الضرورة التي تحيا بها النفس .

وَأِنْ كَثِيرًا يَظِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

وإن كثيراً من الكفار ليضلون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام ، بأهوائهم الزائفة ، وشهواتهم الباطلة ، بخير مستند إلى وحى الله تعالى . «وهكذا فى كثير من الشعوب تحريمات راجعة إلى الهوى والجهل» .
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

أَيْ : أعلم منك يا محمد ومن كل مخلوق بالمتجاوزين لحدود الحق إلى الباطل ، والحلال والحرام .

قال تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ تُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . (النحل : ١١٦) .

★ ★ ★

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمْ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنِّمْ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بَاطِلًا وَلَا ظَاهِرًا وَلِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تُفْسِدُونَ ﴿١٢١﴾﴾
أُولَئِكَ يَهْمُ لِيُجْنِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

المضردات ،

وذروا . واتركوا .

ظاهر الإنِّم وباطنه ، أَيْ : الذنب الظاهر والخفى .

يقتربون ، الاقتراف : الاكتساب مطلقاً ، ولكنه فى الإساءة أكثر .

التفسير ،

١٢٠- وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمْ وَبَاطِنَهُ ... الآية .

واتركوا الذنب ظاهره وباطنه ، جهرة وخفية ، أَيْ : اتركوا جميع المعاصى .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ الَّذِينَ يَرْتَكِبُونَ الْمَعَاصِيَ ظَاهِرَةً أَوْ بَاطِنَةً ، * سَيُجْزَوْنَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنْ عِقَابٍ . وَلَا يُظْلَمُ رُبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

١٢١- وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ... الآية .

أى : لا تأكلوا - أيها المسلمون - من أى حيوان لم يذكر عليه اسم الله عند ذبحه ، بأن ذكر عليه اسم غيره ، أو ذكر اسم مع اسمه ، أو كان من الميتة .

وإن الأكل منه : خروج عن طاعة الله تعالى ، وإثم .

وإن الشَّيَاطِينَ كَوْنًا إِلَى أَرْبَابِهِمْ يُجَادِلُوهُمْ ... أى : يلقون إليهم بالشبه ويخبرونهم ما يستندون إليه فى مجادلتهم كقولهم : (أنتم لا تأكلون مما قتل الله ، وتأكلون مما قتلتم أنتم) .

ذبيحة المسلم :

إن ترك المسلم التسمية عمداً حرم أكله عند الجمهور ، وإن تركها ناسياً لم يضر .

وقال الشافعى وغيره : التسمية مستحبة وليست واجبة ، وإن تركها المسلم ولو عمداً لم يضر ؛ فإن اسم الله على لسان كل مسلم .

وقيل : الآية وأردت فى الميتة التى لم تذبح أصلاً ، وفيما ذبح لغير الله .

وإن أَغْتَمَوْهُمْ إِنَّمَا تُمَشِّرُكُمْ .

أى : من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره ؛ فقد أشرك بالله .

★ ★ ★

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٢٢)

المفردات :

أو من كان ميتاً فأحييناه ، أو من كان كافراً فهديناه ؟ جعل الكفر موتاً ، والهداية إحياءً .

التفسير :

١٢٢- أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ... الآية .

الآية تمثيل بليغ للمؤمن والكافر ، والمقصود منها : تثبتت المؤمنين ؛ حتى لا يفكروا فى متابعة المشركين .

والمعنى : لستم أيها المسلمون مثل المشركين حتى تتبعوهم فى جاهليتهم ؛ فإن الله أحياكم بالهداية ، بعد موتكم الروحي بالكفر والشرك ، وأنعم عليكم بأن جعل لكم نوراً تمشون به فى الناس ، بما أنزله إليكم من أنوار القرآن والهدى النبوى ، فهل يصح لكم أن تتبعوا من يعيشون فى الظلمات .

وخلاصة المقصود :

أو من كان فى غيه وضلاله ميتاً ، فأحييناه بالهدى ودين الحق ، كمن صفته أنه غارق فى الظلمات ليس بخارج منها ؟!

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان ، وقيل : هو القرآن ، وقيل : الحكمة .

وجمهور المفسرين يرون أن المثل فى الآية عام لكل مؤمن ولكل كافر ، وقيل : إن المراد بمن أحياه الله وهداه : عمر بن الخطاب ، ويمن بقى فى الظلمات أبو جهل بن هشام .

قال الشوكاني : كانا ميتين فى ضلالتهما ، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه ، وأقرأ أبا جهل فى ضلالتة وموته .

وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال :

« اللهم ، أعز الإسلام بأبى جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب » فاستجيب له فى عمر بن الخطاب .

وقيل : نزلت فى عمار بن ياسر وأبى جهل ، وقيل : فى حمزة وأبى جهل وعند التأمل نرى :

أن الآية عامة فى كل من هداه الله إلى الإيمان بعد أن كان كافراً ، وفى كل من بقى على ضلالتة ، ويدخل فى ذلك هؤلاء المذكورون دخولاً أولياً .

كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أى : مثل ذلك التزيين الذى تضمنته الآية ، وهو تزيين الهدى للمؤمنين ، وظلمات الشرك للضالين ، قد زين للكافرين ما كانوا يعلمونه من الآثام ، كعداوة النبى ﷺ ، وذبح القرابين لغير الله ، وتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، وغير ذلك من المنكرات .

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مِّمَّنْ لَّيْمَكُورُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣)

التفسير :

١٢٣- وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مِّمَّنْ لَّيْمَكُورُوا فِيهَا ... الآية.

المعنى : وكما جعلنا في قريتك مكة رؤساء دعاة إلى الكفر وإلى عداوتك ؛ جعلنا في كل قرية من قرى الرسل من قبلك ، رؤساء من المجرمين مثلهم ؛ ليمكروا فيها ، ويتجبروا على الناس ، ثم كانت العاقبة للرسل ، فلا تبتئس يا محمد بما يصيبك من زعماء مكة ، فتلك طبيعة الحياة في كل عصر ، أن يكون زعماء الأمم وكبرائؤها ، أشد الناس عداوة للرسل والمصلحين .

قال ابن كثير : والمراد بالمكر هنا : دعاؤهم غيرهم إلى الضلالة ، بزخرف من المقال والفعال .

وفى التفسير الوسيط : وإنما جعل الله أكابر المجرمين في كل قرية ؛ ليمكروا فيها ؛ امتحاناً لعباده ، كما امتحنهم بشياطين الجن حتى يظهر الصادق في إيمانه من الكاذب ، ويجزى الله كلاً بما هو أهله وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : ... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ... (الفرقان : ٢٠) .

وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .

وما يعود وبإل مكرهم إلا عليهم ، ولكنهم لانطماس بصيرتهم ؛ لا يشعرون بأن مكرهم سيعود ضرره عليهم ، بل يتوهمون أنهم سينجون في مكرهم بغيرهم من الأنبياء والمصلحين .

والآية مسوقة لتسليية الرسول عما يلقاه من مكر عتاة المشركين .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَمًا حِثْ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٤)

المفردات :

أجروا ، اكتسبوا جرماً ، والجرم : الذنب .

صغار ، ذل وهوان .

التفسير:

١٢٤- وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتَهُ... الآية.

هذه الآية استمرار فى مناقشة أهل مكة ، ومجابهة للظالمين والمتكبرين منهم عن الاستجابة للهدى.

سبب النزول :

قال مقاتل بن سليمان نزلت فى أبى جهل ، وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد مناف فى الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسئ رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه .. والله ، لا نؤمن به ، ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه : فأنزل الله سبحانه الآية .

وروى أن الوليد بن المغيرة قال للنبي ﷺ : لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها منك : لأننى أكبر منك سنّاً وأكثر مالا : فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : وإذا أنزلت على النبي ﷺ آية تدعو قريشاً إلى الإيمان بما جاءهم به : امتنعوا عن الإيمان به : حسداً واستكباراً .

وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتى من الوحي مثل ما أوتى رسل الله ، وتكون لنا نبوة ، كما لبى عبد مناف نبوة ، وإلا فلن نؤمن بمحمد .

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ .

الله سبحانه وتعالى يختار لرسالته المعدن السليم ، والقلب النظيف ، الذى لا يحمل الحقد ولا الحسد ولا الكبر .

ثم إن الرسالة منه من الله وفضل ، والله يختص برحمته من يشاء .

قال الألوسى :

وجملة الله أعلم حيث يجعل رسالته استئناف بيانى .

والمعنى : إن منصب الرسالة ، ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد ، وتعاضد الأسباب والعدد ، وإنما ينال بفضائل نفسانية ، ونفس قدسية ، أفاضها الله تعالى ، بمحض الكرم والجود ، على من كمل استعداداه . اهـ .

لقد اصطفى الله لرسالته الأنبياء والمرسلين ، واختار أولى العزم من الرسل ، فجعلهم قدوة وأسوة : لأنهم كانوا أكثر تحملاً وجهاداً وتضحية ، قال تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف: ٣٥)

وأولو العزم من الرسل خمسة : إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وقد أتمَّ الله الرسالات بمحمد ﷺ ومنحه من المزايا الخلقية والنفسية وغيرها ، ما جعله رحمة للعالمين .

روى الإمام مسلم فى كتاب الفضائل عن عائلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال :

إن الله عز وجل اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل . واصطفى من بنى إسماعيل كنانه ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى من بنى هاشم محمداً - ﷺ - ^(١) .

سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ .

قال القرطبي : الصغار : الضيم والذل والهوان .

والمعنى : سيصيب أولئك المستكبرين المجرمين ، ذلة وهوان شديد ثابت لهم عند الله فى الدنيا والآخرة ، بدل العزة التى طلبوها بالاشتراك فى النبوة ، ويصيبهم إلى جانب ذلك عذاب شديد بسبب مكربهم بنبى الهدى ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله .

★ ★ ★

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ إِلَهُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

المضردات :

حرجاً ، شدة الضيق . وفعله : حَرَجَ حَرْجًا ، من باب تَعَبَ تَعَبًا . وقد وُصِفَ الصُّدْرُ بِالْحَرَجِ الذى هو المصدر ، للمبالغة . والمراد : أنه شديد الضيق .

الرجس ، العذاب ، أو ما لا خير فيه .

دار السلام ، دار المسألة . والمراد بها : الجنة .

التفسير :

١٢٥ - فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ

فِي السَّمَاءِ الآية .

الشرح فى اللغة معناه : الفتح والشق . وَشَرَحَ الصَّدْرَ للإسلام ؛ كناية عن جعل النفس قابلة للحق ، مُهَيَّأةً لحلوله فيها ، مُحَصَّنَةً مما يمنعه وينافيه .

أخرج ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ سئل عن هذه الآية : كيف يشرح صدره ؟ فقال : «نور يقذف فينشرح له وينفسح» ، قالوا : فهل لذلك من أمانة يُعرف بها ؟ فقال : «نعم الإنابة إلى دار الخلود ، والإعراض عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(٤) .

والمعنى : من يرد الله هدايته ؛ يشرح صدره للحق ، ويهيئ نفسه لقبول الإسلام ، لما علمه من حسن استعداده وسعيه فى قبوله ، ومن يرد أن يضلّه ويبعده عن الحق ؛ يجعل صدره ضيقاً شديداً الضيق ؛ لتمسكه بضلاله لا يبيغى به بديلاً .

كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ .

فإن من صعد فى السماء يحس بأشد الضيق، وقرب الاختناق ، لقلّة الهواء، وهذا التشبيه من معجزات القرآن، وكذلك من يدعى إلى الإسلام، وقد قُدِّرَ عليه الضلال أى : يجد أشد الضيق لذلك .

قال أبو السعود : شبه ضيق صدره بالحق، بمن يزاوِل ما لا يكاد يقدر عليه ، فإن صعود السماء ، مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة ، وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود ، وقيل معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء ، نبواً عن الحق وتباعداً فى الهرب .

كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : مثل جعل الصدر ضيقاً حرجاً بالإسلام ، يجعل الله الرَّجْسَ وهو العذاب أو الخذلان أو اللعنة على الذين لا يؤمنون ، فيترك الشيطان مسلطاً عليهم ، ولا يُلطف بهم .

وخلاصة الآية : أن من تقرب إلى الله ؛ أعانه ، ومن بعد عنه ؛ خذله .

١٢٦ - وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

وهذا دين ربك الذى ارتضاه وهو الإسلام مُسْتَقِيمًا لا عوج فيه ، ولا ميل فيه ، إلى إفراط أو تفريط فى الاعتقادات والأخلاق والأعمال .

قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

أى : جعلناها بيئة واضحة مفصلة ، لقوم يتذكرون ما فيها من هدايات وإرشادات فيعملون بها ؛ لينالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .

١٢٧- لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : هؤلاء المتذكرين المتقين لهم دار السلامة من كل المكاره فى جوار ربهم وكفالتهم، وهو مولاهم وناصرهم بسبب أعمالهم الصالحة .

قال تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّيُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المقررات :

يا معشر : المعشر : الجماعة المختلطون بالعشرة .

مشواكم : مقرم ومآلكم .

التفسير :

١٢٨- وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ... الآية .

تشير هذه الآيات إلى حوار بين الله سبحانه وتعالى وبين من خرج عن طاعته من الإنس والجن .

والمعنى : وذكر يا محمد الخلائق ، يوم يحشر الله الإنس والجن ، إلى ساحة القيامة ، فيوبخ شياطين الجن قائلا لهم : يا جماعة الجن المفسدين ، قد استكبرتم من إغواء الإنس ، وإضلالهم حتى صاروا فى حكم الاتباع لكم ، فلم تكتفوا بضلالكم وكفركم ، بل تجاوزتموه إلى إغواء الإنس .

وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ .

قال الذين أطاعوهم من الإنس :

لقد استمتعنا بارتكاب المذات وإشباع الشهوات ، التى زينتها لنا الجن ، واستمتعت الجن بطاعة الإنس لهم .

قال أبو السعود :

أى : انتفع الإنسان بالجن بأن دلّوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها ، وقيل : بأن ألقوا إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة . وأما انتفاع الجن بالإنس ، فإن الإنس صاروا أتباعاً لهم ، وأطاعوهم ، وحصلوا مرادهم بقبول ما ألقوه إليهم .

وقيل : استمتع الإنس بهم أنهم كانوا يعوذون بهم من المفاوز والمخاوف ، واستمتعهم بالإنس ، اعتزامهم بأنهم قادرين على إجارتهم .

ويعد هذا الإقرار الذى لم يجدوا عنه محيصاً قالوا فى ندامة وحسرة :

وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا .

أى : يوم القيامة الذى أجلته لحسابنا وجزائنا ، حيث بَعُثْنَا ، وظهرت لنا قبائح أعمالنا ، التى نستحق العقاب عليها ، لتركنا صراطك المستقيم .

قَالَ النَّارُ مُؤَاكَمَ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

قال الله تعالى : النار منزكم ، ومحمل إقامتكم الدائمة ، فأنتم خالدون فيها فى كل وقت ، إلا فى وقت مشيئة الله بخلاف ذلك ؛ لأن الأمور كلها متركبة إليه وخاضعة لمشيئته .

عن ابن عباس قال : فى هذه الآية : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ، لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

قال أبو السعود :

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

روى عن ابن عباس أنه قال : استثنى الله تعالى قوماً ، قد سبق فى علمه أنهم يُسلمون ويصدقون النبى ﷺ ، وقيل المعنى : الأوقات التى ينتقلون فيها من النار إلى الزمهرير ، فقد روى أنهم يدخلون وأدياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاونون ، ويطلبون الرد إلى الجحيم ؛ وقيل : يفتح لهم وهم فى النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه ، حتى إذا ما وصلوا إليه سدّ عليهم الباب .

وقد ورد فى تفسير المنار ، دراسة مستفيضة حول فناء النار بمن فيها . وهى مسألة خلافية بين العلماء .

ومعنى الآية : إلا وقت مشيئة الله فناء النار وزايل عذابها .

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

أى : حَكِيمٌ فى عقاب الظالمين ، عَلِيمٌ بما فى صدورهم فلا تخفى عليه خافية .

١٢٩- وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أي: ومثل ما سبق من تمكين الجن من الإنس وإضلالهم ، لما بينهم من التناسب والمشاكلة ، نؤلي بعض الظالمين من الإنس بعضاً آخر منهم ، بأن نجعلهم يزنون لهم السيئات .

قال الشوكاني :

نسلطُ ظُلْمةَ الجن على ظُلْمةِ الإنس ، ونسلط بعض الظلّمة على بعض فيهلكه ويذله .

عن الأعمش قال : إذا فسد الزمان : أمر عليهم شرارهم ، وقال فضيل ابن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر متعجباً .

وقال الإمام الرازي : والآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فاشه تعالى يُسلط عليهم ظالماً مثلهم ، فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم .

★ ★ ★

﴿ يَمْعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٠﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

المفردات :

يا معشر ، المعشر جماعة أمرهم واحد .

يقصون ، يتلون .

وغرتهم ، وخدعتهم .

التفسير :

١٣٠- يَامْعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ... الآية.

جاءت هذه الآية لتقريع الإنس والجن على معاصيهم .

جاء فى تفسير الطبرى:

« وهذا خبر من الله جل ثناؤه، عما هو قائل يوم القيامة ، لهؤلاء العادلين به ، من مشركى الإنس والجن، يخبر أنه تعالى يقول لهم : يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُقَسُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي .

يقول : يخبرونكم بما أوحى إليهم ، من تنبيهى إياكم على مواضع حججى ، وتعريفى لكم أدلتى على توحيدى ، وتصديق أنبيائى والعلم بأمرى ، والانتهاى إلى حدودى .

وَيُذَوِّرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا . يقول : يحذرونكم لقاء عذابى فى يومكم هذا ، وعقابى على معصيتكم إياى ، فتنتهون عن معاصى . وهذا من الله تعالى تقريع لهم ، وتوبيخ على ما سلف منهم فى الدنيا من الفسوق والمعاصى ، ومعناه : قد أتاكم رسل منكم ينبهونكم على خطئ ما كنتم عليه مقيمين بالحجج البالغة ، وينذرونكم وعيد الله فلم تقبلوا ولم تتذكروا . » ا هـ .

قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . (الأنعام : ١٣٠) .

تحكى الآية موقعاً من مواقف القيامة ، حين يوبَّخ الله جماعة المكذبين بالرسل من الإنس والجن .

ولا يملك كُفَّار الإنس والجن ، إلا أن يعترفوا على أنفسهم ، بأن الرسل قد بشروهم وأنذروهم ، ولم يقصروا فى تبليغهم وإرشادهم .

ولكن الكفار غرَّبَتهم الحياة الدنيا ، من الشهوات والمال والجاه وحب الرئاسة ، فاستحبوا العمى على الهدى ، وباعوا آخرتهم بدنياهم .

وشهدوا على أنفسهم أمام الله يوم القيامة ، أنهم كانوا كافرين فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل .

والآية تشتمل على التحذير للسامعين فى الدنيا؛ حتى لا يتعرضوا لمثل هذه المواقف، فى يوم الحشر والحساب.

ونلاحظ أن مشاهد الآخرة متعددة . ومواقف الحساب كثيرة . فأحياناً ينكر الكفار شركهم بالله ، ويقولون: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (الأنعام : ٢٣) . وحيناً آخر يعترفون بخطئهم وغرورهم ، ويشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين، وهو دليل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، كما ذكر ذلك الإمام الزمخشري فى تفسير الكشاف .

١٣١ - ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ .

المعنى: ذلك الذى ذكرناه لك يا محمد ، من إتيان الرسل يقصون على الأمم آيات الله ، سببه أن ريك لم يكن من شأنه ، ولا من سنته فى تربية خلقه ، أن يهلك القرى من أجل أى ظلم فعلوه ، قبل أن ينيهوا على بطلانه ، وينهوا عنه بواسطة الأنبياء والمرسلين .

كما فى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى . (طه : ١٣٤) .

فاثدة :

جمهور العلماء يرون أن الرسل جميعاً من الإنس .

وقال مقاتل والضحاك : أرسل الله رسلا من الجن كما أرسل من الإنس .

وقال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

وجملة القول فى الخلاف : أنه ليس فى المسألة نص قطعى ، والظواهر التى استدلت بها الجمهور يمكن أن تكون خاصة برسل الإنس : لأن الكلام معهم ، وليست أقوى من ظاهر ما استدلت به من قال : إن الرسل من الغريقين ، والجن عالم غيبى ، لا نعرف عنه إلا ما ورد به النص ، وقد دل القرآن والسنة على رسالة نبيينا محمد ﷺ ، فنحن نؤمن بما ورد ، ونفوض الأمر فيما عدا ذلك إلى الله تعالى .

١٣٢- وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .

أى : ولكل من الجن والإنس درجات ومنازل متفاوتة فى الآخرة ، فى الجنة والنار بحسب أعمالهم صالحة كانت أو سيئة ، أو من أجل أعمالهم ، إذ الجزء من جنس العمل .

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . بل هو عالم بأعمالهم ، ومحصىها عليهم ، وسيجازيهم عليها جزاء عادلاً ، بما يستحقونه من ثواب وعقاب .

★ ★ ★

﴿ وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنِ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

المضردات :

وما أنتم بمعجزين ، وما أنتم بمعجزين طالبيكم .. فلا تقدرون على الإفلات من عقابه الذى توعدهم به .

اعملوا على مكاتبتكم ، اعملوا على تمكثكم فيما أنتم فيه ، بقدر ما تستطيعون .

التفسير:

١٣٣- وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ الآية .

أى : هو سبحانه مستغن عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم ، لا ينفعه إيمانهم ولا يضره كفرهم ، ومع كونه غنيا عنهم ، فهو ذو رحمة بهم ، والرحمة بهم مع كمال الغنى عنهم ، هو غاية الكرم والفضل .

أخرج الإمام مسلم فى صحيحه حديثاً قدسياً رواه أبو ذر جاء فيه :

« .. يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .. يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كلاً مسألة ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً .. » الحديث (١) .

قال الألوسى : وفى هذه الآية تنبيه على أن ما سبق ذكره من إرسال الرسل ليس لنفعه ، بل رحمة منه بالعباد .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ .

أى : إن يشأ يهلككم أيها العباد العصاة ، فيستأصلكم بالعذاب ، ويأتى بخلف لكم من بعدكم أطوع منكم ، فهو سبحانه قادر على ذلك .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ - ١٧)

كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ .

أى : مثلاً أنشأكم من نسل قوم آخرين ، لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام .

١٣٤- إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

أى : إن ما توعدون من أمر القيامة والحساب والعقاب والثواب ، لواقع لا شك فيه .

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

أى: بجاعليه عاجزا عنكم ، غير قادر على إداراكم ، فهو سبحانه القادر على الإعادة إذا صاروا تراباً وعظاماً نخره كما قال تعالى : إِنَّمَا تَوَعَّدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (الذاريات : ٦٠ ، ٥).

١٣٥- قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أى: ائمتوا على ما أنتم عليه فإننى غير مهال بكم ، ولا مكترث بكفركم ، بل إنى عامل جهد طاقتى ، على تثبيت دعوتى إلى الله تعالى ، فسوف تعلمون بعد حين ، من تكون له العاقبة الحسنى فى هذه الدنيا ، من النصر ووراثه الأرض ، ومن له النصر فى الآخرة .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

أى: لا يظفر بمراحه من كفر بالله تعالى ، وأشرك به سبحانه .

قال ابن كثير:

وقد أنجز الله موعده لرسوله ﷺ فمكّن له فى البلاد ، وحكّمه فى نواصى مخالفه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذّبه من قومه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكل ذلك فى حياته ، ثم فتحت الأقاليم والأمصار بعد وفاته ، قال تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . (غافر: ٥١).

★ ★ ★

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُمْ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١٣٦)

المفردات :

ذراً ، خلق .

الحرث ، الزرع والثمار .

نصيباً ، جزءاً .

التفسير :

١٣٦- وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا الآية .

تبدأ الآيات التالية حديثاً عن مساوئ الجاهلية وأوهام المشركين ، التى تتعلق بمآكلهم ومشاربهم ، ونذورهم وذبائحهم وتقاليدهم ، فتناقشهم فى كل ذلك مناقشة منطقية حكيمة ، وترد عليهم فيما أحلوه وحرّموه بدون علم ولا دليل .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا .

أى : جعلوا لله تعالى مما خلق من زروعهم ، وثمار أشجارهم ، ونتاج دوابهم ، نصيباً ينفقونه على الفقراء والمساكين والمحترجين ، وجعلوا لآلهتهم نصيباً من ذلك ، يصرفونه إلى سدنتها والقائمين بخدمتها.

ولكنهم إذا رأوا ما عينوه لله أذكى ، وأكثر نماءً مما عينوه لآلهتهم ، عكسوا فجعلوا ما لله لآلهتهم ، وما لآلهتهم لله تعالى ، وقالوا : الله غنى عن ذلك ، وإذا رأوا ما عينوه لآلهتهم أذكى مما عينوه لله تعالى ، فإنهم يتركونه لآلهتهم ، حباً وإيثاراً لها .

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أى : ساء وقبح حكمهم وقسمتهم ، حيث أثروا مخلوقاً عاجزاً عن كل شىء ، على خالق قادر على كل شىء ، فهم بجانب عملهم الفاسد من أساسه ، لم يعدلوا فى القسمة .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ
شُرَكَاءُهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴾ (١٢٧)

المفردات ،

شركاؤهم ، أى : أوليائهم من الشياطين .

ليردوهم ، ليهلكوهم .

وليلبسوا ، وليخلطوا .

التفسير :

١٣٧- وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ... الآية .

أى : حسن الشياطين فى أعين أهل الجاهلية قتل الأولاد ، وقيل : شركاؤهم ها هنا : هم الذين كانوا يخدمون الأوثان - من الكهنة وسدنة الأصنام - زينوا لهم دفن البنات مخافة السبى والحاجة ، وقتل

الأولاد : مخافة الفقر ، وكان الرجل يحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم ، كما فعله عبد المطلب حينما نذر أن يذبح آخر أبنائه ، إذا بلغ عددهم عشرة بنين .

يُرِيدُوهُمْ . أى : ليهلكوهم ، من الردى وهو الهلاك ، يقال : ردى - كرضى - أى : هلك .
وَلْيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .

أى : ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام ، أو ما يجب عليهم أن يدينوا به .
وَلْيَلْبِسُوا . مأخوذ من اللبس بمعنى : الخلط بين الأشياء ، التى يشبه بعضها بعض .

يقال : لبس الحق بالباطل ، ولبست عليه الأمر ، خلطته عليه ، وجعلته مشتبها حتى لا يعرف جهته .
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ .

أى : ولو شاء الله عدم فعلهم ذلك : لعصمهم منه ، ولكنه خلاهم وما يفعلون : لأنه علم منهم إصرارهم على ضلالهم وكفرهم .

فَلَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ .

أى : فاتركهم واقتراءهم على الله الكذب ؛ فإن ذلك لا يضرهم .

قال أبو السعود : الغاء فاء الفصيحة : لأنها أفصحت عن جواب شرط ، مقدر ، أى : إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى ، فدعهم واقتراءهم ، أو ما يفترونه من الإفك ، فإن فيما شاء الله تعالى حكماً بالغة ، إنما نعلى لهم : ليؤدوا إلما ، ولهم عذاب مهين ، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى^٣ .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعُمٌ وَحَرَثٌ جَبْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ رِزْقِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

المفردات ،

حَرَث : زرع .

حَجَر : محجور محرم .

بِزَعْمِهِمْ : أى بادعائهم من غير حجة .

التفسير:

١٣٨- وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ الآية .

تحكى هذه الآية نوعاً آخر من جهالاتهم وكفرهم ، وافترائهم الكذب على الله تعالى .

والمعنى: ومن بين أوهام المشركين وضلالتهم ، أنهم يقطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها ، ويقولون : هذه الأنعام وتلك الزروع حجر ، وهى كلمة بزنة فيل بمعنى : مفعول ، أى : محجورة علينا أى : محرمة ممنوعة ، لا يأكل منها إلا من نشاء ، يعنون خدام الأوثان من الرجال دون النساء ، أى : لا يأكل منها إلا خدام الأوثان والرجال فقط .

وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .

حَرَّمَ المشركون طائفة من الجمال على أنفسهم وتركوها للمرعى منها ما يأتى :

١- البحيرة : التى تلد خمسة أبطن آخرها ذكر ، كانوا يشقون أنذنها ويتركونها لألهتهم .

٢- السائبة : اسم للناقة التى يتركها صاحبها فلا تنحر : لأنها نجت فى الحرب ، أو نذرها للأصنام .

٣- الوصيلة : اسم للناقة التى تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى ، كانوا يتركونها للأصنام : لأنها وصلت أخاها .

٤- الحام : اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا : حمى ظهره فلا يركب ، ويترك حتى يموت .

قال تعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . (المائدة : ١٠٣)

وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا . عند الذبح بل يذكرون أسماء أصنامهم .

وقيل : معناها : لا يحجون عليها : لأن الحج لا يخلو عن ذكر الله تعالى .

أَفِرَّاءٌ عَلَيْهِ . أى : كذبوا بادعائهم أن هذا من دين الله .

سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . أى : سيعاقبهم الله بسبب افترائهم الكذب على الله تعالى .

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

التفسير :

١٣٩- وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

وقال هؤلاء المشركون عن الأجنة التي فى بطون البهيمة والسائبة .. إذا نزل الجنين حياً فأكله حلال للرجال دون النساء ، وإن نزل ميتاً فأكله حلال للرجال والنساء على السواء .

قال ابن عباس : كانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه فكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركوها لم تذبح وإن كانت ميتة كانوا فيها شركاء .

وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا .

وهن النساء ، ويدخل فى ذلك البنات والأخوات ونحوهن . وقيل : هو اللبن جعلوه حلالاً للذكور ومحرمًا على النساء .

سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .

أى : سيعاقبهم الله جزاء لهم على وصفهم الكذب ، وحكايتهم إياه على الله سبحانه ، بادعائهم أنه تعالى أحل وحرم ما أحلوه وحرموه ، كما فى قوله تعالى : وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ . (النحل : ٦٢) .

قال الألوسى : وهذا كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبيدعيه ، فإنهم يقولون : كلامه يصف الكذب إذا كذب ، وعينه تصف السحر أى : ساحرة . وقده يصف الرشاقة بمعنى : رشيق ، مبالغه ، حتى كأن من سمعه أوراها وصف له ذلك بما يشرحه له .

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . أى : عظيم الحكمة والتعلم .

وإن الإنسان ليعجب ، كيف تحمل هؤلاء المشركون تضحيات وأعباء مادية ، وخسائر فى سبيل عقيدتهم الفاسدة ؟ وأمامهم نور القرآن وهديه ، يرسم لهم الطريق الواضح المستقيم ، فيصمون أذانهم عن الاستماع إليه .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

المفردات :

خسر : خاب .

سفها : السفاهة : الخفة والجهالة .

التفسير :

١٤٠- قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ... الآية .

والمعنى : قد خاب هؤلاء المشركون ، الذين وأدوا بناتهم ؛ مخافة العار والفضيحة ، وقتلوا بعض الذكور من الأبناء ؛ مخافة الفقر والحاجة ، وقد فعلوا ذلك سفهاً أى : بسبب الطيش والخفة ، لا لحجة عقلية ولا شرعية .

فلو نشأت البنت على الفضيلة لما رأت فى كبرها .

قال عكرمة : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر ، فقد كانوا يئدون بناتهم ؛ مخافة السبى والعار ، وأولادهم ؛ خشية الفقر ، جهلاً منهم بأن الله هو الرازق لأولادهم وحده .

وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ .

من البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، وغيرها من الحيوانات التى حرّموها على أنفسهم .

افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ . كذباً عليه فإن الله لم يحرم من هذا شيئاً .

قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

أى : انحرفوا عن طريق الحق والصواب ، ولم يكونوا مهتدين لسوء سلوكهم ، وفساد قلوبهم .

روى البخارى عن ابن عباس قال : «إذا سُرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة

الأنعام : قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا
أُكْلُهُمْ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
وَعَانُوا أَحْقَقَ يَوْمَ حَصَادِهِمْ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١٤١)

المضردات :

جَنَاتٍ : بساتين .

مَعْرُوشَاتٍ : مرفوعات على ما يحملها .

متشابهًا وغير متشابهه : الاشتباه والتشابه : بمعنى واحد ، والمراد به : التقارب في نحو اللون والطعم .

حَصَادِهِ : جنيهه .

وَلَا تُسْرِفُوا : ولا تجاوزوا الحد في الإنفاق .

التفسير :

١٤١- وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ... الآية .

يلفت القرآن النظر إلى بديع صنع الله في خلقه ، ويعدد النعم ، ويلمس شغاف القلوب : ليحركها نحو
النظر إلى بديع صنع الله .

والمعنى : هو الله الذي خلق بساتين مختلفة ، بعضها مرفوعات على ما يحملها من العرائش مثل :
الكرم ، وبعض الزروع والبطيخ ، وبعضها متروكات بدون عرائش مثل : النخل وسائر الأشجار .

وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ .

أى : وأنشأ النخل والزروع . والمراد بالزروع : جميع الحبوب التي يقات بها ، مختلفا ثمره وحبه : في
الهيئة وفي الطعم .

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ .

أى : وأنشأ - سبحانه وتعالى - الزيتون والرمان - متشابهًا في الثمر والشكل والهيئة والطعم واللون
والحجم ، وغير متشابه في ذلك : إبداعًا في الخلق والإعجاز .

كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ .

أى : كلوا من ثمر تلك الزروع والأشجار التي أنشأها لكم ، شاكرين الله على ذلك ، والأمر هنا للإباحة

وفائدة التقييد بقوله: إِذَا أَمَرَ. إباحة الأكل قبل النضوج والإدراك من نحو الفول الأخضر والباقلاء والفريك، للاستمتاع بنعم الله، والطعام فى مراحل نموه المبكرة حيث تكون له نكهة ولذة تستحق الشكر والحمد لله.

قال القرطبي: وفيه أدلة على وجود الله، وعلى عظيم المنة علينا:

١ - فلو شاء إله خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر، طيب الطعم، وإن خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداءً؛ لأنه لا يجب عليه شيء.

٢ - ومن دليل القدرة: أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الله الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأت فيها أوراق ليست من جنسها، وثمر خارج من صفته: الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبايع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأسسها، هل هى فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان؟ أو ترتب هذا الترتيب العجيب؟ كلا، لا يتم فى العقول إلا لحى قادر عالم مريد، فسبحان من له فى كل شيء آية ونهاية!

وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ. قيل: هى فى زكاة الزرع والثمار، والزكاة لم تفرض إلا فى المدينة، فقالوا: هذه الآية مدنية فى سورة مكية.

ورأى بعض العلماء أن المراد بهذا الحق: الصدقة بوجه عام على المستحقين لها، بأن يوزع صاحب الزرع منه عند حصاده، على المساكين والبائسين ما يسد حاجتهم، بدون إسراف أو تقتير، وأصحاب هذا الرأى فسروا هذا الحق بالصدقة الواجبة، من غير تحديد للمقدار، وليس بالزكاة المفروضة: لأن الآية مكية والزكاة إنما فرضت بالمدينة^(٨).

وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

أى: لا تتجاوزوا الحد فى الأكل أو فى التصدق، فخير الأمور الوسط وشر الأمور الشطط.

فلا يجوز أن يشتد البخل، ولا أن يعظم الإففاق حتى يترك الإنسان أولاده فقراء.

قال ابن جريج: نزلت فى ثابت بن قيس^(٩)، قطع خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كلها ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله كقوله تعالى: وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ. ١ هـ.

والإسلام دين وسط لا غلو فيه ولا تفريط، بل فيه وسطية واعتدال. قال تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (البقرة: ١٤٣) وقال تعالى: وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا. (الفرقان: ٦٧)

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرُشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٤٢)

المفردات :

حمولة ، تحمل الأنقال .

فرشا ، ما يفرش للذبح .

التفسير :

١٤٢- وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرُشًا ... الآية .

أى : وأنشأ لكم من الأنعام وهى الأصناف الثمانية الآتى ذكرها - حمولة وفرشا .

والحمولة : ما يحمل عليها وهو يختص بالإبل .

والفرش : ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر فراشاً يفرشه الناس .

وقيل : الحمولة : الإبل ، والفرش : الغنم ، وقيل : الحمولة ، كبار الإبل ، والفرش : صغارها التى لا يحمل عليها بل تتركب وتضع للذبح .

كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .

أى : من هذه الثمار والزروع والأنعام وغيرها ، وانتفعوا منها بسائر أنواع الانتفاع المشروعة .

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ . ولا تتبعوا وساوس الشيطان وطرقه فى التحريم والتحليل كما اتبعها أهل الجاهلية .

إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ .

أى : إنه بين العداوة لكم ، حريص على إغرائكم وإغوائكم ، والشيطان جنس ، يشمل كل شياطين الإنس والجن ممن يخلون الحرام ويحرمون الحلال من الحكام وذوى السلطان ؛ تحقيقاً للشهوات والنزوات .

★ ★ ★

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آمْرِ
 الْأُنثَيَيْنِ إِنَّمَا اسْتَحْلَمْتُ عَلَيْهِمْ آرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبُوءَتِي يُعَلِّمُونَ أَن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾
 وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ آمْرِ الْأُنثَيَيْنِ إِنَّمَا
 اسْتَحْلَمْتُ عَلَيْهِمْ آرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا
 فَمَن ظَلَمَ مِنِّي فَاغْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

المضردات :

أزواج ، جمع زوج . ويطلق على كل واحد من القرنيين : الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ، ويطلق
 أيضاً على مجموعهما . والمراد الأول .
 نبئوني ، أخبروني .

التفسير :

١٤٣- ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ... الآية .

الزوج يطلق على المفرد إذا كان آخر من جنسه يزواجه ، ويحصل منهما النسل ، وكذا يطلق على
 الاثنين فهو مشترك والمراد هنا الأول .

والمعنى : ثمانية أصناف خلقها الله لكم ؛ لتتغفوا بها ، أكلًا وركوبًا وحملًا وحلبًا وغير ذلك .

وهذه الأصناف الثمانية أربعة ذكور من الإبل والبقر والغنم والمعز .

وأربعة إناث من كل منها .

ثم فصل هذه الأصناف فقال :

مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ .

أى : من الضأن زوجين اثنين هما : الكبش والنعجة .

وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .

أى : ومن المعز زوجين : ذكر وأنثى هما : التيس والعنز .

قُلْ عَالِدَاكَ زَكَاةً أَوْ كُفْرًا أَوْ إِثْمًا أَوْ بَغْيًا أَوْ كِبَرًا أَوْ شَيْئًا مِّنْ غَيْرِ ذَلِكَ لَقَدْ طَلَفْتُ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي أَعْلَمُ بِمَا تُصْنَعُونَ

أى : قل لهم يا محمد ، لهؤلاء الذين يَحْرَمُونَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ تَارَةً ، وَإِنَائِهَا تَارَةً أُخْرَى ، وَيَنْسُبُونَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ اقْتِرَاءً عَلَيْهِ - قل لهم : أكان التحريم فى الضأن والمعز وغيرهما من الأنعام بسبب الذكورة ؟

أَمْ كَانَ بِسَبَبِ الْأُنثَى ؟ أَمْ هُوَ بِسَبَبِ الْوُجُودِ فِي الرَّحِمِ ؟

فإن كان التحريم بسبب الذكورة : لزم تحريم جميع الذكور ، وهم لم يفعلوا ذلك .

وإن كان التحريم بسبب الأنوثة : لزم تحريم جميع الإناث ولم يفعلوا ذلك أيضًا .

وإن كان التحريم بسبب اشتغال الرحم على الجنين : لزمهم تحريم جميع الذكور وجميع الإناث : لأن الكل يشتمل عليه الرحم ولم يفعلوا ذلك .

ومثل ذلك يقال فى الإبل والبقر الآتين .

نَبِيُّنَا يَعْلَمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أى : أخبرونى بأمر معلوم من جهة الله تعالى ، جاءت به الأنبياء عليهم السلام ، إن كنتم صادقين فيما زعمتموه ، من أن التحليل والتحريم هما من عند الله .

١٤٤- وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ عَالِدَاكَ زَكَاةً أَوْ كُفْرًا أَوْ إِثْمًا أَوْ بَغْيًا أَوْ كِبَرًا أَوْ شَيْئًا مِّنْ غَيْرِ ذَلِكَ لَقَدْ طَلَفْتُ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي أَعْلَمُ بِمَا تُصْنَعُونَ ... الْآيَةُ .

أى : وأنشأ لكم من الإبل اثنتين هما : الجمل والناقة .

وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ . هما الثور والبقرة .

قل لهم يا محمد أكان التحريم بسبب الذكورة فى هذين الصنفين ؟ أَمْ كَانَ بِسَبَبِ الْأُنثَى فِيهَا .

قال الألوسى :

«إنهم كانوا يحرمون ذُكُورَ الْأَنْعَامِ تَارَةً ، وَإِنَائِهَا تَارَةً ، وَأَوْلَادَهَا كَيْفَمَا كَانَتْ تَارَةً أُخْرَى ، مُسْتَدِينٌ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى اللَّهِ .

وإنما كرر فى هذه الآية ، ما ذكر فى الآية السابقة : لزيادة الإلزام والتبكيك والإفحام »

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا .

يعنى : إذا لم يكن بيدكم مستند علم ، فهل كنتم حاضرين مشاهدين حين وصاكم الله ، وأمركم بهذا

التحريم ؟

والحاصل أن العلم بالتحريم ، إما أن يكون عن رسول أخبرهم به ، وإما أن يكون عن مشاهدة الله وسماح منه تعالى ... وكلا الأمرين منتف .

وبذلك يبطل تحريمهم ما حرموه عن الله تعالى .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

أى : لا أحد أظلم من هؤلاء المشركين الذين ينسبون إلى الله تحريم ما لم يحرمه .

قال أبو السعود : والمراد كباروهم المقررون لذلك ، أو عمر بن لحي بن قمعة ، وهو المؤسس لهذا الش. أو الكل : لاشتراكهم فى الافتراء عليه سبحانه وتعالى .

ولا يقدح فى ظلمهم كون بعضهم مخترعين له ، وبعضهم مقتدين بهم .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

أى : لا يهديهم إلى طريق الحق ، بسبب ظلمهم وإيثارهم طريق الغى ، على طريق الرش .

وفى هذه الآية بيان عظم إثم من يحرم شيئاً مما خلقه الله بغير مستند صحيح .

★ ★ ★

﴿ قُلْ لَا آئِدٌ فِى مَا أُوحِىَ إِلَىَّ مِنْ مَّا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنَازِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَلِىَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ . فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٤٥) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَةِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسَعِيدٌ وَلَا تُرْدُّ بِأَسْمَاءِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٤٧)

المفردات :

طاعم يطعمه : أكل يأكله ، من ذكر وأنثى .

مسفوحا : أى : سائلا .

رجس : نجس خبيث . والمراد : حرام .

هَسْبًا ، خروجا عما أحله الله .

أهل تغير الله به : ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، عند ذبحه .

فَمِنْ اضْطُرَّ : فمن حملته الضرورة على تناول شيء من ذلك .

غَيْرِ بَاسٍ ، أى : غير ظالم مضطر مثله .

وَلَا عَمَادٍ ، أى : ولا متجاوز قدر الضرورة .

كُلُّ ذِي ظَهْرٍ ، أى : كلُّ ما له أصبع من الإبل ، والسباع ، والطيور .

شَحُومُهُمَا ، جمع شحم . وهو الدهن .

إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ، أى : إلا ما وجد من الشحم فوق ظهورهما .

أَوِ الْخَوَاصِ ، أى : وإلا الشحوم التى تغطى الأمعاء .

أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، أى : وإلا ما اختلط من الشحم بعظم ، كالإلية .

بِبَنَفِيهِمْ ، أى : بسبب ظلمهم .

بِأَسْأَفِهِ ، عقابه .

التفسير :

١٤٥- قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... الآية .

نزلت هذه الآية ، ردًا على أهل مكة حين حرّموا على أنفسهم أنواعًا من الحيوانات ، وحرّموا على إناثهم أصنافًا لم يحرموها على الذكور ، فنزل الوحي جوابًا لهؤلاء المشركين ؛ ليقول لهم : إن التحريم لا يكون إلا بوحى ، وأنا لا أجِدُ فيما أوحاه الله إلى من الوحي ، تحريم أى نوع من أنواع الحيوانات ؛ إلا الأصناف الآتية :

١ - الميتة : وهو الحيوان الذى زهقت روحه بغير ذبح شرعى .

٢ - الدم المسفوح : أى : الدم الجارى أما غير المسفوح فهو معقوف عنه ، كالدّم الذى يبقى فى العروق بعد الذبح ، وكذلك الكبد والطحال فإنهما دمان غير سائلين .

٣ - لحم الخنزير - ومثل لحم الخنزير شحمه وغضاريقه ؛ فإن جميع أجزائه قدر نجس ولو ذبح ؛ لتعوده أكل النجاسات أو لأنه خبيث محظور شرعًا .

٤ - فسقاً أهل لغير الله به : أى : ذبح على الأصنام . وإنما سُمي ذلك فسقًا ؛ لتوغله فى الفسق ، والخروج عن الشريعة الصحيحة ، ومنه قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ . (الأنعام : ١٢١) .

فَمِنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاسٍ وَلَا عَادٍ .

والمعنى: فأى شخص أصابته الضرورة، على تناول شيء من المحرمات السابقة: لحفظ الحياة، بسبب فقده الطعام الحلال، فإنه رخص له فى ذلك.

بشرط ألا يكون باغياً على مضطر آخر مثله، أو غير طالب له للذته، وألا يتجاوز - فيما يتناوله - مقدار الضرورة، التى تحفظ عليه حياته، حتى يصل إلى مكان يجد به الطعام الحلال. وعَادِ اسم فاعل بمعنى متعد ومنه قوله تعالى: **يَلْ أُنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ**. (الشعراء: ١٦٦).

فَإِنْ رَبُّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أى: فإن الله عظيم المغفرة والرحمة، لا يؤاخذ المضطر على تناول شيء من ذلك: لأنه أباحه له: لحفظ حياته.

من كلام المفسرين

قال ابن كثير: الغرض من سياق الآية: الرد على المشركين، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم، بأرائهم الفاسدة، من البحيرة، والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله تعالى رسوله أن يخبرهم، بأنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وأن الذى حرمه الله هو الميتة وما ذكر معها، وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو معفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنه حرام، ومن أين حرّمتموه ولم يحرمه الله، وعلى هذا فلا ينبغى تحريم أشياء آخر فيما بعد هذا، كما جاء النهى عن أكل الحمر الأهلية، ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير.

من تفسير القرطبي

ذكر القرطبي عدة أقوال فى تفسير الآية ثم قال:

إن أكثر أهل العلم والفقه والأثر على أن هذه الآية مكية، وكل حرّم حرمه الرسول ﷺ أو جاء فى الكتاب، مضموم إليها، فهو زيادة حكم من الله تعالى على لسان نبيه.

فقد نزلت سورة المائدة فى المدينة، وزيد فيها بعض المحرمات: كالمنخنقة، والموقوذة والمتردية، والنطيحة. ١. هـ. باختصار.

قال الإمام الشافعى: إن الكفار لما حرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرمه الله، وكانوا على المضادة والمحادّة، جاءت هذه الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال سبحانه: لا حلال إلا ما حرّمتموه، ولا حرام إلا ما أحلّتموه، نازل منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا أكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفى والإثبات على الحقيقة.

فهو سبحانه ، لم يقصد حلَّ ما وراء الميتة ، والدّم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ؛ إذ القصد إنبات التحريم لا إنبات الحل .

قال إمام الحرمين : وهذا فى غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعى إلى ذلك لما كنّا نستجيز مخالفة مالك رضى الله عنه فى حصر المحرمات فيما ذكرته الآية^(١٠).

١٤٦- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طُفْرٍ ... الآية .

أى : وعلى اليهود دون غيرهم بسبب ظلمهم ، حرم الله جميع ماله إصبع غير منفرج ، كالإبل والنعام والأوز والبط .

قال مجاهد : كُلُّ ذِي طُفْرٍ . هو كل شيء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود .

قال : انفرجت قوائم الدجاج والعصافير ، فيهود تأكله ، ولم ينفرج خف البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الأوز ، فلا تأكل اليهود الإبل ، ولا النعام ، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك .
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمَا .

والشحم : هو المادة الدهنية التى تكون فى الحيوان ، وبها يكون لحمه سميناً ، والعرب تسمى سنّام البعير ، وبياض البطن : شحمًا ، وغلب إطلاق الشحم على ما يكون فوق أمعاء الحيوان .

والمعنى : كما حرّمنا على اليهود كل ذى طفر ، فقد حرّمنا عليهم كذلك من البقر والغنم شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة . ثم استثنى سبحانه من الشحوم المحرمة على اليهود ما يأتى :
إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا .

أى : إلا الدهون التى توجد فوق ظهور البقر والغنم أو الْحَوَايَا . وهى المباعر التى يجتمع فيها البعر ، فما حملته من الشحم غير حرام .
أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ .

ما لصق بالعظام من الشحوم فى جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب . وهو آخر فقرات الظهور .

ذَلِكَ جَزَاءُ مَا كَفَرْنَا بِهِمْ .

أى : ذلك التحريم الذى حكمنا به عليهم إنّما ألزمناهم به ، بسبب بغيهم وظلمهم وتعدّيهم حدود الله تعالى .

قال قتادة: وإنما حرم عليهم ما ليس بخبيث عقوبة لهم وتشديداً عليهم. اهـ..

إن اليهود قتلوا الأنبياء وأكلوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل كما قال تعالى :

فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ .. (النساء : ١٦٠)

وكانوا كلما أتوا معصية ، عوقبوا بتحريم شيء مما أحلَّ لهم ، وهم ينكرون ويدعون أنها كانت محرمة على الأمم قبلهم .

وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه صادق في كل ما بينه ، ومنه بيان صدقه فيما أحلَّ وحرم بالنسبة لليهود .

ولما حرم الله الشحوم على اليهود ، تحايلت على ذلك فأذابوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها ، وما حرم الله شيئاً إلا حرم بيعه ، وحرم أكل ثمنه ، مثل : الخمر والميتة والخنزير والأصنام .

جاء في تفسير ابن كثير : عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا عليهم ثمنه ^(١١) .

١٤٧- فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ... الآية .

فإن كذبك اليهود ، وقيل : المراد : فإن كذبك المشركون ، الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام ، وحلّلوا بعضها وحرّموا بعضها .

فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ . ومن رحمته حلمه عنكم ، وعدم معاجلته لكم بالعقوبة .

وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .

ولا يمنع عقابه عن القوم المصّرّين على إجرامهم ، المستمرّين على اقتتراف المنكرات ، وارتكاب السيئات .

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

المفردات :

تَخْرُصُونَ : تقدرون تقديراً خاطئاً .

الحجة البالغة : أى : التامة ؛ بإزالة الكتب ، وإرسال الرسل ، مع تسليم العقل .

هَلْ : أحضروا .

وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ : أى : وهم يُسوون به غيره .

التفسير :

١٤٨- سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ... الآية .

تحكى هذه الآيات شبهات قديمة حديثة ، يتعلل بها مرتكبو المعاصى والشرك ، يحاولون تخفيف الذنب على أنفسهم فيدعون أن هذا قضاء الله وقدره ، ولا معقب لأمره وعلى لسان هؤلاء المشركين حكى القرآن عنهم ما يأتى : وَإِذَا قُلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ • قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... (الأعراف : ٢٨ ، ٢٩) .

والآيات هنا تحكى اعتذار المشركين ، عندما يفهمهم الذنب ﷺ بالحجة والبرهان ، سيقولون : لو شاء الله ألا ننشرك به نحن ولا آبائنا القريبون والبعيدون ما أشركنا وما أشرك آبائنا ... ولو شاء ألا نحرم شيئاً مما حرمناه لما حدث منا هذا التحريم ، فما وقع منا فهو بمشيئة الله ورضاه ، أرادوا بذلك ، أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله تعالى وإلا لما وقع منهم ؛ لأنه لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء ، وقد كذبوا فى هذا الاحتجاج ؛ فإن الله لا يرضى لعباده الكفر والمعاصى ، قال تعالى : ... وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ... (الزمر : ٧) .

كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

أى: يمثل هذه الحجة كذب الذين من قبلهم بالمرسلين إليهم .
حَتَّى ذَاقُوا بَاسًا .

أى: حتى نزل بهم العذاب وأحاط بهم الهلاك . ولو كان هذا الشرك وغيره من قبائحهم مرضياً عنده سبحانه ، لما أذاق أسلافهم المكذبين عذابه ونقمته ولما أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا .

أى: قل لهم يا محمد: هل يوجد لديكم دليل يدل على أن الله رضى منكم أن تشركوا به وتحللوا وتحرموا من دونه؟

وأما مجرد وقوع الفساد منكم فلا يدل على رضاه عنكم .

إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

أى: أنتم لستم على شىء ما من العلم ، بل ما تتبعون فى أقوالكم وأعمالكم وعقائدكم إلا الظن ، الذى هو محل الخطأ ومكان الجهل ، فالظن لا يغنى عن الحق شيئاً ، وأنتم تخرصون ، أى: تتوهمون مجرد توهم .

١٤٩ - قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى: البينة الواضحة التى بلغت أعلى درجات العلم والقوة والمتانة والكمال ، والتى تنقطع عندها معاذيرهم ، وتبطل شبههم وظنونهم وتوهماتهم .
فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى: لو شاء هدايتكم جميعاً لفعل: لأنه لا يعجزه شىء ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية البعض: لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحق ، وشاء ضلالة آخرين: لأنهم صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الباطل .

إن مشيئة الله لم تجبر أحداً على طاعة أو معصية وقضاء الله وقدره هو علمه بكل ما هو كائن قبل أن يكون وليس العلم صفة تأثير وجبر .

ولقد شاعت إرادة الله أن يجعل فى البشر الاستعداد للخير والشر ، غير أن سنة الله اقتضت أن من يفتح عينه يرى النور ومن يغمضها لا يراه ، كذلك من يفتح قلبه لإدراك دلائل الإيمان: يهتدى ومن يحجب قلبه عنها: يضل: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . (الفتح: ٢٣) .

إن الله لم يشأ أن يجبر أحداً على طاعته أو معصيته ، قال تعالى : قُلُوا شَاءَ لَهَذَاكُمْ أَجْمَعِينَ . فهي مشيئة المنح والتيسير ، وليست مشيئة الإلجاء والتسخير ، فمن سلك طريق الهدى ؛ يسر الله له ذلك قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . (الليل ٥ - ٧) .

١٥٠- قُلْ هَلُمُّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ... الآية .

أى : قل لهم يا محمد : أحضروا من يشهد لكم ويعاونكم ، فى إثبات أن الله حرم عليكم ما حرمتوه على أنفسكم وعلى أزواجكم !!
وهم كباروهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم : تفضيحههم وإلزامهم الحجة ، وإظهار أنه لا متمسك لهم كمقلدين .
فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ .

أى : فلا تصدقهم فإنه كذب بحت وافتراء صرف ، ولا تقبل شهادتهم ؛ لأنها نتيجة اتباع الهوى .
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ .

أى : ولا تتبع أهواء الذين يجمعون بين تكذيب آيات الله ، وبين الكفر بالآخرة ، وبين جعلهم لله عديلاً ، شريكاً ، مع أنه سبحانه هو الخالق لكل شيء ؛ لأن هذه الصفات لا تؤهلهم لشهادة الحق ، ولا للنفقة بهم ، وإنما للاحتقار فى الدنيا ، ولسوء العذاب فى الآخرة .

وكان مقتضى السياق أن يقول : ولا تتبعهم ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير ؛ للدلالة على أن من كذب بآيات الله ، وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، وأن من اتبع الحجة لا يكون إلا مصداقاً بها ^(٩٧) .

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ أَلْفَوْحًا مَظْهَرٍ مِنْهَا وَمَا بَطُنٌ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفَ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْنَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

المفردات :

تعالوا : أقبلوا وأحضروا .

أتل : أقرأ .

إملاق : فقر وفاقة .

الظواهر : ما عظم قبحه من المعاصي .

وصاكم به : أمركم وألزمكم به .

أشده : أي : يبلغ قوته البدنية والعقلية ويحسن التصرف .

بالقسط : بالعدل وعدم الجور .

فاصدقوا : فاصدقوا في القول .

وبيعهد الله أوفوا : وبما طلب الله منكم من العدل وتأدية أحكام الشرع ، أوفوا وأتموا .

لعلكم تذكرون : لكي تتعظوا .

التفسير :

١٥١- قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ... الآية .

تأتى هذه الآية فى أعقاب توجيه المشرىين ومناقشتهم ، حتى إذا استبان لهم الطريق ووضحه الحجة ، أمر الله رسوله أن يدعوهم : ليوضح لهم المحرمات ، ويرشدهم إلى الواجبات .

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ..

أى : قل لهم يا محمد : أقبلوا ، وأحضروا إلى : لأقرأ لكم الآيات المشتملة على ما حرم الله عليكم وما أوجبه .

أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .

أوصيكم ألا تشركوا مع الله فى عبادتكم آلهة أخرى ، بل خصوه وحده بالعبادة والخضوع والطاعة ، فإنه هو الخالق لكل شيء .

والنهي عن الإشراك يقتضى الأمر بالإخلاص وصدق النية والبعد عن الرياء ، وقد ساق القرآن مئات الآيات التى تدعو إلى الإيمان ، وتنفر من الشرك ، وتقديم الأدلة الساطعة والبراهين الدامغة على وحدانية الله عز وجل .

قال تعالى :

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... (الإخلاص : ١)

وقال سبحانه :

أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِيَّاهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦١)

وقال عن شأنه : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢)

وقال تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَيُرَوِّا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ . (الذاريات : ٤٧ - ٥١) .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... (النساء : ١١٦)

وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا احْسَنُوا ... (الإسراء : ٢٣)

أى : أحسنوا إليهما إحساناً وذلك بالبر بهما ، وامتنال أمرهما ونهيهما ، وفيه نهى عن عقوقهما .

وقد جاءت الوصية بالوالدين بعد النهى عن الشرك : تنبيهاً على أهمية بر الوالدين ، وتحذيراً من عقوق الوالدين خصوصاً فى حالة الكبر والضعف ، حيث يكون الأب أو الأم فى أمس الحاجة إلى الرعاية النفسية

أو المادية، وهو نوع من تكافل الأجيال وردّ الجميل، ولا يوفق لإكرام والديه إلا من يُردّ له الجميل من ذريته وفي الحديث الشريف: «عفوا؛ تعف نساؤكم، وبرّوا آباءكم؛ تبرّك أبناءكم»^(١٢).

وفي الربع الثاني من سورة الإسراء قدم القرآن ٢٦ وصية وأدبها بالدعوة إلى التوحيد وعدم الشرك وثناها بالدعوة إلى بر الوالدين. حيث قال تعالى:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا.
(الإسراء: ٢٣، ٢٤)

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ.

الإملاق: الفقر.

وكانت الجاهلية تفعل ذلك بالذكور والإناث: خشية الإملاق وتفعله بالإناث: خشية العار، فبين الله أنّه هو الرزاق للوالد والولد وكلّ الكائنات الحية قال تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا. (هود: ٦).

والمعنى: لا تقتلوا أولادكم الصغار من أجل الفقر فنحن قد تكفلنا برزقكم ورزقهم.

وفي سورة الإسراء قال تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا. (الإسراء: ٣١)

وفي سورة الإسراء قدّم رزق الأولاد على الآباء؛ للإشارة إلى أن الولد الضعيف يرزق أصلاً والأب يرزق تبعاً.

فالله يرزق الأب تابعاً لوزق الابن.

وقد ورد في هدى السنة أن رجلاً اشتكى للنبي ﷺ؛ لأنه يعمل ويكدح ويطعم أخاه الذي لا يعمل، فقال له النبي ﷺ: «لعلك به ترزق»^(١٣).

وَلَا تَقْرُبُوا أَثْوَابِشَ.

وكل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها، كالسرقة والزنى، والنميمة وشهادة الزور.

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ.

قال أبو السعود: أى: ما يفعل منها علانية فى الحوانيت كما هو دأب أراذلهم، وما يفعل سرّاً باتخاذ الأعدان كما هو عادة أشرفهم.

ونجد القرآن ينهى عن الاقتراب من الفواحش؛ لأن من حام حول الحما يوشك أن يقع فيه، ولأنه إذا حصل النهى عن الاقتراب من الشيء، فلأن ينهى عن فعله من باب أولى.

وقريب من ذلك قوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا. (الإسراء: ٣٢)

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

أى: ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها، بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد، إلا إذا فعلت ما يوجب قتلها كالقصاص أو الردة أو الزنى بعد الزواج.

روى الشيخان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١٥).

قال الشوكانى: ومن الحق قتلها قصاصاً، وقتلها بسبب زنى المحسن، وقتلها بسبب الردة، وهذه هى الأسباب التى ورد الشرع بها.

ذَلِكُمْ مَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

أى: ذلكم الذى ذكرناه لكم من وصايا جليية، وتكاليف حكيمة، وصاكم الله به، وطلبه منكم، لعلكم تستعملون عقولكم فى أداء هذه الحقوق الثابتة، المتجاوية مع الفطرة، وهذه الحقوق الخمسة المذكورة فى الآية الكريمة وهى:

١ - توحيد الله.

٢ - الإحسان إلى الوالدين.

٣ - عدم قتل الأولاد.

٤ - الابتعاد عن الفواحش.

٥ - عدم قتل النفس إلا بالحق.

وأداء هذه الوصايا يتفق مع العقل والفطرة السليمة.

١٥٢- وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ... الآية .

هذه وصية سادسة تتعلق بالمعاملة الحسنة لليتيم . وقد تعرض القرآن المكي والمدني للوصية باليتيم ورعايته ، والمحافظة على ماله وعدم خلط ماله بمال الوصي ؛ توطئة لأكل مال اليتيم ، ولما تكررت هذه الوصايا ؛ تخرج المسلمون من خلط أموال اليتيم بأموالهم فأنزل الله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...

وهنا في سورة الأنعام يقول الله تعالى :

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .

أى : لا تتعرضوا له بخصلة من الخصال أو بوجه من الوجوه إلا بالخصلة التي هي أحسن .

لأن الوصي ربما احتال بالحيلة لأكل مال اليتيم . فنهوا عن ذلك لكن إذا كان اقتراب الوصي من مال اليتيم وسيلة لتتميره وتنميته بطريقة حسنة ؛ فيجوز الاقتراب حينئذ ما دام فى صالح اليتيم ونفعه وزيادة ماله .
حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

أى : احفظوا ماله حتى يبلغ الحلم فإذا بلغ الحلم رشيداً عاقلأ حسناً للتصرف ، دفع الوصى إليه ماله ، وقد وردت هذه المعانى فى صدر سورة النساء . قال تعالى :

وَإِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... (النساء : ٦)

أى : اختبروا اليتيم فى مرحلة الصبا ، بأن تعطوه مبلغاً مناسباً ليتصرف فيه برأيه وحكمته ، فإذا أحسن التصرف فزيده ومكنوه من التصرف فى ماله جزئياً ، حتى إذا بلغ سن الرشد عاقلأ محسناً للتصرف فادفعوا إليه ماله .

ونلاحظ أن القرآن دائماً يذكر المؤمن بالله ورقابته ، فإن الوصى قد يتلاعب فى الدفاتر ويزيف الحسابات ، فيكون منضبطاً أمام المجلس الحسبى وأمثاله من مجالس المحاسبين والرقباء ، لكن هناك رقابة الله وحسابه قال تعالى :

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . (النساء : ٦)

أى : يجب إشهاد الشهود على دفع الوصى مال اليتيم إليه ، مع علمه أن هناك رقابة من الله الذى لا تخفى عليه خافية ، وهو سريع الحساب سبحانه وتعالى .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ .

لا غنى للناس عن الكيل والوزن ، وقد تكررت وصايا القرآن بوفاء الكيل والميزان ، وحثت السنة المطهرة على عدم تطفيف الكيل والميزان ؛ لأن الجائر لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف قال تعالى : وَيُلْ لِلْمُطْغَفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * يَوْمَ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . (المطففين : ١ - ٦)

وعلى لسان نبي الله شعيب يقول القرآن الكريم :

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . (الشعراء : ١٨١ - ١٨٣) .
لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

أى : إن قواعد الشريعة مبنية على رفع الحرج فلا تكليف إلا بما يطاق قال تعالى : لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا . (الطلاق : ٧) .

فالغبن اليسير فى الكيل والوزن وغير ذلك مما لا يمكن التحرز منه معفو عنه .

قال أبو السعود : لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا : إلا ما يسعها ولا يعسر عليها ، وهو اعتراض جىء به عقيب الأمر بالعدل : للإيذان بأن مراعاة العدل كما هو عسير كأنه قيل عليكم بما فى وسعكم وما وراءه معفو عنكم .
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى .

القرآن هنا يرتفع بالضمير البشرى إلى مستوى سامى رفيع ، على هدى من العقيدة فى الله بأن يكلفه ببحرى العدل فى كل أحواله ولو إزاء أقرب المقربين إليه .

قال الشوكاني فى فتح القدير : إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا . فى خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل ، فاعدلوا فيه وتحروا الصواب ولا تتعصبوا فى ذلك لقريب ، ولا على بعيد ، ولا تميلوا إلى صديق ، ولا على عدو ، بل سووا بين الناس وَلَوْ كَانَ . المقول فيه . أوالمقول له ذَا قُرْبَى . أى : صاحب قرابة لكم .

وهكذا نجد القرآن يسمو بآداب هذه الأمة ويقدم لها النصائح التى تجعلها تقول الحق خالصا لوجه الله ولو كانت الشهادة على النفس أو على الوالدين أو على الأقربين فينبغى أن تؤدى بالحق ، والحق المجرد الخالص .

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ . (النساء : ١٣٥) .
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا .

أى : إذا عاهدتم الله ، أو عاهدتم بالله فأوفوا . وكونوا أوفياء مع الله فى كل ما عهد إليكم به من العبادات والمعاملات وغيرها .

ذَلِكُمْ وَمَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أى : ذلكم المتلو عليكم فى هذه الآية من الأوامر والنواهي ؛ وصاكم الله به فى كتابه ؛ رجاء أن تتذكروا وتعتبروا وتعملوا بما أمرتم به .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

تتذكرون ما فى تضاعيفه وتعملون بمقتضاه ، وقرئ بتشديد الذال .

وهذه أحكام عشرة لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار .

عن ابن عباس رضى الله عنه : هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وهن محرمات على بنى آدم كلهم وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة . ومن تركهن دخل النار وعن كعب الأحبار : والذى نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء فى التوراة . بسم الله الرحمن الرحيم :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِبَاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ بِالْقِسْطِ لَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الأنعام : ١٥١، ١٥٢)

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِحَبْلِ الْوَعْدِ ۚ لَكُمُ الْجَنَّاتُ الَّتِي دَخَلْتُمُوهَا ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ عَذْوٍ لَا تَغَيَّرُ ۖ فِيهَا خُلَّةٌ مِنْ ثَمَرِهِمْ لَا يَمُوتُ ۚ وَأُخْرَىٰ الَّتِي لَا يَدْخُلُ فِيهَا الْغَائِيُونَ ۚ وَأُولَٰئِكَ يَكُونُ الْوَعْدُ لَهُمْ ۚ﴾ (١٥٣)

١٥٣- وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ... الآية .

أى ولأن هذا الذى وصيتكم به من الأوامر والنواهى طريقى ودينى الذى لا اعوجاج فيه فمن الواجب عليكم أن تتبعوه وتعملوا به .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي . إشارة إلى ما ذكر فى الآيتين من الأمر والنهى قاله مقاتل ، وقيل : إلى ما ذكر فى السورة فإنها بأسرها فى إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة .

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا . السبيل الموصل إلى رضائى ، وهو دين الله ، ثم أمرهم باتباعه ونهاهم عن غيره فقال :

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .

أى : الأديان المتباينة طرقها .

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ .

أى : عن سبيل الله المستقيم الذى هو دين الإسلام ، وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية ، وسائر الملل ، والبدع والضلالات من الأهواء والشذوذ .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ :

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا . ^(١٧) ورواه الدارقطنى وابن ماجه أيضاً .

وَمُسْتَقِيمًا . حال مؤكدة

وقد أفرد الله سبحانه وتعالى - الصراط المستقيم .

وهو سبيل الله ، وجمع السبل المخالفة له : لأن الحق واحد ، والباطل ما خالفه وهو كثير فيشمل الأديان الباطلة ، والبديع الفاسدة ، والشبهات الزائفة ، والفرق الضالة وغيرها .

ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

أى : هذا الذى تقدم - وهو اتباع دين الله والابتعاد عن غيره من الأديان والنحل الباطلة - هو الذى أمركم الله بالحرص عليه والسير على منهاجه ، رجاء أن تكونوا من الناجين المتقين .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ يُلْقَاؤْ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥٤)

المضردات :

تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ : أى : إتماماً للنعمة على كل من أحسن القيام به . أو على موسى الذى أحسن تبليغه .

التفسير :

١٥٤- ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ... الآية .

أى : ثم آتينا وأعطينا موسى التوراة : لإتمام النعمة والكرامة ، على كل من أحسن القيام بما اشتملت عليه من تكاليف أو إتماماً للنعمة على موسى الذى أحسن تبليغ التوراة .

وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً .

أى : جاءت التوراة بياناً وتفصيلاً لكل ما يحتاج إليه فى الدين والدنيا ، وإرشاداً إلى طريق الخير ورحمة واسعة .

لِّعَالَمِهِمْ يُلْقَاؤْ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ .

أى : لعل قوم موسى وسائر أهل الكتاب يصدقون بيوم الجزاء ، ويقدمون العمل الصالح الذى ينفعهم فى هذا اليوم .

وفى هذه الآية إخبار من الله تعالى بأن الوصايا التى تقدم ذكرها ثابتة فى الكتب المتقدمة ، ومنها التوراة .

★ ★ ★

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ
 الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا
 أَنْزَلْنَاهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَهْدَى لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَهْدًى
 وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ
 آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

المفردات :

دراستهم : قراءة كتبهم .

وصدّف عنها : أعرض عنها . أو صرف الناس عنها .

التفسير :

١٥٥ - وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ... الآية .

أى : وهذا القرآن ، كتاب الله العظيم ، أوحيناه إلى محمد ﷺ ، كثير المنافع والخير دنيا وأخرى .

فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أى : اعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام .

وَاتَّقُوا . مخالفته والتكذيب بما فيه ! رجاء أن تعمكم رحمة الله .

١٥٦ - أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ... الآية .

أى : أنزلنا إليكم - معشر العرب - كتاباً ينطق بلغتكم : خشية أن تقولوا معتذرين يوم القيامة : إنما
 أنزل ذلك الكتاب - التوراة والإنجيل - على طائفتين من قبلنا ، وهما اليهود والنصارى ، وتخصيص الإنزال
 بكتابينهما : لأنهما اللذان اشتهرا من بين سائر الكتب السماوية السابقة ، قبل نزول القرآن .

وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .

أى : وإننا معشر العرب كنا منصرفين عن مطالعة تلك الكتب وقراءتها .

فى هذه الآية قطع الأعداء ، وإثبات الحجة عليهم ، حيث نزل القرآن بلغة سهلة ميسرة ، هى العربية .

١٥٧- أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ... الآية .

أى : لئلا تقولوا معتردين بأمر آخر ، لو أننا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على اليهود والنصارى - لصرنا أكثر هداية إلى الحق منهم ، وذلك لجودة إدراكنا ، وتوقد أذهاننا ، وتفتح قلوبنا .
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .

أى : كتاب أنزله على نبيكم ، وهو منكم يا معشر العرب .
فلا تعتذروا بالأعداء الباطلة ، فالقرآن فيه حجة واضحة على ما شرعه الله من الأحكام ، وإرشاد بين إلى طريق الحق .

وَهَذَىٰ وَرَحْمَةً .

أى : القرآن هداية لكم إلى طريق الحق ، ورحمة لمن يعمل ؛ بما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات .
فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .

أى : لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله وأعرض عنها بعد أن جاءته بيناتها الكاملة ، وهداياتها الشاملة .

سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ .

صَدَفَ عَنْهَا . أعرض عنها غير متفكر فيها ، أو صرف الناس عنها ، وصددهم عن سبيلها فجمع بين الضلال ، والإضلال .

والمعنى : سنعاقب الذين يعرضون عن اتباع آياتنا ، ويصرفون الناس عنها بأسوأ العذاب وأشدّه بسبب تكذيبهم لآياتنا وإعراضهم عنها .

★ ★ ★

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا لِّمَنِ لَّمْ تُكُنْ ءَامِنًا مِّن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ (١٥٨)

المضرات :

ينظرون ، ينتظرون .

التفسير:

١٥٨- هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ... الآية .

أى : ماذا ينتظر هؤلاء المشركون بعد أن قدمنا لهم كل الدلائل والبيانات الداعية إلى الإيمان .

إنهم سيطلون فى غيهم إلى أن تنزل عليهم ملائكة الموت فتقبض أرواحهم .

أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ . يوم القيامة : لفصل القضاء بينهم .

أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ .

أى : أمارات الساعة الدالة على مجيئها .

أو المراد : الآيات والمعجزات التى اقترحوها على رسول الله ﷺ كما ورد فى قوله تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَجْعَلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَعِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُبِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا تَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

والراجع أن المراد بآيات الله هنا : هو العلامات الصغرى والكبرى ليوم القيامة .

قال أبو السعود فى تفسير الآية :

وقيل : إن المراد . بإتيانه تعالى : إتيان كل آياته بمعنى : آيات القيامة ، والهلاك الكلى بقرينة ما بعده من إتيان بعض آياته تعالى على أن المراد به :

أشراط الساعة التى هى الدخان ، ودابة الأرض ، وخسف بالشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، ويأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى عليه السلام ، ونار تخرج من عدن ، كما نطق به الحديث الشريف المشهور^(١٧) .

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا .

أى : عند مجئ أشراط الساعة وعلاماتها ، يذهب التكليف فلا ينفع الإيمان حينئذ نفساً كافرة ، لم تكن آمنت قبل ظهورها ، ولا ينفع العمل الصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه الأشراف ؛ لأن وقت التكليف الاختيارى قد فات . ووجود الإنسان فى هذه الدنيا أساسه الاختبار والابتلاء والامتحان . فإذا عمل فى مرحلة التكليف الاختيارى قبل عمله ، أما إذا عمل بعد ظهور علامات الموت أو علامات القيامة فلا يقبل منه .

من كلام المفسرين

قال الطبري :

معنى الآية : لا ينفع كافراً لم يكن آمناً قبل الطلوع - أى : طلوع الشمس من مغربها - إيمانٌ بعد الطلوع، ولا ينفع مؤمناً لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع عملٌ بعد الطلوع ؛ لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ. حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة ، وذلك لا يفيد شيئاً ، كما قال تعالى : فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا . (غافر: ٨٥). وكما ثبت فى الحديث الصحيح : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» .

وقال الشوكاني فى فتح القدير :

يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ . يوم تأتى الآيات التى اقترحوها ، وهى التى تضطرهم إلى الإيمان ، كطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة التى تكلمهم .

لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا . لارتفاع التكليف بذلك ؛ لأن الكل يرون الحق رأى العين فيؤمنون جميعاً ، فلا ينفعهم حينئذ الإيمان .

لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ . أى : من قبل مجيء بعض الآيات فأماً التى قد كانت آمنت من قبل مجيء بعض الآيات ؛ فإيمانها ينفعها .

أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا . بعمل صالح قدمته ، فمن آمن من قبل فقط ، ولم يكسب خيراً ففى إيمانه ، أو كسب خيراً ولم يؤمن ؛ فإن ذلك غير نافعة .

قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورأها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها - ثم قرأ الآية - » (١٨) .

قُلْ اِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

وهذا تهديد للمشركين .

أى : قل لهم يا محمد : انتظروا ما تنتظرونه من إتيان الأمور الثلاثة وهى : «الملائكة ، أو ربك ، أو بعض آيات ربك» لتروا أى شئ تنتظرون ، فإننا منتظرون معكم ؛ لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

المفردات :

شيعا ، فرقا متعددة .

ينبئهم ، يخبرهم ويعلمهم .

التفسير :

١٥٩- إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... الآية .

أى : إن الذين فرقوا دينهم بأن اختلفوا فيه مع وحدته فى نفسه فجعلوه أهواء متفرقة ، ومذاهب متباينة وكانوا شيعا . أى : فرقا ونحلا تتبع كل فرقة إماما لها على حسب أهوائها ومتعتها ومنافعها ، بدون نظر إلى الحق .

وقوله : لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .

أى : أنت برىء منهم ، محمى الجنب عن مذاهبهم الباطلة .

أو لست من هدايتهم إلى التوحيد فى شىء ، إذ هم قد انطمست قلوبهم فأصبحوا لا يستجيبيون لمن يدعوهم إلى الهدى .

إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

أى : ما أمرهم ومآل حالهم إلا إلى الله وحده ، فيجازيهم على أعمالهم وعقائدهم الباطلة بما يستحقون .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ بِهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (الحج: ١٧) .

وجاء فى فتح القدير للشوكانى ما ملخصه :

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ . جعلوا دينهم متفرقا فأخذوا بعضه وتركوا بعضه ، والمراد بهم : اليهود والنصارى والمشركون ، عبد بعضهم الصنم ، وبعضهم الملائكة ، وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر به الله .

شَيْعًا . فَرَقًا وَأَحْزَابًا .

فتصدّق على كل قوم كان أمرهم في الدين واحدًا مجتمعًا ، ثم اتبع كل جماعة منهم رأى كبير من كبرائهم يخالف الصواب ويبين الحق .

لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .

أى : أنت برىء من بدعهم واقتراحهم ، وإنما عليك الإنذار .

إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ . فهو مجازٍ لهم بما تقتضيه مشيئته .

ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُبْخِئُهُمْ . أى : يخبرهم .

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . من الأعمال التى تخالف ما شرعه الله لهم وأوجبه عليهم .

★ ★ ★

﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١٦٠)

التفسير :

١٦٠- مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ... الآية .

أى : من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة ، فله عشر حسنات أمثالها في الحُسْن ، فضلاً من الله وكرماً .

وقد جاء الوعد بسبعين ، ويسبعمائة ، وبغير حساب ولذلك قيل : المراد بذكر العشر : بيان الكثرة لا الحصر فى العدد الخاص^(١٨) .

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا .

أى : ومن عمل عملاً سيئاً من شرك وغيره ، فعقابه مماثل لما عمل عدلاً .

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . بنقص شىء من ثوابهم أو الزيادة فى عقابهم .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ؛ فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة»^(١٩) .

قال الشوكاني في فتح القدير :

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْقَالٍ . وهذا ما أوجب الله تعالى على نفسه ، وقد يزيد ، كمثل حبة أنبتت سبع سنائل ، وورد في بعض الحسنات أن فاعلها يجازى عليها بغير حساب ^(١٦١) .

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ . من الأعمال السيئة فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا . من دون زيادة عليها ، على قدرها في الخفة والعظم ، فيجزي على سيئة الشرك بخلوده في النار ، وفاعل المعصية من المسلمين يجازى عليها بمثلها مما ورد تقديره من العقوبات .

وهذا إن لم يتب ، أما إذا تاب ، أو غلبت حسناته سيئاته ، أو تغمد الله برحمته ، وتفضل عليه بمغفرته فلا مجازاة .

وَهُمْ . أى : من جاء بالحسنة ومن جاء بالسيئة لَا يُظْلَمُونَ . بنقص ثواب حسنات المحسنين ، ولا بزيادة عقوبات المسيئين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١٦٢) قُلْ إِن صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٦٣) لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَئِذَا لُكِّمْتُ أُمُوتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(١٦٤) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ^(١٦٥) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

المفردات :

دينا قيميا ، دينا مستقيما : لا عوج فيه .

حنيفا ، مائلا عن الأديان الباطلة .

ونسكى ، عبادتى .

أبغى ربا ، أطلب .

ولا تزر ، ولا تحمل .

وازره : نفس آئمة .

خلائف ، خلفاء يخلف بعضهم بعضا .

ليبلوكم ، ليمتحانكم ويختبركم .

التفسير :

١٦١- قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... الآية .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ، ولغيرهم ممن أرسلت إليهم - قل لهم جميعاً : لقد هدانى خالقى وربى إلى دين الإسلام الذى ارتضاه لعباده .

ديننا قيماً . هو الدين المستقيم الذى لا عوج فيه .

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا .

إن هذا الدين الذى هو الصراط المستقيم ، الذى هدانى إليه ربى ، هو الدين القيم ، المتفق مع ملة إبراهيم .

حَنِيفًا . مبتعداً عن كل دين باطل ، مانئلاً إلى الحق .

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ولم يكن إبراهيم فى عقيدته مشركاً مع الله آلهة أخرى فى أى شأن من شئونه .

قال أبو السعود فى تفسيره :

صرح بذلك رداً على الذين يدعون أنهم على ملته عليه السلام ، من أهل مكة واليهود والمشركون حيث قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله .

١٦٢- قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى قل لهم يا محمد أيضاً : إِنْ صَلَّيْتُ . التى أتوجه بها إلى ربى .

وَنُسَكِي . أى : عبادتى وتقربى إليه وهو من عطف العام على الخاص ، وقيل : النسك : الذبح : جمع

بينه وبين الصلاة كما فى قوله تعالى : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . (الكوثر : ٢)

وقيل : معناه : إِنْ صَلَّاتِي وَحَجِّي .

وقيل : المراد بالنسك : ذبائح الحج والعمرة .

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي . أَيْ : حياتي وموتي .

وقال الشوكاني : أَيْ : ما أعمله في حياتي من أعمال الخير ، ومن أعمال الخير بعد الممات ، بالوصية بالصدقات وأنواع القربات ، وقيل : نفس الحياة ونفس الموت .

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَيْ : خالصاً له . فأنا متجرد تجرداً كاملاً لخالقي ورازقي بكل خالصة في القلب ، وبكل حركة في هذه الحياة .

١٦٣- لَا شَرِيكَ لَهُ ... الآية .

أَيْ : لا أشرك به شيئاً في صلاتي ولا نسكي ، ولا محيائي ولا مماتي ..

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ . أَيْ : بذلك القول الطيب وبذلك العمل الخالص أمرت .

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .

وأنا أول المنقادين المسارعين ، الممتثلين لأوامر الله ، والمنتهين عن نواهيه من هذه الأمة .

قال الشوكاني :

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ .. أَيْ : أول مسلمي أمته .

عن علي أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال :

«وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» (٣٦) .

١٦٤- قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ... الآية .

أَيْ : كيف أطلب غير ربٍّ مستقلاً ، وأترك عبادة الله أو كيف أطلب شريكاً لله فأعبدهما معاً ، والحال أنه رب كل شيء ، والذي تدعونني إلى عبادته مربوب له ، ومخلوق مثلي لا يقدر على نفع ولا ضرر .

وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا .

كانوا يقولون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ؛ فبين القرآن هنا أن ما يعمله العاملون من خير وشر لا يعود إلا عليهم ، ثواباً أو عقاباً .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

أى : ولا تحمل نفس مذنبية ، ولا غير مذنبية ، ذنب نفس أخرى ، وإنما تتحمل الآثمة وحدها عقوبة إثمها، الذى ارتكبته بالمباشرة أو بالتسبب .

قال القرطبي : وأصل الوزر الثقل ومنه قوله تعالى : وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . وهو الذنب كما فى قوله تعالى : وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ . (الأنعام : ٣١)

وقال الشوكاني :

وفى هذه الآية ردٌ لما كانت عليه الجاهلية من مؤاخذه القريب بذنب قريبه ، والواحد من القبيلة بذنب الآخر .

وفى الآية الأخرى : لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ . (النحل : ٢٥)
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

أى : أنكم بالموت ترجعون إلى الله ، وهو مالك أموركم فى الآخرة فيعلمكم بأعمالكم ، ليتبين لكم ما كنتم فيه من غرور وباطل مخالف للحق ويجازيكم عليه .

١٦٥ - وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ... الآية .

أى : وهو الله الذى جعلكم تعمرون الأرض أمة تخلف أمة ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد خلف .
والخطاب على هذا عام لجميع البشر .

أو هو الذى جعلكم خلفاء الأمم السابقة ، والخطاب على هذا للمؤمنين .

وقيل : المراد : إن هذا النوع الإنسانى خلفاء الله فى أرضه .

وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ . فى الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم إلى درجات .

يَسْأَلُكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ .

أى : ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور ، هل يقوم الغنى بحق المال ؟ وهل يصبر الفقير على الحرمان ؟

قال أبو السعود :

أى : ليعاملكم معاملة من يبتليكم : لينظر ماذا تعملون من الشكر وضده .

إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ .

أى : عقابه سريع الإتيان ، لمن لم يراع حقوق ما آتاه الله تعالى ولم يشكره ؛ لأن كل آت قريب ، أو سريع التمام عند إرادته لتعالیه عن استعمال المبادئ والآلات .

وَأِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : كثير الغفران والرحمة . لمن آمن بالله ورسله وكتبه ، واتبع أوامره وهديه .

وقد أكد الله الجملة الثانية ، أشد من تأكيده الأولى ، وهذا يبين أن رحمة الله تعالى أعظم من غضبه ، روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى»^(٣٣) .

وهذا ختام هذه السورة الكريمة التى عنيت بتثبيت عقيدة التوحيد ، وتفنيد شبهات المشركين ، وقد وردت أنها نزلت جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد .

والحمد لله رب العالمين . وصلى اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

تم تفسير هذه السورة : ليلة الإثنين ٧ شوال ١٤١١ هـ

الموافق ٢٢/٤/١٩٩١ م . بجامعة السلطان قابوس بمسقط سلطنة عمان

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الأعراف

بين يدي سورة الأعراف (٢٤)

سورة الأعراف هي السورة السابعة في الترتيب المصحفي وهي إحدى السور التي بدئت ببعض حروف التهجي (المص) ولم يتقدم عليها من هذا النوع سوى ثلاث سور سبقتها في تاريخ النزول وهي ن، ق، ص. ويبلغ عدد السور التي بدئت بحروف التهجي تسعا وعشرين سورة ، وكلها سور مكية ما عدا البقرة وآل عمران . وعدد آيات سورة الأعراف (٢٠٦) آيات ، وعدد كلماتها (٣٣١٥) كلمة .

١ - معنى فواتح السور :

ليس لهذه الفواتح في اللغة العربية معان مستقلة ، ولم يرد من طريق صحيح عن النبي ﷺ بيان للمراد منها ، بيد أنه قد أثرت عن السلف آراء متعددة في معاني هذه الحروف ، وهذه الآراء على كثرتها ترجع إلى رأيين اثنين .

أحدهما : أنها جميعا مما استأثر الله به ولا يعلم معناها أحد سواه ، وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين .

وثانيها : أن لها معنى ، وقد ذهبوا في معناها مذاهب شتى .

١ - فمنهم من قال : إنها أسماء للسور التي بدئت بها أو أن كلا منها علامة على انتهاء سورة والشروع في أخرى .

٢ - ومنهم من قال : إنها «رموز» لبعض أسماء الله تعالى وصفاته .

٣ - ومنهم من قال : إن المقصود منها هو تنبيه السامعين وإيقاظهم ، وسياسة النفوس المعرضة عن القرآن واستدراجها للاستماع إليه واستمالة العقول بشيء غريب على السمع للإنتباه والإصغاء للقرآن .

وأشهر آراء علماء البلاغة والبيان أن هذه الحروف ذكرت للتحدي وبيان إعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وفي هذا دلالة على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد .

ويرى ابن جرير الطبري أن أفضل الآراء في معنى فواتح السور هو اشتغالها على جميع الوجوه التي ذكرها العلماء في معانيها . فهي أسماء للسورة ، وهي رموز ، وهي حروف للتنبيه والتحدي . إلخ .

وسورة الأعراف هي السورة المكية الثانية في ترتيب المصحف ، وهي تتسم بتلك السمات العامة التي أسلفنا الإشارة إليها في الحديث عن سورة الأنعام .

ثم تتميز بطابعها الخاص بعد ذلك من ناحية الموضوعات التي تعالجها والسياق الذي تسير فيه .

وموضوع السورة الرئيس هو الإنذار .. إنذار من يتولون غير الله ومن يكذبون بآيات الله ومن يستكبرون عن طاعة الله ، ومن ينسون الله ومن لا يشكرون نعمته . إنذارهم هلاك الدنيا وعذاب الآخرة ، ذلك فوق الخزي والهوان والنسيان .

تبدأ السورة بالإنذار ، ثم تسلك بهذا المعنى سبلاً شتى وتصرف فيه تصرفات كثيرة وترسم له صوراً متعددة وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة . فتارة يأخذ السياق شكل القصة : قصة آدم مع إبليس ، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم ؛ لتنتهي كل قصة بالعذاب والנקال لمن يخالفون عن أمر الله ، وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة أو مشاهد الاحتضار تنكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين ، ومصائر الطائعين لله رب العالمين .

ويتخلل القصص والمشاهد ما يتسق مع الجو العام من توجيه الأنظار والقلوب ومن الدعوة إلى التوبة والإنابة قبل أن يحل العقاب ويتحقق الإنذار ومن الإشارة إلى عواقب المكذبين من الأمم الخالية التي حق عليها النذير .

ويرد كل ذلك في تناسق مطلق بين السياق والقصة أو السياق والمشهد ، أو السياق والتوجيهات ، فتبدو القصص والمشاهد والتوجيهات كلها أجزاء من هذا السياق العام ملونة بلونه ، مظلة بجوه محقة للغرض الذي يتجه إليه موضوع السورة الرئيس من البدء للختام .

٢ - مقاصد السورة ومزاياها :

مهدت سورة الأعراف لمقاصدها ببيان عظمة الكتاب ، وجلال هدايته وقوة حجته في توضيح الدعوة وإنذار المخالفين بها .

ثم تناولت أهداف الدعوة في مكة ، وهي تقرير رسالة الإسلام وبيان أصول هذه الدعوة : توحيد الله في العبادة والتشريع ، وتقدير البعث والجزاء ، وتقدير الوحي والرسالة بوجه عام ، وتقدير رسالة محمد ﷺ بوجه خاص ، وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية .

وقد سلكت السورة في طريقة عرض هذه الحقائق أسلوبين بارزين أحدهما : أسلوب التذكير بالنعم والآخر : أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فنراه واضحاً في لفتها أنظار الناس إلى ما يلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم في الأرض ونعمة خلقهم وتصويرهم في أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما في هذا الكون من خيرات سخرها الله له .

أما أسلوب الإنذار والتخويف فهو ظاهر في جو السورة ، وفي قصص الأنبياء فيها وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساق لنا السورة ما دار بين الأنبياء وأقوامهم ، وسجلت السورة جزاء المكذبين بأمر الله الخارجين على دعوة رسله وهدايتهم ، وهي ظاهرة تكررت الإشارة إليها في سور القرآن المكي : تحذيراً لأهل مكة أن يصيبهم ما أصاب الأمم من قبلهم .

٣ - عرض إجمالي لأجزاء السورة :

سورة الأعراف أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم وهي أطول سورة في المكي ، وهي أول سورة عرضت ؛ لتفصيل في قصص الأنبياء مع أممهم ، وقد نزلت بين جملتين من السور المكية : يكثر في الجملة التي نزلت قبلها السور القصيرة ، التي تعرف بسور «المفصل»^(٢١) . ويكثر في الجملة التي نزلت بعدها السور المتوسطة التي تعرف بسور «المئين»^(٢٢) .

وتطالعنا سورة الأعراف بالحديث عن عظمة القرآن . وتأمراً باتباعه وتحذراً من مخالفته . وتحثنا على العمل الذي نتقل به موازيننا يوم القيامة^(٢٣) في بداية تعد براعة استهلال أو عنوان لما تشمل عليه السورة . وهي سمة غالبية في سور القرآن حيث نجد الآيات الأولى منها عنواناً معبراً عن أهدافها وسماتها .

وفي أول سورة الأعراف يقول سبحانه :

الْمَصّ • كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنَادِيَ بِهِ وَدِّعْ لِّلْمُؤْمِنِينَ • اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . (الأعراف : ١ - ٣) .

ثم ساق لنا السورة بأسلوب منطقي بليغ قصة آدم مع إبليس . وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة . فلما أكل منها هو وزوجته .

بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ . (الأعراف : ٢٢) .

ثم وجهت إلى بني آدم نداء في أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان .

قال تعالى : يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ اتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ... (الأعراف : ٢٧) .

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، وتخبرنا بأن الله - تعالى - قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا ، وتبشرنا بحسن العقابة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسل الله ، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تغف بين يدي الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى : كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا قَاتِلِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٢٨ ، ٣٩) .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الأعراف : ٤٢)

وفى أواخر هذا الربع وفى أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التى تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وتحكى لنا ما يحصل بينهم من نداءات ومجادلات ، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل :

أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ .

فيجيبهم أصحاب الجنة :

إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (الأعراف : ٥٠ ، ٥١) .

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه ، وتدعونا إلى شكره عليها : لكى يزيدنا من فضله .

وفى الربع الرابع منها وفى أواخر الثالث تحدثنا عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصة لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه . ولقد ساقنا لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات ما يهدى القلوب ، ويشفى الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

أما فى الربع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله فى خلقه ، ومن مظاهر هذه السنن أنه - سبحانه - لا يعاقب قومًا إلا بعد الابتلاء والاختبار ، وأن الناس لو آمنوا وانتقوا : لفتح - سبحانه - عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى: بَلِّغْ الْقُرْآنَ نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ . (الأعراف: ١٠١، ١٠٢).

ثم عقيبت على ذلك ببيان أن الله تعالى قد ساق قصص السابقين ؛ للعتة والاعتبار .

ثم أسهبت السورة فى الحديث عن قصة موسى - عليه السلام - فقصت علينا فى زهاء سبعين آية - استغرقت الربع السادس والسابع والثامن - ما دار بينه وبين فرعون من محاولات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة :

أَمَّا رَبٌّ رَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبُّ مُوسَى وَهَارُونَ . (الأعراف: ١٢١، ١٢٢) .

ثم حكى لنا ما لقيه موسى من قومه بنى إسرائيل من تكذيب وجهالات ، مما يدل على أصلاتهم فى التمرد والعصيان ، وعراققتهم فى الكفر والطغيان .

وفى الربع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذى أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم حدثتنا على التفكير والتدبير فى ملكوت السماوات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لا يعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً . أما فى الربع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وأنكرت على المشركين شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم :

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . (الأعراف: ١٩٩) .

وأمرتهم بأن يكثرُوا من التضرع والدعاء :

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَذُنُوبَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ . (الأعراف: ٢٠٥، ٢٠٦) .

٤ - قصة آدم :

ذكرت قصة آدم فى سورة البقرة ثم أكملت سورة الأعراف حلقات هذه القصة . وذكرت أن الله خلق آدم وأمر الملائكة بالسجود له ؛ إظهاراً لفضله وتنويعاً بما يكون له من شأن بعد أن سألوا عن الحكمة فى خلقه وقد ركبت فيه الشهوة والغضب وبهما يفسد فى الأرض ويسفك الدماء .

وذكرت السورة موقف إبليس وإبائه السجود والامتثال لأمر الله ، كما ذكرت قصة تأثر آدم بوسوسة الشيطان ، وإغرائه إياه بالأكل من الشجرة وكيف كانت عاقبة آدم في الهبوط من الراحة والأطمئنان إلى الكد والتعب ، وإلى مكافحة عوامل الشر التي بنيت الحياة عليها وعلى ما يقابلها من عوامل الخير ، ومطالبة الإنسان بأن يقف مع جانب العقل والرسالة الإلهية اللذين يشدان أزره في التغلب على عوامل الشر .

لقد كان آدم في نعيم الجنة يتمتع بما فيها من كل ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين ويتنقل بين أشجارها ويتقيأ ظلالتها ويتفكه بشمارها ويرتوى من عذب مياهها ، وشاركته زوجته هذه المتعة ولكن الشيطان أغراهما بالأكل من الشجرة وأقسم لهما بأنه من الناصحين ، فلما أطاعا الشيطان وأكلا من الشجرة سلب الله عنهما نعمته وحرهما جنته :

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلُّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . (الأعراف: ٢٢) .

وقد ندم آدم وحواء أشد الندم وتابا إلى الله توبة نصوحاً فتاب الله عليهما وأمرهما أن يهبطا إلى الأرض ؛ ليكدحا ويعملا فتمتع الأرض وتنتشر الحياة في جنباتها . وقد حذر الله آدم وذريته من الشيطان وإغرائه ، وبين سبحانه أن على المؤمن أن يلجأ إلى ربه وأن يستعين بهداه وألا يخلد إلى الهوى وألا يياس من رحمة الله ؛ فقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه حتى يتوب إليه التائبون ويلجأ إليه المؤمنون . فكل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

والمؤمن يتسامى بغرائزه وينتصر على شهواته وينهى نفسه عن الهوى ويحملها على طريق الفلاح والاستقامة .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (الشمس: ٧ - ١٠)

٥ - نعمة الثياب والزينة :

تحدثت سورة الأعراف عن نعم الله تعالى على بنى آدم ، ومن هذه النعم نعمة الملابس الذي يستر الناس به عورتهم ، ويحملون به أنفسهم هيا الله لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغلز والنسيج والخيطة . ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله في الانتفاع بتلك النعمة ، واستخدامها في طاعة الله وشكره . وبذلك تستر الثياب العورة ، وتكون مصدر نعمة لا نعمة .

قال تعالى : يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ عَآيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . (الأعراف: ٣٦) .

وفى هذا تنبيه إلى أن الحضارة الحقة ليست فى كشف المفاتن ولا فى إظهار العورات وإنما الحضارة الحقة فى السير على سنة الله وهدى رسله وتعاليم أنبيائه .

توسط الإسلام فى شأن الزينة :

من الآيات المشهورة قوله تعالى :

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . (الأعراف : ٣١) .

ومن هذه الآية نلمح سماحة الإسلام ويسره فهو يأمر بالنظافة ويدعو إلى التجميل والتزين ويحث على التمتع بالطيبات . وفى الحديث الشريف يقول النبى ﷺ :

«إن الله نظيف يحب النظافة جميل يحب الجمال ، طيب يحب الطيبين» .

وقد جاء الإسلام دينًا وسطًا فقد نهى عن التبذير والإسراف وحذر من الشح والبخل وأمر بالقصد والاعتدال قال تعالى :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . (الأعراف : ٣٢) .

فهو سبحانه خلق الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه وفضله على كثير من المخلوقات وسخر له الكون بما فيه من سماء مرفوعة وأرض مبسوطة وجبال راسية وبحار جارية وليل مظلم ونهار مضى وأمره أن يستمتع بالطيبات وأن يبتعد عن المحرمات فهناك حدود بينها الله ؛ فالحلال بين والحرام بين وظاهر ، وبينهما أمور مشتبها فيها شبهة وإثم فمن ابتعد عن الشبهات ؛ فقد سلم عرضه ودينه ومن وقع فى الشبهات ؛ كانت طريقا إلى الحرام ، كراع يرمى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . وصدق الله العظيم :

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ . (الأعراف : ٣٣) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ
دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ
وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعَثُ مَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴿

المفردات :

حرج : ضيق . يقال : حرج المكان ، أو الصدر يخرج حرجًا ، ضاق ، وهو كقوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ
مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . (هود : ١٢) . والحرج أيضا : شدة الضيق .

لتنذر به : الإنذار الإخبار مع تخويف العاقبة .

وذكرى : أى : وتذكير .

أولياء : أعوان ونصراء جمع ولى .

كس : اسم يفيد التكثير .

والقرية تطلق على الموضع الذى يجتمع فيه الناس وعلى الناس معًا . وتطلق على كل منهما كما

جاء فى قوله تعالى واسأل القرية أى : أهل القرية .

بأسنا : عذابنا ، بيانا مصدر وقع الحال معناه : بائتين والبيات : الإغارة على العدو ليلاً والإيقاع به على
غرة .

قائلون : نائمون في وسط النهار ، والقائلة : الظهيرة والنوم في الظهيرة .

دعواهم : الدعوى : ما يدعيه الإنسان وتطلق على القول أيضاً .

الذين أرسل إليهم : هم المرسل إليهم أى : الأمم المرسلين : هم الرسل .

فلنقصن : فلنحكين يقال : قص الخبر يقصه قصاً : حكاه .

والوزن يومئذ الحق : أى : الوزن الحق أى : الصحيح يكون يومئذ .

تمهيد :

آلَمَص .

هذه فواتح لبعض السور القرآنية ، وقد افتتح الله تعالى بعض السور بالنداء مثل : (يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ)

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ) (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ) ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ..) .

وبعض السور بدئت بالقسم ، مثل : (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ..) (وَالنَّجْمِ وَالزَّيْتُونِ

وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ..) .

(وَاللَّارِبَاتِ ذُرًّا ..) ومثل : (وَالصَّافَاتِ صَفًّا ..) (والطور) ، (والنجم) ، (والفجر) ، (والليل) ، (والعاديات) ،

(والعصر) وبعض السور بدئت بالثناء وإثبات الحمد لله .

كما في سورة الفاتحة ، (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وكما في سورة الأنعام : الحمد لله الذى خلق السماوات

والأرض وجعل الظلمات والنور وكما في سورة الكهف (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ..) .

حروف المعجم :

افتتح الله تعالى بعض السور القرآنية بالحروف المقطعة وهى حروف المعجم .

فبعض السور بدأ بحرف واحد مثل ت ، ق ، ص .

وبعض السور بدأ بحرفين مثل ح م ، ط ه ، يس .

وبعض السور بدأ بثلاثة أحرف مثل الم ، ط س م ، الر .

وبعض السور بدأ بأربعة أحرف مثل الم ص ، الم ر .

وبعض السور بدأ بخمسة أحرف مثل : ح م ع س ق ، كهتص .

وليس لهذه الأحرف معانٍ مستقلة في اللغة العربية فهي لا تكون جملة مفيدة مستقلة .

وقد تكلم العلماء عن معانيها في كتاب الله تعالى ، وأشهر آراء العلماء تنقسم إلى قسمين .

القسم الأول : هي حروف استأثر الله تعالى بمعرفة معناها .

القسم الثاني : هي حروف لها معنى وتعددت آراء العلماء في تحديد هذا المعنى .

فمنهم من قال : هي أسماء للسورة ، ومنهم من قال : هي حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

ومنهم من قال هي دليل على انتهاء سورة وبداية أخرى ، ومنهم من قال : حروف للتحدي والإعجاز وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع أنه مكون من حروف عربية يتخاطبون بها ، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر وإنما هو تنزيل من حكيم حميد وأصحاب هذا الرأي يرون أن الحروف المقطعة في فواتح السور مجموعها - بعد حذف المكرر منها - هو ١٤ حرفاً ، ومجموع حروف المعجم في اللغة العربية هو ٢٨ حرفاً . فكان الحق سبحانه يقول : لقد جعلت من نصف الحروف فواتح للسور في هذا الكتاب ، وتركت لكم النصف الثاني ؛ لتصنعوا منه كتاباً مثله إن استطعتم .

ولاحظ أصحاب هذا الرأي أن فواتح السور حوت من كل جنس من الحروف نصفه ، فقد حوت نصف الحروف المهموسة ، ونصف الحروف المجهورة ، ونصف الشديدة ، ونصف الرخوة ، ونصف المطبقة ، ونصف المنفتحة ، وهو لون آخر من ألوان الإعجاز لهذا الكتاب الكريم .

رجوع إلى القرآن الكريم :

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم ، وتتبعنا هذه السور الكريمة ، التي بدئت بحروف الهجاء ؛ رأينا أنها في الأعم تحدثت عن نزول القرآن الكريم وإعجازه ، فدل ذلك على أن هذه الحروف قد ذكرت في بداية هذه السور؛ إشارة إلى التحدي والإعجاز .

اقرأ إن شئت : آلم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ . البقرة .

آلم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ... آل عمران .

آلمص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ... الأعراف .

آلر تلك آيات الكتاب الحكيم . يونس .

آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . هود .

أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . يوسف .

أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ . الرعد .

أَلَمْ يَكُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... إبراهيم .

أَلَمْ تَلِكْ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ . الحجر .

طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . طه .

طسم * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . الشعراء .

طسم * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . القصص .

طس تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . النمل .

السم * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . لقمان .

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . ص .

حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غافر .

حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . فصلت .

حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . الزخرف .

حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . الدخان .

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . ق .

أسباب النزول :

وإذا نظرنا إلى الأسباب العامة لنزول هذه الآيات ، وإلى الجو الذي نزلت فيه رأينا أنها كلها سور مكية، ما عدا البقرة وآل عمران وكلها نزلت تجادل كفار مكة وتصرفهم عن عبادهم ، وتأخذ بأيديهم . وألبابهم إلى مواطن الإعجاز فى هذا الكتاب الخالد الذى أنزله الله على نبيه : هداية لهم ونوراً لحياتهم ونظاما لسلوكهم ، ولكنهم صموا آذانهم عن سماعه وقالوا : أساطير الأولين ، وادعوا أنه حديث مفترى ، وأنهم لو شاءوا لقالوا مثله ، إلى غير ذلك مما كانوا يحاولون به صرف الناس عن القرآن والصد عنه ، فبدئت هذه السور بهذا الأسلوب ؛ تأثيرا فى قلوبهم ولفظا لأنظارهم . ولا يخفى أن المفاجأة بالغريب الذى لم يؤلف لها فى إرهاف الأسماع وتنبيه الأذهان ما لا يحتاج إلى بيان .

سر الإعجاز ،

ولا يبعد أن يكون الإعجاز فى هذه الأحرف هو اشتمالها على جميع الوجوه التى ذكرها العلماء فى معانيها. فهى بداية للسور ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى لون من التنبيه الذى يقرع الأذهان ويلفت الغافلين .

وهى مما أقسم الله به ؛ لبيان شرف القرآن وفضله .

وهى مما استأثر الله بحقيقة المراد منه ، فكل ما ذكره العلماء اجتهد محمود ؛ لإدراك أسرارها أو حكمة الابتداء بها .

ولا يزال الله يتفضل على عباده صباح مساء بفهم كتابه واستنباط معانيه ، سئل الإمام على رضى الله عنه : هل خصم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال : لا إلا فهما يعطيه الله لرجل فى القرآن .

وصدق الله العظيم : قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَابًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَقْدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (الكهف : ١٠٩) .

التفسير :

١ - اَلْمَصِّ .

هذه الأحرف بداية لسورة الأعراف ، وهى مما استأثر الله تعالى بعلمه .

ويجوز أن تكون بداية للسورة ، بمثابة الجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

أو هى حروف للتحدى والإعجاز ، أو هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، أو هى اسم خاص بسورة الأعراف والله تعالى أعلم .

٢ - كِتَابُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ... الْآيَةِ .

أى : هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية الثقلين ، فبلغ تعاليمه للناس ، ولا تحزن أو تَصْغُرْ إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنك ، فما عليك إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

ولقد كان ﷺ يتألم ويحزن ؛ لانصراف قومه عن هداية الله رغم وضوحها وبيانها ، وكان القرآن الكريم يواسيه ويحثه على الصبر والتسلي ، وعدم الحزن ، كما فى قوله تعالى : لَعَلَّكَ بَاغِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٣) .

وكما فى قوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . (الحجر : ٩٧) .

وكما فى قوله سبحانه : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ... (البقرة : ٢٧٢) .

وكما فى قوله تعالى : إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ... (الشورى : ٤٨) .

وقريب من ذلك قوله سبحانه : فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (المائدة : ٢٦) .

وقوله تعالى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . (فاطر : ٨) .

وقد فسر بعض العلماء الحرج بالشك وهو معنى مجازى للحرج ، أى : لا يكن فى صدرك شك ولا لبس فى كون هذا القرآن كتاب الله .

قال الألوسى :

قوله تعالى : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ . أى : شك ، وأصله : الضيق واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم ، فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر ، كما أن المتيقن يعتريه انشراحه وانفساحه .
يُنْذِرُ بِهِ .

أى : لتنذر به قومك وسائر الناس .

وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : لتذكر به أهل الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ؛ لأنهم هم المستعدون لذلك ، وهم المنتفعون بإرشادك ، فالكتاب يذكرهم أنا بعد أن برّبهم ، وما يحق له من الطاعة .

قال تعالى : وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . (الذاريات : ٥٥) .

وقال تعالى : تَبَصَّرْهُ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ . (ق : ٨) .

وقال تعالى : إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ . (الزمر : ٩) .

٣ - اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ...

أى : اتبعوا القرآن العظيم ، والسنة النبوية معه ؛ لأنها تبيّنه وتفسّره فقد قال تعالى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ... (الحشر : ٧) .

والآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين .

قال د . محمد سيد طنطاوى :

أى : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأطُّوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وامتلئوا وأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لأن الذى أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم ، الذى هو خالقكم ومربيكم ومدير أموركم ، والعليم بما فيه مصلحتكم .

وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ .

أى : أفرّدوا الله بالألوهية ، ولا تتجاوزونه إلى الشركاء والرؤساء فيما يحلّونه ويحرّمونه .

قال أبو السعود : وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ ... أى : من دون ربكم الذى أنزل إليكم ما يهديكم إلى الحق .

أُولِيَاءَ . من الجن والإنس بأنّ تقبلوا منهم ما يلقونه إليكم بطريق الوسوسة والإغواء من الأباطيل ؛ ليضلّوكم عن الحق . ويحملوكم على البدع والأهواء الزائفة .

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .

أى : تذكروا قليلاً ما تتذكرون .

قال أبو السعود : وقرئ يتذكرون على صيغة الغيبة ، وَقَلِيلًا منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف ، ومأ مزيده ؛ لتأكيد القلة .

أى : تذكروا قليلاً ، أو زماناً قليلاً تتذكرون لا كثيراً ، حيث لا تتأثرون بذلك ، ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دين الله تعالى وتتبعون غيره ، ويجوز أن يراد بالقلة : العدم ، كما قيل فى قوله تعالى : قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ .

والجملة : قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . اعتراض تذيلى مسوق ؛ لتقبيح حال المخاطبين .

وقال الشوكانى : قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ أى : إن البشر يتذكرون الحق فى شأن الإيمان قليلاً ، وينسون ذلك أو يجهلونه كثيراً .

٤ - وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ .

قال أبو السعود :

هذا شروع فى إنذارهم بما جرى على الأمم الماضية بسبب إعراضهم عن دين الله تعالى ، وإصرارهم على اتباع دين آبائهم .

والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل ، كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم شعيب .

قال الشوكاني فى فتح القدير : أَوْ هُمْ قَاتِلُونَ والقيلولة : هى نوم نصف النهار ، وقيل : هى مجرد الاستراحة فى ذلك الوقت ؛ لشدة الحر من دون نوم ، وخصم الوقتين ؛ لأنهما وقت السكون والدعة .
فمضى العذاب فيهما أشد وأفظع .

وقال د. طنطاوى :

ومن العبر التى تؤخذ من هذه الآية أن العاقل هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يأمن صفو الليالى ، ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء : فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

٥ - فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسَآءٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

أى : فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم ، إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه ، وشهادتهم ببطلانه ؛ تحسراً عليه . وندامة ، وطمعاً فى الخلاص وهيهات ولات حين نجاة .

٦ - فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ .

والمعنى : فلنسالن المرسل إليهم عما أجابوا به رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم .

وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ عما أجيبوا من قومهم ، وعن تبليغهم لرسالات الله .

وسؤال المكذبين للرسل ؛ للتوبيخ والتفريع للمكذبين بهم ، وفيه بيان لعذابهم الأخرى بعد عذابهم الدنيوى .

وسؤال الرسل ؛ لتكريمهم وإظهار شرف عملهم ، وتبرئة ساحتهم حيث يقول بعض المشركين : مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ... (المائدة : ١٩) .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ . أى : الأنبياء الذين بعثهم الله ، نسألهم عما أجاب به أمهم عليهم ، ومن أطاع منهم ومن عصى ، وكل ذلك ؛ ليكون معلوماً أننا ما ظلمنا أهل تلك القرى ، عندما أهلكناهم ، بل كانوا هم الظالمين بتكذيبهم للرسل . اهـ .

٧ - فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ .

أى : فلنقصن على الرسل والمرسل إليهم ، كل ما وقع منهن عن علم دقيق وإحصاء شامل ؛ لأننا لا يغيب عنا شئ من أحوالهم .

قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوْا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . (المائدة : ١٠٩) .

والحق سبحانه وتعالى هنا يعرض الغائب حاضراً ، ويستعرض القيامة وأحوالها وأحوالها ؛ ليضع الإنسان أمام نفسه ، تبصرة وتذكرة ، وهذه من ألوان تعريف القول في القرآن الكريم فهو حينئذ يعرض أخبار الأمم الماضية وأحوالها ، وهو حينئذ يعرض مظاهر الكون ويدبغ صنع الله فى الخلق ، وهو حينئذ آخر يستعرض القيامة والبعث والحشر والسؤال والصراف والميزان ، حتى يشاهد الإنسان بعينيه فى الدنيا مشاهد القيامة كأنها بين يديه ؛ ليزداد عظة وعبرة .

يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر فى تفسير العشرة أجزاء الأولى للقرآن الكريم :

والذى يهمنى هنا أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تنبئ وتنبذ ، فليس فى السائل مظنة أن جهل ، ولا فى المسئول مظنة أن ينكر ؛ وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها ، وأعرض عنها فى الوقت الذى كان يجد به الإقبال عليها والإيمان بها ، وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال فى النجاة ، بوضع يد المجرم على جسم جريمته ، وهو فى الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسل فى القيام بدعوتهم ، وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله تعالى : فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ .

٨ - وَالْوَزْنُ يَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : توزن أعمال العباد يوم القيامة بالميزان وزناً حقيقياً طبقاً للعدل الذى لا ظلم فيه .

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . أى : رجحت أعماله الصالحة الموزونة .

فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى : الفائزون بالنجاة والثواب .

٩ - وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ .

أى : ومن خفت موازين أعماله ، أو أعماله التى لا وزن لها ولا اعتداد بها ، وهى أعماله السيئة .

فأولئك الذين خسروا أنفسهم ، بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب ، فلم يعاملوا آيات الله بما تستحق من تعظيم ، فكذبوا بها وظلموا الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

وقد اختلف العلماء في كيفية الوزن :

فقال بعضهم : إن التي توزن في صحائف الأعمال ، التي كتبت فيها الحسنات والسيئات ؛ تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة وقطعاً للمعذرة .

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السيئ ، والعدل التام في تقدير ما يمكن به الجزء من الأعمال ، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول هذا الكلام في وزن هذا وفي وزانه ، أى : يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

من كلام المفسرين

جاء في تفسير أبي السعود ما يأتي :-

«والجمهور على أن صحائف الأعمال هي التي توزن بميزان له لسان وكفتان ينظر إليه الخلائق ؛ إظهاراً للمعادلة وقطعاً للمعذرة ، كما يسألهم عن أعمالهم ، فتعترف بها ألسنتهم وجوارحهم ، ويشهد عليهم الأنبياء والملائكة والأشهاد ، وكما يثبت في صحائفهم ، فيقرءونها في موقف الحساب ، ويؤيده ما روى أن الرجل يؤتى به إلى الميزان فينشر له تسعة وتسعون سجلاً مد البصر ، فيخرج له بطاقة فيها كلمتا الشهادة ، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فتطيش السجلات وتثقل البطاقة .

وقيل : يوزن الأشخاص ؛ لما روى عنه عليه الصلاة والسلام : «إنه ليأتى العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» (٢٨).

وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السيئ والحكم العادل ، وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين : بناء على استعمال لفظ الوزن في هذا المعنى شائع في اللغة والعرف بطريق الكناية . وروى عن ابن عباس أنه يؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة ، وبالأعمال السيئة على صور قبيحة .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين ما يأتي :

فإن قلت : أليس الله تعالى يعلم مقادير أعمال العباد فما الحكمة في وزنها ؟

قلت : فيه حكم : منها : إظهار العدل ، وأن الله تعالى لا يظلم عباده ، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا وإقامة الحجة عليهم في العقبى ، ومنها : تعريف العباد بما لهم من خير أو شر ، وحسنة أو

سيئة ، ومنها : إظهار علامة السعادة والشقاوة ، ونظيره أن الله سبحانه أثبت أعمال العباد في اللوح المحفوظ ، وفي صحائف الحفظة الموكلين ببني آدم ، من غير جواز النسيان عليه . ا هـ .

والذى علينا هو الإيمان بأن في الآخرة وزناً للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء ، وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم ، أما كيفية هذا الوزن وهل هو وزن للأعمال ، أو للأشخاص فمرده إلى الله ، الذى يعلم النوايا ومقدار الإخلاص والتجرد وهو نعم الحاسب المكافئ القائل فى كتابه :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وهو سبحانه القائل : وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . (النساء : ٦) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝ ﴾

المفردات :

ولقد مكناكم فى الأرض : أى : مكناكم من سكنها ، وزرعها ، والتصرف فيها .

ولقد خلقناكم ثم صورناكم : أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبداع تصوير ، بأحسن تقويم سرى إليكم .

التفسير :

١٠ - وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

هذه الآية فيها بيان لنعم الله على بنى آدم : استمالة لقلوبهم إلى الإيمان بالله الخالق الرازق .

والمعنى : ولقد جعلنا لكم فى الأرض مكاناً وقراراً ، وهياناً لكم فيها أسباب المعيش ، وأنشأنا لكم فيها أنواعاً شتى من المطاعم والمشارب التى تعيشون بها عيشة راضية ، ولكن كثيراً منكم لم يقابلوا هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجدود والكفران ! .

١١ - وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

أى : ولقد خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك وأنتم بالتبع ، وقيل : المعنى : ولقد خلقنا الأرواح أولاً ، ثم صورنا الأشباح .

جاء فى تفسير أبى السعود : وفى هذه الآية تذكير لنعمة عظيمة فائقة على آدم عليه السلام سارية إلى ذريته لشكرهم كافة . بالرمز إلى أن لهم حظاً من خلقه وتصويره ، إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه مصنوع على شاكلته .

أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير وأحسن تقويم سار إليكم جميعاً^(٣٩) .

ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

أى : أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجد تعظيم وخضوع وتحية ، لا عبادة فامتثلوا الأمر ، وفعلوا السجود بعد الأمر ، من غير تلثم أو تباطؤ .

إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

أى : لكن إبليس لم يسجد وأبى السجود ؛ تكبراً .

هل كان إبليس من الملائكة ؟

للعلماء فى ذلك رأيان :

أحدهما : أنه كان منهم ، أو مقيماً معهم فنسب إليهم .

جاء فى تفسير أبى السعود : لما أنه كان جنياً مغروراً بألوف من الملائكة مُتَّصِفاً بصفاتهم فغلبوا عليه فى فسْجُدُوا ثم استثنى استثناء واحد منهم ، أو لأن من الملائكة جنساً يتوالدون يقال لهم : الجن^(٤٠) .

الرأى الثانى : أن إبليس ليس من الملائكة . لقوله تعالى :

إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . (الكهف : ٥٠) فهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنسان ، ولأنه خلق من نار والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

﴿ قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿ (١٣)

المفردات :

ما مَنَّكَ ألا تسجد : ما ألزَمَكَ واضطرك إلى ألا تسجد ، فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

فاهْبِطْ : أى : فانزل ، والهبوط : الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه ، أو من منزلة إلى ما دونها ، فهو إما حسى وإما معنوى .

أَنْ تَتَكَبَّرَ : التكبر : جعل الإنسان نفسه أكبر مما هى عليه .

مِنَ الصَّاغِرِينَ : أى : من الأذلاء المحقرين ، وهو جمع صاغر .

التفسير :

١٢ - قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدُ ... الآية .

أى : قال الله تعالى لإبليس : ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد ؟!

والسؤال لإقامة الحجة ، وللتقريع والتوبيخ ، وإلا فهو سبحانه عالم بذلك .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . أى : قال إبليس أنا خير من آدم ؛ لأننى مخلوق من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين والأشرف لا يليق به الانقياد لمن هو دونه ، والأعلى لا يليق به السجود للأدنى .

ولقد أورد المفسرون هنا كلاماً لطيفاً يفيد أن عدو الله قد أخطأ فى زعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين .

فإن الطين من شأنه الرزانة والأنانة والتثنت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة .

ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله .

جاء في تفسير أبي السعود :

ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وزلَّ عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى : مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيْدَيْ . أى : بغير واسطة على وجه الاعتناء به .

وما من جهة الصورة كما نبّه عليه بقوله تعالى : وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي .

وما من جهة الغاية وهو ملاك الأمر فهو مؤهل للخلافة فى الأرض ، وله خواص ليست لغيره ^(٣١) .

وجاء فى تفسير ابن كثير :

وقول إبليس : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ... إلخ من العذر الذى هو أكبر من الذنب : إذ بين بأنه خير من آدم : لأنه خلق من النار وأدم خلق من الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه .

وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص ، وهو قوله تعالى : فَطَعَوْا لَهُ سَاجِدِينَ .

فشذَّ من بين الملائكة : لترك السجود فأبعده الله عن رحمته .

وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت :

قال رسول الله ﷺ : «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ» ^(٣٢) .

١٣ - قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ .

أى : اهبط فى السماء التى هى محل المطيعين من الملائكة ، الذين لا يعصون الله فيما أمرهم ، إلى الأرض التى هى مقر من يعصى ويطيع .

أو اهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتي ، وقيل : إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع فى الأرض ، خلق فيها آدم .

فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا . فإن السماء أو إن الجنة لا تصلح لمن يستكبر ، ويعصى أمر ربه مثلك .

فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . أى : اخرج من الجنة : فأنت من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه : لتكبرك وغرورك .

وكل من تدبى برداء الاستكبار : عوقب بلبس رداء الهوان والصغار ، ومن لبس رداء التواضع : رفع الله قدره .

قال تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ... (الأنفال : ٥٣) .

وجاء في تفسير القرآني للقرآن :

«الضمير في مِنْهَا يعود إلى المنزلة التي كان فيها إبليس قبل هذه المعصية والهبوط هنا : هبوط معنوي.

والمعنى : اخرج أيها الشيطان المريد من هذه النعمة التي خولتك إياها ورفعت بها منزلتك ، حتى اتخذت منها حجة على هذا العصيان لأمرى ، فتأبى أن تسجد لمن دعوتك إلى السجود له ... فما يكون لك أن تتكبر في هذه النعمة ، وتختال بها ... وما أنت ذا قد أصبحت من الصاغرين ، قد نزع عنك ما كنت تدعيه لنفسك من منزلة تعاليت بها على هذا المخلوق الأدنى ، الذي خلق من طين ...» (٣٢) .

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۖ ﴾ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۖ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَا تَعْدُنَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۖ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُورًا لَّمْنٍ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴾ (١٨)

المضردات ،

أنظرنسى : أمهلنى ، يقال : أنظره إنظاراً : أمهله .

المنظرين : الممهلين المؤخرين .

أغويتنسى : أى أضللتنى وأوقعتنى فى الغواية ، وهى ضد الرشاد .

مذموماً : مذموماً يقال : ذأمه يذأمه ذأماً أى : ذمّه وحقره وطرده وعابه .

مذموراً : أى : مطروداً يقال : دحره يدحره دحراً ، طرده ودحر الجند العدو أى : طرده وأبعده .

لن تبعك منهم : اللام مواطنة للقسم ، وجوابه : لأملأن جهنم .

التفسير :

١٤ - قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ .

أى : قال إبليس لله تعالى : أمهلنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة

الثانية عند قيام الساعة .

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. (الزمر: ٦٨).

وكان إبليس قد طلب ألا يموت أبداً: لأن يوم البعث لا موت بعده، كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الإغواء لبني آدم.

١٥ - قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ.

أى: إنك من الممهلين، لا إلى يوم البعث ولكن إلى يوم الصعق، قيل: الحكمة فى إنظاره: ابتلاء العباد: ليعرف من يطيعه ممن يعصيه.

جاء فى تفسير أبى السعود: «أى: إنك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلاً حسبما تقتضيه الحكمة التكوينية، إلى وقت فناء غير ما استثناه الله تعالى من الخلائق، وهو النفخة الأولى، لا إلى وقت البعث الذى هو المستول»^(٣١).

وقال ابن كثير: أجابه الله تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة، التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

١٦ - قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ.

أى: فبسبب إضلالك إياى - حتى تركت السجود لآدم، فعاقبتنى العقوبة المهلكة - لأترصدن لآدم وذريته على طريق الحق وسبيل النجاة، كما يترصد قطاع الطرق السائرين فيها، فأصدنهم عنها، وأحاول بكل السبل إغراءهم، وصرفهم عن صراطك المستقيم، حتى يفسدوا بسببى كما فسدت بسببهم، ولن أتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم.

١٧ - ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَخَلْفَهُمْ وَهُمْ مُتَسَاهِمُونَ وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ.

أى: سوف أتبعهم من كل الجهات، محاولاً إغواءهم عن صراطك المستقيم (وهو طريق الجنة) بكل وسيلة أقدر عليها.

وقد ذكر الجهات الأربع الأصلية التى اعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها، وترك جهة الفوق: لأن الرحمة تنزل من فوقهم.

وعن ابن عباس ^(٣٥) رضى الله عنهما : مَنْ بَيَّنْ أَيْدِيَهُمْ مِنْ قَبْلِ الْآخِرَةِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ جِهَةِ الدُّنْيَا وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ مِنْ جِهَةِ حَسَنَاتِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ مِنْ جِهَةِ سَيِّئَاتِهِمْ .

وقيل : مَنْ بَيَّنْ أَيْدِيَهُمْ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ وَيَقْدُرُونَ عَلَى التَّحْرِزِ .

وَمِنْ خَلْفِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَلَا يَقْدُرُونَ .

وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ مِنْ حَيْثُ يَتَيَسَّرُ لَهُمْ أَنْ يَعْلَمُوا وَيَتَحَرَّزُوا ، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ؛ لِعَدَمِ تَيْقِظِهِمْ وَاحْتِيَاطِهِمْ .

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُمْ ذَلِكَ .

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ .

أى : لَنْ تَجِدَ أَكْثَرَ الْبَشَرِ مُطِيعِينَ مُسْتَعْمِلِينَ لِقَوَاهِمِ وَجَوَارِحِهِمْ ، فِى طَرِيقِ الطَّاعَةِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ .

وإنما قال ذلك : ظَنًّا مِنْهُ بِتَأْثِيرِ وَسْوَستِهِ فِيهِمْ ، وَإِغْوَاثِهِ لَهُمْ ، وَرَغْبَتِهِ فِى إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَمَحَاوَلَةِ إِفْسَادِهَا .

قال تعالى : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . (سبا : ٢٠) .

وقد حذرنا القرآن من اتباع الشيطان فهو عدو مبين حريص على النجاح فى مهمته ، ومهمته إضلال الإنسان وغوايته .

وواجب الإنسان الحذر من إضلال الشيطان والانتصار عليه .

قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عبد الله ابن عمر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يُمسى يقول :

«اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عورتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى» . ^(٣٦)

١٨ - قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا مَذْذُورًا ... الآية .

أى : اخرج من السماء أو من الجنة مذموماً مطروداً .

لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .

فى هذا قسم وإنذار من الله تعالى لمن ترك طاعة الرحمن واتبع طريق الشيطان .

والمعنى : لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفارهم ، وقريب منه قوله تعالى : قَالَ أَذْهَبَ

فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ تَبِعَكَ وَمِنْهُمْ جَزَاءُ مَؤْلُومًا . (الإسراء : ٦٣)

★ ★ ★

﴿ وَيَتَكَاذِبُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ ١٩ ﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَيْتُكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠ ﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي
لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ٢١ ﴾ فَذَلَّهُمَا بِهِنَّ فَرُورًا فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا
مُخَصِّفًا عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ وَفَادَهُمَا رَبُّهُمَا الزَّأْنُكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقْلَلَ لَكُمَا
إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢ ﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ٢٣ ﴾ قَالَ أَهْطُوا بِعَضْكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى
حِينٍ ٢٤ ﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ٢٥ ﴾

المفردات :

فوسوس لهما ، ألقى إليهما الوسوسة : يقال : وسوس له وإليه ، وهى فى الأصل : الصوت الخفى المكرر .

ومنه قيل لصوت الحلى : وسوسة . وسوسة الشيطان للبشر : ما يجدونه فى أنفسهم من
الخواطر الرديئة التى تزين لهم ما يضرهم فى أبدانهم أو أرواحهم .

ليبدي لهما ، لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما ، وكأنها لا يريانها من
أنفسهما ولا أحدهما من الآخر .

ما ورى ، من الموارد وهى الستر .

سواتهمما ، السوءة : العورة وسميت العورة سوءة : لأن انكشافها يسوء صاحبها .

إلا أن تكونا ملكين ، أى : كراهة أن تكونا ملكين ، أو لئلا تكونا ملكين .

وقاسمهما ، أى : أقسم لهما وجاء على وزن المفاعلة للمبالغة .

هدلاهما بغرور ، أى : فأنزلهما إلى الأكل من الشجرة بما غرهما من دلى الشىء وأدلاه ، أى : أنزاه من أعلى إلى أسفل .

وطبقا ، أى : شرعا وأخذا .

يخصفان ، يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة من قولهم: خصف الاسكافى النعل، إذا وضع عليها مثلها.

التفسير :

١٩ - يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : وقلنا : يا آدم ، اسكن فى الجنة سكناً أصلياً ، وتسكن زوجتك معك سكناً تبعياً .

ولكما أن تأكلأ أكلا هنيئاً ، من جميع أشجار الجنة وثمارها .

إلا شجرة واحدة حددها الله وعينها ، ونهاهما عن الاقتراب منها بالأكل ، وبين أن الأكل منها ظلم وعدوان .

ويتعلق بتفسير هذه الآية أمور منها ما يأتى :

١ - الجنة : هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان ، يظل ما تحته ويستتره .

ومن هذه المادة الجن : لأنه مستور لا يرى ، والمجن : لأنه يستر المحارب ، والجنين : لأنه مستور عن العين ، والمجنون لأن عقله مستور محجوب ، وجن الظلام : ستر ما تحته .

٢ - جمهور أهل السنة على أن المراد بالجنة هنا : دار الثواب ، التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة : لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق .

٣ - جمهور علماء المعتزلة على أن المراد بالجنة هنا : بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله لإسكان آدم وزوجته .

٤ - ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدي في التأويلات إلى أن الأحوط والأسلم الكف عن تعيين المراد بالجنة وعن القطع به ، إذ ليس لهذه المسألة تأثير في العقيدة فيكفي أن يعلم المسلم أن الله أسكن آدم الجنة سواء أكان المراد بالجنة جنة الآخرة ، أم بستانا في هذه الدنيا .

٥ - قال تعالى : وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ والقرب : الدنو والاقتراب من الشجرة ، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة والنهي عن القرب هنا قصد منه المبالغة في النهي عن الأكل : إذ في النهي عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى ، ونلمح أن القرآن عندما تحدث عن أشياء محرمة ، ذكر ذلك بصيغة التحريم مثل : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ ... (المائدة : ٣) . أو بالنهي عنها مثل : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ... (الإسراء : ٣٣) .

لكن عندما يكون المنهى عنه مرغوباً للنفس ، تدفع إليه الشهوة والرغبة ؛ فإنه ينهى عن الاقتراب منه مثل : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... (الإسراء : ٣٤) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ... (النساء : ٤٣) .

وكقوله تعالى في هذه الآية وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ... لأن في هذه الأمور رغبة نفسية أو جسدية ، فنهى القرآن عن الاقتراب منها فضلاً عن فعلها ، بخلاف القتل مثلاً فلا تدفع إليه شهوة أو رغبة فقال سبحانه : وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ ... وكذلك أكل الميتة قال سبحانه : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ

٢٠ - فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَيْدَى لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ... الآية .

أى : ألغى إليهما إبليس بالوسوسة والإغراء والتزيين للأكل من الشجرة حتى يسوءهما بظهور ما كان مستوراً عنهما من عوراتهما .

فإنهما كانا لا يريان عورة أنفسهما ، ولا يراهما أحدهما من الآخر .

ثم قد قيل : إنما بدت عوراتهما لهما لا لغيرهما .

وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .

لقد حاول إبليس خداع آدم وحواء ، فأغواهما بالأكل من الشجرة ، وذكر لهما أنها منية النفس ، وأن الأكل منها طريق إلى الترقى من البشرية إلى الملائكية ، أو إلى الخلود فى الجنة والبقاء فيها بدون موت أو طرد أو حرمان .

٢١ - وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِِنَ النَّاصِحِينَ .

أى : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لمنفعتهما .

وفى قوله : وَقَاسَمَهُمَا إشارة إلى تنازع الأقسام بينه وبينهما ، وكأن فى سكوتهما عنه قسماً منهما باتهامه والحذر منه ، ولهذا صح أن تكون المقاسمة شركة بينهما وبينه .

وقيل : إنهما أقسما له بالقبول ، كما أقسم لهما على المناصحة ، أى : فصدقه آدم وحواء ، ولم يخطر ببالهما أنه كاذب مُضِلٌّ^(٣٧) .

٢٢ - فَلَدَاهُمَا يَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا ... الآية .

التدلية والإدلاء : إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه؛ ليشرب من مائه ، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء ، يكون مدلياً فيها بغرور .

والغرور : إظهار النصيح مع إبطان الغش ، وأصله من غررت فلاناً أى : أصبت غرته وغفلته ، وثلت منه ما أريد .

والمعنى : أن الشيطان أهبطهما بذلك من الرتبة العلية وهى رتبة الطاعة والكرامة ، بما خدعهما به من اليمين الكاذبة .

فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ...

أى : لما أكلتا من الشجرة التى نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتتهما العقوبة . وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما ، وظهرت لهما عوراتهما ، وشرعا يلزقان من ورق الجنة ، ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها .

وقوله تعالى : وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ... إشارة إلى موالاة الخصف من ورق الشجر .. والخصف : جمع الشيء إلى الشيء وخياطته به ، ومنه خصف النعل إذا جمعت بعضه إلى بعض بالصاق أو خياطة .

قال الشيخ حسين محمد مخلوف في صفوة البيان لعانى القرآن :

ولعل المعنى - والله أعلم - إنهما لما ذاقا الشجرة ، وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلّا، وخلعا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سوءة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما ، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة في الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستقرا بها ، ومالهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك ؛ فلما سمعا النداء الربانى بتقريعهما ولومهما ، ألهما أن يتوبيا إلى الله ، ويستغفرا من ذنبيهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم ، وقال لهما فقط ، أو لهما ولذريتهما ، أو لهما ولإبليس : اهبطوا من الجنة إلى الأرض ؛ لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته فى الأرض ، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى ، ومنازعة عدوهم لهم فيها، والله بالغ أمره ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ...

أى : ناداهما الله بطريق العتاب والتوبيخ ، حيث خالفا أمر الله فأكلا من الشجرة بعينها ، ولم يحذرا ما حذرهما منها ، فقال سبحانه لهما ، ألم أنهكما عن الأكل من هذه الشجرة ؟

وَأَقَلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ . أى : ألم أقل لكما : إن الشيطان لكما عدو ظاهر العداوة لا يفتّر عن إيدائكما وإيقاع الشر بكما .

جاء فى تفسير أبى السعود :

روى أنه تعالى قال لآدم : ألم يكن فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ، فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أن أحدا من خلقك يحلف بك كاذبا ، قال : فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ، ثم لا تنال العيش إلا كدأ ، فأهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث ، فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وعجن وخبز .

٢٣ - قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ... الآية .

اعترف آدم وحواء بالخطيأ ، والتمسا من ربهما الصفح والمغفرة ، فقالا : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا أَى : أضربناها بالمعصية والمخالفة .

وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

لقد اعترف آدم بخطئه ، وطلب من الله المغفرة والرحمة : حتى لا يصير من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة ، خلافا لإبليس الذى لم يعتذر عن معصيته ، ولم يستغفر ربه ، بل استكبر ، فهذا الإنسان من طبيعته الخطأ ، ولهذا كان أهلا لتحمل الأمانة ، فمن أفرادها من يحسن تحملها ، ومن أفرادها الظلوم الغشوم .

وقد سبقت حكمة الله وإرادته أن يوجد الإنسان فى هذه الأرض ومعها العقل والإرادة والاختيار ، فمن أطاع الله فله الجنة ، ومن عصاه فله النار ، ومن تاب إلى الله قبل الله توبته ، وقد قبل الله توبة آدم .

قال تعالى : وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ . (طه : ١٢١ ، ١٢٢) .

وقال ﷺ : «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» .

٢٤ - قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : انزلوا من الجنة إلى الأرض حالة كون العداوة لا تنفك بين آدم وذريته ، وبين إبليس وشيعته ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ . أى : موضع استقرار وإقامة ، وَمَتَاعٌ أى : تمتع ومعيشة إلى حين انقضاء آجالكم .

والخطاب فى اهْبِطُوا إما أن يكون لآدم وحواء وذريتهما . وإما أن يكون لهم ولإبليس أيضاً ، فإن عداوة إبليس لبنى آدم قد ذكرت مراراً فى القرآن الكريم وتكررت هنا فى سورة الأعراف .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

٢٥ - قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ .

إن ميدان الاختبار والابتلاء هو هذه الأرض وقد شاء الله أن يخرج آدم من الجنة ؛ ليكون ذلك سبباً فى إعمار الأرض .

وسيرتّب على ذلك الزراعة والتجارة والصناعة ، والتقدم والابتكار ، وسيرتّب على ذلك التنافس والتنازع ، سيدخل إبليس على الإنسان من ناحية ماله أو شهوته أو ولده ، فإذا انتصر الإنسان ؛ فهو من الناجين ، وإذا انهزم أمام إبليس وأطاعه ؛ فهو من الهالكين .

والحياة والمعاش على ظهر هذه الأرض ، ويعد الوفاة والموت يدفن الإنسان فى باطن الأرض ، ويعد البعث والحشر يخرج الإنسان من الأرض إلى الحشر كما قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . (طه : ٥٥) .

التفسير :

٢٦ - يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ بَنِيكُمْ ... الآية .

لما ذكر القرآن في آيات سابقة أن معصية آدم تسببت في ظهور عورته ، وخصف الورق عليها ، وكذلك حواء ، أتبع ذلك بذكر فضل الله على بنى آدم ، حيث ألهم الإنسان أن يزرع الأرض ، ويستنبط بعقله وفكره أسباب ستره ، ثم أسباب الزينة والرياش من الملابس الفاخرة ، ثم أنزل الله على الإنسان الكتب ، وأرسل له الرسل ؛ ليهديه إلى لباس التقوى والإيمان ، وكل ذلك من آيات الله وفضله على الإنسان ؛ حتى يتذكر الإنسان هذه النعم فيعترف لله تعالى بالشكر والعبادة .

قال الشوكاني في تفسيره فتح القدير :

تذكروا واعتبروا بما أنزل الله عليكم من مادة اللباس ، وذلك من الصوف والقطن والحري وما إليها ، وبما ألهمكم وخلق فيكم من الغرائز ؛ لمعرفة طرق استنباتها وصناعاتها بالغزل والنسيج والخياطة وسائر أنواع صناعة الملابس .

وقد امتن الله بها على بنى آدم ؛ ليستر عوراتهم التى أبدأها لهم إبليس .

وَرِيْشًا الْمُرَادُ بِالرِّيشِ هُنَا : لِبَاسُ الزَّيْنَةِ ، أَيْ : إِنْ الْمَلْبَاسَ الَّتِي أَلْهَمَ اللَّهُ بَنِي آدَمَ اتِّخَاذَهَا حِكْمَتَهَا السِّتْرَ وَالزَّيْنَةَ .

وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ . لِبَاسُ التَّقْوَى هُوَ لِبَاسُ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالْوَرَعِ وَاتَّقَاءِ مَعَاصِي اللَّهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْ اللَّهِ ، فَذَلِكَ خَيْرُ لِبَاسٍ وَأَجْمَلُ زِينَةٍ ، وَقِيلَ : هُوَ الدَّرْعُ وَالْمَغْفَرُ الَّذِي يَلْبَسُهُ مَنْ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(٣٦) .
ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ .

أى : ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .

٢٧ - لَا يَفْتِنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ ... الآية .

يستمر الدستور الإلهى فى توصية الإنسان وتنبيهه وتحذيره .

فهناك عداوة أبدية بين الإنسان والشيطان ، والعاقل يكون حذرًا من عدوه فالحرب خدعه ، والشيطان يجهز جيوشه وأعوانه ؛ لينتصر على الإنسان وذلك بتجميل المعاصى والشهوات .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن ج ٨ ص ٣٨٦ :

يحذر الله أبناء آدم من هذا العدو المبين المتريص بهم ؛ حتى يكونوا على يقظة دائمة من أباطيله وضلالاته ، التي يغريهم بها ، ويزينها لهم ؛ ليفتنهم في دينهم ، وليخرجهم من الإيمان بالله ، والاستقامة على طاعته إلى معصيته والتعدى على جرماته .

يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَآلِهِمَا ...

لقد حذر الله بنى آدم من الشيطان ؛ حتى لا يعيد معهم سيرته مع أبويهم ، اللذين أخرجهما من الجنة حال كونه نازعاً عنهما لباسهما ؛ ليريهما سوءاتهما .

وأسند القرآن النزاع إلى الشيطان ؛ لأنه كان متسبباً فيه .

قال الشوكاني :

أوقعهما في المعصية التي كانت عقوبتهما ظهور ما كان خافياً عنهما من السوءة .

وقد عبر القرآن بالمضارع هنا ؛ لإظهار صورة الأبرين عاريتين فى غاية الخجل والأسى ؛ حتى يحذر الإنسان هذه العاقبة .

إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ .

إن العدو إذا أتى من حيث لا يرى ؛ كان أشد وأخوف ، فالشيطان عدو خفى يرى الإنسان ، ويرصد حركاته وسكناته ، ويطلع منه على مواطن الضعف فينفذ إليه منها ، ومن هنا كان خطره داهماً ، وشره مستطيراً ، ومن هنا كانت حاجة الإنسان إلى اليقظة الدائمة والمراقبة المستمرة لهذا العدو الخفى المتريص .

قال مالك بن دينار : إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا على من عصمه الله .

والمقصود : التحذير من وساوس الشيطان وحيلها .

إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

اقتضت حكمة الله تعالى ، أن من عصى الله واستمر المعصية ؛ قبيض الله له شيطاناً يقارنه ويلازمه ، ويكون العاصى والكافر قريباً وتابحاً للشيطان ، بينما المؤمن ينفى شيطانه ويجهد ؛ لأنه لا يطيع له أمراً .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ لَقَبِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . (الزخرف : ٣٦) .

والقرآن بهذا يظل كتاب التربية الحانية ، التى تفتح عين الإنسان وتبصره .

فهداية الله غالبية سامية ، ومن انحرف عن الجادة واستمر المعصية ؛ سلب الله عنه الهدى والتوفيق ،

وتركه حائراً ضائعاً قريباً للشيطان وولياً لإبليس وذريته . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .

ومن أطاع الله ، ولازم هدى السماء ، كشف الله بصيرته وأمده بعونه ومدده فلا سلطان للشيطان عليه
قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٢٨ - وَإِذَا قُلُّوا فَاحْشَهِ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ... الآية .

كانت العرب تطوف بالبيت عراة ، يتأولون فى ذلك : أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها .

وربما كانت المرأة تطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ؛ لستره بعض الستر ، وأكثر ما كان
النساء يطفن عراة ليلاً ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن
فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله ؛ فأنكر الله عليهم ذلك ^(٣٩) .

ومع هذا السبب الخاص فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ومعنى الآية الكريمة :

إن المشركين كانوا يرتكبون الكبائر ، والقبائح التى نهى الله عنها ، كالشرك بالله ، والطواف بالكعبة
عرايا وغير ذلك ، وليس بين أيديهم من حجة على هذا الذى هم فيه إلا أن ذلك مما كان عليه آبائهم ، وأنهم
على آثارهم مقتدون ، وأن آباءهم لم يجيئوا بهذا من عند أنفسهم ، بل هو مما شرع الله لهم ، هكذا يقولون
وهكذا يفترون .

قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أمر الله الناس بالآداب ومكارم الأخلاق ، وحثهم على الإيمان بالله وصلة الرحم وإكرام الجار ورحمة
اليتيم ، ونهى الله عن الفحشاء والمنكر والزنا والربا والإفساد فى الأرض .

قال أبو السعود : فإن عادته تعالى جارية على الأمر بمحاسن الأعمال ، والحث على مراضى الخصال .

والمراد بالفاحشة : ما ينفر عنه الطبع السليم ، ويستنقصه العقل المستقيم .

والفاحشة في حدّ ذاتها تجاوز لحدود الله ، وانتهاك لحرماته ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته .

أى : قل لهم يا محمد : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل ، أمّا أن العقل يناقضه ويكذبه : فما تفعلونه هذا من أكبر الكبائر ، ولا خلاف بيننا وبينكم فى ذلك ، بدليل أن بعضكم قد تنزه عنه .

ثم إن الله كامل كمالاً مطلقاً ، والكامل لا يصدر عنه الأمر بالنقص والعيب ، وأمّا أن النقل يناقضه ويكذبه : فلأنه لم يثبت عن طريق الوحي أن الله أمر بهذا ، بل الثابت أن الله لا يأمر به قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَى : فكيف تدعون ذلك عليه سبحانه .

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وفيه نهى عن ذلك وإنكار عليهم ، وتوبيخ لهم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً فى كل شيء فكيف إذا كان فى القول على الله ؟!

٢٩ - قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... الآية .

لقد أمر الله بالعدل والتوسط والاعتدال ، كما أمر بالتقوى وإخلاص العمل لله ، والاتجاه بالصلاة إلى الله . قال أبو السعود : والقسط : العدل وهو الوسط فى كل شيء ، المتجافى عن طرفى الإفراط والتفريط . وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . توجهوا إلى عبادة الله مستقيمين ، أو أقيموا وجوهكم نحو القبلة عند كل مسجد حضرتكم الصلاة عنده ، ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم .

وَادْعُوا مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . أى : اعبدوه حال كونكم مخلصين الدعاء أو العبادة له وحده ، ولا تشركوا به شيئاً . وأكثروا فى التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه : فإن الدعاء مخ العبادة . كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ .

كما بدأكم ربكم خلقاً وتكويناً بقدرته ، تعودون إليه بالبعث والحشر والجزاء يوم القيامة . وقيل : كما أخرجكم من بطون أمهاتكم تعودون إليه كذلك ليس معكم شيء .

٣٠ - فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ... الآية .

أى : تعودون فريقين ، فريقاً هداه الله ووفقه للإيمان والعمل الصالح ، وفريقاً ضلّوا وأغواهم الشيطان . فأعرضوا عن طاعة الرحمن ، وكل فريق يموت على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

جاء فى تفسير المنار :

ومعنى حُذَّتْ عليهم الضلالة : ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ؛ لأنها جعلت غريزة لهم ، فكانوا مجبورين عليها ، يدل على هذا تحليلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله :
إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء : أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم فى الفواحش والمنكرات ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . فيما تلقنهم الشياطين إياه من الشبهات . ا هـ .

وهكذا كل ضال يزين له ضلاله الفتنة والغواية ، ويريه أنه على الصراط المستقيم ، والله سبحانه وتعالى يقول : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ... (فاطر : ٨) .

★ ★ ★

﴿ يَبْنِيْ عَادَۢمَ حُدُوۡدَ زَيْنَتِكُمْ عِنۡدَ كُلِّ مَسۡجِدٍ وَكُلُوۡا وَاشۡرَبُوۡا وَلَا تُسۡرِفُوۡا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسۡرِفِيۡنَ ۝۳۱﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِيۤ اَخۡرَجَ لِعِبَادِهٖۙ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزۡقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيۡنَ ءَامَنُوۡا فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَّوۡمَ الْقِيٰمَةِ ۚ كَذٰلِكَ نَفۡصِلُ الْآيٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُوۡنَ ۝۳۲﴾ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْاِثۡمَ وَالۡبَغۡىَ بِغَيۡرِ الْحَقِّ وَاَنۡ تُشۡرِكُوۡا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنۡزَلۡ بِهٖ سُلۡطٰنًا وَاَنۡ تَقُوۡلُوۡا عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا نَعۡلَمُوۡنَ ۝۳۳﴾ وَلِكُلِّ اُمَّةٍۭ اَجَلٌۭ ۖ فَاِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ لَا يَسۡتَآخِرُوۡنَ سَاعَةًۭ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُوۡنَ ﴿۳۴﴾

المفردات :

خذوا زينتكم ، لبسوا ثيابكم : لستر عوراتكم .

الفواحش ، كبائر المعاصى لمزيد قبحها .

الإثم ، ما يوجب من سائر المعاصى .

البغى ، الظلم والاستطالة على الناس .

سلطاناً ، حجة وبرهاناً .

أجل ، وقت مضروب الله أعلم به .

ساعة ، أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

التفسير:

٣١- يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

خلق الله الإنسان فى هذه الحياة ، وخلق له وسائل الحياة ووسائل الزينة المباحة الحلال ، وأمره أن يأخذ نصيبه من الزينة ، وأن تكون الزينة فى وجه الخير والعبادة ، فالأعمال بالنيات ، وشتان بين من يتزين لإثارة الفتنة ، وإغواء الناس ، ومن يتزين متجها إلى بيوت العبادة والطاعة .

والآية دعوة إلهية إلى أن نهتم بالصلاة وأماكن العبادة ، وأن نأخذ الزينة الحسنة ، والسمت الجميل، عند الاتجاه إلى المساجد ، وبذلك يألف الناس المساجد والمجامع والمحافل ، ويتم التعارف والتآلف والتودد.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إهمال حسن المظهر وإهمال الشعر والثوب ، ونهى عن أكل البصل والثوم قبيل الاجتماعات ، وكل ما يجعل الإنسان مزعجاً للآخرين .

كان أحد الصحابة مهملأ فى لباسه وشعره ؛ فقال له النبى ﷺ : ألك زوجة تهتم بك ؟ قال : نعم .

قال : اذهب إلى زوجتك ؛ لتأخذ لك من شعرك ، ولتنظف لك ثوبك ؛ فإنك سيد فى قومك ، وما أراه لا يليق بك .

وهكذا علم النبى أصحابه النظافة والسمت الحسن ، وقال ﷺ : «تزينوا وتنظفوا واستاكوا فإن بنى إسرائيل ما كانوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم»^(١) .

كما حث الإسلام على العناية بالمسجد ونظافته وسمت الحسن ، حتى يؤدى دوره الروحى التثقيفى القيادى ، قال تعالى : فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ... (النور: ٣٦، ٣٧)

وقال ﷺ : «من أكل ثوماً أو بصلاً ؛ فليعتزلنا»^(٢) .

والمعنى : فليعتزل مساجدنا .

لقد بنى الدين على النظافة ، ولذلك شرع الله الوضوء والاعتسال وطهارة الثوب والبدن والمكان ، وقال سبحانه : فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . (التوبة: ١٠٨)

وهذه الآية دعوة لبنى آدم أن يتزينوا بزينة الله عند التوجه إلى المساجد .

قال القرطبي: يَا بَنِي آدَمَ . هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا ، فإنه عام فى كل مسجد للصلاة ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقال ابن عباس : كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، يقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، فأنزل الله تعالى :

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ^(١٧)

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ .

وفى هذه الفقرة أساس سلامة الجسم والنفس ، ودعوة إلى أن يأخذ الناس حظهم من طيبات الحياة ، وأن يذوقوا نعم الله التى وضعها بين أيديهم ، ولكن فى غير إسراف بل فى قصد واعتدال .

روى أن بنى عامر كانوا فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون بمثله فنزلت^(١٨)

وَلَا تُسْرِفُوا . بتحريم الحلال ، أو بالتعدى إلى الحرام ، أو بالإفراط فى الطعام والشره عليه .

قال البخارى : قال ابن عباس : «كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة^(١٩) .

وجاء فى تفسير فتح القدير للشوكانى :

«نهاهم عن الإسراف ، فلا زهد فى ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل لنفسه وهو من أهل النار» .

والمقل منه على وجه يضعف به بدنه ، ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة ، أو سعى على نفسه ، وعلى من يعول ، مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف فى إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير ، مخالف لما شرعه الله لعباده ، واقع فى النهى القرآنى ...» اهـ .

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . أى : لا يرتضى فعلهم .

قال ابن كثير : قال بعض السلف : جمع الله الطبَّ فى نصف آية فى قوله تعالى : وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .

وكان الإمام الحسن بن على إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه ، فقيل له : يا ابن بنت رسول الله ! لم تلبس أجمل ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ؛ لأنه هو القائل : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ^(٢٠) .

٣٢- قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... الآية .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا

الحكم ، الذى عن طريقه حرمت على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده ، فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

جاء فى فتح القدير للشوكاني :

الزينة : ما يتزين به الإنسان من ملبوس أو غيره من الأشياء المباحة كالمعادن والجواهر ونحوها ، فلا حرج على من لبس الثياب الجديدة الغالية القيمة ، إذا لم يدخل فى حد الإسراف ، ولم يكن مما حرمه الله ، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التى لها مدخل فى الزينة ولم يمنع منها مانع شرعى ، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد ؛ فقد غلط .

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . أى : وهكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ، فإنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرّمه على غيره ، وترك أكل اللحم والطيبات المستلذات من الطعام ، من اللحم والفاكهة والحلويات وغيرها ، مما طاب كسباً ومطعماً ، فهو داخل فى هذا النهى .

عن النبى ﷺ قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا فى غير مخيلة ولا سرف ؛ فإن الله سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (١٧) .

قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق يستمتع بها الذين آمنوا فى الحياة الدنيا بالأصالة ، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا فى الحياة .

أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى .

كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . أى : مثل هذا التفصيل نفصل سائر الأحكام ، لقوم يعلمون ما فى تضعيفها فى معان عالية وآداب سامية .

٣٣- قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ... الآية .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ، ما وسّعه الله عليهم ، إن الذى حرمه الله عليكم هو هذه الأنواع الخمس :

١ - الْفَوَاحِشُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ . وهى كل كبيرة وقبيحة من الأقوال والأفعال ، وقيل : إن الفواحش تطلق على الزنا وما اتصل به من شهوة الفرج ، والزنا محرم سواء كان فى السر أم فى العلن .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .

أى : حرم الله المعاصى التى اشتدت شناعتها ، ومنها : الزنا، واللواط، والفجور، والشذوذ، وسائر الانحراف، سواء ما أعلن من الفواحش، وما أسر منها .

٢ ، ٣ - وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

الإثم : هو الشيء الذى يوجب الإثم ، ويعتبر فعله معصية .
والبغى : هو الظلم والتطاول على الناس ، وتجاوز الحد أو الكبر .
وقيل : الإثم : هو الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه .

والبغى : هو التعدى على الناس .

فحرم الله هذا وهذا .

بِغَيْرِ الْحَقِّ . قيد البغى بكونه بغير الحق : تأكيداً له فى المعنى ، وتذكيراً بأنه عمل مجاف للحق خارج عليه .

٤ - وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا .

أى : وأن تجعلوا لله شريكاً لم ينزل عليكم به حجة ، وكل شرك لا حجة له ولا دليل ، وإنما وصف الشرك بأنه لم ينزل به سلطاناً من باب التهكم بالمشركون ، وتنبيه على تحريم اتباع ما لا يدل عليه برهان .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ما خلاصته :

إن الشرك بالله لا حجة له ولا سلطان ، لا من العقل ولا من النقل ، والمراد من الجملة : تحريك دواعى التفكير والحذر عند المؤمن ؛ حتى يحذر الشرك الخفى والاستغلال بظل كبير أو خطير ؛ لأن المؤمن يرى أن كل شيء لله ، وأنه ليس لأى مخلوق مهما بلغ من جاه أو سلطان ، سبيل إلى شيء من ملك الله .

٥ - وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : أن تقولوا : إن الله حرم هذا ، وأحل هذا ، بدون معرفة أو علم بحقيقة أن الله قال ذلك ، مثل ما كانوا ينسبون إلى الله سبحانه من التحليلات والتحريمات التى لم يأذن بها .

جاء في تفسير المنار :

« ومن تأمل هذه الآية حق التأمل : فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئاً ، أو يوجب عليهم شيئاً في دينهم ، بغير نص صريح من الله ورسوله ، بل يجتنب أيضاً أن يقول : هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هذا ، المتجرئين على التشريع .. » .

٣٤- وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

أى : ولكل أمة من الأمم المهلكة حد معين من الزمان ، مضروب لمهلكهم ، فإذا جاء الأجل المقدر لإهلاك الأمة نفذ فيها نفاذاً محكماً ، بدون تقديم أو تأخير ، كما حدث لقوم لوط وشعيب ونوح ... وغيرهم .

★ ★ ★

﴿ يٰبَنِي آدَمَ اِمَّا يٰتِيْنٰكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَفْضُوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمَنْ اٰتَقٰى وَاصْلَحَ فَلَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِآيٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا اَوْ كَذَبَ بِآيٰتِنَاۤ اَوْ لِقٰتِكَ يٰاِهْلَ الْبَيْتِ هُمْ نَصِيْبُهُمْ مِّنَ الْكِتٰبِ حَقٌّ اِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوْا اَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْرِ اللّٰهِ قَالُوْا ضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوْا عَلٰى اَنْفُسِهِمْ اَنْهُمْ كَانُوْا كٰفِرِيْنَ ﴿٣٧﴾ قَالَ اَدْخُلُوْا فِىْ اُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِيْنِ وَالْاِنْسِ فِى النَّارِ كَمَا دَخَلْتَ اُمَّةٌ لَعَنْتُ اٰخِهَا حَقًّا اِذَا اٰذَرَكَوْا فِيْهَا جَمِيْعًا قَالَتْ اٰخِرُهُمْ لَاوِلَّهُمْ رَبًّا هٰؤُلَاءِ اَصْلُوْنَا فَاتٰهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ اُولٰٓئِهِمْ لَاٰخِرُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِمْ اِنْ فُضِّلَ فَذُوْقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُوْنَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

يَفْضُوْنَ : أى : يخبرون ، يقال : قص الخبر يقصه قصاً وقصصاً : رواه .

ضَلُّوْا عَنَّا : أى : تاهوا عنا .

قَالَ اَدْخُلُوْا هٰى اُمَمٍ : أى : قال لهم الله ، أو قال لهم أحد الملائكة .

قَدْ خَلَتْ ، أَيْ : قَدْ مَضَتْ ، يُقَالُ : خَلَا يَخْلُو خُلُوًا أَيْ : مَضَى ، وَمِنْهُ السَّنُونُ الْخَالِيَّةُ ، أَيْ : لِلْمَاضِيَةِ .
 إِذَا رَكِبُوا فِيهَا ، تَلَا حَقُّوا فِي النَّارِ وَاجْتَمَعُوا فِيهَا .
 أَخْرَاهُمْ ، مَنْزِلَةً وَهُمْ الْأَتْبَاعُ وَالسَّفَلَةُ .
 لَأُولَاهُمْ ، مَنْزِلَةً وَهُمْ الْقَادَةُ وَالرُّؤَسَاءُ .
 عَذَابًا ضَعِيفًا ، أَيْ : مُضَاعَفًا ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا .
 قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ ، الْقَادَةُ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، وَالْأَتْبَاعُ ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وَقَلَّدُوا .

التفسير :

٣٥ - يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والمعنى : يَا بَنِي آدَمَ إِنْ أَتَاكُمْ رُسُلٌ مِنْ أَبْنَاءِ جَنَسِكُمْ ، يَخْبِرُونَكُمْ بِأَحْكَامِي وَيُبَيِّنُونَهَا لَكُمْ ، فَآمَنُوا بِهِمْ وَأَطِيعُوهُمْ وَصَدَّقُوهُمْ وَتَابِعُوهُمْ ، فَالْنَّاسُ حِيَالُ الرُّسُولِ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ اتَّقَى اللَّهَ وَأَصْلَحَ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ ، فَهَذَا لَا خَوْفَ عَلَى أَفْرَادِهِ وَلَا ظَلَمَ .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا .

٣٦ - وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أَمَّا الْفَرِيقُ الَّذِي كَذَّبَ الرُّسُلَ ، وَكَفَرَ بِالْآيَاتِ الَّتِي يَقْصُهَا عَلَيْهِمْ رُسُلُنَا وَاسْتَكْبَرَ عَنْ إِجَابَةِ الرُّسُلِ ، وَالْعَمَلُ بِمَا شَرَعَ اللَّهُ ، هَذَا الصَّنْفُ يَلْزَمُ جَهَنَّمَ كَأَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا ، وَهَؤُلَاءِ يَخْلُدُونَ فِي النَّارِ وَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا بِسَبَبٍ كَفَرَهُمْ .

٣٧ - فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ... الْآيَةُ .

أَيْ : لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى مَعْصِيَةَ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ ، فَشَرَعَ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ اللَّهُ بِهِ ، أَوْ كَذَّبَ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ ، أَوْ أَحَلَّ الْحَرَامَ أَوْ حَرَّمَ الْحَلَالَ .

أُولَئِكَ يَتَأَلَّهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ .

أَيْ : هَؤُلَاءِ الْكَاذِبُونَ عَلَى اللَّهِ ، وَالْمَكْذُوبُونَ لِمَا أَتَاهُمْ مِنَ اللَّهِ ، سَيُوفُونَ نَصِيبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيَحْصِلُونَ عَلَى مَا قَدَّرَ لَهُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَمَا كُتِبَ لَهُمْ فِي الْأَزَلِ .

حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ .

أى : حتى إذا جاء إليهم ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم .

قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

أى : سألهم ملك الموت وأعوانه سؤال توبيخ وتقريع ، أين الآلهة التى كنتم تدعونها من دون الله وتعبدونها ؟! ابحثوا عنها : لتنفعكم اليوم !

قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا . أى : غابوا عنا وصرنا لا ندري مكانهم ، أو أضاعونا فلا يدرون أين نحن .

وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . أى : أقرؤا على أنفسهم بالكفر .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

والشهادة هنا هى استيقانهم بواقع أمرهم ، وأنهم كانوا على ضلال وكفر .. وتلك هى الشهادة التى شهدوا بها على أنفسهم ، فكان حكماً عليهم ، أدانوا أنفسهم به ، قبل أن يدينهم الديان .

٣٨- قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ... الآية .

قال الله تعالى لأولئك المكذبين: ادخلوا ضمن أُمَم من الجن والإنس قد سبقتكم فى الكفر ، وشاركتم فى الضلالة ، كلما دخلت أمة من الأمم الماضية لَعْنَتْ أُخْتَهَا . أى : الأخرى التى سبقتها إلى النار ، أو أختها فى الدين والملة ، فالأمة المتبوعة تلعن التابعة : لأنها زادتتها ضلالاً ، والأمة التابعة تلعن المتبوعة : لأنها ضلت بالافتداء بها .

حَتَّىٰ إِذَا أَذَاكُوهَا فِيهَا جَمِيعًا . أى : تدراكوا وتلاحقوا فى النار .

والتدراك : التلاحق والتتابع ، والاجتماع فى النار ، أى : أدرك بعضهم بعضاً .

قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ .

أى : قالت أخراهم دخولاً وهم سفلتهم وأتباعهم ، لرؤسائهم وكبارهم ، رَبَّنَا هَؤُلَاءِ السادة أضلونا : وسئوا لنا الضلال ، فاقطينا بهم : فضاعف لهم العذاب مرات ومرات : لأنهم ضلوا وأضلوا .

قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : لكل طائفة منكم ضعف من العذاب ، أما القادة : فَلَيْمَّا ذَكَرَ مِنَ الضلال والإضلال ، وأما الأتباع : فلکفرهم وتقليدهم .

وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : ولكنكم يا معشر المقلدين ، لا تعلمون ذلك : لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

٣٩- وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لَأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَلَوْ رَوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

أى : قال الزعماء لاتباعهم بعد أن سمعوا ردَّ الله عليهم : إنا وإياكم متساوون فى استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء لأننا لم نجبركم على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللت بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا ، بسبب ما اكتسبتموه فى الدنيا من قبائح ومنكرات .

وهذا الخصام بين أهل النار ، حيث يلقى بعضهم اللوم على بعض ، ويتمنى بعضهم زيادة العذاب للبعض الآخر ، مع أنهم كانوا فى الدنيا أصدقاء وأخلاء . قال تعالى : الْأَعْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بِعُظْمِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ . (الزخرف : ٦٧) .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنُنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ فَجَرى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِى لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَيْنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِيثَتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

المضردات :

يلج الجمل : يدخل الجمل .

سم الخياط : ثقب الإبرة ، ومنه قولهم : حتى يشيب الغراب .

مهاد : فراش . أى : مستقر .

غواش : أغطية كاللحف .

وسمعها ، طاققتها وما تقدر عليه .

ضربل ، حقد وضغن وعداوة .

أورثتموها ، أوريثكم الله إياها .

التفسير :

٤- إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل

في سم الخياط ... الآية .

لقد تعذت المشركون مع رسول الله ﷺ ، فبين القرآن جانباً من سلوكهم ، وهو التكذيب بآيات الله والاستكبار عن اتباع دين الله ، هؤلاء لا أمل في دخولهم الجنة فقد علق الله دخولهم الجنة على أمر مستحيل وهو دخول الجمل الكبير الجسيم في خرم إبرة صغير .

أو دخول الحبل الغليظ في خرم إبرة صغيرة .

ونلمح في الآية أن صلة الموصول فيها تمهيد للحكم حيث قال تعالى : إن الذين كذبوا بآياتنا . الذين اسم موصول ، وكذبوا بآياتنا واستكبروا عنها صلة الموصول . وقد بينت صلة الموصول ما يستحقون من عقاب ، حيث كان الجواب :

لا تفتح لهم أبواب السماء .

قال الشوكاني في فتح القدير : « لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ، وقيل : أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا ، ولا لأعمالهم إذا عملوا ، فلا ترفع إلى الله ولا تقبل ، بل ترد عليهم فيضرب بها في وجوههم .

ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط .

لا يدخلون الجنة بحال من الأحوال ، ولهذا علقه بالمستحيل فقال : حتى يلج الجمل في سم الخياط . وخص سم الخياط وهو ثقب الإبرة ؛ لكونه غاية في الضيق .

والجمل : الذكر من الإبل ، وقيل : الحبل الغليظ من القنب ومن ذلك قول العرب : حتى يشيب الغراب .

وكذلك نجزي المجرمين .

ومثل ذلك الجزاء الرهيب ، نجزي جنس المجرمين ، الذين صار الإجماع وصفاً لازماً لهم .

٥- لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش .

المهاد : الفراش ، والغواش : الأغشية .

أى : إن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط بهم، فهي من تحتهم بمنزلة الفراش، ومن فوقهم بمنزلة الغطاء، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . أى : ومثل ذلك الجزاء نجزي كل ظالم ومشرک ، جزاء ظلمه وكفرانه .
ومن شأن القرآن أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، فبضدها تتميز الأشياء .
٤٢- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .
إنهم عملوا يسيراً واستغادوا كثيراً ، ويدل على ذلك جملة : لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وإنما حُسِّنَ وقوع لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . بين المبتدأ والخبر ؛ لأنه سبحانه لما ذكر عملهم الصالح، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم ومطاقته، وغير خارج عن قدرتهم، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظيم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة .

وقال الشوكاني فى تفسير فتح القدير :

لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . أى : نُكَلِّفُ العباد بما يدخل تحت وسعهم ويقدرُونَ عليه ، ولا نكلفهم ما لا يدخل تحت وسعهم .

٤٣- وَزَوَّجْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍّ ... الآية .

ينزع الله ما فى قلوبهم من حقد بعضهم على بعض ، حتى تصفوا قلوبهم ويودّ بعضهم بعضاً ، فإن الغل لو بقى فى صدورهم كما كان فى الدنيا ؛ لكان فى ذلك تنقيص لنعيم الجنة ؛ لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر .

والغلّ : الحقد الكامن فى الصدور ، وقيل : نزع الغل فى الجنة : ألا يحسد بعضهم فى تفاضل المنازل.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن (١٧) :

«وعلام يتباغضون ؟! والخير يملأ كل ما حولهم ، ليس لأحد منهم حاجة فى شئ إلا وجدها بين يديه؛ فليس فيهم غنى وفقير ، وشقى وسعيد ، إذ كلهم أغنياء من فضل الله سعاده برحمته ورضوانه» .

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا .

هم ينعمون في غرفهم والأنهار تجري من تحتهم ، وهم يلهجون بشكر ربهم ، الذى هداهم إلى الإيمان ووقفهم لمرضاة الله ، والفوز بهذا النعيم العظيم .

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . أى : ما كنا نطيق أن نهتدى بهذا الأمر لولا هداية الله لنا .

لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ . أى : قالوا ذلك اغتباطاً بما صاروا فيه من نعمة .

وَنُودُوا أَنْ يُلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْ رُئِمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

نادى المنادى من قبل الله تعالى لأهل الجنة ! تهنئة لهم بنعمة الله عليهم ، هذه هى الجنة وجبت لكم، وحقت كما يحق الميراث لوارثه ، وقد ورثتموها بسبب أعمالكم فى الدنيا ، وهذا من فضل الله ، فالعمل الصالح لا يؤهل لدخول الجنة وحده ، وإنما يدخل الناس الجنة بفضل الله تعالى. ويقتسمونها بأعمالهم فى الدنيا .

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسدوا وقاربوا ولا يطمنين أحدكم الموت ، إما محسنًا فلعله أن يزداد فى إحسانه ، وإما مسيئًا فلعله أن يتوب » ^(١٨) .

فأعمال الإنسان مهما عظمت لا تكفائ نعمة واحدة من الله على الإنسان ، وهى نعمة البصر .

والجنة جزاء عظيم ، والعمل مهما عظم ، فهو ثمن ضئيل لعظمة دخول الجنة .

ثم إن الله هو المتفضل على الإنسان بالتوفيق للعمل الصالح ، والمتفضل عليه بدخول الجنة .

قال ابن عباس : أنفسُ هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، يطلبها منا ثم يمنحنا عليها الجنة إنها لصفقة رابحة .

وهذا عند تفسيره لقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .. الآية (التوبة : ١١١)

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ النَّارَ أَنِ اقْدِرُوا عَلَيْنَا مَا عَدْتُمُونا نَبْأَحَقَّ أَفْهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذْ نُودُوا مِنْ بَيْنِهِمْ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لِيَدْخُلُواهَا وَهُمْ يَظْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَجَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمُهُمْ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْهُمْ أَهْلًا وَلَعَبًا وَغَرَّبَتْهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

المفردات :

فَإِذْ نُودُوا : أعلم معلم من الملائكة ، أى : نادى منادٍ .

يَبْغُونَهَا عِوَجًا : يطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

بَيْنَهُمَا حِجَابٌ : حاجز وهو سور بينهما .

وعلى الأعراف : أى : أعراف الحجاب ، أى : أعاليه ، جمع عرف مستعار من عرف الفرس ، وقيل : العرف ما ارتفع من الشيء .

رجــــــــــــــــــــــــــــــــال : أى : طائفة من الموجودين قسروا فى العمل فحبسوا بين الجنة والنار حتى يقضى الله فيهم .

بسيماتهم : بعلامتهم المميزة .

أفـيـضـوا علينا : صبوا أو ألقوا علينا .

غرقتهم الحياة الدنيا ، خدعتهم بزخارفها وزينتها .

نُتسَاهِم : نتركهم فى العذاب كالمنسيين .

وما كانوا : وكما كانوا .

التفسير :

٤٤- وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ... الآية .

تعرض الآيات مشهداً من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهو حوار يمثل الرضا والسعادة والفوز والامتنان من جانب المؤمنين ، ويمثل الحسرة والذلة والحرمان والقلق من جانب الكافرين .

وإنه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرده والحرمان من رحمة الله بسبب ظلمهم وانحرافهم .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ .

أى ينادونهم بعد أن يستقر كل من الفريقين فى منزله .

أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا .

أى : إننا قد وصلنا إلى ما وعدنا الله به من النعيم ، فهل وصلتم إلى ما وعدكم الله به من العذاب الأليم؟ أهـ .

قَالُوا نَعَمْ . أى : وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وفى رواية .

نعم . بكسر العين وهى لغة فيه ، كما يقول أبو السعود فى التفسير .

فَإِذْ مُّوَدَّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

أى : نادى منابر من الملائكة ، أو هو نداء الكون والحق والعدل . «وهذا المنادى من أمور الغيب التى لا

تعلم علماً صحيحاً إلا من التوقيف المستند إلى الوحى، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لا يعتمد عليها»^(١٤).

وقال أبو السعود : قيل : هو صاحب الصور .

أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ .

إنه صوت الوجود كله . يلعن الظالمين ويخزيهم ويفضخ ما كان منهم من كفر بالله وصد عن سبيله.

٤٥- الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِزًّا ... الآية .

لقد كان هؤلاء الكفار يصدون أنفسهم عن سبيل في الله ، ويصدون غيرهم عن طريق الحق المستقيم ، ويريدونها طريقاً معوجة ، قائمة على الضلال والبغى والعدوان .

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ .

لقد كذبوا بالآخرة وأنكروا البعث والحشر والجزاء ، وكان هذا سرَّ عدوانهم وظلمهم ، فالعقيدة السليمة تؤدي إلى السلوك السليم . كما يقول الشاعر :

وإذا كان القلب أعمى عن الرش د فماذا تفيد العينان ؟

٤٦- وَيَنْتَهِمَا جِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمَا ... الآية .

والمعنى : بين أهل الجنة والنار حاجز سميك ، يعزل كل فريق عن الآخر عزلة كاملة ، لا ينفذ منها شيء من نعيم الجنة إلى أصحاب النار ، كما لا ينفذ منها شيء من عذاب جهنم ولفحها إلى أهل الجنة ، ولكنهم مع هذا يبرأى ومسمع من بعض .

أصحاب الأعراف :

الأعراف فى اللغة: المكان المرتفع ، ومنه: عرف الديك الذى هو أعلى شيء فيه ، ومنه: المعرفة بالشئ حيث تكشفه وتستولى على حقيقته .

وأصحاب الأعراف : قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

فلم تكثر حسناتهم ليدخلوا الجنة ، ولم تكثر سيئاتهم ليدخلوا النار .

فهم فى منزلة بين المنزلتين ، يشاهدون أصحاب الجنة وما يتقلبون فيه من النعيم ، ويتمنون أن يكونوا مثلهم .

ويشاهدون أصحاب النار وما يتقلبون فيه من الجحيم ، ويدعون الله ألا يكونوا معهم .

وهم أشبه بالنظارة والمُشاهدين الذى يشجعون الفريق الفائز فى مباراة أو مناظرة ، وهناك آراء كثيرة فى أصحاب الأعراف .

قال الشوكاني : وقد اختلف العلماء فى أصحاب الأعراف .

فَقِيلَ : هُمُ الشَّهَدَاءُ ، وَقِيلَ : هُمُ فَضَلَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرُغُوا مِنْ شُغْلِ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَفَرَّغُوا لِمُطَالَعَةِ أَحْوَالِ النَّاسِ ، ذَكَرَهُ مُجَاهِدٌ .

وقيل : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، قد قصرت بهم أعمالهم عن دخول الجنة ، ثم يدخلون الجنة بفضل الله ورحمته ، وهم آخر من يدخلها ، وقيل : هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إنخالهم الجنة والنار^(١)

وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ .

والمعنى : أن رجال الأعراف على شرفات عالية ، يعرفون كل فريق من أهل الجنة وأهل النار بعلامتهم المميزة ، فأهل الجنة من علامتهم بياض الوجوه ونعيمها ، وإشراق الأمن والسلامة والرضا عليهم .

وأهل النار سود الوجوه ، على وجوههم غبرة ترهقها قفرة ، قد استولى عليهم الكرب والفزع ، واشتد بهم البلاء .

قال تعالى : **وَجُودٌ يُؤْمِلُ مُسْفِرَةٌ * صَاحِكَةٌ مُنْتَبِشَةٌ * وَوَجُودٌ يُؤْمِلُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ** . (عبس : ٣٨ - ٤٢)

ويلاحظ أن البياض هنا كناية عن النعيم ، والسواد كناية عن الحزن والجحيم ، وليس في هذا ميزة لأبيض على أسود في الدنيا : «لأن الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢) .

وفي محاوره بين أبيض وأسود قال الأسود :

ألم تر أن سواد المسك لا شيء مثله

وأن بياض اللُّغْت حمل بدرهم

وأن سواد العين لا شك نورها

وأن بياض العين لا شيء فاعلم

فقال الأبيض :

ألم تر أن بياض البدر لا شيء مثله

وأن سواد الفحم حمل بدرهم

وأن رجال الله بيض وجوههم

وأن سود الوجوه مأواهم جهنم

وهي كما ترى محاحكات لفظية : لأن سود الوجوه في الدنيا إذا عملوا أعمالاً صالحة ، ابيضت وجوههم يوم القيامة ، وبيض الوجوه إذا عملوا أعمالاً سيئة اسودت وجوههم يوم القيامة ، فالسواد والبياض من أثر العمل الصالح أو السيئ والمنزلة السامية أو الهابطة في الآخرة .

وقد تحدث القرآن عن المنافقين فقال : **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ**

خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ... (المنافقون : ٤)

وقال تعالى: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ... (التوبة: ٥٥)

وقال ﷺ: «كم من وجه صبيح ، وجسم مليح ، ولسان فصيح ، غدا بين أحشاء النار يصيح»

وقال ﷺ: «رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»^(٢١).

وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ .

أى : نادى رجال الأعراف أصحاب الجنة حين رأوهم بالتحية والتكريم والتشجيع فقالوا : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وتعجب أهل الجنة من هؤلاء الذين يقدمون لهم التحية والتكريم ، وهم فى مرحلة عالية فاصلة ، من هم ؟!

فأجاب الحق سبحانه :

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ .

أى : لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف ، ولكنهم يطمعون فى دخولها : لما يرون فى فضل الله ورحمته على أهل الجنة ، وأن الله تعالى تغلب رحمته غضبه ، وروى أن النبى ﷺ قال : « إذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال لأصحاب الأعراف : أنتم عتقائى فَارْعَوْا من الجنة حيث شئتم »^(٢٢)

٤٧- وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

هذه الآية استمرار لهذا الحوار التفصيلى بين مشاهد أهل الجنة ومشاهد أهل النار .

والفريق الثالث : أصحاب الأعراف . فهم قد باركوا أهل الجنة ، وسلموا عليهم سلام تحية وتقدير .

وهم ينظرون إلى أصحاب النار فيجدون عذابهم وسوء حالهم ، فيستعيزون بالله أن يكونوا مثلهم ويلهجون بدعاء الله ألا يجعلهم مع القوم الظالمين . أى : مع أصحاب النار .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

« وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبني للمجهول ، أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ، ويلقون إليهم السلام . وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها ، قالوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وكانوا موقوفين، مجهولاً مصيرهم ...» .

٤٨- وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَاهُمْ قَالُوا مَا آغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

هذه صور من المحاجة والمناظرة ، فيها براعة الوصف وإبراز المعقول في صورة المحسوس .

والملحنى : نادى أصحاب الأعراف على رجال من زعماء الكفار ، كانوا يعرفونهم في الدنيا : لأنهم رؤوس الكفر والضلال ، أو عرفوهم في الآخرة لما شاهدوا عليهم من المذلة والانكسار .

فقال أصحاب الأعراف لهؤلاء الكافرين : تبيكتنا لهم وإذلالاً : بماذا نفعلكم جميع الناس بالباطل حولكم ، واستكباركم عن استماع الحق والاستجابة إليه .

وفى الآية كلمة : يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَاهُمْ . أى : يعرفونهم من علامتهم وهى سواد وجوههم وظهور الكآبة والخزى على نفوسهم .

كذلك فإن جموع الكفر كانت تجتهد فى إكثار جموعها ، وتكاثر وتعاقد ، فكان هذا الاستفهام الإنكارى عقوبة عادلة لتقريعهم ، حيث يقول لهم أصحاب الأعراف :
مَا آغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ .

٤٩- أَمْ أَوْلَاؤُا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ .

أى : إن أهل الأعراف يزيدون فى توبيخهم وتقريعهم ، فيقولون لهم - ويشير أصحاب الأعراف إلى أهل الجنة من الفقراء والمستضعفين - أهؤلاء الفقراء والضعفاء الذين كنتم تعذبونهم فى الدنيا ، وقد أقسمتم فى الدنيا أن الله لن يشملهم برحمته ، أو فعلتم بهم ما ينبئ عن ذلك . هؤلاء يقال لهم : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ . بعد هذا وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ . فلا يعرفون الحزن ولا يجدونه : فالجنة قد فتحت لهم أبوابها ، وتمتعوا فيها بسائر صنوف النعيم :

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

» وكلمة ادْخُلُوا الْجَنَّةَ تكون من كلام أصحاب الأعراف ، وفيها تلوين الخطاب ، وتوجيه الكلام لهم ، والانتقال من مخاطبة الكافرين إلى مخاطبة فقراء المؤمنين ، أى : ادخلوا الجنة على رغم أنوف الكافرين .»

» ويجوز أن يكون الكلام موجهاً إلى أصحاب الأعراف أى : قيل لأصحاب الأعراف : ادخلوا الجنة بفضل الله تعالى ، بعد أن حسبوا وشاهدوا أحوال الفريقين وعرفوهم ، وقالوا لهم ما قالوا «(١)» .

٥٠- وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَلِيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ .

لقد ذهب أصحاب الأعراف إلى الجنة ، ولم يبق على الساحة إلا أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وعندئذ يدور حوار آخر يتقدم فيه أهل النار يطلب إلى أهل الجنة ، يطلبون منهم أن يتفضلوا عليهم بإفاضة الماء من الجنة عليهم ، أو إرسال شيء مما رزقهم الله في الجنة من ثمار وخيرات ونعيم ، حتى يخفف شيئاً من الجحيم الذي يعدّون فيه ، ولكن الجواب يأتيهم من أهل الجنة بالرفض ، فقد منع الله ذلك النعيم ، منعاً كلياً على أهل النار ، فلا يستطيع أهل الجنة مواساة أهل النار بشيء مما حرّمه الله عليهم ، ومنعه عنهم .

٥١- الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

عندما أجاب أهل الجنة أهل النار بأن الله حرم نعيم الجنة على الكافرين ؛ تكفل الحق سبحانه بتوضيح أسباب الحكم ، وبيان حثيثاته ، فذكر في هذه الآية أنهم اتخذوا دينهم مادة للسخرية والتلّهي ، وصرف الوقت فيما لا يفيد ، فأصبح الدّين صوراً ورسوماً ، لا تزكى نفساً ، ولا تطهر قلباً ، ولا تهذب خلقاً ، أو أنهم حرّموا ما أحل الله من البحيرة والسائبة ... وسخروا بدين محمد ، وانصرفوا عنه إلى اللهو واللعب قال تعالى : وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدُّيقًا . (الأنفال : ٣٥)

فقد انصرفوا عن العبادة الحقّة إلى التصفيق والصفير .

وَعَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا . شغلّتهم لذائذها ومتعتها وزينتها عن كل ما يقربهم إلى الله .

فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا . أى : يهملهم الله تعالى فلا يستجيب لهم دعاءً ولا يسمع لهم قولاً .

قال أبو السعود : فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ . نفعل بهم ما يفعل الناس بالمنسى ، من عدم الاعتداد بهم ، وتركهم في النار تركاً كلياً .

كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا .

أى : ننساهم نسياناً مثل نسيانهم لقاء يومهم هذا ، أو بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم .

وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

وهذه الجملة معطوفة على السابقة ، أى : ننسأهم بسبب نسيانهم البعث والحشر والحساب ، وكما كانوا منكبين بأن القرآن من عند الله إنكاراً مستمراً .

وتنتهى مع هذه الآية مشاهد الحوار المستمر ، بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف ، ويسدل الستار على أهل الجنة خالدين منعمين فى الجنة ، وأهل النار معذبين فى الجحيم إلى ما شاء الله .

إنها طريقة القرآن الكريم التى تستحضر الغائب ، وتقدم مشاهد القيامة أمام الناس شاخصة حية : ليعتبر ويعتظ من كان له قلب ولب .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣).

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِي كُذِّبَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَّنَا مِن شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرْدِّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

المضردات :

فَصَّلْنَاهُ : أى : بيناً معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ المفصلة .

تَأْوِيلُهُ : عاقبة مواعيد الكتاب القرآن . وما يؤول إليه أمره من صدق ما وعد وأوعد به ، من البعث والحساب والجزاء .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ : أى : وبطل عنهم ما كانوا يفترونه من وجود شركاء لله ، أو ما كانوا يفترونه من الأضاليل وينسبونه إلى الله .

التفسير :

٥٢ - وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

من شأن القرآن التنقل والمراوحة ، وقد كانت الآيات السابقة تعرض مشاهد القيامة ، وأحوال أهل النار يعذبون ، وأهل الجنة ينعمون .

ثم انتقل القرآن من مشاهد القيامة ، إلى الحديث عن الحياة الدنيا الحاضرة .

ومعنى الآية : ولقد جئنا هؤلاء الناس على إسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلاً حكيمًا ، حال كوننا عالمين بما اشتمل عليه من تشريعات وأحكام وأداب ، وقصص وحكمة ، وسائر فنون القول المفيد ، كما أن هذا القرآن هداية ورحمة لمن آمن به واتبع هداه .

٥٣ - هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... الآية .

التفسير :

أى : ما ينتظر هؤلاء الكفار بعدم إيمانهم به ، إلا ما يثول إليه أمره من تبين صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد .

قال الشوكاني :

هل ينتظرون إلا ما وعدوا به فى الكتاب من العقاب الذى يثول الأمر إليه .

يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ : وهو يوم القيامة الذى يقف الناس فيه أمام خالقهم للحساب .

يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ .

أى : يقول هؤلاء الكفار الذين جحدوا هذا اليوم ، ولكن عندما تكشف لهم الحقائق فى الآخرة يعترفون بصدق الرسل ويقولون : لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وتبيناً صدقهم ، ولقد أخطأنا حين كذبناهم فى الدنيا .

فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ .

أى : هل لنا من شفعا فيشفعوا لنا عند الله ، حتى يخلصنا مما نحن فيه من كرب أو بلاء ، أو هل من سبيل إلى أن نرد إلى الدنيا فنعمل عملاً صالحاً ، غير الذى كنا نعمله من الجحود ، واللغو واللعب .

قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

أى : قد خسروا هؤلاء الكفار أنفسهم ، فلم ينتفعوا بها فكانت أنفسهم بلاء عليهم ، ومحنة لهم ، فكأنهم خسروها كما يخسر التاجر رأسه .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

أى : ذهب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا ، من أن أصنامهم ستشفع لهم يوم الجزاء ، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم .

وقال أبو السعود : ظهر بطلان ما كانوا يفترونه من أن الأصنام شركاء لله تعالى ، وشفعائهم يوم

القيامة .

★ ★ ★

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ آيَاتُ النَّهَارِ رَطْبُهُ، حَيْثَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ الْخَلَّاقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ اذْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَنْفُسُ ۚ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَّفَخْنَا فِيهِ مِنَّا مُنْقَرًا فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِرُنْ رَيْبُهُ ۚ وَالَّذِي خَبَثَ لَآيِحْجُجٌ ۖ إِلَّا نَكِدَ ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات :

ثم استوى على العرش : الجسم المحيط بسائر الأجسام ولا يحيط بكنهه إنسان .

والاستواء على العرش صفة لله بلا كيف ، أى : أن له تعالى استواء على العرش على الوجه

الذى عناء ، منزلها عن الاستقرار والتمكن ، وهو استواء بالمعنى اللائق به سبحانه .

يغشى الليل النهار ، يغطي النهار بالليل ، فيذهب ضوءه .

يطلبه حثيثا ، يطلب الليل النهار طلبا سريعا .

له الخلق ، إيجاد جميع الأشياء من العدم .

الأمـــــر : التدبير والتصرف فيها كما يشاء .

تبارك الله ، تزه أو تعظم أو كثر خيره .

ادعوا ربكم ، اسألوه واطلبوا منه حوائجكم .

تَضَرُّعًا : مظهرين الضراعة والذلة والاستكانة والخشوع .

خَفِيَّة : سرًّا فى قلوبكم .

رَحْمَةُ اللَّهِ : إحسانه وإنعامه أو ثوابه .

بَشِيرًا : مبشرات برحمته وهى الغيث .

أَقْبَلَتْ سَحَابًا : حملته ورفعته .

ثِقَالًا : مثقلة بحمل الماء .

لَبَدًا : مجذب لا ماء فيه ولا نبات .

نَكَدًا : عسرًا أو قليلًا لا خير فيه .

نَصَرَافَ الْآيَاتِ : نكرها بأساليب مختلفة

التفسير :

٥٤ - إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ... الآية .

خلق الله السماوات والأرض فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، والله قادر على أن يقول للشئ كن فيكون ، لكنه أراد أن يشعر الناس بأن للكون نظاماً وللخلق إككاماً وترتيباً ، فالجنين يكتم فى بطن أمه تسعة أشهر ، حتى يتم تخليقه وتكوينه ، نطقه ثم علقه ثم مضغاً ثم عظاماً ، ثم يكسى العظام لحماً ، ثم يتم تكوينه خلقاً آخر ؛ فتبارك الله أحسن الخالقين .

وفى القرآن الكريم : لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧)
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

أى : استولى على نظام الملك وسير أموره ، وهى كناية عن قدرته سبحانه على تسيير خلق هذا الكون وإبداع صنيعته ، وإحكام نظامه ، وتدبير أموره .

من آراء المفسرين :

المفسرون القدامى لاحظوا أن هناك آيات تشير إلى أن خلق السماء كان قبل خلق الأرض ، وهناك آيات تشير إلى أن خلق الأرض كان قبل خلق السماء .

وقد جمع العلماء بينهما أن الله خلق الأرض أولاً ، ثم خلق السماء ثانياً ، ثم أتم إعمار الأرض وجعلها مدحوة ، منبعجة عند خط الاستواء ومفرطة عند القطبين .

قال تعالى : «أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ » . (النازعات : ٢٧-٣٣)

وهذه الآيات تفيد أن الأرض خلقت بعد السماء بيد أن علماء اللغة يقولون : إن كلمة بَعْدَ ذَلِكَ تحتمل معنى : فوق ذلك أو علاوة على ذلك ، أو قبل ذلك .

تقول لابنك : ربيتك وعلمتك وزوجتك ، وأنا بعد ذلك أبوك الذى رعاك صغيراً ونشأنا . بمعنى : أنا فوق ذلك أو قبل ذلك .

وقال تعالى : قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ رُؤُوسٌ بِاللَّيْلِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت : ٩-١٢)

وفي كتب التفسير : ما يفيد أن الله تعالى خلق الأرض فى مقدار يومين ، وخلق الجبال والبحار والأنهار ووسائل الإعمار فى يومين ، فصار المجموع أربعة أيام .

تقول : سرت من البصرة إلى الكوفة فى يومين ، ومن الكوفة إلى بغداد فى أربعة أيام ، وتكون أنت قد سرت من الكوفة إلى بغداد فى يومين ، ونقصد أن مجموع أيام السفر إلى بغداد أربعة أيام .

وتفيد الآيات فى سورة فصلت أن الله بعد أن خلق الأرض ، خلق الجبال والبحار والأنهار ، ثم خلق السماء فى يومين ، لكن الآيات تشعر أن السماء والأرض قالتا : أتينا طائعين ، مما يفيد أن هناك مراحل متعددة مر بها نشوء هذا الكون حتى انتهى إلى الخلق البديع الكمال .

والعلماء المحدثون يذكرون النقاط الخمس الآتية :

- ١ - وجود مراحل ستة للخلق عموماً .
- ٢ - خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .
- ٣ - تعدد السماوات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .
- ٤ - وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .
- ٥ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث والدخان على حسب القرآن : للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى .

فالعلماء المحدثون يرون أن الكون كله كان كرة ملتهبة ، ويمرور الزمن انفصلت منها الأرض ، والسماء والفضاء والهواء .

وكانت الأرض صماء لا تنبت ، والسماء كانت رتقاء ليس بها أسباب المطر ، والرتق ضد الفتق .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .** (الأنبياء : ٣٠)

وقد جاء في تفسير المنار جزء ١٢ ص ١٦ :

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة لا فتق ولا انفصال ، وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم وبلغه القرآن بالدخان .

فَفَتَقْنَاهُمَا . بفصل بعضها عن بعض ، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض . « .

وجاء في تفسير : فتح القدير للشوكاني :

إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .

قيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ، وقيل : من أيام الآخرة ، وقيل : هذه الأيام أولها الأحد وآخرها الجمعة ، وهو سبحانه قادر على خلقها فى لحظة واحدة ، يقول لها : كونى ؛ فتكون ، ولكن لكل شئ عنده أجل .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

« ليس ببعيد أن يكون لهذا الوجود فلك يدور فيه ، وأن يكون لهذا الفلك مركز ، وأن يكون العرش هو مركز هذا الوجود ، وهى جميعها من خلق الله وفى يد القدرة » (١٥) .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية فى القرآن الكريم وذكر الاستواء فى سبع آيات . مثل قوله تعالى : **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .** (طه : ٥)

وقوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ .** (الزمر : ٣)

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله تعالى ، بلا كيف ولا انحصار ، ولا تشبيه

ولا تمثيل ؛ لاستحالة اتصافه سبحانه بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به . **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** . (الشورى : ١١)

وأنة يجب الإيمان بهذه الآيات كما وردت ، وتفويض العلم بحقيقتها إليه تعالى .

قال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعاً على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه عن ظاهره - أى : الاستواء على العرش ، (أو الجلوس على كرسى الملك) لاستحالاته ، فالله خالق العرش ومدبره والعرش محتاج إليه .

قال الإمام الففال : المراد : أنه استقام ملكه ، وأطرد أمره ، ونفذ حكمه تعالى فى مخلوقاته ، والله تعالى دلّ على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم ، واستقر فى قلوبهم ، وتنبيهها على عظمته وكمال قدرته ، وذلك مشروط بنفى التشبيه ويشهد بذلك **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ** .
ويكون المعنى : استولى على نظام الكون ودبر شئون الملك .

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

الاستواء : هو العلو والاستقرار ، والله أعلم بكيفية ذلك ، بل على الوجه الذى يليق بجلاله تعالى .

والعرش : هو سرير الملك ، عن أم سلمة : الكيف غير معقول ، الاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجدود كفر .

وعن مالك أن رجلاً سأله : كيف استوى على العرش ؟ فقال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ! هـ .

وأريد أن أشرح هذه الجملة ، بأن الكيف غير معقول ، أى : أن يجلس الله على كرسى الملك كما يجلس البشر . والاستواء غير مجهول ، أى : الاستيلاء والقهر .

والإيمان بأن الله استوى على العرش واجب ، والسؤال عنه بدعة ؛ لأن السلف آمنوا بالآية دون سؤال على أنها دليل على سعة الملك وكمال القدرة وأن الله مالك الملك ومدبر شئونه .

يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ ^(١٦) يَطْلُبُهُ حَيْثَا .

أى : يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه .

يَطْلُبُهُ حَيْثَا . أى : حال كون الليل طالباً للنهار طلباً سريعاً لا يفتر عنه بحال .

وقد قال تعالى فى آية أخرى : يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ . (الزمر : ٥)

أى : كل من الليل والنهار يطلب الآخر طلباً سريعاً .

« وهكذا النهار والليل فى دورة الفلك ، حيث تدور الأرض حول نفسها ، تحت سلطان الشمس مرة كل يوم من الغرب إلى الشرق .. وفى تلك الدورة اليومية يتناسخ كل من الليل والنهار ، أى : ينسخ كل منها الآخر ، وذلك بتحريك الأرض شيئاً فشيئاً ، بحيث يكون دائماً نصفها المقابل للشمس نهائياً ، والنصف الآخر ليلاً ، ففى كل لحظة ، ضوء ينسخ ظلاماً ، ويلبسه ، ويغشيه .. فالظلام الذى يخيم على الأرض شئء أصيل ، والضوء الذى يلبسها كائن جديد داخل عليها ، الظلام منسوخ ، والضوء ناسخ له ^(١٧) » وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . (الإسراء : ١٢)

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .

قرأ الجمهور بنصب الشمس والقمر والنجوم على أنها معطوف على خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . فى أول الآية .

أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، أى : وهى كائنات مسخرات بأمره لا سلطان لأحد من الناس عليها ولا سلطان لها على نفسها ولا فضل لها من ذاتها ومن هنا لا تصح عبادتها ، ولا ينبغى أن يتعلق مخلوق بمخلوق مثله وينشد الرزق منه .

وَمُسَخَّرَاتٍ . منصوبة على أنها حال من الشمس والقمر والنجوم . وقرأ أبو عامر بالرفع فى جميعها على الابتداء والخبر مسخرات .

أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

الخلق : إيجاد الشئ من العدم .

والأمر : التدبير والتصرف والتسخير على حسب الإرادة ، فالمخلوقات كلها جميعاً صنعة الخالق ، وحركاتها وسكناتها كلها بتقدير الله وبأمره .

تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . كثر خيره وإحسانه وتعاضمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .

٥٥- ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .

التضرع : الضراعة والتذلل والابتهال والرغبة إليه تعالى يقال : ضرع فلان ضراعة . أى : خضع ونذل وخضع .

الخفية : الإسرار والتواورى وعدم الجهر بالدعاء .

والمعنى : ادعوا ربكم فى تضرع وتذلل وخشوع ، واستتار وخفية : فإنه سبحانه وتعالى سميع يسمع الدعاء ويوجب المضطر ويكشف السوء ، وهو القادر على إيصال الإجابة إليكم .

والدعاء روح العبادة : لأنه يشتمل على معان رئيسة فى الإيمان : إذ محتواه أن مخلوقاً ضعيفاً يسأل رباً قوياً بيده الخلق والأمر .

وللدعاء آداب منها :

التوبة النصوح ، والاستغفار ، والصلاة على النبى محمد ﷺ ، وألاً يدعو بقطيعة رحم ، وأن يتخير أدعية القرآن والسنة ، وما روى عن السلف الصالح ، وأن يتخير الأوقات الفاضلة مثل : وقت السحر فى الثلث الأخير من الليل ، وأن يختم الدعاء بالصلاة على النبى ﷺ ، وألاً يبالغ فى الجهر ، وألاً يطول الدعاء .

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : أربعوا على أنفسكم - أى : ارفقوا بها وأقصروا من الصباح - فإنكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً ، إنه معكم ، إنه سميع قريب ، تبارك اسمه وتعالى جدّه ^(٥٨) .

وهكذا نجد الأدب الإسلامى يتمثل فى الدعوة إلى إتقان العمل ، والبعد عن الرياء ، وإخلاص العمل لوجه الله ، وخفض الصوت فى الدعاء .

قال الحسن بن على رضى الله عنهما : إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم ، وذلك أن الله تعالى يقول : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . وذلك أن زكريا نادى ربه نداء خفياً ^(٥٩) .

إنَّه لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . أى : المجاوزين لما أمروا به فى الدعاء وفى كل شيء ، ومن الاعتداء فى الدعاء ، كأن يسأل الداعى ما ليس له كالخلود فى الدنيا ، أو إدراك ما هو محال فى نفسه ، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به غير خاشع فيه .

روى أبو داود فى سننه : أن سعد بن أبى وقاص سمع ابنًا له يدعو ويقول :

اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوًا من هذا . وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها ؛ فقال له : يا بنى ، إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء» ثم قرأ سعد هذه الآية: ادْعُوا رَبَّكُمْ قَضَعًا وَخُفْيَةً .. وإن بحسبك أن تقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل^(١٠).

٥٦- وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ... الآية .

« الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها أشد قبحًا من الإفساد على الإفساد ، فإن وجود الإصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه ، فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه؟ ولذلك حُصَّ بالذكر وإلا فالإفساد مذموم ومنهى عنه فى كل حال...»^(١١)

وقال الشوكانى فى فتح القدير :

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ . يقتل الناس ، وتخريب منازلهم ، وقطع أشجارهم ، وتغوير أنهارهم ، ومن الفساد فى الأرض : الكفر بالله والوقوع فى معاصيه ، وإلغاء العمل بالشرائع بعد تقررهما وانتظامهما . ١ هـ . والجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الإفساد ، كإفساد النفوس والأموال ، والأنساب ، والعقول والأديان .

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا .

أى : وادعوه خائفين من عقابه ، طامعين فى رحمته وإحسانه .

إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ .

أى : إن رحمته تعالى وإنعامه على عباده قريب من المتقين ؛ لأعمالهم المخلصين فيها ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

فمن أحسن فى أمور عبادته ؛ نال عليها الثواب الجزيل .

ومن أحسن فى أمور دنياه ؛ كان أهلاً للنجاح فى مسعاه .

ومن أحسن فى دعائه ؛ كان جديرًا بالقبول والإجابة ، وفى الآية تنبيه للمؤمن بأن يكون بين الخوف والرجاء ، يخاف من غضب الله وعقوبته ، ويرجو عفوه ورحمته ، وتُشير الآية إلى تغليب جانب الرجاء على الخوف .

قال تعالى : **وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** .

والخوف والرجاء جناحان يطير بهما المؤمن فى ملكوت الرضا والأنس بالله ، وإذا غلب الخوف وزاد؛ صار يأساً ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

وإذا غلب الرجاء بدون عمل ؛ صار طمعاً بدون إحسان العمل وفى الأثر : « ألا وإن أقواما غرتهم الأمانى ، خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نُحَسِّنُ الظن بالله وكذبوا على الله لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

٥٧- **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا فَقَالَا سُبْحَٰنَهُ لَوْلَا سُبْحَٰنُهُ لَكِدْ مِيتَ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ ... الآية .**

بُشْرًا . أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .

بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ . أى : أن الرياح تتقدم نزول المطر وهو رحمة .

سَحَابًا فَقَالَا . غيماً حافلاً بالمطر .

والمعنى: أن الله تعالى ينعم على عباده بالعديد من النعم ، وهو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول الغيث والمطر ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً قد ثقلت بالماء الذى تحمله ، ساق الله ذلك السحاب إلى بلد مجذب لا نبات فيه ولا مرعى ، فأنزل الماء بذلك البلد .

فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

فأخرج الله بهذا الماء من جميع الثمار التى تناسب تربة البلد الذى نزل به على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه .

كَذَلِكَ نَخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أى : مثل إخراج الثمرات نخرج الموتى من القبور يوم حشرهم ، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم بدليل ملزم .

فحيث أمكن بقدرة الله تعالى إخراج الثمر على تلك الصورة العجيبة ، فما الذى يعجزه عن إخراج الموتى من قبورهم .

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . تذييل قصد به الدلالة على التدبر والتفكير .

أى : لعلكم تعجبون بما وصفنا لكم ، فتعلمون عظمة قدرة الله ويديع صنعته وأنه قادر على بعثكم .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن :

« في الآية الكريمة عرض لمظهر من مظاهر قدرة الله ، وما تحمل هذه القدرة إلى الناس من رحمة . فهذه الرياح ، يرسلها رُسل رحمة إلى الناس ، حيث تحمل السحاب مثقلاً بالماء ، فتسوقه إلى الأرض الجديب ، والبلد الميت ، ثم تنزل ما حملت من ماء ، فتسيل به الوديان ، وتجري منه العيون ، وإذا هذا الجديب ، وذلك الموات ، حياة تدب في أوصال الكائنات ، من جماد ونبات وحيوان ، تلك بعض مظاهر القدرة القادرة ، تلبس الجماد ثوب الحياة ، وتخرج من الأرض الجديب زروعاً ناضرة ، وثماراً دانية القطوف ، مختلفة الطعوم . فهل تعجز هذه القدرة ، عن إحياء الموتى ، ونشر الهامدين من القبور ؟ ذلك ما لا يقول به عاقل ...»^(١٧)

٥٨- وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكَبًا .. الآية .

قال في اللسان : النكد : قلة العطاء ، وعطاء نكد : أى : عطاء قليل لا جدوى منه ، ورجل نكد : شؤم عسر .

أى : الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وأفيًا حسنًا تاماً غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره .

والتربة الخبيثة ، كالأرض السبخة لا يخرج نباتها إلا نكدًا : أى : قليلاً عديم الفائدة .

فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب ، والنائى عنه بالبلد الخبيث .

وفيه بيان أن القرآن يثمر في القلوب التى تشبه الأرض الطيبة التربة ، ولا يثمر في القلوب التى تشبه الأرض الرديئة السبخة .

كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ .

أى : مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم . نُصَرِّفُ الْآيَاتِ . أى : نردها ونكرها ونوضحها .

لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ . نعمة الله : فيتفكرون فيها ويعتبرون بها .

من كتب التفسير :

قال أبو السعود في تفسيره :

« وهذا كما ترى مثلاً لإرسال الرسل عليهم السلام بالشرائع ، التى هى ماء حياة القلوب إلى المكلفين ، المنقسمين إلى المقتبسين من أنوارها ، والمحرومين من مغنم آثارها »^(١٨) .

وقال الزمخشري في تفسير الكشاف :

وهذا مثل لمن ينجح فيه الوعظ والتذكير من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك ، وعن مجاهد: آدم وذريته منهم خبيث وطيب ، وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبئت ، والكافر بخلاف ذلك ، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر ، وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد .

من البخاري ومسلم :

روى الشيخان عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا أو سقوا وزرعوا . وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ . فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم .

ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » (١٨) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠ ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١ ﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢ ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لَيْسَ ذِكْرُكُمْ وَلَنْتَقُوا وَلَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ٦٣ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ٦٤ ﴿

المضردات :

قال الملا : الأشراف والرؤساء يملئون العيون مهابة .

أنصح لكم : أتحرى ما فيه صلاحكم قولاً وفعلأ .

على رجل : على لسان رجل .

لينذركم ، الإنذار : إخبار مع تخويف من العقوبة بخلاف التبشير فإنه إخبار بحصول شيء سار .

الفسلك ، السفينة يذكر ويؤنث .

قومًا صميين ، عمى القلوب عن الحق والإيمان .

التفسير :

٥٩- لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

تهديد :

سورة الأعراف مكية حافلة بالدعوة إلى الله ، وإنذار المكذبين ، وسوق الأدلة الباهرة على مظاهر القدرة الإلهية ، وقد تفننت في طرق هذه الدعوة . وفيما سبق من آيات لغت الأنظار إلى آثار رحمة الله ، في خلق الكون وإعمار الأرض ، وإرسال الرسل ، وتسخير السحاب والمطر ، وهداية من عنده استعدادًا للهداية .

وفي الأجزاء الباقية من السورة نتحدث عن رسالات الأنبياء السابقين ، حديثًا وسطًا بين الإيجاز والإسهاب ، فتتحدث عن رسل الله نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، ثم تتحدث حديثًا طويلًا عن موسى وجهاده مع بنى إسرائيل .

والقصص في القرآن الكريم يخدم فكرة السورة ، ويؤكدُها ، ويعرضها بطريق آخر ، هو طريق لغت النظر إلى القدوة والأسوة ، فإذا كُذِّب قوم نوح نوحًا ثم أصابهم الطوفان بالغرق ، فإن هذه رسالة موجهة إلى أهل مكة تدعوهم إلى الإيمان ، وتحذّره عاقبة الكفر والطغيان .

كذلك في هذا القصص مواساة للرسل وللمؤمنين ، وبيان أن طريق الدعوات حافل بالمخاطر والتضحيات ، ولكن العاقبة للمتقين ، والهلاك للظالمين ، ففي سائر هذا القصص ينجي الله الرسل ويهلك المكذبين .

قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ... الآية .

نوح عليه السلام أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم ، وكان بأرض العراق ، وقيل : إن إدريس قبل نوح .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحًا : ليدلّهم على طريق الرشاد .

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآيات : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبّد الأصنام : أن قومًا صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوّروا صور أولئك الصالحين فيها :

ليتذكروا حالهم وعبادتهم ، فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تهادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودًا ، وسواعًا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرًا .

فلما تفاقم الأمر ؛ بعث الله - تعالى - رسوله نوحًا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له . ١ هـ .

وقد عرضت قصة نوح فى عدد من السور التى عرضت لذكر الأنبياء ، كما ذكر فى سورة خاصة به وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاثة وأربعين موضعًا . فهو نموذج لدعوة طويلة .

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

ونوح هو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ وهو إدريس النبى عليهما السلام .

قال ابن عباس : بعث نوح على رأس أربعين سنة من عمره وليث يدعو قومه ٩٥٠ سنة وعاش بعد الطوفان ٢٥٠ سنة فكان عمره ١٢٤٠ ألفًا ومائتين وأربعين سنة .

وقد افتتن نوح فى عرض أدلة التوحيد ، بيد أن قومه احتجوا عليه بأن أتباعه من الفقراء والأراذل ، واشتروا عليه أن يبعد الفقراء والسوقة من الناس إن أراد أن يدخل الأغنياء والعظماء فى دعوته ، ولكن نوحًا شرح لهم أن هداية السماء عامة للناس ، وبأى وجه يطرد الفقراء بعد أن آمنوا بالله واتبعوا هدى السماء ؟

فقال قومه : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (هود : ٢٢)

ودعا نوح ربه أن يهلك الكافرين ، فأمره الله أن يصنع سفينة النجاة ، وأن يحمل معه من كل زوجين اثنين ، كما يحمل معه من آمن به ، وكان عدد المؤمنين قليل « قيل : كانوا أربعين رجلًا وأربعين امرأة ، وقيل تسعة : أبناؤه الثلاثة وستة ممن آمن به »^(١) .

ولما جاء الطوفان أغرق الله الكافرين ونجى الله نوحًا ومن معه من المؤمنين .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

أرسل الله نوحًا إلى قومه وعشيرته وأقاربه ومن يقيم بينهم ، فقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازًا للمجاورة .

فدعاهم نوح إلى عبادة الله وحده فهو سبحانه المستحق للعبادة وليس هناك إله سواه .

أى : اعبدوه ؛ لأنه لم يكن لكم إله غيره حتى يستحق منكم أن يكون معبودًا .

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : إن لم تعبدوه : أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، أو عذاب يوم الطوفان .

٦٠ - قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

الْمَلَأُ : أشرف القوم ورؤسائهم ، سَمُوا بذلك : لأنهم يملئون العيون مهابة .

أى : قال الأشرف والعظماء لنوح : إنا نراك فى ضلال واضح : إذ تأمرنا بترك عبادة آلهتنا وداؤنا ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، وتطلب منا عبادة الله وحده .

وهكذا حال الفجار يرون الأبرار فى ضلال ، كقوله تعالى : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . (المطففين : ٢٢)

إلى كثير من الآيات كقوله تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ . (الأحقاف : ١١)

والرسول الكريم حريص على سلامة قومه ، ضنين بهم أن تغتالهم الضلالة أو يفتك بهم الكفر .

٦١ - قَالَ يَاقَوْمِ كَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَكَيْسَ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : قال نوح لقومه مستملاً لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شيء مما يسمى بالضللال ، لكنى أحمل لكم الهداية والرسالة والهدى .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين : « وقد جاءت لكن هنا أحسن مجيء : لأنها بين تقيضين : لأن الإنسان لا يخلو من أحد شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تجامع الضلال ، ومن رب العالمين . صفة الرسول ﷺ . اهـ .

أى : لست ضالاً ، ولكنى أحمل مشعل الهداية وأبلغ رسالات السماء ورسالتى تأتى من عند الله تعالى .

٦٢ - أُنَبِّئُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَصْحُكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

إنه هنا يعدد وظيفة الرسول وهى :

١ - تبليغ الرسالة والوحى ، وسماها رسالات : لاشتمالها على الأوامر والنواهى ، والمواعظ ، والزواجر ، والمعاملات ...

٢ - إخلاص النصيحة .

والفرق بين تبليغ الرسالة والنصح هو أن تبليغ الرسالة معناه : أن يعرفهم جميع أوامر الله ، ونواهيه وجميع أنواع التكليف التى كلفهم الله بها .

وأما النصح فمعناه : أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهي والعبادات ، ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه .

٣- وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . أى : أعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى أشياء لا علم لكم بها : لأن الله قد خصنى بها . فإذا تبعتم رسالتى : سرتم فى طريق النور والهدى . وقريب من ذلك قول إبراهيم لأبيه :

يَأَبْتِ إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا . (مريم : ٤٣)

جاء فى تفسير ابن كثير للآية :

وهذا من شأن الرسول أن يكون مبلغًا نصيحًا ، ناصحًا عالمًا بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات .

كما جاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعًا :

أيها الناس ، إنكم مسئولون عني ، فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد^(٣٦) .

٦٣- أَوْ عَجِيتُمْ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

كان قوم نوح يستكثرون عليه الرسالة ، ويرون أنه دعى لا رسول وقد حكى القرآن عنهم ذلك : فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . (المؤمنون : ٢٤)

إنَّ الحسد الذى تمكن فى قلوب العظماء ، والغيرة والكبر الذى منعه من اتباع نوح ، مع أنه بشر مثلهم فهو أقرب إليهم ، وقد تطف نوح فى بيان أعماله .

ومعنى الآية :

أُستبعدتم أو أُنكذبتم وأنكرتم وعجبتم ، أن جاء وحى وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفونه
ليس من جنس آخر كالملائكة والجن فتنفروا منه ، بل هو بشر مثلكم تأمنون به ، وهو رجل منكم تعرفونه
منذ نشأ لا ضالاً ولا كذاباً .

يقدم لكم الإنذار، ويحثكم على التقوى ، حتى تفوزوا برحمة الله .

يُنذِرُكُمْ وَلِتَقْوُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

جاء في حاشية الجمل : وهذا الترتيب فى غاية الحسن لا من المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار
التقوى ، ومن التقوى الفوز بالرحمة .

٦٤ - فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

كانت هذه الآية خاتمة القصة هنا فقد بذل نوح وسعه فى تبليغهم الرسالة ، ومناقشة أفكارهم
الخاطئة ، ولكنهم تعاملوا عن دعوته ورسالته ، فلم ينظروا إليها بعيونهم ولم يفقهوها بقلوبهم ؛ فأمره الله
أن يركب السفينة التى صنعها ؛ ونجاه فيها هو ومن معه من المؤمنين .

وأغرق الله الذين كذبوا نوحاً من الكافرين . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ .

وَعَمِينَ . جمع عم ، وهو الأعمى يقال : عمى عمى ، فهو أعمى ، وأصل عم : عام صيغة مبالغة من اسم
الفاعل مثل : حاذر وحذر ، وهذا يعنى : أن العمى الذى عليه القوم ليس عمى طبيعياً ، وإنما هو تعام عن
الحق ، ومبالغة فى هذا التعامى .. فهو عمى البصيرة وليس عمى البصر^(١٧) .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ آبَعْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَنْقَوْنَ ﴿٦٥﴾
 قَالَ أَمْلَأُ الذِّبْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا نَزَّلْنَاهُ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
 الْكَذِبِيِّينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾
 أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتَ أَنَّ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
 عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
 فِي الْخَلْقِ بَصۜطَةً ۖ فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ
 وَحَدُّهُ مَوْزَنٌ مَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزِّلْنَا بِمَا تَعَدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعِزْظٌ ۖ ائْتِجِدُوا لِيَنفِثَ فِي سَمْعَائِهِ
 سَمَيْتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ ۖ فَانْظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ
 الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا
 بِعَايِنُنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ۝

المفردات :

وإلى عاد : أي : وأرسلنا إلى عاد .

قال الملا : الأشراف والرؤساء الذين يملئون العيون بمهابتهم .

سفاهة : خفة عقل وضلالة عن الحق .

على رجل : على لسان رجل .

ليُنذِرَكُمْ : الإنذار : هو الإخبار مع تخويف من العاقبة .

بصۜطة : قوة وعظم أجسام .

آلاء الله : نعمه وفضله الكثير .

رجس : عذاب أو رين على القلوب .

عِزْظ : لعن وطرده أو سخط .

قطَّعْنَا دَايِرَ : أهلكنا آخر والمراد : أهلكنا الجميع .

٦٥ - وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

قصة نبي الله هود

أقامت عاد بالأحقاف ما بين اليمن وعمان ، فى نعمة ورغد وزراعة ويساتين وقصور عالية وسعة ورفاهية ، وقد أرسل الله إليهم نبي الله هود ، يذكرهم نعم الله عليهم ، وما منحهم من بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم ، وسائر النعم التى أنعم الله بها عليهم .

وبين لهم هود أنهم لم يشكروا خالقهم ، بل عبدوا أصناماً وسجدوا لها ، ثم إنهم أفسدوا فى الأرض ويطش القوى بالضعيف .

ودعاهم هود إلى عبادة الله والإقلاع عن عبادة الأصنام : فاتهموه بالسفاهة والطيش ، وظنوا أن الآلهة قد أصابته بسوء أو مس من الجنون .

فأخبرهم هود أنه غير سفيه ، ولكنه رسول من رب العالمين ، يذكر قومه القيامة والبعث والحساب والجزاء .

قالوا : هيهات هيهات ويعيد جداً وقوع هذا البعث أو الجزاء ، إن هى إلا حياتنا الدنيا ، ولا حياة بعدها ، وإن كنت صادقاً فأرنا هذا العذاب الذى تهددنا به ، فسخر الله عليهم ريحاً حسوماً خلعت خيامهم وكسرت رقابهم ، وأهلك الله جميع الكافرين ونجى جميع المؤمنين .

قال تعالى : وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزَ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

ذكرت قصة عاد فى سورة الأعراف وفى سور أخرى منها : سورة هود ، والشعراء ، والأحقاف ، والحاقة .

والمعنى : وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً ، أى : واحداً من قبيلتهم فهو أخوهم نسباً ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية .

فدعاهم إلى توحيد الله وتقواه ، فقال : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ . فهو سبحانه الإله الواحد :

فاتركوا عبادة الأصنام والأوثان .

وتذكروا قوم نوح فقد أغرقهم الله .

أَفَلَا تَتَّقُونَ . أَيْ : أَفَلَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ فَتَتَّعِدُوا عَنْ طَرِيقِ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ : لَتَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ .

٦٦ - قَالَ أَلْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَالَهُ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

أَيْ : قَالَ الْأَغْنِيَاءُ وَالْوُجَهَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ هُودَ ، إِنَّا لَنَرَاكَ مَتَمَكِّنًا فِي خُفَةِ الْعَقْلِ رَاسِخًا فِيهَا حَيْثُ هَجَرْتَ دِينَ قَوْمِكَ إِلَى دِينِ آخَرَ .

وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . أَيْ : يَتَضَحَّ لَدِينَا كَذِبُكَ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ .

٦٧، ٦٨ - قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ .

رَدُّ نُوْحٍ عَلَى قَوْمِهِ فِيمَا سَبَقَ حِينَ قَالَ : يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأعراف : ٦١) .

وهنا ردُّ هُودَ عَلَى قَوْمِهِ فِي هُدُوِّهِمْ وَحَلْمِ فَقَالَ لَهُمْ : يَا قَوْمِي وَيَا أَسْرَتِي وَعَشِيرَتِي ، لَيْسَ بِي أَى نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ السَّفَاهَةِ أَوْ خُفَةِ الْعَقْلِ وَالطِّيْشِ كَمَا تَزْعُمُونَ ، وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أُبَلِّغُكُمْ دَعْوَةَ اللَّهِ .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف : وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام ، على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة ، بما أجابوا به في الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم من أضل الناس وأسفهم - في إجابتهم هذه أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله عز وجل ذلك تعلم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم اهـ .

وكما سبق أن تعجب قوم نوح من أن يكون نوحاً رسولاً من البشر ، نجد أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة .

٦٩ - أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ... الْآيَةُ .

أَيْ : أَكُذِبْتُمْ وَتَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَتْكُمْ هِدَايَةُ اللَّهِ وَرِسَالَتُهُ ، عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْكُمْ ، تَعْرِفُونَ صَدَقَهُ وَنَسَبَهُ وَحَسَبَهُ ؟

إن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة ، فقد اقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم ، من يرشدهم إلى الطريق القويم . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ . (الأنعام : ١٢٤) .

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ .

أى : جعلكم سكان الأرض بعد هلاك قوم نوح ، أو جعلكم ملوكاً مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح ، الذين أغرقوا بالطوفان .

وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً .

أى : زادكم فى المخلوقات بسطة وسعة فى الملك والحضارة ، أو زادكم بسطة فى قوة أبدانكم ، وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الاستخلاف وتلك القوة أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

«والبسطة فى الخلق : الزيادة فى بناء الجسد وقوته ، وهذه نعمة من نعم الله ، إذا صادفت عقلاً راشداً ، وقلباً سليماً»^(١٩) .

فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى : تذكروا نعم الله عليكم ، حيث جعلكم سكان الأرض بعد هلاك قوم نوح ، أو جعلكم ملوكاً ، فاشكروا نعم الله عليكم ؛ حتى يزيدكم من نعمه ويكون لكم الفلاح والنجاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

٧ - قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : أقصدتنا بدعوتك لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ، وبأن نترك الأصنام والأوثان التى كان يعبدوها آبائنا إنا لن نطيعك ونتحداك فائتتنا بالعذاب الذى تتوعداً به إن كنت من الصادقين فيما تخبر به .

٧١ - قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ... الآية .

الريجس . والرجز : العذاب الشديد .

وَوَغَضِبَ . أى : وانتقام منكم جزاء كفركم .

أى : قال هود لقومه : قد استحققت عذاب الله وغضبه فهو واقع بكم لا محالة ، جعل ما هو متوقع كالواقع ، تنبيهاً على تحقق وقوعه .

أَتَجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمَّ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ... الآية .

أى : أتخاصموننى فى شأن أسماء الأصنام وهى أشياء سميتموها ليس تحتها مسميات ؛ لأنكم

تسمونها آلهة مع أن معنى الألوهية فيها معدوم ومُحال وجوده؛ إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شيء، أما هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة، فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا.

مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .

أى: ما أنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها، أو فى كونها شفعاء عند الله، وإنما هى أصنام باطلة قدّتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير.

فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ .

أى: فانتظروا ما طلبتموه من العذاب؛ فإننى معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة، بسبب شرككم، وتكذيبكم لرسالة الله.

٧٢ - فَأَنجِيَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

أرسل الله سبحانه سوداء على عاد قوم هود فاستبشروا بها قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ ... (الأحقاف: ٢٤، ٢٥).

وكان العذاب الذى أخذهم الله به ريحا عاصفة شديدة البرد، دمرت ديارهم وأشجارهم، وكانت تحمل الحجارة فتقذفها فى وجوههم وتحملهم فتضربهم بالأرض.

قال تعالى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفَمَايَةَ آيَاتٍ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ لِيهَا صَرَغِي كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَبَلَّ تَرَى لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ . (الحاقة: ٦ - ٨).

نِجَاجُ هُودٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ :

نجى الله هوداً ومن آمن به كمرثد بن سعيد، وقطع دابر الكافرين، أى: أهلكهم هلاكاً عاماً يستأصلهم عن آخرهم، بالريح العقيم، ما تذر فى شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وكان هذا بسبب كفرهم.

وفى قوله تعالى: وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ إشارة إلى أنهم لن يكونوا أبداً من المؤمنين، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . (يونس: ٩٧).

خلاصة من تفسير أبي السعود :

وقصة عاد أنهم كانوا باليمن بالأحقاف ، وكانوا قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان إلى حضرموت ، وكانت لهم أصنام يعبدونها : صداً وصموداً وإلهياً . فبعث الله تعالى إليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً فكذبوه وازدادوا غتاً وتجبراً : فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ... فأظهر مرثد بن سعيد إسلامه ، وآمن يهود عليه السلام ، وأصرت عاد على الكفر والعناد فأرسل الله عليهم الريح العقيم فأهلكتهم . اهـ .

قال ﷺ : «نصرت بالصبا وأهلك عاد بالدين»^(١٩) .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْإِلْمِ ۖ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ شُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۖ﴾^(٧٦)
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۖ﴾^(٧٧)
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۖ﴾^(٧٨) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانِمَا عِدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ﴾^(٧٩)
 فَآخَذَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنَاحِمٍ ۖ﴾^(٨٠) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكْفُرُونَ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِرِسَالَةٍ فَتَوَلَّيْتُمْ عَنْهَا فَلَوْلَا إِتْقَانُ اللَّهِ لَكُمْ قَلِيلٌ ۖ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصْحَ ۖ﴾^(٨١)

المضردات :

نَاقَةُ اللَّهِ : خلقها الله من صخر لا من أبوين .

آيَةً : معجزة دالة على صدقي .

بِؤَاكُم ، أَسْكَنْكُمْ وَأَنْزَلَكُمْ .

هِيَ الْأَرْضُ ، أَرْضَ الْحَجَرِ بَيْنَ الْحِجَازِ وَالشَّامِ .

سَهْوَتُهَا ، أَرْضُهَا الْمُنْبَسِطَةُ .

لَا تَعْتَثُوا ، لَا تَفْسُدُوا إِفْسَادًا شَدِيدًا .

هَعَقَرُوا النَّاقَةَ ، ذَبَحُوهَا ، يُقَالُ : عَقَرَهَا يَعْقَرُهَا : ذَبَحَهَا .

صَتُوا ، اسْتَكْبَرُوا وَجَاوَزُوا الْحَدَّ ، يُقَالُ : عَتَا يَعْتَوُ عَتَوًا وَعَتِيَا : اسْتَكْبَرَ وَتَعَدَّى .

الرَّجْفَةُ ، الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ أَوْ الصَّيْحَةُ .

جَاثِمِينَ ، مُتَبَلِّدِينَ بِالْأَرْضِ ، وَهَذَا مَعْنَاهُ : خَامِدِينَ هَامِدَى الْحَسِّ ، فَعْلُهُ : جَثَمَ يَجْثُمُ جَثُومًا .

هَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ .

التفسير ،

تهديد في قصة نبي الله صالح وقومه ثمود :

أرسل الله صالحاً إلى قومه ثمود في أعقاب هلاك عاد قوم نبي الله هود .

وكانت عاد تسكن في جنوب الجزيرة ، بين اليمن وعمان ، وكانت ثمود تسكن في شمال الجزيرة بين الحجاز والأردن في طريق تبوك ، وقد مرَّ النبي ﷺ على منازلهم في طريقه إلى غزوة تبوك ، فاستحثَّ راحلته وحني ظهره ، وقال لقومه : « لَا تَمُرُّوا عَلَى قَرَى الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُشْفِقُونَ ؛ خَشْيَةُ أَنْ يَصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

وبدأ صالح بدعوته إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام وقابله قومه بالكذب والعناد .

فذكرهم بما بين أيديهم من النعم حيث قال لهم : أَتُنْكِرُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ * فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلُوعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . (الشعراء : ١٤٦ - ١٥٢) .

واقترح القوم عليه أن يأتيهم بآية ومعجزة تدل على صدقه : فأخرج الله من بين الجبال ناقة كاملة الخلقة كبيرة الحجم ، تشرب الماء في يوم ، ثم تقف فيحلب منها الجميع ، ما يملأ أوانيهم ويكفي جميع حاجاتهم .

وحذَّره نبي الله صالح من إيذاء الناقة أو الاعتداء عليها ، ولكن العناد جعلهم يوجهون انتقامهم إلى الناقة ، فانطلق الأشقياء وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، واستعجلوا عذاب السماء ، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بهذا العذاب إن كان صادقاً .

فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مَهْلِكًا جَزَاءَ عَدْوَانِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ ، وَفِي سُورَةِ الشَّمْسِ وَضَحَاهَا . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشَّمْسُ : ١١ - ١٥) .

وهي آيات مختصرة سهلة تختتم بالآلف اللينة تبين عناصر الموضوع :

فقد كذبت ثمود رسولها ، فجددت رسالته ، ثم طغت وبغت وحذَّرها رسولها وقال لها : هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فِدَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ . فهي ناقة الله أي هي آية من عند الله ، ولكن القوم ركبهم العناد والظلم ، فعقروا الناقة وعثوا عن أمر ربهم ، فأهلكهم صالح ثلاثة أيام ! علَّهم أن يتوبوا ، ثم أهلكهم الله وهو سبحانه قادر على ذلك ، ولا يخاف من عاقبة إهلاكهم .

وقد ذكرت قصة صالح مع قوم ثمود في سورة هود الآيات ٦١ - ٦٨ والأعراف ٧٣ - ٧٩ والشعراء ١٤١ - ١٥٩ والنمل ٤٥ - ٥٣ والقمر ٢٣ - ٣١ والشَّمْسُ ١١ - ١٥ .

وفيه عناصر قصة قرآنية متكاملة تمرُّ كالآتي :

- ١ - رسول ينصح ويبلغ ويذكّر .
 - ٢ - قوم يكذبون ويكفرون ويعاندون .
 - ٣ - آية ومعجزة تؤيد الرسول .
 - ٤ - عناد وجدال وتكذيب وعدوان .
 - ٥ - هلاك من السماء للكافرين ، ونجاة للرسول والمؤمنين .
- وهذه من أهداف القصة في القرآن الكريم وأهم أهداف القصة القرآنية ما يأتي :
- ١ - إثبات الوحي والرسالة وبيان أن الدين كلُّه من عند الله .
 - ٢ - بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة واحدة .
 - ٣ - بيان أن الله ينصر رسله في النهاية .
 - ٤ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم .
 - ٥ - بيان قدرة الله على الخوارق .
 - ٦ - بيان عاقبة الاستقامة والصلاح ، وعاقبة الانحراف والإفساد .
 - ٧ - تثبيت قلب النبي ﷺ .

٨ - سوق العظة والعبرة من القصة . قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (يوسف : ١١١) .

موضوع يحتاج إلى تحقيق :

يذكر بعض الكتاب أن ثمود نشأت في أعقاب عاد وقد ورثت أرضها ، ويستأنسون بقوله تعالى :

وَإِذْ كُنَّا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ . (الأعراف : ٧٤) .^(٧٠)

وعند التحقيق نجد أن عادًا كانت في جنوب الجزيرة بين اليمن وعمان ، وأن ثمود كانت في شمال الجزيرة بين الحجاز والأردن في طريق تبوك .

فثمود لم تكن في أرض عاد ، ولعل الله قد استخلف ثمود في أرضها في شمال الحجاز ، بعد هلاك عاد في جنوب الحجاز ، أو أنهم ورثوا خلافة الأرض والسيطرة عليها أو زعامة المنطقة .

وزمان عاد وثمود كان قريبًا ، وربما هلكت عاد في حياة ثمود فأراد الله أن يذكرهم بهلاك أقرانهم ، وأن يقول لهم : انكروا ملككم وخلافتمكم في الأرض بعد هلاك عاد ، وتملككم القصور والبساتين ، والنعيم ، فحافظوا على ذلك ولا تبطروا ولا تكفروا ؛ حتى لا يهلككم الله كما أهلك قبيلة عاد .

التفسير :

٧٣ - وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَلَّذُّوْهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ... الآية .

أى : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم في النسب والموطن ، صالحًا عليه السلام فأمرهم بعبادة الله الذى خلق الخلق لعبادته وأخبرهم أن العبادة لا تصلح إلا لله وحده ، وهذان الأمران هما خلاصة دعوة الرسل كما قال تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ . (النحل : ٣٦) .

قد جاءكم معجزة من الله تدل على صدقى ، وهى إخراج الناقة من الحجر الصلد ، واتركوها حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

«أى : دعوها تأكل فى أرض الله ؛ فهى ناقة الله والأرض أرضه فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه» .

وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ .

الناقة ناقة الله ، والأرض أرض الله ، هو الذى أنبت النبات والمرعى بها وساق إليها الماء .

وقد نصحهم نبي الله صالح بعدم التعرض للناقاة بسوء ، أى : عدم إصابتها بأى أذى ، وفيه تنبيه بالآدنى على الأعلى ؛ لأنه إذ كان قد نهاهم عن مسها بسوء ، إكراماً لها ، فمنهم من نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى .

وجملة **فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** . وعيد شديد لهم إذا عقروا الناقاة ، وتحذير لهم ؛ حتى لا ينزل بهم العذاب الأليم .

٧٤ - **وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ... الآية .**

أى : انذكروا نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لبقيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم بسبب طغيانهم وشركهم ، ثم جعلكم ملوكاً متصرفين فى أرض الحجر التى كانوا يسكنونها وهى بين الحجاز والشام ، قال تعالى : **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ * وَعَاقِبْنَاهُمْ عَائِيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يُتَخَوَّنُ مِنَ الْجِبَالِ يَئُوتُوا أَمِينًا * فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** . (الحجر : ٨٠ - ٨٤) .

وتفيد آيات القرآن أنهم كانوا فى رغد من العيش ، ونعمة واسعة ، ومسكن جميلة ، ودور عالية .

تَتَخَلَّوْنَ مِنْ سُوءِهَا فَصُورُوا وَتَنَحَّوْنَ الْجِبَالَ يَبُوتًا ...

قيل : إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء ؛ لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء .

أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل .

فهم يتخذون فى السهول القصور والدور الجميلة ، وينحتون فى الجبال البيوت ، فهم فى حضارة عمرانية ، واضحة المعالم ، وقد تمتعوا بهذا النعيم فى فصول العام ، ولذلك ذكّرهم صالح بأنعم الله عليهم فقال : **فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** .

أى : تذكروا نعم الله عليكم حيث متعكم بالزراعة والقصور والبيوت المنحوتة فى الجبال ، فلا تغرنكم النعمة ، ولا تسيروا فى طريق البطر والجحود ، ولا تكثرُوا الفساد فى الأرض ؛ فإن النعمة تحتاج إلى شكر لمن أنعم بها . وشكر النعمة : هو استخدامها فيما خلقت له .

٧٥ - **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَّ مِنْهُمْ أَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ... الآية .**

أى : قال الرؤساء المستكبرون من قوم صالح للمستضعفين الذين استضعفهم المستكبرون .

قالوا على سبيل الاستهزاء والسخرية :

أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ... إليكم لعبادته وحده لا شريك له وهو سؤال قصد منه المترفون تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ؛ لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالِحًا مرسل من ربه وإذا وجدنا المؤمنين لا يردون بمقتضى الظاهر وهو : إننا نعلم أن صالِحًا مرسل من ربه ؛ بل تضمن الجواب قولهم : لسنا فقط نعلم صدقه ، بل نؤمن به ونتبعه ونطيع أمره ، وهو جواب يدل على شجاعتهم فى الجهر بالحق ، وعلى قوة إيمانهم وسلامة يقينهم .

٧٦ - قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ .

لقد أعلنوا موقفهم فى عناد و صلف و جحود ، فقالوا : إننا بما آمنتم به كافرون ، يرغبون فى تهديدهم والاستخفاف بهم .

٧٧ - فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

لقد خالفوا رسولهم واعتدوا على الناقة، وانبعث أشقاهم ففقرما وقتلها، وكان ذلك برضاهم وموافقتهم، ولذلك نسب إليهم ، وقد فعلوا ذلك عن عتو واستكبار ، وتعمد وإصرار على ارتكاب المنكر ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ . أى : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، من العتو وهو النبؤأى : الارتفاع والتكبر عن الحق .

يقال : عتا يعتو عتيا ؛ إذا تجاوز الحد فى الاستكبار فهو عات وعتى .

وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

بعد قتلهم الناقة واستكبارهم ، تحدوا صالِحًا وقالوا : أنزل بنا العذاب الذى تتوعدا به إن كنت رسولا حقا .

٧٨ - فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

الرَّجْفَةُ : الزلزلة الشديدة .

جَاثِمِينَ : ساقطين على وجوههم .

والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرَّجْفَةُ أى : الزلزلة الشديدة التى وصفت بالصيحة وبالطاغية ؛

لأنها انتقام من الله تعالى : فَأَمَّا تَمُودُ فَأُهْلِكَوْا بِالطَّاغِيَةِ . (الحاقة : ٥) .

فأصبحوا فى ديارهم جائعين مقلوبين على وجوههم كما يجثم الطائر على الأرض أو كما يبرك البعير هامداً لا يتحرك .

كذلك هؤلاء المكذبين صاروا لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم ميتين لا حراك بهن .

٧٩ - قَتَرْنِي عَنْهُمْ وَفَلَّيَ يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ .

فأعرض عنهم نبيهم صالح ، أو ذهب عن أرضهم مولياً لهم ظهره عند اليأس من إيجابتهم ، ونفض يده منهم ، وتركهم للمصير الذى جلبوه لأنفسهم ، وأخذ يقول متحسراً على ما فاتهم من الإيمان والسلامة من العذاب .

يَقُومُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي كَامِلَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِالْتَّرْغِيبِ تَارَةً وَبِالتَّرْهيبِ أُخْرَى ، وَلَكِنْ كَانَ شَأْنُكُمْ بَغْضَ النَّاصِحِينَ وَعَدَوَاتِهِمْ ، ثُمَّ مَضَى صَالِحٌ فِي طَرِيقِهِ مَعَ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَتَرَكَ هَؤُلَاءِ جَثُومًا هَامِدِينَ .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ طَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحْشَاءَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ
يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عِقَبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

المضردات :

ووسطا ، أى : وأرسلنا لوطا .

الفاحشة : الفعلة القبيحة ، يقال : فحش يفحش فحشاً : أتى بعمل قبيح ، والفاحشة هنا المراد بها : إتيان الذكور .

يتطهرون ، يدعون الطهارة مما نأتى .

الغايبرين ، الباقين فى العذاب كأمثالها ، والغابر : يطلق على الباقي والماضى ، يقال : غبر يغبر غبورا مكث ، وذهب ، وهو فى الأفعال التى لها معنيان متضادان .

قصة لوط عليه السلام

لوط عليه السلام ابن هاران بن آزر هو ابن أخى إبراهيم وقد رحل إبراهيم عن مصر واصطحب معه فى سفره لوطاً ، ورجعا من هذه البلاد بمال كثير وخير موفور ، ونزلا بتلك الأرض المقدسة ، ثم ضاقت بأنعامهما بقعة الأرض التى نزل بها ، فنزح لوط عن ديار عمه إبراهيم ، واستقر به المقام فى مدينة سدوم ، قرب الأرض المقدسة ، قرب البحر الميت وقد كان أهلها لا يتعففون عن منكر ، وكانوا من أفجر الناس وأقبحهم سيرة ، يقطعون الطريق ، ويخونون الرفيق ، ويتريصون لكل سائر ، فيجتمعون عليه فى كل حذب وصوب ، ويسلبونه ما حمل ، ثم يتركونه يندب حظه ، ويبكى ضياع ماله .

ثم ابتكروا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، فكانوا يأتون الذكران ، ويتركون ما خلق الله لهم من النساء ، وذهبوا يحملون الناس على ذلك ، ويجعلونه أمراً مألوفاً فى المنتديات والمجمعات .

وقد أوحى الله إلى لوط أن يدعوهم إلى عبادته سبحانه وتعالى ، وينهاهم عن اقتراف هذه الجرائم ، فنهض لوط عليه السلام بدعوته ، وحذّره من العدوان على الآخرين ، وبين لهم ضرر الشذوذ الجنى ، فالرجل ليس مكان الحرث ، والمرأة خلقها الله تعالى ؛ لتكون موضع شهوة الرجل ، وليكون ذلك وسيلة إلى إعمار الكون وتوالد الذرية .

وهكذا أخذ لوط ينكر على قومه سلوكهم ، ويدعوهم إلى التطهر والاستقامة ، ويبين لهم عاقبة الانحراف ، والخروج على نظام الفطرة الإلهية ، لكن القوم كانوا سادرين فى غيهم ، يعتبرون سلوكهم تقدماً ، وسلوك غيرهم تطهراً وتأخراً ، وقرّروا طرد لوط ومن آمن به من بلدهم ؛ لأنهم قوم يتطهرون .

فدعا لوط ربّه ، أن ينزل بهم ما يستحقون من العذاب .

ملائكة السماء :

أرسل الله الملائكة إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد سألهم إبراهيم عن وجهتهم فأخبروه أنهم فى طريقهم إلى قرى قوم لوط لإرسال حجارة عليهم .

وهى حجارة من سجيل (أى : من صوّان) ، وهى سجيل ولكنها منضودة (أى : مهيأة ومعدة لهم ، فى أحجام منتظمة) وهى منضودة ، ولكنها مسومة (أى : معلمة ، يعرف كل حجر منها أنمكان الذى يقع عليه والأثر الذى يحدثه) .

ونجّى الله لوطاً ومن آمن به ، وأهلك زوجته مع الهالكين الغابرين ، الذين أصابتهم الغبرة وهى التراب ، وتركهم عظة وعبرة لكل خارج على هدى الله رب العالمين .

وقد وردت قصة لوط في السور الآتية :

الأعراف ٨٠ - ٨٤ ، النمل ٥٤ - ٥٨ ، هود ٧٧ - ٨٣ ، العنكبوت ٢٦ - ٣٥ ، الشعراء ١٦٠ - ١٧٥ ، الحجر ٥٧ - ٧٧ ، الصافات ١٣٣ - ١٣٨ ، الأنبياء ٧٤ ، الحج ٤٣ ، ق ١٣ ، القمر ٣٣ - ٣٩ .

عناصر القصة في القرآن الكريم :

إذا قرأنا قصة لوط في عشر سور في القرآن الكريم سبق ذكرها وجدنا أن عناصر القصة كالآتي :

- ١ - ارتكاب قوم لوط للفاحشة والعدوان على الآخرين .
- ٢ - رسالة لوط إليهم ودعوتهم إلى توحيد الله ، وإلى ترك الشذوذ .
- ٣ - مقاومة قوم لوط واضطهادهم للمؤمنين .
- ٤ - استغاثة لوط بالله تعالى .
- ٥ - إرسال الملائكة تطلب من لوط أن يخرج مع قومه من هذه القرى الظالمة ، ولا يلتفت إليهم متعطفاً أو مسترحماً .
- ٦ - إرسال العذاب بحجارة من صوان صوبت إلى كل فرد ، وقلب الله القرية فجعل عاليها سافلها ، وأهلكها بالعذاب .
- ٧ - جعل الله ذلك عظة وعبرة لكل ظالم .

آيات من قصة لوط في القرآن الكريم :

قال تعالى : **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْقِ آلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ زَكِيٌّ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ * مَسْمُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ .** (هود : ٧٧ - ٨٣) .

من سورة الشعراء :

كَتَبْتُ قَوْمَ لُوطٍ الْغَرَسِيِّينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُكُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (الشعراء : ١٦٠ - ١٧٥).

ولقد كان القرآن الكريم حكيماً مريباً مرشداً معلماً للبشرية حتى تتجنب طريق الشذوذ المهلك ، ومعروف أن بعض الدول الأوربية أباحت الشذوذ بين البالغين الذين يزيد عمرهم عن ٢١ عاماً ، وأباحت بعض الدول الزنا إذا كان برضى الطرفين ولم تكن إحداهما زوجة .

ثم انتشر وباء الإيدز وهو نقص المناعة المؤدى إلى الموت . وقد ارتفعت البشرية وتعالى الصيحات بالبعد عن الشذوذ ، وعن الزنا ، ووجوب الاكتفاء برجل واحد ولزوجة واحدة ، وكان البشرية تعود إلى طريق القرآن وهدى الرحمن ، الذى حرم الشذوذ ، وحرّم الزنا ونهى عنه حيث قال تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . (الاسراء : ٣٢) .

٨٠ - وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ .

أى : وأرسلنا لوطاً إلى قومه بقرية سدوم ، بقرب بيت المقدس ، فقال لقومه : أتتركبون تلك الفعلة التى بلغت النهاية فى القبح والفحش ؟! والتى ما فعلها أحد قبلكم فى زمن من الأزمان ؟ فأنتم أول من ابتدئها فعليكم وزرها ووزر من عملها إلى يوم القيامة . والاستفهام هنا للإنكار ، أى : أتتركبون فاحشة اللواط ، وهو شذوذ عن الفطرة لم يفعله أحد من قبلكم ؟!

قال عمر بن دينار : «ما نزا ذكر على ذكر حتى كان من قوم لوط»

وقال الوليد بن عبد الملك : «لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً» .

٨١ - إِنَّكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

لقد انتكستم فى فطرتكم : فقد خلق الله الشهوة فى الرجل ليتجه بها نحو المرأة حتى يتم الامتاع النفسى والجنسى ويترتب على ذلك إعمار الكون والتناسل ووجود الذرية .

لكن قوم لوط اتجهوا بشهوتهم إلى أديار الرجال ، وكانت لذتهم فى ذلك ، وتركوا النساء فلم يقوموا بواجبهم نحوهم ، وهذا لؤى من الإسراف والخروج عن الاعتدال البشرى ، وعن مقتضى الفطرة إلى الإسراف فى قضاء اللذة مع الرجال دون النساء .

إنهم مرضى بالشذوذ ، فقد تركوا المرأة التى خلقها الله لقضاء الوطر وإنجاب الذرية ، واتجهوا بشهوتهم إلى نكاح الرجال عدواناً وإسرافاً !.

٨٢ - وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ .

كان الأمل أن يستجيبوا لدعوة لوط عليه السلام ، وأن يستمعوا لداعى الهدى ، لكنهم أصروا على ضلالهم ، كما هو ديدن الشطار والدُّعَار ، وتواصوا بأن يطردوا لوطاً ، ومن آمن به ، من قرية سدوم ؛ لأنهم يتطهرون عن الوقوع فى اللواط وعن العدوان على الآخرين .

وهو منطق أعرج وسبيل أعوج ، أن يستنكفوا عن الهدى ثم يُصِرُّون على إخراج الشرفاء الأطهار ؛ ليبقى لهم الملوثون الممسوخون .

فهم يسخرون بالمؤمنين ، ويتطهرون من الفواحش ، ويفترون بما كانوا فيه من القذارة واللواط .
وصدق الله العظيم : أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .

٨٣ - فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أنجى الله لوطاً وأهله المؤمنين ، وأهلك امرأته مع الهالكين .

قالوا : ولم يؤمن بلوط سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى : فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ . (الذاريات : ٣٥ ، ٣٦) .

وقوله : إِلَّا امْرَأَتَهُ استثناء من أهله ، أى : فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجاها ؛ لخبيثها وعدم إيمانها .

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به بل كانت على دين قومها ، تماثلهم عليه ، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفائه ؛ بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ؛ ليسرى بأهله - أمر ألا يعلمها ولا يخرجها من البلد .

٨٤ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى : وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيب أمره ، فقد كان المطر حجارة من طين متجمد ، قد أعد كل حجر لشخص معين ، كأنما سجل عليه اسم من يهلك به .

وجعل الله أعلى القرية أسفلها ؛ لأنهم قلبوا الأوضاع ، وأتوا الرجال دون النساء ، فقلب الله قريتهم حيث جعل أعلاها أسفلها ، ثم أمطر على المجرمين حجارة من طين متجمد .

فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى : فانظر أيها العاقل نظر تأمل وتدبر واتعاط فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش ، واحذر أن تعمل أعمالهم ؛ حتى لا يصيبك ما أصابهم .

وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول» (٣٧) .

وزهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقي من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .

وزهب بعض العلماء إلى أنه يرمج سواء أكان محصناً أو غير محصن (٣٨) .

من تفسير أبى السعود :

قيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن ، وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة ، فأمر الله عليهم الكبريت والنار ، وقيل : خسف بالمقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم ، وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم ، وروى أن تاجراً منهم كان فى الحرم فوقف الحجر له أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه .

وروى أن امرأة لوط التفتت نحو ديارها فأصابها حجر فماتت (٣٩) .

الإسلام دين الفطرة ،

قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ . (البقرة : ٢٢٢ ، ٢٢٣) .

روى مسلم فى صحيحه : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يسكنوا معها فى بيت واحد ، فأسأل الصحابة النبى ﷺ فأنزل الله الآية ، فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شىء إلا النكاح»^(٧١).

وتفيد الآية : وجوب ترك الجماع بين الزوج وزوجته فى أيام الحيض ، والحيض دم ينفضه رحم بالغة لأداء بها ولا حبل ولا تبلى سن اليأس وهو سن ٥٥ سنة غالباً .

وجماع الحائض يترتب عليه أضرار صحية جمّة للرجل والمرأة ، وتصاب المرأة بأضرار أكثر من الرجل ، ولهذا أمر الله الرجل بترك جماع الزوجة الحائض . ودم الحيض أقله ثلاثة أيام وأوسطه خمسة أيام وأكثره سبعة أيام فإذا انقطع دم الحيض ، ثم اغتسلت المرأة ؛ أباح الجماع فى الفرج .

وفى الحديث الشريف : «إن الله لا يستحبى فى الحق ، لا تجماعوا النساء فى حشاشتهن»^(٧٢) أى : فى أدبارهن وفى الحديث النبوى الشريف : «ملعون من أتى امرأته من دبرها ، ملعون من عمل عمل قوم لوط»^(٧٣).

والمرأة التى تجماع فى دبرها يكون عند أولادها لين واستعداد لأن يفعل بهم ما فعل بأبهم . ولهذا حرم الله جماع المرأة فى دبرها . وهذا الأمر محرم تحريماً قاطعاً عند أهل السنة وعند الشيعة مكروه كراهة تحريم . وقد جاء فى تفسير ابن كثير :

أن أهل مكة كانوا يستمتعون بالمرأة مقبلة ومدبرة وعلى جنبها وعلى قفاها ويلزؤون المرأة لئلاً ، أى : أنهم يستمتعون بالمرأة فى حالات كثيرة من حالات الجماع ، لكن كله فى القبل وهو مكان الحرث .

فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة تزوج رجل من المهاجرين امرأة من الأنصار . وكانت الأنصار تجاور اليهود ، واليهود لا يجامعون المرأة إلا على حالة واحدة وهى أستر ما تكون عليه المرأة . أى : عندما تكون المرأة مستقبلة على ظهرها ، وزوجها فوقها .

فلما أراد أحد المهاجرين أن يستمتع بزوجه الأنصارية فى حالات كثيرة من الجماع امتنعت عليه ، ثم ذهبت فأخبرت السيدة عائشة زوج النبى ﷺ ، ولما أخبرت عائشة النبى عليه الصلاة والسلام أنزل الله الآية ٢٢٣ من سورة البقرة ، وهى تجعل المرأة مكان الحرث فالحرث ينبت الزرع الذى يقيم حياة الإنسان ، والمرأة تنبت الولد الذى يعمر الحياة ، ويباح للزوج جماع زوجته كيف شاء ، ومن أى جهة شاء ، من خلف ومن قدام ، وبإرادة ومستقلة ومضطجعة إذا كان فى موضع الحرث .

وبهذا نرى أن الإسلام كان ديناً وسطاً وهو دين الفطرة السليمة ، فقد أباح للزوج الاستمتاع بالحائض ما عدا الجماع فى الفرج ، فإذا طهرت المرأة الحائض واغتسلت ؛ أباح للزوج الاستمتاع بزوجه

فى أى وضع من أوضاع الجماع مادام الجماع فى الفرج وهو مكان الحرث ، كما حرم الإسلام جماع الزوجة فى دبرها ؛ حفاظاً على سلامة الفطرة ، وحتى تولد أجيال سليمة بعيدة عن الشذوذ .

إن اللواط مرض نفسى ، وشذوذ عن الفطرة ، وسبب فى أمراض فتاكة ، وإن الإسلام أباح التمتع والأخذ بنصيب وافر من زينة الدنيا ومتعة الحياة بين الرجل والمرأة على السواء مع الاعتدال والسلامة والتوسط وفى الحديث الشريف : «وفى يضع أحدكم صدقة» .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَ تَكُمْ بَيْنَتَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ ۖ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

وإلى مدين أخاهم شعيباً ، أى : وأرسلنا إلى مدين أخاهم (شعيباً ابن ميكيل بن يشخر بن مدين) .

قد جاء تكم بينة ، البينة : الدليل ، ويريد بها هنا المعجزة التى كانت له .

هاؤفوا الكيل والميزان ، أى : أوفوا الكيل ووزن الميزان ويصح أن يكون الميزان مصدراً بمعنى : الوزن كالميعاد بمعنى : الوعد .

ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى : ولا تنقصوهم حقوقهم . يقال : بخسه حقه يبخسه بخساً أى : نقصه .

ولا تفسدوا ، الإفساد : شامل لإفساد نظام المجتمع بالظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وإفساد الأخلاق ، والآداب بارتكاب الإثم والفواحش ، وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام .

فى الأرض بعد إصلاحها، إصلاح الأرض : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعرمان ، المحسنة لأحوال المعيشة .

صراط : طريق . جمعه : صُرُط وأصله : سراط .

توعدون : أى : تهددون وتخوفون .

وتصدون : أى : تمنعون ، يقال : صدَّه يصدُّه ويصدُّه صدًّا وصدودًا : منعه .

تبغونها صوجًا : تطلبونها معوجة أو ذات اعوجاج .

فكثركم : أى : بما بارك فى نسلكم .

فكرة ميسرة عن نبى الله شعيب

كان أهل مدين يسكنون أرض معان ، من أطراف الشام تمتد أرضهم شرقى وغربى خليج العقبة (٣٧).

وكانوا يكفرون بالله ويشركون به ؛ إذ عبدوا الأوثان من دونه (وهى : الشجر الكثيف الملتف) وصاروا يخسرون الناس أشياءهم ويطففون الكيل والميزان ؛ فأرسل الله إليهم نبيّه شعيباً فدعاهم إلى توحيد الله تعالى وأمرهم بالعدل وعدم تطفيف الكيل والميزان ، ولكنهم قاوموه وجادلوه :

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخَالِفْكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ • وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ هِنَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ • وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ
وَدُودٌ • قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْنَا كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِزٌّ
يَا قَوْمِ أَزْهَقْتُمُونِى أَنْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَرَأَيْتُمْ ظَهْرِي إِنْ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُّحِيطٌ • وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ
إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ • وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ • كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بَعْدًا
لِّمَذْنِينَ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ . (هود ٨٧ - ٩٥) .

عناصر القصة

- ١ - قوم مدين يكفرون بالله ويطففون الكيل والميزان ويفسدون في الأرض .
- ٢ - يرسل الله إليهم نبيه شعيباً فيدعوهم إلى توحيد الله ويحذّرهم من المخالفة .
- ٣ - قوم مدين يجادلونه ويناقشونه ويقولون : كيف يتركون عبادة ما كان يعبد آباؤهم ؟ وكيف يتركون تطفيف الكيل وفي هذا نقص لأموالهم ؟!
- ٤ - شعيب يوضح لهم بأنه يحمل هداية السماء ويدعو الإنسان إلى طاعة الرحمن ويذكره بواجباته فالشيطان حريص على امتلاك الإنسان في العبادة وفي الأعمال .
- ٥ - ويذكرهم شعيب بما أصاب الأمم السابقة مثل : قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط .
- ٦ - ويدعوهم إلى الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله ويحرّك فيهم عناصر الخير ، ويقاوم عوامل الشر .
- ٧ - يتحججون بأنهم لا يفقهون كلامه ، ولا يعقلون دعوته وهكذا الطغاة والجبارون لم تنتهياً نفوسهم لتقبل كلام الهداة والمرسلين .
- ٨ - وفي النهاية تأتي عدالة السماء ، فقد أرسل الله عليهم الرجفة العاتية فأهلكتهم وغلبت كبريائهم وتعنتهم وأصبحوا في ديارهم جاثمين هالكين .
- وهكذا يقصُّ الله علينا من قصص القرآن ويحرّك دواعي الهدى ، وما يحبى ذكرى الأنبياء السابقين ويمجد ذكراهم ، وما ينبئ عن أخبار السابقين وهلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين .

التفسير:

٨٥ - وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ .

شعيب يأتي يوم القيامة خطيباً للأنبياء ، فقد كان قوياً الحجة بليل اللسان ، حكيم القول ، وهو هنا يدعوهم إلى عبادة الله وحده فهو الإله الحق وليس هناك إله غيره ، فكل ما عداه من الآلهة ، آلهة بغير حق .

ومع شعيب معجزة من الله ، وقد أعطى الله كل نبي معجزة تؤيده وأعطى محمداً ﷺ وحى السماء ، وهو القرآن الكريم ومحمد ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة ^(٧٨) .

وقد دعا قومه إلى عدد من المكارم ونهاهم عن عدد من المفساد فدعاهم إلى ما يأتى :

١ - وفاء الكيل والميزان وهذه عادة من أفضل العادات تؤدى إلى ثقة الأمة وتكافئها ، وتطفيئ الكيل والميزان يؤدى إلى غضب السماء وفى الحديث الشريف : «ما طفف قوم المكيال والميزان : إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور الحكام»^(٧٩) .

٢ - وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .

أى : لا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم فى بيع أو شراء أو حق مادى أو معنوى .

روى أن قوم شعيب كانوا إذا دخل عليهم الغريب يأخذون دراهمه ، ويقولون: هذه زيوف ، فيقطعونها، ثم يشترونها منه بالبخس أى : بالنقصان .

وتلمح أن كل نبى دعا إلى توحيد الله ، ثم عالج الأمراض الخلقية فى قومه كما عالج لوط الشذوذ الجنسى ، فإن شعيباً عالج تطفيئ الكيل والميزان وأنواع الفساد الأخرى التى إذا فشت فى أمة : قضت عليها وأزالت ملكها وعزها .

٣ - وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .

لقد أصلح الله الأرض ، واستخلف الإنسان فيها لعمارتها ، وأرسل إليه الرسل وأنزل الكتب ودعا سبحانه إلى الخير ونهى عن الشر .

وعقوبة المفسد تكون أشد وأكبر إذا أفسد بعد أن رأى بعينه طريق الإصلاح ميسراً معيلاً مع من سبقه .

وقال الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى :

إنه تعالى أصلح حال البشر بنظام الفطرة ، ومكنهم فى الأرض بما آتاهم من القوى العقلية وقوة الجوارح ، وبما أودع فى خلق الأرض من سنن حكيمة ، وقوانين مستقيمة ، وبما بعث به الرسل من المكملات لنظام الفطرة من آداب وأخلاق ونظم فى المعاملات والاجتماع ، وبما أرشد إليه المصلحون من العلماء والحكماء ، والذين يأمرون بالقسط ويهدون الناس إلى مافيه من صلاحهم فى دينهم ، والعالمون من الزراع والصناع والتجار أهل الأمانة والاستقامة ، الذين ينفعون الناس فى دنياهم ، فعليكم ألا تفسدوا فيها ببغى، ولا عدوان على أنفسى والأعراض والأخلاق بارتكاب الإثم والفواحش ولا تفسدوا فيها بالفوضى وعدم النظام وبث الخرافات والجهالات التى تقوض نظم المجتمع ، وقد كانوا من المفسدين للدين والدنيا كما يستفاد من هذه الآية وما بعدها^(٨٠) .

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . أَيْ : ذلكم الذى تقدم من عبادة الله والوفاء بالكيل والميزان ، وترك البخس والإفساد فى الأرض ، خير لكم فى الإنسانية ، وحسن الأحذوثة وهو خير لكم فى الدنيا والآخرة ، إن كنتم مؤمنين بالله ومصدقين برسالتى إليكم .

والبشر لم يصلوا فى عصر من العصور إلى ما وصل إليه أهل هذا العصر من العلم بالمنافع والمضار، ومع هذا فالعلم وحده لم ينفعهم ؛ فكثر الجرائم من قتل وسلب وإفساد وفسق وفجور .

فخير وسيلة للإصلاح هو حسن تربية الناشئة وإقناعهم بمنافع الفضائل كالصدق والأمانة والعدل وإقناعهم بمضار الرذائل ؛ لأن الوازع النفسى أقوى من الوازع الخارجى .

٨٦ - وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

نهاهم فى هذه الآية أيضًا عن عدد من المفاسد مما يدل على أنهم كانوا عتاة فى إجرامهم ، وقد روى عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة وكان الناس يمترون منهم ، فكانوا يقعدون على الطريق ويخوفون الناس أن يأتوا شعبيًا ، ويقولون لهم : إنه كذاب فلا يفتنكم عن دينكم .

وفى الآية نهى لهم عن ثلاثة أشياء :

١ - قعودهم على الطرقات التى توصل إلى شعيب مخوفين من يجيئه؛ ليرجع عنه قبل أن يراه ويسمع دعوته.

٢ - صدّهم من وصل إليه وآمن به بصرفه عن الثبات على الإيمان ، والاستقامة على الطريق الموصلة إلى سعادة الدارين .

٣ - ابتغائهم جعل سبيل الله المستقيمة معوجة بالطمع واللقاء الشبهات المشككة فيها أو المشوهة لها .

وَادْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ .

أَيْ : اذكروا إذ كنتم مقلّين فقراء فجعلكم كثيرين موسرين ، أو إذ كنتم أدلّة قليلي العدد فأعزكم بكثرة العدد والعدد .

وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

أَيْ : انظروا نظرة عبرة واتعاط لما أصاب المفسدين المكذبين من الأمم قبلكم من قوم عاد وثمود وقوم لوط .

٨٧ - وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

أى : وإن اختلفتم فى رسالتى ، فصرتم فريقين : فريق صدقوا بالذى أرسلت به من إخلاص العبادة لله وترك معاصيه من ظلم الناس وبخسهم فى المكايل والموازين ، واتبعونى فى ذلك .

وجماعة أخرى لم يصدقونى وأصروا على شركهم وإفسادهم .

فاصبروا على قضاء الله الفاصل بيننا وبينكم ، وهو خير من يفصل وأعدل من يقضى : لتنزله عن الباطل والجور .

جاء فى فتح البيان للعلامة صديق حسن خان :

وهذا فى باب التهديد والوعيد الشديد لهم ، وليس هو من باب الأمر بالصبر على الكفر ، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين ^(٨١) ومثله قوله تعالى : **فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ** . (التوبة : ٥٢).

وقال الأستاذ سيد قطب ، فى ظلال القرآن :

لقد دعاهم إلى أعدل خطة ، ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك أن يتراجع وراءها خطوة .. نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كلِّ وما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للإيمان فى الأرض وجود ممثل فى جماعة من الناس ، لا تدين للطاغوت ، إن وجود جماعة مسلمة فى الأرض ، لا تدين إلا لله ، ولا تعترف بسلطان إلا سُلطانها ، ولا تحكم فى حياتها شرعاً إلا شرعها ، ولا تتبع فى حياتها منهجاً إلا منهجها - إن وجود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ، حتى لو انعزلت هذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى مواعده .

إن الطواغوت يفرض المعركة فرضاً على الجماعة المسلمة ، حتى لو أثرت هى ألا تخوض معه المعركة ، إن وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل ، وهذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع الباطل ، إنها سنة الله لا بد أن تجرى ^(٨٢) .

خاتمة

يختم الجزء الثامن بهذا المقطع فى قصة شعيب مع قومه مدين ، وفيه صراع بين الإيمان والكفر ، واعتزاز الكفر بالجبروت والقوة ، وفى النهاية ينصر الله المؤمنين ، ويهلك الكافرين ، وهذه ظاهرة نلمحها فى سورة الأعراف ، التى بدأت بإنذار الكافرين ، ثم قدمت دعوة لبنى آدم ؛ ليحذروا من الشيطان .

ثم قدمت قصص عدد من الرسل مع قومهم ، فذكرت قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وقد شاهدنا هلاك المكذبين ، وانتصار المؤمنين ، وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وفى هذا القصص عظة وعبرة ، وتثبيت لدعائم الإيمان ، وإحياء لذكرى المرسلين وجهادهم .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

اللهم ، وفقنا للسير على سنن العدل والرشاد .

اللهم ، اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهاب غمنا وحزننا ، اللهم علمنا منه ما جهلنا ونكرنا منه ما نسينا وارزقنا تلاوته على النحو الذى يرضيك عنا .

اللهم ربنا ، آتنا من لدنك رحمة وهى لنا من أمرنا رشداً .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

كان الفراغ من هذا الجزء الثامن عشية يوم الخميس ٣٠ ذو القعدة ١٤١١ هـ الموافق ١٣ يونيو ١٩٩١ م بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان .

اللهم ربنا ولك الحمد والشكر حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، اللهم ، ارزقنا الإخلاص والقبول ، اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۚ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثامن)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن :

رواه النسائي في الاستعاذة (٥٥٠٧) من حديث أبي ذر قال دخلت المسجد ورسول الله ﷺ فيه فجلست إليه فقال يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس قلت أو للإنس شياطين قال نعم . ورواه أحمد في مسنده (٢١٧٨٥) من حديث أبي أمامة قال كان رسول الله ﷺ في المسجد جالسا وكانوا يظنون أنه ينزل عليه فأقصدوا عنه حتى جاء أبو ذر فاقترحم فأتى فجلس إليه فأقبل عليه النبي ﷺ فقال يا أبا ذر هل صليت اليوم قال لا قال قم فصل فلما صلى أربع ركعات الضحى أقبل عليه فقال يا أبا ذر تعوذ من شر شياطين الجن والإنس قال يا نبى الله وهل للإنس شياطين قال نعم شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ثم قال يا أبا ذر ألا أعلمك من كنز الجنة .. الحديث .

(٢) تفسير الألوسي .

(٣) لا أشك ولا أسأل :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رضى الله عنه فى قوله : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ . قال : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : لا أشك ولا أسأل . وقال أيضا: أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة عن ابن عباس رضى الله عنهما : فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ . قال : لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل . قال السيوطي فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم فى قوله : أَوْ مَن كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مِّثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ . قال: أنزلت فى عمر بن الخطاب وأبى جهل بن هشام ، كانا ميّتين فى ضلالتها فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزه وأقرأ أبى جهل فى ضلالتة وموته ، وذلك أن رسول الله ﷺ دعا فقال: «اللهم أعز الإسلام بأبى جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب». ورواه الترمذى فى المناقب (٣٦٨١) وأحمد فى مسنده (٥٦٦٣) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبى جهل أو بعمر بن الخطاب قال وكان أحبهما إليه عمر . وقال الترمذى: حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر. ورواه الترمذى فى المناقب (٣٦٨٣) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال اللهم أعز الإسلام بأبى جهل ابن هشام أو بعمر قال فأصبح فغدا عمر على رسول الله ﷺ فأسلم. وقال الترمذى: حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم فى النضر أبى عمر وهو يروى متاكير . ورواه ابن ماجه فى المقدمة (١٠٥) من حديث عائشة قالت قال رسول الله ﷺ اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة . قال البوصيرى فى الزوائد: حديث ضعيف. فيه عبد الملك بن الماجشون ، ضعفه بعض ، وذكره ابن حبان فى الثقات. وفيه مسلم بن خالد الزنجي، قال البخارى: منكر الحديث . وضعفه أبو حاتم والنسائي وغيرهم. وثقه ابن معين وابن حبان . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام فجعل الله دعوة رسوله ﷺ لعمر بن الخطاب فبنى عليه الإسلام وهمد به الأوثان . وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط بنحوه باختصار وقال أيد الإسلام ، ورجال الكبير رجال الصحيح فى غير مجالد بن سعيد وقد وثق . وذكره أيضا من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ دعا عشية الخميس فقال اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمر بن هشام فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم. وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه القاسم بن عثمان البصرى وهو ضعيف. وذكره من حديث ثوبان قال قال رسول الله ﷺ اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب وقد ضرب أخته أول الليل وهى تقرأ : اقرأ باسم ربك الذى خلق .. الحديث . وقال: رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو متروك وقال ابن عدى أرجو أنه لا بأس به ، وبقيّة رجاله ثقات .

(٤) إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل :

رواه مسلم في الفضائل (٢٢٧٦) والترمذي في المناقب (٣٦٠٥، ٣٦٠٦) وأحمد في مسنده (١٦٥٣٩) من حديث وإثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم .

(٥) نور يقذف فينشر :

قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والغريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدايني رجل من بنى هاشم وليس هو محمد بن علي قال: سئل النبي ﷺ أي المؤمنين أكيس؟ قال «أكثرهم ذكر للموت وأحسنهم لما بعده استعدادا». قال: وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ . قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال: نور يقذف فيه فينشر له وينفسح له. قالوا: فهل لذلك من أمانة يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت» .

(٦) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم في البر والصلوة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد ١٦٠/٥ ، كلاهما عن أبي ذر رضي الله عنه . وأوله عند مسلم وأحمد: يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي . وعند الترمذي: يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته . وقال: حديث حسن .

(٧) تفسير أبي السعود ١٩٠/٢ .

(٨) تفسير سورة الأنعام د. محمد سيد طنطاوي ص ٢٦٤ .

(٩) تفسير أبي السعود ١٩٢/٢ .

(١٠) مناهل العرفان في علوم القرآن ١١٢/١ تحت عنوان فوائد معرفة أسباب النزول ، الفائدة الثالثة: دفع توهم الحصر لما يفيد بظاهرة الحصر ، نحو قوله تعالى : قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْمًا .. (الأنعام : ١٤٥) .

(١١) لعن الله اليهود إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها :

رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٣) وفي أحاديث الأنبياء (٢٤٧٠) ومسلم في المساقاة (١٥٨٢) وأبو داود في البيوع (٣٤٨٨) وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨٣) والدارمي في الأشربة (٢١٠٤) وأحمد في مسنده (١٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما يقول بلغ عمر بن الخطاب أن فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها فباعوها. رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٤) ومسلم في المساقاة (١٥٨٣) وأحمد في مسنده (٨٥٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قاتل الله يهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها .

(١٢) تفسير أبي السعود ١٩٧/٢ .

(١٣) عفوا تعف نساؤكم :

نكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٤٤٣) بلفظ: عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، ويروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متحصلا فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض. ونسبه للحاكم في المستدرک عن أبي هريرة، وصححه. وقال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي، عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعا «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم». الحديث. قال الهيثمي في المجمع: وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: عفوا تعف نساؤكم، ويروا آباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شيء بلغه عنه، فلم يقبل عذره، لم يرد على الحوض» رواه الطبراني في الأوسط وفيه خالد بن زيد العمري وهو كذاب.

(١٤) لعلك به ترزق :

رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) من حديث أنس بن مالك قال كان أخوان على عهد النبي ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال لعلك ترزق به. وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١٥) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخاري في الديات ح (٦٣٧٠)، ومسلم في القسامة (٣١٦٧، ٣١٥٧)، والترمذي في الديات ح ١٣٢٢، وفي الحدود ح ١٣٦٤، والنسائي في تحريم الدم ح (٣٩٥١)، وفي القسامة ح (٤٦٤٢)، وأبو داود في الحدود ح (٢٧٨٨)، وابن ماجه و، في الحدود ح (٢٥٢٥)، وأحمد ح (٣٨٥٩، ٣٤٣٨، ٤٠٢٤)، والدارمي في الحدود ح (٢١٩٦).

(١٦) خط خطا في الأرض وقال هذا سبيل الله :

رواه الدارمي في المقدمة (٢٠٤) وأحمد في مسنده (٣٩٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال هذه سبل على كل سبل منها شيطان يدعو إليه ثم تلا : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد والبخاري وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة وفيه ضعف. ورواه ابن ماجه في المقدمة (١١) وأحمد في مسنده (١٤٧٣٩) من حديث جابر بن عبد الله قال كنا عند النبي ﷺ فخط خطا وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال هذا سبيل الله ثم تلا هذه الآية : وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . قال العراقي في تخريج الإحياء: أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(١٧) لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان :

رواه مسلم في الفتن (٢٩٠١) وأبو داود في الملاحم (٤٣١١) والترمذي في الفتن (٢١٨٣) وابن ماجه في الفتن (٤٠٥٥) وأحمد في مسنده (١٥٧٠٨) من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال ما نتذاكرون قالوا نذكر الساعة قال إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى ابن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وأحر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

(١٨) لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٦، ٤٦٣٥) وفي الرقاق (٦٥٠٦) وفي الفتن (٧١٢١) ومسلم في الفتن (١٥٧) وأبو داود في الملاحم (٤٣١٢) وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨) وأحمد في مسنده (٧١٢١) من حديث أبي هريرة قال : قال

رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

(١٩) تفسير أبي السعود ٢/٢٠٦ .

(٢٠) إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها :

رواه البخاري في التوحيد (٧٥٠١) ومسلم في الإيمان (١٢٨، ١٣٠) وأحمد في مسنده (٧١٥٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعد سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن عملها فاعتكبوها بمثلها وإن تركها من أجلها فاعتكبوها له حسنة وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاعتكبوها له حسنة فإن عملها فاعتكبوها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف . رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩١) ومسلم في الإيمان (١٣١) وأحمد في مسنده (٢٥١٥) وأحمد في مسنده (٢٧٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيها يروى عن ربه عز وجل قال إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هم هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة . رواه مسلم في الإيمان (١٦٢) من حديث أنس في أثناء ذكره لحديث الإسراء والمعراج فيه : «حتى قال يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرين ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال فنزلت حتى انتهيت إلى موسى .. الحديث» .

(٢١) قال تعالى : إِنَّمَا يُرِيدُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

(٢٢) وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً :

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١) وأبو داود في الصلاة (٧٦٠) والترمذي في الدعوات (٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣) والدارمي في الصلاة (١٢٣٨) وأحمد في مسنده (٧٣١) من حديث علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك ، وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك أمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبتي ، وإذا رفع قال اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، وإذا سجد قال اللهم لك سجدت وبك أمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت .

(٢٣) إن رحمتي تغلب غضبي :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٤) وفي التوحيد (٧٤٠٤، ٧٤٢٢، ٧٤٥٣، ٧٥٥٤) ومسلم في التوبة (٢٧٥١) والترمذي في الدعوات (٣٥٤٣) وابن ماجه في المقدمة (١٨٩) وفي الزهد (٤٣٥٩) وأحمد في مسنده (٧٤٧٦) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده غلبت أو قال سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش .

(٢٤) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم : د. عبد الله شحاتة ص ٩١ .

(٢٥) تسمى سور المفصل ؛ لكثرة الفصل بينها بالبسملة مثل : الضحى وألم نشرح ..

(٢٦) هي السور التي يكون عددها قرابة مائة آية .

(٢٧) تفسير سورة الأعراف لففضيلة الدكتور أحمد السيد الكومي والدكتور محمد سيد طنطاوي ، ص ٦ وما بعدها .

(٢٨) يؤمى بالرجل العظيم لا يزن عند الله :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال اقرءوا: فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا .

(٢٩) تفسير أبي السعود ٢/٢١٤ ، ٢١٥ ، بتصرف وانتقاء .

(٣٠) المرجع السابق ٢/٢١٦ .

(٣١) تفسير أبي السعود ٢/٢١٦ بتصرف .

(٣٢) خلق الملائكة من نور وخلق الجن :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٩٦) وعبد بن حميد في مسنده (١٤٧٧) وأحمد في مسنده (١٦٨ ، ١٥٣/٦) .

(٣٣) عبد الكريم الخطيب : التفسير القرآني للمجلد الثاني من الجزء ٥-٨ الجزء الثامن ص ٣٧٦ .

(٣٤) تفسير أبي السعود المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١ هـ ج ٣ الناشر دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ص ٢١٦ .

(٣٥) تفسير أبي السعود ٣/٢١٩ .

(٣٦) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة :

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٧٤) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧١) وأحمد في مسنده (٤٧٧٠) من حديث ابن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يعسى وحين يصيب اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتى وقال عثمان: عورأتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي .

(٣٧) تفسير فتح القدير للشوكاني ، وتفسير الألوسى .

(٣٨) زبدة التفسير في فتح القدير للإمام الشوكاني للأستاذ محمد سلمان عبد الله الأشقر الطبعة الأولى على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ص ١٩٥ ، بتصرف وإضافات .

(٣٩) انظر تفسير ابن كثير ، وأبى السعود ، وفتح القدير للشوكاني وغيرها .

(٤٠) اغسلوا أيابكم وخذوا من شعوركم واستاكروا :

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٢١٨) بلفظ: اغسلوا أيابكم وخذوا من شعوركم واستاكروا، وتزنيوا، وتغظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك: فزنت نساؤهم . ونسبه لابن عساكر عن علي وقال: ضعيف . قال المناوي في فيض القدير : قال المؤلف في الأصل: وفيه عبد الله ابن ميمون اللقاح ذاهب الحديث انتهى وللأمر بالتنظيف شواهد والمنكر قوله فإن إلى آخره . وكذا ذكره الهندي في كنز العمال (١٧١٧٥) ونسبه لابن عساكر عن علي أيضا .

(٤١) من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا ١٧١ :

رواه البخاري في الأذان (٨٥٤، ٨٥٥) وفي الأطعمة (٥٤٥٢) وفي الاعتصام (٧٣٥٩) ومسلم في المساجد (٥٦٤) وأبو داود في الأطعمة (٣٨٢٢) والترمذي في الأطعمة (١٨٠٦) والنسائي في المساجد (٧٠٧) وأحمد في مسنده (١٤٦٥١) من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال : من أكل ثوما أو بصلاً فليعتزلنا أو قال: فليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته.. الحديث . ورواه البخاري في الأذان (٨٥٣) وفي المغازي (٤٢١٥) ومسلم في المساجد (٥٦١) والدارمي في الأطعمة (٢٠٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال في عزوة خيبر: من أكل من هذه الشجرة يعني اللثوم فلا يقرين مسجدنا . ورواه البخاري في الأذان (٨٥٦) وفي الأطعمة (٥٤٥١) ومسلم في المساجد (٥٦٢) وأحمد في مسنده (٢٧٨٣٣) من حديث عبد العزيز قال : سألت رجل أنس بن مالك ما سمعت نبي الله ﷺ يقول في اللثوم ؟ فقال: قال النبي ﷺ : من أكل من هذه الشجرة فلا يقرينا أو لا يصليين معنا. ورواه مسلم في المساجد (٥٦٣) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠١٥) وأحمد في مسنده (٧٥٢٩) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من أكل من هذه الشجرة فلا يقرين مسجدنا ولا يؤذينا بريح اللثوم . ورواه مسلم في المساجد (٥٦٥) وأبو داود في الأطعمة (٢٨٢٣) وأحمد في مسنده (١١١٨٩) من حديث أبي سعيد قال لم نعد أن فتحت خيبر فوقعنا أصحاب رسول الله ﷺ في تلك البقلة اللثوم والناس جياح فأكلنا منها أكلا شديدا ثم رحنا إلى المسجد فوجد رسول الله ﷺ الريح فقال من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئا فلا يقرينا في المسجد فقال الناس حرمت حرمت فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: أيها الناس إنه ليس بى تحرير ما أحل الله لى ولكنها شجرة أكره ريحها . ورواه أبو داود في الأطعمة (٢٨٢٦) وأحمد في مسنده (١٧٧١١) من حديث المغيرة بن شعبة قال أكلت ثوما فأتيت مصلى النبي ﷺ وقد سبقت بركعة فلما دخلت المسجد وجد النبي ﷺ ريح اللثوم فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: من أكل من هذه الشجرة فلا يقرينا حتى يذهب ريحها أو ريحه ، فلما قضيت الصلاة جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله والله لتعطيني يدك قال: فأدخلت يده في كم قميصي إلى صدرى فإذا أنا معصوب الصدر قال إن لك عذرا . ورواه أبو داود في الأطعمة (٣٨٢٧) وأحمد في مسنده (١٥٨١٤) من حديث معاوية بن قره عن أبيه أن النبي ﷺ نهى عن هاتين الشجرتين وقال من أكلهما فلا يقرين مسجدنا وقال: إن كنتم لابد أكلهما فأميتوها طيحا قال: يعنى البصل واللثوم. ومالك في الموطأ كتاب وقوت الصلاة (٣٠) من حديث سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ قال: من أكل من هذه الشجرة فلا يقرب مسجدنا ويؤذينا بريح اللثوم .

(٤٢) حاشية الجمل على الجلالين .

(٤٣) تفسير أبى السعود ٢٢٤/٣ .

(٤٤) تفسير أبى السعود وتفسير ابن كثير .

(٤٥) إن الله جميل يحب الجمال :

رواه مسلم فى الإيمان (٩١) ، والترمذى فى البر والصلة (١٩٩٩) . من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة قال: إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق ، وغمط الناس . ورواه أبو داود فى اللباس (٤٠٩٢) من حديث أبى هريرة .

(٤٦) إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده :

رواه الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه أحمد فى مسنده (٨٠٤٥) من حديث أبى هريرة رفعه قال: إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ورواه أحمد فى مسنده (١٩٤٣٢) من حديث أبى رجا العطارى قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم تره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال إن رسول الله ﷺ قال : «من أنعم الله عز وجل عليه نعمة فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح بخداد يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال الهيثمى فى المجمع : وعن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سحب ثيابه لم ينظر الله إليه . فقال أبو ريجانه : والله لقد أمرضنى ما حدثتني به فو الله إنى لأحب الجمال حتى إنى أجعله فى شراك نعلى وعلاق سوطى ، أفمن الكبر ذاك؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولكن الكبر من سفه الحق وغمص الناس . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عيسى الدمشقى قال الذهبى مجهول ، ويقية رجاله رجال الصحيح .

(٤٧) الجزء الثامن ص ٤٠١ .

(٤٨) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال: لا وأنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمة فسدوا وقاربوا ولا يمتنين أحدكم الموت إما محسنا قلعله أن يزاد وإما مسينا قلعله أن يستعذب .

(٤٩) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأعراف ص ٥٦ .

(٥٠) زبدة التفسير من فتح القدير ، وهو مختصر من تفسير الإمام الشوكانى للأستاذ محمد سليمان عبد الله الأشقر ، مطابع الأنباء بالكويت ص ١٩٩ .

(٥١) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجه فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

(٥٢) رب أشعث أغبر :

رواه الترمذى فى المناقب (٣٨٥٤) وأحمد فى مسنده (١٢٦٧) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك . وقال الترمذى: حسن غريب من هذا

الوجه. ورواه ابن ماجه فى الزهد (٤١١٥) من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أخبركم عن ملوك الجنة قلت بلى قال: رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره. ورواه مسلم فى البر (٢٦٢٢) وفى الجنة (٢٨٥٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. ورواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩١٨) وفى الأدب (٦٠٧٢) مسلم فى الجنة (٢٨٥٢) والترمذى فى صفة جهنم (٢٦٠٥) وابن ماجه فى الزهد (٤١١٦) وأحمد فى مسنده (١٨٢٥٢) من حديث حارثة بن وهب الخزاعى قال سمعت النبی ﷺ يقول: ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر .

(٥٣) أنتم عتقائى فارعوا من الجنة :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى زرة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف ؟ فقال: «هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة ، فأنتم عتقائى فارعوا من الجنة حيث شئتم» .

(٥٤) تفسير أبى السعود ٢٣١/٣ .

(٥٥) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ المرحوم عبد الكريم الخطيب ٤١٣/٨ .

(٥٦) يُغشى : فعل مضارع مبنى للمجهول ولفظ الجلالة نائب فاعل ، والليل مفعول أول والنهار مفعول ثان، ويحتمل العكس ، والآية الكريمة من باب أعطيت زيداً عمراً لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشياً ومغشياً .

(٥٧) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٤١٤/٨ .

(٥٨) يا قوم أربعوا على أنفسكم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) وفى المغازى (٢٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٨٤) وفى القدر (٦٦١٠) وفى التوحيد (٧٣٨٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد فى مسنده (١٩٠٣٦، ١٩١٠٢، ١٩٢٤٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله . فقال لى: يا عبد الله بن قيس قلت لبنيك يا رسول الله . قال: ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله . فذاك أبى وأمى. قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(٥٩) تفسير ابن كثير للآية الكريمة .

(٦٠) أبو داود كتاب الدعاء .

(٦١) تفسير المنار ٤٦١/٨ .

(٦٢) التفسير القرآنى للقرآن ٤١٧/٨ .

(٦٣) تفسير أبى السعود ٢٤٣/٣ .

(٦٤) مثل ما يعنى الله به من الهدى والعلم :

رواه البخارى فى العلم (٧٩) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨٢) من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال مثل ما يعنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابها منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما يعنى الله به فعمل وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به قال أبو عبد الله : قال إسحاق : وكان منها طائفة قبلت الماء قاع يعلوه الماء والصفصف المستوى من الأرض .

(٦٥) تفسير أبى السعود ٢٣٧/٣ .

(٦٦) اللهم اشهد :

رواه مسلم فى الحج (١٢١٨) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) فى أثناء ذكر حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبى ﷺ ، والترمذى فى المناقب (٣٧٨٦) مختصرا وفيه : « .. فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون . قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات .. » الحديث .

(٦٧) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ المرحوم عبد الكريم الخطيب ٨/ ٤٢٠ .

(٦٨) التفسير القرآنى للقرآن ٨/ ٤٢١ .

(٦٩) نصرت بالصبا وأهلك عباد الديور :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤١٠٥) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال : نصرت بالصبا وأهلك عباد الديور .

(٧٠) وقد ورد هذا المعنى فى تفسير أبى السعود وفى قصص القرآن تأليف محمد أحمد جاد المولى وآخرون .

(٧١) من وجدنقوه يجعل عمل قوم لوط :

رواه الترمذى فى الحدود ح (١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٦١)، وأبو داود فى الحدود ح (٤٤٦٢)، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٦١، وأحمد ح (٢٧٢٧)، والدارمى فى السير ح (٢٤٩٠) من حديث ابن عباس .

(٧٢) د. محمد سيد طنطاوى تفسير سورة الأعراف ص ١١١ وقال أيضا راجع تفسير القاسمى ٧/ ٢٨٠٧ وتفسير الألبوسى ٧/ ١٧٢ وما بعدها .

(٧٣) تفسير أبى السعود ٣/ ٢٤٦ .

(٧٤) اصنعوا كل شيء إلا النكاح :

رواه مسلم فى الحيز (٣٠٢) وأبو داود فى الطهارة (٢٥٨) وفى النكاح (٢١٥٦) وابن ماجه فى الطهارة (٦٤٤) وأحمد (١١٩٤٥) من حديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن فى البيوت فسأل أصحاب النبى ﷺ : فأنزل الله تعالى : **وَسَأَلْتَهُمْ عَنْ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ** ... إلى آخر الآية . فقال رسول الله ﷺ : اصنعوا كل شيء إلا النكاح فبلغ ذلك اليهود . فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير .. الحديث .

(٧٥) إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء فى أديارهن :

رواه الترمذى فى الرضاع (١١٦٤) والدارمى فى الطهارة (١١٤١) من حديث على بن طلق قال: قال رسول الله ﷺ : إذا أحدث أحدكم فى الصلاة فليتوضأ ثم يمسح . وقال رسول الله ﷺ : لا تأتوا النساء فى أديارهن فإن الله لا يستحي من الحق . وقال الترمذى: حديث على بن طلق حديث حسن وسمعت محمداً يقول لا أعرف لعلى بن طلق عن النبى ﷺ غير هذا الحديث من حديث طلق ابن على السحيمى وكأنه رأى أن هذا رجل آخر من أصحاب النبى ﷺ : وروى وكيع هذا الحديث . ورواه ابن ماجه فى النكاح (١٩٢٤) وأحمد فى مسنده (٢١٣٥١) من حديث خزيمة بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ : إن الله لا يستحي من الحق - ثلاث مرات - لا تأتوا النساء فى أديارهن ..

(٧٦) ملعون من أتى امرأته فى دبرها :

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٦٢) والدارمى فى الطهارة (١١٤٤) وفى النكاح (٢٢١٣) وأحمد فى مسنده (٩٤٤٠) ، (٩٨٥٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ملعون من أتى امرأته فى دبرها .

(٧٧) الأساس فى التفسير ، تأليف سعيد حوى نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع لصاحبها عبد القادر محمود البكار . القاهرة ص.ب. ١٦١ غورية ت ٩٣٥٦٤٤ ، وحلب وبيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٥ م . المجلد الرابع تفسير سورة الأعراف ص ١٩٥٢ .

(٧٨) ورد هذا المعنى فى حديث الشيخين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مثلها آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» .

(٧٩) ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخلوا بالسنين :

رواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠١٩) من حديث عبد الله بن عمر قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركنهم لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المونة وجور السلطان عليهم ولم ينقصوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم . قال البيهقي فى الزوائد : هذا حديث صالح للعمل به . وقد اختلفوا فى ابن أبى مالك وأبيه . ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٩٤٥) بلفظ: خمس خمس: ما تنقص قوم العهد إلا سلب عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طغفوا المكيال إلا منعوا الذناب وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر . ونسب للبرائى من حديث ابن عباس

وصححه . قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني في الكبير وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي لينه الحاكم وبقية رجاله موثوقون وفيهم كلام .

(٨٠) تفسير المراغي ٢١٠/٨ الطبعة الثالثة دار الفكر .

(٨١) فتح البيان في مقاصد القرآن ، تفسير سلفي أترى خال من الاسرائيليات والخرافات للعلامة صديق خان المتوفى ١٣٠٧ هـ ٣٦٩/٣ دار الفكر العربي .

(٨٢) في ظلال القرآن سيد قطب ١٣١٨/٨ ، وقد نقل هذه الفقرة أيضاً الأستاذ سعيد حوى في الأساس في التفسير المجلد الرابع سورة الأعراف صفحة ١٩٤٩ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الثامن

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١١	﴿وَأَنزَلْنَا نَارًا إِلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ لَنُبَيِّنَ لَهُم مَّا كَانَتْ أَوْدِيَّتُهُمْ بِشَإْنِهِمْ فَبُذِّلُوا﴾	١٣٦١
١١٢	﴿وَكذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾	١٣٦٢
١١٣	﴿وَلَتَصِفْكَ آفَاتُهُ إِلَى يَوْمِ تُخْرَجُ مِنْ أَكْفَانِهِ﴾	١٣٦٢
١١٤	﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا﴾	١٣٦٣
١١٥	﴿وَتَسْمِعُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾	١٣٦٣
١١٦	﴿وَأَن تَطْمَئِنَّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾	١٣٦٥
١١٧	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾	١٣٦٥
١١٨	﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ بِكُمْ مِنْهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ﴾	١٣٦٧
١١٩	﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ بِكُمْ مِنْهُ إِذْ كَانَ حَرًّا﴾	١٣٦٧
١٢٠	﴿وَذُرُوا ظَاهِرَ الْأَثَمِ وَيَسْأَلْنَاهُ عَنَّا نَبْخَبُهَا لَكُمْ وَاسْأَلْنَاهُ عَنَّا نَجْأَكُمُ مِنَ الْغَوَاةِ﴾	١٣٦٨
١٢١	﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْءِ﴾	١٣٦٨
١٢٢	﴿وَأَوْمِنُوا كَمَا مِثَرًا حِينَهَا﴾	١٣٦٩
١٢٣	﴿وَكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾	١٣٧١
١٢٤	﴿وَأَن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا هَذَا نَارُ اللَّهِ أَن يُسْجَدَ لَهُ﴾	١٣٧١
١٢٥	﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ فَمِثْرًا حِينَهَا﴾	١٣٧٣
١٢٦	﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾	١٣٧٣
١٢٧	﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾	١٣٧٣
١٢٨	﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾	١٣٧٥
١٢٩	﴿وَكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الْأُمَمِينَ﴾	١٣٧٥
١٣٠	﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾	١٣٧٧
١٣١	﴿ذلك أَن لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ بِمَهْلِكِ الْقُرَى﴾	١٣٧٧
١٣٢	﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾	١٣٧٧
١٣٣	﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾	١٣٧٩
١٣٤	﴿إِن مَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَثَلًا﴾	١٣٧٩
١٣٥	﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾	١٣٧٩
١٣٦	﴿وَجَعَلُوا لَكَ مِنْ الْأَنْعَامِ﴾	١٣٨١
١٣٧	﴿وَكذلك زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	١٣٨٢
١٣٨	﴿وَقَالُوا هَذِهِ الْأَنْعَامُ وَحَرِثَ حَجَرٌ﴾	١٣٨٣
١٣٩	﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾	١٣٨٥
١٤٠	﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ﴾	١٣٨٦
١٤١	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾	١٣٨٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤٢	﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا...﴾	١٣٨٩
١٤٣	﴿ثمانيّة أزواج من الضأن اثنتين...﴾	١٣٩٠
١٤٤	﴿ومن الإبل اثنتين...﴾	١٣٩٠
١٤٥	﴿قل لا أجدنى ما أوحى إلى محرما...﴾	١٣٩٢
١٤٦	﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظهر...﴾	١٣٩٢
١٤٧	﴿فإن كذبوك فقل ربكم...﴾	١٣٩٢
١٤٨	﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله...﴾	١٣٩٧
١٤٩	﴿قل فالله الحجة البالغة...﴾	١٣٩٧
١٥٠	﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون...﴾	١٣٩٧
١٥١	﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم...﴾	١٤٠٠
١٥٢	﴿ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن...﴾	١٤٠٠
١٥٣	﴿وأن هذا صراطى مستقيما...﴾	١٤٠٧
١٥٤	﴿ثم أتينا موسى الكتاب...﴾	١٤٠٨
١٥٥	﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك...﴾	١٤٠٩
١٥٦	﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين...﴾	١٤٠٩
١٥٧	﴿أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب...﴾	١٤٠٩
١٥٨	﴿فل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة...﴾	١٤١٠
١٥٩	﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا...﴾	١٤١٣
١٦٠	﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها...﴾	١٤١٤
١٦١	﴿قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم...﴾	١٤١٥
١٦٢	﴿قل إن صلاتى ونسكى...﴾	١٤١٥
١٦٣	﴿لا شريك لى وبذلك أمرت...﴾	١٤١٥
١٦٤	﴿قل أغفیر الله أبغى ربا...﴾	١٤١٥
١٦٥	﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض...﴾	١٤١٥
—	- تفسير سورة الأعراف	١٤٢١
—	- بين يدى سورة الأعراف	١٤٢٢
١	﴿الْمَصّ﴾	١٤٢٩
٢	﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج...﴾	١٤٢٩
٣	﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم...﴾	١٤٢٩
٤	﴿وكم من قرية أهلكناها...﴾	١٤٢٩
٥	﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا...﴾	١٤٢٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦	﴿فلنسنألن الذين أرسل إليهم...﴾	١٤٢٩
٧	﴿فلننقصن عليهم بعلم...﴾	١٤٢٩
٨	﴿والوزن يومئذ الحق...﴾	١٤٢٩
٩	﴿ومن خفت موازينه...﴾	١٤٢٩
—	حروف المعجم	١٤٣٠
—	رجوع إلى القرآن الكريم	١٤٣١
١٠	﴿ولقد مكنناكم في الأرض...﴾	١٤٣٩
١١	﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم...﴾	١٤٣٩
١٢	﴿قال ما منعك ألا تسجد...﴾	١٤٤١
١٣	﴿قال فاهبط منها...﴾	١٤٤١
١٤	﴿قال أنظرني إلى يوم يبعثون...﴾	١٤٤٣
١٥	﴿قال إنك من المنظرين...﴾	١٤٤٣
١٦	﴿قال فبما أغويتني...﴾	١٤٤٣
١٧	﴿ثم لأتيَنهم من بين أيديهم...﴾	١٤٤٣
١٨	﴿قال أخرج منها مذهبها مدحورا...﴾	١٤٤٣
١٩	﴿ويا أدم اسكن أنت وزوجك...﴾	١٤٤٦
٢٠	﴿فوسوس لهما الشيطان...﴾	١٤٤٦
٢١	﴿وقاسمهما إني لكما...﴾	١٤٤٦
٢٢	﴿فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة...﴾	١٤٤٦
٢٣	﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا...﴾	١٤٤٦
٢٤	﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو...﴾	١٤٤٦
٢٥	﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون...﴾	١٤٤٦
٢٦	﴿يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم...﴾	١٤٥٢
٢٧	﴿يا بنى آدم لا يفتتنكم الشيطان...﴾	١٤٥٢
٢٨	﴿وإذا فعالوا فاحشة قالوا...﴾	١٤٥٢
٢٩	﴿قل أمر ربي بالقسط...﴾	١٤٥٢
٣٠	﴿فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة...﴾	١٤٥٢
٣١	﴿يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد...﴾	١٤٥٧
٣٢	﴿قل ممن حرم زينته الله...﴾	١٤٥٧
٣٣	﴿قل إنما حرم ربي الفواحش...﴾	١٤٥٧
٣٤	﴿ولكل أجل أجل...﴾	١٤٥٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٥	﴿يا بنى آدم إيايأتينكم رسل منكم ...﴾	١٤٦٢
٣٦	﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ...﴾	١٤٦٢
٣٧	﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ...﴾	١٤٦٢
٣٨	﴿قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم ...﴾	١٤٦٢
٣٩	﴿وقالت أولاهم لأخبراهم ...﴾	١٤٦٢
٤٠	﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ...﴾	١٤٦٥
٤١	﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ...﴾	١٤٦٥
٤٢	﴿والذين ءامنوا وعملوا الصالحات ...﴾	١٤٦٥
٤٣	﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل ...﴾	١٤٦٥
٤٤	﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ...﴾	١٤٦٩
٤٥	﴿الذين يصدون عن سبيل الله ...﴾	١٤٦٩
٤٦	﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ...﴾	١٤٦٩
٤٧	﴿وإذا صرقت أصرقناهم ...﴾	١٤٦٩
٤٨	﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرّفونهم ...﴾	١٤٦٩
٤٩	﴿وأولاء الذين أقسمتم ...﴾	١٤٦٩
٥٠	﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ...﴾	١٤٦٩
٥١	﴿الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ...﴾	١٤٦٩
٥٢	﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ...﴾	١٤٧٦
٥٣	﴿هل ينظرون إلا تأويله ...﴾	١٤٧٦
٥٤	﴿إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض ...﴾	١٤٧٨
٥٥	﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية ...﴾	١٤٧٨
٥٦	﴿ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ...﴾	١٤٧٨
٥٧	﴿وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ...﴾	١٤٧٨
٥٨	﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ...﴾	١٤٧٨
٥٩	﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ...﴾	١٤٨٨
٦٠	﴿قال المملا من قومه ...﴾	١٤٨٨
٦١	﴿قال يا قوم ليس بى ضلالة ...﴾	١٤٨٨
٦٢	﴿أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ...﴾	١٤٨٨
٦٣	﴿أو عجبتكم أن جاءكم نكير من ربكم ...﴾	١٤٨٨
٦٤	﴿نكذبوه فأنجيناه والذين معه ...﴾	١٤٨٨
٦٥	﴿والسبى عباد أخاهم هودا ...﴾	١٤٩٤

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٦٦	﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه...﴾	١٤٩٤
٦٧	﴿قال يا قوم ليس بى سفاهة...﴾	١٤٩٤
٦٨	﴿أبلغكم رسالات ربي...﴾	١٤٩٤
٦٩	﴿أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم...﴾	١٤٩٤
٧٠	﴿قالوا أجنثنا لن عبد الله وحده...﴾	١٤٩٤
٧١	﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب...﴾	١٤٩٤
٧٢	﴿فأنجيناه والذين معه...﴾	١٤٩٤
٧٣	﴿والى ثمود أخاهم صالحا...﴾	١٤٩٩
٧٤	﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد...﴾	١٤٩٩
٧٥	﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه...﴾	١٤٩٩
٧٦	﴿قال الذين استكبروا...﴾	١٤٩٩
٧٧	﴿فنعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم...﴾	١٤٩٩
٧٨	﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا...﴾	١٤٩٩
٧٩	﴿فتولى عنهم وقال يا قوم...﴾	١٤٩٩
٨٠	﴿ولوطا إذ قال لقومه...﴾	١٥٠٥
٨١	﴿إنكم لتأتون الرجال...﴾	١٥٠٥
٨٢	﴿وما كان جواب قومه...﴾	١٥٠٥
٨٣	﴿فأنجيناه وأهله...﴾	١٥٠٥
٨٤	﴿وأطرنا عليهم مطرا...﴾	١٥٠٥
٨٥	﴿والى مدين أخاهم شعيبا...﴾	١٥١٢
٨٦	﴿ولا تقعدوا بكل صراط...﴾	١٥١٢
٨٧	﴿وإن كان طائفة منكم ءامنوا...﴾	١٥١٢
—	خاتمة	١٥١٨
—	تخريج أحاديث وهوامش	١٥١٩
—	فهرس الموضوعات	١٥٣١

تم تفسير الجزء الثامن ويليه تفسير الجزء التاسع

إن شاء الله تعالى





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار غريب

إهداء 2005

أ.م.د. محمد الله هادي

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَاجِنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَصِّيحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المضردات :

الملاء : الرؤساء والوجهاء .

قريتنا : هي مدين .

ملتنا : ديننا .

افتريتنا : الافتراء : أقبح الكذب .

وما يكون لنا : أى : وما ينبغي وما يصح لنا .

افتح : احكم .

الفاصلين : الحاكمين .

التفسير :

٨٨- قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ .

تشير هذه الآية إلى رد هؤلاء الكفار على رسولهم فقد أخلص لهم النصيحة ودعاهم إلى توحيد الله تعالى ونهاهم عن الفساد فى الأرض ، وحذّره من التناول على المؤمنين ، وذكرهم نعم الله المتعددة عليهم وهذا فى الآيات السابقة من الآية ٨٥ إلى الآية ٨٧ . من هذه السورة : سورة الأعراف .

ويدل من استجابتهم لدعوة الإيمان ، أو وقوفهم على الحياء فإنهم تطاولوا على نبي الله شعيب وهدوه ومن معه بالطرد من بلدتهم أو عودتهم ورجوعهم إلى ملة الكافرين .

أى : لابد من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود إلى دين الكافرين .

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ .

أى : أتعيذوننا فى ملككم فى حال كراهتنا للعود إليها ؟! أو : أتخرجوننا من قريبتكم فى حال كراهتنا للخروج منها ، فليس لكم ذلك ، ولا يصح لكم أن تكروهنا على ما لا نريد ، فإن المكره لا اختيار له ، ولا تعد موافقته موافقة ولا عوده عوداً .

وهذا الصراع بين الحق والباطل ، وبين الرسل والكفار : مشهود متكرر فى جميع الرسالات ، من عهد آدم ونوح إلى عهد محمد ﷺ .

يقف المرسلون جميعاً فى جانب الدعوة إلى الحق ، ويقف الجاحدون جميعاً فى جانب التكذيب .

كأنما تواصل الكفار المحدثون والقدامى بأن يسلكوا نفس هذا المنهج قال تعالى :

أَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ • فَهَلْ عَنْتَهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ • وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ • وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادَتِي • مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون • إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . (الذاريات: ٥٣-٥٨) .

وفى الآية ٥٢ من سورة الذاريات : كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ .

وفى سورة إبراهيم جمع الله كلام الرسل إلى قومهم كما جمع كلام الذين كفروا لرسولهم : لأنه كلام متشابه . قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . (إبراهيم: ١٣)

٨٩- قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَلْبًا إِنَّ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ تَجَانَا اللَّهُ مِنْهَا ..

قال المؤمنون للكفار : لقد آمننا بالله وعرفنا أن الإيمان حق وصدق وأن الكفر والشرك كذب وباطل ومحض اختلاق ؛ إذ ليس للكون كله إلا إله واحد هو خالقه ومدبره ومعبوده ؛ فمن ادعى أن لله شريكاً ؛ فقد افترى على الله الكذب ؛ لأنه ادعى نقص ألوهيته وربوبيته .

فما أقبح وما أشنع أن نرجع إلى الشرك الذى أنتم عليه بعد أن خلصنا الله منه وهدانا إلى الإيمان . وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رُبُّنَا .

أى : وما يصح وما يتصور منا أن نعود ونرجع إلى ملككم بعد أن نجانا الله منها ، إلا أن يكون ذلك عن مشيئة سابقة لله فينا ، وعن قدر قدره علينا ، فذلك من شأن الله وحده ؛ هو الذى يملك من أنفسنا ما لا نملك فإذا كان الله قد شاء لنا أن نعود القهقرى إليكم ونرد على أعقابنا معكم ، فنحن مستسلمون لأمر الله

راضون بحكمه ، أما نحن في ذات أنفسنا فعلى عزم صادق ألا نعود في ملتكم أبداً إلا أن ينحل هذا العزم بيد الله ، لأمر أراحه الله ، وقضاء قضى به .

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .

أى : أحاط علم خالقنا بكل ما كان وما سيكون من الأشياء ومن جملة ذلك أحوال عباده ونياتهم ، فلا يعيدنا إلى الكفر بعد أن أنقذنا منه ، ما دمنا معتمدين بحبله المتين ودينه القويم .

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .

أى : على الله وحده توكلنا ، وفوضنا إليه أمر تخليصنا من الأشرار وتبديتنا على الإيمان .

اللهم يا ربنا ، احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، بنصر المحقين على المبطلين ، أو أظهر أمرنا ؛ حتى نكتشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل .

والتعبير بقوله : أَفْتَحْ ؛ لأن القضاء بالحق يفتح الأمر المغلق .

وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ؛ وأنت سبحانه أفضل الحاكمين وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

والفتح : أصله إزالة الإغلاق عن الشيء ، واستعمل في الحكم ، لما فيه من إزالة الإشكال في الأمر ، ومنه قيل للحاكم : فاتح وفتاح ؛ لفتح أغلاق الحق .

أخرج البيهقي عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى قوله تعالى : رَبَّنَا أَفْتَحْ . حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام : تعال أفتحك ، تريد : أقاضيك وأحكمك .

جاء في التفسير الوسيط :

«والخلاصة : أنك إذا تأملت في ردِّ شعيب على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان فهو يردُّ على وعيدهم وتهديدهم ، بالرفض التام لما يبغون ، والقبض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إلى الله سبحانه بالدعاء ملتصقاً منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذي مضت به سنته في التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين»^(١)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْنَاكُمْ شُعَيْبًا إِذَا الْخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ
الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَنْفُوا فِيهَا
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَّلْنَاهُمْ وَقَالَ يَقُومُوا لَقَدْ
أَبْلَغْنَاهُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

المفردات :

الرجفة ، الزلزلة الشديدة .

جاثمين ، باركين على الركب أذلاء .

كان لم يغفوا فيها ، أى : كان لم يقيموا فى مدينتهم . والمراد : أنهم استصلوا بالمرءة ، يقال : غفَى بالمكان
يُغْفَى أقام به - والمغنى - المنزل .

فتولى منهم ، أعرض عنهم ويعد .

آسى : أحزن .

التفسير :

٩٠- قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْنَاكُمْ شُعَيْبًا إِذَا الْخَاسِرُونَ .

تلمح أن الأشراف والكبراء قد ينسوا من استماله شعيب ومن آمن معه ، فأخذوا يحذرون الناس من
السير فى طريقه .

وقد حكى القرآن قولهم السابق الذى سلوكوا فيه مسلك الوعيد والتهديد ، ثم عطف عليه قولهم اللاحق
ومعناه ما يأتى :

وقال الرؤساء المستكبرون الذين أصروا على الكفر من قوم شعيب - عليه السلام - بعدما أيقنوا
بصلايته وصلابة من معه من المؤمنين ، وخافوا من إقبال الناس على دعوته :

لَئِنْ آتَيْنَاكُمْ شُعَيْبًا إِذَا الْخَاسِرُونَ .

أى : إذا تركتم دينكم وملة آبائكم ودخلتم فى دين شعيب ، فسوف تخسرون ملككم القديمة وتخسرون
المكاسب التى تحصلون عليها من تطفيف الكيل والميزان ، وتخسرون الرضا من قومكم ، والمزايا التى
تتمتعون بها من المسالمة والتبادل التجارى .

وهكذا استمر الأشراف في طريقهم بالإغراء حيناً ، والتهديد والوعيد حيناً آخر ، فهؤلاء الأشراف لم يكتفوا بضلالتهم في أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم .

٩١- فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

أى : فأهلكتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا باركين عل ركبهم ، هالكين هلاك الذلة والصغار في أماكنهم لا ينتقلون منها .

» وقد جاء في سورة هود أن قوم شعيب أهلكوا بالصيحة . كما قال تعالى : وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ . وفى الشعراء : أنهم أهلكوا بعذاب يوم الظلة : فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ . ويوجّه هذا الاختلاف فيما أهلكوا به بأن شعيباً أرسل إلى أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة فقد أهلكوا بعذاب يوم الظلة ، كما سيأتى بيانه في سورة الشعراء ، وأما أهل مدين فقد أهلكوا بعذابين ، أحدهما سبب والآخر مسبب فأما السبب : فهو الصيحة ، والمراد بها : صيحة جبريل - عليه السلام - بهم وأما المسبب : فهو الزلزلة فقد أصابتهم من صيحته رجفة وزلزلة قضت عليهم فنسب هلاكهم تارة إلى السبب الأول وهو الصيحة ، وتارة إلى السبب الثانى وهو الرجفة التى ترتبت على الصيحة فلا تعارض بين الآيات^(٩) .

والهلاك بالزلازل والبراكين لا يزال قائماً مشاهداً بين الناس في السابق واللاحق .

جاء في المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدى الذى ألفه حوالى سنة ١٣٢٣هـ ما يأتى :

«وقال أشراف قومه الكفار : لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا الخاسرون ؛ فأخذتهم الزلزلة الشديدة .

فأصبحوا في دارهم ، أى : مدينتهم ، باركين على ركبهم ميتين .

«لا يستبعد أن تجتاح الزلازل طائفة من الناس بعد أن رأى الناس آثار زلزلة اليابان منذ سنين»^(٩) .

٩٢- الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا يَمُوتُونَ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ .

يقف القرآن هنا موقف الحكم أو القاضى الذى يصدر حكمه بعد سماع أطراف القضية .

فقد دعا شعيب قومه إلى الإيمان بالله وحذرهم من الفساد ثم دافع قوم شعيب عن أنفسهم وحذروا شعيباً ومن آمن معه من عاقبة الإيمان وهى الخسران المادى وخسران الريح من تطفيف الكيل ، وخسران منزلتهم عند الرؤساء .

فيقرر القرآن على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيباً وإنما كان من نصيب

المكذبين :

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا .

أى: هؤلاء الذين كذبوا دعوة شعيب إلى الإيمان والإصلاح كأنهم بعد إهلاكهم بالزلزلة الشديدة لم يقيموا أبداً بديارهم حيث استوصلوا بالرجفة .

قال الشوكاني: أى: أصبحت ديارهم بعد العذاب خراباً خالية ، يقال: غنيتُ بالمكان: إذا أقمت به ، أى: كأن لم يقيموا فى دارهم : لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب ^(١) .

الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَالَّذِينَ كَانُوا أَتْلَاسَ .

لقد هددوا شعيباً ومن آمن معه بالطرده من المدينة كما حذروا من آمن به من الخسران حيث قالوا:
لئن اتَّخَذْتُمْ شُعَيْبًا إِنْكُمْ إِذَا تَخَاسَرُونَ .

فرد الله عليهم بأن الخسران الحقيقى هو لمن كفر بالله وباع الأسمى واشترى الأدنى .

فهاهم قوم شعيب قد خسفت بهم أرض القرية الذين هددوا المؤمنين وقالوا لهم : نَنخِرُجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ ...

وهم الذين خسروا قريتهم وديارهم وخسروا دنياهم وأخراهم ، وكان جزاؤهم من جنس ما كانوا يقولون ولكنه يفوقه فى الشدة .

٩٣- قَتَلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ .

ويتلفت شعيب إلى ما حلَّ بقومه ، وما صار إليه أمرهم بعد أن أصبحوا جثثاً هامدة وأشلاء مبعثرة، فبأسى عليهم ويحزن لهم ، ولكن سرعان ما يدفع عنه مشاعر الأسى والحزن ، حين يراجع حسابه مع قومه، وما كان منه ومنهم ، فيجد أنهم ليسوا أهلاً لدمعة رفاء تدمعها عينه عليهم .

أى: فأعرض شعيب عن قومه بعد هلاكهم وناداهم فى قبورهم : لقد بلفتكم رسالات السماء ودعوتكم إلى التوحيد وقدمت لكم النصائح ، فقابلتم ذلك بالإعراض والتهديد والوعيد ثم أنزل بكم جزاء الله العادل فلن يطول حزنى عليكم بعد كفركم ، وكيف أحزن على قوم كافرين بالله مصرين على كفرهم متمردين عن الإجابة .

★ ★ ★

وسورة الأعراف فيما سبق قد تحدثت عن جانب من قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم وسترأها بعد قليل تحدثنا حديثاً مستفيضاً عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

ونلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت في حديثها عن هؤلاء الرسل التسلسل التاريخي وذلك لأهداف من أهمها ما يأتي :

- ١- إثبات الوحي والرسالة وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ .
- ٢- بيان أن وسائل الأنبياء واحدة وأن استقبال قومهم لهم متشابه ، فكل نبي يدعو قومه إلى عبادة الله ويحثهم على الإصلاح ، ولكنه يقابل بالكذب ويجابه بالوعيد .
- ٣- بيان أن الله ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك الكاذبين ؛ فقد نجى الله نوحاً من الطوفان ، وأهلك قوم صالح حين عقروا الناقة فدمدم عليهم الأرض وسواها تماماً بمن فيها كما أهلك قوم لوط بأن جعل أعلا أرضهم أسفلها كما أهلك قوم شعيب بزلزل مهلكة .
- ٤- تصديق الأنبياء السابقين ، وإحياء ذكراهم ، وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله عليهم .

★ ★ ★

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَا كَانُوا فِيهِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَمَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آيَاتُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المضردات :

بالبإساءة ، بالبؤس وشدة الفقر .

والضراء ، الضراء : المرض .

السيئة ، هي كل ما يسوء .

الحسنة ، كل ما يستحسنه العقل والطبع .

عموا ، أى : كثروا عدداً ومالاً . يقال : عفا النبات إذا كثر .

من آباءنا ، أى : أصاب آباءنا .

بغتة ، فجأة .

التفسير :

٩٤- وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ ... الآية .

تحدثت آيات سابقة في سورة الأعراف عن أحوال الأمم السابقة وهي أمة نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب عليهم السلام ، والمقصود منها : التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم : حتى يتركوا الضلال ويستجيبوا لله ولرسوله .

وفى هذه الآية انتقل السياق إلى بيان سنة الله فى إنذار المكذبين من الأمم قبل إهلاكهم .

فإذا أرسل الله رسولا إلى أمة من الأمم فقابلته بالكذب والعصيان : أرسل على أهلها ألوان المحن والشدة والضرر كإصابتهم بالمرض ونقص الأموال والأنفس والثمرات : إنذاراً لهم وتحذيراً لهم من الاستمرار فى العناد والمكابرة .

لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ .

أى : فعلنا بهم هذا البلاء وأنزلنا بهم هذه الشدائد : لكى يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم .

فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ، ليس من أجل التسلية والتشفى - تعالى الله عن ذلك - وإنما من أجل أن ترقى القلوب الجامدة وتتعظ المشاعر الخاملة ، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

وللاحظ هنا ما يأتى :

١- تكذيب المكذبين للرسول هو السبب فى إنزال البلاء بهم وليس مجرد إرسال الرسل .

٢- يبتلى الله المكذبين للرسول بالبلاء تارة وبالنعماء تارة أخرى .

٩٥- ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا ... الآية .

المراد بالسئية : ما يسوء ويحزن كالشدائد والمرض ، وبالحسنة : السعة والصحة وأنواع الخيرات .

أى : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالأساء والضرر ، رفعنا ذلك عنهم ، وابتليناهم بفسده ، بأن أعطيناهم بدل المصائب نعماً ، فإذا الرخاء ينزل بهم مكان الشدة ، واليسر مكان العسر ، والعافية بدل الضرر ، والذرية بدل العقم ، والكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .

حتى عَفَوْا : حتى كثروا ونموا فى أموالهم وأنفسهم ومستهم العافية ، فاعفوا أصله من العافية التى يتبعها النماء والزيادة ، كما جاء فى قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ . (البقرة : ٢١٩) ومنه قوله ﷺ : « احفوا الشوارب واعفوا للحي »^(١) . أى : قصروا الشوارب واتركوا للحي حتى تكثر وتنمو .

ولما زاد مالهم وكثر عددهم : أبطرتهم النعمة ، وأطفتهم الكثرة فلم يشكروا الله ولم يحمدوه .

وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ .

أى: قالوا جوداً للنعمة وكفراناً بالإحسان: قد أصاب آباءنا من قبلنا البأساء والنعماء ولسنا بدعاً منهم فما أصابنا على نمط ما أصابهم وهذا شأن الدهر يداول السراء والضراء بين الناس فليس ذلك إنذاراً لنا .
فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

أى: فكان عاقبة بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم بذلك ، ولا خطور شيء من المكاره ببالهم .

لقد أسرفوا بدون تخرج وارتكبوا كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اكتراث ، وأرسل الله لهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ومع كل ذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا ، وظنوا أنهم سيعيشون حياتهم فى نعمهم ورغد بدون محاسبة لهم على أعمالهم القبيحة وأقوالهم الذميمة .

ثم فاجأهم العذاب بغتة بدون توقع منهم ولا استشعار لما يحيق بهم : جزاء عدوانهم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : حَتَّى إِذَا فَرَجُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . (الأنعام : ٤٤) .

★ ★ ★

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰءِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰءِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

المفردات :

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ : أى : ليسرنا لهم الخير من كل جانب .

بَيِّنًا : أى : وقت بياتهم .

ضُحًى : أى : ضحوة النهار وهى أوله .

مَكْرَ اللَّهِ : المراد بمكره تعالى : إهلاكه لهم من حيث لا يحتسبون .

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ : أقلم يصنع الهداية لهم ؟!

يرشون الأرض من بعد أهلها ، يخلفون من مضى قبلهم من الأمم المهلكة .

التفسير :

٩٦- وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... الآية .

بعد أن بين القرآن عاقبة المكذبين ، جاءت هذه الآية وما تلاها : تعقيباً على إهلاك الكافرين .

أى : ولو أن كفار مكة ، والذين أهلكوا قبلهم بسبب تكذيبهم آمنوا بالله ، واتَّقَوْا . المعاصى وابتعدوا عنها.

لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .

أى : لأنيناهم بالخير من كل وجه ، ويسرنا لهم سبل الأرزاق ، وسعنا عليهم من كل باب فأنزلنا عليهم من السماء ماءً مباركاً ، فأنبت الزرع وأدر الضرع ، وأخرجنا لهم الكثير من كنوز الأرض ، وذللتنا لهم ما على ظهرها من الدواب والأنعام .

وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَعَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم فكانت نتيجة تكذيبهم وتماديهم فى الضلال أن عاقبتهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم واكتسابهم المعاصى ، فتلك هى سنتنا التى لا تتخلف ، نفتح للمؤمنين أبواب الخيرات ، وننتقم من المكذبين بفنون العقوبات .

٩٧- أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ .

أرسل الله الرسل ، فأنزل الكتب ، وقصَّ علينا ما أصاب السابقين ؛ للعلظة والاعتبار ، بيد أن هذه الأمم التى أهلكت بعذاب الله لم تتعظ كل واحدة منها بما أصاب من قبلها من الأمم .

وكذلك كفار مكة لم يتعظوا ولم يعتبروا رغم تحذير الله لهم .

وهنا يوجه لهم هذا الإنذار الذى يفيد أن عذاب الله ليس له وقت يحدده ، فيمكن أن يصيب العصاة ليلاً وهم نائمون هادئون ، فيأتيهم العذاب المخيف ، فيصبحون أثراً بعد عين . فليعتبر بذلك الكافرون .

ومعنى الآية : أغفل الله أهل القرى المكذبة بالرسل عما ينتظرهم من بأس الله ، أفأمنوا أن ينزل عليهم عذاب الله وقت بياتهم فى منازلهم وهم غارقون فى النوم ؟!

٩٨- أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ .

جاءت هذه الآية بأسلوب التوبيخ والتقريع كسابقتها .

والعنى : هل عندهم ضمان أو عهد بعدم نزول العذاب بهم وأمنوا أن ينزل عليهم عذابنا فى صدر النهار وقت الضحى عند انتشار ضوء الشمس إذا ارتفعت .

وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أى : وحالهم أنهم يلهون ويشغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون لشدة غفلتهم .

٩٩- أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ .

مَكْرَ اللَّهِ . ما يدبره الله لهم من العقوبة وهم لا يشعرون . وقيل : مكر الله هنا هو : استدراجه لهم بالنعمة والصحة . أى : علام يعمل هؤلاء القوم فى تماديهم فى الضلال واطمئنانهم إلى ما هم فيه ؟ أهنأك من يدفع عنهم عذاب الله ويرد عنهم بأسه ؟ ذلك ضلال فى ضلال ، وعمى بعد عمى ، وفتنة بعد فتنة .

لقد حذرهم الله من إنزال العذاب بهم ليلا وهم نائمون أو نهاراً وهم مشغولون بشئون دنياهم ذاهلون عما ينتظرهم فى العاقبة كأنهم يلعبون .

وما علموا أن الله تعالى يمهّل ولا يهمل وأنه يستدرج العصاة حتى إذا رتّعوا ويشموا وزاد طغيانهم أخذهم بفتة .

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ .

وأى خسارة أكثر من أن يرى الإنسان نذر الشرّ والهلاك مقبلة إليه ثم يخدع نفسه ويخيل إليه أن هذه النذر لن تتجه إليه ولا تنال منه .. ثم يظل هكذا يرتوى من هذا السراب الخادع ، حتى ينزل بساحته البلاء فلا يجد له مهرباً .

ألا نجد أن الله تعالى قد حذرهم وأنذرهم بنزول العذاب ليلاً أو نهاراً كما حذرهم من بأس الله وانتقامه وقد جاءهم على حين غفلة ، فقطع عليهم ما هم فيه من لهو ولعب ، وقلب بين أيديهم مائدة الحياة وما عليها من أدوات اللعب واللّهو .

وصدق الله العظيم : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٧) .

١٠٠- أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَمْلِهَا أَنْ لَوْ نشاءُ أَصْبَاهُمْ يَدْئُبُهُمْ نَطْعٌ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

القرآن كتاب الحياة يأخذ بيد المؤمنين إلى أسباب النصر والتمكين ويحذر الكافرين من بأس الله وعقوبته ، والقرآن هنا الطبيب الذى يأسو جراح القلوب ، إنه أمام قوم قست قلوبهم من أمل مكة ، فهو يقول لهم ولأشباههم فى كل زمان ومكان ما يأتى :

أول يتبين لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التي ورثوها بعد أهلها المهلكين .
هؤلاء الذين سكنوا مساكن القوم الظالمين الذين هلكوا ، ورثوا أرضهم وديارهم وأموالهم .
ألم يهد لهم وينكشف لأبصارهم ، أو بصائرهم ، أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأخذهم بذنوبهم كما
أخذ القوم الظالمين قبلهم بذنوبهم ؟
فما حجتهم على الله بعد أن صرف عنهم العذاب الذى نزل بأشباههم من الأمم السابقة ، ويعد أن
عافاهم من البلاء والانتقام الذى يستحقونه.
إنه لا حجة لهم على الله ، ولا فضل لهم فى أن عافاهم من البلاء وصرف عنهم العذاب ؟
فما صرف الله عنهم العذاب إلا لمقام نبيه الكريم بينهم ، وقد وعده الله ألا يعذب قومه وهو بين
ظهرانهم .

قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣).

وَنُطِيعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

أى : إن العذاب إما أن يكون ظاهراً ملموساً ، وإما أن يكون خفياً باطنياً ، ومن هذا العذاب الخفى : البلاء
الذى يغشى قلوب الظالمين فيحجب عنها الهدى فلا تهتدى إليه ، ويصرف عنها الخير ، فلا تعرف له وجهها .

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِذْأَرَأَى أَنْ يُدَبِّرُونَ إِرشاداً : لأن آذان قلوبهم لم تفتتح لسماع القرآن وهدايته .

قال تعالى : وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسُورًا ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ
أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .. (الاسراء : ٤٥ ، ٤٦) .

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

المضردات :

بالبيِّنات ، أى : بالمعجزات الواضحة الدلالة .

وما وجدنا ، أى : وما علمنا .

من عهد ، أى : من وفاء بعهد . والمراد : ما عهد الله إليهم من الإيمان والتقوى .

وإن وجدنا ، إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، والتقدير : وإنه وجدنا أى : وإن الشأن وجدنا .

لفاسقين ، أى : لخارجين عن الإيمان والطاعة .

التفسير :

١٠١ - تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ .

أى : تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك - أيها الرسول الكريم - أحوالها ، وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ، نقص عليك ما فيه من العظات والعبر من أخبارها ؛ ليكون فى ذلك تسلية لك ، وتثبيتاً لفؤادك وتأييداً لصدقك فى دعوتك .

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ .

أى : وتالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم التى خلت ؛ رسولها الذى بعثه الله إليها بالمعجزة الخاصة به الواضحة الدلالة على صدق رسالته ، الموجبة للإيمان .

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ .

أى : فما حدث لأمة من تلك الأمم الضالة الرجوع عما هم عليه من كفر وضلال إلى هداية الرسل وإرشادهم ، بل استمروا على التكذيب وعدم الإيمان طول حياتهم ولم تغنهم الآيات والنذر ؛ لكمال عقومهم وشدة طغيانهم ، فاستحقوا بذلك ما نزل بهم من العذاب .

وقيل : إن المعنى : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف : ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (الأنعام: ٢٨) .

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ .

أى : مثل هذا الختم الذى أغلق الله به قلوب هؤلاء السابقين بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، يختتم الله على قلوب جميع الكافرين ، ويجعل عليها سداً يغلّقها ، فلا يسمع هؤلاء الضالون نصيحاً ، ولا يبصرون حقاً ، ولا تلين قلوبهم . إذ تركوا الحق ، واتبعوا الباطل ، واختاروا طريق الفساد .

١٠٢ - وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ .

أى : وما علمنا لأكثر الأمم التى مضت من عهد - أى : رعاية لحمة - أو وفاء بعهودهم فى الإيمان والتقوى .

والمراد بالعهد : ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ .

أى : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم من الإيمان والتقوى بل الحال والشأن . أننا علمنا أن أكثرهم فاسقون . أى : خارجون عن طاعتنا تاركون لأوامرنا منتهكون لحرمتنا .

جاء فى التفسير الوسيط لشمس البحوث الإسلامية بالأزهر :

« وإن الشأن معهم أننا وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن القيم الخلقية والدينية ، وما آمن وأصلح منهم إلا قليل » .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات :

مَلَائِهِ : الملائ : رؤساء القوم .

التفسير :

١٠٣- ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ... الآية .

أى : ثم أرسلنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب الذين تقدمت أخبارهم ؛ موسى - عليه السلام - وأتيناها آيات ، أى : معجزات تسع تدل على صدق رسالته ، وهى العصا تنقلب حية ، واليد تخرج من جيبه بيضاء ، والسنون المجذبة ، ونقص الأنفس والثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وطمس الأموال .

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ : أى : إلى فرعون مصر ورؤساء قومه وجهائهم ، وخصوصا بالذكر مع أن رسالته لفرعون وقومه أجمعين ؛ لأنهم يقومون بتدبير الأمور وغيرهم تبع لهم .

جاء فى تفسير المنار : ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه ؛ لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل ويدهم أمرهم ، وليس لسائر المصريين من الأمر شيء ، ولأنهم كانوا مستعبدين أيضاً ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغريب كان أشد .

فَلَّظَمُوا بِهَا : أى : فكفروا بهذه الآيات ؛ تكبراً وجوداً فكان عليهم وزر ذلك .

أو المعنى : فظلموا أنفسهم إذ عرضوها للهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بسبب تكذيبهم بهذه الآيات ، وظلموا غيرهم بمنعهم من الدخول فى دين الله .

فَأَنظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

فتأمل بفكرك أيها الرسول الكريم ، أو أيها العاقل كيف كانت عاقبة فرعون وملئه الذين أفسدوا فى الأرض لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم وموسى وقومه ينظرون إليهم ، وتلك عاقبة كل من طغى وبنى وظلم وفسد .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُفْرِعُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات :

جئتمكم ببينة ، جئتمكم بآيات واضحة الدلالة على نبوتى .

التفسير :

١٠٤- وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

أجمل القرآن فى بداية القصة مضمونها والعبرة منها وهى التحذير من عواقب الظلم والفساد .

وقريب من هذا ما حكاه القرآن فى بداية سورة القصص حيث قال تعالى:

طسّم • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ • تَلَوْا عَلَيْهِ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ • إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا هِيئًا يَسْتَضِيعُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَدْبِعُ أَنتَاهُمْ وَيَسْتَخِفِّي سَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ • وَلْيُرِيدَ أَنْ لُتَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ • وَلَمُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . (القصص : ١-٦) .

ومعنى الآية : قال موسى عليه السلام لفرعون فى أدب واعتزاز : إني رسول من رب العالمين ، أرسلنى إليك : لأدعوك إلى عبادته والخضوع له .

١٠٥- حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ...

أى : جدير بالأقول على الله إلا القول الحق ، أو حريص على ألا أقول على الله غير الحق والصدق فلا إهمال ولا تفريط .

قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ : أى : قد جئتمكم بحجة قاطعة من الله أعطانها دليلاً على صدقى فيما جئتمكم به .

فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ : أى : فأطلق بنى إسرائيل من أسرك ، وأعتقهم من قهرك ، ودعمهم أحراراً يعبدون الله وحده ولا تعذبهم .

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ حَتَّىٰ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِیْنَ ۝١٠٨﴾

المفردات :

ثُعْبَانٌ : هو الذكر من الحيات .

مُبِينٌ : بين ظاهر لا يشك أحد في أنه ثعبان .

ونزع يده : أى : وأخرج يده من جيبه .

بيضاء للناظرين : أى : بيضاء بياضاً خارجاً عن العادة : يجتمع الناس عليه : لينظروه : تعجباً من شدته .

التفسير :

١٠٦- قَالَ إِنْ كُنْتَ حَتَّىٰ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ .

أى : قال فرعون لموسى : إن كنت حجت من عند من أرسلك بآية فأتني بها ، وأحضرها عندي لتصح دعواك ويثبت صدقك .

١٠٧- فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

أى : فألقى موسى عصاه على الأرض فور طلب فرعون ففاجأهم بكونها ثعباناً عظيم الجثة مفزعا لا يشك أحد في أنه ثعبان يسعى ويتحرك حقيقة لا متخيلاً كما في سحرهم ، وذلك لظهور أمره ووضوح شأنه ، وقد أورد بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، وهى روايات ضعيفة ينبغي أن ينقى منها تفسير القرآن الكريم^(١) .

١٠٨- وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِیْنَ .

النزع : إخراج الشيء من مكانه أى : وأخرج موسى يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه أمامهم على لونها الأصلى فإذا هى بعد إخراجها منه ، قد تغيرت على الفور من لونها الأسمر إلى لون أبيض خارج عن العادة ، جعل الناس ينظرون إليها ويتعجبون من أمرها .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّلْ كُلَّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

المضردات :

لساحر عليم : ساحر ماهر عظيم العلم في سحره يأتي بأفعال عجيبة .

أرجه وأخاه : أى : أرجئهما وأخرجهما : لننظر فى أمرهما .

المدائن : أى : المدن حيث يوجد السحرة .

حاشرين : جامعين .

التفسير :

١٠٩ - قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ .

أى : قال الأشراف من قوم فرعون : إن هذا لساحر راسخ فى علم السحر ماهر فيه يقوم سحره على علم ومعرفة ، وهو من أجل ذلك مصدر خطر عظيم على فرعون وعلى مكانته فى قومه .

١١٠ - يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

إن موسى بدعوته هذه سيغير النظام ويجعل الضعفاء سادة أقوياء بإيمانهم بالله كما سيتحول السادة أقوياء بإيمانهم بالله كما سيتحول السادة إلى ضعفاء؛ لأن الناس لن تخضع لهم ، وسيقفون فى وجه قهرهم وظلمهم ، وبذلك يتغير نظام الدولة أو يقلب نظام الحكم ، فينبغى أن نقف فى وجه موسى قبل أن يخرجنا بدعوته هذه من أرض مصر .

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

هو من كلام فرعون قاله للملأ لما قالوا بما تقدم ، أى : بأى شىء تأمروننى وتشيرون أن نفعل به ، وقيل: هو من كلام الملأ أى : قالوا لفرعون : فبأى شىء تأمرنا ، وخطابوه بما يخاطب به الجماعة : تعظيماً له ، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى بدليل ما بعده وهو : قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ أى : أخره ٣ .

١١١- قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ .

أى : قال الملائكة قوم فرعون ، أخر الفصل فى أمره وأمر أخيه ، وأرسل فى مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك .

حَاشِرِينَ أى : جامعين لك السحرة منها وسائقهم إليك .

من كتب التفسير

١- جاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب :

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة فى شتى المعابد ، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر، ففى الوثنيات كلها تقريبا ، يقتنن الدين بالسحر ، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هى التى يلتقطها «علماء الأديان» ، فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة! ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبتل كما بطل السحر! وإن العلم سينهى عهد الدين كما أنهى عهد السحر! إلى آخر هذا الخطب الذى يسمونه : «العلم»^(٨) .

٢- من تفسير المراعى الجزء التاسع ص ٢٦ :

لذلك فى السحر وضروبه :

السحر أعمال غريبة ، وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس ؛ لجهلهم لأسبابها ، وقد كان فناً من الفنون التى يتعلمها قداماء المصريين فى مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم الكونية ، واقتفى أثرهم فى ذلك البابليون والهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر، اهتم الانجليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها فعرفوا بعضاً وجهلوا لتعليل الأكثر .

وهو لا يروج إلا بين الجاهلين ، وله مكانة عظيمة فى القبائل الهمجية ، والبلاد ذات الحضارة تسميه: بالشعوذة والاحتيال والدجل وهو أنواع ثلاثة :

١ - ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسحرهم بها، كالزئبق الذى قيل : إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيمهم فلما أرسلت الشمس أشعتها : خيل للمشاهدين أن الحبال والعصى تسعى وتحرك .

٢ - الشعوذة التى أمرها خفة اليبدين وإخفاء بعض الأشياء ، وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها.

٣ - ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام ومن ذلك ما يُسمى : بالتنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر^(٩) .

ويمكن تقديم خلاصة عن الموضوع فيما يأتى :-

(أ) ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن السحر خيال وهم لا حقيقة له ، والساحر لا يؤثر إلا فى شخص قلبه هواء وعقيدته هباء .

(ب) وذهب بعض العلماء إلى أن السحر حقيقة تتلقى بالتعليم والتعلم ، وهو يؤثر حباً وبغضاً ونزيفاً ومرضاً ... إلخ .

(ج) ورد فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ سحر وأن رجلاً من اليهود قد أخذ شيئاً فى شعر رأسه ومشاطه وعقد فيه ١١ عقدة ، ووضعه تحت حجر فى بئر ذكوان وأرشد الله رسوله إلى ذلك وأُنزل عليه ١١ آية فى سورة الفلق وسورة الناس ، وأحضر على رضى الله عنه المشط والمشاطة من البئر وقرأ النبى ﷺ سورة الفلق وسورة الناس ؛ فبطل أثر السحر منها^(١٠) .

(د) أنكر الشيخ محمد عبده صحة هذا الحديث وقال : إنه حديث آحاد . ولعل الحديث أضيفت إليه زيادات فى لفظه ليست صحيحة .

(هـ) عند التأمل نرى أن السحر حقيقة لا خيال وهو ابتلاء من الله يمتحن به بعض الناس قال تعالى :
وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

الوقاية من السحر

كما يحفظ المؤمن من السحر والحسد والأذى ما يأتى :

١ - قراءة قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

٢ - أن يقول بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير (١٠ مرات) .

٣ - قراءة قوله تعالى :

وَأَنْ يَكْذِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقَنَّكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . (القلم : ٥١) .

٤ - قراءة الآيات الأخيرة من سورة الحشر :

من قوله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (إلى آخر السورة) .

٥ - إخراج صدقة .

٦ - قراءة قوله تعالى : مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .^(١١١) (الكهف : ٣٩) .

٧ - وأهم شيء هو اليقين الجازم بأن أحدا لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله : فهذه هي الصخرة الصماء التي تتكسر عليها نظرات الساحرين والحاسدين ، ومن وجد في قلبه اليقين والثقة التامة بأن الله وحده هو النافع الضار : فقد وجد سبيل النجاة والحفظ ، قال تعالى : قَالَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

وعن عبد الله بن عباس قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ما نفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قد كتبه الله لك ، وإعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرُوكَ بشيء ، لم يضرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ » قد كتبه الله عليك ، جُئْتُ الْأَقْلَامَ وَطُوِيتِ الصُّفُوفُ^(١١٢) .

١١٢- يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٌ .

أى : سيحضر لك رجال الشرطة من سائر المدن كل ساحر ماهر بلغ للغاية فى إتقانه علم السحر .

★ ★ ★

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾^(١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿^(١١٤)

التفسير :

١١٣- وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ .

تحكى هذه الآية أن فرعون عمل بمشورة ملته فاستدعى السحرة من المدائن ، فجاءوا إليه ثم أقبل السحرة على فرعون فقالوا له بلغة المحترف الذى يجعل هدفه الأول الأجر والعطاء .

قالوا : إن لنا لأجراً عظيماً إن كانت الغلبة على هذا الساحر العليم ؟

يريدون بسؤالهم هذا أن يتحققوا من جزالة الأجر وضخامته .

١١٤- قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

أى: قال فرعون: استجابة لهم: نعم لكم ما طلبتموه من الأجر، وإن لكم عندي زيادة على ذلك المكان القريب والمنزلة الرفيعة.

فهو يفرهم بالأجر المادي ، ويعددهم بالقرب المعنوي من قلبه ؛ تشجيعاً لهم على الإجابة .

روى أنه قال لهم : ستكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج من عندي .

وإختلف السلف في عدد السحرة ، فقليل : كانوا سبعين ساحراً ، وروى عن بعض المفسرين أنهم كانوا سبعين ألفاً .

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَمْشُوا مَوْجًا مُمَسَّكًا ۚ وَإِن يَسْقُبُوا مِنْهَا شَيْءٌ فَهُوَ مَكْشُوفٌ ۚ إِنَّهُمْ مُكْذِبُونَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾﴾

المفردات :

واسترهبوهم : بالغوا في إرهابهم وتخويفهم .

التفسير:

١١٥- قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ .

أى : قال السحرة عن مواجعتهم لموسى فى ساحة التحدى .

أنت يا موسى مخير بين أن تلقى عصاك أولاً، وبين أن تلقى نحن أولاً، وكان هذا التخيير في البدء ناشئاً عن ثقتهم بالغلبة، سواء تأخروا عنه أم تقدموا عليه كأنهم يقولون له: وفي كلتا الحالتين فنحن على ثقة بالفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدماً.

وذهب الزمخشري: إلى أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدل ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا في الصراع^(١٧).

كالمتناظرين قبل أن يتخاضوا في الجدل ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا في الصراع^(١٧) .

١١٦- قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

أى : قال لهم موسى عليه السلام - استهانة بشأنهم ووثوقا بتأييد الله تعالى له . أَلْقُوا : أى : ابدؤوا بإلقاء ما تريدون إلقاءه .

فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصى .

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ . أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ، مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل سبحانه ، سحروا الناس .

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ : أى : خَوْفَهُمْ وملثوا قلوبهم رعباً وخوفاً .

روى أنهم ألقوا حبلاً غلاتاً ، وخشباً طوالاً ، فإذا حَيَات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضاً .

جاء فى تفسير المنار : قيل : إنها كانت عصياً مجوفة قد ملئت زئبقاً وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسراباً ملثوها نارا ، فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة بالزئبق حركها : لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير فأخبر الله أن ذلك كان مموماً على غير حقيقته .. فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اأَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَجْدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَآرِبَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات :

تَلْقَفُ ، أى : تأخذ وتبتلع بسرعة .

ما يَأْفِكُونَ ، ما يكذبون ويمهون الحقائق بقلبيها - والإفك فى الأصل : قلب الشيء عن وجهه ومنه قيل للكتاب : أفك ؛ لأنه يقلب الكلام عن وجهه الحق إلى الباطل .

فَوَقَعَ الْحَقُّ ، ثبت وظهر .

ويطل ما كانوا يعملون ، ظهر بطلان السحر الذى كانوا يعملونه .

وانقلبوا صاغرين ، وعادوا من مبارزة موسى مستسلمين وصاروا أذلاء .

التفسير:

١١٧- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. الآية .

بعد أن ألقى السحرة حبالهم وجاءوا بسحر بارع استولى على خيال الناس وأرهبهم ، وتوَجَّسَ موسى؛ خوفاً من أن يعلو جانب الباطل .

بعد ذلك أمر الله موسى - عليه السلام - بطريق الوحي ؛ تقوية لعزمه ، وتسكيناً لروحه - أمره أن يلقي عصاه فألقاها .

فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

أى : فانقلبت العصا حية عظيمة تلتقم حبال السحرة وتبتلع إنكهم وباطلهم .

١١٨- فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : ثبت الحق وظهر ، وتبين أن عمل موسى حق واضح وأن ما عمله السحرة تخييل وخداع وباطل وتبين أن عمل موسى معجزة من الله له تؤيده وتصدقه ، وأن عمل السحرة باطل لا يقف أمام الحق .

١١٩- فَفُتِلُوا هُنَالِكَ وَاتَّقَلَبُوا صَاحِرِينَ .

أى : وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسرته في ذلك المجمع العظيم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

وتم ذلك في يوم العيد وفي وقت الضحى على ملا من الناس وترقب السحرة للنصر وتوقعهم أن يغلب سحرهم ، لكنهم فوجئوا بأن ما جاء به موسى ليس سحراً ولكنه معجزة من رب العالمين .

وفي هذا دليل على أن الباطل قد يغلب أو يتغلب ، وقد يسترهب قلوب الناس لساعة من الزمان حتى ليخيل إلى الكثيرين أنه غالب وجارف .. ولكن ما أن يواجه الحق الثابت المستقر حتى يزهد الباطل ويذول، وينطفئ كشملة الهشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار وهم يرون صروحهم تنهار أمام نور الحق المبين .

١٢٠- وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ .

أى : خر السحرة ساجدين لله ، مندفعين بقوة إلى إعلان خضوعهم للإيمان بالله حتى لكان أحد قد دفعهم إليه دفعاً وألقاهم إليه إلقاء .

۱۲۱- قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى: آمنا وصدقنا بالله تعالى ، رب جميع الكائنات وإله جميع المخلوقات .

١٢٢- رَبُّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ .

والإله الذي آمنّا به وصدقناه : رب العالمين جميعاً ورب موسى وهارون ، أرسلهما بالرسالة الحقّة وأيدهما بمعجزات صادقة .

وجملة: رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ . بدل من الجملة التي قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان .

وفائدة ذلك : نفى توهم من يتوهم أن رب العالمين قد يطلق على غير الله تعالى ؛ كقول فرعون: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

من تفسير فتح القدير للشوكاني:

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال: التقى موسى وأمير السحرة فقال له موسى: أرايتك إن غلبتك أتؤمن بي وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لأتئين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني: لأؤمّن بك، ولأشهدن أنك على حق، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون: **إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُهُ فِي الْمَدِينَةِ**.

والتأمل يجد أن بشاشة الإيمان خالطت قلوب السحرة ، والعالم فى فنه ؛ هو أكثر الناس استعداداً للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له ، ومن هنا ، فقد تحول السحرة من التحدى السافر ، إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق ؛ الذى لا يجحده إلا مكابر حقود .

★ ★ ★

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ أَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْمَكْرَ مَكْرُتُهُ﴾ فِي الْعَدِيدَةِ لِنُخْرَجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ لَا قُطْعَانَ أَلَيْدِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا ضِلَالُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾

التفسير :

۱۲۳- قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ .

مقرئ بحذف الهمزة على الإخبار، ومقرئ بإثباتها على الاستفهام التوبيخي من فرعون للسحرة .

فقد أنكر عليهم جرأتهم فى إعلان الإيمان بموسى من قبل أن يأذن لهم فرعون .

فهو لغوره وجهه ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرُتُمْوهٖ إِلَى الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا .

أى : إن ما صنعتموه من الإيمان بموسى وصدق رسالته لم يقع منكم ؛ لوضوح حجته ، وصدق معجزته ، بل هو حيلة احتلتم بها ، وخديعة اتخذتموها بالاتفاق مع موسى فى مدينة مصر ؛ لتخرجوا منها سكانها الأصليين - القبط - فيزول ملكهم ، وتزول دولتهم ، ويستقر لكم الأمر من بعدهم وقد قصد فرعون بهذا الأسلوب أن يلقى فى أسماع عامة القبط بشبهتين .

الأولى : أن إيمان السحرة كان بناء على اتفاق سابق وتواطؤ مع موسى .

الثانية : أن ذلك كان لإخراج أهل مصر من ديارهم ، وقصده تثبيت أهل مصر على ما هم عليه من عبادته والخضوع له ، وإذكاء نار عداوتهم لموسى وحقدهم عليه ، إذ ليس أشق على النفوس من مفارقة الأديان وترك الأوطان .

وهكذا يقف الطغاة ضد كل داعية مخلص ، وعندما أعلن النبى ﷺ دعوته فى أهل مكة ، قدم عليه بعض الوفود من العرب ، فقال له أحد الوافدين ، إن كلامك يا أخا قريش لما تكرهه الملوك .

لأن دعوة الرسل الحقّة ، ترتب عليها إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، والحكم بالعدل ، وقطع دابر الظلم ، ولذلك يحتال الطغاة الظالمون فى سائر مراحل التاريخ ؛ لتشويه دعوة الرسل ، وإلصاق التهم بالمصلحين .

قال تعالى :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۖ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعَبَدَ . (إبراهيم : ١٣ ، ١٤)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : فسوف تعلمون الأحوال التى سأنزلها بكم جزاء إيمانكم بموسى وتواطؤكم معه ، ثم فصل هذا الوعيد بقوله :

١٢٤- لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : أقسم لأقطع من كل شق منكم عضواً مغايراً للآخر .

أى : الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى .

ثم أجمعكم مصلوبين في جذوع النخل ؛ زيادة في التنكيل وإفراطاً في العذاب والتشويه .

وغاية فرعون من ذلك التهديد والوعيد منعهم من الإيمان ثم أن يجعل منهم عظة وعبرة لغيرهم .

وفى الآية ٧١ من سورة طه نجد قوله تعالى :

قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلُ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ
وَأَصْلَبَكُمْ فِي جُلُوعِ النَّحْلِ وَلَيَعْلَمَنَّ أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنَاءَ مَا نَحْنُ بِهَا كَمَا جَاءَتْ تَنَارِينَا
أَفَرَعَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المفردات :

منقلبون ، راجعون .

أفرغ علينا صبراً ، أفضه علينا وعمَّنا به .

التفسير :

١٢٥- قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ .

أى : فلا نهال بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته ، أو إننا جميعاً - يعنون أنفسهم وفرعون -

ننقلب إلى الله فيحكم بيننا .

فهو قد هددهم بعذاب الدنيا وهم هددوه بعذاب الآخرة .

لقد اختاروا الموت فى طاعة الله ؛ استجابة لدعوته وإيماناً برسالته ، وفى سورة الشعراء :

قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ • إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

١٢٦- وَمَا نَقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنَاءَ مَا نَحْنُ بِهَا كَمَا جَاءَتْنا ... الآية .

أى : ما تكره منا وما تعيبه وتكره إلا خير الأعمال وأصل المفخر وهو الإيمان بالله ، ومثل هذا لا

يمكن العدول عنه مرضاة لك ولا طلباً للزلفى إليك .

وفيه تيتيس لفرعون ، وحسم طمعه في إيمانهم ، ثم أعرضوا عن مخاطبته وقالوا :

رَبَّنَا آفِرْغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

أى : أفص علينا صبراً واسعاً تفرغه علينا ، وأيدنا بروحك ؛ حتى لا يبقى فى قلوبنا شيء من خوف غيرك ولا من الرجاء فى سوى فضلك .

وتَوَفَّنَا إِلَيْكَ مَذْنَعِينَ لِأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له فى قوله ولا فعله .

ونلاحظ أن الإيمان بالله مصدر الشجاعة والصبر والثبات ومن ثم يحرض زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقْبِلُ آلِهَتَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٢٧)

المفردات :

أتذر موسى ، أى : أتترك موسى ؟

ونستحيى نساءهم ، ونستبقى نساءهم أحياء .

التفسير :

١٢٧- وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ .

أى : وقال الأشراف من قوم فرعون مخاطبين له أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين ، فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو يجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ، ويتركك مع آلهتك ، فلا يعبدوك ولا يعبدوها ، فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ؟

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أمنت السحرة اتبع موسى عليه السلام ستمائة ألف من بنى إسرائيل .

والتاريخ المصرى المستمد من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس، ويسمونها : «رع» وفرعون عندهم سليل الشمس وإبنتها .

قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .

أى : قال فرعون مجيباً للملأ : سنقتل أبناء قومه تقتيلاً ، كلما تناسلوا ، ونستبقى نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته ؛ حتى ينقرضوا .

وَأَنَا فَرَقْتُهُمْ قَاهِرُونَ . أى : غالبون ومستعلون عليهم بالغلبة والسلطان ، قاهرون لهم كما كنا من قبل ، فلا يقدرون على أذانا ، ولا الإفساد فى أرضنا ، ولا الخروج من عبوديتنا .

★ ★ ★

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْعَيْنَا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ١٢٨ ﴿قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِدْوُكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ١٢٩ ﴿

التفسير :

١٢٨- قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْعَيْنَا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ... الآية .

أى : قال لهم : يا قوم ، اطلبوا معونة الله وتأييده على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا .

فهو يحاول دعوتهم إلى التماسك والجلد أمام وعيد فرعون وتهديده .

إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

إن الأرض ليست ملكاً لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك له رب العالمين ، وهو سبحانه يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة ، لمن يخشاها ولا يخشى أحداً سواه .

١٢٩- قَالُوا أَوْزَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ... الآية .

كان بنو إسرائيل قبل مجيء موسى مستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة ، ويستعملهم فى الأعمال الشاقة ، ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم ، فلما بعث الله موسى لم يستطع أن

يُعَذِّبُهُمْ مِنْ ظُلْمِ فِرْعَوْنَ ، إِذْ كَانَ يُؤَذِّبُهُمْ وَيُظْلِمُهُمْ وَيَتَوَعَّدُهُمْ ، فَاسْتَكْبَرُوا إِلَى مُوسَى مَا يَقُولُهُ مِنْ سَوْءِ الْمَعَامَلَةِ وَقَالُوا : أَصَابَنَا الْأَذَى قَبْلَ رِسَالَتِكَ كَمَا اسْتَدْتِ عَلَيْنَا بَعْدَ رِسَالَتِكَ !

قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِندُكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ .

أى : قال موسى : إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم ، ويجعلكم خلفاء فى الأرض ، أى : فى أرض مصر أو فى أرض فلسطين ، وهو استخلاف مؤقت ، بدليل قوله تعالى :
فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

أى : فبرى ربكم كيف تعملون فى عبادته ومعاملته خلقه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان ، فإن أحسنتم : زادكم الله من فضله وإن أسأتم : كان مصيركم كمصير أعدائكم .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٠﴾
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا إِنَّا هَٰؤُلَاءِ وَإِنْ تَصِبُّهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيِّرُوا يُمُوسُونَ وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا
إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المفردات :

بالسنين : السنون : جمع سنة . والمراد بها هنا : القحط والجذب . يقال : أصابتهم سنة . أى : جُذِبَ .

الحسنة : كل خير والأقرب هنا هى السعة والخصب .

سيئة : السيئة كل ما يسوء والأقرب هنا الجذب والقحط .

يطيئروا : يتشاءموا .

طائركم : يطلق الطائر على الحظ والنصيب والعمل والرزق .

التفسير :

١٢٠ - وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ .

يخبر الله تعالى عن حكمته السامية ، حيث يأخذ المعرضين عن الهدى بألوان البلاء لعل ذلك يرشدهم إلى التضرع إلى الله والإيمان برسله .

وقد أقسم القرآن بأن الله أخذ فرعون وقومه بالقحط الشديد والجذب وضيق المعيشة ، وأنقص زروعهم ويساتينهم بتسليط الآفات والأمراض التي فتكت بأكثرهم لعلهم يتعظون ويتدبرون في أمرهم . فاعلموا أن ما نزل بهم إنما هو بسبب كفرهم وطفيانهم فيرجعوا عما هم فيه من العتو والفساد ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار ، فإن الشدة ترقق القلوب وتهدب الطباع ، وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه والعمل على مرضاته .

١٣١- فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ...

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بخير وصلف : ما جاء هذا الخير إلّا من أجلنا ؛ لأننا أهل له ، ونحن مستحقون له بكندا واجتهادنا وامتنازنا على غيرنا ، ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم غافلين عن شكره على نعمائه .

وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ .

أى : وإن اتفق أن أصابهم سيئة ، أى حالة تسوؤهم كالجذب والقحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، ونسبوا ذلك إليهم ، وقالوا : ما حلت بنا الكوارث وما أصابتنا النوازل إلا بشؤم موسى ومن معه ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا ، وذلك لقسوة قلوبهم وتركهم التدبر فى الآيات والنذر . « والتطير : هو التشائم على عادة العرب من زجر الطير فكانوا إذا أطلقوا طائراً فطار إلى اليمين تيامنوا به واستبشروا وسموه : (سانحاً) ، وإذا طار إلى اليسار تشاءموا به وسموه : (بارحاً)^(١٤) .

وقد نهى الإسلام عن التطير والتشاؤم وأباح التفاؤل والاستبشار .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

« لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفرّ من المجذوم فراك من الأسد »^(١٥) .

وفى الحديث : « لا طيرة وخيرها الغأل » قالوا : وما الغأل يا رسول الله ؟ قال : « الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم »^(١٦) .

والأحاديث تنهى عن التشاؤم ؛ لأنه يضعف الهمة والعزيمة ، ويجعل الإنسان يتوقع المصائب ، فإذا رأى الإنسان ما يتشاءم منه قال : « اللهم ! لا يأتى بالخير إلا أنت ولا يذهب السوء إلا أنت ، اللهم اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير »^(١٧) ، ثم مضى فى طريقه ولا يترك عمله .

وهذا معنى الحديث الشريف : « لا طيرة » .

أى : لا تتشام ولا تترك أى عمل واستعذ بالله من السوء ، ثم توكل على الله .

لكن هناك الفأل الحسن ، وهو أن تسمع كلمة تتفاهل بها .

كأن تذهب إلى مهمة أو مصلحة فتسمع من يقول : ناجح أو فالح أو رابح أو منتصر .

فيباح لك أن تتفاهل وتستبشر وتتوقع خيراً من ذلك العمل إن شاء الله .

أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ .

أى : إن ما ينزل بهم من خير أو شر ، وما يحل بهم من بلاء أو عافية هو من عند الله ، وأن ليس لموسى ولا لقومه شيء فى هذا الأمر كله .

وكل من الشر والخير ابتلاء من الله لعباده ، قال تعالى : وَلَبَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء : ٣٥)

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : ولكن أكثر هؤلاء الطغاة الجبارين جهلاء ، لا يعلمون أن ما حل بهم من الشدائد والنوازل ، ما هو إلا بلاء من عند الله وحده ، بسبب ذنوبهم واستعلائهم فى الأرض بغير الحق ، ليزدجروا ، لا بسبب موسى ومن معه ، وما أصابهم من الخير ما هو إلا فتنة لعلمهم يتذكرون ويشكرون ، لكنهم يجهلون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ، ويجهلون أسباب الخير والشر ، ويجهلون أن كل شيء فى الكون بمشيئة الله وتدبيره .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ بِكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٢)

التفسير :

١٣٢- وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ...

أى : قال فرعون وقومه بعد أن عاينوا ما عاينوا من أمر العصا واليد والسنين ونقص الثمرات : أى آية تأتينا بها يا موسى ، وإن عظمت وكثرت لتسحر بها أعيننا وتموه بها علينا فلسنا لك بمصدقين ولا برسالتك مؤمنين ؟

فقد داخلهم العناد والإصرار ، وادعوا أنه لا فرق بين المعجزة والسحر .

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . أى : بمصدقين لك ، ولا بمتبعين لرسالتك .

★ ★ ★

﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾

التفسير:

١٣٣- فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ أَيْنَ مُفْصَلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ.

أى : فعاقبنا فرعون وقومه بأنواع العقوبات ؛ لما أصرُّوا على الكفر ولم يعتبروا بما رأوا من الآيات .

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمساً وفى سورة الإسراء تسعاً^(١٩) .

١ - الطُّوفَانُ : أى : المطر الشديد الذى أغرق أرضهم وأتلف زرعهم وثمارهم ، وقريب من ذلك ما أصاب مصر فى شتاء ١٩٩٢م ، حيث أتلفت مياه الأمطار كثيراً من النباتات والجسور والبيوت .

٢ - الْجَرَادُ : الذى أكل الزرع والفرس والثمار ، وألحق بأبواب بيوتهم وسقوفها التلثف .

٣ - الْقُمَّلُ : الذى ملأ ثيابهم وأجسامهم وشعورهم وعيونهم ؛ وهو القمل المعروف . ويحتمل أنه البراغيث .

٤ - الضَّفَادِعُ : فملأت المنازل والمضاجع والأطعمة والأشربة ؛ حتى أفلقتهم وصاروا لا يطيقون الحياة معها .

٥ - الذَّمَ : الذى اختلط بالماء ، فصاروا لا يستطيعون شربه ، أو ابتلاهم بالرعاف .

أَيَاتٍ مُّفْصَلَاتٍ : أى : مبيِّنَات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله .

وقيل : إن تفصيلها : هو تفريقها فى أزمان مختلفة عن بعضها بحيث تظهر السابقة عن اللاحقة .

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

فامتنعوا وتعالوا ، وأنفوا من الإيمان بموسى عليه السلام ، وكانوا بكفرهم وعنادهم قوماً مُّجْرِمِينَ .
مبالغين فى الكفر والعدوان وإيذائهم لموسى وللمؤمنين به .

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ
عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

المفردات :

الرجز، العذاب .

ينكثون ، ينقضون العهد بعد توكيده وأصل النكث : فك الغزل ثم استعير : لنقض العهد كما هنا .

التفسير :

١٣٤- وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَى اذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ .

أى : ولما وقع ذلك العذاب عليهم : اضطربوا وفزعوا أشد الفزع ، وقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك وتوسل
إليه بعهدك ورسالته لك أن يكشف عنا الرجز والعذاب ، ونحن نقسم لك لأن تكشفه عنا لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بنى إسرائيل !

وفى التوراة : إن فرعون كان يقول لموسى حين نزول كل آية منها : ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن
يرفع عنا هذه ، ويعدده أن يرسل معه بنى إسرائيل : ليعبدوا ربهم ثم ينكث !

١٣٥- فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ .

أى : فلما كشفنا عنهم ما نزل بهم من العذاب ، ورفعنا عنهم الضر ، ورحمناهم بذلك : إجابة لدعاء
موسى عليه السلام ، إلى أجل هم بالغوه ، ومنتهون إليه ، وهو الغرق الذى هلكوا فيه ، إذا هم ينكثون فى
عهدهم ويحثثون فى قسمهم فى كل مرة .

١٣٦- فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ .

كان فرعون وقومه يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ، وفى كتب التفسير كالطبرى
وابن كثير : روايات تفيد : أن العذاب تتابع عليهم لولا بعد آخر .

فقد اشتد عليهم المطر حتى خافوا منه الهلاك ؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر ، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا موسى ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، ثم كثر النبات وكثرت الزروع والثمار ، وأعرضوا عن الإيمان .

فسلط الله عليهم الجراد ، يتلف لهم الزرع والمحصول فاستغاثوا بموسى ، فدعا ربه فكشفه الله عنهم فلم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم القمل والسوس الذى أتلف القمح وأفسد المحصولات ؛ فاستغاثوا بموسى وكشف عنهم العذاب ولم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم الضفادع تملأ بيوتهم وطعامهم وتتفزع إلى أفواههم ، فاستغاثوا ثم لم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم الدم فى طعامهم وشرابهم وأوعيتهم ؛ ثم استغاثوا بموسى فدعا ربه فكشف عنهم العذاب ثم لم يؤمنوا بموسى ولم يصدقوا فى وعدهم معه !

وهنا يفيد القرآن : أن الله أمهلهم كثيراً حتى إذا اشتد طغيانهم عاقبهم الله عقاباً رادعاً بسبب نقض العهد وعودتهم إلى تكذيب الآيات وارتكاب المعاصي .

وكان هذا الانتقام هو إغراقهم فى البحر بإطباقه عليهم ، حين أرادوا اللحاق بموسى وهو يعبره بقومه إلى سيناء بعد أن انشق له بضرية من عصاه .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل .

ولأن سورة الأعراف يغلب عليها الإنذار وتخويف المكذبين بما حل بالأمم السابقة فقد جاءت بهذه الآية زجراً لأهل مكة وسائر المكذبين بمحمد ﷺ ، الجاحدين لآياته ، فكأنها تقول : تلك عقوب الذين ظلموا.. لقد أغرقهم الله بذنوبهم ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وغفلتهم عن موقع العبرة والعظة منها والسعيد من اتعظ بغيره .

﴿ وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ (١٣٧)

المفردات :

وتَمَّتْ : تحققت ومضت .

كلمت ربك : وعد ربك بالنصر .

الحسنى : تأنيث الأحسن صفة للكلمة .

التفسير :

١٣٧- وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ...

أى : بعد أن أغرق الله فرعون وقومه ، نجى موسى وقومه بنى إسرائيل الذين كانوا يستضعفون بقتل الرجال واستخدام الإناث وإذلالهم واستعبادهم .

أوزنهم الأرض التى عبروا البحر إليها وهى فلسطين ، وقد أوزنهم مشارقها ومغاربها ، أو أوزنهم مشارق أرض الشام ومغاربيها .

أو مشارق أرض فلسطين من حدود الشام ومغاربيها من حدود مصر ، وقد بارك الله فى هذه الأرض بركات مادية ومعنوية ؛ فقد بارك الله فيها بالخصب وسعة الرزق ، وجعلها موئل الرسالات والنبوات وبها السجد الأقصى الذى دخله أعداد من الرسل والأنبياء .

قال تعالى : سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ... (الإسراء : ١)

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ٧١)

وقال تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصِبَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١)

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا .

أى: ونفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدها من فرعون وقومه ، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة ، وقد وعد الله العاملين بالنصر والتكئين .

قال تعالى : وَلْيُرِيدْ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ • وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلْيَرَىٰ فِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . (القصص: ٥ ، ٦)

وقريب من ذلك قوله تعالى : قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . (الأعراف: ١٢٨)

وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ .

أى: وخرينا ما كان يصنع فرعون وقومه من القصور والصروح والعمارات ، وما كان يهتمون بغرسه من البساتين والجنات ، وتلك نهاية عادلة لطغيان فرعون واستعلائه في الأرض بغير الحق .

تنبيه

تحدث القرآن عن بنى إسرائيل بأنهم عندما آمنوا بموسى واتبعوا أوامر التوراة : أعطاهم الله النصر والتكئين في الأرض فأورثهم فلسطين عندما كانوا مسلمين حقاً ، ومؤمنين صادقين .

وفى هذا الإطار نجد آيات تتحدث عن تفضيلهم وإكرامهم ونصرهم .

مثل قوله تعالى : يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي آنَعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . (البقرة: ٤٧)

ومثل الآية التي نشرحها حيث يقول تعالى : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا . (الأعراف: ١٣٧)

وعندما قست قلوبهم ، وجرؤوا التوراة ، وأضافوا إليها ما ليس منها ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لعنهم الله، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وسلط عليهم أعداءهم في القديم والحديث ، فقد سلط عليهم بختنصر البابلي قبل الميلاد ، وسلط عليهم الرومان والألمان والعرب المسلمين ؛ عقوبة على فسادهم .

قال تعالى : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ • كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (المائدة: ٧٨ ، ٧٩)

وقال تعالى: وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّقْعُولًا ۖ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ رَّيِّنٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۚ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْوِعُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۚ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ۚ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء: ٤-٨).

وهذه الآيات تفيد أن بني إسرائيل سيفسدون في أرض فلسطين مرتين أي: مرة بعد أخرى.

وفي المرة الأولى يسلط الله عليهم عباداً ينفذون أمره ولعل هذا الإنسان هو يختصر البابلي، وقد حارب بني إسرائيل في سنة ٦٠٦، وفي سنة ٥٩٩، وفي سنة ٥٨٨ ق. م. ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ ق. م، فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم.

ولعل المسلط عليهم في المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م.

وقد قتل منهم تيطس مليون قتيل وأسر منهم مائة ألف أسير.

ثم تفرقوا في البلاد وأصبح تاريخهم ملحاً بتاريخ الممالك التي نزلوا فيها.

ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا في العصر الحديث، بعد أن ظلت فلسطين في يد العرب المسلمين ١٣٠٠ سنة، ومنذ ذلك الحين وفلسطين بلد من بلاد المسلمين علينا استرداده وتحريره بإذن الله، والله مع المتقين!

★ ★ ★

﴿ وَجَازَنَّا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا هُمْ
فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَمْلُكُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المضردات :

وجازننا، وعبرنا وقطعنا بهم البحر.

فأتوا، مروا.

يعكفون، يقيمون ويلبسون.

منتبر، هالك .

وباطل، ومضمحل زائل .

التفسير:

١٣٨- وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ... الآية .

تمهيد :

بين سبحانه نعم الله على بنى إسرائيل ، فقد أنجاهم من عدوهم حين ضرب موسى بعصاه البحر الأحمر «بحر القلزم» فانفلق البحر وصار كل جانب من المياه كالجبل العظيم وسار موسى مع قومه فى طريق يابس بين المياه العالية ، وقد أتبعهم فرعون بجنوده ليدركهم ، فتركه الله إلى أن خرج بنو إسرائيل من البحر ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده وأغرقهم أجمعين ، وتركهم عبرة وعظة لهلاك الظالمين ، وخيبة المعتدين .

ويعد أن شاهد بنو إسرائيل بأعينهم هلاك عدوهم ونجاتهم من الفرق بفضل الله ، إذا بهم يعودون إلى طبيعتهم الوثنية فى عبادة الأصنام .

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ ...

المعنى : وعبرنا ببني إسرائيل البحر إلى شاطئه الشرقى وسلكناه بهم بعد أن انفلق وانشق بضربة موسى عليه السلام .

فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ .

أى فمر بنو إسرائيل على جماعة من الناس يقيمون على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم ويلتزمون بتعظيمها وتقديسها .

ولم يذكر القرآن شيئاً يعين شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل ، والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر ، روى عن قتادة : أنهم من عرب لخم ، وعن ابن جريج : أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس .

قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .

أى : قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها نخضع به وننفرد بعبادته يكون مائلاً لتلك الآلهة : التى اختص بها هؤلاء ، وانفردوا بعبادتها من دون الله .

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

أى : إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أبيس والثعابين - فالله قد كرم البشر وجعلهم أهلاً لمعرفة وبعائه ومناجاته بلا واسطة تقربه إليهم ؛ فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

١٣٩- إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال ، لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

من كلام المفسرين

١ - قال الإمام الرازى: والمراد من بطلان عملهم: أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر.

٢ - قال الأستاذ سيد قطب - فى ظلال القرآن - كلاماً طويلاً خلاصته: إن موسى عليه السلام لا يواجه هنا طاغوت فرعون وملئه ، ولكنه يواجه المعركة مع (النفس البشرية) فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً .

وقد عاش بنو إسرائيل فى هذا العذاب طويلاً ؛ حتى فسدت نفوسهم وفسدت طبيعتهم ، والتوت طبيعتهم ، وانحرفت تصوراتهم ، وامتألت نفوسهم بالجبن والذل من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر ، وهما جانبان متلازمان فى النفس البشرية ، حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان ...

٣ - قال القرطبي: ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى : ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى : يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة فى كل سنة يوماً ، قال الأعراب: يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر ، قلتُم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ . لتركبن سنن من قبلكم خذوا القذة بالقذة^(١٠) حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» وكان هذا فى مخرجه إلى حنين^(١١) .

٤ - جاء في تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى :

وللمسلمين عبرة في هذا فإن لهم ذات أنواط في بلاد كثيرة كشجرة «الحنقى» بمصر ، وقد اجتثت أخيراً ، وشجرة «ست المنصورة» ونحو ذلك مما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار التي يعكفون عليها ويطوفون حولها ، ويقبلونها ، ويتمرغون بأعتابها ، ويتمسحون بها ، خاشعين ضارعين ، راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء وحبل العقيم ، ورد الضالة ، وغير ذلك من النفع ، وكشف الضر ، وهذا مخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله ؛ إذ هذا عبادة وإن كانوا لا يسمونها بذلك ، فلا فرق بينه وبين شرك الجاهلية إلا بالتسمية ؛ إذ حقيقة العبادة : كل قول أو عمل يوجه إلى معظّم يرجى نفعه أو يخشى ضرره وحده^(٣٧) .

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۖ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَمَسْخُوجُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۖ ﴾

المفردات :

أبنيكم : أطلب لكم .

العالمين : جمع عالم وهو ما سوى الله . والمراد هنا : عالمو زمانهم وعصرهم .

يسومونكم : يلزمونكم إياه . يقال : سامه الأمر يسومه : كلفه إياه وألزمه به ، وأكثر ما يستعمل في العذاب .

بلاء : اختبار .

التفسير :

١٤٠ - قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَهِهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أى : كيف أطلب لكم غير الله إلهاً تعبدونه ؟! وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعض منها .

وهنا يذكرهم موسى بأقرب النعم عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من الاستعلاء والعزة .

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أى : على عالمي زمانكم ؛ بهدايتكم إلى الدين الحق ، وتفضيلكم على أهل زمانكم ممن كانوا أرقى منكم

مدينة وحضارة وسعة ملك وسيادة مثل فرعون وقومه ، حيث جعل رسالة موسى وهارون منكم ، وتجديد ملة إبراهيم فيكم .

وهذا التفضيل مقيّد باتّباعهم تعاليم السماء ورسالة الأنبياء .

لكنهم لم يصونوا هذه الأمانة ، بتحريفهم كلام الله ، وعدوانهم في السبت ، واتهامهم لمريم بالسوء ، وادعائهم : أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم ، وغلوهم في حب المادة ، وإهمالهم روح الدين وتعاليمه .

فحق عليهم اللعن والطرده ، وسلط الله عليهم من ينتقم منهم في تاريخهم الطويل .

١٤١- وَإِذْ أَجَبْنَاكَم مِّنْ عَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ .

لغت موسى نظرهم إلى أجلّ نعم الله عليهم ، فقد عاشوا زمناً طويلاً أدلاء تحت عذاب فرعون وقومه ، فقد كانوا يذبحون الأطفال الذكور ، ويتركبون الإناث للخدمة والاستفراش ، ثم أرسل الله موسى وأنقذهم به من العذاب والمهانة ، وعبر بهم موسى البحر ، وفي هذا الابتلاء ، اختبار من الله لهم ، بالشدّة ثم بالنصر والنعمة ، ويجب عليهم أن يشكروا الله على ذلك ، وأن يخلصوا في عبادته .

وهكذا تدرج موسى في تسفيه طلبهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه ، وذكرهم بأجلّ النعم من الله عليهم؛ حتى يخلصوا في عبادته ، وحتى يبتعدوا عن عبادة غيره .

فوائد :

١- جاء في ظلال القرآن ما يأتي :

ذكّرهم موسى بأقرب الأشياء إليهم ؛ لأنها أقرب الحجج عليهم ، وإلا فمثل موسى لا يطلب رباً سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله ، فضّلهم أو لم يفضلهم ، أنجاهم من ظلم فرعون أو أبقاهم ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن بداية الآيات نشعر كيف يتسرب الانحراف ، وكيف يبدأ ، وكيف يكون ، فهي هي أمة ترى المعجزات التي رأتها ، ومع ذلك فإنها تطالب أن يكون لها أصنام ، تعبدونها من دون الله ، ورسولها بين أظهرها ، وأرجلها لم تكد تجاوز البحر ، الذي رأت في سيرها فيه وانشقاقه لها أعظم معجزة !

٢- جاء في تفسير النسفي ، أن يهوديا قال لعلى رضى الله عنه : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه «يظهر أن المراد : ماء القبر الذي يرش عليه حين الدفن لتسويته» فقال ردّاً عليه: قلتم : اجعل لنا إلهاً ولم تجف أقدامكم .

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ۖ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

المفردات :

مِيقَاتُ رَبِّهِ ، أى : الوقت الذى وقته ربه وحده لمناجاته وتلقى ألواح التوراة .

تَجَلَّى ، انكشف وظهر .

دَكًّا ، أى : مذكوكا منهاراً مهدوماً .

خَرَّ ، سقط .

صَعِقًا ، مغشياً عليه .

التفسير :

١٤٢-وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ... الآية .

روى أن موسى عليه السلام ، وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم ؛ أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون ؛ سأل موسى ربه : الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة .

من جملة ما كرم الله به موسى وشرفه ، ضرب هذه المدة موعداً لمناجاة موسى ومكالمته .

وتفيد كعب التفسير : أن الأيام الثلاثين الأولى كانت شهر ذى القعدة ، والأيام العشر التى أكملت الأربعين كانت أيام عشر ذى الحجة .

وقد مكث موسى فى هذه المدة صائماً قائماً متبتلاً فوق جبل الطور ، وفى هذه المدة تربية روحية لموسى بالصفاء والنقاء والعبادة والتأمل وقوة الروح وصفاء النفس .

وفى ختام هذه المدة ، وبعد أربعين ليلة من التحنّث والعبادة أنزل الله عليه التوراة وكلّمه عند انتهائها . وأعطاه الألواح المشتملة على أصول الشريعة .

جاء في التوراة في سفر الخروج : «وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل الله تعالى . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ها هنا ، وهوذا هارون وحور معكم فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليها ، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل وكان موسى فى الجبل أربعين نهراً وأربعين ليلة .

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ .

استخلف موسى أخاه هارون على رعاية قومه وإصلاح شؤونهم وتفقد أحوالهم ، وزوده بالنصيحة المفيدة : فهو يعلم تعنّت بنى إسرائيل وعنادهم فقال لهارون :

كن خليفتى فى قومي ، واعمل على إصلاح عيشتهم وحياتهم وعقيدتهم؛ حتى أرجع إليهم ، ولا تسلك طريق الذين انغمسوا فى الغواية والفساد ، ولا تطعمهم فى ذلك ، بل رُدّهم إلى الحق والصواب ، وبين لهم طريق الهدى والرشاد .

١٤٣- وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ...

أى : ولما جاء موسى إلى الجبل لأجل ميقاته ربه .

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ .

أى : بلا واسطة ولا كيفية فكلام الله الأزلى ليس كمثله شيء ، وقال بعضهم : إنه كان يسمع الكلام فى سائر الجهات الأربع ومن جنبات نفسه .

قال النسفى : وذكر الشيخ فى التأويلات : أن موسى عليه السلام سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى ، وكان اختصاصه باعتباره أنه أسمعته صوتاً تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسباً لأحد من الخلق .

قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ .

عن قتادة: لما سمع موسى الكلام؛ طمع في الرؤية - أى: اشتياقا - للجمع بين فضيلتي الكلام والرؤية. فقال: رب أرني ذاك المقدسة ومكنى من رؤيتك بأن تتجلى لى حتى أراك.

قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .

أى: قال الله لموسى: لن ترانى فى دنياك هذه ، بالعين الفانية فى هذه الدنيا الفانية ، بل بعين باقية فى الدار الباقية .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

معناه : أنك لا تثبت لرؤيتى ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرماً وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه.

فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ، ولم يتزلزل عند رؤيتى له ؛ فَسَوْفَ تَرَانِي .

وإن ضعف عن ذلك الجبل فأنت منه أضعف ، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل ، وقيل : هو من باب التعليق بالمجال ، وعلى تسليم هذا ؛ فهو فى الرؤية فى الدنيا .

وقد تمسك بهذه الآية كلتا طائفتى المعتزلة والأشعرية :

فالمعتزلة استدلوا بقوله : لَنْ تَرَانِي ، وبأمره أن ينظر إلى الجبل .

والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممنوعة .

ولا يخفاك أن الرؤية الأخيرة هى بمعزل عن هذا كله ، والخلاف بينهم هو فيها ، لا فى الرؤية فى الدنيا ، فقد كان الخلاف فيها فى زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف^(٣) .

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا .

تجلى : معناه : ظهر من قورك جلوت العروس : أى أبرزتها ، وجلوت السيف : أخلصته من الصدأ ، وتجلى الشيء : انكشف .

والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل جعله دكاً .

أى : جعله مدكوكاً مدهوقاً ، فصار تراباً ، وفى حديث أنس مرفوعاً : فساخ الجبل .

وَعَرَّ مُوسَى صَعْقًا .

أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلى مغشياً عليه كمن أخذته الصاعقة .

فَلَمَّا أَتَاهُ قَالَ سُبْحَانَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : فلما أتاه من غشيقه وعاد إلى وعيه وفهمه وذهبت عنه تلك الشدة قال تعظيماً لله وإجلالاً لمقامه .

سُبْحَانَكَ : أنزهك يا رب عن مشابهتك لشيء من خلقك .

بُتُّ إِلَيْكَ : أى : من الإقدام على السؤال بغير إذن منك .

وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ : أى : من بنى إسرائيل .

وفى رواية : عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

والخلاصة :

«أن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل : تناقت نفسه أن يمنحه الرب شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثل شيء ، لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولكن الله تبارك وتعالى قال له : أَنْ تَرَانِي . ولكى يخفف عليه ألم الرد ، أراه بعينه من تجليه للجبل ، ما فهم منه أن المانع من جهته ، لا من جانب الفيض الإلهي ؛ حينئذ نزه الله وسبحه ، وتاب إليه من هذا الطلب ؛ فبشره الله بأنه اصطفاه على الناس برسالته ويكلامه ، وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له»^(١٤٤).

★ ★ ★

﴿ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ

مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

المضردات :

اصطفيتك ، اخترتك .

التفسير :

١٤٤- قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي ... الآية .

قال الله تعالى: يا موسى ، إنى اخترتك رسولاً وفضلتك على أهل زمانك ؛ بإرسالى إياك ، وأنزلت عليك التوراة تبيناً لطريق الخير وإرشاداً للحلال والحرام ، كما أفرقت بكلامى إياك من غير واسطة .

فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

فتقبل ما أنعمت به عليك من شرف النبوة والرسالة ، وارض بنعمة المناجاة والكلام ، ولب نفساً بجعلك من المصطفين الأخيار الذين يبلغون رسالات ربهم ، واندمج في عداد الشاكرين على تلك النعم ؛ حتى تنال المزيد من فضلى : **ثِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** .

وهارون كان رسولاً مع موسى ، لكنه كان مأموراً باتباع موسى ، فلم يكن صاحب شريعة مستقلة ، وام يكن كليماً لله وقد طلب موسى من ربه أن يجعل هارون معه رسولاً يشد أزره ويصدقّه: مخافة أن يكذبه قومه.

قال تعالى: **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ۚ قَالَ سَنُنَدِّعُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ** . (القصص: ٢٤ ، ٣٥) .

تعليق

تفيد هذه الآيات أن الله تعالى كلم موسى تكليماً ، وهى آيات صريحة فى إثبات صفة الكلام لله تعالى.

ويقول علماء الكلام : لو لم يكن الله تعالى متكلماً لكان أبكماً ، والبكم نقص ، والنقص على الله تعالى محال .

أما الرؤية ففيها آيات متعارضة ، كقوله تعالى : **لَا تَلِدْكَ أَلْبَصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ** .

وقوله تعالى : **أَنْ تَرَانِي** . وهما أصرح فى النفى من دلالة قوله تعالى : **وَجِئْهُ يَوْمَئِذٍ نَاطِرَةً ۚ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** . على الإثبات ، فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب ، كقوله تعالى : **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ** . وقوله تعالى : **مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً** .

والمعتزلة يقولون : إن هناك آيات محكمة تفيد عدم الرؤية وآيات متشابهة ، فنحن نحمل المتشابهة على المحكم . بيد أن فى الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلاً ، والمرفوع منها مروى عن أكثر من عشرين صحابياً .

ولم يرد فى معارضتها شيء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها: يا أمّاه ، هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة المعراج ؟ فقالت : لقد قفّ شعري مما قلت ، أى أنت من ... : «ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن هـ حمداً ﷺ رأى ربه ؛ فقد كذب ، وفى رواية فقد أعظم على الله الفرية ، ثم قرأت : **لَا تَلِدْكَ أَلْبَصَارُ وَهُوَ يَدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** - وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

ومن حدثك أنه يعلم ما في غير؛ فقد كذب، ثم قرأت: وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الدين؛ فقد كذب ثم قرأت: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .

قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست وقلت: ألم يقل الله: وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى . فقالت: أنا أول هذه الأمة. سئل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إنما هو جبريل»^(٢٤).

ومن هذا نعلم أن عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبي ﷺ لربه بالحديث المرفوع، وتنفى جواز الرؤية مطلقاً، أو في هذه الحياة الدنيا، بالاستدلال بقوله تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وقوله: وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ .

وهذا الاستدلال ليس نصاً في النفي حتى يرجح على الأحاديث الصريحة في الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة .

والمتبوتون للرؤية يقولون: إن استنباط عائشة إنما هو لنفي الرؤية في الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور ولا تقاس شئون البشر في الآخرة على شئونهم في الدنيا؛ لأن ذلك العالم سنناً ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى في الأمور المادية كالأكل والشرب، والمأكول والمشروب، فماء الجنة غير آسن، فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره في مقره أو جوفه، قال ابن عباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء .

وجمهرة المسلمين: أن رؤية العباد لربهم في الآخرة حق، وأنها أعلى وأكمل للنعيم الروحاني الذي يرتقى إليه البشر في دار الكرامة، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله ﷺ: «قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(٢٥)، وهي المعبر عنها بقولهم: إنها رؤية بلا كيف^(٢٦).

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمَا بِأَخْذِهَا بِحَسَنٍ وَأَوْزَيْنَا ذَاكَ الْقَدَسَيْنِ ۝﴾

المفردات :

وكتبناه في الألواح : أى : وخلقناه له الكتابة فيها : والألواح : الصحف التى كتبت فيها التوراة .

فخذها بقوة : أى : فتناولها وتقبلها بجد وعزيمة .

التفسير :

١٤٥- وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ... الآية .

هل المراد بالألواح هنا التوراة أو ألواح أعطيها موسى قبل التوراة ؟ قولان للعلماء :

جاء فى تفسير المنار :

قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال بعضهم : بل كانت قبل التوراة ، والراجح : أنها كانت أول ما أوتيته من وحى التشريع ، فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله تعالى فى أوقات الحاجة إليها ^(٢٤) .

والمعنى : بينا لموسى فى الألواح والمصحف من كل شىء يحتاج إليه بنو إسرائيل : لإصلاح شئونهم فى الدين والدنيا من المواعظ وتفصيل الأحكام ، وبيان الحلال والحرام والحسن والقبيح وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد .

فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكُمَا بِأَخْذِهَا بِحَسَنٍ .

أى : خذ هذه الأحكام بالعزيمة والجِدِّ ، بدون تهاون أو تفريط ، وهى دعوة إلى تقديم العزيمة على الرخصة ، وعدم محاولة التفلت والانسلاخ من الأحكام الشاقة إلى أيسر الأحكام والتكاليف .

وليس فى هذا غلو أو اعتساف ، فنحن نعلم أن دين الله يسر لا حرج فيه .

ولكن هذه العقيدة تحتاج إلى الجِدِّ والهمة والحسم والصرامة ولا ينبغي أن تؤخذ فى رخاوة ولا تميع ولا ترخيص ، مع البعد أيضا عن التشدد والتعنت والتعقيد .

وَأَمَرَ قَوْمَكُمَا بِأَخْذِهَا بِحَسَنٍ .

أى : وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة ، والأحكام المفصلة فى الألواح ، التى هى فى منتقى الكمال والصن ، وأن يختاروا أقربها إلى الصواب لو أن فيها حسناً وأحسن ، كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح . فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثواباً .

سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ .

أى : سأرى قومك ديار الهالكين من عاد وثمود وأمثالهم؛ ليشاهدوا ما حل بأهلها من الهلاك والدمار؛ لأن رؤية الديار خالية من أهلها ، خاوية على عروشها ، تدعو إلى مزيد من الحذر والاعتبار .

قال ابن كثير : أى : سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار .
وخطب قوم موسى عليه السلام بقوله : سأريكم دون قوله - سأريهم - التفاتاً إليهم بعد الغيبة : ليكون ذلك أبلغ من حملهم على الطاعة والامتثال ، وتخويفهم من اتباع طريق الظالمين .

وقيل : معنى : سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ . سأوريتكم حكم الوثنيين فى تلك الديار التى هاجرت إليها ،
بدليل قراءة : سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ .

★ ★ ★

﴿ سَاصْرِفْ عَنْ أَيْتِىَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آتِيَهُ
لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَىِّ
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

المضردات :

ساصرف عن آياتى الذين يتكبرون : سأبعد عن التدبر فى آياتى ، والمراد : سأطبع على قلوبهم وأغلقها؛ بسبب كبريائهم .

سبيل الرشد : طريق الحق .

سبيل الغى : طريق الضلال .

حبطت أعمالهم : بطلت أعمالهم فلم ينتفعوا بها .

١٤٦- سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...

يسر الله للإنسان طريق الهدى والرشاد ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وهده النجدين وبين له الطريقين ، فإذا اختار الإنسان طريق الهدى ؛ يسر الله له الرشاد وثبته وأعانته عليه ، وإذا تكبر عن الحق ويغى في الأرض وتعالى وتكبر عن دواعي الإيمان ؛ فإن الله يسلب عنه الهدى ويحجبه عن مواقع رحمته ، بعد أن أخذ من آيات الله ومعجزاته هذا الموقف المعيب ثم بين صفات المستكبرين وأحوالهم فقال :

١- وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا .

إن إعراسهم عن الحق حجبه عن رؤية دلائل الإيمان ، ومعجزات الرسل ، وجمال التشريع الإلهي وسموه ، فإذا شاهدوا آيات التنزيل أو معجزات الرسل عماهم الهوى عن الإيمان بهذه الآيات .

٢- وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

إذا شاهدوا طريق الحق والخير والإيمان والفلاح ؛ أبعادوا أنفسهم عنه وساروا في غيره .

٣- وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ آفَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

أى : إنهم إذا شاهدوا طريق الضلال والشهوات والمحرمات ؛ هرعوا إليه وساروا فيه .

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر في الآيات فقال :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ .

لقد حجبه الله عن مواقع رحمته ، وصرفهم عن الاعتبار بآياته ؛ لأنهم أخذوا من آياته سبحانه موقفاً معادياً ، فأغضوا أعينهم عنها ، وكذبوا بها قبل أن ينظروا فيها ويعرفوا وجهها ولو أنهم تدبروا ما جنتا به وعقلوه ؛ لما فعلوا الأباطيل .

١٤٧- وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إن الذين كذبوا بالرسول ، وكفروا بآيات الله وباليوم الآخر ، ضل سعيهم ، ويطل ما عملوه في الدنيا من بر وصلة رحم ، وإغاثة ملهوف وغير ذلك ؛ إذ الشرط في قبول أعمال الخير والإجابة عليها في الآخرة: تحقيق الإيمان بالله وشرائعه .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إنهم عملوا لغير الله ، وأتبعوا أنفسهم فى غير ما يرضى الله ، فتصير أعمالهم وبالأعلى عليهم ، وقد مضت سنة الله أن يكون الجزاء من جنس العمل .

وإنهم لم يعملوا إلا شراً ولم يقدموا إلا سوءاً وكفراً ، فلم يكن جزاؤهم إلا ما يسوؤهم .

لقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

★ ★ ★

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ جُلُوسًا عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَكْلَمُوهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

المفردات :

جسد ----- جسد عجل مصنوعاً من الذهب لا روح فيه .

خوار ----- صوت البقر .

سقط فى أيديهم : ندموا ندماً شديداً لأن النادم يعرض يده ويسقط ذقنه فيها غماً فتصير يده مسقوطة فيها .

التفسير :

١٤٨ - ١٤٩ - وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ جُلُوسًا عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ ... الآية .

ذهب موسى إلى مناجاة الله تعالى ، واستمر غيابه عنهم أربعين ليلة ؛ واستخلف موسى هارون على قومه ، ودعا إلى الإصلاح والابتعاد عن المفسدين وكان السامري مطاعاً فى بنى إسرائيل وله منزلة جلية بينهم ، فطلب منهم أن يجمعوا الحلى التى استعاروها من الأقباط ليلة عيد لهم ، ثم غرق فرعون وقومه ، وبقيت الحلى عند بنى إسرائيل ، فطلبها منهم السامري ، بحجة أنها عارية لا يحق لهم أن يملكوها ، وكان السامري فناناً له خبرة بالنحت وصنع التماثيل بطريقة فائقة .

فوضع الحلى فى النار ، وصاغ منها تماثلاً على صورة عجل ، فيه هيئة الجسد ولا روح فيه ، ووضع فيه أنابيب تؤدى إلى إحداث صوت الخوار ، عند دخول الريح فيه .

فلما رأوا منظره وصوت البقر ينبعث منه ، قال لهم السامري : هذا هو إلهكم ، وإله موسى ، ولكن موسى نسى هذا الإله وتركه فأقيموا أنتم على عبادته ، فاتجهوا إليه بالعبادة ، مقلدين قوم فرعون فى عبادة عجل أبيس ، ومقلدين ما شاهدوه من بعض العرب الذين أقاموا على عبادة تمثال لبقرة ، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه ، كما يعبد هؤلاء هذا التمثال ؛ فغضب منهم موسى ، وقال لهم : كيف تعبدون إلهاً غير الله الذى أنعم عليكم بالعديد من النعم .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلُوبِهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ...

أى : وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى ماضياً إلى مناجاة ربه - من حلى القبط التى كانوا استعاروها منهم . عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . أى : تمثالاً له صورة العجل وبدنه وصوته .

والذى فعل ذلك هو السامري ، وكان مطاعاً فيهم ، وإنما نسب العمل إليهم : لأنه عمل برأى جمهورهم ، الذين طلبوا أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه .

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحماً ودماً له خوار .

أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة على قولين ، والله أعلم . ا هـ .

ويرى الراى الأول قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم ، أن السامري رأى جبريل حين جاوز ببني إسرائيل البحر ، راكباً فرساً ما وطئ بها أرضاً إلا حلت فيها الحياة ، واخضر نباتها ، فأخذ من أفرها قبضة ، ثم نبذها بعد ذلك فى تمثال العجل ، فحلت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل . ويرى جماعة آخرون : أن السامري صنع تمثال عجل مجوفاً ، ووضع فى جوفه أنابيب على طريقة فنية مستمدة من دراسة علم الصوت ، فإذا دخلت الريح فى جوف التمثال ؛ انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً .

إن هذا العجل فاقد لأهم صفة من صفات الإله الحق ، وهى الكلام والهداية والإرشاد للعباد ، وإنزال الكتب وإرسال الرسل ؛ وهو استغفام إنكارى من هؤلاء الذين ساروا وراء أهوائهم المادية ، فصنعوا عجلاً بأيديهم ، بعبوده مع أنه لا يتكلم ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، ولا يرشدهم إلى معالم دينهم وشرائعهم .

اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

كرر القرآن نسبة اتخاذ العجل إليهم ، فهم صانعوه بأيديهم ، ثم عبده من دون الله ، وكان ظالمهم ، وكانوا ظالمين حين عبدوا عجلاً من دون الله .

١٤٩- وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

أى : ولما اشتد ندمهم ، وزادت حسرتهم على ما فرط منهم فى جنب الله ، وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالاً مبيناً بعبادة العجل ، وَجَّرَ هَارُونَ والرغبة فى قتله ، عندئذ ندموا ورغبوا فى التوبة ، والتضرع والابتهاال إلى الله وقالوا: لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

وكان ذلك بعد رجوع موسى إليهم ، ويصرهم بما هم فيه من ضلال مبين ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا :

لَنْ نَرْجِعَ عَلَيْهِ عَاقِبِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وقد جاءت هذه الآية - معترضة - قبل ختام القصة : لتكون بمثابة التوجيه إلى أهل مكة ، بأن بنى إسرائيل ندموا على عبادة العجل ، فأولى بكم أن تندموا على عبادة الأصنام ، التى لا تسمع ولا ترشد إلى الهدى.

تعقيب

عبر سبحانه وتعالى عن شدة ندمهم بقوله تعالى:

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ : لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة ، أن يعرض يده غماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها : لأن فاه قد وقع فيها.

«وهذا تعبير لم يسمع به قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وقد اتسع هذا التعبير فأصبح يطلق على كل فشل أو خيبة ، تقول : كلام ساقط و«سقطه» الكلام ؛ لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه .

وقد ذكر اليد : لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فى اليد قال تعالى: فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَفْعَى فِيهَا» (٣٨).

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا قَالَ يُسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ فِيكَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

المفردات :

اسفط : شديد الغضب أو حزينا .

يُسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي : أى : بنس ما فعلتموه من بعد غيبتى .

أعجلتم أمر ربكم : أى : أسبقتم ما أمركم به ربكم من التوحيد فعبثتم العجل قبل أن يعود موسى من ميقات ربه ؛ ليكون أمام الأمر الواقع ، يقال: عجل الأمر سبقه .

واللقى الألواح : طرحها على الأرض .

وأخذ برأس أخيه : أى : وأمسك بشعر رأس أخيه يجره به إليه .

فلا تشمت بى الأعداء : أى : فلا تفعل ما يكون سببا لشماتتهم بى .

التفسير :

١٥٠- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسِفًا ... الآية .

عاد موسى إلى قومه شديد الغضب والحزن ، شديد الأسف والهَم ، حين علم أن قومه تركوا عبادة الله الحق ، وعبدوا عجلا من الذهب لا يملك الكلام ولا يقدم لهم سبيل الهداية ؛ وكان الله سبحانه وتعالى قد أخبره وهو فى مكان المناجاة بما أحدثه قومه :

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ . (طه : ٨٥)

قَالَ يُسْمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي .

لقد استخلف موسى هارون على قومه ، وكانت وصيته لهم : الاستمرار على عبادة الله ، ونهذ عبادة غير الله ، لكنهم لم يحسنوا خلافة موسى ، فإن من واجب الخلفاء أن يسيروا على نهج المستخلف ، فخاطب موسى جميع قومه بقوله :

بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي .

فالذين عبدوا العجل قد أشركوا بعبادة الله غيره من المخلوقات التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً .

وهارون ومن معه من المؤمنين كان عليهم واجب هو أن يبذلوا جهداً أكبر لمنع هؤلاء المرتدين من عبادة العجل ، ويجوز أن يكون الخطاب لهارون والمؤمنين معه ، فاللوم لهم إذ لم يمنعوا عبدة العجل مما فعلوا ، أى : بئس قيامكم مقامى : إذ لم تراعوا عهدى .

أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .

أى : أسبقتم ما أمرتم به من البقاء على التوحيد أو استعجلتم قضاءه وعقابه .

أو استعجلتم مواعده وميقاته ، حيث تركتكم إلى ميعاد مؤقت . فسارعتم إلى مخالفة أمرى وغيرتم دينكم وعبدتم العجل ، قبل نهاية المدة التي قضيتها فى ميعاد الله ومناجاته .

وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ .

طرح موسى ألواح التوراة جانباً من الغضب ، أو وضع الألواح التى تحمل الوصايا والتوجيهات الإلهية، التى كتب الله فيها المواعظ والتشريعات ، وهذه الألواح تحمل وصايا الله وتوجيهاته ، وكان موسى حزيناً أن يحافظ عليها ، لكن شدة الغضب جعلته يلقى الألواح جانباً ، وأمسك موسى بشعر رأس هارون يجذبه إليه منه : لظنه أنه أهمل فى توعية قومه ، وإرشادهم وإصلاح حالهم ، ونهيه عن الإشراك بالله .

قَالَ ابْنُ أُمٍّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَعْصَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي .

كان هارون حليماً حكيمًا ، وهنا بدأ يرقق قلب أخيه ، فخاطبه خطاب المسترحم المستعطف ، ولم يقل يا أحمى ، ولا يا ابن أبى ولكن ناجاه بقوله : ابْنُ أُمٍّ . أى : نحن أبناء أم واحدة ، وشرح له موقفه حين اشتد هياج القوم واندفاعهم إلى العجل الذهب ، وقد بذل هارون قصارى جهده ، فى ترشيدهم ونصحهم ، لكنهم قهره واستضعفوه ، وهموا بقتله ، واقتربوا وأوشكوا أن يؤذوه أو يقتلوه .

فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ .

أى : فلا تفعل بى أمام هؤلاء الأعداء ، ما يكون سبب لشماتتهم وفرحهم فيما يصيبنى .

وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

ولا تنظمنى بغضبك على فى عداد الذين ضلُّوا وكفروا بربههم الحق ؛ فأننا لم أضلْ مثلهم ولم أكنز معهم ،

وأنا برىء منهم ولكنى تريت ، وتراجعت عندما رأيت اتجاه القوم شديداً نحو عبادة العجل ، فلم أحاول التفريق بينهم ، بتصنيفهم إلى مؤمنين وكافرين ، ورجوت إذا رجعت من المناجاة أن تكون أقدر على هدايتهم ، ودعوتهم إلى الإيمان .

وفى سورة طه نجد هارون يقول :

قَالَ يَتْلُو لَمْ تَأْخُذْ يَلْحَقِي وَلَا بِرَأْسِي إِلَى خَشِيْتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي. (طه: ٩٤)

عندئذ هدأت ثورة الغضب عند موسى ، والتمس العذر لأخيه ، وطلب من الله المغفرة له ، ولأخيه ، وطلب من الله الرحمة ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

١٥١- قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وهو دعاء هين لين يطلب فيه المغفرة له ولأخيه ، والمغفرة أعم مودداً من المعصية ، وكان النبي ﷺ يكثر الاستغفار وطلب المغفرة فى كل يوم وليلة .

وفى هذا الاستغفار ترضية لهارون ، وإعلان للشامتين بتمام رضا موسى عما فعله هارون ، حتى ترد شامتهم إليهم كمداً وحسرة .

ثم طلب موسى من الله أن يشمل مع أخيه برحمته الواسعة ، التى وسعت كل شيء ، فهو أرحم بالخالق من أنفسهم ، فالله هو الرحمن الرحيم ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخْخَدُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا تَغْفِرُ رَحِمَةً ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُخْفِهَا هَدَى رَحْمَةً لِلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ يَهْتَبُونَ ﴿١٥٤﴾

المفردات :

غضب من ربهم : المراد بغضب ربهم : عذاب الآخرة .

وذلة هى الحياة الدنيا ، أى : وتشريد فى الأرض وإخراج من الديار ، بحيث لا تكون لهم عزة كعزة أصحاب الوطن .

المفتريــــــــــــــــن : أى : المخلقيــــــــــــــــن أشنع الكذب على الله تعالى .

التفسير:

١٥٢- إِنْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... الآية .

تأتى هذه الآية ، والآية التالية ، بمثابة الجملة المعترضة : لتبين عقوبة المفترين ، وجزاء توبة التائبين .
والمعنى : إن الذين اتخذوا العجل إلها ، وعبدوه من دون الله تعالى ؛ سينالهم غضب من الله عليهم ، وعقوبة فى الآخرة وذلة ومسكنة وهوان فى الحياة الدنيا ، أو غضب من الله وذلة ومسكنة لهم فى الدنيا والآخرة .

- وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة وغيرها .

سرو تغيد آيات القرآن أن الله غضب على اليهود لتحريفهم للتوراة ، وإدخالهم فيها ما ليس منها ، وعدوانهم فى السبت ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأكلهم الربا بعد أن نهاهم الله عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل .

سركما تغيد آيات القرآن أن الله لعنهم وسلط عليهم من ينتقم منهم ، وسيكرر ذلك إلى يوم القيامة .
كما تغيد الأحاديث النبوية الصحيحة أن المسلمين سيقاثلون اليهود وينتصرون عليهم قبل قيام الساعة .
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ .

ومثل ذلك العذاب والانتقام يصيب كل مفتر وينال كل ظالم ، فى كل زمان ومكان .

قال ابن عباس: كذلك أعاقب من اتخذ إلها دونى .

وقال مالك ابن أنس : ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة وقرأ هذه الآية .

وقال سفیان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل .

١٥٣- وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَأَمَتُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

من عادة القرآن أن يقابل الأشياء بأضدادها ، فبعد أن ذكر جزاء الظالمين فتح باب الأمل أمام التائبين .
والمعنى : والذين ارتكبوا المعاصى والذنوب وعلى رأسها الكفر والشرك ، ثم تابوا عن الكفر والشرك ، أو ألقوا عن الذنوب والمعاصى ، وآمنوا بالله إيماناً صادقاً عن يقين ؛ فإن الله تعالى يغفر ذنوبهم ، ويقبل توبتهم ويرحمهم برحمته الواسعة .

والآية عامة فى توبة الكافرين والمؤمنين .

وإن وردت في سياق الحديث عن بنى إسرائيل الذين اتخذوا العجل إلها ، ثم فتحت باب التوبة أمام التائبين منهم ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ الوارد فيها .

سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فقتل هذه الآية : **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** .

فتلاها عبد الله بن مسعود عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

لكن يؤخذ من النحوى : أن من الفقهاء من ذهب إلى أن من زنى بامرأة حرمت عليه ، ولا يجوز له الزواج منها ، ومنهم من ذهب إلى أن المسلم إذا تاب قبل الله توبته وأن الحرام لا يحرم الحلال ، وذكروا أنه يشبه رجلا سرق فأكفه من بستان ثم اشتراه ، فيكون أوله حرام وآخره حلال .

ولعل قراءة ابن مسعود لهذه الآية ترجيح لقبول توبة التائب ، وتيسير للمسلم ، وتشجيع على التوبة الصادقة من الرجل والمرأة ، مع الإيمان الصادق والعمل الصالح .

١٥٤- **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَلِىَ لُتُخِيَهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ يَرْجُونَ** .

فى هذا التعبير القرآنى بلاغة وبيان ، كأن الغضب كان يغريه بالاندفاع إلى معاقبة أخيه وتسفيه قومه ، فلما هدأ غضبه وسكن ؛ عاد إلى طبيعته ، وكان موسى سريع الغضب ، سريع العودة إلى الهدوء ، فلما عرف من أخيه أنه لم يقصر فى أداء الرسالة ، وأن الموقف كان أعتى منه وأكبر ؛ هدأ غضبه ، وعاد إلى الألواح فأخذها وبدأ يقرؤها ويشرحها ، وفيها الهداية والتشريع والرحمة والفضل للمؤمنين .

جاء فى ظلال القرآن :

«والتعبير القرآنى يشخص الغضب فكأنما هو حى ، وكأنما هو مسلط على موسى يدفعه ويحركه ... حتى إذا سكت عنه ، وتركه لشأنه ؛ عاد إلى نفسه ، فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .

ثم يقرر السياق مرة أخرى أن فى هذه الألواح هدى ورحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه ..

وربهة الله وخشيته ؛ هى التى تفتح القلوب للهدى ، وتوقظها من الغفلة ، وتهينها للاستجابة والاستقامة..

إن الله خالق هذه القلوب ، هو الذى يقرر هذه الحقيقة ، ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب؟»^(٣٠)

فقه الحياة أو الأحكام :

الحلم سيد الأخلاق ، فحينما هدأت نفس موسى وعاد إلى أناته وحلمه ، أخذ بتدارس الألواح ، فوجد فيها الرشاد والهداية ، لمن كان يخاف ربه ويخشى عقابه ..

وتلك هي فترة الاستقرار في حياة موسى على ما يظهر لنا ، بعد أن مرَّ بتقلبات وأحوال شديدة التأثّر ، كاد بها يخسر إيمان قومه برسالته إلى الأبد ، لولا عودته إلى النصيح والإرشاد بما ورد في هذه الألواح ، أو بما ورد في التوراة^(٣١).

★ ★ ★

﴿وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ مَا فَعَلَ الشَّفْهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

المعشدرات ،

مِيقَاتِنَا ، المِقات : المكان الذي حدده الله ليذهب موسى وقومه إليه .

الرجفة ، الزلزلة الشديدة .

التفسير :

١٥٥- وَأَخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ... الآية .

المعنى : اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ، وأتى بهم للمِقات الذي وقته الله تعالى ، وهو مكان في جبل الطور : طور سيناء ، حيث ناجى ربه ، وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ، ويظهروا ثيابهم . وذلك ليكون سماعهم مناجاة ربه دليلاً على صدقه ، فلما أتوا إلى ذلك المكان قالوا : يا موسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فإنك قد كلمته ، ونريد أن نراه ؛ فأخذتهم رجفة الجبل وصعقوا حين ألحوا في طلب الرؤية وتختلف أقوال المفسرين في هذا المِقات إلى عدة أقوال^(٣٢).

نختار منها قولين :

أحدهما : أنه المِقات الذي وقته الله لموسى ؛ ليأخذ التوراة وأمره أن يأتي معه بسبعين رجلاً .

الثاني : أنه مِقات وقته الله تعالى لموسى ؛ ليلقاه في ناس من بني إسرائيل فيعتذرون إليه من عبادة قومهم للعجل . فأما الرجفة وهي الزلزلة الشديدة ففي سبب أخذها إياهم عدة أقوال أرجحها قولان .

الأول: أن الزلزلة أصابتهم: لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل ولم يرضوا .

قال قتادة وابن جريج: لم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر ، ولم يذابلوهم .

الثاني: أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى فلما سمعوه : قالوا : أرنا الله جهرة .

قال تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ . (البقرة: ٥٥ ، ٥٦)

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ .

أصابته الرجفة سبعين رجلاً من فضلاء بنى إسرائيل : لأنهم قصروا في نهى قومهم عن عبادة العجل ، أو لأنهم قالوا لموسى : أرنا الله جهرة .

ولم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة ، أخذتهم الرعدة ورجفوا وخاف موسى عليهم الموت ، فعند ذلك بكى ودعا : فكشف الله عنهم تلك الرجفة .

قال وهب : ما ماتوا ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم ، وخاف موسى عليهم الموت .

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّائِي .

أى : قال موسى راجياً غفر ربه عنهم فى هذا اليوم : يارب ، إنك لو شئت إهلاكهم من قبل هذا اليوم ، حين قصروا فى النهى عن عبادة العجل ، وعدم مفارقتهم لعبدته . وكذلك لو شئت يا رب إهلاكى من قبل لفعلت .

قال الزجاج : لو شئت أمتهم قبل أن يتبليهم بما أوجب عليهم الرجفة .

وقيل : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإيائى ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموننى .

أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .

قال المبرد : هذا استفهام استعطاف .

أى : لا تهلكننا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب .

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ .

وما هي إلا فتنتك أي: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك حين كلمتني ، فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية ، فليس الأمر إلا أمرك ، وما الحكم إلا لك ، فما شئت كان .

أو ما كانت عبادتهم العجل إلا ابتلاء منك واختباراً ، حين سمعوا خواراً في جوف العجل ، فمنهم من ضلّ وعبد العجل ، ومنهم من هداه الله وثبته .

قال صاحب الظلال :

وهذا هو الشأن في كل فتنة ، أن يهدي الله بها من يدركون طبيعتها ، ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين .

وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ، ومن يمرون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين .

أَلَمْ تَرَ أَنَّا قَدْ غَفَرْنَا لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَأَرْحَمْنَا وَلَكُمْ حَسَنُ الْعَاقِبِينَ .

هنا يلجأ موسى إلى ربه طالباً ولايته وعونه ، راجياً مغفرته وستره ، مستغنياً يطلب رحمة الله ، وهو خير الغافرين ؛ لأنه يغفر لمحض الجود والكرم ، أما المخلوق فقد يغفر لأسباب عديدة ، كحب الثناء ، أو طلب النفع ، أو دفع الضرر .

وقد كان المقام مقام اعتذار فناسبه حسن التضرع والثناء على الله بما هو له أهل وطلب المغفرة والرحمة منه سبحانه ، حيث لا يملك ذلك إلا الله . قال تعالى : وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ .

وأما عفر العبد فهو نفسه بتوفيق من الله تعالى .

﴿وَكَتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِلَّا يَجِدِيلٌ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

المفردات :

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ، المراد بحسنة الدنيا : ما يعم العيشة الراضية ، والعمل الصالح ، والمراد بكتابتها : تقديرها وإبرازها ؛ عبر عنها بالكتابة مجازاً ، أو الكتابة على حقيقتها ، فإن ما يقدر الله تنفيذه يكتب في اللوح المحفوظ ، أو عند الملائكة المدبرات أمراً .

هَذَا إِلَيْكَ ، تبنا إليك ورجعنا .

إِصْرَهُمْ ، الإصر في اللغة : الأمر الثقيل ، والمراد به هنا : التكاليف الشاقة على اليهود بسبب ظلمهم ، كتحريم بعض الطيبات عليهم .

الْأَغْلَالَ ، الموائيق الشديدة المشبهة للأغلال في الأعناق .

وَعَزَّرُوهُ ، وعظموه ووقروه ، أو أعانوه .

التفسير :

١٥٦- وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ ... الآية .

تلفظ موسى في دعاء ربه وفي تفويض المشيئة إليه وفي إظهار الخضوع والتجرد لله تعالى فيما

سبق من آيات وهنا يدعو ربه أن يعطيه حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة .

والمعنى : أوجب لنا وأثبت لنا بفضلك ورحمتك حسنة ، أى : حياة طيبة فى الدنيا بتوفير نعمة الصحة والعافية ، وسعة الرزق والتوفيق فى العمل والهداية إلى الخير ، واجعل لنا فى الآخرة حسنة بدخول جنتك والظفر برضوانك وفيض إحسانك ، وذلك كقوله تعالى :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة: ٢٠١)

إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ . أى : تبنا إليك ورجعنا وأنبنا . أى : ندمنا على ما فعله قومنا من عبادة العجل أو قولهم : أَرِنَا اللَّهُ جَهَنَّمَ . ونحو ذلك من فعل السفهاء ، ورجعنا إلى الإيمان المقرون بالعمل .

جاء فى تفسير القاسمى : يقال : هاد ، يهود إذا رجع وتاب فهو هائد ، ولبعضهم :

يَا رَاكِبَ الذَّنْبِ هُذْ ، هُذْ . واسجد كأنك هُذْهُذْ

وقال آخر : إني امرؤٌ مما جنيت هائد .

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ .

أى : قال الله تعالى إن عذابي أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة ، مع عدالة الله ويعدده عن الظلم .

قال تعالى : وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : يقول الله عز وجل : «يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» (٣) .

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

أما رحمة الله فقد شملت كل شيء فالله تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ولولا عموم الرحمة : لهلك العصاة والكفار عقب عصيانهم وكفرهم ، قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً . (فاطر: ٤٥)

جاء فى تفسير القاسمى عن الجشمى :

ومن تأمل هذا السؤال والجواب : عرف عظيم محل هذا البيان : لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدنّ عقب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شيء يصح عليه التمتع وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها .

فَسَأَلْنَاهَا لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ .

تفضل الحق سبحانه على عباده بهذا البيان فبين صفات من يستحق الرحمة من عباده وهم :

- ١ - الذين يتقون الله ويراقبونه ويؤدون فرائضه ويتركون ما نهى عنه .
- ٢ - الذين يخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم والمال شقيق الروح ، وإخراجه يحتاج إلى جهاد وإيمان ويقين بثواب الآخرة ، ولذلك نص عليه ، حيث كان اليهود يعبدون المادة وكانت نفوسهم شحيحة بإخراج المال في سبيل الله .
- ٣ - الذين يؤمنون بالإسلام والقرآن وسمو تشريعاته وعموم هدايته وصلاحياتها للعمل والتطبيق ، وصدق رسلنا .

١٥٧ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ...

١ - الصفة الأولى لهذا النبي :

تتابع هذه الآية صفات هؤلاء الذين يستحقون الرحمة فتذكر أن هؤلاء المؤمنين قد آمنوا بالنبي الأمي الذي أرسل في أمية ، وكانت الأمية آية ومعجزة له : فقد جاء بكتاب منزل عليه اشتمل على أكمل العلوم وأجداها : في العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال .

٢ - والصفة الثانية لهذا النبي :

أن هذا الرسول الأمي محمد ﷺ قد وردت صفاته في التوراة والإنجيل ، ويعرفه أحبار اليهود كما يعرفون أبناءهم ، ولذلك آمن به بعض علماء اليهود ، مثل: عبد الله بن سلام ، وبعض علماء النصارى مثل: تميم الداري .

جاء في الباب الثالث والفلايين في التوراة في سفر تثنية الاشتراع :

«جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلى من جبال فاران ، ومعه ألوف الأطهار في يمينه قبس من نار» .

ومجيئه من سيناء : إعطاؤه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعير : إعطاؤه الإنجيل ليعسى ، واستعلاؤه من جبال فاران : إنزاله القرآن : لأن فاران من جبال مكة .

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ (الصافات: ٦) .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قرأت فى التوراة صفة النبى ﷺ: «محمد رسول الله عدى ورسولى سميت: المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسينة السينة، بل يعفو ويصفح، وإن أقْبضه حتى أقِم به الملة العرجاء: بأن يقولوا لا إله إلا الله»^(٣٤).
وقد جاء فى كتب التفسير قديما وحديثا جانب كبير مما نقله العلماء للدلالة على صدق محمد ﷺ وصحة رسالته^(٣٥).

٣ - والصفة الثالثة لهذا النبى أنه :

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ .

إن هذا الرسول يأمر الناس بالمعروف حيث يدعوهم إلى الإسلام والإيمان ومكارم الأخلاق والعبادات والمعاملات والشرائع . وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ . الذى يتناول الكفر والمعاصى وما تنكره العقول والقلوب من مساوئ الأخلاق وقبيح الأفعال والأقوال .

٤ - والصفة الرابعة لهذا النبى :

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ .

أى: أنه يحل لهم ما تستطيه الأنواق من الأطعمة وفيه فائدة فى التغذية، وخاصة ما حرم على بنى إسرائيل من الطيبات كالشحم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم؛ عقوبة لهم .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ . أى: ما تستقذره النفوس كالميتة، والدم المسفوح، والخنزير فى المأكولات، وكأخذ الربا والرشوة، والنصب والخيانة فى المعاملات .

٥ - والصفة الخامسة لهذا النبى:

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .

الإصر: الثقل الذى يأصِر صاحبه ويحبسه عن الحركة .

الأغلال: جمع غل وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد . والمراد: أن الرسول محمدا ﷺ قد أرسله الله بشريعة سمحة سهلة لا حرج فيها ولا مشقة، وهذا الرسول جاء؛ ليرفع عن بنى إسرائيل ما ثقل عليهم من تكاليف كلّفهم الله بها، بسبب ظلمهم كاشتراط قتل الأنفس فى صحة التوبة والقصاص فى القتل

العمد أو الخطأ ، من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقطع موضع النجاسة من الثوب ، وتحريم العمل يوم السبت .

قال الإمام ابن كثير : أى : إنه جاء بالتفسير والسماحة كما ورد فى الحديث : «بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ» ^(٣٧) وقال ﷺ لمعاذ بن جبل ، وأبى موسى الأشعرى ، حين أرسلهما إلى اليمن : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا ، وتطارعا ولا تختلعا» ^(٣٨) .

والخلاصة : أن بنى إسرائيل كانوا قد أخذوا بالشدة فى أحكام العبادات ، والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات ، فكان مثلهم مثل من يحمل أثقالاً يَكُنْ منها ، وهو موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه ، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية ، وشدد فى الأحكام الروحية ، إلى أن جاءت الشريعة السمحة التى أرسل الله بها محمداً ﷺ ^(٣٩) .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى صفة أتباعه عليه الصلاة والسلام فقال :

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَلَبَّوهُ وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ . من اليهود أو من العرب أو من سائر الناس وصدقوا برسالته وأطاعوه فيها .

وَعَزَّرُوهُ : أى : عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه .

وَلَبَّوهُ . بكل وسائل النصر ، باللسان والسنان .

وَأَتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ . أى : اهتدوا بهدى القرآن وهو نور وهداية ، وهو أيضاً ظاهر واضح ، يهدى

متبعه إلى العقيدة السليمة والعمل الصالح ، كما يهدى النور الحسى من يتبعه إلى سواء السبيل .

أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : هؤلاء الموصوفون بتلك الصفات الجلية ، هم وحدهم دون غيرهم الذين بلغوا غاية الفوز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيَّ الَّذِي يَوْمُنُ
بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

المفردات :

الأمي ، المنسوب إلى الأم ؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ، فهو على فطرته التي ولدته أمه عليها ، من حيث عدم القراءة والكتابة .

التفسير :

١٥٨- قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ...

أفادت الآية السابقة : أن التوراة والإنجيل بشرت برسول الله ﷺ .

وتفيد هذه الآية : عموم رسالته ﷺ للناس أجمعين .

فليست رسالته قاصرة على أمّة من الأمم أو على وقت من الأوقات ، أو جيل من الأجيال ، بل رسالته عامة للعرب والعجم والإنس والجن ، وجميع الناس إلى يوم القيامة .

والمعنى : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَجَمِيعِ الْبَشَرِ كَافَةً مِنْ عَرَبٍ وَغَيْرِهِمْ ، بَيْضٍ أَوْ سَوْدٍ : إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا لَا إِلَى قَوْمِي خَاصَّةً ، وَإِلَّاهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ إِلَهُ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ ، وَلَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَيَبْدُوهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ وَالْإِمَامَةَ وَالْإِحْيَاءَ .

والآية نص في عموم رسالته ﷺ ، وهي تؤكد ما ورد في القرآن الكريم من بعثته ﷺ إلى الناس أجمعين ، قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . (سبا : ٢٨) .

وقال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

وجاءت الأحاديث الصحيحة مؤكدة عموم رسالته ﷺ مثل حديث الصحيحين والنسائي : عن جابر ابن عبد الله عن النبي ﷺ قال : «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَ مِنْهُ نَبِيٌّ قَبْلِي : نَصَرْتُ بِالْعَرَبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَيُعْتَذَرُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً» (٣٧)

فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلِ النَّبِيِّ الَّذِي يُمْنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

أفاد المقطع الأول وحدانية الألوهية فالله تعالى إله واحد ليس معه إله غيره ، هو الذى يملك الموت والحياة وله ملك السماوات والأرض .

وفى هذا المقطع رتب على ذلك دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان بالله رباً وخالقاً ، والإيمان بالرسول محمد ﷺ ؛ وهو النبى الأمى ، ومعجزته فى أنه كان أمياً ، وأنزل عليه كتاب علم البشرية قواعد الحياة ، وأصول التشريع والأداب ، وهذا النبى يؤمن بالله ويرسالاته وكلماته وكتبه ، واتباعه مصدر الهداية الحق ، ومصدر السعادة والفلاح .

وما على الخلق إلا الإيمان بوحدة الله وربوبيته ، واتباع كلماته وتشريعاته ، وليس من التشريع أمور الدنيا العادية من تدبير شئون الزراعة والصناعة والتجارة المباحة والعلوم النافعة فتلك متروكة لعقول الناس ومعارفهم وخبراتهم لما ورد فى الحديث الصحيح عند الشيخين^(١) : «أنتم أعلم بأمرور دنياكم»^(٢) .

★ ★ ★

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَّهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١٥٩) وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسَاطِيرًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَاجِرَ فَأَنْجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاتِ وَالسَّلَوى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٦٠)

المفردات :

يهدون بالحق : يرشدونهم بكلمة الحق .

وبه يعدلون : وبالحق يعدلون فى الأحكام .

أسباطاً أمماً : أئى : قبائل صارت أمماً ، وأصل السبط : ولد الابن أو البنت .

فانجست : فانتفجت .

وظللنا عليهم الغمام : وجعلنا السحاب يظلمهم من الشمس .

المن والسلاوى : المن : صمغة حلوة ، والسلاوى : السمانى .

التفسير:

١٥٩- وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَيَبْغِدُونَ .

جاءت هذه الآية استدراكاً لتبيين أن الضلال لم يكن شاملاً لبني إسرائيل ، بل منهم أمة منصفة آمنت بموسى واتبعت تعاليمه في عصر موسى وبعد عصره كما اتبعوا من جاء بعده من الأنبياء ، وهم أهل هداية بالحق وعدل بالحق .

قال تعالى: مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . (ال عمران: ١١٣)

وقال تعالى: وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْفِرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَكْفِيراً لِقِيلِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (ال عمران: ١٩٩)

وخلاصة معنى الآية :

إن من بنى إسرائيل من آمن بموسى عن يقين صادق وصاروا دعاة للحق يرشدون الناس إليه ، وهم أيضاً يعدلون بالحق بينهم فى الحكم ولا يجورون ، قال تعالى: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً . (ال عمران: ٧٥) .

١٦٠- وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .

تمهيد :

تعود هذه الآية إلى الحديث عن بنى إسرائيل فتصف ما أنعم الله به عليهم من النعم المتعددة ، ومع ذلك كان منهم الجحود والعناد ، ولعل ذلك أن يكون تحذيراً لأمة الإسلام ؛ حتى لا تقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تحريف للتوراة ، وخروج على هدى السماء ، وانحراف عن روح التشريع .

المعنى : يخبر الله تعالى عن بنى إسرائيل أنه صيرهم اثنتى عشرة أمة ، كل أمة منهم ترجع إلى ولدٍ من أولاد يعقوب الاثنى عشر ؛ فكانوا لهذا أسباطاً له ، أى : أولاداً لأولاده .

وَأَوْحَيْتَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ آخُرِبْ بَعْضَكَ الْحَجَرَ فَالْبَحَسْتُ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْتًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ .

أصاب بنو إسرائيل العطش فى التيه ، وهم فى منطقة صحراوية بين مصر والشام ، فطلبوا من موسى تيسير الماء لهم حتى لا يهلكهم العطش ، فدعا موسى ربه فى خضوع وتذلل ، فألهمه الله أن يضرب بعصاه

أى حجر فينفجر منه الماء بعدد قبائل بنى إسرائيل ؛ لتعرف كل قبيلة مكان شربها ويكون ذلك أهنأ لهم ، وأدعى إلى عدم التزاحم .

ويفهم من ذلك أن كل سبط منهم كان عدد أفراده كثيرًا ، حتى جعل لهم هذا العدد من العيون بعدد أسباطهم .

وقد وردت فى التوراة روايات متعددة حول هذه الحادثة منها ما ورد فى الإصحاح السابع عشر :

«وعطش هناك الشعب إلى الماء ، وتذمر الشعب على موسى . فقال الرب لموسى: مرَّ قدام الشعب ، وخذ معك شيوخ بنى إسرائيل ، وعصاك التى ضريت بها خذها فى يدك واذهب . ها أنا آقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ بنى إسرائيل ...» (١٧) .

ومن المفسرين من رجح أن المراد : حجرٌ معينٌ اعتمدا على ما ورد فى التوراة أو الإسرائيليات .

ومنهم من رجح أن المراد : أى حجر يقابل موسى .

قال الحسن: ما كان إلا حجراً اعترضه ، وإلا عصاً أخذها . ولعل الحق سبحانه أراد بذلك أن يكون معجزة ظاهرة لموسى ؛ حتى يزدادوا بنوته استيقاناً ، ويقبلوا على العمل بما جاء فى التوراة .

وَهَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .

أى : جعلنا الغمام يلقى ظلاله عليهم ويقيهم حرارة الشمس ، حيث أرسل الله السحاب فوق مقامهم وسيرهم ، فحال دون وصول أشعة الشمس إلى حيث يقيمون أو يسرون .

ويقيت مشكلة الغذاء ، الذى لا مصدر له فى الصحراء ولا يصل إليهم به أحد .

فتفضل الله تعالى بإنزال المنّ والسلوى ؛ ليكون طعاماً لهم .

والمنّ: مادة صمغية تسقط من الشجر ، تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : طائر برى^١ لذيد اللحم سهل الصيد ، يشبه السمان ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضاً بدون تعب .

وتظللهم بالغمام وإنزال المنّ والسلوى عليهم ، كان فى مدة تيههم بين مصر والشام ، المشار إليه .

يقوله تعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (المائدة: ٢٦) .

جاء في تفسير ابن كثير :

قال السدي : «لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى - عليه السلام - : كيف لنا بما ها هنا ؟ أين الطعام ؟ فأُنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السماني فقالوا : هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظل الله عليهم بالغمام ..

فذلك قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى. (١٦١)

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .

أى : وقلنا لهم : كلوا من هذه الطيبات التى أنزلها الله لكم ، حيث يسر الله لكم الطعام والهلوى والماء والغمام الذى يظلكم به ، ويسر لكم سبل المعاش والإقامة فينبغى أن تعترفوا لله بذلك الفضل وتقوموا بواجب الشكر .

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، ولكن ظلموا أنفسهم بهذا الجحود والكفران ، وقد كان هذا دأبهم وعادتهم أنا بعد أن .

وقد روى مسلم عن أبى ذر مرفوعا : «يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ، إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ..» (١٦٢).

★ ★ ★

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ قَوَّكُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَازِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٣﴾
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا
مِّنَ السَّمَاءِ يَمَازِيكُم مَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

المضردات ،

هذه القرية ، هى بيت المقدس أو أريحاء - على ما قيل .

وقولوا حطة ، من الحط وهو الوضع والطرح ، والمراد بها : أن يطلبوا حط ذنوبهم وطرحها عنهم بغفران الله لهم .

وادخلوا الباب سجداً ، وادخلوا باب القرية التى أمرتم بدخولها خاشعين خاضعين لله : شكراً له على تمكينكم من دخولها .

رجــــــــــــزاً ، أى : عذاباً .

التفسير ،

١٦١- وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ عُظَايَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ .

يعدد الله طائفة من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، فقد أكرمهم فى التيه ، حيث أنزل لهم المن والسلوى ، وفجر لهم ينابيع الماء ، وأظلمهم بالغمام من حر الشمس ، ويعد أن مكثوا فى صحراء التيه أربعين سنة ، قادم يوشع بن نون ، وأخرجهم من الصحراء إلى العمران ، والقرية تطلق أيضاً على المدينة ، ولعلها عاصمة لما حولها من القرى أو منازل الأعراب ، ومن يفتح العاصمة يستطيع السيطرة على ما حولها وما يتبعها من القرى الصغيرة أو مساكن البدو .

والعنى : واذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل ، وقت أن قيل لأسلافكم : اسكنوا قرية بيت المقدس أو «أريحا» بعد خروجهم من التيه ، وقيل لهم كذلك : كلوا من خيراتها أكلاً واسعاً كثيراً : من أى مكان شئتم : وينبغى أن تشكروا الله كثيراً ، على هذا النصر المؤزر على أعدائكم ، فلا تدخلوا مغرورين ولا متبطرين ، بل ادخلوا متواضعين مستغفرين ، واسألوا الله يحط عنكم سيئاتكم ، وأن يغفرها لكم ، وادخلوا أيضاً من باب القرية خاضعين شكراً لله تعالى ، فإنكم إن فعلتم ذلك قبلنا دعاءكم وزدناكم نعماً وفضلاً .

الآيات ٢١-٢٦ من سورة المائدة

يتصل بهذه الآية ومضمون ما اشتملت عليه آيات سابقة فى سورة البقرة ، هى الآية ٥٨ ، ٥٩ من سورة البقرة .

وكذلك الآيات ٢١-٢٦ من سورة المائدة .

أما آيات سورة البقرة ففيها قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَفِّرْ لَكُمْ عُظَايَكُمْ

وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ • كَبَدْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. (البقرة: ٥٨، ٥٩)

آيات المائدة

وتفيد آيات سورة المائدة جبن بنى إسرائيل وتقاعسهم عن الجهاد ، وخوفهم من المشركين سكان بيت المقدس ، فقد رغبوا أن يجلسوا بعيداً ، حتى يخرج أهل بيت المقدس تطوعاً فإذا خرجوا دخل اليهود بدون تعب أو مشقة .

وقد تطوع رجلان بنصحهم ، وتوجيههم إلى الجهاد ، فإذا دخلوا من باب المدينة مجاهدين مخلصين؛ انتصروا على عدوهم ، لكن اليهود تقاعسوا عن ذلك ، واستغاث موسى بالله أن ينقذه من هؤلاء المتقاعسين؛ فحرم الله عليهم دخول بيت المقدس أربعين سنة ؛ عقاباً لهم .

نصن الآيات

يَأْتُوا إِذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ • قَالُوا يَا مُوسَى إِن فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ • قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّى قُوَّةً وَاجْعَلْ لِّى مَخْرَجًا • أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا إِذْخُلَا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ • قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. (المائدة : ٢١ - ٢٦) .

ولما انتهت مدة التيه ، دعاهم يوشع بن نون لقتال الجبارين بعد وفاة موسى «على الراجح» فاستجابوا له فنصرهم الله تعالى .

١٦٢- كَبَدْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رَجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ.

طلب الله من بنى إسرائيل الاعتراف لله تعالى بالفضل ، والسجود لله تعالى بعد النصر ، ولكنهم خالفوا ذلك. فدخلوا متكبرين يزحفون على إستانهم رافعين رءوسهم ، ولم يطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم ، بل بدّلوا ذلك بأقوال أخرى ليس فيها مضمون الشكر ولا مضمون التواضع .

فأرسل الله عليهم عذاباً شديداً من السماء ، والرجز: هو العذاب الذى تضطرب له القلوب ، أو يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم .

بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ .

أى : بسبب ظلمهم وعنادهم وعتوهم ؛ عاقبتناهم بالعذاب .

وقد كان ﷺ يشكر ربه كثيراً عقب النصر والفتح ، فعندما دخل مكة فاتحاً منتصراً انحنى على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها ، وهو يقول: تائبون حامدون آيبون لرينا شاكرين ، ثم دخل البيت الحرام فصلى ركعتين ثم طعن الأصنام بقضيب فى يده وهو يقول: « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » (١) .

ونذكر بعض الفقهاء أن رسول الله ﷺ صلى ثمانى ركعات بعد فتح مكة ، وهى صلاة الفتح .

ومن هنا استحب العلماء للفاثحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة : أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها ؛ شكراً لله على نعمة الفتح ، وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص ، عندما دخل إيوان كسرى ، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات .

لكن بنى إسرائيل بعد النصر ودخول بيت المقدس ، خالفوا أمر الله ، وقالوا كلاماً لا يحمل معنى الشكر .

قال الزعرى: أئى: وضعوا مكان حطة قولاً غيرها ، يعنى : أمروا بقول معناه القوية والاستغفار ، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أمروا به ، ولم يتمثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه ، وهو لفظ الحطة ، فجاءوا بلفظ آخر لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به : لم يؤخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك وتتوب إليك ، أو اللهم اعف عنا ، وما أشبه ذلك .

وقال ابن كثير: «وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق ، أنهم بدلوا أمر الله من الخضوع بالقول والفعل ، فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجداً ، فدخلوا يزحفون على إستانهم رافعى رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة – أئى : انحططنا دنوبنا – فاستهزؤا وقالوا : حنطة فى شعيرة ، وهذا فى غاية ما يكون فى المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته . اهـ .

﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١٦٢)

المفردات :

القريّة : مدينة أيلة .

حاضرة البحر : قرية منه .

يعدون في السبت : يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت .

حيثانهم : المراد بها : أنواع السمك المختلفة .

شُرْعًا : جمع شارع أى : ظاهرة على وجه الماء ، من شرع عليها إذا دنا وأشرف .

التفسير :

١٦٢- وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ... الآية .

لا يزال الحديث مستمراً عن سيئات اليهود وأثامهم ، فقد أخبر القرآن عنها ، وهو منزل على نبي أمي ، لم يقرأ التوراة ولا كتب اليهود ، وليس في التوراة ذكر لهذه الحادثة ، لكنها كانت معروفة مقداولة بين اليهود . فذكرهم القرآن بما حدث لأهل قرية أيلة ، وهي قرية بين مدين والطور على خليج العقبة ، وقد أحيا اليهود اسمها فسموا مدينتهم على خليج العقبة إيلات .

ملاحظة: كانت أوامر الله لليهود بتعظيم يوم الجمعة ، فاختاروا يوم السبت ، فألزمهم الله باحترامه وعدم العمل فيه .

جاء في تفسير الفخر الرازي :

قال ابن عباس : «اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت ؛ فابتلاهم الله تعالى به ، وحرم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى : وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ . ا هـ .

ويفيد سياق الآية أن الله تعالى أمر اليهود بالتفرغ للراحة والعبادة يوم السبت وحرّم عليهم الاشتغال بغير ذلك ، وكانت إحدى القرى على شاطئ البحر ، ترى السمك فى يوم السبت يتهاذى على الشواطىء آمناء ، حيث أدرك بغريزته هدوء حركة الصيد ، وكأن الله تعالى يبعث الحيتان على الظهور على وجه الماء ؛ لتكون كثيرة أمامهم ، فيختبر مدى التزامهم .

كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

أى : مثل هذا البلاء بظهور السمك نبتليهم ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله ليرتب الجزاء على عمله ، بسبب فسقهم المستمر على أمر ربههم واعتدائهم على حدود شرعه .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

ابتلاههم الله تعالى بسبب ظهور الفسق فيهم ، بأن تأتيهم الأسماك يوم السبت ظاهرة على وجه البحر قريبة من المأخذ يسهل صيدها ، وفى سائر الأيام لا تأتي ولا يقدرّون عليها ، وفى ذلك امتحان لمدى قدرتهم على الصبر عن محارم الله .

وقال الإمام القرطبي :

«وروى فى قصص هذه الآية : أنها كانت فى زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أوحى إليهم فقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلّة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد» . ١ هـ .

وفى الآية تفرغ لليهود ، وتذكير بعقاب الله لمن خالف أمره ، وتذكير للأمة الإسلامية بألا تتحايل على أمر الله ، وتستحل محارمه بحيلة ما .

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّخَفْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

المضردات :

معذرة إلى ربكم ، قال الأزهرى : المعذرة بمعنى : الاعتذار ، وعُدَى بِإِلَى متضمنة معنى : الإنهاء والإبلاغ .
بئس ، شديد .

صتوا ، تكبروا وأعرضوا .

خاسئين ، أذلاء صاغرين .

التفسير :

١٦٤- وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ... الآية .

قال المفسرون : اختلف أهل القرية ثلاث فرق ، فرقة صادت وأكلت ، وفرقة نهت وزجرت ، وفرقة أمسكت عن الصيد . ا هـ .

لقد امتحن الله أهل هذه القرية ، بظهور السمك كثيراً جميلاً سميناً يوم السبت واختفائه أو قلته فى الأيام الأخرى ، ثم وسوس الشيطان لجماعة منهم ، فاصطادوا السمك بالحيلة ، حيث تركوه يتقدم عند مد الماء ، وعملوا أحواضاً لمنعهم من العودة إلى البحر عند جزر الماء .

وعندئذ تصدى لهم العلماء المخلصون بالنصح والتحذير ، فقالت فئة ثالثة وقفت على الحياد واعتزلت الفريقين :

لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

أى : أن الله قد قضى بإهلاكهم فى الدنيا ؛ لتمردهم وعصيانهم ، وادخار لهم عذاباً شديداً فى الآخرة ؛ جزاء مخالفتهم لأمر الله وعدوانهم فى السبت ؛ فهو يوم عبادة وتفرغ فاحتالوا على صيد السمك ، واستحقوا الهلاك أو العذاب .

قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

أجاب الواعظون للمعترضين على الوعظ والتنبيه : إنا نعظمهم لنبرئ أنفسنا من السكوت على المنكر، ونعتذر إلى ربنا بأننا أديننا وأجبنا في الإنكار عليهم ، ونحن لا نياس من صلاحهم وعودتهم إلى الحق ، ولعلهم بهذا الإنذار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

١٦٥- فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

أى : فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ، واستمروا في المعاصي ، أنجينا الذين ينهون عن السوء وهم فريق الواعظين : الذين أنكروا على إخوانهم ، وأخذنا الذين ظلموا واعتدوا في السبت وخالفوا أوامر الله ونواهيه بعذاب شديد لا رحمة فيه ، بسبب استمرارهم على الفسوق والعصيان ، والخروج عن طريق الله تعالى.

١٦٦- فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ .

أى : فلما تمردوا على أوامره واستمرت مخالفتهم لله ، ومفارقتهم لما نهوا عنه : غضب الله عليهم ومسحهم قردة ذليلة صاغرة .

وجمهور المفسرين : أن المسح هنا حقيقى لمخالفتهم الأوامر وتماديهم في العصيان ، لا لمجرد اصطلياد الحيتان ، وهل هذه القردة من نسلهم ، أو هلكوا وانقطع نسلهم ؟ لا دلالة في الآية عليه .

وذكرت روايات في التفسير : أنهم مسحوا قردة ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام .

ومن العلماء من يرى أن ذلك من باب التمثيل ، فكأن الله تعالى قال لهم : كونوا مثل القردة في عدم الفهم والإدراك وسوء تقدير العواقب .

تنبيهات

١ - أفادت الآية أن الله تعالى نجى الواعظين الذين نهوا عن السوء ، وأهلك المعتدين .

وسكنت الآية عن الفرقة الثالثة الذين لاموا الواعظين ، ومن المفسرين من ذهب إلى أنهم هلكوا مع الهالكين.

والراجح أنهم نجوا مع الناجين .

فالمعتدون : استحقوا العذاب الشديد والمسح .

والناصحون : استحقوا النجاة .

وأصحاب الموقف السلبى ، كان موقفهم أقل منزلة ممن جهر بالنصيحة فسكت عنهم القرآن : لأنهم لا يستحقون مدحاً ، ولا يستحقون قدحاً ، فقد أنكروا بقلوبهم واعتزلوا قومهم ، فسكت عنهم القرآن ، والراجع نجاتهم .

٢ - الإخبار بالقصة علامة لصدق النبى ﷺ إذ أطلعه الله تعالى على تلك الأمور من غير تعلم منه .

٣ - إبطال الحيل الممنوعة المؤدية لتعطيل شرع الله ، وهدم مبادئه ، وتجاوز أحكامه ، ومخالفة أوامره .

٤ - قال مجاهد: أصبحوا كالقردة فى سوء الطباع والطيش والشر ، والإفساد بسبب جنايتهم ، وقال جمهور المفسرين : مسخوا قردة على الحقيقة .

٥ - جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى:

قال الإمام ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» :

ومن مكاييد الشيطان وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من رأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ...

والحيل نوعان:

نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه .

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالماً ، والظالم مظلوماً ، والحق باطلاً والباطل حقاً ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه .

روى أبو عبد الله بن بطّة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل »^(١٦) .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْئِرُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

المفردات :

تأذن ربك : تأذن بمعنى : أذن أى : أعلم . كتواعد بمعنى أوعد .

من يسومهم : من يذيقهم .

التفسير :

١٦٧- وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْئِرُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ..... الآية .

الحق سبحانه عادل غير ظالم ، بيد أن اليهود تلاعبت بشريعة الله ، وأكلت السمك بالحيلة ، وأكثرت من التحايل على الأوامر والنواهي ، لذلك سلب الله عليهم جماعات متعددة ، فى تاريخهم القديم والحديث :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْئِرُ مِنْهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...

الأذان : لغة الإعلام ، ومعنى تأذن ربك : أعلم ربك أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم : لقن غيروا وحرفوا كلام الله : ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم العذاب ، ويلحق بهم الذل والصغار ، ويفرض عليهم الجزية ويبدد ملكهم ، حتى يصبحوا أدلة مشردين .

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : إن الله سريع العقاب لمن خالف شرعه ، واستمر المعصية ، واطمأن إلى حلم الله .

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . لمن تاب وأناب ورجع إلى طاعة الله ، واستغفر وندم : فإن الله يغفر له ، ويرحمه برحمته الواسعة .

فهو سبحانه حكيم ، ينزل عقوبته بالجاحدين المكابرين ، وينزل رحمته بالطائعين القائمين .

وقد تحقق مضمون هذه الآية ، فسلط الله عليهم اليونانيون والكشانيون ، والكلدانيون والبابليين ثم الروم النصراني ، ثم المسلمين ثم الألمان بقيادة هتلر فى العصر الحديث ، الذى قتلهم وشردهم فى البلاد .

وطبيعة اليهود من الظلم والعدوان تغلب عليهم كما حدث فى حرب سنة ١٩٦٧ م ، حيث استولوا على مساحات شاسعة من أرض جيرانهم من عرب فلسطين والأردن وسوريا ومصر ، ثم سلط الله عليهم العرب المسلمين بقيادة مصر وسوريا ، فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ ، الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ م ، فدكروا حصونهم ، وحطموا أسلحتهم ، فى حرب خاطفة ، أذهلت أُمم العالم ، وحملتهم على تأييد العرب ضدّهم، وذلك مصداق قوله تعالى :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

وهذه الآية بمعنى قوله تعالى فى صدر سورة الإسراء : وَقَعَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا... إلى أن قال تعالى : وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء: ٤-٨).

ومعنى مَرَّتَيْنِ أى : كرتين . أى: مرة إثر مرة ، فكلما أفسدوا فى الأرض ، سلط الله عليهم من ينتقم منهم، وأشهر من سلط عليهم فى المرة الأولى هو بختنصر البابلى المجوسى الذى خرب ديارهم وقتل مقاتليهم، وسبى نسايتهم وذرايعهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وقد غزاهم ثلاث مرات الأولى سنة ٦٠٦ ق.م والثانية سنة ٥٩٩ ق.م والثالثة سنة ٥٨٨ ق.م .

أمّا فسادهم الثانى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، حيث سلط الله عليهم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م ، فشردهم وهدم هيكلهم ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، حتى بلغ عدد القتلى منهم مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى مائة ألف أسير .

وهذا مجرد اجتهاد فى تفسير أشهر مرتين ، وأشهر من سلط عليهم .

ثم أخبر القرآن أنهم كلما عادوا إلى الإنفساد ، أعاد الله عليهم التعذيب والإذلال .

أما وجود اليهود الآن فى فلسطين فهو أمر عارض مؤقت زائل بإذن الله ! لتقتنا بوعده الله وكلامه .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لن تقوم الساعة حتى تقتالتوا اليهود فيقتل بعضهم وراء الحجر ، فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله»^(١٧) .

والحديث فيه كناية عن كراهية العالم لهم ، حتى الأرض والحجارة ترشد المسلم إلى سبيل النصر على اليهود ، ولعل في ثورة الحجارة التي استمرت بضع سنين ، ما يحقق بشارة النبي ﷺ لأمة بالنصر على اليهود .

١٦٨ - وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ... الآية .

توعدهم الله تعالى في الآية السابقة أن يسلط عليهم إلى يوم القيامة - من يسومهم سوء العذاب .

وفي هذه الآية ذكر الحق سبحانه العقاب الثاني : وهو تفريقهم وتمزيقهم جماعات وطوائف وفرقا في أنحاء الأرض ، فلا يكاد يخلو منهم قطر من الأقطار ، فيهم الصالح وغير الصالح .

فالصالحون المحسنون منهم هم الذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وآمنوا بالأنبياء بعد موسى وآمنوا بمحمد ﷺ وآثروا الآخرة على الدنيا ، مثل أولئك الذين نهوا عن الاعتداء عن السبت ، ومثل عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا .

ومنهم من هو دون ذلك في الصلاح ، ومنهم الفسقة الفجرة الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ومنهم الساعون للكذب الأكالون للحسنة ، كالرشا والريا لتبديل أحكام الله ، والقضاء بغير ما أنزل الله ، وفي الجملة : معنى: وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ . أي: منحطون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم .

وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أي : وامتحاناهم بالنعم المختلفة من مال وخصب وعافية وولد وغير ذلك من الحسنات .

كما امتحناهم بالمحن المتنوعة من الجذب والتشريد ، والقتل والأسر ، وغير ذلك من السيئات التي تسوءهم .

لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتوبون عن فعل السيئات ، وينتقلون إلى فعل الحسنات .

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا وَالَّذِينَ أَخَذُوا الْمِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأَخْرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

المفردات ،

خَلَفَ ، المراد بهم هنا : الأولاد ، وأكثر ما يستعمل الخلف بسكون اللام في الشر ومنه : سكت ألفًا ونطق خَلَفًا . وأكثر ما يستعمل الخلفُ بفتح اللام في الخير وأصل الخلف بصيغته : ما يكون وراء غيره أو بعده .

عرَضَ هذا الأدنى ، العَرَضُ : ما لا ثبات له ، وفي النهاية : العَرَض - بالفتح - متاع الدنيا وحطامها . والمراد بهذا الأدنى : الدنيا . وأشير إليها «بهذا» وهو للمذكر ، على تقدير : هذا الشيء الأدنى.

ميثاق الكتاب ، المراد بالكتاب : التوراة . وميثاقه : عهده الوثيق المؤكد .

يُمَسِّكُونَ بالكتاب ، يتمسكون به .

التفسير ،

١٦٩- فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ... الآية .

أى : فجاء من بعد الصالحين والطالحين الأولين من بنى إسرائيل ذرية خلفهم ، ورثوا كتاب التوراة عن أسلافهم ، وهم الذين عاصروا النبي - ﷺ - ولكنهم هجروا التوراة ، وأثروا الدنيا ومتاعها وزينتها ، وتقاتلوا في جمع حطامها ، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً ، أى : من غير طريق شرعى ، كالسحت والرشوة والمحاباة في الحكم ، والاتجار في الدين ، وتحريف الكلم عن مواضعه .

وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخَذُوا . زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الله لا يعذبهم على أعمالهم ، ومع هذا فإنهم مقيمون على المعاصي ، مصرون على الذنوب ، لا يتورعون عن ضم الحرام إلى غيره ، فإن يأتهم عرض آخر من عروض الدنيا مثل الذى أخذوه أولاً بالباطل ، يأخذوه بلهف دون تعفف ، وهم يعلمون أن وعد الله بالمغفرة مخصّوص بالتائبين ، الذين يقلعون عن ذنوبهم .

أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ .

أى : إن الله تعالى ينكر عليهم صنيعهم هذا : لأنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، فكيف يطمعون فى مغفرة ذنوبهم مع إصرارهم عليها ، وتكرار وقوعها منهم ، بدون ندم أو إقلاع وتوبة . وهذا هو المذكور فى التوراة : من ارتكب ذنباً عظيماً ؛ فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ، ومن جملة الميثاق أن يبينوا للناس الحق ولا يكتُمونه ، وألا يحرفوا الكلم ، وألا يغيروا الشرائع لأجل أخذ الرشوة ^(١٨) . وَذَرُّوْا مَا فِيهِ .

أى : والحال أنهم قد درسوا التوراة دراسة تامة ، فعرفوا ما فيها من تحريم أكل مال الغير بالباطل ، والكذب على الله .

إنها دراسة نظرية لم تتغلغل فى وجدانهم ، ولم تؤثر فى قلوبهم .

وهذا شأن كل منافق علم للسان ، يسخر علمه ودراسته ومعرفته ، لإلباس الباطل ثوب الحق .

وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

إن ثواب الآخرة أبقى ، ونعيم الآخرة أدم ، فكيف يليق بعاقل أن يبيع الباقي الدائم ، ويشترى الخسيس القليل .

ولو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ؛ لوجب إثثار ما يبقى على ما يفنى ، فكيف والحال أن الآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

إن عقيدة الإيمان بالآخرة هى التى صنعت الرجال الأبطال ، الذين مارسوا الجهاد فى الميدان ، وفى الفقه والتشريع والقضاء ، وإن إثثار العاجلة هو الذى يوسوس للمضعفاء ولذلك يقول القرآن لليهود ، تحريضاً لهم على العودة إلى حكم التوراة :

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، فإن متاع الدنيا قليل ومتاع الآخرة كثير دائم .

١٧٠ - وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ .

أى : والذين يتمسكون فى أمرهم كله بكتاب الله تعالى ويعملون بما فيه ، ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم ، واهتموا بالصلاة خاصة فأقاموها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ؛ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَهُمْ ، لأنهم قد أصلحوا دينهم وديناهم ، والله لا يضيع أجر المصلحين .

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن :

«إن الصيغة اللفظية يُمَسْكُونُ ، تصوّر مدلولاً كاملاً ، يكاد يحسُّ ويرى ، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة .. الصورة التي يحب الله أن يأخذ بها كتابه وما فيه ، في غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت» .

وجاء في تفسير أبي السعود ما يأتي :

وَالَّذِينَ يُمَسْكُونُ بِالْكِتَابِ . أى : يتمسكون فى أمور دينهم ، يقال مسك بالشئ وتمسك به ، قال مجاهد: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه . تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام، فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة ، وقال عطاء : هم أمة محمد ﷺ (١٧) هـ .

ولعل الأنسب أن يقال :

كل من تمسك بكتاب الله تعالى ، من اليهود أو المسلمين أو غيرهم ، وأقام الصلاة محافظاً على شروطها وآدابها ، مؤمناً بالله ، صالحاً فى ظاهره وباطنه ، فإن الله يحسن مكافأته ، قال تعالى :
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

من كتب التفسير :

١ - قال الدكتور وهبة الزحيلي فى التفسير المنير ٩ / ١٥٢ ما يأتى :

خص الصلاة بالذكر ، مع أن التمسك بالكتاب شامل لأداء كل عبادة - ومنها إقامة الصلاة - لكنه نص على الصلاة فقال : وَالَّذِينَ يُمَسْكُونُ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، إظهاراً لعلو مرتبتها ، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان ، وأنها عماد الدين والفارقة بين الكفر والإيمان .

٢ - وقال القرطبي فى تفسير الآيتين السابقتين :

وهذا الوصف الذى ذمَّ الله تعالى به هؤلاء موجود فىنا ، أسند الدارمى أبو محمد عن معاذ بن جبل قال: «سبلى القرآن فى صدور أقوام كما سبلى الثوب فيتهافت ، يقرعونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصرُوا ؛ قالوا : سنبلخ ، وإن أساءوا ؛ قالوا : سيغفر لنا ؛ إنا لا نشرك بالله شيئاً» .

﴿ وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧١)

المفردات :

نَفَخْنَا ، رفعنا .

ظُلَّةٌ ، الظلة : ما أظلك .

بِقُوَّةٍ ، بجد وعزيمة .

وَضَنُّوا ، أى : تيقنوا - وكثيراً ما يستعمل الظن بمعنى التيقن .

التفسير :

١٧١- وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبْلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ... الآية .

تذكر هذه الآية طرفاً من رذائل اليهود : فقد طلبوا من موسى عليه السلام أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان للتشريعات وتوضيح لمعامل الحلال والحرام ، وقد جاءهم موسى بالتوراة مكتوبة فى الألواح ، أو بنصائح وتشريعات وآداب ، قال تعالى : وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْآلُوحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخَذِهَا بِأَحْسَنِهَا . (الأعراف : ١٤٥) .

فلما قرأ عليهم موسى التوراة ، أولما أخبرهم بالوصايا والتعاليم التى فى الألواح : بادروا بنبيهم بأن ما فيها لا يتحملونه : لأنه إصر وحمل ثقيل عليهم لا يطيقونه ، وكان هذا منهم عناداً ، فحملهم الله على العمل بما فى التوراة ، بأن نثق الجبل فوقهم ورفعنا رفعاً حقيقياً كأنه ظلة .

قال مجاهد : أخرج الجبل من الأرض ورفع فوقهم كالظلة ، فقبل لهم : لتؤمنن أو ليقعن عليكم .

وقال قتادة : نزلوا فى أصل جبل مرتفع فوقهم فقال : لَتَأْخُذَنَّ أَمْرِي ، أو لأمرينكم به ^(١) .

والمعنى : واذكر أيها النبى : إذ رفعنا فوقهم جبل الطور ^(٢) وأصبح كأنه سقيفة أو سحابة تظلمهم ، لما أبوا أن يتقبلوا التوراة لثقلها .

وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ . وعلموا وتيقنوا أن الجبل سيسقط عليهم ، لأن الجبل لا يثبت فى الفضاء .

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

أى : قلنا لهم فى هذه الحالة المخيفة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بجد واجتهاد ، وحزم وعزم على احتمال المشاق والتكاليف .

وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّوَامَى ، وتدارسوا تعاليم التوراة وأحكامها واعملوا بما فيها حتى لا تنسوها ؛ فإن القوة فى أحكام الدين ، والعمل بتشريع الله ، والبعد عن مخالفة الله : يزكى النفوس ويطهرها ، ويحقق لها الهداية والتقوى ، كما أن التهاون فى احترام الدين : يغرى النفوس باتباع الشهوات .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا .
(الشمس ٧ - ١٠)

روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرمينكم بهذا : فخرؤا سجداً ، فرقاً من أن يسقط عليهم - رواه النسائى ^(٩١) .
وجاء فى ضلال القرآن :

لقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ، فأعطوه فى ظلّ خارقة هائلة .. ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية ، أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدية ، وأن يتمسكوا به فى شدة وصرامة ، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى ، وتظل موصولة بالله لا تنساه ^(٩٢) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

المعمرات :

من ظهورهم ، من أصلابهم .

المبطلون ، المتبعون للباطل .

التفسير:

١٧٢- وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا... الآية .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات بعد قصة موسى مع قومه ، وحديث عن بنى إسرائيل ، ومن هذه الآية إلى آخر السورة نجد حديثاً موضوعه : الربوبية والتوحيد ، والعبودية والشرك ، ويبدأ كل ذلك ببيان ما أودع الله فى فطرة البشر ، وعقولهم ، من الاستعداد للإيمان بالله وتمجيده وشكره .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا

لهذه الآية عند المفسرين طريقتان أحدهما لفظى ، والثانى معنوى .

التفسير الأول :

مسح الله ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذر ، وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك الإقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

إن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر . وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ . أى : أشهد كل واحد منهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . أى : قاتلاً : ألسنتى بريكم ؟ .

قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا . أى : على أنفسنا بأنك ربنا .

التفسير الثانى :

الكلام على سبيل المجاز التمثيلى لكون الناس قد فطروهم الله تعالى على معرفته ، والإيمان به ، وجعلهم مستعدين جميعاً للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحديته ، ولا إخراج للذرية ، ولا قول ولا إشهاد بالفعل ، بل الأمر تعبير عما أودع الله فى الفطرة الإنسانية من ركائز الإيمان .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

وقوله : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ من باب التمثيل :

ومعنى ذلك : أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحديته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى

ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرهم ، وقال : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
وكانهم قَالُوا بَلَىٰ - أَنْتَ رَبُّنَا كَذَٰلِكَ عَلَىٰ أَنْفُسِنَا ، وأقرنا بوجدانيتك ، وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ،
وفي كلام رسوله ﷺ ، وفي كلام العرب ، ونظيره قوله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
وقوله تعالى : فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَوَازِعَا أَوْ كَرِهَا قَالَتَا أَبِيتَا طَالِعَيْنِ .
وقوله :

قالت له ربح الصبا فربار^(٣٠)

إذ قالت الأنساع للطن الحق

ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى .

وقد أيد كل فريق رأيه بأدلة متعددة :

فأصحاب الرأي الأول : أيدوا رأيهم بأحاديث واردة في الصحيحين كما في تفسير أبي السعود وغيره :

جاء في تفسير أبي السعود :

«وقد حملت هذه المقالة على الحقيقة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما خلق
الله تعالى آدم عليه السلام، مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال ألسنت بربكم؟
قالوا بلى : فتدوى يومئذ : جف القلم لما هو كائن إلى يوم القيامة^(٣١) .

ابن كثير جمع بين التفسيرين :

ابن كثير لم ير أن أيا من التفسيرين يعارض الآخر ، من حيث المبدأ ، فقد جبل الله الفطرة على
التوحيد، كما استخرج ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم .

جاء في تفسير ابن كثير :

يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وملिकهم
وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه .

قال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ . (الروم : ٣٠)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد
البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟»^(٣٢)

وفى رواية : «كل مولود يولد على هذه الملة» .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمّار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ، وحزمت عليهم ما حللت لهم» ^(١٧٢) .

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربههم .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : رأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكننت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى» ^(١٧٣) . أخرجاه فى الصحيحين .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَهْنَتْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ فَأَلْفَسَهُمُ الْحَدِيثَ بِرَبِّكَمْ قَالُوا بَلَى ... الآية .

قال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : «إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال خلقت هؤلاء للجنة ، ويعمل أهل الجنة يعملون .. ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، قال : خلقت هؤلاء للنار ، ويعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : إذا خلق الله العبد للجنة ، استعمله بأعمال أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار» ^(١٧٤) . وهكذا رواه أبو داود والنسائى والترمذى وقال : هذا حديث حسن .

وقال الإمام ابن القيم فى كتاب الروح ما خلاصته :

إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم ، فميز : شقيهم وسعيدهم ، ومعافاهم من مبتلاهم ، والآثار متظاهرة به مرفوعة ، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته ، واستشهد عليهم ملائكته ، كما تدل على ذلك الآية .

قال أبو إسحاق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به ، كما قال : قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَبَيْهَا أَنْتُمْ لِأَنْتُمْ أَذْهَلُوا مَسَاكِينَكُمْ . (النمل : ١٨) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير ، وقال ابن الأنبارى : مذهب أهل الحديث وكبراء العلم فى هذه الآية : أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلا ب أولاده وهم فى صورة الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون له ، فاعترفوا بذلك وفعلوا .

وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب ، وكما فعل بالبعير لما سجد ، وبالنخلة حتى سمعت وانقادت حين دُعيت ^(١٧٢) هـ .

وقد نقل الإمام ابن كثير طائفة كبيرة من الأحاديث النبوية في تفسير الآية وما يتصل بها ، ثم قال : «ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإِشهاد : إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم في الأحاديث النبوية الشريفة وقد فسر الحسن الآية بذلك» ^(١٧٣) هـ .

ومجمل معنى الآية :

إن الله تعالى نصب للناس في كل شيء من مخلوقاته - ومنها أنفسهم - دلائل توحيده وربوبيته ، وركز فيهم عقولاً ويصائر ، يتمكنون بها تمكناً تاماً من معرفته ، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية ، حتى صاروا بمنزلة من إذا دُعي إلى الإِيمان بها ؛ سارع إليه .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

ليس عجيب أن يكون بيننا وبين الله هذا الموقف ، الذي شهدته أرواحنا ، ولم تشهده أجسامنا .. كما شهدته المخلوقات جميعاً من حي وغير حي ، كما قالت السماوات والأرض **أَتَيْنَا طَائِعِينَ** .

وهذه الشهادة إقرار سابق بولائنا جميعاً لله وإيماننا بوحدانتيه .

وإن من شأن هذا الإقرار أن يقيم وجوهنا إلى الله بعد أن نلبس هذه الأجساد التي نعيش فيها .

فهذا الإقرار رصيد من الإِيمان نستقبل به الحياة ، وتتلاقى به على طريق الإِيمان مع دعوة العقل الذي أوجده الله فينا ، ومع دعوة الرسل الذين أرسلهم الله إلينا .

أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

أى : ليقطع عليكم العذر أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن الإِيمان بالله والتعرف عليه غافلين ، فذلك عذر غير مقبول .. إذ كيف تغفلون وفيكم داع يدعوكم إلى الإِيمان بالله ، وهى تلك الفطرة التى أشهداها الله عليكم .

وقد نصب الله لكم فى كل شيء وفى مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ، وأرسل لكم الرسل مبشرين ومنذرين : **لِيَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** . (النساء : ١٦٥) .

فقد بطل عذرکم وسقطت حججتکم ، ثم بين سبحانه سبباً آخر لهذا الإِشهاد فقال :

١٧٣ - أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ... الآية .

أى : فعلنا ذلك ؛ حتى لا تعتذروا بأن تقولوا : إنما أشرك آبائنا من قبلنا ، وكنا ذرية لهم من بعد شركهم ، فأشركنا بشركهم ، ونشاننا نقضى بهم - كما قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارهم مُّقْتَدُونَ. (الزخرف : ٢٢) .

أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ .

أى : أتؤاخذنا بما فعل المشركون من آباءنا ، والذنب ذنبهم ، وتجعل عذابنا مثل عذابهم ، مع قيام عذرنا بتقليدنا لهم ، وحسن الظن بهم ؟
ولكن هذا الاعتذار لا يجديهم .

إن التقليد بعد قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا يركن إليه عاقل ، إذ كنتم ومعكم فطرتكم ، وكنتم ومعكم عقولكم ، ثم كنتم دعوة الرسل الذين يدعونكم إلى الله .
فإذا أهلككم الله فإنما يهلككم بأفعالكم لا بأفعال آبائكم .

١٧٤ - وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى : ومثل هذا البيان البليغ الواضح ، نبين الآيات ونوضحها ، ونكشف للناس عن ذخائر الإيمان المطموسة فى كيانههم ، والتي أهملوها ، وغفلوا عنها .

وذلك لعلهم يرجعون إلى أنفسهم ، ويحسنون الانتفاع بتلك القوى ، التى أودعها الله فيهم ، فيكون لهم إلى الله عودة من قريب ، أو لعلهم يرجعون عن جهلهم ، وتقليد آبائهم وأجدادهم ، ويعودون إلى الرشاد والهداية الصحيحة .

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَلَسَّخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ
 الْفَٰسِقِينَ ۝١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
 كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوَمِ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦ سَاءَ مَثَلًا لِّلَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ۝١٧٧﴾

المعشردات ،

واتل عليهم ، واقرأ عليهم .

نـ بـ ا ، خبر .

فانسـلـخ منها ، فخرج منها وتركها .

فاتـبـعـه الشيطان ، أدركه وتمكن من الوسوسة له .

الفـاـسـقـيـن ، المبعدين في الضلال .

أخـلـد إلى الأرض ، مال وسقط .

يـلـهـث ، اللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان .

سـ ا م ، كلمة ذمٌ مثل بئس ومعناها : قبح .

التفسير ،

١٧٥- وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا ... الآية .

أي : واتل على اليهود ذلك الذنب العجيب ، نبأ ذلك الذي آتيناه حجج التوحيد ، وأفهمناه أدلته حتى
 صار عالماً بها ، فانسـلـخ منها وتركها وراء ظهره ، ولم يلتفت إليها ليهتدى بها .

فَٱنـسَلَخَ مِنْهَا .

أي : انخلع منها بالكلية ، بأن كفر بها ونبذها وراء ظهره ، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات
 وإرشادات .

وفى التعبير بالانسلاخ إيماء إلى أنه كان متمكناً منها ظاهراً لا باطناً ، كالحية حين تنسلخ عن جلدها وتتركه وتمضى .

فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ .

أى : لحقه فأدركه وصار قريباً له يوسوس له بالشر ، أو صار هذا العالم الضال إماماً للشيطان حتى إن الشيطان يتبع خطواته ، وهى مبالغة تبين مدى الضلال والشر والعقو ، على حد قول الشاعر :

وكان فتى من جند إبليس فارتقى به الحال حتى صار إبليس من جنده

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . أى : فصار من الضالين المفسدين .

والخلاصة : أنه أوتى الهدى فانسلخ منه إلى الضلال ، ومال إلى الدنيا فتلاعب به الشيطان ، وكانت عاقبته البوار ، والخذلان ، وخاب فى الآخرة والأولى .

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا :

هذا مثل ضربه الله تعالى ، للمكذبين بآيات الله ، المنزلة على رسوله محمد - ﷺ - وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها ، حافظاً لقواعدها وأحكامها ، قادراً على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفاً تمام المخالفة لعلمه ، فسلب هذه الآيات ؛ لأن العلم الذى لا يعمل به ، لا يلبث أن يزول ، فأشبهه الحية التى تنسلخ من جلدها ، وتخرج منه وتتركه على الأرض ، على حد قول الشاعر :

خُلِقُوا ، وما خُلِقُوا لمكرمة فكانهم خلقوا وما خُلِقُوا
رَزِقُوا ، وما رَزِقُوا سماح يد فكانهم رَزِقُوا وما رَزِقُوا

١٧٦ - وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ... الآية .

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار ، بسبب تلك الآيات ، فالعمل بالعلم يرفع القدر ويعلى شأن صاحبه ، قال تعالى : يُرَفِّعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فَرَجَاتٍ . (المجادلة : ١١) .

ولكنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وأثرها على الآخرة والتعبير بقوله : أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ، يفيد : أنه رغب فى لذائذ الأرض اللغانية ، وترك آفاق العلم والمعرفة ، واختار الأدنى على الأعلى .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ .

أى : إن صفته فى حمل العلم والانسلاخ منه إلى شهوات الدنيا ، كصفة الكلب الذى يندلع لسانه ، فهو دائم اللهث لأن اللهث : طبيعة فيه ، إن شددت عليه وأتبعته لهث ، وإن تركته لهث .

قال الشوكانى :

أى : إن هذا العالم الضالّ إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن ترك لم يهتد لخير .

وقيل : المعنى : إن وعظته ضلّ ، وإن تركته ضلّ ، فهو فى ضلال ملازم لانسلاخه عن ربّه ، فهو كالكلب إذ كان رابضاً لهث ، وإن يطرد لهث .

ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا .

أى : ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود وغيرهم ، بعد أن علموا بها وعرفوها ، فحرفوا وبدّلوا وكذبوا بها .

فَأَقْصَصَ الْقَصَصَ عَلَيْهِمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : فاقصص أيها الرسول الكريم ، قصص ذلك الرجل ، الذى تشبه حاله حال أولئك المكذبين ، بما جئت به من الآيات رجاء أن يحملهم ذلك على التفكر والتأمل ، والنظر فى الآيات بعين البصيرة ، لا بعين الهوى والعداوة .

١٧٧ - سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ... الآية .

أى : قبح مثلاً حال المكذبين لآياتنا ، التاركين لها : عناداً واستكباراً .

وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ .

أى : ما ظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم دون غيرهم ، حيث عرضوا أنفسهم للعذاب ، بسبب ما اختاروا من التكذيب والعصيان ، والمراد من هذه الآية : المبالغة فى ذم هؤلاء الذين جمعوا بين التكذيب بالآيات ، وظلم أنفسهم بالمعاصى .

فى أعقاب الآيات :

لم يعين القرآن الكريم اسم من ضرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه ، ولا جاء فى السنة الصحيحة شيء من ذلك ولرواة التفسير بالمأثور روايات كثيرة فى شأنه .

جاء في فتح القدير للشوكاني :

عن ابن عباس قال : هو رجل من مدينة الجبّارين يقال له : بلعم ، تعلّم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أثناء بنو عمّه وقومه ، فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فداع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال : إني إن دعوت الله أن يردّ موسى ومن معه ، مضت دنيائي وآخرتي ، فلم يزلوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه ، وقيل : هو أحد علماء بني إسرائيل .

وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذي بُني له مسجد الشقاق .

وقيل : هو أمية بن أبي الصلت ، كان قد قرأ الكتب ورأى قرب ظهور نبي ، فتوقع أن يكون هو ، فلما بُعث النبي ﷺ ، ولم يؤمن بالرسول ﷺ : حقّداً وحسداً ، فأنزل الله فيه هذه الآيات ، والله أعلم .

وقد روى عن أمية بن أبي الصلت أنه كان يجلس بجوار الكعبة متحنّفاً ويقول :

مُجِدُّوا الله وهو للحمد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً

ويقول أيضاً :

الحمد لله ممسانا ومصباحنا بالخير صبحنا ربّي ومسانا

فلما ظهر النبي تكلّم في الإيمان به ؛ حقّداً وحسداً ، ولما اقترّب موت أمية قال :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عِبَادِكَ لَا أَلْمَمَا

وقد ذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسير الآية : إلى أن أقرب رجل تشير إليه الآية هو «الوليد ابن المغيرة» الذي أوفدته قريش إلى النبي ﷺ ليعرض عليه المال أو الملك أو الرئاسة ، فلما انتهى في عرضه قرأ النبي ﷺ الآيات الأولى من سورة فصلت ، فلما سمع الوليد القرآن ؛ خشع وضرع ، وقال لأهل مكة : لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر .

فقول له أهل مكة : سحرك محمد ، وهيجوه حتى عدل عن إيمانه ، وادعي أن محمداً ساحر .

وفيه نزل قوله تعالى : إِنْهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ قَبِلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ • ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ • فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ بَاطِلٌ • إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ • سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ • وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرٌ • لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ • لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ • عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشَرَ (المدر: ١٨ - ٣٠) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

إن أحداً من المفسرين لم يقل بهذا القول ، ولا أشار إليه ، وساق الأستاذ عبد الكريم الخطيب عدداً من الأدلة ترجح في رأيه أن المشار إليه في قوله تعالى : **وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتِحَتَهُ الشَّيْطَانُ لَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** . هو الوليد بن المغيرة .

ولست في المؤيدين للأستاذ الفاضل المرحوم عبد الكريم الخطيب ؛ لأن تحديد الأشخاص التي أبهمها القرآن يعتمد على النقل لا على العقل ، وهذا موضوع لا مجال فيه للاجتهاد ، فإما أن نعتمد على الروايات الواردة في تعيين هذا الشخص أو نقول : هو نموذج عام لكل عالم ينسلخ من رداء العلم ويؤثر العاجلة على الآجلة .

★ ★ ★

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَنَافٍ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَأَلْغَفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

المضردات :

ذرائعنا ، خلقنا .

لا يفقهون ، لا يفهمون ولا يدركون .

الغافلون ، التاركون لما ينفعهم السامعون عنه .

التفسير :

١٧٨- مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ... الآية .

معنى هذه الآية مستفاد من معنى الآيات السابقة في قصة الذي آتاه الله الآيات فتركها ؛ عناداً واستكباراً ومضمون الآية ما يأتي :

من يوفقه الله للإيمان والخير واتباع الشرع والقرآن ، باستعمال عقله وحواسه ، فهو المهتدى حقاً لا سواء ، ومن يخذله ولا يوفقه ، ولا يهديه إلى الخير واتباع القرآن بسبب تعطيل عقله وحواسه في فهم آياته الكونية والشرعية ، فهو الخاسر البعيد عن الهدى ، الذي خسر الدنيا والآخرة .

وبما أن الهداية الإلهية نوع واحد والضلالة أنواع متعددة أفرد الله المهتدى ، وجمع الخاسرين ، فقال: **فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ ثُمَّ قَالَ: فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.**

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا ما يأتى :

وحكمة إفراد الأول : الإشارة إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية : نوع واحد ، وهو الإيمان المثمر للعمل الصالح .

وحكمة جمع الثانى : الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلاً فى تفسير قوله تعالى : **فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ.** (الأنعام: ١٥٣) . وتفسير قوله تعالى فى سورة البقرة : **أَلَمْ يَكُنِ الْأَوَّلِينَ عَامَّةً ثُمَّ خَلَّاهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ^(١٧٩) ... الآية (البقرة: ٧٥٧).

١٧٩ - وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ... الآية .

خلق الله الإنسان بقدرته ، وأودع فيه وسائل الهدى وعوامل التبصر ، وأكرمه بالإرادة والاختيار .

قال تعالى : **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا ضَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا.**

أى : بينّا له الطريق وأوضحنا له الصراط المستقيم ، فمن الناس من اختار الضلالة ، وغلب عليه الهوى ، قال تعالى : **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ.** (الأنعام: ١٥٣) .

وآيات القرآن فى هذا الموضوع كثيرة جداً ، منها المحكم ومنها المتشابه ، والمؤمن مطالب بالإيمان بالمحكم ، والتفويض إلى الله فى المتشابه .

ومما أحكمه القرآن وبيّنه ، عدالة الله الحكيم العليم ، فهو سبحانه قد بيّن للناس طريق الخير وطريق الشر ، ووضّح أسباب الهدى والضلالة ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وأودع فى الإنسان العقل والإدراك والضمير ، ومن الناس من يستخدم بصره ويصيرته فى التأمل والهدى فيعيّنه الله ويوفقه ، ومن الناس من يؤثر العاجلة على الآجلة ، ويهمل ضميره ، ويخلق بصره ويصيرته ، ويفرق فى الشهوات ، ويصمّ أذنه عن دواعى الهدى ، وهذا هو الذى يسلب الله عنه هداة وتوفيقه ، فتراه أصمّ لا يسمع بسمع قلبه وضميره ، أعمى لا يبصر ببصر قلبه وهداية ضميره .

هذا المعنى تكرر كثيراً في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا فِيهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِيَّائِنَا غَائِلُونَ • أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ**. (يونس: ٧ - ٩).

وقد نقل السيد رشيد رضا في تفسير المنار كلاماً نفيساً عن تفسير روح المعاني، ثم قال السيد رشيد رضا ما يأتي:

والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل، بل هي كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل.

ومعناها: أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس، قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة في علم الهدى، الذي يترتب عليه الأعمال المذكية للنفس، فكانوا بذلك أهل جهنم، وليس فيها أنه تعالى نراهم لجهنم لذواتهم، فإن ذوات الجنسين كلها متشابهة، ولم يقل: إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى في أسباب الهدى، بل قال: إنهم لم يستعملوها في ذلك.

قال تعالى: **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**. (المك: ٩، ١٠).

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ فِيهَا.

أي: والله لقد خلقنا خلقاً كثيراً من الجن والإنس، مستعدين لعمل يستحق صاحبه دخول جهنم.

وأسباب استحقاقهم دخول جهنم، هي أنهم لا يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحاً للوصول إلى حقيقة الإيمان، وإدراك لذة السعادة الدنيوية والأخروية، وأن الخير فيما أمر الله به، وأن الشر فيما نهى الله عنه.

قال ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير:

لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ فِيهَا. لما أعرض القوم عن الحق والتفكر فيه، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يبصر ولم يسمع.

وقال محمد بن القاسم النحوي: أراد بهذا أمر الآخرة، فإنهم يعقلون أمر الدنيا. ١ هـ.

كما قال تعالى: **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَائِلُونَ**. (الروم: ٧) فهم بمنزلة من لا يفقه: لأنهم لا ينتفعون بقلوبهم الواعية، ولا يعقلون ثواباً ولا يخافون عقاباً.

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعَادَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا .

إنهم لم يستخدموا عقولهم فى فهم الحجج والآيات التى أنزلها الله إليهم ، وهم أيضاً لا ينظرون بأعينهم نظر تبصر واعتبار وإمعان ، فى آيات الله الكونية ، وآياته القرآنية التى ترشدكم إلى ما فيه سعادتكم ، ولا يسمعون بأذانهم سماع تدبر وإصغاء : آيات الله المنزلة على أنبيائه ، ولا يسمعون أخبار التاريخ والأمم الغابرة ، وكيف كان مصيرهم بسبب إعراضهم عن هداية الله وإرشاد الرسل .

وليس الغرض من نفى السمع والبصر ، نفى الإدراكات عن حواسهم ، وإنما المقصود : بيان حجبها عن أبصار الهدى وسماع المواعظ . وقد يكون الإنسان سليم البصر ، لكنه أعمى البصيرة .

قال تعالى : **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ بَصِيرَهُ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .** (الجناتية: ٢٣) .

وقديماً قال الشاعر العربى :

وإذا كان القلب أعمى عن الرشد فماذا تفيد العينان

أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم ، وحواسهم كالأنعام : (البقر والإبل والغنم) ، لا هم لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بملذات الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً منها : لأن الأنعام تحرص على ما ينفعها ، وتتنفر مما يضرها ، ولا تسرف فى أكلها وشربها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ، وهم مسرفون فى جميع اللذات ، ولا يهتدون إلى ثواب .

ولا قدرة للحيوانات على تحصيل الفضائل ، وأما الإنسان فأعطى القدرة على تحصيلها ، أولئك هم كاملو الغفلة عن آيات الله ، وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم ، فيما خلقت من أجله ، وهو الاستفادة من المسموعات والانتفاع من المصبرات ولقد غفلوا عن التدبر ، وأعرضوا عن الآخرة .

أما العقلاء الغفلون منهم ، الذين عملوا للدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : **وَاتَّبِعْ فِيمَا أَنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ لِمِيعَتِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ .** (القصص: ٧٧)

قال النسفى : كيف يستوى المكلف المأمور والمخلى المعذور ، فالأدمى روحانى شهوانى ، سماوى أرضى ، فإن غلب روحه هواه : فاق ملائكة السماء ، وإن غلب هواه روحه : فاقت بهائم الأرض .

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٨٠)

التفسير:

١٨٠- وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ...

أى: والله دون غيره، جميع الأسماء الدالة على أحسن المعاني، وأكمل الصفات، فاذكروه ونادوه بها؛ إما للثناء عليه، نحو: اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وإما لدى السؤال وطلب الحاجات مثل: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لى شأنى كله، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين»^(١٩).

ويُذكرُ الله تعالى دواء للنفوس، وشفاء لفسوة القلوب، قال تعالى: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. (الرعد: ٢٨).

وروى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى أن رسول الله ﷺ قال: «من نزل به غم أو كرب أو أمر مهم فليقل: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم».

مختصر من تفسير الشوكانى

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ، أى: لله أحسن الأسماء لدلالاتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول من الرحمة والقدرة والعلم والحكمة والخبرة والعزة وغيرها.

فَادْعُوهُ بِهَا. قائلين: يا رحمن يا حليم يا عليم، فإنه إذا دُعِيَ بأحسن أسمائه: كان ذلك من أسباب الإجابة.

وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ. أى: يحرفون لفظها أو معناها والإلحاد فى أسمائه يكون على ثلاثة أوجه: إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يفتروا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن ينكروا بعضها.

قيل: نزلت فى رجل من المسلمين، كان يقول فى صلاته: يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما : مائة إلا واحدا ، من أحصاها : دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر»^(١٧) هـ . رواه الشيخان .

قال الألوسي في تفسير الآية :

والذي أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزت أسماؤه - في التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابه همٌ أو حزن فليقل : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وذهب همي وجلاء حزني ...»^(١٨) ، فهذا الحديث صريح في عدم الحصر .

وحكى النوري اتفاق العلماء على ذلك ، وأن المقصود من الحديث : الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين ، من أحصاها : دخل الجنة ، وهو لا يتنافى أن له تعالى أسماء غيرها^(١٩) .

وخلاصة المعنى :

لله أحسن الأسماء ، الدالة على أحسن المعاني ، فادعوه بها ، واتركوا الذين يسمونه بأسماء لا تناسب العظمة الإلهية ، اتركوا هؤلاء فإنهم سيلقون جزاء عملهم من الله رب العالمين .

من كتاب التفسير المنير للذكور وهبة الزحيلي :

أسماء الله توقيفية ، فلا يسمى باسم لم يرد في القرآن والسنة ، كالرفيق والسخي والعاقل ...

وأسماء الله تعالى يجوز إطلاقها كلها على غير الله تعالى ، ما عدا اسمي الله والرحمن .

وهذه الأسماء ومنها ما يمكن ذكره وحده ، مثل يا الله ، يا رحمن ، يا حكيم . ومنها ما لا يجوز إفراده بالذكر ، بل يجب أن يقال : يا محيي يا مميت ، يا ضار يا نافع .

وقد أورد ابن العربي مائة وستة وأربعين اسماً من أسماء الله تعالى للتضرع والابتهال ، وذكر في موضع آخر زيادة ثلاثين اسماً^(٢٠) فصار المجموع : مائة وستة وسبعين ، مثل : الطيب ، والمعظم ، والجميل وهو الذي لا يشبهه شيء .

وجاء في تفسير المنار : إحصاء بما ورد في القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى ، واستغرق تفسير هذه الآية خمس عشرة صفحة فيها نقول مفيدة لمن أراد الرجوع إليها .

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

التفسير:

١٨١- وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ...

مناسبة الآية :

أخبر الله تعالى في الآية السابقة أنه خلق لجهنم كثيراً من الجن والإنس ؛ لأنهم أهملوا طاقات المعرفة لديهم من العقل والحواس .

ثم ذكر هنا انقسام من وصلتهم الدعوة المحمدية إلى فريقين : فريق المهتدين الذين يقضون بالحق والعدل ، وفريق المكذبين الضالين .

معنى الآية :

من بعض الأمم التي خلقها الله جماعة تمسكوا بالحق وعملوا به ، ودعوا الناس إلى اتباعه والتزام طريقه ، فكانوا كامليين في أنفسهم مكملين لغيرهم .

وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

أى : يقضون بالعدل دون ميل أو جور ، وهم أمة محمد ﷺ ، بدليل ما ورد في الأحاديث الصحيحة ، فى تأييد ذلك ، منها ما رواه الشيخان فى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم على ذلك» (٢٧) .

من زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى :

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ . أى : يعملون به وَبِهِ يَعْدِلُونَ . أى : وبالعامل به يعدلون ، وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال :

أحدها : أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمة ، قاله ابن عباس ، وكان ابن جريج يقول : ذكر لنا أن النبی ﷺ قال :

«هذه أمتى بالحق يأخذون ويعطون ويقضون» (٢٨) .

وقال قتادة: بلغنا أن النبي ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال: «هذه لكم وقد أعطى القوم مثلها»^(٣٠).

ثم يقرأ: وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٍ يَنْهَوْنَ بِالْحَقِّ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْبَغْيِ (الأعراف: ١٥٩).

والثاني: أنهم من جميع الخلق، قاله ابن السائب.

والثالث: أنهم الأنبياء.

والرابع: أنهم العلماء، ذكر القولين الماوردي.

١٨٢ - وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

أى: والذين كذبوا بالقرآن وهم أهل مكة، نتركهم فى ضلالهم، ونستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، ونقرهم إلى ما يهلكهم، بإمدادهم بالنعم، وفتح أبواب الرزق والخير، وتيسير سبل المعاش، كلما ارتكبوا ذنباً أو فعلوا جرماً، فيزدادون بطراً وانغماساً فى الفساد^(٣١).

من زاد المسير لابن الجوزى:

قوله تعالى: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: سنطوى أعمارهم فى اغترار منهم.

وقال الزبيدي: الاستدراج: أن يأتيه من حيث لا يعلم.

وقال الأزهري: سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطهم به، ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرثهم أغفل ما يكونون.

قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية؛ جددنا لهم نعمة اهـ.

وقد روى الشيخان عن أبي موسى: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٣٢).

وقال تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْلَدْنَاهُمْ بَغْيَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۖ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام: ٤٤، ٤٥).

وقال عز شانه: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِلُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَنَيْنٍ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْغَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (المؤمنين: ٥٦، ٥٥).

وقد تحقق ذلك بكفار قريش الذين هزموا فى بدر والندق وفتح مكة وغيرها من المعارك، وأظهر الله

رسوله عليهم.

قال عمر لما حملت إليه كنوز كسرى : «اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا ، فإنى سمعتك تقول : سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

١٨٣ - وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ .

وَأُمْلِي لَهُمْ .

أى : سأملئ وأطول لهم ما هم فيه ، وأصهل هؤلاء المكذبين وأمد لهم فى حبل النعم .

إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ . إن تدبيرى الخفى شديد قوى ، قال ابن فارس : الكيد : المكر ، فكل شئ عالجته فأنت تكيده .

قال المفسرون : مكر الله وكيده مجازاة أهل المكر والكيد فيكون الجزء من جنس العمل ، حيث يأتيه على حين غفلة ، فينزل به بأس الله تيّأاً أو هم قائلون .

أى : ليلاً وهو مستغرق فى نومه وراحته ، أو نهاراً فى وقت القيلولة والأمن والطمأنينة .

جاء فى تفسير المنار :

ومعنى هذا الإملاء : أن سنة الله تعالى فى الأمم والأفراد ، قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التى قام بها نظام الخلق ، فالمخذول إذا بغى وظلم ، ولم ينزل به العقاب الإلهى عقب ظلمه ، يزداد بغياً وظلماً ، ولا يحسب للعواقب حساباً ، فيستمرسل فى ظلمه ، إلى أن تحقيق به عاقبة ذلك ، بأخذ الحكام له ، أو بتورطه فى مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى (٣) .

★ ★ ★

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ قِيَامُ يَوْمٍ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ يَوْمَئِذٍ ﴿١٨٤﴾ مَنْ يَضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُادَى لَهُ وَيُذِقْهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

المفردات :

جَنَّةٌ : بكسر الجيم جنون .

ملكوت السموات والأرض : أى : العوالم التى اشتملت عليها السموات والأرض .

يَذَرُهُمْ ، يَتْرَكُهُمْ .

يَعْمَهُونَ ، يَتَحِيرُونَ .

التفسير ،

١٨٤- أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حَيْثُ ...

سبب النزول ،

جاء فى تفسير الطبرى ، وابن كثير ، والدر المنثور للسيوطى ، وغيرهم ، أن سبب نزول هذه الآية ، هو أن رسول الله ﷺ ، صعد على الصفا ليلة ، ودعا قريشاً فخذوا فخذاً : يا بنى فلان ، يا بنى فلان ، يا بنى فلان فحذَرَهُمْ بِأَسِ اللَّهِ وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ؛ بات يصوت حتى الصباح ، فنزلت هذه الآية . ومعنى الآية :

أغفلوا عما امتاز به الرسول - ﷺ - بينهم من راحة العقل ، وصدق القول ، والأمانة الكاملة ، فقد عرفوه بالصادق الأمين ، والمفكر السليم ، وقد صاحبه قبل الرسالة أربعين سنة ، وصاحبه بعد الرسالة يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده ، كما دعاهم إلى إصلاح شئونهم ، وتنظيم حياتهم الدينية والمدنية والاجتماعية .

وكل ذلك لا يصدر من مجنون ، بل الذى يقتضيه العقل ، ويسرع إليه الفكر ، أن ما قدمه هذا النبى من قرآن وهداية وتشريع ونظام ، وهو أمى لم يناظر ولم يجادل ولم يفاخر أحداً فيما مضى ، إن هو إلا وحى من الله ، نزل به الروح الأمين ، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : إنه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح ومبلغ عن الله ، فهو يذكركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة ، إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم إلى ما فيه صلاح حال الفرد والمجتمع فى الدنيا ، وصلاح أمركم فى الآخرة .

فى أعقاب الآية :

تكرر اتهام كفار مكة للنبى ﷺ بالمجنون ؛ لصرف الناس عن دعوته ورسالته .

قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِ حَيْثُ بَلَّ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . (المؤمنون : ٧٠)

وقال سبحانه : وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۚ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

(الحجر : ٦٠)

وقال عز شأنه : وَيَقُولُونَ إِنَّا كُنَّا نُكْفِرُ كُفْرًا إِلَهِنَا لِشَاعِرٍ مُّجْتَوِّنٍ . (الصافات : ٣٦) .

وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون؛ لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووحيه مع كونهم بشرًا لا يمتازون عن سائر الناس بزعمهم .

فقد حكى الله عن قوم نوح أنهم اتهموه بالجنون فقالوا :

إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ . (المؤمنين : ٢٥) .

وقال في شأنهم : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ . (القمر : ٩)

وقال حكاية عن فرعون في موسى عليه السلام : قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . (الشعراء : ٢٧) .

وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام ^(٣١) فقال :

كَذَلِكَ مَا آتَىٰ آلِ الْلَّيْنِ مِن قَبْلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُّجْتَوِّنٌ . (الذاريات : ٥٢) .

١٨٥ - أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ...

أي : اكذبوا الرسول الذي علموا صدقه وأمانته وقالوا : إنه مجنون ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال ، في هذا الملكوت العظيم ، ملكوت السماوات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفي ملكوت الأرض في البحار والجبال والدواب وغيرها ، ولم ينظروا كذلك في مخلوقات الله جميعاً ، التي لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف ، مما يشهد بأن لهذا الكون خالقاً قادراً ، هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .

وقوله سبحانه : وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ . تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ .

أي : أو لم ينظروا - أيضاً - في اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم ، ونزول العذاب بهم ، وهم في آنعس حال .

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

أى: إذا لم يؤمنوا بالقرآن ، وهو أكمل كتب الله بياناً ، وأقواها برهاناً ، فمن لم يؤمن به ، فلا مطمع فى إيمانه بغيره .

قال تعالى : وَيَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . (الزمر: ٥٥).

١٨٦ - مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ... الآية

أى: إن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا للجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهاناً ، وأكملهم عقلاً ، وأجملهم أخلاقاً ، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول : فهو الذى أضله الله ، أى : الذى قضت سنته فى خلق الإنسان ، وارتباط أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها ، بأن يكون ضالاً راسخاً فى الضلال ، وإذا كان ضلاله بمقتضى تلك السنن ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها .

وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى: ويتركهم فى تجبرهم الذى جازوا به حدود الله . يَعْمَهُونَ يتحيرون ويتخبطون .

قال تعالى : وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . (النور: ٤٠) .

من تفسير المراغى :

والخلاصة : أنه ليس معنى إضلال الله لهم ، أنه أجبرهم على الضلال ، وأعجزهم بقدرته عن الهدى ، فكان ضلالهم جبراً لا اختياراً ، بل المراد : أنه لما مرت قلوبهم على الكفر والضلال ، وأسرفوا فيها ، حتى وصلوا إلى حد العمى فى الطغيان ؛ فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ، ما يضيئها فى الهدى والإيمان ، فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى ، وقلوبهم لا ترعى لدى الذكرى (٣٧) .

بَلْ رَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين: ١٤) .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْ قُبِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٨٧)

المفردات :

السَّاعَةُ ، المراد بها هنا : يوم القيامة وقد يراد بها لغة : جزء من الزمن .

إيمان مرساها ، أى : متى حصولها . أو متى وقوعها ؟

لا يجليها ، لا يظهرها ويكشفها على وجه التحديد .

ثقلت هي السماوات والأرض ، عظم أمرها على أهل السماوات والأرض : لما فيها من الأهوال .

بغضة ، فجأة .

حفي عنها ، بالغ العلم بها .

التفسير :

١٨٧- يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ...

سبب النزول :

كانت اليهود تقول للنبي ﷺ ، إن كنت نبياً فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟

وقال قتادة : إن قريشا قالت : يا محمد بيننا وبينك قرابة ، فبين لنا متى الساعة ؟

وقال عروة : الذى سأله عن الساعة ، عتبة بن ربيعة .

ورجح الحافظ ابن كثير أنها نزلت فى قريش : لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة :

استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً لوجودها . أو اختصاراً لصدق نبوة الرسول .

المعنى : يسألك الناس يا محمد ، عن وقت مجيء الساعة التى يموت فيها الناس جميعاً .

أَيَّانَ مُرْسَاهَا .

أى : متى يكون وقوعها ومجيئها وثبوتها وفى التعبير بالإرساء الدال على الاستقرار والانتهاء ،

إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء لحركة العالم ، وانقضاء عمر الأرض .

قال أبو عبيدة : أى : متى مرساها ، أى : منتهاها . ومرسا السفينة : حيث تنتهى .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ ...

استأثر الله تعالى بأمر الغيب ، وأمر الإنسان أن ينصرف إلى عمله مجتهداً فيه ، فلو تأكدنا من موعد الساعة ، فربما أهمل المهملون ، وربما اشتد الخوف والروع على المؤمنين ، ولذلك اختص الله نفسه بعلم الساعة ؛ حتى يكون هناك مجال للاختبار والابتلاء والامتحان ، وحتى يكون هناك توقع للموت فى أى لحظة ، وقد خبا الله معرفة الصلاة الوسطى ، وساعة الإجابة يوم الجمعة ، وليلة القدر فى شهر رمضان ، كما خبا معرفة الساعة ؛ ليجتهد الناس فى الطاعة والعبادة ؛ فربما جاء الموت بغتة .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** . (لقمان : ٣٤) .

لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ .

أى : علم الساعة عند الله وحده ، ولا يظهرها ، ولا يأتى بها فى وقتها غير الله تعالى وحده ، وفى هذا القول تأكيد بليغ ، وزيادة تقرير لما سبق من اختصاص علم الله تعالى بذلك .

تَقُلَّتْ فِى السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ .

هذه الجملة لها معنيان :

المعنى الأول : خفى علمها على أهل السماوات والأرض ، ولم يعلم بها أحد من الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فجميع من فى السماوات والأرض لا يعلمون متى يكون حدوثها ووقوعها ، وكل ما خفى علمه فهو ثقيل على الغفود ، وهو قول السدى .

المعنى الثانى : عظم أمرها واشتد وقعها على أهل السماوات والأرض ؛ بعد أن أعلمهم الله تعالى بما سيكون فيها من الشدائد والأحوال ، وهو قول ابن عباس : وجهه : أن الكل يخافونها محسنهم ومسيئهم .

لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً .

قضى الله تعالى أنها لا تأتى إلا فجأة ، وعلى حين غفلة ، وحينئذ تشعرون بثقلها لهول المفاجأة ، فأولى بالإنسان أن ينصرف عن السؤال عن الساعة ووقتها ، فإن ذلك لا يفيد .

ويتفرغ للعمل بما يفيد ويقع في دائرة اختصاصه ، وهو الاستعداد للساعة والعمل الصالح ، والتسابق في اغتنام لحظات الحياة ، فالموت يأتي بغتة ، وفي الحديث الشريف «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك»^(٧٦).

وروى البخارى في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس : آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا ، ولتقوم الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته^(٧٧) فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة والرجل يليب^(٧٨) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقوم الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(٧٩).

يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَيٌّ عَنْهَا .

أى : كأنك دائم السؤال عنها ، مكلف أن تكشف عن موعدها .

قال مجاهد : أى استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها .

وقال ابن عباس : كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها عن خلقه .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ .

لا يعلم وقت مجيء الساعة إلا الله وحده دون سواه ، وفي هذا تأكيد وتعميق للمعنى المستفاد من الرد الأول ، مع ما يفيد ذكر لفظ الجلالة من هيبة ورهبة ، فى مقابلة جهلهم ، وتعنتهم فى طلب أمور لا يعلمها إلا الله وحده ، ولم يُطلع عليها أحدًا من خلقه .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ، ولا أدب السؤال ، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام ، وإنما يعلم ذلك القليلون ، وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

روى الشيخان عن عمر بن الخطاب أن جبريل سأل النبي ﷺ ، فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ فقال الرسول ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، سأنبئك عن أشراطها ، (علاماتها) : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة ، رعاء الشاء والإبل يتطاولون فى البنيان»^(٨٠).

وذهب الأستاذ سيد قطب : إلى أن معنى هذه الفقرة : أن أمر الغيب كله لله وحده ، لا يطلع على شيء منه إلا من شاء ، بالقدر الذى يشاء ، وفى الوقت الذى يشاء ، لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؛ فقد

يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم ، ولكن عاقبته تكون هي الضرر لهم ، وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضرر عنهم ، ولكن عاقبته المغيبة تجر عليهم ، وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هي الخير ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هي الضرر .

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

وقال سبحانه وتعالى : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ...

من كلام المفسرين

١ - قال الآلوسی فی تفسیر الآية :

وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة : لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ، فإنه أدعى إلى الطاعة ، وأنجز عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك .

٢ - جاء في تفسير المنار :

لهذه الآية كلام طويل عقب عليه السيد رشيد رضا في آخره بقوله : (فصل فيما ورد في قرب الساعة وأشراطها وما قيل في عمرها) وفي هذا الفصل أفاد بالآتي :

أخرج الحافظ السيوطي عدة أحاديث ، في أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة .

ونقل صاحب المنار نقولا عن العلماء : بأن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه ، وإنما هي نقول مأخوذة عن أهل الكتاب .

قال صاحب المنار :

وكذلك الإمام أبو محمد على بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) .

لم يعبا بشيء من هذه الروايات في هذه المسألة على طول باعه وسعة حفظه للآثار ، وقد سبق القاضى عياضا ، والقاضى أبا بكر ابن العريى ، وابن خلدون في رفضه لما قيل في عمر الدنيا .

قال ابن حزم :

وأما نحن - يعني المسلمين - فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل ؛ فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ لفظة تصح ، بل صح عنه ﷺ خلافه ، بل نقطع على أن الدنيا أمدا لا يعلمه إلا الله تعالى .

قال الله سبحانه وتعالى : مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ . (الكهف : ٥١) .

وبعد أن نقل السيد رشيد رضا كلام الإمام ابن حزم قال :

هذا كلام الأئمة المحققين ، فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ، ومعرفة وقت قيام الساعة إرضاء لشهوة الإتيان ، بما بهم جميع الناس ، لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة ، بأن الساعة من علم الغيب ، الذى استأثر الله به ، وأنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، وهذا البلاء كله من دسائس رواة الإسرائيليات .

ثم يقول صاحب المنار فى موضع آخر :

وأما علماء الكون فى هذا العصر : فلهم منهج فى عمر الأرض فى الماضى ، ومنهج آخر فى تاريخ البشر وأثارهم فى القرون الخالية .

وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضى ، يعدُّ بالآلاف الألوف من السنين ، وقد وجدت آثار البشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينتقض ما فى سفر التكوين فى المسألتين ، ولكنه لا ينتقض من القرآن كلمة ولا حرفاً .

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

انتهى كلام السيد رشيد رضا .

مؤتمر عالمي عن عمر الكون

نقل إلى الصديق الباحث الأستاذ الدكتور محمد الشيبني - عميد كلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بمسقط (سلطنة عمان) - أنه قرأ فى مجلات عالمية ، بأن مؤتمرًا لعلماء الطبيعة والفيزياء والفلك قد انعقد فى واشنطن فى شهر أبريل سنة ١٩٩٢ م ؛ لمناقشة دراسة علمية متخصصة عن أصل الكون ، واستقر المؤتمر على الآتى :

- ١ - تشير المشاهدات والحفريات والدراسات إلى أن عمر الكون يتراوح ما بين ١٥ بليون سنة ، ٢٠ بليون سنة .
- ٢ - الكون يتسع لتحرك الكواكب ويزداد فى اتساعه وحركته ؛ لأن هناك المزيد من الكواكب .
- ٣ - عمر المجموعة الشمسية الآن خمسة بلايين سنة وأنها يمكن أن تبقى خمسة بلايين سنة أخرى .
- ٤ - الشمس ستحرق كل المواد المشتعلة التى فيها ثم تتمد ، وتصبح من النجوم القزمة ، وعند انتهاء عمر الشمس ، ينتهى عمر الكون ، ما لم تدخل إرادة إلهية عليها بأمور ليست فى الحساب . ا هـ .

أشراط الساعة وأماراتها

قسم العلماء أشراط الساعة إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - ما وقع بالفعل منذ قرون خلت ، كقتال اليهود ، وفتح بيت المقدس ، والقسطنطينية .
- ٢ - ما وقع بعضه وهو لا يزال فى ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء وتشبههن بالرجال ، والكفر والشرك حتى فى بلاد العرب .
- ٣ - ما سيقع بين يدي الساعة من العلامات الصغرى والكبرى ؛ وتجد ذلك مطولاً فى تفسير المنار وتفسير المراعى .

المهدي المنتظر

أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله ، والشيعية يقولون : إنه محمد بن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، والمشهور فى نسبه أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس .

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث ويقولون : إنها موضوعة لا نصيب لها من الصحة ، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان ، ومن هؤلاء ابن خلدون ، فقد ضعف هذه الأحاديث ، وضعف أسانيدھا ، وبين أن الله سننا فى النصر هى الوحدة والقوة ، والقتال والاستعداد كما فعل الرسول الأمين ﷺ .

★ ★ ★

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سَكَنْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٨٨)

المفردات :

نذير ، منذر بوعيد الله للعصاة والكافرين .

وبشير ، ومبشر بوعد الله لكل من يؤمن بالله .

التفسير :

١٨٨- قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... الآية .

تمهيد :

بيئت الآية السابقة أن علم الساعة عند الله وحده ، وفى هذه الآية بيان لأساس من أسس العقيدة ،

إذ بينت حقيقة الرسالة وفصلت بينها وبين الربوبية ، وهدمت قواعد الشرك ، واجتثت جذور الوثنية ، فالرسول بشر يوحى إليه ، وظيفته التبليغ والتبشير للطائعين ، والإنذار للعصاة والمشركين ، ولا يعلم الغيب إلا بمقدار ما يريد الله إطلاعه عليه .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ .

أى : قل أيها الرسول لمن سألك عن الساعة طائناً أن عندك علم بالغيب ، وإطلاع على شئون المستقبل - قل لهم : إني بشر مثلكم ، وإنى لا أملك لنفسي ولا لغيري ، جلب نفع ولا دفع ضرر مستقلاً بقدرتي على ذلك ، وإنما أملكها بقدرة الله ، فإذا أقدرنى على جلب النفع ؛ جلبته بفعل أسبابه ، وإذا أقدرنى على منع الضرر ؛ منعتهم بتسخير الأسباب كذلك .

وقد كان المسلمون ولا سيما حديثو العهد بالإسلام ؛ يظنون أن منصب الرسالة يقتضى علم الساعة ؛ وغيرها من علم الغيب ، وأن الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرر عن نفسه ، وعمن يحب أو عمن يشاء ...

فأمره الله أن يبين للناس ، أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك ، وأن وظيفة الرسول هي التعليم والإرشاد ، لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله عن طريق الوحي . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ...

وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ .

أى : لو كنت أعرف أمر المستقبل ؛ لكانت حالى على خلاف ما هي عليه من استكثار الخير ، واجتناب السوء والمضار ؛ حتى لا يمسنى شيء منها ، ولم أكن غالباً مرة ، ومغلوباً أخرى .

قال الشوكاني :

أى : لا شترت حين يكون فيما أشتريه الربح ، وبعث حين يكون الربح فى البيع ؛ فيكثر مالى ولا أخسر فى بيع ، ولتعرضت لما فيه الخير فجلبته لنفسي ، وتوقيت ما فيه السوء ؛ حتى لا يمسنى .

قال ابن كثير :

أمره الله تعالى أن يفوض الأمر إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب فى المستقبل ، ولا إطلاع له على شيء من ذلك ، إلا ما أطلعه الله عليه ، كما قال : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . (الجن : ٢٦) .

إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَيُسِّرْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . أى : لست إلا مبلغاً عن الله لأحكامه ، أنذر بها قوماً ، وأبشر بها آخرين ، وأست أعلم بغيب الله سبحانه . أى : وليس الإخبار بالغيب من مهمتى ، ولا العلم به من صفتى .

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ : لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، فنص القرآن على محل النفع والفائدة على حد قوله تعالى : هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .

وقوله سبحانه : فَلَذِكْرِ الْفُرْعَانِ مَن يَخَافُ وَيَعْبُدُ .

★ ★ ★

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَانَا صَاحِبًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَاءَ آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

المضردات :

زوجها ، الزوجة والمراد بها : حواء .

ليسكن إليها ، ليطمئن إليها .

تغشاهما ، غشيها وهو كناية عن الوقاع .

حملت حملاً خفياً ، أى : كان حملها خفياً لا يمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح .

فمرت به ، فمضت به وترددت فى قضاء مصالحها من غير مشقة ولا كلفة .

فلما أثقلت ، صارت ذات ثقل بسبب كبر الولد وقرب وضعه .

دعوا الله ، تضرعوا إليه .

التفسير :

١٨٩- هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... الآية .

إن الله العلى القدير ، هو الذى يستحق العبادة والخضوع والذى عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومن دلائل قدرته وموجبات توحيده ، وإفراده بالعبادة أنه خلقكم من نفس واحدة ، هى نفس أبيكم آدم .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .

أى : خلق حواء من جسد آدم من ضلع من أضلاعه .

يُسْكُنُ إِلَيْهَا . لتكون حواء سكناً وأمناً وأنيساً ومصدراً للذرية وعمارة الكون .

. وهذه الفقرة تبين الحكمة من الزواج ، فالزوجة مصدر للحنان ، والسكن والأمان والعطاء ، ثم هى من جنس الرجل والجنس إلى الجنس أميل ، خصوصاً إذا كان بعضاً منه ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ، ويحبّه محبة نفسه ؛ لكونه بضعة منه .

وقريب من هذه الآية ما ورد فى صدر سورة النساء حيث قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ...

(النساء : ١)

وقوله سبحانه : وَمِنْ عَآلِيهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا يُسْكُنُ إِلَيْهَا .

أى : ليجتمع إليها ، وليطمئن لها ، ويستقر معها ..

وقد أشرنا من قبل فى قصة آدم وخلقهِ^(٨١) إلى أن حواء ، التى قيل : إنها خلقت من ضلعه لم تكن إلا مرحلة من مراحل التطور فى خلق آدم ، وأن عملية التكاثر فى تلك المرحلة ، كانت بانقسام الكائن الحى نفسه ؛ كما هو الشأن فى بعض المخلوقات الدنيا من الديدان^(٨٢) .
فَلَمَّا تَفَشَّاهَا .

أى : فلما غشى الزوج منكم زوجته ، والتفشى : كناية عن الجماع ، مثل الملامسة ، وغشى الشيء وتغشاه ، غطاه ، ومنه قوله تعالى : وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، أى : تغطى ظلمته الأشياء .

وكذلك الرجل حين يتصل بزوجته ، يغشاهما أى : يغطيها ويسترها ، ويقدم لها المودة والرحمة . ونرى فى هذه الجملة ، سُمُ القرآن فى تعبيره ، وأدبه فى عرض الحقائق . إن أسلوب القرآن يلفظ ويدق ، عند تصوير العلاقة بين الزوجين ، فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة ، تتناسب مع جو السكن ، والمودة بين

الزوجين ، وتنسق مع جو السر ، الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، عند المباشرة بين الرجل والمرأة ، ولا تجد كلمة تؤدى هذه المعانى أفضل من كلمة تَفْشَاهَا .

حَمَلْتُ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرْتُ بِهِ .

أى : لما تغشى الذكر الأنثى : علقت منه ، وكان الحمل فى أول أمره خفيفاً لا يمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح ، فإن كونه نطفة ثم علقه ثم مضغة : أخف مما يكون فى المراتب التى بعد ذلك .

فَمَرْتُ بِهِ .

أى : استمرت بذلك الحمل ، تقوم وتقعّد وتمضى فى حوائجها ، ولا تجد به ثقلاً .

فَلَمَّا أَثْقَلَتْ .

أى : فلما صارت ذات ثقل ، بسبب نمو الحمل فى بطنها ، واقتراب الوضع ، وأشفق آدم وحواء من أن يكون الحمل غير سوى ، واهتمّا بهذا الأمر الذى لم يعدها من قبل .

دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَا صَالِحًا لَّنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

تضرع آدم وحواء فى دعاء متبتل ، وأقسما قائلين : والله لئن أعطيتنا ولدًا صالحًا سويًا ، مستقيم الخلقة : لنكونن من المخلصين لك فى الشكر على نعمائك التى لا تحصى ، ومن أعطهما تلك النعمة الجليلة ، نعمة الولد الصالح .

١٩٠ - فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا .

أى : فلما استجاب الله تعالى دعاء الزوجين من ذرية آدم وحواء : وأعطاهما ولدًا صالحًا أى : كامل التكوين والخلقة ، أخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان ، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعىون ، أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله تعالى بالعبادة والشكر .

فَلَنَسْأَلَنَّ اللَّهَ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تعاضم وتنزه سبحانه أن يكون له شريك .

فى أعقاب الآية ١٨٩ ، ١٩٠ :

الآية ١٨٩ كانت حديثاً عن نفس واحدة جعل الله منها زوجها وهى نفس آدم وحواء .

أما الآية ١٩٠ ، فقد انتقل عندها الكلام عن آدم وحواء إلى ذريتهما رجلاً وامراً .

والمعنى : جعل أولادهما له شركاء ، فى الولد الصالح فى تكوينه ، حيث نسباه لبركة أولادهم مع الله تعالى ، فالاشتراك وقع من ذرية آدم وحواء .

جاء فى تفسير الشوكانى فتح القدير :

قالت جماعة من المفسرين : إن الجاعل لشركاء فيما آتاهم هم جنس بنى آدم ، كما وقع من المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء .

وجاء فى تفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

ويجوز أن يكون التأويل فى قوله : جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ بتقدير مضاف محذوف ، أى : جعل أولادهما الله شركاء ، وجعل الكلام على حذف مضاف كثير ومعهود ، ومنه قوله تعالى : وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ . أى : وأسأل أهل القرية اهـ .

معارك بين المفسرين :

هذا المكان من التفسير ، مما تدور حوله معارك كلامية كثيرة :

فبعض المفسرين ^(٨٧) ذهب إلى أن المراد بقوله تعالى : فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا : آدم وحواء .

واستدلوا على ذلك بما رواه الإمام أحمد بسنده : عن النبى ﷺ قال : لَمَّا طَافَ إبليسُ بحواء : وكان لا يعيش لها ولد ، فقال لها : سَمِّيه عبد الحارث : فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث : فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره ^(٨٨) .

وقد أثبت الحافظ ابن كثير فى تفسيره ضعف هذا الحديث من عدة وجوه .. ورجع أنه من آثار أهل الكتاب.

ثم قال : قال الحسن البصرى : عنى الله تعالى بهذه الآية : ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده .

وقال قتادة : كان الحسن البصرى يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولادًا فهوذا ونصروا .

قال ابن كثير : وهو من أحسن التفسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ؛ وإنما المراد من ذلك : المشركون من ذريته ، ولهذا قال : فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . ثم قال : فذكره آدم وحواء : أولاً كالتواطئة لما بعدهما من الوالدين ، كالاتطراد من ذكر الشخص إلى الجنس اهـ .

وقال صاحب الكشف : إن المراد بالزوجين : الجنس لا فردان معينان ، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الجلى والخفى فى هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض أفراد. اهـ

★ ★ ★

﴿ أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْتَجِيبُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

المفردات :

صامتون : تاركون دعوتهم .

التفسير :

١٩١- أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ... الآية .

تفيد الآية السابقة أن من ذرية آدم وحواء من جعل لله شركاء تنزه الله وعلا وتمجد عن أن يكون له شركاء يعملون معه ، ويشاركون فى تدبير ملكه .

ثم حمل القرآن على الشرك والوثنية حملات ماحقة ، وحاكم المشركين إلى الحس والواقع ، فهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تجيب ، وهى حجارة صماء ؛ ليس لها يد أو رجل أو بصر ؛ وحتى إذا رغب عاقل دعوتها إلى الهدى فلا تملك الاستجابة ؛ لأنها لا عقل لها ولا إرادة ، فكيف تعبد من دون الله؟! أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

أى : بعد أن منح الله هؤلاء المشركين العقل ، وأرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ داعياً إلى توحيد الله ، وسراجاً منيراً ، أبعد هذا كله يشركون معه فى الألوهية ، صنماً أو غيره من المخلوقات ، مما ليس له قدرة على أن يخلق شيئاً ولو كان ذباباً وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

أى : والحال أن ما عبدوهم يُخْلَقُونَ ، ولا يليق بذى العقل السليم ، أن يجعل المخلوق العاجز شريكاً لله القادر .

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ لِّمَا تَشْتَعُونَ لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ إِنْ سَأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ؕ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . (الحج : ٧٣ ، ٧٤) .

١٩٢ - وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ .

أى : ولا يستطيعون لمبايديهم معونة ، إذا حزبهم أمر مهم ، أو خطب ملء ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرا على من يعتدى عليهم ، بإهانة لهم أو أخذ شيء مما عندهم ؛ من طيب أو حلى ، كما قال تعالى : وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ (الحج : ٧٣) .

وفى هذا بيان لشدة عجزهم ، ومن عجز عن نصر نفسه ؛ كان عن نصر غيره أعجز .
فالأصنام تحتاج إليكم فى تكريمهم وفى النضال عنهم ، وأنتم لا تحتاجون إليهم .

١٩٣ - وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ .

أى : وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد ؛ لا يجيبوكم إلى ذلك .

ويجوز أن يكون المعنى :

وإن تدعوا هذه الأصنام إلى أن يهدوكم ؛ إلى ما تحصلون به رغباتكم ، أو تنجون به من المكاره التى تحيق بكم ، لا يتبعوكم ، فلا يستجيبوا لكم ولا ينفعوكم .

سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامُونَ .

فحالهم واحدة عند ندائكم ، وعند بقائكم على صمتكم وسكوتكم ؛ لأنهم مجرد أحجار منحوتة جامدة .

وهكذا حاكمهم القرآن إلى الحسُ المشاهد ؛ فكيف يعبد الإنسان صنما جامدا لا يسمع ولا ينفع ، وهو مجرد حجر جامد ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليه ، والخاذل عدوه ، الهادى إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ آزِجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيْدٌ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
 يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٥﴾
 إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

المضردات :

تدعون ، تعبدون .

ولي الله ، متولى أمرى وناصرى .

التفسير :

١٩٤ - إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ... الآية .

فى الآيات السابقة طائفة من الحجج والبراهين ؛ لإبطال الشرك ، وتسفيه عقول المشركين ، ونظراً
 لتأصل عادة الشرك فى نفوس المشركين بتقليد من قبلهم ، واتباعهم إياهم .

استمرت هذه الآيات تقدم طائفة أخرى من الحجج والبراهين ، والأدلة الملموسة المحسوسة المشاهدة ؛
 لتستثير عقولهم وتفكيرهم ، ولتؤكد على أن التوحيد يكون لله وحده ، والولاء يكون للإله الخالق القادر ، قال
 تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ ...

الدعاء : هو النداء لدفع الضر ، وجلب النفع ، الذى يوجهه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطاناً يمكنه أن
 يجيبه إلى ما طلبه ، إما بذاته وإما بحمله الرب الخالق على ذلك .

وقد اتجه المشركون بدعائهم إلى هذه الأصنام ، فقالت لهم الآية : هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم
 من عباد الله ، كما أنتم من عباد الله وأطلق القرآن عليها لفظ عِبَادٌ مع أنها جماد ، وفق اعتقادهم فيها ؛ تبيكناً
 لهم وتوبيخاً ، أى : وإذا كانوا مثلكم عباداً خاضعين لله مثلكم ؛ فإنه يمتنع عقلاً ، أن تطلبوا منهم ما قد
 عجزتم عن مثله ، مع أنكم أكمل منهم ؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون ؛ وهذه الأصنام
 ليست كذلك ؛ ولكنها مثلكم فى كونها مملوكة لله مسخرة لأمره .

فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

وهذه جملة مقصود منها التعجيز والسخرية والتهكم بالمشركون .

أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم قدرة الأصنام على النفع والضرر : فادعوهم فليردوا عليكم الجواب ، إن كانوا أحياء .

١٩٥ - أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا .

هذا استفهام إنكارى .

والمعنى : إن هذه الأصنام التى تزعمون أنها تقريكم إلى الله زلفى ، هى أقل منكم مستوى : لفقدوا الحواس التى هى مناط الكسب ، إنها ليس لها أرجل : تسعى بها إلى دفع ضرر أو جلب نفع ، وليس لها أيد تبطش بها ، أى : تأخذ بها ما تريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم .

وليس لهم أذن تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام : بما منحكم الله تعالى من حواس السمع والبصر وغيرها ، فكيف يعبد الفاضل المفضل ، وكيف ينقاد الأقوى للأضعف ؟!

قُلْ أَذْعُرُكُمْ شَرْكَاءَكُمْ ثُمَّ كَيْدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ .

كان الكفار يخوفون النبى ﷺ من بطش هذه الآلهة ، فأمره الله أن يتحداهم .

والمعنى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين :

نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ، ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى ، ولا تتأخروا عن إنزال الضرر بى ، إن كنتم أنتم وهم قادرين على شىء من الضرر ، فإنى أنا معتنز بالله وملتجئ إلى حماه ومن كان كذلك : فلن يخشى شيئاً من المخلوقين جميعاً .

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول ﷺ والحط من شأنهم وشأن آلهتهم . وقريب من ذلك ما فعله الرسل السابقون مع أقوامهم .

قال تعالى : قَالُوا يَا هَرُودَ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ؕ إِنْ قَوْلُ إِلَّا عَتِرَالَهُ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسَرٍّ قَالِ إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكُنَّ أَنْى بَرِئْتُ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُوا بِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَهُ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا وَإِنْ رَّبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (هود ٥٣ - ٥٦) .

١٩٦ - إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ .

أى : إن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل على الكتاب ، المؤيد لوحدايته ، ووجوب عبادته ودعاؤه ، عند الشدائد والملمات .

وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ . وقد جرت سنته تعالى ، أن يتولى وحده رعاية الصالحين من عبادته ، وحفظهم ، وأن ينصرهم ولا يخذلهم .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ﴾ (١٩٧)
﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَدَّاهُمْ يَضُرُّونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٩٨)

المفردات :

تدعون : تعبدون .

التفسير :

١٩٧ - وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصْرُونَ ... الآية .

أى : والأصنام التى تعبدونها أيها المشركون من دون الله ، لا تستطيع نصركم فى الشدائد والنوازل ولا تستطيع دفع الضر عن نفسها إذا هو لحق بها .

فقد كسر إبراهيم عليه السلام الأصنام فجعلهم جزأذا ، فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن ينتقموا منه .

وقد روى عن معاذ بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شايبين من الأنصار قد أسلما :-
لما قدم النبى ﷺ المدينة - أنهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ؛ ليعتبر قومهما بذلك ، ويهجروا عبادة الأصنام .

وكان لعمر بن الجموح - وكان سيد قومه - صنم يعبده . فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ، ويلطفانه بالعدرة فيجىء عمرو فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً ، حتى أخذاه فقرناه مع كلب ميت ، ودلياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء ورأى ذلك ؛ علم أن ما كان عليه من الدين باطل وأنشد :

تالله لو كنت إلهاً مستذن
لم تك والكلب جميعاً فى قرن

ثم أسلم وحسن إسلامه ^(٨٠) وقتل يوم أحد شهيداً . رضى الله عنه !

١٩٨ - وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ .

تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، وهذا التكرار للتأكيد . وهو مطلوب : لاقتلاع جذور الشرك التى تأصلت فى المشركين .

فهذه الأصنام التى يعبدونها من دُون الله لا تعقل شيئاً ، ولا تفرق بين خير وشر ، فإذا دعاها داع إلى ما فيه خير وهداية ، لم تسمع ولم تعقل ، ولم تعرف ما هو هذا الخير الذى تدعى إليه .

والآية كقوله تعالى : إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَكُنْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ . (فاطر : ١٤) .

وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ .

أى : وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية ، وصدق زجاجة أو جوهرية؛ موجهة إلى من يدخل عليها كأنها تنظر إليه ، وهم لا يبصرون بها ؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة ، وإنما هى من خواص الحياة التى استأثر الله بها .

وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاءً ؛ ممن يعبدونهم ولا من غيرهم ، وإذا فقدوا البصر لا يبصرون حاله . فكيف يرجى منهم نصر أو خير ؛ أو دفع شر وضرر ؟

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية للنبي ﷺ ، والحديث فيها عن المشركين ، فهم إذا دعاهم النبي إلى الإيمان لا يسمعون سماع فهم وإدراك وتبصر فى الهدى ، وهم ينظرون للنبي بعيونهم ، ولا يبصرون الهدى ببصيرتهم ؛ لأن قلوبهم قد طمس نورها وغاب فقهها .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِذَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَآتَبَرُوا أَهْرَآءَهُمْ . (محمد : ١٦) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

قد يكون المشار إليه بضمير الجمع هنا هم أولئك المشركون ، أو تلك الأصنام التى يعبدونها ، أو هم هؤلاء وأولئك جميعاً ، فالمشركون وما يشركون بهم سواء ، فى أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٣)

المفردات :

العفو : السهل اليسير من أخلاق الناس .

بالعرف : بالمعروف وهو ما شرعه الله لعباده وعرف حسنه شرعاً وعقلاً من عادات الناس .

التفسير :

١٩٩- خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

المناسبة :

فى آيات سابقة نهى القرآن عن عبادة الأوثان ، وتندد بعبادة الأصنام .

وتجىء هذه الآية وما بعدها إلى آخر سورة الأعراف دعوة إلهية كريمة لرسول الله ﷺ ، ولمن معه من المؤمنين ، إلى منهج سمح سهل لين فى معاملة المشركين .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .

جمعت هذه الآية أصول الفضائل ومكارم الأخلاق .

عن عبد الله بن الزبير قال : ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس ا هـ .

ونجد فى هذه الآية ثلاث فضائل :

١ - الأخذ بالعفو :

وهو اليسير والسهل من أخلاق الناس وأعمالهم ، دون تكليفهم بما يشق عليهم ، ومن غير تجسس ، وإنما يؤخذ بالسمع السهل ، وليس دون العسر .

جاء فى ظلال القرآن : «خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب إليهم الكمال ، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق ، وإعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم ...» .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «يسُروا ولا تعسروا ويشروا ولا تنفروا»^(١٧) .

ويدخل فى العفو صلة القاطعين أرحامهم ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين .

وهذا هو الصنف الأول من الحقوق التى تستوفى من الناس ، وتؤخذ منهم بطريق المساهلة والمسامحة .

ويشمل ترك التشدد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية ، والتخلق مع الناس بالخلق الطيب ، وترك الغلظة والفظاظة .

قال تعالى : **وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ فُطْرًا غَلِيظًا الْقُلُوبَ لَا تَفْقَهُوا مِنْ حَوْلِكَ** . (ال عمران : ١٥٩) .

ومن هذا القسم : الدعوة إلى الدين الحق بالرفق واللفظ .

كما قال تعالى : **وَجَادِلْهُمْ بَالِغِي هِيَ أَحْسَنُ** . (النحل : ١٢٥) .

٢ - الأمر بالعرف :

وهو المعروف والجميل من الأفعال : وهو كل ما أمر به الشرع ، وتعارفه الناس من الخير ، واستحسنه العقلاء ؛ فالمعروف اسم جامع لكل خير .

ولا يذكر المعروف في القرآن إلا في الأحكام المهمة ؛ مثل قوله تعالى في وصف الأمة الإسلامية :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . (ال عمران : ١١٠) .

وفي تبين الحقوق الزوجية قال تعالى : **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** . (البقرة : ٢٢٨) .

وأمر بالمعروف حتى في حالات الفرقة والطلاق . قال تعالى : **فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** . (البقرة : ٢٢٩) .

«ويشمل المعروف الخير الواضح الذي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال ، والذي تلتقى عليه الفطر السليمة ، والنفوس المستقيمة ؛ والنفس حين تعتاد هذا المعروف ؛ يسلس قيادها بعد ذلك ؛ وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف»^(٨٧) .

٣ - الإعراض عن الجاهلين :

ويشمل تجاهلهم ، وعدم الرد عليهم ، أو الدخول معهم في خصومة وجدل ، كما يشمل كظم الغيظ والمقابلة بالصفح والعفو .

قال تعالى في وصف المؤمنين : **وَالْكَاذِبِينَ الْغِيظُ وَالْعَالِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** . (ال عمران : ١٣٤) .

وقال تعالى في فضيلة العفو : **وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَتَذَكَّرُ** . (البقرة : ٢٣٧) .

من كلام المفسرين

١ - جاء في تفسير المنار :

فأنت ترى أن المعروف في هذه الآية معتبر في هذه الأحكام المهمة ، وأن المعروف هو المعهود بين الناس في المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب ، والبيوت والبلاد والأوقات ، فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس ؛ مخالف لنص كتاب الله تعالى ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ، وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة في المعروف ، منها : أنه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والأسرة ما جرى العرف به .

وأنه إذا كان من المعروف عن بعض البيوت أنهم لا يزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهن ، كان هذا كالشرط ؛ فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن ^(٨٨) .

٢ - جاء في هامش زاد المسير لابن الجوزي نشر المكتب الإسلامي ما يأتي :

روى البخاري ٢٢٩/٨ : أن ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصين ابن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحربن قيس ، وكان من نفر الذين يدينهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهللاً كانوا أو شباباً ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخي ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لي عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ؛ فغضب عمر حتى همّ به ، فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : خُلِ الْأَعْفُو وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها وكان وقافاً عند كتاب الله ^(٨٩) .

٣ - من التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي :

وهذه المبادئ الثلاثة هي أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير . قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ، قال عليه الصلاة والسلام : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : إن ريك يقول : هو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ^(٩٠) .

وروى الطبري وغيره عن جابر مثل ذلك :

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها ^(٩١) .

قال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : قال علماؤنا : هذه الآية من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها ^(١٧) .

★ ★ ★

﴿وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

التفسير :

٢٠٠ - وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

جاء في تفسير الطبري وابن كثير ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال :

لما نزلت غُلِبَ الْغَفْرُ قال النبي ﷺ : «يا رب كيف بالغضب ؟» ^(١٨) فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإن يوسوس لك الشيطان أيها المؤمن وسوسة شديدة ، ويدفعك إلى فعل الشر والإفساد دفعا قويا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ أَي : فالتجئ إلى الله ، وتحصن واستعن به ، على دفع وساوس الشيطان ونزغاته ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يسمع دعاء الداعين ، ويستجيب للمؤمنين .

وهو سبحانه عليم بسفاهة الجاهلين ، وحسب المؤمن أن الله يسمع دعاءه ونداءه ويحيط بكل ما حوله : فإن العبد إذا التجأ إلى الله ، دخل في مقام العبودية الخالصة : فيتحصن بها من الشيطان .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .

ويلاحظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : وَأَمَّا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .

إنه ما من مرة ورد الأمر بالاستعاذة من شيطان الجن : إلا وكان في سياقها الإرشاد إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف ، أي : بالتقوى أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجن ، فإنه لا يكفه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدوك ولأبيك من قبلك .

جاء في تفسير المنار :

النزغ كالنسخ والنخس والنخز والنكز والوكز والهمز : ألفاظ متقاربة ، وأصله : إصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالمهماز والرمح .

والمراد من نزغ الشيطان : إثارة داعية الشر والفساد ؛ في غضب أو شهوة حيوانية ، أو معنوية ؛ بحيث تتقحم صاحبها إلى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على السنة رسله بهذا العالم الغيبي المعادى لنا ، الضار بأرواحنا ، أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ، فمتى فطننا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل ، عالجناه بما وصفه الله تعالى بقوله : فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى : الجأ إلى الله بقلبك ولسانك ، فإنه تعالى يستجيب لك ويصرف عنك وسوسة الشيطان .

قال تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ • إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . (النحل : ٩٨ ، ٩٩) .

والخطاب فى هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع ؛ موجه إلى كل مكلف وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول : إنه هنا للنبي ﷺ ، والمراد : أمته .. والمختار عندي الآن : عصمته ﷺ من نزغ الشيطان بدليل ما ورد فى صحيح مسلم : « ما منكم أحد إلا وقد كُلب به قرينه من الجن » قالوا : وإياك يا رسول الله؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلمه^(٩٤) .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾
وَلَا خَوْفٌ لَهُمْ يَمْدُودُهُمْ فِي الْعَنِيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

المفردات :

مسهم ، أى : أصابهم .

طائف : أى : خاطر .

العنى : الضلال والفساد .

التفسير:

٢٠١ - إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ مُلَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ .

إنَّ مَسَّ الشَّيْطَانِ ظِلْمَةٌ ، والاتِّجَاءُ إِلَى اللَّهِ نُورٌ وَهَادِيَةٌ ، والإنسانُ في هذه الحياة فيه لَمَّةٌ لِلْمَلِكِ بِأَمْرِهِ بِالْخَيْرِ وَيُسَاعِدُهُ عَلَيْهِ ، وَلَمَّةٌ لِلشَّيْطَانِ يُوَسَّسُ لَهُ بِالشَّرِّ وَيَحْتَسُّ عَلَيْهِ .

قال تعالى : الشَّيْطَانُ يُعَلِّدُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يُعَلِّدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

(البقرة : ٢٦٨)

وتفهد الآية : أَن الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ، وامتثلوا أوامره : من عادتهم أنهم إذا نالهم خاطر من خواطر الشَّيْطَانِ : وأصابتهم منه وسوسة وتزيين للمعاصي ، تذكروا مقام رَبِّهِمْ ، واستحضروا هيئته وجلاله ، ووعده ووعيده : فإذا هم مبصرون بنور رَبِّهِمْ طريق الهدى والرشاد .

وإنَّ الإنسانَ ليُشعرُ بتنازعِ دواعي الخير والشرِّ في نفسه ، وقوى الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشَّيْطَانِ في نفسه ، لكن الشَّيْطَانُ دائماً يتحين الفرص ، وعروض بعض الأهواء النفسية ، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، حتى إذا وجد الفرصة سانحة اقتصرصها ، ولا يس النفس وقوى فيها داعي الشرِّ . فإذا تنبَّه المؤمن لذلك : استعاذ بالله من الشَّيْطَانِ الرجيم ، ولأنَّ حصن الله واستعان بالدعاء والإيمان .

ومن دعاء النبوة : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» (١٩) .

٢٠٢ - وَإِخْوَانُهُمْ يُمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ .

بعد أن نبه الله تعالى ، وحذر من وسوسة شياطين الجنِّ ، جاءت هذه الآية للتحذير من إخوانهم شياطين الإنس .

أى : وإخوانهم شياطين الإنس ، مثلهم في الإفساد ، يساعدونهم في الإغواء فما يزالون يعضدونهم بتزيين المعاصي لبعض الناس .

ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ .

أى : لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرَّ من وقع في حبالهم على تنفيذ غوايتهم ، وسلوك طريق الضلال .

جاء في ظلال القرآن :

«إخوانهم الذين يمدونهم في الغي هم شياطين الجنِّ ، وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضاً .. إنهم يزيدون

لهم في الضلال ، لا يكلِّون ولا يسَّامون ولا يستتون ، وهم من ثمَّ يحمقون ويجهلون ، ويظلمون فيما هم فيه .

وجاء في تفسير الرازي : وهو مختصر من تفسير المنار - ما يأتي :

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ إِلَىٰ آفَىٰ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .

أى : أن إخوان الشياطين - الذين لا يتقون الله - يتمكن الشياطين من إغوائهم ، فيمدونهم فى غيهم وإفسادهم ؛ لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر ، ولا يستعيذون به من نزغ الشيطان ومسه .

والخلاصة : أن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان يحملهم على المعاصى : تذكروا فأبصروا ، وحذروا فسلموا وإن ذلوا : تابوا وأنابوا .

وإن إخوان الشياطين ، تمكن الشياطين من إغوائهم ؛ فيمدونهم فى غيهم ، ولا يكفون عن ذلك ، ومن ثم تراهم يستمرون فى شروهم وآثامهم لغفد الوازع النفسى ^(٩٦) .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلُوبُنَا إِنَّمَا اتَّبَعْنَا مُبِطِينَ إِلَىٰ مِنْ رَّبِّنَا هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٥﴾﴾

المفردات :

اجتنبتها ، طلبتها .

بصائر ، ما تبصر به عقولكم من الآيات .

فاستمعوا ، فاقصدوا سماعه .

وانصتوا ، واسكتوا متأملين معناه .

تضرعا ، تذلا .

وخيفا ، خوفا .

الغدو ، أول النهار .

الاصال ، جمع أصيل : وهو آخر النهار والمقصود من الغدو والاصال هنا : جميع الأوقات .

التفسير:

٢، ٣- وَإِذَا نَمَّ تَأْتِيهِمْ بَآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا آجِبْتِهَا ... الآية .

كان المشركون لا يكتفون عن طلب الخوارق من رسول الله ﷺ ، والآية تحكى بعض أقوالهم : الدالة على جهلهم بطبيعة الوحي والرسالة ؛ فقد كانوا يتصورون أن فى مقدرة النبى معرفة الغيب ؛ أو الاقتراح على الله أن ينزل بعض المعجزات ، أو بعض الآيات من القرآن .

ومعنى الآية :

وإذا لم تأت أيها الرسول أهل مكة بآية مما اقترحوا حدوثه ، أو بآية من القرآن .

قَالُوا لَوْلَا آجِبْتِهَا .

أى : لولا ألححت على ربك حتى ينزلها...

أو هلا فعلتها أنت من نفسك ؟ ألسنت نبيا ؟

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنَ رَبِّي .

أى : إنما أنا بشر يتلقى الوحي ، ولا يطلب ولا يقترح ؛ فإن الله هو الذى ينزل الوحي وهو العليم الحكيم :
الخبير بما يحتاج إليه العباد .

ونظير ذلك قوله تعالى : وَإِذَا تَطَلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ وَلِقَائِي نَفْسِي إِنْ أَنِيجُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يُّومٍ عَظِيمٍ .
(يونس : ١٥)

ثم نبههم الحق تعالى ، إلى أن هذا القرآن أعظم المعجزات ، وكأنه يقول لهم : ما لكم تطلبون شيئا لا يفيدكم ؟ وإنما لديكم هذا القرآن الذى يشمل على آيات الله الكونية ويرشد إلى الهدى ، وينذر الطريق للساكنين .

هَذَا بَصَائِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : هذا القرآن بصائر وحجج ناهضة من ربكم ؛ يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق ؛ إذ هى أدل عليه من الآيات الكونية التى تطلبونها .

قال تعالى : قَدْ جَاءَكُمْ بِمَآئِرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . (الأنعام : ١٠٤).

وَهَٰذَا يُؤْمِنُونَ .

وهذا القرآن هدى للحيارى إلى طريق الاستقامة : وهو أيضاً رحمة فى الدنيا والآخرة لمن يؤمن به ، فمن آمن به وعمل بأحكامه : فهو من المفلحين .

قال تعالى : وَهَٰذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّفَاتِحُهُ وَأُنْقِضُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . (الأنعام : ١٥٥) .

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي :

هذا القرآن أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبيّنات فهو متصف بخصائص ثلاث :

١ - مبصّرٌ بالحق فى دلالاته على التوحيد والنبوة والمعاد ، وتنظيم الحياة بأحسن التشريعات .

٢ - هاد ومرشد إلى طريق الاستقامة .

٣ - رحمة فى الدنيا والآخرة للمؤمنين به .

وجاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما خلاصته :

إنه هذا القرآن بصائر تهدى ، ورحمة تفيض .. لمن يؤمن به ويفتتم هذا الخير العميم .

إنه هذا القرآن الذى لا تبلغ خارقة مادية من الإعجاز ما يبلغه.. من أى جانب من الجوانب شاء الناس.

هذا جانبه التعبيرى كان وما يزال إلى اليوم معجزاً لا يتناول إليه أحد فى البشر ، تحداهم الله به وما يزال هذا التحدى قائماً ..

ويبقى وراء ذلك السر المعجز فى هذا الكتاب الفريد ... ويبقى ذلك السلطان الذى له على الفطرة ، متى خلّى بينه وبينها لحظة ...

منهج هذا القرآن العجيب فى مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود ، وهو منهج يواجه هذه الكينونة بجمليتها ...

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يتناول قضايا الوجود ، فيكشف منها ما تتلقاه فطرة الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق .

منهج هذا القرآن العجيب فى النظرة الكلية فى هذا الوجود وطبيعته ، وحقيقته ونشأته ، فى النظرة الكلية إلى الإنسان ونفسه وأصله ونشأته ، وطبيعة تركيبه وانفعالاته واستجاباته وأحواله ، تلك الموضوعات التى تطرق جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع والعقائد والأديان ...^(١٩)

٢٠٤ - وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

المعنى : وإذا قرئ القرآن فأنصتوا إليه أسمعكم لفهموا آياته وتتعظوا بمواعظه ، وأنصتوا له عن الكلام ، مع السكون والخشوع ؛ لتعقلوه وتدبروه ، ولتوصلوا بذلك إلى رحمة الله ، بسبب تفهمه ، والاعتنا بمواعظه .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات ، سواء أكانت التلاوة في الصلاة ، أم في خارجها ، وهي عامة في جميع الأوضاع وكل الأحوال ، ويتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة ، إذا جهر الإمام بالقراءة .

القراءة خلف الإمام

تفيد الآية وجوب الإنصات للقرآن ومحاولة الفهم والتدبر ؛ حتى يخشع القلب ويستقر الإيمان ، وهذه الأمور من وسائل رحمة الله وهدايته ، سواء كانت القراءة في الصلاة أم في خارجها . لكن اختلف العلماء على ثلاثة آراء في قراءة المأموم خلف الإمام ؛ هل يسقط عن المأموم فرض القراءة في الصلاة الجهرية والسرية ، أو يجب ، وهل الوجوب خاص في السرية دون الجهرية .

١ - ذهب الحنفية : إلى أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقاً ، جهراً كان يقرأ أم سراً ؛ لظاهر الآية ، ولما رواه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» .

وفى كتب الفقه عند الحنفية «ولا يقرأ المؤتم بل يستمع وينصت وإن قرأ ؛ كره تحريماً» .

٢ - المالكية والحنابلة : رأوا أن المأموم يقرأ خلف الإمام إذا أسر ولا يقرأ إذا جهر .

وهو قول وسط يؤيده الواقع وفقه الحديث ، وأنا شخصياً أطبقه في صلاتي ، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد والأزهري .

٣ - الشافعية : يقرأ المصلي بفتحة الكتاب مطلقاً ، سواء كان إماماً أو مأموماً أو منفرداً ، في صلاة جهرية أو سرية .

لما رواه الجماعة وأحمد وأصحاب الكتب الستة ؛ عن عبادة الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفتحة الكتاب»^(١٨) .

القرآن اليوم

إن المسلمين في أمس الحاجة إلى تلاوة القرآن وتدبره ، وتدريب أبنائهم وبناتهم وزوجاتهم على تلاوة القرآن الكريم ، ساعة في كل يوم ؛ وهذا طريق للهداية والإيمان ؛ كما يجب الإنصات إلى القارئ في المحافل والمآتم ، «وما يفعله جماهير الناس في المحافل التي يقرأ فيها القرآن ؛ كالمآتم وغيرها ، من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة ، فمكروه كراهة شديدة ، ولا سيما لمن كانوا على مقربة من القارئ^(١٩)» .

«ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته ، كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب في مجلس التلاوة ...» .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع من غير تكلف ولا تصنع .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن»^(٢٠) وأذن هنا بمعنى : استمع أو سمع . وروى البخاري عن أبي هريرة مرفوعاً «ليس منّا من لم يتغنّ بالقرآن»^(٢١) ويستحب البكاء عند القراءة والخشوع ، وإلّا فالتباكى والتخضع ، وأن يستعين بالله قبلها ، ويدعو الله في أثنائها ، بحسب معاني الآيات . كسؤال الرحمة عند ذكرها ، والاستعاذة من العذاب عند ذكره . «وكان أنس رضي الله بجمع أهله وولده عند ختم القرآن» فاستحبوا الاقتداء به^(٢٢) .

في أعقاب الآية :

جاء في ظلال القرآن ما خلاصته :

«تختلف الروايات المأثورة في موضع الأمر بالاستماع والإنصات ؛ إذا قرئ القرآن .. بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة حين يجهر الإمام بالقرآن ، فيجب أن يستمع المأموم وينصت .

وبعضهم يرى أن هذا كان توجيهاً للمسلمين ؛ ألا يكونوا كالمشركين ؛ حين قالوا : لَا تَسْمَعُوا لَهُذَا الْقُرْآنِ وَأَلْفُوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (نصفت : ٢٦) .

وبعضهم يرى أنها في الصلاة وفي الخطبة ، كذلك في الجمع والعديد .

وقال القرطبي في التفسير : قال النقاش : أجمع أهل التفسير ، أن هذا الاستماع في الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ، ونحن نرى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ والأقرب أن يكون ذلك عاماً لا يخصه شيء ؛ فالاستماع إلى هذا القرآن ، والإنصات له حيثما قرئ ، هو الأليق بجلال هذا القول ، وبقائله سبحانه^(٢٣) .

٢٠٥ - وَادْكُرْ رَبَّكَ لِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ .

تكمل هذه الآية مع ما سبقها منهج حياة المسلم ، وكيف سما القرآن بنفوس العرب ، فجعل حياتهم وسلوكهم في هدى القرآن وذكر الرحمن .

والآية السابقة أمرت المسلمين بالاستماع والإنصات للقرآن ، فلعل آية واحدة يتأمل فيها المسلم أو يستمع ويُنصت ، تفتح له أبواباً من فضل الله ورحمته .

والآية التي معنا توصي بالآتي :

ينبغي أن يذكر المؤمن ربه سرّاً في نفسه بذكر أسمائه وصفاته ونعمائه وفضله حتى يعترف بشكره ، كما ينبغي أن يذكره ضارعاً متذليلاً ؛ خائفاً راجياً ثوابه وفضله ، وينبغي أن ينوع ذكره لله ؛ فمرة سرّاً وفكراً ، ومرة ذكراً متوسطاً بين الإسرار والجهر ، وفي كل حال ينبغي أن يكون ذكر اللسان مقروناً باستحضار القلب ، وملاحظة المعاني ، فذكر اللسان وحده ضعيف الأثر ، والواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان ، وأن يكون الذاكر راغباً في الثواب راهباً من العقاب .

وفي معنى الآية يقول الله تعالى : وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . (الإسراء : ١١٠) .

وقال سبحانه وتعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الأحزاب : ٤١ : ٤٢) .

وقال سبحانه : وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (الإنسان : ٢٥) .

الغُدُوّ وَالْآصَال

الغُدُوّ : جمع غُدوة : وهي ما بين صلاة الغداة (الفجر) إلى طلوع الشمس .

الْآصَال : جمع أصيل : وهو العشيّ ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، والمقصود : الذكر أوائل النهار وأواخره ، أي : في كل وقت .

إن القرآن بذلك يحرك القلوب للنظر في ملكوت السماوات والأرض ، ولذكر الله عند بروق الفجر وانتشار الضوء وظهور النور في الأفق ، وهذه آية يذكر المؤمن فيها ربه .

قال تعالى : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۚ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ . (ق : ٣٩ ، ٤٠) .

أى : انك ربك فى كل حين خصوصاً عند انبلاج الصبح قبل شروق الشمس وعند الأصيل قبيل الغروب وفى ظلام الليل وروية النجوم ، وبعد الصلاة والسجود .

وبهذا يظل قلب المؤمن متعلقاً بفضل الله فالذكر نعمة وتذكر .

قال تعالى : **وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذَاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** . (الأحزاب : ٣٥) .

فى أعقاب الآية :

روى عن ابن عباس أنه قال : يعنى بالغدو : صلاة الفجر ، والأصال : صلاة العصر . اهـ .

وقد ورد فى الصحيح : تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ،

اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : **إِنَّ قُرْءَانَ الْقَبْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ^(١٠١) . (الإسراء : ٧٨) .

الأفضل فى الذكر التوسط وعدم الجهر ، وكذلك فى الدعاء .

قال تعالى فى الآية : **وَذُكُونُ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ** . يقال : رجل جهير الصوت ؛ إذا كان صوته عالياً .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : كنا فى سفر مع النبى ﷺ ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبى ﷺ : «أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» ^(١٠٢) . وفى الأثر «خير الذكر الخفى» .

٢٠٦ - **إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ** .

إن الملائكة المقربين من الله تعالى ، لا يتكبرون عن عبادة الله ، وينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه ، وله وحده يصلون ويسجدون فلا يشركون معه أحداً .

وهذا تذكير بفعل الملائكة : لنقتدى بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم .

إن العبادة وذكر الله عنصر أساسى فى منهج هذا الدين ، إنه ليس مجرد معرفة نظرية ، إنه منهج حركة وإقعية ، ولذلك يحتاج إلى العبادة والذكر والصبر والسلوك والإيمان ، فإنها زاد الطريق إلى مرضاة الله رب العالمين ، وقد شرع الله لنا السجود عند تلاوة هذه الآية الأخيرة : من سورة الأعراف أو عند سماعها ؛ إرغاماً لمن أبى ذلك من المشركين ، واقتداء بالملائكة المقربين .

ومثلها آيات أخرى فى القرآن مجموعها ١٤ آية ؛ ينبغي للمسلم أن يسجد للتلاوة عند قراءتها أو سماعها .

وقد كان النبي ﷺ يقول في سجود التلاوة : «اللهم لك سجد سوادى ، وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علماً ينفعنى ، وعملاً يرفعنى»^(١٠٧) .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأعراف

- ١ - توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعاً ، وصفاته وشتون ريوبيته .
- ٢ - الوحي والكتب والرسالة والرسول .
- ٣ - الآخرة والبعث والجزاء .
- ٤ - أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .
- ٥ - آيات الله وسننه فى الخلق والكون .
- ٦ - سننه تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

تم تفسير سورة الأعراف ويليهها تفسير سورة الأنفال إن شاء الله

تفسير سورة الأنفال

دروس من سورة الأنفال

أهداف السورة

من الأسباب المباشرة لنزول سورة الأنفال معالجة شئون حدثت بين المسلمين في غزوة بدر، منها: كراهمتهم للخروج إلى بدر حين دعاهم الرسول إلى الخروج وكراهمتهم للقتال حين وصلوا إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا .

ومنها : اختلافهم بعد تمام النصر في قسمة الغنائم .

ومنها : اختلاف الرأي في معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ؟

وفي جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون في خاصة أنفسهم من جهة امتثال الأمر والإخلاص والحيطة والحذر من الأعداء ، وتذكر نعم الله عليهم ، والآداب التي يجب مراعاتها أثناء القتال ، وفيما يتصل به ، من إعداد العدة ، والمحافظة على العهود ، وعلاقة بعضهم ببعض : حتى يكونوا أهلاً لما وعدهم الله من النصر والتأييد ، وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله .

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القتال كانت طابعاً عاماً ، بل كانت رغبة فريق قليل ونفر محدود كان يفضل الغنيمة والحصول على التجارة عن القتال ، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفداء ، وكان القرآن يوحد الهدف ويرشد الجميع إلى أن القتال أفضل : لأن فيه انتصافاً للمؤمنين وإعلاء لكلمة الله، ودحراً للطغيان وتحطيماً لطواغيت الكفر وردعاً للمشركين ، وقد استشار النبي المسلمين قبل بدء المعركة هل يقدم على القتال ؟ أم يعود إلى المدينة ؟

فأبلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا تقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال النبي ﷺ : «أشيروا على أيها الناس»^(١٠٧) فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار وقال: يا رسول الله، آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق نبياً لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، وعندئذ أشرق وجه الرسول بالمسرة ، وقال لأصحابه : «سيروا

وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الحسنين العير أو النفير!« وقد فرت العير فلم يبق إلا النفير فصار المسلمون وكلهم أمل فى النصر .

صور من معركة بدر

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر ، وهى الموقعة الفاصلة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، بل فى تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين ، الموقعة التى قدر المسلمون أن تكون غايتها غنيمة أموال المشركين ، وقدر رب المسلمين أن تكون فيصلاً بين الحق والباطل ، وأن تكون مفرق الطريق فى تاريخ الإسلام ، ومن ثم تكون مفرق الطريق فى خط سير التاريخ الإنسانى العام ، والتى ظهرت فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير ، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر .

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر فتضمنت الكثير من دستور السلم والحرب ، ودستور الغنائم والأسرى، ودستور المعاهدات والمواثيق ، وتضمنت بعد ذلك الكثير من دستور النصر والهزيمة بتضمنها لأسباب النصر والهزيمة ، ولواجبات المجاهدين فى الإعداد والاستعداد ، ثم ترك الأمر بعد ذلك لله وما النصر إلا من عند الله . ثم إنها تضمنت بعد ذلك مشاهد من الموقعة ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى فنائها ويعداها ، مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن القارئ يراها . وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحياناً إلى صور من حياة الرسول - ﷺ - وحياة أصحابه فى مكة ، حين كانوا قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، وصور من حياة المشركين قبل هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بين ظهرائهم ومن بعدها ، وأمثلة من مصائر الكافرين من قبل - كذاب آل فرعون والذين من قبلهم - والدأب : معناه : الصفة والشأن أى : أن شأن الكافرين واحد فى تكذيب الرسل، واستحقاق العقاب ، وبذلك تقرر السورة سنة الله التى لا تتخلف فى نصر المؤمنين وهزيمة المكذبين.

الفنائم

لقد افتتح الله السورة بالحديث عن الأنفال ، وهى الغنائم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم لإعلاء كلمة الله ، وقد ثار بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر فى المعركة فردهم الله إلى كلمته وحكمه فيها ، ردهم إلى تقواه وطاعته ورسوله واستجاش فيهم وجدان التقوى والإيمان ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراداه الله لهم من النصر ، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة وأعدائهم كثرة فى الرجال والعناد ، وكيف ثبتهم الله بعدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ فى الرمال ؛ وبالتعاس يغشاهم ؛ فيسكب عليهم السكينة والطمأنينة ويلقى الرعب فى قلوب أعدائهم وينزل بهم شديد العقاب . قال تعالى :

إِذْ يَفْشِكُكُمْ النَّعَاسُ أَنتَهُ مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِكُمْ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . (الأنفال: ١١) .

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة وتصويراً ملموساً للمواقف الناجحة والحروب الهادفة ، كما رسمت السورة - مع سور أخرى في القرآن الكريم - أسباب النصر في الميدان ، ومن هذه الأسباب ما يأتي:

- ١- إخلاص النية والرغبة في الشهادة وإيثار الآخرة على الدنيا وتحمل تبعات الحرب وآلام القتال.
- ٢- الثبات في اللقاء وتذكر الله في العسر واليسر وعدم الفرار من الميدان وبذل النفس والنفيس في سبيل الله.
- ٣- إعداد العدة وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها مع وحدة الصف وتماسك القوى وترابط المقاتلين .
- ٤- التوكل على الله والالتجاء إليه بعد الأخذ في الأسباب وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام وأخذ الحذر.
- ٥- البعد عن التنازع والاختلاف في حال القتال وما يتعلق به ؛ فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب في إذهاب القوة وتمكين الأعداء .

وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .

أى: لا تختلفوا ؛ فإن الخلاف يؤدي إلى الضعف والهزيمة وضياع القوة والدولة .

- ٦- عدم تصديق الإشاعات والأراجيف ومصاولة اليأس والقنوط والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التي يشنها رغبة منه في تثبيط الهمم والتفويض من النصر .



ومن ثم يأمر الله المؤمنين في سورة الأنفال أن يثبتوا في كل قتال مهما خيل إليهم في أول الأمر من قوة أعدائهم ؛ فإن الله هو الذي يقتل وهو الذي يرمى وهو الذي يدبر ، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إرادة الله . ويسخر القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أصل الفريقين وأقطعهما للرحم فيقول :

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ .

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون بأذانهم ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم ؛ لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون .

ثم تدعو السورة المسلمين إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحبيهم ولو خيل إليهم أن فيه القتل والموت ، وتذكرهم كيف كانوا قليلاً مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فأعزهم الله ونصرهم ، وأنهم إذا اتقوا الله ؛ جعل لهم فرقانا من النصر الكامل ذلك فوق تكفير السيئات وغفران الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضامل دونه المغانم والأموال .

وكما وضعت سورة الأنفال صفحة فى كتاب الإسلام عن الجهاد ، فإنها قابلتها بصفحة أخرى عن السلم لمن يجنح إليه ويختار الهدنة ، ويتضح لنا من السورة أن السلم هو القاعدة فى الإسلام ، أما الحرب فطارئة لدفع الباطل وإقرار الحق ، ومن ثم يدعو الإسلام إلى السلم بدعوته إلى الجهاد ، ويحافظ على العهد ؛ ما وفى به المعاهدون ويؤمنُ المخالفين للإسلام فى العقيدة من كل اعتداء غادر ، ويحصر الحروب فى أضيق نطاق تقضى به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل ، ويعدُّ الناقضين للعهد من عالم الحيوان لا من عالم الإنسان .

يقول سبحانه وتعالى :

وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . (الأنفال: ٦١)

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبير لطيف يلقى ظل الدعة الرقيق فهى حركة جناح يميل إلى السلم ويرخى ريشه فى وداعة واطمئنان ؛ فإذا الجو من حوله طمأنينة وسلام .
وهناك حالة استثنائية واحدة هى حالة جزيرة العرب التى سيجىء فى سورة براءة نبذ عهود المشركين فيها جميعاً وتخليصها من الشرك كافة ؛ لتكون موطناً خالصاً للإسلام .

صفات المؤمنين

تعرضت سورة الأنفال لبيان صفات المؤمنين كما ورد تحديد هذه الصفات فى أول سورة البقرة وأول سورة المؤمنين ، وفى سورة الفرقان ، وفى كثير من السور .

وإذا استوعبنا هذه الآيات وجدناها تدور حول تحديد المؤمن - الذى يريده الله - بمن يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون فى ذلك كله مثلاً صادقاً وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته .

وقد وصف الله المؤمنين فى سورة الأنفال بخمس صفات هى: وجل القلوب عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته ، والتوكل على الله وحده ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله . ثم بين أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقاً وأن لهم عند الله درجات عالية فى الجنة .

فالمؤمن حقاً يراقب مولاه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عقابه ، ويخشع عند تذكر آياته ، وهو فى خشوعه وخضوعه وعبادته مخلص القلب ، ثابت اليقين .

ومن صفة المؤمن زيادة إيمانه ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن وتدبر آياته ، ومعرفة أحكامه وأسراره ، كما أن إقامة للصلاة وأداءه للزكاة ، وعمله بمقتضى هذه الإيمان سلوكاً وتطبيقاً ، مما يزين الإيمان فى القلب ويزيده ثقة و يقيناً .

فالصلاة فى حقيقتها مناجاة ومناادة وخشوع وخضوع وقراءة و دعاء . ومن ثمرتها : طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وتهذيب الغرائز وتقويم السلوك وتربية الضمير . والزكاة فيها تكافل المجتمع وترابط الأغنياء والفقراء .

وفى سورة الأنفال حث على الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل - كما فصل الفقهاء - زكاة الأموال وزكاة الزروع والثمار وزكاة الماشية وزكاة الركاك وكل ما يستخرج من باطن الأرض ، وزكاة التجارة ، ولا نكاد نجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق فى سبيل الله ، كما أننا لا نكاد نجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل أحدهما .

فقد جعل الله إقامة الصلاة مثلاً لبذل النفس فى سبيله وجعل الإنفاق مثلاً لبذل المال فى سبيله . وبذلك يتسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب ، كما يتسم بأنه دافع عملى إلى السلوك النافع والعمل الصالح الذى يؤدى إلى إصلاح المجتمع وتماسك الأمة وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس .

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادى المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ، فى النداء الأول : تأمرهم بالثبات فى الميدان والشجاعة فى القتال ، وتهنأهم عن الفرار من المعركة وتتوعد الفأر من ميدان القتال بعذاب السعير وغضب الله العلى القدير ، والنداء الثانى : يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله ، وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله وذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ . (الأنفال: ٢٠)

والنداء الثالث : الاستجابة لله وللرسول وتغليب أمرهما على كل ما سواه من أوامر وفى الحديث الشريف : «ثلاث من كن فيه : وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» (١٠٨) .

النداء الرابع: دعوة إلى ترك الخيانة والبعد عن إفشاء أسرار الأمة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . (الأنفال: ٢٧)

النداء الخامس: دعوة إلى تقوى الله فى أحكامه وسننه وبيان أن التقوى شجرة مثمرة ، وأعظم ثمارها النور الذى يبصر صاحبه بالحق والعدل وطريق الصلاح والهدى .

النداء السادس: يأمر بذكر الله وتلاوة كتابه وينهى عن الفرقة والتنازع والاختلاف ويحث على الصبر والتمسك بالوحدة والجماعة ، حيث يقول سبحانه وتعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَةٌ فَأَنْتُمْ بِهَا مُتَبَاغِتُونَ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (الأنفال: ٤٥)

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ① إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④ ﴾

المفردات :

الأنفال : هي الغنائم واحدا ، نفل بتحريك الفاء ، وقد تطلق على ما يعطى زيادة على السهم من المغنم .
فاتقوا الله ، فاجعلوا لأنفسكم وقاية من عقوبة الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح .

واصلحوا ذات بينكم ، وأصلحوا الأحوال التي بينكم بالمساواة والمساعدة ، وقال الزجاج : معنى ذات بينكم : حقيقة وصلكم ، والبين : الوصل أى : فاتقوا الله وكونوا مجتمعين على ما أمر الله ورسوله .

وجلت قلوبهم ، خافت وفزع .

زادتهم إيماناً ، تصديقاً ويقيناً .

يتوكلون ، يثقون بالله لا غيره .

التفسير :

١- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ... الآية .

سبب النزول :

روى الإمام أحمد عن عباد بن عباد قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في أنهارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لى لا يصيب العدو منه غيرة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم :

نحن حريتناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أهدقنا برسول الله ﷺ مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ؛ فنزلت : **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ** ... فقسمها رسول الله ﷺ - بين المسلمين ^(١٠٧) .

وهناك روايات أخرى تفيد أن نزاعاً ما ، قد ظهر بين المسلمين حول توزيع الغنائم فأُنزل الله هذه الآيات لبيان حكمه فيها .

والأنفال: جمع نفل وهو الزيادة ، وإذا قيل للتلطوع: نافلة: لأنه زيادة على الأصل ، وقيل لولد الولد: نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال تعالى: **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً** . (الأنبياء: ٧٢) .

وإطلاق الأنفال على الغنائم باعتبار أنها زيادة على ما شرع الجهاد له ، وهو إغلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خص الله بها الأمة .

روى البخارى في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أُعطيْتُ خمساً لم يعطهن نبي قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لنبى قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» ^(١٠٨) .

وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ - أى : الغنائم - إنما هو عن حكمها وعن المستحق لها .

فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ومن المستحق لها ؟ قل لهم: الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ورسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو سبحانه العليم بمصالح عباده ، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن حرف «عن» زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى: يسألك بعض أصحابك يا محمد إعطاءهم الأنفال ، ويطلبون منك توزيع الغنائم عليهم .

وقد رجح جمهور العلماء أن السؤال هنا للاستفهام عن حكم الأنفال وعن طريقة توزيعها ، ونذكر الألوسى فى تفسيره طائفة من الأمور ترجح رأى جمهور العلماء .

وقد ورد فى أسباب النزول روايات تفيد أن الشباب سارعوا إلى قتال الكفار ، وأن الشيوخ وكبار السن وقفوا تحت الرايات ردةً وعوناً أشبه بالخط الثانى للمقاتلين .

وأن الشباب كانوا يرون أنهم أولى بالغنائم : لأنهم باشروا القتال ، والشيوخ يرون أن لهم حقاً يماثل حق الشباب ؛ لأن الشباب لو انهزموا لانحازوا للشيوخ وصار الشيوخ حماية وعوناً للشباب ، وكان النبي ﷺ قد قال : «من قتل قتيلاً فله سَلْبُهُ» أى : أن الشاب المقاتل يستحق أن يغنم غنيمة من الكافر الذى قتله ، فظن الشباب أن هذا يجعلهم يستولون على الغنائم وحدهم .

ثم بين الله تعالى حكمة توزيع الغنائم على جميع جيش المسلمين سواءً الشباب الذين باشروا القتال، أو الشيوخ الذين كانوا عوناً وردءاً ، أو المجموعة التى تجصنت لحماية الرسول ﷺ والدفاع عنه ، فكل فئة كان لها ضلع فى نجاح المعركة .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول فى قوله : قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .

قلتُ : معناه : أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، ويمثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضاً إلى رأى أحد ، والمراد : أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله ، أن يواسى المقاتلة المشروط لهم بالتنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى ...

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

أى : إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله ، فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى ، أو فاتقوه تعالى فى كل ما تأتون وتذرون من النيات والعقائد والأعمال .

وَأَطِيعُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ . أى : وأصلحوا ما بينكم من الأحوال والصلات التى تربط بعضكم ببعض وإصلاحها بالوافق والتعاون والمساواة وترك الأثرة : لأن إصلاح ذات البين واجب ، يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها ، وتحفظ به وحدتها .

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . أى : الزموا طاعة الله وطاعة رسوله طاعة مطلقة وتسليماً مطلقاً فذلك هو شأن المؤمنين ؛ إذ لا إيمان بغير طاعة وتسليم .

وفى التعبير بقوله : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال .

عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عيادة بن الصامت عن الأنفال فقال: «فيها معشر أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمة عن بواء - يقول على السواء»^(١١١).

وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسوا غنائكم بالعدل.

ولا يفهم من ذلك أن الاختلاف على الغنائم كان أمراً عاماً شمل جميع المسلمين، بل كان بين فئات منهم، وكانت هذه أول غزوة ولم يكن قد نزل حكم بشأن الغنائم، فأنزل الله كتابة الكريم ليبين لهم أن الغنائم لله سبحانه يحكم فيها بما يشاء، ورسوله مبلغ عن الله، وعلى المسلمين أن يراقبوا ربه وأن يعودوا إلى طريق المودة والمحبة والصلح: فلن كمال الإيمان يدور على امتثال هذه الأوامر.

وقد عاد المسلمون فعلاً إلى الإيمان والتسليم، ووزع رسول الله ﷺ الغنائم بين جميع من شهد بدرًا من الشباب والشيوخ، ومن جمع الغنائم ومن انشغل بأمر آخر، فالكل كان يؤدي واجبه بطريقة ما، ولا غنى لأحد فيهم عن الآخر.

وقد أتم الله التشريع في شأن الغنائم، بالآية ٤١ من سورة الأنفال، وفيها بين الله تعالى أن الغنائم تقسم إلى خمسة أخماس، خمس لليتامى والمساكين وابن السبيل، والأربعة أخماس الباقية من الغنيمة تقسم على الغانمين الذين حضروا المعركة.

قال تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلرُّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ تَفْتَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قال الشافعي: إن الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة في الآية.

وقال أبو حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: لليتامى والمساكين وابن السبيل، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه.

٧- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

هذه الآية تحريض على التزام طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنيمة.

ومعنى الآية:

إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر الله وذكرت صفاته أمامهم: خافت قلوبهم وفزع، استعظما لجلاله، وتهيبا من سلطانه، وحذرا من عقابه ورغبة في ثوابه: وذلك لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم، وشدة مراقبتهم لله عز وجل ووقوفهم عند أمره ونهيه.

وَأِذَا نَلَيْتَ عَلَيْهِمْ عَآيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا. أى: ومن صفات المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات القرآن أو الأدلة على وجود الله؛ قوى إيمانهم وتصديقهم وتيقنهم بربهم، ونشاطهم فى أعمالهم وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

فهم يعتمدون على الله، ويفوضون أمورهم إليه ويتوجهون إليه بالدعاء مع الأخذ بالأسباب وعدم تركها، ومراعاة سنن الله فى الكون التى لا تتبدل، ولا تتغير، ومن تركها؛ كان جاهلاً مؤاخذاً.

ويعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ - جمهور العلماء : على أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين، وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، واختاره إمام الحرمين، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإدعان، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان.

وإذا تأملنا الأمر؛ وجدنا أن رأى جمهور العلماء فى هذه المسألة أولى بالقبول؛ لأنه من الواضح أن إيمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أرسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة؛ كان الإيمان أشد رسوخاً فى النفس، وأعمق أثراً فى القلب.

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا. أى: يقيناً وطمأنينة نفس، فإنّ تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين، وقيل: إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به، فإنه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عددًا وأما نفس الإيمان فهو بحاله، وقيل: باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها، والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة، وهى التى عبر عنها بالزيادة، للفرق الواضح بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات، ويقين آحاد الأمة، وعليه مبنى ما قال على رضى الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازدادت يقينا، وكذا بين ما قام عليه دليل واحد، وما قامت عليه أدلة كثيرة^(١١٧).

٢ - قال الإمام النووى: إن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقيناً وإخلاصاً منه فى بعضها، فكذا التصديق والمعرفة يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها.

٣ - قال تعالى: وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيُبَيِّنَ لِقَابِي (البقرة: ٢٦٠).

فهذه الآية دلائل على أن مقام الطمأنينة فى الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق وشبيهه بهذه الآية فى الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان قوله تعالى :

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ إِلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَئِيْذًا ذَوْرًا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ . (الفتح : ٤) .

وقوله تعالى :

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (الأحزاب: ٢٢)

٣ - الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . فى هذه الآية استكمال للصورة الكريمة للمؤمن .

فلا يكتمل إيمان المؤمن حتى يقيم الصلاة على وجهها ويؤديها فى خشوعها وخضوعها ، ولا يكمل إيمانه حتى يكون مع إقامة الصلاة - من المنفقين مما رزقهم الله فى وجوه البر والإحسان .

وقد تحدث العلماء عن الصلاة وخشوعها وخضوعها ووجوب حضور القلب فيها حتى يكون أدائها كاملاً كما تحدثوا عن فرضية الزكاة ، وعن فضل الصدقة والإنفاق والعطاء .

وقد قرنت الصلاة بالزكاة فى كثير من آيات القرآن ، فالصلاة وسيلة لطهارة القلب وتعميق الإيمان ، والإنفاق فى سبيل الله وسيلة للعطف على الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاجين وتسخير المال فيما خلقه الله من أجله . قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِقِينَ فِيهِ .

والصفات السابقة كلها متكاملة تؤدى إلى شخصية سوية ونفس مطمئنة وقلب عامر بالإيمان .

٤ - أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

أى : أولئك الذين ذكرت صفاتهم الحميدة ، هم المؤمنون حيث جمعوا بين أفاضل الأعمال القلبية ، وأعمال الجوارح .

وفى التعبير بقوله تعالى : أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

إشارة إلى علو مكانة أولئك المؤمنين المتصفين بتلك الصفات ، وانحصار الإيمان فيهم حتى كأن من سواهم ليسوا بمؤمنين : لأن الإيمان بلا ثمرة ، هو والعدم سواء وقوله : حَقًّا . منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيماناً حَقًّا .

لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ .

أى : لهم درجات عالية ومنازل عالية من الكرامة والزلفى والمنازل العالية فى الجنة .

وقوله : عِنْدَ رَبِّهِمْ . إشارة إلى أن هذا الوعد متيقن الوقوع : لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده . سبحانه!

وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . أَيْ : مغفرة لذنوبهم وعطاء كريم لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده ، وهو ما أعد لهم فى الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر والكريم من كل شيء أحسنه .

تعليقات

١ - هذه الآيات الكريمة فى فاتحة سورة الأنفال تربية ريبانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى ما يسعدهم ، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق وصلاح العمل وأن المؤمن متى جمع بين هذه الصفات ارتفع إلى أعلى الدرجات وأحسن بحلاوة الإيمان فى قلبه...

روى الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال له الرسول ﷺ: انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟ فقال الحارث: عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظلمات نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربه بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاوون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال ﷺ: يا حارث ، عرفت فالزم «ثلاثاً»^(١) .

٢ - من سنة القرآن الكريم فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها وذلك لأنه لا يذكرها ؛ لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام ولذلك لم تبدأ سورة الأنفال بالحديث عن الغزوة ، وإنما بدأت بالحديث عن الأنفال مع أنها أمر لاحق للغزو والجهاد ؛ لأن القرآن أراد أن يتجه مباشرة إلى تربية المؤمنين ، وعلاج الخلاف الذى حدث بسبب الغنائم ، وتوجيه القلوب إلى الإخلاص لله والتجرد من حب المال والتطلع إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة ، والضعف أمام إغراء المال من أكبر أسباب الفشل ، لقد كانت تربية القرآن تربية سليمة فى تطهير الروح ، وتوجيه النفوس إلى التكامل والتوازن والسلوك القويم .

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۖ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ ﴾ ١ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۖ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ۝

المفردات :

كما أخرجك ربك من بيتك ، أى : أخرجك من بيتك بالمدينة إلى بدر .

بالحق ، أى : بالحكمة والصواب .

يجادلونك ، يراجعونك .

فى الحق ، المراد بالحق هنا : القتال وسيأتى بيانه

إحدى الطائفتين ، العير أو النفير .

غير ذات الشوكة ، الشوكة : الشدة والقوة ، ويقال : السلاح ، وغير ذات الشوكة : العير التى ليس فيها قتال .

يحق الحق ، يظهره ويعلنه .

بكلماته ، بأمره لكم بالقتال أو بوعده لكم بإظهار الدين وإعزازه .

ليحق الحق ، ليظهر الإسلام .

ويبطل الباطل ، المراد بإبطال الباطل : أن لا يجعل له شوكة .

التفسير :

٥- كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ .

تحدث هذه الآية مع آيات تالية عن خروج المسلمين إلى غزوة بدر الكبرى .

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن تجارة قريش فى طريق عودتها من الشام ، وستمر قريباً من المدينة فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : هذه عير قريش اخرجوا إليها على الله أن ننفلكموها ، فخب بعض الناس للخروج مع الرسول ﷺ ، وتناقل بعضهم لعلمهم أن الرسول ﷺ لن يلقى حرباً ، فالتجارة يحيط بها حراس قليلون ، وخرج عليه الصلاة والسلام فى ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً معهم فرسان فقط ، وسبعون بعيراً يتعاقبون عليها ، وبلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة ، النجاء

النجاح على كل صعب وذلول ، غيركم أموالكم إن أصابها محمد ؛ لم تغلحوا بعدها أبداً ، فخرج أبو جهل يجمع أهل مكة ، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة فقال: واللوات والعري لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزر ونشرب الخمر ونقيم القينات والمعازف ببدر ، فيتسامع جميع العرب بخروجنا ، وإن محمداً لم يصب العير ، وإننا قد أخفناه فمضى بهم إلى بدر ، وهى قرية فى الطريق بين مكة والمدينة على مقربة من المدينة ، فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد ؛ إن الله وعدمك إحدى الطائفتين، إما العير ، وإما النغير – أى مشركى مكة – فاستشار النبى ﷺ أصحابه فقال: ما تقولون ؟ إن القوم قد خرجوا من مكة ، فالعير أحب إليكم أم النغير .. ؟ فقالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ .

ثم رد عليهم فقال : «إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا نغير قريش قد أقبل» ، فقالوا : يا رسول الله ، عليك بالعير ودع العدو ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، وتكلم عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد ابن عمرو رضى الله عنه فقال: يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ؛ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له ﷺ خيراً ودعا له . ثم قال : «أشيروا على أيها الناس»^(١١) – وهو يريد الأنصار – فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل ، قال: آمنا بك ، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .

فامض يا رسول الله لما أردت فتحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإننا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فرح رسول الله ﷺ ، وسره قول سعد ابن معاذ ثم قال : «سيروا ، وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» ثم دارت رحى المعركة وانتصر المؤمنون ، وهزم المشركون .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ .

هنا تشبيه بين حالين ، حال المسلمين فى مواجهة العدو ، بعد أن دارت رءوسهم واضطربت قلوبهم ، وحالهم فى الغنائم بعد أن اختلفت آراؤهم فيها ، واضطربت مشاعرهم حيالها . وانظر كيف أمسكت كلمات الله بكل خالصة كانت تختلج فى نفوس القوم هنا وهناك فى مواجهة العدو ، ثم فى مواجهة الغنائم .

قال المبرد فى معنى الآية :

الأنفال ثابتة لله ورسوله وإن كرهوا ، كما أخرجك ريك من بيتك بالحق وإن كرهوا .

وقال غيره: امض لحكم ريك فى الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت لأمر ريك فى الخروج من البيت لطلب العير وإن كرهوا .

وذكر د. محمد سيد طنطاوى : إن معنى الآية:

حال بعض أهل بدر فى كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسوية ، مثل حال بعضهم فى كراهة الخروج للقتال مع ما فى هذه القسمة والقتال من خير ، وبركة .

والملاحظ أن الله تعالى أضاف خروج النبى من بيته إليه سبحانه أى : أن الخروج إلى بدر كان بأمر الله وتوجيهه ، حتى يخرج المسلمون خفافاً للقاء العير ، ثم تفلت العير ، ويقف المسلمون وجهاً لوجه أمام النفير ، وهو حرب المشركين ، وقد كانوا يكرهون ذلك فى أول الأمر ؛ لأنهم خرجوا للعير ، وأراد الله أن تفلت العير ، حتى تتم المواجهة ويتم الاستعداد للحرب ، ويتم إخلاص النية ، والامتثال لأمر الله .

وتلاحظ أن الخروج بالحق أى : أخرجك الله إخراجاً متلبساً بالحق ، الذى لا يحوم حوله باطل ، والبيت الذى خرج منه النبى ﷺ هو بيته فى المدينة ، أو هى المدينة كلها ، فقد تحولت من يشرب إلى مدينة الرسول ﷺ ، بعد أن نظمها وخططها وأتم إعمارها ، وأشاع فيها الأمن والنظام وصارت المدينة دار الإسلام فقال ﷺ : «إن الإسلام ليأرزن إلى المدينة كما تأرزن الحية إلى جحرها»^(١١٤) .

قال الشوكاني :

يذكر الله فى هذه الآية وما بعدها : أن الفضل فى النصر فى غزوة بدر إنما هو لله تعالى ، ولذا فالغنائم له ورسوله ، ومن ذلك أنه أخرجهم من المدينة لحرب المشركين ، وأكثرهم كارهون ، وصرهم إلى قتال جيش الكفار وكان أكثرهم لا يريدون ، وأمدهم بالملائكة إلى غير ذلك مما توضحه السورة .

وقال الآلوسى: وقوله : وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ . أى: للخروج ، إما لعدم الاستعداد ، أو الميل للغميمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة ، والجملة فى موضع الحال ، وهى حال مقدرة ؛ لأن الكراهة وقعت بعد الخروج ..

٦- يُبَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ .

المعنى: يراجعونك فى الحق - وهو لقاء النفير - أى: جيش العدو - ويؤثرون عليه لقاء العير للاستيلاء على تجارتهم بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ . من بعدما أخبرتهم أن النصر سيكون حليفهم ، فقد وعدهم الله إحدى الحسنين:

العرير أو النغير، وقد فرت العير فلم يبق إلا النغير، لكن نفوس بعض الصحابة كانت قد تعلق بالاستيلاء على العير وفضلت ذلك على القتال، فلما فرض القتال، وصار هو الخيار الوحيد، كرهوا القتال كراهة من يساق إلى الموت سوقاً لا مهرب منه، وهو ناظر إليه بعينه ومشاهد لأسبابه.

وفى قوله تعالى: **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**.

تصوير معجز، لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال بسبب قلة عددهم وعددهم، وفيه بيان لفضل الله على هذه الفئة المؤمنة، كيف من الله عليها بالإيمان؟ ودرىها على الشجاعة والتضحية والفداء، فانتصرت عليها نفسها، وتخلصت من الخوف وكراهية القتال، ثم صارت بعد ذلك تحارب أضعافها من الكفار، وتنصر عليهم بفضل الله تعالى: **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**.

ويقول الله سبحانه وتعالى امتناً على عباده المؤمنين.

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (الأنفال: ٢٦).

٧- **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**.

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله بالمؤمنين مع ما هم فيه من الجزع وقلة الحزم.

جاء في تفسير أبي السعود:

أَنَّهَا لَكُمْ.

بدل اشتغال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى: يعيدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيها كيف شئتم. ١ هـ.

والطائفتان: هما العير أو النغير، أى: طائفة أبى سفيان ومعها التجارة ولم يكن فيها إلا أربعون فارساً ورأسهم أبو سفيان، وطائفة النغير والحرب ورئيسها أبو جهل، وهم ألف مقاتل والمراد بذات الشوك: النغير، والشوك فى الأصل: واحدة الشوك وهو النبات الذى له حذم استعيرت للشدة والحدة، ومنه قولهم: رجل شائك السلاح أى: شديد قوى.

والمعنى: وانكروه - أيها المؤمنون - وقت أن وعدكم الله على لسان رسوله ﷺ بأن إحدى الطائفتين لكم وهى العير أو النغير، وأنتم مع ذلك تودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى العير: ويُريد

آلله أن يُحقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . يريد الله أن يستدرجكم إلى القتال وفيه العزة والكرامة لكم ، وفى هذا القتال يظهر الله الحق ، ويعطيه بآياته المنزلة على رسوله تبشر بالنصر ، ويإنزال الملائكة ، ويقضائه الذى لا يتخلف بمعونة المؤمنين وهزيمة المشركين ، وقطع دابرهم .

والدابر: التابع من الخلف ، يقال دبر فلان القوم يدبرهم دبورًا ، إذا كان آخرهم فى المجرى ، والمراد: أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم عن آخرهم .

قال أبو السعود :

والمعنى : أنتم تريدون سفاسف الأمور والله يريد معاليها ، وما يرجع إلى علو الكلمة وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين .

وقال الرمخشى فى تفسير الكشاف:

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ...

يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عزو جل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز فى الدارين ، وشتان ما بين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلنتكم ، وأعزكم وأذلهم ...

٨ - يُحَقِّقُ الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَأَوَّلُ كَرَّةِ الْمُجْرِمُونَ .

قال الشوكاني :

ليثبت الإسلام فى الأرض ويعلى بنيانه ، ويمحق الشرك حتى يبطل وينتهى . وَأَوَّلُ كَرَّةِ الْمُجْرِمُونَ . هم المشركون من قريش أو جميع طوائف الكفار ؛ لأن كرايمتهم لا وزن لها ولا تعويل عليها .

وليس فى الآية تكرار ، فالق الأول هو القتال لطائفة النفيير مع ضمان النصر ، والحق الثانى هو الإسلام فالآية السابقة تمهيد ووسيلة لهذه الآية .

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا لِّتُطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

المفردات :

تستغيثون : تطلبون الغوث والنصر على عدوكم ، والغوث : التخليص من الشدة .

فاستجاب : فأجاب دعاءكم .

مردفين : متبعين بعضهم بعضاً ، مأخوذ من أرفه إذا أركبه وراءه .

ولتطمئنن : ولتسكن .

صزيز : لا يغالب في حكمه .

حكيم : يفعل ما تقتضيه الحكمة .

التفسير :

٩- إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .

أى : اذكروا وقت استغاثتكم لربكم ، حين رأيتم أنه لا بد من قتال النفر .

قال أبو السعود فى تفسيره :

وذلك أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال ، جعلوا يدعون الله تعالى قائلين : أرى رب ، انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا ! وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة ويضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : «اللهم ، انجز لى ما وعدتنى ، اللهم ، إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض» . فمازال كذلك حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر رضى الله عنه فآلقاه على منكبيه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبي الله ، كفاك منافذتك ريك فإنه سينجز لك ما وعدك^(١١٧) .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .

انذكروا أيها المؤمنون - وقت أن كنتم - وأنتم على أبواب بدر تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ وتطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم ، الذى جاء بخيله ورجله ، فأجاب الله دعاءكم واستغاثتكم ، وأخبر نبيكم - ﷺ - بأنى ممدكم بألف من الملائكة ، مردفين أى : متتابعين ، بعضهم إثر بعض ، أو إن الله تعالى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

وقد وردت استغاثة الرسول ﷺ بالله يوم بدر في صحيح البخاري ومسلم وفي كتب السنن والسير .

جاء في تفسير المنار عن ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ قال : «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تجادل وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني» .

كما روى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثروهم ، وإلى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه ، فقال رسول الله ﷺ وهو في صلاته : «اللهم لا تدع مني ، اللهم لا تخذلني ، اللهم لا تترني - أي : لا تقطعني عن أهلي وأنصاري ، أو لا تنقصني شيئاً من عطائك - اللهم أنشدك ما وعدتني» (١١٧) .

سؤال وجواب

إن قيل : إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من رسول الله ﷺ ، فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين ؟ فالجواب : أن المؤمنين كانوا يؤمنون على دعائه ﷺ ، ويتأسون به في الدعاء فنسبت الاستغاثة إلى الجميع .

وإن قيل : إن الله تعالى ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة وذكر في سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما ؟

أجيب بالآتي :

١ - جاء في تفسير أبي السعود :

وقرئ بآلاف ليوافق ما في سورة آل عمران ، ووجه التوفيق بينه وبين المشهور : أن المراد بالآلف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم ، أو من قاتل منهم ، واختلف في مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها (١١٨) .

٢ - جاء في سورة آل عمران في الآيات ١٢٣-١٢٥ .

أن الله أمد المؤمنين بثلاثة آلاف ثم صار العدد بخمسة آلاف من الملائكة .

قال تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّبَعُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ • إِذْ يَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رُبُّكُمْ بِلَاغَةٍ الْآلَفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ • بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

ولا منافاة بين ما ورد في سورة الأنفال وما ورد في سورة آل عمران ، فقد كان العدد أولاً بألف مردفين ، أى : يتبعهم ويردّهم ملائكة آخرون .

وقد بينت سورة آل عمران أن العدد كان بثلاثة آلاف ، ثم رفع إلى خمسة آلاف .

وذهب بعض المفسرين إلى أن العدد المذكور في سورة آل عمران كان متعلقاً بغزوة أحد ، فلا إشكال بين ما ورد في السورتين .

قال الحافظ ابن كثير في التفسير : «واختلف المفسرون في هذا الموعد : هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :

أحدهما : أن قوله تعالى : **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ** . متعلق بقوله : **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ** . (آل عمران : ١٢٢)

وهذا قول الحسن والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم .

فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآيات - التي في سورة آل عمران ، وبين قوله في سورة الأنفال : **إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبُّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّى يُبَدِّلُكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ** .

فالجواب أن التنصيص على الألف هنا ، لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله تعالى : **مُرْدِفِينَ** . بمعنى : يردّهم غيرهم ويتبعهم ألاف آخر مثلهم ، قال الربيع بن أنس ، أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف .

والقول الثاني : يرى أصحابه أن هذا الوعد وهو قوله تعالى : **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ** . متعلق بقوله - قبل ذلك : **وَإِذْ عَدُوَّتُ مِنْ أَهْلِكَ يَبْعَثُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** . (آل عمران : ١٢١)

وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم .

لكن قالوا : لم يتم الإمداد بالخمسة الآلاف ؛ لأن المسلمين يومئذ فروا ، وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف ، لقوله : **بَلَى إِنْ نَصَبُوا وَتَوَلَّوْا فَلَمْ يَصْبِرُوا** بل فروا فلم يمددوا بملك واحد .

١٠- وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ... الآية .

أى : وما جعل الله إمدادكم بالملائكة عياناً لأمر من الأمور إلا ليبشركم بأنكم منتصرون ولتطمئن به قلوبكم وتسكن به نفوسكم ، ويحول خوفكم واضطرابكم ؛ فتثبتوا ويتم لكم النصر .

وفى قصر الإمداد بالملائكة على البشرى والطمأنينة ، إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال ، وأن الغرض منه هو تقوية قلوب المؤمنين المقاتلين ، وتكثير عددهم أمام المشركين كما هو رأى بعض السلف^(١١٩) .

وَمَا أَتَصَرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ .

أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده ؛ لأنه سبحانه هو الخالق لكل شىء والقادر على كل شىء ، وأن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت ، لا تؤدى إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .

إِنَّ اللَّهَ غَرِيزٌ حَكِيمٌ . أى : غالب لا يقهره شىء ، ولا ينازعه منازع حكيم يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

والجملة تعليل لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم النبأ^(١٢٠) .

★ ★ ★

﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ إِذِ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا يَوْمَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣﴾ ذَلِكَ كَمْ فَعْدُوهُ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ ۝١٤﴾

المفردات :

يغشيكُم النُّعَاسَ ، أى : يغطيكُم الله ويشملكُم بالنُّعَاسَ ، والنُّعَاسَ : فتور فى الحواس وأعصاب الرأس ، ويعقبه النوم ، يضعف الإدراك ولا يزيله .

أَمْنَةً مِنْهُ ، أَيْ : أَمْنَا مِنْ اللَّهِ وَطَمَأْنِينَهُ .

رَجَزَ الشَّيْطَانُ ، أَيْ : وَسَّوَسَتْهُ وَتَخَوَّفَهُ لَهُمْ .

وَيَرْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ ، الرِّبْطُ : الشَّدُّ ، وَيَقَالُ لِكُلِّ مَنْ صَبَرَ عَلَى أَمْرٍ رِيبٌ عَلَى قَلْبِهِ .

الرَّصَبُ : الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ .

كُلٌّ بِسِتَانٍ ، أَيْ : كُلُّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ مِنَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، وَقِيلَ : كُلُّ أَصْبَعٍ مِنَ الْأَصَابِعِ ، وَتَطْلُقُ

الْبَيْتَانِ أَيْضًا : عَلَى كُلِّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْإِنْسَانِ كَالْيَدِ وَالرِّجْلِ .

شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، الْمَشَاقَّةُ : الْمَعَادَاةُ وَالْمُخَالَفَةُ .

التفسير :

١١- إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ... الآية .

يَمُنُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ بِطَائِفَةٍ مِنَ النِّعَمِ ، مِنْهَا مَا سَبَقَ إِعْدَادَهُمْ بِالْمَلَائِكَةِ لِلْبَشَرِ بِالْغَنَصِ ، وَهَذَا ذِكْرٌ مِنْهُ أُخْرَى ، وَهِيَ إِرْسَالُ الْغَاسِ عَلَيْهِمُ لَيْلَةَ الْمَعْرَكَةِ ؛ حَتَّى تَهْدَأَ نَفُوسُهُمْ ، وَتَسْتَرِيحَ أَبْدَانُهُمْ ، وَقَدْ كَانُوا فِي حَالَةِ قَلَّةٍ مِنَ الْعُدَّةِ وَالْعَدَدِ أَمَامَ عَدُوِّ كَثِيرٍ الْعُدَّةِ وَالْعَدَدِ ، وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْحَالَةِ أَنْ تَذْهَبَ الْغَاسُ وَأَنْ تَتَرَكَّ الْإِنْسَانُ يُضْرَبُ أَخْمَاسًا فِي أَسْدَاسٍ فِيحَارِبُ لَيْلَةَ فِي غَيْرِ حَرْبٍ ، ثُمَّ يَصْبِحُ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ضَعِيفٌ الْقُوَّةَ وَاهِنٌ الْبَدَنَ ، فَكَانَ مِنَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِرْسَالُ الْغَاسِ وَالنَّوْمُ عَلَيْهِمْ لَيْلَةَ الْمَعْرَكَةِ .

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : مَا كَانَ فِينَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسَدِ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَاهُ وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ ، إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْلِي تَحْتَ شَجَرَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ .

وَفِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ : وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الْعَرِيشِ مَعَ الصَّدِيقِ وَهُمَا يَدْعُوَانِ ، أَخَذَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَنَةً مِنَ النَّوْمِ ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ مَبْتَسِمًا ، فَقَالَ : أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ ، هَذَا جَبْرِيلُ عَلَى ثَنَائِيهِ النَّعْمَ ! ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الْعَرِيشِ وَهُوَ يَقُولُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .

وَمِنَ الْمُفْسِّرِينَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ أَمَتَنَ عَلَيْهِمْ بِأَنْ غَشِيَهُمُ الْغَاسُ بِاللَّيْلِ ، أَيْ : فِي لَيْلَةِ الْمَعْرَكَةِ ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحُوا وَتَهْدَأَ النُّفُوسُ ، وَيَذْهَبَ عَنْهُمْ الْقَلَقُ وَالْاضْطِرَابُ ، وَاسْتَبْعَدَ أَنْ يَنْزِلَ الْغَاسُ عَلَيْهِمْ أَثْنَاءَ الْمَعْرَكَةِ ؛ لِأَنَّهُ مَعْطَلٌ لَهُمْ .

ذَهَبَ إِلَى ذَلِكَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ فَقَالَ :

١- إِنْ الْخَائِفُ إِذَا خَافَ مِنْ عَدُوِّهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْخُذُهُ النَّوْمُ ، وَإِذَا نَامَ الْخَائِفُونَ ؛ أَمِنُوا ، فَصَارَ حَصُولُ النَّوْمِ لَهُمْ فِي وَقْتِ الْخَوْفِ الشَّدِيدِ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ .

٢- إنهم ناموا نومًا غير مستغرق بل كان نعاسًا يذهب الإعياء والكلال ، ولو قصدهم العدو فى هذه الحالة لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

٣- إنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة ، فلهذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجز .

وقال الإمام محمد عبده: لقد قضت سنة الله فى الخلق ، بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولا كبيرًا ومصائبًا عظيمًا : فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه ، فيصبح خاملًا ضعيفًا ، وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن جيشًا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدًا ، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ... ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس ، غشيهم فناموا واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها ...

والأستاذ عبد الكريم الخطيب : يرى أن النعاس الذى غشى المسلمين إنما كان ليلة الحرب ، لا فى ميدان القتال ، كما يرى بعض المفسرين .. لأن وقوع النوم والمعرفة دائرة ، من عوامل الخذلان لا من عدة النصر .

كما جاء فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

إن النعاس كان فى الليلة السابقة على القتال ، وإذا تأملنا فى الموضوع وجدنا أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون النعاس قد أصاب المقاتلين ليلة المعركة ، وأن يكون النعاس قد أصاب النبى ﷺ صبيحة المعركة ، كما أصاب بعض المسلمين على أنه استراحة يسيرة ، أو إغفاءة محدودة ، تهدأ فيها الأعصاب ، وتسكن النفس ، ويستجمع الجسم ثباته وقوته .

خصوصًا أنه قد ورد فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ ، قد أخذته سنة من النوم صبيحة المعركة ، إنما نقيس الأمور بمقاييس نظام الدنيا ، أما إذا كان الأمر بمقاييس فضل الله ومنته ، فإنه يمكن أن يصيب النعاس الجيش فى صبيحة المعركة خلال ربع ساعة ، أو أقل أو أكثر ، يوقتها العليم الخبير ، فى وقت لا يضر باستعدادات الجيش ، ولا بعمله أثناء القتال .

ويذكر الأستاذ سيد قطب : أن الإنسان أحيانًا يكون مرهقًا متعبًا ثم يغفى إغفاءة يسيرة ، يقوم بعدها فى غاية القوة والنشاط .

وقد مر بنا ما رواه ابن كثير من أنه جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق وهما يدعوان، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم، ثم استيقظ ميتسماً، فقال: أبشراً يا أبا بكر، هذا جبريل على ثنأياه النقع! ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله تعالى:

سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُ اللَّذَرُ. (القر: ٤٥).

إن المعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة: تصديقاً له في دعواه.

والمعونة: توفيق ونجاح يصيب بعض الصالحين في أعمالهم، وقد كان النعاس معجزة للرسول ﷺ، ومعونة للمؤمنين، سواء أكان ذلك في الليل أم في النهار قبيل المعركة، خاصة بعد أن امتن الله به عليهم وقال: إِذْ يُفَشِّحُكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَهُ مِنْهُ.

وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ...

تحكى الآية جوانب متعددة من فضل الله على المؤمنين في معركة بدر.

فقد أرسل الله عليهم النوم ليلة المعركة، وأصبح بعضهم جنباً نتيجة الاحتلام في النوم، وجاء الشيطان يوسوس لهم ويثبط همتهم، فالماء شحيح قليل، صحيح أنه يمكن الاستغناء عن الاغتسال والوضوء بالتميم، إلا أن المؤمن كما يقول الإمام فخر الدين الرازي: «يكاد يستقدر نفسه إذا كان جنباً، ويفتّم إذا لم يتمكن من الاغتسال، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب...».

وكان جيش المسلمين قد نزل بعدوة الوادئ القريبة من المدينة بعيداً عن الماء في أرض رملية وسبخة، أما المشركون فقد نزلوا على ماء بدر بالعدوة القصوى في أرض جلد.

فأصبح المسلمون لا يجدون الماء ليشربوا ويغتسلوا، ويتوضّأوا، فكان هذا الموقف مزرعة لأحاديث الشيطان النفسية، ووسوسته للمؤمنين، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء، فأدرك الله المؤمنين بلطفه، وأنزل عليهم من السماء مطراً سال به الوادئ، فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادئ الدنيا، واغتسلوا وتوضّأوا وملأوا الأسقية، وتلبّدت الأرض السبخة وثبتت عليها الأقدام، على حين كان المطر كارثة على المشركين، فقد تحولت أرضهم الجلدة إلى أوحال لا يقدرّون معها على الحركة في القتال.

لقد كان الماء طهارة حسية من الحدث الأصغر والأكبر، وطهارة نفسية رفعت روحهم المعنوية، وجعلتهم في حالة من الصفاء والرغبة في التضحية والموت في سبيل الله، وبهذا ذهب عنهم رجس الشيطان، أي: وسوسته وأصل الرجس: الاضطراب، يقال: ناقة رجاء: إذا تقارب خطوها واضطرب؛ لضعفها ومن في قلبه رجس الشيطان ووسوسته، ضعيف العزيمة: لأن همته خائرة مترددة بين الإقدام والإحجام.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١) .

وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ .

أى : ويقوى قلوبكم بالثقة فى نصر الله ، وليوطئها على الصبر والطمأنينة .

وأصل الربط : الشد ، ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش ، أى : ثابت متمكن ..

وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ . أى : أن الله أنزل عليهم المطر ليلة المعركة لتطهيرهم حسيًا ومعنويًا ، ولتقويتهم وطمأننتهم ، ولتثبيت الأقدام به حتى لا تسوخ فى الرمال .

ومن جهة أخرى فإن طهارتهم الحسية والمعنوية ، وذهاب رجز الشيطان ووسوسته ، وقوة اليقين فى القلب ورباطة الجأش ، من شأنها أن تثبت قدم المقاتل فى موطن القتال .

أى : أنه كان هناك تثبيت للأقدام حسيًا بماء المطر حين يختلط بذرات التراب ، فلما أمسك المطر وسطعت الشمس : جفت الأرض ، وصار على وجهها طبقة صلبة ، أشبه بالطين اللازب ، فثبتت عليه أقدامهم ، وكان هناك يقين القلب وطمأنينة النفس ، التى تؤدى بدورها إلى ثبات القدم ، بحيث يصبح المقاتل وثاقًا بنفسه ؛ لأنه يؤدى دورًا فى مرضاة الله وتوفيقه .

من كتب التفسير:

١ - جاء فى تفسير ابن جرير الطبرى : عن ابن عباس قال :

«نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر ، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة - أى : كثيرة مجتمعة - فأصاب المسلمين ضعف شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ...» (١٢٣)

٢ - جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

«عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادى دهسًا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد بهم الأرض ، ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه ..» (١٢٤)

١٢- إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَنْصُرُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ .. الآية.

فى هذه الآية تذكير الله تعالى للمؤمنين بنعمة أخرى ، هى نعمة الإمداد بالملائكة ، تنزل إلى المعركة فى صفوف المسلمين فتكثر سواد المسلمين ، ويصبح الجيش فى مظهره قوة عظيمة ، تلقى الثبات والثقة واليقين بالنصر فى قلوب المؤمنين ، وفى نفس الوقت فإن الملاك يقوم بإلقاء الخير والإلهام والثبات واليقين فى قلب المؤمن .

وقد تكفل الله تعالى بإلقاء الرعب والخوف فى نفوس المشركين ، ووجه الحق سبحانه المسلمين بأن يضربوا المشركين ، فوق الرقاب أى : فى أعلى الرقبة ، مكان الذبح ، أو على الأطراف والأصابع وذلك تتعطل أيديهم عن القتال .

قال الآلوسى فى تفسير الآية :

والمراد بالتثبيت : الحمل على الثبات فى موطن الحرب ، والجد فى مقاساة شدائد القتال ، كان الملاك يأتى المؤمن فى صورة رجل يعرفه ويقول له : أبشر ! فالله سينصر المؤمنين ، فقد أخرج البيهقي فى دلائل النبوة : أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه ، فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشيء ، والله معكم ، كروا عليهم .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ، ويتأكد جدهم ، وللملك قوة إلقاء الخير فى القلب ، ويقال له : إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له : وسوسة ^(١٢١) .

سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ .

أى : سألتى بالخوف والجزع والهلع فى نفوس المشركين ، فلا يستطيعون الثبات فى القتال ، والرعب : انزعاج النفس ، وخوفها من توقع مكروه .

فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . الخطاب فى هذه الفقرة للمؤمنين وقيل : للملائكة .

قال الزمخشري : والمراد بما فوق الأعناق : أعالي الأعناق التى هى المذابح ؛ لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جزءاً وتطهيراً للرؤوس ، والمراد بالبنان : الأصابع أو مطلق الأطراف ، كالأيدى والأرجل فكل ذلك يطلق عليه بنان ، حقيقة أو مجازاً .

فكأنه تعالى يقول للمؤمنين : سألتى فى قلوب الذين كفروا الفزع والخوف منكم ؛ لتتمكنوا من إصابتهم ، فاضربوهم فوق الأعناق ، أى : فى رؤوسهم ورقابهم ، واضربوا منهم كل بنان ، أى : اضربوا أصابعهم وأطراف أبدانهم كالأيدى والأرجل .

فى أعقاب الآية :

هناك روايات فى كتب التفسير تفيد أن الملائكة باشرت القتال فى معركة بدر ، وقتلت أعداداً من المشركين ، نجد هذا فى معالم التنزيل للبغوى ، كما نجده فى تفسير الخازن والكشاف ، والفخر الرازى .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى : روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه - وكان ممن شهد بدرًا - أنه قال : اتبعت رجلاً من المشركين يوم بدر لأضره ، فوقعت رأسه بين يدى ، قبل أن يصل إليه سيفى .

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال :

لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك ، فتقع رأسه عن جسده ، قبل أن يصل إليه السيف.

ونذهب عدد من المفسرين إلى استبعاد أن تكون الملائكة قد باشرت القتال بنفسها ، وإنما كان عمل الملائكة قاصراً على تثبيت المؤمنين ، واستدلو على ذلك بأن الملك الواحد كفى بإهلاك قريش ، لو كان يقاتل المشركين مع المؤمنين ، فحيث كان الميثون من الملائكة ألفاً أو أكثر ، فلا بد أن تثبتهم معنى لا قتالى.

أما الروايات الواردة التى تفيد أن الملائكة قد باشرت القتال ، فإن التماثل فيها يجدها بلا أسانيد صحيحة ، فلا يمكن التعويل عليها^(١١٢).

وقد أنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة ثم قال : «إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك أهل الأرض ، كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ، فإذا حضر هو يوم بدر فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟

بل أى حاجة إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضاً فإن الكفار كانوا مشهودين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .. » إلخ^(١١٣).

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم ، وجدنا أنها تفيد أن الله تعالى أمد المؤمنين بالملائكة ، ونحن نؤمن بهذا ، ونكتفى بأن الملائكة ساعدت المؤمنين نوعاً من المساعدة سواء أكان ذلك بالقتال أم بتثبيت القلوب وإلقاء الحماس والشجاعة ورفع الروح المعنوية ، وهى أمور لا تقل أهمية عن القتال المباشر فقد ثبت فى الحروب الحديثة أن للروح المعنوية أبلغ الأثر فى إحراز النصر .

١٣ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

أى: ذلك القتل والهزيمة للمشركين بسبب أنهم خاصموا الله ورسوله وعادوهما ، فكان كل منهما فى شق غير الشق الذى فى الآخر .

«كما أن اشتقاق المعادة والمخاصمة من العدو والخصم أى : الجانب لأن كلاً من المتعادين والمتخاصمين فى عدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه» .

وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ عَذَابًا

أى: ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو يعاقبه ، فلا أجدر بالعقاب من المشاقين المشركين ، الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت ، على توحيده تعالى وعبادته .

١٤ - ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ .

أى: ذلكم الذى نزل بكم أيها الكافرون ، من الأسر والقتل ، هو العقاب المناسب لكم بسبب طغيانكم وشرككم ، فذوقوا آلامه وتجربوا غصصه فى الدنيا .

أما فى الآخرة فلكم عذاب النار ، الذى هو أشد وأبقى من عذاب الدنيا ، إن أصبرتم على كفركم .

فآية توضح للكافرين : أن ما أصابهم عاجلاً كان بسبب كفرهم وعنادهم ، ثم هى تحذره من الاستمرار على الكفر ؛ فإن هناك عذاباً أجلاً ينتظر الكافرين .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَافًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُمْ لَأَمْتَحِرُوا الْقُبُورَ أَوْ يُخْرِجُوا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٦ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيَسْلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٧ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ١٨ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ١٩﴾

المضردات :

الزحاف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبي أو على ركبتيه أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف صغار الجراد والعسك المتوجه إلى العدو ؛ لأنه لكثرة وتكاثره يرى كأنه يزحف ، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته بطيئة وإن كانت فى الواقع سريعة .

الأدب ———— ار ، واحدها : دبر وهو الخلف ومقابلة القبل ومن ثم يكنى بهما عن السواتين ، وتولية الدبر والأدبار يراد بهما : الهزيمة ؛ لأن المنهزم يجعل خصمه متوجهاً إلى دبره ومؤخره .

المتحرف للقتال وغيره ، هو المنحرف على جانب إلى آخر ، من الحرف وهو الطرف .

الطائفة ، الطائفة من الناس .

الملجأ الذى يأوى إليه الإنسان .

الموه ———— ، المضعف من أوهنه إذا أضعفه .

التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء عاقبة من يقصد به .

الاستفتاح ، طلب الفتح والفصل فى الأمر كالنصر فى الحرب .

تهديد

ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآيات حكماً عاماً لما سيقع من الوقائع والحروب فى مستأنف الزمان وجاء به فى أثناء قصة بدر ؛ عناية بشأنه وحثاً للمؤمنين على المحافظة عليه .

التفسير

١٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا ...

أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفاً ، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر .

فَلَا تَوَلُّوهُمْ ءَأَذْبَارَ .

أى : فلا تولوهم ظهوركم واقفين منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عدد وعدة لكن اثبتوا لهم ؛ فإن الله معكم عليهم .

١٦ - وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ ءِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالِهِ أَوْ مُتَحَيِّزًا ءِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أى : ومن يولمهم حين تلقونهم ظهره إلا متحرفا لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو ، كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كره عليه فقتله ؛ أو متنقلاً إلى فئة من المؤمنين فى جهة غير التى كان فيها ليشد أزهم وينصرهم على عدو تكاثرت جمعه عليهم ، فصاروا أحوج إليه ممن كان معهم - من فعل ذلك ؛ فقد رجع متلبساً بغضب عظيم من الله ومأواه الذى يلجأ إليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير .

ذلك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه الهلاك ، فعوقب بجعل عاقبة دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه .

وفى الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصي ، وجاء التصريح بذلك فى صحيح الأحاديث : فقد روى الشيخان عن أبى هريرة مرفوعاً : «اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات) قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات .»

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين .

قال الشافعى : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ، ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة . وروى عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر ، ومن فر من اثنين فقد فر .

١٧- فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ...

أى : يا أيها الذين آمنوا ، لا توالوا الكفار ظهوركم أبداً ؛ فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم نصر الله تعالى ، انظروا إلى ما أوتيتهم من نصر عليهم على قلة عددكم وكنزهم واستعدادهم ، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم ويطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوه ذلك القتل الذى أفنى كثيراً منهم بقوتكم وعدتكم ولكن قتلهم بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملاستها لأرواحكم ، وبإلقائه الرعب فى قلوبهم وهذا بعينه هو ما جاء فى قوله تعالى : قَاتِلُوهُمْ يُعْلَنَ لَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْلِبُهُمْ وَيُنْصِرُهُمْ عَلَىٰ هِمِّهِمْ وَيُفْضِرُ هُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . (التوبة: ١٤).

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوغهم إلى خطاب الرسول ﷺ ، وهو قائدهم الأعظم فقال :

وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى . أى : وما رميت أيها الرسول أحداً من المشركين فى الوقت الذى رميت فيه القبض من التراب بإلقائها فى الهواء فأصابت وجوههم ، ما فعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث ، ولكن الله رمى وجوههم كلهم بذلك التراب الذى ألقىته فى الهواء على قلته أو بعد تكثيره بمحض قدرته .

فقد روى : «أن النبى ﷺ رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال : شأته الوجوه ثلاثاً ، فأعقبت رميته هزيمتهم» (١٣٩) .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما قال فى استغاثته يوم بدر : «يا رب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدا» ، قال له جبريل : خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم ، ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنغزيه وفمه من تراب تلك القبضة : فولوا مدبرين ^(١٢٨) .

وَيُثَلِّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءَ حَسَنًا . أى : فعل الله ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله ، وليللى المؤمنين منه بلاء حسناً بالنصر والغنيمة وحسن السمعة .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى : إنه تعالى سميع لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام ، عليم بنياتهم الباعثة عليه والعواقب التى تترتب عليه .

١٨ - ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ .

أى : ذلكم البلاء الحسن هو الذى سمعتم - إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين ، ومكرهم بالنبى ﷺ والمؤمنين ، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح ، قبل أن يقرى أمرها ويشدد .

ويعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم ، انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهري أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم ، أينما كان أقطع للرحم ، وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك منه استفتاحاً ، وقال السدى : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفتنتين وخير القبيلتين ، فأجابهم الله بقوله :

١٩ - إِنْ تَسْتَفِئُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ...

أى : إن تستنصروا لأعلى الجندين ، وأهداهما ، فقد جاءكم الفتح ونصر أعلامهما وأهداهما ، وهذا من قبيل التهكم بهم : لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة .

وَأِنْ تَقْتُلُوا فَهِيَ غَيْرُ كُفْمٍ . أى : وإن تنتهوا عن عداوة النبى ﷺ وقتاله ، فالانتهاء خير لكم : لأنكم قد ذقت من الحرب ما ذقت من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان .

وَأِنْ تَعُودُوا نَعُدْ . أى : وإن تعودوا إلى حربيه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجىء الفتح الأعظم الذى به تدول الدولة للمؤمنين عليكم ، وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم .

وَأَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُنَا وَلَوْ كَثُرَتْ . أَيْ : وَلَنْ يَدْفَعْ عَنْكُمْ رَهْطُكُمْ شَيْئًا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَشَدِيدِ نَقْمَتِهِ وَلَوْ كَثُرَتْ عَدَدًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْكَثْرَةُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النَّصْرِ أَمَامَ الْقَلَّةِ إِلَّا إِذَا تَسَاوَتْ مَعَهَا فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ كَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَالْفَقَّةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ النَّصْرُ وَالْقُوَّةُ .

وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ . بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ ، فَلَا تَضُرُّهُمْ قُلُوبُهُمْ وَلَا كَثْرَةُ عَدَدِهِمْ ، فَهُوَ يُؤْتِي النَّصْرَ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

★ ★ ★

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تهديد :

بعد أن هدد الله المشركين بقوله : وَإِنْ تَسْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تُعُودُوا نَعُدْ وَأَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُنَا . قَفَى عَلَى ذَلِكَ بِتَأْدِيبِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَمْرِ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ إِذَا دُعِيَ لِلْقِتَالِ فِي سَبِيلِ حَيَاةِ الدِّينِ وَصَدَّ مَنْ يَمْنَعُ نَشْرَهُ وَيَقِفُ فِي طَرِيقِ تَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ .

التفسير :

٢٠- يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ .

أَيْ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي الْإِجَابَةِ إِلَى الْجِهَادِ وَتَرْكِ الْمَالِ إِذَا أَمَرَ اللَّهُ بِتَرْكِهِ ، وَلَا تَعْرِضُوا عَنْ طَاعَتِهِ ، وَعَنْ قَبُولِ قَوْلِهِ ، وَعَنْ مَعُونَتِهِ فِي الْجِهَادِ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ كَلَامَهُ الدَّاعِيَ إِلَى جُوبِ طَاعَتِهِ وَمَوَالَاتِهِ وَنَصْرِهِ ، وَلَا تَكُنْ أَنْ الْمَرَادُ بِالسَّمَاعِ هُنَا : سَمَاعُ الْفَهْمِ وَالتَّصَدِيقِ بِمَا يَسْمَعُ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مِنْ دَابَّهِمْ أَنْ يَقُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة: ٢٨٥) .

٢١- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

وهؤلاء القائلون فريقان : فريق الكفار المعاندين ، وفريق المنافقين الذين قال في بعض منهم : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنَاذَا (محمد: ١٦) .

٢٢- إِنْ شَرُّ الدُّرَابِ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ أَتَّكُمُ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ.

الدواب : واحدها : دابة ، وهى كل ما دب على الأرض كما قال : **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ** . **وَقُلْ أَنْ يَسْتَعْمَلَ** الإنسان بل الغالب أن يستعمل فى الحشرات ودواب الركوب ، فإذا استعمل فيه كان ذلك فى موضع الاحتقار ، أى : أن شر ما دب على الأرض فى حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة ، فهم يفقدون لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته ، والبكم الذين لا يقولون الحق ، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا النطق ، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ هم لو عقلوا لطوبهوا واهتدوا إلى ما فيه المنفعة والفائدة لهم ، كما قال : **إِنْ فِى ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** . (ق: ٣٧) .

والخلاصة : أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجاً ناقصى هذه المشاعر ، أو طرأت عليهم آفات أنهبت هذه القوى بل هم شر منهم ؛ لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف .

٢٣- **وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ...**

أى : ولو علم الله فيهم استعداداً للإيمان والهداية بنور النبوة ، ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدرة وفساد التربية ؛ لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم ، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم .

وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

أى : ولو أسمعهم – وقد علم أنه لا خير فيهم – لتولوا عن القبول والإنعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به ؛ كراهة وعناداً للداعى إليه ولأهله ، فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقدّاً تاماً لا فقداً عارضاً موقوتاً .

والخلاصة : أن للسمع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الهداء بكتابه :

١ - أن يعتمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعنوان بادرئ ذى بدء خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبيهم .

٢ - أن يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويتدبر كالمنافقين الذين قال الله فيهم :

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِيعًا .

٣ - أن يستمع لأجل التماس شبهة اللطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفي كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه .

٤ - أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه ، وهذا هو المنصف ، وكم من السامعين أو القارئین آمن بعد أن نظر وتأمل ، فقد نظر طبيب فرنسي في ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التي فيه كالطهارة والاعتدال في المأكول والمشروب وعدم الإسراف فيهما ونحو ذلك من المسائل التي فيها محافظة على الصحة ، توافق أحدث النظريات التي استقر عليها رأى الأطباء في هذا العصر ، فرغب في هذا كله وأسلم ، ورأى ريان بارجة إنكليزية للقرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبی ﷺ كان من كبار الملاحين في البحار ، وبعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط ، وهو مع ذلك أمى لم يقرأ كتاباً ولا تلقى عن أحد درساً قال : الآن علمت أنه كان يوحى من الله ؛ لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه ، أو تلقاها عن غيره من المختبرين ، ثم أسلم وتعلم العربية .

وكثير من المسلمين يستمعون القرآن ويتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم في حاجة إلى فهمه وتدبر معناه ، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم ، أو يقصدون بسماعة التبرك فقط ، ومنهم من يحضر الحفاظ عنده في ليالي رمضان ، ويجلسهم في حجرة البوابين أو غيرهم من الخدم تشبهاً بالأكابر والوجهاء .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُفْسِدُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصِيرَةٍ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات :

استجيبوا لله وللرسول : أجبوه بكمال الطاعة .

إذا دعاكم لما يحييكم : إذا حاكم على الطاعة ، والجهد الذي فيه حياتكم وسعادتكم .

يحول بين المرء وقلبه : يميته فتفوته فرصة تمكن القلب من الإخلاص والطاعة .

وأنه إليه تحشرون ، وأنه إليه تجمعون يوم القيامة ، فيجازيكم على أعمالكم .

واتقوا فتنة ، واتقوا ذنباً يعم ضرره ، كإقرار المنكرين بأظهيركم ، أو تفرق وحدة الجماعة ، أو ترويج الإشاعات الضارة .

لا تصيبن الذين ظلموا

منكم خاصة ، لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم .

وادكروا إذ أنتم قليل

مستضعفون في الأرض ، وادكروا وقت أن كنتم قلة أذلاء ، مستضعفين في مكة ، تستذلكم قريش .

تخافون أن يتخطفكم الناس ، تخشون لهرابكم ولذلك أن يتخطفكم من استضعفكم من قريش فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم .

فَأَوَّاكُمْ ، فجعل لكم المدينة مأوى تهاجرون إليه وتحصنون فيه .
وأهداكم بمنصره ، وقواكم على الكفار بتأييد الأنصار ، وإمداد الملائكة .

ورزقكم من الطيبات

لعلكم تشكرون ، وأعطاكم طيبات الرزق من الغنائم لتشكروا الله على فضله .
لا تخونوا الله والرسول ، لا تخونهما بتعطيل الفرائض والسنن ، أو بأن تظهروا غير ما تخفون .
وتخونوا أماناتكم ، وتخونوا ما أوثمتكم عليه من مال أو عرض أو سر ، أو عهد أو نصيحة .
وأنتم تعلمون ، وأنتم تقصدون وتعلمون أنكم تخونون .

فتنة ، حنة وبلاء .

فرقاننا ، هداية في قلوبكم ، تفرقون بها بين الحق والباطل .

التفسير :

٢٤- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ... الآية .

أيها المؤمنون ، عليكم أن تجيبوا الله وتطيعوا رسوله ، وتمثلوا أمره ، إذا حثكم على عمل طاعة ، أو خروج للجهاد ، أو اتباع لأحكام الدين ؛ لأن ذلك يحيى قلوبكم بالإيمان ، ويوجهكم إلى الخير ، ويكسبكم العزة والقوة ، فتصير إليكم الغلبة والفوز ، وتحيون حياة طيبة ، واعلموا أن الله أقرب إلى المرء من قلبه الذي هو مناط الحياة والموت ، ومنبع الأمن والخوف ، وأنه وحده هو الذي يصرفه من حال إلى حال ، وهو أملك له من صاحبه ، فيستطيع أن يكون حائلاً بين المرء وقلبه ، ويمكن فيه - على حسب مشيئته - الإيمان والطاعة ، أو الكفر والمعصية ، ويبدله من الخوف أمناً ، أو من الأمن خوفاً ، وهو الذي يبعثكم يوم القيامة ، وتجمعون إليه يوم الحساب ليجازي كل نفس بما كسبت .

٢٥- وَأَقْرَأُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً...

وقد أمركم الله أن تتقوا الفتنة ، وتجنبوا العمل الذي يعم ضرره ، ويتشتر خطرته والفتنة من أشد الذنوب ، وأخطر الجرائم ؛ لأن ضررها لا يقتصر على من أثاروها ، ولا تصيب فريق الظالمين والأتمين خاصة ، ولكنه يعم البريء والمذنب والمصلح والمفسد ولهذا أعقب الله التحذير منها بتهديد أصحابها تهديداً مؤكداً بأشد العقاب ، فقال:

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ والمقصود بالفتنة في الآية: جميع الأعمال التي تصيب المجتمع بضرر

أو خسارة أو توقع فيه شقاً أو كارثة ، أو تفرج منكراً ، أو تروج إشاعات ضارة أو أخبار كاذبة، توهن من قوته ، وتضعف من عزمه أو ثقته ، وتبعث فيه الرعب والفرع ، وينبغي أن يضرب على أيدي من يثيرون الفتنة ، وأن يؤخذوا بأشد العقوبات ، قال رسول الله ﷺ في تصوير الفتنة تعم ، والضرر يصيب غير من يفعله ووجوب المبادرة بالقضاء عليهما مثل القائم على حدود الله والواقع فيها (أى: مثل المطيع والعاصي) كمثل قوم استهموا (أى: اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً^(١٢٩) .

٢٦- وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَعْصَمُونَ لِيَ الْأَرْضِ ... الآية .

واذكروا أيها المؤمنون حالكم في مكة قبل الهجرة وقت أن كنتم عدداً قليلاً أدلة مستضعفين بالنسبة إلى قريش وقوتهم ويطشهم ، تحيثون في استكانة ورعب وفزع ، لا أمن لكم ولا اطمئنان ، وتخافون أن يتخطفكم الناس من قريش ويأخذوكم ليسوموكم العذاب والهوان ، فمن الله عليكم وأواكم في المدينة ، وجعلها لكم مأوى تنزلون فيه وتتحصنون من أعدائكم ، وشد أزركم بالأنصار ، وأيدكم بالملائكة في بدر، وقواكم بنصركم عليهم ، وجعل لكم من الغنائم طبقات من الرزق؛ لتشكروهم على عظيم فضله ، وعديم فيضه.

٢٧- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ ... الآية .

والله ينهاكم أيها المؤمنون عن أن تخونوا الله ورسوله فتعطلوا أحكام دينه أو تقولوا بألسنتكم ما ليس في قلوبكم ، أو تظهروا غير ما تخفون ، وينهاكم عن أن تنقضوا العهود ، وتخونوا الأمانات التي أؤتمنت عليها من أموال الناس وأعراضهم وأسرارهم ، وأنتم تعلمون أنكم مؤتمنون عليها، فتعتمدون إلى جود الودائع أو انتهاك الأعراض أو إفساء الأسرار ، وإخفاء المستندات؛ إن ذلك إثم كبير ، ولقد كان أول هم للنبي ﷺ ليلة أن هاجر أن يترك علياً وراءه ليرد الأمانات ويعيد الودائع ، وكانت عنده لأعدائه من المشركين ، وأبى أن يهاجر من مكة ، وفي ذمته لأحد من أعدائه وديعة .

أبو لبابة يصلب نفسه على سارية ؛ ليكفر عن خيائه :

حاصر النبي ﷺ بني قريظة ، إحدى وعشرين ليلة ، فسألوه صلحاً كصلح بنى النضير ، وهو أن يتركهم يسبّرون إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من الشام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ الأنصاري سيد الأوس ، وكان حليفهم ، وكان حكمه : أن تقتل المقاتلة وتقسّم الأموال وتسبى الذرية والنساء ، فأبوا ذلك ، ثم طلبوا أن يرسل إليهم: أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ؛ لأن ماله وعياله كانا في أيديهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا:

ما ترى؟ هل نزل على حكم سعد؟ فقال: لا تفعلوا فإنه الذبح، وأشار إلى حلقة فنزلت: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَٱلرَّسُولَ . قال أبو لبابة: فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله (١٣٠) .

حزن أبو لبابة، وقام فشد نفسه على سارية المسجد، وقال: والله لا أدوق طعماً ولا شرباً حتى أموت، أو يتوب الله على، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: قد تيب عليك فحل نفسك، فقال: لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءة فحله بيده، فقال: إن من تمام توبتى أن أهجّر دار قومي التى أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالى، فقال عليه السلام: يجزئك الثلث أن تتصدق به .

٢٨- وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمَوَٰلُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ... الآية .

ولما كان الإنسان شديد الحب والحرص على أمواله وأولاده، وكان تعلقه بهم يتسبب عنه وقوعه فى الإثم والعقاب، أو يدعوه إلى الاتصاف ببعض الرذائل: كالبلخ والخيانة والجبن، فقد جعلهم الله فتنة فى قوله: وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا ءَمَوَٰلُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ، أى: محنة يفتن الله بها عبادَه، ليلبؤهم بذلك، ولينبههم على أن حبهما لا ينبغى أن يحملهم على الخيانة كأبى لبابة، وأن الله عنده الجزاء الأوفى، وأن عنده الأجر العظيم، لمن رزئ فى ماله أو أصيب فى عياله، فأثر رضاه، وراعى حدوده فى الأموال والأولاد وجعل همه منوطاً بما ينال به أجر الله، فهو خير وأبقى .

٢٩- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَقُومُوا لِلَّهِ لَحَقُّ فُرْقَانًا ... الآية .

وقد وعد الله المؤمنين الذين يتقون فى كل ما يأتون وما يذرون، وفى كل ما يقولون وما يفعلون ويراقبونه سرّاً وعلانية، أن يجعل لهم بسبب ذلك هداية ونوراً فى قلوبهم وفرقاناً يفرقون به بين الحق والباطل ويميزون به الخير من الشر ويعفون عن سيئاتهم، ويتجاوز عن ذنوبهم، والله ذو الفضل العظيم على عباده، يتفضل عليهم بإحسانه ويعفو عن كثير .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَىٰ عِلِّيِّهِمْ آيُنُنَا قَالُوا قَدْ سَعَيْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنَّا هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّا كَانَتْ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ ۚ إِنْ أَوْلِيَائِهِمُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المضردات :

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، واذكر وقت أن اجتمعت كفار قريش في دار الندوة ليدبروا أمر القضاء عليك .

لِيُثْبِتُوكَ ، ليوثقوك ويحبسوك .

أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أو ينوشوك بسيوفهم حتى يقتلوك .

أَوْ يُخْرِجُوكَ ، أو يخرجوك من مكة .

وَيَمْكُرُونَ ، ويدبرون لك المكاييد خفية .

وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، ويدبر الله ما يحيط به مكايدهم ، ويأتيهم بغتة .

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ، وتدبير الله أنفذ من مكرهم وأبلغ في التأثير والنتيجة بهم .

آيَاتِنَا ، القرآن .

أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ، ما سطره الأولون في الكتب ، أو الأباطيل والترهات .

إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ، إن كان هذا القرآن هو الحق الذي نزل به محمد من عندك .

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فعاقبنا على إنكاره بحجارة من سجيل تهلكتنا كما أهلكت أصحاب الغيل .

أو اشتتنا يعذاب أليم ، أو عاقبنا بنوع آخر من العذاب ، يكون أشد قسوة من حجارة السماء .

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وليس من سنة الله أن يصيبهم عذاب يستأصلهم ، أو صاعقة تهلكهم وأنت بينهم ؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين ، وهو معذبهم إذا فارقتهم .

وما كانوا أوليئاهم ، ما استحقوا لإشراكهم وعدواتهم للدين ، أن يكونوا ولاة لأمر المسجد الحرام .

مكــاء ، صغيرا كصوت المكاء ، وهو طائر أبيض بالحجاز كالقنبرة ، مليح الصوت ، فكانوا يجمعون بين أصابع أيديهم ثم يدخلونها في أفواههم فتحدث صغيراً .

وتصــديــة ، وتصفيحاً .

فــذوقوا العذاب ، فذوقوا عذاب القتل والأسر .

تمهيد

بعد أن عدد الله على المسلمين فيما سبق من الآيات ، ما فضل عليهم به من النعم العامة ، أنزل على نبيه : **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...** ، لينكره - **﴿٢٠﴾** - ينعمته عليه في خاصة نفسه ، إذ نجاه من تأمر قريش عليه وتببيتهم نية الغدر به في دار الندوة .

قصة المؤامرة

لما سمعت قريش بإسلام الأنصار ، ومبايعتهم للنبي **﴿٢١﴾** ؛ خافوا أن يعظم أمره وتقوى شوكته فاجتمعوا في دار الندوة يتشاورون في أمر ، فدخل إبليس عليهم في صورة شيخ ، وقال : أنا شيخ من نجد ، دخلت مكة ، فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً .

فقال أبو البختري : رأيي أن تحبسوا محمداً في بيت ، وتشدوا وثاقه ، وتسدوا باباه ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتترصصوا به ريب المنون ، فقال إبليس : بشئ الرأي ، يأتاكم من قومه ويخلصه من أيديكم .

فقال هشام بن عمرو : رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحتم ، فقال إبليس : بشئ الرأي ، يفسد قوماً غيركم ويقااتلكم بهم .

فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً ، وتعطوه سيفاً ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلها ، فإذا طلبوا العقل أي : الدية ؛ عقلناه واسترحنا ، فقال إبليس : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً ؛ فتفرقوا على رأي أبي جهل ، مجتمعين على قتله

فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأمره ألا يبيت في مضجعه ، وأذن له الله في الهجرة ، فأمر علياً فنام في مضجعه ، وقال له : انتطح ببردتى ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، ودعا الله أن يعمى عليهم أثره ، وياتوا مترصدين ، ولكن الله طمس على بصيرتهم ، فخرج ولم يروه ، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه ، فأبصروا علياً ، فبهتوا .

وخيب الله سعيهم وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه إلى الغار بعد أن دفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أريقط ، وكان دليلاً هادياً حاذقاً بالطريق ، واستأجراه ليدلهما على طريق المدينة ، ووعده أن يوافيهما عند غار ثور بعد ثلاث ليال ، ولما علمت قريش بخروج النبي ﷺ جعلت تطلبه بقائف معروف يقفوا الأثر ، ومضى برحالمهم حتى وقف على الغار ، فقال : هنا انقطع الأثر ، فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار ، فأيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا ، وجعلوا في النبي ﷺ مائة ناقة ، لمن يرجع به عليهم ، ولما سمع أبو بكر صوت من يقصون أثرهم على باب الغار ، قال للنبي ﷺ : «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه» ، فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ ، يا أبا بكر ، لا تحزن : إن الله معنا» (٣٣) .

التفسير :

٣- وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ... الآية .

واذكر وقت أن كان يكر بكَ الذين كفروا ، ويبيتون لك الكيد ، مجتمعين في دار الندوة ، فمنهم من أشار بأن يثبوك بالقيد ، ويشدوك بالوثاق ، ويحبسوك حتى تموت ، ومنهم من أشار بأن يخرجوك من بلدك ، وينفوك من وطنك ، وهم يَمْكُرُونَ ويدبرون الغدر بك ، والله يرد مكرهم عليهم ، ويحبط تدبيرهم وتدبير الله في نجاتك وفرارك من أيديهم أنفذ من مكرهم وأبلغ في النكاية بهم من حيث لا يشعرون .

٣١- وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا ... الآية .

وكان عليه السلام يقرأ القرآن ، ويتلو منه أخبار القرون الماضية ، فلما سمعه النضر بن الحارث ومن كانوا معه ، قالوا : قد سمعنا مثل هذه الأخبار من غير محمد ، ولو نشاء أن نقول مثل هذا القرآن لقلنا ، وما هو إلا أخبار مما سطره الأولون ، وقولهم هذا مكابره ، وليس في استطاعتهم ، فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا ، وكان أحب شيء إليهم أن يستطيعوا فيغلبوا ، فكيف يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؟

٣٢- وَإِذْ قَالُوا آلَهُنَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ... الآية .

وكان النضر بن الحارث من أشد قريش معارضة للنبي ﷺ ، وكان قد سافر إلى فارس والحيرة للتجارة ، ورجع منها بقبصص سمعه من الرهبان كما رجع بنسخة من أخبار رستم وأسفنديار ، وكان يجمع الكفار من

قريش حوله ، ويقرأ لهم منها ، ولما قال النضر حين سمع القرآن : إن هذا إلا أساطير الأولين ، قال له النبي : «ويلك ، إنه كلام الله» ، فقال في استخفاف وإنكار : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو اثنتا بعداب أليم ^(٨٣) ، أي : إن كان هذا القرآن حقاً ، فعاقبنا على إنكاره وتكذيبه ، بحجارة تنصب علينا كالمطر من السماء التي تهبط الوحي منها على محمد ، وينزل عليه القرآن من جبهتها ، فتهلكتنا كما أهلك السجيل أصحاب الغيل ، أو عاقبنا بعقاب آخر أشد ألماً وأقسى عذاباً ، هو قول يدل على غاية الجحود والإنكار ، وعلى أن الله تعالى قد حال بين الهداية وقلوب هؤلاء بحجب وأقفال منيعة ، كما يدل على سفه العقل وسقم التفكير : لأن المنطق كان يقضى عليهم أن يقولوا : اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، لكنه عمى العقل ، وجنون العناد .

٣٣- وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ لِيَهُمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ... الآية .

وكان من اليسير على الله أن يهلك النضر ومن معه من المعاندين المكابرين فيصيبهم بما أصاب به عاداً وثموداً ، ولكن الله أرسل نبيه ﷺ رحمة للعالمين ، فقال : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ لِيَهُمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . أي : ما كان الله ليعذب أمتك وأنت قائم فيهم لهدايتهم ، بل كرامتك عند ربك أجل وأعظم ، وسيؤجل الله عذاب المشركين حتى تخرج من بينهم ، ويحول شقاؤهم دون هدايتهم ، ولو كانوا ممن يؤمنون ويستغفرون الله من الكفر والمعادة : لما عذبهم ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون : فجازاؤهم من الله أشد العذاب .

٣٤- وَمَالَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ ... الآية .

وكيف لا يعذبهم الله وهم - زيادة على ما هم فيه من الكفر والضلال - يصدون المؤمنين عن زيارة المسجد الحرام ، ويمنعونهم كما منعوهم في عام الحديبية أن يحجوا ، ويزعمون لأنفسهم حق الولاية عليه ، وما كانوا أوليائه ، لم يولهم الله عليه : لأنه بيته ، وهو صاحب الحق في أن يولى عليه من يشاء ، فليسوا متأهلين ولا مستحقين لهذه الولاية : لأنهم أهل شرك ، وعبداء أصنام ، وأوثان ، فكيف يقولون على بيت الله : إنما يتولى على البيت المسلمون المتقون الذين يعبدون الله حق عبادته ويعرفون لبيته حرمة ، ولكن كثيراً من قريش لا يعلمون أن لا ولاية لأحد على المسجد الحرام إلا للمتقين من عباده .

٣٥- وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ... الآية .

وإن أفعالهم القبيحة عند البيت ، التي تقوم مقام صلاتهم ، لتنافى أن يكونوا أوليائه البيت ، أو محافظين على مايجب له من هيبة ووقار ، فقد جعلوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله ، المكاء والتصدية ، أي : التصفيق والتصفيق ، إذ كانوا يطوفون عراة ، رجالاً ونساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفقون ويصفرون ، يفعلون ذلك

ورسول الله ﷺ قائم يصلى ويقرأ ، ليجدثوا جلبة وضوضاء عليه ، ويثيروا الضجيج حوله ، ويشغلوه عن صلاته ؛ فذوقوا العذاب الذى لقيتموه ببدر فى الدنيا ، وذوقوا عذاب جهنم فى الآخرة ، جزاء ما كنتم فيه من كفر وضلال .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَسِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ أَمْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمْ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات :

يُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ : ليمنعوا الناس من الدخول فى دينه ، وإتباع رسوله : معادة له .

ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً : ثم تكون عاقبة إنفاقها ندماً وغماً عليهم ؛ لأنهم أضاعوا المال ولم يحققوا المقصود .

لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ : سيغلبون فى الدنيا ويحشرون إلى جهنم فى الآخرة ؛ ليميز الله الكافر من المؤمن .

وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ : ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض فى جهنم .

فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا : فيتراكبو لشدة ازدحامهم .

إِنْ يَنْتَهُوا : إن ينتهوا عن معادة الرسول بالدخول فى الإسلام .

يَغْفِرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ : يغفر الله عما قد سلف من ذنوبهم .

وَإِنْ يَتَوَلَّوْا : وإن يرجعوا إلى معاداته وحره .

فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ : فإن السنن الماضية عن الأمم السابقة ، وعما حدث للمشركين فى بدر تنبئهم بما يحق بهم .

حتى لا تكون فتنة ، حتى لا يكون شرك ، ولا يعبد غير الله فى الأرض .

ويكون الدين كله لله ، ويقضى على العبادات الباطلة ، ولا تبقى إلا عبادة الله وحده .

فإن الله مولاكم : فإن الله ناصركم ومعينكم .

التفسير :

٣٦- إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَّبِعُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا ... الآية .

إن الذين كفروا ينفقون أموالهم فى الفساد ، والتمكين للشر ، وإقامة البغى ، ومعاداة النبى ، ومحاربة المسلمين ؛ ليمنعوا الناس عن الدخول فى دين الله ، وإتباع رسوله ، وسيأتون على كل أموالهم إنفاقاً وتضييعاً ، دون أن يخالوا مقصودهم ؛ لأن الإسلام دين الحق ، والناس يعتنقونه عن يقين وبينة ، وهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره - وستبقى لهم الحسرة والندامة والغم ؛ لأنهم أضاعوا أموالهم وأوقاتهم دون أن يقضوا على دعوة الإسلام ، التى تمضى وتنتشر أسرع من انتشار النور فى الظلام ، ثم يكون مصيرهم أن يغلبوا ويقهروا ويقضى عليهم وينتهوا ، وقد نزلت الآية فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش وكان ينحر الواحد منهم لمقاتلة الكفار فى بدر كل يوم عشر جزر - أى : عشرًا من الإبل - وفى أبى سفيان بن حرب لما استأجر لقتال المسلمين يوم أحد ألفين من الأحابيش ، سوى من تطوع معه للقتال من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية ذهباً .

وليس ما وقع فى نفوس المشركين من الحسرة والندامة ، من خسارة أموالهم ، وعدم تحقيق غرضهم ، من القضاء على محمد ودينه ، هو كل ما يحل بهم من العقاب والنكال ، وإنما الذين بقوا منهم ، أو ماتوا على الكفر ، سيحشرهم الله فى جهنم حشراً ، ويعد للمؤمنين نعيماً وأجراً .

٣٧- يُمِيزُ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... الآية .

ليميز الله الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، ومن أنفق ماله للجهاد فى سبيل الله ، ومن أنفقه لمحاربة محمد ودينه ، وليجعل فريق الخبيث بعضه على بعض ، فيجمعه متركاً متزاحماً ؛ ليتذوقوا من التكسب والتراكم والتزاحم فى نار جهنم ، جميع ألوان العذاب والهوان ، هؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، وأضاعوا أموالهم وأنفسهم وحقت عليهم كلمة العذاب .

٣٨- قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ... الآية .

والله واسع المغفرة رحيم بعباده فأمر نبيه أن يعلن هؤلاء الكفار الذين حاربوه وعادوه ، أنهم إن يقلعوا عن الكفر ، ويتركوا سبيل الضلال ، ويدخلوا فى دين الله : فإن الله سيعفو عنهم ويغفر لهم ما فرط من ذنوبهم :

لأن الإسلام يجب ما قبله ، أما إذا عادوا إلى القتال ، ويقوا في الكفر والضلال ، فإنهم يعلمون بما مضت به سنة الأولين ، وأنبياء السابقين ، من إهلاك الأمم التي تحزيت على الأنبياء ، وبما حل بهم من النكال والقتل يوم بدر .

٣٩- وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تُكُونَ فَتْنَةً الآية .

لقد أمرتم أيها المؤمنون أن تقاتلوا الكفار ، حتى لا يكون كفر أو شرك ، ولا تعبد أصنام ولا أولئان ، ويكون الدين كله خالصاً لله ، ولا يعبد أحد في الأرض سواه ، فإن قاتلتموهم وانتهوا - وقت القتال - عن الكفر ، واعتنقوا الإسلام : فكفوا عنهم ، فإن الله سيقبلهم ، وهو البصير بما يعملون .

٤٠- وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ الآية .

أما إن أعرضوا عنكم وأصروا على قتالكم : فاستمروا في قتالهم ، واعلموا أن الله مولاكم ، وناصركم عليهم ، وكونوا على يقين وثقة ، بأنه سيجعل الظفر والغلبة لكم ، إنه خير مولى ؛ فلا يضيع من يتولاه ، وخير نصير ؛ فلا يهزم من ينصره .

خاتمة

هذا هو ختام تفسير الجزء التاسع من القرآن الكريم ، والقرآن مآدبة الله ، وهى مأدبة حافلة بألوان الخير والبركة والسعادة .

ونحن نتواصى بالحق والصبر ، ومن الحق أن هذا الكتاب نور الله المبين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو المنقذ من الضلال ، والهادى إلى صراط مستقيم .

وعزُّنا ومجدنا وكرامتنا ، فى الالتفاف حول كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأمجاد أمتنا الإسلامية: نقول ذلك لا تقليداً ولا احترافاً ، وإنما صدقاً وإخلاصاً .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ . (فصلت: ٣٣)

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يرزقنا الإخلاص والقبول ، وأن يوفقنا إلى تمام تفسير القرآن الكريم إنه ولى التوفيق ، والحمد رب العالمين .

القاهرة – المقطم – الهضبة العليا ، ضحى يوم الاثنين ١٩ محرم ١٤١٣ هـ الموافق ٢٠/٧/١٩٩٢ م

تم بحمد الله تفسير الجزء التاسع من القرآن الكريم

ويليه تفسير الجزء العاشر إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء التاسع)

خرج أحاديثه
الأستاذ
سبحان الله سعيد فهمي

(١) التفسير الوسيط : تفسير سورة الأعراف أ . د . محمد سيد طنطاوي الطبعة الثانية ١٩٨٥ م ص ١٢٢ .

(٢) التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية الحزب ١٧ ص ١٤٧٢ .

(٣) المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدي مطبوعات دار الشعب بالقاهرة ص ٢٠٧ .

(٤) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني ص ٢٠٧ .

(٥) أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٩٢ ، ٥٨٩٣) ومسلم فى الطهارة (٢٥٩) واللفظ له ومالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٦٤) وأبو داود فى الترجل (٤١٩٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٦٣ ، ٢٧٦٤) والنسائى فى الطهارة (١٥) وفى الزينة (٥٠٤٥) ، (٥٢٢٦) وأحمد فى مسنده (٤٦٤٠) من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال : خالفوا المشركين وغفروا اللحى وأحفوا الشوارب وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه . ورواه مسلم فى الطهارة (٢٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٠٩٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ جزوا الشوارب وأرخوا اللحى : خالفوا المجوس .

(٦) قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

روى أنه كان ثعباناً ذكرًا أشعر فاغرًا فاه بين لحيه لثمانون ذراعًا وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ، ولم يكن أحدث قبل ذلك . وهرب الناس وصاحوا وحمل على الناس فانهزموا فقامت منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضًا ... إلخ ١ هـ . وهى روايات مردودة .

(٧) فتح البيان فى مقاصد القرآن للعلامة صديق حسن خان ج ٣ ص ٢٨٣ دار الفكر العربى .

(٨) فى ظلال القرآن ٩ / ١٣٤٨ ، وقد نقله الأستاذ سعيد حوى المجلد الرابع ص ١٩٨١ .

(٩) تفسير المراعى ٩ / ٢٧ باختصار .

(١٠) سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل :

رواه البخارى فى الجزية والمواعاة (٣١٧٥) وفى بدء الخلق (٣٢٦٨) وفى الطب (٥٧٦٣ ، ٥٧٦٦) ومسلم فى السلام (٢١٨٩) وابن ماجه فى الطب (٣٥٤٥) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٧٩) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت سحر النبى ﷺ وقال اللات كبت حتى إلى هشام أنه سمعه ووعاه عن أبيه عن عائشة قالت سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال أشعرت أن الله أفئتنى فيما فيه شفائى أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى منط ومشافة وجف طلعة نكر قال فأين هو قال فى بئر ذروان فخرج إليها النبى ﷺ ثم رجع فقال لعائشة حين رجع نخلها كأنه رموس الشياطين فقلت استخرجته فقال لا أما أنا فقد شفائى الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا ثم دغنت البئر .

(١١) هى جزء من الآية القرآنية : ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (الكهف : ٣٩) وفى الحديث الشريف : «من أعجبه شيء من أهل أو مال أو ولد فقال : باسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ؛ لم ير فيه مكروهاً» .

(١٢) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . قال العجولنى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله - الحديث ، وفيه قد جف القلم بما هو كائن فلأن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، وأورده الشياى فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ يا ابن عباس احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعة.

(١٣) تفسير الكشاف ٢ / ١٢٥ الناشر دار المصنف شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

(١٤) التفسير القرآنى للقرآن : عبد الكريم الخطيب ٩ / ٤٦٤ .

(١٥) لا عدوى ولا طيرة :

ذكره البخارى تعليقا فى الطب باب الجذام من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما نفر من الأسد . ورواه البخارى فى الطب (٥٧١٧ ، ٥٧٥٧ ، ٥٧٧١ ، ٥٧٧٥) ومسلم فى السلام (٢٢٢٠) وأبو داود فى الطب (٣٩١١ ، ٣٩١٢) وأحمد فى مسنده (٨١٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابى يا رسول الله فما بال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء فيأتى البعير الأجرى فيدخل بينها فيجربها فقال فمن أعدى الأول . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٣ ، ٥٧٧٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٥) وابن ماجه فى المقدمة (٨٦) وفى الطب (٣٥٤٠) وأحمد فى مسنده (٦٣٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا طيرة والشرم فى ثلاث فى المرأة والدرداء والذابة . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٦ ، ٥٧٧٦) ومسلم فى السلام (٢٢٢٤) وأبو داود فى الطب (٣٩١٦) والترمذى فى السير (١٦١٥) وابن ماجه فى الطب (٣٥٣٧) وأحمد فى مسنده (١٩١٩٤) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال لا عدوى ولا طيرة ويعجبنى الغال الصالح الكلمة الحسنة . رواه مسلم فى السلام (٢٢٢٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧٠٣) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لا عدوى ولا طيرة ولا غول . ورواه أبو داود فى الطب (٣٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٥٠٥) من حديث سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول لا هامة ولا عدوى ولا طيرة وإن تكن الطيرة فى شيء ففى الفرس والمرأة والدرداء . ورواه ابن ماجه فى الطب (٣٥٣٩) حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . ورواه أحمد فى مسنده (٤١٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قام فبينا رسول الله ﷺ فقال : لا يعدى شيء شيئا فقام أعرابى فقال : يا رسول الله النعجة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذبذبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها فقال رسول الله ﷺ فما أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصيباتها ورزقها . ورواه أحمد فى مسنده (٧٠٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد والعين حق .

(١٦) لا طيرة ويعجني القال الصالح :

رواه البخارى فى اللط (٥٧٥٦) من حديث أنس وقد تقدم فى الذى قبله .

(١٧) اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود فى الطب (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر قال أحمد القرشى قال ذكرت الطيرة عند النبى ﷺ فقال أحسنها اللغلا ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك .

(١٨) مهما : اسم شرط . تأتت : فعل الشرط . من آية : بَيَان وتفسير للضمير فى به وجواب الشرط فما نحن لك بمؤمنين وسما ما يأتى به موسى آية : مجازاة لتسمية موسى مع قصد السخرية والاستهزاء .

(١٩) قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَأَسَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّ لَأَظْهَكَ يَا مُسْحُورٌ﴾ (الإسراء : ١٠١) والآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات ، وقيل هى الوصايا التسع ، وهى التى فى التوراة انظر تفسير فتح القدير للشوكانى .

(٢٠) القلرة : ريش السهم ، قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشئين يستويان ولا يفاوتان .

(٢١) فركب سنن من كان قبلكم :

رواه أحمد فى مسنده (٢١٣٩٠) من حديث أبى واقد الليثى أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال وكان للكفار سدره يكتفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال : فممرنا بسدره خضراء عظيمة قال : فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قال إنكم قوم تجهلون ﴿إنها لمن لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٢٤٥٦) وفى الاعتصام (٧٢٢٠) ومسلم فى العلم (٢٦٦٩) وأحمد فى مسنده (١١٣٩١) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال : فمن؟! ورواه البخارى فى الاعتصام (٧٣١٩) وابن ماجه فى الفتن (٣٩٩٤) وأحمد فى مسنده (٨١٠٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقليل يا رسول الله كفارس والروم فقال : ومن الناس إلا أولئك؟! ورواه أحمد فى مسنده (٢٢٣٧١) حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنا ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن سهل بن سعد الأنصارى عن النبى ﷺ قال : والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلا بمثل .

(٢٢) تفسير المرافى ٩ / ٥٢ .

(٢٣) تفسير فتح القدير تأليف محمد بن على بن محمد الشوكانى ١٢٥٠ هـ . ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢٤) تفسير المرافى ٩ / ٥٨ .

(٢٥) ثلاث من حديثك قد كذب :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٣٢٤) وفى التفسير (٤٨٥٥) وفى التوحيد (٧٣٨٠) وفى الإيمان (١٧٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٠٧) من حديث مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمتاه هل رأى محمد

ﷺ ربه فقالت : لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكن فقد كذب من حدثك أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب ثم قرأت : ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾ ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا﴾ ومن حدثك أنه كنتم فقد كذب ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية ولكنه رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين ...

(٢٦) أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخاري في بدء الخلق ح (٣٢٤٤) ، وفي التفسير ح (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفي التوحيد ح (٧٤٩٨) ومسلم في الجنة ح (٢٨٢٤) ، والترمذي في التفسير ح (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجه في الزهد ح (٤٣٢٨) ، وأحمد ح (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١) ، والدارمي في الرقاق ح (٢٨٢٨) من حديث أبي هريرة .

(٢٧) تفسير المراعي ٩ / ٥٩ - ٦٠ .

(٢٨) تفسير المنار ٩ / ١٩٠ وورد هذا في تفسير المراعي ٩ / ٦١ .

(٢٩) التفسير الوسيط نقلا عن تفسير القاسمي نقلا عن تاج العروس .

(٣٠) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٩ / ١٣٧٦ .

(٣١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ . د وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ١١١ .

(٣٢) انظر هذه الأقوال في زاد المسير لابن الجوزي ٣ / ٢٦٨ وما بعدها وغيره من كتب التفسير .

(٣٣) يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي :

رواه مسلم في البر والصلة ح (٢٥٧٥) ، وأحمد ٥ / ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذي ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجه ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرزاق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبي ذر .

(٣٤) أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة :

رواه البخاري في البيوع (٢١٢٥) وأحمد في مسنده (٦٥٨٥) من حديث عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال أجل والله لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ وحرزا للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس يفظ ولا غلظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسينة ولكن يعفو ويغفر وإن يقبضه الله حتى يقم به الملة للعوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا .

(٣٥) انظر تفسير القاسمي ، وتفسير ابن كثير ، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ١١١ ، والتفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى : تفسير سورة الأعراف ص ٢٠٧ ، والأساس في التفسير للأستاذ سعيد حوى .

(٣٦) بعث بالحنيفية السمحة :

رواه أحمد في مسنده (٢١٧٨٨) من حديث أبي أمامة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه قال فمر رجل بفار فيه شيء من ماء قال فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الفار فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل

ويتخلّى من الدنيا ثم قال لو أني أتيت نبي الله ﷺ فذكرت ذلك له فإن أدن لي فعلت وإلا لم أفعل فأثاء فقال يا نبي الله إني مررت بفار فيه ما يقوتني من الماء والبقل فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلّى من الدنيا قال فقال النبي ﷺ إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحه في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة . قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني وفيه على بن يزيد الألهاني وهو ضعيف . وقال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله «السهلة» وله والطبراني ومن حديث ابن عباس «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» وفيه محمد ابن إسحاق رواه بالعتنة . قال المناوي في فيض القدير : ذكره الخطيب في تاريخه عن جابر بن عبد الله وفيه على بن عمر الحريري أورده الذهبي في الضعفاء وقال صدوق ضعفه البرقاني ومسلم بن عبد ربه ضعفه الأزدي ومن ثم أطلق الحافظ ضعف سنده وقال العلائي : مسلم ضعفه الأزدي ولم أجد أحدا وثقه ولكن له طرق ثلاث ليس يبعد أن لا يترك بسببها عن درجة الحسن .

(٣٧) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه أحمد في مسنده (١٩٢٠٠) من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه أن النبي ﷺ بعث معاذنا وأبا موسى إلى اليمن فقال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وتطاعوا ولا تختلفوا قال فكان لكل واحد منهما فسطاطا يكون فيه يزور أحدهما صاحبه . ورواه البخاري في العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا . رواه مسلم في الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبي موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا .

(٣٨) تفسير المراغي ٩/ ٨٣ بتصرف .

(٣٩) أعطيت عملاً لم يعطهن نبي :

رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) وفي الصلاة ومسلم في المساجد (٥٢١، ٥٢٣) والنسائي في الغسل (٤٣٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٣) والترمذي في السير (١٥٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥، ٧٣٥٥، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦، ٧٣٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبي موسى .

(٤٠) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ . د هبة الزحيلي بجامعة دمشق دار الفكر المعاصر بيروت دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م الكتاب ٩٢٧ .

(٤١) أنتم أعلم بأمر دينكم :

رواه مسلم في الفضائل (٣٦٣) وابن ماجه في الأحكام (٢٤٧١) وأحمد في مسنده (١٢١٣٥، ٢٤٣٩٩) من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة وعن ثابت عن أنس أن النبي ﷺ مر يقوم يلحون فقال لو لم تفعلوا لصالح قال فخرج شيصا فمر بهم فقال ما لنتخلكم قالوا قلت : كذا وكذا قال : أنتم أعلم بأمر دينكم . تنبيه : لم أظفر به عند البخاري ولم أجد من عزاه للبخاري ، فليحذر .

(٤٢) نفلًا عن الأساس التفسير للأستاذ سعيد حوى نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص . ب ١٦١ بيروت ص . ب ١٣٥٣٣٧ ، وفيه عدة نقول من التوراة تصل بنزول المن والسلوى ، خلال أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة ، المجلد الرابع ص ٢٠٣٧ تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٤٣) تفسير ابن كثير ٩٧/١ بتصرف واختصار .

(٤٤) يا عبادى إلى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه ح (٤٢٧٥) وأحمد (٥ / ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(٤٥) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخارى فى المغازى (٢٤٧٨) ، وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠) ، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١) ، وأحمد (٣٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح وفيه عن ابن عمر ، ورواه مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٠) ، وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبى هريرة .

(٤٦) لا تركبوا ما ارتكبت اليهود فصتحوها :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن بطة عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال : لا تركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل» .

(٤٧) تقاتلون اليهود حتى يهتبي أهدمهم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٥) وفى المناقب (٣٥٩٢) ومسلم فى الفتن (٢٩٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٦) وأحمد فى مسنده (٥٩٦٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : تقاتلون اليهود حتى يهتبي أهدمهم ورواه الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله .

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٦) ومسلم فى الفتن (٢٩٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٢) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد : فإنه من شجر اليهود .

(٤٨) قيل : كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاءهم المبتل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم ، الذى كبره بأبيدهم تحريفا وتديلا لما فى التوراة ، فحكموا له به ، انظر تفسير ابن كثير .

(٤٩) تفسير أبى السمر ٢٨٨ / ٣ .

(٥٠) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٢٨٣ / ٣ طبعة المكتب الإسلامى فى بيروت ، وفى دمشق . لصاحبه زهير الشاويش .

(٥١) قال تعالى ﴿وربنا فرقمهم بطور بيمثلهم﴾ (النساء : ١٥٤) .

(٥٢) لتأخذن امرى أو لأرمينكم به :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف قال الله تعالى : ﴿ورأى نقبا الجبل فرقمهم كأنه ظلة وظروا أنه واقع بهم﴾ قال : لتأخذن امرى أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، فكانت سجدة رضىها الله تعالى فاتخذوها سنة .

(٥٣) في ظلال القرآن ٩ / ١٣٨٩ باختصار .

(٥٤) جاء في قاموس محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني :

التسع : سير أو حبل من آدم ينسج عريضا على هيئة أجنة النعال ، تُشد به الرجال ، والقطعة منه تسعة وسمى نسعا لطوله ، وجمعه نُسُج وأنساع ونسوع .. وقرقر البحر هدير وصفاه صوته ، ويعبر قرقر الهمد ، أى صالى الصوت فى هديره والمعنى : عندما تربط الأنساع وهى حبال الرجل على بطن البحر كأنها تقول له الحق بالركب ، قالت له ريح الصبا الطيبة (قرقر) أى : استجب لما يطلب منك ، مع هدير صالى الصوت وحذاء جميل .

(٥٥) تفسير أبى السعود ٣ / ٢٩٠ دار إحياء التراث العربى بيروت ا هـ . وقد روى هذا الحديث النسائي وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح الإسناد ، انظر الأساس فى التفسير للأستاذ سعيد حوى المجلد الرابع ص ٢٠٦١ نقلًا عن تفسير ابن كثير .

(٥٦) كل مولود يولد على الفطرة :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥) وفى التفسير (٤٧٧٥) وفى القدر (٦٥٩٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨) ومالك فى الموطأ كتاب الجنائز (٥٦٩) وأبو داود فى السنة (٤٧١٤) والترمذى فى القدر (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدهاء .

(٥٧) إلى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٦٥) ، وأحمد (١٧٠٣٠ ، ١٧٨٧٤ ، ١٧٨٧٥) من حديث عياض بن حماد المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عريهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتيك وأبتيك بك وأنزلت عليك كتابا لا يفلسه الماء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرنى أن أحرق قرىشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسى فبدعه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك وأغزهم نفرك وأنفق فسنفق عليك وأبعث جيشا نبعت خمسة مثله وقال بمن أطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفى ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالا والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصحب ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش .

(٥٨) يقال للرجل من أهل النار :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٣٨ ، ٦٥٥٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٠٣) من حديث أنس يرفعه إن الله يقول لأهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الأرض من شيء كنت تتعدى به قال : نعم قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى فأبيت إلا الشرك .

(٥٩) إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه :

رواه مالك في الموطأ كتاب الجامع (١٦٦١) وأبو داود في السنة (٤٧٠٣) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٧٥) وأحمد في مسنده (٣١٣) من حديث مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وَأَدْبَرَ بِيَمِينِهِ ظَهْرَهُمْ﴾ وأشهدهم على أنفسهم ألاست بركم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار. قال الترمذي: حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا.

(٦٠) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٩ / ١٠٤ .

(٦١) التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر نقلًا عن تفسير ابن كثير ، بصرف .

(٦٢) آية الأنعام رقم ١٥٣ ج ٨ تفسير المنار ، وآية البقرة رقم ٢٥٧ ج ٣ ص ٣٤ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١ هـ وانظر تفسير المنار ٩ / ٣٥٠ طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٦٣) يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث :

بهذا اللفظ ذكره الهيثمي في المجمع ١٨٣/١٠ وعزاه للطبراني في الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبي مدرك عن أنس ، وسلمة بن حرب : مجهول كشيخه أبي مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث في ترجمته ، وفي الميزان : أبو مدرك قال الدارقطني : متروك فلا أدري هو أبو مدرك هذا أو غيره ، وبغية رجاله ثقات ، وانظر : ابن حبان في الثقات ٦/٣٩٨ ورواه الترمذي في الدعوات ح ٣٣٥٨ ، من حديث أبي هريرة قال : «وإذا اجتهد في الدعاء قال : يا حي يا قيوم» هـ وقال : حديث غريب ، وذكره في نفس الباب برقم ٣٤٤٦ ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا كره أمر قال : «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث» هـ .

(٦٤) إن الله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخاري في الشروط (٢٧٣٦) وفي التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم في الذكر (٢٦٧٧) والترمذي في الدعوات (٣٥٠٦) ، (٣٥٠٨) وابن ماجه في الدعاء (٢٨٦٠) وأحمد في مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة . ورواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجه في الدعاء (٢٨٦١) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار .. الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان ابن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ولا نعلم في كثير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث وقد روى آدم ابن أبي إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٦٥) ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن:

رواه أحمد في مسنده (٣٧٠٤، ٤٣٠٦) من حديث عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عنده أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي: إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا قال فقيہ یا رسول الله ألا نتعلمها فقال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها .

(٦٦) تفسير الآلوسی ٩ / ١٢٣ .

(٦٧) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٧٩٨ - ٨٠٥ .

(٦٨) لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين :

رواه البخاری تعليقاً في الاعتصام باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ووصله في المنائب ٣٦٤٠ ، وفي الاعتصام ٧٣٦١ ، ٧٤٥٩ ، والدارمی ٢٤٣٢ ، وأحمد ١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١ ، من حديث المفيرة . ورواه مسلم في الإمارة ١٩٢٠ ، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذی في الفتن ٢٢٢٩ ، وابن ماجه في المقدمة ١٠ ، وأحمد ٢١٨٩٧ من حديث فوهان ابن بجد . ورواه البخاری في المنائب ٣٦٤١ ، ٧٤٦٠ ، ومسلم في الإمارة ١٠٣٧ ، وأحمد ١٦٤٣٩ ، ١٦٤٨٥ من حديث معاوية . ورواه الدارمی ٢٤٣٣ من حديث عمر بن الخطاب . ورواه أحمد ٨٠٧٥ من حديث عبد الرحمن ، ورواه أحمد ٢٠٣٤٦ ، ٢٠٣٧٥ من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذی ٢١٩٢ ، وابن ماجه ٦ ، وأحمد ١٥١٧٠ ، ١٩٨٤٩ من حديث قرة بن إياس . ورواه مسلم في الإيمان ١٥٦ ، وفي الإمارة ١٩٢٣ ، وأحمد ١٩٣١٠ ، ١٤٦٠٧ من حديث جابر . ورواه أبو داود في الجهاد ٢٤٨٤ ، وأحمد ١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩ من حديث عمران بن حصين . ورواه أحمد ١٦٥١٧ من حديث سلمة بن نفيل . ورواه أحمد ٢١٨١٦ من حديث صدى بن عجلان . ورواه أحمد ١٨٨٠٤ من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجه في المقدمة ٧ من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجه في المقدمة ٩ من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال قام معاوية . ورواه أحمد ٢٠٤٢٦ اسم مبهم .

(٦٩) الطبري ١٣ / ٢٨٦ ابن كثير ٢ / ٢٦٩ ، وخرجه السيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٤٩ وزاد نسبه إلى ابن المنذر وأبي الشيخ .

(٧٠) أوردته السيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٤٩ ونسبه لابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد .

(٧١) قال في الشهاب : إذا رأيت الله أنعم على عبده ، وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه استدراج .

(٧٢) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاری في التفسير باب : قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . قال : ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ .

(٧٣) تفسير المنار ٩ / ٣٧٨ .

(٧٤) مقبس من تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٩ / ١٢٤ .

(٧٥) تفسير المراعي للأستاذ أحمد مصطفى المراعي ٩ / ١٢٦ .

(٧٦) اغتم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك :

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٢١٠) ونسبه للحاكم في المستدرک والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وأحمد في الزهد أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن عمرو بن ميمون مرسلًا . قال المناوي في فيض القدير : قال الحاكم في مستدرکه على شرطهما وأقره الذهبي في التلخيص واغتر به المصنف فرمز لصحته وهو عجيب فغیه جعفر بن برقان أوردته الذهبي نفسه في الضعفاء والمتروكين وقال : قال أحمد يخطئ في حديث الزهري وقال ابن خزيمة : لا يحتج به . (حم في الزهد) قال الزين العراقي : إسناده حسن (حل هب عن عمرو بن ميمون) ابن مهران الجوزي سبط سعيد بن جبهر تابعي ثقة فاضل (مرسلًا) قال العراقي : في تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدي مرسلًا .

(٧٧) لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥، ٤٦٣٦) وفي الرقاق (٦٥٠٦) وفي الفتن (٧١٢١) ومسلم في الفتن (١٥٧) وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١) وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨) وأحمد في مسنده (٧١٢١) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ .

(٧٨) اللقحة : الشاة الحلوب أو الحامل .

(٧٩) يلبط : يطلّي حوضه أو حجارته بجص ونحوه ، ليمسك الماء ، انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣ / ٢٩٨ طبع المكتب الإسلامي ، وقد توسع تفسير المنار توسعاً طويلاً ومفيداً . في تفسير الآية ج ٩ ص ٣٩١ .

(٨٠) ما السؤل عنها بأعلم من السائل :

رواه البخاري في الإيمان ج ٥٠ ، وفي تفسير القرآن ج ٤٧٧٧ ، ومسلم في الإيمان ج ٨ ، ٩ ، والترمذي في الإيمان ج ٢٦١٠ ، والنسائي في الإيمان ج ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود في السنة ج ٦٩٥ ، وابن ماجه في المقدمة ج ٦٤ ، ٦٥ ، وأحمد ج ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ ، من حديث أبي هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٨١) (٨٢) الأستاذ عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن الكتاب الأول تفسير سورة البقرة ، والمجلد الثالث ٩ / ٥٣٨ .

(٨٣) انظر تفسير مقاتل بن سليمان تحقيق د . عبد الله شحاتة .

(٨٤) لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد :

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٧٧) وأحمد في مسنده (١٩٦١٠) من حديث سمرة عن النبي ﷺ قال : لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان ، وأمره . قال الترمذي : حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه عمر بن إبراهيم شيخ بصري .

(٨٥) تفسير ابن كثير .

(٨٦) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخاري في العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال يسروا ولا تعسروا ويسروا ولا تنفروا . رواه مسلم في الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥) وأحمد في مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبي موسى قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه في بعض أمره قال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ورواه البخاري في الأدب (٦١٢٤) وفي المغازي (٤٣٤١، ٤٣٤٢) ومسلم في الأشربة (١٧٣٣) وأحمد في مسنده (١٩٢٠٠) من حديث أبي موسى قال لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما يسرا ولا تعسرا ويسرا ولا تنفرا وتطوعا ، قال أبو موسى : يا رسول الله إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتج وشراب من الشعير يقال له المز ، فقال رسول الله ﷺ كل مسكر حرام .

(٨٧) في ظلال القرآن ٩ / ١٤١٩ .

(٨٨) تفسير المنار ٩ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٨٩) يا ابن الخطاب فالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل :

رواه البخاري في التفسير (٤٦٤٢) وفي الاعتصام (٧٢٨٦) من حديث ابن عباس قال قدم عيينة بن حصين بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدينهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هي يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿خذ الطغ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله .

(٩٠) ما هذا يا جبريل :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي قال: لما أنزل الله : ﴿خذ الطغ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ قال رسول الله ﷺ : «ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم !» فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك . وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٥١٠) بلفظ: ثلاثة من مكارم الأخلاق عند الله : أن تعفو عن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك . ونسبه للخطيب في التاريخ عن أنس . وقال: حسن . وقال الهيثمي في المجمع: وعن علي قال: قال لي النبي ﷺ ألا أدلك على أكرم أخلاق للدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وأن تعفو عن ظلمك . رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه الحارث وهو ضعيف .

(٩١) الضمير المنير للذكور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ٢١٨ نشر دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، دار الفكر دمشق سورية ط ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

(٩٢) نقلا عن تفسير المنار ٩ / ٤٤٩ .

(٩٣) كيف يارب والغضب :

قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت : ﴿خذ الطغ وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: ١٩٩) ، قال رسول الله ﷺ وكيف يا رب والغضب، فنزل : وإما يتزغك من الشيطان نزع... الآية .

(٩٤) ولكن الله أعانني عليه فأسلم :

رواه الترمذى فى الرضاع باب ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات (١١٧٢) ، وأحمد (١٣٩١٣) ، والدارسى فى الرقاق باب الشيطان يجرى الدم (٢٧٨٢) عن مجاهد عن الشعبي عن جابر بلفظ: لا تلجوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحذكم مجرى الدم قلنا ومنك قال: ومنى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم . قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم عن مجاهد بن سعيد من قبل حفظه وسمعت على بن خشرم يقول قال: سفيان بن عيينة فى تفسير قول النبى ﷺ ولكن الله أعاننى عليه فأسلم يعنى أسلم أنا منه قال سفيان والشيطان لا يسلم .

(٩٥) اللهم آت نفوسنا تقواها :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٢٢) والنسائى فى الاستعاذة (٥٥٣٨، ٥٤٥٨) وأحمد فى مسنده (١٨٨٢١) من حديث زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول - كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والخل والهروم وعذاب القبر اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .

(٩٦) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ١٥٢ / ٩ ، وتفسير المنار ٤٥٩ / ٩ طبع الهيئة .

(٩٧) فى ظلال القرآن ١٤٢١ - ١٤٢٣ ، وقارن بكتاب الأساس فى التفسير للأستاذ سعيد حوى المجلد الرابع ص ٢٠٧٦ - ٢٠٧٨ .

(٩٨) لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب :

رواه البخارى فى الأذان (٧٥٦) ومسلم فى الصلاة (٣٩٤) وأبو داود فى الصلاة (٨٢٢، ٨٢٣) والترمذى فى الصلاة (٢١١، ٢١٢) والنسائى فى الافتتاح (٩١١، ٩١٠) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢٢١٦٩) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب .

(٩٩) تفسير المنار ٤٦١ / ٩ مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب وأيضاً تفسير المراغى ١٥٥ / ٩ .

(١٠٠) لم يَأْذَنَ لشيء ما أَذِنَ للنبي أن يتغنى بالقرآن :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٤، ٥٠٢٣) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٨٢، ٧٤٨٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٧٣) والنسائى فى الافتتاح (١٠١٧) والدارسى فى الصلاة (١٤٨٨، ١٤٩١) وفى فضائل القرآن (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وأحمد فى مسنده (٧٦١٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول قال رسول الله ﷺ لم يَأْذَنَ الله لشيء ما أَذِنَ للنبي أن يتغنى بالقرآن وقال صاحب له يريد يجهر به .

(١٠١) ليس منا من لم يتغن بالقرآن :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس منا من لم يتغن بالقرآن وزاد غيره يجهر به . ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٩، ١٤٧١) والدارسى فى الصلاة (١٤٩٠) وفى فضائل القرآن (٣٤٨٨) وأحمد فى مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن .

(١٠٢) تفسير المنار ٩ / ٤٦٢ ، وانظر تفسير المراغي ٩ / ١٥٦ .

(١٠٣) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٩ / ١٤٢٥ .

(١٠٤) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان ح (٦٤٩) ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذى فى التفسير ح (٣١٣٥) ، والنسائى فى الصلاة ح (٤٨٦) ، وابن ماجه فى الصلاة ح (٦٧٠) ، وأحمد ح (٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضاً بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح يقول أبى هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿وَرَأَى الْفَجْرَ إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾» . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح (٥٥٥) ، وفى التوحيد ح (٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦) ، ومسلم فى المساجد ح (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة ح (٤٨٥) ، وأحمد ح (٩٩٣٦ ، ٢٧٣٣٦) ، مالك فى النداء للصلاة ح (٤١٣) ، من حديث أبى هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...» الحديث .

(١٠٥) يا قوم أربعوا على أنفسكم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) وفى المغازى (٢٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٨٤) وفى القدر (٦٦١٠) وفى التوحيد (٧٣٨٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد فى مسنده (١٩٠٣٦ ، ١٩١٠٢ ، ١٩٢٤٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرغوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لى يا عبد الله بن قيس قلت لبيك يا رسول الله قال : ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله فذاك أبى وأمى ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله .

(١٠٦) اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن أبى شيبه عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى سجوده: اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علماً يتقضى علماً يرفعنى . وقال الهيثمى فى المجمع : عن عائشة قالت: كانت ليلى من رسول الله ﷺ فأنسل فلظننت أنه أنسل إلى بعض نساته فخرجت غيرة فإذا أنا به ساجداً كالطوب الطريح فسمعتة يقول: سجد لك سوادى وخيالى آمن بك فؤادى رب هذه يدى وما جنيت على نفسى يا عظيم ترجى اكل عظيم فاعفر الذنب العظيم . قالت: فرفع رأسه فقال: ما أخرجك ؟ قالت: ظننا ظننته . قال: إن بعض الظن إثم فاستغفرى الله ، إن جبريل أتانى فأمرنى أن أقول هذه الكلمات التى سمعت فقوليتها فى سجودك ، فإزنه من قالها لم يرفع رأسه حتى يغفر - أظنه قال - له . رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عطاء الخرساني وثقة دحيم وضعفه البخارى ومسلم وابن معين وغيرهم . قال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه الحكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف .

(١٠٧) أشيروا على أيها الناس :

ذكره البيهقى فى دلائل النبوة .

(١٠٨) ثلاث من كن فيه وجد :

رواه البخارى فى الإيمان (١٦، ٢١) وفى الأدب (٦٠٤١) وفى الإكراه (٦٩٤١) ، ومسلم فى الإيمان (٤٣) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٨٨) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٣٣) وأحمد فى مسنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

(١٠٩) انظر تفسير أبى السعود وتفسير ابن كثير ، والتفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية ، وهناك روايات متعددة فى أسباب النزول .

(١١٠) أعطيت خمسا لم يعطهن نبى :

تقدم ص (١٦٠٤) .

(١١١) فيها معشر أصحاب بدر نزلت :

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٢٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلى قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فيها معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ قسمه رسول الله ﷺ فيها عن بواء يقول على السواء .

(١١٢) تفسير أبى السعود ٤ / ٤ .

(١١٣) كيف أصبحت يا حارثة ؟ :

قال الهيثمى فى المجمع : عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر بالنبى ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : أنظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا (أى كرهتها) فأسهرت ليلى وأظلمات نهارى وكأنى أنظر عرش ربه بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (أى : يضحون ويتصاحون) فيها . قال : يا حارثة عرفت فالزم . رواه الطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه . وقال الهيثمى فى المجمع : وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ لقى رجلا يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا . قال : إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأظلمات نهارى وأسهرت ليلى وكأنى بعرض ربه بارزا وكأنى بأهل الجنة فى الجنة يتنعمون فيها وكأنى بأهل النار فى النار يعذبون فقال النبى ﷺ أصبت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه . رواه الهزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(١١٤) أخبروا على أنها الناس :

تقدم ص (١٦٧٨) .

(١١٥) إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية :

رواه البخارى فى الحج (١٨٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٤٧) وابن ماجه فى المناسك (٣١١١) وأحمد فى مسنده (٧٧٨٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها .

ورواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٣٠) من حديث زيد بن ملحان أن رسول الله ﷺ قال إن الدين ليأرزن إلى الحجاز كما تأرزن الحية إلى جحرها ويعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أقصد الناس من بعدى من سنتى . قال الترمذى: حديث حسن صحيح . ورواه أحمد فى مسنده (١٧٢٤٩) من حديث عبد الرحمن بن سنان أنه سمع النبى ﷺ يقول: بدأ الإسلام غريبا ثم يعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء يقول يا رسول الله : ومن الغرباء قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس والذي نفسى بيده ليحارن الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل والذي نفسى بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرزن الحية إلى جحرها . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٠٧) من حديث سعد بن أبى وقاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الإيكان بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناس والذي نفسى أبى القاسم بيده ليأرزن الإيمان بين هذين المسجدين كما تأرزن الحية فى جحرها .

(١١٦) اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم :

رواه مسلم فى الجهاد (١٧٦٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٨١) من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله ﷺ القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه ما يدنيه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاهك مناشدتك ريك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدَّتُ بِكُم بِاللَّحَاقِ مَدِينَةٍ﴾ فأمد الله بالملائكة .. الحديث .

(١١٧) اللهم لا تدعنى :

انظر ما قبله .

(١١٨) تفسير أبى السعود ٤ / ٨ .

(١١٩) انظر تفسير أبى السعود حيث قال أيضا (كانت السكينة لى إسرائيل كذلك) .

(١٢٠) تفسير أبى السعود ٤ / ٩ .

(١٢١) اللهم إنى أشدك عهدك ووعدك :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩١٥) وفى المغازى (٣٩٥٣) وفى التفسير (٤٨٧٥، ٤٨٧٧) وأحمد فى مسنده (٣٠٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ وهو فى قبة اللهم إنى أشدك عهدك ووعدك اللهم إنى شئت لم تعبد بعد اليوم فأخذه أبو بكر بيده ، فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ريك وهو فى الدرع فخرج وهو يقول : ﴿سُبْحَانَ الْجَمْعِ وَيُولُونَ الدِّينَ بِلِ السَّاعَةِ مَرَعَهُمْ وَأَمْرُ﴾ .

(١٢٢) فآلقى الشيطان فى قلوبهم الحزن :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فظلموا المسلمين وصلوا مجنبيين محدثين فكانت بينهم رمال ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبيين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا وتثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته .

(١٢٣) بعث الله السماء وكان الوادى دهسا :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال: بعث الله السماء وكان الوادى دهسا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد الأرض ولم يمنعمهم المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه .

(١٢٤) تفسير الآلوسى ٩ / ١١٧ .

(١٢٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الثامن عشر صفحة ١٥٩٣ .

(١٢٦) تفسير المنار ٤ / ١١٣ نقلًا عن الرازى واليسابورى .

(١٢٧) شأهت الوجوه :

رواه مسلم فى الجهاد (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة قال حدثنى أبى قال غزونا مع رسول الله ﷺ حينما فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلوا ثنية فاستقلبنى رجل من العدو فأرميه بسهم فتوارى عنى فما دريت ما صنع ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلوعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابه النبى ﷺ فولى صحابة النبى ﷺ وأرجع منهزما وعلى بردتان متزرا بإحدهما مرتديا بالأخرى فاستطلق إزارى فجمعتهما جميعا ومررت على رسول الله ﷺ منهزما وهو على بغلته الشهباء فقال رسول الله ﷺ لقد رأى ابن الأكرح فزعا فلما غشا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال شأهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بترك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين . ورواه الدارمى فى السير (٢٤٥٢) وأحمد فى مسنده (٢١٩٦١) من حديث أبى عبد الرحمن الفهري قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فكنا فى يوم قانظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فنذكر القصة ثم أخذ كنا من تراب قال فحدثنى الذى هو أقرب إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال شأهت الوجوه فهزم الله المشركين قال يعلى فحدثنى أبناؤهم أن أباهم قالوا فما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا . ورواه أحمد فى مسنده (٣٤٧٥) من حديث ابن عباس أن الملاء من قريش اجتمعوا فى الحجر فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمدا قمنا إليه لقيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله . قال: فأقبلت فاطمة تبكى حتى دخلت على أبيها فقالت هؤلاء الملاء من قومك فى الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك قال يا بنية أدنى وضوءا فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه قالوا هو هذا فخفضوا أبصارهم وعقروا فى مجالسهم فلم يرفعوا إليه أبصارهم ولم يقم منهم رجل فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رموسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال شأهت الوجوه فما أصابت رجلا منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافرا .

(١٢٨) يا رب إن تهلك هذه العصاة :

انظر ما قبله .

(١٢٩) مثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

رواه البخارى فى الشريعة (٢٤٩٣) والترمذى فى الفتن (٢١٧٣) وأحمد فى مسنده (١٧٨٧٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استنقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا .

(١٣٠) ما زالت قدمائى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله ابن قتادة رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. فى أبى لبابة بن عبد المنذر، سأله يوم فريضة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح، فنزلت. قال أبو لبابة رضى الله عنه: ما زالت قدمائى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله.

(١٣١) ما ظنك باثنين الله ثالثهما :

رواه البخارى فى التفسير (٤٦٦٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨١) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٦) وأحمد فى مسنده (١٢) من حديث أنس قال حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال، كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا. قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

(١٣٢) اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك :

قال السيوطى فى الدر المنثور: أخرج الفريابى وعبد بن حميد والنسائى وابن حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: هو النضر بن الحارث، قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، وفى قوله: ﴿يعذاب واقع﴾ قال: كائن ﴿للكافرين ليس له دافع﴾ من الله ذى المعارج ﴿

قال: ذى الدرجات. والحديث رواه البخارى فى التفسير (٤٦٤٨، ٤٦٤٩) ومسلم فى صفة القيامة (٢٧٩٦) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتتنا يعذاب أليم فنزلت: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله ليعذبهم وهم يستغفرون﴾ وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام... الآية .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء التاسع

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٨	﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه...﴾	١٥٣٧
٨٩	﴿قد افترينا على الله كذباً...﴾	١٥٣٧
٩٠	﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه...﴾	١٥٤٠
٩١	﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا...﴾	١٥٤٠
٩٢	﴿الذين كذبوا شعبياً كأن لم يغنوا فيها...﴾	١٥٤٠
٩٣	﴿فتولى عنهم وقال يا قوم...﴾	١٥٤٠
٩٤	﴿وما أرسلنا في قرية من نبي...﴾	١٥٤٣
٩٥	﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة...﴾	١٥٤٣
٩٦	﴿ولو أن أهل القرى ءامنوا واتقوا...﴾	١٥٤٥
٩٧	﴿فأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً...﴾	١٥٤٥
٩٨	﴿أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى...﴾	١٥٤٥
٩٩	﴿فأما آمنوا مكر الله...﴾	١٥٤٥
١٠٠	﴿أو لم يهد لنا الذين يرثون الأرض...﴾	١٥٤٥
١٠١	﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها...﴾	١٥٤٩
١٠٢	﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد...﴾	١٥٤٩
١٠٣	﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى...﴾	١٥٥١
١٠٤	﴿وقال موسى يا فرعون...﴾	١٥٥٢
١٠٥	﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق...﴾	١٥٥٢
١٠٦	﴿قال إن كنت جئت بآية...﴾	١٥٥٣
١٠٧	﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين...﴾	١٥٥٣
١٠٨	﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين...﴾	١٥٥٣
١٠٩	﴿قال الملأ من قوم فرعون...﴾	١٥٥٤
١١٠	﴿يريد أن يفرجكم من أرضكم...﴾	١٥٥٤
١١١	﴿قالوا أرجه وأخاه...﴾	١٥٥٤
١١٢	﴿يأتوك بكل ساحر عليم...﴾	١٥٥٤
١١٣	﴿وجاء السحرة فرعون...﴾	١٥٥٧
١١٤	﴿قال نعم وإنكم...﴾	١٥٥٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٥	﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى...	١٥٥٨
١١٦	﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا...	١٥٥٨
١١٧	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ...	١٥٥٩
١١٨	﴿فَنُفِثَ وَنُقِفَ السُّحُوقُ...	١٥٥٩
١١٩	﴿فَنفَخْنَا بِنُفْسِنَا...	١٥٥٩
١٢٠	﴿وَأَلْقَى السَّحَابُ مَنَاحِيرَ سَاجِدِينَ...	١٥٥٩
١٢١	﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ...	١٥٥٩
١٢٢	﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ...	١٥٥٩
١٢٣	﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنَنْتُمْ بِهِ...	١٥٦١
١٢٤	﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ...	١٥٦١
١٢٥	﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ...	١٥٦٣
١٢٦	﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا...	١٥٦٣
١٢٧	﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مَنْ قَوْمُ فِرْعَوْنَ...	١٥٦٤
١٢٨	﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ...	١٥٦٥
١٢٩	﴿قَالُوا أَوَإِنَّمَا نَقِيلُ أَنْ تُبَدِّلَنَا...	١٥٦٥
١٣٠	﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ...	١٥٦٦
١٣١	﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا...	١٥٦٦
١٣٢	﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ...	١٥٦٨
١٣٣	﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ...	١٥٦٩
١٣٤	﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا...	١٥٧٠
١٣٥	﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ...	١٥٧٠
١٣٦	﴿فَنَاتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ...	١٥٧٠
١٣٧	﴿وَأَوْثَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا...	١٥٧٢
١٣٨	﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ...	١٥٧٤
١٣٩	﴿وَإِنْ هُوَ إِلَّا مَكِيدٌ لَهُمْ فِيهِ...	١٥٧٤
١٤٠	﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ إِلَيْهَا...	١٥٧٧
١٤١	﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ ءَالَ فِرْعَوْنَ...	١٥٧٧
١٤٢	﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً...	١٥٧٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤٣	﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه...﴾	١٥٧٩
١٤٤	﴿قال يا موسى إني اصطفتك على الناس...﴾	١٥٨٢
١٤٥	﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء...﴾	١٥٨٥
١٤٦	﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون...﴾	١٥٨٦
١٤٧	﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة...﴾	١٥٨٦
١٤٨	﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم...﴾	١٥٨٨
١٤٩	﴿ولما سقط في أيديهم وروا...﴾	١٥٨٨
١٥٠	﴿ولما رجع موسى إلى قومه...﴾	١٥٩١
١٥١	﴿قال رب اغفر لي ولأخي...﴾	١٥٩١
١٥٢	﴿إن الذين اتخذوا العجل...﴾	١٥٩٣
١٥٣	﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا...﴾	١٥٩٣
١٥٤	﴿ولما سككت عن موسى الغضب...﴾	١٥٩٣
١٥٥	﴿واختار موسى قومه...﴾	١٥٩٦
١٥٦	﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة...﴾	١٥٩٩
١٥٧	﴿الذين يتبعون الرسول...﴾	١٥٩٩
١٥٨	﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله...﴾	١٦٠٤
١٥٩	﴿ومن قوم موسى أمة...﴾	١٦٠٥
١٦٠	﴿وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا...﴾	١٦٠٥
١٦١	﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية...﴾	١٦٠٨
١٦٢	﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا...﴾	١٦٠٨
١٦٣	﴿وسئلهم عن القرية...﴾	١٦١٢
١٦٤	﴿وإذ قالت أمة منهم...﴾	١٦١٤
١٦٥	﴿فاماننوا ما ذكروا به...﴾	١٦١٤
١٦٦	﴿فلما عتوا عن ما نهوا عنه...﴾	١٦١٤
١٦٧	﴿وإذ تآذن ربك ليعبثن...﴾	١٦١٧
١٦٨	﴿وقطعناهم في الأرض أمما...﴾	١٦١٧
١٦٩	﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب...﴾	١٦٢٠
١٧٠	﴿والذين يمسكون بالكتاب...﴾	١٦٢٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧١	﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ...﴾	١٦٢٣
١٧٢	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ عَادٍ مِّنْ ظُهُورِهِمْ...﴾	١٦٢٤
١٧٣	﴿وَأَوْتَوْهُمُ الْإِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ...﴾	١٦٢٤
١٧٤	﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ...﴾	١٦٢٤
١٧٥	﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا...﴾	١٦٣٠
١٧٦	﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ...﴾	١٦٣٠
١٧٧	﴿سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ...﴾	١٦٣٠
١٧٨	﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ...﴾	١٦٣٤
١٧٩	﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ...﴾	١٦٣٤
١٨٠	﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾	١٦٣٨
١٨١	﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ...﴾	١٦٤٠
١٨٢	﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾	١٦٤٠
١٨٣	﴿وَأَمَّا لِيَ لَهُمْ إِنْ كِيدَىٰ مَتِينٌ...﴾	١٦٤٠
١٨٤	﴿وَأَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ...﴾	١٦٤٢
١٨٥	﴿وَأَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	١٦٤٢
١٨٦	﴿مَنْ يَضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُادَىٰ لَهُ...﴾	١٦٤٢
١٨٧	﴿يَسْتَلُوكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا...﴾	١٦٤٦
١٨٨	﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾	١٦٥١
١٨٩	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾	١٦٥٣
١٩٠	﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلْنَا لَهُ شُرَكَاءَ...﴾	١٦٥٣
١٩١	﴿أَيُّ شُرَكَائِهِمْ مَالًا يَخْلُقُ شَيْئًا...﴾	١٦٥٧
١٩٢	﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا...﴾	١٦٥٧
١٩٣	﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ...﴾	١٦٥٧
١٩٤	﴿وَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	١٦٥٩
١٩٥	﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا...﴾	١٦٥٩
١٩٦	﴿وَإِنْ يُلْقِىَ اللَّهُ إِلَيْنَا الْكِتَابَ...﴾	١٦٥٩
١٩٧	﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ...﴾	١٦٦١
١٩٨	﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ...﴾	١٦٦١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩٩	﴿خذ العفو وأمر بالعرف...﴾	١٦٦٣
٢٠٠	﴿إما ينزغنه من الشيطان نزغ...﴾	١٦٦٦
٢٠١	﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم...﴾	١٦٦٧
٢٠٢	﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي...﴾	١٦٦٧
٢٠٣	﴿وإذا لم تأتوهم بأية...﴾	١٦٦٩
٢٠٤	﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا...﴾	١٦٦٩
٢٠٥	﴿واذكركم في نفسك تضمرعا وخيفة...﴾	١٦٦٩
٢٠٦	﴿إن الذين عنندكم...﴾	١٦٦٩
-	تفسير سورة الانفثال	١٦٧٧
١	﴿يسألكم الله عن الأنفس...﴾	١٦٨٤
٢	﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله...﴾	١٦٨٤
٣	﴿الذين يقيمون الصلاة...﴾	١٦٨٤
٤	﴿أولئك هم المؤمنون حقا...﴾	١٦٨٤
٥	﴿كما أخرجك ربك من بيتك...﴾	١٦٩١
٦	﴿يجادلوك في الحق بعد ما تبين...﴾	١٦٩١
٧	﴿وإن يعدكم الله إحدى الطائفتين...﴾	١٦٩١
٨	﴿ليحق الحق ويبطل الباطل...﴾	١٦٩١
٩	﴿إن تستغيثون ربكم فاستجاب لكم...﴾	١٦٩٦
١٠	﴿وما جعله الله إلا بشئى ولتطمئن...﴾	١٦٩٦
١١	﴿إن يغشاكم الغساس أمنة منه...﴾	١٦٩٩
١٢	﴿إن يوحى ربك إلى الملائكة...﴾	١٦٩٩
١٣	﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله...﴾	١٦٩٩
١٤	﴿ذلكم قذوقه...﴾	١٦٩٩
١٥	﴿وأيها الذين آمنوا...﴾	١٧٠٦
١٦	﴿ومن يولهم يومئذ دبره...﴾	١٧٠٦
١٧	﴿فإنم تقتلوهم ولكن الله قتلهم...﴾	١٧٠٦
١٨	﴿ذلكم وأن الله...﴾	١٧٠٦
١٩	﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح...﴾	١٧٠٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾	١٧١٠
٢١	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا...﴾	١٧١٠
٢٢	﴿وَإِنْ شِئِرَ الشُّدَّابِ عَنَّا اللَّهُ...﴾	١٧١٠
٢٣	﴿وَلِرَّعْلَمِ اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرًا...﴾	١٧١٠
٢٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلرَّسُولِ...﴾	١٧١٣
٢٥	﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ...﴾	١٧١٣
٢٦	﴿وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ...﴾	١٧١٣
٢٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾	١٧١٣
٢٨	﴿وَعَلِمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَاكُمْ...﴾	١٧١٣
٢٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ...﴾	١٧١٣
٣٠	﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ...﴾	١٧١٧
٣١	﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا...﴾	١٧١٧
٣٢	﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ...﴾	١٧١٧
٣٣	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...﴾	١٧١٧
٣٤	﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ...﴾	١٧١٧
٣٥	﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ...﴾	١٧١٧
٣٦	﴿وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ...﴾	١٧٢١
٣٧	﴿لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...﴾	١٧٢١
٣٨	﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا...﴾	١٧٢١
٣٩	﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ...﴾	١٧٢١
٤٠	﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ...﴾	١٧٢١
-	خاتمة	١٧٢٤
-	تخريج أحاديث وهوامش	١٧٢٥
-	فهرس الموضوعات	١٧٤٣

تم تفسير الجزء التاسع ويليهِ تفسير الجزء العاشر

إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى

تفسير القرآن الكريم

الجزء العاشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غيب
الطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْبَلَاءِ الْجَمْعَانِ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ
الَّذِينَ بَيْنَا وَهَبْتُم بِالْعُدُوِّ الْقُسُوفِ وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ
فِي الْمِيعَادِ وَلَئِنْ لَيْقِضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لَيَهْلِكَنَّ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْنَتِهِ
وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىٰ عَنْ بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي
مَنَازِلِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْنَا كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنْ
اللَّهُ سَكَنَ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَلِإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ۝٤٤﴾

المضردات :

غنمتم : من الغنم وهو الفوز ، والمراد بها هنا : ما أخذ من أموال الكفار بالقتال .

الجمعان : جمع المؤمنين وجمع الكفار .

العدوة : طرف الوادي وحافته .

الدينيا : أي : القريبة من المدينة .

القسوى : البعيدة عن المدينة .

الركب : العير وراكبها وهم أبو سفيان ومن معه .

من بينة : أي : عن حجة واضحة .

لفشلتم : لجبنتم وتهيبتم لقاء العدو ؛ من الفشل وهو ضعف مع جبن .

بذات الصدور : أي : بما تنطوي عليه القلوب .

التفسير:

٤١- وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقَرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... الآية.

تمهيد:

هذه الآية تفصيل لما أجمل حكمه في بدء سورة الأنفال: حيث بدأ الله سورة الأنفال بقوله سبحانه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ. وفي هذه الآية تفصيل لحكم الغنائم؛ التي اختص الله هذه الأمة بإحلالها لها، ولم تحل الغنائم لنبي قبل محمد صلى الله عليه وسلم؛ وقد ذكر القرآن هنا: أن الغنائم تقسم خمسة أخماس، خمس لمن ذكرتهم الآية، وأربعة أخماس للمقاتلين.

جاء في فتح القدير للشوكاني:

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ.

الغنيمة: مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر، والغنائم شاملة لكل ما غنمه المسلمون من أرض ومال وغيرهما.

فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقَرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

قال الشافعي: إن الخمس يقسم على خمسة، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف في مصالح المؤمنين، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة في الآية.

وقول أبي حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ؛ بموته كما ارتفع حكم سهمه. اهـ.

ونلاحظ أن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة، وأن الغنائم تأتي أمراً لاحقاً بعد الجهاد، فهي نافلة، تأتي زيادة على الجهاد، والنصر يأتي من عند الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك رضى الله بأن يؤخذ من المقاتلين الخمس، ويترك لهم أربعة أخماس.

والخمس كان ينفق منه على رئيس الدولة، فهو مظهر قوتها، وهو يتفقد المحتاجين ويعطى المعوزين؛ وقد أضيف سهم الخمس إلى الله؛ تشريفاً وتكريماً. والواقع أن سهم الله هو سهم الرسول أو من ينوب منابه فالخمس الذي يؤخذ من الغنائم يقسم إلى خمسة أخماس توزع على خمس فئات:

١ - الرسول ﷺ، ومن ينوب منابه من الحكام والخلفاء بعد موته عليه الصلاة والسلام.

٢ - أقارب الرسول ﷺ ، من بنى هاشم وبنى المطلب؛ لأنهم هم الذين آزره، ودخلوا معه فى شعب بنى هاشم دون بنى عبد شمس ونوفل. روى البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد»^(١) ، وشبك بين أصابعه .

٣ - اليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آبائهم .

٤ - المساكين : وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

٥ - ابن السبيل : هو المسافر المحتاج الذى انقطعت به السبل ، حتى كأن الطريق أصبح أبا له .

إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ .

إذا كنتم آمنتم بالله : فاقبلوا بحكمه ، ونفذوا أوامره ، وقسموا الغنائم كما أمر بتقسيمها .

وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ .

وهو يوم غزوة بدر كان المؤمنون قلة فى عددهم وعدتهم ، وكان الكافرون يزيدون على ثلاثة أضعافهم .

ولكن الله سبحانه أمد المؤمنين بنصره : فانتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، فى يوم الفرقان ، الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل .

يَوْمَ تَتَّقَىٰ الْجَمْعَانِ .

جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ .

وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فالنصر من عند الله ، ومن قدرة الله أنه نصركم على قتلكم وضعفكم ، ويلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر ، وأيد رسوله وأنجز وعده .

٢٤ - إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوِّ وَالرَّكْبِ أَهْلُ مَنْكِبِكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافْتُمْ فِى الْمِيعَادِ ...

إذ . بدل من يَوْمِ الْفُرْقَانِ . فى الآية السابقة أى : اذكروا أيها المؤمنون ذلك اللقاء الحاسم بينكم وبين المشركين ، واشكروه على نصره إياكم فيه ، حيثما كنتم فى مواجهة رهيبة مع الأعداء .

إِنْ كُنْتُمْ فِي جَانِبِ الْوَادِي الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَهِيَ أَرْضُ رَمْلِيَّةٍ تَسُوخُ فِيهَا الْأَقْدَامُ ، وَالْمَشْرُوكُونَ نَازِلُونَ فِي جَانِبِ الْوَادِي الْأُخْرَى الْبَعِيدَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى نَاحِيَةِ مَكَّةَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ الْمَاءِ .

وركب أبى سفيان وأصحابه أسفل منكم ، حيث كانوا ناحية الساحل ، ومعهم عيرهم على بعد ثلاثة أميال من بدر . وكان أبو سفيان فى أربعين من قريش ، وهم مع أهل مكة يدافعون دفاع المستميت ، وجميع هذه العوامل لم تكن فى صالح المسلمين ؛ فمكانهم كان ترابياً رخواً ، ومكان المشركين صلباً قوياً وليس مع المؤمنين ماء ، وكان مع المشركين ماء ، والركب مع أبى سفيان ظهير ومدد للمشركين عند الحاجة ، والمشركون متحسمون للدفاع عن التجارة ، التى نجا بها أبو سفيان ، وسار بها على ساحل البحر فى طريق منخفض عن بدر .

وتحديد مكان المعركة على هذا النحو ؛ فيه بيان لمنة الله تعالى على المؤمنين ؛ حيث أهدمهم بالنصر ، وهم أقرب إلى الضعف ، فى عددهم وعدتهم وموقعهم فى مقابل قوة عدوهم ، وقدرتهم وتوفر أسباب النصر المادية لهم .

قال الزعزعى فى تفسير الكشف :

فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كان أسفل منهم ؟

قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال ، الدالة على قوة شأن العدو وشوكته ، وتكامل عدته ، وتمهيد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله سبحانه ، ودليلاً على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وبأمر قدرته^(٣) .

وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَنْ تَمُوتُوا وَلَكِنْ أَلْمَعْتُمْ وَلَكِنْ لِيُقْضَىٰ إِلَهُكُمْ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

أى : ولو تواعدتم أنتم والمشركون فى مكان للقتال ؛ لاختلقتم فى الميعاد ، ولم ترغبوا فى لقاء المشركين ؛ هيبة منهم ، ويأساً من الظفر عليهم ، من جهة . ولأن المشركين كانوا يهايون قتال رسول الله ﷺ ، فقد كذبوا به عناداً ، واستكبروا عن الدخول فى الإسلام عن جحود وكراهية لا عن يقين واقتناع .

قال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣)

ولكن الحق سبحانه دبّر هذا اللقاء ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، بمهمة غير مبينة (أى: العير أو النغير) فلما أن ينجحوا فى الاستيلاء على تجارة قريش ، وإما أن ينجحوا فى الانتصار على قريش .

فتحركات همة المسلمين ؛ حتى خرجوا ليأخذوا العير والتجارة وتحركت همة المشركين ؛ دفاعاً عن

تجارتهم ، ورغبة فى التظاهر والسمة ، وتم اللقاء عند بدر ؛ ليحق الله الحق ، ويقضى أمراً كان مفعولاً ؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وقطع دابر المشركين وهزيمتهم ، كما قال سبحانه : سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدَّبِيرَ . (القدر: ٤٥) .

لِيُهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى: فعل الله لقاءكم فى غير ميعاد ؛ لتظهر المعجزة ؛ فى انتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، فيموت من يموت من الكفار عن حجة بيينة عاينها بالبصر ؛ تثبت حقيقة الإسلام ، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها بإعزاز الله دينه ؛ فيزداد يقيناً بالإيمان ، ونشاطاً فى الأعمال .

وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لا يخفى عليه شئ من أقوال الكافرين والمؤمنين ، ولا من عقائدهم وأفعالهم .

فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم ، ويعلم ما يظهره وما يبطنه ، ويجازى كلًّا بحسب ما يسمع ويعلم .

والخلاصة : إن غزوة بدر ، قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم ، كما بشرهم النبي ﷺ ، وقامت بها الحجة البالغة على المشركين بخذلانهم وانكسارهم ، كما أُنذَرهم النبي ﷺ .

٤٣ - إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِكِ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشيْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

تذكر الآية الرسول الأمين ، والمؤمنين بفضل الله تعالى عليهم ومنته العظيمة ؛ حيث يسر لهم أسباب النصر على عدو أكثر عدداً وعدة ومدداً .

ومن هذه النعم : إلقاء الشجاعة والقوة فى قلوب المؤمنين ، وإلقاء الاسترخاء والتهاون فى قلوب الكافرين ؛ ذلك أن النبي ﷺ رأى فى منامه أن عدد الكفار قليل ، فأخبر بذلك أصحابه ؛ فكان تثبيتاً لهم ، وتشجيعاً لهم على قتال عدوهم .

قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير :

والمعنى : أن النبي ﷺ رآهم فى منامه قليلاً ؛ فقص ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سبباً لثباتهم ، ولو رآهم فى منامه كثيراً ؛ لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر هل يلاقونهم أم لا ؟

وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ وَعَصَمَهُمُ مِنَ الْفَشْلِ ، فَقَالَهُمْ فِي عَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . ١ - هـ .

إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى : يعلم ما سيكون فيها ، من الجرأة والجبن والصبر والجزع : ولذلك دبر ما دبر^(٢) .

٤ - وَأَذِيزُيُكُمُوهُمْ^(١) إِذِ انْفَتَحَ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلُلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ .

أى : واذكروا أيها المؤمنون : الوقت الذى يريكم الله الكفار قبل القتال عددًا قليلًا ، فى رأى العين المجردة ، حتى تجرأتم وارتفعت معنوياتكم ، ويجعلكم بالفعل قلة فى أعين الكفار ، فيفتروا ولا يعدوا العدة لكم ، حتى قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور ، خذوهم أخذًا : واربطوهم فى الحبال . وأكلة جزور : مثل يضرب فى القلة ، أى : إنهم عدد قليل يكفيهم جزور واحد فى اليوم ويشبعهم لحم .
ناقة .

و (أكلة) . بوزن (كتبه) . جمع أكل ، بوزن فاعل . والجزور : الناقة^(٣) .

يَقْطُبِىَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا

أى : فعل كل ذلك ليمهد للحرب ؛ فتكون سبيلًا فى علمه تعالى لنصرة المؤمنين ، وإعزاز الإسلام ، وهزيمة الكافرين وإذلال الكفر .

وَأَلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ .

أى : إلى الله مصير الأمور ومردّها ، وفيه تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ؛ وإنما المراد منها ، ما يصلح أن يكون زادًا ليوم المعاد .

فى أعقاب التفسير

١ - روى ابن أبى حاتم وابن جرير الطبرى ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى: أتراه سبعين ؟ فقال: أراه مائة ! فأسرنا رجلا منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا^(١) .

٢ - قال الزمخشري :

لِإِنْ قُلْتَ: الغرض فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض فى تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟

قلت : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثّروهم فيما بعده ؛ ليجترئوا عليهم : قلة مبالاة بهم ، ثم تفجّروهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتقلّ شوكتهم ، حين يرون مالم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله

تعالى: قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مُمِلِّيهِمْ رَأَى الْعِثْنِ (ال عمران: ١٣) ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم ، باستيضاح الآية البينة من قتلهم أولاً ، وكثرتهم آخرًا .

٣ - قال الفخر الرازي : قال مجاهد : أرى الله النبي ﷺ ، كفار قريش في منامه قليلاً : فأخبر بذلك أصحابه ، فقالوا : رؤيا النبي حق ، القوم قليل : فصار ذلك سبباً لجرأتهم وقوة قلوبهم .

٤ - تفيد كتب السيرة : أن أسيرين من المشركين وقعا في الأسر ، فسألهما النبي ﷺ عن عدد المشركين ، فقالا : ليس لدينا علم بعددهم ، فسألهما كم يذبحون من الإبل كل يوم : قالا : يذبحون في بعض الأيام تسعاً ، وفي بعضها عشراً من الإبل .

فقال ﷺ : القوم بين التسعمائة والألف : أي : أن النبي ﷺ أخبر المسلمين بعدد المشركين في غزوة بدر ، بناء على اجتهداده ودقة تقديره .

فكيف نوفق بين ذلك ، وبين إخباره لهم بأنه رأى في الرؤيا أن عددهم قليل ؟

والجواب : أن القلة في المنام رمز إلى قلة غنائهم وقلة وزنهم في المعركة : لأنه ينقصهم الإيمان الصحيح الذي يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام والنصر : طلباً للمثوبة ، وحرصاً على الشهادة في سبيل الله .

٥ - قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

«قد تقدم أن النبي ﷺ قدر عدد المشركين بألف ، وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنه أخبرهم مع هذا ، أنه رأيهم في منامه قليلاً ، لا أنهم قليل في الواقع ، فالظاهر أنهم أولوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلاً ، وأن كيدهم يكون ضعيفاً فتجرؤوا وقويت قلوبهم» .

٦ - ذكر الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسير سورة التوبة أثناء تعليقه على تفسير هذه الآيات قوله:

«وذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكّت لنا جانباً من أحداث غزوة بدر ، بأسلوب تصويري بديع؛ في استحضاره لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدبيره المحكم ، الذي كان فوق تدبير البشر ، ومن تهئية الأسباب الظاهرة والخفية التي أدت إلى نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين»^(١).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَيْسَتْهُ فَتَةٌ فَاقْتَبُوا وَادَّكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا بِالنَّفْسِ أَنْ تَنْفُسُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِيعَةً لِلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَآعِمِلُونُ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لِغَالِبٍ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفُتَيَانُ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْهَوْا لَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾

المفردات :

فتة : جماعة .

ولا تنازعوا : ولا تختلفوا .

تفشلوا : تجبنوا وتضعفوا . والفشل في الأصل : الخيبة والنكول عن إِمضاء الأمر وأكثر أسبابه : الضعف والجبن ولذلك فسروه هنا بهما .

تذهب ريحكم : تذهب قوتكم .

بطرا : طغيانا وتجبرا - والبطر في اللغة : الفخر والاستعلاء بنعمة الغنى أو الرياسة أو غيرهما ، يعرف في الحركات المتكلفة والكلام الشاذ .

رياء الناس : مراثين الناس . والرياء والمرآة : إظهار العمل : رغبة في فناء الناس والإعجاب به وهو محبط للأعمال الأخروية .

تكمن على عقبيه ، رجع القهقرى ، أى : تولى إلى الوراء جهة العقبين ، والمراد : كف الشيطان عن وسوسته وذهب ما خيله من المعونة لهم .

جار لكم ، أى : مجير وناصر ، والجار الذى يجير غيره أى : يؤمنه مما يخاف .

غر هؤلاء دينهم ، أى : خدع هؤلاء المسلمين دينهم ، فظنوا أنهم ينصرون به فأقدموا على ما أقدموا عليه مما لا طاقة لهم به .

التفسير ،

٥ هـ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا... الآية .

هذه الآيات تُعلم المسلمين آداب القتال ، وفنون الحرب ، وتحثهم على التخلق بالثبات فى النزال ، وعدم التفكير فى الهزيمة أو الفرار .

يروى أن معاوية بن أبى سفيان قال :

فكرت فى الهزيمة يوم صفين : فتذكرت قول عمرو بن الإطنابة :

أقول لها وقد طارت شعاعاً	من الأبطال : ويحك لن تراع
فإنك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذى لك لم تطاع
سبيل الموت راحة كل حى	فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لم يعتبط بسأم ويهزم	وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة	إذا ما عُدَّ من سقط المتاع

ومعنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، إذا حاربتكم جماعة من الكفار ، والتقيتم بهم فى ميدان الحرب ، فالواجب عليكم أن تثبتوا فى قتالهم ، وتصمدوا للقاتلهم ، وإياكم والفرار من الزحف ، وتولييتهم الأدبار ، فالثبات فضيلة ، والفرار كبيرة !.

وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وعليكم بذكر الله تعالى ذكراً كثيراً ، والتضرع إليه بالقلب واللسان ، مع اليقين الجازم بأنه سبحانه على كل شئ قدير ، وبيده الخلق والأمر ، كما فعل المؤمنون السابقون من أتباع طالوت ، حيث رغبوا فى الثبات ، وتذرعوا بالصبر وأخذوا العدة إلى النصر ، قال تعالى :

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ • فَهَزَمُوهُمْ
يَاذُنِ اللَّهِ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٥٠، ٢٥١)
فالنصر حليف الثبات واليقين ، والرغبة فى الشهادة ، والحرص على مرضاة الله : كم من فئة قليلة
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذُنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (البقرة: ٢٤٩) .

وَذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عُونِ فِي الشَّدَائِدِ ، وَسَبِيلَ إِلَى النُّصْرِ ، وَيَابِ مِنْ أَبْوَابِ الثُّوَابِ وَالْأَجْرِ .
قال تعالى : وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالَّذَاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٣٥)
وذكر الله سبيل إلى الفلاح والنصر ، وطريق إلى علو الهمة ، واستمداد العون من الله . قال تعالى : وَاذْكُرُوا
اللَّهُ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وهذا يدل على أن ذكر الله تعالى مطلوب فى أحوال العبد كلها ، سلمًا وحرَبًا ، وصحة ومرضًا . وإقامة
وسفرًا : فذكر الله دواء وذكر الناس داء .

من هدى السنة

أخرج البخارى ومسلم فى كتاب الجهاد : عن عبد الله بن أبى أوفى ، أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه
التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ،
وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال : اللهم منزل
الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهامز الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم^(١) .

وجاء فى الحديث المرفوع ، يقول الله تعالى : «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى ، وهو مناجز قرنه»^(٢)
أى : لا يشغله ذلك الحال ، عن ذكرى واستعانتى .

٤٦- وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا فَنفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ .

هذه الآية معطوفة على ما قبلها ، حيث يرسم الحق سبحانه لعباده المؤمنين طريق النصر ، فأمرهم
بالثبات ويذكر الله تعالى ، فى الآية السابقة .

وعطف هذه الآية على ما سبق ، فأمرهم بطاعة الله ورسوله ، والتزام أوامرهما ، والابتعاد عما نهى
الله ورسوله عنه .

وطاعة الله باب من أبواب السعادة الدنيوية والأخروية ، فمن وجد الله : وجد كل شيء ، ومن فقد الله : فقد كل شيء . وقد روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل :

«ما تقرب عبدى إلى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه . فإذا أحببته : كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى : لأجيبته ، ولئن سألنى : لأعطينه»^(١) .

النزاع

تنهى الآية عن التنازع والاختلاف ، وعندما تختلف طوائف الأمة ، ويحاول كل طرف أن ينزع ما فى يد الطرف الآخر : يأتى باب الفشل والإحباط والاصطدام ، فتنحط الدولة ، وتذهب ريحها ، وهو كناية عن دوال دولتها ، واضمحلال أمرها .

ومن كلام العرب: هبّت ريح فلان : إذا دالت له الدولة ، وجرى أمره على ما يريد : وركبت ريح فلان : إذا ولّت عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها فما تدري السكون متى يكون ؟

ثم تأمر الآية بالصبر : فالصبر طريق الظفر ، وقد ذكر الصبر فى القرآن الكريم فى أكثر من سبعين موضعاً . والصبر من المؤمن بمنزلة الرأس من الجسد ، من لا صبر له : لا إيمان له ، ومن لا رأس له : لا جسد له . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران : ٢٠٠) .

ويكفى أن الله وعد الصابرين بأن يكون معهم بالعون والتأييد والنصر : فقال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وبذلك ترى أن الله تعالى يعلم عباده المؤمنين السبيل إلى النصر : فيأمرهم بما يأتى :

١ - الثبات عند اللقاء .

٢ - ذكر الله ذكراً كثيراً فى شدة البأساء .

٣ - طاعة الله ورسوله .

٤ - البعد عن التنازع والاختلاف .

٥ - الصبر ، وإعداد العدة ، والتضحية بالنفس والمال .

وهى فى جملتها عوامل أساسية فى ترابط بنيان الأمة ، وقوة شأنها ، وانتصارها على أعدائها .

قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهاتين الآيتين ما يأتي :

وقد كان للصحابة رضى الله عنهم فى باب الشجاعة ، والالتزام بما أمرهم الله ورسوله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ، من الروم والفرس ، والترك والصقالبة والبربر ، والحبوش ، وأصناف السودان ، والقبط وطوائف بنى آدم ؛ قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاريها ، فى أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وحشرنا فى زمرةم ، إنه كريم وهاب^(١٧) .

٤٧- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

تستمر هذه الآية فتكمل مع ما سبقها أسباب النصر وهى فى جملتها : البعد عن البطر والكبر والرياء ، وعن التعالى على عباد الله ويتبع ذلك الغرور وجنون العظمة ، ثم منع الناس من الهدى ومن طريق الله وهو طريق الحق والخير ، مع أنه تعالى محيط بما يعملون ، ومطلع على نياتهم وسوف يحاسبهم على ذلك .

سبب النزول ،

أخرج ابن جرير الطبرى عن محمد بن كعب القرظى ، قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا . بالقيان والدُفوف ؛ فأنزل الله : وَلَا تَكُونُوا ... الآية .

وقال البهوى فى تفسيره :

نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ، ولهم بغى وفخر ؛ فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ، هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك ، وتكذب رسولك ، اللهم ، فنصرك الذى وعدتنى^(١٨) . »

قالوا : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ؛ أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا - وكان موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام - فنقيم ثلاثاً ، فننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونُسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم الزناجير مكان القيان . فنهى الله عباده أن يكونوا مثلهم ، وأمرهم بإخلاص الذية ، والحسبة فى نصر دينه ، ومؤازرة رسوله ﷺ .

ما ترشد إليه الآيات

تأمل الآيات بقواعد حربية ، هي عمد ثوابت في نظام الحروب ، ولا يمكن لجيش قديم أو حديث أن يتخلى عن هذه النصائح التي تكون سبباً في إحراز النصر والغلبة وهذه القواعد والنصائح هي ما يأتي:

١ - الثبات عند اللقاء والرغبة في الشهادة والأجر من الله .

٢ - ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً والالتجاء إليه بصدق النية مثل قول أصحاب طالوت: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبْرَأً وَكُنْتَ أَفْأَمَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (البقرة: ٢٥٠) .

٣ - طاعة الله ورسوله ، في امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وكذلك طاعة القائد وامتثال أوامره .

٤ - الصبر والتحمل ، فهو طريق الظفر: وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

٥ - البعد عن الجطر (وهو الفخر والاستعلاء والتكبر) .

٦ - البعد عن التشبه بالكافرين الذين يصدون الناس عن سبيل الله ، ويمنعونهم في طريق الهدى والرشاد.

٧ - الثقة بأن الله محيط وعالم بكل ما يعمل الإنسان ، وسيجازهه على ذلك ، فيخلص العبدُ النية ، وعليه بالتقرب إلى مولاه ، مع التواضع والانكسار بدلاً من الرياء والافتخار.

٤٨- وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ... الآية .

أي : واذكر أيها الرسول للمؤمنين حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم في معاداة الرسول والمؤمنين ؛ بأن وسوس لهم وحسن لهم ما جُبِلوا عليه من غرور ومراعاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم في هذا الحرب .

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ .

أي : من النبي ﷺ وأصحابه ؛ فألقى الشيطان في روعهم ، أنه لن يغلِبكم أحد من الناس ؛ لا محمد - ﷺ - وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب .

وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ .

أي : مجير ومعين وناصر لكم ؛ إذ المراد بالجار هنا الذي يجبر غيره ، أي : يؤمِّنه مما يخاف ويخشى .

فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ كَخَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ .

فلما أبصر كل من الفريقين الآخر ، وقد رجحت كفة المؤمنين ، بإمداد الملائكة لهم ؛ يطل كيد الشيطان وتزيينه ، ويظهر عجزه عن نصرة الكافرين ؛ وولى هارباً على قفاه ، راجعاً للوراء ، والمراد : بطلان كيده وهزيمته مع شيعته . أى : أنه كفَّ عن تزيينه لهم وتغريه بهم .

يقال : نكص عن الأمر نكوصاً ونكصاً ، أى : تراجع عنه وأحجم ، والعقب : مؤخر القدم .

وَقَالَنِي إِلَىٰ بَرِيءٍ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .

أى : قال الشيطان للمشركين ، إني برىء من عهدكم وجواركم ونصرتكم ، إني أرى من الملائكة النازلة ؛ لتأييد المؤمنين ما لا ترونه أنتم .

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ . أن يصيبني بمكروه من قبل ملائكته .

وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . يحتمل أنه من كلام إبليس الذى حكاه الله عنه ، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه عز وجل .

أى : والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره .

تزيين الشيطان معنوى أو حسى

ذهب جمهور المفسرين ، إلى أن الشيطان ظهر للمشركين يوم بدر ، ظهوراً حسياً يغريهم بالنصر ، ويعدمهم بالحماية والتأييد^(١٦) .

وروى عن الحسن والأصم أن تزيين الشيطان كان على سبيل الوسوسة ، ولم يتمثل لهم .

فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة ، والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده .

وقد ذهب ابن كثير وابن جرير الطبري وغيرهم على أن التزيين من الشيطان كان تزييناً حسياً .

وأورداً روايات كثيرة تدور حول ظهور الشيطان للمشركين ، وورد مثل ذلك فى تفسير القرطبى والزمخشري ؛ فروى أن قريشاً لما اجتمعت تريد حرب المسلمين فى بدر ؛ ذكرت الذى بينها وبين كنانة من الحرب ؛ لأن قريشاً كانت قتلت رجلاً من كنانة ، وكانت كنانة تطلب دمه ، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم ، فتتمثل إبليس اللعين ، فى صورة سراقاة بن مالك بن جشعم الشاعر الكناني ، وقال : أنا جاركم من بنى كنانة ، فلا يصل إليكم مكروه منهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم ، فلما رأى إبليس الملائكة تنزل ؛ نكص .

وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين؟ أتخذلنا فى هذه الحال؟ قال: إنى أرى مالا ترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهزموا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم ، فلما أسلموا ؛ علموا أنه الشيطان .

وفى موطن مالك : عن طلحة بن عبيد الله بن كرز أن رسول الله ﷺ قال :

«ما روى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدهر ولا أحقر ولا أغيط منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ؛ إلا ما روى يوم بدر ، قيل : وما روى يوم بدر ، قال فإنه قد رأى جبريل يزغ^(١٩) الملائكة»^(٢٠)

خلاصة أقوال المفسرين فى الآية

بمراجعة أقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين ، نراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١- قسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسياً بمعنى : أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال .

وممن فعل ذلك ابن جرير الطبرى ، وابن كثير ، والقرطبى .

٢- قسم ذكر : أن فى التزيين وجهين .

أحدهما : أنه وسوسة من غير تمثيل فى صورة إنسان .

ثانيهما : أن إبليس ظهر فى صورة إنسان ، ولم يرجع أحد القولين على الآخر وممن فعل ذلك الزمخشري ، والفخر الرازى ، والآلوسى ، وأبو السعود .

٣- قسم منهم رجح أن التزيين لم يكن حسياً ، بل كان عن طريق الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وقد سار فى هذا الاتجاه صاحب المنار مشككاً فى صحة ما سواه ، ونحن نؤمن بالآية وبما أثبتته القرآن الكريم من أن الشيطان قد زين للمشركين أعمالهم ، وأنه قد نكص على عقبيه . إلخ . إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

وبعبارة أوضح : نحن أقرب إلى الفريق الثانى من المفسرين الذين ذكروا القولين السابقين فى كيفية التزيين دون ترجيح لأحدهما على الآخر .

فالقول محتمل لأن يكون التزيين معنوياً بمعنى: الوسوسة والإغواء والتحريض، وأن يكون حسياً بأن يتمثل الشيطان رجلاً يفرهم ثم يخذلهم ويتركهم خائفاً منهزماً.

وكان موقف «فى ظلال القرآن»، قريباً من هذا الاتجاه. حيث قال:

وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج... وأنه بعد ذلك نكص على عقبيه... فخذلهم وتركهم؛ يلاقون مصيرهم وحدهم.

ولكننا لا نعرف الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم، والتى قال بها: لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ. والتى نكص بها كذلك..

الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها؛ ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشئ من أمره إلا بنص قرآنى؛ أو حديث نبوى صحيح، والنص هنا لا يذكر الكيفية، إنما يثبت الحادث.

إلى هنا ينتهى اجتهادنا، ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده، فى تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلاً معيناً، ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية:

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ... أى: واذكر أيها الرسول للمؤمنين، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته، قال لهم: بما ألقاه فى هواجسهم لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ... إلخ ما ذكره الشيخ رشيد فى تفسير الآية. ١ هـ.

أى: أن (فى ظلال القرآن) لا يستبعد أن يكون التزيين معنوياً بمعنى الوسوسة، وأن يكون حسياً بمعنى تمثّل الشيطان فى صورة رجل كسرافة بن مالك بن جشعم الكنانى.

وأخيراً إننا نؤمن بالنص، ونذكر أنه محتمل لرايين، ونفوض حقيقة المراد إلى الله تعالى، والله أعلم.

٤٩- إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ... الآية.

تشير الآية إلى موقف المنافقين فى المدينة، والمشركين فى مكة، وإلى غيرهم من الأعراب، ومن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم.

فقد رأوا قلة مؤمنة فى بدر، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، تخرج للقاء كثرة كافرة، تزيد على ثلاثمائة، وهؤلاء المنافقون ومرضى القلوب، يزنون الأمور بميزان الكثرة المادية، والأمور الحسية.

فقالوا : ما خرج هؤلاء المؤمنون إلا غروراً بدينهم : فقد خدعهم دينهم فخرجوا على قتلهم : لقتال جيش قوى كبير مستعد : فهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .

وقد تكفل الحق سبحانه بالرّد عن المؤمنين ، الذين أخذوا في أسباب النصر ، وأعدوا العدة ثم توكّلوا على الله . فقال سبحانه :

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ومن يفوض أمره إلى الله ، ويتق به ويلجأ إليه ، مؤمناً صادقاً عاملاً ، متيقناً بقدرة خالقه ، وأن بيده الخلق والأمر : فإن الله ينصره ويؤيده ، وما النصر إلا من عند الله .

لِإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

أى : غالب على أمره حكيم فى فعله .

وقد اقتضت سنته ، أن ينصر الحق على الباطل ، وأن يسلط القليل الضعيف على القوى الكثير .

ورغم أن الآية تشير إلى أحداث غزوة بدر : فإنها عامة فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، إنها تصف طبيعة بعض الناس فى عصرنا وسائر العصور : هؤلاء الذين يسخرون من أصحاب الدعوات المخلصة على قتلهم ، وقلة ما يملكون من تراث الدنيا ، ويقولون : غر هؤلاء دينهم وعقيدتهم .

وما علموا أن هؤلاء الدعاة الهداة ، يملكون شيئاً قيماً ، هو صدق الإيمان ، وسلامة النية ، وإخلاص الدعوة ، وحرارة العقيدة ، وصدق التوكل على الله ، بعد العمل والأمل ، فالله لا يخذلهم بل يمدّهم بنصره وعونه : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

من أسباب الغزوة :

روى عن مجاهد أنه قال فى تفسير الآية ٤٩ من سورة الأنفال : هم فئة من قريش ، قيس بن الوليد ابن المغيرة ، والحارث بن زُمنة بن الأسود بن المطلب ، ويعلى بن أمية ، والعامر بن مُثَنَّى ، خرجوا مع قريش من مكة ، وهم على الارتياح ، فحبسهم ارتياحهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غر هؤلاء دينهم : حين أقدموا على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

• هـ - وَلَوْ رَكَّبَهُ إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمَلَائِكَةً يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ ... الآية .

أى : ولو عاينت يا محمد حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة ببدر وتذرع أرواحهم .

أو المعنى : ولو عاينت وشاهدت أيها العاقل ، أو يا كلُّ من تتأتى منه الرؤية ، حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة ، فينزعون أرواحهم من أجسادهم ، ضاربين وجوههم وأقفيتهم وظهورهم بمقامع من حديد . قائلين لهم : ذوقوا عذاب النار .

وجواب لَو محذوف دل عليه المذكور والتقدير : لعائنت أمرًا عظيمًا ، تقشعرُّ من هول الأبدان .

وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

أى : يقولون لهم : ذوقوا عذاب اللهيب المحرق ، والمراد بضرب وجوههم وأدبارهم : ضربهم من كل ناحية .

٥١ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ كَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ .

أى : هذا العذاب الذى ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم ، من سيئ الأعمال فى حياتكم من كفر وظلم ؛ وهذا يشمل القول والعمل .

ونسب ذلك إلى الأيدى ، وإن كان قد يقع من الأرجل وسائر الحواس ؛ أو بتدبير العقل ؛ من أجل أن العادة قد جرت ، بأن أكثر الأعمال البدنية تزاوُل بالأيدى .

وَأَنَّ اللَّهَ كَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ .

لقد جازاكم الله عدلاً لا ظلماً ؛ لأن الله لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذى لا يجوز أبداً ، قال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧) .

جاء فى الحديث القدسى الصحيح ، الذى رواه مسلم : عن أبى نذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول : يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ... يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلو منْ إلا نفسه»^(٩٧) .

ظالم وظلام

نجد أن قوله تعالى : وَأَنَّ اللَّهَ كَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ . قد جاء فيها التعبير بنفى الظلم عن الله بصيغة المبالغة ظَلَمَ . وهل إذا انتفت المبالغة فى الظلم ، أينتفى معها الظلم نفسه ؟

والجواب - والله أعلم - أن صيغة المبالغة هنا ، إنما تكشف عن وجه البلاء الذي وقع بالمشركين ، وأنه بلاء عظيم ، وعذاب أعظم ، وأن الذي ينظر إليه يجد ألا جريمة توازي هذا العقاب ؛ وتتوازن معه في شدته ، وشناعته ، حتى ليخيل للمناظر أن القوم قد ظلموا ، وأنه قد بُولِغَ في ظلمهم إلى أبعد حد ، فجاء قوله تعالى: **وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ** . ليدفع هذا الوهم الذي يقع في نفس من يرى هذا البلاء الذي حل بهؤلاء القوم الضالين ، وهو بلاء فوق بلاء ، فوق بلاء^(١٧)

وجاء في تفسير القاسمي ما يأتي:

إن قيل : ما سرُّ التعبير بقوله : **ظَلَمَ** . بالمبالغة مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفي أصله ، بل ربما يشعر بوجوده ، ويرجع النفي للقيد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أن ظلاماً . للنسب كعطار . أي : لا ينسب إليه الظلم أصلاً .

ومنها : أن العذاب من العظم : بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلاماً بليغ الظلم متفاقمه ؛ فالمراد : تنزيه الله تعالى ، وهو جدير بالمبالغة^(١٨) .

★ ★ ★

﴿ **كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴿٥٢﴾ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَذِّبُوا مَا إِنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٥٣﴾ **كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلُّ كَاذِبٌ ظَالِمٍ** ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

كذاب ، الداب : العادة التي يدأب عليها الإنسان ويعتادها .

التفسير :

٥٢ - **كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ** .

المناسبة :

ذكر القرآن هلاك المشركين في غزوة بدر ، ثم بين أن سنة الله تعالى مستمرة ؛ فهو سبحانه ينعم على الناس بالنعم ، ويمتنّ عليهم بالسمع والبصر ويسخر الليل والنهار ، ويعطيهم الجاه والسلطان ؛ فإذا شكروا الله تعالى ، واستخدموا النعمة في طاعته ؛ زادهم الله من فضله . وإذا كفروا وكذبوا ، وعاندوا ، أرسل الله عليهم نقمته ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، ودمدم الأرض وسواها على ثمود ، وأهلك المكذبين بصنوف العذاب ، كما أغرق فرعون وقومه في البحر .

وقد كان النيل نعمة من الله عليه . فاستخدمها في العدوان ، وَقَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ هـ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . (الزخرف: ٥١ ، ٥٢) .

فما أشقى هؤلاء الكفار قاطبة ، وليتهم اعتبروا بالعبر والعظات ، وبمن سبقهم في التاريخ .

المعنى :

إن هؤلاء الكفار في كفرهم ، وعنادهم ، ومقاومتهم لرسول الله ؛ أشبهوا قوم فرعون ، والأمم التي كانت قبلهم الذين استحبوا العمى على الهدى ، وسارعوا إلى المعصية وإنكار وجود الله ووحديته ، وتكذيب الرسل ؛ فأخذهم الله بسبب ذنوبهم وكفرهم أخذًا شديدًا .

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ . غالب لا يغلّبه أحد .

سَلِيبُ الْعِقَابِ . لمن خرج عن طاعته ، وأصرّ على كفره وعناده .

٥٣- ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

اقتضت سنته تعالى ، ألا ينزع نعمة عن قوم إلا إذا كفروا وفجروا ، وارتكبوا الذنوب والسيئات ، ولم يقابلوا النعمة بالشكر والعرفان ، بل قابلوها بالكفر والنكران ، فاستحقوا عقاب الله العادل وحكمه ؛ جزاء كفرهم وعنادهم .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .. (الرعد: ١١) .

وفي هذه دلالة واضحة على أن استحقاق النعم ؛ منوط بصلاح العقائد ، وحسن الأعمال ، ورفعة الأخلاق ، وأن زوال النعم يكون بسبب الكفر والفساد وسوء الأخلاق .

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . بما نطق به الكافرون من سوء ، وعَلِيمٌ بما ارتكبه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب .

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل: ٣٣)

من تفسير الفخر الرازي :

جاء في تفسير الفخر الرازي : قال القاضي: معنى الآية : أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود: أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر : فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنعم ، والمنح بالمحن . وهذا من أوك ما يدل على أنه تعالى ، لا يتبدئ أحداً بالعذاب والمضرة .. اهـ .

٤ هـ - كَذَابٍ أَلْفِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۖ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ .

تؤكد هذه الآية ، ما سبق في الآيتين السابقتين : وهو التكرير لأهمية الموضوع ، وبيان قاعدة أساسية إلهية ، عادلة عمادها : أن نمو الأمم في قوة أخلاقها ، وسلامة أفعالها . وأن هلاك الأمم يكون في كفرها بالنعم ، وانشغالها بالشهوات والملذات ، وإثارة العاجلة على الآجلة .

ومعنى الآية :

شأن هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشأن آل فرعون ومن تقدمهم من الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود ... كذب أولئك جميعاً بآيات ربهم التي أوجدها لسعادتهم ، فكان من نتيجة ذلك أن أهلكتهم بذنوبهم التي من جملتها التكذيب ، وأغرق الله آل فرعون ، الذين زينوا له الكفر والبطر والطغيان ، وأرسل الريح على عاد قوم هود ، والصيحة على غيرهم .

وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ .

أى : أن كلاً من مشركي قريش ، وآل فرعون والذين من قبلهم من المكذبين ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم وعنادهم ، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم وتكذيبهم : فاستحقوا الهلاك والعذاب .

وفي سورة العنكبوت ، استعرض القرآن الكريم أمم المكذبين من قوم لوط ، وأصحاب مدين ثم قال سبحانه : وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَائِكِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَلَسُّنَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَعْصِرِينَ • وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ • فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ

فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتِ الصَّيْحَةُ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٨-٤٠) .

تكرير ذكر فرعون

تكرر ذكر فرعون في آيات متقاربة ؛ لأنه أكثر بغياً وظلماً وعدواناً ، وقد استخف قومه وطلب منهم طاعته ، فأطاعوه نفاقاً لا يقيناً ، ثم أغرق الله الجميع عقاباً عادلاً .

روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال :
«إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(١٩) .

وقد ورد في السيرة : أن النبى ﷺ لما جاءه خبر مقتل أبى جهل فى بدر ؛ ذهب حتى وقف عليه ثم قال: هذا فرعون هذه الأمة^(٢٠) .

وعلاصة القول :

إن ما دونه التاريخ من دأب الأمم وعاداتها ، فى الكفر والتكذيب ، والظلم فى الأرض ، ومن عقاب الله إياها .
جار على سنته تعالى المطردة فى الأمم ، ولا يظلم ريك أحداً بسلب نعمة منهم ، ولا بإليقاع أذى بهم ، وإنما عقابه لهم أثر طبيعى ؛ لكفرهم وظلمهم لأنفسهم ، وقد حكى سبحانه جانباً من عناد فرعون ثم قال سبحانه :

فَلَا تَسْتَخَفْ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ • فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ • فَبَجَعْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ . (الزخرف: ٥٤-٥٦) .

أى : أن الله جعل منهم عبرة ونموذجاً لكل ظالم يأتى فى الآخرين من بعدهم .
قال تعالى : وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

قال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس: ٤٤) .

من حاشية الجمل

جاء فى حاشية الجمل على تفسير الجمل ما يأتى :

لإن قلت : ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟

قلتُ : فيها فوائد منها :

١ - أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأول : لأن فى الآية الأولى ذكر : أخذهم ، والثانية ذكر : إغراقهم فذلك تفسير للأول .

٢ - ومنها : أنه ذكر فى الآية الأولى : أنهم كفروا بآيات الله ، وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربه ، ففى الآية الأولى إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله وجحدوها .

وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحدهم لها ، وكفرهم بها .

٣ - ومنها : أن تكرير هذه القصة للتأكيد .

★ ★ ★

﴿ إِن شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَشَفَقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَمٍّ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْعُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَأَنذِرْ لَهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المضردات :

الدواب : جمع دابة وهى : كل ما يذب على وجه الأرض .

ينقضون عهدهم : أى : يفيكونه ، والمراد : أنهم لا يوفون به .

تثقت بهم : تلقاهم وتجدهم .

فشرد بهم من خلفهم : فافعل بهم فلا يخيف من وراءهم ويشردهم . والتشريد : التبديد والتفريق .

تخافن من قوم خيانة : أى : تتوقع من قوم خيانة بنقض العهد ونكته .

فأنذر إليهم على سواء : فاطرح إليهم عهدهم على طريق سوى من العدل بأن تخبرهم بذلك .

سَبَقُوا ، فاتوا وأفلتوا من عقابنا .

لا يَعْجِزُونَ ، لا يفوتون ولا يفلتون من عقاب لله بل هو قادر عليهم .

مِنْ قُوَّةٍ ، من كل ما يتقوى به في الحرب .

رِجَاطُ الْخَيْلِ ، المكان الذي ترابط فيه الخيل المعدة للقتال .

تَرْهَبُونَ ، تخوفون .

لَا تَعْلَمُونَهُمْ ، لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة .

التفسير :

٥٥- إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

نزلت هذه الآيات في جماعات اليهود الذين كانوا يقيمون في المدينة ويثيرون الفتن والفتن .

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ؛ فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه المشركين بالسلاح في يوم بدر ، ثم قالوا : أخطأنا ؛ فعاهدناهم مرة أخرى فنقضوه يوم الخندق^(١) .

والنهي :

إن شر جميع ما يدب على وجه الأرض ؛ هم الذين كفروا برسول الله ﷺ ، وأصروا على الكفر ولجأوا فيه ؛ فلم يفتحوا قلوبهم للإيمان ، ولم يحركوا عقولهم للنظر .

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . فهم مستعمرون على عدم إيمانهم ؛ مع قيام الحجة عليهم ، وثبوت أوصاف النبي محمد ﷺ في كتبهم ، قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة: ٦) .

٥٦- الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ لِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

لقد تكرر منهم الغدر وعدم الوفاء ، فهذا دأبهم وتلك طبيعتهم ، نقض العهود والمواثيق في كل وقت ، وهم مع ذلك لا يشعرون بالحرج أو الخجل ، ولا يتقون الله ، ولا يخشون عقابه لهم على نكثهم العهد ، وما يجره ذلك من نكبات تحل بهم .

٥٧- إِمَّا تَقِفَتْهُمْ فِي الْحَرْبِ فَفَرَدَّ بِهِمْ مِنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ .

أي : إذا كان حالهم ما ذكر من نقض العهد ، فإن ظفرت بهم في الحرب ؛ فافعل بهم فعلاً قوياً ناجحاً ؛ لأنهم يستحقون القتل جزاء غدرهم ونقضهم للعهد ، وإذا عاقبتهم عقوبة رادعة ؛ أدّى ذلك إلى تفريق أعداء

المسلمين ، فإنك إذا تكلمت بمن خان العهد ؛ أدنى ذلك إلى بث الرعب فى قلوب الآخرين ، الذين يتريصون للقتال المسلمين ، ويفكرون فى نقضهم عهودهم .

أى : لعل الأعداء من ورائهم ، يتعطلون بما فعلت مع هؤلاء من حرب ونكاية وتشريد ، فيتخذون من ذلك العبرة ويحجمون عن نقض العهد ؛ مخافة أن يصنع بهم مثل ذلك .

قيل لعنترة : أنت أشجع العرب ، قال : لا .

قيل : فهم شاع عنك ذلك ؟

قال : كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا ، وأعدم إلى الضعيف الجبان فأضر به الضربة الهائلة : يطير لها قلب الشجاع ثم أثنى عليه فأقتله .

٥٨- وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَلَا تَؤْتِكُمْ عَلَيْهِمْ سِوَاءَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ .

أى : إن توقعت من قوم معامدين الخيانة ، وغلب ذلك على ظنك ، بأمارات غالبية ، بنقض العهد الذى بينك وبينهم .

فَلَا تَؤْتِكُمْ عَلَيْهِمْ سِوَاءَ .

فأطرح إليهم عهدهم ، وأعلمهم بذلك وأنه لا عهد بعد اليوم ، ولتكن أنت وهم فى ذلك العلم وطرح العهد على سواء ، فتكون أنت وهم متساوين فى العلم بنقض العهد ، ويأتك حرب لهم ، وهم حرب لك .

أى : قيام حالة الحرب ؛ لئلا يتهموك بالغدر إن أخذتهم بغتة . والنهذ لغة : الرمي والرفض ، والسواء : المساواة والاعتدال .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ .

إن الله يكره الخيانة ، ويعاقب عليها ، حتى ولو فى حق الكفار ، فلا يك منك إخفاء نكت العهد .

من تفسير ابن كثير

أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية ، تحت على الوفاء وتحرم الغدر ، وتدعو إلى أداء الأمانة إلى أهلها ؛ سواء أكان صاحبها مسلمًا أم كافرًا .

قال الإمام أحمد : عن شعبة عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمدٌ ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ،

وفاء لا غدراً ، إن رسول الله ﷺ قال : من كان بينه وبين قوم عهداً فلا يحلن عقدة ولا يشدها ، حتى ينقضى أمدها ، أو ينبدل إليهم على سواء ، مبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضى الله عنه ^(٣٣) .

وروى البيهقي أن النبی ﷺ قال :

«ثلاثة : المسلم والكافر فيهن سواء :

من عاهدته فوفأ بعهده مسلماً كان أو كافراً ؛ فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها ، مسلماً كان أو كافراً ، ومن اتتمتك على أمانة فأدأها إليه ، مسلماً كان أو كافراً» ^(٣٤) .

٥٩- وَلَا يَحْسِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْزَوْنَ .

هذه الآية إنذار للخائفين بما يحل بهم من عقاب ، وتحذير للمشركين ، الذين أفلتوا من القتل يوم بدر وغيره .

والمعنى :

لا يظنن الذين كفروا ، أنهم أفلتوا من الظفر بهم ، ونجوا من عاقبة خيانتهم ، وأنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، وأنهم سبقوا عقاب الله وأفلتوا منه ؛ بل هم تحت قدرتنا وفي قبضة مشيتتنا .

فلا يعجزوننا في الدنيا ولا في الآخرة .

فلهم في الدنيا الهزيمة والقتل والأسر ، ولهم في الآخرة عذاب الجحيم .

قال تعالى : لَا تَحْسِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ . (النور: ٥٧) .

وقال تعالى مخاطباً للمشركين : وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . (التوبة: ٢) .

وفى هذه الآية بشرى للنبي ﷺ بما يطمئن قلبه على مستقبل الدعوة الإسلامية ، وأنها إلى نصر ، وأن

أعداءه إلى هزيمة .

٦٠- وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ... الآية .

انتصر المسلمون في غزوة بدر بفضل الله وعونه ، وأراد القرآن أن يذبه المسلمين ، إلى وجوب إعداد

القوة الحربية والمادية والأدبية والنفسية والمعنوية ، وكل وسائل القوة يجب إعدادها وتجهيزها ؛ فلا شيء يمنع الحرب مثل الإعداد لها .

والمعنى :

هينوا لقتال الأعداء ، ما أمكنكم من أنواع القوى المادية والمعنوية ، من كل ما يتقوى به عليهم فى الحرب؛ من حصون وقلاع وسلاح .

ويشمل ذلك وسائل القوة الحديثة كالدفاع والبرارج ، والدبابات ، والمصفحات ، والمدركات ، ودراسة الفنون الحربية الحديثة التى تساعد على توجيه الأسلحة ، وإحكام تصويب القتال والرمى ؛ فإن النصر متوقف على استخدام القوة المتاحة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ .

رَبَاطُ الْخَيْلِ : هو المكان الذى تربط فيه الخيل عند الحدود ؛ ليحرس فرسانه الثغور ، ويراقبوا العدو ، وقد كانت الخيول أداة الحرب البرية الرهيبة فى الماضى ، وما تزال لها أهميتها أحياناً فى الحاضر ، مثل نقل بعض المؤن والذخيرة فى الطرق الجبلية . وإن كان الدور الحاسم اليوم هو لسلح الطيران ، والدفاع ، والدبابات ، والغواصات البحرية ، المزودة بوسائل التقنية الحديثة ، المساعدة على إحكام الرمى وإصابة الهدف .

ومن الحديث الشريف : «لَا إِنْ الْقُوَّةَ الرَّمْيَ»^(٣١) .

وقد كان الرمى وسيلة لإصابة أهداف العدو من بعيد ؛ فكل ما يحقق النصر يجب اتخاذه من عدد الحرب ؛ لأن المهم تحقيق الأهداف ، وأما الوسائل والآلات ؛ فهى التى يجب إعدادها بحسب متطلبات العصر ، ويكون المقصود إعداد جيش دائم ، مستعد للدفاع عن البلاد ، مزود بأحدث الأسلحة وأقدرها على إحراز النصر . مع التدريب المستمر ، وإنفاق المال على تسليح الجيش ؛ بحسب الطاقة .

وقد خص الله الخيل بالذكر ، وإن كانت داخلة فى القوة ؛ تشريعاً لها وتكريماً ، واعتداداً بأهميتها . كما ذكر جبريل وميكائيل مع الملائكة تشريعاً لهما .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ^{٣٢} .

تبيين الآية هنا سبب الإعداد وحكمته وهو إرهاب عدو الله وعدو المسلمين ، من الكفار الذين ظهرت عداوتهم . مثل مشركى مكة فى الماضى ، وإرهاب العدو الخفى الموالى لهؤلاء الأعداء ، سواء أكان معلوماً لنا أم غير معلوم بل الله يعلمهم ؛ لأنه علام الغيوب ، وهذا يشمل اليهود والمنافقين فى الماضى ، ومن تظهر عداوتهم مثل فارس والروم ، وسلالاتهم فى دول العالم المعاصر .

وقد رجح ابن جرير الطبري أن المراد بقوله تعالى : لَا تَعْلَمُوهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ^٤ . كفار الجن أي : ترهبون بنى آدم وترهبون جنساً آخر من غير بنى آدم لا ترونهم ولا تعلمونهم ولكن الله يعلمهم ، ورجح الفخر الرازي أن المراد بهم : المنافقون ؛ فعداوتهم للمؤمنين قد تكون خفية ؛ وهم يتريصون بهم الدوائر ؛ فإذا لاحظوا ضعفاً منهم تحرشوا بهم ، ولا شك أن العدو المظاهر والمستخفي إذا عرف قوة استعدادنا الحربي ؛ منعه ذلك من التحرش بنا ، أو التفكير في أن يجرب حظّه معنا .

وَمَا تَفْقَهُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَوْفُ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

تأتي هذه الفقرة في أعقاب الحث على الإعداد ؛ لبيان أن الإعداد الملائم للحرب يحتاج إلى المال ، والإنفاق منه في سبيل الله ، فبينت الآية : أن أي شيء تقدمونه من مال قل أو كثير ، فسي إعداد الجيوش أو رعاية المحاربين وأسرعهم بما يحتاجون إليه ؛ فإن الله يوفى أجره كاملاً للمنفقين ، ويجازيهم عليه على أنتم وجهه ، ولا ينقصون شيئاً من ثواب أعمالهم ، مهما قلت أو كثرت .

من هدى السنة النبوية

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال :

«من جهز غازياً فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»^(١٩) .

وجاء في رياض الصالحين للإمام النووي عن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : «إن الدرهم يضاعف

ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف» .

قال تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ لَبَنٍ كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة: ٢٦١)

مما يتعلق بالآية

١ - لا يزال الإعداد المادى والمعنوى ، وتجهيز الجيوش الضاربة المقاتلة ؛ هدف كل أمة في القديم والحديث .

٢ - سبق القرآن إلى دعوة المسلمين وتوجيههم إلى إعداد القوة المادية والمعنوية ، وسائر وسائل الحرب الحديثة ؛ حتى يكونوا أعزة أقوياء ، وقد تمسك المسلمون الأولون بذلك ؛ فتقدموا وانتصروا ، ودالت لهم دول الأكاسرة والقيصرية .

٣ - إن وضع المسلمين الآن لا يسر الصديق ، ولا يكيد العدو ؛ فبلاد المسلمين تتخطف من حولهم ، ويطمع فيها الأعداء ، والمسلمون متقاعسون عن الجهاد وعن الإنفاق في سبيل الله .

٤ - يجب أن تعود معامل الأسلحة وصيانتها إلى بلاد المسلمين ، وأن تعمل بقول الله تعالى ؛ فنعد العدة التي أمر الله بإعدادها ، ونتلافى ما فرطنا ، ونأخذ بأسباب الوحدة والقوة .

٥ - المقصود من إعداد العدة : إرهاب الأعداء ؛ حتى لا يفكروا في الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش المسلمون في ديارهم آمنين مطمئنين .

وليس المقصود من إعداد العدة إرهاب المسلمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو قهر الناس واستغلالهم . قال تعالى : **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ** ٤ .

٦ - ينبغي أن نعود إلى هدى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وسيرة السلف الصالح ، وأن نهجر الهوى والترف ، وأن نبني الأفراد والأسر والمجتمعات بالخلق السليم ، والتربية الصالحة ، والمحضن الصالح ، والمجتمع المتميز ، والجيش القوي .

قال تعالى : **إِنَّ الْبَلِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** . (الكهف : ٣٠) .

★ ★ ★

﴿ **وَلَمَّا جَنَّحُوا لِلسَّلَامِ فَاذْجَعَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ١١ **وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ** ١٢ **وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ١٣ ﴾

المضردات :

جئحوا لئلسلم : مالوا إلى المسالمة والصلح .

هاذجئح لئها : فعل إليها .

يخدصوك : يظهروا لك السلم ويبطنوا الغدر والخيانة .

حسبك الله : كافيك الله .

أيـــــــــــــــــدك ، قواك .

أنف بين قلوبهم ، جمع بين قلوب الأوس والخزرج .

التفسير :

٦١- وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

بعد ما أمر الله تعالى بالاستعداد للحرب . ولا يمنع الحرب مثل الاستعداد لها - ذكر هنا حكم ما إذا طلب الأعداء الصلح ، ومالوا إلى السلم .

قال الزمخشري : السلم تَوَثَّثْ تأنيث نقيضها وهى الحرب .

قال العباس بن مرداس :

السلم تأخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك فى أنفاسها جرع

فالآيات مرتبطة بالآيات السابقة .

واللهي : عليك أيها الرسول الكريم ، أن تتكل فى الحرب بأولئك الكافرين ؛ المناقضين لعهدهم فى كل مرة ، وأن تهيب لهم ما استطعت من قوة لإرهابهم .

فإن مالوا بعد ذلك إلى المسالمة والمصالحة ، وطلبوا عقد الهدنة ؛ فأعطهم ما طلبوا ، وعاهدهم على السلام والمصالحة ، وتوكل على الله ، وفوض أمرك إليه ؛ فهو وحده الذى يستطيع أن ينصرك ، ويحفظك من خيانتهم ، على أن يقترن ذلك بالحدز منهم .

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . لا تقول لهم آلَ عِلِيمُ . بأفعالهم ؛ فيؤاخذهم بما يستحقون ويرد كيدهم فى نحرهم .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

والأمر فى الآية موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله ، من حرب أو صلح ، وليس يختم أن يقاتلوا أبداً ، أو يجابوا إلى الهدنة أبداً .

وهذه الآية أصل عظيم من أصول الإسلام ، فهو دين سلام لا حرب .

فالله اسمه السلام ، والجنة اسمها دار السلام ، والقرآن نزل فى موكب من السلام ، والمؤمن بعد الصلاة يبدأ الدنيا كلها بالسلام ، والمسلم لا يرفض دعوة السلام وقد حارب المسلمون مضطرين ؛ لردع العدوان ، ولتمكين الضعفاء والنساء واليتامى والصغار من حرية الاختيار ، ولإزالة طواغيت الكفر والشرك .

قال تعالى : وَلَمَنْ أَتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ . (الشورى : ٤١)

وقال سبحانه : أُوذِيَ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... (الحج : ٣٩ ، ٤٠) .

٦٢- وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ... الآية .

أى : وإن يريدوا بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ، فالله يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم ، فهو كافيك وحده ، وعاصك من مكرمهم وخديعتهم ، ومن تولى الله كفايته وحفظه : لا يضره شيء .

هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ .

هو الذى أنزل عليك نصره فى بدر بدون إعداد العدة الكافية ، وأيدك بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ونفذ ما قضى وحققه .

والتأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين :

أحدهما : ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة . والثانى : ما يحصل بواسطة أسباب معلومة .

فالأول : هو المراد من قوله : آتَاكَ بِنَصْرِهِ .

والثانى : هو المراد من قوله : وَالْمُؤْمِنِينَ .^(٣٦)

وهذه الآيات دليل واضح على جنوح الإسلام إلى السلم ؛ ما دام فيه مصلحة الإسلام وأهله ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ عشر سنين ؛ أجابهم إلى ذلك ، مع ما اشتروا من شروط مجففة فى حق المسلمين .

هل هذه الآية منسوخة

زعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة : آية السيف فى براءة : قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَتْلُونَ الْآخِرِ . (التوبة : ٢٩) .

وقد ذكر الإمام الزركشى فى كتابه : «البرهان فى علوم القرآن» نقلاً عن الشاطبى فى الموافقات :

أن هذا ليس نسخاً ولكنه تدرج فى التشريع ؛ فحينما كان المسلمون ضعافاً ؛ أمروا بالجنوح إلى

الصلح والسلام .

ولما كانوا أقوياء قادرين ؛ أمروا بالقتال وإخراج المشركين من جزيرة العرب .

وجاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة : إن هذه الآية منسوخة ، بآية السيف في براءة .

وفيه نظر أيضاً : لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك .

فأما إذا كان العدو كتيفاً : فإنه يجوز مهادنتهم ، كما دلت عليه الآية الكريمة : **وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْعَلْ لَهُمْ** ...

وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص .

وإذا تأملت الآية ، وجدتها تقرر مبدأ عاماً في معاملة الأعداء : هو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم : ما دام ذلك في مصلحة المسلمين .

فالحاكم المسلم له بصيرته وحسن تقديره للأمور ، وله مشورته للمسلمين ، واختيار الأصلح والأنسب : فله أن يختار الحرب ، وله أن يختار المفاوضة والصالح ؛ والحكمة ضالة المؤمن ، وهي حسن التأني للأمور ، ووضع الأمور في نصابها ، واختيار الأنسب والأوفق والأولى .

قال تعالى : **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** .

(البقرة : ٢٦٩)

٦٣- وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

تستمر هذه الآيات في تشجيع الرسول ﷺ ، على السير في طريق الصلح ، مادام فيه مصلحة للإسلام والمسلمين ، وتبشّره بأن الله سينصره وسيكفيه أمر الأعداء ، حتى لو أرادوا المخادعة والمراوغة ، وتضرب لذلك مثلاً عملياً شاخصاً للعيان .

فهؤلاء الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية أبناء عمومة ، وكانت بينهم حروب لا تهدأ ، وثارات لم تنطفئ ، ولم يجتمعوا تحت راية ، حتى جاء الإسلام ، ودخل فيه من الأوس ومن الخزرج ؛ وتحولت البغضاء والإحن ، والأحقاد والعداوة ، إلى حب عظيم في الله وفي دينه ، وفي رسوله وفي كتابه ، وألف بين قلوبهم ، بقدرته ورحمته ، فقلوب العباد بين أصعبين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء ؛ فالحب والهداية والإيمان كلها من خلق الله ، وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بفضل الله ومتابعة الرسول ﷺ .

لَوْ أَفْقَتَ مَا لِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ .

أى : لو جمعت ما فى الأرض من ذهب وقضة ، وأنفقته لتقضى على ما كان بينهم من التنازع والتخاصم والفرقة ؛ وتزرع بدلاً منه المودة والألفة والرحمة ؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً بوسائلك المادية ؛ ولكن الله تعالى ، أباط عنهم البغضاء والشحناء ، وزرع مكان ذلك الحب والمودة والإيثار ؛ لأنه سبحانه هو مقلب القلوب وولى تصرفها .

وكان من دعاء الرسول ﷺ : «اللَّهُم يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبت قلبى على دينك» .

فقالت عائشة : يا رسول الله ، أراك تكثر من هذا الدعاء . فقال ﷺ : «يا عائشة ، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٣٧) .

ومن الدعاء المأثور : «اللَّهُم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها»^(٣٨)

إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

إنه سبحانه غالب على أمره ، لا يعجزه أمرٌ أراده حَكِيمٌ ، لا يخرج شىء عن حكمته .

وقد ذكر الزمخشري فى تفسير الكشاف كلاماً نفيساً فى وصف حالة العرب فى الجاهلية ، وما كانوا فيه من الحميَّة والعصبية ، ثم بيان أثر هداية الإسلام فى وحدتهم وألفتهم وتعاونهم . ا هـ .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين ؛ قال لهم : يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بهى ؟ وعالة فأغناكم الله بهى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بهى ؟ فقالت الأنصار : نعم يا رسول الله ، والله وارسوله الفضل والمعة^(٣٩) .

وذكر الحافظ أبو بكر البيهقى عن ابن عباس قال : «قربة الرحم تقطع ، ومنه النعمة تُكفّر ، ولم يَر مثل تقارب القلوب» : يقول الله تعالى : لَوْ أَفْقَتَ مَا لِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُوا يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

المفردات :

حرض المؤمنين : حثهم وحضهم .

لا يفقهون : لا يدركون ولا يفهمون .

التفسير :

٦٤- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

أي : كافيك الله تعالى .

فالله تعالى وحده كافيك ، وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد .

وهذه الآية لون من ألوان التكريم الإلهي ، لهذا النبي ولهؤلاء الرجال الكرام ، الذين آووه ونصروه ، يكفي أن يكون الله العلي القدير ، هو وليهم وناصرهم وكافهم ، ومتولى الدفاع عنهم : إن هذه الآية حصن أمان لهذا النبي ولمن اتبعه من المؤمنين .

ونظير هذا قوله تعالى : أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ . (الزمر: ٣٦) .

وقوله سبحانه : فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب . (الشرح: ٧، ٨) .

وقوله عز شأنه : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَىٰ اللَّهِ رَاغِبُونَ . (التوبة: ٥٩) .

والآية لون أيضاً من ألوان صدق العقيدة ، وإخلاص التوحيد : فمن كان الله كافيه وحافظه : فهو في حصن مشيد ، وأمن سعيد .

ولى تفسير القاسمى ، شرح طويل لهذه الآية .

فقد نقل عن العلامة ابن القيم فى زاد المعاد وجوه إعراب الآية .

وخلاصة ذلك ما يأتى :

١- الواو عاطفة لـ مَنْ على الكاف المجروزة .

والمعنى : كافيك الله ، ومن معك من المؤمنين فى تحقيق النصر ، أى : أن الله يكفيك وينصرك ، وينصر من معك من المؤمنين .

٢- مَنْ فى موضع رفع عطف على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله ، وأتباعك .

وابن القيم يرفض هذا المعنى الثانى : لأن الحسب والكفاية لله وحده ؛ كالتوكل والتقوى والعبادة .

قال الله تعالى : وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخَذَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى إِلَيْكَ يَنْصَرُّوهُ بِأَلْمُؤْمِنِينَ . (الأنفال: ٦٢) .

ففرّق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره ويعباده . انتهى .

قال الخفاجى (فى العناية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفراء والكسائى رجّاه ، وما قبله وما

بعده يؤيده .

وترى فيما سبق اتجاهين للعلماء .

الاتجاه الأول :

لابن القيم وغيره من المفسرين يرون أن الله وحده هو حسب النبى وكافيه ، وقدرته لا مردّ لها .

ونذهبوا إلى إضافة الْمُؤْمِنِينَ إلى النبى : فهى معطوف على كاف الخطاب .

بمعنى : يا أيها النبى حسبك الله ، وحسب المؤمنين .

أى : يكفى أن يكون الله ناصراً لك وللمؤمنين .

الاتجاه الثانى :

لفراء والكسائى والخفاجى وغيرهم يقولون : عطف المؤمنين على لفظ الجلالة ليس ضعيفاً بل قوياً ؛

ونرى أن معنى الآية مرتبط بما قبلها وما بعدها ؛ وسياق الكلام يرجّح أن جملة مَنْ إِلَيْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فى

موضع رفع ، وهى معطوفة على اسم الله . وهذا الاتجاه يؤيده قوله تعالى : هُوَ الَّذِى إِلَيْكَ يَنْصَرُّوهُ

وَالْمُؤْمِنِينَ . ، ويضيف إلى المؤمنين شرفاً وتكريماً ، فهم جند الله ورجاله ، الذى أيد بهم الرسول ﷺ والآية التالية بتحريض المؤمنين على القتال ، بحيث إن المؤمن لا يجوز أن يفتر من عشرة أفراد .

هو نوع لاحق من تشريف المؤمنين ورفع أقدارهم ، وأنهم بما فى قلوبهم من إيمان ؛ فى منزلة لا ينالها الكافرون والمشركون^(٣٠) .

٦٥- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ... الآية .

يا أيها النبى ، رغب المؤمنين فى القتال ، وبين لهم فضله وأجره ومنزلته ، وثواب الشهداء عند الله تعالى .

وقد كان القرآن حافلاً بالحث على الجهاد وبيان فضله ، وكان المسلمون يقرءون سورة الأنفال عند الغزو ، أو كان أحدهم يقرؤها بصوت مرتفع ، تحريضاً وتشجيعاً ، ويثأ لروح الحمية والدفاع .

كما حفلت السنة المطهرة ، ببيان ثواب الشهداء وفضل الجهاد والمجاهدين .

وفى الحديث الشريف : «لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٣١) .

وروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ، ثم أحيأ ثم أقتل»^(٣٢) .

وفى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ كان يحرض أصحابه عند صفهم للقتال ، ومواجهة العدو ، كما قال لهم يوم بدر : حين أقبل المشركون فى عددهم وعُددهم : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فقال عمير بن الحمام : عرضها السماوات والأرض ، بع بع !! ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه^(٣٣) .

إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ .

أى : إن يكن منكم عشرون ، صابرون ، محتسبون أجركم عند الله ؛ يغلبوا مائتين .

وليس المراد منه الإخبار ، بل المراد الأمر : كأنه قال : فليصبروا وليجتهدوا ، وليثبتوا فى مواقعهم .

فهم بصبرهم ، وفقهم وإيمانهم ، ومعرفتهم بأسرار الحرب ، وأهدافها وغاياتها ، والإخلاص فيها ؛ أهل لأن يغلبوا مائتين .

وَأَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . وترى أن القرآن اشترط الصبر ، وهو الثبات وتحمل

المشاق ، والاتجاه إلى الله ، وإخلاص النية ، وتصحيح العقيدة .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

«أى: بسبب أنهم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر، لا يقاتلون احتساباً وامتنالاً لأمر الله تعالى، وإعلاء لكلمته، وابتغاءً لرضوانه، كما يفعله المؤمنون .

ولنما يقاتلون للحمية الجاهلية، اتباع خطوات الشيطان، وإثارة ثائرة البغى والعداوة؛ فلا يستحقون إلا القهر والخذلان»^(٣١).

٦٦- أَلَاَآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

أى: الآن خفف الله عنكم إيجاب ثبات الواحد لعشرة، وقد علم أن فيكم ضعفاً فى أبدانكم أو كثرة أعبائكم؛ أو دخول جموع من الأعراب؛ والأتباع الذين أسلموا تبعاً لقادتهم، ولم يستقر الإيمان كاملاً فى قلوبهم؛ فاستوجب ذلك التخفيف من الله العليم القدير .

إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ . عند اللقاء ثابتة فى محاربة الأعداء، مطمئنة إلى نصر الله للصابرين؛ فإنهم يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . من الأعداء .

وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ . صابرون يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ . بالنصر والمعونة الإلهية بِإِذْنِ اللَّهِ . وقوته وقدرته، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . بتأييده ورعايته ونصره .

وفيه تنبيه على أسباب النصر، ومنها: الصبر والثبات، والإعداد المادى والنفسى، والمعرفة بحقائق الأمور ومقاصد الجهاد، ومصاولة اليأس، ومقاومة الشائعات والأراصف، والبعد عن أسباب الخلاف والفرقة، وطاعة الرحمان .

القول بالنسخ

ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية ٦٦ ناسخة للآية السابقة عليها، واستشهدوا بما رواه البخارى عن ابن عباس قال: لما نزلت: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ . شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من عشرة .

فجاء التخفيف فقال: أَلَاَآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ...

وقال الجصاص في أحكام القرآن :

لا محالة قد وقع النسخ عن المسلمين فيما كلفوا به أولاً ، ولم يكن أولئك القوم قد نقصت بصائرهم ، ولا قل صبرهم ، إنما خالطهم قوم لم يكن لهم مثل بصائرهم ونياتهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ شَعْتًا .

وذهب آخرون إلى أنه لا نسخ بين الآيتين : «فإن القول بالنسخ يقتضى أن يكون بين الآيتين - الناسخة والمنسوخة - مسافة زمنية ، بحيث يكون لتغير الحكم ونسخه بحكم آخر مقتضى اقتضاء تغير الحال بامتداد الزمن ، وليس هناك دليل يدل على أن فارقاً زمنياً وقع بين نزول الآيتين .. بل ظاهر الآيتين ينهى عن أنهما نزلتا معا فى وقت واحد ، وقد قيل : إنهما نزلتا فى غزوة بدر ، وقيل : قبل بدء القتال^(٢٤) .

وقد ذهب الأستاذ على حسب الله فى كتابه أصول التشريع الإسلامى إلى أنه لا نسخ بين الآيتين .

فالآية الأولى تهديد للآية الثانية ؛ حتى يتحمل المسلمون الثبات أمام ضعف عددهم بنفس ثابتة مطمئنة.

وذلك كما يقول أستاذ لتلميذه : أنا أعرف أنك ذكى مجتهد تستطيع أن تقرأ مائة صفحة من هذا الكتاب ، ومع ذلك فإننى أطلب منك أن تقرأ عشرين صفحة بصبر وتفهم ووعى .

واختار الشيخ حسنين محمد مخلوف فى كتابه : «صفوة البيان لمعاني القرآن» :

أن الآية الثانية رخصة كالقطر للمسافر ؛ فإذا كان المسلمون فى شدة وحرر وخطر ، واقتضى الأمر ثبات الواحد لعشرة ؛ وجب أن يثبتوا .

وإذا كانوا فى سعة ويسر ؛ جاء التخفيف ، وفرض على الواحد الثبات للاثنتين من الكفار ، ورخص له فى القرار ؛ إذا كان العدو أكثر من اثنتين .

والجمهور على أن الآية الثانية ناسخة للأولى .

ويرى بعض العلماء أنه يمكن العمل بالآيتين ، فالآية الأولى عند القوة والحاجة ، والآية الثانية عند السعة واليسر .

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

«وقد فعل المسلمون هذا فعلاً ، فى سيرتهم مع الإسلام ، وفى انتصارهم على أعداء تكثرتهم أكثر من عشرة أضعاف . فإن كنت فى شك من هذا فاسأل التاريخ .. بكم من المسلمين فتح خالد بن الوليد مملكة فارس؟! وبكم من المسلمين فتح أبو عبيدة بن الجراح بلاد الروم ؟!

وكم كانت أعداد المسلمين الذين فتح بهم عمرو بن العاص مصر ؟! ويكم من المسلمين اقتحم طارق ابن زياد بلاد الأندلس ، واستولى على زمام الأمر فيها ؟!

وجواب التاريخ هنا شهادة قاطعة : بأن المسلم إذا استنجد بإيمانه بالله ؛ كان وحده كتيبة تغلب العشرات ، لا العشرة من جند العدو^(٣٧) .

من تفسير المنار

يقول السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

«الآية تدل على أن من شأن المؤمنين ، أن يكونوا أعلم من الكافرين ، وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر ، وارتقاء الأمم ، وأن حرمان الكفار من هذا العلم ؛ هو السبب في كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المؤمنون من قرونهم الأولى ... أما الآن ، فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعاني الجليلة ؛ فزال مجدهم .»

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يَشْرِبَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٧ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٦٩ ﴿٦٩﴾ يَتَأَيَّمُوا لِنَبِيِّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأُسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ٧٠ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٧١ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات :

أسرى : جمع أسير وهو من يؤخذ في الحرب حياً ، وتُشدُّ يده بالإسار وهو القيد .

يشخن في الأرض : أى يبالغ فيه بالقتل والجرح ؛ حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم .

عرض الدنيا : حطامها - سعى عرضاً ؛ لسرعة زواله .

تسكن فيما أخذتم ، أى : لأصابعكم بسبب ما أخذتموه من الفدية .

عِيَانَتِكَ ، أى : الغدر بك بنقض العهد .

فامكن منهم ، فأقدرك عليهم قتلاً وأسراً .

التفسير :

٢٧- مَا كَانَ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْغِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

سبب النزول :

روى أن النبی ﷺ استشار أصحابه فيما يعمل في أسرى بدر فأشار أبو بكر بالفدية وقال: هم قومك وأملك ؛ استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، واستشار عمر فأشار بالقتل قائلاً : اضرب أعناقهم ؛ فإنهم أئمة الكفر والله أغناك عن الغداء ، مكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم ، وقد مال الرسول ﷺ إلى رأى أبى بكر فنزلت الآية وقد ختم الله سياق الكلام في القتال بذكر حكم يتعلق بالأسرى .

تهيد :

الأسير : غدر من الكفار وقع في يد المسلمين ، والحكم فيه أن الإمام يتصرف فيه تبعاً للمصلحة العامة فيعرض عليه الإسلام فإن أسلم فيها ، وإلا قتله الإمام أو قبل الغداء منه ، أو استرقه ، أو من عليه بدون فداء . هذا إذا كان للأمة الإسلامية دولة وصولاً أما في مبدل الأمر ، كما هنا عند قيام الدولة بالرأى ألا يبقوا على الأسرى ولا يحملوهم معهم بل يقتلوهم قتلاً ؛ إذ هم عالة عليهم وضغت على إباله ، وإن بقى الأسير ربما تظاهر بالإسلام وكان جاسوساً على المسلمين وفي هذا المعنى كانت الآية الكريمة .

المعنى :

مَا كَانَ لِيَّ أَيْ : ما صح له وما استقام أبداً أى : لا ينبغي أن يكون له أسرى ثم يبقى عليهم ، ويقبل الفدية ؛ فإن في هذا خطراً على الدولة ، وما كان له ذلك حتى يكثر القتل في الكفار ويبالغ فيه ؛ إذ في هذا إعزاز المسلمين ، وإضعاف للكفار وكسر لشوكتهم ، أتريدون بقبول الغداء والإبقاء عليهم عرضاً من أعراض الدنيا وحطامها الزائل ؛ والله يريد لكم ثواب الآخرة ، أو يريد إعزاز دينه ، والقضاء على أعدائه ، وهذا سبب الوصول إلى ثواب الآخرة ، والله عزيز يعز أوليائه ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . (المنافقون : ٨) ، حكيم في أفعاله وأعماله فامتثلوا أمره ؛ فهو يهديكم إلى سبيل الرشاد والخير .

٦٨- تُولَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى : لولا حكم من الله سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو ألا يعاقب المخطئ فى اجتهاده ؛ لأن المسلمين والنبي الأمين قد اجتهدوا ورجحوا قبول الفداء على القتل ؛ وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأهيب لمن وراءهم ، وأضعف لشوكتهم .

وقيل : إن الحكم الذى سبق هو ألا يعذب أهل بدر ؛ فهم مغفور لهم .

أو ألا يعذب قوما إلا بعد تأكيد الحجة والبيان ، والتصريح المتقدم بالذهى عن الفداء ، ولم يكن قد تقدم نهى عن ذلك .

والمعنى :

لولا هذا الحكم الإلهى السابق لإبرامه - لولا هذا لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم وقعه ، شديد هوله ، وفى هذا تهويل لخطرا فعلوا .

٦٩- فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

روى : أنهم أمسكوا عن الغنائم ، ولم يمدؤا أيديهم إليها ، حتى نزلت هذه الآية .

أى : أبحت لكم الغنائم ؛ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ من الغنية ، حال كونه حلالاً لكم ، طيباً ، أى : لذيذاً هنيئاً ؛ لا شبهة فى أكله لا ضرر .

وَاتَّقُوا اللَّهَ . فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فقد غفر لكم ما أخذتم من الفداء ؛ فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة لمن اتقاه ؛ وتاب إليه توبة صادقة .

٧٠- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِى أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرِ إِن يَقْلُمَ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُّرِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

روى : أنه كان من بين الأسرى العباس بن عبد المطلب وقد كلفه النبى أن يفدى ابن أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث فقال : يا محمد ، تركتنى أتكفف قريشاً ما بقيت فقال له النبى ﷺ : «فأينذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة؟» وكان هذا إخباراً بالغيب حيث لم يكن يعلم بهذا

إلا الله فقال العباس : والله ما كان عندي ريب قبل هذا ولكن الآن لا ريب ، وفي رواية : قال العباس : فأبدلني الله خيراً مما أخذ مني .

والمعنى :

يا أيها النبي ، قل لمن في ملككم من الأسرى : إن يعلم الله في قلوبكم إخلاصاً وحسن نية : يؤتكم خيراً مما أخذ منكم في الغداء ، ويغفر لكم والله غفور ، ستار للذنوب . وقيل : المراد من الآية : أن يعرض النبي على الأسرى الإسلام ويمنيهم بالخير والمغفرة .

٧١- وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

المعنى :

وإن يريدوا خيانتك ، ونقض عهذك : فاعلم أنهم قد خانوا الله من قبل ذلك ؛ بنقضهم الميثاق المأخوذ على الناس جميعاً أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؛ وإذا كان كذلك فلا يهمنك أمرهم فالله أمكنك منهم وسلطك عليهم فهزمتهم ، وهذا كلام مسوق ؛ لتسليّة النبي ﷺ بطريق الوعد له والوعيد عليهم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ نِيَّاتٍ حَكِيمٌ في فعل ما تقتضيه الحكمة البالغة .

أو هم خانوا الله في رفضهم قبول دعوة الإسلام ، وفي محاربتهم للمؤمنين ؛ فأمكن الله منهم المسلمين في غزوة بدر .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِمْ مِّن شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ لِأَعْلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَّا تَفْعَلُونَهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾

المضردات :

أووا : أى : آووا المهاجرين فى المدينة وأسكنوهم .

مالككم من ولايتهم من

شئء حتى يهاجروا ، أى : ما لكم من توليهم فى الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم حتى يهاجروا .

تكن فتنة فى الأرض : تحصل فتنة بظهور الشرك .

ورزق كريم : فى الجنة .

هاولئك منكم : أى : من جعلتكم أيها المهاجرون والأنصار .

أولوالأرحام : أصحاب القرابات .

التفسير :

٧٢- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلِيَّتِهِمْ مِّن شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ لِأَعْلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

المناسبات :

ما مضى كان فى الكلام على الكفار وأسرهم وكيفية معاملتنا لهم ، ضاربين بقرابتهم عرض الحادث مستبدلين بها قرابة الإسلام ، ولذا تكلم القرآن هنا على رابطة الإسلام .

والمعنى :

إن الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً كاملاً وهاجروا فى سبيله ، تاركين أوطانهم الحبيبة إلى نفوسهم ، وأموالهم ، كل ذلك لله ، وجاهدوا فى سبيله ، وبنذلو النفس والنفيس : أولئك هم المهاجرون الذين تركوا مكة وعزمهم وشرفهم ونسبهم فيها إلى يثرب التى قطنها الرسول الكريم .

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ولآلئهم عاؤوا . المهاجرين وأنزلوهم ديارهم وشاركوهم فى أموالهم ، ونَصَرُوا . رسول الله ومنعوه مما يمنعون منه أزواجهم وأولادهم قَالِئِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . هؤلاء المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض يتولون أنفسهم بالرعاية والعناية والسهرة على المصالح : فهم جسد الأمة الإسلامية ، إذ اشتكى عضو منه : تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فرابطة الإسلام بينهم أقوى رابطة ، والإيمان هو الصلة المحكمة، وهكذا المسلمون فى كل زمان ومكان اجتمعوا على الإيمان بالله والتقوى ، وعلى محبة الرسول الأكرم ولذا يقول الله فيهم : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . فالإخوة فى الإسلام إذا ما كانت الله حقاً كانت هى الدعامة الوحيدة لتمامك بناء الأمة ، وقيل : المراد بالولاية هنا : الميراث ونسخت الآية بآية الموارث ، والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يهاجروا بأن اعترضتهم عقبات لم يستطيعوا التغلب عليها ، هؤلاء ليس لكم ولاية عليهم وليس بينكم توارث وإن كانوا ذوى قرى حتى يهاجروا . هكذا كانت الهجرة فى مبدأ الإسلام .

ولكن إن استنصروكم فى الدين ، وطلبوا إليكم أن تمدوا إليهم يد المساعدة لهم على أعدائهم ، بقدر الطاقة : فانصروهم ، إلا على قوم بينكم وبينهم مهادنة وميثاق ، والله بما تعملون بصير .

من أحكام الآية

- ١ - فضل المهاجرين الأولين ، وتضحياتهم بالنفس والمال من أجل الإسلام .
 - ٢ - فضل الأنصار ، الذين استقبلوا المهاجرين وقاموا بحق الضيافة والنصرة .
 - ٣ - ظاهر الآية : تقديم المهاجرين على الأنصار وتفضيلهم عليهم .
- قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون فى ذلك .

٤ - تقديس الوفاء بالعهد والمواثيق في شرعة الإسلام : وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين .

قال القاسمي في تفسير الآية :

يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطلب من كل من آمن من أن يهاجر ؛ ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فتنقوى بألفتهم شوكتهم ، ولم يُزل طلب الهجرة إلا بفتح مكة ؛ لقوله ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح »^(٣٧) رواه البخاري .

٧٣- وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ إِلاَّ تَعْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَلَسَدَ كَثِيرٌ .

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ليس لكم أن تولوهم أو تتخذوهم أصدقاء مهما كانوا من القرابة والصلة ، إن لم تفعلوا هذا وتقوموا بهذا الأمر ؛ تحصل فتنة في الأرض وفساد كبير ، وذلك بضعف الإسلام وكسر شوكتهم وظهور الكفر ، وعلو رايته ... يا سبحان الله ! أنت عالم الغيب والشهادة ، وأنت الخبير فلقد ظل الإسلام كما هو حتى اتخذ المسلمون بطانتهم من غيرهم ، ووالوا أعداء الدين بحجة للسياسة مرة ، أو لحاجة أخرى ، فأصبحوا ولا حول لهم ولا قوة ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدينا نعم وسنظل على ذلك حتى نعود إلى الدين والقرآن ، نفعل ما يريدنا ونتجنب ما ينهى عنه .

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوي : في تفسير الآية :

إلا تفعلوا أيها المسلمون ما أمرتكم به من التناصر والتواصل وتولي بعضكم بعضاً ، ومن قطع العلاقات بينكم وبين الكفار ؛ تحصل فتنة كبيرة في الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ؛ لأنكم إذا لم تصيروا يداً واحدة على الشرك ؛ يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ، ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وعرضكم ، وبذلك تعم الفتنة وينتشر الفساد .

٧٤- وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

تصف الآية فريقين :

١ - المهاجرين الذين آمنوا بالله ، وهاجروا من مكة إلى المدينة في تضحية بالغالى والنفيس من أجل مرضاة الله ، وقد جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

٢ - الأنصار الذين آووا الرسول وعزروه ونصروه ، وأحسنوا استقبال المهاجرين وآثروهم على أنفسهم .

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

شهد الله تعالى لهم بحقيقة الإيمان ، وصدقهم وقد برهنوا على ذلك ، بصدق الهجرة للمهاجرين ، ويصدق الإيواء والنصرة للأَنْصَار ، ويعد هذا اللثام وعدمهم الله تعالى بالمغفرة وبالرزق الكريم فى الجنة ، وهو الرزق الحسن الكثير الطيب الشريف ، الدائم المستمر الذى لا ينقطع أبدًا .

وهذه الآية لتأكيد فضل المهاجرين والأنصار ، وقد أثنى الله عليهم فى غير ما آية فى كتابه الكريم .

قال الفخر الرازى :

ولا تكرار بين هذه الآية والآية السابقة ؛ فالآية السابقة لإيجاب التواصل بين المهاجرين والأنصار ، وهذه الآية لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجاتهم ؛ وبيانهم من وجهين .

الأول : أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .

والثانى : وهو أن الله تعالى أثنى عليهم ها هنا فى ثلاثة أوجه :

أولها - قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فقوله : أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ . يفيد الحصر ، وقوله : حَقًّا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محققين محققين فى طريق الدين وقد كانوا كذلك ؛ لأن من لم يكن محققاً فى دينه ، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن فى هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين .

وثانيها - قوله : لَهُمْ مَغْفِرَةٌ . والتكثير يدل على الكمال . أى : مغفرة تامة كاملة .

وثالثها - قوله : وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . والمراد منه : الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

٧٥- وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَابِجُرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ... الآية .

أى : من جملتكم أى : المهاجرين والأنصار ، فى استحقاق ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة ، وكمال الإيمان ، والمغفرة ، والرزق الكريم .

وتشير الآية إلى من أسلم بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وأصبحت له دولة وصولاً .

قيل : هم أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد الهجرة الأولى وكانت الهجرة الثانية بعد صلح الحديبية .

وقيل : هم من آمن بعد غزوة بدر .

وقيل : هم من آمن بعد نزول هذه الآية .

فيكون الفعل **ءَامَنُوا** . وما بعده بمعنى : المستقبل أى : والذين سيؤمنون من بعد ، ويشتركون معكم فى الهجرة والجهاد ؛ **فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ** .

أى : أنهم كالمهاجرين الأولين والأنصار ؛ فى الموالاة والتعاون والتناصر والفضل والجزاء . وقد مدح الله من جاء بعد المهاجرين والأنصار فقال :

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ . (النشر : ١٠) .

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ .

أى : وأصحاب القرابات ، بعضهم أحق ببعض فى التوارث بالقرابة .

وبذلك النص : انتهى حكم التوارث بالمواخاة ، والحلف والمعاهدة والتبني ، وثبت حكم التوارث بالقرابة .

فى **كِتَابِ اللَّهِ** . أى : فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن ؛ لأن **كِتَابِ اللَّهِ** يطلق على كل منها .

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

تذييل قصد به وجوب العمل بما جاء فى هذه السورة : فعلمه سبحانه واسع محيط بكل شيء من مصالحكم الدنيوية والأخروية ، وبكل ما شرعه فى هذه السورة من أحكام فى السلم والحرب ، والغنائم والأسرى ، والعهد والمواثيق ، والولاية العامة والخاصة بين المؤمنين ، وصلة الأرحام . ونظير ذلك قوله تعالى : **وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** . (الأعراف : ٥٢) .

من هدى السنة

أخرج الطيالسى والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال :

أخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ؛ حتى نزلت هذه الآية : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** . فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

فى ختام السورة

إن سورة الأنفال تختتم بهذا الفضل الإلهى الذى يسجل جهد المهاجرين والأنصار ، وىبارك أعمالهم وأعمال المؤمنين من بعدهم .

وقد حثت السورة الجميع على التناصر والتعاون والتآلف ، ورفعت من شأن رابطة الرحم ، وحثت على الجهاد فى سبيل الله وأمرت بالوفاء بالعهود ، وبالقوف صفاً واحداً ، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

والحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم تفسير سورة الأنفال بحمد الله فى سلكة عمان (مسقط) مساء الأحد ١٦ من ذى الحجة ١٤١٢هـ

الموافق ١٩٩٢/٦/٦ ، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التوبة

دروس من سورة التوبة (٢٨)

أسماء السورة

عرفت سورة التوبة من العهد الأول للإسلام بجملة أسماء ، تدل بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادئ والمعاني التي تجب مراعاتها في معاملة الطوائف كلها : مؤمنهم ، ومنافقهم ، وكتائبهم ، ومشركهم .

وأشهر هذه الأسماء «سورة التوبة» ، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين الذي أخلصوا في مناصرة الدعوة ، وصدقوا في الجهاد مع النبي ﷺ ، حتى وصل بهم إلى الغاية المرجوة ، وذلك في قوله تعالى :

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الْفُلَاةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتَوَكَّبُوا إِنَّا اللَّهُ هُوَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ . (التوبة : ١٧٧ ، ١١٨) .

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين - بعد أن كابدوا الجهد والمشقات في سبيل نصرته الحق - لما يقوى روح الإيمان في قلوبهم ويبعد بهم عن مزلق المخالفة أو التقصير .

وقد تخلف ثلاثة من المسلمين عن الاشتراك في الجهاد ولم يساهموا في أعباء جيش العسرة ؛ فأمر النبي بمقاطعتهم ومعاقبتهم . ومكثوا فترة من الزمن في عزلة تامة . بغرض تأديبهم . وتهذيبهم ثم تاب الله عليهم وقبل توبتهم وكان ذلك درساً تعليمياً للمسلمين ؛ حتى لا يتخلفوا عن الجهاد ، ولا يقصروا في القيام بأعباء الدين وتعاليمه .

ومن أسماء السورة «براءة» ، وهي تشير إلى غضب الله ورسوله على من أشرك بالله وجعل له نداً وشريكاً وإعلام الناس في يوم الحج الأكبر .

أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (التوبة : ٣) .

وقد عرفت السورة بعد ذلك بأسماء أخرى فكانت تسمى : الكاشفة ، والمثيرة ، والفاضحة ، والمنكدة ، وغير ذلك مما حظلت به كتب التفسير وهي ألفاظ أطلقت عليها باعتبار ما قامت به من كشف أسرار المنافقين وإثارة أسرارهم وفضحيتهم بها وتنكيلها بهم .

ورد أن ابن عباس رضى الله عنه قال : سورة التوبة هي الفاضحة ؛ ما زالت تنزل في المنافقين وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدا إلا ذكرته بقولها : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

وهو يشير إلى ما جاء في هذه السورة من أصناف المنافقين مثل :

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ اٰلَتْنِىْ وَلَا تَفْتِنِىْ اَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوْا . (التوبة : ٤٩) .

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَاِنْ اَعْطُوْا مِنْهَا رَضُوْا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَسْتَخْطُوْنَ . (التوبة : ٥٨) .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْاَعْرَابِ مُتَافِفُوْنَ وَمِنْ اَهْلِ الْمَدِيْنَةِ مَرَدُوْا عَلٰى الْاِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ لَحْنٌ لِّعَلَّاهُمْ سَعَلَهُمْ مَّرَتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّوْنَ اِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيْمٍ . (التوبة : ١٠١) .

أين البسمة ؟

من خصائص سورة التوبة أنه لم يذكر في أولها : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لأنها تبدأ بإعلان الحرب الشاملة ، ونذير العهود كافة ، والبسمة تحمل روح السلام والطمأنينة ؛ لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال .

وربما كان سبب عدم وجود التسمية في أولها ، الاشتباه في أنها جزء من سورة الأنفال خصوصاً وأن سورة الأنفال تحكي جهاد المسلمين في معركة بدر وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين في معركة تبوك ، فقصة الأنفال شبيهة بقصة سورة التوبة من ناحية الهدف العام ، والتحريض على الجهاد ، والتحذير من التخلف عن أمر الله ورسوله ؛ لذلك تركت سورة التوبة مع سورة الأنفال ، ووضع بينهما فاصل السورة ولم يكتب في أول التوبة : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ احترازاً من الصحابة أن يضيفوا أى شئ إلى رسم القرآن إلا بتوجيه من النبي ﷺ .

وروى الترمذى بإسناده : عن ابن عباس قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المثين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم . ووضعتوها في السبع الطوال – ما حملكم على ذلك ؟

فقال عثمان : كان رسول الله - ﷺ - مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشئ ؛ دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية في السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ، ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها في السبع الطوال .

أهداف سورة التوبة

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف وهي من السور المدنية وقد نزلت في أواخر السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي خرج فيه النبي ﷺ بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم كما خرج أبو بكر في أواخر سنة تسع على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام .

هدفان أصليان

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين في تاريخ الدولة الإسلامية هدفان أصليان :

أحدهما : تحديد القانون الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام ، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركي العرب ؛ بإلغاء معاهدتهم ، ومنعهم الحج ، وتأكيذ قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، ويوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم .

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي ﷺ حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم ، وفي هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتناقلين منهم والمتخلفين والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق .

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول ، واستغرق ذلك سبعة وثلاثين آية في أول السورة ، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتي :

أولاً : تقرير البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم .

ثانياً : منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور .

ثالثاً : إعلان الناس جميعاً يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) بهذه البراءة .

رابعاً : إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد .

خامساً : بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مدة العهد .

سادساً : تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله .

سابعاً : بيان الأسباب التي أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم .

ثامناً : إزالة وساوس قد يخطر في بعض النفوس أنها تبرر مسالمة المشركين أو الإبقاء على عهودهم .

رحمة الله بالعباد

لقد برئ الله من المشركين ومن فعالهم ؛ لأن الشرك والكفر ظلم عظيم وجود بحق الله الخالق الرازق، الذي يستحق العبادة وحده ، لكن الله أمهل المشركين مدة أربعة أشهر ؛ لتمكينهم من النظر والتدبير لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول في الإسلام أو الاستمرار على العدا .

ولعل الحكمة في تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر ؛ أنها هي المدة التي كانت تكفي لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة في الأرض والتقلب في شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه في تكوين الرأي الأخير ، قال تعالى :

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . (التوبة : ٢٠١) .

ومن رحمة الإسلام أيضا بإباحة تأمين المشرك ، وتقدير عصمة المستأمن وقد أوجب الله على المسلمين حماية المستأمن في نفسه وماله ما دام في دار الإسلام وجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان (فالمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم) .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجاري والصناعي والثقافي ، وسائر الشؤون مالم يتصل شيء منها بضرر الدولة . وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية ؛ لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال . قال تعالى :

وَأِنْ أَحَدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ . (التوبة : ٦) .

فالإسلام يمنح الجوار والأمان للمشرك الذي يبحث عن الحقيقة ، ويريد أن ينظر في الإسلام نظر تأمل ودراسة ، فيسمح له بالدخول فيما بين المسلمين والتعامل معهم ، والاختلاط بهم حتى يفهم حكم الله ودعوته ، فإن أطمأن ودخل الإيمان في قلبه ؛ التحق بالمؤمنين ، وصار في الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته ؛ حرم اغتياله ووجبت المحافظة عليه حتى يصل مكان أمنه واستقراره .

وبذلك بلغ الإسلام شأنا بعيدا في حماية الفكر والنظر ، وتذليل الطريق أمام الباحثين والمفكرين وحمايتهم حتى يصلوا إلى مواطن الأمان أيا كانت معتقداتهم ، وصدق الله العظيم :

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . (البقرة : ٢٥٦) .

غزوة تبوك

فى السنة التاسعة من الهجرة وصلت للرسول ﷺ أنباء تفيد: أن الروم قد جمعوا جموعهم ، واعتزموا غزو المسلمين فى بلادهم ، فأمر النبى أن يتجهز المسلمون وأن يأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم فى بلادهم قبل أن يفاجئوه فى بلده .

أعلن النبى النفي العام ، وكان ﷺ قلما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها : مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة - غزوة تبوك - فقد صرح بها : لبعد الشقة وشدة الزمان إذ كان ذلك الوقت فى شدة الحر حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار وحجب إلى الناس المقام .

عندئذ وجد المنافقون فرصة سانحة للتخذييل فقالوا : لا تنفروا فى الحر ، وخوفوا الناس بعد الشقة وحذروهم شدة بأس الروم ، وكان لهذا كله أثره فى تثاقل بعض الناس عن الخروج للجهاد .

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون فى التخلف عن الغزو معتذرين بالأعذار الكاذبة الواهنة كما دبر بعضهم المكائد للنبي ﷺ فى ثنايا الطريق .

ولم يكن بد من هذا الامتحان : ليكشف الله المنافقين ، ويثبت المؤمنين الصادقين فالشائد هى التى تكشف الحقائق وتظهر الخبايا .

وقد ظهر الإيمان الصادق من المؤمنين المخلصين : فسارعوا إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، يجهزون الجيش ويعدون العدة وقد خرج أبو بكر حينئذ عن كل ما يملك ، كما قام بنصيب الأسد فى التجهيز عثمان بن عفان ، بذل الآلاف وجهز المئات من البعير والخيول ، وجهز هو وغيره الفقراء الأقوياء الذين جاءوا إلى النبى ﷺ بأنفسهم : ليحملهم فقال لهم :

لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ فَبِئْسَ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ . (التوبة : ٩٢) .

ثم يستمر سياق سورة التوبة فى الحديث عن المنافقين وما يظهر منهم من أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها فلا يستطيعون ، فمنهم : من ينتقد النبى ﷺ فى توزيع الصدقات ويتهم عدالته فى التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم : من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، ومنهم : من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ؛ ليبرئ نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم : من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين.

ثم تقارن السورة بين المنافقين والمؤمنين ؛ لتبين الفرق الواضح بين صفات المنافقين، وصفات المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا يخافون ، فقد خرج المؤمنون للجهاد مع رسول الله ﷺ وقطعوا مسافة طويلة في الصحراء الجرداء تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو مترا ، وكان المؤمنون يتدافعون إلى الجهاد ويشتاقون إلى الشهادة . ولما أحس الروم بقدم المسلمين انسحبوا من أطراف بلادهم إلى داخلها ، فلما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا للروم أثرا وقد عقد النبي ﷺ مع أمراء الحدود وعاد إلى المدينة مرهوب الجانب محفوظا بعناية الله .

وقد استقبل النبي ﷺ المتخلفين عن الجهاد في غزوة تبوك ، فمنهم : أصحاب الأعذار الحقيقية ؛ وهؤلاء معذورون معفون من التبعة ، ومنهم : القادرون الذين قعدوا بدون عذر ؛ فعليهم تبعة التخلف ووزر النكوص عن الجهاد .

ثم تلمس سورة التوبة فتحدث عن الأعراب فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق . ثم تقسم الجماعة الإسلامية كلها عند غزوة تبوك ويعددها ، إلى طبقاتها ودرجاتها وفق مقياس الإيمان والأعمال .

فهناك : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

وهناك : المنافقون الذين تمسروا بالنفاق وتعدوا عليه سواء كانوا من الأعراب أو من أهل المدينة .

وهناك : الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم .

وهناك : الذين أخطئوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

وهناك : فئة أخلصت لله في الإيمان ، وتخلفت من غير عذر ثم ندمت ندماً عميقاً ، وضاعت الدنيا في وجهها ، ولجأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته ، فتاب الله عليهم وألهمهم طريق التوبة والسداد ؛ إن الله هو التواب الرحيم .

علاقات المسلمين بغيرهم

سورة التوبة هي آخر سور القرآن نزولاً ، وفي هذه السورة نجد القول الفصل في علاقات الأمة المسلمة بالمشركيين ويأهل الكتاب وبالمنافيقين وهذا هو موضوعها الذي تدور حوله .

لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركيين عهود وام يكن المشركون يحافظون على عهودهم إلا ريثما تلوح لهم فرصة ، يحسبونها مواتية للكرة على المسلمين ، وكان المشركون - حتى بعد فتح مكة - يطوفون بالبيت عرايا ، على عادتهم في الجاهلية ، ويصفقون ويصفرون مخلصين بكرامة البيت العتيق ، فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، وأن تتخلص من الشرك .

والجهاد هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من رجس المشركين والمنافقين ، ومن ثم تناولت السورة موضوع الجهاد بالنفس ، والمال ، ويثبت شرفه وأجره ، وأنحت على المتخلفين القاعدين ، واستجاشت وجدان المسلمين إلى قتال الكفار المنافقين بما صورت من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وتمنى الشر لهم ، وما تحمله لهم نفوسهم من الخصومة والبغضاء ، وما وقع منهم للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ، وبذلك كانت سورة التوبة تحمل القول الفصل في علاقات المسلمين بغيرهم وتحدد موقفهم الحاسم الأخير.

وقد لونت السورة أساليب الدعوة إلى الجهاد ، فحيناً تنكر على المؤمنين تشاقلهم وإخلاصهم إلى الأرض ، وحيناً آخر تهتم بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومرة أخرى توضح أن سنة الله ماضية لا تتخلف ، وأن من قوانين الحق سبحانه ، أن البقاء والعزة والسلطان إنما يكون للعاملين المجاهدين ، أما المتباطئون والمتخاذلون الذين يؤثرون حياتهم ويضنون بأنفسهم وأموالهم ويخلدون إلى الأرض ، ويعرضون عن دعوة الجهاد في سبيل حريتهم وبقائهم ، فإنهم ولا بد ذاهبون ، وهم لا محالة مستذلون مستعبدون .

فضل الرسول الأمين

تعرضت سورة التوبة لبيان فضل رسول الله ﷺ ومكانته السامية ومناقبه الكريمة ، فذكرت أن الله أنزل السكينة عليه وأيده بجنود من الملائكة في يوم حنين حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين .

ومن كرامة الرسول ﷺ أن الله نصره عند الهجرة مع صاحبه الصديق ، وكان الله معهما بتأييده وإنزاله الطمأنينة والأمان عليهما وحفظهما في الغار حتى عميت عنهما عيون الكفار ، وجعل الله كلمة المؤمنين في ارتفاع وانتصار ، وشأن الكافرين في هزيمة وانسحاق ، وقد أوجبت سورة التوبة على المؤمنين عدة واجبات تجاه نبيهم منها :

١ - وجوب محبته ﷺ والتزام هديه والعمل بسنته كما نجد ذلك في الآية ٢٥ .

٢ - تحرى مرضاته : لأن رضاه من رضى الله سبحانه ، ونجد ذلك في الآية ٦٢ .

٣ - وجوب طاعته والنصح له ووجوب نصره .

٤ - تحريم إيذائه وتحريم معاداته وتحريم القعود عن الخروج معه في الجهاد .

وتختتم السورة آياتها بذكر صفات رسول الله ﷺ فهو الرحمة المهداة : لتطهير المؤمنين وتزكيتهم وتعليمهم ، والدعاء لهم ، فحبه فريضة ، وبغضه كفر وحرمان وقد تكفل الله بنصر رسوله حتى ولو تخلى عنه جميع الناس ، فإن معه الله القوي القدير .

قال تعالى : **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ • فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .** (التوبة: ١٢٨ ، ١٢٩) .

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ①﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ② وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ③ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِيَتِمَّ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ④﴾

المضردات :

براءة من الله ورسوله ، المراد من البراءة : قطع العهد بين الرسول ﷺ وبين الناكثين للعهد من المشركين .

صاحدتم ، عاقدتم .

فسيحوا في الأرض ، فسيروا فيها أحرارا .

غير معجزى الله ، أى : غير مفلتين من انتقامه .

مخزى الكافرين ، مذلهم في الدنيا والآخرة .

وأذان : الأذان : الإعلام بأمر مهم ، وشاع إطلاق الأذان على النداء للصلاة .

يوم الحج الأكبر ، المراد به : يوم عيد النحر وقيل : يوم عرفة .

ونشر الذين كفروا بعذاب اليم ، أى : وأنذرهم بعذابه فإن التبشير كما يستعمل كثيرا في الإخبار بما يسر ، يستعمل

قليلًا في الإخبار بما يسوء ، لغرض الإهانة والتحقير .

ولم يظاهروا عليكم ، أى : ولم يعينوا عليكم .

التفسير:

١- بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

قال الفخر الرازي : روى أن النبي ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون ، وأرجفوا الأراجيف ، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنابذ رسول الله ﷺ العهد إليهم .

وتفيد كتب التفسير والسير :

أن النبي ﷺ أرسل أبا بكر رضي الله عنه أميراً على الحج في السنة التاسعة للهجرة ، فلما سافر نزلت سورة براءة ، متضمنة نقض عهود المشركين ، فأرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب ، على ناقه رسول الله ﷺ العضاء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور؟ قال : بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر : قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقرأ عليهم آيات من أول سورة براءة ، ثم قال - فيما رواه الترمذي والنسائي وأحمد - بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون في الحج بعد عامهم هذا ^(١) .

ومعنى الآية :

هذه براءة واصله من الله ورسوله ، إلى الذين عاهدتم من المشركين ، بسبب نقضهم لعهودهم ، وإصرارهم على باطلهم ^(٢) .

قال الشوكاني :

المعنى : الإخبار للمسلمين ، بأن الله ورسوله قد برثا من تلك المعاهدات ، بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النابذ إليهم بمعهدهم ، واجباً على المعاهدين من المسلمين .

٢- فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ .

أى : فسيروا في الأرض آمنين على أنفسكم من قتال المسلمين منذ أربعة أشهر ، لا تتعرضون للإيذاء فيها ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . أى : واعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ؛ ليتوب من أراد التوبة ولتكون لديهم فرصة للاستعداد للقتال ، إذا أصرروا على شركهم وعداوتهم ، وهذا منتهى التسامح . والإنذار حكيمته ألا يتهم المسلمون بأخذهم الأعداء فجأة على غرة .

وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ . فى الدنيا بالهزيمة ، وفى الآخرة بسوء العذاب ، وقد علم من الآية الكريمة أن الناكثين لمهودهم ، يمهلون أربعة أشهر ، سواء أكانت مدتهم كذلك أم أقل منها أم أكثر ، وابتداء هذا الأجل من يوم الحج الأكبر ، أى : من العاشر من ذى الحجة ، إلى العاشر من ربيع الآخر سنة عشر للهجرة .

ويتصل بهذه الآية ما يأتى :

١ - عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص ، ثم يبأشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة .

٢ - متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد جاز له ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئاً من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى . قال تعالى : وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَلَبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . (الأنفال : ٥٨) .

٣ - الحكمة فى تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر ما يأتى :

هذه هى المدة التى كانت تكفى - إذ ذاك بحسب ما يألّفون - لتحقيق ما أبيع لهم من السياحة فى الأرض ، والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور ، والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير وفيه فوق ذلك مسأيرة للوضع الإلهى ، فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة .

على أننا نجد القرآن جعل الأربعة الأشهر أمداً فى غير هذا ، فمدة إيلاء الرجل من زوجته أربعة أشهر ، وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر ، ولعل ذلك : لأنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان ، لتقليب وجهه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام ، تقرر مبدأ الهدنة والصلح فى الإسلام ، طلبها العدو أم تقدم بها المسلمون^(١١) ، وأصل ذلك مع هدنة المشركين قوله تعالى : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... (الأنفال : ٦١) .

وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام ، وأرباب الشورى المقررة فى قوله تعالى : وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ . (آل عمران : ١٥٩) .

ونلاحظ أن مدة الهدنة فى صلح الحديبية كانت عشر سنين ، ومدتها هنا كانت أربعة أشهر ، وذهب الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين : أن المقرر فى الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف : فقد جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل ، وإذا لم يكن بهم ضعف : لم تجز الزيادة على أربعة أشهر^(١٢) . ا هـ .

والأولى أن نقول: إن تقدير مدة الهدنة بين المسلمين وأعدائهم يترك تحديده إلى أهل الحل والعقد ، بما يتفق مع المصلحة العامة ؛ لأن هذا من الأمور المتغيرة بحسب الزمان والمكان ، خصوصاً بعد التطور المستمر في وسائل الحرب وعدتها وطبيعتها .

٣- وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ...

أى : وإعلان وإيدان من الله ورسوله إلى الناس عامة ، يوم الحج الأكبر - وهو يوم عيد النحر - حيث تجتمع الخلائق فى أكبر تجمع لهم ، بأن الله ورسوله قد برئاً من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم ، وأسند سبحانه الأذان إلى الله ورسوله ، كما سندت البراءة إليهما؛ إعلاء لشأن ذلك، وتأكيداً لأمره ولا تكرار بين ما جاء فى هذه الآية ، وما جاء فى الآية الأولى؛ فإن الأولى فيها إخبار بثبوت البراءة من الناكثين لعهدهم ، وأما هذه ففيها إعلام جميع الناس بذلك .

قال الزمخشري :

فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية .

قلت : فى تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت . ١ هـ .

ونذهب بعض العلماء إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة وقيل : جميع أيام الحج ، ورجح الإمام ابن جرير الطبرى وغيره ، أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، «ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ؛ فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ، ثم يوم النحر تكون الوفاة والزيارة .. ويكون فيه ذبح القرابين وحلق الرءوس، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج»^(١٣) .

«وقد ثبت فى الصحيحين أن أبا بكر وعلياً أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفة ، وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : «يوم الحج الأكبر يوم النحر» ، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة»^(١٤) .

وقد ساق ابن كثير طائفة من الأحاديث الشريفة تفيد : أن علياً كان ينادى بأربع :

١ - لا يطوف بالبيت عريان .

٢ - لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

٣ - لا يحج بعد عامنا هذا مشرك .

٤ - من كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهد إلى مدته .

فَإِنْ تَبِعْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ سَاءَ لَكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِ اللَّهِ .

أى : فإن رجعتكم خلال هذه المهلة عما أنتم فيه من الشرك وسائر المعاصى ، فرجوعكم هذا أنفع لكم فى دنياكم وأخراكم ...

أى : وإن أعرضتكم عن الإيمان ، وأبيتكم إلا الإقامة على باطلكم . فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِ اللَّهِ . أى : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات لكم من أخذه ويطشه : لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته ، وتحت قدرته .

وَيُنْذِرُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيِهِمْ . أى : ويشرأبها الرسول من أنكر رسالتك ، ولم يؤمن بالله وملائكته ، بعذاب مؤلم شديد الألم فى الآخرة ، والتعبير بالتبشير عن الإنذار : لغرض التهكم والسخرية ، بمن يتولى ويعرض عن الإيمان بالرسول ﷺ ، مع وضوح الحق فى جانبه .

٤- إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ... الآية .

أمر الله تعالى فى الآيات السابقة أن ينبذ المسلمون عهود المشركين ، وجاءت هذه الآية : لتبين أن هذا النبذ ليس عاماً ، بل هو خاص بأولئك الذين تلاعبوا بعهودهم ، وظاهروا على المسلمين .

والمعنى :

ولا تمهلوا الناكثين لعهودهم فوق أربعة أشهر ، لكن المعاهدين الذين عاهدتموهم ، ثم لم ينقصوكم شيئاً من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم عدواً ، كبنى ضمرة وبنى كنانة : فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُتَاهِمٍ . أى : أدوا إليهم عهدهم تاماً غير ناقص ، إلى المدة التى عاهدتموهم إليها ، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَمِّينَ . أى : الموفين بعهدهم ، وفيه تنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته ، مع الموفين بعهدهم ، من تقوى الله ، التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسببها .

جاء فى تفسير المنار :

والآية تدل على أن الوفاء بالعهد ، من فرائض الإسلام ، مادام العهد معقوداً ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وأن شروط وجوب الوفاء به علينا ، محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره ، فإن نقض شيئاً من شروط العهد ، وأخل بفرض ما من أغراضها : عُذْ نَاقِضًا : لقوله تعالى : ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا .

ولفظ شيء أعم الألفاظ ، وهو نكرة فى سياق النفى ، فيصدق بأدنى إخلال بالعهد ، ومن هذا الإخلال مظاهرة عدونا أى : مساعدته ومعاونته : لأن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كلّامن الفريقين المتعاهدين للآخر ، فمظاهرة أحدهما لعدو الآخر ومساعدته ، كمباشرته للقتال بنفسه .

دلالة الآيات :

تدل الآيات السابقة على ما يلى :-

- ١ - نقض معاهدات المشركين المطلقة غير المؤقتة بزمان : لأنهم نكثوا العهد ، وأخلوا بشروط التعااهد .
- ٢ - من كان له عهد دون أربعة أشهر تكمل له مدة أربعة أشهر .
- ٣ - مدة الأمان أربعة أشهر من يوم النحر (عاشر ذى الحجة) إلى العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر .
- ٤ - من كان له عهد مؤقت ، فبقي على عهده إلى انتهاء مدته ، مهما كان مالم ينقض العهد ، أو يخل بشرط من شروطه .
- ٥ - الإسلام يقدس العهود ، ويوجب الوفاء بها ، ويجعل احترامها نابعاً من الإيمان ، وملازماً لتقوى الله .
- ٦ - إن افتتاح السورة بالبراءة ويدون بسملة ، يدخل فى النفس الرهبة الشديدة والخوف الأشد .



﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى
يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمِنُهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

المضردات :

انسلخ ، انقضى .

واحصروهم ، وأسروهم ، والأخذ : الأسير .

واقعدوا لهم كل مرصد ، وضيقوا عليهم وامنعهم من الإفلات .

واقعدوا لهم كل مرصد ، وراقبهم فى كل مكان يرى فيه تحركهم : حتى تمنعهم من التجمع ضدكم ، أو الفكككم منكم .

فخللوا سبيلهم ، أى : فافتروهم أحراراً .

استجارك، أى: سأل جوارك؛ ليكون فى حماك وأمنك .

فأجـره، أى: فأمنه .

التفسير،

٥- فَإِذَا سَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... الآية .

المراد بالأشهر الحرم : الأشهر الأربعة ، التى أبيع فيها للمشركين الناكثين لعهد الرسول ﷺ ، أن يسبحوا فى الأرض آمنين ، وجعلت حرماً ؛ لأن الله حرم قتالهم فيها .

وهذه الأشهر تبدأ من يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر ، أما الأشهر الحرم التى قال فيها القرآن : **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** . (التوبة : ٣٦) فهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

والعنى : فإذا انقضت الأشهر الأربعة ، التى حرم فيها قتال المشركين الناكثين لمهودهم - لعلمهم بقتولهم فيها إلى ردهم - فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فى حل أو حرم ؛ لإصرارهم على الخيانة والشرك .

وَحُلُّوهُمْ وَأَحْضَرُوهُمْ وَأَقْلَبُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ .

وَأَسْرُوهُمْ ، فَإِذَا أَخَذَ هُوَ الْأَسِيرَ .

وَأَحْضَرُوهُمْ . الحصر : منعهم من التصرف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم .

وَأَقْلَبُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ . المرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، أى : اقلعوا لهم فى المواضع التى ترتقبونها فيها .

وترى أن هذه الوسائل الأربعة - القتل ، والأسر ، والمحاصرة ، والمراقبة - هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور ، من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة .

وهكذا نرى تعاليم الإسلام ، تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة : لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم ، ويستثنى من ذلك النساء ، والرهبان ، والشيوخ ، والصبيان ، والضعفاء ؛ فهؤلاء لا يتعرض لهم بقتل ولا تضييق ، إلا إذا عاونوا أولئك الناكثين .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

استخدمت الآية كل الوسائل المشروعة في الترهيب والترغيب : فقد أمرت المسلمين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم ، فإذا رجع المشركون عن الشرك ، فأسلموا وأقاموا الصلاة بشروطها في أوقاتها ، وأدوا الزكاة لمستحقيها ، برهانا على صدق إيمانهم ؛ فخلوا سبيلهم ولا تتعرضوا لهم بشيء مما تقدم ، إن الله عظيم الغفران والرحمة ، فلماذا يقبل توبتهم من الغدر والكفر .

وقد استند أبو بكر رضى الله عنه ، إلى هذه الآية في قتال مانع الزكاة ، حيث قال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال .

وقد روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»^(١٤) .

والمراد بالآية : اقتلوا المشركين الذين يحاربونكم^(١٥) .

وفى الحديث المتواتر : الذى رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس - أى : مشركى العرب بالإجماع - حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»^(١٦) .

وجاء فى أحكام القرآن للجصاص ٨١/٣ :

قوله تعالى : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ .

خاص فى مشركى العرب دون غيرهم .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبى بكر ما كان أفقهه !^(١٨) .

٦- وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ...

المعنى : وإن طلب أحد من المشركين أن يكون فى جوارك ، وفى أمانك وحمايتك ، بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له فأجره أى : فأمّنه وأجبه إلى طلبه .

حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ. أى : لكى يسمع كلام الله ويتدبره ، ويطلع على حقيقة ما يدعو إليه ، من تعاليم مقنعة للعقول السليمة ، ثُمَّ أَيْلَغَهُ مَأْمَنَهُ . ثم أبلغه مأمنه . ثم أبلغه مأمنه إن لم يسلم ، أى : عليك يا محمد أن تجيره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ، ولا يبقى له عذر فى الإصرار على شركه ، فإن آمن صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه ، وأراد الرجوع إلى جماعته : فعليك أن تحافظ عليه ؛ حتى يصل إلى مكان آمنه واستقراره ، وهو ديار قومه ، ثم بعد ذلك يصبح حكمه حكم المصيرين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين ، وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم لا يعلمون الإسلام ، ولا حقيقة ما تدعوهم إليه ، فلا بد من تمكينهم من ذلك ، ببذل الأمان لهم ؛ حتى يزول عذرهم ، وتقوم لك الحجة عليهم .

ومن الأحكام والآداب التى أخلها العلماء من الآية ما يأتى :-

١ - أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه ؛ مادام فى دار الإسلام ، وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ؛ ما رواه البخارى والنسائى عن النبى ﷺ أنه قال : «من آمن رجلاً على دمه فقتله ؛ فأنا بريء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً»^(١) .

وروى الشيخان وأحمد : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لكل غادر لواء ، يعرف به يوم القيامة»^(٢) .

٢ - يلحق بالمستجير الطالب لسماع كلام الله ، من كان طالباً لسماع الأدلة على كون الإسلام حقاً ، ومن كان طالباً للجواب عن الشبهات ، التى أثارها أعداء الإسلام .

٣ - على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطى المستأمن المهلة التى يراها كافية لفهمه حقائق الإسلام ، وأن يبلغه مأمنه بعد انقضاء حاجته ، وأن لا يمكنه من الإقامة فى دار الإسلام ، إلا بمقدار قضاء حاجته .

٤ - أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه فى الدين ، وأنه لا بد من النظر والاستدلال وأنه لا بد من الحجة والدليل .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ ﴾ ٧ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

المفردات :

فما استقاموا لكم : فما وفوا بعهدهم لكم

يظهروا عليكم : يغلّبوكم

لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، لا يراعوا فيكم قرابة ولا عدا .

التفسير :

٧ - كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... الآية

أى : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أصداد لكم ، مضمرون للغدر ، ينتهزون الفرص ؛ لينقضوا عهودكم .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ .

أى : ولكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام - أى : قرب المسجد الحرام - وهم بنو مدلج ، وبنو ضمرة
من قبائل بنى بكر ، وكانوا قد وفوا بعهودهم مع المسلم .فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . فأى وقت استقام أولئك المشركون ، الذين
عاهدتموهم عند المسجد الحرام ، وكانوا أوفياء بمعاهدتهم ؛ فاستقيموا لهم ، بإتمام عهدهم إلى مدتهم ؛
فإن هذا من التقوى ، والله يحب المتقين .

٨ - كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً .

فى تكرار الاستفهام بكيف ، تكرار وتأكيد لاستبعاد ثباتهم على العهد ، وحذف الفعل ؛ لكونه معلوماً ،
أى : كيف يكون لهم عهد .

والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد معتد به ، ومراعاة لأحكامه عند الله وعند رسوله ، والحال أنهم إن يظهروا عليكم أيها المؤمنون ، ويظفروا بكم ويغلبوك .

لَا يَرْقُبُوا لَكُمْ . لا يراعوا في شأنكم .

إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ . أى : قرابة ولا عهداً .

قال ابن جرير الطبري بعد أن ساق أقوالاً في معنى الإلّ : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : والإلّ : اسم يشتمل على معان ثلاثة وهى : العهد والعقد ، والحلف ، والقرابة ...

وإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك معانيها الثلاثة .

وقال الدكتور/ محمد سيد طنطاوى ، فى تفسير الآية :

والمعنى : بآية صفة أو بآية كيفية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، والحال المعهود منهم، أنهم إن يظفروا بكم ويغلبوك ، لا يراعوا فى أمركم لا عهداً ولا حلفاً ولا قرابة ، ولا حقاً من الحقوق . ١ هـ

وجاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

فإذا كانوا لا يراعون عهودهم وقرابتهم معكم ، فكيف تحافظون على عهود ضيعوها وتكثروها ، وشرط وجوب مراعاة حقوق العهد ، أن تكون محترمة من المتعاقدين ، فإن ضيعها أحدهما : حل للأخر معاملته بالمثل .

يُرْضَوْنَكُمْ بِأَلْفَاهِمِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ .

أى : يقولون بأنسنتهم ، ما فيه مجاملة ومحاسبة لكم ؛ طلباً لمرضاتكم ، وتطيب قلوبكم ، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه ، وتود ما فيه مساءتكم ومضرتكم .

قال الزمخشري :

وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . متمردون خلعاء ، لا مروءة تمنعهم ، ولا شمائل مرضية . تردعهم . ١ هـ .

وتخصيص الأكثر بوصف الفسق والغدر ، لما فى بعض الكفرة من البعد عن الغدر ، والتعفف عما يؤدى إلى سوء الأحداث ، وقبح السيرة .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وصفت هؤلاء المشركين ، وصفاً فى نهاية الذم والقيح : لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا ، وأسرفوا فى الإيذاء ، نابذين كل عهد وقرابة وعرف ...

أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدمون للمؤمنين الكلام اللين ، الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم الحاقدة الغادرة . أى : أن الغدر ملازم لم فى حال قوتهم وضعفهم ؛ لأنهم فى حالة قوتهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وفى حالة ضعفهم يخادعون ويداهنون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين^(١١) .

★ ★ ★

﴿ أَشْرَوْا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 ⑩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⑪ ﴾

المضردات :

اشترؤا بآيات الله : استبدلوا بالقرآن .

فصدوا عن سبيله : فأعرضوا عن دينه الموصول إليه .

التفسير :

٩ - أَشْرَوْا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... الآية

استبدل المشركون بالقرآن الذى هو أعظم آيات الله التنزيلية - استبدلوا به شيئاً حقيراً من حطام الدنيا : هو اتباع أهوائهم وشهواتهم .

فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : أعرضوا عن سبيل الحق وعدلوا عنه ، أو صرفوا غيرهم عنه وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم .

إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : إنهم بئس الذى كانوا يعملون ، من إغراضهم عن الحق ، وإقبالهم على الباطل .

١٠ - لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً ...

لا يراعى المشركون في مؤمن قرابة ولا عهداً في أى حال : فقلوبهم مفعمة بكراهيتهم ، وهذه الآية تؤكد لما جاء في الآية السابقة بأن الغدر في طبيعتهم في جميع الأحوال .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ .

قال الشوكاني : أى : المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد . أو البالغون في الشر والتمرد إلى الغاية القصوى .

★ ★ ★

﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفْصِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير :

١١ - فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ... الآية

يفتح الإسلام صدره لكل راغب : بشرط صدق التوبة ، وأداء شعائر الإسلام .

والمعنى : إن تابوا عن شركهم بالله ، وآمنوا بالله رباً واحداً لا شريك له ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ . أى : أدوها بشروطها وأركانها ، باعتبارها عماد الدين .

وَأَتَوُا الزَّكَاةَ . على الوجه الذى أمر الله به ، فهم في هذه الحالة إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وهذه الأخوة تجب ما قبلها من عداوات .

وَتُفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وتبين الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم ، الموضحة لأحكامهم حالتي الكفر ، والإيمان ، نبيهاً لقوم يعملون ، ويفهمون ما فيها من الأحكام ، فيطبقونها عند مقتضياتها .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ كَفَرُوا أَيْمَنُتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ (١٢)

التفسير:

١٢- وَإِنْ كَفَرُوا أَيْمَنُتُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ ... الآية

أى: إن نقض هؤلاء المشركون ما أبرم معهم من عهود، وطعنوا فى دينكم، أى: عابوا القرآن والنبي ﷺ، واستهزءوا بالمؤمنين كما كان يفعل شعراؤهم، وزعماء الكفر فيهم؛ فهم أئمة الكفر وقادته ورؤساؤه، فقاتلوهم قتالاً عنيفاً؛ إنهم لا عهود لهم ولا ذمة؛ لأنهم لما لم يفوا بها؛ صارت كأن لم تكن، وذلك لتكون المقاتلة سبباً فى انتهاءهم ورجوعهم، عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال، وهذا من غاية كرم الله وفضله على الإنسان فقلوه: لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ. أى: عن كفرهم وباطلهم وإيذائهم للمسلمين.

وفيه دليل على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام؛ فقد نكث عهده، وعلى أن القتال ليس بقصد المنافع الدنيوية أو الغنائم أو إظهار الاستعلاء، وبحب السيطرة، وإرادة الانتقام، وإنما هو من أجل التمكين من قبول دعوة الإسلام، وما الحرب إلا ضرورة يقتصر فيها على قدر الضرورة.

قال ابن كثير: والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم.

قتل من طعن فى الدين

استدل بعض العلماء بهذه الآية، على وجوب قتل كل من طعن فى الدين؛ إذ هو كافر، والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين، لما ثبت من الدليل القطعى، على صحة أصوله واستقامته فروعه.

وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى ﷺ؛ عليه القتل، وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعى، وقد حكى عن أبى حنيفة أنه قال: لا يقتل من سب النبى ﷺ من أهل الذمة، وإنما يقتل بالحراية والقتل^(١٢٦).

قتل من سب النبى ﷺ

أكثر العلماء على أن من سب النبى ﷺ من أهل الذمة، أو عرض به، أو استخف بقدره، أو وصفه بما لا يليق، فإنه لم نعهذ الذمة أو العهد على هذا ورأى أبو حنيفة والثورى: أنه لا يقتل، ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يعزَّر ويؤدب^(١٢٧).

﴿الْأَنْفَالُ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

التفسير:

١٣ - أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ... الآية

المناسبة :

بعد أن قال تعالى : قَاتِلُوا أَلَمَةَ الْكُفْرِ . أتبعه بذكر السبب الذي يبعث على مقاتلتهم ، وهو نقض العهد واعتداؤهم على المؤمنين ويدؤهم لهم بالقتال ، وهمم بإخراج الرسول من بلده .

معنى الآية :

هذا حض وتحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم وذلك لأسباب ثلاثة ذكرها الله تعالى في هذه الآية :

١ - نكثهم العهد : إنهم نقضوا عهودهم التي أقسموا عليها .

قال ابن عباس : نزلت في كفار مكة الذين نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية ، وأعانوا بنى بكر على خراطة ، وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ؛ ليكون ذلك زجراً لغيرهم ، والعهد الذي نقضوه هو صلح الحديبية ؛ لمناصرة قريش حلفاءهم بنى بكر ، على خراطة حلفاء النبي ﷺ ، ليلا بالقرب من مكة ، على ماء يسمى : (الهجير) . فسار إليهم رسول الله ﷺ ، وفتح مكة سنة ثمان هجرية ، في العشرين من رمضان .

٢ - ألهم بإخراج الرسول ، حين تشاوروا في دار الندوة على التخلص منه ، وتداولوا الأمر وفكروا في حبسه أو نفيه أو قتله .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ (الأنفال : ٣٠) .

٣ - بدؤهم بالقتال ، فقد بدءوا بالقتال يوم بدر وكذلك في أحد والخندق وغيرها ، وبعد أن ذكر الله هذه الأمور الموجبة لقتالهم ، اتجه بالحديث إلى المؤمنين ؛ ليهيجهم ويحمسهم فقال : أَتَخْشَوْنَهُمْ أَى : أتخافونهم

أيها المؤمنون فقتلوا قتلهم ؛ خوفاً على أنفسكم ؛ لا ينبغي ذلك منكم ، قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ أَيْ : فالله أولى بالخشية ؛ لأنه صاحب القدرة المطلقة التي تدفع الضرر المتوقع ، وهو القتل ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؛ فالإيمان قوة دافعة على الإقدام ، أَيْ : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؛ فأقبلوا على قتلهم ، ولا تخافوا ولا تجبنوا ؛ إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده دون سواه ؛ لأن بيده النفع والضرر . وفي هذا دلالة على أن المؤمن ، الذي يخشى الله وحده ، يجب أن يكون أشجع الناس وأجراهم على القتال .

★ ★ ★

﴿ قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤) وَيَذْهَبْ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

التفسير :

١٤ - قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ...

بعد أن بين فيما سبق ما يوجب قتال المشركين ويحث عليه ، أتبع ذلك بالأمر الصريح بقتالهم ورتب على ذلك عدداً من الفوائد .

أى : قاتلوهم أيها المؤمنون ، فإن قاتلتهم يعذبهم الله بأيديكم ، بسبب ما تنزلونه بهم ، من قتل وأسر وجراحات بليغة ، واغتنام للأموال .

وَيُخْزِيهِمُ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْهَزِيمَةِ ، وَيَصْرُكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ يجعل كلمتكم هي العليا ، وكلمتهم هي السفلى ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . امتلأت غيظاً من أفعال المشركين بهم فى مكة ، وهم بنو خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، كما قال مجاهد .

١٥ - وَيَذْهَبْ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ .

أى : قلوب هؤلاء المؤمنين على المشركين من غرهم وظلمهم وشدة إيذائهم ، أو يذهب غيظ قلوبكم لما لقيتم من شدة المكروه منهم .

جاء في تفسير أبي السعود :

وَيُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ بما كابدوا من المكارة والمكاييد ، ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به ، على أجمع ما يكون ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة ^(١٦) .

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ . هذا كلام مستأنف . ينبئ عما سيكون من إيمان بعض المشركين ، أى : ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه من عباده ، فيوقفه للإيمان ، ويشرح صدره للإسلام ، وقد حدث ذلك فعلاً ، فأسلم أناس من أهل مكة ، وحسن إسلامهم ، مثل : أبى سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسليم بن أبى عمرو ، وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بما يصلح عباده حكيمٌ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد : فامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

★ ★ ★

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦)

المضردات :

ولما يعلم الله ، لما : حرف يفيد نفى وقوع الفعل إلى زمن المتكلم مع توقع وقوعه فى المستقبل ، والمراد أنه إلى الآن لم يتحقق وقوع الجهاد منكم ؛ لعدم حصوله وقت نزول الآية ، ولكنه ينتظر وقوعه وفق ما فى علم الله .

ولِجَةً ، الوليجة : الصديق الذى تطلعه على سرك وخفايا أمرك من الولوج وهو الدخول ، ويطلق عليه : لفظ بطانة أيضاً ؛ لأنك تباطنه بأسرارك .

التفسير :

١٦ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ... الآية

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، والمعنى فيما سبق : ألا تقاتلون أولئك المشركين الذين نقضوا العهد واعتدوا عليكم ، وهما بإخراج الرسول .. إلى آخر ما ذكر ، وهنا يبين بعض الحكم التى من أجلها شرع الجهاد .

ومعنى الآية :

أم حسبكم أيها المؤمنون أن تتركوا وشأنكم مهملين ، بغير اختبار بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، من طريق الجهاد الذى يتبين فيه المخلصون ، المجاهدون بالنفس والمال ، والذين لم يتخذوا بطانة من الكفار أولياء ، يُسَوِّن إليهم بأحوال المسلمين وأموارهم وأسرارهم . بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ورسوله ، متميزين عن المنافقين الذين يطلعون الولائج على أسرار الأمة وسياساتها ، وقد اكتفى بأحد القسمين عن الآخر ؛ للعلم به ضمناً .

قال الجصاص : قوله : **وَلَمْ يَتَّخِذُوا .. وَلِجَنَّةٍ** يقتضى لزوم اتباع المؤمنين ، وترك العدول عنهم ، كما يلزم اتباع النبى ﷺ .

وفيه دليل على لزوم حجة الإجماع ، وهو كقوله : **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ ... (النساء : ١١٥)**

وقال ابن جرير : **وَلِجَنَّةٍ** أى : بطانة ومداخلة من الولوج فى الشيء أى : الدخول فيه .

وإنما عنى بها فى هذا الموضع : البطانة من المشركين ، نهى الله أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء ، يفشون إليهم أسرارهم .

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ أى : أن علمه شامل لجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ؛ فهو سبحانه مطلع على كل شيء ، محيط به علماً ، ونظير الآية فى الاختبار قوله تعالى : **الْم • أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ • وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (المنكوت : ١ - ٣)** وقال عز شأنه :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

ونظير الآية فى النهى عن اتخاذ الوليجة أو البطانة قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (آل عمران : ١١٨) .**

والخلاصة : أن الله تعالى لما شرع لعباده الجهاد ، بين حكمته ، وهى اختبار عبيده ، من يطيعه ممن يعصيه ، وهو سبحانه قبل ذلك ويعدده العالم بما كان ، وما يكون وما لم يكن ، ويتبين من الآية أن الله تعالى عالم بالنيات والأغراض ، مطلع عليها ، لا تخفى عليه خافية ؛ فعلى الإنسان التركيز على أمر النية ، وجعلها خالصة لوجه الله .

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

ما كان للمشركين : أى ما صح ولا استقام لهم .

شاهدين على أنفسهم بالكفر : المراد من شهادتهم على أنفسهم : إظهارهم آثاره ، من نصب الأوثان حول البيت وعبادتها ، وإن أبوا أن يعترفوا بكونهم كفاراً .

حبطت أعمالهم : أى : بطلت فلا ينتفعون بها .

مساجد الله : أى : أماكن عبادته .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى جاتم عن ابن عباس : أن جماعة من رؤساء قريش ، أسروا يوم بدر ، منهم العباس ابن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيرونهم بالشرك ، وجعل على بن أبى طالب يوبخ العباس ، بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا ، وتكتمون محاسننا ، فقبل له : وهل لكم محاسن ؟ قال : نعم ونحن أفضل منكم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة - أى : نخدمها - ونسقى الحجيج ، ونفك العاني - أى : الأسير - فنزلت هذه الآية ^(١٧) .

والمراد : أن الآية تضمنت الرد على العباس وأمثاله ، لا أنها نزلت عقب قوله : لأن غزوة بدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية نزلت ضمن سورة التوبة بعد الرجوع من غزوة تبوك ^(١٨) .

التفسير :

١٧- مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ .

أى : ما صح ولا استقام فى دين الله وشرعه ، أن يتولى المشركون عمارة الأماكن المعدة لعبادة الله ، المبنية على اسمه وحده لا شريك له ، فضلاً عن عمارتهم المسجد الحرام الذى هو أشرفها وأعزها .

وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر، أى: بشهادة الحال والمقال، بأن يعبدوا الأصنام، وأن يطوفوا بالبيت عراة، وكلما طافوا بالأصنام سجدوا لها، وقيل: هو قولهم: «ليتك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» فهذه شهادتهم بالكفر، ثابتة قولاً وعملاً، فهم بهذا جمعوا بين الضدين، وبين أمرين متنافيين، لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح: عمارة بيت الله والكفر به.

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي آثَارِهِمْ خِلْدُونَ.

أى: أولئك المشركون، قد فسدت أعمالهم التي كانوا يفتخرون بها، مثل: العمارة، والحجابة، والسقاية: لأنها مع الكفر لا قيمة لها.

قال تعالى: وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. (الأنعام: ٨٨).

وفى آثَارِهِمْ خِلْدُونَ. يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم.

١٨ - إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ... الآية.

أى: إنما يستحق عمارة المساجد، وتستقيم منه العمارة ويكون أهلاً لها، من آمن بالله وحده معبوداً، على النحو المبين فى القرآن الكريم، وآمن باليوم الآخر موعداً ومصيراً، وحساباً وجزاء، وأدى الصلاة على وجهها المشروع فى مواقيتها، وأعطى الزكاة بأنواعها ومقاديرها، لمستحقيها المعروفين، كالفقراء، والمساكين، وأبناء السبيل، ولم يخش إلا الله وحده، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضررون فى الحقيقة، وإنما النفع والضرر بيد الله، هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات، هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد، الحسية بالبناء والتشييد والترميم، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم، دون من أشرك بالله، وكفر برسول الله ﷺ، هؤلاء المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد فيشركون بالله، ويسجدون للأصنام، ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام.

فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ.

وهو تذييل قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين، أى: فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة، أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة، وما أعد فيها من خير عظيم وورق كبير.

والتعبير بعسى هنا، مقصود به قطع أطماع الكافرين، أى: إذا كان هؤلاء المؤمنون - وهم من هم - يدور أمرهم بين لعل وعسى، فكيف يقطع المشركون - وهم بين المخازى والقبائح - أنهم مهتدون^(١٧).

وقد ذكر العلماء : أن كلمة عسى إذا جاءت من الله تعالى ؛ فهي بمعنى : وجب واستحق كما قال تعالى :

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) .

أما معنى عسى فى النحو: فهو الترجى .

كما قال الشاعر :

عسى فرج يأتى به الله إنه له كل يوم فى خليقته أمر

قال الألويسى فى تفسيره :

«وفى التعبير بعسى قطع ائكال المؤمنين على أعمالهم ، وإرشادهم إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء» .

ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أعمال البر الصادرة عن المشركين كإطعام الطعام ، وإكرام الضيف ... إلخ. لا وزن لها عند الله : لاقترباتها بالكفر والإشراك به سبحانه .

وهذه الشيخ محمد عبده ، وتلميذه السيد رشيد رضا ، إلى موقف آخر ، حيث رجحوا أن يجازيهم الله تعالى على هذه الأعمال فى الآخرة .

واستشهدوا بعدل الله القائل : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقوله عز شأنه : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

٢ - إن عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدهم ، أما المشركون فإنهم لا يصح منهم ذلك ؛ بسبب كفرهم ونجاستهم .

«والأصح أنه يجوز استخدام الكافر فى بناء المساجد ، والقيام بأعمال لا ولاية فيها كنحت الحجارة والبناء والنجارة ، فهذا لا يدخل فى المنع المذكور فى الآية .

ولا مانع أيضاً من قيام الكافر ببناء مسجد أو المساهمة فى نفقاته ، بشرط ألا يتخذ أداة للضرر ، وإلا كان حينئذ كمسجد الضرار ...^(٢٤) .

جاء في حاشية الجمل على الجلالين :

« لا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله بدخولها والقعود فيها ، فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم ؛ عذر وإن دخل بإذنه ؛ لم يعزر ، لكن لابد من حاجة ، فيشترط للجواز الإذن والحاجة »^(١٧) .
ونلاحظ أن رسول الله ﷺ أنزل وقد ثقيف في المسجد وهم كفار ، وشد ثمامة بن أثال الحنفي في سارية من سواري المسجد الحرام وهو كافر^(١٨) .

و نجاسة الكافر نجاسة معنوية ، فإذا دخل المسجد لغرض من الأغراض ، وأخذ إذنًا من الجهات المختصة ؛ جاز ذلك .

٣ - يؤخذ من الآيتين التنويه بشأن المساجد والتعبد فيها ، وإصلاحها ، وخدمتها ، وتنظيفها ، والسعى إليها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذي بُنيت لأجله ، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المعنى ، منها ما يأتي :

١ - روى الشيخان والترمذي : عن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى لله مسجدًا يبتغى به وجه الله : بنى الله له بيتًا في الجنة »^(١٩) .

٢ - وروى الشيخان والحافظ أبو بكر البزار ، وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما عمار المساجد هم أهل الله »^(٢٠) .

٣ - وروى أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وابن مردويه : عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد ؛ فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** »^(٢١) .

٤ - وروى الشيخان : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح - أى : سار قبل الزوال أو بعده لعبادة الله في المسجد - : أعد الله له نزلاً - أى : مكانًا طيبًا في الجنة - ؛ كلما غدا أو راح »^(٢٢) .

﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩)

المفردات :

سقاية الحاج : المراد من الحاج : جنس الحاج ومن سقايتهم إعطاؤهم ما يشربون .

التفسير :

١٩ - أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...

المناسبة :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، ومكملة لها ، فالآية السابقة أوضحت أن عمارة المسجد الحرام مقبولة إذا كانت عن إيمان ؛ فهي للمسلمين دون المشركين ، وهذه الآية أبانت أن الإيمان والجهاد أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج .

سبب النزول :

روى : أن المشركين سألوا اليهود قائلين : نحن سقاة الحاج ، وعُمار المسجد الحرام ؛ أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت اليهود عناداً لرسول الله ﷺ : أنتم أفضل ؛ فردَّ الله على الجميع منزلاً هذه الآية الكريمة .

والمعنى : أجعلتم أهل سقاية الحاج ، وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد

في سبيل الله ؟

فالإيمان بالله واليوم الآخر ، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس أفضل وأعظم درجة من أعمال السقاية والسدانة أو العمارة .

لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ .

أي : لا يستوى المشركون - وإن تقربوا بالسقاية وعمارة المسجد الحرام - مع المؤمنين ، المجاهدين

في سبيل الله .

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يرشدهم ؛ لأنهم قد آثروا الشر على الخير ، والضلالة على الهدى .

من تفسير المنار

قال صاحب المنار - بعد أن ساق عدداً من الروايات في سبب نزول هذه الآية - : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان : لصحة سنده ^(١).

حديث النعمان في صحيح مسلم

أورد ابن جرير الطبري وغيره من المفسرين ، ما رواه مسلم وأبو داود وابن المنذر عن النعمان ابن بشير قال :

كُنْتُ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَجُلٌ : مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَسْقَى الْحَاجَّ وَقَالَ آخَرٌ : مَا أَبَالِي أَنْ لَا أَعْمَلَ عَمَلًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنْ أَعْمَرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، وَقَالَ آخَرٌ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ : فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ : لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ - وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتَ الْجُمُعَةَ دَخَلْتَ وَاسْتَقْتَيْتَهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... الْآيَةُ .

وهذا المساق يقتضى أن الآية نزلت : عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال .

قال صاحب المنار : المعتمد أن موضوع الآيات في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحُجَّاجِهِ من أعمال البر الهيئة المستلزة ، وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهى أشق العبادات البدنية والمالية اهـ .

بعض المفسرين يرجح أن الآية رد على المشركين

ذكر بعض المفسرين : أن هذا إشكال : لأن تمام الآية يقول : **وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** . وهذا مشكل بالنسبة للمسلمين : فإنهم جميعا مهديون وليسوا بظالمين .

وأجيب عن هذا الإشكال بأنه : لما قرأ النبي ﷺ الآية ظن الراوى أنها نزلت حينئذ : فقال : إنها نزلت بهذا السبب في حين أن النبي ﷺ ، لما استفتاه عمر فيما اختلفوا فيه قرأ النبي ﷺ الآية التى نزلت من قبل بشأن المشركين ، مستدلاً بها على أن الجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام : ليعلم المختلفون الحكم ، فالآية في الحقيقة لم تنزل بسبب هذا الخلاف ، والراوى أخطأ في ظنه نزولها بسببه ، أو تسامح في التعبير .

قال القرطبي نقلًا عن غيره : لا يستبعد أن يُنزع مما أنزل في المشركين أحكام تليق بالمسلمين .

قال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشوَاءً : وتوضع صحيفة ، وترفع أخرى ، لكننا سمعنا قول الله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيْبِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا . (الأحقاف : ٢٠) .

وهذه الآية نص في الكفار ، ولكن عمر رضى الله عنه فهم منها زجر المسلمين أيضًا عما يناسب أحوال الكافرين ، بعض المناسبة ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، فهذه الآية من هذا النوع .

قال القرطبي : وهذا تأويل نفيس وبه يزول الإشكال اهـ .^(٣٧)

ويرجع عندي ما ذهب إليه القرطبي ، فهو أرجح في تقديرى مما ذهب إليه صاحب المنار .

فالآية نزلت في سياق الرد على المشركين ، ولكن المسلمين استفادوا بمضمونها عندما اختلفوا في اختيار أفضل الأعمال : لأنها جعلت الإيمان ، والجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال . والله تعالى أعلى وأعلم .

★ ★ ★

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

المضردات :

وهاجروا : تركوا مكة إلى المدينة : خوفًا على دينهم وأمنًا على أنفسهم من أذى المشركين .
يبشرهم ، البشارة : الإعلام بالخبر السار ، وسميت بذلك : لظهور أثرها على البشرية .

التفسير :

٢٠ - الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ... الآية

أى : أن المؤمنين بالله ورسوله ، المهاجرين من مكة إلى المدينة ، المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولإعلاء كلمة الله ، هم أعظم درجة ، وأرفع مقامًا ومكانة من القائمين بأعمال أخرى كالسقاية والعمارة .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰتَرُونَ .

أى : وأولئك المنعوتون بهذه الصفات ، هم الفاترون بفضل الله وكرامته ومثوبته .

من تفسير الفخر الرازى

قال الفخر الرازى : فإن قيل : لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين المسلمين والكافرين ، كما جاء فى بعض روايات أسباب النزول ، فكيف قال فى وصفهم أعظم درجة ؛ مع أنه ليس للكفار درجة ؟ قلنا : الجواب عنه من وجوه :

الأول : أن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ، ونظيره قوله سبحانه : **عَالِلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** (النمل : ٥٩) .

الثانى : أن يكون المراد : أولئك أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفاً بهذه الصفات ؛ تنبيهاً على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين الذين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى .

الثالث : أن يكون المراد : أن المؤمن المجاهد أفضل ممن على السقاية والعمارة ، والمراد منه : ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير ، وإنما بطل ثوابها فى حق الكفار ؛ بسبب كفرهم .

٢١- **يُخَبِّرُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّعَتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** .

يخبرهم الله مبشراً برحمة واسعة ، ورضوان كامل ، وجنات لهم فيها نعيم دائم ، وهم فى هذا النعيم خالدون على الدوام إلى ما شاء الله تعالى .

قال الألوسى : ذكر أبو حيان : أنه لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ؛ قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة ، والرضوان ، والجنة .

٢٢- **خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** .

لقد عوضهم الله جزاء الإيمان والهجرة والجهاد جنات خالدين فيها لا يخرجون منها أبداً ؛ فإن الله لديه أجر عظيم ؛ فلا يخل به على أوليائه .

روى الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ،

وقد أعطيتنا ما لم نَحْطُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ ؟! فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ، فيقولون : ربنا ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(٣٧) .

فى ختام الآيات ١٩ - ٢٢

دلت الآيات على أن الجهاد مع الإيمان أفضل الأعمال ؛ لأنه بذل للنفس أو المال ؛ بقصد إعلاء كلمة الله . ومراتب فضل المجاهدين كثيرة ، فهم أعظم درجة عند الله من كل ذى درجة ، فلهم المزية والمرتبة العليا ، وهم الفائزون الظافرون الناجون ، وهم الذين يبشرهم ربهم ويعلمهم فى الدنيا بما لهم فى الآخرة من النعيم المقيم ، وهم الخالدون إلى الأبد ، وإلى ما شاء الله فى جنات الخلد ، ولهم ثواب عظيم أعده الله لهم فى دار كرامته .

★ ★ ★

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾^(٣٨) قُلْ إِنْ
كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِخْرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ ﴿٣٩﴾

المضردات ،

أولياء : أحياء وأصفياء .

وعشيرتكم : أى : أقربائكم ، من العشرة وهى الصحبة .

فتربصوا : فانتظروا .

لا يهدى القوم الفاسقين ، أى : لا يعينهم على الهدى ؛ لخروجهم عن طاعة الله بموالاته أعدائه .

التفسير:

٢٣ - يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ... الآية

سبب النزول :

أخرج الفريابي عن ابن سيرين عن علي بن أبي طالب أنه قال لقوم قد ساءهم : ألا تهاجروا ، ألا تلتحقوا برسول الله ﷺ ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا وعشائرننا ومساكننا ؛ فأنزل الله : قُلْ إِن كَانَ ءَآبَاؤُكُمْ ... الآية كلها.

المناسبة :

جاء في تفسير الكشاف للزمخشري :

كان قبل فتح مكة ، من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ، ويصارم أقاربه الكفرة ، ويقطع موالاتهم ، فقالوا : يا رسول الله : إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبنائنا وعشائرننا ؛ وذهبنا تجارتنا وهلك أموالنا ، وخربت ديارنا ، وبقينا ضائعين ؛ فنزلت هذه الآية ، فهاجروا ؛ فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه ؛ فلا يلتفت إليه ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم بعد ذلك . وقيل : نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة ؛ فنهى الله عن موالاتهم . ا هـ . والآية عامة ، وإن كان السبب خاصاً .

قال الدكتور وهبة الزحيلي في التفسير المنير :

والخلاصة : أن الدين يغير المفاهيم ، فيجعل رابطة الدين أعلى ، وأقوى وأولى من رابطة العصبية الجنسية وصلة القرابة والانتماء للأسرة ، ويقرر أن ثمرة الهجرة والجهاد لا تظهر إلا بترك ولاية المشركين ، وإظهار طاعة الله والرسول على كل شيء في الحياة ^(٨٤) .

والمعنى :

يا أيها المصدقون بالله ورسوله ، لا يتخذ أحد منكم أباه أو أخاه حبيباً يضافيه ، ويخلص له الولد ؛ إن استحب الكفر على الإيمان ، وأصر عليه إصراراً لا يرجى منه الإقلاع عنه .

والنهى عن موالاتهم في تلك الحالة يقتضى جواز موالاتهم قبلها ، على أمل أن تؤدي بهم إلى الإسلام ، بسبب شعورهم بسماحته .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

ومن يحبهم ويخلص لهم الولد ، أو يطلعهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية ، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم ؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله بموالات الكفار بدلاً من التبرؤ منهم .

قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ؛ لأنه رضى بشركهم ، والرضا بالكفر كفر ، كما أن الرضا بالفسق فسق.

٢٤- قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ... الآية .

أى : إن كنتم تفضلون هذه الأنواع الثمانية ، على محبة الله ورسوله أى : طاعتها والجهد فى سبيل الله . فَرَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ . فانتظروا حتى يأتى الله بما يأمر به من عقوبة عاجلة أو آجلة لكم ، والجملة الكريمة قصد بها : التهديد والوعيد .

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . تذييل قصد به : تأكيد التهديد السابق ، أى : والله تعالى لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبته ورضاه .

جاء فى تفسير الكشاف : وعن الحسن : هى عقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذه أشياء شديدة لا نرى أشد منها ، كأنها تنعى على أناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين . ١ هـ .

ويمكن تصنيف الأنواع الثمانية الواردة فى الآية بأربعة :

١ - مخالطة الأقارب وذلك يشمل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم بقية العشيرة .

٢ - الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

٣ - الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة .

٤ - الرغبة فى البناء والدور المخصصة للسكنى ، وقد بين الله تعالى أن رعاية الدين خير من رعاية هذه الأمور .

ونلاحظ أن محبة هذه الأشياء الثمانية لها شديد ارتباط بالإنسان ومجتمعه : فمحبة الأب والابن والإخوة والزوجة والعشيرة فطرة إنسانية ؛ وحب المال ، والتجارة الراحة ، والمسكن المريح ، طبيعة نفسية ؛ فهى وسائل التملك والتفاخر والتظاهر وبالرغم من مظاهر الحب وحقائقه لهذه الأنواع الثمانية : أمر الله بإيثار حبه وطاعته ، والجهد فى سبيله على هذه الأشياء .

فالله سبحانه وتعالى مصدر النعم ، وملجأ لدفع الكرب والمحن ، قال تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

(البقرة : ١٦٥)

الأداب والأحكام

أخذ العلماء من هاتين الآيتين الآداب والأحكام الآتية :-

١ - لا يتم إيمان المؤمن ، إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب . فقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣٩) .

وروى أحمد والبخارى : عن عبد الله بن هشام قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» ، فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : «الآن يا عمر»^(٤٠) .

٢ - قال المفسرون : هاتان الآيتان فى بيان حال من ترك الهجرة وآثر البقاء مع الأهل والمال .

٣ - الإحسان إلى الوالدين والأقارب وتقديم الهدايا لهم - مع كفرهم - لا يتعارض مع ولاية الله ورسوله بدليل ما أخرجه البخارى : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن أمى قدمت على راغبة وهى مشركة أفأصلها؟ قال : نعم : «صلى أمك»^(٤١) .

٤ - قال بعض العلماء : وليس المطلوب من قوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ... إلخ ، أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد ، والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبين ويزهدين فى طبيبات الحياة ، كلا ، إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة الحاكمة ، وهى المحركة الدافعة ، فإذا تم لها هذا : فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طبيبات الحياة : على أن يكون مستعداً لنهبها كلها ، فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة ، أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الحياة ؟ فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته : فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والعشيرة والزوج . ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ، ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق ، فى غير سرف ولا مخيلة .

بل إن المتاع حينئذ لمستحب ، باعتباره لوتاً من ألوان الشكر لله ، الذى أنعم بها : ليستمع بها عباده ، وهم يذكرون : أنه الرازق المنعم الوهاب^(٤٢) .

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرْهُتِكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ تَوَبَّ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات :

حنين : واد بين مكة والطائف ، حدثت فيه المعركة التي نسبت إليه وكانت عقب فتح مكة .
رحبت : أى : برحبها وسعتها ، والباء فيه بمعنى : «مع» .
سكينة : رحمته التي تسكن عندها النفوس .

التفسير :

٢٥- لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ...

بين الله في آيات سابقة فضل الجهاد ، وحث عليه وبين في هذه الآيات أنه سبحانه عوَّدهم النصر حين يخلصون في جهادهم .

والمعنى : لقد نصركم الله أيها المؤمنون في مواقع كثيرة : كبدور وقرنيطلة والنضير والحديبية وخيبر ومكة ؛ وذلك لأنكم نصرتموه بصدق جهادكم فهياً لكم ثمار النصر .

قال مجاهد : هذه أول آية نزلت من (براءة) يذكر الله تعالى فضله عليهم ، وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسول الله ﷺ ، وأن ذلك من عنده تعالى ويتأييده وتقديره ، لا بعدددهم ولا بعددهم ، ونبيهم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً ، فولوا مدبرين إلا القليل منهم ، مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل الله نصره ويتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ؛ ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ، وإيماداه وإن قل الجمع : كَمَنْ مِنْ قَلِيلَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ قُوَّةَ كَثِيرَةٍ يَأْذَنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . (البقرة : ٢٤٩) .

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُرُوكُكُمْ فَلَمْ تَلْحَقُوا بِهِمْ لَعَنَ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَصِيئَةً.

أى : ونصركم يوم حنين مع أنكم قصرتم فيه إذ أعجبتمكم كثرتكم ، حتى قال بعض المسلمين : (إن نهزم اليوم من قلة) وكان عدد المسلمين (١٢) اثنى عشر ألفاً ، عشرة آلاف من المسلمين الذين فتحوا مكة ، وألفان من الطلقاء ، أى : من أهل مكة الذين أسلم كثير منهم وعفا عنهم النبى ﷺ وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء وكان فيهم بعض المشركين .

واتكل المسلمون على قوتهم فى مبدأ الأمر ! فانهزموا ، ثم لما عدلوا عن غرورهم ، وتضرعوا إلى ربهم كان النصر حليفهم .

أضواء من التاريخ على وقعة حنين

كانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش ، وكانت تنافسها فلما بلغها فتح مكة : نادى سيدهم مالك ابن عوف النصرى بالحرب ، وهو من بنى نصر بن مالك .

واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع جيشه أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم ، وزعم أن ذلك يحمى نفوسهم به ويقوى شوكتهم ، وكان على ثقيف كنانة بن عبيد ، وشهد الحرب دريد بن الصمة وكان شيخاً كبيراً له رأى وحكمة ، ونزلوا بأوطاس ، وإد فى ديار هوازن عند الطائف ، كانت فيه وقعة حنين ، ولما علم رسول الله بأمرهم : أزمع السير إليهم ، وخرج معه اثنا عشر ألفاً .

والتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فانكشف المسلمون منهزمين ، حتى قال أبو سفيان بن حرب ، لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال أخ لصفوان ابن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه :

اسكت فض الله فاك ، والله لأن يحكمنى رجل من قريش خير من أن يحكمنى رجل من هوازن .

وَضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلِيتُمْ مُدْبِرِينَ .

أى : إن كثرتكم لم تنفعكم شيئاً من النفع فى أمر العدو ! بل انهزمت أمامه فى أول الأمر ، وضاعت فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها ، فقد خيل إليكم أن رحابها أغلقت فى وجوهكم ، فلا تجدون فيها موضعاً تطمنون فيه وتثبتون كما قال الشاعر :

كان بلاد الله وهى عريضة
على الخائف المطلوب كفة حابل

ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ .

ثم انصرفتم من وجه العدو متقهقرين لا تلوون على شيء .

لقد صورت الآية الكريمة ما حدث من المؤمنين فى غزوة حنين ، تصويراً بديعاً معجزاً .

فهى تنتقل من سرورهم بالكثرة ، إلى تصوير عدم نفهم بهذه الكثرة ، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لكان الأرض على سعتها تضيق بهم ، وتثقل فى وجوههم ، إلى تصوير حركاتهم الحسية ، فى تولية الأدبار ، والنكوص على الأعقاب .

٢٦- ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

ثبت رسول الله ﷺ على بغلته ثبات الواقع حين يقع ، وثبت نفر من المؤمنين قرابة مائة .

أى : أنزل الله طمأنينته وثباته على رسوله ، وكان فى حاجة إلى هذه الطمأنينة : فهو مع ثباته وشجاعته ، ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم : أصابه الحزن والأسى ؛ لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه .

وكان المؤمنون الذين ثبتوا معه فى حاجة إلى هذه السكينة : ليزدادوا ثباتاً مع ثباتهم ، وكان الذين فروا فى حاجة إلى هذه السكينة : ليعود إليهم ثباتهم فيقبلوا على قتال أعدائهم بعد أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى ذلك .

وأمر النبى العباس - وكان جهوى الصوت - أن ينادى بأعلى صوته : يا أصحاب بيعة العقبة ، يا أصحاب بيعة الشجرة ، فقالوا جميعاً : لبيك لبيك ، ونادى رسول الله ﷺ : إلى عباد الله ، إلى عباد الله ، فتوافد المسلمون ، وأمرهم النبى ﷺ أن يصدقوا فى حملتهم على عدوهم ، وأخذ النبى قبضة من التراب ودعا ربه ، واستنصره قائلاً : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى» ثم رمى بالتراب فى وجه القوم ، فما بقى إنسان إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فقبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، ثم جاءوا بالأسرى بين يدى رسول الله ﷺ .

وكان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وكانت تلك أكبر غنيمة غنمها المسلمون (٣) .

وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا . أى : أنزل ملائكة تكثر سواد المسلمين وتثبتهم ، وتلقى الرعب فى قلوب المشركين ؛ حتى طارت قلوبهم فرعاً وخوفاً ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون .

وَعَذَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

أى : أنزل بالكافرين الهزيمة والقتل والجرح والسبي وغنيمة الأموال ، روى أن علياً رضى الله عنه قتل بيده أربعين رجلاً فى هذه الغزوة وذلك غير ما فعله سواه من المقاتلين .

وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ .

أى : وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب ؛ جزاء لهم على كفرهم ؛ وصددهم عن سبيل الله .

٢٧- ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَن بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : ثم يتجاوز الله بعد هذا التعذيب الذى حدث فى الحرب ، على من يشاء من الكفار .

يعنى : ومع كل ما جرى عليهم من الخذلان ، فإن الله تعالى قد يتوب على بعضهم ، بأن يزيل عن قلبه الكفر ، ويهديه إلى الإسلام .

من كلام المفسرين

قال ابن كثير :

وقوله : ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَن بَعْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ... قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ، وقدموا على رسول الله مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يوماً ؛ فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وأموالهم ؛ فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين صبي وامرأة فرده عليهم ، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناساً من الطلقاء ؛ لكى يتألف قلوبهم على الإسلام ؛ فأعطاهم مائة مائة من الإبل ، وكان من جملة من أعطاهم مائة من الإبل : مالك بن عوف النضرى واستعمله على قومه^(٣١) .

وأخيراً فإن هذه الآيات قد ذُكرت للمسلمين بجانب نعم الله عليهم ، وأرشدتهم إلى أن النصر لا يتأتى لمن أجبوا بكثرتهم ، فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه سبحانه ، إنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله فى السر والعلانية ، وباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى ؛ للوصول إلى الفوز والظفر .

قال الإمام ابن القيم :

افتتح الله تعالى غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ؛ لهذا يقرن بين هاتين بالذکر ، فقال : بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين ... وبهاتين الغزوتين طفئت جمره العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى : خوفتهم وكسرت من حدتهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفذت سهامهم ، وأذلت جمعهم ؛ حتى لم يجدوا بداً من الدخول فى دين الله^(٣٢) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

المفردات :

نجس : المراد بنجاستهم : خبث باطنهم فكانهم عين النجاسة : لشدة خبثهم وكراهتهم للإسلام والمسلمين.
عيلة : فقراً .

التفسير :

٢٨- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... الآية

قال الشوكاني في فتح القدير :

المراد : نجاسة الشرك والظلم ، والأخلاق والعادات السيئة ، والكافر ليس بنجس الذات ؛ لأن الله سبحانه
أحل طعامهم ، وثبت عن النبي ﷺ أنه أكل في أنيتهم ، وشرب منها ، وتوضأ فيها ، وأنزلهم في مسجده .
والمراد بالمشركين في رأى الأكثرين : هم عباد الأوثان . وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن
نكاح المشركات ، وإنكاح المشركين .

فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا .

أى : لا يدخلوا الحرم المكي ومنه المسجد الحرام ، ولو لحج أو عمرة ، فليس لهم أن يحجوا أو يعتصموا ،
والنهى وإن كان موجهاً إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه : نهى المؤمنين عن تمكينهم من ذلك .

بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا . سنة تسع للهجرة ، وهى السنة التى حج فيها أبو بكر على الموسم ، فيمنعون من
دخوله ابتداء من سنة عشر للهجرة .

قال ابن كثير :

«أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً ، بنفى المشركين الذين هم نجس ديناً ، عن المسجد
الحرام ، وألّا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها فى سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة
أبى بكر رضى الله عنهما ، عامئذ ، وأمره أن ينادى فى المشركين : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا
يطوف بالبيت عريان ، فأتى الله ذلك ، وحكم به شرعاً وقدره» .

وخلاصة المعنى :

يا أيها الذين آمنوا ، لا تمكثوا المشركين من أداء مناسك الحج والعمرة ، بعد عامهم هذا ؛ حتى لا يحج البيت إلا من يوحد الله ويمجده وحده دون سواه .

وَإِنْ خِفْتُمْ عِمْلَةَ فُسُوفٍ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

أى : وإن خفتُم أيها المسلمون فقراً بسبب قلة جلب الأقوات ، وأنواع التجارات التى كان المشركون يجلبونها ؛ فاطمئنوا فسوف يغنيكم الله من فضله بوجوه أخرى ، ويسير لكم موارد المعيشة ، والأرزاق والمكاسب؛ إن الله عليم بأحوالكم ، حكيم بما يشرعه لكم من أمر ونهى ، وهو أيضاً حكيم فيما يعطى ويمنع لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله ، العادل فى حكمه وأمره تعالى .

وهذا إخبار عن غيب فى المستقبل ، وقد تحقق الخبر ، وأنجز الله وعده ؛ فأرسل السماء عليهم مدراراً ، ووفق أهل اليمن وجرش وغيرهم فأسلموا ، وصاروا يحملون الأطعمة إلى مكة ، وأسلم المشركون أنفسهم ؛ وجاءت الثروات والخيرات من كل مكان ، ثم فتح الله عليهم البلاد والغنائم ، وتوجه إليهم الناس من أطراف الأرض قاصبيها ودانيها .

من أحكام الآية ما يأتى

١ - قال العلامة أبو السعود : الصحيح أن الشافعية والمالكية يحرمون دخول الكفار جميع المساجد . ١ هـ .

وقد أباح الحنفية للكافر دخول المساجد كلها فى الحرم وغيره ، لحاجة أو لغير حاجة ؛ لأن المقصود بالآية النهى عن حج المشركين واعتماهم ، فلا يمنع اليهود والنصارى ، من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان .

٢ - فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بأسباب الرزق جائز ، ولا ينافى فى ذلك التوكل ، وإن كان الرزق مقدراً ، ولكن الله علقة بالأسباب ؛ لحمل الناس ، على العمل . والسبب لا ينافى التوكل ، بدليل ما أخرجه البخارى من قوله ﷺ : «لو توكلتم على الله حق التوكل ؛ لريزقكم كما يريزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطائناً» (١٧) .

أى : تغدو بكرة وهى جياح ، وتروح عشية وهى ممتلئة الأجواف والبطون .

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ هُمُ اللَّهُ أَزَى يُؤَفِّكُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات :

الجزية : هي ضريبة لنا على أهل الكتاب ؛ جزاء حمايتهم وحقق دمائهم .

عن يد وهم صاغرون : أى : عن يد موأنية متقادة وهم خاضعون .

يضاهئون ، المضاهأة والمضاهات : المشابهة .

أنى يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير :

٢٩- قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... الآية

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ... الآية

يأمر الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بقتال أهل الكتاب ، بعد ما أمرهم من قبل بقتال المشركين ، ومنعهم من قرب المسجد الحرام بحج أو عمرة .

والغاية من قتال أهل الكتاب فى هذه الآية : هى اعترافهم بالدين الحق ، وعدم إلزامهم بالدخول فيه ؛ والاكفاء بالتصالح معهم ؛ ليستوطنوا فى دار الإسلام بأمان وسلام ، مع إخضاعهم لأحكام الإسلام المدنية والجزائية ، وما عدا ذلك فإننا أمرنا بتركهم وما يدينون به فى عباداتهم وشئونهم ، مع أخذ الجزية منهم جزاء حمايتهم ، وتوفير الأمن والأمان لهم ، ويصبحون عند ذلك من أهل الذمة والعهد .^(٣٠)

قال ابن كثير :

« هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب - اليهود والنصارى - وكان ذلك سنة تسع ؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ،

فندبهم فخرجوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفاً ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدي ، ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ ، يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ونزل بها ، وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك ؛ لضيق الحال ، وضعف الناس ...» (٣٧).

والمعنى : قاتلوا أهل الكتاب إلى أن يستسلموا ويدفعوا الجزية ، عن مقدرة عليها منهم ، وفي نفس الوقت عن عرفان منهم بمقدرة المسلمين وكفاءتهم ؛ ونلاحظ أن الآية بينت أسباب قتال أهل الكتاب وهي ثلاثة أسباب :

١ - عبرت عنهم باسم الموصول فقالت :

فَلْيُظَلِّمُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ...

وأهل الكتاب يدعون أنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، لكنهم ادعوا أن الله ولدًا ، وادعوا أن الله ثالث ثلاثة.

جاء في حاشية الجمل على الجلالين :

إن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ، ولا يشربون ولا ينكحون ، ويرون أن نعيم الجنة وعذاب النار، معان روحية فقط كالسرور والهم ، فهم لا يؤمنون بحياة مادية كاملة في عالم الآخرة ، وهذا مناف لما أخبر به القرآن ، ومن أنكر البعث الجسماني ؛ فقد أنكر صريح القرآن (٣٨).

٢ - وَلَا يَحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

فهم لا يحرمون ما حرمه موسى وعيسى ، عليهما السلام بل حُرِّفوا التوراة والإنجيل ، وشرعوا لأنفسهم أحكاماً تخالف أصل دينهم .

فترى اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل .

قال تعالى : وَأَخْلَاهُمْ آلِثَبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ . (النساء : ١٦١) .

والنصارى استباحوا ما حُرِّم عليهم في التوراة كالشحم والخمر ، وقد استحلوا الرهبانية ، وفسق بعضهم بها عن حكم الله وهدايته .

قال تعالى: ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آلِهِم بِرُسُلِنَا وَفَقَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ . (الحديد: ٢٧) .

٣ - وَلَا يَلْبِثُونَ فِيهِنَّ الْحَقُّ .

أى : الدين الثابت الناسخ لجميع الأديان وهو دين الإسلام .

قال تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا . (المائدة: ٣) .

وقال تعالى: وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (آل عمران: ٨٥) .

ويصح أن يكون المراد بدين الحق : ما يشمل دين الإسلام ، وغيره من الأديان السماوية التي جاء بها الأنبياء السابقون . أى : ولا يدينون بدين من الأديان التي أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلونهم ويحرمونه عليهم^(٨٠) .

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ .

أى : الذين أعطاهم الله التوراة وهم اليهود ، أو الإنجيل وهم النصارى .

والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل . أى : قاتلوا من أعطاهم الله التوراة والإنجيل عن طريق موسى وعيسى ، ولكنهم لم يعملوا بتعاليمها ؛ وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهوائهم وشهواتهم ، والمقصود بقوله : مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ تمييزهم عن المشركين عبدة الأوثان فى الحكم : لأن عبدة الأوثان فى بلاد العرب يخبرون بين أمرين الإسلام أو القتال .

أما أهل الكتاب فإنهم يخبرون بين ثلاثة أشياء : الإسلام ، أو القتال ، أو الجزية .

والجزية : كلمة فارسية هى (كزيت) ؛ وكانت نظاماً معمولاً به عند الفرس وغيرهم .

وقد عمل به الإسلام ؛ لمن أراد البقاء على دينه من أهل الكتاب ؛ فأعفاه الإسلام من دخول الجيش أو الدفاع عن الدولة ، حيث إنه لا يعتقد بعقيدة الإسلام ، فأعفاه الإسلام من الاشتراك فى الجندية ، وأخذ منه ما يشبه البذل النقدي الذى يؤخذ من بعض المتخلفين عن الخدمة فى الجيش فى هذه الأيام .

وقد اشترط الإسلام على المسلمين حماية أهل الذمة ، والدفاع عنهم مقابل أخذ الجزية ، فإذا لم يستطع المسلمون الدفاع عن أهل الكتاب ؛ ردّوا عليهم الجزية .

وقد فعل ذلك خالد بن الوليد حين شُغل بالقتال ، عن الدفاع عن بعض أهل الكتاب فردّ عليهم الجزية، وقال : إنما أخذنا الجزية جزاء حمايتكم والدفاع عنكم ، فإذا شغلنا عنكم رددنا الجزية لكم ، فاعترف أهل الكتاب له بالشكر وبحسن المعاملة .

حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

أى : أن الغاية من قتال أهل الكتاب ، هو اتفاقهم مع المسلمين ، والاعتراف لهم بحقّهم ، وإن لم يدخلوا فى الإسلام ؛ فإذا دخلوا مع المسلمين فى معاهدة ، أصبحت لهم ذمة الله ورسوله ؛ ولذلك كانوا يسمّون : أهل الذمة ؛ أى : أهل المعاهدة .

وإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية باتفاق الفقهاء ؛ لما رواه أحمد وأبو داود والبيهقى والدارقطنى : عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «ليس على مسلم جزية» ^(٨١) .

وفى رواية للطبرانى : عن ابن عمر «من أسلم فلا جزية عليه» ^(٨٢) .

ملحق بتفسير الآية

جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، ص ١٦٨٩ ما يأتى :

معنى : عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .

(أ) اليد هنا يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانقياد ، أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وانقياد وطاعة.

(ب) ويحتمل أن تكون كناية عن الدفع نقداً بدون تأجيل ، أى : حتى يعطوها نقداً بدون تسويق أو تأخير .

(ج) ويحتمل أن تكون بمعنى : الغنى ، ولذلك لم تجب على الفقير العاجز من أهل الكتاب والمعنى : حتى يدفعوا الجزية عن مقدرة منهم على دفعها ، مع الاعتراف للمسلمين بالسيادة .

وهذه المعانى الثلاثة إذا أريد باليد: يد الكتابى، أمّا إذا أريد باليد: اليد الآخذة وهى يد الحاكم المسلم؛ ففى هذه الحالة يكون معناها : القوة والقهر والغلبة والحماية .

أى : حتى يعطوها للمسلمين عن يد قاهرة مستولية ؛ وهى يد المسلمين ، أو حتى يعطوها للمسلمين عن يد من المسلمين . أى : إنعام من المسلمين عليهم ؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة ^(٨٣) .

وجاء في تفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى ما يأتى :

وَهُمْ صَلُّوا : وهم خاضعون لولايتكم عليهم ؛ وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن معنى : وَهُمْ صَلُّوا أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَهَا فى ذلة وانكسار ومهانة .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

وَهُمْ صَلُّوا .

تؤخذ منهم على الصغار والذلّ ، وهو أن يأتى بنفسه ماشياً غير راكب ، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ، وأن يتلثل ثلثلة ، ويؤخذ بتلابيبه ويقال له : أدّ الجزية ، ويدفع فى قفاه ^(٨٦) .

وقال السيوطى : استدل بقوله تعالى : وَهُمْ صَلُّوا من قال : إنها تؤخذ بإهانة بأن يجلس الآخذ ؛ ويقدم الذمّ ويطأطأ رأسه ، ويحنى ظهره ... إلخ .

وقد رد الإمام ابن القيم على هذا القائل بقوله : هذا كلّ مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية ؛ ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه .

والصواب فى الآية : أن الصغار هو التزامهم بجرىان أحكام الله عليهم وإعطاء الجزية فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى ^(٨٧) .

ونرى أن كلام الإمام ابن القيم أقرب إلى المعقول والمنقول ؛ ويتفق مع عدالة الإسلام وسماحته ورحمته بالناس أجمعين خاصة ونحن فى زمن صار العالم كله قرية واحدة ، وصار بعضهم يدعى الدفاع عن حقوق الإنسان ، وديننا هو الذى كرّم إنسانية الإنسان ؛ فقد خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، واستخلفه فى إعمار الأرض ، وقال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ .

مقدار الجزية

لم يحدد القرآن مقدار الجزية ، وقد اختلف الفقهاء فى تقديرها .

(أ) قال الشافعى : هى فى السنة دينار على الغنى والفقر من الأحرار البالغين ، وإن صولحوا على أكثر من دينار ؛ جاز لهم وتؤخذ فى آخر السنة ^(٨٨) .

(ب) وقال المالكية : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب ؛ وأربعون درهماً على أهل الفضة ، الغنى والفقر سواء .

(ج) وقال الحنفية : ١٢ درهماً على الفقراء الذين لهم كسب ، ٢٤ درهماً على الأوساط ، ٤٨ درهماً على الأغنياء ؛ وتؤخذ في أول السنة ، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له ^(٨٧) .

ولعلك بالتأمل ترى أن الجزية عطاء مرتبط بقوة المسلمين ، وقدرتهم على حماية أهل الكتاب والدفاع عنهم .

هذا أمر متغير متقلب، ونسبة الجزية تتأثر بمدى قوة المسلمين ومدى ضعف الآخرين. وربما كان من المناسب أن نقول : إن مقدار الجزية يترك تقديره إلى كل حالة بما يناسبها ، أو إلى تقدير أهل الحل والعقد. وتقدير الحنفية أقرب إلى روح العصر ؛ لأنها تراعى حالة الكتابي من الفقير أو الغني وتؤخذ منه حسب حالته.

من أحكام الآية

ذكر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي في تفسير سورة التوبة : أن العلماء قد أخذوا من هذه الآية الأحكام الآتية :

١ - إن هذه الآية أصل في مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند كثير من الفقهاء ؛ لأن أهل الكتاب هم الذين يخبرون بين الإسلام أو القتال أو الجزية ، أما غيرهم من مشركي العرب فلا يخبرون إلا بين الإسلام أو القتال .
قال القرطبي ما ملخصه :

وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية ؛ فقال الشافعي : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة، عرباً كانوا أو عجماً ؛ لهذه الآية ؛ فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم ؛ لقوله تعالى : في شأن المشركين : فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال في أهل الكتاب .

وقال الشافعي : وتقبل من المجوس لحديث «ستوليهم سنة أهل الكتاب» أي : في أخذ الجزية منهم .

وبه قال أحمد وأبو ثور : وهو مذهب الثوري وأبي حنيفة وأصحابه .

وقال الأوزاعي : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب .

وكذلك مذهب مالك : فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجد ، عربياً أو عجمياً، تغلبياً أو قرشياً ، كائناً من كان إلا المرتد ^(٨٨) .

٢ - إن أخذ الجزية منهم إنما هو نظير ما ينالهم وكفنا عن قتالهم ، ومساهمة منهم فى رفع شأن الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم ، ومقدساتهم .. وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها ؛ يجب علينا حمايتهم ، ورعايتهم ، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة .

وفى تاريخ الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى ، ومن ذلك ما جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد : «وينبغى يا أمير المؤمنين - أيدك الله - أن نتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ - والتفقد لهم ؛ حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شئ من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ؛ فقد روى عن رسول الله ﷺ . أنه قال : «من ظلم من أمتى معاهداً أو كلفه فوق طاقته ؛ فأنا حجيجه» .

وكان فيما تكلم عمر بن الخطاب عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بزمة رسول الله ﷺ . أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم^(٨٧) .

وجاء فى كتاب «أشهر مشاهير الإسلام» :

وأن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ، ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية ، أمير التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من إطلاق جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له^(٨٨) .

وجاء فى كتاب «الإسلام والنصرانية» للأستاذ الإمام محمد عبده ما ملخصه :

«... الإسلام كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بجزية يدفعونها ؛ لتكون عوناً على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم ، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحراراً ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة .

خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يُعن على القتال .

جاءت السنة بالنهاى عن إيذاء أهل الذمة ، ويقرر ما لهم من الحقوق على المسلمين ، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» و «من أذى ذمياً فليس منا» .

واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالي إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف في أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .

ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهلها ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم - بعد العجز عن إخراجهم من دينهم - طردتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاءً حقيقياً .

ولا يمنع غير المسيحي من تعدى المسيحي إلا كثرة العدد أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التي يغلب على أرضها ، بشيء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم ، ويأن يعيشوا في هدوء ، لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمايرهم .

٣٠- وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ... الآية

في هذه الآية وما بعدها يكشف الله سبحانه عن الشُّبه التي وردت على أهل الكتاب ، فأفسدت عليهم دينهم؛ وأدخلتهم في مداخل المشركين أو الكافرين، فوصفوا بقوله تعالى في الآية السابقة: **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ**. **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ** .

ذلك أنه مر على قرية قديمة ، قبورها دارة ، وقد عمَّها الصمت والسكون والموت ؛ فقال : **أَنَّى يُحْيَى هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا قَامَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ...** فلما رآه اليهود ؛ قالوا : **عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ ؛** لأن الله بعثه بعد موته .
وقيل : إن التوراة قد ضاعت أيام الأسر البابلي ، فلما عاد اليهود من الأسر ، وأعادوا بناء الهيكل ؛ لم يجدوا التوراة ، وكان عزير أو عزرا قد ملأ الله صدره نوراً ؛ فإذا التوراة محفوظة في قلبه ، تجرى كلماتها على لسانه . ثم جمع أحبارهم وأملى عليهم التوراة من حفظه ؛ وحدث بعد هذا أن عثروا على التوراة الضائعة ، ففقدوا بها ما أملاه عزرا فإذا هي هي ، فكان عندهم عزرا كائنًا علوياً سماوياً فنسبوه إلى الله وجعلوه ابناً له .

والمحققون من المؤرخين يقولون : إن عزيراً (عزرا) ، جمع محفوظات من صدور القوم ؛ ومن أوراق متناثرة وسماها : التوراة ، ولا يوجد دليل على أنها طبق الأصل ؛ فإن الأصل مفقود ، كما أن فيها وصف الله بما لا يليق به ، كالندم والضعف أمام إسرائيل ، وغير ذلك مما يقطع بوضعها ^(١) .

وقال السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ العبرى لليهودية ، الذى تفتحت فيها أزهاره ، وعبق شذا ورده ، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة .

وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .

أى : أن النصارى قالوا فى المسيح عيسى ابن مريم ما قالته اليهود فى عزيز : فقد قالوا : إنه ابن الله ، وشبهتهم فى ذلك أن المسيح قد ولد من رحم امرأة دون أن تتصل برجل .

وقد فصل القرآن القول فى ذلك فى سورة مريم ، وآل عمران وغير ذلك من السور : فالمسيح قد خلق بقدره الله ، وأراد الله أن يجعل منه آية على هذه القدرة .

فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من أب دون أم ، وخلق المسيح من أم دون أب : قال تعالى : **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** . (آل عمران : ٥٩) .

وقد رد الله على النصارى وناقشهم ، وبخض حجتهم فى آيات كثيرة . أحياناً حاكمهم إلى العقل فبين أن المسيح بشر جعله الله رسلاً ، وما ينبغى لبشر أن يرسله الله ثم يدعى هذا البشر الألوهية ويطلب من الناس أن يعبدوه هو : بل ينبغى للرسول الأمين ، أن يدعو الناس إلى عبادة الله رب الجميع .

قال تعالى : **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَّ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** . (آل عمران : ٧٩) .

وأحياناً خاطب العقل مع العاطفة والوجدان مثل قوله تعالى :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۚ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَنْشَقْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُ الْأَرْضَ وَتَعْرِىُ السَّجَالُ هَذَا ۚ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَابِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْضَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ (مريم ٨٨ - ٩٥) .

كذلك فإن المسيح أعطاه الله معجزات تؤيد رسالته مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، فقالوا : إن المسيح ما كان يستطيع أن يفعل ذلك إلا لأنه ابن الله .

وفى القرآن : **أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ ...** (الأنعام : ١٠١) .

أى : كيف يكون لله ولد مع أنه لا زوجة له ؟

وجعلوا أن ميلاد عيسى كان بأمر الله : قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلُهَا آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . (مريم : ٢١) .

كما أن معجزات عيسى لتأييد نبوته : كان شأنها كشأن معجزات الأنبياء السابقين ، كنانة صالح ، وعصا موسى ؛ هي بمثابة تصديق الله له فى دعواه الرسالة .

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ . أى : هو قول يلقى على عواهنه ؛ مجرد كلام ، لم يحتكم فيه إلى عقل أو منطق.. إنه كلام .. لا أكثر ليس بينه وبين الحق نسب .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ .

أى : إن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ، ولا عضد برهان ، كان مجرد دعوى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه ؛ غير مفيدة لغائده يعتد بها .

يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ .

يشابهون بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم : اللات والعزى ومناة بنات الله ، والملائكة بنات الله.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

ويمكن أن يكون الذين كفروا من قبل ، كل من سبق اليهود والنصارى ؛ من الذين كانوا يعتقدون بهذا المعتقد الذى يجعل لله ابناً يُعبد من دون الله ، أو يعبد مع الله ، مثل تلك المعتقدات التى كان يعتقدها اليونان فى توليد الآلهة ، بعضهم من بعض ، وكما كان يعتقد الفراعنة فى آلهتهم ، وإضافة ملوكهم إلى آلهة سماوية علوية ، وكما يعتقد المعتقدون فى بوذا وأنه مولود إلهى ا هـ .

وجاء فى تفسير المنار :

وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب : أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث ، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس .

وهذه الحقيقة التاريخية – والتى بينها القرآن فى هذه الآية – من معجزاته ؛ لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم ، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان ^(٩) .

والمعنى : إن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم : غُرِّرَ ابْنُ اللَّهِ . وقال البعض الآخر : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ .

ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ؛ ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم ^(٣٩) .

قَتَلَهُمُ اللَّهُ . أى : لعنهم الله ، أو طردهم من رحمته ورضوانه ، أو أهلكهم الله ؛ لأن من قاتله الله : هلك روى ابن جرير عن ابن عباس أن معنى قَتَلَهُمُ اللَّهُ لعنهم الله ؛ وكل شيء فى القرآن قتل فهو لعن .

والمقصود من هذا التعبير : التعجب من شفاعة قولهم حكى النقاش أن أصل قاتله الله : الدعاء ، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه فى التعجب فى الخير والشر . وهم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعى :

يا قاتل الله ليلى كيف تعجبنى وأخبر الناس أنى لا أباليها

أنى يُوقَرُونَ .

كيف يصرفون عن الحق مع قيام الدليل عليه ؟

وَيُوقَرُونَ . من الإفك بمعنى : الانصراف عن الشيء ؛ والابتعاد عنه ، يقال : أفكه عن الشيء يأفه إفكا ؛ أى : صرفه عنه وقلبه ، ويقال : أفكت الأرض إفكا ، أى : صرف عنها المطر .

والغرض من الاستفهام هنا : التعجب والتوبيخ .

أى : إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم ، فالمسيح بشر يأكل الطعام ، وتجرى عليه أحكام البشر ، فكيف يكون إلها ؟

قال تعالى : مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ حَبْلَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ . (المائدة : ٧٥) .

وقال سبحانه : لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ . (النساء : ١٧٢) .

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ إِنَّمَا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

أحبارهم : جمع حبر بكسر الحاء وفتحها لغتان كما قال الفراء - ويطلق على العالم مطلقا وغلب في عالم اليهود .

ورهبانهم : جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهى الخوف ، والمراد به هنا : عابد النصارى الذى اعتزل ملذات الحياة .

التفسير :

٣١- اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... الآية

أى : اتخذ اليهود علماء دينهم أرباباً من دون الله : فأطاعوهم فى تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله ، وجعلوهم بطاعتهم لهم ؛ كأنهم آلهة لهم يطاعون فيما يشرعون . واتخذ النصارى رهبانهم . أى : علماءهم المتعبدين - اتخذوهم آلهة من دون الله بأن أطاعوهم فيما لم يحل ، كما يطاع الله فيما شرعه لعباده ، مع أنهم آمنون .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

كانوا إذا أطعوا لهم شيئاً ، استحلوه ، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه ، أطاعوهم فيما يأمرونهم به ، وينهونهم عنه فيما يخالف أحكام الله تعالى ؛ فنسخوا بذلك ما فى كتب الله ، فكانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً ؛ لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب .

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ .

أى : واتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً معبوداً وكان ذلك على صور شتى ، فمرة : عبدوه على أنه ابن الله ، وأخرى : عبدوه على أنه إله ، وثالثة : على أنه ثالث آلهة ثلاثة .

قال صاحب تفسير المنار :

جمع الله بين اليهود والنصارى ؛ فى اتخاذ رجال دينهم أرباباً ؛ بأن أعطوهم حق التشريع فيهم ، وذكر بعد ذلك : ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه ، واليهود لم يعبدوا عزيزاً ، ولم يؤثر عنهم قال منهم : إنه ابن الله ، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح : إنه هو الله الخالق المدبر لأمر العباد ^(٩١) .

وقال الشوكاني :

اتخذ النصارى المسيح رباً معبوداً وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيزاً رباً معبوداً .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا .

أى : وما أمرهم الله فى كتبه التى أنزلها إليهم إلا ليطيعوا إلهاً واحداً فيما أمرهم به أو نهاهم عنه .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : هو الله المتفرد بالألوهية ، ولا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، فلا يصلح أن يطاع أو يعبد غيره .

سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تنزه الله عن وجل ، وتقديس عن الشركاء والنظراء والأعوان ، والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين .

قصة إسلام عدى بن حاتم الطائى

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير الطبرى : عن عدى بن حاتم ، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرأى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية .

ثم أسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من الرسول ﷺ على أخته وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها فرغبتة فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيساً فى قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ؛ فتحدث الناس بقدومه ، فدخل عدى على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة .

وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية : اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ...

فقال عدى للرسول ﷺ : إنهم لم يعبدوهم !

فقال الرسول ﷺ: بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم بإيham.
وقال رسول الله ﷺ: «يا عدى، ما تقول؟ أَيْضُرُكَ أَنْ يُقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟
ما يضرّك؟ أَيْضُرُكَ أَنْ يُقال: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهاً غير الله؟
ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق: فاستبشّر وجه الرسول بإسلامه ثم قال: «إن اليهود
مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»^(٩١).

٣٢- يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَوْهَامِهِمْ .

هذا نوع آخر من ضلالهم، وهو ما راموه من إبطال الحق، بأقاويلهم الباطلة، والمجادلات الزائفة.

وَنُورُ اللَّهِ يَطْلُقُ عَلَى الْإِسْلَامِ، الذى بُعث به الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، كما يطلق على القرآن
الذى أوضح الله به وجه الحق، وكذبهم فى دعاوى بنوة عزيز وعيسى لله، وريوية الأحناف والرهبان
والمسيح ابن مريم، ويبيّن شرائع الله على وجهها الحق.

وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَتُؤْكِرَ الْكَافِرُونَ .

أى: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره بإعلاء كلمة الإسلام، وإتمام مجده ولو كره الكافرون ذلك.

فسواء رضى أهل الكتاب أم كرهوا، فنور الإسلام سيتم ويعم المشارق والمغارب.

وكلمة يَأْتِي اللَّهُ معناها: لا يريد أو لا يرضى.

أى: أن الله تعالى يبشّر المؤمنين بإتمام الدين، ويقرّر سنته التى لا تتغيّر ولا تتبدل فى جعل العقوبة
للحق وأهله، فهذا ما يريده ويأبى نقيضه.

قال الزمخشري: أى: لا يريد الله إلا أن يتم نوره.

وقال الآلوسى:

فى الكلام استعارة تمثيلية؛ حيث شبه سبحانه حال أهل الكتاب فى محاولة إبطال نبوة النبى عن
طريق تكذيبهم له، بحال من يريد أن ينفع فى نور عظيم مثبت فى الآفاق؛ ليطلقه بنفخة.

وروى فى كل من المشبه، والمشبه به معنى الإفراط والتفريط حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء
بالفم، ونسب النور إلى الله تعالى العظيم الشأن.

وفى شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيماً فكيف يطفأ بنفخ النف (٩٧).

والآية وعد من الله تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم : لكي يمضوا قدماً إلى تنفيذ ما كلفهم الله به ، بدون إبطاء أو تناقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

٣٣- هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

هو الذى بعث رسوله محمداً ﷺ بِالْهُدَىٰ أَيْ : ما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها الله لعباده . وَدِينِ الْحَقِّ وهو الإسلام الذى هو الاعتقاد الحق ، والتوحيد الخالص ، الخالى عن صرف العبادة لأى مخلوق مهما كان عظيماً : ليعلى شأن هذا الدين على جميع الأديان كلها ، ولو كره المشركون ذلك الإظهار .

وقد تحقق وعد الله ونصره لهذا الدين بالغلبة والقهر لغيره ، وبإظهار الحجة والبرهان على عدالة الإسلام وسلامة نظامه .

وقد ساق الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة : التى بشرت الأمة الإسلامية بظهور الإسلام وانتصاره ، ونقلها الدكتور وهبة الزحيلي فى التفسير المنير ، والدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير سورة التوبة . ١ هـ .

وهذه طائفة من هذه الأحاديث الشريفة :

١ - ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيَبْلُغُ مَلِكْ أُمْتِي مَا زَوَى لِي مِنْهَا» (٩٨) .

٢ - روى الإمام أحمد : عن المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وير إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعزّ عزيزاً ، ويذلّ ذليلاً ، إما يعزّمهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلّهم فيدينون لها» (٩٩) .

وروى هذا الحديث أيضاً عن تميم الدارى ، وكان تميم الدارى إذا روى هذا الحديث يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعزّ ، ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغار والجزية .

٣ - وفى مسند أحمد أيضاً عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «فوالذى نفسى بيده ليطعن الله هذا الدين حتى تخرج الطعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز

كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد» .

قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسى بيده لتكونن في الثالثة : لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٣١) .

وفي ختام هذه الآيات نجد أن الحق سبحانه قد نعى على أهل الكتاب اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، وأرشدهم سبحانه إلى الطريق الصحيح ، وعبادة الإله الواحد ، ويشير المؤمنين بظهور دينهم على الأديان كلها ، وهذا المعنى الذى نجده فى الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة التوبة ، قد ورد أيضاً فى سورة الصف فى قوله سبحانه وتعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن تَفَرَّقَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ه يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مَعَ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ه هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٧ - ٩) .

ويؤخذ من هذه الآيات ما يأتى :

١ - عظم اليهود والنصارى ، أحبارهم ورهبانهم ، وأطاعوهم فيما حللوا وحرّموا ، فتركوا أوامر الله فى التوراة والإنجيل واتبعوا أوامر الأحبار والرهبان ، مع مخالفتها للتوراة والإنجيل ، فكانهم جعلوهم شركاء لله فى الأمر والتكليف والتشريع ، وليس المراد أنهم جعلوهم آلهة وعبدوهم ، بل المراد : طاعوهم فى أوامره ونواهيهم ، وتركوا أوامر الكتاب .

قال الألوسى فى تفسيره :

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله ، وسنة رسوله ، لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فمتى ظهر الحق فعلى المسلم اتباعه ، وإن أخطأه اجتهدا مقلده .

٢ - أفادت الآيات قوة الإسلام وجمال شريعته ، المشتملة على الصواب والصلاح ، المطابقة للحكمة والمنفعة فى الدنيا والآخرة . وأن الإسلام يعلو على كل الأديان ، فلا دين يصمد أمام النقاش العلمى والعقلى ، غير دين الإسلام ، والتاريخ على ممر الزمان ، يؤكد إنجاز هذه الوعود علانية فى اقتناع كبار العلماء فى كل اختصاص إنسانى أو علمى ، بأحقية فى التدين والاعتقاد ، وإصلاح الحياة البشرية .

وظهر الإسلام على كل الأديان في الماضي ، ثم تأخر الإسلام ، والصواب أن يقال : تأخر أهله أما هو فباق ما بقى الليل والنهار ، وإذا عاد المسلمون إلى العمل به والتزموا بهديه وروحه ؛ عادت لهم السيادة والنصر إن شاء الله .

★ ★ ★

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُخَوِّىٰ عَلَيْهِمَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوِيٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

ليأكلون أموال الناس بالباطل : المراد يأكلها بالباطل : أخذها بغير حق .

يكنزون ، أى : يجمعون ، والكنز لغة : الضم والجمع ، ويطبق أيضا على كل شيء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض أو على ظهرها .

فبشرهم بعذاب أليم ، أى : فأنذرهم ، والتعبير بالتبشير عن الإنذار : للتهكم وتشديد الوعيد .

جباههم ، جمع جبهة ، وهى من الوجه ما بين الحاجبين إلى منابت شعر الناصية .

التفسير :

٣٤ - يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...

تحدثت آيات سابقة عن هؤلاء الذين اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من دون الله ، وذكرت كراهيتهم للإسلام الذى هو نور الله .

وهنا يبين سوء أخلاق أولئك الأحبار والرهبان ، الذين أفسدوا على الناس معتقدتهم فى الله ، فإنهم إنما فعلوا ذلك : ليتسلطوا على أكل السحت والرشوة والمال الحرام ، وتغيير الأحكام والشرائع ؛ إرضاء لمن يرشونهم ، كما كانوا يأخذون من أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس وشئون الدين ، ويستولون عليها أو على بعضها لشهواتهم وأغراضهم ، ولا يكتفون بذلك بل يصدون أتباعهم ، ويمنعونهم عن الدخول فى دين الإسلام ، واتباع محمد ﷺ .

ولقد كان الإسلام حكيمًا وسليماً ، حين فتح باب المناجاة والتوبة ويغفر الذنب ، ويوجب الدعاء ، بدون وسيط فאלله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وهو يقبل التوبة ويغفر الذنب ، ويوجب الدعاء .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة : ١٨٦) .

وأكل الأحبار والرهبان أموال الناس بالباطل يتناول ما كانوا يأخذونه بغير وجه حق ، كالفقراء الباطلة ، والرشوة والتدليس ، والتحاليل على تحليل الحرام وتحريم الحلال .

وأسند سبحانه هذه الجريمة إلى كثير من الأحبار والرهبان ، ولم يستند إلى جميعهم ؛ إنصافاً للعدد القليل منهم ، الذي لم يفعل ذلك .

وهذا من دقائق التعبير ، وتحري الحق في عبارات الكتاب العزيز .

فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها ، أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يستند ذلك إلى الكثير أو الأكثر .

مثل قوله تعالى - في اليهود - وَرَأَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (المائدة : ٦٢) .

وَيُصْذَرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

أى : أنهم يصرفون الناس عن الدين الحق ، وعن الطريق الموصلة إلى الله ، وهى دين الإسلام ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتى الوسائل ، كأن يصفوه لأتباعهم بأنه دين باطل ، أو بأن رسوله ليس هو الرسول الذى بشرت به التوراة والإنجيل والكتب السماوية السابقة .

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وهذه الفقرة تتحدث عن طائفة الأحبار والرهبان ، بأنهم يكتزون المال ويبخلون به عن المستحقين ، كما أن معناها يتناول البخلاء من المسلمين الذين يمنعون الزكاة ، ولا ينفقون من أموالهم على المحتاجين ، أو المتضررين في الكوارث والزلازل وأشباه ذلك .

فاللفظ مطلق عام ، يشمل البخلاء الكانزين المانعين للزكاة والنفقة الواجبة ؛ سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من المسلمين .

وهناك من قصر هذه الفقرة على الأحرار والرهبان ، وفريق ثان ذكر أنها جملة مستأنفة تتحدث عن المسلمين وفريق ثالث ذكر أن معناها عام يشمل أهل الكتاب ويشمل المسلمين .

ولما نزلت هذه الآية ظن المسلمون أنه لا يحل لهم كنز المال ، وأنه يجب إنفاقه كله في سبيل الله ، فكبر ذلك على المسلمين ، فقال ﷺ : «ما أدنى زكاته فليس بكنز»^(١٠٠) . أى : فليس بكنز معاقب عليه بما جاء في هذه الآية .

وكان أبو ذر الغفارى يرى أن الكنز ما فضل عن الحاجة وجمهور المسلمين على أن الكنز ما لم يؤد زكاته : فما أدنى زكاته فليس بكنز : فقد جعل الله الزكاة طهرة للمال .

قال تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... (التوبة : ١٠٣) .

وحمل أبو ذر على الأغنياء : رغبة منه فى أن يخرجوا عما زاد عن حاجتهم ونفقتهم ، وحدث خلاف بين أبى ذر ومعاوية فى تفسير الآية .

فقال معاوية : نزلت فى أهل الكتاب .

وقال أبو ذر : نزلت فينا وفيهم ، واشتد الخلاف بينهما .

فكتب معاوية إلى عثمان : يشكو من أبى ذر ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، فتكاثر عليه الناس ، فأخرجهم عثمان إلى الريدة : وعاش أبو ذر وحده بعيداً عن الناس ، ومات وحده ، ويُبعث وحده يوم القيامة .

قال القرطبي :

وتفسير الكنز بأنه ما فضل عن الحاجة ، انفرد به أبو ذر وهو من شذائده المنقولة عنه . ا هـ .

وقيل : الكنز ما لم تؤد منه الحقوق العارضة ، كفك الأسير وإطعام الجائع ، وغير ذلك من الحقوق التى تجب على الأغنياء فى وقت شدة الحاجة ، ولا يكون فى بيت المال ما يكفى المحتاجين ، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة فى مثل تلك الحال .

وخصَّ الذهب والفضة بالذكر ؛ لأنهما الأصل الغالب فى الأموال ، ولأنهما هما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما ، ولا يكتنزهما إلا من فضلا عن حاجته ومن كثرا عنده حتى يكتنزهما لم يقدم سائر أجناس المال ؛ فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما^(١٠١) .

وقد سلك الإسلام منهجاً معتدلاً بالنسبة للمال ؛ فأباح جمعه وتثمينه بلا حدود ما دام قد جمع من حلال ، وأنفق فى حلال بالطرق المشروعة .

ومع ذلك أمر الله بالقصد فى الدنيا والاعتدال فى جمع المال ؛ ثقة بأن العبد عليه أن يسعى ، وأن رزقه عند الله الرزاق .

وما ذهب إليه معاوية فى أن الآية خاصة بأهل الكتاب رأى ضعيف ، وما ذهب إليه السدى فى أن الآية فى مانعى الزكاة من المسلمين خاصة رأى ضعيف أيضاً ؛ لأن سياق الآية يرشحها لأن تكون شاملة لأهل الكتاب ولمانعى الزكاة من المسلمين وهو رأى الراجح .

وجاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر .

والمعنى : والذين يجمعون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ، وهو ما تشدد حاجة المسلمين إليه من زكاة ، وفك أسير ، وإطعام جائع ، وتفريج ضائقة ، وغير ذلك من الحقوق التى أوجبها الشرع فى المال ؛ فأنذرهم بعذاب أليم .

٣٥- يَوْمَ يَحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكَّوْلُهَا جِبَاهُهُمْ ... الآية .

أى : يعذب الكانزون يوم توقد النار على أموالهم ؛ التى لم يؤدوا حق الله فيها .

فككوى بها جباههم التى كانوا يترفعون بها على الناس ؛ وجنوبهم التى طالما انتفخت من كثرة الشبع وغيرها جائع ، وظهورهم التى طالما أداروها للفقراء .

قال الزمخشري :

لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه ، وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم .

هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنفُسِكُمْ .

أى : يقال لهم : هذا ما كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه ، على طريقة التهكم والتوبيخ .

فَلَوْ قُوتُ مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ .

أى : ذوقوا ويال كنزكم للمال وسوء عاقبته .

عن ابن عمر فى هذه الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال .

ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهباً ، أعلم عدده وأركيه ، وأعمل فيه بطاعة الله .

من هذى السنة

ورد فى السنة المطهرة والأحاديث الصحيحة : أن مانع الزكاة يعذب عذاباً شديداً فى النار .
 وفى حال يمثل المال فيه ثعباناً ، وفى حال يكون صفائح من نار ، وفى حال يكون رَحْضاً (حجارة محمأة).
 روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته : مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرعاً له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى : شذقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ...» (١٠٦) .

وأورد ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية عند تفسير هذه الآية .

ثم قال ابن كثير : وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : «ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ، يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء ، إلا دينار أرسده لدين» (١٠٧) . فهذا والله أعلم هو الذى حدا بأبى ذر إلى القول بأن كل ما زاد عن النفقة فهو كنز يذم فاعله .

من كلام المفسرين

١ - قال الزمخشري فى تفسيره لهذه الآية :

فإن قلت : فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ : «تباً للذهب ، تباً للفضة» قالها ثلاثاً فقالوا له : أى مال نتخذ ؟ قال : «لساناً ذاكراً ، وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه» (١٠٨) . ويقول عليه الصلاة والسلام : «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ...» (١٠٩) .

قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة : فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه ، ويؤدب عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه ؛ ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد الله رضى الله عنهم : يقتنون الأموال ، ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ... (١١٠) .

٢ - قال القرطبي فى تفسيره :

«قرر الشرع ضبط الأموال ، وأداء حقها ، ولو كان ضبط المال ممنوعاً ؛ لكان حقه أن يخرج كله ، وليس فى الأمة من يلزم هذا ، وحسبك حال الصحابة وأموالهم - رضوان الله عليهم - وأما ما ذكر عن أبى ذر فهو مذهب له ...» .

٣ - جاء في تفسير القاسمي ما يأتي :

قال ابن عبد البر : وردت عن أبي ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى : أن كل مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت في ذلك .

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانعي الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره في قصة الأعرابي ، قال : هل على غيرها ؟ قال : «لا إلا أن تطوع» . اهـ .

وحديث طلحة الذي أشار إليه ابن عبد البر ورد في صحيح البخاري ، وخلاصته : أن أعرابياً سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة فقال له الرسول ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والليلة» ؛ قال الأعرابي : هل على غيرها ؟ قال : «لا إلا أن تطوع» .

فسأله عن حق الله في المال : فأخبره النبي ﷺ عن الزكاة ، فقال الإعرابي : وهل على غيرها ؟ قال : «لا إلا أن تطوع» .

قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص .

فقال رسول الله ﷺ : «أفلح إن صدق»^(١٠٧) .

جاء في تفسير الفخر الرازي لهذه الآية ما يأتي :

اعلم أن الطريق الحق أن يقال : الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدين المال الكثير ؛ إلا أنه لم يمنع عنه في ظاهر الشرع ، فالأول : محمول على التقوى ، والثاني : على ظاهر الفتوى .

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فبوجوه منها :

١ - إن كثرة المال سبب لكثرة الحرص في الطلب ، والحرص متعب للروح والنفس والقلب ... والعاقل هو الذي يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه .

٢ - إن كسب المال شاق شديد ، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب ، فيبقى الإنسان طول عمره تارة في طلب التحصيل ، وأخرى في تعب الحفظ ...

٣ - إن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان كما قال تعالى : «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاغِي» أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى . اهـ .

(العلق : ٦، ٧)

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

المفردات :

مدة الشهور ، أى: عددها .

فى كتاب الله ، المراد به : إما علمه تعالى ، أو اللوح المحفوظ ، أو ما كتبه وأوجبه .

حُرُم — جمع حرام ، والمراد من كون الشهر حراماً : أن القتال محرم فيه .

الدِّينُ الْقَيِّمُ : الدين المستقيم السليم من العوج .

كَافَّةً : جميعاً .

التفسير :

٣٦- إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ... الآية .

يخبر الله تعالى عن أشهر السنة فيقول :

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ فى علمه تعالى وحكمه ، وفيما كتبه وأوجب الأخذ به ، وأثبتته فى نظام دورة القمر ، وفى اليوم الذى خلق فيه السماوات والأرض ، وخلق العالم: اثنا عشر شهراً على النحو المألوف اليوم والمراد: الأشهر القمرية ؛ لأن الحساب بها يسير ؛ يعتمد على رؤية القمر ، من كل الناس المتعلمين والعوام والمراد بقوله: **فِي كِتَابِ اللَّهِ** . فيما كتبه الله وقدره .

قال أبو السعود : فى اللوح المحفوظ ، أو فيما أثبتته وأوجبه .

والمراد بقوله : **يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ** .

أى : يوم أبدع نظام الكون منذ خلق الله الأجرام والحركات والأزمنة ، وأوجد الليل والنهار ، وأضاء الليل بالنهار ، ونور النهار بالشمس ، وأوجد نظاماً بديعاً متكاملأ تحفظه يد القدرة الإلهية .

مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ .

أى : من هذه الشهور الاثني عشر ، أربعة حرم ، وحرم الله فيها القتال منذ شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهذه الشهور الأربعة هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . منها ثلاثة متوالية سرد ، وواحد فرد ؛ هو رجب الذى بين شعبان وجمادى .

قال ابن كثير :

وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة ، فحرم قبل الحج شهرين وهما ذو القعدة ، وذو الحجة ؛ لأنهم يوقعون فيهما الحج ، ويستغفلون بأداء المناسك ، وحرم بعدهما شهراً آخر هو المحرم ؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول ؛ لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمناً .

من هدى السنة

روى الإمام أحمد ، والبخارى فى التفسير : عن أبى بكر : أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع فقال : «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ؛ السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ...»^(١٠٨) إلى آخر الحديث ومعنى : استدارة الزمان كهيئته : رجوع الأشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمه ؛ كل منها فى موضعه من الزمان ، وعاد الحج إلى ذى الحجة فى حجة الوداع فى سنة عشر ، وكانت حجة أبى بكر فى ذى القعدة سنة تسع ، قبل حجة النبى ﷺ مباشرة^(١٠٩) .

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ .

ذلك التحريم لهذه الشهور فى مواضعها هو الدين القويم الذى دان به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وكانت العرب قد تمسكت به وتوارثته عنهما ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ؛ ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يتعرض له ، وسموا رجبا : شهر الله الأصم أى : الذى لا تسمع فيه ققعة السيوف .

فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ .

أى : لا تهتكوا حرمتها ، بارتكاب ما حُرِّم فيها من القتال أو المعاصى .

قال أبو السعود فى التفسير :

والجمهور : على أن حرمة القتال فيهن منسوخة ، وأن الظلم فيهن : ارتكاب المعاصى فى هذه الأشهر الحرم ؛ فإنه أعظم وزراً ، كما أن ارتكاب المعاصى فى الحرم أعظم وزراً . وعن عطاء : إن تحريم القتال فى الأشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ بهذه الآية ، إلا أن يبدأ العدو بالقتال فيها فنقاتله لقوله تعالى : **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** . (البقرة: ١٩٤) .

ويؤيد رأى الجمهور أن النبى ﷺ : حاصر الطائف ، وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة . وعن قتادة : أن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم .

وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً .

أى : قاتلوا المشركين مجتمعين غير متفرقين ؛ كما يقاتلونكم كذلك .

قال الألوسى فى التفسير :

وكلمة **كَافَّةً** . من الكلمات التى لا تتننى ولا تجمع ولا تدخلها ال ولا تعرب إلا حالاً فهى ملتزمة للإفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة . ا هـ .

أى : قاتلوا المشركين حال كونهم مجتمعين متعاونين متناصرين غير مختلفين ولا متخاذلين ، كما يقاتلونكم كذلك .

ومن العلماء من قال : إن الآية أوجبت القتال على كل قادر ، ثم نسخ ذلك فجعل فرض كفاية .

وقد بين المرحوم الأستاذ عبد الكريم الخطيب : أن الدين الإسلامى دين عقيدة ، لا إكراه فيه ، ولا يُجبر أحد على اعتناقه ، ووجوب قتال المشركين كافة ؛ كان مرتبطاً بحال معينة هى وضع المشركين فى جزيرة العرب الذين كونوا طابوراً خامساً ؛ يتجسسون على المسلمين ، وينقلون عوراتهم إلى أعدائهم .

وأنكر ابن عطية أن هذه الآية أوجبت القتال على كل قادر ؛ فقال : لم يعلم قط عن شرع النبى ﷺ أنه ألزم الأمة جميعاً النفر والقتال ، وإنما معنى هذه الآية : الحضر على قتال المشركين وجمع الكلمة .

وجاء في التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي :

وهذا القول بإباحة القتال في الأشهر الحرم هو المعتمد شرعاً ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً . منقطعاً عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، للتحريض على قتال المشركين ، أي : كما يجتمعون لحريكم إذا حاربوكم ؛ فاجتمعوا أنتم أيضاً لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون . اهـ .
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

أي : واعلموا أن الله مع عباده المتقين بالعين والنصر ، والمعونة على الأعداء ؛ فكونوا مع الله مبتعدين عن معاصيه ، واجعلوا بينكم وبين المعاصي وقاية من تقوى الله ومخافته ، وبهذا يكون الله معكم معيناً وناصراً ، ومن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٧)

المضردات :

النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

ليؤاطئوا ، ليوافقوا .

صدقة ، عدد .

التفسير :

٣٧- إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُخْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ عَامًا ... الآية .

تكشف هذه الآية عن عبث المشركين بحرمة الله ، والاستخفاف بها ، والاحتيال على خداع أنفسهم بتزيين الباطل ، وإلباسه ثوب الحق ؛ فقد كان المشركون في الجاهلية يحرمون هذه الأشهر الحرم التي هي بعض البقية الباقية لهم من شريعة إبراهيم التي كانوا يدينون بها ، ثم أدخلوا عليها من أهوائهم ما أفسدها حتى هذه الأشهر الحرم ، فقد استغلوا ، وضاقوا بأن تظلم ثلاثة أشهر متوالية دون قتال ، وهي : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

فكانوا يعمدون إلى شهر المحرم فينسئونه ، أي : يؤخرونه إلى صفر ويقيمون صفر مقامه .

وبهذا يخلعون على المحرم اسم صفر، ويبيحون فيه القتال، ويسمّون صفر: محرماً ويحرمون فيه القتال.

وكأن المقصود عندهم عدد الشهور لا ذاتها. أليسوا قد حرّموا أربعة أشهر؟ وماذا في استبدال شهر بشهر آخر؟ فيحلون المحرم عاماً إذا جاءهم محاريبون؛ ليستباحوا فيه القتال، ويحرمون المحرم في عام آخر، إذا لم تدع للقتال داعية عندهم.

والمعنى:

إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر زيادة في الكفر، لما فيه من تحليل ما حرمه الله، وتحريم ما أحله الله، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم بالله، وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر في العقيدة، والكفر في التشريع.

يُحِلُّونَ بِهِ الْبَلِيْنَ كَفَرُوا^١. أى: إن الذى سنّ لهم ذلك؛ يجعلهم ضالّين بهذه السنّة السيئة.

يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاطِشُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ.

أى: يحلون الشهر الحرام عاماً، ويجعلون مكانه في التحريم شهراً حلالاً، ويحافظون على حرمة كما كان في شرع إبراهيم عاماً آخر، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم.

يفعلون ذلك؛ لئى يوافقوا عدد ما حرم الله من الأشهر الحرم.

يُؤَاطِشُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ.

أى: ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم، بحيث تكون أربعة في العدد، وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة في شريعة الله.

جاء في تفسير الفخر الرازى:

قال ابن عباس: ما أحل المشركون شهراً من الأشهر الحرم؛ إلا حرّموا مكانه شهراً من الأشهر الحلال، وما حرّموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الأشهر الحرم؛ لئى يكون عدد الأشهر الحرم أربعة. ١ هـ.

ونلاحظ أنهم خالفوا التخصيص الذى أوجبه الله، وهو تحريم أربعة أشهر بعينها، وترتب على ذلك: أنهم أحلوا ما حرم الله مثل: المحرم، وحرّموا ما أحل الله مثل: صفر.

قال تعالى: فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ.

أى: من الأشهر الحرم التى أبندلها بغيرها.

زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

أى : زين لهم الشيطان والرؤساء الأعمال السيئة التى يعملونها ومن جعلتها : النسىء .

وقد اقتضت حكمة الله أن يمد المتقين بأسباب الهداية ، أما الكافرين الذين اختاروا العمى على الهدى ، وآثروا طريق الغى على طريق الرشاد : فإن الله لا يهديهم إلى طريقه القويم .

فى أعقاب تفسير الآيات

١- يستنبط من كلام ابن كثير فى تفسيره : أنه يميل إلى القول : بأن المنهى عنه هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمام القتال فيها متى بدأ الأعداء ذلك ، وهو قريب من قول القائل : لا يحل القتال فيها ولا فى الحرم إلا أن يكون دفاعاً .

٢- ذكر المفسرون روايات متعددة فى اسم أول من أحر حرمة شهر إلى آخر .

قيل : أول من أحدث النسىء : جنادة بن عوف الكناني ، وكان مطاعاً فى الجاهلية ، كان يقوم على جبل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن ألهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم فى العام القابل فيقول : إن ألهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه .

وقال آخرون : هو رجل من بني كنانة يقال له : القلمس ، ولعله ظهر بعد موت من سبقه .

وكان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسىء ، فيقول شاعرهم : ومنا ناسى الشهر القلمس .

ويقول آخر :

ألسنا الناسئين على معد شهر الحّل نجعلها حراماً

٣- عدد الشهور القمرية ١٢ شهراً ، والواجب فى شريعتنا الاعتماد على السنة القمرية فى العبادات كالصوم والحج وغيرها ؛ وذلك حتى يصوم المسلم ويحج فى سائر شهور العام وفصوله ؛ فيعبد الله فى الصيف والشتاء والربيع والخريف .

قال تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قَالَ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ . (البقرة : ١٨٩) .

وينبغى أن ننزه المسلمين إلى العناية بالتاريخ الهجرى العربى ، فيحافظوا على ذكره ومعرفته مع التاريخ الميلادى الشمسى أو القبطى . يجب أن نذكرهما معاً . ونعزّز بتاريخنا ولا نهمل حفظه

ومعرفته؛ فذلك جزء من شعائر الدين . قال تعالى : ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . (الحج: ٣٢) .

٤- نلاحظ أن سورة التوبة من بدايتها إلى نهاية الآية ٣٧ قد حددت العلاقات النهائية ، بين المسلمين وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، كما نراها أبرزت الأسباب التي دعت إلى هذا التحديد بأسلوب حكم مؤثر يقنع العقول ويشيع العواطف .

وفى الآيات القادمة تنتقل السورة إلى الحديث عن غزوة تبوك ، وما يتصل بها من أحداث متنوعة ، وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات السورة لا سيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين والتحذير منهم .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات :

انفروا في سبيل الله ، اخرجوا للجهاد في سبيله .

اشاقلتم ، تباطأتم .

متاع الحياة الدنيا ، المراد من متاعها : التمتع بلذاتها .

التفسير :

٣٨- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ أَقْلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ... الآية .

سبب نزول هذه الآيات وما بعدها : أن النبي ﷺ استنفر أصحابه : ليخرجوا معه في غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام .

وكان الحر شديدًا ، وبالناس عسر وقحط ، وقد نضجت ثمار المدينة وطابت ظلالها .

وتبوك في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، تبعد عن الأولى ٦٩٠ كم ، وعن الثانية ٦٩٢ كم ؛

فالشقة بعيدة ، والعدو قوى وكثير ، فشق عليهم ذلك ، وتباطؤوا فى الاستجابة ، فنزلت هذه الآيات ؛ تحثهم على التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله .

والمعنى :

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، أى شئ حصل لكم ؟ فنبطكم عن النهوض للجهاد ؟ حين قال لكم الرسول الأمين : انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ؛ فثاقلتم وتكاسلتم وملتم إلى الراحة وطيب الثمار ، والتغنيؤ فى الظلال ، وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه .

من كتب السيرة

جاء فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة النبوية : أن سبب هذه الغزوة : استعداد الروم والقبائل العربية المنتصرة من لخم وجذام وغيرهم ، وتجهيز جيش كثيف لغزو المدينة بقيادة (قباد) وعدد جنده أربعون ألفاً .

فندب النبى ﷺ الناس للخروج لمقاتلتهم وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام للتجارة ، فقال: يا رسول الله ، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية (من الفضة) ، فقال النبى ﷺ : «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»^(١١٠) .

«ولما لم يجد النبى من يقاتله عاد إلى المدينة ، بسبب انسحاب الروم ، وعدولهم عن فكرة الزحف ؛ واقتحام الحدود ، ولكن كان لهذه الغزوة أثر معنوى كبير ، فى نظر العرب والروم ، فكانت كفتح مكة ؛ لأنها كانت احتكاكاً بأعظم قوة حينذاك ، وأثرت على المدى البعيد فى نفوس الأعداء ، بعد أن كان العرب يخشون غزو الروم فى عقر دارهم ، وقد مهد الله بهذه العزوة . لغزو المسلمين للشام فى عهد الخليفتين : أبى بكر وعمر^(١١١)» .

أَرْضِيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

أرضيتم بلذات الحياة الدنيا الزائدة بدلاً من الآخرة ونعيمها الدائم ؟

إن كنتم فعلتم ذلك ؛ فقد تركتم الخير الكثير فى سبيل الشئ الحقيقى ؛ فما متاع الحياة الدنيا فى جنب متاع الآخرة إلا قليل ؛ لا ينبغي أن يحرص عليه ؛ لأنه لا يصلح عوضاً عن المتاع الكثير فى الآخرة .

روى الإمام أحمد ومسلم والترمذى عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدهم إصبعه هذه فى الهم فليُنظر بم ترجع؟»^(١١٢) وأشار بالسبابة .

وروى ابن أبي حاتم : عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يجزي بالحسنة ألفى ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية : **فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** . (١١٧) .

٣٩- **إِلَّا تَتَفَرُّوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ...** الآية .

أى : إن تباطلتم أيها المؤمنون عن الجهاد : يعذبكم الله عذاباً أليماً ، ويستبدل بكم قوماً سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروه شيئاً من الضرر بسبب تقاعسكم : لأنكم أنتم الفقراء إليه والله هو الغنى الحميد .

وَلَا تَضُرُّهُ شَيْعًا .

الضمير يمكن أن يعود إلى الله عز وجل . أى : لا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد وتثاقلكم : فهو القاهر فوق عباده .

وقيل : الضمير للرسول أى : ولا تضروه ؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس ، وأن ينصره ، وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ . (الحج : ٤٧) .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فهو سبحانه قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم وقد وعد رسوله بالنصر ، وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار بأيديكم ، فلا بد أن يكون بأيدي غيركم : وهو سبحانه فعال لما يريد .

وقد اشتملت هذه الآية والآية التى قبلها على أقوى الأساليب التى ترغّب فى الجهاد ، وترهب من النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ورسوله .

★ ★ ★

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

المفردات :

ثانى اثنين : أى : أحد اثنين ، هما الرسول ﷺ ، وأبو بكر رضى الله عنه .

الغار ، هو فى اللغة : فجوة فى الجبل تشبه البيت ، كالمغارة والكهف ، والمراد به هنا : غار جبل ثور الواقع على بعد ساعة سيراً من مكة ، وقد مكث فيه ثلاثة أيام .

سكينته ، طمأنينته التى تسكن عندها القلوب .

التفسير :

٤- «إِلَّا تَتُصَرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ

إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ... الْآيَةَ

أى : إن تركتم نصرة الرسول ﷺ : فالله تعالى متكفل به ، فقد نصره فى مواطن القلة ، وأظهره على عدوه بالغلبة والقهر .

أو المعنى : فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له ، وهو واحد من الاثنين فحسب ، إذ كان معه أبو بكر رضى الله عنه فقد حفظهما الله تعالى وهما يسيران وحدهما نحو الغار للاختفاء فيه ، حتى ينقطع الطلب عنهما ، ثم حفظهما فى الغار ثلاث ليال ، وأعمى عنهما عيون الأعداء ، حيث كان الكفار فوق الغار : فقال أبو بكر : يا رسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له الرسول ﷺ : يا أبا بكر ، ما بالك باثنين الله ثالثهما لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا . أى : بالعون والحماية من المكاره : فلن تصل إلينا أيديهم بسوء .

روى أحمد والشيخان عن أنس قال : «حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار ، فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه : فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ، وفى رواية أحمد : «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه» (١١٤) .

فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .

أى : فأنزل الله طمأنينته وتأييده ونصره عليه أى : على الرسول ﷺ فى أشهر القوانين وقيل : على أبى بكر حتى هدأ واطمأن .

وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .

أيد الله رسوله بجنود خفية لم تقع عليها أبصاركم ، فلم يستطع أعداؤه بسبب هذه الحراسة الريانية أن يصلوا إلى مأربهم ، وإن وصلوا إلى الغار الذى يؤويه وعادوا خائبين .

روى : أن قريشاً أتت بقائف معروف بقفاء الأثر ، حتى وقف على الغار ، فقال : هنا انقطع الأثر فنظروا فإذا العنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته (١١٥) .

قصة الهجرة

رغبت قريش في قتل الرسول ﷺ فبيتوه ورصدوه ، واجتمعوا على باب منزله طوال ليلتهم ؛ ليقتلوه إذا خرج ، فأمر النبي ﷺ على بن أبي طالب أن ينام على فراشه ، وفي هذه مخاطرة من على بحياته ؛ لحماية الرسول ﷺ . ودعا النبي ﷺ أن يعمي الله عليهم أثره ؛ فطمس الله على أبصارهم ؛ فخرج وقد غشيهم النوم .

فلما أصبحوا خرج عليهم على وأخبرهم: أن ليس في الدار أحد ؛ فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا . وخرج رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر ، ثم خرجا من خوخة (ثغرة) في ظهر دار أبي بكر ؛ ونهضا نحو الغار في جبل ثور .

واتفقا مع عبد الله بن أريقط ، أن يأتي إليهما بعد ثلاث ليالٍ إلى الغار ، وكان عارفاً بالطريق ، فاستأجراه ؛ ليدلّ بهما إلى المدينة ، وكان كافراً على دين قومه ، لكنهما وثقا به ودفعا إليه راحلتين ؛ ليأتي بهما إلى الغار .

وكان عبد الله بن أبي بكر يستمع ما يقول الناس ، وينقله إليهما ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام ، وكان عامر بن فهيرة يرعى غنمه إلى الغار ، فيخفي آثار عبد الله وأسماء .

عناية الله إن تولت ضعيفاً تعبت في مراسه الأقوياء

وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

أى : قضى الله على دولة المشركين ، وجعل كلمتهم وضيفة مقهورة .

وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا . أى : كلمة التوحيد ، ودعوة الإسلام ، ودعوة الإسلام ، صفتها الدائمة أنها فوق كل كلمة ، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه .

وقد مكن الله رسوله من الهجرة إلى المدينة ، وحفظه في الغار ، ويسر الله له طرق الجهاد حتى فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى : هو سبحانه غالب قاهر ، لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب .

ويؤخذ من الآيات ما يأتي

- ١- فضل أبي بكر الصديق : فهو صاحب الرسول وعونه ورفيقه في الغار ؛ في وقت تكالب عليه الأعداء .
- ٢- جواز الاستعانة بالمشركين : كما استعان النبي بعبد الله بن أريقط ، وانتمنه على سره وعلى الراحلتين .
- قال المهلب : وفي هذا من الفقه اثنتان أهل الشرك على السرّ والمال ؛ إذا علم منهم وفاء ومروءة ، كما انتمن النبي هذا المشرك على سرّه في الخروج من مكة وعلى النّاقتين .
- وقال ابن المنذر : فيه استتجار المسلمين الكفار على هداية الطريق .
- ٣- عناية الله لرسوله وحفظه وحراسته وهو أمام عدو قوى عنيد .
- ٤- من وجد الله ؛ وجد كل شيء ومن فقد الله ؛ فقد كل شيء^(١١٧) .
- ٥- ساق الإمام فخر الدين الرازي ، والشيخ رشيد رضا في تفسير المنار اثني عشر وجها في فضل أبي بكر الصديق ، فهو أول من أسلم من الرجال ، وهو وزير النبي وصاحبه في الغار ، وخليفته على الصلاة ، وقائد المسلمين في حروب الردّة ، والمنفق ماله في سبيل الله ، وورد فضله في الأحاديث الصحيحة .

★ ★ ★

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾^(٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْغُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾^(٤٢)

المفردات :

انفروا خفافا وثقالا ؛ أي : اخرجوا للجهاد على أي حال ، سواء سهل على نفوسكم فحفت ونشطت ، أو شق عليها فنقلت .

عرضا قريبا ؛ نفعا سهل المأخذ .

سفرا قاصدا ؛ سفرا قريبا سهلا .

الشقّة ؛ المسافة التي تقطع بمشقة .

٤١- آفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية

أى : اخرجوا للجهاد فى سبيل الله على أى حال كنتم ، من يسر أو عسر ، صحة أو مرض ، غنى أو فقر ، شغل أو فراغ منه ، كهولة أو شباب .

وجاهدوا أعداءكم ببذل أموالكم ، وببذل أنفسكم فى سبيل الله ، أى : فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

لَا لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

ذلك المأمور به من النَّفَرِ والجهاد فى سبيل الله : خير لكم فى دنياكم وآخرتكم من التثاقل عنهما؛ إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بين لكم خالفكم على لسان رسوله ﷺ .

روى الشيخان والنسائى : عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «تَكْفَلُ الله للمجاهد فى سبيله، إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»^(٩١) .

من أحكام الآية

تدل هذه الآية على أن الجهاد والنفير العام كان فرض عين فى غزوة تبوك ؛ نظراً لبعد الشقة وكثرة العدو .

روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : خِفَافًا وَثِقَالًا . قال : شاباً وكهولاً ، ما قبل الله عذر أحد فى التخلف عن الجهاد ؛ فخرج أبو طلحة إلى الشام فجاهد حتى مات .

ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت بآيات أخرى .

فروى عن ابن عباس وآخرون : أنها منسوخة بقوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى (التوبة : ٩١) .

وجاء فى حاشية الجليل على تفسير الجلالين :

«والصحيح أن هذه الآية منسوخة ؛ لأن الجهاد من فروض الكفاية وأنه ليس على الأعيان» .

قال القرطبى فى تفسيره :

والصحيح أنها ليست بمنسوخة ، ويبقى الجهاد فرض عين إذا تعيّن بغلبة العدو على قطر من الأقطار؛ فيجب حينئذ على جميع أهل تلك الدار ، أن ينفروا ويخرجوا إلى الجهاد خِفَافًا وَثِقَالًا ، شَبَانًا وَشِوْخًا ، كُلُّ

على قدر طاقته ، يخرج الابن بغير إنن أبيه ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بدحر العدو ، كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا ؛ لتحقيق الهدف المرجو ؛ فالمسلمون كلهم يد واحدة على من سواهم ، حتى إذا قام هؤلاء بدفع العدو ؛ سقط الغرض عن الباقيين .

ولو قارب العدو دار الإسلام ، ولم يدخلوها ؛ لزم المسلمين أيضاً الخروج إليه ؛ حتى تعلق كلمة الله ، وتسان البلاد ويخزى العدو^(١١٨) هـ .

الخلاصة :

الجهاد قد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية . فيكون فرض عين إذا تغلب العدو على قطر من الأقطار ؛ فيجب الجهاد على جميع أهل ذلك القطر ، ويجب مساعدتهم على من جاورهم ، ويكون الجهاد فرض كفاية ، فيعفى منه الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار ومن لا يجيد الحرب ، إذا قام الجيش بالدفاع عن البلد وذكر الإمام محمد أبو زهرة : أن الحرب الآن صارت فنأ متقدماً يستفرغ الشاب عمره فى إجابة فن من فنونه ؛ وتحتاج الحرب الآن إلى تخصص دقيق وتنظيم معين ، ويؤدى كل فرد واجبه فى تخصصه الذى يتقنه ويجيده .

ونلاحظ أن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ قد بادروا إلى امتثال أمر الله فى الدعوة إلى الجهاد ، فخرجوا فى سبيل الله خفافاً وثقالاً ؛ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

روى ابن جرير الطبرى : عن أبى راشد الحرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وهو يريد الغزو ، وقد تقدمت به السن ، فقلت له : لقد أعز الله إليك .

فقال : أتت علينا سورة البعوث «أى : سورة براءة» : **اتَّبِعُوا خِفَافًا وَثِقَالًا** .

وجاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي :

والجهاد واجب بالنفس والمال إذا قدر عليهما ، أو على أحدهما على حسب الحال والحاجة .. كما فعل عثمان رضى الله عنه فى تجهيز جيش العسرة ، وكما فعل غيره من أغنياء الصحابة .. ولما أصبح فى بيت المال وفر سعة ؛ صار الحكام يجهزون الجيوش من بيت المال ، وهذا هو المتبع الآن ، حيث تخصص بنود من الميزانية كل عام لنفقات الحرب والدفاع وتزداد الميزانية عند الحاجة . ١ هـ .

٤٢ -- **لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ...** الآية .

قال الفهر الرازى : نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك . ١ هـ .

وقد ويح الله فيها المنافقين الذين استأذنوا النبى ﷺ فى التخلف مظهرين أنهم ذو أعذار وكانوا كاذبين .

والمعنى :

لو كان الأمر الذى دعوتهم إليه غنيمة أو منفعة قريبة المنال ، أو سفراً سهلاً قريباً لا عناء فيه ؛ لاتبعوك ؛ طمعاً فى الحصول على المغانم القريبة السهلة ، ولكنهم تخلفوا حينما رأوا أن السفر شاق إلى مسافة بعيدة إلى الشام ، ويحتاج إلى تضحيات جسيمة : فأثروا الجبن والراحة والسلامة ، والتفتؤ فى الظلال وقت الحر والقيظ ؛ فدل ذلك على أنهم جماعة نفعيون ماديون دنيويون .

وشبهه بهذه الفقرة من الآية قول الرسول ﷺ فى شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة فى الحديث المتفق عليه : «لو يعلم أحدكم أنه يجد لحماً سميناً ، أو عظماً عليه لحم لشهد العشاء»^(١١٩) .

وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

قال الفخر الرازى : أخبر الله رسوله عن المنافقين ، إثر عودته من غزوة تبوك ، بأنهم سيحلفون له : والأمر لما وقع ، كما أخبر الله تعالى : كان هذا إخباراً عن الغيب فكان معجزاً .

والمعنى :

وسيقسمون بالله باليمين الكاذبة عند رجوعك من غزوة تبوك ، قائلين على سبيل الاعتذار عن تخلفهم : لو كنا نستطيع الخروج معك إلى تبوك لخرجنا إليها ؛ فإننا لم نخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين ، فقد كانت لنا أعداؤنا القاهرة التى حملتنا على التخلف .

يهلكون أنفسهم بهذه اليمين الفاجرة ، يقسمون بها على الادعاء الكاذب .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف ، ولكنهم أثروا الدعة والراحة ، وزهدوا فى الجهاد ثم تجردوا على اليمين الغموس كذباً على الله ورسوله .

وفى الحديث الشريف : عن خيثمة بن سليمان أن رسول الله ﷺ قال : «اليمين الغموس تدع الديار بلائح»^(١٢٠) .

واليمين الغموس من الكبائر ، ولا يكفرها إلا الغمس فى نار جهنم .

ولكن المنافقين ، وهنت عزيمتهم وضعف يقينهم ؛ فأثروا الراحة ، واستهانوا بالآيمان ؛ ليرضوا بها الناس ، وكان الأولى بهم أن يرضوا رب الناس . قال تعالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ قِرْضًا عَنْهُمْ فَاِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (النساء : ١٠٦) .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
 الْكَذِبِينَ ﴾ (٤٢) لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ
 يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَنَاتٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٤﴾

المفردات :

عفا الله عنك ، لم يبرأخذك بالإذن لهم في التخلف .

ارتأيت ، وقعت في الريب وهو الشك .

يترددون ، يتحيرون .

التفسير :

٤٣ - عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ .

أى : سامحك الله بإذنك لهم ، لم أذنت لهم بالتخلف ، وهلاً استأنيت بالإذن وانتظرت ، وهلاً تركتهم
 لما استأذنوك ؛ لتعلم الصادق من الكاذب عن طريق أصحابك ، أو فراستك فيهم ، ومعرفة أحوالهم .

قال مجاهد : أنزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن
 لكم فاقعدوا .

وذهب فريق من العلماء ، كالإمام القرطبي والإمام فخر الدين الرازى ؛ بأن كلمة عَفَا اللَّهُ عَنْكَ
 تدل على مبالغة الله تعالى في تعظيم الرسول وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً عنده عفا الله
 عنك ؛ ما صنعت في أمرى .

وقال القرطبي : قيل : هو افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزك ورحمك كان كذا وكذا .

ومن لطائف الشعر قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه .

عفا الله عنك ، ألا جرمة

ألم تر عبداً طوره

أفلني أفلاك من لم يزل

يعود بعفوك أن أبعدا

ومولى عفا ورشيذا هدى

بقيك ويصرف عنك الردى^(١٧١)

٤٤ - لَا يَسْتَفْزِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ...

أى : ليس من عادة المؤمنين الصادقين ، أن يستأذنوك فى الجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، بل يبادرون إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلاً عن أن يستأذنوك فى التخلف .
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .

أى : أنه تعالى محيط علمه بهؤلاء الذين لم يستأذنوا وما اشتملت عليه قلوبهم من الإخلاص فى سبيل الله والاستجابة لداعى الجهاد بنشاط وهمة فيجزيهم على ذلك الجزء الأولى .

٤٥ - إِنَّمَا يَسْتَفْزِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ لِي رَيْبٌ يُرَدُّونَ .

أى : إذا كان أهل الإيمان لا يستأذنون منك عادة ، فإن الذى يستأذنك فى التخلف عن الجهاد من غير عذر؛ إنما هم المنافقون ، الذين لا يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يرجون ثواب الآخرة ، ولذلك تصعب عليهم مشاق الجهاد ، فقلوبهم متحيرة بين الإقدام والإحجام ، والشك والإيمان ، فهم مرتابون فى الدين ، حاثرون لا يهتدون إلى طريق الصواب .

ويؤخذ من أدب الآيات ما يأتى

١- لا ينبغي الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفاضل من العادات كقرى الضيف ، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .

٢- قال قتادة : عاتب الله رسوله فى هذه الآية ، ثم رخص له فى سورة النور . فقال : فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِتَغْضِرَ شَأْنَهُمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ . (النور: ٦٢) .

٣- دل قوله : لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ... على وجوب الاحتراز من العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص والتريث .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

المضردات :

انبعاثهم : نهوضهم للخروج .

ثببطهم : فحبسهم وعوقبهم .

خبالا : فسادا وشرا .

ولأوضعوا خلالكم ، ولسعوا فيما بينكم بالتميمة والوشاية ، وهو مأخوذ من أوضعت البعير .. أى : حملته على السرعة ، يقال : وضع البعير أى : أسرع ، وأوضعت أنا ، أى : جعلته يسرع .

يبغونكم الفتنة ، يطلبون لكم الفتنة والشر بإيقاع الخلاف بينهم .

التفسير :

٦- ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم ...

تستمر الآيات فى توضيح قبائح المنافقين وبيان خطرهم وتحذير المؤمنين من مكائدهم .

والمعنى :

ولو أراد هؤلاء المنافقون : الخروج معك إلى القتال : لاستعدوا وتأهبوا لذلك بإعداد السلاح ، والزاد ، والراحلة ، ونحو ذلك من الأشياء التى لا يستغنى عنها المسافر ، والتى كانت فى مقدورهم وطاقتهم .

ولكن كره الله انبعاثهم فثببطهم ...

أى : أبغض الله خروجهم مع المؤمنين : لما فيه من أضرار .

فثببطهم . أى : أخرهم وعوقبهم بما أحدث فى قلوبهم من المخاوف ، وفى نفوسهم فى الكسل والفتور .

وَقِيلَ أَقْبِلُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ .

أى : قال بعضهم لبعض ، أو قال الشيطان لهم ، أو أذن الرسول لهم بالقبول مَعَ الْقَاعِدِينَ . من النساء والأطفال والمرضى والعجزة الذين شأنهم القعود فى البيت كما قال تعالى : رُغِبُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ .
(التوبة : ٨٧)

وهم القاعدون والمتخلفون عن الجهاد .

قال الآلوسى :

وقوله : وَقِيلَ أَقْبِلُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم ، وإلقائه كرامة الخروج فى قلوبهم ، بالأمر بالقعود ، أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك ، فليس هناك قول حقيقة .
ويجوز أن يكون حكاية قول لبعضهم لبعض ، أو حكاية لإذن الرسول ﷺ لهم فى القعود ، فيكون القول على حقيقته . ا هـ .

٤٧- لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ... الآية .

طمأن الله المسلمين ، وبين أن عدم خروجهم مع المسلمين فى غزوة تبوك مصلحة للجيش .

والمعنى :

لو خرج هؤلاء المنافقون فيكم ما زادوكم شيئاً من القوة والمنعة : بل زادوكم اضطراباً فى الرأى، وفساداً فى العمل والنظام .

وَلَا وَضَعُوا خِلالَكُمْ يَفْجُؤُكُمْ الْفِتَّةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ ...

ولأسرعوا بالسعى بينكم بالتميمة والبغضاء ، وتفريق الكلمة ، ويذر بذور التفرقة والاختلاف ، وإشاعة الخوف والأراجيف من الأعداء وتتبيط الهمة .

وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ .

أى : وفيكم ضعاف ، يتأثرون ويهتمون بسماعهم ونقل نمائمهم .

قال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا فيما بلغنى : من ذوى الشرف ، منهم : عبد الله بن أبى بن سلول ، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم ، فإذا خرجوا أفسدوا على النبى جنده ، وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم ، فقال . وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ .^(١١٧) .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

أى : والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين : فهو يعلم ما كان وما يكون لهم ، ومجازيهم على أعمالهم كلها .

من أحكام الآيات

١- يجب الاستعداد للجهاد قبل وقوعه ، والاستعداد للأمور قبل وقوعها ، كما قال تعالى : وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (الأنفال: ٦٠) . وقال سبحانه: وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً (التوبة: ٤٦) .

٢- وضحت الآيات أن خروج المنافقين فى جيش المسلمين كانت ستترتب عليه ثلاث مفاصد :-

١- زيادة الاضطراب والغوضى وإفساد النظام .

٢- تفريق كلمة المسلمين بالنميمة والوشاية والإشاعات الكاذبة .

٣- استدراج فئة من ضعاف الإيمان والحزم إلى صفوفهم وسماح كلامهم .

ثم تأكد ذلك بآيات أخرى منها قوله تعالى :

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَلْزَمُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ . (التوبة : ٨٣) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴾ (٤٨) وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُلُ أَتَدْنِي وَلَا نَقْتَتِي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

المفردات :

ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ : طلبوا تفريق المسلمين .

وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ : واجتهدوا فى استعراضها : لتبديد المكاييد من أجلك .

وَلَا تَقْتَتِنِي : ولا توقننى فى المعصية بتخليفى من غير إذن .

التفسير:

٤٨- لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ...

هنا يذكر الحق سبحانه رسوله بموقف المنافقين المتخاذل في غزوة أحد حين تخلف عبد الله بن أبي بختل الناس ، وقال : علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؟! ورغبوا في إيقاع الشرور والمفاسد في صفوف المسلمين من قبل ما حدث منهم في غزوة تبوك .

وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ .

أى : أنهم قلبوا وجهات النظر كلها ، ودبروا أمورهم لاختيار أنسب الأمور في الكيد لك ، وفتنة المؤمنين من حولك .

حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ .

وكان الله سبحانه ينصر نبيه ويرفع شأنه ويؤازره حتى ظهر الحق على الباطل وانتصر عليه، فقد انتصر الرسول ﷺ في كثير من غزواته حتى فتح مكة وفتح خيبر وانتصر في غزوة حنين والطفائف ، وبذلك دحر الشرك والمشركين ، وانتصر على اليهود داخل المدينة وخارجها .

وَهُمْ كَارِهُونَ .

أى : المنافقون وأشباههم كارهون لذلك ؛ فهم يكرهون انتصار الإسلام ؛ لأن هذا النصر خيب آمالهم وأحبط مكرهم .

جاء في تفسير ابن كثير :

لما قدم النبي ﷺ المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه (أى : أقبل) فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى :

حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ .

وهذه الآية والتي قبلها لتسلية الرسول والمؤمنين عن تخلف المنافقين ، وبيان ما ثبتهم الله لأجله، وهتك أستارهم ، وإزاحة أعذارهم .

٤٩- وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنَّ لِي وَلَا تَقْتَرِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ...

أى : ومن المنافقين من يطلب من النبي ﷺ الإذن له بالعودة عن الجهاد ؛ خشية أن يقع فى الفتنة بمشاهدة نساء الروم والإعجاب بهن .

لكن هؤلاء المنافقين قد وقعوا وسقطوا فى أشد أنواع الفتنة وهى الكفر بالدين والجبين والخوف وعدم الامتثال لهدى سيد المرسلين .

جاء فى تفسير ابن كثير وغيره فى روايات عن ابن عباس ، وأخرى عن جابر بن عبد الله : أن هذه الآية نزلت فى الجد بن قيس قال له رسول الله ﷺ : يا جد بن قيس (وكان من شيوخ المنافقين) ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ، فقال : يا رسول الله ، أتأذن لى : فإنى رجل أحب النساء ، وإنى أخشى أن أرايت نساء بنى الأصفر أن أفتتن ، فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه : قد أذنت لك ، فنزلت الآية (١١٣) .

ولما نزلت الآية قال النبي ﷺ لبنى سلمة - وكان الجد بن قيس منهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : جد بن قيس ، غير أنه بخيل جبان ، فقال النبي ﷺ : وأى داء أدوى من البخل ؟ بل سيدكم الغنى الأبيض بشر بن البراء بن معرور .

قال الآلوسى : وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفضحة عن ترديدهم فى دركات الردى أسفل سافلين . ا هـ .

وقال الفخر الرازى : وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود : لئلا يقعوا فى الفتنة ، فإله تعالى بين أنهم فى عين الفتنة واقعون : لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكليف التى كلفنا الله بها ... ا هـ .

وَأِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

وهذا وعيد وتهديد لهؤلاء المنافقين : بأن نار جهنم ستحاصرهم يوم القيامة : لكثرة خطاياهم فلا يجدون عنها محيصاً ولا مهرباً ؛ كما قال تعالى :

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (البقرة : ٨١) .

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا لَا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَّافَتَرَبُّوْا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المفردات :

حسنة ، نعمة ، والمراد بها هنا : النصر والغنيمة .

مصيبة ، شدة ، كهزيمة أحد .

كتبه الله ، أثبت في علمه أو في اللوح المحفوظ .

مولانا ، متولى أمورنا

تربصون ، أصله تتربصون فخفف بحذف إحدى التاءين ومعناه : تنتظرون .

الحسينين ، الغايتين المستحسنتين النصر والشهادة في سبيل الله .

التفسير :

٥٠- إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ .

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم : عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة ، يخبرون عن النبي ﷺ أخبار السوء ، يقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم ، وعافية النبي ﷺ وأصحابه ؛ فساءهم ذلك ؛ فأنزل الله : إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ... الآية .

المناسبة :

الآيات السابقة واللاحقة في تعداد قبائح المنافقين ، وبيان نوع آخر من كيدهم ومن خبت بواطنهم ، وشماقتهم بالمؤمنين إذا أصيبوا بمصيبة ، وفرحهم إذا تعرضوا لحسنة .

المعنى :

إن عرضت لك فى بعض الغزوات حسنة ، أى : نصر وغنيمة كما حدث فى غزوة بدر : ساءمهم ذلك وأوردتهم حزناً وغماً ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .

وإن تصيبك مصيبة - من هزيمة أو شدة - كما حدث فى غزوة أحد : قال هؤلاء المنافقون : قد اتخذنا ما يلزمنا من الحذر والليقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون : بل تخلفنا عن الجهاد معهم ، ولم نتعرض للهلاك ؛ لأننا متوقعون هذه الهزيمة ، وانصرفوا إلى أهليهم وشيعتهم - والفرح يملأ جوانبهم - ليبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

٥١- قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

هذه الآية رد على هؤلاء الشامتين الشائنين وتوجيه وتعليم للمسلمين بالصبر على البأساء والرضا بأسباب القضاء .

أى : قل لهم يا محمد : لن يصيبنا أبداً إلا ما كتب وخط فى اللوح المحفوظ : فنحن تحت مشيئته وقدره ، هُوَ مَوْلَانَا . أى : ناصرنا ومتولى أمورنا ، ونتولاه ونلجأ إليه فى كل أحوالنا ، وعلى الله وحده فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ، وهو حسيننا ، ونعم الوكيل .

والآية أساس فى صدق اليقين ، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وبشره ، حلوه ومره . واللجوء إلى الله فى الشدة والرخاء ، والاعتماد عليه فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره مع اتخاذ ما يجب من أسباب النصر المادية والمعنوية ، كإعداد العدة اللازمة ، وتوقي المنازعات التى تؤدى إلى الفشل وتفرق الكلمة .

والتوكل : تفويض الأمر إلى الله ، بعد اتخاذ الأسباب المطلوبة عادة .

وقد وردت آيات كثيرة ، وأحاديث نبوية صحيحة تحث المؤمنين على الصبر على المصائب ، والرضا بالقضاء والقدر ، والثبات فى الشدائد ، والانتصار على الحزن والهم والغم .

فالحياة دائرة بين العسر واليسر ، والشدة والفرج . والمؤمن واثق بأن الله قد قدر أزلاً رزقه وعمره وأجله ، وسعادته أو شقاوته ؛ وبهذا لا يحزن على مفقود ولا يكثر الفرح بموجود ، بل هو هادئ رزين إن أصابته نعمة شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

قال تعالى : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . (الحديد : ٢٢) .

وفى معنى هذه الآية وردت طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة بعضها فى صحيح البخارى ، وبعضها فى كتب السنة المطهرة ومن هذه الأحاديث ما يأتى :

١- «ما يصيب المؤمن من هم ولا حزن ولا تعب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها : إلا كفر الله بها من خطاياها»^(١٢٨) .
٢- «ما يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»^(١٢٩) .

٣- «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأئمة ، فالأئمة ، يبتلى الرجل على حسب دينه»^(١٣٠) .

٤- «استعن بالله ولا تعجز ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا بل فلتقل : قدر الله وما شاء فعل»^(١٣١) .

٥- «ما من عبد يبتلى بمصيبة فيقول: اللهم أوْجِرْنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها إلا عوضه الله خيراً مما فقد»^(١٣٢) .

٦- «من علامة الإيمان ، الشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضا بالقضاء»^(١٣٣) .

٧- «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته نعمة شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١٣٤) .

٥٢- قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين :

هل تنتظرون إلا أن يقع لنا إحدى العاقبتين الحسنتين ، إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والثواب العظيم .

فإن عشنا أعزة كراماً مؤمنين ، وإن متنا متناً شهداء مأجورين لنا الأجر والثواب .

جاء فى تفسير الآلوسى :

والحاصل : أن ما تنتظرونه بنا - أيها المنافقون - لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى ، لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزو سوء ، ولذلك سرتم به .

وصح من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

«تكفل الله تعالى ، لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرج من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته :

أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ، أو أجز إن لم يغنم»^(١٣٥) .

وَنَحْنُ نَرَبُّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا .

أما نحن فننتظر بكم إحدى السوءتين من العواقب : إما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، وهو قارعة من السماء ، كما نزلت على عاد وثمود .

وإما أن يصيبكم عذاب بأيدينا ، وهو الإذن لنا في قتالكم وقتلكم .

فَرِيصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتْرِبُونَ .

أى : إذا كان هذا أمرنا وأمركم ، فانتظروا بنا ما ذكرنا من عواقبنا ! فإننا معكم متربصون بكم ما هو عاقبتكم ، فلا بد أن يلقي كل منا ما يترصه لا يتجاوزنه فنحن على بينة من ربنا ، ولا بينة لكم ، لا تشاهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوؤكم ، فانتظروا أنتم مواعد الشيطان ، إنا منتظرون مواعد الرحمان .

وبهذا ترى الآيات قد حكى طرفاً من ردائل المنافقين ، ومسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ويفضحهم على رموس الأشهاد .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنكُم مِّنكُمْ إِتَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٣ ﴾
وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ فَلَا تَعْجَبْكَ
أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ
وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿ ٥٥ ﴾

المفردات :

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، أى : طائعين أو كارهين .

فَاسِقِينَ ، متمردين خارجين على حدود الله بإبطان الكفر مع إظهار الإيمان وبغير ذلك من المعاصي .

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ، وتخرج بصعوبة ، والزهوق الخروج بمشقة .

التفسير :

٥٣- قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَتَّخِذَ مِنكُم مِّنكُمْ إِتَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إني إذا رأيت نساء الروم لم أصبر حتى أفنتن ، ولكن أعينك بمالي ، قال : ففيه نزلت : أَفْشَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ .

أى : لقوله : أعينك بمالى ، فهذه الآية نزلت فى الجد بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك ، وقال لرسول الله ﷺ : هذا مالى أعينك به فانتركنى .

والمعنى :

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين : مهما أنفقتم من نفقة طائعين راضين ، أو متورطين كارهين ، فلن يتقبل الله منكم ، وإن يثيبكم : لأن الإيمان لم يدخل قلوبكم ، والإخلاص لله لم يصل إلى نفوسكم : إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

أى : عتاة متمردون خارجون عن الإيمان ، والأعمال إنما تصح بالإيمان .

ثم صرح بأن هذا الفسوق ليس فسوق المعصية المحدودة ، بل فسوق الكفر بالله فقال سبحانه :

٥٤- وَمَا مَتَّعَهُمْ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .

بين الحق سبحانه ثلاثة أسباب لعدم قبول الله نفقتهم ، وإخراج أموالهم للجهاد .

الأول : كفرهم بالله ورسوله ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا يصدقون برسالة محمد ، وادعاهم الإيمان كلام تسترأوا خلفه .

الثانى : لا يؤدون الصلاة إلا وهم كسالى ، فليس فى قلوبهم نشاط ولا إيمان ، ولا همة أو عزيمة : لأن صلاتهم رياء وتظاهر .

الثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم رغبة فى ثواب الله ومرضاته ، بل ينفقونها : رعاية للمصلحة الظاهرة وسترا للنفاق وقد أخبر النبى ﷺ : «أن الله لا يمل حتى تملوا»^(١٣٣) . وقال : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً»^(١٣٤) ، لأن الله تعالى إنما يتقبل من المتقين الراغبين فى مرضاته وهؤلاء ينفقون وهم كارهون ، ولا ينفقون عن رغبة واختيار . وفى الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١٣٥) .

٥٥- فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

أى : فلا تعجبك أيها النبى ، وأيها السامع ، أموالهم ولا أولادهم ، ولا سائر نعم الله عليهم .

فإنما هى من أسباب المحن والآفات عليهم ، وهى استدراج لهم ؛ حيث شغلتهم دنياهم عن آخرهم ، وغفلوا عما أعد لهم من عذاب مقيم .

أما أموالهم فهم يتعبدون فى تحصيلها ، والحفاظ عليها بصحبة الهم والقلق ، والتهديد بالضياح والخسران ، وقد يصحب ذلك الطغيان ، وعدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ، ثم ترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يجب التصدق به .

وأما الأولاد ، فقد يموتون فى الجهاد فيحزنون عليهم أشد الحزن ، وقد يؤمنون فيحترق الآباء غيظاً عليهم .

فقد كان لعدد من المنافقين أبناء أتقياء ، كحنظلة بن أبى عامر الذى غسلته الملائكة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى شهد بدرأ ، وكان من الله بمكان .

والابن إذا صار من الأتقياء العاملين لخدمة الإسلام ؛ تأذى به الأب المنافق ، وصار مصدرًا لاستيحاشه وعذابه^(١٣٢) .

وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

المنى : إن الله يريد أن تخرج أرواحهم حال كفرهم ؛ لعدم قبولهم لما جاء به الأنبياء ، وتصميمهم على الكفر ، وتماديهم فى الضلالة .

قال الإمام فخر الدين الرازى :

«ومن تأمل هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ؛ فإنه سبحانه لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم ؛ بين ما لهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، وما لهم فى الدنيا من وجه المحنة والبلية .

ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة البتة .

ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنونونه من منافع الدنيا ، فهو فى حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا»^(١٣٣) . ١ هـ .

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

المفردات :

يفرقون ، يخافون .

ملجأ ، مكانا حصينا يلجأون إليه .

مغارات ، كهوفاً في الجبال .

مدخلا ، نفقا في الأرض .

لولوا إليه ، لانصرفوا نحوه .

وهم يجمعون ، وهم يسرعون أشد الإسراع .

التفسير :

٥٦- وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ .

تستمر هذه الآيات في كشف المنافقين وفضح دخالهم ؛ فهم يقسمون بالله كذباً : إنهم من جملتكم في الدين والعمل . والحقيقة أنهم ليسوا منكم أيها المؤمنون ؛ فقلوبهم خالية من الإيمان الذي امتلأت به قلوبكم .

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ .

يقال : فرق فرقاً ؛ إذا اشتد خوفه وعلعه من أمر يتوقع حصوله .

أي : إن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم وعلعهم من لقاء الأعداء وجبنهم عنهم ، يلقون لكم كذباً أنهم منكم .

وقيل : المراد : إنهم يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركيين من القتل والسبي ؛ فيظهرون لكم الإسلام ؛ تقية منهم لا عن حقيقة .

٥٧- لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

لو يجد أولئك المنافقون مكاناً حصيناً في جبل أو قلعة أو نحوهما يلجئون إليه ، أو كهوفا خفية يخفون فيها أنفسهم ، أو نفقا في الأرض يدخلون فيه ويندسون ؛ لانصرفوا إليه عنكم ، وهم يسرعون إسراع الفرس الجموح الذي لا يثنيه اللجام ؛ لأنهم إنما يعيشون معكم كرهاً ، لا محبة ووداً ، ولكن للضرورة أحكام .

ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم : لأن الإسلام وأهله في تقدم ورفعة ، وعز ونصر وذلك كله يسوقهم.

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

المضردات :

يلمزمك ، يعيبك سرا .

في الصدقات ، في شأن قسمة أموال الزكاة .

يستخطون ، يغضبون .

حسبنا الله ، أي : كافينا .

التفسير :

٥٨- وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ .

سبب النزول :

روى البخارى والنسائى : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : قال : بينما رسول الله ﷺ يقسم قسماً ، إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي - وهو حرقوص بن زهير - أصل الخوارج - فقال : أعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ، فقال عمر بن الخطاب : ائذن لي أن أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه ؛ فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يفرقون من الدين كما يفرق السهم من الدمية^(١٣٧) .

فنزلت فيهم : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن جابر : نحوه ، وروى ابن جرير عن داود بن أبى عاصم قال : «أتى النبي ﷺ بصدقة ، فقسهاهمنا وههنا ، حتى نهبت ، ورأى ذلك رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل ، فنزلت هذه الآية» .

ومجموع الروايات يدل على أن الطاعنين من المنافقين .

المعنى :

ومن هؤلاء المنافقين - يا محمد - من يعيبك ويطعن عليك في قسمة الصدقات والغنائم ، زاعمين أنك لست عادلاً في قسمتك .

فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَرُونَ .

إن رضاهم وغضبهم لأنفسهم لا للدين ، وما فيه صلاح أهله ؛ لأن الرسول ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يوم النصر في غزوة حنين والطائف ، فضجر المنافقون فقال تعالى : فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا ...

وقيل : نزلت في المؤلفة قلوبهم ؛ كان يعطيهم النبي ﷺ للتأليف ، وقيل : هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج . وقيل : هو أبو الجواظ من المنافقين قال : ألا ترون إلى صاحبكم ؟ إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ، وهو يزعم أنه يعدل ؛ فقال رسول الله ﷺ : لا أبالك ، أما كان موسى راعياً ، أما كان داود راعياً ؟ فلما ذهب ؛ قال عليه الصلاة والسلام : احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون .

فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا ...

أي : إن أعطوا من الزكاة أو من الغنائم ولو بغير حق رضوا ، وإن لم يعطوا منها فاجؤوك بالسخط ، وإن لم يستحقوا العطاء ، فهم إنما يغضبون لأنفسهم ولمنافعهم ، لا للمصلحة العامة ، فليس طعنهم أو تقديم بريئاً ، ولكن لهدف خاص .

قال الإمام الرازي :

اعلم أن المقصود من هذا : شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم في الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ، ويقولون : إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته ، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل^(١٢٤) .

٥٩- وَكَوْنَهُمْ رِضًا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ .

ترشد الآية إلى أدب عظيم لهؤلاء وغيرهم ، يتمثل هذا الأدب في الرضا والقناعة ، فطالب الدنيا وحدها إذا لم يكن قنوعاً راضياً ؛ ربما جرّه ذلك إلى النفاق .

وقد اشتملت الآية على مراتب أربع :

١ - الرضا بما آتاهم الله ورسوله ؛ لأنه سبحانه حكيم منزّه عن العبث ، والرسول ﷺ أمين صادق عادل .

٢ - أن تظهر آثار الرضا على اللسان وهو قوله : حَسْبُنَا اللَّهُ . أى : الرضا بحكم الله وقضائه .

٣ - الأمل فى فضل الله وعوضه فيقول : سَيُوتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ . إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة .

٤ - أن يقول : إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ . أى : لا نبغى بالإيمان مكاسب الدنيا من مال وجاه ؛ وإنما نريد الفوز بسعادة الآخرة .

فالآية ترسم طريقاً سليماً ، وتذكر سلوكاً عملياً يعتمد على الرضا والقناعة ، واليقين بما عند الله ، والأمل فى المستقبل ، وأن رزق الله لا ينفد ، ثم الرغبة المستمرة فى فضل الله وعطائه ونعمائه ، التى لا تعد ولا تحصى .

وجواب لَوْ . فى الآية محذوف ، والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم .

وفى تفسير الفخر الرازى ، نجد أن هذه الآية منهج عملى فى تعليم القناعة والرضا وحسن الأمل .

قال الإمام الرازى :

والآية تدل على أن من طلب الدنيا بطمع وشراهة : آل أمره فى الدين إلى النفاق .

وأما من طلب الدنيا بتوسط ، ويغرض التوصل إلى مصالح الدين ؛ فهذا هو الطريق الحق . والأصل فى هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله . اهـ .

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةِ فُلُوحِهِمْ
وَفِي الزَّوَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٠)

المفردات :

للفقراء : جمع فقير وهو من لا مال له ، أو له مال لا يقع موقعاً من كفايته .

والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لا مال له ، أو له مال يقع موقعاً من كفايته ، فالفقير أسوأ حالاً من المسكين وبالعكس .

التفسير :

٦٠- إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

المناسبة :

جاءت هذه الآية وسط الحديث عن المنافقين ؛ ذلك أن المنافقين كانوا ينتظرون أن توزع عليهم الزكاة، فإذا أعطاهم النبي منها ؛ رضوا وشكروا ، وإذا لم يعطهم ؛ غضبوا وسخطوا .

وفى الآية ٥٨ من سورة التوبة : وَمِنْهُمْ مَّن يَلْجِزُك فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

قال الشوكاني في تفسيره : «لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ في قسمة الصدقات ؛ بين الله لهم مصرفها: دفعاً لطلعتهم وقطعاً لشغبهم . عن زياد بن الحرث قال : «أتى النبي رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات ، حتى حكم هو فيها ؛ فجزأها لثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» . ا هـ .

وكنيت ألفت كتاباً في فقه العبادات ، أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧١م ، وصدرت منه عدة طبعات بعد ذلك تحدثت فيه عن الزكاة وذكرنا فقررة عن مصارف الزكاة ، رأيت أن أنقلها في هذا المكان .

مصارف الزكاة

لم يترك الإسلام أمر الزكاة إلى تقدير ولى الأمر بل بين المصارف وعينها بالنص القرآني الذي لا يقبل التأويل قال الله تعالى : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٦٠) . هذا هو النص القرآني المحكم الذي عدد أصناف المستحقين للزكاة^(١٣) ولنبين كل صنف بكلمة موضحة :

أولاً: الْفُقَرَاءُ : وهم الذين لا يملكون أموالاً يذكُون عنها ، أى : أن أموالهم لا تبلغ النصاب وإنما لديهم قليل من المال لا يكفي لكل حاجاتهم ، وقيل : من لا يملكون قوت يوم وليلة .

ثانياً: الْمَسْكِينُ : قيل في تفسير المسكين : السائل . وقيل : بأن المسكين أشد حاجة من الفقير ، وروى عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس : إن الفقراء فقراء المسلمين والمساكين فقراء أهل الكتاب ، ويزكى هذا

الرأى أن عمر بن الخطاب فسر المساكين : بضعفاء أهل الكتاب ، فإنه يروى أنه رأى ذمياً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فقال له عمر رضى الله عنه : مالك؟ قال : استكروهنى فى هذه الجزية ، حتى إذا كف بصرى تركونى وليس لى أحد يعود على بشىء ! فقال الفاروق : ما أنصفت إذن ! وأجرى له ما يقوته وما يصلحه ، وقال : هذا من الذين قال الله فيهم : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَكِينِ . وهم زمنى أهل الكتاب أى : ذوو العاهات المانعة من الكسب ، والمرضى بمرض لا يرجى البرء منه .

ونرى من هذا أن الزكاة على هذا التفسير تعطى لمساكين أهل الذمة العاجزين عن الكسب ؛ وهو غير ما عليه جمهور الفقهاء الذين يرون أن الزكاة لا تعطى لغير المسلمين .

ثالثاً : الْمُعَالِمِينَ عَلَيْهِمْ : وهم الذين يعملون فى الزكاة فى جمعها من أربابها وتوزيعها على مستحقيها وهم يعطون على قدر أعمالهم ، وكفاية أمثالهم ، ولأن العمل فى الزكاة له أجر والأجير يأخذ سواء أكان غنياً أم فقيراً.

رابعاً : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ : وهم قوم يعطون من الزكاة : تأليفاً لقلوبهم أو قلوب ذويهم ، أو تمكيناً للإسلام فى قلوبهم . أو قلوب ذويهم ، وقد قال أبو يعلى فى الأحكام السلطانية : «المؤلفة قلوبهم أربعة أصناف : صنف منهم تتألف قلوبهم : لمعونة المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم : للكف عن المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم : لترغيبهم فى الإسلام ، وصنف تتألف قلوبهم : ترغيباً لقومهم وعشائهم فى الإسلام فيجوز أن يعطى كل واحد من هذه الأصناف من سهم المؤلفة قلوبهم مسلماً كان أو مشركاً » .

وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الإسلام والدعوة له ، فإعطاء المؤلفة قلوبهم هو من قبيل ما نسميه اليوم : (الدعاية) ، ولذلك كان حقاً أن نجعل من مصارف الزكاة تمويل الدعاية للإسلام ، وبيان مزاياه ، وخواصه : ليعلم حقيقته من لم يكن يعلم .

خامساً : فِي الْأَرْقَابِ : أى : فى فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد لرقيقه مالا إذا أداه له : تحرر من أسره . فأمر الله الحكومة الإسلامية أن تمد هؤلاء الأسرى بأموال الزكاة : ليحرروا من رقهم ، وقد ذهب الرق تقريباً من العالم .

ونريد أن نسجل فى هذا المقام أن الدولة الإسلامية هى أول دولة حاربت الرق فى الوجود وحسبها أن جعلت جزءاً من ميزانيتها لفك الرقاب ، ولم يذكر التاريخ أى نظام سياسى أو فلسفى سبق الإسلام فى ذلك .

سادساً : الْفَارِغِينَ : وهم الذين ركبهم الدين ولا وفاء عندهم ، وهم ثلاثة أقسام :

١ - قسم يستدين فى سفامة وإسراف : لينفق فى المحلل والمحرم والأكثرين من الفقهاء يرون أن هذا لا يوفى عنه دينه ، إلا إذا تاب وصار من أهل الصلاح والتقوى والتدبير .

٢ - من استدان لصالح نفسه كتاجر لزمته ديون في تجارته وهو يحسن تدبيرها ولكن اضطرب الميزان الاقتصادي ، وأحاط الدين بماله ولم يف ما عنده من المال بدينه ، فما بقي من ديون بعد ذلك عليه يسدد من الزكاة .

٣ - من ركبته دين في مصلحة عامة لا لمصلحة نفسه ، كمن تحمل ديات للمصلح بين الناس ، فقد قال الفقهاء : إنه يسدد عنه دينه ، ولو كان غنيا يبقى له بعد سداد الدين من ماله نصاب ، وهذا للتشجيع على المروءة والمصلح بين الناس .

وإذا مات مدين وليس في تركته ما يفي بدينه يؤدى باقى دينه من مال الزكاة .

والجدير بالذكر : أن الإسلام يجعل الديون العادلة تؤدى من بيت مال الزكاة ، وبهذا سبق الشرائع الإنسانية كلها سبْقاً بعيداً ، وخصوصاً الشرائع التي عاصرت نشأتها ، وحسبك أنك تعلم أن القانون الرومانى^(١١) فى بعض أدواره كان يسوغ للدائن أن يسترق المدين ، أما الإسلام فقد جعل دين المعسر تؤديه الدولة عنه وفى ذلك تشجيع للناس على المروءة والقرض الحسن ؛ لأن صاحب المال إن علم أن ماله لن يضيع أبداً ؛ أقرض القرض الحسن . ويصحب القياس على ذلك أن يقرض من مال الزكاة القرض الحسن ؛ لأنه إذا كانت الديون العادلة تؤدى فأولى أن تعطى منها القروض الخالية من الربا ؛ لتزد إلى بيت المال .

سابعاً : **أَبْنِ السَّبِيلِ** : والمراد به : المسافر الذى لا يجد مالا يوصله إلى وطنه ، فإنه يعطى من مال الزكاة ما يوصله إلى وطنه .

وأما إذا كان غنياً فيعطيه بيت المال قرضاً ليسترد ما أعطاه عند الرجوع إلى أهله وذويه .

ثامناً : **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** : والمراد به : الصرف على الغزاة والمرابطين لحماية الثغور فينتفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به ما دام الجيش يجاهد فى سبيل الله .

ولقد فسر بعض الفقهاء كلمة **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** بما يعم كل مصالح المسلمين ، فقد جاء فى التفسير الكبير للفخر الرازى ما نصه :

«واعلم أن ظاهر اللفظ لا يوجب القصر على كل الغزاة ، فلهذا المعنى نقل «القفال» فى تفسيره عن بعض الفقهاء : أنهم أجازوا صرف المصداقات إلى جميع وجوه الخير : من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ؛ لأن قوله تعالى : **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** عام فى الكل» .

ويشمل **فِي سَبِيلِ اللَّهِ** إعداد دعاة الإسلام والإنفاق عليهم لإظهار جمال الإسلام وسماحته وتبليغ أحكامه والرد على خصومه ، والإنفاق على الكتب التى تتولى هذه المهمة .

ويجوز إعطاء الزكاة للمؤسسات الخيرية : كالمستوصفات الخيرية ، والميتم ، والمدارس الخيرية ؛ لأن هذه المؤسسات جعلت لصالح الطبقة الفقيرة .

هل تصرف الزكاة على جميع مستحقيها ؟ يرى جمهور الفقهاء خلافا للشافعى أنه لا يلزم المزكى استيعاب كل مصارف الزكاة ، بل فى أيها وضعت أجزاء ، ويلزم الإمام العناية بالأهم اجتماعياً فاهمهم .

حكمة الزكاة

١- الزكاة فريضة واجبة ، وسبيل إلى علاج الشح والبخل ، وارتقاء بالنفس والروح والوجدان ؛ حيث يعطى المؤمن ماله ، ويدخره لينفعه فى قبره ، أو فى يوم القيامة ؛ فهو فعلاً أدخار فى بنك الآخرة ، وتغذية لرصيدنا الحقيقى ؛ فإن مالك ما أنفقت ؛ ومال وارثك ما أبقيت .

٢- الزكاة علاج صالح متعين ؛ لإزالة حب الدنيا عن القلب ، وكسر شدة الميل إلى المال ، والمنع من انصراف النفس بالكلية إليه ، وهو المراد من قوله تعالى : **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** . (التوبة : ١٠٣) .

٣- تربية النفس عن طريق الشعور بآلام الآخرين ، والإحسان إلى الناس ، والسعى فى إيصال الخيرات إليهم ، ودفع الآفات عنهم ، وهذا من صفات الله وفى الحديث الشريف : «تخلّقوا بأخلاق الله» .

٤- توفير محبة الفقراء للأغنياء ، والدعاء لهم ببقاء النعمة ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ويغض من أساء إليها»^(١٤١) .

٥- الحد من ارتكاب الجرائم ، ومن اللحقاق بالأعداء ، فلو لم ينفق الأغنياء على الفقراء ؛ لأقدم الفقراء على الأفعال المنكرة كالسرقة أو على الالتحاق بأعداء المسلمين .

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٢ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَبْدَلَهُ تَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ٦٣﴾

المضردات :

أذن : يسمع كل ما يقال ويصدق ، كأنه من فرط استماعه صار آلة للسمع .

يحاده : يجانب ويخالف ويعادى .

الخيـزى : الذل والهوان .

التفسير :

تعرض هذه الآيات لونا آخر من ألوان إيذاء المنافقين لرسل الله ﷺ ، ووصفهم إيـاه بالفـغلة وعدم الحذر وتصديق كل ما يقال ، أى : ليس له نكاه ولا تعمق فى الأمور .

جاء فى تفسير أبى السعود :

نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه ﷺ ما لا ينبغي : فقال بعضهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ، ثم نأتية فننكر ما قلنا ، ونحلف فيصدقنا بما نقول : إنما محمد أذنٌ سامعة^(١١٢) .

وذكر القرطبي : أن الآية نزلت فى عئاب بن قشير قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له .

٦١ - وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ ... الآية .

أى : ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويعيبونه فيقولون : هو أذن . يسمع كل ما يقال ويصدق .

وجاء في تفسير أبي السعود :

وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَى . أى : يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ، ويميز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له ، وبين ما لا يليق ، وإنما قالوه : لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ؛ ويصفح عنهم حلمًا وكرمًا ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قُلْ أَدْنَى خَيْرٌ لَّكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : هو أدنى كما تقولون يستمع لكم ؛ لكن نعم الأذن هو ؛ لكونه يسمع الخير ولا يسمع الشر .

أى : هو مستمع خير لما يجب استماعه .

كما يقال : فلان رجل صدق وشاهد عدل .

فهو ﷺ يعرف الصادق من الكاذب ؛ لكنه يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها ، فلا يفضح أحداً منهم ، وهو صاحب الخلق الكامل ، والإنسان المثالى .

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : من مظاهر كونه ﷺ أدنى خير ، أنه يؤمن بالله ؛ إيماناً حقاً لا يحوم حوله شىء من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السواء .

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . أى يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع ؛ لأنهم أصحابه الذين أطاعوه واتبعوه ؛ فهم أهل للتصديق والقبول .

من تفسير الفخر الرازى :

إن قيل : لماذا عدى الإيمان إلى الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام فقال : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ .

قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله : المراد منه : التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدى بالباء .

والإيمان المعدى إلى المؤمنين : المراد منه : الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدى باللام .

كما فى قوله : وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا . أى : بمصدق لنا ، وقوله : أَلَمْ تَكُنْ لَكَ وَابِعًا الْآزْدَلُونَ . وقوله :

قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . اهـ .

وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ . أَيْ : وهو ﷺ رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، إذ قبله لا تصديقاً لهم ، بل رفقاً بهم ، فلم يهتك لهم سترًا ، ولم يكشف لهم سرًّا ، بل أحسن إليهم ؛ وتجاوز عن سيئاتهم ؛ رجاء أن يتوبوا من نفاقهم ، ويخلصوا الإيمان لربهم .

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ . ﷺ يتهوون شأنه ، والانتقاص من قدره لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . فى دنياهم وأخرتهم .

ما يؤخذ من الآية

١ - دلت الآية على أن النبى ﷺ صاحب الخلق الكامل ، والفهم الشامل ، والذكاء الخارق ؛ فسكوته عن المنافقين ليس عن غياف أو اعتزاز ، وإنما عن حكمة وبصيرة ؛ فقد كان يقبل ظواهرهم ، ويترك بواطنهم إلى الله ؛ رجاء هدايتهم .

٢ - وصفت الآية الرسول بأوصاف ثلاثة :

فهو يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة لمن آمن ؛ وهذه الأوصاف توجب كونه أذن خير .

٣ - إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفر ؛ يترتب عليه العقاب الشديد . مثل : التهوين من أمره ، أو اتهامه بالغفلة . وتصديق كل ما يقال ؛ فقد اختاره الله ، وأدبه وميزه بالخلق العظيم . اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (الأنعام : ١٢٤) .

٦٢- يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لُيُؤْذُونَكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

سبب النزول ،

كان المنافقون فى خلواتهم يطعنون على النبى ﷺ ؛ فإذا أبلغ ذلك إلى المؤمنين ؛ جاء المنافقون فخلفوا لهم على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم .

قال القرطبي :

روى : أن قومًا من المنافقين اجتمعوا وفيهم غلام من الأنصار يدعى : عامر بن قيس فحقروه وتكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد حقًا ؛ لنحن شر من الحمير ؛ فغضب الغلام ، وقال : والله إن ما يقوله محمد ﷺ لحق ، ولأنتم شر من الحمير ؛ ثم أخبر النبى ﷺ بقولهم ، فخلفوا إن عامرًا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكذبة ، وحلف على ذلك . وقال : اللهم ، لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب ، فأنزل الله هذه الآية .

ومعنى الآية :

يُقسَم هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون : أنهم ما ساءوا إلى الرسول ﷺ بكلام يعيبه أو ينقص من قدره ، يريدون بذلك أن ترضوا عنهم ، بتصديقهم فى نفى ما نقل عنهم من قالة سوء .

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِذْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ .

أى : هم يحلفون لكم ، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم ؛ لأن الله هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم ، وهو العليم بما ظهر ويطن من أحوالهم .

ولأن رسوله هو المبلغ لوصى الله ، وإرضاء الرسول هو عين إرضاء الله عز وجل .

حيث قال تعالى : مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ . (النساء : ٨٠) ؛ لأن مصدر الرسالة واحد ، والأوامر والنواهي واحدة ؛ هذا إذا كانوا مؤمنين حقاً كما يدعون ويحلفون ، فمن كان مؤمناً ؛ فليرض الله ورسوله ، وإلا كان كاذباً .

٦٣- أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ .

أى : أغاب عن هؤلاء المنافقين ولم يصل إلى علمهم أنه من يعادى الله ورسوله ، ويخالفه بتجاوز حدوده ، أو يلزم رسوله فى أعماله كقسمة الصدقات ، أو فى أخلاقه كقولهم : هو أذنٌ يسمع كل ما يقال له ، وكان فى حدٍّ ، والله ورسوله فى حدٍّ ؛ فجزاؤه جهنم خالداً فيها أبداً ، ذلك العذاب الدائم الذى بلغ الغاية فى الهول والشدة . هو العار الفاضح ، والذل الدائم ، والشفاء الكبير .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِمْ وَإِبِلِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْزِدُوهُمْ أَفْعَادَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِنْ نَعُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَاثَرُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

المفردات :

يحذر، يخاف .

استهزؤا ، استخفوا واسخروا .

مخرج ، مظهر .

نخوض ، ندخل ونمضي في الكلام نشغل به أنفسنا .

ونلعب ، ونعبث .

لا تعزِدوهم ، لا تطلبوا قبول المعذرة والحجة التي تبرئون بها أنفسكم .

مجرمين ، مرتكبين للجرم وهو الذنب العظيم .

التفسير :

٦٤- يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ۚ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ.

سبب النزول :

قال السدي : قال بعض المنافقين : والله لو أدت قدمي فجلدت مائة ، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا : فنزلت الآية .

وأخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى : الفاضحة فاضحة المنافقين .

وكان يقال لها : المنبئة : لأنها أنبأت بمخالبتهم وعوارتهم .

تهديد :

كان المنافقون يخافون من نزول القرآن فاضحاً لهم : كاشفاً استهزاءهم بآيات الله ، وكلامهم الذي ينتقصون فيه رسول الله ﷺ .

يَخْلِدُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةُ تُبَيِّنُ لَهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ... الْآيَةُ .

أى : يخاف المنافقون ويحزنون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم ، وتفضح أسرارهم ، وتبين نفاقهم ، وتخبرهم بما أخفى المنافقون في قلوبهم ؛ وبما كانوا يتحدثون به فيما بينهم ، من سرية واستهزاء بالرسول ، وبما أنزل الله عليه من كتاب ، واستخفاف بالمؤمنين .

قُلْ أَسْتَهْزِئُكُمْ إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحَدَّرُونَ .

أى : قل لهم يا محمد : استهزئوا بآيات الله كما تشاؤون ، وهو أمر يقصد به : التهديد والوعيد .
وبالغوا أيها المنافقون في حذركم وتخفيعكم ما أردتم ؛ إن الله تعالى ملعن ومظهر ما تخافون إظهاره ؛ وتخشون انكشافه ، بإنزال الآيات القرآنية التي تفضحكم على رموس الأشرار ، وتهتك أستاركم .

٦٥- وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ... الْآيَةُ .

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم : عن قتادة قال : بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك : إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهاه ميهات ؛ فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فقال : احبسوا على الركب ، فأتاهم . فقال ﷺ : قلت : كذا وكذا ؛ قالوا : يانبي الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ؛ فنزلت .

والمعنى :

والله لأن سألتهم يا محمد عما كانوا يتحدثون به من استهزاء وسخرية من الرسول والمؤمنين .
ليقولن معتدلين كذباً : إنما كنا ندخل ونمضي في أحاديث مختلفة للتسلية ، وتخفيف وطأة السفر ، ولم تكن جادين فيما تحدثنا به ؛ بل كنا لاهين ولاعبين ، لا نقصد بذلك سخرية ولا استهزاء .

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ .

أى : قل لهؤلاء المنافقين ، المستهزئين بما يجب إجلاله ، واحترامه ، وتوقيره - قل لهم ، غير ملتفت إلى اعتذارهم فليسوا فيه بصادقين ، قل لهم تقريراً ، وتوبيخاً : ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم كما تزعمون سوى أوامر الله القادر على كشف أسراركم ، وآيات الله المجيدة ، ورسوله الصادق ، الذي جاء لهدايكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور .

٦٦- لَا تَعْلِرُوا ۖ لَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ... الآية .

أى : لا تشغلوا أنفسكم بثلث المعاذير وانتحالها : رغبة فى دفع اللوم والعتاب عنكم ؛ لتحقيق كذبها ويطلائها ؛ فإن الاستهزاء بالله كفر محض وشر مستطير ، وكذلك الاستهزاء بالرسول وأخلاقه وأعماله .

أى : لا تفعلوا ما لا ينفع ؛ فقد ظهر كذبكم ونفاقكم وكفركم ؛ بالاجترار على الله والاستهزاء به وبآياته ورسوله ، بعد أن أعلنتم الإيمان وأظهرتم الإسلام .

إِنْ تُعَفِّ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ .

أى : إذا صفحنا عن جماعة منهم لصدق توبتهم ، وإخلاص إيمانهم وابتعادهم عن الإيذاء والاستهزاء بعد أن خاضوا فى ذلك مع الخائضين .

تُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

أى : تعاقب جماعة أخرى على الكفر والنفاق ؛ لإصرارهم على ذلك ومضيههم فى السخرية والاستهزاء .

من كتب التفسير

١- جاء فى تفسير الفخر الرازى ما يأتى :

الاستهزاء بالدين يعد من باب الكفر ، إذ إنه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأول فى الإيمان تعظيم الله تعالى ، بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

٢- جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن إسحاق : كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، ومنهم رجل من أشجع ، حليف لبني سلمة يقال له : «مَحْشُ بن حمير» يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم : أتحبسون جلاذ بنى الأصفر - أى : الروم - تقتال العرب بعضهم ؟ والله لكأننا بكم غداً مقرنين فى الحبال ؛ إرجافاً وترهيباً للمؤمنين .

فقال مَحْشُ بن حمير : لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو من أن ينزل فينا قرآن لمقاتلكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر : «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم : كذا وكذا» : فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ؛ فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على راحلته - : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب .

فقال مِخْسُ بْنُ حَمِيرٍ : يا رسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية هو مِخْسُ بْنُ حَمِيرٍ ، فتسمى : عبد الرحمن ، وسأل الله أن يُقْتَلَ شهيداً ، لا يعلم مكانه ؛ فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر^(١١١) .

★ ★ ★

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١٧)

المضردات :

المنافقون والمنافقات : هم الذين يظهرون غير ما يضمرون .
بعضهم من بعض : أى : متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان .
يقبضون أيديهم ، كناية عن شدة بخلهم .
نسوا الله فنسيهم : أى : تركوا حق الله عليهم ؛ فحرمهم فضله .
الفاسقون ، الخارجون عن دين الله .

التفسير :

٦٧- الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ... الآية .

تستمر الآيات فى بيان فضائح المنافقين وقبائحهم ، وتبين الآية هنا صفات المنافقين ، والفروق الواضحة بين صفات المنافقين ، وصفات المؤمنين .

ولما كان المؤمنون والمؤمنات يأْمُرُونَ بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان المنافقون عكسهم .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ .

أى : الرجال والنساء يشبه بعضهم بعضاً ، فى صفة النفاق والبعد عن الإيمان ، وفى الأخلاق والأعمال .

كما يقول إنسان لآخر : أنت منى وأنا منك ، أى : أمرنا واحد لا مباينة ولا مخالفة .

يَأْمُرُونَ بِالْمَنكِرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ .

هنا تفصيل وبيان ؛ لتشابه ذكورهم وإنائهم فى الأعمال المنكرة والأفعال المبيهة .

فهم يأمرُونَ بالمنكر ، وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه: كالكذب ، والخيانة ، وخلف الوعد ، ونقض العهد .

أخرج الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

«آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان»^(٣٤) .

وفى رواية : «إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ .

وهو كل ما عرف عن الشرع حسنه ، وأقره العقل والطبع كالجهاد والإيمان والإخلاص ، وبذل المال

فى سبيل الله .

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ .

أى : يمسكون أيديهم بالمال ضناً به وشحاً ، فلا يبسطون أيديهم بالنفقة والعطاء للمحتاجين ، قال

تعالى عنهم : هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْقَضُوا وَلَهُ عِزَّاؤُنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ

الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . (المنافقون: ٧) .

نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ .

أى : تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ؛ فتركهم سبحانه وحرّمهم من هدايته ورحمته وفضله .

والمقصود بالنسيان هنا : لازمه وهو الترك والإهمال ؛ لأن حقيقة النسيان على الله تعالى محال .

والمراد : أن الله جازأهم بمثل فعالهم ، وعاملهم معاملة من نسيهم ، بحرمانهم من لطفه وفضله

وتوقيفه فى الدنيا ؛ ومن الثواب فى الآخرة .

كما قال تعالى : وَلَقِيلَ أَلَيْسَ لَكُمْ نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ . (الجناتية: ٣٤) .

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

أى : إن المنافقين الذين تقدم شرح حالهم ، هم الخارجون عن طريق الحق والاستقامة ، الداخلون فى

طريق الضلالة ، المتمردون فى الكفر ، المنسلخون من كل خير .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةٌ آَعَمَلْتُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات :

حَسْبُهُمْ : كافيتهم .

وَلَعْنَهُمْ : وطردهم من رحمته .

مُقِيمٌ : دائم لا يزول ولا يتحوّل .

فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ : فتمتعوا بنصيبهم الذي قدر لهم من الملاذ والشهوات .

وَخُضْتُمْ : ومضيتم في أحاديث الاستهزاء والسخرية .

حِطَّةٌ : بطلت وضاع ثوابها .

التفسير :

٦٨- وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ... الآية .

تُبَيِّنُ هذه الآية سوء مصيرهم ، وعقابهم في الآخرة وكذلك عقاب الكفار الصرحاء في الكفر .

والمعنى :

إن المنافقين والمنافقات والكفار ، أوعدهم الله جميعاً نار جهنم يدخلونها ماكين فيها أبداً مخلدين هم والكفار فيها .

هُيَ حَسْبُهُمْ . أى : جهنم وحدها تكفيهم ؛ عقاباً وعذاباً على نفاقهم وكفرهم .

وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ . أى : طردهم وأبعدهم من رحمته .

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . ولهم عذاب دائم لا ينقطع فهم في الدنيا يعيشون في عذاب القلق والحذر ؛ من أن يطلق المسلمون على نفاقهم ، وفي الآخرة يذوقون عذاب النار ، ماكين فيه أبداً .

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ . أَيْ: دائم لا يفارقهم فى جهنم ؛ جزاء ما اقترفوا من جرأتهم وأثام .

٦٩- كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَهْذً مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ... الآية .

من شأن القرآن أن يلفت النظر إلى ما أصاب الأمم السابقة التى كذبت رسلها وشغلته العاجلة عن الباقية مثل : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم .

وهنا يذكّر المنافقين فى المدينة ، والكفار فى مكة وأشباههم فى كل مكان : أن من سبقهم من المكذبين لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال وإلّا الخزي والخسار ؛ مع أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المنافقين ؛ وأكثر أموالاً وأولاداً .

وقد جاء الخطاب فى بداية الآية على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ؛ لتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ .

والمعنى :

أنتم أيها المنافقون ، حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من الطغاة؛ فى الانحراف عن الحق، والاعتزاز بشهوات الدنيا وزينتها ، والاستغناء بها عن النظر فى العواقب ، والتأمل فى الحق والخير .

لكن هؤلاء الطغاة السابقين ، كانوا يمتازون عنكم ؛ بأنهم كانوا أعظم قوة فى أبدانهم ، وممتلكاتهم وتفوقهم ، وكانوا أكثر منكم أموالاً وأولاداً .

فَاسْتَمِعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمِعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمِعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ .

الحقائق : النصيب وهو ما خلق للإنسان أى قدر من خير .

المعنى : إن السابقين تمتعوا بنصيبهم الذى قدر لهم من حظوظ الدنيا ، وأفرغوا كل جهد لهم فى التمتع بالملاذات والشهوات ، ونسوا حق الله عليهم ، ولم يلتزموا بطاعته ، واستخفوا بأنبيائهم وسخروا منهم؛ فذلك كنتم بعدهم مطهم ؛ انتفعتم بنصيبكم الذى قدر لكم من متاع الدنيا وزينتها ، وحرصتم عليه ، وجعلتم الاشتغال به غاية الغايات .

ويعد أن امتلأت أيديكم بالنعم ؛ استعملتموها فى غير ما خلقت له ؛ وسخرتموها لإرضاء شهواتكم الخسيسة ، وملاذاتكم الفانية .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ لِمِ حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمِعْتُمْ بِهَا . (الأحقاف: ٢٠) .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

لإن قلت : أى فائدة فى قوله : فَاسْتَمَعُوا بِخَلَاقِهِمْ . وقوله : كَمَا أَسْمَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ . مغن عنه كما أغنى : كَالَّذِي خَاضُوا . عن أن يقال : وخاضوا فحضتم كالذى خاضوا ؟

قلت : فائدته : أن يذم الأولين بالاستمتاع ، بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاها بها ، والتهافتهم بشهواتها الفانية ؛ عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخس أمر الاستمتاع ، ويهجن أمر الرضا به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ؛ كان يقتل بغير جرم ، ويعذب ويعسف ؛ وأنت تفعل مثل فعله ، وأما وَخَضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن باستناده إليه عن تلك التقديمة ^(١٦٧) .

وعموما فال تكرار هنا للتأكيد أيضاً .

وَخَضُّهُمْ كَالَّذِي خَاضُوا . أى : دخلتم فى الباطل واللهو .

والمعنى :

ودخلتم أيها المنافقون والكافرون فى حماة الباطل ، وانغمستم فيه كاتغمس الذين مضوا قبلكم من الأمم .

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أى : أولئك الذين انغمسوا فى الباطل إلى الأذقان من الفريقين ، بطلت مساعيهم ، وفست أعمالهم فى الدينا ؛ لأنها أعمال رياء وسمعة ، وفى الآخرة ؛ لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

الذين خسروا فى مظنة الربح والمنفعة ؛ لأنهم لم يحصلوا على الثواب ، وأتعبوا أنفسهم فى الرد على الأنبياء والرسل ؛ فما وجدوا إلا فوات الخيرات فى الدنيا والآخرة .

قال الزمخشري : وهذا نقيض قوله تعالى : وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . (المنكوت: ٢٧) .

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٧٠)

المفردات :

نبا ، خبر له شأن .

المؤتفكات ، المنقبات وهى قرى قوم لوط .

بالبينات ، بالحجج الواضحات .

التفسير :

٧٠- أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ...

ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين والكافرين أخبار الأمم المكذبة للرسول ، وما حل بهم من عقوبات ومن هؤلاء الأقوام : قَوْمِ نُوحٍ الذين أغرقوا بالطوفان الذى عم جميع أهل الأرض القديمة ، إلا من آمن بنوح عليه السلام .

وَعَادٍ قوم هود ، الذين أهلكوا بالريح العقيم ؛ لما كذبوا هوداً عليه السلام .

وَتَمُودَ قوم صالح ، الذين أخذتهم الصيحة ؛ لما كذبوا صالحاً وعقروا الناقة .

وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ الذين أهلكهم الله بسلب النعمة عنهم ، ويتسلط البعوضة على ملكهم نمروذ بن كنعان ابن كوش الكنعانى ، وقد نصر الله إبراهيم وأيده بالمعجزات الظاهرة ، وأنقذه من النار .

وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ قوم شعيب عليه السلام ، الذين أصابتهم الرجفة وعذاب النار يوم الظلة .

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ . وهى القرى التى انتفكت بأهلها ، أى : انقلبت فصار أعلاها أسفلها ، فالمؤتفكات صفة القرى وهى قرى قوم لوط الذين كانوا يسكنون فى مدائن ، فأهلكهم الله بالخسف ، وجعل على أرضهم سافلها وأمطر عليهم الحجارة ، وأمّ قراهم سدوم ، أهلكهم الله عن آخرهم ؛ يتكذيبهم نبيّ الله لوطاً عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهى المثلية الجنسية . قال تعالى : وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَهْوَى * فَفَشَاهَا مَا غَشَى . (النجم: ٥٣، ٥٤) .

وقد أهلك الله مكذبين كثيرين ، لكنه اكتفى هنا بذكر هذه الطوائف الست : لأن آثارهم باقية ، ومواطنهم هي الشام والعراق واليمن وهي مواطن قريبة من أرض العرب ، فكانوا يمرّون عليها في أسفارهم ، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم .

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ

وهذا كلام مستأنف لبيان أبنائهم وأخبارهم أي : إن هؤلاء المهلكين قد جاءتهم رسلهم بالمعجزات والحجج ، والدلائل القاطعة على وحدانية الله ، فلم يؤمنوا وكذبت كل أمة رسولها وأذته : فأهلكهم الله بذنوبهم ؛ وما كان الله ليعذب أحداً بغير ذنب .

فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أي : فما صح ولا استقام في سنة الله في خلقه أن يعاقبهم بغير ذنب فيظلمهم بذلك ، ولكن هؤلاء الطغاة ظلموا أنفسهم ، بالكفر والفسوق والعصيان ؛ فاستحقوا ذلك العذاب .

★ ★ ★

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

المفردات :

أولياء : جمع ولي وهو المحب .

خالدين فيها : ماكلين فيها مكلًا دائماً ..

جنان عدن : أي : جنات إقامة وخلود ، يقال : عدن بالمكان عدنا وعدونا أقام به .

بعد أن بين القرآن سوء حال المنافقين والكفار في الدنيا والآخرة بين هنا حسن حال المؤمنين وجميل فعالهم ، وما يلقونه من جزاء في الآخرة . والقرآن بهذا يوازن بين كفتين : لينزجر المتأفك ويتوب العاصي ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً .

٧١- وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...

إن التعاون بين أهل الإيمان من المؤمنين والمؤمنات كان معروفاً من اليوم الأول للإسلام ، وكان قائماً في ميادين الهجرة والجهاد والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فأخت عمر بن الخطاب أرسلته إلى الإسلام ، وأسما بنت أبي بكر لها موقف في الهجرة ، وهناك بيعة تسمى : بيعة النساء ذكرها القرآن الكريم في الآية ١٢ من سورة الممتحنة ، وكانت النساء تشهد الجماعات والجمع والأعياء وتساهم في الجهاد ، وكان يسقيهن الماء ويجهن الطعام ، ويحرضن على القتال ويرددن المنهزم من الرجال ، ويواسين الجرحى ويعالجن المرضى .

وقوله سبحانه : بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . فهم نصراء متوادلون متحابون ؛ كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : «تري المؤمنين في توأدهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»^(١٧١) .

وفي الحديث الصحيح أيضاً : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»^(١٧٢) . وشبك ﷺ بين أصابعه ، وقد ذكر سبحانه صفات المنافقين ، كما يأتي :

١- بعضهم من بعض ؛ يقلد بعضهم بعضاً ، بدون ولاء ولا محبة .

٢- يأمرون بالمنكر .

٣- ينهون عن المعروف .

٤- لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى .

٥- يقبضون أيديهم ويمسكون بها عن النفقة ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون .

وفي الآية ٧١ من سورة التوبة نجد صفات المؤمنين كالتالي :

١- بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يتولى بعضهم بعضاً بما يعود عليهم بالخير ، في مقابل المنافقين بعضهم من بعض . بدون ولاء .

يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...

- ٢- وهم يأمرُونَ بالمعروف : وهو كل ما عرف عن الشرع حسنه .
- ٣- وهم ينهَوْنَ عن المنكر : وهو كل ما عرف عن الشرع قبحه .
- ٤- وهم يقيمُونَ الصلاة تامةً الأركان فى خشوع وخضوع .
- ٥- وهم يؤدُونَ الزكاة خالصة لوجه الله .
- ٦- والمؤمنُونَ والمؤمنات يطيعُونَ الله ورسوله ، ويتركُونَ ما نهى عنه : امتثالاً وحبا وطاعة لله ورسوله .

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ .

أى : هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات : تعهد الحق أن يشملهم برحمته ، وأن يسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة .

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فهو سبحانه قوى قاهر مالك الملك بيده الخلق والأمر ، وهو سبحانه حكيم فى أعماله وفى تدبير أمر عباده على وفق العدل والحكمة والصواب فيخص المؤمنين بالجنة والرضوان ، ويخص المنافقين بالنار والعذاب والغضب .

٧٢- وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

فصل الله تعالى فى هذه الآية ما وعد به المؤمنين من رحمته فى الآية السابقة حين قال : أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ .

وقد أعد الحق سبحانه وتعالى ثلاثة أشياء مفسرة للرحمة :

- ١- الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، فينعم الناظر إليها : حين تجرى الأنهار تحت أشجارها وغرفها منضبطة بالقدرة الإلهية فى غير أخدود (شق) وهم فيها خالدون فلا يموتون ولا يخرجون منها .
- ٢- المساكن الطيبة ، وهى المنازل التى تستطيبها النفوس ، أو يطيب العيش فيها ، فى جنات عدن وهى أبهى أماكن الجنة وأسناها ، وعدن اسم موضع معين فى الجنة ، أو بمعنى : دار إقامة ، ينزل فيها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله .

٣- رضوان من الله أكبر ، وهذا الرضا هو الفوز الأكبر ، والتعيم الروحي الحقيقي ، فالسعادة الروحية أفضل من السعادة الجسمانية ، وقيل : إن الرضوان هو رؤية الله يوم القيامة .

ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . أى : هذا الفوز بالجنة ونعيمها ، ورضوان الله وكرامته لأحبابه فى الجنة ، هو الفوز العظيم ، فمتاع الدنيا قليل فان ، أما نعيم الجنة ورضوان الله فهو الفوز العظيم حقاً وصداً .

من السنة النبوية الشريفة

جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة ، أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» .

ثم قال رسول الله ﷺ : «إن للمؤمن فى الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً فى السماء ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم ، لا يرى بعضهم بعضاً»^(١٩١) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه : «إن فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيلة ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألت الله فأسأله الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنته تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن»^(١٩٢) .

وروى الإمام مالك والشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم نعتد أحداً من خلقك ؟! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأى شئ أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(١٩٣) .

من كتب التفسير

جاء فى كتاب : فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما يأتى :

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ .

وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هلالات ذلك الرضوان الكريم .

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ .

إن لحظة اتصال بالله ، لحظة شهود لجلاله ، لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقله هذه الأرض ... لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله ، إن لحظة واحدة من تلك اللحظات التى

تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء ، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع ، وكل رجا ، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟!

ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

★ ★ ★

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ جَهْدًا ۖ الْكُفَّارُ وَالْمُتُفِقِينَ ۖ وَاغْلَظَ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَمِنْهَا
الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ هِيَ آلِمَاتٌ لِّمَا تَزَالُ لَوْ آمَنُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ
يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرٌ لَّهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعْبُدُوكُمْ ۖ اللَّهُ عَذَابُ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

المضردات :

واضلف عليهم : واشدد عليهم ولا تأخذك بهم رافة ورحمة .

وماواهم جهنم : أى : ومكانهم ومقرهم الذى يأوون إليه وينزلون فيه جهنم .

المصير: المآل والمرجع.

قالوا كلمة الكفر، أي: نطقوا بما يدل عليه من الألفاظ.

وهموا، المراد من الهم هنا: العزم. أى: عزموا.

بما لم ينالوا ، بما لم يستطيعوا الوصول إليه .

نَقَمُوا، كَرِهُوا وَأَنْكَرُوا.

وَلِيًّا: صديق ينفعهم ، أو سيد متولى أمرهم .

التفسير :

٧٣- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...

كان رسول الله ﷺ سهلاً مألَفاً محبباً، وكان يلقي الناس جميعاً مستبشرين بأسساً متفانلاً، يمثل قوله تعالى: **كَيْفَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبِثَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَنَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ... (آل عمران: ١٥٩).**

وكانت هذه المعاملة الحسنة؛ ربما أطمعت المنافقين وجرائهم: لأن النبي ﷺ كان يعاملهم بالحسنى مثل المؤمنين؛ فأمره الله أن يغلظ لهم في القول والفعل، وأن يظهر في وجهه عدم الرضا عنهم، حتى يدفعهم ذلك إلى البحث عن عيوب أنفسهم، والانتقال من النفاق إلى الإيمان.

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال: «جهد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان».

وعن ابن مسعود قال: لما نزلت: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ: أمر رسول الله ﷺ المسلم أن يجاهد بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، فإن لم يستطع فليقله بوجه مكفهر.

قال صاحب النار: ويقفهم من هذا الحديث أن هذا في جهاد الأفراد بالمعاملة، لا في جهاد الجماعات بالمقاتلة؛ فهو إذا بمعنى إزالة المنكر في قوله ﷺ: «من رأى منك منكرًا، فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه وذلك أضعف الإيمان»^(١٣٣). رواه الجماعة إلا البخارى.

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِذُوا بِكُمْ غِلَظًا.
(التوبة: ١٢٣)

والغلظة فى اللغة: الخشونة والشدة، ومعاملة العدو المحارب بهما من وضع الشيء فى موضعه.
قال الشاعر:

وضع الندى فى موضع السيف فى العلأ مضر كوضع السيف فى موضع الندى

فلما أساء المنافقون الأدب مع رسول الله ﷺ: وقالوا عليه: هو أذن، وتكرر نقضهم لعهد النبي ﷺ؛ أمره الله تعالى بالغلظة فى جهاد الكفار، والمنافقين^(١٣٤).

ومثل هذه الآية بنصها فى سورة التحريم، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ (التحريم: ٩).

والخلاصة: أن الله سبحانه وتعالى أمر رسول الله ﷺ بجهد الكفار الصرحاء: الذين يظهرون الكفر بالسيف والسلاح، وأن يجاهد المنافقين ويجالدهم بالحجة والبرهان، وإقامة الحدود، مع الغلظة والشدة والحزم فى معاملتهم فى الدنيا.

وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ.

أما فى الآخرة فإن مرجعهم ومقرهم هو النار ويس المرجع الذى يصيرون إليه، والنهاية التى سينتهون إليها.

٧٤- يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ... الآية .

تشير أسباب النزول إلى أكثر من سبب لنزول هذه الآية ، مما يفيد تعدد الأحداث التي صدرت من المنافقين ، وفيها كيد وِدَسٌ للرسول ﷺ وللمسلمين .

فإذا واجههم الرسول ﷺ بما قالوه من مخالفات تبرأوا من ذلك ، وحلفوا كذباً أنهم لم يقولوه .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة ، والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفاري على الجهيني ، فقال عبد الله بن أبي لأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : «سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ» . والله ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل : فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ : فأرسل إليه فجعل يحلف بالله ما قاله^(١١٠) : فأنزله الله :

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ... الآية

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن الجلاس بن سويد قال : لئن كان محمد صادقاً ؛ لنحن شر من الحمير (يقصد الآيات التي نزلت فيمن تخلف من المنافقين) ؛ فرجع عمر بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قاله الجلاس (بضم الجيم) : فأحضر النبي الجلاس وسأله عن مقالته : حلف بالله : ما قلت ، فأنزل الله تعالى : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا... الآية .

وقيل : إن الجلاس تاب بعد ذلك وحسنت توبته .

وقيل : إنها نزلت في رجل من المنافقين : قال له النبي ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ، فانتطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ؛ فتجاوز عنهم النبي ﷺ : فأنزل الله : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا... الآية .

وعلماء القرآن يذكرون : أنه قد يتعدد السبب ؛ والمنزل واحد .

فلا مانع أن تتعدد حوادث من المنافقين تكلموا فيها كلاماً سيئاً على النبي ﷺ وعلى المسلمين ، فلما انكشف أمرهم ، ووجهت التهمة إليهم ؛ أقسموا بالله ما قالوا .

والمعنى : يقسم هؤلاء المنافقون بالله : ما صدر عنهم ما نُسب إليهم من القول السيئ ، وهم كاذبون في دعواهم حاثثون في يمينهم .

وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .

أى : لقد صرحوا بكلمة تدل على كفرهم الذى كتموه ، وتفضح نفاقهم ، إذ قالوا : إن كان ما يقوله محمد حقاً فى شأن المنافقين وهم أشرافنا ؛ لنحن شر من الحمير .

أو أن كلمة الكفر إشارة إلى كل مقالة قالها المنافقون فى ذم النبى ﷺ مثل : قولهم : هو أذن ، وقولهم لا تنفروا فى الحر ... وغير ذلك من الكلمات القبيحة التى نطقوا بها ، أو خبئوها فى قلوبهم ونفوسهم ؛ وبذلك كفروا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ . وأظهروا ما فى قلوبهم من الكفر ، بعد إظهارهم الإسلام .
وَهُمْ أَيْمَاءُ لَمْ يَنَالُوا ۚ .

جاء فى أسباب النزول للواحدى ، وفى كتب التفسير :

أنها نزلت فى خمسة عشر رجلاً من المنافقين : هموا بقتل رسول الله ﷺ ، عند عودته من غزوة تبوك ، واتفقوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى إذا تسنَّ العقبة بالليل .

فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها ، وحذيفة يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل ، وقعقة السلاح ، فالتفت فإذا هو بقوم ملثمين فقال : إليكم يا أعداء الله ؛ فأمسكوا ، ومضى النبى ﷺ حتى نزل منزله الذى أراد ؛ فأنزل الله تعالى : وَهُمْ أَيْمَاءُ لَمْ يَنَالُوا ۚ .

أى : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله ﷺ ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ؛ لأن الله عصمه من ضرورهم .

وقيل : هموا بإخراج الرسول والمؤمنين من المدينة ، أو بأن يُتَّوَجَّعَ عبد الله بن أبى ملكا عليهم ؛ فأحبط الله مؤامرتهم .

وَمَا تَقْصِرُوا إِلَّا أَنْ غَنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ .

أى : وما حمل هؤلاء المنافقين والكفار على بغض النبى وما عابوا من أمر الإسلام شيئاً يستحق العيب ؛ بل المحبة والإيمان .

فقد كانوا قبل قدوم النبى إلى المدينة فى غاية الضنك وشدة الحياة ؛ فأغناهم الله تعالى من فضله ، وأغناهم الرسول بالغنائم والمنح ، وكانوا كسائر الأنصار فى المدينة فقراء .

وهذه الجملة جاءت على أسلوب : تأكيد المدح بما يشبه الذم مثل قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
يقطرن من نجدة دما

أى : ليس هناك شيء ينقمون منه : إلا أن الإسلام كان سبب غناهم .

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى : وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (البروج : ٨، ٩) .

لقد أغنى الله المنافقين بعد فقر ، وقتل للجلال مولى : فأمر رسول الله ﷺ بديته بـ ١٢ ألف درهم ؛ فاستغنى بها الجلاس .

وقد كان الإسلام وسيلة إلى الغنى الروحى ، لمن حمل العقيدة فكانت سبباً فى عز الدنيا وسعادة الآخرة .

فَإِنْ يَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا .

فإن يتوبوا من النفاق ومساوئ أقوالهم وأفعالهم ؛ يكن ذلك خيراً لهم وأصلح ، ويقبل الله توبتهم ، وفى هذا ترغيب لهم بالتوبة ، وفتح باب الأمل والرجاء بالرحمة أمامهم .

قيل : إن الجلاس بن سويد تاب بعد هذه الآية وحسنت توبته .

وَإِنْ يَتُوبَا إِلَى اللَّهِ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

أى : إن أعرضوا عن التوبة ؛ يعذبهم الله عذاباً مؤلماً فى الدنيا بالقتل والأسر ، واغتنام أموالهم ، ويعيشهم فى هم وقلق وخوف ، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ، كما يعذبهم فى الآخرة عذاباً شديداً فى الدرك الأسفل من النار .

وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

ليس لهم أحد فى الأرض يدفع عنهم عذاب الله أو يحميهم من عقابه ؛ لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو .

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . (الرعد : ١١) .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ (٧٥) فَلَمَّآ ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (٧٨)

المضردات :

من فضله : زيادة خيره وإنعامه .

فأعقبهم نفاقاً : أي : جعل الله عاقبة بخلهم نفاقاً ، أو أورثهم البخل نفاقاً .

أخلفوا الله ما وعده : جعلوا وعدهم لله بالتصدق خلفهم والمراد : أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من الصدق والصلاح .

سرهم : أي : ما انطوت عليه قلوبهم من النفاق .

نجواهم : أي : ما تحدثوا به علناً فيما بينهم بعيداً عن المؤمنين .

سبب النزول

نزلت هذه الآيات في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث : وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير : عاهدوا الله ورسوله : لأن أغناهم الله من فضله : ليسارعن إلى إخراج الصدقة ، وصلة الرحم ، والحج ، والزكاة ، وسائر القربات والطاعات .

فلما أعطاهم الله المال بخلوا به ، ونقضوا العهد وأعرضوا عن النفقة وعن الإسلام ، وعن تكاليف الله وأوامره .

فزادهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم الحساب في الآخرة أي : ماتوا منافقين .

قصة مشهورة لكنها غير صحيحة

هناك قصة مشهورة بين الناس ، تروى سبب نزول هذه الآيات ، رددتها كتب التفسير كما وردت في كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي .
بيد أن هذه القصة لم تصح لدى المحدثين .

وهى ما أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي فى الدلائل ، بسند ضعيف عن أبى أمامة : أن ثعلبة بن حاطب أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال عليه الصلاة والسلام ، «يا ثعلبة ، قليل تؤدى حقه خير من كثير لا تطيقه» .

فذهب ثم عاد فقال : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا : لأعطين كل ذى حق حقه ؛ فدعا له رسول الله ﷺ ؛ فاتخذ غنما فنمت وكثرت حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة .

ثم أنزل الله على رسوله : **عُلِّمَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا** . (التوبة : ١٠٣) .

فاستعمل النبى ﷺ على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتاباً ، فأتيا ثعلبة ، فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ ؛ فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ، فارجعا حتى أرى رأى ؛ فنزلت فيه وفى أمثاله تلك الآيات . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : نحوه .

فجاء ثعلبة بالزكاة ؛ فقال له النبى ﷺ : «إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك» .

ثم جاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ، ثم جاء إلى عمر فى خلافته فلم يقبلها ، ومات فى زمان عثمان رضى الله عنه .

والحقيقة : أن ما روى عن ثعلبة هذا غير صحيح لدى المحدثين ، وثعلبة بدرى أنصارى ، ومن شهد الله له ورسوله بالإيمان .

قال ابن عبد البر : ولعل قول من قال فى ثعلبة : إنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح والله أعلم .

وذكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية : أن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم ذلك المال لأتصدقن منه ولأصلن منه ، فلما سلم بخل بذلك ، فنزلت . وهذا أيضاً غير صحيح ^(١٠٠) .

وعلماء الحديث ضعفوا نسبة هذه الآيات إلى ثعلبة ؛ لأسباب تتعلق بسند الحديث ، ويصاحب القصة لأنه شهد بدرًا ، والنبى ﷺ قال : «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ؛ فقد غفرت لكم» ^(١٠١) .

والآيات فى محتواها تنطبق على المنافقين ، وعلى كل من يقابل نعم الله بالكفران ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

«هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين ، الذين أغناهم الله ورسوله من فضله ، بعد الفقر والإملاق، ويوجد مثلهم في كل زمان ، وهم الذين يلجئون إلى الله تعالى في وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضرر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشريعته ؛ إذ هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم ، فإذا استجاب الله لهم ، نكسوا على رؤوسهم ، ونكسوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ويطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق ، وهذا مثل من شر أمثالهم» . ١ هـ .

التفسير،

٧٥ - وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ آلَ اللَّهِ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ وَلَيَكُونُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ... الآية

أي : ومن المنافقين قوم عاهدوا الله ، وأكذبوا عهودهم بالإيمان المغلفة ؛ فقالوا : لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَحْتَاجِينَ ، ولنعطين كل ذي حق حقه ، ولنكونن من عباد الله الصالحين ، الذين يؤدّون حق الله في أموالهم من الإنفاق في سبيل الله ، وسائر وجوه البر والخير وصلة الأرحام .

٧٦ - فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

فلما أعطاهم الله من فضله ، ووسع عليهم من رزقه ، وحقق لهم ما سألوه ؛ ضنّوا بالمال على خلقه ، وبخلوا به وأمسكوه ؛ فلم يتصدقوا منه ، ولم ينفقوا منه في مصالح الأمة كما عاهدوا الله عليه ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة عن العهد وطاعة الله ، وأدبروا وأعرضوا إعراضاً جازماً عن النفقة وعن الإسلام ، بسبب تأصل طبع النفاق في نفوسهم .

وهنا نجد أن الآية وصفتهم بصفات ثلاث :

الأولى : البخل ، الثانية : التولى عن العهد ، الثالثة : الإعراض عن تكاليف الله وأ

٧٧ - فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ...

أي : صير الله عاقبة أمرهم نفاقاً دائماً في قلوبهم بمعنى : زادهم نفاقاً ، وقيل : أعقبهم ذلك البخل نفاقاً ، واستمر ذلك النفاق ثابتاً متمكناً ملازماً في قلوبهم إلى يوم الحساب في الآخرة .

وفي هذا دليل على أنهم ماتوا منافقين .

وهذا دليل آخر على أن المنزل فيه ليس ثعلبية أو حاطب البديدين .

ولو كان ثعلبة تاب وجاء بماله للنبي ﷺ تائباً : لقبِل النبي ﷺ توبته ، وقبل منه المال .
فالقصة تحتاج إلى نظر : إذ كيف يردُّ النبي ﷺ تائباً ، ثم كيف يرفض ذلك أبو بكر مع أنه حارب
مانعى الزكاة وكيف يرفضه عمر ؟ .

ولذلك ضعَّف علماء الحديث ، قصة سبب نزول الآيات ، التي تفيد: أنها نزلت في ثعلبة ؛ لأسباب تتعلق
بسند الحديث ، وأسباب تتعلق بموضوع الحديث .

بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

أى : أن ملازمة النفاق لهم كان بسببين :

الأول : إخلافهم العهد الذي عاهدوا الله عليه من التصديق والصلاح .

الثاني : استمرارهم على الكذب فى جميع أقوالهم .

وفى معنى هذه الآية ورد فى الصحيحين : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث
كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان»^(١٧٧) .

وفى رواية : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

٧٨- أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

والاستفهام فى أول الآية للتوبيخ والتهديد والتقريع .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله مطلع على ما يخفونه فى صدورهم من النفاق ، وما
يتناجون به أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين ، وأن الله محيط علمه بكل ما يغيب عنهم وعن
غيرهم ؛ فلا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عالم بالسر والنجوى ، وهو سبحانه يعلم
خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما ظهر وما بطن ، هو سبحانه يعلم كل ذلك ، ويعلم ما أسروه من
النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه . فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ؟

ما يؤخذ من الآيات

من الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - وجوب الوفاء بالعهد ؛ فإن نقض العهود ، وخلف الوعد ، والكذب على الله ؛ يورث النفاق فإذا عاهد
المؤمن ربه فى أمر ؛ فليجتهد فى الوفاء به .

٢ - أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة في ذلك ، وامتناع الرسول ﷺ عن قبول الصدقة من ثعلبة أو غيره ، بما كانت للأسباب الآتية :

(أ) إيمانتها ؛ ليعتبر غيره به ، فلا يتخلف أحد عن إخراج الزكاة في وقتها .

(ب) ربما جاء بها على وجه الرياء ؛ خوفاً من الفضيحة ، ومن كلام الناس ، وأعلم الله رسوله بذلك فلم يقبل منه الصدقة .

(ج) الزكاة لتطهير النفوس وتزكيتها ، ولعل هذا لم يكن حاصلًا في ثعلبة أو غيره ؛ فلهذا امتنع الرسول ﷺ عن قبول تلك الصدقة .

٣ - النفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله ؛ فينبغي أن نوطن النفس على طاعة الله ، وأن نجبرها إجباراً على مخالفة الهوى والشيطان ، وإيثار ما عند الله على كل شيء من حطام الدنيا .

★ ★ ★

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

المفردات :

يلمزون ، يعيبون بالكلام الواضح أو بالإشارة بالعين أو الرأس ، مع كلام خفي .

سبعين مرة ، المراد به : المبالغة في العدد .

المطوعين ، المتصدقين تطوعاً .

التفسير :

٧٩ - الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ... الآية

سبب النزول :

جاء في تفسير الطبري ، والرازي ، وأبي السعود ، وابن كثير وغيرهم ما يأتي :

عن ابن عباس رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات ، ودعاهم إلى إخراجها ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كأن لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة ، وأمسكت لعيالي أربعة ، فقال ﷺ : بارك الله لك فيما أعطيت ؛ وفيما أمسكت ؛ فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نساؤه عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً .

وجاء عمر بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عدى الأنصاري بسبعين وسقاً من تمر الصدقة ، وجاء عثمان ابن عفان بصدقة عظيمة .

وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، وقال : أجزت الليلة الماضية نفسي من رجل ، لإرسال الماء إلى نخيله ؛ فأخذت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لعيالي ، وأقرضت الآخر ربي ، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه في الصدقات .

فلمزمه المنافقون وقالوا : ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياءً وسمعة ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل .

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

المعنى : هؤلاء المنافقون في كل أمة أمرهم عجيب غريب ، ديدنهم تثبيط الهمم ، وتدمير القيم ، فلا يسلم من طعنهم أحد ؛ فهم يعيبون المتبرعين الأغنياء ؛ فيتهمونهم بالرياء فيما بذلوه بسخاء .

وهم يعيبون الفقراء فيما تبرعوا به من طعام قليل ؛ ويقولون : إن الله غني عن صدقتهم .

فهم لسوء نواياهم ، ويخل نفوسهم ، وخبث قلوبهم ؛ لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون في إرضاء الله ورسوله .

فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ . ومن تبرعهم القليل ، ويرغمون أن الله غني عن هذا القليل .

وما علموا أن الله ينظر إلى قلوب الناس ونواياها ؛ فيعطى العطاء الجزيل على النية الصادقة ، وربما سبق درهم ديناراً ؛ لأن صاحب الدرهم أخلص النية ، وجاد بما يملكه على قتله .

سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ .

أي : جازاهم على سخريتهم بالإذلال والإهانة في الدنيا ؛ ليكونوا موضع سخرية الناس واستهزائهم ؛ جزاء لهم في جنس عملهم .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وأعد لهم فى الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً ؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل .

٨٠ - أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

سبب النزول :

قال الشعبي : سأل عبد الله بن عبد الله بن أبى رسول الله ﷺ - وكان رجلاً صالحاً - أن يستغفر لأبيه فى مرضه ؛ ففعل ، فنزلت الآية (١١٤) .

وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمئة فى مطلق التكثير ، قال على بن أبى طالب عليه السلام (١١٤) :

لأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَابْنُ الْعَاصِ سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدَى النُّوَاصِى

وقيل : لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وفى بيان نفاقهم ، جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنزلت هذه الآية (١١٥) .

أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر الله لهم ؛ لقد كثرت ذنوبهم ومردوا على النفاق ، وتعطلت قلوبهم عن الاستجابة لأمر الله ، فهم كالكفار .

فسواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم فلن يستر الله عليهم ذنوبهم بالعفو عنها ، وإنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، وإن يعفو عنهم ، وذلك نظير قوله تعالى :

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . (المنافقون: ٦) .

لقد كان النبى ﷺ رحيماً كثير الرحمة بأمتة ؛ وامتدت رحمته إلى المنافقين والكفار ؛ فكان يطلب لهم الهداية ، وكان يدعو للمشركين كلما اشتد به أذاهم .

روى ابن ماجة : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» (١١٦) .

وكان عذر الرسول ﷺ فى ذلك ؛ عدم يأسه من إيمانهم ، والممنوع منه هو الاستغفار بعد العلم بانطباع قلوبهم على الضلالة .

قال تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . (التوبة: ١١٧) .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

أى : ذلك الحكم السابق : سببه أنهم كفروا ووجدوا بالله ورسوله ، فلم يقرؤا بوحداية الله تعالى ، ولم يعترفوا ببعثة النبي ﷺ ، وأصروا على الجحود والإنكار ، فلم تعد قلوبهم مستعدة لقبول الخير والنور . وإن سنة الله ألا يوفق للخير المتمردين فى الكفر ، الخارجين عن الطاعة ، الذين فقدوا الاستعداد للإيمان والتوبة .

★ ★ ★

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا وَجَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المضردات :

المخلفون ، الذين تخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة .

بمقعدهم : بقعودهم .

خلاف رسول الله ، أى : بعده أو مخالفة له .

التفسير :

٨١ - فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . الآية

كانت غزوة تبوك فى شدة الحر والصيف ، وسمت همة المؤمنين للخروج والجهاد فى سبيل الله ، بينما هبطت همة المنافقين وكرهت الجهاد ومشقاته ، وجاءت هذه الآية تعرض لونا من زهمهم فى المكارم ، ونفورهم من المعالي ، ورغبتهم فى الراحة والدعة ، والتخلف مع النساء والصبيان والشيوخ الكبار والعجائز ، ولم يندموا على هذا التخلف ؛ بل شجعوا غيرهم على القعود عن الجهاد وقالوا لهم : لا تنفروا فى الحر .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى فى معنى الآية :

فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم فى المدينة وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله (٨١) .

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري :

وَكِرْهُرًا أَنْ يُجْهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

فى هذه الفقرة تعريض بالمؤمنين ، وتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض ، وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهونه ، وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيقان .

وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا .

أى : قال بعضهم لبعض ، على سبيل الإغراء بعدم الخروج للجهاد : اقعدا معنا فى المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ؛ فإن الحر شديد والسفر طويل ، وعودكم يريحكم من هذه المتاعب .

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ .

أى : إن نار جهنم التى أعدت للعصاة والتى تصيرون إليها بمخالفتكم : أشد حراً مما فرتم منه من الحر . فلو كانوا يعقلون ويعتبرون : لما خالفوا وقعدوا ، ولما فرحوا بل حزنوا .

فقد اشتروا متعة قليلة زائلة ، وباعوا المكارم والجهاد ، وتحمل التبعات فى سبيل خير الدنيا والآخرة .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا .

فيه استجهال لهم ؛ لأن من تصون مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ؛ كان أجهل من كل جاهل .

٨٢- فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : فليضحك هؤلاء المنافقون سروراً بقعودهم ، وسخريتهم من المؤمنين ، فليضحكوا ضحكاً قليلاً مهما طال أو كثر ؛ لأن متاع الدنيا قليل ، وسيكون حزنهم وبكاؤهم فى الآخرة كثيراً ؛ لأنه عقاب دائم لا ينقطع بسبب ما كانوا يكسبون فى الدنيا من النفاق .

وتفيد الآية : هوان العاجلة ، وبقاء الآخرة ، وأن العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَالْبَقَى (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

وفي التفسير :

لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ؛ لوجب إثارة ما يبقى على ما يفنى . فكيف والحال أن الدنيا من خزف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى .

إن العاقل من يشتري نعيمًا سرمدياً أبدياً ، ويبيع متاعاً زائلاً ؛ لكن المنافقين اشتروا العاجل وباعوا الآجل .

روى الإمام والشيخان : عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم »^(١١٣) .

وأخرج الشيخان في الصحيحين : عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم ، يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ، لا يرى أن أحداً في أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً »^(١١٤) .

★ ★ ★

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾^(٨٣)

المفردات :

رجعك الله ، ردك ، والمراد هنا : الرجوع من تبوك إلى المدينة ، حيث بقيت فيها جماعة من المتخلفين .

فاستأذنوك للخروج ، طلبوا منك أن تأذن لهم في الخروج إلى غزوة أخرى .

فاقعدوا مع الخالفين ، فاقعدوا مع المتخلفين ؛ لعدم لياقتهم للجهاد ، كالنساء والأطفال والعجزة .

التفسير :

٨٣ - فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ ... الآية

المعنى : فإن رددك الله تعالى من سفرك هذا إلى طائفة من هؤلاء المنافقين ، المتخلفين بالمدينة ، ثم أردت الخروج إلى غزوة أخرى ، فاستأذنوك لتسمح لهم بالخروج معك ، فقل لهم : تعزيراً وعقوبة : لن تخرجوا معي أبداً على أية حال ، ولن تقاتلوا معي أبداً عدواً بأي وضع كان .

إِنكُمْ رَحِيمٌ يَأْتِعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ .

أى : اخترتم القعود على أول مرة ، وتخلفتكم بلا عذر ، وكذبتم فى أيمانكم الفاجرة ، وفرحتم بالقعود ، فاتعدوا مع الخالفين . أى : فاتعدوا : عقوبة لكم مع الذين لا يصلحون للجهاد من الشيوخ العاجزين والنساء والأطفال .

وقال أبو عبيدة : الخالفون : كثيرو الخلاف لغيرهم ، وقيل : الخالف : هو الفاسد ، يقال : خلف عن كل خير يصلح له ، يخلف خلواً إذا فسد ، وخلف اللبن : إذا فسد .

قال الفخر الرازى : إن المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴾ (٨٤) وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِم بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلُّوا الطُّوُلَ مِنْهُمْ وَكَأُودَرْنَا كُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴿

المفردات :

أولوالطول : أصحاب الغنى والسعة .

ذرنا : اتركنا .

وطبع على قلوبهم ، أى : ختم عليها بطابع ، والمقصود : أنها لما لم تقبل هدى الله .

٨٤ - وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ... الآية

سبب النزول :

روى الشيخان : عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه : فقام ليصلى عليه : فقام عمر بن الخطاب ، وأخذ بثوبه ، وقال : يا رسول الله ، أتصلى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلى على المنافقين ؟ قال : إنما خيرنى

الله ، فقال : آَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ... وسأزيده على السبعين ؛ فقال عمر : إنه منافق ...!

وجاء في مسند الإمام أحمد :

ثم صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبي ومشى معه ، وقام على قبره حتى فرغ منه .

قال عمر : فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ... الآية .

قال : فما صلى رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل .

وقد أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية فى هذا المعنى .

ضعف الحديث :

ضعف جماعة من العلماء كالقاضى أبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين الجوينى ، والغزالى ، حديث الصلاة على زعيم المنافقين ؛ لمخالفته لظاهر الآية من أوجه هى :

١ - أن الآية نزلت أثناء رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك ، وابن أبى مات فى السنة التى بعدها .

٢ - قول النبي ﷺ : «إن الله خيرنى» ، يعارض صريح الآية ، بأن الله لن يغفر لهم بسبب كفرهم ، فأؤ فيه للتسوية لا للتخيير .

الجمع بين الآية والحديث :

حاول بعض العلماء الجمع بين الآية والحديث ، ومن هؤلاء الزمخشري فى تفسير الكشاف فقال : روى : أن رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم ؛ فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبى ، بعث إليه لياثية ، فلما دخل عليه قال له النبى : «أهلكك حبّ يهود» فقال عبد الله بن أبى : يا رسول الله ، إنما بعثت إليك لتستغفر لى لا لتؤذبنى ، وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ، ويصلّى عليه .

فلما مات دعاه ابنه عبد الله - وكان مؤمناً صالحاً - فقال : يا رسول الله ، أسألك أن تكفنه فى بعض قمصانك ، وأن تقوم على قبره ؛ حتى لا يشمت به الأعداء .

- وعلم النبي ﷺ أن تكفينه فى قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إلباساً لطيفاً لغيره .

فقد روى أنه قيل للرسول ﷺ: لمَ وجهت إليه بقميصك وهو كافر؟ فقال: «إن قميصي لن يغنى عنه من الله شيئاً، وإنى أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب»؛ فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوا زعيمهم عبد الله بن أبي يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ، وكذلك ترجمه واستغفاره؛ كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك؛ دعا المسلم إلى أن يتعاطف على من واطأ قلبه لسانه، ورآه حتماً عليه.

ثم قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

فإن قلت: كيف جازت الصلاة على عبد الله بن أبي المنافق؟

قلت: لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم، لما في ذلك من المصلحة.

وعن ابن عباس رضى الله عنه: ما أدري ما هذه الصلاة إلا أنى أعلم أن رسول الله ﷺ لا يخادع.

تأمل في الموضوع

تفيد روايات متعددة: أن عمر رضى الله عنه كان ميالاً إلى عدم الصلاة على المنافقين؛ استنباطاً من إشارات غير صريحة في القرآن إلى ذلك.

وجاء في رواية عن ابن عباس: فقال عمر رضى الله عنه: لم تعطى قميصك الرجس النجس؟! فقال عليه الصلاة والسلام: «إن قميصي لا يغنى عنه من الله شيئاً، فلعل الله أن يدخل به ألفاً في الإسلام» وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله بن أبي، فلما رأوه يطلب هذا القميص، ويرجو أن ينفعه؛ أسلم منهم يومئذ ألف، وكان ﷺ رحيماً سهلاً مألفاً محبباً وكان ميالاً إلى الصلاة على عبد الله بن أبي؛ بناء على الظاهر من إسلامه.

وأخرج أبو يعلى وغيره عن أنس: أن رسول الله ﷺ، أراد أن يصلّى على عبد الله بن أبي؛ فأخذ جبريل بثوبه فقال: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ... الآية.

فهذه الرواية تدل على أنه ﷺ لم يصل على عبد الله بن أبي.

وأمام هذا التعارض في الروايات رجح بعض العلماء رواية البخاري، وجمع بعضهم بين الروایتين فقال: المراد من الصلاة في رواية عمر وابنه: الدعاء، أو اللهم بالصلاة عليه، ثم منعه جبريل.

مناقب عمر

من مناقب عمر رضى الله عنه : شدته على المشركين والمنافقين ؛ فهو صاحب رأى قتل الأسرى فى بدر، وقد أيد الوحي رآيه فى أسارى بدر ، وآية تحريم الخمر ، وآية تحويل القبلة ، وآية أمر نساء النبى ﷺ بالحجاب ، وآية عدم الصلاة على المنافقين ، لهذا قال ﷺ : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» (١١٤) .

وقال ﷺ : «إنه كان فيما مضى من الناس ملهمون ولو كان فى أمتى محدثون لكان عمر» (١١٥) .

وقال ﷺ : «لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبياً» .

التفسير:

وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ .

هذه الآية استمرار فى الحديث عن المنافقين ، وكيفية معاملتهم ؛ فقد منعت الرسول ﷺ من الصلاة على موتاهم ...

والمعنى : تبرأ أيها الرسول من المنافقين ، ولا تصل على أحد منهم إذا مات ولا تقم على قبره ؛ لتستغفر له ، أو تدعوله ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، فأنكروا وجود الله وتوحيده ، وأنكروا بعثة نبيه ، وماتوا وهم فاسقون ؛ خارجون من دين الإسلام ، متمردون على أحكامه ، متجاوزون حدوده وأوامره ونواهيه .

وتفيد الآية : الامتناع عن الصلاة على الكفار ، وكل من عرف نفاقه .

وإن كان سبب نزول الآية : الصلاة على عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ذكر ذلك ابن كثير وغيره من المفسرين .

٨٥ - وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ...

أى : ولا تذل إعجابك وتقديرك - أيها العاقل - أموال المنافقين الكثيرة ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ولا تحسن ذلك إكراماً لهم ؛ فقد جعله الله استدراجاً لهم ووبالاً عليهم .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا .

أى : إنما قدر تعذيبهم بهذه الأموال والأولاد فى الدنيا ؛ بسبب ما يقاسونه فى جمعها وحفظها من المتاعب ، وفى رعاية الأولاد من المشاق والمصاعب ، وهم مشغولون بالتمتع بها عن النظر فى عواقب الأمور .

وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

وتخرج أرواحهم من أبدانهم عند انتهاء آجالهم بشدة وصعوبة ، والحال أنهم كارهون الموت ؛ لتعلقهم بالأموال والأولاد والمتاع في هذه الدنيا الفانية ، ولم ينتبهوا إلى مصيرهم وما ينتظرهم .

وقد تكرر هذا المعنى في سورة التوبة ؛ لأهميته ووجوب الانتباه إليه ، حيث قال تعالى :

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

(التوبة : ٥٥)

٨٦ - وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ...

كانت السور القرآنية تنزل داعية إلى الإيمان بالله ، وإلى أن يستقر الإيمان في حنايا القلوب ، وأن يرسخ في طوايا النفوس ، فهذا الإيمان هو الأساس المتين لكل ما يترتب عليه .

كما أن السور كانت تدعو للجهاد وتحث عليه، وتبين ثواب المجاهدين والشهداء، وعقاب المتخلفين والفارين.

أَسْتَظْلِكَ أَوْ لَوْ أَلْطَلُ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِلِينَ .

أى : عند نزول السورة الداعية إلى الإيمان والجهاد ؛ يجىء هؤلاء المنافقون أصحاب الطول ، أى : ذوو الغنى والثروة ، وأولو المقدرة على الجهاد بالمال والنفس قائلين : ائذن لنا يا رسول الله فى التخلف عن الجهاد ، واطركننا نقعد مع الذين قعدوا فى المدينة ؛ لأعذار تخلفوا بسببها .

وقد خص القرآن أُولَؤُلَ الطُّولِ بالذكر لفائدتين :

الأولى : أنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ؛ لأنهم يملكون وسائل الجهاد وعدته ؛ فهم أصحاب السلامة فى البدن ، والوفرة فى المال وقد حث القرآن على الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ؛ فإذا اعتذر صاحب المقدرة والنعمة ؛ كان ذلك أدعى إلى مذمته وتخليد جبهته ويخلفه .

الثانية : أن من لا مال له ولا قدرة له على السفر ؛ لا يحتاج إلى الاستئذان ؛ لأنه معذور .

٨٧ - رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ... الآية .

أى : فقموا وقبلوا أن تنحط أقدراهم ، وأن يبقوا فى المدينة مع النساء والأطفال والمرضى والزمضى والعجائز ، وكل من لا قدرة له ولا حيلة .

ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وألف الذل والصغار .

وَطِيعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ لَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

لقد مردوا على التفاق وتعودوا عليه ؛ فسلب منهم نور الهداية والإيمان ، فصارت قلوبهم راسخة في الكفر ، مصرة على الفسوق والعصيان ، حتى كأنها قد ختم عليها ، فأصبحوا لا يفقهون ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف عن الجهاد من الشقاء والهلاك .

من أحكام الآيات

تتضمن الآيات اتخاذ مواقف حاسمة من المنافقين ، بعد أن أمهلوا لمدة طويلة وعوملوا في الظاهر معاملة حسنة ، ويتخلص ذلك فيما يأتي :

١ - إسقاط اعتبارهم : لأن الصلاة على الميت ، والقيام على قبره للدعاء له إكرام له واحترام ، والكافر ليس من أهل الاحترام .

٢ - في آية سابقة أسقط اعتبارهم في الحياة بعدم السماح لهم بالجهاد مع الرسول ﷺ ؛ عقاباً لهم على تخلفهم عن غزوة تبوك وهنا أسقط اعتبارهم بعد الوفاة .

٣ - تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف عند قبره للدعاء أو الترحم .

٤ - يفهم من الآية من طريق دلالة الخطاب ، مشروعية الوقوف على قبر المسلم إلى أن يدفن ، والدعاء له .

من هدى السنة

ورد في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقوم على قبور المسلمين ؛ ويدعو لهم بالتثبيت .

وجاء في صحيح مسلم ؛ أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال عند موته : إذا دفنتموني ، فسئوا على التراب سئاً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر الجوز ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي . وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراطان ؟ قال : أصغرهما مثل أحد » .

وروى أبو داود عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من الميت وقف عليه ؛ وقال : «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» .

وجمهور العلماء على أن التكبير في صلاة الجنازة أربع تكبيرات ؛ وسنة الإمام أن يقف عند رأس الميت إذا كان رجلاً ؛ وأن يقف عند وسط الميت إذا كان أنثى .

﴿لَيْكِنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

المفردات :

لهم الخيرات ، لهم أنواع خيرة من نعم الدنيا وثواب الآخرة .

المفلحون ، الفائزون .

التفسير :

٨٨ - لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ... الآية

من شأن القرآن أن يقابل بين المحسن والمسيء والمؤمن والمنافق ، والجنة والنار ، والصالحين والطالحين ، ويضدّها تمييز الأشياء .

وهنا نجد مقارنة بين المنافقين الذين نكصوا عن الجهاد ، ولم يفقهوا ثواب المجاهدين ، ولا خزي القاعدين ، وبين الرسول الأمين وصحبته الأخيار الأبرار .

والمعنى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا في الآيات السابقة ، من جبن وتخاذل وهوان .

فإن حال المؤمنين ليس كذلك ؛ فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم ﷺ ، فجاهدوا معه ، بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وأدّوا واجبه : فنالوا الخيرات العظمى في الدنيا كالنصر وهزيمة الكفر ، وفي الآخرة بالاستمتاع في جنات الفردوس ، والدرجات العلى ، وقيل : الخيرات : هي النساء الحسان في الجنة .

قال تعالى : فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . (الرحمن : ٧٠) .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الفائزون بسعادة الدارين .

٨٩ - أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

لقد كافأهم الله تعالى وهياً لهم نزلاً حسناً في أحسن إعداد وإقامة في جنات نضرة ، تجري الأنهار من تحتها ، وهم خالدون في نعيم لا ينقطع عنهم أبداً ؛ وذلك هو الفوز العظيم حقاً ، فالسعيد من ناله ، والشقي من حرم منه .

قال تعالى : فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْلَعُ الْغُرُورِ . (ال عمران : ١٨٥) .

مقارنات في القرآن

وردت هذه المقارنة في مواضع كثيرة في القرآن مثل قوله تعالى : فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام : ٨٩) .

وقوله عز شأنه : فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (فصلت : ٣٨) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئَا الْأَكْبَاسِ . (الرعد : ١٩) .

وقوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (الرعد : ٣٥) .

وفي الصفحة الأخيرة من سورة الزمر يستعرض القرآن موكب الكافرين إلى النار فيقول :

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... (الزمر : ٧١) .

ثم يستعرض موكب المؤمنين إلى الجنة فيقول :

وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ... (الزمر : ٧٣) .

★ ★ ★

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠)

المفردات :

المعذرون : المقصرون المعذرون بالباطل .

الأعراب : سكان البوادي .

٩٠ - وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ... الآية

سبب النزول :

روى أن أسداً وغطفان جاءوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنون في التخلف عن الخروج للجهاد ؛ معترزين كذباً بالجهد وكثرة العيال ، فنزلت الآية تكشف كذبهم ، وقيل : هم رط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك ؛ أغارت أعراب طيء على أهلينا ومواشينا ، فقال ﷺ : «سيفنى الله عنكم» .

وعن مجاهد : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى .

وعن قتادة : اعتذروا بالكذب ^(١٧٨) .

من تفسير فتح القدير للشوكاني :

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ . المعذر : هو الذي يعتذر ولا عذر له ، اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها .

والمعنى : أنه جاء هؤلاء من الأعراب ، بما جاءوا به من الأعذار ؛ بحق أو بباطل ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ ، بالتخلف عن الغزو .

وطائفة أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب .

وَقَدْ آذَنَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ .

ولم يؤمنوا ولا صدقوا بايعوا النبي ﷺ على السمع والطاعة ، ثم تبين بتخلفهم من دون اعتذار أنهم كانوا كاذبين .

سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ .

أي : من الأعراب وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله . ^(١٧٩)

عَذَابٌ أَلِيمٌ .

في الدنيا بالقتل والأسر والإذلال ، وفي الآخرة ، بعذاب السعير .

ومن المفسرين من جعل القسم الأول ، معذورين صادقين وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة ، أو هم أسد وغطفان ؛ لأن الله قد عطف عليهم القاعدين بدون أى اعتذار ؛ تهاوناً بأمر الدين وكذباً فى بيعتهم على الإيمان والجهد ورجح ابن كثير هذا القول ، وذهب إلى أن معنى الآية هكذا .

عندما استنفر النبى ﷺ الناس إلى غزوة تبوك ، جاء أصحاب الأعدار من الأعراب ليستأذنوه فى التخلف عن الجهاد ، فأذن لهم .

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَتَبُوا لِلَّهِ وِرْسُولَهُ . بيان للفريق الثانى من الأعراب ، وهو الذى لم يجرى للرسول ﷺ معتذراً بل قعد عن الجهاد ، ولم يكلف نفسه مشقة الاعتذار .

ورجح الرازى والزمخشرى والشوكانى ، وأبو السعود : أن الآية تستعرض فرق المتخلفين عن الجهاد ، وتجعلهم فى خندق واحد ، سواء فى ذلك من اعتذر ولا عذر حقيقى له ، ومن تخلف عن الجهاد ، كسلاً وجبناً وتهاوناً ، سيصيب الذين كفروا من هؤلاء وهؤلاء عذاب أليم .

وأستشعر من سياق الآية أنها تتحدث عن فرق من المتخلفين عن الجهاد ، بدون أعدار حقيقية .

وأرجح رأى الرازى والزمخشرى والشوكانى وأبى السعود ويؤيد ما أراه أن الآية التالية ستحدث عن أصحاب الأعدار المقبولة ، الذين أعفاهم الله من الجهاد .

★ ★ ★

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ مَا أَحْمَلْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ اللَّذَمِّ حَزَنًا أَلَّا يَحِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾

المفردات :

حرج : المراد به : الإثم والذنب ، ومعناه فى الأصل : الضيق ويطلق على الذنب ؛ لأنه تضيق به صدور المؤمنين .

إذا نصحو لله ورسوله ، أى : إذا قاموا بما استطاعوا من قول وفعل يعود بصلاح الحال على الإسلام والمسلمين .

ما على المحسنين من سبيل، أى: ما عليهم من طريق إلى عقابهم أو عتابهم.

تولوا، انصرفوا راجعين.

وامتنعوا عن الدعاء، أى: تسيل عيونهم دمعاً غزيراً فيأضاً.

التفسير:

٩١ - لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ ... الآية

المناسبة:

هناك ارتباط واضح بين هذه الآية وما قبلها، فبعد أن ذكر سبحانه: الوعيد للمتخلفين بدون عذر، والمتحيلين للأعداء، ذكر هنا أصحاب الأعداء الحقيقية، وبين إسقاط فريضة الجهاد عنهم.

المعنى: هناك أصناف ثلاثة من أصحاب العذار المقبولة: وهم: الضعفاء، والمرضى، والفقراء، فليس على الضعفاء العاجزين عن القتال: لعة في تكوينهم، أولشيخة أقعدتهم، ولا على المرضى الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد، ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه على الحرب، ولا يجدون الرواحل التي يسافرون عليها إلى أرض المعركة، ليس على هؤلاء جميعاً، إثم أو ذنب أو عتاب في عدم الجهاد، إذا نصحوا الله ورسوله، بأن أخلصوا الإيمان لله في السر والعلن، وعرفوا الحق، وأحبوا أوليائه وأبغضوا أعداءه، وحافظوا على المصلحة العليا للأمة في كتمان السر، والحث على البر، ومكافحة الأراجيف والقضاء على الإشاعات الكاذبة أو المغرضة.

روى مسلم عن تميم الدارى: أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة»: قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله، وكتابه، ورسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» (١٧٨).

والنصيحة لله ولرسوله: إخلاص الإيمان بهما، وطاعتهما، والحب والبغض فيهما.

والنصيحة لكتابه: تلاوته وتدبر معانيه، والعمل بما فيه.

والنصيحة لأئمة المسلمين: مؤازرتهم وترك الخروج عليهم، وإرشادهم إن أخطأوا.

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى طريق الحق، والعمل على تقويتهم ودعوتهم إلى إخلاص العمل، والبعد عن الغش.

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ.

إن كل ناصح لله ولرسوله محسن، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه في الحرج، فقد أدنى ما

وجب عليه ، من قول أو عمل حسب طاقته ، وليس عليه سبيل إلى عقاب أو عتاب ؛ لدخوله فى عداد المحسنين .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

واسع المغفرة والرحمة ، يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصير تقتضيه طبيعتهم البشرية .

٩٢- وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ .

سبب النزول :

قال محمد بن إسحاق فى سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلى بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة ، وعبد الله بن المغفل المزنى ، وحرمى بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعياض بن سارية الغزاري .

فاستحملوا رسول الله ، وكانوا أهل حاجة ؛ فقال : لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ .

وروى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتهم سيراً إلا وهم معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : «نعم حبسهم العذن»^(٩٢) فى رواية أحمد : «حبسهم المرض» .

معنى الآية ٩٢ :

أى : لا حرج على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الفقراء ، وكذلك لا حرج ولا إثم أيضاً على الراغب فى الجهاد الذى استعد للقتال بنفسه ، ولكنه لا يجد مركباً أو نفقة ينفقها فى أثناء الجهاد على نفسه وعياله بسبب فقره - ومن أخصصهم أولئك النفر من الأنصار البكائين ، أو من بنى مقرن من مزينة ، الذين جاءوا للنبي ﷺ ليحملهم على الرواحل فلم يجد ما يحملهم عليه فى هذا السفر الطويل ؛ فانصرفوا من مجلسه وهم يبكون بكاءً شديداً ؛ بسبب حزنهم على ما فاتهم من شرف المشاركة فى الجهاد ، ويسبب فقدهم النفقة التى تساعدهم على الجهاد .

من أحكام الآيات

أوضحت الآيات سقوط فرضية الجهاد ؛ بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوي الأعداء وهم :
الضعفاء والمرضى والفقراء .

وقد دلت الآيات على أصليين من أصول الشريعة :

الأصل الأول :

سقوط التكليف عن العاجز ؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة .
أو العجز من جهة المال ، ونظير قوله تعالى : **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ...** الآيات ، قوله عن شأنه :
لَا يَكُلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة : ٢٨٦) .

وقوله تعالى : **لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ** (الفتح : ١٧) .

الأصل الثاني :

الأصل في الأشياء براءة الذمة ، أو براءة المتهم ؛ حتى تثبت إدانته ، ويعبر عنه بعبارة : الأصل براءة الذمة ، وهذا مبدأ البراءة الأصلية .

وذلك لقوله تعالى : **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ** .

فالأصل في النفس حرمة القتل ، والأصل في المال حرمة الأخذ إلا لدليل ثابت ، أو لدليل منفصل مستقل .

جاء في تفسير القرطبي :

هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شيء سقط عنه .

ويستفاد من سياق الآيتين : أنه متى وجدت النية الصادقة في فعل الخير ؛ حصل الثواب ، وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا في الجهاد لعذر شرعي بشهرهم النبي ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج في الأجر .

روى عن زيد بن ثابت أنه قال : كنت أكتب لرسول ﷺ فكانت أكتب «براءة» فيأني لواضع القلم على أذني ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ...** الآية .

تطبيق الصحابة

طبق صحابة رسول الله ﷺ القرآن عملياً فى حياتهم ، وجهادهم ، ورغبتهم فى الشهادة واستعلائهم على مطالب الأرض ، ورغبتهم فى مرضاة الله ، وحفلت كتب السيرة بجهادهم ويلائهم ، فى غزوة بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة وفتح خيبر وغزوة تبوك وغزوة حنين والطائف وفتح بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا : وغير ذلك من الفتوحات .

وكان من الصحابة أصحاب الأعدار الذين أباح لهم القرآن القعود ؛ لكنهم تطلّعوا إلى الجهاد وثواب المجاهدين ؛ فهذا عبد الله بن أم مكتوم كان أعمى ، وكان يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء .

وهذا عمرو بن الجموح - وكان أعرج - يخرج فى مقدمة الجيوش ؛ فيقول له الرسول ﷺ : «إن الله قد عذرك» فيقول : والله لأحفرن بعرجتى هذه الجنة . أى : لأتركن آثار أقدامى فيها .

وكان يؤتى وهو يمشى بين الرجلين ؛ من شدة ضعفه معتمداً على الرجلين ، ومع ذلك يحرص على أن يقف فى صفوف المجاهدين .

ويهذه القلوب السليمة ، والعزائم القوية ، والنفوس القوية : ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام.

ختام الجزء العاشر وبداية الحادى عشر

نلاحظ أن تقسيم الأجزاء كان يعتمد على مقياس كم الآيات ، فالآية التى يبدأ بها الجزء الحادى عشر مرتبطة تمام الارتباط بآيات قبلها ، تفيد : أنه لا حرج ولا إثم على من تخلف عن الجهاد من الأصناف الثلاثة : الضعفاء ، المرضى ، الفقراء .

ثم بين القرآن أن السبيل واللوم والعتاب : على من يستأذن فى التخلف عن الجهاد والغزو فى سبيل الله وهو غنى قادر تملك أدوات الجهاد والتجهز له ؛ لكنه قبل أن يكون مع الخوالم من النساء القاعدات فى البيوت ، وطمس الله على قلوبهم فلم يدركوا ما فيه الريح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسران .

ويهذه الآية يبدأ الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (التوبة : ٩٣) .

في ختام التفسير للجزء العاشر

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، اللهم ، لك الحمدُ حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، اللهم ، صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا ختام الجزء العاشر من القرآن الكريم ، أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه ، اللهم ، إننا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

اللهم ، ارزقنا حسن الذئبة ودوام العافية ، وشكر النعمة ، واهدنا لصالح الأعمال ؛ لا يهدى لصالح الأعمال إلا أنت .

رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أذان المغرب ٢٣ ذو القعدة ١٤١٣ هـ - ١٤ مايو ١٩٩٣ م .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء العاشر من القرآن الكريم

ويليه تفسير الجزء الحادى عشر إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء العاشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
مهمل سعيد فهمي

(١) إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام .

رواه البخاري في المغازي (٤٢٢٩) وأبو داود في الخراج (٢٩٨٠) والنسائي في قسم الفئ (٤١٣٧) وابن حبان في الجهاد (٢٨٨١) وأحمد في مسنده (١٦٢٩٩) من حديث جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذئ القريبي بين بني هاشم وبني المطلب أتيت أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم أرايت بني المطلب أعطيتهم ومنعتنا فإنما نحن وهم منك بمنزلة فقال رسول الله ﷺ: إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم ، وبني عبد المطلب ، شيء واحد ، وشك بين أصابعه . واللفظ لأبي داود والنسائي وأحمد .

(٢) تفسير الكشاف ١/٩٩٢ الناشر دار المصنف : مطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .

(٣) جاء في تفسير القاسمي ما يأتي :

﴿وإذ يريكم الله في منامك قليلاً﴾ منصوب بـ (اذكر) ، أو بدل آخر من يوم الفرقان .

(٤) قال الزمخشري في تفسير الكشاف ﴿وإذ يريكمهم﴾ الضمير ان مفعولان يعنى : وإذ يصركم إياهم ، و﴿قليلًا﴾ حال .

(٥) تفسير القاسمي ٦٨/٨ .

(٦) انظر أيضًا تفسير القرطبي للآية .

(٧) تفسير سورة التوبة د . محمد سيد طنطاوي ص ١٤٥ .

(٨) لا تتموا لقاء العدو .

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٦٦ ، ٣٠٢٤ ، ٣٠٢٦) وفي التمني (٧٢٣٧) ومسلم في الجهاد (١٧٤٢) وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٩) وأحمد في مسنده (١٨٦٣٥) من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : إن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مات الشمس ثم قام في الناس خطيباً قال : أيها الناس لا تتموا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرونا عليهم .

ورواه مسلم في الجهاد (١٧٤١) وأحمد في مسنده (٨٩٤٣) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : لا تتموا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا . ورواه الترمذي في السير (٢٤٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : لا تتموا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا وكثروا ذكر الله فإن أجلبوا وضحا فعليكم بالصمت .

(٩) إن عبيد كل عبيد الذي يذكرني وهو ملائق قرنه :

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل يقول : إن عبيد كل عبيد الذي يذكرني وهو ملائق قرنه يعنى : عند القتال . قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوى ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد ومعنى قوله : وهو ملائق قرنه إنما يعنى عند القتال يعنى أن يذكر الله في تلك الساعة . قال المناوي في فيض القدير : قال في الأنكار : وزعكرة بفتح الزاى والكاف وسكن العين المهملة . قال في التقريب كأصله صحابه له حديث الأزدى وقيل الكندى الجمعى الشامى .

قال ابن حجر : ولا يعرف إلا هذا الحديث ، قال : أعنى ابن حجر : وهو حسن غريب وقول الترمذى ليس بإسناده بقوى يريد ضعفه غير لكن وجدت له شاهداً قوياً مع إرساله أخرجه البغوى فذلك حسنة وقول الترمذى غريب أراد غرابته من جهة تفرد غير بوصله وإلا فقد وجد من وجه آخر . اهـ .

(١٠) ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاننى لأعيننه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هبة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(١١) تفسير ابن كثير ٢/٢١٦ .

(١٢) اللهم هذه قریش قد جاءت بخيلائها وفخرها :

قال السيوطى فى الدرر : أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وموسى بن عقبة قالا: مكث رسول الله ﷺ بعد قتل ابن الحضرمى شهرين ، ثم أقبل أبو سفيان بن حرب فى غير لقريش من الشام ومعها سبعون راكباً من بطون قريش كلها .. الحديث وفيه : « فلما طلع المشركين قال رسول الله ﷺ : اللهم هذه قریش قد جاءت بخيلائها وفخرها تصادك وتكذب رسولك، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى به - ورسول الله ﷺ ممسك بعضد أبى بكر يقول : اللهم إنى أسألك ما وعدتنى - فقال أبو بكر : أبشر فوالذى نفسى بيده لينجزن الله لك ما وعدك » .. الحديث .

(١٣) تفسير القاسمى ٨/٧٤ .

(١٤) يزع الملائكة : أى يسوئهم ويرثيهم ويفهم للحرب وانظر تفسير القاسمى .

(١٥) ما روى الشيطان يوماً هو فيه أصغر :

رواه مالك فى الموطأ كتاب الحج (٩٦٢) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريب أن رسول الله ﷺ قال : ما روى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيط منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ، قال : أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

(١٦) يا عبادى إلى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤/٥) ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(١٧) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن الجزء العاشر ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(١٨) تفسير القاسمي ٧٦/٨ طبعة دار الفكر بيروت وقد نقل الوجه كلها من تفسير القاسمي د. محمد سيد طنطاوي في تفسير سورة التوبة ص ١٦٦ ، وانظر تفسير الكشاف ١٧٢/٢ .

(١٩) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير باب : قوله : ﴿وَكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ . (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته . قال : ثم قرأ : ﴿وَكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

(٢٠) هذا فرعون هذه الأمة :

رواه أحمد في مسنده (٣٦٣٣) من حديث أبي عبيدة عن أبيه قال أتيت أبا جهل وقد جرح وقطعت رجله . قال : فجعلت أضربه يسفني فلا يعمل فيه شيئا قبل لشريك في الحديث وكان يذب بسيفه قال : نعم ، قال : فلم أزل حتى أخذت سيفه فضربته به حتى قتلته ، قال : ثم قال : أتيت النبي ﷺ ، فقلت : قد قتل أبو جهل ، وربما قال شريك قد قتل أبا جهل ، قال : أنت وأبيه ، قلت نعم : قال الله – مرتين – قلت : نعم ؛ قال : فانهب حتى أنظر إليه فذهب فأتاه ، وقد غيرت الشمس منه شيئا فأمر به وبأصحابه فسحبوا حتى ألقوا في الغليب ، قال : وأتبع أهل الغليب لعنة وقال : كان هذا فرعون هذه الأمة .

(٢١) تفسير الفخر الرازي .

(٢٢) من كان بينه وبين قوم عهد :

رواه أبو داود في الإمارة (٢٧٥٩) والترمذي في السير (١٥٨٠) وأحمد في مسنده (١٦٥٦٧) من حديث سليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انتقض العهد أغار عليهم فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول : الله أكبر وفاء لا غدر وإذا هو عمرو بن عبسة فسأله معاوية عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينذر إليهم على سواء . قال : فرجع معاوية بالناس . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢٣) لئلا : المسلم والكافر فيهن سواء :

قال السيوطي في الدر : وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : ثلاثة : المسلم والكافر فيهن سواء . من عاهدته فوفى به عهدا مسلما كان أو كافرا فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا ، ومن اتتمتكم على أمانة فأدأها إليه مسلما كان أو كافرا .

(٢٤) ألا إن القوة الرمي :

رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧) وأبو داود في الجهاد (٢٥١٤) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٨٣) وابن ماجه في الجهاد (٢٨١٣) والدارمي في الجهاد (٢٤٠٤) وأحمد في مسنده (١٦٩٧٩) من حديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي .

(٢٥) من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٤٣) ومسلم فى الإمامة (١٨٩٥) وأبو داود فى الجهاد (٢٥٠٩) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣١) والنسائى فى الجهاد (٣١٨٠) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٥٩) والدارسى فى الجهاد (٢٤١٩) وأحمد فى مسنده (١٦٥٩١) من حديث زيد بن خالد رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى سبيل الله بخير فقد غزا .

(٢٦) تفسير الفخر الرازى .

(٢٧) يا مقلب القلوب ثبت قلبى :

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٠٨٣) من حديث عائشة قالت دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال : إن قلب الأدمى بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أنزاعه وإذا شاء أقامه . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٩٨٠) من حديث شهر ابن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ ، إذا كان عندك ، قالت : كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله ما أكثر دعاءك : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك قال : يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ، ومن شاء أنزاع فتلا معاذ : ﴿ربنا لا تفرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن . ورواه الترمذى فى القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجه فى الدعاء (٢٨٣٤) وأحمد فى مسنده (١١٦٩٧) من حديث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ، فقلت : يا رسول الله أمانا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ، قال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء . قال الترمذى : وحديث أبى سفيان عن أنس أصح ، ورواه أحمد (١٧١٧٨) والحاكم فى المستدرک (٢٨٨/٢) من حديث النواس بن سميان الكلابى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أنزاعه ، وكان يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك والميزان بيد الرحمن عز وجل يخفضه ويرفعه . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٨٧) من حديث عاصم بن كليب الجرمى عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يصلى وقد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وتبض أصابعه وبسط السبابة ، وهو يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه مسلم فى القدر (٢٦٥٤) وأحمد فى مسنده (٦٥٣٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كتلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ . اللهم ، مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك .

(٢٨) اللهم آت نفسى تقراها :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٢٢) والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٥٨، ٥٥٣٨) وأحمد فى مسنده (١٨٨٢١) من حديث زيد بن أرقم قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول : كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهزم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسى تقراها وزكها أنت خير من زكأها أنت وإيها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن دعوة لا يستجاب لها .

(٢٩) يا معشر الأنصار ألم أجِدكم ضلّالاً فهداكم الله بي :

رواه البخارى فى المغازى (٤٣٣٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٦١) وأحمد فى مسنده (١٦٠٣٥) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكانهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال : «يا معشر الأنصار ألم أجِدكم ضلّالاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فأنفكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ قال : كلما قال شيئاً : كلما قال شيئاً : قالوا الله ورسوله أمن قال : لو شئتم قُلتُم جئتُنا كذا وكذا أنترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي - ﷺ - إلى رحاكم لولا الهجرة لكنت أماً من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسكنت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض . ورواه أحمد فى مسنده (١٦١١٠) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر الأنصار ألم أتكم ضلّالاً فهداكم الله عز وجل بي ألم أتكم متفرقين فجمعكم الله بي ألم أتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم بي : قالوا : بلى يا رسول الله قال : أفلا تقولون جئتُنا خائفًا فأمناك وطريداً فأويناك ومخذولاً فنصرناك فقالوا بل لله تبارك وتعالى المَن به علينا ورسوله ﷺ . ورواه أحمد فى مسنده (١١١٥٣) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : اجتمع أناس من الأنصار قالوا : أثر علينا غيرنا فبلغ ذلك النبي ﷺ فجمعهم ثم خطبهم فقال : يا معشر الأنصار : ألم تكونوا أذلة فآعزكم الله قالوا : صدق الله ورسوله ، قال : ألم تكونوا ضلّالاً فهداكم الله ، قالوا صدق الله ورسوله .. الحديث .

(٣٠) انظر التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب الجزء العاشر ص ٦٦٧ ، وتفسير القاسمى ٩٠/٨ وانظر تفسير الكشف للزمخشري حيث يقول : أو يكون فى محل الرفع أى : كفّاك الله وكفّاك المؤمنين .

(٣١) لغدوة فى سبيل الله أو روعة خير من الدنيا :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٧٩٦) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥١) وأحمد فى مسنده (١٢٠٢٨) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : لغدوة فى سبيل الله أو روعة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاعت ما بينهما وملأت ما بينهما ريحا ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها . قال أبو عيسى هذا حديث صحيح . ورواه البخارى فى الجهاد (٢٧٩٣) وفى بدء الخلق (٢٢٥٣) وأحمد فى مسنده (٩٩٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب وقال لغدوة أو روعة فى سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب .

(٣٢) لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٦) وفى فرض الخمس (٣١٢٣) وفى التوحيد (٧٤٧٥ ، ٧٤٦٣) رواه مسلم فى الإمامة واللفظ له - (١٨٧٦) ومالك فى الموطأ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٢٢ ، ٣١٢٣) وفى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجه فى الجهاد (٢٧٥٣) والدرامى فى الجهاد (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٨٧٥٧ ، ٨٩٢٣) من حديث أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ولوددت أني أقتل فى سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل .

(٣٣) قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

رواه مسلم في الإمامة (١٩٠١) وأحمد في مسنده (١٩٩٠) من حديث أنس بن مالك قال : بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينظر ما صنعت غير أبي سفيان فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ قال لا أدري ما استئني بعض نسائه قال فحدثته الحديث قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إن لنا طلبة فمن كان ظهروه حاضرا فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونهم في ظهرانهم على المدينة فقال : لا إلا من كان ظهروه حاضرا فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ : لا يقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض . قال : يقول عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض ! قال : نعم ، قال : بع بع ، فقال رسول الله ﷺ : ما يملكك على قولك بع بع ، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لأننا حبيبت حتى أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ! قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

(٣٤) تفسير القاسمي ٩٥/٨ نقلًا عن أبي السعد .

(٣٥) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن الجزء العاشر ص ٦٧٠ .

(٣٦) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآني الجزء العاشر ص ٦٧٥ .

(٣٧) لا هجرة بعد الفتح :

رواه البخاري في الجهاد (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) والترمذي في السير (١٥٩٠) والدارمي في السير (٢٥١٢) (١٩٩٢، ٢٣٢٥) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا . ورواه البخاري في المناقب (٢٨٩٩) وفي المغازي (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر . ورواه مسلم في الإمامة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ : عن الهجرة فقال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا . وفي الباب : عن أبي سعيد الخدري ، ومجاهد بن مسعود .

(٣٨) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم للدكتور : عبد الله شحاتة .

(٣٩) لا يطوف بالبيت عريان :

رواه الترمذي في الحج (٨٧١) وفي التفسير (٣٠٩٢) والدارمي في المناسك (١٩١٩) وأحمد في مسنده (٥٩٥، ٤) من حديث زيد بن أبلج قال : سألت عليا بأى شيء بعثت قال : بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهد إلى مدته ومن لا حدة له فأربعة أشهر . ورواه البخاري في الصلاة (٣٦٩) وفي الحج (١٦٢٢) وفي الجزية (٣١٧٧) وفي المغازي (٤٣٣٣) وفي تفسير القرآن (٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧) ومسلم في الحج (١٤٤٧) وأبو داود في المناسك (١٩٤٦) والسنائي في مناسك الحج (٢٩٥٧) والدارمي في الصلاة (١٤٣٠) وفي السير (٢٥٠٦) وأحمد في مسنده (٧٩١٧) من حديث أبي هريرة رضى الله عنهم قال بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى : أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال حميد بن عبد الرحمن ثم أرفد رسول الله ﷺ بعلي بن أبي طالب وأمره أن يؤذن ببرامة قال أبو هريرة فأننا معنا على يوم النحر في أهل منى ببرامة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

(٤٠) قال الزمخشري في تفسير الكشاف «براءة» خبر مبتدأ محذوف أى : هذه براءة «ومين» لا ابتداء الغاية متعلق بمحذوف أى : براءة كائنه من الله . أو واصلة من الله ورسوله ، ويجوز أن تكون «براءة» مبتدأ ، والخبر إلى «الذين عاهدتم من المشركين» كما تقول رجل من بني تميم في الدار .

(٤١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ : محمود شلتوت .

(٤٢) حاشية الجمل على الجلالين ٢/ ٢٦٣ .

(٤٣) تفسير القاسمي .

(٤٤) لتفسير القاسمي وقد أسند هذا القول إلى ابن القيم .

(٤٥) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله :

رواه مسلم في الإيمان أيضاً (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويعقوا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . رواه البخاري في الصلاة (٣٩٢) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤١) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨) والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦) وفي الإيمان (٥٠٠٣) وأحمد في مسنده (١٢٦٤٣، ١٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبوا ذبيحتنا : فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ورواه مسلم في الإيمان (٢١) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٠) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٣) وفي تحريم الدم (٣٩٧١) وابن ماجه في الفتن (٢٩٢٧) وأحمد في مسنده (٨٦٧٨، ٩١٩٠) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ورواه الترمذي في التفسير (٣٣٤١) وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٨) وأحمد في مسنده (١٣٧٩٧، ١٤١٥٠) جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله قالوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرأ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مَذْكُورٌ عَلَيْهِمْ بِمِصْرَ﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في تحريم الدم (٣٩٧٦) من حديث النعمان بن بشير قال : كنا مع النبي ﷺ فجاء رجل فساربه فقال : اقتلوه ثم قال : أيشهد أن لا إله إلا الله ؟ فإذا قالوها يقولها تعزوا فقال رسول الله ﷺ : لا تقتلوه فإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ؟ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ورواه النسائي في تحريم الدم أيضاً (٣٩٨٣) وأحمد في مسنده (١٥٧٢٧) من حديث أوس بن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ثم تحرم دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . ورواه أحمد في مسنده (٢٤١) من حديث عمر أنه قال لأبي بكر : كيف تقاتل الناس يا أبا بكر وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا : لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها ، قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرع صدر أبي بكر رضي الله عنه للقتال فعرفت أنه الحق .

(٤٦) أحكام القرآن لابن العربي .

(٤٧) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله :

رواه البخارى فى الصلاة (٣٩٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤١) والترمذى فى الإيمان (٢٦٠٨) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٦٦) وفى الإيمان (٥٠٠٣) وأحمد فى مسنده (١٢٦٤٣، ١٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذباحتنا : فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . وانظر ما قبله .

(٤٨) انظر تفسير ابن كثير للآية ، فقد كتب طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تتصل بتفسير الآية .

(٤٩) من أمن رجلا على دمه فقتله :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٨٢٧١) بلفظ : من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافرا . ونسبه للبخارى فى التاريخ والنسائى عن عمرو بن الحمق . قال الهيثمى فى المجمع : عن رفاعة القتباني قال : دخلت على المختار فأتاني إلى وسادة وقال : لولا أخى جبريل قام عن هذه لألقيتها لك قال فأردت أن أضرب عنقه فنكرت حديثا حدثني عمرو بن الحمق قال : قال رسول الله ﷺ : أيما مؤمن أمن مؤمنا على دمه فقتله أنا من القاتل برىء - قلت : روى له ابن ماجة : من أمن رجلا على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدريوم للقيامة . رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات . وعن عمرو بن الحمق قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافرا . رواه الطبرانى بأسانيد كثيرة وأحدهما رجاله ثقات . ورواه ابن ماجة فى الدييات (٢٦٨٨) وأحمد فى مسنده (٢١٤٣٩) من حديث رفاعة بن شداد القتباني قال لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعى لمشييت فيما بين رأس المختار وجسده سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : من أمن رجلا على دمه فقتله ، فإنه يحمل لواء غدريوم للقيامة . قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات : لأن رفاعة بن شداد ، أخرجه النسائى فى سننه ووثقه وذكره ابن حبان فى الثقات ، وباتى رجال الإسناد على شرط مسلم .

(٥٠) لكل غادر لواء يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٧) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٧) وأحمد فى مسنده (١٢٠٣٥) من حديث أنس عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء يوم القيامة قال أحدهما ينصب وقال الآخر يرى يوم القيامة يعرف به . رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٨) وفى الحيل (٦٩٦٦) وفى الفتن (٧١١١) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٥) والترمذى فى السير (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٤٨٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت النبى ﷺ يقول : لكل غادر لواء ينصب بغدريته يوم القيامة . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٦) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٢) والدارمى فى البيوع (٢٥٤٢) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٠) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء يوم القيامة يقال : هذه غرة فلان . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٣) وأحمد فى مسنده (١٠٩١٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة .

(٥١) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى الطبعة الثانية ص ٦١ .

(٥٢) انظر تفسير الفخر الرازى ، والكشاف للزمخشري ، والمعارى والقرطبي وأحكام القرآن للجصاص ، وأحكام القرآن لابن عربى ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي .

(٥٣) انظر التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق سوريا ١٢٥/١٠

(٥٤) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادى المعرفى سنة ٩٥١ هـ ٤٩/٤ .

(٥٥) أسباب النزول للواحدي ، وتفسير الكشاف ، وحاشية الجمل على الجلالين ، وتفسير المنار .

(٥٦) قارن بتفسير المنار ٢٤٩/١٠ .

(٥٧) مقتبس من تفسير الآلوسى وغيره .

(٥٨) التفسير المنير للأساتذ الدكتور / وهبة الزحيلي دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١/١٠ .

(٥٩) حاشية الجمل على الجلالين ٣٧٠/٢ .

(٦٠) انظر حاشية الجمل على الجلالين ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ١٤١/١٠ حيث نقل ذلك عن الواحدى .

(٦١) من بنى لله مسجداً ؛ بنى الله له بيتا فى الجنة :

البخارى فى الصلاة (٤٥٠) ومسلم فى المساجد (٥٢٣/٢٤ ، ٢٥) ، والترمذى فى الصلاة (٣١٨) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه فى المساجد (٧٣٦) كلهم عن عثمان بن عفان .

(٦٢) إنما عمار المساجد هم أهل الله :

قال ابن كثير فى تفسيره : وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : قال سؤل الله ﷺ : «إنما عمار المساجد هم أهل الله» .

(٦٣) إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦١٧) وفى التفسير (٣٠٣٩) وابن ماجه فى المساجد (٨٠٢) والدارمى فى الصلاة (١٢٢٣) من حديث أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَمُرُّ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ الْآيَةِ . قال السناوى فى الفيض : قال الترمذى : حسن غريب وقال الحاكم ترجمة صحيحة مصرية وتعقبه الذهبى بأن فيه دراج وهو كثير المناكير وقال مغلطائى فى شرح ابن ماجه حديث ضعيف .

(٦٤) من غدا إلى المسجد أو راح :

رواه البخارى فى الأذان (٦٦٢) ومسلم فى المساجد (٦٦٩) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : من غدا إلى المسجد وراح : أعد الله له الجنة كلما غدا أو راح .

(٦٥) تفسير المنار ٢٥٩/١٠ .

(٦٦) نقلنا عن التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية الحزب التاسع عشر ص ١١٧٤ .

(٦٧) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم ؟

رواه البخارى فى الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفى التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم فى الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبداً (٢٨٢٩) والترمذى فى صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبى سعيد الخدرى . وتسام لفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٦٨) التفسير المنير ، للذكور وهبة الزحلى ١٠/١٤٩ . دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان ودار الفكر دمشق سورية .

(٦٩) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده :

رواه البخارى فى الإيمان (١٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : فولدنى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده . ورواه البخارى فى الإيمان (١٥) ومسلم فى الإيمان (٤٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٣) وابن ماجه فى المقدمة (٦٧) والداريمى فى الرقاق (٢٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٧٤٠٣) من حديث أنس قال : قال النبى ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين . ورواه البخارى فى الإيمان والسنن (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (١٨٤٨٢) من حديث عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبى ﷺ وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال النبى ﷺ : لا والذي نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى فقال النبى ﷺ : الآن يا عمر .

(٧٠) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه :

انظر ما قبله .

(٧١) نعم صلى أمك :

رواه البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) وفى الجزية (٣١٨٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣) وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٧٥) من حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قال : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ وقلت وهى راغبة : أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك .

(٧٢) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى ص ٨٩ الطبعة الثالثة نقلًا عن بعض العلماء ولم يذكر الاسم ولا المصدر .

(٧٣) انظر تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي وأبى السعود ونور الدين فى سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الحضرى .

(٧٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٦ .

(٧٥) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى نقلًا عن تفسير القاسمى ١٠/٣٠٩٩ .

(٧٦) لو أنكم تكونون على الله حق تركله :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٤) وابن ماجه فى الزهد (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٣٧٢، ٢٠٥) من حديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم تكونون على الله حق تركله لرنزقتم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطائنا». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو تميم الجيشانى اسمه: عبد الله بن مالك. تنبيه: لم يروه البخارى، ولم أر من عزاه له، فليحذر.

(٧٧) النظر تفسير فخر الدين الرازى لآية .

(٧٨) تفسير ابن كثير باختصار وتصرف .

(٧٩) هذه عبارة لما ورد فى كتب التفسير، مثل تفسير الجمل على الجلالين، والتفسير المير للدكتور وهبة الزحيلي وتفسير الكشاف، وفتح القدير وتفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى .

(٨٠) انظر تفسير أبى السعود المجلد ٢ جزء ٤ ص ٥٩، وتفسير سورة التوبة للدكتور طنطاوى ص ١٠٥ .

(٨١) ليس على المسلم جزية :

رواه أبو داود فى الخراج (٣٠٥٣) وأحمد فى مسنده (١٩٥٠) من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ ليس على المسلم جزية . حدثنا محمد بن كثير قال: سئل سفيان عن تفسير هذا فقال: إذا أسلم فلا جزية عليه .

(٨٢) من أسلم فلا جزية عليه :

انظر ما قبله .

(٨٣) تفسير الكشاف .

(٨٤) تفسير الكشاف ١/٢٨٩ .

(٨٥) انظر تفسير القاسمى، والقرطبي، والمانار، والكشاف .

(٨٦) انظر تفسير القرطبي

(٨٧) تفسير الكشاف للزمخشري .

(٨٨) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١١٠ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦١ م .

(٨٩) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤ .

(٩٠) تفسير القاسمى ١٢/٨ .

(٩١) التفسير الوسيط: مجمع البحوث الإسلامية ص: ١٦٩٠ .

(٩٢) تفسير المنار بتصرف ، وانظر أيضا تفسير في ظلال القرآن .

(٩٣) تفسير سورة الصفة د. محمد سيد طنطاوي ص ١١٥ .

(٩٤) تفسير المنار ٤٢٦/١٠ .

(٩٥) إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون :

رواه الترمذى فى التفسير (٢٩٥٤) وأحمد فى مسنده (٣٧٨/٤) من حديث عدى بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فقال للقوم: هذا عدى بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده فى يدي قال: فقام فلقيته امرأة وصبى معها فقالا: إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدي حتى أتى بهى داره فألقته له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلس بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يفرح أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال: قلت: لا ، قال: ثم تكلم ساعة ثم قال: إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئا أكبر من الله قال: قلت: لا ، قال: فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال قال: قلت: فإننى جئت مسلما قال فرأيت وجهه تبسط فرحا قال : ثم أمر بهى فأنزلت عند رجل من الأنصار جعلت أغشاه آتية طرفى النهار قال فهينما أنا عنده عشية إذ جاءه قوم فى ثياب من الصوف من هذه النصارى قال : فصلى وقام فحث عليهم ثم قال ولو صاع ولو ينصف صاع ولو بقبضة ولو ببعض قبضة يلقى أحدكم وجهه حر جهنم أو النار ولو بتمر أو بلى ببق تمره فإن أحدكم لاقى الله وقائل له : ما أقول لكم : ألم أجعل لك سمعا ويصرا فيقول : بلى ؛ فيقول : ألم أجعل لك مالا وولدا فيقول: بلى فيقول : أين ما قدمت لنفسك فينظر قدماه ويعدده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئا يلقى به وجهه حر جهنم: أليق أحدكم وجهه النار ولو ببق تمره فإن لم يجد فبكلمة طيبة فإننى لا ألhaf عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسبر الظلعية فيما بين يثرب والحيرة أو أكثر ما تخاف على مطيتها السرق قال : فبجعت أقول فى نفسى فأين لصوف طيب قال : أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب . ثم ذكر بسنده من حديث عدى بن حاتم عن النبي ﷺ قال : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال فذكر الحديث بطوله .

(٩٦) تفسير الآلوسى ٧٦/١٠ .

(٩٧) إن الله زوى لى الأرض :

رواه مسلم فى الفتن (٢٨٨٩) ، والترمذى فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وأبو داود فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٥٢) ، وأحمد ٥/٢٧٨ ، ٢٨٤ ، من حديث ثوبان . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٩٨) لا يبقى على ظهر الأرض بيت ملر :

رواه أحمد فى مسنده (٢٣٣٠٢) من حديث المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وير إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله عز وجل فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٥٩٠) من حديث تميم الدارى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وير إلا أدخله الله هذ الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان منهم كافرا ذل والصغار والجزية . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٩٩) والذي نفسى بيده ليعمن الله .

رواه أحمد في مسنده (١٧٧٩٦) من حديث عدى بن حاتم قال لما بلغنى خروج رسول الله ﷺ فكرهت خروجه كراهة شديدة خرجت حتى وقعت ناحية الروم وقال يعنى يزيد ببغداد حتى قدمت على قيصر قال : فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهيتى لخروجه قال : فقلت والله لولا آتيت هذا الرجل فإن كان كاذبا لم يضرنى وإن كان صادقا علمت قال : فقدمت فأتيته فلما قدمت قال الناس عدى بن حاتم عدى بن حاتم قال : فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لى : يا عدى بن حاتم أسلم تسلم ثلاثا قال قلت إني على دين قال أنا أعلم بدينك منك فقلت أنت أعلم بدينى منى قال : نعم ألتست من الركوسية وأنت تأكل مرياح قومك قلت بلى قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها فقال : أما إني أعلم ما الذى يمنحك من الإسلام تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة قلت : لم أرها وقد سمعت بها قال فولدنى نفسى بيده ليعمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليتحن كنوز كسرى بن هرمز قال : قلت كسرى بن هرمز قال : نعم كسرى بن هرمز وبيدلى المال حتى لا يقبله أحد قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذي نفسى بيده لتكون الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . ورواه البخارى فى المناقب (٣٦١٢) ، (٣٨٥٢) ، وفى الإكراه (٦٩٤٣) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٩) وأحمد ح ٢٠٥٦٨ ، ٢٦٦٧٥ من حديث خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليعمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

(١٠٠) ما أدى زكاته فليس بكنز .

يؤب به البخارى فى كتاب الزكاة فقال : باب ما أدى زكاته فليس بكنز لقول النبى ﷺ ليس فيما دون خمسة أواق صدقة ، ورواه أبو داود فى الزكاة (١٥٦٤) من حديث أم سلمة قالت : كنت أبس أوضاعا من ذهب فقلت : يا رسول الله أكنز هو ؟ فقال : ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكى فليس بكنز .

(١٠١) تفسير الكشاف للزمخشري ١٩١/٢ .

(١٠٢) من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته .

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجه فى الزكاة ح ١٧٨٧ ، وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرعا له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى بشدقيه ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿ لا يحسن الدين يعجلون ﴾ الآية .

(١٠٣) ما يسرنى أن عدى مثل أحد هذا لعبا .

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٤٤) والدارمى فى الرقاق (٢٧٦٧) وأحمد فى مسنده (٢٠٨١٥) من حديث أبى ذر قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال يا أبا ذر قلت لبيك يا رسول الله قال : ما يسرنى أن عدى

مثل أحد هذا ذهباً تمضى على ثالثة وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم مشى فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقيل ما هم ثم قال لى : مكانك لا تبرح حتى أتيتك ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتاً قد ارتفع فتخوفت أن يكون قد عرض للنبي ﷺ فأردت أن أتبعه فذكرت قوله لى : لا تبرح حتى أتيتك فلم أبرح حتى أتاني قلت : يا رسول الله لقد سمعت صوتاً تخوفت فذكرت له فقال : وهل سمعته قلت : نعم قال : ذاك جبريل أتاني فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق. ورواه البخارى فى الاستقراض (٢٣٨٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩١) وأحمد فى مسنده (٩٦٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : لو كان لى مثل أحد ذهباً ما يسرنى أن لا يمر على ثلاث وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدين . ورواه أحمد فى مسنده (٢٧١٩) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ التفت إلى أحد فقال : والذي نفس محمد بيده ما يسرنى أن أحداً يحول لآل محمد ذهباً أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه دينارين إلا دينارين أعدهما لدين إن كان فمات وما ترك ديناراً ولا درهما ولا وليدة وتركه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعاً من شعير . (١٠٤) أفضل لسان ذاك .

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٥٩) من حديث عبد الله بن أبى الهذيل قال : حدثنى صاحب لى : أن رسول الله ﷺ قال : تبأ للذهب والفضة قال : فحدثنى صاحبه أنه انطلق مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله قولا تبأ للذهب والفضة ماذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ لساناً ذاكراً وقلها شاكرًا وزوجة تعين على الآخرة . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن ج (٣٠١٩) وابن ماجه فى التكاثر (١٨٥٦) وأحمد فى مسنده (٢١٣٥٨ ، ٢٢٠٢٢) من حديث ثوبان قال : لما نزلت ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾ قال : كنا مع النبي ﷺ فى بعض أسفاره فقال بعض أصحابه : أنزل فى الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أى المال خير فنتخذ فقال أفضل لسان ذاكراً وقلها شاكرًا وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه . وقال أبو عيسى : حديث حسن . قلت : وهو كما قال إلا أن سالم بن أبى الجعد لم يسمع من ثوبان - راوى الحديث - وهو مرسل .

(١٠٥) ما من إنسان أو قال : أحد ؛ ترك صفراء أو بيضاء :

رواه أحمد فى مسنده (٢٠٩٦٩) من حديث أبى مجيب قال : لقي أبوذر أبها هريرة وجعل آراءه قال قبيلة سيفه فضة فنهاه وقال أبوذر : قال رسول الله ﷺ : ما من إنسان أو قال : أحد ترك صفراء أو بيضاء إكوى بها .

(١٠٦) تفسير الكشاف للزمخشري ١٩١/٢ .

(١٠٧) أطلع إن صدق .

رواه البخارى فى الإيمان (٤٦) وفى الصوم (١٨٩١) وفى الشهادات (٣٦٧٨) وفى الحول (٦٩٥٦) ومسلم فى الإيمان (١١) ومالك فى الموطأ كتاب النذاة للصلاة (٤٢٥) وأبو داود فى الصلاة (٣٩١) وفى الإيمان والنذور (٢٢٥٢) والنسائي فى الصلاة (٤٥٨) وفى الإيمان (٥٠٢٨) والداريمى فى الصلاة (١٥٧٨) وأحمد فى مسنده (١٣٩٣) من حديث طلحة بن عبيد الله يقول جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوت ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال : هل على غيرهما ؟ قال : لا إلا أن تطوع قال رسول الله ﷺ : وصيام رمضان قال : هل على غيره قال : لا إلا أن تطوع قال : وذكر رسول الله ﷺ الزكاة قال : هل على غيرهما ؟ قال : لا إلا أن تطوع قال : فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص قال رسول الله ﷺ : أطلع إن صدق .

(١٠٨) الزمان قد استدار كهيئته يوم .

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٧) وفى المغازى (٤٤٠٦) وفى التفسير (٤٦٦٢) وفى الأضاحى (٥٥٥٠) وفى التوحيد (٧٤٤٧) ومسلم فى القسامة (١٦٧٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٧) وأحمد فى مسنده (١٩٨٧٣) من حديث أبى بكره رضى الله عنهم عن النبى ﷺ وسلم قال : الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضى الذى بين جمادى وشعبان .

(١٠٩) تفسير الكشاف ١٩٢/٢ ، تفسير أبى السعود ٦٣/٤ .

(١١٠) ما ضى عثمان ما عمل بعد اليوم .

رواه الترمذى فى المناقب (٣٧٠١) وأحمد فى مسنده (٢٠١٠٧) من حديث عبد الرحمن بن سمره قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار قال الحسن بن وقاع : وكان فى موضع آخر من كتابى فى كنه حين جهن جيش العسرة فيئثرها فى حجره قال عبد الرحمن : فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره ويقول ما ضى عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(١١١) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحلى ٢١٥/١٠ .

(١١٢) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه .

رواه مسلم فى اللجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٣٢٣ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧ ، ١٧٥٤٨ ، ١٧٥٥١ ، ١٧٥٥٣ ، ١٧٥٥٩ ، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١١٣) إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى عثمان النهدي قال : قلت : يا أبا هريرة ، سمعت إخوانى بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت نبى الله ﷺ يقول : «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» فقال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة ، ثم تلا هذه الآية ﴿فَمَا تَتَأَتَّى مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فالدنيا ما مضى منها إلى ما بقى عند الله قليل ، وقال : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ (البقرة : ٢٤٥) فكيف الكثير عند الله تعالى إذا كانت الدنيا ما مضى منها وما بقى عند الله قليل .

(١١٤) ما ظنك بالثنين الله لثهما .

رواه البخارى فى التفسير (٤٦٦٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨١) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٦) وأحمد فى مسنده (١٢) من حديث أنس قال : حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا قال : ما ظنك بالثنين الله لثهما ؟!

(١١٥) هذا ثابت فى صحاح السيرة ، وإن لم يثبت أهل الحديث .

(١١٦) من إعراب الآية ٤٠ من سورة التوبة

إلا تصروه. بإدغام لا في نون إن الشرطية.

فقد نصره الله. جواب الشرط.

إذ أخرجه. منصوب به نصره الله.

ثاني اثنين. أي: أحد اثنين وهو منصوب على الحال في هاء أخرجه، وهو النبي ﷺ.

إذ هما في الغار. منصوب على البدل من قوله تعالى: إذ أخرجه الذين كفروا. وهو بدل اشتغال

إذ يقول لصاحبه. بدل من قوله: إذ هما في الغار. وهما صاحبه يراد بها أبو بكر.

لا تحزن. جملة فعلية في موضع نصب يقول. وهما أيده. يراد بها النبي ﷺ.

وكلمة الله. مبتدأ مرفوع وهي. ضمير فصل. العليا. خبره.

وقرأ بعضهم بالنصب، والجمهور على رفع كلمة. وهو أبلغ: لأن الجملة الاسمية تدل على الدوام والثبوت.

(١١٧) تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد.

رواه البخاري في الإيمان (٣٦) وفي فرض الخمس (٣١٢٣) وفي التوحيد (٧٤٧٥، ٧٤٦٣) رواه مسلم في الإمامة

واللفظ له - (١٨٧٦) ومالك في الموطأ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائي في الجهاد (٣١٢٢، ٣١٢٣) وفي الإيمان

وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣) والدارمي في الجهاد (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٨٧٥٧، ٨٩٢٣) من

حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا الجهاد.. الحديث. روى الحديث

بأكثر من لفظ منها: انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان.. الحديث. ومنها: أعد الله لمن خرج في سبيله

لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي.. الحديث. وفي إحدى الروايات: تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا

جهاد في سبيلي.. الحديث.

(١١٨) تفسير القرطبي ١٥٠/٨.

(١١٩) لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرمايتين حستين.

رواه البخاري في الأذان (٦٤٤) وفي الأحكام (٧٢٢٤) ومالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (٢٩٢) والنسائي في

الإمامة (٨٤٨) والدارمي في الصلاة (١٢١٢) وأحمد في مسنده (٧٢٨٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

والذي نفسي بيده لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها ثم أمر رجلا فيؤم الناس ثم أختلف إلى

رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرمايتين حستين لشهد العشاء.

ونذكره البخاري تعليقا في مواقيت الصلاة باب ذكر العشاء والعمرة، ثم وصله في الأذان (٦٥٧) ومسلم في المساجد

(٦٥٩) وابن ماجه في المساجد (٧٩٧) (٩٢٠٢، ٩٦٨٧، ٩٧٥٠، ١٠٤٩٦) والدارمي في الصلاة (١٢٧٣) من حديث

أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يطعن ما فيهما لأتوهما ولو

حبوا لقد هممت أن أمر المؤمن فيقيم ثم أمر رجلا يؤم الناس ثم أخذ شعلا من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة

بعد. ورواه أحمد في مسنده (٢٠٧٥٨، ٢٠٧٦٧) وأبو داود في الصلاة (٥٥٤) والنسائي في الإمامة (٨٤٣) والدارمي

في الصلاة (١٢٦٩) من حديث أبي بن كعب قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح فقال: شاهد فلان؟ فقالوا: لا. فقال:

شاهد فلان؟ فقالوا: لا. فقال: شاهد فلان؟ فقالوا: لا. فقال: إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلوات على المنافقين

ولو يطعن ما فيهما لأتوهما ولو حبوا والصف المقدم على مثل صف الملائكة ولو تعملون فضيلته لا يبتدرتموه وصلاة

الرجل مع الرجلين أركى من صلاته مع رجل وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تبارك وتعالى.

(١٢٠) اليمين الغموس تدع الديار بلاقع .

ذكره الهندي في كنز العمال (٤٦٣٨٣ - اليمين الغموس تدع الديار بلاقع . ونسبه لأبي الحسن خزيمة بن سليمان بن حيدرة الأخرابلسي في جزئه - عن وائلة قال الهيثمي في المجمع : وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم إنهم ليكونون فجارا فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم وإن أعجل المعصية عقوبة : البغي والجنابة واليمين الغموس تنهب المال وتثقل في الرحم وتذر الديار بلاقع . رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو الدهماء الأصعب وثقه النفيدى وضعفه ابن حبان . قال السيوطي في الدر : وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس مما عصى الله به هو أعجل عقابا من البغي ، وما من شيء أطيع الله فيه أسرع ثوابا من الصلة . واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع . (بلاقع : البلاقع جمع بلقع وبلقعة وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ، يريد أن الحالف بها يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق ١٠ هـ . ١ / ١٥٣ النهاية ب) .

(١٢١) تفسير الفخر الرازي .

(١٢٢) تفسير ابن كثير .

(١٢٣) أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن عباس . وأخرجه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله .

(١٢٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب .

رواه البخاري في المرضي باب : ما جاء في كفارة المرضي (٥٦٤٢) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها» . ورواه البخاري فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبي سعيد الخدري ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها» . رواه الترمذي في تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبي هريرة قال : ولما نزلت «من يعمل سوءا يجز به» ، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال : «قاربوا وسددوا . وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكها» هذا حديث حسن غريب .

(١٢٥) دينه لما يرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض .

بُوب به البخاري في كتاب المرضي ، ورواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمي في الرقاق ح ٢٧٨٣ من حديث سعد بن أبي وقاص قال : قلت : يا رسول الله : أي الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(١٢٦) أشد الناس بلاء الأنبياء .

انظر ما قبله .

(١٢٧) واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل .

رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (٧٩) وفي الزهد (٤١٦٨) وأحمد في مسنده (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن للقوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل : فإن لو تفتح عمل الشيطان .

(١٢٨) اللهم أجرني في مصيبي .

رواه مسلم في الجنائز (٩١٨) ومالك في الموطأ كتاب الجنائز (٥٥٨) وأحمد في مسنده (١٥٩٠٩) من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ قالت : أرسل إلى رسول الله ﷺ حاملا بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت : إن لي بنتا وأنا غيور فقال : أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها وأدعو الله أن يذهب بالغيرة .

(١٢٩) من علامات الإيمان الشكر على النعماء .

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٤٨٩) بلفظ : ثلاث يدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة : الصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والدعاء في الرخاء . ونسبه لأبي الشيخ ابن حبان عن عمران بن حصين . ورمز لضعفه .

(١٣٠) عجباً لأمر المؤمن .

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ و ١٨٤٦٠ و ٢٣٤٠٦ و ٢٣٤١٢) والدارمي (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

(١٣١) تكفل الله لمن جاهد سيئه لا يخرج به إلا الجهاد .

تقدم ص (١٨٧٥) .

(١٣٢) فإن الله لا يمل حتى تملوا .

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملا أثبته وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار ثلثي عشرة ركعة قالت : وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح وما صام شهرا متتابعاً إلا رمضان ورواه أبو داود في الصلاة (١٣٦٨) والنسائي في القبلة (٧٦٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : تكفروا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب العمل إلى الله أدومه وكان إذا عمل عملاً أثبته .

(١٣٣) إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

رواه مسلم فى الصلاة (١٠١٥) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٨٩) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٧) وأحمد فى مسنده (٨١٤٨) من حديث أبى هريرة مرفوعاً : أبها للناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرِّسَالُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك !

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق وأبو حازم هو الأشجعى اسمه : سلمان مولى عزة الأشجعية .

(١٣٤) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ .

رواه البخارى (١ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ومسلم فى كتاب الإمارة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) وفى الطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) وفى الإيمان والذنور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود فى كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجه فى كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧) ، وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٣ ، ٢٨٢) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

(١٣٥) ورد هذا المعنى فى تفسير الفخر الرازى .

(١٣٦) المرجع السابق .

(١٣٧) ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل !؟ .

رواه البخارى فى المناقب (٣٦١٠) وفى استنابة المرتدين (٦٩٣٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٦٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٧٢) وأحمد (١٤٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله ومن حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال : يا رسول الله ، أعدل ، ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل !؟ فقال عمر : يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه فقال : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه وهو قد نضى فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرت والدم آيتهم رجل أسود إحدى عصبهيه مثل لدى المرأة أو مثل البضعة تدرى ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد فأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذى نعت .

(١٣٨) تفسير الفخر الرازى .

(١٣٩) لخصنا فصل مصارف الزكاة من بحث لمصاحب الفضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة في مجلة لواء الإسلام من مجلد سنة ١٩٥١ ص ٨٣٢ .

(١٤٠) جاء في القانون الروماني المسمى : قانون الألواح الاثني عشر «المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حراً ويحكم عليه بالحبس أو بالقتل إذا كان رقيقاً» .

(١٤١) جبلت القلوب على حب .

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٣٥٨٠) بلفظ : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، ويغض من أساء إليها . ونسبه لابن عدى في الكامل وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود . وصحح البيهقي في شعب الإيمان وقفه ، ورمز السيوطي لضعفه . قال المناوي في فيض القدير : وكذا أبو الشيخ (ابن حبان) وابن حبان في روضة العقلاء والخليط في التاريخ وآخرين كلهم من طريق إسماعيل بن أبان الخياط قال : بلغ الحسن بن عمار أن الأعمش وقع فيه فيعت إليه بكسوة فمدحه فقبل له : نميته ثم مدحته فقال : إن خيصة حدثني (عن ابن مسعود) فذكره وأورده ابن الجوزي في الواعيات وقال : لا يصح فإن إسماعيل الخياط مجروح قال أحمد : كتبت عنه ثم وجدته حدث بأحاديث موضوعة فتركناه وقال يحيى هو كذاب وقال الشيخان والدارقطني : متروك وقال ابن حبان : يضع على اللغات . انتهى وفي لسان الميزان في ترجمة إسماعيل الخياط قال الأزدى : هو كوفي زائغ وهو الذي روى حديث جبلت القلوب قال الأزدى : هذا الحديث باطل . انتهى . (وصحح هب وقفه) ابن مسعود وقال : إنه المحفوظ وقال ابن عدى : المعروف وقفه وتبعه الزركشي وقال السخاوي : هو باطل مرفوعاً وموقوفاً وقول البيهقي كابن عدى الموقوف معروف عن الأعمش يحتاج لتأويل فإنهما أوردها كذلك بسند فيه من اتهم بالكذب والوضع إلى هنا كلامه وأقول : رأيت بخط ابن عبد الهادي في تذكرته قال مهناً : سألت أحمد ويحيى عنه فقالا : ليس له أصل وهو موضوع .

(١٤٢) تفسير أبي السعود ٧٧/٤ .

(١٤٣) مخش بن حمير .

قال الحافظ بن حجر في الإصابة : (٧٨٤٦) مخشٌ بسكون الخاء بعدها شين معجمة بن حمير مصغراً بالتثنية الأشجعي له ذكر في مغازي بن إسحاق في غزوة تبوك وفي تفسير ابن الكلبي بسنده إلى ابن عباس ويسند آخر إلى ابن مسعود أنه من نزل فيه ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال : فكان ممن عفى عنه مخش بن حمير فقال يا رسول الله : غير اسمي واسم أبي فسماه عبد الله بن عبد الرحمن فدعا مخش ربه أن يقتل شهيداً حيث لا يعلم به فقتل يوم اليمامة ولم يعلم له أثر .

(١٤٤) تفسير ابن كثير ، وقد أخرج الحديث ابن أبي حاتم أيضاً عن كعب بن مالك ، وانظر التفسير المنير ٢٨٧/١٠ للذكور وهبة الزحيلي ، وتفسير القاسمي مجلد ٤ ص ١٦٣ .

(١٤٥) آية المنافق ثلاث .

رواه البخاري في الإيمان ح ٣٣ وفي الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفي الوصايا ٢٧٤٩ ، وفي الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم في الإيمان ح ٥٩ ، ٧٤ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(١٤٦) تفسير الكشاف .

(١٤٧) مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم .

البخارى فى الأدب (٦٠١١) ، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٦) ، وأحمد ح ١٧٦٣٢ ، ١٧٦٤٨ من حديث النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .

(١٤٨) المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضه .

رواه البخارى فى الصلاة (٤٨١) وفى المظالم (٢٤٤٦) وفى الأدب (٦٠٣٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٨٥) والترمذى فى البر والصلة (١٩٢٨) والنسائى فى الزكاة (٧٩/٥) وأحمد فى مسنده (١٩١٢٧) من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ويشك أصابعه .

(١٤٩) جنتان من فضة آتيتهما .

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٧٨ ، ٤٨٨٠) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠) وفى الجنة (٢٨٢٨) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٧) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩١٨٣) من حديث عبد الله بن قيس (أبى موسى الأشعرى) أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من كذا آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن .

(١٥٠) فى الجنة مائة درجة .

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ، وفى التوحيد ح ، وأحمد ح ، من حديث أبى هريرة مرفوعاً : من آمن بالله ورسوله... الحديث ورواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً : من صام رمضان وصلى الصلوات ... الحديث ورواه الترمذى أيضاً فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠ .

وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً : فى الجنة مائة درجة ... الحديث . وأشار الترمذى إلى حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما .

(١٥١) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ، يا أهل الجنة هل رضيتم ؟

تقدم ص (١٨٣١) .

(١٥٢) من رأى منكم منكراً فليغيره .

مسلم فى الإيمان ح ٧٠ والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٦٢ ، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧ ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥ ، وفى الفتن ح ٤٠٠٣ ، وأحمد ح ١٠٦٥١ ، ١١٠٣٤ ، ١١٠٩١ ، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(١٥٣) تفسير المنار ٥٥١/١٠ .

(١٥٤) تفسير المنار ٥٥٣/١٠ ، قال صاحب المنار ، إن قول عبد الله بن أبي هذيل قد رواه الشيخان وغيرهما .

(١٥٥) انظر تفسير القرطبي ، وابن كثير ، والتفسير المنير للذكور وهبة الزحيلي ، وتفسير سورة التوبة للذكور محمد سيد طنطاوي ، وتفسير أبي السعود ، حيث ذكر أن المشهور أن الآيات نزلت في لعلة بن حاطب وقيل : نزلت فيه وفي سهل بن الحرث ، وجد بن قيس ومعتب بن قشر ، أي : في عدد من المنافقين ، ورجح ذلك رشيد رضا في تفسير المنار .

(١٥٦) لعل الله اطلع إلى أهل بدر .

رواه البخاري في المغازي (٣٩٨٣) من حديث علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوي والزبير ابن العوام وكلنا فارس قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا الكتاب فقال ما معنا كتاب فأحنناهما فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجريدنك فلما رأته الجذ أهوت إلى حوزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه . فقال النبي ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بي أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي وأبيس أجد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال النبي ﷺ صدق ولا تقولوا له إلا خيرا فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلاضرب عنقه فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة أو فقد غفرت لكم فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

(١٥٧) آية المنافق ثلاث .

تقدم ص (١٩٠٧) .

(١٥٨) انظر تفسير أبي السعود ، والقصر الرازي ، وتفسير الكشاف للزمخشري ، وحاشية الجمل على الجلالين .

(١٥٩) تفسير الكشاف ٢٠٥/٢ نشر دار المصنف ، عبد الرحمن محمد .

(١٦٠) حاشية الجمل على الجلالين ٣٠٤/٢ .

(١٦١) اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) وفي استنابة المرتدين (١٦٢٩) ومسلم في الجهاد (١٧٩٢) وابن ماجة في الفتن (٤٠٢٥) وأحمد في مسنده (٣٦٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود قال : كأنني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأموهوه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

(١٦٢) تفسير سورة التوبة للذكور محمد سيد طنطاوي ص ٢٤٩ .

(١٦٣) ناركم هذه جزء من واحد من سبعين .

رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم في الجنة (٢٨٤٣) والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩) والدارمي في الرقاق (٢٨٤٧) وأحمد في مسنده (٧٢٨٣) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها . ورواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٩٠) من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم لكل جزء منها حرها . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ورواه ابن ماجة في الزهد (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعت بها وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها .

(١٦٤) إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان .

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ومسلم في الإيمان (٢١٣) والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٤) وأحمد في مسنده (١٧٩٢٣) من حديث النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منها دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا .

(١٦٥) إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

رواه الترمذي في المناقب (٣٦٨٢) وأحمد في مسنده (٥١٢٣) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه . وقال ابن عمر : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه شك خارجة إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر . قال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وخارجة بن عبد الله الأنصاري هو ابن سليمان بن زيد بن ثابت وهو ثقة . رواه أبو داود في الخراج (٢٩٦٢) وابن ماجة في المقدمة (١٠٨) وأحمد في مسنده (٢٠٧٨٨) من حديث أبي ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به . ورواه أحمد في مسنده (٨٩٦٠) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

(١٦٦) إله قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه .

رواه البخاري في المناقب ح ٣٦٨٩ ، ٣٦٩٠ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب . ورواه مسلم ح ٢٣٩٨ ، وأحمد ٢٣٧٦٤ ، والترمذي ٣٦٩٣ من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه كان يقول قد كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم قال ابن وهب : تفسير محدثون : ملهون .

(١٦٧) تفسير أبي السعود ٤ / ٩٣ ، وتفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٢٠٨ دار المصطفى : عبد الرحمن محمد - القاهرة .

(١٦٨) زبدة التفسير من فتح القدير ، محمد سليمان عبد الله الأشقر طبعة أولى وزارة الأوقاف بالكويت ص ٢٥٦ .

(١٦٩) الدين النصيحة .

أخرجه مسلم (٥٥) والنسائي (٤١٩٧ و ٤١٩٨) وأبو داود (٤٩٤٤) ، وأحمد (١٦٤٩٣ و ١٦٤٩٤ و ١٦٤٩٨ و ١٦٤٩٩) من حديث تميم الداري . وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس ، وابن عمر .

(١٧٠) إن بالمدينة لرجالا ما قطعهم وأديا .

رواه البخاري في الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم في الإمارة (١٩١١) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤ ، ٢٧٦٥) وأحمد في مسنده (٣/١٠٣ ، ٢٠٠) .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء العاشر

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤١	﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ...﴾	١٧٤٩
٤٢	﴿وَإِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدَّةِ الْقُصْوَى...﴾	١٧٤٩
٤٣	﴿وَإِذْ يَرْيَكُهُمُ اللَّهُ قَى مَنَامِكَ قَلِيلًا...﴾	١٧٤٩
٤٤	﴿وَإِذْ يَرْيَكُهُمْ إِذَ التَّقْيِيتُمْ...﴾	١٧٤٩
٤٥	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ...﴾	١٧٥٦
٤٦	﴿وَإِطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾	١٧٥٦
٤٧	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا...﴾	١٧٥٦
٤٨	﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ...﴾	١٧٥٦
٤٩	﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾	١٧٥٦
٥٠	﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ...﴾	١٧٥٦
٥١	﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكَمْ...﴾	١٧٥٦
٥٢	﴿كَذَابَ ءَالُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا...﴾	١٧٦٧
٥٣	﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نَعْمَةً...﴾	١٧٦٧
٥٤	﴿كَذَابَ ءَالُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا...﴾	١٧٦٧
٥٥	﴿وَإِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	١٧٧١
٥٦	﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ...﴾	١٧٧١
٥٧	﴿فَإِمَّا تَثْقَفْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ...﴾	١٧٧١
٥٨	﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً...﴾	١٧٧١
٥٩	﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَيَقْوُوا...﴾	١٧٧١
٦٠	﴿وَأَعْدَاؤُهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ...﴾	١٧٧١
٦١	﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا...﴾	١٧٧٧
٦٢	﴿وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخُدُّوكَ فَلَنْ حَسْبُكَ اللَّهُ...﴾	١٧٧٧
٦٣	﴿وَأَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتُ...﴾	١٧٧٧
٦٤	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ...﴾	١٧٨٢
٦٥	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾	١٧٨٢
٦٦	﴿الْآنَ خِيفَ اللَّهُ عَنَّاكُمْ...﴾	١٧٨٢
٦٧	﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى...﴾	١٧٨٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦٨	﴿لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ...﴾	١٧٨٧
٦٩	﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا...﴾	١٧٨٧
٧٠	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى...﴾	١٧٨٧
٧١	﴿وَأِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ...﴾	١٧٨٧
٧٢	﴿وَإِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا...﴾	١٧٩١
٧٣	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أُولَئِكَ...﴾	١٧٩١
٧٤	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا...﴾	١٧٩١
٧٥	﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا...﴾	١٧٩١
—	تفسير سورة التوبة	١٧٩٧
—	دروس من سورة التوبة	١٧٩٨
١	﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾	١٨٠٥
٢	﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ...﴾	١٨٠٥
٣	﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ...﴾	١٨٠٥
٤	﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...﴾	١٨٠٥
٥	﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ...﴾	١٨١٠
٦	﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ...﴾	١٨١٠
٧	﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	١٨١٤
٨	﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً...﴾	١٨١٤
٩	﴿اِشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾	١٨١٦
١٠	﴿وَلَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا ذِمَّةً...﴾	١٨١٦
١١	﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾	١٨١٧
١٢	﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ...﴾	١٨١٨
١٣	﴿إِلَّا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ...﴾	١٨١٩
١٤	﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ...﴾	١٨٢٠
١٥	﴿وَيَذْهَبُ غَیْظُ قُلُوبِهِمْ...﴾	١٨٢٠
١٦	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يُعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ...﴾	١٨٢١
١٧	﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ...﴾	١٨٢٣
١٨	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ...﴾	١٨٢٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩	﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾	١٨٢٧
٢٠	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	١٨٢٩
٢١	﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ...﴾	١٨٢٩
٢٢	﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾	١٨٢٩
٢٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا...﴾	١٨٣١
٢٤	﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ...﴾	١٨٣١
٢٥	﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...﴾	١٨٣٥
٢٦	﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾	١٨٣٥
٢٧	﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ ذَلِكَ...﴾	١٨٣٥
٢٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾	١٨٣٩
٢٩	﴿قَاتِلُوا الْبَازِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾	١٨٤١
٣٠	﴿وَقَاتِلُوا الْيَهُودَ عِزِّيْرَ ابْنِ اللَّهِ...﴾	١٨٤١
٣١	﴿اتَّخِذُوا أَحِبَّاءَهُمْ وَرِيبَانَهُمْ أَرْبَابًا...﴾	١٨٥٢
٣٢	﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ...﴾	١٨٥٢
٣٣	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾	١٨٥٢
٣٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ...﴾	١٨٥٧
٣٥	﴿يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوِيْ بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾	١٨٥٧
٣٦	﴿إِنْ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾	١٨٦٣
٣٧	﴿إِنَّمَا الْخَنَسَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	١٨٦٦
٣٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا...﴾	١٨٦٩
٣٩	﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾	١٨٦٩
٤٠	﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...﴾	١٨٧١
٤١	﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا...﴾	١٨٧٤
٤٢	﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا...﴾	١٨٧٤
٤٣	﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ...﴾	١٨٧٨
٤٤	﴿لَا يَسْتُذْنِكُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾	١٨٧٨
٤٥	﴿إِنَّمَا يَسْتُذْنِكُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾	١٨٧٨
٤٦	﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةٌ...﴾	١٨٨٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٧	﴿وَلَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا...﴾	١٨٨٠
٤٨	﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُور...﴾	١٨٨٢
٤٩	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذَا دُنِيَ لِي وَلَا تَفْتَنِي...﴾	١٨٨٢
٥٠	﴿إِنْ تَصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَعَسَىٰ أَمْرُهُمْ...﴾	١٨٨٥
٥١	﴿قُلْ لَنْ يَصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾	١٨٨٥
٥٢	﴿قُلْ هَلْ تَرَىٰ صَوْنَنَا إِلَّا إِيَّاهُ الْحَسَنِيِّينَ...﴾	١٨٨٥
٥٣	﴿قُلْ أَنفَقُوا طَرِيقًا أَوْ كَرَّمَا...﴾	١٨٨٨
٥٤	﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبِلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ...﴾	١٨٨٨
٥٥	﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ...﴾	١٨٨٨
٥٦	﴿وَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمَنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ...﴾	١٨٩١
٥٧	﴿وَلَوْ يَجِدُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا...﴾	١٨٩١
٥٨	﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا...﴾	١٨٩٢
٥٩	﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ...﴾	١٨٩٢
٦٠	﴿وَإِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ...﴾	١٨٩٤
٦١	﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ...﴾	١٨٩٩
٦٢	﴿يُحَالِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ...﴾	١٨٩٩
٦٣	﴿وَأَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ حَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾	١٨٩٩
٦٤	﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ...﴾	١٩٠٣
٦٥	﴿وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ...﴾	١٩٠٣
٦٦	﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...﴾	١٩٠٣
٦٧	﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾	١٩٠٦
٦٨	﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ الْكُفَّارَ...﴾	١٩٠٨
٦٩	﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً...﴾	١٩٠٨
٧٠	﴿وَأَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾	١٩١١
٧١	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾	١٩١٢
٧٢	﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ...﴾	١٩١٢
٧٣	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾	١٩١٦
٧٤	﴿يُحَالِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا...﴾	١٩١٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٥	﴿ومنهم من عامد الله لئن آتانا من فضله...﴾	١٩٢١
٧٦	﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به...﴾	١٩٢١
٧٧	﴿فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم...﴾	١٩٢١
٧٨	﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم...﴾	١٩٢١
٧٩	﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات...﴾	١٩٢٥
٨٠	﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم...﴾	١٩٢٥
٨١	﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله...﴾	١٩٢٨
٨٢	﴿فأيضحكوا قليلا وليبكموا كثيرا...﴾	١٩٢٨
٨٣	﴿فإن رجعه الله إلى طائفة منهم...﴾	١٩٣٠
٨٤	﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا...﴾	١٩٣١
٨٥	﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم...﴾	١٩٣١
٨٦	﴿وإذا أنزلت سورة أن آممنوا بالله...﴾	١٩٣١
٨٧	﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف...﴾	١٩٣١
٨٨	﴿لكن الرسول والذين آمنوا معه...﴾	١٩٣٧
٨٩	﴿أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار...﴾	١٩٣٧
٩٠	﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم...﴾	١٩٣٨
٩١	﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى...﴾	١٩٤٠
٩٢	﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم...﴾	١٩٤٠
—	ختم الجزء العاشر	١٩٤٤
—	فى ختم التفسير للجزء العاشر	١٩٤٥
—	تفريغ أحاديث وهوامش	١٩٤٧
—	فهرس موضوعات	١٩٧٢

تم بحمد الله تفسير الجزء العاشر ويليهِ تفسير

الجزء الحادى عشر إن شاء الله تعالى





تفسير القرآن الكريم
في ستة أجزاء

دعيت الله سبحانه

دار عريب

إهداء ٢٠٠٥

أ.ح. محمد الله هجاية

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة - مصر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٢)

المفردات :

السبيل : الطريق .

الخوالف : المتخلفين . ويطلق أيضا على النساء والصبيان . وهو جمع خالفة .

وطبع الله على قلوبهم : ختم عليها حتى غفلوا عن وخامة العقوبة .

التفسير :

فى الآية السابقة على هذه الآية رفع الله الحرج والإثم والعقوبة ، عنم تخلفوا بأعدار ، من الضعفاء والمرضى والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه ، ثم بين سبحانه من يستحق المواخذه : فقال :

٩٣-- إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ... الآية .

أى: إنما سبيل المحاسبة والمواخذه : لمن تخلفوا عن الجهاد ولا عذر لهم ؛ لأنهم قادرون بأشخاصهم على أداء هذا الواجب المفروض عليهم ؛ فهم ليسوا بضعفاء أو مرضى ، وهم قادرون بأموالهم على أن يجدوا الزاد والراحلة ، والسلاح وأدوات الجهاد ؛ ولكنهم أثروا الدعة والراحة والسلامة لأنفسهم وضئوا بالمال والنفس عن الجهاد والبذل فى سبيل الله .

فشتان بين من تخلف وهو مريض ، أو فقير عاجز عن الحصول على راحلة توصله إلى ميدان الجهاد البعيد ، وبين غنى سليم قادر يتخلف ؛ جبناً ، وضعفاً ، ورغبة فى الإخلاد إلى النعيم والراحة ، والانضمام إلى قائمة المتخلفين عن الجهاد من النساء والأطفال .

لقد قال سبحانه فى الآية ٩١: لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ .

ثم قال سبحانه فى الآية ٩٣ : إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : إنما طريق العقوبة والمواخذة على الذين يستأذنونك فى التخلف عن الغزو والجهاد ، وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، قادرون على أن يجدوا ما يجهزون به أنفسهم .

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ .

أى : رضوا لأنفسهم أن يقبعوا فى المدينة : فى جملة الخوالف من النساء والصبيان ، ومن لا يقوى على الجهاد إيفاراً للسلامة والراحة والدعة .

وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

لقد خالفوا أمر الله ؛ فخذلهم الله ، وسلب عنهم الهدى والتوفيق ، وطبع على قلوبهم فلم تقبل على الهدى ، ولم ترغب فى الجهاد ، ولم تدرك فضل الجهاد وثوابه . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين: ١٤) . فهم عندما أعرضوا عن الله ؛ سلب الله عنهم الهدى وأغلق قلوبهم عن التفتح لقبول الحق .

فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على ما فيه الخسران .

★ ★ ★

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّنَّا
لِللَّهِ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيراً اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَاللَّهِ هَدَىٰ فِتْنَتَكُمْ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

التفسير :

٩٤ - يَخْتَلِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ ... الآية .

إخبار عن المنافقين بأنهم سوف يعتذرون إلى المؤمنين بالأعذار الباطلة ، إذا رجعوا إليهم من

غزوة تبوك .

قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ كُفْرُكُمْ قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : لا داعى لاعتذاركم لنا ؛ وفروا على أنفسكم مهانة الكذب ؛ فليس لكم عذر صحيح حتى نستمع إليه ونقبله منكم .

لَنْ تُؤْمِنَ كُفْرُكُمْ . لن نصدق أقوالكم .

قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ . قد كشف الله لنا عن حقيقتكم ، ووضح لنا أحوالكم ، ووضح لنا ما أنتم عليه من نفاق وفسوق وعصيان .

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ . فيما بعد هل تفلعون عما أنتم عليه الآن من الشر ، أم تبقون عليه ، ولعله تحريض لهم على التوبة .

وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة: ١٠٥) .

أى : ثم ترجعون إلى الله العليم بكل شئ ؛ فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ويجازيكم عليه .

★ ★ ★

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَدَّعُهُمْ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات :

انقلبتم : رجعتم .

لتعرضوا عنهم : لتصفحوا عنهم .

فاعرضوا عنهم : فاتركوهم .

رجس : أى : نجس وقذر ، والرجس الخبيث من كل شئ .

وما واهم : ومقرهم الذى يأوون إليه .

الفاستقين : الخارجين عن الطاعة .

التفسير:

٩٥- سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أُنْقِلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ يُعْرِضُوا عَنْهُمْ^٤... الآية .

أى : إنهم سيحلفون بالله لكم - أيها المؤمنون - إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك : ليؤكدوا ما جاءوا به من الأعداء الباطلة ، وغرضهم من ذلك أن يعرض المؤمنون عنهم فلا يؤيخونهم ، ولا يؤاخذونهم على التخلف ، ويظهرون الرضى عنهم .

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ^٥ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ .

فاتركوهم أيها المؤمنون واجتنبوا مجالستهم ، ودعوهم وما اختاروه لأنفسهم ، لا على سبيل الصفح والعفو ، بل على سبيل الإهمال والترك والاحتقار .

إِنَّهُمْ رِجْسٌ . أى : جميع أعمالهم بخسة قبيحة : فهؤلاء لما كانوا هكذا : كانوا غير متأهلين لقبول الإرشاد إلى الخير ، والتحذير من الشر : فليس لهم إلا الترك : وقد جعلهم الله - سبحانه - نفس الرجس ، مبالغة فى نجاسة أعمالهم ، وسوء بواطنهم .

وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

ومرجعهم ومقرهم فى الآخرة جهنم ، جزاء عادلاً على نفاقهم وسوء أعمالهم .

٩٦- يُخْلِفُونَ لَكُمْ يُعْرِضُوا عَنْهُمْ^٦ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

أى : إن هؤلاء المنافقين يحلفون لكم كذباً : لترضوا عنهم وتصفحوا عنهم وتطمئنوا إليهم بعد الصفح عنهم ، ولكن الله ينهاكم عن الرضا عنهم : لفسقهم ، وسوء نياتهم ، وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين منهم : جد بن قيس ، ومعتب بن قشير وأصحابهما : أمر النبى المؤمنين ألا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا .
والتقدير : إن ترضوا عنهم على سبيل الغرض ، فإن رضاكم عنهم لن ينفعهم : لأن الله غاضب عليهم .

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

المفردات :

الأعراب : سكان البادية ، والعرب : أهل الحضر والبادية فهو أعم .

التفسير :

٩٧- الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... الآية .

الأعراب هم من سكن البوادي من العرب ؛ واحده : أعرابى ، والأنثى : أعرابية والجمع : أعاريب ، والعرب اسم جنس لهذا الجبل الذى ينطق بهذه اللغة ؛ بدوه وحضره . واحده : عربى .

قال الشوكاني : من استوطن القرى العربية ؛ فهو عربى ، ومن نزل البادية ؛ فهو أعرابى .

والمراد بالأعراب هنا : جنسهم لا كل واحد منهم ، بدليل أن الله تعالى قد ذم من يستحق الذم منهم ، ومدح من يستحق المدح منهم ؛ فالآية الكريمة من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده .

والمعنى : الْأَعْرَابُ ، سكان البادية . أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا . من الكفار والمنافقين الذين يسكنون الحضر والقرى ، وذلك لأن ظروف حياتهم البدوية ، وما يصاحبها من عزلة ، وكثرة فقر فى الصحراء ، وخشونة فى الحياة ..

كل ذلك جعلهم أقسى قلوبا ، وأجفى قولا ، وأغلظ طبعها ، وأبعد عن سماع كتب الله ، وما جاءت به رسله من ألوان الهداية والخير .

وَأَجْدَرُ أَنْ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ . من الشرائع والأحكام ، بسبب ابتعادهم عن مجالس الرسول ﷺ ، وعدم مشاهدتهم لما ينزل عليه من وحى وهداية وآداب .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . فهو سبحانه مطلع على خفايا القلوب ؛ لا تخفى عليه طاعة طائع ، أو انحراف منحرف ، وهو يجازى كل إنسان بعمله : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزنازل: ٨، ٧) .

والآية دعوة لهؤلاء الأعراب ، أن يلتمسوا وسائل العلم والمعرفة والعمران والمدنية ، وكان ﷺ ينهى المسلم إذا سكن المدينة : أن يعود منها إلى سكن البادية ، فسكن المدينة انضمام لجماعة المسلمين ، ومواكبة لما ينزل من الوحي ، ومشاركة فى حركة الإسلام وجهاده .

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « من بدا جفا »^(١).

وروى الإمام مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال ﷺ : « نعم » ، قالوا : لكننا والله ما نقبل ، فقال ﷺ : « وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة »^(٢).

★ ★ ★

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ فُرْقَانًا فَرَّقَنَاهُ إِذَا فُتِنُوا مِنَ الرَّسُولِ إِذْ أَنفَقَ لَهُمُ سَيِّدُ خَلْقِهِمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

المضردات :

يَتَّخِذُ : يعد ويعتبر .

مَغْرَمًا : غرما وخسارة .

وَيَتَرَبَّصُ : وينتظر .

الدَّوَائِرُ : جمع دائرة والمراد بها هنا : تقلب الزمان من حسن إلى سيئ ومعناها فى الأصل : ما يحيط بالشئ .

السَّوْءُ : ما يسىء ويؤذى .

فُرْقَانًا : جمع قرينة وهى ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى .

صلوات الرسول : دعواته ﷺ .

التفسير :

٩٨- وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ... الآية .^ج

بعد أن بين سبحانه أن الأعراب فى جملتهم أشد كُفْرًا ونفاقًا ، بين فى هاتين الآيتين أنهما فريقان ، فريق يضمم الشر للمسلمين ، وفريق آخر مخلص فى إيمانه .

والمعنى : وبعض الأعراب جماعة منافقون ، يعدون النفقة خسارة ؛ فهى عندهم غرم لا غنم ، وينتظرون أن تحيط الدواهي والمصائب والحوادث بالمسلمين ؛ ليتخلصوا من الإنفاق .

عَلَيْهِمْ ذَاتِرَةُ السَّوْرِ .

هذا وعيد من الله تعالى لهؤلاء الأعراب ، بأن تدور عليهم الدائرة ، وينزل بهم البلاء ؛ الذى تمنوه للرسول ﷺ وأصحابه ، وأنهم لا يرون فى المسلمين إلا ما يسوءهم من نصر ورفعة شأن .

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . واسع العلم فلا تخفى عليه خافية مما أضمره ، وهو محاسبهم ومجازيهم أشد الجزاء .

٩٩- وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ... الآية .^٤

هذا هو الفريق الثانى : وهو فريق مؤمن مخلص فى إيمانه وفى نفقته .

أى : وبعض آخر من الأعراب يؤمنون إيماناً صحيحاً ، مثل : جهيئة ومزينة ، وينو أسلم وغفار .

وقال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم : وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. (التوبة : ٩٢) .

وهؤلاء الذين يعتبرون كل نفقة أنفقوها فى سبيل الله : وسيلة إلى مرضاة الله ، ودعاء الرسول ﷺ لهم ، واستغفاره لهم ، حيث كان رسول الله ﷺ ، يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، عند أخذه الزكاة الواجبة ، والصدقات المندوبة ؛ ليوزعها على مستحقيها ، ولذلك كان من السنة الدعاء للمتصدق بالخير والبركة .

أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ .^٥ أى : ألا إن إنفاقهم الصادر عن إخلاص ؛ قرينة عظيمة لهم عند الله تعالى ، وفى هذا شهادة من الله بصحة معتقدهم ، وتصديق لرجائهم وتمنيهم .

سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ .^٦ أى : سيشملهم برحمته وفضله ، أى : سيدخلهم فى جنته ورضوانه .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أى : واسع المغفرة والرحمة ، لا يخلف وعده ؛ فهو يستر على ما فرط منهم من ذنب أو تقصير ، ويرحمهم بهدايتهم إلى صالح الأعمال المؤدية إلى حسن الختام والمصير .

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

التفسير:

١٠٠- وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... الآية .

لما ذكر الله تعالى فضائل قوم من الأعراب ، ينفقون تقريباً إلى الله تعالى ، ومن أجل دعاء الرسول ﷺ :
أبان فضائل قوم أعلى منهم منزلة وأعظم ، وهى منازل السابقين الأولين .

فالسابقون الأولون من المهاجرين ، الذين هاجروا قبل صلح الحديبية ، فتقدموا على غيرهم فى الهجرة والنصر ، وأفضل هؤلاء : الخلفاء الراشدون الأربعة ، ثم العشرة المبشرون بالجنة ، وأول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق وزير الرسول وأنيسه فى الغار ، وأول الناس فى الإيمان والهجرة والجهاد والبذل والنصرة^(١) .

والسابقون الأولون من الأنصار ، هم أصحاب بيعة العقبة الأولى فى منى سنة ١١ من البعثة ؛ وكانوا سبعة ؛ ثم أصحاب بيعة العقبة الثانية ، وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين ، والذين سارعوا إلى الإيمان عند قدوم مصعب بن عمير ، وكان الرسول ﷺ قد أرسله بعد البيعة الثانية ؛ لينشر الدعوة الإسلامية بين أهل المدينة ، وقيل : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار : هم الذين صلّوا إلى القبلتين ، أو من حضر بيعة الرضوان .

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ .

أى : الذين اتبعوا السابقين فى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، اتباعاً حسناً فى أقوالهم وأعمالهم وجهادهم ؛ ونصرتهم لدعوة الحق .

قال الآلوسى : وكثير من الناس ذهب إلى أن المراد بالسابقين الأولين : جميع المهاجرين والأنصار ، ومعنى كونهم سابقين : أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمين .

ويلاحظ أن الاقتداء بالصحاب ، هو الاقتداء بإحسان ، أى : إحسان الأعمال والنيّات ، والظواهر والبواطن .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. فى إيمانهم وإخلاصهم ، فتقبل أعمالهم ورفع درجاتهم ، وتجاوز عن زلّاتهم .

وَرَضُوا عَنْهُ . لقد منحهم الله الرضا والقناعة ، والسرور بمرضاة الله عنهم ، وبرضاهم عن ربهم وحبهم له .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

وَرَضُوا عَنْهُ . رضوان فوق رضوان من عند الله يحفهم به ، ويزيدهم نعيمًا إلى نعيم ؛ إذ جعل سبحانه رضاهم عنه بما أعطاهم معادلًا لرضاه عنهم ، حتى لكأنه سبحانه وتعالى ، يتبادل الرضا معهم ، فيرضى عنهم ويرضون عنه ، فسبحانه ما أعظم لطفه ، وما أوسع فضله !

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .

أى : وأعد لهم فى الآخرة جنات تجري من تحت قصورها أو أشجارها الأنهار ، خالدين فيها خلودًا أبدىً . قال تعالى : وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرِجِينَ . (الحجر: ٤٨) .

ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

هذا هو الجزاء الذى لا يعدله جزاء ، وهو الفوز الذى لا فوز يعدله أو يدانيه ؛ لقد آمنوا وثبتوا وتحملوا وقوف الجاهلية فى وجههم ؛ فاستحقوا رضوان الله فى الدنيا ، وجنة خالدة فى الآخرة ؛ وهذا هو الفوز العظيم .

وقد تكرر فى القرآن الكريم الثناء على المهاجرين والأنصار ومن اقتفى أثرهم من التابعين إلى يوم الدين ، ومن أمثلة ذلك الآيات ٨-١٠ من سورة الحشر وتبدأ بقوله تعالى : لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ...

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

المضردات :

حولكم : أى : حول المدينة بلدكم .

مردوا على النفاق : أى : مروا عليه واعتادوه .

لا تعلمهم : لا تعرف حقيقة أمرهم : لعراقتهم فى النفاق .

سنعذبهم مرتين : قبل الآخرة بالفضيحة وعذاب القبر .

ثم يردون إلى عذاب عظيم : ثم يردون فى الآخرة إلى عذاب بالنار عظيم .

التفسير :

١٠١- وَمِنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ... الآية .

أى : اذكروا أيها المؤمنون ، أنه يسكن من حول مدينتكم قوم من الأعراب منافقون : فاحترسوا منهم ، واحترسوا أيضاً من قوم آخرين يسكنون معكم داخل المدينة .

مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .

أى : من هؤلاء وأولئك على النفاق ، وبلغوا فيه مبلغاً : جعلهم مهرة فيه حتى لان لهم أمره ، وسلس لهم قياده ، ولا تكاد تستعمل كلمة : مردوا إلا فى الشر .

لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ .

أى : لا تعرفهم أنت أيها الرسول بعنوان نفاقهم : لأنهم بلغوا من المهارة فيه مبلغاً كبيراً ، فلا يقف على سرائرهم إلا من لا تخفى عليه خافية .

سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ .

أى : سيتكرر عذابهم النفسى والبدنى : فهم فى عذاب مستمر ، فقد تكفل الله بنصر الإسلام : فكلما انتصر المسلمون فى غزوة ، أو تقدموا فى أمر ، أو ارتفع شأنهم ، أصاب المنافقين الإحباط والهوان ، ثم إن

هناك عذاباً آخر ينتظرهم على أيدي المسلمين ؛ حيث يجرفهم تيار الإسلام ؛ ويزعج أمنهم وسلامتهم ؛ ويخرجهم من ديارهم وأموالهم كما حدث مع اليهود ، وقد أطلق بعض المفسرين على اليهود : شياطين المنافقين ؛ إشارة إلى الآية الكريمة : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْلَأُ قُلُوبَهُمْ بِغَيْبٍ يَحْمَهُونَ . (البقرة: ١٤ ، ١٥) .

فَمُ يُرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ .

ثم يرجعون فى الآخرة إلى عذاب غليظ ، هو عذاب النار فى الآخرة ، قال تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَكُنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاتَّقَوُا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا . (النساء: ١٤٥ - ١٤٧) .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

التفسير :

١٠٢- وَالَّذِينَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ... الآية .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى عشرة تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما قفل رسول الله ﷺ من غزوته ، وكان قريباً من المدينة ؛ ندموا على تخلفهم عن رسول الله وقالوا : نكون فى الظلال والأطعمة والنساء ، ونبى الله فى الجهاد والالأداء ، والله لنؤثفن أنفسنا بالسوارى ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبى الله هو الذى يطلقنا ، فأوثق سبعة منهم أنفسهم فى سوارى المسجد وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم ، فقدم رسول الله ﷺ من غزوته ، فمر بالمسجد فأبصرهم فسأل عنهم ، فقيل له : إنه أبو لبابة وأصحابه تخلفوا عنك يا نبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم ؛ فقال ﷺ : لا أطلقهم حتى يأمر الله بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ، فأنزل الله تعالى : وَالَّذِينَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فأطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم ^(١) .

ومعنى الآية: ومن أهل المدينة قوم آخرون ، اعترفوا بتخلفهم عن الغزو: إيثارًا للدعة وطلبًا للسلامة؛ مع إيمانهم وتصديقهم بما جاء به الرسول ﷺ .

خَلُطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا . أى : قدّموا جهادًا سابقًا فى غزوات سابقة ، وقدموا طاعات لله ، ثم خلطوا ذلك بعمل سيئ ؛ هو تخلفهم عن غزوة تبوك ، ثم ندمهم وتوبتهم .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ . أى : يرجى أن يقبل الله توبتهم ، المفهومة من اعترافهم بذنوبهم .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أى : إنه تعالى واسع المغفرة والرحمة لكل من ندم واستقام ، والتزم بطاعة الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

التفسير:

٣ ، ١ - خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ... الآية .

قيل : هى صدقة الفرض ، وقيل : هى صدقة مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم ، عرضوا أموالهم على رسول الله ﷺ ، وقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التى خلّفنا عندك ؛ فتصدق بها وطهرنا ، فقال : « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً » فنزلت ، فأخذ منها الثلث وترك لهم الثلثين . وأكثر الفقهاء : على أن هذه الآية نص فى فرضية الزكوات الواجبة ، أو إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء .

قال الجصاص فى أحكام القرآن :

والصحيح أن هذه الآية فى الزكوات المفروضة : إذ لم يثبت أن هؤلاء القوم أوجب الله عليهم صدقة دون سائر الناس ، سوى زكوات أموال ، وإذا لم يثبت بذلك خبر ، فالظاهر أنهم وسائر الناس سواء فى الأحكام والعبادات ، وأنهم غير مخصوصين بها دون غيرهم من سائر الناس (١) .

والمعنى : خذ أيها الرسول - وكل حاكم مسلم بعدك - من أموال هؤلاء التائبين ، ومن غيرهم ، صدقة مقدرة بمقدار معيّن ، تطهرهم بها من داء البخل والطمع ، وتزكى أنفسهم بها ، وتنمى بها حسناتهم .

قال الإمام ابن كثير :

أمر الله تعالى رسوله أن يأخذ من أموالهم صدقة ، يطهرهم ويذكهم بها وهذا عام ، وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم هـ .

وعند التأمل نجد أنه يمكن أن تكون الآية شاملة تشمل المعترفين بذنوبهم ، وتشمل جميع من تجب عليهم الزكاة .

والمعنى : خذ أيها الرسول من هؤلاء المعترفين بذنوبهم ، ومن سائر من تجب عليهم الزكاة المفروضة: صدقة معينة ، وهى مال معلوم من شخص معلوم تصرف فى مصارف معلومة ، أى مال زاد عن النصاب ، من شخص معلوم هو مالك النصاب وما زاد عليه ، يصرف هذا المال إلى مصارف الزكاة من الفقراء والمساكين.

تَطَهَّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا . أى : إن الزكاة أو الصدقة تطهر النفس من أدران الشح والبخل ، وتنمى الحسنات وترفع الدرجات ، وتسبب البركة والنماء فى المال وفى النفس ؛ وفى الحديث الذى رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة: «ما نقصت صدقة من مال»^(١).

وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ . أى : ادع لهم واستغفر وترحم ، بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم . والصلاة من الله على عباده : الرحمة ، ومن ملائكته : الاستغفار ؛ ومن النبىِّ والمؤمنين : الدعاء .

إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ . أى : إن دعاءك تسكن له نفوسهم ؛ وتطمئن وتهدأ ؛ وتلق بأن الله قد قبل توبتها أو رفع درجتها ، وينبغى للإمام أو نائبه أن يدعو لكل من أحضر الزكاة أو الصدقة ، أو ساهم فى خير أو منفعة للمسلمين ، أو للفقراء والمساكين ، قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ . (الرحمن: ٦٠) .

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فهو سبحانه سميعٌ لدعاء الرسول سماع قبول وإجابة ، وعليمٌ بكل شىء فى هذا الكون ، ومطلع على قلوب العباد عند توبتهم أو عند إحضارهم الزكاة وإجبارهم على إخلاصهم .

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ ۝١٠٥ وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات :

ألم يعلموا : استفهام يراد به التقرير . أى : قد علموا .

يأخذ الصدقات ، يقبلها ويثيب عليها .

وسـتردون : وسترجعون .

الغيب والشهادة ، الخفى والظاهر .

التفسير :

٤ - ١٠ : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

ألم يعلم هؤلاء التائبون ، وجميع المؤمنين ، أن الله هو الذى يقبل توبة عباده ، ويتجاوز عن سيئاتهم، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ . أى: يقبلها ويثيب عليها ويضاعف أجرها ، كما قال تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يَفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة ٢٤٥) .

قال ابن كثير : هذا تهيج إلى التوبة والصدقة ، اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقتها ، وأخير سبحانه وتعالى ، أن كل من تاب إليه تاب عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال ؛ فإن الله يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل جبل أحد كما جاء بذلك الحديث . فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل الصدقة ، ويأخذها بيمينه ، فيريها لأحدكم ، كما يرى أحدكم مهره ، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»^(١) ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ، وقوله : يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ (البقرة : ٢٧٦) .

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

من شأنه سبحانه أنه تعالى عظيم التوبة على عباده ، كثير الرحمة بهم ؛ فذلك شأنه الدائم وستنته

المستمرة ، وقد أفادت آيات القرآن أنه سبحانه غافر الذنب وقابل التوب ، وحث آيات القرآن على التوبة النصوح ونهت عن اليأس من رحمة الله ؛ قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

قيل فى سبب نزول هذه الآية ما يأتى :

قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يكلمون ولا يجالسون ، فمالهم الآن؟ وما هذه الخاصة التى خصوا بها فنزلت : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ... الآية .
فالضمير فى يعلموا عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين .

١٠٥- وَقُلْ أَغْمَلُوا فَسِيرَىٰ إِلَهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتَرَدُونَ إِلَىٰ غَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وقل أيها الرسول لهؤلاء التائبين ولغيرهم : اعملوا ؛ فإن عملكم لا يخفى على الله وعباده خيراً كان أو شراً ؛ فأخلصوا عملكم لوجه الله .
والعمل أساس السعادة ، وسيرى الله عملكم سرّاً أو جهراً ، وسيراه الرسول والمؤمنون إن كان جهراً ، أو سيطلع الله رسوله والمؤمنين على أعمالكم .

روى الإمام أحمد والبيهقى وأبو يعلى عن أبى سعيد الخدرى : «لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا من كان»^(٨) .

وقد ورد : أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ كما قال أبو داود والطيالسى . روى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم ، فإن كان خيراً : استبشروا به ، وإن كان غير ذلك : قالوا : اللهم ، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك» .

وَسَتَرَدُونَ إِلَىٰ غَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وستردون يوم القيامة إلى الذى يعلم سرائركم وعلائيكم ، ويعلم الغائب والحاضر ، والباطن والظاهر فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، ثم يجازيكم عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وهذا كلام جامع للترغيب والترهيب .

ويؤخذ من الآيات ما يأتى :

١- فرضية الزكاة التى أوجبها الله فى خمسة أنواع هى : زكاة المال ، وزكاة التجارة ، وزكاة المحصولات الزراعية ، وزكاة الماشية من البقر والغنم والإبل ، وزكاة الركاز : وهو كل ما يستخرج من باطن الأرض مثل : البترول والمعادن .

٢- قبول الله للتوبة الصادقة ، وللمصدقات الصادرة عن خلوص النية ، والإثابة عليها .

٣- كل إنسان مجزى بعمله ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، والعمل مشهود عند الله ورسوله والمؤمنين ، فى عالم البرزخ كما قال تعالى : يُؤْمِلُ تَعْرِضُونَ لَا تُخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة: ١٨) .

★ ★ ★

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ الْإِسْلَامِ إِلَهُ إِمَامًا يَعَذِّبُهُمْ وَإِمَامًا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠٦)

التفسير :

١٠٦- وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ الْإِسْلَامِ إِلَهُ ... الآية .

نزلت هذه الآية بشأن ثلاثة من المسلمين : تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر ؛ إنما قعد بهم الدعة والراحة ، وقد حاولوا أن يلحقوا برسول الله ﷺ فى الجهاد ، بيد أنهم ترددوا حتى عاد الرسول ﷺ من غزوة تبوك ، وجاء المنافقون فاعتذروا أعذارًا كاذبة ، وقد قبل النبى ﷺ ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله .

أما هؤلاء الثلاثة فقد صدقوا مع النبى ﷺ ؛ وقالوا : يا رسول الله ، تخلفنا بدون عذر ؛ فأمر النبى ﷺ المسلمين أن يتركهم حتى ينزل الله فيهم أمره ، فهجرهم المسلمون خمسين ليلة ، لا يسلمون عليهم ، ولا يرون عليهم السلام ؛ وأمرهم النبى ﷺ أن يعتزلوا نساءهم ، وكان أمرهم مترددًا بين قبول توبتهم ، أو رفضها جزاء تخلفهم عن الجهاد ، بيد أن الله تعالى قبل توبتهم فى آخر السورة ، حيث قال سبحانه بشأنهم :

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . (التوبة: ١١٨) .

وهؤلاء الثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرة بن الربيع . كلهم من الأنصار ، وقد وردت قصتهم فى صحيح البخارى . وقد علّق الله أمرهم ، وهو العليم بكل أمر ؛ رغبة فى ترك موضوعهم معلقًا ، حتى يستمر ندمهم على ما فعلوا وليكونوا عبرة لغيرهم ؛ حتى لا يتخلف مؤمن عن الجهاد .

المعنى : وآخرون من المتخلفين موقوفون : مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ . أى : مرجئون ومؤخرون لأمر الله فى شأنهم، إما أن يعذبهم لتخلفهم عن الجهاد ، وإما أن يقبل توبتهم ؛ بعد أن تخلص نفوسهم وقلوبهم من الإخلاد إلى الدعة والراحة ، وإيثار ذلك على الجهاد ؛ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَن يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ ، وبما يصلح عباده ويربيهم ، حَكِيمٌ فى أفعاله وأقواله ، ومن حكمته إرجاء النص على توبتهم .

من تفسير الفخر الرازى :

وكان المتخلفون عن غزوة تبوك أصنافاً ثلاثة :

١- المنافقون الذين مردوا على النفاق وهم أكثر المتخلفين .

٢- التائبون المؤمنون الذين اعترفوا بذنوبهم ، وتابوا فتاب الله عليهم ، وهم الذين ربطوا أنفسهم بالسوارى ؛ وهم أبو لبابة وأصحابه ، فنزلت توبتهم .

٣- الذين بقوا موقوفين مترددين ، لم يعتذروا للذى ﷺ عن تخلفهم ، وأرجئوا توبتهم ، فلم يربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد ، فأرجأ الله الحكم فى أمرهم ، فوقف أمرهم خمسين ليلة ، وهجرهم الناس ، حتى صدقت توبتهم ؛ وعظم ندمهم : ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا... (التوبة : ١١٨) .

من أحكام الآية :

الحكمة الإلهية قد تقتضى البت فى شأن بعض العباد ، وقد ترجى ذلك ؛ ليظل الناس فى أمل ورجاء ، ورهبة وخوف ، وقد أثمرت هذه الحكمة فى دفع هؤلاء الثلاثة إلى شدة الندم ، وصدق التوبة حتى تاب الله عليهم .

وَتَقْرِبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ . حيث أرادوا ألا يحضروا مسجد قباء ؛ فتقلّ جماعة المسلمين ، وفى ذلك من اختلاف الكلمة ويطلان الألفة ما لا يخفى .

وَارِضًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ .

الإرصاد: أى : الترقب والانتظار لمجىء من حارب الله ورسوله إليه ويتخذ مقررًا له ، ومكانًا لقوم راصدين للحرب معه ، وهم المنافقون الذين بنوا هذا المسجد .

وَيَخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

وليلحفن هؤلاء المنافقون : ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الفعلة الحسنى ؛ وهى الرفق بالمسلمين ، وتيسير صلاة الجماعة على أهل الضعف والعجز ، وفى أثناء المطر ، والله تعالى يعلم إنهم لكاذبون فى أيمانهم وادعائهم ؛ فقد بنوه للمضارة وغيرها من الأغراض الفاسدة ، التى بينتها الآية الكريمة .

★ ★ ★

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ (١٠٨)

المفردات :

لا تقم فيه أبداً : لا تؤد فيه الصلاة وغيرها من الطاعات فى أى وقت دائماً .

لمسجد أسس على التقوى : يعنى : مسجد قباء .

يحبون أن يتطهروا : أى : يرغبون فى التطهر الحسى والمعنوى .

التفسير :

١٠٨ - لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ... الآية .

أى : لا تقم - أيها الرسول - للصلاة وغيرها من الطاعات ؛ فى مسجد الضرار فى أى وقت من الأوقات ؛ فقد بنى للإضرار بالإسلام وأهله ، والله ! لمسجد قباء الذى بنى أساسه ووضعت قواعده على تقوى الله وإخلاص العبادة له منذ أول يوم بدئ فى بنائه ، أحق أن تقوم للصلاة فيه من غيره .

وقيل : المراد : بالمسجد الذى أسس على التقوى ، هو المسجد النبوى بالمدينة ، فقد روى أحمد ومسلم والنسائى أن النبى ﷺ سئل عنه ، فأجاب بأنه مسجده الذى فى المدينة ، ولا مانع من إرادة المسجدين ؛ لأن كلا منهما قد بنى على التقوى من أول يوم بُدئ ببناؤه .

فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ .

أى : فى هذا المسجد الذى بنى على التقوى ، رجال يحبون أن يتطهروا طهارة معنوية ، وهى التطهر عن الذنوب والمعاصى ، وطهارة حسية للبدن والثوب ، بالوضوء والاعتسال وطهارة القبل والدبر من آثار البول والغائط .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أى : يرضى عنهم ويدنيه من جَنَابِهِ تعالى ، إثناء المحب حبيبه .

فمحبة الله عباده معناها : الرضا والقبول والإدناء ؛ لأن الله تعالى منزّه عن مشابهة صفاتنا ، فحبه غير حبنا ، وهو شئ يليق بكماله تعالى ؛ كما جاء فى الحديث القدسى الذى يرويه البخارى : «ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ؛ كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به»^(٩) .

★ ★ ★

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩)

المضردات :

شفا جرف : الشفا : الحرف والحافة والطرف - (والجُرف) بضمّتين ما جرفه السيل أى : استأصله وحفر ما تحته ، فبقى واهياً .

هـار : مشرف على السقوط وأصله (هائر) .

فانهار به : فسقط به .

التفسير :

١٠٩ - أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ ... الآية .

قارن الله تعالى بين مسجد قباء الذى بنى على التقوى والإيمان وطاعة الرحمن ، وبين مسجد الضرار

الذى بنى : لمعاداة المسلمين واستقبال أعدائهم ، وتببيت الكيد لهم ، الكفر بنبيهم ، فالأول : طيب أطيب الطيب، والثانى : خبيث أخبت الخبيث .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

أى : إن من أسس بنيانه على قاعدة قوية محكمة ، وهى تقوى الله ورضوانه ، خير ممن أسس على ضد ذلك.

والجُرف : ما ينجرِف بالسيلول ؛ وهى الجوانب من الوادى التى تنجرِف بالماء .

والهار : المشرف على السقوط.

فَاتَهَارَ بِهِ فِى نَارٍ جَهَنَّمَ . فانهار الجرف بالبنيان وبانيه فى النار .

وجاء فى تفسير الرازى :

ولا نرى فى العالم مثلاً أجدر مطابقة لأمر المنافقين فى هذا المثال .

وقال الرمخشى فى تفسير الكشاف :

والمعنى : أضمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهى الحق الذى هو تقوى الله ورضوانه، خيرٌ أم من . أسسه على قاعدة هى أضعف القواعد ، وأرخاصها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذى مثله مثل : شفا جُرف هار . فى قلة الثبات والاستمسك ، وضع شفا الجرف فى مقابله التقوى ؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافى التقوى .

★ ★ ★

﴿ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴾ (١١٠)

المفردات ،

ريبـة : شكاً ونفاقاً .

إلا أن تقطع قلوبهم ، أى : لا يزال المسجد الذى بنوه شاهداً على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنه نفس الريبة والشك .

التفسير :

١١٠- لَا يَزَالُ بُتَانُهُمُ الْإِلٰهِيَّ يُتَوَارِيَهُ فِي قُلُوبِهِمْ ... الْآيَةُ .

إن مسجدهم قد بنى بدون إخلاص ولا نية سليمة ؛ لذلك فهو بنيان شاهد على تمكن الريبة فى قلوبهم من جهة الإسلام ، حتى كأنه نفس الريبة ؛ لأنه يجسد آثار النفاق والكفر ، فقد أورثهم نفاقاً فى قلوبهم ، وأزادوا يهدم رسول الله ﷺ لمسجدهم ، وإبطاله لكيدهم ؛ تصميماً على الكفر ومقتاً للإسلام .

إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ^٤ . إما بالموت أو بالسيف .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . فهو سبحانه عليم بكل شئ فى هذا الكون ، وبكل ما يفعله هؤلاء المنافقون سراً وجهرًا .

حَكِيمٌ . أى : عظيم الحكمة فى تصرفاته وأفعاله .

ويؤخذ من الآيات ما يأتى :

- ١- وجوب بناء المساجد على تقوى من الله ورضوان .
- ٢- قال المالكية : كل مسجد بنى على ضرار أو رياء وسمعة ؛ فهو فى حكم مسجد الضرار ، لا تجوز الصلاة فيه ، ولا يجوز أن يبنى مسجد إلى جنب مسجد لئلا ينصرف أهل المسجد الأول فيبقى شاغراً .
- ٣- دلُّ قوله تعالى : وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ . على أن المقصد الأسمى من وجود الجماعة تأليف القلوب ، واتحادهم على الطاعة ؛ حتى يأنسوا بالمخالطة ، وتصفوا القلوب من الأحقاد .
- ٤- كان مسجد الضرار سبباً لريبة المنافقين ، فإنهم لما بنوه عظم فرحهم به ، ولما أمر الرسول ﷺ بتخريبه: نقل ذلك عليهم ، وازداد بغضهم له ، وزاد ارتيابهم فى نُبوته ، وظل ذلك الريب فى قلوبهم حتى الموت .

٥- قال الإمام ابن كثير : صرح جماعة من السلف ؛ بأن المسجد الذى أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وقد ورد فى الحديث الصحيح : « أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة ؛ هو المسجد الذى أسس على التقوى » . وهذا صحيح - ولا منافاة بين الآية وبين هذا ؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْبِلُونَ وَيَقْتُلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

المفردات :

اشترى : استبدل .

ومن أوفى : لا أحد أعظم وفاء .

فاستبشروا : أى : فافرحوا غاية الفرح .

التفسير :

١١١- إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... الآية .

سبب النزول :

قال القرطبي :

«نزلت هذه الآية فى بيعة العقبة الثانية وهى بيعة العقبة الكبرى ، وفيها زاد الأنصار على سبعين ، واجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة : فقال عبد الله بن رواحة : اشترط يارسول الله لريك ولنفسك ما شئت ، فقال النبى ﷺ : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ... ؟ قال النبى ﷺ : « الجنة » قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل^(١) فنزلت هذه الآية - ثم هى عامة فى كل مجاهد فى سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة » اهـ .

والحى : إن الله اشترى من المؤمنين الأنفس والأموال بثمن هو الجنة ، أى : مغل الله إثماتهم بالجنة : على بذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله بصفة الشراء .

قال أبو السعود :

« الآية الكريمة ترغيب للمؤمنين فى الجهاد ، وقد بولغ فى ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التى بذلوها فى سبيله ، وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة :

بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع الذى هو العمدة والمقصود فى العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم ، والتمن الذى هو الوسيلة فى الصفقة : الجنة » ا هـ .

وفى الآية حثٌ وتحريض على الجهاد فى سبيل الله ، وبذل النفس والمال دفاعاً عن الإسلام وأهله ، وقد وردت آيات كثيرة فى الحث على الجهاد والتحريض عليه ، وبيان فضله وثوابه ، وبيان فضل الشهداء عند ربهم ، وتعددت طرق الحث والتحريض على الجهاد ، وقد أكد الله ثواب المجاهدين بمؤكدات عدة : ذلك أن الله سبحانه هو الخالق وهو الرزاق ، فهو الذى خلق الأنفس وأعطى الأموال ، ثم رغب فى بذل هذه الأموال على أحسن وجه ، وأبلغه ؛ لأنه أبرزه فى صورة عقد عقده رب العزة ، وثمنه مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

« وأكد الله منحه الثواب والجنة بمؤكدات عشرة هى : كون المشتري هو الله ، وإيصال الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد ، وقوله : وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا ، ووعده الله حق ، وإثابته فى الكتب الكبرى : التوراة والإنجيل ، والقرآن ، وهذا يتضمن إشهاد جميع الكتب ، وجميع الرسل والأنبياء ، على هذه المبايعة .

وقوله : وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . وهو غاية فى التأكيد .

وقوله : فَاسْتَشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ . وهو أيضاً مبالغة فى التأكيد ، وقوله : وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ . وقوله : الْعَظِيمُ .^(١١)

من تفسير الشوكانى فى فتح القدير :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ .

لما شرح الله تعالى فضائح المنافقين ، بين هنا فضيلة الجهاد ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة ، فجادوا بأنفسهم ، وجادوا بالأموال فى الجهاد ، وجاد الله عليهم بالجنة .

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ .

يقدمون على قتل الكفار فى الحرب ، ويبذلون أنفسهم فى ذلك ، فإن فعلوا ؛ فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم ، بعد التعرض للموت بالإقدام على الكفار .

وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .

إخبار من الله سبحانه أن استحقاق المجاهدين الجنة ، قد ثبت الوعد به من الله فى كتبه المنزلة : التوراة ، الإنجيل ، كما وقع فى القرآن .

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ . لا أحد ، وهو صادق الوعد ، لا يخلف الميعاد .

فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ . أظهروا السرور بهذا البيع ؛ فقد ربحتم فيه ربحاً عظيماً لم يربحه أحد من الناس إلا من فعل مثل فعلكم^(١) .

وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . ففيه ظفر المجاهد بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين ؛ ولا فوز أعظم من ذلك .

قال الحسن البصرى : أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ؛ ثم يكافئنا عليها متى بذلناها فى سبيله بالجنة .

★ ★ ★

﴿التَّائِبُونَ الْعَامِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ
الْمُسَبِّحُونَ الْمُمْسِكُونَ الْمَرْتَدُونَ الْعَنْكَابُونَ
الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْمُسَبِّحُونَ الْمُمْسِكُونَ الْمَرْتَدُونَ﴾

التفسير :

١١٢- التَّائِبُونَ الْعَامِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْمُسَبِّحُونَ ... الآية .

مدح الله المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة بتسع صفات فى هذه الآية -
والآيتان مرتبطتان ببعضهما لا مستقلتان .

وأول الأوصاف التسعة هى :

التَّائِبُونَ . أى : المقلعون عن معصية الله ، الراجعون إلى طاعته ، والنادمون على معصيته ، ومن
علامة قبول التوبة ما يأتى :

١- الندم على فعل الذنوب التى وقعت من الإنسان فى الماضى .

٢- الإقلاع عن الذنب فى الحال .

٣- العزم والتصميم على الاستقامة والبعد عن الذنوب فى المستقبل .

٤- أن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله .

فإن كانت التوبة من ذنب يتعلق بحقوق الأدميين ؛ زيد عليها شرط خامس ، وهو ردّ الحقوق إلى أصحابها ، أو استسماحهم استسماخاً عاماً .

الْعَابِدُونَ . المطيعون لله بعبادة صحيحة ، قصد بها وجه الله .

الْحَامِدُونَ . الشاكرون لله فى النعماء والضّرّاء ، الراضون بقضائه وقدره .

السَّائِغُونَ . السائرون فى الأرض للتدبر والاعتبار وطاعة الله ؛ والعمل على مرضاته ؛ وقيل :

السَّائِغُونَ : الصائمون ، وقيل : السَّائِغُونَ : المجاهدون فى سبيل الله .

الرَّكُوعُونَ السَّاجِدُونَ . المحافظون على الصلاة وإتمامها ؛ بإتمام الركوع والسجود وسائر الأركان .

الْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ . وهو كل ما حسنه الشرع .

وَالْتَّائِبُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ . المحذرون للناس من مخالفة أوامر الله ، ومن انتهاك الحرمات ، ومن التقصير

فى أداء الفرائض والواجبات .

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ . أى : القائمون بما أمر به ، والمنتهون عما نهى عنه .

وَنُشِرَ الْمُؤْمِنِينَ . أى : أخبرهم يا محمد بما يسرهم ، فهم المؤمنون حقاً ، المتصفون بهذه الصفات

الكريمة ، المستحقون للجنة ولرضوان الله ومحبته ، «وحذف المبشّر به ؛ للتعظيم كأنه قيل : ويشرهم بما

يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام» .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١١٢ ﴾ وَمَا كَانَ أَسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْفَىٰ ذُو عِلْمٍ ١١٣ ﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَسِيرَ لَهُمْ مَّائْتُونَ ١١٤ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١١٥ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١١٦ ﴾

المضردات :

ماكان للنبي والذين آمنوا، أى : ما صح وما استقام للنبي ﷺ ، وللمؤمنين .

أن يستغفروا ، أن يطلبوا الغفران .

أولى قـربى ، أصحاب قرابة .

مـوعدة ، وعد .

تبرأ منه ، بعد عنه وتنزه عن مصاحبته .

أواه ، أصل التأوه: قول الرجل: أه ، أى : توجع . وأواه للمبالغة . والمراد : كثير التأوه من خوف الله .

حليم ، صبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، يقابلها بالإحسان والعطف .

مايتقون ، ما يجب اتقاؤه والبعد عنه .

ولـى ، وال يلى أموركم ويدبر شئونكم .

ولا نصير ، ينصركم على أعدائكم ويمنعكم من أذاهم .

التفسير :

١١٣- مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

سبب النزول :

أخرج الشيخان وأحمد : عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فقال : « أى عم ، قل : لا إله إلا الله : كلمة

أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة : أتزغب عن ملة عبد المطلب ... ، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليها ويعودان لتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : أنا على دين عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » فأنزل الله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ... الآية ، وأنزل الله في أبي طالب : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. (١٤) .

ومعنى الآية ما يأتي :

ما صح وما استقام في حكم الله تعالى ، للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين ، ولو كانوا أصحاب قرابة : بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار ، بإصرارهم على الكفر ، وموتهم عليه ، أو يعلم الرسول بالوحي أنهم سيموتون على الكفر .

من تفسير القاسمي :

لما بين الله تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، حيث نهى عن الاستغفار لهم بعد تبين شركهم وكفرهم (١٥) .

وقال ابن عباس : كانوا يستغفرون لأمواتهم المشركين ، فلما نزلت هذه الآية : أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء .

١١٤- وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ... الآية .

هذه الآية إجابة عن سؤال وقع ، أو هو متوقع أن يقع بعد الاستماع إلى قوله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ . والسؤال الذي يقع بعد الاستماع إلى هذه الآية : وكيف استغفر إبراهيم لأبيه ، وقد كان أبوه من المشركين؟ (١٦) .

وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى على لسان إبراهيم : وَأَعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . (الشعراء : ٨٦) .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإن ذلك كان عن موعدة من آزر لابنه إبراهيم بالإيمان ، أو كان سببه أن إبراهيم قد وعد أباه أن يستغفر لأبيه ، ويسأل الله تعالى له الهداية إلى الإسلام حتى يغفر له . فلما مات آزر مشركاً : تبرأ منه إبراهيم ، وانقطع رجاؤه عنه وقطع عنه الاستغفار ، وقد جاء في سورة مريم : قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا .

فَلَمَّا سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىَ إِنَّهُ كَانَ بى حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّىَ عَسَىٰ أَنَا أَكُونَ بِدْعَاءِ رَبِّىَ شَفِيعًا . (مريم : ٤٦-٤٨)

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ . أَيْ : فلما ظهر لإبراهيم بالوحى أَنَّ أباه مصرَّ على الكفر غير مؤمن أبداً ؛ بعد عنه وتَجَنَّبَهُ ، وترك الاستغفار له .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . أَيْ : كثير التأوه من خوف الله تعالى ، متضرع إليه كثير الدعاء والتوبة ، حَلِيمٌ بعباد الله ، عظيم الحلم كثير الصفح واللطف ، ومن حلمه أَنَّهُ كَانَ يدعو لأبيه ، وأبوه يتهدده ويتوعده بالرجم .

١١٥ - وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ... الآية .

تبيين الآية جانباً من فضل الله ولطفه وكرمه وعدله ، وهى فى نفس الوقت تَفَرُّجٌ عن صدر المسلمين الحزن ، أو الحسرة والندم على ما وقع منهم . من استغفار منهم لمن مات من أهلهم وأصدقائهم على الشرك قبل أن يجيء النهى عن الاستغفار لهم ، فلا شئ عليهم فى هذا . لقد كان من حكمة الله تعالى أَن أُرسل الرسل ، وأنزل الكتب لهداية الناس ، ولتلتزمهم الحجة ؛ حتى لا يقولوا يوم القيامة : ما أتانا من نذير ، قال تعالى: رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وفى هذه الآية بين الله سبحانه : أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعِقَابِ ، وَلَا يَنْزِلُهُمْ مَنَازِلَ الضَّالِّينَ ، إِلَّا بعد أَن يبين لهم الطريق الذى يسرون عليه ، وما يَأْخُذُونَ أو يدعون من الأمور ، أما ما يقع من العباد مما لم يكن قد جاءهم أمر الله فيه ؛ فهو معفو عنه عند الله ولو كان مما نهى عنه بعد أَن وقع منهم ...^(١٧)

١١٦ - إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ... الآية .

إِنَّ اللَّهَ وحده هو مالك الكون ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر ، والرزق والمنع ؛ فيجب أَن تخلصوا له فى عبادتكم وطاعتكم ، وموالاتكم للمؤمنين ، وعدم استغفاركم للمشركين .

جاء فى تفسير ابن كثير :

قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين ، فى قتال المشركين وملوك الكفر ، وأن يتقوا بنصر مالك السماوات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لا ولى لهم من دُونِ اللَّهِ ولا نصير لهم سواه .

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أى : ليس لكم أيها المكلفون من غير الله وال على أموركم ،
ويدير شئونكم . ولا نصير ينصركم على عدوكم ، ويعينكم عليه ، فهو وحده نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧)

التفسير :

١١٧- لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ... الآية .

سبب النزول :

جاء فى تفسير ابن كثير : أخرج ابن جرير : عن ابن عباس قال : قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة :
فقال عمر : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد ، فزلنا منزلًا فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا
أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء ؛ فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى
إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله
عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرًا ، فادع لنا ! فقال : «تحب ذلك؟» قال : نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى
سالت السماء فأهطلت ثم سكنت ، فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر ^(١٨) .

من تفسير القاسمى :

ذكر سبحانه فى هذه الآية وما بعدها فضله على فرقة من المؤمنين فكروا فى التخلف ، ميلًا إلى
الدعة والراحة ، أو تأثروا من بُعد الشقة وطول الطريق ووعثاء السفر ، فاضطربت قلوبهم وترددت رغبتهم
فى الجهاد ثم دموا فتابوا وأتابوا .

ثم علم الله صدق توبتهم فقبلها ، ثم أنزل توبتهم فى هذه الآية ، وصدرها بتوبته على رسوله وكبار
صحابه ؛ جبرًا لقلوبهم ، وتنويعًا لشأنهم ، بضمهم مع المقطوع بالرُضا عنهم ، وبعثًا للمؤمنين على التوبة ،
وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبى والمهاجرين والأنصار كل على حسبه ،
وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين ، صفة الأنبياء ، كما وصفهم

بالصالحين : ليظهر فضيلة الصلاح ، والوصف للمدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح الصفة وهو كما قال حسان بن ثابت :

ما إن مدحت محمداً بمقاتلى لكن مدحت مقاتلى بمحمد^(١٩)

وفى هذه الآية فضل المهاجرين والأنصار ، حيث ذكرهم الله تعالى بعد ذكر النبى ﷺ .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

«وذكر النبى هنا فى التوبة - وهو صلوات الله وسلامه عليه لم يقع منه شيء وحاشاه - فى هذا تكريم للمهاجرين والأنصار ، وتشريف لهم بنظمهم مع هذا الكوكب الدرى الوضىء فى ساحة رضوان الله ومغفرته .. وقد قرأ الرضا على بن موسى : لقد تاب الله بالنبى على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ...»^(٢٠).

المعنى :

لقد غفر الله سبحانه وتعالى ، وعفا عن النبى وعن المهاجرين والأنصار ، الذين اتبعوه فى ساعة العسرة . أى : خرجوا معه فى غزوة تبوك لقتال الأعداء ، وكانت الغزوة فى وقت شديد الحرارة ، وضيق فى الرواحل ، وبعد فى الطريق ؛ حتى سميت : «غزوة العسرة» وسمى الجيش الذى خرج فيها : «جيش العسرة» .

من يَغْدِمَا كَادَ قُلُوبُ قَرِيبٍ مِّنْهُمْ . أى : من بعد ما قرب أن تميل قلوب بعضهم إلى التخلف والدعة : خوفاً من الشدة والمشقة ؛ ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقوَاهم .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . وفقهم الله وريزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ، والالتزام بهدى نبيه ، حتى تابوا إلى الله ، وندموا على تفكيرهم فى القعود عن الجهاد .

إِنَّهُمْ زَعُوفٌ زَجِيمٌ . إنه عليم بالعباد وطبائعهم ، رحيم بالمؤمنين ولهذا من عليهم بالتوبة ؛ وقبلها منهم وثبتهم عليها ، قال بعضهم : «ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب : تفضلاً منه ، وتطليفاً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ؛ تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قبل توبتهم وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله : إِنَّهُمْ زَعُوفٌ زَجِيمٌ .»^(٢١) ؛ تأكيداً لذلك .

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

المفردات :

خَلِفُوا : أُمِرُ أُمُرُ قَبُول تَوْبَتِهِمْ .

بِمَا رَحُبَتْ : أَيْ : مَعَ رَحَابَتِهَا وَسَعَتِهَا ، وَالرَّحْبُ سَعَةُ الْمَكَانِ .

لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ : لَا مَفْرَ وَلَا مَنجَى مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ .

التفسير :

١١٨- وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ... الْآيَةُ .

قصة هؤلاء الثلاثة أخرجها الإمام أحمد في مسنده وأخرجها البخاري في كتاب المغازي ، ومسلم في كتاب التوبة .

وخلاصة هذه القصة يرويها ابن هشام فيقول^(٢١) :

قدم رسول الله ﷺ عائداً من تبوك ، وكان قد تخلف عنه رهط المنافقين ، وتخلف أولئك الثلاثة من المسلمين المخلصين من غير شك ولا نفاق ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لَا تَكَلُمُنَّ أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ » لأنهم لم يقدموا عذراً عن تخلفهم . وأتاه من تخلف من المنافقين ، فجعلوا يلحفون له ويعتذرون ، فصفع عنهم رسول الله ﷺ : معاملة لهم بظواهرهم ، واعتزل المسلمون أولئك النفر الثلاثة ، ثم نزلت هذه الآية معلنة قبول توبتهم وعفو الله عنهم .

معنى الآية : هذه الآية معطوفة على سابقتها .

والمعنى : لقد تقبل توبة النبي والمهاجرين والأنصار ، وتقبل كذلك توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو لا بسبب النفاق ؛ وإنما كسلًا وإبطارًا للراحة والقيود ، وخلفوا الغازين بالمدينة ، أَيْ : صاروا خلفاء للذين ذهبوا إلى الغزو .

وقد وصف الله هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاث :

الصفة الأولى :

حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، لَقَدْ تَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ ، ثُمَّ نَدِمُوا بِسَبِّ إِعْرَاضِ النَّاسِ عَنْهُمْ ، وَمَقَامَطَتِهِمْ لَهُمْ ، وَإِعْرَاضِ الرُّسُولِ عَنْهُمْ ، وَأَمْرَ أَزْوَاجِهِمْ بِاعْتِزَالِهِمْ ، حَتَّىٰ بَقُوا عَلَىٰ هَذِهِ الْحَالَةِ خَمْسِينَ يَوْمًا .

الصفة الثانية :

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ . بسبب الهم والغم ، وشدة الندم والألم .

الصفة الثالثة :

وَعَفَوْا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . اعتقدوا ويتقنوا أنهم لا ملجأ ولا ملاذ لهم ، من غضب الله وعقوبته إلا بالرجوع إليه ، وصدق الندم والتوبة ، والعزم على الاستقامة والعودة .

ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ آتِيَابُ الرَّحِيمِ . أى : بعد هذا التأديب الشديد ؛ علم الله منهم صدق الندم على ما فعلوا ، فأَنْزَلَ الله قبول التوبة منهم ، ليصيروا فى جملة التوابين ، وليستمروا ويثبتوا على توبتهم ؛ إنه سبحانه كثير القبول لتوبة التائبين ، واسع الرحمة بالناس أجمعين .

أثر التوبة :

التوبة : نعمة من الله على عباده ، وكل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .

ونلمح من الآية السابقة ، تماسك المجتمع ، وطاعته للرُّسول ، فالمخالف والمتخلف عن الغزو : هَجَرَ وَتَرِكَ ؛ حتى اشتد ندمه ؛ فتَابَ الله عليه .

من تفسير الكشاف :

« بلغ أبو خيثمة الأنصارى بستانه ، إبان غزوة تبوك ، وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له فى الظلِّ ، ويسطه له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله ﷺ فى الحر والريح ، ما هذا بخير ! فقام فرحل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومَرَّ كالريح ؛ فمَدَّ رسول الله ﷺ طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ؛ فقال : كن أبا حثيمة ! فكان ، ففرح به رسول الله ﷺ ، واستغفر له .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ (١١٩)

التفسير :

الصدق طريق النجاة فى الدنيا والآخرة ، وقد كان صدق هؤلاء الثلاثة فى توبتهم طريقاً إلى قبول الله لتوبتهم وفى تعقيب هذه الآية على قبول توبة التائبين تقول :

١١٩- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، اتَّقُوا اللَّهَ بِامْتِنَالِ أَمْرِهِ واجتناب ما نهى عنه .

وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ . المجاهدين المخلصين فى جهادهم إذا جاهدوا ، وفى عهودهم إذا عاهدوا ، وفى أقوالهم ووعدهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفى توبتهم إذا أذنبوا أو قصرُوا .

وقد ورد فى القرآن والسنة الصحيحة مدح الصدق ؛ لأنه سلاح المؤمن وتاج الإنسان ، ومبعث إلى الثقة والاحترام بين الناس . كما حذر الإسلام من الكذب فهو صفة المنافقين ، ودليل ضعف الشخصية ، وغضب الله على الإنسان .

أخرج البيهقى ومسلم : أن النبى ﷺ قال : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهذى إلى البر وإن البر يهذى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهذى إلى الفجور وإن الفجور يهذى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (٣٣) .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

المضادات :

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، أي : لا يؤثروا أنفسهم على نفسه .

ولا نصيب ولا تعب .

ولا مخصصة : ولا محاعة .

وادي: الوادي: هو الأرض التي تكون بين جبلين .

التفسير :

١٢٠، ١٢١- مَا كَانُوا لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ... الْآيَاتَانِ .

يعاتب الله المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فيقول: مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ... أى: ما كان ينبغي لأهل المدينة، ومن حولهم من قبائل العرب المجاورة لها: كمزينة، وجهينة، وغفار، وأشجع، وأسلم، التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ولا أن يؤثروا أنفسهم على نفسه: بأن يطلبوا السلامة بالتخلف عن الجهاد، فعليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء: وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغترباط، وأن يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه الشريفة، مع العلم بأنها أَعَزَّ نفس عند الله وأكرمها عليه، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا أنفسهم دون نفسه، وأن يدافعوا عنه بأنفة وحمية، لا أن يتخلفوا عنه بغير عذر، كما فعل بعضهم.

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٢٤) .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ...

أى: ذلك الذى تقدم من وجوب مصاحبتهم الرسول فى الجهاد؛ وإيثاره على أنفسهم؛ بسبب أنه كل ما يصيبهم فى جهادهم - من معاناة ومكابدة ومشاق كالعطش والتعب والجوع والألم فى سبيل الله، ووطء جزء من أرض الكفر يغيظ الكفار، والنيل من الأعداء، بالأسر أو القتل أو الهزيمة أو الغنيمة؛ يستوجب الثواب الجزيل المكافئ لما قدموه وزيادة، وذلك مما يوجب المشاركة فى الجهاد.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . أى: لا يدع شيئاً من ثواب المحسنين إلا كافأه عليه؛ قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. (الكهف: ٣٠).

قوائد:

١- خروج المسلمين للجهاد إذا دعاهم الإمام إليه فرض كفاية؛ إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين، أما خروج المسلمين للجهاد إذا دعاهم الرسول ﷺ فهو فرض عين.

٢- لا يصح للمؤمن إيثار نفسه على نفس الرسول ﷺ؛ لأن الإيمان لا يكمل إلا بأن يحب الرسول ﷺ، أكثر مما يحب نفسه.

٣- إن كل ما يتعرض له المجاهد فى مكابدة ومتاعب ويثاب عليه ثواباً جزيلاً؛ فهو فى ضيافة الله وكرمه ومنازل رضوانه منذ أن يبدأ فى التهيؤ للجهاد إلى أن يعود إلى منزله الذى خرج منه، أو يستشهد فى سبيل الله وقد حفل القرآن الكريم ببيان فضل الجهاد وعظيم ثوابه؛ وأثره فى حماية الإسلام والمسلمين، ودفع العدوان وتمكين المستضعفين من الحرية والاختيار، كما ذكر القرآن: أن الشهداء أحياء حياة معنوية أبدية يتمتعون بخيرات الجنة ونعيمها قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يُسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ. (آل عمران: ١٦٩-١٧١).

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

المضردات :

لِيَنفِرُوا كَافَّةً : ليخرجوا للجهاد ونحوه جميعاً .

فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ : فهلا خرج من كل جماعة كثيرة منهم ، جماعة قليلة .

وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ : وليحذروهم من المخاوف والعواقب السيئة لعصيان الله وعدم التدبر فى الأمور .

التفسير :

١٢٢- وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ... الآية .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم : عن عبد الله بن عبيد الله بن عمير قال : كان المؤمنون لحرصهم على الجهاد إذا بعث رسول الله ﷺ سرية خرجوا فيها ، وتركوا النبي ﷺ فى المدينة فى رقة^(١) من الناس ؛ فنزلت هذه الآية .

وقال ابن عباس : هذه الآية مخصوصة بالسرايا ، والتي قبلها بالنهى عن تخلف واحد ، فيما إذا خرج النبي ﷺ .

المعنى : ما كان من شأن المؤمنين أن ينفروا جميعاً للجهاد ويتركوا النبي ﷺ وحده ؛ فهلاً نفر من كل جماعة - كالقبيلة أو البلد - طائفة قليلة منهم ؛ للتفقه فى الدين ، ومعرفة أحكام الشريعة وأسرارها ، حتى إذا ما رجع المجاهدون من المعركة ، أرشدوهم إلى مناهج الهدى ومسالك العزة ، ومعرفة أحكام الدين ، وخوفهم من عصيان الله ، أو تجاوز أحكامه ، لكى يحذروا ما يضرهم فى دنياهم وأخراهم ، ويقبلوا على ما ينفعهم ويعلى قدرهم .

من أحكام الآية :

١- الجهاد فرض عين إذا دعا النبي ﷺ إليه .

٢- الجهاد فى غير ذلك فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين .

٣- قال مجاهد وابن زيد : هذه الآية ناسخة لما قبلها ، والأصح أنها مبينة لا ناسخة ، وكلُّ من (مِن) المغيدة للتعويض ، والفرقة (الجماعة الكثيرة) ، والطائفة (الجماعة الأقل) ؛ يفيد كون الجهاد وطلب العلم موجها للبعض .

٤- وجوب طلب العلم ، والتفقه في القرآن والسنة ، وهو فرض على الكفاية ، لا على الأعيان ؛ بدليل قوله تعالى : فَشَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣) .

٥- يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم.

٦- طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازئها عمل ؛ لما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « من يرد الله به خيراً ؛ يفقهه في الدين »^(٣٦) .

وروى الترمذي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر »^(٣٧) .

★ ★ ★

﴿ يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبَهُمُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢٣)

التفسير :

٢٣- يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبَهُمُ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ... الآية .

المعنى : يا أيها الذين آمنوا ؛ قاتلوا الأقرب فالأقرب من الكفار ، أى ؛ إنه يجب على كل بلد مسلم أن يكون مستعداً ومتأهباً ، وأن يبدأ بقتال ما يجاوره من الكفار .

وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً . والغلظة هنا يراد بها : الشجاعة والقوة ، ولا يكون ذلك إلا بعد الاستعداد والتمرين والتمرس بأساليب القتال .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . أى : تأكدوا وثقوا بأن معية الله وعونه ونصره للمتقين الذين آمنوا بالله وراقبوه وأطاعوه ، واجتنبوا مخالفته .

فى أعقاب الآية :

فى جزيرة العرب تقع مدن متعددة مثل : مكة ، والمدينة ، والطائف ، وخيبر ، واليمامة (الرياض) .

وتجاور هذه المدن صحارى ويادية ممتدة ، وهذه البادية كانت مرتبطة بالمدن المجاورة لها : فأهل البادية يحملون إلى المدينة ما يريدون بيعه من الماشية والألبان والدواجن وأشباه ذلك ؛ ويشتررون من المدينة الثياب وأدوات القتال وما يتصل بذلك .

ومن يسيطر على مدينة مثل خيبر أو مكة أو الطائف ؛ يسهل عليه كثيراً أن يسيطر على ما حولها من سكان البادية والأعراب .

وعندما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة ؛ عمل على تأمين المدينة فى الداخل ؛ فبعد معاهدة مع اليهود ، ثم عقد تحالفاً مع الأعراب المقيمين حول المدينة ، وأرسل عدداً من السرايا ؛ لتأمين دائرة حول المدينة ، ثم كانت غزوة بدر الكبرى ، وأعقبها عقد تحالف مع عدد من البلاد المجاورة ، وكانت غزوة خيبر وفتح مكة ، وغزوة حنين ، والطائف ؛ لتأمين السيطرة على المدن الكبرى فى الجزيرة العربية ، ثم أمر الله المسلمين بالاستمرار فى قتال من يجاورهم من الكفار ، فاتجهوا إلى غزوة تبوك ولم يكن فيها قتال ، ولكن وضعت الجزية على أئمة ، وبُصرى ، وكانت تلك الغزوة إرهاباً للنصارى ، ونزلت سورة براءة عقبها ، فكانت هذه الآية كالوصية للمسلمين بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام .

وانذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ، ثم العراق ، ثم فارس ، ثم انتقلوا إلى مصر ، ثم إلى إفريقية ، ثم الأندلس .

وفى توجيهه الخطاب للذين آمنوا دون النبى ، إيماء إلى أن النبى - عليه الصلاة والسلام - لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب ، ولعل فى قوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . إيماء إلى التسليّة للمسلمين على فقد نبيهم ، وأن الله معهم ؛ كقوله فى الآية الأخرى : وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . (آل عمران : ١٤٤) .

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ يُقَتَّلُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

التفسير

١٢٤- وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ... الآية .

هذه الآية عود الحديث عن المنافقين ، وبيان لسوء أديهم مع القرآن الكريم ؛ فقد كانوا إذا نزلت سورة مشتملة على تبيان فضائلهم وعيوبهم تأذوا من سماعها ، وكذلك كلما سمعوا سورة - وإن لم يذكر فيها شيء عنهم - . استهزءوا بها وطعنوا فيها ، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء .

إذا أنزلنا عليك يا محمد آية سورة من سور القرآن الكريم ؛ نظر المنافقون إلى بعض نظرة استهزاء وسخرية بالقرآن ، وقالوا :

آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا . فهم يتساءلون تسامل مستنكر مستهجن ، ويقولون : من منكم منحته هذه السورة تصديقاً بالقرآن أو بمحمد ؟! وهنا يفاجئهم القرآن بهذا الجواب :

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . إن العيب في قلوب المنافقين ، وليس في القرآن الكريم ، بدليل أن هذا القرآن ، له أثر واضح على المؤمنين ؛ فإنه يزيدهم إيماناً وتصديقاً ، ويقيناً بصدقه ، وصدق قائله ، والإيمان يزيد كلما زاد إيمان القلب بما نزل من الآيات .

قال المرحشري :

فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ؛ لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأتجلى للصدر ، أو فزادتهم عملاً ؛ فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ، فإن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل .

وَهُمْ يَسْتَشِيرُونَ. وهم مسرورون بنزولها وبما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

١٢٥- وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَلْفُرُونَ .

إن المريض لا يزيده الطعام الهنىء إلا مرضاً ، والأعشى لا يزيده ضوء الشمس إلا ألماً وانزعاجاً .

قد تنكر العين ضوء الشمس من ريمر وتنكر النفس طعم الماء من سقم

فالمنافقون مرضى بالتفاق ، قلوبهم عديلة مظلمة ، فكلما نزلت سورة كفروا بها ، فتزيدهم السورة كفرةً ونفاقاً ، مضمومًا إلى كفرهم ونفاقهم السابق ، ويستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا ، وهم كافرون بالقرآن ، وبالنبي ﷺ .

مع أن القرآن فى حقيقته هدى ونور وشفاء لما فى الصدور . قال تعالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . (الإسراء : ٨٢) .

وقال عز وجل : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . (فصلت : ٤٤) .

١٢٦- أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ .

المراد من فتنتهم : كشف نفاقهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد ، وكان ذلك مرة أو مرتين فى كل عام كالذى حدث فى غزوة أحد ، حين رجعوا من الطريق ، وكالذى حدث فى غزوة الخندق حين قالوا : إِنَّ يَوْمَنَا غَزْوَةٌ وَمَا هِيَ بِغَزْوَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . (الأحزاب : ١٣) .

وغير ذلك من المخالفات الخطيرة التى كشفها الله ، وفضح فيها نفاقهم ، وكشف أستارهم مرة بعد أخرى .

والمعنى : أبلغ الجهل والسفه وعمى البصيرة بهؤلاء ، أنهم صاروا لا يعتبرون ولا يتعظون بما حاق بهم من فتن واختبارات وابتلاءات ، تنزل بهم فى كل عام مرة أو مرتين ؟!

قال الألوسى : والمراد من المرة والمرتتين : مجرد التكرير ، لا بيان الوقوع على حسب العدد المذكور .

ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ . ثم إنهم مع توالى الاختبارات لا يقلعون عن نفاقهم ، ولا يتعظون بما يصيبهم من البلاء وانكشاف أمرهم وفضح دخيلتهم .

١٢٧- وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرُكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

وإذا ما أنزلت سورة قرآنية على النبى ﷺ، وهم جلوس عنده؛ نظر بعضهم إلى بعض نظرة متلصصة متغامزة؛ غيظًا من السورة أو سخرية بها، ثم يقول بعضهم لبعض إشارة أو همسًا: هَلْ يَرُكُم مِّنْ أَحَدٍ. من المسلمين إذا خرجتم من المجلس متسللين، ثم انصرفوا جميعًا فى مجلس الوحي، وأعرضوا عنه فهذا حالهم، لا يقبلون على الوحي، ولا يقبلونه ولا يفهمونه.

صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . وهذا إما دعاء عليهم أو إخبار عن أحوالهم .

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . لقد جازاهم الله بمثل صنيعهم، فذلك الصرف لقلوبهم عن الحق؛ سببه أنهم لا يريدون التبصر فى هذا الدين، أو التفقه فى أموره وأحكامه، أو الإنصات والتدبر فى آدابه وهديه، وهم فى غفور من القرآن وتشاغل عنه، قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ . (الصف: ٥) .

★ ★ ★

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

المضردات :

عزیز علیہ ما عنتم : شاق علیہ ما تکرهون من مشاق الحیاة ، والعنت : المشقة .

حریص علیکم : لا یغترط فیما یصلحکم .

رءوف رحیم : الرأفة : شدة الرحمة ، ولا تكون مع الکراهیة ، أما الرحمة فقد تكون مع الکراهیة .

التفسیر :

١٢٨- لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... الآية .

تمهيد :

تأتى هاتان فى آخر سورة التوبة كالتتمة ؛ لما اشتملت عليه ؛ فقد بدأت السورة بالبراءة من المشركين ، وكشفت حيل المنافقين وفضحتهم وبعثرتهم ، وكأنها تتجه إلى جزيرة العرب كلها ؛ تدعوهم إلى الإيمان بهذا النبىِّ الكريم ، الذى أرسل إلى العرب خاصة وإلى الناس عامة .

المعنى : لقد أرسل إليكم أيها العرب رسولاً من خالص نسبكم ، أو من جنسكم من العرب بلسان عربى مبين ، شاق عليه وقوعكم فى العنتِ والهلاك ، حريص على هدايتكم ، بالغ الرأفة والرحمة بكم .

قال القرطبي :

قوله : **مَنْ أَنْفَسِكُمْ** . يقتضى مدحاً لنسب النبىِّ ﷺ ، وأنه من صميم العرب وخالصها ، وفى صحيح مسلم عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »^(٢٨) .
وعنه ﷺ أنه قال : « إني من نكاح ولست من سفاح »^(٢٩) .

وقال الزجاج : إن الخطاب فى الآية الكريمة لجميع البشر ؛ لعموم بعثته ﷺ ، ومعنى كونه **مَنْ أَنْفَسِكُمْ** : أنه من جنس البشر ، قال تعالى : **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** . ا هـ . (الأنبياء : ١٠٧) .
ولا تعارض بين الرأيين ؛ فإن الرسول ﷺ أرسل للعرب خاصة وللناس عامة .

١٢٩- **إِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** .

أى : فإن أعرضوا عن رسالتك ، وكفروا بدعوتك ؛ فالجأ إلى الله واعتصم به فهو الإله ولا إله غيره ومن توكل عليه ؛ حفظه وكفاه ، وهو مالك الملك ومدبر أمره وجميع الخلق فى قبضته .

جاء فى التفسير المنير ص ٩٠ جزء ١١ ما يأتى :

وصف الله تعالى هذا الرسول بخمس صفات :

الأولى : قوله : **مَنْ أَنْفَسِكُمْ** . أى : من العرب ، والمقصود منه : ترغيب العرب فى نصرته .

الثانية : **عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ** . أى : شديد عليه عنتكم أى : مشقتكم ولقاؤكم المكروه فى الدنيا والآخرة ؛ إذ هو منكم ، يتألم لأنكم ويفرح لفرحكم .

الخالفة : حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ . أى : حريص على هدايتكم ، وإيصال الخيرات إليكم فى الدنيا والآخرة .

الرابعة والخامسة : بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَجِيمٌ . أى : شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ؛ قال ابن عباس رضى الله عنهما : سماه الله باسمين من أسمائه .

فَإِنْ تَوَلَّوْا . أى : أعرض المشركون والمخالفون عنك ، وعن الإيمان برسالتك ، والاهتداء بشركك ؛ فقل : حَسْبِيَ اللَّهُ . أى : الله كافى فى النصر على الأعداء . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، أى : لا معبود سواه أدعوه وأخضع له . عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . فوضت أمرى إليه وحده ، فلا أتوكل إلا عليه .

روى أبو داود عن أبى الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : « حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » سبع مرات : كفاه الله ما أهمه ، صادقاً كان أو كاذباً^(٣٠) .

وحكى النقاش عن أبى بن كعب أنه قال : أقرب القرآن عهداً بالله تعالى : هاتان الآيتان : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ... إلى آخر السورة . وقد اتفق الصحابة حين جمع القرآن على وضع هاتين الآيتين فى آخر سورة بَرَاءَةٌ .

روى أحمد والبخارى والترمذى عن زيد بن ثابت ، فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : « حتى وجدت من سورة براءة آيتين عن خزيمة الأنصارى ، لم أجدهما مع أحد غيره : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ... إلى آخرها ، أى : لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، كما ذكر ابن حجر^(٣١) .

وجعل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

انتهى تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة يونس

دروس من سورة يونس

نزلت سورة يونس بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، فتكون سورة يونس من السور التى نزلت بين الإسراء والهجرة ، فهى سورة مكية من أواخر ما نزل من القرآن بمكة . وقد سميت بهذا الاسم؛ لذكر قصة يونس فيها ، وتبلغ آياتها تسعا ومائة آية .

أهدافها الإجمالية

موضوعات هذه السورة هى موضوعات السور المكية الغالبة ، وهى الجدل حول مسائل العقيدة والتوجيه إلى آيات الله الكونية ، وإلى سنن الله فى الأرض ، وإلى العظة بالقرون الخوالى ومصائرها وعرض بعض القصص من هذا الجانب الذى تبرز فيه العظة واللمسات الوجدانية التى تنتقل بالإنسان من آيات الله فى الكون إلى آياته فى النفس ، إلى مشاهد القيامة المؤثرة ، إلى قصص الماضين ومصائيرهم ، كأنها جميعاً حاضرة معروضة للأنظار .

وهذه السورة تتضمن شيئاً من هذا كله ، وينتقل السياق فيها من غرض إلى غرض بمناسبات ظاهرة أو خفية بين مقاطعها ، ولكن جوهرها كله هو هذا الجو حتى ليصعب الفصل بين مقطع ومقطع فيها فى أغلب الأحيان .

الدرس الأول - مظاهر قدرة الله :

يبدأ القسم الأول من السورة بحروف ثلاثة هى: ألف ، لام ، را ، كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران بحروف مشابهة ؛ ذكر العلماء أنها أسماء للسورة ، أو إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، أو هى لبيان إعجاز القرآن الكريم ، أو هى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ثم تأخذ السورة فى عرض عدة أمور هى بيان حكمة القرآن وطريقته فى تنبيه الغافلين إلى تدبر آيات الله ، فى صفحة الكون وتضاعيفه : فى السماء والأرض ، وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار ، وفى مصارع القرون الأولى ، وفى قصص الرسل فيهم ، وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ثم تشرح السورة الحكمة فى الإحياء إلى رجل من البشر يعرفه الناس ويطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه بلا تكلف ولا جفوة ولا تدرج ، وتذكر الحكمة من إرسال الرسل ؛ فالإنسان بطبعه مهيناً للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز ، ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائماً كلما اختلط عليه الأمر وأحاطت به الشبهات وجذبت التيارات والشهوات ، وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعته .

وتلفت سورة يونس النظر إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، وإظهار قدرة الله الذى
 جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ . (يونس: ٥) .

وقدر اختلاف الليل والنهار ، إن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون رباً يعبد ولا يشرك
 به شئ من خلقه .

إن هذا الليل المظلم ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح ، وهذا الفجر المتفتح فى نهاية الليل
 كابتسامة الوليد ، وهذه الحركة التى يتنفس بها الصحيح فيذب النشاط فى الحياة والأحياء وهذا الطير
 الرائح الغادى القافز الرائب الذى لا يستقر على حال ، وهذا الذبب النامى المتطلع أبداً إلى النمو والحياة ،
 وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق ، وهذه الأرحام التى تدفع ، والقبور التى تبلى ، الحياة
 ماضية فى طريقها كما شاء الله .

إن هذا الحشد من الصور والأشكال ، والحركات والأحوال والرواح والذهاب والبلوى والتجدد والذبول
 والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل
 أو نهار ، إن هذا كله ليستنهض كل همة فى كيان البشر للتأمل والتدبر والتأثر حتى يستيقظ القلب ويتفتح
 لمشاهدة الآيات المبهوثة فى ظواهر الكون وحناياه . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب : لتدبر
 هذا الحشد من الصور والآيات وتأمل قدرة الله فى اختلاف الليل والنهار بالطول والقصر ، فيطول الليل فى
 الشتاء ويقصر فى الصيف ، ويطول النهار فى الصيف ويقصر فى الشتاء ، ووراء كل إبداع يد الله القدير الذى
 رفع السماء وزينها بالنجوم وحفظها من التصدع والوقوع ، ويسط سبحانه الأرض وثبتها بالجبال وزينها
 بالنبات وأحيها بالمطر : إِنَّ فِي آخِثِلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .
 (يونس : ٦) .

الدرس الثانى - الأدلة على وجود الله :

يستهل الدرس الثانى من سورة يونس بإعلان جزاء المؤمنين وعاقبة المكذبين ، حيث يقول سبحانه:

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرُ وَهُمْ لَا يُزَادُونَ . (يونس : ٢٦) .

فالجزاء الحق من جنس العمل ، فمن عمل صالحاً فى الدنيا : أدخله الله الجنة ، ومتعه بالطيبات
 ونجاه من النار .

ثم تستمر الآيات فى بيان عقوبة المكذبين ، وجزاء الخائنين ، وتسوق السورة عدداً من الأدلة والبراهين تنتهى كلها إلى هدف واحد ؛ هو إشعار النفس بتوحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر ، والقسط فى الجزاء .

تلمس الأدلة أقطار النفس ، وتأخذ بها إلى آفاق الكون فى جولة واسعة شاملة ، جولة من الأرض إلى السماء ، ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس ومن ماضى القرون إلى حاضر البشر ، ومن الدنيا إلى الآخرة .

وقد لاحظنا فى الدرس الماضى لمسات من هذه ، ولكنها فى هذا الدرس أظهر ، فمن معرض الحشر إلى مشاهد الكون إلى ذات النفس ، وإلى التحدى بالقرآن إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين ، ومن ثم لمحة عابرة عن الحشر فى مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب ، وإلى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله فى الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب.

إنها مجموعة من اللامسات العميقة الصادقة ، لا تملك نفس سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة إلا أن تستجيب لها ، وآلا تتذابوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . لقد كان الكفار صادقين فى إحساسهم بخطر القرآن على صقوفهم ، وهم يتناهبون عن الاستماع إليه ؛ خيفة أن يجرّفهم بتأثيره ويزلزل قلوبهم ، وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين . وأن سورة واحدة كهذه أو بعض سورة لتحمل من المؤثرات النفسية والعقلية ما لا يحمله جمع كبير من قوى الشرك والانحراف والفسوق .

لقد أخذ القرآن على النفوس كل مسلك ؛ ليسير بها نحو الإيمان ، وساق إليها أدلة محسوسة ملموسة ، حيث يقول سبحانه : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . من المطر الذى يحيى الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض ونباتها وطيورها وأسماكها وحيوانها ، فمن سطح الأرض أرزاق ، ومن أعماقها أرزاق ، ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق . أَمَّنْ يُمْلِكُ السَّمَاعَ وَالْأَبْصَارَ . يهبهما القدرة على أداء وظائفهما أو يحرمهما ، ويصحهما أو يمرضهما ، ويصرفهما إلى العمل أو يلهيها ، وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات لعالم وحده يدير الرعوس عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التى يعدها الناس من معجزات العلم الحديث .

وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْحَيِّ . أى : النور من الظلام والظلام من النور ، والنهار من الليل والليل من النهار ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والنبذة من الحبة والحبة من النبذة ، والفرع

من البهضة والبهضة من الفرخ ... إلى آخر هذه المشاهدات العجيبة ، وإلا فأين كانت تكمن السنبلة فى الحبة ؟! وأين كان يكمن العود ، وأين كانت الجذور والساق والأوراق ؟! .

وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ . كله فى هذا الذى ذكر وفى سواه من شئون الكون وشئون البشر؟! من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هذا النحو الدقيق ؟! ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر ؟!

فَسَقُولُونَ لِلَّهِ أَفَلَا نَعْقُونَ . (يونس : ٣١) ، أفلا تخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض والذى يملك السمع والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، الذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه : فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ . هو سبحانه صاحب الحق والأمر تبارك الله رب العالمين .

الدرس الثالث - قصص الأنبياء ،

اشتملت الآيات من ٧١ - ٩٣ من سورة يونس على ذكر طرف من قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون وملئه ، وقد تحقق فيهما عاقبة المكذبين ، وهلاك المخالفين لأوامر الله وهدى رسله ، والقصص فى القرآن يجىء فى السياق : ليؤدى وظيفة فيه ، ويكرر القصص فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه فى السياق والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع ، ونلاحظ فيما عرض من قصتي نوح وموسى هنا ، وفى طريقة العرض ، مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى ﷺ والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان ، كما نلاحظ المناسبة الواضحة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه .

قصة نوح

بدأت قصة نوح من الحلقة الأخيرة ، حلقة التحدى الأخير بعد الإنذار الطويل والتذكير والتكذيب ، ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ولا التفصيلات الواردة فى سور أخرى ؛ لأن الهدف هنا هو إبراز التحدى الذى واجه نوحاً من قومه ، واستعانت به بالله ، ونجاته ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة ، لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة التى يقصها إلى حلقة واحدة ، ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة وهى نجات نوح ومن آمن معه فى السفينة واستخلافهم فى الأرض على قتلهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . قال تعالى :

فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَافَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمَلِيرِينَ . (يونس : ٧٣) .

وأما قصة موسى فيبدوها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى وينتهيها عند غرق فرعون وجنوده، وإذا كانت قصة نوح قد ذكرت في أربع آيات فقط هي الآيات من ٧١ إلى ٧٤ من سورة يونس ، فإن قصة موسى قد ذكرت على نطاق أوسع خلال ثمانى عشرة آية هي الآيات من ٧٥ إلى ٩٣ ، وقد ألمت قصة موسى بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ وموقف القلة المؤمنة التي معه ، وهذه الحلقة المعروضة هنا من قصة موسى مقسمة إلى ثلاثة مواقف يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها في هذه السورة على النحو الذى عرضت به . وهذه المواقف الثلاثة تتتابع فى السياق على هذا النحو :

الموقف الأول: وصول موسى إلى فرعون ومعه آيات تسع ذكرت فى سورة الأعراف ؛ ولكنها لم تذكر فى سورة يونس ولم تفصل ؛ لأن السياق لا يقتضيها ، والإجمال فى هذا الموضع بغنى ، والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله ، لقد استقبلوها بالظلم والاستكبار قال تعالى :

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ . (يونس : ٧٥ ، ٧٦) .

ادعى فرعون أن معجزة موسى سحر ظاهر ، وجمع له كبار السحرة وأرادوا أن يغرقوا الجماهير فى صراع السحر بأن تعقد حلقة للسحر يتحدون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ؛ ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً .

الموقف الثانى: موقف المبارزة بين السحرة وموسى ، فقد ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم وتحركت الحبال والعصى فبهرت جميع الناس وأرهبتهم ، ثم ألقى موسى عصاه فى الأرض فانقلبت حية هائلة لها شفتان طويلتان ، شفة فى الأرض تبتلع جميع الحبال والعصى التى ألقاها السحرة ، وشفة مرفوعة إلى أعلى ، ثم أمسك موسى بعضاه فعاتت كما كانت ، وبطل السحر ، وعلا صوت الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال ، ويسدل الستار ؛ ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل ، وهذه إحدى عبر القصة المقصودة :

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خِزْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَهُمْ . (يونس : ٨٢) .

وفى هذا الموضع تغيد الآيات : أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار لا مجموعة الشعب الإسرائيلى ، وأنهم تعرضوا للإرهاب من فرعون ، ولكن موسى ثبتهم على الإيمان ودعا موسى ربه أن ينجى المؤمنين وأن يهلك الكافرين ؛ فاستجاب الله دعاءه وجاء الموقف الحاسم .

الموقف الثالث والأخير : فى قصة التحدى والتكذيب ؛ هو غرق الطغاة الظالمين ونجاة من آمن

بالمرسلين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّتِّلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾﴾

المقدرات :

أَلْف — قال السلف فيها وفى أمثالها : الله أعلم بمراده : ويأتي تفصيل الحديث عنها فى الشرح .
الكتاب الحكيم : القرآن المشتمل على الحكمة وهى إصابة الحق .
قدم صدق عند ربهم : مكانة سابقة محققة فى حسن الجزاء عند ربهم فى الجنة والقدم والقدمة بضم فسكون : السابقة فى الأمر .

لساحر مبين : أى : لساحر بين السحر واضحه : كذا قال الكافرون وهم كاذبون .

التفسير :

١- الر تَلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

(الر)

أُسَلَفْنَا الحديث عن هذه الأحرف المقطعة فى صدر سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف ، ومجمل هذا الحديث أن هذه الفواتح للعلماء فيها رأيان رئيسان :

الأول : أنها من المتشابه الذى استأثر الله تعالى بعلمه .

الثانى : أن لها معنى وتعددت الآراء فى تحديد هذا المعنى .

فمن العلماء من قال : إنها أسماء للسور التى تصدرتها ، ومنهم من قال : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أوصافها ، ومنهم من قال : هى حروف ذكرت للتحدى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من الحروف العربية التى تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ؛ فدل ذلك على أنه من عند الله تعالى .

ومنهم من قال : هى حروف للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ؛ فقد تولى الكفار بالإعراض عن القرآن وعدم الاستماع إليه ، قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت : ٢٦) .

فلما طرق أسماعهم مالم يألفوه ؛ تنبّهوا ، فكانت هذه الأحرف بمثابة أدوات الاستفتاح التى تدعو الناس إلى الإصغاء والانتباه لما يلقى عليهم .

وجاء فى تفسير الطبرى حكاية عن الربيع : أن الإعجاز فى هذه الأحرف : هو جواز اشتغالها على جميع الآراء التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسورة ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وهى أدوات للتنبيه ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى فى نفس الوقت مما استأثر الله تعالى بعلمه .

تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أى : تلك الآيات السامية ، المنزلة عليك يا محمد ، هى آيات الكتاب المشتمل على الحكمة والصواب ، الناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخوية .

٢- أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ... الآية .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير : عن ابن عباس قال : لما بعث الله محمداً رسولاً ، أنكرت العرب ذلك فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا .. الآية وأنزل : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ... الآية . (يوسف : ١٠٩) .

فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة : لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَبْرَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) : يعنون : الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفى من الطائف ، فأنزل الله ردّاً عليهم : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... الآية . (الزخرف : ٣٢) .

المعى : أبلغ الجاهل رسوء التفكير بمشركى مكة ومن على شاكلتهم : أن كان إحيائنا إلى رجل منهم ، يعرفهم ويعرفونه : لكى يبلغهم الدين الحق أمراً عجباً ، يدعوهم إلى الدهشة والاستهزاء بالموحى إليه - ﷺ - حتى لكان النبوة فى زعمهم تتنافى مع البشرية ؟!

إن الذى يدعو إلى العجب حقاً ، هو ما تعجبوا منه ؛ لأن الله جل جلاله اقتضت حكمته أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ لأن كل جنس يأنس إلى جنسه وينفر من غيره ، وقد عجبوا أن يكون الرسول بشراً ملكاً ، فقال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

كما سخروا من اليتيم الفقير ، وقالوا : أما وجد الله من يرسله رسولا سوى يتيم أبى طالب ، وقد بين الله سبحانه أنه أعلم حيث يجعل رسالته ؛ فإلهه يصطفى للرسالة من هو أقدر على حملها ؛ بخلقه وقوته النفسية والمعنوية ، وما يتمتع به من صبر وإحتمال ، وشجاعة وإخلاص ، وهذه صفات لا يقتصر توافرها على الأغنياء والوجهاء ، بل إن نعم الله موزعة على جميع خلقه ، فرب فقير بلغ القمة فى مكارم أخلاقه ، قال تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم : ٤) ، ورب غنى ليس أهلاً لتحمل أعباء الرسالة ؛ لأنه عنيد مكابر ، قال تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ... (المدثر : ١١-١٦) .

وقال تعالى مخاطباً رسوله الكريم : وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ... (الضحى ٥-٨) .

وَيُنْصِرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ . أى : لا ينبغي أن يعجب الناس من اختيار الله لمحمد رسولا ؛ لينذر أهل مكة ، ويبشر المؤمنين بأن لهم سابقة محققة فى الفضل وحسن الجزاء عند ربه ؛ فالنبوة للبشر لا للملائكة ، والتفاوت بين الناس ، ليس بالمال ، بل بالعقل والكمال والاستقامة .

قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ . أى : لا يملك الضعيف أو الخاسر المفلس ، سوى الاتهام الرخيص الكاذب الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال الكافرون : إِنَّ مُحَمَّدًا لَسَاحِرٌ ظَاهِرٌ السَّحَرِ ، أو إن القرآن لسحر مبين . قال الإمام الرازى :

ووصف القرآن بأنه سحر يدل على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزاً ، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام الذى ذكره فى معرض الذم ، على ما يظهر ، وأرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ؛ ولكنه باطل فى الحقيقة ، ولا حاصل له ، أو ذكره فى معرض المدح ، وأرادوا به : أنه لكمال فصاحتها ، وتعذر مثله جار مجرى السحر .

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ
الْأُمُورَ مَا مِنْ شَافِعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا أَنْ تُعِيدَهُ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ
كَأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ﴾

المضردات :

فى ستة أيام ، أى : فى ستة أوقات لا يعلم مداها إلا الله تعالى أمأ اليوم المعروف ؛ فإنه لم يحدث إلا
بعد خلق السماوات والأرض .

ثم استوى على العرش ، ثم استولى عليه ، ومنه قول الشاعر : استوى بشر على العراق . من غير سيف ودم مهوراق .
أى : ثم استولى على العرش ؛ ليدبر شؤونه وشئون الكون كله ، ولم يغلبه عليه أحد ، فهو
وحده الخالق المدبر ، وسيأتى فى المعنى الحديث عن العرش .

بالقسط ، بالعدل .

شراب من حميم ، شراب من ماء شديد الحرارة .

التفسير :

٣- إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ... الآية .

جاءت هذه الآية لإظهار بطلان تعجبهم من أن الله أرسل إليهم رجلاً منهم ؛ لينذرهم ويبشرهم .

المعنى : إن ربكم ومالك أموركم هو الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أزمنة أو أيام ، قيل :
كأيام الدنيا ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، أو خمسين ألف سنة .

واختار : أن السماوات والأرض خلقت فى ستة مراحل متباعدة ، اقتضاها تطوير خلقها من دخان إلى
نجوم وكواكب وأرضين يابسات^(٣٩) .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ . أى : ملك سلطان الكون وهيمن عليه .

يُذَبِّرُ الْأَمْرَ . أى : يدبر أمر الخلائق والملوك بما يتفق مع حكمته وعلمه ، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته ، وسبقت به كلمته .

مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ . فى هذا النص الكريم تقدير لعظمة الله : فهو المتفرد بالألوهية ، ليس معه إله آخر - وقد ادعى المشركون أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى : فذكر القرآن الكريم فى أكثر من آية أن الشفاعة مقصورة على من ارتضاه الله أهلاً للشفاعة وهو محمد ﷺ .

والمنى : ما من شفيع لأحد فى وقت من الأوقات إلا من بعد إذن الله المبني على الحكم الباهرة ، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار ، والمشفوع له ممن تليق به الشفاعة من عصاة المؤمنين .

ذَٰلِكُمْ إِلَهُ رَبِّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ . أى : هذا الذى ذكر فضله وآلؤه هو الله الذى لا إله سواه ، وهو ربكم وخالقكم : فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً .

أَفَلَا تَذْكُرُونَ . أفلا تتفكرون أدنى تفكر ، فينبهكم على أنه المستحق للربوبية والعبادة لا ما تعبدونه .

٤- إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَذَّ اللَّهُ حَقًّا ... الآية .

إلى الله تعالى وحده رجوعكم جميعاً بالبعث والحشر لا إلى غيره ، وعد الله ذلك وعداً حقاً ، لا خلف فيه : فامثلوا أمره واجتنبوا نهيه : لتنالوا ثوابه وتنجوا من عقابه .

إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ .

تقع هذه الجملة موقع الدليل على وقوع البعث : فإنه سبحانه وتعالى بدأ الخلق بدون مثال سابق ، ومن بدأ الخلق كان قادراً على إعادته ، بل الإعادة أهون وأيسر ، قال تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . (الروم : ٢٧) .

وحكمة البعث والجزاء : هى إثابة الطائعين ومعاقبة المكذبين ، قال تعالى :

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ .

أى : ليكافئ المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحة بالعدل ، فيحسن جزاءهم ويزيدهم من فضله .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ هَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

إن الدنيا ليست دار جزاء ، وربما تنعم فيها المفسدون ، ونالوا حظاً من المال والجاه والسلطان ؛ فلا بد من دار جزاء يكافأ فيها المحسنون ، أما الكافرون فيلقون جزاء كفرهم ، ومن ذلك : أن يشربوا ماء كالمهل يشوى الوجوه ، وأن ينالوا عذاباً شديداً الإيلام ؛ بسبب إصرارهم على كفرهم واستمرارهم على الجحود والتكذيب برسالات السماء .

★ ★ ★

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾﴾

المفردات :

ضياء : أى : ذات ضياء واشتعال ، والضياء : اسم مصدر من أضاء يضئ ، وجمع ضوء كسياط وسوط ، وحياض وحوض .

والقمر نورا : أى : ذا نور ، فيه إنارة ، والضوء والنور بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالاً بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسباً من غيره . ويدل على ذلك قوله : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ . (نوح : ١٦) . والسراج : نوره من ذاته ، والضياء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوس السحاب فهو سبعة أضواء ، وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلون فى عصر التنزيل .

أى : قدره ذا منازل . والتقدير : جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة ، فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان ، كما قال : ﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ قَدْرَهُ تَقْدِيرًا﴾ . (الفرقان : ٢) . وقال : ﴿الْقَمَرَ قَدْرَ نَافَ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس : ٣٩) . والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب بأسمائها .

ويبقى من الشهر ليلة : إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يوماً يحتجب فيها فلا يرى .

التفسير:

هـ-هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ... الآية .

خلق الله السماء ، وبسط الأرض ، ودبر نظام الكون ، وجعل الشمس مضيئة نهارًا والقمر منيرًا ليلا .

وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ . أى : وقدر سير القمر فى فلكه منازل ينزل كل ليلة فى واحد منها لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، وهى ثمانية وعشرون منزلا يرى القمر فيها بالأبصار ، وليلة أو ليلتان يحتجب فيها فلا يرى .

تَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِ وَالْحَسَابِ . أى : لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين ، وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام ؛ لضبط عبادتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية ، ولولا هذا النظام المشاهد ؛ لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر ؛ إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمري ، الذى يعرفه كل واحد بالمشاهدة .

ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانها فى جميع الفصول ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات من حارة وباردة ومعتدلة^(٣٢) .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله : الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ . (الرحمن : ٥) . وقوله سبحانه : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن حِوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا . (الإسراء : ١٢) .

مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ . ما خلق الله ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ونظام معاشهم فلا عبث ولا خلل - « كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق لا يكون عبثًا ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة ، بل تنظيم إله حكيم مدبر^(٣٣) » .

يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . يوضح الدلائل من حكم الخلق ، مفصلة متنوعة من كونية وعقلية ، لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل . باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الإنسان العجيب عبثًا ولا أن يتركه سدى ، وفى الآية تنويه بفضل العلم وكون الإسلام دينًا علميًا لا تقليديًا^(٣٤) .

٦- إِنَّ فِي أَنْخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... الآية .

فى حدودهما وتعاقبهما فى طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس والنظام الدقيق لهما ، وطبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون وعمل دينى ودنيوى .

وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار وأحوال البحار ، وأحوال المعادن وسائر المخلوقات .

لَا يَلَيْتُ لِقَوْمٍ يَشْكُونَ . لأدلة ناطقة لوجود الله ، ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان ، وفى تشريع العقائد والأحكام ، لقوم يتقون الله . ويخافون غضبه ، ويرجون رحمته ، ويتأملون فى بديع صنعة والتقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ أَلْهَاءٌ يُنْذِرُهُمُ النَّارُ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

المضردات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون الرجوع إلى الله تعالى .

ماؤاهم : مسكنهم ومقرهم .

التفسير :

٧- إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ .

هذه الآية والتي تليها تبين مصير من كفر بالبعث ، ومصير من غفل عن آيات الله .

لقد وصفهم الآية بأربع صفات :

١ - إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .

أى : لا يتوقعون لقاءنا يوم القيامة للحساب والجزاء : فقد خلت قلوبهم من الإيمان بالآخرة والعمل لها ، وعدم عمل أى حساب لها - وقريب من ذلك قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا . (الفرقان : ٢١) .

٢ - وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

لقد رضوا بالحياة الدنيا ، وألقوا زينتها ، ومتّعوا ، ولم يفكروا إلا فى تشبعهم فى زينة الدنيا والركون إليها ، والاغتراف من لذائذها وشهواتها وأعرضوا عن الآخرة وما فيها من نعيم مقيم .

قال الإمام الرازى : استغرقوا فى طلب اللذائذ الحسية ، واكتفوا بها ، وتفرغوا لها .

٣ - وَأَظْمَأْنُوْا بِهَا .

أى : سكنوا فيها سكون من لا يبرحها ، آمنين من المزعجات .

قال الإمام الرازى : اطمأنوا إلى الدنيا اطمئنان الشخص إلى الشيء الذى لا ملاذ له سواه .

فإذا كان السعداء يطمئنون إلى ذكر الله ، فإن هؤلاء الأشقياء ماتت قلوبهم عن كل خير ، وصارت لا تطمئن إلا إلى زينة الحياة الدنيا .

٤ - وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَابِتِنَا غَافِلُونَ .

لقد غفلوا عن آيات الله فى هذا الكون ، وعن آيات الله وشرائعه المنزلة على رسله ؛ فلم تتحرك قلوبهم إلى النظر أو التأمل فى هذا الكون البديع المنظم لينتقلوا من جمال الصنعة إلى جمال الصانع ، ولم تتحرك عقولهم للنظر فى الأدلة الشرعية والبراهين الداعية إلى الإيمان ، ولم يتزودوا ليوم الوعيد .

٨ - أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ آثَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : أولئك الذين تقدمت صفاتهم ، مقرّمهم وملجأهم الذى يلجئون إليه : النار وبئس القرار ؛ جزاء انشغالهم بالدنيا ، واستغراقهم فى التمتع بلذائذها والاستمتاع بلهوها وباطلها وإعراضهم عن الآخرة وعن العمل لها .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأُخْرُ دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

المضادات :

تجري من تحتهم : تجري من تحت قصورهم في الجنة .

دعواهم فيها : أي : دعائهم فيها .

التفسير :

يقابل الحق سبحانه بين عمل الكافرين للدنيا ، واستغراقهم في متعتها وشهواتها ، وبين إيمان المؤمنين الممزوج بالعمل الصالح فيقول :

٩ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

هؤلاء الذين آمنوا بالله إيماناً صادقاً ، وعملوا الأعمال الصالحة من العبادات والمعاملات والآداب ومكارم الأخلاق - هؤلاء يهديهم الله في دنياهم : فينير بصيرتهم وتكون سعادتهم في طاعة الله ومرضاته ، والبعد عن معصيته وإذا قام المؤمن من قبره : وجد أمامه صورة حسنة تبشره بالجنة وترشده إلى الصراط المستقيم : فيسأل صاحب الصورة : من أنت؟! فيقول له : أنا عمك الصالح : فيجعل عمله الصالح بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى : يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ .

والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار (٣٦) .

تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

أي : تجري من تحت قصورهم الأنهار في جنات النعيم والخلد ، وهذا مثل للتعتم والراحة والسعادة ، والانسجام في تلك المناظر الخلابة ، التي تأخذ بمجامع القلوب .

١٠ - دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ .

أي : يبدؤون دعاءهم وثناهم على الله بهذه الكلمة : سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ . أي : تنزيهاً وتقديساً لك يا الله ، أو اللهم ، إنا نسبحك .

قال الإمام الرازى : إنه لا عبادة لأهل الجنة ، إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه ، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف ، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى .

وَتَجِئُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .

وما يحيون به فى الجنة لفظ السلام ، الدال على الأمن والطمأنينة والسلامة فى كل مكروه ؛ وهذا السلام هو تحية الله لهم .

قال تعالى : تَجِئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوُوهُ سَلَامٌ . (الأحزاب : ٤٤) . وهو تحية الملائكة لهم عند دخول الجنة .

قال تعالى : وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّحُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ . (الزمر : ٧٣) .

وأهل الجنة يعيشون فى سلام وأمان بعيدين عن اللغو والآثام ؛ قال تعالى : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْلِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا . (الواقعة : ٢٥ ، ٢٦) .

وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : أن آخر دعائهم : أن يشكروا الله تعالى ؛ على ما أنعم عليهم من نعم ظاهرة وباطنة ، ويختتمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين .

قال ابن كثير : وفى هذا دلالة على أنه سبحانه هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ؛ ولهذا حمّد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وعند ابتداء تنزيل كتابه ، حيث يقول تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . (الأنعام : ١) .

ويقول سبحانه : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . (الكهف : ١) .

كما نجد أن حمد الله هو آخر كلام الملائكة ؛ قال تعالى : وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الزمر : ٧٥) .

﴿ وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ : لانتهى الأجل الذى قدره الله لعذابهم وأميتوا جميعًا وما أمهلوا لحظة واحدة .

لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لا يتوقعون الرجوع إلينا لإنكارهم البعث .

فِي طُغْيَانِهِمْ : الطغيان : مجاوزة الحد فى الظلم والمراد هنا : إنكارهم البعث وتكذيب الرسل وارتكاب ما يترتب على ذلك من المفساد والمواقات .

يَعْمَهُونَ : يترددون ويتحيرون .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ : وإذا أصابه أى ضرر .

دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا : تضرع إلينا وهو مضطجع على جنبه أو دعانا قاعدًا أو قائمًا ، طالبًا إزالته عنه .

مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ : أى : مضى واستمر على ما كان عليه قبل البلاء من التكذيب ، كأنه لم يلجأ إلينا لإزالة ما أصابه .

زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ : حسن للمتجاوزين الحد فى ارتكاب القبائح ما عملوه منها .

التفسير :

١١- وَلَوْ يَعْلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعَجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ... الآية .

تمهيد :

كان كفار مكة يتعجلون نزول العذاب بهم : استهزاءً بالنبي ، وتهكمًا بالعذاب ، واستهانة به .

قال تعالى : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا آيَاتٌ

أَيُّم . (الأنفال : ٢٢) .

فَرَدَّ الْقُرْآنَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .
(الأنفال : ٣٣)

فهم يستعجلون نزول العذاب عند بأسهم أو قنوطهم من الهداية ؛ ولكن الله تعالى لا يُعجل عقوبتهم في هذه الدنيا ، ويمنحهم الفرصة لعلمهم أن يتوبوا ، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن بالله .

المعنى : ولو يعجل الله لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتوقعون الرجوع إلى الله - لو يعجل لهم العذاب الذي كانوا يستعجلون وقوعه بهم ، مثل : إسراره بتحقيق الخير لهم عند استعجالهم به وطلبهم إياه .
لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ .

أى : لأُميتوا وأهلكوا في هذه الدنيا ، وما أمهلوا لحظة واحدة ؛ جزاء جراتهم .

كما قال تعالى : وَلَوْ يُوَاعِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَآبَةٍ . (فاطر : ٤٥) .
ولكنه سبحانه يمهلهم ويملى لهم ، ولا يعجل لهم الشر الذي طلبوه .

فَنَذَرَ الْآلِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى : فنترك الذين لا يتوقعون لقاءنا يوم البعث ، ولا يصدقون بيوم القيامة فيما هم فيه من طغيان الكفر والتكذيب ، يترددون فيه متحيرين ، ولا نعجل لهم عذاب الاستئصال ؛ تكريماً للنبي ﷺ ، ونمهلهم ونفويض عليهم النعمة مع طغيانهم ؛ إلزاماً للحجة عليهم .

وقد روى الإمام الآلوسى : أن الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال : أَلَلَّهُمْ إِنْ كَانَ قُلْدًا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

وقال الإمام الرأزي : «بَيَّنَّ سبحانه في هذه الآية : أنهم لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم ؛ لأنه تعالى لو أرسل ذلك العقاب إليهم ؛ لماتوا وهلكوا ، ولا صلاح في إمانتهم ، فربما آمنوا بعد ذلك ، وربما خرج من أصلابهم من كان مؤمناً ، وذلك يقتضى ألا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر » .

ومع أن الآية تشمل المشركين اشتمالاً أولاً ، فإن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فهي كذلك تشمل طائفة من الناس يتعجلون وقوع الشر بهم أو بأولادهم أو بأحبابهم في حالة الغضب أو الحزن منهم ؛ فيدعون على أنفسهم أو على أولادهم . والله تعالى من فضله ولطفه لا يعجل استجابتهم ، إذا دعوا على أنفسهم ، أو أموالهم وأولادهم . بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ؛ لأنه سبحانه يعلم منهم عدم القصد

إلى إرادة ذلك ؛ فلماذا لا يستجيب لهم فى هذه الحالة ، مع أنه يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة .

وقد اختار الإمام ابن كثير هذا الرأى فى تفسيره ؛ فذهب إلى أن الآية تخصّ المسلم الذى يدعو على نفسه أو ولده فى حال غضبه ، فلا يُعجل الله إجابته ؛ لطفًا منه ورحمة .

ثم قال الإمام ابن كثير :

ولكن لا ينبغي الإكثار من دعاء الإنسان على نفسه أو ولده ؛ كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو البزار فى مسنده عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم ^(٢٧) .

وقال ﷺ : « إني سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه » ^(٢٨) .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَيَذْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا . (الإسراء : ١١) .

أى : أن الإنسان إذا غضب أو انفعّل من ولده ؛ فإنه يدعو عليه بالشر مثل : المرض أو الفقر ، وكان الأولى والأوفق أن يدعو له بالهداية والتوفيق والخير ، ولكن الإنسان عجول يتعجل فى دعائه بالشر على أحبائه ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد .

وقد ورد فى هدى السنة النبوية : النهى عن دعاء الإنسان على ولده ؛ خشية أن تكون أبواب السماء مفتوحة ؛ فيستجاب الدعاء ، وينحرف الابن ، ويكون دعاء الأب سببا فى فساد الابن .

١٢- وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَاَ لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ...

من طبيعة الإنسان أن يلجأ إلى الله تعالى فى البأساء ، وأن ينسى ذلك فى النعماء ؛ فمن الناس من إذا نزل به الضر ؛ فزع إلى ربه داعيًا راجيًا .

قال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا حَبَابِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ كَانَ يَتُوسَّ . (الإسراء : ٨٣) .

وقال سبحانه : وَإِذَا مَسَّهُ الضَّرُّ فَذُوْ دُعَاءٍ عَرِيضٍ . (فصلت : ٥١) .

والآية مع كونها تتناول الكافر تناولاً أولياً ، فإنها تشمل كذلك المؤمن العاصى ، فهو فى حالة المرض والفقر والخطر يدعو ربّه ، صارخاً مستغيثاً متبتلاً راجياً فضله ، متبتلاً بذكره ، طارقاً باب مولاه بالليل والنهار ، فى النوم ، واليقظة والجلوس والقعود ، وفى جميع الحالات .

دَعَا لِحَبْسِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا .

أى : دعا الله تعالى حالة كونه مضطجماً لحبسه أو قاعداً أو قائماً وفى جميع أحواله ؛ لأن فائدة التردد فى القعود والقيام والرقاد ؛ تعميم الدعاء لجميع الأحوال .

قال الزمخشري : معناه : أن المضروب لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء ؛ حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا فى حالاته كلها ، سواء أكان منبطحاً عاجزاً عن النهوض ، أم كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أم كان قائماً لا يطيق المشى ، ويجوز أن يراد : أن من المضربين من هو أشد حالاً ، وهو صاحب الفراش ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ، ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء ، واستدفاع البلاء ؛ لأن الإنسان للجنس (٣٩) .

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ صَرْفٍ مِّنْهُ .

فلما كشف الله كربيه ، وأزاح عنه الضر والبلاء ؛ اندفع فى غمار الحياة ؛ ناسياً ما كان فيه من ضر وبلاء ، غارقاً فى بحار الغفلة كأنه لم يكن متلهفاً ، متبتلاً ، راجياً ، داعياً ، مستغيثاً فى وقت البلاء ، كثير الدعاء والرجاء .

قال الشوكاني : وهذه الحالة تتفق لكثير من المسلمين ؛ تلين ألسنتهم بالدعاء عند نزول ما يكرهون بهم ، فإذا كشفه الله غفلوا ، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة على إجابة دعائهم ، ورفع الضر ودفع المكروه (٤٠) .

كَذَٰلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُؤْمِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

زُينَ لهم الإعراض عن الدعاء ، والغفلة عن الشكر ، والاشتغال بالشهوات ، والجدير بالمسلمين أن يلجئوا إلى الله فى السراء أيضاً ؛ فإن ذلك أرجى للإجابة فى الضراء .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «تعرف إلى الله فى الرخاء ؛ يعرفك فى الشدة» .

١٣ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُم رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي

الْقَوْمَ الْمَجْرُمِينَ .

هذه الآية خطاب لأهل مكة ، وفيها تذكير وتحذير .

والمعنى : ولقد أهلكننا أهل القرون السابقة من قبلكم بسبب ظلمهم وكفرهم . مثل : قوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وفرعون وقومه ، والرومان واليونان ، وكل أمة كذبت رسل الله أو كفرت بنعمة الله.

فإنما أن يعذبها عذاب استئصال بالغرق أو الصاعقة والهلاك ، وإنما أن يعاقبها بالفقر واستيلاء الآخرين على أرضها ، وسيطرتهم على أملاكها مثل : قوم سبأ .

قال تعالى : ذَلِكَ جَزَاءُ لَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ . (سبأ : ١٧) .

وقال سبحانه : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ . لقد أرسل الله لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، وقدم مع الرسل المعجزات ، مثل : ناقة صالح ، وعصا موسى ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ؛ لكنهم كذبوا هذه المعجزات الظاهرة؛ التى لا ينبغي فيها التكذيب والكفران ، لأنها تدعوا إلى التصديق والإيمان . وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا .

وما صح لهم وما استقام أن يؤمنوا ؛ لعدم استعدادهم لذلك ؛ إذ أفسدوا فطرتهم ؛ باختيارهم الضلالة على الهدى .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

أى : مثل ذلك الجزاء الأليم الذى حلّ بالمكذبين ، من الأمم الماضية ؛ نجزي كل طائفة أجمعت وطلعت ويغت وكفرت بأنعم الله .

فى هذه الآية تهديد ووعيد لأهل مكة ولأمثالهم ؛ بأن يهلكهم الله إذا كذبوا محمداً ﷺ ، لكن حكمة الله اقتضت تأجيل وقوع العذاب بهم ؛ أملاً فى استغفارهم وتوبتهم .

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤)

المفردات :

خلائف فى الأرض : خلفاء فى الأرض بعد إهلاك المكذبين السابقين .

التفسير :

١٤- ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

وهذا خطاب لمن أرسل إليهم رسول الله محمد ﷺ : فقد كان من شأن الله وحكمته أن يرسل الرسل وينزل الكتب ، ويعاقب المكذبين جزاء ظلمهم وكفرهم وتكذيبهم للرسل ، ثم خاطب الذين أرسل إليهم محمد ﷺ بقوله :

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ . خلفاء فى الأرض بعد تلك القرون والأمم التى أهلكتنا : لننظر أتعملون خيراً أم شراً ، وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له .

وفى آيات أخرى بين الحق سبحانه : أن الخلافة فى الأرض والتمكين فيها : سببه العمل الصالح ، والاستجابة لأمر الله وقوانينه ونواميسه فى تمكين العاملين المجتهدين فى الخير ، والانتقام من الماهلين المتعاسين عن عمل الخير .

قال تعالى : وَلَقَدْ كُتِبَ لى الرُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادى الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

وقال عز شأنه : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . (النور : ٥٥) .

والله تعالى يستخلف قوماً بعد آخرين ؛ لينظر كيف يعملون خيراً أو شراً .

قال تعالى : الَّذِينَ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الملك : ٢) .

وقال عز شأنه : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمُ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) .

وجاء في صحيح مسلم : عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون ؛ فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » (متفق عليه)^(١٥) .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا أَتَيْتْ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٦ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾

المضردات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون مجيء البعث ، والمراد : أنهم ينكرونه .

ولا أدراكهم : ولا أعلمكم الله بالقرآن عن طريق الوحي به إلى .

فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أى : فقد أقمت بينكم زمنا طويلا من قبل نزول القرآن على .

لا يفلح المجرمون ، أى : لا ينجون مما يحذرون ولا يفوزون بما يطلبون .

التفسير :

١٥- وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ... الآيات .

تكشف هذه الآيات عن وجه مشركي مكة الذين كذبوا رسول الله ﷺ وعبدوا الأصنام ، ثم نزلت آيات القرآن تدعو إلى توحيد الله ونبد الأصنام والأوثان ، وتدعو العقول إلى التأمل والتفكير ، فى خلق هذا الكون العظيم ، وأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ؛ وعندئذ جاء كفار مكة إلى النبى ﷺ يطلبون منه تبديل آيات القرآن ؛ حتى يمكن الاستجابة لها أو التفكير فيها - طلبوا حذف الآيات التى تندد بعبادة الأصنام ، وطلبوا تبديل آيات الوعيد ، إلى آيات تقدم الوعد والجنة ، بدلا من التوعد بالنار .

والمعنى : وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَسْتَكْبِرُوا . تدعو إلى توحيد الله ونبذ الأوثان وإبطال الشرك ، وتشرح حقيقة الإيمان وتنفرد من الغرور والعصيان .

قَالَ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ .

جاء فى تفسير الألوسى عن مقاتل قال :

نزلت هذه الآية فى جماعة من قريش ؛ قالوا للنبي ﷺ : إن كنت تريد أن نؤمن لك ، فأت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ، وليس فيه ما يعيبها ، وإن لم ينزل الله تعالى عليك ذلك فقل أنت هذا من عند نفسك ، أو بدله فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، ومكان حرام حلالاً ، ومكان حلال حراماً .

والمعنى : وإذا تلى على المشركين آياتنا الواضحة ، المنزل عليك يا محمد : قالوا - على سبيل العناد والحسد - : ائت بقرآن آخر غير هذا القرآن الذى تتلوه علينا ، أو بدله بأن تجعل مكان الآية التى فيها ذم آلِهتنا ، آية أخرى فيها مدح لها .

قُلْ مَا يَكُونُ لِيَّ أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي .

كان المشركون يطعمون فى استجابة محمد لكلامهم ؛ وبذلك يتحول القرآن من أنه وحى من السماء ، إلى أن يكون كلاماً من كلام البشر ؛ والقرآن هنا يوجه الرسول ﷺ إلى إجابتهم ، وتوضيح حقيقة موقفه : فهو يبلغ عن الله ، وهو أمين على وحى السماء ، وما ينبغى له أن يبذل كلام الله ، بكلام من عند نفسه ؛ ومن جهتها ؛ وإنما هو مبلغ عن الله ، ملزم بهذا التبليغ .

قال تعالى : يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ . (المائدة : ٦٧) .

وقد بلغ الرسول كلام ربه ، وأدى هذه الأمانة .

إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُرْسِلُنِي .

أى : أنا أبليغ وحى الله إليّ ، بدون تحريف ولا تبديل ، وبدون زيادة أو نقصان ؛ فهذا وحى الله وأنا عبد الله ورسوله ، ما على إلا البلاغ .

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

إنى أخشى إن ارتكبت أى مخالفة أو عصيان لما أمر ربى ، عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم القيامة .

١٦- قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ .

أى : قل أيها النبى لهؤلاء المنكرين : عنادًا واستكبارًا : لو شاء الله تعالى ألا يجعلنى رسولاً إليكم ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ولا أعلمكم به ، ولا أخبركم به ، ولكنه شاء أن أتله عليكم ، وأن يعلمكم به بواسطتى : فأنا رسول مبلغ عن الله .

فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : مكثت فيكم وأقمت بينكم أربعين سنة قبل نزول القرآن علىّ ، شاهدتم أحوالى وأخلاقى ، وعرفتكم صدقى وأمانتى ، وعرفتكم أننى أسمى لم أجلس إلى معلم : فكيف أستطيع أن أجيء بهذا الكتاب المشتغل على التشريع والآداب والأخلاق وقصص الأولين وأخبار القيامة والبعث . أنى لأسمى مثلى أن يفصح عن كل هذا ، إلا إذا كان ذلك عن طريق الوحي ؟

أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أفلا تستخدمون عقولكم ، وتعرفون أن أمثال هذه الاقتراحات المتعنتة التى اقترحتها : لا يملك تنفيذها أحد إلا الله تعالى .

١٧- فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .

أى : لا أحد أظلم من رجلين :

الأول : من يفترى على الله كذبًا ، بأن ينسب إليه سبحانه ما هو برىء منه ، أو يبدل القرآن من عند نفسه وينسب ذلك إلى الله أو يقول على الله ويزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك .

والثانى : من كفر بآيات الله وكذب بوحي السماء .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .

أى : إن حال وشأن هؤلاء المجرمين أنهم لا يفلحون ، ولا يصلون إلى ما يبتغون ويريدون : فشتان بين محمد ﷺ الصادق الأمين المؤيد بوحي السماء ، المنزل عليه القرآن الصادق المعجز المتحدى به ، وبين مسيلمة الكذاب المدعى للنبوّة كذبًا : إن الفرق بينهما كما بين الشمس فى رابعة النهار ، وبين نصف الليل فى شدة الظلام : فالحق أبهج ، والباطل لجلج .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا
عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

المفردات :

اتنبنون الله بما لا يعلم فى

السموات ولا فى الارض ، أى : أتخبرون الله بشفعاء لا يعلمهم فى السماوات ولا فى الأرض ، والمراد :
نفى وجودهم إذ لو وجدوا لعلمهم الله سبحانه .

أمة واحدة : جماعة متفقة على الحق فى أصل الفطرة .

ولولا كلمة سبقت ، أى : ولولا قضاء الله بتأخير الفصل بين المحق والمبطل إلى يوم القيامة .

التفسير :

١٨- وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ... الآية .

هذه قصة أخرى من قصص هؤلاء المشركين ، الذين عبدوا اللات والعزى ومناة ، وزعموا أن هذه
الأصنام تشفع لهم فى الدنيا ، بالنعيم والسعادة والغنى والعافية ، وتشفع لهم فى الآخرة ، بدخول الجنة .
أخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة قال : كان النضر بن الحارث يقول : إذا كان يوم القيامة ! شغعت لى
اللات والعزى : فنزلت هذه الآية :

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ . أى : إن من شأن الإله المعبود أن ينفع صاحبه الذى يعبد
ويستجيب دعاءه ، ويدفع عنه المكروه والضر ، لكن هذه الأصنام التى يعبدونها لا تضرهم إن لم يعبدوها ، ولا
تنفعهم إن عبدوها : لأنها صماء لا تسمع ولا تعقل ولا تحس ولا تجيب ، وهى غافلة عن عبادتهم .

وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ .

إذا توجه القول إلى الكفار : بأن هذه الأصنام لا تسمع ولا تجيب ولا تنفع ولا تضر : قالوا : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا
لِقَرُّبُونَا إِلَى اللَّهِ وَنَقَى . (الزمر : ٣) : فهم شفعائنا عند الله ، أى : نتوسل بهم إلى الله : لإصلاح معاشنا فى الدنيا ،
وإصلاح معادنا فى الآخرة .

وحال هؤلاء المشركين إن دل على شيء ، فإنما يدل على فرط الحماقة والجهل : حيث تركوا عبادة الإله ، القادر الواحد الأحد ، النافع الضار : الفرد الصمد ، وتوجهوا بعبادتهم إلى ما لا يضر ولا ينفع .

قُلْ أَتُبْسُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ .

أى : قل أيها الرسول لهؤلاء الحمقى : إنكاراً عليهم وتوبيخاً لهم ، وسخرية منهم : أتخبرون الله تعالى بشيء لا وجود له أصلاً فى السماوات والأرض ، وهو أن الأصنام شفعاؤكم عند الله تعالى .

جاء فى تفسير التحرير والتوير ما يأتى :

ولما كان ذلك شيئاً اخترعوه من عند أنفسهم ، وهو غير واقع : جعل اختراعه بمنزلة أنهم أعلموا الله به ، وكان لا يعلمه فصار ذلك كناية عن بطلانه : لأن ما لم يعلم الله وقوعه فهو منتف ، ومن هذا قول من يريد نفى شيء عن نفسه : ما علم الله هذا منى ، وفى ضده قولهم فى تأكيد وقوع الشيء : يعلم الله كذا حتى صار عند العرب من صيغ اليمين ^(١٧) .

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وهى اعتراض تنذيل من جهته سبحانه وتعالى أى : تنزيهاً لله تعالى عن إشراكهم الذى بنوا عليه هذا القول الزائف ، وعن الشركاء الذين يشركونهم فى العبادة معه تعالى .

١٩- وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الإنسان بغيرته ينزع إلى توحيد الله الخالق .

أى : وما كان الناس كافة من لدن آدم عليه السلام : إلا متفقين على الحق والتوحيد ، وظلوا كذلك حتى أقوى الشيطان فريقاً منهم فكفر ، وثبت الآخرون على التوحيد ، الذى فطروا عليه : فخالف كل من الفريقين الآخر .

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

شاء الله ألا يهلك المبطلون فى هذه الدنيا : بل يمهلهم بعض الوقت : عليهم أن يتبينوا الحق والهدى وهذه منة من الله ورحمة .

فقد خلق الإنسان بيده ، وأسجد له الملائكة ، وميزه بالعقل وحرية الاختيار ، وأخر عنه العذاب والأخذ بغتة ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، وأخبره بما أصاب المكذبين من الهلاك ، كل ذلك ليكون لدى الإنسان فرصة مناسبة : للتأمل والتفكير والتدبر ، واختيار الحق والبعد عن الباطل .

جاء فى تفسير التحرير والتنوير :

وجملة : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ .

إخبار بأن الحق واحد ، وأن ذلك الاختلاف مذموم ، وأنه لولا أن الله أراد إمهال البشر إلى يوم الجزاء لأراهم وجه الفصل فى اختلافهم ؛ باستئصال المبطل ، وإبقاء المحق ، وهذه الكلمة أجملت هنا ، وأشير إليها فى سورة الشورى بقوله : وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِّىَ بَيْنَهُمْ . (الشورى : ١٤) .

والأجل : هو أجل بقاء الأمم ، فالحقضاء بينهم إذن مؤخر إلى يوم الحساب ، وأصرح من ذلك فى بيان معنى (الكلمة) قوله فى سورة هود : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ رَبُّكَ كَلِمَةً رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود : ١١٨ ، ١١٩) .

لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ لِيَمَّا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى : لحكم بينهم عاجلاً فى الدنيا بإهلاك المبطلين .

★ ★ ★

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

التفسير :

٢٠- وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ... الآية .

تعنت المشركون تعنتاً شديداً أمام دعوة الإسلام ، والآية تحكى جانباً فى تعنتهم وامتناعهم عن قبول دعوة الإسلام ، حتى يشاهدوا أية أى معجزة مثل : معجزات الرسل السابقين ؛ كما حدث لسيدنا إبراهيم ، ونوح ، وموسى ، وعيسى .

وقد جعل الله القرآن معجزة رسولنا ﷺ ، وجعله معجزة عقلية تشريعية تخاطب العقل والفكر وتحكى تاريخ الأمم ، وتبين سنن الله فى الكون والحياة ؛ ليكون إيمان الناس عن بيئة ودليل .

قال تعالى : وَفَرَأْنَا هَٰؤُلَاءِ قُرْآنَهُ يُقْرَأُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنُزِّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . (الإسراء : ١٠٦) .

فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ .

أى : إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة ، وعلقتم إيمانكم بنزوله ؛ من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ولا علم لى به ، فإن كان قدر إنزال آية على ؛ فهو يعلم وقتها ، وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى .

فانتظروا هذا الغيب ، لكننى منتظر ما يفعله الله بكم من نكال فى الدنيا أو عذاب فى الآخرة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة تحكى تعنت المشركين فى طلب معجزات مادية ومنافع دنيوية ؛ حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ .

قال تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا • أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا • أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتَى بِنَا إِلَٰهَةٌ وَالْمَلٰٓئِكَةُ قٰٓئِلًا • أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزَيْكٍ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا .

(الإسراء : ٩٠ - ٩٢)

وقد أعطى الله رسوله معجزات أخرى لم تكن للتحدى ، مثل : استجابة بعض أذيعته ﷺ : كشفاء المريض ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وغير ذلك من المعجزات ؛ لكن حجته على نبوته كانت كتاب الله المعجز بهديته وعلومه .

روى الشيخان والترمذى : عن أبى هريرة مرفوعا : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله ؛ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» ^(١) .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنۢ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهْمٍۭ إِذَا هُمْ مَكْرُوفٌۭ ۚ ؕ أَيَاۤئِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ ۝٦٠ ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٦١﴾

المفردات :

أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً : أنعمنا عليهم بالرحمة والمراد بها : الصحة والسعة .

مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ : أى : من بعد ضراء أصابتهم حتى أحسوا بشدتها عليهم .

إذا لهم مكرهى آياتنا ، المراد بالمكر هنا : الطعن فى آيات الله وعدم الاهتمام بها ، والاحتياال فى ردها .
والمكر فى الأصل : تدبير الكيد فى خفاء .

قل الله أسرع مكرا ، المراد : بيان أن الله أعجل عقوبة وأشد أخذًا .

التفسير :

٢١ - وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ... الآية .

سبب النزول :

روى البخارى ومسلم : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ : دعا عليهم بسنين كسنى يوسف : فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع .

فأنزل الله تعالى : فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتَى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الدخان : ١٠ ، ١١) .

فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك ربماهلكوا ؛ فادع الله لهم ، فدعا لهم ؛ فكشف الله عنهم العذاب ، ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول ، يطعنون فى آيات الله ، ويعادون رسوله ويكذبونه !

وعلماء القرآن يذكرون : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ فالآية تسجل طبيعة الناس عامة؛ وهى التضرع والبكاء فى البأساء ، فإذا رزقهم الله الغنى بعد الفقر ، واليسر بعد العسر ، والهناء بعد الشقاء ؛ لم ينسبوا هذه النعم إلى الله تعالى بل نسبوها إلى الصدفة أو أهليتهم لهذه النعم ، ودبروا كيدًا ومكرًا للتخلص من شكر الله على النعماء . والمراد : أنهم انصرفوا عن شكر الله وحمده ، وانشغلوا بأهوائهم ، وقريب من هذا المعنى ما سبق فى هذه السورة : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحِيزِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ . (يونس : ١٢) .

جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

والمعنى : وإذا أنعمنا على هؤلاء الكفار وأمثالهم بنعمة الصحة والسعة ، وأفضنا عليهم أنواع الخير ؛ ورحمناهم بكشف ما نزل بهم من المصائب الأليمة ، والمكاره الشديدة التى خالطتهم وأحاطت بهم ؛ حتى أحسوا بشدة وطأتها عليهم ، وسوء أثرها فيهم ، إذا رحمناهم بكشفها ؛ سارعوا سرًا وفى خفاء إلى تدبير ضروب الكيد لآياتنا ؛ التى أنزلناها على رسولنا محمد - ﷺ - واحتالوا فى دفعها وبالفوا فى تكذيبها . اهـ .

قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا .

أى : الله سبحانه وتعالى أقوى أخذًا للمكذبين وأشد إهلاكًا للماكرين ، فإن يمهلكم حتى تظفروا بمحمد ﷺ ، وتناولوا منه بمكركم وكيدكم ، بل إن الله سيدبر حفظه ونصره وحمايته ، وقد دبر المشركون كيدًا ومكرًا لرسول الله ﷺ ليلة الهجرة فدبروا حبسه أو نفيه أو قتله ، بيد أن الله دبر نصره وحفظه ؛ فأمره بالهجرة إلى المدينة وأعقب ذلك بالنجاح والنصر المبين .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ .. (الأنفال : ٣٠) .

ونسبة المكر إلى الله تعالى من باب المشاكلة وهى شىء طريف فى اللغة العربية ، مثل قول الشاعر :

قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبعه قلت : اطبخوا لى جبة وقميصاً

إِنْ رُسُلَنَا يَكْفُرُونَ مَا نَمَكُرُونَ .

أى : إن الحفظة من الملائكة الكرام الكاتبين يسجلون عليكم أعمالكم وكيدكم ومكركم ، ويخبرون بها الله سبحانه وتعالى حتى يجازيكم عليها .

وفى هذا دليل على تمام الضبط والحفظ والعناية ، وأن كيدهم ومكرهم لن يخفى على الله سبحانه .

قال تعالى : أَخْضَلُ اللَّهُ وَنَسُوهُ . (المجادلة : ٦) .

وقال سبحانه : وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

﴿هُوَ الَّذِي يَسِّرُ كُرْفِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ رِيحٍ طَبَقَتْهُمُ فَغُرُّوا
 بِهَا جَاءَ تِهَارِيحٌ عَصِيفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
 اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِنِ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ
 إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّكُمْ رَجِعْتُمْ فَذُنُوبَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
 أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ
 زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَنْهَاهَا أُمْرًا لَيْلًا أَوْنَحَارًا
 فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المضردات :

حتى إذا كنتم في الفلك ، في السفن في البحر .

جاء تهاريج عاصف ، شديدة .

وظنوا أنهم أحيط بهم ، أن الهلاك قد أحاط بهم ، وأحرق بهم .

مخلصين له الدين ، دون آلهتهم وأوثانهم .

البيد ، الطاعة لا يدعون سواه .

فلما أنجاهم ، يعنى : الذين أحيط بهم .

إذا هم يبالغون ، يتجاوزون أمر الله إلى الكفر والعصيان .

إنما بغيتكم على أنفسكم ، إياها تظلمون ، وعليها تعدون ، لما توجبون عليها من سخط الله ونقمته .

متاع الحياة الدنيا ، إنما هو متاع لكم في الحياة الدنيا .

فاختلط به نبات الأرض ، فنبت بذلك المطر أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض .

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، زينتها وبهاءها .

وازيـنت ، تزينت .

وظن أهلها ، أهل الأرض .

قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، عَلَى مَا أَنْبِتَتْ .

أَمَرْنَاهَا : قَضَاؤُنَا بِهِلَاكِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَبَاتٍ .

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ، فَجَعَلْنَا مَا عَلَيْهَا مَقْطُوعًا مَقْلُوعًا مِنْ أَصْلِهِ .

كَانَ لَمْ تَعْنِ : كَانَ لَمْ تَعِشْ أَوْ كَانَ لَمْ تَنْعَمْ .

يقول : كَانَ لَمْ تَكُنْ تَكُنْ تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتة قائمة على الأرض

قبل ذلك بالأمس .

التفسير:

٢٢ - هُوَ الَّذِى يُسِرُّكُمْ فِى الْبَحْرِ وَالْبَحْرِ ... الْآيَةُ .

الله تعالى يمدكم بتوقيفه وحفظه عند سيركم فى البحر والجو ، وهو صاحب الفضل أن مهد لكم الأرض وسخر لكم البحر ، ويعرض القرآن لوحة حافلة بالحياة والحركة مليئة بالانفعالات ، هى صورة ركب فى سفينة ، تسير رخاء وبريح طيبة يفرح بها الراكبون ، ثم فاجأهم موقف خطير يحتوى على رياح عاصفة ، وأمواج عالية ، واغتم البحر واشتدت الأزمة ، واقترب الموت وساد الفزع والخوف .

فى هذه الشدة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله ، مخلصاً له الدعاء والنداء ، متضرعاً إليه فى البأساء ، متردداً إليه فى شدة الاضطراب والخوف .

قال تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ . (الإسراء : ٦٧) .

وهذا دليل جديد من دلائل الألوهية - دليل الدعاء والالتجاء إلى هذه القوة الغيبية فى الشدة والاضطرار ، وهم يناشدون الله ملحين فى الدعاء : لئن تفضل عليهم بالنجاة ، وأنقذهم من براثن الموت ؛ ليخلصن له العبادة وليشكرنه على نعمه ، شكراً يليق بذاته الكريمة ، فلا يشركون معه فى العبادة أحداً ، وليفردنه بالعبادة كما أفردوه بالدعاء .

٢٣ - فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُرونَ فِى الْأَرْضِ يَغِيرُ الْحَقُّ

فلما أنجاهم الله من هذه الشدة ، ومن عليهم باليسر بعد العسر ، وبالفرج بعد الكرب ، وأعادهم إلى البر سالمين غانمين ، إذا بهم ينسون عهدهم ، وينقضون ميثاقهم ، ويسرفون فى البغى والعدوان ، ويتسلطون على عباد الله ظلماً وعدواناً ، وينسون حق الله عليهم ، وحق العدالة والإنسانية ، فحق الله عليهم : أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد : أن ينصفوهم من أنفسهم وألا يتطاولوا عليهم بالظلم والبغى والعدوان .

وقد رددت آيات القرآن هذا المعنى ، فكشفت عن طبيعة الإنسان وهى الالتجاء إلى الله فى الشدة ، والإعراض عن الله فى الرخاء والنعمة .

قال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَغْرَضَ وَنَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . (نصمت : ٥١) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (يونس : ١٢) .

وقال تعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا رَبَّهُ مُبِينًا إِلَيْهِ لَمَّا إِذَا حَوَّلَهُ رِيقَهُ مَنَّةً نَّسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَىٰهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لَهُ آتَادًا يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ آثَارٍ . (الزمر : ٨) .

وينبذ القرآن الناس إلى أن البغى لا يدوم ، فللظالم يوم يعض فيه على يديه ، والبغى مرتعه وخيم .

قال تعالى : يَتْلُوهَا أَتَّاسٌ إِنَّمَا يُغِيكُم عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ . (يونس : ٢٣) .

فالظالم يظلم نفسه ، ويعرضها للحساب والعقاب ، وهو الذى سيتحمل مسئولية هذا الظلم فى يوم الحق والجزاء .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . (ال عمران : ٣٠) .

مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . أى : إنما هو لكم متاع فى الحياة الدنيا الفانية المحدودة^(١٠) ، أى : أن البغى عاقبته وخيمة على الباغى ، ومتعته محدودة بهذه الحياة ، أو أن الباغى يبغى على إنسان مثله ، ويقضى متعة محدودة ، ثم يبغى عليه إنسان آخر فذلك شأن الدنيا ، تهاوش وتناوش ، وتنازع البقاء وتنافس فى متع الدنيا والعدوان على الآخرين ، وهناك قصاص عادل من رب الأرض والسماء .

لَمْ يَلَيْتَا مَرَّجَعُكُمْ .

ثم يقف الإنسان أمام الله ليس بينه وبينه حاجب ولا ترجمان فيسأله عما قدم فى دنياه ، وعن نقضه عهد الله ، ويخبره بحصيلة عمله فى هذه الحياة .

فَتَنْبِتْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

وقد صرح القرآن بهذا المعنى فى كثير من آياته مثل قوله سبحانه : أَخْضَلَهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (المجادلة : ٦) .

وقوله : **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُحْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا** (الكهف : ٤٩) .

٢٤ - **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... الْآيَةِ .**

من شأن القرآن أن يضرب الأمثال : تشبيها للمعقول بالمحسوس ، وإبرازاً للمعنى المقصود فى صورة حسية مجسمة يراها الناظر ويتأملها .

ومن هذه الأمثال : تشبيه الدنيا فى إقبالها وجمال بهجتها وحسن منظرها ، ثم فى سرعة تحوّلها وانتهاء أمرها ، بحال المطر ينزل من السماء فيختلط بالنبات ، ثم يثمر النبات وينمو ، وتزدهر الزروع والثمار ، بما يأكل منه الناس والأنعام وتدب الحياة فى الأرض ، وتعمها الخضرة والجمال ، ويصبح وجهها كالسباط السندسى ، وترى الأرض فى أبهى حلتها وزينتها ، كالعروس الحسناء ليلة زفافها ، أى : أن جنى الثمرة أصبح وشيكاً ، وقطف الثمار صار قاب قوسين أو أدنى .

فيإذا نظر الزارع إلى أرضه : أعجبه الزرع ومئى نفسه بيوم الحصاد وظن أن الزرع لن يقلت من يده ، فهو قادر على جنى الثمرة فى يوم قريب .

ثم حدثت المفاجأة : فجاء أمر الله وقدره ، وأرسل بأسه وعقابه على هذا الزرع ، فصار يابساً بعد الخضرة والنضارة ، وتحول العرس إلى ماتم وموسم حصاد الزرع إلى حصاد الندم !!!

كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ .

نبين الحجج والأدلة ونوضح الأمثال .

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

فيعتبرون بهذا المثل ، فى سرعة زوال الدنيا عن أهلها ، مع اغترارهم بها ، وتغللتها من بين أيديهم ، والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا أقبلت على رجل أعارته محاسن غيره ، وإذا أدبرت عن رجل سلبته محاسن نفسه .

وقد ضرب القرآن هذا المثل فى كثير من الآيات محذراً من الاغترار بالدنيا ، مبيناً سرعة نهايتها وفجأة تحولها : قال تعالى : **وَأَمْضِ رَبُّ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَبِيبًا ثَلْجًا دَرَّةٍ أَلْوَنُ الرِّيحِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا * أَلَمْ آتِ الْبَنُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَآلَيْقِلَّتِ الْأَنْبِلُحَتُّ**

خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا . (الكهف : ٤٥ ، ٤٦) ، وتجد هذا المعنى فى الآية ٢١ من سورة الزمر ^(٤٦) كما تجده فى الآية ٢٠ من سورة الحديد ^(٤٧) .

وجهة نظر :

بعض العلماء يرى فى هذه الآية دليلاً على نهاية الكون ، واحتمال هذه النهاية فجأة بين عشية وضحاها ، عندما يظن الإنسان أنه امتلك ناصية الكون ؛ وأصبح قادراً على تحطيم الذرة ، أو إطلاق صاروخ إلى القمر ، فإن ذلك لن يمنع إنهاء حياته ، وإنهاء حياة الكون عندما تتعلق بذلك مشيئة الله وإرادته والمتخصصون من علماء الطبيعة يرون أن عمر الكون محدود فالكون موجود من عدم ، وستنتهى حياة هذا الكون بحسب قوانين الطبيعة .

يقول الأستاذ الدكتور : زغلول النجار متحدثاً عن النجوم :

وتختلف النجوم فى أحجامها وألوانها ، وفى درجات حرارتها ، ويعتقد العلماء أن النجوم التى فى السماء تختلف اختلافاً كبيراً فى أعمارها ، وأنها تمر بدورة تشبه دورة الحياة على الأرض ، فهي تبدأ نجوماً زرقاء حارة ، ثم تصير بيضاء فصفراء ، ثم تصير فى آخر الأمر نجوماً باردة حمراء . والنجوم كلها تتحرك فى الفضاء الكونى فى اتجاهات ثابتة محددة .

ويتحدث فى مكان آخر عن النجوم والكواكب فيقول :

وبالسماء ما يعرف باسم النجوم البيضاء القزمة ، ومادتها ذات كثافة هائلة ، ويعتقد بأنه دور لشيخوخة فى حياة النجم العادى ، وفى مادة هذه النجوم القزمة ، يعتقد أن الألكترونات فى حالة انحلال بمفهوم نظرية الكم وحتى بمفهوم النظرية النسبية فى بعض الحالات ، وهناك أيضاً حداً أعلى لكتلة النجم التى تكون فى وضع اتزان ميكانيكى فى مثل هذه الحالات .

ويتحدث عن الشمس فيقول :

وتبلغ درجة حرارة السطح الخارجى للشمس ستة آلاف درجة مئوية تقريباً ، بينما يتزايد اتجاه مركزها إلى حوالى عشرين مليون درجة مئوية ، وبالتحليل الطيفى لأشعة الشمس تبين أن الشمس تحتوى على نفس العناصر التى تتكون منها الأرض ، ولكن بنسبة متفاوتة كثيراً ، حيث يكون الهيدروجين معظم كتلة الشمس .

والشمس فى تمدد مستمر ، ولولا ذلك لانفجرت كقنبلة هيدروجينية هائلة ، والشمس تشع أضواءها فى الفضاء المتسع منذ نشأتها ، وهى تفقد من طاقتها فى الثانية الواحدة ما يعادل خمسمائة وثمانية آلاف مليون مليون مليون قوة حصان .

ولما كان للطاقة كتلة ؛ فإن الشمس تفقد من كتلتها ما يعادل خمسة ملايين من الأطنان فى كل ثانية ، وعلى ذلك فقد حسب أنه بعد خمسة آلاف مليون سنة من الآن ستتوهج الشمس أكثر من ذلك ألف مرة ويزداد حجمها مائة مرة ، ثم بعد ١٥ ألف مليون سنة من الآن ستتحول الشمس إلى ما يعرف بالنجوم البيضاء القزمة ، وحينئذ تنطفئ جذوتها ويخبو نورها ، وهذا بالطبع إذا استمرت الأمور فى إطارها العادى دون طارئ خارجى يتدخل من إرادة عظمى تهيمن على هذا الكون وتسيره ^(١٨) .

لقد أخبر القرآن الكريم : أن الدنيا محدودة الأجل ، وإذا جاء يوم القيامة ؛ انشقت السماء ، وامتدت الأرض ، ونسفت الجبال ، وفجرت البحار ، وكورت الشمس ، وانكدرت النجوم .

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبُرُزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِطُهُمْ مِنْ طَبَارِقَ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ * لَيَجْزِي اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .
(إبراهيم : ٤٨ - ٥١)

★ ★ ★

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

التفسير :

٢٥ - وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ... الآية .

بعد أن بين لهم زوال الدنيا وسرعة تغييرها ؛ دعاهم هنا إلى العمل للأخرة : المؤدى إلى دخول الجنة . والمعنى : والله يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح ، والمصارعة إلى الخير ؛ فإن ذلك يؤدى إلى الجنة . وهى دار السلام ، وسميت الجنة دار السلام ؛ لسلامتها من الآفات والشوائب ، والنقصات والأكدار ، فالحمد تعالى حثنا على طاعته ، وحذرنا من معصيته ، وأمرنا بالجهاد وبذل النفس والمال فى سبيل الله .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ . (التوبة : ١١١) .

وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

أى : ويرشد من أراد هدايتهم إلى طريق معتدل لا عوج فيه وهو الإسلام والعمل بشرائعه .

★ ★ ★

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

المفردات :

الحسنى : أى : المثوبة الحسنى فى الجنة ، وهى تتفاوت حسب تفاوت درجات الإحسان .

يرهق : يغشى ويغطى .

قتر : أى : غبرة فيها سواد كالقتر ، ومن معانيها فى اللغة: الدخان الكثيف من شواء أو فحم أو حطب أو غيره .

التفسير :

٢٦ - لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... الآية .

أى : للذين أتقنوا عملهم فى الدنيا الجزاء الحسن فى الآخرة وهو الجنة . والزيادة : هى رضوان الله تعالى ورؤية الله عز وجل .

روى أحمد وأحمد ومسلم وجماعة من الأئمة : عن صهيب أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ؛ فيقولون: وما هو؟ ألم يقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا عن النار؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم»^(١) .
وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ .

ولا يعلو وجوههم شئ مما يغشى وجوه الكفار من الغبرة التى فيها سواد ، والهوان والصغار . أى : لا يحصل لهم إهانة فى الباطن ولا فى الظاهر وفى شأن أهل النار .

قال تعالى : وَوُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . (عبس : ٤٠ ، ٤١) .

وقال سبحانه : وَوُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِهَا خَشِيعَةٌ . (الغاشية : ٢ ، ٣) .

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى : أولئك السعداء هم المقيمون فى الجنة إقامة دائمة كأنهم أصحابها ، وهم خالدون فى الجنة خلوداً أبدياً ، لا خوف معه ولا زوال .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات :

كسبوا السيئات : عملوا المعاصي من كفر وغيره .

من عاصم : من حافظ ومانع .

أغشيت : غطيت .

التفسير :

٢٧ - وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ... الآية .

أثاب الله المتقين بالحسنى وزيادة ، ثم عاقب مرتكب السيئة بمثل ما ارتكب ، فالجزاء الحق من جنس العمل ؛ فمن ارتكب السيئات جازاه الله على كل سيئة بمثلها ، أى : بمقدارها فى الصغر والعظم ، بدون زيادة .

قال تعالى : مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا . (الأنعام : ١٦٠) .

وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ . أى : يغشاهم الهوان الذى يلف وجوههم ونفوسهم .

قال تعالى : وَوُجُوهُ يُؤْمَلُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ . (عبس : ٤٠ - ٤٢) .

فشدة العذاب قد أدرت فى نفوسهم وأرهمها بالمذلة والهوان ، نعوذ بالله تعالى من حال أهل النار !

قال تعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غَشْيِينَ مِنَ الدَّلِّ . (الشورى : ٤٥) .

مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ .

أى : ليس لهم من دون الله منقذ أو مدافع يحميهم من عذابه .

كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا .

كأنما ألبست وجوههم أجزاء أغشية من سواد الليل المظلم ؛ لفرط سوادها وظلمتها ، فالسواد قد علا

وجوههم ، وتراكم السواد طبقات فوق طبقات ، وفيه تعبير عن ظلام النفس وظلام الوجه ، ومن حكمة الله أن ظلام النفس يظهر أثره على ظلام الوجه .

قال تعالى : **يَوْمَ نَبِّضُ وُجُوهَ تَسْوَدُ وَوُجُوهَ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** . وَأَمَّا الَّذِينَ آتَيْنَتْهُمُ رَحْمَةُ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (آل عمران : ١٠٦ : ١٠٧) .
وقال الشوكاني :

كَأَنَّمَا أَغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ؛ لشدة ما يغشاها من دخان النار وسوادها . اهـ .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات ، هم أصحاب النار لا انفكاك لهم عنها ، وهم فيها خالدون خلوداً أبدياً لا نهاية له . وفى الآيتين صور من كمال الرضوان للمؤمنين ، وصور راتعة من الأدب الرفيع فى ألوان العذاب التى تحيق بالكافرين .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المقررات ،

هزيلنا ، فرقنا وفصلنا .

التفسير ،

٢٨ - وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ ... الآية .

هذا مشهد فاصل من مشاهد يوم القيامة ؛ حيث يُحْشَرُ العابد والمعبود لسؤالهم على رؤوس الخلائق ، ثم يؤمر الجميع بالوقوف فى أماكنهم ؛ استعداداً للسؤال .

قال تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . (الصافات : ٢٤) .

فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ . أى : فرقنا بين العابدين والمعبودين ، وانقطع ما كان بينهم فى الدنيا من صلوات وآمال ، حيث كان المشركون يعبدون الشركاء على أمل شفاعتهم ، وهم الآن قد ينسوا من نفع هذه الأصنام وابتعد المشركون عن اللجوء إليها .

وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ .

أى : لم نأمركم بعبادتنا ، وإنما عبدتم هواكم وضلالكم ، وشياطينكم ، الذين أغووكم ، أمرؤكم بعبادتنا فأطعتموهم ، وفى هذا تهديد ووعيد ، وأنه تتبدد حينئذ آمال المشركين فى شفاعة الشركاء .

والشركاء : هم كل من عُبد من دون الله تعالى ، من صنم وشمس وقمر وملك وإنسى وجنى .

وتبدرو الأصنام وما فى حكمها من عبادة المشركين ، إما أن يكون بلسان الحال ، وإما أن يكون بلسان المقال ؛ بأن ينطقها الله الذى أنطق كل شىء .

قال تعالى : إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . (البقرة : ١٦٦).

٢٩ - فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغُلَافِلِينَ .

أى : إن الله يشهد بيننا وبينكم ، وهو أعظم شهيد تكفينا شهادته بأننا ما رضينا عن عبادتكم ، ولأمرناكم بها ، ما كنا عن عبادتكم إلا غافلين لا نسمع ولا نبصر ولا نقول ، ؛ لأننا كنا جماداً لا روح فىنا .

★ ★ ★

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (٢٠)

المضردات :

تبلو ، تعرف يقينا ما قدمت .

التفسير :

٣٠ - هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ... الآية .

عندئذ فى الآخرة بعد أن تبرأ الشركاء ممن عبدوهم ، وغاب عن المشركين من كانوا يأملون فى شفاعتهم ، يظهر لكل نفس ما قدمت من عمل فى هذه الدنيا ، وأى هذه الأعمال تثاب عليه يوم القيامة ، وأى هذه الأعمال تعاقب عليه .

قال الشوكانى : أى : فى ذلك الموقف تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل .

وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مُوَلِّئُهُمُ الْحَقَّ .

أى : رجع المشركون يوم القيامة إلى الإله الحق الذى كان يرزقهم ويطعمهم ويخلقهم ويميتهم ويحييهم دون ما اتخذوا من الشركاء .

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

أى : وغاب عنهم وذهب عنهم ما كانوا يدعون زوراً ويهتأناً من الشفعاء والشركاء والآلهة ؛ فلم تنفع ولم تشفع .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣١)

المفردات :

يدبر الأمر : يصرف شأن الكائنات بنظام دقيق وحكمة بالغة .

التفسير :

٣١ - قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... الآية .

تناقش هذه الآية موقف المشركين ، فى الانصراف عن عبادة الله إلى عبادة غيره ، فتقول لهم :

من ينزل لكم رزق السماء بالأمطار والهواء ، والشمس والقمر والنجوم ويسخر هذا الكون ؟ ومن يرزقكم من الأرض بالنبات والحيوان والطيور والأسماك ؟ فلا شك أن هذا الرزق كله من عند الله ؛ تكريماً لكم ، وحفظاً لحياتكم .

أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ .

أى : أخبرونى من يملك أداة السمع وما أعد فيها من أسباب إدراك المسموعات ؟ ومن يملك أداة البصر وما هيئت به لإدراك المبصرات ؟ وخصّ السمع والبصر ؛ لأنهما أهم الحواس ، وأداة تحصيل العلوم .

وقد جاء لفظ السمع مفرداً ، ولفظ الأبصار جمعاً ؛ لأن السمع يتناول نوعاً واحداً هو الأصوات ، أما الأبصار فتتناول الأحجام والأبعاد والألوان والأشكال .

وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .

أى: من ذا الذى يملك الحياة والموت فى العالم كله؛ فيخرج الأحياء من الأموات، والأموات من الأحياء، فيخرج الليل من النهار، والنهار من الليل، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن؟ من يملك إخراج النبات من الأرض، ومن يملك إخراج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والطير من البيضة، والبيضة من الطير؟

وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ .

أى: من يتولى تدبير الأمر فى هذا الكون فيرفع السماء ويبسط الأرض ويرسى الجبال، ويسخر الشمس والقمر، ويمسك بزمام هذا الكون ويحفظ نظامه ومسيرته؟

ومن يجيب الدعاء، ويحقق الرجاء، ويشفى المريض ويعافى المبتلى ويغنى الفقير ويفقر الغنى؟ ومن بيده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير؟

فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ .

أى: سيقولون الله وحده هو الذى فعل كل ذلك .

فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

أى: إذا أقروا بأن الله هو الخالق الرازق، المنعم المدير، المتفرد بالملك والوحدانية؛ فقل لهم يا محمد: أفلا تتقون الله فتفردوه بالعبادة؟

★ ★ ★

﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمُتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

المفردات :

فأنى تصرّفون : أى : فكيف تتحولون عن الحق .

فسقوا : خرجوا عن طاعة الله ، وأصل الفسق: الانسلاخ عن الجلد ، ومنه فسقت الرطبة عن قشرها ، أى : انسلخت منه ، والفاجر : فاسق ؛ لانسلاخه عن طاعة الله .

التفسير:

٣٢- فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ... الآية .

أى : هذا هو الإله الخالق الرازق المبدع ، مالك الملك ، هو الإله الحق الذى ينبغى أن نتوجه جميعاً إليه بالعبادة .

فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .

أى : ليس بعد ترك الحق إلا الضلال ، وهو إشراك الأصنام مع الله فى العبادة وهو أمر لا يختاره عاقل .

فَأَنى تُضْرَفُونَ .

أى : كيف تتحولون عن الحق إلى الضلال ؟ وكيف تصرفون عن الهدى إلى الباطل ؟! ذلك ما لا يقبله عقل ولا منطق .

٣٣- كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : كما ثبت أن الحق ليس بعده إلا الضلال ، ثبت حكم الله تعالى على الذين تمردوا على طاعته ، وعتوا عن أمره ، واستمروا على كفرهم ؛ عناداً ومكابرة . أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . فقد سلب الله عنهم الهدى ، ولم يمنحهم التوفيق ؛ جزاء كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : وَمَا ظَنَّهُمُ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَنفُسَهُمْ يَظُنُّونَ . (آل عمران : ١١٧) .

★ ★ ★

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (٢١)

المضردات :

أنسى ، كيف .

تؤفكون ، أى : تصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير :

٣٤- قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... الآية .

يستمر القرآن الكريم فى هذه المناقشة الفريدة التى توضح ضياع الأصنام ، وضياع عبّادها ، وتبدأ بكلمة : قُلْ . وتكرر مع بداية الآية .

أى : قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة من دون الله : هل ادعى أحد من هذه الآلهة التى تعبدونها أنه بدأ الخلق : فخلق هذا الكون بما فيه من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وقضاء ، وهواء وماء وتربة ، وتكامل بين أجزاء هذا الكون بحيث يؤدى إلى استمرار الحياة ؟

وهل من شركائكم من يخلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغه ، ثم من عظام ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم ينشؤه خلقاً آخر ؟!

فإنذا عجوزاً عن الجواب ، أو أنكروا البعث والمعاد : فقطعوا يا محمد لهم بالجواب وقتل لهم :

اللَّهُ يَنْزِلُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .

فهو الذى بدأ هذا الكون على غير مثال سابق ، وهياً هذا الكون للحياة ، ثم خلق الإنسان وأمدّه بالسمع والبصر والفؤاد وسائر الحواس ثم سخر له هذا الكون .

فَأَنى تُؤْفَكُونَ .

أى : كيف تصرفون عن الحق ، وتتجهون إلى الباطل مع وضوح الأمر أمامكم ، وقيام الدليل على وحدانية الله : فكيف تتركون التوحيد ، وتتجهون إلى الشرك بالله ؟!

★ ★ ★

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَىٰ قَالَ كَذِبٌ كَرِيمٌ ﴾ (٣٥)

المضردات :

يَهْدَى : يهتدى .

يَهْدَى : أى : إلا أن يهديه الله تعالى .

تمهيد :

الإنسان جسم وروح ، والله تعالى خالق الكون وخالق الأجسام وخالق الأرواح . وفى الآية السابقة تحدث القرآن عن أن الله يبدأ الخلق ويوجده بخلق الكون ، ثم خلق الإنسان ، وهو سبحانه يعيد الخلق مرة

أخرى بالبعث يوم القيامة . وفى هذه الآية تحدث عن هداية الأرواح ؛ بإزالة الكتب وإرسال الرسل ، وهداية البشر ، وتوجيه الروح إلى الحق ، ومنح العون والرشاد للمؤمنين ، وسلب الهداية والتوفيق عن الضالين .

قال تعالى : **الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ يُهْدِيهِ** . (الشعراء : ٧٨) .

وقال سبحانه : **سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى • الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى • وَالَّذِي قَلَّرَ فَهَدَى** . (الأعلى : ١ - ٣) .

التفسير :

٣٥- **قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ... الآية** .

المعنى : قل لهم يا محمد : هل من شركائكم من يستطيع أن يهدى غيره إلى الدين الحق ؟ فينزل كتاباً أو يرسل رسولاً أو يشرع شريعة ، أو يضع نظاماً دقيقاً لهذا الكون ؟ أو يحث العقول على التدبّر والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض ؟

قل لهم يا محمد : الله وحده هو الذى يفعل كل ذلك ، أما شركاؤكم فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك . أفمن يهدى غيره للحق والهداية والرشاد أحقّ أن يُتبع فيما يأمر به وينهى عنه ، أم من لا يستطيع أن يهدى بنفسه إلا أن يهديه غيره ، أحق بالاتباع ؟

فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

أى : ما صرفكم عن الحق ؟! كيف تحكمون فى شأن هذه الحجة التى أوردناها لكم ؟ وكيف تحكمون باتخاذ هؤلاء شركاء لله ؟

وقوله سبحانه : **أَمْ لَآ يَهْدِي** . ورد فيه ست قراءات منها قراءة يعقوب وحفص بكسر الهاء وتشديد الدال ومنها قراءة حمزة والكسائى بالتخفيف كيرمى .

★ ★ ★

﴿ **وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾ (٣٦)

التفسير :

٣٦- **وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** .

أى : ما يتبع أكثر المشركين فى عبادة الأصنام ، إلا التقليد لآباء ، والظن بأن هذه الأصنام تشفع لهم يوم القيامة ، وليس معهم دليل يقينى بذلك .

إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا .

إن أمر الدين ينبغى أن يبنى على العلم اليقينى ، وبه يتضح الحق من الباطل ، وإن الظن الفاسد المبنى على الأوهام ، لا يغنى صاحبه شيئاً من الإغناء ، عن الحق الثابت الذى لا ريب فى ثبوته ، والمراد من الحق هنا : ما ثبت بطريق سماوى ، أو دليل عقلى مبنى على الآيات الكونية ، وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقينى واجب على كل مسلم فى أصول العقائد .

إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ . تذييل قصد به : التهديد والوعيد .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَقْصِلُ
الْكِتَابَ لِأَرْبَبٍ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧)

المضردات :

ما كان ، ما صح ولا استقام .

يقتضى ، يختلق .

وتكن تصديق الذى بين يديه ، أى : ولكن أنزله ؛ تصديقاً للكتب السماوية التى سبقته فى أصول العقائد والأحكام قبل تحريفها .
وتفصيل الكتاب ، تبين ما كتب وأثبت فى الكتب السماوية .

التفسير :

٣٧ - وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية .

تتابع هذه الآية مع ما قبلها وما بعدها تفنيد حجج المشركين ؛ حيث ادعوا : أن القرآن من عند محمد ؛ فبينت الآية أن هذا القرآن فى إعجازه واشتماله على التشريع والآداب وأخبار السابقين ، وعلوم الآخرين ، وأخبار الغيب ، ومجىء جميع ما فيه فى أقصى درجات الفصاحة والبلاغة والدقة ، وفى أنماط سامية ، وأفاق عالية ، كل ذلك يدل على أنه ليس من صنع بشر بل هو كلام الله ، ولا يستطيع مخلوق أن يخترعه أو يخلقه ؛ لأنه فوق طاقة الإنس والجن .

وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .

ولكن الله أنزله مصدقاً وموافقاً لما تقدم من الكتب السماوية ، ومعنى تصديق القرآن لما سبقه من الكتب السماوية مثل : التوراة ، والإنجيل ، والزيور : أنه اتفق معها فى الدعوة إلى توحيد الله ، والإيمان بالرسول والملائكة واليوم الآخر ، والتحلّى بالأداب ومكارم الأخلاق .

وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام ، والعبر والمواعظ وشئون الاجتماع .

لَا رَيْبَ فِيهِ . أى : لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه ؛ لوضوح برهانه ؛ لأنه الحق والهدى .

مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أى : من وحيه ، لا افتراء من عند غيره ولا اختلاقاً . كما قال تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

★ ★ ★

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٨)

صَدِيقِينَ ﴿٣٨﴾

التفسير :

٣٨ - أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ... الآية .

والمعنى : بل أيقولون : افتراه محمد واختلقه من قبل نفسه ؟! فإذا كان ذلك صحيحاً : فأنتم أرباب البيان والفصاحة والبلاغة ، فأتوا بسورة مثله !.

وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

وهذا توسع فى دائرة التحدى ، أى : اجمعوا ما شئتم ، واستعينوا بمن تستطيعون الاستعانة بهم لمعاونتكم فى الإتيان بسورة واحدة مثله .

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أى : فى دعوكم : أنى افتريت هذا القرآن . والآية دالة على إعجاز القرآن الكريم فى فنون متعددة .

الإعجاز اللفظى، والإعجاز التشريعى، والإعجاز الغيبى، مع الإحاطة بنفسية ومعرفة ما يناسبها مما يعجز عن الإتيان به فحول العلماء فى جيل من الأجيال؛ بل فى سائر الأجيال.

وقد استمر هذا التحدى وامتد فى مكة والمدينة، مع وجود الحاجة والدافع، واستمرار القتال بين المشركين والمؤمنين. والعرب أفصح الناس وأبلغهم، وأحوج الناس إلى إسكات صوت محمد؛ فلو كانت أمامهم أى وسيلة للإتيان بسورة مثله؛ لفعلوا، وقد حاولوا وجاءوا ببعض السور؛ فكانت أدل على عجزهم.

وصدق الله العظيم: قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا. (الإسراء: ٨٨).

★ ★ ★

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ
كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الظَّالِمِينَ﴾ (٢٩)

التفسير:

٣٩ - بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ... الآية.

أى: بل هم سارعوا إلى تكذيبه من غير إحاطة بعلم ما فيه ولا تدبر لمعانيه، ولا وقوف على ما جاء به من الأدلة الشاهدة بصدقه، من تشريع حكيم، وآداب وحكم عالية، وغير ذلك من أسرار إعجازه.

قال الزمخشري:

أى: بل سارعوا إلى تكذيب القرآن قبل أن يفقهوه، ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لغرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم. وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ.

أى: كذبوا به على البديهة قبل التدبر، ومعرفة معانيه وفصائله؛ تمرداً وعناداً.

جاء فى تفسير المراعى:

وخلاصة ذلك: أنهم - على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب - قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به. وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله، شناعة وقصر نظر لا تخفى على عاقل، وفيه دليل على أنهم مقلدون^(٢٠).

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

أى : مثل ذلك التكذيب الناشئ عن عدم التدبر : كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم ! فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوه ، يقوم نوح وعاد وثمود ، فكانت نتيجة هذا التكذيب : أن أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠) .

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِرُ بِمُؤْمَرِكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ۝ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُوا وَأَنَا بَرِيْعٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ ﴾

التفسير :

٤٠ - وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ... الآية .

أى : ومن هؤلاء المشركين من يؤمن بالقرآن فى قلبه وباطنه ؛ ولكن منعه العناد والحسد والكبر أن يؤمن به ظاهراً أمام الناس .

قال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلوًا . (النمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتَتْ آلَهُ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

ومن هؤلاء - أهل مكة - من لا يؤمن بالقرآن ظاهراً وباطناً ؛ فقد طمس الله على بصيرته فأثر تقليد الآباء على الإيمان ، وأثر الغى على الرشد . وقيل : إن المعنى : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ، ومنهم من يصّر على الكفر والعناد ولا يؤمن بالقرآن الكريم .

وَرُبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ .

أى : إن الله عليم بمن أفسد فى الأرض بالظلم واتباع الهوى ، وترك الإيمان بالله وتكذيب وحى السماء . وهذا العلم مراد به : لازمه ، وهو الحساب والعقاب .

٤١ - وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ... الآية .

أى : وإن تمادى هؤلاء الكفار فى طغيانهم وتكذيبهم : فقل لهم : أنا مسئول عن عملى أمام الله ، وأنتم مسئولون عن أعمالكم أمامه .

أَنْتُمْ تَرَى كُونَ مِمَّا أَعْمَلُ . فلا تتحملون مسئوليتة .

وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . فليست مسئولاً عنه : فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ : بأن عليه البلاغ فقط أما حسابهم فعلى الله تعالى .

قال الله تعالى : اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

(الشورى : ١٥)

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٤٢ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصِرُونَ ﴾ ٤٣ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٤٤ ﴿

المفردات :

الصُّم : فاقدى حاسة السمع .

لا يبصرون : أى : لا يدركون ببصيرتهم .

التفسير :

٤٢ - وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ .

أى : ومن هؤلاء المشركين من يستمع إلى القرآن بأذانهم ولا يتدبرون معناه بقلوبهم ، وقد وصف الله حالهم فى آى أخرى فقال سبحانه : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا .

(الأنعام : ٢٥)

وقال سبحانه : مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يُلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ . (الأنبياء : ٣، ٢) .

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ . أى : إن السماع النافع للمستمع هو الذى يعقل به ما يسمعه ويفقهه ويعمل به ، ومن فقد هذا ؛ كان كالأصم الذى لا يسمع ، وإنك أيها الرسول الكريم لم تؤت القدرة على إسماع الصم الذين فقدوا حاسة السمع حقيقة ؛ فكذا لا تستطيع أن تسمع إسماعاً نافعاً من فى حكمهم وهم الذين لا يعقلون ما يسمعون ، ولا يفقهون معناه فيهدتوا به ، وينتفعوا بعظاته .

٤٣ - وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ .

أى : يتأمل فى وجهك ، ويشاهد البراهين الدالة على صدقك ؛ فإن وجهك ليس بوجه كذاب ، وسيرتك السابقة واللاحقة تدل على أنك صادق أمين ؛ ولكنك يا محمد لا تستطيع أن تهدى العمى ولو انضم إلى فقدان بصيرهم ، فقدان بصيرتهم .

والمقصود فى الآيتين : أن هداية السماء وتوفيق الله ومعونته ، لا تمنح إلا لمن كان أهلاً لذلك ، بأن استخدم عقله وفكره ، وسار فى طريق التأمل والتبصر ، فيعينه الله بتوفيقه ومعونته . والمقصود : أنت لا تستطيع إسماع الأصم الغافل ، ولا هداية أعمى القلب والبصيرة .

قال تعالى : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي لَى الصُّدُورِ . (الحج : ٤٦) .

٤٤ - إِنْ أَلَلَّ لَا يَظْلِمُ آتَاَسَ شَيْئًا وَلَكِنْ آتَاَسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

من عدالة الله تعالى : أنه خلق الخلق وأرسل الرسل وأنزل الكتب ومنح الإنسان العقل والتفكير ، ووسائل الإدراك ؛ فالله تعالى لم يظلم الإنسان ، بمعنى : أنه لم ينقصه شيئاً من وسائل الإدراك والهداية ، بل منحه العقل وهده النجدين ، وبين له الطريقين ، تلك سنة الله فى خلقه ، وهى سنة كونية وإنسانية ؛ فهو سبحانه عادل فى خلقه ، وعادل فى حكمته .

بيد أن الإنسان هو الذى يظلم نفسه فيختار الضلال على الهدى ، ويفضل الكفر على الإيمان ، وعندئذ يستحق الجزاء العادل فى الآخرة وهو الحساب والعقاب .

قال تعالى : كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

وقال سبحانه : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . (المدثر : ٢٨) .

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَرَيْسِئِهِمُ الْإِلَاحُ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٤٥)

التفسير:

٤٥ - وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ لَمْ يَلْتَوُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ... الآية .

يذكر الله تعالى الناس بقيام الساعة والحشر في قبورهم ، على طريقة القرآن الكريم فى عرض مشاهد القيامة ، كأنها مشاهدة أمام الإنسان ؛ ليأخذ العظة والعبرة .

والمعنى : واذكر لهم أيها الرسول الكريم وأنذرهم يوم يجمعهم الله بالبعث والحشر ، والبعث : هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ، ثم يحشرون إلى أرض المحشر للحساب والجزاء ، وعندما يشاهدون هول الموقف يلاحظون هوان الدنيا ، وقصر عمرها ؛ كأنهم لم يمتكئوا فيها إلا وقتاً يسيراً أو ساعة من ساعات النهار ، يشاهد بعضهم بعضاً . وفى هذا المحشر يعرف الظالمون بعضهم بعضاً ، ويتناولون إلقاء التهم على بعض ؛ فيقول الضعفاء للذين استكبروا : لقد كنا لكم أتباعاً فى الدنيا ؛ وبيئنا وراءكم ؛ فهل تتحملون عنا شيئاً من العذاب ؟! ويتصل الذين استكبروا من تبعتهم ، ويذكرون أن العذاب سينزل بالتابعين والمتبوعين ، ويستمر التعارف فترة ثم ينقطع التعارف عند شدة الأحوال فى الحساب والجزاء .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ .

وهذه جملة تقديرية تعلن خسارة هؤلاء الكفار ؛ حين باعوا الآخرة ونعيمها الدائم ، وأعرضوا عن هداية السماء ، واشتروا متع الدنيا ولهوها وغرورها ، فأفروا العاجلة على الآجلة .

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ؛ حين أعرضوا عن الإيمان بالرسول ، وأسرفوا فى عنادهم ، وخسروا الآخرة مع أن الدنيا إلى زوال وهى ساعة محدودة ، ومدة وجيزة ، ثم يساق الناس إلى الجزاء العادل .

قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْحَجِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات : ٣٧ - ٤١) .

﴿وَأَمَّا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيُسَامِرَ جُحُومُهُمْ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤٦)

التفسير:

٤٦ - وَإِذَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيُسَامِرَ جُحُومُهُمْ ... الآية .

كان المشركون يكذبون النبی ﷺ فى توعده لهم بالعذاب ، وكانوا يستعجلون نزوله ؛ تكذيباً له واستهزاء به ، ويتمنون موته ؛ لتموت دعوته ، فردَّ الله عليهم مخاطباً رسوله ﷺ بقوله : إن ننتقم منهم فى حياتك ؛ لتقر عينك كما حدث يوم بدر وحنين وغيرهما فذاك ، وإن توفيناك قبل ذلك فمصيرهم إلينا ، وسوف ندقيهم العذاب الشديد ؛ جزاء عنادهم وكفرهم .

ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ .

وهذه الجملة تأكيد للوعيد السابق والمراد : أن الله مطلع على أعمالهم وكفرهم ، فيجازيهم على علم وشهادة حق .

وذلك كقوله تعالى : وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيكَ فَالْيُسَامِرَ عَلَيْكَ الْغَلْبُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠).

★ ★ ★

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٤٧)
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨)

التفسير:

٤٧ - وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

من حكمة الله تعالى أنه أرسل الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ؛ لهداية الإنسان ، وتذكير عقول البشر بما ينفعهم .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(النساء : ١٦٥)

فليس محمد ﷺ بدعاً من الرسل ، بل أرسل الله رسلاً إلى كل أمة ؛ قال تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . (فاطر : ٢٤) .

لقد أرسل الله الرسل إلى أمم سابقة ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وفى يوم القيامة يجمع الله كل أمة ومعها رسولها ، والملائكة تشهد عليها ، والكرام الكاتبون . وفى هذا اليوم يقضى الله بين الخلائق ، وأول من يقضى بينهم من الأمم أمة محمد ﷺ : تكريماً لرسولها . ثم يقضى بين جميع الأمم بالقسط والعدل ، ويوفى كل إنسان جزاء عمله بدون أن يُظلم مثقال ذرة .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** . (النساء : ٤٠) .

٤٨ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

رفض المشركون دعوة الإسلام ، واستخفوا بها ، واستهانوا بوعد الله لهم بالعذاب ، ثم تساءلوا حين تأخر العذاب عنهم ؟ فقالوا : متى يتحقق ما أنذرتونا به من العذاب إن كنتم صادقين فى هذا الوعد ؟

★ ★ ★

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ (٤٩)

التفسير :

٤٩ - قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... الآية .

أمر الله رسوله أن يجيبهم : بأن إنزال العذاب بالأمم المكذبة شأن من شئون القدرة الإلهية ، وأنا بشر مثلكم ؛ لا أملك لنفسي ضراً أمّنعهُ ، ولا خيراً أجلبهُ ؛ إلا ما شاء الله أن يقدرنى عليه .

لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ .

وللأمم المكذبة وقت معين مضروب عند الله ، لا يعلمه إلا هو ؛ فإذا جاء ذلك الأجل نزل فى الموعد المحدد ؛ بدون تأخير ولا تقديم ، والساعة يراد بها : هنا : جزء من الوقت ؛ وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ؛ تأكيداً بأن وعد الله لا يتخلف .

قال تعالى : **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** . (النحل : ١) .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ هَارًا مَادًّا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ٥٠ ﴾ أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُهُمْ بِهِ ءَأَلْسَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَاظِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٥٢ ﴾

المفردات ،

أَرَأَيْتُمْ : أى : أخبرونى .

بَيِّنَاتٌ ، أى : ليلا ، وقت نومكم وغفلتكم .

ماذا يستعجل منه المجرمون ، أى شىء يستعجل المجرمون من العذاب ؟

أنتم إذا ما وقع أمانتكم به ، أى : أبعد ما يقع العذاب حقيقة تؤمنون به ، ودخول همزة الاستفهام على ، ثُمَّ : لإنكار تأخيرهم الإيمان إلى وقت وقوع العذاب وتوبيخهم عليه .

التفسير ،

٥٠ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا ... الآية .

أى : أخبرونى عن حالكم إذا باغتكم العذاب وأنتم نائمون أو مستقرون فى بيوتكم بالليل ، أو جاءكم وأنتم مشغولون فى معاشكم بالنهار ؛ إن هذا العذاب فيه نهايتكم وهلاككم ، والعاقلة لا يستعجل وقوع المصائب به .

قال القرطبي : قوله : مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ .

استفهام معناه : التهويل والتعظيم ، أى : ما أعظم ما يستعجلون به ، كما يقال لمن يطلب أمرا تستوخم عاقبته : ماذا تجنى على نفسك ؟ ١٢ هـ .

وقوله تعالى : إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا . أسلوب شرط وجواب الشرط محذوف والتقدير : إن أتاكم عذابه

فى أحد هذين الوقتين : أفزعكم وأهلككم ؛ فلماذا تستعجلون وقوع شىء هذه نتائج ؟ ١٣

٥١ - أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُهُمْ بِهِ ءَأَلْسَنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

من شأن القرآن تصريف القول ، وتلوين الوعيد ، واستحضار الغائب ، وهنا عرض القرآن مشهدا من مشاهد

العذاب ؛ حين يشاهد الكفار المكذبون عذاب الله رأى العين ؛ فيؤمنون بالله بعد فوات الأوان !

ومعنى الآية :

إنكم أيها الجاهلون لستم بصادقين فى استعجال وقوع العذاب بكم ، فإنكم حين ينزل العذاب ، وتشاهدون أهواله وتدوقون مرارته ؛ تؤمنون بأنه حق .

ويتحول استهزاؤكم به إلى تصديق وإذعان وتحسر ؛ لكن هذا الإيمان لن يقبل منكم ؛ لأنه جاء بعد فوات الأوان ، ومن سنة الله أن يرسل الرسل وينزل الكتب ، ويترك الفرصة للإيمان فى سعة الحياة فإذا انتهى الأجل وحل العذاب ؛ لا يقبل من الإنسان الإيمان بعد انتهاء السعة والفرصة السانحة فى دنياه .

قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ . (غافر : ٨٤ ، ٨٥) .

٥٢ - ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

بعد أن أنكر عليهم الإيمان بعد فوات الأوان فى الآية السابقة ؛ أفاد هنا أنه يقال للظالمين المعاندين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان وتكذيب الرسل تجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبدا ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . أى : إن الجزاء الحق من جنس العمل وقد اخترتم الكفر على الإيمان ؛ فذوقوا العذاب بما كسبت أيديكم ، وفى هذا المعنى قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

★ ★ ★

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَبِّهِ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ قَوْمٍ ظِلْمَ مَافِ الْأَرْضِ لَاقْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا لِنَدَامَةٍ لَمَارَأُوا الْعَذَابَ وَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

المقردرات:

ويستنبئونك ، أى : يطلبون منك النبأ وهو الخبر .

إي وربى — نعم وحق ربى .

وما أنتم بمعجزين ، أى : وما أنتم بمفعلتين من عذاب الله .

وأسروا الندامة؛ قال أبو عبيدة: معناه: وأظهروا الندامة. وقال غيره: وأخفوا الندامة - فهو من الأضداد.

بالقسط، القسط بكسر القاف: بمعنى: العدل أما بفتحها: فبمعنى: الظلم وليس له موضع هنا.

التفسير:

٥٣ - وَيَسْتَبِينَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

لا يزال الكلام متصلاً فى نقاش الكافرين ، والنبا : الخبر الهام ، والاستنباء : طلب النبا .

والمعنى : وقع فى قلب الكفار رعب وخوف من عذاب الله فى الدنيا والآخرة ؛ فطلبوا من الرسول بيان الحقيقة ، وهم يسخرون ويستهزون ، كما صنع قوم نوح .

قال تعالى : وَيَصْنَعُ الْفُلُكُ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . (هود : ٣٨) .

بيد أن الله أمر رسوله أن يرد عليهم ، ويجيبهم : بأن العذاب حق واقع لا محالة من وقوعه ، وأنتم لن تهربوا من عقاب الله ، ولن تنجوا من عذابه ، ولن تستطيعوا الامتناع عن العذاب ؛ فإن قدرة الله فوق كل قدرة ، وأنتم فى قبضته وهو قادر على عذابكم . وكلمة إى : بمعنى : نعم ، وقد ورد القسم بالله فى آيتين أخيرين فى القرآن رداً على مزاعم الكافرين وإنكارهم للبعث .

قال ابن كثير : وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان :

الأولى : فى قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيََنَّكُمْ . (سبا : ٣) .

والثانية : فى قوله تعالى : زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخْلِفَهُمْ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَيُخْلِفَنَّ . (التغابن : ٧) .

٥٤ - وَلَوْ أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ...

الظالم لن يعجز الله ولن يستطيع الإفلات من عذابه ، وكل نفس ظلمت فى الدنيا بالشرك أو المعاصى؛ تندم أشد الندم على ظلمها ، ولو أنها كانت تملك جميع ما فى الأرض ؛ لقدمته فدية من هذا العذاب ؛ إن كان الافتداء يجديها .

والآية قصد بها : التهويل من شأن العذاب والتعظيم له حتى إن الكافر لو كان يملك ما فى الأرض من مال ومتاع ، وأمكنه أن يقدمه كفداء لنفسه ؛ لقدمه سريعاً .

وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ^ع.

أى : أخفى هؤلاء الظالمون الندامة ؛ حين رأوا مقدمات العذاب ، وأيقنوا أنهم لا نجاة لهم منه ، وقد فاجأهم العذاب فأسكتهم وأنزلهم ؛ حين رأوا من فظاعة الخطب ما جعلهم جامدين مبهوتين .

وقيل : أَسْرُوا النَّدَامَةَ . أظهروها ولم يكن عندهم تجلد على كتمها والكلمة من الأضداد تطلق على الجهر والإسرار ؛ وفى سورة الملك : وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . (الملك : ١٧) .

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أى : حكم الله تعالى بينهم بالعدل التام الذى لا ظلم فيه بوجه من الوجوه .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

★ ★ ★

﴿الْآنَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ الْاِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التفسير :

٥٥ - الْاِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ... الآية .

تأتى هذه الآية والتي بعدها ؛ لتبين أن الكافر لن يجد ما يفترى به نفسه من العذاب ، وعلى فرض أنه وجد فلن يقبل منه شيء .

وبدأت بأداة الاستفتاح للتنبيه ؛ لتنبيه الناس قاطبة ؛ على أن الله مالك السماوات والأرض بكل ما فيها .

قال تعالى : لَهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۖ وَإِن تَجَهِّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ . (طه : ٦ ، ٧) .

الْاِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

تكررت أداة التنبيه لبيان أهمية ما بعدها وهو أن وعد الله حق لا يتخلف أبداً .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . (آل عمران : ٩) .

ولكن أكثر الكفار منكر للبعث ، غافل عن الآخرة مقصر فى الاستعداد لها .

★ ★ ★

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

التفسير :

٥٦ - هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

أى : هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة للحساب والجزاء ؛ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

★ ★ ★

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

التفسير :

٥٧ - يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

هذا نداء من الله تعالى للناس كل الناس ، حيث أنزل الوحي ، وأرسل الرسل وبين للناس ما يشفيهم من أمراض الجاهلية ، وما يهديهم إلى طريق الصواب ، وهذا الكتاب رحمة للمؤمنين ؛ لأنهم هم الذين استفادوا بهدايته، وعملوا بأحكامه ؛ فنالوا سعادة الدنيا والآخرة .

وقد وصف الله القرآن بأربع صفات :

١ - موعظة تعظ الناس وترشدهم ، وتشرح لهم أسباب الهداية والرشاد .

٢ - شفاء حسى ومعنوى لأمراض القلوب ؛ وهى : الرياء ، والشرك ، والكبر ، وحُب الدنيا ، ودليل إلى الصفاء والنقاء ومحبة الله وإيثار الآخرة ؛ وذكر بعض المفسرين : أن القرآن شفاء للأمراض الحسية ؛ بشرط الأخذ فى الأسباب ، والجمع بين الطب الإكلينيكى والطب الروحى .

قال الألوسى فى تفسيره : واستدل بالآية على أن القرآن يشفى من الأمراض البدنية كما يشفى من الأمراض القلبية ، والحسن البصرى ينكر كون القرآن شفاء للأمراض ؛ ويقول جعل الله القرآن شفاء لما فى الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم^(٥١)

وعند التأمل نجد أنه لا مانع من دلالة الآية على أن يكون القرآن شفاء للأمراض المعنوية ، وللأمراض الحسية ؛ حيث قد ورد في السنة الصحيحة : أن القرآن شفاء للأمراض الحسية ، وأقرُّ النبي ﷺ أن الفاتحة رقية من المرض وسبيل للشفاء .

٣ - القرآن هداية للناس ؛ لأنه شرح لهم أصول الدين ؛ وبين أسباب السعادة ، وأرشد إلى دعائم الإيمان المحقق لسعادة الدنيا والآخرة .

قال تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً . (فصلت : ٤٤) .

٤ - رحمة للمؤمنين خاصة ؛ حيث كان سبيلاً لهم إلى الإيمان والإحسان ، وتلاوة القرآن ومرضاة الرحمن .
سمع عمر بن عبد العزيز رجلاً وقف للفتيا عشية عرفات ، وظل يجيب على أسئلة كل سائل من أهل الموسم حتى غربت الشمس ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : «هذه المكارم لا تعباً من لبن» . أى : هذا هو الفضل الحقيقي ، وليس هناك فضل سوى ذلك .

٥٨ - قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

أى : قل لهم يا محمد : إن فضل الله على الناس بالإسلام ، ورحمته لهم بنزول القرآن ، وهدايته لهم إلى طريق الصلاح والاستقامة ؛ هو الاصطفاء والهداية التي تستحق الفرح والسرور ؛ لأن هذا خير من مال الدنيا ومتاعها .

روى أبان عن أنس : أن النبي ﷺ قال : «من هداه الله للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكى الفاقة ؛ كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ثم تلا : قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ^(١١) .

من تفسير ابن كثير ،

قال ابن كثير : «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...» أى : بهذا الذى جاءهم من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، أولى مما يفرحون به من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية ، والذاهبة لا محالة ؛ فعن أبيه ابن عبد الكلأى قال : لما قدم خراج العراق إلى عمر - رضى الله عنه - خرج عمر ومولى له فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد لله تعالى ، ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته ، فقال عمر : كذبت ليس هذا هو الذى يقول الله فيه : قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . ١ هـ .

أى : ليس هذا المال هو المعنى بهذه الآية ، وإنما فضل الله ورحمته يتمثل فيما جاءهم من الله تعالى من دين قويم ، ورسول كريم ، وقرآن مبين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنْ تَعْلَى اللَّهُ تَقْتَرُونَ ﴾ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٦٠)

المفردات :

رزق : الرزق فى اللغة : ما ينتفع به ، ومعلوم أنه ليس كله نازلاً من السماء ، وإنما الذى أنزل من السماء هو التشريع الذى أحله ، أو أسبابه التى حدث بها كالمطر والهواء وأشعة الشمس ، وعلى هذا فالمراد من إنزال الرزق من السماء : إنزال تشريعه أو أسبابه ، وفسر بعض العلماء إنزال الرزق بمعنى : خلقه ؛ وعليه فلا إشكال .

التفسير :

٥٩ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا ... الآية .

كان أهل الجاهلية يحرمون على أنفسهم أنواعاً من الحيوانات مع أن الله أحلها لهم وهنا يوجه السؤال إليهم ويقول لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين : أخبرونى أيها الجاحدون للوحي والرسالة ، المبدلون لشرع الله على حسب أهوائكم ، إن الله تعالى قد أنزل عليكم ألواناً من الرزق الحلال ، فجئتم أنتم ، وقسمتم هذا الرزق الحلال ، فجعلتم منه حلالاً ، وجعلتم منه حراماً .

وقد حكى الله عنهم ذلك فى آيات متعددة منها قوله تعالى فى سورة الأنعام : وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا . (الأنعام : ١٣٦) .

وقوله فى سورة المائدة : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . (المائدة : ١٠٣) .

قُلْ إِنَّ اللَّهَ آذَنَ لَكُمْ أَنْ تَعْلَى اللَّهُ تَقْتَرُونَ .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل الزجر والتوبيخ : إن الله وحده هو الذى يملك التحليل والتحريم ، فهل هو سبحانه أذن لكم بذلك بوحى من عنده ، أم أنتم تفترون على الله بزعمكم أنه حرّم ما حرّمتم ، وحلّ ما حللتم .

والخلاصة : أنه لا مندوحة لكم فى الاعتراف بأحد أمرين : إمّا دعوى الإذن لكم من الله بالتحريم والتحليل ؛ لأن الله أحل هذه الأنعام فى شريعة إبراهيم وشريعة الرسل من بعده ؛ وإمّا اعترافكم بالافتراء على الله .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

والمعنى : أخبرونى : آله أذن لكم فى التحليل والتحريم ، وأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تكذبون على الله فى نسبة ذلك إليه . ١ هـ .

٦٠ - وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ .

أى : هؤلاء الذين أحلوا وحرّموا ، افتراء على الله ، ماذا يظنون أن الله سيفعل بهم يوم القيامة ؟ أيطنون أن الله سيرتكهم بدون عقاب ؟ كلا إن عقابهم لشديد بسبب افتراءهم عليه الكذب .

قال تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ فُتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ . (النحل : ١١٦) .

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ . أى : إن الله لذو فضل عظيم على الناس أجمعين ؛ حيث خلقهم بقدرته ، ومنحهم العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل إليهم الرسل ، وأنزل الكتب السماوية ؛ لبيان الحلال والحرام والمباح وأمور التشريع ، وما يهمهم من أمر المعاش والمعاد ، وأحل لهم الطيبات وحرّم عليهم الخبائث .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ . تلك النعم كما يجب ، قال تعالى : وَلَقِيلَ لِمَنْ عِبَادِىَ الشُّكُورُ . (سبأ : ١٣) .

ومن ثم ترى بعض الناس تحرم ما لم يحرمه الله ، فيغالون فى الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، أو يسرفون فى الأكل والشرب والزينة ؛ ابتغاء الشهوة ، والتكبر على الناس مع أن الإسلام أمر بالتوسط والاعتدال ؛ حيث مدح الله التوسط . فقال : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . (الإسراء : ٢٩) .

وقال عز شأنه : وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . (الفرقان : ٦٧) .

أخرج الإمام أحمد : عن أبى الأحوص عن أبيه قال : «أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا رث الهيئة فقال : «هل لك مال» ؟ قلت: نعم ؛ قال : «من أى المال؟» قلت : من كل المال ، من الإبل والرقيق والخيول والغنم ، قال : «إذا أتاك الله مالاً ؛ فليز أفر نعمته عليك وكرامته»^(٣١) .

وأخرج البخارى والطبرانى عن زهير بن أبى علقمة مرفوعا : «إذا أتاك الله مالاً ؛ فليز عليك ؛ فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسناً ، ولا يحب البؤس ولا التباؤس»^(٣٢) .

★ ★ ★

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٣٣)

المفردات :

فى شأن : فى أمر تقصده .

كنا عليكم شهودا ، كنا رقباء مطلعين عليكم .

تفيضون فيه : تخوضون وتندفعون فيه ، وأصل الإفاضة : الاندفاع بكثرة أو بقوة .

وما يعزب : ولا يغيب .

مِثْقَال ذرة : المِثْقَال : الوزن ، والذرة : النملة والهباء .

كتاب مبين : المراد به : اللوح المحفوظ أو هو كناية عن علمه تعالى ، ومعنى مبين : بين واضح .

التفسير :

٦١ - وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ... الآية .

بينت هذه الآية الكريمة إحاطة القدرة الإلهية بكل شئ فى هذا الوجود ، وإحاطة علم الله بالصغير والكبير فى هذا الكون : إن الله قد أحاط بكل شئ علما .

والمعنى : وما تكون يا محمد فى شأن من شئونك الهامة ، خاصة كانت أو عامة .

وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ .

وما تقرأ من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزله الله عليك ؛ تعبدًا به أو تبليغًا له ولا تعملون أيها الناس الذين بلفتكم دعوته من عمل خيرًا كان أو شرًا، شكرًا كان أو كفرًا ؛ إلا كنّا عليكم رقباء وحافظين وشهداء فنحفظه عليكم ونجازيكم به .

وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

وما يغيب عن علم ربك شيء فى وزن الهباء الدقيق ؛ سواء أكان ذلك الشيء الدقيق فى الأرض أمام أنظاركم ، أو فى السماء بعيدًا عنكم ، وقدم ذكر الأرض ؛ لأن الكلام مع أهلها .

وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ .

أى : ولا شيء أصغر من الذرة ، ولا أكبر من ذلك وإن عظم مقداره ؛ إلا وهو معلوم ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن ، أى : إن علمه محيط بكل صغير وكبير ؛ فكيف تخفى عليه أعمالكم ؟

جاء فى تفسير المراعى ما يأتى :

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلَا تُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . (الهاقة : ٣٨ ، ٣٩) .

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا تدركها الأبصار وقد أثبت العلم الحديث بواسطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافًا مضاعفة (المكروسكوبات) أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات كالجراثيم (المكروبات) ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير ^(١٠٠) .

وأضيف أننى أكتب هذا التفسير اليوم بتاريخ ١٢/٢٧/ ١٩٩٣ ، وبالأمس أفادت أخبار من أمريكا أنها استردت قمرًا صناعيًا استمر دروانه فى الفضاء ٤ سنوات ؛ ليجيب عن سؤالين هما :

١ - كيف كان خلق الكون ؟

٢ - ما عمر هذا الكون ؟

وذكروا أن الكون خلق بعد الانفجار الكبير الذى ترتب عليه وجود السماوات والأرض وما بينهما من الفضاء والهواء وأن عمر الكون ١٥ بليون سنة ، وسيمكث الكون ١٥ بليون سنة أخرى ثم يشيخ وينتهى . اهـ .
ونقول : إن تقدم العلوم لا يصطدم مع حقائق القرآن ؛ بل ينزع إلى تأكيد ما جاء فى القرآن ، وتأكيده أنه كلام الله الذى أحاط بكل شيء علمًا .

لقد كانت الأرض صماء لا تنبت ، وكانت السماء رتقاء لا تطر : ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات وسبب الأسباب ؛ لإعمار الكون وتكامله ، ففسر الشمس تلقى أشعتها على المحيطات ؛ فيتصاعد البخار ثم يسوق الله السحاب ثم ينزل منه المطر .

وعندما يشاء الله ينتهى عمر هذا الكون ، فتتكسر النجوم ، وتندشق السماء ؛ وتتمد الأرض ، ويستجيب الجميع لأمر الله .

يَوْمَ نُبَدِّلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم : ١٨) .

ويقول سبحانه : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

ويقول عز شأنه : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^(٣٧) وَآخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَاقِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (البقرة : ١٦٤) .

★ ★ ★

﴿الْأَنْبِيَاءُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦٤﴾﴾

المعردات :

أولياء الله ، أولياء : جمع ولى ، ومن معانيه : لغة القريب ، وقد أطلق الأولياء فى عرف القرآن على المؤمنين الصادقين ؛ لقربهم الروحي من الله تعالى .

البشرى هى الحياة

الدنيا وفى الآخرة ، البشرى : مصدر أريد به : المبشر به ، ويشرى الحياة الدنيا : خيراتها العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك ، ويشرى الحياة الآخرة : ما أعد لهم فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

التفسير :

٦٢ - **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .**

توعد الله المفتربين فى الآية ٦٠ من هذه السورة : وهنا يبين جزاء أوليائه المقربين إليه .

والولّى : هو من يوالى طاعة الله ويتقرب إليه سبحانه فهو فى محبة الله تعالى .

وفى الحديث القدسى : «ما تقرب عبدى إلى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألتنى لأعطينه»^(١) .

إن هؤلاء الأولياء ، الذين يلتزمون طاعة الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فالخوف : حالة نفسية تجعل الإنسان مضطرب المشاعر ؛ لتوقعه حصول ما يكرهه .

والحزن : اكتئاب نفسى يحدث للإنسان من أجل وقوع ما يكرهه . أى : أن الخوف : يكون من أجل مكروه يتوقع حصوله ، بينما الحزن : يكون من أجل مكروه قد وقع فعلاً . أى : أن أحباب الله الذين صدق إيمانهم ، وحسن علمهم ، لا يخوفُ عليهم . فى الدنيا ؛ لثقتهم بالله ، ولا هم يحزنون . على شئ فاتهم من هذه الدنيا ؛ فإن متاعها قليل ، كما أنهم فى الآخرة لا ينالهم الحزن ولا الخوف ؛ لأن الله يبشرهم بالمنزلة العالية ، ويطمئنهم على منازلهم فى الجنة .

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ .** (فصلت : ٣٠ ، ٣٢) .

والخلاصة : إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فى الدنيا والآخرة ؛ فإن الله منعمهم الرضا فى دنياهم ؛ فإن أقبلت عليهم النعمة والصحة والنصرة والقبول ؛ شكروا وحمدوا ، وإن فاتهم شئ من ذلك ؛ صبروا ورضوا ، وقد من الله عليهم فى الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض ، وفيها النعيم المقيم ، وهم يحمدون الله فيها قائلين : **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .** (ناظر : ٣٤) .

٦٣ - **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .**

هذه صفات أولياء الله تتمثل فيما يأتى :

١- الإيمان الصادق بالله تعالى وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢- تقوى الله سبحانه ومراقبته ، وطاعته والبعد عن معاصيه .

وما نراه من ادعاء بعض الناس الولاية ، وهم لا يؤدّون الفرائض ، ولا يأخذون بأسباب الكسب ، ولا يشاركون فى نهضة الأمة ؛ فإنهم لم يفهموا هذا الدين حق الفهم ؛ لأن دين الله سهل سمح وسط ، واضح لا شبهة فيه ولا غلو ، بل هو الصراط المستقيم ، والمحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

٦٤ - لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ... الآية .

أى : إن هؤلاء الأولياء الموصوفين بالإيمان والتقوى يبشرهم الله بالنصر والنجاح فى أعمالهم الدنيوية كالزراعة والصناعة والتجارة ويبشرهم فى الآخرة بدخول الجنة .

قال تعالى : يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُم يَوْمَ جُمُعْتُمْ تَبْعَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (الحديد : ١٧) .

ورأى بعض المفسرين : أن البشرى هى الرؤيا الصادقة ؛ فאלله تعالى يبشرهم فى منامهم بالخير الذى ينتظرونه .

قال الألوسى فى تفسيره :

وأكثر الروايات تفيد أن البشرى فى الحياة الدنيا ، هى الرؤيا الصالحة - فقد أخرج الطيالسى وأحمد والدارمى والترمذى وغيرهم : عن عبادة بن الصامت . قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ؛ فقال : «هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له»^(٢٨) .

لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .

أى : لا تغيير ولا خلف فى مواعيده تعالى ، ومن جملتها بشاراة المتقين بجنات النعيم والخير العميم .

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

أى : تلك البشرى لأولياء الله بالفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة ؛ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وأى فوز أعظم من طاعة الله ورضوانه ، والفوز فى الدنيا والنجاة يوم القيامة ، ودخول الجنة والتمتع برضوان الله ، وهو أكبر من كل نعيم ؟!

جاء فى تفسير القاسمى :

«وإذا كان أولياء الله هم المتقون ، فيحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى ؛ كان أكمل ولاية لله ، فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل ؛ بحسب تفاضلهم فى الإيمان

والتقوى ، ومن أظهر الولاية وهو لا يؤدى الفرائض ولا يجتنب المحارم ! كان كاذباً فى دعواه ، أو كان مجنوناً ، وليس لأولياء الله شئ يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات ، فلا يتميزون بلباس دون لباس ، ولا بخلق شعر أو تقصير ؛ بل يوجدون فى جميع طبقات الأمة ، فيوجدون فى أهل القرآن ، وأهل العلم ، وفى أهل الجهاد والسيف وفى التجار والصناع والزراع ، وليس من شرط الولي أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشبهه عليه بعض أمور الدين ...» (٢٩).

★ ★ ★

﴿وَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِثُّوْنَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

المفردات :

الإمرة ، الغلبة والقهر .

إن يتبعون إلا الظن ، ما يتبعون إلا التوهم .

يخْرصون ، يكذبون . وهو فى الأصل بمعنى : يقدرّون بالاجتهاد الجازفى وكثيراً ما يحدث فيه الخطأ ، فلذا يطلق على الكذب مجازاً وهو المراد هنا .

التفسير :

٦٥ - وَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْإِمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ... الآية .

كان الرسول ﷺ حريصاً على هداية قومه ، وكان الحزن يشد عليه بسبب تكذيبهم وإيذائهم له ، وكان القرآن يمسح آلامه ويدعوه إلى التسرية وانشراح الصدر .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَلِّغْتَ نَفْسَكَ عَلَى آلِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَبِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

قال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَخْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَخْجَلُونَ .

(الأنعام : ٣٣)

وفى هذه الآية يقول الله تعالى : وَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ .

لا يشتد حزنك من قولهم : إن محمداً ساحر أو كاهن أو شاعر أو كذاب ، أو ينقل أساطير الأولين .
والنهي عن الحزن وهو أمر نفسى لا لاختيار للإنسان فيه ، والمراد به هنا : النهى عن لوازمه كالإكثار من
محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها ، وبذلك تتحدد الآلام ويصعب نسيانها .

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .

إن القوة الكاملة ، والقدرة الكامنة ، والخلق والأمر بيد الله وحده ، لا راد لأمره ولا معقب لقضائه ؛
فالخلق جميعاً فى قبضته ، والملك كله فى يده ، وهؤلاء المشركون لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ؛
فهم مخلوقون مربوبون خاضعون لقدرة الله .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ مُلْكُي الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ
تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (ال عمران : ٢٦) .

وعزة المؤمنين مستمدة من عزة الله ، فهم فى طاعته وكنفه وهو يفيض عليهم من فضله ونعمه .

قال تعالى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (المنافقون : ٨) ، فلا تعارض بين هذه الآية والآية التى
معنا ؛ فإن العزة جميعاً لله سبحانه ، كما قال عز شأنه : أَيْتَقُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . (النساء : ١٣٩) .

وقال عز شأنه : سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . (الصافات : ١٨٠) .

قال الشوكاني فى تفسير هذه الآية :

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا .

أى : إن الغلبة والقهر له فى مملكته وسلطانه ، فكيف يقدرُونَ عليك حتى تحزن لأنقاهم .

هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

فهو السميع لكل مسموع ، العليم بهم وجميع من فى الكون ؛ فينصرك عليهم ويحقق لك الغلبة ، وقد
تحقق وعد الله لرسوله ؛ فتم له النصر والفتح ، وذلك من المبشرات التى عجلها الله لرسوله فى الدنيا .

٦٦ - أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ لَدُنْ السَّمَوَاتِ وَمِنْ لَدُنِ الْأَرْضِ .

فى هذه الآية تأكيد لما بشر الله به رسوله فى الآية السابقة ، فالملك الحقيقى كامل لله لجميع من فى السماوات ومن فى الأرض ، وما بينهما من الملائكة والجن والإنس ، فهم جميعاً مملوكون لله تعالى ، ومقهرون بسلطانه ، وعبيد لمشيئته ، وكذلك جميع الكائنات فهى أيضاً تحت سلطانه وقهره .

وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .

أى : وما يتبع هؤلاء المشركون شركاء الله فى الحقيقة ، فليس لله شريك أبداً ؛ فالأصنام ، والمسيح ، وعزير ، وسائر الشركاء المزعومين مملوكة لله تعالى ، ولا قدرة لها على شىء من تدبير أمور العباد ، ودفع الضر عنهم ، بل إنهم لا يملكون دفع الضر عن أنفسهم ، ولا يملكون جلب أى نفع لمن يعبدهم .

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

أى : ما يتبع المشركون ، إلا الظن الفاسد ، والخطأ الفادح ، وما هم فى هذا الظن إلا متخرصون كاذبون .

قال الشوكانى :

وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ .

أى : إنهم وإن سموا معبوداتهم : شركاء لله ، فليست شركاء له على الحقيقة ؛ إنما هى أسماء لا مسميات لها ، والله مالك لمعبوداتهم .

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ . أى : ما يتبعون يقينا ، والظن لا يغنى من الحق شيئا .

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . أى : يقدرون أنهم شركاء تقديرًا باطلاً وكذبًا بحتًا .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧)

المفردات :

لتسكنوا فيه ، لتطمئنوا وتستقروا فيه بعد حركتكم بالنهار .

مبصرا ، مضيئاً لتحركوا فيه وتهتدوا فى ضوئه إلى حوائجكم . ونقل القرطبى عن قطرب أنه قال :
أظلم الليل أى : صار ذا ظلمة ، وأضاء النهار وأبصر ، أى : صار ذا ضياء وبصر - يقصد :
صاحب ضياء وبصر من الناس فيه .

التفسير :

٦٧ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ... الآية .

من شأن القرآن أن ينوع فى أدلته ، وأن يستلقت الأنظار إلى آثار القدرة الإلهية فى خلق الكون وإبداع نظامه
ومن ذلك ما ورد فى هذه الآية :

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .

أى : أن الله سبحانه قسّم الوقت نصفين ، فجعل نصفاً منه للسكن والهدوء والنوم والراحة ، وهو الليل ،
وجعل النصف الثانى مبصرا ، أى : منيرا فيه ، الشمس والحياة والحركة والسعى والعمل ؛ وذلك فى النهار
وبذلك يتم التكامل فى هذا الكون .

ولو استمر الليل دائماً ؛ لتعطلت مصالح الناس وتعطنت أجسامهم ، ولو استمر النهار دائماً ؛ لضجّ
الناس من السعى والحركة ، وتعبت أجسامهم وضعفت أعصابهم .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

إن فى هذا التدبير الحكيم لدلائل واضحة لقوم يسمعون . سماع تأمل وتدبر وتعقل .

وفى معنى هذه الآية يقول الحق سبحانه وتعالى :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ • قُلْ

أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ بِأَيِّكُمْ يَلْتَلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ • وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧١ - ٧٣) .

★ ★ ★

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلٰطِنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلِ ابْنَ الْإِنْسَانِ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْزِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

المشردات :

إن عندكم من سلطان بهذا ، ليس عندكم من حجة عليه .

التفسير :

٦٨ - قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ... الآية .

أى : قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله .

سُبْحَنَهُ : أى : تنزه الله عن أن يكون له ولد ؛ لأنه هو الغنى بذاته عن الولد ، وعن كل شيء ، وهو المالك

لجميع الكائنات ، علويها وسفليها ، وهو الذى لا يحتاج إلى غيره ، وغيره محتاج إليه ، وخاضع لسلطان قدرته .

وفى معنى هذه الآية قال تعالى :

قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا • لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا • تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا • أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا • وَمَا يُنْبِغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا • إِنَّ كُلَّ مَنْ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِىَ الرَّحْمٰنِ عَبْدًا • لَقَدْ أَحْصٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا • وَكُلُّهُمْ آتِىهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا • إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكٰفِرٌ جَدًّا • وَسِعَ جَنَّتُكَ رَبُّكَ وَلِلرَّحْمٰنِ الْإِسْمَ • إِنَّ رَبَّهُ لَسُبْحٰنُ عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَعْيُنٌ رَءِىْفٌ عَنِ السَّمٰوٰتِ • وَهُوَ السَّمِىْعُ الْعَلِىْمُ • الَّذِى يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ • وَهُوَ يَخْتَارُ • وَلِلَّهِ السُّلْطٰنُ • وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِىْمُ • الَّذِى يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ • وَهُوَ يَخْتَارُ • وَلِلَّهِ السُّلْطٰنُ • وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِىْمُ • الَّذِى يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ • وَهُوَ يَخْتَارُ •

إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا . هذه الجملة تجهيل لهم ورد عليهم ، وَإِنْ هَذَا نَافِيَةٌ بِمَعْنَى : ما ، أى : ليس عندكم من الدلائل والبراهين ؛ ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته ، وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه .

قال الآلوسى : وفى الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه ؛ فهو جهالة ، وأن العقائد لا بد لها من قاطع ، وأن التقليد بمعزل من الاهتداء ^(١٠٦) .

٦٩ - قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُقْرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الذين يختلقون الكذب على الله ، وينسبون إليه ما يتنزه عنه ، هؤلاء لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ، فالنار مثواهم ، واللجنة حرام عليهم .

٧٠ - مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ لِنُرِيَهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

أى : أن ما يتمتعون به فى الدنيا من شهوات وملذات ، هو متاع قليل بالنسبة لنعيم الآخرة ، ثم إن مرجع الخلائق جميعاً إلى الله تعالى ، وييده الخلق والأمر والحساب والجزاء .

ثُمَّ لِنُرِيَهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

وفى يوم القيامة يلقى الكافرون جزاء كفرهم واقترائهم على الله ، عذاباً شديداً فى أفواه جهنم .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِتَايَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَاءَ لَكُمْ أَن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَفِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِتَايَاتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

المفردات :

نوح : النبأ : الخبر الذى له شأن وخطر .

كبر عليكم مقامى ، شق وعظم عليكم قيامى ووجودى بينكم .

هاجمعوا امركم : إجماع الأمر : العزم عليه ، تقول : أجمعت الأمر وأجمعت عليه . أى : عزمته وأردته بهمة ومضاء عزيمة ، والصيغة الأولى أفصح من الثانية ، وقال أبو الهيثم : أجمع أمره : جعله مجموعاً بعد ما كان متفرقاً .

غممة : أى : مستورا ، من غمه : إذا ستره .

اقضوا إلى : أى : أدوا إلى الأمر الذى تريدونه بى .

ولا تنظرون ، ولا تمهلونى .

توليتم : أعرضتم عن تذكيرى .

من المسلمين : من المتقادين لحكم الله : لا أخالف أمره .

الفلك : السفينة .

التفسير :

٧١ - وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ... الآية .

نوع القرآن فى أساليب دعوته للحق والإيمان : فهو قد جابه المشركين فى الآيات السابقة ، وفند شبههم ، وانتقل إلى نقل جانب من قصص المرسلين السابقين .

وفى ذكر هذا القصص حكم متعددة من بينها ما يأتى :

١ - تسلية الرسول ﷺ : بذكر قصص الرسل السابقين ، وبيان ما تعرضوا له من البلاء وبذلك يهون عليه ما يلقاه من قومه .

٢ - بيان عاقبة المكذبين من الهلاك ، وجزاء المؤمنين من النصر ، وفى هذا تهديد للمشركين ؛ حتى تلين قلوبهم نحو الحق ، وتثبت للمؤمنين ؛ حتى يثقوا بوعد الله فى النصر .

٣ - تنوع القول : لأن الكلام إذا سار على وتيرة واحدة ؛ فربما أصاب السامع شيء من الملالة ؛ كما يقول الإمام الرازى فى تفسيره ، وفى ذكر القصص ؛ دفع للسآمة والملل .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣).

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ . أى : وانذكر لقومك يا محمد : قصة نوح عليه السلام وقد ذكرت قصة نوح بصورة أكثر تفصيلاً فى سورة الأعراف ، وهود ، والمؤمنون ، وسورة نوح ...

لكنها ذكرت هنا بصورة مجملة لإبراز جانب التحدى من رسول لا يملك جيشاً ولا قوة ومآ آمناً معه إلا قليل . (هود : ٤٠) ، ولكنه هنا يجاهر قومه ، بأنه بلغ الرسالة لهم خلال عمر طويل هو : أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا . (العنكبوت : ١٤) .

ولكنهم صموا أذانهم عن سماع الحق ، وأغلقوا عقولهم عن النظر فى أدلة الإيمان ودعوته ، وهنا أزمع نوح أمره على هجرهم وتحديهم .

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتْلُوهُمُ إِنَّ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرُونِي بِمَا نَسِيتُ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ .

وفى الآية فقرات تحتاج بعض التوضيح وهى :

١ - إِنْ كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي .

أى : شق عليكم طول مكثى بينكم وطول دعوتكم إلى الإيمان والتوحيد .

٢ - فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ .

لقد اعتمدت على الله القوى الجبار ذى القوة المتين ؛ فلا أخاف منكم ولا أتهدد من وعيدكم ، ولا أبالى بمركم وكيدكم .

٣ - فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ .

أى : اتخذوا قراراً جماعياً بشأن دعوتى ، واجمعوا معكم الأصنام التى تعبدونها وترجون نصرتها - يقال : أجمع أمره على كذا ، أى : استقر على قرار بشأنه بعد أن كان رأى فيه مشتتاً متفرقاً .

قال الشاعر :

أصبحوا أصبح لهم ضوضاء	أجمعوا أمرهم عشاء فلما
هال خيل خلال ذاك رغاء	من منابر ومن مجيب ومن تصد

أى : أنهم باتوا على نية السفر فى الصباح وأجمعوا أمرهم عليه .

٤ - ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً .

غُمَّةٌ : أى : حفيظاً مستوراً ؛ بل اجعلوه ظاهراً واضحاً علناً ، ومنه الحديث الشريف : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم الهلال ؛ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»^(١) .

ومعنى الحديث : «فإن غم» أى : إن استتر الهلال ، وحال دون رؤيته لكم حائل من غيم أو ضباب ؛ فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً .

وإنما قال نوح ذلك ؛ إظهاراً لقله مبالاته بهم ، وثقة بأن الله سينصره ويحفظه ، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً .
ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ .

وهذه الجملة زيادة فى تحديدهم وإثارتهم . أى : أنفذوا قضاءكم ، الذى تريدون أداءه نحوى : من إيدائى أو إهلاكى ، بدون إظهار أو إهمال ويصح أن يكون القضاء بمعنى : الحكم . أى : ثم احكموا على بما تريدون من أحكام ، ولا تتركوا لى مهلة فى تنفيذها ، بل نفذوها فى الحال .

وكل ما فى الآية يؤيد ثقة نوح بنصر الله ، وعدم مبالاته بكيدهم أو وعيدهم ؛ فهو نموذج للداعية المؤمن الثابت أمام الباطل ؛ الواثق بعون الله ونصره .

ومعنى الآية : يا قوم ، إن كان قد شق عليكم مقامى فيكم ، وتذكيرى إياكم بآيات الله ، الدالة على وحدانيته ، فأجمعوا ما تريدون جمعه من مكر وكيد ، ثم ادعوا شركاءكم : ليساعدوكم فى ذلك ، ولا تجعلوا أمركم الذى تعتزمون به خفياً ملتبساً عليكم بل أظهروه لى وتبصروا فيه ؛ فإن كنتم ترون أنكم محقون ، فاقضوا إلى ذلك الأمر ، ونفذوه بالفعل ، ولا تؤخرونى ساعة واحدة ، عن تنفيذ هذا القضاء ، ومهما قدرتم فافعلوا ؛ فأنا لا أبالى بكيدكم ؛ لأنى توكلت على الله ربى وريكم .

وهذا الموقف من نوح عليه السلام ، مشابه لموقف هود عليه السلام حين قال لقومه :

إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَلِّى بِرِىِّءَ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا نَنْتَظِرُونَ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (هود : ٥٤ - ٥٦) .

وهكذا يتبين الفرق بين موقف المؤمن الراسخ الإيمان الذى لا يعرف التردد ، وبين موقف الكافر الضعيف المتردد ، الذى لا ملاذ إلا بالقوة الوهمية للشركاء ، والآلهة المزعومة .

٧٢ - فَإِن تَوَلَّيْتُمْ مِمَّا سَأَلْتَكُمْ مِنْ أَجْرِ إِنْ أَجْرِى إِلَّا عَلَى اللَّهِ ... الآية .

أى : فإن أعرضتم عن نصحتى ، وكفرتم برسالتى ؛ فإنى لا أنتظر منكم على تبليغ الرسالة أجراً ولا مالاً ؛ لأن أجرى وجزائى من الله وحده .

وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

أى : أمرنى ربى بأن أكون من المسلمين . أى : المستسلمين الخاضعين لحكمه ، الراضين بقضائه وقدره ، والإسلام هنا بمعنى : الخضوع والاستسلام لأمر الله عز وجل ، وهو دين الأنبياء والرسل جميعاً من أولهم إلى آخرهم وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية فهذا نوح يقول : وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل : إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَحْيَى إِنَّ اللَّهَ أَحْصَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣١ ، ١٣٢) .

وقال موسى : يَلْقَؤُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَامِتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . (يونس : ٨٤) .

وقال سحرة فرعون: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِيراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ. (الأعراف: ١٢٦).

وقال النبى محمد ﷺ: إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسِيتُ وَنَحَيْتُ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ. (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣). أى: من هذه الأمة.

وقد روى الشيخان: أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء أخوات لعلات: أمهاتهم شتى، ودينهم واحد».

فالأنبياء والرسول أشبه بإخوة من أب واحد وأمهات متعددة: لأن الله سبحانه هو الذى أرسل الرسل، وأنزل الكتب داعية إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، ولكل رسول شرعة ومنهاج: قال تعالى: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا. (المائدة: ٤٨).

٧٣ - فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا غَرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... الآية .

لقد لَوْن نوح فى دعوته كما ذكر فى سورة نوح، وفى سورة هود، وفى سور أخرى، بيد أن قومه كَذَّبُوهُ: فأغرقهم الله بالطوفان، وأمر نوح ومن معه من المؤمنين بركوب السفينة والسير بها، باسم الله مجريها ومرساها، ثم استخلف الله المؤمنين فى عمارة الأرض، والممتلكات التى تركها المشركون والهالكون، وأغرق الله المكذبين ونجى المؤمنين:

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ .

أى: فانظر وتأمل يا كل ذى عقل سليم، كيف كان عاقبة المنذرين الذين أنذرتهم نوح بالعقوبة على كفرهم ففسخروا منه واستهزءوا به: فكان عاقبتهم الهلاك والدمار وفى هذا المعنى يقول الله تعالى: وَيَضَعُكَ الْفُلْكَ وَكَلَّمَ مَرْ عَلَىهِ مَا مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. (هود: ٣٨ - ٤٠).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطِيعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾

التفسير :

٧٤ - ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ... الآية .

ثم أرسل الله رسلاً كثيرين لهداية البشرية .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . (إبراهيم : ٤) .

وكان كل رسول يأتى إلى قومه فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمان بالملائكة والكتب والرسول واليوم الآخر ، ومع كل رسول معجزة خارقة للعادة : تصديقاً له فى دعواه .

فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

إن القوم مرونا على التكذيب بالرسول ، فكلمنا جاء أمة رسول كذبوا به ، وكأنما وصى السابق منهم اللاحق وتعودوا على هذا التكذيب ، كأن التكذيب طبيعة فى جبلتهم ، والعناد صفة ملازمة لهم ، فما كان اللاحقون ليؤمنوا بما كذب به السابقون .

ومن معانى الآية أيضاً : أن المكذبين كذبوا الرسول عندما جاءهم بالرسالة أول مرة ، ثم استمروا على عنادهم ، ولم يعاودوا النظر فى هذه الرسالة ، ولم يعودوا إلى الإيمان بها بعد أن كذبوا بها أول مرة جاء بها رسولهم .

وقد ذهب إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير فى تفسيره ، حيث قال :

قوله : فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ .

أى : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ، بسبب تكذيبهم إياهم أول من أرسلوا إليهم .

قال تعالى : وَتَقَلَّبَ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . (الأنعام : ١١٠) .

وتفيد الآية عموماً : استمرار هؤلاء الكفار على التكذيب والعناد ، دون أن تحوّلهم الآيات البينات التى جاءهم بها الرسل عن عنادهم وضلالهم .

كَذَلِكَ نَطِيعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ .

أى : كما نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا نختم على قلوب من أشبههم فى العناد ممن بعدهم من المعتدين كقومك ! فقد جرت سنة الله تعالى ، أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب فإذا استمر أقوام الرسل فى تكذيبهم ، ولم يفتحوا قلوبهم للنظر ، واستمروا على العناد ؛ سلب الله عنهم الهدى والرشاد ، وتركهم فى غيهم وضلالهم كأنما ختم على هذه القلوب فلا تفقه الحق ولا تتأمل الرشاد ، وقريب من ذلك قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (البقرة : ٦ ، ٧) .

قال الزمخشري :

والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ؛ لأن الخذلان يتبعه ، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

وبعبارة أخرى : المراد بالطبع : عدم قبول القلوب شيئاً من نور الهداية والمعرفة ؛ لأنهم تجاوزوا كل حد فى الكفر والتكذيب فلا يؤمنوا .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (٧٥) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مِثْلُ بَقَرَاتِنَا يَلْعَنُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى أَتَاهُمُ الْقَارِعَةُ ﴾ (٧٦) ﴿ فَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ لِّلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ (٧٧) ﴿ وَأَسْحَرْنَا هَذَانِ لَا يَلْمِضُ السَّاحِرُونَ ﴾ (٧٨) ﴿ قَالُوا أَاجْتَنَّا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧٩) ﴿

المفردات :

وملئته ، المألأ : أشراف القوم .

لتلفنتنا ، لتصرفنا ، واللقب والقتل بمعنى واحد .

التفسير :

٧٥ - ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا ... الآية .

تأتى هذه الآيات عن قصة موسى عليه السلام ، من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ فقد أرسل الله رسلاً إلى قومهم ، ومن بينهم موسى ، كما ذكر فى الآية السابقة ، لكنه ذكر موسى هنا ؛ لاشتمال قصته على أمور كثيرة ، ولأن اليهود كانوا يجادون العرب ، ويعرفون هذه القصة ، واشتهار فرعون وأعماله ، ولأنها أيضاً تشتمل على حوار بين ملك متكبر ؛ يملك الأرض والمال والنيل والأتباع ، وموسى وهارون لا يملكان شيئاً سوى الرسالة والتأييد الإلهى ، ويشاء الله أن يغرق فرعون فى ماء النيل ، وأن يرث المؤمنون الملك والأرض ؛ فهو نموذج لزهاق الباطل ، وإحقاق الحق .

ومعنى الآية : ثم بعثنا موسى وهارون ، من بعد الرسل الذين أرسلهم الله بعد نوح ، مثل : هود إلى قومه عاد ، وشعيب إلى قومه مدين ، وصالح إلى قومه ثمود .

وقد أيد الله موسى بتسع آيات وهي :

السنون (أعوام الجذب والقحط) ، ونقص الأموال ، ونقص الأنفس ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدَّم .

قال تعالى : فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ مُفْصَلَاتٍ ... (الأعراف : ١٣٣).

وقد أرسل موسى وهارون إلى جميع الأمة المصرية ، ولكنه خص فرعون وملأه ؛ لأن السلطة كانت فى يده ، ولأن الحديث كان مع فرعون أولاً ؛ رغبة فى إيمان من خلفه بإيمانه .

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

أى : امتنعوا عن قبول الحق والانقياد له ، وعن الإيمان بموسى وهارون .

وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . أى : معتادى الإجرام راسخين فى الجريمة والظلم ، والإفساد فى الأرض . وأعظم الكبر : أن يتهاون الناس برسالة ربهم ، بعد قيام الأدلة على صحتها .

٧٦ - فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ .

فلما جاءهم موسى برسالة السماء ؛ تحمل الدعوة إلى الحق والإيمان ، ومع موسى معجزات ظاهرة ؛ تؤيد رسالته ؛ قال فرعون وقومه : هذا سحر ظاهر وليس بمعجزة ، وأكذبوا كلامهم بأدوات التأكيد ، وهي : إن ، ولام القسم ، واسمية الجملة ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان .

قال تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

٧٧ - قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ... الآية .

قال موسى منكراً عليهم عزوفهم عن قبول الحق ، واتهام المعجزة بأنها سحر ، وحذف مقول القول ؛ لتنزيه لسانه عن إعادة الجملة الباطلة التى قالوها ؛ وهى اتهام الحق بأنه سحر واضح .

أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ .

أى : عجباً لكم أمذا الحق المؤيد بالمعجزات سحر ، والسحر فى حقيقته تخييل وخداع ، والساحر لا يفوز فى ساحات الحقائق ، وقضايا الدين ، وأصول الحياة ، وإقامة الممالك ؛ لأن السحر حيلة وشعوذة وخفة يد . وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى . (طه : ٦٩) .

٧٨ - قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ .

رفض فرعون وحاشيته رسالة موسى لسببين :

١ - أنها تصرفهم عما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم .

٢ - أن موسى وهارون سينالان تأييداً شعبياً ، وزعامة دينية ، فأثر الدين غالب فى نفوس الناس أجمعين ؛ ويصبح ملك فرعون صورياً ؛ بعد تصديق الناس برسالة موسى .

ونلاحظ فى الرد عليهما ما يأتى :

١ - الرسالات السماوية جاءت لإصلاح الخلل وتقويم العوج ، وشنت على الناس تقليد الآباء والأجداد فى الباطل ، وعبادة الهوى .

٢ - وقف الكفار فى وجه رسالات السماء من عهد نوح ؛ خوفاً على ملكهم وجبروتهم وتسلطهم ، وحاولوا منع أتباعهم من الإيمان بالرسل ؛ تمسكاً بالملك والجبروت ، وكرهية لكل رسالة إصلاح ودعوة إيمان ، فقوم نوح قالوا عنه : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضِلَ عَلَيْكُمْ ... (المؤمنون : ٢٤) .

وقوم محمد كانوا أعرف الناس بصدقه وأمانته ، وبأن الشرك تهافت ، ولكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على ما فى عقيدة الشرك من خرافات وتقاليد ، وكذلك خشى الملأ من قوم

فرعون: من دعوة موسى وهارون: لأنها ستغير الهرم الاجتماعى ، وتجعل القيادة فى يد الحق والرسالة :
ولذلك جحدوا وكفروا بهذه الرسالة وقالوا :

وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ .

أى : لن نصدق برسالتكما : لأنها ستسحب بساط الملك من تحت أقدامنا وهكذا يتعلل فرعون وملؤه
بهذه التعللات : فقد كان الملك والسلطان أهم عندهم من الهداية والإيمان مع أن الدنيا فانية ، وأثر الإيمان
خالد باق !

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْتَوِينِى بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ٧٩ ﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى أَلْقُوا
مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ٨٠ ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ ٨١ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ٨٢ ﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ٨٣ ﴾

المعردات:

السحر: يطلق على ما لطف ودق ، ويطلق على ما يقع بخداع وتخيلات لا حقيقة لها ، مثل ما يفعله
المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، ويكون السحر أيضاً بمباشرة أقوال
وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد من التأثير على الشخص المقصود ، بحيث يغير مزاجه ويؤثر
فى حواسه ووجدانه ، كأن يجد الحلو مرًا ، وينقبض صدره وتضعف قواه ، ويكثر اضطرابه .
سيبطله : سيمحقه ولا يبقى له أثرًا .

لا يصلح : لا يثبت ولا يؤيد .

ويحق الله الحق : ويثبت الله الحق ويقويه ويؤيده

بكلماته : بأوامره ووحيه .

التفسير:

٧٩ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَنْتَوِينِى بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ .

لقد ألقى موسى عصاه فانقلب ثعبانًا كبيرًا أمام فرعون ، وأدخل يده فى جيبه ، فخرجت بيضاء
بياضًا يغلظ ضوء الشمس ، وادعى فرعون أن هذا سحر مبين ، وليس معجزة إلهية ، وحاول أن يؤيد قوله
بالفعل : فأرسل فرعون أوامره فى سائر المدن ، وجمع أمهر السحرة ، وأعلامهم قدرًا .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِى بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ .

أى : قال فرعون أمراً قومه : اجمعوا لى من جميع أنحاء مملكتى كل ساحر واسع العلم بفنون السحر ، عظيم الخبرة به ، قوى التأثير ، بارع الحيلة .

٨٠ - فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ .

جاء السحرة وعرضوا على موسى أن يبدأ هو أو يبدعوا هم : فترك لهم موسى عنصر المبادأة : ليظهروا كل ما فى حوزتهم : وليفعلوا كل ما يستطيعون فعله ، فإذا أبطله موسى ، أدركوا أن ما فعله ليس سحراً : لأنهم أعلم الناس بالسحر .

وقد حكى القرآن فى سورة الأعراف هذا الموقف فقال :

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَغْفَوُهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ * وَأَرْحَمِنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلْجٌ مُلْتَمِسٌ . (الأعراف : ١١٥ - ١١٧) .

٨١ - فَلَمَّا أَلْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

عندما ألقى السحرة سحرهم : بهروا جميع الناس ، وأدخلوا الرهبة فى قلوبهم ، بالحيلة والشعوذة ، فقد دهنوا حبالهم بالزئبق ، وأرسلت الشمس أشعتها على الحبال : فصار لها بريق وتموج كأنها حيات تسعى .

قال موسى : ما جئتم به الآن هو السحر ، وليس ما أتيتم به من المعجزات ، التى قال عنها فرعون وملؤه :

إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

ثم قال موسى : هذا السحر الذى أظهرتموه : إن الله سيبطله وسيمحقه ، وسيظهر بطلانه قطعاً أمام الناس ، بما يفوقه من المعجزة التى هى آية خارقة للعادة ، تفوق السحر وأشكاله المختلفة .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . الذين يتخذون الباطل مركباً لخداع الناس ، وتزييف الحقائق : فالسحر باطل وفساد ، والله تعالى لا ينصر الباطل ولا يصلح عمل المفسدين ، وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُ حَيْثُ أَتَى . (طه : ٦٩) .

قال العلماء : لا تكتب هذه الجملة على مسحور : إلا دفع الله عنه السحر وهى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ .

٨٢ - وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

ويريد الله أن يحق الحق ويؤيده وينصره على الباطل بقدرته وآياته ؛ فهو سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له : كن ؛ فيكون ، ومن إرادة الله : أن ينصر الحق وأن يؤيد الرسل بآياته ، قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ . انتصار الحق واستقراره ، ففى إحقاقه قطع أطماعهم ، وتقويض سلطانهم ، والقضاء على باطلهم ومن سنن الله فى خلقه : أن البقاء لمبادئ الخير والحق ، قال تعالى : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . (الإسراء : ٨١) .

★ ★ ★

﴿فَمَاءٌ أَمِنٌ لِّمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُومُونَ كُفْتُمْ ءَامَنُكُمْ بِاللَّهِ فَلْيَبْلُغُوا أَهْلَ الْكُفْرِ إِنَّكُمْ مِّن قَوْمٍ مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴿

المضردات :

ذرية من قومه ، جماعة من قومه ، شباباً أو كهولاً ، فقد آمن به السحرة وهم كهول غالباً كما آمن به غيرهم .
أن يفتنهم ، أن يعذبهم .
لعال هي الأرض ، لغالب فيها .

التفسير :

٨٣ - فَمَاءٌ أَمِنٌ لِّمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ... الآية .

فى الآيات السابقة ما يفيد: أن الله أبطل عمل السحرة ، ونصر موسى وأيده بالمعجزات ، وقد كان هذا النصر كفيلاً بأن يؤمن بموسى أعداد كثيرة ، لكن الآية هنا أفادت بأن من آمن بموسى ، كان أعداداً قليلة من الشبان ، وكانوا خائفين من التعرض للعذاب والفتنة .

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .

أى : لم يؤمن بدين موسى إلا جماعة من شبان بنى إسرائيل ، أمّا الآباء والرؤساء ، فقد شايعوا فرعون ؛ طمعاً فى المناصب والرياسة ، وقد رجّح هذا الرأى ابن جرير ، حيث ذكر : أن الذرية كانت من بنى إسرائيل ؛ لعود الضمير على أقرب مذكور .

وذهب فريق من المفسرين : إلى أن الذين آمنوا بموسى ذرية من قوم فرعون ، آمنوا بموسى مع وجود الخوف ، والتعرض للفتنة من فرعون وملئه .

قال العوفى : عن ابن عباس : «إن الذرية التى آمنت بموسى من قوم فرعون منهم : امرأته ، ومؤمن آل فرعون ، وخازنه ، وامرأة خازنه» ، وقد اختار هذا الرأى ابن كثير فى تفسيره ؛ حيث قال : من المعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى ، واستبشروا به ؛ فقد كانوا يعرفون نعتة وصفته والبيشارة به .

وأيد هذا الرأى الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ، حيث اختار أن هذه الذرية : ذرية المصريين الذين آمنوا بموسى عليه السلام ؛ فقد آمن بموسى طائفة من المصريين ، منهم السحرة : الذين أعلنوا إسلامهم وتحملوا صنوف العذاب فى سبيل الله ، ومنهم : مؤمن آل فرعون ، الذى أخذ يبشر قومه بدعوة موسى عليه السلام ، وقد سميت سورة غافر ، بسورة المؤمن ، أى : مؤمن آل فرعون .

وفىها يقول الله تعالى : وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَلِمًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ . (غافر: ٢٨) .

وقال تعالى : وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَلْقَوْنَ أَتْبَعُونَ أَلَهُدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . (غافر: ٣٨) .

ونلاحظ أن الذين استجابوا لدعوة موسى كانوا من الذرية ، أى : من الأبناء والشبان ؛ لأن الكبار أشد تمسكا بما ألفوه ، والشباب هم أتباع الرسل .

قال تعالى : فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ .

أى : آمن بموسى شبان وأولاد ونساء من أهل مصر ، مع خوفهم من بطش فرعون وحاشيته بالمؤمنين بموسى .

« وإنما جاء فى القرآن : أَن يَفْتِنَهُمْ دون أن يقتنوهم ؛ حتى يشمل فرعون وملأههم ؛ لإفادة : أن الخوف من الملأ كان بسبب أن كل ظالم فى دولة فرعون ؛ كان يستمد ظلمه من طغيان فرعون وجبروته»^(١٣) .

وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى الْأَرْضِ .

تؤكد هذه الجملة ما سبقها ، وتؤيد أن فرعون كان جباراً ، عنيداً ، غالباً للناس ، قاهراً لهم فى أرض مصر بالسلطان والملك .

وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ .

كان مسرفاً فى البطش والظلم ، والتمرد والعنوة ، متجاوزاً الحد فى الظلم والفساد ، شديد البطش والفك ، حتى إنه ادعى الربوبية ، واسترق أسباط الأنبياء ، وكانت له سطوة ومهابة ، تخاف رعيته منه خوفاً شديداً .

٨٤ - وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ .

قال موسى لقومه الذين أظهروا الإيمان والانقياد لأمر الله ، مع الخوف من فرعون وملئه - قال لهم موسى : إن الإيمان الحق ينبغى أن يتبعه صدق اليقين ، بأن الله هو خالق الكون وبيده الخلق والأمر ، والتوكل على الله تعالى من شعب هذا الإيمان ، والتوكل يقتضى الأخذ بالأسباب ، مع اليقين الجازم بأن المسبب الحقيقى هو الله تعالى ، كما أن الإيمان بالقلب يستتبع التوكل ، ويقتضى الاستسلام لحكم الله ، والالتزام بما أمر الله ، وتنفيذ المأمورات ، واجتناب المنهيات .

إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . أى : إن كنتم مستسلمين له خاضعين لشرعه .

٨٥ - فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أى : استجاب المؤمنون لدعوة موسى ، وقالوا : على الله وحده توكلنا ، واعتمدنا ، وفوضنا أمورنا إليه ، ثم دعوا ربهم قائلين :

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أى : يا رب ، لا تجعلنا موضع فتنة من القوم الظالمين ؛ بأن تسلطهم علينا ، فنجنا يا رب من مكرهم وكيدهم . أو يكون المعنى : اللهم ، لا تنصر علينا القوم الظالمين ؛ فنكون مصدر فتنة لهم ؛ حيث يظنون أنهم على الحق ، وأن المؤمنين على الباطل بدليل انتصار الظالمين على المؤمنين ، وكان أتباع فرعون يأخذون المؤمنين بالأعمال الشاقة .

٨٦ - وَتَجَنَّبْ رَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

أى : أنقذنا بفضلك وعونك من هؤلاء القوم الكافرين ، الذين كفروا بك : فقد ادعى فرعون الألوهية ، وعذب بنى إسرائيل أشد العذاب ؛ فتنصرع المؤمنون إلى ربهم : أن ينجيهم من هؤلاء الزبانية الذين كفروا بنعمة الله عليهم ، ومارسوا أشد ألوان الظلم والعدوان .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بَيَّعَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨٧) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٩) ﴿

المضردات :

تبوؤا لقومكما بمصر بيوتا ، أى : اجعلا لقومكما منازل يقيمون فيها - يقال : تبوؤا المكان ، وتبوؤا به : نزل فيه وأقام به .

واجعلوا بيوتكم قبلة ، أى : اجعلوها أماكن الصلاة متجهين فيها إلى القبلة .

اطمس على أموالهم ، الطمس فى اللغة : المحق والمحور ، أى : أهلكها واجعلها غير صالحة للانتفاع بها .

واشدد على قلوبهم ، أى : اختم عليها واجعلها قاسية لا تنشرح للإيمان ؛ لا اختيارهم الكفر وإصرارهم عليه .

التفسير :

٨٧ - وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بَيَّعَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

أمر الله تعالى موسى وأخاه هارون ، بوحي أوحاه إليهما ، أن يجعلا لقومهما بمصر بيوتا خاصة بهم ، ينزلون بها ويسكنون فيها ، ويعتزلون فرعون وجنده إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً .

أى : اجعلوا هذه البيوت التى حللتم بها مكانا لصلاتكم وعبادتكم - وكان فرعون وجنده ، قد خربوا معابد بنى إسرائيل ومنعواهم من الصلاة فى أماكن العبادة الخاصة بهم .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ .

أى : حافظوا على الصلاة فى خشوع وخضوع ، وحضور قلب ؛ فهى وسيلة لتثبيت الإيمان ، وتفريج الكرب وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر : فزع إلى الصلاة .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : بالنصر والفلاح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة .

تنوع الخطاب فى الآية :

أول الآية فيه خطاب مثنى ، توجه الخطاب بالوحي إلى موسى وهارون ، فاتخاذ البيوت التى تخص القوم ، قرار رئيس تم بتوجيه نبي الله موسى ونبي الله هارون ، لكن تهئية البيت ليكون معداً للصلاة ، والاتجاه جهة القبلة للعبادة ، أمر ينبغى أن يقوم به جميع المؤمنين ، وكذلك إقامة الصلاة ، أمر عام للجميع فجاء الأمر فيه بواو الجمع .

أما البشارة بالنصر فكانت من موسى وحده ؛ لتكون أوقع فى نفوس المؤمنين وأنسب فى إدخال السرور عليهم ، وذهب بعض المفسرين : إلى أن المراد بالبيوت هنا: المساجد ، وتبنى المساجد جهة القبلة .

قال الشوكاني فى تفسير الآية :

تَبَوَّءُوا لِقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَيْوتاً . أى : اتخذوا لقومكم بمصر بيوتا ؛ لعبادة الله تعالى ، أى : مساجد ، قيل : ومصر فى هذه الآية هى : الإسكندرية ، وقيل : هى مصر القديمة ، بجوار القاهرة الآن . وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً . أى : متوجهة إلى جهة القبلة ، وقيل : المراد : البيوت التى يسكنون فيها ، أمروا بأن يجعلوها متقابلة ، والمراد بالقبلة على القول الأول هى : جهة بيت المقدس ، وقيل : جهة الكعبة . ا هـ .

٨٨ - وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

الزينة : اسم لكل ما يتزين به من ملابس ، ومركوب ، وحلية ، وفراش ، وسلاح ، وغير ذلك .

كان موسى يُعِدُّ بنى إسرائيل للخروج من مصر ؛ لذلك اتخذ لهم بيوتا خاصة بهم ، وحقق على كثرة العبادة والصلاة ، ويشهرهم بالنصر ، ثم شاهد موسى ما يتمتع به فرعون وقومه من المال والزينة ، والزراعة والترفع ، والتنعيم بصنوف الأموال والمتع ، ولكنهم لا يشكرون الله على نعمائه ، ولا يؤدُّون حق الله فيما

رزقهم ، بل استغلوا هذه النعم فى الضلال والإضلال : فجددوا الدين ، ورفضوا الإيمان بموسى ، وعذبوا المؤمنين وقتلواهم ؛ فدعا موسى ربه أن يختبرهم بصنوف العذاب ، ومنها : محق الأموال ، وطمس القلوب ، وعدم تفتحها للحق حتى يفاجئها الموت .

قال الإمام الشوكانى فى فتح القدير :

رَبَّنَا يُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ .

أى : فكانت عاقبة أمرهم أن استعملوا نعمك فى صرف الناس عن دينك : دين الحق .

رَبَّنَا أَطْمِئْسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ . دعاء عليهم بأن يحق الله أموالهم ويهلكها .

وَأَشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ . أى : اجعلها قاسية مطبوعة لا تقبل الحق ، ولا تنشرح للإيمان .

فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

أى : لا يحصل منهم الإيمان إلا مع المعاينة لما يعذبهم الله به ، وعند ذلك لا ينفع إيمانهم . ا هـ .

ونلاحظ أن موسى قَدَّم بين يدي دعائه ، على فرعون وقومه : ذكر طغيانهم ؛ ليكون أرحم لاستجابة الله ، وتشهيراً بهؤلاء الذين لم يقدروا نعم الله حق قدرها ، وكرر النداء رَبَّنَا ؛ مبالغة فى الضراعة إليه تعالى .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام ؛ غضباً لله تعالى ، ولدينه ؛ على فرعون وملئه ، كما دعا نوح على قومه .

٨٩ - قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَبِغَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

كان موسى عليه السلام يدعو ربه ، وهارون يؤمِّن على دعائه ، فاعتبر الله الدعاء متوجهاً منهما معاً ، فقال سبحانه :

قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا . لقد استجبت دعوتكما ، وسوف أحقق هذا الدعاء ؛ بتدمير فرعون ، وإهلاك أمواله ، لكن هذه الإجابة لها وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر .

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَبِغَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فاستمرا على دعوة الناس إلى الإيمان ، والزما الاستقامة على دين الله ، ولا تسيران فى طريق من يخرج عن شرع الله ، أو يتعجل إجابة الدعاء قبل أوان ذلك وهذا

توجيه من الله للناس بأهمية الدعاء ، والإخلاص فيه ، وعدم الاستعجال ؛ لأن الله لا يعجل لعجلة العباد ، وإن من علامات الإيمان الصادق : أن يكون الإنسان غيوراً على دين الله تعالى ، وكان موسى قد علم أن فرعون لن يؤمن ، فلما أعلمه الله بذلك ؛ دعا بهذه الدعوة ، كما سبق أن أعلم الله نوحاً بعدم إيمان قومه .

قال تعالى : **وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ .** (هود : ٣٦) .

فلما علم نوح بذلك قال : **رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذُبَابًا ۖ إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَصِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يُلْذَرُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .** (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

★ ★ ★

﴿ **وَجَازَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهُ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠ ءَأَكْفُرُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٩١ ۖ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَفَرْنَا مِنْ أَتَى النَّاسِ عَنَّا يَنِتُّنَا غَرَقُلُوا ۝٩٢ ۖ** ﴾

المضردات :

وجازنا بني إسرائيل البحر ، أى : جعلناهم يجاوزونه ويعبرونه من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئ الشرق .

فأتبعهم فرعون ، أى : تبعهم حتى اقترب منهم ، تقول : تبعته حتى أتبعته ، إذا كان قد سبقك فلحقته .

بغياً وعدوا ، أى : ظلماً ، وتجاوزا للحد فيه .

حتى إذا أدركه الغرق ، أى : حتى إذا لحقه الغرق .

التفسير :

٩٠ - وَجَازَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا ... الآية .

لما أعلم الله تعالى موسى وهارون باستجابة دعائهما على فرعون وقومه ، أمرهما أن يخرجوا بني إسرائيل من مصر ليلاً ، فخرجوا بهم على حين غفلة من فرعون وقومه ، فلما علم فرعون بخروجهم ؛ خرج هو وجنوده على إثرهم مسرعين فى طلبهم بغياً وعدواناً ، والتفت بنو إسرائيل فإذا الطامة الكبرى وراءهم ؛ فقال بنو إسرائيل : يا موسى ، العدو وراءنا والبحر أمامنا ! فقال موسى : **إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْلِكُ** . (الشعراء : ٦٢) .

فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر (وهو بحر القلزم المسمى : البحر الأحمر ، بحر السويس) فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى : كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق وأمر الله الريح فنشفت أرضه ، وسارت بنو إسرائيل فى هذه الطرق اليابسة ، وعبرت إلى الشاطئ الآخر ، ووصل فرعون وجنوده إلى الساحل ، وكان طريق بنى إسرائيل فى البحر لا يزال باقياً ، فسار فيه فرعون وجنوده ، فلما اكتملوا جميعاً فيه ، وهم أولهم بالخروج ، أمر الله العلى القدير البحر أن يرتطم عليهم ، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون ، وغشيتة سكرات الموت .

قال : وَجَنُوزَنَا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرِ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا .

أى : جعلنا بنى إسرائيل يجاوزون البحر ويعبرونه ، من الغرب إلى الشرق حتى وصلوا إلى شاطئه الشرقى ، ثم دخل فرعون وجنوده فى إثرهم ، فأطبق الله عليهم البحر ، وشاهد بنو إسرائيل جموعهم تنجو من فرعون وجنوده ، كما شاهدوا فرعون وجنوده غرقى فى قلب البحر .

قال تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ . (البقرة : ٥٠) .

حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

كان فرعون فى مرحلة الغرغرة ، ورأى الموت رأى العين ؛ فاعترف بالإيمان اعترافاً مكرراً ثلاث مرات:

١ - قال : آمنت .

٢ - أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل .

٣ - وأنا من المسلمين .

وهو فى كل ذلك يحاول أن يفلت من الموت ؛ فاعلن إيمانه ، وشهد بأن الإله الذى آمنت به بنو إسرائيل ، هو الإله الحق الواحد الأحد ، وأظهر إسلامه واستسلامه لهذا الدين ، ولهذا الطريق ، الذى حاربه بالأمس ، وادعى الألوهية ، وجرم على بنى إسرائيل العبادة فى دور العبادة . بيد أن هذه التوبة جاءت متأخرة ؛ لأنها جاءت بعد أن يش من الحياة وشاهد الموت.

قال تعالى : مَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

فالله تعالى يقبل توبة العبد مادام فى هذه الدنيا فإذا بلغت الروح الحلقوم ؛ فقد انتهت الحياة وأغلق باب التوبة ، قال تعالى : فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللّٰهُ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ . (غافر : ٨٤ ، ٨٥) .

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجة والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ»^(٩٢) . والغرغرة : حشجة الموت .

٩١- ءَالَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

أى : أتؤمن الآن ، فى وقت لا ينفع نفساً إيمانها . وهو الوقت الذى تأكدت فيه من الموت ؛ فصار العمل اضطراراً لا اختيار فيه . ويزيد من عظم التبعة ، أن فرعون قد أسرف فى المعصية والعدوان ، وعظم فسادة فى الأرض .

قال أبو السعود : وهذه الآية : لتشديد التوبيخ والتقريع ، على تأخير الإيمان إلى هذا الآن ؛ ببيان أنه لم يكن تأخيره لعدم بلوغ الدعوة إليه ، ولا للتأمل والتدبر فى دلائله وآياته ، ولا لشئ آخر مما عسى يعد عذراً فى التأخير ؛ بل كان ذلك على طريقة الرد والاستعصاء والإفساد . ا هـ .

لقد امتنع فرعون عن الإيمان ، وصدّ بنى إسرائيل ومنعهم عن الإيمان ؛ فضاعف الله عذابه .

قال تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ زُذِلْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ . (النحل : ٨٨) .

٩٢- فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ يَبْنَكَ لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقْتَ ءَايَةً .

أى : نخرجك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ، ونجعلك طافياً ؛ ليراك بنو إسرائيل .

يَبْنَكَ . أى : نلقى ببندك على شاطئ البحر ، خالياً من الروح .

لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقْتَ ءَايَةً . لتكون عظة وعبرة بأن هذه نهاية الظلم والعدوان ، وأن الإنسان مهما ادعى العظمة أو الألوهية ، فإنه لا يمكن أن يفر من الموت ، واسم فرعون : منفتح بن رمسيس ١٢٢٥ ق. م ، وجثته لا تزال موجودة فى متحف الآثار المصرية بالقاهرة .

قال المفسرون : إنما نجى الله بدن فرعون بعد الغرق : لأن قوما اعتقدوا فيه الألوهية ، وزعموا : أن مثله لا يموت ، فأراد الله أن يشاهده الناس ، على ذلك الذل والمهانة : ليتحققوا موته ، ويتخذوا العظة والعبرة.

وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغٰفِلُونَ .

كثيراً من الناس . لا تتحرك قلوبهم للعظة والاعتبار ، والتأمل فى آيات الله ، الداعية إلى الإيمان ، وفيه تحريك لقلوب أهل مكة ومن على شاكلتهم ، إلى التأمل فى آيات الله ، وقريب من ذلك قوله تعالى :

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

ملاحظة : كان فرق البحر ونجاة موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه معجزة عظيمة لمسبينا موسى عليه السلام ؛ لذا سُنَّ صوم يوم عاشوراء الذى تم فيه هذا الحدث ؛ شكراً لله تعالى .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة حول هذه الآيات ومنها ما رواه البخارى عن ابن عباس قال : (قدم النبى ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبى ﷺ لأصحابه «أنتم أحق بموسى منهم ؛ فصوموه»^(١) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِوَاصِدَاقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِىهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المضردات :

بوانا بنى اسرائيل ميوأ صدق ، أنزلناهم مكانا صالحاً آمناً وأسكناهم فيه.

التفسير :

٩٣ - وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِوَاصِدَاقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ... الآية .

فى أعقاب الحديث عن نجاة بنى إسرائيل ، وغرق فرعون وقومه ، تحدث القرآن عن جانب من النعم التى أنعمها الله على بنى إسرائيل فقال :

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَءَ الصِّدْقِ .

أى : ولقد أنزلنا بنى إسرائيل منزلاً صالحاً مرضياً وهو منزلهم سابقاً فى مصر ، ولاحقاً فى فلسطين ، وقد رزقهم الطمانينة والأمن ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ . أى : اللذات المستطابة المباحة فيها ، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال ، وصيود البر والبحر ، والمن والسلوى .

فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .

أى : ظل هؤلاء يرفلون فى نعم الله عليهم ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم علم التوراة ومعرفة أحكامها ، وكتب الله يدعو الناس إلى التعاون والتأزر والتواد والتراحم لكنهم تفرقوا فى أمور دينهم ودنياهم على مذاهب شتى ، فالجملة توبخهم على جعلهم العلم الذى كان من الواجب عليهم أن يستخدموه فى الحق والخير والوحدة والجماعة ، فاستخدموه فى التأويلات الباطلة وجعلوه وسيلة للاختلاف والابتعاد عن الصراط المستقيم .

وللعلماء فى تحديد المراد ببنى إسرائيل فى هذه الآية قولان :

الأول : أنهم اليهود الذين كانوا فى زمن موسى عليه السلام ، وعلى هذا يكون مَبْوَءَ الصِّدْقِ : مصر الشام ، والعلم الذى أدى إلى الاختلاف بينهم هو علم التوراة .

والقول الثانى : هم اليهود المعاصرون للنبي ﷺ ، وبه قال جمع عظيم من المفسرين ، وهم قبائل اليهود فى المدينة : (قريظة ، والنضير ، وبنو قينقاع) ، ومنزل الصديق ما بين المدينة ، والطيبات : ما فى تلك البلاد من التمور ، والمراد بالعلم : القرآن ، وكونه سبب الاختلاف : أن اليهود اختلفوا فآمن قوم ، ويقى آخرون على كفرهم .

فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ .

أى : ما اختلف اليهود فى أمر محمد ﷺ ، إلا من بعد ما علموا صدقه بنوعته ، وتظاهر معجزاته .

وقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما بُعث وجاءهم ما عرفوا كفروا به .

والخلاصة : أنهم ما اختلفوا فى شىء من المسائل جهلاً : وإنما من بعد ما جاءهم العلم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى: إن ربك يفصل ويحكم بينهم يوم القيامة فى شأن ما اختلفوا فيه فيمين المحق من المبطل ، حيث ينجى الله المحقين ، ويعاقب المبطلين :

★ ★ ★

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المضردات :

من الممترين ، من الشاكين .

التفسير :

٩٤ - فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ... الآية .

قص الله فى الآيات السابقة قصص بعض المرسلين مع أممهم ، وفى كل قصة كان النصر للمؤمنين والهلاك للجاحدين ؛ تلك سنة الله فيما سبق ، وستظل كذلك إلى يوم الدين ، ولا سبيل إلى الشك فى ذلك . وفى هذه الآيات ساق الله هذا المعنى بطريق التلطف فى الأسلوب ، فساق الكلام إلى الرسول ﷺ والمراد: قومه ، فجاء على نحو قولهم : (إياك أعتى واسمعى يا جارة) .

وقد جاء مثل هذا فى قوله تعالى : لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ .. (الزمر: ٦٥) . وقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (الأحزاب: ١) .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ...

المعنى : فإن كنت أيها الرسول الكريم - على سبيل الغرض والتقدير - فى شك مما أنزلنا إليك ، من قصص المرسلين ، كقصّة نوح وموسى وغيرهما ؛ فاسأل الذين يقرءون كتب الأنبياء ، كاليهود والنصارى ؛ فإنهم يعلمون أن ما أنزلناه إليك حق لا يستطيعون إنكاره .

وقد جرت عادة العرب أن يُقدِّروا الشك فى الشيء ؛ ليبْنُوا عليه ما ينفى احتمال وقوعه ؛ فيقول أحدهم لابنه : إن كنت ابنى ؛ فكن شجاعا .

وجاء من هذا قول المسيح عليه السلام فى إجابة الله تعالى يوم القيامة ما ورد فى أواخر سورة المائدة : إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِىَ بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ . (المائدة: ١١٦) .

فهو عليه السلام يعلم أنه لم يقله ، وإنما يفرض قوله فرضاً ؛ ليستدل عليه ، بأنَّه لو قاله لعلمه الله تعالى منه ، أى : إن كنت قلته على سبيل الفرض والتقدير ؛ فقولى هذا لا يخفى عليك .

ومن هذا قول بعض العلماء فى محاوره تلاميذه : إذ كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة إلى متساويين . أى : إن كون الخمسة زوجاً يستلزم ذلك ، وهذا لا يدل على أن الخمسة زوج ، وهكذا ما فى الآية .

فهو يدل على انه لو حمل ذلك ؛ لكان الواجب هو فعل كذا وكذا ، وليس فيها دليل على وقوعه .

قال ابن كثير : قال قتادة بن دعاسة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » .

وقيل : خوطب رسول الله - ﷺ - والمراد : أمته ، ومعناه : فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليكم^(٩٥) .

لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .

والمعنى : أقسم ؛ لقد جاءك الحق الذى لا ليس فيه من ريب لا من غيره ؛ فلا تكون من الشاكين المترددين ؛ بل كن من ذوى الإيمان الثابت بهذا الحق المبين .

٩٥- وَلَا تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ مِنَ الْخٰسِرِينَ .

أى : ولا تكون أيها النبى ممن كذب بآيات الله ، الدالة على وحدانيته وقدرته على إرسال الرسل ؛ لهداية البشر ؛ فتكون ممن خسروا الدنيا والآخرة .

وهذا أيضاً من باب التهيج والتثبيت ، وقطع الأطماع عنه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : فَلَا تَكُونُ مِّنْ ظٰهِرٍ لِّلْكَافِرِينَ . (القصص: ٨٦) ، وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين .

جاء في تفسير أبي السعود :

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ .

من باب التهديد والإلهاب ، والمراد : إعلام أن التكذيب من القبح والمحذور ، بحيث ينبغي أن ينهى عنه من لا يتصور إمكان صدوره عنه ، فكيف يمكن اتصافه به ، وفيه قطع لأطماع الكفرة : فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .
في الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾

التفسير :

٩٦- إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها : لبيان شدة إصرار الكافرين على الكفر والجحود والعصيان ، ولو جاءتهم كل آية كونية حسية ، أو علمية ، أو قرآنية ، مثل : آيات موسى عليه السلام .

والمعنى : إن هؤلاء الكفار قد أعرضوا عن الحق ، فثبتت عليهم كلمة الله ، أى : قضاؤه وحكمه بالعذاب ، وهؤلاء لا يؤمنون أبداً ؛ لفقدهم الاستعداد للإيمان ، وتصميمهم على الكفر ، وليس المعنى أن الله يمنعهم من الإيمان ، وإنما هم الذين اختاروا الكفر وكسبوه . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة: ١٧) .

٩٧- وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

أى : إن هؤلاء الكفار الذين اختاروا الكفر وأصرروا عليه ؛ لن يستجيبوا لدعوة الهدى .

وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، واضحة المدلول ، مقبولة لدى العقول .

حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . حتى يشاهدوا عذاب الله كالخسف والزلازل ، والصواعق والفرق والهلاك ، وكل عذاب أليم موجب مطبق عليهم ، وحينئذ لا ينفع إيمانهم كما لم ينفع فرعون إيمانه حين أشرف على

الغرق ، وكما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُمْ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحِشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام: ١١١) .

★ ★ ★

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُصِّرُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (١٨)

المفردات :

فلولا : لولا : كلمة تفيد : الحث على الفعل بمعنى : هلا .

قرية : اسم للمباني المتصلة التى يسكنها جمع من الناس ، وقد جاء فى القرآن الكريم أن القرية والمدينة بمعنى واحد ؛ قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ . ثم قال : وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ . وقيل : القرية : بلدة أصغر من المدينة — والمراد من القرية فى الآية : أهلها .

التفسير :

٩٨- فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا ... الآية .

أى : هلا كان أهل كل قرية من قرى الرسل الذين أرسلوا إليهم ، آمنوا بعد دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ، وقبل نزول العذاب واستحالة الإيمان ؛ فنفعهم إيمانهم .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُصِّرُهُمْ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : لكن قوم يونس عليه السلام ، الذى بُعث فى أهل نينوى ، بأرض الموصل ، شمال العراق ، كانوا قد كفروا ، ثم لما رأوا أمارات العذاب ؛ تضرعوا إلى الله تعالى ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ؛ فرحمهم الله تعالى ، وكشف عنهم العذاب . أى : العذاب الذى وعدهم يونس بنزوله ، وقبل إيمانهم ، ومُتَّعَهُمْ إِلَىٰ أَجْلِهِمْ ، وفى القصة تعريض بأهل مكة ، وحض لهم على أن يكونوا كقوم يونس .

:

ونذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب : إلى أن المراد بالقرية هنا : مكة .

ومعنى الآية : « هلا أسرع مكة إلى الإيمان بالنبي المبعوث منها وفيها ؛ فانتفعت بهذا الإيمان قبل غيرها ؛ لأنها أولى به ؛ إذ كان مطلعته فى أفقها ، ولكن الواقع أنها لم تؤمن فحرمت هذا الخير – وذلك هو حال معظم الأقوام مع أنبيائهم ، إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ؛ فنجاهم الله من العذاب الذى أوثك أن يحل بهم .

قصة يونس

يونس بن متى ، ويقول أهل الكتاب يونس بن أمثاى ، وقد أرسله الله تعالى إلى نينوى من أرض الموصل ، فكدبوه فوعدهم بالعذاب بعد مدة ، قيل : إلى أربعين يوماً ، وذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه ؛ خافوا نزول العذاب ، ولما دنا الموعد غامت السماء غيماً أسوداً ، ذا دخان شديد ؛ فهبط حتى غشى مدينتهم ، فهابوا ، فطلبوا يونس فلم يجدوه ، فأيقنوا صدقه ، فلبسوا المسوح ، وبرزوا إلى الفضاء بأنفسهم ، ونسائهم ، وصبيانهم ، ودوابهم ، وفرقوا بين كل الالة وولدها ، فحن بعضها إلى بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأخلصوا التوبة ، وأظهروا الإيمان ، وتضرعوا إلى الله تعالى ؛ فرحمهم وكشف عنهم ، وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة^(١٧) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : بلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم ، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وضع عليه أساس بنائه فيرده إلى صاحبه^(١٨) .

قال على رضى الله عنه : إن الحذر لا يرد القدر ، وإن الدعاء ليرد القدر .

من تفسير الشوكانى :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ... الآية .

فهلا قرية واحدة من هذه القرى التى أهلكناها ، آمنت إيماناً معتداً به ، وذلك بأن يكون خالصاً لله قبل معاينة عذابه ، ولم يؤخروه كما أخره فرعون .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ . لكن قوم يونس ، لمّا آمنوا . إيماناً معتداً به قبل معاينة العذاب .

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْزِ . وهو العذاب الذى كان قد وعدهم يونس أنه سينزل عليهم ولم يروه ، فأروا علاماته دون عينه .

وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . أى : بعد كشف العذاب عنهم^(١٩) .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١١)

التفسير:

٩٩- وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا... الآية .

كان النبى ﷺ حريصاً على هداية قومه ، وتبليغ دعوته ، وكان يتحسر كثيراً ؛ لبعدهم عن طريق الهداية .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آلِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف: ٦) .

وفى هذه الآية بيان لحقيقة إلهية كونية ، وهى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والاختيار والإرادة ، وجعل الجزاء فى الآخرة منوطاً بكسب الإنسان واختياره فى هذه الدنيا ؛ حتى يكون الجزاء من جنس العمل ، فقد خلق الله الناس مستعدين بفطرتهم للسير فى طريق الخير أو الشر ، والإنسان بإرادته واختياره وكسبه هو الذى يرجح أحد الاتجاهين . قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . (الشمس: ٧-١٠) .

وقال عز شأنه : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا • إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢، ٣) .

وقال سبحانه : أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ • وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ • وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . (البالد: ٨-١٠) : أى : بينا له الطريقين .

وخلاصة معنى الآية : ولو شاء ربك ألا يخلق الإنسان مستعداً بفطرتة للخير والشر ، والإيمان والكفر ، ومرجحاً باختياره لأحد الأمور الممكنة على ما يقابله بإرادته ومشيتته ؛ لفعل ذلك ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلقه هكذا ؛ يوازن باختياره بين الإيمان والكفر ؛ فيؤمن بعض ، ويكفر آخرون .

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . أى : أفأنت مطلوب منك أن تكره الناس على دينك حتى يصيروا مؤمنين به ؟ كلا ، فأشفق على نفسك ؛ فما عليك إلا البلاغ ، وحسبك أداء واجبك ، وهو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

قال تعالى : **إِنْ أَنْتَ إِلَّا تَلِيٌّ** . (فاطر: ٢٣) .

وقال سبحانه : **لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا هُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ** . (البقرة: ٢٧٢) .

وقال : **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ** . (الشورى : ٤٨) .

وقال : **وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ** . (ق : ٤٥) .

وقال سبحانه : **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** . (البقرة: ٢٥٦) .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾

المفردات :

بإذن الله : بإرادة الله .

الرجس : يطلق على القدر حسياً كان أو معنوياً ، ومن المعنوى : الذنب ، والكفر ، وكل يصح أن يراد هنا وقد يطلق على العذاب والشك وغير ذلك .

التفسير :

١٠٠ - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... الآية .

تأتى هذه الآية : تأكيداً للمعنى الوارد فى الآية السابقة : فقد خلق الإنسان ويسر له أسباب الهداية ومن سنن الله تعالى أنه يسر الإيمان والهداية ، لمن أخذ فى الأسباب واستخدم عقله وفطرته ، وتابع ذلك بالتأمل والنظر والتفكر والتأمل ، قال تعالى : **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَافِ الْبَلِّ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ يُخَمِّمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** . (ال عمران ١٩٠ ، ١٩١) .

أما من أعرض عن الهدى ، ولم يستخدم عقله وفكره ، ولم يتأمل فى هذا الكون ونظامه ويدع صنعته : فإن الله يسلب عنه الهدى والتوفيق ، ويسحب منه المعونة والتيسير إلى الهداية : لأنه ليس أهلاً لها .

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ . فإيمان أى نفس متوقف على هداية الله ومشيتته ومعونته .

قال تعالى : قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ الْفُلَ . (آل عمران : ٧٣) .

وقال سبحانه : وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . (الإنسان : ٣٠) .

بيد أن هذه المشيئة عادلة ، فلا تسلب الهدى إلا عن أعمى عن الحق ، أصم عن سماع صوت الإيمان والخير ، قال تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

لقد يدر الله الإيمان لمن اختار الهداية والرشاد ؛ فيسر الله الإيمان بإذن الله — أما من غالب صوت الحق ، وأنكر دعوة الخير ؛ فإن الله يجعل الخذلان والخزى على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون إذ هم لخطأ رأيهم يرجحون الكفر على الإيمان ، والفجور على التقوى .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

المضردات ،

انظروا ، تفكروا واعتبروا

النذر ، جمع نذير وهو الذى ينبه الناس إلى الخطر .

التفسير ،

١٠١- قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... الآية .

أى : قل يا محمد لكل من يأتى منه النظر واستخدام العقل والفكر : تأملوا فى خلق الله ، فهذه السماوات وما فيها من شمس وأفلاك ومجرات وأقمار وأمطار وهواء وسحاب ، وهذه الأرض وما فيها من جبال ونبات وثمار وزروع وليل ونهار ؛ تأملوا فى هذا الكون البديع ، والنظام المتسق المتكامل ، والدقة

البالغة فى تسخير هذا الكون قال تعالى : وَلِىَ الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَلِىَ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَلِىَ السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . (الذاريات: ٢٠-٢٢) .

وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالذُّرُّ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ .

تغنى : تنفع وتفيد ، والنذر : واحدها : نذير ؛ أى : إن الآيات الكونية على ظهور دلالتها ، والرسل على بلاغة حجتها ، لا تجدى نفعاً لقوم لا يتوقع إيمانهم ، لقد أمعنوا فى الضلال ، وأصرروا على عدم الإيمان ، فلن تلين قلوبهم لسماع الحق ، ولن تهتز أفئدتهم لرؤية جمال الخلق، قال تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

★ ★ ★

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَا مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِ ﴾ ﴿١٠٢﴾ ثَمَّ نَحْنِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

المفردات :

ينظرون ، يترقبون ويتوقعون .

خلوا ، مضوا .

التفسير :

١٠٢ - فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ... الآية .

الاستفهام هنا للتحكم والتقريع ، والمراد : إن هؤلاء الجاحدين المكذبين ماذا يتوقعون جزاء كفرهم وجودهم ، إنهم أشبه بمجرم ينتظر مصيره ، والحكم عليه بالعقوبة التى يستحقها .

لقد قصصنا عليك ما نزل بقوم نوح ومن بعدهم من المكذبين : فهل ينتظر هؤلاء الكفار إلا عذاباً مثل عذاب الأمم السابقة عليهم ، قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧) .

قال القرطبي : الأيام هنا بمعنى : الوقائع ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى : بوقائعهم .

قال قتادة: يعنى : وقائع الله فى قوم نوح وعاد وشمود وغيرهم ، والعرب تسمى العذاب : أياماً ،
والنعيم : أياماً ، كقوله تعالى : وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ . وكل ما مضى لك من خير أو شر فهو أيام . اهـ .

قُلْ فَانْتَظِرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِينَ .

أى : قل لهم يا محمد : فانتظروا وترقبوا آثار إصراركم على الكفر ، فإنى مترقب معكم ما سيصيبكم
من عذاب ؛ إن ظللتكم مصرين على الكفر والإنكار .

١٠٣- ثُمَّ نَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ... الآية .

اقتضت سنة الله تعالى إرسال الرسل ، وإنزال الكتب وإلزام الحجة قال تعالى : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) . وبعد أن يقوم الرسل بالبلاغ
والإنذار ، ويؤمن بهم من يؤمن ، ويكفر بهم من يكفر ، تكون العاقبة للمؤمنين ، والهلاك للكافرين ، لقد أفادت
الآية السابقة : أن المكذبين ينتظرون عذاباً مثل : عذاب قوم نوح ومن بعدهم ، وأفادت هذه الآية : أنه بعد
عذاب المكذبين ، ينجى الله المرسلين ، وينجى معهم من آمن بهم ، تلك سنة الله وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَحْمِ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : كما أنجى الله الأنبياء والمؤمنين مما أصاب أقوامهم ، كذلك ينجى المؤمنين معك أيها الرسول ،
ويهلك المصرين على تكذيبك ، وعداً حقاً علينا لا نخلفه ؛ كما قال تعالى : سُبْحَانَكَ قَدْ أَزَلَّنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا
وَلَا تَجِدُ لِسِتِّنَا تَحْوِيلًا . (الإسراء : ٧٧) ، وقال سبحانه : ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ .

(الأنبياء : ٩)

﴿ قُلْ تَأْتِيهِمُ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
 أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقْرَءَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
 وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ
 فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الْخَالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

المفردات :

يتوفاكم ، يستوفى أجالكم ؛ يقبض أرواحكم .

وجهك ، المراد من الوجه : الذات ، أو القلب ، أو القصد .

حنيفاً ، منصرفاً عن ألباطل ، مقبلاً على الحق .

التفسير :

١٠٤- قُلْ تَأْتِيهِمُ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... الآية .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات الكريمة على طريقة القرآن فى تنويع الخطاب وتصريف القول ؛ ليأخذ على
 الجاحدين كل طريق ، وليأخذ بأيديهم إلى التفكير والتأمل فى شأن الأصنام التى يعبدونها ، والدين الحق
 الذى يدعوهم إليه محمد ﷺ .

قُلْ تَأْتِيهِمُ النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فى هذه الآية شرط ، وهو إن كنتم فى شك من دينى ، ولو سار الكلام على ألف البشر لكان جوابه ،
 فهذا شأنكم ، أو فلا تدخلوا فى هذا الدين ؛ لكن الجواب الذى جاء به القرآن هو الجواب الذى لا يجىء إلا من
 الحكيم العليم .

وفى هذا الجواب تتكشف أمور :

أولاً : ثبات النبى على هذا الدين ، وأن شكوكهم لا تأثير فيه أدنى ريب ، فهو على يقين ثابت بصدق هذا الدين .
 ثانياً : أن النبى ﷺ لن يتحول عن هذا الدين ، إلى دين المشركين ، ولن يعبد تلك الآلهة التى يعبدونها من دُونِ الله
 ثالثاً : أن هذه الآلهة لا تملك نفعا ولا ضراً ، وأن عبادتها ضلال .

رابعاً: أن رسول الله ﷺ خلى نفسه عن الشرك أولاً، ثم اتجه إلى عبادة الله وحده ثانياً، على طريقة قولهم: التحلية قبل التحلية، أى: التحلى عن الشرك أولاً، ثم التحلى بالإيمان ثانياً.

قال الشوكاني فى تفسير الآية :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى .

وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم تعلموا بحقيقته ؛ فاعلموا أنى برىء من أديانكم التى أنتم عليها.

فَلَا أُعْبُدُ ٱللَّهِنَّ ٱلَّذِينَ يُعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ . فى حال من الأحوال . وَلَكِن أُعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى بَوَّأَنى كُمْ . يفعل ما يفعل من العذاب الشديد ، وَأَمَرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . وأخلص له الدين.

من تفسير أبى السعود :

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى .

أى: فاعلموا أنه تخصيص العبادة بالله ، ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلاً، أو إن كنتم فى شك فى صحة دينى وسداده ؛ فاعلموا أن خلاصته: إجلال العبادة لمن بيده الإيجاد والإعلام، دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام؛ فاعرضوها على عقولكم، وأجبلوا فيها أفكاركم، وانظروا فيها بعين الإنصاف؛ لتعلموا أن هذا الدين حق لا ريب فيه، أو إن كنتم فى شك من ثباتى على الدين؛ فاعلموا أنى لا أتركه أبداً.

وَأَمَرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . بما دل عليه العقل ونطق به الوحى . وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد، ليس بطريق العقل الصرف؛ بل بالإمداد السماوى والتوفيق الإلهى^(٣٩).

١٠٥- وَأَن أَمِّمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... الآية .

هذه الآية معطوفة على الفقرة الأخيرة فى الآية السابقة وهى: وَأَمَرْتُ أَن أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . أى: قيل لى: كن من المؤمنين، وأقم وجهك ولا تشرك .

أى: وكما أمرنى الله تعالى بالإيمان به ، أمرنى سبحانه بالإخلاص فى الاتجاه إلى دينه بقلبى وجوارحى ، وأقوالى وأفعالى ، بحيث لا يصرفنى عنه صارف ، وأمرنى ألا أشرك فى عبادته أحداً .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

وَأَنْ أَقِيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ . أمره بالاستقامة فى الدين والثبات فيه ، وعدم التزلزل عنه بحال من الأحوال ، وخصَّ الوجه ؛ لأنه أشرف الأعضاء . حَتِيفًا . مائلاً عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام . ا هـ .

وقال الألوسى :

إقامة الوجه للدين : كناية عن توجيه النفس بالكلية إلى عبادته تعالى ، والإعراض عما سواه ، فإن من أراد أن ينظر إلى شىء نظر استقصاء ، يقيم وجهه فى مقابلته ، بحيث لا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، إذ لو التفت ؛ بطلت المقابلة ، فلذا كئى به عن صرف العمل بالكلية إلى الدين ، فالمراد بالوجه : الذات . أى : اصرف ذاتك وكليتك للدِّين . ا هـ .

وقد ورد فى السنَّة المطهرة : أن النبى ﷺ كان إذا افتتح الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ؛ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين »^(٣٠) .

١٠٦- وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ...

تستأصل هذه الآيات شأفة الشرك فى القلوب ؛ فقد أمرت الآيات السابقة بالإيمان ، وإخلاص الوجه لله ، والبعد عن الشرك بالكلية ، أى : لا يقصد الإنسان بعمله إلا وجه الله ، وفى الآية الكريمة : وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ . ترشيح لدعوة التوحيد ، وإخلاص الوجه لله ؛ فهو سبحانه النافع الضار ، الخالق المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ؛ فالواجب أن نتوجه إليه وحده بالعبادة والسؤال والطلب ، أما الأصنام والأوثان ، وزيارة القبور والتوسل بهم ، والطلب منهم ، فهو انحراف عن الجادة ، وخروج عن النهج القويم .

لقد أمرنا الله ، بإخلاص العبادة ، والبعد عن الشرك فقال تعالى : وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (الأنعام : ١٤) .

وأخرج الإمام أحمد والطبرانى : أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك ؛ فإنه أخفى من دبيب النمل » .

فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ .

الخطاب للرسول ﷺ ، وهو موجه للمسلمين عامة فى جميع العصور ، والمعنى : إن دعوت من دون الله صلا لا ينفعك ولا يضرُّك ؛ فإنك حينئذ تكون من الظالمين لأنفسهم بالشرك ، والتوجه بالدعاء وهو مخ العبادة

إلى غير الله ، وبهذا حرر الإسلام القلوب والنفوس ، من أن تذلل لصنم أو بشر أو منصب أو جاه ، وركّز فى قرارة النفوس ، اليقين الجازم بأن النافع والضار هو الله تعالى وحده .

من هدى السنة النبوية

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ، قال : كنت رديف النبى ﷺ على بغلته ، فقال لى : « يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بها » ، قلت : بلى يا رسول الله ، عملنى ، فقال : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف »^(١) . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١٠٧)

المفردات :

يمسك : يصبك .

التفسير :

١٠٧- وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ... الآية .

أى : وإن تعرض لضرب يمس جسمك أو مالك : من مرض أو فقر أو ألم ، فلا كاشف أو لا رافع له إلا الله .

وَإِنْ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .

وإن يردك أو يخصك الله بخير منه فى دينك أو دنياك ، من نصر ورخاء ونعمة وعافية ، فلا دافع لفضله إلا الله : إن لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لفضله ، وهو القادر على كل شيء ! يمنع ويمنع ويعطى ويحرم ، يفعل كل ذلك بحكمة وعلم .

« وكل خير من الله تعالى فهو تفضل منه سبحانه : لأن نعمة التي تنزل على عباده : تنزل عليهم بلا استحقاق منهم عليه ، بل هو المبتدئ لهم بالنعيم دون استحقاق ، ومن ذلك : ابتدأه بخلقهم ، وإحسان صُورهم ، وتمكينهم في الأرض ، وكل ما أنعم به عليهم ، ومنه : الهداية ، ومنه : النبوة ، التي اختص بها محمد ﷺ ، فهي من فضل الله لا يقدر أحد أن يردّها . يُصِيبُ بِهِ . أى : بفضلِهِ ، مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . بمحض اختيار المولى سبحانه وتعالى»^(٣٧) .

وفي كتاب الجوهرة : وهو منظومة فنية في علم التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة

بل ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء جل الله وإهب المنن

فإذا تفضل الله على محمد ﷺ بالنبوة والرسالة : فليس من حق أحد أن يعترض عليه : لأن العطاء منة وتفضل من الله وحده ، قال تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . (النساء : ٥٤) ، وقال تعالى : وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ . (البقرة : ٢٤٧) ، وقال سبحانه : قُلِ اللَّهُمَّ مِلْكَ الْأَمْلِكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلِمُ مَنْ تَشَاءُ يُدِيكِ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (ال عمران : ٢٦) .

فأله صاحب الفضل ، وهو صاحب التصرف في هذا الفضل ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، والله تعالى كثير الصفح والعفو وهو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ومن جملة ما يغفره : تقصير عباده عن إحصاء نعمه تعالى ، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب .

وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . كثير المغفرة والرحمة .

والله تعالى له حكمة سامية في إصابة بعض الناس بالضرر والبلاء ، فقد يكون ذلك اختباراً لهم وامتحاناً لصبرهم وثباتهم ، قال تعالى : وَتَبْلُوَكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء : ٣٥) . وقد يكون البلاء لرفع المنزلة ، أو تكفيراً للذنوب .

روى البخارى في صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها : إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٣٨) .

وكما يكون الضّر ابتلاء من الله لعباده لإظهار مدى إيمانهم وصبرهم ، يكون الخير كذلك لإظهار مدى شكرهم لله وإقبالهم عليه ، قال تعالى : وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء : ٣٥) . وقد يكون الخير تكريماً من الله لعباده الصالحين ، وتعجيلاً بنصيب من الثواب فى الدنيا ، قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ . (النحل : ٣٠) ، وكما قال سبحانه : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا . (الطلاق : ٤)

★ ★ ★

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخْرُجَ إِلَيْكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

المضردات ،

بوكيل : الوكيل : من يوكل إليه الأمر .

التفسير :

١٠٨- قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ... الآية .

تأتى هاتان الآيتان فى ختام سورة يونس . وهى سورة عنيت بتقديم أدلة الألوهية ، وقصّت جانباً من حياة الرسل ودعوتهم ، وسلكت طرقاً متعددة فى دعوة الناس إلى الهداية والإيمان . وفى ختام السورة نجد هذا النداء إلى الناس جميعاً ، من سمع منهم هذا النداء ، ومن يتأتى له سماعه إلى يوم القيامة : إن الحق والهدى والقرآن والسنة ، قد وصلتكم من الله تعالى ، متمثلة فى رسالة محمد ﷺ .

فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ . من اختار طريق الإيمان والهداية والمتابعة لهذا الدين : فإنما يهتدى لمنفعة نفسه ؛ حيث سما بها من الضلالة إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان .

وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . ومن أقر الضلالة على الهدى ، والكفر على الإيمان : فإنما يقع وبال ضلاله

على نفسه دون غيرها .

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . أئى : بحفيظ يحفظ أموركم ، ويتولى إيجابركم على اختيار الإيمان ؛ فأنا عبد الله ورسوله ، مهمتى البلاغ فقط وقد بلغت ، أما الهداية والاختيار ، فهى مهمتكم ثم توفيق الله لكم ، وفى معنى ذلك يقول الله تعالى : فَلَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

١٠٩- وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .

أئى : دُم أيها الرسول على اتباع وحى السماء ، واصبر وصابر واصطبر على تبليغ الرسالة ، وتحمل أذى المشركين ، حتى يقضى الله فيهم قضاءه وينفذ فيهم مشيئته وحكمه .

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . وهو خير القاضين وأعدل الفاصلين ؛ فهو لا يحكم إلا بالحق . وقد امتثل الرسول الأمين لأمر الله ، فصبر وصابر وجاهد فى سبيل الله ؛ حتى حكم الله تعالى له بالنصر والغلبة ، وجاء نصر الله والفتوح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا والحمد لله رب العالمين !!!

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة هود

دروس من سورة هود

تهديد عن الوحدة الموضوعية للسورة ،

هود عليه السلام : هو أول رسول إلى قوم عاد ، وعاد : أول أمة من نسل سام بن نوح^(٧١) ، وقد تحدث القرآن كثيراً عن هود فيمن تحدث عنهم من رسل الله الكرام ، وقد ذكر باسمه خمس مرات فى هذه السورة التى سميت به .

وسورة هود : من السورة المكية ، شأنها كسائر القرآن المكي : هو تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة عليها ، وزد الشبه التى كان يثيرها المعارضون حول الدعوة وصاحبها ، والحديث عن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وهى نفس الموضوعات التى تحدثت عنها السورة السابقة على سورة يونس .

عناصر الدعوة الإلهية

والمتدبر لسورة هود ؛ يرى أنها قررت عناصر الدعوة الإلهية – وهى : التوحيد ، والرسالة ، والبعث – عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه . وقد عرضت لذلك فى أربع وعشرين آية يختم بها الربع الأول منها ، ثم أخذت سورة هود تتحدث عن جملة من الرسل السابقين ؛ بياناً لوحدة الدعوة الإلهية ، وتسلياً للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنذاراً للمكذبين .

ويستغرق قصص هؤلاء الرسل الكرام معظم سورة هود ؛ فتذكر : قصة نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ولوط ، وشعيب ، وموسى . وطريقة العرض هنا تختلف عنها فى سورة أخرى ، والحلقات التى تعرض من كل قصة تختلف كذلك ؛ لاختلاف السياق ؛ فيمتنع التكرار فيما يخيّل للقارئ العابر للقرآن الكريم أنه تكرار .

هذا القصص الذى يستغرق معظم سورة هود : مرتبط كل الارتباط بما قبله وما بعده من السورة ، متناسق مع السياق حتى فى التعبير اللفظى أحياناً ، فالفقه ، والمشهد ، والعظة ، والتعقيب ، تتناسق كلها تناسقاً عجيباً ، وتكشف عن بعض وظيفة القصة فى القرآن الكريم .

تبدأ سورة هود بقوله تعالى :

الَّذِينَ كَفَرُوا أَكْثَرُكُمْ كُفْرًا * أَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ لِلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ * (هود : ٢١) .

وهذا المطلع يقرر أن المهمة الأولى للنبي هى : الدعوة إلى توحيد الله ، وينذر بالعذاب من يكذب بدعوة الله ، ويبشر بالنعيم من آمن بها . وقصص السورة كله يساق ! لتوكيد هذين المعنيين ، فإيرد فى ألفاظ تكاد تكون واحدة يقولها كل رسول ، وكأنما يقولها ويمضى ، حتى يأتى أخوه فيقولها كذلك ويمضى ، والمكذبون هم المكذبون .

تبدأ قصة نوح بقوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ . (هود : ٢٥ ، ٢٦) .

ثم يقول هود : يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ . (هود : ٥٠) .

ويقول صالح : يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ . (هود : ٦١) .

ويقول شعيب : يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ . (هود : ٨٤) .

ونهايات القصص كلها هلاك للمكذبين وعقوبة المعتدين ، ووعد لجميع المتكبرين عن الإيمان بالحق، والإنقياد للعقيدة الصحيحة ، قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ إِلَيَّ شَدِيدًا . (هود : ١٠٢) .

وتتضمن سورة هود إثبات الوحي ، وتنزيل القرآن من عند الله وتثبيت الرسول ﷺ وتقوية يقينه مع من آمن به من المؤمنين ؛ حتى لا يضيق صدرهم بالمكذبين والمستهزئين .

ثم يختم القصص فى سورة هود بقوله تعالى :

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . (هود : ١٢٠) .

وهكذا نجد أن القصة فى القرآن الكريم تؤدى دوراً متناسقاً مع موضوع السورة وسياقها ، وتعرض بالطريقة وبالعبارة اللتين تحققان هذا التناسق الجميل الدقيق .

١ - العقيدة والإيمان بالله

يتضمن الدرس الأول من السورة : دعوة المشركين إلى توحيد الله واستغفاره والتوبة مما هم فيه ، ويبشرهم إن فاءوا إلى هذا بمتاع حسن وجزاء طيب ، وينذر المعرضين عن الدعوة بعذاب كبير ، ويقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر ، والرجعة إلى الله لتحقيق البشرى والإنذار ، ثم يعرض مشهداً لهم وهم يحاولون

التخفى عن مواجهة الرسول وهو يجبههم بالبيان ، يعقب عليه بعلم الله الشامل اللطيف الذى يتابعهم وهم أخفى ما يكونون عن العيون ، ويتمصل بهذا المعنى علم الله بكل دابة فى الأرض حيث تكون .. كما يتصل به الحديث عن خلق السماوات والأرض .

ثم يعرض صوراً من النفس البشرية القلقة المتعجلة فى السراء والضراء . ومع ذلك فهم يستعجلون العذاب إذا ما أخطر عنهم إلى حين .

ثم ينتقل إلى التحدى بالقرآن الذى يقولون : إنه مفترى من دون الله ، وتهديد من لا يؤمنون بالآخرة ، ومن يفترون على الله الكذب ، ويعرض مشهداً من مشاهد القيامة يتجلى فيه مصداق هذا الوعيد ومصداق البشرى للمؤمنين .

ومن المعالم البارزة فى هذا الدرس ما يأتى :

١- تقرير عقيدة التوحيد ، وسوق الأدلة على قدرة الله الذى أبدع الكون على غير مثال سابق .

وقد تتساءل عن سر عناية القرآن بعقيدة التوحيد وتكرير الدعوة إليها فى كثير من آياته :

والجواب : أنه ما كان لدين أن يقوم فى الأرض وأن يقيم نظاماً للبشر قبل أن يقر هذه الدعوة ؛ فالتوحيد هو مفترق الطريق بين الفوضى والنظام ، وبين الخرافة والإيمان وبين الهوى واليقين .

والاعتراف بوجود الله ضرورى فى الفطرة السليمة ؛ لأن الله خلق الإنسان بيده ، وأودعه نفخة مقدسة من روحه ؛ ولذلك توجه الفطرة إلى الله خالقها وبارئها ؛ لتزوى ظمأها إليه ، ولتلبى نداء الشوق الكامن إليه فى أعماقها .

٢- عناية الآيات بأن تلفت نظر الإنسان إلى ما فى الكون من آيات القدرة ، ودلائل الإعجاز ، وعجائب الصنع ، ومواطن الاعتبار فهذا الكون الفسيح الشاسع الأرجاء وما فيه من قوى منظورة لنا ، وغير منظورة ، وما يخضع له من نظام لا يحتمل الخلل ، ودقة لا تسمح بالعبث ؛ دليل على أن هذا الكون لم يوجد عن طريق صدفة عمياء ، بل إنه وجد ؛ لأن خالقاً حكيماً هو الذى أوجده .

٣- إثبات علم الله بكل صغيرة وكبيرة فى هذا الكون ، وتقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا العالم الفسيح ، وتيسير الأسباب للسعى والحركة ، وعمارة الكون .

ومن الآيات المشهورة بين الناس قوله تعالى : وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (هود: ٦).

وهى تصور علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطيء؛ فما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تخرج وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها مقيد فى هذا العلم الدقيق . إنها صورة متصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنسانى فلا يطيق . فسبحان من أحاط بكل شىء علماً !!

٢- إعجاز القرآن

يلمح القارئ لهذه السورة قوة أسلوبها وترابط أفكارها ، وتوالى حملاتها على الكفار حتى كأنها جيش كامل مشتمل على عديد من الكتائب والفصائل والجنود .

إنها دعت فى الدرس السابق إلى التوحيد ولغت الأنظار إلى قدرة الله البالغة وعلمه المحيط بكل شىء.

وهى هنا تسوق دليلاً آخر على صدق عقيدة التوحيد وصدق رسالة محمد ﷺ ، هذا الدليل هو إعجاز هذا القرآن وبروعته وقوته .

ويتجلى هذا الإعجاز فيما يلى :

١- إخباره عن الأمم الماضية التى لم يعاصرها محمد ﷺ ، ولم يعرف تاريخها ، ولم يقرأ عنها .

٢- اشتماله على أصول التشريع ، وسياسة الخلق ، وقواعد الحكم ، وآداب المعاملة ، ونظام العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة .

٣- إخباره عن أنباء لاحقة تأكد صدقها ، وتحقيق وقوعها .

لقد ادعى كفار مكة : أن محمداً ﷺ قد اختلق القرآن من عنده ، ولم ينزل عليه من السماء ؛ فتحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . أى : ليخترقوا كما اختلق محمد ﷺ فهم عرب مثله ، وهم أرباب الفصاحة والبيان ، والقرآن مؤلف من حروف وكلمات وجمل يعرفونها ويؤلفون من مثلها كلامهم ، فالعجز عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه ليس من صنع بشر وليس من افتراء محمد ﷺ ؛ ولكنه كلام الله العليم الخبير .

وقد سمح لهم القرآن أن يستعينوا بمن شاءوا من الشركاء والفصحاء والبلغاء والشعراء والإنس والجن ؛ ليشاركوهم فى تأليف هذه السور ، قال تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (هود: ١٣).

وقد سبق أن تحادهم القرآن بسورة واحدة فى سورة يونس ، فلماذا تحادهم بعد ذلك بعشر سور .

قال المفسرون القدامى : إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور .

وحقيقة أن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور ؛ فقد كانت الآية تنزل فتحقق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبت هذا الترتيب ، وليس فى أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لا يجوز .

وقد حاول صاحب تفسير المنار أن يجد لهذا العدد (عشر سور) علة ، فأجهد نفسه طويلاً ليقول : «إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ؛ وأنه بالاستقراء ؛ يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرة فتحداهم بعشر سور^(٧٤) وهو احتمال وجيه .

ويرى بعض المفسرين المحدثين : أن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول . فيقول مرة : اثنتا يمثل هذا القرآن ، أو اثنتا بسورة ، أو بعشر سور . دون ترتيب زمنى ؛ لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شئ من هذا القرآن . كله ، أو بعضه ، أو سورة منه على السواء فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن هذا النوع ، لا عن المقدار ؛ وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة ، ولا يلزم ترتيب ؛ إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ونوع ما يقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة . فهو الذى يجعل من المناسب أن يقول : سورة ، أو عشر سور ، أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابس التى لم يذكرها لنا القرآن .

٣ - القصص فى سورة هود

القصص فى هذه السورة هو قوامها ؛ إذ عدد آياتها (١٢٣) مائة وثلاث وعشرون آية ، يشتمل قصص الأنبياء منها على (٨٩) تسع وثمانين آية .

لكن القصص لم يجرى فيها مستقلاً إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التى جاءت السورة ؛ لتقريرها ، وهى : التوحيد ، والبعث ، والجزاء .

وقد جال السياق جولات متعددة حول هذه الحقائق : جال فى ملكوت السماوات والأرض ، وفى جنبات النفس ، وفى ساحة الحشر ، ثم أخذ يجول فى جنبات الأرض ، وأطوار التاريخ مع قصص الماضين .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء ؛ لأنه يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التي وردت فى مطلع السورة والتي يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ . ويتبع القصص فى هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى ، ويشير إلى الخط التاريخي ؛ لأنه يذكر التالين بمصير السالفين .

وليس من قصدنا أن نذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام ، فذلك مالا يتسع له المجال ، ولكن واجبنا نحو سورة هود ؛ يحتم علينا أن نذكر لمحات من سيرة هؤلاء الرسل .

قصة نوح

لقد ألمحت سورة يونس إلى قصة نوح فذكرت الحلقة الأخيرة منها ، وهى غرق الكافرين ونجاة المؤمنين . ولكن سورة هود تعرضت لقصة نوح بتفصيل أكثر خلال أربع وعشرين آية من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩ . تناولت دعوة نوح إلى الله ، وجداله مع قومه ، وصنعه السفينة ، وتعرضه لسخرية قومه ، ثم فوران التذوّر ، واكتساح الطوفان ، وركوب السفينة تسير بأمر الله وقدرته : بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَلَهَا . (هود: ٤٢) . ثم تهدأ العاصفة ، وتبلغ الأرض ماءها ، وتمسك السماء عن المطر ، وتعود الحياة سيرتها ؛ فيناجى نوح ربه بعد غرق ولده قائلاً :

رَبِّ إِنِّي أَنْتَبِي مِنْ أَهْلِي .

أى : وقد وعدتني بنجاة أهلى فيجيبه الله : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ . (هود: ٤٦) .

والمعنى : إنه عمل عملاً غير صالح ، فهو من صلب نوح وذريته إلا أنه منقطع الصلة به فى نسب الإيمان ، وصلة العمل الصالح . وهنا يتنبه نوح إلى حقيقة العدل الإلهي ويرى أن عقاب الله عام لكل الكافرين ، وأن نعيمه عام لجميع المؤمنين ؛ فليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولا صلة ، فالخلق كلهم عباد الله يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح : إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ . (الحجرات: ١٣) .

ويكون التعقيب على قصة نوح معبراً عن أهداف القصص القرآني مبشراً بالنجاة والنصر للمؤمنين ، منذراً بالهلاك والعذاب للكافرين . قال تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُصْطَفَيْنِ . (هود: ٤٩) .

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة ما يأتى :

- ١- حقيقة الوحي التى ينكرها المشركون : فهذا القصص غيب من الغيب ما كان يعلمه النبى ﷺ ، وما كان معلوماً لقومه ، ولا متداولاً فى محيطه : إنما هو الوحي من لدن حكيم خبير .
- ٢- وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى فهى هى ، والتعبير عنها يكاد يكون واحداً ، مشتملاً على الدعوة إلى الإيمان بالله والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبعد عن الرذائل والمنكرات .
- ٣- وحقيقة السنن الجارية التى تتخلف ولا تحيد وَالْعَلَقَةُ لِلْمُتَّقِينَ : فهم الناجون وهم المستخلفون .
وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

قصة هود

تناول الدرس السابق قصة نوح عليه السلام ، ونجاته ، ومن معه فى الفلك ، ثم هبوطه على الأرض مستحقاً لبركات الله عليه وعلى المؤمنين من ذريته ، أما المكذبون من ذريته فلهم عذاب أليم ، وقد دارت عجلة الزمن ، ومضت خطوات التاريخ وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ، ومن بعدهم ثمود ، ممن حقت عليهم كلمة الله .

وَأَمَّا سَمُوعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (هود: ٤٨) .

فأما عاد : فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف ، والحقف : كثيب الرمل المائل ، فى جنوب الجزيرة العربية .
وأما ثمود : فكانت قبيلة تسكن مدائن الحجر - بين تبوك والمدينة - وبلغت كل منهما فى زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ؛ بما عتوا عن أمر الله واختاروا الوثنية على التوحيد وكذبوا الرسل شر تكذيب ، وفى قصتهم هنا مصداق ما فى مطلع السورة من بشارة للمؤمنين وإنذار للكافرين .

وقد ذكرت قصة هود فى سورة الأعراف من الآية ٦٥ - ٧٢ ، وفى سورة الشعراء من الآية ١٢٣ - ١٤٠ ، ثم ذكرت هنا فى سورة هود من الآية ٥٠ إلى الآية ٦٠ .

وقد نتساءل : لماذا سميت هذه السورة بسورة هود مع أنها اشتملت على عدد كبير من قصص الأنبياء منهم : نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى عليهم السلام .

والجواب : أن قوم هود قد حباهم الله نعمًا وافرة وخيرات جلية وأرسل السماء عليهم بالمطر؛ فزرعوا الأرض، وأنشئوا البساتين، وشادوا القصور، ومنحهم الله فوق ذلك بسطة فى أجسامهم وقوة فى أبدانهم . وكان الواجب عليهم أن يفكروا بعقولهم ، وأن يشكروا الله على هذه النعم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل اتخذوا أصنامًا يعبدونها من دون الله ، ثم عثوا فى الأرض فسادًا وظلمًا وعدوانًا ، ولما جاءهم هود يدعوهم إلى الله ويأمرهم بتقواه وطاعته ويحذرهم من البغى والعدوان لم يصيخوا لدعوته ولم يؤمنوا برسالته .

وإذا كانت السورة تسمى بأغرب شئ فيها ، فإن الغرابة فى قصة هود هى أن قومه عاد كانوا أكثر فضلًا ونعمة ، ولكنهم قابلوا هذه النعمة بالجحود والكند .

وتذكر الآيات معارضة لهم ولإنكارهم عليه ، واعتقادهم أن آلهتهم أنزلوا به الجنون والاضطراب ؛ فيتبرأ هود من آلهتهم ويتحداهم ، ويستنهض همتهم فى أقصى ما يستطيعون من قوى الكيد ، وأنه سوف لا يعاب بهم ولا يجمعهم ، قال هود : إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا . (هود: ٥٦) .

وهى صورة محسوسة للقوة الإلهية ، فالناصية : أعلى الجبهة والله تعالى وحده صاحب القهر والغلبة والتصريف فى كل ناصية ، وهى صور حسية تناسب الموقف وتناسب غلظة القوم وشدة همهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وينبئهم حين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وَقَالُوا مِن أَشَدُّ مِمَّا قُورَةُ أَوَّلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ . (فصلت: ١٥) .

وتذكر الآيات هنا خاتمة أمر هود مع قومه على حسب سنة الله فى نصرته أوليائه وخزى أعدائه . قال تعالى : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَلَئِكَ عَاءٌ جَعَلُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ غَصَوا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . (هود ٥٨-٦٠) .

وتستمر سورة هود فتعرض قصة صالح مع قومه ، ودعوته لهم إلى دين الله ، وتودده إليهم بقوله : يَلْقَوا هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ .

وكانت ناقة ضخمة تشرب من الماء فى يوم وتتركه فلا تذوقه فى اليوم الآخر ، ولكنهم عقروا الناقة وعثوا عن أمر ربهم ! فنجى الله صالحًا ومن معه من المؤمنين ، وأرسل صبيحة عاتية أهلكت الكافرين فصاروا جثثًا هامدة ، وأصبحت ديارهم خاوية خالية ، أَلَا إِنَّ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِّقَوْمٍ . (هود : ٦٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكْبُ أَحْكَمَتْ أَيْسُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي كَرِهَ
مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾

المفردات :

أحكمت آياته : نظمت آياته نظماً محكماً لا خلل فيها ولا تناقض ولا اضطراب .

فصلت : ذكرت فيها الأمور التى يحتاج إليها العباد فى عقائدهم وسلوكهم ومعادهم ومعاشهم
مفصلة مبينة .

من لدن حكيم : من عند إله مبدع للأمور على خير وجه .

خبير : عليم بما كان ويكون ، ظاهراً أو خفياً .

نذير : محذر لعباد الله من سوء عاقبة الكفر والعصيان .

بشير : مخبر بما يسر الصالحين من ثواب الله .

التفسير :

١- الر ... الآية .

افتتح الله بعض السور القرآنية ، ببعض حروف الهجاء ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن
الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، مع أنه مؤلف من حروف عربية ينطقون بها ، ويؤلفون منها
كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن : دل ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكن تنزيل من حكيم
حميد .

ونذكر بعضهم : أنها حروف للتنبيه كالجرس الذى يُقرع ؛ فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، كذلك
هذه الأحرف تنبيه للبشر ، كألا وغيرها من أدوات الاستفتاح .

كُتِبَ أَحْكَمَتْ أَيْسُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

أى : هذا كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظم والتأليف ، لا تقبل شكاً ولا تأريلاً
ولا تبديلاً ، وجعلت فصولاً متفرقة فى سورة ، تبين حقائق العقائد ، والأحكام والمواظ ، وجميع ما أنزل

له الكتاب من الحكم والفوائد ، فكأنها العقد المفصل بالفرائد : لأنها منزلة من حكيم . يضع الأمور فى موضعها . غير . بما كان وما هو كائن .

من تفسير الكشف للزمخشري :

أَحْكَمَتْ أَيْلَهُ . أى : نظمت نظماً رصيناً محكمًا ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرفف ، وقيل : منعت من الفساد من قولهم : أحكمت الدابة ؛ إذا وضعت عليها الحكمة ؛ لتمنعها من الجماع قال جرير :

أبنى حنيفة ، أحكموا سفهاءكم إبنى أخاف عليكم أن أغضبا

ثُمَّ فُصِّلَتْ . كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواظ والقصاص ، أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة^(٧٦) .

٢ - أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

أى : هذا الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت ، أنزله الله لكى تخلصوا له العبادة والطاعة ، وتتركوا عبادة غيره ؛ لأن من حق من أنزل هذا الكتاب المعجز ؛ أن يفرد بالخضوع والاستعانة .

وهذا كقوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ ... (النحل: ٣٦) .

وقوله سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ . (الأنبياء: ٢٥) .

إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .

أى : إبنى رسول من عند الله ؛ أنذركم عذابه إن عصيتموه ، وأبشركم برحمته وفضله إن أطعتموه .

كما جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش فاجتمعوا ، فقال : « يا معشر قريش ، لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم أستم مصدقى ؟ » فقالوا: ما جربنا عليك كذباً ، قال : « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

المفردات :

تَوَلَّوْا : أصلها : تتولوا . أى : تعرضوا .

مَرْجِعُكُمْ : مصيركم .

التفسير :

٣- وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... الآية .

هذه الآية مكمله للآية السابقة فى المعنى .

والمعنى : لقد أنزل الكتاب من أجل أن تعبدوه سبحانه دون سواه ، وأسألوه : أن يغفر لكم ما كان منكم ؛ من أعمال الشرك والكفر والإجرام ، ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة له دون سواه ، فإن فعلتم ذلك : يمتعكم فى دنياكم متاعاً حسناً ؛ فيرزقكم من زينة الدنيا ، وينسأ لكم فى آجالكم ، ويبدل خوفكم أمناً ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا . (نوح: ١٠-١٢) .

وأدنى المتاع الحسن فى الدينا : الأمن ، والدعة ، وراحة النفس ، والرضا بما قسم الله تعالى ، والصبر على المحن .

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .

ويعطى كل صاحب عمل صالح جزاء عمله فى الدنيا والآخرة قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ . (النحل: ٣٠) .

وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ .

أى : وإن تتولوا أيها الناس عن الحق الذى جئتكم به : فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

٤- إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إنكم لا مهرب لكم ، ولا مفر من لقاء الله تعالى ، فالموت حق ، والبعث حق ، والحساب والجزاء حق ، والله وحده هو المالك ليوم الدين ، وإليه سبحانه رجوعكم فى الدار الآخرة ، مهما طاللت حياتكم ؛ ليحاسبكم على أعمالكم ، ويجازيكم عليها بما تستحقون من جزاء ؛ فعليكم أن تتزودوا لهذا المصير بالتقوى والأعمال الصالحة ، قال تعالى : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقُتُوْبُ وَاتَّقُوا يَوْمَ تُأْتَى الْآكِلَةُ . (البقرة: ١٩٧) .

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فهو سبحانه كامل القدرة ، لا يعجزه أمر ، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل ، فهو سبحانه بدأ الخلق على غير مثال سابق ، وهو سبحانه يعيد الحياة إلى الخلائق ، ويبعثها للحياة مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ . (الأنبياء: ١٠٤) .

وقال سبحانه : اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . (الروم : ٤٠) .

وقال عز شأنه : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

★ ★ ★

﴿لَا إِلٰهَ إِلَّا هُمْ يَتَنَوَّنْ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ ۖ الْأَحْيَٰنَ يَسْتَعْشَوْنَ بِثَابِتِهِمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾

المضردات :

يتنَوَّنْ صُدُورُهُمْ : يطوون قلوبهم على ما فيها من نوايا .

ليَسْتَخَفُوا مِنْهُ : ليستروا أنفسهم عنه سبحانه .

يَسْتَعْشَوْنَ بِثَابِتِهِمْ : يوارون أنفسهم بثيابهم .

التفسير :

هـ- أَلَا إِنَّهُمْ يَتَنَوَّنْ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ... الآية .

أى : إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم ، وينكسون رؤوسهم ، كأنهم

يحاولون طي صدورهم على بطونهم حين سماع القرآن : ليستخفوا منه ﷺ حين تلاوته ، فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رؤوسهم .

روى ابن جرير وغيره : أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبى ﷺ : ثنى صدره : كيلا يراه أحد .

جاء فى تفسير الألوسى ما يأتى :

قيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى ﷺ : ثنى صدره ، وتغشى بثوبه : لئلا يراه .

وقيل : نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلاً حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله ﷺ المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها ، وقيل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ، ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى فنزلت هذه الآية ... اهـ .

ويمكن أن تشمل الآية الكريمة جميع هؤلاء ، كما تشمل كل من يتستر ويستخفى بعمل الشر ظاناً أنه لن ينكشف أمره ، ولن يظهر للناس سوء فعله .

أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى : إن ثنى صدورهم ، وتنكيس رؤوسهم : ليستخفوا من الداعى إلى توحيد ربهم : لا يغنى عنهم شيئاً : فإنه سبحانه وتعالى يعلم السر والجهر ، ويعلم ما يضمرونه وما يعلنونه .

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . إنه سبحانه وتعالى محيط بما تضرره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار ، وهذه الجملة تعليلية : لتأكيد ما قبلها من علمه سبحانه وتعالى بالسر والعلن .

والمراد بِذَاتِ الصُّدُورِ : أسرار الصدور وخواطر القلوب ، وكل ما يدور فى داخل الإنسان .

فالله سبحانه خالق الإنسان ، مطلع على خطرات نفسه ، محيط علمه بظواهره وباطنه .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق: ١٦) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم الفراغ من تفسير الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم فى صدى يوم الإثنين ١٩ شعبان ١٤١٤ هـ / الموافق ٣١ يناير سنة ١٩٩٤ م . بجامعة السلطان قابوس (كلية التربية والعلوم الإسلامية) . بسلطنة عمان - والله ولى التوفيق .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الحادى عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
إسماعيل سعيد فهمي

(١) من بدا : جفا :

رواه أحمد فى مسنده (١٨١٤٥) من حديث البراء قال رسول الله ﷺ : من بدا جفا . ورواه أحمد فى مسنده أيضا (٨٦١٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من بدا : جفا ، ومن اتبع الصيد : غفل ، ومن أتى أبواب السلطان : افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قريبا : إلا ازداد من الله بعدا .

(٢) وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٣١٧) من حديث عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقالوا : نعم ، فقالوا : لكننا والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ، وقال ابن نمير : من قلبك الرحمة . ورواه البخارى فى الأدب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٨) ، وأبو داود فى الأدب (٥٢١٨) ، والترمذى فى البر (١٩١١) ، وأحمد فى مسنده (٧٠٨١) ، من حديث أبى هريرة قال : قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى جالسا : فقال الأقرع : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا : فنظر إليه رسول الله ﷺ ، ثم قال : من لا يرحم لا يرحم .

(٣) انظر تفسير ابن كثير حيث بين فضل الصحابة ، حيث قد رضى الله عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ليا ويل من أبغضهم أو سبهم أو سب بعضهم ، لا سيما الخليفة الأعظم : أبو بكر الصديق !

(٤) تفسير ابن جرير الطبرى .

(٥) أحكام القرآن للجصاص ١٤/٣ .

(٦) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بغو .

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ ، من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٧) إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقة كما يرى :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٢٩) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) ، والترمذى فى الزكاة (٦٦١) ، والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٥) ، وابن ماجه فى الزكاة (١٨٤٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٥) ، وأحمد فى مسنده (٨١٨١) ، ٨٧٣٨ ، ٩١٤٢ ، ٩٢٨١ ، ٩٧٣٨ ، ١٠٥٦٢ من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربها لصاحبه ، كما يربى أحدكم فلوله : حتى تكون مثل الجبل » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقة : كما يربى أحدكم فلوله أو فصيله حتى يكون مثل أحد » .

(٨) لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء :

رواه أحمد فى مسنده (١٠٨٤٦) ، من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة : لخرج عمله للناس كائنا ما كان . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد وأبو يعلى وإسناهما حسن . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٤٠٢) ، ونسبه لأحمد فى مسنده ، وأبو يعلى فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرک ، ورمز لحسنه .

(٩) وما يزال عبدى يقرب إلى بالنوافل :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا : فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى : لأعطينه ، ولئن استعاذنى : لأعيننه وما ترددت عن شئ أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن ، يكره الموت ، وأنا أكره مساءته » . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيئة الصحيح : لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(١٠) اشترط لربى أن تعبدوه :

أخرج أحمد (١٦٦٣٠) ، من حديث أبى مسعود الأنصارى . قال الهيثمى فى المجمع : ورواه أحمد بنحو : حديث مرسل يأتى ، وفيه مجاهد أيضا ، ولم يسق لفظه ، وذكره بعد هذا وهو : وعن الشعبي قال : انطلق النبى ﷺ مع عمه العباس إلى السبعين من الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، قال : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطل : فإن عليكم من المشركين عينا ، وإن يعلموا بكم : يفضحوكم ، قال قائلهم ، وهو أبى أمامة : سل يا محمد لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله عز وجل ، وعليكم إذا فعلنا ذلك قال : أسأل لربى عز وجل : أن تعبدوه ولا تشركوا بها شيئا ، وأسألكم لنفسى ولأصحابى : أن تؤمنوا ، وتؤمنوا ، وتمنعوا مما منعتم منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : لكم الجنة . قالوا : فلك ذلك .. رواه أحمد هكذا مرسلًا ورجاله الصحيح ، وقد ذكر الإمام أحمد بعده سندًا إلى الشعبي : عن أبى مسعود عقبة بن عامر قال بنحو هذا قال : وكان ابن مسعود أصغرهم سنًا ، وفيه مجاهد وفيه ضعف وحديثه حسن إن شاء الله . قال السيوطى فى الدر : أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . قال : اشترط لربى . أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى : أن تمنعوا مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قال : ربح البهيح لا نقول ولا نستقيل . فنزلت : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ... الآية ﴾ . وقال فى موضع آخر : وأخرج عبد بن حميد عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ﴾ قال : قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة ، فنصروه وأووه حتى أظهر الله دينه ولم يسم حى من السماء قط باسم لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم ، وذكر لنا : أن بعضهم قال : هل تدرون ما تبايعون هذا الرجل ؟! إنكم تبايعونه على محاربة العرب كلها أو يسلّموا ، وذكر لنا : أن رجلا قال : يا نبى الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربى : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسى : أن تمنعوا مما تمنعون منه أنفسكم وأبناؤكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبى الله ؟ قال : «لكم النصر فى الدنيا والجنة وفى الآخرة » ، ففعلوا : ففعل الله .

(١١) انظر تفسير القاسمى ٣٧٣/٨ ، والتفسير المنير للذكور وهبة الزحلى الجزء ١١ ص ٥٥ .

(١٢) زبدة التفسير فى فتح القدير ، مطابع الأنباء ، الكويت ص ٢٦١ .

(١٣) أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله :

رواه البخارى ١٣٦٠ ، ٣٨٨٤ ، ٤٦٧٥ ، ٤٧٧٢ ، ٦٦٨١ ، ومسلم ٢٤ فى الإيمان من حديث المسيب بن حزن ، والد سعيد ابن المسيب .

(١٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى المجلد الثانى ص ١٧٣ ، واللفظ المذكور للبخارى .

(١٥) تفسير القاسمى الجزء ٨ ص ٢٤١ .

(١٦) الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ، المجلد ٣ ص ٩٠٥ .

(١٧) الأستاذ عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن ٩٠٧/٣ .

(١٨) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد على الصابوني ١٧٥/٢ ط ٤ بيروت ١٤٠١ هـ .

(١٩) تفسير القاسمى ٣٤٥/٨ بتصرف .

(٢٠) التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب ٩٠٩/١١ .

(٢١) تفسير القاسمى ٣٤٧/١١ .

(٢٢) انظر التفسير الوسيط لأشرف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب ٢١ ص ٢٩ .

(٢٣) عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهتدى إلى البر :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٤) ومسلم فى البر (٢٦٠٧) وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٩) والترمذى فى البر (١٩٧١) وابن ماجه فى المقدمة (٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٥) وأحمد فى مسنده (٣٦٣١) من حديث عبد الله عن النبى ﷺ قال: «إن الصدق يهتدى إلى البر ، وإن البر يهتدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ؛ حتى يكون صديقا ، وإن الكذب يهتدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهتدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ؛ حتى يكتب عند الله كذابا » . ورواه أحمد فى مسنده (٤٥) من حديث أنس بن عمرو قال: قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنة ، فألفيت أبا بكر يخطب الناس ، فقال : قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول ، فخطبته العبدية ثلاث مرات ، ثم قال : « يا أيها الناس ، سلوا الله المعافاة ؛ فإنه لم يؤت أحد مثل يقين بعد معافاة ولا أشد من رغبة بعد كفر وعليكم بالصدق ؛ فإنه يهتدى إلى البر ، وهما فى الجنة ، وإياكم والكذب ، فإنه يهتدى إلى الفجور ، وهما فى النار » .

(٢٤) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه :

رواه البخارى فى الإيمان (١٥) ومسلم فى الإيمان (٤٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٣) وابن ماجه فى المقدمة (٦٧) والدارمى فى الرقاق (٢٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٢٤٠٣) من حديث أنس قال: قال النبى ﷺ : لا يؤمن أحدكم ؛ حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين .

(٢٥) عدد رقيق : أى : قليل .

(٢٦) من يرد الله به خيرا ؛ يفقهه فى الدين :

رواه البخارى فى العلم (٧١) وفى فرض الخمس (٣١١٦) وفى الاعتصام (٧٣١٢) ومسلم فى الزكاة وابن ماجه فى المقدمة ح ٢٢٣ ، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمى فى المقدمة ح ٣٤٢ . ورواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة .

ورواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٦٦٧) وابن ماجه فى المقدمة (٢٢١) والدارمى فى المقدمة (٢٢٤) وأحمد فى مسنده (١٦٣٩٧) من حديث معاوية يرفعه : من يرد الله به خيرا ؛ يفقهه فى الدين .. الحديث . ورواه الترمذى فى العلم (٢٦٤٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٨٦) والدارمى فى المقدمة (٢٢٥) وفى الرقاق (٢٧٠٦) فى حديث ابن عباس ؛ وقال : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٢٠) من حديث أبى هريرة .

(٢٧) من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً :

رواه البخارى فى العلم مطلقاً ، والترمذى فى العلم ح ٢٦٨٢ ، وأبو داود فى العلم ح ٣٦٤١ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٢٢٣ ، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمى فى المقدمة ح ٢٤٢ ، ورواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة .

(٢٨) إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٢٧٦) والترمذى فى المناقب (٣٦٠٦ ، ٣٦٠٥) وأحمد فى مسنده (١٦٥٣٩) من حديث واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم .

(٢٩) خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح :

أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١١٨/١) من حديث أنس بلطف : أنا محمد بن عبد الله ، بن عبد المطلب .. الحديث . وقيه : فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهت إلى أبى وأمى : فأنا خيركم نسبا ، وخيركم أباً . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠١) بلطف : خرجت من نكاح غير سفاح . ونسبه لابن سعد عن عائشة . وقال : حسن . قال المناوى فى فيض القدير : قال الذهبى : فيه الواقدي هالك . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير أيضا (٣٩٠٢) بلطف : خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح . ونسبه لابن سعد عن ابن عباس . وقال : حسن . قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى عن المدنى عن أبى الحويرث ، ولم أعرف المدنى ولا شيخه ، وقيه رجاله وثقوا . قال الهيثمى فى المجمع : وعن على : أن النبى ﷺ قال : خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه محمد بن جعفر بن على ، صحح له الحاكم فى المستدرک وقد تكلم فيه ، وقيه رجاله ثقات . قال الزيلعى فى نصب الراية : أخرجه البيهقى فى «سننه» ، والطبرانى فى «معجمه» عن هشيم : حدثنى المدنى عن أبى الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ما ولدنى شيء من سفاح الجاهلية ، وما ولدنى إلا نكاح ككناح الإسلام» ، انتهى . وروى ابن الجوزى فى «التحقيق» من طريق الواقدي : حدثنى محمد بن أخى الزهرى عن عمه عن عروة عن عائشة مرفوعاً : خرجت من نكاح غير سفاح ، قال فى «التنقيح» : الواقدي متكلم فيه ، وفى الأول المدنى ، وهو إن كان والد على فهو ضعيف ، وكذا إن كان إبراهيم بن أبى يحيى ، وقال الطبرانى : هو عندى فليح بن سليمان ، وأبو الحويرث اسمه : عبد الرحمن بن معاوية ، وهو متكلم فيه ، انتهى . قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٢٠٦) رواه البخارى فى الأدب والطبرانى فى الأوسط عن على رفعه بزيادة : من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء ، وفى لفظ من رواية ابن سعد عن ابن عباس : خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح .

(٣٠) من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٨١) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله لا إلا إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات : كفاه الله ما أهمه صادقا كان بها أو كاذبا .

(٣١) التفسير العنبر . للأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلي ٩٠/١١ ، ٩١ .

(٣٢) يمكن أن أقل هنا فقرة من كتابي : تفسير الآيات الكونية الذى طبعته دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٨٠ وهى :

التأمل فى الآيات التى تحدثت عن خلق الكون ، وعن خلق السماوات والأرض يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية :

- ١ - وجود مراحل ستة للمخلق عموماً .
 - ٢ - تدخل مراحل خلق السماوات مع مراحل الأرض .
 - ٣ - خلق الكون ابتداءً من كومة أولية فريدة ، كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .
 - ٤ - تعدد السماوات ، وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .
 - ٥ - وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .
 - ٦ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السليم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للعادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى . من ٩٥ من كتاب تفسير الآيات الكونية د/ عبد الله شحاتة .
- (٣٣) تفسير المنار : المجلد السادس ص ٢٤٨ ، ٣٤٩ ، وقد نقل هذا الكلام الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى جزء ١١ صفحة ٦٨ .
- (٣٤) مقتبس من ظلال القرآن بقلم سيد قطب جزء ١ صفحة ١٧٦٥ .
- (٣٥) تفسير المنار جزء ١١ صفحة ٢٤٩ ، وقد عنوان صاحب المنار للآيات بقوله : (تفضيل الآيات لأهل العلم ، تنويه به وحث عليه) .
- (٣٦) انظر هذا المعنى فى تفسير ابن كثير .
- (٣٧) تفسير ابن كثير .
- (٣٨) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ١/١١١ .
- (٣٩) تفسير الكشاف .
- (٤٠) زبدة التفسير من فتح القدير للإمام الشوكاني .
- (٤١) إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٤٢) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٠) وأحمد فى مسنده (١٠٧٨٥) من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون » فانقوا الدنيا وانقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء .

تبيه : قوله (متفق عليه) فيه نظر . فإنما أخرجه البخارى فى الزكاة (١٤٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه يحدث أن النبى ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله ، فقال : إني مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها . فقال رجل : يا رسول الله ، أويأتى الخير بالشر ، فسكت النبى ﷺ ، فقول له : ما شأنك تكلم للنبى ﷺ ، ولا يكلمك ؟ فرأينا أنه ينزل عليه ، قال : فمسح عنه الرخضاء . فقال : أين السائل ؟ وكأنه حمده . فقال : إنه لا يأتى الخير بالشر ، وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا أكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها ما استقبلت عين الشمس فظلمت وباتت ورتعت وإن هذا المال خضرة حلوة فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل .. الحديث .

(٤٢) تفسير التحرير والتوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ١٢٦/١١ ، ثم قال : ﴿ في السموات ولا في الأرض ﴾ ، حال من الضمير المحذوف بعد ﴿ يعلم ﴾ العائد على ﴿ ما ﴾ إذ التقدير : بما لا يعلمه ، أى : كائناً في السماوات ولا في الأرض ، والمقصود من ذكرهما : تعميم الأمكنة ، كما هو استعمال الجمع بين المقابلات مثل : المشرق والمغرب ، وأعيد حرف النفي بعد العطف ؛ لزيادة التعميم على النفي ، والاستفهام في ﴿ أتنبون ﴾ للإكثار والتوبيخ .

(٤٣) تفسير التحرير والتوير ، للشيخ الطاهر ابن عاشور ١٢٩/١١ .

(٤٤) ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مظهره :

رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن (٤٨١) ، وفى الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم فى كتاب الإيمان (١٥٢) ، وأحمد فى مسنده حديث رقم (٩٥١٨) .

(٤٥) قال النسفى : ﴿ منافع الحياة الدنيا ﴾ بالنصب قراءة حفص أى : تمتعون منافع الحياة الدنيا وعلى أنفسكم خبر بغيركم ، وقرأ غير حفص بالرفع ؛ على أنه خبر بغيركم وعلى أنفسكم صلته كقوله : فيفى عليهم ومعناه : إنما بغيركم على أمثالكم أو هو خبر ومنافع خبر بعد خبر أو منافع خبر مبتدأ مضمرة أى : هو منافع الحياة الدنيا ، وفى الحديث (أسرع الخير ثواباً : صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً : البغى واليمين الفاجرة) .

(٤٦) ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاباً إن فى ذلك للذكرى لأولى الألباب ﴾ (الزمر : ٢١) .

(٤٧) ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاباً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا منافع الغرور ﴾ (الحلديد : ٢٠) .

(٤٨) محاضرات الموسم الثقافي لعام ٧٢ - ١٩٧٣ إصدار حكومة أبو ظبى (الإمارات العربية المتحدة) محاضرة الإنسان والكون للأستاذ الدكتور زغلول راغب النجار .

(٤٩) إذا دخل أهل الجنة الجنة : قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً ؟

رواه مسلم فى الإيمان (١٨١) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٥٢) وفى التفسير (٢١٠٥) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٧) وأحمد فى مسنده (١٨٤٥٧) من حديث صحيح عن النبى ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ ، فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ ، قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل . حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة بهذا الإسناد وزاد ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

(٥٠) تفسير المراغى ١٠٩/١١ .

(٥١) تفسير الآلوسى ١٤٠/١١ .

(٥٢) من هداة الله للإسلام وعلمه القرآن :

قال السيوطى فى الدر : وأخرج أبو القاسم بن بشران فى أماليه : عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من هداة الله للإسلام ، وعلمه القرآن ، ثم شكا الغاقة ؛ كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه ، ثم تلا النبى ﷺ : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ . من عرض الدنيا من الأموال » .

(٥٣) فإذا آتاك الله مالا ؛ فليز أتر نعمته الله عليك :

رواه أبو داود فى اللباس (٤٠٦٣) والنسائى فى الزينة (٥٢٢٤) وأحمد فى مسنده (١٦٧٨٠) من حديث أبى الأخوص عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ فى ثوب دون فقال : ألك مال ؟ . قال : نعم ، قال : من أى المال ؟ قال : قد آتانى الله من الإبل والغنم والخول والرقيق . قال : فإذا آتاك الله مالا ؛ فليز أتر نعمته الله عليك وكرامته . والحديث رواه الترمذى فى الأدب (٢٨١٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه أحمد فى مسنده (٨٠٤٥) من حديث أبى هريرة رفعه . قال : إن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . ورواه أحمد فى مسنده (١٩٤٣٢) من حديث أبى رجاة العطارى قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول الله ﷺ قال : من أنعم الله عز وجل عليه نعمة ، فإن الله عز وجل يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه وقال روح ببغداد : يجب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال الهيثمى فى المجمع : وعن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سحب ثيابه ؛ لم ينظر الله إليه . فقال أبو ريحانه : والله لقد أمرضنى ما حدثتنا به ، فوالله إنى لأحب الجمال حتى إنى أجعله فى شرك نعلى وعلاقى سوطى ، أفمن الكبر ذاك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله جميل يحب الجمال ، ويجب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولكن الكبر من سفة الحق وغمص الناس . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه موسى بن عيسى دمشقى قال الذهبى : مجهول ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٥٤) إذا آتاك الله مالا ؛ فليز عليك :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٣١) بلفظ : إذا آتاك الله مالا ؛ فليز عليك ، فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا ، ولا يجب البؤس ولا التباؤس . ونسبه للبخارى فى التاريخ ، والطبرانى فى الكبير ، والضياع عن زهير بن أبى علقمة ، وصححه . قال المناوى فى فيض القدير : قال الذهبى : أظنه مرسلاً . وقال ابن الأثير : قال البخارى : زهير هذا لا صحة له وذكره غيره فى الصحابة . وقال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى وترجم لزهير رجاله ثقات . وانظر ما قبله .

(٥٥) تفسير المراعى ، للأستاذ أحمد مصطفى المراعى ١٩٢٨/١١ .

(٥٦) انظر تفسير هذه الآية ، وآيات تتعلق بالموضوع فى كتابى : تفسير الآيات الكونية د . عبد الله شحاتة .

(٥٧) وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

تقدم قد (١٩٩٦) .

(٥٨) قال : هى الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له :

رواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٥) وابن ماجه فى تعبیر الرؤيا (٣٨٩٨) والدارمى فى الرؤيا (٢١٣٦) وأحمد فى مسنده

(٢٢٢٦١) من حديث عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾. قال: هي الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو ترى له. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه مالك في الموطأ كتاب الجامع (١٧٨٥) من حديث هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ - قال: هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له. ورواه الترمذي في الرؤيا (٢٢٧٢) وفي التفسير (٣١٠٦) وأحمد في مسنده (٢٦٩٦٤). من حديث رجل من أهل مصر قال: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾. فقال: ما سألتني عنها أحد غيرك إلا رجل واحد منذ سألت رسول الله ﷺ فقال: ما سألتني عنها أحد غيرك منذ أنزلت: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٥٩) تفسير القاسمي نقل عن كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان».

(٦٠) تفسير الآلوسي ١/١٥٦ ومثله في تفسير البضاوي.

(٦١) صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته:

رواه البخاري في الصوم (١٩٠٩) ومسلم في الصيام (١٠٨١) والترمذي في الصيام (٦٨٤) والنسائي في الصيام (٢١١٧) والدارمي في الصوم (١٦٨٥) وأحمد في مسنده (٩٢٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ، أو قال: قال أبو القاسم ﷺ: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن أغمى عليكم؛ فأكلوا عدة شعبان ثلاثين. ورواه مسلم في الصيام (١٠٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب يديه فقال: الشهر هكذا وهكذا - ثم عقد إبهامه في الثالثة - فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن أغمى عليكم فاقدرُوا له ثلاثين. ورواه الترمذي في الصوم (٦٨٨) والنسائي في الصيام (٢١٢٤، ٢١٢٩) والدارمي في الصوم (١٦٨٣) وأحمد في مسنده (١٩٨٦)، من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأكملوا عدة ثلاثين. ورواه أحمد في مسنده (١٥٨٥٩) من حديث قيس بن طلق عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل جعل هذه الأهلة مواقيت للناس، صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم؛ فأتوا عدة.

(٦٢) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب ٢٢ ص ١٢٩.

(٦٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغررْ:

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، وقال البوصيري في الزوائد: «في إسناده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد عنعنه، وكذلك مكحول الدمشقي»، وأحمد ١٢٢/٢، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر.

(٦٤) أنا أولى بموسى منهم. فصامه:

رواه البخاري في كتاب الصوم (٢٠٠٤) وفي أحاديث الأنبياء (٣٣٩٧) وفي تفسير القرآن (٤٧٣٧). ومسلم في كتاب الصيام (١١٣٠)، وأبو داود في كتاب الصيام (٢٤٤٤)، وابن ماجه في كتاب الصيام (١٧٣٤)، والدارمي في كتاب الصيام (١٧٥٩)، وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٦٣٩، ٢٨٢٧، ٣١٠٢، ٣١٥٤) من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ لما قدم المدينة وجدهم يصومون يوما - يعني: عاشوراء - فقالوا: هذا يوم عظيم وهو يوم نجى الله فيه موسى، وأغرق آل فرعون، فصام موسى؛ شكرًا لله، فقال: «أنا أولى بموسى منهم»، فصامه وأمر بصيامه.

(٦٥) تفسير الكشاف ، وقد اختار هذا الرأى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية ، واستبعد أن يكون الخطاب للرسول ﷺ لغرض تهيجه وإثارته ؛ ليزداد ثباتاً على دينه ، من غير احتمال وقوع شك منه .

(٦٦) انظر تفسير فخر الدين الرازى ، وتفسير القرطبي ، وابن كثير ، وتفسير أبى السعود ١٧٦/٤ ، وقد نقلت ألفاظ القصة منه .
(٦٧) تفسير أبى السعود ١٧٦/٤ .

(٦٨) زبدة التفسير فى فتح القدير ، مختصر من تفسير الشوكاني للأستاذ محمد سليمان الأشقر الطبعة الأولى بالكويت ص ٢٨١ .

(٦٩) تفسير أبى السعود ، المسمى : إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة : أبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١ هجرية ، الجزء الرابع ص ١٧٩ .

(٧٠) وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض خنيفاً :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧١) ، وأبو داود فى الصلاة (٧٦٠) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣) ، والدارمى فى الصلاة (١٢٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٧٣١) ، ومن حديث على بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض خنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين ، اللهم ، أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسى واعتزفت بذنوبى : فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهتدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يدك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وإذا ركع قال : اللهم لك ركعت ، وبك أمنت ، ولك أسلمت خشع لك سمعى وبصرى وعظمى وعصبنى ، وإذا رفع قال : اللهم ، ربنا ، لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت ، من شئ بعد ، وإذا سجد قال : اللهم ، لك سجدت ، وبك أمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه ، وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين ، ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم ، اغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت .

(٧١) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس . قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : « يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ ، لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام وجفت الصحف » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ ، فالتفت إلى ، فقال : يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله - الحديث وفيه : قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك : لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه : واعلم أن ما أمساك لم يكن ليحطك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ، وأورده الضياء فى التارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما

رفعه بلفظ: يا ابن عباس ، احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء ؛ يعرفك فى الشدة ، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال : فى أقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين .

(٧٢) زبدة التفسير من فتح القدير ، وهو مختصر تفسير الإمام الشوكانى تحقيق محمد سليمان الأشقر : الكويت ص ٢٨٣ .

(٧٣) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم : إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاك » . ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها » . رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : « لما نزلت من يعمل سوءاً يجز به : شق ذلك على المسلمين ، فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ، فقال : قاربوا وسددوا . وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة ، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » . هذا حديث حسن غريب .

(٧٤) محمود شلتوت ، إلى القرآن الكريم ص ٧٧ .

(٧٥) تفسير المنار ج ١٢ ، ص ٣٢ - ٤١ .

(٧٦) تفسير الكشف للزمخشري .



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الحادى عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٩٣	﴿إنما السبيل على الذين يستذنبونك...﴾	١٩٧٧
٩٤	﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم...﴾	١٩٧٨
٩٥	﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم...﴾	١٩٧٩
٩٦	﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم...﴾	١٩٧٩
٩٧	﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا...﴾	١٩٨١
٩٨	﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما...﴾	١٩٨٢
٩٩	﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر...﴾	١٩٨٢
١٠٠	﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...﴾	١٩٨٤
١٠١	﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون...﴾	١٩٨٦
١٠٢	﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم...﴾	١٩٨٧
١٠٣	﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم...﴾	١٩٨٨
١٠٤	﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده...﴾	١٩٩٠
١٠٥	﴿وقل أعمالوا فسيرى الله عملكم...﴾	١٩٩٠
١٠٦	﴿وآخرون مرجون لأمر الله...﴾	١٩٩٢
١٠٧	﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرابا وكفرا...﴾	١٩٩٤
١٠٨	﴿لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى...﴾	١٩٩٥
١٠٩	﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله...﴾	١٩٩٦
١١٠	﴿لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم...﴾	١٩٩٧
١١١	﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم...﴾	١٩٩٩
١١٢	﴿التائبون العابدون الحامدون...﴾	٢٠٠١
١١٣	﴿وما كان للنبي والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾	٢٠٠٣
١١٤	﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة...﴾	٢٠٠٣
١١٥	﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم...﴾	٢٠٠٣
١١٦	﴿إن الله له ملك السموات والأرض...﴾	٢٠٠٣
١١٧	﴿ولقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار...﴾	٢٠٠٦
١١٨	﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا...﴾	٢٠٠٨
١١٩	﴿يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله...﴾	٢٠١٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٢٠	﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ... ﴾	٢٠١١
١٢١	﴿ وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ... ﴾	٢٠١١
١٢٢	﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ... ﴾	٢٠١٣
١٢٣	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ... ﴾	٢٠١٤
١٢٤	﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا ... ﴾	٢٠١٦
١٢٥	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا ... ﴾	٢٠١٦
١٢٦	﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ... ﴾	٢٠١٦
١٢٧	﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ... ﴾	٢٠١٦
١٢٨	﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ... ﴾	٢٠١٨
١٢٩	﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴾	٢٠١٨
—	تفسير سورة يونس	٢٠٢١
—	دروس من سورة يونس	٢٠٢٢
١	﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ ءَايَاتٌ الْكِتَابِ ... ﴾	٢٠٢٧
٢	﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَبًا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ ... ﴾	٢٠٢٧
٣	﴿ إِنْ رِبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾	٢٠٣٠
٤	﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ... ﴾	٢٠٣٠
٥	﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ... ﴾	٢٠٣٢
٦	﴿ إِنْ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... ﴾	٢٠٣٢
٧	﴿ إِنْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ... ﴾	٢٠٣٤
٨	﴿ أَوَلَيْسَ لَكَ ءَاوَاهِمُ الْبَنَاتِ ... ﴾	٢٠٣٤
٩	﴿ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾	٢٠٣٦
١٠	﴿ دَعُوهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ... ﴾	٢٠٣٦
١١	﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ ... ﴾	٢٠٣٨
١٢	﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ ... ﴾	٢٠٣٨
١٣	﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾	٢٠٣٨
١٤	﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾	٢٠٤٣
١٥	﴿ وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ... ﴾	٢٠٤٤
١٦	﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ... ﴾	٢٠٤٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً...﴾	٢٠٤٤
١٨	﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم...﴾	٢٠٤٧
١٩	﴿وما كان للناس إلا أمة واحدة فاختلفوا...﴾	٢٠٤٧
٢٠	﴿ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه...﴾	٢٠٤٩
٢١	﴿وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم...﴾	٢٠٥٠
٢٢	﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر...﴾	٢٠٥٣
٢٣	﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق...﴾	٢٠٥٣
٢٤	﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء...﴾	٢٠٥٣
٢٥	﴿والله يمددكم إلى دار السلام...﴾	٢٠٥٨
٢٦	﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...﴾	٢٠٥٩
٢٧	﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها...﴾	٢٠٦٠
٢٨	﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا...﴾	٢٠٦١
٢٩	﴿نكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم...﴾	٢٠٦١
٣٠	﴿هنالك تبلوا كل نفس ما أسلفت...﴾	٢٠٦٢
٣١	﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض...﴾	٢٠٦٣
٣٢	﴿فإنذركم الله ربكم الحق...﴾	٢٠٦٤
٣٣	﴿كذلك حدقت كلمة ربك...﴾	٢٠٦٤
٣٤	﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده...﴾	٢٠٦٥
٣٥	﴿قل هل من شركائكم من يهدى للحق...﴾	٢٠٦٦
٣٦	﴿وما يتبع أكثرهم إلا ظناً...﴾	٢٠٦٧
٣٧	﴿وما كان هذا القراء أن يفتروا...﴾	٢٠٦٨
٣٨	﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله...﴾	٢٠٦٩
٣٩	﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه...﴾	٢٠٧٠
٤٠	﴿ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به...﴾	٢٠٧١
٤١	﴿وإن كذبوك فنقل لى عملى ولكم عملكم...﴾	٢٠٧١
٤٢	﴿ومنهم من يستمعون إليك...﴾	٢٠٧٢
٤٣	﴿ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى...﴾	٢٠٧٢
٤٤	﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً...﴾	٢٠٧٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً...﴾	٢٠٧٤
٤٦	﴿وَأَمَّا نَرِيكَ بِعُضِّ الذِّى نَعُدُّهُمْ أَوْ تَنُفِيكَ...﴾	٢٠٧٥
٤٧	﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ...﴾	٢٠٧٥
٤٨	﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ...﴾	٢٠٧٥
٤٩	﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا...﴾	٢٠٧٦
٥٠	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا...﴾	٢٠٧٧
٥١	﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ...﴾	٢٠٧٧
٥٢	﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ...﴾	٢٠٧٧
٥٣	﴿وَيَسْتَنْهَيْتُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرِى...﴾	٢٠٧٨
٥٤	﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ...﴾	٢٠٧٨
٥٥	﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِى أَنْسَامِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٢٠٨٠
٥٦	﴿هُوَ يَحْيِى وَيُمِيتُ...﴾	٢٠٨١
٥٧	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ...﴾	٢٠٨١
٥٨	﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا...﴾	٢٠٨١
٥٩	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ...﴾	٢٠٨٣
٦٠	﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ...﴾	٢٠٨٣
٦١	﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ...﴾	٢٠٨٥
٦٢	﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ...﴾	٢٠٨٧
٦٣	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ...﴾	٢٠٨٧
٦٤	﴿لَهُمْ الْبَشْرِى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ...﴾	٢٠٨٧
٦٥	﴿وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنْ الْعِزَّةُ لِلَّهِ جَمِيعًا...﴾	٢٠٩٠
٦٦	﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مِنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِى الْأَرْضِ...﴾	٢٠٩٠
٦٧	﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ...﴾	٢٠٩٣
٦٨	﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا...﴾	٢٠٩٤
٦٩	﴿قُلْ إِنْ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ...﴾	٢٠٩٤
٧٠	﴿مَتَاعَ فِى الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ...﴾	٢٠٩٤
٧١	﴿وَاتِلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ...﴾	٢٠٩٦
٧٢	﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ...﴾	٢٠٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٣	﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك...﴾	٢٠٩٦
٧٤	﴿ثم بعثنا من بعدهم رسلا إلى قومهم...﴾	٢١٠١
٧٥	﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون...﴾	٢١٠٢
٧٦	﴿فلما جاءهم الحق من عندنا...﴾	٢١٠٢
٧٧	﴿قال موسى أنقولون للحق لما جاءكم...﴾	٢١٠٢
٧٨	﴿قالوا أجتنا لثلفتنا عما وجدنا عليه ءاباءنا...﴾	٢١٠٢
٧٩	﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم...﴾	٢١٠٥
٨٠	﴿فلما جاء السحرة قال لهم موسى...﴾	٢١٠٥
٨١	﴿فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر...﴾	٢١٠٥
٨٢	﴿ويحق الله الحق بكلماته...﴾	٢١٠٥
٨٣	﴿فما ءامن لموسى إلا ذرية من قومه...﴾	٢١٠٧
٨٤	﴿وقال موسى يا قوم إن كنتم ءامنتم بالله...﴾	٢١٠٧
٨٥	﴿فقالوا على الله توكلنا...﴾	٢١٠٧
٨٦	﴿ونجنا برحمتك من القوم الكافرين...﴾	٢١٠٧
٨٧	﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه...﴾	٢١١٠
٨٨	﴿وقال موسى ربنا إنك ءاتيت فرعون وملأه زينة...﴾	٢١١٠
٨٩	﴿قال قد أجيبت دعوتكم فاستقيما...﴾	٢١١٠
٩٠	﴿وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر...﴾	٢١١٣
٩١	﴿والآن وقد عصيت قبل...﴾	٢١١٣
٩٢	﴿فاليوم نجيك بيدك لتكون لمن خلفك ءاية...﴾	٢١١٣
٩٣	﴿ولقد بؤأنا بنى إسرائيل مبعوثا صدق...﴾	٢١١٦
٩٤	﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك...﴾	٢١١٨
٩٥	﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله...﴾	٢١١٨
٩٦	﴿إن الذين حققت عليهم كلمت ربك...﴾	٢١٢٠
٩٧	﴿ولما جاءتهم كل ءاية...﴾	٢١٢٠
٩٨	﴿فلولا كانت قرية ءامنت فنفعها إيمانها...﴾	٢١٢١
٩٩	﴿ولم يشاء ربك لأن من فى الأرض...﴾	٢١٢٣
١٠٠	﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله...﴾	٢١٢٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠١	﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٢١٢٥
١٠٢	﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ...﴾	٢١٢٦
١٠٣	﴿ثُمَّ نَنْجِى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾	٢١٢٦
١٠٤	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِى شَكٍّ مِنْ دِينِى...﴾	٢١٢٨
١٠٥	﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾	٢١٢٨
١٠٦	﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ...﴾	٢١٢٨
١٠٧	﴿وَأَنْ يُمْسِكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ...﴾	٢١٣١
١٠٨	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾	٢١٣٣
١٠٩	﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ...﴾	٢١٣٣
—	تفسير سورة هود	٢١٣٥
—	دروس من سورة هود	٢١٣٦
١	﴿الرَّكْتَابِ أَحْكَمْتَ ءَايَتِهِ ثُمَّ فَصَلْتَ...﴾	٢١٤٤
٢	﴿أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ...﴾	٢١٤٤
٣	﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾	٢١٤٦
٤	﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾	٢١٤٦
٥	﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ...﴾	٢١٤٧
—	تخريج أحاديث وهوامش	٢١٤٩
—	فهرس موضوعات	٢١٦١

تم بحمد الله تفسير الجزء الحادى عشر وبإيابه

تفسير الجزء الثانى عشر إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦ ﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

المفردات :

وما من دابة في الأرض : يعني : كل ما دب على الأرض ، والناس منهم .

ويعلم مستقرها : الموضع الذي تستقر فيه وتأوى إليه .

ومستودعها : حيث يودعها بموت أو دفن .

كل في كتاب مبين : عند الله عز وجل مكتوب مثبت .

ليبلوكم : ليختبركم .

التفسير :

٦ - وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

تصور الآية علم الله الشامل المحيط بكل ما يدب على الأرض ، من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة وحشرة وطيور ، وهو سبحانه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها ، وما من دابة من هذه الدواب إلا وعند الله علمها ، وعلى الله رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن ، ومن أين تجيء وأين تذهب ، وكل فرد من أفرادها في هذا العلم الدقيق .

إنها صورة متصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول

تصورها بخياله فلا يطيق ، فسبحان من أحاط بكل شيء علماً !

٧ - وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... الآية .

تشير الآية : إلى أن خلق الكون قد مر بفترات زمنية طويلة جداً ، ولم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر ، أو ليل أو نهار ، ويرى بعض المفسرين أن معنى الآية : فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

ونجد فى القرآن الكريم : وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

ويقول سبحانه : فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

ويقول عز شأنه : فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (السجدة : ٥) .

وقد فسر بعضهم خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، على أنها تعنى : مراحل ، أو فترات طويلة ، أو عصور .

وفى الآيات ٩ - ١٢ من سورة فصلت ، يقول سبحانه :

قُلْ إِنُّكُمْ لَنَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَاتٍ فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَاكُمْ فَاثْبَاتَا آيَاتِنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَّمَاءٍ أَهْرَاقًا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

ويقول عز شأنه :

عَلَّمْتُمْ أَكْثَدَ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . (النازعات : ٢٧-٣٣) .

ويقول بعض المفسرين : أن الدحو غير الخلقة ، فيمكن أن تكون الأرض قد خلقت غير مدحوة ثم أتم الله خلق السماء ، وبعد ذلك أتم خلق الأرض فدحاه ، ويسر لها الماء والمرعى والجبال ، والتأمل فى الآيات العديدة ، التى تحدثت عن خلق السماوات والأرض ، وعن خلق الكون ، يجعلنا نخلص إلى النقاط الآتية :

١ - وجود مراحل ستة للخلق عموماً .

٢ - تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل الأرض .

٣ - خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة ، كانت تشكل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .

٤ - تعدد السماوات وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .

٥ - وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٦ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى في العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التي كونت الكون في هذه المرحلة الأولى .

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . تفيد آيات أخرى : أن الماء أصل جميع الحياة والأحياء .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . (الأنبياء : ٣٠) .

وفى صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء»^(١) .

قال مجاهد : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ قبل أن يخلق شيئاً .

وقال ابن عباس : إنما سَمِيَ العرش عرشاً : لارتفاعه .

وعن سعيد بن جبير : سئل ابن عباس عن قول الله : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ : على أى شيء كان الماء؟

قال : على متن الريح^(٢) .

أصل الحياة :

شغلت هذه المسألة الإنسان في كل العصور سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات المحيطة به ، وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تماماً ، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ مثل قوله : أَوَلَمْ يَرِ الْيَلِينَ كَفَرُوا أَن السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠)

والرتق : ضد الفتق ، ومعنى كَانَتَا رَتْقًا . أى : كانتا ملتصقتين ، ففتق الله هذه من هذه ، ورفع الله السماء ووضع الأرض وفصل بينهما بالهواء ، فأمرت السماء وأنبئت الأرض ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . والعبارة يمكن أن تعنى : أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهريّة ، أو أن أصل كل شيء حى هو الماء ويتفق هذان المعنيان تماماً مع العلم ، فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء ، وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما ، فإن أول سؤال يطرح هو : أبحاثى هذا الكوكب على كمية كافية للحياة عليه ؟ وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمى إلى عالم النبات ؛ فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبرى ، أى : فى أقدم الأراضى المعروفة ، ولا بد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل ، وقد أتت أيضاً فى المحيطات .

وتشير كلمة ماء إلى : ماء السماء ، كما تعنى : ماء المحيطات أو أى سائل آخر ، وبالمعنى الأول : فالماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية .

قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ . (طه : ٥٣) .

إن كلمة ماء بمعناها الثانى ، أى : ذلك الذى يعنى : (سائل) دون أى تحديد ، مستخدمة فى شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أى حيوان .

قال تعالى : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ . (النور : ٤٥) .

وتنطبق كلمة ماء هنا أيضاً على : السائل المنوى ^(٣) وسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً أو العنصر الذى يجعل النباتات تولد فى التربة ، أو كان المقصود هو : بذرة الحيوان ؛ فإن كل عبارات القرآن تتفق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة ، ولا مكان مطلقاً فى نص القرآن لأى خرافة من الخرافات التى كانت منتشرة فى عصر تنزيل القرآن الكريم ^(١) .

ويمكن أن تدل جملة : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، على معنى : وكان ملكه قائم وثابت لأصل هذا الكون وأساس كل شئ فى هذه الحياة ، وهو مدلول : كان الله ولا شئ معه ؛ فهو سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، وهو الذى أوجد الخلق من العدم ، وهو يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، ويكون معنى وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . أى : أصل كل الأحياء .

أخرج الإمام أحمد : عن أبى هريرة قال : قلت : يا رسول الله ، إني إذا رأيته ، طابت نفسى ، وقرت عيني ؛ فأنبئني عن كل شئ ؛ قال : « كل شئ خلق من ماء » ، قال : قلت : أنبئني عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة ؟ قال : « أفش السلام وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ؛ ثم ادخل الجنة بسلام » ^(٤) ، وفى نهاية المطاف نجد أن المسلم مطالب بالإيمان بالحكم ، والتفويض إلى الله فى المتشابه ، والتسليم بصدق ما أخبر به القرآن ، وإن عجز العقل المحدود عن تحديد المقصود .

قال تعالى : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . (ال عمران : ٧) .

أقوال المفسرين :

جاء فى تفسير المراعى لهذه الآية :

والخلاصة : أن الماء أصل جميع الأحياء وهو الذى ينزل إليه أمر التدبير والتكوين ^(٥) .

خلاصة ما ورد في تفسير المنار للسيد رشيد رضا :

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِي سِتَّةَ أَيَّامٍ مِنْ أَيْامِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَمَا شَاءَ مِنَ الْأَطْوَارِ ، لَا مِنْ أَيْامَانَا فِي هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي وَجَدْتَ بِهَذَا الْخَلْقِ لَا قَبْلَهُ ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ تَقْدِرَ أَيَّامَ اللَّهِ بِأَيَّامِهَا كَمَا تَوَهَّمُ الْخَافِلُونَ عَنْ هَذَا وَمَا يُؤَيِّدُهُ مِنْ قَوْلِهِ : وَإِنْ يُؤَمَّا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعْلَوْنَ (الحج : ٤٧) . وقوله : تَعْرِجُ الْمَلَكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) . وقد ثبت في علم الهيئة الفلكية أن أيام غير الأرض من الدارِرى التابعة لنظام شمسنا هذه تختلف عن أيام هذه الأرض في طولها ، بحسب اختلاف مقادير أجرامها وأبعادها ، وسرعتها في دورانها ، وأن أيام التكوين بخلقه من الدخان المعبر عنه : بالسديم شمساً مضئاً ، تتبعها كواكب مثيرة يقدر اليوم منها بألاف الألوف من سنينا ، بل من سنَى سرعة الضوء أيضاً .

وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . أى : وكان سرير ملكه فى أثناء هذا الطور من خلق هذا العالم أو من قبله على الماء .

والمعنى : الكلى المفهوم من العرش : أنه مركز نظام الملك ، ومصدر التدبير له ، وأن المتبادر فى الاستعمال اللغوى استعمالهم : استوى على عرشه بمعنى : ملك أو استقام أمر الملك له ، وثل عرشه : بمعنى : هلك وزال ملكه . ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلاً وهى من عالم الشهادة ، وصنع أيدي البشر ، كذلك يختلف النظام للتدبير الذى يصدر عنها فعرش ملكة سبأ العربية العظيم ، كان أعظم من عرش سليمان ملك إسرائيل ، ولكن تدبيرها وحكمها الثورى (الديمقراطى) كان دون حكمه الشرعى الدينى ، ورب عرش من الذهب ، وعرش من الخشب ، وأما عرش الرحمن عز وجل فهو من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، فأجدر بنا ألا نعلم كنه استوائه عليه ، وصدور تدبيره لأمر هذا الملك العظيم عنه ، وحسبنا أن نفهم الجملة^(٧) ونستفيد العبرة فما أجهل الذين تصدوا لتأويل هذه الحقائق الغيبية بأقيستهم وآرائهم البشرية ، وما أحسن ما روى عن أم سلمة رضى الله عنها وربيعة ومالك ، من قولهم : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

وأما قوله تعالى : وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . فنفهم منه أن الذى كان دون هذا العرش ، من مادة هذا الخلق قبل تكوين السماوات والأرض أو فى أثناءه هو هذا الماء ، الذى أخبرنا الله عز وجل أنه جعله أصلاً لخلق جميع الأحياء ، إذ قال :

أَوْ لَمْ يَرِ الْآلِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .

(الأنبياء : ٣٠)

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة ، لا فشق ولا انفصال ، وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم ، وبلغه القرآن : بالدخان ، فَفَتَقْنَاهُمَا بِفصل بعضها عن بعض ، فكان منها ما هو سماء : ومنها ما هو أرض وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ فى المقابلة لحياة الأحياء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ بأن الرب الفاعل لهذا ، هو الذى يعبد وحده ولا يشرك به شئ ، وأنه قادر على إعادة الخلق كبذته : فيفهم من هذا وذلك : أن الذى كان تحت العرش فينزل إليه أمر التدبير والتكوين منه : هو الماء الذى هو أصل لجميع الأحياء لا ما تخيله بعض المفسرين الغنيين فى الماء والعرش ، مما تاباه اللغة والعقل والشرع ، والعبارة ليست نصاً فى أن ذات العرش المخلوق كان على متن الماء ، كالسفن التى نراها راسية فيه الآن كما قيل ، فإن فائدة الإخبار بمثل هذا إن كان واقعاً فى ذلك العهد ، هو دون فائدة ما ذكرنا من معنى العرش الذى بيناه ، وهو الذى يزيدنا معرفة برينا ويحكمه فى خلقه ، وهو الذى يتفق مع نظريات علم التكوين ^(٨) وعلم الحياة ، وعلم الهيئة الفلكية ، وما ثبت من التجارب فيها ، وبهذا يعد من عجائب القرآن التى تظهر فى كل زمان ومكان ^(٩) .

ثم قال السيد رشيد رضا :

فأصل السديم المشار إليه بقوله تعالى : ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (فصلت : ١١) .

وأصل خلق الأحياء النباتية والحيوانية من الماء لا يزال ثابتاً عند جميع العلماء . وقد عبر به عن مادة التكوين ، التى هى مادة خراب العالم ، التى ترجع به هذه الأجرام إلى مادتها الأصلية بقوله تعالى : فَأَرْقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . (الدخان : ١٠) . وعبر عنه كذلك : بالغمام فى قوله : وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزُلِ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا . (الفرقان : ٢٥) . وقوله : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ . (البقرة : ٢١٠) .

والغمام فى اللغة : السحاب الرقيق ، فالدخان والغمام والبخار والسديم كلها مظاهر لهذه المادة اللطيفة (الماء) .

والسديم فى اللغة : الغمام والضباب ، واختاره علماء الفلك على الدخان وغيره ولا مشاحة فى الاصطلاح ^(١٠) .

وجاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما يأتى :

وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ . لقد أخبرنا الله تعالى : أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام فى سورة يونس ، والجديد هنا فى خلق السماوات والأرض هو الجملة

المعترضة: وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ. وما تغيد من أنه عند خلق السماوات والأرض أى: إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه، كان هناك الماء وكان عرش الله سبحانه على الماء. أما كيف كان هذا الماء، وأين كان، وفى أية حالة من حالاته كان، وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء؟؟ فزيادات لم يتعرض لها النص وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص، فى هذا الغيب الذى ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفى حدوده. وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات التى تسمى: (العلمية) حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق؛ فالنظريات العلمية قابلة دائماً للإنقلاب رأساً على عقب ...

إن القرآن هو الأصل، والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء؛ أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشرى يعمل فيها بكامل حريته، ويصل إلى النتائج التى يصل إليها بتجاربه، ووكّل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة^(١).

يَتَّبِعُونَكُمْ أَنكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْكَوْنَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَأَتَمَّ إِعْمَارَهُ وَتَجْهِيْزَهُ لِلإِنْسَانِ، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله لِيَتَّبِعُونَكُمْ أَنكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. والسياق يظهر أن خلق السماوات والأرض، وإحكام نظام هذا الكون مع سيطرة الله تعالى على مقاليدِه؛ كان من أجل الإنسان واختباره، وقد أمد الله الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار، والاستعداد للاستقامة والانحراف؛ ليجزى كل عامل بما عمل، إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَّبِعُوهُمْ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. (الكهف: ٧).

لقد خلق الله الكون وأمده بمقامات الحياة، وسيطر بقدرته على هذا الملك العظيم، ثم خلق الإنسان ووهبه العقل والتفكير والاختيار، والقدرة على عمل الخير والشر، ثم أعد حياة أخرى للحساب والجزاء، ومثوبة الطائع ومعاقبة العاصي، ولكن الكافرين ينكرون البعث والحشر !!!

وَلَيْنَ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مُّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الْآلِيَيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

أى: ولكن أخبرت هؤلاء المشركين: أن الله سيبعثهم بعد مماتهم للحساب والجزاء ليجيبك الذين كفروا ببقاء الله قائنين: ما هذا القول إلا سحر بين ظاهر، تسحر به العقول، وتسحر به الضمائر والقلوب؛ لمتنعنا عن لذات الدنيا وتصرفنا عن متعنا إلى دعوتك، وقد أُلّف الناس إطلاق السحر على كل أمر بديع غريب فائق، ومن ذلك قول فرعون ومكّيه لموسى: يَأْتِيكَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا وَنَكْبَ بِمَا عِندَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ. (الزخرف: ٤٩). وفى الحديث: «إن من البيان لسحراً» وكأن الكفار أحسوا بما فى القرآن من الروعة والجلال والمقدرة

الفائقة، والسيطرة على النفوس، والأخذ بزمام الأفتدة، فادعوا أنه: سحر يؤثر ونسبوه إلى المردة والشياطين: لأنه فوق طاقة البشر، ولو أنصفوا لقالوا: إنه وحى السماء وكلام الله رب العالمين.

من بدع التفاسير:

قال النسفي: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ من الأحد إلى الجمعة: تعليمًا للثاني وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ أى: فوقه، يعنى: ما كان تحته قبل خلق السماوات والأرض إلا الماء، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل خلق السماوات والأرض. قيل: بدأه بخلق ياقوته خضراء فنظر إليها بالهبة: فصارت ماء، ثم خلق ريحاً فأقر الماء على متنه، ثم وضع عرشه على الماء، وفى وقوف العرش على الماء أعظم اعتبار لأهل الأنكار^(١٧).

ونلاحظ أن كثيراً مما يتعلق بأخبار بدء الخليقة، قد نقله المفسرون عن الإسرائيليات، وهى أخبار نقلت عن بنى إسرائيل، وقد أمرنا نبينا قائلًا: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا، وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد»^(١٨).

أقسام الإسرائيليات:

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول: ما يعلم صحته لموافقته للقرآن أو السنة الصحيحة، مثل: تعيين صاحب موسى بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحاً فى حديث البخارى^(١٩) وهذا القسم صحيح ومقبول.

القسم الثانى: ما يعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو يكون مخالفاً لما يقرره العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

القسم الثالث: هو السكوت عنه فلا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثانى، وهذا القسم نتوقف فيه فلا تصدقه ولا تكذبه^(٢٠).

وغالب هذا القسم الثالث مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى، ولهذا يختلف أهل الكتاب فيه كثيراً، ويختلف المفسرون عادة بسبب ذلك كما يذكر فى مثل أسماء أصحاب أهل الكهف، ولون كليهم، وأسماء الطيور التى أحياها إبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، حيث لا فائدة منه تعود على المكلفين فى دنياهم أو دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم جائز، كما قال تعالى: سَيَقُولُونَ نَلْفُكَ وَابِعُهُمْ كَلْبُهُم... إلى آخر الآية (الكهف: ٢٢).

ويقول أحمد شاكر: إن إباحة التحدث عنهم شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن شيء آخر؛ إذ أنه يوهم البيان والتفصيل لكتاب الله، وحاشا لله ولكتابه من ذلك (١٧).

★ ★ ★

﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَيْكَ أُمَّةً مَعْدُودَةً لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْتُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذَقْتُهُ نَعَمًا بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّةٍ لَّيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

المفردات :

أُمَّة معبودة : أى : إلى جماعة من الأوقات مقدرة ، وتطلق الأمة على : الجماعة من جنس واحد ، وقد تطلق على الدّين والملة . قال تعالى : إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ (الزخرف : ٢٢) .
وقد تطلق على الزمن كما فى قوله تعالى : وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ (يوسف : ٤٥) ، وهى فى الآية التى معنا ، بمعنى الحين والزمان والمدة .

لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ : أى : ليقولن : استهزاء : ما يمنع ؟

أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ : أى : إنه لو وقع بهم فلن يدفع عنهم .

وَحَاقَ بِهِمْ : وأحاط بهم ، وضع الماضى موضع المستقبل : تحقيقاً ومبالغة فى التهديد ، يقال : حاق به يحيق حيقاً وحيوقاً ، وأحاق يحيق به .

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ : المراد بالإذاقة هنا : الإعطاء القليل ، والمراد بالإنسان هنا : الكافر ، أو مطلق الإنسان .

رَحْمَةً : غنى وصحة .

نَزَعْنَاهَا مِنْهُ : سلّناها منه .

لَيْسَ مَصْرُوفًا : شديد اليأس من عودة النعمة ، قنوط من رحمة الله .

كَبِيرٌ : شديد الكفر ، مبالغ فى كفران النعمة .

نعماء، هي النعمة ويراد بها: الخير، والمنفعة، والصحة، والغنى ويقابلها (الضراء) وهي الألم من فقر وشدة.

السينات : المصائب .

لفرح : يعتريه البطر والغرور بالنعمة .

فخور : متعالم على الناس بسبب النعم .

صبروا : على الضراء : إيماناً بالله تعالى ، واستسلاماً لقضائه .

التفسير:

٨ - وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ ... الآية .

كانت الرسل تبشر الناس برضوان الله تعالى إن أطاعوه ، وتحذروهم من عذاب الاستئصال في الدنيا لكن هذا الإنسان من طبيعته الجحود والكنود !

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلنا وكرمنا - عن هؤلاء المشركين العذاب إلى حين من الزمان ، على وفق سنتنا وحكمتنا . لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ . (الرد : ٣٨) ؛ لَيَقُولُنَّ على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب: مَا يَحْسِبُهُ . أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد ﷺ محبوباً عنا ؟ وغير نازل بنا ؛ فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأنه إذا جاء الوقت الذى عينه الله تعالى لنزول ذلك العذاب ؛ لم يصرفه عنهم صارف .

أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : ألا إن ذلك العذاب ، يوم ينزل بهم لن يدفعه عنهم دافع ؛ بل سيحيط بهم فى كل جانب بسبب استهزائهم وإعراضهم عن حذرهم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ عَذَابَ ذَٰلِكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ . (الطور : ٧ ، ٨)

وقد افتتحت جملة : أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ بأداة الاستفتاح ألا للاهتمام بمضمون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروح فى قلوبهم .

٩ - وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ سَافِرٌ .

يذكر الحق سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان البشرية ، وهى الأنس بالنعمة والسكون إليها ، والجزع والضيق إذا سلبت عنه هذه النعمة ، وهذه الآية قريبة من قوله تعالى :

وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَبِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ .

(العصر: ١ - ٣)

وقد ذكر العلماء: أن المراد بالإنسان هنا: الإنسان الكافر، وقيل: أى إنسان، فيشمل المسلم والكافر، وقيل: المراد به: إنسان معين هو: الوليد بن المغيرة، وقيل: عبد الله بن أمية المخزومي .

وجملة: مَبْنًى رَحْمَةً . أى: نعمة من توفير الرزق والصحة والسلامة فى المحن، وسعة العيش والرخاء ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ . أى: سلبناه إياها، وأخذناها قهراً عليه .

إِنَّهُ لَكَيْتُسٌ . أى: آيس من الرحمة، شديد القنوط من عودها وأمثالها: لقلة صبره وعدم ثقته بالله .

كُفُورٌ . عظيم الكفران لما سلف له من التقلب فى نعمة الله، كأنه لم ير خيراً .

قال الشوكاني :

وفى التعبير بالذوق فى أَذْقَنَّا ما يدل على أنه يكون منه ذلك، عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه، لأن الإذاقة والذوق أقل ما يوجد به الطعم .

١٠ - وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ .

تصف الآية أيضاً طبيعة الإنسان البشرية؛ حيث قال سبحانه فى سورة المعارج: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . (المعارج: ١٩ - ٢١) .

والنعماء: إنعام يظهر أثره على صاحبه، والضراء: ظهور أثر الأضرار على من أصيب به .

والمعنى: أنه إن أذاق الله سبحانه العبد نعماء من الصحة والسلامة والغنى، بعد أن كان فى ضرر من فقر أو خوف أو مرض، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر^(١٧) لله سبحانه .

قال صديق خان فى فتح القدير :

لَيَقُولُنَّ . أى: بل يقول: ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي . أى: المصائب التى ساءت من الضرر والفقر والخوف والمرض عنه، وزال أثرها، غير شاكر لله، ولا مثن عليه بنعمه .

إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . أَيْ : كثير الفرح بطراً وأشراً ، كثير الفخر على الناس بتعدد المناقب والتطاول عليهم ؛ بما يتفضل الله به عليه من النعم . والفرح لذة تحصل في القلب ؛ بنيل المراد والمشتهى . وفي التعبير عن ملابسة الضربه بالمس ، مناسبة للتعبير في جانب النعماء بالإذاقة ، فإن كليهما لأدنى ما يطلق عليه اسم الملاقة ^(١٨) .

لقد جاء الإسلام عقيدة وشريعة ، ومن مبادئ الإسلام : الإيمان بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره ، واليقين الجازم بأن ما نزل بالمؤمن من مصائب أو ألم ؛ هي في ميزان حسناته ، تكفر خطاياهم وترفع درجاته ؛ فلا ينبغي للإنسان أن ييأس إذا نزل به الفقر أو الضرر .

ولا ينبغي له أن يفرح ويتعاطم إذا جاءت له النعمة ؛ بل عليه أن يصبر في البأساء ، وأن يشكر الله على النعماء ، وأن ينسب النعمة إلى صاحبها . قال تعالى : وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَبِمَنْ أَلَّه . (النحل : ٥٣) .

١١ - إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

أَيْ : لكن المؤمنين الصابرين على الضراء ؛ إيماناً بالله ، واستسلاماً لقضائه ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ في الرخاء والشدة ؛ شكرًا لآلائه ، سابقها ولاحقها ؛ أُولَئِكَ . أَيْ : هؤلاء المتصفون بالصبر ، وعمل الصالحات ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وثواب عظيم ؛ جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .
من تفسير القاسمي :

جاء في تفسير القاسمي ج ٩ ص ٩٩ ما يأتي :

تنبيه :

قال القاشاني - قُتِس سره - : ينبغي للإنسان أن يكون في الفقر والغنى ، والشدة والرخاء ، والمرض والصحة ، وإثقا بالله ، متوكلاً عليه ، لا يحتجب عنه بوجود نعمه ، ولا يسعيه وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ؛ لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأشر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينساه ؛ فينساه الله ؛ بل يرى الإيعاء والمنع منه دون غيره ، فإن آتاه رحمة من صحة أو نعمة ، شكره أولاً برؤية ذلك منه ، وشهود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح ؛ باستعمالها في مرضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستزيداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى : لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . (إبراهيم : ٧) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ، ثم إن تَزَعَّها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالمًا بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد المشفق في تربيته إياه ، بل أرفأ وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يعلمه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وأجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ القانط من رحمته ؛ بعيد منه ، لا يستوسع رحمته ؛ لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ؛ فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، ويأى سبب يسوغ له فخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ومن الله .

وقوله تعالى : **إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا** . استثناء من الإنسان أى : هذا النوع يثوس كفور ، فرح فخور ، فى الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، فى حالة الضراء والنعماء ، والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالى أيهما أمتطى . انتهى .

★ ★ ★

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَزَّلَهُ قُلُوبُنَا لَمَّا قَالُوا بُعِثْ رَسُولٌ مِّثْلِهِ مُفْتَرًى وَأَدْعُوا مَنَاسِدَ الَّذِينَ كُفَرُوا إِنَّ اللَّهَ إِذْ يُنْزِلُ كُتُبَهُ صَدَقِينَ ﴿١٣﴾ فَالَّذِينَ يَسْتَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِهِ عَلِيمٌ وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

فَلَعَلَّكَ : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يراد به النفى أو النهى أى : لا تترك .

تَارِكٌ : بعض ما يوحى إليك ، فلا تبلغهم إياه ، وهو ما يخالف رأى المشركين ؛ مخافة ردِّهم واستهزائهم .

وَضَائِقٌ : به صدرك ، وعارض لك ضيق الصدر .

أَمْ يَقُولُونَ : كراهة أن يقولوا .

لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ : أى : هلاً صاحبه كنز ينفقه ؛ لكسب الأتباع كالمملوك ، والكنز : المال الحاصل بغير كسب .

أوجاء معه ملك، يصدق كما اقترحنا .

إنما أنت نذير، ليس عليك إلا الإنذار والتخويف من العاقبة لا الإتيان بما اقترحوه .

افستبراه، اختلقه من عند نفسه .

مستبريات، مختلقات من عند أنفسكم .

وادموا من استطعتم، أي: نادوهم ليعانوكم .

تمهيد:

كان كفار مكة يقترحون على النبي ﷺ اقتراحات متعددة، مثل: تفجير الأرض بالمياه، أو زحزحة الجبال بعيداً عن مكة؛ ليكون هواؤها عليلاً بليلاً، أو أن ينزل عليه ملك من السماء، يصحبه ويدعو الناس إلى الإيمان به وتصديقه، أو أن ينزل عليه كنز من السماء ينفق منه على أتباعه؛ وقد حكى عنهم القرآن ذلك فقال: وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا (الفرقان: ٨، ٧) .

جاء في تفسير الفخر الرازي: عن ابن عباس: أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولا، وقال آخرون: اثنتا بالملائكة يشهدون بنبوتك؛ فقال: لا أقدر على ذلك فنزلت هذه الآية .

التفسير:

١٢ - فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَنزٌ ... الآية .

أي: لعلك أيها الرسول تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن تقولوا لولا أنزل عليه كنز... مخافة ردهم له وتهاونهم به، كسب ألهمهم، وأمرهم بالإيمان بالله وحده .

أي: لا يكن منك ذلك، بل تبليغهم جميع ما أنزل إليك، أحبوا ذلك أم كرهوه، ولا يضق صدرك بأقوالهم الذميمة، بل واصل دعوتك، وبلغ رسالة الحق، وفي هذا المعنى قال تعالى: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَرْحَبُكَ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (الحجر: ٩٧) .

أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَنزٌ .

أي: لا تتضايق لأجل أن يقولوا: هلا أنزل عليه كنز من عند ربه يغنيه عن التجارة والكسب، ويدل على

صدقه.

أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ . أَيْ : ينزل عليه ملك من السماء يؤيد دعوته .

وهذا التحذير من الله ؛ لا يستلزم وقوع مثله من الرسول ﷺ ؛ لأنه ثبت : أن الله عصم رسوله ﷺ من الخيانة ، أو الامتناع عن تبليغ وحى السماء .

جاء فى تفسير أبى السعود :

فكانه ﷺ لما عاين اجترأهم على اقتراح مثل هذه العظام ، غير قانعين بالبينات الباهرة ، مثل حاله بحال من يتوقع منه أن يضيق صدره ؛ بتلاوة تلك الآيات الساطعة عليهم ، وتبليغها إليهم ، فحمل على الحذر بما فى لعل من الإشفاق اهـ .

إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ .

أى : ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مهال بما يقولون ، ولا بما يقترحون ؛ ولك أسوة فى الرسل من قبلك ؛ حيث كذبوا فصبوا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . أى : والله هو الرقيب على عباده الحفيظ للأمور ، وهو سبحانه سيجازيهم الجزاء الأوفى .

١٣ - أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَفَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ .

أى : بل أيقول هؤلاء المشركون من أهل مكة : إن محمداً قد افترى هذا القرآن ، واخترعه من عند نفسه .

قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ .

أى : ردّ عليهم أيها الرسول الكريم بما يخرس ألسنتهم ، وقل لهم على سبيل التحدى : إن كان هذا الأمر كما تزعمون : من أنى افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم ، ويشر مثلكم ، وأنتم أهل اللسان والبيان ؛ والمران على المفاخرة بالفصاحة والبلاغة ، وفنون الشعر والخطابة ، فهاتوا عشر سور مختلفات من عند أنفسكم ؛ تشبه ما جئت به ، وتشتمل على مثل ما فيه من تشريع ديني ومدنى وسياسى ، وحكم ومواعظ ، وآداب ، وأنباء غيبية محكمة عن الماضى ، وأنباء غيبية على أنها ستأتى ، بمثل هذا النظم البديع ، والأساليب الراقية ، والبلاغة الحاكمة على العقول والألباب ، والفصاحة المستعذبة فى الأذواق والأسماع ، والسلطان المستعلى على الأنفس والأرواح ^(١٤) .

وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَلَاقِينَ .

أى : استعينوا فى بلوغ هذا الأمر بكل من تتوسمون فيه المعاونة - غير الله تعالى - لأنه هو سبحانه القادر على أن يأتى بمثله .

إِنْ كُنْتُمْ صَلَاقِينَ .

أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم : أنى افتريت هذا القرآن : فهاتوا - أنتم - عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم ، وجواب الشرط هنا محذوف دل عليه ما تقدم من الآية .

التحدى فى القرآن الكريم

جاء الإسلام رسالة للعرب خاصة ، وللناس عامة ؛ بيد أن كفار مكة رفضوا دعوة الإسلام ، وكذبوا رسول الله محمداً عليه الصلاة والسلام ، ووقفوا فى وجه الدعوة وحاربوها سنوات طوال ، تعرضوا فيها للقتل والهزيمة والعار ، وفى كل هذه السنوات يتحداهم القرآن ، أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بعشر سور مثله مفتريات ، أو بسورة واحدة ، وفى كل مرة يلزمهم العجز مع شدة الحاجة إلى الإتيان بمثل هذا القرآن ، حتى يفحموا محمداً ويستريحوا منه ، وهم أهل اللسان والفصاحة والبيان ، وأهل الشعر والخطب والكلام البليغ ، وقد تحداهم القرآن هنا أن يأتوا بعشر سور يخلقونها من عند أنفسهم ، مستعينين بكل أعوانهم : ليبرهنوا على أن القرآن من اختراع محمد ، ولكن العجز لزمهم ، وهم أهل البيان والفصاحة ، فصار غيرهم أعجز ؛ قال تعالى : قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

وقال سبحانه : فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَلَاقِينَ . (الطور : ٣٤) .

وهنا فى الآية ٣٤ من سورة هود تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وتارة تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورة البقرة وسورة يونس حيث قال تعالى : وَإِنْ كُنْتُمْ لِمِ رَبِّكُمْ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَلَاقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا آتَاءَ النَّارِ وَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ . (البقرة : ٢٣ ، ٢٤) .

وقال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَلَاقِينَ .

(يونس : ٢٨)

وجمهور المفسرين : على أن التحدى تدرج من جميع القرآن إلى عشر سور إلى سورة واحدة .

ولكن السيد رشيد رضا فى تفسير المنار ساق موضوعاً طويلاً عن التحدى بالقرآن ، وخرج من دراسته إلى رفض ما ذكره الجمهور ، وذكر : أن القرآن الكريم كان يواجه المشركين فى مواقف متعددة ، وحالات مختلفة ، فكان يطلب فى كل حالة ما يناسب هذا الموقف .

جاء فى تفسير المنار ما يأتى :

وإننى أجزم هنا - بعد التأمل فى جميع آيات التحدى وتاريخ نزول سورها - أنها لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخى فى مخاطبة المشركين كما زعم جمهور المفسرين ، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سورته فسورة الطور التى فيها : أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَّا يُؤْمِنُونَ ۖ فَلْيَاثِرُوا بِحَدِيثِ اللَّهِ إِنَّ كَانُوا مُصَلِّينَ . (الطور : ٢٢ ، ٢٤) .

وهو تحدُّ بجملته ، قد نزلت بعد سورة يونس التى تحداهم فيها أن يأتوا بسورة واحدة ، وسورة هود التى تحداهم أن يأتوا بعشر سور ، وسورة الإسراء نزلت قبلهن وفيها ذكر عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وذلك فى الآية ٨٨ من سورة الإسراء ، وكان آخر ما نزل فى التحدى الآية ٢٣ من سورة البقرة : إذ كان نزولها فى السنة الثانية للهجرة (٣٠) .

من تفسير التحرير والتنوير :

وَمَنْ دُونِ اللَّهِ . وصف لِمَنْ اسْتَطَعْتُمْ ، ونكتة ذكر هذا الوصف : التذكير بأنهم أنكروا أن يكون من عند الله ، فلما عمم الاستعانة بمن استطاعوا : أكد أنهم مَن دُونِ اللَّهِ . فإن عجزوا عن الإتيان بعشر سور مثله : مع تمكنهم من الاستعانة بكل من عدا الله ، تبين أن هذا القرآن من عند الله (٣١) .

ملحق بالآية

أورد تفسير المنار بياناً وإيضاحاً بما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وقد اقتبس منه تفسير المراغى للأستاذ : أحمد مصطفى المراغى ما يأتى ج ١٢ من ١٤ ، ١٥ :

ما حوته قصص القرآن

إن فى قصص القرآن لأشعة من ضياء العلم والهدى ، جاءت على لسان كهل أمى لم يكن منشئاً ولا راوية ولا حافظاً .

ويمكن أن نجمل أغراضها فيما يلي :

١ - بيان أصول الدين المشتركة بين جميع الأنبياء من الإيمان بالله وتوحيده وعلمه وحكمته وعدله ورحمته والإيمان بالبعث والجزاء .

٢ - بيان أن وظيفة الرسل تبليغ وحى الله لعباده فحسب ، ولا يملكون وراء ذلك نفعا ولا ضرا .

٣ - بيان سنن الله فى استعداد الإنسان النفسى والعقلى لكل من الإيمان والكفر والخير والشر .

٤ - بيان سنن الله فى الاجتماع وطباع البشر ، وما فى خلقه للعالم من الحكمة .

٥ - آيات الله وحججه على خلقه فى تأييد رسله .

٦ - نصائح الأنبياء ومواعظهم الخاصة بكل قوم بحسب حالهم ، كقوم نوح فى غوايتهم وغرورهم ، وقوم فرعون وملئه فى ثروتهم وعتوهم ، وقوم عاد فى قوتهم ويطشهم ، وقوم لوط فى فحشهم .

فإن أمكن أن يكون كل هذا حديثاً مفترى ، فإن مفتريه يكون أكمل منهم جميعاً ، علماً وعملاً وهداية وإصلاحاً ، فما أجدرهم أن يتبعوه ، وما أحقهم أن يهتدوا بهديه ، وإن يكشف حقيقة أمره إلا ما يستطيع أن يأتي بحديث مثله ، ولو مفترى فى صورته وموضوعه ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، ومن المعلوم أن الاحتذاء والاتباع ، أهون من الابتداء والابتداع .

ولكن افتراء الأُمى لهذه العلوم الإلهية والنفسية والتشريعية محال ، فقد عجز عن مثلها حكماء العلماء ، أفهكذا يكون الافتراء ، والحديث المفترى الذى يُنهى عنه العقلاء . وفى التحدى بهذه السور العشر ؛ توسيع على المنكرين إن حدثتهم أنفسهم أن يتصدوا لمعارضته ، لكنهم لم يستطيعوا فقامت عليهم وعلى غيرهم الحجة إلى يوم القيامة ^(١٢) .

١٤ - فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ .

لهذه الآية وجهان :

الوجه الأول :

ذهب إليه ابن جرير الطبرى وكثير من المفسرين وأساسه : أن الخطاب فيها موجه إلى المشركين . والمعنى : إذا عجزتم عن الإتيان بعشر سور مثله مفتريات ، وعجز من استعنتم بهم عن إجاباتكم وتقديم هذه السور لكم ؛ فينبغى أن تعلموا علم اليقين أن هذا القرآن إنما أنزل بعلم الله وحده ، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا أيضاً أنه سبحانه هو الإله الحق وحده ، لا شريك له ، فليس معه إله آخر ، فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة داخلون في الإسلام ، ومتبعون لما جاء به محمد ﷺ .

والمراد بالعلم : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، بصحة الإسلام ، وصدق القرآن ، وأن أحداً لا يقدر على الإتيان بمثله إلا الله .

الوجه الثاني :

أن الخطاب فيها موجه للرسول ﷺ ، والجمع فيها للتعظيم ، أو أن الخطاب فيها للرسول ﷺ وللمؤمنين معه ، وقيل : الخطاب فيها للمؤمنين وحدهم .

قال مجاهد : الخطاب لأصحاب محمد ﷺ في هذه الآية .

والمعنى : إن لم يستحب لك هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق - بعد عجزهم عن الإتيان بعشر سور مثل القرآن - فإزادوا علماً و يقيناً بصدق القرآن ، وأنه من عند الله سبحانه ، وإزادوا علماً و يقيناً بأنه لا إله إلا هو سبحانه المستحق للعبادة وحده .

فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ ، ثابتون على الإسلام ، مؤمنون به ، ملتزمون بكل أوامره ونواهيه (٣٧) ؟

★ ★ ★

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

نوف إليهم ، نوصل إليهم ، ونؤتيهم ثمار أعمالهم وأفياء تامة ؛ جزاء ما عملوا من خير كصدقة وصلة رحم .
لا يبخسون ، أى : لا ينقصون من حقهم ، يقال : بخسه حقه ، ببخسه بخساً ، أى : نقصه حقه .
وحبط ، أى : فسد ويطل ولم ينتفعوا به .

تمهيد

بعد أن أقام الحجة على حقيقة دعوة الإسلام ، وعلى أن القرآن من عند الله ، وليس بالمفتري من عند محمد ﷺ كما يدعيه المشركون ، أعقب ذلك ببيان : أن الباعث على المعارضة والتكذيب ، هو الهوى ، والشهوة ، ومحض الحسد ، وحظوظ الدنيا .

التفسير:

١٥ - مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ .

من أراد بأعماله الوجاهة والشرف ، والرفعة بين الناس - بدون إخلاص لله أو رغبة في ثواب الآخرة - فإن الله تعالى يوصل إليه جزاء عمله في الدنيا بحسب سننه الكونية ؛ فيلقى النجاح ، أو الصحة ، أو الغنى ، أو سعة الرزق ، أو كثرة الأولاد ، بحيث يلقى المكافأة على أعماله في الدنيا وحدها ، بدون نقص أى شيء من جزاء عمله .

١٦ - أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا آثَارٌ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَلَغَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

جاء في تفسير أبي السعود :

«أى : أولئك المريدون للحياة الدنيا وزينتها ، الموقفون فيها ثمرات أعمالهم من غير بخس .

الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا آثَارٌ : لأن همهم كانت مصروفة إلى الدنيا ، وأعمالهم مقصورة على تحصيلها ، وقد اجتنبوا ثمرتها ، ولم يكونوا يريدون بها شيئاً آخر ؛ فلا جرم لم يكن لهم في الآخرة إلا النار وعذابها المخلد^(٣٤) .

وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا . وفسد ما صنعوه في الدنيا من أعمال الخير ؛ لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله تعالى ، وإنما قصدوا بها الرياء ورضى الناس .

وَبَلَغَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وبطل ثواب عملهم في الآخرة ؛ لأنهم لم يريدوا وجه الله تعالى ، والعمدة في الثواب الأخرى هو الإخلاص لله عز وجل ونظير الآيتين في المعنى قوله تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ (الشورى : ٢٠) .

وقوله عن شأنه : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . (الإسراء : ١٨ ، ١٩) .

وقريب من هذا المعنى قوله سبحانه : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢) .

وقد ذهب بعض المفسرين : إلى أن المراد بالآيتين : الكفار والمنافقين ومن على شاكلتهم .

وذهب كثير من المفسرين : إلى أن هاتين الآيتين ومثالهما ، معانيها مطلقة تشمل الكافر والمؤمن ؛ وقد وردت أحاديث صحيحة تحذر من الرياء والنفاق ، وتدعو إلى إخلاص العمل لوجه الله تعالى ، فمن قصد بعمله وجه الله تعالى : لقى الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومن قصد بعمله الرياء : لقى الجزاء فى الدنيا وحدها ، ولم يجد جزاء فى الآخرة .

من هدى السنة

روى البخارى ومسلم : عن عمر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ^(٣٤) .

وفى الحديث الشريف : «إن أول من يلقي فى النار يوم القيامة عالم ، ومتصدق ، وشهيد ، يقول العالم : يا رب ، علّمت الناس أثناء الليل وأطراف النهار ؛ فيقال له : إنما علّمت ؛ ليقال عالم ، أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار ، ويقول المتصدق : يا رب ، تصدقت بالمال أثناء الليل وأطراف النهار ؛ فيقول له الله تعالى : أما إنك تصدقت ؛ ليقال كريم أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار ، ويقول الشهيد : يا رب ، قاتلت فى سبيلك حتى قُتلت ؛ فيقول له الله تعالى : أما إنك قاتلت ليقال شجاع ، أما وقد قيل ذلك ، اذهبوا به إلى النار . ثم يقول الله تعالى : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً يقصد به غيرى ؛ فليلق جزاءه من ذلك الغير» .

وهذه الآيات والأحاديث تحث على إخلاص العمل خصوصاً العبادات والقربات ، والبعد عن الرياء ؛ فالمذموم هو التظاهر بالعمل للآخرة ، بينما هو فى نيته العمل للدنيا وحدها .

«والإسلام يدعو إلى إظهار العمل للآخرة على عمل الدنيا فى النية والقصد ، فإن قصد الدنيا والآخرة معاً ، كان ذلك مقبولاً شرعاً» ^(٣٥) .

«وليس أحد يعمل حسنة إلا وُقِيَ ثوابها ؛ فإن كان مسلماً مخلصاً ؛ وقِيَ ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافراً وقِيَ ثوابها فى الدنيا» ^(٣٦) .

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيْمَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۚ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ فَلَتَأْتُهُ مَوْعِدُهُ ۚ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾

المضردات :

بينته : حجة وبيان وبرهان .

ويتلوه : ويتبع ذلك البرهان .

شاهد منه : أى : شاهد من الله وهو القرآن .

ومن قبله : أى : ومن قبل القرآن .

كتاب موسى : التوراة شاهد له أيضاً .

إماماً : كتاباً مؤتمناً به فى الدين .

أولئك : أى : من كان على بينة من ربه .

يؤمنون به : أى : بالقرآن .

من الأحزاب : من أهل مكة ومن تحزب معهم .

فلا تك فى مرية منه : أى : فى شك من القرآن .

ولكن أكثر الناس : أهل مكة وأمثالهم .

لا يؤمنون : لقلة نظرهم ، واختلال فكرهم .

التفسير :

١٧ - أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيْمَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ... الآية .

تأتى هذه الآية : لتقارن بين موقف الرسول ﷺ والمؤمنين معه ، فى يقينهم وإيمانهم بالله وبالدار الآخرة ، وبين من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها .

والمعنى : أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه ؟ تهديه إلى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله ، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ، ويؤيده فى دعوته شاهد من ربه : هو هذا القرآن المعجز لسائر البشر -

أَفَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ أَوْ أَفَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ ، كَمَنْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَجَعَلَهُ لَا يَرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ؟ كَلَّا إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَانِ .

وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً .

وكذلك يؤيده كتاب موسى عليه السلام - وهو التوراة - الذي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم ، أى : كتابًا مؤتمًا به فى الدين وقُدوة يقتدون به ، ورحمة لبنى إسرائيل من العذاب إذا آمنوا به واتبعوا تعاليمه .

أَوْ لَتَبُكُ يُؤْمِنُونَ بِهِ .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم ؛ يؤمنون بأن الإسلام هو الدين الحق ، وبأن رسوله ﷺ رسول صدق ، وبأن القرآن من عند الله تعالى وحده .

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ .

ومن يكفر بالقرآن ، وبما جاء به محمد ﷺ من هدايات ، من أهل مكة ، ومن تحزبوا على النبى ﷺ من اليهود والنصارى والوثنيين ؛ فإن نار جهنم هى المكان الذى ينتظره ، وينتظر كل متحزب ضد دعوة الإسلام .

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ .

أى : فلا تكن أبها المكلف السامع فى شك من أمر هذا القرآن ؛ فإنه حق من الله لا ريب ولا شك فيه والخطاب بقوله : فَلَا تَكُ . للنبى ﷺ والمراد : جميع المكلفين .

وفى بداية سورة السجدة يقول الله تعالى : اَلَمْ تَنْزِلْ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (السجدة : ١ ، ٢) .

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

ولكن أكثر أهل مكة وغيرهم لا يؤمنون بهذا الكتاب ؛ لأن المشركين مقلدون مستكبرون ، وأهل الكتاب حرفوا دين أنبيائهم .

قال تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

والآية كما ترى ميّزت بين من كان على الحق راغبًا فى الآخرة ، ومن كان على الباطل راغبًا فى الدنيا ، وسأقت حشودًا من الأدلة على صدق الرسول ﷺ فى دعوته ، وصحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم

بالتبّات على الحق ، وبينت أن القرآن حق ثابت من عند الله ؛ فلا يشكّن أحد بذلك ، وليبادر إلى الإيمان بما جاء به .

في أعقاب الآية

تعددت أقوال المفسرين في المراد بهذه الآية ، وقد أخذت أقوى الآراء وهي : أن المراد بقوله تعالى :
أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيمَةٍ مِّن رَّبِّهِ . هم المؤمنون بالنبى محمد ﷺ .

وقيل : هو النبى ﷺ ، وقيل : مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه ، وقيل : المراد بالبيتة :
دليل العقل ، وبالشاهد : القرآن .

وقيل : البيتة : القرآن ، والشاهد : جبريل والأول هو الأولى ^(٢٨) .

من هدى السنة

في صحيح مسلم : عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال :

«والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ^(٢٩) يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ؛ إلا دخل النار» ^(٣٠) .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
 الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ
 يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا
 مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا
 يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَجِزْمٌ أَنْتُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَرِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ
 يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المفردات :

ومن أظلم : لا أحد .

افترى على الله كذباً ، بنسبة الشريك والولد إليه ، أو زعم بأن الأصنام تشفع لعبادها عند الله ، أو زعم بأن
 الملائكة بنات الله ، أو أنكر نبوة محمد ، أو زعم أن القرآن ليس من عند الله .

يعرضون على ربهم : المراد : يحاسبهم ربهم .

الأشهاد : جمع شاهد وهم الملائكة أو الرسل يشهدون على قومهم .

لعنة الله : اللعنة واللعن : الطرد من رحمة الله .

يصدون : يمنعون ويصرفون الناس عن الإسلام .

ويبغونها : أى : يطلبونها ، يقال : بغى الشيء يبغيه بُغية طلبه .

عوَجًا : العوج : الالتواء .

هم : تأكيد للأولى .

مَعْجُزِينَ، أَيْ : مَا كَانُوا مُعْجِزِينَ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ ، وَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَهْرَبُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى .
مَنْ دُونَ اللَّهِ ، أَيْ : غَيْرِهِ .

أُولَئِكَ : أَنْصَارًا وَمُعِينِينَ يَمْتَعِنُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ .

يُضَاعِفُ لَهُمْ : بِإِضْلَالِهِمْ غَيْرَهُمْ .

مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّعْيَ ، لِلْحَقِّ .

وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ، أَيْ : يَبْصُرُونَهُ : لِفَرْطِ كَرَاهِيَتِهِمْ لَهُ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ .

خَسِرُوا : ضَاعُوا ، يُقَالُ : خَسِرَ خُسْرًا وَخُسَارًا وَخُسَارَةً ، ضِدَّ رِيحٍ .

وَضَلَّ عَنْهُمْ : وَتَاهَ عَنْهُمْ .

لَا حُجْرَ : أَيْ : حَقًّا ، وَهِيَ كَلِمَةٌ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ بِمَنْزِلَةِ لَا بَدَّ ، وَلَا مُحَالَةٍ ، فَتَحَوَّلَتْ إِلَى مَعْنَى الْقَسَمِ ، وَصَارَتْ بِمَعْنَى حَقًّا .

وَأَخْبَتُوا : أَيْ : أَلْطَأْنُوا إِلَيْهِ وَخَشَعُوا إِلَيْهِ : مَأْخُوذٌ مِنَ الْخَبْتِ وَهُوَ الْأَرْضُ الْمُطْمَنَّةُ .

مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ ، أَيْ : الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ .

كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ : فَالْكَافِرُ أَعْمَى عَنْ رُؤْيَا الْحَقِّ ، أَصَمٌّ ، أَطْرَشٌ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ .

وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ : هَذَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ .

هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا : هَلْ يَسْتَوِيَانِ تَمَثِيلًا وَحَالًا .

أَفَلَا تَنْذَكُرُونَ ، أَيْ : أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ، حَذَفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ : تَخْفِيفًا .

تَمْهِيدٌ :

بَعْدَ أَنْ تُحَدِّثَ الْقُرْآنُ عَنْ فَرِيقِي النَّاسِ وَهُمَا : الَّذِي يُرِيدُ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ، وَالَّذِي يُرِيدُ الْآخِرَةَ ، أَبَانَ حَالِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَى مَنْ كَانُوا يَنْكُرُونَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَيَقْدَحُونَ فِي مُعْجَزَاتِهِ : بِقَوْلِهِ : أَفَمَنْ كَانَ عَلَى

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ... ثُمَّ رَدَّ الْقُرْآنُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ : أَنَّ الْأَصْنَامَ شَفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، بِقَوْلِهِ : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... الْآيَاتُ .

التفسير:

١٨ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ... الآية .

أى : لا أحد أشد ظلماً ممن تعمد الكذب على الله تعالى ، بأن زعم : أن الأصنام تشفع لعبادها عنده ، أو زعم : بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده سبحانه .

أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ . أى : عرضاً خاصاً ، فالعرض على الله شامل للناس جميعاً ؛ لكن أولئك الموصوفون بافتراء الكذب ، يعرضون كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ .

أى : تقول الرسل ، أو الملائكة ، أو العلماء : هؤلاء المجرمون هم الذين كذبوا على ربهم ، ونسبوا إليه ما هو منزله عنه .

أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . هذا تعقيب من الرسل ، أو الملائكة ، أو أهل المشهد من الخلائق التي شهدت هذا العرض .

وفى مثل هذه الآية يقول الله تعالى :

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْلَمَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

جاء فى تفسير ابن كثير :

روى الإمام أحمد والشيخان عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة : «إن الله عز وجل يدنى المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنبك كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك ؛ قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وإنى أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ^(٣٧) .

١٩ - الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ... الآية .

أى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين ، الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق ، بل يحاولون صرف غيرهم عن ملة الإسلام ، ويطلبون لملة الإسلام العوج ، ويصفونها بذلك : تنفيراً للناس منها ، وهم يريدون أن يكون طريق الناس عوجاً غير معتدلة .

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . والحال أنهم كافرون بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ، وأعاد لفظ هُمْ : تأكيداً لكفرهم ، وللإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغاً لم يبلغه أحد سواهم .

٢٠ - أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ ... الآية .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب ، وحاولوا صرف الناس عن الإسلام ، وكفروا بالآخرة ، لم يكن سبحانه وتعالى عاجزاً عن إنزال العذاب بهم فى الدنيا ، بل هم تحت قهره وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدنيا قبل الآخرة ، وليس لهم من أنصار ينصرونهم من دون الله تعالى ويحجبون عنهم العذاب فهم غير قادرين على القرار من عذابه بأنفسهم ، وليس لهم أنصار قادرين على تخليصهم ، لكن حكمة الله سبقت فى إهمال الظالمين إلى يوم القيامة .

يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ . سيلقون العذاب مضاعفاً فى الآخرة : لأنهم صَمُّوا أَسْمَاعَهُمْ عن الاهتداء إلى الحق ، وأَغْمَضُوا عِيُونَهُمْ عن النظر فى أدلة الإيمان .

لقد كانت لهم أَسْمَاعٌ وأَبْصَارٌ حسية ، لكنهم لم يستخدموها استخدام الباحث عن الحقيقة : فَعَمَلُوا مَنَافِذَ الْإِيمَانِ فى أجسامهم ، وقريب من ذلك قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فى أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (الملك : ١٠) .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ يَوْمَ تَشْخَصُ لَهُمُ الْأَبْصَارُ . (إبراهيم : ٤٢) .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» .

وعلة مضاعفة العذاب ، هى إهمال الاستماع إلى الحق ، وإهمال النظر فى أدلة الإيمان ، الدالة على صدق الوحي كما قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (نصط : ٢٦) .

٢١ - أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان ، هم الذين خسروا أنفسهم حيث أوردوها المهالك ؛ بسبب تعمدهم الكذب على الله ؛ لقد كانوا أكثر الناس خسارة ؛ حيث باعوا أنفسهم للشيطان ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وذلك هو الخسران المبين .

وَظَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . غاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة ، ولم تنفعهم عقائدهم الزائفة فى الأصنام والأنداد ؛ فلم تجر عنهم شيئاً ؛ بل ضررتهم كل الضرر .

قال تعالى : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ؕ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِيقًا . (مريم : ٨١ ، ٨٢) .

٢٢ - لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ .

حقاً إنهم فى الآخرة أخسر الناس صفقة ، ولا شك أنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، واستبدلوا بنعيم الجنان ودرجاتها ، عذاب جهنم ودرجاتها ، واعتاضوا عن نعيم الجنان ، بعذاب النيران ، وعن رضوان الله ، بغضبه وعقابه .

قال تعالى : أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تَجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . (البقرة : ١٦) .

٢٣ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

الإحيات : الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب .

تأتى هذه الآية فى مقابل الظالمين لأنفسهم ، فقد اشتروا الضلالة بالهدى فكانوا فى الآخرة هم الأخسرون ، أما المؤمنون الذين آمنوا إيماناً حقاً ، وعملوا الأعمال الصالحة ، واطمأنوا إلى قضاء الله وقدره ، وخشعوا لأمر الله بقلوبهم ونفوسهم ؛ فتأبروا على الطاعات وتركوا المنكرات ؛ فلهم جنات النعيم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم خالدون فيها ، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه . (البينة : ٨) .

٢٤ - مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوُونَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

أى : صفة الفريقين المذكورين اللذين وصفا سابقاً ، وهم الكفار بالشقاء ، والمؤمنون بالسعادة ، كمثل الأعمى الأصم ، والسميع البصير ، الكافر : مثل الأعمى ؛ لتعاميه عن وجه الحق فى الدنيا والآخرة ؛ ومثل الأصم ؛ لعدم سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ؛ لقد أغلق مفاتيح قلبه ، وتركه مظلاماً لا يسمع الهدى ، ولا يبصر نور الحق حتى فاجأه الموت فرأى الخسران المبين ، ورأى جهنم تتلظى ؛ غيظاً على من عصى الله تعالى .

أما المؤمن فهو الذى يبصر آيات الله فى هذا الكون ، ويتأمل دلائل قدرة الله ، ويسمع صوت الحى ، والقرآن فى تدبر وتأمل ؛ فيخشع قلبه ويزداد حياءً لخالقه ورضى عنه ؛ فإذا جاء فى الآخرة وجد رضوان الله ونعيم الجنة ، فلا يستوى هذا وذاك صفة وحالاً ومآلاً .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وتعتبرون ؛ فيسارع الكافر إلى الإيمان قبل فوات الأوان .

من آيات القرآن

قال تعالى : لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

وقال سبحانه : وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا الْأَنُورُ * وَلَا الظُّلُ وَلَا الْخُرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (فاطر : ١٩ - ٢٢) .

وفى ختام هذا الحديث المتنوع عن أدلة الوجدانية ، وعن إعجاز القرآن الكريم ، وعن حسن عاقبة المؤمنين وعن سوء عاقبة المكذبين ؛ ساق القرآن قصصاً عن أنبياء الله ورسله ، استغرق معظم السورة ، وفى هذا القصص نماذج عملية على جهاد المرسلين ، وحسن عاقبة المؤمنين ، وهلاك الظالمين ؛ ففيه تسلية للرسول ﷺ ، وتثبيت للمؤمنين ، نجد ذلك فى قصة نوح ، ثم قصة هود ، وقصة صالح ، وقصة إبراهيم ، وقصة لوط ، وقصة شعيب ، وقصة موسى عليهم السلام .

قصة نوح عليه السلام

وردت قصة نوح فى سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة المؤمنون ، وسورة نوح ، إلا أنها وردت هنا فى سورة هود بصورة أكثر تفصيلاً .

وسورة هود نزلت بعد سورة يونس ، وسورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء ، وكان الإسراء قبل الهجرة بسنة وشهرين ؛ وذلك يوضح الفترة التى نزلت فيها سورة هود ، إنها الفترة التى مات فيها أبو طالب عم

النبي ﷺ، وماتت فيها زوجته خديجة، وقد سمي الرسول ﷺ عام وفاتها : عام الحزن : ذلك أن قريشاً لم تستطع أن تنال من رسول الله ﷺ، إلا بعد أن مات عمه أبو طالب، وكان أبو طالب هو الوحيد في قومه الذي يحميه ويدافع عنه .

كانت سورة هود ، رسالة تشد أزر الرسول ﷺ : ففى مقدمتها عرض يسير للدعوة الإسلامية : وأصناف الناس أمامها ، وتثبيت لقلب الرسول ﷺ ، ثم يأتى قصص الأنبياء حسب التسلسل التاريخى ، نوح ثم هود ، ثم صالح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، كما تحدثت عن جانب من قصة موسى عليه السلام . وجميع هؤلاء الرسل كان لهم جهاد وجلاّد ومناقشة مع أقوامهم : وتحمل لألوان من العذاب والاضطهاد وفى الخاتمة ينصر الله المؤمنين ويهلك الكافرين .

نوح عليه السلام

أرسل الله نوحاً إلى قومه فوجد أنهم يعبدون الأصنام ، وكانت فى الأصل صوراً لقوم صالحين وتمائيل لهم : أراد القوم أن يتذكروهم ويقتدوا بهم ، فلما طال العهد عبدوهم ، وتقرّبوا إليهم ، وهم : ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، وفى قصة نوح بلاء نوح مع ابنه ، ودعوته له إلى الإيمان ، وإعراض الابن عن دعوة نوح ، ومجيء الطوفان ، وغرق الابن ، ودعاء نوح لربه حتى ينجيه ، ثم توضيح الله سبحانه بأن هذا الابن لا يستحق نجاة ؛ لأنه عمل عملاً غير صالح ، ويعود نوح إلى يقينه وطمأنينته ، ويستعيذ بالله مما سبق ، ويطلب من الله المغفرة والرحمة ، ويستجيب الله دعاءه ، ويهيئ له سبل النجاة وسلامة الإقامة .

وفى هذا القصص وأمثاله عبرة وعظة ، وتصديق لما ورد منه فى التوراة والإنجيل ، وتفصيل لتاريخ الرسل وكفاحهم ، وتسجيل لجهادهم ، وتسرية لقلب الرسول ﷺ ، وتثبيت للمؤمنين ، وتبصير للكافرين .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات :

نَذِيرٌ مُبِينٌ ، بَيِّنُ الْإِنذَارِ ، أَيْبِنَ لَكُمْ مَوْجِبَاتِ الْعَذَابِ وَوَجْهَ الْخِلَاصِ ، وَجَمَعَ نَذِيرٌ : نَذَرٌ .

الْمَلَأُ ، الْأَشْرَافُ وَالزُّعَمَاءُ ؛ يَمْلَأُونَ الْعْيُونَ مَهَابَةً .

إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ، لَا فَضْلَ لَكَ عَلَيْنَا ، وَلَا مَزِيَّةَ لَكَ عَلَيْنَا تَخْصُكَ بِالنَّبُوَّةِ وَوَجُوبِ الطَّاعَةِ .

أَرَادُوا لَنَا ، أَخْصَاؤُنَا جَمَعَ أَرْدَلٌ ، وَهُوَ بِمَعْنَى : الرِّذْلُ وَالرَّذِيلُ . أَيْ : الرَّدْيُ الدُّوْنُ ، يُقَالُ : رَذُلٌ يَرْذُلُ ، وَرِذْلٌ يَرْذُلُ رِذَالَةً ، كَانَ رِذِيلًا .

بَادِيَ الرَّأْيِ ، أَيْ : ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ تَفْكِيرٍ ، مِنَ الْبَدْوِ وَهُوَ أَوَّلُ الرَّأْيِ .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ، أَيْ : زِيَادَةً تُؤْهِلُكُمْ لِلنَّبُوَّةِ وَاسْتِحْقَاقِ الْمَتَابَعَةِ .

التفسير :

٢٥- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

تبدأ هذه القصة بآيات القسم ؛ ذلك أن أهل مكة أنكروا رسالة محمد ﷺ ، فأورد القرآن هذه القصة وأمثالها ؛ لتأكيد مبدأ الرسالة ، وبيان أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل .

قال صاحب المنار :

« وعندي أن هذه القصة معطوفة على ما في أول هذه السورة ؛ من ذكر بعثة محمد رسول الله ، وخاتم النبيين ﷺ ؛ بمثل ما بُعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده » (٣٧) ١ هـ .

والمعنى : والله لقد أرسلنا نوحاً رسولا إلى قومه ، فقال لهم : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أنذركم عذاب الله ، وأدعوكم إلى عبادته وتوحيده .

٢٦- أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ .

إنى أأخذركم من عبادة الأوثان ، وأدعوكم إلى عبادة الله وحده ؛ فهو سبحانه المستحق للعبادة ؛ لأنه الإله الحق ، ولا إله سواه ، فلا تعبدوا أحداً غيره ؛ لأن هذه العبادة لغير الله ، ستؤدى بكم إلى الوقوع فى عذاب يوم أليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى ؛ بمقتضى القرابة والنسب .

٢٧- فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ... الآية .

الملا : أشرف الناس وأغنياؤهم ، وهم عادة من طبقة متميزة ناعمة ، قد اطمأننت إلى وضعها ، ورضيت بما هى فيه من غنى ووجاهة ومنزلة ، وكرهت أصحاب الدعوات والرسالات ، فالرسل دعاة حق وإخلاص ، تتضمن دعوتهم توحيد الله ، وكرامة الإنسان ، فالناس جميعا سواسية أفضلهم عند الله أتقاهم ، فهم هنا يقولون لنوح : إنك بشر مثلنا ، لست ملاكا ، فكيف تتفضل علينا بالرسالة ؟!

وَمَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَزَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ .

نظر الأغنياء والأشراف إلى أتباع نوح : فوجدوا أنهم من الفقراء والزراع والصناع والعمال ؛ فغيروا نوحاً ؛ بأن أتباعه من الأراذل والضعفاء والفقراء ، وليسوا من الأشراف والكبراء ، وهؤلاء تقتحمهم العين وتزديدهم لأول وهلة .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ .

الفضل : الزيادة فى الشرف والغنى ، وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره ، أى : وما نرى لك ولمن اتبعك علينا أى فضل تمتازون به فى جماعتكم ، كالقوة والكثرة والعلم والرأى ؛ يحملنا على اتباعكم ، والنزول عن جاهنا وامتيازنا عليكم بالجاه والمال لمساواتكم .

بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ . أى : نظنكم كاذبين فى جملتكم : المتبوع فى دعوى النبوة ، والتابعون فى تصديقه ، وشبهه بهذه الآية قوله تعالى : قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَتَتَّبِعَكَ الْأَرْدُذَلُونَ . (الشعراء : ١١١) .

ونلاحظ أن الأغنياء والوجهاء قدموا أربع حجج ؛ لرفضهم دعوة نوح عليه السلام :

١- أنه بشر مثلهم غير متميز عليهم .

٢- أنه لم يتبعه إلا الفقراء العمال والأراذل فى ظاهر الأمر ولأول وهلة .

٣- ليس لهؤلاء فضل في الطبقة والمكانة الاجتماعية ، أو قوة عصبية ، أو كثرة غالبية ، أو غير ذلك من المزايا التي ترفع الأراذل عن منزلتهم ؛ فيهيون على الأشراف مساواتهم .

٤- هم يرجحون أن نوحاً وأتباعه كاذبين .

★ ★ ★

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَعَلَىٰ غَيْبٍ مِّنْ عِندِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُ مَكُودًا وَأَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ كَذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْتَكْبِرُوا عَلَيَّ مَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّكَلَّفُوا رِيبَهُمْ وَلِكَيْفَ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا فَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَن يَضُرُّنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّيِّنٌ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

أَرَأَيْتُمْ : أى : أخبرونى .

عَلَىٰ يَمِينٍ : البينة : ما يتبين به الحق ،

فَعُصِيَتْ : أخفيت .

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا : طرده : أبعدته ونحاه .

تَجْهَلُونَ : أى : تصفون عليهم ، وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم .

تَذَكَّرُونَ : أصله : تذكرون .

تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ : يقال : زَرَى عَلَى فُلَانٍ زُرَايَةً أى : عابه واستهزأ به .

التفسير :

٢٨- قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَعَلَىٰ غَيْبٍ مِّنْ عِندِهِ فَعُصِيَتْ عَلَيْكُمْ ... الآية .

تلف نوح فى مناقشة قومه ؛ ليعالج إعراضهم ، ويقاوم صدودهم ، فذكرهم بأنه واحد منهم اصطفاه الله بالرسالة ، واختاره من بين قومه ، فأنزل عليه الوحي .

والمعنى: يا أملى ويا عشيرتى، أخبرونى: ماذا ترون، وماذا تقولون إذا كنت على بصيرة، وهداية، وحجة واضحة من ربى؟ بها يتبين الحق من الباطل.

وَأَلَنَّا رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ . وَتَفَضَّلَ عَلَى النَّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ بِإِحْسَانِهِ وَفَضَّلَهُ وَرَحِمْتَهُ .

فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمُ . فَحُجِبَتْ عَنْكُمُ أَنْوَارُ الرِّسَالَةِ ، وَخَفِيَ عَلَيْكُمُ هِدَايَةُ الْوَحْيِ ، وَعَمِيَتْ عَيْنُكُمْ عَنْ رُؤْيَا نُّورِ النَّبُوَّةِ ؛ لِجَهْلِكُمْ وَغُرُورِكُمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ ، وَاسْتِحْبَابِ الْعَمَى عَلَى الْهُدَى .

أَلَزِمْتُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ . أَيْ : أَنْكَرْهُمْ عَلَى قَبُولِ الرِّسَالَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْهُدَى ، قَسْرًا وَإِجْبَارًا ؟ وَأَنْتُمْ مَعْرُضُونَ عَنْهَا زَاهِدُونَ فِيهَا ؟ .

وهذه الآية دليل واضح على أنه لا إكراه فى الدين ، وأن الإيمان هو ما قرئ فى القلب وصدق العمل ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ . (البقرة: ٢٥٦) .

ويقول سبحانه : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (يونس: ٩٩) .

ويقول تعالى : فَلْيُكْذِرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

وتجد أن كلمة: أَلَزِمْتُكُمْوهَا قد دُمجت فيها ضمائر بعض المخاطبين مع ضمير الغائب . وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدون إليه وهم نافرون . وهكذا تصور الكلمة جو الإكراه ؛ بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق ؛ فترسم صورة كاملة للتناسق الفنى بين الألفاظ .

٢٩- وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ... الآية .

إنى أقوم برسالتى ؛ احتساباً لوجه الله ، ودعوتى خالصة من المطامع الدنيوية ؛ فأنا لا أطلب منكم مالا ولا أجرة على تبليغ الرسالة والهداية .

إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ . لَا أُنْتَظَرُ الْجَزَاءَ وَالثَّوَابَ إِلَّا مِنْ اللَّهِ ؛ فَهُوَ صَاحِبُ الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَوَّلَى وَالْآخِرَةِ .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى فى سورة الشعراء : وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الشعراء: ١٠٩) .

وقد روى عن ابن جريج : أنهم قالوا لنوح : إن أحببت أن نتبعك ؛ فاطرد هؤلاء الأراذل ؛ لذلك قال لهم : وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا . أى : لا أتخلى عنهم ولا أطردهم من مجلسى ، فلا أتخلى عمن آمن بالله ، سواء أكان من الفقراء أم من الأغنياء .

ويبدو أن الرسل قد تعرضوا لهذا العرض فى تاريخهم الطويل ، وهو تطلع الأغنياء إلى أن تكون لهم مجالس خاصة بهم لا يشترك فيها الفقراء ، ومثل هذا العرض قَدَّمه أهل مكة للنبي محمد ﷺ ، وقد أجاب عنه القرآن فى سورة الكهف ، حيث قال تعالى : وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعُشَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . (الكهف : ٢٨) .

إِنَّهُمْ مُلْكُوهَا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

إن هؤلاء الفقراء الذين دخلوا فى الإيمان ، صابرون إلى ربهم ، وهو سائلهم عن أعمالهم ، وإن يسألهم عن أحسابهم ؛ فكيف يكون موقفى أمام الله يوم القيامة إذا طردت هؤلاء المؤمنين من مجلسى ، عندما يقف المؤمنون أمام الله ؛ وهو المالك العادل الذى ينصف المظلوم من الظالم ، ويقضى بين الناس بالعدل يوم القيامة ؟!!

وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . أى : تجهلون القيم الحقيقية للناس عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعاً إلى الله وحده للحساب . قال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وفى الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »^(٣٣) .

٣٠- وَيَقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

وهنا يوجه نوح نداء ثالثاً إلى قومه لعلهم يثوبون إلى رشدهم ؛ فيناجيههم بهذه الآية ، أى : افترضوا لى قوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمنى ويجبرنى من عذاب الله ؟ لأن ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ؛ إذ أكرم الناس عنده هو أتقاهم ، وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عند الله سبحانه منكم ، فكيف أطردهم وهناك إله عادل ينتقم لهم يوم القيامة ؟ .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَيْ : أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ فِيمَا تَقُولُونَ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْخَطَا ، فَتَنْتَهَوُا عَنْهُ ؟

وفى معنى هذه الآية وجه الحق سبحانه الخطاب إلى النبي محمد ﷺ بنهاه عن طرد الدعاة من مجلسه ، حيث قال سبحانه : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنعام : ٥٢) .

٣١- وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ... الآية .

هنا تظهر طبيعة الرسالة ، يوضحها ويبينها هذا الرسول المكافح المجاهد ؛ فهو من أولى العزم من الرسل ، كان قوم نوح يرون أن الرسول ينبغي أن يتميز على قومه بالمال ينفق منه على أتباعه ، أو بمعرفة الغيب ؛ ليؤكد سلطته بالله ، أو بكونه ملكاً من جنس الملائكة ؛ لكن حكمة الله تعالى أرادت أن يكون الرسل بشراً ، من جنس أقوامهم ، يتمتعون بالصفاء والنقاء ، وقوة اليقين وسلامة الباطن وحسن التلقى ، وحسن التآنى للأمر ؛ فهو إنسان متميز يصلح للاصطفاء والاختيار ، وتبليغ الرسالة ومناقشة المعترضين .

إنه قائد بين قومه ، ورسول فى مسيرة التوجيه والتعليم والبناء ، وقد كان الرسل هامات فارعة ، وقيادات مرموقة فى مسيرة الإصلاح والتوجيه ، وهم منارات مضيئة تلقى وحى السماء ، وترجم هذا التوجيه إلى سلوك عملى بين البشر .

من أجل هذا ؛ كان الرسل بشراً يوحى إليهم ، فلا يتميزون بالقدرة على الخوارق ، أو تملك كنوز المال ، أو معرفة الغيب . وهنا يشرح نوح ذلك فيقول :

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ . فلا أملك خزائن الرزق التى يحتاج إليها عباد الله للإنفاق منها ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى ، وعلى من تبعنى ؛ بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء .

وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ . لا أعرف الغيوب التى اختص الله سبحانه وتعالى بمعرفتها .

وقريب من ذلك ما أمر الله به محمدًا ﷺ ، حيث قال : قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الأعراف : ١٨٨) .

وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ؛ بل أنا بشر مثلكم آكل كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، وأمراض كما تمرضون ،

وتعتريني عوارض البشر مثل: الحزن والمصائب ، والنصر والخير والنجاح ؛ وبهذا أشكر الله على النعماء ، وأصبر على البأساء ، وأرضى بأسباب القضاء ، وأكون قدوة عملية للناس .

فالبشرية من مقتضيات النبوة ، وليست مانعاً منها قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ . (الأنعام: ٩) .

وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ...

لقد أخبرهم صادقاً : بأنه لا يملك خزائن رزق الله ، ولا يعلم الغيب ، وليس ملاكاً كاذباً بل هو بشر .
ويستمر فيصحح مفهوميهم بالنسبة للمؤمنين الفقراء ؛ فهم يرون أنهم أراذل الناس من العمال والصناع الذين تحتقرهم العين لأول وهلة ، ونوح يرى أن هؤلاء الفقراء الضعفاء ، قد طهروا أنفسهم بالإيمان ؛ فهم أهل لعناية الله وخيره ؛ قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . (الشمس: ٧-١٠) .

إن عدالة الله تأبى أن يظلم مؤمناً عمل صالحاً ؛ بل يكافئ المؤمن بالجزاء العادل والثواب الأوفى ؛ قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف: ٣٠) .

اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

الله أعلم بما في أنفسهم من صدق أو كذب ، ومن إيمان وإخلاص ، أو كفر ورياء ؛ فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، وسيكافئهم بحسب ما في قلوبهم .

إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ . إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما في نفوسهم فأكون ظالماً لهم بهضم حقوقهم .

﴿ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

المضردات :

قد جدلنا : أصل الجدال : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجذالة وهي الأرض الصلبة ، ثم استعمل في المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب .

ولا ينفعكم نصحي ، والنصح : تحرى الخير والصلاح للمنصوح له ، والإخلاص فيه قولاً وعملاً .

أن يغويكم ، والإغواء : الإيقاع في الغي ، وهو الفساد الحسى والمعنوى .

التفسير :

٢٢- قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا ... الآية .

من عادة الطغاة إذا أحنطتهم الحجة ، وظهر الحق أمامهم تعللوا بعلل واهية ، وهم هنا يصفون نوحاً بكثرة الجدل الذى يغلبهم به ، ويسد فى وجوههم كل طريق ؛ حتى لا يهربوا من هداية السماء .

فَأُنَبِّئُكَ بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

وزيادة فى التهكم بالوحى والرسول والرسالة : قالوا لنوح : أنزل علينا العذاب إن كنت صادقاً بأنك رسول ،

وفى سورة نوح - يقول نوح : قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . (نوح : ٥ ، ٦) .

٢٣- قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ .

قال نوح لقومه : إن نزول العذاب عليكم مرتبط بأمر الله ومشيئته : فأنا بشر مثلكم ، أما قدرة الله

وإرادة الله فلا راد لهما ، وأنتم لا تستطيعون الهرب من قدرته ، ولا تغالبون إرادته : فهو سبحانه فعال لما يريد : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

٣٤- وَلَا يَفْعَلُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لقد اجتهد نوح في نصح قومه ليلاً ونهاراً ، ولم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ، وهنا يقول لهم : إذا حاولت تكرار النصح وزيادته ، ثم أمعنتم في الإعراض عن دعوة الله ؛ فإن نصيحتي لن تفيدكم مهما أردت نصحكم ، ما دامت إرادة الله قد سبقت لكم بالضلالة والعمى ؛ فإن من حكمة الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات ، فمن أعرض عن دعوة الله وأصم أذنه عن الهدى ؛ سلب الله عنه البصيرة النافذة ، والهداية النافعة ؛ فبقى يتخبط في الضلال .

جاء في تفسير المراغي :

والخلاصة : أن معنى إرادة الله إغواءهم : اقتضاء سننه فيهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداءً من غير عمل منكم ، ولا كسب لأسبابها ؛ فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها والنتائج متوقفة على مقدماتها .

هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . أى : هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطردة في الدنيا ، وإليه ترجعون في الآخرة : ليجازيكم بما تستحقون من خير أو شر .

★ ★ ★

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٥)

المفردات :

أم يقولون افتراء : بل أيقول كفار مكة : اختلق محمد القرآن .

فعلى إجرامى : أى : عقوبة ذنبى ووباله .

وأنا بَرِيءٌ مما يشكرون ، أى : من إجرامكم في نسبة الافتراء إلى .

التفسير :

٣٥- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ ... الآية .

تأتى هذه الآية في ثنايا قصة نوح ، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنها حكاية عما حدث لنوح من قومه ، والأرجح أنها التفات من القرآن الكريم فى أثناء قصة نوح إلى الحديث عن المشركين من أهل مكة ، وقد توجه فيها الخطاب إلى النبي ﷺ .

ومعنى الآية : بل أيقول بعض المشركين من كفار مكة : إن محمداً قد افترى هذا القرآن ، واختلقه من عند نفسه .

فرد الله معلماً نبيه أن يقول لهم : قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ .

أى : ان اختلقت هذا القرآن من عند نفسى : فذلك إجمام عظيم ، وعلى وحدى تقع عقوبة إجمامى ، وافترائى الكذب ، وأنا برىء من إجمامكم وأنا مكم ، وستلقون جزاءه عند ريكم : فكل إنسان مسئول عن ذنبه ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتم بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . (يونس : ٤٩) .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْحِ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣١) وَأَصْنَعِ الْفُلَکَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٢﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَکَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٣﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٤﴾

المضردات :

ابْتِئَاسٌ : اشتد بأسه وحزنه ، فلا تبتئس : أى : فلا تحزن ، مشتق من البأس وهو الشدة ، يقال : ابتأس بئاساً بؤساً : اشتدت حاجته فهو بئاس ، وانظر المصحف المفسر للأستاذ ، محمد فريد وجدى ص ٢٨٩ .

الْفُلَکَ : السفينة ويطلق على الواحد والجمع .

بِأَعْيُنِنَا : أى : تحت رعايتنا وحفظنا وحراستنا .

وَوَحِّينَا : وبارشاد وحيناً إليك كيف تصنعها .

سَخِرُوا مِنْهُ : استهزؤا به : لعمله السفينة .

يُخْزِيهِ : يذله ويفضحه .

مُقِيمٌ : دائم ، وهو عذاب النار .

٣٦- وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ... الآية .

بعد أن لجّ قوم نوح في طغيانهم ، وصمّوا أذانهم عن سماع دعوته ، واستعجلوا عذاب السماء ؛ سلب الله عنهم هدايته وتوفيقه ، وأخبر الله نوحاً : أنه لن يؤمن أحد من قومك بدعوته ، إلا من قد آمن سابقاً . وهو هنا يهيئه لذلك الأمر ، فليكشف دعوته عنهم ، ولا يحزن بإعراضهم وسخريتهم .

فَلَا تَتَّبِعِ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . فلا تحزن عليهم ، ولا يهتمك أمرهم - وكان نوح عليه السلام قد دعا على قومه فقال : رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْسُدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

فاستجاب الله دعاء نوح ، وأغرق الكافرين من قومه بالطوفان : وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (هود : ٤٤) .

٣٧- وَأَصْنَعُ الْفُلَ لِكَافِرِينَ وَوَحْيًا وَلَا تَخْلُطَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ .

أمره الله سبحانه وتعالى أن يصنع سفينة عظيمة ، تكفي لحمله وحمل من معه من المؤمنين ، وحمل وسائل إعمار الحياة بعد ذلك : فَلَمَّا أَحْمِلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . (هود : ٤٠) .

وأخبره الله : أنه محروس ومراقب بعين الله وحفظه ؛ فلا يصل إليه سوء من أذى قومه ، وسيعلمه الوحي كيف يصنع السفينة فلا يعرض له خطأ في صنعه .

وقد استعمل القرآن تعبير الأعين ؛ لكمال الرعاية والعناية في قوله تعالى لموسى : وَاصْنَعْ عَلَيَّ غَیۡثًا . وقوله لمحمد ﷺ : وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . (الطور : ٤٨) .

وَلَا تَخْلُطَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ .

ولا تراجعي في صرف العذاب عنهم وطلب الرحمة لهم ، فقد صدر قضائي بإغراقهم ، ولا راد لقضائي .

والخلاصة : لا تأخذك بهم رأفة ولا شفقة .

٣٨- وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْ عَلَى مَرٍّ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ... الآية .

امتثل نوح أمر ربه وشرع يصنع السفينة : فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها : استهزءوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له : كيف تصنع سفينة في وسط الصحراء ، وهي لا تسير على اليابسة ، وليس بجوارنا بحر لهذه السفينة ؟! وربما مَرَّ عليه آخرون فقالوا : يا نوح ، صرت نجاراً بعد أن كنت نبياً ! .

قَالَ إِنْ تَسْخَرُونَ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ .

قال نوح لهم : إن تسخروا منا اليوم : لجهلكم بفائدة ما نصنعه ، فإننا سنسخر منكم غداً : إذا جاء الطوفان وعمكم الغرق ، أو إن حكمتم علينا بالجهل ، فإننا نحكم عليكم بالجهل ، فيما أنتم فيه من الكفر ، والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .

٣٩- فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

أى : إن كنتم لا تعلمون فائدة ما أعمله اليوم : فسوف تعلمون غداً من الذى سينزل به عذاب يهينه فى الدنيا وهو عذاب الغرق .

وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . أى : مستمر دائم أبداً ، وهو عذاب الآخرة .

وهكذا تستمر حلقات قصة نوح عليه السلام ، وتبين جهاد هذا النبى الكريم خلال ٩٥٠ عاماً : لقى فيها من قومه الجحود والسخرية والعناد : حتى أنزل الله العقوبة بقومه الكافرين ، ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
 إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَاءٌ آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا
 بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ
 وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرَكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾
 قَالَ سَتَأْتِى إِلَىٰ جِبَلٍ يَّصْعَقُنِى مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ
 رَّحِمَ ۖ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ وَقِيلَ يَتَا رُضْ أَبْلِغِ مَاءَكَ
 وَاسْمَاءَ أَقْلَبِ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَالْجُودَىٰ وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ
 الظِّلْمِينَ ﴿٤٤﴾ ۞

المفردات :

جاء أمرنا ، بإهلاكهم .

وفار التنور ، أى : نبع الماء وتدفق ، من التنور الذى يخبز فيه الخبز ، اتفقت فيه لغة العرب والعجم ،
 ويُعبر عنه اليوم بالفرن . وقيل : التنور : وجه الأرض .

وأهلك ، أهل بيت الرجل : نسأه ، وأولاده ، وأزواجه .

إلا من سبق عليه القول ، أى : منهم بالإهلاك ، والإغراق ، وهو ولده كنعان ، وزوجة نوح عليه السلام ، وأخذ معه
 سام ، وحام ، ويافث ، وزوجاتهم الثلاثة .

إلا قليل ، قيل : كانوا ثمانين ، نصفهم رجال ، ونصفهم نساء .

مجريها ومرسأها ، أى : باسم الله رقت جريها ، ووقت إرسائها ، أو باسم الله مكان جريها وإرسائها .

معزل ، مكان عزلة وانفراد .

أوى ، ألبأ .

يعصمنى ، يحمينى ويحفظنى .

أبلى ، أبلع : ازدراء الطعام والشراب بسرعة .

وغيض الماء ، غاض الماء يغيض : نقص وتسرب تحت الأرض .

واستوت على الجودي : استوت على جبل الجودي بالموصل .

التفسير :

٤- حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَئَلَّمْنَا آخِمْ لِيُفِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ ... الآية .

أى : حتى إذا حان وقت أمرنا بالهلاك للكافرين ! تتابع المطر من السماء ، ونبع من وجه الأرض ، أو من موقد الخبز ، وكان ذلك علامة للمؤمنين على بدء الطوفان .

قال تعالى فى سورة القمر : فَدَعَا رَبُّهُ إِلَى مَقْلُوبٍ فَأَنْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَذُوسٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . (القمر: ١٠-١٤) .

كان بدء الطوفان بقدرة الله ، مظهرًا من مظاهر عظمته وقدرته ؛ فقد طفح الكيل وبلغ السيل الزبى .

جاء فى المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدى :

نقول : فَارَ التَّنُّورُ . معناه الحرفى : نبع التنور ، قال المفسرون : ومعناه : أنه نبع الماء من التنور ؛ إعجازًا . وأنا أرى أن فَارَ التَّنُّورُ . من الكنايات الكثير أمثالها فى لغتنا ، مثل : طَفَحَ الكيل ، وَطَفَّ الصَّوْع ، وحصى الوطيس ، وفاض الإناء ؛ وكلها تدل على بلوغ الأمر غاية شدته وقرب انفجاره^(١٤) .

وعن ابن عباس : التنور وجه الأرض . أى : صارت الأرض عيونًا ؛ حتى فار الماء من التناوير التى هى مكان النار صارت تفور ماءً .

فَلَمَّا آخِمْ لِيُفِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ .

أى : قلنا لنوح : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوانات زوجين اثنين ، ذكرًا وأنثى ؛ للحفاظ على أصل النوع الحيوانى .

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ . أى : واحمل فيها أهل بيتك ذكرًا وأنثى .

إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ . بأنهم من المغرقيين بسبب ظلمهم ، وهم : زوجة نوح ، وابنها منه : يام ، أو كنعان ؛ وخذ معك كل من آمن من الرجال والنساء .

وَمَا أَمْنٌ مَّعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . ولم يؤمن بنوح إلا عدد قليل من الرجال والنساء ، رغم طول المدة التي مكثها فيهم ، فقد مكث يدعوهم إلى الإيمان تسعمائة وخمسين عاما ؛ وشاء الله ألا تفتتح قلوب أكثرهم لدعوة الإيمان؛ فأمن به عدد قليل ، قيل : كانوا ستة أو ثمانية رجال ونساؤهم .

وقال ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً ، منهم نساؤهم . ولم ير الحق سبحانه وتعالى حاجة لبيان العدد ، لقلتهم التي لا تستحق الذكر ، ولم يبين أنواع الحيوانات المحمولة ، ولا كيفية حملها فذلك متروك للبشر .

٤١- وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

يخبر الله تعالى عن نوح عليه السلام : أنه قال لمن آمن به ، ولمن أمر بحملهم معه في السفينة : ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا . أى : باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، لا بحولنا ولا بقوتنا ، وقال سبحانه فى ٥٠ : وَرَضِعْ أَرْضًا : فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّسَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ انْزِلْ مَنَازِلَ مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . (المؤمنون: ٢٨ ، ٢٩) .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور ، عند ركوب الدابة أو عند ركوب السفينة ، أو عند ركوب القطار ، أو السيارة ، أو الطائرة ، ثم يقول المسلم : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . (الزخرف: ١٣ ، ١٤) ، وبهذا يظل المسلم على ذكر الله ومعرفة بفضل الله .

إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

إن رى واسع المغفرة ، حيث نجَّانا من الهلاك ومن مواطن الزلل ، وهو سبحانه واسع الرحمة . قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . (الأعراف: ١٥٦) .

أخرج الطبرانى وغيره : عن الحسين بن على أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أمان لأمتي من الغرق ، إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن الرحيم . بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (٣٥) .

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

«قيل : كان نوح عليه السلام إذا أراد أن يجريها يقول : بِسْمِ اللَّهِ ، فتجربى ، وإذا أراد أن يرسبها يقول :

بِسْمِ اللَّهِ ؛ فترسو» (٣٦) .

٤٢- وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ... الآية .

أى : فركبوا قائلين : بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا . وهى تجرى بهم ، وهم فيها فى موج شديد الارتفاع ؛ يشبه الجبل فى ارتفاعه وتراكمه .

وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ .

تصور هذه الآية هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح ابنه الكافر ، وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين ، وقيل : فى معزل عن الكفار ، قد انفرد عنهم ، وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ؛ ولذلك دعاه إلى السفينة ، وحملته شفقة الأبوة فقال :

يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا ، مع المؤمنين الناجين .

وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، الهالكين بالغرق .

فرد الابن العاصى ، وهو الابن الرابع واسمه : يام أو كنعان .

٤٣- قَالَ سَاوِى إِلَى جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ... الآية .

ظن الابن العاق أنه ماء عادى ، يكفى فى النجاة منه أن يتسلق جبلا عالياً ؛ يحميه من الغرق فى الماء .

قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ .

قال نوح لابنه : إنه ليس ماء عادياً ، لكنه طوفان يغلب كل شئ ، إنه عقاب من الله للكافرين ، ولا نجاة منه إلا لمن رحمه الله بالإيمان ، فسلك طريق المؤمنين ، وركب سفينة النجاة .

وَحَالِ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ .

تمثل هذه الفقرة سرعة فيضان الماء ، ونزول القضاء ؛ فالسماء تمطر ، والأرض تغور منها المياه ، ويتلاقى ماء السماء وماء الأرض ؛ ليعم الطوفان ، ويرتفع الموج كالجبال ، ويحول الموج بين أن يتم الابن العاق كلامه مع أبيه ، فيغرق مع الهالكين .

وفى معنى هذه الفقرة وردت الآيات الكريمة فى سورة القمر: **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَقِيلَ لَنَا الْأَرْضُ غُيُوتًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ . (القمر: ١١، ١٢).**

٤ - **وَقِيلَ يَتَّخِذُ الْبَلْعَى مَاءً وَيَسَّمَاءُ أَفْلَحِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .**

تمثل هذه الآية ألواناً من البلاغة والبيان وبياناً لعظمة القدرة الإلهية ، ونفوذ أمر الله ؛ « فإذا جريت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك »^(٣٧) .

ومعنى الآية : أراد الحق سبحانه أن يتم فضله ، بعد أن عم الطوفان ، وتم غرق الكافرين ، فأمر الأرض أن تمتص الماء الذى خرج منها ، وأمر السماء أن تكف عن المطر ، وغازى الماء وجف ، وذهب من على وجه الأرض ، وقضى الأمر ، حيث تمت إرادة الله فى هلاك الكافرين المكذبين ونجاة المؤمنين .

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى . واستقرت السفينة بمن فيها على جبل الجودى ، بالجزيرة شمال العراق فى الموصل.

وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . أى : هلاكاً وسحقاً وطرداً من رحمة الله ، للقوم الذين ظلموا أنفسهم ؛ باختيار الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى .

وتفيد الآية : بأن باب الله لا يخلق فى وجه داعية أخلص لله ، وأن الدعاة إلى الله تعالى يعتمدون على باب واسع ، وقدرة نافذة ، فلا يقيسوا قوتهم المادية بقوة أعدائهم ، بل عليهم أن يعملوا ما عليهم ، ثم يتركوا لله أن ينصر دينه ، وصدق الله العظيم : **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد: ٧).**

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٤٥) قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أُعْطِيتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴿

المفردات :

إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي : إن كنتان من أهلي ، وقد وعدتني بنجاتهم .

وإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ : الذي لا خلف فيه .

وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ : أعلمهم وأعدلهم .

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ : النجسين ، أو ليس من أهل دينك .

أَنْ أَسْأَلَكَ : في المستقبل .

مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ : ما لا علم لي بصحته .

أَهْبِطْ بِسَلَامٍ : انزل من السفينة بسلامة أو بتحية ، أو مُسَلِّمًا عَلَيْكَ مِنَّا .

وَبَرَكَاتٍ : أي : زيادات في رزقك ونسلك ... إلخ .

تِلْكَ : إشارة إلى قصة نوح .

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ : من بعض أخبار ما غاب عنك .

٤٥- وَأَوْدَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ .

أى : استبدت العاطفة البشرية بنوح عليه السلام ؛ فسأل ربه سؤال تسليم وكشف عن حال ولده ؛ فقال فى استعطاف ورجاء : رب ، إني ابني كنعان من أهلى ، وقد وعدتني بنجاة أهلى ، ووعدك الحق الذى لا يتخلف ، وأنت أحكم الحاكمين ، وأعدلهم بالحق .

جاء فى تفسير القاسمى :

وإنما قال نوح ذلك أى : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي ... إلخ ؛ لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل لفرط التأسف على ابنه ، عن قوله سبحانه : إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ . ولم يتحقق أن ابنه ممن سبق عليه القول^(٢٨) .

٤٦- قَالَ يَتُوحُّ إِلَهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ... الآية .

أى : قال الله تعالى : يا نوح ، إنه ليس من أهلك الناجين ، الذين وعدتك بنجاتهم ؛ لأنه عمل عملاً غير صالح ؛ فالكلام على حذف مضاف .

وقد قرأ الجمهور أنه : عَمَلٌ يَفْتَحُ الميم وتنوين اللام ؛ على أنه مصدر ؛ مبالغة فى ذمّه ، حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح ، وأصل الكلام : أنه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف ؛ للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد ؛ لمدامته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب : عَمَلٌ بوزن فرح ، بصيغة الفعل الماضى ، أى : أنه عمل عملاً غير صالح ، وهو الكفر والعصيان .

قال الفخر الرازى :

وفى هذه الآية دليل على أن العبرة بقرابة الدّين لا بقرابة النسب ، ولا علاقة للمصالح والتقوى بالوراثة والأنساب ؛ لذا نجى الله المؤمنين من قوم نوح ، وأهلك ابنه وزوجته مع الكافرين ، والصحيح : أنه كان ابنه من صلبه ، ولكن كان مخالفاً فى النية والعمل والدين .

فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .

أى : فلا تسألنى فى شئ ليس لك به علم صحيح ، وقد تضمّن دعاؤه معنى السؤال ، أو سُمّي ندأؤه : سؤالاً ، وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه : جهلاً وغباوة ، وعظه ألا يعود إليه ، وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين .

إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

إنى أنهاك أن تكون من زمرة الجاهلين : فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه : إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم ، أو أهلبيهم أو محبيهم ، ويحمل كل ما صدر من نوح وغيره من خطإ الاجتهاد: على ترك الأفضل والأكمل ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، وبناء عليه : حصل العتاب والأمر بالاستغفار^(٣٨) .

٤٧- قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

أى : قال نوح عليه السلام - ملتصقاً الصفح من ربه - رب ، إنى ألتجئ إليك وأستعيز بك ، وبجلاك أن أسألك ما ليس لى به علم صحيح ، وإن لم تغفر لى ذنب سؤالى هذا ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شيء : أكن من الخاسرين أعمالاً .

٤٨- قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : قال الله تعالى ، أو قالت الملائكة لنوح بعد انتهاء الطوفان ، ورسو السفينة على الجودى ، وخوف الجميع من المستقبل ، وكيفية الحصول على المعاش بعد هذا الغرق فطمأنه الله بقوله : أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا . أى : أمان لك ولذريتك من المؤمنين .

قال محمد بن كعب : دخل فى هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وكذلك فى العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ، وإذا نسب السلام إلى الله : فهو الأمن والأمان والرحمة ، وهو سلام وتكريم من إله كريم عليم .

وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ . أى : وبركات عليك فى الأرزاق والمعاش ، تفيض عليك وعلى أمم ممن معك نسلًا وتوليذاً . أى : هم ومن يتناسل منهم فى ذرية .

وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ . أراد الحق سبحانه أن يعم السلام والبركات نوحًا وذريته ، ومن يتناسل من المؤمنين والمؤمنات ، يتمتعون بهداية الله وبركاته وأرزاقه ، وتوفيقه فى الدنيا ، ثم الجنة ونعيمها فى الآخرة .

وهناك مجموعات من نسل هؤلاء المؤمنين ، يغلب عليهم الهوى والكفر والعناد ، وهؤلاء يتمتعون فى الدنيا بالأرزاق ، ولهم عذاب أليم فى الآخرة ؛ بسبب جحودهم نعم الله ، ومعصيتهم رسل الله ، فعلى كل عاقل أن يظل راغباً فى السير على الصراط المستقيم ، مبتعداً عن معصية الله ، متجنباً اتباع الهوى والكفر والعناد.

٩٤- تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

أى : هذه قصة نوح وقومه من أخبار الغيب التى لا يعلم دقائقها وتفصيلها أحد سوانا ؛ أعلمناك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين ؛ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك بهذه الصور الصادقة ، الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .

مِنْ قَبْلِ هَذَا . أى : من قبل هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

فَاصْبِرْ إِنَّ الْعُقُوبَةَ لِلْمُتَّقِينَ. أى : فاصبر على تبليغ الرسالة إلى قومك ، كما صبر نوح عليه السلام ؛ فالعاقبة الحسنة بالنصر والتأييد للمتقين الذين راقبوا الله ، والتزموا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وهذه الآية تعقيب كريم على قصة نوح ، وامتنان على الرسول محمد ﷺ ، وبيان أنه علم بها عن طريق الوحى ، وإرشاد ويشى بالنصر وحسن العاقبة .

ما يؤخذ من القصة

- ١- جهاد نوح الطويل الذى استمر ٩٥٠ عاما .
- ٢- هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .
- ٣- قوانين الله عادلة فلا محاباة ولا استثناء ، وهو سبحانه يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسائهم .
- ٤- وجوب صبر الآباء الصالحين ، وتفويض أمرهم الله عند انحراف أبنائهم .
- فقد روى : أن ابننا لمالك بن أنس ارتكب أمراً لا يليق بمسلم ، فعلم بذلك مالك ؛ فقال : « الأذى أذى الله ؛ لا أذى الآباء والأمهات ؛ والخير خير الله ؛ لا خير الآباء والأمهات »^(١) .
- ٥- أن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم : أنه أفضل من العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ؛ فهو جاهل بكتاب ربه ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

هل كان الطوفان عاماً

جاء في تفسير المراغي :

ما يؤخذ من القصة أن الأستاذ الإمام محمد عبده سئل في ذلك : فأجاب جواباً طويلاً خلاصته ما يأتي:

ليس في القرآن نص قاطع على عموم الطوفان ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني ؛ من أجل هذا كانت هذه المسألة موضوع نزاع بين أهل الأديان وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم .

فأهل الكتاب ، علماء الأمة الإسلامية : على أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ؛ لأن هذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر ، فظهورها في رموس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، وإن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض .

ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين : أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لمسلم أن ينكر قضية : أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا يتقى شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني ؛ فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله ورسوله أعلم . اهـ بتصرف .

وخلاصة هذا : أن ظواهر القرآن والأحاديث تدل على أن الطوفان كان عاماً شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضى أن يكون عاماً للأرض ؛ إذ لا دليل على أنهم كانوا يملئون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قُدن الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك

الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوّن الجبال وغيرها من اليابسة فى الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفى لحدوث ما ذكر فيها .

ولما كانت هذه المسألة التاريخية ليست من مقاصد الدين لم يبينها بنص قطعى ، ومن ثم نقول : إنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علم طبقات الأرض «الجيولوجيا» خلافه ؛ فلا يضيرنا ؛ لأنه لا ينقض نصاً قطعياً عندنا^(١) .

★ ★ ★

﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَجْرَى إِلَّا عَلَى الَّذِى فَطَرَنِيْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

المضردات :

مفترون ؛ كاذبون .

فطرني ؛ خلقني على الفطرة السليمة فطرة التوحيد يقال : فطره ، يفطره فطرًا . أى : خلقه ، ومنه الفطرة للخلق .

مدرارًا ؛ كثيرة الدّر ، يقال : درّت السماء تدّر درًا . أى : أمطرت .

مجرمين ؛ مشركين .

تمهيد :

ذكرت قصة عاد مع نبيهم هود فى سورة الأعراف بأسلوب ونظم آخر ، وتلك هى طريقة القرآن فى عرض هذا القصص ، يتناول منه ما يناسب السياق العام للسورة ، ويذكر فى كل مكان ما يناسب ذلك المكان .

وقد ذكرت هذه القصة هنا بعد قصة نوح ، ويوجد شبه بينهما فى نصيحة الرسول ، وردّ قومه وعنادهم ، وهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .

وكانت قبيلة عاد قبيلة عربية تسكن بناحية اليمن فى الأحقاف ، شمال حضرموت ، وكانت قبيلة ذات قوة وبشة ؛ وأهلها أصحاب زرع وضرع ، وقد كشفت آثار فى سلطنة عمان ، قرب مدينة صلالة عبارة

عن مدينة بائدة تحت الأرض يرجح الباحثون أنها مبان وآثار بائدة لقبيلة عادة ، وبعض الباحثين والمستشرقين يخلط بين الحضارة سكان حضرموت وسكان سلطنة عمان .

التفسير:

٥٠- وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْقَوْمِ ااعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَنْتُمْ إِلَافُ مَفْرُوقٍ .

أى : وكما أرسلنا نوحًا إلى قومه ، أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا : فهو أخوهم فى الوطن والنسب فقال لهم: يا قوم ، اعبدوا الله وحده فلا تعبدوا صنمًا ولا وثناً ، فليس هناك إله سوى الله وحده : فما أنتم بعبادتك غير الله من الأوثان والشركاء ، إلا مَفْرُوقٌ . الكذب عليه بتسميتكم إياهم شفعاء تتقربون بهم أو بقبورهم أو بصورهم وتمائيلهم ، وترجون النفع وكشف الضر عنكم بجاههم عنده .

٥١- يَلْقَوْمِ لَافُ اسْتَلْكُم عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

إن رسالة الأنبياء والرسل هى البلاغ ، إبلاغ عباد الله ما يريد الله أن يصلهم ؛ من الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، وإصلاح أحوال الناس فى المعاش والمعاد ، ورسول الله هود يقول لقومه : إنه يدعوهم بهذه الدعوة خالصة لوجه الله تعالى ؛ لا يطلب منهم أجرًا ولا مالا ولا وجاهة ، ولا أى عرض من أعراض الدنيا ؛ ذلك أن أجره على الله الذى خلقه وأوجده وهداه إلى فطرة التوحيد .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أفلا تستخدمون عقولكم وتتأملون بأفكاركم ؛ فيما أقدم لكم من نصح قائم على الإخلاص ، وتعلمون أنى مصيب فى دعوتكم إلى عبادة الله ونيز عبادة الأصنام .

٥٢- وَيَلْقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ .

كانت عاد أصحاب زروع وماشية وقوة ، وكانوا فى أمس الحاجة إلى المطر ؛ لتشرب ماشيتهم وزراعتهم وقبيلتهم ، وذكر المفسرون^(٩١) : أن الله تعالى عاقبهم بحبس المطر فاشتكوا : فأرشدهم هود إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى ، والرجوع إليه مع الإيمان الكامل والإخلاص فى التوحيد .

والحى : عبدوا الله تائبين إليه ، نادمين على ما فرط منكم طالبين للمغفرة ، فإذا فعلتم ذلك : أرسل الله عليكم المطر متتابعًا ، وزادكم قوة إلى قوتكم بالأموال والأولاد ، وعزًا إلى عزكم .

وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ : ولا تعرضوا عن دعوتى مصرين على آثامكم وإجرامكم .

فى أعقاب الآية

نلمح فى هذه الآية : ما كانت تتمتع به عاد من قوة وبأس ، ويسطة فى الجسم والرزق ، وتفيد آيات أخرى هذا المعنى ، قال تعالى : **فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَخَذَ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** . (فصلت : ١٥) .

وقال سبحانه : **آتَيْنَاهُمْ كُلَّ رِيعٍ عَائِيَةً نَعْبُونُ * وَتَخْلُدُونَ مَصَانِعَ لَكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَعْيُنٍ وَبَيْنَ * وَجَّهْتُمْ وَغَيْرَ * إِلَى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** . (الشعراء : ١٢٨-١٣٥) .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ أَوْ مَا نَحْنُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَبْكَ بِعُصَى الْهَيْثَ يَسُوُّ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِّمَّا تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُو فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٦﴾ ﴾

المفردات :

بَيِّنَةٌ ، برهان وحجة .

اصْطَرَاكَ ، أصابك ، وهى ثلاثية ، عراه ، يعروه غَرَّوْا : أصابه .

سَوَوْا ، جنون أو لغو أو أذى .

فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ، اجتمعوا على الكيد فى إهلاكى . أى : تدبير الأمر والمكائد لإهلاكى إن استطعتم .

لَا تُنْظَرُونَ ، أى : ثم لا تمهلونى ، يقال : أنظره ينظره إنتظارًا : أمهله ومنه : فَنَظَرَةً إِلَى مَيْسَرَةٍ . (البقرة : ٢٨٠)

دَابُّهُ: كل ما يدب على وجه الأرض.

آخذ بناصيتها، مالك لها، يصرفها على ما يريد بها، فلا نفع ولا ضرر إلا بإذنه.

سَـرَاطُ : طريق ، جمعه : صُرُط ، وأصله : سراط .

مستقيم : على الحق والعدل .

فإن تولوا، أى: فإن تتولوا وتعرضوا، حذفت إحدى القائين.

وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ، أَي: يَجْعَلُ غَيْرَكُمْ خُلَفَاءَ لَكُمْ بَعْدَ إِبَادَتِكُمْ.

تمهید :

ففي الآيات السابقة حكى القرآن دعوة هود لقومه وضمّن دعوته ثلاثة أمور هي :

- ١- الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ونيز عبادة الأوثان .
٢- دعوة هود خالصة لوجه الله تعالى لا يبتغى أجراً منهم عليها .
٣- دعاهم إلى الاستغفار والتوبة والإيمان ؛ فإن ذلك باب زيادة الرزق القوة ، ثم بدأ يذكر جواب قبيلته عاد.

التفسير :

٥٣- قَالُوا يَا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

قابلت عاد دعوة نبي الله هود بالرفض والعناد ؛ وتدرّجت في الرد عليه من سيئ إلى أسوأ ؛ وردت عليه هنا بثلاث ردود :

الأول : أنه لم يأت لهم بحجة ظاهرة أو برهان مقنع ، يدل على صحة دعواه .

الثاني: أنهم لن يتركوا عبادة الآلهة والأصنام؛ لمجرد قوله: اتركوا عبادة آلهتكم، واعبدوا الله وحده.

الثالث : ما نحن بمصدقين ولا مستجيبين لك .

٥٤ ، ٥٥ - إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْزِلْ بَعْضُ الْهَيْئَةِ بِبَعْضٍ قَالُوا أَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ .

أى : لا نجد من قول نقوله فيك ؛ إلا أن بعض ألبتنا أصابك بمس من الجنون أو الخبل ؛ لإنكارك لها ،
وصدك إيانا عن عبادتها ؛ وكلمة : اعتراك معناها : أصابك وغشيك ، ومنه قول الشاعر :

وانى لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بالله القطر

قال الزمخشري :

وقد دلت ردود قبييلة عاد : على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيتهم للرشد ، وهذا الرد الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه : حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم^(١٢) .

ردود نبي الله هود

ضمن هود جوابه لقومه عدة أمور هي :

- ١- البراءة من الشرك ، وإشهاد الله على ذلك ، وإشهادهم على براءته من شركهم .
 - ٢- التحذير لهم بأن يجمعوا كيدهم وتديبرهم ، ويضمو إليهم كل من يستطيعون ضمه : للكيد له والإيقاع به بلا إمهال ولا تأخير إن استطاعوا ، وفي هذا دليل واضح على أنه لا يخاف منهم ولا من آلهتهم .
 - ٣- أخبرهم : أنه يعتمد على قوة عليا ؛ بيدها الخلق والأمر وهو رب العالمين جميعاً ، وهو المتصرف في كل ما دب على وجه الأرض ، وهو سبحانه حصن لمن اعتصم به ، فمن وجد الله : وجد كل شيء ، ومن فقد الله : فقد كل شيء ، وهو سبحانه حاكم عادل ؛ لا ينصر أهل الباطل على أهل الحق ، انظر إلى قوله تعالى: قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُونَ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَعِلَا لَكُمْ لَا تُنْظَرُونَ .
 - ٥٦- إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
- أي : إنني اعتمدت على الله خالقي وخالقكم ، وهو المتصرف في كل شيء في هذا الكون ، وما من دابة تدب على وجه الأرض ، إلا والله تعالى مالکها وقاهر لها ، أي : وما أنتم جميعاً إلا دواب من هذا الدواب ؛ التي يأخذ ربّي بناصيتها ، ويقهرها قهراً كلياً إذا شاء ؛ فكيف أخافكم ؟ أو أخاف أصنامكم ؟ ومعنى قوة الإله القادر العادل ، الذي لا يسلط أهل البغي على أهل الحق .

أخوة الرسل

تتواصل دعوات الرسل ، وتتفق في دعوة الناس إلى الحق والإخلاص لله ، وعدم طلب أجر على تبليغ الرسالة ، وعدم الخوف من كثرة الأعداء أو إيذاء الأصنام ؛ لأن الإله الحق هو الله وحده ، انظر إلى قول نوح عليه السلام : فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْعَضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظَرُونَ . (يونس : ٧١) .

وانظر إلى توجيه الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ. (الأعراف: ١٩٥).

٥٧- فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ .

يختم هود عليه السلام الحوار هنا بتهديد ووعد .

والعنى: إن تعرضوا عن رسالتي ، وتولوا وتركوا ما جئكم به من عبادة ريكم وحده لا شريك له ؛ فقد أبلغتكم رسالة ريكم ، ولم أقصر فى البلاغ . أما أنتم إذا أصرتم على الجحود والكفر ؛ فإن الله سينتقم منكم ويهلككم ، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم فى دياركم وأموالكم ، ويكونون أطوع لله منكم .

وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا . بتوليكم وكفركم ؛ فالله غنى عنكم وأنتم الفقراء إليه . وفى الحديث القدسي : « ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئا »^(٤) ، فأنتم بمعصيتكم وكفركم لا تعجزون الله ، ولا تضررون إلا أنفسكم .

إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ .. فهو المهيم على كل شيء ، وهو الحسيب الرقيب ؛ فلا تخفى عليه أعمالكم ؛ ولا يغفل عن مؤاخذتكم .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنَّا نَقُولُ لِرَبِّهِمْ وَعَصُوا رُسُلَهُمْ وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ آلِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ أَكْفَرُوا لَهُمْ الْآلَ بَعْدَ الْإِعَادِ قَوْمٌ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

المضردات :

أَمْرُنَا : العذاب ، أو أمرنا بالعذاب .

غَلِيظٌ : شديد .

وَتِلْكَ عَادٌ : أى : تلك قبيلة عاد .

عَتِيدٌ ، معاند الحق .

وَاتَّبَعُوا هِيَ هَذِهِ الدُّنْيَا لَعَنَ ، أَيْ : جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدنيا والآخرة .

أَلَا يَهْدَى الْعَادُ ، أَيْ : من رحمة الله وهو دعاء عليهم بالهلاك .

قَوْمٌ هُوْدُ ، عطف بيان لعاد : لتمييزهم عن عاد الثانية : عاد إرم .

تَمْهِيدٌ ،

تأتى هذه الآيات فى نهاية القصة كنتيجة لتكذيب عاد لرسولها .

التفسير :

٥٨- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

أى : ولما حان وقت هلاكهم بالعذاب : نجينا رسولنا هوداً والذين آمنوا معه وكانوا أربعة آلاف .

بِرَحْمَةٍ مِنَّا .

بهداية ونعمة ووقاية ولطف ورعاية ، ونجيناهم من عذاب شديد قاس : كان يقتلع النخلة ويدمر كل شىء ،

قال تعالى : وَلِىَّ عَادٌ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَلَّوْا مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ . (الذاريات: ٤١، ٤٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحاقة : وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

وَقَمِينَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغْبَازُ نَخْلٍ خَاطِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة: ٦-٨) .

٥٩- وَتِلْكَ عَادُ جَحَدُوا بِمَا تَلَّتْ رَبَّهُمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ .

وتلك هى قصة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات الله الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا

لهدايتهم ، وهم كذبوا رسولا واحداً : هو نبي الله هود ، لكن لما كانت رسالة الرسل جميعاً واحدة : صار تكذيبُ

رسول منهم يعدُّ تكذيباً للرسل أجمعين .

وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . وقد سار سوادهم وزعمائهم وراء كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون

تكفير أو تدبر .

لقد وصفتهم الآية بثلاث صفات :

- ١- كفرهم بآيات الله .
- ٢- معصيتهم للرسول .
- ٣- طاعتهم للجبارين المعاندين .

٦٠- وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .

وقد لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا : فكل من علم بحالهم ، أو بلغه خبرهم على ألسنة الرسل يلعنونهم في الدنيا ، وتلحقهم لعنة أيضاً يوم القيامة .

قال قتادة : تتابعت عليهم لعنتان من الله : لعنة في الدنيا ، ولعنة في الآخرة ، ثم أكد القرآن كفرهم بشهادته عليهم فقال :

أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ . أَيْ : كفروا بنعمه ، وجحدوا ألوهيته حين كذبوا رسله ، واتبعوا الجبارين المعاندين .

أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ . أَلَا سَحَقًا لَهُمْ ، وَبُعْدًا لَهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَوَّبُوا إِلَيْهِ إِنْ ربي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا لَنْصَلِّحَ فَدَكْتُمْ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَبْصُرُ مِنِّي مَنْ آلَهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات ،

واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا : جعلكم تعمرونها ، يقال : أعمرت الأرض ، واستعمرتها إياها : إذا فوضت إليه عمارتها .

مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ، مأمولاً أَنْ تكون لنا سيِّداً ، أو مستشاراً في الأمور .

مـــــريب: موقع من الريبة أو الريب . أى : الظن والشك .

بـــــينة: بيان وصيرة .

وإتاني منه رحمة : يراد بالرحمة هنا : النبوّة .

تمهيد :

هذه هى القصة الثالثة فى هذه السورة ، وهى قصة صالح مع ثمود وصالح هو الرسول الثانى من العرب ، ومساكن قبيلته ثمود : الحجر ، وهى بين الحجاز والشام ، إلى وادى القرى ، وموقعه الآن تقريبا المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، ومازال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمّى : بمدائن صالح حتى اليوم . وقد سبق أن ذكرت قصة صالح فى سورة الأعراف ، وسيأتى ذكر هذه القصة أيضاً فى سورة الشعراء ، والنمل ، والقمر ، والحجر ، وغيرها .

ومضمون القصة : تبليغ صالح دعوته وأدلته على وجود الله تعالى ، ثم مناقشة قومه له ، وتوضيحه الأمور أمامهم ، ثم تأييد صدقه بمعجزة الناقة وقتلهم لها ، وإهلاكهم بالصيحة أو الصاعقة .

التفسير :

٦١- وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ... الآية .

أى : ولقد أرسلنا إلى بنى ثمود ، الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد - أرسلنا لهم رجلا من قبيلتهم ؛ فأمرهم بعبادة الله وحده ؛ فهو الإله الخالق الرازق ، بيده الخلق والأمر ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها ، وهو أبو البشر ، ثم خلق الناس من نطفة ، ثم من علقة ثم مضغة تُكْسَى بعدئذ بهيكل عظمى ولحم ، وتستكمل مواصفات الحياة بقدر الله أحسن الخالقين ، وأصل النطفة من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء إما من نبات الأرض ، أو من اللحم الذى يرجع إلى النبات .

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا . أى : جعلكم عمّارا لها ؛ فقد كانوا زراعًا وصناعًا وبنّائين ؛ قال تعالى : أَفَتُرَكُّونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرَاهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . (الشعراء : ١٤٦ - ١٥٠) .

فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ . أَيْ : اسألوهُ المغفرة لما سلف من ذنوبكم وشركم ومعصيتكم ، ثم توبوا إليه بالإقلاع عن الذنوب والندم على المعاصي ، والعزم على الاستقامة في المستقبل .

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ؛ فهو سبحانه قريب من عباده ، يسمع دعاءهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويجب طلبهم ، قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْهُمْذُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

٦٢- قَالُوا يَلْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ..

أَيْ : كنت موقع الرجاء والأمل بأن تكون سيِّداً من ساداتنا ؛ نستشيرك في الأمور العظام ، ونلجأ إليك في المهمات .

قال كعب : كانوا يرجونه للمملكة بعد ملكهم ؛ لأنه ذا حسب وثروة ، وعن ابن عباس: كان فاضلاً خيراً ، وجمهور المفسرين : على أن رجاءهم فيه ، هو الاستشارة في مهام الأمور ، وأن يكون سيِّداً ساداً مسدِّ الأكاير . أَيْ : إن رجاءنا قد انقطع منك ؛ بسبب دعوتك .

أَتَنْهَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا . أَيْ : أتنهانا عن عبادة ما كان يعبدُهُ أسلافنا ؛ وقد تتابعوا على هذه العبادة كابراً عن كابر .

وإِنَّا لَنَاقِلُ شِكْ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ . وإننا نشك كثيراً في صحة ما تدعوننا إليه : من عبادة الله وحده ، وترك التوسل إليه بالشفعاء المقربين عنده ، وهو شك مَوْقَع من التهمة وسوء الظن . والمقصود من هذا الكلام : التمسك بطريق التقليد ، ووجوب متابعة الآباء ، والشك العظيم في صحة ما يدعوههم إليه صالح ، وهذا نظير ما حكاه القرآن عن كفار مكة حين قالوا : أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . (ص : ٥) .

٦٣- قَالَ يَلْقَوْمَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ .

نجد نبي الله صالح يناقش قومه في هدوء ؛ فيقول لهم : أخبروني : إذا كنت على يقين جازم بأن الله اختارني للرسالة ، وأعطاني النبوة والرحمة ؛ تفضلاً منه ؛ فهل يليق بي أن أعصي ربي ، وأكف عن دعوتكم إلى التوحيد لله ، وعبادته وحده ؛ فمن ذا الذي ينصرني من الله إن عصيته ، وخالفت أمره ، وقصرت في تبليغ

الرسالة : احتفاظا برجاانكم فى ، ومسايرتى لكم فى باطلكم ؟؟؟! أى : لا أحد يدفع عنى عذاب الله : فلا أبالى إذا بقطع رجاانكم فى ، ولا بما أنتم فيه من شك وريب .

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ . أى : فما تزيدوننى إذا أنا عصيت ربى ، وأطعتكم غير الوقوع فى الخسران ، والتعرض لعذاب الله وسخطه : وحاشاى أن أخالف أمر ربى إرضاء لكم .

★ ★ ★

﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا إِنَّا شَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ الْأَبْعَدُ لِلشُّمُودِ ﴿٦٨﴾﴾

المفردات :

نَاقَةُ اللّهِ : هى ناقة امتحن الله بها طاعتهم : إذ أمرهم ألا يمسوها بسوء ، وأن يدعوها تأكل من حيث أرادت ، فلم يأبوهوا بهذا الأمر وعقروها : فأنزل الله بهم العذاب .

آيَةً : معجزة دالة على صدق نبوة صالح .

ذَرُوهَا : اتركوها .

عَذَابٌ قَرِيبٌ : عاجل .

فَعَقَرُوهَا : قطعوا قوائمها بالسيف أو نحروها .

تَمَتَّعُوا : عيشوا ، أو تلاذذوا بالمنافع .

فِي دَارِكُمْ : منازلكم أو بلدكم .

ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ : ذلك خبر غير مكذوب فيه .

الصيحة: الصوت الشديد، والمراد به هنا: صوت العذاب.

جاثمين: أى: باركين على ركبهم ميتين، يقال: جثم، يجثم جثومًا، أى: برك على ركبتيه.

كان لم يغفوا فيها: كأن لم يسكنوا فيها، أو كأن لم يقيموا فيها.

تمهيد:

فى هذه الآيات نجد أن الله تعالى أعطى الناقة: آية ومعجزة تدل على صدق نبي الله صالح، بيد أن

قومه ضربوا الناقة بالسيف؛ فاستحقوا العذاب، وفى سورة: وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا يقول الله تعالى:

كَلَبَتْ كُمُودٌ يَطْفَوْهَا * إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * كَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا. (الشمس: ١١ - ١٥).

التفسير:

٦٤- وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَلَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ.

أعطى الله نبيه صالحا آية ومعجزة تدل على صدقة، وهى معجزة مذهشة عجيبة؛ فقد خلقها الله من صخرة فى جوف الجبل، وخلقها حاملا من غير ذكر، وخلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة، وكان لها يوم تشرب فيه الماء وحدها، ولكل القوم يوم تازر يشربون فيه الماء وحدهم، وكانت تدر لبنًا كثيرا يكفى الخلق العظيم، فهذه الأمور جعلت الناقة آية متميزة تدل على أنها معجزة، «والمعجزة: أمر خارق للعادة، يظهرها الله على يد مدعى الرسالة؛ تصديقاً له فى دعواه».

وتوجه صالح إلى قومه يقول: هذه ناقة الله، أى: معجزة الله لكم، إضافتها إلى الله؛ إضافة تشريف وتعظيم، وتلطف صالح مع قومه حين ناداهم بقوله:

وَيَقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً. أى: يا عشيرتى وأقاربى، هذه الناقة أنزلها الله من بين جبلين، وهى آية ومعجزة ظاهرة لكم؛ لتعبدوا وتصدقوا بأنى رسول من قبل الله.

فَلَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ. أى: اتركوها ترعى من النبات والكلأ المباح، ولا تحملوا مؤنتها؛ فالناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، أنبت بها الكلأ والمرعى.

وَلَا تَمْسُوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ. أى: ولا يمسه أحد منكم بأذى؛ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ عاجل، لا يتأخر عنكم إلا يسيراً.

٦٥- فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ .

تدل الآية على كنود الإنسان وعصيانه وتجبره ، فهذه ناقة من عند الله ، ترعى فى أرض الله ، وتحلب لهم لبنا يكفهم عن آخرهم ، ولا تكلفهم أى شىء سوى أن يتأملوا فى قدرة الله على الخلق ، والإبداع على غير مثال سابق .

ومعنى الآية : أن قوم صالح تأمروا مع بعض الأشقياء ؛ رغبة فى إيذاء صالح ، واستعجال المجهول ، وتحدى هذا النبىء بأن ينزل بهم العذاب .

فذهب قدار بن سالف يعاونه بعض الأشقياء ، وهجموا على الناقة فقطعوا أرجلها بالسيف ، أو ضربوها فى لبثتها ؛ فعقروها ؛ فماتت ؛ فقال لهم نبى الله صالح : أماكم مهلة ثلاثة أيام ، ثم ينزل بكم العذاب ، فاستمتعوا بما تريدون من الطعام والمتع والسكنى ؛ فإن العذاب نازل لا محالة .

والأيام الثلاثة إنذار مناسب ؛ لأنه لو زادت المدة لطالت المهلة ، ولم يتحقق المراد من الإرجاف والخوف ، ولو قصرت عن ذلك لم تكن كافية للتأمل والتدبر ، وبين لهم : أن هذا وعيد صادق واقع .

ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ . هذا وعيد مؤكد ، غير مكذوب فيه .

٦٦- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ .

أى : فلما حان وقت نزول العذاب والهلاك بهم ؛ عزلنا صالحاً عنهم ، ونجيناه والمؤمنين معه بفضل منا وتلطف ، ورحمة بهم ، لقد نجيناهم من العذاب ، ومن الذل والمهانة والخزى والفضيحة التى أصابت الكفار الهالكين يومئذٍ . فى ذلك اليوم الهائل الشديد .

إن يد القدرة الإلهية هى يد القوة القادرة على كل شىء التى تعز المؤمنين بعزة الله ؛ فإنهم فى رعاية القدرة القادرة .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَقْوَى الْعَزِيزُ .

إن الله تعالى هو القادر المعز المذل ؛ بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شىء قدير . قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ مُوتِي الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَرْزُقُ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

٦٧- وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَلِيَيْنَ .

والصيحة هنا هي : صيحة جبريل ، أو صيحة الحق ، وهو صوت العذاب الذي نزل بهم ، فأخذهم الرعب والخوف والهلع : فنجثوا على ركبهم من الخوف ، وجُمِدَ الدَّمُ في عروقهم ، وأصابتهم صيحة تحمل في كيانتها صاعقة ، أقرب مثل إليها : الرعد المحمل بالصواعق المهلكة ، وهكذا صاروا جثثا هامة ، وتحولت ديارهم إلى صمت مطبق ، لا حس بها ولا نفس .

٦٨- كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَ إِنَّ تُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّتُمُودَ .

أى : كأنهم لسرعة هلاكهم ، وعدم بقاء أحد منهم ، لم يقيموا في ديارهم البتة .

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا .

يَغْنَوْا فِيهَا . أى : يقيموا فيها ، يقال : غنى فلان بالمكان ، يغنى ؛ إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

والمعنى : كأن هؤلاء القوم الظالمين ، لم يقيموا في ديارهم عمرا طويلا ، وهم فى رخاء من عيشهم .

أَلَا إِنَّ تُمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّتُمُودَ . تتكرر هنا آلا . وهى حرف تنبيه : لتلفت الأنظار إلى ملخص القصة ومغزاها : أن سبب الهلاك هو الكفر بالله وينعمة الله .

أَلَا بُعْدًا لِّتُمُودَ . ألا سحفاً وهلاكاً لتُمود الذين كفروا ربهم ، وبعداً وطرداً لهم عن رحمة الله ؛ بسبب جحودهم وكفرهم .

لقد طويت صفحة قوم ظالمين ، وعقب القرآن على القصة بهذه الآية ، وهى تشبه الصدى المردود الذى شبع به قوم هود من قبل ، قال تعالى : أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودَ . (هود : ٦٠) ؛ كأنما يسجل الجبار سبحانه وتعالى فى نهاية كل قصة نطق المحكمة الإلهية التى تحكم على المجرمين ، وتضمن حكما حياتيا الحكم فى إيجاز بليغ ، يعقبه صمت رهيب ، لقد كفروا بالله ؛ فاستحقوا عقاب الله ولعنته ، والطرده من رحمته ، وذلك جزاء الظالمين .

وقد ورد فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ مرَّ على ديار تُمود وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك ؛ فاستحث راحلته ، وأسرع السير ، وحث قومه على الاعتبار بهم .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٩﴾ فَأَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَانَهُ فَأَبَحَّةً فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَاسْتَ يَا آلِدُوا أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

المضردات :

فـمـالـبـث : فما أبطأ .

حـنـيـز : أى : مشوى فوق الحجارة المحمأة .

لـا تـصـل إـلـيـه : لا تمتد للتناول .

نـكـرـهـم : أى : أنكرهم ، يقال : نكره ، ينكره نكرًا ، وأنكره واستنكره بمعنى واحد .

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً : أحسَّ منهم خوفًا فى نفسه .

لـوـط : نـبـى كـرـيـم ، وهو ابن أخى إبراهيم ، وأول من آمن به .

فـضـحـكـت : سرورًا بزوال الخوف ، وقيل : بمعنى : حاضت .

يـا وـيـلـسـتـا : أصله : يا ولى وهلاكى ! أى : يا عجباً ! وهى كلمة تقال عند التعجب من بلية أو فجيعة أو فضيحة .

حـمـيـد : فاعل ما يستوجب عليه الحمد .

مـجـيـد : كثير الخير والإحسان .

تمهيد فى بشارة إبراهيم بإسحاق

ذكرت قصة إبراهيم فى سورة البقرة ، وذكرت قصته مع قومه فى سورة الأنعام ، وذكر نقاشه مع أبيه فى سورة مريم ، وذكر قصة إبراهيم مع الذبيح إسماعيل فى سورة الصافات ، وذكر بشارته

بإسحاق ويعقوب فى سورة الذاريات ، وتكررت قصة إبراهيم فى القرآن الكريم ، وهنا فى سورة هود ، تبشّر الملائكة إبراهيم بهذه البشرى ، وكان طاعناً فى السنّ ، وزوجته عجوز عقيم ، وكانت قرى قوم لوط بنواحى الشام ، وإبراهيم ببلاذ فلسطين ، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط ، مروا بإبراهيم ونزلوا عنده ، وكان إبراهيم أباً للأضياف : يكرمهم ويقدم لهم أحسن الطعام وأجوده .

التفسير،

٦٩- وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىِّ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ .

أى : ولقد جاءت رسلنا من الملائكة إلى إبراهيم : للبشارة بالولد ، واختلفت الروايات فى عددهم ؛ فعن عطاء : أنهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل عليهم السلام ، وقيل : مع جبريل سبعة ملائكة آخرون .

قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ . أى : قالوا : نسلم عليك سلاماً ، فقال : عليكم سلام .

فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . الحنيز : هو المشوى بحرّ الحجارة : من غير أن تمسه النار ، أو بالشمس .

وتفيد الآيات : سرعة إبراهيم فى تقديم أكل جيد مشوى بطريقة متميزة ، بدون إبطاء ، وجاء فى سورة

الذاريات : فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . (الذاريات : ٢٦، ٢٧) ، والعجل : فتى البقر.

٧٠- فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ .

أى : لما رأى إبراهيم أن أيديهم لا تمتد إلى العجل كما يمدّ يده من يريد الأكل : أنكر منهم ذلك ، ووجد فى نفسه خوفاً وفزعاً منهم ، وظن أنهم قد جاءوه بشرّ ؛ فابن من لم يأكل طعامك ؛ لم يحفظ زمامك ، وقد صارهم بالخوف على نحو ما ورد فى سورة الحجر قال تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَليمٍ . (الحجر : ٥١-٥٢) .

قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطٍ .

أى : قالوا له : يا إبراهيم ، لا تخف منّا ؛ فلنسا بشراً نأكل الطعام ؛ بل نحن ملائكة الله أرسلنا إلى قوم

لوط لإهلاكهم ، وكانت ديارهم قريبة من دياره .

٧١- وَأَمَرُّهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ .

كانت امرأة إبراهيم قائمة وراء ستار بحيث ترى الملائكة ، أو كانت واقفة تخدم الملائكة ، فضحكت ؛ سرورًا بزوال الخوف ، وتحقيق الأمن ، أو استبشارًا بهلاك قوم لوط ؛ لكرامتها لأفعالهم المنكرة .

فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ .

بشرتها الملائكة بأنها تحمل وتلد ولدًا ، وبشرتها بولد الولد ، أى : سيكون لإسحاق ابنها ولدًا يسمى : يعقوب ، وهو الملقب بـ « إسرائيل » ، ومن ذريته الأسباط ، وأنبياء بنى إسرائيل .

٧٢- قَالَتْ يُونُكُنِ عَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .

لا شك أنها فوجئت بهذه البشرى ، واهتزت لها أركانها ، واندهمت وقالت : يا عجبًا كيف ألد وأنا عجوز كبيرة شيخوخة عقيم ؛ لا تد فى صباها ، فكيف تلد فى شيخوختها ، وهذا زوجى فى سن الشيخوخة لا يولد لمثله ، إن هذا الخبر لشيء عجيب غريب عادة !!!

وقد جاء فى سفر التكوين : «إن إبراهيم كان عمره يومئذ مائة سنة ، وأن زوجه سارة كانت ابنة تسعين سنة» ا هـ .

والغالب أن حيض المرأة ينقطع فى سن الخمسين ؛ فيبطل استعدادها للحمل والولادة ، على أنها كانت عقيما ، قال تعالى : فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَلَّا لَكَ قَالِ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ . (الذاريات : ٢٩ ، ٣٠) .

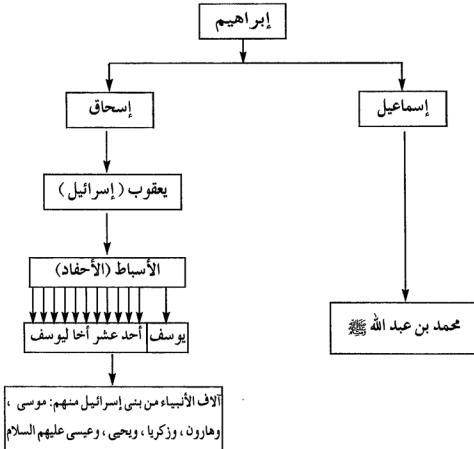
٧٣- قَالُوا أَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

أى : قالت الملائكة لسارة زوجة إبراهيم : كيف تتعجبين من قضاء الله وقدره ؟ أى : لا عجب من أن يبرزكما الله الولد وهو إسحاق ، وأنتما شيخان كبيران يائسان من إنجاب ولد فى هذه السن ، فالله تعالى قادر على كل شيء ، وهو يتفضل على عباده ، ويختص من يشاء برحمته ؛ حتى يظل الأمل عند الناس ، ويظل الرجاء فى رحمة الله وفضله قائمًا فى نفوس المؤمنين .

رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ . رحمة الله الواسعة وفضله ونعمه عليكم .

وَبَرَّكَتُهُ . هـى النـمو والـزىـادـة فـيـكم وفـى نـسـلكـم ؛ فـقـد رزق إسـحـاق يعـقـوب ولـقب يعـقـوب بـ «إسـرائـيل» ومن نـسلـه كـان الـأسـبـاط اثـنـى عـشـر نـبـيـاً ، ومن نـسل الـأسـبـاط كـان آلاـف الـأنـبـيـاء من بـنـى إسـرائـيل ، وعـرف إبراهيم بـأنـه : أبـو الـأنـبـيـاء وأبـو المـلّة ، وخلـيل الله ، وقـد نـجـاه الله من نار الظالمين ، وآواه إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين .

إِنَّهُ حَمِيدٌ مُّجِيدٌ . إنـه سـبـحـانـه فـعال ما يـسـتـوجـب الـحـمد والشـكر ، وهـو مـحـمود فـى جـمـيـع أفعـاله وأقـوالـه ، مُّجِيدٌ . ذـو المـجـد والـرفـعة ، مـجـد فـى صـفـاتـه وذاتـه ، كـثـير الخـير والإحـسان إلى عـبـادـه .
ويمـكـن تـقـريـب شـجـرة الـأنـبـيـاء الـتى تـنسـب إلى إبراهيم عليه السلام بهذا الرسم :



﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ بَكَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبٌ عَذَابٍ غَيْرِ مُرْدُوْرٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

الرَّوْعُ : بالفتح : الخوف والغزع ، يقال : راعه الأمر ، يروعه روعاً أى : أخافه .

وجاءته البشري : بدل الروح

يجادلنا في قوم لوط : يجادل رسلنا في شأنهم قائلًا : إن فيها لوطا .

لحلِيم : غير عجول على الانتقام .

أَوَّاه : كثير التآوه من الذنوب ، والتأسف على الناس .

منـيب : يرجع إلى الله في أمره ، يقال : أناب ، ينب إنابة ، أى : رجع وتاب .

أعرض عن هذا : أعرض عن هذا الجدل .

إنه قد جاء أمر ربك : قدره بمقتضى قضائه الأزلى بعذابهم ، وهو أعلم بحالهم .

غير مُردود : غير مدفوع لا بجدال ولا بشفاعه .

التفسير :

٧٤- فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ .

أى : فلما سرى عن إبراهيم ، وانكشف له ما أوجس منه خيفة ، إذ علم أن هؤلاء الرسل ملائكة من السماء ، وجاءته البشري بالولد واتصال النسل ، أخذ يجادل الملائكة ، راغباً فى تأجيل العذاب عن قوم لوط أو تخفيفه .

وكانت حجة إبراهيم : أن قرية لوط فيها العصاة وفيها المؤمنون ، وهلاك القرية سيحمل الجميع ، وقد بينت له الملائكة : أن علم الله شامل لكل فرد ، وأنه سينجى لوطا ومن آمن به ، وسيهلك الكافرين .

وقد فصل القرآن الكريم هذه المجادلة بين إبراهيم والملائكة فى سورة العنكبوت فجاء فيها : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . (العنكبوت : ٣١ ، ٣٢) .

كما جاءت هذه المجادلة في الفصل الثامن من سفر التكوين من التوراة ففيه : « إن الرب ظهر لإبراهيم وهو جالس في باب الخيمة ، فظهر له ثلاثة رجال فاستضافهم ، وأتى لهم بعجل وخبز مَلَّةً فَأَكَلُوا ويشروه بالولد ، فسمعت امرأته سارة ؛ فضحكت ، وتعجبت لكبرها ، وانقطاع عادة النساء عنها ، فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة ، هل يستحيل على الرب شيء ؟! ... وانصرف الرجال (أى: الملائكة) من هناك ، وذهبوا نحو سدوم (قرية قوم لوط) ، وإبراهيم لم يزل قائما أمام الرب ؛ فتقدم إبراهيم وقال : أفتهلك البار مع الأثيم ؟ عسى أن يكون هناك خمسون باراً في المدينة ، أفتهلك المكان ؟! ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه ؟! فقال الرب : إن وجدت في سدوم خمسين باراً ؛ فإنني أصفح عن المكان كله من أجلهم ، ثم كلمه إبراهيم مثل هذا في خمسة وأربعين ، ثم في أربعين ، ثم في ثلاثين ، ثم في عشرين ، ثم في عشرة ، والرب يعده في كل من هذه الأعداد ، بأنه من أجلهم لا يهلك القوم ، وذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم إلى مكانه » اهـ. ^(١٤)

٧٥- إن إبراهيمَ لَحَلِيمٌ أَوْاهُ مُنِيبٌ .

تصف هذه الآية خليل الرحمان بثلاث صفات :

لَحَلِيمٌ . غير متعجل بالانتقام من المسمى إليه .

أَوْاهُ . كثير التأوه والخشوع والتضرع والدعاء ، وهذا كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب .

مُنِيبٌ . سريع الرجوع إلى الله في كل أموره ، أى : أن رَقَّة قلبه وفرط رحمته حملته على المجادلة .

٧٦- يَلَيِّزُ إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم ، اترك الجدل في أمر قوم لوط والاسترحام لهم ؛ فقد صدر أمر الله تعالى بنزول العذاب بهم ، ولا يُردُّ بأس الله عن القوم المجرمين ، وإنهم آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَصْرُوفٍ ولا مدفوع عنهم أبداً ، لا بجدال ولا بدعاء ولا بشفاعة ونحوها .

ما يؤخذ من الآيات

١- تبادل السلام بين الملائكة والأنبياء .

٢- من السنة : إكرام الضيف ، وتعجيل قراه . والضيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيين والصالحين .

٣- المخاطب بإكرام الضيف: أهل المدن وأهل البادية. في رأى الشافعى، وقال مالك: ليس على أهل الحضر ضيافة.

٤- من أدب الطعام: تعجيل تقديمه، وتعجيل أكل الضيف.

٥- مشاركة الزوجة لزوجها فى أفراحه وأتراحه ومشاركتها فى خدمة ضيوف زوجها عند أمن الفتنة.

٦- جواز مراجعة المرأة للأجانب فى القول، وأن صوتها ليس بعورة، وأن امرأة الرجل من أهل بيته.

٧- أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق؛ لأن الله بشر إبراهيم وسارة بإسحاق، وبشرهما بأن إسحاق سيلد ولذا يسمى: يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له يعقوب الموعود بوجوده، ووعد الله حق لا خلف فيه، فتعين أن يكون الذبيح إسماعيل^(٧٧).

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۖ
وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِمْ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَتَقَوْمٌ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي ۚ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ۖ ۞
لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّكَ لَنْ تَعْلَمَ مَا نُرِيدُ ۖ ۞
قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْءَاوِىَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۖ ۞﴾

المضردات:

سِئَءَ بِهِمْ: وقع فيما ساءه وغمّه بمجيئهم؛ لأنهم جاءوا فى صورة غلمان؛ فظن أنهم أناس؛ فخاف أن يقصدهم قومه فيعجز عن مدافعتهم.

ضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا: ضاق صدره بمجيئهم، والذرع والذراع: منتهى الطاقة، يقال: مالى به ذرع ولا ذراع. أى: مالى به طاقة، ويقال: ضقت بالأمر ذرعًا؛ إذا صعب عليك احتماله.

عَصِيبٌ: شديد الأذى.

يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ: يسرعون إليه.

وَلَا تَخْزَوْنَ: لا تفضحونى من الخزى، أو لا تخجلونى.

دجل رشيد ، ذو رشد وعقل يهتدى إلى الحق ويرعوى عن القبيح .

من حـقـق : من حـاجـه .

وانك تتعلم ما نريد ، من إتيان الرجال .

لوان تى بكم قوة ، أى : على الدفع بنفسى .

أو أوى إلى ركن شئيد ، من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين .

قوم لوط

هذه هى القصة الخامسة من القصص المذكور فى هذه السورة ، وهى قصة لوط عليه السلام ، وقوم لوط : أهل سدوم فى الأردن قال ابن عباس : انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط (ابن أخى إبراهيم) : فبين القريتين أربع فراسخ ، ودخلوا عليه على صورة شباب مرّ من بنى آدم ، وكانوا فى غاية الحسن ، ولم يعرف لوط أنهم ملائكة .

وجاء قوم لوط يسرعون إليه ، ويتخطّون أبواب الدار : رغبة فى إتيان الرجال الضيوف فى دبرهم ، وحاول لوط تذكيرهم وإرشادهم إلى زواج بنتيه ، أو إتيان النساء من أفراد قريته : فالنبي أب لأتباعه وسائر النساء بنات له ، فهو يرشدهم إلى أن الفطرة السليمة تبحث عن قضاء الوطر مع الطرف الآخر : فقد خلق الله الذكر والأنثى ليستمتع كل واحد بالآخر فى حلال ونظافة ونظام ، لكن قوم لوط أصمّوا أذانهم عن سماع نصيحته ، وصمموا على فعل فاحشة اللواط مع ضيوفه ، وهنا تمنى لوط لو كانت معه قوة من الرجال تحميه وتنصره ، أو أن له ركن شديد يعتمد عليه من أصحاب العصبيات الذين ينصرون الحق .

لقد كان مجيء الملائكة للوط استدراجاً لقومه : ليظهروا على حقيقتهم ، ويفتضحوا أمام الملائكة ، ويضطربوا متلبسين برغبتهم الشائنة ، فى إتيان الرجال دون النساء ، وهذه المثلية الجنسية ظاهرة خطيرة : تستحق عقاب السماء ، كما حدث لقوم لوط ، حيث أرسل عليهم الخسف ، وأمطرتهم السماء بحجارة معلمة ترجمهم وتهلكهم ، وهكذا يكون عقاب كل ظالم لم يتنكب الجادة ، ويتبع هواه ويتنكر لوى السماء .

وفى سفر التكوين : إن لوطا عليه السلام ابن هارون أخى إبراهيم عليه السلام ، وأنه هاجر معه من مسقط رأسهما « أور الكلدانيين » فى العراق ، إلى أرض الكنعانيين ، وسكن إبراهيم فى أرض كنعان ، ولوط فى سدوم بالأردن ، ويظن بعض الباحثين : أن بحيرة لوط غمر موضعها بعد الخسف ، ويقال : إن الباحثين فى العصر الحاضر عثروا على آثارها .

التفسير:

٧٧- وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَلْذَا يَوْمَ عَصِيبٌ .

انتقلت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام إلى لوط ، وكانوا في أجمل صورة بهيئة شباب حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، فساء لوط وصولهم ومجيئهم ، وضائق نفسه بسببهم ؛ لأنه ظن أنهم من الإنس ؛ فخاف عليهم من خبث قومه ، ورغبتهم الجامحة في إتيان الذكور ، وخاف لوط من العجز عن حماية ضيوفه ، وقال : هذا يوم عصيب شديد شره ، عظيم بلاؤه .

٧٨- وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ... الآية .

علم قوم لوط بوجود أضياف في بيته ، وربما كانت زوجته هي التي أخبرتهم ، فأسرعوا يتدافعون جميعاً ، كأنما يسوقهم سائق ، وهم في شدة الفرح والتعطش ؛ لقضاء الشهوة مع هؤلاء الرجال .

وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ .

أى : كان شأنهم ارتكاب الفاحشة مع الرجال علناً ، وقطع الطريق ، والاستيلاء على أموال عابر السبيل ؛ بدون رحمة أو رافة ، كما حكى الله عنهم : أُنِثْكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ . (العنكبوت: ٢٩) .

فهم قوم تعودوا على إتيان هذا الشذوذ في جماعتهم وناديهم ، وكان لوط عليه السلام ينصحهم ، ويحذّرهم من هذا الشذوذ ، كما قال لهم في آية أخرى : أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعُلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . (الشعراء: ١٦٥ ، ١٦٦) .

قَالَ يَلْفُومٌ هَلْ لَوْ أَنَّ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ .

تقرب لوط إلى قومه ، وقال لهم : يا قوم ، النساء أطهر لكم من الرجال ، وأنا أنصحكم بقضاء هذه الشهوة مع بنات أمتي من الزوجات ، والصالحات للزواج ، فكل نبى فى أمته بمنزلة الوالد .

وكان مما يتلى فى القرآن : أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ . (الأحزاب: ٦) .

وقيل : المراد : تزوجوا بناتى هن أطهر لكم من الرجال ؛ أى : عرض عليهم الزواج ببنااتهن من صلبه ، ليصرفهم عن اللواط بضيوفه .

وعلماء التفسير يرجحون أن المراد : تزوجوا بنات أمتي ، أي : النساء جملة ؛ لأن نبي القوم أب لهم ؛ قال مجاهد : لم يكن بناته ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ، وقال سعيد بن جبير : يعني : نساؤهم من بناته ؛ وهو أب لهم ، وقد رجح الإمام فخر الدين الرازي رأى الجمهور واستدل على ذلك بما يأتي :

١- أنه قال : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ . وبناته اللاتي من صلبه لا تكفى للجمع العظيم ؛ أما نساء أمته ففيهن كفاية الكل .

٢- أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان ، وهما : زنتا وزعورا . وإطلاق لفظ البنات على البناتين لا يجوز ؛ لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْعِي . أي : راقبوا الله في ترك هذه الفاحشة السيئة التي لم يسبقكم إليها أحد من العالمين ؛ بل أنتم اخترعتموها واستمررت عليها .

وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْعِي . لا تفضحوني في ضيوفي وتذلوني لعدم قدرتي على الدفاع عن ضيوفي ، وإن إهانته إهانة لي ، ويطلق لفظ الضيف على المفرد والمثنى والجمع ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ويجمع فيقال : أضياف وضيوف .

أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . فيه رشد وحكمة وعقل وخير ، يقبل ما أمر به ، ويذهاكم عن المنكر ويهديكم إلى الطريق الأقوم .

٧٩- قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ .

أي : لقد علمت سابقاً ألا حاجة لنا في النساء ولا نشتهيهن ، فلا فائدة فيما تقول ، وليس لنا غرض إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك منا ، فأنت فائدة من تكرار القول علينا - والخلاصة : أنهم صمموا على ما يريدون .

جاء في تفسير فتح القدير ، تأليف محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ ، ٥١٤/٢ :

مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ .

« أي : ما لنا فيهن من شهوة ولا حاجة ؛ لأن من احتاج إلى شيء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى ما نسبوه إليه من العلم : أنه قد علم منهم المطالبة على إتيان الذكور ، وشدة الشهوة إليهم ، فهم من هذه الحثيثة كأنهم لا حاجة لهم إلى النساء » ١ هـ .

٨٠- قَالَ نَوْنُ إِلَى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ عَاوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ .

أى : لو كانت لدى قوة تقاقل معى ، أو عشيرة توازننى وتنصرنى عليكم ، وتدفع الشر عنى : لكنت قاتلتكم وحلّت بينكم وبين ما تريدون .

وفى صحيح البخارى : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد »^(١٧) . يعنى : حماية الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنَاصِلُوكَ فَإِمْرًا بِهَاطِكِ بَقِطْعٍ مِّنَ الْبَلَدِ وَلَا يَنْفَعُ
مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِن مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الْبَاسُ الصُّبْحُ
يَقْرِبُ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ
سِجَالٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

فاسر باهلك : أى : فسر بأهلك ليلا ، يقال : أسرى ليلاً ، يسرى إسرائاً ، وسرى ليلاً ، والسرى : السير ليلاً ؛ ويقال : سار نهاراً ، يسير سيراً .

بِقَطْعٍ : طائفة أو بقية من الليل .

ولا يَنْفَعُ مِنْكُمْ أَحَدٌ : لا ينظر وراءه ؛ حتى لا يرى عظيم ما ينزل بهم .

إِلَّا أَمْرُكَ : فلا تسر بها .

أَمْرُنَا : عذابنا .

جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا : أى : قراهم رفعها جبريل فى السماء ، وأسقطها مقلوبة إلى الأرض .

سِجَالٍ : الطين المتحجر .

مَنْضُودٍ : وضع بعضه على بعض وأعدّ لعذابه .

مُسَوِّمَةً : أى : لها « سومة » أو علامة خاصة فى علم ربك أو فى خزانته .

تهديد :

تأتى هذه الآيات فى أعقاب قصة لوط ، وفيها تخبر الملائكة لوطا : بأنهم ملائكة من السماء ، وأن قومه لن يصلوا إلى ما هموا به ، وأن الله مهلكهم ، ومنجيهم مع أهله من العذاب

التفسير :

٨١- قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ... الآية .

أى : قالت الملائكة للوط عليه السلام ، عندما رآته مهتماً مكروباً ، خائفاً على أضيافه من عدوان قومه : إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ . أى : ملائكة الله أرسلنا من السماء .

لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ . أى : لن يصلوا إليك بسوء ولا إلى ضيوفك ، وحينئذ طمس الله عيونهم ؛ فلم يعودوا يبصرون لوطاً ومن معه ؛ كما قال تعالى : وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَتْ أَعْيُنُهُمْ فَلَاحُوا حُلُمًا مُتَعَدِّينَ . (القم: ٣٧) ، فخرج قوم لوط من بيته يتخبطون ، لا يعرفون الطريق وصاروا يقولون : النجاء النجاء ، إن فى بيت لوط قوما سحرة !

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ . أى : فاخرج أنت وأهلك فى جزء من الليل يكفى لتجاوز حدودها .

قال تعالى : فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . (الذاريات : ٣٥ ، ٣٦) .

وَلَا يُلْقِفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ . ولا ينظر أحد منكم إلى ما وراءه أبداً ، أو لا يشتغل بما خلفه من مال أو غيره ، قيل : أمروا بذلك ؛ حتى يجدوا فى السير قبل نزول العذاب بالظالمين ، وقيل : أمروا بالإسراع ؛ انتقاء لرؤية العذاب .

وقد أسرع النبی ﷺ عندما مر على قرى هالكة ، وقال : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ؛ إلا وأنتم مشفقون ؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم » ، وجاء فى سورة الحجر : وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

إِلَّا أَمْرًا تَكُ . أى : امض بأهلك إلا امرأتك فلا تأخذها معك ؛ إنه مصيبتها ما أصابهم من العذاب ؛ لأنها كانت كافرة خائنة .

إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ . أى : سينزل بها العذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين فيهلكها معهم .

إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ . أى : موعدهم هلاكهم فى الصبح ، ابتداء من طلوع الفجر ، إلى شروق الشمس ؛ كما جاء فى سورة الحجر : فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . (الحجر: ٧٣) .

أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ . أى : أليس موعد الصبح بموعده قريب ؛ لم يبق له إلا ليلة واحدة ؛ فانج فيها بأهلك .
وقد جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم ؛ لكون النفوس فيه أسكن ، والناس فيه مجتمعون لم يفرقوا إلى أعمالهم .

٨٢- فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ... الآية .

أى : فلما جاء أمرنا بالعداب ، وقضائنا فيهم بالهلاك ؛ قلبنا قراها كلها وخسفنا بها الأرض ، وجعلنا أعلى بيوتهم أسفلها ، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم ، حيث قلبوا فطرتهم .
وهذا يذكرنا بما تفعله الزلازل ، وما حدث فى القاهرة من زلزال عام ١٩٩٣م ، حيث تحول أعلى العمارة إلى أسفلها وهلك من كان بداخها .

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ . وأمطرنا عليهم حجارة من طين متحجر ، مُنْضُودٍ . متتابع فى النزول بدون انقطاع ، موضوع بعضه على بعض .

٨٣- مُسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ .

أى : معلمة بعلامات من عند ربك ، ومعدة إعداداً خاصاً ؛ لإهلاك هؤلاء القوم ، بحيث لا تصيب غير أهلها ، فمن لم يمت بالخسف أو الزلازل ، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض هذه الحجارة المعينة التى سخرها الله عليهم ، وحكمها فى إهلاكهم بحيث لا يمنعها شيء ؛ فهذه الحجارة قدر الله الذى لا يرد .

وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ . أى : هذا العذاب وذلك الخسف قريب من كل ظالم ، حيث يصيبه الله تعالى على نحو ما ، وفى الحديث الشريف : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »^(١٨) .

وبعض المفسرين يرى أن معنى الآية على النحو الآتى : «وما هذه القرى التى حل بها العذاب بمكان بعيد عنكم ، أبها المشركون من أهل مكة ، الظالمون لأنفسهم بالكفر والتكذيب بمحمد ﷺ ؛ بل هى قريبة منكم ، على طريقكم فى رحلة الصيف إلى الشام ، وإنكم لتعمرون عليها فى أسفاركم نهاراً أو ليلاً أفلا تعقلون ، وتتدبرون ما نزل بهم ؟ » . قال تعالى : وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ • وَيَأْتِلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ . (الصافات: ١٣٧ ، ١٣٨) .

في أعقاب قصة لوط

تفيد هذه القصة لهذا النبي الكريم ما يأتي :

١- أن الكريم الشهم الأبى ، هو الذي يحافظ على كرامة ضيوفه ؛ لذا قال لوط : **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي** أي : لا تهينوني وتذلوني .

٢- من أَلِفَ الفساد والفحش ؛ بَعَدَ عن الصلاح والطهر ؛ لذا قال قوم لوط : **مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ** . أي : من حاجة ولا شهوة ، وإنما رغبتنا في إتيان الذكور .

٣- لا بأس على المسلم أن يستعين بغيره ؛ لنصره الحق الذي يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذي ينهى عنه ؛ فلو ط عليه السلام ، عندما رأى من قومه الإصرار على الشذوذ ، والرغبة في إتيان ضيوفه ؛ تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم ، أو يأوى إلى عشيرة أو أتباع مؤمنين ، ولا جناح على لوط في ذلك فقد قال تعالى : **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ** . (البقرة: ٢٥١) ، وقد طلب النبي ﷺ من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، وفي الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد »^(١) ، ومعناه : أن معه ملائكة الله ، وعون الله الفعال لما يريد ، وحين قال لوط : **أَوْ عَاوَى إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ** . لم يكن لوط قد علم بأن ضيوفه من الملائكة ، أو هي خاطرة خطرت ببال لوط ؛ حين رأى نفسه عاجزاً عن الدفاع عن ضيوفه ، ثم أنقذه الله تعالى ببشارة الملائكة^(٢) .

٤- كان كلام الملائكة متضمناً أنواعاً خمسة من البشارات هي :

(أ) أنهم رسل الله .

(ب) أن الكفار لن يصلوا إلى ما هموا به .

(ج) أنه تعالى يهلكهم .

(د) أنه تعالى ينجيهم مع أهله من ذلك العذاب .

(هـ) أن ركنه شديد ، وأن ناصره هو الله تعالى .

٥- كان إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشمس ، وتضمن العذاب وصفان :

الأول : الخسف وجعل عاليها سافلها .

والآخر : ضربها بحجارة مسومة كالصاروخ الموجه لا يصيب غير الظالمين : بحيث نجى الله المؤمنين ، كما نجى القرى المجاورة ، وانحصر العذاب فى أقوام بأعيانهم ، هم أصحاب الشذوذ المنتكسين بفطرتهم فى استغناء الرجال بالرجال .

٦- هذا العقاب يصيب الله به كل ظالم ، وكل من سلك الشذوذ الجنسى ، وفى الحديث الشريف : أن رسول الله ﷺ قال : « سيكون فى آخر أمتى قوم يكتفى رجالهم بالرجال ، ونسأؤهم بالنساء ، فإذا كان ذلك : فارتقبوا عذاب قوم لوط ، أن يرسل الله عليهم حجارة من سجيل » ثم تلا رسول الله ﷺ : وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ . (٥١) .

★ ★ ★

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَبُّكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَقَوْمِ أَتَوْا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات :

وإلى مدين : أراد : أولاد مدين بن إبراهيم .

عذاب يوم محيط ، أى : لا يشذ منه أحد .

ولا تبخسوا ، ولا تنقصوا .

ولا تعتوا ، ولا تفسدوا .

بقية الله ، ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد التنزه عما حرم عليكم .

بحفيظ ، أحفظكم من القبائح ، أو رقيب أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم عليها : وإنما أنا نذير ناصح مبلغ ، وقد أعذرت حين أنذرت .

شعيب

قصة شعيب مع أهل مدين هي القصة السادسة في سورة هود ؛ تقدمت عليها قصة نوح مع قومه ، وقصة هود ، وقصة صالح ، وقصة إبراهيم ، وقصة لوط .

وقصة شعيب تسير كما سارت قصص الرسل من قبله : دعوة إلى الإيمان بالله ، تحذير من تطفيف الكيل والميزان ، معارضة من قومه ؛ فهم يعبدون الأشجار الكثيفة ، ويثْمُرُونَ أموالهم بالحق والباطل ، ويسيرون حسب أهوائهم ، وشعيب رسول قوى الحجة ، واضح البيان ، له في قومه سندٌ ، وعشيرة ، ورهط قوى يدافع عنه ؛ لكنه يعتز بأنه رسول الله ، مبلِّغ عن دعوة الله ، وكان النبي ﷺ إذا ذكر شعيباً : قال : « ذلك خطيب الأنبياء » ؛ لحسن مراجعته لقومه وقوة حجته .

ومدين : اسم القبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى : « معان » وتقع بين حدود الحجاز والشام ، والأيغة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقرية « معان » وكان يسكنها بعض الناس ؛ فأرسل الله شعيباً إليهم جميعاً .

وقد أمر شعيب قومه بعبادة الله وحده ، ونهاهم عن تطفيف الكيل وعن الخيانة وسوء الأخلاق ، وناقشه قومه ؛ فوضح لهم دعوته ، وأسبابها وأهدافها ؛ فتعنت قومه وكفروا وجدوا ؛ فأنذرهم شعيب بالعذاب ؛ فأخذتهم الرجة ، والصيحة ، وعذاب يوم الظلة – أي : السحابة – وكل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

التفسير :

٨٤- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْنَؤُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .. الْآيَةِ .

أي : وما أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم في النسب والقبيلة ، وهو شعيب عليه السلام ، وكانوا أهل كفر وجشع وطمع ، لا يؤفون الحقوق ، ولا يحفظون الأمانات ؛ فدعاهم أولاً إلى الإيمان بالله تعالى ، فهو الإله وحده ولا يستحق العبادة سواه .

وقد جرت عادة الأنبياء أن يبدؤوا قومهم بالدعوة توحيد الله تعالى ؛ لأن الإيمان بالله أصل الفضائل ؛ فهو الذي يمنح الإنسان مراقبة الله ، والالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه ، ثم نهاهم شعيب عن تطفيف الكيل والميزان ؛ فقال :

وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ . أَيْ : لَا تَنْقُصُوا النَّاسَ حَقَّوْقَهُمْ فِي مِكْيَالِكُمْ وَمِيزَانِكُمْ ، وَهَذَا النِّقْصَ يَكُونُ مِنْ جِهَتَيْنِ .

الأولى : عِنْدَ الْبَيْعِ بَأَن يَجْعَلُوا الْمِكْيَالَ نَاقِصًا ، وَيَسْمَى : تَطْفِيفَ الْكَيْلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَسْرِقُ مِنْ الْبَائِعِ لَهُ إِلَّا الشَّيْءَ الطَّفِيفَ .

الثانية : عِنْدَ الشَّرَاءِ ، بَأَن يَأْخُذُوا مِنْ غَيْرِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِمْ فَتَجِدُ عِنْدَ التَّاجِرِ مِكْيَالَانِ يَبِيعُ بِأَحَدِهِمَا ، وَهُوَ النَّاقِصُ ، وَيَشْتَرِي بِالْآخَرِ وَهُوَ الزَّائِدُ ، وَفِي هَؤُلَاءِ قَالَ تَعَالَى : وَيُنْذِرُ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْبَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * يَوْمَ عَظِيمٍ . (المطففين: ١-٥) .

إِنِّي أَرَأَيْتُمْ يَخْشِرُ . إِنَّكُمْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ وَعَافِيَةٍ ، وَأَرْزَاقٍ كَثِيرَةٍ ، وَأَرْضٍ طَيِّبَةٍ ، وَأَشْجَارٍ وَارِفَةٍ ، وَثَرْوَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَرِفَاءٍ فِي الْمَعِيشَةِ ؛ تَغْنِيْكُمْ عَنِ الطَّمَعِ وَالذَّنَاءَةِ ؛ فِي بَخْسِ النَّاسِ حَقَّوْقَهُمْ .

وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ . وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ يَحِيطُ بِكُمْ جَمِيعًا ؛ فَلَا يَتْرَكَ أَحَدًا مِنْكُمْ ، وَهُوَ إِمَّا عَذَابُ الْاسْتِنْصَالِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِمَّا عَذَابُ الْآخِرَةِ فِي جَهَنَّمَ ، قَالَ تَعَالَى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . (التوبة: ٤٩) .

٨٥- وَيَقْرُومُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ... الْآيَةُ .

كُرِّرَ نَصِيحَتُهُمْ وَدَعْوَتُهُمْ إِلَى وِقَاءِ الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ بِالْعَدْلِ ، بَلَا زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ .

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . الْبَخْسُ : النِّقْصُ وَالظُّلْمُ وَالْجَوْرُ أَيْ : إِيَاكُمْ وَالظُّلْمَ وَالْجَوْرَ فِي حَقَّوْقِ النَّاسِ .

وَلَا تَغْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . الْعُتُوُ : الْفَسَادُ التَّامُ ؛ وَقَدْ كَانُوا يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ ، وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ مِنَ الْإِيمَانِ بِشَعِيبٍ ، وَيَحَاوِلُونَ تَضْلِيلَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَصَدَّهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ .

وَالْعُتُوُ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ، يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْإِفْسَادِ وَالْعُدْوَانِ ، كَقَطْعِ الطَّرِيقِ ، وَتَهْدِيدِ الْأَمْنِ ، وَقَطْعِ الشَّجَرِ ، وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ ، وَسَائِرِ أَلْوَانِ الْعُدْوَانِ .

الحلبيهم : ذو الأناة والترفؤ الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته .

الرشيد : الذى لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد .

أرءيتهم : أخبرونى .

بينة : حجة واضحة .

ورزقنى منه رزقا حسنا ، ومنحنى من لدنه الذبوة والحكمة ، وغمرنى بنعمه الكثيرة .

أن أخالفكم إلى ما نهاكم منه : أن أخالفكم إلى فعل ما أنهاكم عنه .

والىه أنيب : وإلى الله أرجع .

لا يجرمنكم : جرم الذنب أو المال : كسبه ، أى لا يكسبكم خلافى الشديد معكم ومعاداتى .

ما أصاب قوم نوح : من الغرق .

أوقوم هود : من الريح .

أوقوم صالح : من الرجفة .

وما قوم لوط منكم ببعيد : أى : أنتم حديثو عهد بما نزل بهم .

إن ربى رحيم : عظيم الرحمة للمستغفرين .

ودود : كثير اللطف والإحسان إليهم .

تهديد :

تقدمت دعوة شعيب لقومه إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، ثم نهاهم عن تطيف الكيل والميزان ، وهنا يذكر رد قومه عليه ، فردوا على دعوته إلى التوحيد : بأنهم على دين آبائهم ، وردوا على نهيه عن تطيف الكيل : بأنهم حريصون على تثمير أموالهم وزيادتها بالطرق التى تعودوا عليها ، لا بأهواء شعيب .

ثم أعاد شعيب النصح لهم : بتذكيرهم بما أصاب الأمم السابقة من العذاب ، ويدعوته لهم إلى التوبة والإنابة إلى الله ؛ فإنه واسع الرحمة والعطاء لمن أناب إليه .

التفسير :

٨٧- قَالُوا يَنْشَعِبُ أَصْلُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَرْكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ... الْآيَةِ .

أى : قالوا مستهزئين به ؛ لكثرة صلاته وعبادته : هل صلاتك تأمرك بترك عبادة الآباء والأجداد ، كما يقال لعالم الدين المصلح ، هل علمك أو مشيختك دافع لك إلى ترك ما نحن عليه ؟

أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِيْ أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ. من إتمام الكيل والميزان ، وإخراج الزكاة ، وترك الأرباح التي كنا نحصل عليها ؟

أى : أن ما أمرتنا به منافع لسياسة تنمية المال وتكثيره ؛ وذلك حجر على حريتنا الاقتصادية. والخلاصة : أن ردهم على شعيب فى الأمرين تضمن رفضهم للتوحيد ، وإصرارهم على تجميع الأموال بالطرق العديدة المحرمة .

إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ . أى : أنت صاحب الحلم والتروى والتعقل ؛ فكيف تأمرنا بما أمرتنا به؟!

ويقول: المعنى: التهمك به ، والمراد : أنت ذو الجهالة والسفاهة فى رأى ، والغواية فى الفعل ، بهوس الصلاة ، لكنهم عكسوا القضية ؛ تهكما واستهزاء ؛ كما يقال للبخل : (لو رآك حاتم لاقتدى بك فى سخائك) .

٨٨- قَالَ يَلْقَوْمِ أَزْعَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ...

أى : أخبرونى : إن كنت على برهان يقينى مما أتانى ربى من العلم والنبوة ، وكنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة : منحنى إياها ربى .

وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا . أى : مالا حلالا مكتسبا بلا بخس وتطفيف - أو الرزق الحسن : الحكمة ، والنبوة ، والاستقامة على التوحيد ، والهداية إلى الصراط المستقيم .

وحذف جواب أَزْعَيْتُمْ ؛ لما دل عليه فى مثله وتقديره : هل يصح لى أن أخون الوعى ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتزكية والتحلية .

وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُم عَنْهُ .

أى : وما أريد أن أتى ما أنهاكم عنه لأستبد به دونكم ، فلو كان صوابا لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلا عن أن أنهى عنه^(٨٩) .

وقال قتادة : لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه .

وقال العورى : أى : لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم^(٩٠) .

إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ . أَيْ : مَا أُرِيدُ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ، وَمَحَارِبَةِ الْمُنْكَرِ : إِلَّا إِصْلَاحَ نَفُوسِكُمْ بِالْتَّزْكِيَةِ ، وَالتَّهْيِئَةِ لِقَبُولِ الْحِكْمَةِ ، مَا دُمْتُ مُسْتَطِيعًا مَتَمَكِّنًا مِنْهُ .

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ . وَمَا تَوْفِيقِي لِإِصَابَةِ ذَلِكَ فِيمَا أَسْتَطِيعُهُ مِنْهُ إِلَّا بِحَوْلِ اللَّهِ ، وَقُوَّتِهِ ، وَفَضْلِهِ ، وَمُعَوْنَتِهِ ، وَأَعْلَاهَا مَا خَصَّنِي اللَّهُ بِهِ دُونَكُمْ مِنْ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ^(٨٧) .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . فِي آدَاءِ مَا كَلَفْنِي مِنْ تَبْلِيغِكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ ، لَا عَلَى حَوْلِي وَقُوَّتِي .

وَأَلَيْهِ أُيِّبُ . أَيْ : وَلِلَّهِ وَحْدَهُ أَرْجِعُ فِي كُلِّ مَا نَابَنِي مِنَ الْأُمُورِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِلَى الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِي فِي الْآخِرَةِ ، فَأَنَا لَا أَرْجُو مِنْكُمْ أَجْرًا ، وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ ضَرًّا .

وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَأْتِي :

رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنْيَ تَعْرِفُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَلِينَ لَهُ أَشْعَارَكُمْ وَأَبْشَارَكُمْ ، وَتَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْكُمْ قَرِيبٌ ؛ فَأَنَا أَوْلَاكُمْ بِهِ ، وَإِذَا سَمِعْتُمُ الْحَدِيثَ عَنْيَ تَنْكَرُهُ قُلُوبُكُمْ ، وَتَنْفَرُ مِنْهُ أَشْعَارُكُمْ وَأَبْشَارُكُمْ وَتَرَوْنَ أَنَّهُ بَعِيدٌ . فَأَنَا أَبْعَدُكُمْ مِنْهُ » .

٨٩- وَيَقُولُ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يَصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ .

أَيْ : لَا تَحْمِلْنَكُمْ عِدَاوَتِي وَيَغْضَى ، عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسَادِ ؛ فَيَصِيبُكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ مِنَ النَّقْمَةِ ، وَالْعَذَابِ^(٨٨) .

وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ .

أَيْ : إِذَا كُنْتُمْ لَمْ تَتَعَذَّلُوا بِمَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ غَرَقٍ ، وَبِمَا أَصَابَ قَوْمَ هُودٍ مِنْ رِيحٍ دَمَرَتْهُمْ ، وَبِمَا أَصَابَ قَوْمَ صَالِحٍ مِنْ صَيْحَةٍ أَهْلَكَتْهُمْ ، فَاتَعَذَّلُوا بِمَا أَصَابَ قَوْمَ لُوطٍ مِنَ الْهَلَاكِ ؛ وَهُمْ لَيْسُوا بِبَعِيدِينَ عَنْكُمْ لَا فِي الزَّمَانِ وَلَا فِي الْمَكَانِ .

فَزَمَنَ لُوطٌ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْ زَمَنِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَدِيَارَ قَوْمِ لُوطٍ قَرِيبَةً مِنْ دِيَارِ قَوْمِ شُعَيْبٍ ؛ إِذْ مَنَازِلُ مَدِينٍ عِنْدَ أُيْلَةٍ بِجَوَارِ مَعَانَ مِمَّا يَلِي الْحِجَازَ ، وَدِيَارَ قَوْمِ لُوطٍ بِنَاحِيَةِ الْأُرْدُنِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَيِّتِ^(٨٩) .

٩٠- وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ...

أي: اطلبوا منه المغفرة لما أنتم عليه من الشرك والمعاصي، وتوبوا إليه. بالتوحيد أو الرجوع عن تطفيف الكيل والميزان.

إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ. فهو سبحانه واسع الرحمة والمغفرة، عظيم المودة والقبول للمتائبين والراجعين إليه، فما أعظم فضله، وما أوسع باب رحمته! وصدق الله العظيم: قُلْ يُعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. (الزمن: ٥٢).

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْفَوْرٌ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْفَوْرٌ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الْآبَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ نَعْمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

المفردات:

ما نفقه كثيرًا مما تقول، ما نفهم مرادك، والفقه: الفهم الدقيق المؤثر في النفس.

رَهْطُكَ، رَهط الرجل: قومه وقبيلته، والرهط: الجماعة من الرجال خاصة، من ثلاثة إلى تسعة.

لَرَجَمْنَاكَ، لقتلناك بالرمي بالحجارة.

بِعَزِيزٍ، بذى عزة ومنعة.

وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا، تركتموه وراء ظهوركم، والمراد: أعرضتم عنه ونسيتموه.

محيطاً ، أحاط علمه بكل شيء وأحصاه ؛ فلا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم .

اصموا على مكافئكم ، على غاية تمكّنكم من أمركم ؛ وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال : مكُن مكانة : إذا تمكّن أبلغ تمكّن .

وارتقبوا ، وانتظروا عاقبة ما أقول .

الصيحة ، صيحة العذاب .

جاثمين ، باركين على الركب ، من الجثوم ، وهو للناس بمنزلة البروك للإبل .

كان لم يغتوا فيها ، كأن لم يقيموا فيها ، يقال : غنى بالمكان يغنى ، أى : أقام به وعاش فى نعمة ورغد .

ألا بهـ ، ألا هلاكاً .

التفسير :

٩١- قَالُوا يَنْشُئُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ... الآية .

حاول شعيب بيان دعوته وإصلاح قبيلته ؛ وبين لهم بالحجة ، والموعظة الحسنة : الدعوة إلى عبادة الله ، وعدم تطغيف الكيل والميزان ؛ لكن قومه رفضوا دعوته ، وادعوا : أنها غريبة عليهم ثقيلة على مسامعهم ، خافية فى فهمها على عقولهم ، ومرادهم بذلك : الاستهانة بها ، والإعراض عنها ، ولما عجزوا عن محاجته هددوه باستعمال القوة حين قالوا : أَيْ : وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِيْنَا ضَعِيفًا . أى : لا قوة لك ولا قدرة على شيء من النفع والضّر ، ولا تستطيع أن تمتنع منّا ؛ إن أردنا أن نبطش بك .

وَلَوْلَا هَٰؤُلَٰئِكَ لَرَجَعْتُكَ . أى : ولولا عشيرتك الأقربون ؛ لقتلناك رجماً بالحجارة ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك هى التى منعتنا من ذلك .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ . وما أنت بذى عزة ومنعة ، تحول بيننا وبين رجلك بالحجارة .

٩٢- قَالَ يَنْفُومُ أَرْهَطِيْ-أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ...

أى : أنتركونى من أجل قومى ، ولا تتركونى إعظاماً لجناح الربّ تبارك وتعالى ، الذى خلقكم ورزقكم ، وأرسل إليكم رسولا منكم ؟ وإهانة هذا النبى أو رجمه يؤدى إلى هلاككم .

وَاتَّخَذْتُمُوهُ زُرَّاءَ كُمْ ظُهِيراً . أئى : واستخففتكم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم ، لا تطيعون أمره ، ولا تخافون عقابه ، ولا تعظمونه حق التعظيم .

إِنْ رَأَىٰ يَمَانٌ يَعْمَلُونَ مُحِيطًا . إن ربى مطلع على أعمالكم ، ولا يخفى عليه شئ من أفعالكم ، وسيجازيكم عليها ، وأما رهطى فلا يستطيعون لكم ضراً ولا نفعاً .

٩٣- وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ... الآية .

أئى : اعملوا ما شئتم بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وابدلوا جهداً فى عداوتى ؛ فإن ذلك لن يثنيبنى عن دعوتى ويقينى برئى وخالقى .

إِنِّى عَلِيمٌ . على مكانتى ، على قدر ما يؤيدنى به ربى ، من وسائل التأييد والتوفيق .

سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِمَّنْ ثَبَّاهُ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ . أئى : سوف تشاهدون وتعلمون علم اليقين : من الذى سيأتيه عذاب يذله ويخزيه بالهوان والمذلة ، أنا أم أنتم ، ومن هو كاذب فى قوله ، ومن هو صادق منى ومنكم .

وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَعْكُمْ رَسُولًا . أئى : انتظروا عاقبة تكذيبكم وسوء أفعالكم ؛ إننى منتظر عاقبة أمركم ومراقب لها ، وفيه ألوان من التهديد والوعيد من رسول واثق بنصر الله ، وهلاك المكذبين .

٩٤- وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِّنَا شُعَيْبًا وَآلِدِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ...

أئى : ولما جاء أمرنا بعدابهم ، نجينا رسولنا شعيباً والذين آمنوا معه ، فصدّقوه وفازوا بالإيمان الصادق والطاعة الخالصة ، وفازوا بالنجاة من الهلاك ؛ برحمة خاصة بهم .

وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئْرِهِمْ جَثَمِينَ . أئى : صاح بهم جبريل صيحة نزلت بهم فأهلكتهم ؛ فأصبحوا من شدة الرعب جاثمين على ركبهم ، هالكين لا حراك بهم .

قال ابن كثير :

ذكر ههنا : أنه أتتهم صيحة ، وفى الأعراف : رجفة ، وفى الشعراء : عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة: اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ؛ فى الأعراف

لما قالوا : لَمَخِرْ جَنَّتْ يَدُ شُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ... ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا : إخراج نبيهم منها ، وهنا لما أساءوا الأدب في مقاتلتهم على نبيهم ؛ ذكر الصيحة التي استلبتتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا : فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قال : فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

وهذا من الأسرار الدقيقة ، والله الحمد والمنة كثيرا دائما^(٩٧) .

٩٥- كَأَن لَّمْ يَخْشَوْا فِيهَا . كأنهم لم يقيموا فيها متصرفين في أطرافها ، متقلبين في خيراتها .

أَلَا بُعْدًا لِمَنْ لَمْ يَخْشَ كَمَا بُعِدَتْ نَمُودٌ . أى : هلاكاً لهم ، وبُعْدًا من رحمة الله ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته ، وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار ، وشبيها بهم فى الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عرباً مثلهم^(٩٨) .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا فِرْعَوْنَ وَمَأْمُورَ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿١٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَمْرُودُ ﴿١٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَتَسَّ الْأَوْرَدُ الْمَمْرُودُ ﴿١٩﴾﴾

المضردات :

بآياتنا ، هى الآيات التسع التى أعطاهها الله لموسى عليه السلام معجزة دالة على صدقه ، والمذكورة فى سورة الأعراف / ١٣٣ ، والإسراء / ١٠١ ، والنمل / ١٢ .

وسلطان مبين ، حجة بالغة ودليل قاطع بصدق رسالته .

وملئنه ، وأشرف قومه الذين يملئون العين مهابة .

يقدمهم قومه ، يتقدمهم ويسير أمامهم إلى النار .

فأوردتهم النار ، تسبب فى دخولهم إلى النار .

ويتس النار المورود ، ويتس المكان الذى يردونه - النار -- .

وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً، أَيْ : وجعلت اللعنة تتبعهم .

بنس الرهد المرهود، بنس العون المعان أو العطاء المعطى ، والمخصوص بالذم محذوف ، أَيْ : رقدهم ، وهو اللعنة فى الدارين .

تمهيد :

سأقت السورة فى طياتها جانباً كبيراً من القصص حسب التسلسل التاريخى - فذكرت قصة نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وأخيراً هنا نجد قصة موسى مع فرعون . وموسى عليه السلام هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ، ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن ١٣ ق.م ؛ وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس .

التفسير :

٩٦- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

أَيْ : تالله لقد أرسلنا موسى بالآيات والمعجزات التسع الباهرة ، الدالة على توحيد الله ، وفيها السلطان الواضح الجلى ، أَيْ : الدلالة القاطعة المؤيدة بالحس المشاهد ، على صدق رسالته .

الآيات التسع

الآيات التسع هى :

١- العصا تبطل حبال السحرة .

٢- اليد يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء بياضاً يغلب ضوء الشمس .

٣- الطوفان . ٤- الجراد . ٥- القمل . ٦- الضفادع . ٧- الدم .

قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْأَلَمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ .. (الأعراف: ١٣٣).

٨، ٩- الأخذ بالنسنيين ، والنقص فى الثمرات ، قال تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسَّيِّئِ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . (الأعراف: ١٣٠) .

ومن المفسرين من أبطل بنقص الثمرات والأنفس : إظلال الجبل ، وقلق البحر .

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . كما أيدناه بالحجج البالغة ، والبيان الساطع أثناء دعوته إلى الإيمان ،

حين قال فرعون : **فَمَنْ رَبُّكُمْ يَمُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ * قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ * كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لِأَوَّلَىٰ الْآخِرَىٰ.**
(طه: ٤٩ - ٥٤).

٩٧- **إِنِّي فِرْعَوْنُ وَمَلَأِيهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ... الآية .**

أى : أرسلنا موسى إلى فرعون وسادات قومه ، وخصَّهم بالذكر ؛ لأن الأمر بيدهم ، ولأنهم كانوا مع فرعون قوة قادرة مهمينة جبَّارة : ترفض الإيمان ، وتغري الأتباع أن يكفروا بموسى ورسالته ، ويتبعوا فرعون مع جهله ويطشه ، وسوء سلوكه ، حيث جعل من نفسه إلهاً ، وظلم وتجبر ، ثم شايعه قومه واتبعوا أمره .

وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . أى : ما شأنه وتصرفه بذى رشد وهدى ؛ بل محض الغى والضلال ، والظلم والفساد ، فى غروره بنفسه وكفره بربه ، وطمغيانه فى حكمه .

٩٨- **يَفْقَهُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ .**

لقد كان يقودهم فى الدنيا ، ويتبعونه مع ظلمه ويطشه وكفره ، وكأن الله تعالى يقول لهم ، خلقت لكم عقولا وإرادة وكسبا واختيارا ، فألغيتم عقولكم ، وسرتم وراء فرعون الظالم فى الدنيا ، وجعلتموه متقدما عليكم ، وأنتم تابعون له ، فإذا كان يوم القيامة ، فإنه يتقدم عليكم ؛ ليصل إلى النار فيدخلها ، وتدخلون وراءه إلى النار .

جاء فى ظلال القرآن :

فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ . أوردهم كما يورد الرأعى الغنم ، ألم يكونوا قطيعاً يسير بدون تفكير ؟! ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار ؟!

وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ . أى : بئس الورد الذى يردونه : النار ؛ لأن الورد - وهو النصيب من الماء - إنما يراد ؛ لتسكين الظم ، وتبريد الكبد ، والنار على الضد من ذلك .

٩٩- وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ نَسِ الْأَرْفُذَ الْمَرْفُودَ .

أى : واستحق آل فرعون اللعنة فى الدنيا ؛ بسبب كفرهم وإيثارهم العاجل على الآجل ؛ وأما يوم القيامة فإن آل يطردهم من رحمته ، ويحرمهم من جنته ورفده وعطائه ؛ فيبس العطاء عطائهم ، ويبس الجزاء جزائهم ؛ حيث يقول سبحانه : وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد: ١٥) .

وسمى ذلك : رَفْذًا وعطاءً : تهكمًا بهم ، فالإنسان ينتظر العطاء ؛ لينعم به ، ولكن هؤلاء يعطون الحميم والغسلين ، وتنزل عليهم اللعنة فى الدنيا والآخرة .

وفى ختام هذه القصة نجد عبرة وعظة تتمثل فى الآتى :

١- وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ؛ فكل نبي قال لقومه : آغْبُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

٢- الناس فى كل زمان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق .

٣- العاقبة للمتقين والنجاة للمؤمنين والهلاك للكافرين .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَلَيَّبٌ ۝١٠١ وَكَذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذْنَاهُ ۝١٠٢ أَلَيْسَ شَدِيدٌ ۝١٠٣ ﴾

المفردات :

ذَٰلِكَ : النبا المذكور سابقا .

من أنباء القرى : المهلكة .

قائِمٌ : منها باق ؛ كالزراع القائم ، وهلك أهله دونه .

وحصِيدٌ : أى : ومن القرى ما زال أثره وهلك بأهله ؛ فلا أثر له كالزراع المحصود بالمناجل .

تَتَلَيَّبٌ : إهلاك وتخسير ، يقال : تَبَّ ، يَتَبُّ تَبًّا : هلك ، وتببه تتليباً : أهلكه .

أَخَذْنَا مِنْكَ : إهلاك ربك إياهم .

أليس شديدٌ : شديد الإيلام ، غير مرجو الخلاص منه ، وهو مبالغة فى التحذير والتهديد .

تمهيد :

ذكر الله تعالى فى هذه السورة قصص الأنبياء مع الأمم السابقة فى ترتيب بديع ، وتنسيق للحوار والمواقف ، وبيان لجهاد الرسل وتكذيب أقوامهم وقد مر بنا ذكر سبع من هذه القصص : قصة نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وموسى عليهم السلام .

ثم تأتى هذه الآيات لبيان عاقبة الظالمين وسنن الله فى نصر المؤمنين ، وإهلاك المكذبين .

التفسير :

١٠٠ - ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ .

هذا الذى قصصناه عليك فى هذه السورة من أخبار الأمم السابقة ، وأنباء القرى المهلكة .

منها . من هذه القرى المهلكة ما هو قائم على عروشه ومبانيه ؛ فلا زالت آثارها قائمة يراها الناظر إليها كأثار قوم ثمود ، ومن هذه القرى ما انطمرت معالمه ، وعقت آثاره ، وصارت كالزرع المحصول الذى استوصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كقرى قوم نوح وقوم لوط .

١٠١ - وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ... الآية .

أى : أن الله لم يظلم هذه القرى المهلكة ، ولم يهلكهم بدون وجه حق ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم؛ فساروا وراء شهواتهم ، وكذبوا رسل الله وأنبياءه ، وتجاوزوا الحق والعدل ؛ فى شركهم وعبادتهم للأصنام والأوثان ، فاستحقوا الهلاك والعقاب .

فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . فما دفعت عنهم آلهتهم العذاب ، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله شيئاً من النفع ، بل هى لم تنفع نفسها ؛ فقد اندثرت معهم كما اندثروا .

لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ . لما جاء عذابه وهلاكه ، وأصبحوا فى ميسيس الحاجة إلى نفع هذه الأصنام وشفاعتها ؛ لم يجدوا منها جلب منفعة ولا دفع مضرة .

وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا تَبْيِيسٌ . أى : وما زادتهم الأصنام التى كانوا يعبدونها ؛ إلا هلاكاً وخسراناً ، وقد كانوا يعتقدون أنها تعينهم على تحصيل المنافع .

١٠٢- وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

أى : ومثل ذلك الأخذ بالعذاب الذى مر بيانه ، وكما أهلكنا القرى الظالمة الذين ظلموا رسل الله وأنبياءه ، كذلك نفعل بأشباههم فنهلك الظالمين : تطهيراً للأرض من الظلم والعدوان .

إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . إن عقاب الله وجيع مؤلم لا يرجى منه الخلاص ، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظلم .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

روى الشيخان : عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ليملى للظالمين ^(١) حتى إذا أخذهم لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

★ ★ ★

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّسْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ سَفَوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِن قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴿

المفردات :

لَايَةٌ : لعلبة وعظة .

خفاف عذاب الآخرة ، أى : يعتبر بتلك القصص من خاف عذاب الآخرة .

مجموع له الناس : يجمع له الناس للحساب والجزاء .

مشهد — هود : كثير شاهده من الملائكة والرسل وسائر البشر .

لأجل معدود، لانقضاء مدة معدودة متناهية .

فمنهم : من الخلق أهل الموقف .

شتموا ، كانوا أشقياء بكفرهم ومعاصيهم .

زهير وشهيق ، الزفير : إخراج النفس من الصدر ، والشهيق : إدخاله فيه ، والمراد : تلاحق .

أنفاسهم في النار من شدة العذاب .

إلا ما شاء ربك ، استثناء من الخلود في النار : لأن بعضهم كفساق الموحدين يخرجون منها .

غير مجدود ، غير مقطوع . يقال : جدّه جدًا ، أى : قطعه .

في مريّة ، في شك .

تصيبهم غير منقوص ، جزاءهم كاملا .

التفسير :

١٠٣- **إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ... الآية .**

إن في هذا الذى ذكر من قصص الأمم السابقة ، وما أصاب المكذبين من الهلاك ، لعظة وعبرة للذين يخافون عذاب الآخرة ؛ فيحملهم ذلك الخوف على سلامة النظر ، وحسن الاعتبار ، وسرعة الاستجابة إلى دعوة الحق .

ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ .

ذلك اليوم يوم الحساب والجزاء فى الآخرة ، يوم يجمع فيه الناس جميعاً ، أولهم وآخرهم ؛ ليحاسبوا على أعمالهم ، ثم يجازوا عليها ، كقوله تعالى : **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .** (الكهف: ٤٧) .

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . أى : تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر فيه الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .

١٠٤- **وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ .**

أى : وما تؤخر إقامة القيامة ؛ إلا لانتهاى مدة محدودة فى علمنا ، لا يزداد عليها ولا ينقص منها ، وهى عمر الدنيا ؛ لإعطاء الفرصة الكافية للناس لإصلاح أعمالهم ، وتصحيح عقيدتهم ، قال تعالى : **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ لَأَعْلَلْ لَكُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَكُم مَّوعِدٌ لَّنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مُوْتَلًّأ .** (الكهف: ٥٨) .

١٠٥- يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ...

أى : يوم يأتى هذا اليوم ، ويعرض فيه الناس على ربهم ؛ لا تملك نفس من أمرها شيئاً ، فلا تنطق بكلمة حتى يؤذن لها من الله سبحانه ؛ وذلك لهول الموقف . قال تعالى : يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا . (النبا : ٢٨) .

لقد خضع الجميع لعدل الجبار ، وسكنت كل نفس ، قال تعالى : وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٨) .

وينقسم الناس إلى قسمين : طائع لله فى الدنيا ؛ فهذا هو السعيد ، وعاص كافر ؛ فهذا هو الشقى .
فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ . أى : فمن أهل هذا الجمع فى ذلك اليوم : شَقِيٌّ ، معذب ؛ لكفره وعصيانه ، ومنهم : سَعِيدٌ ، منعم فى الجنان ؛ لطاعته واستقامته قال تعالى : كَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَكَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . (الشورى : ٧) .

١٠٦- فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ رَبَّهُمْ فِيهَا رَبِّهِمْ أَسْفِهُوا .

هؤلاء الأشقياء تنقطع أنفاسهم من هول ما يعانون من عذاب النار ، فالزفير : خروج الهواء بشدة وكرب ، والشهيق : استنشاق الهواء بشدة وكرب فمن نزل به مكروه ، أو ركض ركضاً متتابعاً ، أو صعد فى طبقات الجو العليا ؛ صار صدره ضيقاً حرجاً ؛ يحتاج إلى شهيق متتابع ، وزفير متتابع ؛ ليعوض نقص الأكسجين . والمقصود : تلاحق أنفاس الأشقياء بالزفير والشهيق ؛ من حرج صدورهم ، وبشدة كربهم ، وبأسهم من النجاة .

قال الآلوسى :

« والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق ؛ حتى صار فى كرب شديد » . اهـ .

١٠٧- خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

أى : ماكتون فى النار على الدوام مدة بقاء السماوات والأرض ، والمراد : التأبيد ونفى الانقطاع ، على سبيل التمثيل ، كقول العرب : لا أفعل هذا ما لاح كوكب ، وما تغنت حمامة ، وما أضاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار .. إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم .

والمعروف أنه إذا جاء يوم القيامة ؛ اضمحل نظام الكون ؛ فانشقت السماء على غلظها ، وامتدت الأرض وألقت ما بداخلها ، قال تعالى : **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** .
(إبراهيم : ٤٨)

ويجوز أن يكون المراد : إن أهل الجنة خالدون فيها فى إقامة دائمة خالدة ؛ مادامت سماوات الآخرة وأرض الآخرة قال تعالى : **وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَبِئًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ** . (الزمر : ٧٤) .

ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلمهم ويظلمهم ، وكل ما أظلك فهو سماء ، قال ابن عباس : لكل جنة أرض وسماء .

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ .

تعددت آراء المفسرين فى تفسير هذا المقطع من الآية ومن هذه الآراء ما يأتى :

أولاً : إن هذا الخلود فى النار للأشقياء ليس أمراً واجباً بذاته ؛ بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فكل شيء فى الكون بإرادته سبحانه ومشيئته . قال ابن جرير الطبرى : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف شيئاً بالديموم أبداً ؛ قالت : هذا دائم دوام السماوات والأرض ، ويقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار .

ثانياً : المراد بالذين شقوا : الكفار ، وأهل التوحيد من أهل الكبار ؛ فيخلدون فى النار ويمكثون فيها مكثاً طويلاً إلا ما شاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة . أى : العصاة من المؤمنين^(١٠) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

إن الاستثناء **إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ** . عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين ، من الملائكة والنبیین والمؤمنين ؛ حيث يشفعون فى أصحاب الكبار ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط . وقال يوماً من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً ، فى تفسير هذه الآية الكريمة^(١١) .

وجاء فى زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ما يأتى :

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . من تأخير قوم عن ذلك ، وقيل : إلا العصاة من المؤمنين فيخرجون منها ، ويبقى فيها الكفار .

وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواتراً يفيد العلم الضروري : بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصاً لكل عموم .

ثالثاً : ذكر القرطبي أحد عشر وجهاً في تفسير الآية ، ونقل القرطبي في الوجه الرابع في تفسيره لها : عن ابن مسعود أنه قال : خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ . لا يموتون فيها ولا يخرجون منها : إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . وهو أن يأمر بالنار فتأكلهم وتغنيهم ، ثم يجدد خلقهم : ليتجدد تعذيبهم . اهـ .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .

(النساء : ٥٦)

إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ .

يصنع في الدنيا والآخرة ما يشاء ؛ فلا يمنعه أحد من العفو عن عصاة المؤمنين ، بعدما عذبوا على ذنوبهم .

وجاء في زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني ما يأتي : عن عمر قال : لو لبث أهل النار في النار قَدَرُ رمل عالج ؛ لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه . والله أعلم .

١٠٨ - وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَلَئِنْ خَلِّدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُورٍ .

ذكر سبحانه جزاء الأشقياء فيما سبق ، وفي مقابل ذلك ذكر جزاء من أسعده الله بالإيمان والعمل الصالح واتباع ما جاءت به الرسل - هؤلاء السعداء في الجنة خالدين فيها خلوداً أبدياً سرمدياً مدة بقاء السماوات والأرض .

إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . إلا الوقت الذي يشاء سبحانه فيه ؛ أن يكون لهم موعداً عند ربهم ؛ حيث يحلّ عليهم رضوانه ، ويشملهم بفضله . قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ . (يونس : ٢٦) .

أى : للذين آمنوا الجنة ، ثم الزيادة هي رضوان الله عليهم ، أو رؤية الله تعالى في الآخرة رؤية منزهة عن الكم والكيف ، فنحن نؤمن بها ونفوض المراد منها إلى الله - وبعض المفسرين أنكروا هذه الرؤية : تنزيهاً لله تعالى عن مشابهة الحوادث ، وبين الفريقين نقاش طويل يلتمس في موطنه .

ومعنى الاستثناء: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . إلا الوقت الذى ينقلون فيه من نعيم الجنة ، إلى ما هو أعلى منه من الفوز بروضان الله الذى هو أكبر من الجنة قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ٧٢) . ولهؤلاء السعداء أيضًا ما يتفضل الله به عليهم ؛ سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه ، وفيها ما تشتهيهِ الْأَنْفُسُ وتُلَدُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزخرف: ٧١) .

عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ . عطاء غير منقطع ولا ممنوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية ، كقوله تعالى : لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . (الانشقاق: ٢٥) .

قال ابن كثير :

« الاستثناء هنا فى قوله تعالى : إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ . معناه : أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل هو موكل إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد ، كما يلهمون النَّفْسَ^(١٢) » اهـ .

ويمكن أن نستنبط من التعبير بالمشيئة هنا ما يفيد : أن نعيم الجنة تَفَضُّلٌ من الله على عباده ، وجزاء زائد ، ومِنَّةٌ من الخالق للفعال لما يريد .

روى البخارى ومسلم والنسائى : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته »^(١٣) .

وجاء فى الصحيحين : «يُوتَى بالموت فى صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار ، خلود فلا موت»^(١٤) .

وفى الصحيح أيضاً : «فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبداً»^(١٥) .

٩ ١ - فَلَا تَكُ فِي مَرْتَبَةٍ مِمَّا يَعْذُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْذُونَ إِلَّا كَمَا يَعْذُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ

مَنْقُوصٍ .

الخطاب هنا للرسول ﷺ : والمراد : من يتأتى منه الخطاب .

والمعنى : لا يتطرق إليك أيها الرسول ، شك في ضلال هؤلاء المشركين ، وأن عبادتهم للأصنام لا تقوم على حجة أو منطق ، بل يعبدون الأصنام ؛ تقليداً للآباء بدون تعقل أو روية .

وإن زعموا : بأنهم يعبدونها ؛ لأنها تقربهم إلى الله زلفى فهو زعم باطل ؛ لأن الأصنام لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ؛ فكيف تملكهما لغيرها ؟!

وَإِنَّا لَمُؤْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ .

أى : وإننا لمجازوهم على عقائدهم الباطلة ، وأعمالهم الفاسدة جزاء كاملا غير منقوص ، كما جازينا الأمم السابقة .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهذه الفقرة : بيان عدالة الله تعالى فى حق الكفار ، فيوفيهم ثواب أعمالهم الحسنة فى الدنيا ؛ فيكون معنى : وَإِنَّا لَمُؤْفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ . أى : إنهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحق ، فإننا موفوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية اهـ .

والأرجح : وإننا لموفوهم نصيبهم من العذاب كاملا ، وربما كان الكل مراداً ، والله أعلم .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْلَفَ فِيهِ ۖ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِلَهُهُمُ إِلَهٌ مُرْسٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَيُؤْفِقَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

المضردات :

الكتاب : التوراة .

فاختلف فيه : بالتصديق والتكذيب فأمّن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف مشركو مكة فى القرآن .

ولولا كلمة سبقت من ربك : لولا وعد سبق من ربك : بتأجيل العذاب حتى حين يعلمه .

شك منه مرّيب : شك مزعج محير مقلق .

تهديد :

كان فى قصص الأنبياء السابقين عبرة وعظة ، فقد سخر قوم نوح من نبيهم ، وكفروا بدعوته فأغرقوا ، وتوالت الرسل من بعدهم ، ومع كل رسول حجة وبينة وبيان ، ويقابله قومه بالجدود والنكران ، ثم يستمر الرسل فى جهادهم وبيانهم ، وتحدى أقوامهم ؛ وفى النتيجة هلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين . وهنا يذكر القرآن أهل مكة أيضاً بقوم موسى الذين اختلفوا فى التوراة بين مؤمن وكافر ؛ فعاقبهم الله وجازاهم ؛ بسوء أعمالهم .

التفسير :

١١٠- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ... الآية .

تأتى هذه الآية : تسلياً للرسول ﷺ بأن خلاف قومه عليه لم ينفرد به ؛ بل هو الشأن فى جميع أمم المرسلين ، وضرب له مثلاً بقوم موسى حين اختلفوا عليه .

ومعنى الآية :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ...

أى : كما اختلف قومك يا محمد بشأن القرآن ؛ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، كذلك اختلف بنو إسرائيل بشأن التوراة ظلاماً وبغياً ، وتنازعاً على الزعامة والمصالح المادية ؛ فأمن بالتوراة قوم وكفر بها آخرون .

وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ .

أى : لولا سبق القضاء بتأخير العذاب إلى أجل مسمى ؛ لقضى بينهم فى الدنيا ؛ بإهلاك الغصاة وإنجاء المؤمنين ، كما حدث لأمم آخرين .

وتلك كلمة الله العليا فى إمهال العصاة والكافرين ؛ رجاء توبتهم ورجوعهم إلى باب الله تعالى : قال تعالى : وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبْتُمْ لَغَلَّ الْعَذَابُ لَكُمْ لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْلاً . (الكهف : ٥٨) ، وقال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرٍهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا . (فاطر : ٤٥) .

وَاللَّهُمَّ لَفَىٰ شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ .

وإن قومك يا محمد لفى شك من القرآن ، موقع فى حيرة لهم ، ولو أنصفوا ؛ لبادروا إلى الإيمان به ؛ فإن مبعث ريبهم هو استمساكهم بدين الآباء ، وتعصبهم له ، وعدم إصغائهم إلى الرسول الناصح الأمين .

وبعض المفسرين أعاد الضمير فى هذه الفقرة إلى قوم موسى؛ إذ هم المختلفون فى الكتاب الشاكّون فى التوراة كما قال تعالى: **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَقَدْ شَكُّ مِنْهُ مُرِيبٌ**. (الشورى: ١٤) والذين أورثوا الكتاب هم: اليهود والنصارى.

وقيل: يعود الضمير على المختلفين فى الرسول من معاصريه والمختلفين فى التوراة من بنى إسرائيل.

قال ابن عطية: « وأن يعمهم اللفظ أحسن عندى وهذه الجملة من جملة تسليته **وَلَا تَسْتَوِي** ».

من تفسير فتح القدير للشوكاني:

قال الشوكاني: قوله سبحانه: **وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ**. أى: لولا أن الله تعالى قد حكم بتأخير عذابهم، إلى يوم القيامة؛ لما علم فى ذلك من الصلاح: **لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ**. أى: بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فأثيب المحق، وعُذّب المبطل، أو الكلمة هى: أن رحمته سبحانه سبقت غضبه: فأمهّلهم ولم يعاجلهم لذلك.

وقيل: إن الكلمة هى: أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال، وهذا من جملة التسلية له **وَلَا تَسْتَوِي**.

١١١- **وَإِنْ كُنَّا لَأَيُّؤُنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**.

وإن كلا من المؤمنين والكافرين، المختلفين فى كتاب الله، ليؤفّقهم الله جزاء أعمالهم، وما وعدوا به من خير أو شر، فهو سبحانه عليم بما يعمله المحسنون والمسيئون خبير بشك الشاكّين وريب المتردّدين، مطلع على خفايا النفوس، فهو قاضٍ عادل، محيط بالحيثيات والضمائر، بصير بالخفايا، مطلع على السرائر، فهو أهل للحكم العادل، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**. (النساء: ٤٠).

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾
وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا نَسَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

المضردات :

فاستقم كما أمرت ، فُتد ما أمرناك به دون ميل عنه بزيادة أو نقص .
ولا تطغوا ، لا تتجاوزوا الحد الذي أمرتم به ، وذلك بالإفراط أو التفريط .
ولا تتركبوا ، أى : لا تميلوا إليهم أدنى ميل ، والركون : الميل اليسير .
إلى الذين ظلموا ، لا تميلوا إلى الظالمين بمودة ، أو مداينة ، أو رضى بأعمالهم .

التفسير :

١١٢- فَاِسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

الزم أيها الرسول ﷺ طريق الاستقامة على أمر الله ، والالتزام بأوامره ، واجتناب نواهيه ، أنت ومن آمن بك ، وصدق دعوتك ، ولا تحيدوا عن الحق ، ولا تميلوا عن أوامر الشرع ؛ إن الله تعالى مطلع عليكم ، بصير بأعمالكم ، خبير بنوازع نفوسكم ، وسيجازيكم أعدل الجزاء .

وليس معنى الآية أنه ﷺ لم يكن مستقيماً ؛ بل معناها : دم على الاستقامة ، أنت ومن معك من المؤمنين ، واستمر عليها ، فمن أطاع الله ؛ يسر الله له أسباب النصر ، ولما نزلت هذه الآية : لزم النبي ﷺ الطاعة ، وشمر عن ساعد الجد ، بل وعجل عليه الشيب ، وقيل : أوانه .

أخرج الترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «شيبتنى هود والواقعة وأخواتهما»^(١٧) .

أراد قوله تعالى : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ : عن الحسن أنه قال : لما نزلت هذه الآية قال ﷺ : «شَمَرُوا شَمَرُوا» وما روى بعدها ضاحكا ، وعن ابن عباس : قال : ما نزلت على رسول الله ﷺ آية أشق من هذه الآية .

الاستقامة

هى السير المستقيم ، وهى التزام الجانب المعتدل فى الدين ، والسير على هدى القرآن وسنة الرسول الأمين ، وفى صحيح مسلم : عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : « قل أمنت بالله ثم استقم »^(٣٧) .

والدعوة إلى الاستقامة وتجنب الطغيان هدف تربوى ودليل علمى ، وصى به القرآن والسنة ؛ قال تعالى : فَلِللَّهِ قَادَعُ وَأَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . (الشورى : ١٥) ، وقال عز شأنه : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ . (فصلت : ٣٠-٣٢)

والاستقامة تتسع لتكون منهج حياة إسلامية متكاملة ؛ فتقتضى توحيد الله فى ذاته ، وصفاته ، والإيمان بالغيب من جنة ونار وبعث وحساب وجزاء ، وملائكة وعرش ، والالتزام ما أمر به القرآن فى نطاق العبادات والمعاملات ، وهى درجة عليا وعسيرة ، إلا على من جاهد نفسه ، وترتفع عن أهوائه وشهواته ، وقد أمر بها موسى وهارون بقوله تعالى : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (يونس : ٨٩)

الاستقامة واليسر

مما ييسر الاستقامة : الالتزام بتوجيه الله تعالى من فعل الواجبات ، وترك المحرمات ، قال تعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ . (المائدة : ٦) .

وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ويشروا ولا تنفروا »^(٣٨) .

وروى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشئ من الدلجة »^(٣٩) .

وكانت عبادة الرسول ﷺ وسطاً لا إفراط فيها ولا تفريط ، مراعاة للطاقة البشرية لأمته ، أخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : « كنت أصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصداً ، وخطبته قصداً »^(٤٠) .

١١٣- وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعِمَّكُمْ أَنَارُ ... الآية .

ولا تميلوا أدنى ميل إلى الظالمين ؛ بشاركتهم أو معاونتهم أو الميل إليهم بقلوبكم ؛ بل يجب بغض الظالم ، والبعد عنه . فإذا خالط الإنسان الظالم للضرورة . أو لتوجيهه وتحذيره ؛ فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى « وقد تضمنت الآية صراحةً : بيان عاقبة الركون إلى الظلمة ، وهى الإحراق بالنار ؛ بسبب مخالطتهم ومصاحبتهم ، ومما لآتهم على ما هم عليه ، وموافقتهم فى أمورهم والظلمة هم أعداء المؤمنين من المشركين ، أو كل ظالم ، سواء أكان كافراً أم مسلماً ؛ والرأى الثانى أصح ؛ لأن الأخذ بعموم الكلام أولى^(٧١) .

قال الشوكانى :

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَعِمَّكُمْ أَنَارُ .

والركون المنهى عنه هو : الرضا بما عليه الظلمة ، أو تحسين الطريقة وتزيينها عند غيرهم ، ومشاركتهم فى شئ من تلك الأبواب ، فأمّا مداخلتهم لرفع ضرر ، واجتلاب منفعة عاجلة ؛ فغير داخلة فى الركون^(٧٢) .

وقد حذر القرآن الكريم من الظلم ، والركون إلى الظلمة ، كما حذرت السنّة المطهرة من عاقبة الظلم ، وفى الحديث الشريف : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »^(٧٣) ، وفى الحديث القدسى الذى رواه الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ... »^(٧٤) .

وفى الحديث القدسى أيضاً يقول الله تعالى : « ثلاث لا أرد لهم دعوة ، دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم حتى يقطر ، ودعوة المظلوم ترفع فوق السماء ، ويفتح لها الحجاب ، ويقول الله تعالى : وعزتى وجلالى ، لأنصرك ولو بعد حين^(٧٥) .

ويقول الشاعر :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا	الظلم شيمته يدعو إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه	يدعو عليك وعين الله لم تنم

وجاء فى تفسير القاسمى :

« الآية أبلغ ما يتصور فى النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ؛ لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فىمن يركن إلى الذين ظلموا ؛ فكيف يكون حال من ينغمس فى حماة ؟ !» .

ثم قال : وقد وسَّع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو جلب الخير ، فلا حرج فى ذلك ، وإن كانت لإيئاسهم ، وإقرارهم على ظلمهم فلا

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ .

وليس لكم غير الله أنصار أبداً ينفعونكم ، ويمنعون العذاب عنكم حتى هؤلاء الذين ركنتم إليهم .

ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ . ثم لا ينصركم الله ، ولا تجدون من ينصركم ؛ لأن الله لا ينصر الظالمين ، قال تعالى : وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (البقرة: ٢٧٠) .

وقال سبحانه : وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ . (الحج: ٧١ ، فاطر: ٣٧) . فعلى المسلمين أن يعتمدوا على ربهم ، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وأن يحذروا هؤلاء الظالمين ، وأن يحولوا بينهم وبين الظلم ، قال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه ؛ يوشك أن يعصمهم الله بعقابه » . رواه الإمام أحمد وأصحاب السنن .

★ ★ ★

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

المقدرات :

طرفى النهار ، صباحاً ومساءً .

وزلفاً من الليل ، وساعات منه قريبة من النهار .

وزلفاً ، جمع زلفة ، وهو مشتق من أزلفة أى : قريبة .

التفسير :

١١٤ - وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ... الآية .

الصلاة عماد الدين ، من أقامها أقام الدين ، وهى صلة بين العبد وربِّه ، فيها يفتح الباب ، ويقف المؤمن أمام الله مناجياً ، داعياً متضرعاً ، فيغسل روحه وقلبه ، ويملأ نفسه بالدعاء والتضرع والإنابة إلى الله ، وينال وجبة روحية تغذى عواطفه ووجدانه ، وتريح أعصابه وتمده بزاوٍ روحى نافع .

ومعنى الآية :

وأُذِّ الصلوة بأركانها وشروطها فى طرفى النهار : الغداة والعشى ، فأما صلاة الغداة فهى صلاة الصبح ، وأما صلاة العشى فهى الظهر والعصر .

وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ . أى : وأقم الصلاة أيضاً فى ساعات من أول الليل ، وهى صلاة المغرب والعشاء ؛ وبهذا التأويل تضمنت الآية الكريمة الصلوات الخمس .

قال القرطبي :

لم يختلف أحد من أهل الإيمان فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها : الصلوات المفروضة .

وقد جاء فى آيات أخرى فى القرآن الكريم إشارات إلى جميع أوقات الصلاة :

١ - أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) .

٢ - وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى . (طه : ١٣)

٣ - فَسَبِّحْحَنَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ تَنْظُرُونَ . (الروم : ١٧ ، ١٨) .

إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّكِرِينَ .

حقت الآية هنا على عمل الحسنات ، والتنبيه إلى التوبة إلى الله بالندم على المعاصى ، والإقلاع عن الذنب فى الحال ، والعزم على البعد عن المعاصى فى المستقبل ، ويضاف إلى ذلك عمل الصالحات والقربات : فإن العمل الصالح يذهب أثر المعصية ، والصلوة وسائر العبادات والقربات تكفر السيئات وتذهب الآثام . فإذا أخطأ المؤمن ، وارتكب معصية أو ذنباً أو إثماً ؛ فعليه أن يتطهر ، وأن يصلى ، وأن يستغفر الله ويتوب إليه .

روى الإمام أحمد وأهل السنن : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من مسلم يذنب ذنباً ، فيتوضأ ، ويصلى ركعتين ؛ إلا غفر له»^(٣٧) .

وفى معنى الآية يقول الرسول ﷺ : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن»^(٣٨) . رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى .

سبب النزول :

روى الشيخان ، وابن جرير : عن ابن مسعود : أن رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً : فأتى النبي ﷺ فأخبره :
فأنزل الله : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُفَاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ : فقال الرجل : ألي هذه ؟ قال :
« لجميع أمتي كلهم » ^(٧٨) .

١١٥ - وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

ذكر الصبر في كتاب الله تعالى في سبعين موضعاً فالصبر نصف الإيمان ، والصبر من المؤمن بمنزلة الرأس من الجسد . من لا صبر له لا إيمان له ، ومن لا رأس له لا حياة له .

والمعنى : واصبر أيها الرسول الكريم ومن معك من المؤمنين ، على مشاق التكاليف التي كلفكم الله بها ، واصبر على المصائب والشدائد ، واصبر على البعد عن المعصية ومغرياتِها : فإن الله لا يَهْدِرُ ثواب المحسنين أعمالاً ، الصابرين على مراد الله وقدره ، وهذا دليل على أن الصبر إحسان وفضيلة .

قال تعالى : إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر : ١٠) .

في ختام الآيتين

نجد في الآيتين منهجاً تربوياً يأخذ بيد المسلم ، ويحث على التوبة وإقام الصلاة والمحافظة عليها ، ويبين : أن الحسنات والأعمال الصالحة ، ومنها : الصلوات الخمس وذكر الله تعالى ، وإخراج صدقة : يكفر الذنوب ويمحق السيئات ، وأن في القرآن الكريم موعظة وذكرى للذاكرين ، وأن الصبر على الصلاة ، والصبر على الطاعات ، والصبر على البعد عن المعاصي ؛ مما يقرب المؤمن من ربه ، ويجعله سالكاً في طريق الصالحين .

قال تعالى : وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ . (البقرة : ٤٥) .

وقال سبحانه وتعالى : وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَلَفَةُ لَتَفْؤَى .

(طه : ١٣٢) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا نَزَّلْنَا الْوَنُوحُفَيْنِ ﴿١١٨﴾ إِنْ أَرَادَ رَبُّكَ زَرْحَ رَبِّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ وَكَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

المضردات :

فلولا ، فهلاً .

الـقـرـونـ ، جمع قرن وهو مائة سنة ، والمراد هنا : أهلها من الأمم السابقة .

أولوا بقية : أصحاب بقية من العقل والرأى والتفكير ، وأطلق عليهم ذلك : لأنهم لا يجعلون بإبداء الرأى ، بل يبقونه حتى يمحضوه و يدركوا صوابه فيجهروا به .

ما اتترفوا فيه ، ما تنعموا به من الشهوات ، والمترف : المتنعم .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى أعقاب قصص الأمم السابقة ؛ لتبين أن سبب العذاب أمران :

الأول : أنه ما كان فيهم قوم أصحاب روية وعقل ينهونهم عن الفساد فى الأرض .

الثانى : أن الظالمين اتبعوا الترف والشهوات والإجرام ؛ فاستحقوا العذاب .

التفسير :

١١٦ - فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ... الآية

أى : هلا وجد من هذه الأمم المهلكة ، أصحاب عقل وروية وفكر ، يؤيدون الرسل وينصحون قومهم باتباعهم ، وينهون المفسدين عن الإساءة ، وعن فعل المنكر .

إن هؤلاء فى كل أمة دليل حيوياتها ، وسبيل بقائها ، وهم دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ من أمثال مؤمن آل فرعون الذى حضَّ قومه على الإيمان بموسى وعدم إيدائه .

بيد أن هؤلاء الدعاة لم يتواجدوا بكثرة ، بل وجد قليل منهم نَصَحُوا وأمنوا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ؛ فتجاهم الله مع المرسلين ، والآية تلقى اللوم على المكذبين ، وتحذر المسلمين أن يتهاونوا في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

إن القلة من العقلاء لم تستطع القضاء على الفساد ، ولكن الكثرة الظالمة انغمست في الترف والنعيم ، وأمعنت في الفساد والضلال ، وتابعت حلقات الشهوات والإجرام ؛ فاستحقت الهلاك والدمار .

١١٧ - وَمَا كَانَ رَبُّكَ يُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ .

إن الله تعالى عادل في حكمه وأفعاله ، ولا يظلم ريك أحداً ، ولو أن أهل القرى السابقة استقامت وأمنت؛ لفتح الله عليها بركات السماوات والأرض .

ومعنى الآية : ما صح ولا استقام عقلاً أن يهلك أهل القرى ظالماً لها ، وأهلها قوم مصلحون ؛ تنزيها لذاقة عن الظلم، وإيضاحاً بأن هلاك الظالمين كان قصاصاً عادلاً .

قال تعالى : وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . (هود : ١٠١) .

وقال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ كَذُوبًا فَأَعْتَدْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

١١٨ - وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ...

أى : ولو شاء ريك - أيها الرسول الكريم ، الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة ، مجتمعة على الدين الحق ؛ لجعلهم ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ولم يرده ، بل خلقهم وأودع فيهم العقل ، وأعطاهم الاختيار ، ووضع لهم الطريق ، وأقام الحجة بآيات الرسل ؛ حتى تكون عقيدتهم وعملهم بكسبهم واختيارهم وبذلك تكون هناك عدالة ؛ حيث يكون الجزاء من جنس العمل ، فمن اختار الهدى وأثر الباقية على الفانية ؛ فله حسن الجزاء ، ومن أثر الهوى والضلال ؛ جوزى من جنس عمله .

وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ .

أى : ولا يزال الناس مختلفين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل .

قال تعالى : وَلَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۚ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (الشمس : ٧ - ١٠) .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

١١٩ - إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّائِكَ خَلَقَهُمْ ...

إلا للمرحومين من أتباع الرسل ، الذين آمنوا بهم وصدقهم ، واتبعوا ما أمروا به ، وتركوا ما نهوا عنه ، وقد مدح الله أتباع محمد ﷺ بقوله : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ... (الأعراف : ١٥٧) .

وَلِلَّائِكَ خَلَقَهُمْ .

لقد خلقهم الله ومنحهم العقل والاختيار والإرادة ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ؛ ليختار الإنسان بكسبه ، واختياره الطريق الذى يريده ، ويتحمل مسئولية اختياره ، ولهذا الاختلاف خلقهم الله ؛ ليتمايزوا ويظهر الخبيث من الطيب .

قال تعالى : فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ . (الأعراف : ٣٠) .

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

أى : نفذ قضاء ربك ، وثبت حكمه ، الذى أكدته وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ومن عصاة الإنس أجمعين .

حكمة إلهية

شاء الله تعالى أن يختلف الناس في منازلهم ومشاربهم ؛ حتى يعمر الكون ، ولو أحبَّ الناس اسماً واحداً أو بلداً وسطاً واحداً ، أو مدينة معتدلة واحدة ؛ لضاق المكان بأهله .

ومن حكمة الله أن حبيب كل إنسان في عمله ومسلكه حتى يعمر الكون ولو هجر الناس جميعاً الحياكة ؛ لتعرَّى الناس ، ولو هجروا الفلاحة ؛ لجاع الناس ، ولو هجروا البناء ؛ لجلس الناس في العراء ، وتلك حكمة إلهية أرادها الله حتى يتم إعمار الكون ، فيكون هناك الملوك والأمراء ورجال السياسة ، ورجال القانون والاجتماع والأدب ، ورجال الحرف من زراعة وصناعة وتجارة ، وأقوام متفوقون ممتازون وآخرون دون ذلك ^(٨١) .

وشاء الله أن يختار أناس الهدى ويعملون الصالحات ، ويتسابقون في عمل الخير واتباع هدى المرسلين ؛ حتى يكونوا أهلاً للجنة والرضوان ، وشاء الله أن يختار أقوام الضلال والانحراف ، وأن يؤثروا العاجلة على الآجلة ، وأن يكونوا تابعين للشيطان في اقتراف المحرمات والبعد عن الطاعات ؛ وهؤلاء أهل النار وغضب الجبار .

قال تعالى : **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** . (ص : ٨٥) . وتكرر هذا المعنى في سورة الأعراف الآية ١٨ وسورة هود الآية ١١٩ وهو يشير إلى عدالة الله تعالى فما أدخلهم النار ظلماً ؛ ولكن ظلموا أنفسهم واتبعوا أهواءهم ، وساروا وراء الشياطين ؛ فجمع الله في جهنم أتباع إبليس من الجن ومن الإنس ، قال تعالى : **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** وهم أتباع إبليس من الجن والإنس .

من هدى السنة

وفي الصحيحين : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**اختصمت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم**» ^(٨٢) ، وقالت النار : **أؤثر بالمتكبرين والمتجبرين** ، فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء ، وقال للنار : أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول : هل من مزيد ، حتى يضع لها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط ^(٨٣) ، وعزتك ! » .

﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ
وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢٠) وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا
إِنَّا مُنظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ
عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

المضردات :

نقص : أخبرك به ، والقص : تتبع أثر الشيء للإحاطة والعلم ، ومنه قوله تعالى : وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ
قُصِّيهِ . (القصص : ١١) ثم أطلق على الإخبار ؛ لما فيه من تتبع الأحداث رواية .

أنباء : إخبار جمع : نبأ .

نشئت به فؤادك : نقوى ونطمئن .

هــ : هذه : السورة ، أو فى الأنباء المقصورة عليك .

اعملوا على مكانتكم : أى : على غاية تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، والأمر للتهديد .

التفسير :

١٢٠ - وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ ... الآية .

حفلت سورة هود بذكر عدد وافر من أعلام الرسل السابقين ، وفى ختام السورة يذكر الحق سبحانه
فوائد ذكر قصص المرسلين ، فيجمله فى أمرين :

الأول : تثبيت قلب الرسول ﷺ ، حين يشاهد أن هؤلاء الرسل الكرام فى تاريخ البشرية ، تعرضوا
للأذى ، وجاهدوا قومهم طويلا ، وصبروا وصابروا ؛ فيتأسى بهم ، ويتسلّى بتأريخهم وجهادهم ، ويشاهد
أنه لم يكن بدعا من الرسل ، وأن طبيعة الكافرين واحدة ، كأنهم تواصلوا بتكذيب المرسلين ، ومقاومة
المصلحين ، وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ آلُوهَا الْعَزْمُ مِنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف : ٣٥) .

الهدف الثانى : وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .

الهدف الثانى : تسجيل كفاح الرسل ، ودعوتهم إلى : التوحيد ، والعدل ، والحق ، والخير ، وإحياء
ذكراهم ، وإرشاد الناس إلى مواظبتهم ، وهلاك المكذبين لهم ، ونجاة المؤمنين بهم ، فيتذكر المؤمنون بما

ينفَعهم والذَكَرى من شأنها أَنْ تَفِيدَ جميعَ الناسِ ؛ لكن لما لم يستفد بهذه الذَكَرى سوى المؤمنين ؛ أضافها إليهم ؛ فالْمُؤْمِنُونَ هم الذين يتعظون بما حلَّ بِالْأُمَمِ السابقة من هلاك ودمار ؛ فيبتعدون عن أسبابه وموجباته . وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَكَايْنٌ مِّنْ ءَايَةٍ إِلَى السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ يُرَوْنَ عَلَيْهَا مُمْرُؤْنَ وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

١٢١ - وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنَّا عَمِلُونَ .

اتجه القرآن هنا بتوجيه الرسول ﷺ إلى الإنذار والتحدى . أى : قل لهؤلاء المشركين الذين كفروا بالإسلام وأعرضوا عن الإيمان برسالتك : اعملوا بقدر استطاعتكم وتمكنكم ، وكل ما أوتيتكم من قوة على مقاومة الدعوة والصدِّ عنها .

إِنَّا عَمِلُونَ . فى تبليغ الحق ، ثابتون عليه ، أو عاملون بما أنزله ربنا لا يصرفنا عنه صارف أو كفار أكثيم . وقريب من هذه الآية تهديد شعيب لقومه حين قال : وَيَسْقُومِ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ اِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَلْبٌ وَّارْتَقِبُوا اِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ . (هود : ٩٣) .

وقوله سبحانه : فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ اِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . (الأنعام : ١٣٥) .

١٢٢ - وَانْتَظِرُوا اِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

وترقبوا ما تتمنون لنا من هلاك ؛ إنا مترقبون أن يحل بكم مثل ما حل بِالْأُمَمِ السابقة التى كذبت رسل ربها وصدت عن سبيله .

١٢٣ - وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ اَمْرُ كُلِّ شَيْءٍ .

أى : والله وحده علم ما غاب فى السماوات والأرض ؛ فلا يخفى عليه شىء فى سرهم وجهرهم .

بهذه الآية الكريمة ، نختم هذه السورة ، الحافلة بقصص الأنبياء ، والتعليق المناسب على هذا القصص ، وهذا القصص غيب لم يكن عند الرسول ﷺ علم به ، وكان أهل الكتاب عندهم علم ببعضه ، لكنه خليط من الصدق والكذب ، أو الواقع والخيال .

ثم إن هذا القصص كان غيباً بالنسبة للعرب ، والذى كان عندهم منه أوهام وظنون ، فقدم القرآن قصصاً حقيقياً متكاملأ عن رسل الله العظام : نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام .

وفى الآية ٤٩ من سورة هود يقول الحق سبحانه : تِلْكَ مِنْ أَشْيَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .

إن جميع أنواع الغيب فى السماوات والأرض يملكه الله : فهو سبحانه له ما فى أَسْمَوَاتٍ وَمَا فى أَرْضٍ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى • وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى • اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .
(طه : ٦ - ٨)

وَالِإِلَهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .

مصائر الأمور كلها راجعة إليه ، من إحياء وإماتة ، وهداية وضلال ، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة ، فخيوط الأمر كلها ترجع إليه ، يديرها بحكمته ، ويحركها بمشيئته ، ويدرسها بإرادته ، وهو اللطيف الخبير .
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ .

فاخلص العبادة له ! فالعبادة حق له وحده ، والعبادة زاد روحى وسعادة نفسية ، وصفاء ومحبة ومودة بين المخلوق والخالق ، وبعد العبادة يأتى صدق التوكل على الله ! فبيده الخلق والأمر . قال تعالى :
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .
وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

بل هو سبحانه عالم بجميع أحوال عباده صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال تعالى : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِى ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

ويقول عز شأنه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَسْمَوَاتٍ وَمَا فِى أَرْضٍ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَافِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وفق الله تعالى لإتمام تفسير سورة هود عشية يوم الثلاثاء ٦ محرم ١٤١٥ هـ الموافق ١٤ يونيو ١٩٩٤ بجامعة السلطان قابوس ، بمدينة مسقط سلطنة عمان .

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ • وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ • وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

تفسير سورة يوسف

نظرات فى سورة يوسف (٨٣)

سورة يوسف سورة مكية كلها ، وآياتها مائة وإحدى عشرة آية فقط ، وقيل : إن الآيات الثلاث الأولى مدنيات وهو رأى ضعيف : لأن السورة كلها قصة واحدة ومن العجائب أن يذكر هذا الاستثناء فى المصحف المطبوع فى مصر ويزاد عليه الآية السابعة ، قاله السيوطى فى الإنتقان وهو رأى واه جداً فلا يلتفت إليه .

وحين نستعرض سورة يوسف نجد أنها سورة فريدة فى نوعها من بين سور القرآن الكريم - فهناك قصص متعدد ماثبت فى ثنايا سور القرآن ، لكن القرآن كان يكتفى أحياناً بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة ، كحلقة قصة مولد عيسى ، أو حلقة قصة نوح والطوفان ؛ لأن هذه الحلقات تفى بالمقصود منها .

أما قصة يوسف فنقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ . (يوسف : ٣) .

وسورة يوسف هى قصة يوسف مطوعة فى سردها وطريقة أدائها وخصائصها الفنية كلها للقضية الكبرى التى جاء القرآن ليعالجها ويوضحها ، ويثبتها فى القلوب . وهى قضية العقيدة وما يقوم عليها فى حياة الناس من روابط ونظم وصلات ، تسبقها فى السورة مقدمة تشير إلى الوحى بهذا القرآن ويقصصه الذى هو أحسن القصص ، والذى لم يكن محمد ﷺ ، يعرف عنه شيئاً من قبل .

وتتلوها تعقيبات شتى ، تفيد أن القصص القرآنى : غيب من عند الله يثبت به الرسول ، ويعظ به المؤمنين ، قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

كذلك تضم السورة جناحيها على لفتات ولمسات أخرى فى صفحة الكون وفى أغوار النفس ، وفى آثار الماضين ، وفى ضمير الغيب المطوى لا يدرك البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب وكل هذه العظات الماثلة فى حنايا السورة ، تتناسب مع القصة ، والقصة تتكامل معها : لتحقيق القضية الكبرى التى جاء بها هذا القرآن للبشرية ، وجاءت بها رسالات الأنبياء فى العصور المتلاحقة .

وقد ساق القرآن دعوة صريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث فى السجن يدعو إلى الله ، ويأخذ بيد الضعفاء ، ويواسى المحزونين ، ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول :

ذَلِكَ مَا عَلَّمْنِي رَبِّي إِنَّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَخْصِمُ حَبِى السَّجْنِ عَارِبَابَ مُتَعَفِّوْنَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (يوسف ٣٧ - ٤٠) .

ويذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسى وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد ، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيم الذى يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين ، ويقاوم الإغراء ، ويرد المنحرف إلى طريق الصواب . قال تعالى : وَرَزَوْدَتَهُ الَّتِي هُوَ فِي يَتِيهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنُ مَفَازٍ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . (يوسف : ٢٣) .

قصة يوسف

قصة يوسف أطول قصة فى القرآن تجتمع حلقاتها كلها فى سورة واحدة وتلحظ فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة - خصائص الموضوع ، وخصائص العرض والأداء .

فالقصة غنية بالعنصر الإنساني ، حافلة بالانفعال والحركة ، وطريقة الأداء ، تبرز هذه العناصر إبرازاً قوياً ، فضلاً عن خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة .

فى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات متنوعة واضحة الخطوط والمعالم ، فى حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه ، وفى استجاباته للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها.

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب ما يرون من تنوع صور الحب الأبوى.

وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة ؛ فبعضهم يقوده هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف فى الحب تلتقطه بعض القوافل السائرة ، وفى قصة يوسف نجد عنصر المكر والخداع فى صور شتى من مكر إخوة يوسف به إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام ، وبالإعجاب والتمنى ، والاعتصام والتأبى .

وعنصر الندم في بعض ألوانه ، والعفو في أوانه ، والفرح بتجمع المتقاربين ، وذلك إلى بعض صور المجتمع المتحضر في البيت والسجن والسوق والديوان في مصر يومذاك ، والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وقد بدأت القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئته أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه بألا يقصها على إخوته ؛ كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيّدون له ، ثم تسيّر القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كتاب (العهد القديم) بعد هذا الختام الفني الدقيق الوافي بالغرض كل الوفاء .

وما يسمى : بالعقدة الفنية في القصة الحديثة واضح في قصة يوسف ، فهي تبدأ بالرؤيا ، ويظل تأويلها مجهولاً ، ينكشف قليلاً قليلاً حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلاً فنياً طبعياً ، يرضى الذوق الفني الخالص ، ويرضى الوجدان الديني ، وفي بدوره للقضية الكبرى التي سبقت القصة لها من الأساس .

والقصة مقسمة إلى حلقات كل حلقة تحتوي على جملة من مشاهد ، والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد بحيث يترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ، ويكمل فيها ما حذف من حركات وأقوال ، ويستمتع بإقامة الصلات بين المشهد السابق والمشهد اللاحق ، فيمنح القصة بعض خصائص التمثيلية . ويملؤها بالحركة والحيوية – وهذه الطريقة متبعة في جميع القصص القرآني – على وجه التقريب – وهي شديدة الوضوح في القصص الكبيرة ، وخاصة قصة يوسف الصديق .

يوسف بين إخوته وأبيه

أكرم الله نبيه يوسف بأصل كريم ؛ فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وقد رزق يعقوب اثني عشر ابناً هم الأسباط ، كان يوسف وبنيامين من أم تسمى : راحيل ، وبقية الأسباط من أمهات أخرى . وقد ماتت راحيل أم يوسف وتركته في الثامنة عشرة من عمره أشد ما يكون حاجة إلى قلب الأم وعطفها ؛ ولهذا أثر يعقوب يوسف وبنيامين بالحب والحنان ، فسرى داء الحسد بين بقية الإخوة وقال قائل منهم : ألا ترون أن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا وأقرب إليه منا جميعاً .

وقال الثاني : إن حب يوسف قد تمكن من قلب يعقوب ولا شفاء ليعقوب من هذا المرض إلا بإبعاد يوسف عنه ، فيجب أن نقلل يوسف أو نتركه في أرض نائية مقطوعة حتى يموت .

وقال يهوذا : إن القتل لا يقره العقل ولا الدين فلا تقتلوا يوسف وإنما ألقوه في البئر العميق بجوار بيت المقدس ، فهذا البئر ملتقى الغدأى والرائح وسيأخذه بعض القوافل ويبعدون به عنكم ، فوافقوا جميعا على رأى يهوذا ، وبيتوا أمرهم عليه .

رؤيا يوسف

أصبح يوسف فأخبر أباه : أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدين له ، فعلم الأب أن ابنه سيكون له شأن عظيم ، وأن أسرته ستأتى له خاضعة معترفة بفضلته فيسجد بين يديه يعقوب أبوه ، وخالته ليا وهى بمنزلة أمه ، وإخوته الأحد عشر ، ولكن يعقوب خشى على يوسف من حسد إخوته : فأمره أن يكتم هذه الرؤيا وألا يخبر بها أحداً ، ولأمر ما تسرب خبر هذه الرؤيا إلى الإخوة : فأشعل نار الغيرة بينهم واستأذنوا أباهم فى مصاحبة يوسف يوماً إلى المرعى حيث الهواء الطلق والمنظر الجميل : فأذن لهم بعد تردد ، وأخذوا يوسف وألقوه فى ظلام البئر بعد أن استغاث بهم فلم يغيثوه ، وألقى الله على يوسف السكينة : فاطمأن لمصيره ، وجاءت قافلة تريد الماء وألقت بدلوهما إلى البئر فتعلق يوسف بالدلو وفرحت القافلة بمنظر الغلام الجميل ، وقدموا به إلى أرض مصر فباعوه إلى عزيز مصر ووزيرها الأكبر بثمن بخس زهيد ، ولمح العزيز فى يوسف كرم الأصل وشرف العنصر وجمال الخلق وطيب المنبت ، فقال العزيز لأمرائه : أكرمى مثوى هذا الغلام ، وأحسنى معاملته ، حاشاك أن تزجريه زجر الخدم أو تضربيه ضرب العبيد : فإنى لأرجو إذا اكتمل عوده ونضجت سنه أن ينفعنا أو نتخذه ولدا !

وانصرف يوسف إلى العمل ببيت العزيز فى جد وأمان ، فمكن الله له فى الأرض وأودع محبته فى قلوب الجميع . فلما وصل إلى سن الرشد والقوة ، وهو يقع عادة بين العشرين والثلاثين : آتاه الله حكما وعلما ، وصواباً فى الحكم على الأمور ، ومعرفة بمصائر الأحاديث وتأويل الرؤيا .

وهكذا أراد إخوة يوسف به أمراً وأراد الله له أمراً ، ولكن أمر الله غالب ، ومشيتته نافذة ، فقد زادت ثقة العزيز فى يوسف وظهر له مكنون حزمه وعقله ، وأمانته ونزاهته : فأدخله فيما بين نفسه وأهله ، وبوآه مكان الأشراف الأحرار ووضع من قلبه موضع الأبناء الأبرار .

يوسف وامرأة العزيز

نما يوسف وترعرع وبلغت سنهُ خمساً وعشرين سنة ، وصار أميناً فى بيت العزيز ، وكانت امرأة العزيز فى سن الأربعين ، ولها سلطان الملك وقدرة الأمر والنهى ، وسيطرة النفوذ والجاه ، ولكن سلطان الحب قد ملك قلبها وسيطر على فؤادها ، وحاولت إغراء يوسف مستغلة كل فنون الإغراء ، قال تعالى : وَرَأَوْنَهُتْ إِلَىٰ هُوَ فَبَيَّتَهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ . (يوسف : ٢٣) .

فكلمة: رَأَوْدَتُهُ من راد ، يرود بالإيل ؛ إذا ذهب بها وجاء ، وهي تشير إلى فنون الأنثى مقبلة إلى فن مدبرة عن فن من فنون الإغراء الصامطة التي تحاول أن تثير يوسف ، فلما يئست من الصمت غَلَقَتْ الأبوابَ بتشديد اللام ، كأنها أرادت أن تجعل الأبواب حيطاناً ، ثم عرضت نفسها على يوسف ، وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ، قد تهيأت لك راغبة فيك ، وهنا وقد خلعت المرأة ثياب الملك والعظمة والسيادة ، ولبست ثوب الإغراء والتوله والرغبة ، وقف يوسف في عزة وإباء وإيمان يقول : مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . (يوسف : ٢٣) .

فالمرأة في كل العصور أكثر عاطفة من الرجل ، وأكثر تدينًا وإيمانًا ، وأكثر مراعاة لحرمة الزوجية ، وأكثر نفورًا من الظلم — ولهذا عمد يوسف إلى عاطفة الإيمان بالله فقال : مَعَاذَ اللَّهِ . أستهين بالله من الفحشاء والمنكر ، إن زوجك أكرمني وجعلني أمينًا على بيته وعرضه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، وهناك عين الله التي ترى وتعلم السر وأخفى ، وهذا ظلم وعدوان وإنه لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

ولكن المرأة كانت قد صمّت أذنيها عن سماع كل موعظة وأغضت عينيها عن رؤية الحق ، ولم يبق في ذهنها إلا فكرة واحدة في مكان .. في رجل .. فهمت به صائلة عليه ؛ لتنتقم لنفسها وكرامتها ، أو لترغمه على طاعتها ، وهم بها ليضربها أو يقتلها ؛ دفاعا عن الفضيلة والشرف ، ولكن الله ألهمه أن الفرار خير من القتال ، والمسالمة خير من المواجهة ، وفتحت الأبواب أمامه فأسرع هاربا منها ولكنها عدت وراءه ؛ طمعا . في تنفيذ رغبتها ، أو خوفاً من افتضاح أمرها ، وَأَسْتَيْقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ . (يوسف : ٢٥) ؛ نتيجة جذبها له لترده عن الباب ، وعند الباب وقعت مفاجأة ، فقد كان العزيز يمر في تلك اللحظة فرأى يوسف واقفا وقميصه ممزقا ، وكان موقفا يبعث على الريبة ويثير الاتهام ، فاتهمت المرأة يوسف بأنه راودها عن نفسها وهجم عليها في مخدعها ولا بد من سجنه أو إذاقته من العذاب !!!

ولم يجد يوسف بداً من الاعتراف بالواقع ، فقال : هي التي راودتني عن نفسي وجذبتني من ثوبي ، وهذا قميصي شاهد على صدقي ، وأمام تضارب الأقوال ؛ استدعى الملك ابن عمها وكبير أسرته ، وكان فطنا لبيباً ، فسمع القضية من أطرافها ، وفطن لما وراء قصتها فقال : إن كان قميصه قد من الأمام ؛ فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها ؛ فهي صادقة وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من الخلف ؛ فهو إذن من أثر هروبه منها ومطاربتها له حتى الباب ؛ فهي كاذبة وهو من الصادقين .

فلما رأى الملك بعينه أن القميص قد مزق من الخلف ؛ وضع الحق وظهرت براءة يوسف أمامه ، والتفت العزيز إلى امرأته وقال : إن هذا من كيد النساء ومكرهن ؛ فاستغفري لذنبي إنك كنت من الخاطئين ، وأنت يا يوسف أمسك لسانك عن الخوض في هذا الحديث ، واكتم أمره عن الناس أجمعين .

يوسف عزيز مصر

تعرض يوسف لحفلات متتابة من الإغراء والوعد والوعيد ، وتوالت عليه حملات زليخا ، ونساء من وجوه المدينة ، فدعا يوسف ربه : أن ينجيه من كيدهن ومكرهن ، وقال : رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ . (يوسف : ٢٣) .

ورأى العزيز أن يضحي بهذا البريء النزيه حتى تسكت الألسنة وتخف عن زوجته التهمة ، فأدخل يوسف السجن ، وكان يوسف في السجن مثالا كريما في الدعوة إلى الإيمان وتفسير الأحلام وإرشاد الناس إلى الحق ، ثم رأى الملك في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف ، وفسر يوسف هذه الرؤيا : بأن البلد مقبلة على سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء ، ثم تأتي بعدها سبع سنين مجدبة يجف فيها ماء النيل ، ويعقب ذلك عام طيب مثمر ، فأمر الملك بالعفو عن يوسف ، ولكنه أبى أن يخرج من السجن إلا بعد التثبت من براءته ونزاهته ، فاعترفت النسوة بنزاهته وقلن : حَلَسَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الشَّنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنِ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . (يوسف : ٥١) .

فخرج يوسف من السجن بريئا نزيها ، ثم نال إعجاب الملك والحظوة عنده ، وعلم يوسف أن مصر قادمة على مجاعة ، فالنيل سيجود بالماء سبع سنين ثم يمتنع عن الفيضان سبع سنين أخرى ، ورأى يوسف ثقة الملك فيه وإعجابه بنزاهته وأمانته فقال يوسف : أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ . (يوسف : ٥٥) .

واستطاع يوسف بحكمته أن ينجي مصر من المجاعة ، وأن يدخر القمح في سنابله ، والذرة في كيزانها ، وأن يدبر التموين والأموال ، وأن يحفظ لمصر مكانتها وفضلها ، فاستطاعت أن تساعد نفسها وأن تمد يد العون لما حولها من البلاد ووصل خبر يوسف إلى البلاد المجاورة ، وإلى أرض كنعان حيث يقيم نبي الله يعقوب وأبنائه الأسباط .

فقال يعقوب لبنيه : يا بني ، إن الجذب عمنا والقحط يكاد يأتي علينا ، فاقصدوا هذا العزيز وأحضروا من عنده القمح والطعام واتركوا عندي أخاكم بنيامين أتعزى ببقائه عن فراقكم ، فرحل أبناء يعقوب إلى مصر : قاصدين مقابلة العزيز .

واستأذن الحاجب على يوسف ، فقال : إن بالباب عشرة رجال تتشابه وجوههم وكأنهم غرباء عن هذه الديار يستأذنون في الدخول عليك ؛ فأذن يوسف لإخوته وعرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، فقد تركوه في

الجب ذليلاً فريداً ، فأين منه هذا الأمير العزيز الذي يأمر فيطاع ، ويقول فيمتثل الجميع أمره . وأكرم يوسف وفادتهم ، وترك نقودهم داخل التموين الذي أهدمهم به ، وطلب منهم أن يحضروا بنيامين معهم في المرة الثانية ، ولما حضر بنيامين مع إخوته استطاع يوسف أن يستبقه معه بحيلة دبرها ، ثم ذهب الإخوة إلى أبيهم ، فاشتد حزنه لفراق يوسف ويعدده بنيامين وجلس حزيناً في محرابه يبكي أشد البكاء ويقول : يَتَأَسَّفُ عَلَى يَوْسُفَ . (يوسف : ٨٤) .

ثم قال الأب لأبنائه : إني أحس في قرارة نفسي بوجود يوسف على قيد الحياة : فانهبوا إلى مصر وتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تياسوا من فضل الله وبرحمته ، ودخل الإخوة على يوسف وقد اشتد بهم الضر والحاجة ، فطلبوا من يوسف أن يرفق بهم وأن يتصدق عليهم ، وهنا فاض قلب يوسف حناناً وعطفاً على إخوته ، وسألهم عما فعلوه به يوسف في زمان جهلهم ، فقالوا : إنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخي بنيامين ، قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٩٠) .

لقد اتقى يوسف ربه وصبر عن الفحشاء وتحمل السجن في طاعة الله فلم يضع أجره ، وجعله الله على خزائن الأرض عزيزاً كريماً ، فانه يقول الصالحين . وصفح يوسف عن إخوته وقال لهم : أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَلْذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ . (يوسف : ٩٣)

وعاد الإخوة إلى أبيهم فأحس برائحة القميص من مسافة بعيدة ، ولم يضع القميص على وجهه : عاد بصيراً ، ورحل يعقوب مع أسرته قادمين إلى مصر ودخلوا على يوسف وخروا له جميعاً ساجدين ، الأب والأم والإخوة ، فقال يوسف : يَتَأْتِ هَلْذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . (يوسف : ٩٠٠) .

وشكر يوسف ربه : إذ أخرجه من السجن ، وجاء بإخوته من البادية ، وجمع شمل الأسرة ، ثم مكّن الله ليوسف في الأرض ، وآتاه الملك والحكمة : ليكون في قصته دليلاً للعاملين ونبراساً للمخلصين ، وكان الله يمهّد الأسباب والمقدمات بلطفه وحكمته : لتكون العاقبة للمتقين ، ومد يوسف يده لله طالباً منه حسن الخاتمة والسير في موكب الصالحين فقال : رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِمَّا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السُّنُوتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف : ٩٠١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّيَّةَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ②﴾
فَمَنْ نَقَضَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ
قَبْلِهِ لَمِنَ الْفَافِينَ ③﴾

المضردات :

أقر : هذه الأحرف التي تبدأ بها السور ، قيل : إنها أسرار علوية ، وقيل : إنها أقسام لله تعالى . أى : أقسم
الله بهذه الأحرف التي ينطق بها الناس ، ويتكون منها القرآن الكريم .

وقيل : هى أسماء لله تعالى ، أو صفات .

وقيل : هى إشارات لابتداء كلام وانتهاء كلام

وقيل : هى أسماء للسور .

وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنه
مكون من حروف عربية هى : الألف واللام والراء ، وهم ينطقون بها ويؤمنون منها كلامهم .

وقال بعضهم بجواز اشتمال هذه الأحرف على جميع المعانى التي ذكرها العلماء فى تفسيرها ،

فهى أسماء للسورة ، وهى رموز لأسماء الله تعالى أو صفاته ، وهى مما استأنس الله تعالى بعلمه ،

وهى حروف للتحدى والإعجاز ... إلخ .

تمهيد :

اشتملت سورة يوسف على معان متعددة متميزة : فهى سورة تشتمل على قصة كاملة فيها عبرة

وعظة ، فيها عفة وتماسك واستعلاء من يوسف ، وفيها إغراء وكيد من امرأة العزيز ونسوة المدينة ، وفيها

تنافس الأبناء وتحاسدهم إذا كانت أمهاتهم متعددة ، وفيها بيان لطف الله وكرمه : فإذا قدر لإنسان أمراً :

فلا بد أن يصل إليه مهما اجتمعت الأمة كلها على غير ذلك .

وفيها عاقبة التقوى والعفة والاستقامة ؛ فقد جعل الله يوسف عزيزاً على خزائن الأرض ، ثم قال يوسف فى نهاية السورة : حين سجد له إخوته تأويلاً لرؤياه : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف : ١٠١).

التفسير :

١ - الر... الآية .

هذه الأحرف قيل : هى مما استأثر الله بعلمه ، وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنه مكون من حروف عربية ينطقون بها ويكونون منها كلامهم.

وقد اشتملت هذه الفواتح فى أوائل السور على (١٤ حرفاً) بعد حذف المكرر منها ، واشتملت هذه الفواتح على نصف صفات الحروف ؛ ففيها نصف الحروف الرخوة ، وفيها نصف حروف الاستفال ، ونصف حروف الفلقة ، وكأن الله تعالى يقول للمكذابين : جعلت من نصف هذه الحروف فواتح للسور ، وتركت لكم النصف ؛ لتصنعوا منه قرأنا إن استطعتم !

والسور المبدوءة بهذه الأحرف ٢٩ سورة هى : البقرة ، آل عمران ، الأعراف ، يونس ، هود ، يوسف ، الرعد ، إبراهيم ، الحجر ، مريم ، طه ، الشعراء ، النمل ، القصص ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة ، يس ، ص ، غافر ، فصلت ، الشورى ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، القلم .

تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

تلك الآيات الواردة فى هذه السورة : آيات من الكتاب الواضح الظاهر فى معانية وأغراضه ، المبين لحقائق الدين الحق ، ومصالح الدنيا والآخرة .

٢ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أى : أنزلنا هذا القرآن عربياً واضحاً ؛ لعلكم تعقلون معانيه وتفهمون ألفاظه ، وتتنبهون بهدائته ، وتدركون أنه ليس من كلام البشر ؛ ولكنّه من كلام الله القادر المقتدر .

٣ - نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ .

نحن نروى لك يا محمد أحسن القصص الواقعى النافع ، فى شتى نواحي الحياة ، ومن هذا القصص : قصة يوسف التى جاءت كاملة مفصلة ؛ ذات أهداف سامية وعبر كثيرة . وإن كنت قبل هذا الوحي لمت

الغافلين عنه ، لا علم لك به ، شأن قومك ، لا يعلمون من أخبار الماضين وقصصهم شيئاً موثقاً به مفيداً نافعاً .

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَؤُكَ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمِّرْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

يَا أَبَتِ : أصله : يا أبى ، فعوض عن ياء المتكلم بتاء التأنيث ؛ لتناسبهما فى الزيادة .

فَيَكِيدُوا : فيحتالوا لإهلاكك حيلة ، وأصل الكيد : هو الاحتيال على إنسان لإيقاعه .

يَجْتَبِيكَ : يختارك ويصطفيك .

تأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا ، وتفسير الأحلام ، وبيان ما تنول إليه .

أَبَوَيْكَ : المراد بهما : الجدَّان : إبراهيم ، وإسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، وأطلق عليهما أبوان ؛

لأن الجدَّ أب لغة وعرفاً وشرعاً ؛ حيث يرث الجدُّ ميراث الأب عند عدم وجوده .

التفسير :

٤ - إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

سبب النزول :

روى ابن جرير : عن ابن عباس قال : قالوا : يا رسول الله : لو قصصت علينا : فذلت : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

أَحْسَنَ الْقَصَصِ ..

تمهيد :

تأتى هذه القصة : جواباً لسؤال قوم عنها : فأجاب القرآن رسول الله بهذه القصة التى لا يعلمها هو

ولا قومه ، وإنما هى وحى من عالم الغيب .

والمعنى : اذكر يا محمد لقومك : قصة يوسف حين قال لأبيه يعقوب : إني رأيت أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر تسجد لي سجود احترام وانحناء ، لا سجود عبادة . والأحد عشر كوكباً هم : إخوته الأحد عشر نفرًا ، والشمس والقمر : أبوه وأمه ، وقد استمرت القصة من أولها إلى آخرها ، وكأنها تنزع إلى تحقيق هذه الرؤيا .

فقد تسربت الرؤيا إلى إخوته ، ثم ألقوه في الجب ، والتقطه ركب مسافرون ، وباعوه إلى عزيز مصر ، وتعرض لإغراء زليخا ثم دخوله السجن ، وكان يفسر الأحلام ، ويدعو إلى توحيد الله في السجن . فلما رأى الملك رؤيا فسرها يوسف ، وامتنع عن الخروج من السجن : حتى يحقق الملك في قصته ، ثم شهد الجميع بنزاهته وعفته ، وقالت امرأة العزيز ما يبصرأ ساحته ، وقالت النسوة : حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ : فخرج من السجن مكرماً ، وجعله الملك وزيراً ، وجاء إخوته : ليحصلوا منه على الطعام ، ثم أرسل قميصه إلى أبيه : فارتد بصيراً ، وجاء الإخوة مع أبيهم وأُمهم ، وخروا ساجدين ليوسف ، وقال يوسف : هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . (يوسف : ١٠٠) .

والرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كما ورد في البخاري ، وكما أورد أيضاً قوله ﷺ : «للم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا : وما المبشرات يا رسول الله؟ قال : «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له» ^(٨١) (أخرجه البخاري) .

٥ - قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

ألهم الله يعقوب تأويل الرؤيا ، وفهم منها : أن يوسف سيكون له شأن عظيم في المستقبل ، حيث ترمز الكواكب الأحد عشر إلى : إخوته ، والشمس والقمر إلى : أبيه وأمه ، وأن الجميع سيعظمونه ويسجدون له سجود انحناء وتعظيم لا سجود عبادة .

وإذا أخبر إخوته بذلك : أدنى إلى إثارة نوازع الحسد والغيرة والكيد ، والتدبير للإيذاء في خفاء : فريما أدى ذلك إلى هلاك يوسف أو إيذائه . والشيطان يوسوس للإنسان بالشر ويغريه بالمعصية ، وهو عدو مبين للإنسان . يستدرجه إلى المعصية استدراجاً . قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

لذلك نهى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على إخوته ، وأمره أن يمكس عن الخوض في هذا الموضوع ، الذي يثير نوازع الحسد والغيرة ، ويحرك في إخوته دواعي الشر والإيذاء ليوسف.

حيث إن الشيطان يستدرج الإنسان إلى المعصية ، وقد أشار يوسف فى ختام القصة إلى ذلك حيث قال :
 مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْتِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لَمَّا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . (يوسف : ١٠٠) .

٦ - وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ...

أى : كما اختارك ربك واصطفاك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، يختارك لنفسه ،
 ويصطفيك لتبوته ، ويعلمك تأويل الرؤيا وتفسيرها والإخبار بما تنول إليه ، وترى أن هذه الآية حملت
 بشارات من يعقوب لابنه يوسف ، منها ما يأتى :

١ - الإخبار بأن الرؤيا بشرى بمستقبل عظيم ليوسف .

٢ - رعاية الله ليوسف وعنايته به وتقريبه واصطفاءه من الله .

٣ - يختص الله يوسف بمعرفة تأويل الرؤيا وتفسير الأحلام .

وَيُعِثُّ نِعْمَةً عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آئَالٍ يَتَقَرَّبُ .

أى : سيتم الله عليك النعمة : بإرسالك رسولا يوحى إليك من السماء ، ويتم نعمته على أهلك وإخوتك .
 ونزيرتهم : بأن يجعل النبوة فى أعقابهم . وآل الإنسان : أهله ، وهو خاص بمن له مجد وشرف .

كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ .

كما أتمها على جدك إبراهيم : بأن جعله خليلا ، وجعل النار برذاً وسلاماً عليه ، وجعله أباً للأنبياء ،
 وأتم الله النعمة على جدك إسحاق : بأن جعله رسولا ، وجعل النبوة فى عقبه وأطلق لفظ الأب على الجد : لأن
 الجد أب فى اللغة والعرف والشرع .

إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

إن ربك عليم بخلقه ، خبير بمن يستحق الاصطفاء والرسالة ، حكيم فى صنعه وتدبيره . قال تعالى :

اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (الأنعام : ١٢٤) .

وقال سبحانه : اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . (الحج : ٧٥) .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُهُ إِلَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

المضردات:

ءايسات: عبرٌ أو علامات ودلائل على قدرة الله تعالى وحكمته فى كل شىء لمن سأل عنهم وعرف قصتهم .

للسائلين: الذين سألوا عن قصتهم من أهل مكة .

وأخوه: هو بنيامين .

عصبة: جماعة أقوىاء أحق بالمحبة . وقال البيضاوى : تطلق العصبة على : الجماعة من الرجال عشرة فصاعداً ، أطلق عليهم ذلك ؛ لأن الأمور تُعصب بهم ، أى : تشتد وتقوى .

ضلال مبين: خطأ بَيِّن واضح .

اطرحوه أرضاً: أى: ارموه فى أرض بعيدة عن العمران .

غيايت الجب: قعره ، سُمِّيَ به ؛ لغيبوبته عن أعين الناظرين .

السيارة: المسافرين الذين يسIRON فى الأرض .

التفسير:

٧ - لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ .

تأتى هذه الآية فى مقدمة قصة يوسف من أول السورة إلى آخرها ، وقد سبق هذه الآيات حديث عن رؤيا يوسف ، ثم تمضى الآيات وكأنها سبيل إلى تحقيق هذه الرؤيا ؛ فلولا كيد إخوة يوسف ومكرهم به ، لما ألقى فى الجبِّ ، ولولا أنه ألقى فى الجبِّ : لما حمله الركب المسافر ، ولولا ذلك : لما تم بيعه إلى عزيز مصر ، ولولا بيعه إلى عزيز مصر : لما راودته زليخا عن نفسه ، ولولا هذه المراودة لما دخل السجن ، ولولا دخوله السجن : لما فسر رؤيا نديم الملك ، ثم فسر رؤيا الملك ، ولولا تفسير رؤيا الملك : لما جعل على خزائن الأرض ، ولولا أنه جعل على خزائن الأرض : لما تعرف على إخوته ، ثم جاءوا إليه بعد ذلك مع أبيه وأمه ،

حيث سجدوا له جميعاً ، وتحققت رؤياه ، ثم شكر الله على ما أنعم به عليه ، وطلب منه حسن الختام والوفاء على الإسلام .

ومعنى الآية : تالله ! لقد كان فيما حدث بين يوسف وإخوته لأبيه عبرة ومواعظ لكل من سأل عن قصتهم ، وفتح قلبه للانتفاع بما فيها من حكم وأحكام تشهد بصدق محمد ﷺ ، وهو النبي الأمي الذي سئل عن هذه القصة فجاء بها متتابعة متناسقة ، تدل على أنها وحى من السماء .

٨ - إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ الرَّحْمَنِ إِنَّهُمَا بِلَآئِنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

حين قالوا : والله ! إن يوسف وأخاه بنيامين ، وهما صغيران ضعيفان ، أحب إلى أبينا منا ، مع أننا جماعة قوية يشدد بنا ساعده ، فما باله يحبهما أكثر من حبِّ لنا ، ويؤثر القلة على الكثرة ؟!

إن أبانا لفي خطأ واضح ، مجاف للصواب في ذلك ؛ بإيثار يوسف وأخيه علينا بالمحبة ، وتركه العدل والمساواة في المحبة ، فكيف يفضل صغيرين ضعيفين ، على رجال أشداء تقوم بكل ما يحتاج إليه من منافع معاشية ودفاعية ، وفاتهم أن الفضل في الرجال ليس بالكثرة بل بسمو الروح ، وصفاء النفس ، وغلبة الخير ، وكل ذلك كان في يوسف وشقيقه بنيامين ، وقد اجتمع إلى ذلك ما دلت عليه رؤيا يوسف عليه السلام ، من الجاه العظيم ، والعز الرفيع الذي ينظره عند الله والناس ، فكان ذلك كله باعثاً على أن يؤثرهما يعقوب عليه السلام ؛ بمزيد من الحب أكثر من بقية إخوتهما ؛ فحقدوا عليهما ، وتآمروا على يوسف ؛ ليخلوا لهم وجه أبيهم .

٩ - أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ .

أى : ومما قالوا ، أى : قال بعض إخوة يوسف لبعض : أَقْتُلُوا يُوسُفَ بأى وجه من وجوه القتل ؛ حسماً للمشكلة ، أو اتذبذبه في أرض مجهولة بعيدة عن العمران ، فلا يستطيع الرجوع إلى أبيه فإن فعلتم واحداً منهما : يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . تقع هذه الجملة في جواب الأمر ، أى : اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض مجهولة ، فإنكم إن فعلتم ذلك ؛ يخل لكم وجه أبيكم ويفرغ لكم فلا ينازعكم فيه أحد ، وذكر الوجه هنا لتصوير معنى إقباله عليهم ؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء ؛ أقبل عليه بوجهه .

وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ .

هذه الجملة معطوفة على جواب الأمر . أى : وتكونوا من بعد الفراغ من أمر يوسف قوماً تائبين إلى الله مما جنيتكم عليه ، أو قوماً صالحين مع أبيكم ؛ بأن يكثر إقباله عليكم ، وبره بكم ، وإغداق الخير عليكم ، بعد يأسه من عودة يوسف وخفاء أمره عليه .

١٠ - قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرِضُوا فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ لِلْعِلْمِ.

قال قائل منهم - عز عليه قتل أخيه بلا ذنب جناه ، قيل : هو يهوذا ، وقيل هو روبيل - لا تقدموا على قتله ؛ فإن القتل جريمة عظيمة ، وهو أخوكم ، ولكن ألقوه في أسفل البئر ؛ يلتقطه بعض المسافرين الذين يسيرون في الأرض للتجارة ، حين يدلون بدلائهم في البئر ؛ ليستقوا منها ؛ فيتعلق بها ؛ فيبعدوه عن بلادنا إلى حيث يجد رزقه ويبقى حياً .

إِنْ كُنْتُمْ لِلْعِلْمِ . أى : عازمين على ما تقولون ، وفاعلين ما هو الصواب ، فهذا هو رأى .

في أعقاب الآية

١ - إن تغضيل بعض الأولاد على بعض ؛ يورث الحقد والحسد ويورث الآفات ، ولعل يعقوب عليه السلام لم يفضل يوسف إلا في المحبة ، والمحبة ليست في وسع البشر .

٢ - ورد في هدى السنة : أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم حتى في الثمرة والكلمة الطيبة » .

٣ - لقد فعل إخوة يوسف أمراً عظيماً ؛ حين حملوا فتى صغيراً ضعيفاً ، وأبعدوه عن والده ، وأقدموا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له ، وبالكبير الغافى ذى الحق والحرمة والفضل ... يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ^(٨٥) .

٤ - رأى الأصح : أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء ، لا أولاً ، ولا آخرًا ؛ لأن الأنبياء معصومون عن الكبائر ، وقيل : لم يكونوا في ذلك الوقت أنبياء ، ثم تابوا ، ثم نبأهم الله ^(٨٦) .

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَبِخْرُتْنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَلْخَيْرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

المضردات :

لننصحنون ، القانمون بمصالحه ، والناصح : المشفق المحب للخير .

يرتفع ، يتوسع في أكل الفواكه وغيرها من الرُتَع وهو أكل البهائم ، يقال : رتَع ، يرتع رتْعًا ، ورتوعًا .
أى : أكل البهيم وتوسع ، وذكر الراغب : أن الرتَع حقيقة فى أكل البهائم ، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير اهـ .

ليهزفتنى ، بفتح الياء وقرئ بضمها ، وكلاهما بمعنى : يجعلنى حزينًا .

غافلون ، مشغولون عنه بالرتع واللعب ، أو لقلّة اهتمامكم بحفظه .

ونحن عصبة ، ونحن جماعة .

لخاسرون ، عاجزون أو ضعفاء مغبونون ، أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسار .

التفسير :

١١ - قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيهم محاولين استرضاءه : لا تصحاب يوسف معهم : يا أبانا ! وهذا الغذاء فيه تلافف واستجلاب للعطف ، مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ . أى شئ جعلك لا تأمنا على يوسف وهو أخونا ونحن راغبون فى خروجه معنا ؟

وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ . لا نريد له إلا الود والخير .

وتوحى هذه الآية : بأنهم بذلوا محاولات قبل ذلك فى اصطحابه معهم ، ولكنها جميعًا باءت بالفشل .

١٢ - أَرْسَلَهُ مَعَا غَدَا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

أرسل معنا يوسف غداً في رحلة رياضية يأكل ما يشتهي فيها ؛ حيث يطيب الطعام في الرحلة ، ويلعب ما يشاء له من ألوان اللعب النافع لبدنه وروحه كالاستباق والاضطياذ ، وألعاب الغروسة .

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . سنحافظ عليه كل الحفظ من أن يصيبه مكروه أو يمسه سوء .

١٣ - قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ .

ذكر يعقوب عليه السلام حجتين ؛ ليعتذر بهما :

الأولى : هي حبه ليوسف وشدة أنسه به ؛ فبعده عنه يوقعه في الحزن .

الثانية : خوفه من انشغال إخوته عنه باللعب والرعى وقلة الاهتمام ، فيتعرض لأذى من الحيوانات المفترسة كالذئب .

وهذه الحجج كانت تزيد في ولعهم بإبعاد يوسف عن أبيه :

فالحجة الأولى : وهي شدة تعلق الأب بيوسف ؛ كانت ملهبة ؛ لتحسمهم في إبعاده .

والحجة الثانية : كأنها أغرتهم بالغدر وقدمت لهم الغدر الذي يستخدمونه بعد إبعاد يوسف .

١٤ - قَالُوا لَيْنَ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ .

أى : قال إخوة يوسف لأبيه محاولين إدخال الطمأنينة عليه : والله ! لئن أكل الذئب يوسف وهو معنا ، ونحن جماعة قوية من الرجال ، قادرة على الدفاع والنزال .

إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ . خسارة قوية نستحق بسببها عدم الصلاح لأى شيء .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥ ﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا إِنَّا نَاذِهِبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الدِّبْتُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المقدرات :

أَجْمَعُوا : أى : عزموا . يقال : أجمع الأمر ، وأجمع على الأمر أى : عزم فيه . وجواب لما محذوف تقديره : ضربوه أو آذوه .

وأوحينا إليه : فى البئر أى : ألهمناه ، وله سبع عشرة سنة ، أو دونها : تطمينا لقلبه .

لَتُنَبِّئَنَّهُمْ : لتخبرنهم بعد اليوم .

بأمرهم : بصنيعهم .

عِشَاءً : وقت المساء ، آخر النهار .

يَبْكُونَ : متباكين .

نَسْتَبِقُ : نتسابق فى العدو أو فى الرمى .

مَتَاعِنَا : ما نتمتع به من الثياب والطعام ونحوهما .

بِمُؤْمِنٍ لَنَا : بمصدق لنا فيما نقوله .

سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا : أى : سهلته وزينته لكم حتى ارتكبتموه .

التفسير :

١٥ - فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ... الآية .

استجاب يعقوب لرجاء أبنائه والحاحهم ، ووعدهم أن يذهب يوسف معهم فى الصباح ، وفى الصباح أخذوا يقبلونه ويعانقونه أمام أبيهم ، وحملوه على أكتافهم فلما تواروا عن أعين أبيهم : غدروا بعدهم مع أبيهم ، وأساءوا دعاملة يوسف ، وقرروا وصمموا أن يلقوه فى قعر جب معروف لهم ، على بعد ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بفلسطين .

وقد وردت عدة روايات فى استغاثة يوسف بإخوته ، وتوسّله إليهم واحداً واحداً توسلاً يلين له الصخر ، لكن هذه الروايات ليس فيها ماله سند يعول عليه ^(٨٧) .

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتَبْتَئْتَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَلْئَلاَّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

عندما ألقى يوسف فى الحب وحيداً ، حزيناً ، عارياً من قميصه الذى يستره ، أوحى الله إليه وحى إلهام : ليزيل عنه الحزن ، ويلهمه بمستقبل باهر عظيم يكون فيه سيداً مطاعاً ، ويخبر يوسف إخوته عندئذ بما فعلوه به عند الحب ، من حيث لا يتوقعون أنه يوسف : ليعد المدة وطول الفراق ، ولكون يوسف سيداً مطاعاً ذا هيبة وسلطان .

وقد تحقق ذلك كما أخبر القرآن الكريم حين قال لإخوته: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ قَالُوا أَوَلَيْكَ أَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَلْئَلاَّ أَخِي لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُعْطِيهِ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٨٩ ، ٩٠) .

الوحى إلى يوسف فى الحب

كان الوحى إلى يوسف إلهاماً ، كما أوحى الله إلى النحل ، وإلى أم موسى عن طريق الإلهام القلبى ، وقيل : عن طريق جبريل ، وقيل : عن طريق الرؤيا الصالحة .

قال تعالى : وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ... (القصص : ٧) .

١٦ ، ١٧ - وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ • قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِيقُ وَتَرْكُنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِ النَّهْرِ فَأَكْلَهُ الدَّبُّ ...

جاء إخوة يوسف إلى أبيهم بعد أن ذهب النهار ، وبدأ الظلام وهم يتباكون وسألهم يعقوب : لماذا تبكون هل حدث للغنم شيء ؟!

قالوا : لا .

قال يعقوب : فأين يوسف ؟!

قالوا : إننا ذهبنا نتسابق بالنبل ، أو بالخيول ، أو بالجرى ، وتركنا يوسف فى مكان قريب منا عند متاعنا ، وفى لحظة خاطفة هجم عليه الذئب وأكله ، وأحسوا فى قرارة أنفسهم بالكذب : فصوت المريب واضح ، والصوت فضاح ، ويكاد المريب يقول : خذونى : لذلك قال إخوة يوسف لأبيهم : إنك لا تصدقنا - والحالة

هذه - لو كنّا صادقين موثوقين عندك ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ؟! وأنت معذور في هذا لغرابته ما وقع ، وعجيب ما حدث .

والحاصل : أنا وإن كنّا صادقين ، لكنك لا تصدقنا ؛ لأنك تتهمنا في يوسف ؛ لشدة محبتك إياه ، ولظنك أنا قد كذبنا .

السّباق :

دلت هذه الآية على أن السباق مشروع ، لكن لا يجوز أن يكون على وجه الرهان إلا في ثلاثة : الخف ، والحافر ، والنّصل . قال الشافعي : ما عدا هذه الثلاثة فالسبق فيها قمار . هـ . والأصل في ذلك قوله ﷺ : « لا سبق إلا في نصل ، أو خف ، أو حافر »^(٨٨) .

قال ابن العربي : المسابقة شرعة في الشريعة ، وخصلة بدعية ، وعون على الحرب ، وقد فعلها النبي ﷺ بنفسه ويخيله ، وسابق عائشة على قدميه فسبقها ، فلما كبر رسول الله ﷺ ، سابقتها فسبقته ، فقال لها « هذه بتلك »^(٨٩) .

١٨ - وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ...

أى : جاء إخوة يوسف إلى أبيهم بأدلة ملفقة ؛ فحينما رجعوا إليه آخر اليوم في وقت العشاء ، جاءوا بقميصه ملطخاً بدم مكذوب مفتري ، أخذوه من دم سخله ذبحوها ، ولطخوا ثوب يوسف بدمها !

قال الآلوسی : « أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ : عن قتادة : أن إخوة يوسف بعد أن ألغوا به في الحب ، أخذوا ظلياً فذبحوه ، ولطخوا بدمه قميصه ، ولما جاءوا به إلى أبيهم ، جعل يقلبه ويقول : تالله ما رأيت كالיום نثباً أحلم من هذا الذئب !! أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه » .

وقال القرطبي : « استدلل الفقهاء بهذه الآية في إعمال الأمارات في مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه السلام قد استدلل على كذب أبنائه بصحة القميص ، وهكذا يجب على الحاكم أن يلحظ الأمارات والعلامات ... » .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .

أى : ليس الأمر كما زعمتم من أكل الذئب له ، بل زينتم لكم أنفسكم الكارهة ليوسف أمراً منكراً فظلياً لا يعلمه إلا الله ، ولا أملك في هذه الساعة إلا الصبر الجميل .

وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .

أى : أستعين بالله وألجأ إليه ؛ فهو ولى الصابرين ، وغوث المتغيثين ، أستعين به على غياب يوسف ، وعلى احتمال ما تقولون فى شأن يوسف كذباً ، أستعين بالله حتى يفرج الكرب بعونه ولطفه .

يروى : أن النبى ﷺ سئل عن الصبر الجميل فقال : «هو الذى لا شكوى معه» .

والصبر نصف الإيمان ، وهو الملجأ والملاذ ، والاعتصام بالصبر والاستعانة بالله فى المحنة والشدة؛ مؤذن بالفرج بعد الكرب ، وبالميسر بعد العسر ، ومن وجد الله ؛ وجد كل شىء ، ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء . قال تعالى : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . (الشرح : ٥ ، ٦) .

★ ★ ★

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ شِمْنٌ يُحْسِرُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

سَيَّارَةٌ : رفقة يسرون ، جمع سيارَة .

واردهم : الذى يرد الماء ويستقى لهم .

فأدلى دلوه : أى : أرسلها إلى الجب ليملأها .

وأسروه بضاعة : وأخفوه متاعاً للتجارة .

وشـروه : وباعوه ، شرى وياع يؤدى كل منهما معنى الآخر .

دراهم معدودة : دراهم قليلة .

وكانوا فيه من الزاهدين : من الراغبين عنه .

التفسير :

١٩ - وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ... الآية .

من طبیعة القرآن ذكره للأمور الرئيسة فى الموضوع : اعتماداً على فهم السامع وإدراكه .

والمراد : بعد أن ألقى يوسف فى الجب ، جاء ركب مسافرون إلى مصر ونزلوا قريباً من هذه البئر للاستراحة ، وشرب الماء والتزود به . فأرسلوا الذى يرد لهم الماء عادة ، فأخذ دلوه وألقاه فى الجب ليملأه ماء ، بيد أن يوسف تعلق به واستغاث بصاحب الدلو أن ينقذه ، وما إن رآه صاحب الدلو وشاهد جماله وهيأته وملامحه الجميلة : حتى صاح قائلاً : يَبْشُرُنِي هَذَا غُلَامٌ ، فهو مستبشر بهذا الغلام الجميل الذى منحه الله نصف الحسن : فقال : يا بشرى ، أقبلى ، أى : يا بشارتى ، فهذا أوان إقباله ، وقرأ أهل المدينة ومكة: يا بشرى هذا غلام ، بإضافة البشرى إلى ياء المتكلم .

وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةً . وأخفى جماعة المسافرين ، خبر التقاط يوسف من الجب : مخافة أن يطلبه أحد من السكان المجاورين للجب ، واعتبروه بضاعة سرية لهم ، وعزموا على بيعه : على أنه من العبيد الأرقاء .

وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِمَا يَعْمَلُونَ . أى : إن الله مطلع على أعمالهم حيث يبيعون الحر ويأكلون ثمنه ، وهو كريم أصيل.

جاء فى الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»^(٩٠) .

٢٠ - وَفَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ .

أى : إن إخوة يوسف باعوه للسيارة بثمن قليل . قال ابن كثير : وهذا هو الرأى الأقوى ، أو أن الركب الذى أنقذ يوسف من الجب باعوه بثمن بسيط، لا يوازي ثمن أمثاله ، وكانوا زاهدين فى بقاءه بينهم، راغبين فى التخلص منه بأى حال ، دون أن يعلموا منزلته عند الله تعالى ، وقد اشتراه عزيز مصر ، رئيس الشرطة وصار فيما بعد مسلماً : آمن بيوسف ومات فى حياته .

والخلاصة : أن الله تعالى وصف هذا الثمن بثلاث صفات :

١ - ثمن بخس . ٢ - دراهم معدودة . ٣ - كانوا فيه من الزاهدين .

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرَأَتَهُ أَكْرَمِي مَوْتَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات :

أكرمي مشواه : أى : اجعلي مقامه عندنا كريما ، المئوى : هو المقام والمنزل ، يقال : ثوى بالمكان ، يثوى ثواء أى : أقام به .

مكنّا ليوسف في الأرض : مكنّا له فى أرض مصر ، وجعلنا له مكانة رفيعة فيها ، حتى صار رئيس حكومتها ، ووزير ماليتها .

ولنعلمه من تأويل الأحاديث : تعبير الرؤيا .

والله غالب على أمره : أى : غلب على الأمر الذى يشاؤه فلا يعجزه شيء ، ولا يمنع عما يشاء ، ولا ينازع فيما يريد .

التفسير :

٢١ - وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرَأَتَهُ أَكْرَمِي مَوْتَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... الآية .

قال عزيز مصر ورئيس شرطتها لامرأته زليخا : أكرمي هذا الغلام وأحسنى معاملته ؛ فلا تزجريه زجر الخدم ؛ فإننى ألمح فيه شرف المحدث ، وجمال المحيا ، ولعله فى المستقبل يكون صالحا لرعاية شئوننا ، أو رعاية شئون الدولة ، فإن فراستى فيه ؛ أنه أهل للمكارم والعظائم ، أو عسى أن نتخذه ولدا نتيبناه ، ونحسن القيام عليه ؛ ليكون لنا ابنا يرعانا عند الكبر ، ويحنو علينا عند الحاجة إلى ذلك .

وقد صدقت فراسة هذا العزيز ، فكان يوسف وزيرا ناجحا استطاع أن ينقذ مصر من المجاعة التى مّرت بها ، واستطاع أن يحافظ على الأقوات ، بما يكفى مصر ويكفى جيرانها .

أخرج سعيد المنصور والحاكم وصححه ، وجماعة : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ؛ حين قال لامرأته : أكرمي مَوْتَهُ ، وزوجة موسى ؛ حين قالت لأبيها : يَلْبَثُ اسْتِجْرَهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتِجَرْتُ الْقَوَى الْأَمِينَ . (القصص : ٢٦) . وأبو بكر رضى الله عنه ؛ حين استخلف عمر رضى الله عنه .

قال ابن العباس وابن إسحاق : إنما قال العزيز : أَوْ تَخَذَهُ وَلَدًا ؛ لأنه كان حصورًا لا يولد له .

وَكَذَلِكَ مَكَانُ يُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِتَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ...

كما أكرمنا برعايته في الحب ، وبإلقاء محبته في قلب عزيز مصر ، وبرايعته في محنته عندما تعلقت به زليخا ، وعلمناه تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا ومعرفة ما تنول إليه الرؤيا ، وجعلنا تأويله لرؤيا السجينين سبيلا إلى تأويل رؤيا الملك ، ثم تقدير الملك له ، وتوليته الوزارة ، وتوقيفه لأن يكون وزيراً ناجحاً ، ثم تيسير حضور إخوته إليه من مصر ، وسجودهم له سجود تعظيم ، وتحقيق رؤياه ، وإنعام الله عليه وعلى والديه .

وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : والله غالب على كل أمر يريد ، فلا يُغلب على شيء منه ، بل يقع كما أراد : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فما حدث من إخوة يوسف له ، ومن تعلق امرأة العزيز به ، ودخوله السجن ، وخروجه من السجن وزيراً مفوضاً ؛ قد كان من الأسباب التي أراد الله تعالى له بها التمكين في الأرض ، ولكن أكثر الناس يأخذون الأمور بظواهرها ، والأقل يدركون أن هناك أسباباً خفية تلتف الله بها في التوصل إلى تحقيق مراده ، على نحو ما قال يوسف : إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . (يوسف : ١٠٠) .

٢٢ - وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

ولما بلغ سن رشده وكمال قوته ؛ باستكمال نموه البدني والعقلي ؛ وهبناه حكماً صحيحاً فيما يعرض له من مهام الأمور ، ومشكلات الحوادث ، مقروناً بالحق والصواب ، لما وهبناه علماً غزيراً وبصراً بالأمور ، ومثل ذلك الجزاء العظيم ، نجازي به المتحلين بصفة الإحسان الذين لم يدنسوا أنفسهم بسيئات الأعمال ؛ فنزيتهم نصيباً من الحكم بالحق والعدل ، وعلمنا وتوفيقاً وبصراً بالأمور .

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ
مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ
وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٣﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا
لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾

المفردات :

ورودتـــــــــــــــــه : طلبت إليه ، من راد يروود : إذا ذهب وجاء لطلب شيء ، والمراد : تحايلت لمواقفته إياها ،
ولم تجد منه قبولا .

وغلقت الأبواب : أحكمت إغلاقها ، قيل : كانت سبعة ، والتشديد : للتكثير أو للمبالغة في الإيقاع .

هـــــــــــــــــيئت لك : هيت : اسم فعل أمر بمعنى : أقبل وبادر ، واللام في لك للبيان . أى : لك أقول هذا ، كما في هلم
لك ، وقرئ : هُيت بكسر الهاء وبالهزم وضُم التاء ، بمعنى : تهيات لك فهو : فعل ماضى وفاعله .
معـــــــــاذ الله : أى : أعوذ بالله معاذاً . أى : ألتجأ إليه للتجاء .

إنـــــــــه ربــــــــى : إنه سيدى الذى ربانى .

أحسن مـــــــــثواى : مقامى ، أى : أحسن تعهدى وأكرمنى فلا أخونه أبداً .

هـــــــــمت بـــــــــه : عزمت وقصدت مخالطته .

وهم بــــــــها : نازعته الشهوة لمخالطتها إلا أنه ضبط نفسه ، وتذكر ربه : فامتنع . قال تعالى : إِنَّ
الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْمِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وهم بها لولا أن

رأى برهان ربه : هنا جواب الشرط محذوف تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، أما هذا البرهان
فقيل : إنه رأى جبريل وقيل : رأى يعقوب .

كــــــــــــــــذلك : أى : مثل ذلك التثبيت ثبتناه ، وأريناه البرهان .

المخلصين : بفتح اللام أى : الذين أخلصهم الله لطاعته .

تمهيد :

تشير هذه الآية إلى : محنة جديدة ليوسف الصديق . تلك هي مرادة امرأة العزيز له والباحها عليه ، واعتصامه بالله رب العالمين .

التفسير :

٢٣ - وَرَاوَدَتْهُ الْيَاسِيَةُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. الآية .

سبق أن قال العزيز لامرأته : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ، ونشأ يوسف كريما حكيما عليما ، وبلغ أشده ، واستوى له العلم والجسم والفضل والكمال والجمال : فأحبته امرأة العزيز ، وتمنت لو بدأها ، لكنه كان في غاية الأدب وحسن السيرة : فلجأت إلى فنون الأنثى ذاهبة إلى فن ، آيبة من فن ، وَرَاوَدَتْهُ من راد ، يرود بالإبل : إذا ذهب وجاء ، وهي تعبر عن تلطف الأنثى وتحايلها في رفق ولين : كأنها تريد أن تصرفه عن نفسه ، فهو في عفة واستقامة تجعله يسيطر على نفسه وهواه ، لكنها تريد أن تسلبه سيطرته على نفسه ، تريد أن تتصباها وتستثير نوازع شهوته وطلبات جسده .

وَرَاوَدَتْهُ الْيَاسِيَةُ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ .

والمعنى : واحتالت امرأة العزيز التي يقيم يوسف في بيتها - احتالت عليه وطلبته برفق وخديعة أن يمكنها من نفسه ، يخالطها مخالطة الرجل للمرأة .

وَوَدَّعَتْ الْأَبْوَابَ .

أحكمت إغلاق الأبواب ، بل حاولت أن تجعلها حيطانا لا يسهل الوصول لأحد منها : لذلك قال القرآن غَلَّقَتْ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ ، فهي التي أغلقت الأبواب بنفسها ، وأحكمت إغلاقها .

وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .

أى : هلم أقبل وبادر ، قد تهيأت لك ! وهي كلمة أقرب إلى مناجاة خاصة تطلب بها الأنثى من يريد مخالطتها ، وهي تعبر عن تضرع المرأة بكل وسيلة تملكها : لإغراء الرجل الذي تريده ، وهنا وقد بلغت المرأة آخر ما تستطيع من إغراء : وقف يوسف الصديق يذكرها بالزوج ، وبالله ، ويحذرهما من الظلم .

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

أى : أعوذ بالله معاذًا ، وألتجئ إليه وأعتصم مما تريدين مني ، فهو يعيذني من هذا المنكر وهذه الفاحشة .

إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ .

إِنَّهُ الضمير للشأن والحديث : أى : إن الأمر والشأن الخطير الذى يمنعنى من إجابتك ؛ هو سيدى الذى ربانى وأحسن تعهدى ، حيث أمرك بإكرامى ، فكيف أسىء إليه بخيائته فى زوجته ؟ !
واختار أبو حيان أن الضمير لله تعالى .

والمعنى : أن الله تعالى خالقي أحسن مَثْوَايَ ، وجعل قلب العزيز يعطف على ، ويطلب منك إكرامى ؛ فكيف أعصى ربي بارتكاب تلك الفاحشة ؟ !
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

أى : إن الشأن فى سنة الله فى خلقه وعدالته ، هو أنه لا يفوز الظالمون فى دنياهم وأخراهم ، فأما فى الدنيا فيعاقبون بالعلل والأسقام ، والنذل بعد العزّ ، والفقر بعد الغنى ، وغير ذلك من الآفات ، وأما فى الآخرة فالجحيم والزمهرير ، ومن فاتته عقوبة الدنيا لم يفلت من عقوبة الآخرة .

قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . (إبراهيم : ٤٢) .

٢٤ - وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَاهُ الرَّحْمَنُ رَبِّهِ ...

كثر كلام المفسرين حول هذه الفقرة وكأنهم أرادوا أن يرتبوا عن مقام النبوة كل هفوة ؛ من ذلك أن السيد رشيد رضا فسر هَمَّ المرأة هنا : بأنها أرادت ضربه ، حيث أذلها وكسر كبرياءها ؛ فصممت على ضربه ، وهم بها ليمنعها أو يضربها : لولا أن أراه الله برهاناً ، وبقيناً يدعوه إلى الخروج من المأزق ، والهروب من أمام هذه المرأة ؛ طلباً للنجاة ، وكما أكرمه الله سابقاً ، أكرمه بهذا التفكير ؛ ليصرف الله عنه ارتكاب القتل ، وارتكاب الزنا ؛ لأن الله أخلصه وقربه واصطفاه .

وإذا أمعنا النظر فى الآية والسياق والأحاديث ؛ وجدنا أن الآية تشير إلى هَمَّ امرأة العزيز بيوسف .

والهم نوعان :

الأول : هَمُّ بمعنى : القصد والعزم والتصميم على التنفيذ .

والثانى : هَمُّ بمعنى حديث النفس ، وهو خطرات النفس ، وفى الحديث : «إن الله غفر لأمتى ما حدثت به نفسها» ^(٩١) .

وهذا الهم الثاني : حديث النفس ، أو خطرات تعرض للنفس ، ثم يتراجع المؤمن ، ويرى أوامر الله صريحة أو برهان الله واضحاً فى تحريم الفعل والزنا ؛ فيكون له ثواب الكف عن المحرم ، وتلك محمودة لا مذمة .

وفى الصحيحين : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : «إذا هم عبدي بحسنة : فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها : فاكتبوها حسنة : فإنما تركها من جرائي ، فإن عملها : فاكتبوها بمثلها» (٩٧) .

وقد ذهب إلى هذا المعنى الزمخشري فى تفسير الكشاف والإمام الآلوسى ، والأستاذ محمد فريد وجدى فى المصحف المفسر حيث قال :

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا . أى : قصدت مخالطته ، وقصد هو مخالطتها ، والهم بالشئ : قصده والعزم عليه ، والمراد بهم يوسف : منازعة الشهوة إياه ، لا القصد الاختيارى ، وهذا لا يدخل تحت التكليف قط ، بل يثاب المرء على الامتناع عن مجاراته ، وهذا لا يقدح فى يوسف ؛ فإنه عام فى جميع الناس وإنما يتفاضلون فى ضبط نفوسهم ، وكف رعوناتها (٩٨) .

وقال الإمام الآلوسى :

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ . أى : بمخالطته ، والمعنى : أنها قصدت المخالطة وعزمت عليها عزمًا جازمًا ، لا يلويها عنها صارف .

وَهَمَّ بِهَا . أى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ومثل ذلك لا يكاد يدخل تحت التكليف ، وليس المراد : أنه قصدها قصدًا اختياريًا ؛ لأن ذلك أمر مذموم .. وإنما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه فى صحبة همها فى الذكر ، على سبيل المشاكلة لا لشبهة به .

لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ . أى : محبته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله ، والمراد برويته لبرهان الله : كمال إيقانه به ، ومشاهدته له مشاهدة وصلت إلى مرتبة عين اليقين (٩٩) . ا هـ .

والبرهان الذى رآه يوسف ، هو برهان الله المأخوذ على المكلفين ، من وجوب اجتناب المحارم ، أو حجة الله تعالى فى تحريم الزنى ، والعلم بما على الزناة من العقاب . وقيل : هو تطهير نفوس الأنبياء عن الأخلاق الذميمة .

وقد بالغ بعض المفسرين فى تفسير هذا البرهان ؛ فادعى بعضهم : أن يوسف سمع هاتفاً يقول :

يا يوسف ، اسمك ، فى ديوان الأنبياء ، وتغفل فعل السفهاء !

وادعى بعضهم: بأن يوسف حلّ سراويله ، وجلس من زليخا مجلس الخائن ، ثم رأى زليخا تقوم وتغطي صورة صنم موجود ؛ فقال لزليخا: تستحين من صنم ، ولا أستحي من رب الأرض والسماء ؟!

وادعى بعضهم: أنه رأى صورة والده يعقوب ، يعض على إصبعه ، ويحذر يوسف ؛ فاستحي يوسف من فعل الفاحشة .

وادعى بعضهم: أنه رأى جبريل عليه السلام يحذره من ارتكاب الفاحشة .

ونقول لهؤلاء ما قاله شيوخنا: لو أن أقل الناس حياءً وأكثرهم وقاحة ، رأى أمثال ذلك لخلج وذهب منه كل رغبة في الشهوة ؛ فأى فضيلة لهذا النبى الكريم ، الذى مدحه الله ، وسجل شهادة بزهاته ، ثم قالت النسوة عنه : حَسَبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . وقالت امرأة العزيز عنه : أَنَا زَوَّجْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . كل هذه الشهادات تثبت أن عفة يوسف ، ورجوعه إلى الحق والالتزام ؛ كان سببه يقين داخلى ، ورغبة ذاتية . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١).

لقد كان همّ يوسف بامرأة العزيز مجرد تفكير فى هذا الإغراء ، الذى يزلّ له عقل البشر ، ثم عصمه الله بالعقل والفكر والتأمل ، والالتجاء إلى الله ، كما قال تعالى : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . (يوسف : ٢٤) .

والبرهان هذا هو المفتاح الذى يفتح أبواب النصر على الإغراء ، والارتقاء على حيل الشيطان ؛ قد يكون تذكّر الموت أو القبر أو الحساب أو الآخرة ، أو الأب الرجل الصالح ، أو الملاك جبريل ، وهو يهبط بالوحى ، أو جلال الله وعظمته وهو مطلع وشاهد ، وكلها براهين تنبع من داخل النفس والوجدان والتصوّر ؛ لكنها تتجمع كلها على معنى واحد هو : رقابة الله والتزام أمره واجتناب نهيه ؛ لهذا عبر عنها بالمفرد فقال: لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّيَ . وهو معونة الله للصادقين ، ورعايته للمخلصين ، وعصمته للأنبياء والمرسلين .

كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ .

رجعنا فيما سبق أن الامتناع عن الزنا مع الخطور بالبال ؛ يدل على قوة الوازع ، وقوة الإرادة أكثر من عدم وجوده ، أى: أن يوسف لم يكن عنيئاً ، ولا حصوراً ، وإنما كان بشراً مكتمل الجسم والقوة ، يفكر فى هذا الإغراء ، أو يتخيله لأول وهلة ، ثم يعتصم ببرهان الله وتوفيقه .

كما قالت امرأة العزيز للنسوة : وَلَقَدْ زَوَّجْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ . أى: طلب العصمة وتمسك بها .

وهنا يقول الله تعالى : كَلَّا لِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ .

أى : جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك ؛ لنصرف عنه دواعى ما أرادت به من السوء ، وما راودته عليه قبله من الفحشاء ؛ بعصمة منّا تحول دون تأثير دواعيها الطبيعية فى نفسه ، حتى لا يخرج من جماعة المحسنين إلى جماعة الظالمين .

وجاء فى تفسير الكشاف للزمخشري^(١٤) :

كَلَّا لِكَ . الكاف منصوب المحل أى : مثل ذلك التثبيت ثبتناه .

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ . من خيانة السيد .

وَالْفَحْشَاءَ . من الزنى .

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . أى : الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم .

ويجوز أن يراد بالسوء : مقدمات الفاحشة من : القبلية ، والنظر بشهوة ، ونحو ذلك .

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ . أى : من جملة المخلصين ، أو هو ناشئ منهم ؛ لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال الله فيهم : وَادْكُرْ عِبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ . (ص : ٤٥ - ٤٧) .

٢٥ - وَاسْتَبَقْنَا آتَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا آتَابٍ ...

أى : تسابقا إلى الباب ؛ كل منهما يريد أن يسبق الآخر ، مع اختلاف المقصد ؛ فيوسف أسرع من أمامها هارياً طالِباً النجاة من هذه المرأة الراغبة فى الشهوة بكل ما أوتيت من وسيلة ، وزليخا أسرع وراءه تبتغى إرجاعه ؛ حتى لا يفلت من يدها ، وهى لا تدري إذا خرج إلى أين يذهب ، ولا ماذا يقول ، ولا ماذا يفعل ؟ لكنها أدركته .

وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ .

أى : جذبت به من قميصه فانقذ طولاً إلى ذيله .

وَأَلْقَى سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ .

أى : وحينئذ وجد زوجها عند الباب الخارجى ، ويوسف يسرع هارباً ، وهى تلهث وراءه طالبة ، وهى فى زينتها وحلتها ، وفى وهلة المفاجأة أسرع المرأة إلى تخلص نفسها من التهمة ، وتهديد يوسف حتى يستجيب لها ، ويعرف أن أمره بيدها .

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وقد ذكر المفسرون : أن هذه الجملة تدل على ذكاء المرأة وحسن تخلصها .

● فهى لم تصرح باسم يوسف ؛ تهويلاً للأمر ، وتعظيماً له ، كأن ذلك قانون مطرد فى حق كل من أراد سوءاً بأهل العزيز .

● لم تصرح بجرم يوسف ؛ حتى لا يشتد غضب العزيز عليه ، ويقسو فى عقابه ؛ كأن يبيعه أو يقصيه عن الدار ؛ وذلك غير ما تريد .

● حبها الشديد ليوسف عليه السلام ؛ حملها على أن تبدأ بذكر السجن ، وتؤخر ذكر العذاب ؛ لأن المحب لا يسعى فى إيلاام المحبوب لا سيما أن قولها : إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ . قد يكون المراد منه السجن لمدة يوم أو يومين^(١٧) .

قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : وحينئذ قالت زليخا للعزيز : ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة ؛ إلا أن يحبس أو عذاب مؤلم موجه ، فيضرب ضرباً شديداً ، وكانت نساء مصر تلقب الزوج : بالسيد .

﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ
 قَبْلَ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴾ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
 الصَّادِقِينَ ﴿ ٢٧ ﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ
 عَظِيمٌ ﴿ ٢٨ ﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
 الْخَاطِئِينَ ﴿ ٢٩ ﴾

المضردات :

وشهد شاهد من أهلها : قيل : ابن عمها ، وقيل : ابن خالها ، وكان صبيًا في المهد ؛ أنطقه الله ؛ معجزة له .

قــــــــــــــــــــد : شَقَّ ، يقال : قُدَّه ، يقْدُهُ قُدًّا ؛ شَقَّه .

من قبل : أى : من أمام .

من كيدكُن : أى : من حيلتكُن ، يقال : كاده ، يكيدُه كيدًا ؛ احتال عليه ؛ حتى أوقعه .

يوسف أعرض عن هذا : أى : يا يوسف : اكنمه ولا تذكره .

واستغفري : يا زليخا وهى زوجته .

من الخاطئين : من المذنبين من خطئ يخطأ ، خطأ أى : أذنب متعمدًا ، أمّا أخطأ فمعناه أذنب ؛ غير متعمد .

التفسير :

٢٦- قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ... الآية .

أى : قال يوسف مدافعا عن نفسه مكذبا لها : هى التى دعتنى إلى مقارفة الفاحشة ، لا أنى أردتُ
 بها السوء .

وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ .

تعددت آراء المفسرين حول هذا الشاهد ؛ فقول : إنه طفل فى المهد شهد بما فعله الله بعد ، وكان من

أهل امرأة العزيز .

ونذكر القرطبي نقلاً عن ابن عباس: أن الشاهد كان ابن عمها ، وكان رجلاً عاقلاً حكيماً ، شاوره

العزيز فى هذا الأمر .

قال صاحب الظلال :

لعله شهد الواقعة ، أو أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر ، كما يقع فى مثل هذه الأحوال ، أن يستدعى الرجل كبيراً من أسرة المرأة ، ويطلعه على ما رأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم، الهادئة الأعصاب . ١ هـ .

ويلاحظ أن هذا الكلام من قريب زليخا لا يعتبر شهادة ؛ لأنه لم ير شيئاً مما حدث ، ولكنه لما كان يرشد إلى دليل الحكم ، أطلق عليه شهادة مجازاً ؛ لأنه يشبهها فى التوصيل إلى الحكم الصحيح .

إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ .

أى : إن كان قميص يوسف شق من قدامه ، فقد صدقت فى دعواها ؛ أنه أراد بها سوءاً ؛ فهو قرينه على أنه بادرها بالاعتداء ؛ فنازعته وأخذت بتلابيبه من قدامه ، وجعلاً يتصارعان ، وهى ممسكة بتلابيبه فشق القميص فى يدها من قدامه وهو يخلّصه منها ، وهو حينئذ من الكاذبين فى دعواه ؛ أنها راودته عن نفسه فامتنع .

٢٧ - وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

وإن كان قميصه قدّم من دُبُر : فهو من أذّر تملّصه منها ، وأنه أسرع إلى الباب ؛ ليهرب منها ، وأنها تابعته وجذبت ثوبه من الخلف ؛ لتمنعه من الهروب .

وقد قدم الغرض الأول ؛ لأنها سيّدة ، صاحبة القصر ، وهو فتى عندها فمن باب اللياقة أن يذكر الغرض الأول أولاً ، والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة « واعتماد القضاة على القرائن معروف فى الفقه ، ويؤخذ بالقرينة فى اللفظة وفى كثير من المواضع ، حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت أمتعتهم معهم؛ فأدعاهما قوم وليست لهم بيّنة ؛ فإن الحاكم ينتظر بعض الوقت ، فإن لم يأت غيرهم ؛ دفعها إليهم .

وقال محمد بن الحسن الشيبانى : فى متاع البيت إذا اختلف فيه الرجل والمرأة ، إن ما كان للرجال فهو للرجل ، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل .

وكان شريح وإياس بن معاوية يُعلان العلامات فى الحكومات ، أى : فى القضايا التى لا شهود فيها ، وأصل ذلك هذه الآية «^(٩٧) .

٢٨- فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنْ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

أى: فلما شاهد العزيز قميص يوسف قد انشق من خلفه؛ التفت إلى زوجته وقال لها: إن اتهامك اتهام باطل حين قلت: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا... أو إن تدبير المكر بالرجال من كيدكن وتدبيركن؛ معشر النسوة؛ فهن أكثر تلطفاً واحتياجاً؛ للوصول إلى أهدافهن من الرجال، ولأن ذلك يتناسب وطبيعة هذه الطبقة المترفة من النساء، التى تجد سعة من الوقت؛ لتدبير الكيد وإحكام المكر، ونسب الكيد إلى جميع النساء، فقال: إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . مكركن محكم قوى . وفيه ما ترى من برود العزيز؛ حيث نسب المكر إلى كل النساء، وهى واحدة منهن، فكأنها من أبرع بنات جنسها فى تدبير الكيد والمكر .

قال حكيم: « ما أيس الشيطان من أحد إلا أتاه من جهة النساء » .

وقال بعض العلماء: أننا أخاف من النساء ما لا أخاف من الشيطان، فإنه - تعالى - يقول فى حق الشيطان: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا . (النساء: ٧٦)، وقال فى حق النساء: إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .

٢٩- يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِ لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ .

بعدما ظهرت براءة يوسف؛ اتجه العزيز إليه بالخطاب طالباً منه أن يكتفم الأمر، ولا يفضح الزوجة، واتجه إلى زوجته بخطاب يسير يطلب منها أن تستغفر من ذنبها، أى: تطلب منه الصفح، أو تطلب من الآلهة التى كانوا يتجهون إليها بالعبادة؛ فإنك تعمدت الخطأ، ودبرت خطة محكمة؛ فى الإيقاع بيوسف، واتهامه بدون وجه حق . قال النسفى فى تفسير الآية: « وكان العزيز رجلاً حليماً، قليل الغيرة؛ حيث اقتصر على هذا القول »^(٩٨) .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصِمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجُنَ وَكَانَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْأَيَّاتِ لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

المضردات :

نِسْوَةٌ : جماعة من النساء لا واحد له من لفظه .

امرأة العزيز : زوجته .

تراود فتاهها عن نفسه : تطالب فتاهها بمضاjectها ، وتخادعه عن نفسه .

قد شغفها حبًّا : شق شغاف قلبها حبًّا حتي وصل إلى فؤادها ، وشغاف القلب حجابها المغشى له .

ضلال مبين : بعد عن طريق الصواب والعفة ، بين واضح .

فلما سمعت بمكرهن : أى : باغتيابهن ، وإنما سُمّاه : مكرًا ؛ لأنهن أخفينه كما يخفى الماكر مكره .

وأعتدت لهن متكنا : أى : أعدت لهن ما يتكنن عليه من الوسائل ، يقال : أعتد الشيء ، أى : أعدّه ، وهو من العتاد ، أى : الأداة .

وآتت ————— : وأعطت .

أكبرنــــه : عظمته ، وهينَ حسنه ، من أَكْبَرُ الشيء أى : رآه كبيرًا .

وقطعن أيديهن : أى : جرحن أيديهن من فرط الدهش .

حــــاش لله : تنزيهه له عن صفات العجز والتقص ، والمراد : التعجب من حسن يوسف .

إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ ، أَيْ : مَا هَذَا إِلَّا مَلِكٌ .

لَتَنُنِي فِيهِ ، أَيْ : هَذَا الَّذِي غَيَّبْتَنِي فِيهِ ، وَعَيَّرْتَنِي .

فَاسْتَعَصِمَ ، فَا مَتَنَعَ ؛ طَلِبًا لِلْعَصْمَةِ ، وَبَالِغٌ فِي ذَلِكَ .

مَنْ الصَّاعِرِينَ ، مِنْ الْأَزْلَاءِ .

كَيْدُهُمْ ، اِحْتِيَالُهُمْ . الْكَيْدُ : ضَرْبٌ مِنَ الْاِحْتِيَالِ . قَدْ يَكُونُ مَحْمُودًا وَمَذْمُومًا ، وَهُوَ فِي الْمَذْمُومِ أَكْثَرُ .

أَصْبَحَ إِلَيْهِمْ ، أَيْ : أَمَلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَسْتَجِبَ إِلَى هَوَاهُمْ ، يُقَالُ : صَبَّأَ إِلَيْهِ ، يَصْبُؤُا صَبْؤًا ، أَيْ : مَالٌ إِلَيْهِ ، وَالصَّبُوءُ هِيَ : الْمِيلُ مَعَ الْهَوَى .

التفسير :

٣٠- وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَسَقَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ... الْآيَةَ .

تفيد هذه الآية : أَنَّ خَبرَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ مَعَ يَوْسُفَ : قَدْ اِنْتَشَرَ فِي مَدِينَةِ مِصْرَ ، خُصُوصًا بَيْنَ نِسَاءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ الَّتِي تَهْتَمُ بِمَثَلِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ .

لَقَدْ كَثُرَ كَلَامُهُمْ وَغِيْبَتُهُمْ وَعَيِبُهُمْ لَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ ؛ حَيْثُ أَنَّ زَوْجَهَا هُوَ كَبِيرُ الْوُزَرَاءِ ، وَلَهُ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ وَالْحُكْمِ ، ثُمَّ تَشْغُلُ هَذِهِ الزَّوْجَةَ عَنْ زَوْجِهَا الْكَبِيرِ الْخَطِيرِ ، بِحُبِّ فَتَاهَا وَتَابِعِهَا ، حَيْثُ تَسْتَمِرُّ فِي طَلَبِهِ الْفَاحِشَةِ مِنْهُ ، وَتَرِيدُ مَضَاجِعَتَهُ ، وَقَدْ تَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ شَغَافِ قَلْبِهَا ، فَلَمْ يَدَعْ فِي قَلْبِهَا مَكَانَ لْغَيْرِ حُبِّ يَوْسُفَ ، وَعَقَّبَ النِّسْوَةُ بِقَوْلِهِنَّ : إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . أَيْ : إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ وَاضِحٍ بَيْنَ ؛ لِرَغْبَتِهَا فِي الزَّانَا ، وَانْشِغَالِهَا بِفَتَى تَابِعَ لَهَا ، وَتَمَكَّنَ حُبُّهُ مِنْ قَلْبِهَا ؛ مَعَ أَنَّ زَوْجَهَا فِي مَنْزِلَةِ رَفِيعَةٍ عَالِيَةٍ .

٣١- فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ... الْآيَةَ .

تفيد هذه الآية : قُدْرَةَ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ عَلَى مِقَابَلَةِ كَيْدِ النِّسْوَةِ ، وَحَدِيثِهَا عَنْهَا ، وَتَجْرِيحِهَا لَهَا ، وَانْتِقَاصِهَا لَضُلَالِهَا ، وَفَتْتِهَا بِغِلَامٍ مَمْلُوكٍ لَهَا - قَابِلَتْ كُلَّ ذَلِكَ بِمَكْرِ مِثْلِهِ ، وَأَبْرَعَ مِنْهُ ؛ فَقَدْ عَمِلَتْ وَلِيْمَةً وَدَعَتْ إِلَيْهَا نِسَاءَ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ ، قِيلَ : إِنَّهَا دَعَتْ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً . مِنْهُنَّ خَمْسٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمَاتِ عَلَيْهَا : (امْرَأَةُ السَّاقِي ، وَامْرَأَةُ الْخَبَازِ ، وَامْرَأَةُ الْحَاجِبِ ، وَامْرَأَةُ صَاحِبِ الدُّوَابِ ، وَامْرَأَةُ صَاحِبِ السَّجَنِ) ، وَأَعْدَّتْ حَشَايَا وَأَرَاكٍ مَرِيحَةٍ يَجْلِسْنَ فِيهَا وَيَسْتَرَحِينَ ، وَصَنَعَتْ لَهُنَّ طَعَامًا فِيهِ اللَّحُومُ وَالْفَاكِهَةُ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى سَكَاتِينَ ؛ لِلتَّقَطِيعِ أَوْ لِلتَّقْشِيرِ ، وَوَزَعَتْ عَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ سَكِينًا لِّتَقْطِيعِ الطَّعَامِ .

وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَتْهُ أَعْرَضَتْ وَبَطَنَ يُدْيَهُنَّ .

أمرت زليخا يوسف أن يخرج على النسوة وهو لا يدرى بما دبّرت به وبيّنته ، فلما شاهدته : بهرهن جماله ، وحسنه الرائق الفائق ، وعظّمته وتهيبن حسنه الرائع ، وجرحن أيديهن بما معهن من السكاكين ؛ لفرط دهشتهن ، وخروج الأمر عن إرادتهن ، حتى لم يشعرن بما فعلن .

وَقُلْنَا حَلَسْ لِلَّهِ مَا هَلَدَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ .

أى : قالت النسوة : تنزيها لله تعالى عن العجز عن خلق هذا الجمال المثالى : حَلَسَ لِلَّهِ . أى : تنزه الله عن صفات العجز ، وتعالى عظمته فى قدرته على خلق مثله . والمقصود : التعجب والتعجب والتعجب من الدهشة ، والإعجاب بهذا الجمال الباهر ، وبصنع الله القادر .

مَا هَلَدَا بَشَرًا . أى : ما هذا الذى نراه بشراً ؛ فما مثله فى الناس أحداً .

إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . أى : ما هذا إلا ملك من الملائكة ؛ فإن هذا الجمال الباهر ، والحسن الرائع ، مما لا يكاد يوجد بين البشر ، يردن وصفه بأقصى مراتب الحسن ، والجمال والكمال .

وهكذا جرت العادة فى تشبيه كل متناه فى الحسن بالملك ، كما جرت فى تشبيه كل متناه فى القبح بالشیطان .

٣٢- قَالَتْ فَذَلِكُنَ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ...

أحست زليخا أنها انتصرت على بنات جنسها ؛ فقد كنّ يلمنها ، ويتصورن يوسف بصورة أدنى ، فلما شاهدته ؛ بهرهن جماله ، وشهدن له بأن حسنه ليس لبشر ، بل هو حَسَنُ الملاك . أى : أن حُسْنه خارج عن صفات البشر ، والمراد : الإعجاب والدهشة والانبهار بما يملك يوسف من جمال بارع ، فائق ، خارج عن حد البشر .

وفى صحيح البخارى: أن النبى ﷺ شاهد فى السماء الثالثة يوسف . وقد أعطى شطر الحسن .

ثم وجهت امرأة العزيز الخطاب إلى جمع النسوة فقالت : إن هذا الفتى العبرانى ، هو الذى لُمْتُنْنِي فى الافتتان به ، والوقوع فى حبه ، وقد فتنكن ؛ فقطعتم أيديكن ، وأنا أعيش معه ليل نهار ، وأشاهده صباح مساء ، ولقد راودته عن نفسه ، وطلبت منه الجماع فامتنع امتناعاً كاملاً .

وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري :

أى : أردت أن أنال وطرى منه ، وأن أقضى شهوتى معه ، فامتنع امتناعاً شديداً ، وأبى إباءً عتيقاً . والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البالغ والتحفظ الشديد .

وَلَيْنَ لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامَرُهُ لَيَسْجَنَ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ .

وجهت زليخا تهديداً إلى يوسف أمام النسوة ، وقد كان أمرها معه سراً لكنها صرحت برغبتها فيه ، وأوعزت إلى النسوة بمعاونتها . ولعل لهذه النسوة من حركاتهن المثيرة : وملابسهن الكاشفة عن مفاتنهن ؛ ما يثير الرغبة ويزلزل كيان المستعصم .

كان يوسف قد امتنع عن مضاجعة هذه المرأة ، فذاقت آلام الهجر ، وسهر الليل ، والحرمان والإحباط ؛ فهددته بأنه إذا أصر على إباطه ، ولم يفعل ما أمره به من المضاجعة ؛ ليوضعن فى السجن مع السراق والمجرمين والقتلة ، وليذوقن الصغار والنل بينهم ، فقد زهد فى أميرة تلبس الحرير والديباج ، متبهةً لتلبية طلبه ، فليذق مثلاً سهر الليالى مع المجرمين العتاة ، وليجلس على الأماكن الخسنة ، وليعانى آلاماً مبرحة ؛ عقاباً له على إهانته ، وعدم تلبية أمرى !

وهكذا نشاهد تعنت هذه المرأة وتبجحها ؛ فهى تجاهر بالمعصية ، وتهدد المستعصم المستقيم ، وتستعين بالنسوة على إغرائه ، وتيسر أمره ؛ حتى يلجى دعوة الفاحشة .

ومن كل ما سبق نشاهد كمال يوسف ، وزهده فى هذه المرأة وفى أمثالها ، بل واتجاهه إلى الله تعالى ؛ ليحفظه من هذا الإغراء المتتابع .

٣٣ - قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ .

هنا لجأ يوسف إلى ربه ؛ عندما شاهد عودة زليخا إلى المراودة والتهديد والوعيد ، وشاهد دعوة النسوة له إلى إجابة طلبها ، وربما عرضن أنفسهن عليه مبهورات بجماله ؛ فخشى من هذا الإغراء المتتابع ، ومد يديه إلى الله داعياً ، مستجيراً ، طالباً منه : الثبات والمعونة ، مفضلاً السجن وما فيه من خشونة العيش وشظف الحياة ، على الوقوع فى المعصية ، واقتراف الزنا .

واستمر فى دعاء مولاه ؛ بأن يصرف عنه كيد النسوة ، وتديبرهن المحكم لإغوائه ؛ حتى لا يتأثر بهذا الإغواء ؛ فيستجيب لهن بمقتضى الطبيعة البشرية ، أو يميل إلى الاستجابة لهن ، وبذلك يكون ممن جهل حق العلم ، وحق الله فى الطاعة والانصراف عن الغواية .

وقد ذكر الإمام القرطبي في معاني الآية :

« قال يوسف : رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه من الزنا ، أو أحب إلى من أن أتى ما تكره .

وَالْأَصْرَفُ عَنِّي كَيْدُهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .

يقول : وإن لم تدفع عني يا رب فعلهن الذي يفعلن بي في مراودتهن إياي على أنفسهن ؛ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ . يقول : أميل إليهن ، وأتابعهن على ما يردن مني ويهوين . من قول القائل : صبا فلان إلى كذا ، ومنه قول الشاعر :

إلى هند صبا قلبي وهند مثلها يصبي^(٢٤)

٣٤- فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

لقد لجأ يوسف إلى ربه يطلب منه: القوة والمنعة ، وأن يصرف عنه إغراء النسوة ، وقد وعد الحق سبحانه بإجابة الدعاء ، خصوصاً دعاء المضطر الصادق مثل يوسف . قال تعالى : أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ . (النمل: ٦٢) ، فَصَرَفَ اللهُ عَنْهُ كَيْدَ النِّسَاءِ ؛ بأن ألقى اليأس في قلوبهن ؛ ثم زاده الله عصمة وتقيتاً ؛ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِدَعَاءِ الدَّاعِينَ ، الْعَلِيمُ بِالْخَفَايَا وَيَ الْأَسْرَارِ ، وبما هو أخفى من الأسرار .

٣٥- ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ كَيْدِهِنَّ حَتَّى جَاءَ .

أي : ثم بدأ للعزیز وزوجته وأهل مشورته أن يدخلوه السجن إلى حين ، أي : إلى وقت معين : تنقطع فيه الأسنة عن الكلام عنه ، وعن افتتان زليخا به ، مع أنهم قد شاهدوا العلامات الدالة على براءة يوسف ، ومن هذه العلامات : قد القمص من دبر ، وخمش وجد في وجهه ، وتقطيع النسوة أيديهن .

لكن امرأة العزيز يئست من يوسف ، واشتكت إلى زوجها : بأن يوسف يشيع بين الناس : أن زوجة العزيز راودته ، ويجب أن يوضع في السجن .

وجاء في البحر اخیط: عن ابن عباس :

« فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالبلبل ، ونودي عليه في أسواق مصر ، أن يوسف العبراني أراد سيده فجزأوه أن يسجن » .

ودخل يوسف السجن بريئاً ، تشهد الآيات على براءته : قال الشاعر :

قالوا : تروح إلى السجن فقلت : جبرى

إن السجنون مواطن الأساد

أو كل من دخل السجن بمجرم

بل كان يوسف ذروة الأمجاد

وجاء في ظلال القرآن :

« وهنا لابد أن تحفظ سمعة (البيوتات) . وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن ، فإنهن لم يسوا بعاجزين عن سجن فتى برىء ، كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من (الوسط الراقى) قد فتننت به ، وشهرت بحبه ، ولاكت الألسن حديثها فى الأوساط الشعبية »^(١٠٠) .

★ ★ ★

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي
أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْزَقَانِهِ إِلَّا لَبِئَاكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
ذَلِكَ مَا عَلِمْتَنِي فِي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ
﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

المضردات :

أعصر خمرًا ، أى : أعصر عنبًا يثول إلى خمر وأسقى منه الملك .

نبئنا بتأويله ، أخبرنا : بمال ما رأيناه فى المنام ، أى : فسر لنا الرؤيا .

ملة ، دين .

التفسير:

٣٦- وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجَنَ فَيَتَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَأَيْتِ أَغْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَأَيْتِ أَجْعِلُ فَوْقَ رَأْسِي خَبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أى : دخل فى الوقت الذى دخل فيه يوسف السجن ؛ فتيان خادمان للملك ، كان أحدهما : خباز الملك، والثانى : ساقيه ، واثهما بدس السم للملك فى الطعام والشراب ؛ فأدخلا السجن .

وعُرف عن يوسف الإحسان ، وزيارة المريض ، وعزاء المحزون ، ومعاونة المحتاج ، كما عرف عنه علمه بتفسير الأحلام وتعبير الرؤيا ؛ فكان يوسف صديق الجميع ؛ لحسن سيرته ، وكريم خصاله .

ولما جاء إليه الغلامان طلبا منه تفسير رؤياهما ، قال أحدهما - وهو الساقى - : لقد رأيت فى منامى أنى قطفت ثلاث عناقيد من العنب ، ثم عصرتها فى كأس الملك ؛ فصارت خمرا يشرب منها الملك، وقال خباز الملك : إنى رأيت فى منامى أنى أحمل فوق رأسى خبزا ؛ وجاءت الطيور الجارحة والنسور ، فكانت تأكل من هذا الخبز . أخبرتنا يا يوسف ، عن تفسير هذه الرؤيا ومدلولها ؛ إنا نراك من المحسنين الذين يجيدون تفسير الأحلام وتأويل الرؤيا ، ومن المحسنين فى سلوكهم ؛ وكريم خصالهم .

٣٧- قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

انتهن يوسف الفرصة ليبين للسجينين فضل الله عليه ، وإنعامه ؛ تمهيدا لدعوتهما إلى دين التوحيد، وترك ما عليه عامة المصريين فى ذلك الوقت من عبادة آلهة متعددة .

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا . كان يخبرهما بنوع الطعام وأوصافه قبل حضوره إليهما ، فيقول لهما : اليوم يأتىكما طعام من صفته كذا وكذا ، فيجداه كذلك بعد حضوره . وأطلق التأويل على ذلك ؛ تشبيها له بتأويل الرؤيا ، فإنهما يشتركان فى الإخبار بالغيب .

ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

أى : ذلك الإخبار بالغيب ، ليس عن طريق الكهانة أو التنجيم ، بل هو بسبب إلهام وحي من الله ؛ فهو من تعليم الله للأنبياء ما لا يعلمون .

إن يوسف يؤمن بالله إيماناً صادقاً ؛ عن يقين جازم بأنه واحد أحد ، فرد صمد لا شريك له ولا مثيل ، وقد ابتعد عن دين المصريين الذين لا يؤمنون بالله إيماناً كاملاً على الوجه الذى يليق به ؛ بل يشركون غيره .

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . فلا يؤمنون بالبعث والجزاء والحساب والثواب والعقاب .

٣٨- وَاتَّبَعَتْ مِثْلَهُ أَبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... الآية .

أى : اتبعت دين الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله ، وأرسلهم لتعليم عباده ، وهم آبائى إبراهيم ، وابنه إسحاق ، وحفيده يعقوب .

مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ .

أى : ما صبح ولا استقام لنا معاشر الأنبياء أن نشرك مع الله شيئاً ، أى شئ سواء أكان صنماً أم وثناً أم نجماً ؛ فكلها مخلوقات لله ، وآيات شهادات بوجود الله ؛ فكيف نعبدها مع الله ؟!

ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ .

أى : هذه الهداية إلى الإيمان والتوحيد ، وهذا المنهج السليم فى العقيدة ؛ من فضل الله الذى يختص برحمته من يشاء ؛ فاصطفانا بالرسالة والنبوة ؛ وهذا من فضل الله على الناس ؛ حيث أرسل لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ؛ لإرشادهم إلى الطريق القويم .

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

أى : أكثر الناس لا يشكرون فضل الله عليهم ؛ فيؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ؛ بل يكثررون بالله ، أو يجعلون مع الله آلهة أخرى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب ؛ وليس لها من صفة الألوهية إلا الاسم دون الفعل .

﴿يَصْحَبِي السِّجْنَءَ رَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ إِلَيْنِ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

المضردات :

يا صاحبي السجين : المراد بهما : الفتيان اللذان دخلا معه السجن ، وطلبا من يوسف تأويل الرؤيا ، أى : يا صاحبي فى السجن .

ءأرباب متفرقون : متعددون لا ارتباط ولا اتفاق بينهم .

السهار : الغالب الذى لا يدانى فى قهره ، ولا يستعصى عليه جبار ، ولا يفوته مطلوب .

أسماء سميتموها : أسماء اتخذتموها دون أن يكون لها مسميات على الحقيقة .

سلطان : حجة .

القيم : أى القويم .

التفسير :

٣٩- يَصْحَبِي السِّجْنَءَ رَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

يا رفيقى فى السجن وصاحبى ؛ فقد اتخذ منهما صاحبين له فى السجن : حيث الوحدة والشدة والغربة تؤلف بين قلوب بعض المساجين ؛ فيناديهما ويعرض عليهما قضية تستحق التأمل وهى : عبادة آلهة متعددة أفضل ، أم عبادة إله واحد له منهج واحد ، وسنة واحدة ، وبيده وحده الخلق والأمر ، وعليه الاعتماد؟! وفى هذا المعنى قال تعالى : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّبُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر: ٢٩) .

فهذا العبد الذى يملكه أشخاص كثيرون متشاكسون ؛ إذا أرضى أحدهم أغضب الآخر فلا يدرى أيهم يطيع وعلى أيهم يعتمد . وهناك عبد أخلص عبوديته لرجل واحد ، يعتمد عليه ويطيعه ، وكذلك الآية التى معنا .

عَارَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ . متصارعون لكل منهم منهج وطريق ، فهذا للخير وهذا للشر ، وهذا للنور وهذا للظلام . أعبادة آلهة متعددة أفضل ، أم عبادة إله واحد له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير أفضل ؟!

وهذا الاستفهام مراد به : لازمه ، وهو لفت الأنظار إلى ما كان يجرى بين عدد كبير من المصريين : من عبادة آلهة متعددة ، وبيان : أن عبادة إله واحد أفضل .

٤٠ - مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ...

أى : ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة من المسمى ، سميتوها : آلهة ، وهى لا تملك القدرة ولا السلطان : لأنها جمادات .

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ . أى : ما أنزل الله بألوهيتها من حجة أو برهان أو دليل يصحح لكم عبادتها : فعبادتكم لها باطل لا دليل عليه ولا سند يؤيده من نقل أو عقل .

إِنْ تَحْكُمُوا إِلَٰهَ اللَّهِ . أى : ما الحكم فى أمر العبادة والدين إلا الله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

أَمَرَ آلًا تَعْبُدُونَا إِلَّا إِيَّاهُ . أى : أمر الله تعالى ألا يعبد الناس إلا الله الواحد ؛ فهو وحده الذى يفرد بالعبادة ، ونقول له : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . أى : لا نعبد إلا أنت ، ولا نستعين إلا بك ؛ فلا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له .

ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ . هذا الذى أدعوكم إليه وهو الدين المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، وهو دين الفطرة السليمة ، ودين التوحيد ، وهو فى نفس الوقت الدين الذى له قيمة عالمية كبرى : دين الإله الواحد ، والنبى الواحد ، والقبيلة الواحدة ، والأمة الواحدة التى تتجه بقلوبها إلى الله وحده ، قال تعالى : إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . أى : يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع .

وهنا نجد حكمة يوسف ؛ فقد أدرك تشوق صاحبه السجن إلى تفسير رؤياهما ، فقدم لهما جرعة مناسبة من الدعوة إلى الإيمان : حيث بين لهم فى أسلوب حكيم ، رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة

المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله : لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم ، وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد .

وبعد هذه الدعوة المستنيرة إلى الإيمان والتوحيد وترك الشركاء ، انتقل يوسف إلى تفسير الرؤيا لصاحبيه .

★ ★ ★

﴿يَصْحَبِي السِّجْنُ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا
أذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ
سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات :

فيسقَى ربه : أى : فيسقى سيده .

تستفتيان : تطلبان الفتيا .

عند ربك : عند سيدك .

بضع سنين : البضع : العدد من الثلاث إلى التسع ، واشتهر أن يوسف مكث فى السجن سبع سنين .

التفسير :

٤١- يَصْحَبِي السِّجْنُ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ
الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ .

أى : يا صاحبي فى السجن ، أما الذى رأى أنه يعصر خمرًا أو يعصر ثلاثة عناقيد من العنب تصير خمرًا ؛ فإنه يمكث فى السجن ثلاثة أيام ، ثم يخرج من السجن ؛ فيعود إلى عمله ويصبح ساقى الملك .

وأما الذى رأى أنه يُصلب فتأكل الطير من رأسه ؛ فإنه سيخرج من السجن بعد ثلاثة أيام ، ثم يقتل ويلقى على خشبة ؛ فتأكل الطير من لحم رأسه .

قال المفسرون :

روى أنه لما أخبرهما بذلك : جحدا ، وقالوا : ما رأينا شيئا : فقال يوسف : قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ. أى : عبرت لكما الرؤيا ، وأنا واثق من صدق تعبيرها : ولا مجال فى ذلك لحدث أو تخمين ، وتم قضاء الله فهو واقع لا محالة ، وما أخبرت به موافق لما علمنى ربى وأرشدنى إليه .

٤٢ .. وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

أقام يوسف فى السجن مظلوما ، فاقدا للحرية : فأراد أن يذكر ساقى الملك ، بأن يذكر قصته للملك ، ويخبره : أن فى السجن رجلا مظلوما يفسر الرؤيا ، ويسير بين المسجونين بمكارم الأخلاق ، لكن ساقى الملك شغله المنصب ، وحياة القصور وأمورها ، فذسى وصية يوسف له ، ونسى يوسف فى السجن : فمكث فيه سبع سنوات .

قال القرطبي : قال وهب بن منبه : أقام أيوب فى البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف فى السجن

سبع سنين .

تعليق

ذهب بعض المفسرين إلى أن يوسف مكث فى السجن بضع سنين عقوبة له : لأنه التفت إلى العباد ، وطلب من الساقى أن يذكر قصته للملك ، وكان ينبغي أن يذكر يوسف قصته لله ويشتكى إليه ، واعتمدوا على أحاديث واهنة لا يصح الأخذ بها .

وعند التأمل نجد أن يوسف الصديق ، كان دائم الذكر لله تعالى : فهو الذى رفض الفاحشة ، وذكر زليخا بالله تعالى وبحرمة الزوج ، وهو الذى رفض إغراء النسوة وقال : رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ . وهو الذى استمر فى السجن يدعو الناس إلى توحيد الله تعالى .

ويوسف حين يذكر الساقى بأن يعرض أمره على الملك ، هو آخذ فى الأسباب ، وقد أمر الله تعالى بذلك حين قال سبحانه : فَامْتَشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ . (الملك: ١٥) .

وزعم بعض المفسرين : أن الذى نسى ذكر ربه هو : يوسف فى قوله تعالى : فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ. أى : أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله ، والاعتماد عليه فى الخروج من السجن : فمكث فيه بضع سنين . وعند التأمل نجد أن السياق لا يساعد على هذا الرأى : بدليل قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون . أى : وقال الذى نجا منهما ، وتذكر يوسف بعد مدة طويلة ... إلخ .

وقد جاء في تفسير القرطبي ، وفي صفوة التفاسير :

أن جبريل جاء إلى يوسف فأخبره : أن الله تعالى هو الذى نجاه من الجب ، ونجاه من زليخا ، ونجاه من كيد النسوة ، فكيف لجأ إلى مخلوق ليخرج من السجن ؟! وعقوبته أن يمكث فى السجن بضع سنين .

ومثل هذه المرويات الواهية ينبغى أن نُعيد النظر فيها ، فى ضوء حقائق القرآن الكريم ، والسنة المطهرة : فى الحث على الأخذ بالأسباب : مع اليقين الجازم بأن مسبب الأسباب ، هو الله تعالى .

لقد جاهد النبى محمد ﷺ ، وهاجر من مكة إلى المدينة ، وبذل جهداً كبيراً فى بناء الدولة الإسلامية ، ومراسلة الملوك ، ودعوتهم إلى الإسلام ، ونهى عن التفرغ للعبادة ، وترك الجهاد ، وبين أن التوكل على الله لا يمنع الأخذ بالأسباب .

قال أعرابى للرسول ﷺ : ناقى بالباب هل أعقلها ؟ أم أتركها وأتوكل على الله ؟ ، فقال له النبى ﷺ : « أعقلها وتوكل على الله »^(١٠١) .

★ ★ ★

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُتَبَلَاتٍ خُضَرٍ وَأُخْرٍ يَأْسَتِ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٢﴾
قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُهُ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٤﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُتَبَلَاتٍ خُضَرٍ وَأُخْرٍ يَأْسَتِ لَعَلَّ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُونَهُ فِي سُبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ كُنَّ مَاقَدِمَاتِمْ هُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْتَصِنُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

المفردات :

عجاف ، جمع أعجف ، وهو المهزول ، والأنثى : عجفاء .

الملا ، الأشراف الذين يملئون العين مهابة .

تعبّرون ، تفسّرون .

أضغاث ، جمع ضغت وهو الحزمة من الحشيش أو البقل اختلط فيها الرطب باليابس .

أحلام ، جمع حلم وهو ما يراه النائم ، ومعناه : اختلط فيها الحق بالباطل .

الذى نجا ، هو ساقى الملك .

وإذكر بعد أمة ، وتذكر بعد جماعة كثيرة من الزمن ، وكل جماعة كثيرة : فهى أمة .

الصديق ، الكثير الصدق .

دأبى ، مصدر دأب فى العمل . أى : جدّ فيه .

سبع شداد ، أى سنين من القحط ، صعب على الناس .

مما تحصنن ، مما تدخرون من البذور .

يغاث الناس ، يمترون من الغيث وهو المطر .

التفسير :

٤٣- وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ...

أراد الله إرسال الفرّج إلى يوسف عليه السلام : فرأى الملك فى منامه رؤيا عجيبة ؛ جمع كبار الكهنة والعلماء والمختصين ، وقصّ عليهم رؤياه ؛ فقال مستحضراً منامه : إنى أرى سبع بقرات سمان خرجت من نهر يابس ، وفى إثرهن سبع بقرات هزيلة فى غاية الهزال ، فابتلعت العجاف السمان - ورأيت سبع سنبلات خضر قد انعقد حبّها ، وسبع سنبلات أخر قد يبست وجف حبّها ونضج . وبعد أن قصّ الرؤيا على حكمائه ومستشاريه الكهنة قال :

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْقَتْرَى فِى رُءْيَاى إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ . أى : يا أيها الأشراف من رجالى وأصحابى ، أخبرونى : عن تفسير هذه الرؤيا ، إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها .

٤٤- قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ .

عجز العلماء والكهنة عن تفسير هذه الرؤيا ، أو عرفوا تأويلها ، وأحسّوا أنها تشير إلى سوء ، لم يريدوا أن يواجهوا به الملك ، على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل ما يسرّ الملوك ، وإخفاء ما يزعجهم ، وصرف الحديث عنه . فقالوا : إنها أخلاط أحلام مضطربة ، وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل .

وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعِلْمِينَ . أى : لسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام المضطربة المختلطة ، فهي لا تشير إلى شيء ، وربما كان المعنى : أن علمنا قاصر عن تفسير الأحلام : فلسنا متعمقين في تأويلها ، مع أن لها تأويلاً .

وقد ورد فى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : « الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم فى منامه خيراً : فليحمد الله ، وإن رأى غير ذلك : فليتقل عن يساره ثلاث مرات ، وليصل ركعتين ولا يخبر بها أحداً : فإنها لا تضره »^(١٠٧) .

والمعنى : إن المؤمن الصادق يرى رؤيا صادقة واضحة ، أما الحلم فهو من الشيطان : ليثير التكدير والحزن على الإنسان : فإذا رأى الإنسان رؤيا صادقة واضحة : فهي بشارة من الله . يستبشر بها المؤمن ويعمل بما يناسبها : وإذا رأى حلمًا فيه أمور مختلطة ، أو مضطربة لا يستوضح مدلولها : فإنه يتقل عن يساره ثلاث مرات ، ويستعيز بالله من الشيطان الرجيم ، ويتوضأ ويصلى ركعتين لله ، بنية أن يصرف عنه السوء ، ثم يقول : « اللهم ، لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولا يذهب السوء إلا أنت ، اللهم ، اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير »^(١٠٨) ، ولا يخبر أحداً بهذا الحلم : فإن الحلم كالطير إذا قصَّ وقع ، ونلاحظ: أنه مر بنا عدد من المنامات والأحلام والرؤى منها : رؤيا يوسف أحد عشر كوكبًا ، ورؤيا الخبز والساقى ، ثم رؤيا الملك : فلعل تفسير الأحلام والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر ، وخارج مصر ، وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوّه ، على ما نعهد فى معجزات الأنبياء^(١٠٩) .

٤٥ -- وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُون .

أى : ويعد أن عرض الملك رؤياه على الملأ من رهبانه وحكمائه ، وعجزوا عن تأويلها : تذكر الساقى الذى نجا من السجن ، ومكث مدة من الزمان ناسيًا ، ثم ذكرته الأحداث بفضل يوسف فى تأويل الأحلام ، وكان السجن بعيداً عن المدينة : فطلب منهم إرساله إلى يوسف فى السجن : حتى يفسر لهم رؤيا الملك .

٤٦ -- يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعٍ سُتُورَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ...

أى : فأرسلوه : فانطلق إلى يوسف ، وذكر أمامه رؤيا الملك ، وسماه : صديقًا ، أى : كثير الصدق ؛ لأنه شاهد ذلك عمليًا : حين رآه يفسر الأحلام فى السجن ، وطلب منه الفتوى له ولمن خلفه من إدارة

الدولة، ولذلك قال: أَفْتِنَا . فى تأويل هذه الرؤيا العجيبة: سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف، وأفتنا فى سبع سنبلات خضر، وأخر يابسات ويدين لنا: مآلها ومدلولها .

لُعَلِّيْ أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ . أى: لكى أرجع إلى من بيدهم الأمر: ليعلموا تأويلها، ويعملوا بمقتضاها، وليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محنتك .

٤٧- قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ .

أى: قال يوسف لساقى الملك: إن هذه الرؤيا ترمز إلى ما يأتى: ستأتى سبع سنين مخصبة يجود فيها النيل بالماء، وتخصب الأرض بالزراعة، وعليكم أن تدخروا القمح وتتركوه فى سنابله: حتى يسلم من السوس والمؤثرات الجوية، لكن لا بأس أن تجردوا قليلا من القمح من سنابله بمقدار ما تأكلونه فقط، أما الزيادة فاحتفظوا بها فى سنابلها: حتى تنقذكم فى السنوات السبع العجاف، المرموز لها بالبقرات العجاف التى تأكل البقرات السمان .

ويبدو أن تخزين القمح فى سنابله لمدة طويلة تصل إلى سبع سنين لم يكن معروفا لدى قدماء المصريين؛ فقد كانوا يزرعون لكل عام، ولا يحرمون من فيضان النيل سبع سنين متتابة: فلذلك أرشدهم يوسف، إلى هذه الطريقة المثلى فى التخزين لمدة طويلة، ولعل ذلك من فضل الله عليه وإلهامه بهذه الأمور الحكيمة التى أنقذت مصر من المجاعة، وكانت سببا فى إنقاذ ما حولها من البلاد وحسبنا قول يوسف لصاحبى السجن: ذَالِكُمْ مِّمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي .

من تفسير القرطبي:

قال القرطبي: وهذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى: حفظ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال: فكل ما تضمن حصول شيء من هذه الأمور: فهو مصلحة، وكل ما يفتت شيئا منها: فهو مفسدة، ودفعه مصلحة، ولا خلاف فى أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية: ليحصل لهم التمكن من معرفة الله وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية .

٤٨- ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

ثم تأتى بعد السبع سنوات الخصبة، سبع سنوات شديدة من القحط وجفاف ماء النيل، وبحكمة التخزين للقمح فى سنابله، والذرة فى كيزانه: تعبرون سنوات الجفاف: لأنكم تأكلون من المخزون

عندكم. وكانَ هذه الأيام هي التي تَأْكُلُ المخزون الذي يقدم لها ، كما تقول : نهاره صائم ، وليلة قائم ، فأسند الأكل إلى الأيام ؛ لشدة نهمها وجوعها .

٤٩- ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْمُرُونَ .

أى : ثم يَأْتِي بعد سنة القحط والجذب العصبية عام رخاء فيه يمطر الناس بالغيث الذي كانوا محرومين من غزارته وتتابعه سبع سنين . وفيه يعمر الناس ما يقبل العصر من الثمار والحب وغيرهما كالعنب والزيتون والسهمس والقصب . وقيل : معنى يعصرون : يحلبون الضروع من الماشية .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَؤُلَاءِ مَلَأَ هَؤُلَاءِ الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

ما بال النسوة : ما حالهن ؟

ما خطبكن : ما شأنكن ؟ والخطب : الأمر الذي يستحق أن يخاطب المرء فيه صاحبه ؛ ومن هنا سميت الشدائد بالخطوب .

قلن حاش لله : تنزيها لله ، وتعجباً من نزاهة يوسف .

حصحص الحق : وضع بعد خفاء ، وأصله : بمعنى : تبينت حصة الحق ، من حصة الباطل .

لا يهدي كيد الخائنين ، أى : لا ينفذه ولا يوصله إلى غايته .

التفسير :

٥٠- وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهَؤُلَاءِ مَلَأَ هَؤُلَاءِ الرُّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ

أَيْدِيَهُنَّ ... الآية .

يفيد السياق : أن ساقى الملك ذهب إليه ، وأخبره بتفسير الرؤيا ، ولعله أخبره بما شاهد عن يوسف وأنه كريم حلیم ، كامل الأوصاف ، كريم الأخلاق ، قد حُبس ظلماً ؛ فأمر الملك أن يؤتى بيوسف لمقابلة الملك ، وليسمع منه تفسير الرؤيا مشافهة ، بعد أن نجح يوسف بما عجزت عنه الكهنة وكبار العلماء .

ولما وصل رسول الملك إلى يوسف ، يخبره برغبة الملك فى مقابلته ، رفض يوسف أن يخرج من السجن ؛ حتى يعاد التحقيق فى قضيته ؛ لتثبت براءته ، وطلب من الملك سؤال النسوة اللاتى جرحن أيديهن ، فجمعهن الملك فى مجلس تحقيق ، فى قضية مضى عليها بضع سنين .

إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِيْنَ عَلِيمٌ . إن ربى عليم بخفيات الأمور ، وبما دبّر من كيد لبعضهن ، ومن كيد لى ، وهذا التدبير فى خفاء يعلمه الله ، وهو بكل شىء عليم .

٥١- قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رُودَتْ يَوْسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ...

جمع الملك النسوة ، ودعا امرأة العزيز معهن ؛ فسألهن عن أمر يوسف ، وقال لهن : ما شأنكنّ الخطير ؛ حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة ؟! وفى هذا توجه الاتهام إلى النسوة ، بعد أن استقصى عن الموضوع كما هى العادة .

قال صاحب الظلال :

« ومن هذا نعلم شيئاً مما دار فى حفل الاستقبال فى بيت العزيز ، وما قالتها النسوة ليوسف ، وما أشرن إليه من الإغراء الذى يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى فى ذلك العهد الموهل فى التاريخ ... » اهـ .

قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . أى : تنزيها لله ؛ يردن بذلك : تبرئة يوسف ، والاعتراف بنظافته وعفته .

مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ . أى : من ذنب ؛ أو من أمر سيئ ينسب إليه فضلا عن الفحشاء .

قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ . منزّهة لجانبه ، مقرّة على نفسها بالمراودة له .

الَّتِى خَصَّصَ الْحَقُّ . أى : بانته حصّة الحق من حصّة الباطل ، وظهر الحق بعد خفائه .

أَنَا رُودْتُ عَنْ نَفْسِي . ولم تقع منه المراودة لى أصلا .

وَإِنَّهُ لَكِنِّ الصَّادِقِينَ . فيما قاله من تبرئة نفسه ونسبة المراودة إليها .

وزهد بعض المفسرين: إلى أن الكلام الآتى كلام يوسف ، وزهد آخرون إلى أنه كلام امرأة العزيز .

٥٢- ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

أى : قالت امرأة العزيز تعقيباً على شهادتها : ببراءة يوسف من مراودتها : إني فعلت ذلك ، وبرأت ساحة يوسف ، مع أنه غائب عن مجلسنا ؛ ليعلم يوسف أنني لم أخنه فى غيابه ولم أفتر عليه ، وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين .

ولعل هذه السنون ، قد طحنت هذه المرأة ؛ ولعل ضميرها عذبتها حين قذفت ببريء إلى السجن ، طوال هذه المدة ، ولعلها تابت ورجعت إلى طريق النور والهدى ، وطرقت باب الله معلنة رغبتها فى التوبة إلى: غَايِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ .

ويذهب بعض المفسرين : إلى أن هذه الآية من كلام يوسف ؛ حين ذهب مذدوب الملك بنتيجة التحقيق، وبراءة يوسف على لسان النسوة ، وعلى لسان امرأة العزيز ؛ فقال يوسف : ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . أى : هذا الذى فعلته ، من ردِّ رسول الملك؛ حتى يحقق الملك فى قضيتى ، وتظهر براءتى ؛ ليعلم العزيز : أنني لم أخنه فى زوجته فى غيبته ؛ بل تعففت عنها.

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . أى : لا يوفق الخائن ، ولا يسدد خطاه .

منزلة يوسف

بلغ يوسف منزلة عالية من النزاهة وكرم النفس ، وحسبك أنه لم يتعجل الخروج قبل أن تظهر براءته، براءة علنية على هذا النحو المشرف ؛ وذلك أنه خشى أن يخرج من السجن ، وينال منزلة عالية ، فيقول الناس : هذا هو الذى راود امرأة موله ، وقد صفح عنه الملك ، وينظر إليه الناس باستمرار نظرة فيها ريبة وشك .

من الصحاح

ورد في كتب الحديث الصحيحة : أن النبي ﷺ قال : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءني الرسول : لأجبت الداعي ، ثم قرأ : فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ... » (١٠٠) .

قال ابن عطية في التفسير : مدح النبي ﷺ يوسف ، بالصبر والأناة ، ثم ذكر : أنه لو دُعِيَ إلى الخروج من السجن ؛ لبادر بالخروج ، ثم حاولوا بيان عذره وبراءته بعد ذلك .

يريد الرسول ﷺ : حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ حتى لا تضيق فرصة الخروج من السجن ، وتنصرف نفْسُ مُخْرِجِه عنه - وإذا كان يوسف قد آمن ذلك بعلمه من الله ؛ فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التي ذهب النبي ﷺ بنفسه إليها حالة حزم ، وما فعله يوسف عليه السلام صبر وجلد . اهـ .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

وكان الفراغ منه عشية يوم الخميس ٥ صفر ١٤١٥ هـ / الموافق ١٤/٧/١٩٩٤م بمدينة المقطم - الهضبة العليا ، مسجد حراء ، قرب ميدان النافورة ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويحب ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثاني عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
إسماعيل سعيد فهمي

- (١) كتب الله مقادير الخلاق قبل أن يخلق السماوات :
- رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٣) ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كتب الله مقادير الخلاق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » قال : وعرشه على الماء .
- (٢) مختصر تفسير ابن كثير : اختصار وتحقيق : محمد على الصابونى ٢- ٢١٢ ؛ وهو كلام يحمل مسؤولية قائله ، أو هو تفسير خاص بصاحبه .
- (٣) سائل مفروز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل ، وهو يحوى على الحيوانات المنوية .
- (٤) دراسة الكعب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ، للمستشرق موريس بوكائى ، الترجمة العربية ، نشر دار المعارف بالقاهرة ص ٢١٢ .
- (٥) أفش السلام ، وأطعم الطعام :
- رواه أحمد فى مسنده (٧٨٧٣) من حديث أبى هريرة قال : قلت : يا رسول الله ، إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شئ فقال : كل شئ خلق من ماء قال : قلت : يا رسول الله ، أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام . » وأخرجه الحاكم ، وصححه البيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن نصر فى الصلاة ، وابن حبان كذا فى الدر المنثور .
- (٦) تفسير المراعى ١٢ / ٦ .
- (٧) عبارة المنار ؛ أن تفهم الكتاب ، وهى تصحيح عن الكتابة .
- (٨) إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب دلالة القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى ، فلعل كناية القرآن بقوله : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ للإشارة إلى الحالة الغازية الغالبة للمادة التى كونت الكون ، أو لعلها كناية عن ملك الله تعالى لأصل الحياة والأحياء .
- (٩) تفسير المنار جزء ١٢ ص ١٦ ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- (١٠) تفسير المنار ١٢ ص ١٨ ، ١٩ ، بتصريف واختصار .
- (١١) فى ظلال القرآن ، بقلم الأستاذ : سيد قطب ، المجلد ٤ ، جزء ١٢ ، ص ١٨٥٨ .
- (١٢) تفسير النسفى ٢ - ١٨٠ .
- (١٣) لا تصدقوا أهل الكتاب :
- رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٥) ، وفى الاعتصام (٧٢٦٢) ، وفى التوحيد (٧٥٤٢) ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنز . أهل الكتاب يقرعون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ آمنا بالله وما أنزل إلينا ... الآية ﴾ .
- (١٤) باب التفسير ٨- ٢٩٧ من فتح البارى .
- (١٥) القرآن والتفسير ، للدكتور : عبد الله شحاتة ، ص ٢٥١ .
- (١٦) عمدة التفسير ، عن الحافظ ابن كثير ص ١٤ .

(١٧) فتح البيان في مقاصد القرآن - صديق خان ٤ / ٣٣٠ ، دار الفكر العربي .

(١٨) فتح البيان : صديق خان ٤ / ٣٠ دار الفكر العربي .

(١٩) تفسير المنار ١٢ / ٣٢ .

(٢٠) تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار ١٢ / ٤٤ ، طبعت بالأوفست (الطبعة الثانية) دار المعرفة لبنان .

(٢١) تفسير التحرير والتنوير تأليف محمد الطاهر بن عاشور ١٢ / ٢٠ ، ٢١ الدار التونسية للنشر .

(٢٢) تفسير المراغي ١٢ / ١٤ ، ١٥ .

(٢٣) قارن بتفسير المنار ١٢ / ٢٣٣ ، وتفسير التحرير والتنوير ١٢ / ٢٢ .

(٢٤) تفسير أبي السعود ٤ / ١٩٣ ، ١٩٤ ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

(٢٥) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ :

رواه البخاري (١ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ، ومسلم في كتاب الإمامة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) ، والنسائي في كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) ، وفي الطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) ، وفي الأيمان والنذور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود في كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجه في كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧) ، وأحمد في مسنده رقم (١٦٣ ، ٢٨٣) ، من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة ينكحها : فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢٦) التفسير المنير د. وهبة الزحيلي ١٢ / ٣٩ .

(٢٧) التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوى المجلد السابع سورة هود ص ٤٣ .

(٢٨) تفسير أبي السعود ٤ / ١٩٥ ، والمراد بالأول : المؤمنون بالنبي محمد ﷺ .

(٢٩) والذي نفسى بيده إلا يسمع بى أحد من هذه الأمة :

رواه مسلم في الإيمان (٢١٨) ، وأحمد في مسنده (٧٨٥٦) ، من حديث أبي هريرة : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به : إلا كان من أصحاب النار » .

(٣٠) التفسير المنير : ١٢ / ٤٢ .

(٣١) يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه :

البخاري في التوحيد (٧٥١٤) ، ومسلم في التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجه في المقدمة (١٨٢) ، كلهم عن ابن عمر رضى الله عنه .

(٣٢) تفسير المنار ١٢ / ٥٩ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

(٣٣) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم في البر (٢٥٦٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٧٦٨) ، من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ؛ ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(٣٤) المصحف المفسر ، للأستاذ : محمد فريد وجدى ، ص ٢٩٠ .

(٣٥) أمان لأمتي من الغرق :

رواه ابن السنن في عمل اليوم والليلة (٥٠١) ، من حديث الحسين بن علي قال : قال رسول الله ﷺ « أمان لأمتي من الغرق: إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : بسم الله الملك الرحمن » بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » . « وما قدرها الله حق قدره » . إلى آخر الآية . وذكره السيوطي في الجامع الصغير (١٦١٣) ، ونسبه لأبي يعلى في مسنده ، وابن السنن ، ورمز لضعفه . قال المناوي في فيض القدير : قال ابن حجر : وجنادة ضعيف ، وشيخه أضعف منه ، وشيخه كذلك ، بالاتفاق فيها ، وطلحة مجهول . انتهى . وفي الميزان يحيى بن العلاء قال أحمد : كذاب يضع الحديث ، ثم ساق له أخبارا هذا منها . وقال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى عن شيخه جبارة بن مغلس وهو ضعيف . وقال الهيثمي في المجمع : عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : أمان أمتي من الغرق : إذا ركبوا السفن أو البحر أن يقولوا : بسم الله الملك » وما قدرها الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » ، « بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم » . وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وفيه نهشل بن سعيد ، وهو متروك .

(٣٦) تفسير أبي السعود ٤ / ٢٠٩ .

(٣٧) تفسير القاسمي نقلا عن الإمام السكاكي في كتابه : المفتاح ، بحث البلاغة والفصاحة ، وانظر تفسير سورة هود للدكتور : محمد سيد طنطاوي ، ص ٨٤ .

(٣٨) تفسير القاسمي .

(٣٩) التفسير المنير ١٢ / ٨٧ .

(٤٠) تفسير القرطبي .

(٤١) تفسير المراغي للأستاذ : أحمد مصطفى المراغي ، المجلد الرابع ، جزء ١٢ ص ٤٥ ، وهو كلام حسن .

(٤٢) انظر تفسير الألوسي ، وتفسير أبي السعود ، والتفسير المنير ، والتفسير الوسيط للدكتور : محمد سيد طنطاوي .

(٤٣) تفسير الكشاف للزمخشري .

(٤٤) لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني :

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٦١٣) ، من حديث أبي ذر : « يقول الله عز وجل : يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديت ، فسلوني الهدى أهدكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، فسلوني أرزقكم ، وكلكم مذبذب إلا من عافيت ، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني غفرت له ولا أبالي ، ولو أن أولكم وآخركم .. الحديث » ، وقال : هذا حديث حسن يروى بعضهم هذا الحديث عن شهر بن حوشب عن معد يكرب ، عن أبي ذر عن النبي ﷺ نحوه . قلت : مداره على شهر بن حوشب ، وفيه مقال . ورواه أحمد من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ يرويه عن ربه : قال : ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ، ابن آدم ، إن تلقني بقرباب الأرض خطايا : لقيتكم بقربابها مغفرة ، بعد أن لا تشرك بي شيئا ، ابن آدم

إنك إن تذهب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ثم تستغفرتني أغفر لك ولا أبالي - ولفظ أحمد قريب من لفظ حديث الباب - قال الهيثمي في المجمع: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولو أتيتني بملء الأرض خطايا غفرت لك، قال الله عز وجل: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك، ثم قال: رواه الطبراني في الثلاثة وفيه إبراهيم بن إسحاق الصيغى وقيس بن الربيع وكلاهما مختلف فيه، وبقية رجاله رجال الصحيح. قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٠٨٨): لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم: لتاب الله عليكم. رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وسنده جيد. قال المنذرى: ويشهد له ما رواه الترمذى وحسنه عن أنس، والطبراني عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي ذر، وابن النجار عن أبي هريرة بلفظ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ... الحديث». وذكره الهندي في الكنز (١٠٤٣٦) عن معد يكره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل: «قال: يا ابن آدم، ما دعوتني ورجوتني فأني سأغفر لك على ما كان منك، ولو أتيتني بقراب الأرض خطايا: لقيتكم بقرابها مغفرة، ولو عملت من الخطايا حتى تبلغ عنان السماء ما لم تشرك به شيئاً ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي».

(٤٥) تفسير المراضى ١٢ / ٦١، ١هـ، والله تعالى منزّه عن أن يحده زمان أو يحويه مكان فهو سبحانه علة العلل؛ ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، وما أروع حديث القرآن الكريم عن الموضوع. فقد تحدث بما يتناسب وجلال الله العظيم، وصفاته، وألوهيته، وعدم مشابهته للحوادث.

(٤٦) انظر التفسير المنير، وتفسير ابن كثير، والتفسير الوسيط للدكتور: محمد سيد طنطاوى.

(٤٧) يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد:

رواه البخارى في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢، ٣٣٧٥، ٣٣٨٧)، وفي التفسير (٤٦٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، والترمذى في التفسير (٢١١٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٦)، وأحمد في مسنده (٨٠٨٠) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه: أن النبي ﷺ قال: يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد.

(٤٨) إن الله ليملى للظالم؛ حتى إذا أخذه لم يفلته:

رواه البخارى في التفسير باب: قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾، (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». قال: ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

(٤٩) يغفر الله للوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد:

تقدم ص (٢٢٤٤).

(٥٠) انظر تفسير القاسمى للآية. وقد نقل كلام الإمام ابن حزم في هذا المعنى.

(٥١) سيكون في آخر أمى قوم يكفى رجالهم بالرجال:

ذكره القرطبي في تفسيره.

(٥٢) تفسير القاسمى ٩ / ١٦٢.

(٥٣) تفسير ابن كثير.

(٥٤) تفسير المنار للسيد رشيد رضا ١٢ / ١٤٥ .

(٥٥) مختصر تفسير ابن كثير للأستاذ محمد علي الصابوني ٢ / ٢٣٠ .

(٥٦) التفسير الوسيط ، تفسير سورة هود ، للدكتور طنطاوي ، ص ١٤٨ .

(٥٧) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٨ .

(٥٨) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٥٨ .

(٥٩) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

تقدم ص (٢٢٤٦) .

(٦٠) النظر : تفسير ابن جرير الطبري للآية ، وابن كثير .

(٦١) تفسير سورة هود ، للدكتور محمد سيد طنطاوي ص ١٦٩ ، نقلاً عن تفسير ابن كثير .

(٦٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٤٦٠ ، والنظر التفسير المنير ١١ / ١٥٣ .

(٦٣) لن يُدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت :

رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ؛ إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة فسددوا وقاربوا ولا يمتنن أحدكم الموت : إما محسناً : فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً : فلعله أن يستعذب .

(٦٤) يؤتى بالموت على صورة كيش :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣٠) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٥٦) ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يؤتى بالموت كهيئة كيش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأه ، ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رأه فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وألهمهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة ﴾ ، وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ، ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ . ورواه ابن ماجة في الزهد (٤٣٢٧) ، والدارمي في الرقاق (٢٨١١) وأحمد في مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٨٩ ، ٩١٨٦) . من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : يؤتى بالموت ، بكيش أغبر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، ويقال : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال : خلود لا موت .

(٦٥) ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا :

رواه مسلم في الجنة (٢٨٣٧) ، والترمذي في التفسير (٣٢٤٦) ، والدارمي في الرقاق (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٨٠٥٩) . من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا ، فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تلبأسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثوہما بما کنتم تعملون ﴾ .

(٦٦) شيبتي هود .

(٦٧) قل أمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨)، والترمذى فى الزهد، (٢٤١٠)، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٧٢)، وأحمد فى مسنده، حديث رقم (١٤٩٩٢، ١٤٩٩٣، ١٨٩٣٨)، والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠، ٢٧١١)، من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٦٨) بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩)، من حديث أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال : يسروا ولا تعسروا، ويسروا ولا تنفروا . رواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١)، من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ورواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤)، وفى المغازى (٤٣٤١، ٤٣٤٢)، ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣)، وأحمد فى مسنده (١٩٢٠٠)، من حديث أبى موسى قال : لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفروا، وتطاولوا، قال أبو موسى: يا رسول الله، إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له : البتع، وشراب من الشعير يقال له : المزز، فقال رسول الله ﷺ : كل مسكر حرام .

(٦٩) لن يشاد الدين أحد إلا غلبه :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٩) والنسائى فى الإيمان (٥٠٣٤)، من حديث أبى هريرة : عن النبى ﷺ قال : «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة» .

(٧٠) كانت صلاته قصدا وخطبته قصدا :

رواه مسلم فى الجمعة (٨٦٦) وأبو داود فى الصلاة (١١٠١) والترمذى فى الجمعة (٥٠٧)، والنسائى فى الجمعة (١٤١٨) وفى العيدين (١٥٨٢)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١١٠٦)، والدارمى فى الصلاة (١٥٥٧)، وأحمد فى مسنده (٢٠٣٧٢) من حديث جابر بن سمرة قال : كنت أصلى مع رسول الله ﷺ، فكانت صلاته قصدا وخطبته قصدا .

(٧١) التفسير المنير أ . د . وهبة الزحيلي ١٢ / ١٦٩ .

(٧٢) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني ص ٣٠١ .

(٧٣) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات :

رواه مسلم فى البر (٢٥٧٨)، من حديث أبى هريرة . وأحمد (٥٦٢٩، ٦١٧١)، من حديث ابن عمر رضى الله عنه .

(٧٤) يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩)، وابن ماجه ح (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤/٥)، ١٦٠، ١٧٧، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢)، من حديث أبى ذر .

(٧٥) ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر :

رواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٥) وفى الدعوات (٣٥٩٨)، وابن ماجه فى الصيام (١٧٥٢)، وأحمد فى مسنده (٧٩٨٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم : يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتى ! لأنصرك ولو بعد حين » .

(٧٦) ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ :

رواه أحمد في مسنده (٤٨٠٢، ٥٩)، وأبو داود في الصلاة (١٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٤٠٦)، وفي التفسير (٣٠٠٦)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٩٥) من حديث علي رضي الله عنه قال : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفغض الله بما شاء أن ينفغضني منه وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله تعالى لذلك الذنب : إلا غفر له . وقرأ هاتين الآيتين : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ، ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ... الآية ﴾ .

(٧٧) اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة :

رواه الترمذي في البر (١٩٨٧)، والدارمي في الرقاق (٢٧٩١)، وأحمد في مسنده (٢٠٨٧٤)، من حديث أبي ذر قال : قال لى رسول الله ﷺ : اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وذكره بإسناده من حديث معاذ بن جبل ، عن النبي ﷺ نحوه وقال : قال : محمود . والصحيح حديث أبي ذر . ورواه أحمد في مسنده (٢١٥٥٤) ، من حديث معاذ أنه قال : يا رسول الله ، أوصني ، قال : « اتق الله حيثما كنت ، أو أينما كنت ، قال : زدني ، قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، قال : زدني ، قال : « خالف الناس بخلق حسن » .

(٧٨) أن رجلاً أصاب من امرأة قيلة :

رواه البخارى في مواقيت الصلاة (٥٢٦)، وفي التفسير (٤٦٨٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٣)، والترمذي في التفسير (٣١١٤، ٣١١٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٩٨)، وفي الزهد (٤٢٥٢)، وأحمد في مسنده (٣٦٤٤)، من حديث ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قيلة ، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله عز وجل ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ، فقال الرجل : يا رسول الله ، ألى هذا ، قال : « لجميع أمئى كلهم » .

(٧٩) انظر : التفسير القرآنى للقرآن ، المجلد الثالث ١٢١٣ ، وقد نقل كلاماً مناسباً عن الجاحظ ، خلاصته : أن تفرق الناس بين مهمل ، ومجهل ، ومتوسط ؛ من أسباب إعمار الكون وتناسق أهله .

(٨٠) السقط : ردى المتاع .

(٨١) قط : بمعنى : حسب ، وهو الاكتفاء . والقط : الكتاب والصك بالجائزة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عجل لنا قطناً ﴾ .

(٨٢) والتونين في قوله تعالى : ﴿ وكلاً ﴾ للعرض عن المضاف إليه ، أى : (وكل نيا من أنباء الرسل الكرام السابقين نقضه عليك ونخبرك به ؛ المقصود به : تثبيت قلبك وتقوية يقينك) .

(٨٣) من كتاب : أهداف كل سورة ومفادها في القرآن الكريم ، د. عبد الله شحاتة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٣٩ .

(٨٤) الرؤيا يراها الرجل :

رواه البخارى في التعبير (٦٩٩٠) من حديث أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا : وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » . ورواه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأحمد ح (١٩٠٣)، والنسائي في التطبيق ح (١٠٥٤، ١١٢٠)، وأبو داود في الصلاة ح (٨٧٦)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ح (٣٨٩٩)، والدارمي في الصلاة ح (١٣٢٥)، من حديث ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر ، فقال : « أيها الناس ، إنه لم يبق من مبشرات النبوة : إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم ، أو ترى له ، ألا وإنى نهيت أن أقرأ القرآن راکباً أو ساجداً

فأما الركوع فخطبوا فيه الرب عز وجل ، وأما السجود ، فاجتهدوا في الدعاء ، فقمن أن يستجاب لكم » . ورواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٢) ، وأحمد فى مسنده (١٣٤١٢) ، من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ، ولا نبي . قال : فشق ذلك على الناس فقال : « لكن المبشرات ! قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه ابن ماجة فى تعبير الرؤيا (٣٨٩٦) ، والدارمى فى الرؤيا (٢١٣٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٦٦٠٠) ، من حديث أم كرز الكعبية قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نهدت النبوة ، وبقيت المبشرات » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٣٢٨٣) ، من حديث أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : « لا نبوة بعدى إلا المبشرات » ، قال : قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « قال للرؤيا الحسنة ، أو قال الرؤيا الصالحة » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٤٥٦) ، من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « لا يبقى بعدى من النبوة شيء إلا المبشرات » . قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » ورواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٨٣) من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « لن يبقى بعدى من النبوة إلا المبشرات » ، فقالوا : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة يراها الرجل للصالح أو ترى له وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » .

(٨٥) انظر : تفسير ابن كثير ، حيث نقل ذلك يوسع عن محمد بن إسحاق فيما رواه ابن أبى حاتم .

(٨٦) تفسير القرطبي .

(٨٧) انظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية ، وتفسير الآلوسى ، وتفسير سورة يوسف ، للدكتور محمد طنطاوى .

(٨٨) لا سبق إلا فى خوف أو فى حافر أو نصل :

رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٧٤) ، والترمذى فى الجهاد (١٧٠٠) ، والنسائى فى الخيل (٣٥٨٥) ، وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٨) ، وأحمد فى مسنده (٧٤٣٣) ، من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا سبق إلا فى خوف ، أو فى حافر ، أو نصل » .

(٨٩) هذه بتلك السبقة :

رواه أبو داود فى الجهاد (٢٥٧٨) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٧٤٥) ، من حديث عائشة رضى الله عنها : أنها كانت مع النبى ﷺ فى سفر ، قالت : فسأبته ، فسبقتة على رجلى ، فلما حملت اللحم سألته فسبقتنى ، فقال : « هذه بتلك السبقة » .

(٩٠) الكريم ابن الكريم :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) ، وفى التفسير (٤٦٨٨) ، وأحمد فى مسنده (٥٦٧٩) ، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » . ورواه الترمذى فى التفسير (٣١١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم : يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » ، قال : ولو ليث فى السجن ما لبث يوسف ثم جاءنى الرسول أنبئت ثم قرأ : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ، قال : « ورحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى نزوة من قومه » . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٩١) إن الله تجاوز لأمتي :

رواه البخارى فى الإيمان والنذور (٦٦٦٤) ، وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٤٤ ، ٢٠٤٥) ، من حديث أبى هريرة يرفعه ، قال : إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم .

(٩٢) إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها :

رواه البخاري في التوحيد (٧٥٠١)، ومسلم في الإيمان (١٢٩)، والترمذي في التفسير (٣٠٧٣) (٢٧٤٤١)، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها : فإن عملها ، فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها من أجل ، فاكتبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها : فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

(٩٣) المصحف المفسر للأستاذ : محمد فريد وجدي ، ص ٣٠٦ .

(٩٤) تفسير الآلوسي للآية .

(٩٥) تفسير الكشف الجزء الثالث ، ص ٧١ .

(٩٦) انظر : تفسير الآلوسي ١٢ / ١٩٥ ، والتفسير الكبير ، للإمام فخر الدين الرازي ، فقد أشاد بعبقرية المرأة ، ودهائها ومكرها وسيطرتها على زوجها ، واستمرار تهديدها ليوسف حتى تلين قناته في يدها .

(٩٧) انظر تفسير القرطبي للآية ، المسألة الثالثة .

(٩٨) تفسير النسفي ٢ / ٢١٩ .

(٩٩) تفسير محمد بن جرير الطبري ، المتوفى سنة : ٣١٠ هـ ، مطبعة بولاق بمصر ، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ .

(١٠٠) في ظلال القرآن ، للأستاذ : سيد قطب ١٢ / ١١٠ ، طبع دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(١٠١) انظر : التفسير الوسيط : تأليف لجنة من العلماء ، الحزب الرابع والعشرون ، ص ٣٢٩ .

(١٠٢) الرؤيا الصالحة من الله ، والخلع من الشيطان :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٢)، وفي الطب (٥٧٤٧)، ٦٩٨٤، ٦٩٩٥، ٧٠٠٥)، ومسلم في الرؤيا (٢٢٦١)، ومالك في الموطأ كتاب الجامع (١٧٨٤)، وأبو داود في الأدب (٥٠٣١)، والترمذي في الرؤيا (٢٢٧٧)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٠٩)، والدارمي في الرؤيا (٢١٤١)، وأحمد في مسنده (٢٢٠١٩)، من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله ، والخلع من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلما يخافه : فليصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها : فإنها لا تضره » .

(١٠٣) اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود في الطب (٣٩١٩)، من حديث عروة بن عامر قال أحمد القرشي : قال : ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره : فليقل : اللهم ، لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

(١٠٤) في ظلال القرآن ١٢ / ٩١٤ .

(١٠٥) إن الكريم ابن الكريم :

رواه الترمذي في التفسير (٣١١٦) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم « قال : ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ، ثم جاءني الرسول : أجبته ثم قرأ :

﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ، قال : « ورحمة الله على لوط : إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال : ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا في ذروة من قومه » . وقال الترمذي : حديث حسن . والحديث رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) ، وفي التفسير (٤٦٨٨) ، وأحمد في مسنده (٥٦٧٩) ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : عن النبي ﷺ : قال : الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . وقد تقدم ص (٢٣٠٧) .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الثاني عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦	﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ...﴾	٢١٦٧
٧	﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾	٢١٦٧
٨	﴿وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أَمَةٍ مَعْدُودَةٍ...﴾	٢١٧٥
٩	﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْهَا رَحْمَةً...﴾	٢١٧٥
١٠	﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسْتَهٍ...﴾	٢١٧٥
١١	﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٢١٧٥
١٢	﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يَوْحَى إِلَيْكَ...﴾	٢١٧٩
١٣	﴿أَمْ يَسْقُـطُ سَـقَطًا مِّنْ لَّدُنِّهِ لَا يَحْكُمُونَ...﴾	٢١٧٩
١٤	﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا...﴾	٢١٧٩
١٥	﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾	٢١٨٥
١٦	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ...﴾	٢١٨٥
١٧	﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾	٢١٨٨
١٨	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا...﴾	٢١٩١
١٩	﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٢١٩١
٢٠	﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾	٢١٩١
٢١	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ...﴾	٢١٩١
٢٢	﴿لَا جُرْمَ أُنْهَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ...﴾	٢١٩١
٢٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٢١٩١
٢٤	﴿مِثْلَ الْغُرَيِّقِينَ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ...﴾	٢١٩١
٢٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾	٢١٩٨
٢٦	﴿إِنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ...﴾	٢١٩٨
٢٧	﴿فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ...﴾	٢١٩٨
٢٨	﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي...﴾	٢٢٠٠
٢٩	﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾	٢٢٠٠
٣٠	﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتَهُمْ...﴾	٢٢٠٠
٣١	﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خِزَانٌ مِنَ اللَّهِ...﴾	٢٢٠٠
٣٢	﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا...﴾	٢٢٠٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٣	﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾	٢٢٠٥
٣٤	﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتَ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ...﴾	٢٢٠٥
٣٥	﴿وَأَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ...﴾	٢٢٠٦
٣٦	﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ...﴾	٢٢٠٧
٣٧	﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا...﴾	٢٢٠٧
٣٨	﴿وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرْعِيهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ...﴾	٢٢٠٧
٣٩	﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ...﴾	٢٢٠٧
٤٠	﴿وَحَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ...﴾	٢٢١٠
٤١	﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ...﴾	٢٢١٠
٤٢	﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾	٢٢١٠
٤٣	﴿قَالَ سَآوَى إِلَيَّ جِبِلَّ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ...﴾	٢٢١٠
٤٤	﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي...﴾	٢٢١٠
٤٥	﴿وَنَادَى نُوحٌ ربه فَقَالَ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾	٢٢١٥
٤٦	﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾	٢٢١٥
٤٧	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ...﴾	٢٢١٥
٤٨	﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ...﴾	٢٢١٥
٤٩	﴿وَتِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ...﴾	٢٢١٥
٥٠	﴿وَالَّذِي عَادُوا أَخْرَجَهُمْ هُوَ...﴾	٢٢٢٠
٥١	﴿يَا قَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا...﴾	٢٢٢٠
٥٢	﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا مِنِّي لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾	٢٢٢٠
٥٣	﴿قَالُوا يَا هُوَذَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ...﴾	٢٢٢٢
٥٤	﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ...﴾	٢٢٢٢
٥٥	﴿مَنْ دُونَهُ فَكَيْدُؤُنِي جَمِيعًا...﴾	٢٢٢٢
٥٦	﴿وَإِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ربي وَرَبِّكُمْ...﴾	٢٢٢٢
٥٧	﴿فَبِأَن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ...﴾	٢٢٢٢
٥٨	﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ...﴾	٢٢٢٥
٥٩	﴿وَتِلْكَ عَادُ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ...﴾	٢٢٢٥
٦٠	﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً...﴾	٢٢٢٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦١	﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم ...﴾	٢٢٢٧
٦٢	﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ...﴾	٢٢٢٧
٦٣	﴿قال يا قوم أرى يتم إن كنت على بينة من ربى ...﴾	٢٢٢٧
٦٤	﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ...﴾	٢٢٣٠
٦٥	﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ...﴾	٢٢٣٠
٦٦	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ...﴾	٢٢٣٠
٦٧	﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ...﴾	٢٢٣٠
٦٨	﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ؕ إِنِ ءِثْمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ...﴾	٢٢٣٠
٦٩	﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى ...﴾	٢٢٣٤
٧٠	﴿فَلَمَّا رءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ ...﴾	٢٢٣٤
٧١	﴿وَأَمْرَاتِهِ قَاتِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا ...﴾	٢٢٣٤
٧٢	﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى ؕ أَنَّى ءَأْتَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ...﴾	٢٢٣٤
٧٣	﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...﴾	٢٢٣٤
٧٤	﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ ...﴾	٢٢٣٨
٧٥	﴿إِنِ إِبْرَاهِيمَ لِحَلِيمٍ ؕ أَوَاهِ مِنْ نِيبٍ ...﴾	٢٢٣٨
٧٦	﴿يَا إِبْرَاهِيمَ ؕ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ...﴾	٢٢٣٨
٧٧	﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِى بِهِمْ ...﴾	٢٢٤٠
٧٨	﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ ...﴾	٢٢٤٠
٧٩	﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ...﴾	٢٢٤٠
٨٠	﴿قَالَ لَوْ أَنِّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ ...﴾	٢٢٤٠
٨١	﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لِنَ يَصْلُوا إِلَيْكَ ...﴾	٢٢٤٤
٨٢	﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ...﴾	٢٢٤٤
٨٣	﴿مَسْمُومَةً عَنْ نَِّدْرِكَ ...﴾	٢٢٤٤
٨٤	﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا ...﴾	٢٢٤٨
٨٥	﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان ...﴾	٢٢٤٨
٨٦	﴿بِتَقْوِى اللَّهِ خَيْرَ لَكُمْ ...﴾	٢٢٤٨
٨٧	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ ؕ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرِكَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ...﴾	٢٢٥١
٨٨	﴿قَالَ يَا قَوْمِ ؕ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّى ...﴾	٢٢٥١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٩	﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي...﴾	٢٢٥١
٩٠	﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ...﴾	٢٢٥١
٩١	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ...﴾	٢٢٥٥
٩٢	﴿قَالَ يَا قَوْمِىَ أَرَأَيْتُمْ أَصْحَابَ آلِ يُثُومَ...﴾	٢٢٥٥
٩٣	﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ...﴾	٢٢٥٥
٩٤	﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ...﴾	٢٢٥٥
٩٥	﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدَ لِمَدِينٍ...﴾	٢٢٥٥
٩٦	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا...﴾	٢٢٥٨
٩٧	﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ...﴾	٢٢٥٨
٩٨	﴿يَقْدُمُ قَوْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾	٢٢٥٨
٩٩	﴿وَاتَّبَعُوا فِى هَذِهِ لَعْنَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾	٢٢٥٨
١٠٠	﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ...﴾	٢٢٦١
١٠١	﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾	٢٢٦١
١٠٢	﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ...﴾	٢٢٦١
١٠٣	﴿إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ...﴾	٢٢٦٣
١٠٤	﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ...﴾	٢٢٦٣
١٠٥	﴿يَوْمَ يَأْتُ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ...﴾	٢٢٦٣
١٠٦	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِى النَّارِ...﴾	٢٢٦٣
١٠٧	﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾	٢٢٦٣
١٠٨	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...﴾	٢٢٦٣
١٠٩	﴿فَلَا تَكُ فِى مَرِيَّةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ...﴾	٢٢٦٣
١١٠	﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ...﴾	٢٢٦٩
١١١	﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ...﴾	٢٢٦٩
١١٢	﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...﴾	٢٢٧٢
١١٣	﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ...﴾	٢٢٧٢
١١٤	﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ...﴾	٢٢٧٥
١١٥	﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ...﴾	٢٢٧٥
١١٦	﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ...﴾	٢٢٧٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٧	﴿وَمَا كَانَ رِيكَ لِيَهْلِكَ الْفَرَى بِظَلَمٍ...﴾	٢٢٧٨
١١٨	﴿وَلَوْ شَاءَ رِيكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾	٢٢٧٨
١١٩	﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رِيكَ وَلِذَلِكَ خَافَهُمْ...﴾	٢٢٧٨
١٢٠	﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرِّسْلِ...﴾	٢٢٨٢
١٢١	﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ...﴾	٢٢٨٢
١٢٢	﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مَنُتَظِرُونَ...﴾	٢٢٨٢
١٢٣	﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ...﴾	٢٢٨٢
—	تفسير سورة يوسف	٢٢٨٥
—	نظرات في سورة يوسف	٢٢٨٦
١	﴿إِلَّا...﴾	٢٢٩٣
٢	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾	٢٢٩٣
٣	﴿نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...﴾	٢٢٩٣
٤	﴿إِذْ قَالَ يَوْسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ...﴾	٢٢٩٥
٥	﴿قَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رَعِيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ...﴾	٢٢٩٥
٦	﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رِيكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ...﴾	٢٢٩٥
٧	﴿لَقَدْ كَانَ فِي يَوْسُفَ وَإِخْوَتِهِ...﴾	٢٢٩٨
٨	﴿إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ لِأَخِيهِ...﴾	٢٢٩٨
٩	﴿اقْتُلُوا يَوْسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا...﴾	٢٢٩٨
١٠	﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ...﴾	٢٢٩٨
١١	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يَوْسُفَ...﴾	٢٣٠١
١٢	﴿أَرْسَلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبِ...﴾	٢٣٠١
١٣	﴿قَالَ إِنِّي لِيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ...﴾	٢٣٠١
١٤	﴿قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ...﴾	٢٣٠١
١٥	﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ رَاجِعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فِي غِيَابِ الْجَبِّ...﴾	٢٣٠٣
١٦	﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ...﴾	٢٣٠٣
١٧	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يَوْسُفَ...﴾	٢٣٠٣
١٨	﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ...﴾	٢٣٠٣
١٩	﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ...﴾	٢٣٠٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿وشره بثمن بخس دراهم معدودة...﴾	٢٣٠٦
٢١	﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامراته...﴾	٢٣٠٨
٢٢	﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما...﴾	٢٣٠٨
٢٣	﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه...﴾	٢٣١٠
٢٤	﴿ولقد همت به وهم بها...﴾	٢٣١٠
٢٥	﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر...﴾	٢٣١٠
٢٦	﴿قال هى راودتنى عن نفسى...﴾	٢٣١٧
٢٧	﴿وان كان قميصه قد من دبر...﴾	٢٣١٧
٢٨	﴿فلما رءا قميصه قد من دبر...﴾	٢٣١٧
٢٩	﴿يوسف أعرض عن هذا...﴾	٢٣١٧
٣٠	﴿وقال نسوة فى المدينة امرأت العزيز...﴾	٢٣٢٠
٣١	﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن...﴾	٢٣٢٠
٣٢	﴿قالت فذالكن الذى لمتننى فيه...﴾	٢٣٢٠
٣٣	﴿قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه...﴾	٢٣٢٠
٣٤	﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن...﴾	٢٣٢٠
٣٥	﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه...﴾	٢٣٢٠
٣٦	﴿ودخل معه السجن فتيان...﴾	٢٣٢٥
٣٧	﴿قال لا تأتیکما طعام ترزقانه...﴾	٢٣٢٥
٣٨	﴿واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق...﴾	٢٣٢٥
٣٩	﴿يا صاحبى السجن أرباب متفرقون...﴾	٢٣٢٨
٤٠	﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها...﴾	٢٣٢٨
٤١	﴿يا صاحبى السجن أما أحدكما...﴾	٢٣٣٠
٤٢	﴿وقال للذى ظن أنه ناج منهما...﴾	٢٣٣٠
٤٣	﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان...﴾	٢٣٣٢
٤٤	﴿قالوا أضغاث أحلام...﴾	٢٣٣٢
٤٥	﴿وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة...﴾	٢٣٣٢
٤٦	﴿يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات...﴾	٢٣٣٢
٤٧	﴿قال ترزعون سبع سنين دأبا...﴾	٢٣٣٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٨	﴿ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد...﴾	٢٢٣٢
٤٩	﴿ثم يأتى من بعد ذلك عام...﴾	٢٢٣٢
٥٠	﴿وقال الملك انتوني به فلما جاءه الرسول...﴾	٢٣٣٦
٥١	﴿قال ما خطبك إن راودتن يوسف عن نفسه...﴾	٢٣٣٦
٥٢	﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيث...﴾	٢٣٣٦
—	تخريج أحاديث وهوامش	٢٣٤١
—	فهرس موضوعات	٢٣٥٣

تم بحمد الله تفسير الجزء الثاني عشر

ويليه تفسير الجزء الثالث عشر إن شاء الله تعالى





تفسير القرآن الكريم
بواسطة
دعبد الله شحاته

دعبد الله شحاته

دار غريب

إهداء 2005

أ.د. محمد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٣)

التفسير:

٥٣- وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي: إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ.

هذه الآية يُحتمل أنها من كلام امرأة العزيز بعد أن اعترفت بأنها راودت يوسف عن نفسه؛ واعترفت بأنه من الصادقين.

قَالَتْ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الشَّنْ حَضْحَضَ الْحَقُّ أَنَا زَوَّدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. (يوسف : ٥١، ٥٢).

ثم قالت امرأة العزيز: وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أى: أننى لست ملاكاً، بل أنا بشر فيه الضعف، وفيه وسوسة النفس والهوى، والنفس أمارة بالسوء، داعية إلى الهوى، إلا من عصمه الله بالتقوى والإيمان، مثل: يوسف، وإنى أتوب إلى الله وأرغب فى فضله ورحمته ومغفرته: إن ربى غفور رحيم؛ لمن تاب وأناب، وهذه الآية يحتمل أن تكون من كلام يوسف الصديق، والمعنى: لا أذكى نفسى ولا أنزهها، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات، إلا من رحمه الله بالعصمة، إن ربى واسع المغفرة، عظيم الرحمة: قال ذلك يوسف؛ تواضعاً، وهضماً لنفسه.

★ ★ ★

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أُنْصِفُ بَيْنَهُمَا فَاغْلُظْ عَلَيْهِمَا وَمَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُرَىٰ فَتَوَلَّىٰ يُوسُفُ وَأُخُوهُ وَقَالَ ثَلَاثَةٌ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ لَا تَكُونُ فِيهَا أُخْلُفٌ لِّأَحَدٍ﴾ (٥٤)

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أُنْصِفُ بَيْنَهُمَا فَاغْلُظْ عَلَيْهِمَا وَمَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُرَىٰ فَتَوَلَّىٰ يُوسُفُ وَأُخُوهُ وَقَالَ ثَلَاثَةٌ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَرْضِ يَوْمَ لَا تَكُونُ فِيهَا أُخْلُفٌ لِّأَحَدٍ﴾ (٥٥)

المضردات:

أستخلصه لنفسى، أجعله خالصاً لى، أى: خاصاً بى.

مكين أمين، ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شىء.

حفيظ عليهم، قوى الحفظ، كثير العلم.

التفسير:

٥٤- وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ...

أى : ولما ثبتت براءة يوسف ، مما نسبته إليه امرأة العزيز : ارتفع قدره عند الملك ، وطلب أن يخرج من السجن ، وأن يُقَرَّبَ إلى الملك ، وجعله مستشاراً ، وأميناً ، ومساعداً له فى تدبير أمور مملكته ، وكان صاحب مكانة خاصة عنده .

وإذا نظرت إلى طلب الملك حضور يوسف ؛ فإنك تراه أولاً قال : أَتُؤْتِيَنِي بِهِ . ولم يزد على ذلك .

فلما ظهر إباطه ، ووضحت أمانته وعفته فى قصة امرأة العزيز ، وظهر تجلده وصبره على السجن ، إلى أن ثبتت براءته ؛ ازداد تعلق الملك به ، وعظمت منزلته عند الملك ؛ فطلبه ؛ ليكون من خلاء الملك ، بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه سواه ، وذلك بقوله : أَتُؤْتِيَنِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي .

وهكذا يرفع الله أهل العلم والأمانة والعفة درجات عالية .

فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

فلما حضر يوسف مقابلة الملك ، وتبين للملك من الكلام معه رجحان عقله ، واتساع مواهبه ، ومعرفته بتأويل الأحلام ؛ والاستعداد للأحداث وفى تفسير النفسى : أنه أعاد عليه تفسير الرؤيا ، وما ينبغى الاحتياط به ؛ للتغلب على جفاف النيل ، ولبيع الزرع والثمار للبلاد المجاورة ، وكيف تعبر بلاد مصر المحنة ، وفى رصيدها فائض من الزراعات ، وأثمان المبيعات ، وما يعرف بالتجارة الخارجية .

٥٥- قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ .

أى : مكئى من إدارة خيرات مصر : زراعة ، وحصاداً ، وإيراداً ، وصرفاً ، وبيعاً ، وخزناً ، وتدبيراً ، فإنى حَفِيظٌ . لأرض مصر وخراجها من التبذير والتقتير ، والإفراط والتفريط ، عَلِيمٌ . ذو علم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية إذا كان طالبها على أهلية متميزة ، ومقدرة بإقامة العدل وإحقاق الحق .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية ؛ فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

روى مسلم : عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة ؛ وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة ؛ أعنت عليها »^(١) .

فإذا علم الإنسان أنه أقدر على تصريف أمور الإمارة : فالأولى أن يطلبها ، وإذا علم أن هناك من يقوم بها ، ويصل لها سواء : فالأولى ألا يطلبها ؛ لقوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمره : « لا تسأل الإمارة ... الحديث ».

★ ★ ★

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

المضردات :

مكنا ليوسف في الأرض : جعلنا له في أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

يتبوا منها حيث يشاء : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها ، حيث يشاء .

نصيب برحمتنا : نجود بنعمتنا .

التفسير :

٥٦- وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ...

وهكذا مكنا ليوسف في أرض مصر ، وجعلنا له العزَّ والسلطان بعد المحنة والاثام والسجن ، وأصبح طليق اليد في أرض مصر ، وشملها سلطانه ، فكانها منزله ؛ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل في منزله ومكانه ، وكان ذلك بعدل وحكمة .

روى : أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف ، تطف يوسف بالناس ، وكان يدعوهم إلى الإسلام ، ويقدم فيهم العدل ؛ فأحبَّه الناس ، وكانت له بذلك منزلة رفيعة بينهم .

نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . نخص بإنعامنا من نشاء من عبادنا ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . الذين يحسنون الإيمان بالله والتوكل عليه ، والالتجاء إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس .

٥٧- وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

وثواب الآخرة وما فيها من الجنة ونعيمها ، ورضوان الله ورحمته ، خير وأفضل كثيرا من ثواب

الدنيا، للذين آمنوا واطمأنوا فى إيمانهم إلى ربهم : فاتقوا الله وأخلصوا له العمل ، وهكذا عوَّضَ الله يوسف على صبره وإيمانه ؛ الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة .

٥٨- وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَلَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .

كان القحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ؛ قد أصاب المنطقة كلها ، وامتدَّ إلى أرض كنعان بالشام ، وتسامع الناس بأخبار يوسف ، وعرفوا أنه خزَّن الحبوب ، والقمح فى سنابله ، وأنه يوزعها بعدل ورحمة ، فلا يعطى الطعام لمن يدفع الثمن الأكثر ، بل يعطى لكل فرد قدرًا معينًا على مقدار حاجته ، وحاجة من يشتري لهم ، لعلَّ مقدار حمل بعير .

وكان يوسف يشرف على التوزيع بنفسه ؛ ضمانًا للعدالة والدقة ، وجاء أخوة يوسف ؛ امتثالًا لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه فعرفهم ، فهم لم يتغيروا كثيرًا . أما هو فقد تغيَّر ؛ فقد ألقوه فى الجب صغيرًا ، لكنَّه الآن ملكًا متوجًّا ، فى حاشية وخدم ، وقد تزيَّن بزيِّ أهل مصر ، وعليه مظاهر النعمة والسلطان .

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِ بِأَنْ يَكُنَّ مِنْ أَيْكُمُ اللَّاتِرُونَ إِنِّي فِي الْكَئَلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ قَالُوا سَنُرَوِّدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

المضردات :

جهَّزهم بجهازهم : أعد لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت . وتجهيزه : إحضاره . وقد أجمع القراء على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر .

خير المنزلين : أى : خير المضيفين - مأخوذ من النُّزُل ، وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الذين ينزلون . أو خير من ينزلون الناس فى منازلهم ، مأخوذ من المنزل بجهازهم ، وهو الدار .

سنراود عنه أباه ، سنطلبه من أبيه ؛ ليرسله معنا .

التفسير:

٥٩- وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنَبِّئُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ...

استدرج يوسف إخوته فى الحديث عن أنفسهم ، وعن أبيهم ، وعن أخيه بنيامين ، كما أنه أكرم وفادتهم ، وقام بالواجب نحوهم ، ونحو دوابهم ، وجهز لكل فرد منهم حمل بعير ، وهو مقدار يعطى للفرد فى المدة المحدودة ، أشبه ببطاقات التموين ، وبذلك تتم السيطرة على توزيع الغلال والحبوب طوال مدة المجاعة .

والمعنى :

ولما هيأ لهم الطعام والميرة وأعطى كل واحد منهم حمل بعير ، وما يحتاجون إليه فى سفرهم .

قَالَ أَتُنَبِّئُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَيْكُمُ . أى : أحضروا معكم فى المرة القادمة أخاكم بنيامين .

أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىْ أُولِىَ الْكَيْلِ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ .

أى : وقد رأيتم أنى أوفى الكيل فسأوفيه نصيبه ؛ حين يجىء معكم ، ورأيتم أنى أكرم النزلاء ؛ فلا خوف عليه ، بل سيقلى منى الإكرام المعهود .

٦٠- فَإِن لَّمْ تَأْتُونِيْ بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُم مِّنْ عِندِيْ وَلَا تَقْرَبُونَّ .

أراد يوسف تهديدهم ؛ فتوعدهم بالحرمان من الكيل للطعام ، ومن إعطاء كل واحد منهم حمل بعير ، وتوعدهم بالحرمان من الضيافة ؛ ما لم يحضروا معهم أخاهم بنيامين فى المرة القادمة ! .

جاء فى البحر المحيط :

والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام ، كان بوحى من الله ؛ وإلا فمقتضى البرأن يبادر إلى أبيه ، ويستدعيه ، لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته ، ولتفسير الرؤيا الأولى .

٦١- قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ .

كانوا يعلمون أن حضور بنيامين ؛ شاق متعب لأبيهم ، خصوصا بعد غياب يوسف عنه ؛ لذلك قالوا: سنحاول إقناع أبيه ، بالسماح له بالحضور معنا ، وسنجتهد فى هذه المحاولة ، ونفعل كل ما نستطيع لإحضار بنيامين .

﴿وَقَالَ لِفَتْنَيْهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ٦٣﴾ قَالَ هَلْ أُمِنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ٦٤﴾

المفردات :

فتنائه : غلمانه الكياليين ، جمع فتى .

بضاعتهم : ما جاءوا به من المتاع : ليشتروا به الطعام .

فى رحالهم : فى أوعيتهم . قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء : رحل ، وللبيت : رحل .

انقلبوا إلى أهلهم : رجعوا إليهم .

التفسير :

٦٢- وَقَالَ لِفَتْنَيْهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أراد يوسف أن يسدى إلى أسرته مكربة ، وكانوا قد أحضروا معهم بضاعة من بلادهم : لتكون عوضا عن القمح .

روى عن ابن عباس : أنها كانت نعالا وأدما - أى : جلدا - ، وقيل : إنها كانت دراهم ودنانير : فأمر يوسف غلمانه المختصين بالبيع وقبض الثمن ثائلا : اجعلوا المال أو البضاعة التى اشتروا بها القمح والحبوب فى أوعيتهم سراً ، ولا تشعروهم أننى نزلت لهم عنها : لعلهم يعرفون هذه المكربة ، ويقدرونها قدرها : حين يرجعون إلى أهلهم : ويفاجئون بها فى متاعهم ، لعلهم يعودون إلى بأخيهم الذى طلبته منهم .

٦٣- فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

عاد إخوة يوسف إلى أبيهم ، وأخبروه بقصتهم ، وقالوا : إن الملك ظننا جواسيس فأخبرناه بأسماء أسرتنا ، وأن لنا أخا أصغر منا : استبقاه أبوه معه ، فطلب منا إحضاره فى المرة القادمة ، وجعل حضوره شرطا لبيع الطعام لنا .

وتلطفوا مع أبيهم وقالوا: يا أبانا، أرسل معنا أخانا بنيامين؛ لنأخذ ما نستحقه من الحبوب التي تكال لنا، وسوف نحافظ عليه من أن يناله مكروه.

٦٤- قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ...

أثارت وعودهم بحفظ أخيهيم، ذكريات أليمة عند أبيهم؛ حين عاهدوه بالمحافظة على يوسف وإرجاعه لهم، ثم جاءوا في المساء يبكون، وادعوا: أن الذنب قد أكله، فقال يعقوب لهم، ألم تقدموا نفس الكلام عند أخذ يوسف؟! ورجعتم بدونه؛ فكيف أمنكم الآن على بنيامين، بعد أن فعلتم ما فعلتم بيوسف، وضمنت لى حفظه، ثم خُنتم العهد؛ فلا آمن أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه.

فَاللَّهُ خَيْرٌ حَلِيفًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. أى: اتركونى من تعهدكم بالحفظ؛ لأنى أُلجا إلى الله العلى القدير؛ فهو الذى أطلب منه الحفظ لولدى والرحمة لى.

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفُظُ أَخَانَا وَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ ۖ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (٦٦)

المضردات:

ولمافتحوا متاعهم، المقصود بمتاعهم: الأوعية التى فيها طعامهم وبضاعتهم، وهى المعبر عنها سابقاً: برحالهم فى قول يوسف: آجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ.

مانسبسى، أى شئى نبغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا وتوفيته الكيل لنا؟.

نمير أهلنا، أى: نجلب لهم الميرة وهى: الطعام، من المير وهو: جلب الطعام.

كيل بعير، أى طعاماً مكيلاً مقداره: حمل بعير لأخيها بنيامين.

كيل يسير، مكيل سهل على عزيز مصر لا يمنعنا إياه لكرمه.

موثقاً من الله، أى: عهداً منكم مع الله تعالى؛ يدعونى إلى الثقة بوفائكم له.

إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ، أَيْ: إِلَّا أَنْ تُغْلَبُوا عَلَيْهِ.

وكَيْسَل، موكول إليه تنفيذ هذا الميثاق.

التفسير:

٦٥- وَلَمَّا فَتَحُوا أَوْعِيَةَ طَعَامِهِمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ... الآية.

أى: وحين فتحوا أوعية طعامهم الذى اشتروه من عزيز مصر، فوجئوا بوجود أثمان هذا الطعام قد رُدَّتْ إليهم معه.

ولعل يعقوب كان شاهداً لهذه المفاجأة؛ حيث وجد الطعام كاملاً، وثمنه عائداً معه.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي^(١) هَلْ بِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا.

أى: كيف لا نعجب ولا ندهش، أو أى شيء نطلبه وراء هذا، أكرمنا عزيز مصر، ووفى لنا الكيل، وردَّ علينا الثمن الذى هو بضاعتنا، فكيف لا نستجيب لطلبه، ونحضر له بنيامين؟

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ.

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا. هذه الجملة معطوفة على مقدر يفهم من الكلام السابق.

أى: هَلْ بِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا. فننتفع بها فى معاشنا.

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا. أى: ونجلب الطعام والميرة إليهم مرة أخرى.

وَنَحْفَظُ أَخَانَا. ونحافظ عليه فى سفره؛ حتى لا يصيبه مكروه هذه المرة؛ لأننا لن ننشغل عنه باللهو واللعب.

وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ. أى: بوجود بنيامين معنا؛ حيث كان يوسف يكيل الطعام على عدد الرؤوس؛ حتى يستطيع أن يوفر القوت للجميع فى تلك السنوات الشداد.

ذَلِكَ كَيْلَ يَسِيرٍ. أى: سهل هين على عزيز مصر، فلا يخيبنا فى طلبه.

وفى هذه الآية تحريض متكرر من إخوة يوسف لأبيهم؛ حتى يستجيب لطلبهم؛ فقد عرضوا أمام أبيهم بضاعتهم التى رُدَّتْ إليهم من عزيز مصر، وأظهروا حاجتهم إلى العودة إليه، مع المحافظة على أخيه، واستجلاب الطعام لأهليهم.

٦٦- قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ...

أى : قال يعقوب لأولاده ، وقد ألانه كلامهم ، وهياًه لقبول مطلبهم : لن أرسل بنيامين معكم ، حتى تعطونى عهداً من الله على رده ، وموثقاً من جهته على ذلك : ليكون شهيداً عليكم ، ومنقماً منكم إن لم تكونوا أوفياء .

لَنَأْتِيَنَّ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ . أى : لترجعون بنيامين معكم ، عند عودتكم بالطعام من مصر ، إلا أن تغلبوا بما لا قبل لكم به ، فيحول دون وفائكم بقسمكم .

أى : طلب منهم : أن يقسموا بالله يمينا مؤكداً : لنأتينك يا أبانا ببنيامين معنا ، ونحن عائدون من مصر بالطعام ، إلا أن تغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به .

فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ . أى : فلما أعطى الأبناء أباهم العهد الذى طلبه منهم واليمين الموثق بإرجاعه إليه : قال لهم : الله تعالى مطلع وراقب وحسيب على هذا القول ، وسيجازى الأوفياء الجزاء الحسن ، ويعاقب الخائنين وينتقم منهم .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكَمْتُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٧٧)

التفسير :

٦٧- وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ... الآية .

أى : قال يعقوب لأبنائه عند عزمهم على مغادرة بادية الشام إلى مصر : لا تجتمعوا عند دخول أبواب مصر ، ولا تدخلوا من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة متعددة .

قيل فى سبب ذلك : إن يعقوب كان يخاف على أولاده العين والحسد ، وكانوا على جانب كبير من الجمال والقوة ، والنشاط والاتساق ، فإذا شاهدتهم الناس فى هذه الصورة : عشر رجال فى زى واحد وهيئة واحدة : ربما حسدهم الحاسد .

جاء في تفسير أبي السعود ٢٩٢/٤ :

وَقَالَ . يعقوب ناصحاً لهم ؛ لما أزمع على إرسالهم جميعاً : يَنْبِئُ لَا تَدْخُلُوا مصرَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، نهاهم عن ذلك ؛ حذراً من إصابة العين ؛ فإنهم كانوا نوى جمال وشارة حسنة ، وقد كانوا تجمّلوا فى هذه المرأة أكثر مما فى المرة الأولى ، وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك ، بخلاف النوبة الأولى ، حيث كانوا مغمورين عند دخولهم من أبواب مصر ، ثم اشتهر أمرهم عندما قرّبهم يوسف إليه وأكرم وفادتهم .

ثم قال أبو السعود :

« وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ، وليست مما ينكر ، وقد ورد عنه ﷺ : « إن العين حق »^(٧) ، وعنه ﷺ : « إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمال القدر »^(٨) ، وقد كان ﷺ يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »^(٩) .

وكان ﷺ يقول : « كان أبوكما يعوذ بها إسماعيل وإسحاق عليهم السلام »^(١٠) ، رواه البخارى فى صحيحه ، وقد شهدت بذلك التجارب . اهـ .

« وقيل : إن السبب فى وصية يعقوب لأبنائه بهذه الوصية ؛ خوفه عليهم ، من أن يسترعى عددهم حُرّاس مدينة مصر ، إذا ما دخلوا من باب واحد ؛ فيترامى فى أنهارهم أنهم جواسيس أو ما شابه ذلك ، فريماً سجنوهم أو حالوا بينهم وبين الوصول إلى يوسف عليه السلام »^(١١) .

وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ .

أى : إنى أمركم بالدخول من أبواب متفرقة ؛ لتسلموا من حسد الحاسدين أو كيد الكائدين ، ولا أضع عنكم شيئاً قدره الله عليكم ، ولو كان هذا الشئ قليلاً ، وإنما ذلك من باب الأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بأن النافع هو الله ، والضرار هو الله تعالى ، وأن العباد لا تنفع ولا تضر إلا بشئ قد كتبه الله على الإنسان .

ويعقوب عليه السلام يريد أن يلقن أولاده درساً فى العقيدة السليمة التى توصى : بأن يأخذ الإنسان بالأسباب العادية الميسرة له ، مع اليقين الجازم بأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وأنه سبحانه واطع الأسباب ومشروعها .

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ .

أى : ما الحكم فى أمر الخلاق جميعاً إلا لله وحده ؛ لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يدافعه مدافع .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ . أَيْ : عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ سِوَاهُ تَوَكَّلْتُ وَاعْتَمَدْتُ .

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وعلى الله وحده فليتكول المتوكلون الصادقون ، وهذا التوكول لا يتعارض مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله وأمر بها .

فالعبد له كسب واختيار ، والله تعالى له إرادة عليا ، وقدرة فاعلة في تدبير هذا الكون ، والجمع بين اختيار العبد وإرادة الله تعالى يحتاج إلى شيء من الانحناء والتسليم ، فالعبد يفعل ويختار ويأخذ في الأسباب ، ويجزم بأن الحكم لله وحده في كل الأمور ، وقد جمع يعقوب عليه السلام بأطراف الموضوع ، حين أمر أبناءه بالدخول من أبواب متعددة ، ثم بين : أن ذلك أخذ بالأسباب العادية ، مع الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، ومع اليقين بأن ما أَرَادَهُ الله نافذ لا محالة كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ، والسنة النبوية .

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات :

من حيث أمرهم أبوهم : من الأبواب المتفرقة التي أمرهم بالدخول منها .

لما علمناه : لتعليمنا إياه بالوحى .

فلا تبتئس بما كانوا يعملون : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ما صنعوا .

التفسير :

٦٨- وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ...

أى : ولما دخل إخوة يوسف من الأبواب المتفرقة ، ولم يجتمعوا داخلين من باب واحد ، ما كان يدفع عنهم ذلك الدخول من أبواب متفرقة شيئا مما قضاه الله ، وقدره عليهم ، ولكن الذى حمل يعقوب على أمرهم

بذلك ، هو خوفه عليهم من الحسد ، أو خوفه من بطش الملك بهم ؛ حين يراهم مجتمعين ، فى هيئة واحدة ؛ فأظهر يعقوب رغبته فى دخولهم متفرقين ، ووصّاهم بها ، ولم يستطع إخفاءها ؛ لشدة حبه لهم ، مع اعتقاده بأن كل شىء يقضاه الله وقدره .

وَإِنَّهُ لَدُوْ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْتَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : وإن يعقوب لدو علم عظيم ؛ لأجل تعليمنا إياه بالوحي ؛ حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ؛ حيث قال : وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . أى وما أدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله ؛ وإنما نأخذ بالأسباب ؛ فالأخذ بها مشروع ومأمور به .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . ما أعطاه الله تعالى لأنبيائه وأصفياه من العلم والمعرفة وحسن التأنى للأمور .

٦٩- وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخَاهُ ...

تبدأ من هذه الآية أحداث أخرى جديدة ومثيرة فى قصة يوسف .

والمنى : ولما دخل إخوة يوسف عليه ؛ أكرم وفادتهم ، ثم ضم إليه شقيقه بنيامين ، وحذّته حديثا خاصا : قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أى : قال يوسف لبنيامين : إني أنا أخوك الشقيق يوسف ، وأخبره بقصته ، وما جرى له فى الحب ، وفى بيت العزيز ، وفى السجن حتى صار على خزائن الأرض ، وطلب منه أن يكتم هذا الأمر عن إخوته ، وألا يحزن بسبب ما أصابهم فى الماضى من الحسد والأذى ؛ فإن الله تعالى قد عوض صبرهم خيرا .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾

المفردات :

جهزهم بجهازهم ، الجهازه فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم : تنجيز ما يحتاجون إليه من الطعام وإعداده فى أوعيتهم .

السقاية ، المشربة التى يُشرب بها ، وهى والصواع شئ واحد ، قال الشاعر : نشرب الخمر بالصواع جهاراً . رحل أخيه ، المراد به : وعاء الطعام الخاص بأخيه بنيامين .

أذن مؤذن ، نادى مناد .

أيستها العير ، العير : هى الإبل التى عليها الأحمال ، والمراد بنداها : نداء أصحابها ، وقال أبو عبيد : هى الإبل . المرحولة المركوبة .

زعيم ، كفيل وضمين .

التفسير :

٧٠- فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ...

السقاية : إناء يشرب فيه الملك ، وعادة يكون من معدن نفيس ؛ وقد كان يوسف عليه السلام ، يكتال به فى ذلك الوقت ؛ نظراً لقلّة الطعام وندرته .

أراد يوسف عليه السلام أن يستبقى أخاه بنيامين معه فى مصر ؛ فأمر بدسُ الإناء الذى يُشرب فيه ويكتال به فى رحل بنيامين ، وكان إناءً ثميناً يمكن الاتهام بسرقة ؛ لارتفاع قيمته .

ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ .

بعد أن ركب إخوة يوسف وراحلهم نادى منادٍ فيهم : يا أصحاب العير ، إنكم لسارقون . ولم يعين لهم ما سرقوه فى نداءه ؛ ليسترعى كامل انتباههم .

جاء في تفسير أبي السعود :

جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ . قيل : كانت السقاية تسقى بها الدواب ، ويكال بها الحبوب ، وكانت من فضة ، وقيل : من ذهب ، وقيل : من فضة مموهة بالذهب ، وقيل : كانت السقاية مرصعة بالجواهر . اهـ^(٨) .

٧١- قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ .

أى : قال إخوة يوسف ، وقد أقبلوا على المنادى وزمرته : ماذا تفقدون - أيها الناس - من أشياء حتى اتهمتمونا بأننا سارقون ؟!

٧٢- قَالُوا نَفْقِدُ صَوَاعَ الْمَلِكِ ...

أى : قال المؤذن ، ومعه الحراس : نفقد صواع الملك . أى : صاعه الذى يشرب فيه ، ويكتال به المتارين .

وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حُمْلٌ بَعِيرٌ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ .

أى : من جاء به من عند نفسه ، أو أرشد إليه عند غيره ؛ فله حمل بعير من الطعام زيادة على ما دفعه كمكافأة له .

وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ .

قال المؤذن : تأكيداً للكلامه السابق : أنا كفيلاً بأن أوصّل حمل البعير لمن جاء بصواع الملك أو أرشد إليه .

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ رُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

التفسير :

٧٣- قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَاجِئَنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ .

أى : وحق الله ! لقد عرفتم من استقامتنا فى المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتصون ، وقد كان هؤلاء الإخوة فعلا مثلاً أعلى فى الأخلاق السليمة ، والسلوك المستقيم ، فاستشهدوا بسلوكهم وأحوالهم على أنهم ما حضروا من بلادهم ؛ ليفسدوا فى أرض مصر بالسرقة ، وما كانت السرقة خلقاً ولا جبلةً فيهم قبل ذلك ولا بعده .

٧٤- قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ .

أى : قال أعوان يوسف لإخوته : إذا فما جزاء وعقاب هذا السارق لصواع الملك فى شريعتكم : إن وجدنا هذا الصواع فى حوزتكم .

إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ . فى دعوكم : أن الصواع ليس فى أوعيتكم .

٧٥- قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ رُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ...

أى : قال إخوة يوسف : جزاء الصواع المفقود فى شريعتنا : أخذ من وجد فى رحله واسترقاقه لمدة سنة؛ هذا هو جزاؤه فى شريعتنا .

قال الزجاج : وقوله : فَهُوَ جَزَاؤُهُ . زيادة فى البيان ، أى : جزاؤه أخذ السارق فهو جزاؤه لا غير^(٩) .

كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . أى : مثل ذلك الجزاء نجزي الظالمين بالسرقه فى شريعتنا : لأنهم معتدون على أموال غيرهم .

٧٦- فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ...

أى : بدأ يوسف أو من ينوب عنه بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين الشقيق ؛ لنفى التهمة فى أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، ولينسيهم فرحهم ببراءتهم أولا ، ما حدث لأخيه من أبيهم أخيرا .

وفى التوراة الحالية : « ففتش مبتدئا من الكبير حتى انتهى إلى الصغير ، فوجد الطاس فى عدل بنيامين » .

روى : أنه لما بلغت التوبة إلى وعاء بنيامين ؛ قال يوسف : ما أظن هذا أخذ شيئا ؛ فقالوا : والله لا تتركه حتى تنظر فى رحله ؛ فإنه أطيب لنفسك ، وأنفسنا ؛ ففعل^(١) .

ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ . ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين ؛ فأخذه يوسف بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزامهم إلزاما لهم بما يعتقدونه .

كَذَلِكَ كَذَّبَ يُوسُفَ . أى : مثل ذلك الكيد والتدبير المحكم كذبا يُوسُفَ . أى : علمناه إياه وأرشدناه إليه ، حتى يصل إلى هدفه بدسّ الصواع فى وعاء بنيامين ؛ واستفتاء إخوته بحكم من وجد الصواع فى وعائه ، وحكمهم بهذا الحكم الذى يدينون به فى شريعتهم .

مَا كَانَ يَأْخُذُ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ . أى : إن شريعة الملك كانت تقتضى عقوبة السارق بعقوبات أخرى كالضرب والتغريم ، وما كان يستطيع أن يحبس أخاه ، ويأخذه من إخوته ؛ ليقيم معه ؛ إذا نُقِذَ دين الملك وأوامره وقوانينه .

إِلَّا أَنْ يَنْشَأَ اللَّهُ . إلا بمشيئة الله وإرادته وعونه ، كما قال يوسف فيما بعد : إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ؛ فهو سبحانه ييسر الأسباب ويرتبها للوصول إلى النهاية التى يريد بها .

نَرْفَعُ دَرَجَتِكَ مِنْ شَأْنٍ وَفُوقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

إذا أراد الله رفعة عبد ؛ سبب له الأسباب ، ويسر له الأمور ؛ كما فعل بيوسف ، حيث جعله على خزانة الأرض ، ويسر له انتقال شقيقه بنيامين إلى جواره .

قال الأستاذ سعيد حوى فى (الأساس فى التفسير) :

« وهذا ثناء ضمنى على يوسف : إذ المعنى : نرفع درجات فى العلم من نشاء كما رفعنا درجة يوسف عليه السلام^(١٧) » اهـ .

وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

فمن سنته سبحانه ومن عطائه ، ومن حكمته : أن يجعل الناس منازل فى العلم ، فما من عالم إلا وفوقه هو أعلم منه ، وأرفع درجة فى العلم ، أو فوق العلماء جميعا ، عَلِيمٌ . هم دونه فى العلم ، قال تعالى: وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (البقرة: ٢١٦) .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ (٧٧)

المضردات :

شَرُّ مَكَانٍ : أسوأ مكانة ومنزلة .

والله أعلم بما تصفون ، والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون من صدور السرقة عن أخيه .

التفسير :

٧٧ - قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ...

أى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء ، عندما شاهدوا صواع الملك يُستخرج من وعاء بنيامين : إننا براء من السرقة : فوالدنا نبى وجدنا نبى ، أما إذا سرق بنيامين : فهذا لأنّه من أم أخرى غير أمنا ، وقد سرق أخ شقيق له من قبل . واختلف المفسرون فى السرقة التى اتهموا يوسف بها .

جاء فى تفسير أبى السعود :

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ . يعنون بنيامين فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . يريدون به يوسف عليه السلام ، وما جرى عليه من جهة عمته على ما قبل من : أنها كانت تحضنه فلما شب : أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها ، وكانت لا تبصر عنه ساعة ، وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها إسحاق عليه السلام : فاحتالت لاستيقاظ يوسف عليه السلام ، فعمدت إلى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق

عليه السلام ، فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لى سليم ، أفعل به ما أشاء ، فخلّاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت .

وقيل : كان أخذ فى صباه صنما لأبى أمه فكسره وألقاه فى الجيف ، وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفننه . ا . هـ .^(١٦)

فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ..

أى : فأخفى يوسف فى نفسه هذه الغربة التى افتروها عليه ، ولم يظهرها لهم أنها غربة ! كتماننا لأمره ، مع أنه سمع من إخوته وعرف أنه هو المقصود بنسبة السرقة إليه ، فيوسف لم يسرق حقا ، وإنما سُرِق ثم قال يوسف فى نفسه عن إخوته : أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا . أنتم أسوأ موضعا ومنزلا ، ممن نسبتموه إلى السرقة وهو برئ ! فأنتم الذين ألقيتم يوسف فى الجب ! وأنتم أشبه بمن سرقنى من أبى ، ثم عاد إليه ، فادعى : أن الذئب قد أكله كذبا وبهتانًا .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ .

أى : الله أعلم منى ومنكم بما تَصِفُونَ به غيركم من الأوصاف التى يخالفها الحق ، ولا يؤيدها الواقع .

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُمْ

المضردات :

معاذ الله : المعاذ ، والعياذ ، والعوذ بمعنى : الالتجاء . وقد يقصد منها التبرؤ كما هنا . فمعاذ الله هنا بمعنى نبرأ إلى الله .

متاعا ، المتاع ما ينتفع به إلى حين . والمقصود منه هنا : صواع الملك .

التفسير :

٧٨ - قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ... الآية .

أى : قال إخوة يوسف له على سبيل الاستعطاف : يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ، إن لبنيامين أبًا شيخًا طاعنا فى

السن، لا يستطيع فراقه ، وهو سواه عن شقيقه المفقود ، فخذ واحداً ممّا مكانه ؛ ليحس عاماً بدلا منه ؛ إنا نراك من الْمُحْسِنِينَ . للنّاس عامة ولينا خاصة .

٧٩ - قَالَ مَعَادُ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْهُ إِنَّا إِذَا نَظْلِمُونَ .

أى : قال يوسف : أستعيز بالله - معاذاً - من أن نأخذ فى جريمة السرقة إلا الشخص الذى وجدنا صواع الملك عنده وهو بنيامين ، وأنتم الذين أفنتيم : أن السارق عندهم عقوبته استرقاقه لمدة عام ؛ فنحن نسير فى هذا الحكم تبعاً لشريعتكم .

إِنَّا إِذَا نَظْلِمُونَ ؛ إذا أخذنا شخصا آخر غير الذى وجد صواع الملك عنده ، والظلم تأباه شريعتكم ، كما تأباه شريعتنا.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبْنَى أَوْ يَخُوكُمُ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُ ابْنِكِ أَبْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

استيسسوا منه : يتسوا منه أشد اليأس .

خلصوا نجيا : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أى : متسارين ، والنجى من يتحدث معه سرا ، واحداً أو أكثر ، والنجوى : السر .

القرية التى كنا فيها ، هى مصر والمراد بها : أهلها .

والعير ، وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

٨٠ - فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ...

أى : فلما يئسوا من يوسف ومن استجابته لطلبهم : انفردوا متناجين فيما بينهم ، وأخذوا يقلبون الآراء ظهراً لبطن ، ويتدبرون شئونهم كيف يلقون أباهم ، وكيف يخبرونه بالحادث ، وكيف يصنعون فى هذه المشكلة ، لقد عبر القرآن عن هذه الأمور الكثيرة بعبارة موجزة هى : خَلَصُوا نَجِيًّا .^(١٣)

قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ .

قيل : هوروبيل وهو أكبرهم سنًا ، وقيل : شمعون : لأنه رئيسهم والرأس المدبر لهم^(١٤) ، وقيل : يهوذا . والاستفهام هنا للتقرير ، أى : لقد علمتم علما يقينا بعهد أبيكم عليكم بشأن بنيامين ، وعلمتم علما يقينا بتفريطكم فى يوسف .

أى : فبأى وجه ترجعون إلى أبيكم وليس معكم أخوكم بنيامين .

فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ . أَرْضَ مِصْرَ .

حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي . بمفارقتها والخروج منها .

أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى . بمفارقتها والخروج منها .

وقيل : أو يحكم الله لى بالنصر على من أخذ أخى فأحاربه وأخذ أخى منه ، وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل .

٨١ - ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَسْأَلَانَا إِنْ أَتَيْتَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا .

أى : ارجعوا من مصر إلى أبيكم بالشام ، وتلففوا فى إخباره بأمر بنيامين ، فقولوا : يا أبانا ، إن ابنك سرق صواع الملك ، ووضعه فى رحله .

وَقُرِئَ : سُرِّقَ أى : نسب إلى السرقة ، وَمَا شَهِدْنَا عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا من وجود الصاع فى رحله .

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَفِظِينَ .

أى : وما كنا حين أعطيناك الموثق ، نعلم أنه سيسرق أو أننا سنلاقي هذا الأمر ، أو أنك تصاب به كما أصبت بيوسف .

٨٢ - وَسَّئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

أى : إذا شئت التثبت من صدق كلامنا ؛ فأرسل إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كنا معهم ،
واسألهم عن ذلك .

واسأل أصحاب القافلة التى رجعنا فيها إلى بلادنا .

قيل : وكانوا قوما معروفين من جيران يعقوب عليه السلام ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فيما أخبرناك به ؛ فكن
واثقا من صدقنا .

وهكذا صوّرت السورة ما دار بين يوسف وإخوته بأسلوب حافل بالإثارة والمحاورة ، والأخذ والرد ...
فماذا كان بعد ذلك ؟ لقد كان بعد ذلك أن عاد الإخوة إلى أبيهم ، وأخبروه خبرهم ، ثم ذكر القرآن الكريم
جوابه عليهم .

★ ★ ★

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا
إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَكُنْ أَشْقَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبِیْضَتِ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿ (٨٤) ﴾

المفردات :

ســـــــــــــــــوّلت ، زينت وسهلت .

فصبر جميل ، هو الذى لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد .

ياأسفى على يوسف ، الألف فى أسفى بدلا من ياء المتكلم ؛ للتخفيف ، والأصل : يا أسفى بكسر الفاء ، والأسف :
أشدّ الحزن على ما فات .

فهو كظيم ، فهو مملوء القلب غيظا ، لكنه لا يظهر . وقيل : مملوء القلب حزنا ممسك له لا يبيديه من
كَلَمَ السَّقَاءَ ؛ إذا شدّه بعد ملئه . فهو فَعِيل بمعنى : مفعول .

وابيضت عيناه ، أصابتها غشاوة بيضاء .

التفسير:

٨٣ - قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ ...

أى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، فأخبروا أباهم بالقصة فقال لهم : بل زينت لكم أنفسكم أمرا أنتم أردتموه : فصبري على ما قلتم صبر جميل ، لا جزع ولا شكوى منه إلا إلى الله تعالى .

وهذا الجواب يشبه جواب يعقوب بأبنائه ، حين جاءوا أباهم يبكون ، وادعوا : أن الذنب أكل يوسف ؛ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِّرْ جَمِيلٌ ...

لقد كان إخوة يوسف متهمين عندما أبعادوا يوسف ، وادعوا : أن الذنب قد أكله ، وكانوا صادقين فى حق بنيامين .

لكن حديثهم عن بنيامين نكأ الجرح القديم ، بشأن يوسف فأجابهم الأب جواب المتشكك فى براءتهم ؛ فقد سبق أن فجعوه فى يوسف ، بعد أن عاهدوه على المحافظة عليه .

وجاء فى تفسير أبى السعود :

بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا . يريد يعقوب بذلك فتياهم : بأخذ السارق بسرقة : فإن هذا الحكم ليس من قوانين مصر ، وإنما هو من قوانين ديانة يعقوب وحدها .

ثم لجأ يعقوب إلى الله تعالى مستعينا به ، راجيا أن يجمع شمله بأبنائه جميعا فقال :

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

أى : لعل الله أن يجمع شملنى بأبنائى ويرد على يوسف ، وبنيامين ، وروبيل الذى تخلف فى مصر ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . إنه هو الواسع العلم الذى يبتلى بحكمة ويرفع البلاء بحكمة ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدة المستحكمة فرجا ، وبعد العسر يسرا .

٨٤ - وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاسَافَى عَلَى يَوْسُفَ ...

أى : أعرض يعقوب عن أولاده ؛ كارهيا لحديثهم عن بنيامين ، وتخلفه محبوسا فى مصر ، ثم جددت هذه المصيبة أحزانه القديمة فقال :

يَاسَافَى عَلَى يَوْسُفَ . أى : يا شدة حزنى وحسرتى على غياب يوسف وبعده عنى !

وَأَيَّسْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ .

أى : أصابت عيناه سحابة بيضاء من كثرة البكاء والحزن على يوسف ؛ فهو مملوء من الحزن على أولاده الغائبين ، ومملوء من الغيظ من أولاده الحاضرين .

قال تعالى : وَالْكَاطِمِينَ أَلْغَيْطُ . أى : يمسكونه فلا يشتد غضبهم وإيذاؤهم ؛ فيعقوب مع شدة حزنه وأسفه يكتم حزنه عن الناس ، ولا يبوح به لأولاده .

وقد جاء فى كتب التفسير تساؤل مفاده ما يأتى :

كيف جاز لنبي الله يعقوب أن يشتد حزنه إلى هذه الدرجة .

والجواب : أن الحزن على المفقود فطرة بشرية ، والممنوع : هو الهلع والجزع والصياح ولطم الخدود ، أو شق الجيوب ، أو إعادة دعوى الجاهلية ، وقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »^(١٤) رواه الشيخان .

وعن الحسن : أنه بكى على ولده ؛ فقليل له فى ذلك ؛ فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب .

وفى تفسير الكشاف :

أنه قيل له عليه الصلاة والسلام : تبكى وقد نهيتنا عن البكاء ! قال : « ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح »^(١٥) .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتُلُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾^(٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

المفردات ،

تالله ، أى : والله ! فالتاء حرف يستعمل فى القسم بالله خاصة .

تقتلوا ، أى : ما زلت .

قال الكسائى : قَتَأْتُ وَقَتَيْتُ أى : ما زلت ، وقال الفراء : إن الكلام هنا بتقدير (لا) أى : (لَا تَقْتُلُوا) . وكثيرا

ما تضرع (لا) فى جواب القسم كما فى قول امرئ القيس : فقلت :

يمين الله أبرح قاعداً ولو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

أى : بحق الله لا أبرح ، وهو رأى الخليل وسيبويه ، وعَلَّلُوا جِوَارَ ذلك : بأنه لا يلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات ؛ لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَأَلَّهْ لَأَفْعَلَنَّ كذا .

حرضاً ، الحرض لُغَةً : فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم ؛ كما قال أبو عبيد وغيره .

بئس ، البئ : المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير:

٨٥ - قَالُوا تَأَلَّهْ تَفْئُزْ تَذْكُرْ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرْصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَلِكِينَ ...

أى : قال أبناء يعقوب له بعد أن سمعوه يردد الأسف على فقد يوسف : يا أبانا ، لا تزال تذكر يوسف بهذا الحنين الجارف ، والحزن المُضْنِي ، حتى تكون حَرْصًا . أى : مريضاً ضعيف القوة .

أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَلِكِينَ . أو يصيبك الموت فعلاً ؛ فأنت إما أن تقارب الموت ضعفاً وهزالاً ، أو تموت بالفعل . وقد قالوا ذلك ؛ رقة له وشفقة عليه ورأفة به .

قال النسفى : ويجوز للنبي أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؛ لأن الإنسان مجبول على ألا يملك نفسه عند الحزن ؛ ولذلك حُمد صبره .

٨٦ - قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .

أى : قال يعقوب رداً على أولاده : إنى لا أشكو أحزاني إليكم ، ولا إلى غيركم من الناس ؛ وإنما أناجى ربى وأناديه ، وألجأ إليه فى شدتى ؛ أشكو إليه ما أعانى من اللوعة والحرقه ؛ لغياب يوسف ثم إخوته .

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : عودنى ربى الرحمة واللفظ والإجابة والأمل ؛ فلا أيتس من رحمته ، وأتوقع لطفه وفضله ، وأستشف إلى معونته وكرمه .

ويجوز أن يعقوب عرف فى منامه ، أو ألهمه الله : أن يوسف حى يرزق ؛ فزاد أمله فى ذلك .

روى : أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟؟ فقال : لا والله ، هو حى فاطلبه .

وقال ابن عباس :

وَأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . هي رؤيا يوسف ، أي : قال يعقوب : أعلم أن رؤيا يوسف صدق وأن الله لا بد أن يظهرها ، وهذا يقتضى حياة يوسف ، وتفوقه ، وعلو شأنه ؛ حتى يسجد له إخوته .

★ ★ ★

﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

المضردات :

فتحسسوا : التحسس : طلب معرفة الشيء بالحواس .

ولا تأتسوا من روح الله ، ولا تقنطوا من رحمته التي يحيي بها العباد .

التفسير :

٨٧ - يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

طلب يعقوب من أولاده أن يذهبوا إلى أرض مصر ، جادين فى البحث عن يوسف وبنيامين ، مستغلين حواسهم كالسمع والبصر فى تلمس هذه الحقيقة ، والأمل الكبير فى الله أن يوصلهم إلى هدفهم ، وأوصاهم : ألا يقنطوا من فرجه سبحانه ، وتنفيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ، ويطمئن به القلب .

إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ .

إن المؤمن بخير حال : إن أصابته ضراء : صبر ؛ فكان خيرا له ، وإن أصابته نعماء : شكر ؛ فكان خيرا له ؛ فالؤمن دائما واثق من فضل الله ورحمته ورضوانه ، واثق بأن بعد العسر يسرا وأن من يتق الله ؛ يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

أما إذا يئس الإنسان من قدرة الله على كشف كربه ، أو شك فى قدرته على ذلك ؛ فهذا هو اليأس من روح الله وفضله والطفاه ، وهو كافر بقدرة ربه ؛ ولذلك فإن المنتحر يئس من الفرج ، وهو يقتل نفسه ليذهب بها إلى النار .

وفى الحديث «الذى يقتل نفسه ؛ يقتلها فى النار» .

وقال ﷺ: «من تحسنى سماً فهلك، فسمه في يده يتحساه إلى يوم القيامة، ومن وجأ بطنه بحديدة؛ فحديده في يده يجأ بها بطنه إلى يوم القيامة، ومن تردى من فوق جبل فهلك؛ فهو يتردى من فوق الجبل إلى يوم القيامة...».

واستدل بالآية جمع من العلماء؛ على أن اليأس من رحمة الله كفر!

والجمهور: على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر، اللهم إلا إذا اقترن بذلك ما يدل على نسبه تعالى إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب، وأياً ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى! وصية يعقوب عليه السلام لبنيه في الآية الكريمة درس من دروس النبوة في شحذ الهمم وتربية العزائم^(١٧).

★ ★ ★

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفُ وَأَخِيهِ إِذْ أَتَمَرَجَهُلُوكَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّا لَنُؤَسِّفُكَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

المفردات:

وجئنا ببضاعة مزجاة: المراد من البضاعة هنا: الثمن، والمزجاة: المدفوعة التي يردها من يراها لرداءتها من أزوجته: إذا بدفعتها، والريح تزجي السحاب: تسوقه وتدفعه. وقال ثعلب: البضاعة المزجاة: الناقصة غير التامة. اهـ. ومن معانيها: القليلة كما ذكره صاحب القاموس، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا.

التفسير:

٨٨ - فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ...

استجاب أبناء يعقوب لتوجيه أبيهم: فعادوا إلى مصر للمرة الثالثة، ودخلوا على يوسف فأظهروا أمامه ما أصابهم من ضرر وحاجة: تحريكا لعطفه، وكان أبوهم يرجح أن هذا العزيز هو يوسف، فلما أخبروه بحالهم: رقى لهم رقة شديدة.

جاء في تفسير أبي السعود :

قَالُوا يَتَّيِبُهَا الْعَزِيزُ . أَيْ : الملك القادر الممتنع .

مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ . الهزال من شدة الجوع .

وَجِئْنَا بِبَضْعَةٍ مُزَجَّلَةٍ . مدفوعة يدفعها كل تاجر ؛ رغبة عنها واحتقاراً لها .

قيل : كانت بضاعتهم من متاع الأعراب صوفاً وسمناً ، وقيل : دراهم زيوفا ؛ لا تقبل إلاً بوضيعة .

وإنما قدموا ذلك ؛ ليكون ذريعة إلى إسعاف مراميههم ؛ ببعث الشفقة ، وهو العطف ، والرأفة ، وتحريك سلسلة الرحمة .

فَأَوْفَ لَنَا الْكَفِيلَ . أَيْ : أتممه لنا ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا : بردُ أخينا إلينا ، أو المراد بالتصدق : زيادة يزيدنا لهم على ما يقابل بضاعتهم ، أو بالإغماض عن رداءة البضاعة التي جاءوا بها ^(٨٨) .

إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ . فيخلف عليهم ما ينفقون ، ويضاعف الأجر لهم .

٨٩ - قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ .

تأثر يوسف بما تكلم به إخوته ، وأراد أن يرشدهم إلى طريق التوبة فقال لهم : ما أعظم ما فعلتم بيوسف وأخيه في حال جهلكم بحقوق إخوتكم عليكم ، وبعاقة البغي والعقوق . وقد يكون المراد من الجهل : الطيش والنزق واتباع الهوى ، وطاعة الحسد والأثرة .

وقد قال لهم هذه المقالة : تمهيداً لتعريفهم بنفسه ، بعد أن بلغ الكتاب أجله .

وكان يوسف أراد أن يرشدهم إلى عظم ما اقترفوا في حق يوسف وأخيه ، في حال جهلهم ، ليتنبهوا إلى التوبة إلى الله تعالى مما فعلوا ؛ لأن معرفة الإنسان بقبح الذنب يجره إلى الندم والتوبة منه .

فكان كلامه شفقة عليهم ، وتنصيحاً لهم في الدين ؛ لا معاتبة وتثريباً ؛ إيثاراً لحق الله على نفسه ^(٨٩) . في ذلك المقام الذي يتنفس فيه المكروب ، فله تعالى هذا الخلق النبوي الكريم .

وكان سؤاله إياهم ، سؤال العارف بأمرهم من البداية إلى النهاية ، مصدقاً لما أوحاه الله إليه ، حين ألغوه في غيابة الجب من قوله : وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (يوسف : ١٥) .

٩٠ - قَالُوا أَأَتَيْنَكَ لَأَتَّيْنَنَّكَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَلْذَا أَخِي ...

أى : قالوا : من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف ، وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر ، وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكتم نفسه .

قَالَ أَنَا يُوسُفُ . الذى يتحدثون عنه والذى فعلتم به ما فعلتم ، وَهَلْذَا أَخِي بنيامين قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ؛ فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وأنسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به وبذل أحوالنا من عسر إلى يسر ، ومن ضيق إلى فرج .

إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ .

أى : من يتق الله راجياً رحمته ، خائفاً من غضبه ، عاملاً فى مرضاته .

وَيَصْبِرْ . على قضائه وقدره ، وأداء طاعته وتجنب معاصيه .

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

أى : فإن الله تعالى يرحمه برحمته ويكرمه بكرمه : لأن من سنة الله التى لا تتخلف أنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ . (الرحمان : ٦٠) .

وقال سبحانه : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ . (الأعراف : ٥٦) .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيْبُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِمَاصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِهِ يَأْتِ بِصَبْرٍ وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩٣)

المفردات :

تالله : أى : والله ! وتقديم قريباً : أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

أشرك : اختارك وفضلك .

لخاطئين ، لمذنبين متعمدين .

لا تثريب عليكم ، لا لوم عليكم ولا تأنيب ، يقال : ثَرَبَهُ ، يَثْرِبُهُ ، وَثْرُهُ ؛ إِذَا بَكَّتْهُ بِفَعْلِهِ وَعُدَّ عَلَيْهِ ذَنْبُوهُ .

التفسير :

٩١ - قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ .

أحسنُ إخوة يوسف بالندم والأسف على ما فعلوه به ؛ فقالوا له : والله لقد فضلك الله علينا بالعلم والحلم ، والفضل والعزة ، وقد كنا متعمدين الخطأ حين ألقيناك فى الجب قديمًا ، وحين اتهمناك بالسرقة حديثًا ؛ ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأغناك وأفقرنا ، ونرجو منك الصفح والعفو .

٩٢ - قَالَ لَا تَقْرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ...

أى : لا تقرب ولا تأنيب ثابت أو مستقر عليكم اليوم ، عفا عنهم عفوا تاما ؛ لا مؤاخذه معه ، وهذا هو الصفح الجميل ، ثم دعا لهم ؛ بمغفرة الله تعالى فقال :

يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

أى : يغفر الله لكم عن ذنبيكم وظلمكم ويستتره عليكم ؛ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب بالقبول . وقد تمثل رسول الله ﷺ بهذه الآية عند فتح مكة ؛ فصصح عن أهلها ، ثم قرأ هذه الآية .

نبذة من تفسير أبى السعود

«كان يوسف عليه السلام يدعو إخوته إلى الطعام ، بكرة وعشيا ؛ فقالوا له : إنا نستحي منك بما فرط منك فبك ؛ فقال يوسف : إن أهل مصر وإن ملكك فيهم ، كانوا ينظرون إلى الباعين الأولى ، ويقولون : سبحان من بلّغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلّغ ، ولقد شرفت بكم الآن ، وعظمت فى العيون ؛ حيث علم الناس أنكم إخوتى ، وأنى من حفدة إبراهيم عليه الصلاة والسلام^(١) .

٩٣ - أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

علم يوسف بطريق الوحى ، أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد ؛ فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه حينئذ ، أو بقميص فى يده أحضره لهذا الغرض ، وأخبرهم : أن أباه سيعود بصيرا ؛ بذهاب حزنه ، وسروره بعودة يوسف ، ولعل الله ألهمه ذلك أو أوحى إليه .

وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : الرجال والنساء والذرية والخدم وغيرهم ، وقد روى : أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامرأة وولداً ، دعاهم يوسف للإقامة فى جواره آمنين .

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ ﴿٩٥﴾﴾

المضردات :

فصلت العير ، خرجت القافلة ، يقال : فصل من البلد ، يفصل فصولاً ؛ إذا انفصل منه وجاوز حيطانه .
تفندون ، تنسبوننى إلى الفند وهو الخرفُ وفساد العقل من الهرم والشيخوخة ، وفى معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسْفِهون .
ضلالك ، ذهابك عن الصواب ويعدك عنه .

التفسير :

٩٤ - وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ .

تحركت القافلة من إخوة يوسف ؛ متجهة من أرض مصر إلى العريش ، فى طريقها إلى بيت المقدس ، وحين جاوزت العريش ، وانفصلت عن حدود مصر ؛ تحركت الريح فحملت رائحة القميص إلى أنف يعقوب ، وبينهما ثمانون فرسخاً أو ثمانية أيام ؛ وأحس يعقوب رائحة القميص ؛ فقال لمن حوله : إني أتنسم الآن رائحة يوسف ، وأثق بوجوده ، وقرب لقائه ، ولولا أن تنسبوننى لى ضعف العقل والتخريف ؛ لقلت لكم : إن لقائى بيوسف قد اقترب .

وبعض المفسرين نسب ذلك إلى شدة إحساس يعقوب بولده ؛ فتذكر رائحة قميصه وهو صغير ، أو هو سر من أسرار الروح التى تستشعر عن بعد ما يحدث مع وجود مسافات شاسعة بين الروح وبين الأمر الذى تشعر به .
وفسر آخرون الأمر على أنه : معجزة إلهية لنبي الله يعقوب عليه السلام .

قال الإمام مالك - رحمه الله - أوصل الله تعالى ريح قميص يوسف ليعقوب ، كما أوصل عرش بلقيس إلى سليمان ، قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه .

«وعموماً : علينا التسليم بما أخبره القرآن الكريم وهو حق وصدق ، دون البحث في كنهه أو صفته ما دام ذلك داخلًا في حيز الإيمان»^(٣١) .

والمعجزة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة : تصديقًا له في دعواه ، فيعقوب رسول كريم يسر الله له معرفة الواقع وهو اقتراب القميص ، واقتراب لقاء يوسف عليه السلام .

٩٥ - قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلٰلِكَ اَلْبَعِيدِ .

قال الحاضرون حول يعقوب من أحفاده : والله إنك لا تزال في ضلالك القديم : من حب يوسف ، والإغراق في محبته ، والاعتقاد بأنه حي برزق ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۚ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

التفسير :

٩٦ - فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ...

جاء إخوة يوسف من أرض مصر إلى أرض كنعان ببلاد الشام ، وكان يهوذا هو حامل القميص : أراد أن يبشّر أباه بيوسف ؛ تكفيراً عن ذنبه ؛ لأنه هو الذى حمل قميصه الملطخ بدم كذب ، وألقى يهوذا القميص على وجه يعقوب ؛ فعاد إلى يعقوب بصره ، كأن لم يكن به ضعف أو مرض قبل ذلك .

وعودة البصر إلى يعقوب معجزة إلهية ، وكان إلقاء القميص سبباً ظاهرياً : أعاد إلى يعقوب الفرح والسرور ، والفرح والسرور آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

من تفسير المراغى

قال الدكتور / عبد العزيز إسماعيل باشا :

لا تتحسن أمراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين ، أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه : العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب ؛ بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ؛ فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء ، وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة

عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست في النتيجة فحسب ، ولكن في طريق الشفاء ، وما أعظم إعجاز القرآن ، الذي وصف حالة مرضية خاصة وبيّن سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئاً عن هذا المرض في ذلك الوقت ، ولا بعده بزمان طويل . اهـ .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : قال يعقوب لأولاده : ألم أقُل لكم حين أرسلتكم إلى مصر ، وقلت لكم : اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ونهيتكم عن اليأس من فضل الله وفرجه .

إِنِّي أَغْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . أى : أعلم بوحى الله وإلهامه ؛ لا من خطرات الأوهام ، مَا لَا تَعْلَمُونَ من حياة يوسف .

★ ★ ★

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

التفسير :

٩٧ - قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ...

طلب أولاد يعقوب من أبيهم : أن يستغفر لهم الله ؛ لأنهم أتوا جرماً عظيماً ؛ ترتب عليه آثار نفسية وصحية ؛ لذلك قالوا :

إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ . أى : متعمدين للجريمة فى إبعاد يوسف ، وادعاء : أن الذنب قد أكله .

من هدى السنة

روى البخارى فى صحيحه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ؛ فليتحلله منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم . إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ؛ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه» (١٣) .

وهذا الحديث يرشد المسلم إذا خطأ ؛ أن يطلب الصفح ممن أساء إليه ؛ بأن يستسحبه ، أو يوصل إليه من الهدايا أو الخدمات ما يكافئ مظلمته ، وعندما أحس إخوة يوسف بخطئهم ؛ طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم .

٩٨ - قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ...

أى : سوف أتضرع إلى ربى ؛ لكى يغفر لكم ذنوبكم .

إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

إنه سبحانه كثير المغفرة ، كثير الرحمة لمن شاء أن يغفر له ، ويرحمه من عباده .

قال الزجاج : أراد يعقوب أن يستغفر لهم فى وقت السحر ؛ لأنه أخلق بإجابة الدعاء ، ولم يعجل بالدعاء ؛ لعظيم جريمتهم . فأراد أن يخلص الله الدعاء ، ويتحرى ساعة الإجابة ؛ شفقة على أولاده لعل الله أن يتجاوز عنهم .

وقد روى : عن ابن عباس : أن يعقوب عليه السلام أخر الدعاء إلى السحر ؛ لأن الدعاء فيه مستجاب وروى عنه أيضاً : أنه أخره إلى ليلة الجمعة . وفى رواية : عن طاووس : سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك فى حديث طويل رواه الترمذى وحسنه عن ابن عباس يرفعه إلى النبى ﷺ .

ويذكر المفسرون هنا : مقارنة بين موقف يوسف ، وموقف يعقوب ؛ فيوسف رد على إخوته فى الحال قائلاً : لَا تَرْيِبْ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ؛ لأنه موقف ملكٍ قادر ، أراد أن يطمئن إخوته ؛ حتى لا يستبد بهم جزع أو هلع .

أما يعقوب فهو أب حكيم ، أراد أن يؤخر الاستغفار ؛ حتى تصدق توبتهم ، ويعظم ندمهم ، وهو أسلوب مناسب فى التربية .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (٩٩)

المفردات :

آوى إليه أبويه ، ضمهما إليه .

التفسير :

٩٩ - فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ...

طوى القرآن الكريم ما دل عليه السياق ، وهو أن إخوة يوسف بلغوا أباهم وسائر أهلهم ، أن يأتوا إليه جميعاً ؛ ليقبضوا معه ؛ استجابة لطلبه ؛ لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ . اسْتَقْبَلَهُمْ اسْتِقْبَالاً كَرِيماً .

عَاوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ . أى : أباه وأمه ، وقيل : أراد أباه وخالته ، وكان أبوه قد تزوجها ؛ بعد وفاة أمه ، والخالدة بمنزلة الأم ، كما أن العم بمنزلة الأب .

قيل : إن يوسف قد خرج لاستقبالهم فى الطريق ، فى جمع حافل ؛ احتفاء بهم ، ثم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامِينَ .

أى : وقال لهم : ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ؛ فإن سنى القحط كانت لا تزال باقية ، ولا غرابة فى هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ؛ فهو كريم من سلالة رسل كرماء .

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم» (٣٣) .

وتعليق دخولهم مصر آمنين بالمشيئة الإلهية ؛ للتيمن والتبرك ، وللتبرق من حوله وقوته إلى حوله تعالى ومشيتته وفضله العظيم .

★ ★ ★

﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِيَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ لِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

المفردات :

العرش : سرير الملك .

البدو : البادية . وأصل البدو : الميسوط من الأرض ، سمي بذلك ؛ لأن ما فيه يبدو للناظر ؛ لعدم ما يواريه .

نزع : أفسد وأغرى . وأصله : من نزع الرائض الدابة ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير:

١٠٠ - وَرَفَعَ أَبُوتَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ...

أى: أصعد أبويه على السرير الذى يجلس عليه ؛ لتدبير أمور الملك ؛ تكرامة لهما ؛ زيادة عما فعله بإخوته .

وَعَرُّوا لَهُ سُجَّدًا .

أى: أموى أبواه وإخوته ساجدين له ؛ سجود تحية لا سجود عبادة .

قال القرطبي : وأجمع المفسرون : أن ذلك السجود على أى وجه كان ؛ فإنما كان تحية لا عبادة ، وعلى إثر هذا السجود : ذكر يوسف أباه برؤياه فى صباه .

وَقَالَ يَتْلَأَتَبِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ . أى : هذا السجود منكم هو العاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا . أى : أمراً واقعاً لا ريب فيه ، وقد رأيتموه الآن رأى العين ؛ فإخوتى مثال الكواكب الأحد عشر ، وأبى وأمى مثال الشمس والقمر .

وَقَدْ أَحْسَنَ بِي . رضى إحساناً عظيماً .

إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ . معزراً مكرماً إلى عرش الملك والسيادة .

ولم يذكر نعمة خروجه من الحب ؛ حتى لا يجرح شعور إخوته .

وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ . معطوف على ما قبله ؛ تعديداً لنعم الله عليه . أى : وقد أحسن بى رضى حيث أخرجنى من السجن ، وأحسن بى أيضاً ؛ حيث يسر لى جمع الشمل ، وقدم أسرتى من البادية ، وشطف العيش إلى الحاضرة ؛ حيث تعيش فى رغد واستقرار وأمان .

قال الزمخشري : كانوا أصحاب خيام ومواش يتنقلون فى الحياة والمناجى . ١ هـ .

مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي .

أى : أفسد بيننا ، وحمل بعضنا على بعض . أحوال يوسف ذنب إخوته على الشيطان ؛ تكرماً منه وتأديباً .

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ .

أى : لطيف التدبير لما يشاؤه ، حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمراً ؛ هياً له أسبابه وقدره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزج فى غيابات السجن ، ثم إلى السيادة والملك .

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ . بمصالح عباده ؛ فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، الْحَكِيمُ . الذى يجعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ؛ فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العقاب للمعتقين .

★ ★ ★

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِ بِالصَّالِحِينَ ﴾ (١٠١)

المفردات :

تأويل الأحاديث ، تفسير ما غمض منها . والمراد هنا : تفسير الأحلام .

فاطر السماوات والأرض ، خالقهما على غير مثال سابق .

وليى : ناصرى ومعينى .

التفسير :

أنعم الله تعالى على يوسف بالعديد من النعم ، وجعل له من كل شدة فرجاً ، ومن كل هم مخرجاً .

من ذلك : إلقاؤه فى الجب ، تعلق زليخا به ، دخوله السجن .

ثم نجاه الله من السجن ، وجعله على خزائن الأرض ؛ فاتجه إلى ربه تعالى بالدعاء قائلاً :

١٠١ - رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ...

أى : يا إلهى يا خالق السماوات والأرض ، قد أعطيتنى من الملك التنفيذى الفعلى ، وإن الاسم لغيرى ، إلا أن التنفيذ الفعلى فى الأمور صار بتوجيهى وعلمى ، وعلمتنى تفسير الرؤيا ، وشرح الأحلام الغامضة ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

يا خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق : فكان الكون كله على هذا النحو البديع المتكامل ،
بما فيه من سماء وأرض وجبال وبحار وهواء وشمس وقمر ؛ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٤٠) .

إنك متولى أموري ومتكفل بها ، أو أنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء .

تَوَفَّى مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّلِحِينَ .

اختم لى حياتى على الإسلام والإيمان ، وثبتنى على الإسلام فى حياتى ، ثم ألحقنى يا رب
بالصالحين من عبادك .

وفى هذه الآية يختم يوسف قصته بدعاء مخلص يرجو ربه أن يثبت على الإيمان والإسلام حتى الموت ،
وأن يكتب له درجة الصلاح ويلحقه بالصالحين من آبائه ، وبالصالحين من المسلمين وفيه دليل على منزلة
الصلاح ، وأنها منزلة يتطلع إليها الأنبياء والمرسلون . قال تعالى : وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ . (ال عمران : ٣٩) .

★ ★ ★

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢)

المفردات :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ : أحكموا تدبيرهم .

يَمْكُرُونَ : يتآمرون ويحتالون .

التفسير :

١٠٢ - ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ .

هذا تعقيب من الحق سبحانه على قصة يوسف عليه السلام ، والتفات إلى رسول الله
محمد ﷺ ؛ يواسيه ويشد أزره فيقول له : هذه قصة يوسف ، من أخبار الوحي والغيب ؛ أعلمناك
بها بطريق الوحي ، وأنت لم تكن مشاهداً لإخوته حين دبّروا أمرهم ، وأحكموا مكروهم على لقائه
فى الحب ، وإبعاده عن أبيه .

وما كان لك علم بما فى هذه القصة من رحلة يوسف إلى مصر ، وفطنة امرأة العزيز به ،
ودخوله السجن ، ثم خروجه من السجن ملكاً عزيزاً متصرفاً ، أى : لم تشاهد شيئاً من قصة يوسف ،
وما كنت تعلمها إلا بطريق الوحي .

شبه الجاحدين على الوحي

ادعى بعض الجاحدين على الوحي: أن محمداً كان شديد الذكاء، قوى الفراسة، له قدرة على التخيل، فصاغ هذا القرآن من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى.

ونقول لهؤلاء:

القرآن فيه أخبار وقصص وردود فى غاية الصدق، وفيه أرقام عن أهل الكهف، وعن بدء الخليقة لا ينفع فيها الذكاء، وفيه إشارة بالغيب فى سورة الروم وغيرها، وفيه معلومات علمية عن الكون والسماء والأرض، لم تصطدم بالعلم، بل كلما تقدم العلم؛ كلما أكد وأيد ما فى كتاب الله.

قال تعالى: سُرِّيهِمْ عَائِنَا فِي الْآفَاقِ وَلَقِيْ اَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ. (فصلت: ٥٣).

ونبى الله محمد لم يكن مصاحباً ليوسف حتى يحكى قصته بهذا الصدق، ولم يكن مصاحباً لموسى، أو لنوح؛ أو لشعيب مع أهل مدين، حتى يحكى قصص هؤلاء بصورة كانت أصلاً لأحكام المورخين.

قال تعالى: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ... (القصص: ٤٦)، وقال سبحانه: وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِىْ أَهْلِ مَدْيَنَ تَطْلُوْا عَلَيْهِمْ عَائِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. (القصص: ٤٥).

وعلاصة هذا: أن الله هو الذى أطلع رسوله على أنباء ما سبق؛ ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودينياهم.

★ ★ ★

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

التفسير:

١٠٣- وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين.

سبب النزول:

جاء فى تفسير الفخر الرازى والآلوسى وغيرهم ما يأتى:-

سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف؛ فنزلت مشروحة شرحا وافيا، فأمل رسول الله ﷺ فى إسلامهم، لكنهم أصرّوا على كفرهم؛ فحزن الرسول ﷺ لذلك؛ فنزلت هذه الآيات لتواسيه.

والعنى : وما أكثر مشركى قومك ، ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ، ويتبعوا ما جنتهم به من عند ربك ، بمصدقك ولا متبعتك ، أو أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس ، لا أهل مكة وحدهم : فعليك أيها الرسول أن تتسلّى عنهم ، وأن تصبر على أذاهم : لأن الهدى هدى الله ، قال تعالى : **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** . (يونس : ٩٩) .

وقال سبحانه : **لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ** . (البقرة : ٢٧٢) ، **فَلَا تَلْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ** . (فاطر : ٨) . **وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ** . (يونس : ٦٥) . **إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ** . (الشورى : ٤٨) .

١٠٤- **وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** .

أى : أنك لا تطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة ، ولا تطلب منهم مالا ولا منفعة ، وإنما تبليغ الرسالة : ابتغاء مرضاة الله : فكان الواجب أن يتأملوا فى ذلك ، وأن يعلموا أنك لا تقصد من وراء تبليغ الرسالة مالا ولا أى مطلب دنيوى ، وإنما تحمل رسالة الله إلى خلقه : لتذكركم بما يجب عليهم نحوه ، وفى قوله تعالى : **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ** . إشارة إلى عموم الرسالة المحمدية وأنها هداية للبشرية جمعاء ، قال تعالى : **وَلَعَلَّكُمْ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ** . (ص : ٨٨) ، فعلا كان لهذا القرآن شأن أى شأن ، فى قيام الدولة ، ونشر الهداية ، وانتصار الحق ، ويلوغ هذا الدين المشارق والمغارب .

★ ★ ★

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

المفردات :

وكاين من آية : وكمن علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر صفاته .

معترضون : منصرفون .

غاشية : كارثة كبرى تغمرهم .

الساعة : القيامة .

بغتة : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير:

١٠٥ - وَكَانَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

كثير من الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته ، وجليل فضله ونعمه ، يمر عليها هؤلاء المشركون فلا يتعظون ولا يتأملون ، فالسما والارض ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنبات والإنسان والحيوان ، وكل ما فى هذا الكون البديع يشهد بقدرة القادر ، وعظمة الصانع ، ولكنهم يشغلهم الإلف والعادة وغشاوة القلب ، فلا يتأملون ولا يتدبرون ، ولا تهتز قلوبهم لبديع صنع الله ، فى شروق الشمس، أو طلوع البدر ، أو هطول المطر، أو حدوث الرعد والبرق ، أو ارتفاع السماء ، ووجود النجوم والمجرات والأفلاك بها ، أو انبساط الأرض ، ووجود البحار والأنهار والجبال والنبات والإنسان والحيوان عليها .

١٠٦ - وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ .

تحذّر هذه الآية من الشرك بجميع أنواعه ، وتدعو إلى الإيمان بالله خالصا نقياً .

والمعنى : وما يؤمن أكثر أهل مكة بالله إلا إيماناً مشوباً بالشرك ؛ من حيث اعتقادهم : أن الأصنام تنفعهم ، أو تقربهم إلى الله زلفى .

قال ابن عباس : هم أهل مكة آمنوا وأشركوا ، وكانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » ، وهذا هو الشرك الأعظم .

وفى الصحيحين : عن ابن مسعود : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟! قال : أن تجعل لله نداً ، وهو خالقك^(٢١) .

وقد بين ابن القيم فى إغاثة اللهفان ، ما خلاصته :

أن الشيطان يزين للناس زيارة القبور ، ويوحى لهم : أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم يسأل أصحاب القبور الشفاعة والوسيلة ، ثم يتخذ القبور عيدا تعلق عليها القناديل والستور ، ويطاف بها ويدبح عندها ، ويحج إليها ، ويعتبر ذلك عبادة ومنسكا ، مع أن دين الإسلام جاء بإخلاص العبادة لله وحده ، والنهى عن جميع مظاهر الشرك^(٢٢) .

١٠٧ - أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ...

تأتى هذه الآية : تهديدا ووعيدا للمشركين : بأن الله قادر أن ينزل عليهم عذابا يغشاهم ويعمهم ، فهل آمنوا أن ينزل الله عليهم صاعقة من العذاب ، مثل : الشهب والنيازك ، أو الزلازل والبراكين ، وكل أسباب الموت؟! .

أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وهل آمنوا أن تأتيهم الساعة فجأة من حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم فيكون جزاؤهم جهنم وينس المصير ، وهذه الآية كقوله تعالى : أَقَامِينَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَقَامِنَا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف: ٩٧-٩٩).

والآيات نداء جهر : أَنْ تَنْبَهُوا ، أفيقوا ، قبل أن تفاجأكم القيامة ، أو قبل أن ينزل بكم عذاب الله ؛ فإنه يأتي فجأة ، ولا يعصمكم منه إلا الإيمان بالله وامتنال أمره ، واجتناب ما نهى عنه ؛

★ ★ ★

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٠٨)

المفردات :

سبيلى : طريقى وطريقتى .

على بصيرة : على يقين ناشئ من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير :

١٠٨ - قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...

أى : قل يا محمد ، لهؤلاء المشركين ، وللناس أجمعين : هذه رسالتى وطريقتى ، والدعوة التى أدعو إليها ، وهى : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - أدعو إليها على يقين وحجة واضحة قاطعة وبرهان. أنا أدعو لهذه الدعوة ، ويدعو إليها كل من آمن بها واتبعنى وآمن بدعوتى وصدق برسالتى ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ . أى : أنا أنزه الله عن أن يكون له شريك ، أو نظير ، أو صاحبة ، أو وزير ، أو مشير ، تقدس الله وتعالى علواً كبيراً .

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فلا أشرك بعبادة الله أى معبود : بل إنى أخلص العبادة لوجهه ، قال تعالى : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . (البينة: ٥) .

★ ★ ★

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

التفسير:

١٠٩- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ...

تهديد :

تختتم سورة يوسف بهذه الآيات الأخيرة من السورة : تعقيباً على سورة يوسف وقصته ، التي هي محل العظة والاعتبار في ألوان متعددة ، منها : إلقاءه في الجب ، ثم صيرورته في بيت العزيز ، ثم تعرضه للفطنة والامتحان ، ونجاحه وسلامته ، ثم إلقاءه في السجن ، وتفسيره للرؤيا ، ثم انتقاله وزيراً مطلق اليد ، ونجاحه في إدارة أمور البلاد ، وتسامحه مع إخوته ، وتعظيمه أبويه ، وأخيراً تحقيق الرؤيا التي رآها يوسف . ومعنى الآية :

إن هؤلاء الرسل الذين أرسلناهم برسالة السماء ، كانوا رجالاً من البشر تميزوا باختيار الله لهم ؛ حمل رسالته : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (الأنعام: ١٢٤) ، كما شرفهم الله بالوحي إليهم ، فلم يكونوا ملائكة ، وإنما كانوا رجالاً في البشر نزل عليهم الوحي ، قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ . (فصلت: ٦) ، وقوله سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ . (الفرقان: ٢٠) .

مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ . أى : من أهل المدن ، والبلاد العامرة الكثيرة المباني ، لا من أهل البادية ؛ فهم في العادة أهل جفاف وغلظة ، على حد قوله تعالى : الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (التوبة: ٩٧) .

جاء في تفسير القاسمي :

والقرى : جمع قرية وهو على ما في (القاموس) : المصر الجامع ، وفي (كفاية المتحفظ) : القرية : كل ما اتصلت به الأبنية ، واتخذ قراراً ، وتقع على المدن وغيرها . اهـ .

قال ابن كثير :

والمراد بالقرى هنا : المدن ، أى : لا أنهم من أهل البوادي الذين هم أجفأ الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعهود المعروف : أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادي ، ولهذا قال تعالى : **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِقَافًا ...** الآية . قال قتادة : إنما كانوا من أهل القرى : لأنهم أعلم وأحلّم من أهل العُمد^(٣٧) .

ونقل عن الحسن أنه قال : « لم يبعث رسول من أهل البادية ولا من النساء ولا من الجن »^(٣٨) .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

أفلم يعتبروا بسنن الله فى الخلق ، ويسيروا فى الأرض بأجسامهم أو بعقولهم وأفكارهم ، فيتأملوا وينظروا : **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .** أى : من المكذبين من أمثال فرعون وهامان وعاد وثمود - كيف أمك الله الكافرين ونجى المؤمنين . والاستفهام هنا : للتقريع والتوبيخ ، وفيه حث على النظر والتدبر والتفكر : ليكون ذلك سبيلا إلى الهداية .

وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : إن العبرة التى يستخلصها العقلاء من وقوفهم على هلاك الظالمين ونجاة المؤمنين : أن الدنيا متاع قليل ، وأن الآخرة هى الحياة الدائمة للذين اتقوا ربهم وتزودوا لهذه الدار بالعمل الصالح .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أفلا تستخدمون عقولكم : فتدركون أن الإيمان أبقى وأنفع ، وفيه تقريع وتوبيخ لهؤلاء المشركين الضالين ، الذى عطلوا عقولهم : فلم يهتدوا بها إلى خير ، ولم يتعرفوا بها على حق ، وذلك هو الخسران المبين .

★ ★ ★

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرِدُ بِأَسْنَانِ الْقَوْمِ الْمَجْرِمِينَ ﴾

المضردات :

استيشس الرسل ، أغرقوا فى اليأس والقنوط .

وظنوا أنهم قد كذبوا ، أى : رجح عندهم أن نفوسهم حدثتهم بالنصر ، وكانت كاذبة فى حديثها .

بأسنا، عذابنا .

التفسير:

١١٠ - حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ لَا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمَجرِمينَ .

فى هذه الآية بشارة بالنصر مهما طال جهاد المرسلين ، ومهما تعاقبت ظلمات من طول الجهاد وتأخر النصر ، حتى وصلت النفوس إلى لحظات من الشك فى النصر ، وهذه كناية عن المرحلة الحرجة التى تطيف بالنفوس ، عندما يطول ليل الظلام ، وتتأخر بوارق النصر ؛ فيتسرب اليأس إلى النفوس ، وتطيف بها لحظات من اليأس ، أو ضعف الأمل فى اقتراب النصر ، عبر عنه بقبوله .

وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا . أى : كذبتهم نفوسهم ، حيث استيقنت بالنصر وتأمّلت طويلا حدوثه أو تأخر النصر بسبب من جهة أنفسهم ، وظنّت الرسل أنهم قد كذبوا ، حين وعدوا بالنصر ، وتأخر النصر حتى ظنّوا أن تقصيرا وقع منهم تسبب فى تأخير النصر .

جاء فى التفسير القرآنى للقرآن :

« وهكذا يظل الرُّسل فى متلاطم الشدائد والمحن ، حتى لقد يدخل اليأس عليهم ، وتخيم الحياة فى أعينهم ، ويغمّ عليهم طريق النجاة ، ويخيل إليهم أن النصر أبعد ما يكون منهم ؛ عندئذ تهب ريح النصر ، وتطلع عليهم تباشير الصباح ، فتطوى جحافل الظلام وتطارد فلوله ، وإذا دولة الباطل قد ذهبت ، وإذا راية الحق قد علت ، وفى هذا تسلية للنبي الكريم ، وشحن لعزيمته ، قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١) .

وليس فى استيئاس الرسل ، وفى إطفاء الظنون بهم - ليس فى هذا ما ينقص من قدر الرسل ، فهم على يقين راسخ بما وعدهم الله به .

ولكن هناك مواقف حادة من الضيق ، وأحوال بالغة من الشدة تأخذ على الإنسان تقديره وتدبيره ، عندئذ وللحظة عابرة عبور الطيف ، يخون الإنسان يقينه ، ويغفل منه زمام أمره ، ثم يعود إلى موقفه ، أشد تثبّتا ، وأقوى يقينا وأرسخ قدما .

فتلك الحال التى تمثّل الرسل فى هذا الموقف ، هى القمة التى تنتهى عندها طاقة الاحتمال البشرى ، فى مصادمة الأحداث ، ومداغمة الأحوال والشدائد ، وهى قمة لا يبلغها إلا أولو العزم من رسل الله (٢٨) .

وجاء في زاد الميسر لابن الجوزي :

قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ ، المعنى متعلق بالآية الأولى فتقديره : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا . أى : فدعوا قومهم ، فكذبوهم ، وصبروا وطال دعاؤهم ، وتكذيب قومهم .

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ ، وفيه قولان :

أحدهما : استيسروا من تصديق قولهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : من أن نَعَذَّبَ قومهم ، قاله مجاهد^(٣٩) .

وَكَلَّمُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا . توهموا أن نفوسهم كذبت عليهم ، حين توقعت النصر على من كفر بهم ، وعقابهم فى الدنيا - حتى إذا حدث كل ذلك - جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . أى : جاء نصر الله فجأة .

فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ . وهم النبیُّ والمؤمنون ، وحلَّ العقاب والعذاب بالمكذبین الكافرين .

وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . ولا يمنع أحد عذاب الله عن القوم الذين أجرموا ، فكفروا بالله وكذبوا رسله ؛ فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

قراءة : كُذِّبُوا

وردت قراءة أخرى بتشديد الذال عن عائشة ، والمعنى : وأيقنت الرسل : أن الأمم كُذِّبُوا تكذيباً ، لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ؛ فحينئذ دعوا عليهم ، فهناك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستتصال .

ويجوز أن يكون المعنى : حتى إذا استيسر الرسل من إيمان قومهم ؛ فظن الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم ، روى البخارى : عن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير ، وهو يسألها عن قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ ... الآية : معاذ الله ؛ لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم ، وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ، حتى إذا استيسر الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك .

من تفسير روح المعاني للآلوسي :

« فالاعتقاد المرجوح هو ظن ، وهو وهم ، وهذا قد يكون ذنباً يُضعف الإيمان ولا يزيله ، وقد نرى حديث النفس المعقوف عنه ، كما قال ﷺ : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها : ما لم تتكلم أو تعمل »^(٢٠) .

ونظير هذا ما صح من قوله ﷺ : « نحن أولى بالشك من إبراهيم ؛ إذ قال له ربه : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي »^(٢١) .

وعلى هذا يقال : الوعد بالنصر في الدنيا لشخص ، قد يكون الشخص مؤمناً بإيجازه ، ولكن قد يضطرب قلبه فيه فلا يطمئن ؛ فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه كذب ؛ فالشك والظن أنه كذب من باب واحد ، وهذه الأمور لا تقدر في الإيمان الواجب ، وإن كان فيها ما هو ذنب ؛ فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك ، كما في أفعالهم ، على ما عرف من أصول السنة والحديث^(٢٢) .

« وفي قص مثل ذلك : عبرة للمؤمنين بهم ؛ فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك فلا يأسوا إذا ابتلوا ، ويعلمون أنه قد ابتلى من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ؛ فيتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ، ويقوى إيمان المؤمن ، وبذلك يصح الإتياء بالأنبياء^(٢٣) ومن هنا قال سبحانه : لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ .

من تفسير القاسمي :

قال أبو نصر القشيري : وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا . لا يبعد أن المراد : خطر بقلب الرسل فصرفوه عن أنفسهم ، أو المعنى : قربوا من الظن ، كما يقال : بلغت المنزل إذا قريت منه .

وقال الترمذي الحكيم : وجهه : أن الرسل كانت تخاف بعد أن وعدهم الله بالنصر : أن يتخلف النصر ، لا من قومة بوعدهم الله ، بل لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حدثاً ينقض ذلك الشرط ، فكان الأمر إذا طال واشتد البلاء عليهم : يدخلهم الظن من هذه الجهة^(٢٤) .

الابتلاء في القرآن والسنة

لقد ورد في معنى هذه الآية طائفة من الآيات والأحاديث والآثار ، تتلاقى مع الآية في أن الله يمتحن الرسل والأنبياء والأولياء .

قال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ وَالضُّرَاءُ وَذُرِّيَّهُمْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ . (البقرة : ٢١٤) .

وقال سبحانه: أَلَمْ أَحَسِبْ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَمِنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (العنكبوت: ١-٢) .

وقال ﷺ: « ما يصيب المؤمن من هم ولا حزن ولا وصب ولا تعب حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياها »^(٣٦) . رواه البخارى .

وقال ﷺ: « أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمل ، فالأمل ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة »^(٣٧) .

وقال ﷺ: « إنما الصبر عند الصدمة الأولى »^(٣٨) .

وقال تعالى : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ بَشِيرٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْعُمَرَاءِ وَبَشِيرٌ الصَّابِرِينَ . (البقرة: ١٥٥) .

في أعقاب الآية

تظل هذه الآية منارةً لبيان سنة الله في الدعوات ، لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ؛ حتى لا تبقى بقية من جهد ، ولا بقية من طاقة ، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي تتعلق بها الناس ...

يجب أن يستيقن الدعاة أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف .. وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد : فى الجب ، وفى بيت العزيز ، وفى السجن ، وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس ، ثم كانت العاقبة خيراً للذين اتقوا ، كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب^(٣٩) .

★ ★ ★

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٤٠)

المفردات:

عبرة ، عظة .

أولى الأبواب ، لأصحاب العقول .

يفترى ، يخترع ويلفق .

بين يديه ، ما تقدم عليه .

التفسير

١١١- لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ...

تأتى هذه الآية فى ختام سورة يوسف : فتبرز الهدف من ذكر هذه القصة فتقول : لقد كان فى ذكر قصص الرسل والأنبياء عبرة وعظة لأصحاب العقول : حيث تعرّض يوسف لألوان من البلاء فصبر وتمسك بالتقوى : وكان جزاء ذلك الفلاح فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة .

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى .

أى : ما كان هذا القرآن حديثًا يخلق ويكذب من دون الله : لأنه كلام أعجز رواة الأخبار ، وحملة الأحاديث ، وإنما هو كلام الله من طريق الوحي والتنزيل ، المشتمل على العقائد والأخلاق ، وقصص الأمم الخالية فى أعلا درجات الفصاحة والبلاغة ، وذلك كله فوق طاقة الإنسان والجن .

قال تعالى : قُلْ لِّئَلَّا أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

وَلَكِنَّ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ .

جاء القرآن مصدقًا للكتب السماوية التى سبقته ، كالتوراة والإنجيل والزيور ، أى : تصديق ما جاء فيها من الصحيح والحق ، ونفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، فهو مصدق أصولها الصحيحة ، ومبين ما وقع فيها من اختلاف .

قال تعالى : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل : ٧٦) .

وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .

والقرآن أيضا فيه تفصيل كل شيء من الحلال والحرام ، والمحبوب والمكروه ، والأمر والنهى ، والوعيد والوعيد ، وصفات الله الحسنى ، وقصص الأنبياء .

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أى : هداية للناس من الضلال والحريرة ، ورحمة لقوم يؤمنون به ويسلكون سبيله ، ويهتدون بهديه .

قال الخافظ ابن كثير في تفسيره :

« وتفصيل كل شيء من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات ، والواجبات والمستحبات ، والنهي عن المحرمات ، وما شاكلها من المكروهات ، والإخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المجملية والتفصيلية ، والإخبار عن الربِّ تبارك وتعالى بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ؛ فلهذا كان : هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

تهتدى به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويتغنون به الرحمة من رب العباد في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد » (٣٧) .

خاتمة سورة يوسف

لقد كانت قصة يوسف مشتملة على العظات والعبر ؛ ففيها محن ليوسف في الجب وفي بيت العزيز وفي السجن ، ومحن لإخوة يوسف حتى ضاقت ذات يدهم ؛ فقالوا : مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ ، وفيها محن ليعقوب وابتلاء ؛ بغياب يوسف ؛ وغياب بنيامين ، حتى آيِسَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ، ثم جمع الله الشمل ، ورفع الحسد والحقد ، فغفا يوسف عن إخوته ، وقدموا جميعا إلى مصر ، وتمَّ سجدهم ليوسف ، ثم إكرام يوسف لوالديه وإخوته ، ثم حسن إدارته لمصر ، وعزوفه عن كل مظاهر الترف ، واعتراقه لله تعالى بالفضل .

وفي ختام القصة اجتماع بعد فرقه ، وتكامل وتآلف ، وكأنَّ الله تعالى يذكر ذلك لرسوله ؛ مذكرا بعاقبة الصبر والإيمان والتقوى ؛ وبهذا كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الرعد

نظرات في سورة الرعد^(١٠)

سورة الرعد من السور التي اختلف في مكيتها ومدنيتها ؛ فقال قوم : إنها مكية ؛ لأنها شبيهة بالسور المكية في قصتها وموضوعاتها ، وقال آخرون : إنها مدنية . ولكن موضوعاتها تشبه السور المكية . وفي المصحف المطبوع بالقاهرة : سورة الرعد مدنية ، وآياتها ٤٣ نزلت بعد سورة محمد .

وفي تفسير مقاتل بن سليمان : سورة الرعد مكية ويقال : مدنية . وتسمى : الرعد ؛ لقوله سبحانه فيها : **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** . (الرعد: ١٣) .

وسورة الرعد من أعاجيب السور القرآنية التي تستولى على النفس وتثير الوجدان وتزحم الحس بالصور والمشاهد ، ثم تأخذ النفس من أقطارها جميعا ، فإذا هي فى مهرجان من الصور والمشاعر . وتسلك السورة سبيلها إلى القلب وترتاد به آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ مبصر مدرك شاعر بما يموج حوله من المشاهد والصور .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ولكنها صور حية تستولى على الفؤاد وتلمس الوجدان وتوحى بالإيمان.

موضوع السورة

إن موضوع سورة الرعد الرئيس هو : العقيدة ، وقضاياها هي : التوحيد ، والبعث وهذا الموضوع تكرر عرضه فى سور سابقة ولائحة .

ولكنه يعرض فى كل مرة بطريقة جديدة ، وفى ضوء جديد ، ويتناول عرضه مؤثرات وموجيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد .

تطوف سورة الرعد بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق وآماد وأعماق ، وتعرض عليه الكون كله فى شتى مجالاته الأخاذة : فى السماوات المرفوعة بغير عمد ، وفى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وفى الليل يغشاها النهار ، وفى الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت فى قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد ، وفى البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال ، والمطر فى الوديان ، والزبد الذى يذهب جفاء ؛ ليبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

وهي تلاحق ذلك القلب أينما توجه - تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد والمستخفى والسارب . ويتعقب كل حى ويحصي عليه الخواطر والخواجج . والغيب المكنون الذى لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله وما تحمل كل أنثى وما تخفيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى ، المحيطة بالكون ظاهره وخافيه ، جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه ، وهذا القدر الذى يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ، ترجف له القلوب .

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل فى مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، وخلجات الأنفس فى هذا وذاك ، إلى وقفات على مصارع الغابرين وتأملات فى سير الراحلين ، وفى سنة الله التى مشت عليهم فإذا هم دائرون .

مشاهد الكون فى سورة الرعد

تبدأ سورة الرعد بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحي بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه فيقول سبحانه :

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ . (الرعد: ١) .

وهذا الافتتاح يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها ، وتسترسل السورة فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون ، الدالة على قدرة الله الخالق ، وحكمته وتديره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة : أن يكون هناك وحى ؛ لتبصير الناس ، وأن يكون هناك بعث لحساب الناس ، وأن مقتضيات تلك القدرة : أن تكون مستطبعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم ، وسخره لهم ؛ ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الآيات الرائعة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة ؛ نظرة إلى السماوات ، ونظرة إلى الأرضين ونظرة إلى مشاهد الأرض وكوامن الحياة .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسَوَّى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الرعد: ٢ ، ٣) .

وهذه اللفظة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان ؛ فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتامله ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله ، وقصارى ما يرفعه الناس

بعدم أو بغير عمد ، تلك البنايات الصغيرة الهزيلة ، القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما في تلك البنايات من عظمة ومن قدرة وإتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سموات مرفوعة بغير عمد وعما وراءها من القدرة الحقة ، والعظمة الحقة ، والإتقان الذي لا يتناول إليه خيال إنسان.

ومن هذا المنظور الهائل الذي يشاهده الناس في خلق الله ، إلى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار .

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .

أى : استولى على ملك جميع الموجودات وأحاطت قدرته بجميع الكائنات ، ومع الاستعلاء والتسخير ، الحكمة والتدبير .

كُلُّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر .

يُذَبِّرُ الْآمَرَ . ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة في الفضاء فتجرى لأجل لا تتعداه ، ومن قدرة الله : أنه مد الأرض ويسطها أمام البصر ، وأمدّها بمقومات الحياة .

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ . ليكمل ، إبداع الخلق وتناسقه ، ثم تابع الله بين الليل والنهار في انتظام عجيب ، ونظام دقيق يبعث على التأمل في ناموس هذا الكون والتفكير في القدرة المبدعة التى تدبره وترعاها ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أدلة الألوهية في سورة الرعد

نحن في سورة الرعد أمام عدد من أدلة الألوهية تتوارد وراء بعضها في سياق بديع ، وعرض شائق.

فهناك الأرض التى تزرع بألوان مختلفة من النبات فيها : جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صُتُونًا وَغَيْرُ صُتُونًا .

منه ما هو عود واحد ، ومنه ما هو عودان أو أكثر فى أصل واحد وكله : يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ .

والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم : وَنُفُضٌ لِّمَخْتَلِفَاتٍ الطَّعُومِ : وَنُفُضٌ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ .

فمن غير الخالق المدبر يفعل ذلك ؟!

إن القرآن يمثل هذه اللفظة يبقى جديدا أبدا : لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس وهي لا تنفذ ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشرية في أجلها الموعود .

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد: ٤) .

ومن أدلة الألوهية : إحاطة علم الله بالجنين في بطن أمه ، وبالسر المكنون في الصدر ، وبالحركة الخفية في جنح الليل ، وبكل مختلف بالليل وظاهر بالنهار ، وهو سبحانه محيط بكل من تكلم دمساً أو تكلم جهراً : فإن كل شيء مكشوف تحت المجهر الكاشف يتبعه شعاع من علم الله وتتعبقه حفظة تحصى الخواطر والنوايا ، إلا إنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن في حماه ، وهي تتصور علم الله المحيط بكل شيء .

وتلاحظ أن بعض الآيات في سورة الرعد تلمس آفاق الكون الهائل مثل : الآيات الأربع الأولى من السورة ، وبعض الآيات تلمس أغوار النفس ومجاهل السرائر مثل : الآيات من ٨ إلى ١٠ حيث يقول سبحانه : **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِقَعْدَارٍ * عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِآلِيلٍ وَاسْرَبْ بِالنَّهَارِ .**

ثم يأخذ السياق في جولة جديدة في واد آخر تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس متداخلة متناسقة ، حيث يقول سبحانه : **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ . (الرعد: ١٢، ١٣) .**

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة ، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان ، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس حتى اليوم ، وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها . والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع : لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضرر ، وقد سميت السورة بسورة الرعد : لقوله سبحانه : **وَيَسْبِغُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ .**

والرعد هو ذلك الصوت المقرقع المدوي ، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله - أي كانت طبيعته وأسبابه - فهو رجع صنع الله في هذا الكون ، وهو يحمد ويسبح بلسان الحال للقدرة التي صاغت هذا النظام ، كما أن كل مصنوع جميل متقن ، يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه ، بما يحمله من جمال وإتقان .

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا للحمد ؛ اتباعا لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق ، وخلق سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة ؛ لتشارك في المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله ، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله ، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه ، وفي آية أخرى يقول سبحانه : **وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . (الشورى: ٥)** .

وفي الحديث النبوي يقول الرسول ﷺ : « أظنت السماء ، وحق لها أن تظط : ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راکع أو ساجد يسبح الله تعالى » .

ثم يعبر السياق عن خضوع جميع الكائنات لمشيئة الله بالسجود ، وهو أقصى رمز للعبودية ، فتسجد الكائنات ويسجد ظلها معها عند انكسار الأشعة ، وامتداد الظلال ، فإن الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء ، كلها تسجد لله .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . (الرعد: ١٥) .

النصف الثاني من سورة الرعد

في النصف الأول من سورة الرعد حدثتنا السورة عن المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس .

وفي النصف الثاني من السورة تسترسل الآيات في لمسات وجدانية وعقلية وتصويرية دقيقة رقيقة ، حول قضية الوحي والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد . وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان ، وطبيعة الكفر ؛ فالأول : علم ، والثاني : عمل ، **أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى . (الرعد: ١٩)**

وتبين الآيات طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين ، والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء ، ثم يتلوها مشهد من مشاهد القيامة ، وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين ، ويعقب ذلك لمسة في بسط الرزق وتقديره ، وردهما إلى الله ، فجولة مع القلوب المؤمنة مطمئنة بذكر الله ، فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال ، وتقطع به الأرض ، ويكلم به الموتى ، فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم ، أو تحل قريبا من دارهم ، فجدل تهكمي حول الآلهة المدعاة ، فلمسة عن مصارع الغابرين ، ونقص أطراف الأرض منهم حيناً بعد حين ، يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول ﷺ بتركهم للمصير المعلوم .

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر السورة الأول ، وتحضرُ المشاعر وتهيتها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني وهي على استعداد وتفتح لتلقيها ، وأن شطري السورة متكاملان ، وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءاته لهدف واحد وقضية واحدة ، هي الإيمان عن يقين كامل ، وأدلة مقنعة يطمئن لها القلب وتسكن إليها النفس . قال تعالى :

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . (الرعد: ٢٨) .

فقلب الكافر في ضلال ، وقلب الجاحد مضطرب هواء ، وقلب المؤمن يطمئن لصلته بالله ، والأنس بجواره ، والأمن في جانبه وحماه ، يطمئن من قلق الوحدة وحيرة الطريق بإدراك الحكمة في الخلق والمبدإ والمصير ويطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء الله ، مع الرضا بالابتلاء والصبر على البلاء ، ويطمئن برحمة الله في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة .

وليس أشقى على وجه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله ، ليس أشقى ممن يعيش لا يدري لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعاني في الحياة ؟ . ليس أشقى في الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردة في فلاة عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هناك شدائد في الحياة لا يصمد لها بشر ؛ إلا أن يكون مرتكنا إلى الله مطمئنا إلى حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . ففي الحياة لحظات تعصف بهذا كله فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله : أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

التناسق الفني في سورة الرعد

مما نلاحظه في سورة الرعد عنايتها بالمقابلة بين الإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، والاطمئنان والحيرة ، وحين تعرضت السورة لرسم مشاهد الكون عنيت بإبراز المشاهد المتقابلة من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارية ، وزيد ذاهب وماء باق ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان ، ومن ثم تطرد هذه التقابلات في كل المعاني وكل الحركات وكل المصائر في السورة ؛ لتناسق التقابل المعنوي في التقابلات الحسية ، وتتسق في الجو العام.

ومن ثم يتقابل الاستعلاء في الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تفيض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أسر القول مع من جهر به ، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارِب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا ،

وتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإنبات في الكتاب ..

وبالإجمال : تتقابل المعاني وتتقابل الحركات وتتقابل الاتجاهات : تنسيقا للجو العام في الأداء ، وهذا التناسق الفني ، من بدائع الإعجاز في القرآن الكريم . هذا القرآن العجيب الذي لو كان من شأن قرآن أن تسير به الجبال ، أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ؛ لكان في هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات ، ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء فإذا لم يستجيبوا له ؛ فقد أن أن يئأس منهم المؤمنون وأن يدعوهم ويتركهم حتى يأتي وعد الله للمكذبين .

قال تعالى : **وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَلَّ الْأَمْرُ جَمِيعًا** ؛ **أَلَمْ يَأْتِئْسَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** . (الرعد: ٣١).

ولقد صنع هذا القرآن في النفوس التي تلقتة وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال ، وتقطيع الأرض ، وإحياء الموتى ، لقد صنع في هذه النفوس ، وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد أثرا في أقدار الحياة بل أبعد أثرا في شكل الأرض ذاته ، فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ .

وإن طبيعة هذا القرآن ذاتها ، طبيعته في دعوته وفي تعبيره ، طبيعته في موضوعه وفي أدائه ، طبيعته في حقيقته وفي تأثيره . إن طبيعة هذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام واستعداد لإدراك ما يوجه إليه ويوحى به ، والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ما هو أضخم من الجبال وهو تاريخ الأمم والأجيال ، وقطعوا ما هو أصلب من الأرض وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد . وأحيوا ما هو أخمد من الموتى ، وهو الشعوب التي قتل روحها الطغيان والأوهام ، والتحول الذي تم في نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات **بَلْ لَلَّ الْأَمْرُ جَمِيعًا**

وهو الذي يختار نوع الحركة وأدائها في كل حال . فإذا كان قوم بعد هذا القرآن لم تتحرك قلوبهم ؛ فما كان أجدر المؤمنين الذين يحاولون تحريكها أن يئأسوا من القوم وأن يدعو الأمر لله فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى وهدى الناس جميعا على نحو خلقه الملائكة لو كان يريد .

لقد شاء الله أن يوجد الإنسان على وجه الأرض ومعه العقل والإرادة والاختيار والكسب ؛ حتى يتميز المؤمن من الكافر والمستقيم من العاصي وبذلك تتحقق الحكمة الإلهية في تنوع الخلق واختلاف مشاربيهم:

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِلَّائِكَ خَلْقُهُمْ وَتَمَّتْ
كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود: ١١٨ ، ١١٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ عَآيِنْتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ❶ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** ❷ **وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ❸ **وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّدَاتٌ وَجَعَلْنَا مِنْ أَغْطَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ وَنَخْلَانٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ❹ ﴿

المعمرات ،

الـــــــــــــــــــــ : هذه حروف للتحدى والإعجاز ، أو هي مما استأثر الله بعلمه ، أو هي لافتتاح الكلام ، أو أسماء للسور ، وقيل : هي إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، ويجوز أن تشتمل على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها .

وسخر الشمس والقمر : لمصالح خلقه .

لأجل مسمى : لوقت معلوم وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة ، التى عندها تكرر الشمس ويخسف القمر .

يدبر الأمور : أمر السماوات والأرض وحده بلا ظهور ولا معين .

يفصل الآيات : يبينها لكم .

لعلكم بقاء ربكم توقنون : ويوحدانيتها ووعده ووعده .

مد الأرض : بسطها أمام البصر طولا وعرضا ، وأمدتها بمقومات الحياة .

وجعل فيها رواسي : جبالا ثابتة ، وهى : جمع راسية ، يقال : أرسيت الود فى الأرض : إذا أثبتته .

ومن كل الثمرات ، وجعل فيها زوجين اثنين من كل الثمرات .

زوجين اثنين : نوعين وضريرين .

يغشى الليل النهار ، يجلل الليل النهار فيلبسه ظلمته ، والنهار الليل فيلبسه ضياءه .

إن هي ذلك لايات ، استدالات وحجج لمن فكر ؛ فيعلم أن العبادة لا تجوز إلا للخالق عز وجل .

وفي الأرض قطع متجاورات ، أراضى يجاور بعضها بعضاً مع اختلاف طبيعة كل قطعة ولونها فهذه طيبة ،

وهذه سبخة مالحة ، وهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه

سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه سميكة وهذه رقيقة .

صنوان وغير صنوان : من النبات ما له أصول مجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وهو الصنوان

أى : ما له عودان أو أكثر في أصل واحد ، وغير صنوان ما كان على أصل واحد

وعود واحد ، وواحد الصنوان : صنو وفي الصحيح : (عم الرجل صنو أبيه) .

يسقى بهاء واحد : من السماء ، ومن شرب واحد .

وتفضل بعضها على بعض في الأكل ، فمنها حلو ومنها حامض ومر ، وقيل : هو مثل في بنى آدم ، أبوهام واحد ومنهم

الصالح والخبيث .

التفسير :

١ - الممر ...

سبق أن ذكرنا : عدة آراء في تفسير الأحرف المقطعة في فواتح السور ، ومجملها ما يأتي :

(أ) أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه .

(ب) أنها فواتح للسور .

(ج) أنها للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ، مع أنه مؤلف من

حروف عربية ينطقون بها ؛ فدل ذلك : على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : هذه آيات هذه السورة من الكتاب ، أو هذه آيات القرآن البالغ حد الكمال ، المستغنى عن الوصف ؛

الجدير بأن يختص باسم الكتاب .

وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ. أى : كل القرآن الذى أنزله إليك حق لا شك فيه ، لا يلتبس به باطل ، ولا يحوم حول صحته شك أو التباس ، وهذا التعبير جار على سنن العرب فى مخاطبتهم ، حيث يميلون إلى الإجمال بعد التفصيل ، سئلت فاطمة الأنمارية عن بنيتها : أيهم أفضل فقالت : ربيعة ، بل عماره ، بل قيس ، بل أنس ، ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفها .

فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجملت القول ، وأثبتت لهم الفضل جميعا .

وكذلك هنا عندما قال : تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ .

أى : تلك آيات هذه السورة ، التى تستعرض آيات القدرة وعجائب الكون ، وحقائق القيامة ، والقرآن كله حق لا ريب فيه ، وصدق لا شك فيه .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : لانطماس بصائرهم ، واستيلاء العناد على نفوسهم : فهم لذلك لا يصدقون بما أنزل عليك ، ولا يقرّون بهذا القرآن ، وما اشتمل عليه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان ، والتى لو سار عليها الناس : لسعدوا فى الدنيا والآخرة .

٢- اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَّى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُذَبِّرُ الْمَاءَ الْفَصْلَ الْأَيْتُ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءَ رَبَّكُمْ تُؤْمِنُونَ .

وهذه اللفظة الأولى إلى مظاهر القدرة الإلهية تحرك الوجدان : فيقف أمام هذا المشهد الهائل يتمالاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفع السماء بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله ، وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنائيات الصغيرة الهزيلة ، القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه ، ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنائيات من عظمة ومن قدرة وإتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ، وعما وراءها من القدرة الحقّة ، والعظمة الحقّة ، والإتقان الذى لا يتناول إليه خيال إنسان .

ومن هذا المنظور الهائل الذى يشاهده الناس فى خلق الله ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار .

ثُمَّ أَسْتَوَّى عَلَى الْعَرْشِ. أى : استولى على ملك جميع الموجودات ، وأحاطت قدرته بجميع الكائنات وفى روايه : «العرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل»^(١) .

ونحن نؤمن بهذه الآيات كما وردت من غير تكليف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ، تعالى الله علواً كبيراً .

وَسَجَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . أى : ذلل الله الشمس والقمر وسائر الكواكب لمصالح عباده ، ولنفع الناس وإعمار الكون ، وذكر الشمس والقمر : لأنهما أظهر الكواكب السيارة .

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى . وإلى حدود مرسومة وفق ناموس مقدر .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ . ويمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فتجرى لأجل لا تتعده .

يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوفُّونَ . يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

٣- وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ... الآية .

بسط الله الأرض أمام البصر ، وجعلها صالحة للحياة ، فجعل الجبال أوتادا : لحفظ توازنها ، وأمدّها بالأنهار والمياه ، والماء هو العنصر اللازم لأى حياة نباتية . قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . (طه : ٥٣) .

ويقول سبحانه : وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا رُجُومًا ثَمِينًا ؛ ليكمل إبداع الخلق وتناسقه .

« والمعروف أن الثمرة هى نتاج عملية تناسل النباتات العليا التى تمتلك نظاماً مركباً والمرحلة التى تسبق الثمرة هى مرحلة الزهرة بأعضائها الذكورية (الأبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) وبعد نقل اللقاح تعطى هذه الأخيرة الثمار التى تعطى هذه الحبوب بعد النضج . إن كل ثمرة تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنثوية ، ونلمح ذلك من المقطع السابق من الآية .

يُغْشَى اللَّيْلُ أَهْجَارَ . أى : جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتتابع بين الليل والنهار فى انتظام عجيب ونظام دقيق يبعث على التأمل فى ناموس هذا الكون والتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه .

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . فإن التفكير والتأمل عبادة روحية صامتة تقود الإنسان إلى اليقين

بقدره الله رب العالمين .

٤- وَفِي الْأَرْضِ قُلُوبٌ مُّسَوِّمَاتٌ لَّاتٌ وَجُثَّتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ..
والتربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم .

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ . أى : هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزرع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ؛ فهذا فى غاية الحلاوة ، وهذا فى غاية الحموضة ، وهذا فى غاية المرارة ، وهذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا أصفر وهذا أحمر ، وهذا أبيض وكذلك الزهور مع أنها كلها تسقى من طبيعة واحدة وهو الماء ، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضب ؛ ففى ذلك آيات لمن كان واعياً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

إن القرآن يمثل هذه اللفظة يبقى جديداً أبداً ؛ لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد فى الكون النفس وهى لا تنفذ ولا تستقصيها إنسان فى عمره المحدود ولا تستقصيها البشرية فى أجلها الموعود .

قال فى الميزان :

ومعنى الآية : أن من الدليل على أن هذا النظام الجارى قام بتدبير مدبر وراءه ، يخضع له الأشياء بطبيعتها ، ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء : أن فى الأرض قطعاً متجاورات متقاربة بعضها من بعض متشابهة فى طبع ترابها وفيها جنات من أعناب ، والعنب من الثمرات التى تختلف اختلافاً عظيماً فى الشكل واللون والطعم والمقدار ، واللطافة والجودة وغير ذلك ، وفيها زرع مختلف فى جنسه وصفه من القمح والشعير وغير ذلك وفيها نخيل صنوان أى : أمثال ثابتة على أصل مشترك فيه . وغير صنوان أى : متفرقة . تسقى الجميع من ماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض بما فيه من العزبة المطلوبة فى شيء من صفاته^(١٧) .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ تَعَجَّبَ فَجَعَبْ قَوْمَهُمْ أَذْكَاتٌ تَرْبَاهُ نَالَفَى خَلَقَ جَدِيدًا وَأُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

المفردات :

وإن تعجب ، العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين : أحدهما : فيما يستحسن ويحمد ، والثانى : فيما يكره وينكر .

الأغلال ، جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد ، أو غيره يوضع فى العنق أو فى اليد ؛ فتشد به إلى العنق .

التفسير:

٥ - وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا ...

أنكر الكفار البعث والحشر والجزاء والحساب ، مع ما تقدم لهم من دلائل القدرة الإلهية ، التى تخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ففعلوا عن تقدير هذه القدرة ، وظنوا أن موت الإنسان ودفنه فى التراب ، يصعب معه حياة الإنسان مرة أخرى .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ما شاهدوه من دلائل قدرة الله تعالى . فعجب أشد منه قول المشركين :

أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أى : إذا فنيت أجسامنا ، وتفتت عظامنا ، ولبيت وتحللت أجسامنا ، فإن الإعادة والبعث فى صورة خلق جديد أمر بعيد مستغرب ، ولو عقلوا ؛ لأدركوا أن قدرة الله على البدء متوفرة فى الإعادة ؛ بل الإعادة أهون .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ . (الروم: ٢٧) .

من تفسير الكشاف للزمخشري :

وَإِنْ تَعْجَبَ . يا محمد من قولهم فى إنكار البعث : فقولهم عجيب ، حقيق بأن يتعجب منه ؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد من الفطر العظيمة ، ولم يعنى بخلقهن ؛ كانت الإعادة أهون شئ عليه وأيسره ؛ فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب^(١) . وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن الكريم ، فى الرعد والإسراء والمؤمنون والنحل والعنكبوت ، والسجدة والصفافات والواقعة والنازعات ، وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد ، مثل قوله تعالى : يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَمَرَّدُودُونَ فى الْحَافِرَةِ * أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا نُجِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ . (النازعات ١٠-١٤) .

ومثل قوله تعالى : وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا رَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة: ٤٧-٥٠) .

ومثل قوله تعالى : وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفُتْنَا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . (الإسراء: ٤٩) .

وجوّذ بعضهم : أن يكون الخطاب لكل من يصلح له ، أى : وإن تعجب أيها العاقل بشيء ؛ فازدرد تعجبا ممن ينكر قدرة الله على إحياء الموتى .

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ .

أى : هؤلاء المنكرون للبعث المستبعدون له ، هم الذين كفروا برّبهم وخالفهم ، وجددوا نعمه المتعددة ، ولم يتأملوا بعقولهم فى أن من أوجدهم قادر على إعادتهم بعد الموت .

وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ .

لقد حجروا أنفسهم ، كأنما وضعوا قيوداً فى أيديهم وأعناقهم من الضلال ، تصدهم عن التأمل والتفكير . واتباع الحق ، كما قال القائل :

كيف الرشاد وقد خلقت فى نفر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى :

أولئك الذين توضع القيود والأغلال فى أيديهم وأعناقهم يوم القيامة : عندما يساقون إلى النار بذلة وقهر ؛ كما يقاد الأسير الذليل فى القيد والغل .

قال تعالى : إِذِ الْأَغْلَلُ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ . (غافر: ٧١ ، ٧٢) .

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ .

أى : وأولئك الملازمون للنار ، حتى كأنهم أصحابها ؛ من طول إقامتهم فيها ، وهم ملازمون لها لا يخرجون منها أبداً .

★ ★ ★

﴿ وَسَتَجْزِيْوَنَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٦)

المفردات :

السيئة ، العقوبة .

الحسنة ، العافية والسلامة .

المثلات، جمع مثله - يفتح الميم وضم الناء . وهى العقوبة ، سميت بذلك ؛ لأنها تماثل الذنب ، والمراد بالمثلات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم .

التفسير:

٦ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْهَيْبَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ...

أى : إن هؤلاء المشركين لظلمهم وعدوانهم وعنادهم ؛ إذا توعدهم النبى بالعذاب إن لم يؤمنوا ؛ قالوا له : أرنا هذا العذاب إن كنت صادقاً ، وقد عبّر عن هذا المعنى فى قوله سبحانه : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال: ٣٢) .

أى : أنهم بدل أن يطلبوا من الرسول : الدعاء لهم : بالأمان والخير ، والعافية والهداية والأمور الحسنة ، فإنهم يستعجلون الأمور السيئة ، ووقوع العذاب بهم تهكماً وعناداً .

وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ .

أى : هلاك الأمم المكذبة ، الذين جعل الله هلاكهم سلفاً ومثلاً للآخرين ، فمنهم : أمة مسخت قرده ، وأخرى : خنازير ، وثالثة : أهلكت بالخطف ، ورابعة : أهلكت بالرجفة ، وخامسة : بالغرق ، حيث جعل الله العقوبة التى أنزلها بالمكذبين عظة وعبرة ومثلاً واضحاً لجزاء كل مكذب .

قال تعالى : وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ .

وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ بِمَا كَسَبُوا وَإِنْ رَبُّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ .

أى : إن الله تعالى فتح بابَه للتائبين ، وستر على المذنبين ، وقبل توبة التائبين ، ولم يعجل بعقوبة المذنبين ، قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ .. (فاطر ٤٥) .

وهو سبحانه شديد العقاب لمن مات مصراً على المعصية ، وبهذا نجد الآية الكريمة قد جمعت بين الرحمة والعذاب والرجاء والخوف ؛ حتى يتكامل الموقف ، ويأخذ الإنسان بنصيبه فى العمل والتوبة قبل أن ينزل به العذاب ، وفى هذا المعنى قال تعالى : نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩ ، ٥٠) .

قال ابن جرير الطبري :

وهذا الكلام وإن كان ظاهره ظاهر خير ، فإنه وعيد من الله ، وتهديد للمشركين من قوم رسول الله ﷺ :
إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم ، قبل حلول نقمة الله بهم ^(٩١) .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٧)

المضردات :

الذين كفروا ، المراد بهم هنا : كفار أهل مكة .

لولا أنزل ، لولا بمعنى : هلاً ، فكلتاهاما للحض والحث على فعل الشيء .

آية من ربه ، الآية : العلامة ، والمراد بها هنا : ما طلبوه من الخوارق مثل : تفجير الينابيع والأنهار ،
والرقى في السماء .

التفسير :

٧ - وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ...

وهذا لون آخر من تعنت المشركين من أهل مكة ، فقد أنزل الله القرآن الكريم ، معجزة خالدة على
رسوله محمد ﷺ ، وآية باقية ، لكن كفار مكة اقترحوا على الرسول : أن ينزل عليهم آية مثل آيات الرسل
السابقين ، أي : كعصا موسى ، أو ناقة صالح ، أو إحياء الموتى على يد عيسى .

أي : هلاً أنزل على محمد معجزة مادية ملموسة تدل على صدقه ، مثل : تفجير ينابيع الأرض ،
وإزاحة الجبال من حول مكة ، ثم يثبت مكانها الأعناب وصنوف النباتات ، وقد حكى القرآن الكريم عنهم
مثل هذه الاقتراحات في سورة الفرقان في الآيات ٧ - ١١ ، وكذلك في سورة الإسراء ، حيث يقول سبحانه :
وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِفًا تَفْجِيرًا *
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِنَا آلِهَةً دُونِ آلِهَتِنَا لِتُخْرِفَ بِهِ الْأَرْضَ وَنُخْرِفَ بِهَا أَنْتَ وَرُفُقَاتُكَ أَوْ تُرَفِّقَ فِي
السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوقِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . (الإسراء: ٩٠-٩٣).

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

أى : إن وظيفتك قاصرة على إبلاغ الرسالة ، وتبشير المؤمنين بالجنة ، وإنذار المشركين بالعذاب ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم : لإفهام المشركين : أن وظيفة الرسل قاصرة على تبليغ الرسالة والدعوة إلى الإيمان ، وإنذار المكذبين ، والرسول بعد ذلك بشر يوحى إليه ، فليس إلها ، ولا يملك الاستجابة لمطالبهم وتحقيق رغباتهم المتعنتة ، قال تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الاسراء: ٥٩) : فهو لاء كفار مكة إذا جاءتهم معجزة مادية ، سيصرون على كفرهم وبذلك يستحقون نزول العذاب بهم : عقوبة على كفرهم وعنادهم ، وقد شاء الله أن يكون الإسلام آخر الرسالات ، وأن يكون محمد ﷺ خاتم الرسل ، وأن تكون معجزته عقلية خالدة باقية ، وألا يهلك قومه فى حياته ، قال تعالى : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال: ٣٢ ، ٣٣) .

وكان النبى ﷺ حريصاً على هداية قومه ، فكان الوحي يرشده إلى الصبر والاحتمال ، وبيان أن هذه سنة الله فى خلقه ، قال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . (البقرة: ٢٧٢) . إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ . (الشورى: ٤٨) ، فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لُتَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

أى : نبى يدعوهم إلى الهدى والرشاد ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو يعطى كل رسول ما يناسبه من الآيات والمعجزات وقد شاء سبحانه أن يؤيد محمداً بمعجزة خالدة باقية داعية إلى الهداية .

أى : لكل قوم من أقوام الرسل معجزة داعية إلى الهدى لمن اهتدى بها ، وقد أعطى الله محمداً القرآن أبلغ داعية إلى الهدى^(١) ، قال تعالى : أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ . (المنكبوت: ٥١) .

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠﴾

المفردات :

تغييض الأرحام : تنقص ، ومنه : غييض الماء .

بمقدار : أى : بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه .

عالم الغيب والشهادة : يعلم ما غاب عن الحسّ ما لا تدركه الحواس ولا يعلم ببداية العقل ، كما يعلم الحاضر المشاهد .

الكبير للتعالي : العظيم الشأن ، المستعلى على كل شيء فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله .

سواء منكم من أسر القول ومن جهر به : أى : هو سبحانه مستو فى عمله : من أخفى منكم القول ، ومن أعلنه ، ومن بالغ فى الاستخفاء ، ومن ظهر .

التفسير :

٨- اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ ...

تأتى هذه الآية وما بعدها : لبيان علم الله الشامل وقدرته الحقّة ، وفى مقام الردّ على من أنكر البعث والحشر والجزاء .

فهو سبحانه عالم بكل شيء : إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكر أو أنثى ، طويل

أم قصير ، تام الخلقة أو ناقصها ، صبيح أم قبيح ، صالح أم طالح ، شقى أم سعيد ، قال تعالى : وَيَعْلَمُ مَا لِي بِالْأَرْحَامِ . (لقمان : ٣٤) .

وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ .

إنه سبحانه يعلم ما يكون فى داخل الأرحام من نقص فى الخلقة أو زيادة فيها ، ومن نقص فى مدة الحمل أو زيادة فيها ، ومن نقص فى العدد أو زيادة فيه ، فقد يكون واحداً وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وقد تكون مدة الحمل أقل من تسعة أشهر ، وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، وقد دلت البحوث : على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٨ أيام ، أى : عشرة أشهر ويضعة أيام .

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . أَيْ : ولكل شيء مِقات معين ، لا يعدوه زيادة ولا نقصا .

قال تعالى : إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ . (الفرق: ٤٩) ، كما قال سبحانه : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ . (الحج: ٢١) .

وقد روى الشيخان : أن زينب بنت النبي ﷺ أرسلت إليه تخبره : أن ابناً لها فى الموت يحتضر ، وتدعو النبى أن يحضر إليها ، فبعث إليها رسول الله ﷺ من يقول لها : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ؛ فاصبرى واحتسى »^(١٦) .

٩ - عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالْهُدَى ...

إنه سبحانه مطلع على السر والنجوى ، محيط علمه بكل غائب وحاضر ، مطلع على ما هو غائب لا تدركه الأبصار من عوالم لا نهاية لها ، ومن أفلاك وملائكة وجن وقوى خفية ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ . (المدثر: ٣١) ، ومطلع أيضا على الظاهر المشاهد ، ثم هو يجازى ويحاسب الجميع ، قال تعالى : يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنْ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (غافر: ١٩ ، ٢٠) .

الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ .

أى : هو العظيم الشأن ، المستعلى على كل شيء بقدرته وجبروته ، وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

الْمُتَعَالِ . الذى يجل عما وصفه به الخلق من صفات ، ويستعلى على ما سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله .

١٠ - سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِأَنْهَارٍ .

إن علم الله يشمل السر والجهر ، والخفى والظاهر ، يستوى عنده كل ذلك ؛ فعلمه ممتد شامل ، أحاط بكل شَيْءٍ عِلْمًا .

قال الشوكاني :

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ . فهو يعلم ما أسره الإنسان ، كعلمه بما جهر به من خير أو شر ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ . أى : مستتر فى الظلمة متوار عن الأعين ، وَسَارِبٌ بِأَنْهَارٍ . أى : بارز وظاهر بالأنهار فالظاهر فى الطرقات ، والمستخفى فى الظلمات ، علم الله فيهم جميعاً سواء^(١٧) . اهـ .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) ، ويقول سبحانه : وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . (النمل : ٢٥) .

ويقول عز شأنه : وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ . (البقرة : ٢٨٤) .

وقد سمع سبحانه المرأة المجادلة من فوق سبع سماوات وأنزل آيات بشأنها فى صدر سورة المجادلة ، فبدأ بقوله تعالى : قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ نَحْوَكُمْ إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . (المجادلة : ١) .

★ ★ ★

﴿لَهُ مَعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَّالٍ﴾ (١١)

المضرات :

معقبات ، هم الحفظة ، يأتى بعضهم بعقب بعض .

من بين يديه ، من قدامه .

من خلقه ، من ورائه .

من أمر الله ، أى : بأمره وإعنته .

وال : ناصر .

التفسير :

١١ - لَهُ مَعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ...

أى : لكل واحد من هؤلاء المذكورين ممن يسرون القول أو يجهرون به ، ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ، ويحيطون به من جميع جوانبه لحفظه ورعايته ، ولكتابة أقواله وأعماله ، وهذا التعقيب والحفظ - إنما هو بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك ، فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه ، وفى الحديث الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا

فيكم: فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون^(١٨) . (أخرجه البخارى) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ .

جعل الله لهذا الكون نواميس وأسبابا ؛ فمن سلك طريق الهدى ؛ يسر الله له سبل الهداية ، ومن بدّل نعمة الله كفرا ؛ غير الله عطاءه له إلى نعمة وعقاب فى الدنيا والآخرة ، وتلك آية فى العدالة الإلهية ؛ فقد جعل للنصر أسبابا ، وللهلاك أسبابا ، فلا يسلب الله نعمة أنعم بها على قوم ؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم ، من الخير والأعمال الصالحة .

قال تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل: ١١٢) .

ويصح أن يكون المعنى : إن الله لا يغيّر ما بقوم من العقاب والبلاء ؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصي ؛ ليكونوا أهلاً لعفوه ورحمته .

ومن أسباب استحقاق الناس للعقوبة : ظهور الفاحشة يتعامل بها علانية ، وإعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

جاء فى تفسير المراغى :

روى : أن أبا بكر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ؛ يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب »^(١٩) .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً . (الأنفال: ٢٥) .

وأشار إلى ذلك العلامة ابن خلدون فى مقدمة التاريخ تحت عنوان : (فصل : فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران) .

وأخذ يضرب الأمثال بكثير من الأمم ، التى ثلّ الظلم عروشها ، وأذلّ أهلها ، وجعلها طعمة للأكلين ، ومثلا للآخرين .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ . (الأنبياء: ١٠٥) ، أى : الصالحون لعبارتها والانتفاع بها .

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ

أى : إذا أراد الله بقوم سوءا ، من مرض وفقر ونحوهما ، من أنواع البلاء ، كالهلاك والعذاب فَلَا مَرَدَّ لَهُ. فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل : المعنى : إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ؛ أعمى أبصارهم وبصائرهم؛ فاختاروا ما فيه هلاكهم وعملوه بأنفسهم ، فيستحيل لذلك رده عنهم .

وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْوَالِدِ . أى : ليس لهم ملجأ أو ناصر غيره يقيهم من أخذ الله لهم ، ويدفع عنهم السوء ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله تعالى محال ، وإيدان بأنهم حين أنكروا البعث ، واستعجلوا السيئة ، واقترحوا الآية : قد استحقوا العذاب ، الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم : إذا أراد الله نزوله بهم .

★ ★ ★

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ١٣﴾
وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ١٤ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسٌ قَبْلَهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِّغِهِ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٥ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ ١٦﴾

المفردات :

خَوْفًا وَطَمَعًا : خوفًا للمسافرين فى أسفارهم من مشقته وأذاه ، وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع به .
وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ، الذى فيه ماء .

وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ : يخضع الرعد لقدرة الله ونظامه المحكم فى هذا الكون فهو يعظم الله ويحمده .
وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ : من خوف الله عز وجل ورهبته .

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ : جمع صاعقة ، وأصل الصاعقة : كل أمر جسيم يؤدى إلى هلاك أو ذهاب عقل
أو فقد بعض الجسم .

وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ : نكر : أن رجلاً أنكر القرآن ، وكذب النبى ﷺ ؛ فأرسل الله عليه صاعقة فأهلكته

وهو شديد الحال ، شديد الماحلة فى عقوبة من طغى وعتا عليه ، و المحال مصدر من ما حلت فلاناً محالاً ؛ إذا عرضته لما يهلكه ، وقيل : شديد الأخذ ، شديد القوة .

لله دعوة الحق ، لا إله إلا الله .

والذين يدعون من دونه ، يعنى : آلهة المشركين .

إكساب كفيه إلى الماء تبليغ فاه ، أى : كالرجل العطشان يمدّ يده إلى البئر ؛ ليرفع إليه الماء ، فلا يدركه .

وما هو ببالغة ، حتى يموت عطشاً ، وهذا مثل ضربه الله لمن يدعو من دونه آلهة لا تضر ولا تنفع .

إلا فسى ضلال ، فى غير هدى ولا استقامة .

ولله يسجد من فى السماوات

والأرض طوعاً وكرهاً ، المؤمن يسجد طوعاً ، والكافر يسجد كرهاً .

وظلالهم بالغدو والأصال ، يقول : ويسجد أيضاً ظلال كل من يسجد لله طوعاً وكرهاً .

ببالغة ، أى : البكور .

والأصـال ، جمع أصيل وهو ما بين العصر إلى مغيب الشمس .

التفسير :

١٢ ، ١٣ - هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ * وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ

وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .

يخبر الله تعالى : أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب^(١) .

خَوْفًا وَطَمَعًا . قال قتادة : خوفاً للمسافر ؛ يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم ؛ يرجو بركته ومنفعته

ويطمع فى رزق الله .

وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ . قال مجاهد : السحاب الثقال : الذى فيه الماء .

وَيَسْبَحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . أى : يظهر قدرته تعالى وجبروته وتسخيره لجميع ظواهر هذا الكون كقوله

تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ...

وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق ؛ قال : « اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ،

وعافنا قبل ذلك »^(٢) ، وعن أبى هريرة مرفوعاً : أنه كان إذا سمع الرعد قال : سبحان من يسبح الرعد بحمده ؛

وعن عبد الله بن الزبير: أنه كان إذا سمع الرعد: ترك الحديث وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض^(١٦).

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان، وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس حتى اليوم، وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها. والسورة تذكر هذه الظواهر متتابعة وتضيف إليها الملائكة والتسبيح والسجود والخوف والطمع: لتصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضرر^(١٧).

وقد سميت السورة بسورة الرعد؛ لقوله سبحانه فيها: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ. (الرعد: ١٣)

والرعد هو ذلك الصوت المفرق المدى، وهو أثر من آثار الناموس الكوني الذي صنعه الله أي كانت طبيعته وأسبابه فهو رجوع صنع الله في هذا الكون، وهو حمد ويسبح بلسان الحال، للقدرة التي صاغت هذا النظام، كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من جمال وإتقان.

وقد اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحاً للحمد: اتباعاً لمنهج التصوير القرآني في مثل هذا السياق، وخلق سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة؛ لتشارك في المشهد كله، وقد انضم إلى تسبيح الرعد بحمد الله، تسبيح الملائكة من خوفه ومن تعظيمه، وفي آية أخرى يقول سبحانه: وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ. (الشورى: ٥).

وفي الحديث النبوي يقول الرسول ﷺ: «أطت السماء، وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راکع أو ساجد يسبح الله تعالى»^(١٨).

وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ. أي: يرسلها نعمة ينتقم بها ممن يشاء.

قال قتادة: ذكر لنا: أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ: فأرسل الله صاعقة؛ فأهلكته.

وذكروا في سبب نزولها: قصة (عامر بن الطفيل) و(أريد بن ربيعة)، لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه: أن يجعل لهما نصف الأمر؛ فأبى عليهما رسول الله ﷺ: فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله، أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً؛ فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله ذلك وأبناء قيله» يعني: الأنصار، ثم إنهما همّاً بالفتك برسول الله، فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه؛ ليقترله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس؛ لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أريد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن

الطفل)، فأرسل الله عليه الطاعون ، فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول : يا أهل عامر ، غدة كغدة البعير ، وموت في بيت سلوية ، حتى ماتا لعنهما الله وأنزل الله في مثل ذلك : **وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ** .^(١٠٠)

وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي آلِهِ . أى : يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو .

وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ . قال ابن جرير : شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : **وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ** . (النمل: ٥٠ ، ٥١) ، وعن على رضى الله عنه : **وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** . أى : شديد الأخذ ، وقال مجاهد : شديد القوة .

٤ - **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ...**

من الدعاء ما يحظى بالإجابة وما يكون دعاء حقاً ، وهو دعاء من يملك الإجابة ، أى : دعاء الله جل جلاله ؛ فهو سبحانه يسمع الداعي ويستجيب له ، قال تعالى : **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** . (البقرة: ١٨٦) .

وقال سبحانه : **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** . (غافر: ٦٠) .

ومن الدعاء ما يتجه به الداعي إلى الأصنام والنجوم وغيرها من المخلوقات التي لا تملك الإجابة ، فالأصنام لا تسمع وغيرها من الملائكة أو الجن ، أو البشر لا يملكون لأنفسهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكيف بغيرهم ؟

إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر: ١٤) .

وهذا القسم من الدعاء جدير بأن يسمى : دعاء الباطل ، وهو الذى لا يهتدى إلى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة .

لقد ذكر الله فى الآيات السابقة : أنه عليم بكل شيء ، قدير على كل شيء ، ثم ذكر فى هذه الآية : أن حقيقة الدعاء والاستجابة : فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير .

وقد ذكر ذلك فى الآية بطريقى الإثبات والنفى ، أعنى : إثبات حق الدعاء لنفسه وفيه عن غيره .

أما الأول فقله :

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ . وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ يَفِيدُ الْحَصْرَ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا بَعْدَهُ مِنْ نَفْيِهِ عَنْ غَيْرِهِ .

وأما الثانى فقله :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ .

وقد أخبر فيه : أن الذين يدعوه المشركون من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء ، ثم صورة معبرة تؤكد ضلال من يدعو غير الله وهى صورة ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه إلى بئر سحيق فيه ماء وفمه مفتوح يلهث بالدعاء ، يطلب الماء ! ليبلغ فاه فلا يبلغه ، وما هو ببالغ ، بعد الجهد واللهفة والعناء ، وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد ، حين يدعون الشركاء .

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّهُ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

فهذا الدعاء للأصنام ليس له من الدعاء إلا صورته كما أن باسط كفيه إلى الماء ليس له إلا صورة الطلب ببسط الكفين ، ولن ينتقل الماء إلى فمه .

ومن هنا نعلم أن هذا الاستثناء : إِلَّا كَبَسِطَ كَفَّهُ ... إلخ ، لا ينتقص به عموم النفى المستثنى منه ولا يتضمن إلا صورة الاستثناء فهو يفيد : تقوية الحكم فى جانب المستثنى منه فإن مغاده : إن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلا كما يستجاب لباسط كفيه إلى الماء ولن يستجاب له ، وبعبارة أخرى : لن ينالوا بدعائهم إلا عدم الإجابة ، أى : لن ينالوا شيئاً البتة .

وهذا من لطيف كلامه تعالى^(١٦) ، وينظر من وجه قوله سبحانه : قُلْ أَفَاتَخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا . (الرعد: ١٦) .

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ . أى : فى ضياع وانحراف ، فإن الأصل فى الدعاء أن يتوجه به الإنسان إلى من يملك الإجابة وهو الله سبحانه وتعالى :

فمن دعا غير الله ! فقد ضل دعوته وانحرف وضاع ، والضلال : هو الخروج عن الطريق وسلوك مالا يوصل إلى المطلوب .

قال الطبري: وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ.

وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة إلا في ضلال ، يقول : إلا في غير استقامة ولا هدى؛ لأنه يشرك بالله .

١٥ - وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

كل من في الكون خاضع لأمر الله وإرادته ؛ إذ إنه يعيش في ملكه ويسير وفق قانونه ، المؤمن يخضع لله : طاعة وإيماناً وغير المؤمن يخضع كرهاً وإرغاماً ، فإذا مسه الضر أو خاف الموت أو الغرق : لجأ إلى الله داعياً مستجيراً .

قال تعالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ... (الإسراء: ٦٧).

وقال تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . (العنكبوت: ٦٥) .

وقال سبحانه : لَيْسَ أَتَجِدَنَّ مِنْ هَدْيِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . (يونس: ٢٢) .

وفي ظلال القرآن ما يأتي :

والسياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ثم يضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ظلالهم كذلك ، ظلالهم بالغدو في الصباح ، وبالأصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال يضم هذا الظلال إلى الشخوص في السجود والخضوع والامتثال وهي في ذاتها حقيقة ، فالظلال تبع للشخوص ، ثم تلقى هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب ، وإذا الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله .. وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله^(١٧) .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

التفسير :

١٦- قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ...

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السماوات والأرض ، خاضع لقدرته ، منقاد لإرادته بالغدو والأصاال، اتجه فى هذه الآية إلى مناقشة المشركين عن طريق السؤال والجواب .

والمعنى : قل لهم يا محمد : من رب هذه الأجرام العظيمة التى ترونها ، فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال ؟! ، فإذا تأخروا فى الجواب ؛ عناداً أو مكابرة ؛ فقل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع هو الله ، وهذا جواب يتفق عليه السائل والمجيب ، بدليل قوله تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . (الزخرف: ٨٧) .

قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .

أى : إذا علمتم أن خالق هذا الكون البديع هو الله ؛ فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات ، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً ؟! فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟!
وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه ، الذى لا يرضاه لنفسه رشيد .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ .

أى : توجه بالسؤال إليهم يا محمد ، وقل لهم : هل يستوى الأعشى الذى لا يبصر ، والبصير الذى يرى ويهتدى الأعشى إلى سواء الطريق ؟!

لاشك أنهما غير مستويين ؛ فذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ، ويعرف الهدى فيسلكه ، لا يستوى هو والكافر ، الذى أعرض عن الحق .

أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَتُ وَالنُّورُ .

أى : هل يستوى ظلام الكفر ونور الإيمان .

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ .

ترى أن الآية تلاحق المشركين بهذه الأسئلة فلا يجدون مناصا من الإذعان ، وكأنها تأخذ بتلابيبهم فى أسلوب تيكيتى تهكمى ، فتقول : هل خلقت هذه الأصنام مخلوقات كما خلق الله ، فتشابه الخلق على المشركين ، فلم يستطيعوا التمييز بين خلق الله وخلق آلهتهم ؟! فيكون لهم بعض العذر فى عبادة هذه الأصنام ، ولكن الأمر ليس كذلك : لأنهم جعلوا لله شركاء عاجزين لا يقدرين على شئ ، ثم بين فذللك لما تقدم ، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

أى : قل لهم أيها الرسول الكريم : الله تعالى هو الخالق لكل شئ فى هذا الكون ، وهو سبحانه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القَهَّار . لكل ما سواه ، والغالب لكل من غالبه .

★ ★ ★

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحَسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ ﴿١٨﴾

المفردات ،

أودية : جمع واد ، وهو كل منفرج بين جبال أو أكام . ويكون منفذا للسيل .

الزبد : ما يعلو وجه الماء كالرغوة .

وابسيا ، مرتفعاً فوق الماء .

الحلية ، ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

مستاع ، المتاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا : أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

جشأء ، مرمياً به ، يقال : جشأء الماء بالزبد : إذا قذفه ورمى به ، وجشأت القدر : رمت بزبدتها عند الغليان . استجابوا ، أجابوا بصدق .

الحسنى ، مؤنث الأحسن ، والمراد بها : المثوبة الحسنى ، وهى : الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

التفسير :

١٧- أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ...

تمهيد :

ضرب الله تعالى بهذه الآية مثلاً فى بقاء الحق ونقائه ، وهلاك الباطل وفنائه ، فدولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وقد يرتفع شأن الباطل إلى حين : لكنه لا أساس له ، قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . (إبراهيم : ٢٤-٢٦) .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ...

ضرب الله مثلاً للحق فى عموم فائدته ، وعظيم بركته بالماء الصافى الذى أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والأكام ؛ بحسب مقدارها فى الصغير والكبير ، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبداً عالياً ، مرتفعاً فوقه ، طافيا عليها ، وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر ؛ فالحق يشبه الماء ؛ فهو ينساب فى بطون الأرض ، ثم تحيا به الأرض ، وتثمر ما ينفع الإنسان والحيوان ، والباطل يشبه الرغوة التى تعلق فوق سطح الماء ؛ لكنها تضمحل وتزول وتنتهى .

وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ

أى : ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أو فضة ، وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص ؛ عندما يطرح الناس هذه المعادن فى النار ؛ لتصفيتها وصهرها ، وليتخذوا حلها تصنع من

الذهب والفضة ، أو أواني ينتفعون بها يصنعونها من الحديد والرصاص والنحاس ، وفي أثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زيد كزبد الماء في كونه رابيا فوقه ولا ينتفع به ، والزيد الذى يعلو فوق الماء ، ومثله الزبد الذى يعلو فوق المعادن عند صهرها : مثل للباطل ، لا ثبات له ولا دوام له أمام 'حق' .

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .

أى : مثل ذلك البيان البديع ، يضرب الله الأمثلة للحق والباطل إذا اجتمعا : بأن يبين : بأنه لا ثبات للباطل مهما علا وارتفع - مع وجود الحق - كما أنه لا ثبات للزيد مع الماء الصافى ، ولا مع المعادن النقية ، وتقدير الكلام : (كذلك يضرب الله مثل الحق ، ومثل الباطل) .

فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .

أى : فأما الزبد الذى يعلو السيل ؛ فيذهب فى جانبيه الوادى ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس ، يذهب ولا يرجع منه شيء ؛ وأما ما ينفع الناس من الماء الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والنحاس والرصاص ، فيمكث فى الأرض ، فالماء يُشرب بعضه ، ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأرض ؛ لينتفع به العيون والآبار والأفلاج ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلى والنقود ، ويؤخذ من بعضها الأواني وأصناف الآلات والأدوات ، والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ . أى : مثل ذلك البيان البديع الذى اشتملت عليه الآية الكريمة ، يضرب

الأمثال للناس فى كل باب ؛ حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها ، وطرق الباطل فيتركوها .

من أقوال العلماء

قال الإمام الشوكانى :

هذان مثالان لضربهما الله تعالى فى هذه الآية للحق والباطل يقول : إن الباطل وإن ظهر على الحق فى بعض الأحوال ؛ فإن الله تعالى سيمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأمله ، كالزيد الذى يعلو الماء فيلقيه الماء ، وكخبث هذه الأجسام ؛ فإنه وإن علا عليها ، فإن الكير يقذفه ويدفعه ، فهذا مثل الباطل .

وأما الماء الذى ينفع الناس ، وينبت المرعى ؛ فيمكث فى الأرض ، وكذلك الصافى من هذه الأجسام :

فإنه يبقى خالصا لا شوب فيه ، وهو مثل الحق .

وقال الزجاج :

(مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنفع به فى نبات الأرض ، وحياة كل شيء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ؛ لأنها كلها تبقى منتفعا بها .

ومثل الكافر وكفره ، كمثل الرُّيد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد ، وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى ينتفع به)^(٢٨) .

من الصحيحين

روى البخارى ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثل ما يعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبثت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ؛ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما يعثنى به ، ونفع به الناس فَعَلِمَ وَعَلِمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »^(٢٩) .

١٨ - لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ... الآية .

أى : الذين أجابوا داعى الله وآمنوا بالله وملأوكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، هؤلاء المؤمنين الطائعين لله ، لهم الحسنى وهى الجنة ، أو المنزل الحسنة فى الدنيا والآخرة .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُجْزَوْنَ أَلْفَ نَفْسٍ مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .

أى : إن الذين أعرضوا عن الحق ، وعاندوا واستكبروا وأصرروا على الباطل ؛ سينالهم عذاب رهيب أليم؛ يبتغون أن يفتدوا من عذاب الآخرة ، بكل غال ونفيس ؛ فلو أنهم يملكون ما فى الأرض جميعا من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدّموه افتداءً لأنفسهم ؛ ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب ونكال ، ولن يقبل ذلك منهم .

أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ . هو أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء .

وَمَا لَهُمْ حِمْيَرٌ مِمَّنْ هُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ كُفْرًا . إن مسكنهم جهنم وبنس الغرashed الذى أعدّوه لأنفسهم ، وبنس المستقر

الذى يستقرون فيه .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُ الْآلِيبِ ۚ ﴾ (١٩)

التفسير :

تأتى هذه الآية فى أعقاب مثل ضربه للحق والباطل : فالحق يشبه الماء والمعادن النفيسة الخالصة من الشوائب ، والباطل يشبه الرُّيد والرغوة التى تعلو فوق ماء السيل ، أو خبث المعادن الذى يرتفع فوقها عند صهرها .

وهنا يبين القرآن : أن المستفيد بضرب الأمثال ، هم أصحاب العقول المستنيرة ، والقلوب النظيفة الذين يؤمنون بالله ويستجيبون لداعى الهدى ، ولا يستوى أبداً البصير صاحب البصيرة ، والأعمى الذى انطمس بصره وبصيرته .

١٩ - أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ...

أى : أيستوى فى الجزاء مؤمن وكافر؟!

فالمؤمن استجاب للحق وآمن به وأشرق قلبه بالهدى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ . (الزمر: ٢٢) .

والكافر ضلَّ عن الحق ، وانطمست بصيرته ، فلم يستفد بأنوار الهداية ، ولم يسترشد بنور الرسالة المحمدية .

قال قتادة :

هوؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق ، فلا يبصره ولا يعقله .

إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَوَّلُ الْآلِيبِ . أى : إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ، ويصل إلى لبها وسرّها : أصحاب العقول السليمة ، والقلوب المشرقة بنور الإيمان .

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۖ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۖ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا زَكَاةً وَسَرَّوْا عِلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾

المضردات :

بِعَهْدِ اللَّهِ : بما عاهدوه عليه من الإيمان به ، والعمل بما أمرهم به في كتبه التي أنزلها إليهم .
وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ : المراد بالميثاق : ما أخذوه على أنفسهم من العهود نحو ربهم ، ونحو عبادته ، وقال القفال : وهو ما ركب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوات والشرائع ، ونقض الميثاق : عدم العمل به .

ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ : الابتغاء معناه : الطلب ، والمراد بالوجه : الذات .

وَيَذَرُونَ : أى : يدفعون .

عُقْبَى الدَّارِ : عاقبة دار الدنيا التي أعدت للصالحين - وهى الجنة .

التفسير :

٢٠- الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ .

مدح الله فى هذه الآيات المؤمنين أصحاب العقول المستنيرة أُولُوا الْأَلْبَابِ ، بصفات متعددة : فهم أوفياء بالعهود ، سواء أكانت بينهم وبين خالقهم : كإطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، أو بينهم وبين المخلوقين ، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف وتكريم : فالوفاء بالعهد صفة من صفات المؤمنين ، والعدر صفة من صفات المنافقين .

قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الناس اضمنوا لى ستا : أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانة إذا أوتنتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم »^(١) .

وروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »^(٢) .

وَلَا يَنْفُضُونَ الْمِيثَاقَ . لَا يفسخون العهود ، ولا يقطعون المواثيق ، التي التزموا بها بينهم وبين ربهم من الإيمان به وطاعته ، وبينهم وبين الناس ، من العقود كالتبعية والشراء ، وسائر المعاملات والعهود التي تعاهدوا على الوفاء بها .

قال تعالى : **وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا** . (البقرة: ١٧٧) .

والفقرة الثانية يمكن أن تكون تأكيداً لما جاء في الفقرة الأولى ، أو هي من باب النعيم بعد التخصيص لتشمل عهودهم مع الله تعالى ، ومع غيره من عباده .

٢١- **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ...**

أى: إن من صفات أولى الألباب: أنهم يصلون كل ما أمر الله بوصله ، كصلة الأرحام ، وإفشاء السلام ، والإحسان إلى المحاويع ، وذوى الخلّة منهم ، بإيصال الخير إليهم ، ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من سرّه أن يبسط له فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله ؛ فليصل رحمه »^(١٧) .

ويدخل فى ذلك جميع حقوق عباد الله تعالى ، ووصل قرابة المسلمين بسبب الإيمان ، كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومرعاة حق الأصحاب والخدم والجيران ، والرفقة فى السفر إلى غير ذلك .

وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ .

أى: يخافون الله خوف إجلال ومهابة وتعظيم : قال تعالى : **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** . (فاطر: ٢٨) .
أى: أن العلماء هم أقدر الناس على معرفة قدرة الله وعظمته وجلاله ؛ فهم أهل خشيته وإجلاله وتعظيمه وتوقيره .

وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . أى: يخافون مناقشة الله لهم الحساب ، وتذكيرهم بذنوبهم ، وعدم الصفح عن سيئاتهم ، فيحملهم ذلك على أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .

٢٢- **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .**

تستمر هذه الآية مع ما سبقها فى وصف أولى الأولياء : فهم صابرون على البأساء ، راضون بالقضاء ، والصبر على المكاره جزاءه عظيم ، وقد ذكر الصبر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعاً ،

وهو أنواع : منه : الصبر على الطاعات ، ومنه : الصبر عن المعاصي ، ومنه : الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، فهم صابرون ابتغاء وجه الله ، أى : رغبة فى ثوابه ، لا خوفا من شمانية الشامتين ، كما قال الشاعر:

وتجلى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعض

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ . أى : أدوا الصلاة فى أوقاتها محافظين على خشوعها وخضوعها .

وَأَلْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .

فهم ينفقون سراً حيث يكون السر أفضل ، مثل: صدقة التطوع ، ومثل: الصدقة على كرام الناس المتعطفين تجملاً ، ومن يزعمهم الصدقة عليهم فى الملأ ؛ وينفقون علناً فى أداء الفريضة ، وعند التسابق؛ ليقبلى بهم غيرهم ، أى : أنهم حكماء فى تصرفهم ، ينفقون فى جميع الأحوال ، وحسب ما تقتضيه الحكمة .

وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ . أى : يقابلون إساءة من أساء إليهم بالإحسان إليه ، إذا كان ذلك من الحكمة: كما قال عز شأنه : وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . (فصلت: ٣٤) .

وقد أباح الإسلام مقابلة السيئة السيئة : إذا كان المسىء لثيماً لا يردعه إلا العقوبة ، أما إذا كان المسىء كريماً فالصفح أنسب ، قال تعالى : وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ . (الشورى : ٤١) .

وذكر بعض المفسرين : أن الآية تشير إلى اتباع السيئة بالحسنة ، أو الاستغفار والتوبة : فى أعقاب الذنب .

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ . أى : حسن الجزاء من العاقبة ، وهو دخول الجنة فى الآخرة .

قال تعالى : وَلِلَّكَ الْجَنَّةُ أَوْرَشُومُهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

والجملة الكريمة خبر عن الذين يوفون بعهده الله ... وما عطف عليها .

﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ۝﴾

المضردات :

جَنَّاتِ عَدْنٍ ، العدن فى اللغة : الإقامة ، ومنه عدن بالمكان ، أى : أقام به ، وفى عرف الشرع : اسم لجنة من جنات الآخرة ، والمراد هنا : المعنى الأول ، أى : جنات إقامة ، فهم يقيمون فيها لا يبرحونها.

سلام عليكم ، أمان لكم من المحن ، والآفات .

التفسير :

٢٣ - جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ .

تأتى هذه الآية بمثابة التوضيح والتفصيل لحسن عاقبة هؤلاء المؤمنين .

أى : هؤلاء الذين قدموا فى دنياهم ما قدّموا : من الوفاء ، وصلة الرحم ، وخشية الله ، والصبر الجميل ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإخراج الصدقة ، ومقابلة السيئة بالحسنة : لهم حسن العاقبة فى الجنة ، ثم وضح نعيم هذه الجنة : فيبين : أنها جنات عدن ، أى : إقامة دائمة باقية ، يدخلونها هم ومن كان صالحا لدخولها من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، أى : من أصولهم وفروعهم وأزواجهم : على سبيل التكريم والزيادة فى فرحهم ومسرّتهم .

وفى الآية إشارة إلى العدالة والفضل الإلهى ، فهؤلاء الأقارب لا يدخلون الجنة : إلا إذا اشتروا فى الصلاح والعمل الصلاح : فإذا كانوا قَصُرُوا عن أقاربهم الأغلوّن : جاء فضل الله فرفع الأذى إلى منزلة الأعلى ، ولا ينقص الأعلى شيئا من درجته ومنزلته ، قال تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

وزيادة فى تكريم هؤلاء المؤمنين : فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبواب منازلهم فى

الجنة ، وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ .

٤- سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

أى : تقول لهم الملائكة : سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .

أى : أمان عليكم من المكارِه والمخاوف التى تحيق بغيركم ؛ بسبب صبركم على مشاق الحياة ومتاعبها وآلامها ؛ كأنهم يقولون لهم : لنن تعبتم فى الدنيا ؛ فقد استرحتم ونعمتم وسعدتم فى الآخرة .

فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ . فنعم عاقبة الدنيا ؛ الجنة ، وفيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، أخرج ابن جرير : أن النبى ﷺ كان يأتى على قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم .

من مسند الإمام أحمد

روى الإمام أحمد - بسنده - عن عبد الله بن عمرو بن العاص : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرّون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله ، الفقراء والمهاجرون ، الذين تُسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارِه ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله لمن يشاء من ملائكته : انتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفأتمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ ، قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى ؛ لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارِه ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره ، فلا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتىهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ، سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ .^(١٧) »

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ (٢٦)

المفردات :

ينقضون عهد الله : المراد بعهد الله : ما أوجب عليهم من طاعته ، وينقضه عصيانه .

من بعد ميثاقه : من بعد توثيقه وتوكيده .

اللعنة، الطرد من رحمة الله .

سوء السدار ، أى : سوء عاقبة الدار الدنيا ، أو هو : من إضافة الصفة للموصوف ، أى : الدار السيئة ، وهى : جهنم فهى دارهم ومأواهم - ويشت الدار والمأوى .

يسسط الرزق ، يوسعه .

ويقتدر ، يضيق .

متاع ، شئ قليل يتمتع به ، كزاد الراكب .

التفسير :

٢٥- وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ... الآية .

من عادة القرآن أن يقابل بين الحق والباطل ، وبين المؤمنين وصفاتهم الحسنة ، والكافرين وصفاتهم المردولة : فلما ذكر المؤمنين بوفائهم العهد ، وصلتهم الرحم ؛ بين هنا : أَنَّ الكافرين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ونقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به .

مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ . من بعد أن وثقوه وأكدوا التزامهم به ، وعهد الله : هو ما أخذه الله على بنى آدم من الإيمان بالله تعالى ، أو ما ركبه فيهم من العقول ، ودعاهم إلى التأمل فى ملكوت السماوات والأرض ؛ ليتبينوا قدرة الخالق وعظمته ، أو يرتكبون المنكرات ، ويعصون أوامر الله تعالى .

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ .

أى : يقطعون كل ما أوجب الله تعالى وصله ، ويدخل فيه وصل الرسول محمد ﷺ ؛ بالاتباع والموالة ، ووصل المؤمنين ؛ بالمودة والمحبة والمعاونة ، ووصل أولى الأرحام ؛ بالتعاطف والتعاون ؛ فالجمله بيان لحال هؤلاء الأشقياء : بأنهم كانوا على الضد ، من أولئك الأوفياء الأخيار ، الذين كانوا يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . بالظلم وإثارة الفتن وإشعال نار الحرب ؛ فهم عنصر شرير وراء كل فساد .

أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ . أى : هؤلاء لهم الطرد من رحمة الله .

وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . أى : جهنم فليس فيها إلا ما يسوء أهلها ويشت دار ومقرًا .

٢٦- اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ...

فهو سبحانه حكيم عليم بما يناسب عباده ، وليس سماع الرزق كرامة ، ولا نقصانه إهانة : فالأنبياء والأولياء كانوا أكثر بلاء وأشد امتحانا في هذه الدنيا ، وقد نزلت هذه الآية في أهل مكة ، وكانوا على جانب من الغنى والمال ، فنزلت هذه الآية تنهاهم عن الفرح والبطر ، والغرور بالحياة الدنيا : لأنها إلى زوال .

وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ .

اي : فرح اهل مكة بما احرزوا من المال والجاه ، ولم يعملوا لما بعد هذه الحياة ، مع أن متاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة دائم مستمر ، وليس متاع الدنيا في جانب متاع الآخرة إلا شيئاً قليلاً ، وليس له بقاء ، كعجالة الراكب وزاد الراعى .

أخرج الترمذى وصححه : عن عبد الله بن مسعود ، قال : نام رسول الله ﷺ على حصير : فقام ، وقد أثر في جنبه ، فقلنا : يا رسول الله : لو اتخذنا لك وطاءً ، فقال : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » (٢٦) .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ ﴾ (٢٧) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢٨) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَشْرَفُ ﴾ (٢٩) ﴿

المضردات :

ممن أناب : من رجع إلى الحق .

تطمئن قلوبهم : تستقر وتستريح وتستأنس .

طوبى لهم : قال الزجاج : طوبى : فُعْلَى : من الطيب ، وهى : الحالة المستطابة لهم . وقال ابن عباس : فرح لهم وقرّة عين . وقال قتادة : حسنى لهم ، إلى غير ذلك من المعانى التى ترجع إلى

ما ذكره الزجاج ، وقيل : هى : اسم للجنة ، أو لشجرة فيها .

وحسن ما أشرف : وحسن مرجع .

التفسير :

٢٧- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ...

لازال الحديث متصلاً في شأن أهل مكة ، والمراد بهم : عبد الله بن أمية وأصحابه ، حين طالبوا النبي ﷺ بالآيات الكونية : فقد اقترح مشركو مكة على النبي ﷺ ، أن يأتي بآيات ومعجزات حسية كناقاة صالح ، وعصا موسى ونحو ذلك ؛ من الآيات الحسية الملموسة .

قال تعالى : وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعِنَبٌ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالِ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ حَتَّى نُنْزِلَ عَلَيْنَا مَكِّئًا تَفَرَّقُوا فُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٤)

والمعنى : يقول الذين كفروا من أهل مكة : هلاً أنزل على محمد معجزة ملموسة ، مثل : تحويل الصحراء إلى بساتين كأرض الشام ، أو إحياء جذعهم قصي ، أو سقوط السماء عليهم كسفاً ، أو تحويل الصفا ذهباً ، أو تفجير ينابيع المياه في مكة وما حولها ، أو أن يمتلك محمد بيتاً من ذهب ، أو يصعد إلى السماء ويعود ومعه كتاب من الله يفيد : أن محمداً رسول حقاً ، أو يأتي بالله والملائكة جميعاً أمامهم ؛ ليشاهدوهم ، وغير ذلك من الآيات التي تفيد : تعنت المشركين ؛ لأنهم لم يستخدموا عقولهم ، ولم يفتحوا قلوبهم ؛ ليتدبروا أن هذا الذي أرسل إليهم بشر مثلهم ، يوحى إليه بوحى فمن اهتمدى به ؛ آمن ، ومن أعرض عنه ؛ جحد وكفر ، ولن يفيد الكافرين كثرة الآيات ، ولا حجم المعجزات ، مادامت قلوبهم تصرّ على الجحود والإعراض ، قال تعالى : وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالذُّرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . (يونس : ١٠١) .

وقال سبحانه : وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام : ١١١) .

قُلْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ .

إن هداية السماء تحتاج إلى إقبال وتفتح ، ورغبة في المعرفة والفهم ، وتبصر في حقيقة الإيمان ، فمن أعرض عن الهدى ، واختار الضلال والكفر ؛ سلب الله عنه أسباب الهداية ، وتركه في حيرة وضلال ، ومن اختار أسباب الهداية ؛ يسر الله له الهدى ؛ لأنه رجع عن العناد ، وأناب إلى الله وتبصر في وحيه ودعوته ،

أى : قل لهم يا محمد : إن الله يضل الكافرين : لإعراضهم ، ويهدى إلى دينه ، مَنْ أَنَابَ ، أى : رجع إليه وسلك سبيله ، ثم بين حال من أَنَابَ إليه فقال :

٢٨- الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

تمهيد :

اشتمل القرآن الكريم على عدد من المعجزات ، منها : الإخبار عن الأمم السابقة ، وبيان : نواويس الكون ، ونواويس الله فى خلقه ، ونواويس الاجتماع البشرى ، وأشار إلى طائفة من المعارف والعلوم ، وقَدَّمَ نموذجاً رائعاً من الآداب والهداية والتشريع ، وأشار إلى نصر الروم ، وانتشار الإسلام ، ومع هذا طلب الكفار معجزات مادية : فبين الله : أن الإعراض عن هداية القرآن : هو الضلال الذى يضلَّ الله به من أعرض عنه ، والهداية بالقرآن والاستمسك به : هو الهدى الذى يهدى به الله من أَنَابَ إليه من المؤمنين .

والمعنى : من أَنَابَ إلى الله هم المؤمنون ، الذين استجابوا لداعى الإيمان فآمنوا ، وإذا تلى عليهم القرآن : زادهم إيماناً واطمئناناً ؛ فقلوبهم تستروح بذكر الله ، وتلاوة القرآن والحديث عن الإيمان .

أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ .

بتذكر عظمة الله ، وتلاوة كتابه ، تطمئن القلوب ، ويحول عنها القلق والاضطراب : بما يفرضه عليها من نور الإيمان ، وهداية الرحمان ، التى تذهب الهلع والوحشة .

وذكر الله يمكن أن يطلق على : القرآن الكريم ؛ فهو ذكر وأعظم ذكر ، فكل حرف منه له ثواب عشر حسنات ، قال تعالى : وَهَلْ ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . (الأنبياء : ٥٠) ، وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩) .

ويمكن أن يراد به : التسبيح والتحميد والتهليل ، قال تعالى : وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥) .

ويمكن أن يراد به : ما يشمل القرآن ، والذكر ، وتذكر عظمة الله وجلاله .

٢٩- الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَا أَجَبَ .

جاءت هذه الآية : لتبشیر المؤمنين الذين اطمأنت قلوبهم للإيمان والقرآن وذكر الله .

والمعنى : الذين آمنوا بالله وبالنبي ، وعملوا الأعمال الصالحة : لهم فى آخرتهم عيش طيب ، وخير كامل ، ومراجع حسن حين يرجعون إلى ربهم وخالقهم ، أو طُوبَى لَهُمْ . الجنة لهم ؛ ينعمون فيها بكل ما يشتهون ، كما جاء فى الحديث : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٢٠).

★ ★ ★

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

التفسير :

٣٠- وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... الآية .

أى : كما أرسلنا المرسلين قبلك يا محمد أرسلناك فى أمة قد سبقتها أمم أرسلت إليهم رسل ، فليست بدعا فى رسالتك إلى امتك ، كما قال سبحانه : قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف: ٩) .

وقيل : الإشارة راجعة إلى إرسال محمد مؤيدا بالقرآن ، فكأنه قيل : مثل هذا الإرسال العظيم المؤيد بالقرآن أرسلناك يا محمد فى أمة قد خلت من قبلها أمم .

وخلاصة المعنى : إننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك ، وأعطيناهم كتبنا تتلى عليهم ، أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب ؛ لتتلوه عليهم فلماذا يقترحون غيره ؟

وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ أَى : أرسلناك لتتلو عليهم كتاب الله ، داعيا لهم إلى الهدى ، والحال والشأن أنهم يكفرون بمن أحاطت بهم نعمه ، وشملتهم رحمته ، حيث أرسلك إليهم ؛ رحمة بهم ، قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء: ١٠٧) .

قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . أَى : قل لهم : إن الرحمان الذى كفرتم به هو ربى وخالقى ، لا ربَّ غيره ولا معبود سواه ؛ فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ . على الله وحده توكلت واعتمدت فى جميع أمورى ، وإليه وحده توبتى وإنابتى .

وفى معنى هذه الآية ورد قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا . (الإسراء: ١١٠) .

« وقد ثبت فى الحديث الصحيح : أنهم لم يرضوا بكتابة : الرحمن الرحيم فى صلح الحديبية ؛ فعندما قال ﷺ لعلى : « اكتب : باسم الله الرحمن الرحيم » : قال أحد زعمائهم : ما ندرى ما الرحمان الرحيم ، اكتب : باسمك اللهم ؛ فقال الصحابة للنبي ﷺ : دعنا نقاتلهم ! قال : « لا ، اكتبوا كما يريدون »^(٩١)

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِّغَ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٢٣﴾

المضدرات ،

سيرت به الجبال ، أزيلت من أماكنها .

ييسس : بمعنى : يعلم ، كما حكاه القشيري عن ابن عباس ، وذكره بهذا المعنى الجوهري فى الصحاح ، ويرى هذا الرأى مجاهد ، والحسن ، وأبو عبيدة ، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمالك ابن عوف النصرى :

أقول لهم بالشعب إذ ييسرونى : ألم تيسسوا أنى ابن فارس زهدم

وييسرونى من الميسر - ويروى : يأسرونى من الأسر - انظر القرطبي : وقال رباح بن عدى :

ألم ييسس الأقوام أنى أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائبا

وهو بهذا المعنى فى لغة النخع - كما حكاه الفراء عن الكلبي - انظر القرطبي - وقيل :

فى لغة هوازن ، كما قاله القاسم بن ميعن ، وسيأتى لذلك مزيد بيان فى التفسير .

قارصة ، مصيبة من قرعه : إذا أصابه ، والأصل فى القرع : الضرب ؛ فكأنها إذ تصيبهم ؛ تدق قلوبهم وتضربها .

التفسير :

٣١- وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا ... الآية.

جاء في تفسير الطبري وابن كثير والشوكاني وغيرهم :

ما روى عن ابن عباس : أن نفرا من قريش قالوا للنبي ﷺ : إن سرك أن نتبعك ؛ فسير لنا جبال مكة بالقرآن ، فأنهبا عنا ؛ حتى تتسع أرضنا الضيقة ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا ؛ حتى نغرس ونزرع ، فلست بأهون على ربك من داود حين سخر له الجبال تسير معه ، وسخر لنا الريح فنركبها إلى الشام ؛ نقضى عليها حوائجنا ثم نرجع من يومنا ؛ فقد سخرت الريح لسليمان ، وأرنا أنشياخنا الأول من الموتى ؛ نكلهم ونسألهم ، أحق ما تقول أم باطل ؛ فإن عيسى كان يحيى الموتى ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والآيات التي قبلها ؛ للرد عليهم ^(٣١) ، وجواب لو محذوف يفهم من السياق .

والمعنى : لو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال .

أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ . أى : شققت وجعلت أنهارا وعيونا .

أَوْ كُتِبَ بِهِ الْمَوْتُ . أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم ؛ بأن أحياءهم بقراءته فتكلم معهم .

لو أن كتابا مقروءا كان من وظيفته أن يفعل ذلك ؛ لكان هذا القرآن ؛ لكونه مشتملا على الغاية القصوى فى الهداية والتذكير ، والترغيب والترهيب .

والمقصود : بيان عظمة القرآن ، وأن من شأنه أن يرقق القلوب وأن يهدى النفوس ، وأن يصلح الأفراد والجماعات كما قال عز شأنه : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر: ٢١) .

ويجوز أن يكون المعنى :

لو أن كتابا فعلت بواسطته هذه الأفاعيل العجيبة : من إحياء الموتى ، وزحزحة الجبال ؛ لما آمنوا ؛ لفرط عنادهم ، وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ . (الأنعام: ١١١) .

بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا .

أى : أن الله قادر على أن يأتي بمثل هذه الآيات التى اقترحها المشركون ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك : لأنها اقتراحات صادرة عن التشهى والهوى ، والتمادى فى الضلال ، والمكابرة والعناد ، ولو أُجيبوا إلى مقترحاتهم : لكفروا وكذبوا وعاندوا .

أَفَلَمْ يَأْتِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا .

أى : أفلم يعلم ويتبين ويتيقن الذين آمنوا : أن الله لو شاء هداية الناس أجمعين : لهداهم من غير أن يشاهدوا الآيات : لكنه لم يشأ ذلك ليتميز الخبيث من الطيب .

ويجوز أن يكون المعنى :

أَفَلَمْ يَأْتِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا . من إيمان جميع الخلق ، ويعلموا ويتبينوا : أن الله لو شاء هداية الناس جميعا : لفعل ، ولكنه جعل سبيل الهداية إلى الحق اختيار العبد وفعله ، بعد أن يسر الله له أسبابها وأزاح موانعها .

ذكر السيوطى فى تفسيره : أن بعض الصحابة قالوا للرسول ﷺ : اطلب للمشركين ما اقترحوه : عسى أن يؤمنوا . اهـ .

لقد مرت البشرية بأطوار سابقة ، وجاءت بعض الرسل بمعجزات مادية ملموسة : كناقاة صالح ، وعصا موسى التى ضرب بها الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان عيسى يشفى المرضى بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله .

وفى رسالة الإسلام الخالدة ، ورسالة النبى الخاتم محمد ﷺ ، أراد الله أن تكون المعجزة التى تم بها التحدى والإعجاز : القرآن الذى اشتمل على صنوف البلاغة ، وألوان الإعجاز والهداية والبيان ، وأخبار السابقين ، ونواميس الكون ، وسبل التقدم .

صحيح : أن النبى ﷺ كانت له معجزات فى مكة والمدينة ، مثل : الإسراء والمعراج فى مكة ، ومثل : نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الطعام فى الجيش ، وشفاء بعض المرضى فى المدينة ، لكن ذلك لم يكن على سبيل التحدى .

كان القرآن وحده هو المعجزة الخالدة ، التى تحدى بها الله العرب والعجم والناس أجمعين ، وسيظل معجزة خالدة إلى يوم الدين ، مع أن المعجزات السابقة لم يشاهدها إلا أهلها ، وكانت أمراً خارجاً عن

الرسالة : لكن هذا القرآن يشاهده الناس الآن وغداً إلى ما شاء الله ، والقرآن فى نفس الوقت هو عين الرسالة وحقيقتها ، وهو الدليل على صدقها .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »^(٨٧) .

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ .

ولا يزال الذين كفروا تصيبهم البلياء والرزايا ؛ والقوارع التى تقرر القلوب بأهوالها . وفى هذا إشارة إلى ما نزل بهم فى غزوة بدر وغيرها من الأسر والقتل .

أَوْ تَحُلُّ قَرِيْبًا مِّنْ دَارِهِمْ . كما حدث فى صلح الحديبية : فقد كانت سببا فى تقدم الإسلام ، وزلزلة أقدام المشركين .

حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ . بفتح مكة أو انتصار الإسلام ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

إن الله سبحانه منجز وعده لرسوله وللمسلمين بالنصر ، قال تعالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . (إبراهيم : ٤٧) .

من تفسير الطبرى

قال أبو جعفر : فتأويل الكلام إذا : ولو أن قرأنا سوى هذا القرآن كان سيرت به الجبال : لسير بهذا القرآن ، أو قطعت به الأرض ، لقطعت بهذا ، أو كلم به الموتى ؛ لكلم بهذا ، ولكن لم يفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيفعل بهذا ، بل لله الأمر جميعاً . يقول : ذلك كله إليه وبيده ، يهدى من يشاء إلى الإيمان فيوفقه له ، ويضل من يشاء فيخذله .

أفلم يتبين الذين آمنوا بالله ورسوله ، إذ طمعوا فى إجابتى من سأل نبيهم : تسير الجبال عنهم ، وتقريب أرض الشام عليهم ، وإحياء موتاهم ، أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا إلى الإيمان ، من غير إيجاد آية ، ولا إحداث شئ مما سألوا إحداثة ؟! يقول تعالى ذكره : فما معنى محبتهم ذلك ، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إلى ويدي ، أنزلت آية أو لم أنزلها ، أهدى من أشاء بغير إنزال آية ، وأضل من أردت مع إنزالها^(٨٨) .

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۚ﴾ (٢٣) أَفَمَنْ هُوَ أَقْبَرُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۚ﴾ (٢٤) هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢٥﴾

المعزجات ،

فأملت للذين كفروا ، أى : أمهلتهم وتركتهم ملاوة من الزمان دون عقاب .

فأنهم على كل نفس ، رقيب ومهين عليها .

التفسير :

٣٢ - وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ رُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

تأتى هذه الآية فى أعقاب طلب كفار مكة من النبى ﷺ ، عدداً من الآيات المادية على سبيل السخرية والاستهزاء ، والتعنت والعناد ، حيث طلبوا : زحزحة الجبال عن مكة ، وتفجير عيون الأرض ، وإحياء الموتى ، فقال الله لنبيه : لا تحزن ولا تبتئس من تعنت هؤلاء المشركين ، فكثيرا ما سخر الكافرون من المرسلين قبلك .

قال تعالى عن نوح : وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ بِآيَاتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ . (هود : ٣٨ ، ٣٩) .

فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا . أى : أمهلتهم وتركتهم مرة من الزمان فى أمن ودعة .

ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ . أى : أحللت بهم عذابى ونقمتى حين تمادوا فى غيهم وضلالهم : فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ . فانظر

كيف كان عقابى إياهم حين عاقبتهم ، ألم أنقهم أليم العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ (٣٠) .

وقد عقب ابن كثير على تفسير هذه الآية بقوله :

ومثل هذه الآية قوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ . (الحج : ٤٨) .

وفى الصحيحين : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود: ١٠٢).

٣٣- أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ... الآية .

هذا الاستفهام إنكارى وجوابه محذوف دل عليه السياق ، والمراد من الآية : الإنكار على الكفار اتخاذ الشركاء لله ، وعبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع ، وقد ترقى القرآن فى مناقشتهم فى هذه الآية ، فبدأ بهذا الاستفهام الإنكارى : أَفَمَنْ هُوَ قَاتِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، أى : حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير أو شر ولا تخفى عليه خافية ، فهو سبحانه : يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) ، وهو مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (الحديد: ٤) ، أفمن كان كذلك يشبه الأصنام التى لا تسمع ولا تنفع ولا تجيب ؟

والمراد : نفى المماثلة بين الخالق الرازق النافع المحيى المميت ، وبين الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ . أى : قل لهم أيها الرسول : اذكروا أسماءهم وصفاتهم التى جعلتهم فى نظركم يستحقون العبادة مع الله .

أَمْ تَتَّبِعُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ . أى : بل أتخبرون الله بشركاء زاعمين : استحقاقها للعبادة ، وهو لا يعلمها فى أرضه ، مع أنه العليم بكل شئ ، ولا تغيب عن علمه ذرة فى الأرض ولا فى السماء أَمْ يَظْهَرُ مِنَ الْقَوْلِ . بل أتخبرونه عن ألوهيتها بظاهر من القول ليس له حقيقة واقعة ، وليس نه ظل فى الخارج ، فكلماكم قول باطل كاذب ، تقولونه بأفواهكم فقط ، وليس لله شريك أبداً .

بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ .

وبل هنا للإضراب ، وتلمح هنا التدرج فى الإضراب على اللطف وجه ؛ فبعد أن عدت الآية عدداً من الأساليب البديعة على ضلال الكافرين ، وانتقلت من الخبر إلى التحدى بتسمية الشركاء ، إلى الاستفهام الإنكارى ، انتقلت إلى بيان حقيقتهم فقالت : دع عنك أيها الرسول مجادلهم ؛ لأنه لا فائدة من ورائها ؛ فإن هؤلاء الكافرين قد زين لهم الشيطان مكروهم ، وكيدهم للإسلام وأتباعه ، كما أن رؤسأهم فى الكفر شجعوهم على هذا الباطل ، وصدوهم عن السبيل الحق ، وعن الصراط المستقيم .

وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . أَيْ : مَنْ يَسْلُبْ عَنْهُ الْهُدَى بِسَبَبِ ضَلَالِهِ وَإِعْرَاضِهِ : فَلَنْ يَجِدَ هَادِيًا يَهْدِيهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلُكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . (المائدة: ٤١) ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ : إِنْ تَخْرِصْ عَلَىٰ هَذَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . (النحل: ٢٧) .

٣٤- لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ .

يُعَذِّبُ اللَّهُ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا عَنْ طَرِيقِ الْقَوَارِعِ وَالْمَصَائِبِ الَّتِي يَنْزِلُهَا اللَّهُ بِهِمْ ، وَعَنْ طَرِيقِ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ بِيَدِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ . إِنْ عَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَأَصْعَبُ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا : فَهُوَ أَبَدِيٌّ سَرْمَدِيٌّ لَا نِهَايَةَ لَهُ .

وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ . أَيْ : لَيْسَ لِهَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَحَدٍ يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ . أَوْ يَحْفَظُهُمْ وَيَعْصِمُهُمْ مِنْهُ ، لَا حَمِيمٌ وَلَا وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ .

★ ★ ★

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ (٣٥)

المضردات :

مَثَلُ الْجَنَّةِ : المَثَلُ هُنَا بِمَعْنَى : الصِّفَةُ الْعَجِيبَةُ . وَأَصْلُهُ بِمَعْنَى : الشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ .

أَكُلُهَا دَائِمٌ : أَيْ : ثَمَرُهَا بَاقٍ لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُطِعُ .

عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا : أَيْ : مَالُهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ .

التفسير :

٣٥- مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... الآية .

صفة الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين ، الذين راقبوه وأطاعوا أمره واجتنبوا معاصيه ، هذه الجنة جزاء جميل بديع للأتقياء ، ومن صفتها : أن الأنهار تجري من تحت أشجارها وقصورها ، وتتحرك الأنهار حسب ما يشاء أهل الجنة : قَالَ تَعَالَى : عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . (الإنسان: ٦) .

وفى الجنة : أنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، قال تعالى : فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد: ١٥) .

ومن صفة الجنة : أَنْ أَكُلُهَا^(٣٦) ذَائِمٌ وَظِلُّهَا ، أى : ثمرها باق لا ينقطع ، مع اعتدال مناخها ، وطيب هوائها ، قال تعالى : لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُفُوفُهَا تَذَلُّلًا . (الإنسان: ١٣ ، ١٤) .

بَلْكَ عَقَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعَقَى الْكَافِرِينَ النَّارُ .

أى : تلك الجنة الموصوفة بما ذكره هى : مآل المتقين الذين استقاموا على طريق الحق والإيمان ، أما مآل الكافرين بالله ورسوله ؛ فعاقبتهم النار ، ويئس القرار .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٦﴾﴾

المفردات :

الكتاب : المراد به هنا : التوراة والإنجيل .

الأحزاب : الجماعات القوية والأقوام المتشابهون فى ميولهم وعقائدهم .

مساب : مرجع ومصير .

التفسير :

٣٦ - وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ...

تكلم سبحانه عن ثواب المؤمنين وعقوبة الكافرين فيما سبق ، وفى هذه الآية تحدث عن فريق ثالث وهو أهل الكتاب ، والمراد بهم : اليهود والنصارى ، الذين آمنوا بالنبي ﷺ ، فكانوا يفرحون بنزول القرآن على النبي ﷺ ؛ لأنهم يرونه مطابقا لما عندهم فى التوراة والإنجيل .

قال تعالى : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . (البقرة: ١٢١) ، وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران .

وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُبْكَرُ بَعْضُهُ . أَيْ : الَّذِينَ تَحْزَبُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بِالْعِدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَهُمْ : الْمُشْرِكُونَ ، وَالْيَهُودُ ، وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا بَعْضَ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ مَا لَمْ يُوَافِقْ مَا حَرَّفُوهُ مِنْ كُتُبِهِمْ وَشَرَائِعِهِمْ ؛ كَكُفِّ بْنِ الْأَشْرَفِ ، وَالسَّيِّدِ وَالْعَاقِبِ : أَسْقَى نَجْرَانٍ وَأَشْيَاعَهُمْ .

قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ .

أَيْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ فِيمَا أَوْحَى إِلَيَّ مِنَ الْقُرْآنِ : أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلَا أُشْرِكَ بِعِبَادَتِهِ أَحَدًا سِوَاهُ ، وَهَذَا مَا لَا سَبِيلَ إِلَى إنْكَارِهِ ؛ فَهُوَ أَمْرٌ اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الشَّرَائِعُ وَالْمِلَلُ ، الْمَقْتَدِيَّةُ بِالرَّسْلِ .

قَالَ تَعَالَى : قُلْ يَتَاهُلُ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . (آل عمران : ٦٤) .

وَذَلِكَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ الْأَفَاقِ وَالْاكتِشَافَاتِ الْعِلْمِيَّةِ ، الَّتِي ذَكَرْتُ : أَنَّ هَذَا النِّظَامَ الْمَذْهُلَ ، فِي الْأَفَاقِ وَالْأَفْلاكِ وَالْمَجَرَّاتِ وَالْكَوَاكِبِ ؛ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ فِي يَدِ اللَّهِ وَتَدْبِيرِهِ .

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ

إِلَيْهِ أَذْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِرُ . أَيْ : إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، أَدْعُو جَمِيعَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَتَنْزِيهِهِ عَنْ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ؛ فَلِذَلِكَ لَا أَقَرُّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ اتِّخَاذِ الْيَهُودِ عَزِيرًا ابْنًا لِلَّهِ ، وَاتِّخَاذِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنًا لِلَّهِ .

وَإِلَيْهِ مَقَابِرُ . وَإِلَيْهِ وَحْدَهُ مَرْجِعِي وَمَصِيرِي وَمَصِيرِكُمْ لِلْجَزَاءِ .

قَالَ تَعَالَى : إِنْ إِلَى إِلَهِ رَبِّكَ أَلْزَمْتِي . (العلق : ٨) .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِثْرٍ وَلَا أَفِئَّةٍ ﴾ (٢٧)

المفردات :

أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، أَيْ : أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ حَاكِمًا لِلنَّاسِ فِي قَضَائِيَاهُمْ بِلِسَانِ الْعَرَبِ .

وَلَا وَثْرٍ وَلَا أَفِئَّةٍ ، أَيْ : وَلَا حَافِظَ . مِنْ وَقَاهُ ، يَقِيهِ وَقَايَةً ، أَيْ : حَفِظَهُ .

التفسير:

٣٧ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ... الآية .

أى : وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتاب بلغاتهم وألسنهم : أنزلنا عليك القرآن مستملا على فضيلتين :

حُكْمًا . أى : بيان الأحكام والشرائع ، التى يحتاج إليها المكلفون وتقتضيهما الحكمة .

عَرَبِيًّا ؛ ليفهمه قومك ، ويسهل عليهم معرفة معانيه والرجوع إليه فى الأحكام ، وهو شرف ورفعة لهم ، كان الأولى أن يقابلوه بالقبول والتصديق ، بدلا من الرفض والتكذيب ، فلو أنزل القرآن على جبل لخشع ، ولان لسماعه ، وقد سمعته الجن : فقالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . (الجن: ١ ، ٢) .

وفى معنى الآية بين الله : أن القرآن كتاب عربى ، يشرّف هذه الأمة ويعلى شأنها قال تعالى : وَإِنَّهُ لَلْكِتَابُ لَكَ وَقُرْآنُكَ وَسَوْفَ يُسْمَعُونَ . (الزخرف: ٤٤) ، وقال عز شأنه : لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء: ١٠) ، أى : فيه مجدكم وعزتكم وشرفكم .

وَلَكِنْ اتَّبَعِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ . أى : إذا اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب : ابتغاء رضاهم ، كالتوجه إلى بيت المقدس ، بعد تحويل القبلة ، أو عبادة آلهتهم يوما : ليعبدوا إلهك يوما مثله .

مَالِكٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ . أى : ليس لك من دون الله وَلِيٌّ يلى أمرك وينصرك وَلَا وَاقٍ يقيك عذابه إن أراد عذابك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم أو تنهج نهجهم ، والخطاب هنا للنبي ﷺ ، والمراد : أمته ، وفى هذا وعيد للعلماء : إن هم حادوا عن الطريق ، واتبعوا سبل أهل الضلالة .

جاء فى تفسير المراعى :

ومثل هذا الخطاب من باب : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) ، فهو إنما جاء : لقطع أطماع الكافرين ، وتهيج المؤمنين على الثبات فى الدين .

وقال الدكتور/ محمد طنطاوى فى التفسير الوسيط :

فكانه سبحانه يقول: لو اتبع أهواءهم - على سبيل الغرض - أكرم الناس عندي ؛ لعاقبته ، وأحق بهذا العقاب من كان دونه فى الفضل والمنزلة ، وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (الزمر: ٦٥) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (٣٨)

المضردات :

لكل أجل كتاب ، الأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد ؛ حسب ما تقتضيه الحكمة .

التفسير :

٣٨- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ... الآية .

أرسل الله الرسل من البشر ومن شأن البشر أن يتزوجوا ويولد لهم الولد قال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ . (الفرقان: ٢٠) . ومن مقتضى هذه البشرية : إتيان الزوجات ، وكفالة الأولاد .

ولم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل ، فلماذا ينكر عليه اليهود وغيرهم زواج النساء . روى :: أن أعداء النبی محمد ﷺ قالوا : ما نرى لهذا الرجل همة إلا فى النساء ، ولو كان رسولا من عند الله حقا ؛ لما اشتغل عن رسالته بالنساء ؛ فرد الله عليهم بهذه الآية ، حيث قال سبحانه : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً . وفى هذا تنكير بما كان عليه داود وسليمان عليهما السلام ؛ حيث كانت لهما زوجات كثيرات وذرية كثيرة ، ولم يقدح ذلك فى نبوتها .

على أن النبی ﷺ اقتصرته حياته الأولى على زوجة واحدة ، هى : السيدة خديجة ، فلم يتزوج عليها فى حياتها ، وحين ماتت كان عمره يناهز الخمسين .

فحياته فى مكة كلها ، كانت مع زوجة واحدة هى : السيدة خديجة ، ولما هاجر إلى المدينة حدثت ظروف ودواع ؛ اقتضت الإصهار إلى القبائل لمصلحة الإسلام ، فكان من الخير أن تتعدد زوجاته ؛ لأهداف متعددة ، وأغراض حكيمة لهذا التعدد ، وقد كان لزوجات الرسول ﷺ ، دور رئيس فى بيان حياة الرسول الداخلية والخارجية ، وكانت عائشة رضى الله عنها تناقش الصحابة وتستدرِك عليهم ، وتشرح وجهة نظرها لهم ، وكذلك بقية أمهات المؤمنين ، فكانت حكمة إلهية فى زواجه عليه الصلاة والسلام ؛ تحقيقا لمعنى البشرية ، وتأكيدا لهذه القدوة العملية .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (٣٧) .

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

أى : ما صح ولا استقام لرسول من رسل الله ، أن يأتي لقومه بمعجزة إلا بإذن الله ومشيخته وحكمته ، وقد تضمنت الرد على المشركين ، حين اقترحوا على الرسول ﷺ طائفة من المعجزات مثل : زحزحة جبال مكة ، وتسخير الرياح لهم ، وتفجير ينابيع الأرض

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

لكل وقت من الزمان شرع كتبه الله يناسب حال أهله ، وينتهي بانتهاء الحاجة إلى هذا الشرع ؛ لذلك ذكر العلماء : أنه لا ينكر تغيير الأحكام بتغير الأزمان ؛ فقد أرسل الله موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام فى أزمنة متعددة ، رأى الله سبحانه وجودهم فى هذه الأزمنة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا أعمار الناس وأجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة ، لا تقديم فيها ولا تأخير .

ولكل أمر قضاء الله أجل وموعد لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، ولكل وقت من الأوقات كِتَابٌ . أى : حكم معين يكتب على الناس حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية .

★ ★ ★

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (٣٩)

المفردات :

يَمْحُوا : المحو : الإزالة ، والمراد به هنا : نسخ الشرائع والأحكام وتغييرها .

أُمُّ الْكِتَابِ : أصل الكتاب ، والمراد به : علم الله تعالى ، أو اللوح المحفوظ .

التفسير :

٣٩ - يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ...

أى : ينسخ ما يشاء من الأحكام ؛ لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت .

وَيُثَبِّتُ . بدله ما فيه المصلحة (٣٨) ؛ فإن الحكمة تقتضى : أن ينسخ الله ما يشاء أن ينسخه من الأحكام والشرائع بحسب الوقت ، ويثبت بدله ، أو يبقيه على حاله من غير نسخ ؛ لأن الشرائع كلها لإصلاح أحوال

العباد في المبدأ والمعاد ، وقد جعل الله الشرائع كلها متفقة في الأصول ، التي لا سبيل إلى تغييرها^(٧٨) ، مثل : عبادة الله عز وجل ، والإحسان إلى الوالدين ، وتحريم القتل والزنا ، وأكل مال اليتيم ، والأمر بالعدل ، والوفاء بالعهد ، والالتزام بأداب الإسلام .

فهذه الأصول وأمثالها : لا تتغير ولا تتبدل بتغير الرسالات والكتب السماوية ، أما الفروع : فإنها عرضة للتغير والتبدل ، كطريقة الصيام وزمنه ، ومقادير الزكاة والأصناف التي تزكى ، وغير ذلك مما يتغير بتغير الأجيال وأحوالهم^(٧٩) .

وقد أورد ابن جرير الطبري آراء متعددة في تفسير هذه الآية ، ونقلها عنه ابن كثير في تفسيره ، ولخصها عدد من المفسرين ، ومن هذه الآراء ما يأتي :

١- الآية عامة في كل ما يحويه الله ويثبتته ، وظاهر النظم القرآني : العموم في كل شيء مما في الكتاب ، فيمحو ما يشاء محوه من شقاوة أو سعادة ، أو رزق أو عمر ، ويبدل هذا بهذا ويجعل هذا مكان هذا ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وإلى هذا ذهب عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم .

روى ابن جرير ، وابن كثير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكي : اللهم إن كنت كتبت على شقاوة أو ذنبا فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فأجعله سعادة ومغفرة .

٢- روى عن ابن عباس في معنى : **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ** : قال : كل شيء إلا الموت والحياة ، والشقاء والسعادة ؛ فإنهما قد فرغ منهما .

٣- يمحو من ديوان الحفظة الذين ديدنهم كتابة كل قول وعمل : ما لا يتعلق به الجزاء ، أو يمحو سيئات اللائب ويثبت مكانها الحسنه .

٤- وقال آخرون : يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبدله .

٥- وقال آخرون : يمحو الله المحن والمصائب بالدعاء .

قال أبو السعود في التفسير :

والأنسب تعميم كل من المحو والإثبات ؛ ليشمل الكل .

وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير :

الأولى حمل الآية على عمومها ، فالمراد منها : أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ ، فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء ، مما فيه فيجرى فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته . وهذا لا يناهى ما ثبت عنه ﷺ من قوله : **جَفَّ الْقَلَمُ**^(٨٠) ؛ لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه سبحانه .

وَعِدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ . هو علم الله ، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة ، لا يقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه ، فهو أُمُّ لذلك ، فكأنه قيل : يمحو الله ما يشاء محوه ، ويثبت ما يشاء ، وهو ثابت عنده في علمه الأزلي ، الذي لا يكون شيء إلا وفق ما فيه .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۗ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١﴾

المضردات :

وامانريتك ، ما هنا : لتأكيد معنى الشرط ، أى : وإن أريناك ، والتعبير بالمضارع : لحكاية الحال الماضية ، أو لإفادة تجدد الوعيد .

من أطرافها ، الأطراف : الجوانب .

لا معقب لحكمه ، أى : لا راد له . والمعقب : هو الذى يكر على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق الذى يطالب به : معقب : لأنه يتتبع غريمه بالاقتضاء والطلب .

التفسير :

٤٠ - وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

أى : إن أريناك أيها الرسول مصارع أعدائك ، المصيرين على الكفر ، وما وعدناهم به من نزول العذاب بهم : فهذا انتقام عاجل لك من أعدائك ، وإن توفيناك قبل نزول العذاب بهم : فلا تجزع لذلك وارتك الأمر لنا ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك ، لا طلب صلاحهم ولا فسادهم : وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، قال تعالى : فَلَذِكْرِ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . (الغاشية: ٢١-٢٦) .

٤١ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ...

ألم يشاهد أهل مكة أمام أعينهم ، انخفاض شأن الكفر وانزواء أهله ، وتقدم شأن الإسلام وتفوق أهله ، فقد نصر الله المسلمين في بدر ، وفى غزوات متتابعة ، حتى جاء نصر الله والفتح ، وتم فتح مكة ودانت أم

القرى بالإسلام ، فالمراد بالأرض : أرض الكفر ، ونقصانها من أطرافها : انتصار المسلمين على المشركين مرة إثر أخرى .

وقيل : المعنى : أَعْمَى هؤلاء الكافرون عن التفكير والاعتبار ، ولم يشاهدوا أن قدرة الله القاهرة ، قد أتت على الأمم القوية القادرة : حين كفرت بنعمة الله ! فصيرت غناها فقرا ، وعزها ذلا ، وما أصاب هذه الأمم يمكن أن يصيب أهل مكة عقابا عادلا ، قال تعالى : أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الأنبياء : ٤٤) .

وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ . أى : إن الله تعالى يحكم ما يشاء أن يحكم به فى خلقه : لا راد لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ولا يتعقب أحد ما حكم به بتغيير أو تبديل ، وقد حكم سبحانه بعزة الإسلام وعلو شأنه . وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فعما قريب سيحاسبهم فى الآخرة ، كفءا جحودهم وعنادهم : فلا تستعجل عذابهم : فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب .

★ ★ ★

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبَ الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

المضردات :

مكرو : المكر : هو تدبير المكروه فى خفية .

فله المكر جميعا ، أى : أنه تعالى يعلم المكر كله ، فلا تخفى منه خافية عليه سبحانه .

صقبي الدار : أى : عاقبة دار الدنيا .

علم الكتاب : أى : علم القرآن وما هو عليه من البيان المعجز ، والحكمة التى لا تضارع ، أو علم التوراة والإنجيل ، وما فيها من البشارات برسول الله والإسلام .

التفسير :

٤٢ - وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ...

أى : دبّر الكافرون السوء لرسولهم ، الذين سبقوا فتومك يا محمد ، وحاولوا إيقاع المكروه بهم ، ولكن الله تعالى نصر رسله ، وأحبط كيد الكافرين .

فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا . أَيْ : لا تأثير لمكر الكافرين أصلاً ؛ لأنه معلوم لله وتحت قدرته .

قال الشوكاني :

مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة ، بمن أرسله الله إليهم من الرسل ، فكادوهم وكفروا بهم ، ومكرهم هذا كالعدم .

فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا . أَيْ : لا اعتداد بمكر غيره ؛ فلا قيمة له ولا تأثير له فى مواجهة مكر الله تعالى بالماكرين ا هـ .

يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ . إنه سبحانه لا تخفى عليه خافية من أحوال كل نفس ، ومن علم ما تكسب كل نفس وأعد لها جزاءها ، كان المكر كله له ، ولا أثر لمكر غيره فى مقابلة مكره .

وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عَشِيَ الدَّارُ . وسيعلم الكفار حين ينزل العذاب بهم ، لمن العاقبة المحمودة من الفريقين ، فى دار الدنيا أو فى دار الآخرة ؛ هل ستكون العاقبة للكافرين أم للمؤمنين ؟ ، لا شك أنها ستكون للمؤمنين .

قال تعالى : تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

(القصص: ٨٣) .

٤٣- وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ...

يقول من أنكر نبوتك وكفر برسالتك : لست رسولا من عند الله ، وإنما أنت متقول على الله تعالى .

يقولون ذلك بعد أن أيده الله بالمعجزات ، وبعد أن تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، ولزمهم الحجز وثبت قصورهم وضعف حجتهم ، وبدل أن يؤمنوا ويشهدوا له بالرسالة ، كابروا وعاندوا ، وقالوا : لست مرسلا من عند الله ، ولكنك تدعى الرسالة .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . أَيْ : قل : حسبى الله شاهدا لى بتأييد رسالتى وصدق مقالتي ، وشاهدا عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان .

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ . ممن أسلم من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ؛ فإنهم كانوا يجدون البشارات بالرسول محمد ﷺ فى كتبهم ، وحاصل الجواب بذلك : لستم بأهل للحكم فى شأنى ، فاسألوا أهل الكتاب ؛ فإنهم يجاورونكم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر: عن قتادة قال: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه، منهم: عبد الله بن سلام، والجارود، وتميم الداري، وسلمان الفارسي، رضى الله عنهم.

موجز أفكار سورة الرعد

- ١- إقامة الأدلة على التوحيد.
- ٢- إثبات البعث ويوم القيامة.
- ٣- استعجالهم العذاب من الرسول ﷺ.
- ٤- بيان: أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه، وتسجل عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات.
- ٥- ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده، ولمن يعبد الصنم، بالسيل والزبد الرابى.
- ٦- بيان: حال المتقين، الواصلين للرحم، المقيمي الصلاة.
- ٧- بيان: حال الناقضين لعهد الله من بعد ميثاقه.
- ٨- إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أنه لا شريك لله.
- ٩- وصف الجنة التي وعد بها المتقون.
- ١٠- بيان: أن كثيرا ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن؛ إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب.
- ١١- بيان: أن مهمة الرسول: عبادة الله وحده، وعدم الشرك به، والدعوة إلى الله بالحسنى.
- ١٢- بيان: أن كل رسول أرسل ببلغة قومه؛ ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها.
- ١٣- تحذير الرسول ﷺ وأمة من قبول دعوة المشركين.
- ١٤- إن جميع الرسل كانت لهم أزواج وذرية.
- ١٥- المعجزات ليست بمشيئة الرسل؛ وإنما هي بإذن الله.
- ١٦- إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ﷺ ليس ببعد جديد، بل سبقهم إلى ذلك كثير من الأمم التي مكرت بأنبيائها، وفى النهاية يتصر الله المتقين، وينكل بالظالمين.

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة إبراهيم

نظرات في سورة إبراهيم^(٧٨)

سورة إبراهيم سورة مكية . موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب وهو العقيدة في أصولها الكبيرة ، وتشمل : الرسالة ، والتوحيد ، والبعث ، والحساب ، والجزاء .

ولكن السياق في هذه السورة يسلك نهجا خاصا في عرض هذا الموضوع وحقائقه الأصلية . نهجا مفردا يميزها عن غيرها من السور ، يميزها بجوها ، وطريقة أدائها ، والحقائق الكبرى التي تتضمنها ، ولون هذه الحقائق التي قد لا تفتقر موضوعيا عن مثيلاتها في السور الأخرى ولكنها تعرض من زاوية خاصة . كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا . فيحسبها القارئ جديدة بما وقع فيها من تجديد ، وذلك من الإعجاز القرآني في طريقة الأداء .

ويبدو أنه كان لأسلوب السورة من اسمها نصيب .. إبراهيم أبو الأنبياء .. المبارك . الشاكر ... الأبواب المنيب . وكل الظلال التي تخلعها هذه الصفات ملحوظة في جو السورة وفي الحقائق التي تبرزها ، وفي طريقة الأداء . وفي التعبير والإيقاع .

ولقد تضمنت السورة عدة حقائق رئيسة في العقيدة ، ولكن حقيقتين كبيرتين تظهران أكبر من غيرهما في سورة إبراهيم :

الحقيقة الأولى : وحدة الرسالة والرسول ووحدة دعوتهم . ووقفتهم أمة واحدة في مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمانة والأزمان .

والحقيقة الثانية : بيان : نعمة الله على البشر وزيادة النعمة بالشكر ومقابلة أكثر الناس لها بالجدود والكفران .

تبدأ السورة ببيان : وظيفة الرسول ، وبيان : هدف القرآن . وهذه الوظيفة هي : هداية الناس ، وإبطال عادات الجاهلية وقيمها . وإرساء معالم التوحيد والعدالة والمساواة . قال تعالى : كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . (إبراهيم: ١) .

وتختتم السورة بهذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة حقيقة التوحيد في قوله تعالى : هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيُعَلِّمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَيَذَكِّرَ أَنْ لَوْ أَنَّ آلَآبَابِ . (إبراهيم: ٥٢) .

وفى أثناء السورة نجد أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد ﷺ ولنفس الهدف وهو: إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، قال تعالى : وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . (إبراهيم: ٥) .

وتذكر السورة : أن وظيفة الرسل عامة ، هي : بيان الحق وتوضيح طريق الهداية إلى الله ، قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ . (إبراهيم: ٤) .

وتبين السورة : أن الرسول ﷺ بشر يوحى إليه وأن بشريته هي التي تحدد وظيفته : فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين ، ولكنه لا يملك أن يأتي بخارقة أو بمعجزة إلا بإذن الله وحين يشاء هو أو قومه ، ولا يملك الرسول أن يهدي قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئة الله المطلقة. ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم . والسورة هنا تحكى قولهم مجتمعين : قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ . (إبراهيم: ١٠) . وتحكى رد رسالهم كذلك مجتمعين :

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . (إبراهيم: ١١) .

ويتضمن السياق كذلك : أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم : بِإِذْنِ رَبِّهِمْ .

وكل رسول يبين لقومه : فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (إبراهيم: ٤) .

وبهذا أو ذاك تتحدد حقيقة الرسول : فتتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة ولا تشبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الإلهية وصفاتها . وكذلك يتحدد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة ، كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا ، ويتحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفى الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

ويصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ * وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . (إبراهيم: ١٣-١٥) .

وحدة الرسائل السماوية فى سورة إبراهيم

الظاهرة البارزة فى سورة إبراهيم : أنها تتحدث عن الرسل جميعا كأنهم أصحاب فكرة واحدة وهدف واحد ، وكأن جواب قومهم كان جوابا موحدًا فى جميع العصور والأحوال .

وتعرض السورة هذه الفكرة بطريقة فريدة فى الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجىء بها كل رسول ، فيقول كلمته لقومه ويمضى ثم يجىء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم فى الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط المتحرك منذ الرسائل الأولى ، وأقرب مثل لهذا النسق : سورة هود ، فأما سورة إبراهيم – أبى الأنبياء – فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع المكذبين كلهم فى صف ، وتجري المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لا تنتهى هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك فى يوم الحساب .

وينصر فنشهد أمة الرسل ، وفرقة المكذبين فى صعيد واحد على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى فى هذا الكون – حقيقة الإيمان والكفر – فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان .

قال تعالى :

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ لِيَافْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَشْمَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْمَا كَانَ عِبَادُ آبَائِنَا فَاثِقُونَ فَاسْأَلْنِي مِنْ نَبِيِّي * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . (إبراهيم: ٩-١١) .

فهاهنا تتجمع الأجيال من لدن نوح ، وتتجمع الرسل ويتلاشى الزمان والمكان وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهى واحدة ، واعتراضات المكذبين ، وهى واحدة ، وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة ، وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة ، وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة ، وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة .

ولا تنتهي المعركة بين الكفر والإيمان هنا ، بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة فتبرز معالمها في مشاهد القيامة المتنوعة التي تتضمنها السورة ، وهي تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة ولا انفصال بينهما ، إنما تكمل إحداها الأخرى .

وتكمل الأمثال التي تبدأ في الدنيا وتنتهي في الآخرة : إبراز معالم المعركة بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة ، مثل : الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة وشجرة الإيمان ، وشجرة التوحيد والخير ، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان ... فالتوحيد وكلمته : شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أصله ثابت وموصل بالله وفرعه مرتفع إلى السماء ويؤتي ثماره كل حين : بالصلاة والزكاة وسائر العبادات والأعمال النافعة في الدنيا والآخرة . أما شجرة الكفر فلا أصل لها تعتمد عليه : فهي تمثل الباطل في الدنيا ، والخبيثة في الآخرة .

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . (إبراهيم: ٢٤-٢٧) .

المقطع الثاني من سورة إبراهيم

تنقسم سورة إبراهيم إلى مقطعين متماسكي الحلقات :

المقطع الأول : يتضمن بيان حقيقة الرسل ، ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذابين في الدنيا والآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، وقد تحدثنا عن هذا المقطع .

والمقطع الثاني من سورة إبراهيم : يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعم وبطروا ، والذين آمنوا بها وشكروا ، ونموذجهم الأول هو إبراهيم ، ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله ، في سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة .

نعم الله

لقد عدد الله نعمه على البشر كافة : مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم ، وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل : أن يتيح للكافر والفاجر والعاصي نعمه في هذه الأرض

كالمؤمن والبار والطائع ؛ لعلمهم يشكرون ، ويعرض هذه النعم في أضخم مجالى الكون وأبرزها ، وبضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَإِن تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .** (إبراهيم: ٣٢-٣٤) .

وفى إرسال الرسل نعمة تعدل تلك أو تزيدوا عليها : **كِتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .** (إبراهيم: ١) .

والنور أجلى نعم الله فى الوجود ، والنور هنا هو النور الأكبر ، النور الذى يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه ، ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفى قول الرسل مجتمعين : **يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ .** (إبراهيم: ١٠) .

والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب : وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل : **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ .** (إبراهيم: ١٣ ، ١٤) ، وهى نعمة . ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر : **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ .** (إبراهيم: ٧) .

مع بيان : **أَنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنِ الشُّكْرِ** وعن الشاكرين : **إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .** (إبراهيم: ٨) .

ويقرر السياق : **أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي عَمُومِهِ لَا يَشْكُرُ النِّعْمَةَ حَقَّ الشُّكْرِ : وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .** (إبراهيم: ٣٤) .

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتفتتح لها بصائرهم ؛ يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . (إبراهيم: ٥) .

ويتمثل الصبر والشكر فى شخص إبراهيم حين يقف خاشعا ويدعو ربه عند البيت الحرام دعاء مخلصاً كله حمد وشكر ، وصبر وإيمان :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِتَقْبِلُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا
نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ . (إبراهيم: ٢٥-٤١) .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة : تجيء التعبيرات والتعليقات فيها
متناسقة مع هذا الجو ، في قوله تعالى : إِنَّ لِي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . (إبراهيم : ٥) .

وقوله سبحانه : اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ . (إبراهيم : ٦) .

وفى رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر : بجيء قوله سبحانه : وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . (إبراهيم : ١١) .

فيبرز منة الله ! تنسيقا للرد مع جو السورة كله ، جو النعمة والمنة ، والشكر والكفران ، وهكذا
يتساقط التعبير اللفظي مع الفكرة العامة للسورة على طريقة التناسق الفني في القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ② الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى
الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ③﴾

المضردات :

الرَّكَتَبُ : هذه وأمثالها من فواتح بعض السور ، قيل : إنها أسماء لها ، وقيل : أسرار محجوبة ،
وقيل : إنها رمز للتحدى ، وقيل : إشارة لابتداء كلام وانتهاء كلام ، وقيل : غير ذلك .

الظلمات : الضلالات : فإنها ظلمات معنوية .

إِلَى النُّورِ : إلى الهدى ، فإنه نور معنوى يهdy إلى الحق .

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ : بتيسيره وتوقيفه .

إِلَى صِرَاطٍ : أى : إلى طريق .

الْحَمِيدُ : أى : المحمود ، والمراد : أنه تعالى مستحق للحمد لذاته وإن لم يحمده الناس .

وَوَيْلٌ : الويل : الشر والهلاك .

يَسْتَحِبُّونَ : يختارون .

وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ : يمتنعون غيرهم عن دينه الذي يوصل إلى مرضاته وثوابه .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا : أى : ويطلبونها ، والضمير عائد على السبيل : فإنها مؤنثة ، أى : ويطلبون لسبيل الله العوج .

التفسير :

١ - الر

حروف للتنبيه بمثابة الجرس الذى يُقرع : ليقنّب الناس إلى ما يلقى إليهم .

وقيل : هي حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، مع أنه مكون من حروف عربية ينطقون بها ، وينظّمون منها كلامهم وأحاديثهم ؛ فدل ذلك : على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ . أَيْ : هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو كتاب جليل الشأن عظيم القدر .

لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . لكي تخرج الناس من ظلمات الكفر والضلالة ، إلى نور الإيمان والعلم والحياة الرشيدة ؛ لما اشتمل عليه القرآن ، من المنهج السديد الذى تسعد به البشرية ؛ كلما سلكته ، وتشقى ؛ كلما ابتعدت عنه .

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . أَيْ : بتوفيقه ومشينته وإرادته وأمره .

إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . أَيْ : إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، وهو العزيز الذى لا يغالب ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . (الحديد: ٩) .

٢- اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

أَيْ : الله تعالى وحده هو الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ملكا وخلقاً لا يشاركه فى ذلك مشارك ولا ينازعه منازع ، ولفظ الجلالة قرأه الجمهور بالجر ؛ على أنه بدل ، أو عطف بيان من الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . وقرأ نافع وابن عامر : اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ... برفع لفظ الجلالة على الاستئناف .

وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . أَيْ : الهلاك والفضيحة والخسران ، ناشئ من عذاب شديد للكافرين بما أنزلناه إليك ، أيها الرسول الكريم .

٣- الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ...

وصف سبحانه هؤلاء الكافرين بصفات ثلاث هي :

(أ) إثثار الدنيا وشهواتها وأثامها وموبقاتها ، على الأعمال الصالحة ، التى تقرّبهم من الله زلفى ، وينسون يوماً تجازى فيه كل نفس بما كسبت ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً .

(ب) وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . يصنعون العراقيل في طريق دعوة الحق ؛ حتى يبتعد الناس عنها ، ويمنعون من تتجّه عزائمهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، من السير في طريق الإيمان ، وذلك بسبب الكفر والطغيان ، الذي ران على قلوبهم بما كانوا يكسبون .

(ج) وَيَعُوقِبُهَا عَوْجًا . ويطلبون لطريق الله ودعوته وسبيله : الميل والعوج ؛ لتوافق فجورهم ونزواتهم ، وسبيل الله أبعد ما تكون عن العوج والاضطراب ؛ لأن سبيل الله صراط مستقيم قويم ، وبعض الناس يدعى : أن أحكام القرآن وآدابه ، وتشريعاته وقوانينه ، تناسب أمة البدو العربية ، ولا تناسب الشعوب المتحضرة المتقدمة ، ونقول لهؤلاء : إن أحكام هذا القرآن ، وهدى هذه الشريعة ، غيّرت وجه البسيطة ، وصنعت خير أمة أخرجت للناس ، أمنت بالله وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، وكانت مضرب الأمثال في العدل وترك الجور ، وثلّت عروش الأكاسرة والقيصرة وامتلكت بلادهم ، إلى أن غير أهلها معالمها ، فأركسهم الله بما كسبوا ، فبدّل عزم ذلّا ، وسعدتهم شقاءً ، وتلك سنة الله ؛ أن الأرض يرثها عباده الصالحون ؛ لاستعمارها . ثم حكم سبحانه على الكافرين بما يستحقون فقال : أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

أى : أولئك الموصوفون بإيثارهم الدنيا وزهرتها ، وصدّهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيف والعوج - أولئك فى ضلال بعيد عن الحق ، لا يرجى لهم والحالة هذه : هداية ولا رشاد .

★ ★ ★

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۝٥﴾ اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

المفردات :

بلسان قومه ، أى : بلغة قومه .

بآياتنا : هى الآيات التسع التى أجزاها الله على يد موسى عليه السلام ، وهى : الطوفان - والجراد - والقمل - والضفادع - والدم - والعصا - ويده - والسنون - ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

من الظلمات ، من الكفر والجهالات المشبهات للظلمات .

إلى السُّور ، إلى الإيمان بالله وتوحيده فهو النور الهادئ إلى سواء السبيل .

وذكرهم بأيام الله ، أى : بوقائمه التى وقعت على الأمم السابقة ، يقال : فلان عالم بأيام العرب ، أى : بحروبها وملاحمها .

صبار شكور ، كثير الصبر ، كثير الشكر .

التفسير :

٤ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبينَ لَهُمْ ...

أى : وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم ، من قبلك ومن قبل قومك ، إلا بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم ؛ ليفهمهم ما أرسل به إليهم ، من أمره ونهيه بسهولة ويسر ، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر ، وقد جاء هذا الكتاب بلغته ، وهو يتلى عليهم فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وما الذى صدّهم عن أن يدرسوه ؛ ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام ، وإصلاح لنظم المجتمع ؛ ليسعدوا فى حياتهم الدنيوية والأخروية ، والنبي ﷺ ، وإن أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ، وألسنتهم مختلفة ، فأرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، فإذا فهم قومه الرسالة ، وعرفوا أهدافها ، أمكن ترجمة ذلك إلى غيرهم من الأمم . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه »^(٣٧) .

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . أى : فبعد إرسال كل رسول بلسان قومه ؛ ليبين لهم طريق الهداية ، ويرشدهم إلى ترك الضلال والغواية ، فيستجيب للرسول من اتبع سبيل الرشاد ، وجانب أسلوب العناد ، فانشرح صدره للإسلام ؛ بهداية الله وتوفيقه ، ومن الناس من يعرض عن الهدى ، ويختار الضلال والكفر ، ومثل هؤلاء يسلب الله عنهم هداة وتوفيقه ، ويتركهم فى ضلال مبين .

وللعلماء فى مثل الجملة كلام كثير يمكن تلخيصه فيما يأتى :

إن هداية الله غالبية ، فمن رغب فى الهدى ؛ يسر الله له أسبابه ، وأعانته باللطف والتوفيق ، ومن أعرض عن الهدى ، وصدّ عن رسالات السماء ؛ سلب الله عنه الهدى وتركه فى ضلال وحيرة ، وفى معنى هذه الآية قال تعالى : فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . (البقرة : ١٠) .

وقال عز وجل : بَلْ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤) .

ويكون معنى الآية :

يضل الله : من ران على قلبه الغواية والضلالة ، واختار الكفر على الإيمان ، ويهذى الله : من اختار الإيمان ، وسلك فى طريق الهدى ، فيلهمه الله الهدى والرشاد .

وَهُوَ الْعَزِيزُ . فلا يغالب فى مشيئته .

الْحَكِيمُ . فى تشريعاته وبيانه ، وأوامره ونواهيه .

٥- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ...

هذا تفریع على إرسال كل رسول بلسان قومه ؛ ليبين لهم .

والمعنى : كما أرسلناك يا محمد بلسان قومك ؛ لتبين لهم ، أرسلنا موسى - عليه السلام - بآياتنا ، وهى الآيات التسع : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، ويده ، والسنون ، والنقص من الثمرات .

أو المراد بالآيات : آيات التوراة ، ويمكن أن يراد بالآيات : ما هو أعم وأشمل فتشمل الآيات التسع ، وآيات التوراة .

أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .

أى : ادع قومك إلى الايمان وترك الكفر ، وبذلك تخرجهم من ظلمات الكفر وضلاله ، إلى نور الإيمان وهدايته .

وَذَكَرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ . أى : ذكرهم بنعم الله عليهم ، حين نجاهم من فرعون ، وفلق بهم البحر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وأنقذهم من فرعون وقومه ؛ فأيام الله يراد بها : المحن التى نجاهم الله منها ، والنعم التى أكرمهم الله بها ، أو ذكرهم بوقائع الله فى القرون الأولى .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أى : إن فى ذلك التذكير بنعم الله ونقمه ؛ لآيات واضحات ، ودلائل بينات على وحدانية الله تعالى وقدرته ، وعلمه وحكمته ، لكل صَبَّارٍ فى المحنة والابتلاء ، شَكُورٍ فى النعمة والمنحة .

جاء فى تفسير ابن كثير : قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى ؛ صبر ، وإذا أعطى ؛ شكر .

وكذا جاء في الصحيح : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراءٌ صبر ؛ فكان خيرا له ، وإن أصابته سرءٌ شكر ؛ فكان خيرا له » ^(٨٠)

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ أَلٍ
فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُومُكُمْ
لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝۷ ﴾

المضردات ،

يسومونكم سوء العذاب ، أى : يذيقونكم شديد العذاب .

ويستحيون نساءكم ، أى : ويبقونهن أحياء فلا يقتلونهن .

بلاء من ربكم ، أى : ابتلاء بمعنى : اختبار .

تأذنت رجومكم ، أى : أذن بمعنى : أعلم ، كتوعده بمعنى : أوعده ، غير أنه أبلغ منه .

التفسير :

٦- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ أَلٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدْبِحُونَ
أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ... الآية .

أى : واذكر لقومك يا محمد ، حين قال موسى لقومه : يا قوم ، تذكروا إنعام الله عليكم وفضله بكم ؛
حين أنجاكم من عذاب قوم فرعون ، حيث كانوا يذيقونكم مر العذاب ، ويكلفونكم من الأعمال مالا يطاق مع
القهر والإذلال ، ويدبحون أبناءكم الذكور ، ويستحيون الإناث ، ذليلات مستضعفات ، وهذا من أسوأ ألوان
البلايا والرزايا ، قال الشاعر :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا

وفى ذللكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ . كان هذا امتحانا واختبارا وابتلاء عظيمًا من الله ؛ حيث اختبرهم
بالبلاء حين أقاموا مع فرعون وقومه ، فذاقوا ألوان العذاب وذبحت أطفالهم ، واستبقيت إناثهم للخدمة
والمذلة .

والابتلاء يكون بالشر والخير ، قال تعالى : **وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** . (الأنبياء : ٣٥) .

ثم اختبرهم الله بالنجاة من فرعون ، وشق الطريق الياوس لهم فى البحر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ورزقهم من الطيبات .

٧- وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ...

وأى : واذكروا يا بنى إسرائيل حين آذنتكم ربكم ، وأعلمكم بوعده ووعيده ، حين قال : **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** .

وشكر النعمة : استخدامهما فيما خلقت له ، فمن شكر الله على النعمة ، وأخرج زكاة المال ، وحفظ شبابه وقوته من الفسوق والعصيان ، وأطاع الله واجتنب المعاصى ؛ زاده الله نعمة التوفيق فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، وفى الحديث الشريف : « من ألهم الشكر ؛ لم يحرم الزيادة »^(٨٦) .

وسئل بعض الصلحاء عن الشكر فقال : **أَلَا تَتَّقُونَ** بنعمه على معاصيه .

فحقيقة الشكر : الاعتراف بالمنعم بالفضل ، وألا تستخدم النعمة فى معصية الله ، وأنشد الهادى وهو يأكل :

أنا لك رزقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بعض حقه
فلم تشكر لنعمته ولكن قويت على معاصيه برزقه
فغص باللحمة وخنقته العبرة .

وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ .

أى : ولئن كفرتم نعمة الله ، وجددت فضله عليكم ، وقد وهبكم العديد من النعم وسخر لكم هذا الكون ، وأمدكم بمقومات الحياة ، وأرسل لكم الرسل وأنزل الكتب ، وأرشدكم إلى الطريق المستقيم ، فإذا كفرتم نعم الله ، وجددت فضله ، وخالفتم أمره ؛ عذبكم أشد العذاب .

إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ . فإن الله يزيل النعم عن الكافرين ، وينتقم منهم فى الدنيا ، ويعاقبهم فى الآخرة .

قال تعالى : **ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ لَنُجْزِيَنَّ إِلَّا الْكَافِرِينَ** . (سبأ : ١٧) .

وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق ؛ بالذنوب يصيبه »^(٨٧) .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ الْفِرْيَاتُكُمْ
نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا
إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

المضردات :

حميد : مستوجب للحمد لذاته ، وإن لم يحمده أحد .

بالبينات ، أى : بالآيات الواضحات .

فردوا أيديهم فى أفواههم : أى : ردوها ؛ لكى يعضوها فى أفواههم غيظاً .

مرريب : الريبة هنا بمعنى : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها .

التفسير :

٨- وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .

أحس موسى بالاستكبار والإعراض عن قومه : فوجه لهم هذا القول المناسب لإعراضهم ، ومضمونه ما يأتى :

إن تعرضوا عن طريق الله وتجدوا نعمه ، أنتم ومعكم من فى الأرض جميعاً من الخلاق ، فلن تضروا الله شيئاً ؛ لأن الله غنى عنكم ، وعن عبادتكم ، ولن يقع الضرر إلا على المخالفين لله ، الخاسرين لفضله ورضوانه .

فإن الله غنى . عن عبادته حميد . مستحق للحمد من جميع المخلوقين طوعاً وكرها .

قال تعالى : يَتَنَبَّأُهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وقال سبحانه : تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . (الإسراء : ٤٤) .

وفى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ؛ ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً .. إلخ الحديث » (٨٧) .

٩- أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ...

يحتمل أن يكون هذا خطابا من موسى لقومه ، فيكون داخلا تحت التذكير بأيام الله ، ويحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ؛ تذكيرا لأهل مكة ، وتحذيرا لهم من مخالفة رسوله محمد ﷺ .

والمعنى : ألم يأتكم يا أهل مكة خبر قوم نوح وعاد وثمود ، وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول ، ممن لا يحصى عددهم ، ولا يحيط بهم علما إلا الله سبحانه وتعالى .

جَاءَهُمْ رَسُولُهُم بِالْبَيِّنَاتِ . أى : جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، والدلائل الواضحة فى الدعوة إلى الإيمان والهدى .

فَرَدُّوْا أَيْدِيَهُمْ فِىْ أَفْوَاهِهِمْ . أى : عضُّوا بنان الندم ؛ غيظا مما قاله الرسل لهم ، كما قال سبحانه :
عَضُّوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ . (آل عمران: ١١٩) .

وقال أبو عبيدة والأخفش : هو مثل ، والمراد : أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت : قد ردَّ يده فى فيه ، وقيل : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل : ردًّا لقولهم .
وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ .

أى : نحن لا نصدقكم فيما جئتم به من دعوى الرسالة . ولا نُصَدِّقُ ما جئتم به من المعجزات والبيّنات .

وَأَنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ .

أى : نحن نشك فى ما جئتم به من النبوات والشرائع ، شكًّا يوقع فى الريبة والتوجُّس ، فنحن كافرون بدعوتكم ، ولا نصدق بها ، وعلى الأقل نشك فى حقيقة ما أتيتمونا به ، أى : هو أمر غير يقينى ، فكيف تريدوننا أن نؤمن به ؟! إنا نشك فى صحة نبوتكم .

وجاء فى زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني :

ويحتمل أنهم ادعوا على الرسل : أن لهم نيات غير ما يظهرونه ، من الحصول على الملك فى أقوامهم ، واكتساب الأموال والدنيا العريضة ، وأنهم قالوا ذلك : لتوهين عزم الرسل وتفتير همتهم فى الدعوة .

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مَنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ
أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَمَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنْصِيرَكَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

المضردات :

أففى الله شك : الاستفهام للإنكار بمعنى : النفى ، وفيه معنى التعجب .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما على غير مثال سابق .

بسلطان مبين : ببرهان بين له سلطان واضح على النفوس .

التفسير :

١٠ - قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

أى : اتجهت الرسل إلى قومها ، فى مناقشة هادئة : لتقول لها : أفى وجود الله شك ؟! أو أفى وحدانيته
وتفردته بالألوهية شك ؟!

وهو فاطر السماوات والأرض ، أى : خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق .

ونجد هذه الدعوة إلى التفكير والتدبر ، والتأمل فى الخلق والكون والسماء والأرض ، والليل والنهار
والبحار والأنهار والهواء والغضاء ، قد وردت على لسان الرسل جميعا .

وفى سورة نوح يقول نوح لقومه : أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَتَىٰكُمْ مِنْ الْأَرْضِ بُيُوتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
بَسَاطًا * لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . (نوح: ١٥ - ٢٠) .

ثم قالت الرسل لقومهم :

يَدْعُوكُمْ لِيُغَيِّرَ لَكُمْ مِنْ دُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .

أى : يدعوكم الله إلى الإيمان به ، وبوحدانيته وسائر صفاته وكمالاته : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان : ليغفر لكم بعض ذنوبكم ، وهى الذنوب التى بين العباد ورب العباد ، أو ليسامحكم عن كفركم فيما مضى ، ويغفر لكم فى الدار الآخرة .

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى . أى : أن الإيمان بالله يجعلكم فى أمن وأمان : فلا يستأصلكم الله بالعذاب، كما استأصل الكافرين قبلكم ، بل يمنعكم بالطيبات واللذات إلى الموت .

قال تعالى : وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ . (هود: ٣) .

قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا .

أى : قال الظالمون لرسلكم : إن أنتم إلا بشر مثلنا . فى الهيئة والصورة ، والمأكَل والمشرب ، تريدون أن تمنعونا عن عبادة الآلهة ، التى كان يعبدها آبائنا .

فَأَتَوْنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . أى : قدموا لنا برهانا يشتمل على حجة واضحة ، ومعجزة خارقة تؤيدكم فى دعوى الرسالة ، وكأن ما قدمه الرسل من المعجزات ليس كافيا فى نظر المكذبين .

١١- قَالَتْ لَهُمْ وَسَلُّهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... الآية .

أى : قال الرسل لأممهم : نحن حقاً بشر مثلكم ، نأكل ونشرب ونسير فى الأسواق ، لكن هذا لا يمنع من أن يتفضل الله على بعض عباده ، بالنبوة والرسالة فهى منحة إلهية ، يختار الله لها من هم أهل لذلك ، ولا تنال بالكسب ولا بالعباداة .

جاء فى منظومة الجوهرة للشيخ/ اللقاني :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى فى الخير أعلا عقبه
بل ذاك فضل الله يعطيه من يشاء جـلَّ الله واهب المنن

وقد أراد الله أن تكون الرسل من جنس البشر ؛ لتكون القدوة العملية متيسرة ، أمّا إذا كان الرسول ملكا من الملائكة ، وخالفه المشركون ؛ أمكن القضاء عليهم مباشرة ، والله يريد أن يتمتع البشر بفرصة كافية :

للتأمل والتفكير وتقليب وجهات النظر ، قال تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ . (الأنعام : ٨ ، ٩) .

وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ .

أما المعجزة الباهرة التي طلبتموها : فليس لنا سبيل إلى تحقيقها ؛ لأننا بشر نحمل رسالة إلى الناس ، والله سبحانه هو الذى يؤيدنا بالمعجزة بإذنه وأمره ، وليس فى مقدورنا إتيان المعجزات إلى قومنا ؛ إلا إذا كان ذلك بأمر الله وتقديره .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

ليس أمامنا إلا التوكل على الله ، والاعتماد عليه وحده ؛ فهو الخالق القادر القوى الفعّال لما يريد ، ونحن نلجأ إليه متوكلين عليه ، أمام كفركم وعنادكم .

١٢- وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا ...

وما يمنعنا من التوكل على الله والاعتماد عليه ، وقد هداانا إلى أقوم السبل ، وأرشدنا إلى طريقه القويم وشرعه الحكيم .

وَلَنُصَبِّرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنُمُونَا . أى : سنصبر صبراً جميلاً ، على كفركم وتطاوكم فى العناد والتكذيب ، والسفه واللجاج .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . أى : وعلى الله وحده فليتوكل المتوكلون على ربهم وخالقهم ؛ فهو مبعث رجائهم ومعقد آمالهم .

وقد ذكر التوكل فى السياق ثلاث مرات ؛ لأنه الملجأ الذى يلجأ إليه المرسلون ، أمام عناد المكابرين ؛ فالتوكل على الله زاد قوى ؛ وسند متين للمؤمن ، بعد أن يؤدى ما عليه من الواجبات ، ثم يعتمد بعد ذلك على الله ؛ وأنعم به من سند قوى متين ؛ قال تعالى : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قُدْرًا . (الطلاق : ٣) .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾

المضردات :

لتعودن : لتصيرن .

مقامي : أى : الموقف المملوك لله ، الذى يقف به العباد بين يديه للحساب ، أو قيامه على عبده ومراقبته إياه .

وعيدي : وعدى بعذاب الكفار والعصاة يوم القيامة .

التفسير :

١٣ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ... الآية .

تمهيد :

بعد أن أفحم الرسل الكفار والمشركين بالمنطق والحجة والدليل : لجأ الكفار إلى منطق القوة والقهر.

والمعنى : وقال الذين كفروا بالله ورسله ، لرسلمهم : ليس أمامكم إلا أحد أمرين لا محالة ، إما إخراجكم من بلادنا مطرودين مهجورين ، وإما أن تعودوا إلى ملتنا ، ملة الآباء والأجداد ، وهى عبادة الأصنام والأوثان ، وقد يسر لهم هذا الأمر أنهم كانوا كثرة ، أصحاب جاه ومال وسلطان ، وكان الرسل أصحاب الحق ودعوة الحق ، قلة ضعيفة أمام بطش الباطل وجبروته ، وقد تكرر هذا المعنى فى قصة نبي الله شعيب ، وقصة نبي الله لوط وغيرهما .

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ .

أى : أعلم الله رسله قائلاً لهم : لنهلكن الظالمين ، وأكد الأمر بوسائل التوكيد ، مثل : لام القسم ، ونون التوكيد : زيادة فى إدخال السرور على المؤمنين ، وتثبيت قلوبهم على الحق .

وقريب من هذه الآية ما ورد من قول قوم شعيب له ولمن آمن به : لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . (الأعراف: ٨٨).

وقال سبحانه عن قوم لوط : لَمَّا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوْنَا أَلَا لُوطُ مِنْ قَوْمِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْتَغِهُرُونَ . (النمل: ٥٦).

١٤- وَلَسَكُنَّكُمْ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ .

أى : أوحى الله إلى رسله : بأن العاقبة ستكون للمؤمنين ، فى ميراث أرض الكافرين : تلك سنة الله تعالى فى خلقه ، أن يعاقب الظالمين المعقدين ، وأن يأخذ بيد المؤمنين العاملين .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء: ١٠٥) .

وفى سورة القصص ، ذكر الله تعالى جانبها كبيرا من قصة موسى مع فرعون ، وصدر قصة موسى فى سورة القصص بالعبرة والمغزى ، حيث قال سبحانه : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ . (القصص: ٥، ٦) .

وقال سبحانه : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . (المجادلة: ٢١) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جِئْنَاهُمْ بِالْغَلِيْبُونَ . (الصافات: ١٧١-١٧٣) .

وفى ختام الآية نجد قوله تعالى :

ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ .

أى : ذلك الذى مر بيانه من إهلاك الظالمين ، وإسكان المؤمنين أرضهم وديارهم ، أمر ثابت لكل من خاف قيامى عليه بحفظ أعماله ، ومراقبتى إياه ، وزادت خشيته من مقام ربه ، وجلال عظمته ؛ وخاف وعيدى بالحساب والعذاب للكفرة والعصاة والظالمين .

من تفسير الكشاف للزمخشري

قال الزمخشري : والمراد بالأرض فى قوله تعالى : وَلَسَكُنَّكُمْ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ . (إبراهيم: ١٤) : أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه : وَأَرْزَأْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا . (الأعراف: ١٢٧) .

وقوله تعالى: وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ. (الأحزاب: ٢٧).

وعن النبي ﷺ: «من أذى جاره؛ ورثه الله داره»^(٨١).

ثم قال الزمخشري: ولقد عاينت هذا في مدة قريبة، كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا فيها، ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم، وملكني الله ضيعته، فنظرت يوما إلى أبناء خالي يترددون فيها، ويدخلون في دورها ويخرجون، ويأمرون وينهون؛ فذكرت قول رسول الله ﷺ، وحدثتهم به، وسجدنا شكرا لله.

★ ★ ★

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ، وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾

المفردات:

واستفتحوا: وطلبوا الفتح، والمراد به هنا: النصر.

وخباب: وخسر وهلك.

كل جبار: الجبار في اللغة: من يقهر الناس على ما يريد، والمراد به هنا: المتكبر عن عبادة الله تعالى وطاعته، المتعالي على رسله.

عنيد: شديد العناد والمكابرة.

من ورائه: من خلفه أو من أمامه، وأصل معنى وراء: ما توارى عنك قدامك أو خلفك.

ماء صديد: هو ماء يسيل من أجساد أهل النار. وأصل الصديد: الماء الرقيق الذي يخرج من الجرح.

يتجرعه: أي: يتكلف بلعه مرة بعد أخرى من الجرعة وهو البلع.

ولا يكاد يسيفه: ولا يقارب أن يبتلعه بسهولة.

التفسير:

١٥- وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

أي: والتمس الرسل من خالقهم: أن ينصرهم على أعدائهم وأعدائهم، وأن يحكم بحكمه العادل بينهم وبين هؤلاء المكذبين.

قال ابن كثير :

وَأَسْتَغْفِرُوا . أى : استنصرت الرسل ربيها على قومها : قاله ابن عباس ومجاهد وقتاده .

وقال عبد الرحمن بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها ، كما قالوا : اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَلْتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ . (الأنفال: ٣٢) .

ويحتمل أن يكون هذا مراداً ، وهذا مراداً ؛ كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين : اِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَاِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ... (الأنفال: ١٩) ، والله أعلم ^(٨٠) .

وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ . وهذه الجملة معطوفة على محذوف والتقدير : واستفتحوا فنصر الله تعالى رسله على أعدائهم .

وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيْدٍ . وخسر كل متكبر متجبر معاند للحق ، وقريب من هذه الآية قوله تعالى : اَلْقِيَا فِيْ جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ * مُّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ * اَلَّذِيْ جَعَلَ مَعَ اَللّٰهِ اٰخَرَ اَلْقِيَا فِيْ الْعَذَابِ الشَّدِيْدِ . (ق: ٢٤-٢٦) .

١٦- مَنْ وَّرَاٰهُ جَهَنَّمُ وُيَسْقٰى مِنْ مَّاءٍ صٰلِيْدٍ .

أى : من خلفه جهنم تنتظره بحرماً ولهيبتها ، وحميمها وغسلينها .

والصديد : هو ما يسيل من أجساد أهل النار ، وهو ماء فى غاية الحرارة إذا قدم إليهم لم يستسيغوه ، فيكروهون على شربه ، فإذا قدم إليهم شوى وجوههم من حرارته ، وإذا شربوه قطع أمعاءهم عقوبة لهم ، قال تعالى : وَسُقُوا مَّاءً حَمِيْمًا فَقَطَّعَ اَمْعَاؤُهُمْ . (محمد: ١٥) .

وقال عز شأنه : وَاِنْ يَسْتَفِيحُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوْهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف: ٢٩) .

١٧- يَّجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيْغُهُ ...

يكلف شربه ولا يستسيغ ذلك : لمرارته ورداءة طعمه ، ولونه وريحه ، وشدة حرارته ، لكنه يكلف أن يجترعه جرعة بعد جرعة ، ويسقاه على الرغم من قهراً وقسراً .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى والحاكم، وصححه غيرهم: عن أبى أمامة: عن النبى ﷺ أنه قال فى الآية: «يُقَرَّبُ إِلَيْهِ فَيَتَكْرَهُ»: فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاه، حتى يخرج من دبره.»

يقول الله تعالى: وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ. (محمد: ١٥).

وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ.

أى: تأتية أسباب الموت من كل مكان فى جسمه، فكل عضو يعذب عذابا شديداً، حتى أطراف شعره، وإبهام رجليه.

أو المراد: تأتية أسباب الموت من الشدائد، وأنواع العذاب فى كل موضع، والمراد: أنه يحيط به من جميع الجهات، من قدمه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وشماله، فى نار جهنم، ليس منها نوع إلا يأتية الموت منه لو كان يموت، لكنه لا يموت!

قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ. (فاطر: ٣٦).

وقال سبحانه: وَنَادَوْا يٰمَلِكُ لِيُقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُّكْرُوْنَ. (الزخرف: ٧٧).

فهم مخلصون فى جهنم يستقبلون فى كل وقت عذاباً أشد وأشق.

وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ. أى: وله من بعد هذه الحال، عذاب آخر مؤلم أغلظ من الذى قبله.

وعذاب النار وأهلها متفاوت فى شدته: فالنار دركات، كما أن الجنة درجات، فلا يستوى فى الجزاء كافر عنيد متمرد يسعى فى الأرض فساداً، وكافر مغلوب على أمره.

قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. (النساء: ١٤٥).

روى الشيخان: عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة، لرجل وُضِعَ فى أخمص^(٨٦) قدميه جمرة يغلى منها دماغه»^(٨٧).

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ
لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (١٨)

المضردات :

مثل الذين كفروا ، المثل فى اللغة : بمعنى : الشبيه والنظير ؛ كالمثل والمثيل ، ويطلق على الحال والصفة التى لها شأن وفيها غرابة ، كما فى هذه الآية وأمثالها مما تقدم مرارا ويأتى كثيرا .
فى يوم عاصف ، العصف : اشتداد الريح ، وُصف به زمان هبوبها : تقوية لشدها ، وتوكيدا ، كما وصف النهار بالصيام ، والليل بالقيام فى قولهم : نهاره صائم وليله قائم ؛ لكثير الصيام والقيام .

التفسير :

١٨- مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

كان بعض الكفار يعمل الأعمال الصالحة كصلة الرحم ، أو يتقدم للأصنام بالقرابين ؛ طمعا فى المثوبة وحسن الجزاء ، ولما كانت هذه الأعمال لم تبين على إيمان سليم ، ويقين بالله الواحد الأحد ، بين القرآن : أنها أعمال باطلة ضائعة ، ذاهبة كذهاب الرياح بالرماد عند شدة هبوبها .
والآية اشتملت على تشبيه بليغ ، ووجه الشبه الضياع والتفرق وعدم الانتفاع .

ومعنى الآية :

حال أعمال الذين كفروا ، فى حبوطها وذهابها ، وعدم انتفاع الكافرين بها فى الآخرة ، كحال رماد مجتمع ، أتت عليه عاصفة ، فى يوم عاصف ، فبددت الرياح هذا الرماد بددا ، ولم تبق منه شيئا .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَقَلْبِنَا إِلَى مَا وَعَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا . (الفرقان: ٢٣) .
وقوله سبحانه : لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ .

أى : لا يقدر هؤلاء الكفار على الاستفادة بأى شيء ، من جزاء ما عملوه من خير فى هذه الدنيا ؛ فقد أضاع ثواب جميع أعمالهم ، الكفر والشرك بالله .

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ . أى : ذلك الكفر ، والإشراك بالله ، هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ، أى : البالغ أقصى نهايته ، والموصل بصاحبه إلى الهلاك والعذاب .

ملحق بتفسير الآية

نطق القرآن الكريم: بخلود الكافرين فى النار خلوداً أبدياً ، قال تعالى : وَمَا هُمْ بِخَالِدِينَ مِنَ النَّارِ . (البقرة: ١٦٧).

لكن النار دركات ، وعذابها متنوع ، قال تعالى : النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ . (غافر: ٤٦) .

وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية وغيرها من الأحاديث الصحيحة : أن عدالة الله الكاملة ، وفضله وبره ، وكمال رحمته ، تأبى أن تضع أعمال البر للكافرين ، ورأوا أن الله يخفف عنهم بعض العذاب فى الآخرة ، كما أنه يعجل لهم بعض الجزاء فى الدنيا ، واستشهدوا بقوله تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةً شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧ ، ٨) .

وقال عز شأنه : وَلَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ . (الأنبياء: ٤٧) .

وقد روى البخارى ومسلم : عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، أنه قال للنبي ﷺ : ما أغنيت عن عمك ، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ا قال ﷺ : « هو فى ضحضاح من النار ، ولولا أنا ؛ لكان فى الدرك الأسفل من النار »^(٨٩) .

والخلاصة : أن بعض العلماء ذهب إلى أن أعمال الكافرين ، التى عملوها فى وجوه الخير ؛ كالصدقة وصلة الرحم ، ينتفعون بثوابها فى الدنيا ، فيكافئهم الله عليها بنعم فى دار الدنيا ، ولا ثواب لهم عليها فى الآخرة ؛ لأنها بنيت على غير أساس ؛ حيث كانوا كافرين أو مشركين بالله . وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . (البينة : ٥) .

ويرى بعض العلماء : أنه يجوز أن يخفف الله تعالى ، عذاب بعض الكفار فى الآخرة ؛ بما لهم من حسنات عملوها فى الدنيا ، معتمدين على الأساس العام الذى وضعه القرآن الكريم ، وهو : العدالة التامة وحسن الجزاء ، فلا يسوّى بين كافر فاجر فاسق مفسد ، وكافر كفّ أذاه عن الناس ، أو ساهم فى أعمال الخير والإصلاح ؛ فالأول يستحق أشد العذاب . وما دام فى النار شديد وأشدّ ، وخفيف وأخف ؛ فإن الثانى يستحق تخفيف العذاب بمقدار ما قدّم من أعمال^(٩٠) ، والله تعالى أعلم .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُشَا يَؤْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَا لَكُمُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

المفردات :

ألم ———— : أى : ألم تعلم ، والاستفهام للتقرير ، أى : لقد علمت أيها المخاطب ، فاشهد بما تعلم .

ب————— الحق : أى : بالأمر الثابت ، وهو الحكمة المنزهة عن العبث .

يذهب بكم : يفتنكم حتى لا يبقى لكم أثر .

وما ذلك على الله بعزيز : أى : وليس ذلك بممتنع ، فلا يصعب تحقيقه على الله تعالى .

وبرزوا لله جميعا : أى : ظهروا لله جميعا . والمراد : أنهم خرجوا من قبورهم ؛ لحساب الله تعالى وحكمه .

معتدون عنا : أى : دافعون عنا ، يقال : أغنى عنه : إذا دفع عنه الضر ، وأغناه : إذا وصل له النفع .

سواء علينا أجزعنا أم صبرنا : أى : مستو علينا الجزع والصبر ، والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

محصيل : معدل ومهرب ، يقال : حاص عنه حيص : إذا عدل عنه وحاد إلى جهة الفرار .

التفسير :

١٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ .

ألم تعلم أيها العاقل أن الله جلت قدرته ، خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . أى : بالحكمة البالغة المنزهة عن العبث ، وبالوجه الصحيح الذى تقتضيه إرادته ؛ لئس تدل بهذا الخلق البديع المنظم على كمال القدرة ، وجلال الوجدانية ، وليتأمل الإنسان فى هذا الكون ونظامه ، وما فيه من إبداع وجمال وتناسق وتكامل ، ثم يقول : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُنَا . (آل عمران: ١٩١) ، أى : لم تخلقه عبثا ، بل خلقتة بالحق .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

إن يشأ الله سبحانه إهلاككم أيها المكذبون ؛ يهلككم حتى لا يبقى منكم أحد ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . أطوع الله منكم ، فإن من قدر على خلق هاتيك الأجرام العظيمة ، البالغة حدًا كبيرا فى الدقة والنظام والإبداع ، قادر على إهلاك الناس ، والإتيان بخلق جديد ، أطوع الله من السابقين .

قال تعالى: يَتْلُوهَا أَنْثَىٰ أَشْمُ الْفَقْرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٥-١٧) .

وقال تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا . (النساء: ١٣٣) .

إن قدرة الله صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، فالكون جميعه فى قبضته وفى تصرفه ، وكل شئ فى الوجود ممثل لأمره ، قال تعالى: إِنْ أَلَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة: ٢٠) .

وقال سبحانه: إِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس: ٨٢) .

٢٠- وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

أى : وما إذهابكم ، والإتيان بخلق جديد مكانكم ، بممتنع على الله ولا متعسر عليه .

٢١- وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ...

أى : برزت الخلائق كلها ، برها وفاجرها ، لله الواحد القهار ، أى : اجتمعوا له فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شئ ليستر أحدا ، ومعنى بروزهم لله : ظهورهم من قبورهم للحساب والجزاء ، أمام الله سبحانه وتعالى ، ولما كان هذا البروز أمرا محققا كائنا لا محالة عبر عنه بصيغة الماضى ، كانه وقع فعلا ودخل فى دائرة الوجود .

وهذه على طريقة القرآن الكريم فى عرض مشاهد القيامة أمام المشاهد ، كأن الأمر قد وقع فعلا ، فأنت تشاهد الناس جميعا ، قد برزوا ظاهرين أمام الله ، حيث كانوا فى الدنيا يستترون ويختفون خلف الجدران والأماكن ، لكنهم فى عرصات القيامة يظهرون بارزين ، لا يستطيعون الاستخفاء ، ولا إخفاء أى شئ ، فقد ورد فى الحديث الصحيح : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا »^(١) ، فهم حفاة الأقدام ، عراة الأجساد ، غرلا لم تزل قلفتهم بل حشروا كيوم ولدتهم أمهاتهم بدون ختان .

وطريقة العرض هذه تبعث الرهبة فى النفوس ، حيث تشاهد المشهد أمامك ، حيث ظهرت الخلائق جميعا ، فى مكان بارز أمام الله تعالى ، لا شئ يستترهم ، ولا مكان يختبئون فيه .

فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا .

أى : قال الأتباع الضعفاء فى رأيهم وفكرهم ، الذين انقادوا لسادتهم وكبرائهم فى الدنيا - قال

الضعفاء للكبراء والقادة ؛ الذين استكبروا عن عبادة الله واتباع الرُّسل : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا . أى : كنا تابعين لكم تأمرؤنا فتأمر ، وتنهوننا فننتهى .

فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ . أى : فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا ؟!

قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنُكُمْ . أى : لو أُرشدنا الله إلى طريق الهدى ، وأضاء أنوار بصائرنا ، وأفاض علينا من توفيقه ومعونته : لأُرشدناكم ودعوناكم إلى الهدى ، ولكنه لم يهدنا : فضلنا السبيل وأضللناكم معنا ، واخترنا لكم ما اخترناه لأنفسنا ، لو كنا نستطيع النفع لأنفسنا !

سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ . أى : ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه ، إن صبرنا أو جزعنا وتألمنا.

روى : أن أهل النار قال بعضهم لبعض^(٨٩) : إنما أدرك أهل الجنة منازلهم : بسبب بكاثهم وتضرعهم إلى الله : تعالوا نبك ونتضرع إلى الله ، فبكوا وتضرعوا بدون فائدة ، فقالوا : تعالوا : فإنما أدرك أهل الجنة منازلهم بالصبر ، تعالوا نصبر ، فصبروا صبراً طويلاً فلم ينفعهم ، فعند ذلك قالوا : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ .

أى : مستو عندنا الجزع والهلع مما نحن فيه ، أو الصبر عليه ، وليس لنا منجى ولا مهرب من هذا المصير المؤلم .

ونرى فى الآية جانباً من هوان الضعفاء ، وذلتهم وانكسارهم ، فهم يطلبون وسيلة ما ؛ لتخفيف بعض بعض عذاب الله .

ونجد أيضاً حسرة المستكبرين وضعفهم وعجزهم ، وتصريحهم بذلك حين قالوا :

لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ . وفي مثل هذه الآية قوله تعالى :

وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . (غافر: ٤٧ ، ٤٨) .

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ يُحْبَبُونَ ﴿٢٣﴾﴾

المعطرات :

لما قضى الأمر : أى : لما أحكم وفرغ منه .

وعدا الحق : وعدًا من حقه أن ينجز .

فأخلفتكم : أى : لم أنجز وعدى لكم ، يقال : أخلف وعده ، أى : لم يبر به .

سلطان : أى : تسلط .

بعضرخكم : أى : بمغيتكم ، من أصرخه أى : أغاثه ، يقال : استصرخه فأصرخه ، أى : استغاث به فأغاثه .

بعضرخی : أى : بمغيتى .

إنى كفرت بما

أشركتمون من قبل : أى : إنى كفرت بإشراككم إياى فى الدنيا ، أو إنى كفرت بالذى أشركتمونى به ، أى : بالله تعالى .

من قبل إشراككم أنتم به ، فأنا هالك مثلكم .

التفسير :

٢٢ - وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ... الآية .

حملت سورة إبراهيم مواقف الحوار فى الحشر ، بين المستكبرين وأتباعهم ، وهذه الآية تعرض حوارًا آخر ، بين الشيطان وأتباعه ، ومزية هذا الحوار ، أنه يبعث الحياة والحركة فى المشهد ، ويجعل الغائب حاضرًا ، ويعرض أمام الإنسان موقفًا سيأتى يوم القيامة ، بلغة الحديث عن الماضى كأنه مشاهد ملموس .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ .

أى : عندما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنة ، وأسكن الكافرين النار ، شاهد الكفار أن الرسول قد شفع للمسلمين ، فقال الكفار : من يشفع لنا ، ما هو إلا إبليس الذى أضلنا ، فيأتونه ويسألونه ، فعند ذلك ^(٢٢) يقول هذا القول .

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ .

أى : على السنة رسله بأن يبعثكم ويحاسبكم ، ويجازيكم على أعمالكم بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءاً ، ووعد الله حق وخبره صدق ، وقد أنجز ما وعد .

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ . أى : وعدتكم : أن لاجنة ولا نار ولا حساب ولا جزاء ؛ ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأوثان والأصنام .

فَأَخْلَفْتُكُمْ . ما وعدتكم به ، وظهر كذبه فيما قلته لكم : فقد كان وعداً باطلاً ، زخرفاً وأمانى خادعة .

وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ . أى : من قوة وتسلط : تجعلنى أُلجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . أى : ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال ، بوسوستى وتزيينى : استجبتم لدعوتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وخضعتم فى مسالك الردى .

فَلَا تُلْهُمُونِيْ وَلَوْ مَوْأَلُفْسَكُمْ . أى : فلا تلهمنى بسبب وعودى الكاذبة ، ولكن لوموا أنفسكم ، فإنكم تقبلتم هذه الوعود الكاذبة ، بدون تفكر أو تأمل ، وأعرضتم عن الحق الواضح الذى جاءكم من ربكم .

مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيْ . أى : بمغيتكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال ، وما أنتم بمغيتي مما أنا فيه من العذاب والنكال ؛ فقد انقطعت بيننا الأواصر والصلات ، والشيطان هنا يتبرأ من أتباعه ، ويلقى التبعة عليهم ؛ حتى يأسوا من نصره لهم ؛ لأنه لا يستطيع نصر نفسه ، فكيف يستطيع أن ينصرهم .

إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُوْا مِن قَبْلُ . أى : إني برأت اليوم من إشراككم إياي مع الله فى الدنيا ، حيث أطمعتمونى فى الشر ، كما يطاع الله فى الخير ، كأنى معبود معه ، ونظير هذا قوله تعالى : وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكُمْ . (فاطر: ١٤) .

ونرى أن الشيطان قد قَدَّم للكافرين ، سلسلة من المعلومات تقصم ظهورهم ، وتضاعف عليهم الحسرات والمصائب :

- ١- أوضح لهم : أن مواعيده التي وعدهم بها في الدنيا كانت باطلة ، معارضة لوعد الحق سبحانه .
- ٢- أوضح لهم : أنهم قبلوا ما لا يتفق مع العقل .
- ٣- لم يكن قوله إلا مجرد دعوة خالية عن البرهان .
- ٤- عليهم أن يلوموا أنفسهم ، فقد اختاروا الباطل المحض .
- ٥- لا نصر عنده ولا إغاثة فهو مثلهم في بلاء وحيرة .
- ٦- أعلن : أنه كفر بمن أشركه في العبادة وأطاعه .

وفي ختام الآية :

إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وهي تقرر حقيقة ثابتة ، بأن جزاء الظلم : العذاب الأليم في الآخرة ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الشيطان يقرر حقيقة واقعة أمام أتباعه ، تضاعف عليهم الحسرات واليأس والإحباط ، جزاءً وفاقاً لما عملوه في دنياهم ، وإنما حكى الله عنه ذلك ؛ لتكون بمثابة الإنذار المبكر لهؤلاء الظالمين ؛ حتى يثوبوا إلى رشدهم .

ويحتمل أن تكون هذه الجملة ، حكاية لرد الله سبحانه وتعالى على الشيطان وأتباعه جميعاً ، تابعين كانوا أو متبوعين - أى : إن الظالمين لهم منا عذاب أليم ، فلا ينفعهم في ذلك اليوم الندم ، ولا إلقاء بعضهم التبعة على بعض .

ولما كان هذا جزاء الظالمين ، من حسرات متتابعة ، قابل القرآن بين موقفهم وموقف المؤمنين ، على طريقة القرآن الغدّة في الجمع بين الأضداد . فقال سبحانه وتعالى :

٢٣- وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...

أى : أدخل الله تعالى في ذلك اليوم العظيم المؤمنين الصالحين ، جنات ويساتين يانعة تجري الأنهار من تحت أشجارها وقصورها ؛ زيادة في البهجة وحسن المنظر .

خَلِيلِينَ فِيهَا يُدْخِرُ لَهُمْ . أى : ماكنين فيها أبداً ، خالدين فيها خلوداً أبدياً ، نعيمهم دائم سرمدى لا ينقطع .

ضرب الله مثلاً، المثل: الصفة العجيبة، وضرب المثل: تبينه ووضعه في المكان اللائق به.

كلمة طيبة: المراد بها هنا: كلمة التوحيد.

تؤتى أكلها كل حين، تعطى ثمرها في كل وقت.

التفسير:

٢٤ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ .

ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق: عقوبة الظالمين، وجزاء المؤمنين، وهنا ضرب لذلك مثلاً حسياً ملموساً فيه تشبيه للمعنويات بالملاموسات، والخطاب في الآية للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتى منه الخطاب.

والمعنى: ألم تر أيها المخاطب، كيف اختار الله تعالى مثلاً، ووضعه في موضعه اللائق به والمناسب له، وهذا المثل لكلمتي الإيمان والكفر.

فكلمة الإيمان والتوحيد في الإسلام، وهى: شهادة ألا إله إلا الله، أصلها ثابت متين، معتمد على الإيمان بالله، وصدق التوحيد، والإخلاص له، وتثمر أعمالاً صالحة من الصلاة والصيام والحج والجهاد، وسائر آداب الإسلام في العبادات والمعاملات.

شبه الله كلمة التوحيد بشجرة طيبة مثمرة هى: النخلة، أصلها ثابت فى الأرض لا تززعها الرياح، وفرعها متجه إلى السماء، فهو عال رشيق مثمر.

٢٥ - تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...

فالنخلة لا ترضن بثمارها فى أى وقت من الأوقات، ويؤكل البلح ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، ويؤكل منه الجمار والبلح والبسر والرطب والتمر، وكل نتاج النخلة خير وبركة، وهى قلوب المؤمن لا تجف صيفاً ولا شتاءً.

وكذلك الإيمان فى قلب المؤمن ثابت كجذور النخلة، وأعمال المؤمن تصعد إلى السماء: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ. (فاطر: ١٠)، والإيمان يؤتى ثماره فى كل حين وأن، من الأعمال الصالحة، والجهاد، والذكر، والصدقة، وصلة الرحم، ونشر العلم، وأداء العبادات والمعاملات، وكذلك النخلة أو كل شجرة مثمرة نافعة، تؤتى أكلها وثمارها كل وقت وأن، بِإِذْنِ رَبِّهَا. أى: بأمره ومشينته، حيث شاء أن ينتفع الناس بهذه الثمار فى كل حين.

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَشْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

ختم الله هاتين الآيتين ببيان الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن الكريم ، وهى : الحث على التفكير والتأمل والاعتبار ، وفيها زيادة إفهام وتذكير للناس ؛ لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهى تخرج المعنى من خفى إلى جلى ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالحس والطبع ، وفيها تقريب للبعيد ، وتقريب للقريب ، وإبراز المعانى المقولة بالصور المحسوسة .

فى أعقاب تفسير الآيتين :

المراد بالشجرة الطيبة عن جمهور المفسرين : النخلة ، وقيل : هى كل شجرة مثمرة طيبة الثمار والمنظر والرائحة ، وقيل : غير ذلك ، وقد رجح الألوسى والطبرى وغيرهم : أن المراد بالشجرة الطيبة : النخلة ؛ لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ .

★ ★ ★

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۚ﴾^(٢٦)
 يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ
 اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

المفردات :

اجْتُثَّتْ : قطعت واستؤصلت .

من قرار : من ثبات فى الأرض .

بالقول الثابت : بكلمة التوحيد .

التفسير :

٢٦ - وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .

أى : وصفة كلمة خبيثة ، هى : كلمة الكفر والشرك وكل فساد ؛ كشجرة خبيثة ، لا قرار ثابت لها ، فهى

كالحنظل وكل نبات لا ثمر له ، ولا يرجى منه خير .

اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ . أى : اقتلعت جلثتها وهيئتها ، من فوق الأرض ؛ لقرب عروقها وجذورها من

سطح الأرض .

مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ .

أى : ليس لهذه الشجرة أصل ثابت ، ولا فرع صاعد ، وكذلك الكافر ، لا خير فيه ، لا يصعد له قول طيب ، ولا عمل صالح : لأنه لا إيمان عنده ، فهذا وجه تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة .

الشجرة الخبيثة

هى شجرة طعمها مر كالحنظل ، وليس لها ثمر ، وليس لها أساس ثابت ، وقيل : شجرة الشوك ، وقيل : كل شجر لا يطيب له ثمر ، وقيل : هى شجرة لم تخلق على الأرض .

وقال ابن عطية : الظاهر أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة ، جامعة لتلك الأوصاف التى وصفها الله بها .
والخلاصة : أن كلام المؤمنين نافع مفيد ، أساسه قوى متين ، وأهدافه سامية ، وثماره نافعة متعددة ، وكلام الأشقياء وأصحاب الشهوات والنفوس الضعيفة ، باطل لا أساس له ، ولا ثمار ، أشبه بالحنظل أو بالأشجار الخبيثة التى لا نفع فيها ولا فائدة .

٢٧- يُكَيِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ... الآية .

هذا من فضل الله ونعمائه على المؤمنين ، الذين استقر الإيمان فى قلوبهم ، فهؤلاء يمدّهم الله بعونه وتبتيته : فلا تغريهم الفتنة ، ولا المال ولا المنصب ولا الجاه ، ولا يؤثرون الدنيا على الآخرة .

انظر إلى بلال وصهيب وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ ، وانظر إلى الدعاة والهداة والأئمة فى التاريخ القديم والحديث ، هؤلاء جميعا ثبتهم الله على الدين والإيمان ، والتوحيد فى الحياة الدنيا .

وفى الآخرة . عند خروج الروح ، وعند سؤال القبر ، وعند البعث والحشر والحساب ، والميزان والصراف ، فى هذه المواقف يغتبطهم الله على الإيمان ، وعلى شهادة : ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، كما ورد فى الحديث الصحيح (٣٩) .

ومن هذا التثبيت : أن روحه تخرج على التوحيد ، وأنه يُسأل فى قبره فيقول : الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد رسولى ، ثم يفتح له فى قبره باب إلى الجنة .

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ؛ لأنهم اختاروا الضلال على الهدى ، ومالوا مع شهوات النفس ، وأقروا العاجلة على الآجلة ، قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات: ٣٧-٣٩) .

وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . من تثبيت المؤمنين ؛ جزاء ثباتهم على إيمانهم ، ومن إضلال الكافرين ؛ جزاء ضلالهم وكفرهم ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة ، وله الحكم فى الأولى والآخرة ، لا معقب لأمره ، ولا رادُّ لقضائه ، ومن مشيخته : تثبيت المؤمنين ومثوبتهم ، وخذلان أهل الكفار وعقابهم . وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

(الشمس ٧ - ١٠)

من هداى السنة

روى الشيخان: أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل فى القبر: يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفى الآخِرَةِ»^(٩٧).

وأخرج الشيخان^(٩٨) وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا - أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد - ﷺ - فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً، ويفتح له من قبره إليه، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدرى كنت أقول كما يقول الناس! فيقال: لا دريت ولا تليت! ثم يضرب بمطرقة من حديد، ضربة بين أذنيه؛ فيصيح صيحة فيسمعها من يليه إلا الثقلين»^(٩٩).

من زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني:

يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ . وهى: الكلمة الطيبة المتقدم ذكرها: كلمة الشهادة «شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»، وسائر الكلام الحق، فإن الآخذين بها يدومون على القول الثابت.

فى الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَفى الآخِرَةِ . وقت المساءة فى القبر ويوم القيامة، والمراد: أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم، أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلثم، ولا تردد ولا جهل، كما يقول من لم يوفق: لا أدرى؛ فيقال له: لا دريت ولا تليت.

وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ . أى: يضلهم عن حجتهم فلا يقدرون على التكلم بها فى قبورهم ولا عند

الحساب^(٩٩)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيُنْسُوا الْقُرْآنَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

كـ فـ راء : كفر النعمة : جردها .

دار البوار : دار الهلاك ، ويطلق البوار أيضا على : الكساد .

وينسوا القران : وينس المستقر .

أنـ دـ داء : جمع ند ، وهو : المثل والنظير .

مصيركم : مرجعكم .

لا بيع فيه : لا فدية فيه .

ولا خـ لـ لـ : الخلال معناه : المخالة وهي : المادة ، أو جمع خليل ، وهو الصديق ، أو جمع خلة ، بضم

الخاء وتشديد اللام مفتوحة ، وهي : الصداقة .

التفسير

٢٨ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ... الآية .

الخطاب هنا موجه إلى النبي ﷺ ، أو إلى كل من يصلح للخطاب ، مقصود به : التعجيب من صنع هؤلاء الكفار

والمعنى : ألم تنظر إلى الذين بدلوا شكر نعمة الله عليهم ، فجعلوا مكانه كفرًا عظيمًا .

والمراد بهم : أهل مكة ، مكن الله لهم خرمًا آمنًا ، يجبى إليه ثمرات كل شيء ، ويسر لهم رحلة الشتاء والصيف ، ودعاهم : إلى عبادة رب البيت الحرام ، وأرسل لهم نبيًا منهم يعرفون نسبه وصدقه ، وأنزل عليه كتابا فيه مجدهم وصلاتهم ، وإنقاذهم من براثن الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد ، لكنهم بدلا من أن يشكروا الله على هذه النعمة ، فبؤسوا برسوله ويتبعوا هديه ، قابلوا هذه النعمة بالكفر ، والإصرار على عبادة الأوثان ، ومحاربة محمد ﷺ ، ومن آمن به .

وَأَخْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . وَأَنْزَلُوا قَوْمَهُمْ مِنْ أَطَاعِهِمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، دَارَ الْبَوَارِ وَالْهَلَاكِ ، حَيْثُ قَتَلُوا فِي غَزْوَةِ بَدْرَ ، وَعَدَدَ مِنَ الْغَزَوَاتِ حَتَّى فَتَحَتْ مَكَّةَ ، وَتَعَرَّضُوا لِلْهَوَانِ وَالْهَلَاكِ .

وَالْبَوَارِ : الْفَسَادُ وَالْهَلَاكِ ، الَّذِي أَنْزَلُوهُ بِأَقْوَامِهِمْ وَيَأْنَفْسِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ فِرْعَوْنَ : يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ . (هود: ٩٨) .

ثم بين الله دار البوار فقال :

٢٩- جَهَنَّمَ^(٣٠٠) يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ .

أى : إن دار البوار هى : جهنم ، يصطلون بحرهما ؛ من صليت اللحم ؛ أصليه ؛ إذا شويته .

وَبِئْسَ الْقَرَارُ .

وبئس المستقر والإقامة هى ؛ لمن أراد الله به النكاح والويل .

٣٠- وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ...

أى : اتخذوا لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، أندادًا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة .

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ . ليوقعوا قومهم فى الضلال ، ولاخروج عن سبيل الله وهو التوحيد ، بما زينوه لهم من شرك وافتراء .

وهذا عمل السادة المتبوعين من سدنة الأوثان وسدنة المذاهب الضالة^(٣٠١)

قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ . أى : تَلذُّذُوا بِالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ ، الَّتِي تَمَادِيْتُمْ فِيهَا ؛ فَقَدْ قَابَلْتُمْ النِّعْمَةَ بِالْكَفْرِ بِدَلِّ الشُّكْرِ ، وَأَغْرَيْتُمْ الْإِتِّبَاعَ بِالضَّلَالِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ !

فَإِنْ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ . أى : افعلوا ما بدا لكم ، فَإِنْ عَاقِبَتَكُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ؛ إِذَا لَمْ تَقْلَعُوا عَنْ غِيْكُمْ وَكَفْرِكُمْ .

وهذا الأسلوب يراد به : التحذير ، كما يقول الطبيب لمرضى يستهين بأوامره : تمتع بالأكل كما تشاء ؛

فَإِنْ مَصِيرُكَ الْمَوْتَ ؛ وَكَمَا يَقُولُ الْحَاكِمُ لِمَنْ عَصَاهُ : افعل ما شئت ؛ فَإِنْ مَصِيرُكَ حَبْلُ الْمَشْنَقَةِ !

قال الشوكاني :

قُلْ تَمَتَّعُوا . بما أنتم فيه من الشهوات ، وبما زينته لكم أنفسكم من كفران البُغْمِ .

فَإِنْ مَصِيرُكُمْ إِلَى آثَارِ .

أى : مرجعكم إليها ليس إلا ، كأنه قيل : فإن دمتم على ذلك : فإن مصيركم إلى النار . ا هـ .

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى : قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ . (الزمر: ٨) .

وقوله تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ . (لقمان: ٢٤) .

٣١- قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ...

من طليعة القرآن الكريم المراوحة فى الحديث ، والتنقل بين الحديث عن الكافرين ، وتوجيه الخطاب إلى المؤمنين .

والمعنى : قل يا محمد لعبادى ، الذين استجابوا لدعوة ربهم :

يُقِيمُوا الصَّلَاةَ . يحافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها ، مع خشوعها وخضوعها وحضور القلب فيها ، وإتمام أركانها ؛ حتى تؤدى دورها فى إصلاح الفرد والمجتمع .

وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً . ويقدموا للفقراء والمساكين والمحتاجين ، جانباً من المال الذى استخلفهم الله فيه ، سواء أكان على وجه الصدقة فالإسراء فيه أفضل ، أم كان على وجه الزكاة فالإعلان فيه أفضل .

مَنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلَلُ .

أى : يقيموا الصلاة والعبادة ، والزكاة والصدقات فى هذه الدنيا ، من قبل أن يجرى يوم القيامة فى هذا اليوم لا يستطيع المصطفى العمل أن يفدى نفسه ، بالبيع والشراء ، ولا يستطيع الخليل أن ينقذ خليله من أهوال هذا اليوم ؛ لأن العملة الوحيدة فى ذلك اليوم هى العمل الصالح ، الذى قَمَّمَهُ الإنسان فى دنياه .

وفى هذا المعنى يقول الله تبارك وتعالى : يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ . (البقرة: ٢٥٤) .

وعلى لسان إبراهيم الخليل يقول سبحانه : وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُخْتَوْنَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى

اللَّهَ بِقَلْبٍ حَلِيمٍ . (الشعراء: ٨٧-٨٩) .

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشِّجَارِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٤﴾ وَآتَاكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٥﴾﴾

المفردات :

وانزل من السماء : كل ما علا الإنسان فأظله : فهو سماء. والمراد به هنا : السحاب .

رزقكم — : مرزوقا مما يطعم أو يشرب أو يلبس أو ينتفع به .

وسخر لكم الفلك : أى : يسر الفلك لإرادتكم ، والفلك بسكون اللام : السفينة . يستعمل فى الواحد : فيذكر ، وفى الجمع : فيؤنث .

دائِبَيْنِ : فى حركة دائمة لا يفتران . يقال : دأب فى عمله دأبا ، ويحرك : جد فيه .

لا تحصوها : لا تقدرون على حصرها وعدّها ، والإحصاء فى الأصل : العد بالحصى ، ثم أطلق على العد مطلقا .

ظالِمٌ — : ظالم شديد الظلم ، يقال : ظلم ، يظلم ، ظلما ، من باب ضرب فهو ظالم وظلوم . والظلم : وضع الشيء فى غير محله .

كفّار — : جاحد النعمة . يقال : كفر النعمة ، وكفر بالنعمة : جدها .

التفسير :

٣٢ — اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... الآية .

تعدد هذه الآيات جانبها من نعم الله على خلقه ، وكأنها ترد على الكافرين المعاندين : إذ تقدّم أدلة ملموسة ، يراها الأعمى والبصير ، والصغير والكبير ، والأمى والمتعلم ، فمن هذه النعم ما يأتى :

١- اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ .

فهو سبحانه خلقهما على غير مثال سابق ، وأوجد فى السماء الأجرام العلوية ، من نجوم وكواكب ، ومجرات

ومخلوقات تسبح بدقة عجيبة وترتيب بدیع ، كما بسط الله الأرض وأنزل إليها الأمطار ، ويسر لها الأنهار والبحار ، والجبال والهواء والفضاء ؛ حتى يعيش عليها النبات والحيوان والإنسان ، وحتى يعمر الكون ويتكامل .

٢- وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .

وهذا الماء هو أساس الحياة ، يشرب منه الإنسان والحيوان والزرع ، ويطون الوديان والأفلاج .

فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ . أى : أخرج بماء المطر أنواع النباتات والثمار ؛ حتى يأكل منها الإنسان والحيوان ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . (الأنبياء: ٣٠) .

٣- وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ...

أى : ذلل الله لكم السفن ، ويسر لكم استعمالها ؛ فصارت تجرى على شاطئ الماء ، بإذن الله وتيسيره ، الذى قدر قوانين الهواء والفضاء والماء ، والطفو على وجه الماء ، قال تعالى : وَلَهُ الْخَوَارِجُ الْمُنَشَّاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ . (الرحمن: ٢٤) .

أى : ويفضل الله سخر السفن التى تجرى فى البحر ، كالجبال العالية ناشئة على سطح الماء جارية عليه بفضل الله .

٤- وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ .

أى : ذلل لكم الأنهار ؛ تشربون منها وتسقون زروعكم ودوابكم ، وتشقون منها أنهاراً تسيرونها وفق إرادتكم ، كنهر النيل ، والفرات وغيرهما .

٣٣- وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ .

٥- سخر الله لكم الشمس والقمر دائمين فى إصلاح ما يصلحان من الأبدان والنبات وغيرهما ، وهما دائمين فى مكانهما بدون اضطراب أو اختلال ، ولا يفتران عن ذلك ما دامت الدنيا .

٦- وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

أى : جعلهما متعاقبين يأتى أحدهما وراء الآخر ، فالليل جعله الله سكناً ونوماً وهدوءاً وراحة ، والنهار جعله الله سبيلاً للحركة والحياة ، والتجارة ، والزراعة ، والدُّراسة ، والقيام بسائر أنواع الحرف وفنون المعاش ، ولا غنى للناس عنهما ، ولو استمر الليل ؛ لتعطلت مصالح الناس ، ولو استمر النهار ؛ لضاق الناس بالحياة والحركة .

قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآتِغَاؤُكُمْ مِنْ قُطْبِهِ ... (الروم: ٢٣).

وقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ . (الأنعام: ١) .

٣٤- وَأَنْتُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ...

٧- وأعطاكم من كل ما سألتموه ، أى : أعطاكم بعضاً من جميع ما سألتموه إياه من نعم ، أو أعطاكم من كل ما سألتموه ومالم تسألوه ، فحذف الثانى : لدلالة الأول عليه ، ونظيره : سَرَّابِلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ . (النحل: ٨١) ، أى : والبرد.

وقرئ بتدوين كل : والمعنى على هذه القراءة : أعطاكم الله من كل شىء ابتداءً : بدون سؤال منكم ، على أن ما نافية ، أى : أعطاكم من كل شىء ، حال كونكم غير سائلين .

وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ..

٨- أنعم الله عليكم نعماً جمة لا تعد ولا تحصى ؛ فهلا استعنتم بها على الطاعة ، وشكرتم الله عليها ، واستخدمتموها فى طاعته وعبادته وعدم الإشراف به ، وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم ، لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » ؛ فهو سبحانه لم يكفه غيره ، بل هو يكفى غيره .
ولا مودع : غير متروك حمده .

ولا مستغنى عنه ربنا : فهو الذى يحتاج إليه الخلق .

قال الشوكاني فى فتح القدير :

وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا . لا تطبقوا إحصاءها ، بوجه من الوجوه ، ولو رام فرد من أفراد العبادة ، أن يحصى ما أنعم الله به عليه ، فى خلق عضو من أعضائه ، أو حاسة من حواسه ، لم يقدر على ذلك قط ، فكيف بما عدا ذلك من النعم ، فى جميع ما خلقه الله فى بدنه ، والنعم الواصلة إليه فى كل وقت ، على تنوعها واختلاف أجناسها ، اللهم ، إنا نشركك على كل نعمة أنعمت بها علينا ، مما لا يعلمه إلا أنت^(١٠٧) .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

هناك وجهان فى تفسير هذه الآية .

الوجه الأول : المراد بالإنسان : الكافر الذى عبد غير الله ، أى : أن الإنسان الكافر الذى عبد غير الله ، لظلم لنفسه ؛ بإغفاله لشكر من أنعم عليه .

كُفَّارٌ. شديد الكفر لله حيث عبد غيره ، وسجد للوثن والصنم ، مع أن المستحق بالعبادة هو الله تعالى .

والوجه الثاني : المراد من الإنسان : جنس الإنسان ، ومن الكفر : كفر النعمة : بالتقصير في شكرها .

والمعنى : إن الإنسان لا يُقدَّر نعم الله عليه ، وهى لا تحصى ، فتراه عظيم الظلم لنفسه ، شديد الكفران لنعم ربه ، فهو دائم الانتفاع بها ، والتقصير في أداء شكرها ، ووضعها في غير موضعها ، ولو أنصف نفسه ، وعرف حق ربه ، لاستدام شكره ، والوفاء بحقه جلّ وعلا^(٢٥) .

★ ★ ★

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
(٢٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ (٢٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا
لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٢٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٢٨)﴾

المفردات :

البلد : مكة المكرمة .

اجنبني : أبعدني . يقال : جَنَّبْتُ الرجل الشرَّ من باب نصر : أبعدته عنه ، وجَنَّبْتُهُ بالتشديد مبالغة .
بــــــــــــوادي : كل منفرد بين جبال وأكام يكون منفذًا للسيل . والمراد به هنا : ما يحيط بالبית
الحرام .

تهوى إليهم : تسرع إليهم شوقًا وحبًا . يقال : هوى إليه يَهْوِي هُويًا بضم الهاء : إذا أسرع في السير .
ما نخفى : ما نضمر ونستر . يقال : أخفيت الشيء : سترته . وخفى الشيء : استتر أو ظهر ضد .
وما نعلن : وما نظهر . يقال : علن الأمر من باب : قعد ، ظهر ، وأعلنته : أظهرته .

التفسير:

٣٥ - وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ... الآية .^(١٠٠)

رأى بعض المفسرين : أن ذكر جانب من قصة إبراهيم هنا ، كمثال للكلمة الطيبة ، التي تثمر الخير في كل وقت : لقصد الدعاء إلى التوحيد .

والمعنى : واذكر أيها الرسول لقومك : خبر إبراهيم ، أو اذكر أيها المخاطب : قصة إبراهيم ، حين أسكن ولده إسماعيل وأمه ، وادى مكة ، ولم يكن بها زرع ولا ماء ، وكانت هاجر جارية قبطية ، تملكها سارة زوجة إبراهيم ، فأهدتها سارة إلى إبراهيم ، فترسّى بها ، وأنجب منها فى شيخوخته ولده البكر : إسماعيل ، وملكته الغيرة سارة : فنشأت زوجها أن يخرجها من عندها ، فذهب إبراهيم بهاجر وإسماعيل إلى أرض مكة ، ووضعها هناك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفل راجعا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا؟ بهذا الوادئ الذى لا أنيس فيه ولا شئ ؟ قالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : ءالله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ؛ قالت : إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت .

وانطلق إبراهيم عليه السلام ، حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرانيه ، استقبل البيت بوجهه ، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية ، ثم دعا رافعا يديه فقال : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ .. إلى قوله: لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .^(١٠١)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . أى : واذكر أيها النبی ، وقت قول إبراهيم لربه ، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادى مكة : رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا . أى : يارب ، اجعل مكة بلداً ذا أمن ؛ حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وقد أجاب الله دعاء إبراهيم فجعل مكة حرماً آمناً .

وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . أى : باعدنى يارب ، أنا وأبنائى عن عبادة الأصنام ، وثبتنا على التوحيد ، وقد استجاب الله دعوته ، فى بعض بنيه دون بعض ، ولا ضير فى ذلك ، وقد ورد هذا المعنى فى قوله سبحانه: قَالَ إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ . (البقرة: ١٢٤) .

٣٦ - رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ...

أى : يارب ، إن الأصنام أضلت كثيرا من الناس ، أى : كانت سببا فى إضلال كثير من الناس ؛ بسبب الفتنة وإغراء الكبار للصغار ، فنسبة الإضلال للأصنام مجازية ؛ لأن الأصنام أحجار لا تعقل ، لكن وضعها وإغراء سدنتها بعبادتها : أضلت الناس ، كما تقول : فتنته الدنيا وأضلته ، وهو إنما فتن وضل بسببها ، ثم أدرك إبراهيم

بفطرته ، أن بنيه سوف ينقسمون بعده ، إلى موحدين ومشركين ؛ ولذلك أظهر لربه أنه لا يستحق الانتساب إليه ، إلا من أتبعه على ملة التوحيد ، فقال :

فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : فمن تبعنى على ملة التوحيد ، وشايئنى فى دينى وعقيدتى ؛ فإنه يصير بهذا الاتباع من أهل دينى ، وهو دين الإسلام ، ومن عصانى ولم يقبل الدخول فى الدين الحق ؛ فإنى أفوض أمره إليك ، وأنت أهل للمغفرة والتوبة؛ لمن عدل عن الشرك قبل موته .

قال مقاتل وابن حيّان : المعنى : ومن عصانى فيما دون الشرك ؛ فإنك غفور رحيم .

٣٧- رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ...

عندما ترك إبراهيم هاجر ، وابنها إسماعيل ، وهو رضيع ؛ ليقىما فى وادى مكة ، وليس بمكة فى ذلك الوقت زرع ولا ماء ، ثم اتجه إبراهيم إلى ربه - وقلبه يتحرق إشفاقا على زوجته وابنه - فقال :

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .

أى : ربنا إني استجابة لأمرك ؛ أسكنت بعض ذريتى ، بواد لا ماء فيه ولا زرع ، عند المكان الذى أعدته لبيتك المحرم ، رغبة فى جوار بيتك ، وأملا فى رعايتك وفضلك لهم .

رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . أى : أسكنتهم بجوار بيتك المحرم ؛ ليتفرغوا لإقامة الصلاة فى جوار بيتك ، وليعمروه بذكرك وطاعتك ، ودلت هذه الآية : أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة فى غيرها .

قال رسول الله ﷺ : «صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة» (١٠٧) .

فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِّنْ آقَاسٍ يَهْرَىٰ إِلَيْهِمْ .

أى : حرك الرغبة فى قلوب بعض الناس ، من المؤمنين ؛ لتشتاق لزيارة هذا البيت ، وقد استجاب الله أيضا لهذه الدعوة ، وإنك لترى عجبا فى موسم الحج ، وفى شهر رمضان ، بل وفى سائر شهور العام ؛ مئات وآلاف من الناس ، يقدمون معتمرين وحاجين وزائرين ، وطائفين وراكعين وساجدين ، ومعتكفين بهذا البيت العتيق ، وقد استقر فى قلوبهم الإيمان والتبذل ، وظهر على وجوههم الصلاح وسيما العبادة .

وَأَرْزُقُهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ .

أى : واربز من تركتهم وديعة فى جوار بيتك ، من الثمرات المختلفة ما يغنيهم ويشبعهم ؛ لعلم بهذا العطاء الجزيل ؛ يزدادون شكرا لك ، ومسارعة فى طاعتك وعبادتك .

وقد استجاب الله دعاء إبراهيم فجعل البيت الحرام حرما آمنا ، تجبى إليه ثمرات كل شئ ؛ رزقا من لده .

وترى فى البيت الحرام ، وحوله فى مكة أم القرى أعجوبة الأعاجيب ، وهى اجتماع الفواكه المختلفة الأزمان ، من الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية فى يوم واحد ، وبجودة متميزة ، وكثرة كافية ، فى بلد غير ذى زرع ، وتجبى إليه الثمار من الشرق والغرب ؛ ليصبح من أغنى البلاد بالثمار والخيرات ، وسائر صنوف النعم .

ولقد كان من آثار دعوة إبراهيم عليه السلام ، أن هاجر عندما نفذ الماء منها ، ورأت رضيعها يطلوى من العطش ، صعدت على الصفا تبحث عن قادم ، ثم انطلقت إلى المروة باحثة عن قادم من البشر ، وكررت ذلك سبع مرات ، وجعل ذلك من مناسك الحج ؛ تخليدا لذكرى هاجر ، ثم أرسل الله ملاكا ، فحفر عند زمزم حتى ظهر الماء ؛ فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيت الله ، يبينه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله لن يضيع أمله ، ثم إنه مرت بهم رفقة من قبيلة جرهم ؛ فقالوا لأم إسماعيل : أشركينا فى مائك ؛ نشرك فى ألباننا ؛ ففعلت ، فلما أدرك إسماعيل عليه السلام زوجه امرأة منهم .

وقد زار إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل ، فوجده قد خرج للصيد ، ووجد زوجته شاكية متبرمة بالحياة معه ، فقال لها : إذا جاء إسماعيل ؛ قولى له : الشيخ يقرئك السلام ، ويطلب منك أن تغير عتبة الدار ؛ فقال إسماعيل هذا أبى وقد أمرنى أن أطلقك ؛ فطلقها إسماعيل وتزوج امرأة أخرى ، ولما زاره إبراهيم وجد زوجة راضية قانعة مؤمنة ، فقال لها : قولى لإسماعيل ؛ ثبّت عتبة الدار ، فقال لها إسماعيل : ذاك أبى وقد أمرنى ألا أطلقك^(١٠٠) .

٣٨- رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ...

إنك يا الله سميع عليم ، تعلم السر والنجوى ؛ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، تعلم كل أحوالنا ، لا يخفى عليك شئ منها ؛ فقلتم ما نخفيه ونستره ، وتعلم ما نظهره ، فكل ذلك عندك فى العلم سواء .

وهذه ابن عباس ، ومقاتل فى تفسير هذه الجملة : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه ، من الوجد بإسماعيل وأمه ، حيث أسكنتهما بواد غير ذى زرع .

وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .

أنت يا إلهى ، لا يخفى عليك شئ من الأشياء سواء أكان هذا الشئ فى الأرض ، أم فى السماء ، أم فى غيرهما ، وإننا ذكر السماء والأرض لمشاهدتهما ، وإلا فعلم الله سبحانه ، محيط بكل ما فى هذا الكون .

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

المضردات :

وهب لي على الكبر ، رزقني مع تقدمي في السن .

إنك سميع الدعاء ، أي : إنك مجيب دعاء من دعاك .

التفسير :

٣٩ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ .

الشكر لله تعالى والثناء الجميل له عز شأنه ؛ حيث منحني الولد على كبر سنّي ، ويأسي من أن يكون لي ولد ، ومع هذا الضعف والكبر استجاب دعائي ، ورزقني إسماعيل وإسحاق ، إن ربّي متفضل باستماع دعائي ، وإجابة سؤالي ، وفي هذا المعنى يقول الحق سبحانه : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

ولم يحدد القرآن عمراً لإبراهيم عندما رزق بولديه ، لكن أفاد : أنه كان شيخاً كبيراً ، وعندما بُشِّرَ الملائكة زوجته سارة بالولد والحفيد ؛ تعجبت من كبر سنّها ، وكبر سن زوجها .

قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحاق وهو ابن مائة واثنى عشرة سنة^(١) .

قال تعالى : وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَوَاسِيَ أَأَنَالِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . (هود: ٧١، ٧٢) .

٤٠ - رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ...

نلمح هنا عبادة إبراهيم خليل الرحمن ، وتقربه من ربه بالدعاء ، والحب ، والذكر ، والتبجيل ، إن إبراهيم لأَوَاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة: ١١٤) ، فهو دائم الرجوع إلى الله والتضرع إليه مع الحلم والأناة ، وفي هذه الآية يدعو ربه قائلاً:

رَبِّ أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ . وفقني لأداء الصلاة في أوقاتها ، والمحافظة على خشوعها وخضوعها وإقامة أركانها : فهي وسيلة المناداة والمناجاة ، وسبيل الإيمان وذكر الرحمان ، وهي تغسل النفس من الداخل بالثوبة والذكر والطهارة ، ولذلك كانت وسيلة إلى البعد عن الفحشاء والمنكر ؛ لأن من عرف ربه وناجاه في صلاته ؛ سكب الله في قلبه التقوى ، وورقه الاستقامة على المأمورات واجتناب المنهيات .

وقد كان إبراهيم أمة في رجل ؛ فهو أبو الأنبياء ، وقد امتدت دعوته إلى الصالحين من ذريته ، فقال :

وَمِن ذُرِّيَّتِي . أى : واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة ، وقد وصف الله عباد الرحمان بقوله : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . (الفرقان: ٧٤) .

وقد خص إبراهيم بعض ذريته بالدعاء ، فقال : وَمِن ذُرِّيَّتِي . أى : وبعض ذريتي ؛ لأنه علم من استقراره عادة الله فى الأمم السابقة ، أن يكون فى ذريته من لا يقيم الصلاة .

انظر إلى قوله تعالى : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ . (البقرة: ١٢٨) .

إن عدالة الله تأبى أن تحابى نبيا أو رسولا ، وإنما يكافئ المحسن أيا كان موقعه أو نسبه ، ويعاقب المسىء مهما كانت قرابته أو نسبه ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءً . أى : يا رب تقبل دعائى ، وأجب دعائى وتبطل ، أو تقبل عبادتى ، أو هما معا ، تقبل دعائى حين أدعوك ، وعبادتى حين أعبدك ، وارزقنى الإخلاص والقبول والتوفيق .

٤١- رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

أى : اغفر لى يارب ما فرط منى من الذنوب ، أو من عمل خلاف الأولى ، أو من الغفلة عن عبادتك ، واغفر لأبى وأمى .

قيل : كانت أمه مؤمنة ؛ لأن الله ذكر عذره واستغفاره لأبيه دون أمة حين قال سبحانه : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَّوَدَّةٍ وَإِيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة: ١١٤)

وامتد دعاء إبراهيم الخليل ليشمل جميع المؤمنين والمؤمنات ؛ فقال :

وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

أى : واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات جميعا ، من ذريتي وغيرهم ، حينما يقومون للحساب والجزاء يوم القيامة ، وتلك دعوة وشفاعاة منه لجميع المؤمنين ، نرجو أن يتقبلها الله رب العالمين .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ^{٤٢} إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ^{٤٣}﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾

المفردات :

تشخص فيه الأبصار: تكون فيه أبصار أهل الموقف مفتوحة لا تطرف . يقال : شخص البصر إذا ارتفع ،

ويتعدى بنفسه ، فيقال: شخص الرجل بصره ؛ إذا فتح عينيه لا يطرف .

مهطعين : مسرعين : من أهطع فى عدوه : إذا أسرع .

مقنعي رؤسهم : رافعيها من إدامة النظر لا يلتفتون إلى شئ ، يقال : أقنع رأسه : رفعه .

لا يرتد إليهم طرفهم : الطرف : العين ، ولا يجمع ؛ لأنه فى الأصل مصدر ، والمراد : لا ترجع إليهم أجفانهم التى تحتها العيون بل تظل مفتوحة .

وأفئدتهم هواء : أى : وقلوبهم خالية لا يشغلها سوى الخوف .

التفسير :

٤٢ - وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ... الآية .

الخطاب هنا للرسول ﷺ ، والمراد : أمته ، أو كل من يتأتى من الخطاب ، وفى هذه الآية تسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين ، وتهديد ووعيد لمشركى مكة ، ولجميع الظالمين .

قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم .

أى : لا تحسبن إمهال الظالم لفترة ما بسبب غفلة الله عنه ، بل سنة الله إمهال العصاة فى هذه الدنيا ، لعلهم يتوبون أو يرجعون ، وفى الآية تهديد ووعيد لكل ظالم ، أى : لا تغتر بإمهالى لك ، ولا تظن أنك أفلتت من عقابى ؛ فإن هذا العقاب سيكون يوم الجزاء .

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ .

إن الله يؤجل عقوبة الظالمين إلى يوم القيامة ، فإذا شاهدوا هول الموقف : شخصت أبصارهم ، أى : بقيت مفتوحة ، لا تحرك أجفانها ولا حركاتها .

قال ابن عباس : تشخص أبصار الخلائق يومئذ ؛ لشدة الحيرة ، أى : تبقى مفتوحة لا تطرف .

٤٣ - مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ....

أى : مسرعين إلى الداع بذلة واستكانة ، كما يسرع الأسير والخائف .

مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ . أى : رافعيها مع دوام النظر ، من غير التفات إلى شىء .

لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ . أى : لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم : كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف من شدة الغزع والخوف .

وَأَلْقَتْهُمْ هَرَآءَ . أى : إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجيء وتذهب ، ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الحناجر : لشدة ما يرون من هول موقف الحساب .

★ ★ ★

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ لَمْ نَكُنْ بِأَقْسَمَتِكَ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ۝٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَبَّيْنَا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۝٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝٤٦﴾ ﴿

المضادات :

وأنذر : وخوف .

يوم يأتيتهم العذاب : يوم القيامة .

أخربنا إلى أجل قريب : أعدنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أجل قريب .

مسالككم من زوال : أى : ممالككم من بعث ونشور .

التفسير :

٤٤ - وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ...

تأتى هذه الآيات على طريقة القرآن الفذة الملفتة للنظر ، بعرض مشاهد القيامة ماثلة أمام العيان ، ونلاحظ

فيها مواقف الحساب والجزاء ، وهيئة الظالمين يرجون أن يعودوا إلى الدنيا لوقت قصير ؛ حتى يفعلوا ما أعملوه في الدنيا ، وهو إجابة دعوة الله واتباع الرسل ، لكن يجيبهم الله بالتبكيك والتذكير بما فعلوه في الدنيا .

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ .

أى : بلغ الناس جميعا : أحوال الموقف ، حين يأتى للظالمين العذاب الذى يستحقونه .

فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا زَيِّنَّا أَعْرَضْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِيبُ دَعْوَتِكَ وَتَفِيعُ الرُّسُلِ ...

أى : عند رؤية عذاب الآخرة ؛ يقول الظالمون : ياربنا أعطنا ، إلى الحياة مرة أخرى ، وأخر أعمارنا وحسابنا إلى وقت قريب ؛ حتى نستطيع أن نستجيب إلى دعوة الله ، بالدخول فى الإسلام وأن نتبع الرسل فى كل ما أمرونا به ، وأن نتدارك ما فرطنا فيه من أعمال فى الدنيا .

أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ .

القرآن هنا يخاطب الظالمين ، وينقل المشهد أمام القارئ ؛ فالظالم يعتذر ويطلب الإمهال ، والقرآن يعرض مشهد الرد عليه حالا ، بدون أن يقول ؛ فيقال لهم : أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ . فيعطى للقارئ انطباعاً بأن المشهد حاضر ، وأن النقاش أمامه حالا ، وأن الجواب بالرفض والردع سيكون جزاء الظالمين ، وبهذا يتبناه الظالم الآن ، قبل فوات الأوان .

لقد أقسم الكفار أكثر من مرة على أنه لا بعث ولا جزاء ، ولا حشر ولا حساب ، وإنما هى الحياة الدنيا ، ثم يدفنون فى القبر ، دون بعث أو حشر أو حساب أو جزاء ، وهنا يلتفت القرآن إليهم فيقول : أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ .

إنكم جابهتم الرسل بتكذيبهم ، وقتلتم : مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ . (الباقية: ٢٤).

وتأكيداً لكلامكم ؛ أقسمتم عليه من قبل وقتلتم : مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ .

والزوال : الانتقال من مكان إلى آخر ، أو من حال إلى حال ، والمراد هنا : انتقالهم من قبورهم إلى الحساب يوم القيامة ، فتقول لهم الملائكة على سبيل التوبيخ والتبكيك : أُولَمْ تَكُونُوا تَقْسُمُونَ بِالْإِيمَانِ الْمَغْلُظَةِ فِي الدُّنْيَا : بأنكم بعد موتكم ، ستبقون فى قبوركم إلى أن تبلى أجسامكم ، وأنه ليس بعد ذلك من بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب^(١٠٠) .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى :

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (الزمر: ١٠٠، ١٠١).

وقوله سبحانه : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لَيَبْسُطَنَّ اللَّهُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ . (النحل: ٣٨، ٣٩).

٤٥- وَسَكَتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ...

أى : أقمتم فى مساكن الذين كفروا من الأمم الخالية ، أو حللتهم فى ديارهم ، وقتا يكفى للاعتباط والاعتبار، وكان كفار قريش يمرّون بديار قوم ثمود فى رحلتهم إلى الشام ، وكانوا يحطون رحالهم هناك ، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ .

وظهر لكم عن طريق مشاهدة القرى الهالكة ، وعن طريق تواتر الأخبار ، ماذا فعلنا بهم من الإهلاك والتدمير، جزاء فسوقهم وعصيانهم لرسولهم .

وَصَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ . ومثلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك : الأشباه والنظائر .

قال فى التفسير الوسيط : أى : بينا لكم فى التنزيل على ألسنة الأنبياء : أحوالهم جميعا ما فعلوه وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة : لتكون لكم فيها عظة وعبرة بقياس أعمالكم على أعمالهم، ومآلكم على مآلهم ... أو بينا لكم : أنكم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب ، وتكون الأمثال على هذا جمع : مثل بمعنى: الشبيه والنظير^(١١١) .

٤٦- وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ...

أى : إن هؤلاء الظالمين لم يعتبروا بما أصاب السابقين من الهلاك : كفروا قوم نوح ، وهلاك عاد وثمود ، حيث بين الله لهم عاقبة الكفر، وضرب لهم أمثلة تنتهى باندحار الباطل ، وانتصار الحق ، ولم يعتبروا بهذه الأمثال . ثم : مَكَرُوا مَكْرَهُمْ .

دَبَّرُوا الكيد لمساندة الباطل ، ومقاومة الحق ، واستغروا فى ذلك كل جهدهم .

وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ .

وفى علم الله تعالى جزاء مكرمهم الذى فعلوه ، وسيكون العقاب من جنس العمل .

وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ .

إن هنا نافية بمعنى : ما ، وفي قراءة ابن مسعود : وما كان مكرهم ليزول منه الجبال .

أى: إن مكربهم مهما عظم واشتد: لم يكن أهلاً لإزالة الآيات والنبوءات الثابتة ثبات الجبال ، فالباطل مهما عظم إلى زوال ، والحق مهما قل أتباعه باق بقاء الجبال ، وهذا هو رأى الجمهور ، ومقصوده : الاستخفاف بمكر الظالمين ، وبيان : أن ما يضرهموهم ليس خافياً على الله ، ولن يزلزل المؤمنين فى عقيدتهم : لأن إيمانهم كالجبال الرواسى فى ثباته ورسوخه .

وذهب الكسائي^(١١١) إلى أن المراد من هذه الجملة الكريمة: التعظيم والتهويل من شأن مكرهم ، أى : وإن كان مكرهم يبلغ فى الكيد إلى إزالة الجبال : فإن الله ينصر دينه .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَذَّابَ السَّمَوَاتِ يَنْقُطُونَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجِرُ السَّيْمَانُ هَذَا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُسَبِّحُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ (مريم: ٨٨-٩٢).

★ ★ ★

﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ طَيْرٍ وَنَعَشَىٰ وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴿٥٢﴾

المفردات :

بـرـزوا، خرجوا من قبورهم .

مَقْرَنَيْنِ : المَقْرَنُونَ : المجموعون بعضهم مع بعض في قَرْنٍ ، وهو : الحبل الذي يربط به .

الأصنام: القيود والأغلال وهو جمع صَفَدٍ: قيد يوضع في الرجل. والغُلُّ: قيد تَضُمُّ به اليد إلى العنق، وقد يقصر على العنق.

سرابيلهم: جمع سرايل، وهو: القميص.

قطران: القطران: سائل أسود تطلّى به الإبل الجري.

تغشى وجوههم النار، تلعوها وتحيط بها.

التفسير:

٤٧ - فَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ...

الخطاب هنا للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتى منه الخطاب.

أى: لا تظنن أنها الرسول الكريم أنت وأمتك، أن الله تعالى سيخلف ما وعدكم به، من نصر المؤمنين على أعدائهم؛ فإن وعد الله حق وصدق، إن الله لا يُخْلِفُ الْوَعْدَ. (آل عمران: ٩)، فقد قال سبحانه: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ. (غافر: ٥١)، وقال عز شأنه: كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. (المجادلة: ٢١).

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ.

إنه سبحانه غالب قاهر، لا يمتنع منه من أراد عقوبته، قادر على كل من طلبه، لا يفوته بالهرب منه، وهو ذو انتقام، ممن كفر برسله وكذبهم، وجدد نبوتهم، وهذه الفقرة بمثابة التعليل للفقرة السابقة، أى: ما دام هو قادر قاهر، فإخلاف الوعد منتف في حقه تعالى.

٤٨ - يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ...

تصف الآيات كما ترى مشهداً من مشاهد القيامة: حيث تبدل الأرض غير الأرض، فيحشر الناس على أرض تغيرت صفاتها، فسُيِّرَتِ جبالها، وفجرت بحارها، ولا يرى فيها عوجاً ولا ارتفاعاً ولا انخفاضاً، بل هى أرض منبسطة ممتدة، مستوية معتدلة؛ كأنما خلقت خلقاً جديداً من أجل المحشر.

قال تعالى: وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَفَّتْ. (الانشقاق: ٣-٥).

(واعلم أن التبديل قد يكون فى الذات، وقد يكون فى الصفات، والآية ليست نصاً فى أحد الوجهين، والله أعلم كيف يتم هذا التبديل)^(١١١).

والسماوات ستبديل ، وتنشق السماء على غلظها ، وتتعلق الملائكة بأرجائها ، والشمس تفقد جانباً من توهجها ، وتصبح من النجوم القزمة ، وكذلك النجوم تنكدر ويذهب ضوءها ، وتتغير السماوات والأفلاك والأبراج والنجوم ، بمخلوقات أخرى مناسبة للحياة الآخرة .

وفى آيات كثيرة وردت فى القرآن تفيد : أن هذا الكون كانت له بداية ، حيث خلقه الله من عدم ، وبعد ملايين السنين صار صالحاً للحياة ، وتكونت الشمس والأقمار والنجوم والمجرات ، ووجد هذا الكون البديع المتكامل ، الصالح للحياة ، بحيث تمطر السماء ، وتنبث الأرض ، ويسخر السحاب والغضاء ، والشمس والقمر ، والهواء والرياح والبحار والأنهار ، لإعمار الكون والحياة .

قال تعالى : وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالسَّعْيِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان: ٢٥) .

وفى سورة التكوين يقول سبحانه : إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . (الآيات : ١-٣) .

وفى سورة الانفطار يقول سبحانه : إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ . (الانفطار: ١-٥) .

أى : أن هذا الكون سيتغير ويتبدل بقدرة الله ، كما أنه أوجد بقدرة الله ، وصار صالحاً للحياة بمشيئته وأمره ، فانشقت السماء بالمطر ، وانشقت الأرض بالنبات ، وتكاملت دورة إعمار الكون بالبحار ، والأنهار ، والليل ، والنهار ، قال تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^(١١١) وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مُحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (الأنبياء: ٣٠-٣٣) .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

أى : خرجت الناس جميعاً من قبورها ، وبرزت بأعمالها : للوقوف بين يدي الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، مالك يوم الدين ، الذى قهر كل شئ وغلبه ، ودانت له الرقاب ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ، ولا مستجاء .
سواه .

٤٩- وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ .

كان الحديث فى الفقرة السابقة بصيغة الماضى ، وهنا تغير الحديث إلى المضارع ؛ ليعرض الموقف شاخصا أمام المشاهد ، كأنه حاضر الآن أمام عينيه .

إن القيامة تكون على رموس الخلائق ، وطالما تجبر الظالمون فى هذه الدنيا ، وأساءوا معاملة المؤمنين ، وهما هم يحشرون يوم القيامة والذل والعار على وجوههم ، ويشاهدهم جميع الخلائق ، مُّقَرَّنِينَ . أى : يقرن بعضهم إلى بعض فى القيود ، ويضم كل إلى مشاركته فى كفره وعمله ؛ فيضمّ عابد الوثن إلى عابد الوثن ، ويضم شارب الخمر إلى شارب الخمر .

فى الْأَصْفَادِ . فى الأغلال والقيود ، التى يوضع فيها المجرمون والسجناء فى هذه الدنيا .

٥٠- سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ ...

تكمل هذه الآية رسم صورة للظالمين ، فثيابهم أو قمصهم من قطران ، وهو سائل حار أسود اللون ، منتن الرائحة ، يساعد على سرعة اشتعال النار ، تطلى به الإبل الجربى ، فيحرق القطران الجرب ، كما تطلى به جلود أهل النار ، حتى يكون عليهم كالسراويل ؛ ليدوقوا أشد العذاب وأقساه ، بنار سريعة الاشتعال ، تجعل أجسامهم سوداء داكنة فيجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار فى الجلود ، واللون الأسود الموحش ، وتنتن الريح .

وَتَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ .

إن وجوههم تطلوها النار ، التى تلهب وجوههم وتحيط بها ، كما تحيط بأجسادهم المسريلة بالقطران ، وتخصيص الوجوه بالذكر ؛ لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله تعالى : أَفَنَنْتَقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . (الزمر: ٢٤)، وقوله سبحانه : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . (القم: ٤٨) .

القطران والجرب

اجتمع الفرزدق وجريز والأخطل فقالوا: ليات كل واحد منا ببيت من الشعر لا يستطيع الآخر نقضه .

فقال أولهم :

أنا القطران والشعراء جريسي وفى القطران للجريسي شفاء

فقال الثاني :

فإن تك زق زاملة فإني أنا الطاعون ليس له دواء

فقال الثالث :

أنا الموت الذي يأتي عليكم فليس لهارب مني نجاء

٥١- لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ...

تأتى هذه الآية فى أعقاب معاقبة الظالمين : فمنهم مقرنون فى الأغلال ، ثيابهم من قطران ، وتلفح النار وجوههم ، وتحرق أسماعهم وأبصارهم ، ومجمع الحواس منهم .

وهنا يقول الحق سبحانه : لقد فعلت بهم ذلك ؛ جزاءً وفاقا بما كسبوا فى الدنيا من الآثام ، ولتكون الآخرة دار جزاء يكافأ المحسن بإحسانه ، ويعاقب المسيء بإساءته .

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فيحاسب جميع الناس فى وقت واحد ، كما يرزقهم فى وقت واحد ؛ فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يحتاج إلى تأمل وتدبر فى إصدار حكمه ، بل يتمه فى أعجل وأسرع زمن .

٥٢- هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ .

تأتى هذه الآية فى ختام سورة إبراهيم ، التى تحدثت عن رسالة الرسل وموقفهم من المنكرين ، ورسمت صورة مؤلمة للظالمين ، وختمت السورة بهذه الآية ، وفيها رنين وإيقاع متميز ، يوضح أهداف الرسالات السماوية ، فى سورة إبراهيم ، أوفى القرآن الكريم ، فهذه السورة بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، أى : تبليغ ودعوة وإعلام بهذا الكتاب ، كما قال سبحانه : يَتْلَاهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ . (المائدة: ٦٧) .

وَلِيُنذَرُوا بِهِ .

أى : ليكون نذيرا للظالمين ، وتنبيها للكافرين : ليتأملوا ما أصاب الأمم السابقة فى الدنيا ، وما يصيب الظالمين يوم القيامة .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِزًّا * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَّدُنْهُ ... (الكهف: ١، ٢) .

وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ .

ليعلم الناس أن خالق هذا الكون البديع المنظم ، إنما هو إله واحد لا شريك له ، ولا ند له ، ولا مثيل ، ولو كان معه آلهة أخرى ؛ لا تختل نظام الكون واضطرب .

قال تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لَقَسَدْنَا . (الأنبياء: ٢٢) .

وَيَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

أى : ليتخذ ويستغفد من هذا الكتاب أصحاب العقول الفاقهة ، والقلوب المتفتحة : فإنما يستغفد بالرسالات والكتب السماوية أصحاب العقول ، والقلوب التى تفتحت وأمنت ، وتزودت بالعلم والتقوى .

قال الإمام الرازى : هذه الآية دالة على : أنه لا فضيلة للإنسان إلا بسبب عقله : فقد بين القرآن : أن الله إنما أنزل هذه الكتب وإنما بعث الرسل ؛ لتذكير أولى الألباب ...^(١١١)

فى ختام سورة إبراهيم

تلك سورة إبراهيم الخليل التى اشتملت على ما يأتى :

(أ) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .

(ب) بيان : أن الرسل إنما يرسلون بلغات قومهم ؛ ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهى .

(ج) التذكير بأيام الله ؛ ببيان : ما حدث للرسل مع أقوامهم ؛ تسلية للرسول الأمين ، وتحذيراً لجميع الكافرين والمشركين .

(د) وعيد الكافرين بالعذاب ، ووعد المؤمنين بجنت النعيم .

(هـ) دعوة إبراهيم إلى التوحيد ونبد الأصنام ، ثم شكره على ما وهبه الله من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(و) رسمت صورة للظالمين ، وما يلقونه من النكال والعذاب ، وأفلحت السورة فى عرض المشهد ماثلاً أمام العيان.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، تم تفسير سورة إبراهيم ، بجامعة السلطان قابوس ، بسلطنة عمان -

مسقط ، فى مساء يوم الأربعاء الأول من شهر رمضان المبارك عام ١٤١٥ هـ / الموافق الأول من فبراير ١٩٩٥ م .

والحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويحب .

اللهم ، تقبل أعمالنا وصلاتنا وصيامنا ، واجعل عملنا خالصاً لوجهك الكريم ، وألهمنا التوفيق والقبول ، وأعنا

على أعمالنا ، ويسر لنا إقام تفسير القرآن الكريم ، بفضلك ومنك وتوفيقك وعونك يا رب العالمين .

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود: ٨٨) .

وصل اللهم على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجزء الثالث عشر)

خرج أحاديثه

الأستاذ

محمّد صالح سهيّد فهمي

(١) يا عبد الرحمان بن سمره ، لا تسأل الإمارة :

رواه البخارى فى الإيمان والنور (٦٦٢٢) وفى كفارات الأيمان (٦٧٢٢) وفى الأحكام (٧١٤٦، ٧١٤٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٥٢) من حديث عبد الرحمان بن سمره قال : قال النبى ﷺ : « يا عبد الرحمان بن سمره ، لا تسأل الإمارة : فإنك إن أوتيتها عن مسألة : وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة : أعنت عليها ، وإذا خلعت على يمين فأبىته غيرها خيرا منها : فكفر عن يمينك وأت الذى هو خير » .

(٢) ﴿ ما ﴾ هنا استفهامية ، الاستفهام للعجب من كرم عزيز مصر .

(٣) العين حق :

رواه البخارى فى الطب (٥٧٤٠) وفى اللباس (٥٩٤٤) ومسلم فى السلام (٢١٨٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : « العين حق » ، ونهى عن الوشم ، وفى الباب : عن عائشة وابن عباس .

(٤) العين تدخل الرجل القبر :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج أبو نعيم فى الحلية : عن جابر : أن النبى ﷺ قال : « العين تدخل الرجل القبر والجمل القبر » .

(٥) أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧١) وأبو داود فى السنة (٤٧٣٧) والترمذى فى الطب (٢٠٦٠) وابن ماجه فى الطب (٣٥٥٥) وأحمد فى مسنده (٢١١٣) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان النبى ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » .

(٦) ويقول : إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل :

تقدم فيما قبله .

(٧) التفسير الوسيط ، د. محمد سيد طنطاوى ، سورة يوسف ص ١٢٠ ، ١٢١ ، وزبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٣ .

(٨) تفسير أبى السعود ٢٩٤/٤ .

(٩) انظر : زبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٤ .

(١٠) روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثاني للآلوسى ٢٨/١٣ .

(١١) سعيد حوى ، الأساس فى التفسير ، دار السلام للطباعة والنشر ، القاهرة وبيروت ٢٦٨٠/٥ .

(١٢) تفسير أبى السعود ٢٩٨/٤ .

(١٣) انظر : تفسير العاللى ، وتفسير القاسمى .

(١٤) زبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٥ .

(١٥) إن العين تدمع والقلب يحزن :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٠٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبى سيف الثقفى ، وكان ظنرا لإبراهيم عليه السلام ، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا

عليه بعد ذلك وإبراهيم يهود بنفسه فجعلت علينا رسول الله ﷺ تذرفان : فقال له عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ! فقال : « يا ابن عوف إنها رحمة » ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال ﷺ : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنما بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

(١٦) تفسير روح المعاني للألوسى ٤/٥ ، وورد المعنى فى تفسير القرطبي ، والتفسير المنير ، والتفسير الوسيط .

(١٧) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٢٥ ص ٣٧٤ .

(١٨) تفسير أبى السعود ٣٠٣/٤ ، وزبدة التفسير من فتح القدير ص ٣١٦ .

(١٩) تفسير الكشف للزعفرى .

(٢٠) تفسير أبى السعود ٣٠٥/٤ .

(٢١) تفسير المراعى ٢٩/١٣ .

(٢٢) من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٤٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح : أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات : أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

(٢٣) الكريم ابن الكريم :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٨٢ ، ٣٣٩٠) وفى التفسير (٤٦٨٨) وأحمد فى مسنده (٥٦٧٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » ، ورواه الترمذى فى التفسير (٣١١٦) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » قال : « ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف ثم جأنى الرسول : أجبت » ثم قرأ : ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴾ ، قال : « ورحمة الله على لوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد ، إذ قال : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ ، فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى نزوة من قومه » . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢٤) أى اللذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن يجعل الله ندا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨٦) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : سألت النبى ﷺ : أى اللذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل الله ندا وهو خلقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ، قال : « وأن تقتل ولدك : تخاف أن يطعم معك » قلت : ثم أى ، قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، البخارى (٣٢٣٩) .

(٢٥) انظر أيضا : تفسير الراعى للأستاذ / أحمد مصطفى الراعى ٤٩/١٣ ، ٥٠ .

(٢٦) تفسير القاسمى ٢٩٧/٩ .

(٢٧) روح المعاني للألوسى ٦٨/١٣ ، وفيه من أهل العمور ، وهو خطأ ، والصواب : من أهل العمود ، أى : الحيمة التى تبنى على العمود الرئيس الذى يرفع الحيمة .

(٢٨) التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ١٣/٦٠ .

(٢٩) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤/٢٩٩٦ .

(٣٠) إن الله تجاوز لأمتي :

رواه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٦٤)، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٠، ٢٠٤٤) (٧٤٢١)، من حديث أبي هريرة يرفعه قال : إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها : ما لم تعمل به أو تكلم .

(٣١) نحن أحق بالشك من إبراهيم :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢)، وفي التفسير (٤٥٣٧، ٤٦٩٤)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، وأحمد في مسنده (٨١٢٩)، من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف نجحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾ » .

(٣٢) تفسير روح المعاني للآلوسي ١٣/٧٠ .

(٣٣) تفسير روح المعاني للآلوسي ١٣/٧٠ ، والاتساء : جعلهم أسوة وقودة .

(٣٤) تفسير القاسمي ٩/٢٩٩٩ .

(٣٥) ما يصيب المسلم : من نصب ، ولا وصب ، ولا هم :

رواه البخاري في المرضى باب : ما جاء في كفارة المرضى (٥٣١٨) ، عن أبي سعيد الخدري ، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم ، من نصب ، ولا وصب ، ولا هم ، ولا حزن ، ولا أذى ، ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها : إلا كفر الله بها من خطاياها » . ورواه البخاري فيما تقدم (٥٣١٧) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم : إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها » .

(٣٦) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بُوب به البخاري في كتاب المرضى ، ورواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه في الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمي في الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٣٧) إنما الصبر عند الصدمة الأولى :

رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٣ ، ١٣٠٢) ، ومسلم في الجنائز (٩٢٦) ، وأبو داود في الجنائز (٣١٢٤) ، والترمذي في الجنائز (٩٨٧ ، ٩٨٨) ، والنسائي في الجنائز (١٨٦٩) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٩٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٨٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : مر النبي ﷺ بامرأة تبكى عند قبر ، فقال : « اتقى الله واصبري ، قالت : إني بكى عليك عنى فإني لم تصب بمصيبتى ! ولم تعرفه ، فقيل لها : إنه النبي ﷺ ! فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك ! فقال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » .

(٣٨) الأساس في التفسير للأستاذ / سعيد حوى ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ص ب ١٦١ ، غورية ت ٩٣٥٦٤٤ ، المجلد الخامس ص ٢٧١١ ، نقلا عن تفسير : في ظلال القرآن .

(٣٩) تفسير ابن كثير ٢/٤٩٨ .

(٤٠) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم / د. عبد الله شحاتة ١/١٥٠ .

(٤١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ٢-٢٦٨ .

(٤٢) الميزان في تفسير القرآن مجلد ١١ جزء ١٣ صفحة ٣٢٢ .

(٤٣) تفسير الكشاف ٢/٥١٣ .

(٤٤) تفسير الطبري جزء ١٦ حققه وخرج أحاديثه : عمود محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ١١١٩ ، كورنيش النيل - القاهرة ، ص ٣٥٢ .

(٤٥) قارن بما ورد في تفسير القاسمي لهذه الآية .

(٤٦) إن الله ما أخذ وله ما أعطى :

رواه البخاري في الجنايز (١٢٨٤) ، وفي المرضي (٥٦٥٥) ، وفي الأيمان (٦٦٥٥) ، وفي التوحيد (٧٤٤٨، ٧٣٧٧) ، ومسلم في الجنايز (٩٢٣) وأبو داود في الجنايز (٣١٢٥) ، والنسائي في الجنايز (١٨٦٨) ، وابن ماجه في الجنايز (١٥٨٨) (٢١٢٦٩) ، من حديث أسامة بن زيد قال : أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه : أن ابنا لي قبض فأنتنا فأرسل : يقرئ السلام ويقول : إن الله ما أخذ وله ما أعطى وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام معه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتعقق قال : حسبت أنه قال : كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد : يا رسول الله ، ما هذا ؟ فقال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

(٤٧) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني ص ٣٢٢ .

(٤٨) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار :

رواه البخاري في مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، وفي التوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم في المساجد ح ٦٣٢ ، والنسائي في الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، مالك اللذء للصلاة ح ٤١٣ ، من حديث أبي هريرة بلفظ : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ورواه البخاري في الأذان ح ٦٤٩ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم في المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذي في التفسير ح ٣١٣٥ ، والنسائي في الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجه في الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣ ، من حديث أبي هريرة أيضاً بلفظ : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار في صلاة الصبح يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

(٤٩) إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه :

رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) ، والترمذي في الفتن (٣١٦٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠ ، ٣١) ، من حديث قيس قال : قال أبو بكر بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أيها الناس ، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ ، قال : عن خالد ، وإنما سمعنا النبي ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » .

(٥٠) مختصر تفسير ابن كثير - تحقيق محمد علي الصابوني ٢/٢٧٤ .

(٥١) اللهم لا تغفلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك :

رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٥٠) ، وأحمد في مسنده (٥٧٢٩) ، من حديث عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ كان إذا

سمع صوت الرعد والصواعق : قال : « اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٥٢) سبحان الذى يسبح الرعد بحمده :

رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٨٦٩) ، قال : حدثنى مالك : عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد: ترك الحديث ، وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، ثم يقول : إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد .

(٥٣) أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم للدكتور / عبد الله شحاتة - طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ .

(٥٤) إن السماء أظت وحق لها أن تنط :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣١٢) ، وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٠) ، وأحمد فى مسنده (٢١٠٥) ، من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، إن السماء أظت ، وحق لها أن تنط : ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله ، والله لو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، وما تلتذتم بالنساء على الفرشات ، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله ، والله لوددت أنى كنت شجرة تعضد » ، وقال الترمذى : حسن غريب .

(٥٥) روى هذه القصة الحافظ الطبرانى : عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا . ١ هـ . نقلا عن مختصر تفسير ابن كثير - تحقيق محمد على الصابوني ٢/٢٧٥ .

(٥٦) تفسير الميزان للسيد / محمد حسين الطباطبائي ١١/٣٥٠ بصرف .

(٥٧) فى ظلال القرآن - جزء ١٣ صفحة (٢٠٥٢) .

(٥٨) انظر : فتح القدير للشوكاني .

(٥٩) مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم :

رواه البخارى فى العلم (٧٩) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٢) ، وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨٢) من حديث أبى موسى : عن النبى ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ، قال : أبى عبد الله ، قال : إسحاق وكان منها طائفة قبلت الماء قاع يعلوه الماء والصفصف المستوى من الأرض .

(٦٠) اضمنا لى ستا من أنفسكم :

رواه أحمد ح ٢٢٢٥٩ ، من حديث عبادة بن الصامت .

(٦١) آية المنافق ثلاث :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٣٣ ، وفى الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفى الوصايا ح ٢٧٤٩ ، وفى الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٩ ، ٧٤ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(٦٢) من سره أن يسط له في رزقه :

البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) ، ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧/٢٠) ، وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) ، كلهم عن أنس .

(٦٣) هل تدرون أول من يدخل الجنة :

رواه أحمد فى مسنده (٦٥٣٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرين الذين تسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته : انتوهم فحيوهم : فنقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتكم من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ! قال : إنهم كانوا عبادا يعبدونى لا يشركون بى شيئا ، وتسد بهم الثغور ، ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتىهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فجمع عقلى الدار ﴾ .

(٦٤) مالى وللدنيا :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٤٨٣) ، وابن ماجه (٤١٠٩) ، وأحمد (٢٧٣٩، ٢٧٠١، ٤١٩٦) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال الترمذى : هذا حديث صحيح . وذكره السيوطى فى " الدر المنثور " ، وزاد نسبه لابن أبى شيبه والحاكم : عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن النبى ﷺ نام على حصير فقام وقد أثر فى جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك ؟ ، فقال : « مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها » . وذكره العجلونى فى " كشف الخفا " ، وزاد نسبه للطبرانى والحاكم والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود . وللطبرانى وابن حبان والحاكم والبيهقى عن ابن عباس . وذكره الهيثمى من حديث ابن عباس وقال : ورجال أحمد رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة .

(٦٥) فيها ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفى التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٢٤ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٩٧ ، ٣٢٩٢ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٢٨ ، من حديث أبى هريرة .

(٦٦) اكتب : باسمك اللهم :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٤) ، من حديث المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبى ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش.. وفيه : فجاء سهيل بن عمرو فقال : هات أكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا النبى ﷺ الكتاب فقال النبى ﷺ : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، قال سهيل : أما الرحمن فو الله ما أدرى ما هو لكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب : فقال المسلمون : والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم : فقال النبى ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » ، ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب . محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ : « والله إني لرسول الله ، وإن كذبتمنى ، اكتب : محمد بن عبد الله .. » فذكر الحديث - وهو طويل المتن - ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٨٤) ، وأحمد فى مسنده (١٣٤١٥) ، أنس أن قريشا صالحوا النبى ﷺ فيهم سهيل بن عمرو فقال النبى ﷺ لعلى : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، قال سهيل : أما باسم الله ، فما ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن اكتب ما نعرف باسمك اللهم ، فقال : « اكتب : من محمد رسول الله » ، قالوا : لو علمنا أنك رسول

الله لا تتبعناك ، ولكن اكتب : اسمك واسم أبيك ، فقال النبي ﷺ : « اكتب : من محمد بن عبد الله » ، فاشتراطوا على النبي ﷺ : أن من جاء منكم لم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددموه علينا فقالوا : يا رسول الله ، أنكتب هذا ، قال : « نعم ، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » .

(٦٧) انظر : تفسير ابن جرير الطبري ٤٤٧/١٦ ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، آثار ٢٠٣٩٩ ، وما بعدها .

(٦٨) ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر :

رواه البخاري في فضائل القرآن (٩٨١) ، وفي الاعتصام (٧٢٧٤) ، ومسلم في الإيمان (١٥٢) ، وأحمد في مسنده (٨٢٨٦) ، من حديث أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

(٦٩) تفسير الطبري ٤٥٥/١٦ ، تحقيق : محمود محمد شاكر مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ .

(٧٠) تفسير الطبري ٤٦١/١٦ ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطابع دار المعارف بمصر .

(٧١) إن الله ليملي اللطام ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير باب : قوله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ، (٤٤٠٩) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) ، وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . قال : ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٧٢) جملة : ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ خير عن ﴿ مثل ﴾ وجملة : ﴿ أكلها دائم ﴾ خير ثان .

(٧٣) فمن رغب عن سنتي :

رواه البخاري في النكاح (٤٦٥٧) ، من حديث أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت .. الحديث - وفيه : « أما والله إن لأخشاكم الله وأتقاكم له لكنني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي : فليس مني » ورواه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (٥/١٤٠١) ، والنسائي في النكاح (٣٢١٧) ، وأحمد (١٣٢٢٢ ، ١٣٣١٦ ، ١٣٦٣١) . ورواه ابن ماجه في النكاح (١٨٤٦) بلفظ : « النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي : فليس مني .. الحديث » . كلهم من حديث أنس . ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) ، عن مجاهد عن رجل من الأنصار ورواه الدارمي في النكاح (٢١٦٩) ، من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٧٤) تفسير أبي السعود ٢٧/٥ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان .

(٧٥) من ذلك ما ورد من الوصايا العشر في سورة الأنعام ، وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿ قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف نفسا ولا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ . (الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢) .

(٧٦) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ص ٤٥٣ .

(٧٧) جف القلم بما أنت لاق :

رواه البخارى فى النكاح (٥٠٧٦)، وذكره فى القدر باب : جف القلم على علم الله - معلقاً - والنسائي فى النكاح (٣٢١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، إنى رجل شاب وأنا أخاف على نفسى العنت ، ولا أجد ما أنزج به النساء فسكت عنى ثم قلت مثل ذلك فسكت عنى ثم قلت مثل ذلك : فقال النبى ﷺ : « يا أبا هريرة ، جف القلم بما أنت لاق : فاختص على ذلك أو ذر » .

(٧٨) أهداف كل سورة ، د/ عبد الله شحاتة .

(٧٩) لم يبعث الله نبيا إلا بلغه قومه :

رواه أحمد فى مسنده (٢٠٩٠١) من حديث أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله نبيا إلا بلغه قومه » .

(٨٠) عجباً لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

(٨١) من أعطى الشكر لم يمنع الزيادة :

قال الهيثمى فى المجمع : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : من أعطى أربعاً : أعطى أربعاً ، وتفسير ذلك فى كتاب الله تعالى : من أعطى الذكر : ذكره الله عز وجل : لأن الله تعالى يقول : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ ، ومن أعطى الدعاء : أعطى الإجابة : لأن الله تعالى يقول : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ، ومن أعطى الشكر : أعطى الزيادة : لأن الله تعالى يقول : ﴿ لأن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، ومن أعطى الاستغفار : أعطى للمغفرة : لأن الله تعالى يقول : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ، وقال : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه : محمود بن العباس وهو ضعيف ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور وزاد نسبته لابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان : عن ابن مسعود . وقال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى زهير يحيى بن عطار بن مصعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أعطى أحد أربعة فمنع أربعة ، ما أعطى أحد الشكر فمنع الزيادة : لأن الله تعالى يقول : ﴿ لمن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، وما أعطى أحد الدعاء فمنع الإجابة : لأن الله يقول : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ، وما أعطى أحد الاستغفار فمنع المغفرة : لأن الله يقول : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ، وما أعطى أحد التوبة فمنع التقبل : لأن الله يقول : ﴿ هو الذى يقبل التوبة عن عباده ﴾ ، قال السيوطى فى الدر المنثور أيضاً : وأخرج الحكيم الترمذى فى نواهد الأصول ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله : « أربع من أعطيهن : لم يمنعهن من الله أربعاً : من أعطى الدعاء : لم يمنعه الإجابة ، قال الله ﷻ : ﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ ، ومن أعطى الاستغفار : لم يمنعه المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ ، ومن أعطى الشكر : لم يمنعه الزيادة ، قال الله ﷻ : ﴿ لمن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ، ومن أعطى التوبة : لم يمنعه القبول ، قال الله ﷻ : ﴿ هو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ﴾ .

(٨٢) إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب :

رواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠٢٢) ، وأحمد فى مسنده (٢٨٠/٥ ، ٢٨٢) .

(٨٣) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وابن ماجه ح (٤٢٧٥) ، وأحمد (١٥٤/٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) ، من حديث أبى ذر . وأوله : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى » .

(٨٤) من أذى جاره ؛ أورثه الله داره :

قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٣٤٢) : كذا رأيت في كلام بعض من جمع في الحديث ممن لا يعرف ، لكن بلفظ ورثه بتشديد الراء ، فليُنظر حاله ، ثم رأيت النجم قال : أورده في الكشف ، ولعله مثل سائر وليس بحديث ومأخذه في كتاب الله من قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا فأوحى إليهم إلههم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ .

(٨٥) تفسير ابن كثير ٥٢٦/٢ ، نشر مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة .

(٨٦) أخصص القدم : ما نجالي عن الأرض وهو بوزن (أُخْمد) .

(٨٧) إن أهون أهل النار عذابا :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ، ومسلم في الإيمان (٢١٣) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٤) وأحمد في مسنده (١٧٩٢٣) من حديث النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه ، كما يغلى المرجل ، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا ، وإنه لأهونهم عذابا » .

(٨٨) ﴿ مثل ﴾ مبتدأ ، و ﴿ أعمالهم ﴾ مبتدأ ثان ، و ﴿ كرماد ﴾ خبر المبتدأ لثاني .

(٨٩) يقصد العباس بقوله : ما أغنيت عن عمك أبا طالب ، ومعنى : يحوطك : يصونك من المشركين بالدفاع عنك .

مضحاح النار : النار القليلة جذأ بالنسبة إلى غيره من أصحاب النار .

الدرك الأسف : أقصى قاع جهنم .

(٩٠) انظر : تفسير المنار الفهرس الأبعدى لعذاب النار ، وتفسير الآلوسي للآية ٧ ، ٨ ، من سورة الزلزلة ، والتفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ، سورة إبراهيم ص ٤٨١ .

(٩١) يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، ومسلم في الجنة (٢٨٥٩) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٨٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧٤٤) ، من حديث عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة ، فقلت : يا رسول الله : الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ! فقال : « الأمر أشد من أن يهتمم ذلك » . ورواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم في الجنة (٢٨٦٠) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٣) ، وفي تفسير القرآن (٣٣٣٢) ، والنسائي في الجنائز (٢٠٨١) ، والدارمي في الرقاق (٢٨٠٢) ، وأحمد في مسنده (١٩١٦ ، ٢٠٩٧) ، من حديث ابن عباس : عن النبي ﷺ قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا - ثم قرأ - : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم ، وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي أصحابي ! فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني ... إلى قوله العزيز الحكيم ﴾ ، ورواه الدارمي في الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود : عن النبي ﷺ قيل له : ما المقام المحمود ؟ قال : « ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسية ينط كما ينط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بك حفاة عراة غرلا ، فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى : اكسوا خليلي فيؤتى برطيتن بيضاوين من رباط الجنة ، ثم أكسى على إثره ، ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطني الأولون والآخرين » .

(٩٢) انظر : تفسير ابن كثير .

(٩٣) د. محمد سيد طنطاوى ، تفسير سورة إبراهيم ص ٥٦ نقلا عن تفسير الفخر الرازى .

(٩٤) لن يدخل أحدا عمله الجنة ؛ قالوا : ولا أنت ؟ !

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ، ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لن يدخل أحدا عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : لا ، ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمته ؛ فسددوا وقاربوا ولا يمتنين أحدكم الموت ؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا ، وإما مسينا فلعله أن يستعذب .

(٩٥) انظر : تفسير الطبرى ، وفيه ما ورد فى البخارى : أن المؤمن يَبْتَ على شهادة : ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

(٩٦) قال : المسلم إذا سئل فى القبر : يشهد :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٦٩) ، وفى التفسير (٤٦٩٩) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٧١) ، من حديث البراء بن عازب : أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل فى القبر : يشهد : أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ يَبْتَ الله الذين آمنوا ﴾ بالقرول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

(٩٧) إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٣٨) ، (١٣٧٤) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٧٠) ، وأبو داود فى الجنائز (٣٢٢١) ، وفى السنة (٤٧٥١) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٩) ، وأحمد فى مسنده (١١٨٦٢) ، من حديث أنس رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد - ﷺ - ، فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار ؛ أبداً لك الله به مقعدا من الجنة ؛ » ، قال النبى ﷺ : فيراهما جميعا ، وأما الكافر ، أو المنافق فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ؛ ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين ، وأحمد فى مسنده (٨٢٥٨) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا » ، ورواه أبو داود فى السنة (٤٧٥٣) من حديث البراء .

(٩٨) الثقلان هما : الإنسان والجن ، والحكمة فى عدم سماعهما : الامتحان ، والاتلاء ، والإمهال ، حتى تجزى كل نفس بما تسعى .

(٩٩) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ، طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت ، ص ٣٣٤ .

(١٠٠) ﴿ جهنم ﴾ عطف بيان لذات البوار ، ﴿ يصلونها ﴾ : فى محل نصب حال من جهنم .

(١٠١) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى .

(١٠٢) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ص ٣٣٥ .

(١٠٣) انظر : التفسير الوسيط ، تأليف نخبة من علماء الأزهر ص ٥٠٠ .

(١٠٤) ﴿ إذ ﴾ : ظرف لما مضى من الزمان ، وهو منصوب على المفعولية لعل محذوف تقديره : اذكر .

﴿ رب ﴾ : منادى يحرف نداء محذوف تقديره : يا رب .

(١٠٥) وردت هذه القصة مطولة فى صحيح البخارى ، ووعتها كتب التفسير والحديث .

(١٠٦) صلاة في مسجدى هذا :

البخارى فى فضل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم فى الحج (٥٠٦/١٣٩٤) ، والترمذى فى الصلاة (٣٢٥) ، وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٤٠٤) ، كلهم عن أبى هريرة .

(١٠٧) انظر : صحيح البخارى ، تجد فيه حديثا طويلا فى الموضوع ، وانظر : تفسير الألوسى ، والتفسير الوسيط .

(١٠٨) انظر : تفسير الفخر الرازى .

(١٠٩) التفسير الوسيط ، سورة إبراهيم د. محمد سيد طنطاوى ، ص ٩٣ .

(١١٠) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بالأزهر ص ٥١١ .

(١١١) قرأ الكسائى : تَنَزَّلُ : بفتح اللام على أنها لام الابتداء ، ورفع الفعل بعدها ، ﴿وَأَنْ﴾ : مخففة من الثقيلة .

(١١٢) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء ، بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ٥١٣ .

(١١٣) الرقيق ضد الفتق ، أى : كانتا ملتصقتين ففتق الله هذه من هذه ، ورفع الله السماء ، ووضع الأرض وفصل بينهما بالهواء ، فأمطرت السماء وأثبتت الأرض .

(١١٤) التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى ، نقلا عن تفسير الفخر الرازى للآية الأخيرة من سورة إبراهيم .



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (الثالث عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٣	﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء...﴾	٢٣٦١
٥٤	﴿وقال الملك انتونى به أستخلصه لنفسي...﴾	٢٣٦١
٥٥	﴿قال اجعلنى على خزائن الأرض...﴾	٢٣٦١
٥٦	﴿وكذلك مكننا ليوسف فى الأرض...﴾	٢٣٦٣
٥٧	﴿ولأجـر الأخرى خير...﴾	٢٣٦٣
٥٨	﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه...﴾	٢٣٦٣
٥٩	﴿ولما جهزهم بجهازهم قال...﴾	٢٣٦٤
٦٠	﴿فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم...﴾	٢٣٦٤
٦١	﴿قالوا سئواد عنه أباه...﴾	٢٣٦٤
٦٢	﴿وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم...﴾	٢٣٦٦
٦٣	﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا...﴾	٢٣٦٦
٦٤	﴿قال هل امانكم عليه إلا كما امنتكم على أخيه من قبل...﴾	٢٣٦٦
٦٥	﴿ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم...﴾	٢٣٦٧
٦٦	﴿قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله...﴾	٢٣٦٧
٦٧	﴿وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد...﴾	٢٣٦٩
٦٨	﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم...﴾	٢٣٧١
٦٩	﴿ولما دخلوا على يوسف ءاوى إليه أخاه...﴾	٢٣٧١
٧٠	﴿فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه...﴾	٢٣٧٣
٧١	﴿قالوا وأقبلوا عليهم...﴾	٢٣٧٣
٧٢	﴿قالوا ننفق صواع الملك...﴾	٢٣٧٣
٧٣	﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض...﴾	٢٣٧٥
٧٤	﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين...﴾	٢٣٧٥
٧٥	﴿قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه...﴾	٢٣٧٥
٧٦	﴿فبدأ بأرعيتهم قبل وعاء أخيه...﴾	٢٣٧٥
٧٧	﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل...﴾	٢٣٧٧
٧٨	﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا...﴾	٢٣٧٨
٧٩	﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده...﴾	٢٣٧٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٠	﴿ فلما استئنسوا منه خلصوا نجيا ... ﴾	٢٣٧٩
٨١	﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا ... ﴾	٢٣٧٩
٨٢	﴿ وسئل القرية التي كنا فيها والعير ... ﴾	٢٣٧٩
٨٣	﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ... ﴾	٢٣٨١
٨٤	﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ... ﴾	٢٣٨١
٨٥	﴿ قالوا تالله تفتزنا تذكر يوسف ... ﴾	٢٣٨٣
٨٦	﴿ قال إنما أشكوا بثى وحزننى إلى الله ... ﴾	٢٣٨٣
٨٧	﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ... ﴾	٢٣٨٥
٨٨	﴿ فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز ... ﴾	٢٣٨٦
٨٩	﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ... ﴾	٢٣٨٦
٩٠	﴿ قالوا أءنت لأنت يوسف ... ﴾	٢٣٨٦
٩١	﴿ قالوا تالله لقد ءثرك الله علينا ... ﴾	٢٣٨٨
٩٢	﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ... ﴾	٢٣٨٨
٩٣	﴿ اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى ... ﴾	٢٣٨٨
٩٤	﴿ ولما فصلت العير قال أبوه إنى لأجد ريح يوسف ... ﴾	٢٣٩٠
٩٥	﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ... ﴾	٢٣٩٠
٩٦	﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ... ﴾	٢٣٩١
٩٧	﴿ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا ... ﴾	٢٣٩٢
٩٨	﴿ قال سوف أستغفر لكم ربى ... ﴾	٢٣٩٢
٩٩	﴿ فلما دخلوا على يوسف ءوى إليه أبويه ... ﴾	٢٣٩٣
١٠٠	﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ... ﴾	٢٣٩٤
١٠١	﴿ رب قد ءاتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ... ﴾	٢٣٩٦
١٠٢	﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ... ﴾	٢٣٩٧
١٠٣	﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ... ﴾	٢٣٩٨
١٠٤	﴿ وما تسئلهم عليه من أجر ... ﴾	٢٣٩٨
١٠٥	﴿ وكأين من ءاية فى السماوات والأرض ... ﴾	٢٣٩٩
١٠٦	﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ... ﴾	٢٣٩٩
١٠٧	﴿ أنفأمنوا أن تأتئهم غاشية من عذاب الله ... ﴾	٢٣٩٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠٨	﴿قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله...﴾	٢٤٠١
١٠٩	﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم...﴾	٢٤٠٢
١١٠	﴿حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا...﴾	٢٤٠٣
١١١	﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب...﴾	٢٤٠٧
—	خاتمة سورة يوسف	٢٤٠٩
—	تفسير سورة الرعد	٢٤١١
—	نظرات فى سورة الرعد	٢٤١٢
١	﴿المر تلك آيات الكتاب...﴾	٢٤٢٠
٢	﴿الله الذى رفع السماوات بغير عمد...﴾	٢٤٢٠
٣	﴿وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى...﴾	٢٤٢٠
٤	﴿وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب...﴾	٢٤٢٠
٥	﴿وان تعجب فعجب قولهم أءذا كنا ترابا...﴾	٢٤٢٤
٦	﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...﴾	٢٤٢٦
٧	﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه...﴾	٢٤٢٨
٨	﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد...﴾	٢٤٣٠
٩	﴿عالم الغيب والشهادة...﴾	٢٤٣٠
١٠	﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به...﴾	٢٤٣٠
١١	﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه...﴾	٢٤٣٢
١٢	﴿هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا...﴾	٢٤٣٤
١٣	﴿ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته...﴾	٢٤٣٤
١٤	﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه...﴾	٢٤٣٤
١٥	﴿ولله يسجد من فى السماوات والأرض...﴾	٢٤٣٤
١٦	﴿قل من رب السماوات والأرض قل الله...﴾	٢٤٤٠
١٧	﴿أنزل من السماء ماء فسالأت أودية...﴾	٢٤٤١
١٨	﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى...﴾	٢٤٤١
١٩	﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق...﴾	٢٤٤٥
٢٠	﴿الذين يؤفون بعهده الله...﴾	٢٤٤٦
٢١	﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل...﴾	٢٤٤٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٢	﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾	٢٤٤٦
٢٣	﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ...﴾	٢٤٤٩
٢٤	﴿سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ كَرَّمَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا...﴾	٢٤٤٩
٢٥	﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مَنِ بَعْدَ مِيثَاقِهِ...﴾	٢٤٥٠
٢٦	﴿وَاللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾	٢٤٥٠
٢٧	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ...﴾	٢٤٥٢
٢٨	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ...﴾	٢٤٥٢
٢٩	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٢٤٥٢
٣٠	﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ...﴾	٢٤٥٥
٣١	﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ...﴾	٢٤٥٦
٣٢	﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ...﴾	٢٤٦٠
٣٣	﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ...﴾	٢٤٦٠
٣٤	﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ...﴾	٢٤٦٠
٣٥	﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ...﴾	٢٤٦٢
٣٦	﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾	٢٤٦٣
٣٧	﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا...﴾	٢٤٦٤
٣٨	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً...﴾	٢٤٦٦
٣٩	﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ...﴾	٢٤٦٧
٤٠	﴿وَإِنْ مَا نَرِيكَ بِعُضِّ الذِّئْبِ نَعْدُهُمْ...﴾	٢٤٦٩
٤١	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا...﴾	٢٤٦٩
٤٢	﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا...﴾	٢٤٧٠
٤٣	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا...﴾	٢٤٧٠
—	موجز أفكار سورة الرعد	٢٤٧٢
—	تفسير سورة إبراهيم	٢٤٧٣
—	نظرات في سورة إبراهيم	٢٤٧٤
١	﴿الرَّكِيبُ أَنْزِلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...﴾	٢٤٨٠
٢	﴿وَاللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾	٢٤٨٠
٣	﴿وَالَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ...﴾	٢٤٨٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤	﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه...﴾	٢٤٨٢
٥	﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومه...﴾	٢٤٨٢
٦	﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم...﴾	٢٤٨٥
٧	﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم...﴾	٢٤٨٥
٨	﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض...﴾	٢٤٨٧
٩	﴿ألم يأتكم نبيؤا الذين من قبلكم...﴾	٢٤٨٧
١٠	﴿قالت رسالهم أفى الله شك...﴾	٢٤٨٩
١١	﴿قالت لهم رسالهم إن نحن إلا بشر...﴾	٢٤٨٩
١٢	﴿ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا...﴾	٢٤٨٩
١٣	﴿وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجنكم...﴾	٢٤٩٢
١٤	﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم...﴾	٢٤٩٢
١٥	﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد...﴾	٢٤٩٤
١٦	﴿من ورائه جهنم...﴾	٢٤٩٤
١٧	﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه...﴾	٢٤٩٤
١٨	﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد...﴾	٢٤٩٧
١٩	﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض...﴾	٢٤٩٩
٢٠	﴿وما ذلك على الله بعزيز...﴾	٢٤٩٩
٢١	﴿ويرزوا الله جميعا فقال الضعفاء...﴾	٢٤٩٩
٢٢	﴿وقال الشيطان لما قضى الأمر...﴾	٢٥٠٢
٢٣	﴿وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	٢٥٠٢
٢٤	﴿ألم تركب ضرب الله مثلا كلمة طيبة...﴾	٢٥٠٥
٢٥	﴿توتى أكلها كل حين بإذن ربها...﴾	٢٥٠٥
٢٦	﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة...﴾	٢٥٠٧
٢٧	﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت...﴾	٢٥٠٧
٢٨	﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا...﴾	٢٥١٠
٢٩	﴿جهنم يصاونها ويئس القرار...﴾	٢٥١٠
٣٠	﴿وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله...﴾	٢٥١٠
٣١	﴿قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة...﴾	٢٥١٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٢	﴿إله الذى خلق السماوات والأرض...﴾	٢٥١٣
٣٣	﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين...﴾	٢٥١٣
٣٤	﴿واتاكم من كل ما سألتموه...﴾	٢٥١٣
٣٥	﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا...﴾	٢٥١٦
٣٦	﴿رب إنهن أضللن كثيرا من الناس...﴾	٢٥١٦
٣٧	﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع...﴾	٢٥١٦
٣٨	﴿ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن...﴾	٢٥١٦
٣٩	﴿الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق...﴾	٢٥٢٠
٤٠	﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى...﴾	٢٥٢٠
٤١	﴿ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين...﴾	٢٥٢٠
٤٢	﴿ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون...﴾	٢٥٢٢
٤٣	﴿مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم...﴾	٢٥٢٢
٤٤	﴿وأنذر الناس يوم يأتىهم العذاب...﴾	٢٥٢٣
٤٥	﴿وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم...﴾	٢٥٢٣
٤٦	﴿وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم...﴾	٢٥٢٣
٤٧	﴿فلا تحسبن الله مخلص وعده رساله...﴾	٢٥٢٦
٤٨	﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات...﴾	٢٥٢٦
٤٩	﴿وترى المجرمين يومئذ مقرئين...﴾	٢٥٢٦
٥٠	﴿سرابيلهم من قطران...﴾	٢٥٢٦
٥١	﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت...﴾	٢٥٢٦
٥٢	﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به...﴾	٢٥٢٦
—	فى ختام سورة إبراهيم	٢٥٣١
—	تخريج أحاديث وهوامش	٢٥٣٣
—	فهرس موضوعات	٢٥٤٥

تم بحمد الله تفسير الجزء الثالث عشر
 ويليهِ تفسير الجزء الرابع عشر إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الحجر

نظرات في سورة الحجر

سورة الحجر سورة مكية ، ومحور هذه السورة الأول هو : إبراز المصير المخيف الذى ينتظر الكافرين المكذبين .

وحول هذا المحور يدور السياق فى عدة جولات متنوعة الموضوع والمجال ، ترجع كلها إلى ذلك المحور الأصيل ، سواء فى ذلك القصة ، ومشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، والتوجيهات والتعقيبات التى تسبق القصص وتتخلله وتعقب عليه .

وإذا كان جو سورة الرعد يذكر بجو سورة الأنعام ، فإن جو هذه السورة - سورة الحجر - يذكر بجو سورة الأعراف .

لقد كان ابتداء سورة الأعراف بالإنذار ، ثم ورد فيها قصة آدم وإبليس ، ولى القصة عرض لبعض مشاهد الكون ، فى السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والنجوم ، والرياح ، والسحاب ، ولى ذلك قصص : قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى .

وهنا فى سورة الحجر يجىء الإنذار كذلك فى مطلعها ، ولكن ملفعا بظل من التهويل حين يقول :

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ . (الحجر: ٣-٥).

ثم يعرض السياق بعض مشاهد الكون : السماء ، وما فيها من بروج ، والأرض الممدودة ، والرواسى الراسخة ، والنبث الموزون ، والرياح اللواقح ، والماء والسقيا ، والحياة والموت ، والحشر للجميع ، لى ذلك : قصة آدم وإبليس ، منتهية بمصير أتباعه ، ومصير المؤمنين .. ومن ثم لمحات من قصة إبراهيم ، ولوط ، وشعيب ، وصالح ، منظور فيها إلى مصائر المكذبين .

ويمكن تقسيم سياق السورة هنا إلى عدة جولات أو عدة مقاطع يتضمن كل منها موضوعا أو مجالا :

تتضمن الجولة الأولى : بيان : سنة الله التى لا تتخلف فى الرسالة والإيمان بها والتكذيب ، مبدوءة بذلك الإنذار الضمنى الملفع بالتهويل : ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الحجر: ٣) .

ومنتهية بأن المكذبين إنما يكذبون عن عناد لا عن نقص فى دلائل الإيمان ، وأنهم جميعا من طراز

واحد .

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ . (الحجر: ١٣) .

وتعرض الجولة الثانية : بعض آيات الله فى الكون ، فى السماء وفى الأرض ، وما بينهما ، وقد قدرت بحكمة ، وأنزلت بقدر ، وإلى الله مرجع كل شئ وكل أحد فى الوقت المقدر المعلوم حيث يقول سبحانه :

وَأِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ . (الحجر: ٢١) .

وتعرض الجولة الثالثة : قصة البشرية وأصل الهدى والغواية فى تركيبها وأسبابها الأصلية ، ومصير الغاوين فى النهاية والمهتدين ، وذلك فى خلق آدم من صلصال من حمإ مسنون ، والنفخ من روح الله فى هذا الطين ، ثم غرور إبليس واستكباره وتوليه الغاوين دون المخلصين .

والجولة الرابعة : فى مصارع الغابرين من قوم لوط وشعيب وصالح مبدوءة بقول الله تعالى :

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩ ، ٥٠) .

ثم يتتابع القصص بجلو رحمة الله مع إبراهيم ولوط ، وعذابه لأقوام لوط وشعيب وصالح .

أما الجولة الخامسة والأخيرة : فتكشف عن الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض الملتبس بالساعة وما بعدها من ثواب وعقاب ، المتصل بدعوة الرسول ﷺ : فهو الحق الأكبر الشامل للكون كله وللبداء والمصير .

الآيات الكونية فى سورة الحجر

عرضت سورة الحجر لألوان المكابرة والعناد التى يلجأ إليها الكافرون ثم انتقلت إلى معرض الآيات الكونية مبدوءة بمشهد السماء فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح بالماء ، فمشهد الحياة والموت فمشهد البعث والحرث ... كل أولئك آيات يكابر فيها المعاندون . قال تعالى :

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ . (الحجر: ١٦-١٨) .

إنه الخط الأول فى اللوحة العريضة ، لوحة الكون العجيب الذى ينطق بأثار اليد المبدعة ، ويشهد بالإعجاز ، ويكشف عن دقة التنظيم والتقدير ، كما يكشف عن عظمة القدرة على هذا الخلق الكبير . والبروج قد تكون هى النجوم والكواكب بضخامتها ، وقد تكون هى منازل النجوم والكواكب التى تنتقل فيها فى مدارها . وهى فى كلتا الحالتين شاهدة بالقدرة وشاهدة بالدقة ، وشاهدة بالإبداع الجميل . قال تعالى :

وَزَيَّلَهَا لِّلنَّظِيرِينَ .

وهى لفظة إلى جمال الكون ، وبخاصة أن تلك السماء ، تشي بأن الجمال غاية مقصودة فى خلق هذا الكون ، فليست الضخامة وحدها ، وليست الدقة وحدها ؛ إنما هو الجمال الذى ينظم المظاهر جميعا ، وينشأ من تناسقها جميعا .

وإن نظرة مبصرة إلى السماء فى الليلة الحالكة ، وقد انتشرت فيها الكواكب والنجوم توصوص بنورها ثم تبدو كأنما تخبر ، ريثما تنتقل العين لتطلب دعوة من نجم بعيد .. ونظرة مثلها فى الليلة القمرية والبدري حالم ، والكون من حوله مهوم كأنما يمسك أنفاسه ؛ حتى لا يوقظ الحالم السعيد .

إن نظرة واحدة شاعرة لكفيلة بإدراك الحقيقة فى الجمال الكونى ، وعمق هذا الجمال فى تكوينه ، ولإدراك معنى هذه اللفظة العجيبة .. وَزَيَّلَهَا لِّلنَّظِيرِينَ .

والخط الثانى فى اللوحة العريضة الهائلة هو : خط الأرض الممدودة أمام النظر المبسوطة للخط والسير ، وما فيها من رواس وما فيها من نبت وأرزاق للناس ولغيرهم من الأحياء . قال تعالى :

وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ . (الحج: ١٩) .

إن ظل الضخامة واضح فى السياق ، فالإشارة فى الأرض إلى الرواسى ، ويتجسم ثقلا فى التعبير بقوله : وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

والى النبات موصوفا بأنه : مَوْزُونٍ ، وهى كلمة ذات ثقل ، وإن كان معناها : أن كل نبت فى هذه الأرض فى خلقه دقة وإحكام وتقدير .

والآية الكونية هنا تتجاوز الأفاق إلى الأنفس ، فهذه الأرض الممدودة للنظر والخطو ، وهذه الرواسى الملقاة على الأرض تصاحبها الإشارة إلى النبت الموزون ، ومنه إلى المعاش التى جعلها الله للناس فى هذه الأرض ، وهى الأرزاق المؤهلة للعيش والحياة فيها ، وهى كثيرة شتى .

وهذه الأرزاق - ككل شئ - مقدرة فى علم الله تابعة لأمره ومشيئته ، يصرفها حيث يشاء ، وكما يريد ، فى الوقت الذى يُريدُهُ ، حسب سنته التى ارتضاها وأجراها فى الناس والأرزاق . قال تعالى :

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . (الحج: ٢١) .

فما من مخلوق يقدر على شئ أو يملك شيئا ، إنما خزائن كل شئ - مصادره وموارده - عند الله فى علاه ينزله على الخلق فى عوالمهم : بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

فليس من شيء ينزل جزافاً وليس من شيء يتم اعتباطاً ، بل كل شيء يتم بحكمة العليم الخبير وتقدير السميع البصير : **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** . (القم: ٤٩) .

قصة آدم في سورة البقرة والأعراف والحجر

ذكرت قصة آدم في القرآن مرتين من قبل ، في سورة البقرة ، وفي سورة الأعراف ، ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص في معرض خاص وفي جو خاص ، ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع واختلفت طريقة الأداء .

في سورة البقرة كانت نقطة التركيز هي استخلاف آدم في الأرض التي خلقها الله للناس جميعاً : **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** . (البقرة: ٣٠) ، ومن ثم عرض الأسرار في هذا الاستخلاف ، وبين قدرة الإنسان على الاستنباط والاستنتاج وتمتعه بالإرادة والاختيار ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس واستكباره ، وسكنى آدم وزوجه الجنة وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها ، ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها بعد تزويده بهذه التجربة القاسية ، واستغفاره وتوبه عليه .

وفي سورة الأعراف ، كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها ، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى ، ففريق منهم يعود إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها : **لأنهم عادوه وخالفوه** ، وفريق ينتكس إلى النار؛ لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة ، وإباء إبليس واستكباره ، ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة ، وهي رمز المحظور الذي تبثلى به الإرادة والطاعة ، ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل ، وأكلهما من الشجرة وظهور سواتهما لهما ، واعتاب الله لآدم وزوجه وإهباطهما إلى الأرض جميعاً للعمل في أرض المعركة الكبرى .

فأما هنا في سورة الحجر فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصلية في كيان الإنسان .. ومن ثم نصَّ ابتداءً على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافاً من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون ، وطرد إبليس ولعنته وطلبه الانتظار إلى يوم البعث وإجابته ، وزاد أن إبليس قرر على نفسه أن ليس له سلطان على عباد الله المخلصين ، إنما سلطانه على من يدينون له ، ولا يدينون لله ، وانتهى بمصير هؤلاء وهؤلاء في غير حوار ولا عرض ولا تفصيل تبعاً لنقطة التركيز في السياق وقد استوفت ببيان عنصرى الإنسان ، وبيان مجال سلطة الشيطان .

خلق الإنسان

تفيد الآيات الواردة في سورة الحجر: أن الإنسان قد خلق من صَلَّصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ . (الحجر: ٢٦) .

والصلصال : هو الطين اليابس الذي يصلصل أى : يصوت إذا نقر .

والحمأ : هو الطين الذي تغير واسود من طول مجاورة الماء .

والمسنون : هو المصور أو المصبوب لييبس من سته إذا صبّه ، أى : أن الإنسان مخلوق من طين يابس قد اختلط بالماء وصُور على هيئة الإنسان ، ثم نفخ الله فيه من روحه فصار بشرا سويا .

وتفيد آيات القرآن الأخرى : أن الله خلق آدم من تراب ومن طين ، ومن حمأ مسنون ، ومن طين لازب ، ومن صلصال كالفخار ، ومن عَجَلٍ ؛ ومن ماء مهين .

قال مقاتل بن سليمان في تفسيره الكبير :

ويجمع بين هذه الآيات على أنها دليل على تدرج الخلقة ، فقد بدأ خلق آدم من أديم الأرض ، وهو: التراب ، ثم تحول التراب إلى طين ، وتحول الطين إلى سلاله ، ثم تغيرت رائحة الطين فتحول إلى حمأ مسنون، ثم لصق فتحول إلى طين لازب ، ثم صار له صوت كصوت الفخار ، ثم نفخ فيه الروح ، فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله : خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، ثم جعل ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان ومن الماء المهين وهو الضعيف^(١) .

الربع الأخير من سورة الحجر

يتضمن الربع الأخير من سورة الحجر نماذج من رحمة الله وعذابه ممثلة في قصص إبراهيم وإسماعيل علي الكبر بغلام عليم ، ولوط ونجاته وأهله إلا امرأته من القوم الظالمين ، وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر وما حل بهم من عذاب أليم .

هذا القصص يساق بعد مقدمة هي :

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . (الحجر: ٤٩ ، ٥٠) .

فيجىء بعضه مصداقا لنبأ الرحمة ، ويجىء بعضه مصداقا لنبأ العذاب ، كذلك هو يرجع إلى مطالع السورة فيصدق ما جاء فيها من نذير .

ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا بِالْأَمْثِلِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِيرُونَ . (الحجر: ٣-٥) .

فهذه نماذج من القرى المهلكة بعد النذر ، حل بها جزاؤها بعد انقضاء الأجل .

الحجر

سميت هذه السورة بسورة الحجر ؛ إشارة إلى أصحاب الحجر وهم : قوم صالح ، والحجر تقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وهى ظاهرة إلى اليوم ، فقد نحتوها فى الصخر فى ذلك الزمان البعيد ، مما يدل على القوة والحضارة .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ . (الحجر: ٨٠) .

وهم لم يكذبوا سوى رسولهم الصالح . ولكن صالحا ليس إلا ممثلا للرسل أجمعين ، فلما كذبه قومه قيل: إنهم كذبوا المرسلين ؛ توحيدا للرسالة وللرسل والمكذبين فى كل أعصار التاريخ وفى كل جوانب الأرض على اختلاف الزمان والمكان والأشخاص والأقوام .

وَأَنبِئْهُمْ عَالِيْنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . (الحجر: ٨١) .

وآية صالح كانت الناقة . ولكن الآيات فى هذا الكون كثيرة ، والآيات فى هذه الأنفس كثيرة ، وكلها معروضة للأنظار والأفكار . وليست الخارقة التى جاءهم بها صالح وهى وحدها الآية التى آتاهم الله . وقد أعرضوا عن آيات الله كلها . ولم يفتحوا لها عينا ولا قلبا ولم يستشعرها فيهم عقل ولا ضمير .

وَكَانُوا يَنْجُبُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتَا عَائِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْحِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (الحجر: ٨٢ - ٨٤) .

لقد اتخذ قوم صالح بيوتا حصينة أمينة فى صلب الجبال فأخذتهم الصيحة فى وقت الصباح ، وهم فى ديارهم الحصينة آمنون ، فإذا كل شئ ذاهب ، وإذا كل وقاية ضائعة ، وإذا كل حصين واهن ، ولم يبق لهم مما جمعوا ومما كسبوا ومما بنوا ومما نحتوا شيئا يغنى عنهم ويدفع الهلاك الخاطف .

وهكذا تنتهى الحلقات الخاطفة من القصص فى سورة الحجر محققة سنة الله فى أخذ المكذبين عند انقضاء الأجل المعلوم ، فتتناشق نهاية هذا الشوط مع نهايات الأشواط السابقة فى تحقيق سنة الله التى لا تختلف ولا تحيد .

وفى ختام السورة ذكر للسنة العامة التي لا تتخلف والتي تحكم الكون والحياة وتحكم الجماعات والرسالات وتحكم الهدى والضلال ، وتحكم المصائر والحساب والجزاء والتي انتهى كل مقطع من مقاطع السورة بتصديق سنة منها ، تلك السنة شاهد على الحكمة المكنونة في كل خلق من خلق الله وعلى الحق الأصل الذي تقوم عليه طبيعة هذا الخلق .

ومن ثم يعقب السياق فى ختام السورة ببيان هذا الحق الأكبر الذى يتجلى فى طبيعة خلق السماوات والأرض وما بينهما . وطبيعة الساعة الآتية لا ريب فيها وطبيعة الدعوة التى يحملها الرسول ﷺ وقد حملها الرسل قبله ، ويجمع بينها كلها فى نطاق الحق الأكبر الذى يربطها ويتجلى فيها ويبين أن الله هو الخالق لهذا الوجود ، ولكل ما فيه^(١) .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . (الحجر: ٨٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّتِّلْكَ إِئْتِ الْكِتَابِ وَقُرْءِ أَنْ مُيِّنَ ① رَبِّمَا يُوذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ⑤﴾

المضردات :

رَبِّمَا : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول .

يُلْهِمُ : يشغلهم .

مَا تَسْبِقُ : ما يتقدم زمان أجلها .

التفسير :

١ - الر ...

تقدم في سورة البقرة وآل عمران والأعراف حديث عن الحروف المقطعة في فواتح السور .

وخلصه : أن للعلماء في هذه الأحرف رأيان رئيسان :

الأول : أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وهذا معنى ما نراه في تفسير الجلالين وغيره ، الله أعلم بمراده في ذلك .

الرأى الثانى : أن لهذه الأحرف معان ، وقد اختلف العلماء في معانى هذه الأحرف :

١ - فمنهم من قال : إنها أسماء للسورة .

٢ - ومنهم من قال : إنها إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

٣- ومنهم من قال: إنها مثل أدوات التنبيه ، كالجرس الذى يقرع : فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة : فقد كان الكفار يتواصون : بالإعراض عن استماع القرآن ، فلما طرقت أذهانهم هذه الأحرف : تنبهوا أمام هذا الأمر العجيب .

٤- ومنهم من قال : هى حروف للتحذى والإعجاز ، وبيان : أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مكوّن من حروف عربية ، ينطقون بها ويتكلمون بها ، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، فدلّ ذلك : على أن القرآن ليس من صنع بشر ، ولكئنه تنزيل من حكيم حميد .

٥- ومنهم من ذهب إلى أن من إعجاز هذه الأحرف : اشتمالها على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسورة ، وهى تشير إلى أسماء الله أو صفاته .

وهى فى نفس الوقت أدوات للتنبيه .

وهى حروف للتحذى والإعجاز .

وهى مما استأثر الله تعالى بعلمه ، والله أعلم .

تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ .

أى : هذه الآيات التى اشتملت عليها هذه السورة : من آيات ذلك الكتاب الكامل ، ومن آيات القرآن المبين الواضح ، وقد جمع الله للكتاب صفتان : فهو الكتاب الكامل من بين الكتب المنزلة ، وهو القرآن الواضح فى بيانه وإحكامه ، وقد تميز القرآن من بين سائر الكتب بصفتين :

الأولى : حفظه وقراءته عن ظهر قلب ، والكتب السابقة تقرأ ولا تحفظ ، كما يُحفظ القرآن .

الثانية : كتابة القرآن فى حياة رسول الله ﷺ ، وتجميع كتابته فى مصحف واحد فى حياة أبى بكر ، ثم كتابته بالفصحى وبلغه واحدة فى حياة عثمان بن عفان ، وظل المصحف العثمانى ، بالخط العثمانى محفوظا إلى يومنا هذا ، لا يختلف مصحف عن آخر ؛ تصديقا لقوله تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩) .

والأنجيل كتبت بعد وفاة المسيح عليه السلام بعشرات السنين ، وقد جمعها تلاميذه على ما غلب على ظنهم أن المسيح قاله ، وقد اختلفت الأنجيل عن بعضها ، وغلب على كل إنجيل صفة كاتبه ومعلوماته .

فإن كان فيلسوفا ؛ ظهرت الفلسفة فى إنجيله ، وإن كان طبيبا ؛ غلب عليه العناية بالأمور الطبية .

ولا يوجد فى العالم كتاب يشبه القرآن ، فى دقته ونقائه وسلامته من الأخطاء .

٢- رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ .

هذا إخبار من الله تعالى عن الكفار ، بأنهم سيندمون على كفرهم حين يرون العذاب في الآخرة ، ويتمنون أن لو كانوا مسلمين .

وقد ورد في الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟! قالوا : بلى ، قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام ، وقد صرتم معنا في النار ! قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا : فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، فنخرج كما خرجوا^(١) .

قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّكَ أَنْتَ الْكَاذِبُ وَقَدْ عَٰنِ مُبِينٌ * رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ . (الحجر: ١، ٢) .

وقد جاءت رَبُّمَا للتقليل على سنة العرب في نحو قولهم : رَبُّمَا تندم على ما فعلت ، ولعلك تندم على ما فعلت ، لا يقصدون التقليل في نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه ، أو لو كان قليلا لحقَّ عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون ، كما يتعرض للغم المتيقن ويتبتعد عن القليل منه ، كما يبتعد عن الكثير .

والكافر يتمنى أن لو كان مسلما في مواقف عديدة :

١- إذا رأى الإسلام ينتصر والكفر ينهزم .

٢- إذا رأى ملك الموت وتيقن بسوء الخاتمة .

٣- إذا رأى هول الموقف ، وشاهد المسلمين يساقون إلى الجنة ، ويساق الكفار إلى النار .

٤- إذا خرج المسلمون المعذبون بذنوبهم من عذاب النار وبقي الكافرون في جهنم .

قال الزجاج : إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ، ورأى حالا من أحوال المسلم ؛ ود أن لو كان مسلما .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَا نَرُدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِمَا كُنَّا نَبْنَىٰ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . (الأنعام: ٢٧) .

٣- ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

أى : اتركهم أيها الرسول الكريم فى غفلاتهم ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، ويأخذون حظوظهم من دنياهم ، وتلك أخلاقهم ولا خلاق لهم فى الآخرة .

وَيُلْهِمُ الْأَمْلُ . أى : تشغلهم الآمال عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ، وسوء عاقبتهم ، وفى هذا وعيد وتهديد .

من تفسير الفخر الرازى

دلت الآية على : أن إظهار التلذذ والتنعم ، وما يؤدى إليه طول الأمل ، ليس من أخلاق المؤمنين ، وعن بعضهم : التمرغ فى الدنيا من أخلاق الهالكين ، والأخبار فى ذم الأمل كثيرة ، فمنها ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « يهرم ابن آدم ويشيب معه اثنان : الحرص على المال وطول الأمل »^(١) .

وعنه ﷺ أنه نقط ثلاث نقط ، وقال : « هذا ابن آدم ، وهذا الأمل ، وهذا الأجل ، ودون الأمل تسع وتسعون مئة فإن أخذته إحداهن ، وإلا فالهرم من ورائه »^(٢) .

وعن على رضى الله عنه أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الله والآخرة ، واتباع الهوى : يصد عن الحق ، والله أعلم^(٣) .

٤- وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ .

كان أهل مكة يستبطنون العذاب ، ويقولون : متى يجرى ما تعدنا به يا محمد من نزول العذاب ؟! فأخبر الله تعالى : بأن كل قرية من القرى الظالمة ، كان هلاكها وقت مقدر ، فقد هلك قوم نوح بالطوفان ، وهلك فرعون فى ماء النيل ، وهلك عاد وثمود بعذاب شديد ، قال تعالى : فَلَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس: ١٤ ، ١٥) .

ومعنى الآية : ما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة ، التى كذبت رسل الله تعالى ، إلا ولها أهل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، لا ينسى ولا يغفل عنه .

٥- مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِيرُونَ .

أى : لا يتقدم هلاك أمة قبل مجىء أوانه ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

قال ابن كثير : وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد ، الذي يستحقون به الهلاك .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ⑥ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑦ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ⑧ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ ⑨ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ ⑩ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ⑪ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ⑫ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ⑭ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ⑮ ﴾

المضردات :

الذكر : القرآن .

يومئذ : مثل هاء كلمة تفيد : الحث والحض على فعل ما يقع بعدها .

منظرين : مهملين .

شيع : جمع شيعه ، وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء .

نسلكه : أى : ندخله ، يقال : سلكت الخيط فى الإبرة ، أى : أدخلته فيها .

وقد خلت سنة الأولين : أى : وقد مضت سنة الله فى الأقوام الأولين ، بإهلاك من كذبوا الرسل منهم ، وهذا وعيد لأهل مكة .

يعرجون : يصعدون .

سكرت : سدت ، ومنعت من الإبصار .

مسحورون : سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

التفسير:

٦- وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ .

يخبر الله سبحانه وتعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم :

يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ . أى : الذى تدعى ذلك .

إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . أى : فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

٧- لَوْ مَا تَأْتِيَا بِالْمَلَأِكَةِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : هلا جئتنا بالملائكة يشهدون لك ، بصدق ما جئت به من الرسالة ، إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فى دعواك ، فإن قدرة الله تعالى ذلك مما لا ريب فيه ، وكذا احتياجه إليه .

وفى معنى هاتين الآيتين وردت آيات فى القرآن الكريم على لسان الكافرين ، تتهم الرسل بالجنون ، وتطلب منهم إحضار الملائكة لتصديقهم ، من ذلك قول فرعون : فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُفْتَرِينَ . (الزخرف: ٥٣) .

وقول كفار مكة وأشباهم وما حكاه القرآن عنهم بقوله :

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ أَشْكَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَغَتُّوا كِبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَأِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا . (الفرقان: ٢١ ، ٢٢) .

٨- مَا نُنْزِلُ الْمَلَأِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ .

أى : من شأن الحق سبحانه وتعالى أن يجرى أعماله لحكمة إلهية ، فهو سبحانه حكيم فى عمله وصنعه ، ومن هذه الحكمة : أن يرسل الملائكة : لتنزل بالوحي والرسالة على المرسلين ، أو ينزل الملائكة بالعذاب على المكذابين .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

مَا نُنْزِلُ الْمَلَأِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ . أى : إلا تنزلا متلبسا بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة فى أن تأتكم عيانا تشاهدونهم ، ويشهدون لكم بصدق النبى ﷺ : لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ، ومثله قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ . (الحجر: ٨٥) .

وقيل : الحق : الوحي ، أو العذاب^(٨) .

وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ .

أى : لو نزلنا الملائكة فلم يؤمنوا : لعاجلناهم بالعذاب ولم نمهلهم ، وذلك مخالف لسنة الله تعالى فى إمهال الناس دون إهمالهم ، أو لسنته تعالى فى إمهال الناس : رجاء إيمانهم .

وجملة : وَمَا كَانُوا إِذَا تُنْظَرِينَ . جواب وجزاء لجملة شرطية محذوفة ، والتقدير : ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة ، وما كانوا إذا منظرين ، فالجملة جزاء للجملة الشرطية المحذوفة^(٩) .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . (الأنعام : ٨) .

٩- إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .

تأتى هذه الآية فى مقام الرد على هؤلاء المستهزئين ، الذين اتهموا النبى ﷺ بالجنون ، فترد عن الرسول ﷺ ، وتبين : أن الله وحده هو الذى أنزل القرآن ، وهو سبحانه المتكفل بحفظه ، وقد تميز القرآن عن غيره من الكتب ، بأن أعدادا غفيرة من المسلمين ، تحفظه عن ظهر قلب ، وتتوارث حفظه خلفا عن سلف ، وقد ألهم الله المسلمين بكتابته فى حياة الرسول ﷺ ، وتكرر جمعه فى مصحف فى عهد أبى بكر ، وكتابته على لهجة واحدة فى عهد عثمان ، ومن حفظ الله تعالى لكتابته : مرور عصور طويلة من الظلام ، ضعف فيها شأن المسلمين ، وانحسر سلطانهم ، وظل القرآن الكريم محفوظا فى الصدور ، مكتوبا فى السطور ، مثلوا على الألسنة ، مسجلا على الأشرطة ، مذاعا فى إذاعات العالم المسموعة والمرئية : تأكيدا لتعهد سبحانه بحفظ هذا الكتاب .

ونلاحظ أن الله استحفظ الأخبار والرهبان الكتب السابقة ، وتكفل هو بحفظ كتابه ، قال تعالى : وَالرَّسُولُ وَالْأَخْيَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ . (المائدة : ٤٤) .

وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩) .

١٠- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ لى شَيْعِ الْأَوَّلِينَ .

يقول تعالى مسلما رسوله ﷺ ، حيث يبين له : أن تكذيب كفار مكة له ليس بدعا ، وإنما سبق أن أرسلت رسل قبله فكذبوا .

فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ .

أى : فرقههم وأحزابهم ، جمع شيعة وهى الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب .

١١- وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رُّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : لم يأت أمة أو شيعة أو فرقة من رسول إلا كذبوه ، واستهزءوا به ، كما كان يفعل كفار مكة مع النبى ﷺ ، قال تعالى : وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُم نَصْرُنَا . (الأنعام: ٣٤).

١٢- كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ .

أى : كما سلطنا الكفر فى قلوب شيع الأولين ، بالاستهزاء بالرسول ، كذلك نفعل ذلك فى قلوب مشركى قومك ، الذين أجرموا بسبب الكفر بالله ، ويجوز أن يعود الضمير فى نَسْلُكُهُ . على القرآن الكريم .

والمعنى : كما سلطنا القرآن فى قلوب المؤمنين ، بالمحافظة عليه وتلاوته واتباع أوامره وهديه ، نسلكه فى قلوب المجرمين ، وندخله فى سويدائها فكذب به المجرمون وكفروا عنادًا وكبرا .

١٣- لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ .

إن هؤلاء المشركين قد تمكن الشرك من قلوبهم ، وسلك الكفر طريقه إلى نفوسهم ، فلا يؤمنون بالقرآن الكريم ، ولا يصدقون بالنبى محمد ﷺ ، وهؤلاء الكفار سيصيبهم العذاب : جزاء تكذيبهم ، فإن الله سننا لا تتخلف ولا تتبدل ، ومن هذه السنن : نجات المرسلين ، وهلاك المشركين ، وفى هذا تهديد لأهل مكة ووعيد لهم : بأن يصيبهم ما أصاب المكذبين من الأمم قبلهم ، قال تعالى : ذَٰلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا الْكُفُورَ . (سبأ: ١٧) .

وقال سبحانه : وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٤٠) .

١٤- وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ .

عندما طلب كفار مكة ، نزول الملائكة : حتى يؤيدوا محمدًا فى دعواه الرسالة - إن كان من الصادقين- رد عليهم القرآن فيما سبق .

وهنا يقول : لو سلمنا جدلا قبول اقتراحهم ، وأصعدناهم إلى السماء ، وفتحنا لهم بابا من أبوابها ، فظلوا فيه يصعدون ؛ حتى شاهدوا الملائكة والملوك .

١٥- قَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ .

أى : لقالوا ، لفرط مكابرتهم وعنادهم ، إنما سُدَّتْ أبصارنا وخدعت بهذا الارتقاء والصعود .

بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ . أى : سحرنا محمد وخيل إلينا ذلك ، وما هو إلا سحر مبين .

وقد سبق أن اتهم قوم فرعون سيدنا موسى بالسحر ، وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ .. (الزخرف:٤٩) .

قال الفخر الرازى فى تفسيره :

اعلم أن هذا الكلام هو المذكور فى سورة الأنعام فى قوله : وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِى فِرْعَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . (الأنعام: ٧) .

ثم نقل الفخر الرازى عن ابن عباس أنه قال : « ولو ظل المشركون يصعدون فى تلك المعارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى ، وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة ، الذين هم من خشيته مشفقون ؛ لشكوا فى تلك الرؤية ، ويقوا مُصرين على كفرهم وجهلهم ، كما جحدوا سائر المعجزات ، من انشقاق القمر ، وما خص به النبى ﷺ من القرآن المعجز ، الذى لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله »^(١) .

ملحق بالآية

(١) قَطَّلُوا فِيهِ يَعْجُونَ .

يقال : ظل فلان نهاره يفعل كذا إذا فعله بالنهار ، ولا تقول العرب : ظل يظل إلا لكل عمل بالنهار ، كما لا يقولون بات ، يبيت إلا بالليل ، والمصدر : الظلول^(٢) .

أى : إن صعودهم لو كان فى وضع النهار ، وشاهدوا ذلك عيانا مع وضوح الرؤية ، لأنكروا وعاندوا .

يَعْجُونَ . يقال : عرج ، يعرج ، عروجا ، ومنه المعارج وهى المصاعد التى يصعد فيها ، ومن إعجاز القرآن ، نجد أن السماء لا تعرف الخط المستقيم ، وإنما يذكر الصعود إلى السماء بالعروج ، قال تعالى : مَنْ أَلَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج: ٤٠٣) .

وهنا قال : فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ .

وقد أُيد ذلك العلم الحديث ، والقرآن غنى عن هذا التأييد ، ولكننا نقول : أننى لمحمد النبى الأُمى أن يعرف دقة هذا التعبير ، الذى يصدقه العلم بعد أكثر من ألف عام .

(ب) معنى : سَكَرْتُ أَبْصَرْنَا .

أى : غَيَّرَتْ أَبْصَارُنَا عما كانت عليه ، فهى لا تعطينا حقائق الأشياء كما كانت تفعل ، ومنه سكران أى : توقف عقله عن اتخاذ القرار ، سكرت الريح ، أى : توقفت عن الهبوب ، وسَكَرْتُ الباب : أغلقته .

وعبر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله : غشى على أبصارنا ، وقال بعضهم : عميت أبصارنا ، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يربط باللفظ ، ويقال أيضا : هؤلاء المبصرون عروج الملائكة ، أو عروج أنفسهم ، بعد قولهم : سَكَرْتُ أَبْصَرْنَا ، بل سحرنا حتى لا نَعْمَلُ الأشياء كما يجب ، أى : صرف فينا السحر^(١١) .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشَهِبٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمْ مَوْهً وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

المضادات :

بروجا : من الكواكب ، أو هى : منازل الشمس والقمر .

وزيناها للناظرين : لمن نظر إليها .

إلا من استرق السمع : لكن من يسترق السمع من الشياطين : ليستمع ما يتحدث به فى السماء .

فاتبعه شهاب : فیتبعه شهاب من النار .

مبين : بين أثره فيه ، إما أن يحرق النجم الجنى أو يفسده ويخبله .

والأرض مددناها ، بسطناها .

وألقينا فيها رواسي ، أثبتنا فيها جبالا ثابتة .

من كل شيء موزون ، معلوم مقدور .

وجعلنا لكم فيها معاش ، جمع معيشة .

ومن تستم له برازقين ، قيل : العبيد والإماء ، والدواب والأنعام ، وقيل : الوحش .

وإن من شيء ، يعنى : من الأمطار .

إلا بقدر معلوم ، حده ومبلغه .

وأرسلنا الرياح ، جمع ريح .

لـواقـح ، تلقح الشجر ، وتمرى السحاب ، أى : تستخرج منه المطر .

فأسقيناكموه ، لشرب أرضكم .

وما أنتم له بخازنين ، بمانعين ، يقول : ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه من السماء فتمنعوه من أسقيه : لأن

ذلك بيدي - أو أن الله ييسر للمطر الذهاب إلى الأنهار والمحيطات ، فيخزنه بمعرفته :

لينتفع به الناس بعد ذلك ، ولو وكل للإنسان أمر المطر وتخزينه : لعجز عن ذلك : لأن

الله الحكيم هو المدير لكل أمر موزون .

التفسير :

١٦ - وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ .

تأتى هذه الآيات للدلالة على قدرة الخالق وبيد صفته ، فهو سبحانه رافع السماء ومكمل خلقها وهو

الذى زينها بالنجوم ، وأتم حفظها ، وهو سبحانه باسط الأرض ، وخالق الجبال ، ومسخر السحاب والأمطار

ومنبت النبات ، وكأن القرآن يقول لهم : إن أردتم دليلا على وحدانية الخالق ، وصدق الرسالة فانظروا إلى

ما حولكم ، من السماء والأرض والجبال وتستجدون التكامل والإبداع فى هذا الكون .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا .

تطلق البروج على النجوم ، وأصل البروج : الظهور ، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها ، وقيل : البروج :

الكواكب العظام ، وحقيقة البرج : البناء الكبير المتخذ للسكنى ، أو للتحصن ، وهو يراد فى القصر ، قال تعالى :

أَتَيْمًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ . (النساء : ٧٨) .

وقال سبحانه : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . (البروج : ١) .

جاء في تفسير القرطبي :

والبروج : القصور والمنازل ، قال ابن عباس : أى : جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر ، أى : منازلهما ، وأسماء هذه البروج : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، السرطان ، الأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والمعرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والعرب تُعَدُّ المعرفة بمواقع النجوم وأبوابها ، من أجل العلوم ، ويستدلون بها على الطرقات ، والأوقات والخصب والجذب ، وقالوا : الفلك : اثنا عشر برجاً^(١٦) .

ومعنى الآية : ولقد خلقنا فى السماء نجوما عظاما ، من الكواكب الثوابت والسيارات ، وجعلنا السماء والكواكب بهجة لمن تأمل وكرر النظر فى عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . (الصافات: ٦) ، وقوله سبحانه : تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . (الفرقان: ٦١) .

١٧- وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ .

كانت الشياطين تسترق أخبار السماء ، وتخبر بها الكهان ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ : شددت الحراسة على السماء ، فكانت الجن إذا أرادت استراق أخبار السماء ؛ ترصّ بعضها فوق بعض ، كل جنى يضع قدميه فوق أكتاف الأول ، وهكذا ، ثم يتسمع الأخير إخبار الملائكة عن أمور الغيب ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ : منعت الجن من استراق السمع ، ومن أراد استراق السمع ؛ رُمِيَ بالشهب فتقطعه أو تخيله .

وقد ورد هذا المعنى فى صحيح البخارى عن ابن عباس:^(١٧) ثم إن الشياطين انصرفوا باحثين عن السبب ، فتوجهوا نحو تهامة فوجدوا رسول الله ﷺ يصلى الفجر بأصحابه ، فلما سمعوا القرآن ، استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم ، وبين خبر السماء ، فلما رجعوا إلى قومهم أخبروهم بما سمعوا ، فأنزل الله تعالى على نبيه محمداً ﷺ سورة الجن وفى أولها : قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . (الجن: ١) .

وفيهما : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَرَجَدْنَاهَا مِلْقَتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَكُفْهًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعِ آلَانِ يَحْذَرُ أَنَّهُ سُحَابٌ رَّسَدًا . (الجن: ٨ ، ٩) .

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ .

أى : حفظنا السماء وحرسناها ، ومنعنا كل شيطان مرجوم مطرود من الوصول إليها ، قال تعالى فى آية أخرى : وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . (الصفات: ٧-١٠) .

إن المثال فى خلق السماء ، وإحكام البناء ، وتزيينها بالنجوم ، وحركة النجوم ومواقعها ، وعدم اضطرابها أو اصطدامها - ثم إن هذا الاصطدام وارد ، وهو لحكمة عليا ، هى نزول شهب تخبل الجنى أو تقتله- يستقين أن كل ذلك يشير إلى قدرة عليا تمسك بزمام هذا الكون .

١٨- إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ .

أى : لكن من أراد اختطاف شيء من عالم الغيب ، مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ، تبعه كوكب مشتل نارا ظاهرا : فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر فى ملكوت السماوات .

وبعد أن ذكر عظمة الخالق ، وقدرته فى خلق السماوات وإبداع نظامها وحفظها ، أتبع ذلك ببيان قدرته ونعمته فى خلق الأرض .

١٩- وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوزُونٍ .

إن يد القدرة المبدعة التى زينت السماء وحفظتها ، قد بسطت الأرض وحفظت توازنها بالجبال الراسيات الثوابت ، وأرسلت الماء إلى الأرض فتمت حياة الأرض بالنبات الموزون بميزان الحكمة بلا زيادة ولا نقصان .

أو بمعنى مستحسن متناسب من قولهم : كلام موزون ، وقد ذكر الشريف الرضى^(١٤) أن العرب استعملته بهذا المعنى كقول عمر بن أبى ربيعة :

وحديث أذّه هو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا^(١٥)

وجاء فى تفسير المراعى :

أن كل نبات قد وزنت عناصره ، وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر ، بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير .

وهناك عنصر البوتاس تراه يدخل فى حب الذرة الذى تأكله بمقدار ٣٢٪ وفى القصب ٣٤.٣٪ وفى البرسيم بمقدار ٣٤.٦٪ وفى البطاطس بمقدار ٦١.٥٪. وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرًا، والبرسيم لأن يكون قوتًا للبهائم، والذرة والبطاطس لأن تكون قوتًا للإنسان^(١٧).

فسبحانك اللهم أبدعت نظام الكون وجعلت كل شيء فى الحياة موزونًا بقدر معلوم : لتتدبر نظم الحياة، ونعرف قدرة المنشىء الذى لم يخلق شيئًا جزافًا بل أبدع ودبر، وخلق كل شيء بقدره تقديرًا .

٢٠ - وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ .

أى : جعلنا لكم فى الأرض أرزاقًا مؤهلة للعيش والحياة فيها ، وأنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء وقد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجو ربيتموه ، ولا غيرها من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . أنتم تعيشون على أرزاق الله التى جعلها لكم فى الأرض ، وما أنتم إلا أمة من هذه الأمم التى لا تحصى ، أمة لا ترتزق سواها ، إنما الله يرزقها ويرزق سواها ، ثم يتفضل عليها فيجعل لمنفعتها ، ومتاعها وخدماتها أمما أخرى تعيش من رزق الله ولا تكلفها شيئًا .

٢١ - وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده ، وتكوين أضعاف ما وجد منه ، شبه اقتداره على كل شيء وإيجاده ، بالخزائن المودعة فيها الأشياء ، المعدة لإخراج ما يشاء منها وما يخرجها إلا بقدر معلوم ، استعارة تمثيلية^(١٨) فقد ضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور .

قال فى ظلال القرآن :

هذه الأرزاق - ككل شيء - مقدرة فى علم الله تابعة لأمره ومشئته ، يصرفها حيث يشاء ، وكما يريد فى الوقت الذى يريده حسب سنته التى ارتضاها وأجراها فى الناس والأرزاق .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ .

فما من مخلوق يقدر على شيء أو يملك شيئًا ، إنما خزائن كل شيء مصادره وموارده عند الله فى علاه ينزله على الخلق فى عوالمهم بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . فليس من شيء ينزل جزافًا ، وليس من شيء يتم اعتباطًا ، ومدلول هذا النص المحكم :

وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عَيْنَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ . يتجلى بوضوح أكثر كلما تقدم الإنسان فى المعرفة، وكلما اهتدى إلى أسرار تركيب هذا الكون وتكوينه، ومدلول خَزَائِنُهُ يتجلى فى صورة أقرب بعدما تكشف الإنسان عن طبيعة العناصر، التى يتألف منها الكون المادى، وطبيعة تركيبها وتحليلها - إلى حد ما - وعرف مثلاً أن خزائن الماء الأساسية هى ذرات الأيدروجين والأكسجين وأن من خزائن الرزق المتمثل فى النبات الأخضر كله ذلك الأزوت الذى فى الهواء، وذلك الكربون وذلك الأكسجين المركب فى ثانى أكسيد الكربون، وتلك الأشعة التى ترسل بها الشمس أيضاً، ومثل هذا كثير يوضع دلالة خزائن الله التى توصل الإنسان إلى معرفة شئ منها .. وهو شئ على كثرته قليل قليل^(١٩) .

٢٢- وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ .

من قدرة الإله الخالق أنه أبدع نظام السماء ، وأبدع نظام الأرض ، وأبدع نظاماً متكاملًا في هذا الكون ، وعنده خزائن الأرزاق ومواعيدها المناسبة ومن هذه الأرزاق :

أنه سخر الرياح حوامل بالسحاب لأنها تحمل السحاب ؛ في جوفها ، والرياح تنطلق وفق نواميس كونية. وتحمل الماء وفقاً لهذه النواميس ، وتسقط الماء كذلك بحسبها ، ولكن من الذي قدر هذا كله من الأساس؟ لقد قدره الخالق ، ووضع الناموس الكلى الذي تنشأ عنه كل الظواهر .

فهو سبحانه خالق الإنسان ، وخالق الكون ، وبهيد الخلق والأمر ، قال تعالى : **اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ فَتُفْثِرُ سَحَابًا فَيَنْسُفُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيُرِي الْآذُقَ فَيُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ فَأَذًا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ .** (الروم : ٤٨) .

وقال عز شانه : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . (الواقعة : ٦٨-٧٠) .

قال المہامی :

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ۖ أَيْ: تَلْقَحُ السَّحَابَ أَيْ: تَجْعَلُهَا حَوَامِلَ بِالْمَاءِ ۖ وَذَلِكَ أَنَّ السَّحَابَ بِخَارِ تَصْوِيرِ
بِإِصَابَتِهِ الْهَوَاءَ الْبَارِدَ حَوَامِلَ لِلْمَاءِ^(٢٩) فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا كُنُوزَهُ ۖ أَيْ: فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا
فَأَفْسَقْنَاكُمْ ذَلِكَ الْمَطَرُ ۖ لِشَرْبِ زَرْعِكُمْ وَمَوَاشِيَكُمْ وَفِي ذَلِكَ اسْتِقَامَةُ أُمُورِ مَعَايِشِكُمْ وَتَدْبِيرُ شُؤْنِ حَيَاتِكُمْ كَمَا
قَالَ سُبْحَانَهُ: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ (الأنبياء: ٣٠) .

وَمَا أَشْمُ لَهُ بِخَيْرَيْنِ . أى : بقادرين على إيجاده وإنزاله ، والخزن : اتخاذ الخزائن يستعار للقدرة كما مر ، أو بحافظين له فى أمكنة ينابيعه ، من سهول وجبال وعيون وآبار ، بل هو تعالى وحده الذى حفظه وسلكه ينابيع فى الأرض وجعلنه عذباً ورحم العباد بسقياه .

★ ★ ★

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَيُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَعْرِضِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

المضردات :

ولقد علمنا المستقدمين منكم

ولقد علمنا المستأخرين ، أى : من تقدم ميلاداً وموتا ومن تأخر ، أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد ، أو من تقدم فى الإسلام ومن تأخر .

يَحْشُرُهُمْ : أى : يجمعهم ، والحشر لغة : جمع الناس للحرب ، والحشر هنا يراد به : إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرّق من أجزائهم الأصلية ، ثم جمعهم فى يوم الحشر ويسمى : يوم الجمع .

التفسير :

٢٣ - وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِ وَيُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ .

تأتى هذه الآيات فى سياق الحديث عن جوانب القدرة الإلهية ، فهو سبحانه القادر وحده على إيجاد الحياة فى المخلوقات ، والقادر على سلبها عنها .

جاء فى تفسير ابن عطية :

وإننا نحن نحى من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة ، ونردّه عند البعث من مرقده ميتاً ، ونميت بإزالة الحياة عن كان حياً^(٣٠) .

وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ .

أى : ونحن الباقون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون ، وشبه سبحانه بقاءه بعد زوال كل شئ بالوارث ؛ لأن الوارث ، هو الذى يرث غيره بعد موته ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ . (مريم : ٤٠) .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن: ٢٦، ٢٧) .

جاء فى كتاب تيسير التفسير :

وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ .

الباقون بعد فناء الخلق ، فالإرث مجاز مستعار ، من إرث الميت بمعنى : القيام على تركته ، أو الوارثون ماله بعد أن ملكوه ، وهذا مجاز أيضا ، لا مالك للعالم سواء ، ومن الأول قوله ﷺ : « اللهم ، أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا^(٢٧) .

أى : اجعل ما ذكر ، أو الامتاع باقيا إلى الموت ، أو اجعلها كأنها تبقى بعدنا^(٢٨) .

٢٤- وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ .

أحصى سبحانه كل شئ علما ، فهو سبحانه عالم بالمستقدمين ، أى : كل من مات من لدن آدم عليه السلام ، وهو محيط علما بالمستأخرين ، أى : الأحياء ومن سيأتى بعدهم إلى يوم القيامة .

وقيل : المراد : علمه سبحانه بالمتقدمين للجهاد ، والمتأخرين عنه ، وقيل : المراد : المتقدمين فى صفوف الصلاة والمتأخرين فيها .

ونلاحظ أن هذه كلها أمثلة تُحمل على التمثيل لا على الحصر ، والغرض : أنه تعالى محيط علمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شئ من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه ، بعد الاحتجاج على كمال قدرته .

٢٥- وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

يجمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة للحساب والجزاء .

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . باهر الحكمة ، واسع العلم بجميع خلقه ، عادل فى جزائه .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٣٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٤٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٤٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَمَرَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٥٤﴾﴾

المفردات :

صلصال : طين يابس يُسمع له صلصلة ، أى : صوت إذا نقر .

حملاً : طين تغير واسود من طول مجاورة الماء .

مسنون : مصور مفرغ على هيئة الإنسان .

الجان : هو أبو الجن ، وقيل : هو إبليس ، ويصح أن يراد به : جنس الجن ، وإذا أريد بالإنسان : آدم ،

أريد بالجان : أبو الجن .

نار السموم : هى النار الشديدة الحرارة ، التى تنفذ فى المسام ، فتقتل بحرماً .

بشــــرا : أى : إنسانا ، وسمى بذلك : لظهور بشرته أى : ظاهر جلده .

سويته : أتممت خلقه ، وهيأته لنفخ الروح فيه .

ونفخت فيه من روحي، أفضت عليه من الروح، التي هي خلق من خلقى فصار بشراً حياً .

رجيم : أى : مرجوم بالحجارة ، والمراد هنا : مطرود .

اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط .

يوم الدين : يوم الجزاء .

انظرنى : أمهلنى وأخرنى ولا تمننى .

المنظرين : المهملين ، المؤجلين .

يوم الوقت للعلوم ، وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق .

الإغواء : الإضلال .

قال رب بما أغويتنى : أى : بسبب إغوائك لى ، وإضلالك لى .

لازبن لهم فى الأرض ، لأزبن لذرية آدم المعاصى والآثام .

المخلصين : من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك ، فلا قدرة لى على إغوائه .

هذا صراط على : أى : حق لا بد أن أراعيه .

مستقيم : واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهى : تخلص المخلصين من إغواء الشيطان .

السلطان : التسلط والتصرف بالاغواء .

سبعة أبواب : أى : لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها ، وروى : أن جهنم سبع طبقات ، طبق فوق طبق ،

وأنها دركات بعضها أشد من بعض .

جزء مقسوم : أى : فريق معين مفروز من غيره .

التفسير :

٢٦ - وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .

أى : خلقنا الإنسان من طين يابس ، يسمع له صلصلة ، أى : صوت إذا نقر ، والمراد بالإنسان : آدم عليه السلام ، وقد ذكرت آيات أخرى : أن الإنسان خلق من تراب ، وفى آيات أنه خلق من طين ، وهنا ذكر : أنه خلق من صلصال من حمإ مسنون .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان فى تفسير خمسمائة آية من القرآن الكريم ، وفيها بيان للمتشابه من آيات القرآن : أن هذه الآيات فى مجموعها تشير إلى مراحل الخلق التى مرَّ بها خلق الإنسان ، فالمراحل

الأولى لخلق الإنسان كانت من التراب ، ثم أضيف الماء إلى التراب فصار طينا ، وهذه هي المراحل السابقة ، قال تعالى : **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** . (آل عمران : ٥٩) .

وقال عز شأنه : **إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ** . (ص : ٧١) .

والآية التي معنا تشير إلى المراحل الأخيرة في خلق الإنسان ، وهي مرحلة الخلق من صَلْصَلٍ ، أى : طين يصلصل ويصوّت ؛ إذا نفر أو حرّك ، وإذا ترك الطين فى الماء حتى أنتن واسودّ ، وتغيّر فهو الحمأ المسنون ، وإنما خلقه على ذلك الوضع ؛ ليكون خلقه أعجب ، وأتم فى الدلالة على القدرة .

جاء فى زيادة التفسير من فتح القدير :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ .

هو : آدم ، والصلصال هو : الطين اليابس ، يتصلصل إذا حرّك ، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار .

والحمأ : الطين الأسود المتغير .

والمستون : هو المتغير ، فالتراب لما بلّ صار طينا ، فلما أنتن ؛ صار حمأ مسنونا ، فلما يبس ؛ صار

صلصلا . ا هـ .

وجاء فى التفسير الوسيط :

والمقصود من هذه الآيات الكريمة : التنبيه على عجب صنع الله تعالى ، وعظيم قدرته ، حيث أخرج سبحانه ، من هذه المواد بشرا سويا فى أحسن تقويم^(٣٣) .

وقال النسفى : وفى الأول كان ترابا ، فعجن بالماء طينا ، فمكث ؛ فصار حمأ ، فخلص ؛ فصار سلاله ،

فصوّر ويبس ؛ فصار صلصلا .

٢٧- وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ .

الجانّ للجن كآدم للناس ، أى : خلقنا أبا الجن من قبل آدم ، أو خلقنا جنس الجنّ ، من قبل الإنسان .

من نَارِ السَّمُومِ . أى : نار الريح الحارة التى لها لفع وتقتل من أصابته .

روى مسلم فى صحيحه ٢٢٩٤/٤ : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « خُلِقَتْ

الملائكة من نور ، وخلق الجن من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

وجاء في زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي :

قال ابن مسعود : من نار الريح الحارة ، وهى جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم .

والسموم فى اللغة : الريح الحارة وفيها نار ، قال ابن السائب : وهى نار لا دخان لها .

وروى البخارى ٢٣٨/٦ ، ومسلم ٢١٨٤/٤ ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»^(١) .

٢٨- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مُّسْنُونٍ .

تشير الآية إلى تكريم الإنسان ، وتشريف الملائكة بإخبار الله لهم عن خلق آدم ، وتكليفه لهم بالسجود للإنسان عند اكتمال خلقه ، أى : واذكر أيها الرسول لقومك ، حين نوره ريكم بذكر أبيكم آدم ، فى ملائكته قبل خلقه .

٢٩- فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

أى : إذا عدلت خلقته وأكملتها .

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . أى : وضعت فيه قوة لطيفة السريان ، قوية للتأثير ، بها تتم الحياة ، وإضافة الروح إلى الله تعالى ، إضافة تشريف وتكريم ، مثل : بيت الله ، وناقة الله .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى . وأحييته ، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ ، وإنما هو تمثيل : لتحصيل ما يحيا به فيه .

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

أى : اسقطوا له ساجدين بقصد التعظيم ، وفيه تكريم الله للأصل الإنسانى ، حيث أمر الله الملائكة بالسجود للإنسان ، سجود تحية وتكريم لا سجد عبادة ، وفيه بيان سمو الإنسان بهذه اللطيفة الربانية ، التى أودعها الله فيه ، فإن هو تسامى بروحه وغرائزه ، وامتنع عن الشهوات والمعاصى : صار من الفائحين ، وإن هو سار فى طريق المعاصى ، واستسلم لغرائزه وشهواته : صار من الخاسرين .

قال تعالى : وَنَفَسْ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن

دَسَّاهَا . (الشمس ٧ - ١٠)

والله تعالى حكيم عليم بخلقه ، وهو سبحانه يصطفى من يشاء ويختار ، فقد فَضَّلَ سبحانه الأنبياء على الملائكة ، وامتحن الله الملائكة بالسجود لآدم ، تعريضا لهم للثواب الجزيل ، وبيان لما أودع الله في هذا الإنسان من التكريم ، قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... (الإسراء: ٧٠) .

٣٠ ، ٣١ - فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ .

استجاب الملائكة لأمر الله ، ونجحوا في طاعتهم لأمر خالقهم ، وهم أيضا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وقد سجد الملائكة جميعا من أولهم إلى آخرهم في وقت واحد ، لآدم عليه السلام كما أمرهم الله .

لكن إبليس لم يسجد فقد تكبر وامتنع عن السجود ، زاعما : أنه أفضل من آدم عليه السلام .

٣٢ ، ٣٣ - قَالَ يَتْلُو آيَاتِي مَا لَا تُكُونُ مَعَهُ السَّجُودُ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مُمْسِقٍ .

نادى الخالق سبحانه على إبليس : لماذا لم تسجد كما سجدت الملائكة ؟!

فأجاب إبليس مبينا أسباب عناده وتكبره : بأنه خلق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار أفضل من الطين - في رأيه - فلا يجوز أن يسجد المفضل للمفضّل في رأيه .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . (الأعراف: ١٢) .

وفى هذا ضلال من إبليس : لأن الله هو الذى خلقه من نار ، وهو الذى أمره بالسجود لآدم ، والله أن يكرم من يشاء من مخلوقاته كيف يشاء بما يشاء .

وقال بعض العلماء :

هذا من غرور إبليس ، فالنار خائنة ، والطين أمين ، إذا وضعت النبات فى الأرض: أنبتته ، وإذا وضعت الحب فى النار: أحرقتة ، ثم إن الملائكة خلقت من نور ، وإبليس خلق من نار ، والنور أفضل من النار ، وقد استجابت الملائكة لأمر الله تعالى .

وجاء فى فتح القدير :

قيل : كان من جنس الملائكة ، ولكنه أبى ذلك استكبارا وحسداً لآدم ؛ فحققت عليه كلمة الله .

وقيل: إنه لم يكن من الملائكة، ولكنه كان معهم، فغلب اسم الملائكة عليه، وأمر بما أمروا به، فترك السجود على وجه الرضخ. ا. هـ.

والرأي الراجح: أن إبليس لم يكن من الملائكة، وإنما كان موجودًا بينهم، وقد أمروا جميعًا بالسجود، فسجد الملائكة ولم يسجد إبليس، ثم أصرَّ على معصيته، وادعى: أنه أفضل من آدم، أي: أنه لم يمثل لأمر الله، ولم يستجب لما أمر به، ثم ركب الغرور، فادعى: أنه أفضل من آدم.

وقد صرح القرآن الكريم: بأن إبليس من الجن، قال تعالى: **إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**. (الكهف: ٥٠).

وفى صحيح مسلم ٢٢٩٤/٤: أن رسول الله ﷺ قال: «خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَ الجان من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وصفت لكم»^(٣٩).

وقال الحسن البصري: «والله ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين».

٣٤، ٣٥- قَالَ فَأَخْرُجُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أي: أخرج من الجنة، أو من السماء: فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. أي: مرجوم وملعون ومطرود: لأن من يطرد يرجم بالحجارة، وهذا الطرد واللعن مستمر عليك إلى يوم القيامة.

٣٦- قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

طلب إبليس من ربه أن يمهل، وأن يؤخر موته إلى يوم يبعث آدم وذريته، كأنه طلب ألا يموت أبدًا؛ لأنه إذا أخر موته إلى البعث، فهو يوم لا موت فيه.

٣٧، ٣٨- قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

أي: استجاب الله لإبليس: فأمهله، وأخبره: بأنه من جملة من أخر آجالهم من مخلوقاته.

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

وهو وقت نفخ إسرافيل في الصور، فيموت إبليس كغيره، ويبعثون جميعًا بعد أربعين سنة، قال تعالى: **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**. (الزمر: ٦٨).

قال ابن كثير :

(أجابه الله تعالى إلى ما سأل : لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف) ، ولعل من هذه الحكم : الإشارة إلى أن ناموس الشر ، لا ينقضى من عالم الحياة الدنيا ، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر ، وبين الأخيار والأشرار ، قال تعالى : **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ** . (الأنبياء: ١٨) .

٣٩- **قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** .

أى : أقسم بلغواك إياى : لأزیدن للناس المعاصى والسيئات ، والمنكر والشهوات ؛ حتى يميلوا الحق إلى الهوى ، وعن الرشاد إلى الضلال .

وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . أى : والله لأضلنهم جميعا ، ما دمت قادرا على ذلك ولأعملن على إضلالهم بدون فتور أو يأس .

وفى معنى هذه الآية ، قوله سبحانه : **لَمْ يَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** . (الأعراف: ١٧) .

والآية تصور أمل إبليس فى إضلال الناس ، ورغبته فى تزيين المعاصى لهم ، وفى مقابل ذلك وعد الله سبحانه بالتوبة على التائبين ، وقبول رجوع النادمين ، إلى باب الله التواب الرحيم .

٤٠- **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ** .

أى : إلا من أخلص منهم لطاعتك ، ووفقه لمرضاتك ، فلا قدرة لى على إغوائه .

وقد قرأ نافع وحزمة وعاصم والكسائى بفتح اللام فى **الْمُخَلَصِينَ** .

أى : الذين استخلصتهم واصطفيتهم ، واخترتهم من الناس لعبادتك ، وقرأ ابن كثير : **الْمُخْلِصِينَ** بكسر اللام ، أى : الذين أخلصوا قلوبهم لله ، فهؤلاء يمدهم الله بعونه ومده .

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** . (الأعراف: ٢٠١) .

٤١- **قَالَ هَلْأَ صِرَاعٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ** .

أى : قال الله : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهى :

٤٢- إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ .

أى : ليس لك يا إبليس تصرف أو تسلط على عبادى المخلصين : فهم فى حصن من إيمانهم ، وإخلاصهم لربهم ، وهم فى يقين وقوة تحفظهم من وسوستك ، لكن من اتبعك واختار طريقك : صار أهلاً لغوايتك .

ونلاحظ أن هذه سنة إلهية ، وقاعدة ربانية محكمة ، التزم بها الخالق سبحانه ، وهى : حفظ المتقين ، ورعاية المخلصين ، وتوفير المؤمنين ، فشیطانهم ضعيف هزيل ، عاجز عن استمالتهم ؛ بسبب قوة إيمانهم ، أما ضعاف الإيمان ، وعبيد الشهوات ، ومرضى القلوب ، فهؤلاء أسرى للشيطان ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل: ٩٩ ، ١٠٠) .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . (إبراهيم: ٢٢) .

لقد خلق الله الإنسان ، وزوده بالإرادة والعزيمة ، ويسر له طريق الخير ، وأرشده إلى الاستعانة بالله ، والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، فمن لجأ إلى الله ، واحتتمى بحصنه ؛ فذلك هو المؤمن المخلص ، ومن ضعف عن الحق ؛ سقط فى طريق الرذيلة ، وصار من أتباع الشيطان وقد علمنا القرآن أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، قال تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . (النحل: ٩٨) .

أى : اطلب من الله أن يعينك منه ، وأن يحفظك من وسوسته وإغوائه ، وفى آخر سورة من القرآن الكريم ، نجد قوله تعالى : قُلْ أَغْوَى بِرَبِّ الْإِنْسَانِ * إِنَّهُ الْإِنْسَانِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الْإِنْسَانِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . (الناس: ١-٦) .

٤٣- وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُوعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : إن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، جزاء فسادهم ، وكفاه ما دنسوا به أنفسهم من قبح المعاصى .

٤٤- لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ .

أى : لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم ، وروى : أن النار دركات طبق فوق طبق ، وبعضها أشد من بعض .

لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . أى : لكل جماعة من أتباع إبليس ، باب معين معلوم .

قال ابن كثير : كل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر فى درك بقدر عمله . اهـ .

وجاء فى تفسير ابن عطية :

قيل : إن النار بجملتها سبعة أطباق ، أعلاها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم - وفيه أبو جهل - ثم الهاوية ، وإن فى كل طبق منها بابا ، فالأبواب - على هذا - بعضها فوق بعض ، وعبر فى هذه الآية عن النار جملة : بجهنم : إذ هى أشهر منازلها وأولها ، وهى موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون ، ولهذا ورد : أن جهنم تخرب وتبلى ، وقيل : إن النار أطباق كما ذكرنا ، لكن الأبواب السبعة كلها فى جهنم على خط استواء ، ثم ينزل من كل باب إلى طبقه الذى يفضى إليه ، واختصرت ما ذكر المفسرون فى المسافات بين الأبواب ، وفى هواء النار ، وفى كيفية الحال : إذ هى أقوال كثيرة ، أكثرها لا يستند ، وهى فى حيز الجائز ، والقدرة أعظم منها ، عافانا الله من ناره ، وتغمدنا برحمته وفضله^(١٢) .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الْمُنَاقِبِينَ فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِيلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

المفردات :

المتقون ، هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب من الصغائر ، تكفروا الصلوات وغيرها .

جنتان ، جمع جنة ، وهى : كل بستان ذى شجر متكاثف ، والمراد بها هنا : الدار التى أعدها الله تعالى ؛ لتكريم عباده المؤمنين فى الآخرة .

هيون ، أنهار جارية ، والمقصود بها هنا : المياه المنتشرة فى الجنتان .

بسلام ، أى : سلامة من الآفات ، وأمن من المخافات .

الغسل ، الحقد والضغينة .

السور : جمع سرير وهو المكان المهيأ لراحة الجالس عليه ، وإدخال السرور على قلبه .

متقابلين : لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل يقابل وجهه وجه أخيه .

النصب : الإعياء والتعب .

التفسير :

٤٥ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .

تحدثت الآياتان السابقتان عن جهنم وعذابها ، ومن شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الضالين ، ونعيم المتقين ، فبيّن هنا : أن المتقين في جنات وعيون .

والتقوى : هي : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : التقوى هي : ذوبان الحشا ، لما سبق من الخطا .

وقيل : التقوى هي : ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

ونخلص من ذلك : إلى أن التقوى هي : طاعة الله والتزام أوامره ، وترك ما نهى عنه .

والجنات : هي : البساتين والحدائق ، والمنازل الكريمة ، والعيون هي : عيون الماء والخمر والسلسبيل والتسليم ، وغير ذلك مما ذكر أنه من شراب الجنة^(١) .

قال تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... (محمد: ١٥) .

٤٦ - أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ .

أى : يقال لهم: ادخلوها سالمين من الآفات ، مسلماً عليكم ، آمنين من كل خوف وفزع ، لا تخافون إخراجاً ولا فناء ولا زوالاً .

٤٧ - وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .

أى : أخرج الله ما كان فى صدورهم فى الدنيا من الشحشاء ، أو العداوة والبغضاء ؛ فصاروا إخواناً متحابين ، جالسين على سرر متقابلين ، لا ينظر الواحد منهم إلى ظهر أخيه ، وإنما ينظر إلى وجهه فهم فى رفعة وكرامة .

لقد أكرم الله المتقين فى الدنيا بالمحبة والطهارة والنقاء ، وأخلص قلوبهم من الحسد والبغضاء ، فهم فى الآخرة إخوانا متحابين ، لا تشوب أخوتهم ضغينة أو بغضاء ، وهذا التآخى هو تآخى المصافاة والإخلاص ، وقد منحهم الله التكريم والقبول ، فهم جالسون على أسرة متقابلين يرى كل واحد منهم وجه أخيه .

جاء فى الصحيح :

عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ قال : « يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتصد لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أنن لهم فى دخول الجنة » (٢٨) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر : عن على كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى فيهم : وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .

لقد اجتهد هؤلاء الكرام ، ومرت بهم إحن وقتال ، والله مطلع على نياتهم ، فإذا دخلوا الجنة : طهر الله قلوبهم من التحاسد على الدرجات فى الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التؤاد والتحاب والتصافى ، وقد روى : أن الأسرة تدور بهم حيثما داروا : فهم فى جميع أحوالهم متقابلين ، لا ينظر بعضهم إلى أقفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

٤٨ - لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ .

لا ينالهم التعب ولا المشقة والأذى : لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى والتحصيل ، فجميع ما يشتهونه يجدونه أمامهم ، قال تعالى : وَلِيَهَا مَا تَشْتَهُىهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزخرف: ٧١) .

والخلود فى الجنة خلود أبدى سرمدى دائم ، لا تنغصص فيه ولا زوال ، فهم فى عيشة راضية ممتعتين بالنعيم الأبدى السرمدى ، لا يخافون ، ولا ينزل بهم البؤس ، ولا زوال النعمة ، قال تعالى : أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا . (الرعد: ٢٥) ، وقال سبحانه : إِنَّ هَذَا لَرْزَقْنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ . (ص: ٥٤) ، وقال سبحانه : أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتٍ * إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِيَمِيزَ هَذَا فَلَئِمَّا الْعَمِلُونَ . (الصافات: ٥٨-٦١) .

﴿ نَبِيٍّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٩ ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ٥٠
وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَافِي إِبْرَاهِيمَ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنَّ مَسْنَىٰ الْكَبَرِ فِيمَ
تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُوا بُشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِ ٥٥ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ
رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا الْمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩ إِلَّا أَمْرَانَهُ فَدَرَأْنَا
إِنَّهَا لَمِنَ الْفَكْرِينَ ٦٠ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ ٦٢ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٣ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ
وَأِنَّا أَصْدِقُوقُ ٦٤ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعِ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبَرَهُمْ وَلَا يَلْبِغُ مِنْكُمْ أَحَدٌ
وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ٦٥ وَفَضِينَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَاتُ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُصْبِحِينَ ٦٦ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ٦٧ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ
٦٨ وَانْقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِيَّةِ ٧٠ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ٧١ لَعَنَكَ إِتْمَهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣
فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَاهُمَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ٧٤ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّمَا الْبَسْبِيلُ مَقِيمٌ ٧٦ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأُتُكَّةِ لظَّالِمِينَ ٧٨ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّسِينٍ ٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ٨٠ وَءَايَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ
يُوتُوا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ٨٤ ﴾

المضردات :

نبيــــــــــــئ : أخبر .

ضيف إبراهيم : يطلق على الواحد والجمع ، والأفصح فى كلمة الضيف ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع .

وجــــــــــــلــــــــون : أى : خائفون ، يقال : وجل ، وجل ، وجلأ ، أى : خاف .
فبهم تبشرون : أى : فبأى أعجوبة تبشرونى ؟! وهو تعجب من كبره وكبر امرأته .

الــــــــــــــــانطــــــــــــين : اليائسين ، يقال : قنط ، يقنط ، قنطاً ، وقنوطاً : يئس .

الضــــــــــــــــالــــــــون : الكفار الذين لا يدركون كمال قدرته وسعة رحمته .

فما خطبكم : أى : ما شأنكم وأمركم الذى لأجله أرسلتم ، والخطب هو : الأمر الهام الذى يخاطب فيه الإنسان .
قــــــــــــــــنــــــــرنــــــــنا : أى : قضينا وكتبنا .

الغــــــــــــــــابــــــــرين : أى : الباقين مع الكفرة : للهلاك . يقال : غبر ، يغبر ، غبوراً ، أى : بقى ومضى ، وهو من الأفعال التى لها معنيان متضادان ، وأصله من الغبرة ، وهى بقية اللبن فى الضرع .

مــــــــــــــــنــــــــكــــــــرون : ننكركم ولا نعرفكم .

بما كانوا فيه يمشون ، يشكون من عذاب الله أنه نازل بهم .

فأسرــــــــبــــــــاهــــــــلك : أى : فسر ليلا ، يقال : سرى ، يسرى نهاراً ، أبأ أسرى يسرى إسرائاً فليلا .

يقطع من الليل : ببقية منه ، أو بقطعة منه ، أو بطائفة منه .

واتبع أدبارهم : سر خلف أهلك ، وهم أمامك ، وأدبار : جمع دُبُر أو دُبُر ، وهو مؤخر الإنسان .

ولا يلتفت منكم أحد : وراءه .

وامضوا حيث تؤمرون ، حيث أمرهم الله عز وجل .

وقضينا إليه ذلك الأمر : وأوحينا إليه : أن هؤلاء سيستأصلون ، وهم داخلون فى وقت الصباح .

داــــــــبــــــــــــــــر : آخر .

مــــــــــــــــقــــــــطــــــــوع : مهلك مستأصل ، وقطع الدابر كناية عن الاستئصال .

مــــــــــــــــصــــــــــــــــيــــــــحين : صباح ليلتهم .

وجاء أهل المدينة : مدينة سدوم ، وهم قوم لوط .

يستبشرون ، الاستبشار : إظهار السرور ، أى : يمتئون أنفسهم بأضياف لوط ؛ طمعاً ورغبة فى إتيان المنكر ، وهو اللواط بهؤلاء الأضياف .

ضيئى ، يستعمل فى المفرد والجمع .

فلا تفضحون ، الفضيحة : إظهار ما يوجب العار .

ولا تخزون ، لا تهينونى وتذلونى بالتعرض لضيفى .

أولم ننهك ، أن تضيف أحداً من العالمين .

هؤلاء بناتى ، تزوجوا النساء ، ولا تفعلوا ما حرم الله عليكم .

لعمرك ، وحياتك .

يعمّهون ، يتحIRON ، والعمه للبصرة : كالعمى للبصر .

الصيحة ، صوت مزعج آتبعث من السماء فأهلكهم ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير : أن الصيحة :

الصاعقة ، وكل شئ أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة . اهـ .

مشرقين ، داخلين فى وقت شروق الشمس .

سجيل ، طين متحجر .

للمتوسمين ، أى : المتفكرين المتفرسين ، الذين يعرفون حقيقة الشئ بسمته ، أى : بعلامته .

وإنهـا ، أى : المدينة .

لبسبيل مقيم ، أى : بطريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها .

الأيكة ، غيضة شجر بقرب مدين ، وأصحاب الأيكة : هم قوم شعيب ، وقد كانوا فى مكان كثير

الأشجار ، كثيف الغبار .

وإنهمـا ، أى : مدينة قوم لوط ، ومدينة أصحاب الأيكة .

لبابام مبين ، لبطريق واضح يراهـما الناس .

الحجـر ، واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة : حجرا ،

ومنه حجر الكعبة .

آياتنـا ، هى الناقة ، وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها ، وكثرة شربها .

وكانوا ينحتون من

الجبـال بيوتا آمنين ، قيل : آمنين من عذاب الله .

الصيحة : صوت هائل أعقبه هلاكهم .

مصيحين : حين أصبحوا من اليوم الرابع .

ما كانوا يكسبون : يرتكبون من الأعمال الخبيثة .

تمهيد :

تحدث الآيات على رحمة الله الواسعة ، ومغفرته للتائبين ، وعن عذابه المؤلم للعصاة المذنبين ، ثم فصلت ذلك الوعد والوعيد ؛ فتحدثت عن قصة إبراهيم ، والبشارة له بغلام عليم ، وقصة إهلاك قوم لوط ، بما ارتكبوا من فاحشة اللواط ، حتى صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أترًا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم ، وإهلاك أصحاب الحجر قوم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حول وطول ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ، ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئا ، حين جاء أمره .

التفسير :

٤٩ - نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

أى : أخبر عبادى خبرًا مؤكدًا : بأن الله تعالى هو الْغَفُورُ لمن استغفر وتاب ، الرَّحِيمُ بعباده ؛ حيث قَسَمَ رحمته مائة جزء ، أنزل جزءًا واحدًا فى الدنيا يتراحم به الناس ، وأُخِرَ تسعا وتسعين جزءًا ، يرحم بها عباده فى الآخرة ، كما رواه الشيخان .

٥٠ - وَأَنُغَذِّبِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .

وأخبرهم أيضا : بأن عذابى لمن أصرَّ على المعاصى وأقام عليها ، ولم يتب منها ، هو العذاب الشديد المؤلم ، ونلاحظ أن الله تعالى جمع فى هاتين الآيتين بين التبشير والتحذير ؛ ليعلم العبد على قدمى الرجاء والخوف ، والأمل والعمل ، وقد تحدث القرآن الكريم عن التوبة والاستغفار ، وعن فتح أبواب الرجاء أمام التائبين ، وحارب اليأس والقنوط من رحمة الله .

وبهذا يأخذ القرآن بيد الناس إلى طريق العمل والأمل ، ويحذّرهم من المعصية والجور ، وقد غلب القرآن هنا جانب الرحمة ، حيث بدأ بجانب المغفرة والرحمة ، وأكد ذلك بعدد من المؤكّدات ، وتكلم عن العذاب بتأكيد أقل ، مما يدل على أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه ، وأننا ينبغي أن نعتد فى التربية على التبشير والتشجيع ، وفتح أبواب الرجاء ، ولنا أن نلجأ للعقاب عند الضرورة .

٥١ - وَبَنَيْنَاهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ .

وأخبرهم يا محمد عن ضيوف إبراهيم المكرمين ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط .

٥٢- إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ .

دخل الملائكة على إبراهيم ، فقالوا : سلاماً ، أى : سلمت من الآفات والآلام ، سلاماً ، وكان إبراهيم يكتئب : أبى الضيفان ، فقال إبراهيم للضيوف : إنا خائفون منكم ؛ لأنهم دخلوا بلا إذن ، أو لما رأى أيديهم لا تمتد إلى ما قربه إليهم من الضيافة ، وهو العجل الحنيد ، المشوى بالحجارة المحمأة .

قال تعالى : فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . (هود: ٧٠) .

٥٣- قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : لا تخف ؛ لقد جننا إليك من أجل البشرى بغلام ذى علم وفطنة ، وفهم لدين الله ، وسيكون له شأن ؛ لأنه سيصير نبياً ، ونحو الآية قوله تعالى : وَبَشِّرْنَاهُ بِأَسْحَلٍ نَبِيًّا مِنْ أَلْسَلِهِ . (الصافات: ١١٢) .

٥٤- قَالَ أَتُبَشِّرُنِي بِالْغُلَامِ عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ الْبَشَرِ .

تعجب إبراهيم من هذه البشارة مع كبر سنّه ، فقال مستفهماً فى معنى التعجب : أبشرونى بالولد مع كبر سنّى ، فبأى شئ تبشرون ، وكلمة عَلَىٰ هنا بمعنى : مع ، وَمَسَّنِيَ بمعنى : أصابنى .

فِيمِ تَبَشِّرُونَ . أى : بأى أعجوبة تبشروننى ؟! إذ لا سبيل فى العادة إلى مثل ذلك ، فالعادة أن الشباب والرجال الأقوياء هم الذين ينجبون .

٥٥- قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَلِيلِينَ .

أى : قالت الملائكة لإبراهيم : بشرناك بما هو حق ثابت ، وإننا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاماً .

فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَلِيلِينَ ، اليائسين ، الذين يقنطون ويئسسون من فضل الله ورحمته ، وهو سبحانه على كل شئ قدير ، فقد أوجد الإنسان من تراب ، وهو قادر على إيجاد الإنسان من أى شئ كأبوين عجوزين .

والخلاصة : أنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه ، فاستفهم هذا الاستفهام التعجبى ، المبني على السنن التى أجزاها الله بين عباده ، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله ؛ فهو أجل من ذلك قدراً .

٥٦- قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ .

أى : لا ييأس من رحمة الله ؛ إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله ، الذى لا يخيب من رجاءه .

قال القاسمي في تفسيره :

يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته ، ولكن استبعانا له فى العادة التى أجزاها الله تعالى ، والتصريح برحمة الله فى أحسن مواقعه اهـ .

وقريب من الآية قوله تعالى على لسان يعقوب : **إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** . (يوسف : ٨٧).

٥٧- **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ** .

أى : ما شأنكم وما هو الأمر الجليل الذى جئتم من أجله ، فقد علم إبراهيم عليه السلام ، من سياق حديثهم معه ، أن لهم مهمة جليلة أخرى غير البشرى ، فالبشرى لا تحتاج إلى هذا العدد من الملائكة ، فقد اكتفى بملك واحد ، فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام .

٥٨- **قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ** .

أى : قالت الملائكة : إن الله أرسلنا إلى قوم مجرمين ، أى : كافرين مكذابين من قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب : لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين ، كان ذلك لهلاكهم وإبادتهم .

٥٩- **إِنَّا لَوُطِيٌّ إِنَّا لَمُنَجِّرُهُمْ أَجْمَعِينَ** .

لقد أمرهم الله بإهلاك المجرمين ، الذين يرتكبون المنكر واللواط والشذوذ علنا ، دون تأسف أو ندم . وأمر سبحانه وتعالى بنجاة المؤمنين جميعا ، الذين آمنوا بلوط عليهم السلام ، فهم أهله .

٦٠- **إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ قَدْ رَأَىٰ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيْرِينَ** .

هذا استثناء من الاستثناء ، أى : استثنى المؤمنين ، أتباع لوط من الهلاك ؛ فهم ناجون بإذن الله ، واستثنى من الناجين زوجته ، التى كانت متواطئة مع قومها ، **إِنَّهَا لَمِنَ الْغَيْرِينَ** . أى : الباقين مع الكفرة الهالكين ، وقد أضاف الملائكة التقدير فى قولهم : **قَدْ رَأَىٰ** . إلى أنفسهم ، مع أنه لله تعالى ؛ لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى ، كما يقول خاصة الملك : **دَبَّرْنَا كَذًا** ، وأمرنا بكذا ، أى : دبّرنا بأمر الملك ، وأمرنا بتنفيذ أمر الملك .

٦١ ، ٦٢- **فَلَمَّا جَاءَ لُوطٌ لُّهُمُ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّتَكَبِّرُونَ** .

تبدأ من هنا قصة الملائكة مع لوط عليه السلام ، أى : لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام وبشروه بالولد ، ذهبوا إلى لوط عليه السلام فى قرية سدوم ، فأنكرهم لوط ولم يعرفهم ، وقال لهم : من أى الأقسام أنتم ؟! ولأى غرض جئتم ؟!

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكْرُونَ .

أى : إنكم قوم غير معروفين لىّ ، تنكركم نفسى ، قيل : أنكر حالتهم ، وخاف عليهم من إساءة قومه :
لَمَّا رَأَاهُمْ شَبَانًا مَرَدًا حَسَانَ الرَّجْوَةِ ، وَنَحْوَ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَمَّا جَاءَتْ زُسلْنَا لوطًا سَيِّءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ . (هود: ٧٧) .

٦٣- قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ .

أى : قالت الملائكة لنبىّ الله لوط : لقد جئناك بما يسرك ، وهو عذابهم وهلاكهم ودمارهم ، الذى
كانوا يشكون فى وقوعه بهم .

٦٤- وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

أى : جئناك باليقين والحق الثابت المتيقن .

وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . فيما أخبرناك به .

وفى معنى الآية قوله تعالى : مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ . (الحجر: ٨) .

٦٥- فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَذْبُرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ .

أى : سر بأهلك المؤمنين بعد مضى جزء من الليل ، أو فى آخر الليل ، وَاتَّبِعْ أَذْبُرَهُمْ . أى : كن على
أثَرِهِمْ تَدْوِدِهِمْ ، وتسرع بهم وتطلع على حالهم .

وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ . أى : لا ينظر أحد منكم إلى خلفه : ليرى ما وراءه ، فيرى من الهول ما لا يطيقه ،

أو حتى لا يرق لحالهم ، فى موضع لا تجوز فيه الرقّة .

وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ . أى : حيث أمركم الله .

لقد أمروا بمواصلة السير ، ونهوا عن التوانى والتوقف ؛ ليكون ذلك أقطع للعلائق ، وأحق بالإسراع
لِلوَصُولِ إِلَى الْمَقْصَدِ الْحَقِيقِيِّ ، وهو بلاد الشام .

٦٦- وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ .

أى : أوحينا إليه وحيا مبتوتا مقضيا ، ذَلِكَ الْأَمْرَ ، ثم فصل ذلك الأمر فقال : أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ
مُّصْبِحِينَ .

أى: أن آخر هؤلاء وأولهم مستأصل وقت الصباح ، كقوله تعالى : **إِنْ مَوْعَدُهُمْ أَصْحَحُ أَلَيْسَ الْمُنْعِقُ بِقَرِيبٍ** . (هود: ٨١) .

وتفيد الآية : أنهم يُستأصلون عن آخرهم ، فلا يبقى منهم أحد .

٦٧- **وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ** .

أى : جاء أهل مدينة سدوم ، قوم لوط حين علموا أن ضيوفه صباح الوجوه ؛ مسرورين مستبشرين ، أملين فى ارتكاب المنكر وهو اللواط بهم ، وهذا دليل على فساد ذوقهم وشدة جرمهم ، فإنهم بلغوا درجة كبيرة من الفجور والتبجح ، والإعلان الجماعى عن رغبتهم فى هذا العمل القبيح ، وبدلاً من إكرام الضيف والدفاع عنه ، نجد عندهم الرغبة فى اللواط بهم .

قيل : إن الملائكة كانوا فى غاية الحسن ، واشتهر حالهم حتى وصل إلى قوم لوط ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد اختبار قوم لوط وامتحانهم ، بإرسال ملائكة فى صورة شبان مرد صباح الوجوه ؛ ليظهر مكنون أسرارهم ، وخبايا نفوسهم ، وما يضمرونه من الرغبة الجامحة فى اللواط بهؤلاء الأضياف ؛ ليكون ذلك علة كافية لهلاكهم ، حال كونهم متلبسين بجريمتهم ، أو راغبين فى ارتكاب الفعل الشنعاء .

٦٨- **قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ** .

أى : قال لوط لقومه : إن هؤلاء ضيوفى ، فلا تفضحنى بارتكاب ما يؤدى إلى العار معهم ، والضيف يجب إكرامه ، فإذا قصدتموه بالسوء ؛ كان ذلك إهانة لى .

٦٩- **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنِ** .

أى : وخافوا عقاب الله واحذروا غضبه وعذابه .

وَلَا تُخْزَوْنِ . ولا تذلوني بإذلال ضيفى ، ولا توقعونى فى الخزى والهوان والعار بالإساءة لهم .

٧٠- **قَالُوا أَوْ لَمْ تُنْهَكْ عَنِ الْعَلْيَيْنِ** .

أى : ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا فى أحد من الناس ، إذا قصدناه بالفاحشة ، ونهيناك أن تضف أحداً ، وتوعده بالشر ، وعلى لسانهم ، قال تعالى : **لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ** . (الشعراء: ١٦٧) .

٧١- **قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** .

أى : إن رغبتم قضاء الشهوة ، فانهبوا إلى زواحكتكم ؛ فالنبي أب لقومه ، أو عرض عليهم الزواج من بنتيه .

وفى سورة الأحزاب : آتَى أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجَهُ أَمْهَاتُهُمْ ... (الأحزاب : ٦) .

٧٢- تَعْمَرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى : قال الله لمحمد ﷺ : وحياتك إن قوم لوط فى غوايتهم يتحيرون ، وفى خضوعهم لشهواتهم يعمون عن الهدى ، ويسيرون فى الضلال ، ويجوز أن تكون هذه الآية خطاب من الملائكة لنبى الله لوط ، تخبره : أنهم غلبت عليهم الشهوة والهوى والضلال ، فهم أسرى للغواية ، وهم أهل للعقوبة .

٧٣- فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ .

أى : أسمعهم الله صيحة العذاب المهلكة .

مُشْرِقِينَ . أى : داخلين فى وقت شروق الشمس .

٧٤- فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْفَٰلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ .

أى : جعلنا على المدينة سافلها ، أى : فى أعماقها فانقلبت عليهم ، وأنزل الله عليهم حجارة من طين متحجر طبع بالنار .

لقد مر عذابهم بثلاثة أنواع :

١- الصيحة الهائلة المنكرة .

٢- أنه جعل عاليها سافلها .

٣- أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

٧٥- إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَوِسِمِينَ .

أى : إن فى ما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب ، لدلالات للمفكرين ، الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر ، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصى من عذاب بنيس بما كانوا يفعلون .

وقد روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن ! فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ النبى ﷺ : إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُنْتَوِسِمِينَ ^(٣٤) .

٧٦- وَإِنَّهَا لَبِسِيلٌ مُّجِيمٍ .

أى : وإن هذه المدينة - مدينة سدوم - التى أصابها هذا العذاب لطريق واضح ، لا تخفى على

المسافرين المارين بها ، فأخارها ما تزال باقية إلى اليوم ، فى الطريق من الحجاز إلى الشام ، كما قال تعالى : **وَأَنْتُمْ تَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** . (الصافات: ١٣٧، ١٣٨) .

٧٧- **إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** .

إن فى هذه القصة ، أى : فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطاً وأهله : دلالة وعبرة للمؤمنين المتعظين ؛ إذ هم يعرفون أن ذلك كان انتقاماً من الله تعالى لقوم لوط ، ومعجزة ونجاة لنبى الله لوط ، أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية ، وشئون أرضيه ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ من بعض أجزائها - والمؤمنون يرون أن هذا سبب ظاهر ، وأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وهو على كل شىء قدير .

٧٨- **وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ** .

أى : إن أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ظالمون ، بسبب شركهم بالله وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ؛ فانقم الله منهم بالصيحة والرجفة ، وعذاب يوم الظلة ، جزاء تكذيبهم لنبيهم ، وارتكابهم الموبقات ، والأيكة : الشجر الكثير الملتف .

جاء فى تفسير المراعى :

أخرج ابن مردويه وابن عساكر : عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيباً » .

٧٩- **فَآتَيْنَاهُمُ الْبَرْقَ لَيَالِي سُبْحَانَ** .

أى : انتقم الله من أصحاب الأيكة جزاء ظلمهم وكفرهم ، حيث أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهو إصابتهم بحر شديد سبعة أيام ، لا ظل فيه ، ثم أرسلت عليهم سحابة فجلسوا تحتها ، فأرسل الله عليهم نارا فأحرقتهم ، وأما أهل مدين فقد أخذتهم الصيحة .

وَأَنَّهُمْ لِيَوْمَئِذٍ مُّشِيرُونَ . أى : وإن كلا من قرى قوم لوط ، وبقعة أصحاب الأيكة ؛ لطريق واضح يسلكه الناس فى سفرهم ، ويهتدون به فى سفرهم ، وجعل الطريق إماماً ؛ لأنه يؤم ويتبع ؛ حتى يصل السائر فيه إلى الموضع الذى يريده .

٨٠- **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ** .

يعنى : فمؤد ، كذبوا صالحاً عليه السلام ، ومن كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام ؛ فقد كذب الجميع ؛ لانفاقهم على التوحيد والأصول التى لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار .

والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، معروف يجتازه ركب الحج الشامي .

٨١- وَأَعْيَيْنَهُمْ عَاقِبَتَهُمْ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

وأريناهم آياتنا الدالة على نبوة صالح عليه السلام ، مثل : الناقة التي أخرجها الله من صخرة صماء ؛ بدعاء صالح عليه السلام ، فأعرضوا عنها ، وعقروا الناقة ، وخرجوا عن طاعة الله ، ولم يعتبروا بهذه الآيات البينات .

٨٢- وَكَانُوا يَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا ءَامِينَ .

وكانوا لقوتهم وغنائم ؛ يتخذون لأنفسهم بيوتا فى بطون الجبال ، وهم آمنون مطمئنون ، أو يقطعون الصخر منها ؛ ليتخذوه بيوتا لهم .

وفى جاء هذا المعنى فى الآية ٧٤ من سورة الأعراف قال تعالى : **وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ يَلْدِكُمْ وَتَوَكَّلُوا عَلَى الْآيَاتِ الَّتِي تَنجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نُفِثَ مِنْهَا بِمَاءٍ فَسَاءَ لَكُمْ** .

لقد كانوا فى نعمة ورفاهية ؛ فبنوا القصور الفارحة فى السهل ، والبيوت المنيعة الحصينة ، الآمنة من سطو اللصوص ، أو نهب الناقبين فى الجبال ؛ فوجب عليهم أن يشكروا نعم الله عليهم ، قانعين بهذا الفضل ، وأن يمتنعوا عن الفساد والعدوان .

وقد مر عليه الصلاة والسلام بهذه البيوت ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، فغطى رأسه بثوبه ، وأسرع بدايته ، وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا ؛ خشية أن يصيبكم ما أصابهم ! »^(١) .

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، وجاء فى صفوة التفاسير أيضا :

وَكَانُوا يَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا ءَامِينَ .

أى : كانوا ينقبون الجبال فيبنون فيها بيوتا ، آمنين يحسبون أنها تحميهم من عذاب الله ، وقال الفراء : **ءَامِينَ** أن يقع سققتهم عليهم .

٨٣- فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ .

أى : أهلكهم الله صباحا فى وضع النهار ، عيانا جهاراً ، حيث أخذتهم صيحة الهلاك ، حين كانوا

فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب ، كما جاء فى قوله تعالى : **فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ** . (هود: ٦٥) .

فهلكوا فى ديارهم جاثمين على ركبهم من الهول ، دون أن يغنى عنهم شيئاً ، ما كانوا يكسبون من جمع الأموال ، وما كانوا يصنعونه من نحت البيوت فى الجبال ، وهكذا ضاع تحصنهم فى الجبال ، وأمانهم المزيف ، ومنعتهم بالسهول والجبال ، حين أعرضوا عن هدى السماء : فاستحقوا عقاب الله .

٨٤- **فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** .

أى : فما دفع عنهم ما نزل بهم ما كانوا يكسبون . من نحت البيوت ، وجمع الأموال ، وكثرة الغد ، وجمع الغد ، بل خروا جاثمين هلكى ، حين حل بهم عذاب الله .

★ ★ ★

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

المضردات :

بالحق ، بالعدل والإنصاف ، والحكمة والمصلحة .

الساعة : يوم القيامة .

الصفح : ترك التثريب واللوم .

الصفح الجميل : ما خلا من العتب .

التفسير :

٨٥ - **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** .

تأتى هذه الآية كأنها تعقيب على هلاك السابقين من الأمم السابقة ، فالله تعالى له نواميس كونية ، وقوانين إلهية ، ومن هذه النواميس : خلق الكون كله بالعدل والحكمة والإنصاف والحق ، ومن هذه النواميس : نصر المؤمنين والمرسلين ، وإهلاك المكذبين ، وفى الآية تنبيه إلى التأمل فى هذا الكون بكل ما فيه من السماء والأرض ، **وَمَا بَيْنَهُمَا** ، من الفضاء والهواء والإنسان ، فقد خلق الله هذا الخلق بالحكمة والعدل ، ومن الحكمة والعدل : إثابة الطائع وتعذيب العاصي ، فما أصاب المرسلين من النصر ، وما أصاب المكذبين من الهلاك ، متسق مع قوانين الله العادلة .

وَأَنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ . أَي : لا تأس يا محمد من تكذيب قومك : فالقيامة حق ثابت ، وسوف ينالون جزاءهم العادل فى الآخرة ، فاصفع عنهم ، بلا عتاب ولا لوم، قال تعالى : فَاصْفَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الزخرف: ٨٩) .

وقال تعالى : فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَبِيرٌ . (البقرة: ١٠٩) .

٨٦- إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ .

أى : إن ربك هو الذى رعاك وآواك ، ونصرك وأيدك ، هو كثير الخلق ، كثير العلم : فغوض الأمور إليه، وتذرع بالصفح الجميل والحلم ، فهو سبحانه خالق الكون ، وخالق النفوس ، وهو العليم بطباعها ، فالصفح والعفو من شأنه أن يستعمل الآخرين ، إلى دعوتك ورسالتك ، وقد أثمرت هذه التوجيهات الحكيمة ثمرتها ، ففتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، واستجاب الله دعاء رسوله الأمين حين قال : «اللهم ، اهد قومى : فإنهم لا يعلمون » .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) لَا تَمْدَنَ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْ حَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُسْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعِمْنَا بِكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴿

المفردات :

سبعا من المثاني: أى : سبع آيات وهى : الفاتحة ، وقيل : سبع سور ، وهى : الطوال ، وسابعا الأنفال والتوبة ، والمثاني من التثنية ، فإن كل ذلك تثنى وتكرر قراءته .

أزواجا منهم : أى أشباها ، وأقرانا من الكفار .

ونخضع جناحك للمؤمنين، يراد به: التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه، بسط جناحه له، والجناحان من الإنسان: جانباه.

الندير: المخوف بعقاب الله من لا يؤمن به.

كما أنزلنا على المقتسمين، أي: مثل العذاب الذي أنزلناه على المقتسمين، وهم رجال اقتسموا مداخل مكة أيام الحج؛ لينفروا الناس من الإسلام، وقال الطبري: المقتسمين: اليهود والنصارى، وكان اقتسامهم: أنهم اقتسموا الكتاب فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه.

الذين جعلوا القرآن عضين، فرقا متفرقه مأخوذه من قولك: عضيت الشيء إذا فرقته، فقال بعضهم: سحر، وقال بعضهم: شعر، وقال بعضهم: كهانة، وعنى به اللين جعلوا القرآن عريضين: كفار قريش.

فاصدع بما تؤمر، أي: اجهر بما تؤمر من: صدع بالحجة؛ إذا تكلم بها جهارا.

إن كفييناك المستهزئين، الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ ويسخرون، فأهلكهم الله كلهم يوم بدر.

يضيق صدرك، ينقبض من الحسرة والحرز.

فسبح بحمد ربك، أي: فافزع إلى ربك بالتسبيح والتحميد.

الساجدين: المصلين.

السيقين: الموت، وسمى به؛ لأنه أمر متيقن لا شك فيه.

التفسير:

٨٧ - وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

أي: ولقد أعطيناك وأكرمناك سبع آيات، هي: الفاتحة التي تثنى وتكرر في كل صلاة، وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم. وتسمى الفاتحة: أم القرآن، وأم الشيء أعلاه وأهمه، ومنه: أم القرى، وتسمى: السبع المثاني؛ لأنها سبع آيات تكرر في الصلاة، وقيل: سميت مثاني؛ لأنها قسمان، قسم ثناء على الله، وقسم دعاء له.

وأيضا النصف الأول منها: حق الربوبية، وهو الثناء.

والنصف الثاني: حق العبودية، وهو الدعاء.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدى ما سأل، فإذا قال العبد: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ قال الله تعالى: حمدنى عبدي، وإذا قال العبد: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ؛ قال الله تعالى: أفنى على عبدي، وإذا قال العبد: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ؛ قال الله تعالى: مجدنى

عبدى ، فإذا قال : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ؛ قال الله تعالى : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ؛ قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل «^(٣٨١)» ، أخرجه مسلم .

وقال ابن عباس : السبع المثاني هي: السبع الطوال : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام، والأعراف ، والأنفال والتوبة معا ..

وعطف القرآن على السبع المثاني ، من باب عطف العام على الخاص ، وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم ؛ لمزيد فضلها ، على نحو ما جاء فى قوله تعالى : وَمَلَكُوتِهِ وَسُورِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ . (البقرة: ٩٨) .

٨٨- لَا تَمُدَّنْ عَيْنِيَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

لا تنظر أيها الرسول الكريم إلى ما يتمتع به الأغنياء ، من اليهود والنصارى والمشركين ، من زينة الدنيا وزخرفها ؛ فإن الله قد أعطاك الفاتحة والقرآن العظيم وهما خير عطاء ، والخطاب فى الآية للرسول ﷺ ، والمراد : أمته ، أى : لا تنظروا إلى نعيم الدنيا الذى يتمتع به المشركون واعتزوا بإسلامكم وما معكم من القرآن والإيمان . قال أبو بكر رضى الله عنه : من أوتى القرآن ، فرأى أن أحدا أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ؛ فقد صغر عظيما ، وعظم صغيرا .

جاء فى تفسير القاسمى :

أَزْوَاجًا مِنْهُمْ .

أى : أصنافا من الكفار متمنيا أن تكون مثلهم ، فإنه مستحقر بالنسبة لما أوتيته .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .

أى : لا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا . اهـ .

قال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هَذَا هُمْ . (البقرة: ٢٧٢) ، وقال سبحانه : لَعَلَّكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (الشعراء: ٣) .

وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : تواضع لمن معك من فقراء المؤمنين ، وألن جانبك لمن آمن بك ، واستغن بهم عن إيمان الأغنياء

الأقوياء ، فهذا هو قدرك ومهمتك ، قال تعالى : قَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَسْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ... (آل عمران: ١٥٩) ، وقال سبحانه فى وصف أصحاب النبى ﷺ : أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . (الفتح: ٢٩) ، وقال تعالى : أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . (المائدة: ٥٤) .

٨٩- وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْتَائِبُ الْمُتِمِّنُ .

أى: لجهر برسالتك ، وبلغ دعوتك ، وأند مهمتك قائلاً :

إِنِّي أَنَا الْتَائِبُ الْمُتِمِّنُ . إني منذر الكافرين بالعذاب ، وأنا أأخذ من لم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر.

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

ويتضمن المعنى أيضا : إني أأخذ الكافرين من أهل مكة ، أن يصيبهم ما حل بالأمة المتقدمة المكذبة لرسولها ، وما أحاط بهم من انتقام وعذاب .

جاء فى الصحيحين :

أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قومه ، فقال: يا قوم ، إني رأيت الجيش بعينى ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه ، فأدبوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا . وكذبه طائفة منهم : فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق» (٣٦) .

٩٠- كَمَا أُنزِلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ .

تحمل هذه الآية المعانى الآتية :

١- وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَتَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى : التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء ، فأمنا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما ، أخرج ذلك البخارى وغيره .

٢- المعنى الثاني :

أَن يَتَعَلَّقَ : كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ . بقوله تعالى : وَقُلْ إِنِّي أَنَا أَنذِيرُ الْمُتَمِينُ .

أى : وأنذر قريشا بالعذاب مثل ما أنزلنا على المقتسمين - يعنى : اليهود - وهو ما جرى على قريظة والنضير ، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع ، وهو من الإعجاز ؛ لأنه إخبار بما سيكون ، وقد كان^(٣٢) .

٣- المعنى الثالث :

أى : أنذر الكافرين بالعذاب : كَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى الْمُفْتَسِمِينَ .

أى : مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين ، وهم أصحاب صالح عليه السلام ، الذين تقاسموا بالله : لنبيئته وأمله ، أى : نقلنهم ليلا ، فأخذتهم الصيحة ، فالاققسام من القسم لا من القسمة^(٣٣) .

٤- المعنى الرابع :

أنذر قريشا بعذاب مثل ما أنزلنا على المقتسمين ، وهم : الاثنا عشر ، اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم ، فتعدوا فى كل مدخل متفرقين ؛ لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ ؛ يقول بعضهم : لا تقتروا بالخارج منا ؛ فإنه ساحر ، ويقول الآخر : كذاب ، والآخر : شاعر ، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بأفات ، كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم^(٣٤) .

٩١- الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ .

أى : أجزاء جمع: عضة يعنى: كفار مكة ، قالوا : سحر ، وقالوا : كهانة ، وقالوا : أساطير الأولين .

أو المعنى : الذين جعلوا القرآن أصنافا ، صنف منه سحر ، وصنف منه شعر ، وصنف منه كهانة ، أو آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وعملوا ببعض وتركوا بعضا ، بتواطؤ العلماء والزعماء .

٩٢ ، ٩٣- قَوْمَكَ لَتَسْتَخْلِفَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : فلنستألفن الكفار جميعا ، سؤال توبيخ لهم ، على ما كانوا يقولون ويفعلون ، وسنجازيهم عليهما الجزاء الأوفى ، وعن أبى العالية: يسأل العباد عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين^(٣٥) .

ويمكن أن تكون الآية عامة ، فى سؤال جميع الخلائق عن أعمالهم كبيرها وصغيرها ، جليلها وعظيمها .

روى ابن أبي حاتم : عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معاذ ، إن المرء يسأل يوم القيامة ، عن جميع سعيه : حتَّى كُحِلَ عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينك يوم القيامة ، وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وعن ابن عباس قال: لا يسألهم الله هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول : لم عملتم كذا وكذا؟^(٣٧) .

جاء في تفسير ابن عطية :

وقوله تعالى : قُورَبَكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ضمير عام ، ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه ؛ فالكافر يسأل عن : لا إله إلا الله ، وعن الرسل ، وعن كفره وقصده ، والمؤمن العاصي يسأل عن تضییعه ، والإمام عن رعيته ، وكل مكلف عما كُلف به ، وفي هذا أحاديث^(٣٨) .

٩٤ ، ٩٥ - فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِزِينَ .

أى : اجهر بدعوتك يا محمد ، وبلغ رسالتك علنا ، أو اجهر بصلاتك ، وأعرض عن سفاهات المشركين وسوء أدبهم .

وجاء في تفسير التفسير :

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . لا تبال بما يقولون ولا يهمنك قولهم . ١ هـ .

قال عبد الله بن مسعود : مازال النبي ﷺ مستخفيا بدعوته ، حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه .
إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهِزِينَ .

وهذه الآية كالتعليل لما سبقها ، أى : إن الله هو حارسك وولى أمرك ، وحافظك حين تجهر بالدعوة ، وتعلن على الملأ : أنك رسول الله حقا ، تدعو إلى توحيد الله والتصديق برسوله وباليوم الآخر ، وقد تحقق وعد الله لنبيه ، فأهلك أعداءه من كبار المشركين ، ببوائق من الله أصابتهم ، لم يسع بها محمد ولا تكلف فيها مشقة .

(وقال عروة بن الزبير ، وسعيد بن جبیر : المستهزون خمسة نفر ، الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب أبو زمعة ، والأسود بن يغوث ، والحارث بن قيس)^(٣٩) .

وقد ماتوا جميعا بأهون الأسباب ، وقال قوم : هم سبعة من أشرف قريش ومشركيها ، كانت لهم قوة وشوكة ، وكانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه ، أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف المفسرون في عدد هؤلاء المستهزئين وفي أسمائهم ، ولا حاجة إلى شيء منها ، والقدر المعلوم : أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة ، دبروا الكيد لرسول الله ﷺ فأفناهم الله وأبادهم ، وجعلهم عبرة لكل من يجرؤ على الاستهزاء برسول الله ﷺ^(١٠) .

٩٦- الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

يرى : أن جبريل أوما وأشار إلى كل واحد من هؤلاء المستهزئين : فهلكوا بقدرة الله القدير ، وقد وصفهم الله بأنهم اتخذوا آلهة أخرى ، من دون الله يعبدونها ، فهم لم يقتصروا على الاستهزاء بالنبي ﷺ ، بل تعدوا ذلك إلى عبادة آلهة أخرى غير الله .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

توعدهم الله بعذاب الدنيا ، كما توعدهم بعذاب الآخرة ، أى : فسوف يعلمون عاقبة كفرهم ، حين يحل بهم عذاب ربهم الديوى والأخرى .

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩- وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ .

تأتى هذه الآيات فى ختام السورة ، تصف حال رسول الله ﷺ فى مكة ، وهو بشر ، يحيط به هؤلاء المستهزئون ، من أشراف مكة يتهمونه بالسحر والجنون ، والكهانة والكذب : فيضيق صدره حزنا وألما من كلمات المشركين واستهزائهم ، كما هو دأب الطبيعة البشرية حين يذوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه ، ويجد فى نفسه انقباضا وضيقا فى الصدر ، وأسى وحسرة على ما حل به ، ثم أرشده الله تعالى ، إلى أسباب دفع الهم والحزن فقال :

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . أى : نزه الله تعالى عما يليق به ، وأكثر من ذكره وشكره وحمده وعبادته ، والصلاة له والسجود له سبحانه .

وقد يتساءل الإنسان ، عن العلاقة بين ضيق الصدر وذكر الله والسجود له ؟!

والجواب : أن المؤمن إذا لجأ إلى الله بالذكر والعبادة والثناء عليه والصلاة والسجود له : فإن الله تعالى يشرح صدره وييسر له أمره ويلهمه رشده^(١١) .

قال تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا . (الطلاق: ٤) .

وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر : فزع إلى الصلاة ، روى الإمام أحمد عن ابن عمار : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم ، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار : أكفك آخره » .

وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ .

أى : أخلص فى العبادة والتبتل والطاعة طول عمرك ، حتى يأتيك الموت ، وتلقى الله مؤمنا به متيقنا بوجوده .

وأكثر المفسرين : على أن المراد باليقين هنا : الموت ، أى : اعبد ربك طوال حياتك إلى نهاية عمرك ، وفى هذا دليل على أن العبادة كالصلاة ونحوها ، واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى : عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائما ، فإن لم تستطع : فقاعدا ، فإن لم تستطع : فعلى جنب » ^(١٧) .

وجاء فى تفسير ابن عطية ما يأتى :

وَالْيَقِينُ : الموت ، بذلك فسره هنا ابن عمر ومجاهد وقتادة والحسن وإبن زيد ، وليس اليقين من أسماء الموت ، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل فسماه هنا يقيناً تجوُّزاً ، أى : يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه ، وهذه الغاية معناها : مدة حياتك ، ويحتمل أن يكون المعنى : حتى يأتيك اليقين فى النصر الذى وعدته ^(١٧) .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحجر

- ١- وصف القرآن الكريم .
- ٢- إبراز المصير المخيف الذى ينتظر المكذبين .
- ٣- إقامة الأدلة على وجود الله ، بما نراه من مشاهد الكون فى السماء والأرض ، والجبال ، والنبات، والرياح ، والماء ، والحياة والموت .
- ٤- قصة آدم وإبليس ، ولمحات من قصص الأنبياء ، وإظهار مصير الغاوين فى النهاية والمهتدين.
- ٥- بيان : حال أهل الجنة ، وأهل النار يوم القيامة .
- ٦- الحق الكامن فى خلق السماوات والأرض ، الملبس بالساعة ، وما بعدها من ثواب وعقاب .
- ٧- ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .
- ٨- نهى النبى والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .
- ٩- الدعوة للدين ، والجهر بالدعوة ، وعدم مبالاة المشركين .
- ١٠- التسبيح والعبادة والالتجاء إلى الله فى الشدائد .



تفسير سورة النحل

دروس من سورة النحل

عرض إجمالي للسورة :

سورة النحل سورة مكية ، وعدد آياتها « ١٢٨ » آية ، وهى سورة هادئة الإيقاع ، عادية الجرس ، ولكنها مليئة حافلة ، موضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة ، والإطار الذى تعرض فيه واسع شامل .

وهى كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية ، والوحي والبعث ، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية ، تلم بحقيقة الوحدةانية الكبرى التى تصل بين دين إبراهيم عليه السلام ، ودين محمد ﷺ ، وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال ، وتلم بوظيفة الرسل ، وسنة الله فى المكذبين لهم ، وتلم بموضوع التحليل والتحريم ، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع ، وتلم بالهجرة فى سبيل الله ، وفتنة المسلمين فى دينهم ، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله ثم تضيف إلى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة : العدل والإحسان ، والإنفاق والوفاء بالعهد ، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة ، وهكذا هى مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التى تعالجها .

فأما الإطار الذى تعرض فيه هذه الموضوعات ، والمجال الذى تجرى فيه الأحداث فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض ، والماء الهاطل ، والشجر النامى .. والليل والنهار ، والشمس والقمر والنجوم . والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار ، وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها ، والآخرى بأقدارها ومشاهدها ، وهو الغيب بألوانه وأعماقه فى الأنفس والآفاق .

فى هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير ، حملة هادئة الإيقاع ، ولكنها متعددة الأوتار ، ليست فى جلبة سورة الأنعام وسورة الرعد ، ولكنها فى هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جراحة فى الكيان البشرى ، وتتجه إلى العقل الواعى كما تتجه إلى الوجدان الحساس إنها تخاطب العين : لترى ، والأذن : لتسمع ، واللمس : ليستشعر ، والوجدان : ليتأثر والعقل : ليتدبر ، وتحشد الكون كله : سماء وأرضه ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، وجباله وبحاره ، وفجائه وأنهاره ، وظلاله وأكثافه ، ونبته وثماره ، وحيوانه وطيوره ، كما تحشد دنياه وآخرته ، وأسراره وغيوبه .. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب ، مختلف الإيقاعات التى لا يغلق أمامها إلا القلب الميت ، والعقل المنكوس ، والحس المطموس .

هذه الإيقاعات تتناول التوجيه إلى آيات الله فى الكون وآلائه على الناس ، كما تتناول مشاهد القيامة، وصور الاحتضار ومصارع الغابرين ، تصاحبها اللمسات الوجدانية التى تتسرب إلى أسرار الأنفس، وإلى أحوال البشر وهم أجنة فى البطون ، وهم فى الشباب والهرم والشيخوخة ، وهم فى حالات الضعف والقوة ، وهم فى أحوال النعمة والنقمة ، كذلك تتخذ السورة الأمثال ، والمشاهد ، والحوار ، والقصص الخفيفة، أدوات للعرض والإيضاح .

فأما الظلال العميقة التى تلون جو السورة كله ، فهى : الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق ، وعظمة النعمة ، وعظمة العلم والتدبير .. كلها متداخلة ، فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر لا تلبى ضروراتهم وحدها ، ولكن تلبى أشواقهم كذلك ، فتسد الضرورة، وتتخذ للزينة ، وترتاح بها أبدانهم وتستريح لها نفوسهم ، لعلمهم يشكرون ، ومن ثم تتراءى فى السورة ظلال النعمة، وظلال الشكر ، والتوجيهات إليها : والتعقيب بها فى مقاطع السورة وتضرب عليها الأمثال ، وتعرض لها النماذج وأظهرها نموذج إبراهيم :

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ آتِئْتُهُ وَهَٰذَا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (النحل: ١٢١) .

كل أولئك فى تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار ، والعبارات والإيقاعات ، والقضايا والموضوعات نرجو أن نشاهده فى أثناء استعراضنا لأجزاء السورة .

التوحيد فى السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة تقال كثيرا عندما يحين الأجل ويقف الإنسان عاجزا أمام حوادث القدر، يقول سبحانه :

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (النحل: ١) .

ومن أسباب نزول هذه الآية : أن أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخر . وكلما امتد بهم الأجل ولم ينزل العذاب : زادوا استعجالا ، وزادوا استهزاء واستهتارا ، وحسبوا أن محمدا يخوفهم بما لا وجود له ولا حقيقة : ليؤمنوا له ويستسلموا ، ولم يدركوا حكمة الله فى إمهالهم ورحمته فى إنظارهم ولم يحاولوا تدبر آياته فى الكون ، وآياته فى القرآن .

نعم الله

تسترسل الآيات فى سورة النحل تستعرض نعم الله سبحانه على الإنسان ؛ فتذكر خلق السماوات والأرض والإنسان ، والأنعام والنبات ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والشمس والقمر والنجوم ، وهى ظواهر طبيعية ملموسة ولكننا إذا قرأنا الآيات من ٣ إلى ١٨ فى سورة النحل نجد أننا أمام لوحة كونية معروضة تنتقل بالإنسان من مشهد إلى آخر وكل مشهد يدل على وحدانية الخالق ، ووحدانية المنعم . وتعرض الآيات هذه النعم فوجا وفوجا ومجموعة مجموعة بادئة بخلق السماوات والأرض فيقول سبحانه :

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ . (النحل: ٣) .

فالحق قوام خلقهما والحق قوام تدبيرهما ، والحق عنصر أصيل فى تصريفهما وتصريف فىهما وما فيهما ؛ فما من شئ من ذلك كله عبث ولا جزاف ، إنما كل شئ قائم على الحق وملتبس به وسائر فى النهاية إليه .

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام ، والأنعام المتعارف عليها فى الجزيرة العربية كانت هى : الإبل ، والبقر ، والضأن ، والمعز . وقد أباح الله أكلها أما الخيل ، والبالغ ، والحمير ؛ فللكوكب والزينة ولا تؤكل ، ثم يجىء التعقيب على هذه النعمة يقول سبحانه :

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٨) .

ليظل المجال مفتوحا فى التصور البشرى لتقبل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة . إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها ومقدرات الحياة كلها ، ومن ثم يهيئ القرآن الأذهان لاستقبال كل ما تتمخض عنه القدرة ويتمخض عنه العلم ، ويتمخض عنه المستقبل ، استقباله بالوجدان الدينى المتفتح المستعد لتلقى كل جديد فى عجائب الخلق والعلم والحياة .

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة ، لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان وستجد وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان ، والقرآن يهيئ القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجر حين يقول :

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

والفوج الثانى من آيات الخلق والنعمة ، هو :

إنزال الماء وإنبات النبات والمرعى والزرع التى يأكل منها الإنسان مع الزيتون والنخيل والأعشاب وغيرها من أشجار الثمار .

والفوج الثالث من أفواج الآيات :

تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وكلها ذات أثر حاسم فى حياة الإنسان ومن شاء فليتصور نهاراً بلا ليل أو ليلاً بلا نهار ، ثم يتصور مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات فى هذه الأرض كيف تكون ، كل أولئك طرف من حكمة التدبير ، وتناسق النواميس فى الكون كله . يدركه أصحاب العقول التى تتدبر وتعقل :

إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَلْتَفِتْ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (النحل: ١٢) .

والفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان :

وَمَا ذَرَأَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ . (النحل: ١٣) .

امتن الله على عباده بما خلق لهم فى الأرض من ألوان المنافع ، وبما أودعه فيها للبشر من مختلف المعادن التى تقوم بها حياتهم فى بعض الجهات وفى بعض الأزمان ولفت أنظارهم إلى هذه النخائر المخبوءة فى الأرض ، المودوعة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوماً بعد يوم ، ويستخرجوا كنوزهم فى حينها ووقت الحاجة إليها ، وكما قيل : إن كنزا منها قد نفذ أعقبه كنز آخر غنى ، من رزق الله المدخر للعباد قال تعالى :

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

ثم امتن سبحانه على عباده بالبحر المالح وما يشتمل عليه من صنوف النعم : فمنها : اللحم الطرى من السمك وغيره للطعام ، وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان وغيرها من الأصناف والقواقع .

ومنها : مرور السفن تمخر عباب البحر ، وتيسر المصالح وتبادل المنافع بين الناس قال تعالى :

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تَبْسُوتُهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل: ١٤) .

وعندما ينتهى استعراض النعم يبين القرآن : أن من يخلق ليس كمن لا يخلق وأن نعم الله على الإنسان

لا تعد ولا تحصى .

وَأَنْ تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . (النحل: ١٨) .

وحدة الألوهية

تعرض الآيات من ٢٢ إلى ٥٠ في سورة النحل ، لتقرير وحدة الألوهية فيقول سبحانه :
وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ .

وكل ما سبق في السورة من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم يؤدي إلى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة وهي : أن هذا الكون البديع المنظم لا يحفظ نظامه إلا إله واحد والذين لا يسلمون بهذه الحقيقة : قلوبهم منكروة : فالجود صفة كامنة فيها ، والعلة أصيلة في نفوسهم المريضة ، وطباعهم المعاندة المتكبرة عن الإقرار الإنذاع والتسليم .

وتختتم هذه الآيات بمشهد مؤثر : مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة لله ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة ، والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار وامتلات بالخوف من الله والطاعة لأمره بلا جدال. هذا المشهد الخاشع الطائع يقابل صورة المستكبرين المتكبرة قلوبهم في مفتتح هذه المجموعة من الآيات .

وبين المطلع والختام يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين للحق والقرآن : إذ يزعمون : أنه أساطير الأولين ، ومقولاتهم عن أسباب شركهم بالله وتحريمهم ما لم يحرمه الله : إذ يدعون : أن الله أراد منهم الشر وارتضاه . ومقولاتهم عن البعث والقيامة : إذ يقسمون جهدهم : لا يبعث الله من يموت ، ويتولى الرد على مقولاتهم جميعا ، ويعرض في ذلك مشاهد احتضارهم ومشاهد بعثهم وفيها يتبرعون من تلك المقولات الباطلة كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذبين أمثالهم ويخوفهم أخذ الله في ساعة من ليل أو نهار وهم لا يشعرون وهم في قلوبهم في البلاد ، أو وهم على تخوف وتوقع وانتظار للعذاب .

إلى جوار هذا يعرض صوراً عن مقولات المتقين المؤمنين وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء... وينتهي هذا الدرس بذلك المشهد الخاشع الطائع للظلال والدواب والملائكة في الأرض والسماء والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع – ويوجه إلى حركة الظلال المتغيثة – أي : الراجعة بعد امتداد – وهي حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب في المشاعر والأعماق ، ويرسم المخلوقات داخرة أي : خاضعة خاشعة ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض من دابة ويضيف إلى الحشد الكوني .. الملائكة في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود ، قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ذَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قَوَائِمٍ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (النحل: ٤٩ ، ٥٠) .

أدلة الوحدةانية

تستمر الآيات من ٥١ إلى ٧٦ فى سورة النحل فى إثبات قضية الألوهية الواحدة التى لا تتعدد ، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة المالك ، ووحدة المنعم فى الآيات الثلاث الأولى متواليات وتختتم بمثلين تضربهما للسيد المالك الرازق ، والعبد المملوك الذى لا يقدر على شئ ولا يملك شيئاً .. هل يستون ؟ فكيف يسوى الله المالك الرازق بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق ؛ فيقال : هذا إله وهذا إله ؟ .

وفى خلال هذ الدرس تعرض الآيات نموذجاً بشرياً للناس حين يصيبهم الضر فيجأرون إلى الله وحده، وإذا كشف عنهم الضر راحوا يشركون به غيره .

وتعرض الآيات صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتهما فى تخصيص بعض ما رزقهم الله لألهتهم المدعاة، فى حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكونه على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه وفى نسبة البنات إلى الله على حين يكرهون ولادة البنات لهم : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل: ٥٨) .

وفى الوقت الذى يجعلون الله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدد : بَأْنْ لَهُمُ الْحَسَنَى ، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيراً وهذه الأوهام التى ورثوها من المشركين قبلهم ، هى التى أرسل الرسول ﷺ ، يبين لهم الحقيقة فيها ، وليخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور اليقين ثم تأخذ الآيات فى عرض نماذج من صنع الألوهية الحقّة فى تأملها عظة وعبرة : فإله وحده هو القادر عليها الموجد لها ، وهى هى دلائل الألوهية لا سواها ؛ فإله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها والله يسقى الناس – غير الماء – لبناً سائغاً يخرج من بطون الأنعام من بين فرث ودم ، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب يتخذون منها سكراً ورزقاً حسناً ، والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم تخرج عسلاً فيه شفاء للناس .

اسم السورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل للإشارة إلى الأمر العجيب الدقيق فى شأن النحل فهى تعمل بإلهام من الفطرة التى أودعها إياها الخالق ، وهذا الإلهام لون من الوحي تعمل النحل بمقتضاه وهى تعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقل المفكر سواء فى بناء خلاياها ، أو فى تقسيم العمل بينها ، أو فى طريقة إفرازها للعسل المصفى .

وهى تتخذ بيوتها حسب فطرتها فى الجبال والشجر ، وما يعرشون أى : ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلل الله لها سبل الحياة ، بما أودع فى فطرتها وفى طبيعة الكون حولها من توافق ،

قال تعالى: وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل: ٦٨ ، ٦٩) .

وقد سئل الإمام الشافعي : بم عرفت الله ؟ قال : بالنحلة ؛ نصفها يغسل ونصفها يلسع . وفي الحديث: «المؤمن كالنحلة» أى : أنه خفيف الظل مترفع فى هدفه ، لا يأكل إلا طيبا ، ولا يترك إلا أثرا حسنا ، وإذا وقع على شئ لم يكسره . وتستمر الآيات فى عرض أدلة القدرة الإلهية فتذكر : أن الله يخلق الناس ويتوفاهم ويؤجل بعضهم حتى يشيخ فينسى ما تعلمه ويرتد ساذجا لا يعلم شيئا ، والله فضل بعضهم على بضع فى الرزق . والله جعل لهم من أنفسهم أزواجا ، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ، وهم بعد هذا كله يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا فى السماوات والأرض ، ويجعلون لله الأشباه والأمثال !

هذه اللمسات كلها فى أنفسهم وفيما حولهم ، يوجههم إليها : لعلهم يستشعرون القدرة ، وهى تعمل فى ذواتهم ، وفى طعامهم ، وفى شربهم ، وفى كل شئ حولهم .

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

مظاهر القدرة الإلهية

تحدث الآيات من ٧٧ إلى ٨٩ فى سورة النحل عن مظاهر القدرة الإلهية فتوضح عظمة الخالق وفضي نعمته وإحاطة علمه وتركز الآيات فى هذا الشوط على قضية البعث . والساعة إحدى أسرار الغيب ، الذى يختص الله بعلمه فلا يطلع عليه أحدا .

وموضوعات هذا الدرس تشمل ألوانا من أسرار غيب الله فى السماوات والأرض ، وفى الأنفس والآفاق:

غيب الساعة التى لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر وهى عليه هينة ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ . (النحل: ٧٧) .

وغيب الأرحام والله وحده هو الذى يخرج الأجنة من هذا الغيب لا تعلم شيئا ، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة ؛ لعلهم يشكرون نعمته .

وغيب أسرار الخلق ويعرض منها تسخير الطير فى جو السماء ما يمكنه إلا الله .

يلى هذا الدرس استعراض لبعض نعم الله المادية على الناس وهي بجانب تلك الأسرار وفى جوها ، نعم السكن والهدوء والاستقلال فى البيوت المبنية والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة ، والأثاث والمتاع من الأصواف والأوبار والأشعار .

وتذكر الآيات من نعم الله : الظلال ، والأكنان وهي ما يستقر الإنسان ويغطيه والسرابيل وهي ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد أو درع تقيه بأس الحرب :

كَذَلِكَ يُعِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ . (النحل: ٨١) .

ثم تفصل الآيات أمر البعث فى مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم والرسول شهداء عليهم والرسول ﷺ شهيد على قومه . وبذلك تتم هذه الجولة فى جو البعث والقيامة .

الأوامر والنواهي

تتعرض الآيات من ٩٠ إلى ١١١ فى سورة النحل لشرح بعض أهداف القرآن ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة يرددها الخطباء على المنابر فى نهاية خطبة الجمعة وهي قوله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (النحل: ٩٠) .

وفى هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد ونهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وكلها من مبادئ السلوك الأساسية التى جاء بها القرآن الكريم .

وفى هذا الدرس بيان : الجزاء المقرر لنقض العهد ، واتخاذ الأيمان ؛ للخداع والتضليل ، وهو العذاب العظيم ، والبشرى للذين صبروا ومضاعفة الثواب لهم .

ثم تذكر الآيات : بعض آداب تلاوة القرآن . وهي : الاستعاذة بالله من من الشيطان الرجيم لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم ، كما تذكر بعض أقوال المشركين عن القرآن فمنهم من يرمى الرسول ﷺ بافترائه على الله ومنهم من يقول : إن غلاما أعجميا هو الذى يعلمه هذا القرآن .

وفى نهاية الدرس يبين : جزاء من يكفر بعد إيمانه ، ومن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان . ويبين : جزاء من فتنوا عن دينهم ثم هاجروا وجاهدوا وصبروا . وكل أولئك تبيان وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

وفى الآيات إباحة لمن أكره على الكفر أن ينطق لسانه به ما دام القلب عامر بالإيمان؛ روى ابن جرير بإسناده أن العذاب لما اشتد على عمار بن ياسر؛ نطق ببعض ما أرادوا، ثم شكّا ذلك إلى النبي ﷺ؛ فقال له النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: «مطمئنا بالإيمان» قال النبي: «إن عادوا فعد» فكانت رخصة في مثل هذه الحال.

وقد أبى بعض المسلمين أن يظهروا الكفر بلسانهم مؤثرين الموت على لقطة باللسان كذلك صنعت سمية أم عمار بن ياسر، وهى تُطعن بالحربة فى موضع العفة حتى تموت، وكذلك صنع أبوه ياسر.

وقد كان بلال رضوان الله عليه يعذب أشد العذاب حتى لتوضع الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويطلب منه أن ينطق بكلمة الشرك فيأبى وهو يقول: أحد أحد.

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

ختم سورة النحل

يتحدث الربع الأخير فى سورة النحل عن مثل ضربه الله؛ لتصوير حال مكة وقومها المشركين الذين جحدوا نعمة الله عليهم؛ لينظروا المصير الذى يتهددهم من خلال المثل الذى يضربه لهم، حين يقول سبحانه:

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل: ١١٢).

وهى حال أشبه شئ بحال مكة؛ جعل الله فيها البيت، وجعلها بلدا حراما من دخله فهو آمن مطمئن لا تمتد إليه يد ولو كان قاتلا، ولا يجرؤ أحد على إيذائه وهو فى جوار بيت الله الكريم، وكان الناس يتخطفون من حول البيت وأهل مكة فى حراسته وحمايته آمنون مطمئنون، كذلك كان رزقهم يأتيهم هينا هنيئا من كل مكان من الحجيج ومع القوافل الآمنة مع أنهم فى واد قفر جذب غير ذى زرع، فكانت تجبى إليهم ثمرات كل شئ فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد منذ دعوة إبراهيم الخليل، فإذا كذب أهل مكة بدعوة محمد وجحدوا رسالته؛ استحقوا العقاب، والعذاب، ولباس الجوع والخوف؛ جزاء كفرهم وعنادهم.

ثم ينتقل السياق بهم إلى الطيبات التى حرمتها قبائل مكة على أنفسهم اتباعا لأوهام الوثنية، وقد أحلها الله لهم، وحدد المحرمات وبينها وليست هذه منها وذلك لون من الكفر بنعمة الله وعدم القيام بشكرها يتهددهم بالعذاب الأليم من أجله، وهو افتراء على الله لم ينزل به شريعة.

وبمناسبة ما حرم على المسلمين من الخبائث ، يشير إلى ما حرم على اليهود من الطيبات بسبب ظلمهم . وقد جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم . ولم يكن محرما على آبائهم في عهد إبراهيم الذي كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يكن من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم . فكانت حلالا له الطيبات ولبنينه من بعده حتى حرم الله بعضها على اليهود في صورة عقوبة لهم خاصة ، ومن تاب من بعد جهالته فإن الله غفور رحيم .

ثم جاء دين محمد ﷺ امتدادا واتباعا لدين إبراهيم ؛ فعادت الطيبات كلها حلالا وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد ، فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه ، ففريق كف عن الصيد وفريق تقص عهده ؛ فمسخه الله وانتكس عن مستوى الإنسانية .

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر إلى الرسول ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، وأن يلتزم قاعدة العدل فى رد الاعتداء بمثله دون تجاوز .. والصبر والعفو خير ، والعاقبة بعد ذلك للمتقين المحسنين ؛ لأن الله معهم ينصرهم ويرعاهم ويهديهم طريق الخير والفلاح .

وفى أسباب نزول القرآن : أن الآيات الأخيرة من سورة النحل نزلت فى حمزة بن عبد المطلب حين استشهد فى غزوة أحد . وفى هذه الغزوة مثل المشركون بالمسلمين فبقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم وما تركوا أحدا غير ممثل به غير حنظلة بن الراهب ، كان الراهب أبو عامر مع أبى سفيان فتركوا حنظلة لذلك، ثم وقف رسول الله على جثة حمزة وقد مثل به فرأه مبقور البطن ؛ فقال : « أما الذى أحلف به ، إن أظفرننى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك ! » فنزل قوله تعالى :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . (النحل: ١٢٦) .

ولما نزلت هذه الآية ؛ كفر النبى عن يمينه وكف عما أراه ، ومن هذا ذهبوا إلى أن خواتيم سورة النحل مدنية ، ولا خلاف فى تحريم المثلة وقد وردت الأخبار بالنهاى عنها حتى بالكلب العقور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَنَّهُ أَمْرٌ لِلَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾

المضردات :

أتى أمر الله : قرب ودنا ، وهذا وعيد للمشركين .

أمر الله : العذاب والهلاك لهؤلاء المشركين .

الروح : الوحي والرحمة .

من أمره : بأمره ومن أجله .

على من يشاء من عباده : الذين اصطفاهم للرسالة .

إن أنذروا : أى : خوفوا عبادى سطوتى وعقوبتى لهم على كفرهم .

أنه لا إله إلا أنا : لا إله إلا هو سبحانه ، ولا تصلح الألوهية إلا له .

فاتقون : أى : خافوا عقابى : لمخالفة أمرى وعبادة غيرى .

تفهيد :

كان رسول الله ﷺ يخوف المشركين بعذاب الدنيا تارة ، وبعذاب الآخرة تارة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا ذلك : احتجوا وكذبوا رسول الله ﷺ ، وقالوا : أين العذاب الذى وعدتنا بوقوعه ؟ وقد حكى القرآن ذلك عنهم فقال :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (العنكبوت: ٥٣) .

وقال سبحانه : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (يونس: ٤٨) .

وقد حكى القرآن عنهم قولهم :

وَإِذْ قَالُوا آلَهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا بَعْدَابٌ أَلَيْمٌ . (الأنفال: ٣٢)

وقد بين القرآن : أن الله نواميس وسننا فى إنزال العذاب بالناس ، وفى تأجيل عقوبتهم إلى حين ، قال تعالى : وَلَوْ يُرَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ لَّيُزَكِّيَهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى . (النحل: ٦١) .

جاء فى كتب التفسير ما يأتى :

روى : أنه لما نزل قوله تعالى : اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . (القمر: ١) .

قال الكفار فيما بينهم : إن هذا يزعم : أن القيامة قد قربت فأمسكوا عن بعض ما تعملون ؛ حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت ؛ قالوا ما نرى شيئا مما تخوفنا به ؛ فنزل قوله تعالى : اقْرَبِ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ . (الأنبياء : ١) ؛ فأشفقوا وانتظروا يومها ، فلما امتدت الأيام ؛ قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئا مما تخوفنا به ؛ فنزل قوله تعالى : آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ؛ فوثب رسول الله ﷺ ، ورفع الناس رءوسهم ، فنزل قوله تعالى : فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .

والحاصل : أنه عليه السلام لما أكثر من تهديدهم بعذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة ، ولم يروا شيئا نسبوه إلى الكذب ، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله : آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ^(١) .

التفسير :

١- آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ...

أى : قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ ، وقضائه الغالب على كل شىء ، فهو يأتى فى الحين الذى قدره وقضاه .

ومعنى قوله : فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ، لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدر فى علمه تعالى ؛ فله سنن ونواميس فى إنزال العذاب ، وهو سبحانه لا يعجل لعجلة العباد ، وكل شىء عنده بمقدار .

سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

ادعوا : أن عبادتهم الأصنام لتشفع لهم عند الله ؛ حتى يتخلصوا من هذا العذاب المتوقع ؛ فأجاب القرآن عن هذه الشبهة ، بختريه الله عن شركة الشركاء والأنداد .

قال الفخر الرازى :

عَمَّا يُشْرِكُونَ . يجوز أن تكون ما مصدرية ، والتقدير : سبحانه وتعالى عن شركهم ، ويجوز أن تكون

بمعنى: الذى، أى: سبحانه وتعالى عن هذه الأصنام، التى جعلوها شركاء لله: لأنها جمادات خسيسة، فأتى مناسبة بينها وبين خالق الكائنات، ومدبر الأرض والسموات؟

٢- يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ .

سبحانه وتعالى ينزل الملائكة بالوحي والقرآن، وهو روح القلوب وحياتها، ينزل هذا الوحي بأمره وإرادته، على من يصطفيه من الأنبياء والمرسلين، وهو سبحانه يختارهم بمعرفته وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ .

أى: أنذروا عبادى: أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغى الألوهية إلا له، ولا يصح أن يعبد شيء سواه، فاحذروه وأخلصوا له العبادة .

ويطلق الروح على جبريل عليه السلام، وهو أمين الوحي، ويطلق أيضا على القرآن الكريم .

قال تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) .

وقال عز شأنه: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا . (الشورى: ٥٢) .

وفى الآية إشارة إلى أن الوحي من الله تعالى إلى أنبيائه، لا يكون إلا بواسطة الملائكة، وفى آخر سورة البقرة آيتان من قرأهما فى ليلة: كفتاه، أى: كانتا له كفاية وحفظا من كل سوء، وفيهما يبدأ الإيمان بالله، ثم بالملائكة الذين يحملون وحى السماء، ثم بالكتب المنزلة من الله، كالتوراة والإنجيل والزيور والقرآن، ثم بالرسال الذين نزلت عليهم هذه الكتب .

قال تعالى: ءَامِنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنٌ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يَكْفُلُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ رَحْمَتَنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . (البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦) .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) خَلَقَ
 الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا
 دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ
 تُسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أُنْفُسَ كُمُ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا سِيقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ
 رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَلَخَيْلٌ وَأَنْعَالٌ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةٌ وَيَخْتَلِفُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
 تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ
 وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
 يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَاكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
 وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
 مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ
 تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَمَنَّا بِمَا يَلْعَبُ هُمْ
 يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

المفردات :

من نطفة : أصل النطفة: الماء القليل ، والمراد بها هنا : مادة التلقيح ، أى : ماء الرجل عند اختلاطه
 بماء المرأة .

خصييم : أى : مخاصم مجادل ، قال الطبرى: **خَصِيْمٌ مِّينٌ** : يبين عن خصومته بمنطقه ، ويجادل بلسانه ، وعنى بالإنسان هنا : جميع الناس .

الأنعام : هى : الإبل والغنم والبقر ، ولا يقال لها : أنعام إلا إذا كان معها الإبل .
دفاء : ما يُستدْفَأُ به من الأكسية .

ومنافع : مركب ولبن ولحم ، والحرث بها ، وحملها الماء ، ونحو ذلك .

جممال : زينة في أعين الناس ، وعظمة لديهم .

حين تريحون : حين تردونها بالعشى من مسارحها ، إلى مرايحها ومباركها التى تأوى إليها .

وحين تسرحون : أى : حين تخرجونها بالغداة إلى مسارحها ومرايحها .

الأثقال : واحدها : ثقل وهو متاع المسافر .

شق الأنفس : مشقتها وتعبها .

وعلى الله قصد السبيل، أى : وعليه السبيل القصد ، أى : المعتدل ، فإن قصد ، يقصد ، قصداً ، أى : استقام واعتدل ، ومنه الاقتصاد ، أى : الاعتدال والتوسط ، جاء فى تفسير المراعى : يقال: سبيل قصد وقاصد ، إذا أدّك إلى مطلوبك .

ومنها جاشر : أى : ومن السبل مائل عن المحجة ، منحرف عن الحق .

تسيمون : ترعون ماشيتكم .

ذراً : خلق ، يقال : ذراً يذراً .

أنوائه : أصنافه .

يذكرون : يتذكرون أن اختلافها فى الأنواع والصور والخواص لا يكون إلا بإرادة خالق حكيم .

الفضلك : السفينة ، وهذا اللفظ يستوى فى المفرد والجمع .

مواخر : جمع ماخرة أى : جارية فى الماء ، وأصل المخر شق الماء ، يقال : مخرت السفن ، تمخر مخرأ ، أى : جرت شاقة الماء .

ولتبتغوا : أى : ولتطلبوا .

رواسى : جمع راسية وراس ، وهى : الثوابت فى الأرض من الجبال .

أن تقيس بكم : يعنى : لنلا تميد بكم ، والميد : هو الحركة والاضطراب يمينا وشمالا .

سببلا : طرقا .

علامات ، أى : معالم الطرق بالنهار ، وكل علامة يستدل بها على الطريق من الجبال والقفاج وغيرها داخلة فيها .

محتوى الآيات :

تأتى هذه الآيات فى مقام الرد على المشركين ، الذين عبدوا الأصنام ، راغبين فى شفاعتهم ، فبين القرآن لهم فى هذه الآيات : طائفة من أنعم الله على عباده ، فى خلق الكون ، وخلق الإنسان ، ثم فى تسخير الأنعام له للركوب ، والأكل واللبن والزينة ... ، ثم فى إنزال الماء وإنبات النبات ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبحار ، والجبال ، والنجوم ، وسائر النعم .

التفسير :

٣- خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تبتدئ هذه الآيات بذكر : أدلة القدرة ، وقد بُدئت بذكر الأشرف فالأشرف ، ذكر هنا السماوات ، ثم ثنى بالإنسان ، ثم ثلث بأحوال الحيوان ، ثم رُبِعَ بذكر أحوال النبات .. إلخ .

ومعنى الآية :

خلق الله السماوات وما فيها من أفلاك وأبراج ، وخلق الأرض وما عليها من جبال وأنهار ونبات ونجاج ...

بِالْحَقِّ . أى : على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقها عبثاً ، وقد أوجدهما على أقدار وصور وأوضاع ، وخواص مختلفة قدرها بحكمته ، ولم يشركه فى إنشائها وإحداثها شريك ، ولم يعنه على ذلك معين .

تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه سبحانه وتعالى عما يشركونهم معه فى الملك : إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السماوات والأرض ، فلا تليق العبادة إلا له .

٤- خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .

خلق الإنسان من نطفة ، أى : من ماء مهين ، خلقاً عجبا فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا ، وجعل له السمع والبصر والقوة والإدراك والعقل ، وتدرج من الضعف إلى الشباب والقوة ، ومن القوة إلى الضعف والشيخوخة : حتى يتأمل فى خلقه ، ويستدل بذلك على قدرة الخالق المبدع ، القادر على إعادته عند البعث للحساب والجزاء .

بيد أن الإنسان المخلوق يكابر ويجادل ، ويقول : مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ . (يس : ٧٨) .

فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .

إذا به مخاصم عنيف ينكر وجود خالقه ، ويكذب رسله ، ويعمل على صد الناس عن اتباعهم ، وروح الآية تشير إلى موقف كفار مكة ، وإنكارهم للبعث ، وترشدهم إلى أن الإيمان بالله هو الذى ينقى أرواحهم ، ويرشدها إلى حكمة الحكيم ، وإلى قدرة الخالق العظيم ، سبحانه وتعالى .

٥- وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

امتن الله على عباده بما خلق من الحيوانات ، وفى سورة الأنعام ذكر سبحانه : ثمانية أزواج ، هى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والمعز .

من الإبل اثنين هما : الجمل ، والناقة .

ومن البقر اثنين هما : الثور ، والبقر .

ومن الغنم اثنين هما : الكبش ، والشاة .

ومن المعز اثنين هما : التيس ، والمعز .

والإنسان يستفيد بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ، ويتخذ منها أكسية تدفئة وتستر عورته ، وينتفع بلحومها وألبانها ، ويستفيد بها فى حرث الأرض وسقيها ، ويأكل من لحومها .
وانتصب الأنعام بفعل مقدر يفسره المذكور بعده ، أى : وخلق الأنعام خلقها لكم .

ومعنى الآية : ومن مظاهر قدرته ونعمه عليكم : أن خلق لكم الأنعام ، وجعل لكم فيها ما تستدفنون به من الثياب المأخوذة من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، فتقيكم برودة الجو ، وجعل لكم فيها منافع متعددة ؛ بالبيع والاستفادة بألبانها ولحومها وزينتها ، وسائر المنافع الأخرى ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :
وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَبِّحُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . (المؤمنون: ٢١) .

٦- وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تَرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ .

للأنعام فوائد أساسية ، وهى : الأكل ، والدفاء ، وشرب اللبن ، والاستفادة بها فى السقى والحرث ، وغير ذلك من المنافع ، وهناك منافع فرعية هى : جمال هذه الحيوانات ، حين تعود من مراعيها ، وقد امتلأت ضروعها باللبن ، وامتلأت بطونها بالطعام ، وتحركت فى منظر جميل مع رعاتها ، وكذلك فى الصباح حين تذهب إلى مسارحها ومراعيها ، وقدم الرواح فى العشى على التحرك إلى المسارح فى الصباح لأنها تعود وهى فى قمة جمالها حين تمتلئ بطونها بالطعام ، وضروعها باللبن ، وفى الصباح تذهب خاوية البطون ، خاوية الضروع .

٧- وَيَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ .

أى : وتحمل أحمالكم الثقيلة ، وأمتعتكم التى تعجزون عن حملها ، إلى بلد بعيد لم تكونوا : لتصلوا إليه بدونها ، إلا بعد تعب شديد وجهد مضمّن .

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ .

أى : ربكم لعظيم الرأفة والرحمة بكم : حيث لم يترككم تحملون أنفالكم بأنفسكم ، وتقطعون المسافات الطويلة على أرجلكم ، بل أوجد هذه الأنعام : لمنافعكم ومصالحكم .

٨- وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : وخلق الخيل والبغال والحمير ، للحمل والركوب ، وهى كذلك زينة وجمال^(١٤) .

جاء فى حاشية الجمل :

والخيل : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، بل من معناه ، وهو فرس ، وسميت خيلا : لاختياليها فى مشيتها، والبغال : جمع بغل وهو المتولد بين الخيل والحمير .

والزينة : اسم لما يتزين به الإنسان ، والله تعالى يمتن على عباده بهذه النعمة ، فالجمال المتمثل فى الزينة - عنصر له قيمة - وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات ، من طعام وشراب وركوب ، بل تلبية الأشواق الزائدة عن الضرورات ، تلبية حاسة الجمال ، ووجدان الفرح ، والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان .

قال القرطبي فى تفسيره :

هذا الجمال والتزين وإن كان من متاع الدنيا ، إلا أن الله تعالى ، أذن به لعباده ، ففى الحديث الشريف : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخيل فى نواصيها الخير »^(١٥) . خرجه البرقانى ، وابن ماجه فى السنن .

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

أى : من وسائل المواصلات والحمل والركوب ، مالم يكن يعلمه السابقون ، وسيخلق أشياء لا نعلمها نحن ، وقد وجدت بعد نزول هذه الآية الغواصات التى تمخر عباب الماء ، والأساطيل البحرية للصيد والسياحة والحرب ، ووجدت السيارات والدبابات والمدركات ، والناقلات العملاقة ، والقاطرات والطائرات وغيرها ، والقرآن بذلك يهيب القلوب والأذهان للاستفادة من كل جديد . واستغلال التقدم العلمى ، ووسائل

التقنية والاختراع ، وتحديث العقل والعلم والصناعة والزراعة : حتى تظل الأمة قوية عزيزه الجانب ، قال تعالى : **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** . (الأنفال: ٦٠) .

والقوة تقدر فى كل زمان بقدرها ، كانت القوة فى الرمى ، وتطورت إلى استخدام المدفع والدبابة والقنّاصة والطائرة والبارجة ، ولا يتم النصر إلا بتطور السلام : ليكون فى قوة سلاح الخصم أو يزيد ، ومن قواعد أصول الفقه : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وحتى لا يقول بعض الناس : إنما استخدم آباءنا الأنعام والخيول والبغال والحمير ، فلا نستخدم سواها ، وإنما نصّ القرآن على هذه الأصناف فلا نستخدم ما عداها : فإن القرآن الكريم قد هبأ الأذهان والقلوب ، للاستفادة من كل نافع ومفيد حين قال : **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** .^(١٩) .

٩- **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** .

القصد : الاستقامة ، والسَّبِيل : الطريق ، وقصد السبيل على تقدير مضاف ، أى : وعلى الله بيان : الطريق المستقيم ، وهو طريق الإسلام .

وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف : فالله سبحانه بحكمته العالية ، بين للناس : الطريق المستقيم ، وهو طريق الهدى وطاعة الرحمان ، واتباع الإسلام ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ومن السبل والطرق طرق جائزة مائلة عن الاستقامة منحرفة عن الجاده ، وهى كل طريق تخالف ما جاء به خاتم الرسل ﷺ من عقائد وشرائع وأداب ، فالطريق القصد المستقيم ، يوصل إلى الإسلام ، والطريق الجائر المنحرف ، يوصل إلى الكفر والضلال ، وفى هذا المعنى قال تعالى : **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ** . (الأنعام: ١٥٣) .

وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .

لو أراد الله تعالى أن يهديكم جميعا إلى الإسلام لهداكم ، أى : لأجبركم على الهدى كالملائكة ، وهم عباد مكرمون ، **لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** . (التحريم: ٦) .

لكنه أراد سبحانه أن يخلق للإنسان العقل والإرادة والاختيار ، وحرية الفكر والتصرف ، فمن اختار طريق الهدى : أعانه عليه ، ويسره له ، وأمدّه بالمعونة والتوفيق ، ومن اختار طريق الضلال والانحراف ، وأثر الهوى على الهدى : تركه الله ضالا متحيرا ، وبذلك تكون هناك عدالة الجزاء يوم القيامة ، قال تعالى :

فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات: ٣٧-٤١) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ... (يونس: ٩٩) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ... (هود: ١١٨ ، ١١٩) .

وقال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢ ، ٣) .

١٠- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ .

تستمر هذه الآيات فى بيان : نعم الله تعالى على عباده ، أى : إن الذى أنعم عليكم بالنعيم السابقة ، وسخر لكم الأنعام والخيول وسائر البهائم لمنافعكم ، هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه ، وتسقون أشجاركم وزروعكم ، التى تسمون فيها أنعامكم ، وفيها ترعى حيواناتكم وماشيتكم .

قال الفخر الرازى :

والحاصل : أن ماء المطر قسمان :

أحدهما : هو الذى جعله الله شرابا لنا ولكل حى ، وهو المراد بقوله : لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ . وقد بين الله تعالى فى آية أخرى : أن هذه النعمة جليلة فقال : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . (الأنبياء: ٣٠) .

والقسم الثانى : من المياه النازلة من السماء ما يجعله الله سببا لتكوين النبات ، وإليه الإشارة بقوله : وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . والمراد من الشجر : الكلا والعشب .

قال الزجاج : كل ما ثبت على الأرض فهو شجر ، وقال ابن قتيبة فى هذه الآية ، المراد من الشجر : الكلا ، وقيل : إن الإبل تقدر على رعى ورق الأشجار الكبار . اهـ .

ويمكن أن يطلق الشجر على الأشجار والنباتات ، وأتى سبحانه بلفظ فى المفيدة للظرفية ، فى قوله تعالى : فِيهِ تُسِيمُونَ ؛ للإشارة إلى أن الرعى فى هذا الشجر ، قد يكون عن طريق أكل ما تحته من الأعشاب والمرعى .

١١- يُبْنِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ .

أى : يبنيت لكم بماء المطر الزرع . كالقمح والشعير ، والذرة والبقول والعدس ، وغير ذلك من الأغذية .

وَالزَّيْتُونَ . الذى تستعملونه إداما فى أغذيتكم .

وَالنَّخِيلَ . الذى يخرج التمر بأنواعه ، وَالْأَعْنَابَ . التى تتلذذون بها ، وفى العنب غذاء وفاكهة وتنعم .

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . التى تشتهونها وتتفجعون بها ، والتى تختلف فى أنواعها ، وفى مذاقها ، وفى روائحها ، وفى ألوانها ، مع أن الماء الذى سقيت به واحد ، والأرض التى نبتت فيها متجاورة .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : إن فيما ذكر من إنزال الماء ، وإنبات أصناف الزروع والنخيل ، والأعنان والثمار ، على اختلاف أنواعها وألوانها وأحجامها ، لدلائل على قدرة إله قادر ، قد أكمل نظام هذا الكون ، وسخر الشمس والقمر والليل والنهار ، والهواء والتراب والماء ؛ حتى يتكامل نظام الكون ، ويتيسر لهذا النبات النمو والنضج ، وإفادة الإنسان والحيوان .

فمن فكر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض ، وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أسفلها ، فيخرج منه عروق تنبسط فى أعماق الأرض ، ويخرج منها ساق ينمو ، وتخرج فيه الأوراق والأزهار ، والحبوب والثمار المختلفة الأشكال ، والألوان والخواص ؛ علم أن من هذه آثاره ؛ لا يمكن أن يشبهه شيء فى صفاته كماله ، فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته ، وهى الألوهية واستحقاق العبادة^(١) .

وقد امتنَّ الله سبحانه وتعالى بنعمة إنبات النبات ونموه ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وتفضله على الإنسان بإنزال الماء ، وإنبات الزروع والثمار ، متاعا للإنسان والحيوان ، فى كثير من الآيات .

قال تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلَبًا * وَفَلَكْهَةً وَأَبْنًا * مَتَلَعَا لَكُمُ اللَّعْمِكُمْ . (عيس: ٢٤-٣٢) .

وقال تعالى : أَمْ نَخْلِقُ السَّمَرَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُشْبِعُوا شَجَرَهَا أَوْ أَلْنَاهُ مَعَ اللَّيْلِ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُّونَ . (النمل: ٦٠) .

وقال سبحانه: وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَدِّدَاتٌ وَجِئَتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. (الرعد: ٤).

١٢- وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

لقد سخر الله للإنسان هذا الكون كله ، ويسر له الانتفاع بكل ما فيه ، فالليل من أجل النوم والراحة ، والنهار من أجل السعي والعمل ، والشمس تمد الكون بالطاقة ، والقمر ينير الليل ويبدد ظلمته ، والنجوم مسخرات بأمر الله وإرادته ، فهي زينة للسماء ، وهداية للسائرين بالليل ، ورجوماً للشياطين ، فمن تفكر بعقله : أدرك أن وراء هذا الكون البديع ، يداً حانية تمسك بنظامه ، وتحفظ توازنه .

قال الشوكاني في فتح القدير :

تسخير الشمس والقمر ، تصييرهما نافعين لهم ، بحسب ما تقتضيه مصالحهم ، يتعاقبان دائماً ، كالعبد الطائع لسيده لا يخالف ما يأمره به ، ولا يهمل السعي في نفعه ، إِنَّ فِي ذَلِكَ التسخير لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، أى : يعملون عقولهم فى هذه الآثار الدالة على وجود الصانع وتفرده ، وعدم وجود شريك له . اهـ .

وقد قرأ ابن عامر: والشمس والقمر والنجوم ، كلها بالرفع على الابتداء والخبر هو قوله : مُسَخَّرَاتٌ ، وقرأ حفص عن عاصم: وَالنُّجُومُ بالرفع على الابتداء وقد قرأ جمهور القراء ، اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، بالنصب على المفعولية لفعل سَخَّرَ^(١٤) .

١٣- وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

وما خلق لكم فى الأرض ، من عجائب الأمور ، ومختلف الأشياء ، من معادن ونبات وحيوان ، على اختلاف أجناسها وأشكالها وألوانها ، وخواصها ومنافعها .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .

أى : يتذكرون آلاء الله وأنعمه المتعددة ، بألوانها المختلفة ، فيشكرونها ويخبتون إليه ، قال تعالى .
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقَ السِّنِّبِ كُمْ وَالْأَنْبِ كُمْ . (الروم: ٢٢) .

٤-١ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلَبَسُونََهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تعدد هذه الآية أربعة أنواع من منافع البحر ، فقد ذلل الله البحر المالح الهائج المتلاطم الأمواج ، للإنسان ؛ حتى يستفيد منه بالفوائد الآتية :

١- صيد السمك بكل أنواعه ؛ ليأكل الإنسان لحما طريا لذيذا ، وفي وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله ؛ لأنه يسرع إليه الفساد ، فسبحان الذي جعل في الماء المر الذي لا يشرب ، لحما طريا لذيذا .

٢- ومن فوائد البحر : استخراج اللؤلؤ والمرجان ، تتخلى بها النساء للرجال .

٣- سير السفن تخر عباب الماء ، وتنقل الأشياء من بلد إلى بلد .

٤- الانتقال في السفن بواسطة البحر من بلد إلى بلد ؛ طلبا للرزق والتجارة والسياحة والحج والعمرة .
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

أى : ولتشكروا ريكم على ما أنعم به عليكم ؛ إذ جعل ركوب البحر ، مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش .

٥-١ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

تستمر سورة النحل التي تسمى : سورة النعم ، في عرض أنعم الله على عباده فتقول :

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ .

أى : حفظ الله توازن الأرض ، وثباتها وعدم اضطرابها ؛ بالجبال الراسيات الثوابت .

قال أبو السعود في تفسيره :

إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب ، فلما خلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز ، فصارت كالأوتاد لها . اهـ .

وقد امتن الله على عباده بالجبال في أكثر من آية ، فالجبال كالأوتاد في حفظ الأرض ، وتحفظ الماء في رموسها في فصل الشتاء ؛ ليسيل على الوديان والوهاد في فصول الصيف ، والربيع ، والخريف .

والجبال مكان أمين حصين ، وملجأً للهارب ، والمعتزل عن الدنيا ، والراغب فى التأمل والعبادة ، ولأمرماً بدأ الوحي على رسول الله ﷺ فى غار حراء ، وبدأت الهجرة من غار ثور ، وكانت معركة أحد على جبل أحد ، وناجى الله موسى من فوق جبل الطور ، ومناسك الحج تتم بالسعى بين الصفا والمروة وهما جبلان ، ويقف الحجاج على جبل عرفات يوم التاسع من ذى الحجة ، فالجبال وسيلة للصفاء والنقاء ، والتفرغ الروحى ، وقد اهتز الجبل وغاص فى الأرض دكاً ؛ عندما تجلى الله له .

قال تعالى : وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِهِ وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . (الأعراف: ١٤٣) .

وفى آخر سورة الحشر نجد عدداً من أسماء الله تعالى ، وقبلها مباشرة نجد هذه الآية .
لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَلْشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (الحشر: ٢١) .

وقال تعالى : خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَلَّى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ ... (لقمان: ١٠) .

وقال عز وجل : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْنًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا . (النبأ: ٦، ٧) .

وَأَنهَرْنَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ .

من كمال إعمار الأرض ، أن يسر الله فيها الأنهار والطرق ، فنجد الأنهار تنبع من مكان ، وتسير فى مكان ، وتصب فى مكان آخر .

فنهر النيل ينبع من إفريقيا ويسير طويلاً فى بلاد السودان ، ويستفيد منه أهل مصر ، وكذلك الطرق التى يسلكها الناس للرعى والتجارة والسياحة ، وقد تحدث ثلثة فى الجبل ؛ لتكون ممراً طريقاً قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . (الأنبياء: ٣١) .

لَّعَلَّكُمْ يَهْتَدُونَ .

أى : جعل فى الأرض طرقاً ومساك ؛ لعلكم تهتدون بتلك الطرق ، إلى المكان الذى تريدون الوصول إليه ، فلا تضلّون .

قال تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . (نوح: ٢٠، ١٩).

١٦- وَعَلَّمْتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ .

أى: ألهم الإنسان اتخاذ المعالم والأمارات؛ لمعرفة الطرق والبلاد التى يقصدون إليها، ومن المعالم: الجبال الكبيرة، والأكام الصغيرة، والعيون والأفلاج، ومطلع الشمس ومغربها نهاراً. وبالنجوم ومواقعها يهتدون ليلاً؛ للسفر فى البر والبحر، وقرئ: وبالنجم هم يهتدون. بضم النون والجيم.

وقيل: المراد بالنجوم: الثريا، والفرقدان، وبنات النعش الصغرى والكبرى، والجدى^(١).

وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم: أصل فى معرفة الأوقات، والطرق والقبلة، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة.

قال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: لتكون زينة للسماء، ومعالم للطرق، ورجوماً للشياطين، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به.

★ ★ ★

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُمْ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ هُمْ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرَمَ أَنْ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُمْ وَمَا تَعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

المضرات؛

أفمن يخلق؛ أى: هذه الخلائق العجيبة فى هذا الكون، والإنسان والحيوان والنبات وسائر النعم.

كمن لا يخلق؛ مثل الأصنام.

لا تحصوها؛ لا تضبطوا عددها.

ما تسرون ، ما تخفون .

والذين يدعون من دون الله ، أئى : والآلهة التى يدعون من دون الله .

أيمان يبعثون ، أئى : متى يبعثون .

لا جـــــرم ، أئى . حقا .

يســـــرون ، يخفون فى أنفسهم .

تهديد :

بين سبحانه وتعالى فيما سبق : طائفة من النعم ، التى أنعم الله بها على عباده ومنها يأتى .

١- خلق الكون بكل ما فيه من سماء وأرض وغيرهما .

٢- خلق الإنسان .

٣- خلق الأنعام بكل أنواعها وأصنافها .

٤- هداية الإنسان وإرسال الرسل وبيان الطريق المستقيم .

٥- إنزال المطر ، وإنبات صنوف الزروع والثمار .

٦- تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

٧- تسخير البحار والجبال والأرض والطرق .

ثم التفت إلى الجاحدين : ليقارن بين خلق الله ، ونعمه المتعددة ، وبين آلهتهم المدعاة التى لا تسمع ولا

تجيب ولا تخلق ولا تنفع ..

التفسير :

١٧- أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

أئى : أفمن يخلق هذه المخلوقات العجيبة التى تشاهدونها بأعينكم ، فى الكون والإنسان والحيوان

والنبات والبحار والجبال ، كمن لا يخلق شيئاً مثل الأصنام التى تدعون : أنها آلهة ، مع أنها لا تملك لنفسها

نفعاً ولا ضراً .

والاستفهام هنا استفهام إنكارى ، أئى : أتشركون هذا الصنم الحقيق مع الخالق الجليل ؟ ، وهو تبيكيت

للكفرة ، وإبطال لعبادتهم الأصنام .

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

أئى : أفلا تتذكرون ، فإن من عنده أدنى تأمل وتفهم وتعلل ، لا يسوى بين القادر والعاجز ، وهو تبيكيت

جديد : ليعلموا أن العبادة لا تليق إلا للمنع ، بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام فلا ينبغي عبادتها .

قال قتادة : الله هو الخالق الرازق ، لا هذه الأوثان التي تعبد من دون الله ، ولا تخلق شيئا ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا . اهـ .

١٨- وَإِنْ تَعْلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

إن أنعم الله وأفضاله لا حصر لها ، ولا عد ! لكثرتها وتنوعها وتتباعها ، وإذا كنتم لا تستطيعون حصرها ، فمن باب أولى لا تطيقون شكرها .

قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير :

ومما يدل قطعاً على أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة أقسام نعم الله تعالى ، أن كل جزء من أجزاء البدن الإنساني لو ظهر فيه أدنى خلل ؛ لتنقص العيش على الإنسان ، ولتمنى أن ينفق كل الدنيا حتى يزول عنه ذلك الخلل ، ثم إنه تعالى يدبر أحوال بدن الإنسان ، على الوجه الأكمل الأصلح ، مع أن الإنسان لا علم له بوجود ذلك الجزء ، ولا بكيفية مصالحه ، ولا بدفع مفسده ، فليكن هذا المثال حاضراً في ذهنك ، ثم تأمل في جميع ما خلق الله في هذا العالم ، من المعادن والنبات والحيوان وجعلها مهياًة لانتفاعك ؛ لتعلم أن عقول الخلق قاصرة عن إحصاء نعمه وأفضاله وإحسانه^(١٨) .

إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

لمن تاب إليه ورجع إلى بابه معترفاً بالعجز والتقصير ، وهو سبحانه يغفر الكثير ويجازي على اليسير .

١٩- وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ .

هو سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم ، السرية منها والجهرية ، فراقبوه ولا تعصوه .

وقد كان الكفار مع عبادتهم غير الله ، يسرون ضرباً من الكفر ، في مكاييد الرسول ﷺ ، فجعل هذا نجراً لهم عنها ، كما أن الإله يجب أن يكون عالماً بالسر والعلانية ، وهذه الأصنام جمادات لا تحسُ بشيء أصلاً ، فكيف تحسنُ عبادتها^(١٩) .

٢٠- وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

أى : هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله ، لا تخلق شيئاً مهما صغر ، وهى جمادات صنعها المشركون بأيديهم ، وخلقوها ثم عبدوها ، لقد وصف الله الأصنام بما يبعدها عن الألوهية : فهى لا تخلق شيئاً ، ثم إنها مخلوقة لغيرها .

٢١- أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ .

هذه الأصنام جمادات لا تحسب بشيء ، فهي أموات لا حياة فيها ، ولا تعتربها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل .

وفائدة قوله : غَيْرُ أَحْيَاءٍ . بيان . أن بعض ملاحياة فيه ، قد تدركه الحياة بعد : كالنطفة التى ينشئها الله علقه ثم مضغة ثم عظاما ، ثم يكسو العظام لحما ، ثم ينشئ النطفة خلقا آخر ، أى : إنسانا كامل الحواس فيه الروح والحياة ، أما هذه الأصنام من الحجارة ، فلا يعقب موتها حياة ، ذلك أتم فى نقصها .
وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ .

إن هذه الأصنام لا تعلم متى يبعث عبادها ؛ حتى تساعدهم أو تنفعهم بعبادتهم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وما تدرى هذه الأصنام شيئا ، عن الوقت التى يبعثها فيه الله يوم القيامة ؛ لتكون وقودا للنار هى وعبادها ، للتدليل على مهانتها ونذلها .

قال تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... (الأنبياء : ٩٨) .

قال الفخر الرازى :

فإن قيل : إن هذه الأصنام جمادات ، والجمادات لا توصف بأنها أموات ، ولا توصف بأنهم لا يشعرون .

والجواب :

إن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالألوهية وعبدوها : قيل لهم : ليس الأمر كذلك ، بل هى أموات ولا تعرف شيئا ، فنزلت هذه العبارات على وفق معتقدهم .

ثم إن من يعبد الأصنام هو فى نهاية الجهالة والضلالة ، والكلام مع الجاهل الغرّ الخفى ، قد يحسن فيه أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه من ذلك الإعلام يكون ذلك المخاطب فى غاية الغباوة ، وإنما يعيد تلك الكلمات ؛ لكون ذلك السامع فى نهاية الجهالة ، وأنه لا يفهم المعنى المقصود بالعباراة الواحدة^(٢١) .

٢٢- إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .

أى : أن الله سبحانه وتعالى ، الذى هو أهل للعبادة هو إله واحد ، لا شريك له ، ولا ند له .

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

لكن المشركين عميت قلوبهم عن هذه الحقيقة فأنكروها ، وأنكروا البعث والجزاء فى الآخرة ،

واستكبروا عن الإيمان بمحمد ﷺ : حقدا وحسدا ، قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِنَائِلِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٢٣) .

لقد حجبهم الجحود والكفور والاستكبار عن الإيمان ؛ فاستحقوا الجزاء العادل ، وعذاب جهنم يوم القيامة ، حال كونهم أذلاء صاغرين ؛ جزاء استكبارهم عن اتباع الحق .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ . (غافر: ٦٠) .

وفى الحديث الصحيح : « إن المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة ، تطوهم الناس بأقدامهم ؛ لتكبرهم »^(١) .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » ، فقال رجل : يا رسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمص الناس »^(٢) .

٢٣- لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

أى : حقا ، إن الله يعلم ما يسرون من الكفر والاستكبار عن الإيمان بك ، وما يعلنون من أقوال وأفعال وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

أى : عن الاستجابة للحق ، المغرورين بأموالهم وأولادهم ، الجاحدين لنعم الله وآلائه .

﴿ وَإِذْ أَقِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَنُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْرِجُهُمْ وَيَقُولُ بَيْنَ شُرَكَاءِكَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿﴾

المضردات:

أنزل ربكم : أى : على محمد .

أساطير : واحدها : أسطورة ، كأرجوحة وأراجيح وهى الأكاذيب والترهات والأباطيل .

الأوليين : الغابرين القدماء ، قالوا ذلك : إضلالاً للناس ، وقد نزلت الآية فى النضر بن الحارث .

الأوزار : الآثام ، واحدها : وزر .

ساء ما يزرون : أى : بتس شيئاً يحملونه .

قدمكر الذين من قبلهم : وهو نمروذ بن كنعان ، بنى صرحاً طويلاً ببابل ، سمكه خمسة آلاف ذراع : ليصعد منها إلى السماء : ليقاتل أهلها .

والمكمر : صرف غيرك عما يريده بحيلة ، ويراد به هنا : مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، والمقصود بالآية : المبالغة فى وصف وعيد أولئك الكفار ، وأن هلاكهم محقق كما حدث لمن قبلهم .

فاتى الله بنيانهم من القواعد : أهلكه وأفناه ، فأرسل عليه الريح والزلزلة : فهدمته من الأساس ، كما يقال : أتى عليه الدهر .

القواعد : الدعامم والعمد والأساس ، واحدها : قاعدة .

خسر : سقط .

السقف من فوقهم ، أى : وهم تحته .

وأتاهم العذاب من

حيث لا يشعرون ، من جهة لا تخطر ببالهم ، أى : من جهة لا يحتسبونها ولا يتوقعونها ، وقيل : هذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسول .

يخزيهم ، يذلهم ويهينهم ، أو يعذبهم بالنار .

تشاققون ، تخاصمون وتعادون المؤمنين ، وتنازعون الأنبياء فى شأنهم ، وأصله : أن كلا من المتخاصمين ، فى شق وجانب غير شق الآخر .

الذين أوتوا العلم ، الأنبياء أو الملائكة أو العلماء .

السلام : الاستسلام والخضوع ، والمعنى : انقادوا واستسلموا عند الموت .

بلى ، نعم ، أى : فتجيبهم الملائكة .

إن الله عليم بما

كنتم تعملون ، فهو يجازيكم عليه .

مأوى ، مأوى ، والمثوى : مكان الإقامة .

تقعيد :

تأتى فى هذه الآيات ، شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وتذكير الناس بما أصاب المكذبين والمتكبرين ؛ حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

ثم عرض بعض مشاهد الآخرة ، حين ينال الظالمون جزاءهم فى جهنم خالدين فيها أبداً . فَلْيُنْسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ .

التفسير :

٢٤ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ هَادُوا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْلَطِ الْأُولَى .

أفادت كتب السيرة : أن قريشا وزعماء مكة ، أهمها أمر الدعوة الإسلامية ، حيث إن أتباع محمد يزيدون ، ورأوا تأثير القرآن فى نفوس الناس ، وصار الواردون إلى مكة فى موسم الحج وغيره ، يسألون الناس عن هذا النبى الذى ظهر ، وعن القرآن الذى أنزل عليه ؛ فدبر لهم الوليد بن المغيرة معاذير ، واختلاقا يخلقونه ؛ ليقتنوا السائلين به .

فندب منهم ستة عشر رجلا ، بعثهم أيام موسم الحج يقعدون فى طرق مكة ، ومسالك الدخول إليها ، يقولون لمن سألهم عن محمد : لا تغفروا بهذا الذى يدعى : أنه نبي ؛ فإنه مجنون أو ساحر أو شاعر أو كاهن ، وأن الكلام الذى يقوله أساطير من أساطير الأولين اكتتبها ، وقد تقدم ذلك فى آخر سورة الحجر ، وكان النضر ابن الحارث يقول : أنا أقرأ عليكم ما هو أجمل من حديث محمد ، أحاديث رُستم وإِسْفَنْدِيَار ، قال تعالى فى شأنه... وَمَنْ قَالَ سَأْتِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . (الأنعام: ٩٣) .

وفى صحيح البخارى ما يفيد : مساءلة العرب عن بعث النبي ﷺ ، ومن ذلك سؤال هرقل ملك الروم لأبى سفيان ، عن هذا النبي وعن نسبه وعن أتباعه ، وعن حروبه ، ولما خرج أبو سفيان من عند ملك الروم ، قال لمن معه : لقد أمر أمرُ ابن أبى كبشة ، حتى أصبح ملك الروم يسأل عنه .

وروى البخارى فى قصة إسلام أبى ذر^(٢٧) أنه سمع بالنبي ﷺ وهو فى قومه غفار ، فأرسل أخاه ؛ ليستعلم عن هذا النبي ، ثم حضر بنفسه مستقهما عنه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ .

أى : إذا سألت وفود العرب فى موسم الحج وغيره ، أهل مكة عن محمد وعن القرآن الذى نزل عليه .

قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

أى : إن هذا القرآن ليس وحيا من الله ، وإنما هو أكاذيب وخرافات مأخوذة من كتب المتقدمين .

قال تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الفرقان: ٥) .

والسائل إما واحد من المسلمين ، أو من كلام بعضهم لبعض ، أن النضر بن الحارث ، أو قول المقتسمين الذين اقتسموا مكة ، يغفرون عن رسول الله ﷺ ، إذا سألهم وفود الحجيج ، عما أنزل على محمد ﷺ .

٢٥- لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بَغِيرٍ عِلْمِ آلِ سَاءَ مَا يَزُرُونَ .

اللام فى لِيَحْمِلُوا تسمى : لام العاقبة أو الصيرورة ، مثل : فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرًّا . (القصص: ٨) .

والمعنى : إنما قالوا ذلك ؛ ليحملوا أوزارهم ، وأنامهم كاملة يوم القيامة ، وجانبنا من أوزار الذين يتبعونهم ، جهلا بغير علم ، فلا يعلمون أنهم ضلّال ، ويقتدون بهم فى الضلال .

والآية كما نرى تشعّر هؤلاء المفتريين من أهل مكة ، بجزائهم العادل يوم القيامة ، فهم سيتحملون وزرهم كاملا بدون نقص ، وسيتحملون جانبا من إضلال من اتبعهم ، واثقا فيهم ، غير عالم بما هم عليه من ضلال ، وكأن الآية تضعهم أمام مسئولياتهم ، وتوضح لهم عظيم الجرم الذى يرتكبونه ؛ ليكفروا فى تبعاتهم ، ويعدلوا عن ضلالهم .

أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ . أى : بئس شيئا يحملونه من ذلك الذى يفعلون .

ونظير الآية قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَقْلَابَهُمُ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ . (العنكبوت: ١٢).

وروى الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة : عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من دعا إلى هدى ، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك إلا من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا »^(٧٧) .

ثم أبان الله تعالى وجود الشبه ، بين الكفار القدامى والجدد ، فى الجرم والعقاب فقال :

٢٦- قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْرِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

أكثر المفسرين على : أن المراد بهذه الآية ، هو : نمروذ بن كنعان ، بنى صرحا عظيما ببابل طوله خمسة آلاف ذراع ، ويمكن أن تكون الآية عامة فى كل ظالم مكابر ، مثل قوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم فرعون .. قال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . (الأنعام: ١٢٣) .

وفى الآية تشبيه هيئة القوم الذين مكروا فى المنعة فأخذهم الله بسرعة ، وأزال تلك العزة : بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم ، وآووا إليه فاستأصله الله من قواعده ، فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا ، فهذا من أبداع الاستعارات التمثيلية ؛ لأنها تنحل إلى عدة استعارات .

جاء فى التفسير النثر :

أى : قد كاد لدين الله ورسله من تقدمهم من الأمم ، واحتالوا بمختلف الوسائل؛ لإطفاء نور الله ؛ فأهلكهم الله تعالى فى الدنيا ، بأن دمر مبانيهم من قواعدها ، وسقط عليهم السقف من فوقهم ، وأبطل كيدهم ، وأحبط أعمالهم، وأطبق عليهم العذاب من كل جانب ، ومن حيث لا يحسبون بمجيئه ولا يتوقعون.

فإن الأخذ فجأة أشد نكاية؛ لما يصحبه من الرعب الشديد ، فاعتبروا يا أهل مكة وأمثالكم ، وهذا كله تمثيل لصورة العذاب ومضمونه: إهلاكهم من الله تعالى: ^(٦٨) .

وخلاصة ذلك : أن الله أحبط أعمالهم ، وجعلها وبالا عليهم ، ونعمة منهم .

٢٧- ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ...

كانت الآية السابقة ، تتحدث عما أصاب المكذبين للرسول في الدنيا من العذاب والهلاك ، ثم جاءت هذه الآية : لتبين ما ينتظرهم في الآخرة .

ومعنى الآية :

إن الله سيفضح هؤلاء المشركين على رؤوس الخلائق ، مع الإذلال والإهانة ، ثم يسألهم سؤال توبيخ وتقريع : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم في الدنيا تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟! هل حضروا ليشفعوا لكم ، كما كنتم تزعمون ؟! ، وشبه بهذه الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . (القصص: ٧٤) .

وكلمة تُشَاقُّونَ فِيهِمْ من المشاقة ، وهى عبارة عن كون كل واحد من الخصمين ، فى شق غير شق صاحبه ، وقد كان الكافرون يقولون للمؤمنين : إنه لا بعث ولا حساب ، وإن صح ما تقولون من العذاب فى الآخرة : فإن الأصنام ستشفع لنا ، فناداهم الله على سبيل التبكيت والاحتقار لشأنهم ، أين هؤلاء الشركاء الذين زعمتم : أن لهم اليوم شفاعة ؟!

والخلاصة : إنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

أى : قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد ، وهم الأنبياء والمؤمنون ، وكل من اهتدى إلى الحق فى الدنيا ، وأخلص لله تعالى العبادة والطاعة ، أو قال الدعاة والهداة والعلماء : إن الخزي الكامل ، والذل والهوان على هؤلاء الكافرين ، أصحاب القلوب المنكرة للحق ، والنفوس الجاحدة لليوم الآخر ، وما فيه من حساب وجزاء .

٢٨- الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم ، وهم ظالموا أنفسهم ومعرضوها للعذاب المخلد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من الكفر ؟!

فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ .

أى : استسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب ، قائلين : ما كنا نشرك بربنا ، وهم قد كذبوا على ربهم ، واعتصموا بالباطل برجاء النجاة ، والمراد بالسلم هنا : الاستسلام والاستكانة ، على خلاف عاداتهم فى الدنيا من العناد والمكابرة ، وقد حكى الله عنهم فى آيات أخرى ما يشبه هذا القول ، ومن ذلك قوله تعالى :
ثُمَّ لَمْ يَكُنْ يَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام: ٢٣) .

بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام ، والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم من الإنكار ، والله مجازيكم بأفعالكم .

٢٩- فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِّدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : فادخلوا أيها الكافرون من أبواب جهنم ، وطبقاتها المتعددة ، وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك .

فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : فليس مقام المتعاطمين عن الإيمان بالله : جهنم .

وأبواب جهنم قد ذكرها القرآن فى آية أخرى فقال : لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . (الحجر: ٤٤) .
وتطلق الأبواب على : المنازل والدركات ، والمعروف : أن الجنة درجات آخرها الفردوس الأعلى ، قالت أم حارثة يا رسول الله ، حارثة ابنى فى الجنة أم فى النار ؟! ، فقال : « اتق الله يا أم حارثة ، إنها جنان وليس جنة ، وإن ابنتك أصاب الفردوس الأعلى منها »^(١) .

والمعروف: أن النار دركات ، وفي هذا المعنى قال تعالى : **إِنَّ الْمُتَفَقِّينَ فِي الدُّرُكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** . (النساء : ١٤٥) .

ويمكن أن يراد بقوله تعالى :

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ . أى : من أبوابها المتعددة ، أو فادخلوا فى طبقات جهنم ، التى خصصت كل طبقة منها لفئة من الظالمين تناسب عملهم ، وهو يناسب قول الحق سبحانه : **لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ** . (الحجر : ٤٤) .

وقد مر هذا المعنى عند تفسير هذه الآية من سورة الحجر .

★ ★ ★

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يُجْزَى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ نَوَّهْتُمْ عَنْ مَالِكَةٍ طَبِيبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

جَنَّاتِ عَدْنٍ : أى : جنات استقرار وإقامة ، يقال: عدن بالمكان، يعدن عدنا ، أى : استقر به وأقام .

طَبِيبِينَ : أى : طاهرين من ظلم أنفسهم بالمعاصى والكفر .

تمهيد :

يقارن القرآن بين عمل الكافرين والظالمين ، وجزائهم فى جهنم ، وبين عمل المتقين وجزائهم فى الجنة ، من باب المقابلة بين الأضداد ، ويضدّها تتميز الأشياء ، وقد سبق الحديث عن الظالمين ، ودخولهم أبواب جهنم ، وهنا فى هذه الآيات حديث عن المتقين وجزائهم فى الجنة .

التفسير :

٣٠ - وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ .

قال المفسرون :

هذا كان أيام الموسم ، يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره ؛ فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتى المؤمنين ويسألهم عن محمد وما أنزل عليه ، فيقولون خيرا ، والمعنى: أنزل خيرا^(١٠٠) .

أى : إن الله تعالى أنزل على نبيه وحيا ، يتضمن الخير والهدى والإيمان .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ . أئى : للمتقين مكافأة فى الدنيا بزيادة الرزق والتوفيق .

وَلَنَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ . أئى : وما ينالونه فى الآخرة من جزاء كريم ، وجنات النعيم ، خير وأحسن مقيلا .

وَلَنِعَمُ دَارُ الْمُتَّقِينَ . أئى : ولنعم دار المتقين دار الآخرة ، حيث ينالون فيها كل تكريم وكل نعيم .

قال تعالى : وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . (الزمر: ٧٤) .

روى مسلم وأحمد: عن أنس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل لا يظلم المؤمن حسنة ، يثاب عليها الرزق فى الدنيا ، ويجزى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيعطى بحسناته فى الدنيا ، فإذا لقى الله عز وجل وحل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا^(١٠١) .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (النحل: ٩٧) .

٣١- جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ .

جَنَّاتٌ . مبتدأ وخبره يَدْخُلُونَهَا ، أئى : نعم دار المتقين ، جنات إقامة دائمة يدخلونها بفضل الله تعالى ، ويقسمونها بحسب أعمالهم .

قال الفخر الرازى : جَنَّاتٌ يدل على: القصور واليساتين ، عَدْنٌ يدل على: الدوام ، تُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يدل على: أنه حصل هناك أبنية يرتفعون عليها وتكون الأنهار جارية من تحتهم .

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ . تدل على حصول كل الخيرات والسعادات ، وهو دليل على أن الإنسان لا يجد كل ما يريده فى الدنيا .

كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ. أى : هكذا يكون جزاء التقوى. ا هـ .

وفى معنى هذه الآية يقول الله سبحانه :

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّنْ لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ. (محمد : ١٥) .

وقوله تعالى : وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . (الزخرف : ٧١) .

٣٢- الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : هم الذين تقيض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبرارا ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي طيبة نفوسهم ببقاء الله .

يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. أى : تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة ، قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين^(٣٢).

قال الفخر الرازى :

وقوله : طَيِّبِينَ ، كلمة مختصرة ، جامعة للمعاني الكثيرة : وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به ، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ، ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة ، مبرئين عن الأخلاق المذمومة^(٣٣) .

وقال مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله. ا هـ .

وقال الراغب : الطيب من الناس من تعزى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال. ا هـ .

وقال الشوكاني :

الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ .

طاهرين من الشرك ، أو صالحين ، أو زاكية أفعالهم وأقوالهم ، أو طيبين الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله .

يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ. أى: تسلم عليهم الملائكة: تبشيرا لهم بالجنة: لأن السلام أمان.

أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. أى: بسبب عملكم. ١ هـ.

وفى الحديث الصحيح:

«لن يدخل أحدكم الجنة عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته، فسدوا، وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت؛ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا، وإما مسيئا فلعله أن يتوب»^(٣١) (رواه البخارى).

وفى معنى هذه الآيات يقول الله تبارك وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا تَتَزَلُّ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ. (فصلت: ٣٠-٣٢).

★ ★ ★

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

المضردات:

يَنْظُرُونَ: ينتظرون، فإن نظر، ينظر، نظرا، يعنى: أبصر، ويعنى أيضا: انتظر.

إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: تقبض أرواحهم.

أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ: هو القيامة، أو العذاب المستأصل لهم.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا: أى: جزاء سيئات ما عملوا.

وَحَاقَ بِهِمْ: أى: أحاط بهم، وخص استعمالاً بإحاطة الشر.

تَهْهَيْد:

تفيد الآيات: أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم، إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم، أو يأتيهم عذاب الاستئصال، فلا يبقى منهم أحدا، ثم أتبع ذلك ببيان: سنة الله فى هلاك الكافرين، فقد كذبت أمم

سابقة يرسلها ، وحدثت رسالات السماء ، كقوم نوح والذين من بعدهم ، فأهلكهم الله بسبب ظلمهم وجحودهم، وما ظلمهم الله ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم .

التفسير:

٣٣- هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

تأتي هذه الآيات على سبيل التهديد والوعيد لكفار مكة : فهم فى عتوهم وكفرهم وجحودهم رسالات السماء ؛ فى حالة من ينتظر أحد أمرين :

١- حضور الملائكة لتقبض أرواحهم على الكفر .

٢- مجىء عذاب السماء ؛ ليستأصلهم ؛ كما فعل يقوم نوح وهود وصالح وغيرهم .

وخلاصة هذا: حثهم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق ، قبل أن يأتيهم الموت ، أو قبل أن يأتيهم عذاب الاستئصال .

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ .

أى : مثل هذا التكرير يا محمد ، كذبت أمم سابقة برسلها ، وتمادى المكذبون فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا وحل بهم عذابنا ونكالنا .

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : لم يظلمهم الله حين أنزل بهم العذاب ؛ لأنه أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم ، بإرسال رسله وإنزال كتبه ، ولكن ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل وإحجامهم عن اتباع الحق .

٣٤- فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

أى : فلهاذا أصابتهم عقوبة الله على ما فعلوا ، وأحاط بهم عذابه الأليم ؛ جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل ، وبما أخبرهم به من حساب وثواب وعقاب فى الآخرة .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ﴿٣٧﴾﴾

المضردات:

الـبـلـاـغ المبين ، أى : التبيين الواضح الذى لا إيهام فيه .

الـطـاـغـوت : أى : الشيطان وكل ما عبد من دون الله مشتق من الطغيان ، وهو تجاوز الحد ، والطاغوت يقع على الواحد والجمع ، مثال وقوعه على الواحد قوله تعالى : يُرِيدُونَ أَنْ يُصَاحَبُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ . (النساء : ٦٠) ، ومثال وقوعه على الجمع قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ . (البقرة : ٢٥٧).

حـقـقـت : أى : ثبتت ووجبت ، يقال : حق الأمر ، يحق بفتح الحاء وكسرها : أى : ثبت ووجب .

تـقـهـيـد :

تستمر الآيات فى كشف ألأعيب المشركين ، ومن ذلك : طعنهم فى إرسال الرسل ، وقولهم : نحن مجبورون على أعمالنا ، فلو شاء الله لم نعبد الأصنام ، ولم نحرم ما حرمنا من الأطعمة ، وهى تـعـلـة كاذبة يتعلل بها المكذبون والكافرون ؛ لإلقاء التبعة على القدر ، فقد خلق الله الإنسان مزوداً بأسباب الهداية والغواية ، فمن اختار الهدى وسار فى طريق الطاعة ؛ أمدّه الله بالمعونة والفلاح ، ومن اختار التكذيب والغواية ؛ صرف الله عنه الهدى ، وقد عقب الله على هذه الآية : بأنه أرسل الرسل : لدعوة الناس إلى التوحيد ، والبعد عن عبادة الطاغوت والأصنام والباطل ، فمن الناس من اهتدى بهداية السماء ، ومنهم من اختار الضلالة فاستحق العذاب ، هكذا كان شأن الأمم السابقة مع رسلهم ، فلا تحزن يا محمد ، فليس عليك إلا البلاغ ، قال تعالى : فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * نُسِيتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية : ٢٢، ٢١).

التفسير:

٣٥- وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .

أي: قال أهل الكفر والإشراك ، وهم كفار قريش : لو شاء الله ما عبدنا الأصنام نحن ولا آبائنا ، ولا حرمانا ما حرمانا من أنواع الحيوانات كالبحائر والسواحب^(١) وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء ، لا على سبيل الاعتقاد، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راض به ، وهو حق وصواب ، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم ، حيث تعلل المشركون بالمشيئة الإلهية في أكثر من موقع.

قال تعالى في الآية ١٤٨ من سورة الأنعام :

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ .

جاء في ظلال القرآن ٦١/١٤ :

وهذه مقولة جديدة من مقولات المشركين ، في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله - في زعمهم - ألا يفعلوا شيئا من هذا لمنعهم من فعله ، وهذا وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فإله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يحرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه ، على أسننة الرسل الذين كلفوا بالتبليغ ، ولهذا قال تعالى بعده : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ . فهذا أمره وهذه إرادته لعباده ، وقد شاءت إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار . ١ هـ .

وقريب من هذه الآية ، ما ورد في الآيات ٢٨-٣٠ من سورة الأعراف ، من قوله تعالى :

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

وهذه الشبهة تكررت على ألسنة الكافرين السابقين ! تبرئة لساحتهم ، وتنصلا من التبعة .

كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .

أى : مثل هذا التكذيب والاستهزاء ، فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناصوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم ، بعد أن أنذرتهم رسلم عذاب النار وغضب الجبار .

فَهَلْ عَلَى الرَّسْلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ .

أى : ليس على الرسل إلا تبليغ رسالات السماء بالحجة البينة ، والأدلة الواضحة ، وليس من شأنهم هداية الناس ، فهذه أمور تتعلق بمشيئة الله تعالى .

قال تعالى : إِنْكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . (القصص: ٥٦) .

وقصارى ذلك : إن الثواب والعقاب لا بدّ فيهما من أمرين : تعلق مشيئة الله تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همه العبد إلى تحصيل أسبابه ، وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهي ، أمّا العمل بها إلجاء وقسرا فليس من وظائفهم ، لا فى كثير ولا قليل . (٦٧) .

٣٦- وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ...

إن من سنته تعالى : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتأييد رسله بالمعجزات ، وقد استمر إرسال الرسل لجميع الأمم السابقة : إرشادا للبشرية وتعليما لها ، وتنبيها للعقول ، وتحذيرا للناس من مكايد الشياطين ، ومن ضلال المضلين ، قال تعالى : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسْلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء: ١٦٥) .

وقال عز شأنه : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . (فاطر: ٢٤) .

ومعنى الآية :

أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق ، وبعثنا فى كل أمة سبقت قبلكم ، رسلا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال الرسول لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا .

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ .

أى: إن البشر كانوا بإزاء الرسل صنفان :

صنف : هداه الله إلى الإيمان ، فأمن بالرسول وبالله وباليوم الآخر ؛ ففاض وأفلح ، واستحق النجاة والرضوان فى الدنيا والآخرة .

وصنف : كُذِّبَ بالرسول ، واستكبر عن قبول الحق ، واتَّبَعَ الضلال ؛ فاستحق غضب الله وعقابه .

قال الفخر الرازى :

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ . يريد من ظهرت ضلالته ، كما يقال للظالم : حقَّ ظلمك وتبين . ا هـ . (٣٧) .

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ .

أى : التفقوا حولكم أيها المشركون ، أو سيروا فى جنوب الجزيرة وشمالها ، وشرقها وغربها ؛ لتشاهدوا ما أصاب المكذبين ، من الدمار والهلاك ، كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليهم الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم ؛ لعلمكم تعتبرون بما حلَّ بهم .

٣٧- إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مَنْ نَصْرِينَ .

تأتى هذه الآية : تسلية للرسول ﷺ ، وتحديد لرسالته بالتبليغ ، وفيها تهذبة لخطره ، وتطمينا لنفسه ، وقد كان حريصا على هداية قومه ، راغبا فى إيمانهم ، بيد أنهم أثروا الضلالة ، وكان الرسول ﷺ بمثابة من يشعل ضوءا لهداية قومه ، فيتتابع الفراش فى إلقاء نفسه فى هذه النار ؛ ليشتمل ويهلك ، كما ورد فى الحديث الصحيح :

«إنما مثلى ومثل قومى كمثل رجل أشعل نارا فجعل الفراش يتهافت على الوقوع فيها ، وإنى ممسك بحجز قريش أن تقع فى النار» (٣٨) .

ومعنى الآية :

إن تحرص - أيها الرسول الكريم - على هداية هؤلاء المصرين على كفرهم ؛ لن ينفعك حرصك ؛ لأن الله تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً ، فيمن استحق الضلالة ، بسوء اختياره ، وتوجيه عزائمته إلى عمل المعاصى ، والإشراك بربه .

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . تذييل مؤكد لما قبله .

أى : وليس لهؤلاء الضالين من ناصر يدفع عنهم عذاب الله تعالى ، إن نزل بهم .

ونحو الآية قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . (القصص: ٥٦) .

وقوله سبحانه : مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . (الأعراف: ١٨٦) .

وجمل القول : إن من اختار الضلالة ، ووجه همته إلى تحصيل أسبابها : فالله سبحانه وتعالى لا يخلق

فيه الهداية قسراً والجاء : لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار ، لا الإلجاء والاضطرار .

★ ★ ★

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٨) لِبَيِّن لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

المفردات :

جهـد أيمانهم : الجهد ، بفتح الجيم : المشقة . وضمها : الطاقة ، وجهـد أيمانهم ، أى : غاية اجتهداهم

فيها ، وجهـد مفعول مطلق لفعل مقدر تقديره : أقسموا بالله يجهدون جهداً .

لا يبعث الله من يموت : أى : لا يحييه بعد الموت .

بلى : كلمة جواب كنعم : لكنها لا تقع إلا بعد النفي ، فتثبت ما بعده .

وعداً عليه حقاً : أى : وعد ذلك وعداً عليه حقاً ، أى : ثابتاً لا شك فيه .

تهـيد :

تأتى هذه الآيات لتقديم شبهة جديدة للمشركين ، وللرد عليهم ، فهم ينكرون البعث بعد الموت ، ويقسمون على ذلك ، والله تعالى يوضح لهم : أن البعث حق لازم : ليثاب الطائع ويعاقب العاصي ، وكانت حجة المشركين أن الموت يَفْتَت الأجسام ويبعثها ، فكيف تجمع كما كانت ؟

فبينت الآية الأخيرة : أن هذا أمر هين فى يد القدرة الإلهية ، التى تقول للشئ : كن : فيكون ، وفى الآيات ٧٨-٨٣ من سورة يس ، وهى الآيات الأخيرة فى السورة ، تأكيد هذا المعنى .

التفسير:

٣٨ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ .

سبب النزول:

أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم: عن أبي العالية قال: كان لرجل من المسلمين، على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أروجه بعد الموت، إنه لكذا وكذا؛ فقال له المشرك: إنك لتزعم أنك تبعث بعد الموت، وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ... الآية.

وروى البخاري: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: كَذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وأما شتمه إياي فقلوه: اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»^(١٩).

ومعنى الآية: وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ...

أنهم أقسموا بالله، واجتهدوا في الحلف وأغلظوا في الأيمان: أنه لا يقع بعث بعد الموت، وهذا استبعاد منهم لحصوله، من جراء أن الميت يغنى ويُعدم، والبعث إعادة له بعد ما رمى وولى وصار ترابا.

قال القرطبي: وهذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله، وبالغوا في تغليب اليمين: بأن الله لا يبعث من يموت.

بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أي: بلى سبعت الله الأموات بعد مماتهم، وقد وعد ذلك وعدًا حقًا، لا بد منه، ولا خلف فيه.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ هذه الحقيقة: لجهلهم بكمال قدرة الله تعالى، وعموم علمه، ونفاذ إرادته وسمو حكمته، والمراد بأكثر الناس: المشركون، ومن كان على شاكلتهم، في إنكار البعث والحساب، والثواب والعقاب يوم القيامة.

وفى التنصيص على أكثر الناس؛ مدح للأقلية منهم، الذين آمنوا بالبعث وبالأخرة، وما فيها من حساب وجزاء، وهم المؤمنون الصادقون.

٣٩- يُبَيِّنُ لَهُمْ اَلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَيَعْلَمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ .

أى : بل يبعث الله تعالى يوم القيامة .

يُبَيِّنُ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْبَعْثِ ، وليظهر لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أُممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصي ، والظالم من المظلوم ، وليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وَيَعْلَمُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا اَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ . أى : وليعلم الذين جحدوا وقورع البعث والجزاء ، أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : لَا يَبْعَثُ اَللّٰهُ مَنْ يَمُوتُ . (النحل: ٣٨) .

وكانوا كاذبين فى سخريتهم من المؤمنين ، وفى هذا اليوم يلقى الكفار جزاءهم فى جهنم ، وينظر إليهم المؤمنون ، وهم يعذبون جزاء جحودهم للبعث ، وتكذيب الرسل ، والسخرية بالمؤمنين ، قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُونَ اِلٰى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا هٰلِكَ اَنَارٌ اَلَّتِى كُنتُمْ بِهَا تُكٰذِبُونَ . (الطور: ١٣، ١٤) .

فَالآيَةُ الْكَرِيمَةُ قَدْ بَيَّنَّتْ حِكْمَتَيْنِ لِبَعْثِ النَّاسِ لِلْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

١- إظهار ما اختلفوا فيه فى شأن البعث وغيره .

٢- إظهار كذب الكافرين ، الذين أنكروا البعث ، واستهزءوا بمن دعاهم إلى الإيمان به .

٤٠- إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

أى : إذا أردنا أن نبعث من يموت ، فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائه ؛ لأننا إذا أردنا أمراً وقع وحدث؛ فقدرتنا لا يتعاصى عليها شئ ، ولا يحول دون نفاذها حائل .

قال ابن كثير :

أخبر سبحانه عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ . والمراد من ذلك : إذا أراد كونه ؛ فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء^(٧٠) .

قال تعالى : وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ... (القمر: ٥٠) .

وقال سبحانه : مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ ... (لقمان: ٢٨) .

ونلاحظ أن هذه الآيات قد حكت إنكار الكفار للبعث ، ثم ردت عليهم بالحجة والبرهان ، وفي هذا المعنى يقول الله سبحانه وتعالى في آخر سورة يس :

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ الْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكَوَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس: ٧٨-٨٣) .

★ ★ ★

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّمُوا لَنُبَوِّتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المضردات :

لنُبَوِّتَنَّهُمْ في الدنيا حسنة ، أى : لننزلنهم في الدنيا بلدة حسنة ، هى : المدينة ، يقال : بوأه الدار، يبوئها فيها أنزله بها .

تمهيد :

تعرض المسلمون في مكة لألوان متعددة من العذاب والوعيد ، فهاجروا إلى الحبشة مرتين ، وهاجروا إلى المدينة ، فى تضحية بالوطن والأهل والمال ؛ فنزلت هذه الآية توضح منزلتهم وجزاءهم .

التفسير :

٤١ - وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّمُوا لَنُبَوِّتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

أى : والذين هاجروا قومهم وأوطانهم ودورهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى ؛ احتسابا لأجر الله وطلباً لمرضاته ، من بعد ما ظنهم الأذى والظلم من الكفار ؛ هؤلاء سنكافئهم فى الدنيا بالمنزلة الحسنة ، حيث أسكنهم الله المدينة ، ونصرهم على العباد ، وفتح لهم البلاد ، وصاروا أمراء حكاما ، وكان كل منهم للمتقين إماما .

وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

أى : إن ثواب الدار الآخرة فى الجنة ، أكبر من نعيم الدنيا ، لو كان المهاجرون يعلمون ذلك ؛ لازداد يقينهم ، وقوى عزمهم ، وفى هذا تحريض لمن بقى بمكة من المهاجرين ؛ حتى يهاجروا .

وقيل : الضمير يعود على مشركى مكة ، أى : لو كانوا يعلمون ثواب الله للمهاجرين ؛ لكفوا عن إيذائهم وظلمهم ، ولآمنوا بالله ورسوله .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى ﷺ ، وهم : صهيب ، وبلال ، وعمار ، وخباب ، وعابس ، وجبير ، موالى لقريش ، فجعلوا يعذبونهم ؛ ليردوهم عن الإسلام ، أمّا صهيب فقال لهم: أنا رجل كبير ، إن كنت لكم لم أنفعكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم ، فافتدى منهم نفسه بماله ، وتركوه يهاجر ، فلما رآه أبو بكر قال : ربح البيع يا صهيب^(٧١) . وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر ، والرجوع عن الإسلام ، فتركوا عذابهم ، ثم هاجروا فنزلت هذه الآية^(٧٢) .

وعن عمر : أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما نذر لك فى الآخرة أكبر^(٧٣) .

٤٢- الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

أى : هؤلاء هم الذين صبروا على أذى المشركين ، وهاجروا ؛ فراراً بدينهم ، صابرين على مفارقة الأهل والأوطان ، وهم يتوكلون على الله ، ويعتمدون عليه ، بعد الأخذ فى الأسباب ، وهذه الآية بمثابة الوسام على جبين هؤلاء المهاجرين .

قال الفخر الرازى :

والمعنى : أنهم صبروا على العذاب ، وعلى مفارقة الوطن ، الذى هو حرم الله ، وعلى المجاهدة وذل الأموال والأنفس فى سبيل الله ، وبالجملّة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل ، أما الصبر فللسعى فى قهر النفس ، وأمّا التوكل فللانقطاع بالكلية عن الخلق ، والتوجه بالكلية إلى الحق ، فالأول : هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى ، والثانى : آخر هذا الطريق ونهايته والله أعلم^(٧٤) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَهُمْ قَسَبُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُرُونَ ﴿٤٣﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٤﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُيبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٦﴾ أَوْ لَعَنَ رَبُّكَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفِيُوا ظِلَّ اللَّهِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ ﴿٤٨﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المضردات :

فاسألوا أهل الذكر: من أسلم من أهل التوراة والإنجيل ، وفي المصحف المفسر : فاسألوا العلماء والعارفين بالتواريخ .

بالبينات والزبر: البينة: هي المعجزة الدالة على صدق الرسول ، والزبر: واحدها: زيور ، وهي كتب الشرائع والتكاليف ، التي يبلغها الرسل إلى العباد .

الذكر: القرآن .

مكروا: المكروا: السعى بالفساد خفية .

مكروا السيئات: ظلموا المؤمنين ، وراموا أن يفتنوه عن دينهم .

يخسف: يجعل عاليها سافلها .

في تقليبهم: أي : منقلبين في أسفارهم ، وتصرفهم في البلاد ليلاً أو نهاراً ، كما قال تعالى: لَا يَغْرُبُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ . (آل عمران: ١٩٦) .

بمعجزين: أي : بغائتين الله تعالى بالهروب والفرار .

على تخوف: أي : على خوف ووجل من العذاب .

يتخفى ظلّ الله، أى: يرجع من موضع إلى موضع، فهو فى أوّل النهار على حال، ثم يتقلص، ثم يعود إلى حال أخرى فى آخر النهار.

عن اليمين: أول النهار.

والشمائل: آخر النهار.

السجود: الانقياد والخضوع.

داخرون: منقادون صاغرون، واحد: داخر، وهو الذي يفعل ما تأمره به شاء أو أبى.

يخافون ربهم: أى: يخافون عقابه.

من فوقهم: أى: بالقهر والغلبة، كما قال: **وَأَنَا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**. (الأعراف: ١٢٧).

تهديد:

تناقش الآيات شبهة أخرى من شبهة المشركين، حيث قالوا: لو أن الله أرسل رسولا؛ لبعثه ملكا، لا رجلا من سائر الناس، فبين القرآن: أن سنة الله فى إرسال الرسل، أن يكونوا رجلا من سائر الناس؛ لتتحقق القدوة والأسوة، وأهل التوراة والإنجيل يعرفون ذلك، ثم هددهم القرآن بألوان العذاب، ومنها: خسف الأرض كما فعل بقارون، أو يأتيهم بغتة فجأة، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعاشهم، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى، ثم عقب ذلك بلفت أنظارهم، إلى كمال قدرته، وبديع خلقه، وأن هذا الكون بجميع ما فيه، خاضع لقدرة الله، يسبح بحمد الله، ويسير وفق مشيئته وأمره سبحانه وتعالى.

التفسير:

٤٣ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

كان أهل مكة ينكرون رسالة محمد ﷺ، ويقولون: الله أعظم من أن يكون بشرا، فهلا بعث الله إلينا ملكا، فأجابهم الحق سبحانه بهذه الآية.

والمعنى: لقد أرسلنا الرسل من البشر، مثل: إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى؛ لأن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، ولو فرضنا أن الله اختار ملكا للرسالة، لجعله فى صورة بشر؛ حتى يطبق الناس التفاهم والتخاطب معه، ثم توجه الخطاب إلى أهل مكة فقال الله لهم:

فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أى: أسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فهم أهل التوراة والإنجيل، وقيل: أهل الذكر، هم: أهل العلم بأخبار الأمم السابقة.

إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الرِّسْلَ بَشَرٌ ، يَخْبِرُونَكُمْ بِأَنْ أَنْبِيَاءَهُمْ بَشَرٌ ، كَمُوسَى ، وَعِيسَى ، وَأَنَّ الرِّسْلَ بَشَرٌ كُلَّهُمْ .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم .

قال تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ . (الأنعام : ٨) .

وقالوا : أَتَوَعَدُنَا بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا . (المؤمنون : ٤٧) .

وقالوا : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ . (المؤمنون : ٣٢ ، ٣٤) .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ . (يونس : ٢) .

لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ الْمَلَكَ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . (الفرقان : ٧) .

٤٤ - بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : أرسلنا الرسل رجالا من البشر ، وقد أرسلناهم بالبينات والزبر ، أى : بالمعجزات والكتب التى تحمل الشرائع والعبادات والمعاملات .

وَالزُّبُرِ : جمع زبور بمعنى : مزبور أى : مكتوب ، يقال : زبرت الكتاب : من باب نصر وضرب ، أى : كتبه كتابة عظيمة .

قال الفخر الرازى :

بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ . لفظة جامعة لكل ما تتكامل به الرسالة : لأن مدار أمرها على المعجزات ، الدالة على صدق من يدعى الرسالة وهى البينات ، وعلى التكاليف التى يبلغها الرسول من الله تعالى إلى العباد وهى الزبر . اهـ .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : أنزلنا القرآن الكريم عليك يا محمد ، وهو ذكر وشرف وبيان لك ولقومك ، وقد اشتمل القرآن الكريم على الأمور الكلية ، فهو أصل الشريعة وكلّى أمورها ، وفيه إجمال لأمّهات الفضائل ، وأصول

التشريع، والنبي ﷺ : شارح للقرآن ومبين له ، ومفصل لمجمله ، وموضح لمبهمه . قال ﷺ : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ...» (٧٤) .

جاء في تفسير ابن عطية ما يأتي:

وقوله : يُبَيِّنُ . يحتمل أن يريد : لتبين بسردك نص القرآن ما نزل ، ويحتمل أن يريد : لتبين بتفسيرك المجل ، ويشرك ما أشكل مما نزل ، فيدخل في هذا ما تبينه السنة من أمر الشريعة ، وهذا قول مجاهد (٧٥) .

وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . أى : أنزل الله القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ، على النبي الأمين : ليشرح للعباد أمور دينهم ، ويبين لهم ما فى كتاب الله تعالى ، ويوضح لهم أهدافه ومراميه : حتى يثير فى الناس أسباب التأمل ، والتفكر فى آيات القرآن الكريم والاتعاظ بها والعمل بمقتضاها ، قال تعالى : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ . (ص: ٢٩) .

وفى كتب علوم الحديث ، نجد بياناً مستفيضاً لمنزلة الحديث الشريف : فهو الأصل الثانى من أصول التشريع ، والرسول ﷺ مبلغ للناس هذا الكتاب وشارح له ، والكتاب لا يستغنى عن بيان الرسول ﷺ وشرحه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام قرآناً متحركاً ، يجسد الوحي ، ويشرحه بالقول والعمل والإقرار . سئلت السيدة عائشة عن خلق الرسول ﷺ ، فقالت : « كان خلقه القرآن » (٧٦) .

وهذه الآية توضح منزلة السنة ، فهى ضرورية لشرح القرآن ، وتفصيل أحكامه ، قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

٤٥ - أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

هذه الآية تهديد لأهل مكة ، بأن تصيبهم ألوان العذاب ، التى أصابت السابقين ومنها: الخسف ، ونقص الأموال والأولاد ، والأخذ فجأة ، وإلقاء الرعب والخوف ، ثم الهلاك والدمار ، والاستفهام فى الآية الكريمة للتعجب والتوبيخ ، وإلقاء اللعطف على مقدر دل عليه المقام ، والتقدير : أجهل الذين مكروا السيئات ، وعيد الله لهم بالعقاب ، فأمنوا مكروه ؟!

والمراد بمكر السيئات : سعيهم بالإفساد بين المؤمنين ، على سبيل الإخفاء والخداع ، ورغبتهم فى صد المؤمنين عن الإيمان بالله ورسوله .

أَنْ يَخْصِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ .

بمعنى: أن تشق الأرض فتبتلع المصوف به ؛ كما حدث لقارون ، قال تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ . (القصص: ٨١) .

أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

أى : ينزل بهم العذاب فجأة من حيث لا يتوقعون ، كما صنع بقوم لوط .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ... (الحشر: ٢) .

٤٦- أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَغْلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ .

أى : يأخذهم بالعذاب حال كونهم فى عز ونعيم ، يتحركون بالسفر والتجارة ، ومحاولتهم المعاش بالحركة والرعاية ، والعمل والأمل فى السفر والحضر .

فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . لا يعجزون الله فيما أراد بهم من العذاب ، والمعجز : المفلت هرباً كأنه عجز طالبه .

وفى معنى الآية قوله تعالى:

لَا يَغْرُنَكُ ثَغْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ * مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْجَهَادِ . (ال عمران: ١٩٦، ١٩٧) .

ففى قدرة الله أن ينتقم من الظالم ، على أى حال ؛ سواء أكان نائماً هادئاً ، أو متحركاً مسافراً متقلباً، وسواء أكان خائفاً من العذاب مترقباً له ، أو آمناً وادعاً لا يتوقع العذاب ولا ينتظره .

قال تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا اللَّهَ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَقْشَرُ الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف: ٩٧-٩٩) .

٤٧- أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنْ رَكِبُوا رَجِيمٌ .

التخوُّف فى اللغة: يأتى مصدر تخوَّف القاصر ، بمعنى: خاف ، ويأتى مصدر تخوف المتعدى بمعنى: تنقص ، وهذا الثانى لغة هذيل .

والمعنى على الأول :

أو يأخذهم وهم فى حالة خوف ، وتوقع نزول العذاب بهم ، كما نزل بالذين من قبلهم .

قال ابن كثير : فإنه يكون أبليغ وأشد ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد .

والمعنى على الثاني :

أو يأخذهم وهم فى حالة تنقص فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم حتى يهلكوا ؛ فيكون هلاكهم قد سبقه الفقر والقحط والمرض .

جاء فى تيسير التفسير :

أو التخوف: التنقص ، بمعنى : إهلاكهم كلهم ، لكن قوما بعد قوم ، ومالاً بعد مال ، حتى يأتى على الكل .

قال عمر رضى الله عنه على المنبر : ما المراد بالتخوف ؟ ، فقال شيخ من هذيل : التخوف: التنقص فى لغتنا ، فقال : هل تعرفه الشعراء ؟ قال نعم : قال شاعرنا أبو كبير الهذلي يصف ناقته :

تخوف الرجل منها تامكا قرذاً كما تخوف عود النبعة السفن

فقال عمر : عليكم ديوانكم ، لا تضلوا ، أى : فى تفسير القرآن ؛ قالوا وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ؛ فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعانى كلامكم^(٧٨) .

فَإِنْ رَبِّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ .

إن أمهلهم فيزداد عذهم قطعاً ، وقد يؤمن بعضهم ، والآيات فى جملتها تهديد للكافرين ، من التمدادى فى كفرهم ؛ حتى لا يتعرضوا لعذاب الله تعالى ، وذكرنا ألواناً من العذاب ، منها : الخسف ، وعذاب الفجاءة ؛ كالزلازل والصواعق ، أو القحط والأمراض ، فننقص ثرواتهم وأموالهم وأولادهم ، ثم يصيبهم الهلاك وهم فى نقص وضعف ، وتخوف من الهلاك .

٤٨- أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَّبِعُوهُ ظُلُمْلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ .

والمعنى : أعمى هؤلاء المشركون ، الذين مكروا السيئات ، ولم ينظروا إلى ما خلق الله تعالى من الأجسام القائمة كالأشجار والجبال ، التى تتفيؤ ظللالها ، وترجع من موضع إلى موضع ، عن اليمين والشمال ، فهى فى أول النهار على حال ، ثم تنقلص ، ثم تعود إلى حال أخرى فى آخر النهار ، مائلة من جانب إلى جانب ، ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها ، خاضعة كل الخضوع لما سخرت له .

والاستفهام فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا . للإنكار والتوبيخ ، والرؤية بصرية

أى : قد رأوا كل ذلك ، ولكنهم لم ينتفعوا بما رأوا ، ولم يتعظوا بما شاهدوا ، ثم أتبع سبحانه وتعالى هذه الآية بآية أخرى مؤكدة لها ، فهى كالدليل لما سلف فقال :

٩- وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

أى : يخضع ويخشع ، ويستسلم لعظمة الله وقدرته ، ما فى السماوات ، وما فى الأرض مما يدب عليها وكذلك ملائكته الذين فى السماوات وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له .

٥٠- يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

أى : إن من صفات الملائكة أنهم يخافون ربهم ، الذى هو من فوقهم بجلاله وقهره ، وعلوه - بلا تشبيه ولا تمثيل - ، ويفعلون ما يؤمرون به من الطاعات ، ومن كل ما يكلفهم به سبحانه ، دون أن تصدر منهم مخالفة ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمَلُهُمْ بِالْغُدْرِ . (الرعد: ١٥) .

ومجمل القول:

إن المخلوقات تدين لعظمة الله تعالى ، وتخضع لقدرته بأسرها ، جمادها ونباتها وحيوانها ، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُوا لِلْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ ﴾ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفْغَرِ اللَّهُ نَفْقُونَ ﴾ (٥٢) وَمَا يَكُمُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ ﴾ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانِسْتُمْ مِنْهُمْ فَتَمْتَعُوا فَأَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥٥)

المفردات :

الرهيبة ، الخوف .

السيدين ، الطاعة .

واصبنا ، دائما ، كما قال : لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . (الصافات: ٩) .

تجسرون ، تتضرعون لكشفه ، وأصل الجؤار: صياح الوحش ، ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

تهديد :

لما بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة : أن كل ما فى الكون من إنس وجن ، وحيوان وجماد ، ونبات وملك ، منقاد لله وخاضع لسلطانه ، أتبع ذلك بالنهى عن الشرك به ، وبين : أن كل ما سواه فهو فى ملكه ، وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان لا يتضرع إليه إلا إذا مسه الضر ، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره ، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد .

التفسير :

٥١ - وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِى فَرَّهَبُونَ .

تحدث القرآن الكريم عن الوجدانية فى الذات والصفات والأفعال ، وردَّ على المشركين وفند حججهم ، مثل قوله تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، وقوله سبحانه : لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا . (الأنبياء: ٢٢) .

وفى هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى : لا تتخذوا آلهة سواى ، ولا تعبدوا إلها آخر ، إنما الله إله واحد لا شريك له ، وأنا الخالق الرازق المحيى المميت ، الباعث ، المحاسب المجازى على القليل والكثير .

فَإِنِى فَرَّهَبُونَ .

والمعنى : إن رهبتم شيئاً فإياى فارهبوا ، دون غيرى ؛ لأنى أنا الذى لا يعجزني شيء . وقوله : اثْنَيْنِ صفة لللفظ إلهين ، أو مؤكد له ، وخص هذا العدد بالذكر ؛ لأنه الأقل ، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بطريق الأولى .

وقوله سبحانه : إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ . بيان وتوكيد لما قبله وهو مقول لقوله سبحانه : وَقَالَ اللَّهُ ...

أى : وقال الله لا تتخذوا معى فى العبادة إلها آخر ، وقال أيضاً : إنما المستحق للعبادة إله واحد ، والقصر فى الجملة الكريمة من قصر الموصوف على الصفة ، أى : الله وحده هو المختص بصفة الوجدانية .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت على ألوان من المؤكيدات ، للنهى عن الشرك ، والأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده ، تارة عن طريق التقرير ، وَقَالَ اللَّهُ ... وتارة عن طريق النهى الصريح ، وتارة عن طريق التخصيص .. وذلك لكى يقلعوا عن زبدية الشرك ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار^(٣٤) .

٥٢ - وَهُوَ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الدِّينُ وَأَمِيبًا أَفْغَرِ اللَّهُ تَقُونُ .

أى : الله ملك السماوات والأرض وما فيها ، خلقا ورعاية ورزقا ، لا شريك له فى ذلك ، ولا منازع له فى أمره أو نهيه ، وله أيضا الطاعة والإخلاص ، على طريق الدوام والثبات ، فكل شيء فى الكون خاضع لأمره سبحانه بيده الخلق والأمر .

أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ .

والاستفهام هنا للإنكار والتعجب ، والفاء للتعقيب ، أى : أفبعد أن علمتم هذا تهابون غير الله ، وتحذرون أن يسلبكم نعمة ، أو يجلب لكم أذى ، أو ينزل بكم نقمة ، إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، ومالك نافع سواه .

وإجمال ذلك : أن الله له ملك هذا الكون ، وهو بأكمله خاضع لمشيئته ، وهو المتصرف فيه بقدرته ، فكيف تخافون غيره ، أو تهابون سواه .

٥٣- وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ .

نعم الله تعالى فى هذا الكون لا تحصى ، وأفضاله لا تستقصى ، فنعمة الخلق ونعمة الرزق ، ونعمة الهداية ، ونعم النسل والذرية ، ونعمة راحة البال ، وغير ذلك من وجود الطعام والماء والصحة ، والسمع والبصر ، والخلق والإماتة ، والبعث والجزاء ، كلها أنعم متعددة ، كما قال سبحانه وتعالى : وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا . (إبراهيم: ٣٤) .

وكلمة : نِعْمَةٌ مفردة يراد بها: الجمع ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد فى معنى الجمع - اعتماداً على القرينة - من أبلغ الأساليب الكلامية ، تقول : ألقى فلان كلمة بليغة ، والمراد: أنه ألقى خطبة أو حديثاً ، قال ابن مالك : ... وكلمة بها كلام قد يؤم .

وإذا كانت النعم كلها من الله تعالى : فقد وجب على العبد أن يشكره ويطيعه ، ولا يقترب ما نهى عنه ، وفى الحديث الشريف : « أحبوا الله لما يغذوكم به من النعم ، وأحبوني بحب الله » .

ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ .

تصور هذه الآية طبيعة البشر ، فهم يرون آثار نعم الله عليهم ، فى الشدة والرخاء ، لكنهم لا يلجئون إلى الله تعالى ، إلا إذا أصابهم المكروه ، أو نزلت بهم نازلة يعجزون عن حلها أو احتمالها ، فتراهم فى الشدائد يجأرون بالدعاء ، ويرفعون أكف الضراعة والنداء ، راجين أن يرفع الله عنهم ما نزل بهم ، فإذا كشف الله عنهم الكرب ، وأزال الضر ، استرخى دعاؤهم ، وعادوا إلى دنياهم ، وقليل منهم من يذكر الله فى النعماء ، كما يذكره فى الضراء ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم .

قال تعالى : هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... (يونس ٢٣، ٢٢).

وقال تعالى : وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . (فصلت : ٥١).

وقال سبحانه وتعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمَسْرِ لِيْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (يونس : ١٢).

٥٤- ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

هذه طبيعة فريق من الناس ، يلجئون إلى الله تعالى في الشدائد ضارعين متلهفين ، فإذا استجاب الله لدعائهم ، وتحولت الشدة إلى رخاء ، إذا بفريق منهم ينسى ما كان فيه من شدة وبلاء ، وينسى فضل الله عليه في استجابة الدعاء ، ويجعل الله شركاء في العبادة ، فيعبدون الأوثان ويذبحون لها الذبائح ، شكراً لغير من أنعم بالفرج وأزال من الضر .

ونحو الآية قوله تعالى : إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمْ يَنجِكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا . (الإسراء : ٦٧) .

جاء في تفسير الآلوسی :

وفى الآية ما يدل على : أن صنيع العوام اليوم ، من الجوار إلى غير الله تعالى ، ممن لا يملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً - عند إصابة الضر بهم ، وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية - سفة عظيم ، وضلال جديد ؛ لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعر منه الجلود ؛ حصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المتشixين قال لى وأنا صغیر : إياك أن تستغيث بالله إذا خطب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجل إغاثتك ، ولا يهملهم سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالخين ، فإنهم يُعجلون فى تفريج كربك ، ويهملهم سوء ما حل بك ؛ فمجد ذلك سمعى وهمى دمعى ، وسألت الله تعالى : أن يعصمنى والمسلمين ، من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشixين اليوم كلمات مثل ذلك . ١ هـ .

٥٥- يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : لقد قبيضنا لهم النعم ، وأجبنا دعاءهم وكشفنا عنهم الضر ، وكان الواجب منهم الشكر ، لكن عاقبة أمرهم ، أنهم كفروا وجدوا نعمة الله عليهم ، فاللام هنا لام العاقبة أو الصيرورة .

قال الشوكاني :

واللام فى يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ... لام كى ، أى : لكى يكفروا بما آتيناهم من نعمة كشف الضر ، حتى لكان هذا الكفر منهم ، الواقع فى موقع الشكر الواجب عليهم ، غرض لهم ومقصد من مقاصدهم ، وهذا غاية فى العنوت والعناد ، ليس وراءها غاية ، وقيل : اللام للعاقبة ، يعنى : ما كانت عاقبة تلك التصرفات إلا الكفر ... اهـ .

فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : تمتعوا فى هذه الحياة الدنيا ، إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وقت لحياتكم ، وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما عملتم ، وسوء ما كسبت أيديكم ، وتندمون ولات ساعة مندم .

★ ★ ★

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَسَعَلَنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ٥٦ ﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوِيٍّ مِنْ سَوْءِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ ٥٩ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أُرِيدُ لَهُ فِي الْآرَابِ الْأَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٦٠ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦١ ﴾

المفردات :

تفترون : تكذبون .

البشارة : فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثر فى تغيير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن ، فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السار ، يقال لمن لقي مكروها : قد اسودَّ وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور : استنار وجهه وأشرق .

الكظيم ، الممتلئ غمًّا وحزنًا ، والكظم مخرج النفس ، يقال : أخذ بكظمه ؛ إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى : حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس .

يتوارى ، يستخفى ، وقد كان من عادتهم فى الجاهلية ، أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامراته ، فإن أخبر بذكر ابتهاج ، وإن أخبر بأنثى حزن ، وبقي متواريا أيامًا يدبر فيها ما يصنع .

يمسكه ، يحبسه ، كقوله تعالى : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ . (الأحزاب : ٣٧) .

الهمون ، الهوان والذل .

يدسه ، يخفيه .

مثل السوء ، الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد ، وكرهاتهم للبنات ؛ خوف الفقر والعار .

ولله المثل الأعلى ، الصفة العليا ، وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

تمهيد :

بعد أن بين سبحانه ، سخف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم ، التى تمجها الأنواق السليمة .

التفسير :

٥٦ - وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ...

أى : ويجعل هؤلاء المشركون ، للأصنام التى لا يعلمون منها ضرًّا ولا نفعًا ، نصيبًا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرها .

ويجوز أن يكون المعنى : ويجعلون للأصنام التى لا تعلم شيئًا ؛ لأنها جماد لا يعقل ولا يبصر - يجعلون لها نصيبا مما رزقناهم : فتركوا التقرب إلى الخالق الرازق المستحق للحمد والشكر ، وتقربوا إلى الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، وقد فصلت سورة الأنعام ذلك فى قوله تعالى :

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الأنعام : ١٣٦) .

تَاللَّهِ لَئِن سَأَلْنَا عَنْكُمْ لَتَقَرُّوْنَ . أى : أقسم لأسألكم عما اقترفتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة ، تكون كفءا كفرانكم نعمى ، وافترانكم على ، وقريب من ذلك قوله تعالى : قَوْمُكَ لَنَسْأَلُهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الحجر : ٩٢، ٩٣) .

٥٧- وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْآبَتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ .

تشير هذه الآية إلى ما كان شائعاً في بعض القبائل العربية في الجاهلية ، من أنهم كانوا يزعمون: أن الملائكة بنات الله ، إذ قالت قبيلة خزاعة وقبيلة كنانة : إن الملائكة بنات الله ، ثم عبدوا الملائكة مع الله تعالى ، فأخطئوا بذلك خطأ كبيراً ، وضلوا ضلالاً بعيداً ؛ إذ نسبوا إليه الأولاد ، وهو منزّه عن الصاحبة والولد ، وأعطوه أخس الأولاد في زعمهم ، واختصوا أنفسهم بالذكر ، قال تعالى : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا . (الزخرف: ١٩) .

وقال سبحانه : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ . (النجم: ٢١، ٢٢) .

وقال عن شأنه: أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (الصافات: ١٥١-١٥٤) .

وكانوا يدعون: أن الله تعالى تزوج من الجن فولدت له الملائكة ، قال سبحانه : وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . (الصافات: ١٥٨) .

والمراد من قوله سبحانه : وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ . أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ، ويألفون من البنات ، التي نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال ابن عباس: المعنى : تجعلون لى البنات ، وترتضوهن لى ، ولا ترتضوهن لأنفسكم ، ثم أكد ما سلف بقوله سبحانه :

٥٨ ، ٥٩- وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

تحكى هذه الآيات جانباً من ردائل بعض القبائل العربية ، التي كثر بينها الحرب والغارة والقتال ، والعدوان ودفع العدوان والثأر ، فأكلت الحرب رجالهم وأموالهم ، وكانوا لا يهتنون إلا بثلاثة أشياء ، شاعر ينبغ ، أو ذكر يولد ، أو فرس تنتج ، وكلها عدة الحرب .

فالشاعر يمدح قبيلته ويتغنى بأمجادها ، ويهجو أعداءها ، والولد الذكر عدة الحرب والغارة ، فى بلد لا سلطان فيه ولا قانون . وإنما السيف هو السلطان والقانون ، والفرس : هو الخيل التي أقسم الله بها فى كتابه ، وكانت عدة الحرب فى الجاهلية والإسلام .

كانت بعض القبائل العربية تذكره ولادة الأنثى ، وقد وصف القرآن ذلك بأبلغ وصف ، وعبر عنه أقوى

تعبير :

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ...

فإنذا علم أحد هؤلاء المشركين أنه ولد له أنثى ؛ ظل وجهه كتيباً حزيناً ، مسوداً من الهم ، ممتلئاً

غظاً وحنقاً ، من شدة ما هو فيه من الحزن.

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ...

فهو يختفى عن القوم حياءً وخجلاً ، وحزناً وكمداً ؛ من أجل أن زوجته ولدت له أنثى ، ولم تلد له

ذكراً ، ويدور بخلدته أحد أمرين :

١- إما أن يمسكها ويبقيها على قيد الحياة ، لكن بقاء ذلة وهوان ، فلا يورثها ولا يعنى بها ، بل يفضل الذكور عليها .

٢- وإما أن يدفنها فى التراب ، وهى على قيد الحياة ، فيقتلها دون أن ترتكب ذنباً أو إثماً ، قال تعالى :

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . (التكوير: ٩٠/٨) .

أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أى : يتس الحكم حكمهم ، ويتس الفعل فعلهم ؛ حيث نسبوا البنات إلى الله ، وظلموهن ظلماً شنيعاً ،

حيث كرهوا وجودهن ، وأقدموا على قتلهن ، بدون ذنب أو ما يشبه الذنب .

وصدّر سبحانه هذا الحكم العادل عليهم ، بحرف ألا الاستفتاحية ؛ لتأكيد هذا الحكم ، ولتحقيق أن

ما أقدموا عليه ، إنما هو جور عظيم ، قد تمالئوا عليه بسبب جهلهم الفاضح ، وتفكيرهم السيئ .

وأُسند سبحانه الحكم إلى جميعهم ، مع أن من فعل هذا كان بعضاً منهم ؛ لأن ترك هذا البعض يفعل

ذلك الفعل القبيح ، هذا الترك هو فى ذاته جريمة يستحق عليها الجميع العقوبة ؛ لأن سكوتهم على هذا

الفعل مع قدرتهم على منعه يعتبر رضا به .^(٨١)

٦٠- لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

أى : للذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما فيها من حساب وثواب وعقاب ؛ مَثَلُ السَّوْءِ . أى : صفة السَّوْءِ ،

التي هى كالمثل فى القبح ، وهى وأدهم البنات ، وقولهم : الملائكة بنات الله ، وفرحهم بولادة الذكور ،

وكرهم لولادة الأنثى ، فهذه الصفات تدل على صلفهم وغبائهم وسوء تفكيرهم .

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى أَيْ : الصفة العليا ، وهى أَنَّهُ الواحد الأحد ، المنزه عن الولد والولد ، والمتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص ، فهو العلى العظيم القادر الوهاب ، العليم الحكيم العزيز الملك القدوس السلام، المؤمن ، المهيم الجبار القهار ، الخالق البارئ المصور ، بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير .

وَهُوَ الْغَزِيرُ فِى مَلِكِهِ بِحَيْثُ لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ .

الْحَكِيمُ فِى أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

قال الشوكاني :

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ .

هذا وجه آخر فى الردِّ على من قال عن الملائكة : إنها بنات الله ، فإن الولد مثل أبيه ، أى : اختاروا أضعف الجنسين ؛ ليكون عندهم مثلاً لله ، بل لهؤلاء الذين وصفوا الله سبحانه بهذه القبايح الفظيعة ، مَثَلُ السَّوْءِ ، أى : صفة السوء من الجهل والكفر بالله .

وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى .

من الغنى الكامل والجلود الشامل والعلم الواسع^(٨٧) .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾^(٨٨) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَيَصِفُ أَلْسِنَهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْحُسْنَى لَاجِرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴾^(٨٩) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ فِيهِمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴾^(٩٠) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾^(٩١)

المفردات :

دَابَّةٌ : الدابة: كل ما يذب على الأرض ، ويدخل فيه الإنسان .

إلى أجل مسمى : أى : إلى موعد مقدّر .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ، مِنَ الْبَنَاتِ بَزَعَهُمْ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ .

أَن لَّهُمُ الْحَسَنَى : الذكور أو الجنة .

لَا جَرَمَ : حقاً .

مُفْرَطُونَ : منسيون مضيعون ، متروكون في النار .

تَاللَّهِ : أقسم الله عز وجل بنفسه .

فَهُوَ وَلِيُّهُمْ : ناصرهم في الدنيا ، وبئس الناصر .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : موجع في الآخرة .

الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ : في دين الله ، فَتَعَرَّفَهُمُ بِالصَّوَابِ .

التفسير :

٦١ - وَلَوْ يُوَاعِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .

تفيد هذه الآية : حكمة الله ورحمته بعباده : فقد خلق الله الخلق ومنحهم العقل والإرادة والاختيار ، وأعطاهم فرصة سانحة في هذه الدنيا طوال حياتهم فيها ، ولو عاجل الله الناس بالعقوبة : لأهلك الظالمين والكافرين جميعاً ، وصارت الأرض يباباً : لكثرة من هلك من الظالمين والكافرين ، لكن الله جلت حكمته يؤجل هلاك الإنسان ، ويمنحه فرصة كاملة : لعله أن يتوب أو يسترجع ، فإذا جاء أجل الإنسان وحان موته ، فإن روحه تخرج في لحظة محددة ، لا تتقدم عنها أي وقت مهما كان صغيراً ، ولا تتأخر عن أجلها لحظة أو برهة .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء مرفوعاً : « إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد : فيدعون له من بعده : فيلحقه دعاؤهم في قبره ! فذلك زيادة العمر » (٨٧) .

٦٢ - وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ .

أي : إن المشركين يجعلون لله البنات والشركاء وهم يكرهون البنات ، ويكرهون أن يشاركهم أحد فيما يملكون ، ثم يتحدثون كذبا وزوراً : أن لهم العاقبة الحسنة ، والجزاء الأفضل في الجنة ، فهم يعملون عملاً سيئاً ، ويزعمون كذبا : أن لهم الحسنَى في الآخرة ، مع أنك لا تجنى من الشوك العذب ، وعقيدة الكفر وسلك الكافرين ، لا يؤدي إلا إلى النار في الآخرة .

لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ . أَيْ : حَقًّا إِنَّ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ النَّارَ وَعَذَابُهَا ، وَأَنَّهُمْ مَقْرُطُونَ ، أَيْ : معجلون إلى النار من الفرط ، وهو السابق إلى الورد ، ومن معاني : مُّفْرَطُونَ . متروكون منسيون مطيعون ، ولا منافاة بينهما ؛ لأن الكفار يُعَجَّلُ بهم إلى النار ، وينسون فيها ويخلدون فيها أبد الأبد ، ودهر الداهرين .

٦٣- تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ يَصِفُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أقسم الحق سبحانه وتعالى بنفسه مؤكداً : أنه أرسل رسلاً ، وأنزل عليهم كتباً ، ويعتبرهم إلى أمم متعددة ، كأمة إبراهيم وأمة موسى ، وأمة عيسى ، وأمة نوح ، وأمة عاد ، وأمة صالح ، وغيرهم من الأمم ، لكن هذه الأمم لم تستجب لدعوة الأنبياء ، ولم تبادر إلى تصديق الرسل ، بل صدوا عن سبيل الله ، وكفروا برسول الله ، وزين لهم الشيطان هذا الكفر ، وأغراهم به فأثروا الباطل ، ورفضوا الإيمان ، وفي يوم القيامة ليس لهم ولي إلا الشيطان ، وعندئذ يرضخون تحت العذاب ، ويصلون جهنم ولا تنفعهم ولاية الشيطان .

وقريب من هذا المعنى قال الله تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ... (إبراهيم: ٢٢).

ويحتمل أن يكون معنى فَهُوَ يَصِفُ الْيَوْمَ : الإشارة إلى كفار مكة ، فيكون المعنى : تالله لقد بعثنا قبلك يا محمد رسلاً إلى أقوامهم ، فحسّن الشيطان لهم أعمالهم القبيحة حتى كذبوا الرسل ، ومثل هذا التزيين والتكذيب ، ما يقوم به كفار مكة ، فالشيطان وليهم اليوم ، وناصرهم ، وئس الناصر ، ولهم عذاب أليم في الآخرة : جزاء تكذيبهم الرسل وكفرهم بالله .

وقريب من هذا المعنى الثاني قوله تعالى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (البقرة: ٢٥٧).

٦٤- وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا تِبْيَانٌ لِّهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أَيْ : أنزلنا عليك القرآن - يا محمد - لتبين لهم وجه الصواب فيما اختلفوا فيه ، من العقائد والعبادات والمعاملات والحلال والحرام ، وليكون القرآن هداية وإرشاداً وبياناً ، ورحمة لمن أراد الإيمان والاهتداء بهدى السماء ، فالقرآن يشتمل على تعاليم السماء ، وهذا القرآن مصدقاً للكتب السابقة في جملتها ، ومهيئاً عليها ؛ لبيان وجه الحق فيم اختلف فيه أهلها ، وفي نفس الوقت هو رحمة وهداية لمن

اهتدى وآمن، أما من كفر وكذب وصدّ عن الحق، فهو خارج عن الاستفادة بهدى القرآن، بل أصبح القرآن حجة عليه، وزاده نزول القرآن إعراضاً وكبراً وعتواً.

قال تعالى: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ لِّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . (فصلت: ٤٤).

★ ★ ★

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّذِينَ هُمْ فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا يَغِيَّ الشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

المضردات :

فأحيا به الأرض : المراد بحياة الأرض : إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر .

يسمعون : سماع تدبر وفهم ، بقلوبهم لا بأذانهم .

لعبرة : الاعتبار والعظة .

الشمير : كنيف ما يبقى من المأكول في الكرش والمعى .

ودم لبننا خالصا : أى : مصطفًى من الدم والغث ليس عليه لون دم ، ولا رائحة فرث .

سائغا للشاربين : سهل المرور فى الحلق ، يقال : ساغ الشراب فى الحلق ، أو ساغه صاحبه ، قال تعالى: وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ .

السُّكَّر : الخمر .

الرزق الحسن : الخلّ والتمر والزبيب ونحو ذلك .

وأوحى : ألهم وعلم وقذف فى أنفسها ففهمته .

النَّحْلُ : زنابير العسل واحدها : نحلة .

يعرَّشونَ : يرفعون من الكروم والسقوف .

السُّبُلُ : واحدها : سبل .

ذُلُلًا : واحدا : ذلول ، أى : منقاد طاعة .

شُرَّابًا : عسلا .

مختلف ألوانه : من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى .

تمهيد :

تشتمل الآيات على دلائل القدرة الإلهية ، فالله أنزل من السماء المطر وبه تخضر الأرض وتنبث ، ومن نعم الله : إخراج اللبن من الأنعام خالصا سائغا للشاربين ، ويسر لنا اتخاذ الخمر والخلّ واللبس من الأعناب والنخيل ، ويسر لنا استخراج عسل النحل : وألهم النحل بناء البيوت ، والبحث عن أرزاقها فى كل فج .

التفسير :

٦٥ - وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

نلاحظ يد القدرة الإلهية فى إعمار هذا الكون وحفظ توازنه ، فالشمس ترسل أشعتها على البحار والمحيطات ، فيتصاعد البحر إلى السماء ، فيرسل الله الرياح فتثير السحاب ، ثم يتساقط مطرا بمشيئة الله تعالى ، وهذا المطر يحيى الأرض ويتسبب فى إنبات النبات والثمار ، وحياة الإنسان والحيوان ، وإعمار الكون، قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . (فصلت : ٣٩) .

والمعنى : وإن من دلائل قدرة الله تعالى ، إنزاله المطر ، حيث تنبت الأرض الثمار والأعناب وساند النباتات ، وفى هذا آية ودليل على ألوهية الخالق ، لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ بقلوبهم ، وأفئدتهم ، دعوة الحق : فيستجيبون لها .

٦٦ - وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَلْعَمِ لَعِبْرَةٌ لِّتُسْقِىَ مِنْهَا فِي بُطُونِهِمْ إِنَّهُمْ قُرْئٌ وَكُنَّا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ .

من دلائل القدرة الإلهية: أن الحيوان يتغذى ببعض نبات الأرض ، فيتحول الطعام إلى قسمين : فضلات من الفرث تكون فى كرش الحيوان ، وعصارة من الدم تغذى الجسم ، وتمده بالطاقة التى يحتاج إليها ، وهذا الدم أيضا يذهب جزء منه إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن فكأن الصانع الحكيم جعل هذه الغدد معملا ومصنعا ، لتحويل الدم إلى لبن ، هذا اللبن النقي السائغ المستساغ للشرب ، النافع

للصغير والطفل والكبير ، هذا اللبن من أفضل الأطعمة ، التي يستفيد بها الجسم ، وهو دليل الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهى الإسلام ، وفى الحديث الصحيح : أنه فى ليلة الإسراء والمعراج ، قدّم جبريل للنبي ﷺ إناءين أحدهما من خمر ، والآخر من لبن ، فاختر الرسول ﷺ اللبن ؛ فقال له جبريل : اخترت الفطرة .

وروى أبو داود وغيره : عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ بلبن ، فشرب ، ثم قال : « إذا أكل أحدكم طعاما فليقل : اللهم بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه ، وإذا سقى لبنا فليقل : اللهم ، بارك لنا فيه ، وزدنا منه ، فإنه ليس شئ يجزئ عن الطعام والشراب إلا اللبن » .

٦٧- وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ . وهو : التمر والدبس والربط والعجوة ، ومن ثمراتِ الْأَعْنَابِ ، وهو العنب والزبيب ؛ تتخذون من هذه الثمرات سَكَرًا يسكر ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وَرِزْقًا حَسَنًا . كالخل والمريّة والزبيب ، ونحو ذلك .

قال ابن عباس :

السُّكَّرُ : ما حرّم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن : ما حلّ من ثمرتيهما .

فالآية تصف الواقع ، ولم تقل : سكرنا حسنا ، بل قالت : سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا . وقد كانت هذه حلقة ، فى سلسلة تحريم الخمر بالتدرج ، فقد كانت الخمر متمكنة من العرب ، فكان من الحكمة أن يندرج القرآن فى تحريمها ، فذكر : أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ سَكَرًا من ثمار النخيل والأعنان ، والسُّكَّرُ هو ما يسكرهم ؛ لذلك لم يتحدث عنه القرآن بالتحسين ، بل قال : سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا .

ثم ذكر : أَنَّ فى الخمر والميسر منافع ومضار ؛ لكن المضار أكثر من المنافع ، قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا . (البقرة : ٢١٩) .

ثم نبى عن الاقتراب من الصلاة فى حالة السكر فقال سبحانه : يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى . (النساء : ٤٣) .

ثم حرم الله تعالى الخمر والميسر تحريما قاطعا فقال سبحانه : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدة : ٩٠) .

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

أى : إن فى ذلك لآية باهرة ، ودليلا قاطعا على نعم المنعم سبحانه ، لقوم يستخدمون عقولهم بالنظر والتأمل ، فيصلون إلى توحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى .

٦٨- وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ...

تحدث الآية عن قدرة الحق سبحانه فى تنظيم هذا الكون وإبداعه ، وإتمام الخلق وإكماله ، فقد تحدث فيما سبق : عن إنزال الماء وفائدته ، وعن تيسير اللبن ومزاياه ، وعن فوائد ثمرات النخيل والأعناب ، ثم تحدثت الآية عن نعمة الله على النحل ، حيث ألهم النحل ، وأودع فيها طريقة العمل الجماعى ، وتنظيم العمل فيما بينها ، بطريقة تعجز عن تطبيقها أعظم العقول ، فالنحل يتخذ بيوته فى ثلاثة أماكن ، بين الجبال أى : فى الفرجات التى تكون فى الجبل ، وفى الفجوات التى تكون فى الشجر ، وفوق العريش الذى يصنعه الإنسان : لتربية النحل والاستفادة بالعسل .

٦٩- ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

جاء الحديث فى الآية السابقة ، عن إلهام النحل: أن تتخذ بيوتها من بعض الجبال ، ومن بعض الأشجار ، وفوق العروش التى يصنعها الإنسان ، فليس كل جبل صالحا لحياة النحل ، ولهذا جاءت من التبعية ، أى : اتخذى من بعض الجبال .

وهنا أباح الأكل من جميع ما تشتهي ، وما تحب أكله من الثمرات ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ . أى : الطل والمَرَّ والحامض والحريف ، ويتحول بقدرة القادر إلى شهد .

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا . أى : سيرى فى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكها ، وتدخل فى فيها لطلب الثمار ، ولا تعسر عليك وإن تورعت ، ولا تضل عن العودة منها وإن بعدت .

والخلاصة : سيرى فى الطرق والمسارات التى دللها الله لك ، ويسرك السير فيها ، والعودة منها إلى منزلك ، أو سيرى حال كونك مذلة لله مسخرة منقادة لخدمة الإنسان .

يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .

كان الحديث عن النحلة فيما سبق ، وهنا اتجه الحديث إلى الناس : لإعلامهم بفضل الله عليهم .

والغنى: يخرج من بطون النحل شراب هو العسل، متعدد الألوان، فتارة يكون أبيض، وأخرى أصفر، وحيناً أحمر، بحسب اختلاف المرعى.

فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ.

أى: إن العسل نافع لكثير من الأمراض، وكثيراً ما يدخل فى تركيب العقاقير والأدوية.

وقد اختلف العلماء فى هذا الشفاء، هل هو عام لكل داء، أو خاص ببعض الأمراض.

فقال طائفة: هو على العموم فى كل حال ولكل أحد.

وقالت طائفة أخرى: إن ذلك خاص ببعض الأمراض، ولا يقتضى العموم فى كل علة وفى كل إنسان، وليس هذا بأول لفظ خصص فى القرآن، فالقرآن مملوء منه، ولغة العرب يأتى فيها العام كثيراً بمعنى الخاص، والخاص بمعنى العام، ومما يدل على هذا، أن العسل نكرة فى سياق الإثبات، فلا يكون عاماً باتفاق أهل اللسان، ومحققى أهل الأصول. وتنكيره وإن أريد به التعظيم، لا يدل إلا على أن فيه شفاء عظيماً لمرض أو أمراض، لا لكل مريض، فإن تنكير التعظيم لا يفيد العموم.

وحديث البخارى: «إن أحمى استطلق بطنه»^(٨٦)، يفيد: معرفة الرسول ﷺ، بأن هذا المرض يناسبه العسل، ولا نستطيع أن نقول: إن جميع الأمراض يناسبها العسل، بل نقول: العسل مناسب وشفاء لبعض الأمراض، وينبغى أن نرجع إلى معرفة الأطباء المختصين، ونتبع مشورتهم، وأن نمتنع عن أكل العسل إذا أفاد الطبيب: أنه غير مناسب لمرض من الأمراض^(٨٧).

إِنَّ لِي فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

أى: فيما ذكره الله تعالى من تعداد هذه النعم، وتسخير النحل وإلهامها: أن تأكل من كل الثمرات، وأن تتخذ البيوت من الجبال والشجر والعروش، وتيسير نظامها وعملها وخروج العسل منها: ليكون شفاء للناس: فى كل ما ذكر آيات ودلائل واضحات، لقوم يتفكرون ويتأملون، ويشهدون بأن كل ذلك من صنع الإله الواحد الأحد، الذى ليس كمثل شئ، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك، ولا تصح الألوهية إلا له.

ملحق بتفسير الآية

تتبع علماء المواليد أحوال النحل، وكتبوا فيها المؤلفات، بكل اللغات، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور:

(أ) أنها تعيش جماعات كبيرة، قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة، وتسكن كل جماعة منها فى بيت خاص يسمى: خلية.

(ب) أن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى: الملكة أو اليعسوب ، وهى أكبرهم جنة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعمئة وخمسمائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى: الشغالات أو العاملات .

(ج) تعيش هذه الفصائل الثلاث فى كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما ، فعلى الملكة وحدها وضع البيض ، الذى يخرج منه نحل الخلية كلها فهى أم النحل ، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر ، وعلى الشغالة خدمة الخلية ، وخدمة الملكات ، وخدمة الذكور ، فتنتقل فى المزارع طول النهار لجمع رحيق الأزهار ، ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا ، يتغذى به سكان الخلية صغارا وكبارا ... كما عليها أن تنظف الخلية ، وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن المملكة ، وحراستها من الأعداء ، كالنمل والزنابير وبعض الطيور .

من هدى السنة

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخى استطلق بطنه ، فقال له رسول الله : « اسقه عسلا » فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله ، سقيته عسلا ، فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ، ما زاده ذلك إلا استطلاقا ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فبرئ^(٨٧) .

وعلى هذا بعض الأطباء الماضين، قال :

كان لدى هذا الرجل فضلات فى المعدة ، فلما سقاه عسلا : تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، وكلما سقاه حدث مثل هذا ، حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام ، بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشفاء فى ثلاثة : شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهى أمتى عن الكى »^(٨٨) .

وروى البخارى أيضا عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن كان فى شيء من أدويتكم ، أو يكون فى شيء من أدويتكم خير ، ففى شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لدغة بنار توافق الداء ، وما أحب أن أكوى »^(٨٩) .

وقد تحدث الأطباء في القديم والحديث عن فضل العسل وأهميته في علاج بعض الأمراض ، وذكروا أن التركيب الكيماوى للعسل كما يلى :

من ٢٥ : ٤٠ ٪ جلوكوز .

من ٣٠ : ٤٥ ٪ ليفيولوز .

من ١٥ : ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فى العسل بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالغم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء الجسم ، مثل : التسمم البولى الناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضد التسمم فى الحميات ، مثل : التيفويد والالتهاب الرئوى ، والسحائى ، والمخى ، والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفى احتقان المخ ، وفى الأورام المخية . إلخ^(٨١) .

★ ★ ★

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ تُرَبُّوْنَ فَكُنْمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَوْدَلِ الْعُمُرِ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَوْجَحِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

المضردات :

أودل العمر : أضعفه وأواهه ، وهو وقت الهرم والشيخوخة ، يقال : ردل الشيء ، يردل ، ردالة : إذا ذهب جيده وبقي رديئة .

وحفدة : الحفدة : أولاد الأولاد ، من الحفد وهو الخفة فى العمل والخدمة ، كما جاء فى القنوت : وإليك نسعى ونحفد . روى عن ابن عباس أنه قال : الحفيد : ولد الابن والبنت ، ذكرا كان أو أنثى ، وقيل : المراد بهم : الأختان والأصهار ، أى : أزواج البنات وأقارب الزوجة ، وكلها أقوال متقاربة .

تمهيد:

بعد أن ذكر سبحانه عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس ، فذكرت مراتب أعمارهم ، فمنهم من يموت صغيرا ، ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ، ومنهم من يموت في مرحلة الشباب أو الكهولة ، ثم تُثَيَّ بذكر أعمال أخرى لهم ، وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق ، ثم ثلث بذكر نعمة ثالثة ، وهي أن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا ، وجعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ، ورزقهم المطاعم الطيبة من النبات ، كالثمار والحبوب والأشربة ، فمن الواجب شكر المنعم وعبادة الله وحده لا شريك له .

التفسير:

٧٠ - وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

خلق الله الخلائق من عهد آدم إلى قيام الساعة ، ويده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير ، فالطفل يولد صغيرا ، وتوجد معه الحواس المختلفة ، والسمع والبصر واليد والرجل ، ثم يصير فتى ، ثم شابا ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، وفي نهاية العمر تضعف قواه وذاكركه ويعتريه النسيان ، فإذا كسب علما في شيء لم يلبث أن ينساه ، ويذول من ساعته ، فيقول لك : من هذا ؟ ، فتقول له : هذا فلان ، فلا يمكث إلا هنيهة ، ثم يسألك عنه مرة أخرى .

وقد ذكر العلماء للإنسان أربع مراتب :

أولها : سن النشوء والارتقاء ، وثانيها : سن الوقوف وهو سن الشباب من ٣٣ إلى ٤٠ سنة ، وثالثها : سن بداية الضعف وهو سن الكهولة وهو من الأربعين إلى الستين ، ورابعها : سن الضعف الشديد ، وهو سن الشيخوخة ، وهو من الستين إلى نهاية العمر .

لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .

أي : فعلنا ما فعلنا من إبقاء بعض الناس إلى سن الشيخوخة ؛ لكي يصير إلى حالة شبيهة بحالة طفولته ، في عدم إدراك الأمور إدراكا تاما سليما ، أو لتكون عاقبته بعد العلم بالأشياء ، إلى أن لا يعلم شيئا منها علما كاملا ، وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يرُدَّ إلى أرذل العمر ؛ لأنها سن تتكاثر فيها المتاعب والآلام ، وقد يصير الإنسان فيها حالة على غيره .

روى البخاري عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من البخل والكسل ، والهرم ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وقتنة الدجال ، وقتنة المحيا والممات »^(١) .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

إن الله تعالى عليم بأحوال مخلوقاته ، لا يخفى عليه شيء من تصرفاتهم ، قديرٌ . على تبديل الأمور كما تقتضى حكمته وإرادته .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَهَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** . (الروم: ٥٤) .

وقال زهير بن أبي سلمى فى معلقته المشهورة :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطى يعمر فيهرم

لقد بين القرآن: أن المنايا ليست خبط عشواء ، إلا من ناحية الظاهر ، أما الحقيقة فهي تسير وفق خطّ القدر ، الذى كتبه الله فى الأزل ، وهو العليم بحال عبادہ ، القدير على تنفيذ المشيئة ، فمن الناس من يتوفى صغيراً أو شاباً أو كهلاً ، ومنهم من يعمر .

قال تعالى: ... **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا** .. (الحج: ٥) .

٧١- **وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** .

شاءت حكمة الله تعالى ، أن يجعل بعض الناس واسع الأرزاق ، وبعضهم قليل الرزق ، وبعضهم بين بين ؛ لحكمة يعلمها . حتى يستفيد الغنى من عمل الفقير ، ويستفيد الفقير من مكافأة الغنى .

قال تعالى : **وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنْزِلُ بَقْدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ** . (الشورى: ٢٧) .

ومن الأمثال المشهورة : إذا كنت أمير ، وأنا أمير ، من يسوق الحمير .

إن هذا التفاوت بين الناس فى المواهب والأرزاق ، سنة إلهية ، حيث قال تعالى : **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ** ... (الحج: ٧٥) .

وقال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ أَصْفَقَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة: ٢٤٧) .

ويذكر بعض المفسرين: أن نعم الله متعددة ، فالعلم ملك ، والخلق ملك ، والحكمة ملك ، والمال ملك ، وسائر العطايا والمواهب ، يعطى منها الوهاب بغير حساب .

قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ . (آل عمران: ٢٦) .

وَاللَّهُ فَضْلَ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ...

أى : من الناس الأغنياء ومنهم الفقراء ، ومنهم العلماء ومنهم الجهلاء ، ومنهم المملوك ومنهم المالك ، وام يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل فحسب ، فكثيرا ما ترى العبقري النابه ، لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهد ، بينما ترى الأحمق يتقلب فى النعيم ، كأنما يغترف الرزق من خليج البحر .

قال سفيان بن عيينة :

كم من قوى قوًى من تقلبه مهذب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيف ضعيف العقل مختلط كأنه من خليج البحر يغترف
ويقول آخر :

كم عاقل عاقل أعين مذهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

لكن الله حكمة خفية فى كل أعماله ، فقد يكون كثرة الرزق ابتلاء واختبارا ، وقد يكون الفقر اختبارا وابتلاء ، وقد تكون للإنسان مواهب قوية ، لكن موهبته فى تجميع المال محدودة ، وقد يكون الإنسان ضعيف الحيلة فى أمور كثيرة ، لكن موهبته فى استثمار المال عالية .

وفى الحديث القدسى: « إن من عبادى من لا يصلح له إلا الغنى ولو أفقرته ؛ لساء حاله ، وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر ولو أغنيته ؛ لساء حاله » .

فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بَرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ...

أى : إن الأغنياء والأثرياء ، والمالكين للخدم والعبيد ، لا يوزعون ثروتهم على العبيد والخدم ، حتى يتساوا جميعا فيما يملكون ، بل يحافظون على أموالهم وأملاكهم ، ولا يعطون أتباعهم وخدمهم منها ،

وإن أعطوهم أعطوهم النذر اليسير من المال ، وأمسكوا المال فى أيديهم ، إذا كان هذا شأن العباد مع بعضهم ، فكيف يشركون مع الله معبودات أخرى من مخلوقاته ، ويجعلونهم شركاء لله فى الألوهية .

قال العوفي: عن ابن عباس فى هذه الآية يقول :

لم يكونوا يشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون معى عبيدى فى سلطانى ..

جاء فى تفسير ابن كثير :

يقول تعالى منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم ، فكيف يرضى هو تعالى ، بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم !!

كما قال تعالى فى آية أخرى :

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ لِّمِمَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ... (الروم: ٢٨) .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله :

أَلَيْسَ لِلَّهِ يَجْحَدُونَ .

أى : أينعم الله عليهم بالمال والجاه والخلق والرزق ، ثم ينسبون هذه العطايا إلى غيره ، فيجددون نعمة الخالق الرازق الذى بيده الخلق والأمر ، والهمزة هنا للاستفهام الإنكارى ، والفاء معطوفة على مقدر ، أى: أيشركون به سبحانه فيجددون نعمه وينكرونها ويغفلونها حقها ، مع أنه تعالى هو الذى منحهم هذه النعم ، وتفضل عليهم بالأرزاق .

٧٢- وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِنْ لَطِيفَتِهِ ...

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وزوجه حواء ، وجعل من نسل آدم وحواء ذرية كثيرة ، وشاء الله أن تكون الزوجة من جنس الرجل ؛ ليحدث الأنس والمودة والرحمة ، وقد جعل الله هذا الأنس والمودة والرحمة ، آية من آيات الله ، وبذلك يتنعم الزوجان ويذوقان عُسيلة بعضهما ، قال تعالى :

وَمِنْ عَائِلَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم: ٢١) .

وقال ﷺ : « حُبَّ إِلَى مِنْ دِيَارِكُمْ ثَلَاثَ : النِّسَاء ، وَالطَّيِّب ، وَجَعَلَتْ قِرَةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١) .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .

نلمح هنا المساواة بين الرجال والنساء ، وقد كان بعض أهل الجاهلية يكره ولادة البنات ، ويتوارى خجلا إذا رزق بالبنات ، ويعتبر البنت مولوداً غير مرغوب فيه ؛ فيمسكه على هون أو يدسه فى التراب ، فلما جاء الإسلام ؛ كُرِّم إنسانية الإنسان .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي عَادَ . (الإسراء: ٧٠) ، وكُرِّم المرأة وليدة ، وناشئة ، وزوجة ، وأماً ، فالمرأة من نفس الرجل، وهى شقيقة الرجل ، وليست المرأة مخلوقاً من الدرجة الثانية ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . (النساء: ١).

وقال ﷺ : « النساء شقائق الرجال »^(٩٧) .

وقد جعل الله القوامه للرجل على زوجته ، مقابل النفقة والولاية والمسئولية عن الأسرة ، وهى ولاية مودة ورحمة وتعاطف ، لا ولاية غلظة وتجبر .

قال تعالى: أَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا آفَقُوا مِنْ أَمْرِ الِهِمْ ... (النساء: ٣٤).

قال الشيخ أحمد المراغى فى تفسير المراغى:

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً .

أى : والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم ، تأنسون بهن ، وتقوم بهن جميع مصالحكم ، وعليهن تدبير معاشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة - أى: أولاد ، وأولاد أولاد - يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاضر والفتاخر والمساعدة لدى البأساء والضرراء . ا هـ .

وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .

يتمن الله علينا بالأرزاق المتعددة فى المأكول والمشرب والمنكح ، والهدايا والملابس والمساكن ، وسائر الطيبات التى ينتفع بها الإنسان إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات .

أَفَبِلَاغِطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ .

أى : إن الله قد أنعم أهل مكة بالعديد من النعم ، التى أنعم بها على سائر البشر ، مثل: الأزواج، والأبناء ، والأحفاد ، والطيبات من الرزق ، لكنهم يؤمنون بالأوثان والأنصاب ، والشركاء والأنداد ، التى

لم تقدم لهم أى رزق، ويكفرون ويجحدون نعم الله المتعددة عليهم، فلا يقدمون له الشكر، ولا يعترفون له بالألوهية والوحدانية، ويأنه وحده الخالق الرازق، الذى لا شريك له، وقد استهل القرآن هذه الفقرة بالاستفهام الإنكارى: أَفَبَلِّغُ لِلَّذِينَ يُكْفَرُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ بِهِمْ يَكْفُرُونَ. فيشركون به ويخالفون عن أمره، وهذه النعم كلها من عطائه، وهى آيات على ألوهيته، وهى واقعة فى حياتهم، تلابسهم فى كل آن.

★ ★ ★

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٢) ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ رَأْسُهُ لَا تَعْمُونَ﴾ (٧٦) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آثَرِ رِزْقٍ حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦)

المضردات :

رزقا من السماوات : رزق السماء: المطر، ورزق الأرض: النبات والثمار التى تخرج منها.

فلا تضربوا لله الأمثال، لا تجعلوا له الأنداد والنظراء : فهو كقوله : فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا . (البقرة: ٢٢)، وضرب المثل للشئ، ذكر الشبيه له والمثيل، مع أنه سبحانه منزّه عن ذلك، قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى: ١١).

أحدهما أبكم : البكم : الخرس؛ وهو إمّا ناشئ من صمم خلقى، وإما لسبب عارض، ولا علة فى أذنيه، فهو يسمع، لكن لسانه معتل لا يطبق الكلام، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم؛ لأن الكلام بعد السماع، ولا سماع له.

الكل : الغليظ الثقيل من قولهم: كلت السكين، إذا غلظت شفرتها فلم تقطع، وكلت عن الأمن: ثقل عليه فلم يستطع عمله، وقد يسمّى اليتيم: كلًّا؛ لثقله على من يكفله، ومنه قول الشاعر:

أَكُولُ لِمَالِ الْكُلِّ قَبِيلَ شِبَابِهِ . إذا كان عظم الكلّ غير شديد

فالكل هو الإنسان الضعيف العاجز ، الذى يكون محتاجا إلى من يرمى شئونه .

على صراط مستقيم، أى : طريق عادل غير جائر .

تهديد :

تشنع الآيات على الكافرين ، فى عبادتهم الأصنام والأوثان ، مع عجزها وعدم قدرتها على رزق الآخرين ، وتنهى أن يجعل الله ندا أو مثيلا ، فهو سبحانه لا ند له ولا نظير ، ثم ضرب سبحانه مثلا ، قارن فيه بن عبد مملوك قاصر قليل الحيلة ، وحر متحرك ينفق سرا وجهزا هل يستويان ؟ ، وإذا امتنع ذلك فكيف يسوى المشركون القادر الرازق ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضّر .

والمثل الثانى : مثل رجلين :

أحدهما : أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير ، وهو عبء ثقل على سيده .

وثانيهما : رجل يأمر غيره بالعدل ، وهو متحدث ناطق ناصح لغيره ، جامع لخصال الخير فى نفسه ، متعدد المواهب والمزايا ، نافع لنفسه وللآخرين ، وفيه أيضا مقارنة بين صم لا يسمع ولا ينفع ، وبين رب قادر خالق رازق سميع مجيب .

التفسير :

٧٣ - وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ .

أى : إن هؤلاء الكفار يعبدون من دون الله أصناما ، لا تملك إنزال المطر ، ولا تملك إنبات النبات ، ولا تملك أى شئ من دلائل القدرة الإلهية ، التى تحدث القرآن عنها فيما سبق ، فهو سبحانه : خالق الإنسان ، وخالق الذكر والأنثى ، وخالق البنين والحفدة ، ورازق الإنسان من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، بينما نجد الكافرين يعبدون أصناما لا تنفع ، ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب ، ولا تستطيع ذلك لو أرادت ، فهى أصنام فى غاية الضعف وقلة الحيلة ، وأتبع ذلك بضرب مثلين يقارب فيهما بين الصنم العاجز والإله القادر سبحانه وتعالى .

٧٤ - فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : ليس لله مثال حتى تضربوا له الأمثال ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

قال الزجاج :

ورد : أن المشركين كانوا يقولون : إن إله العالم أجل من أن يعبد الواحد منك ، فكانوا يتوسلون إليه بالأصنام والكواكب ، كما أن أصاغر الناس يخدمون أكابر حضرة الملك ، وأولئك الأكابر يخدمون الملك فنفوا عن ذلك . ١ هـ .

فأله سبحانه : أقرب إلينا من حبل الوريد ، وقد فتح بابَه للداعين والتائبين ، والقاصدين في كل وقت وحين ، وهو سبحانه يقبل عباده ، الغنى والفقير ، والكبير والصغير ، والسوقة والأمير ، والمذنب والطائع ، فلا يجوز أن تقاس أحوال الخلائق على أحوال الخالق ، قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦) .

أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس أنه قال : فَلَا تُضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ .

أى : لا تجعلوا معى إلها غيرى ، فإنه لا إله غيرى . ا هـ .

إِنَّ اللَّهَ يَتْلُمُ وَأُتْمُ لَا تَعْلَمُونَ . إن الله يعلم كنه ما تفعلون من الإجرام ، وعظيم الآثام ، وأنتم لا تعلمون حقيقته ، ولا مقدار عقابه ، أو إن الله هو الذى يعلم كيف تضرب الأمثال ، وأنتم لا تعلمون ذلك .

٧٥- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ .

ضرب الله هنا مثلا لرجلين :

أحدهما : عبد مملوك عاجز عن التملك والإنفاق ، وعاجز عن كل شيء .

والثاني : مالك كثير الرزق ينفق سرا وجهرا .

والمثل الثانى : للسيد المالك الرازق ، والأول : للمملوك العاجز الذى لا يملك ولا يكسب ؛ وذلك لتقريب الحقيقة الكبرى التى غفلوا عنها - حقيقة أن ليس لله مثال ، وما يجوز أن يسوا فى العبادة بين الله وواحد من خلقه ، وكلهم له عبيد .

هَلْ يَسْتَوُونَ . أى : هل يستوى الإله القادر ، والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شيء البتة .

الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : الحمد الكامل لله خالصا ، دون ما تدعون من دونه من الأوثان ، فاتجهوا بالحمد لله الخالق الرازق ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار يجهلون هذه الحقيقة ، ويجعلون لله شركاء فى العبادة والحمد .

٧٦- وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ

هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

يصور هذا المثل رجلين :

أحدهما : أبكم بليد ضعيف لا يسمع ، ولا يُسمع ، وهو عاجز عن خدمة نفسه ، فضلا عن خدمة غيره ، وهو مثال للصنم المصنوع من خشب أو نحاس ، وهو فى حاجة إلى من يحمله وينظفه ويعنى به ، وترى أن النموذج لرجل فاقد الحيلة ، محتاج إلى مولى يرعاه وينفق عليه ، وعاجز عن إنجاز أى مهمة .

هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

أى: هل يستوى الأبكم الأصمّ العاجز الضعيف ، برجل سليم الحواس عاقل ، ينفع نفسه وينفع غيره ، يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم ، هل يستويان ؟!

ولا يسوئى عاقل بين هذا وذلك ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر العليم ، الأمر بالمعروف ، الهادى إلى الصراط المستقيم^(٧٧) .

ويمكن أن تكون هذه النماذج : لبيان الفرق الشاسع ، بين المؤمن الذى هو على بصيرة من أمره ، وبين الكافر الذى استجلب العمى على الهدى ، أو بين الحق فى وضوحه وجماله وجلاله ، وبين الباطل فى ظلامه وقبحه .

وبهذه الأمثلة : تكون السورة قد ساقَت أعظم الأدلة ، وأوضحها على صحة قوله تعالى قبل ذلك : وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ... (النحل: ٥١) .

★ ★ ★

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أُمِرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هَوَاقِرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ الْفَرِيرَ وَالْإِلَاطِيْرَ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

المضردات :

غيب السماوات والأرض: جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين ، التى لا سبيل إلى إدراكها حساً ، ولا إلى فهمها عقلاً .

السَّاعَةِ ، الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك : لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما ، فيموت الخلق بصيحة واحدة .

لَمَحَ الْبَصَرَ ، التحرك السريع لطرف العين من جهة إلى جهة ، أو من أعلى إلى أسفل .

الْأَفْنَدَةِ ، واحدها: فؤاد ، وهى القلوب التى هياها الله للفهم ، وإصلاح البدن .

جَوْ السَّمَاءِ ، الهواء المتباعد بين الأرض والسماء .

تمهيد:

نتناول الآيات جوانب قدرة الله تعالى ، فهو سبحانه العليم بالغيب ، الذى تعجز عنه الحواس والعقول البشرية وهو القادر على المجيء بالقيامة فى لمح البصر : لأنه على كل شىء قدير ، وهو الذى يخلق الإنسان فى بطن أمه ، ويمنحه السمع والأبصار والعقل والتفكير ، وهو سبحانه يمسك الطير فى جَوْ السماء ، وهذا مرتبط بالهواء والفضاء ونظام الكون ، الذى أبدعه العليم القدير .

التفسير:

٧٧ - وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الله سبحانه وتعالى استأثر بالغيب ، ومعرفة موعد قيام الساعة ، ومتى ينزل الغيث ، وهو العليم بالجنين : عمره ووزقه وسلوكه ، والإنسان لا يعلم ماذا يكسب غدا ، ولا يعلم بأى أرض يموت ، إنها أمور الغيب التى استأثر الله بعلمها ، ويتقدم العلم ، ولكن أعلم العلماء لا يدرك متى يفارق هذه الحياة ، قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** . (لقمان: ٣٤) .

فهو سبحانه تنكشف أمامه جميع الموجودات ، انكشافا تاما دون سبق خفاء ، وهو سبحانه واسع العلم يسمع كل شىء ويرى كل شىء ، **إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** .

وَمَا أَمُرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .

قدّر الله تعالى أن تنتهى الحياة الدنيا فى وقت ما ، فيموت الناس جميعا ، إلا من شاء الله ، ثم يبعث الله الناس للحساب والجزاء ، حتى يوفى كل إنسان جزاء ما عمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

قال تعالى : **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمُوتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** . (الزمر: ٦٨) .

وهذا البعث والحشر والحساب والجزاء ، هين على الله تعالى ، فهو الذى بدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

وَمَا أَمَرَ السَّاعَةَ إِلَّا كَلِمَةٍ بَصِيرَةٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ .

أى : ليس مجيء القيامة وشأنها فى سرعة المجيء ، إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من ذلك وأسرع : لأن الأمر بيد الإله القادر ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢).

قال تعالى : وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ . (القم: ٥٠) .

أى : فيكون ما يريده الله كطرف العين .

وكان أهل مكة ينكرون البعث ، ويستبعدون ذلك : لأن الإنسان يصير ترابا رميما ، أبعد ما يكون عن الحياة ، فبين الله : أن أمر الساعة يسير هين كلمح البصر .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رِيبٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨، ٧٩) .

وفى ختام الآية يقول الله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : إن الله لا يعجز قدرته شيء ، سواء أكان هذا الشيء يتعلق بأمر قيام الساعة ، فى أسرع من لمح البصر ، أو بغير ذلك من أشياء ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢).

٧٨- وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

يذكر الحق سبحانه : نعمة جديدة ، هى نعمة الخلق ، وتكوين الجنين فى بطن أمه ، ثم خروجه إلى الحياة لا يعلم شيئا ، فشق الله له للسمع أذنين ، وللنظر عينين ، ولللبطش يدين ، وللمشى رجلين ، ووهبه العقل والفؤاد ، وأمدّه بأجهزة متعددة ، كالجهاز العصبى والجهاز اللمفاوى والجهاز الهضمى ، ويسر له سبل الحياة : لِيَخْتَارَ الْهَدَى أَوْ الضَّلَالِ .

قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢، ٣) .

وقد خلق الله الجوارح للإنسان ؛ حتى يبسر عليه شئون الحياة ، فالسمع : يبسر له سماع الوحي والمواعظ ، والأخبار والعلوم والآداب ، والنظر : يتأمل به فى ملكوت السماوات والأرض ، ويشاهد المشتريات فيأخذ الحسن ويترك الردىء ، والرُّجُل : يمشى بها إلى الخير والرياضة ، والدراسة والصلاة ، واليد : يأخذ بها الكتب ويمسك بالقلم ويتعلم ويُعلِّم ، وبهذه الجوارح يعبد الله وينفع وينتفع ، وإذا أطاع العبد ربَّه ؛ بارك له فى صحته وعافيته ، وبسر له استخدامها فيما يفيد البلاد والعباد ، وهذا هو شكر النُّعمة، أى: استخدام الجوارح فيما خلقت له .

روى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب عبدى إلىَّ بشيء أفضل مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله تردى فى قبض عبدى المؤمن ؛ يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بدَّ له منه»^(٨٤) .

وفى هذا الحديث دليل على معونة الله للصالحين ، وبركاته للمتقين ، حتى إنه يجعل سلوكهم موفقا ، وأعمالهم هادفة ، وتفكيرهم سليما ، وقريب من هذه الآية قوله تعالى : قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ . (الملك: ٢٣) .

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أى : رجا أن تشكروه باستعماله نعمه ، فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته ، وتستعملوا كل جراحة فى الخير والعمل النافع ومساعدة عباد الله ، لكن بعض الناس هو الذى يفلح فى أداء هذه الرسالة ، وقليل منهم هو الذى يشكر الله على نعمة هذه الجوارح ، ويرى آخرون أن الناس جميعا يشاركونهم فى هذه النعمة ، ويريدون ألا يشكروا إلا على نعمة خاصة به ، مع أن كل إنسان يرى نفسه أعقل الناس ، ويرى أن رأيه أفضل الآراء ، فلماذا لا يشكر الله على هذه النعمة ، التى يرى نفسه مختصا بها .

٧٩- أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

ألم يشاهدوا الطير مرتفعات فى جَوْ السماء ، وفى طبقات الجو العالية ، قد يسر الله لها هذا الطيران ، فلا شيء يجذبها إلى أعلا ، ولا طريق تحتها يحفظها ، وإنما علمتها القدرة الإلهية أن تحرك أجنتها ، حتى تتماسك فى السماء بيد القدرة الإلهية ، التى أودعت فى كل شيء ما تقوم به حياته ، وهذا المنظر لأسراب الطير منظمة ، فى سرب بديع عجيب ، منظر يثير الدهشة والتأمل ، فى قدرة القدير ، وجمال هذا الكون

وتناسقه ، لكن الألف والعادة جعلت الناس ينظرون ، ولا تتحرك عندهم مشاعر الإيمان ، والإحساس بالنظام والتناسق والإبداع ، وَكَانَ مِنْ عَائِدٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْرَوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف: ١٠٥) .

إن في هذا الأمر آيات ودلائل لقوم يؤمنون ؛ بأن يد القدرة الإلهية هي التي سخرت هذا الكون ، وأبدعت نظامه ، فالهواء والفضاء ، وحركة الطير وقوانين الجاذبية ، كلها مسخرة بيد القدير ، الذي أبدع كل شيء خلقه ، إن في هذا التسخير والإبداع آيات وعلامات ، لمن تحرك في قلبه الإيمان بالله ، واليقين بقدرته وعظمته :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

★ ★ ★

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى حِينٍ﴾ (٨٠) **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** (٨١) **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ** (٨٢) **يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٨٣﴾

المفردات :

سكنا : مسكنًا تستقرون فيه وتأمنون وتهدهون .

ظعنكم : سفركم أو رحيلكم لطلب الماء أو المرتع .

الأنعام : جمع نعم وتشمل الإبل والبقر والغنم .

الأصواف : للضأن ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز .

متاع : ما يتمتع به في المتجر والمعاش .

إلى حين : أي : إلى انقضاء آجالكم .

الظلال : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها .

أكناننا : الأكنان : جمع كن ، وهو : الغار ونحوه في الجبل .

السراييل ، واحدها: سريال ، وهو: القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها ، وسراييل الحرب : هي الجواشن والدروع .

السباس : الشدة ويراد به هنا الحرب .

تمهيد :

يتفضل الله على عباده بذكر طائفة من النعم ، منها السكن الذى يهدأ فيه الإنسان ، ويأمن على نفسه وسرّه وعرضه ، وهناك بيوت خفيفة الحمل يتخذها العربى من جلود الأنعام ، ويعمل خيمة يستظل بها فى سفره وإقامته ، وقد جعل الله للإنسان الجبال يأوى إليها فى ظلام الليل ، ويسكن فى أكنانها وحصونها ومعقلها ، ويسرّ للإنسان الثياب التى تقيه الحر والبرد ، والدروع وعدة الحرب من الحديد ؛ ليتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

التفسير :

٨٠ - وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمَثَلًا إِلَىٰ حِينٍ .

يمتن الله على عباده بالبيوت التى يسكنونها فيهدون ويستريحون ويستقرون ، فهى سكن تسكن فيه النفس وتهدأ على عورتها وأسرارها ، ومن الواجب المحافظة على هذا الأمن النفسى والجسدى ، فلا نتطلع إلى أسرار الآخرين ، ولا نتجسس عليهم ولا نفاجنهم فى ظلام الليل أو قبيل الفجر ، وأن نحفظ للجار سرّه وعرضه فلا نتجسس عليه ، ولا نتطلع إلى عوراته ، ولا نوذيه فى نفسه أو أسرته حتى يحقق البيت السكن والأمن ، ومن نعم الله: أن جعل لنا بيوتنا يسيرة ، هى الخيام التى نصنع منها قبابا وفساطيط ، نستظل بها عند السفر والترحال ، وعند الإقامة ، وتتخذ هذه الخيام من الصوف والوبر والشعر .

وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمَثَلًا إِلَىٰ حِينٍ .

جعل الله لنا من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز ، أثنا لبيوتنا نكتسى به حيناً ، ونستعمله فى الغطاء والفراس حيناً آخر ، ونتخذ للتجارة والتمتع به .

إِلَىٰ حِينٍ . أى : إلى نهاية آجالنا .

٨١ - وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلًّا ...

يحتاج الإنسان إلى الظل خصوصاً فى البلاد الحارة ، وخصوصاً الفقراء الذين لا مأوى لهم ، فيستفيدون بظل الأشجار والجبال والجدران ؛ لتقيهم من الحر الشديد .

وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَثًا .

أى : وجعل لكم من الجبال مواضع تستكئون فيها ، وتهدهون للعبادة والتأمل والبعد عن صخب الحياة : فى المغارات والكهوف ونحوها .

وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ .

من نعم الله : أنه يسر لنا اللثياب التى نتجمل بها ، ونتقى بها الحر والبرد ، وقد استغنى بذكر أحد المتقابلين عن الآخر ، ولأن بلاد العرب يغلب عليها الحر فاكتمى به ، وقيل : لأن ما يقى من الحر يقى من البرد .

وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ .

وتوجد ملابس أخرى من الدروع وحلل الحرب وما يشبهها ، تتقون بها الطعنات والضربات التى تسد إليكم فى حالة الحرب ، وفيه دليل على اتخاذ عدة الحرب ، والتمرين على استخدامها فى الجهاد : ليستعان بها على قتال الأعداء ، وقد لبسها النبى ﷺ .

كَذَلِكَ يَجْمُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلُمُونَ .

أى : إن الله يطمع عليكم النعم فى المسكن والملبس ، والأثاث وعدة الحرب ، وأنعم الدين والدنيا ، لعلكم تسلمون لله وجوهكم وقلوبكم : بالدخول فى الإسلام فتسعدوا بنعيم الدنيا والآخرة : فإن العاقل إذا أسدى إليه المعروف : شكر من أنعم به عليه : كما قال المثنبى :

وقيدت نفسى فى دارك محبةً ومن وجد الإحسان قيدا فقيدا

٨٢- فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

أى : إن أعرضوا عن الإيمان ، بعد تقديم كل هذه الأدلة إليهم : فليست مكلفا بخلق الإيمان فى قلوبهم ، إنما أنت رسول ، مهمتك البلاغ المبين الواضح ، والبيان الساطع ، والتذكير بأنعم الله على الإنسان ، ثم تركهم وشأنهم فما أنت إلا نذير .

قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢٢، ٢١) .

٨٣- يَغْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ .

أى : إن هؤلاء المشركين ، يعرفون نعم الله المتعددة ، التى ذكرت فى هذه السورة ، فالأدلة متوافرة

على أن خالق هذه النعم هو الله ، بل إنهم يعترفون بأن خالقهم هو الله بأقوالهم ؛ ولكنهم ينكرون ذلك بسلوكهم وأفعالهم .

وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ .

أى : وأكثر هؤلاء المشركين يجحدون نعم الله لا عن جهل بها ، بل عن علم ومعرفة ، ويجحدون نبوة الرسول ﷺ مع يقينهم بصدقه وأمانته .

قال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل: ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣) .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾
 ﴿٨٤﴾ وَإِذَارَأَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَارَأَ
 الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَشْرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ
 دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّامِعُ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
 فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ
 مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴿

المفردات :

الأمم : الجماعة من الناس ، أو الجيل من الناس .

شهداء : شهيد كل أمة نبيها يشهد للمؤمنين بالتصديق ، وللكافرين بالكفر والتكذيب .

ثم لا يؤذن للذين كفروا ، لا يسمح لهم بالاعتذار عن كفرهم وباطلهم .

ولا هم يستعتبون ، أى : لا يقبل منهم الاعتذار عما فعلوا ، ولا محاولة إرضاء ربهم فى الآخرة ، يقال عتب عليه يعتب إذا وجد عليه ، فإذا فإوضه فيما عتب عليه فيه : قيل : عاتبه ، فإذا رجع إلى مسرتك : فقد أعتب ، والاسم : العتبي ، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضى العاتب ، قال النابغة :

فإن كنت مظلوما فعبدا ظلمته وإن كنت ذا عتبي فمثلك يُعتب
وفى الحديث الشريف : « لك العتبي حتى ترضى »^(١٤) .

يَـمَـظْـرُـوْنَ ، يَـمَـهَـلُـوْنَ وَيُؤْخَـرُـوْنَ .

الشـركاء ، الأصنام والأوثان ، والشياطين والملائكة ، والشمس والقمر ، وغيرها .
نـدـمـو ، نعبد .

السُّـلـم ، الاستسلام والانقياد .

ضـل ، ضاع ويطل

شهيدا على هؤلاء ، المراد بهؤلاء : أمته ، الحاضر منهم بعد عصر التنزيل ، ومن بعدهم إلى يوم القيامة .
تـبـيـانـا ، بيانا لأمر الدين ، إمّا نصّا فيها ، أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

تمهيد :

تذكر الآيات : موقف الظالمين يوم القيامة ، ويبدأ المشهد بموقف الشهداء من الأنبياء ، يدلون بما وقع لهم فى الدنيا ، ثم لا يؤذن للظالمين بالكلام ، ولا يطلب العتبي والرضا لله ، وإذا رأى الكافرون معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والأدبيين ، قالوا : رينا هؤلاء شركاؤنا ! لقد اعترفوا لله بالربوبية ، وحاولوا التخلص من تبعة الشرك ، وإذا بمن زعموهم شركاء يكذبونهم ، ويلقون السلم لله تعالى . ويطل عندئذ كل كذب واقتراء ، ثم يذكر السياق : هول المشهد ، وظهور الأنبياء شهداء على أممهم ، ويظهر النبی عليه الصلاة والسلام شهيدا على جميع من أرسل إليهم ، وقد أنزله الله عليه الكتاب ؛ ليبين للناس أمور دينهم ودنياهم ، وليكون هداية ورحمة وبشرى للمؤمنين .

التفسير :

٨٤ - وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

يستعرض الجبار موقف القيامة ، حيث يُبعث الأنبياء شهداء على قومهم ، فيشهدون للمؤمنين بالإيمان ، وللكافرين بالكفر والعصيان ، وفى ذلك الموقف لا يسمح للكفار بإبداء أعذارهم ، ولا يسمح لهم

يطلب العتبي من ربهم ، والاعتذار له حتى يرضى ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل ، وهناك مواقف متعددة فى الآخرة ، منها موقف السؤال ، وفيه نجد القرآن يقول : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . (الصفحات: ٢٤) ، ومنها موقف لا يقبل فيه اعتذار ولا كلام ، فهو أشبه بقضية يبدأ فيها التحقيق ، ويسمح فيها للجانى بالدفاع عن نفسه ، وإظهار أسباب جريمته ، حتى إذا استكمل الدفاع ، حجزت القضية للنطق بالحكم ، فلا يقبل عندئذ كلام .

والخلاصة : إن هناك مواقف متعددة لمشاهد القيامة .

٨٥- وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ .

إذا عاين الظالمون عذاب جهنم : فزعوا واشتد خوفهم ؛ لكن ذلك لن يغير شيئا من المصير المؤلم الذى ينتظرهم ، فلا يخفف عنهم العذاب أى تخفيف ، ولا يمهلون ويتركون بعض الوقت بدون العذاب ؛ فالعذاب واقع لا محالة ، عاجل وليس بأجل ، ونحو الآية قوله تعالى : وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِدُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف: ٥٣) .

وقوله : إِذَا رَأَيْتَهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . (الفرقان: ١٢-١٤) .

وقريب منه قوله تعالى : وَنَادَوْا يُمْلِكُ لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُّكُونُونَ * لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . (الزخرف: ٧٧، ٧٨) .

٨٦- وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوهُمْ إِلَيْنَا الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ .

تعرض الآية مشهدًا من مشاهد القيامة ، حين يرى المشركون الأصنام والأوثان والآلهة المدعاة ، التى عبدوها من دون الله ، فإذا عاينوها : تمنّوا أن تحمل هذه الآلهة المدعاة ، جانبًا من العذاب ، أو يخفف عنهم العذاب لإلقاء المسؤولية على هذه الآلهة ، ويلاحظ اعتراف المشركين لله بالربوبية ، واعترافهم بالخطأ فى عبادة الأصنام من دون الله ، مع اعترافهم بالذنب ، وعلمهم بأن العذاب مستمر ، إلا أن الغريق يتعلق بأى شئ يصادفه ، فهم يأملون منقذًا من العذاب ، لكن الأصنام ترد عليهم وتلزمهم المسؤولية ، وتقول لمن عبدها : إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ، فى محاولة لإلقاء التبعة علينا ، فما أمرناكم بعبادتنا ، ولا طلبنا منكم ذلك ، وقريب من هذا تبرؤ المسيح يوم القيامة ممن جعله إلها .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (المائدة: ١١٦، ١١٧) .

وقال تعالى : وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . (مريم: ٨١، ٨٢) .

وقال عز شأنه : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَنُفَرِينَ . (الأحقاف: ٦، ٥) .

٨٧- وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ...

أى : استسلم العابد والمعبود لأمر الله تعالى ، ويحتمل عودة الضمير على المشركين وحدهم ، بعد أن يتسوا من تخفيف العذاب عنهم ، فاستسلموا لأمر الله وقضائه سبحانه .
وَمَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

أى : غاب عنهم كل ولى وناصر ، فلم تنفعهم عبادتهم ولا أصنامهم ، التى عبدوها راغبين فى شفاعتها ، وقد عبدوها افتراء على الله وكذبا حين قالوا : هَئِلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ . (يونس: ١٨) .

والآية فى جملتها تحمل الغائب فتجعله حاضرا ، وترسم مشهد المشركين وقد خسروا المعركة ، واستسلموا لأمر الله بعد فوات الأوان ، ونحو الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ . (السجدة: ١٢) .

وقوله تعالى : وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . (طه: ١١١) .

ومعنى : وَعَنْتِ الْوُجُوهُ . خضعت واستسلمت .

٨٨- الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذَنُوبُهُمْ عِدَابٌ فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ .

كان أهل مكة يمنعون الناس من الدخول فى الإسلام ، واتفقوا على تقسيم مكة منازل وأجزاء :

يختص كل فريق منهم بطريق من طرقها ، فإذا شاهدوا وفود الحجاج والمعتمرين ، شئعوا على رسول الله محمد ﷺ ، وعلى الدين الجديد الذى يدعو إليه ، وأدعوا : أنه ساحر أو كاهن أو مجنون .. وفى يوم القيامة يضاعف لهم العذاب : لكفرهم أولاً ، ولصدهم الناس عن الإسلام ثانياً ، ثم إن هذا عدوان على دين الله ، وافتراء عليه ، وإفساد للعقائد .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ .

أى : الكافرون من أهل مكة ، والمحرضون على الكفر ، لهم عذاب جزاء كفرهم ، وعذاب آخر لصدهم الناس عن الإيمان ، وهذا جزاء إفسادهم فى الأرض ، وقلب الحقائق ، وتبقيح الإيمان وتزيين الكفر ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَهُمْ يَتَّبِعُونَ اللَّهَ وَنَبِيَّهٖنَّ عَنْهُ وَيَتَّقُونَ اللَّهَ . (الأنعام : ٢٦) .

أى : يهنون الناس عن اتباع الرسول ﷺ ، ويبتعدون عن دينه وهديه ، وقد أورد ابن جرير الطبرى فى تفسيره : أناراً عن الصحابة وغيرهم ، فى ألوان العذاب الذى يزداد لهم ، وقد روى الحاكم والبيهقى وغيرهما عن ابن مسعود : أن النبى ﷺ قال : « إن أهل النار إذا جزعوا من حرها ، استغاثوا بضحضاح فى النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب كأنها البغال الدُّهْم ، وأفاع كأنهن البَخَاتَى (ضخام الإبل) تضربهم فذلك الزيادة »^(٨٩) .

وفى الآية دليل على تفاوت الكفار فى العذاب ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ، ودرجاتهم فيها .

٨٩- وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

تستعرض الآيات موقف المشركين يوم القيامة ، وزيادة العذاب ومضاعفته لهم ، ويستكمل المشهد بمجىء النبيين والشهداء ، أى : الصالحين من أتباع الأنبياء : ليشهدوا للمؤمنين بالإيمان والاستجابة للدعوة له وليشهدوا على الكافرين بالكفر والتكذيب ، ثم يأتى الرسول ﷺ شهيداً على أمته ، وعلى أهل مكة ، وغيرهم ممن بلغتهم الدعوة ، ومنزلة الرسول ﷺ يوم القيامة معروفة ، فقد أتاه الله الشفاعة والمقام المحمود الذى يحمده عليه جميع الخلائق ، ويرى بعض المفسرين : أن شهادة الرسول محمد ﷺ تكون للأنبياء والأمم كلها ، لكن السياق يرجع أن شهادة الرسول ﷺ لمن أرسل إليهم سابقاً أو لاحقاً ، وقریب من ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ قال له : « اقرأ على القرآن » ، قلت : يا رسول الله ، أقرؤه عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نعم ، إني أحب أن أسمع من غيرى » ، فقرأت صدرا من سورة النساء فلما وصلت إلى قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا . (النساء : ٤١) .

قال الرسول ﷺ : « حسبك » ، قال ابن مسعود : فالتقت فإذا عيناه ﷺ تذرغان^(٨٧) .

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

أى: نزلنا عليك القرآن مشتملا على أصول العقائد ، وبيان الحلال والحرام ، وبيان ألوان الهداية والرحمة ، وبشارة المسلمين بالجزاء الأوفى .

والسنة المطهرة مشتملة على بيان القرآن وتوضيحه وتفسيره .

قال تعالى: وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ . (النحل: ٤٤) .

وقال النبی ﷺ : « إني أوتيت الكتاب ومثله معه »^(٨٨) .

ويلحق ببيان الرسول ﷺ ، بيان الصحابة والتابعين ، قال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ »^(٨٩) .

كما أوضح القرآن: وجوب اجتهاد من استكمل شروط الاجتهاد ، وبذل الجهد فى استنباط الأحكام، قال تعالى : وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... (النساء: ٨٣) .

وأوضح: أن إجماع المسلمين على أمر يجب اتباعه وعدم مخالفته ، وبذلك أصبح الإجماع من أصول التشريع .

قال تعالى: وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى... (النساء: ١١٥) .

وأرشد القرآن إلى استخدام القياس بقوله تعالى : فَاعْتَبِرُوا يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . (الحشر: ٢) .

والاعتبار هو النظر والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس ، وهو حمل النظير على النظير ، وقياس أمر لا حكم له ، على أمر معروف الحكم : لاشتراكهما فى العلة ، وبهذه الطرق فتح الإسلام أبواب الاجتهاد والاستنباط ، أمام العلماء المختصين ، وأرشد الناس إلى اتباع العلماء فى اجتهادهم .

قال تعالى : فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٢) .

كما حث القرآن على استخدام العقل والفكر والرأى ، وأوجب على المسلمين أن تكون منهم أمة من أهل الاختصاص والنظر ، نمابع أمور المسلمين ، وتجتهد فى شئونهم ، ومعرفة أحكام ما يستجد من أمور

وأحداث ، قال تعالى : وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . (التوبة: ١٢٢) .

وبهذا فتح القرآن ينابيع الفكر والفقه والرأى ، ووضع أصول الاجتهاد ، وبين قواعد التشريع ، التي تعتمد على القرآن والسنة والاجتهاد والإجماع والقياس ، وسيظل القرآن الكريم كلئى الشريعة وأصل أصولها فهو بحق تبيان وبيان وإرشاد لكل شئ ؛ لأنه حث على اتباع السنة ، وبين أصول الاجتهاد والاستنباط ، واشتمل القرآن على بيان الرحمة والتيسير ، والبشارة بالجنة للمؤمنين الطائعين ، وبالنار للمكذبين وأرشد إلى الفضائل ، ونهى عن الرذائل .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَقَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ أَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴿

المفردات :

العدل : المساواة فى كل شئ بلا زيادة أو نقصان ، أو إعطاء كل ذى حق حقه بدون إفراط أو تفريط
الإحسان : مصدر أحسن ، يحسن ، إحسانا ، ويطلق على إتقان العمل ، ومقابلة الخير بأكثر منه ، والشّرّ بالعفو عنه .

إيتاء ذى القربى : إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر .

الفحشاء : ما تبخ من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع ، ونحو ذلك من الأفعال والأفعال المذمومة ، وخص بعض المفسرين الفحشاء : بالزنا؛ لأنه عدوان على الأعراض.

المنكر: كل ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، فيعم جميع المعاصي والدناءات والردائل على اختلاف أنواعها.
السبغى: تجاوز الحد فى كل شيء ، ويشمل الاستعلاء على الناس ، والتجبر عليهم بالظلم والعدوان.
يعظكم: الوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد .
العهد: كل ما يلتزم به الإنسان باختياره ، والوفاء بالعهد لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ، ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة . ويدخل فيه الوعد .

نقض اليمين: الحنث فيها .

توكيدها: توثيقها وتغليظها .

كشيلا: شاهداً ورفيقاً .

الغزل: ما غزل من صوف ونحوه .

القنوة: الأبرام والأحكام .

الأنكاث: واحدها: نَكْثٌ ، وهو ما ينكث قتله وينقض بعد غزله .

المنخل: المكر والخديعة والغش .

قال الراغب الأصفهاني فى غريب القرآن : **الدُّخْلُ** : كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة ، كالدخل ، وعن الدعوة فى النسب .. ومنه قيل : شجرة - مدخولة - أى: ليست من جنس الأشجار التى حولها . ١ هـ .

أربى: أى: أكثر وأوفر عدداً .

تمهيد :

تشتمل هذه الآيات على مكارم الأخلاق وفضائل الآداب ، وتنتهى عن الفحشاء والمنكر ، ثم تحدث على الوفاء بالعهد والسلوك القويم ، ثم ضرب الله الأمثال لمن يحنث فى يمينه ، وينقض العهد بعد توثيقه .

التفسير :

٩ - **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .**

هذه آية جامعة لخلال الخير ، ناهية عن الشر ، وخطباء المساجد يختمون بها خطبة الجمعة ، والعدل هو الميزان بالحق بأن يأخذ كل ذى حق حقه ، وهو أمر أساسى فى الحكم الذى يقوم فى الإسلام على العدل والشورى ، واختيار الرجل المناسب ، أو حسن اختيار المسؤولين المساعدين للحكم .

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...» (النساء: ٥٨).

والعدل قاعدة أساسية في تعامل الأفراد والدول، وبالعادل قامت السماوات والأرض، وبالعادل يأخذ كل ذي حق حقه، ويأمن الإنسان على نفسه، ويلقى المعتدى جزاءه حسب جريمته. كتب أبو بكر الصديق إلى عمر بن الخطاب يقول: «إِنَّ الْحَقَّ ثَقِيلٌ وَلَكِنْ مَالَهُ هَيْءٌ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَلَكِنْ مَالَهُ وَبِئْسَ».

وَالْإِحْسَانُ. يطلق على شيئين:

أ- إتقان العمل وإحسانه.

ب- مقابلة الإساءة بالعفو، ومقابلة الخير بما هو أزيد منه، والإحسان يكمل العدل، قال على بن أبي طالب: الْعَدْلُ: الْإِنصَافُ، الْإِحْسَانُ: التَّغْفِيلُ.

والعدل والإحسان لهما أثرهما في سلامة المجتمع، واقتناع الأفراد بوصول حقهم إليهم، وبذلك تصفو الحياة ويتماسك المجتمع، ويعم السلام النفسى والاجتماعى بين طوائف المجتمع: وَإِيسَى ذِي الْقُرْبَى. أى: العطف على الأقارب ومساعدتهم ومعاونتهم والبر بهم ماديا ومعنويا.

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

وَالْفَحْشَاءُ: كل ما اشتد قبحه، وخصه بعضهم بالزنا؛ لأن فيها عدوانا على الأعراض، وانتهاك الحرمات، واختلاط الأنساب، وانتشار الأمراض الفتاكة، مثل: الزهري والسيلان وقمل العانة، ومرض الإيدز الذى يحتاج بعض البلاد كالولايات المتحدة رادعة على استباحة الحرمات.

وَالْمُنْكَرُ: كل فعل تنكره الفطرة، ومن ثم تنكره الشريعة فهى شريعة الفطرة، ويشمل المنكر جميع المعاصى والزنا، والدناءات على اختلاف أنواعها، كالضرب والقتل والتطاول على الناس.

وَالْبَغْيُ: العدوان وتجاوز الحد، وظلم الناس والتعدى على حقوقهم.

يُعْظَمُ لَعْنُكُمْ تَذَكُّرُونَ.

أى: يرشدكم وينبهكم إلى ثلاث، وينهاكم عن ثلاث؛ لعلكم تنتبهون وتحسنون التذكر لما ينفعكم، فتعملون بتلك الأوامر، وتجتنبون النواهي، وفى ذلك صلاح دنياكم وآخرتكم، وقد اشتملت هذه الآية على مكارم الأخلاق.

جاء في تفسير ابن كثير :

أن أكتُم بن صيفى أرسل رسولين إلى النبی محمد ﷺ ، يسألاه عن نسبة وعن دعوته ، فقال لهما النبی ﷺ : « أنا محمد بن عبد الله ، وأنا عبد الله ورسوله » ثم تلا عليهما هذه الآية : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... الآية .**

ثم حملا الآية إلى أكتُم بن صيفى ، فقال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملامتها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً ، وكونوا فيه أولاً تكونوا فيه آخراً . وقال سعيد بن جبیر عن قتادة في قوله : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... الآية .**

ليس من خلق كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم ، إلا نهى عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها .

فصل الآية

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى : عن ابن مسعود رضى عنه أنه قال : أعظم آية في كتاب الله تعالى : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** . (البقرة : ٢٥٥) .

وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... (النحل : ٩٠) .**
وأكثر آية في كتاب الله تفويضا : **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** . (الطلاق : ٣٠٢) .
وأشد آية في كتاب الله رجاء : **قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** . (الزمر : ٥٣) .

وعن عكرمة : أن النبی ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية . فقال : يا ابن أخى ، أعد على ، فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر .

وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه : أنه قرأ هذه الآية : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ... الآية** ، ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله ، والشر كله في آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا ؛ إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه ووزر عنه .

٩١- وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

تدعو هذه الآية إلى: الوفاء بالعهود ، وعدم الحنث في الإيمان ، وهي في جملتها داخلة في الآية السابقة ، لكن القرآن أفرد الوفاء بالعهد نصاً في آية مستقلة ؛ لما له من أهمية في حياة الفرد والمجتمع ، فإذا حافظ الفرد والمجتمع على العهود والمواثيق ؛ أدى ذلك إلى الأمن والأمان ، ونعم الناس بالهدوء والاطمئنان .

أخرج ابن جرير في أسباب نزول الآية : أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ ، كان من أسلم يبايع على الإسلام فقال تعالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا .

فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه ، وكثرة المشركين ، أن تنقضوا البيعة التي يبايعتم على الإسلام ، وإن كان في المسلمين قلة وفي المشركين كثرة .

ومعنى الآية :

أوفوا بالعهد والميثاق ، الذي أوجبتموه على أنفسكم ، حقاً لمن عاهدتموه ووافقتموه عليه ، ويدخل في ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد .

قال ميمون بن مهران :

من عاهدته وف بعده ، مسلماً كان أو كافراً ، فإنما العهد لله تعالى .

وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا .

لا يليق بالرجل أن يخلف وعده أو يحنث في عهده ، وكانوا يوثقون عهدهم بالأيمان ، وإشهاد الله تعالى ، فأمرهم الله ألا يفكوا ارتباطاتهم ، وألا يحنثوا في أيمانها ، وقد أشهدتم الله على أيمانكم ، وجعلتموه راعياً وكفيلاً يريعى الموفى للعهد بالخير ، والناقض له بالجزاء والعقاب .

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

فهو سبحانه يشاهد عقودكم وعهودكم وأفعالكم ، وسيجازيكم ويكافئكم على الوفاء ، ويعاقبكم على الحنث في الأيمان وعلى نقض العهود ، وقد أكد القرآن الكريم السنة الصحيحة : احترام العهود والوفاء بها .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيْرُهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (الفتح: ١٠) .

وقال تعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح: ١٨) .

وقال تعالى : وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . (الإسراء: ٣٤) .

وقال سبحانه : وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِلَىٰ قَارِهُونٍ . (البقرة: ٤٠) .

وروى الشيخان عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » ، ولا تعارض بين هذه الآية وبين ما ورد في الصحيحين من أن : « من حلف على يمين ورأى غيرها خير منها : فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه »^(١٠٠) .

فالآية تتحدث عن الوفاء بوجه عام ، وتأمّر بالالتزام بالإيمان والبرّ بها بين الأفراد والجماعات ، والحديث يتحدث عن إنسان يقسم على شيء ثم يرى غيره خيرا منه ، فالآية عامة في نهيها عن نقض الإيمان ، والسنة الصحيحة خصصت هذا النعيم ، وأباحث النقض إذا كان اليمين مانعا عن عمل خير ، ويؤيد هذا التخصيص قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ...

٩٢- وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَلُوا ...

قال ابن كثير :

هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، تجمع جواربها وتأمّرهم بالغزل أول النهار إلى الظهر ، ثم تأمرهم بنقض الغزل بعد إبرامه ، فضرّب الله بها المثل في من ينقض الإيمان ويحنث فيها بعد إبرامها .

والمعنى :

لا تنتقضوا عهودكم ، مشبهين لامرأة حمقاء ، تنقض غزلها من بعد إحكامه ، فالعاقل يستمر في عهده وفي بنائه ، ولا ينقض عهده ولا يهدم بنيانه ، وقريب من هذا المعنى قول الشاعر :

هجوت زياناً ثم جنت معتذراً
من هجو زيان لم تهج ولم تدع

يقال : نكث الرجل العهد نكثاً - من باب قتل - إذا نقضه ونبذه ومنه قوله تعالى : فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ . (الفتح: ١٠) .

أى : لا تتركوا عهودكم المبرمة منقوضة منكوثة محلولة ، فالجملة الكريمة تحقّر فى كل جزئية من جزئياتها ، حال من ينقض العهد ، وينكث فى عهده ، ولا يفى بل يغدر وينقض .

تَخْلُدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ .

أى : تبرمون العقود لا بنية الوفاء ، بل بنية المكر والخديعة والغش ، فينقضون العهد إذا لاحت فى الأفق مصلحة أوفر ، أو غنيمة أكثر ، أو قبيلة أوفر عدداً من القبيلة التى تعاقدا معها ، فبين الله لهم: أن الوفاء نور أبهج ، وأن التزام أمر الله بالوفاء أولى من اتباع المصلحة ، والسير وراء النزوات العارضة ، وقد نزلت هذه الآية فى العرب ، الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداها قبيلة أخرى كبيرة قوية فداخلتها ، غدرت الأولى ونقضت عهدها ، ورجعت إلى هذه الكبرى ، فأدبهم القرآن بأدبه : حتى لا ينقضوا العهود ، من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى ، أو أكثر أموالاً .

وقال ابن كثير :

كانوا يحالفون الحلفاء ، فيجحدون أكثر منهم وأعزّ ؛ فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك ، الذين هم أكثر وأعزّ ، فنهوا عن ذلك .

إِنَّمَا يُلْوِكُمُ اللَّهُ بِهِ .

إنما يختبركم الله بظهور قوم أكثر أو أعزّ أمامكم ؛ ليظهر مدى إيمانكم وتمسككم بالعهود ، وطاعتكم لأمر الله ؟ هل توفون بالعهود امتثالاً لأمر الله أم تنقضون طلباً لمغرم دنيوى ؟

وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فيجازى أهل الحق بالثواب ، ويجازى أهل الباطل بالعقاب .

٩٣- وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

شاء الله أن يجعل الإنسان خليفة فى الأرض ، ويميزه بالعقل والفكر والإرادة والاختيار ، قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٣) .

ولو شاء الله لجعل الناس جميعا نسحا مكررة ، مثل جماعات النمل والنحل ، ولو شاء لجعل حياة الزوج مع زوجته أشبه بحياة الملائكة ، لكن الله أراد أن يتفاوت الناس فى الكسب والاختيار والاستعداد ، وأن يكون الجزاء مرتبا على العمل .

قال تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ . (هود: ١١٨ ، ١١٩) .

وَلَكِنَّ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدَى مَن يَشَاءُ .

فهو سبحانه عرض على الناس الهدى والشرائع والرسالات ، وأرسل لهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ، فمن اختار الضلال ، وأعرض عن هدايات السماء : تركه الله ضالا متحيرا ، ولا يضل إلا من اختار الضلالة على الهدى ، ومن رغب فى الحق ، وسارع إلى الإيمان ، واختار طريق الهداية : يسر الله له طريق الهدى وشرح صدره للإسلام ، وهداه إلى الصراط المستقيم ، وبهذا نجتمع بين الآيات القرآنية التى وردت فى الموضوع ، فالعبد له إرادة واختيار ، والله تعالى له نوايس عامة ، لهذا الكون ، ومن هذه النوايس : أنه لا يهدى إلا من اختار الهدى ، ولا يضل إلا من اختار الضلالة ، فهدايات السماء غالية عالية ، والله لا يلزم الناس بالحق ، وإنما يعرضه عليهم ، وقد خلق فيهم العقل والإدراك ، والكسب والاختيار ، وبهذا يستحق كل إنسان جزاء كسبه وسعيه ، قال تعالى : فَأَمَّا مَن أُغْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى : فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى : فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . (الليل: ٥-١٠) .

وقال سبحانه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧ ، ٨) .

وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنْهَا تَنظُرُونَ .

أى : إن الله تعالى سيسال جميع الناس سؤالا محاسبة ومجازاة لا سؤال استفهام ، وسيترتب على هذا السؤال أن يكون الجزاء الحق من جنس العمل ، وعن أبى نر رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ « يا أبا نر ، أخلص العمل : فإن الناقد بصير ، وخفف ظهرك : فإن العقبة كنود ، واستكثر الزاد : فإن السفر بعيد ، والذى نفس محمد بيده ، لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » (١٠١) .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

المضردات :

فتزل قدم بعد ثبوتها ، مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة ، وبلاء بعد عافية .

وتذوقوا السوء ، العذاب الدنيوى .

ولكم عذاب عظيم ، فى الآخرة .

ولا تشتروا بعد الله ثمنا قليلا ، لا تعاضوا عن الإيمان بالله عرض الدنيا وزينتها !! فإن متاع الدنيا قليل مهما كان .

ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، ما عندكم يفنى وينقضى ، وما عند الله فى الآخرة باق لا يزول .

فلنحيينه حياة طيبة ، أى: حياة طيبة فى الدنيا ، ويشمل ذلك: القناعة ، والرضا ، والبركة فى العمر ، وقيل : حياة طيبة فى الجنة ونعيمها ، وأكثر المفسرين على أن الحياة الطيبة: فى الدنيا .

تمهيد :

تحذر الآيات السابقة من نقض العهود والأيمان على الإطلاق ، وتحذر هذه الآيات من نقض أيمان مخصوصة ، أقدموا عليها ، وهى نقض عهد رسول الله ﷺ على الإيمان به ، واتباع شرائعه جريا وراء خيرات الدنيا وخزافها ، كما بينت: أن متاع الدنيا زائل وما عند الله باق لا ينفد ، وعند الله الجزاء الأوفى.

التفسير:

٩٤ - وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلْ قَدَمُ بَعْدُ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تأتى هذه الآية : لتأكيد ما سبق ، ولتثبيت الناس على الإيمان بالنبى محمد ﷺ .

جاء فى تفسير الكشاف للزمخشري :

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله ﷺ : لجزعهم مما رأوا من غلبة قريش ، واستضعافهم المسلمين ، وإيذائهم لهم . اهـ .

وقال الفخر الرازى: قال المفسرون :

المراد من هذه الآية : نهى الذين بايعوا رسول الله ﷺ ، عن نقض عهده : لأن هذا الوعيد وهو قوله : فَتَزِلْ قَدَمُ بَعْدُ ثُبُوتِهَا . لا يليق بنقض عهد قبله ، وإنما يليق بنقض عهد رسول الله ﷺ ، على الإيمان به ويشرائعه .

فَتَزِلْ قَدَمُ بَعْدُ ثُبُوتِهَا . مثل يذكر لكل من قوع فى بلاء بعد عافية ، ومحنة بعد نعمة ، فإن من نقض عهد الإسلام : فقد سقط عن الدرجات العالية ، ووقع فى مثل هذه الضلالة .

وَتَذُوقُوا السُّوءَ . أى : العذاب .

بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

فالرجوع عن الإسلام إلى الكفر ، يقعهم فى محظورات ثلاثة :

- ١- البعد عن محجة الحق والهدى ، بعد أن رسخت أقدامهم فيها .
- ٢- إنهم يصبحون قدوة لغيرهم فى ترك الحق ، والانضمام إلى الباطل ، وفى هذا صد عن سبيل ، ومنع للناس عن الإيمان .
- ٣- إنهم أهل للعذاب العظيم فى الآخرة .

٩٥ - وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ...

إن العهد والوعد يباركهما الصدق والوفاء ، وقد أمر الله بالوفاء بالعهود ، والصدق فى الوعود ، وقد تعرض فى هذه الحياة مصالح وقتية أو منافع آنية ، أو إغراء بمال أو منفعة مقابل نقض العهود ، فحذر

القرآن من نقض العهود ، ويُنَبِّئُ : أن العائد من المال فإن ، مهما كان كثيراً ، لا يساوى عند الله جناح بعوضة .

إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن ما يدخره الله في الآخرة ، من الجزاء ونعيم الجنة ، هو خير لكم من ذلك العرض القليل في الدنيا ، إن كنتم من ذوى العقول الراجعة ، والأفكار الخاقبة ، التى تزن الأمور بميزان الفائدة الحقة ، وتقدر الفرق بين العوضين .

٩٦- مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ...

فالحياة الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والدنيا كلها إلى زوال وفناء ، وإن طال الأمد وجلّ العبد ، وما فى خزائن الله باق لا نفاد له .

وفى الحديث الشريف :

« يقول ابن آدم: مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فألبيت ، أو تصدقت فأبقيت »^(٩٦) .

وفى الحديث النبوى الشريف :

« إن الصدقة توضع فى يد الله قبل أن توضع فى يد السائل : فيمنهها كما ينمى أحكم فضيله »^(٩٧) .

وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

ولنكافئنّ الذين صبروا على طاعتنا ، واجتنبوا معصيتنا ، ووفوا بعهودنا ، بجزاء أفضل وأكرم ، مما كانوا يعملونه فى الدنيا ، من خيرات وطاعات ، وفى الآية عدة جميلة ، باغتفار ما عسى أن يكون قد فرط منهم ، أثناء ذلك من جزع يعترهم بحسب الطبيعة البشرية .

وقد رغب القرآن والسنة فى التزام الوفاء بالعهد ، وصار ذلك من ركائز الإسلام ودعائمه ، وبخلت فى الإسلام جماعات وشعوب ، بسبب ما رأوه من وفاء المسلمين بعهدهم ، ومن صدقهم فى وعدهم ومن إخلاصهم فى معاملاتهم .

روى: أنه كان بين معاوية بن أبى سفيان وملك الروم أمد ، فسار إليهم فى آخر الأمد ، حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لا يشعرون ؛ فقال له عمر بن عتبة : الله أكبر يا

معاوية ، وفاء لا غدر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها »^(١٠٤) ، فرجع معاوية بالجيش ، والروايات عن حفظ العهود متواترة مشهورة .

٩٧- مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

تضع هذه الآية أصلاً عاماً ، وقاعدة أصيلة ، فالذى يعمل العمل الصالح ، ويؤدى واجبه نحو ربه ، ونحو نفسه وأسرته وقرباته وأمته ، ذكرًا كان أم أنثى ! فإن الله تعالى يكافئه أحسن مكافأة ، حيث يحيا حياة طيبة ، فى رضى وقناعة وسعادة وعز فى الدنيا وجزاء كريم فى الآخرة ، مع الفضل العظيم من الله الذى يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف سبحانه لمن يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

جاء فى ظلال القرآن :

وإن العمل الصالح مع الإيمان : جزاؤه حياة طيبة فى هذه الأرض ، لا يهمل أن تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال ، فقد تكون به ، وقد لا يكون معها ، وفى الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير ، تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية ، فيها الاتصال بالله ، والثقة به ، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه ، وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة ، وسكن البيوت ، ومودات القلوب ، وفيها الفرغ بالعمل الصالح ، وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة ، وليس المال إلا عنصرا واحداً ، يكفى منه القليل ، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله ، وإن الحياة الطيبة لا تنقص من الأجر الحسن فى الآخرة ، وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون فى الدنيا ، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات ، فما أكرمهم من جزاء !^(١٠٥) .

من هدى السنة

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم ، قنعنى بما رزقتنى ، وبارك لى فيه ، واخلف على كل غائبة لى بخير »^(١٠٦) .

وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قد أفلح من هُئِرى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به »^(١٠٧) .

وعن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه »^(١٠٨) .

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٩٨﴾ إِنَّهُ وَلِيَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّ مَاسُلَظَنَّهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ
وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

المضردات :

قرأت القرآن : أى : إذا أردت قراءة القرآن : فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، قبل البدء في القراءة .

الرجيم : المرجوم ، المبعد من رحمة الله .

السلطان : التسلط والاستيلاء .

يتولونه : بالطاعة ، يقال : توليته إذا أطعته ، وتوليت عنه أى : أعرضت .

به مشركون : أى : بسبب الشيطان وإغوائه مشركون مع الله آلهة أخرى .

تمهيد :

يرشد القرآن المؤمنين ، إلى العمل الذى يجعل أعمالهم خالصة ، من وساوس الشيطان .

التفسير :

٩٨ - فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

القرآن الكريم أعظم هاد ، وهو أساس التشريع ، وباب الهداية والإيمان ، والشيطان داع إلى الشر والعصيان ، فالمومن يلجأ ويتحصن ، ويستعيز بقدرة الله وقوته وعونه ، من إغواء الشيطان ووسوسته ، وذلك بأن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

والأمر بالاستعاذة للندب عند الجمهور ، وعند الثوري : أنها واجبة ، والجمهور يقولون : صرفها عن الوجوب ما ورد من أنه ﷺ لم يعلمها للأعرابي الذى سأله عن كيفية الصلاة ، وأيضاً فقد روى : أن النبى ﷺ كان يتركها ، وعموماً فإن الآية تفيد : أن من آداب الإسلام : أن المسلم إذا أراد قراءة القرآن ، فينبغى أن يبدأ القراءة بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

والأكمل أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

وإذا أمر النبى ﷺ بذلك ، مع عصمته من الشيطان ، فمن باب أولى سائر أمته .

٩٩- إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

الناس أمام الشيطان قسمان : قسم آمن بالله واعتمد عليه ، فهو صادق اليقين ، واثق أن الهدى بيد الله ، والمعونة منه ، وأنه سبحانه إذا أراد للإنسان بخير فلا راد لفضله وهذا المؤمن قوى الإيمان، صادق اليقين ، عقيدته سليمة ، وإيمانه راسخ ، ويقينه بالله قوى متين ، ومثل هذا المؤمن لا سلطان للشيطان عليه، ولا تأثير له فيه ، وحتى إذا استجاب المؤمن للشيطان ، فسرعان ما يتوب إلى الله ، ويتوب إلى ربه، قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف: ٢٠١) .

والتوكل على الله يعنى: صدق اليقين مع الإيمان والعمل ، والتوكل غير التواكل ، فالتوكلُ معناه: الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله ، رأى عمر رضى الله عنه قوما من أهل اليمن ، فسألهم: من أنتم ؟ قالوا: نحن متوكلون ، فقال عمر رضى الله عنه : أنتم متواكلون ! المتوكل هو الذى يبذر البذرة ، وينتظر من الله انضاج الثمرة .

١٠٠- إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

إن الشيطان له تأثير وتوجيه وإغراء ، لمن وقع فى حبه ، واستهواه طريقه ، فاتخذ الشيطان وليا ومرشدا وإماماً ، وصار تابعا له ، ياتمر بأمره ، ويعمل بتوجيهه ، ويقع فى محيط تأثيره ، فيضه الشيطان عن طريق التوحيد ، وصدق العقيدة ، ويدفعه إلى الشرك والعباد بالله ، فأولياء الشيطان ، الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وغرتهم الشهوات ، واقترفوا السيئات ، وآثروا العاجلة ، وابتعدوا عن الآخرة ، فهؤلاء هم حزب الشيطان ويطانته ، وأمله وأولياؤه . وقريب من هذه الآيات قوله تعالى: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . (الحجر: ٤٢) .

وقال تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا . (الإسراء: ٦٥) .

وفى الحديث : « المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدهم بعيره فى سفره » (١٠٠) .

يعنى: أن المؤمن يتعب الشيطان ويزجره . ويقلل أهميته بسبب طاعته لله ، واستمرار هذه الطاعة ، فيزداد المؤمن يقينا ، ويزداد الشيطان بؤسا ويأسا ، وفى الأثر : « تلاقى شيطان المؤمن وشيطان الكافر ، فإذا شيطان المؤمن: هزيل ضعيف، أشعث أغبر ، وإذا شيطان الكافر: بدين سمين، نظيف قوى ، فقال شيطان الكافر لشيطان المؤمن: مالك ضعيف هزيل ؟ قال : أنا مع رجل إذا أكل : سُمى الله : فأظل جوعاناً ، وإذا شرب : سُمى الله : فأظل عطشاناً ، وإذا اكتسى : سُمى الله : فأظل عرياناً ، وإذا اغتسل : سُمى الله : فأظل أشعثاً أغبراً ، فقال شيطان الكافر : أنا مع رجل لا يذكر اسم الله : فأنا أكيله وشربه وضجيجه وشريكه ! .

وفى الحديث الشريف: يقول النبي ﷺ: « كل إنسان معه شيطان » ، قالوا: وأنت يا رسول الله ! قال: « نعم ، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم : فلا يأمر إلا بخير » (١١٠) .

وقريب من هذا المعنى قوله ﷺ: « ما سلك عمر فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر » ، فعمر لقوة إيمانه وصدق يقينه : يهرب منه الشيطان ، ويترك الطريق الذى يمر منه ، فسلطان الشيطان إنما يكون على قوم يرغبون فى المعاصى وتغريهم الشهوات ، ويسيطر عليهم الهوى .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْهُ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

المقررات ،

وإذا بدلنا آية: التبديل رفع شئ ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية: نسخها بآية أخرى ، والنسخ: رفع الشارع حكماً شرعياً سابقاً بحكم شرعى لاحق .

روح القدس : جبريل عليه السلام ، سمي بذلك ؛ لأنه ينزل بالقدس ، أى : بما يطهر النفوس من القرآن والحكمة والفيض الإلهي .

بالحق : أى : بالحكمة المقضية له .

يشير : هو جبريل الرومي غلام ابن الحضرمي ، كان قد قرأ التوراة والإنجيل ، وكان النبي يجلس إليه ، إذا أذاه أهل مكة .

الإلحاد : الميل ، يقال : لحد ، وألحد ، إذا مال عن القصد ، ومنه سمي العادل عن الحق: ملحدًا .

لسان : أى : كلام .

أمجسى ، الأعجمى ، والأعجم : الذى فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا فى لسانه لكنة .

تهديد :

تستمر الآيات فى ذكر مطالب المشركين ، وتذكر منها أمرين :

الأول: أنه قد تنزل آية من القرآن تنسخ آية أخرى ، مثل: تحويل القبلة ، وجعل الميراث على النسب، لا على الأخوة فى الدين ، حيث قال تعالى : **وَأَلْوَا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ** ، والأمر بالصبر على أذى المشركين ، ثم الأمر بردّ العدوان ، إذا تمّ هذا النسخ لحكمة إلهية ، ومقصد شرعى ، ادعى الكفار: أن محمداً يفترى هذا القرآن من عند نفسه .

الثانى: ادعوا: أن محمداً يتعلم من حداد رومى ، فردّ القرآن هذه الشبهة ، حيث بين أن هذا الحداد أعجمى ، والقرآن فى غاية الإيضاح والبيان العربى .

التفسير:

١٠١ - وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أنزل الله القرآن هداية ونورا ، مشتملا على قواعد الإيمان ، وأسباب الصلاح ، والآداب والأخلاق ، والشرائع التى تنفيذ الأمم ، والله هو الذى خلق وهو العليم بما يصلحهم ومن حكمته أن يبدل آية قرآنية بأية أخرى ، تكون أكثر مناسبة للناس فى مرحلة تالية ، كالطبيب الذى يعالج المريض ، ثم يطور العلاج أو يغيره بما يناسب تطور المرض ، لكن المشركين كانوا يظنون ، أن محمداً يفترى القرآن من عند نفسه ، ويأتى بالآيات الجديدة لتنسخ الآيات السابقة ، من بنات أفكاره واختراعه ، فردّ عليهم القرآن فى هذه الآية ، وأشار إلى أن الحق سبحانه وتعالى ، عندما يبدل آية مكان آية ، فهو أعلم بما ينزل ، وأدرى بما يصلح حال العباد، ودعواهم: أن محمداً يفترى القرآن ، دعوى كاذبة ؛ لأنهم لا يعلمون سرّ هذا النسخ ، ولا يعرفون أهداف هذا التعيير .

والنسخ فى اللغة: الإزالة ، تقول: نسخت الشمس لون الثوب أى: أزالته ، وفى الشرع : رفع الشارع حكما شرعياً سابقاً ، بحكم شرعى لاحق ، مثل : تحويل القبلة ، وتشريع الجهاد بعد الأمر بالصبر والاحتمال .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : إن أكثر المعتزضين جهلاء أغبياء ، لا يعلمون الحكمة ولا يفقهون سرّ النسخ ، وقلة منهم تعرف وتعلم ، ولكنها تنكر هذه المعرفة وهذا العلم ؛ عناداً وجحوداً وحسداً للرسول ﷺ .

١٠٢ - قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .

روح القدس هو : جبريل عليه السلام ، والإضافة فيه إضافة الموصوف إلى الصفة، أي: الروح القدس. ووصف بالقدس ! لطهارته وبركته ، وسمى روحاً لمشابهته للروح ، فالروح فيها حياة البشر، وما يحمله جبريل من الوحي فيه حياة الأمم .

والمعنى :

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين : إن القرآن نزل من عند الله تعالى ، وقد نزل به جبريل الأمين متلبساً بالحق والصدق من عند الله ، لهدف ومقصد هو تثبيت المؤمنين على الإيمان ، كما أن في القرآن هداية من الضلال ، وبشارة للطائعين بالجنة ، وفيه هداية لمن آمن به من الزيغ والضلالات ، إذ فيه ما يهذب النفوس ويكبح جماح الطغيان ، ويرد الظالم عن ظلمه ، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض، وقد سمع القرآن أحد المشركين فقال : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وما يقول هذا بشر . وصدق الله العظيم : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء: ٨٢) .

١٠٣ - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .

ذكر بعض المفسرين: اسم هذا الرجل ، فقيل: اسمه بلعام ، وقيل: اسم هذا الرجل: يعيش ، وقيل غير ذلك.

والمعنى :

إننا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلاً: إن محمداً يتعلم هذا القرآن على يد رجل حداد ، وربما كان النبی ﷺ يجلس إليه ، ويكلمه بعض الشيء .

لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ .

أي : كذبتم أيها المشركون كذباً شنيعاً : فالإنسان الذي تشيرون إليه عبد حداد ، لسانه أعمى ، يعيش بين المطرقة والسندان ، وبما كان الرسول ﷺ يعلمه وينير معارفه ، بدليل أن أهل مكة سألوا هذا الحداد : هل تعلم محمداً ؟ فقال لهم : بل هو يعلمني .

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .

والقرآن عربي في أعلأ درجات البلاغة والفصاحة ، فقد أعجزكم بفصاحته وبلاغته ، وتحداكم وأنتم أهل اللسان والبيان ، أن تأتوا بمثله ، أو بعشر سور منه ، أو بسورة واحدة ، فعجزتم عن ذلك مع شدة الرغبة منكم ، واستمرار التحدي ، ونشوب الحرب والقتال ، ووجود الدواعي والرغبة منكم في إيجاد ما يشبه القرآن، ولما جاءوا بسورة كانت ناقصة مبتورة ، وكانت أدل على فشلهم وعجزهم فأثنى لبشر أن يأتي

بقرآن مثل هذا ، فضلاً عن أن يكون معلماً لمحمد ، وهذا المغز من قریش ، ربما كان منها على سبيل السخرية ، لا على سبيل الجد ، فما حواه القرآن من العلوم والمعارف ، والآداب والتشريع ، ليس فى مقدور بشر أن يأتى به .

وفى مؤتمر المستشرقين عام ١٩٥٤م ، كانت دعواهم: أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عمل فرد واحد ، - هو محمد - بل من عمل جماعة كبيرة ، وأنه لا يمكن أن يكون قد كتب فى الجزيرة العربية ، بل إن بعض أجزائه كتب خارجها .

دعاهم عظمة هذا الكتاب أن يستكثروه على موهبة رجل واحد ، وعلى علم أمة واحدة ، ولم يقولوا ما يوحى به المنطق الطبيعى المستقيم : إنه من وحى رب العالمين .

١٠٤- إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَأَيَّتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إن هؤلاء الكافرين قد ضلوا عن الحق والهدى ، وصدوا عن الإيمان ، وتكبروا عن داعى الرحمان ، هؤلاء ليسوا أهلاً لهداية السماء . فقد حجب الله عنهم الهدى ، وطبع على قلوبهم .

قال تعالى : بَلْ رَأَوْا عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين: ١٤) .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . فى الآخرة جزاء كفرهم وصدهم عن سبيل الله .

١٠٥- إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَيَّتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ .

إن الكذب جريمة كبرى لا يقدر على اختلاقه إلا الكافرون ، الذين لا يؤمنون بالقرآن ، ولا يصدقون بمحمد ﷺ ، هؤلاء وحدهم هم الكاذبون ، هؤلاء مقصورون على الكذب ، أما محمد ﷺ فهو الصادق الأمين ، وهو رسول من عند الله ، وهو صادق فى تبليغه عن الله ، وجبريل أمين على وحى السماء ، ومحمد أمين فى هذا البلاغ .

جاء فى تفسير القاسمى :

ولا يخفى ما فى الحصر بعد القصر ، من العناية بمقامه - صلوات الله عليه - وقد كان أصدق الناس وأبرهم .. بحيث كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم ، أبا سفيان فقال له - من بين ما قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان ليدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله تعالى .

وفى هذه الآية دلالة على أن الكذب من أكبر الكبائر، وأفحش الفواحش، والدليل عليه أن كلمة إنما للحصر، وروى: أن النبي ﷺ قيل له: هل يكذب المؤمن؟ قال: لا، ثم قرأ هذه الآية. ١ هـ.

★ ★ ★

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

المفردات :

أُكْرِهَ : أى : على التلفظ بكلمة الكفر.

مُطْمَئِنٌّ : ثابت متيقن ، والاطمئنان سكون النفس بعد انزعاجها ، والمراد : الثبات على ما كان عليه ، بعد إزعاج الكفر.

شرح بالكفر صدرًا : اعتقده وطاب به نفسًا .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة : أى : آثروها وقدموها .

لا جرم : أى : حقا .

تمهيد :

العقيدة الصائقة لها تكاليف وتضحيات ، والمسلمون الأولون تعرضوا لكثير من الاضطهاد والآلام ، فصبر كثير منهم ، وبعضهم تحمل الموت فى سبيل الله ، مؤثرا الآخرة على الدنيا . روى: أن قريشا أكرهوا عمارًا وأبويه: ياسرا وسمية ، على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ، ووجئت بحرية فى موضع عفتها ، وقالوا: إنما أسلمت من أجل الرجال ، فقتلوها ، وقتلوا ياسرًا ، وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل: يا رسول الله، إن عمارًا كفر ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بحلمه ودمه . فأتى عمار رسول الله ﷺ ، وهو يبكي ،

فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال له : « مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت » وفي رواية: أنه قال له : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئن بالإيمان ، قال ﷺ : « إن عادوا فعد » ، فنزلت هذه الآية ^(١).

والآيات توضح مغفرة الله للمُكْرَه ، وتبين: أن العقاب الأليم لمن رجع عن الإسلام ، وأثر الكفر ؛ فإنه يستحق غضب الله ، والعذاب العظيم ، وهو قد اشترى الدنيا والكفر ، وباع الآخرة والإيمان ، فحرمه الله الهدى ووصمه بالكفر ، هؤلاء قد ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم ، فصاروا غافلين عن الحق ، سادرين فى الباطل ، حقا إنهم فى الآخرة من الخاسرين ، فقد حرموا الجنة وصاروا من أهل النار .

التفسير:

١٠٦ - مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مِنْ شَرِّ الْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب ، وذاتت حلاوته النفوس ، لا يجوز أن يتركه الإنسان ويرجع إلى الكفر بالله .

والآية تتحدث عن عقوبة الكافر الذى عرف الإيمان ، ثم عدل عنه إلى الكفر - وتستثنى من هذه العقوبة، من أكره على الكفر ، فكفر بلسانه ، وقلبه ثابت مطمئن على الإيمان ، فهو فى مغفرة الله ورحمته - أما من اطمئن قلبه للكفر ، وعاد إليه متيقنا به ، مؤثرا له على الإيمان ، فعليه غضب الله ولعنته ، وله عذاب عظيم فى جهنم .

وقد تعرض المسلمون فى تاريخهم الطويل ، لألوان من العذاب والإغراء ؛ ليتركوا الإيمان ويعودوا إلى الكفر ، أو ليقولوا كلمة يذمون بها الإسلام ويمدحون الكفر ، فمنهم من رضى بالموت فداء لعقيدته ، واشترى الآخرة وباع الدنيا ، وتحمل صنوف العذاب والإغراء ، ومن هؤلاء ياسر ، وزوجته سمية ، وبلال بن رباح ، ومنهم من نطق بكلمة الكفر تقيّة ، حتى يخف عنه العذاب ، ومن هؤلاء عمار بن ياسر ، وقد أقره النبى ﷺ على ما فعل ، وفى الحديث: أن النبى ﷺ قال له : « كيف تجد قلبك » ، قال : مطمئن بالإيمان ، فقال له : « إن عادوا فعد » .

قال ابن كثير فى تفسيره :

اتفق العلماء على: أن المكْرَه على الكفر ، يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى ، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأنعاميل ، حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله ، فيأبى عليهم وهو يقول : أحد أحد ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هى أعظيظ لكم منها لقلتها » . اهـ .

وقريب من صنع بلال بن رباح ، ما فعله حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ، قال: نعم ، فيقول له مسيلمة : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال حبيب : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إربا إربا ، وهو ثابت على ذلك .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، في ترجمة عبد الله بن حذيفة السهمي - أحد الصحابة رضوان الله عليهم - أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم ، فقال له : تنصر وأنا أشرك في ملكي ، وأزوج ابنتي ، فقال له : لو أعطيتني جميع ما تملك ، وجميع ما تملكه العرب ، على أن أرجع عن دين محمد ﷺ ، طرفة عين ما فعلت ، فقال: إذن أقتلك ، فقال: أنت وذلك ، وفي رواية: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياماً ، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير ، فلم يقربه ، ثم استدعاه فقال : ما منعك أن تأكل ؟ فقال : أما إنه قد حل لي ، ولكن لم أكن لأشتمك في ، فقال له الملك : فقيل رأسي وأنا أطلقك ، فقال : تطلق معي جميع أسارى المسلمين ، قال: نعم ، فقبل رأسه ، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذيفة ، وأنا أيضا ، فقام وقبل رأسه رضى الله عنهما^(١١٦) .

١٠٧- ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .

أى : ذلك الجزاء العادل والعقاب الأليم ، بأن عليهم غضباً من الله ولهم عذاب عظيم ، سببه أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها ، وباعوا الآخرة والإيمان بالله ، ومن عدالة الله أنه لا يوفق للإيمان من يجحد آيات الله ويصر على إنكارها .

١٠٨- أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

هؤلاء الكفار قد اشتد إعراضهم عن الحق ، وآثروا الدنيا والهوى ، وأعرضوا عن الهدى : فحتم الله على قلوبهم بحجاب من الغفلة ، وعلى أسماعهم فلا تستمع إلى الهدى ، استماع راغب مستفيد مما فيه ، ولا تبصر الحق ولا تنظر في أدلته .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . السادرون فى لهوهم ، الساهون عما أعد لهم ولأثمالمهم ، من عقوبة وجزاء .

١٠٩- لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

أى : حقا إنهم فى الآخرة هم المغبونون : لأنهم اشتروا عرضاً قليلاً ، وباعوا نعيماً أبدياً سرمدياً : ف خسرت تجارتهم وعاد ذلك عليهم بالويل والنكال فى جهنم ويئس القرار .

ولله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بسبعة أشياء :

- ١- إنهم استوجبوا غضب الله .
- ٢- إنهم استحقوا عذابه العظيم .
- ٣- إنهم استحبوا الحياة الدنيا .
- ٤- إنهم حرموا من الهداية .
- ٥- إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .
- ٦- إنهم غفلوا عن الحق .
- ٧- إنهم خاسرون في الآخرة .

قال مجاهد:

أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخباب، وصهيب، وبلال، وعمار، وسمية، أما الرسول ! فحماء أبو طالب ، وأما أبو بكر ! فحماء قومه ، وأخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أجلسوا في الشمس ، فبلغ منهم الجهد بحر الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتمهم ويؤذيهم ، ويشتم سمية ، ثم طعنوا بحرية في ملمس العفة ، وقال الآخرون : ما نالوا به منهم ، إلا بلالا ، فإنهم جعلوا يعذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ : حتى ملوا : فكتفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به : حتى ملوه فتركوه ، وقال عمار : كلنا تكلم بالذي أردوا ، غير بلال : فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خباب : لقد أوقدوا لي نارا ما أطفأها إلا ودك (دهن) ظهرى .

★ ★ ★

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قَاتَلْتُمْ ثُمَّ جَاهَدُوا
وَصَبَرُوا إِنَّكَ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ
تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَاعْمَلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿

المضردات :

من بعد ما هانتوا ، عذبوا وأوذوا ، وأصل الفتن : إدخال الذهب في النار ؛ لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل في المحنة والابتلاء يصيب الإنسان .

تجادل : المجادلة : المحاجة والمدافعة ، والسعى في الخلاص من أهوال ذلك اليوم الشديد .

كل نفس : النفس الأولى : الجثة والبدن ، والنفس الثانية : عينها وذاتها .

تسوفى: تعطى .

تمهيد :

تتحدث الآيتان عن فئة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة ، مهانين فى قومهم ، فوافقوا المشركين ظاهرا ، على الرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهلهم : ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا فى سلك المسلمين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم الله بقبول توبتهم ودخولهم فى زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة: أن عياشاً رضى الله عنه . - وكان أخا أبى جهل من الرضاة - وأبا جندل بن سهل ، وسلمة بن هشام ، وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم ، فأعطوهم ما أرادوا: ليسلوا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

التفسير:

١١- ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

تتحدث الآية عن مؤمنين كانوا مستضعفين بمكة ، فلما اشتد عليهم العذاب : والوا قومهم ، وتكلموا فى الظاهر بما يرضى المشركين ، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة ، وحسن إسلامهم وبلادهم .

والمعنى : ثم إن ربك يا محمد ، لهؤلاء المهاجرين الذين امتحنوا بمكة ، ثم هاجروا إلى المدينة ، وجاهدوا مع المؤمنين ، وصبروا وصابروا ، ودفعوا ضريبة الإيمان ، من التضحية والفداء : إن ربك يا محمد من بعد هذه المواقف لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . يغفر لهم موالاة الكافرين بمكة ، ويرحم ضعفهم ، ويجزل ثبوتهم ، فقد أتبعوا السيئة بالحسنة ، وعوّضوا ما فاتهم ، وقاموا بجهد مبارك مع المسلمين .

رأى آخر

قال الألوسى:

وقرأ ابن عامر: من بعد ما قُتِلُوا ، بالبناء للفاعل ، وهو ضمير المشركين عند غير واحد ، أى : عذبوا المؤمنين كالحضرمى ، أكره موالاة «جبرا» حتى ارتد ، ثم أسلما وهاجرا ..

والمعنى : إن مغفرة الله تكون للمشارك الذى فتن المؤمنين ، ثم هاجر وجاهد وصبر : فإن الإسلام يجب ما قبله ، وإن مغفرة الله ورحمته لكل من طرق باه ، وقد كان خالد بن الوليد من أبطال المشركين ، وقد نال من المؤمنين فى معركة أحد ، حيث شاهد الرماة قد تركوا أماكنهم فى ظهر المعركة ، فأخذ جماعة من رجال المشركين ، وانقض على المسلمين من الخلف ، وأعمل السيف فى مؤخرة الجيش ، فاحتل نظام

الجيش، وصار المسلمون يقتل بعضهم بعضا، ولما أسلم خالد بن الوليد، قال للنبي ﷺ: ادع الله أن يغفر لي تلك المشاهد التي شهدت علىكَ، فقال ﷺ: «أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله».

١١١- يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

يَوْمَ منصوب على الظرفية بقوله: رُحِمَ، أو منصوب على المفعولية بفعل محذوف تقديره: اذكر، واليوم هنا: يوم القيامة، وقد صوّرت الآية أهوال هذا اليوم وشِدته وفزعهُ، وقد ورد في بعض الآثار: «إن جهنم لتزفر زفرة، لا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل، إلا جثا على ركبتيه، يقول: رب نفسي نفسي، حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك».

والمعنى: اذكر يوم القيامة، حيث يأتي كل إنسان يدافع عن نفسه، قد شغله الهول عن أي إنسان آخر، وفي ذلك اليوم لا يفيد الكلام ولا الدفاع؛ لأن الدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل، بل يوفى كل إنسان جزاء عمله، ويلقى المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته: وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ؛ لأنهم أمام الله العادل القاتل:

وَلَفَّعَ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧).

وقال سبحانه: يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوُنَّا تَدْلُهُا كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج: ٢٠١).

★ ★ ★

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

تمهيد:

في هاتين الآيتين تهديد وعيد لأهل مكة، وتذكير لهم بما أصاب القرى التي كذبت أنبياءها، فأرسل الله عليهم صاعقة، أو أمطرهم بالحجارة، أو أغرقهم بالماء، أو خسف بهم الأرض، جزاء كفرهم وعنادهم.

التفسير:

١١٢ - وَصَرَبَ اللَّهُ مَلَا قَرْيَةٍ كَانَتْ إِيمَانُهُ مُطْمَئِنَّةً بِأَيْدِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنعَمَ اللَّهُ فَإِذَا فِيهَا
اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

ضرب الله الأمثال لأهل مكة : حتى يضع أمامهم صورة عملية لقرية - أي قرية - من قرى المكذبين، مثل قرية نوح ، أو هود ، أو صالح ، أو موسى ، أو محمد عليهم الصلاة والسلام ، فقد كان هؤلاء الكفار آمنون في قراهم ، بأيديهم الرزق والعافية والنعمة ، ثم أرسل الله إليهم رسولا ليؤمنوا به ، فكذبوه وجدوا نبوتهم ، فأرسل الله عليهم العقوبة ، فقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وأهلك العذاب مدين وثمود .

قال تعالى : أَلَا بَعْدَ لَمَلَيْنِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ . (هود: ٩٥) ، وأغرق الله فرعون في ماء النيل .

قال تعالى : وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا
سَّائِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ
مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٩، ٤٠) .

وقال عز شأنه : كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ
فَصَعَقُوهَا فَلَمَّذَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس: ١١-١٥) .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بهذه القرية: قرية غير معينة ، وإنما هي مثل لكل قوم قابلوا نعم الله بالجحود والكفران ، ، فأصابهم العذاب والنكال ، وهذا ينطبق على قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم زكريا ، وقوم موسى ، وعيسى ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بالقرية أهل مكة ، كانت أنعم الله ترضى عليهم ، وتأتيهم الخيرات من كل مكان ، وكانوا يتمتعون بالأمن والأمان ، وتسير تجارتهم آمنة في رحلة الشتاء والصيف ، فلا يغير عليها أحد من الأعراب : لأنهم أهل حرم الله وسدنة الكعبة، ثم أرسل الله إليهم رسولا يعرفون نسبه وحسبه ، وصدقة وأمانته ، وجاء بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكفروا بالكتاب ، وكذبوا الرسول ، فدعا الرسول ﷺ عليهم ، وقال : « اللهم ، اشد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »^(١١٣) .

فأصاب أهل مكة الجوع ، وأذاقهم الله لباس الخوف ، أي : ذاقوا مرارة الخوف والحرب والجوع ، حتى إذا نظروا إلى السماء : شاهدوا ما يشبه الدخان ، من الجوع الذي أصابهم ، عقوبة لكفرهم .

وعند التأمل نجد أن الآية يمكن أن تشمل قرى المكذبين السابقين للرسول ، وتنطبق في نفس الوقت على أهل مكة .

وقريب من معنى الآية قوله تعالى: **أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** . (القصص : ٥٧) .

وقوله سبحانه : **لَا يَلْسَنُ قُرَيْشٍ ؕ إِلَّا لَهُمْ رَحَلَةُ الشَّوَاءِ وَالصَّيْفِ ؕ فَلْيَجِدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ؕ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ** . (قريش : ١-٤) .

وقوله تعالى : **وَكَايْنِ مِّنْ قُرَيْةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قُرَيْتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ** . (محمد : ١٣) .

وفى ختام القول : تظل هذه الآية نموذجًا ومثالًا ، لكل من قابل النعمة بالكفر والظلم ، فتقال له ولأمثاله ، بل يمكن أن يذكر الإنسان نفسه عندما يدعو الهوى أو الشيطان إلى ارتكاب أى فاحشة أو معصية فيقول لنفسه : **وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرَيْةً كَانَتْ ءَامِنَةً مَّتَمِّئَةً بِأَيْهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهَا فَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** . (النحل : ١١٢) .

١١٣- **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** .

أى : إن أهل هذه القرية ، قد أكمل الله عليهم النعم ، فأرسل إليهم رسولا من جنسهم ، يعرفون نسبه وصدقه ، فقابلوا دعوته إليهم بالتكذيب والجحود ، فقابل الله تكذيبهم وجحودهم بأن أرسل عليهم العذاب ، حال كونهم ظالمين لأنفسهم ، وظالمين للرسول الذى أرسل إليهم .

فى أعقاب التفسير

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قُرَيْةً ... أَى : جعل القرية التى هذه حالها مثلا لكل قوم أنعم الله عليهم ، فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأنزل الله بهم نقمته ..

وقال الإمام ابن كثير :

هذا مثل أريد به : أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمنا ... فجحدت آلاء الله عليها ، وأعظمها بعة محمد ﷺ : **فَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** .

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا فَصَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

المضردات :

ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب، لا تجعلوا الكذب قولكم، ولا تجعلوا ألسنتكم أداة الكذب.

جاء في تفسير الكشاف ما معناه:

يقولون : له وجه يصف الجمال، وعين تصف السحر، يريدون: أنه جميل، وأن عينه تفتن من رآها؛ لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال، وعينه منبعاً للفتنة والسحر، كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما، محيط بحقيقتهما، يفهما للناس أجمل وصف، ويعرفهما أتم تعريف، وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها، كأن ألسنتهم كونها موصوفة بالكذب، هي حقيقته ومنبعه الذي يعرف منه.

لَتَشْتَهِرُوا، أى: لتكون العاقبة ذلك.

بجـهـالـة، الجهالة هنا: الطيش، وعدم التدبر فى العواقب.

تمهيد :

تشتمل الآيات على ما يأتى:

١- الأكل من الحلال الطيب.

٢- تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير .. إلا للمضطر .

٣- التحليل والتحریم لا يكونان إلا بنص ، ولا يجوز أن يكونا بالهوى والتشهى .

٤- ما حرم على اليهود قد ذكر من قبل فى سورة الأنعام .

٥- قبول توبة التائب الصادق فى توبته .

التفسير:

١١٤- فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّكُمْ لَهُ تَعْبُدُونَ .

كلوا من رزق الله ، ومن أنعمه الحلال الطيب ، واتركوا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروا الله على أنعمه عليكم ، بأن تستخدموا النعمة فيما خلقت له ، وأن تؤدوا الزكاة والصدقة ، إن كنتم تعبدون الله ، فالتزموا بأكل الحلال ، والتزموا بشكر النعمة ، وأداء حقها ، وإخراج زكاتها .

١١٥- إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ الْغَيْرِ لِلَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

التحريم والتحليل يكونان من الله ، وقد نعى القرآن على أهل الجاهلية تحريم أنواع من الحيوانات، فقال سبحانه وتعالى : مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا صَيْلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . (المائدة: ١٠٣) .

وقد تكرر هذا المعنى فى سورة البقرة والمائدة والأنعام ، وقد قصر الله التحريم هنا فى هذه الأربع؛ رداً على تحريم المشركين لبعض الحيوانات ، افتراء على الله ، من غير أن يحرمها الله تعالى .

فَالْمَيْتَةُ . ربما تعفنت أو فسدت ، فتعافى النفس من جهة ، ولأن فى أكلها أضراراً بالجسم من جهة أخرى ، ويلحق بالميتة : المنخقة ، والموقوذة ، والمتريدة ، والنطيحة ، وما أكل السبع منها ؛ نظرا لفسادها وضررها ، ولأنها لم تذبح وتذكى وهى حية .

وَالدَّمَ . وهو الدم النازل من الحيوان فى حياته أو فى مماته ، ويسمى : الدم المسفوح ، أى : السائل عند ذبح الحيوان ، وقد أثبت الطب الحديث الأضرار التى تصيب الإنسان من شرب الدم .

وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ . وقد حرم الله الخنزير كله ، جلده ولحمه ودهنه ؛ وإنما ذكر اللحم هنا ؛ لأنه الأساس المقصود بالذبح ، وتحريم الشحم والجلد تابعان لتحريم اللحم .

وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، حيث كان أهل الجاهلية يذبحون لألهتهم، ويقولون عند الذبح باسم اللات أو باسم العزى؛ والفعل أَهْلٌ مأخوذ من الإهلال بمعنى: رفع الصوت، أى : رافعين أصواتهم باسم آلهتهم؛ وفى هذا الحيوان فساد معنوى : لأنه ذكر عليه اسم غير الله ، وقد قال تعالى : فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ . (الأنعام : ١١٨).

والذبح عبادة لها مواصفات فى كتب الفقه : منها: أن يحد الذابح شفرته ، ويريح ذبيحته ، ويذبح الحيوان من رقبته، ويقطع أكثر الرقبة وفيها الحلقوم والودجان والنخاع . وعند الذبح يقول: باسم الله . الله أكبر .

فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : من اضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات الأربع ، كمن سار فى صحراء ، وضل الطريق ، واشتد به الجوع؛ فإنه يباح له الأكل من هذه المحرمات ، بمقدار ما يسد الرق ، ويستبقى الحياة .

غَيْرَ بَاغٍ ، أى : متجاوز فى قصده ، بأن يترك الحلال متعمدا إلى أكل الحرام .

وَلَا عَادٍ . أى : ولا معتد بأكل أكثر مما يسد الرق ، من أكل هذه المحرمات مضطرا فلا إثم عليه ، ولا ذنب .

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فإن الله يغفر له ويرحمه : لأنه عليم بالملايسات التى أحاطت به ، وهو سبحانه لم يكلفنا بما لا نطيق .

قال تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة: ٢٨٦) .

وقال عز شأنه: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَتْهَا . (الطلاق: ٧) .

وفى خواتيم سورة البقرة: رَبَّنَا لَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَآغْفُ عَنَّا وَآغْفِرْ لَنَا وَآرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . (البقرة: ٢٨٦) .

والآن وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، يتحدث الطب الحديث عن الأضرار العديدة التى تصيب من يأكل من هذه المحرمات ، ويتضح للعيان صدق هذا القرآن ، وأنه إنما جاء من عند الله حقا ، فأثنى لمحمد الذى نشأ فى بلاد العرب ، أن يصل إلى تحريم هذه الأشياء بذاتها ، من غير أن يوجهه وحى السماء ، وصدق الله العظيم : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم: ٤،٣) .

١١٦- وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

التحليل والتحریم لا يكونان إلا بنص، ولا يجوز أن يجزئ إنسان على تحليل شيء أو تحریمه، لهواه أو رأيه أو فتوى بغير علم، فيكون قد اجترأ على الله فضل وأضل.

ومعنى الآية: لا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم وتحكيه: هذا حلال، وهذا حرام، فهذا القول حين يقوله إنسان بلا نص هو الكذب بعينه، الذى يفتريه على الله، ويتقول على الله بما لم يقله، بدون دليل ولا برهان.

قال ابن كثير:

ويدخل فى الآية من ابتدع بدعة، ليس له فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه. ١ هـ.

وقال الآلوسى:

لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمة عن الله تعالى ورسوله: حاللا وحراما؛ فتكونوا كاذبين على الله؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه سبحانه. ١ هـ.

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ عَالِمُ أَدْنِ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ. (يونس: ٥٩).

وقد ادعى المشركون: تحريم أشياء لم يحرمها الله سبحانه، وفند القرآن دعواهم، ومن ذلك قوله: تعالى: وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرْنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى الْأَوْجَانِ ... (الأنعام: ١٣٩).

لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .

أى: لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله، كذبا من غير أن يكون ذلك منه، فאלله تعالى لم يحرم من ذلك ما تحرمون، ولا أحل كثيرا مما تحللون.

وإجمال ذلك:

لا تسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمة عن الله ورسوله: حاللا وحراما؛ فتكونوا كاذبين عليه؛ لأن مدار الحل والحرمة ليس إلا حكمه تعالى.

عن أبى نُضْرَةَ قال: قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا.

إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ .

أى : إن الذين يختلقون الكذب ، ويخترعون الفتوى ، وينسبون ذلك إلى الله وشرعه كذبا وزورا ؛ لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فسرعان ما يكتشف الناس كذبهم ، فينصرفون عنهم ، ويكونون مضرب الأمثال فى الهوان والصغار .

١١٧- مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : متاعهم فى الدنيا قليل ، بالسحت والمال الحرام ، الذى حصلوا عليه بفتاواهم الكاذبة .
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وينتظرهم عذاب شديد فى الآخرة ؛ جزاء كذبهم وافترائهم على الله .

قال تعالى : قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء: ٧٧) .

وقال عز شأنه : مُتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّزُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان: ٢٤) .

١١٨- وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا مَا فَصَّمْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

لقد حرم الله على اليهود أنواعا من الحيوانات : عقوبة لهم وردعا لظلمهم ، كما قال سبحانه وتعالى :
فَيُظْلَمُونَ مِمَّنَّ الدِّينِ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ . (النساء: ١٦٠) .

وعند المقارنة : نجد أن الله حرم على المسلمين الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله ، وهذا التحريم رافعة بنا ، وحفاظا على أجسامنا ، ولم يكن ذلك عقوبة على جريمة ارتكبتها ، أما ما حرم على اليهود فقد كان عقوبة لهم ، وقد سبق ذكر ذلك فى سورة الأنعام ، حيث قال سبحانه وتعالى : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طُفْرٍ مِّنَ الْبَكْرِ وَالْأَنْعَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . (الأنعام: ١٤٦) .

وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : أن الله تعالى لم يظلم اليهود بتحريم هذه الأشياء عليهم ، وإنما حرّمها عليهم جزاء ظلمهم ، وعدوانهم فى السبت ، وقولهم: قلوبنا غلف ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، وإضافتهم للتوراة ما ليس منها ، وحذفهم بعض

الحدود من التوراة ، مثل: الرجم للزاني المحصن عندما كثر الزنا فى أشرافهم ، فاستبدلوه بعقوبة أخف ، ولم تتشرب قلوبهم روح التوراة ، بل اهتموا باللفظ دون المحتوى ، حيث قال تعالى : **مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** . (الجمعة: ٥) .

١١٩- **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ وَعَدِلُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** .

تتكرر المعانى التى تفصح عن رحمة الله بعباده ، وقبول توبتهم ؛ حتى لا يئس إنسان من فضل الله ورحمته وقد فتح الله أبواب التوبة لكل تائب من اليهود أو من غيرهم ، وقد خصت الآية عمل السوء بجهالة؛ لأن المذنب عادة يكون واقعا تحت جهالة الشهوة أو الشباب أو الإغراء ، وليس معناه: أن من عمل السوء بدون جهالة لا يغفر الله له ، بل الآية تعبر عن الواقع والأكثر .
وقال مجاهد:

كل من عصى الله تعالى عمداً أو خطأ ، فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته .

وقال ابن عطية:

الجهالة هنا بمعنى : تعدى الطور ، وركوب الرأس ، لا عدم العلم ، ومنه ما جاء فى الخبر: « اللهم ، إني أعوذ بك أن أجهل أو يجهل على »^(١١٩) .

ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق الجهل الجاهلينا

ومعنى الآية:

ثم إن ربك لكثير الغفران والرحمة ، لأولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، بالذنوب أو المعاصي ، أو الشرك أو ركوب ما لا يليق ، بسبب الجهالة والطيش والسفه ، ثم ندموا وتابوا توبة صادقة ، وعملوا أعمالا صالحة ، فإن الله يتقبل توبتهم ، ويسجل لهم الحسنات فى صحائف أعمالهم ، رافةً ورحمة بهم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : **لَيْسَ عِبَادِي أَنَّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ** . (الحجر: ٤٩ ، ٥٠) .

ويقول تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** . (الفرقان: ٧٠) .

ويقول تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْقَوَّاتِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** . (البقرة: ٢٢٢) .

ويقول عز شأنه: قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

★ ★ ★

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنْ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمُ بِالْقِيَامِ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

المضردات :

أُمَّة : الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة : لأنه جمع من الفضائل مالم يفرق لكفى أمة .

قال أبو نواس يمدح هارون الرشيد :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

قَانِتًا : عابداً مطيعاً لله قائماً بأمره .

حَنِيفًا : مانثلاً عن الدين الباطل إلى الدين الحق .

اجْتَبَاهُ : اختاره واصطفاه .

وَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، هِيَ مُحَبَّةُ أَمَلِ الْأَدْيَانِ جَمِيعًا لَهُ ، وَقَدْ بَشَّرَهُ اللَّهُ بِإِسْحَاقَ ثُمَّ بِيَعْقُوبَ ، وَمِنْ نَسْلِهِ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ ، وَاتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا ، وَهُوَ مَذْكُورٌ فِي خَتَامِ التَّشْهَدِ ، وَمِنْ دَعَاءِ إِبْرَاهِيمَ :
وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدِّيقٍ فِي الْآخِرِينَ . (الشعراء : ٨٤) .

إنما جعل السبت ، أى : فرض تعظيمه ، والتخلُّى فيه للعبادة ، وترك الصيد .

بالحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدلائل الموضح للحق ، المزيل للشبهة ، أو حسن التأنى للأمر ، واختيار اللفظ المناسب ، والبيان المناسب .

الموعظة الحسنة : الأدلة الظنية المقنعة للعامة ، وكل ما يناسب الناس ، ويحببهم فى الدين والهدى والطاعة .

جادلهم : الجدل : الحوار والمناظرة : لإقناع المعاند ، وينبغى أن يكون بالأسلوب الأمثل للهادئ الرزين .

العقاب : فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ، ثم استعمل فى مطلق العقاب .

ضيق : بفتح الضاد وكسرهما ، الغم وانقباض الصدر .

تمهيد :

تختتم سورة النحل بذكر قصة إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرون بوجوب الاقتداء به ؛ ليصير ذكر طريقته حاملاً لهم على الإقرار بالتوحيد ، والرجوع عن الشرك ، ثم يأمر نبينا محمداً ﷺ باتباعه ، ثم يرسم القرآن طريق الدعوة إلى الله ، ويتمثل ذلك فى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره بالصبر وينهاه عن الحزن ، ويبشّره بالنصر للذين اتقوا والذين هم محسنون .

التفسير :

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ - إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

تصف الآيات الكريمة إبراهيم عليه السلام ، بأنه كان أمة ، جمع من الفضائل والمزايا ما يكفى أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنه : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة . ١ هـ .

فهو رئيس الموحدين ؛ كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ؛ ليطمئن قلبه للإسلام .

وجاء في ظلال القرآن ما يأتي :

ويحتمل أن معنى أمة : أن إبراهيم كان إماماً يهدي إلى الخير ، فهو قائد أمة ، وله أجره وأجر من عمل بهدأيته إلى يوم القيامة ، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه ، لا فرد واحد .

فَأَنبَأَ اللَّهُ طَائِعًا خَاشِعًا عَابِدًا .

حَنِيفًا . مَائِلًا عَنِ الْبَاطِلِ مُتَّبِعًا لِلْحَقِّ .

وَلَمْ يَكْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فقد هجر عبادة الأصنام ، وحاربها وكسرها ، وساق أدلة متعددة على التوحيد، وجدال النمرود ، وألجمه بالحجة حين قال له : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ . (البقرة: ٢٥٨) .

وقد حكى القرآن عن إبراهيم قوله تعالى: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩) .

شَاكِرًا لِلنَّعْمَةِ . أى : شكر نعم الله تعالى بالقول والعمل ، واستخدم النعمة فيما خلقت له ، وناقش قومه بالحوار والمنطق والعمل ، وتحمل النار فى شجاعة ، وقال عنه القرآن: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . (النجم: ٢٧) ، أى: وفى له ما عاهده عليه ، من الطاعة والجهاد وتبليغ الدعوة .

أَتَتْهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . قرَّبه الله واختاره ، وهداه إلى التوحيد الخالص ، والطريق القويم والملة الواضحة .

وَأَنبَأْنِيهِ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً . جمع الله له ما يحتاج إليه المؤمن : ليحيا حياة طيبة : فأعطاه العقل ، واللسان الفصيح ، والذرية الصالحة ، ومحبة الناس وتوقير السابقين واللاحقين ، حيث قال : وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . (الشعراء: ٨٤) .

وأشار القرآن إلى عطاء الله له فى الدنيا حين قال: فَلَمَّا أَتَتْهُمْ وَمَا يَعْجُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا . (مريم: ٤٩) .

وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

وإن له فى الآخرة منزلة عليا ، هى منزلة الصلاح ، وهى من أعلأ المنازل . وقد استجاب الله دعاء إبراهيم حين قال : رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (الشعراء: ٨٣) .

١٢٣- ثُمَّ أَوْحَيْتَ إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

وكان من أشرف ما أوتي إبراهيم من الفضائل ، أن أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتبع إبراهيم في إخلاصه في التوحيد ، وفي أصول الدين الثابتة في كل الشرائع .

قال المفسرون :

وفيه دليل على جواز اتباع الفاضل للمفضول ، ولا ينقص ذلك من قدر الفاضل ، فالخصوصية لا تقتضى الأفضلية ، لقد كان إبراهيم أباً الملة ، وأباً الأنبياء ، مِلَّةُ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ ... (الحج: ٧٨) .

وفى هذا دليل على أن الإسلام رسالة الأنبياء جميعا ، يتحملها السابق ثم اللاحق ، فالإسلام رسالة إبراهيم ، ورسالة من جاء بعده من الرسل ، ورسالة محمد ﷺ ، الذى أمر باتباعه حال كونه : حَنِيفًا . ماثلاً عن الباطل ، متبعا للحق ، برئيا من الشرك والمشركين ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم : مؤكداً أن شجرة الإسلام باسقة دعى إليها جميع الأنبياء .

قال تعالى : قُلُوبُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنَّا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة: ١٣٦) .

وقد روى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يقولون : ما أكمل هذه الدار ، وما أجملها لو وضعت هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة ، وأنا خاتم الرسل »^(١١٩) .

١٢٤- إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْحُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أى : إنما جعل وبال يوم السبت ، على الذين اختلفوا فيه من اليهود ، حيث أمرهم نبيهم موسى فيه بالانقطاع للعبادة ، وعدم صيد السمك ، فاختلفوا ، فمنهم من أطاع ، ومنهم من احتال على صيد السمك يوم السبت ، حيث وضع الشبك يوم السبت ، واصطاد يوم الأحد ، فلم يطيعوا أمر نبيهم ، فمسخهم الله قردة مبعدين من رحمته .

قال تعالى : إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَّانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . (الأعراف: ١٦٣) .

وقد عير القرآن اليهود ، بعدوانهم فى السبت ، وبأكلهم السمك بالحيلة ، وبأنهم إخوان القردة .

وَإِنَّ رَبَّكَ لَبَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الله ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.

١٢٥- أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ .

تأتى هذه الآية وما بعدها فى أعقاب سورة النحل المكية ، تتحدث عن أسلوب الدعوة إلى الله تعالى وتحدث عن أسلوب فى الحياة ، يهتم بالصبر والاحتمال والإيمان بالله ، والثقة بما عنده .

إن الدعاة مطالبون بدراسة علمية عالية ، لفنون القول والخطاب ، والإحاطة بالمعلومات وطرق الجدل ، وبيان الحجة ، أحياناً نكتفى بالبيان المناسب ، والمعلومات المفيدة ، وأحياناً نحرك القلوب بالموعظة الحسنة ، والتذكير بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأحياناً نناقش الناس بالحجة ، ونجادلهم بالمعروف وبالكلمة الطيبة : لنبيّن الخطأ والصواب ، وهذا معنى قوله تعالى :

أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ .

الْحُكْمَةِ . تشمل القول المحكم الصحيح ، الموضح للحق ، المزيل للباطل ، الواقع من النفس أجمل موقع.

وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ . بيان العبر والمواعظ التى جعلها الله فى القرآن الكريم ، مثل: وصف السماء والأرض ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والفضاء ، والهواء ، والليل ، والنهار ، والحياة ، والموت ، وغير ذلك مما يبين فضل الله على عباده ودعوتهم إلى طاعته واتباع أمره واجتناب نهيه .

وَجَدِلْهُمْ بِالتَّى هِيَ أَحْسَنُ .

أى : ناقش المخالفين بالهدوء والبيان ، بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له ، حتى يطمئن إلى الدعوة ، وينظر إلى الموضوع نظرة واقعية عميقة ، فالجدل بالتى هى أحسن ، هو الذى يفتح نفس المخاطب ، ويطمئنه إلى الهدى والرشاد .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

إن الدعاة هداة لا قضاة ، وكذلك الأنبياء والرسل ، عليهم تبليغ الدعوة والنصح والنقاش الهادئ ، أما الهداية والدخول فى الإسلام الحق ، فتلك مهمة الله الخالق البارئ الهادى .

قال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٧٢) .

وقال سبحانه: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ . (القصص: ٥٦) .

وقال سبحانه: فَلَذِكْرِ إِمَامَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢) .

والمعنى : اسلك أيها الرسول سبل الدعوة وأساليبها المفيدة النافعة ، أما الهداية العملية ، وانتقال الناس من الضلالة إلى الهدى ، فذلك أمر بيد الله تعالى ؛ فهو أعلم بالضالين المعاندين ، وهو أعلم بالمهتدين الطائعين ، وسيجازي كل فريق بما يستحق .

١٢٦- وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .

تحدث المفسرون كما تحدثت كتب علوم القرآن ، عن أسباب نزول هذه الآية وما بعدها إلى آخر سورة النحل ، فذكر جمع من المفسرين : أن هذه الآيات نزلت في أعقاب غزوة أحد .

روى الحافظ البزار عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب حين استشهد ، فنظر إلى منظر لم ينظر أوجع للقلب منه ، وقد مثل المشركون به فقال رسول الله ﷺ : « لقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك عليّ ؛ لسرّني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ، أما والله لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك » فنزلت هذه الآية ، فكفر رسول الله ﷺ عن يمينه^(١٢٦) .

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره :

إن هذا الإسناد السابق فيه ضعف ؛ لأن أحد رواه وهو (صالح بن بشر المروى) ضعيف عن الأئمة ، وروى عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه عن أبي كعب ، قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً ، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا اليوم من المشركين لنمثلن بهم ، فلما كان يوم الفتح ، قال رجل : لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد: أن رسول الله ﷺ : قد أمّن الأبيض والأسود ، إلا فلانا وفلانا (ناساً سهاًم) ، فنزلت الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل ، فقال رسول الله ﷺ : نصبر ولا نعاقب^(١٢٧) .

وقد ذكر بعض العلماء: أن هذه الآيات الثلاث الأخيرة من سورة النحل ، تكرر نزولها ، فنزلت يوم أحد ونزلت عند فتح مكة ، والحكمة في تكرير نزولها ؛ شدة الحاجة إلى العمل بمعانيها ، عند الرغبة في التشفي ، ودعوة القرآن إلى الصبر .

وعند التأمل نجد أن الآيات دعوة إلهية إلى الصبر والاحتمال ، وهي دستور مفيد للإنسان وللجماعات والأمم ، وسواء كان نزولها في غزوة أحد ، أو عند فتح مكة ، أو عند حياة المسلمين بمكة قبل الهجرة ، فإن معانيها عامة ، وأوامرها وآدابها مطلوبة للحياة والأفراد .

وفى معنى قوله تعالى : **وَأِنْ عَاقَبْتُمْ ...** الآية . يقول سبحانه وتعالى : **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** . (الشورى: ٤٠) .

أى : إن من حق الإنسان أن يعاقب على الإساءة إليه ، بالقصاص أو بالعقوبة المناسبة ، فإذا عفى وأصلح ؛ فإنه ينال جزاءه عند الله فى الحياة الآخرة .

وكذلك معنى الآية يفيد: أنه يحق للإنسان أن يعاقب المعتدى بمثل عقوبته ، وله أن يعفو ويصفح ، وهذا خير وأفضل ، وفى الحديث النبوى الشريف : « ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال عبد من صدقة ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله » (١١٨) .

وقال الشيخ أحمد المراغى فى تفسير المراغى :

والخلاصة: أنكم إن رغبتُم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه ؛ فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم ؛ فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويناصر المظلوم .

١٢٧- **وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** .

تأتى هذه الآية لتأكيد الوصية بالصبر والاحتمال ، فالصبر طريق النجاح ، والصبر قد ذُكر فى القرآن فى أكثر من سبعين موضعاً ، والصبر نصف الإيمان ، فالإيمان نصفان ، نصف صبر ، ونصف شكر ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (ال عمران: ٢٠٠) .

وقال سبحانه: **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** . (الشورى: ٤٣) .

والمعنى للآية:

وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ .

أى : اصبر أيها الرسول على أذى قومك وفوض أمرك إلى الله ، فالصابر فى عناية الله وحفظه ، ومعونته وتوقيفه ، أى : وما ثواب صبرك إلا بتوفيق الله ومعونته ، وما جزاؤك عليه إلا من عند الله ، قال تعالى : **إِنَّمَا يُوفِى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** . (الزمن: ١٠) .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ .

كان عليه الصلاة والسلام حريصا على هداية قومه ، ودعوتهم إلى الدين الإسلامى ، وكانوا يزيدون فى إعراضهم وعنتهم .

فقال له القرآن :

لا تحزن على استمرارهم فى الكفر ، ولا تكن ضيقَ الصدر بعناد قومك ، وحرصهم على الكفر ، ومكرهم السيئ ، وفرارهم من الإيمان .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ . (الأعراف: ٢) .

وقوله عن شأنه : فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . (هود: ١٢) .

جاء فى ظلال القرآن :

وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِأَلَلِّهِ ...

فهو الذى يعين على الصبر ، وضبط النفس ، والاتجاه إليه هو الذى يطامن من الرغبة الفطرية فى رد الاعتداء بمثله ، والقصاص له بقدره . ا هـ .

ومجمل الآية :

لا تحزن بسبب كفر الكافرين ، وإصرارهم على ذلك ، وإعراضهم عن دعوتك ، ولا يضيّق صدرك بمكرهم : فإن الله تعالى ناصرك عليهم ومنجيك من شرورهم .

١٢٨- إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .

إن الله بمعونته وعونه ونصره ، مع دعائه المخلصين ، الذين اتقوا ربهم ، وراقبوه وأخلصوا له ، وقد أحسنوا القول والعمل ، وكانوا فى حالة من تقوى الله وحسن مراقبته : فكان الله معهم ، بعونه وتوفيقه ، ومن وجد الله : وجد كل شيء ، ومن فقد الله : فقد كل شيء .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الرابع عشر فى مدينة بوسعيد ، بجمهورية مصر العربية ، ظهر يوم السبت ٢٥ من ربيع الأول : ١٤١٧ هـ / الموافق ١٠ أغسطس ١٩٩٦ م ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ربنا ويحب ، اللهم ، اجعله خالصاً لوجهك الكريم ، اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه ، وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الرابع عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمّد صالح سمير فهد

(١) الوجه والنظائر في القرآن الكريم ، لمقاتل بن سليمان ص ٥٨ .

(٢) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٦٩-١٧٧ .

(٣) إذا اجتمع أهل النار في النار :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي عاصم في السنة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور ، وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . قالوا : فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها : فسمع الله ما قالوا ، فأمر بكل من كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا ، فلما رأى ذلك من بقي من الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ . ربما يورد الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ، وذكره الترمذي تعليقا في الإيمان تحت حديث رقم (٢٦٣٨) ، بقوله : وقد روى عن عبد الله بن مسعود ، وأبي ذر ، وعمران بن حصين ، وجابر بن عبد الله ، وابن عباس ، وأبي سعيد الخدري ، وأنس بن مالك : عن النبي ﷺ أنه قال : « سيخرج قوم من النار من أهل التوحيد ويدخلون الجنة » ، هكذا روى عن سعيد بن جببر ، وإبراهيم النخعي ، وغير واحد من التابعين في تفسير هذه الآية : ﴿ ربما يورد الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ قالوا : إذا أخرج أهل التوحيد من النار وأدخلوا الجنة : ود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، قلت : والحديث أصله في الصحيح .

(٤) يهرم ابن آدم وتشب منه الثتان : الحرص :

أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٤٧) ، والترمذي في الزهد (٢٣٣٩) ، وفي صفة القيامة (٢٤٥٥) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٤) ، وأحمد في مسنده (١١٧٣٢) ، من حديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر » .

(٥) مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مئة :

رواه الترمذي في القدر (٢١٥٠) ، وفي صفة القيامة (٢٤٦٥) ، من حديث مطرف بن عبد الله بن الشخير ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مئة ، إن أخطأته الصنايا : وقع في الهرم حتى يموت » . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو العوام هو عمران ، وهو ابن داود القطان . وقال في الموضوع الأخير : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه الترمذي في الزهد (٢٣٣٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٢) ، وأحمد في مسنده (١١٨٢٩) ، من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « هذا ابن آدم وهذا أجله » ووضع يده عند قفاه ، ثم بسطها فقال : « وثم أملة ، وثم أملة ، وثم أملة » . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٤) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطا مربعا ، وخط في وسط الخط خطا ، وخط خارجا من الخط خطا ، وحول الذي في الوسط خطوطا ، فقال : « هذا ابن آدم ، وهذا أجله محيط به ، وهذا الذي في الوسط الإنسان ، وهذه الخطوط عروضة ، إن نجا من هذا : ينهش هذا ، والخط الخارج : الأمل » ، وقال : هذا حديث صحيح .

(٦) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، للإمام محمد الرازي فخر الدين ، ٥٤٤-٦٠٤ هـ ، ١٠٩/١٠٩٩ ، دار الفكر ، بيروت .

(٧) تفسير الكشاف للزمخشري ١٢٨/٣ ، دار المصنف : شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد ، ١٣ شارع الصناديق بالأزهر- القاهرة .

(٨) فتح القدير ١٢٢/٣، دار المعرفة - بيروت - لبنان .

(٩) تفسير الفخر الرازي، المجلد العاشر، الجزء الأول ١٩ ص ١٧١، وفي (صفوة التفسير)، تأليف / محمد علي الصابوني، أن هذا الكلام من قول الفخر الرازي، والصواب: أن الفخر الرازي نقله عن ابن عباس .

(١٠) تفسير الفخر الرازي، ١٧٠/١٩ .

(١١) تفسير ابن عطية - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي ٢٩٠/٨ .

(١٢) تفسير القرطبي، المجلد العاشر، ص ٩ .

(١٣) حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب :

أخرجه البخاري في الأذان (٧٧٢) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا: يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن .

(١٤) انظر : آمال المرتضى (ح ١ ص ١٤ طبعة الحلبي) .

(١٥) تفسير القاسمي ١٠-٣٧٥٢ .

(١٦) تفسير المراغي ١٤، ١٥ بتصرف .

(١٧) انظر : تفسير القاسمي ١٠-٣٧٥٣، وتفسير السفي ٢-٢٧١ .

(١٨) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب - الجزء ١٤ - صفحة ٢١٣٤ .

(١٩) تفسير القاسمي ١٠-٣٧٥٣ .

(٢٠) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٣٠٢/٨، مطبعة الدوحة ١٩٨٥م .

(٢١) ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحيينا :

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) من حديث ابن عمر قال : قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: « اللهم ، اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر ههنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب .

(٢٢) تفسير التفسير للقرآن الكريم، للعلامة الفقيه/ محمد بن يوسف أطفيش، سلطنة عمان، وزارة التراث القومي والثقافة ١٤٠٤ .

(٢٣) تفسير أبي السعود ، وتفسير القاسمي ٥٥/١ ، وانظر : التفسير الوسيط ، تفسير سورة الحجر ، د. محمد سيد طنطاوي ٤٤/٨ .

(٢٤) تارك جزء من سبعين جزءا :

رواه البخاري في بدء الخلق (٢٥٦) ، ومسلم في الجنة (٢٨٤٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « تارك جزء من سبعين جزء من نار جهنم » ، قيل : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، قال : « فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها » .

(٢٥) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٩٦) ، من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم » .

(٢٦) تفسير ابن عطية ٣١٦/٨ ، بتصرف .

(٢٧) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤٠٣/٤ .

(٢٨) يخلص المؤمنون من النار فيحسون على قطرة :

رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٥) ، وأحمد (١٠٧١١) ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يخلص المؤمنون من النار فيحسون على قطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا : أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده ، لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا » .

(٢٩) اتقوا فراسة المؤمن :

رواه الترمذي في التفسير (٣١٢٧) من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن : فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ » . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(٣٠) انظر : تفسير ابن كثير ، وقد ورد الحديث في رواية البخاري وغيره .

(٣١) قسمت الصلاة بيني وبين عبدي :

رواه مالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة (١٨٩) ، ومسلم في الصلاة (٣٩٥) ، وأبو داود في الصلاة (٩٩٩٩) ، والترمذي في التفسير (٢٩٥٣) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٨٤) ، وأحمد في مسنده (٧٢٤٩) ، من حديث أبي هريرة .

(٣٢) ملئ ومثل ما بعني الله كمثل رجل أتى قوما :

أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٢) ، وفي الاعتصام (٨٢٨٣) ، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٣) ، من حديث أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « ملئ ومثل ما بعني الله كمثل رجل أتى قوما ، فقال : رأيت الجيش بعيني ، وإنني أنا النذير العربيان فأنجاهم النجاء ، فأطاعته طائفة فأدبلوا على مهلهم فنجا وكذبته طائفة فصحبهم الجيش فاجتاحهم » .

(٣٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشري ، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي .

(٣٤) تفسير القاسمي ٧٠/١٠ .

(٣٥) تفسير الكشاف للزمخشري ٣٩٨/٢ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

(٣٦) تفسير الكشاف ، وتفسير الطبري .

(٣٧) تفسير ابن كثير .

(٣٨) تفسير ابن عطية ٣٥٧/٨ طبع على نفقة الشيخ/ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر .

(٣٩) تفسير ابن عطية باختصار .

(٤٠) تفسير الفخر الرازي ٢٢٠/١٠ بتصرف .

(٤١) انظر : تفسير الفخر الرازي ٢٢٠/١٠ - ٢٢١ .

(٤٢) صل قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا :

رواه البخاري في الجمعة ح (١١١٧) ، والترمذي في الصلاة ح (٣٧١) ، وأبو داود في الصلاة ح (٩٥٢) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة ح (١٢٢٢) ، والنسائي في قيام الليل ح (١٦٦٠) ، وأحمد ح (١٩٣١٨) ، من حديث عمران بن حصين .

(٤٣) تفسير ابن عطية ٣٦٢/٨ ، طبع على نفقة أمير دولة قطر .

(٤٤) تفسير الفخر الرازي ٢٢٢/١٠ ، ٢٢٣ ، دار الفكر - لبنان ، وتيسير التفسير للعلامة/ محمد بن يوسف أطفيش ص ٤٥٥ ، سلطنة عمان .

(٤٥) اللام في ﴿ تر كيوها ﴾ للتعليل ، و ﴿ زينة ﴾ مفعول لأجله معطوف على محل ﴿ تر كيوها ﴾ .

(٤٦) الإبل عز لأهلها والغنم بركة :

رواه ابن ماجه في التجارات (٢٣٠٥) ، من حديث عروة البارقي يرفعه ، قال : « الإبل عز لأهلها ، والغنم بركة ، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة » . ويشهد للشطر الأخير منه ما رواه البخاري في الجهاد ح (٢٦٣٨) ، (٢٦٤٠) ، وفي فرض الخمس ح (٢٨٨٧) ، وفي المناقب ح (٣٣٧٢) ، ومسلم في الزكاة ح (١٦٤٨) ، وفي الإمارة ح (٣٤٧٩) ، (٣٤٨٠) ، أبو داود في الجهاد ح (٢٥٣٢) ، والترمذي في فضائل الجهاد ح (١٥٦٠) ، والنسائي في الخيل ح (٣٥٠٥) ، (٣٥٠٦) ، وابن ماجه في الجهاد ح (٢٧٧٨) ، وأحمد ح (٤٨٥٦) ، (٤٩٥٣) ، (٥٥٠٨) ، والدارمي في الجهاد ح (٢٣١٩) ، (٢٣٢٠) ، من حديث عروة البارقي ، وأنس ، وأبي هريرة ، وابن عمر ، وجبريل . بلفظ : « الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » .

(٤٧) مقتبس من (في ظلال القرآن) للمرحوم سيد قطب في تفسير الآية .

(٤٨) انظر: تفسير الآلوسی ، وتفسير المراغي ، والتفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد منططاوي .

(٤٩) في تفسير الفخر الرازي مزيد من التوضيح .

(٥٠) تيسير التفسير ، محمد بن يوسف أطفيش ، سلطنة عمان .

(٥١) تفسير الفخر الرازي ١٤/٢٠ ، دار الفكر العربي بيروت ، وتفسير المراغي ٦٥/١٤ .

(٥٢) تفسير الفخر الرازي بتصرف ١٥/٢٠ .

(٥٣) تفسير الفخر الرازي ١٦/٢٠ ، بتصرف وتقديم وتأخير .

(٥٤) يجاء بالجارين والمكبرين رجالاً في صور الذر يطوهم الناس :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج أحمد في الزهد عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « يجاء بالجارين والمكبرين رجالاً في صور الذر يطوهم الناس من هوانهم على الله ، حتى يقضى بين الناس ، ثم يذهب بهم إلى نار الأنهار . قيل : يا رسول الله ، وما نار الأنهار؟ قال : « عصارة أهل النار » .

ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٢)، وأحمد في مسنده (٦٦٣٩)، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلمهم نار الأنهار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال » . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٥٥) لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر :

رواه مسلم في الإيمان (٩١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٩) ، من حديث عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر : بطل الحق وغمط الناس » ورواه أبو داود في اللباس ٤٠٩٢ من حديث أبي هريرة .

(٥٦) قصة إسلام أبي ذر :

رواه البخاري في المنقاب (٣٥٢٢، ٣٨٦١) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٤) من حديث أبي جهمرة قال : قال لنا ابن عباس : ألا أخبركم بإسلام أبي ذر قال : قلنا : بلى قال : قال أبو ذر : كنت رجلاً من غفار فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي : انطلق إلى هذا الرجل كلمه وأتني بخبره ، فانطلق ، فلقينه ، ثم رجع فقلت : ما عندك ، فقال : والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير وينهى عن الشر ، فقلت له : لم تشفني من الخبر فأخذت جراباً وعصاً ، ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لأعرفه ، وأكره أن أسأل عنه وأشرب من ماء زمزم ، وأكون في المسجد ، قال : فمر بي على ، فقال : كأن الرجل غريب قال : قلت : نعم ، قال : فانطلق إلى المنزل قال : فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره ، فلما أصبحت غدوت إلى المسجد لأسأل عنه وليس أحد يخبرني عنه بشيء قال : فمر بي على ، فقال : أما نال للرجل يعرف منزله بعد ، قال : قلت : لا ، قال : انطلق معي ، قال : فقال : ما أمرك ، وما أقدمك هذه البلدة ، قال : قلت له : إن كتمت على أخبرتكم ، قال : فإني أفعل قال : قلت له : بلغنا أنه قد خرج ما هنا رجل يزعم أنه نبي فأرسلت أخي ليكلّمه فرجع ولم يشفني من الخبر فأردت أن ألقاه ، فقال له : أما إنك قد رشت هذا وجهي إليه فاتبعني ، ادخل حيث أدخل ، فإن رأيت أحداً أخافه عليك ، قمّت إلى الحائط كأني أصلع نعلی وامض أنت فمضيت معه حتى دخل ودخلت معه على النبي ﷺ فقلت له : اعرض على الإسلام فعرضه ، فأسلمت مكانى ، فقال لي : « يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر ، وارجع إلى بلدك ، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل ، فقلت : والذي يهتك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم ، فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال : يا معشر قريش إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فقاموا : ففرضت لأخوت ، فأردكني العباس ، فأكب على ، ثم أقبل عليهم فقال : ويلكم تقتلون رجلاً من غفار ومتجرم وممرمك على غفار ، فأقلعوا عني ، فلما أن أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس ، فقالوا : قوموا إلى هذا الصابئ فصنع بي مثل ما صنع بالأمس ، وأردكني العباس ، فأكب على ، وقال مثل مقالته بالأمس ، قال : فكان هذا أول إسلام أبي ذر رحمه الله .

(٥٧) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه :

رواه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦)، والدارمي في المقدمة (٥١٣)، وأبو داود في السنة (٤٦٠٩)، وأحمد (٨٩١٥)، والترمذي في العلم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة . ورواه ابن ماجه في المقدمة (٢٠٥)، من حديث أنس

إلا أنه يُلغظ: «أَيُّمَ دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتَّبِعْ: فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُوزَارٍ مَنْ اتَّبَعَهُ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُوزَارِهِمْ شَيْئًا، وَأَيُّمَ دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبِعْ: فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أَجُورٍ مَنْ اتَّبَعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا».

(٥٨) التفسير الميزر، د. هبة الزحيلي ١٤/١٤، بتصرف، وزيادة، ونقصان.

(٥٩) يا أم حارثة، إنها جنات في الجنة:

رواه البخاري في الجهاد (٢٨٠٩)، وفي الرقاق (٦٥٦٧)، والترمذي في التفسير (٣١٧٤)، من حديث أنس بن مالك: أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقَة أتت النبي ﷺ، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب، فإن كان في الجنة صيرت وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء قال: يا أم حارثة، إنها جنات في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

(٦٠) تفسير الفخر الرازي ٢٠/٢٤.

(٦١) إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها:

رواه مسلم في صفة القيامة (٢٨٠٨)، وأحمد في مسنده (١١٨٥٥) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيقطع بحسنات ما عمل بها الله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها».

(٦٢) الطبري ١٤/١٠٩.

(٦٣) التفسير الكبير ٢٠/٢٥.

(٦٤) لن يدخل أحدا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت!:

رواه البخاري في المرضي (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يدخل أحدا عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسدوا وقاربوا ولا يمتنين أحدكم الموت: إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب».

(٦٥) (البحيرة): الناقة، كان أهل الجاهلية ينجرون أذنبا، أي: يشقونها ويجعلون لبنها للطواغيت، فلا يحتلبها أحد من الناس، وجعل شق أذنبا علامة لذلك، (والسائبة)، الناقة تسب بنذر على الرجل، إن سلمه الله من مرض، أو بلغه منزلة، فلا تحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبها أحد، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ...﴾. (المائدة: ١٠٣).

(٦٦) تفسير المراغي ١٤/٨٠.

(٦٧) تفسير الفخر الرازي ٢٠/٢٩.

(٦٨) إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً:

رواه البخاري في الرقاق (٤٨٨٣)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٤)، والترمذي في الأمثال (٢٨٧٤) وأحمد في مسنده (٢٧٣٣٣) من حديث أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفرائش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمهن فيها فأنا أخذ

بحجركم عن النار، وهم يقتحمون فيها»، ورواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٥)، وأحمد في مسنده (١٤٤٧١)، من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم، كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذهبن عنها وأنا أخذ بحجركم عن النار وأنتم تغفلون من دى». .

(٦٩) يشتمني ابن آدم :

رواه البخاري في بدء الخلق ح (٣١٩٣)، والنسائي في الجنائز ح ٢٠٩٨، واللفظ له، وأحمد ح ٨٨٧٠.

(٧٠) تفسير ابن كثير .

(٧١) يريد: أنه باع ماله، حيث تركه للكفار، واشترى نفسه، قال المفسرون: وفيه نزل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله عارف بالعباد﴾. (البقرة: ٢٠٧).

(٧٢) تفسير الفخر الرازي ٣٥/٢٠.

(٧٣) المرجع السابق .

(٧٤) تفسير الفخر الرازي ٣٦/٢٠.

(٧٥) ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه :

رواه أبو داود في السنة (٤٦٠٤)، والترمذي في العلم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في المقدمة (١٢)، والدارمي في المقدمة (٥٨٦)، وأحمد في مسنده (١٦٧٢٢) من حديث المقدم بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شيعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها، ومن نزل يقوم فطعمه أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه» وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه أبو داود في السنة (٤٦٠٥)، والترمذي في العلم (٢٦٦٣)، وابن ماجه في المقدمة (١٣)، وأحمد في مسنده (٢٢٣٤٩)، من حديث أبي رافع عن النبي ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا ندرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» وقال الترمذي: حسن صحيح. ورواه ابن ماجه في المقدمة (٢١)، وأحمد في مسنده (٨٥٨٢)، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا أعرفن ما يحدث أحدكم عنى الحديث هو متكئ على أريكته، فيقول: أقرأ قرأنا ما قيل من قول حسن فأنا قلته» .

(٧٦) تفسير ابن عطية، مطبعة قطر الدوحة ١٩٨٥م، ٤٢٥/٨.

(٧٧) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم في أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) عن زرار بن سعد بن هاشم بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله فقدم المدينة. فأراد أن يبيع عقار له بها. فيجعله في السلاح والكراع، ويجهز الروم حتى يموت. فلما قدم المدينة: لقي أناساً من أهل المدينة، فنهوه عن ذلك، وأخبروه: أن رجلاً سته أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ. فنامهم نبي الله ﷺ، وقال: «أليس لكم في أسوة؟»، فلما حدثوه بذلك راجع امرأته، وقد كان طلقها. وأشهد على رجعتها. فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة. فأتتها فاسألها. ثم اتتنى فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها، فأتيت على حكم بن أفلح. فاستلحقته إليها فقال: ما أنا بقاربها: لأنني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأت

فيهما إلا مضيا . قال : فأقسمت عليه : فجاه ، فانطلقا إلى عائشة فاستأذنا عليها : فأذنت لنا ، فدخلنا عليها ، فقالت : أحكيكم؟ (فعرفته) فقال: نعم . فقالت: من معك؟ قال : سعد بن هشام . قالت: من هشام ؟ قال: ابن عامر . فترجعت عليه . وقالت خيرا (قال قتادة وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين ؟ أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ، قلت: أأستقرأ القرآن؟ قلت: بلى . قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن . قال: فهمت أن أقوم .. الحديث .. وأحمد مختصرا ح (٢٣٤٦٠)، (٢٤١٣٩)، (٢٤٦٢٩) .

(٧٨) تيسير التفسير للقرآن الكريم ، للعلامة / محمد بن يوسف أطفيش ، مطبعة التقدم ، إبراهيم عبد الوهاب يوسف ٤٤ شارع القصر العيني القاهرة ، لحساب سلطة عمان . (والتامك) السنام (والقرد) بفتح فكسر ، ما تلبذ من الصوف ، (والبع) شجر يتخذ منه الأقباس، (والسُنْفَر) بفتحين حديدية ينحت بها ، ويطلق على المبرد، أ.هـ. ويقال : تخوف مال فلان الإنفاق ، أى : تقصه .

(٧٩) تفسير سورة النحل ، د. محمد طنطاوى ص ١٠٠ .

(٨٠) موصولة مبتدأ متضمنة معنى الشرط ، «فمن الله» خبرها .

(٨١) تفسير سورة النحل ، للدكتور / محمد السيد طنطاوى ، ص ١٠٩ .

(٨٢) زيادة التفسير من فتح القدير للشوكاني طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالكويت ، ص ٣٥٣ .

(٨٣) مختصر تفسير ابن كثير : محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ٣٣٥/٢ .

(٨٤) اسقه عسلا :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٤، ٥٧١٦)، ومسلم فى السلام (٢٢١٧)، والترمذى فى الطب (٢٠٨٢)، وأحمد فى مسنده (١٠٧٦٢)، من حديث أبى سعيد: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال : أخى يشتكى بطنه ، فقال : « اسقه عسلا » ، ثم أتى الثانية فقال : « اسقه عسلا » ، ثم أتاه الثالثة فقال : « اسقه عسلا » ثم أتاه فقال : قد فعلت ، فقال : « صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا » فسقاه فبرأ .

(٨٥) انظر : صفوة صحيح البخارى للشيخ/ عبد الجليل عيسى أبو النصر فى شرح حديث البخارى عن غسل النحل ، وتفسير فتح البيان للشيخ/ صديق خان ، وتفسير سورة النحل للدكتور/ محمد سيد طنطاوى ص ١٣٠ .

(٨٦) صدق الله وكذب بطن أخيك :

تقدم من (٢٦٨٠) .

(٨٧) الشفاء فى ثلاثة: شربة عسل :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٠، ٥٦٨١)، وابن ماجه فى الطب (٣٤٩١)، وأحمد فى مسنده (٢٢٠٩)، من حديث ابن عباس رضئ الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « الشفاء فى ثلاثة: شربة عسل ، وشربة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمتى عن الكى » .

(٨٨) إن كان فى شيء من أدويتكم خير ففى شربة عسل :

رواه البخارى فى الطب (٥٦٨٣، ٥٧٠٢، ٥٧٠٤)، ومسلم فى السلام (٢٢٠٥)، وأحمد فى مسنده (١٤٢٩١)، من حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن كان فى شيء من أدويتكم خير ففى شربة عسل، أو شربة محجم، أو لذة من نار وما أحب أن أكتوى » .

(٨٩) الإسلام والطب الحديث للأستاذ الدكتور/ عبد العزيز إسماعيل باها .

(٩٠) اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهزم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٢٣)، وفى الدعوات (٦٣٦٧)، ومسلم فى الذكر (٢٧٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنهم قال: كان النبى ﷺ يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهزم ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر » . ورواه البخارى فى الجنائز (١٣٧٧)، ومسلم فى المساجد (٥٨٨)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم قال : كان رسول الله ﷺ يدعو ويقول: اللهم ، إني أعوذ بك من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » .

(٩١) حبيب إلى الطيب والنساء :

رواه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (١١٨٨٤، ١١٨٨٥، ١٢٦٤٤)، من حديث أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ﷺ حبيب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني فى الصلاة » . قال العراقى: رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه العقيلى ، قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم وقال الحافظ العراقى: إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن ، وأعلم أن المصنف جعل فى الخطبة حم رمزاً لأحمد فى مسنده ، فاقضى ذلك أن أحمد روى هذا فى المسند وهو باطل ، فإنه لم يخرج فيه وإنما خرج فى كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم. قلت: وكلام المناوى فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد فى مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره فى ثلاث مواضع، فتأمل .

(٩٢) النساء شقائق الرجال :

رواه أبو داود فى الطهارة (٢٣٦)، والترمذى فى الطهارة (١١٣) ، وأحمد فى مسنده (٢٥٦٦٣) ، من حديث عائشة قالت: سأل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد البلى ولا يذكر احتلاماً ، قال: « يغتسل » ، وعن الرجل يرى أنه قد احتلم ولا يجد البلى، قال « لا غسل عليه » فقالت أم سليم: المرأة ترى ذلك أعليها غس؟ قال « نعم ، إنما النساء شقائق الرجال » ، ورواه الدارمى فى الطهارة (٧٦٤)، من حديث أنس قال : دخلت على رسول الله ﷺ أم سليم ، وعنده أم سلمة ، فقالت : المرأة ترى فى منامها ما يرى الرجل فقالت أم سلمة : تربت يدك يا أم سليم فضحت النساء ، فقال النبى ﷺ منتصراً لأم سليم : « بل أنت تربت يدك إن خيركن التى تسأل عما يعنىها ، إذا رأت الماء فلتغتسل » ، قالت أم سلمة: وللنساء ماء ؟ قال : « نعم ، فأنى يشبههن الولد إنما هن شقائق الرجال » . ورواه أحمد فى مسنده (٢٦٥٧٧) ، من حديث أم سليم قالت : كانت مجاورة أم سلمة زوج النبى ﷺ فكانت تدخل عليها فدخل النبى ﷺ فقالت أم سليم : يا رسول الله ، أرايت إذا رأت المرأة أن زوجها يجامعها فى المنام ؟ أتغتسل ، فقالت أم سلمة : تربت يدك يا أم سليم فضحت النساء عند رسول الله ﷺ ، فقالت أم سليم: إن الله لا يستحي من الحق وإنما نسأل النبى ﷺ عما أشكل علينا خير من أن نكون منه على عمياء فقال النبى ﷺ لأم سلمة، « بل أنت تربت يدك ، نعم يا أم سليم عليها الغسل ، إذا وجدت الماء » فقالت أم سلمة : يا رسول الله ، وهل للمرأة ماء ؟ ، فقال النبى ﷺ : « فأنى يشبهها ولدها هن شقائق الرجال » .

(٩٣) فى ظلال القرآن .

(٩٤) من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) ، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى

لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعطينه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مساءته . قلت: تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد وقد قال بعضهم : لولا هيئة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد.

(٩٥) لك الحى حتى ترضى :

هذا اللفظ جزء من حديث : « اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى .. » الحديث ذكره الهيثمى فى المجمع ٣٨/٦ ، وقال : « رواه الطبرانى وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

(٩٦) إن أهل النار إذا جزعوا من حرها :

قال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية : إن أهل النار إذا جزعوا من حرها واستغاثوا بضحضاح فى النار ، فإذا أتوه تلقاهم عقارب ، كأنهن البغال الدم ، وأفاع كأنهن البخاتى : فصرينهم ، فذلك الزيادة .

(٩٧) اقرأ على - أحب أن أسمع من غيرى :

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٨٢) وفى فضائل القرآن (٥٠٥٠ ، ٥٠٥٥) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٠) ، والترمذى فى التفسير (٣٠٢٤) ، وأبو داود فى العلم (٣٦٦٨) ، وابن ماجه فى الزهد وأحمد فى مسنده (٤١٩٤) ، (٣٥٤١) ، (٣٥٩٥) ، (٤١٠٧) ، من حديث عبد الله بن مسعود .

(٩٨) ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه :

تقدم ص (٢٦٦٢) .

(٩٩) فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء :

رواه أبو داود فى السنة (٤٦٠٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٦) ، وابن ماجه فى المقدمة (٤٢) ، والدارمى فى المقدمة (٩٥) ، وأحمد فى مسنده (١٦٦٩٤) ، من حديث العرياض بن سارية قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مودع فمأذنا نتمعد إلينا فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن عبدا حبشيا ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيروا لاختلافنا كثيرا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور : فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

(١٠٠) من حلف على يمين :

رواه مسلم فى الإيمان (١٣/١٦٥٠) ، والترمذى فى النذر والإيمان (١٥٣٠) وقال : حديث أبى هريرة حديث صحيح ، والنسائى فى الكبرى فى الإيمان والكفارات (٢/٤٧٢٢) ، كلفه عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبو داود فى الإيمان والنذور (٣٢٧٧) ، والنسائى فى الكبرى فى الإيمان والنذور (٤/٤٧٢٤) ، كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .

(١٠١) أخلص العمل ؛ فإن الناقد بصير :

لم أره هكذا إنما ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢٢١٩) بلفظ: إن أمامكم عقبة كنود لا يجوزها المثلقلون . وعزاه للحاكم فى المستدرک والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الدرداء ، وقال : صحيح .

(١٠٢) يقول ابن آدم : مالى مالى :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٨) ، والترمذى فى الزهد (٢٣٤٢) ، وفى التفسير (٢٣٥٤) ، والنسائى فى الوصايا (٣٦١٣) ، وأحمد

(١١٦) أما والله لأمعلن بسبعين منهم :

قال السيوطي في الدر: وأخرج ابن سعد، والبزار، وابن المنذر، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ير شيئاً قط، كان أوجع لقلبه منه، ونظر إليه قد مثل به فقال: «رحمة الله عليك، فإنك كنت ما علمت ما وصولا للرحم، فعولا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك؛ لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من أرواح شتى، أما والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك». فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم النحل: ﴿وإن عاقبهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم... الآية﴾. فكفر النبي ﷺ عن يمينه، وأمسك عن الذي أراد وصبر.

(١١٧) انظر: تفسير ابن كثير، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ومناهل العرفان في علوم القرآن للأسعادي/ عبد العظيم الزرقاني، ومباحث في علوم القرآن للشيخ/ مناع القطان، وعلوم القرآن للدكتور/ عبد الله شحاتة في موضوع: تعدد الأسباب والنازل واحد.

(١١٨) ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو :

رواه مسلم في البر والصلة ح ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩، وأحمد ح ٧١٦٥، ٨٧٨٢، والدارمي في الزكاة ح ١٦٧٦، من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله

وبها تم الجزء (الرابع عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الحجر	٢٥٥١
—	نظرات في سورة الحجر	٢٥٥٢
١	﴿المرتكك ءايات الكتاب...﴾	٢٥٥٩
٢	﴿ربما يود الذين كفروا...﴾	٢٥٥٩
٣	﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا...﴾	٢٥٥٩
٤	﴿وما أملاكنا من قرية...﴾	٢٥٥٩
٥	﴿ما تسبق من أمة أجلها...﴾	٢٥٥٩
٦	﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر...﴾	٢٥٦٣
٧	﴿لوما تأتينا بالملائكة...﴾	٢٥٦٣
٨	﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق...﴾	٢٥٦٣
٩	﴿إننا نحن نزلنا الذكر...﴾	٢٥٦٣
١٠	﴿ولقد أرسلنا من قبلك...﴾	٢٥٦٣
١١	﴿وما يأتئهم من رسول...﴾	٢٥٦٣
١٢	﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾	٢٥٦٣
١٣	﴿لا يؤمنون به وقد خلت...﴾	٢٥٦٣
١٤	﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء...﴾	٢٥٦٣
١٥	﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا...﴾	٢٥٦٣
١٦	﴿ولقد جعلنا في السماء بروجا...﴾	٢٥٦٨
١٧	﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم...﴾	٢٥٦٨
١٨	﴿إلا من استرق السمع...﴾	٢٥٦٨
١٩	﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي...﴾	٢٥٦٨
٢٠	﴿وجعلنا لكم فيها معايش...﴾	٢٥٦٨
٢١	﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه...﴾	٢٥٦٨
٢٢	﴿وأرسلنا الرياح لواقح...﴾	٢٥٧٤
٢٣	﴿وإننا لنحن نحيي ونميت...﴾	٢٥٧٤
٢٤	﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم...﴾	٢٥٧٤
٢٥	﴿وإن ربك هو يحشرهم...﴾	٢٥٧٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٦	﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال...﴾	٢٥٧٦
٢٧	﴿والجان خلقناه من قبل...﴾	٢٥٧٦
٢٨	﴿وإن قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا...﴾	٢٥٧٦
٢٩	﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي...﴾	٢٥٧٦
٣٠	﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون...﴾	٢٥٧٦
٣١	﴿إلا إبليس أبى...﴾	٢٥٧٦
٣٢	﴿قال يا إبليس مالك...﴾	٢٥٧٦
٣٣	﴿قال لم أكن لأجد للبشر...﴾	٢٥٧٦
٣٤	﴿قال فأخرج منها...﴾	٢٥٧٦
٣٥	﴿وإن عليك العنة...﴾	٢٥٧٦
٣٦	﴿قال رب فأأنظر نبي...﴾	٢٥٧٦
٣٧	﴿قال فإناك من الممنظرين...﴾	٢٥٧٦
٣٨	﴿إلى يوم الوقت الموعود...﴾	٢٥٧٦
٣٩	﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم...﴾	٢٥٧٦
٤٠	﴿إلا عبادك منهم المخلصين...﴾	٢٥٧٦
٤١	﴿قال هذا صراط على مستقيم...﴾	٢٥٧٦
٤٢	﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان...﴾	٢٥٧٦
٤٣	﴿وإن جهنم لموعدهم...﴾	٢٥٧٦
٤٤	﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم...﴾	٢٥٧٦
٤٥	﴿إن ألمتقن في جنات وعيون...﴾	٢٥٨٤
٤٦	﴿ادخلوها بسلام آمنين...﴾	٢٥٨٤
٤٧	﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل...﴾	٢٥٨٤
٤٨	﴿لا يمسهم فيها نصب...﴾	٢٥٨٤
٤٩	﴿نبي عبادي أنى أنا الغفور الرحيم...﴾	٢٥٨٧
٥٠	﴿وإن عذابي هو العذاب الأليم...﴾	٢٥٨٧
٥١	﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم...﴾	٢٥٨٧
٥٢	﴿إن دخلوا عليه فقالوا سلاما...﴾	٢٥٨٧
٥٣	﴿قالوا لا توجل إنا نبشرك...﴾	٢٥٨٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٤	﴿قال أبشروا منى على أن مسنى الكبر...﴾	٢٥٨٧
٥٥	﴿قالوا بشارناك بالحق...﴾	٢٥٨٧
٥٦	﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه...﴾	٢٥٨٧
٥٧	﴿قال فما خط بكم أيها المرسلون﴾	٢٥٨٧
٥٨	﴿قالوا إنما أرسلنا...﴾	٢٥٨٧
٥٩	﴿إلا آءال لـ...﴾	٢٥٨٧
٦٠	﴿إلا امرأتاه قـ...﴾	٢٥٨٧
٦١	﴿فلما جاء آءال لوط المرسلون﴾	٢٥٨٧
٦٢	﴿قال إنكم قوم منكرون﴾	٢٥٨٧
٦٣	﴿قالوا بل جئناك...﴾	٢٥٨٧
٦٤	﴿وأتيناك بالحق...﴾	٢٥٨٧
٦٥	﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل...﴾	٢٥٨٧
٦٦	﴿وقضينا إليه ذلك الأمر...﴾	٢٥٨٧
٦٧	﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون...﴾	٢٥٨٧
٦٨	﴿قال إن هؤلاء ضيغى...﴾	٢٥٨٧
٦٩	﴿واتقوا الله ولا تخزون﴾	٢٥٨٧
٧٠	﴿قالوا أولم ننهك...﴾	٢٥٨٧
٧١	﴿قال هؤلاء بيناتى...﴾	٢٥٨٧
٧٢	﴿لعمرك إنهم لفى سكرتهم...﴾	٢٥٨٧
٧٣	﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾	٢٥٨٧
٧٤	﴿فجاءنا عالياً بها سفالها...﴾	٢٥٨٧
٧٥	﴿إن فى ذلك لآيات لـ...﴾	٢٥٨٧
٧٦	﴿وانها لبسبيل مقيم﴾	٢٥٨٧
٧٧	﴿إن فى ذلك لآية لـ...﴾	٢٥٨٧
٧٨	﴿وإن كان أصحاب الأيكة...﴾	٢٥٨٧
٧٩	﴿فانتهق منا منهم...﴾	٢٥٨٧
٨٠	﴿ولقد كذب أصحاب الحجر...﴾	٢٥٨٧
٨١	﴿وءاتيناهم آياتنا...﴾	٢٥٨٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٢	﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا...﴾	٢٥٨٧
٨٣	﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾	٢٥٨٧
٨٤	﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾	٢٥٨٧
٨٥	﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق...﴾	٢٥٩٨
٨٦	﴿إن ربك هو الخلاق العليم﴾	٢٥٩٨
٨٧	﴿ولقد أتيناك سبعاً من المثاني...﴾	٢٥٩٩
٨٨	﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم...﴾	٢٥٩٩
٨٩	﴿وقل إننى أنا النذير المبين﴾	٢٥٩٩
٩٠	﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾	٢٥٩٩
٩١	﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾	٢٥٩٩
٩٢	﴿فوريك لنستأنهم أجمعين﴾	٢٥٩٩
٩٣	﴿عما كانوا يعملون﴾	٢٥٩٩
٩٤	﴿فأصدع بما كانوا يعملون﴾	٢٥٩٩
٩٥	﴿إننا كفيناك المستهزئين﴾	٢٥٩٩
٩٦	﴿الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر...﴾	٢٥٩٩
٩٧	﴿والقد نعلم أنك يضيق صدرك...﴾	٢٥٩٩
٩٨	﴿فسبح بحممد ربك...﴾	٢٥٩٩
٩٩	﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾	٢٥٩٩
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحجر	٢٦٠٧
—	تفسير سورة النحل	٢٦٠٩
—	دروس من سورة النحل	٢٦١٠
١	﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه...﴾	٢٦٢٠
٢	﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء...﴾	٢٦٢٠
٣	﴿خالق السماوات والأرض بالحق...﴾	٢٦٢٣
٤	﴿خالق الإنسان من نطفة...﴾	٢٦٢٣
٥	﴿والأنعام خلقها لكم فيها دماء...﴾	٢٦٢٣
٦	﴿ولكم فيها جمال حين تريحون...﴾	٢٦٢٣
٧	﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه...﴾	٢٦٢٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨	﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها...﴾	٢٦٢٣
٩	﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جاتر...﴾	٢٦٢٣
١٠	﴿هو الذي أنزل من السماء ماء...﴾	٢٦٢٣
١١	﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون...﴾	٢٦٢٣
١٢	﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر...﴾	٢٦٢٣
١٣	﴿وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه...﴾	٢٦٢٣
١٤	﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا...﴾	٢٦٢٣
١٥	﴿وألقي فى الأرض رواسى أن تميد بكم...﴾	٢٦٢٣
١٦	﴿وعلامات وبالنجم...﴾	٢٦٢٣
١٧	﴿أنفمن يخلق كمن لا يخلق...﴾	٢٦٣٤
١٨	﴿وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها...﴾	٢٦٣٤
١٩	﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون...﴾	٢٦٣٤
٢٠	﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا...﴾	٢٦٣٤
٢١	﴿أموات غيبر أحياء...﴾	٢٦٣٤
٢٢	﴿إلهكم إله واحد...﴾	٢٦٣٤
٢٣	﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون...﴾	٢٦٣٤
٢٤	﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم...﴾	٢٦٣٩
٢٥	﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة...﴾	٢٦٣٩
٢٦	﴿قد مكر الذين من قبلهم...﴾	٢٦٣٩
٢٧	﴿ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركاءى...﴾	٢٦٣٩
٢٨	﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم...﴾	٢٦٣٩
٢٩	﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها...﴾	٢٦٣٩
٣٠	﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم...﴾	٢٦٤٥
٣١	﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار...﴾	٢٦٤٥
٣٢	﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين...﴾	٢٦٤٥
٣٣	﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك...﴾	٢٦٤٨
٣٤	﴿فأصابهم سيئات ما عملوا...﴾	٢٦٤٨
٣٥	﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء...﴾	٢٦٥٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٦	﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله...﴾	٢٦٥٠
٣٧	﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل...﴾	٢٦٥٠
٣٨	﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم...﴾	٢٦٥٤
٣٩	﴿ليبين لهم الذى يختلفون فيه...﴾	٢٦٥٤
٤٠	﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه...﴾	٢٦٥٤
٤١	﴿والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا...﴾	٢٦٥٧
٤٢	﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾	٢٦٥٧
٤٣	﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم...﴾	٢٦٥٩
٤٤	﴿البينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر...﴾	٢٦٥٩
٤٥	﴿أن آمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض...﴾	٢٦٥٩
٤٦	﴿أو يأخذهم فى تقلابهم...﴾	٢٦٥٩
٤٧	﴿أو يأخذهم على تخوف...﴾	٢٦٥٩
٤٨	﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفريقا ظلاله...﴾	٢٦٥٩
٤٩	﴿ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض...﴾	٢٦٥٩
٥٠	﴿يخافون ربهم من فوقهم...﴾	٢٦٥٩
٥١	﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين...﴾	٢٦٦٥
٥٢	﴿وله ما فى السماوات والأرض وله الدين واصبا...﴾	٢٦٦٥
٥٣	﴿وما بكم من نعمة فمن الله...﴾	٢٦٦٥
٥٤	﴿ثم إذا كشف الضر عنكم...﴾	٢٦٦٥
٥٥	﴿ليكفروا بما آتيناكم...﴾	٢٦٦٥
٥٦	﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا...﴾	٢٦٦٩
٥٧	﴿ويجعلون لله البنات سبحانه...﴾	٢٦٦٩
٥٨	﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا...﴾	٢٦٦٩
٥٩	﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشره...﴾	٢٦٦٩
٦٠	﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء...﴾	٢٦٦٩
٦١	﴿ولو يؤخذ الله الناس بظلمهم...﴾	٢٦٧٣
٦٢	﴿ويجعلون لله ما يكفرون...﴾	٢٦٧٣
٦٣	﴿تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك...﴾	٢٦٧٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦٤	﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾	٢٦٧٣
٦٥	﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ...﴾	٢٦٧٦
٦٦	﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ...﴾	٢٦٧٦
٦٧	﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ...﴾	٢٦٧٦
٦٨	﴿وَأَوْحَىٰ رُبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...﴾	٢٦٧٦
٦٩	﴿ثُمَّ كَلَّمَكَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾	٢٦٧٦
٧٠	﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ...﴾	٢٦٨٢
٧١	﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الزَّرْقِ...﴾	٢٦٨٢
٧٢	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...﴾	٢٦٨٢
٧٣	﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا...﴾	٢٦٨٨
٧٤	﴿فَلَا تَضْرِبُوا اللَّهَ الْأَمْثَالَ...﴾	٢٦٨٨
٧٥	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾	٢٦٨٨
٧٦	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ...﴾	٢٦٨٨
٧٧	﴿وَاللَّهُ غَوِيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٢٦٩١
٧٨	﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا...﴾	٢٦٩١
٧٩	﴿وَالْمُيْرَاءُونَ إِلَى الطَّيْرِ مَسْجِرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ...﴾	٢٦٩١
٨٠	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا...﴾	٢٦٩٥
٨١	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا...﴾	٢٦٩٥
٨٢	﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ...﴾	٢٦٩٥
٨٣	﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا...﴾	٢٦٩٥
٨٤	﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾	٢٦٩٨
٨٥	﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ...﴾	٢٦٩٨
٨٦	﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ...﴾	٢٦٩٨
٨٧	﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ...﴾	٢٦٩٨
٨٨	﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٢٦٩٨
٨٩	﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾	٢٦٩٨
٩٠	﴿إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾	٢٧٠٤
٩١	﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ...﴾	٢٧٠٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٩٢	﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها...﴾	٢٧٠٤
٩٣	﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...﴾	٢٧٠٤
٩٤	﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم...﴾	٢٧١٢
٩٥	﴿ولا تشتتوا بعهد الله ثمناً قليلاً...﴾	٢٧١٢
٩٦	﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق...﴾	٢٧١٢
٩٧	﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن...﴾	٢٧١٢
٩٨	﴿فإذا قرأت القرآن فاستمعوا به...﴾	٢٧١٦
٩٩	﴿إنه ليس له سلطان على الذين ءامنوا...﴾	٢٧١٦
١٠٠	﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه...﴾	٢٧١٦
١٠١	﴿وإذا بدلنا آية مكان آية...﴾	٢٧١٨
١٠٢	﴿قل نزل به روح القدس من ربك...﴾	٢٧١٨
١٠٣	﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر...﴾	٢٧١٨
١٠٤	﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله...﴾	٢٧١٨
١٠٥	﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله...﴾	٢٧١٨
١٠٦	﴿من كفر بالله من بعد إيمانه...﴾	٢٧٢٢
١٠٧	﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة...﴾	٢٧٢٢
١٠٨	﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم...﴾	٢٧٢٢
١٠٩	﴿لا جرم أنهم فى الآخرة...﴾	٢٧٢٢
١١٠	﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا...﴾	٢٧٢٥
١١١	﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها...﴾	٢٧٢٥
١١٢	﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت ءامنة...﴾	٢٧٢٧
١١٣	﴿ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه...﴾	٢٧٢٧
١١٤	﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً...﴾	٢٧٣٠
١١٥	﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم...﴾	٢٧٣٠
١١٦	﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب...﴾	٢٧٣٠
١١٧	﴿متاع قليل ولهم عذاب أليم...﴾	٢٧٣٠
١١٨	﴿وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا...﴾	٢٧٣٠
١١٩	﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة...﴾	٢٧٣٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٢٠	﴿إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا...﴾	٢٧٣٦
١٢١	﴿شاكرا لأنعمه اجتباه ومذاه...﴾	٢٧٣٦
١٢٢	﴿وإتيناها نبي الدنيا حسنة...﴾	٢٧٣٦
١٢٣	﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا...﴾	٢٧٣٦
١٢٤	﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه...﴾	٢٧٣٦
١٢٥	﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...﴾	٢٧٣٦
١٢٦	﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به...﴾	٢٧٣٦
١٢٧	﴿واصبر وما صبرك إلا بإله...﴾	٢٧٣٦
١٢٨	﴿إن الله مع الذين اتقوا...﴾	٢٧٣٦
—	تخريج أحاديث وهوامش	٢٧٤٥
—	فهرس موضوعات	٢٧٥٩

تم بحمد الله تفسير الجزء (الرابع عشر)
 ويليهِ تفسير الجزء (الخامس عشر) إن شاء الله تعالى





تفسير القرآن الكريم
الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢ هـ

دعيت الله سبحانه

دار غريب

إهداء 2005

أ.د. محمد الله خبطة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تفسير سورة الإسراء

١ - بين يدي السورة

(أ) وحدة الرسالات :

سورة الإسراء فى جملتها تدور حول الرسول والرسالة فتبدأ بالحديث عن الإسراء بدياته ونهايته وغايته، وهذا هو العنوان الذى تندرج تحته موضوعات السورة وكلها موضوعات لها أوجه مناسبة بالرسول محمد ﷺ .

فقد تحدثت عن بنى إسرائيل بمناسبة الحديث عن الإسراء إلى بيت المقدس ، وكان اليهود يعيرون النبى بأنه لم يذهب إلى بيت المقدس مع أن الرسل السابقين قد ذهبت إليه وولدت حوله وهبط عليهم الوحي فى معبده، ويعيرونه بأنه ليس من سلسلة الأنبياء ، فقد اختص الله إبراهيم بأن جعله أبا للأنبياء والمرسلين وجعل الرسالة كلها فى عقبه بيد أن جميع المرسلين كانوا من نسل ولده إسحاق ، ثم يعقوب الملقب بإسرائيل وقد أنجب يعقوب اثنى عشر سبطا لقبوا بالأسباط^(١) ، وكان من نسلهم جميع أنبياء بنى إسرائيل .

أما النبى محمد ﷺ فكان وحده من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وقد جعل الله الإسراء إلى بيت المقدس؛ ليكون بمثابة (تدشين) لنبوته ثم جعله صلى إماما بالأنبياء ؛ ليكون هذا اعترافا بأنه أهل للرسالة ، وتشير بعض الآيات فى القرآن إلى هذا المعنى^(٢) .

وصلاة النبى بالأنبياء تشير إلى وحدة الرسالات والنبوات وأنها جميعا من عند الله وأن الأنبياء والمرسلين أرسلوا من أجل هداية الناس ودعوتهم إلى التوحيد وإرشادهم إلى الفضائل وتحذيرهم من الرذائل، فالغاية من الرسالة واحدة والهدف واحد وإن اختلفت الوسائل باختلاف الشعوب وطبائعها، فمن الأنبياء من حارب رذائل معينة انتشرت بين قومه كتطفيف الكيل الذى جاء به شعيب ، والمثلية الجنسية التى حاربها لوط ، ولكن الأنبياء فى الأساس العام دعاء إلى توحيد الله وهداة إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، ولذلك تلقى الديانات على فكرة التوحيد وحسن السلوك ، وفى سورة الأعراف نجد آيات متلاحقة تتحدث عن رسالة كل نبى وتتشابه جميعها فى أنها تبدأ أولا بالدعوة إلى توحيد الله . قال تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٥٩) .

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٦٥) .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ... (الأعراف: ٧٣) .

فالرسالات متحدة فى الأساس العام وهو التوحيد .

ومتخصصة فى الفروع التى تعالجها والمشاكل التى تقدم حلولها ويعبارة أخرى : الغاية واحدة والوسيلة مختلفة .

وقد ذكر السيد رشيد رضا فى تفسير المنار^(٣) : أن تعدد الرسل يشبه دولة أو جمهورية لها رئيس يحكمها بقانون عام ، وللرئيس نواب عنه يحكمون المحافظات ، فكل محافظ يتفق مع الآخر فى الأساس العام للحكم ويختلف عنه باختلاف طبيعة الأقاليم فلمحافظة السويس أو البحر الأحمر أو الوادئ الجديد مثلا تشريعات خاصة بها ، ولكنها تلتقى مع بقية المحافظات فى احترام الأساس العام للحكم وتنفيذ دستور الدولة وطاعة رئيسها .

وكذلك الرسل ، الإله الذى أرسلهم إله واحد لا شريك له والدعوة التى أرسلوا بها دعوة واحدة فى روحها وهدفها . ولكن الوسيلة لتهديب السلوك تختلف من نبي لآخر ومن شعب لآخر .

ونجد نصوص القرآن والسنة تؤكد هذا المعنى وتؤيده . فالقرآن يقول : **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَيْنِهِمْ...**

ولذلك نجد المسلم يؤمن بالرسالات كلها وبالرسل والكتب الصحيحة التى أنزلها الله : **قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** . (البقرة: ١٣٦) .

وفى الصحيحين^(٤) يقول النبى ﷺ : « إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يقولون لو وضعت هذه اللبنة فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الرسل » .

ويروى البخارى: أن النبى ﷺ قال : « الأنبياء أخوات لعلات^(٥) أمهاتهم شتى ودينهم واحد »^(٦) .

وأبناء العلات هم أبناء الضرائر يكون أبوهم رجلا واحدا وأمهاتهم متعددت ، فذلك الرسل ربهم الذى أرسلهم إله واحد ورسالاتهم متعددة بتعدد بلادهم .

وقريب من ذلك قوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

وفى هذه الوحدة رد على اليهود الذين ادعوا أنهم شعب الله المختار وأن الرسالة لا تكون إلا فيهم وأنهم أبناء الله وأن من عداهم لا يصح أن يكون رسولا .

فإن الله هو الذى خلق الخلق وهو يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، والرسالة مئة إلهية يعطيها الله من يشاء من عبادِه .

بل إن الرسل أنفسهم فضل الله بعضهم على بعض فجعل منهم أولى العزم ، الذين تحملوا البلاء أكثر من غيرهم .

قال تعالى : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ . (البقرة: ٢٥٣).

وقال سبحانه : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ . (الأحقاف: ٣٥) .

وأولو العزم من الرسل خمسة هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد .

وسموا بأولو العزم لتحملهم من البلاء والجهاد والكفاح أكثر مما تحمله سواهم ، ومن قواعد الإيمان أن تؤمن بالله ربا وخالقا ، وأن تؤمن بأن الله أرسل رسلا لهداية الناس : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ (النساء : ١٦٥) .

وهؤلاء الرسل كثرة كثيرة فى تاريخ البشرية الطويل ، وهم علامات مضيئة وشارات ترشد البشرية ، ولا يعلم عددهم إلا الله ، قال تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. (غافر: ٧٨).

وقد ورد ذكر كثير من الرسل فى القرآن الكريم ، قال تعالى : وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَذَكَرْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصَالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . (الأنعام: ٨٣-٨٦) .

(ب) بين موسى ومحمد :

كان موسى رسول بنى إسرائيل وصاحب التوراة والألواح وصاحب الشريعة التى أرسل على أساسها عيسى ، فلم يأت عيسى بشرع جديد ، بل كان فى دعوته تابعا لتعاليم التوراة وغاية فكرته أن صاح صيحات متتابعة يدعوهم فيها إلى صدق الإيمان والإخلاص ويبيدهم عن حب المادة ويسمو بهم إلى الروحانية الخالصة.

ولذلك يقول عيسى: ما جئت لأنقض الناموس بل لأجده ، وقال القرآن على لسان الجن : إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابَ أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى . (الأحقاف: ٣٠) .

وفى البخارى يقول ورقة بن نوفل للنبي: هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى^(٩).

فموسى صاحب دين ينتظم القوانين المدنية والشرائع الدينية ، أما عيسى فجاء بفكرة إصلاحية روحية فقط . وقد عادت الكنيسة فى الغرب إلى هذه الحدود الدينية وحدها . أما شريعة اليهود فهى شريعة متكاملة ولا ينافسها إلا الإسلام لأنه هو الدين الوحيد الذى يناظر اليهودية فى اشتماله على منهج ونظام مدنى ودينى . وقد استقبل الأنبياء والمرسلون رسول الله ليلة الإسراء ورحبوا به وقال له كل نبى : مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح وهذا دليل على أن الأنبياء والمرسلين إخوة فى المهمة التى كلفوا بها والدعوة التى وقفوا حياتهم من أجلها .

استقبل النبي فى السماء الأولى آدم ، وفى الثانية يحيى وعيسى ، وفى الثالثة يوسف ، وفى الرابعة إدريس ، وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم ، وقد بكى موسى عند وداع النبي له ، فسأله النبي: ما يبكيك يا موسى؟ قال : أبكى لأن غلاما بعث من بعدى سيدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمتى . وهو بكاء الغبطة لا بكاء الحسد ، ولعل موسى قد تذكر أنه طلب رؤية الله فلم يجب . إلى ذلك قال تعالى : **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمِّمَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِى قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى آلِ الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ ... (الأعراف: ١٤٢، ١٤٣) .**

ثم إن موسى رأى النبي فى ليلة الإسراء ، يؤخذ ليلا ويركب البراق وجبريل فى الركاب ويصلى إماما بالأنبياء ويصعد فى السماوات العلا ويرى من فضل الله ما يرى وتحوطه عناية الله وفضل الله ويرى الجنة ونعيمها ويرى الملائكة الأعلى يخصونه بالسلام والتحية . وتلك كلها خصائص اختص الله بها محمدا عليه السلام .

وحين فرض الله على النبي خمسين صلاة رجع إلى الهبوط ، فمر بموسى فى السماء السادسة ، فقال له : ماذا أعطاك ربك؟ قال : خمسين صلاة ، فقال له موسى : ارجع إلى ربك ، فأسأله التخفيف ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى جاهدت بنى إسرائيل قبلك . وعاد النبي إلى ربه ، فسأله التخفيف ، فحط عنه عشر صلوات ، فلما رجع إلى موسى ، قال له : ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف ، وتكررت توصية موسى للنبي مرارا حتى أصبحت خمس صلوات ، ثم قال الله له : يا محمد ، هى خمس فى العمل ، وخمسون فى الثواب ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا يبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد . وقد عاد النبي إلى موسى فقال له : ماذا أعطاك ربك . قال النبي : خمس صلوات ، فقال له موسى : ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف ، فقال النبي : سألت ربي حتى استحييت ولكنى أرضى وأسلم .

ومن هذا الحديث نعرف ما بين الأنبياء من صلوات ووشائج ونلمس رحمة موسى بالأمّة المحمدية .
وقد نقل إلى النبي خبرته في جهاد بني إسرائيل . ولذلك قال عليه السلام : « كان موسى خيرهم لى حين رجعت عليه » . وفى رواية : « فمرت بموسى ، ونعم الصاحب كان لكم » .

وكانما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثته الرسول الأخير لمقدسات الرسل قبله واشتمال رسالته على هذه المقدسات وارتباط رسالته بها جميعا ، فهى رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وترتبط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

٢- تعريف بسورة الإسراء

هى سورة مكية نزلت فى السنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة . وتسمى سورة الإسراء نظرا لذكر الإسراء فى صدرها ، كما تسمى سورة بني إسرائيل للحديث عنهم وعن إفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم على هذا الفساد .

وعدد آياتها ١١١ آية وهى مكية اتفاقا إلا الآيات: ٢٦، ٣٢، ٥٧، ومن آية ٧٣، إلى آية ٨٠ فمدنية، وقد نزلت بعد القصص ، فهى من أواخر ما نزل بمكة وقد تميزت آياتها بالطول النسبى ويسط الفكرة والدعوة إلى الآداب ومكارم الأخلاق على حين تجد الآيات المكية التى نزلت فى أوائل البعثة تتميز بقصر الفواصل، ومراعاة السجع ، والدعوة إلى التوحيد ، وسوق الأدلة على الإيمان بالله ، والآيات المدنية تتميز بالطول، وبيان أحكام التشريع ، ونظام العبادات، والمعاملات ، فسورة الإسراء اشتملت على خصائص السورة المكية، ومن ناحية أخرى ظهر فيها صفات من خصائص السور المدنية ؛ لأنها من أواخر العهد المكي فهى ممهدة للعهد المدنى ، حيث استقرت الدعوة فى المدينة ونزل القرآن يرسم سياسة المسلمين الداخلية والخارجية ويبين للمؤمنين نظام الحرب والسلام وأدب المعاملة وفن الحديث وطريقة الدعوة ومنهاج الحياة . وقد ذكر العلماء أن من واجبات المفسر أن يعرف مكي القرآن ومدنيه وما يشبه المدنى وهو مكي وما يشبه المكي وهو مدنى^(١)، وأن يعرف تاريخ النزول وأسباب النزول وما نزل من القرآن أولا وما نزل تاليا وما نزل مفردا وما نزل مشيعا بالملائكة .. فإن هذه المعرفة تعطينا ضوءا كاشفا يوضح أهداف السورة ومقصد الآيات وأسرار التشريع ، فهى دراسة للجو المحيط بالنص ولا غنى لمن أراد دراسة نص من النصوص عن معرفة قائله والبيئة الاجتماعية التى نشأ فيها والعوامل والظروف التى أحاطت بهذا النص .

ونحن حين ندرس القرآن نحيط بدراسة مماثلة للنص وما حوله ، ثم نحتاج إلى صفة أخرى هى صدق النية وعمق النظرة وإخلاص القلب وسلامة الفطرة حتى نستكشف هدى القرآن وسمو تعاليمه ؛ لأنها

تظهر واضحة أمام المؤمنين ، وتخفى عن عيون الجاحدين قال تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْمِعْ أَنْ يَسْمِعَكَ رَبُّكَ وَيُخْرِجَكَ مِنَ الْقُبُورِ . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَالْأَخِيرَةُ حِجَابًا مُسْتَوْرًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَالْأَخِيرَةُ حِجَابًا مُسْتَوْرًا . (الإسراء: ٤٥، ٤٦) .

٣- أهداف السورة

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى : سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَى بَنُو إِسْرَءِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وهذا هو مطلع السورة أو عنوانها الذى يحشد موضوعات السورة ، إن السورة فى مجملها تتحدث عن النبى وعن القرآن الذى نزل عليه وموقف المشركين من هذا القرآن . وفى خلال هذا الحديث تستطرد إلى ذكر بنى إسرائيل والحديث عن ماضيهم وإفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم كأنها تتوعد كل مكذب ومفسد بالعقاب العادل وفى هذا تهديد لكفار مكة ، ولكل خارج على نطاق الإيمان وشريعة العدل والنظام الإلهى (انظر الآيات: ١-٢٢) .

كما تحدثت السورة عن قضية التوحيد لتقيم عليها البناء الاجتماعى كله وآداب العمل والسلوك ، فأمرت بالإحسان إلى الوالدين ، وإيطاء ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ونهت عن التبذير والقتل والزنا وتطفيف الكيل وأكل مال اليتيم ، والكبر والبطر . (الآيات: ٢٣-٣٩) .

وقد أمرت المسلمين بجملة من الآداب فى أسلوب رائع حكيم يدعو الناس إلى التمسك بها ويؤيد أن القرآن كتاب تربية أخلاقية وسلوكية . وأن هذه التربية هى التى صاغت المجتمع الإسلامى المحمدى صياغة جديدة مهيبة .

وبذلك كانت معجزة القرآن أنه غدا روحا جديدة يسرى فى أوصال المجتمع العربى والإسلامى فيهدم حطام الجاهلية وأوثانها ، ويقيم على أشلائها دولة جديدة تؤمن بالله ورسوله وتهتدى بكتابه الذى أنزله نورا وهدى . فترى المسلم إما عابدا فى مسجده أو ساعيا على رزقه أو مجاهدا فى سبيل إعلاء كلمة الله . وجمعت المسلمين تحت راية جديدة عمادها الإخلاص وأساسها الحب لله ولدينه وقوتها فى تماسك المسلمين وأخوتهم وترباطهم وتساندهم ، فصلة الرحم والعطف على الفقير والبعد عن الكبر والشح والظلم كلها آداب سلوكية جعلت من المؤمنين خير أمة أخرجت للناس .

(وفى الآيات: ٣٩-٥٨) تحدثت السورة عن أوهام الوثنية الجاهلية حول نسبة البنات والشركاء إلى الله وعن البعث واستبعادهم لوقوعه وعن استقبالهم للقرآن وتقولاتهم على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمرت المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر ويتكلموا بالتى هى أحسن .

(وفى الآيات ٥٩-٧٢) بينت السورة لماذا كانت معجزة محمد معجزة عقلية خالدة ولم تكن معجزة مادية محدودة ، فقد كذب الأولون بالخوارق فحق عليهم الهلاك اتباعاً لسنة الله ، كما تناولت الحديث عن الإسراء وحكمته ، وأن الله جعله فتنه وامتحاناً للناس ليتميز المؤمنون ، وينكشف المنافقون ، ويحىء فى هذا السياق طرف من قصة إبليس وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذرية آدم. يحىء هذا الطرف من القصة كأنه كشف لعوامل الضلال الذى يبدو من المشركين ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله وتذكيرهم بنعمة الله عليهم فى تكريم الإنسان وتفضيله على جميع المخلوقات وتسخير جميع الكون له حتى يفكر بعقله ويؤمن بعقله فمن اهتدى أخذ كتابه بيمينه يوم القيامة ومن عمى عن الحق فى الدنيا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً .

وفى الآيات ٧٣-٨٨ تستعرض السورة كيد المشركين للرسول ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أنزل إليه ومحاوله إخراجهم من مكة ، ثم تأمر النبى أن يمضى فى طريقه يقرأ القرآن ويؤدى الصلاة ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه ، وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء لأمراض الجاهلية ورحمة بالجماعة الإسلامية .

وفى الآيات ٨٨-١١١ ختام السورة ، ويستمر فيها الحديث عن القرآن وإعجازه على حين يطلب كفار مكة خوارق مادية ويطلبون نزول الملائكة ويقترحون أن يكون للرسول بيت من زخرف أو جنة من نخيل وعنبر يفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً أو أن يرقى هو فى السماء ثم يأتئهم بكتاب مادى معه يقرءونه .. إلى آخر هذه المقترحات التى يملئها العنت والمكابرة لا طلب الهدى والافتناع ، ويرد الله على هذا كله بأنه خارج عن وظيفة الرسول وطبيعة الرسالة .

فالرسول بشر يوحى إليه وليس إلهاً يتحكم فى مظاهر الكون ، وقد سبق أن أعطى الله موسى معجزات مادية فكذب بها فرعون وجحد نبوة موسى فكانت العاقبة أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذبين .

إن طريقة القرآن هى طريقة الدعوة الهادفة المتأنية وقد نزل مفزقاً ليقراه الرسول على قومه فى هدوء وتؤدة وليجيب على أسئلة السائلين وليكون كتاب الحياة يحياها مع المؤمنين يعلمهم دينهم ويرد عنهم دعاوى أعدائهم ويلفت أنظارهم إلى الكون وما فيه حتى يعبدوا الله ويسجدوا له

عن خشوع و يقين وتختتم السورة بحمد الله وتنزيهه عن الولد والشريك فى الملك كما بُرِّتَ بتنزيه الله وتسبيحه . وإذا أردنا إيجازاً أكثر أمكننا أن نرجع أهداف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية :

- ١- معجزة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس : آية ١ .
- ٢- تاريخ بنى إسرائيل وإفسادهم فى الأرض وعقوبة الله لهم : الآيات ٢-٨ .
- ٣- جملة من الآداب يجب على المسلمين أن يتحلوا بها حتى تظل رابطتهم قوية متماسكة ، وحتى لا يصيبهم ما أصاب اليهود عندما أفسدوا فى الأرض: ٢٣-٢٩ .
- ٤- بيان أن كل ما فى السماوات والأرض مسبح لله : آية ٤٤ .
- ٥- الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه : الآيات ٥٠-٥٥ .
- ٦- الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام آية : ٤٦ .
- ٧- الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد ﷺ : آية : ٤٦ .
- ٨- قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك الآيات : ٦١-٦٥ .
- ٩- تعدد بعض نعم الله : الآيات ٦٦-٧٢ .
- ١٠- طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم وإلحافهم فى ذلك : الآيات ٧٣-٧٧ .
- ١١- أمر النبى ﷺ بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل : ٧٨-٨٧ .
- ١٢- بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله : الآيات : ٨٨-١٠٠ .
- ١٣- قصة موسى مع فرعون: ١٠١-١٠٥ .
- ١٤- الحكمة فى إنزال القرآن منجماً : الآيات ١٠٦-١١٠ .
- ١٥- تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين : الآية ١١١ .

٤- من أسرار الإعجاز في السورة

أهداف السورة تؤيد أنها سورة مكية نزلت تثبت العقيدة وترسم أدب السلوك وتذكر تاريخ اليهود. ثم تناقش المشركين في آلهتهم ، وفي تعنتهم وكفرهم ، وتذكر طرفا من قصة آدم وإبليس وقصة موسى وفرعون لتوضح عقوبة المتكبرين ومثوبة المؤمنين . وفي أثناء السورة حديث عن القرآن وإعجازه ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله ، وتعدد نعم الله على خلقه لتستميل الناس إلى الإيمان بالله وتقيم الحجة على أعداء الدين .

ومما لا شك فيه أن تصورنا لموقف الإسلام في مكة قبل الهجرة يعيننا كثيراً على فهم السورة ويوضح أن القرآن كان كتاب الحياة ، صور موقف المشركين وعقيدتهم وتعنتهم ، وذكر طرفا مما أصاب الأولين عليهم يتعظون أو يعتبرون ، قال تعالى : **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْذِرُ لَهُمْ ذِكْرًا** . (طه: ١١٣) .

إنك تحس من خلال النص بنبضات حياة تصور عنت المشركين وضلال عقيدتهم وتبرز أسلوب الدعوة الجديد الذي يملك الحجة على قضية الألوهية ويسوق الأدلة على قضيته من سجلات التاريخ ومن واقع الكون ومشاهده ، ومن التحدى بالقرآن وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله .

والقرآن من خلال حديثه ينتقل من فن إلى فن ، ومن وصف للإسراء إلى تاريخ لليهود إلى رد على دعوى المشركين إلى قصص لآدم وإبليس وفرعون وموسى .

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة برياط قوى متين يؤكد أنه كتاب الله ، ولو كان من صنع بشر ليلمس طرقا للانتقال فكل كاتب تجد في كتابته أثرا للقوة في مكان ، ثم تغتر قوته في مكان آخر ، قال تعالى : **أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْآيَاتُ أَنْ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** . (النساء: ٨٢) ، وقد تعرضت علوم السابقين للنقض والتعديل ، ولم يبق كتاب في تاريخ البشرية سلم من النقص والعيب إلا هذا الكتاب .

وفي سورة الإسراء : آية ٨٨ يقول الله عز وجل : **قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ ۚ وَمَن يَبْتَغِ الْإِنْفُسَ أَنفَهُ ۖ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾

المضردات :

سبحان : اسم فعل لتسبيح الله^(١) وتنزيهه ، فمعنى سبحان الله : أسبح الله سبحانه والمقصود التقديس والتنزيه عن السوء فى الذات والصفات والأفعال والأسماء والأحكام أى ما أبعد الذى له هذه الصفات عن جميع النقائص .

أسرى : سار فى الليل^(٢) ومعنى أسرى به صيره ساريا .

ليلا : أى فى جزء من الليل ، أو فى ساعات منه^(٣) .

من المسجد الحرام : أى : ابتداء الإسراء المسجد الحرام وسمى حراما : لتحريم القتل والعدوان فيه ، حتى لو وجد فيه قاتل أبىه حرم عليه قتله داخل المسجد لقوله تعالى : وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .

إلى المسجد الأقصى : هو بيت المقدس وسمى الأقصى : لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام .

الذى باركنا حوله : بارك الله حوله بركات مادية ومعنوية وأحاطه ببركات الدنيا والدين ، فجعل حوله الأشجار والثمار وجعله متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحي ومسرى محمد ﷺ .

لنريه من آياتهنا : فيها بيان لحكمة الإسراء ، وقد رأى النبى من آيات الله ودلائل قدرته الكثير ورأى صورا وأشكالا جسيمة فيها المعانى بصورة ملموسة محسوسة .

كما رأى الملائكة تعبد الله على أشكال شتى منها القائم ، والراكع ، والساجد ، ورأى الأنبياء والمرسلين ، ورأى الجنة والنار .

وكان لدى النبى من الصفاء والنقاء والطهر ما جعله أهلا لأن يرى آيات الله فى هذا الكون وأن يفتح قلبه الشريف ليحيط بأسرار الكون ونظمه وليرى العالم العلوى وملائكة السماء ، وهناك فرض الله عليه الصلاة تحية خالدة لهذا اللقاء الكريم .

إنه هو السميع البصير، السميع بدعاء محمد، البصير بما أصابه من أذى المشركين وهو يسمع ويرى ما لطف ودق وخفى عن الأسماع والأبصار من اللطائف والأسرار.

التفسير:

١- سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَدَرْنَا حَوْلَهُ لِيُرِيَهُ مِن مِّائِينَ آيَاتِهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

تحدثت الآية عن الإسراء فى إعجاز وبيان يملكهما مالك القدرة الخارقة التى شملت هذا الكون بما فيه، فاشتملت الآية على تنزيه الله أن يكون له صاحبة أو ولد وبينت أن الإسراء بعبد من عبيد الله اختاره واصطفاه ، وأن العبودية كلما تحقق مضمونها من الخضوع والخشوع والإخلاص لله سما صاحبها وزاد قدره وكان الإسراء من أول بيت وضع للناس ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث كانت الرسل تتعبد وحيث اعترفت له الأنبياء بالرسالة ، وحيث صعد من هذا المكان الطاهر إلى السماوات العلى إلى سدرة المنتهى إلى جنة المأوى ، ولم يتحول بصره يميناً ولا شمالاً ولا تجاوز الطريق المرسوم ، بل كان فى سمت النبيين وأمانة الصديقين وسمو المرسلين .

١ - المعراج :

المعراج والمصعد والمرقى كلها بمعنى واحد تدل على الصعود والارتقاء ومعراج الرسول هو صعوده إلى السماوات العلى ، حيث لقى من فضل الله الكثير ورأى من آيات ربه الكبرى .

وكان الإسراء والمعراج فى ليلة واحدة، الإسراء رحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج رحلة سماوية إلى الملأ الأعلى . وقد تحدثت سورة النجم عن المعراج فى قوله تعالى: **وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْخَىٰ إِلَىٰ عِندِهِ مَآ أَوْخَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتَمْرُؤُنَا عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَخْفَى السُّدْرَةُ مَا يَخْفَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ .** (النجم: ١-١٨) .

٢- تاريخ الإسراء :

وقع الإسراء فى السنة الحادية عشرة للبعثة ، قبل الهجرة بسنة^(١) أو قبلها بسنة وشهرين .

وكان المشركون قد أضعفوا فى إيذاء النبی وبالغوا فى تعذيب المسلمين ، حتى اضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين ، ولما يئس النبی من أهل مكة ذهب إلى الطائف وبها قبائل ثقیف فدعاهم للإسلام ورجعهم

فى الإيمان ، وكان يأمل أن يجيبوه إلى دعوته ، ولكنهم ردوه أسوأ رد وأرصدوا له الغلمان يرحمونهم بالحجارة، حتى دميت قدماه الشريقتان ، وقد أغمى على النبى من شدة الإيذاء^(١٧) ، فلما أفاق وجد نفسه مكذبا فى قومه مضطهدا فى مكة معذبا فى الطائف وحيدا غريبا ، فمد يده إلى الله سبحانه قائلا :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يارب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى. عافيتك هى أوسع لى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

وقد جاءه جبريل وقال : يا محمد هذا ملك الجبال ، وإن الله أمره أن يطيعك فى قومك بسبب ما فعلوه بك ، فإن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين (جبلين بمكة) ، فعل ، فقال له النبى : لا تفعل إني لأرجو أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله . اللهم اهد قومى فهم لا يعلمون .

فقال جبريل للنبى : صدق من سماك الرءوف الرحيم .

وعاد النبى إلى مكة حزينا كئيبا ولم يستطع دخولها إلا فى جوار المطعم بن عدى .

٣- ما قبل الإسراء :

كانت الفترة التى سبقت الإسراء من أقسى الفترات على النبى والمؤمنين ، وكان الامتحان قاسيا ، يواجه المؤمنون كل يوم بفتنة ومحنة ويستنصر المؤمنون رسول الله قائلين : ألا تدعو الله لنا ، ألا تستنزل غضبه على عدونا ، فيجيبهم بأن طريق الدعوة طريق وعر وصعب ، وأن على المؤمن أن يتحمل البلاء فى ذات الله ، ويصيح فيهم : « والله لقد كان يؤتى بالرجل فيمن قبلكم فيشق بالمنشار من مفرق رأسه إلى قدميه فما يصده ذلك عن دينه ، والذى نفس محمد بيده ليطمن الله ذلك الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » .

كان فضل الله على المؤمنين فى هذه الفترة المولمة : أن أعطى نبيه معجزة إلهية كبرى ؛ ليرى عوالم أخرى وليصعد إلى السماء ؛ وليرى من فضل الله ونعمه الكثير ثم يعود بالصلاة صلة بين المؤمنين وربهم فهى العون للمؤمن فى رحلة الحياة وهى الملجأ والملاذ إلى الله وهى فترة المناجاة والمناداة فيها تسمو الروح وتطهر النفس ويناجى العبد إلها سميعا بصيرا مجيبا .

٤- الإسراء فى ضوء العلم :

وردت قصة الإسراء والمعراج فى كتب السنة الصحاح وسرت بين الأمة سريانا مستغيضا ووعتها بطون الكتب وتحدث بها الرواة حتى نقلها من أعظم الرجال خمسة وأربعون صحابيا بطرق شتى وأخذها جيل عن جيل فى تواتر وإجماع .

والأمر فى جملة خاضع لقدرة الله التى لا تقف أمامها حدود وهو معجزة لرسول الله . والمعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة تصديقا له فى دعواه ، وليس فيما كشفه العلم من قوانين الجذب العام ونظام الأفلاك ومسابع النجوم وعناصر الكواكب ونواميس الحركة وطبقات الهواء وتحديد الحركات ومعايير السرعة - ليس فى ذلك كله وما يتصل به - ما يقف أمام الإسراء والمعراج .

فقد ثبت أن نجم المشتري يجرى بسرعة ثلاثين ألف ميل فى الساعة فيجرى تسعة أميال كلما تنفس الإنسان . والمشتري أكبر من أرضنا بألف وأربعمائة مرة . وأن الله الذى جعل هذا الجسم الكثيف الهائل يقطع الأبعاد الشاسعة فى لحظات لا يبعد عليه أن يسرى بنبيه من مكة إلى بيت المقدس على مقتضى ناموس لا نعرفه ، وإن كان الوجود يشتمل عليه ، ما دام العلم قد أثبت سرعة عجيبة لأجرام كثيفة .

وإننا نشهد كل يوم كشفا عن ناموس ، وإبطالا لناموس ، حتى لقد صرح بعض علماء الغرب بأن أخوف ما نخافه أن ما نفاخر به اليوم من العلوم يصبح بعد مائة سنة باطلا منسوخا .

ويؤثر لرئيس مجمع ترقى العلوم بجامعة كامبردج سنة ١٨٥٤م أن كنه المادة غير معروف ، وأن منتهى علمها مبتدأ جهلها .

ونحن إذا طويينا القرون القهقرى فرجعنا إلى ما قبل اليوم منذ قرنين اثنين ، أفكنا نحسب موجات الأثير وعدسات التليفزيون والتلستار تنقل صوت الإنسان وصورته إلى الأبعاد الشاسعة والأقطار النائية؟

إن الإنسان قد أخذه الإعجب العجاب عند اختراع الطائرة العادية ، ثم الطائرة النفاثة والأطباق الطائرة، والأقمار الصناعية .

وكان وصول الإنسان إلى القمر أخيرا خبرا مذهلا أخذ على الناس فى كل أصقاع الدنيا لبهم واستولى على اهتمامهم ، وذلك كله مما يقرب فى ذهن الإنسان سهولة الإسراء والمعراج خاصة وأنهما يقعان فى دائرة القدرة الإلهية التى يخضع لها كل شئ فى عالم السماوات والأرض والهواء والغضاء ، قال تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر: ٦٧) .

٥- أحاديث الإسراء:

هذه جملة من الأحاديث النبوية الشريفة ترسم صورة الإسراء وتحكى قصته ومشاهداته بروايات متعددة:

(أ)

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البناني ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتيت بالبراق ، وهو دابة بيضاء ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته ، فصار بى ، حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة فى الحلقة التى يربط فيها الأنبياء ، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن ، فقال جبريل : أصبت الفطرة ، قال : ثم عرج بى إلى السماء الدنيا ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت؟ قال جبريل: قيل ومن معك؟ قال: محمد ، قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بأدم ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد . قيل : وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بى ، ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل . فقيل له : من أنت؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد . قيل: وقد أرسل إليه؟ قال : قد أرسل إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن . فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل . فقيل له : من أنت؟ قال: جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال: محمد . قيل: وقد أرسل إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير . يقول الله تعالى : **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (مريم: ٥٧)** .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل . فقيل له : من أنت؟ قال: جبريل . فقيل : ومن معك؟ قال : محمد . فقيل : قد أرسل إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل . فقيل له : من أنت؟ قال: جبريل . قيل : ومن معك؟ قال: محمد ، فقيل: وقد بعث إليه؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى عليه السلام ، فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة : فاستفتح جبريل . فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب إلى سدة المنتهى : فإذا أوراقها كأذن الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال ، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها ، تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها ، قال : فأوحى الله إلى ما أوحى ، وقد فرض على في كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى . قال : ما فرض ربك على أمتك ؟ قال : خمسين صلاة في كل يوم وليلة . قال : أرجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم . قال : فرجعت إلى ربي ، فقلت : أي رب خفف عن أمتي ؛ فحط عني خمسا .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ، فقال : ما فعلت . فقلت : حط عني خمسا . فقال : إن أمتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال : فلم أزل أرجع بين ربي ، وبين موسى ، ويحط عني خمسا خمسا ، حتى قال : يا محمد هي خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها ، كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له عشرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته . فقال : أرجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فإن أمتك لا تطيق ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : لقد رجعت إلى ربي حتى استحيت « (رواه مسلم بهذا السياق) ^(١٤) .

قال البيهقي : وفي هذا السياق : أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس .

ويقول ابن كثير عن ذلك : وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية .

وقبل أن نبدأ أحاديث أخرى نذكر أنه :

ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين ، إلى أن الإسراء والمعراج :

وقعا في ليلة واحدة في البقعة ،

بجسد النبي ﷺ وروحه ،

بعد البعثة .

ولقد توارد على ذلك - كما يقول الإمام ابن حجر - ظواهر الأخبار الصحيحة ولا ينبغي العدول عن ذلك إذ ليس في العقل ما يحيله^(١)، حتى يحتاج إلى تأويل.

ولو كان مناما، أو بالروح فقط لما كذب رسول الله ﷺ مكذب، لجواز وقوع مثل ذلك وأبعد منه لأحاد الناس: إن الناس في الرؤيا يرون أنهم سافروا وأبعدوا، وجاءوا وعقدوا العقود ورأوا نتائج عقودهم وثمار جهودهم، فلو كنا بصدد رؤيا لما ارتأى في صدق الصادق الصدوق صلوات الله وسلامه عليه إنسان.

ولما أشفقت السيدة أم هانئ رضي الله عنها على رسول الله ﷺ، لما أخبرها الخبر، وقال: إنه سيحدث الناس به، فأرادت منه أن يعدل عن ذلك قائلة: إنهم سيكذبونك، فلم يستجب صلوات الله وسلامه عليه لنصيحتها، لأن الحق ينبغي أن يذاع، وأذاعه ﷺ بين الناس. وحدث ما حدث مما سنذكر بعضه فيما بعد إن شاء الله.

(ب)

وفي حديث عند الطبراني والبخاري، أنه عليه الصلاة والسلام: مر على قوم يزرعون ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا؟

قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة إلى سبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين.

ثم أتى قوما ترضع رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء.

فقال: ما هذا يا جبريل؟

قال: هؤلاء الذين تتناقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم، على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع.

فقال: ما هؤلاء؟

قال: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، وما ظلمهم الله، وما ريك بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر، ولحم نيئ في قدر خبيث فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج.

فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟

قال جبريل: هذا الرجل من أمك ، تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا ، فتأتى رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة حطب عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا الرجل من أمك ، تكون عليه أمانات الناس ، لا يقدر على أدايتها وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاهم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء .

قال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هؤلاء خطباء الفتنة .

قال: ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع .

قال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد فيه ريحا طيبة باردة ، وريح مسك وسمع صوتا .

فقال: ما هذا يا جبريل ؟

قال: هذا صوت الجنة ، تقول : رب آتني بما وعدتني ، فقد كثرت غرقي واستبرقي ، وحريري وسندسي ، وعبقرى ، ولؤلؤى ، ومرجاني ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحافى ، وأباريقي ، ومواكبي ، وعسلى ، ومائى ، ولبنى ، وخمرى ، فأتني بما وعدتني .

قال: لك كل مسلم ومسلمة ، ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى ويرسلنى وعمل صالحا ، ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونه أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألتنى فقد أعطيت ، ومن أقرضنى جازيته ، ومن توكل على كفيته ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، لا أخلف الميعاد ، قد أفلح المؤمنون ، وتبارك الله أحسن الخالقين .

قالت: فقد رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا منتنة .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا صوت جهنم ، تقول : رب آتني بما وعدتني فقد كثرت سلاسلي ، وأغلاللي ، وسعيري ، وحميمي ، وضريعي ، وغساقلي ، وعذابلي ، وقد بعد قعرى ، واشتد حرى ، فأتني بما وعدتني .

قال : لك كل مشترك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب .

قالت : قد رضيت .

فسار حتى أتى بيت المقدس .

(ج)

وفى حديث أبى سعيد : أنه رأى أَخُوْنَ عليها لحم طيب ليس عليها أحد . وأخرى عليها لحم نتن ، عليها ناس يأكلون .

قال جبريل : هؤلاء الذين يتركون الحلال ويأكلون الحرام .

وفيه : أنه مر بقوم بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر ، وأن جبريل قال له : هم أكلة الربا .

وأنه مر بقوم مشافهم كالإبل يلتقمون جمرا فيخرج من أسافلهم ، وأن جبريل قال له هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .

وأنه مر بقوم يقطع من جنوبهم اللحم ، فيطعمون وأنهم الغمازون للمازون .

وأنه مر بنساء تعلقن بِثُيُوبِهِنَّ ، وأنهن الزواني .

وفيه : حتى أتيت بيت المقدس أوثقت دابتي بالحلقة التى كانت الأنبياء تربطها فيها ، فدخلت أنا وجبريل بيت المقدس ، فصلى كل واحد منا ركعتين .

فى رواية أنس عن مسلم : ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءنى جبريل عليه السلام ، بإناء من خمر وإناء من لبن ، فاخترت اللبن .

فقال جبريل : اخترت الفطرة . أى : اخترت اللبن الذى عليه بنيت الخلقة .

وقال النووي : المراد بالفطرة هنا : الإسلام والاستقامة .

وفى رواية ابن مسعود : ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين : ما بين قائم ، وراعى وساجد .

ثم أذن مؤذن فأقيمت الصلاة ، فقمنا صفوفًا ننتظر من يؤمننا ، فأخذ بيدى جبريل فقدمنى فصليت
م.م.

(هـ)

وأخرج البخارى من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً
لِّلنَّاسِ . (الإسراء: ٦٠) ، قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ، ليلة أسرى به^(١٧) .

وأخرج الطبرى فى الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس أنه يقول: « إن محمدا ﷺ ، رأى ربه مرتين:
مرة ببصره ، ومرة بفؤاده » .

وأخرج أيضا عن ابن عباس قال:

نظر محمد إلى ربه ، قال عكرمة: فقلت له: نظر محمد إلى ربه ؟

قال: نعم جعل الكلام لموسى ، والخلة لإبراهيم ، والنظر لمحمد ﷺ .

وأخرجه البيهقى فى (كتاب الرؤيا) بلفظ:

إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة ، واصطفى موسى بالكلام ، واصطفى محمدا ﷺ بالرؤيا .

وأخرجه بلفظ:

أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ﷺ ؟

وأخرج أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت ربي عز وجل » .

(و)

وأخرج أحمد والنسائى والبخارى والطبرانى والبيهقى ، وابن مردويه بسند صحيح من طريق سعيد بن
جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ :

ولما أسرى بى مرت بى رائحة طيبة ، فقلت: ما هذه الرائحة ؟

قالوا : ماشطة بنت فرعون وأولادها ، سقط مشطها منها فقالت: بسم الله .

فقالت ابنة فرعون: أبى ؟

قالت: ربي هو ريك ورب أبيك .

قالت: أولك رب غير أبى ؟

قالت: نعم .

فدعاهما فقال: ألك رب غيرى ؟

قالت: نعم ، ربي وربك الله .

فأمر ببقرة من نحاس ، فأحميت ، ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم ، فقال:

قعى يا أمة ولا تقاعسى فإنك على الحق .

قال: وتكلم أربعة ، وهم صغار ، هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم .

(ز)

وأخرج الترمذى - وحسنه - وابن مردويه . من طريق عبد الرحمن ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ : لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى ، فقال: يا محمد أقرئ أمك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(ح)

وأخرج أحمد وأبو داود من طريق عبد الرحمن بن جبير عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم .

وأخرج ابن مردويه ، من طريق قتادة وسليمان التميمي وثمامة ، وعلى بن زيد ، عن أنس أن النبى ﷺ قال: « ليلة أسرى بى مررت بناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت عادت ، فقلت: من هؤلاء يا جبريل ؟ ، قال : هؤلاء خطباء أمك يقولون ما لا يفعلون » .

وأخرج ابن ماجة والحكيم الترمذى (فى نواصر الأصول) وابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوبا على باب الجنة ، الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » .

فقلت لجبريل : ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟

قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة .

وأخرج ابن مردويه عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى رجلا يسبح فى نهر ويلقم الحجارة ، فسألت : من هذا ؟ فقل لي: هذا أكل الربا .

(ط)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فيما رواه الإمام أحمد - قال: قال رسول الله ﷺ : « لما كانت ليلة أسرى بى ، وأصبحت بمكة ، فطلعت أمرى ، وعرفت أن الناس مكذبى .

قال: فمر عدو الله أبو جهل ، فجاء حتى جلس إلى فقال له أبو جهل كالمستهزئ : هل كان من شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم .

قال: ما هو ؟

قال: إنه أسرى بى الليلة .

قال: إلى أين ؟

قال: إلى بيت المقدس .

قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال: نعم ..

قال : فلم ير أنه يكذبه ، مخافة أن يجده الحديث إذا دعا قومه إليه .

قال: أرايت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني ؟

فقال رسول الله ﷺ : نعم .

فانطلق أبو جهل فقال: هيا يا معشر بنى لؤى .

قال : فانتفضت إليه المجالس ، وجاءوا حتى جلسوا إليهما .

فقال أبو جهل : حدث قومك بما حدثتني .

فقال رسول الله ﷺ: إننى أسرى بى الليلة .

قالوا: إلى أين ؟

قال: إلى بيت المقدس ..

قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟

قال: نعم .

فإذا بالقوم بين واضع يده على رأسه متعجبا للكذب .

قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ - وفى القوم من سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد .

فقال رسول الله ﷺ: فذهبت أنعت ، فمازلت أنعت حتى التبس على بعض النعت ، قال: فجىء بالمسجد وأنا أنظر ، حتى وضع دون دار عقيل ، فتعته وأنا أنظر إليه .

قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وعن الحسن: أنه فى يوم الحديث عن الإسراء: ارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا له: هل لك يا أبى بكر فى صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة .

فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه ؟

فقالوا: لا ، ها هو ذاك فى المسجد يحدث به الناس .

قال أبو بكر: لأن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبى الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك أتيت بيت المقدس هذه الليلة ؟

قال: نعم .

قال: يا نبى الله فصفه لى ، فإننى قد جئته ؟

قال الحسن: فقال رسول الله ﷺ: فرفع لى حتى نظرت إليه . فجعل رسول الله ﷺ يصف لأبى بكر ويقول أبو بكر: صدقت ، أشهد أنك رسول الله ، وكلما وُصف له منه شيئاً ، قال صدقت أشهد أنك رسول الله قال: حتى انتهى .

قال رسول الله ﷺ: وأنت يا أبا بكر: «الصديق» فيومئذ سماه «الصديق» .

هذا هو الموجز لما ترويه السنة مؤيدة للقرآن عن هذا النبي الجليل ، ولقد حاول ابن إسحاق أن يبين الحكمة فى هذا الحادث فقدم - حسبما يروى ابن هشام - لحديث الإسراء بكلمة نفيسة يقول فيها :

وكان فى مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق . وكان من أمر الله على يقين .

فأسرى به كيف شاء ، وكما شاء : ليريه من آياته الكبرى ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد .

٦- الشعر والإسراء :

يقول الإمام البوصيرى فى «همزيتة» :

فطوى الأرض سائرا والسموا	ت العلا فوقها له إسراء
فصف الليلة التى كان للمختا	ر فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسين	وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأمانى حسرى	دونها ما وراءهن وراء
ثم وافى يحدث شكرا	إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب	أو يبقى مع السيول الغناء

ويقول شوقى فى قصيدته التى عارض فيها الإمام البوصيرى :

يتساءلون وأنت أظهر هيكلا	بالروح أم بالهيكلا الإسراء
بهما سموت مطهرا وكلاهما	نور وروحانية وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنة	والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم كلما	طويت سماء قلدتك سماء
فى كل منطقة حواشى نورها	نون وأنت النقطة الزهراء
أنت الجمال بها وأنت المجتلى	والكف والمرأة والحسناء

الله هياً من حظيرة قدسه
العرش تحته سدة وقوائم
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم
ومناكب الروح الأمين وطاء
حاشا لغيرك موعود ولقاء

٧- فلسفة الإسراء :

عنى الفلاسفة والمتصوفون الإسلاميون بتلمس حكمة الإسراء ، وكان الصوفية يجدون فيها دليلاً عملياً على أهمية العناية بالنفس الإنسانية ، وأن الروح سر من أسرار الله فى الإنسان ، إذا تطهرت من سيطرة المادة وزاد تعلقها بالحق والخير ، فإنها تسمو إلى الملأ الأعلى ، بل إن الروح إذا عظمت العناية بها صارت أقوى من الجسد وتلاشت مادية الجسم أمام سمو الروح وانطلاقها .

ويذكرون أن الرياح أجسام لطيفة فقط ، وليست روحية مع أنها تزعزع الأشجار الباسقة وتقتلع الأوتاد العاتية وتفتت الصخور الجاثمة .

والكهرياء - وهى من اللطافة بحيث ترى آثارها ولا ترى حقيقتها - تحول خواص الأجسام إلى أصدادها وتبعث اليوم فى الدنيا حياة جديدة ، فهى تحمل الأثقال وتقلل الجبال وترسل الصواعق فتنتشر الضوء وتؤجج النيران ، وهذا يعطينا دليلاً على مدى ما للأجسام اللطيفة من سلطان على المادة .

فالإسراء بالنبي ليلاً وصعوده إلى السماوات العلأ أثر من آثار تركية النفس وتطهيرها ، بل إن مروره فى السماوات على الملائكة يمكن أن يدل على منازل الأنبياء ، وتكون السماء إشارة إلى كل ما علاك ومنازل الأنبياء فى السماوات حسب درجاتهم وجهادهم ، ويكون لرسول الله منزلة أعلى ، تجاوزت فى روحانياتها آدم فى سمائه الأولى ، ثم تجاوزت يحيى وعيسى فى الثانية ، ويوسف فى الثالثة ، وإدريس فى الرابعة ، وهارون فى الخامسة ، وموسى فى السادسة ، وإبراهيم فى سمائه السابعة .

تجاوز رسول الله ﷺ كل ذلك وتجاوز الكون كله إلى سدره المنتهى وإلى شجرة النهاية ، ثم إلى حيث لا يبلغ ملك مقرب ولا نبي مرسل إلى قاب قوسين أو أدنى^(١٧) .

٨- تصوير المعنى :

إذا كانت التوجيهات السابقة ، إنما كانت لتدلنا على مقام رسول الله ، صلوات الله عليه وسلامه ، فنزداد بذلك تقديرًا وحبا واتباعاً ، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى وتوجيهاته فى نبي الإسراء والمعراج : هذه الرمزيات الأخلاقية التى تربط ربطاً محكمًا بين الدين والأخلاق .

والواقع أن الأخلاق في جو الإسلام مرتبطة بالدين ارتباطاً لا ينفصل ، منه تنبع ، وعلى أساسه تقوم ، وعنه تصدر : لأنها جزء من الدين الإسلامي لا يتجزأ ، مصدرها هو مصدره : إلهي ريانى .

وبعض الناس في العصر الحديث يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى ، يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير ، بيد أن ذلك خطأ بين ، فالضمير يرى ويكون ، وتربيته وتكوينه هما شكله ، ونزعتاه واتجاهه ، الذى يتكيف بحسب الثقافة والبيئة والعصر والوسط .

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيمات ، وهو إذن مقياس للأخلاق خاطئ .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة ، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة ، وكل من يتحدث باسم المصلحة العامة إنما يتحدث باسم فكرته هو ، منحرفة كانت هذه الفكرة أو غير منحرفة .

فالمصلحة العامة إذا كأساس للأخلاق إنما هى : أساس غير مضمون .

وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية أو إلى اللذة ، أو إلى المنفعة . وكل هذا وارد الغرب الأوروبى ، أو الغرب الأمريكى عندما انحرف هذا الغرب وألحد .

أما وارد الشرق الإسلامى ، أو بتعبير أدق ، وارد الإسلام الإلهى ، فإن مقياس الأخلاق فيه : إنما هو المبادئ الدينية ، إنما هو آيات القرآن ، وإنما هو الفضائل التى أوحاها الله سبحانه وتعالى ، هذه الفضائل التى حددها القرآن فى أسلوب عربى مبين وتحدث عنها نبي الإسراء والمعراج فى صور رمزية دالة هادفة مؤثرة وبينتها السنة النبوية الشريفة ، وركزها القرآن والسنة على أسس من الإيمان قوية ثابتة ، إنها فى رحلة الإسراء والمعراج تكون منهج حياة مؤسسة على الإيمان بالله ورسوله^(١٨) .

٩- آراء العلماء فى الإسراء :

لعله أصبح واضحاً أن الإسراء هو الانتقال بالنبي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وأن المعراج هو العروج به إلى السماوات العلا .

ولعل سائلاً يسأل ، هل كان الإسراء بالروح والجسد أم بالروح وحدها ويمكن أن نوضح الجواب بما يأتى :

١- أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لا مناما ولهم على ذلك أدلة :

(أ) أنه لو كان مناما ما كانت قریش تبادر إلى تكذيبه ، ولما قالت أم هانئ: لا تحدث الناس فيكذبوك ، ولما فضل أبو بكر الصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ : « لقد

رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أنبئها ، (لم أعرفها حق المعرفة) . فكربت كريبا ما كريت مثله قط . فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألتنى عن شىء إلا أنبأتهم به «الحديث»^(١٧) .

(ب) أن التسبيح والتعجب - فى قوله : سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ - إنما يكون فى الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظما .

(ج) أن قوله : بِعَبْدِهِ يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) أن ابن عباس قال فى قوله : وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ؛ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية ، ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده ويشر قلبا كان جما بلبله

(هـ) أن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، قال تعالى : غَدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ . وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى الشام فى مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى النبى بالأولى .

٢- ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(أ) أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله ﷺ قال : « كان رؤيا من الله صادقة » ، وقد ضعف هذا ؛ بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره فى مثل هذا ، أو أن هذا رأى لمعاوية لا سند له .

(ب) أن بعض آل أبى بكر قال : كانت عائشة تقول : ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ، ولكن أسرى بروحه ، ونقدوا هذا ؛ بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله ﷺ .

(ج) أن الحسن قال : فى قوله : وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا ... الآية ، أنها رؤيا منام رآها ، والرؤيا تختص بالنوم .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبد محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى

لقول من قال : أسرى بروحه دون جسده ؛ لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذى أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ؛ إذ لم يكن منكرا عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرأى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل – ويعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه: أنه أسرى بعبده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره – إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها : البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد . اهـ .

والخلاصة :

أن الذى عليه المعول عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله صلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين وعرج به إلى السماء وعاد منها ثم ركب البراق وعاد إلى مكة قبل الفجر .

١٠- عظة وذكرى :

إننا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين ؛ لنستخلص منهما أموراً هى غاية فى العظة والاعتبار:

١- أن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ؛ ليمحص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه مرض ؛ فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة والانصواء تحت لوائه ، وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقا وغربا .

٢- أن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضية وسماوية من العظمة والجلال ؛ ليكون ذلك درساً عملياً: لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسبح فى أرجاء المعفورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء ؛ فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله وَمَا أُوتِمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

٣- أن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوصل بها إلى طى المسافات بوسائل الطائرات والنفاثات والأقمار الصناعية ، جعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين – من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

٤- أن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى ؛ لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وأن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

٥- أن ما جاء فى الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماما بالأنبياء فى عالم السماوات ؛ ليرشد إلى أن محمدا ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألغوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به .

٦- أن فى هذا مغزى جديرا بطول التأمل والتفكير وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووثام فى الملكوت الأعلى - بالقرب من ربهم الذى أرسلهم - أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لا حربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو متبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير منها .

★ ★ ★

﴿وَمَا تَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا
ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (٢٠)

المعزذات ،

الكتب ————— باب : التوراة .

وجعلناه هدى لبني إسرائيل ، جعلنا التوراة مصدر هداية لهم تخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

ألا تتخذوا ، أن : مفسرة معناها : أى : لا تتخذوا ، كقولك : كتبت إليه : أن افعل كذا ، أو زائدة من دونى وكسلا ، أى : مغبوا تكونون إليه أموركم ؛ لأنه تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبد وحده لا شريك له .

ذرية من حملنا مع نوح ، نصب على الاختصاص أو الذداء وفيه تهييج وتنبيه على المنة والإنعام عليهم فى إنجاء آبائهم من الفرق بحملهم مع نوح فى السفينة وإيماء إلى علة النهى ، كأنه قيل : لا تشركوا ، فإنه المنعم عليكم والمنجى لكم من الشدائد وأنتم ضعفاء محتاجون إلى لطفه ، وفي التعبير بالذرية الغالب إطلاقها على الأطفال والنساء مناسبة تامة لما ذكر .

إنه كان عبدا شكورا ، أى : لمعرفته بنعم الله واستعمالها على الوجه الذى ينجى ، قال مقاتل: وكان من شكره أنه كان يذكر الله عز وجل حين يأكل ويشرب ، ويحمد على كل نعمه، ويذكر الله حين يقوم أو يقعد أو يلبس ثوبا جديدا ، أو ينام أو يستيقظ ، ويذكر الله جل ثناؤه بكل خطوة وبكل عمل يعمل : فسماه الله عبدا شكورا .

التفسير :

٣، ٢- وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلاَّ يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا * ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا .

المعنى الإجمالي :

ذكر الله : إسماء محمد ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، وبمناسبة الحديث عن بيت المقدس ذكر ما أنعم الله به على بني إسرائيل : فقد أعطاهم التوراة فيها هدى ونور .

وأمرهم أن يخلصوا له العبادة وأن يفوضوا له الأمور ، وأن يتوكلوا عليه وحده ، ولا يتخذوا وكيلًا سواه، فهذا هو الهدى وهذا هو الإيمان .

ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم فى الماضى : استماله لهم وتهييجاً لإيمانهم : فهم من ذرية نوح الذين نجاهم الله فى السفينة : لإيمانهم وأغرق من عداهم من الكافرين ، وخاطبهم الله بهذا النسب : لينكرهم باستخلاص الله لأبائهم الأولين ، مع نوح العبد الشكور ، وليردهم إلى هذا النسب المؤمن العريق .

تنبیہات :

١- لما ذكر الله تعالى في الآية الأولى: إكرامه محمدا ﷺ بالإسراء ذكر في هذه الآية: أنه أكرم موسى قبله بالتوراة وجعلها مصدر هداية.

٢- قال الله عن محمد أُسْرَى بَعْدِهِ وقال عن نوح إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ، وبذلك تلتقى وحدة الرسالات ووحدة الرسل في مقام العبودية الحقّة لله .

قال ابن القيم في (طريق الهجرتين):

أكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه ، وعدم استغنائه عنه
 طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ : « اللهم ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين
 ولا أقل من ذلك » . ١ هـ .

وكلما زاد العبد ذلاربه وإمعانا فى عبادته والاتجاء إليه ، زاد عزة ورفعة بالإيمان والاعتماد على الله ، وبقى الحديث : « احفظ الله : يحفظك ، احفظ الله : تجده تجاهك ، وإذا سألت : فاسأل الله ، وإذا استعنت :

فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .. جفت الأقلام وطويت الصحف .

٣- قال تعالى عن نوح: **إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** . وورد : أن نوحا كان يشكر الله على كل حال ويروى من شكره: أنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء أجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ، ولو شاء أظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ، ولو شاء أعرانى ، وإذا قضى حاجته ، قال : الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية .

ورود فى كتب السنة : أن النبى محمدا ﷺ كان يذكر الله عند كل نعمة ويتعجب من فضل الله عند كل مشهد أو منظر مثير ، فورد أنه كان يذكر الله عند الصباح إذا أسفر ، وعند المساء إذا أقبل ، ويذكر الله إذا تقدم للطعام ، وإذا شبع وإذا اكتسى ، وإذا نام وإذا استيقظ ، وإذا سافر وإذا عاد من السفر ، وهذا دليل على الأخوة النفسية للأنبياء فهم عبيد مخلصون لله ، وهم شاكرون لأنعم الله .

٤- حفلت كتب السنة بهدى النبى محمد ﷺ فى يومه وليلته ، ومن دعائه عن الأكل : « اللهم ، بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار باسم الله » وعند أكل الفاكهة « اللهم ، اجعلها نعمة دائمة تصلنا بها إلى نعمة الجنة » وإذا أتم الأكل قال : « الحمد لله الذى أطعمننا وسقانا وجعلنا مسلمين . وإذا لبس ثوبا قال : « الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس » أو قال : « الحمد لله الذى كسانى هذا من غير حول منى ولا قوة » . وكان إذا خرج من بيت الخلا يقول : « غفرانك ، الحمد لله الذى أذهب عنى ما يؤذينى وأبقى على ما ينفعنى » .

ويكاد دعاء نوح ومحمد أن يكونا متقاربين فى الاعتراف لله بفضلته وشكره على نعمه ، صحيح أن الأسلوب مختلف ، ولكن الفكرة والمعنى متقاربان .

٥- وكان النبى إذا أراد النوم قال : « باسمك ربى وضعت جنبى ويك أرفعه ، إن أمسكت روحى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها فيما تحفظ به عبادك الصالحين »^(٣٠) .

وكان إذا أرق من الليل يقول : « اللهم غارت النجوم ، ونامت العيون وبقيت أنت يا حى يا قيوم ، أرح ليلى وأنم عيني »^(٣١) .

وكان إذا استيقظ يقول : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »^(٣٢) .

وإذا رأى الصباح يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله لا شريك له إلا هو وإليه النشور »^(٣٣) .

وإذا خرج للسفر يقول: « اللهم، لك انتشرت ولك سرت ولك أمنت وعليك توكلت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت »^(٢١).

وإذا عاد من السفر يقول: « تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون »^(٢٢).

وكلها أدعية تحقق معنى العبودية لله والشكر له ، فكما أن نوحا عليه السلام كان عبدا شكورا ، فإن محمدا ﷺ كان عبدا شكورا ، والأنبياء إخوة فى طريق الدعوة إلى الله .

★ ★ ★

فساد بنى إسرائيل فى الأرض

﴿وَفَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۖ (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولُنَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۖ (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۖ (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَاعْلَوْا تَبَارًا ۖ (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ۚ وَإِنْ عُثِرْتُمْ عَدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۖ (٨)﴾

المفردات :

قَضَيْنَا : أعلمنا بالوحى .

الكتاب : التوراة .

لَتَعْلَمَنَّ : لتستكبرن عن طاعة الله .

الوعود : الموعد به ، وهو العقاب ، أى : فإذا جاء وعد عقاب أولاهما .

البأس والبأساء والبؤس : الشدة والمكره ، إلا أن البأس والبأساء كثر استعمالهما فى النكاية بالعدو ، والبؤس

كثر استعماله فى الفقر والحرب .

جاسوا : ترددوا للغارة .

خلال السيار، أوسطها وفرجها .

الكرة، الدولة والغلبة .

نفسيرا، النغير والناقر؛ من ينفر مع الرجل من قومه وأهل بيته .

تتبييرا، ^(٣٧) مصدر تبر تتبيرا، والتتبير: الإهلاك، وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن

جبير وكل شئ كسرتة وقتته فقد تبرته، وَلَيْتَبْرُوا مَا عَلُوا تَبِيرًا وليدمروا ويخربوا ما

غلبوا عليه وظفروا به تدميرا شديدا ^(٣٨) .

التفسير :

٤- وَقَفَيْتَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنَفْسَيْنِ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوهَا كَبِيرًا .

أوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى، فأعلمهم به: لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين، ولتستعلن على الناس استعلاء عظيما؛ يؤدى بكم إلى الخسران والدمار .

وكان من مظاهر إفسادهم فى الأرض: تحريفهم للتوراة، وتركمهم العمل بما فيها من أحكام، وقتلهم الأنبياء، واعتادوهم على الذين يأمرون بالقسط من الناس، وشيوع الفواحش والردائل فيهم .

٥- فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا .

فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود؛ سلطنا عليكم؛ لمواخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أصحاب قوة ويطش شديد فى الحروب، وهم: سنحاريب ملك الموصل وجنوده، أو بختنصر البابلى، أو جالوت أو غيرهم.

وقد أوغل الغزاة فى بلاد اليهود وترددوا بين الدور والمساكن للقتل والسلب والنهب وقتلوا علماءهم وكبراءهم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وسبوا عددا كثيرا، وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لا مرد له.

٦- ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا .

ثم أعدينا لكم - يا بنى إسرائيل - الدولة والغلبة على الذين قهروكم وأذلوكم حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو فغزوتهم البابليين أو قهرتم أعداءكم واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالكم بعد أن نهبت، وأولادكم بعد أن سبيت وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل وذلك بفضل طاعته تعالى والرجوع إليه .

٧- إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... الآية .

أى: إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتهم أمره أحسنتم لأنفسكم؛ لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها. فقد جعل الله الجزاء الحق من جنس العمل ووعد المؤمنين العاملين بالنصر والتأييد، كما وعد المفسدين بالعقاب والتأديب.

تلك قاعدة لا تتغير فى الدنيا وفى الآخرة، وهى تجعل عمل الإنسان كله له بكل ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، منه تنتج وبه تتكيف، وتجعل الإنسان مسئولاً عن نفسه إن شاء أحسن إليها وإن شاء أساء لا يلومن إلا نفسه حين يحق عليه الجزاء.

فإذا تقررت هذه القاعدة، مضى السياق يكلم النبوة الصادقة.

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْأَوْا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتَبِّرًا .

لقد فهم اليهود من السياق: أن اليهود أفسدوا مرتين فسلط الله عليهم فى المرة الأولى من انتقم منهم، ثم أعاد لليهود دولتهم وملكتهم ولم يذكر هنا ما صنع اليهود بعد أن رد الله لهم الكرة على أعدائهم اكتفاء بما علم من طبعهم أنهم كلما استعلوا فى الأرض يغبوا وأفسدوا، وبما ذكره القرآن من قبل: تَقْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ، ثم أثبت ما يسلطه الله عليهم فى المرة الآخرة فقال:

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ^(٢٧) لِيَسْأَوْا وُجُوهَكُمْ .

أى: فإذا جاء وقت عقوبتكم - يا بنى إسرائيل - على المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض بعثنا أعداءكم؛ ليجعلوا آثار المساءة بادية فى وجوهكم بما يرتكبونه معكم من نكال يملأ النفوس بالإساءة حتى تفيض على الوجوه، أو ما يجهون به وجوهكم من مساءة وإذلال، ويستبيحون المقدسات ويستهيئون بها؛ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ قاهرين فاتحين مذلين لكم، كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وليهلكوا ما ادخروهمه تقبيرا شديدا فلا يبقون منه شيئا.

وهى صورة للدمار الشامل الكامل الذى يطغى على شىء والذى لا يبقى على شىء.

قال الإمام الرازى:

وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه؛ لأن آثار الأحوال النفسية الحاصلة فى القلب، إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح فى القلب ظهرت النضرة والإشراق والأسفار فى الوجه، وإن حصل الحزن والخوف فى القلب؛ ظهر الكلوك والغبرة والسواد فى الوجه، فهذا السبب عزيت الإساءة إلى الوجوه فى هذه الآية، ونظير هذا المعنى فى القرآن كثير، ومنه قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَبَّتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا ^(٢٨). (الملك: ٢٧). ١ هـ.

٨- عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ .

يعقب القرآن على النبوة الصادقة والوعد المفعول ، بأن هذا الدمار قد يكون طريقا للرحمة إن أفدتم منه عبرة وتبتعد عن المعاصي وعلمتم أن سنة الله لا تتخلف وأن عدالة الله نافذة في رحمة التائبين ، وعقاب المفسدين .

وقد حقق لهم وعده فكثرت عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

وَإِنْ عُدَّتُمْ عِدَّتَنَا .

أى : وإن عدتم لمعصيتي وخلاف أمرى وقتل رسلى : عدنا عليكم بالقتل والسلب والإذلال .

وقد عادوا إلى الإفساد وكذبوا رسول الله محمدا ﷺ ، وهما يقتله ونقضوا عهودهم معه ، فسلط الله عليهم : فأجلى عن المدينة بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وقتل بنى قريظة ، وفتح خيبر ، وفرض الجزية على من بقى من اليهود فى بلاد العرب فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ولا ملك لهم ولا سلطان .

وقد تكرر رجوعهم للفساد فى عهود التاريخ : فسلط الله عليهم فى كل مرة من يسومهم سوء العذاب حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر» .

ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة (إسرائيل) التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات . وليسلمن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب : تصديقا لوعده الله القاطع ، ووفاء لسنته التى لا تتخلف .

وتختتم الآيات ببيان مصير الكافرين فى الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشكلة .

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا .

تحصرهم فلا يند عنها حد . وعن الحسن : بساطا كما يبسط الحصن : تمنسوج .

١- فى أعقاب التفسير

خلاصة الآيات ما يأتى :

١- أخبر الله : أن بنى إسرائيل سيفسدون فى الأرض مرتين ، وهذا الفساد معناه : طغيان وعدوان منهم على عباد الله وخروجه على الطريق القويم .

٢- أخبر الله عنهم : أنهم لما طغوا وىغوا : سلط الله عليهم من ينتقم منهم .

٣- بعد الانتقام الأول عادوا إلى طريق الجادة فانتصروا أعدائهم ، لكنهم لم يلبثوا أن عادوا للفساد فحق عليهم وعيد الله .

٤- سلب الله عليهم في المرة الثانية من أنزلهم ، وهدم هيكلهم ، وهدم المسجد الأقصى ، وقضى عليهم وعلى ملكهم.

٥- ذكر الله : أنه يشملهم برحمته إذا تابوا إليه ، فإن عادوا للفساد ؛ عاد الله عليهم بالعقاب .

٦- كثر عدد اليهود بعد الإفساد الأول والثاني وعقوبتهما ، وأعزهم الله بعد الذل وأعطاهم المال والجاه .

٧- أرسل الله محمدا نبيا رسولا يعرفون صفته في التوراة ، ولكنهم كذبوه وغدروا به ؛ فسلط الله عليهم المسلمين ؛ فحاصروهم وقتلهم ، وفرضوا عليهم الجزية ، ثم أخرجوهم من بلاد العرب .

٨- استمرت حياة اليهود بين مد وجزر فكلما أرخى الله لهم الحبل ومُتَّعُوا بالنعمة ؛ أسرفوا في استغلال النعمة وفي الفساد ؛ فسلط الله عليهم من ينتقم منهم .

٩- كان آخر إفساد لهم سيطرتهم على فلسطين سنة ١٩٤٨ ، وابتلاع مساحات من البلاد العربية في سنة ١٩٦٧ .

١٠- الأمل في الله أن يهيئ لهم من ينتقم منهم وأن يتكاتف العرب والمسلمون ؛ ليثأروا لأنفسهم ولدينهم وأوطانهم .

٢- من هم القوم الذين سلطهم الله على اليهود

تاريخ اليهود الطويل حافل بالعدوان وسفك الدماء وقد سلط الله عليهم أعداءهم مرارا وتكرارا فإفسادهم مرتين مراد به : كرتين أي : المرة تلو المرة بدليل قوله تعالى بعد ذلك : **وَأَنَّ عَدُوَّكُمْ عُذُنَا** ، وقد عاد اليهود للفساد ، وكلما عادوا ؛ عاد لهم الانتقام .

قال ابن كثير :

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلطين عليهم من هم ؟

فعن ابن عباس وقتادة : أنه جالوت الجزري وجنوده ، سلط عليهم أولا ثم أديلوا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت . ولهذا قال : **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ** .

وعن سعيد بن جبير : أنه ملك الموصل سنحاريب وجنوده وعنه أيضا وعن غيره : أنه بختنصر ملك بابل .

ثم قال : وقد وردت في هذا آثار إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها ؛ لأن منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم ، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ، ونحن في غنية عنها والله الحمد .

وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله . ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم .

وقد أخبر الله عنهم : أنهم لما طغوا وبعثوا : سلب الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم وسلك خلال بيوتهم وأندلهم وقهرهم : جزاء وفاقا ، وما ريك بظلام للعبيد ، فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلفا من الأنبياء والعلماء^(٣٠) هـ .

وتفسير الآيات غنى عن تحديد أشخاص المسلمين على اليهود وتاريخ هذا التسلط ، فالقرآن كتاب هداية يذكر من القصة التاريخية الجانب الذى يحقق العظة والعبرة ولا يهتم بإيراد القصة كاملة . وإنما يلقي الضوء على فترات معينة فى تاريخ البشرية : لتحقيق العظة والاعتبار . قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

فالقرآن قد أبهم أسماء ويلاتا ؛ لأنه لم ير فائدة كبيرة تتعلق بذكرها ولو علم الله فى ذلك فائدة لذكرها . وحين أبهم الأشخاص المسلمين على اليهود صار من واجب المؤمن أن يعرف أن هناك أشخاصا انتقموا من اليهود فى تاريخهم ، وإذا أراد تحديد هؤلاء الأشخاص : لجأ إلى التاريخ الصحيح لا ليحكمه فى معنى القرآن وإنما ليستأنس به ولتكون معرفة جانبية لا تحكم على التفسير ، فمعنى الآيات واضح بدون إقحام الإسرائيليات التى أدخلها اليهود للكيد والدس وتلفقها عنهم المفسرون : ليشبعوا فضول الناس فى معرفة الأشخاص المبهمين ، وقد أمرنا ألا نصدق بنى إسرائيل ولا نكذبهم : فما روى عنهم لا يخلوا عن واحد من ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يعلم صحته عن طريق القرآن أو السنة أو شاهد من الشرع ، وهذا القسم صحيح مقبول .

القسم الثانى : ما يعلم كذبه ؛ بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا أو يكون مخالفا لما يقرره العقل وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته .

القسم الثالث : وهو المسكوت عنه فلا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى ، وهذا القسم نتوقف فيه فلا نصدق ولا نكذب .

وقد ذهب ابن كثير إلى جواز رواية القسم الثالث للاستشهاد به لا للتفسير ، وخالفه فى ذلك المحقق أحمد شاكر^(٣١) .

٣- أشهر أقوال المفسرين في من سلطه الله على بنى إسرائيل

(أ) ورد في الطبرى: أن أول الفساد كان قتل زكريا؛ فبعث الله عليهم ملك النبط (وكان يدعى: صحابين)^(٣٧) فانتنصر عليهم، ثم رد الله الكرة لليهود على أعدائهم ١ هـ.

وهذا الرأى مردود؛ فلم يحفظ التاريخ أن بنى إسرائيل غزوا النبط أو أصابوا منهم^(٣٨).

(ب) وأخرج ابن عساكر في تاريخه: عن على بن أبى طالب قال: الإفساد الأول: قتل زكريا، والثانى: قتل يحيى^(٣٩).

وهو مردود؛ بأن بين قتل الاثنين فترة قصيرة لا تسمح لهم برد الكرة وتحقيق النصر.

(ج) أخرج ابن جرير قال: أما المرة الأولى، فسلط الله عليهم جالوت حتى بعث طالوت ومعه داود، فانتنصرا على جالوت وأسسوا مملكة داود سنة ١٠٩٥ ق. م^(٤٠).

ثم بعث الله عليهم فى المرة الثانية بختنصر البابلى المجوسى فغزاهم ثلاث مرات: الأولى: سنة ٦٠٦ ق. م.، والثانية: سنة ٥٩٩ ق. م.، والثالثة: سنة ٥٨٨ ق. م.

وفى المرة الثالثة: أكثر فيهم القتل، وأخذ الأحياء أسرى ودمر أورشليم تماما^(٤١).

(د) ذهب جمهور المفسرين: إلى أن المسلط عليهم فى المرة الأولى هو بختنصر البابلى، وقد غزاهم فى سنة ٦٠٦، ٥٩٩، ٥٨٨ ق. م.

ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ ق. م فعادوا لبلادهم، وأعادوا بناء هيكلهم.

والمسلط عليهم فى المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م.

وقد كان إزاله لهم أشد وأنكى حتى بلغ عدد القتلى منهم مليون قتيل، وبلغ عدد الأسرى مائة ألف أسير^(٤٢).

وبعد انتصار تيطس الرومانى عليهم: تفرقوا فى البلاد، وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها^(٤٣).

ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث بعد أن ظلت فلسطين فى يد العرب المسلمين ١٣٠٠ سنة من الفتح العربى سنة ٦٣٦ م (سنة ١٥ هـ) إلى سنة ١٩٤٨ م (سنة ١٣٦٦ هـ). باستثناء ٨٠ سنة هى فترة الحرب الصليبية (١٠٩٩ م - ١١٨٧ م) حين سقط بيت المقدس فى يد الغزاة، ثم استرده

العرب المسلمون على يد صلاح الدين الأيوبي في يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م. ودخل خطيب المسلمين بيت المقدس ، وحمد الله حمدا كثيرا على رجوعه إليهم . وظل في يد المسلمين إلى أن استولى عليه اليهود في حرب يونيو سنة ١٩٦٧ .

٤- ملاحظات

- ١- لم يصح عن الرسول ﷺ حديث في بيان المراد بالعباد الذين سلطوا على بنى إسرائيل .
- ٢- الإفساد قد تكرر من بنى إسرائيل والمرتين هما أظهر مرتين .
- ٣- الرجوع إلى التاريخ الصحيح هو الذى يفيدنا فى الموضوع .
- ٤- اختلفت أنظار المؤرخين والمفسرين فيمن سلط على اليهود بحسب الاجتهاد الشخصى لكل مؤرخ أو مفسر .
- ٥- مقصود الآيات : هو بيان سنة من سنن الله فى الأمم حال صلاحها وفسادها ، وهذه السنة ماضية فى الأمم دون تبديل أو تحويل .
- ٦- لا يتوقف فهم المعنى على تحديد أشخاص بعينهم سلطوا على اليهود ، بل المقصود : أنهم كلما أكثروا من المعاصى ؛ سلط الله عليهم أقواما آخرين قتلوهم وأذلوهم .

★ ★ ★

ملاحق عن اليهود

الملحق الأول :

تاريخ اليهود فى فلسطين

الفترة التى استقر فيها حكم اليهود فى فلسطين لا تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وكل ما تركوه بفلسطين آثار حائط لهيكلهم ظلوا يتوحدون عليه قرونا عديدة ؛ حتى سُمى حائط المبكى .
والفترة الذهبية لحكمهم بدأت بتأسيس مملكة داود سنة ١٠٩٥ ق. م .
واستمر ملك داود ٤٠ سنة جاء من بعده ابنه سليمان فحكم ٤٠ سنة أخرى انتهت بوفاته سنة ٩٧٥ ق. م .
ثم خلفه ابنه رحبعام الذى انقسمت مملكة اليهود فى زمنه إلى قسمين : مملكة إسرائيل فى الشمال «السامرة» ، ومملكة يهوذا فى الجنوب «أورشليم» .

ودامت مملكة الشمال نحو ٢٥٠ سنة وانتهت سنة ٧٢١ ق. م ، حينما غزاها سرجون ملك آشور واستولى على السامرة (نابلس الآن) وقضى نهائيا على تلك المملكة .

وأما مملكة يهوذا فقد عاشت أكثر من أختها إسرائيل حتى غزاها بختنصر سنة ٦٠٦ ق. م غزوات متعددة انتهت بتهديم أسوار المدينة ، وإحراق الهيكل ، وسبى الشعب إلى الأسر فى بابل .

ثم أعيد اليهود من السبى سنة ٥٣٦ ق. م على يد قورش الذى تولى ملك فارس وغدت يهوذا ولاية من ولايات الفرس حتى سنة ٣٣٢ ق. م ، حيث انتقلت إلى ملك الإسكندر المقدونى بعد أن هزم الفرس ودخل سورية وفلسطين .

وفى سنة ٧٠ م تقدم القائد الرومانى (تيطس) ودمر أورشليم وهيكليها وذبح اليهود فيها وأسر كثيرا من شعبها ، وذاق اليهود على يد تيطس الذل والهوان .

وتعددت ثورات اليهود على الرومان كما تكرر بطش الرومان بهم وقهرهم ، وفى سنة ١٣٥ م قتل الرومان من اليهود ٥٨٠ ألفا ، ودمروا أورشليم ، وأنشئوا مكانها مدينة جديدة سميت : إيلياء .

فتاريخ اليهود حافل بالثورات وسفك الدماء . وأهم استقرار لهم كان فى عهد داود وسليمان ١٠٩٥-٩٧٥ ق. م .

وقد غزاهم بختنصر ثلاث مرات وقتلهم وسباهم إلى بابل فى الفترة من سنة ٦٠٦ إلى سنة ٥٠٨ ق.م (وسمى ذلك : بخراب أورشليم الأول) . وفى سنة ٥٣٦ ق. م أنقذهم قورش الفارسى من السبى وسمح لهم بالعودة إلى أورشليم ، كما صرح لهم بإعادة بناء الهيكل سنة ٤١٥ ق. م .

وفى سنة ٧٠ م هاجمهم تيطس الرومانى وقتلهم ودمر هيكليهم .

وفى سنة ١٣٥ م هاجمهم القائد الرومانى يوليوس سيفروس فاحتل أورشليم وهدمها وبنى مكانها إيلياء وأسدل الستار على تاريخ اليهود القديم فى فلسطين .

ثم جاءت هيلانة أم الملك قسطنطين الرومانى البيزنطى ، وبُنِيت كنيسة القيامة سنة ٤٣٦ م ، ثم بُنِيت كنيسة العذراء سنة ٥٣٠ م .

وفى سنة ٦٣٦ م (١٥ هـ) فتح العرب المسلمون بيت المقدس وما حوله من بلاد فلسطين وظلت فلسطين عربية إسلامية حتى سنة ١٩٤٨ (١٣٦٦ هـ) .

ومن ذلك الحين بدأ الغزو اليهودى للمنظم لفلسطين ثم كان مشروع تقسيم فلسطين ، وتوسع اليهود

الأتيم فى سنة ١٩٦٧ ، حيث ضموا إلى فلسطين أجزاء من البلاد العربية ، ولا تزال الحرب سجلا بين العرب وبينهم (والله غالب على أمره) .

وقد تنبأ النبى الكريم بهذا العدوان اليهودى الغادر ووعد أمته بالنصر . فقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ ، قال: « لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود ؛ فيختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول الحجر : يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله »^(٣٩) .

★ ★ ★

الملحق الثانى :

نكبات اليهود

إليك لمحات من العقوبات التى أصابت اليهود جزاء وفاقا ؛ لجشعهم ونهبهم ورغبتهم فى امتصاص دماء الشعوب :

- ١- فى بريطانيا لقى اليهود فى بعض العهود ألوانا من التعذيب وصنوبا من القتل والتشريد . حدث ذلك فى عهد الملك هنرى الثالث الذى أصدر أمره سنة ١٢٣٠ م بأن يدفع اليهود إلى الخزينة البريطانية ثلث أموالهم المنقولة . وتكررت عقوباتهم فى عهد إدوارد الأول سنة ١٢٧٣ م .
- ٢- وفى فرنسا تكررت المأساة فى عهد لويس التاسع ، وفيليب الجميل ، وعلى يد نابليون فى القرن التاسع عشر .
- ٣- وفى إيطاليا حاربهم البابوات حريا شعواء وأطلقوا عليهم اسم: الشعب المكروه ، وأغروا بهم الشعب ؛ فأعمل فيهم القتل والتشريد . وفى سنة ١٥٤٠ ، قتل منهم الآلاف وطرد من بقى حيا خارج إيطاليا .
- ٤- وفى أسبانيا ناك اليهود أقسى العقوبات على يد محاكم التفتيش ولم يظفروا بالراحة إلا أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا .
- ٥- وفى روسيا أوقع الروس بهم المذابح كما حدث فى سنة ١٨٨١ ، ١٨٨٢ . وفى سنة ١٩٠٢ م عمت المذابح ضدهم حتى قتل منهم ١١ ألفا .
- ٦- وفى ألمانيا تعرضوا لعقوبات قاسية آخرها ما لقوه على يد هتلر من سنة ١٩٣٣ م إلى سنة ١٩٤٥^(٤٠) .
- ٧ - وقد تعرضوا لانتقام المسلمين فى غزوات : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، وفتح خيبر ؛ حيث حاصرهم المسلمون وقتلوه وأجلوهم من ديارهم .

وهكذا يحق قوله تعالى : وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يُسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . (الأعراف : ١٦٧) .

★ ★ ★

الملحق الثالث :

من هدى السنة فى الموضوع

يرى بعض المفسرين : أن الآيات السابقة تحمل بشارته على الله بالنصر على اليهود فى العصر الحديث، ونحن لا نمنع أن تحتمل الآيات هذا المعنى بشرط أن نعمل العمل الملائم للنصر ، فقد جعل الله الأسباب مرتبطة بالنتائج . وقال سبحانه : وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا ، فكلما عاد اليهود للإفساد ؛ سلط الله عليهم القتل والانتقام . قال الأستاذ نديم الجسر^(١) :

روى مسلم : عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقاتلن اليهود ، فلتقتلنهم ، حتى يقول الحजर : يا مسلم ، هذا يهودى اقتله » .

وفى رواية : « تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحजर : يا مسلم ، هذا يهودى ورائى فاقتله » . وفى رواية : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودى وراء الحجر والشجر ؛ فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله » .

البشرى من هذا الحديث

(أ) إن الحديث يصرح : بأن المقتلة مع اليهود ستكون فى المستقبل ، بل رواية « لا تقوم الساعة حتى ... » تفيد : أن المقتلة ستكون فى المستقبل البعيد .

(ب) المفهوم من ظاهر وصف المقتلة أنها ستكون عظيمة وضارية .

(ج) فى رواية : « تقاتلكم اليهود... » أنهم هم الذين يبدءون المسلمين بالقتال ، وهذا يقتضى أن تكون لهم دولة وشوكة تشجعهم على البدء بالقتال .

(د) لا يخفى أن يهود الحجاز والجزيرة العربية لم يكن لهم كيان دولى قائم بذاته قبل الإسلام ، وأما بعده فلم يعد لهم شوكة ، بل لم يعد لهم وجود يظن معه أنهم يقاتلون المسلمين .

(هـ) ولا يمكن أن يعنى الحديث : قتالا مع شراذم اليهود الضعفاء من أهل الذمة ، فالمسلمون مأمورون بحمايتهم ، وليس قتلهم مما يستحق أن يبشر به الرسول المسلمين .

(و) أما في خارج الحجاز والجزيرة ، فاليهود بعد التشتيت الثاني الذي حصل لهم على يد (تيطس) الروماني لم يعد لهم كيان دولي أو تجمع أو تكتل مستقل في أى قطر من أقطار الأرض .

وهذه الأحاديث لا يمكن في العقل تصور اختراعها : إذ لم يوجد من الدواعي والأسباب ما يبرر اختلاقها ، فلم يكن هناك لليهود دولة تحتك بالمسلمين في مواقع شديدة حتى يمكن تصور اختراع مثل هذه الأحاديث ، بل كانوا شعبا ذليلا مشتقا لا شوكة له ولا دولة ، ولا ذكر له عند المسلمين ، ولا يخطر ببالهم التخوف منه .

إنذن فكيف يتحقق صدق هذا الحديث ؟

لقد ظل الجواب على هذا السؤال مستورا وراء الغيب أربعة عشر قرنا ، حتى ظهرت دولة إسرائيل الحديثة التي لم يخطر على البال ولا بالخيال ظهورها في حياة الإمامين الراويين للأحاديث تلك: (البخارى ومسلم) في القرن التاسع عشر الميلادي وأين ظهرت ؟ أين ؟

في قلب البلاد العربية والإسلامية ، أى : حيث أصبح حصول الاحتكاك مع اليهود معقولا ، بل في صميم الأرض المقدسة عند المسلمين ، حيث أصبح وقوع القتال محتما ، وعلى مقربة من الكعبة بيت الله ، ومقربة من يثرب مدينة الرسول ، التي لليهود فيها ذكريات كلها أحقاد ، أى : حيث أصبح القعود عن القتال خروجاً عن الإسلام ، وهكذا تحقق صدق الحديث النبوى المعجزة في حصول القتال ، ولا بد أن يتحقق صدقه عن نتيجة القتال إن شاء الله ، والأيام بيننا .

أيها المسلمون في الأرض .. كل الأرض ، إننى على يقين من أن هذه البشارة النبوية سوف تتحقق في يوم من الأيام قريب .. أو بعيد ، وعسى أن يكون قريباً بتعاون هذا الجيل الحاضر من حكام المسلمين وتناصرهم ، حتى لا تتكرر لعنة الله والتاريخ التي سجلها الشاعر الأندلسي ، على المتنازذين والمتخاذلين في النصرة بقوله :

يا راتعين وراء البحر من سعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
هل جاءكم نبأ من أرض أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

الملحق الرابع :

رأى جديد

للأستاذ عبد الحميد جودة السحار ، فى كتابه (وعد الله وإسرائيل) ، رأى خلاصته :

أن وعد الله لإسرائيل بأن يفسدوا فى الأرض مرتين ، قد تحقق أولهما أيام بختنصر حيث عاقبهم الله على يديه عقاباً أليماً وشتتهم وأزال ملكهم ، ثم رجعوا لملكهم على يد « قورش » ولم يحدث منهم فساد منتشر عنيف فى أيام بختنصر ، كما حدث فى فلسطين الآن ، وفى الأراضى المحتلة بعد حرب ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن الله تعالى من أجل إفسادهم هذا سيسلط عليهم العرب والمسلمين ، ويمكنهم من رقابهم ؛ حتى يستردوا ما نهبوه ويستعيدوا أرضهم ومقدساتهم ، ويصمون اليهود بالخزى والهوان .

يقول السحار :

لقد نشبت الحرب بين إسرائيل والعرب ، وقد تحصنت إسرائيل بحصون أمريكا وإنجلترا ، فاليهود على مر التاريخ لا يحاربون إلا من وراء حصون ، واتضح المؤامرة الجديدة التى دبرتها (أمريكا) لإزالة العرب الذين أبوا أن يدوروا فى فلك أمريكا ، وأن يطأطأوا الرؤوس لمطامعها .

وأصيب العرب بنكسة (وما أكثر النكسات التى نزلت بهم!!!) ، وظن أنها كارثة وإذا بها بداية انتفاضة ، وإذا بها تحفز لوثية ، وانتابنى حزن عميق ، فعدت إلى كتاب الله ألتمس فيه السلوى ، وقرأت أول سورة الإسراء ، إلى نهاية الآيات المتحدثة عن بنى إسرائيل .

وتوقفت أفكر فى تلك الآيات ، وأسترجع ما وعته ذاكرتى من تاريخ بنى إسرائيل فوجدت أن بنى إسرائيل قد أخرجوا من القدس أيام بختنصر ملك العراق قبل الميلاد بخمسمائة سنة ، وأن (قورش) مؤسس الإمبراطورية الساسانية فى فارس هو الذى أعادهم إلى بيت المقدس ، وأنهم ظلوا بالقدس إلى أن جاء (تراجان) القائد الرومانى وهدم هيكل سليمان ، وقد فرح المسيحيون بذلك : لأن السيد المسيح كان قد تنبأ بزوال الهيكل ومنذ ذلك الوقت صار اليهود مشتتين فى الأرض ، ولم تقم لهم قائمة ، ولم يكن لهم ملك فى القدس .

جاس بختنصر خلال فلسطين ، وحمل اليهود سبائاً إلى بابل ، ودخلوا المسجد أول مرة بعد ذلك فى أيام (قورش) وطردوا من القدس فى أيام الرومان ، بعد أن أفسدوا فى الأرض ، وتحقق وعد أولهما ، ورحلت أنقب فى تاريخ بنى إسرائيل ؛ بحثاً عن دخولهم مرة ثانية ، فلم أجد غير هذه المرة التى دخلوا فيها بيت المقدس بعد العدوان الثلاثى الجديد ، عدوان إسرائيل وأمريكا وإنجلترا على العرب ، وقد اطمأنت نفسى إلى أن ذلك هو الذى قصده الله سبحانه وتعالى بقوله : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا .

إن أمريكا قد أغدقت الأموال على إسرائيل ، وأمدتهم بمتطوعين ودبابات وطائرات ، وسخرت لهم القمر الصناعى؛ ليصور لهم مواقع العرب ومطاراتهم ، وسيرت سفينة التجسس «ليبرتى»؛ لتكون لهم خير عون على تنفيذ المؤامرة ، فصارت إسرائيل بذلك أكثر عدة وعتاداً وأكثر نفيراً ؛ ليدخلوا بيت المقدس ويصل إفسادهم فى الأرض قمته ؛ ليحىء وعد الآخرة ، وعد المرة الثانية ، المرة التى يدخل فيها العرب فلسطين ، ويطردون منها بنى إسرائيل ، ويهلكونهم هلاكاً ؛ جزاء وفاقاً على علوهم فى الفساد .

ويعد أن أبدى الأستاذ السحار عدم ارتياحه لما قاله المفسرون فى هذه الآيات وما فسروا به مرتى الإنساد عاد يقول :

ولما لم أجد أياً من التفسيرات التى قرأتها تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة ، فقد عدت مرة أخرى أقلب صفحات التاريخ ، فوجدت أن اليهود قد عادوا مرة واحدة فى تاريخهم الطويل إلى القدس بعد أن حملهم بختنصر ملك العراق أسرى إلى بابل ، وكانت تلك العودة أيام (قورش) مؤسس الأسرة الساسانية الفارسية ، وقد ظلوا بها إلى أن طردهم الرومان ، واستمروا مشردين فى الأرض ، ولم يدخلوا بيت المقدس مرة ثانية، إلا بعد العدوان الثلاثى الأخير ، فإنهم فى عدوان ١٩٥٦ لم يدخلوا المسجد الأقصى .

إن الآيات الكريمة لا يمكن أن تفسر إلا بعودة بنى إسرائيل إلى القدس ، ثم طردهم منها ؛ ليكون فى ذلك إذلال لهم وإمعان فى الهوان ، وقد عادوا إليها هذه المرة ، فأصبح على العرب أن يجمعوا صفوفهم على قلب رجل واحد ، وأن يوحدا قلوبهم ، وأن يطهروا نفوسهم ، وأن ينصروا الله ؛ ليكونوا أهلاً للنصر الكبير الذى وعدهم به ربهم فى كتابه الكريم .

هذا رأى ، فإن كنت قد وفقت فمن عند الله ، وإن كان التوفيق قد جانيه فحسبى أننى اجتهدت على قدر علمى وليغفر الله لى . اهـ .

أقول: إنه مجرد رأى وأمل قابل للنظر والبحث والاجتهاد والمناقشة ، وقد ذهب مذهبه الأستاذان : عبد الكريم الخطيب فى صحيفة الأخبار الجمعة ١٠/١/١٩٦٩ ، وعبد الرحيم فودة ، وإن كان الأستاذ الباقورى أشار فى أخبار ٣١/١/١٩٦٩ ، أن المؤمن يستقى العبرة من كتاب الله ولا يحمل الآيات على أمر قطعى ، وهى محتملة وخاصة لو فهم البعض من هذا التفاؤل والتأويل أن الله ضمن النصر لنا دون جهاد منا وإعداد واستعداد ، فهذا عين التواكل والمعصية والمخالفة لكتاب الله ، ونحن أحوج ما نكون إلى العمل كل العمل^(١٧).

وأقول: إذا اجتمع الأمل مع الأخذ بالأسباب ، كان الخير محققاً ، والله يقول : قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُخَفِّصْ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . فأمر بالقتال وعلق عليه تعذيب الأعداء بأيدي المؤمنين ، وهو القائل مع هذا : وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

الملحق الخامس :

مقتطفات عن اليهود

عرف اليهود بالقسوة البالغة واضطهادهم لغيرهم متى ملكوا المقدرة الظاهرة أو الخفية لذلك .
وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش .

قال أحد الكتاب المعاصرين : «إن مذبحه دير ياسين كانت أبشع المذابح التي ارتكبتها اليهود : فقد قتلوا ٢٥٠ إنسانا فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسادهم وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام أعينهم»^(١٧) .

وتكرر ذلك فى حيفا ويافا وكفر قاسم وكثير من مدن فلسطين .

ويقول المؤرخ اليهودى يوسيفوس : «لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمله بنو إسرائيل من الكوارث والآلام على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم»^(١٨) .

ومن تصريحات اليهود المعاصرين :

«إن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أضفى قريبا جدا وسأكرس بقية حياتى لبناء هيكل عظيم مكان المسجد الأقصى» .

(ألفرد موند) الزعيم اليهودى الإنجليزى .

«أهداف الصهيونية هى إبادة العرب جميعا» .

(الدكتور ايدوا) رئيس اللجنة الصهيونية .

«لقد استولينا على القدس ونحن فى طريقنا إلى يثرب» .

(موشى ديان) وزير الحربية فى إسرائيل .

«وطنكم يا إسرائيل من الغرات إلى النيل ومن البحر الأبيض إلى البحر الأحمر» .

(مبدأ صهيونى) :

«الصهيونى هو اليهودى الذى يدفع ليهودى آخر نفقات هجرته إلى فلسطين»^(١٩) .

توضيح لما رود في القرآن بشأن تعظيم اليهود وتفضيلهم

فى القرآن بعض آيات فيها تنويه ببنى إسرائيل وإيدان برعاية الله لهم ، وتفضيلهم على العالمين ، وكتابتهم لهم الأرض المقدسة ، وتوريثه إياهم مشارق الأرض ومغاربها التى بارك الله فيها ، وإيجاب الجنوح إلى السلم معهم إذا جنحوا إليها .

ومع أن القرآن به آيات كثيرة تنسخ كل ذلك فإن اليهود يستغلون تلك الآيات لخداع المسلمين وإقامة الحجة عليهم من قرآنهم ؛ ليجعلوهم يسيغون ما كان منهم من عدوان ويغى وظلم واغتصاب ، وما يدعون إليه من الصلح على أساس الأمر الواقع الذى يؤيده القرآن بزعمهم .

ولذلك صار من واجب علماء المسلمين ونبهائهم توضيح المسائل ووضعها فى نصابها الحق ؛ لتنبوير عامة المسلمين وتحذيرهم من خداع اليهود وتضليلهم ، وفيما يلى شيء من ذلك :

أولاً : فى القرآن هذه الآيات :

- ١ - يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَلِي فُضِّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . (البقرة : ٤٧) .
 - ٢ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لَّغَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ • وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِشَائِلِنَا يَوْفُونَ . (السجدة : ٢٣ ، ٢٤) .
 - ٣ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهَدًى وَأَرْزَقْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ • هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ . (غافر : ٥٣ ، ٥٤) .
 - ٤ - وَلَقَدْ نَعَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ • مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُفْسِرِينَ • وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ • وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَدٌ مُُّبِينٌ . (الدخان : ٣٠ - ٣٣) .
 - ٥ - وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفُضِّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ . (الباقية : ١٦) .
- وقبل كل شيء نقول : إن المفسرين متفقون على أن ما ورد فى الآيات من تنويه وتفضيل هو مؤقت بالظروف التى منحوها فيه وليس على التآبيد ، ولقد حكى آيات كثيرة جدا بغيهم وعدوانهم وعصيانهم وتكذيبهم للأنبياء وقتلهم إياهم وتحريف كتب الله وارتكاسهم فى الكفر والشرك وعبادة العجل وأكلهم السحت وعدم تناميهم عن المنكر ، ومخالفتهم لشرائع الله واحتيالهم لها ، ومكابرتهم فى الحق ، وصددهم عن سبيل الله وسعيهم بالفساد فى الأرض ، وخيانتهم لعهودهم وأماناتهم ، واستحلالهم أموال الغير ،

وتأمرهم على الإسلام والمسلمين مع الأعداء ، وفى القرآن آيات كثيرة تقرر أن الله عاقبهم على سوء سلوكهم وأخلاقهم وانحرافهم الدينى والاجتماعى فضرب عليهم الشتات والذلة والمسكنة وصب عليهم غضبه ولعنته وجعل منهم القردة والخنازير ، وآلى على نفسه أن يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم من سوء العذاب وأذن لرسوله أن ينكل بهم ويظهر الأرض المقدسة من رجسهم .

وهذه أرقام وسور الآيات المذكورة :

البقرة : (٥٩ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٠) .

آل عمران : (٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٨١) .

النساء : (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦) .

المائدة : (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٤٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢) .

الأعراف : (١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩) .

الأحزاب : (٢٦ ، ٢٧) .

الحشر : (٤) .

الصف : (٥) .

الجمعة : (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) .

بحيث يكون فى هذه الآيات الكثيرة إيدان ربانى بنسخ تلك الآيات وإلغاء تلك الميزات للانحرافات الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى ارتكسوا وظلوا مرتكسين فيها .

ولقد ذكرت آية السجدة (٢٤) : أن الله منحهم ما منحهم ؛ لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون . أى : أن ذلك كله رهنا بصبرهم وحسن يقينهم فيزول بزوال ذلك . وهو ما قرره الآيات . وقد جاء تقرير ذلك فى آيات عدة كما ترى فى الأمثلة التالية :

١ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ أَبَلْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُهُمْ ... (البقرة : ٨٨) .

٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا قَفَوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَبِئْسَ مَا يَحْكُمُونَ . وَبَاءُ وَبَعْضٌ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . (آل عمران : ١١٢) .

٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ وَالطَّلُوعِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا . (النساء : ٥١ ، ٥٢) .

٤ - وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْ هُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ • فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَلْسِيَةً يَحُرفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . (المائدة: ١٢، ١٣) .

وثانياً :

١ - فى سورة المائدة هذه الآيات :

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقْرَبُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ • يَلْقَوُا أَذْكُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا غَاسِقِينَ . (المائدة: ٢٠، ٢١) .

٢ - وفى سورة الأعراف هذه الآية :

وَأَوْزَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَظَفُّونَ مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَلَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَذَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ . (الأعراف: ١٣٧) .

ولقد جاء بعد آيتى المائدة آيات تحكى موقف اللجاج والتمرد والهلع الذى وقفه بنو إسرائيل من أمر الله ورسوله ، وإيجاب التيه الذى أوجبه الله عليهم وعدم السماح لهم بدخول الأرض بسبب فسقهم وهى هذه:

قَالُوا يَمْشُوا عَلَىٰ أَرْضِ كَنْعَانَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا ذَاكِلُونَ • قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتْرُكُوكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • قَالُوا يَمْشُوا عَلَىٰ أَرْضِ كَنْعَانَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا ذَاكِلُونَ • قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَقَوْمَ الْقَالَسِينَ • قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَجْعَلُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (المائدة: ٢٢ - ٢٦) .

وهكذا يصح أن يقال : إن الأمر من وجهة النظر الربانية القرآنية قد وقف عند هذا الحد وانتهى مدى حكاية قول موسى : إن الله كتب لهم الأرض المقدسة .

ويلحظ أن آية سورة الأعراف قد تضمنت تعليلاً لما كان من حكمة الله تعالى بإعلانه أنه أورثهم مشارق الأرض ومغاريها التي بارك فيها وهو صبرهم واستقامتهم. ولقد انصرفوا انحرافات دينية وأخلاقية خطيرة ونقضوا بذلك التعليل الرباني فلم يعد لهم حق التمسك بالآية القرآنية والاحتجاج بها فضلاً عن الآيات الكثيرة التي أوردنا أرقامها وسورها التي تضمنت لعنة الله عليهم وغضبه وإيدانه بتشتيتهم في الأرض وتسلط من يسومهم سوء العذاب عليهم إلى يوم القيامة وكتابته الذلة والمسكنة عليهم.

وإذا كان التاريخ سجل دخولهم الأرض المقدسة بالعنف والقوة والدم، وإقامتهم فيها وقيام دولة لهم أثناء ذلك فيها روحاً من الزمن، فإن ذلك لا يصح أن يؤخذ على أنه أكسبهم حقاً شرعياً أبدياً من وجهة النظر القرآنية ولا من وجهة نظر الواقع. فمن وجهة النظر القرآنية: أن ذلك الوعد الرباني كان مرهوناً بصفات زالت عنهم فانتسخ الوعد بزوالها. ومن وجهة نظر الواقع: أنهم تشردوا وتشتتوا عنها منذ ألفي سنة وحل محلهم أقوام ظلوا فيها ثم اضطبغت بصبغة الإسلام والعروبة الخالدة فغدت بلاد الإسلام والعروبة وظلت كذلك في طوال ألف وأربعمئة عام ولم ينقطع ذلك إلا فترة قصيرة في زمن الحروب الصليبية فحارب المسلمون والعرب حرباً شديدة ومديدة حتى طهروها من الغزاة وعادت صبغتها الإسلامية العربية إليها.

ومن الجدير بالذكر: أن الإصحاح (٢٦) من سفر الأحبار أحد أسفار اليهود المقدسة أنذرهم إنذاراً شديداً رهيباً بالنيكات والضربات والشتات وتسلط الأقوياء عليهم وإذلالهم وتدميرهم إذا هم انصرفوا عن وصايا الله وشرائعه، وقد سجلت أسفارهم العديدة مثل: أسفار القضاة، وصموئيل، والملوك، وأخبار الأيام، وحزقيال، ودانيال، وأشعيا، وأرميا؛ انحرافهم عن وصايا الله وشرائعه انحرافاً خطيراً؛ ففقدوا ذلك من وجهة نظر أسفارهم أيضاً^(١٧).

ثالثاً:

إن عدوان اليهود مستمر لا ينقطع وآخر ذلك عدوانهم في يونيو ١٩٦٧ الذي وقع ولا يزال مستمراً على أشد وأقسى وأنكى ما يكون ولم يكن بينها وبين المسلمين والعرب سابق عداة قبل تفكيرهم في غزو فلسطين وإنشاء دولة لهم فيها على أنقاض العرب والمسلمين، بل كان المسلمون والعرب في ظل السلطان الإسلامي يمنحون من كان في ظلهم منهم الحرية والأمن والطمأنينة في حين كانوا وظلوا معرضين للاضطهاد والمصادرة في جميع البلاد الأخرى التي كانوا يقيمون فيها.

وعلى المسلمين واجب إعداد كل قوة يستطيعونها والاستعداد بكل وسيلة لمقاتلتهم، وتضييق الخناق عليهم بدون كلل ولا فتور كما أمر الله، إلى أن يقوضوا كياناتهم ويطهروا أرض العرب من رجسهم وتعود إلى السلطان الإسلامي العربي كما كانت، كَتَبَ اللَّهُ لِلَّهِ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. (المجادلة: ٢١).

﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾

تمهيد :

تحدث الله عن الأنبياء والرسل . ثم قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدي للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

التفسير :

٩- إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...

فاقت هداية القرآن كل هداية : فقد كان دليل الإصلاح ومصباح الإرشاد وسبيل الحكمة وآية الله الناطقة.

ففى مجال العقيدة : دعا إلى التوحيد ووضح عظمته وقدرته ودعا إلى نبذ الأصنام والأنداد .

وفى مجال العبادة : شرع العبادات : ليربط المؤمن بربه عن طريق أداء الشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج .

وفى مجال التشريع : شرع للناس ما يلزمهم وما يحتاجون إليه فى سلوكهم وحرّم عليهم ما يضرهم ويؤدى بمجتمعهم ، وبين للناس الطريقة المثلى فى علاقات بعضهم ببعض : أفرادا ، وأزواجا ، وحكومات ، وشعويا ، ودولا ، وأجناسا .

إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .

أى : للحالة التى هى أقوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة .

قال الزمخشري :

وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذى تجده مع الحذف لما فى إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه .

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . أى : يبشر المخلصين فى إيمانهم ، وهم الذين يعملون الصالحات كلها ويجتنبون السيئات ، أن لهم فى الدنيا والآخرة ثوابا وافرا .

١٠- وَأَنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ...

أى : بالبعث والجزاء على الأعمال.

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

أى : عقابا موجعا : جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجترأح الآثام .

وتلك هى قاعدة القرآن الأصلية فى العمل والجزاء . فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه ؛ فلا إيمان بلا عمل ، ولا عمل بلا إيمان . الأول مبتور لم يبلغ تمامه ، والثانى مقطوع لا ركيزة له وبهما معا تسير الحياة التى هى أقوم وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن .

★ ★ ★

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾

التفسير :

١١- وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ... الآية .

والمعنى : ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول : اللهم ، أهلكنى . اللهم ، العنى ، كدعائه ربه بالخير بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا ؛ لهلك ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه ، كما قال : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِّى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ . (يونس : ١١) .

وفى الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم ؛ أن توافقوا من الله ساعة يستجيب فيها » .

وفى تفسير مقاتل ، والنيسابورى ، وابن كثير ، وجمع من المفسرين .

أن الإنسان فى الآية هو النضر بن الحارث ، دعا قائلا : اَللّٰهُمَّ اِنْ كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَانْظُرْ عَلَيْنَا جِسَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ اَوْ اَنْتَا بِعَذَابِ اَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) . فأجاب الله دعاءه وضربت رقبتة صبرا ، وكان بعض الكافرين يقول للنبي : اثنتا بعذاب الله ، وآخرون يقولون : متى هذا الوعد ؟ جهلا منهم واعتقادا أن محمدا ﷺ كاذب .

وقد يكون المعنى فى الآية : أن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن فيه خيره مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره ؛ لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل ؛ لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور

غير متفحص لحقائقها وأسرارها . وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ، يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره، وقيل : أراد بهذا الإنسان : آدم ذلك أنه لما انتهى الروح إلى سرتة نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى فذهب ! لينهض فلم يقدر ^(١٢) .

★ ★ ★

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانُهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾

التفسير :

١٢- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ...

أى : جعلناهما بهيئاتهما وتعاقبهما واختلافهما فى الطول والقصر علامتين تدلان على أن لهما خالقا حكيمًا ويشيان بدقة الناموس الذى لا يصيبه الخلل مرة واحدة ولا يدركه التعطل مرة واحدة ولا ينى يعمل دائبًا بالليل والنهار .

فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ . أى : جعلها مظلمة فكان الليل محو إذا قيس إلى ضوء النهار .

قال مجاهد : جعلنا الليل محو للضوء مطموسه مظلمًا لا يستبين فيه شيء كما لا يستبين ما فى اللوح المحو .

وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً . أى : وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ؛ لتمييز الأشياء المحسوسة وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذى يكشف كل شيء فيه للأبصار .

فَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ . أى : فعلنا ذلك ؛ لتطلبوا فى النهار رزقا منه سبحانه بالانتشار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار .

وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ . أى : ولتعلموا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدنيوية .

وَالْحِسَابَ . أى : الحساب المتعلق بما فى ضمن السنين من الأشهر والليالى والأيام أو الحساب الجارى فى المعاملات كالبیوع والایارات وفى العبادات ، أى : لتعرفوا مضى الأجال المضروبة لذلك ؛ إذ لولاه لما علم أحد حسابان الوقت ولتعطلت الأمور .

قال السيوطي في الإكليل :

هذه الآية أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ وفي الآية لف ونشر غير مرتب .

فابتغاء الفضل يكون في النهار ، وعلم الحساب والمواقيت يكون من أظلام الليل ، والمخالفة بينه وبين النهار .

وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً . أى : مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم بيناه في القرآن بياناً بليغاً لا التباس معه ، كقوله تعالى : وَزَوَّجْنَا عَلَيْكَ الْكَتَبَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ . (النحل : ٨٩) . فظهر كونه هادياً للتي هي أقوم ظهوراً بيّناً .

وقيل : معنى وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً أى : أبعدنا نظامه في دقة متناهية فليس شيء وليس أمر في هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجزاف . ودقة الناموس الذى يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل وهى عليه شاهد ودليل .

وآيات القرآن متعاقبة على تأكيد هذا المعنى وبيان دقة النظام فى الليل والنهار وسير الشمس والقمر، وقد أورد الحافظ ابن كثير عدداً كبيراً من آيات القرآن : لتأكيد هذا المعنى وتأييده ، منها قوله تعالى : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلُخُ مِنْهُ أَتْقَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٣٧ - ٤٠) .

وقال تعالى : فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (الأنعام : ٩٦) .

★ ★ ★

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عَقِبِهِ ۖ وَخَرَجْنَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَتَبًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا ۝١٣﴾
 أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَلَا نَزَرَ وَازِرَةً وَزَرَ ۖ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾

المضردات :

طائره : أى : عمله ،سمى به : إما لأنه طار إليه من عرش الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا :

طائر الله لا طائر لك أى : قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائر لك الذى تتشام به

وتتيمين ؛ إذ جرت عاداتهم بأن يتفألوا بالطير ويسموونه ؛ زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين ؛ تيمنوا به وسموه : سانحا ، وإن مر من اليمين إلى اليسار ؛ تشاءموا منه وسموه : بارحا .

كتابا ، هو صحيفة عمله .

منشورا ، أى : غير مطوى .

حسيبا ، أى : حاسبا ، أى : عادا يعد عليه أعماله .

التنكير :

١٣ - وَكُلِّ إِنْشَانٍ أَلَزِمْتَهُ طَيْرُهُ فِي عُقْبِهِ ...

أى : ألزمناه عمله الصادر منه باختياره خيرا وشرا ، بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم الطوق فى العنق لا ينفك عنه بحال .

قال أحد المفسرين : وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله ، أى : ما يقسم له من العمل وهو كناية عما يعمل ، وإلزامه له فى عنقه تصوير للزومه وإياه وعدم مفارقتها على طريقة القرآن فى تجسيم المعانى وإبرازها فى صورة حسية ، فعلم لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه .

وقال أبو عبيدة : الطائر عند العرب : الحظ ، ويقال له : البخت ، فالطائر ما وقع للشخص فى الأزل مما هو نصيبه من العقل والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة كأنه طائر يطير إليه من وكر الأزل وظلمات عالم الغيب ^(١٨) ا هـ .

وإنما أضيف الطائر إلى العنق ولم يضاف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد ؛ لأن العنق هو موضع السمات الثابتة وموضع القلائد والأطوق وغير ذلك مما يزين أو يشين .

وقال الفخر الرازى : إن قوله : لى عُقْبِهِ كناية عن اللزوم كما يقال : (جعلت هذا فى عنقك) أى : قلدتك هذا العمل والأزمتك الاحتفاظ به ومنه يقال : (فلان يقلد فلانا) أى : يجعل ذلك الاعتقاد كالغلادة المربوطة على عنقه .

وَنُخْرِجُ لَهُ . أى : نظهر له ، يَوْمَ الْقِيَمَةِ . أى : البعث للجزاء على الأعمال ويقال له : أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . أى : شهيدا بما عملت .

قال القاشانى : كُتِبَا ، هيكلا مصورا يصور أعماله ، يُلْقَنُهُ مَنُشُورًا ؛ لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصلة ، لا مطويا كما كان عند كونها فيه بالقوة .

١٤- أَقْرَأْكِ كِتَابَكَ ...

أى : أقرأه قراءة المأمور المتمثل لأمر مطاع يأمر بالقراءة . أو تأمره القوى الملكوتية سواء كان قارئاً أو غير قارئ : لأن الأعمال هناك ممثلة ببهيناتها وصورها . يعرفها كل أحد . لا على سبيل الكتابة بالحروف : فلا يعرفها الأمى .

كَلَّمَا بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا ، لأن نفسه تشاهد ما فعلته لازماً إيهاها ، نصب عينها ، مفصلاً لا يمكنها الإنكار ^(١٩) .

والتعبير القرآنى بإخراج كتاب الإنسان منشوراً يوم القيامة يصور عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله أو المغالطة فيه . ويتجسم هذا المعنى فى صورة الكتاب المنشور ، فإذا هو أعمق أثراً فى النفس وأشد تأثيراً فى الحس ، وإذا الخيال البشرى ، يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب فى فزع طائر من اليوم العصيب الذى تتكشف فيه الخبايا والأسرار ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب .

١٥- مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ .

قال أبو السعود :

من اهتدى بهداية القرآن وعمل بما فى تضاعيفه من الأحكام وانتهى عما نهاه : فإنما تعود منفعة اهتدائه إلى نفسه لا تتخطاه إلى غيره ممن لا يهتدى . وَمَنْ ضَلَّ . أى : عن الطريقة التى يهدهي إليها : فَإِنَّمَا يُضِلُّ عَلَيْهَا . أى : ويال ضلاله عليها ، لا على من عداه ممن لم يباشر الضلال ، فقله : وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . مؤكناً لما قبله للاهتمام به .

قال أبو السعود :

أى : لا تحمل نفس حاملة للوزر ، وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ نَفْسُهُ فِي غَلَبِهِ ۖ هـ .

وفى الآية تقرير لمبدأ التبعية الفردية التى تربط كل إنسان بنفسه وتجعله مسئولاً عن عمله ، إن اهتدى فلنفسه وإن ضل فعليها . وما من نفس تحمل وزر أخرى ، وما من أحد يخفف حمل أحد إنما يسأل كل عن عمله ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميماً .

إن الله سبحانه لا يحاسب الناس جملة بالقائمة إنما يحاسبهم فرداً فرداً كل على عمله وفى حدود واجبه ، ومن واجب الفرد أن ينصح وأن يحاول الإصلاح غاية جهده ، فإذا قام بقسطه هذا فلا عليه من السوء

في الجماعة التي يعيش فيها فإنما هو محاسب على إحسانه ، كذلك لن ينفعه صلاح الجماعة إذا كان هو بذاته غير صالح .

على هذا نرى الإسلام ينكر أشد الإنكار فكرة بيع صكوك الغفران القائمة على أن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين ؛ لبيع منها لغيرهم ، تلك الفكرة تناقض أصولاً مشهورة ونصوصاً صريحة في القرآن ، والآيات المناهضة لفكرة بيع التوبة وكنوز الصالحين كثيرة في القرآن ، منها :

قوله تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ . (المدر: ٣٨) .

وقوله سبحانه : لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . (البقرة : ٢٨٦) .

والآية التي نفسرهما : مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... إلى غير ذلك من الشواهد التي تؤيد أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

كذلك لا غرابة في أن ينكر الإسلام الاعتراف بالذنب لرجل الدين حتى تصح التوبة ويمحى الذنب ؛ إذ أساس الإسلام أن الله وحده يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا .

أى : وما صح وما استقام منا أن نعذب قوما قبل أن نبعث إليهم رسولا يهديهم إلى الحق ويردعهم عن الضلال ؛ إقامة للحجة وقطعا للعذر ، والعذاب أعم من الدنيوى لقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُثَبِّعَ أَكْثَبِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْرُجَ . (طه : ١٣٤) .

وقال تعالى : كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا آلَمْ بِأَيِّكُمْ نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . (الملك : ٨ ، ٩) .

إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى لا يدخل أحدا النار ، إلا بعد إرسال الرسل إليه .

قال قتادة : إن الله لا يعذب أحدا حتى يتقدم إليه بخبر أو بينة ولا يعذب أحدا بذنبه .

وخلاصة ذلك : أن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا نعذب أحدا أى نوع من العذاب الدنيوى أو الأخرى على فعل شيء أو تركه ؛ إلا إذا أرسلنا إليه رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج وبلغ الدعوة .

قال الإمام الغزالي : الناس بعد بعثة الرسول ﷺ أصناف ثلاثة :

- (أ) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلاً وأولئك مقطوع لهم بالجنة .
 (ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه ﷺ من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانيها ؛ وأولئك مقطوع لهم بالنار .
 (ج) من بلغتهم دعوته ﷺ وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا الدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به .

يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخباراً مكذوبة وعن دينه أخباراً لا تنطبق على حقيقته كما يفعل رجال الكنائس في تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلق وأنه كان مهالكا في حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ؛ لأنه كان يسجد للعبدة وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لا يقولون إلا ترهات وأباطيل .

فالشرط عند الغزالي أن تبلغ الإنسان الرسالة على نحو يحرك فيه داعية القبول . فلو لم تبلغه الرسالة أو بلغت بصورة مشوهة فليس من حكمة الله أن يعذبه لقوله سبحانه : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا .
 قال صاحب الكشف : معناها : ما يصح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوماً إلا بعد أن نبعث إليهم رسولاً فيلزمهم الحجة .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنْدَمَرْنَاهَا تَذْمِيرًا﴾

التفسير :

١٦- وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنْدَمَرْنَاهَا تَذْمِيرًا .

المترفون في كل أمة هم : طبقة الكبراء المتجبرين الذين يجدون المال والخدم والراحة فينعمون بالدعة ؛ حتى تترهل نفوسهم وتأسن فترتع في المجانة والفسق ، وتستهنئ بالقيم والمقدسات والكرامات ، التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها ، وتلغ في الأعراس والحرمان ؛ وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم ؛ عاثوا في الأرض فساداً ، ونشروا الفاحشة وأشاعوها ومن ثم تتحلل الأمة وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحاتها .

والإسلام يفرق بين الغنى والترف ، فإذا كنا فى مجتمعنا نعمل من أجل «الكفاية» فنحن نحارب «الترف» فى نفس الوقت .

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف ، وسننا لا تتبدل ، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتتخذ إرادة الله وتحق كلمته ، فالقانون الذى يمكن أن نخرج به من آيات متعددة من كتاب الله هو ارتباط الترف بالفساد ، وهؤلاء المترفون من أشد من يقاوم الحق والتغيير فى المجتمع . ويقول الله تعالى هذا فى قاعدة شاملة فى القرآن : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . (سبأ : ٣٤) .

ولقد ذكر الله : الترف فى ثمانية مواضع من كتابه الكريم ليس فيها واحد فى مجال المدح أو الإطراء ، وإنما ترتبط بالظلم والفسق والإفساد فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

والآية التى نشرحها تقرر : سنة من سنن الله فى هذا الوجود وهى : أن الله تعالى إذا قدر لقرية أنها هالكة : لأنها أخذت بأسباب الهلاك ، فكثرت فيها المترفون ، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم : سلب الله هؤلاء المترفين ، ففسقوا فيها فعم فيها الفسق فقتلت وترهلت وفقدت لباسها الحبرى والتمسك بدينها ، فحققت عليها سنة الله ، وأصابها الهلاك والدمار ، وهى المسئولة عما يحل بها : لأنها لم تضرب على أيدي المترفين ولم تصلح من نظامها الذى يسمح بوجود المترفين .

فوجود المترفين ذاته : هو السبب الذى من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا ، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها : ما استحقت الهلاك وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك . ووجود المترفين دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها ، وسارت فى طريق الانحلال ، وأن قدر الله سيصيبها جزاء وفاقا ، وهى التى تعرضت لسنة الله بسماعها للمترفين بالوجود والحياة .

فالإرادة هنا ليس معناها : أن الله يريد إهلاك قوم ابتداء فيتوسل إليه بأن يأمرهم فيفسقون فيهلكهم ، فإن إرادة ضرر الغير ابتداء من غير استحقاق الأضرار - كالأضرار كذلك - مما ينزه عنه تعالى لمنافاته للحكمة ، كما أن الأمر ليس أمرا بالفسق : لأن الله لا يأمر بالفسق ولا يأمر بالفحشاء .

فالإرادة هنا فى الآية ليست إرادة للتوجيه القهرى الذى ينشئ السبب ، ولكنها ترتب النتيجة على السبب ، الأمر الذى لا مفر منه : لأن السنة جرت به ، والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق ، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهى الفسق .

وجميع علماء الكلام متفقون على أن أفعال العباد الاختيارية صادرة بمجموع الإرادتين والقدرتين بإرادة العبد وقدرته تسببا وكسبا ، وإرادة الله وقدرته خلقا وإيجادا وتقديرا . وأن سُنَّةَ الله فى خلقه جرت

يربط تعلق إرادته وقدرته بفعل العبد على إرادة العبد وقدرته ، كما اتفقوا على أن تعلق إرادة الله وقدرته تابع لعمله الذي لا يتخلف . فما علم أنه يكون متعلق به إرادته وقدرته تعالى بكونه وإيجاده وإلا لانقلب العلم جهلا وهو محال عليه تعالى .

فَذَمُّنَهَا تَذْمِيرًا . والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر وهدم البناء فالآية تدل على إهلاك أهل القرية على أتم وجه ، وإهلاك جميعهم لصدور الفسق عنهم جميعا فإن غير المترف يتبعه عادة . وقيل : هلاك الجميع لا يتوقف على التبعية فقد قال سبحانه : **وَأَقْبُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاسَةً** (الأنفال : ٢٥) وصح عن أم المؤمنين زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ! وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها » . قالت زينب : قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثر الخبيث » فتبعة الجماعة تظهر في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها ، وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كى لا يفسقوا فيها فيحق عليها القول فيدمرها تدميرا .

هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح قرنا بعد قرن كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير .

★ ★ ★

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

المشردات :

الـقـرـون : القوم المقترنون في زمان واحد . والقرن : ثمانون سنة أو مائة سنة ، أو مائة وعشرون سنة .
من بعد نوح : أى : من بعد زمن نوح ؛ لأن نوحا أول رسول آذاه قومه فاستأصلهم العذاب . وذكر نوح عليه السلام رمز إلى ذكر قومه .

التفسير :

١٧- وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ...

كان القرآن يقص عليهم أمر الطوفان الذى أهلك العصاة من قوم نوح وأمر الريح التى أهلكت عادا حين عصوا أخاهم هودا وأمر الصيحة التى أهلكت ثمود حين عصوا أخاهم صالحا ، ويقص عليهم ما جرى على قوم لوط حين أمطرتهم السماء حجارة مسمومة ، وما جرى على أهل مدين حين أهلكتهم الرجفة لما عصوا موسى .

كان يخوفهم أن يلم بهم مثل ما ألم بهذه الأمم من ألوان العذاب فى الدنيا إلى ما ينتظرهم فى الآخرة من العذاب المقيم وَكَفَى بِرَبِّكَ ... وكفى ربك خبرا بصيرا بذنوب عباده ، أى : يحيط بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها .

★ ★ ★

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (١٨)

التفسير :

١٨- مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ ... الآية .

إن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كَانَ ههنا مع الاختصار على مطلق الإرادة فى قسميه الآتى وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ .. فإن الله يعجل له حظه فى الدنيا حين يشاء . وتقيد المعجل له بما ذكر من المشيئة والإرادة : لبيان أن الحكمة التى يدور عليها أمر التكوين لا تقتضى وصول كل طالب إلى مراده ، ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه . ثم جعلنا له فى الآخرة مكان ما عجلنا له فى الدنيا : جهنم وما فيها من أصناف العذاب يَصْلَاهَا . يدخلها أو يقاسى حرها . مَذْمُومًا ، بما ارتكب . مَدْحُورًا ، بما انتهى إليه من عذاب ومطرودا من رحمة الله . فالذين لا يتطلعون إلى أعلى من الأرض التى يعيشون فيها فإنهم يتلطخون بدنسها ورجسها ويستمتعون فيها كالأنعام ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات ، ويرتكبون فى سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدى بهم إلى جهنم .

★ ★ ★

﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (١٩)

التفسير :

١٩- وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا .

ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وسعى لها سعيها أى : السعى اللائق بها فيؤدى تكاليفها وينهض ببتبعاتها ، وقائدة اللام فى قوله : لَهَا اعتبار النية والإخلاص ، وهو مؤمن إيماننا صحيحا

لا يشوبه شيء قاذح فيه . وإيراد الإيمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لإرادة الآخرة والسعى لها ، فلا تنفع إرادة ولا سعى بدونه ، وفى الحقيقة هى الناشئ عنه إرادة الآخرة ، والسعى للنجاة فيها وحصول الثواب .

والسعى للآخرة لا يحرم المرء أن يأخذ بقسط من المتاع فى الحياة الدنيا ، بل الإسلام يحض المرء على هذا المتاع ويكلفه إياه تكليفا ؛ كيلا يتزهّد الزهد الذى يهمل الحياة ويضعفها ، لقد خلق الله طبيبات الحياة ؛ ليستمتع بها الناس ، وليعملوا فى الأرض لتوفيرها وتحصيلها ، فتتمو الحياة وتتجدد وتتحقق خلافة الإنسان فى هذه الأرض ، ذلك على أن تكون وجهتهم فى هذا المتاع هى الآخرة فلا ينحرفون عن طريقها ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها .

وإذا كان الذى يريد العاجلة ينتهى إلى جهنم مذموما مدحورا فالذى يريد الآخرة ويسعى لها سعيًا وهو مؤمن ينتهى إليها مشكورًا يتلقى التكريم فى الملأ الأعلى جزاء السعى الكريم لهدف كريم .

وإن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهى الحياة الالئقة بالإنسان الكريم على الله الذى خلقه فسواه وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماءه .

هذان اللونان من الحياة : لون الحياة الحيوانية أو الطفولة الإنسانية ، ولون الحياة المثالية ، قديمان فى تاريخ الإنسانية قدم الإنسانية نفسها والخصومة بينهما قديمة منذ وجودهما وتعارضهما . ورسالات الأديان السماوية فى غايتها وجوهرها تدفع الإنسان إلى الحياة المثالية أو حياة الرشد الإنسانى على حين انقسمت فلسفة الإنسان منذ القدم أيضا إلى اتجاهين يدفع كل اتجاه منهما إلى لون من هذين اللونين ، فمدرسة الماديين تدفع إلى الفرع الحيوانى ، ومدرسة المثاليين أو المدرسة الإنسانية تدفع إلى حياة الأهداف البعيدة وراء حفظ البقاء الفردى والنوعى .

والإسلام كصورة كاملة وواضحة للدين السماوى يخاصم الوجودية المادية خصومة عنيفة : إذ ينظر للإنسان على أنه الرشيد وصاحب التأهيل للقيادة فى هذه الحياة وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ذَرَجْتَ لَيْلُكُمْ فِى مَاءِ تَلَكُمُ . (الأنعام : ١٦٥) فليس هدفه فى الحياة توفير المنافع الخاصة المتصلة بالجانب الحيوانى فيه بل هدفه أبعد من ذلك كثيرا قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُسَكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ آلَ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . (الأنعام : ١٦٢) هدفه أن يكون مؤمنا بالله وسالكا طريق هدايته الذى خطته الرسالة السماوية .

﴿كَلَّا نُمَدِّهُنَّوَلَاءَ وَهَنَّوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾

المضردات :

نمد : نزيد مرة بعد مرة .

التفسير :

٢٠- كَلَّا نُمَدِّهُنَّوَلَاءَ وَهَنَّوَلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ... الآية .

كلا الفريقين ، من يطلب الدنيا فيعطاهها ومن يطلب الآخرة فيلقاها نمد بالعطايا العاجلة من عطاء ربك الواسع وفضل السابغ ، وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه ، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء ، فالثراء والغنى آية على رضا الله فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب . فالله يرزق في الدنيا مريدى العاجلة الكافرين ، ومريدى الآخرة المؤمنين ، ويمد الجميع بالرزق ، فهو لا يمنعه عن كافر لكفره ولا عن عاص لعصيانه ، بل ييسر الرزق لمن يشاء عن خبرة وبصر .

★ ★ ★

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

التفسير :

٢١- أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا .

التفاوت بين الناس فى الدنيا ملحوظ بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم . فمن وضيع ورفيع ، ومالك ومملوك ، وموسر وصعلوك ، وعالم وجاهل ... إلخ . وإذا كان هذا التفاوت فى متاع الحياة الدنيا القليل الهزيل فكيف التفاوت بينهم فى الآخرة التى لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ، لا شك أن التفاوت الحق والتفاضل الضخم هو هناك فى الآخرة ؛ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، لا فى زخارف الدنيا ومتاعها الزائل .

★ ★ ★

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾

التفسير :

٢٢- لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا .

والخطاب للنبي ﷺ ، ولكنه في الحقيقة عام للمكلفين ويحسن أن يقال : إن الخطاب للإنسان كأنه قيل : يا أيها الإنسان ، لا تجعل ، أو القول مضمّر . أي : قل لكل مكلف : لا تجعل . والأمر عام في حقيقته ولكنه وجه إلى المفرد ؛ ليحس كل فرد أنه أمر خاص به صادر إلى شخصه ، فالاعتقاد مسألة شخصية مسئول عنها كل فرد بذاته ، والعاقبة التي تنتظر كل فرد يحيد عن التوحيد أن يَقْعُدَ مَذْمُومًا ؛ بالفعلة اللميمة التي أقدم عليها ، مَخْذُولًا لا ناصر له ، ومن لا ينصره الله فهو مخذول وإن كثر ناصروه . ولفظ : فَتَقْعُدَ يصور هيئة المذموم المخذول وقد حط به الخذلان فقعده ، ويلقى ظل الضعف ، فالعود هو أضعف هيئات الإنسان وأكثرها استكانة وعجزاً فإن السعى إنما يتأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يبقى قاعداً عن الطلب .

وخلامة المعنى : لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا في عبادته فتصير مذموماً على الشرك مخذولاً من الله ، يكلك إلى ذلك الشريك ولا ينصرك . قال تعالى : وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . (آل عمران: ١٦٠).

★ ★ ★

مكارم الأخلاق في سورة الإسراء

اشتملت الآيات من ٢٣ إلى ٣٩ على جملة من الوصايا والآداب التي تسهم في تربية الأفراد وتماسك المجتمع وترابطه وذكر ابن عباس : أن هذه الوصايا هي خلاصة ما ورد في التوراة ومجمل هذه الوصايا ما يأتي :

- ١ - عبادة الله وحده الآية ٢٣
- ٢ - بر الوالدين الآيات ٢٣ - ٢٥
- ٣ - صلة الرحم الآية ٢٦
- ٤ - العطف على المسكين وابن السبيل الآية ٢٦
- ٥ - النهي عن الخُلُوع والتبذير الآيات ٢٧ - ٢٩
- ٦ - النهي عن قتل الأولاد الآية ٣١

٣٢ الآية	٧ - النهي عن الزنا
٣٣ الآية	٨ - النهي عن قتل النفس
٣٤ الآية	٩ - النهي عن أكل مال اليتيم
٣٤ الآية	١٠ - الأمر بالوفاء بالعهد
٣٥ الآية	١١ - الأمر بالوفاء بالكيل والميزان
٣٦ الآية	١٢ - الأمر بالثبوت في القول
٣٩ الآية	١٣ - النهي عن الخيلاء والكبر
٣٩ الآية	١٤ - النهي عن الشرك بالله

وإليك نص هذه الآيات ثم تفسيرها .

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغَنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنْفِيَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ﴾

المفردات :

قضى : أى : حكم وأمر .

أف : اسم صوت ينبئ عن التضجر والتألم ، يقال : لا تقل لفلان : أف ، أى : لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه .

الشهر : الزجر بغلظة .

كريماً : أى : جميلاً لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف في جنسه يقال : إنه كريم .

الآية مفتاح لمكارم الأخلاق

تصدرت هذه الآية جملة من الوصايا والأوامر والنواهي التي تتعلق بأداب السلوك في واقع الحياة .

وهي : الأمر بعبادة الله وحده والتزام أوامره واجتناب نواهيه ومن هذه الأوامر :

بر الوالدين ، وصلة الرحم ، والعطف على المسكين وابن السبيل في غير إسراف ولا تبذير ، وتحريم قتل الذرية ، وتحريم الزنا ، وتحريم القتل ، ورعاية مال اليتيم ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ،

والتثبيت في القول ، والنهي عن الخيلاء والكبر . وتنتهى الأوامر بالتحذير من الشرك ، فهذه الأوامر كلها محصورة بين الأمر بطاعة الله ، والنهي عن الإشراك به ، والتزام الفضائل التي دعا إليها ، والبعد عن الرذائل التي حذر منها . ومما يساعد الإنسان على هذا السلوك المذهب عقيدته الصادقة التي تقوم على الإيمان بالله واتباع شريعته وهدية تلك الشريعة التي يقوم عليها بناء الحياة وسعادة المجتمع .

التفسير :

٢٣- وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْغِيَنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ (٢٣) وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا .

أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نفرده بالعبادة وأن نخصه بالتوحيد وهذا معنى إِيَّاهُ نَعْبُدُ وَإِيَّاهُ نَسْتَعِينُ أى : لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك فأنت نعم المولى ونعم المعين .

ثم أمرنا الله بالإحسان إلى الوالدين وبالغ في هذه الوصية وكررها في القرآن الكريم : لأن الوالدين أصل حياة الإنسان فالله هو الخالق الموجد المسبب . والوالدان هما السبب المباشر لوجود الإنسان وقد تحملا في سبيل رعايته وتربيته وتهذيبه كل صعب وذلول .

فوجب أن يكافأ الإحسان بالإحسان وأن ترد التحية بأحسن منها خصوصا عند العجز والشيخوخة ، فذلك هو التضامن الاجتماعي والتكافل الإسلامى الذى يحفظ للأسرة تماسكها وترابطها .

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

وقد يسأل سائل : لم تكررت وصية الله للأبناء بأن يبروا آباءهم ولم تتكرر وصيته للأباء بأن يبروا أبناءهم؟

والجواب سهل ميسور : ذلك أن الغريزة والفطرة تدفع الوالدين إلى رعاية الأولاد والتضحية بكل شيء في سبيلهم وكما تمتص النبتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فتات ، ويمتص الفرخ كل غذاء في البيضة فإذا هي قشر ، كذلك يمتص الأولاد كل رحيق وكل عافية وكل جهد وكل اهتمام من الوالدين فإذا هما شيخوخة فانية - أن أمهلها الأجل - وهما مع ذلك سعيان .

فأما الأولاد فسرعان ما ينسون هذا كله ، ويندفعون إلى الأمام ، إلى الزوجات والذرية .. وهكذا تندفع الحياة .

ومن ثم لا يحتاج الآباء إلى التوصية بالأبناء ، إنما يحتاج الأبناء إلى تذكيرهم بحق الجيل الذى أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف .

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد ، بعبادة الله .

ثم تأخذ الآيات فى تأكيد هذا المعنى وتحريك عاطفة الحنان والرحمة فى صدر الأبناء نحو الآباء فتقول : **إِنَّمَا يَتَلَفَعْنَ مِنْكَ الْكَبِيرَ أَحْتَضُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا** . (الإسراء : ٢٣) ، والكبر له جلاله ، وضعف الكبر له إيحائه ، وكلمة **عِنْذَكَ** تصور معنى الالتجاء والاحتواء فى حالة الكبر والضعف .

أى : إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله ؛ وجب عليك أن تشفق عليهما ، وأن تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الآتية :

(أ) ألا تتأنف من شئ تراه من أحدهما أو منهما حتى لو كنت تقضى لهما جميع الأمور التى كانا يقضيانها لك وأنت صغير فاستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال ، ولا تقل لهما إذا أضجرك ما يستقدر منهما ، أو يستثقل من مؤنتهما : أف ، فضلا عما يزيد عليه ، وفى الأثر : لو علم الله أدنى من أف لقالها .

(ب) **وَلَا تَنْهَرُهُمَا** ولا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به بغلظة بل استعمل الرفق واللين والأدب وتحمل منهما؛ لأن لهما عقلية وتفكيراً وآراء تناسب ضعفهما ، قال تعالى :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَكَيْفَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وقد يكون أحدهما جائراً أو ظالماً أو مخالفاً لك فى الرأى فحاول أن تنفذ له أمره ولو كان على خلاف رأيك ما لم يكن إلماً أو ذنباً ؛ فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(ج) **وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** . **أى** : قولاً حسناً رقيقاً فإن الإنسان فى هذه السن الكبيرة كالمريض يحتاج إلى البسمة الجميلة والكلمة الطيبة التى تشرح صدره وتشعره بأنه صاحب الجميل السابق والفضل المتقدم فالأب فى كبره ينتظر من ابنه العرفان والفناء ، فهذا العرفان يشيع فيه السرور والرضا ويقنعه أنه ليس عالة ولا ثقلاً بل هو يسترد معروفاً سابقاً ويجنى ثمرة غرسها يديه الكريمتين .

أما إذا قابلته بالعقوق والجحود ؛ فإنه يأسى على ما قدم لك من رعاية حانية فى عمرك الطويل كما قال الشاعر العربى يعدد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً	تعل بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهراً أتململ
كاننى أنا المطروق دونك بالذى	طرفت به دونى فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائى غلظة وغلظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى فعلت كما الجار المجاور يفعل

★ ★ ★

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (٢٤)

التفسير :

٢٤- وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ...

خفض الجناح يراد به : التواضع والتذلل^(٢٤) . من الرحمة : أى : من فرط رحمتك بهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما إليك .

وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا .

أى : رب تعطف عليهما برحمتك ومغفرتك ، كما تعطف على فى صغرى ، فرحمانى ورببانى صغيرا . حتى استقلت بنفسى واستغنيت عنهما .

قال الزمخشري : أى : لا تكتف برحمتك بهما بل ادع الله أن يرحمهما برحمته الواسعة ، واجعل ذلك جزاء لرحمتهم بك فى صغرك وتربيتهم لك^(٢٥) .

وكلما كبر الإنسان قراءة هذه الآية : استشعر جمال التعبير القرآنى وتلطفه فى الوصول إلى حنايا النفس البشرية ، وروعه فى تصوير الرحمة تصويرا رقيقا لطيفا حتى وكأنها الذل الذى لا يرفع عينا ولا يرفض أمرا وكأنما للذل جناح يخفضه إيدانا بالسلام والاستسلام ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا فى الذكرى الحانية ، ذكرى الطفولة الضعيفة يرعاها الوالدان ، وهما اليوم فى مثلها من الضعف والحاجة إلى الرعاية والحنان . وهو التوجه إلى الله أن يرحمهما فرحمة الله أوسع ورعاية الله أشمل . وجنات الله أرحب ، وهو أقدر على جزائهما بما بذل من دمهما وقلبهما مما لا يقدر على جزائه الأبناء .

والخلاصة : أن الله سبحانه قد بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعر منها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعها بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من التضجر ، ثم أمر بالذل والخضوع للوالدين وبالدعاء لهما والترحم عليهما : فهى خمسة أمور مرتبة كالاتى :

١ - الإحسان إلى الوالدين .

٢ - عدم التأفف والتضرع وعدم إيذاهما بالقول أو بالفعل .

٣ - التلطف فى الخطاب والتأدب فيه ، مثل ذلك ألا ينادى أحدهما باسمه مجردا ولا يرفع صوته عليه بل يقول : يا أبى ويا أمى ولا يتكبر من أن يقبل يدهما ويبالغ فى خدمتهما واحترامهما .

٤ - خفض الجناح ولين الجانب كما يفعل الطائر الذليل ، لا خوفا ولا رياء ولكن رحمة ورأفة بالسن الكبيرة والشيخوخة المتداعية .

٥ - الدعاء لله أن يرحمهما وأن يشملهما بعطفه ورضاه فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

المضردات :

الأواب ، الذى ديدنه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه ، قال سعيد بن جبیر : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير .

التفسير :

٢٥ - رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ...

أى : بما فى ضمائرکم من الإخلاص وعدمه فى كل الطاعات .

إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ قاصدين الصلاح والبر إلى الوالدين دون العقوق ثم بدرت منكم بادرة فى حقهما

فأنبئتم إلى الله واستغفرتم منها .

فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا . أى : التوابين الرجاعين إليه تعالى بالندم عما فرط منهم فإنه يغفر لهم ما اكتسبوا:

وفى هذا وعد لمن أضر البر بهم ووعد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوقهم .

والآية كأنها ترد على تساؤل فى النفس فإذا قال قائل : كيف يقوم بحقهما وقد تيدر بواذر .

فأجابت الآية بأن الأمر كله لله الذى يعلم النوايا ويعلم ما وراء الأقوال والأفعال .

فإذا كان الابن باراً ثم بدرت بادرة أو هفا هفوة بدون قصد الإساءة وأعقب ذلك بالندم والاستغفار:

فإن الله يغفر له ذنبه . ويجوز - كما قال الزمخشري - أن يكون هذا عاما لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجانى على أبويه التائب من جنايته : لأن الآية وردت فى أعقاب الوصية بالوالدين .

الأثار في الوصية بالوالدين

وردت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ووصايا السلف الصالح تؤكد حق الوالدين وتأمير الأبناء برعايتهما والإحسان إليهما وتحمل أخطائهما والبر بهما والتلطف في القول معهما ، فهذا نوع من رد الجميل ومن مقابلة الحسنة بمثلها .

(أ) قال ﷺ :

«عفوا ؛ تعف نساؤكم ، ويروا آباءكم ؛ تبركم أبناؤكم» ^(١٢٧) .

«بر أمك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك» ^(١٢٨) .

وروى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ قال :

«رغم أنف رجل ؛ ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل ؛ دخل عليه شهر رمضان فانسأ فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل ؛ أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخله الجنة» ^(١٢٩) .

(ب) وقد أمر الدين بإكرام الوالدين في حياتهما وبعد وفاتهما وذلك بزيارة قبرهما والتصدق عليهما وصلة الرحم من أقاربهما وتنفيذ وصيتهما وفعل كل خير عنهما كالحج والصدقة وأداء دين عليهما ، إلى غير ذلك من الأمور الخيرة وأفعال البر والمعروف .

سأل رجل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، هل بقي على من بر أبوي شيء بعد موتهما أهرهما به . قال : «نعم خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما» ^(١٣٠) .

(ج) وقد وصى الدين بالألم وكرر الوصية بها وجعل برهما مقدما على بر الأب ، قال تعالى : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمَوْلَاةِ فَأَنِىٰ أُنْشِرُ لَكَ الْكَبِيرَ . وَالْوَالِدَيْنِ إِتْيَا الْكَبِيرَ . (لقمان : ١٤) وروى الشيخان : أن رسول الله ﷺ سئل : من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك ^(١٣١) .

(د) رعاية الأب للولد :

وصى الدين الأب أن يرعى ولده وأن يقوم على تربيته وتهذيبه ؛ فالولد أمانة وقد أمرنا بحفظ الأمانة ورعايتها .

قال تعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (طه : ١٣٢) .

وقال سبحانه : قُرْأَ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا (التحریم : ٦) .

وقال ﷺ : «اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم حتى فى التمرة والكلمة الطيبة» ^(٩٨) .

وقيل : ولدك ريحانتك تشمها سبعا ، وخادمك سبعا ، ثم هو عدوك أو شريك .

وقال ﷺ : «الغلام يعق عنه يوم السابع ويسمى ، ويماط عنه الأذى فإذا بلغ ست عشرة سنة زوجه أبوه ثم أخذ بيده وقال : أدبتك وعلمتك وأنكحتك أعوذ بك من فتنتك فى الدنيا وعذابك فى الآخرة» ^(٩٩) .

ورأى الأقرع بن حابس النبی ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال عليه السلام : «إن من لا يرحم لا يرحم» ^(١٠٠) .

وقال يزيد بن معاوية : أرسل أبى إلى الأحنف بن قيس فلما وصل إليه قال له : يا أبا بحر ، ما تقول فى الولد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ونحن لهم أرض ذليلة ، وسماء ظليلة ، وبهم نصول على كل جليلة فإن طلبوا فأعطهم ، وإن غضبوا فأرضهم ؛ يمنحوك ودهم ، ويحبوك جهدهم ولا تكن عليهم ثقلا ثقيلا فيملوا حياتك ويودوا وفاتك ويكرهوا قريك ^(١٠١) .

★ ★ ★

﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمَسْكِينُ وَابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يُبْدِرُ بَئِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ ^(١٠٢)

تمهيد :

لما ذكر تعالى بر الوالدين أتبع ذلك بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ثم بين حق الفقراء والمساكين الأجانب ومَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا والأمر للجوب عند أبى حنيفة فعنده يجب على الموسر مواساة أقاربه إذا كانوا محارم كالأخ والأخت وعند غيره للندب فلا يجب عند غيره إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب ^(١٠٣) .

وقد تكررت وصية القرآن بصلة الرحم والعطف على الأقارب فقال سبحانه : وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ... (الرعد : ٢٦) .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ . (محمد : ٢٢) .

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «أنا الرحمن وهذه الرحم فمن وصلها ؛ وصلته ومن قطعها ؛ قطعت» ^(١٠٤) .

التفسير :

٢٦- وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ...

يفيد : أن للقريب حقا في مال قريبه كما أن صلة الرحم سبب في سعة الرزق وكثرة العدد والبركة والنماء ففي الحديث الشريف «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله ؛ فليصل رحمه»^(٨١).

وقال عليه السلام : الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان^(٨٢).

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط كان له ؛ عملا بقوله تعالى : لَنْ تَأْكُلُوا أَلْبَنَ حَتَّىٰ تَفْقَرُوا مِمَّا تُجِبُونَ (آل عمران : ٩٢) . قال : يا رسول الله ، هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين فقال عليه السلام : «وجب أجرك على الله فاقسمه في أقاربك»^(٨٣) وإيتاء ذى القربى حقه يكون بالصدقة وصلة الرحم وحسن المعاشرة والإنفاق عليه .

وَالْمَسْكِينُ أَى : الفقير من الأبعد ، فالصدقة على المسكين القريب صدقة وصلة رحم ، وعلى المسكين البعيد صدقة فقط .

وَأَكْبَرُ السَّبِيلِ أَى : المسافر الذى انقطع به الطريق فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

وَلَا تُبْذَرُ تَبْذِيرًا أَى : بوجه من الوجوه بالإففاق فى محرم أو مكروه أو على من لا يستحق .

وفي الكشف :

كانت الجاهلية تنحر إبلها وتتيأسر^(٨٤) عليها وتبذر أموالها فى الفخر والسمة ، وتذكر ذلك فى أشعارها ، فأمر الله بالنفقة فى وجوهها مما يقرب منه ويزلف .

والتبذير هو إنفاق المال فى وجوه الميزات والشهوات فهو تبذير النعمة وتوجيهها فى غير الوجه السليم أما إنفاق المال فى الخير والبر ومساعدة المحتاجين . فهو نعمة محمودة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قبيس (جبل بمكة) وقال : لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين ، وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقليل له : لا خير فى الإسراف فقال : لا إسراف فى الخير .

وروى أحمد عن أنس بن مالك : أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : «تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك وتعرف حق الجار والمسكين» .

فقال : يا رسول الله ، أقلل لى ، قال : قَاتِ ذَا الْقَرْبَى حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْلِيرًا ، فقال : حسبى يا رسول الله إذا أتيت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : «نعم إذا أدبتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها» .

وقال ابن مسعود : التبذير : الإنفاق فى غير حق .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت؛ فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة ؛ فذلك حظ الشيطان .

٢٧- إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ...

أى : أمثالهم فى كفران نعمة المال بصرفه فيما لا ينبغي ، أو هم قراء الشياطين فى النار على سبيل الوعيد والعرب تقول لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم : هو أخوهم أى : إن المفرقين أموالهم فى معاصي الله المنفقيها فى غير طاعته ؛ قراء الشياطين فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ مَا كُنَّ لَهُ يَمِينٌ لَهُ قَرِينٌ (الزخرف : ٣٦) . وقال : أَحْشُرُوا اللَّيْلِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ (الصفات : ٢٢) . أى : قراءهم من الشياطين .

وَكَانَ الشَّيْطَانُ يُرِيهِمْ كُفْرًا . أى : مبالغاً فى كفران نعمته تعالى لا يؤدى حق النعمة ، كذلك إخوانه المبذرين لا يؤدون حق النعمة ، بل ينفقون أموالهم فى معصية الرحمان ويسلكون بها سبل الشيطان .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفراً لنعمة الله ؛ لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ؛ ليصدا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

﴿وَأَمَّا تُعْرِضُنَّ عَنْهُمْ أَنْ يَخَافَ رَحْمَتُ رَبِّكَ تَرْجُوَهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

التفسير :

٢٨- وَأَمَّا تُعْرِضُنَّ عَنْهُمْ أَنْ يَخَافَ رَحْمَتُ رَبِّكَ تَرْجُوَهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مِيسُورًا .

أى : وإن أعرضت عن ذوى القربى وابن السبيل حياء من الرد لانتظار رزق من الله ترجوه أن يأتيك فتعطيه فلا تؤسهم وقل لهم قولاً ليناً سهلاً وعدهم وعداً جميلاً ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شيء فإن يأتنا نعرف حقكم ، وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون ويم يردون ؟

قال السوطى فى الإكليل : فى هذه الآية الأمر بالقول اللين عند عدم وجود ما يعطى منه ، وفسره ابن زيد بالدعاء ، والحسن وابن عباس بالعدة .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾
 إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

المفردات :

المغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق .

تبسطها : أى : تتوسع فى الإنفاق .

المحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا .

يقتدره : أى : يقتدر .

التفسير :

٢٩- وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً ...

نهانا الله عن البخل والشح كما نهانا عن الإسراف والتبذير وأمرنا بالتوسط فى النفقة كما قال عز شأنه فى آية أخرى : وَاللَّيْنِ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (الفرقان : ٦٧) .

والتوازن هو القاعدة الكبرى فى النهج الإسلامى ، والغلوكالتفريط يخل بالتوازن والتعبير هنا يجرى على طريقة التصوير ، فيرسم البخل يدا مغلولة إلى العنق ويرسم الإسراف يدا مبسوطة كل البسط لا تمسك

شيئا ويرسم نهاية البخل والإسراف قاعدة كقاعدة المعلوم المحسور . والحسير^(٢٨) : هى الدابة التى تعجز عن السير فتتقف ضعفا وعجزا فكذلك البخل حصره بخله فيقف ، وكذلك المسرف ينتهى به سرفه إلى وقفة الحسير ملوما فى الحاليتين على البخل وعلى السرف وخير الأمور الوسط^(٢٩) .

وجعل ابن كثير قوله تعالى : فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا من باب اللف والنشر المرتب قال : أى : فتتقعد إن بخلت ، ملوما يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك : قعدت بلا شئ تنفقه فتكون كالحسير الممنوع من المسير وهو مأخوذ من الكلال والإعياء كما قال : فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۖ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (الملك : ٣ ، ٤) . أى : كليل عن أن يرى عيبا .

وقد ذهب ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم إلى أن المراد بالآية : النهى عن البخل والإسراف .

الآثار فى الموضوع :

ورد فى كتب السنة الصحاح : ذم البخل والشح والتحذير منهما ، فمن ذلك ما ورد فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

«ما من يوم يصحب العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ، أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم ، أعط ممسكا تلفا» .

وروى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا : «ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله» ، وفى الحديث «إياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ؛ أمرهم بالبخل ؛ فبخلوا ، وأمرهم بالبطيعة ؛ فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ؛ ففجروا» .

كما ورد فى كتب السنن : الأمر بالاعتصام فى النفقة والاعتدال والتوسط . روى الإمام أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ما عال من اقتصد» وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال ﷺ : «الاقتصاف فى النفقة نصف المعيشة» وروى عن أنس مرفوعا : «التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين» . وقيل : حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف.

٣٠- إِنْ زُلْكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ...

أى : يوسعه ويضيقه حسب مشيئته وحكمته . إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَعِيرًا . أى : خبيراً ببواطنهم بصيرا بظواهرهم ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء عن خبرة ويقدر الرزق لمن يشاء عن خبرة ويصر ويأمر بالقصد والاعتدال ، ويمنه عن البخل والإسراف ، وهو الخبير البصير بالأقوام فى جميع الأحوال .

وقال ابن كثير : خَيْرًا بَعِيرًا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر كما جاء فى الحديث : «إن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه» . وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا ، والفقر عقوبة عيادا بالله من هذا وهذا ، اهـ .

وقصارى القول : إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأمنتم النظر فى ذلك : وجدتم أن من سنته تعالى الاقتصاد فاقصدوا واستنوا بسنته .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ﴾ (٣١)

المفردات :

الإملاق : الفقر ، قال الشاعر :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجد أعد لأضيافى الشواء المضهبا

الخطء : كالإثم لفظا ومعنى .

التفسير :

٣١- وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كَرِيمُونَ ...

أى : لا تنذوا بناتكم خوف الفقر فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء وفى ذلك عار أیما عار عليهم .

والخلاصة : أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَا كَبِيرًا أى : إن قتلهم كان إثما فظيعا ؛ لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفى الصحيحين : عن عبد الله بن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب

أعظم؟ قال: «أن تجعل الله ندا وهو الذى خلقك»، قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك؛ خشية أن يطعم معك»
قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك».

ونقف هنا لحظة أمام مثل من دقائق التعبير القرآنى العجيبة، ففى هذا الموضع قدم رزق الأبناء على رزق الآباء نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ. وفى سورة الأنعام قدم رزق الآباء على رزق الأبناء نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ. وذلك بسبب اختلاف آخر فى مدلول النصين. فهذا النص: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاهُمْ. والنص الآخر: وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ هنا قتل الأولاد خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم رزق الأولاد، وفى الأنعام قتلهم بسبب فقر الآباء فعلا. فقدم رزق الآباء فكان التقديم والتأخير وفق مقتضى الدلالات التعبيرية هنا وهناك.

وقد لا يتصور إنسان أن يجرؤ والد على قتل ولده، ولكن انحراف العقيدة وفسادها ينشئ هذه الآثار الضارة فى حياة المجتمع.

لقد كانت مفاهيم الجاهلية تقوم على أساس تعظيم الغنى لذاته وتحقير الفقير لذاته، وكان الصعاليك يفتخرون بالفاقة والسلب والنهب؛ ليصبحوا أثرياء محترمين، ومن ذلك قول عروة ابن الورد لزوجته:

رأيت الناس شرهم الفقير	نرينى للغنى أسعى فلانى
وأن أضحى له نسب شهير	وأحقرهم وأهونهم عليهم
حليلته وينهره الصغير	وينسى فى الندى وتزدريه
يكاد فؤاد صاحبه يطير	ويلقى ذو الغنى وله جلال
ولكن للغنى رب غفور	عظيم ذنبه والذنوب جم

فلما جاء الإسلام قام على أساس العقيدة السليمة من الإيمان بالله ربا وخالقا ورازقا، ومن احترام إنسانية الإنسان وتحريم قتله وفى الحديث: «الإنسان بنیان الله ملعون من هدم بنیان الله» كما قوم الإسلام المفاهيم الخاطئة؛ فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة وأنهم عند الله سواء يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح.

وإن المجد والفخر لا يكون بالغنى ولا بالأثاث والرياش والمتاع وإنما يكون بعمل نافع وخدمة إنسانية وإصلاح للمجتمع، وفى الأثر: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم؛ إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

والخلاصة : أن قتل الأولاد كان من آثار انحراف العقيدة ، وأن سلامة العقيدة له أثره العملى فى واقع الجماعة الإنسانية ، وأن الحياة لا يمكن إلا أن تتأثر بالعقيدة ، وأن العقيدة لا يمكن أن تعيش فى معزل عن الحياة.

★ ★ ★

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٣٢)

التفسير :

٣٢- وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .

وَلَا تَقْرَبُوا ، أى : لا تقتربوا منه ولا من مقدماته ، كاللمسة والقبلة والنظرة والغمزة والفاحشة : الفعلية الظاهرة القبح ، وَسَاءَ سَبِيلًا : قال الطبرى : ساء طريق الزنا طريقا : لأنه طريق أهل معصية الله والمخالفين أمره ؛ فأسوأ به طريقا يورد صاحبه نار جهنم !

من مفاسد الزنا :

١ - اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية أمنه أم من غيره ؛ لا يقوم بترتيبه ولا يستمر فى تعهده وذلك مما يوجب إضاعة النسل وانتشار الفساد .

٢ - فتح باب النزاع والاضطراب بين الناس ؛ دفاعا عن العرض فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل : (فتش عن المرأة) .

٣ - أنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه وأن تكون راعية للأولاد وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

ونلاحظ أن الله تعالى ذكر النهى عن الزنا بعد النهى عن قتل الأولاد ، وقبل النهى عن قتل النفس ، وعلة ذلك أن الزنا فى حد ذاته قتل من نواحى شتى : أنه قتل ابتداء ؛ لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، يتبعه غالبا الرغبة فى التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق قبل مولده أو بعد مولده ، فإذا ترك الجنين للحياة ترك فى الغالب لحياة شريرة ، أو حياة مهينة فهى حياة مضيعة فى المجتمع على نحو من الأنحاء .. وهو قتل فى صورة أخرى قتل للجماعة التى يفسدوا فيها ، فتضيق الأنساب وتختلط الدماء وتذهب الثقة فى العرض والولد ، وتتحلل الجماعة وتتفكك روابطها ، فتنتهى إلى ما يشبه الموت بين الجماعات ، وهو قتل للجماعة من جانب آخر ، إذ إن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافذة لا ضرورة لها ويجعل الأسرة تبعة لا داعى لها ، والأسرة هى المحضن الصالح للتربية

وهى الجو الملائم لتنشئة الأطفال ورعايتهم وتعذيب غرائزهم ورعاية نموهم النفسى والبدنى والاجتماعى، وقد كتب أحد علماء التربية الأجانب كتابا بعنوان: (أطفال بلا أس)، ذكر فيه: أنه لاحظ البون الشاسع بين الأطفال التى تنشأ فى الملاجئ والمؤسسات، والأطفال التى تنشأ فى أسرة طبيعية، فأطفال المؤسسات عندهم بطء فى الاستجابة للمناغاة والمناداة ويصعوبة بالغة يمكن أن تنترز من أدهم ابتسامه، أما الطفل الطبيعى فهو طبيعى فى انفعاله ومناغاته ومناجاته، وذلك له أثره فى النمو النفسى والتكامل الاجتماعى لشخصية الطفل فى مستقبل حياته.

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية الطويل رأينا أنه ما من أمة من الأمم فشت فيها الفاحشة؛ إلا صارت إلى انحلال وهزيمة، وقد يفتقر بعضنا بأن أوروبا وأمريكا تملكان زمام القوة المادية اليوم مع فشو هذه الفاحشة فيهما، ولكن آثار هذا الانحلال فى الأمم القديمة منها كفرنسا ظاهرة لا شك فيها، أما فى الأمم الغنية كالولايات المتحدة، فإن فعلها لم تظهر بعد آثاره بسبب حداثة هذا الشعب، واتساع موارده، كالشاب الذى يسرق فى شهراته فلا يظهر أثر الإسراف فى بنيته وهو شاب ولكنه سرعان ما يتحطم عندما يدلف إلى الكهولة فلا يقوى على احتمال آثار السن كما يقوى عليها المعتدلون من أنداده.

والقرآن يحذر من مقاربة الزنا. وهى مبالغة فى التحرز؛ لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة، فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخذ الإسلام الطريق على أسبابه الدافعة؛ توكيا للوقوع فيه، يكره الاختلاط فى غير ضرورة، ويحرم الخلوة، وينهى عن التبرج بالزينة، ويحض على الزواج لمن استطاع، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع. ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالة فى المهور، وينفى الخوف من العيلة والإملاق بسبب الأولاد ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج؛ ليحصنوا أنفسهم، ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان ... إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج، ليحفظ الجماعة الإسلامية من التردى والانحلال.

روى الإمام أحمد عن أبى أمامة: أن فتى شابا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لى بالزنا فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه (٣٠). فقال: «ادنه». فدنا منه قريبا فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبه لأملك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأمهااتهم»، قال: «أفأحب لابتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفأحب لأختك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفأحب لعمتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفأحب لخالك؟» قال:

لا والله جعلني الله فداك . قال : «ولا الناس يحيونه لخالاتهم» . قال : فوضع يده عليه وقال : «اللهم ، اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه» قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(٧١) .

وفى الحديث «مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له»^(٧٢) .

وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدين تزنيان وزناهما اللمس ، والرجلان تزنيان وزناهما الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»^(٧٣) .

الزنا الموجب للحد

عرف الفقهاء الزنا بأنه : وطء الرجل المرأة فى القبل حراما كالميل فى المكحلة ، أو القلم فى الدواة . وجاء فى كتاب الاختيار ما يأتى :

يثبت الزنا بالبينة والإقرار ، والبينة أن يشهد أربعة على رجل أو امرأة بالزنا فإذا شهدوا يسألهم القاضى عن ماهيته وكيفيته ومكانه وزمانه والمزنى بها فإذا بينوا ذلك ، وذكروا أنها محرمة عليه من كل وجه وشهدوا به كالميل فى المكحلة والقلم فى الدواة وعدلوا فى السر والعلانية ؛ حكم القاضى عليه بالحد :

وحد الزانى إذا كان محصنا^(٧٤) الرجم بالحجارة حتى يموت و يخرج إلى أرض فضاء فإن كان ثبت بالبينة يبتدئ بالشهود ، ثم الإمام ، ثم الناس فإذا امتنع الشهود أو بعضهم ؛ لا يرجم . وإذا ثبت بالإقرار ابتداء الإمام ، ثم الناس .

وإن لم يكن محصنا فحده الجلد مائة جلدة يضرب بسوط لا ثمرة^(٧٥) له ضربا متوسطا يفرقه على أعضائه إلا رأسه ووجهه وفرجه ، ويجرد عن ثيابه إلا الإزار ، ولا تجرد المرأة إلا عن الفرو والحشو^(٧٦) .

والأصل فى عقوبة الزنا ماورد من تقديرها بمائة جلدة فى الآية الثانية والثالثة من سورة النور ، حيث يقول سبحانه : **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عِدَابُهُمَا عَاطِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (النور : ٢ ، ٣) .**

ونلاحظ أن الخوارج وبعض الشيعة وبعض المعتزلة يرون أن لا عقوبة فى الزنا غير الجلد مائة جلدة للمتزوج وغير المتزوج^(٧٧) .

وقد ورد في التوراة: أن عقوبة الزاني المحصن الرجم ، جاء في سفر التثنية «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل بالمدينة فاضجع معها : فأخرجوهما كليهما من المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فينتزع الشر من المدينة» .

والخلاصة :

- ١ - أن جلد الزناة يثبت بالنصوص الصريحة التي لا شبهة فيها .
- ٢ - أن دين الفضيلة يحارب الرذيلة بعقوبة قاسية رادعة : لأن رذيلة الزنا تدفع إليها شهوة جامحة فلا بد أن تكون عقوبتها شديدة .
- ٣ - أن الإنسان الشهواني الذي يذوق عسيلة الرذيلة ويستطيبها يجب أن يعاقب بما يكون أشد إيلا ما لجسمه، كما أحس جسمه باللذة فيجب أن يوزع الجلد على جميع هذا الجسم ؛ ليكون الجزء من جنس العمل .

أضرار الزنا

تحدث الأطباء عن أضرار الزنا من الناحية الصحية فذكروا أنه سبب لكثير من الأمراض والأوبئة وهذا مصداق قوله ﷺ : « ما ظهرت الفاحشة في قوم يتعامل بها علانية ؛ إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فيمن قبلهم » . والطاعون : كل وباء فتاك ينخر في عظام الإنسان كما ينخر السوس في مادة الخشب .

الزهري

يقول الدكتور أحمد وصفي في كتابه (القرآن والطب) :

« الزهري : ثالث مرض في العالم يتسبب في إزهاق النفوس وتضييع الأرواح وينتشر في العالم انتشار فاحشة الزنا ، والإصابة به في لندن وحدها حوالي ١٠٪ وفي عاصمة فرنسا ١٥٪ من سكانها ولا يقل عدد المصابين به في القطر المصري ، عن المليونين .

هذا المرض يعدى بمجرد اللمس عن طريق الزنا أو بمجرد تقبيل المصاب لغيره أو ملامسته وتسببه جرثومة خاصة تسمى (الأسبيروشيت باليدا) وينقل الزهري بالوراثة إلى نسل المصابين به .

ويفتك الزهري بمخ الزاني فتكا ذريعا فتلتهب سحاباه خاصة جزء (الأم الجنون) وتصاب كذلك أوعيته الدموية التي تضيق حتى ينتهي الأمر بإفسادها .

السيلان

والسيلان : من الأمراض الفتاكة التي تسببها كذلك هذه الفاحشة ، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى: بالجونوكس ، وهو كثير فى مدن العالم .

وهو مرض فتاك يترك المصاب به فى حالة من الألم والمرض ، مما يعطل حركة ويشل تفكيره ويجعله عضواً أشل فى المجتمع .

إصابة المرأة :

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء : لا بد أن تصاب به هي الأخرى : لاستعدادها لقبول العدوى ، ولقابلية جهازها التناسلى لاستقبال جراثيمه المرضية ، فتفتك به ، وتعطل وظيفته ، إذا لم تفقدها تماماً .

إصابة الرجل :

ويصيب السيلان الرجل إصابات بالغة إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشد احمرارها ، وتصاب حوافها بالورم ، فتتقلب على نفسها ، وقد تتآكل أطرافها ، ثم يمتد الورم فى عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه .

وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها ، ولعل إصابة الحويصلات المتوية من أشد الإصابات وعن طريقها ينتقل المرض إلى الطرف الآخر .

أمراض أخرى

وهناك أمراض أخرى لا يستهان بها يصاب بها الزناة ، منها : القرحة الرخوة ، وجرب التناسل ، وسنط التناسل ، وقمل العانة ، وغير ذلك من الأوبئة الفتاكة التي تنتقل بالعدوى بين الزناة الملوئين^(٣٨) .

ولعل فيما نقلت مثلاً لبعض ما عناه تعالى فى قوله عن الزنا : **إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** (الإسراء : ٣٢).

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ﴿٣٣﴾

المضردات :

السلطان : التسلط والاستيلاء .

لا يسرف : أى : لا يتجاوز الحد المشروع فيه .

التفسير :

٣٣ - وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ...

أى : لا تقتلوا النفوس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق .

لقد كرم الله الإنسان : فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، وسخر له ما فى الكون وفضله على كثير من خلقه ، وحرم الله قتل الإنسان لأن الإنسان : بنيان الله ، أحكم الله بناءه وأودع فيه الروح ووهبه الحياة وحرم إزهاق روح الإنسان والعدوان على حياته ، وجعل القتل من الكبائر بل هو من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله .

وقد تكرر التحذير من الزنا فى القرآن أكثر من التحذير من القتل : لأن الأول تدفع إليه الشهوة والرغبة ، فتكرر التحذير منه ، أما الإقدام على القتل فلا يوجد إلا لأسباب خاصة ، وقد أباح الدين القتل فى ثلاثة مواضع :

١ - القصاص : أى : قتل النفس بالنفس .

٢ - الزانى المحصن ، فعقابه الرجم .

٣ - المرتد الذى ترك دين الإسلام ورجع عنه .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله عليه وسلم قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٣٨) .

فالإسلام شرع القصاص وجعله حياة للأمة والأفراد فقال سبحانه : وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ... (البقرة : ١٧٩) : لأن الإنسان إذا علم أنه إذا قتل عدوه أو خصمه سيقتل بسبب ذلك : كف عن هذا الاعتداء .

ولأن ولى المقتول إذا علم أنه سيؤخذ له بالثأر وستتكفل الدولة بالقصاص : هدأت نفسه وسكنت ثورته ؛ وإلا لاندفع أولياء المقتول فى قتال القاتل وأهله فى ثورة غضبهم ، والقصاص حياة ، لأن كل فرد يأمن على شخصه ويطمئن إلى عدالة القصاص فينتقل إلى عمله وانتاجه فإذا الأمة كلها فى حياة .

وأما الثيب الزانى ؛ فلأنه جحد بنعمة الله ، وترك زوجته الحلال وانطلق يفسد فى الأرض وينتهك الأعراس ويعرض النسل للقتل والضياح فاستحق القتل .

وأما المرتد فإنه يقتل ؛ لأنه اختار الإسلام برغبته ودخل فى جسم الجماعة المسلمة واطلع على أسرارها فخرجه بعد ذلك عليها فيه تهديد لها ولو بقى خارجها من أول الأمر ما أكرهه أحد على الإسلام ، بل لتكفل الإسلام بحمايته إن كان من أهل الكتاب ، وبإجارتته وإبلاغه بأمنه إن كان من المشركين ، وليس بعد ذلك سماحة للمخالفين فى العقيدة .

والحديث النبوى بتمامه تفسير لقوله تعالى : **إِلَّا بِالْحَقِّ** ، فقد حدد الحالات الثلاث التى يكون فيها القتل بالحق أى : بالعدل .

قال النيسابورى فى تفسيره : ثم إنه دلت آية أخرى على حصول سبب رابع وهو قوله : **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ...** الآية . (المائدة : ٣٣) .

وقد أبدى الفقهاء أسبابا أخرى منها : أن تارك الصلاة يقتل عند الشافعى دون أبى حنيفة وكذا اللائط، ومنها : الساحر إذا قال : قتلنا فلانا بسحرى ، وجوز بعضهم قتل من يمنع الزكاة .

والذين منعوا القتل فى هذه الصور قالوا : الأصل حرمة القتل كما بيناه فلا يترك هذا الدليل إلا لمعارض أقوى لا أقل من المساوى وهو النص المتواتر ^(٨٠) .

وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا أى : ومن قتل بغير حق يوجب قتله ، جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسليطا واستيلاء على القاتل بمواخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه وإما الدية لقوله تعالى : **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ...** الآية (البقرة : ١٧٨) . ولقوله عليه السلام يوم الفتح : «من قتل قتيلا فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية» ^(٨١) .

فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ . أى : فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كان يقع فى الثأر الجاهلى الذى يؤخذ فيه الآباء والإخوة والأبناء والأقارب بغير ذنب إلا أنهم من أسرة القاتل ، ويكون الإسراف كذلك بالتمثيل بالقاتل والولى مسلط على دمه بلا مثله والرسول قد نهى عنها .

إِنَّهٗ كَانَ مُصَوِّرًا . أَيْ : إن الله نصر الولي بأن أوجب له القصاص وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ماوراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : أن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفى الآخرة بتكفير خطاياهم وإيجاب النار لقاتله ^(٨٢) .

وهذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ؛ لأنها مكية ^(٨٣) .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ
كَانَ مَسْئُولًا﴾

المفردات :

اليتيم : اسم يطلق على من فقد والده صغيرا ويظل الاسم يطلق عليه بعد بلوغه وكان صلى الله عليه وسلم يسمى : يتيم أبى طالب ، واليتامى : جمع يتيم ذكرا كان أم أنثى ، أما الأيتام فجمع للذكرا فقط .

التي هي أحسن : أى : الطريق التى هي أحسن .

العهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده .

التفسير :

٣٤ - وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هي أحسن الطرق وهى طريق حفظه وتثمينه بما يزيد فيه ؛ حتى تستحكم قوة عقله وشبابه وإن ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطون اليتامى فى طعام ولا غيره فأنزل الله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَتْلُمُ الظَّالِمِينَ... (البقرة : ٢٢٠) . فكانت لهم فيها رخصة فى المخالطة إذا كان الولي صادق النية فى مخالطة اليتيم لمواساته وتعويضه عن أبيه ورعاية ماله وتثمينه .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة النساء : وَأَقْبِلُوا لِيَتِمَّ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ... (النساء : ٦) .

ومدلولها: أنه يجب على الولي أن يختبر اليتيم بالتدريب العملي بعد التدريب النظري فتطلب منه أن يمسك حساب البيت أو يشتري لوازم الأسرة فإذا بلغ الحلم وأنست فيه الرشد وحسن التصرف: سلمت إليه ماله وقد نهى القرآن عن أكل مال اليتيم، كما نهى عن تبديده والإنفاق منه بالإسراف والتبذير قبل أن يكبر اليتيم ويسترد ماله.

والوصى على اليتيم له أن يأخذ من مال اليتيم بمقدار ما يبذل له من رعاية وتثمين فإن كان الوصى غنيا: فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم وإن كان فقيراً: أخذ ما يكفيه بالمعروف: إذ كان الوصى يقوم برعاية المال كان يكون محاسباً أو وكيلاً أو راعياً فيقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم.

ولعلنا شاهدنا أن أحسن ما فسر القرآن هو القرآن وإن تناولنا للآية في موضوع اليتامي يحتم علينا أن نحيط بأهداف القرآن الكلية في معالجته للموضوع، والنظر إلى الفكرة ككل وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه.

فإذا ضمت الآيات التي تحدثت عن اليتامي في القرآن مثل الواردة في صدر سورة النساء^(١) وغيرها من السور خرجنا بحقيقة ظاهرة، وهي أن القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر كمحمد بل هو كلام الله الخبير بالنفوس فهو ينهى عن أكل مال اليتيم ويأمر بمخالطته بالتى هي أحسن ويرد ماله إليه عند بلوغه سن الرشد كما يتوعد أكل مال اليتيم بالعذاب والسعير ويخوفه من صورة رهيبة، هي أنه من المحتمل أن يترك أولاده صغاراً ويمتنى ألا يتعرضوا للإذلال والامتهان والحرمان فليرفق بمن تحت يده من اليتامى وليحسن معاملتهم.

تفنيذ فريية :

يقول بعض الغربيين ومن سار في طريقهم: إن التشريع الإسلامى قد أخذ عن التشريع الرومانى وهذه دعوى باطلة لما يأتى :

١ - التشريع الرومانى مأخوذ عن الألواح الاثنى عشر والتشريع الرومانى فى سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونهُ وكان يرجع إليه كقانون وأحياناً كان يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون، فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشريعة نزلت كاملة شاملة.

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم وإفاضته القول فى الوصية به، فالقانون الرومانى كان يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد، بينما القانون الإسلامى على النقيض من ذلك كله توصية باليتيم وتحذير من أكل ماله بشتى الطرق ولم يجعل للوصى الحق فى أخذ شىء من المال إلا أن كان فقيراً فليأكل بالمعروف.

وقد شدد الإسلام في أمره بحفظ مال اليتيم ، وأمر برعايته وتثمين ماله ، وحرم أكل ماله ظلماً وعدواناً، وذلك لأن اليتيم ضعيف عن الذود عنه ، والجماعة الإسلامية مكلفة برعاية اليتيم وماله حتى يبلغ أشده ويرشد ويستطيع أن يدبر ماله وأن يدافع عنه ، وهذه حجة أخرى على المستشرقين إذ يقولون : إن القرآن لم يعن بالصغار فكل تعاليمه موجهة إلى الرجال .

وقد تحدث أبو حامد الغزالي في كتابه : (إحياء علوم الدين) عن تربية الأطفال وتعودهم العادات الحسنة وأمرهم بالصلاة ومكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إليهم وغير ذلك مما يعد نموذجاً رفيعاً لأساليب التربية في الإسلام .

ومما نلاحظه على الأوامر والنواهي الواردة في هذه السورة أن الأمور التي يكلف كل فرد بصفته الفردية جاء الأمر أو النهي فيها بصيغة المفرد ، أما الأمور التي تناط بالجماعة فقد جاء الأمر أو النهي فيها بصيغة الجمع .

ففي الإحسان إلى الوالدين وإيتاء ذى القربى والمسكين وابن السبيل وعدم التبذير والتوسط في الإنفاق بين البخل والإسراف ، وفي التثبت من الحق والنهي عن الخيلاء والكبر كان الأمر أو النهي بصيغة المفرد لما لها من صيغة فردية ، وفي النهي عن قتل الأولاد وعن الزنا وعن قتل النفس ، والأمر برعاية مال اليتيم والوفاء بالعهد ، وإيفاء الكيل والميزان كان الأمر أو النهي بصيغة الجمع لما لها من صفة جماعية .

ومن ثم جاء النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن فى صيغة الجمع ؛ لتكون الجماعة كلها مسئولة عن اليتيم وماله ، وهذا يبرر عناية القرآن باليتيم والضعيف ومسئولية الجماعة الإسلامية عن هؤلاء وأمثالهم .

فالمسلمون أشبه بالجسد الواحد أو بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

ولأن رعاية اليتيم عهد على الجماعة ألحق به الأمر بالوفاء بالعهد إطلاقاً فقال سبحانه : **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا** .

أى : أوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها .

قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل فى ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم وبعض . والوفاء به : القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . يسأل الله جل جلاله عن الوفاء بالعهد ويحاسب من ينكث به وينقضه .

وقد أكد الإسلام على الوفاء بالعهد وشدد : لأن هذا الوفاء مناط الاستقامة والثقة والنظافة فى ضمير الفرد وفى حياة الجماعة وقد تكرر الحديث عن الوفاء بالعهد فى صور شتى فى القرآن وفى الحديث النبوى سواء فى ذلك عهد الله وعهد الناس ، عهد الفرد وعهد الجماعة وعهد الدولة ، عهد الحاكم وعهد المحكوم ، وبلغ الإسلام فى واقعه التاريخى شأوا بعيدا فى الوفاء بالعهد لم تبلغه البشرية إلا فى ظل الإسلام .

★ ★ ★

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

المضردات :

وأوفوا الكيل ، أتموه .

القسطاس المستقيم : الميزان السوى .

تأويلا ، مآلا .

التفسير :

٣٥- وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُنْتُمْ ...

أى : أتموه إذا كنتم لغيركم ولا تبخسوه .

وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . أى : بالميزان السوى بلا اعوجاج ولا خديعة ذَلِكَ خَيْرٌ أى : لكم فى معاشكم لإقبال المشترين عليكم ولا انتظام أموركم بالعدل ، وإيفاء الحقوق أربابها وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أى : عاقبة ومآلا ، إذ ليس معه مظلمة يطالب بها يوم القيامة .

وكثير من الفقراء الذين اشتبهوا بالأمانة والبعد عن الخيانة : أقبلت عليهم الدنيا وجمعوا بين الثروة والغنى وبين مرضاه الله وطاعته .

روى ابن كثير فى تفسيره : أن النبى ﷺ قال : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به : إلا مخافة الله : إلا أبدله الله به فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » .

وقد شدد القرآن فى التحذير من تطغيف الكيل وتوعد فاعله بالعذاب الشديد فقال تعالى : وَيُلْكَمُ الْمُطْغَفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . (المطففين : ١ - ٣) .

وذكر النبى ﷺ : « أن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا إلا من عدل فى الكيل والتزم الأمانة وابتعد عن الغش »^(١٤) كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم « أن التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين »^(١٥) : لأن الشيطان يأتى له من ناحية الكيل والبيع والغش وإغلاء الأسعار .

ونظرا لأن الناس جميعا محتاجون إلى المعامضات والبيع والشراء ؛ فقد بالغ الشارع في النهي عن الغش في البيع والشراء وحذر منه وتوعد فاعله بأشد العقاب ؛ سعيا في إيقاء الأموال لأربابها . قال ﷺ : « من غشنا فليس منا » ^(٨٧) .

ثم إن الطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس ، وغش وخيانة في التعامل تزعزع بهما الثقة ويتبعهما الكساد ، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة فيرتد هذا على الأفراد ، وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف ^(٨٨) وهو كسب ظاهرى ووقتى ؛ لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين .

وهذه حقيقة أدركها بعيدو النظر في عالم التجارة فاتبعوها ، ولم يكن الدافع الأخلاقي أو الحافظ الديني هو الباعث عليها ، بل مجرد إدراكها في واقع السوق بالتجربة العملية .

والفارق بين من يلتزم إيفاء الكيل والميزان تجارة ومن يلتزمه اعتقادا ، أن هذا يحقق أهداف ذلك ، ويزيد عليه نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملى إلى آفاق أعلى من الأض ، وأوسع في تصور الحياة وتذوقها وهكذا يحقق الإسلام دائما أهداف الحياة العملية وهو ماض في طريقه إلى أفاقه الوضيئة وأمامه البعيدة ومجالاته الرحبية .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣٦)

المفردات :

ولا تقف : أى : لا تتبع من قولك : قفوت فلانا أى : اتبعت أثره ومنه قافية الشعر ؛ لأنها تقفو كل بيت ، والقبيلة المشهورة بالقافة ؛ لأنهم يتبعون آثار أقدام الناس ويستدلون بها على أحوالهم فى النسب .

التفسير :

٣٦- وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ...

والمراد : النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم به ، وهذه قضية كلية ولكن المفسرين حملوها على صور مخصوصة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأيت عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لا تقل : سمعت ولم تسمع ، ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم .

(ج) وقيل : المراد : النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال تعالى : **أَجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** . (الحجرات : ١٢) .

وفى الحديث «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» وفى سنن أبى داود : (بئس مطية الرجل زعموا).

(د) وقيل : المراد : نهى المشركين عن تقليد أسلافهم فى الإلهيات والذنوب والتحليل والتحریم : اتباعا للهوى وتقليدا للآباء بدون تثبت من صوابه أو خطئه كما قال تعالى : **إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ** . (النجم : ٢٣) .

هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَّا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ (الأنعام : ١٤٨) .

(هـ) وقيل : القفو هو : البهت وهو فى معنى الغيبة ؛ لأنه قول يقال فى قفاه أى : خلف ظهره ، ومن ورائه . ومنه الحديث «من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله فى ردة»^(٨٧) الخبال حتى يأتى بالمرج .

(و) أراد النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالأكاذيب وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها فى الهجاء^(٨٨) .

قال الطبرى :

وأولى الآراء فى ذلك بالصواب قول من قال : معنى ذلك : لا تقل للناس وفيهم ما لا علم لك به فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق فذلك هو القفو ، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب ؛ لأن ذلك هو الغالب من استعمال العرب القفو فيه ، وأما قوله : **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ** . فإن معناه : أن الله سائل هذه الأعضاء عما قال صاحبها من أنه سمع أو أبصر أو علم ، تشهد عليه جوارحه عند ذلك بالحق . ا هـ .

وقريب من ذلك قوله سبحانه : **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** . (النور : ٢٤) وقد وردت الآثار من القرآن والسنة تحت المؤمن على التثبت فى أقواله وأحكامه واستقرانه ؛ حتى يكون قوله صادقا وحكمه سليما ورأيه صوابا .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** . (الحجرات : ١٢) .

وقال سبحانه : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا** ... (الحجرات : ٦) .

وفى الحديث : «أن أفرى الغرى^(٩١) أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا»^(٩٢) .

وفى الصحيح : «من تحلم^(٩٣) كلما : كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بفاعل»^(٩٤) .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾^(٩٥)

المفردات :

المــــرح : الفخر والكبر .

لن تـخـرق الأرض : لن تقطع الأرض ولن تجعل فيها خرقا وثقبا باختيالك وشدة وطأتك .

لن تبلغ الجبال طولا^(٩٦) : أى : بتمامك وفخرك وإعجابك بنفسك .

التفسير :

٣٧ - وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ... الآية .

قال النيسابورى : بين الله ضعف آدمى بأنه فى حال انخفاضه لا يقدر على خرق الأرض وفى حال ارتفاعه لا يقدر على الوصول إلى رموس الجبال فلا يليق به أن يتكبر^(٩٧) .

والإنسان حين يخلو قلبه من الشعور بالخالق القاهر فوق عبادته : تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو سلطان أو جمال . ولو تذكر أن ما به من نعمة فمن الله ، وأنه ضعيف أمام حول الله : لطامن من كبريائه وخفف من خيلائه . ومشى على الأرض هونا لا تيها ولا مرحا .

والقرآن هنا يجبه المتطاول المختال المرح ، يضعفه وعجزه وضآلته فالإنسان بجسمه ضئيل هزيل ، لا يبلغ شيئا من الأجسام الضخمة التى خلقها الله ، إنما هو قوى بقوة الله ، عزيز بعزة الله ، كريم بروحه الذى نفخه الله فيه : ليتصل به ويراقبه ولا ينساه .

ذلك التظامن والتواضع الذى يدعو إليه القرآن يذم المرح والخيلاء أدب مع الله ، وأدب مع الناس ، أدب نفسى وأدب اجتماعى .

ومن ترك هذا الأدب إلى العجب والخيلاء : عامله الله بنقيض قصده : فجعله صغيرا عند الناس ، صغيرا عند الله .

وفى الأثر يقول الله عز وجل : «يا داود ، من تواضع لى هكذا ، رفعته هكذا ، ومن تكبر على هكذا وضعت هكذا» .

وما أشبه المتكبر بالرجل فوق النخلة العالية أو الجبل المرتفع يرى الناس صغارا ، وهم يرونه صغيرا .

وكان من دعاء السابقين : اللهم ، اجعلنى عند نفسى صغيرا وعند الناس كبيرا .

وفى الصحيح : «بينما رجل يمشى فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٩٧) .

وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض .

وفى الحديث : (من تواضع لله : رفعه الله فهو فى نفسه حقيير وعند الناس كبير ، ومن استكبر : وضعه الله فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقيير) (٩٨) .

★ ★ ★

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (٢٨)

التفسير :

٣٨ - كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

أى : كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي ، وهى الخمس والعشرون (٩٩) السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها - من الجعل مع الله إلها آخر ، وعبادة غيره ، من التأفف من الوالدين والبخل والتبذير وقتل الأولاد خشية الإملاق والزنا وقتل النفس وأكل مال اليتيم ، وتطفيف الكيل والميزان واتهام الناس بالزور والبهتان والتكبر والخيلاء ؛ مكروها عند ربك أى : مبغوضا عنده لا يرضى عنه .

أما من قرأ سيئه أى : فاحشة فمعناه عنده : كل هذا الذى نهينا عنه ، من قوله : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِبْلَاقٍ . إلى هنا فهو سيئه مؤاخذه عليها مكروها عند الله لا يحبه ولا يرضاه .

وأما من قرأ سيئه على الإضافة فمعناه عنده كل هذا الذى ذكرناه من قوله : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . إلى هنا فسيئه أى : فحببه مكروه عند الله فيكون هذا تلخيصا وتذكيرا بمرجع الأمر والنهى وهو كراهية الله للشيئ من تلك الأمور ، وقد سكت عن الحسن المأمور به ؛ لأن النهى عن الشيء هو الغالب فيها (١٠٠) .

قال المهايى : أما الشرك فلاخلاله بالكمال المطلق الذى لا يتصور مع الشرك ، وأما عبادة الغير فلما فيها من تعظيمه ، المخصوص بذى الكمال المطلق فهو معنى الشرك ، وأما العقوق فلأنه كفران نعمة الأبوين فى التربية أحوج ما يكون المرء إليها ، ومنع الحقوق بالبخل تفريط ، والتبذير والبسط إفراط وهما مذمومان ، والمذموم مكروه .

والقتل يمنع الحكمة من بلوغها إلى كمالها ، والزنا وإتلاف مال اليتيم في معناه ، ونقص العهد مخل بنظام العالم وكذا اقتفاء مالا يعلم . والتكبر من خواص الحق وعادة الملوك كرامة أن يأخذ أحد من خواصه شيئا^(٢٠) .

★ ★ ★

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلَنَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (٣٩)

المفردات :

الحكمة : هي القرآن ، أو الحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، فالتوحيد رأس الحكمة النظرية ، ومكارم الأخلاق هي الحكمة العملية .

المدحور : المبعد من رحمة الله .

التفسير :

٣٩ - ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ...

أى : هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسرارها ومن الحكم فى تشريعه . أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا : لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . . الآيات .

فهذه خمس عشرة آية قد اشتملت على خمس وعشرين تكليفا جمعت أصول مكارم الأخلاق ، وأساس الفضائل .

وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَلَنَقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا .

لقد بدأ هذه المجموعة من الآيات الأمر بالتوحيد وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . ثم جاء الختام محذرا من الشرك ، داعيا إلى التوحيد فعقيدة التوحيد هي الأساس فى امتثال الأوامر والنواهي وهي رأس الحكمة وهي مبدأ الأمر ومنتهاه .

مَلُومًا تلوم نفسك أى : واقعا فى اللوم مَذْحُورًا مبعدا مطرودا من رحمة الله .

ملاحظة :

بدأ هذه المجموعة من الآيات (٢٢ - ٣٩) بقوله تعالى :

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا . (٢٢) ، وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣) .

فذكرت عاقبة الشرك في الدنيا وهي أن يقعد المشرك مذموماً مخذولاً أي : واقعاً في الذم والخذلان والهزيمة .

ثم ذكرت خاتمة الآيات عاقبة المشرك في الآخرة وهي أن يلقى في جهنم ملوماً مذخوراً (آية ٣٩) .

أي : ملموماً من جهة نفسه ، ومن جهة غيره ومبعداً من رحمة الله . وبين البداية والخاتمة ، دعوة إلى مكارم الأخلاق وتحذير من الكبائر والرذائل ، والخطاب هنا إما موجه إلى الإنسان عامة ، أو إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من باب قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

هدانا الله إلى حكمة القرآن ووقفنا إلى الهدى ومكارم الأخلاق وأمدنا بالنصر والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★

أخلاق القرآن

إن هذه المبادئ والوصايا التي ذكرت في سورة الإسراء في أسلوب حكيم أخذت تعتبر دستوراً أخلاقياً للجماعة الإسلامية بل هي شعار إنساني للإنسانية الفاضلة .

وقد كان التمسك بهذه الأخلاق سبباً في تماسك الأمة الإسلامية وتربطها وعاملاً من عوامل رقيها وانتصارها ، وأحرى بالمسلمين اليوم أن يتمسكوا بهدى القرآن وأخلاق القرآن ؛ ليعود إليهم مجدهم وعزهم بعد أن تعود إليهم أخلاقهم وشيمهم .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .

وإن عناية القرآن بالترقية والفضيلة فاقت كل عناية ، وكان القرآن مأدبة الله أقبل عليها المسلمون فنفذوا أوامر القرآن ، وأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه ، وعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ؛ فصاروا قرآناً متحركاً ، وجاء في وصفهم على لسان مارية القبطية التي كتبت للمقوقس تقول له :

(إن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد ، وهم النور الجديد . ونبيهم أظهر من السحابة البيضاء في اليوم الصائف . وإذا رفعوا السيف رفعوه بقانون ، وإذا وضعوا السيف وضعوه بقانون يفتحون البلاد بأخلاقهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم . وإذا جاء وقت الصلاة ؛ غسّلوا أطرافهم ووقفوا في محرابهم يناجون إلهاً سميعاً مجيباً) .

وإن رسائل الأنبياء كلها كانت دعوات هادفة لإرساء معالم الفضيلة والدعوة إلى الأخلاق السامية والسلوك المستقيم قال ﷺ : «إنما بعثت لأتّم مكارم الأخلاق» (١٠٧) .

وبين الدين: أن أحب الرجال إلى الله هو السهل الهين الذي يألف ويؤلف وأبغض الرجال إلى الله هو الرجل الجحظري الغليظ القلب الذي لا يألف ولا يؤلف ، قال ﷺ: «إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منازل يوم القيامة : الثرثارون المتشدقون المتفيهقون قلنا : يا رسول الله ، هؤلاء الثرثارون المتشدقون ، فمن هم المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون»^(١٠٢).

إن أخلاق الإسلام هي أخلاق الفطرة السليمة والنفس المستقيمة ؛ رغبة في الخير ؛ ومعونة للمحتاج ، ورحمة بالضعيف ، وعمل إنساني من أجل الجماعة ، وكف الضر والإيذاء عن الناس .

وقد جاء في الحديث :

«المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر سوءه واجتنبه» .

وقال رجل : يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً أقل فيه لعلى أعيه ؛ فقال له النبي ﷺ :

«قل آمنت بالله ثم استقم» .

وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم :

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۚ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُم فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۗ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢)

ولما أتى النبي ﷺ بسبأيا طيء ، وقفت من بينهم (سفانة) بنت حاتم الطائي ، وقالت : يا محمد ، إن رأيت أن تخلني عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فعلت ؛ فإن أبى كان سيد قومه ؛ يفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد فى حاجة فردة خائبا ، أنا بنت حاتم الطائي ؛ فقال محمد عليه السلام : «يا جارية هذه صفات المؤمنين فلو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها ؛ فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق !» ثم قال : «ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنيا افتقر ، وعالما ضاع بين جهال» وأكرم قومه من أجلها ؛ تحية لها ، فأطلقهم من أسارهم فاستأنذته فى الدعاء له فأذن لها ، فقالت :

«أصاب الله برك موافقه ، ولا جعل لك إلى لقيم حاجة ، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا جعلك سببا

فى ردها عليه» .

وذهبت سفانة إلى أخيها عدى بن حاتم فقالت له : يا أخى ، ائت هذا الرجل قبل أن تعلق حباله (تأتيه مقيدا) فإنى رأيت هديا ورأيا ، سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالا أعجبتنى : رأيتُه يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، إنه لنبى فليسابق إليه فضله .

فأصغى عدى إلى رأى أخته ، وقدم على رسول الله ﷺ مسلما ومعه أخته مسلمة أيضا .

إن قوة الإسلام الذاتية هي التي جمعت المسلمين ووحدت كلمتهم وبدفعهم ينشرون دين الله في المشرق والمغرب ، وصدق الله العظيم : **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰى هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** . (الإسراء : ٩) .

★ ★ ★

﴿۴۴﴾ أَفَأَصْفَكَ مُرَبِّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَانًا لَّنُكَلِّمُوكُلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿۴۵﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿۴۶﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُنْفَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿۴۷﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿۴۸﴾ تَسْبِيحٌ لِّهَاسْمَوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ كَلِيمًا غَفُورًا ﴿۴۹﴾

المفردات :

الإصفاء بالشئ : جعله خالصاً له .

صرفنا، بينا وكررنا هذا المعنى بوجوه كثيرة.

اليسذكروا، ليتدبروا ويتعضوا.

التنفسور: البعد من الشيء.

ابتغاء الشيء : طلبه .

السبيل : الطريق .

تسبح له ، تنزهه عن النقائص ، وتقديسه .

تفقهون: تفهمون.

المعنى الإجمالى :

بعد أن نبه سبحانه إلى خطأ من أثبتوا له شريكا ، واتخذوا له ندا ونظيرا أتبع ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من سفاهتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم ، وأعطوا الله البنات مع علمهم بأن الله موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، ثم أتبع ذلك ببيان : أنه قد كرر هذا المعنى فى القرآن على وجوه كثيرة ؛ ليعتبروا ويتدبروا ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وبعدا عنه .

قل يا محمد لهم : لو كان مع الله آلهة كما يزعمون ؛ لطلبوا إلى ذى العرش سبيلا ؛ للتقرب إليه ، تقدس الله وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له وتقدس السماوات السبع والأرض ومن فيهن وما من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ؛ لإخلالكم بالنظر الصحيح أنه كان حليما حين لم يعاجلكم بالعقوبة ، غفورا لمن تاب منكم .

التفسير :

٤ - أَفَأَصْفُكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَتَّخِذُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ...

أى : أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد . وهو خطاب للمشركين الذين قالوا : الملائكة بنات الله . والهزمة للاستفهام الإنكارى .

قال الزمخشري فى الكشاف : والمعنى :

أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم الذكور ، ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه ، واتخذ أدونهم وهن البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم بل تندونهن وتقتلونهن ، فهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم «فإن العبيد لا يؤثرون بالأجود والأصفي والسادة بالأدنى والأردأ»^(١٠٠) .

وخلاصة ذلك : أنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا : أنهن بنات الله ثم عبدوهن ، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما ، ومن ثم قال :

إِنكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ، عَظِيمًا فِى شِنَاعَتِهِ وَبِشَاعَتِهِ ، عَظِيمًا فِى ضَخَامَةِ الْاِفْتِرَاءِ فِيهِ ، عَظِيمًا فِى خُرُوجِهِ عَنِ التَّصَوُّرِ وَالتَّصَدِيقِ .

٤١ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ لِتَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا .

أى : كررنا للناس البيان بوجوه كثيرة ، وبيننا فيه : من كل مثل ؛ لِيَذَكَّرُوا أى : ليتعظوا ويعتبروا فيقفوا على بطلان ما يقولون - فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس - ولكنهم يزيدون نفورا كلما سمعوا

هذا القرآن . نفورا من العقيدة التي جاء بها ، ونفورا من القرآن ذاته خيفة أن يغلبهم على عقائدهم الباطلة التي يستمسكون بها .

٤٢- قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا .

لَوْ - كما يقول النحاة - حرف امتناع لامتناع ، فالقضية كلها ممتنعة ، وليس هناك آلهة مع الله - كما يقولون - والآلهة التي يدعونها إن هى إلا خلق من خلق الله سواء كانت نجما أو كوكبا ، إنسانا أو حيوانا ، نباتا أو جمادا . وهذه كلها تتجه إلى الخالق حسب ناموس الفطرة الكونية ، وتخضع للإرادة التي تحكمها وتصرفها ، وتجد طريقها إلى الله عن طريق خضوعها لناموسه وتلبيتها لإرادته .

وذكر الطبرى وابن كثير : أن معنى هذه الآية :

قل لهؤلاء المشركين - الزاعمين أن الله شركاء من خلقه ، العابدين معه غيره : ليقربهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد : لتقرب إليه وتشفع لديه ، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون الزلفى والطاعة لديه ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبدونه من تدعوته من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه : فإن الله لا يحب ذلك ولا يرضاه بل يكرهه ويأباه وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه .

٤٣- سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

تنزه الله وتسامى وارتفع عن الولد والشريك تنزها حقيقيا به عُلُوًّا كَبِيرًا أى : تعاظم عن ذلك تعاظما كبيرا . فإن مثل هذه الغرية والبهتان ، مما يقتنزه عنه مقامه الأسمى .

٤٤- تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا .

أى : إن السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتدل بإتقان صنعها على تنزيهه الله سبحانه عن كل نقص وأنه لا شريك له ، وما من شئ من المخلوقات فى ملكه الواسع إلا ينزهه كذلك مع الفناء ، ولكن الكافرين لا يفهمون هذه الأدلة : لاستيلاء الغفلة على قلوبهم وكان الله خَلِيمًا عليهم ، غَفُورًا لمن تاب فلم يعاجلهم بالعقوبة .

والآية تدل على أن الأشياء كلها تسبح لله وتسجد له ، بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار .

السوقر، الصمم والثقل فى الأذان المانع من السماع .

النفور، الانزعاج .

مسحوراء، أى : مخبول العقل ، فهو كقولهم : إِنَّهُ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ (المؤمنون : ٢٥) .

فضلوا، أى : جازوا عن قصد السبيل .

المعنى الإجمالى :

وإذا قرأت أيها النبى القرآن الناطق بدلائل الحق : جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء حين إرادة الفتك بك ، حجابا ساترا لك عنهم فلا يرونك ، وجعلنا بمقتضى حكمتنا فى الإضلال والهداية على قلوبهم أغطية : كراهة أن يفهموا القرآن على حقيقته ، وفى آذانهم صمما ، فلا يسمعون سماع انتفاع ؛ لأنهم أسرفوا فى العناد والمكابرة ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن منفردا عن ذكر آلهم ، رجعوا على أعقابهم نافرين عن استماعه .

نحن أعلم بالسبب الذى يدعوهم للاستماع إليك ، وهو الاستهزاء بك وبالقرآن ، ونحن أعلم أيضا إذ هم يتناجون ، إذ يقول الظالمون لغيرهم : إن اتبعتم محمدا فإنما تتبعون رجلا مسحورا قد ذهب عقله .

انظر كيف ذكروا لك الأشباه فشبهوك بالمسحور والكاهن والشاعر ، فضلوا بذلك عن الهدى فلا يجدون طريقا إليه .

التفسير :

٤٥، ٤٦ - وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَعْقَابِهِمْ نُفُورًا .

كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن ، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له ، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا خفيا ، وجعل على قلوبهم كالأغلفة فلا تفقه القرآن ، وجعل فى آذانهم كالصمم فلا تعى ما فيه من توجيه .

وقد روى ابن إسحاق فى السيرة : عن محمد بن مسلم بن شهاب عن الزهرى : أنه حدث : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ؛ ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته ، فأخذ كل واحد منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، حتى إذا جمعتهم الطريق تلاموا ، فقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم : لأوقعتم فى أنفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا

كانت الليلة الثانية : عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قاله أول مرة ، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الثالثة : أخذ كل رجل مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد : لا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا . فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا الذى حلفت به . قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء : فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

فهكذا كان القوم تتأثر بالقرآن قلوبهم فيصدونها ، وتجاهلهم إليه نفوسهم فيمانعونها ، فجعل الله بينهم وبين الرسول حجاباً خفياً لا يظهر للعيون ولكن تحسه القلوب ، فإذا هم لا ينتفعون به ، ولا يهتمون بالقرآن الذى يتلوهم ، وهكذا كانوا يتناجون بما أصاب قلوبهم من القرآن ، ثم يتأمرون على عدم الاستماع إليه ، ثم يغلبهم التأثير به فيعودون ، ثم يتناجون من جديد حتى ليتعاهدوا على عدم العودة ؛ ليحجزوا أنفسهم عن هذا القرآن المؤثر الجذاب الذى يخلب القلوب والألباب ؛ ذلك أن عقيدة التوحيد التى يدور عليها هذا القرآن كانت تهدمهم فى مكانتهم وفى امتيازاتهم وفى كبرياتهم فينفرون منها .

ولقد كانت الفطرة تدفعهم إلى التسمع والتأثر ، والكبرياء يمنعه من التسليم والإنعان ، فيطلقون التهم على الرسول ﷺ يعتذرون بها عن المكابرة والعناد .

٤٧ - نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَبُحُّونَ إِلَّا رَجُلًا مِّنْهُمْ سَخِرُوا .

أى : نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزة والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارون ، إذ يقول الظالمون إن تبحون إلا رجلاً منهم سَخِرُوا . أى : سحر فجن واختلط كلامه .

وهذه الكلمة ذاتها تحمل فى ثناياها دليل تأثرهم بالقرآن ، فهم يستكثرون فى دخيلتهم أن يكون هذا قول بشر ؛ لأنهم يحسون فيه شيئاً غير بشرى ، ويحسون ديبه الخفى فى مشاعرهم فينسبون قائله إلى

السحر يرجعون إليه هذه الغرابة في قوله وهذا التميز في حديثه ، وهذا التفوق في نظمه ، فمحمد إذن لا ينطق عن نفسه ، إنما ينطق عن السحر بقوة غير قوة البشر ولو أنصفوا لقالوا : إنه من عند الله ، فما يمكن أن يقول هذا إنسان ولا خلق آخر من خلق الله .

٤٨- أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

أى : تأمل وانظر أيها الرسول كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا : هو مسحور وهو شاعر مجنون ، فحادوا في كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق ؛ لضلالهم عنه ويعدمهم منه . أو المعنى : فلا يستطيعون سبيلا إلى طعن يمكن أن يقبله أحد بل يخطبون بما لا يرتاب في بطلانه أحد ، كالمتهجير في أمره لا يدرى ماذا يصنع .

★ ★ ★

﴿ وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفْنَا آءِذَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٤٩) ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (٥٠) ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (٥١) ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٥٢) ﴿

المشردات :

الرفات ، ما تكسر ويلى من كل شيء .

يكبر في صدوركم ، أى : يستبعد قبوله للحياة .

فطركم ، أى : خلقكم وأوجدكم ، يقال : فطرمه يفطرمه فطرا ، أى : خلقهم .

سينفضون إليك رؤوسهم ، أى : فسبحركون رؤوسهم ؛ تعجبا وسخرية .

فتستجيبون ، أى : تجيبون الداعى .

إن لبثتم ، أى : ما لبثتم .

المعنى الإجمالى :

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم هى : الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما

لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه ثم ذكر في هذه الآيات : شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف : لأيقن بصدق ما يقال .

التفسير :

٤٩- وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

أى : وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أنذا كنا عظاما فى قبورنا ، لم تتحطم ولم تتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا منكسرة مدقوقة ، أننا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها ، وقد بلىنا فتكسرت عظامنا ، وتقطعت أوصالنا : خلقا جديدا كما كنا قبل الممات.

ومثل الآية قوله تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ زَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس ٧٨ ، ٧٩) .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ، ويعرفهم قدرة الله على بعثهم بعد مماتهم فقال سبحانه :

٥٠، ٥١- قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ...

والعظام والرفات فيها رائحة البشيرة وفيها ذكرى الحياة ، والحديد والحجارة أبعد عن الحياة فيقال لهم : كونوا حجارة أو حديدا ، أو خلقا أوغل فى البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر فى صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة : فسيبعثكم الله .

وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدى وفيه كذلك ظل التوبيخ والتقريع.

(فهو كقول القائل : أتلطمع فى وأنا فلان ؟ فيقول له صاحبه : كن ابن من شئت ، كن ابن الوزير فسأطلب منك حقى) (١٠٧) .

فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا .

من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما أو خلقا آخر أشد إغلا فى الموت والخمود ؟

قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

أى : الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم ، الذى خلقكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولا منهاج معين يتنحى ، وكنتم ترابا لم يشم رائحة الحياة ، فالذى أنشأهم إنشاءً قادر على أن يردهم أحياء ولكنهم لا ينتفعون بهذا القول ولا يقتنعون به .

فَسَيُعْطُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ . سيجركون رؤوسهم برفع وخفض استنكارا واستهزاء .

وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ . أى : متى هذا البعث ؟ ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله واستنكاره .

قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . أى : فاحذروا ذلك ، فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل أت قريب .

ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم .

٥٢- يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِخَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا .

وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له ، وقد قاموا يليون دعوة الداع ، وأستنتهم تلج

بحمد الله ، ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب .

وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون يوم البعث كله وينكرون الله ، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا:

الحمد لله ، الحمد لله .

ويومئذ تنطوى الحياة الدنيا كما ينطوى الظل :

وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا . أى : وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم ما أقمتم فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ومثل الآية قوله تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . (الروم : ٥٥) :

قال الحسن : المراد : تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن ، وبالأخرة ولم تزل .

★ ★ ★

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٦﴾ زُكِّرْكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات :

يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ : يهيج بينهم الشر ، النزغ لغة : الدخول فى الأمر لإفساده .

وَكَيْلًا ، أى : موكولا إليك أمرهم تجبرهم على الإيمان .

ذُبُرًا : الزبور كتاب داود عليه السلام ، والزبور لغة : الكتاب ، جمعه : زبور .

المعنى الإجمالى :

قل لعبادى يقولوا الكلمة التى هى أحسن ، وعليهم أن يجادلوا مخالفيهم بالدين ، ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبواهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع .

إن الشيطان يدخل بينهم فيهيح فيهم المراء والشر ، وربما أفضى ذلك إلى عنادهم وازدياد فسادهم إن الشيطان دائما عدو للإنسان بين العداوة ، فلا تصارحوهم بأنهم من أهل النار فإن ذلك يهيحهم على الشر ، ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ريكم العليم بكم إن شاء عذبتكم وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيح الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار ، والله هو العليم بمن فى السماوات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

التفسير :

٥٣- وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...

أى : قل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله تعالى : اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... (النحل : ١٢٥) ثم علل ذلك بقوله :

إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ . أى : بين الفريقين جميعا ؛ فيزداد الغضب وتتكامل النفرة ويمتنع حصول المقصود ^(١٠٨) .

ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ؛ فإن الشيطان ينزغ فى يده فريما أصابه بها . روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ولا يشرين أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار» ^(١٠٩) .

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا .

يتلمس سقطات فمه ، وعترات لسانه ، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ، والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات ، وتقطع عليه الطريق ، وتحفظ حرم الأخوة أمانا من نزغاته ونفثاته .

ثم فسر التي هي أحسن بما عليهم النصفة بقوله :

٥٤- رَبُّكُمْ أَغْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنَّ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ...

أى : ربكم أيها القوم هو العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم : بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح ؛ يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم ؛ بأن يخذلكم عن الإيمان ؛ فتموتوا على شرككم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيبرهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله - إلى أن ذلك مما يساعد على توليد الضغائن فى النفوس ، بلا فائدة ولا داع يدعو إليها ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ؛ ليكون من دونه أسوة له فقال :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا . أى : وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا ، تقصر الناس على ما يرضى الله ، إنما أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ، ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوئ الأفتدة .

٥٥- وَرَبُّكَ أَغْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا .

وَرَبُّكَ أَغْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

أى : فلا يخفى عليه شيء فيهما ، وعلمه يشمل من فى السماوات والأرض من ملائكة ورسول وإنس وجن وكائنات لا يعلم إلا الله ما هى ؟ وما قدرها ؟ وما درجتها ؟ .

وبهذا العلم المطلق بحقائق الخلائق ؛ فضل الله بعض النبيين على بعض .

وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ . بالمعجزات وكثرة التابعين ، (وفيه رد على أهل مكة فى إنكارهم أن يكون يتيم أبى طالب مفضلا على الخلائق ونبيا دون صناديد قريش وأكابرهم) (١١) .

وفى معنى الآية قوله تعالى : تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... (البقرة : ٢٥٣) .

فالله أعلم بمن فى السماوات والأرض وأحوالهم ، فأتى موسى التوراة وكلمه ، وعيسى الإنجيل ، وداود الزبور ، فضلهم بما آتاهم على غيرهم . وقد أتى محمدا القرآن فضله به على الأنبياء كافة .

ونجد في كتب العقائد : أن أولى العزم من الرسل خمسة هم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام وقد فضل الله هؤلاء الخمسة على بقية الأنبياء : لجهادهم وصبرهم وبلائهم في سبيل دعوة الحق والخير وأفضل هؤلاء الخمسة محمد ﷺ ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وهو نموذج من عطاء الله لأحد أنبيائه ، ومن مظاهر التفضيل أيضا : إذ كانت الكتب أبقي من الخوارق المادية التي يراها الناس في ظرف معين من الزمان .

وقد خص الله داود بالذكر للإشارة إلى أن داود عليه السلام لم يكن في نشأته الأولى ممن يظن أنه يبلغ ما بلغ في الحكمة والملك ، وقد اختصه الله بهما وميزه الله على أهل عصره وإن كان ذلك اختصاصا ربانيا : فلا غرابة أن يختص سبحانه من العرب من علم أنه أرجحهم عقلا ، وأكملهم فضلا : لخدمته ، وهداية بريته بمنهاجه وشرعته .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦ ﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ
 وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ٥٧ ﴿ ٥٧ ﴾ وَإِنْ مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا تَحْنُ مُهْلِكُوهَا
 قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٥٨ ﴿ ٥٨ ﴾
 وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا نَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً
 فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩ ﴿ ٥٩ ﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ
 وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاءَ الْآتِيَّ أَرْتِكَ إِلَّا لِفِتْنَةِ النَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُفُوهِمْ
 فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠ ﴿ ٦٠ ﴾

المضردات :

الزعم : (بتثنية الزاي) القول المشكوك في صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس :
 كل موضع في كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب .

لا يملكون ، لا يستطيعون .

كشف الضر، إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم .

يَدْعُونَ ، ينادون .

الْوَسِيلَةَ ، القرب بالطاعة والعبادة .

مَحْذُورًا ، يحذره ويحترس منه كل أحد .

الْكِتَابَ ، اللوح المحفوظ .

الْأَلْيَسَاتِ ، هي ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهباً .

مَبْصُورَةً ، بيئة جعلتهم ذوى بصائر .

هَظْلُمُوا بِهَا ، فكفروا بها وجدحوا .

إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، هم فى قبضته .

الرُّؤْيَا ، هي ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب .

الشجرة الملعونة ، هي شجرة الزقوم .

الطُغْيَانُ ، تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

المعنى الإجمالى :

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين ، الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيراً ؛ إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ؛ ليتقربوا إليه ، فيرجون رحمته ويخافون عذابه . ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى واغتنام الأموال وأخذ الجزية ثم أورد ذلك ببيان : أن ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ...** الآيات إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا ؛ لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كنزوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ؟! ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه ، وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك ، فإن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحاناً لإيمانهم .

التفسير :

٥٧، ٥٦- قُلْ أَذْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا .

أى : قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا من زعمتموهم أرباباً وآلهة من دونه،

عند ضرب ينزل بكم ، وانظروا هل يقدرّون على دفع ذلك عنكم ، أو تحويله عنكم إلى غيركم ، فتدعونهم : آلهة ؟ أى : فإنهم لا يقدرّون على ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

وروى الطبري : ^(١١١) عن ابن عباس : أن الآية عنى بها قوم مشركون ، كانوا يعبدون المسيح وعزيرا والملائكة ، وبعضهم كانوا يعبدون نفرا من الجن ، فأخبرهم الله تعالى : أن هؤلاء عبدة يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه بالأعمال .

فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله ، كما يتوجه إليه من تدعونهم : آلهة من دونه وهم عباد الله ، يبتغون رضاه . وفى قوله تعالى : وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ . إشارة إلى أن العبادة لا تتم إلا بالرجاء والخوف . فبالرجاء تكثر الطاعات ، وبالخوف تقل السيئات . وقوله تعالى : مَحْذُورًا أى : يبتغى أن يحذر منه ، ويخاف من حلوله .

٥٨- وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا .

أخبر الله : بأنه حتم وقضى ، أنه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم ، إلا ويبيدهم ، أو ينزل بهم من العذاب شديده ؛ وذلك لذنوبهم ، وخطيئاتهم ، وعدم استجابتهم لنبيهم .

كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا . أى : كان ذلك مثبتاً فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : ما أكتب ؟ قال : اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة» ^(١١٢) أخرجه الترمذى .

وقد كانت الخوارق تصاحب الرسالات ؛ لتصديق الرسل وتخويف الناس من عاقبة التكذيب وهى الهلاك بالعذاب ، فافتحرت قريش على النبي ﷺ أن يريهم بعض الآيات والمعجزات فأجابهم الله بقوله :

٥٩- وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ...

أى : أنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم ؛ لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هى سنتنا فى الأمم السابقة كعاد وثمود ، وقد قضى الله ألا يستأصل كفار . هذه الأمة ؛ لأن منهم من يؤمن أو يلد من يؤمن .

ولأن الله شاء أن تكون معجزة الإسلام هى القرآن وهو كتاب يرسم منهاجاً كاملاً للحياة ويخاطب الفكر والقلب ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به إلى يوم القيامة ، أما الخوارق المادية فهى تخاطب جيلاً واحداً من الناس ، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل .

والخلاصة : أنه ما منعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها ، فإن أرسلناها وكذب هؤلاء بها ؛ عوجلوا ولم يمهلوا .

روى الإمام أحمد ^(١١٧) عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا . ف قيل له : إن شئت أن نستأني بهم ؛ لعلنا نجتنبى منهم ، وإن شئت أن نؤتيهم الذى سألو ، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم .

قال : بل نستأني بهم فأنزل الله : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَآتَيْنَا مُوَدَّ الثَّاقَةِ مُبَصِّرَةٌ ...

وَعَآتَيْنَا مُوَدَّ الثَّاقَةِ مُبَصِّرَةٌ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا .

أى : وقد سألت ثمود من قبل قومك : الآيات فأتيناها ما سألت ، وجعلنا لها الناقة حجة واضحة ، دالة على وحدانية من خلقها ، فكفروا بها ، ومنعوها شربها وقتلوا ، فأبادهم الله وانتقم منهم .

وما كانت الآيات إلا إنذارا وتخويفاً بحتمية الهلاك بعد مجيء الآيات .

هذه التجارب البشرية ، اقتضت أن تجيء الرسالة الأخيرة غير مصحوبة بالخوارق ؛ لأنها رسالة الأجيال المقبلة جميعها ، لا رسالة جيل واحد يراها ، ولأنها رسالة الرشد البشرى ، تخاطب مدارك الإنسان جيلاً بعد جيل ، وتحترم إدراكه الذى تتميز به بشريته ، والذى من أجله كرمه الله على كثير من خلقه .

أما الخوارق التى وقعت للرسول ﷺ وأولها : خارقة الإسراء والمعراج ، فلم تتخذ معجزة مصدقة للرسالة إنما جعلت فتنة للناس وابتلاء .

٦٠ - وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرَّعْيَا الَّتِي أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ لِيُتْلَى الْقُرْآنَ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ . أى : علما ، فلا يخفى عليه شئ من كفرهم وتكذيبهم ، ومنه ما جرى منهم إثر الرؤيا والإخبار بالشجرة الملعونة ، من الجحود والهزء واللغو . ثم قال سبحانه :

وَمَا جَعَلْنَا الرَّعْيَا الَّتِي أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ . قال الأكثرون : يعنى : ما رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء من الآيات ، فلما ذكرها النبي ﷺ للناس ؛ أنكز بعضهم ذلك وكذبوا ، كما ثبت بعضهم وازداد يقينا . ومن ثم كانت الرؤيا التى أراها الله لعبده فى تلك الليلة فِتْنَةً لِلنَّاسِ ، وابتلاء لإيمانهم .

وقد استدلل القائلون بأن الإسراء والمعراج كانا مناسما ، بهذه الآية على صحة ما ذهبوا إليه .

وذهب القائلون بأنهما كانا فى الیقظة إلى أن المراد بهذه الرؤيا رؤيا رآها فى وقعة بدر ؛ لقوله :
إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَتَابِلِكَ فَلْيَلَّ . وقيل : بل هى رؤيا عام الحديبية حين رأى أنه دخل مكة .

وروى الطبرى عن الحسن فى الآية هذه ، قال : أسرى به ﷺ عشاء إلى بيت المقدس ، فصلى فيه وأراه الله ما أراه من الآيات ، ثم أصبح بمكة فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، فقالوا له : يا محمد ، ما شأنك ؟! أمسيت فيه ثم أصبحت فينا تخبرنا : أنك أتيت بيت المقدس ، فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام .

وروى البخارى فى التفسير عن ابن عباس : أنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ فى ليلة الإسراء ، وهو قول سعيد بن جببر ومسروق وقتادة . وجاء فى اللغة : الرؤيا بمعنى : الرؤية مطلقا . وهو معنى حقيقى لها وقيل : إنها حقيقة فى رؤيا المنام ورؤيا اليقظة ليلا . وقد ذكر السهيلي أنه ورد فى كلام العرب بهذا المعنى تقول : رأيته رؤيا كقرية وقريى .

وقيل : إن إطلاق الرؤيا على الإسراء مجاز ؛ لوقوعها ليلا أو لسرعتها ^(١١٥) .

وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ . أى : وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ : اختلفوا : فقوم ازدادوا إيمانا ، وقوم ازدادوا كفرا ، كأبى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة - يعنى : النبى ﷺ - توعدكم بالنار ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة ، وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزبيرى : إن محمدا يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فتنقموا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا . أى : تمرا بزبد .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى ، لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ومن ثم يلبسه رجال المطافئ .

وكم فى الأرض من عجائب وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلاص من النار إلا فئرتها التى نعيش عليها وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية نحو ^٩ منه أكسجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين .

وقوله تعالى : وَإِذَا الْيَخَازُ سُجِّرَتْ . أى : صارت نارا من قواك : سجرت التور إذا أشعلته .

والخلاصة : أن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا ، وفتنوا بالشجرة . وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، للعن الكفار الذين يأكلونها : توسعا فى الاستعمال وهو كثير فى كلام العرب .

وَنُفِخَ فِيهِمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا . أَيْ : ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديًا في الطغيان والضللال . وما زادتهم خارقة الإسراء ولا زادهم التخويف بشجرة الزقوم إلا طغيانًا كبيرًا .
إن الله لم يقدر إهلاكهم بعذاب من عنده . ومن ثم لم يرسل إليهم بخارقة . فقد اقتضت إرادته أن يهلك المكذبين بالخوارق .

أما قريش فقد أمهلت ولم تتخذ بالإبادة كقوم نوح وهود وصالح وشعيب .. ومن المكذبين من آمن بعد ذلك ، وكان من جند الإسلام الصادقين . ومنهم من أنجب المؤمنين الصادقين .
وظل القرآن - معجزة الإسلام - كتابا مفتوحا لجيل محمد ﷺ وللأجيال بعده ، فأمن به من لم يشهد الرسول وعصره وصحابته ، عندما قرأ القرآن أو صاحب من قرأه .

وسيبقى القرآن كتابا مفتوحا للأجيال ، يهتدى به من هم بعد في ضمير الغيب ، وقد يكون منهم من هو أشد إيمانًا وأصلح عملاً ، وأنفع للإسلام من كثير سبقوه .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مُوفُورًا ﴿١٣﴾ وَأَسْتَفِزُّ مِنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَلْقِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدُّهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

المعزادات :

أوابيتك ، أَيْ : أخبرني .

هذا الذي كرمته علي ، أَيْ : ألهذا الذي كرمته علي . قاله لاحتقارا واستصغارا لشأنه .

لاحتنكن ، من قولهم : حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل في حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه .

أذهب ———— ، أى : امض لشأنك فقد خلّيتك وما سولت لك نفسك .

موفورا ، أى : مكملًا لا يدخر منه شيء .

استغفرز ، هيج واستخف .

بصوتك ، بدعائك إلى معصية الله .

وأجلب عليهم ، أى : صغ عليهم من الجلبة وهى الصباح ، يقال : أجلب على العدو إجلايا : إذا جمع عليه الخيول .

بصيحك ورجلك ، أى : بأعوانك من راكب وراجل .

الغفور ، تزيين الباطل بما يظن أنه حق .

الوكيل ، الحافظ والرقيب الذى يكون إليه أمورهم .

تمهيد :

لما نازع القوم رسول الله ﷺ وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لأمرين هما الكبر والحسد :

أما الكبر : فلأن تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد وأما الحسد : فلأنهم كانوا يحسدونه على ما أتاه الله من النبوة : فبين سبحانه أن هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا إبليس على الخروج على الإيمان والدخول فى الكفر .

التفسير :

٦١ - وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ... الآية .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ حِينَ خَلَقْنَا أَبَا آدَمَ وَفَضَّلْنَاهُ : اسْجُدُوا لِآدَمَ ؛ تحية وتكريما ؛ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ^(١١٥) .

وفى سورة ص قال إبليس : قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . (ص : ٧٦) .

قال الخطيب الشربيني :

فكفر بنسبته لنا إلى الجور متخيلا أنه أفضل من آدم - عليه السلام - من حيث إن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وذهب عنه أن الطين أنفع من النار ، وعلى تقدير التنازل فالجواهر كلها من جنس واحد ، والله تعالى هو الذى أوجدهما من العدم ، يفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض ، وقد ذكر الله تعالى هذه القصة فى ست سور ، وهى : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، وهذه السورة ، والكهف ، وطه . والكلام المستقصى فيها قد ورد فى سورة البقرة ، ولعل هذه القصة إنما كررت تسلية للنبي ﷺ ؛ فإنه كان فى محنة عظيمة من قومه وأهل زمانه ، فكأنه تعالى يقول : ألا ترى أن أول الأنبياء هو آدم - عليه السلام - ثم إنه كان فى محنة شديدة من إبليس .

وَأَنَّ الْكِبَرِ وَالْحَسَدَ كُلَّ مَنُهَا بَلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ وَمَحَنَةٌ عَظِيمَةٌ لِلْخَلْقِ ^(١١٧).

٦٢- قَالَ أَرَأَيْتَكَ ^(١١٧) هَلْذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ...

أى: أخبرنى عن هذا الذى كرمته على ، بأن أمرتنى بالسجود له ، لم كرمته على ؟! أو المعنى: أخبرنى
أهذا الذى كرمته على ؟!

لَيْنَ أُخْرِجَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتِكَنَ ^(١١٨) ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا .

أى : لأعنيهم وأهلكهم بالإغراء إلا المخلصين . ولأستولين عليهم استيلاء من جعل فى حنك الدابة
الأسفل حبلا يقودها به فلا تأبى عليه .

وجاء فى تفسير الخطيب :

فإن قيل : كيف ظن إبليس هذا الظن الصادق بذرية آدم ؟ أجيب : بأوجه :

الأول : أنه سمع الملائكة يقولون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، فعرف هذه الأحوال .

الثانى : أنه وسوس إلى آدم ولم يجد له عزما ، فقال : الظاهر أن أولاده يكونون مثله فى ضعف العزم ^(١١٩).

الثالث : أنه عرف أنه مركب من قوة بهيمية شهوية ، وقوة وهمية شيطانية ، وقوة عقلية ملكية ، وقوة
سبعية غضبية ^(١٢٠).

٦٣- قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءُ مُؤَفَّرًا .

اذهب فحاول محاولتك ، اذهب مأذونا فى إغوائهم ؛ فهم مزودون بالعقل والإرادة ، يملكون أن
يتبعوك أو يعرضوا عنك ، فَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ ، مغلبا جانب الغواية فى نفسه على جانب الهداية ، معرضا عن
نداء الرحمان إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله فى الكون ، وآيات الله المصاحبة للرسالات ؛ فَإِنْ جَهَنَّمَ
جَزَاءُكُمْ أُنْتُمْ وتابعوك جَزَاءُ مُؤَفَّرًا أى : جزاء مكملا لا ينقص لكم منه شيء بما تستحقون من سبى الأعمال ،
وما دنستم به أنفسكم من قبائح الأفعال .

٦٤- وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَعْلَفَ مِنْهُمْ بَصُورَكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَجِلِكَ ...

وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، فهى المعركة
الصاحبة ، يستخدم فيها الصوت فيزعج الخصوم ، ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للغف
المنسوب والمكيدة البديرة ، فإذا استدرجوا أخذتهم الخيل وأجابت بهم الرجال .

قال اليسابوري : «عن ابن عباس : كل راكب وراكب في معصية الله فهو من خيل إبليس وجنوده . وقيل يحتمل أن يكون لإبليس جند من الشياطين بعضها راكب وبعضها راكب» ^(١٢٧) والأقرب أن هذا كلام ورد تمثيلا فقد يقال للرجل المجد في الأمر جنتنا بخيلك ورجلك .

قال المراغي : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما : الاتباع والأعوان من غير ملاحظة : لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا ^(١٢٨) .

وقال الرمخشري في الكشف : مثلت حاله في تسلطه على من يغويه ، بمغوار أوقع على قوم ، فصوت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة .

وَأَشَارَ لَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ : بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة وإنفاقها في غير الطرق التي أباحها الدين ، ويشمل ذلك الربا والغضب والسرقة ، وسائر المعاملات الفاسدة .

وقال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث ، وينفقوها في حرام .

وَالْأَزْلُدُ أَي : بالتفاخر والتكاثر بهم ، وتضلليهم بصيغهم بغير صبغة الدين ، أو تزييتهم لا كما ينبغي : حتى ينشئوا غير راشدين ولا مؤدبين ولا متدينين بدين الحق ^(١٢٩) .

وإجمال القول فيه : إن كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه ، بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه ، أو بالزنا بأمه ، أو بوالده ، أو بقتله ، أو غير ذلك : فقد شارك إبليس فيه .

وَعَذَابُهُمْ وَمَا يَعْلَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرُورًا . كالوعد بالإنفلات من العقوبة والقصاص . والوعد بالغنى من الأسباب الحرام والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل الملتوية والأساليب الخسيسة .

ولعل أشد الوعود إغراء : الوعد بالعرف ، والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ، وهي الثغرة التي يدخل منها الشيطان على كثير من القلوب ، التي يعز عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلف حينئذ إلى تلك النفوس المتحرجة ، ويزين لها الخطيئة ، وهو يلوح لها بسعة الرحمة الإلهية ، وشمول العفو والمغفرة .

وذهب القاشاني إلى : أن الآية تشير إلى انقسام الناس مع الشيطان إلى أصناف ، فقال : تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام : لأن الاستعدادات متفاوتة ، فمن كان ضعيف الاستعداد استغزه . أي : استخفه بصوته ، يكفيه وسوسة وهمس بل هاجس ولمة ، ومن كان قوى الاستعداد ، فإن أخلص استعداده عن شوائب الصفات الإنسانية ، أو أخلصه الله تعالى عن شوائب الغيرية ، فليس إلى إغوائه سبيل كما قال سبحانه : إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وإلا فإن كان منغمسا في الشواغل الخسيسة غارزا رأسه في

الأمر الدنيوية ، شاركه في أمواله وأولاده ، بأن يحرضه على إشراكهم بالله في المحبة ، بحبهم كحب الله ، ويسول له التمتع بهم ، والتكاثر والتفاخر بوجودهم ، ويمنيه الأمانى الكاذبة ، ويزين عليه الآمال الفارغة ، وإن لم يتغمس ، فإن كان عالما بصيرا بحيله : أجب عليه بخيله ، ورجله ، أى : مكر به بأنواع الحيل ، وكاده بصنوف الفتن ، وأفتى له فى تحصيل أنواع الحطام ، والملاذ ، بأنها من جملة مصالح المعاش ، وغره بالعلم وحمله على الإعجاب ، وأمثال ذلك : حتى يصير ممن أضله الله على علم ، وإن لم يكن عالما بل عابدا منكسا ، أغواه بالوعد والتمنية ، وغره بالطاعة والتزكية أيسر ما يكون ^(١٢١) .

٦٥- إِنْ جَاهَدَى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا .

فمتى اتصل القلب بالله ، واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى ، التى لا انفصام لها . متى يقظ فى روحه النفخة العلوية ، فأشرقت وأنارت : فلا سلطان حينئذ للشيطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الروح المشرق بنور الإيمان . وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا يعصم وينصر ويبطل كيد الشيطان .

وانطلق الشيطان ينفذ وعيده ، ويستذل عبيده ، ولكنه لا يجروا على عباد الرحمان ، فما له عليهم من سلطان .

ذلك ما يبيتته الشيطان للناس من شر وأذى ، ثم يوجد فى الناس من يتبعون هذا الشيطان ويستمعون إليه ، ويعرضون عن نداء الله لهم وهدايته . والله رحيم بهم يعينهم ويهديهم ، ويستجيب لهم فى مواقف الشدة والضيق ، ويرشدهم إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والحذر من كيده وعدوته ^(١٢٢) .

★ ★ ★

﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهٗ دَكَتْ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا بَلَغَكُمُ الْإِلَٰهَ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكِيلًا ۝٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ يَتْبَعًا ۝٦٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ ﴿

المضردات :

يسرقى : يسوق ويجرى .

السفينة : السفينة وهذا اللفظ يكون مفردا وجمعا .

لتبتغوا : لتطلبوا .

من فضله : من رزقه .

الضر في البحر : خوف الغرق .

ضلل : غاب عن ذكركم ، وضاع عن فكركم كل من تعبدونهم .

يخسف : يقلب فيجعل على الأرض ساقطها .

حاصبا : ريحا حاصبة أى : ترمى بالحصباء وهى الحصى .

ان يبدكم فيه تارة أخرى : أى : يقوى دواعيكم لركوب البحر مرة أخرى .

قاصفا : يقصف بمعنى : يكسر كل ما مر به .

التسبيح : الناصر والمعين ، (حملته على فرس) : أى : أعطيته إياها : ليركبها .

المعنى الإجمالى :

بعد أن ذكر فى الآية السابقة : أنه هو الحافظ الكالى للعبد المؤمن من غواية إبليس ، قفى على ذلك يذكر بعض نعمه تعالى فى البر والبحر على الإنسان : فهو الذى يجرى له الفلك فى البحر : لتنتقل له أرزاقه وأقواته من المسافات البعيدة ، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة ، إذا مسه الضر دعا ربه ، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان ، فهل يأمن أن يخسف به الأرض ، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر ، أو قاصفا من الريح فى البحر فيغرقه بكفره ، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق ، ويسط له الرزق ، أفلا يفرده بالعبادة ويخبت له كفاء تلك النعم المتتابعة عليه ؟

التفسير :

٦٦- رَّبُّكُمْ الَّذِى يُزِجِى لَكُمْ الْفَلَكَ فِى الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيْمًا .

ربكم الذى يجرى لكم السفن فى البحر : لتسهيل نقل أقواتكم وحاجاتكم ، من إقليم إلى آخر ، من أقصى المعمورة إلى أبنائها ، ولتطلبوا الربح بالتجارة والحصول على ما ليس عندكم من محصولات الأمم ، ولتنتقلوا من قطر إلى قطر : ابتغاء الرزق أو السياحة وروية مظاهر الكون : إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيْمًا : حيث سهل لكم أسباب ذلك .

٦٧- وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا.

والسياق يعرض هذا المشهد : مشهد الفلك فى البحر نموذجاً للحظات الشدة والحرَج : لأن الشعور بقدرة الله فى الخضم أقوى وأشد حساسية ، حيث تصبح الفلك نقطة من الخشب أو المعدن تائهة فى الخضم ، تتقاذفها الأمواج والتيارات ، والناس متشبثون بهذه النقطة على كف الرحمان .

إنه مشهد يحس به من كابده ، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة ، المتعلقة بكل هزة وكل رجة فى الفلك صغيرا كان أو كبيرا ، حتى عابرات المحيط الجبارة ، التى تبدو فى بعض اللحظات كالريشة فى مهب الرياح على ثقب الموج الجبار !

والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية ، وهو يشعر الناس أن يد الله تزجى لهم الفلك فى البحر ليبتغوا من فضله . ثم ينتقل بهم من الإزعاج الرقى للاضطراب العتى ، حين ينسى الركب فى الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة ، وكل سند وكل مجير إلا الله ، فيتجهون إليه وحده فى لحظة الخطر ، لا يدعون أحدا سواه ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُه .

وخلاصة ذلك : أنكم إذا مسكم الضر ؛ دعوتم الله منيبين إليه ، مخلصين له الدين .

وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة . وقد استدل لكثير من الأصول بها ، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة فى مسائل شتى . كمسألة وجود الخالق وعلوه ، والمعاد وغيرها (١٢٧) .

فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ - من الغرق - إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ . أى : من عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم ، وأجاب دعاءكم ونجاكم من الهول ، أعرضتم وعدتم إلى ما كنتم عليه ، فنسيتم لحظة الشدة ، وتقاذفتكم الأهواء ، وجرفتكم الشهوات ، وجددتم فضل الله عليكم وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أى : وكانت سجية الإنسان وطبيعته ، أن ينسى النعم ويجحدّها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف : أنكم حين الشدائد تجأرون طالبيين رحمته وحين الرخاء تعرضون عنه .

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين ، بتصوير الخطر الذى تركوه فى البحر وهو يلاحقهم فى البر ، أو وهم يعدون إليه فى البحر ؛ ليشعروا أن الأمن والفرار لا يكونان إلا فى جوار الله وحماه ، لا فى البحر ولا فى البر ، لا فى الموجة الرخية والريح المواتية ، ولا فى الملجأ الحصين ، والمنزل المريح .

٦٨، ٦٩- أَلَمْ نَسْأَلْكُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا • أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًا بِهِ تَبِيعًا .

إن البشر فى قبضة الله فى كل لحظة وفى كل بقعة . إنهم فى قبضته فى البر كما هم فى قبضته فى البحر ، فكيف يأمنون ؟! كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان ، أو يغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ؟! أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلًا يحميهم ويدفع عنهم ؟!

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة ، تقصف الصوار وتحطم السفن ، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم ؛ فلا يجدون من يطالب بعدهم باتبعة إغراقهم .

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا . ثم يأمناؤا أخذه وكبده . وهم يتجهون إليه وحده فى الشدة ثم ينسون بعد النجاة . كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله !^(١٧)

وقد كرم الله الإنسان على كثير من خلقه ؛ كرمه بخلقه على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان .

وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فطرته ، والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة .

وكرمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض ، وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب والأفلاك .

وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ، ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان !

وكرمه بإعلان هذا التكريم كله فى كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي فى الأرض ، وهو القرآن .

٧٠- وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوُجُوهِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا

تَفْضِيلًا .

قال اليسابورى : وقد ذكر المفسرون فى تكريمه وجوها منها : تعلم الكتابة ؛ فيها يقدر الإنسان على إبداع العلوم التى استنبطها هو أو غيره فى الدفاتر ، فتبقى على وجه الدهر مصنوعة عن الانداس ، محفوظة عن الانطماس : اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * أَلْبَى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق : ٤ ، ٣) .

ومنها : الصورة الحسنة : وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ، ومنها : القامة المعتدلة : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ومنها : أن كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم .

يحكى عن الرشيد: أنه حضر إليه طعام فأحضرت الملاعق وعنده أبو يوسف، فقال له: جاء فى تفسير جدك ابن عباس: أن هذا التكريم هو أنه جعل لهم أصابع يأكلون بها؛ فرد الملاعق وأكل بأصابعه، ومنها: ما قال الضحاک: أنه النطق والتمييز فإن الإنسان يمكنه تعريف غيره كل ما عرفه بخلاف سائر الحيوانات، ويدخل الأخرس فى هذا الوصف لأنه يعرف بالإشارة أو الكتابة، ويخرج الببغاء ونحوه؛ لأنه لا يقدر على تعريف جميع الأحوال على الكمال، ومنها: تسليطهم على ما فى الأرض وتسخيره لهم فالأرض كالأم الحاضنة: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَهِيَ لَكُمْ فَرْشٌ وَمِهَادٌ، والماء ينتفعون به فى الشرب والزراعة والعمارة، وماء البحر ينتفع به فى التجارة واستخراج الحلى منه، والهواء مادة الحياة ولولا هبوب الرياح؛ لاستولى النتن على المعمورة، والنار ينتفع بها فى الطبخ والانضاج ودفع البرد وغير ذلك، وانتفاعهم بالمركبات المعدنية والحيوانية ظاهر، وبالجمله فهذا العالم بأسره كقرية معمورة والإنسان فيه كالرئيس المخدوم والملك المطاع فأى تكريم يكون أزيد من هذا ^(١٢٨).

وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الْغَيْثِ. والإنسان ينسى ما رزقه الله من الطيبات بطول الألفة؛ فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التى رزقها إلا حين يحرم منها، فعندئذ يعرف قيمة ما يستمتع به، ولكنه سرعان ما يعود فينسى.. هذه الشمس، هذا الهواء، هذا الماء، هذه الصحة، هذه القدرة على الحركة، هذه الحواس، هذا العقل، هذه المطاعم والمشارب والمشاهد، هذا الكون الطويل العريض الذى استخلف فيه، وفيه من الطيبات ما لا يحصىه.

وَفَعَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْهِيمًا. أى: فضلناهم على كثير من المخلوقات بالعقل والتفكير تفضيلاً عظيماً.

ومن التكريم: أن يكون الإنسان قيماً على نفسه، محتملاً تبعه اتجاهه وعمله، فهذه هى الصفة الأولى التى بها كان الإنسان إنساناً. وهى حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف فى دار العمل، فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمره عمله فى دار الحساب ^(١٢٩).

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمْعَامِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ رِيْسِيْنِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فَيَسِيلاً ۝٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ۝٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَنُفْتِرِيَ عَلَيْكَ آيَةً ۖ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّرْنَا لَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ۝٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْهِمْ نَصِيراً ۝٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٧٦﴾ سُنَّةٌ مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۝٧٧﴾ ﴿

المضردات :

بِإِمْعَامِهِمْ : بمن ائتموا به من بنى آدم فى الدين وقيل : بكتابهم أو دينهم ، وقيل : بكتاب أعمالهم .
الْفَتِيل : الخيط المستطيل فى شق النواة ، وبه يضرب المثل فى الشيء الحقيقى التافه ، ومثله : النقيز ، والقطمير .

أَعْمَى : أى : أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته .

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ : إن مخففة من إن ، وكادوا أى : أوشكوا - ليفتنونك - أى : ليقوعنك فى بلية ؛ بصرفك عما أوحى إليك .

تَرْكُنْ : أى : تميل . يقال : ركن إليه يركن ، وركن إليه يركن ركونا ، مال إليه .

ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ : أى : ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة

نَصِيراً : أى : معيناً يدفع عنك العذاب .

لَيَسْتَفِزُّوكَ : أى : ليزعجنك بمعاداتهم

لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ : أى : لا يبقون بعدك

تَحْوِيلاً : أى : تغييرات .

المعنى الإجمالى :

يوم ندعو كل قوم بإمامهم الذى يأتون به من دين أو زعيم ، أو ندعو كل إنسان بكتاب أعماله ، فالسعداء يأخذون كتابهم بيمينهم والأشقياء الذين عموا عن طريق الهدى فى الدنيا ؛ يبعثون على حالتهم من العمى والضلال ، بل هم فى الآخرة أشد عمى ، وأبعد عن سبيل الخير .

وقد أوشك هؤلاء الكافرون أن يوقعوك ؛ لتصرف عن الذى أوحينا إليك ؛ لتختلق علينا غيره ، وإذا لاتخذوك خليلا .

وقد شملك لطفنا ، فصرفناك عن الاستجابة لهم ، وثبتناك على الحق ، ولولا ذلك لأوشكت أن تميل إلى استجابتهم ؛ طمعا فى أن يكمل إيمانهم يوما إذا دخلوا فى أوائل الإسلام ، ولوركنت إليهم ؛ لجمعنا عليك ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة ، ثم لا تجد لك علينا نصيرا .

ولقد حاول كفار مكة وكادوا أن يزججوك بعداوتهم ومكرهم ؛ ليخرجوك من مكة ، وإذا فعلوا فلا يلبثون بعدك إلا قليلا ثم يهلكهم الله ، لقد جرت سنتنا بأن الأمم التى تلجأ رسلها إلى الخروج من أرضها ، لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

التفسير :

٧١- يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْئِنِهِمْ فَمَنْ أُوِّتِيَ كِتَابُهُ بِيمينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَعُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا .

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِمْئِنِهِمْ . أى : بمن ائتموا به من نبي أو مقدم فى الدين ، أو كتاب أو دين ؛ فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا وكتاب كذا ، وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر !

ورجح ابن كثير - رحمه الله - القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال ؛ لقوله تعالى : وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ . (يس : ١٢) .

وقال سبحانه : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِعَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يُنَاقِلُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثية : ٢٨ ، ٢٩) .

وما رجحه ابن كثير هو الصواب ؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وأول ما ينبغي الاهتمام به فى معانى الآيات هو الرجوع إلى نظامها .

فَمَنْ أُوِّتِيَ كِتَابُهُ بِيمينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَعُونَ كِتَابَهُمْ . أى : فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرعون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا أى : ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، ولو قدر القتل ، وهو ما فى شق النواة ، أو ما تقتله بين أصبعيك ، أو هو أدنى شيء ، فإن القتل مثل فى القلة كقوله تعالى :

وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (مريم : ٦٠) .

وقد ثبت فى علم الكيمياء أن وزن الذرات التى تدخل فى كل جسم بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحد فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجمام ، نقصت عن النسبة المقدره لتكوينه ؛ لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحالة هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته فى خلقه ! (١٣٠) .

٧٢- وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

أى : ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشده ، ولا يتأمل حجج الله وبيناته التى وضعها فى صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها ؛ فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة وأضل سبيلا منه فى الدنيا ؛ لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذى كان فى هذه الحياة الدنيا وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبى ، وكما يثمر النخل الثمرة ، والأشجار والفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينظر أو ينشرح بحسب ما يرى ، وما الثمر إلا بحسب الشجر ، فإذا كان هناك ساهيا لاهيا ، فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا ، وأبعد مدى فى الضلال ؛ لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقي فيه مناقبه ومثابه ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

وفى ظلال القرآن :

هذا مشهد يصور الخلائق محشورة وكل جماعة تنادى بعنوانها ، باسم المنهج الذى اتبعته ، أو الرسول الذى اقتدت به أو الإمام الذى انتمت به فى الحياة الدنيا ، تنادى ليسلم لها كتاب عملها جزائها فى الدار الآخرة ، فمن أوتى كتابه بيمينه ؛ فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه ، ويوفى أجره لا ينقض منه شيئا ولو قدر الخيط الذى يتوسط النواة ، ومن عمى فى الدنيا عن دلائل الهدى ؛ فهو فى الآخرة أعمى عن طريق الخير وأشد ضلالا ، وجزاؤه معروف ، ولكن السياق يرسمه فى المشهد المزدهم الهائل ، أعمى ضالا يتخبط ، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدى به ، ويدعه كذلك لا يقرر فى شأنه أمرا ؛ لأن مشهد العمى والضلال ؛ فى ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب ، يؤثر فى القلوب ! (١٣١) .

٧٣، ٧٤- وَإِنْ كَانُوا يَفْسُدُونَكَ عَنْ آلِئِذٍ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَتُورِى عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا اتَّخَذُوا خَلِيلًا ۖ وَلَوْلَا أَنْ

كَيْتَلَكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا .

إخبار عن تأييده تعالى رسوله ، صلوات الله عليه وسلامه ، وتبنيته وعصمته ، وتولى أمره وحفظه . فإن المشركين ، لكثرة تفننهم فى ضروب الأذى ، وشدة تعنتهم وقوة شكيمتهم ، كادوا أن يفتنوه ، ولكن عناية الله وحفظه ، هو الذى ثبت قدمه فى مثل مقامه ، فى الدعوة إلى الله الذى لا يثبت فيه أحد غيره .

وقد روى : أن ثقيفا قالوا : لا نؤمن حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب ، لا ننحنى فى الصلاة ، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا ، وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها ، فإن خشيت أن يقول العرب : لم أعطيتهم ما لم تعطنا ؟ فقل : الله أمرنى بذلك .

وروى : أن قريشا قالوا : لا ندعك يا محمد أن تستلم الحجر الأسود حتى تمس آلهتنا . وقالوا أيضا : نؤمن بك إن تمس آلهتنا .

قال الإمام الطبرى :

يجوز أن تكون الفتنة ما ذكر وأن تكون غير ذلك ، ولا بيان فى الكتاب ولا فى خبر يقطع العذر أى ذلك كان . فالأصوب الإيمان بظاهره ؛ حتى يأتى ما يجب التسليم له ببيان ما عنى بذلك منه .
وفى ظلال القرآن :

يعدّد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ وأولها محاولة فتنته عما أوحى الله إليه : ليفترى عليه غيره وهو الصادق الأمين .

لقد حاولوا هذه المحاولة فى صور شتى .. منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه فى مقابل أن يترك التنديد بآلهتهم وما كان عليه أبائهم .. ومنها : طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس الفقراء .. والنص يشير إلى هذه المحاولات ولا يفصلها ؛ ليذكر فضل الله على الرسول فى تثبيتته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عنه تثبيت الله وعصمته ؛ لركن إليهم فاتخذوه خليلا (١٢٧) .

وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ ضَيْغًا قَلِيلًا .

أى : ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يريدون .

وخلاصة ذلك : أنك كنت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحيل والخداع ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون ، فضلا عن أن تركن إليهم .

وعن قتادة : لما نزلت هذه الآية قال النبى ﷺ : «اللهم ، لا تكنى إلى نفسى طرفة عين» .

٧٥ - إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا .

أى : ولوركنت إلى فتنة المشركين ؛ لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات ، أى : ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة (والضعف) عبارة عن أن يضم إلى الشيء مثله والسبب فى تضعيف العذاب أن الذنب من العظيم يكون عقابة أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم من عقاب العامة ؛ لأن الناس تتبع العلماء وتقتدى بهم ، ومن ثم قال القاتل :

يا معشر العلماء يا ملح البلد من يصلح الملح إذا الملح فسد

وقد جاء في الأثر: «من سن سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا .

يعنى : لو أنقذك العذاب لم تجد أحدا يدفعه عنك أو يخلصك منه .

تنبيهات :

الأول : قال النيسابورى : أعلم أن القرب من الفتنة لا يدل على الوقوع فيها والتهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها فلا يلزم من الآية طعن فى عصمة النبي ﷺ ، وفيه أنه لا عصمة من المعاصى إلا بتوفيق الله وتثبيتته على الحق ^(١٣١) .

الثانى : قال فى التفسير الكبير : حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك وعقدت على الركوب إليه همك ؛ لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ولصار عذابك مثل عذاب المشرك فى الدنيا ومثل عذابه فى الآخرة ^(١٣٢) .

الثالث : قال القفال : من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون فى إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه . فتارة كانوا يقولون : إن عبدت آلتهنا عبدنا إليك ؛ فأنزل الله تعالى : قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الْكَافِرِينَ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . (الكافرون : ٢ ، ١) . وقوله : وَذُوقُوا ثَوَابَ الْفٰئِدٰهِنَ . (القلم : ٩) . وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ؛ ليترك ادعاء النبوة فأنزل الله تعالى : وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَ فِيهِمْ فَرَقَ لَهُمْ وَرِزْقًا رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقٰى . (طه : ١٣١) .

ودعوه إلى طرد المؤمنين عن نفسه فأنزل الله تعالى قوله : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ... (الأنعام : ٥٢) ^(١٣٣) .

فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت فى هذا الباب ، وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه وأن يزيلوه عن منهجه . فبين تعالى أنه يثبتته على الدين القويم والمنهج المستقيم ، وعلى هذا الطريق ، فلا حاجة فى تفسير الآيات ، إلى شيء من تلك الروايات . والله أعلم ^(١٣٤)

٧٦ - وَإِنْ كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُوا بِالْبَاطِلِ لِشَرِّهِمْ إِلَّا قَلِيلًا .

أى : ولقد حاول كفار مكة أن يزججوك ويستخفوك بعداوتهم ومكرهم ، فعندما عجز المشركون عن استدراج الرسول ﷺ إلى هذه الفتنة حاولوا استفزازه ؛ ليخرجوه من أرض مكة - ولكن الله أوحى إليه : أن يخرج مهاجرا ؛ لما سبق فى علمه من عدم إهلاك قريش بالإبادة .

ولو أخرجوا الرسول ﷺ عنوة وقسرا : لحد بهم الهلاك وَإِذَا لَا يَلْتَوُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا.

قال الطبري : ولو أخرجوك منها لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلا حتى أهلهم بعذاب عاجل ^(١٢٧).

قال الطبري : واختلف أهل التأويل في الذين كادوا أن يستفزوا رسول الله ﷺ : ليخرجوه من الأرض ، وفي الأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها فقال بعضهم : الذين كادوا أن يستفزوا رسول الله ﷺ من ذلك اليهود ، والأرض التي أرادوا أن يخرجوه منها : المدينة ^(١٢٨).

وقال النيسابوري :

وروى عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة حسدته اليهود وكروهوا قريه منهم ، وقالوا : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء بعثوا بالشام وهى بلاد مقدسة ، وكانت مهاجر إبراهيم فلو خرجت إلى الشام لأمنا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم فإن كنت رسول الله فالله مانعك منهم ، فعسكر رسول الله ﷺ على أميال من المدينة أو بذي الحليفة ؛ حتى يجتمع إليه أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام ؛ لحرصه على دخول الناس في دين الله فنزلت الآية فرجع ، وعلى هذا القول تكون هذه الآية مدنية ^(١٢٩).

وقال قتادة ومجاهد : بل كان القوم الذين فعلوا ذلك قريشا ، والأرض أرض مكة ، وعلى هذا تكون هذه الآية مكية ^(١٣٠).

ونحن نرجح أن الآية مكية ، ونرى أن الرواية التي أوردها النيسابوري عن ابن عباس تثير في النفس بعض التساؤل ؟

فكيف يعسكر الرسول على أميال من المدينة عازما على الخروج إلى الشام ؟

وهل بلغت به السذاجة أن يترك قاعدة الإسلام في المدينة ويذهب مختارا إلى الشام من أجل كيد اليهود وحيلهم ؟

ونحن لا ننكر قدرة اليهود على الدس والخداع .

ولا نستبعد أن يميل النبي إلى حديثهم برهة أو لحظة ، ثم لا يلبث أن يتكشف أمامه الأمر .

أما أن يصل الأمر إلى حد الخروج من المدينة والعزم على السفر إلى الشام فهذا ما نستبعده ؛ لما عرف واشتهر من صدق فراسة الرسول ، ويعد نظره ورجاحة عقله وسلامة تفكيره .

وقد رجح الطبري - شيخ المغسرين - أن الآية مكية لا مدنية ، فبعد أن روى الطبري عدة روايات منها ما يفيد أن الآية مكية ، ومنها ما يفيد أن الآية مدنية عقب على هذه الروايات بقوله :

وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب قول قتادة ومجاهد (أى : بأن الآية مكية) وذلك أن قوله وإن كَادُوا يَسْتَخْرِضُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ فى سياق خبر الله عز وجل عن قريش وذكره إياهم ولم يجز لليهود قبل ذلك ذكر فيوجه قوله : وَإِنْ كَادُوا إِلَى أَنَّهُ أَخْبَرَهُمْ ، فهو بأن يكون خبرا عن جري له ذكر أولى من غيره ^(١١١) .

ثم إن تاريخ الدعوة الإسلامية ، ونصوص القرآن الكريم تفيد : أن المسلمين كانوا مستضعفين فى مكة ، معرضين للعذاب والمصادرة .

وهذا الوضع يغرى الرسول بالخروج والمهاجرة ، أما وضعهم فى المدينة فقد كان مستقرا نسبيا ؛ إذ أخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ووضع أساس الدولة الجديدة ، وقاد غزوات ناجحة ، وعقد معاهدات لحسن الجوار مع جيرانه من اليهود .

كل هذا يرجح أن القوم الذين هموا بإخراجه هم قريش وأن الأرض التى كاد أن يخرج منها هى مكة .

وفى سورة الأنفال (وهى مدنية نزلت سنة ٢ هجرية) يقول القرآن : وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ أَتَاسٌ فَأَنْزَلْنَا إِلَهُكُمْ وَآيَاتُكُمْ بِنُصْرِهِ وَوَزَعْنَا مِنْ الْغَنِيِّاتِ لَكُمْ تَشْكُرُونَ . (الأنفال : ٢٦) .

وقد قال المفسرون : إن هذه الآية تشير إلى ضعف المسلمين وقتلهم فى مكة ، وإلى عزتهم وقوتهم بالمدينة . خصوصا بعد النصر المبين الذى أحرزوه فى غزوة بدر الكبرى .

٧٧ - سُبْحَةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَلْبَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا .

يقول سبحانه : لو أخرجوك لم يلبثوا خلافاك إلا قليلا ولأملكناهم بعذاب من عندنا . هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلانا وأذوهم وكذبوهم ، فكل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرائهم ؛ سنة الله أن يهلكهم .

وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا أَى : إن ما أجرى به العادة لا يتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

وقد ذكر الطبرى أن الله أمهل أهل مكة قليلا حتى أخذهم بالعذاب يوم بدر ^(١١٢) .

وقال ابن كثير :

وقد وقع العذاب لأهل مكة ، فانه ﷺ لم يكن بين هجرته من بين أظهرهم ، بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف ، حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير معاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم ، وأظفره بهم ، فقتل أشراهم ، وسبى سراتهم ولهذا قال تعالى : سُبْحَةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا أَى : هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلانا وأذوهم ، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة : لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به ، كما قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ... (الأنفال : ٢٣) .

﴿ أَفَرَأَيْتَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى حَاجَتَهُ وَإِذًا مَسَّهُ الشَّرَّكَانَ يَتُوسَّأُ ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴿

المضردات :

دُلُوكِ الشَّمْسِ : زوالها عن دائرة نصف النهار ، وقيل : لغروبها ، يقال : دلكت الشمس تدلك دلوكة ،

أى : زالت ساعة الزوال .

إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، أى : إلى ظلمته ، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة .

وقرآن الفجر ، أى : وقت صلاة الصبح ، سميت الصلاة قرآنا : لأنه ركنها .

كان مشهودا : أى : تشهده الملائكة .

فتَهَجَّدَ بِهِ : أى : فاترك الوجود فيه لتصلى ، كالتحنث : ترك الحنث ، والتأثم ترك الإثم .

مقاما محمودا : مقام الشفاعة العظمى يوم القيامة .

أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، أى : أَدْخِلْنِي فِي الْقَبْرِ إِدْخَالًا مَرْضِيًا . مدخل اسم المكان من أدخل .

وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ، أى : وَأَخْرِجْنِي مِنْهُ عِنْدَ الْبَعْثِ إِخْرَاجًا مُحْفُوفًا بِالكَرَامَةِ ، وقيل : المراد : إدخاله

المدينة وإخراجه من مكة وقيل : إدخاله مكة ظافرا وإخراجه منها أمنا شر

المشركين وقيل : إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة ، وإخراجه منها مؤديا حقها

وقيل : إدخاله فى كل ما يلبسه من مكان وأمر ، وإخراجه منه .

سلطانا نصيرا : أى : برهانا ناصرا على الخصوم .

زَهَقَ : أى : زال واضمحل . من زهق روحه يزَهَقُ : إذا خرج .

ونأى بِجَانِبِهِ : أى : لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره .

شاكسته، أى : مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ،

بنسوسا ، أى : شديد اليأس والقنوط من رحمة الله .

أهدى سبيلا ، أى : أسد طريقا ، وأقوم منهاجا .

المعنى الإجمالى :

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله ﷺ : ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به : أمره بالإقبال على ربه بعبادته : لينصره عليهم ، ولا يبالى بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرمهم وشركهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه ، فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا : لأنه كلما نزلت عليه آية : ازدادوا بها كفرا وعتوا .

التفسير :

٧٨ - أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا .

أقم الصلاة لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ... دلوك الشمس معناه : زوالها عن كبد السماء ، وقيل : دلوك الشمس هو : غروبها .

قال ابن تيمية : الدلوك : الزوال عند أكثر السلف وهو الصواب .

وقال ابن جرير الطبرى : اختلف أهل التأويل فى الوقت الذى عناه الله بدلوك الشمس ، فقال بعضهم هو وقت غروبها والصلاة التى أمر بإقامتها حينئذ : صلاة المغرب .

وقال آخرون : دلوك الشمس : ميلها للزوال ، والصلاة التى أمر رسول الله ﷺ بإقامتها عند دلوكها الظهر .

وقد نقل الطبرى فى تفسيره أدلة كل فريق ، ثم قال :

وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله : أقم الصلاة لدلوك الشمس صلاة الظهر وذلك أن الدلوك فى كلام العرب : الميل يقال منه : ذلك فلان إلى كذا إذا مال إليه ^(١١٧) .

إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، غسق الليل هو إقباله ودنوه بظلامه كما قال الشاعر : أب هذا الليل إذ غسقا .

وتكون الصلاة التى أمر ﷺ بإقامتها هى صلاة المغرب وقال بعضهم : إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ : صلاة العصر وهو رأى ضعيف مردود .

قال الطبري في تفسيره :

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : الصلاة التي أمر النبي ﷺ بإقامتها عند غسق الليل هي صلاة المغرب دون غيرها ؛ لأن غسق الليل هو ما وصفناه من إقبال الليل وظلامه وذلك لا يكون إلا بعد مغيب الشمس ، فأما صلاة العصر فإنها مما تقام من ابتداء دلوك الشمس إلى غسق الليل لا عند غسق الليل .

وَقُرْآنَ الْفَجْرِ أَي : صلاة الصبح سميت : قرآنا ؛ لأنه ركننا ، كما سميت : ركوعا وسجودا فهو من تسمية الكل باسم جزئه المهم .

إِنْ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا أَي : يشهده ملائكة الليل والنهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء ، فهو في آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار ، أو يشهده الكثير من المصلين في العادة أو من حقه أن يكون مشهودا بالجماعة الكثيرة أو يشاهد الإنسان فيه عجائب صنع الله في إدبار الليل وإقبال النهار ، وانتشار الضوء ودبيب الحركة والحياة .

وجاء في تفسير النيسابوري :

قال أهل التحقيق : إذا شرع في الصلاة الصبح في أول وقتها شاهد في أنفائها انقلاب العالم من الظلمة التي هي نظير الموت إلى الضياء الذي هو نظير الحياة فإنه يفيء عقله من هذه الحالة إلى عجيب صنع المدبر للأنفس والأفاق فيزداد بصيرة وإيقانا ومعرفة وإيمانا وتنتفتح عليه أبواب المكاشفة والمشاهدة .

وإذا كان هذا المعنى في الجماعات الكثيرة ؛ صارت نفوسهم كالمراميا المشرقة المتقابلة المتعاكسة أضواؤها الواقعة على كل منها فيزداد كل منهم نورا وبهاء فيتحمل أن يكون قوله : مَشْهُودًا إشارة إلى هذه الأحوال والمشاهدة ، ولا ريب أنه إذا شرع في الصلاة أول انتباهه من النوم ، قبل أن يرد على لوح عقله وفكره النقوش الفاسدة ، من الأمور الدنيوية الدنية كان أولى ؛ فإن الأنبياء ما بعثوا إلا لإزالة مثل هذه الأمراض عن النفوس ^(١٤٤) .

تنبيهات :

١ - معنى إقامة الصلاة : أدائها كاملة الأركان ، مع حضور القلب في مناجاة الرب ، والخشية منه في السر والعلن ، وفي حديث البخاري : «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ^(١٤٥) .

والصلاة لب العبادة ؛ لما فيها من مناجاة الخالق ، والتبتل إليه والقيام والركوع والسجود بين يديه ، فهي راحة المؤمن وقرة عينه كما ورد في الحديث : «وجعلت قرة عيني في الصلاة» ^(١٤٦) .

٢ - قال النسفي: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ . أى : لزوالها وعلى هذا فالآية جامعة للصلوات الخمس، أو لغروبها وعلى هذا يخرج الظهر والعصر. إلى غَسَقِ اللَّيْلِ هو الظلمة وهو وقت صلاة العشاء^(١٢٨).

٣ - قال النيسابورى: ذهب كثير من المفسرين كابن قتيبة، وسعيد بن جبير منقولاً عن ابن عباس أن دلوك الشمس هو: غروبها وعلى هذا لا تشمل الآية صلاتي الظهر والعصر.

وأكثر الصحابة والتابعين على أن دلوك الشمس: زوالها عن كبد السماء ويؤيده ما روى أنه ﷺ قال: أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت الشمس فصلى بى الظهر، قالوا: واشتقاقه من ذلك؛ لأن الإنسان يدلك عينيه؛ إذ ينظر إليها وهى فى كبد السماء وحمل كلام الله على ما هو أكثر فائدة أولى واللام بمعنى: الوقت أو للتعليل أى: أقم الصلاة فى هذا الوقت أو لأجل دخول هذا الوقت^(١٢٩).

٤ - يرجح بعض المفسرين أن الآية جامعة للصلوات الخمس وموافقيتها، فدلوك الشمس بمعنى: زوالها عن كبد السماء يتناول الظهر والعصر تناولاً واحداً وغسق الليل بمعنى: إقباله يتناول المغرب والعشاء تناولاً واحداً، وقرآن الفجر يشير إلى صلاة مفردة لا تجمع ولا تقصر وهى صلاة الصبح.

قيل: هذا يقتضى أن يكون الدلوك مشتركاً بين الظهر والعصر. والغسق مشتركاً بين المغرب والعشاء. فيدل على جواز الجمع مطلقاً بين الأولين، وكذا بين الآخرين. فالجواب: هو كذلك بعذر السفر أو المطر ونحوها. وأما فى غيرها فلا. ذلك لما بينته السنة من فعل كل واحدة فى الوقت الخاص بها، إلا بعذر^(١٣٠). قال الحافظ ابن كثير:

قد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله، تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفاً عن سلف وقرناً بعد قرن كما هو مقرر فى مواضعه.

وعن ابن سيرين: أنه يجوز الجمع من غير خوف ولا مرض لحاجة ما لم يتخذ عادة واختار ابن المنذر وجماعة جواز الجمع فى الحضر من غير خوف ولا مطر.

وقد روى الشيخان^(١٣١) وغيرهما عن ابن عباس قال: صلى النبى ﷺ بالمدينة سبعاً وثمانياً: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء.

ومن رواية لمسلم: صلى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً من غير خوف ولا سفر، وكثير من الرواة حملوا ذلك على ليلة مطيرة. والظاهر أن مستند من جواز الجمع فى الحضر مطلقاً هذه الآية مع أثر ابن عباس^(١٣٢) المتقدم.

٥ - رجح صاحب الظلال : أن كل ما ورد في هذه الآية وما بعدها مختص بالرسول ﷺ - وأن أوقات الصلاة المكتوبة ثابتة بالسنة القولية والعملية . وأن هذه الآية لا تشير إلى أوقات الصلاة ^(١١٧) .

ونرى أن هذه الآية تشير إلى أوقات الصلاة بصفة عامة وأن الخطاب فيها للرسول ﷺ يتناول أمته أيضا . أما تحديد الأوقات تحديدا قاطعا يتناول بدايتها ونهايتها فقد تكفلت به السنة العملية والقولية .

أما الأمر بالتهجد في الآية القادمة فهو خاص بالرسول ﷺ .

ولذلك قال القرآن : نَافِلَةٌ لَّكَ يَقُولُ : نفلا لك عن فرائضك التي فرضتها عليك ، فقد كان قيام الليل فريضة عليه ﷺ وهو لغيره تطوع ^(١١٨) .

٧٩- وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَنفَعَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا .

وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ أَى : واسهر بعض الليل وتهجد ^(١١٩) به وهو أول أمر له ﷺ بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة .

نَافِلَةٌ لَّكَ أَى : أنها عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهي فريضة عليك ومندوبة في حق أمتك .

عَسَىٰ أَن يَنفَعَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . أَى : افعل هذا الذي أمرتك به ؛ لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمذك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .

قال الطبري :

وعسى من الله واجبة وإنما وجه قول أهل العلم عسى من الله واجبة أن الله لا يدع أن يفعل بعباده ما أطبعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعوض على طاعتهم إياه ^(١٢٠) .

مَقَامًا مَّحْمُودًا . أَى : يحمده القائم فيه وكل من رآه عرفه ، وهو مطلق في كل ما يجلب الحمد من أنواع الكرامات ، والمشهور أنه مقام الشفاعة العظمى ؛ للفصل بين الخلائق الذي يحمده فيه الأولون والآخرون ، كما وردت به الأخبار الصحيحة ^(١٢١) .

قال النيسابوري :

والأولى أن يخص ذلك المقام المحمود بالشفاعة ؛ لأن الحمد إنما يكون بإزاء إنعام ، ولا إنعام للنبي على أمته في الآخرة إلا إنعام الشفاعة ، أو لا إنعام أجل منها ؛ لأن السعى في تخليص الغير من العقاب أهم من السعى في إيصال الثواب ، ويؤيده رواية أبي هريرة عن النبي ﷺ : «وهو المقام الذي أشفع فيه لأمتي» ^(١٢٢) .

وقال الطبري :

«اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود ، فقال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذي يقوم به يوم القيامة للشفاعة للناس ؛ ليربيحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة في ذلك اليوم» (١٠٩) .

أخرج النسائي والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : يجمع الله الناس في صعيد واحد ، يسمعون الداعي وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه فينادى : يا محمد ، فيقول : «لبيك وسعديك . والخير في يدك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانه رب البيت» فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله .

وقد ورد في الأحاديث الصحيحة : أن الزحام إذا اشتد يوم القيامة ، ألهم الناس أن الشفاعة للأنبياء ، فيذهب الناس إليهم ، فيقول كل نبي : نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى ، حتى يذهبوا إلى النبي ﷺ فيستشفعون به عند الله تعالى ؛ ليربيحهم من هول الموقف ، فيقول الرسول : أنا لها أنا لها ! ثم يذهب تحت ساق العرش فيسجد ، ثم يلهمه الله تعالى من الثناء عليه والحمد له ما هو له أهل ، ثم يقول له الله عز وجل : ارفع ، واشفع تشفع . وسل تعط ، فذاك هو المقام المحمود الذي قال له الله : (١١٠) عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا .

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله ﷺ قال : من قال حين يسمع النداء : (اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته) حلت إلى شفاعتي (١١٢)

٨- وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ مُدْخِرٍ خَارِجِي مُخْرَجَ مُدْخِرٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا .

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ مُدْخِرٍ . أى : مدخلا حسنا مرضيا بلا آفة وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ مُدْخِرٍ . أى : مخرجا مرضيا من غير آفة الميل إلى النفس ولا الضلال بعد الهدى .

وخلاصة ذلك : أدخلني إدخالا مرضيا كإدخالى للمدينة مهاجرا وإدخالى مكة فاتحا ، وإدخالى القبر حين الموت ، وأخرجني إخراجا محفوبا بالكرامة والرضا ، كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

قال السيبورى :

والأولى أن يقال : إنه عام فى كل ما يدخل فيه ويلاسه ثم يتركه من أمر ومكان ، وقيل : أراد : إدخاله مكة ظاهرا عليها بالفتح وإخراجه منها آمنا من المشركين ، وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالما ، وقيل :

إدخاله فيما حمله من عظيم الأمر وهو النبوة وإخراجه منه مؤديا لما كلفه من غير تفريط وقيل : أراد : رب، أدخلنى الصلاة وأخرجنى منها مع الصدق والإخلاص وحضور القلب ، أو أدخلنى فى مجارى دلائل التوحيد وأخرجنى من الاشتغال بالدلائل إلى ضياء معرفة المدلول^(١٦٣).

وَأَجْعَلْ لِّى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا . أى : حجة ظاهرة تنصرنى بها على جميع من خالفنى ، أو ملكا وعزا ناصرا للإسلام وذويه .

وهذا دعاء يعلمه الله لنبيه : ليدعوه ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وفيم تتجه إليه دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج ، كناية عن صدق الرحلة كلها ، بدئها وختامها ، أولها وآخرها وما بين الأول والآخر^(١٦٤).

٨١- وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا .

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ . أى : الإسلام وَزَهَقَ الْبَاطِلُ أى : اضمحل الشر من زهقت : نفسه إذا خرجت .

أمره الله أن يقول ذلك : استبشارًا ؛ بقرب الظفر والنصر وترهيبا للمشركين !

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . أى : مضمحلا غير ثابت فى كل وقت .

تلك حقيقة لدنية يقرها القرآن بصيغة التوكيد . وإن بدا للنظرة الأولى أن للباطل صولة ودولة ، فالباطل ينتفخ وينفش ؛ لأنه باطل لا يطمئن إلى حقيقة ، ومن ثم يحاول أن يموه على العين ، وأن يبدو عظيما كبيرا ضخما راسخا ، ولكنه هش سريع العطب ، كشملة الهشيم ، ترتفع فى الفضاء عاليا ثم تخبو سريعا وتستحيل إلى رماد ، بينما الجمرة الذاكية تدفئ وتنفع وتبقى ، وكالزبد يطفو على الماء ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء .

إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ، ومن ورائه الشيطان ومن ورائه السلطان . ولكن وعد الله أصدق وسلطان الله أقوى وما من مؤمن ذاق طعم الإيمان ، إلا وذاق معه حلالة الوعد ، وصدق العهد ، ومن أوفى بعهده من الله؟! ومن أصدق من الله حديثا؟!^(١٦٥).

تنبيه :

قال القاسمى :

سباق هذه الآيات مع ما سبقها أعنى : قوله تعالى : وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَزُولَهَا فِي أَوْقَاتِ الْاهْتِمَامِ لِلْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، ومبارحة مكة وأنه تعالى أمر نبيه بأن يبتهل إليه فى تيسير هجرته وإخراجه من بلده ، وأن يجعل له حماية من لدنه تعز جانبه وتعضمه ممن يرومه بسوء .

وأسلوب التنزيل العزيز في مثل هذا الدعاء هو إرادة الخبر بحصول المدعو، ومشية الله بوقوعه عن قرب . ولذلك عقبه بقوله : **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ** ؛ إعلاما بأن الأمر قد تم ، والفرج جاء ودحر الباطل ورجع إلى أصله ، وهو العدم ^(١٧٦) .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنهما يعود في يده ويقول : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ^(١٧٧) وفى رواية للطبرانى والبيهقى عن ابن عباس : أنه ﷺ جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيها فيخر لوجهه فيقول : «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» حتى مر عليها كلها .

قال في الإكليل : فيه استحباب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر .

٨٢- **وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** .

قال الفخر الرازى : ولفظه من هنا ليست للتبويض بل هي للجنس ، كقوله تعالى : **فَاجْتَبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ** .

والمعنى : ونزل من هذا الجنس الذى هو قرآن ما هو شفاء ، فجميع القرآن شفاء للمؤمنين ^(١٧٨) .

واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على قولين :

الأول : أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها ، وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه .

الثانى : أنه شفاء من الأمراض الظاهرة ، بالرقى والتعوذ ونحو ذلك ، والتبرك بقراءته يدفع كثيرا من الأدوية والأسقام ، يدل عليه ما روى عن النبي ﷺ أنه قال فى فاتحة الكتاب : «وما يدريك أنها رقية؟» ^(١٧٩) .

ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه ^(١٨٠) .
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .

قال ابن كثير :

أى : يذهب أمراض القلوب ، من شك ، ونفاق ، وشرك ، وزيف ، وميل ، فالقرآن يشفى من ذلك كله ، وهو أيضا رحمة يحصل فيها الإيمان ، والحكمة ، وطلب الخير ، والرغبة فيه ^(١٨١) .

وقال القنوجي :

رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ : لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا والدين ، ولما في تلاوته وتدبره من الأجر العظيم ، الذي يكون سببا لرحمة الله سبحانه ، ومغفرته ورضوانه ^(١٧٧) .

وقال الطبري :

وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ : لأن المؤمنين يعملون بما فيه من فرائض الله ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلهم بذلك الجنة وينجيهم من عذابه ، فهو لهم رحمة ونعمة من الله أنعم بها عليهم .

وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا : لأن البدن غير النقي كلما غذوته : زدته شرا ، فلا يزال سماع القرآن يزيد المشركين غيظا وحقنا ، ويدعوهم ذلك إلى ارتكاب الأعمال القبيحة ^(١٧٨) .

فالظالمون قد ظلموا أنفسهم ، وأعرضوا عن الهدى ، وكلما سمعوا القرآن : ازدادوا بغيا وعنادا وكبرا قال تعالى : وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَفْتِنَاهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

وجزاء عنادهم وبغيهم ، طبع الله على قلوبهم ، وهم في الدنيا محرومون من هدى القرآن ، فهم خاسرون . وفي الآخرة معذبون بكفرهم ولجاجهم في الطغيان ، فهم خاسرون .

قال تعالى : قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . (فصلت : ٤٤) .

وقال سبحانه : وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَلَيْكُمُ زَادٌ مِمَّا زَادَنَاهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِمُسْتَشِيرٍ ؟ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَنَاهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَلْفِرُونَ . (التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥) .

قال قتادة : في قوله تعالى : وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا سَمِعَهُ الْمُؤْمِنُ : انتفع به وحفظه ووعاه وَلَا يَزِيدُ الْظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . أي : لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه ولا يعونه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين . ١ هـ .

تنبيه :

١ - في تفسير الفخر الرازي تفصيل مسهب لهذه الآية خلاصته : أن القرآن شفاء من الأمراض الروحانية وشفاء أيضا من الأمراض الجسمانية .

٢ - قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد) في بحث الأدوية والأغذية المفردة التي جاءت على لسانه ﷺ في حرف القاف (قرآن) : قال الله تعالى : وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . والصحيح أن من

ههنا لبيان الجنس، لا للتبعيض، وقال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ**؛ فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدوية القلبية والبدنية. وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ولا يوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العلل التداوى به ووضعه على دائه، بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه؛ لم يقاومه الداء أبداً. وكيف تقاوم الأدوية كلام رب الأرض والسماء، الذي لو أنزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها؟! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان، إلا وفى القرآن سبيل للدلالة على دوائه، وسببه والحماية منه، لمن رزقه الله فهما فى كتابه.. وقد علم أن الأرواح متى قويت، وقويت النفس والطبيعة؛ تعاونوا على دفع الداء وقهره.

وقد أسهب ابن القيم أيضاً فى كتاب (إغاثة الملهفان) فى بيان تضمن القرآن لأدوية القلب، وعلاجه من جميع أمراضه.

٨٣- **وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ أَى : وإذا أنعمنا على الإنسان بمال وعافية، وفتح ونصر وفعل ما يريد أعرض عن طاعتنا ويعد عن طريقنا.

والنعمة تطفى وتبطل ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر^(٧٧). وفسر الطبرى النعمة هنا: بالنجاة من الشدة.

يقول تعالى ذكره: «وإذا أنعمنا على الإنسان فنحننا من كرب ما هو فيه فى البحر، وهو ما قد أشرف فيه عليه من الهلاك، بعصفوف فى الريح عليه، إلى البر وغير ذلك من نعمنا، أعرض عن ذكرنا، وقد كان بنا مستغيثاً دون كل أحد سوانا فى حال الشدة التى كان فيها - ونأى بجانبه - يقول ويعد منا بجانبه يعنى: بنفسه، كأن لم يدعنا إلى ضرر مسه قبل ذلك»^(٧٨).

قال تعالى: **هُوَ الَّذِى يُسَوِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَوِيلٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ غَاصِيفٌ جَاءَتْهُمْ الْمَرْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلَمُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَإِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَفْكُونُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... (يونس: ٢٢، ٢٣).**

وقال سبحانه: **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُصَّةَ مَرِّكَانَ لَمْ يَذْكُرْنَا إِلَى مَرِّ مَسَّة ... (يونس: ١٢).**

وقال سبحانه: **فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضُوا ... (الإسراء: ٦٧).**

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّ أَي: وإذا أصابته الجوائح وانتابته النواذب؛ كان يتوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك.

قال النيسابورى:

وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ من مرض أو فقر كَانَ يَتُوسَّ شديد اليأس من روح الله والحاصل أنه إن فاز بالمطلوب الدينوى، وظفر بالمقصود الدنى، نسي المنعم الحقيقى. وإن فاته شىء من ذلك، استولى عليه الأسف حتى كاد يتلف أو يدنف، وكلتا الخصلتين مذمومة، ولا مقتضى لهما إلا العجز والطيش وكل بقدر (١٧٧) ونحو الآية قوله تعالى: وَلَئِنْ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْتُسٌ كَفُورٌ. (هود: ٩).

٨٤- قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا.

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ أَي: قل: إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته، وحاله فى الهدى والضلال، وما طبع عليه من الخير والشر، من قولهم: (طريق ذو شواكل)، وهى الطرق التى تنتشعب منه، لتشاكلها، أى: تشابهاها فى الشكل، فسميت عادة المرء بها؛ لأنها تشاكل حاله.

فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا. أى: فريكم أعلم من كل واحد، بمن منكم أوضح طريقا، واتباعا للحق، فيؤتيه أجره موفورا، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق؛ لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة، وما استعدوا له، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة وفى هذه الآية تهديد خفى بعاقبة العمل والاتجاه؛ لياخذ الإنسان حذره، ويحاول أن يسلك سبيل الهدى ويجد طريقه إلى الله.

★ ★ ★

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥)

تمهيد:

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء:

الأول: القرآن، وقد سمي القرآن روحا؛ لأنه أحيا الأمة الإسلامية وبعث فيها العزة والكرامة، وجمعها على المودة والألفة، وأمدّها بمقامات البقاء والنصر، قال تعالى:

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرِنَا ... (الشورى: ٥٢).

وقال سبحانه: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... (النحل: ٢).

الثاني : جبريل عليه السلام ، وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل بالروح فى مواضع عدة من القرآن

كقوله تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ ... (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقال سبحانه : فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ... (مريم : ١٧) ، وهو روح القدس .

قال تعالى : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ... (النحل : ١٠٢) .

الثالث : الروح التى يحيا بها بدن الإنسان - وهذا هو قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعترافا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : مر رسول الله ﷺ بنجر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر ، فغرفت أنه يوحى إليه ثم قال : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلٌ

التفسير :

٨٥- وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ...

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ الذى به البدن ، أقديم هو أم حادث ؟

قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى . الأمر واحد الأمور أى : الروح شأن من شئونه تعالى ، حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه ، لا يعلمه إلا هو ؛ لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلمون من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لكم إدراك ما هو غير مادى كالروح .

وللعلماء فى حقيقة الروح أقوال كثيرة ، أولاها الاعتبار قولان :

١ - إن الروح جسد نورانى ، حى متحرك من العالم العلوى ، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء فى الورد ، والذهن فى الزيتون ، والنار فى الفحم ، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ، ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، والأحدث الموت ، واختار هذا رأى الرازى ، وابن القيم فى كتاب الروح .

٢ - إنه ليس بجسم ولا جسماني ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي ، والراغب الأصفهاني .

وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . هو علم المحسوسات ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، وذلك شيء نزر قليل بالنسبة إلى علم الله تعالى والراسخين في العلم ، وقد روى الطبري : أن هذه الآية نزلت بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أبحار يهود فقالوا: يا محمد: ألم يبلغنا أنك تقول: وما أوتينا من العلم إلا قليلاً أفعنيتنا أم قومك قال : «كلا قد عنيت» ، قالوا : فإنك تتلو أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : «هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ما إن علمتم به انتفعتم» فأنزل الله : وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان : ٢٧).

وأورد الطبري رواية أخرى ، تفيد : أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، حين سأله اليهود عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، فأنزل الله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا - يعنى : اليهود ، والراجع أن هذه الآية مدنية لا مكية ، وأن السؤال فيها جاء من اليهود .

وقد ذهب فريق إلى أن المخاطب بهذه الآية هم اليهود دون غيرهم .

وهناك من يرى أن الخطاب موجه إلى الرسول ﷺ وإلى الناس أجمعين قال الطبري : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : خرج الكلام خطاباً لمن خوطب به ، والمراد : جميع الخلق ؛ لأن علم كل أحد سوى الله وأن كثر فى علم الله قليل ، وإنما معنى الكلام : وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا قليلاً من كثير مما يعلم الله ^(١٧٧) .

ملاحظات :

١ - مذهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وسائر سلف الأمة وأئمة السنة ، أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن ، وتنعم وتعذب ، ليست هى البدن ، ولا جزءاً من أجزائه .

٢ - قال أبو المعالى : إن الروح أجسام لطيفة ، مشابهة للأجسام المحسوسة ، أجرى الله العادة بحياة الأجسام ما استمرت مشابهتها لها ، فإذا فارقتها تعقب الموت الحياة فى استمرار العادة ^(١٧٨) .

٣ - كتب بعض المتقنين عن مباحث العصرين فى الروح فقال :

إن نظرية الروحانيين التى يستدلون عليها فى أوربا بالحس فى هذه الأيام ، هى أن للإنسان روحاً مبطت عليه من الملام الأعلى . لا يصل العقل إلى إدراك كنهها ، وأنها متصلة بهذا الجسد الطينى ، بواسطة هيكل لطيف شفاف على شكل الجسد تماماً . ولكنه ليس من طبيعته ولا محكوما بقوانينه ، وأنه كخلاف للسر

الإلهي المسمى : روحا . ولعل في هذا ما يشبه قول الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه عن الروح : (هى صورة كالجسد) ويقولون : إن الروح وغلافها هذا يخرجان من الجسد عند حصول الموت للشخص ، إلى عالم غير هذا العالم ، ولكنهما لا ينفصلان عنه كل الانفصال ، بل أرواح الموتى منتشرة حولنا فى كل جهة ، ولكننا لا نراها بأعيننا ؛ لعدم استعداد أعيننا لذلك ، كما أنها ليست مستعدة لرؤية أشعة (رونجن) مع أنها موجودة كما تدل عليه الآلة التى صنعها لها . وقد دخلت تطبيقاتها فى علم الطب وأفادت العلم الطبيعى فائدة كبرى . ولكن يوجد أشخاص فيهم استعداد خاص . به يرون الأرواح رائحة غادية وعن أيمانهم وعن شمائلهم رؤية حقيقية (٣٧١) .

★ ★ ★

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

المفردات :

وكيلا : أى : ملتزما استدراجه بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .

ظهيراً : أى : معيناً فى تحقيق ما يتوكلونه من الإتيان بمثله .

صرفنا : كررنا ورددنا بوجوه مختلفة .

كفورا : جحودا . وهو من مصادر كفر .

المعنى الإجمالى :

لو شاء الله لأذهب القرآن من الصدور والسطور ، ومحاه من صدر الرسول ؛ ولكنه أبقاه فى الصدور رحمة منه وقصلا ، وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء ، وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الدين ، بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم بين الناس .

ثم ذكر : أن القرآن وحى يوحى فلا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض معينا . وقد اشتمل على الحكم والأحكام ، والآداب التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبرا .

التفسير:

٨٦- وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي ^(٨٨٠) أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ .

أى : والله لأن شئنا لنمحو القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثرا ، وتصيرن كما كنت لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان .

ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا . أى : لا تجد ناصرا ينصرك فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيما لك يمنعنا من فعل ذلك .

٨٧- إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا .

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ أى : لكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن .
قال الرازى : أنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم ،
ثانيهما : إبقاء حفظه .

إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا . إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك
ومصاحفك وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصبرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين ، وأعطاك المقام المحمود .
قال الزمخشري :

وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظًا ، بعد المنة العظيمة فى تنزيله وتحفيظه . فعلى كل
ذى علم ألا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما ، وهما منة الله عليه بحفظه العلم ورسوخه فى صدره ،
ومنته عليه فى بقاء المحفوظ .

٨٨- قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيرًا .

أى : قل لهم متحديا : والله لأن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على
رسوله بلاغة ، وإحاطة وحسن معنى وتصرفًا ، وأحكاما ومنهجا كاملا ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ولو
تعاونوا وتظاهروا فإن هذا غير ميسور لهم .

فهذا القرآن ليس ألفاظًا وعبارات ، يحاول الإنس والجن أن يحاكيوها ، إنما هو كسائر ما يبدعه الله
يعجز المخلوقون أن يصنعوه .

هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل ، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وأثاره .

والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل ، منهج ملحوظ فيه نواميس الفطرة التي تعرف النفس البشرية ، فى كل أطوارها وأحوالها ، والتي تعرف الجماعات الإنسانية فى كل ظروفها وأطوارها ؛ ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة ، ويعالج الجماعة المتشابكة ، بالقوانين الملائمة للفطرة ، المتغلغلة فى وشائجها ، ودروبها ومنحنيات الكثرة ، يعالجها علاجاً متكاملًا متناسق الخطوات فى كل جانب ، فى الوقت الواحد ، فلا يغيب عن حسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابس المتعارضة ، فى حياة الفرد وحياة الجماعة ؛ لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة فى كل أحوالها وملابساتها المتشابكة .

أما النظم البشرية فهى متأثرة بقصور الإنسان وملابس حياته ، ومن ثم فهى تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات ، فى الوقت الواحد ، وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدى بدوره إلى بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد .

إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه ، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه يحيط بما يحيط به ^(٨٨) .

٨٩- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...

أى : ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر ، والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهي ، وأقاصيص الأولين ، والجنة والنار ؛ ليدبروا آياته ، ويتعظوا بها .

فمن الناس من ينفعه الوعد ، ومنهم من يتنجح معه الوعيد ومنهم من يستهويه قصص الأولين ، ومنهم من يلفت نظره وصف الكون ، وعرض مشاهد آيات الله فيه ، ومنهم من بأسره الحديث عن دقائق النفس ، وأحاسيسها ومواقفها فى السراء والضراء ، وقد نوع القرآن آياته ؛ فمنها : ما اشتمل على الأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، ومنها : ما عنى بأخبار الأمم السابقة ، وجزاء المكذبين وثواب العاملين ، ومنها : ما عنى بوصف مشاهد الكون ، وحقائق الوجود ، ومنها : ما عنى بسلوك الأفراد والجماعات ، ومنها : ما حث على الفضائل ودعا إليها وحذر من الرذائل ، وتوعدهم من فعلها .

وبذلك أخذ القرآن على النفس البشرية كل سبيل ، ووضح أمامها أدلة الإيمان ، وحقائق الإسلام ، واستثار فى الإنسان نوازع الفطرة ، وتتبع أفكار المنكرين الجاحدين بالتفديد ، حتى ألقوا سلاحهم وأظهروا عجزهم ، وقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله ، أو بسورة واحدة فعجزوا ولم يهزم العجز إلى يوم الدين .

لَقَدْ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا قَلِيلًا . أى : فابى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار ، والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

كسـنـفـا ، أى : مقطعا ، جمع كسفة ، كقطع وقطعة ، لفظا ومعنى .

قـبـيـلـا ، أى : كقبلا بما تدعيه وشاهدنا على صحته ، ويصح أن يكون معنى قبيل : مقابلة وجهها لوجه كعشير بمعنى : المعاشر والمراد : رؤيتهم عيانا .

مـنـ زـخـرفـا ، أى : من ذهب وأصل الزخرف لغة الزينة وأجملها ما كان بالذهب

تـرقـى ، أى : تصعد .

سـبـحـانـ رـبـى ، أى : أنزهه تنزيها أن يتحكم عليه إلى هذا الحد .

مـطـمـنـنـين ، أى : ساكنين مقيمين فيها .

أولـيـاء ، أى : نصراء جمع ولى .

ونـحـشـرهم ، أى : ونجمعهم وأصل الحشر : جمع الناس ، وسوقهم إلى الحرب .

ويـكـمـا ، أى : وخرسا جمع أبكم يقال : بكم ، ييكم ، يكما أى : خرس .

ومـمـمـا ، أى : طرشا جمع أصم يقال : صم ، يصم ، صمما أى : طرش .

مـأـواهم ، أى : محل إقامتهم . يقال : أوى ، يأوى ، أويا أى : أقام .

خـسـبـت ، أى : سكن لهيبها . يقال : خبت النار ، تخبو ، خبوا أى : سكن لهيبها .

سـعـيـرا ، أى : توقدا . يقال : سعرت النار أسعرها ، سعرا ، ففسعرت ، أى : أوقدتها فتوقدت .

رفـاتـا ، أى : فتاتا . يقال : رفته ، يرفته ، رفتا ، أى : فثته .

لـا رـيـبـ فـيـهـ ، أى : لا شك فيه ، يقال : رابنى هذا الأمر يريبنى ريبا ، وأرابنى ، أى : حدث لى منه شك . والريبة : الشك ، جمعه : الريب .

كـمـوـرا ، أى : جحودا للحق .

خـشـيـة الإـنـفـاق ، أى : خوف الفقر .

قـتـوـرا ، أى : مقترا بخيلا ، يقال : قتر عليه ، يقتـر ، قترا ، وقتر أى : ضيق عليه .

المعنى الإجمالى :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم : أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعنثون فى أنيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها : آمنوا به وصدقوا برسالته : فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله رسولا من البشر ، فأجابهم : بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة : لوجب أن تكون رسلكم من الملائكة : لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقى من قومه . بأن الهداية والإيمان بيد الله ، ولا قدرة للنهى على شيء من ذلك ، ومن يضل الله فلا هادئ له . وسيلقى المكذبون جزاءهم فى نار جهنم بما كسبت أيديهم ودسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى وإنكار البعث والحساب .

وهم يعلمون أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ، ثم أمر الرسول أن يقول لهم : لو كنتم تملكون خزائن رزق ربى ؛ لبخلتم خشية الفقر ؛ لأن الإنسان مطبوع على شدة الحرص والبخل ، والله هو الغنى الجواد ، يمنح ما شاء لمن شاء ، وينزل المعجزات ما شاء لا ما شاء الناس وهو فى ذلك كله حكيم عليم .

سبب نزول الآيات :

روى الطبرى بإسناده ^(٨٧) عن ابن عباس : أن نفرا من قريش اجتمعوا بعد غروب الشمس عند الكعبة وطلبوا رسول الله ﷺ فجاءهم فقالوا له : يا محمد ، إن كنت جئت بهذا الحديد - يعنون القرآن - تطلب به ما لا جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد الشرف ؛ سودناك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ؛ ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى بك رثيا من الجن ، تراه قد غلب عليك لا تستطيع رده ؛ بذلنا لك أموالا فى طلب الطب حتى نبرئك منه - وكانوا يسمون التابع من الجن : رثيا - فقال رسول الله ﷺ : « ما بى من شيء مما تقولون ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علي كتابا ، وأمرنى أن أكون بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة رضى ، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله عز وجل ، حتى يحكم الله بينى وبينكم » فقالوا : يا محمد ، فإن كنت صادقا فيما تقول : فسل لنا ريك الذى بعثك ، فليسير عنا هذا الجبل الذى قد ضيق علينا ، ويبسط لنا بلادا ، ويفجر لنا فيها الأنهار ، كأنهار الشام والعراق ، ويبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن منهم قصى بن كلاب ، فإنه كان شيخا صدوقا ، فنسألهم عما تقول : أحق هو أم باطل ، فإن صدقوك ؛ صدقناك ، ثم قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل لنا ريك أن يبعث ملكا يصدقك ، وإسأله أن يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة ، تعينك على معاشك . فقال : « ما بعثت بهذا » ، قالوا : فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، فإن ريك إن شاء فعل ، كما تقول ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا .

وقول عبد الله بن أبى أمية - وهو ابن عاتكة ، عمه الرسول - : لا أؤمن بك أبدا حتى تتخذ سلما إلى السماء ترقى فيه وإنا ننظر إليك حتى تأتيناها ، فتأتى بنسخة منشورة معك وتنفرد من الملائكة يشهدون لك بما تقول .

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم حزينا ؛ لما رأى من تباعدهم عن الهدى فأنزل الله عز وجل ؛ تسلية له ﷺ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ... الآية (١٨٧).

التفسير :

طلب كفار مكة أن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة كدليل على صدق نبوته وحدوا له آية من ست وهما هي ذى :

٩٠- وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا .

أى : قال رؤساء مكة كعنتة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبى سفيان، والنضر بن الحارث قول المبهوث والممجوج المتحير : ان نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق الماء أو تغور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . (يونس : ٩٦ ، ٩٧) .

وقال سبحانه : وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَفَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلُّ هَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا يُؤْمِنُوا . (الأنعام : ١١١)

٩١- أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا .

أى : أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

٩٢- أَوْ تُسْقِطُ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا ...

تقول العرب : جاءنا بغريد كسف أى : قطع من الخبز : أى : أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت فى قولك : أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ (سبا : ٩) .

وعلاصة ذلك : أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعاً قطعاً ، ونحو الآية قوله : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ... (الأنفال : ٣٢) .

وكذلك طلب قوم شعيب منه فقالوا : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (الشعراء : ١٨٧) .

أَوْ تَأْتَىٰ بِلَآلِهِ وَالْمَلَكُوتِ قَبِيلًا .

أى : أو تأتى بالله وبالملائكة تقابلهم معاينة ومواجهة ، ونحو الآية ما حكاه القرآن عنهم : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يُرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ... (الفرقان : ٢١) .

٩٣- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ ذُرِّيَّتِكَ ...

أى : أو يكون لك بيت من ذهاب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

أَوْ تَرْفَعْنِي فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفْعِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ . أى : أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، وإن نصدقك من أجل رقيق وحده ، بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرأه بلغتنا على نهج كلامنا وفيه تصديقك .

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . أى : قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ريك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسول أن يأتيوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة ، من غير تفويض إليهم فيه ، ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل .

تنبيه :

قال القاسمي : (١٨٤)

لا يخفى ما فى اقتراح هذه الآيات من الجهل الكبير بسنة الله فى خلقه ، وبحكمته وجلاله وبيان ذلك- كما فى كتاب (لسان الصدق) - أن ما اقترحته قريش (منه) ما أرادوا به مصلحتهم دون مصلحة العباد ، مما يخالف حكمة الله المقتضية : لإخلاء بعض البقاع من العيون النابعة ، والأنهار الجارية ، والجنان الناضرة ، دون بعض ، وإرساء الجبال الشم فى موضع دون آخر ، لمصالح يعلمها هو - جات عظمتها - ولا يعلمها الخلق . فليس مقترحهم هذا من العجز فى شئ . مع أن مثله لا تثبت به النبوة .

فإننا نعلم أن أناسا قد استنبطوا العيون وغرسوا الجنان من النخيل والأعناب ، ونحتوا الجبال ولم يكونوا أنبياء .

ومنه : ما يناقض إرادة الله سبحانه وهو قولهم : أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زُعمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا فَإِنِ انْزَالِ السَّمَاءَ قطعاً مقتض لهلاك العالم بحذافيره ، والله يريد إبقاءه إلى أجل معلوم .

ومنه : ما هو مستحيل فى نفسه غير ممكن وقوعه أصلاً وهو قولهم : أَوْ تَأْتِيَّ بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قِيلاً . فإن الإتيان بالله والملائكة حتى يشاهدهم المشركون أو غيرهم ، مما لا يمكن أن يكون ، فلا يجوز طلبه ، وليس من أنواع المعجز .

ومنه : ما لا يصلح للأنبياء ولو حصل لم يكن معجزا وهو قولهم : أَوْ يَكُونُ لَكَ نَبِيٌّ مِّنْ زُخْرَفٍ . فإن هذا غير صالح للأنبياء ، وليس بمعجز ؛ لحصول مثله عند أشباه فرعون .

ومنه : ما وعدوا بعدم إيمانهم به لو حصل ، وهو قولهم : أَوْ تَرْقَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرُفُوكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرؤه ... (١٨٤)

فلم يكن شيء مما اقترحوه في الآيات معجزا . وإنما هي أمور مستحيلة في نفسها أو لأمر آخر ؛ اقترحوها تكبرا وتعتنا وجهلا . على أنهم بعد تلك الأقوال كلها قال قاتل منهم : وإيم الله ! لو فعلت ذلك ؛ لظننت أني لا أصدقك .

فكان الأولى في جوابهم عما اقترحوه ، هو قول الرسول لهم : سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا مَّرْسُولًا . أي : تنزه ربي عن فعل ما اقترحتموه من المحال وما يناقض حكمته . وما أنا إلا بشر رسول على أن أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم . وقد أنيتكم بما يدل على صدق رسالتي مما أوحاه إلي وذلك ما تحدثكم بالإتيان بمثله أو بسورة مثله في الهداية والإصلاح (١٨٥) .

٩٤- وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ . أي : الذين حكى تعنتهم ، وهم مشركو قريش ، من الإيمان بك حين مجيء الوحي المقرون بالمعجزات ، التي تستدعي الإيمان بنبوتك وبما أنزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ؟! إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر ، واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق ؛ لوجب أن يكون من الملائكة ونحو الآية قوله تعالى : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ... (يونس : ٢) .

والآيات في ذلك كثيرة . ثم نبه تعالى على لطفه ورحمته بعباده ، وأنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم ؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه ، ويمكنهم مخاطبته ومكالمته حتى لو كانت الأرض مستقرا لملائكته ، لكانت رسلهم منهم ؛ جريا على قضية الحكمة فقال سبحانه :

٩٥- قُلْ لَوْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا .

أي : لو وجد في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الإنس مُطْمَئِنِّينَ أي : ساكنين في الأرض مقيمين فيها حتى يمكن الاجتماع بهم وتتلقى الشرائع منهم ؛ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ، أي : من جنسهم ؛ ليعلمهم الخير ويهديهم إلى الرشd ولكن طبيعة الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل

عليهم التخاطب والتغاهم معهم : لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر : لأن الله وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ؛ بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية ؛ بها يبلغون رسالات ربهم إلى عبادهم .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله :

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ . (ال عمران : ١٦٤) .

وقوله : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . (التوبة : ١٢٨) .

وقوله : كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . (البقرة : ١٥١) .

ولجمال القول في ذلك : إنه لو جعل الرسل ملائكة ؛ لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا ؛ حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال سبحانه : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دحية الكلبي مرارا عدة ، فقد صح أن اعرابيا جاء وعليه وعاء السفر فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم» .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر يقوله :

٩٦- قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . أي : على أنى بلغت ما أرسلت به إليكم وأنكم كذبتهم وعاندتم ، وقرّر الفخر الرازي في تفسيره : أن المعنى بالشهادة هو الشهادة على رسالته عليه الصلاة والسلام بإعجاز القرآن . أي : كفى بما أكرمنى به تعالى من هذا المعجز شاهدا على صدقى ، ومن شهد تعالى على صدقه ؛ فهو صادق ، فقولكم - معشر المشركين - بعد هذا ، يجب أن يكون الرسول ملكا تحكم فاسد . ا هـ .

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . أي : أنه محيط بأحوال عبادهم الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أن ما دعاهم إليه، إنكار نبوته ﷺ، إلا الحسد، وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق، كما أن فيه تسلية له ﷺ، على ما يلقاه من الإصرار والعناد، والإمعان فى إيذانه.

٩٧- وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبِهِ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَيُكَمِّمَا وَصَمَّا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

من يهده الله إلى طريق الرشاد ؛ لحسن استعداده فهو المهتدى ، ومن يضلله ؛ لفساد طبعه ، وسوء اختياره وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ؛ فلن تجد لهم أنصارا يهدونهم ويحفظونهم من قهر الله سبحانه .

قال فى ظلال القرآن :

ولقد جعل الله للمهتدى والضلال سننا، وترك الناس لهذه السنن يسرون وفقها، ويتعرضون لعواقبها. ومن هذه السنن: أن الإنسان مهيباً للمهتدى والضلال، وفق ما يحاوله لنفسه من السير فى طريق الهدى أو طريق الضلال ، فالذى يستحق هداية الله بمحاولته واتجاهه : يهديه الله ، وهذا هو المهتدى حقاً ؛ لأنه اتبع هدى الله . والذين يستحقون الضلال بالإعراض عن دلائل الهدى وآياته ؛ لا يعصمهم أحد من عذاب الله ^(١٨٧) .

فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ . أى : يسحبون عليها كقوله سبحانه : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى آثَارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ... (القم: ٤٨) . والوجه أكرم شيء فى الإنسان فهو مجمع المحاسن وفيه أهم الحواس كالعين والأذن والذوق والشم ومن شأن الإنسان أن يدافع عن وجهه وأن يحميه بيده فإذا اشتد هول القيامة تحمل الكافر عذاب النار بوجهه ؛ لأنه يلقى فى جهنم مغلولة يداه إلى عنقه فلا يستطيع أن يدفع عن وجهه العذاب قال تعالى : أَلَمْ يَنْتَهِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعِلَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ... (الزمر: ٢٤) .

وقال فى ظلال القرآن : ونحشرهم يوم القيامة فى صورة مهينة يتكفأون على وجوههم .

وقال القاشانى : أى : ناكسى الرؤوس لانجذابهم إلى الجهة السفلية .

عُمِيًَّا وَيُكَمِّمَا وَصَمَّا . أى : مطموسين محرومين من جوارحهم التى تهديهم فى هذا الزحام ؛ جزاء ما عطلوا هذه الجوارح فى الدنيا عن إدراك دلائل الهدى .

روى البخارى ومسلم : عن أنس رضى الله عنه أنه قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : «الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» ^(١٨٨) .

وروى الترمذى : أن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة ، وركبانا ، وعلى وجوههم ^(١٨٩) .

وإننا نرى في الدنيا من الحيوان ما هو طائر ومنه ما هو ماش ، ومنه ما هو زاحف ، كالحيات وهوام الأرض . والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة في الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه في الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

والخلاصة : أنهم يبعثون في أقبح صورة وأشنع منظر وقد جمع الله لهم بين عمى البصر ، وعدم النطق ، وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم ، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه .

خاتمة ،

جاء في تفسير الخطيب ما يأتي :

وأما قوله تعالى : **عُمِّيَا وَبُكْمًا وَصُمًّا** . فقد استشكله شخص على ابن عباس فقال : أليس قد قال تعالى : **وَرَزَّاءَ الْمُجْرِئُونَ أَتَّارَ ...** (الكهف : ٥٣) . وقال تعالى : **سَمِعُوا لَهَا تَغِيْطًا وَرَفِيرًا** . (الفرقان : ١٢) وقال تعالى : **دَعَوْا هُنَالِكَ لَبُورًا** . (الفرقان : ١٣) وقال تعالى : **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّلُ عَنْ نَفْسِهَا ...** (النحل : ١١١) وقال تعالى حكاية عن الكفار : **وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ^(١٠٠) فثبت بهذه الآيات أنهم يرون ويسمعون ويتكلمون فكيف قال تعالى : **هنا : عُمِّيَا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ؟ أجاب ابن عباس وتلامذته عنه من وجوه :

الأول : قال ابن عباس : **عُمِّيَا** لا يرون شيئا يسره **صُمًّا** لا يسمعون شيئا يسره **بُكْمًا** لا ينطقون بحجة .

الثاني : قال : في رواية عطاء **عُمِّيَا** عن النظر أى : عما جعله الله تعالى لأوليائه **وَبُكْمًا** عن مخاطبة الله تعالى ومخاطبة الملائكة المقربين **صُمًّا** عن ثناء الله تعالى عليهم .

الثالث : قال مقاتل : إنه حين يقال لهم : **احسبوا فيها ولا تكلمون** ؛ يصيرون **عميا ، بكما ، صما** أما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون وينطقون .

الرابع : أنهم يكونون راثنين سامعين ناظرين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا أن يطالعوا كتبهم ولا أن يسمعوا لإلزام حجة الله تعالى عليهم إلا أنهم إذا أخذوا يذهبون من الموقف إلى النار جعلهم الله تعالى **عميا ، بكما ، صما** ، قال الفخر الرازي : والجواب الأول أولى : لأن الآيات السابقة تدل على أنهم في النار يصبون ويسمعون ويصيحون ^(١٠١) .

مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا .

خَبَتْ أى : سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم **زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** أى : توددا . بأن تبدل جلودهم ولحومهم ، فتعود ملتهبة مستعرة .

قال الزمخشري :

كانهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء ، جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم ، تأكلها وتفتنيها ، ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة : ليزيد ذلك في تحسره على تكذيبهم البعث ، ولأنه أدخل في الانقمام من الجاحد .

٩٨- ذَٰلِكَ جَزَاءُكُمْ بِالْهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفُفًا إِنَّا لَمَعْبُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا .

أى : هذا العذاب جزاؤهم : لأنهم استنكروا البعث واستبعدوا وقوعه وقالوا : أبعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك وقد تلف لحمنا وبقينا عظاما بل رقت عظامنا فصارنا رفاتا تعاد مرة أخرى ؟ استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

٩٩- أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...

أى : ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السماوات والأرض ابتداء على غير مثال سابق ، وأقامهما بقدرته - قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق مرة أخرى ، وكيف لا يقدر على إعادتهم والإعادة أهون من الابتداء .

وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا زَيْدًا فِيهِ . أى : وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبيا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها ، لا يعلمها إلا هو كما قال سبحانه : وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . (هود : ١٠٤) .

وعلاصة ذلك : قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السماوات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، وإعادتهم إلى الحياة بالبعث ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لا شك فيه فلا وجه لإنكاره .

فَأَنبِئِ الظَّالِمِينَ إِنَّهُمْ لَكَ كُفَرُوا .

أى : بعد قيام الحجة عليهم ووضوح الدليل أمامهم ، أبوا إلا جحودا وتماديا فى باطلهم وضلالهم ، فكان جزاؤهم عادلا بعد منطق الدلالات ومنطق المشاهدات ووضوح الآيات .

١٠٠- قُلْ لَوْ أَنَّمْ فَمِلْكُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفَرًا .

المراد من الإنفاق هنا : الفقر ، يقال : أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق ، وأملق ، وأعدم ، وأصرم ، بمعنى : أى : قل لهم أيها الرسول : إنكم لو تملكون التصرف فى خزائن الله : لأمسكتم خشية الفقر : أى : خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبدا .

وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا . أَيْ : بخيلا شحيحا ، والقتر ، والإقتار ، والتقتير : هو التقصير فى الإنفاق .

قال النيسابورى :

وهذا الخبر لا ينافى ما قد يوجد فى الناس ممن هو كريم جواد : لأن اللام فى الإنسان للجنس أى : هذا الجنس من شأنه الشح ، إذا كان باقيا على طبعه ؛ لأنه خلق محتاجا إلى ضرورات المسكن والملبس والمطعم والمنكوح ، ولا بد له فى تحصيل هذه الأشياء من المال ، فيه تندفع حاجاته وتتم الأمور المتوقفة على التعاون ، فلا جرم يحب المال ويمسكه لأيام الضرورة والفاقة ، ومن الناس من يحب المال محبة ذاتية لا عرضية ، فإذا الأصل فى الإنسان هو البخل . والجدود منه إنما هو أمر تكلفى أو عرضى ؛ طلبا للثناء أو الثواب . وقيل : المراد بهذا ، الإنسان المعهود السابق ، ممن قالوا : لن نؤمن لك ؛ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .. فبين الله تعالى : أنهم لو ملكوا خزائن الأرض ؛ لبخلوا بها ^(١٩٧) .

وقال ابن كثير :

إن الله تعالى يصف الإنسان من حيث هو إلا من وفقه الله وهده ، فإن البخل والجزع والهلع صفة له ، كما قال تعالى : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُمِصُّنُ .

(المعارج : ١٩ - ٢٢)

وشبهه بهذه الآيات قوله سبحانه :

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . (النساء : ٥٣) .

أى : لو أن لهم نصيبا فى ملك الله ؛ لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير ، وقد جاء فى الصحيحين : «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما فى يمينه» ^(١٩٨) .

وجاء فى تفسير الخطيب ما يأتى :

فإن قيل : قد يوجد فى جنس الإنسان من هو جواد كريم ؛ أجيب من وجوه :

الأول : أن الأصل فى الإنسان البخل ؛ لأنه خلق محتاجا والمحتاج لا بد وأن يحبس ما به يدفع الحاجة ، وأن يمسكه لنفسه إلا أنه قد يوجد به لأسباب من الخارج ، فثبت أن الأصل فى الإنسان البخل .

الثانى : أن الإنسان إنما يبذل ؛ لطلب الثناء والحمد ، وليخرج من عبدة الواجب ، فهو فى الحقيقة ما أنفق إلا لياخذ العوض فهو فى الحقيقة بخيل .

الثالث : أن المراد بهذا الإنسان المعهود السابق ، وهم الذين قالوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ^(١٩٩) .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرِ فَجَنَابِكُمْ لَافِيًا ﴿١٠٤﴾﴾

المضردات :

بيئات ، أى : واضحات .

مسحورا ، أى : مخبول العقل .

بصائر : أى : حججا وبيئات تبصرك صدقى ، واحدها : بصيرة أى : مبصرة بيئة .

مَثْبُورًا : أى : مصروفًا عن الخير ، من قولهم : ما أنبرك عن هذا ؟ أى : ما صرفك ؟ ويجوز أن يكون بمعنى : هالكا ، من قولهم : ثُبر ؛ يثبر ؛ ثبورا ، أى : هلك .

ان يستفزعهم : أى : أن يستخفهم ويخرجهم من أرض مصر بالقتل أو النفي والمراد : موسى وقومه .

المعنى الإجمالى :

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا - ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتهم وأعظم منه ، ولم تجر فرعون وقومه شيئا : فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، وكفناكم الآيات العلمية التى أنزلها على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج : أهلكم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ما جرى لموسى مع فرعون وما جوزى به فرعون وقومه .

التفسير :

١٠١ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...

أى : ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه ، حين أرسل إلى فرعون وقومه فلم يؤمنوا بها ، كما قال تعالى : فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . (يونس : ٧٥) وقال : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

وقد ذكر سبحانه في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

تتمثل فيما يأتي :

- ١ - انقلاب العصا حية .
 - ٢ - تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .
 - ٣ - اليد البيضاء .
 - ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ - الطوفان ، والجراد ، والقمل والضفادع والدم ^(١٠٤) .
 - ٩ - شق البحر ^(١٠١) .
 - ١٠ - انفلاق الحجر في قوله : فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ... (البقرة : ٦٠) ^(١٠٢) .
 - ١١ - إظلال الجبل في قوله : وَإِذْ نَفَخْنَا الْجَبَلَ مَرْجًا مَرْجًا ... (الأعراف : ١٧١) .
 - ١٢ - إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه ^(١٠٣) .
 - ١٣ ، ١٤ - الجذب ، ونقص الثمرات في قوله : وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ .
 - (الأعراف : ١٣٠)
 - ١٥ - الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة ^(١٠٤) .
 - ١٦ - إزالة العقدة من لسان موسى ، أي : أذهب الله العجمة عن لسانه وصار فصيحاً ، وقد اختلفوا في المراد من هذه الآيات التسع .
- جاء في تفسير النيسابوري وابن جرير الطبري من طرق عدة عن ابن عباس : أن الآيات التسع هن :
- العصا ، واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور الذي نثقه على بني إسرائيل .
- وعن الحسن : الطوفان والسنون ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور ^(١٠٥) .
- وقيل : المراد بالآيات : الأحكام فقد أخرج الإمام أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه :
- أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله ، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى :
- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى بَشْعًا بَشْعًا ... فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تنزوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمسوا بغيري إلى ذي سلطان ؛ ليقتله ولا تذهبوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت » فقبلا يده ورجله وقالوا : نشهد أنك نبي قال : فما يمنعكم أن تسلموا ؟ قالوا : إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإننا نخاف أن اتبعناكم أن تقتلنا يهود .

قال الإمام فخر الدين الرازي : هو أجود ما قيل في الآيات التسع . وقال الشهاب الخفاجي : وهذا هو التفسير الذي عليه المعول في الآية .

وأرى أن عد الأحكام من الآيات البينات فيه بعد : لأن كل رسالة سماوية تشتمل على أحكام وآداب .

فلماذا خص الله موسى بتسع آيات ؟

الراجح أنها معجزات أيد الله بها موسى ، وقد أيد الله موسى بأكثر من تسع آيات ، فعد بعض المفسرين جانباً منها وترك بعضهم جانباً آخر .

إلا أن تخصيص العدد بالذكر لا يقدح في الزيادة عليه هكذا قال الأصوليون : ولكن الذوق يأبى ألا يكون للتخصيص فائدة والذي يدور في خلدني أن سبب التخصيص هو أن مرجع معجزاته إلى تسعة أنواع كالسنين ونقص الثمرات مثلاً فإنهما نوع واحد ^(١٠١) والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم يمكن أن تكون آية واحدة تشتمل ألواناً من العذاب عذب الله بها أهل مصر ، ليفكروا جديداً في صدق رسالة موسى .

فَسَقِلْ نَبِيَّ إِسْرَئِيلَ . والخطاب فيه للنبي ﷺ والسؤال سؤال استشهاد لمزيد الطمأنينة والإيقان : لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت والمستولون هم مؤمنو بني إسرائيل كعبد الله بن سلام وأصحابه .
إِذْ جَاءَهُمْ ^(١٠٢) لَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا ^(١٠٣) .

أي : فذهب موسى إلى فرعون وأظهر آياته ودعاه للإيمان بالله ولإرسال بني إسرائيل معه ، فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مخطئ العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأي ، وهذا كقوله : إِنْ رُسُلُكُمْ آتَوْا بِالسُّورِ إِلَىٰكُمْ لَسَجُورًا . (الشعراء : ٢٧) .

١٠٢ - قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ ^(١٠٤) وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّبْجُورًا .

أي : قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات التسع ^(١٠٤) إلا رب السماوات والأرض : لأنه هو الذي يقدر عليها وهي واضحات تبصرك بصدقي ، وإني لأظنك يا فرعون مصروفاً عن الخير مطبوعاً على الشر ، أو هالكا إذا لم ترجع عن عنادك ^(١٠٥) .

١٠٣ - فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا .

فأراد فرعون أن ينتقزهم من الأرض . أي : يفرغهم ويزعجهم بما يحملهم على خفة الهرب فرقا منه . أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، والضمير لموسى وقومه . والأرض : أرض مصر أو الأرض التي أذن لهم بالمسير إليها وسكنها وهي فلسطين وقوله تعالى : فَأَغْرَقْنَاهُ وَمِن مَّعَهُ جَمِيعًا أي : فحاق به مكروه .

لأنه تعقبهم بجنوده بعد ما أذن لهم بالسفر من مصر إلى فلسطين ؛ ليرجعهم إلى عبوديته : فدمره الله تعالى وجنوده بالإغراق .

١٠٤ - وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا .

وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ، أى : من بعد إغراق فرعون لبَنِي إِسْرَءِيلَ أَكُنُوا الْأَرْضَ وهى أرض كنعان بلد أبيهم إسرائيل التى وعدوا بها فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ أى : قيام الساعة ؛ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا . أى : جمعا مختلطا أنتم وعدوكم . ثم يحكم بينكم وبينهم ، ويميز سعداءكم من أشقيائكم .

★ ★ ★

﴿ وَيَلْحَقُ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّا إِلَهُنَّ أَوْثَرُ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَخْذَلْنَا وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبُلٌ مِنَ الدُّلَى وَكَرَّةً كَثِيرًا ﴿١١١﴾ ﴿

المفردات :

الحق : هو الثابت الذى لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة .

فَرَقْنَاهُ : نزلناه مفردا على حسب الحوادث . وقيل : فرقنا فيه الحق من الباطل .

صلى مكث : أى : على مهل . وقرئ على مكث يفتح الميم ، وكلاهما بمعنى التؤدة والتأنى .

الخشوع : السقوط بسرعة .

الأذقان : واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين .

ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أى : سموه بهذين الاسمين .

أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى، ما زائدة، والمعنى: ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أى: هذين الاسمين تدعون فله أحسن الأسماء والحسنى مؤنث الأحسن.

ولا تخافت بها، خفت الرجل بقراءته: إذا لم يبينها برفع الصوت، وتخافت القوم: تسأروا فيما بينهم. المعنى الإجمالى:

فى ختام السورة وضحت الآيات سمو القرآن وجلالة قدره، وبينت: أنه هو الثابت الذى لا يزول، وأنه نزل مفزقاً؛ ليسهل حفظه، ولتثبت أحكامه وأسراره، ثم هونت الآيات من شأن المعاندين ووبختهم واحتقرتهم، وبينت: أن كفرهم لا ينقص من قيمة القرآن، فسيان إيمانهم به وعدم إيمانهم، فإن الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب كانوا لا يتمالكون أنفسهم إذا سمعوا القرآن أن يخروا لله ساجدين، يغمهم التأثير واليكاء.

ثم أردفت الآيات ببيان أنكم إن ناديتم الله أو الرحمان فالأمر سواء، وأمرت الرسول أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت وختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقدير وحدانيته بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والتنصير، وهو العلى الكبير، فيلخص الختام محور السورة الذى دارت عليه والذى بدأت به ثم ختمت به.

التفسير:

١٠٥- وَيَالْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقُّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا.

أنزلنا هذا القرآن نأمر فيه بالعدل والإنصاف، والأخلاق الحميدة والأمور المستحسنة، وننهى فيه عن الظلم والأفعال الذميمة.

قال بعض المفسرين:

الحق هو الثابت، كما أن الباطل هو الزايق، ولا ريب أن هذا الكتاب يشتمل على دلائل التوحيد، وصفات ذى الجلال والإكرام، وعلى تعظيم الملائكة، وإقرار النبوات، وإثبات المعاد، وعلى أصول الأديان والملل، التى لا يتطرق إليها النسخ والتبديل، وكل هذه الأمور تدل على المعنى المذكور؛ لأنها مما تبقى ببقاء الدهور^(١٠٧).

وَالْحَقُّ نَزَّلَ: فالحق مادته والحق غايته، ومن الحق قوامه، وبالحق اهتمامه، الحق الأصل الثابت فى ناموس الوجود، والذى خلق الله السماوات والأرض قائم به، والقرآن مرتبط بناموس الوجود كله، يشير إليه ويدل عليه وهو طرف منه، فالحق سداه ولحمته، والحق مادته وغايته^(١٠٨) قال تعالى: لَا يَأْتِيهِ الْهَبْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ... (فصلت: ٤٢).

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . مَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّد إِلَّا مبشرا بالجنة لمن أطاعنا واستجاب لأمرنا . ففعل المأمورات واجتنب المنهيات - ومنذرا بالنار لمن عصانا وأعرض عن هدينا وخالف أمرنا ونهينا .

١٠٦- وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ...

وَقُرْءَانَا (٢٠٠) فَرَقْنَاهُ أَيْ : جعلنا نزوله مفردا منجما ، وقرئ : فرقناه بالتشديد (٢٠١) .

قال ابن عباس : لم ينزل في يومين أو ثلاثة بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة (٢٠٢) .

لِقُرْءَانِهِ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . أَيْ : على مهل وتؤده وتثبت ، فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم .

وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . أَيْ : على حسب المصالح والحوادث ، فقد كان القرآن كتاب الحياة يعالج أخطاءها ، ويقوم عوجها ، ويجيب على أسئلة السائلين ، ويرد على شبه المخالفين ، وإذا تتبعنا أسباب نزول القرآن ؛ ظهرت الحكمة واضحة ، في تفريق القرآن ونزوله نجوماً ؛ لأن النفوس إذا وقعت في مشكلة ؛ تشوقت إلى آيات تلحها ، وتأخير الآيات إلى وقت الحاجة ؛ يجعل النفوس تتعلق بها وتتذكر قصتها كلما قرأتها .

فمشروعية التيمم ، وحد اللعان ، وحد القذف ، وحد الزنا ، وتحريم الخمر ، وتحريم الخلف عن الجهاد ، وتحريم التبني ، وكثير من الأحكام المشابهة ، كانت قضايا ومشاكل في المجتمع تحتاج إلى حل وبيان فكانت آيات القرآن تنزل إثر كل مشكلة توضع حكمها ، وتبين حلها .

ففي كتب الصحاح : أن المسلمين تأخروا في بعض الغزوات ؛ لبحثوا عن عقد للسيدة عائشة ، ولم يكن معهم ماء ؛ فنزلت آية التيمم .

وأن رجالاً اتهم زوجته بالزنا ؛ فنزلت آية اللعان .

واتهم بعض الناس السيدة عائشة بالزنا مع صفوان ابن المعطل ؛ فنزل حد القذف .

وسكر بعض المسلمين وأساء للآخرين ؛ فنزل تحريم الخمر .

وتخلف ثلاثة من المسلمين عن غزوة تبوك ؛ فنزلت سورة التوبة تغضخ المنافقين وتلوم المتخلفين .

وكان التبني معروفاً في الجاهلية وصدر الإسلام ، ثم حرم القرآن التبني وأمر الله رسوله أن يتزوج مطلقة ابنه المتبنى ، ليشرع بنفسه للناس إبطال هذه العادة .

وهكذا نجد أن نزول القرآن مفرقا في عشرين سنة كان فرصة مناسبة؛ ليشرع الأحكام، ويبين الحدود، ويوضح الحلال والحرام، وكان الصحابة يتسابقون إلى العمل بالآيات قبل أن يحفظوها، فطبّقوا القرآن سلوكا وهديا، وتعبدا وعملا، مع عنايتهم به قراءة وحفظا.

أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال: تعلموا القرآن خمس آيات، خمس آيات، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل خمسا خمسا، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبي سعيد الخدري، والمراد: أن الغالب كذلك؛ فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه.

١٠٧- قُلْ عَابِدُواْ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُواْ إِنَّا إِلَهُنَّ أَوْتَوْا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا .

أى: قل لهؤلاء الضالين القائلين لك: لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا: آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله، ولا ترككم الإيمان به ينقص ذلك.

قال النيسابورى: وهو أمر وعيد وتهديد وخذلان.

وفى ظلال القرآن:

أمر الله رسوله أن يجبه القوم بهذا الحق، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم. إن شاءوا آمنوا بالقرآن وإن شاءوا لم يؤمنوا، وعليهم تبعه ما يختارون لأنفسهم، ويضع أمام أنظارهم نمونجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله، من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤثروا علما ولا كتابا^(١١٧).

١٠٨، ١٠٧- إِنَّا إِلَهُنَّ أَوْتَوْا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا .

أى: وإن تكفروا به فإن الذين أوتوا العلم بالله وآياته من قبل نزوله من مؤمنى أهل الكتابين إذا يتلى عليهم هذا القرآن يخرون تعظيما له وتكريما^(١١٨). ويسجدون لله شكرا وحمدا على إنجاز وعده ويقولون فى سجودهم: تنزه ربنا عن خلف الوعد. إنه كان وعده مأتيا.

والخلاصة: أنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم، وفيه تسلية للرسول، وإزدياء لشأنهم.

قال الزمخشري :

أمر بالأعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم ، وألا يكثر بهم ويؤمنهم وبامتناعهم منه . وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك ، فإن خيرا منهم وأفضل ، وهم العلماء الذين قرءوا الكتب وعلموا ما الوحي وما الشرائع ، قد آمنوا به وصدقوه ، وثبت عندهم أنه النبي العربي ، الموعود في كتبهم ، فإذا تتلى عليهم خروا سجدا ، وسبحوا الله تعظيما لأمره ، ولإنجاز ما وعد في الكتب المنزل ، ويُسَرُّ به من بعثه محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه ، وهو المراد بالوعد في قوله : **إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا** .

١٠٩ - وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .

ويخر هؤلاء الذين أوتوا العلم على الوجه سجدا ، باكين من خوف الله ، ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعا وخضوعا لأمر الله وطاعته .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المفتحة لاستقبال فيضه : العارفة بطبيعته وقيمه بسبب ما أوتيت من العلم قبله ^(٣١٤) .

قال النسفي : ومعنى الخرو للذقن : السقوط على الوجه كما خص الذقن ، لأن أقرب الأشياء من وجهه إلى الأرض عند السجود الذقن .

وفي حاشية الجمل : فالخرو الأول للسجود ، والآخر لشدة البكاء . أو الأول : في حالة سماع القرآن أو قراءته ، والثاني : في سائر الحالات ^(٣١٥) أو المراد : أن السجود يكرر منهم في حالات متعددة : خشوعا لله واعترافا بفضله .

تبييه :

قال القاسمي :

دل نعت هؤلاء ومدحهم بخروهم باكين : على استحباب البكاء والتخشع ، فإن كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحبه من عباده ، يلزم الاتصاف بها ، كما أن ما ذم منها من مقتته منهم ، يجب اجتنابه ^(٣١٦) .

وقد ذكر الإمام الغزالي في (الإحياء) : أن من آداب التلاوة البكاء . قال : البكاء مستحب مع القراءة . قال رسول الله ﷺ : «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» ^(٣١٧) . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان : فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين أحدكم : فليبك قلبه ، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن . فمن الحزن ينشأ البكاء ، ووجه إحضار الحزن ، أن يتأمل ما فيه من

التهديد والوعيد ، والوفاق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره ، فيحزن لا محالة ويبكى . فإن لم يحضره ؛ حزن وبكاء ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء فإن ذلك أعظم المصائب .

وقد روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»^(٣١٨) .

وروى الترمذى عن ابن عباس : قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى»^(٣١٩) .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم»^(٣٢٠) .

١١٠ - قُلْ أَذْعُرُ اللَّهَ أَوْ أَدْعُرُ الرَّحْمَنَ أَبَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَر بِمَلَائِكَتِكُمْ وَلَا تَخَافُ بِهِمَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

قل لهؤلاء المشركين : سمو الله باسم الله ، أو اسم الرحمان ، فأى اسم تسمونه فهو حسن ، وهو تعالى له الأسماء الحسنى ولا شبهة لكم من أن تعدد الأسماء يستوجب تعدد المسمى ، وإذا قرأت القرآن فى صلاتك ، فلا ترفع صوتك به ؛ لئلا يسمع المشركون فيسبونك ويؤذونك ، ولا تسره فلا يسمع المؤمنون ، وكن وسطا فى قراءتك .

قال الطبرى والنسابة والنسفى : عن ابن عباس : أن أبا جهل سمع النبى يقول : يا الله يا رحمان ، فقال : إن محمدا ينهانا أن نعبد الهين ، وهو يدعو إلها آخر . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمان ، وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم ؛ فنزلت^(٣٢١) .

وفى تفسير القاسمى :

قُلْ أَذْعُرُ اللَّهَ أَوْ أَدْعُرُ الرَّحْمَنَ . رد لما أنكره المشركون من تسمية الرحمان ، وإنه بتسميته بذلك ، أى : سموه بهذا الاسم أو بهذا (أو) للتخيير . أَبَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى أى : أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم فهو حسن . وقد وضع موضعه قوله : فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ؛ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه ، إذ حسن جميع أسمائه يستدعى حسن ذينك الاسمين ، فأقيم فيه دليل الجواب مقامه وهو أبلغ . ومعنى كونها أحسن الأسماء : أنها مستقلة بمعانى الحمد والتعظيم والتعظيم^(٣٢٢) وهذه الآية كقوله تعالى : وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا . (الأعراف : ١٨٠) .

وقد روى الطبري بإسناده : عن أبي هريرة : عن النبي ﷺ قال : «إن لله تسعا وتسعين اسماً كلهن في القرآن من أحصاهن : دخل الجنة». ومعناه : من عرف معانيها وآمن بها وقيل : معناه : من أحصاها بحسن الرعاية لها وتخلق بما يمكنه من العمل بمعانيها^(٣٣١) وقد وردت أسماء الله الحسنى كاملة في الحديث الذي رواه الترمذي في الجامع الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ووردت في تفسير الجلالين ، ثم شرحت معاني هذه الأسماء شرحاً مستفيضاً في حاشية الجمل على الجلالين^(٣٣٢).

وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا .

أمر الله رسوله ﷺ أن يتوسط في صلاته بين الجهر والخفوت : لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو من نفور وابتعاد ، ولعل الأمر كذلك : لأن التوسط بين الجهر والخفاء أليق بالوقوف في حضرة الله .

وروى : أن الرسول ﷺ طاف بالليل على دور الصحابة ، فكان أبو بكر يخفض صوته ، وكان عمر يرفع صوته ، وفي الصباح سأل النبي ﷺ أبا بكر عن قراءته فقال : يا رسول الله ، أناجي ربي وقد علم حاجتي ، وسأل النبي ﷺ عمر فقال : أنجز الشيطان وأوقظ الوسنان ، فأمر النبي ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً ، وأمر عمر أن يخفض صوته قليلاً : فنزلت الآية على حسب ذلك ، وقيل : معناه : ولا تجهر بصلاتك كلها ، ولا تخافت بها كلها ، وابتغ بين ذلك سبيلاً بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار ، وعن عائشة وأبي هريرة ومجاهد : أن الصلاة هنا : الدعاء . وقد يروى هذا مرفوعاً قال الحسن : لا يرأى بعلايتها ولا يسمى بسريرتها^(٣٣٣) .

١١ - وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا .

وقل : الحمد والشكر لله الذي لم يتخذ ولداً : لعدم حاجته إليه ، ولم يكن له شريك في الملك : لأنه وحده منشته ، ولم يكن له ناصر يعطيه عزة من ذل لحقه ، وعظم ريك تعظيماً يليق به .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ - أنه لم يتخذ ولداً ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه - تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام في كل الحالات فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفي هذا رد على اليهود الذين قالوا : عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علواً كبيراً .

٢ - أنه ليس له شريك في الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان .

٣ - أنه لم يكن له ولي من الدنأى : لم يوال أحداً من أجل مذلة به يدفعها بموالاته .

والخلاصة : أنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يوقف أعماله في الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك : فقد أمن الناس نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتتغترف أيها العبد من منامله ، ولتعلم أنه لا يحايبك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبي من الأنبياء أو عظيم من العظماء ^(٢٣٦) .

وَكَبْرُهُ كَبِيرٌ ۚ أَيْ : وعظم ريك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل ، وأطلعنا فيما أمرك به ونهاك عنه .

قال الإمام فخر الدين الرازى : تكبير الله تعالى وتنزيهه يكون :

- ١ - بتكبيره في ذاته : باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .
- ٢ - بتكبيره في صفاته : باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزّه عن صفات النقص .
- ٣ - بتكبيره في أفعاله : فتعتقد أنه لا يجرى شيء في ملكه إلا وفق حكمته وإرادته .
- ٤ - بتكبيره في أحكامه : بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .
- ٥ - تكبيره في أسمائه : فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفات الجلال والإكرام .

أخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : كان رسول الله ﷺ إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب : علمه هذه الآية ^(٢٣٧) .

وروى الطبرى بإسناده عن القرظى : أنه كان يقول في هذه الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ... قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، وقال الصابئون والمجوس : لولا أولياء الله : لذل الله ، فأنزل الله : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلَالِ وَكَبْرُهُ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ عَلَى مَا يَقُولُونَ كَبِيرٌ ۚ ^(٢٣٨) .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن ماذ الجهنى : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «آية العز : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا» .

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسير هذه الآية :

قل يا محمد : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا فيكون مربويا لا رباً ؛ لأن رب الأرياب لا ينبغي أن يكون له ولد ، ولم يكن له شريك فى الملك ؛ فيكون عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفا ، ولا يكون إلها من يكون محتاجا إلى معين ، ولم يكن له ولي من الذل ، يقول : ولم يكن له حليف حالفه من الذل الذى به ؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصره غيره فذليل مهين ، ولا يكون من كان ذليلا مهينا يحتاج إلى ناصر ؛ إلها يطاع ، وكبره تكبيرا وعظمه تعظيما يليق به سبحانه (٣٣٩) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والشكر لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه . اللهم ، اجعله عملا خالصا لوجهك وتقبله منا إنك أنت السميع البصير ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .



تفسير سورة الكهف

دروس من سورة الكهف

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكية كلها ، وأنها من السور التي نزلت جملة واحدة كما جاء فى الخبر الذى أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس عن النبى ﷺ إذ يقول : «نزلت سورة الكهف جملة» .

وقد روى ذلك أيضًا عن بعض الصحابة ، واختاره الدانى ، ومشى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلمين فى علوم القرآن وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكية إلا بعض آياتها ، فإنه مدنى .

وفى المصحف الفؤادى المطبوع بمصر ، سورة الكهف مكية إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية ١٠١ فمدنية ، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية .

وقال الفيروزباده : السورة مكية بالاتفاق وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكيتها ومدنيتها ، وهى الآيات : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٣ (٣٠٠)

وينبغى أن يعلم أن كثيرا مما ذكر أنه مدنى تضمنته سورة مكية ، أو مكى تضمنته سورة مدنية ، هو موضع خلاف بين العلماء : لاختلاف الرواية فيه ، أو لانباء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفى ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطى فى الإتيان : كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ، إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل (٣٠١) .

القصص فى سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، وفى أولها تجيء قصة أصحاب الكهف وي بعدها قصة أصحاب الجنتين ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس . وفى وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح . وفى نهايتها قصة ذى القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية ، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق على القصص أو تعقيب عليه .

ويلتقى هذا القصص حول فكرة أساسية للقرآن وهى إثبات أن البعث حق وأن المؤمن يكافأ بحسن الجزاء ، وأن الكافر يلقي جزاء عنته وكفره فى الدنيا أو الآخرة .

قصة أصحاب الكهف

فى قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان وقوة العقيدة والإعراض عن كل ما ينافيها إعراضاً عملياً صارماً ، لا تردد فيه ولا مواربة ، فتية رأوا قومهم فى الضلال يعمهون ، وفى ظلمات الشرك يتخبطون ، لا حجة لهم ولا سلطان على ما يزعمون ، وأحسوا فى أنفسهم غيرة على الحق لم يستطيعوا معها أن يبقوا فى هذه البيئة الضالة بأجسامهم ، ولو خالفوها بقلوبهم ، فتركوا أوطانهم وتركوا مصالحتهم واعتزلوا قومهم وأهلهم ، وخرجوا فارين متجنبيين الشطط وأهل الشطط ، وآثروا كهفا يأوون إليه فى فجوة منه ، لا يراهم فيه أحد ، ولا يؤنسهم فى وحشتهم إلا كلبهم .

ذلك هو مغزى القصة الخلقى ، وفيه ما فيه من إرشاد وإيحاء وتمجيد لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة والتضحية فى سبيلها .

أما المعنى العام الذى تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة فهو إثبات قدرة الله على مخالفة السنن التى ألّفها الناس وظنوا أنها مستعصية عليه جل شأنه ، أن تبدل أو تحول كما هى مستعصية على كل مخلوق ، وشتان بين قدرة الخالق والمخلوقين ، وهذا ما تشير إليه القصة فى ثناياها إذ يقول الله عز وجل:

وَكَذَلِكَ أَفْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ... (الكهف: ٢١) .

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح فلبابها ومغزاها هو إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم ، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله وعلم الله . وهكذا ترتبط - فى سياق السورة - قصة موسى والعبد الصالح ، بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار ، لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار .

لقد وقف موسى خطيباً فى بنى إسرائيل فأجاد وأبدع فى خطبته ، فقال له أحد المستمعين : ما أفصحك يا نبي الله ! هل فى الأرض من هو أكثر علماً منك ؟ قال موسى : لا ، فأخبره الله : أن فى الأرض من هو أكثر علماً منه ، فقال موسى : يا رب ، دلنى عليه ! حتى أنهب إليه فأتعلم منه .

وضرب موسى لنا مثلاً رائعاً فى الرحلة : لطلب العلم ، وتحمل الصعاب والمشتقات بهمة الرجال وعزيمة الأبطال .

ونكسب عن ذكر العواقب جانباً

إذا هم ألقى همه بين عينه

سار موسى مع تابع له هو يوشع بن نون ومعهما حوت فى مكمل ، وبلغ مجمع البحرين : بحر الروم ويحرق القلزم . أى : البحر الأبيض والبحر الأحمر ، أو أنه مجمع خليجى العقبة والسويس فى البحر الأحمر .

وفى المكان الذى أراد الله أن يلتقى فيه نبي بنى إسرائيل بعبد الصالح ، فقد موسى حوته وعاد ؛ ليبحث عنه فوجد رجلا نحيل الجسم ، غائر العينين ، عليه دلائل الصلاح والتقوى ، فسلم عليه موسى ، وتلفظ معه فى القول وأبدى رغبته فى اتباعه ؛ ليتعلم منه العلم ، فاشتد الخضر على موسى : الصبر والتريث فقال موسى : سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . (الكهف : ٦٩) .

وانطلق موسى مع السفينة جيدة ، وفى غفلة من أهلها أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعهما ، فذكره موسى بأن هذا ظلم وفساد ، فالتفت الخضر إليه وقال : أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . (الكهف : ٧٢) . فاعتذر موسى بالنسيان ووعده أن يرافقه مع الصبر والسكوت .

وسار الرجلان ثم قتل الخضر غلاما بريئا فى عمر الزهر فاحتج موسى ، وذكره الخضر بالشرط فسكت .

وفى الجولة الثالثة : دخل الرجلان قرية وكان الجوع قد اشتد بهما فطلبا من أهلها طعاما فأبوا إطعامهما ورأى الخضر جدارا متداعيا أوشك أن يقع فطلب من موسى مساعدته حتى بناه وأتم بناءه واعترض موسى على هذا العمل : لأن أهل القرية لا يستحقون مثل هذا المعروف ؛ فهم بخلاء لؤماء ، فينبغى أن يأخذ الخضر أجرا على بناء الجدار لهم ، واقترب الرجلان بعد أن سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال :

أما السفينة : فكانت ملكا لجماعة من المساكين يعتمدون عليها فى كسب الرزق ووراءهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصباً فخرق الخضر السفينة ؛ ليراها الملك عاطبة فيتركها ؛ ليستفيد بها أهلها ، فهو عمل مؤلم فى الظاهر ولكنه مفيد فى الحقيقة والواقع .

وأما الغلام : فقد كان مفسدا وسيئاً على الفساد والإفساد وكان أبواه مؤمنين فأراد الله أن يقبض الغلام إلى جواره وأن يعرض والديه بنتا صالحة تزوجت نبيا وأنجبت نبيا .

وأما الجدار : فكان ملكا لغلامين يتيمين تخذرا من رجل صالح كريم ، وكان تحت الجدار كنز من المال ولو سقط الجدار ؛ لتبدد الكنز فأراد الله أن يقام الجدار ويجدد ؛ حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما حلالا طيبا لهما .. ثم قال الخضر : وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . (الكهف : ٨٢) .

وقد يتساءل الإنسان عن عمل الخضر عليه السلام ، وهل هو مشروع على الإطلاق ، وهل يجوز لمن : علم فى حادثة - ما - مثل ما علمه العبد الصالح من حقيقة الأمر فيها أن يخالف الظاهر ؟

وقد اهتم بعض المفسرين بتبريد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة عنها وتخرج ما يحتاج منها إلى تخرج ، كأن الأمر أمر أحكام تشريعية أو بيان لموضوعات خلافية . والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة إلا الإقناع بأن الإنسان مهما اتسع عقله وسمت مداركه وعلا منصبه ، محدود في علمه ، وأن كثيرا من الأمور يخفى عليه ، وأن الله عابدا قد يخصهم بنوع من العلم لا يبذله لجميع الناس ، ولا يستقيم حال الدنيا على بذله لجميع الناس .

قصة ذى القرنين

تلك قصة عبد مكن الله له فى الأرض وسخر له العلم والقوة والآلات والمواصلات وآتاه من كل شىء سببا . وقد استغل هذه الإمكانيات فى عمل مثمر نافع يعم نفعه ويبقى أثره وقد تحرك ذو القرنين إلى المغرب غازيا فاتحا ، محاربا مجاهدا وسار النصر فى ركابه حتى انتهى إلى عين اختلط ماؤها وطنينها فقرأى له أن الشمس تغرب فيها وتختفى وراءها وظن أنه ليس وراء هذه العين مكان للغزو ولا سبيل للجهاد ، ولكنه رأى عندها قوماً هالكة كفرهم ، وكبر عليه ظلمهم وفسادهم فخيرهم الله بين قتالهم أو إهمالهم ودعوتهم للعدل والإيمان فاختر إهمالهم وقام فيهم مدة ضرب على يد الظالم ونصر المظلوم وأخذ بيد الضعيف ، وأقام صرح العدل ، ونشر لواء الإصلاح وقد وضع لهم دستور الحكم العادل فقال :

أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا • وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَقُوفُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا . (الكهف : ٨٧ ، ٨٨) .

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار غازيا مجاهدا حتى انتهى إلى غاية العمران فى الأرض وهناك وجد أقواما تطلع الشمس عليهم ، ولكن ليس لهم بيوت تستريحهم ، أو أشجار تظلمهم ولعلمهم كانوا على حال من الفوضى وبحسب من الجهل .. فبسط حكمه عليهم ونفذ فيهم دستور العدل ومكافأة المحسن ومعاقبة المفسد الذى سبق ذكره ، ثم تحركهم إلى الشمال غازيا مجاهدا مظفرا منصورا ، حتى انتهى إلى بلاد بين جبليين يسكنها أقوام لا تكاد تعرف لغاتهم ، أو يفهم فى الحديث مرماهم ، ولكنهم قد جاؤروا يأجوج ومأجوج ، وهم قوم مفسدون فى الأرض ، وأوزاع من الخلق ضالون مضلون .

وقد لجأ الأقوام إلى ذى القرنين : ليحول بينهم وبين المفسدين وشرطوا على أنفسهم نولا يدفعونه إليه ، وأموا يضعونها بين يديه ولكن ذا القرنين أجابهم إلى طلبهم ورد عطاهم وقال لهم :

مَا مَكَّنِّي بِهِ رَبِّي عَزِيزٌ ... (الكهف : ٩٥) .

ثم طلب إليهم أن يعينوه على ما يفعل فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار ، وأفرغ عليه ذائب النحاس ، واستوى كل ذلك بين الجبلين سدا منيعا قائما ، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره ؛ لملاسته ، أو تنقبه ؛ لمتانته ، وأراح الله منهم شعبا كان يشكون من أذاهم ، ويألم من عدوانهم .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وأعلن عقيدته فى البعث والحشر وإيمانه بأن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجردا مستويا وهكذا تختم هذه القصة بتأكيد قدرة الله على البعث .

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . (الكهف : ٩٨) .

وبذلك تنتهى قصة ذى القرنين ، النموذج الطيب للحاكم الصالح يمكنه الله فى الأرض ، ويسر له الأسباب ، فيحتاج الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه . إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرا عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق. ثم يرجع كل خير يحقه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله (١٣٧) .

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكة في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم الدين . وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهى سورة تبدأ وتنتهى بحديث الساعة ، وإياب الناس جميعا إلى الله : ليحاسبهم على ما قدموا .

ونزل بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحدثت عن البعث والجزاء وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه على يد الظالمين .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويستبعدون وقوعه فى عناد وإصرار ، فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم ، وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء ، وقدم الأدلة على هذه القضية ، وساق فى سورة الكهف عددا من الحجج والبراهين على حقيقتها مبرزاً ذلك فى صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام . فالمحور الموضوعى لسورة الكهف هو تصحيح العقيدة ، وتأكيـد قدرة الله على البعث والجزاء ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتى :

١ - بدأت السورة بقوله تعالى : **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا نَبِيلًا وَبَاسًا شَدِيدًا** **مَنْ لَهُدَّةً وَيَخْشَى الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مُكَيِّينَ لَهُ أُنْبَاءُ .** (الكهف : ١ - ٣).

وهى تتحدث فى هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواما ، وأجر حسن يفوز به أقوام آخرون .

وختمت بقوله تعالى : **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .** (الكهف : ١١٠).

وهى تتحدث فى هذا الختام عن الدار الآخرة أيضا وعن من يرجو لقاء ربه ، وما يجب عليه أثرا لهذا الرجاء والإيمان من عمل صالح ، وتوحيد لله لا يخالطه إشراك .

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها : أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها ، وبيان مهمة القرآن فى إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذارا وتبشيرا ، وآخرها يتحدث عن هذه الحقيقة التى تركزت وتقررت ويحكم الناس إليها فى الإيمان والعمل الصالح .

ومما يلاحظ أن آيات البدء قد ذكر فيها أمر الذين : قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله ، وذلك هو قول الذين يشركون بالله ، ويعتقدون ما ينافى وحدانيته وتنزيهه ، وأن آية الختام قررت أَنَّما إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَأَن على من يؤمن به ، ويرجو لقاءه ألا يشرك بعبادته أحدا ، فتطابق الأول والآخر فى إثبات الوحداية والتنزيه لله جل وعلا ، كما تطابقا فى أمر البعث والدار الآخرة .

٢ - أما فى أثناء السورة وما بين بدئها وختامها ، فقد جاء أمر البعث عدة مرات :

(أ) جاء فى مقدمة قصة أصحاب الكهف التى ساقها الله حقيقة من حقائق التاريخ الواقعية ، دليلا على قدرته ، وتنظيرا لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا . (الكهف : ٩) . وفى ثنايا هذه القصة : وَكَذَلِكَ أَغْرَيْنَا عَلَيْهِمْ لَيْلَهُمْ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ... (الكهف : ٢١) .

فهى تقر : أن أصحاب الكهف آية من آيات الله ، وأنهم مع غرابية أمرهم لا يعدون فى جانب القدرة الإلهية عجبا ، فإنما هم فتية آمنوا بربهم ، وأووا إلى الكهف فرارا بعقيدتهم ، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن ثم بعثهم ، ولئن فالله قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعا فى هذه الدار بالموت ، كما يضرب على آذانهم بالنوم ، ثم يبعثهم إلى الدار الآخرة كما بعث هؤلاء الفتية ، وما ذلكم على الله بعزیز ، ولا هو فى قدرته بعجيب ، وتقرر أن العبرة من بعثهم والإعثار عليهم هى أن يعلم الناس أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها .

(ب) وجاء أمر البعث مرة ثانية فى هذه السورة حين قررت أن الحق من الله ، وأن كل امرئ مخير فى الإيمان أو الكفر : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ فَنَهَكَ دَارَ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الدار يحاسب فيها كل امرئ ، ويجزى بما يستحقه : إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . (الكهف : ٢٩)

وللذين آمنوا وعملوا الصالحات : جِئْتُكَ عَذَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ... (الكهف : ٣١) .

(ج) وجاء أمر البعث فى المثل الذى ضربه الله للناس عن صاحب الجنتين وزميله ، وما كان من إنكاره قدرة الله ، وشكه فى الساعة ، ونصح صاحبه له ، وتبرئه منه ، وأن الله قد أحال الجنتين صعيدا راقا ، وخينئذ تنبه الكافر فقال : يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

(د) وجاء أمر البعث بعد هذا في المثل الذي ضربه الله بالحياة الدنيا ، يكون فيها نبات وزينة ثم يصبح ذلك كله هشيما تذروه الرياح ، وتنتهى الدنيا وما فيها ، قد عقب الله على هذا المثل بذكر الجبال وسيرها ، والأرض وبروزها ، والحشر وشموله ، والعرض على الله ، ووضع الكتاب ، وإشفاق المجرمين مما فيه ، وقولهم : يَنْزِلُنَا مَالٌ هَلْدًا لَكُتْبٍ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاقِرًا وَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

(هـ) وجاء في السورة أيضاً إشارة إلى قصة آدم وإبليس ، حيث طلب الله من الثانى أن يسجد للأول فأبى ، ففكرت بينهما العداوة منذ ذلك اليوم إلى أبد الدهر . وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه ، مع هذه العداوة المتأصلة ، ثم ذكر لهم أمراً من أمور الآخرة بعد هذا التحذير من اتخاذ الأولياء أو الشركاء - حيث ينادى الشركاء فلا يجيبون ، ويستجار بهم فلا يجيبون ، وتبرز الجحيم فيراها المجرمون ويظنون أنهم واقعوها ، ولا يجدون عنها مصرفاً . وفى هذا الأسلوب جمع بين المبدأ والمعاد ، ووضع لقضية الخلق والبعث مقترنتين بين ىدى العقل؛ ليدرك الإنسان أنه منذ أول نشأته هدفٌ لعدو مبین يحاول إضلاله ولفته عن الطريق المستقيم جسداً له وانتقاماً منه ، وأن أخطر هذا الإضلال هو الوصول إلى حد الثقة بالعدو المبين ، واتخاذها ولياً من دون الله يتبع أمره وينصر هواه ، وأن هذا العدو المخاتل سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء ، يزينون الكفر والعصيان ما داموا في الدنيا . حتى إذا جاء أمر الله : أعلنوا براءتهم ممن اتبعوهم وضلوا بسببهم :

كَمَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي آثَارِ عَذَابٍ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ . (الحشر : ١٦ ، ١٧) .

(و) وجاء في هذه السورة أيضاً - مما يتصل ببراھين البعث- قصة موسى ، وفتاه ، والعبد الصالح . وهى قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعاني الجليلة . وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعوراً قوياً بأن الله علماً فوق علم الناس ، وتصريفاً للكون على سنن منها ما هو معروف ومنها ما هو خفى . وإذا آمن الناس بهذا واطمأنوا إليه ؛ لم يعد هناك مجال للعجب من أمر الساعة . فما هى إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته . فإذا السنن المعروفة حل محلها سنن أخرى ، ومن قدر على إنشاء السنن قدر على تغييرها . وبهذا يؤمن كل عاقل بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيبياً . وهو فى قدرة الله غير عجيب .

(ز) جاءت السورة أيضاً - بعد هذه القصة - بقصة أخرى عن عبد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شئ سبباً ، حيث سخر له العلم والقوة وأسباباً أخرى كثيرة ، ذلك هو : « ذو القرنين » وقد لجأ إليه قوم ؛ ليحول بينهم وبين المفسدين ، فأنجدهم وأعانهم وجعل الله عمله فى ذلك رحمة للناس يبقى ما بقيت هذه الحياة ، فإذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت دكا ، وترك الناس مضطربين يموج بعضهم فى بعض ، ثم ينفخ فى الصور فيجمعون جميعاً ، وتعرض يومئذ للكافرين جهنم عرضاً ، فيبصرون وقد كانت أعينهم من قبل فى غطاء ، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل فى صمم . وهكذا نجد القصة قد انتهت إلى أمر البعث والدار والآخرة وما فيها وتخلصت إليه فى براعة وقوة ، مذكرة به ، منذرة ما هنالك من الأهوال والشدائد .

(ح) ثم تأخذ السورة بعد ذلك فى تهديد الكافرين الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، وتبين ما أعد لهم ، وتوازن هؤلاء جميعاً بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أعد لهم ، ويأتى ختامها بعد إثبات القدرة والعظمة لله وأن كلماته لا تنفد ولو كتبت بماء البحار - والمراد : آياته فى الكون وتصريفه وأثار قدرته - فتذكر رسالة الرسول وأنها عن وحى من هذا الخالق القادر الواحد ، وتتوجه بعد ذلك إلى جميع الناس بصيغة من صيغ العموم ، هى لفظ « من » فتقول :

فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف : ١١٠) .

بهذا يتجلى للناظر فى السورة أنها منتظمة النسق ، مطردة السياق ، واضحة الغرض ، قوية الأسلوب . متماسكة فى أولها وآخرها وأثنائها ، يجول فيها معنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والقصص والوعيد والتذكير والبيان . ولذلك يقول الله عز وجل فى آية من آياتها : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . (الكهف : ٥٤) .

فضل سورة الكهف

سورة الكهف سورة القصص الهادف ، المشتمل على سمو العقيدة ، وفضل الإيمان ، وإكرام الله للمتقين ؛ فأهل الكهف شباب رفضوا عبادة الأوثان ، وأصروا على الثبات على الإيمان ، وذهبوا إلى كهف تحصنوا به من ظلم الملك الكافر ؛ فأرسل الله عليهم النوم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا ، ثم بعثهم فى عهد ملك مؤمن ، أكرمهم وسجل كفاحهم ؛ وقصة موسى والخضر فيها جهاد رسول كريم ، فى طلب العلم والتواضع فى طلبه ؛ وفيها بيان لسعة علم الله وعظيم حكمته .

وقصة ذى القرنين ، فيها بيان لجهود رجل صالح ، أعطاه الله الأسباب والقوة ، والجند والأنبياء ، فسار فى جنوده جهة الغرب ، وجهة الشرق ، وفى كل مكان يصل إليه ، يرسى معالم الحق والعدل والخير .

ويتعود المؤمنون قراءة سورة الكهف يوم الجمعة ؛ رغبة فى الثواب والتقرب إلى الله تعالى ؛ أخرج الحاكم عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ : أنه قال : «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة ؛ أضاء له النور ما بينه وبين الجمعتين» (٢٣٢) .

وقد وردت الأحاديث النبوية الشريفة فى فضل سورة الكهف ، والآيات العشر التى فى أول سورة الكهف ، والآيات العشر التى فى آخرها ، وأنها عصمة من الدُّجال .

عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف؛ عُصِمَ من الدُّجال» (٢٣٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى .

وقال الإمام أحمد : عن أبى الدرداء : عن النبى ﷺ قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف؛ عُصِمَ من فتنة الدُّجال» (٢٣٤) ورواه مسلم أيضا والنسائى .

وأخرج النسائى فى سننه : عن ثوبان : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف؛ فإنها عصمة له من الدُّجال» (٢٣٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝١ فَيَمَّا يُلْذَرُ بِأَسَا شَدِيدًا
مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢
مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ
بِخُفْيَةِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِن لَّمْ يَتُوبُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا
جُرًّا ۝٨﴾

المعطرات :

عوجاً ، الميل والانحراف عن الاستقامة ، فلا خلل في لفظة القرآن ولا في معناه .

قيماً ، مستقيماً معتدلاً ، لا ميل فيه ولا زيغ ، وعوجاً وقيماً حالان من الكتاب .

باسا شديداً ، عقوبة عاجلة في الدنيا ، وأجلة في الآخرة .

من لدنـه ، من عند الله .

كبرت كلمة ، بضم الباء ، أى : كبرت كلماتهم هذه وعظمت ، وهذا أسلوب في الكلام ، يدل على التعجب
والاستغراب مما حدث : من قول أو فعل .

باخع نفسك ، أى : مهلك نفسك بحزنك عليهم .

على آثرهم ، أى : من بعد توليهم عن الإيمان ، وتباعدهم عنه .

بهذا الحديث ، أى : بهذا القرآن .

الأسف ، المبالغة في الحزن والغضب .

صعیدنا، ترابا .

جـرزا، لا نبات فيه .

التفسير :

١ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا .

حمد الله تعالى نفسه : فهو أهل الحمد والثناء والتعظيم والإجلال : فقد أنزل كتابه العزيز على رسوله محمدا ﷺ : وهو أعظم نعمة أنعمها على أهل الأرض : إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ : بل يهدي إلى صراط مستقيم ، واضحا بينا جليا ، فيه أخبار السابقين ، وبه أحكام وآداب ، وقصص وأمثال ، وبه سنن الكون ونظام الحياة ، وتشريع للعبادات والمعاملات ، وطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة .

٢ - يَمَّا يُنْزِلُ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا .

مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت : بل بعضه يصدق بعضا ، وبعضه يشهد لبعض ، ومن وظيفة القرآن ، إنذار الكافرين ، وتخويفهم من العذاب والنكال ، في الدنيا والآخرة .

أما وظيفة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، الذين يعملون الأعمال الصالحة : فيبشّرههم بأن لهم الجزاء الحسن في الدنيا ، والثواب الجزيل في الجنة ، التي وعدها الله للمتقين .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

(الكهف : ٣٠)

٣ - مُكَيِّينَ فِيهِ أَبَدًا .

أى : خالدين في الجنة خلودا أبديا ، لا زوال له ولا انقضاء .

٤ - وَيُنْزِلُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .

أى : ويخوف ويحذر من بين هؤلاء الكافرين ، من قالوا هذه المقالة الشنعاء : إن الله اتخذ ولدا ، هؤلاء ثلاث طوائف :

١ - المشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

٢ - اليهود القائلون : عزيز ابن الله .

٣ - النصارى القائلون : المسيح ابن الله .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق ؛ لظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

٥ - مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ...

أى : ليس لهم على هذا القول دليل علمى أو عقلى ، بل هو قول يقولونه جزافاً ؛ بدون ترو أو تبصّر ، يقدلون فيه الآباء تقليداً أعمى ، وليس لدى الآباء برهان أو حجة ؛ فتأهوا جميعاً فى ببداء الجهالة والضلالة .

كُتِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .

أى : عظمت تلك المقالة الشنيعة ، كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ! خرجت من أفواه أولئك المفترين ، وهى فى غاية الفساد والبطلان .

إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَلِبًا . أى : ما يقولون إلا افتراء باطلا ، بعيداً عن الحق والواقع .

٦ - لَقَدْ عَلِمْتُمْ لِبَيْعِ نَفْسِكُمْ عَلَى الْآرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا .

تأتى هذه الآية تسلياً للرسول ﷺ - عن إعراض قومه عن الهدى ، مع حرصه على هدايتهم ، والقرآن يوجهه بأنك رسول مبلغ عن الله ؛ ليس عليك هداهم إن عليك إلا البلاغ ؛ فلا تهلك نفسك حزناً وحسرة بسبب توليهم عن الهدى ، وعدم إيمانهم بالقرآن الكريم .

قال المراعى :

أى : إنك قد اشتد وجدك عليهم ، وبلغت حالاً من الأسى والحسرة ؛ صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه : أن يبيعها أسى وحسرة عليهم ، وما كان من حقه أن تفعل ذلك ؛ إن عليك إلا البلاغ (٣٣٧) .

وإذا تتبعنا آيات القرآن الكريم الواردة فى هذا الموضوع ؛ وجدنا الرسول الأمين حريصاً غاية الحرص على هداية قومه ، وهم يتفلتون من الهدى ، وينطلقون إلى الضلال ، فى سرعة الفراش الذى يتهافت على النار ، قال تعالى : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * نَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

وقال تعالى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ... (فاطر : ٨) .

وقال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (البقرة : ٢٧٢) .

٧ - إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَّبِعُوهُمُ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

أى : جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها : من حيوان ونبات ومعادن ، زينة لها ولأهلها ؛ لنختبر الناس فى حياتهم الدنيا ؛ فمنهم : من يلتزم بهدى الله ؛ فيجمع المال من حقه ، وينفقه فى مصارفه العادلة ، ويطيع الله وابتعد عن ما نهى عنه ؛ فهذا ناجح فى الاختبار ، وهو أهل لسعادة الدنيا والآخرة ، ومنهم : من تغرّه الدنيا ويختار العاجلة ويهمل الآجلة ؛ فيرسب فى الاختبار .

وقد بين القرآن الكريم : أن الله خلق الحياة والموت ؛ لابتلاء الناس واختبارهم ؛ قال تعالى : تَبَرَّكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أَنَّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

(المالك : ٨ ، ٢)

وجميع ما على وجه الأرض من مال وجاه وسلطان ، وشباب وقوة وفتوة ؛ هى مادة ذلك الاختبار ، وهذا مفهوم هذه الآية : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَتَّبِعُوهُمُ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الدنيا حلوة خضرة ، والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون» (٢٣٨) .

وقال ﷺ : «إن أخوف ما أخاف عليكم ، ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا ؛ قيل : وما زهرة الدنيا ؟ قال : بركات الأرض» .

وروى البخارى : أن عمر كان يقول : اللهم ، إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا ، اللهم ، إني أسألك أن ننفقه فى حقه (٢٣٩) .

٨ - وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا .

يحشر الناس يوم القيامة على أرض مستوية ، صماء لا نبات فيها ولا ماء . والأرض الآن تتزين بالزراعة ، والنبات والأشجار ، والأنهار ، والنبات الأخضر ، وسائر فنون الزينة ، وعند نهاية الحياة تبدل الأرض غير الأرض والسموات ويفنى الإنسان والحيوان والنبات وتنتهى الدنيا بكل ما فيها ، ثم يكون البعث والحشر والجزاء ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا .

(طه : ١٠٥ - ١٠٧)

وقد وردت الآية السابعة والثامنة: تسلياً للرسول ﷺ، وكأنه قيل: لا تحزن فهناك فى الآخرة جزاء عادل للأخيار والأشرار.

قال القرطبي:

الآية وردت: لتسليّة النبي ﷺ والمعنى: لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها، فإنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمُ عليك كفرهم؛ فإننا سنجازيهم.

قصة أصحاب الكهف

تفيد كتب التفسير: أن ملكاً جباراً يسمّى: دقيانوس؛ ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى: «طرطوس»، بعد زمن عيسى عليه السلام.

وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام، ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان، فلما رأى الفتية ذلك؛ حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهم الملك، فبعث فى طلبهم، وهددهم بالقتل؛ إن لم يعبدوا الأصنام، ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا فى وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا. (الكهف: ١٤).

فأمهلهم الملك يوماً؛ ليراجعوا أنفسهم، ويثوبوا إلى رشدهم، فهربوا ليلاً، ومروا برامح مع كلب فتبعهم، فلما كان الصباح أوتوا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده، فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفزعوا من الدخول عليهم، فقال الملك: سدوا عليهم باب الغار؛ حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين - وهم لا يدرون - ثلاثمائة وتسع سنين، ثم أيقظهم الله، وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم، وشعروا بالجوع فأرسلوا واحداً منهم يسمّى: (تمليخا)؛ ليشترى لهم الطعام ونصحوه بالتخفى والحدز، واشترى تمليخا الطعام، ولما دفع النقود للبائع أخذ يقلب فيها ويقول: من أين حصلت على هذه النقود؟! واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويتعجبون، ثم قالوا: من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً؟ فقال: لا والله ما وجدت كنزاً إنها دراهم قومي، قالوا: إنها من عهد بعيد، ومن زمن الملك دقيانوس، قال: وما فعل دقيانوس؟ قالوا: مات من قرون عديدة، قال: والله ما يصدقنى أحد بما أقوله: لقد كنّا فتية وأكرهنا الملك على عبادة الأوثان؛ فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف، فأرسلنى أصحابى اليوم؛ لأشترى لهم طعاماً، فانطلقوا معى إلى الكهف أرىكم أصحابى، فتعجبوا من كلامه، ورفعوا أمره إلى الملك، وكان مؤمناً صالحاً، فخرج الملك فى جنوده إلى الكهف، وشاهد الفتية يصلّون، ولما

انتهوا من صلاتهم ؛ عانقهم الملك ، وأخبرهم أنه رجل مؤمن ، وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد ، وسمع كلامهم وقصصتهم ، وعرف أن الله بعثهم ؛ ليكون أمرهم آية للناس (٢١) .

ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم ، فقال الناس : لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . (الكهف : ٢١) .

★ ★ ★

إجمال القرآن لقصة أهل الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۖ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ ثَمَرٌ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رِسَدًا ۖ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۖ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۖ﴾ (١٢)

المفردات :

أم : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر .

الكهف : الغار في الجبل .

الرقيم : لوح حجرى رقت فيه أسماؤهم .

إذ أوى الفتية : أوى إلى المكان : اتخذها مأوى ومكانا له ، والفتية : واحدتهم : فتى وهو الشاب الحدث ، وقد

كانوا من أبناء أشرف الروم وعظمائهم ، لهم أطواق وشارات من الذهب .

ورسَدنا : هداية إلى الطريق الموصِّل للمطلوب .

ضربنا على آذانهم : ألقينا عليها حجابا يمنع السماع ، والمراد : أنماهم نومة لا تنبهم الأصوات الموقظة .

عددا : أى : ذوات عدد والمراد : الكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى العد غالبا .

بعثناهم : أيقظناهم وأثرناهم من نومهم .

الحزبين : أى : الفريقين أدق إحصاء للمدة التى ناموها فى الكهف .

أحصى : أضبط لأوقات ليثهم .

أمد : مدة لها حد وغاية .

التفسير :

٩ - أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا .

أى : لا تظنن يا محمد أن قصة أصحاب الكهف والرقيم ، هى أعجب آياتنا وأغربها فى الدلالة على القدرة ؛ فإن فى خلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وغير ذلك من الآيات الماثلة فى صفحات الكون ما يفوق قصة أصحاب الكهف .

قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان فى آياتنا ما هو أعجب ^(١١) .

١٠ - إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

أى : انكز حين لجأ الشبان إلى الغار فى الجبل ؛ فرارا بدينهم وعقيدتهم ، وقالوا : ربنا ، أعطنا من خزائن رحمتك الخاصة : مغفرة ورزقا ، وأصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين .

كما جاء فى الحديث «وما قضيت لنا من قضاء ؛ فاجعل عاقبته رشدا» ^(١٢) .

وفى المسند : عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو : «اللهم ، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» ^(١٣) .

١١ - فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا .

أى : ألقينا على آذانهم حجابا يمنعهم السماع ، وأنمناهم نومًا لا ينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف ، سنين كثيرة معدودة .

١٢ - ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُلْعَمَ أَى الْفَرِيقَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .

أى : ثم أيقظناهم من رقدتهم ؛ لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعمر لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وتفيد الآية ، أنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم ، ثم لبثوا فى الكهف ، فبعثوا ؛ ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء ، وليعرفوا ما صنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ؛ ويستبصروا فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفًا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارهم .

ذلك هو ملخص القصة لفتية آمنوا بالله ، وقروا بإيمانهم إلى كهف مظلم ، فأكرمهم الله فى جواره عدداً من السنين ، ثم بعثهم من رقدتهم ؛ ليذكر الناس بعجائب القدرة ، وليعلموا أن قدرة الله لا حدود لها ، وأن قدرته فى خلق هذا الكون ، وحفظ نظامه وتوازنه ، أكمل وأجمل من الذى فعله مع أصحاب الكهف .

★ ★ ★

تفصيل قصة أصحاب الكهف

﴿ تَحْنُ نَفْصُ عَلَيكَ بَنَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٢﴾
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ
إِلَٰهًا ۖ لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطَ ۝١٣﴾ هَتُولَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ
عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝١٤﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ
وَمَاعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّجَ لَكُمْ مِنْ
أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۝١٥﴾ وَتَرَى السَّمَاسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَوْنَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا
غَرَبَتْ تَقَرَّبْتُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٦﴾
وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجْدَلَهِ ۚ وَلِيَّا مَرْشِدًا ۝١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً ظَالِمًا ۚ وَهُمْ رُفُودٌ
وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَمِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ۝١٨﴾

المفردات :

النبا : الخبر العظيم .

بالحق : بالصدق .

ربطنا : شددنا وقويتنا ، وربط الله على قلبه ، أى : قوى عزيمته .

قاموا : وقفوا بين يدي ملكهم الجبار دقيانوس .

إله : أى : معبوداً آخر لا استقلالاً ولا اشتراكاً .

اتخذوا من دونه آلهة ، أى : نحتوا أصناما وعبدها .

السلطان البين : الحجة الظاهرة .

اعتزلتموهم : اجتنبتوهم ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب .

هأؤوا إلى الكهف ، أى : التجئوا إليه .

ينشر لكم : يبسط لكم .

مرفقا : ما يرتفق وينتفع به .

تزاور : تتنحى .

تقرضهم : تعدل عنهم وتتركهم ولا تقر بهم .

فجوة : متسع من الكهف وفى وسطه ؛ بحيث لا تصيبهم الشمس لا فى ابتداء النهار ، ولا فى آخره .

أيقاظا : متيقظين ؛ لتفتح عيونهم وتقليبهم .

رقود : نيام واحدكم : راقد .

باسط ذراعيه : مائهما .

الوصيد : فناء الكهف .

المرعب : الخوف يملأ الصدر .

التفسير :

١٣- نَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ...

أى : نحن وحدنا يا محمد نقص عليك خبرهم العجيب ؛ بالصدق دون زيادة ولا نقصان .

إِنَّهُمْ قَتِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى .

أى : إنهم شباب أخلصوا العبادة لخالقهم ؛ وأسلموا وجوههم لبارئهم ، وآمنوا بالله تعالى إيماناً عميقاً ؛ فزادهم الله إيماناً على إيمانهم ، وهداية على هدايتهم .

ونحو الآية قوله تعالى : وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادْنَاهُمْ هُدًى وَءَاتَيْنَاهُمْ تَقْوَاهُمْ . (محمد : ١٧) .

قال ابن كثير :

ذكر الله تعالى : أنهم كانوا فتية ، أى : شبابًا وهم أقبل للحق من الشيوخ ، الذين عتوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله شبابًا ، وأما المشايخ من قريش ، فعاضتهم بقوا على دينهم ، ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا القليل .

٤١- وَرَبَّنَا عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قُلَّتْ إِذَا شَطَطًا .

أى : ألهمناهم قوة العزيمة وصدق الإيمان ، وثبات اليقين ، حين وقفوا أمام الملك الظالم دقيانوس فى ثبات وصدق ، ولم يستجيبوا لدعوته لهم إلى عبادة الأوثان ، بل أعلنوا إيمانهم بالله وحده لا شريك له ، وقالوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ هو وحده خالق السماوات والأرض والكون كله ؛ فينبغى أن نتوجه إليه وحده بالعبادة .

لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا . أى : لن نعبد من دون رب السماوات والأرض إلها ، لا على طريق الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك ؛ إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

لَقَدْ قُلَّتْ إِذَا شَطَطًا .

أى : إذا دعونا غير الله ، وعبدنا الأوثان أو الأصنام أو غيرها ؛ لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

قال الألوسى :

إنهم أشاروا بالجملة الأولى وهى : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إلى توحيد الربوبية .

وأشاروا بالجملة الثانية : لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا إلى توحيد الألوهية ١٠ هـ .

فهم يعبدون الله وحده سبحانه رب السماوات والأرض ولا يعبدون مع الله آلهة أخرى من الأوثان . وعبدة الأصنام كانوا يؤمنون بوجود الله ، وكانوا مع ذلك يعبدون آلهة أخرى يتقربون بعبادتها إلى الله ، وهو انحراف فى العقيدة .

وقد حكى القرآن عنهم قوله : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٢٨) .

وقوله سبحانه حكاية عنهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... (الزمر : ٣) .

وكان أهل الجاهلية يقولون فى تلبيتهم للحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

١٥ - هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ...

إن هؤلاء الفتية لم يكتفوا بإعلان إيمانهم بالله ، وتنزيهه عن كل شريك ؛ وتأکید ذلك بأن عبادة غير الله شطط وغلو .

بل امتد إيمانهم وصدق عزيمتهم إلى انتقاد قومهم ، الذين بلغ بهم السفه والجهل ، أنهم أشركوا مع الله غيره ؛ فعبدوا أصناما من دون الله ؛ هلا أتى هؤلاء السفهاء بحجة ظاهرة تؤيد دعواهم ؛ بأن هذه الأصنام تصلح آلهة ، لا شك أنهم لن يستطيعوا ذلك .

قال الزمخشري :

وقوله : لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ تبكيت ؛ لأن الإتيان بالسلطان على صحة عبادة الأوثان محال ، وهو دليل على فساد التقليد ، وأنه لا بد فى الدِّين من حجة ؛ حتى يصح ويثبت .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . أى : لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ونلمح من الآيات الموقف الصادق لهؤلاء الفتية ؛ فى ثباتهم على الحق ، وانتقاد الباطل .

لقد تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط ؛ إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة ، والأرجح أن أمرهم قد كشف فلا سبيل لهم إلا أن يفرُّوا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة .

١٦ - وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَإِذْ أَعْرَضُوا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْنَا إِلَى الْكَهْفِ نَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَيَسِّرْ لَكُمْ مَرْجِعًا .

أى : وإذ أفرقناهم وخالقناهم فى عباتهم غير الله ؛ ففارقوهم بأبدانكم ، واتركوا ما أنتم فيه من مال ومتاع ورياش ، وانتقلوا إلى الكهف حيث تتمكنون من عبادة الله وحده .

لقد آفروا الهدى والإيمان ، وتركوا كل مظاهر الترف ، والمتعة الدنيوية ، ورحلوا إلى كهف مظلم ، وهناك أخلصوا العبادة لله وحده ، وتوكلوا حق التوكل على الله ؛ فأواهم الله وأسبل عليهم لطفه ورحمته ، وأمدهم بما يرتفقون به وينتفعون به وصدق الله العظيم إذ يقول :

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ * إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ
قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٢ ، ٣) .

أخرج الطبراني وابن المنذر : عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب ، وقرأ : قَالُوا سَوَعْنَا
فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ : إِبْرَاهِيمُ . (الأنبياء : ٦٠) .

وَأِذَا قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ... (الكهف : ٦٠) .

إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ... (الكهف : ١٣) .

١٧ - وَتَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي
فَجْوَةٍ مِّنْهُ ...

تعرض الآية مظهرًا من مظاهر فضل الله على هؤلاء الفتية : فالشمس عند طلوعها تنحرف عنهم ؛
حتى لا تحرقهم بحرّها ، وعند غروب الشمس أيضا ؛ تتركهم منحرفة عنهم إلى جهة الشمال .

والغرض : أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ، ولا عند غروبها ؛ كرامة من الله ؛ لئلا تؤذيهم بحرّها .

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ . أى : هم فى متسع من الكهف ، وفى وسطه ، بحيث لا تصيبهم الشمس لا فى ابتداء
النهار ولا فى آخره ، ولكن يُسمح بدخول الهواء والنسيم لهم ، ويقلبهم الله ؛ حتى لا تنال الأرض من جسامهم .

روى الطبرى عن ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم ، لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقلبون : لأكلتهم الأرض .

وللمفسرين فى تأويل هذه الآية اتجاهان :

أولهما : أن باب ذلك الكهف كان مفتوحا إلى جانب الشمال ؛ فإذا طلعت الشمس كانت على يمين
الكهف ، وإذا غربت كانت على شماله ؛ فضوء الشمس ما كان يصل إلى داخل الكهف ، وكان الهواء الطيب
والنسيم المرافق يصل .

ثانيهما : أن الشمس إذا طلعت ، منع الله ضوءها من الوقوع عليهم ، وكذا القول فى حال غروبها ، وكان
ذلك كرامة عظيمة ؛ خص الله بها أصحاب الكهف .

فأصحاب الرأى الأول : يرجعون عدم وصول الشمس إليهم ؛ لأسباب طبيعية ؛ تجعل الشمس لا تصل إليهم .

وأصحاب الرأي الثاني : يرجعون الأمر إلى فضل الله وإكرامه لهؤلاء الفتية ؛ فالله تعالى بقدرته منع ضوء الشمس من الوصول إليهم ؛ خرقاً للعادة على سبيل التكريم لهم .

ذَٰلِكَ مِنْ عَآيَاتِ اللَّهِ ...

أى : هذا التوفيق لهؤلاء الفتية فى اللجوء إلى الكهف ، وإكرام الله لهم بحجب الشمس عنهم عند طلوعها وعند غروبها ؛ كل ذلك من آياته الكثيرة الماثلة فى الكون ، والدالة على كمال قدرة الله تعالى ؛ وعلى أن الله تعالى يكرم أهله .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ...

أى : من يوفقه الله للهدى ؛ فهو المهدى حقاً ، مثل فتية أهل الكهف ؛ هداهم الله إلى الإيمان ، وألهمهم الصواب والعزوف عن عبادة الأوثان ، وهداهم إلى هذا الغار ، وأكرمهم بفضله .

وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْسِدًا . أى : من يضلّه الله عن الطريق المستقيم ، لسوء استعداده ، فلن تجد له خليلاً ، ولا حليفاً يرشده ؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله تعالى .

قال تعالى : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَاُتْلِكْ لَهُمُ الْخَسِرُونَ . (الأعراف : ١٧٨) .

وقال سبحانه وتعالى : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْيَاءً مِنْ دُونِهِ ... (الإسراء : ٩٧) .

١٨ - وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ...

أى : وتظنهم أيها المخاطب ، لو قدر لك أن تراهم ؛ أيقاظاً منتبهين ، والحال أنهم نيام .

وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .

أى : ويقلبهم الله من جانب إلى جانب ؛ لتلا تأكل الأرض أجسامهم ، وعدد مرات التقليب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وما أورده المفسرون فى ذلك لم يثبت عن طريق النقل الصحيح .

وجاء فى تفسير ابن كثير : قال بعض السلف : يقلبون فى العام مرتين . اهـ .

وَكُلُّهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعُهُ بِأَلْوَصِيدٍ لَوِ اطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ لِرَأَا وَكَلِمَتٍ مِنْهُمْ رُغْبًا .

أى : وكلهم ملق يديه على الأرض ، مبسوطين غير مقبوضتين بفناء الكهف قريباً من باب الكهف ؛ كأنه يحرسهم وألقى الله عليهم المهابة .

ولو شاهدتهم وهم على تلك الحالة : لغررت منهم هاربا ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ؛ فبرئيتهم تخير الرعب ، إذ يراهم الناظر نياما كالأيقاظ ؛ عيونهم مفتوحة ، ينقلبون ولا يستيقظون ، وتلك عناية إلهية ؛ لئلا يذنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لاس ؛ حتى يبلغ الكتاب أجله ؛ لما فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة الواسعة ^(٢١٤) .

مكان الكهف

للمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال ؛ فقيل : هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل : ببلاد الروم ولم يبق إلى الآن دليل على شيء من ذلك ، ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية ؛ لأرشدنا الله إلى معرفته ؛ كما قال ﷺ : « ما تركت شيئا يقرىكم من الجنة ، ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم » ^(٢١٥) .

★ ★ ★

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْنَا ۝ (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَذَبُوا اللَّهَ وَحَقُّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۝ (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كُذِّبُوا وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كُذِّبُوا رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُذِّبُوا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ (٢٢) ﴾

المضردات :

بعثناهم ، أيقظناهم صحيحة أبدانهم .

لبثتم ، أقمتم ورقدتم .

الـسـورق، الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة .

زُكـى، أجود وأطيب .

ولـيتـلطـف، يتكلف اللطف فى المعاملة ؛ كى لا تقع خصومة تجرّ إلى معرفته .

ولا يشـعـرن، ولا يُعلمن .

إن يظهروا عليكم، إن علموا بمكانكم .

أنصـرنـا عليهم، أطلعنا عليهم الناس .

السـاعـة، يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعا للحساب .

التـنازع، التخاصم .

الذين غلبوا على أمرهم، رؤساء البلد ؛ لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا .

المسـجـد، معبد المؤمنين من تلك الأمة ، وكانوا نصارى على المشهور .

الـرجـم، القول بالظن .

الفـصـيب، ما غاب عن الإنسان ، والمراد هنا : القول بالظن والتخمين .

المـراء، المحاجة فيما فيه مرية وتردد .

مراء ظاهرا، سهلا هينا .

ولا تستخت فيهم، لا تطلب الفتيا منهم ، ففيما قصه الله عليك بشأنهم ما يكفيك .

التفسير :

١٩- وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسِئَاسَ لَوْلَا يَنْتَهُمُ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ...

أى : كما أرفدنا هؤلاء الفتية فى الكهف ، وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مر الأيام ؛ بعثناهم صحيحة أبدانهم ، وأشعارهم وأبشارهم ؛ لم يفقدوا من أحوالهم وهيأتهم شيئا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين .

ولهذا تساءلوا بينهم : كَمْ لَبِثْتُمْ وذلك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم.

قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ . قدروا مدة مكثهم فى الغار نياما بيوم ، أو بجزء من اليوم ؛ فقد كان دخولهم الغار فى أول النهار ، واستيقاظهم كان فى آخر النهار ؛ فظنوا أن مكثهم فى الغار كان مدة محدودة بين أول النهار وآخره .

قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ بِكُمْ.

أى: قالت فئة أخرى: الموضوع فيه تردد وحيرة - بسبب إحساسهم بكثرة النوم - فاتركوا جسم هذا الموضوع، والله أعلم بالمدة التى مكثناها نائمين فى الغار.

فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

أحسوا بشدة الجوع : فقالوا : أرسلوا واحدا منا ، ومعه هذه الفضة التى أحضرناها معنا إلى مدينة طرسوس التى خرجنا منها .

فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ .

أى: فليبصر أى الأطعمة أجود وأحسن وأحل فليأتكم بمقدار منه .

وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا .

أى: وليتفرق فى دخوله المدينة ، وليذهب متخفيا فى رفق وسهولة ، ولا يجادل أحدا ولا يختلف معه: حتى لا يظهر أمرنا وحتى لا يعلم الناس بمكاننا .

٢٠ - إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعْدِلُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا .

تشير الآية إلى حديث الفتية مع بعض ، وهم فى حالة من الخوف والحذر: خشية أن يعلم دقيانوس وأعدائه بمكانهم .

وإذا علم هؤلاء الكفار بمكانهم ؛ فالمتبع واحد من أمرين :

١ - القتل رميا بالحجارة .

٢ - أن يرجع الفتية إلى دين قومهم الوثنى ، ويعودوا إلى عبادة الأصنام .

وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا .

أى: إذا عدتم إلى دينهم ، وتركتم الإيمان بالله ؛ فلن تفوزوا بخير أبدا .

ويظهر من هذا التناجى حرص الفتية على إيمانهم ، والتواصى بالحيلة والحذر ، والثبات على الإيمان ، وعدم العودة إلى الكفر .

وقريب من هذا المعنى ، ما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى : أن رسول الله ﷺ قال :

«ثلاث من كنَّ فيه : وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» (٢١٧) .

٢١- وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ...

جاء فى تفسير ابن كثير :

أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة .

فجعل الله تعالى هذه القصة ، لهؤلاء الفتية ، وأطلع الناس على أمرها : ليشاهدوا بأعينهم ، أن القادر على بعث هؤلاء الفتية بعد ثلاثمائة سنة وتسع ، بعد أن حفظت أجسامهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها .

فإن الله القادر على إحياء أصحاب الكهف : قادر على بعث الموتى ، وإحياء من فى القبور للحشر والحساب والجزاء .

إِذْ يَتَنَزَّهُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا أَأَنبَأُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانَهُمْ رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّهُمْ مَّسْجِدًا .

لقد كانوا يتنازعون فى أمر القيامة ، فمن مثبت لها ومن منكر : فجعل الله إطلاعهم على قصة أهل الكهف حجة للمؤمنين ، ودليلاً على المنكرين .

فَقَالُوا أَأَنبَأُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانَهُمْ رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ .

أى : قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنيانا : ليكون علما عليهم .

رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ . الله أعلم بحالهم وشأنهم ، وهذه الجملة يحتمل أن تكون من كلام الفريق الأول ، الذى رغب فى بناية بنيان على باب الكهف . ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى : فهو سبحانه أعلم من الجميع بحال أصحاب الكهف .

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّهُمْ مَّسْجِدًا .

أى : قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة ، أصحاب الكلمة النافذة : لَنَتَّخِذَنَّهُمْ مَّسْجِدًا . أى : معبداً يُصَلَّى فيه الناس ، ويتعبدون : تبركا بهؤلاء الفتية .

التحذير من اتخاذ القبر مسجداً

حارب الإسلام الوثنية والسجود لغير الله ، وخلص عقيدة المسلم من السجود لغير الله ، أو الاعتقاد بأن غير الله ينفع أو يضر . وفى الحديث الشريف : «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ...» (٢٩٧) .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد ، منهى عنه أشد المنهى ؛ حتى ذكر ابن حجر فى كتابه (الزواجر) : أنه من الكبائر .

قال الألوسى فى تفسيره :

واستدل بالآية على جواز البناء على قبور للصلحاء ، واتخاذ مسجد عليها ، وجواز الصلاة فى ذلك . وممن ذكر ذلك الشهاب الخفاجى ، فى حواشيه على البيضاوى ، وهو قول باطل عاطل ، فاسد كاسد .

فقد روى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لعن الله زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج» (٢٩٨) .

وزاد مسلم «ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ؛ فإنى أنهاكم عن ذلك» (٢٩٩) .

وروى الشيخان عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ...» (٣٠٠) .

وروى أحمد والشيخان والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «إن أولئك ، إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات ؛ بنوا على قبره مسجداً أو صوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة» (٣٠١) .

وروى أحمد والطبرانى «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد» (٣٠٢) .

وقد علق الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى على هذه الآثار بقوله :

إلى غير ذلك من الآثار الصحيحة ؛ فليعتبر المسلمون بهذه الأخبار ، التى لا مرية فى صحتها ، وليقلعوا عما هم عليه ؛ من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين ، والتبرك بها ، والتمسح بأعتابها ، وليعلموا أنها وثنية مقنعة .

وعود إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ... إلخ (٣٠٣) .

ولعل الشيخ أحمد المراغى قد بالغ فى دعوته ، وتحمس أكثر مما ينبغى ، وأرى أننا بحاجة إلى دعوة المسلمين بالحسنى ، إلى هدى دينهم وسنة نبيهم .

وهذا الأمر يسير فيه الناس على طريقتين مختلفتين :

فريق يبيع التوسل والوسيلة وزيارة مقابر الصالحين ، والدعاء عندها ، ويستشهد بآيات وأحاديث وأثار تؤيده .

وفريق يحرم زيارة المساجد ، التى فيها أضرحة للأولياء والصالحين ، ويحرم التبرك بها والتمسح ، ويعتبره وثنية مقنعة كما شاهدنا .

وجهة نظر :

أرى أن هناك أولويات ؛ ينبغى أن يتلاقى عليها المسلمون ، مثل : الوحدة ، والجماعة ، والتعاطف ، والتعاون ، ثم يبحث الموضوع فى إنصاف .

بمعنى : أن تعلم المسلمين آداب الزيارة للمساجد التى فيها أضرحة الصالحين ، فيزار المسجد وتُصلّى تحية المسجد ، ثم يزار القبر فى أدب ، وإيمان بالله ، واعتقاد أن صاحب القبر بشر ؛ انتقل إلى جوار الله ، وأن الدعاء يكون لله ، وأن الله هو النافع الضار ، وأن أحداً لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله ؛ فنحن جميعاً ندعو الله خصوصاً فى هذه الأماكن الطاهرة .

ومن شاء ألا يزور هذه المساجد ، بُعداً عن شبهة الوثنية ؛ فله ذلك ونحترم وجهة نظره .

ومن شاء أن يزور هذه المساجد فله ذلك ؛ مع تأكيد طلبنا للزائرين أن روح الإسلام تأمر بإخلاص العبادة لله ، والتوجه الكامل إليه ، واليقين الجازم بأن الله وحده هو المقصود فى العبادة والدعاء .

ونرى أخيراً أن الله تعالى يقبل من كل طرف من الطرفين حسن نيته وصدق توجهه .

وبهذا نقرب بين المسلمين ، ونحدّ من غلواء المتطرفين ، وسنجد أن أسباب التوافق بين المسلمين أكثر بكثير من أسباب الخلاف والنزاع .

ومثل هذا القول ينطبق على كثير من الأمور التى تثار بين الشيعة والسنة ، والأباضية ، والوهابية ، والسنية ، والطرق الصوفية ، وغيرها .

حيث يملك كل فريق بطرف من الموضوع ، ويبالغ فى دعواه ؛ أنه وحده صاحب الحق المطلق ؛ وبذلك يتم التخاصم والتنازع . ولو تأملنا ؛ لوجدنا رحمة الله تتسع للجميع ، وأن أولويات ديننا تدعونا إلى !

لزوم الوحدة، والتماسك؛ عملاً بقول علمائنا: نتعاون جميعاً على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه.

وفى تاريخ رسول الله ﷺ، وحياة الصحابة، نماذج لتعدد وجهات النظر، والتيسير، وعدم إخراج المسلم من الملة.

فالنبي ﷺ عندما قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة»^(٢٤٤)؛ من المسلمين: من تمسك بلفظ الحديث، ومنهم: قال: المراد: أسرعوا إلى بنى قريظة، وصلُّوا في الطريق، وأقر النبي الفريقين.

ومثل ذلك من صلى بالتيمم ثم وجد الماء، منهم: من أعاد الوضوء والصلاة، ومنهم: من قال: صليت ولا أعيد؛ وقال الرسول ﷺ للثاني: «صحت صلاتك ولا إعادة عليك» وقال للأول: «لك الأجر مرتين»، وفى الحديث الصحيح: «يسروا ولا تُعسروا وبشروا ولا تنفروا»^(٢٤٥).

وقد حث القرآن الكريم على استخدام العقل والفكر والرأى، ومدح الذين يستخدمون عقولهم وفكرهم، وحذر القرآن من التقليد الأعمى بدون تبصر أو روية، والأدلة الشرعية عندنا تعتمد على القرآن وهو كلى الشريعة وأصل أصولها، وعلى السنة المطهرة وهى المصدر الثانى للتشريع، وعلى الاجتهاد ويشمل القياس والاستحسان وعمل الصحابة والعرف. والمقصود من الاجتهاد: بذل الفقيه الجهد فى استثمار حكم شرعى لواقعة جديدة لم يرد بها نص؛ والمجتهد يبذل جهده فى تلمس الحكم الشرعى المناسب للواقعة وإذا أصاب؛ فله أجران: أجر الاجتهاد، وأجر الصواب، وإذا أخطأ؛ فله أجر واحد، هو أجر الاجتهاد.

وقد تعدد المجتهدون من أئمة الفقه الإسلامى، وكان بينهم التقدير والاحترام، ومن كلامهم اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية.

والقرآن حافل يعرض وجهة النظر الأخرى ومناقشتها بكل تقدير وقد علمنا أدب النقاش والجدال.

قَالَ تَعَالَى: وَلَا تَجِدُوا أُمَّةً مُّسَلِّمَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ هِيَ أَحْسَنُ ... (العنكبوت: ٤٦).

وقال سبحانه: وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْبًا ... (البقرة: ٨٣).

أتمنى أن يسود بين الأمة الإسلامية روح التفاهم والتقدير، وتقديم الأولويات، والتماس العذر للآخرين، وتقديم الأهم على المهم.

إن أعداء الإسلام يتربصون بنا الدوائر، ويحركون هذه العصبية؛ رغبة في تفكيك الجهود، وتحريك الضغائن، والقرآن طلب منا أن نفوت عليهم أغراضهم، وأن نعتصم بحبل الله وكتابه. نجد ذلك في الآيات ١٠٠ - ١٠٥ من سورة آل عمران، وفي كثير من الآيات التي تحثنا على عدم الاختلاف وعلى عدم التنازع.

قال تعالى: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ... (الأنفال: ٤٦).

وروى البخاري: في صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تحاقدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا: المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»^(٢٥٦).

إن المسلمين في أمس الحاجة إلى جمع الكلمة، ووحدة الصفوف، والتلاقى على الثوابت، وهي كثيرة، واحترام وجهة النظر الأخرى، واستخدام الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن. والله ولي التوفيق.

٢٢- سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كُلُّهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادُسُهُمْ كُلُّهُمْ رَجُمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ قُلْ رَأَيْ أَعْلَمُ بَعْدِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ...

أى: سيختلف الناس في عدة أصحاب الكهف - أيها الرسول الكريم - فمن الناس من سيقول: إن عدتهم ثلاثة، رابعهم كلهم، ومنهم من يقول: إنهم خمسة، سادسهم كلهم.

رَجُمًا بِالْغَيْبِ. أى: قذفًا بالظن، من غير يقين ولا علم؛ كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه.

وجاء في التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى:

أى: يرمون رميا بالخبر الغائب عنهم، والذي لا اطلاع لهم على حقيقته، شأنهم فى ذلك شأن من يرمى بالحجارة التى لا تصيب المرمى المقصود.

وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كُلُّهُمْ.

أى: ويقول البعض: إنهم سبعة، والثامن هو الكلب.

قُلْ رَأَيْ أَعْلَمُ بَعْدِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ.

أى: قل أيها الرسول لمن خاضوا فى عدة أصحاب الكهف: إن الله عز وجل أقدر على معرفة عددهم، وأعلم؛ فهو علام الغيوب؛ فمن الأولى تفويض الأمر إليه فى مثل هذه الأمور التى لا يقين عندنا فيها.

مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ. أَيْ : ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة : عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، وكانوا سبعة سوى الكلب .

ونلاحظ أنه لم يرد في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ شيء في ذلك .

لكن المفسرين لاحظوا ، أن الله تعالى عَقَّبَ على الرأي الأول والثاني ، بقوله : رجما بالغيب ، وسكت عن التعقيب على الرأي الثالث ؛ مما يدل على أن أصحابه قالوا ذلك عن تثبت وتعقل ويقين .

فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا .

فلا تجادل في شأن أصحاب الكهف أحداً من الخائضين فيه ؛ إلا جدالاً سهلاً ليناً بالتي هي أحسن .

وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

أَيْ : لا تستفت النصارى أو اليهود أو غيرهم في شأنهم ؛ فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح .

وقد جاءك ربك بالحق الذي لا مرية فيه ؛ فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السابقة .

والمقصود من القصة : هو العظة والاعتبار ، وبيان : قدرة الله ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة ،

وهذا لا يتوقف على عدد معين ، والآية حافلة بمكارم الأخلاق ، وأدب المناقشة .

★ ★ ★

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَآئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ عَدَا ۖ﴾ (٢٣) ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَذَكَرَ رَبَّكَ

إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۖ﴾ (٢٤)

تمهيد :

روى : أن الآيتين نزلتا حينما سألت قريش رسول الله ﷺ : أن يجيبهم عن ثلاثة أسئلة :

١ - أصحاب الكهف . ٢ - ذو القرنين . ٣ - الروح .

فقال : غدا أجيبكم ، ونسي أن يقول : إن شاء الله ؛ فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً فشق عليه ذلك ،

وقالت قريش : إن إله محمد وبَّعه وقلاه ، وقد رُدَّ عنه الله تعالى في سورة الضحى .

التفسير :

٢٣، ٢٤- وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ...

أى : لا تقولن أيها الرسول لشئء : إني سأفعل ذلك غدا : إِلَّا أَن تَقُولَ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ : ذلك أنه ربما مات المرء قبل مجيء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله .

جاء في تفسير الظلال ما يأتي :

إن كل حركة وكل نفس من أنفس الحى ، مرهون بإرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة ، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ، وعقله مهما علم قاصر كليلا ، فلا يقل إنسان : إني فاعل ذلك غدا ، وغدا فى غيب الله .

وليس معنى هذا : أَن يقعد الإنسان ، لا يفكر فى أمر المستقبل ولا يدبر له ، وَأَن يعيش يوما بيوم ، ولحظة بلحظة ، وألا يصل ماضى حياته بحاضره وقابله .. كلاً ، ولكن معناه : أَن يحسب حساب الغيب ، وحساب المشيئة التى تدبره ، وَأَن يعزم ما يعزم ، ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم ، ويستشعر أَن يد الله فوق يده ، فلا يستعبد أَن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فَإِن وفقه الله إلى ما اعتزم : فيها ونعمت ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر : لم يحزن ولم يياس : لأن الأمر لله أولا وأخيرا^(٢٢٧) .

وبهذه المناسبة نتمنى أن يلتفت كل من يقدر تقديراً ، أو يذكر محصولاً للقمح أو الذرة أو القطن أو البترول فى قادم الأيام : أَن يذكر المشيئة : فيقول : سيكون عائد البترول كذا ألف برميل فى العام إن شاء الله ، ومحصول القمح أو الذرة أو القطن كذا إن شاء الله ، وعدد الخريجين من المعاهد العليا والكلية النظرية أو العملية كذا إن شاء الله .

فهذا التعليم والتوجيه للأفراد والجماعات والأمم ، وهو فى صلب العقيدة ، ويترتب عليه اليقين الجازم : بأن يد القدرة الإلهية فوق قدرتنا ، ولها الكلمة النافذة فى حياة الأفراد والجماعات والأمم .

وَأَن الله تعالى يَغْيِرُ ولا يَتَغَيَّرُ ، وهو سبحانه يضع ويرفع ويعز ويذل ، قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ السَّمَلِكِ تَتَلَّى السَّمَلِكِ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ السَّمَلِكِ مَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (ال عمران : ٢٦) .

ويقول سبحانه : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ لى شَأْنٍ . (الرحمن : ٢٩) .

وفى التفسير : شئون يبديها ولا يبتديها : يشفى مريضاً ، ويمرض سليماً ، ويعافى مبتلىً ، ويبتلى معافى ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويغير ولا يتغير .

ونحن ينبغي عندما نقول: سنعمل كذا، أو سنترك كذا أو سنفعل كذا؛ نربطها بالمشيئة فنقول: (إن شاء الله).

والمعنى: إذا أراد الله أن يتم ذلك فسيتم بمشيئته هو وإرادته؛ فأمره غالب ومشيئته نافذة، ومعوته للعباد نعمة وبركة، وهو القائل: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ نَسَمَةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس: ٨٢، ٨٣) .

وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا .

أى: إذا نسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم تذكرت؛ فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله، وقال عكرمة: وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ، إذا غضبت .

وذهب الجمهور من المفسرين إلى أن هذه الفقرة من الآية مرتبطة بما قبلها .

والمعنى: إنك إن قلت: سأفعل غداً كذا، ونسيت أن تقول: إن شاء الله، ثم تذكرت بعد ذلك؛ فقل: إن شاء الله.

أى: اذكر ربك معلقاً على مشيئته ما تقول إنك ستفعله غداً؛ إذا ذكرت بعد النسيان .

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الفقرة مستقلة عما قبلها، ولا تعلق لها بما قبلها، ويكون المعنى: إذا نسيت ذكر ربك لأى سبب من الأسباب، ثم عاد إليك ذهنك وصفاؤك؛ فاشتغل بالتسبيح والاستغفار؛ لأن ذكر الله شفاء ودواء .

قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا كَثِيرًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَئِنْ آمَنَّا لَأَعِدُّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب: ٣٥) .

وقال سبحانه: فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ . (البقرة: ١٥٢) .

وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا .

أى: لعل الله أن يوفقنى ويرشدنى إلى ما هو أصلح من أمر دىنى ودنىائى .

ثم بين سبحانه ما أجمل من قوله: فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عَادَاتِهِمُ فِي الْكَهْفِ بَيْنَ عَدَا؛ فقال:

﴿وَلْيُتَوَّأ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتَوَّأ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشِيرُ كُنْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ﴾

التفسير :

٢٥- وَلْيُتَوَّأ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا .

أى : أن أصحاب الكهف مكثوا نائمين فى الكهف مدة طويلة هى ٣٠٩ سنة بالتاريخ الهجرى وهى تساوى ثلاثمائة سنة بالتاريخ الميلادى أو الشمسى .

وقد كانت عناية الله معهم ، حيث أرسل عليهم النوم وأرسل لهم الضوء والهواء ، وحجب عنهم حرارة الشمس عند شروقها وغروبها ، وألقى عليهم المهاباة ، وحفظ الكلب معهم بفناء الكهف ، ومنع الناس من أن تعبت بهم .

وهذا البيان من الرسول النبى الأُمِّ ﷺ معجزة أيضاً : فهو لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يطلع على كتب السابقين : فمن أين له معرفة أن كل مائة سنة شمسية ! تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوماً على السنة القمرية : لا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير ، بما أوحاه إليه ، وهدهه لأقرب من هذا رُشداً .

وقد حفل القرآن ببيان نظام الكون وتكامله ، وأثر الشمس فى تصاعد البخار ، وسير السحاب ، ونزول المطر ، وإنبات النبات ، وغذاء الإنسان والحيوان . والله سبحانه هو الذى سخر الشمس والقمر والليل والنهار ، وأرسل الرسل لهداية الإنسان ، وأتم الله علينا النعم المادية والمعنوية . وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... (إبراهيم : ٣٤)

٢٦- قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَتَوَّأ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

إن الله أعلم بمدى لبثهم فى الكهف على وجه اليقين ؛ وكانت هناك أقوال لليهود والنصارى وغيرهم حول المدة التى مكثها هؤلاء الفتية فى الكهف ، وفى عددهم ، فكأن الحق سبحانه يقول :

ما أخبرتك يا محمد ، هو فصل الخطاب فى موضوعهم ، وقد أعلمتك به ، وما أخبرتك به هو الحق الصحيح ، الذى لا يحوم حوله شك : فلا تلتفت إلى غيره من أقوال الخاضعين فى أمر هؤلاء الفتية : فإن الله هو الأعلم بحقيقة ذلك .

لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .

أى : هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، وهو علّام الغيوب ؛ فلا يخفى عليه علم شيء فى الأرض والسماء ، وقد أخبرك السميع العليم ، بالخبر القاطع فى شأنهم .

أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ أَى : إنه لبصير بهم ، سميع لهم .

قال ابن جرير : وذلك فى معنى المبالغة فى المدح ؛ كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ! وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، ولا يخفى عليه من ذلك شيء !

وقال قتادة : أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ؛ فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع .

مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشِيرُكَ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا .

أى : ليس لأهل السماوات ولا لأهل الأرض ولا لغيرهما نصير ينصرهم أو ولى يلى أمرهم ، غير الله تعالى هو الذى له الخلق والأمر ، لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مُشير ، تعالى وتقدس .

العبر والعظات

من العبر والعظات التى تؤخذ من قصة أصحاب الكهف ما يأتى :

١ - إثبات صدق الرسول ﷺ فيما يبلغ عن ربه عز وجل ؛ فقد بلغ عن الله عز وجل قصتهم وعددهم وصدق مكثهم ، وصدق الله تعالى إذ يقول : نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ... (الكهف : ١٣) .

٢ - ساق القرآن الكريم القصة مجملة ، ثم ساقها مفصلة ، وفى هذا أدب للدعاة والهداة والمرشدين ، فى الاستفادة بأسلوب الإجمال ثم التفصيل .

٣ - بيان : أن الإيمان إذا استقر فى القلوب هان كل شيء فى سبيله ؛ فهؤلاء الفتية آثروا الفرار بدينهم ، ولجئوا إلى ربهم راغبين فى مثوبته وهدايته ؛ فأكرمهم الله ورعاهم .

٤ - أن يد الله مع المتقين ، ومعونه مع الصادقين ، فقد برأ هؤلاء الفتية من عبادة الأوثان ، وآثروا الكهف على كل متاع الحياة الدنيا ؛ فنشلهم الله برعايته ، وأرسل عليهم النوم مدة طويلة ، وحفظ أجسامهم من البلى ، وأرسل عليهم المهابة فلم يعتد عليهم معتد ، وحفظهم من حرارة الشمس ، ويعتهم فى عهد ملك صالح ، احتفى بهم وأكرمهم .

٥ - التواصي بالحق والصبر ، يؤدى إلى النجاح والفلاح ؛ فهؤلاء الفتية اجتمعوا على الحق ، ووقفوا فى وجه الباطل ؛ فاستحقوا معونة الله ، وبركته ، وتوفيقه .

٦ - أن مباشرة الأسباب المشروعة لا تنافى التوكل على الله ؛ فهؤلاء الفتية عندما خرجوا من ديارهم ، أخذوا بعض النقود ، وبعد بعثهم من رقادهم ؛ أرسلوا واحدا منهم ؛ ليشتري لهم طعاما ؛ وأمره بأخذ الحيلة والحذر .

هكذا العقلاء لا يمنعونهم توكلهم على الله تعالى ؛ من أخذ الحيلة والحذر فى كل شئونهم التى تستدعى ذلك.

٧ - إقامة الأدلة على أن البعث حق ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ، الذى بعث الراقدين من نومهم بعد مئات السنين ، قادر على إحياء الموتى يوم القيامة .

★ ★ ★

﴿وَأَنْتُمْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّينَ﴾ (٢٧) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُنْصِبُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ﴿

المضردات :

لا مبدل ، لا مغير .

لكلماته : لأحكامه ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه .

ملتجدا ، أى : ملجأ تعدل إليه إذا أَلَمْتَ بك ملمة .

واصبر نفسك، احبسها وثبتها .

بالخداة والمشى، أى : فى طَرْفَى النهار، وخصهما بالذكر ؛ لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمر دنياهم .

وجـــــهه : رضاه وطاعته ؛ لأن من رضى عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه .

ولا تعد عينك عنهم ، لا تصرف عينك عنهم إلى أبناء الدنيا ، والمراد : لا تحتقرهم ، وتصرف النظر إلى غيرهم لرياسة منظرهم .

تريد زينة الحياة الدنيا ، تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء ، وأصحاب الثراء .

أغفلنا قلبه ، جعلناه غافلاً .

فـــــرطاً : تفريطاً وتضييعاً لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين .

أعـــــتدنا : أعددنا وهيأنا .

الســـــرادق : لفظ فارسي معرّب يراد به : القسطنط (الخيمة) شبه به ما يحيط بهم من لهب النار ، المنتشر منها فى سائر الجهات .

الســـــهل : دردى الزيت ، أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس .

يشوى الوجوه ، يذخبها إذا قُدم ؛ لِيُشرب لشدة حرّه .

مرتـــــقاً : متكأً .

جـــــنات عدن ، جنات إقامة واستقرار ، يقال : عدن بالمكان ؛ إذا قام به واستقر ، ومنه المعنوي ؛ لاستقرار الجواهر فيه .

أســـــاور ، واحدها : سوار وهو ما يحيط بالمعصم .

ســـــندس : رقيق الديباج واحده : سندسة ، وهو فارسي معرّب .

استـــــبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرّب .

الأرـــــائك : واحدها : أريكة - سرير عليه حُكّة (ناموسية) .

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، أمره جل شأنه بالمواظبة على دراسته وتلاوته ، وألا يكثر بقول القائلين له : انت بقرآن غير هذا أو بدله .

ثم ذكر ما يلحق الكافرين من العذاب يوم القيامة ، وما ينال المتقين من الثواب والتكريم .

التفسير :

٢٧- وَأَتْلَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتْتَحِدًا .

أسباب النزول :

تفيد كتب التفسير: أن هذه الآيات إلى قصة موسى والخضر؛ نزلت في أشراف قريش؛ حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه: كبلال، وعمار، وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة؛ فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يكثر من تلاوة القرآن، وأن يجعل باب تعليم الرسالة والدعوة الإسلامية، مفتوحاً للجميع على السواء في جميع الأوقات للفقراء والأغنياء، وهذا مبدأ سام في المساواة بين الناس؛ فالإيمان يجمع بين الجميع، وأكرم الناس عند الله اتقاهم^(٢٧٨).

وَأَتْلَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ .

أى: اقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم: لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ. أى: لا يقدر أحد في الكون أن يبدل أو يغير كلام الله؛ فقد تكفل الله بحفظ هذا الكتاب؛ قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. (الحجر: ٩)، وقال تعالى: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ حَقًّا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

(الأنعام: ١١٥)

وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُتْتَحِدًا .

أى: لن تجد ملجأ أو حصناً للنجاة؛ غير الله تعالى أبداً.

قال ابن جرير الطبري :

يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك؛ فإنه لا ملجأ لك من الله؛ كما قال تعالى:

يَتْلُهَا الرُّسُلُ نَبْلُغُ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... (المائدة: ٦٧).

٢٨- وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَزَّةِ وَالْغِسَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَم مِّنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

لقد جاء الإسلام؛ ليسوى بين الناس أمام الله، فالخلق كلهم عيال الله، يتفاضلون عنده بالتقوى، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح، وكان كفار قريش وأغنياؤها، يطلبون من النبي أن يطرد الفقراء عن مجلسه، أو يجعل للأغنياء مجلساً خاصاً بهم، فإذا دخل هؤلاء الأغنياء في الإسلام؛ دخل خلفهم خلق كثير من الأتباع لهم، وكان النبي ﷺ حدث نفسه، بالاستجابة لهذا العرض، أو فكر فيه.

فَنَزَلَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ : يحثه على رفض هذا العرض ؛ فالإسلام دين الوحدة والجماعة ، وإذا دخل الإيمان في القلب ؛ أحبَّ المؤمن ربه ، وأحبَّ إخوانه المؤمنين ، وهانت عليه مظاهر الحياة ، والإسلام لا يحرم الغنى ولا المال ولا الجاه ؛ ما دام صاحبها يقدم أوامر الله وواجباته ؛ ولكن الإسلام يحرم أن يكون المال والجاه ، هما الهدف من هذه الحياة ؛ لأنهما في وضعهما الصحيح وسيلة إلى مرضاة الله ، والهدف الأساسي هو مرضاة الله وطاعته .

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرَةِ وَالْعَنَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .

يقول القرآن للرسول ﷺ : صاحب وجالس هؤلاء المؤمنين ، الذين أخلصوا أنفسهم لله ، وتوجهوا إليه بالدعاء في الصباح والمساء .

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

لا تتحول عنهم ، ولا تنصرف عنهم ، ولا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التي يستمتع بها الأغنياء ، أصحاب زينة الحياة الدنيا .

قال ابن عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم ؛ تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة .

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا .

أي : لا تطع كلام الذين سألوك : طرد المؤمنين ؛ فقلوبهم غافلة عن ذكر الله وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا .

وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا .

لقد اتبعوا أهواءهم ، أهواء الجاهلية ؛ فالتناس عندهم قسمان :

قسم : غنى قوى ذو سلطان وجاهه ، وهؤلاء يحكمون ويفكرون ويملكون ، وهم أهل الوجاهة والسيادة .

وقسم : فقير ضائع ، لا يجوز أن يفكر ولا أن يجلس مع الأغنياء .

فلما جاء الإسلام ؛ رفض هذا المنطق ، وبين : أن الناس أمام الله سواء ؛ يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . أي : كان أمره ضياعا ، وهلاكاً ، وبمارة .

قال ابن جرير الطبري :

وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا .

معناه : وكان أمر هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا في الرياء والكبر واحتقار أهل الإيمان ، سرفا قد تجاوز حدّه ، فضيّع بذلك الحق وهلك .

من هدى السنة

روى الشيخان عن سهيل بن سعد الساعدي قال : مرّ رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس : «ما رأيك في هذا؟» فقال رجل من أشرف الناس : هذا والله حرى إن خطب أن يزوّج ، وإن شفع أن يشفع ؛ فسكت رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل آخر من فقراء المسلمين فقال رسول الله ﷺ للرجل : «ما رأيك في هذا؟» قال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا والله حرى إن خطب ألا يزوّج ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله . فقال رسول الله ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا» (٣٩٩) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ؛ إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ؛ قد بذلت سيئاتكم حسنات» (٣٩٠) .

٢٩- وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ...

أى : قل يا محمد للناس : هذا الذى جئتمكم به من ربكم ، هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ، فمن شاء أن يؤمن به ، ويدخل فى غمار المؤمنين ؛ فليفعل ، ومن شاء أن يكفر به ؛ وينبذه وراء ظهره ؛ فأمره إلى الله وإستبطار للمؤمنين من أجل أهوائكم .

قال ابن كثير : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ . هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ؛ ولهذا قال :

إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ...

فإنه تعالى لا تنفعه طاعة الطائع ، أو إيمان المؤمن ، ولا تضربه معصية العاصي ، ولا كفر الكافر ، ولكن هذا الكافر الذى أنف من الحق ، واستكبر عن الدخول فى الإسلام ظلماً وعدواناً ، قد أعد الله له ناراً موجهة ، يحيط به لهيبها من كل جانب ، كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مخلص منه ولا ملجأ إلى غيره .

وقال ابن كثير :

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... أى : سورها ، كإحاطة السوار بالمعصم .

أخرج أحمد والترمذى فى صفة النار وابن جرير فى تفسيره : عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لسرداق النار أربعة جدر كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة» .

وقال ابن عباس :

أَخَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... قال : حائط من نار (٣١١) .

وَأَن يُسْتَفِغُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ .

والمهل : ماء جهنم أسود منتن غليظ حار ، ولهذا قال : يَشْوِي الْوُجُوهَ . أى : من حرّه إذا أراد الكافر أن يشربه ، وقربه من وجهه ؛ شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه .

وأخرج أحمد والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : «ماء المهل كعكر الزيت ؛ فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» (٣١٢) .

يُسَى الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا .

أى : يسى هذا الشراب ، وما أقبحه ؛ فهو لا يطفى غلّه ، ولا يسكن حرارة الفؤاد ؛ بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومقيلا يرتفق به أهل النار !

قال تعالى : إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان : ٦٦) .

٣٠- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ، أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن فى الترغيب والترهيب ، أى : إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه ؛ بل نزيده وننميه .

وهذه الآية يستشهد بها الدعاة والعلماء ، الراغبون فى رقى الأمة وتقدمها ؛ فلن نتقدم إلا إذا أتقن كل إنسان عمله : الفلاح ، والصانع ، والمهندس ، والطبيب ، والمعلم ، والموظف ، والإدارى ، وسائر أفراد الأمة ؛ إذا أتقنوا عملهم ؛ نجحوا كأفراد ، وكأمة عاملة ، وتأهبوا لنيل ثوابهم فى الدنيا والآخرة .

أما ثوابهم فى الدنيا فهو القوة والتفوق ، وأما ثوابهم فى الآخرة فهو الجنة ونعيمها ، وقد بين القرآن ألوان نعم العاملين فى الجنة فقال :

٣١- أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ...

أى : هم فى جنات إقامة ، تجرى من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة .

يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ...

أى : يحلّون فى الجنة بأساور الذهب ، وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما : عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الموضوع»^(١٢٢) .

وتفيد آيات القرآن الأخرى : أن المؤمن يتمتع بثلاثة أساور ، واحدة : من فضة ، والثانية : من لؤلؤ ، والثالثة : من ذهب .

قال تعالى : وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ... (الإنسان : ٢١) .

وقال تعالى : وَلَوْلُؤَا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . (الحج : ٢٣) .

وفى الآية التى نفسرها : يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ...

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ .

أى : ويلبسون رقيق الحرير وهو السندس ، وغليظه مما نسج من سلوك الذهب ، وهذا لباس المترفين فى الدنيا ، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم .

واختير اللون الأخضر : لأنه أرفق بالأبصار ، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار ، وجعل لون السماء الزرقاء : لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا .

وقد قالوا : ثلاثة يذهبن الحزن : الماء ، والخضرة ، والوجه الحسن !

مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ...

أى : يتكئون فيها على سرر مزدانة بالسقور ، وفى هذا دليل على منتهى الراحة والنعيم ، كما يكون ذلك فى الدنيا .

بِغَمٍّ مِّنَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا .

أى : نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم ، وحسنت منزلا ومقيلا .

ونحو الآية قوله تعالى: أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا زَبْجَةً وَسَلَامًا. غُلِيلِينَ فِيهَا حُسْنٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا. (الفرقان: ٧٥، ٧٦).

★ ★ ★

قصة صاحب الجنتين

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ (٢٢) ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا كُلُّهَا وَلَمْ تَنْظُرْ فِيهِ شَيْئًا وَفَجَرْنَا نَخْلَهُمَا نَخْرًا﴾ (٢٣) ﴿وَكَانَ لَهُ شَرَفٌ فَقَالَ لَصَاحِبِهِ: وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ (٢٤) ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٢٥) ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ (٢٦) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ (٢٧) ﴿لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (٢٨) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٢٩) ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٣٠) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٣١) ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْيَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهُوَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْ لِي بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٢) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةً يَتَّبِعُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرِفًا﴾ (٣٣) ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٣٤)

المفردات :

الجنة: البستان، سميت بذلك: لاجتنان أرضها، واستتارها بظل الشجر، وكل مادة (ج ن ن) تفيد: الخفاء والاستتار: كالجنيين، والجن، والمجنون: لاستتار عقله، وجن الليل: أظلم إلى نحو ذلك.

أعصاب: كروم منوعة.

وحققناهما بتخل، أى: جعلنا النخل محيطا بهما، مطبقا بجانبيهما، يقال: حَفَّه القوم أى: طافوا به. ومنه قوله: حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ... (الزمر: ٧٥). وحففته بهم: إذا جعلتهم حافين حوله.

أكابها: ثمرها.

لم تظلم: ولم تنقص.

نهر: لغة فى النهر، وهو مجرى الماء العذب.

ثمر: أنواع من الفواكه والثمار.

الصاحب: المصاحب لك.

بحاوره: يجادله ويراجعه ويخاصمه.

التفر: الخدم والحشم والأعوان.

تبديد: تفنى وتهلك.

قائمة: كائنة وحاصلة ومتحققة.

منقلباً: مرجعا وعاقبة.

سواك: عدك وكمك إنسانا.

كنها هو الله: أصل التركيب: لكن أنا أقول: هو الله ربى؛ دخله نقل وحذف.

لولا: هلاً.

مما شاء الله: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

حسباناً من السماء: آفة أو صاعقة تدمرها.

سعيداً: تراباً.

زلقاً: تزلق عليها القدم ولا تثبت، والمراد: أن تصبح الحديقة تراباً أملساً لا تثبت فيه قدم،

جرداء لا نبات فيها ولا ماء.

غسورا: غائرا فى الأرض غائصا فيها.

طليبا: عملا وحركة لرؤده.

واحيط بثمره: أملك أمواله، يقال: أحاط به العدو، إذا استولى عليه وغلبه، ثم استعمل فى كل إهلاك.

يقلب كضيه: هذا أسلوب فى اللغة يفيد: الندامة والحسرة؛ فإن من تعظم حسرته، يصفق بإحدى يديه

على الأخرى، متأسفا متلهفا.

خاويصة، ساقطة مهشمة محطمة، يقال: خوت الدار، وخويت، خيا، وخويا: تهدمت وختت من أهلها.
 المـرـوش، واحدـها: عـرـش، وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم.
 منـتـصـرا، ممتنعا بقوة من انتقام الله.
 عـقـبـا، عاقبة.
 تمهيد:

كانت الآيات السابقة جوابا للكافرين، الذين طلبوا أن يكون لهم مجلسا خاصا بهم؛ حتى لا يختلطوا مع فقراء المسلمين، وهذا المثل ضربه الله لرجلين أحدهما: كافر غنى، والثانى: مؤمن فقير.
 وقد اغتر الغنى بماله، وأنكر قيام الساعة، وظن أن بستانه لن يهلك أبداً، وذكره المؤمن بالله وباليوم الآخر، وخوفه عاقبة الغرور فلم يتعظ؛ ثم كانت العاقبة هلاك بستان الغنى، وندمه.
 وفى النهاية بيان: قدرة الله وعظمته؛ فهو يرفع ويخفض ويغنى ويفقر، ثم بيان: أن الدنيا متغيرة وفانية، والآخرة خير وأبقى. وكل هذه دروس تفيد أغنياء قريش؛ إذا أنصتوا لها بقلوبهم وأفئدتهم.

التفسير:

٣٢- وَأَصْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا.

أى: اذكر يا محمد لهؤلاء الكفار، الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء عن مجلسك هذا المثل.

قال المفسرون:

هما أخوان من بنى إسرائيل أحدهما: مؤمن، والآخر: كافر، ورثا مالا عن أبيهما؛ فاشتري الكافر بماله حديقتين، وأنفق المؤمن ماله فى مرضاة الله؛ حتى نقد ماله فعيّر الكافر بفقره؛ فأهلك الله مال الكافر، وضرب هذا مثلا للمؤمن الذى يعمل بطاعة الله، والكافر الذى أبطرتة النعمة.
 وسواء أصبحت هذه الرواية أم لم تصح؛ فإن ضرب المثل لا يتوقف على صحتها، والقصة هنا نموذج للعة والاعتبار، والتحذير من إغراء المال.

جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَخَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا.

فهذا الغنى الكافر؛ كان يملك بستانين من شجر العنب مثمرين بأنواع العنب اللذيذ، وقد وسع الله على صاحب البستانين بأنواع التوسعة، فأرضه جمعت القوت والفواكه، وهى متواصلة متشابكة؛ فلها منظر ورواء حسن، ووضع أنيق يخلب اللب؛ بجماله ويهجه إذا امتلأ منه البصر، وعلى حافة البستانين

أشجار النخيل ، تطوف حولهما فى سياج يطوف حول الأرض ، وتتوسط الأرض الزروع والثمار ، وتتفجر بينها الأنهار .

٣٣- كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ...

أى : كل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها : يانعا فى غاية الجودة والطيب ، ولم تنقص منه شيئا ؛ فى سائر الأعوام ، على خلاف ما يعهد فى الكروم والأشجار ؛ من أنها تكثر غلتها أعواما ؛ وتقل أعواما أخرى . وَفَجَّرْنَا عَلَيْهِمَا نَهْرًا .

وشققنا وسط الجنتين نهرا كبيرا ؛ تتفرع منه عدة جداول ؛ ليدوم سقيهما ، ويزيد بهما وهما ، وتكثر غلتهما .

٣٤- وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ...

أى : أنواع أخرى من الثمار ، وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد بالثمر : أموال أخرى غير الجنتين ؛ من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك .

وقد قرأ ابن عامر وحزمة والكسائى (ثُمَر) بضم التاء والميم ، وهو جمع ثمار ، أى : أموال كثيرة ثمرها بما ادخره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : أن الله أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتة وناطقها ، وكانت له مزارع يستخدم فيها أعوانه وأتباعه ، ولا يستعصى عليه شئ من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا .

أى : قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن ، وهو يحاوره ويجادله ويفتخر عليه بالمال والثمار والأتباع والخدم : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا وأتباعا ، فكل هؤلاء الأتباع يقومون بمساعدتى عند الحاجة ، وينفرون معى عند الخصومة .

٣٥- وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا .

لقد استولى عليه الغرور ، والأمل الكاذب ؛ فسار مع صاحبه إلى بستانه ، ثم تكلم فى عنجهية وخيلاء ، ونسى قدرة الله الخالق الرازق النعم ، وتكلم بكلام المعجب بنفسه وماله . فقال لأخيه مشيرا إلى البساتين والأشجار ، والأعناق والثمار والأنهار : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا ولا تخرب .

إن طولُ الحرص ، وحبُّ المال ، ونسيان الآخرة يغرى صاحبه بالأمل ، فيظن أن هذا المال وهذه البساتين لن تهلك وإن تفنى أبداً .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

وترى أكثر الأغنياء من المسلمين ، وإن لم يطلقوا بمثل هذا ألسنتهم فإن ألسنة أحوالهم ناطقة ، منادية عليه .

٣٦- وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا .

ثم ازداد غرورا وكفرا ؛ فأفكر القيامة والبعث ؛ من شدة حبه للدنيا والمال والجنان والمتع العاجلة ؛ فقال : ما أظن القيامة كائنة وحاصلة ، فليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء . ويدل أن يشكر ربه ويحمده ، ويؤدى حق الله فى ماله ، كفر بالله وبالقيامة والبعث والجزاء ، ثم قال :

وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا .

أى : ولئن كان هناك بعث على سبيل الغرض والاحتمال ؛ فسوف يكون نصيبى فى الآخرة أفضل وأحسن مُنْقَلَبًا أى : مرجعا ومالاً ؛ لأنتنى فى الدنيا أحسن وأغنى وأكرم ؛ فكما أعطانى ربى ذلك فى الدنيا فسوف يعطينى مثله فى الآخرة ؛ لكرايمتى عليه . ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسْفَى ... (فصلت : ٥٠) .

وهكذا نجد أن هذا الكافر لحقه الخسار من تفكيره الخطأ ، حيث ظن أن جنته لن تفنى ، وظن أن القيامة لن تقوم ، وظن أن الآخرة تقاس على الدنيا ، فمن كان غنيا فى الدنيا ، كان ممتازا فى الآخرة .

وهنا يرشده أخوه ، إلى القيم الحقيقية فى الدنيا والآخرة ، ويبين له : أن الله هو صاحب الفضل ، والنعمة والمنة ، وأن واجبنا أن نعترف لله بالخلق والإيجاد من العدم ، والتفضل بالنعمة .

٣٧- قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ زَجَلًا .

هنا يقف الأخ المؤمن مذكرا أخاه بالله تعالى ، الذى خلق آدم من تراب ؛ وهو أب البشرية ، ثم خلق الناس من صلبه من منى يمى ؛ وهذا يجعل الإنسان متواضعا متذكرا عظمة الخالق .

والاستفهام فى الآية أَكَفَرْتَ للتوبيخ والتقريع ، أى : أتجدد من خلق آدم من تراب ، ثم خلق ذريت من نسله ، ثم سواك رجلا كاملا بقدرته ، ويحتمل الكلام وجها آخر لمعنى : خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ؛ إذ غذاء الديك من

النبات والحيوان ، وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة : أن الله أوجدك من العدم ، وهو قادر على أن يعيدك إلى الحياة مرة أخرى بعد الموت .

٣٨- لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا .

أى : لكن أنا أقول : هو الله ربى وخالقى ، وأؤمن به وأثق بوجوده وقدرته ، وأن بيده الخلق والأمر .

وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا .

أى : لا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبود وحده لا شريك له ، ثم زاد فى نصيحته فقال :

٣٩- وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ...

أى : هلاً حين دخلت جنتك أو حديقتك ، وأعجبت بما فيها من أشجار وثمار ، وظلال وثمار ؛ قلت : هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير :

قال بعض السلف : من أعجبه شيء من حاله أو ماله فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة ، وقد روى فيه حديث مرفوع عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت»^(٣٩) أخرجه الحافظ أبو يعلى .

وقد ثبت فى الصحيح عن أبى موسى : أن رسول الله ﷺ قال له : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٤٠) .

فالمؤمن يرشد أخاه الكافر ، إلى التواضع والإيمان ، واليقين بأن النعمة جميعها من الله ، ويرشده أن يقول :

مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . أى : الأمر ما شاء الله ، فجننتى أو بستانى هذا باق فى نضارته بمشيئة الله ، إن شاء الله أبغاه وإن شاء أملكه . لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . أى : لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته .

إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا .

أى : إن ترى أيها المغرور أنني أقل منك فى المال والولد ؛ فإننى أرجو الله الذى لا يعجزه شيء : أن يرزقنى ما هو خير من جنتك فى الدنيا والآخرة .

٤٠ - فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا .

أى : إن رأيتنى فقيرًا قليل المال ، فإننى أتوقع من صنع الله وإحسانه : أن يقلب ما بى وما بك من الفقر والغنى ؛ فيرزقنى جنة خيرا من جنتك ؛ لإيمانى به ، ويسلب عنك نعمته ؛ لكفره به ، بأن يرسل على بساتينك مطرا عارما ، أو سيلا جارفا يخرب بستانك .

قال الزمخشري :

والحسبان : مصدر كالغفران بمعنى : الحساب ، أى : ويرسل عليها مقداراً قدره الله وحسبه وهو الحكم بتخريبها .

فَتُصْبِحُ صَعِيدًا : أى : أرضا ، زَلَقًا : جرداء ملساء لا نبات فيها ، ولا يثبت عليها قدم .

والمراد : أنها تصبح عديمة النفع من كل شيء حتى من المشى عليها .

قال ابن كثير : فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ، أى : بلقعا ترابا أملسا ، لا يثبت فيه قدم .

وقال ابن عباس : كالجرز الذى لا ينبت شيئا .

٤١ - أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا .

أى : يغور ماؤها فى الأرض ، فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذ لا تستطيع طلبه فضلا عن إعادته وردّه .

وخلاصة ذلك : أن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بأفة سماوية ، أو بأفة أرضية ، وهو غور ماؤها ، أى : يغوص فى أسفل الأرض ويذهب بعيدا عن الأشجار .

قال تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ . (الملك : ٣٠) .

٤٢- وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا آتَفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا .

الإحاطة : مأخوذة من إحاطة العدو بعدوه ، من جميع نواحيه ، لإهلاكه واستئصاله .

والمعنى : فحدث ما توقعه الرجل الصالح من إرسال الحُصْبَانِ على بستان صاحبه الجاحد المغرور ، وأحيط بثمره بأن هلكت أمواله كلها ، جزاء بطره وتكبره وغروره .

فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا آتَفَقَ فِيهَا .

أى : صار يعض بنان الندم ، ويضرب إحدى يديه بالأخرى كناية عن الحسرة والأسف والخزى والهوان ، وهو يبدي اللوعة والحنن : لبوار أرضه ، وهلاك ما أنفقه عليها ، وتهدم الدور والقصور ، وسقوط السقوف على الجدران .

والغنى المغرور ، يشاهد جنته بجميع ما اشتملت عليه صارت خرابا يبابا لا حياة فيها ولا منفعة فيندم أشد الندم ، على تبجحه وغروره .

وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا .

لقد اعترف بعد فوات الأوان ، أنه تجبر وتكبر وتطاول على من خلقه ورزقه ، وأنكر البعث والحساب ، وجحد قدرة القدير .

فلما ضاعت منه الدنيا ، عظمت حسرته عليها ، وتمنى لو أنه اعتدل فى تفكيره ، وحافظ على الإيمان بالله ، ولم يشرك معه الهوى والجحود والكفران !

٤٣- وَلَمْ تَكُنْ لَهُ قِوةٌ يَنْصُرُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا .

لم تكن له جماعة أو قوة تنصره وتدافع عنه ، وترد عنه قضاء الله عليه بخراب جنته ، وما استطاع بنفسه أن يدفع هذا العذاب عن نفسه .

والآية تصوير لإحاطة قدرة الله به ، وهلاك بستانه وهو عاجز خاسر ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتر بهم ، وافتخر على أخيه الصالح ؛ بأنه أكثر منه مالا وأعز نفرا ، وما استطاع بنفسه أن يرد العذاب الذى أحاط به .

٤٤ - هَٰذَاكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

أى : فى ذلك المقام وتلك الحال ، تكون النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها أحد سواه ؛ فهو يوالى المؤمنين برحمته ومغفرته ، وينصرهم على أعدائهم .

هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا .

أى : أن الله أفضل ثوابا وجزاء ، فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو أفضل عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ، وتشير الآية إلى : أن صاحب المؤمن ، أكرم الله فى دينه ودنياه وآخرته ، وأن الكافر قد خس دينه ودنياه وآخرته . وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . (محمد : ١١)

إن هذا المثل الذى ضربه القرآن صورة حية ، صُورت غرور الغنى ويطره وخيلاه ، وبينت : ثبات المؤمن وقوة إيمانه ويقينه بالله - وبينت : عاقبة الكفر والجحود ، وهى الخذلان والخسران ، وعاقبة الإيمان وهى شرف الدنيا وسعادة الآخرة .

★ ★ ★

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مَّا ۝٤٦﴾

المضردات :

مِثْل : صفة .

هَشِيمًا : متكسرا متفتتا .

تَذْرُوهُ : تنسفه وتبعثره وتفرقه .

مَقْتَدِرًا : كامل القدرة .

الباقيات الصالحات ، كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة .

ثَوَابًا : جزاء .

التفسير :

٤٥ - وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ .

فى أعقاب الحديث عن صاحب الجنتين ، وهلاك جنتيه ، يضرب القرآن الكريم مثلاً آخر للدنيا فى سرعة تقلبها ، وانتهاء أمرها ، وسرعة زوالها ، بصورة عملية يشاهدها الإنسان : هى صورة المطر يهطل من السماء ، فيخالط نبات الأرض ؛ فيخضر النبات ، وينمو ويصبح بهجة للناظرين ، ثم لا يلبث أن تجف أوراقه وتتكرس ، ويصبح هشيماً متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذات اليسار .

ووجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد : حيث شبه القرآن الدنيا فى جمالها وزينتها ، وانتهاء أمرها بالماء يختلط بالنبات الأخضر ، يصبح جميلاً مزهراً ممتعاً ، ثم يتحول إلى هشيم متفتت تنسفه الرياح .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا . فهو سبحانه قادر قدرة كاملة على كل شئء، وهو الباقي بعد كل شئء، ومن عمل لوجه الله ظل عمله باقياً خالداً ؛ ومن عمل للدنيا فعمرها قصير . وفى الأثر : اعمل لوجه واحد ؛ يكفك كل الأوجه .

٤٦ - آمَالُ وَالْبُؤْسُ ذِيَةُ الْحَيَةِ الدُّنْيَا ...

إن المال والبئس من زينة الدنيا ويهتجها ، والإسلام لا يحرم الانتفاع بهذه الزينة ، فنعم المال الصالح للرجل الصالح ويقول تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ . (الأعراف : ٣٢) . إنهما زينة ولكنهما ليسا قيمة . فما يجوز أن يوزن بهما الناس ، ولا أن يقدروا على أساسهما فى الحياة^(٣٦) .

وَالْبَلَقِيتُ الصَّلَاحَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .

أى : أعمال الخير كلها التى يبتغى بها وجه الله ، تبقى ثمرتها أبد الآباد فهى خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله .

قال ابن عباس :

الْبَلَقِيتُ الصَّلَاحَ هى الصلوات الخمس ، وعنه أيضاً : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً : «خذوا جنتكم» قيل : يا رسول الله من أئى عدو قد حضر ، قال : «بل جنتكم من النار ، قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ؛ فإنهن يأتين يوم القيامة مقدّمات معقبات ومُجَنَّبَات ، وهن الباقيات الصالحات» .

وقد رجح الطبري والقرطبي : أن الْبَقِيَّةَ الصَّالِحَاتُ ، هي جميع الأعمال الصالحة وأعمال الخير كلها : فهي أبقى عند الله ثوابا ، وأرجى أملاً .

فالصلاة والزكاة والجهاد في سبيل الله ، ومساعدة البائسين وذوي الحاجات ، والعمل على رفع شأن الأمة ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكل خير يعمله الإنسان ، هو من الباقيات الصالحات ؛ إذ ينال صاحبها في الآخرة ما كان يؤمله في الدنيا .

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِمْ يَقُولُونَ بَوَيْلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّ رُتُوكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

المضردات :

بـارزة ، ظاهرة للعيان : إذ لم يبق على وجهها شيء .

حشرناهم ، جمعناهم لموقف الحساب .

فلم نغادر ، فلم نترك .

وعرضوا ، أحضروا لفصل القضاء .

صفا ، صفا بعد صف كالصفوف في الصلاة .

موعدا ، وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث والحساب والجزاء .

ووضع الكتاب ، وضعت صحائف أعمال البشر في أيديهم .

مشفقين ، خائفين .

الويل ، الهلاك .

أحصاها ، عدّها وأحاط بها .

حاضرا ، مسطورا في كتاب كل منهم .

ولا يظلم ربك أحدا، لا يعاقب إنسانا بغير جرم، ولا ينقص من ثواب المحسنين .

تمهيد :

تحدث الآيات عن مشهد من مشاهد القيامة ؛ حيث يتم فى هذا اليوم الجزاء العادل ، وفيه يعاقب المجرمون ، ويُناب الطائعون .

التفسير :

٤٧- وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

يعقب القرآن على ذكر الدنيا ، بذكر مشاهد الآخرة ، حيث تقتلع الجبال من أماكنها ، وتسير فى الجو كالسحاب ، ثم تكون هباءً منثورا .

وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ...

وترى الأرض ظاهرة للعيان ، ليس عليها ما يسترها ، من شجر أو جبل أو بنيان ؛ فقد قلعت جبالها ، وتهدم بنيانها ، ففى مستوية لا اعوجاج فيها ولا نتوء ، وجميع الخلق ظاهرين لربهم ؛ فلا تخفى عليه خافية .

وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

وجمعنا الأولين والآخرين للحساب ، فلم نترك منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا .

وجمع الناس حفاة عراة غرلا ، (الغُرْلَةُ : القلفة) أى : كما ولدتهم أمهاتهم ؛ حتى يتم فصل القضاء بينهم .

قال تعالى : قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة ٤٩ ، ٥٠) .

وقال سبحانه : ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ الْآنَاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . (هود : ١٠٣) .

٤٨- وَغَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّ نُنْجِلُ لَكُمْ مَوْعِدًا .

أى : عرضت جميع الخلائق على الله تعالى مصطفين ؛ صفوفا صفوفا ، كالصفوف فى الصلاة ، كل أمة وزمرة صفا ، لا يحجب أحد أحدا .

وفى الحديث الصحيح : «يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا ، يسمعون الداعي وينفذهم البصر» (٣٦٧) .

لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

أى : يقال للكفار على وجه التقرير والتوبيخ : لقد جئتمونا حفاة عراة ، لا شيء معكم من المال والولد ؛ كهيئتك حين خلقناكم أول مرة .

ونحو الآية قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... (الأنعام : ٩٤)

بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي جَعَلْتُكُمْ مَوْعِدًا ... أى : زعمت أن لا بعث ولا حشر ، ولا حساب ولا عقاب .

وإننا لنكاد نلمح الخزي على الوجوه ، والذل في الملامح ؛ وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب ^(٣٨) .

فما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا أن هذا كائن .

قال تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ أَيْمَنَهُمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (النحل : ٢٨) .

٤٩- وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ...

أى : وضعت صحائف الأعمال للبشر وعرضت عليهم ، وفى هذه الصحف الجليل والحقير .

وَيَقُولُونَ يَلْبَسُنَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا .

أى : يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا فى حياتنا الدنيا ، ما شأن هذا الكتاب ، لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها !!!

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .

أى : من خير وشر ؛ وجدوه مثبتا فى الكتاب .

قال تعالى : يَوْمَ نَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . (آل عمران : ٣٠)

وقال سبحانه : يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . (القيامة : ١٣) .

وَلَا يُظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا ، أَيْ : لَا يَعاقِبُ إنسانًا بِغير جرم ، وَلَا يَنقُصُ من ثواب المحسنين ؛ فهو سبحانه عادل في حكمه ، وكریم متفضل أيضًا ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «يرفع لكل غادر لواء يوم القيامة عند إسته بقدر غدرته ، يقال : هذه غدرة فلان بن فلان» (٣٦٧) .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن أنيس : أن رسول الله ﷺ قال : «يحشر الناس يوم القيامة ، حفاة عراة غرلاً بهما» قلتُ : وما بهما ؟ قال : «ليس معهم شيء ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ؛ حتى أقضيه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق ؛ حتى أقضيه منه ، حتى اللطمة» قال : قلنا : كيف وإنما نأتى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً بهما ؟ قال : «بالحسنات والسيئات» (٣٧٠) .

وتفيد الآيات السابقة : عرض مشاهد القيامة ، وعدالة الحساب ، وندم المجرمين ، وأن الجزاء الحق من جنس العمل ، قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾
 مَا أَشْهَدُ لَهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مَسْخُودًا الْمُضِلِّينَ عَصِدًا
 ٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا
 بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ٥٢ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِندَهَا
 مَصْرَفًا ٥٣﴾

المقدرات :

فسق، خرج .

افتتخونوه، الهمة في مثل هذا تغيد : الإنكار والتعجب ممن يفعل ذلك .

الثرية، الأولاد أو الأتباع .

عصدوا، يطلق على الواحد والكثير ؛ كما قال تعالى : فَإِلَهُمْ عُذْرٌ لِيِ الْإِزْبَ الْفُلُجِينَ . (الشعراء : ٧٧) .

العصدة، أصله ما بين المرفق إلى الكتف ويستعمل بمعنى : المعين كاليد ونحوها ، وهو المراد هنا .

فدععوهم ، فاستغاثوا بهم .

فلم يستجيبوا لهم ، فلم يغيثوهم .

الموبق، مكان الوبوق ، أى : الهلاك ، وهو النار . يقال : وبق وبوقا ، كوئب وثوبا ؛ إذا هلك .

مواقعوها ، داخلوها وواقعون فيها .

مصرفها ، مكانا ينصرفون إليه .

تمهيد :

ذكر القرآن : رغبة أغنياء مكة في مجلس خاص بهم ؛ وقد أنفوا من أن يجالسوا فقراء المسلمين ،
 واقتضوا بأنسابهم وأحسابهم وأموالهم على الفقراء ، ثم ذكر القرآن : عصيان إبليس ، وامتناعه عن السجود
 لآدم ؛ لأن الذى حمله على ذلك هو كبره وافتخاره بأصله ونسبه .

وقد تكررت هذه القصة (قصة إبليس) فى القرآن الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت فيه لفائدة
 مناسبة ؛ غير ما جاءت له فى المواضع الأخرى ؛ على اختلاف أساليبها وعبارتها ، ولا غرو فهى من نسج
 العليم الخبير .

التفسير:

٥- وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...

الملائكة أجسام من نور لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ؛ سجد تحية وتعظيم لا سجد عبادة ، وقد استجابت الملائكة لأمر الله ، وامتلئت وسجدت لآدم ، وكان إبليس مقيما مع الملائكة فنسب إليهم ، وعندما أمر الجميع بالسجود ، أطاعت الملائكة ، أما إبليس فخانته أصله ؛ لأنه خلق من مارج من نار ؛ ولذلك تكبر وامتنع ، طائفا أنه من نار ، وآدم من طين .

وفى القرآن الكريم : قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . (م : ٧٦) .

وما علم أن النار خائنة تحرق ما يوضع فيها ، والطين أمين ، ينبت النبات إذا وضع فيه ، وقد روى مسلم فى صحيحه عن عائشة مرفوعاً «خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم» (٣٣) .

وهذه الآية صريحة فى أن إبليس كان من الجن لا من الملائكة .

روى ابن جرير بإسناد صحيح عن الحسن البصرى قال : «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن ، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر» .

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . أى : خرج عن أمر ربه ، وفسق وكفر ؛ لأنه كان من الجن ، من مارج من نار ، فغلب عليه أصله .

يقال : فسقت الرطبة ؛ إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفأرة من جحرها ؛ إذا خرجت منه للبعث والفساد .

أَفْتَحِلُوا نُورَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ...

أى : كيف تستبدلون بمن خلقكم ووزقكم ، وأمدكم بسائر النعم ، من لم يكن لكم منه منفعة قط ، بل هو عدو لكم يترقب حصول ما يضركم .

يُنْسِ لِلْغَافِلِينَ بَدَلًا .

أى : ينس البديل للكافرين بالله ؛ اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم .

والخلاصة : بثت عبادة الشيطان ، بدلا من عبادة الرحمان !

وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث حذر الله الناس من طاعة إبليس ، وبين أنه عدو للإنسان .
وقد أخرج أبانا آدم من الجنة : فوجب أن نتخذه عدوا ، ولا ننخدع بوسوسته .

قال تعالى : أَلَمْ أَعْهِذْ إِلَيْكُمْ بِنَبِيِّيَ إِذْ قُلْتُ لَهُمْ إِنِّي إِلَهُ رَبِّكُمْ وَإِنِّي أَخَذْتُ مِنَ اللَّهِ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ مِنِّي وَأَوْرَثُهُنَّ يَوْمَ تَوَلَّوْا . (يس : ٦٠ - ٦٢) .

وقال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

وأخر سورة فى القرآن الكريم ، فيها دعوة إلى لجوء المؤمن وتحصنه برب الناس وخالقهم ، وملك الناس ، وإله الناس ، المستحق وحده للعبادة ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس للإنسان بالشر ويدعوه إليه : فإذا ذكر المؤمن ربه : خنس الشيطان ورجع . وللشيطان أتباع وأعوان من الجن ، وأتباع وأعوان من الإنس ، ونحن نتحصن ونلجأ ، ونستعيز بالله من شياطين الإنس والجن .

قال تعالى : قُلْ أَغْوَى بِرَبِّ الْإِنْسَانِ . إِنَّهُ أَكْثَرُ غَوًى . (الناس : ١ - ٦) .

وإن الإنسان لياسف ويحسر ، أن نجد بيننا فريقا من الشباب يدعى : أنه من عبدة الشيطان ، وكتاب الله يدعونا أن نحذر الشيطان ، وأن نستعيز بالله منه ، وأن نعتصم بإيماننا بالله : حتى لا يجد الشيطان سبيلا إلى التسلط علينا .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْهَرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال عز شأنه : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

وفى يوم القيامة يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ويلوم أهل النار إبليس : لأنه أغواهم وغر بهم : فيخطب فيهم الشيطان خطبة بتراء ، يجرد نفسه من المسؤولية ، ويلقى التبعية على من انجراف وراء دعوته ، وقد خلق الله للإنسان عقلا ورأيا ، وإرادة واختيارا : حتى يتحمل المسؤولية فى اختياره .

قال تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ أَنَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُنْصِرِي ... (إبراهيم : ٢٢) .

٥١- مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ...

أى : ما أشهد هؤلاء الشياطين ، خلق السماوات والأرض : فأنا الملك الخالق الرازق الموجود ، بيدى الخلق والأمر ، والإيجاد والإعدام والهداية والضلال .

فالعبد والطاعة ينبغي أن تتوجه لى وحدى : قال تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . (الأنعام : ١) .

فهو خالق الكون كله ، وموجده من العدم ، ولكن الذين كفروا يعدلون ويتركون عبادة الله ، إلى عبادة أوثان أو شياطين ؛ لم تخلق ولم ترزق ؛ فلا تستحق العبادة .

وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ . أى : لم أشهد بعضهم خلق بعض : فهم عبيد أمثالكم ، فكيف تعبدونهم ؟!

وقصارى ذلك : ما أطلعهم على أسرار التكوين ، وما خصصتهم بخصائص لا تكون لسواهم ؛ حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ، ليس لى فى ذلك شريك ولا وزير .

وَمَا كُنْتَ مُتَّبِعَ الْمُضِلِّينَ عَصَا .

أى : لم أتحذ الشياطين أعوانا لى فى الخلق ، فكيف تطيعونهم من دونى ؟!

والله سبحانه وتعالى غنى عن الناس أجمعين ، وليس له أعوان لا من المضلين ولا من المهتدين ؛ وإنما خص المضلين بالذكر ؛ زيادة فى ذمهم ، وتوبيخهم ، وتقريعا لأمثالهم .

أى : كيف تعبدون الشيطان وهو ضال مضل ، وليس له فضل عليكم ؛ بل هو مخلوق مثلكم ، وأنا لا أتخذ مساعداً يعضدنى ويقوينى .

والعَصَا بفتح العين وضم الدال : فى الأصل يطلق على العضد المعروف ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعار للمعين والناصر ، فيقال : فلان عضدى أى : نصيرى .

ومنه قوله تعالى لنبيه موسى : سَتَشُدُّ عَصَاكَ بِأَخِيكَ ... (القصص : ٣٥) ، أى : سنقويك ونعينك بأخيك هارون ؛ وذلك لأن اليد قوامها العضد ، فإذا فقدته : أصابها العجز .

٥٢- وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا .

أى : واذكر أيها الرسول الكريم ، يوم يقول الله تعالى للمشركين على سبيل التبكيت والتقريع : اطلبوا من عبيدتموهم فى الدنيا ، وزعمتم : أنهم شركائى ؛ ليشفعوا لكم من هول هذا اليوم ، وينقذكوم من العذاب ، فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . أَيْ : حاجزا من النار يهلك من دخل فيه .

قال ابن عباس : مهلكا .

وقال قتادة : مَوْبِقًا : وادياً فى جهنم .

قال ابن كثير :

والمعنى : أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ، ولا وصول لهم إلى آلهتهم ، التى كانوا يزعمون فى الدنيا ، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك ، وهول عظيم ، وأمر كبير .

قال تعالى : وَامْتَنَزُوا إِلَيْهَا الْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

وقال تعالى : وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ... (القصص : ٦٤) .

وقال سبحانه : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِلَالًا . (مريم : ٨١ ، ٨٢)

٥٣- وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَكَمْ يَجِدُونَ أَنَّهَا مَعَصِرُهَا .

شاهد المجرمون جهنم ، ورأوها تظلمظ غيظا على من عصى الله : فتيقنوا أنهم داخلون فى لهيبها ، ولم يجدوا وسيلة للابتعاد عنها .

وفى آية أخرى ، ذكر القرآن : أن النار إذا شاهدت المجرمين : سمعوا لها أصواتا من الغضب والرغبة فى العقوبة : قال تعالى : إِذَا رَأَوْهُمُ مُّكَانٍ يَعْبُدُ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . (الفرقان : ١٢) .

لقد أفادت الآيات السابقة : ضلال إبليس وتكبره عن السجود لآدم ، وحذرنا من موالاته وهو عدو لنا ، وبيئت : أن هؤلاء الشركاء ، لم يشاركوا ولم يشهدوا خلق السماء والأرض ، وأنهم سيكونون أعداء للعابدين يوم القيامة ، وأن الكافر إذا شاهد النار : تيقن بدخولها ، وذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب ، والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز .

ليت عبدة الشيطان ، يستوعبون هذه المعانى : حتى يفيقوا ويرجعوا إلى رشدهم ويدركوا أنه ليس لهم باب سوى باب الله ، فمن وجد الله : وجد كل شيء ، ومن فقد الله : فقد كل شيء .

﴿ وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شِقْوَةٍ ۖ
 جَدَلًا ۝٥٤ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ
 تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
 وَمُنذِرِينَ ۚ وَبُجْدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِيتِي
 وَمَا أَنْذَرُوا هُزُولًا ۝٥٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلِسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ
 فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۝٥٧ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلُ
 هُمْ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ
 أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩﴾

المضردات :

صرفنا، ردنا وكرنا .

الممثل، الصفة الغريبة .

الجدل، المنازعة بالقول ، ويراد به هنا : الممارسة والخصومة بالباطل .

سنة الأولين، الإهلاك بعذاب الاستئصال .

القبيل، بضمين : الأنواع والألوان واحدا : قبيل : أو عيانا ومواجهة .

ليدحضوا الحق، ليغلبوا به الحق ويبطلوه ويزيلوه .

وما انتدروا، أي : ما خوفوه من أنواع العقاب .

ولسى ما قدمت، لم يتدبر عواقبه .

أكنة، أغطية واحدا : كنان .

أن يفقهوه، أن يفهموه .

وقررا، ثقلا في السمع .

موسى: يوم القيامة .

موسى: ملجأ ومنجى .

القرى: قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباهم .

تمهيد :

ذكر القرآن: شبهات المبطلين وردَّ عليها بأدلة لا تُدحض، ثم قفى على ذلك، ببيان: أن فى القرآن الكريم من الأدلة والأمثال، ما فيه مقنع لمن رغب فى الإيمان، لكنها القلوب قد تحجرت، فلا تستجيب للهدى، ولا تنفعها النصيحة. ولو يؤاخذهم الله بذنوبهم؛ لعجل لهم العذاب، لكنه أمهلهم إلى يوم القيامة؛ لعلهم أن يتوبوا.

التفسير :

٥٤- وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...

هذه الآية شهادة من الله، بأنه أنزل كتابه على نبيه محمداً ﷺ، وأن هذا الكتاب قد بين الله فيه الأمور ووضحها، وكرر وردد آداب القرآن وأمثاله؛ رغبة فى إرشاد الناس وهدايتهم؛ كيلا يضلوا عن الحق.

وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا.

ومع هذا البيان فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة، والمعارضة للحق بالباطل إلا من هدى الله، ويصِّره بطريق النجاة .

روى البخارى، ومسلم، والإمام أحمد عن على بن أبى طالب: أن رسول الله ﷺ طرقه هو وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة؛ فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شئنا، ثم سمعته وهو منصرف يضرب فخذه ويقول: وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا^(٣٣).

٥٥- وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْتُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا.

أى: وما منع كفار مكة من أن يؤمنوا بالله حين جاءتهم البينات الواضحات، والدلالات الظاهرات، وعلموا صحة ما تدعوهم إليه، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة، عما فرط منهم من الذنوب؛ إلا تعنتهم وعنادهم، الذى جعلهم يطلبون أحد أمرين:

١ - إما عذاب الاستئصال الذى أهلك الله به المكذبين السابقين .

٢ - وإما أن تأتيتهم أنواع العذاب والبلاء يتلوا بعضها بعضا، حين وجودهم فى الدنيا، كقولهم: آتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. (العنكبوت: ٢٩).

قال صاحب الظلال :

لقد جاء من الهدى ما يكفي للاهتمام ، ولكنهم كانوا يطلبون أن يحلّ بهم ما حل بالمكذّبين قبلهم من هلاك - استبعاداً لوقوعه واستهزاءً - أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أنه سيقع بهم ، وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون . اهـ .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى :

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ مَنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

وحكى القرآن قولهم : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ . (الشعراء : ١٨٧) .

٥٦- وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجْلِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَٰلِغُونَ فِي الْحَقِّ ...

أى : لم نرسل الرسل : ليقترح عليهم الكفار ألوان العذاب ، أو يطلبوا منهم سقوط أنواع العذاب ؛ تعنتا واستهزاءً ، وإنما أرسلنا الرسل : ليشرحوا حقيقة الإيمان ، ويبشروا المؤمنين بالجنة ، وينذروا الكفار بالنار ومع هذه الرسالة الواضحة ، فإن كفار مكة كانوا ينصرفون عن صميم الهدى ، ويقترحون على النبی ﷺ ألواناً من الاقتراحات ، كزحزحة الجبال عن مكة ، أو تفجير ينابيع الأرض ، إلى غير ذلك ، وأحياناً يسألون النبی ﷺ أسئلة ، مثل سؤاله عن قصة أهل الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ؛ من باب الجدال بالباطل ، وانصرافاً عن هدايات القرآن الكريم .

وَاتَّخَذُوا ءَالِيئِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا .

أى : اتخذوا الحجج والبراهين ، وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب هُزُوًا أى : سخروا واستهزؤوا بالرسل ، وهو أشد ألوان التكذيب والاستخفاف ، قال تعالى : وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . (الفرقان : ٣٠) . أى : أعرضوا عن القرآن واستخفوا به .

٥٧- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاہُ ...

أى : لا أحد أشد ظلمًا من إنسان ، حمل إليه الرسل الموحى إليه آيات الله ، كالوحي والرسالة والبيئات ، فأعرض عنها ، ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ما عمله من الذنوب والمعاصي والكفران ، ولم يتدبر عواقبه .
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ...

إن هؤلاء الكافرين لا يرجى منهم هداية ولا إيماناً لذلك جعل الله على قلوبهم أغطيةً وحجاباً : فلا تنفذ معاني القرآن وآدابه إلى قلوبهم ، وجعل على آذانهم صمماً معنوياً عن سماع الرشاد .

وَإِنْ تَذَعُوهُمْ إِلَى الْهَدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا .

أى : مهما دعوتهم إلى الإيمان والهداية فلن يستجيبوا لك : لأنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد ، بما اجتروحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، قال تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤).

٥٨- وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجِلَ لَهُمُ الْعَذَابُ ...

إن رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم ، وبابه مفتوح للتائبين ، فلو أن هؤلاء المشركين تابوا وأنابوا : لغفر الله لهم .

وهو سبحانه يمهّل ولا يهمل ، ويترك الكفار والعصاة زمانا طويلا : لعلمهم أن يتوبوا ويؤمنوا .

ولو قابل الله عنادهم وكفرهم وجودهم آيات الله بما يستحقون : لأنزل بهم العذاب عاجلا كما فعل مع أمم سابقة : عجل لها عذاب الدنيا .

قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

فقد أكرم الله كفار مكة برسالة محمد ﷺ ولم ينزل بهم العذاب ؛ لوجوده بينهم من جهة ، وأملا في استغفارهم وثوبتهم من جهة أخرى .

بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مُوْتَلًّا .

موعد فى الدنيا يحل بهم فيه شىء من العذاب ، وموعده فى الآخرة يوفون فيه الحساب ، ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا مكان يعتصمون به ، ولا ملجأ يلتجئون إليه .

٥٩- وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا .

أى : هذه القرى الماضية التى أصر أهلها على الكفر ، كقوم نوح والذين من بعدهم : أهلكهم الله بعذاب الاستئصال ، وجعل لهلاكهم موعدا لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون ، وفى هذه الآية تهديد لكفار مكة ، فلا يغرّنهم إهمال الله لهم ، فإن موعدهم بعد ذلك آت ، وسنة الله لا تتخلف ، والله لا يخلف الميعاد .

قصة موسى والخضر

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا آتِبِحْ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٣﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٤﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٧٠﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٧١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِنِّي أَخَذْتُ نَافِلَةً لِي وَلِأَهْلِي مِنَ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٧٤﴾﴾

المضردات ،

لا أبهرح ، لا أزال سائرا .

حقببأ : الحقب (بضم قين ، ويضم فسكون) الدهر ، وقيل : ثمانون سنة ، وعن الحسن : سبعون .

مجمع بينهما : مكان اجتماع البحرين ، عند دمياط أو رشيد .

سرببأ : مسلكا .

غداؤنا : الغداء : الطعام الذي يؤكل أول النهار ، أو هو طعام الغداء في منتصف النهار ، والمراد به هنا : الحوت .

نصيباً، تعباً، وإعياء .

أوبئنا، التجأنا .

نبتقى، نطلب .

ارتدد، رجع .

على أثارهما، على طريقهما الذى جاءا منه .

قصصاً، اتباعاً، أى : رجعا يتتبعان أثرهما عائدين .

رحمة، قيل : هى النبوة ، أو الولاية .

الرشد، (بضم فسكون أو بفتحتين) إصابة الخير .

الإحاطة بالشئ، معرفته معرفة تامة .

الخبير، المعرفة .

ذكرنا، بيانا .

إمـراء، بكسر الهمزة : منكراً .

لا ترهقنى، لا تحملنى ولا تكلفنى مشقة .

المسر، ضد اليسر وهو المشقة .

زكـية، طاهرة من الذنوب .

بغير نفس، بغير حق قصاص لك عليها .

النكر، المنكر الذى تنكره العقول، وتنفر منه النفوس .

تمهيد حول قصة موسى والخضر :

(أ) مرسى : هو كلیم الله ، وهو موسى بن عمران نبيّ بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة .

(ب) لى موسى : هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه .

(جـ) الخضر : يفتح الخاء وكسرهما ، وكسر الضاد وسكونها ، لقب لصاحب موسى : قيل : إنه كان نبيا ، وقيل : كان عبداً صالحاً وقيل : ولياً .

(د) مجمع البحرين : هو المكان الذى يجتمع فيه البحران ويصيران بحراً واحداً وفيه ثلاثة آراء :

١ - عند ملتقى بحرى فارس والروم ، (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند باب المنذب .

٢ - عند ملتقى البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق أمام طنجة .

٣ - قال برهان الدينى البقاعى فى تفسيره : (نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور) : إن سياق القصة

يفيد : أن الأرض كانت رملا لا علاقة فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند

دمياط أو رشيد من بلاد مصر .

(هـ) فى القصة بيان التواضع فى طلب العلم وتحمل المشقات فى سبيله ، وفيه دليل على أن التواضع خير

من التكبر ، وفيها رد على أغنياء مكة الذين أنفوا من مجالسة فقراء المسلمين .

قصة موسى والخضر كما فى الصحيحين

عن أبى بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسلّم: أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ؛ فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرُدّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : أن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى : يا رب فكيف لى به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله فى مكثل فحيثما فقدت الحوت؛ فهو ثم ، فانطلق موسى : ومعه فتاه (يوشع بن نون) حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكثل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : ءإِنَّا عَدَّاءُ لَكَ قَلْبًا مِّنْ سَفَرِنَا هَٰذَا نَضِبَا . قال : ولم يجد موسى النُصْبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ؛ فقال فتاه : أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا السَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا . قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى : ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ ءَأَارِهِمَا قَصَصًا . قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا هو مسجى بثوب فسلّم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ^(٣٣) ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال :

موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم أتيتك ؛ لتعلمنى مما علّمت رُشدًا ، قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه ، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه ، فقال موسى : سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا . فقال له الخضر : قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا . فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير ذل-

أى : بدون أجر - فلما ركبا فى السفينة لم يفتأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالدوم ، فقال له موسى : قومْ قد حملونا بغير نؤل عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ؛ لِتُفَرِّقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا . وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة ؛ فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقطعه فقتله ، فقال له موسى : أَقْتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا . قال : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . قال سفيان : وهذه أشد من الأولى قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَلِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا . فانطلقا ، حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدْرًا يُرِيدُ أَنْ يَبْقُضَ ... فقال الخضر بيده هكذا - أى : أشار بيده - فَأَقَامَهُ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قال الخضر : هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا . قال رسول الله ﷺ : برحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما (٣٧٤) ! أخرجه الشيخان .

تنبيه :

قال العلامة القرطبي : كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف ، والصفية فى الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث مرّت النخلة وكانت يابسة فأثمرت ، وهى ليست بنبية ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار . ا هـ . (٣٧٧) .

التفسير :

٦٠ - وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا .

أى : واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع بن نون : لا أزال أَمْشِي حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين وتلاقيهما ، أو أسير دهرًا .

وسبب قوله هذا : أن الله أوحى إليه أن عبداً من عبادى بجمع البحرين عنده من العلم ما لم تحط به ؛ فأحب أن يرحل إليه .

ومجمل الأمر : أن موسى وَطَّنَ نفسه على تحمل كل مشقة ؛ فى سبيل الوصول إلى رجل صالح أكثر علماً من موسى ، وكان موسى قد خطب وأجاد الخطبة ؛ فقال له أحد المستمعين : ما أفصحك يا نبي الله ! هل فى الأرض من هو أكثر علماً منك ؟ قال موسى : لا ، فقال الله : تأدب يا موسى ، إن فى الأرض من هو

أكثر منك علما ؛ قال موسى : دلّني عليه يا رب ؛ حتى أتعلّم منه . فأمره الله أن يسير ومعه حوت في مكنل وكان الحوت ميتا مملحا وعندما تدبّ الحياة في الحوت ويلقى بنفسه في البحر فثّم العبد الصالح .

٦١- فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا .

وسار موسى ويوشع بن نون حتى وصلا إلى ملتقى البحر الأحمر والأبيض ، أو ملتقى النيل والبحر الأبيض ، أو التقاء بحرين لا نعلمهما ، وإنما جعلهما الله وسيلة لرؤية العبد الصالح ، فقد أمره الله بالرحلة ، وجعل له أمانة لمعرفة المكان المجهول لموسى .

وعند صخرة قرب مجمع البحرين نام موسى عليه السلام ، وأمطرت السماء فانتفض الحوت وقفز إلى الماء ، وكان هذا آية من آيات الله لموسى عليه السلام ، أن تدب الحياة في حوت ميت مملح .

ورأى يوشع بن نون هذه العجائب ، من دبيب الحياة في الحوت وانتفاضه ، وتسربه إلى الماء وسيره فيه ، ثم نسي أن يخبر موسى بذلك .

٦٢- فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا .

لم يحس موسى بالتعب ؛ إلا بعد أن ترك المكان الذي تسرب منه الحوت إلى البحر ، ثم سار سيرا طويلا واستراح ، وطلب من تابعه أن يعدّ لهما الغداء بعد هذه الرحلة المضنية ، وكان الغداء من الحوت المملح ، والنصب ؛ هو التعب . أى : قال موسى : لقد تعبنا من السير في هذا السفر ؛ فقدم لنا ما نأكله .

٦٣- قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا .

أى : قال يوشع بن نون : أرأيت ما حدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التي بمجمع البحرين ، لقد دبت الحياة في الحوت فانتفض إلى البحر وسار فيه بصورة عجيبة ، وقد نسيت أن أخبرك بهذا الأمر في حينه وما أنساني ذكره إلا الشيطان .

٦٤- قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا .

أى : قال موسى : ذلك الذي ذكرت من أمر الحوت ؛ ما كنا نطلبه من حيث إنه أمانة للفوز بما هو المقصود بالذات ، فرجعا في نفس الطريق الذي قدما منه يتبعان أثرهما اتباعا حتى أتيا الصخرة .

وقد رجح الإمام البقاعي أن مجمع البحرين هو مجمع النيل والبحر الأبيض المتوسط عند دمياط أو

رشيد، ويؤيده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدي كما ورد في الحديث فإن الطير لا يشرب من الماء المالح .

لقد أحس موسى بقرب الوصول إلى الهدف ، فعاد إلى الصخرة بجميع البحرين .

٦٥- فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِزِّدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِثْلَ مَا عَلَّمْنَا .

فوجد موسى عند الصخرة رجلا مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ، قال : نعم .

وقد أعطى الله الخضر الكرامة ، ووهبه نعمة عظيمة وفضلا كبيرا ، وعلمه علما خاصا لا يُنال إلا بتوفيق من علام الغيوب .

وقد رجح بعض المفسرين أنه نبي ، والصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي ؛ وإنما هو من عباد الله الصالحين ، وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات ، والأمور الغيبية ؛ تعليما للخلق فضل العبودية الحققة لله .

قال العلماء :

هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ، ويسمى : (العلم اللدني) يورثه الله لمن أخلص العبودية له، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبة الرحمان لمن خصه الله بالقرب والولاية والكرامة .

قال صاحب الجوهرة في منظومة فتية في علم التوحيد :

وأثبتن لأولياء الكرامة ومن نفاها فانبتن كلامه

وقد بين القرآن الكريم : قيمة العمل الصالح في آياته الكثيرة .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

وقال سبحانه : وَنَبِّئَا مَنِ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

وقال عن أهل الكهف : إِنَّهُمْ فِيَّةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . (الكهف : ١٣) .

وقال سبحانه : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

قال العلماء :

وقفت النبوة أمام العبد الصالح في كتاب الله مرتين :

الأولى : عندما وقف زكريا فوجد عند مريم أرقا في غير أوانها : قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ... (آل عمران : ٣٧) .

الثانية : عندما وقف موسى رسول الله أمام العبد الصالح يقول: هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا.

٦٦- قَالَ لَهُ، مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا .

أى : هل تأذن لى وتسمع لى أن أكون رفيقا تابعا لك ؛ حتى أتعلم منك ما يرشدنى فى حياتى ؟! وهذا أسلوب فى غاية الترفق والتأدب من طالب العلم ، وفيه أدب التواضع ، والرغبة فى صحبة الصالحين ، والرغبة فى طلب العلم ، وأن الكبير لا يعيبه أن يتعلم من الصغير جانبا من المعرفة ليس عنده ، فالفاضل يتعلم أحيانا من الفاضل ، وأحيانا يتعلم الفاضل من المفضل ، وموسى هو كلم الله ، الذى أوتى الألواح ، وهو من أولى العزم من الرسل ، وله ماض كبير فى الجهاد والنضال والدعوة ، ولكنه يصبر على تعلم نوع من العلم ، عند الخضر عليه السلام .

٦٧- قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .

أى : قال الخضر لموسى : إنك لا تستطيع أن تصبر فى صحبتى ، فأنا على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من الله علمكه لا أعلمه .

٦٨- وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا .

أى : وكيف تصبر يا موسى على أمور أعملها أنا ؛ ظواهرها منكرة ، وبواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لا يتمالك إذا رأى ذلك بل يبادر بالإنكار .

٦٩- قَالَ سَجْدُنِي إِذْ أَمَرَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا .

قال موسى : سألتزم الصبر والطاعة إن شاء الله ، ولن أعصى لك أمرا تأمر به ، وهنا نجد أدب موسى حيث قدّم المشيئة كما قال تعالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... (الكهف ٢٣ ، ٢٤) .

٧٠- قَالَ فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا .

أى : لا تسألنى عن شىء من تصرفاتى ، حتى أبين لك سر ذلك بنفسى فى وقت لاحق ؛ فنجد أن العبد الصالح قد اشترط لنفسه الشرط المناسب ، وقبل موسى ذلك الشرط فى تواضع .

٧١- فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا زَكَيَّا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِغُرُقِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا .

أى : انطلق موسى والخضر فى طريقهما ، وشاهدا سفينة عرف أهلها الخضر عليه السلام ؛ فسماحا لهما بالركوب بدون أجر ؛ تكريما لهما ، وفى وسط البحر ، تناول الخضر فأسا وخلع لوحا من السفينة .

وأنكر موسى على الخضر هذا العمل ؛ الذى يؤدى إلى غرق السفينة بمن فيها .

يرى : أن موسى لما رأى ذلك ؛ خلع ثوبه فجعله مكان الخرق ، ثم قال للخضر : قوم حملونا بدون أجر ؛ عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ؛ لتغرق أهل السفينة ؛ لقد فعلت أمرا منكرا عظيما أو عجبا !

٧٢- قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .

أى : قال الخضر لموسى مذكرا له بما سبق ، وأن الخضر معه علم لا يعرفه موسى ، وأن موسى لن يستطيع الصبر على أفعال الخضر ، وأن الخضر قد اشترط على موسى ألا يسأل عن شىء إلا بعد فترة ، ثم سيتكفل الخضر نفسه بشرح الأسباب لموسى عليه السلام .

٧٣- قَالَ لَا تَأْخُذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا .

كانت الأولى من موسى نسيانا ؛ لذلك قال للخضر : لا تأخذنى بما نسيت ، وغفلت عن التسليم لك ، وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ، ولا تضيق على فى أمرى ، ولا تعسر على متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

ثم إن طبيعة موسى طبيعة انفعالية اندفاعية ، كما يظهر من تصرفاته فى كل أدوار حياته ، ومن ثم لم يصبر على خرق السفينة ، ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه ، أمام غرابة الموضوع ، وأنكر على الخضر خرق السفينة فى وسط البحر ؛ ومن ثم اندفع الخضر فى هدوء يذكره بالوعد السابق ، فاعتذر موسى بنسيانه وقبل الخضر اعتذاره (٣٧) .

٧٤- فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا نَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا .

لقد سلمت السفينة من الغرق والعطب ، وظلت فى ملك أصحابها المساكين ، ونزل الخضر وموسى إلى اليابسة ، وفى الطريق وجد الخضر صبىة يلعبون ، وبينهم صبى جميل وضئى ؛ أخذه الخضر على جانب

ولوى رقبته وقطع رأسه ؛ وعندئذ غضب موسى وأنكر على الخضر أن يقتل نفساً بريئة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً ؛ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا . منكراً تنكره العقول ، وتنفر منه النفوس .

لقد كان موسى ناسياً في المرة الأولى ؛ لكنه في المرة الثانية كان متذكراً ؛ لكن قتل النفس ؛ جعله يغضب وينكر على الخضر ، ويذكره بأن ذلك منكراً .

★ ★ ★

الخاتمة

تحدثنا عن قصة موسى والخضر في الجزء الخامس عشر ، وللقصة بقية في بداية الجزء السادس عشر ، وتفيد هذه البقية : أن الخضر أعلن فراق موسى عليه السلام ، ثم شرح له أسباب الأعمال الثلاثة على النحو الآتي :

١ - السفينة التي خرقتها الخضر عليه السلام ، كانت ملكاً لمساكين يعملون في البحر ، ويتكسبون منها ، وهناك ملك ظالم يختصب كل سفينة كاملة صالحة ؛ فعمد الخضر إلى أن يحدث بها عيباً ، ويساهم الجميع في سد الخرق ، ثم يتركها الملك ؛ لأنها معيبة .

٢ - الغلام الذي قتله الخضر ، كان سينشأ كافراً فاجراً ، وقد روى الإمام مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش ؛ لأرهلك أبويه طغيانا وكفرا .^(٢٧٧)»

فهذا العمل مؤلم في الظاهر ، لكن الله أراد بالوالدين خيراً ؛ فقبض الغلام إلى جواره ، وعوضهما ذرية صالحة ، فيها الرحمة والرفاة والطهارة ومكارم الأخلاق .

٣ - القرية البخيلة اللثيمة ، كان بها جدار متداع وتحت كثر من المال ، ولو وقع الجدار ؛ لتبدد الكثر ، وقد أصلحه انخضر بأمر الله ؛ حتى يكبر اليتيمان ويستخرجا كنزهما رحمة من الله وفضلاً ، وإكراماً للرجل الصالح في ذريته .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد أشرف الكائنات ، وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .

ثم بحمد الله تفسير الجزء الخامس عشر ويليهِ تفسير الجزء السادس عشر

إن شاء الله

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الخامس عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) جاء في المصباح المنير: (السيط) ولد الولد والجمع: أسباط مثل حمل وأحمال (والسيط) الفريق من اليهود يقال للعرب: قبائل، وللإهود: أسباط. ١ هـ. وهؤلاء الأسباط هم إخوة يوسف، وقد حكى القرآن أن يوسف رأى في منامه أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له، وقد تحققت رؤيا يوسف حين أصبح وزيرا لمصر ودخل إخوته عليه وسجدوا له مع والديه.

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٨١).

(٣) انظر تفسيره للآية ٨١ من سورة آل عمران. والآيات التي تتحدث عن الرسل والأنبياء.

(٤) إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا:

رواه البخاري في المنقب (٣٥٣٤، ٣٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضى الله عنهم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة - قال - فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين.

(٥) العلة: الضرة، العلات: الضرائر.

(٦) الأنبياء أولاد علات:

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣، ٣٤٤٢) ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) (٢٧٤٦٨، ٢٧٤٦٩) من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات ليس بيني وبينه نبى».

(٧) هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى:

هذا للفظ جزء من حديث طويل رواه البخاري (٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٤) ومسلم في كتاب الإيمان حديث رقم (٢٣٣، ٢٣١)، والترمذي في كتاب المناقب حديث رقم (٣٥٦٥)، وأحمد في مسنده حديث رقم (٢٤٧٦٨، ٢٤٦٨١، ٢٤٠٤٦، ١٤٥٠٢).

(٨) راجع المكي والمدني في القرآن، في الإتيان للسيوطي، أو البرهان للزركشي.

(٩) وهو منصوب على أنه مفعول مطلق بفعل مضمر تقديره: أسبح الله سبحانه.

(١٠) وهو فعل لازم تعدي بالياء ومصدره الإساء، ومعنى أسرى وسرى واحد ولكن مصدر أسرى الإساء ومصدر سرى: السرى بوزن الهاء.

(١١) ﴿يَلَا﴾: منصوب على الظرفية وفي تنكيره تقليل مدة الإساء؛ لأن التنكير فيه معنى العضية أى: في بعض الليل، ويظهر ذلك في قولك: سرت الليل، وسرت ليلا أو أوقت الليل وأوقت ليلا.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان.

(١٣) البخاري، وقد ورد فيه أن عائشة سألت النبي عن أشد ما لقيه من التكليب فقال لها: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أحد: ما لقيته من أهل عبد ياليل بالطائف.

(١٤) حديث الإسراء :

رواه مسلم في الإيمان (١٦٢) من حديث أنس .

(١٥) يجعله مستحيلا .

(١٦) هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به :

رواه البخاري في المناقب (٣٨٨٨) وفي التفسير (٤٧١٦) وفي القدر (٦٦١٣) والترمذي في التفسير (٣١٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس قال : ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ قال : هي شجرة الزقوم .

(١٧) هذا المعنى مقبس من كتاب الإسراء والمعراج ، للدكتور/ عبد الحليم محمود .

(١٨) الدكتور/ عبد الحليم محمود ، الإسراء والمعراج : ٦٧ .

(١٩) لقد رأيته في الحجر وقرش تسألني :

رواه مسلم في الإيمان (١٧٢) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لقد رأيته في الحجر وقرش تسألني عن مسراي فسألته عن أشياء من بيت المقدس لم أتبعها فكبرت كربة ما كبرت مثله قط - قال - فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به وقد رأيته في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي ، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شيها عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم - يعني : نوح - فحانت الصلاة فأمتهم فلما فرغت من الصلاة قال قائل : يا محمد ، هذا مالك صاحب النار فسلم عليه فالتفت إليه فبدأنى بالسلام .

(٢٠) باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه :

رواه البخاري في الدعوات (٦٢٢٠) وفي التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم في الذكر (٢٧١٤) من حديث أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليغض فراشه بداخله إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين .

(٢١) اللهم غارت النجوم وهذأت العيون :

قال الهيثمي في المجمع : عن زيد بن ثابت قال أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قل : اللهم ، غارت النجوم وهذأت العيون وأنت حي يا قيوم ، يا قيوم أتم ليلى وأمد ليلى » فقلتها فذهب عني . وقال : رواه الطبراني وفيه عمرو بن الحصين العبلي وهو متروك . وذكر مالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة فقال : وحدثنني عن مالك أنهم بلغهم أن أبا الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول : نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحي القيوم . فذكره هكذا من قول أبي الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البر مع تتبعه لذلك إلخ . الفتوحات الربانية ١٧٧/٣ .

(٢٢) الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا :

رواه البخاري في الدعوات (٦٣٢٤، ٦٣١٤، ٦٣١٢) والترمذي في الدعوات (٣٤١٧) وأحمد في مسنده (٢٢٧٦٠)

حديث حذيفة بن اليمان قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: «باسمك أموت وأحيا» وإذا قام قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». ورواه البخاري في الدعوات (٦٢٢٥) من حديث أبي نرسي الله عنهم قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال: «اللهم باسمك أموت وأحيا» فإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

(٢٣) أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله :

رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٣) وأبو داود في الأدب (٥٠٧١) والترمذي في الدعوات (٣٣٩٠) وأحمد في مسنده (٤١٨١) من حديث عبد الله بن مسعود قال: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسي الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له» قال: أراه قال فيهن: «له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير رب، أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها. رب، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر. رب، أعوذ من عذاب في النار وعذاب في القبر» وإذا أصبح قال: ذلك أيضا: أصبحنا وأصبح الملك لله.

(٢٤) اللهم لك انتشرت وإليك توجهت :

ذكره الهندي في الكنز (١٧٦٣٦) فقال: عن أنس قال: لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرا قط إلا قال حين ينهض من جلوسه: «اللهم، لك انتشرت وإليك توجهت ويك اعتصمت. اللهم، أنت تقضى وأنت رجائي. اللهم، اكفني ما أمني وما أهدم له وما أنت أعلم به. اللهم، زدني التقوى واغفر لي ووجهني للخير أينما توجهت» ثم يخرج. ونسبة لابن جرير.

(٢٥) آيئون إن شاء الله تائبون عابدون حامدون :

رواه البخاري في كتاب الحج (١٧٩٧)، وفي الجهاد (٣٠٤٨، ٢٩٩٥) وفي المغازي (٤١١٦) وفي الدعوات (٦٣٨٥)، ومسلم في كتاب الحج (١٣٤٤، ١٣٤٢) والترمذي في كتاب الحج (٩٥٠)، وفي الدعوات (٣٤٤٧) وأبو داود في كتاب الجهاد (٢٧٧، ٢٥٩٩) وأحمد (٤٨٨٢، ٤٥٥٥، ٤٦٢٢، ٤٧٠٣، ٤٩٤٠، ٥٢٧٣، ٥٧٩٦، ٦٣٣٨، ٦٢٧٥، ٦٣٣٨) مالك في الحج (٩٦٠) والدارمي في الاستئذان (٢٦٨٢) من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قفل كبر ثلاثا وقال: «آيئون إن شاء الله تائبون عابدون حامدون لربنا ساجدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

(٢٦) ذكر المصدر؛ إزالة للشك، وتحقيقا للخبر .

(٢٧) ويجوز أن تكون ما بمعنى: المدة، أي: ما دام سلطانهم جاريا على بني إسرائيل، انظر تفسير النيسابوري .

(٢٨) ﴿وعد الآخرة﴾: أي: وعد عقوبتكم على المرة الآخرة على حلف مضاف، وجواب إذا محذوف والتقدير: فإذا جاء وعد الآخرة بعثاهم ليسوعوا وجوهكم. وحسن هذا الحذف؛ لدلالة جواب إذا الأولى عليه في قوله تعالى: ﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباد لنا...﴾.

(٢٩) تفسير الفخر الرازي ١٥٩/٢ .

(٣٠) تفسير ابن كثير ٢٥/٣ .

(٣١) انظر عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر ١٤/١ .

(٣٢) تفسير ابن جرير: ١٧/١٥ .

(٣٣) الدكتور/ محمد سيد طنطاوى: بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ٢/ ٣٦٠ .

(٣٤) الدر المنثور السيوطى: ١٦٣/٤ .

(٣٥) انظر وصف ذلك فى الآيات ٢٤٦ - ٢٥٢ من سورة البقرة ، وفيها ما يفيد: أن طالوت وقائده داود قد انتصرا على جالوت ﴿وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة﴾ .

(٣٦) تفسير الدر المنثور ١٦٣/٤ .

(٣٧) تاريخ الإسرائيلين : ص ٧٦ .

(٣٨) تاريخ الإسرائيلين : ص ٧٧ .

(٣٩) تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٥) وفى المناقب (٣٥٩٣) ومسلم فى الفتن (٢٩٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٦) وأحمد فى مسنده (٥٩٦٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول: يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله» . رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٦) ، ومسلم فى الفتن (٢٩٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٢) من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يابعد الله ، هذا يهودى خلى فتعال فاقتله إلا الغرد فإنه من شجر اليهود» .

(٤٠) عبد الله التل : خطر اليهودية العالمية : ١٠٦ - ١٢٠ .

(٤١) من كبار علماء لبنان الشقيق .

(٤٢) عبد اللطيف مشهورى ، المسجد الأقصى : ص ١٢٠ .

(٤٣) دكتور/ محمد طنطاوى : بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ٢/ ٤٣٦ .

(٤٤) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ١/ ٦٥٧ - بيروت .

(٤٥) عبد اللطيف مشهورى : المسجد الأقصى : ص ١٧ .

(٤٦) محمد عزة دروزة : قصة فلسطين ص ٧١ .

(٤٧) تفسير النيسابوى ١٢/١٥ وهذا الكلام أقرب إلى الإسرائيليات .

(٤٨) تفسير النيسابورى ، ١٥ / ١٤ ، ١٥ .

(٤٩) تفسير القاسمى : ٣٩١٢/١٠ .

(٥٠) ﴿يَمَّا يَلْعَنُ﴾ هي أن الشرطية زيدت عليها ما؛ تأكيداً لها، ثم أدخلت النون المشددة؛ لزيادة التقرير والتأكيد كأنه قيل: إن هذا الشرط مما سبق البتة عادة فليكن هذا الجزاء مترتباً عليه.

﴿أحدهما﴾ فاعل ﴿يَلْعَنُ﴾ وفي قراءة: يلعنان فأحدهما بدل من ألقه.

﴿أَف﴾ يفخ الفاء وكسرهما منونا وغير منون، مصدر بمعنى تبا وقبحا وروى ثعلب: أن الأف: الضجر، وقيل: معنى أف: القلقة من الأليف وهو الشيء القليل وتلف اتباع له نحو شيطان ليطان، حيث يث، حيث يث، حيث يث.

(٥١) في هذا التعبير قدرة رائعة في تصوير هذا التواضع والتذلل من الأبناء للآباء وفيه استعارة مكينة وتخييلة فقد شبه الدلل بطائر تشبهاً مضمراً، وأثبت له الجناح تخيلاً والخفض ترشيحاً.

وإضافة الجناح إلى الدلل؛ للبيان؛ لأنه صفة مينة. أي: جناحك الدليل وفيه مبالغة؛ لأنه وصف بالمصدر، فكانه جعل الجناح عين الدلل. أو التركيب استعارة تمثيلية فيكون مثلاً لغاية التواضع، وسر ذكر الجناح وخفضه تصوير الدلل كأنه مشاهد محسوس.

(٥٢) من الكشف بتصرف وانظر محاسن التأويل للقاسمي ٣٩١٩/١٠.

(٥٣) عفوا تعف نساؤكم:

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٥٤٤٣) بلفظ: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم، ويروى أبواؤكم تبركم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنعلاً فليقبل ذلك منه محققاً كان أو مبطلاً، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض» ونسبه للحاكم في المستدرک عن أبي هريرة، وصححه. وقال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي، عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً: «عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم.. الحديث». قال الهيثمي في المجمع: وعن عائشة رضى الله عنها عن النبي ﷺ قال: «عفوا تعف نساؤكم، ويروى أباءكم تبركم أبناؤكم، ومن اعتذر إلى أخيه المسلم من شئ بلغه عنه، فلم يقبل عنده، لم يرد على الحوض. رواه الطبراني في الأوسط وفيه خالد بن زيد العمري وهو كذاب.

(٥٤) بر أمك وأباك وأختك وأخاك:

أبو داود في الأدب (٥١٤٠) من حديث كليب بن منقعة عن جده أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذاك حق واجب ورحم موصولة». ورواه النسائي في الزكاة (٢٥٣٢) من حديث طارق المحاربي قال: قدمنا المدينة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: يد المعطي العليا وأبداً بمن تقول: أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك، مقتصر. ورواه أحمد في مسنده (٧٠٦٥) من حديث أبي رمة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك وقال رجل: يا رسول الله، هؤلاء بنو يربوع قتلة فلان قال: «ألا لا تجنني نفس على أخرى». ورواه أحمد في مسنده (١٦١٧٧) من حديث رجل من بنو يربوع قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فسمعتة وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطي العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك فأدناك» قال: فقال رجل: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة الذين أصابوا فلانا قال: فقال رسول الله ﷺ: «ألا لا تجنني نفس على أخرى». قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. قال المناوي في الغيظ: قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وقال المنذرى: إسناده حسن وهو في البخارى بتقديم وتأخير. وقضية صنيع المؤلف أن هذا لم يخرج في الصحيحين ولا أحدهما وهو عجب فقد خرجه البخارى من حديث أبي هريرة بزيادة وأغظه: «اليد العليا خير من اليد السفلى وأبداً بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعطف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله». وقال المنذرى: خرجه الشيخان معاً بنحوه عن حكيم بن حزام.

(٥٥) رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له :

رواه الترمذى فى الدعوات باب ١١٠ (٣٦١٣) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على». ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له. ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يخلاه الجنة. قال عبد الرحمن: وأظنّه قال: «أو أحدهما». وفى الباب عن جابر وأنس: هذا حديث حسن غريب.

(٥٦) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وقد أورده ابن كثير فى تفسيره والغزالي فى الإحياء ١٩٣/٢.

(٥٧) من أحق الناس بحسن صحابى :

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٧١) ومسلم فى البر (٢٥٤٨) وأحمد فى مسنده (٨١٤٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».

(٥٨) اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم :

رواه البخارى فى الالهة (٢٥٨٧) ومسلم فى الالهيات (١٦٢٣) من حديث عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطاني أبى عطية فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله عليه وسلم فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتنى أن أشهدك يا رسول الله : قال: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا قال: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم!» قال: فرجع فرد عطية.

(٥٩) ابن حبان .

(٦٠) من لا يرحم لا يُرحم :

رواه البخارى فى الأدب (٥٩٩٧) ومسلم فى الفضائل (٢٣١٨) وأبو داود فى الأدب (٥٢١٨) والترمذى فى البر (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٧٠٨١) من حديث أبى هريرة قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسا فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم».

(٦١) إحياء علوم الدين ١٩٤/٢ .

(٦٢) حاشية الجمل على الجلالين ٦٢٣/٢ .

(٦٣) أنا الرحمان وهى الرحم شقت لها اسما :

رواه أبو داود فى الزكاة (١٦٩٤) والترمذى فى البر (١٩٠٧) وأحمد فى مسنده (١٦٦٢) من حديث عبد الرحمان بن عوف قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله: أنا الرحمان وهى الرحم شقت لها اسما من اسمى من وصلها ومن قطعها يتته».

(٦٤) من سره أن ييسط له في رزقه أو ينسأ له :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) وفى الأدب (٥٩٨٦، ٥٩٨٥) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) (١٦٩٣، ١٢١٧٨، ١٣١٧٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من سره أن ييسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره: فليصل رحمه» .

(٦٥) الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذى الرحم ثنتان :

رواه أبو داود فى الصوم (٢٣٥٥) والترمذى فى الزكاة (٦٥٨) وابن ماجه فى الصيام (١٦٩٩) وأحمد فى مسنده (١٥٧٩٢) من حديث سلمان بن عامر يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أفطر أحدكم فليطفر على تمر فإنه بركة فإن لم يجد تمرا فالماء فإنه طهور - وقال - الصدقة على المسكين صدقة وهي على ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة» . وقال الترمذى : حديث حسن . وقال فى الآخر : حسن صحيح .

(٦٦) أرى أن يجعلها فى الأقربين :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦١) وفى الوكالة (٢٣١٨) وفى الوصايا (٢٧٦٩) وفى التفسير (٤٥٥٥) وفى الأشربة (٥٦١١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنهم قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية «لن تألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: «لن تألوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وإن أحب أموالى إلى بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بئ! ذلك مال رابع ذلك مال رابع، وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبني عمه .

(٦٧) أى : تلعب العيسر عليها فمن خسر اللعب دفع ثمن الإبل ثم وزعت على الفقراء .

(٦٨) «حسير» بزة لعل يستوي فى الوصف به المذكر والمؤنث تقول : رجل حسير وأمرأة حسير كما تقول رجل كحيل وأمرأة كحيل .

(٦٩) وفى الآية استعارتان تمثيلتان ، شبه فى الأولى فعل الشحيح فى منعه بمن يده مغلوله لعنقه بحيث لا يقدر على مدها، وفى الثانية: شبه المرف بسط الكف بحيث لا تحفظ شيئا .

(٧٠) مه : اسم فعل بمعنى : اكفف عما تقول .

(٧١) أتجبه لأملك؟ :

رواه أحمد فى مسنده (٢١٧٠٨) من حديث أبى أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لى بالزنا: فأقبل القوم عليه فزجروه قالوا: مه مه! فقال: «ادنه» فدنا منه قريبا قال: فجلس، قال: «أتجبه لأملك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم» قال: «أتجبه لأنتك؟» قال: لا والله يا رسول الله جعلنى الله فداك قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: «أتجبه لأختك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم» قال: «أتجبه لعمتك؟» قال: لا والله جعلنى الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم»

قال: «أفتحبه لخالته؟» قال: لا والله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم ، اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء . قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد والطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

(٧٢) ما من ذنب بعد الشرك أعظم :

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٨٠٣٠) بلفظ : «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له» . ونسبه لابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائفي . قال المناوي في الغيض : قال في التقريب : ثقة من الخامسة وهو صريح في كونه غير صحابي فكان على المصنف أن يقول: مرسلًا .

(٧٣) إن الله كتب على ابن آدم حظه :

رواه البخاري في الاستئذان ح ٦٢٤٣ ، وفي القدر ح ٦٦١٢ ، ومسلم في القدر ح ٢٦٥٧ ، وأبو داود في النكاح ح ٢١٥٢ ، وأحمد ح ٧٦٦٢ ، ٢٧٠٢٣، ٢٧٤٣٧ ، من حديث أبي هريرة .

(٧٤) المحصن : هو الذي سبق له الزواج .

(٧٥) ثمر السياط : عقد أطرافها .

(٧٦) الاختيار (لقه حنفي) تأليف : عبد الله الموصلي ٤٠/٣ - ٤١ .

(٧٧) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ١٨٥ .

(٧٨) الدكتور / محمد وصفي ، القرآن والطب ٨٣ - ١٠٣ وبه وصف تفصيلي لأمراض الزني وأوبائه التي تشعشع منها الأبدان وتنفّر منها النفوس .

(٧٩) لا يحل دم امرئ إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخاري في الديات ح ٦٣٧٠ ، ومسلم في القسامة ٣١٦٧، ٣١٥٧ ، والترمذي في الديات ح ١٣٢٢ ، وفي الحدود ح ١٣٦٤ ، والنسائي في تحريم الدم ح ٣٩٥١ ، وفي القسامة ح ٤٦٤٢ ، وأبو داود في الحدود ح ٣٧٨٨ ، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٢٥ ، وأحمد ح ٣٤٢٨، ٤٠٢٤، ٣٨٥٩، والدارمي في الحدود ح ٢١٩٦ .

(٨٠) تفسير التيسابوري بهامش تفسير الطبري ٣٥/١٥ ط بولاق .

(٨١) تفسير المراهي ٤٣/١٥ .

(٨٢) روى هذا المعنى عن مجاهد ، وانظر تفسير التيسابوري ٣٦/٥ .

(٨٣) تفسير المراهي ٤٤/١٥ .

(٨٤) يقول سبحانه : ﴿وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ (النساء : ٢).

ويقول سبحانه : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعُفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ (النساء ٩ ، ١٠) .

ويقول سبحانه : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ (الضحى : ٩) .

(٨٥) إن التجار يعطون يوم القيامة فجارا :

رواه الترمذى فى البيوع (١٢١٠) وابن ماجة فى التجارات (٢١٤٦) من حديث رفاعة أنه خرج مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى المصلى فرأى الناس يتابعون فقال: «يا معشر التجار» فاستجابوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه فقال: «إن التجار يعطون يوم القيامة فجارا إلا من اتقى الله وور صدق» . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٨٦) التاجر الصدوق الأمين مع :

رواه الترمذى فى البيوع (١٢٠٩) والدارمى فى البيوع (٢٥٣٩) من حديث أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
ورواه ابن ماجة فى التجارات (٢١٣٩) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التاجر الأمين الصدوق المسلم مع الشهداء يوم القيامة» .

(٨٧) من غشنا فليس منا :

رواه مسلم فى الإيمان (١٠١) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٠) من حديث أبى هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا، . ورواه أحمد فى مسنده (٥٠٩٢) والدارمى فى البيوع (٢٥٤١) ابن عمر قال: مر رسول الله ﷺ بطعام وقد حسنه صاحبه فأدخل يده فيه فإذا طعام ردىء فقال: «بيع هذا على حدة وهذا على حدة فمن غشنا فليس منا» . ورواه ابن ماجة فى التجارات (٢٢٢٥) من حديث أبى الحمراء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجنيات رجل عنده طعام فى وعاء فأدخل يده فيه فقال: لعلك غششت! من غشنا فليس منا» . ورواه أحمد فى مسنده (١٥٤٠٦) من حديث أبى بريدة بن نيار قال: انطلقت مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى نقيع المصلى فأدخل يده فى طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش أو مختفل فقال: «ليس منا من غشنا» .

(٨٨) التطفيف : إنفاص الكيل أو الوزن ، وسمى بذلك ؛ لأن المطفف لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف القليل .

(٨٩) الرذغة : يفتح الدال وسكونها : الماء والطين والوحل الشديد ، الخبال : الفساد ويطلق على الجنون .

وفى تفسير التيسابورى : ورذغة الخبال : هى غسالة أهل النار من القيح والصديد . ١ هـ . ومعنى الحديث الشريف : من اتهم مؤثما كذبا وزورا عابه الله فى الدنيا بأن يجعل سمعته ممرغة فى الوحل والطين حتى يرب . أو عاقبه فى الآخرة بأن يضعه فى غسالة أهل النار من القيح والصديد حتى يأتى بالدليل والبرهان على دعواه وما هو بقادر على ذلك .

(٩٠) ورد فى هذه الآراء فى تفسير التيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٣٧/١٥ ، ٣٨ طبعة بولاق .

(٩١) أى : أن أكذب الكذب أن يدعى : أنه رأى رؤيا فى المنام كذبا .

(٩٢) إن من أفرى القرى أن يرى عينيه :

رواه أحمد في مسنده (٥٩٦٢، ٥٩٦٨) من حديث ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أفرى القرى أن يرى عينيه في المنام ما لم تريا» . ورواه أحمد في مسنده (١٦٥٣٥، ١٦٥٣٢) من حديث وثالة بن الأسقع يقول: قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أعظم القرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم تريا أو يقول على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لم يقل» .

(٩٣) تحلم حلما : اختلق الحلم من عند نفسه، شعيرتين أى : حيتين من شعر ، ولما كانت الرؤيا من عند الله كما ورد في الحديث : «الرؤيا من الله» ، فمن قال: رأيت مناما كذا يكون مفتريا على الله فيكلف بالعمل العسير كأن يعقد عقدة بين حيتين من شعر ولن يستطيع ذلك» .

(٩٤) من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد :

رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) وأبو داود في الأدب (٥٠٢٤) والترمذي في الرؤيا (٢٢٨٣) وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩١٦) وأحمد في مسنده (١٨٦٩) من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ» . ورواه أحمد في مسنده (١٠١٧١) من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صور صورة عذب يوم القيامة حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها. ومن استمع إلى حديث قوم ولا يعجبهم أن يستمع حديثهم أذيب في أذنه الآنك. ومن تحلم كاذبا دفع إليه شعيرة وعذب حتى يعقد بين طرفيها وإيس بعاقده» .

(٩٥) طولاً : تميز محول عن الفاعل أى : ولن يبلغ طولك الجبال أى : تطاولك واستعلاذك . والمقصود: التهكم بالمتكبر .

(٩٦) تفسير النيسابوري بهامش الطبري ٣٩/١٤ .

(٩٧) بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل :

رواه البخاري (٥٧٩٠، ٥٧٩٤، ٥٧٩٨)، وأحمد (٥٣١٨)، والنسائي في الزينة (٥٣٢٦). من حديث عبدالله بن عمر. ورواه البخاري في اللباس (٥٧٨٩)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٨)، والدارمي في المقدمة (٤٣٧) وأحمد (٧٥٧٤، ٨٨٢٢، ٩٠٨٢، ٩٥٦٧، ٢٧٦٦١، ٢٧٦٩٤، ١٠٠٩٠، ١٠٠٧٧، ١٠٤٨٨) من حديث أبي هريرة . ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩١) وأحمد (٧٠٣٤) . من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أحمد (١٠٩٦٠، ١٠٩٦٣) من حديث أبي سعيد الخدري .

(٩٨) تفسير ابن كثير : ٤/٣ : وبه آثار في الموضوع فارجع إليها إن شئت .

(٩٩) قال في حاشية الجمل على الجلائل : فأولها : ﴿ولا تجعل مع الله إلها آخر﴾ ، ثانيها وثالثها : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ لا شتماله على تكليفين : الأمر بعبادة الله ، والنهي عن عبادة غيره ، رابعها : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ ، خامسها : ﴿فلا تقل لهما أف﴾ ، سادسها : ﴿ولا تهرهما﴾ ، سابعها : ﴿وقل لهما قولا كريما﴾ ، ثامنها : ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ ، تاسعها : ﴿وقل رب ارحمهما﴾ ، عاشرها : ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ (١١) ﴿والمسكين﴾ (١٢) ﴿وابن السبيل﴾ (١٣) ﴿ولا تبذر تبذرا﴾ (١٤) ﴿فقل لهم قولا ميسورا﴾ (١٥) ﴿ولا تجعل يدك مغلولة﴾ (١٦) ﴿ولا تبسطها﴾ (١٧) ﴿ولا تقنطرا أولادكم﴾ (١٨) ﴿ولا تقرروا الزنا﴾ (١٩) ﴿ولا تقتلوا النفس﴾ (٢٠) ﴿ولا يسرف في القتل﴾ ، والبقية : ﴿واوفوا بالعقود﴾ ، ﴿واوفوا الكيل﴾ ، ﴿وزنوا بالقساس﴾ ، ﴿ولا تقف﴾ ، ﴿ولا تمس...﴾ إلخ وكلها تكليفات .

(١٠٠) هذا التفسير مستفاد من التفاسير الآتية: تفسير الطبري ٦٣/١٥ ، ابن كثير : ٤٠/٣ ، النيسابوري بهامش الطبري ٣٩/١٥ ، حاشية الجمل على الجلالين : ٦٢٦/٢ ، القاسمي ٣٩٢٩/١٠ .

(١٠١) تفسير القاسمي ٣٩٢٩/١٠ .

(١٠٢) إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد في مسنده ج ٨٥٩٥ من حديث أبي هريرة .

(١٠٣) إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة :

رواه الترمذي في البر (٢٠١٨) من حديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم مني وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون» . وقال الترمذي: حديث حسن غريب . ورواه أحمد في مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبي ثعلبة الخشبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم مني وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا للثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد في مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بشراركم؟! فقال: «هم الثرثارون المتشدقون ألا أنبئكم بخياركم؟! أحاسنكم أخلاقا» .

(١٠٤) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ج ١٥ ص ٤١ .

(١٠٥) تفسير القاسمي ج ١٠ ص ٣٩٣٣ .

(١٠٦) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ج ١٥ ص ٣٩ .

(١٠٧) تفسير النيسابوري ٤٨/١٥ .

(١٠٨) تفسير النيسابوري ٥٠/١٥ .

(١٠٩) لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح :

رواه أحمد في مسنده (٢٧٤٣٢) من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يمشين أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحكم لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من نار» .

(١١٠) تفسير النيسابوري ٥١/١٥ .

(١١١) تفسير الطبري طبعة يولي ٧١/١٥ .

(١١٢) أول من خلق الله القلم :

أخرجه الترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) وأحمد (٢٢١٩٧ و٢٢١٩٩) ، من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه . وقال الترمذي : حسن غريب . وقال الشيخ الألباني : صحيح .

(١١٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٥٨ من الجزء الأول (طبعة الحلبي) والحديث رقم ٢٣٣٣ (طبعة المعارف) ورواه الطبري بعدة روايات يؤيد بعضها بعضا ج ١٥ ص ٧٤ طبعه بولاق .

(١١٤) تفسير القاسمي ٣٩٤٤/١٠ نقلا عن الشهاب .

(١١٥) ﴿طينا﴾ منصوب بنزع الخافض أى : من طين ، قال النسفي : وهو تميز أو حال من الموصول والعامل فيه أسجد والمعنى : أسجد له وهو طين أى : أصله طين .

(١١٦) تفسير السراج المنير ، في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، للشيخ الإمام : محمد بن أحمد الخطيب الشربيني المتوفى سنة ٩٧٧ هـ طبعه بولاق سنة ١٢٩٩ هـ ، ج ٢ ص ٣٠٣ .

(١١٧) الكاف للخطاب وهذا مفعول به .

(١١٨) احتك الجراد الأرض؛ إذا جرد ما عليها أكلا ، وهو من الحنك ، ومنه ما ذكر سيويه من قولهم : أحكك الشاين أى : أكلهما ، تفسير الكشاف ٣٦٦/٢ .

(١١٩) الظاهر من نصوص الدين أن إبليس قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة وقارن بتفسير الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٣٣٦ .

(١٢٠) تفسير الخطيب الشربيني ٣٠٤/٢ .

(١٢١) تفسير النيسابوري بهامش الطبري : ١٥ / ٦١ ط : بولاق .

(١٢٢) تفسير المراغي ١٧/١٥ .

(١٢٣) تفسير النيسابوري ٦١/١٥ .

(١٢٤) تفسير القاسمي ٣٩٤٨/١٠ نقلا عن القاشاني .

(١٢٥) قال تعالى : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ . (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ...﴾ . (الأعراف : ٢٧) .

وآخر سور القرآن تعلمنا الاستعاذة من كيده وهى : ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ ملك الناس • إله الناس • من شر الوسواس الخناس • الذى يوسوس فى صدور الناس • من الجنة والناس • . (الناس : ١ - ٦) .

(١٢٦) تفسير القاسمي ٣٩٤٩/١٠ .

(١٢٧) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٣/١٥ .

(١٢٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٦٤/١٥ .

(١٢٩) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٥/١٥ .

(١٣٠) تفسير المراغي ٧٧/١٥ ، ٧٨ ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(١٣١) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٥٥/١٥ .

(١٣٢) في ظلال القرآن ٥٩/١٥ .

(١٣٣) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٧٢/١٥ ط بولاق .

(١٣٤) تفسير النيسابوري ٧١/١٥ .

(١٣٥) الأنعام ٥٢ وتام الآية : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فيكون من الظالمين﴾ .

(١٣٦) تفسير القاسمي ٣٩٥٦/١٠ ، وتفسير النيسابوري ٧٠/١٥ ط بولاق .

(١٣٧) تفسير الطبري ٨٩/١٥ ط بولاق .

(١٣٨) تفسير الطبري ٨٩/١٥ ط بولاق .

(١٣٩) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٧٢/١٥ ، ٧٣ .

(١٤٠) تفسير الطبري .

(١٤١) تفسير الطبري ٩٠/١٥ ط بولاق .

(١٤٢) تفسير الطبري ٩٠/١٥ .

(١٤٣) تفسير الطبري ٩١/١٥ ، ٩٢ .

(١٤٤) ﴿وقرآن الفجر﴾ منصوب بالعطف على ﴿الصلاة﴾ أي : وأقم صلاة الفجر . وجوز بعض النحاة نصبه على الإغراء ، أي : عليك قرآن الفجر أو الزم قرآن الفجر .

(١٤٥) تفسير النيسابوري بهامش الطبري ٧٥/١٥ ط بولاق .

(١٤٦) الإحسان أن تعبد الله :

رواه البخاري في الإيمان ح ٥٠ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم في الإيمان ح ٩٠٨ ، والترمذي في الإيمان ح ٣٦١٠ ، والنسائي في الإيمان ح ٤٩٩٠ ، وأبو داود في السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٦٤٠٦٣ ، وأحمد ح ٦١٢١٠٥٨٢٢٠٣٧٦٣٦٩ من حديث أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» قال : يا رسول الله ، ما الإسلام؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» قال : يا رسول الله ، ما الإحسان؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال : يا رسول الله ، متى الساعة؟ قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رعوس الناس فذاك من أشراطها في خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾... ثم انصرف الرجل فقال : «ردوا علي» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا فقال : «هذا جبريل جاء ليحلم الناس دينهم» . ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح.

(١٤٧) وجعل قرعة عيني في الصلاة :

رواه النسائي (٢٩٣٩، ٣٩٤٠) وأحمد (١٢٦٤٤، ١١٨٨٥، ١١٨٨٤) من حديث أنس بن مالك . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرعة عيني في الصلاة». قال العراقي: رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد وضعفه العقيلي . قال المناوي في الفيض : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن ، وأعلم أن المصنف جعل في الخطبة (جم) رمزا لأحمد في مسنده فاقترض ذلك أن أحمد روى هذا في المسند وهو باطل فإنه لم يخرج فيه وإنما خرج في كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم قلت : وكلام المناوي فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد في مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره في ثلاث مواضع، فتأمل .

(١٤٨) تفسير النسقي ٢/٢٥٠ .

(١٤٩) تفسير النيسابوري ٧٣/١٥ .

(١٥٠) تفسير القاسمي ١٠/٣٩٦٠ .

(١٥١) أخرجه البخاري في الجزء التاسع، كتاب مواقيت الصلاة ، والثاني عشر، باب تأخير الظهر إلى العصر رقم ٣٥٣ (عن ابن عباس) .

وأخرجه مسلم في الجزء السادس ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها حديث رقم ٥٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(١٥٢) تفسير القاسمي ١٠/٣٩٦٠ ، ٣٩٦١ .

(١٥٣) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ١٥/٦٢ .

(١٥٤) تفسير الطبري ١٥/٩٦ ط بولاق .

(١٥٥) التهجد: ترك الهجود وهو النوم و (تفعل) يأتي للسلب كـ (تأثم وتخرج) ، بمعنى: ترك الإثم والرج . قال الأزهري : المعروف في كلام العرب أن الهاجد هو النائم ، وأما التهجد فهو القائم إلى الصلاة من النوم . وكأنه قيل له : (تهجد)؛ لإيقاظه الهجود عن نفسه كما يقال للعابد: (متحنت)؛ لإيقاظه الحنت عن نفسه . ونقل عن ابن فارس أن معناه: صل ليلا . وكذا عن ابن الأعرابي قال : هجد الرجل وتهجد؛ إذا صلى بالليل والمعروف الأول .

(١٥٦) تفسير الطبري ١٥/٩٧ ط بولاق .

(١٥٧) ورد ذلك في البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ١ ، ٧ سورة الإسراء ، حديث رقم ٧٨٧ عن ابن عمر .

(١٥٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ١٥/٧٧ .

(١٥٩) تفسير الطبري ١٥/٩٧ ط بولاق .

(١٦٠) رواه الإمام أحمد في مسنده في حديث طويل ذكر فيه : «إن الناس تذهب إلى نوح ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ، فيحترق كل نبي ويقول: اذهبوا إلى غيري ، إن الجبار غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب مثله» .

(١٦١) المراد به : النداء للصلاة وهو الأذان والإقامة .

(١٦٢) اللهم رب هذه الدعوة التامة :

رواه البخارى فى الأذان (٦١٤) وفى التفسير (٤٧١٩) وأبو داود فى الصلاة (٥٢٩) والترمذى فى الصلاة (٢١١) والنسائى فى الأذان (٦٨٠) وابن ماجة فى الأذان (٧٢٢) وأحمد فى مسنده (١٤٢٠٩) من حديث جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة. أت محمدا الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقاما محمودا الذى وعدته: حلت شفاعتى يوم القيامة» .

(١٦٣) تفسير النيسابورى ٧٨/١٥ .

(١٦٤) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٦٢/١٥ .

(١٦٥) فى ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٦٣/١٥ .

(١٦٦) تفسير القاسمى ٣٩٧٦/١٠ .

(١٦٧) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) ، وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠)، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١)، وأحمد (٣٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح وفيه: عن ابن عمر، ورواه مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٠)، وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبى هريرة .

(١٦٨) تفسير الفخر الرازى ٤٤٥/٥ الطبعة الأولى بالمطبعة العامة الشرقية سنة ١٣٠٨ هـ .

(١٦٩) ورد ذلك فى صحيح البخارى وخلاصته: أن رجلا من المسلمين قرأ الفاتحة على مريض قد لدغ فقام من مرضه كأنما نشط من عقال ، ثم أخذ الراى بعض الغنم مكافأة له على رقيقته ، وقد أخبر النبى ﷺ بذلك فأبده وباركه .

(١٧٠) فتح البيان فى مقاصد القرآن لصديق بن حسن القنوجى البخارى ملك بهوبال بالهند ط بولاق ج ٥ ص ٣٥٨ .

(١٧١) تفسير ابن كثير بهامش تفسير القنوجى ملك بهوبال ١٠٠/٦ ط بولاق .

(١٧٢) تفسير القنوجى ملك بهوبال بالهند ٣٥٨/٥ .

(١٧٣) تفسير النيسابورى ٧٩/١٥ .

(١٧٤) فى ظلال القرآن ٦٤/١٥ .

(١٧٥) تفسير الطبرى ١٠٣/١٥ ط بولاق .

(١٧٦) تفسير النيسابورى ٧٩/١٥ ط بولاق .

(١٧٧) تفسير الطبرى ١٠٦/١٥ ط بولاق .

(١٧٨) تفسير القاسمى ٣٩٨٨/١٠ .

(١٧٩) تفسير القاسمى ٣٩٩٠/١٠ وما بعدها .

(١٨٠) عبر عن القرآن بالموصول؛ تفخيماً لشأنه، ووصفاً له بما هو في حيز الصلة، وإعلاماً بأنه ليس من قبيل كلام المخولقين.

(١٨١) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٦٦/١٥، ٦٧.

(١٨٢) إسناد الطبري هو: حدثنا أبو كريب قال: ثنا يونس بن بكير قال: ثنا محمد بن إسحاق قال: ثنا شيخ من أهل مصر قدم منذ بضع وأربعين سنة عن عكرمة عن ابن عباس - ثم أورد الرواية بطولها، وقد ذكرتها مختصرة كما وردت في تفسير النيسابوري، والخازن، وحاشية الجمل. فمن أراد نص الرواية فليرجع إلى تفسير الطبري ١١٠/١٠.

(١٨٣) حاشية الجمل ٦٤٧/٢ نقلاً عن تفسير الخازن.

(١٨٤) تفسير القاسمي ٣٩٩٨/١٥ بناية محمد فؤاد عبد الباقي الطبعة الأولى.

(١٨٥) تفسير القاسمي بتصرف واختصار.

(١٨٦) تفسير القاسمي ٣٩٩٩/١٠، ٤٠٠٠ بتصرف.

(١٨٧) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٦٩/١٥.

(١٨٨) أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً:

رواه البخاري في التفسير (٤٧٦٠) وفي الرقاق (٦٥٢٣) ومسلم في صفة القيامة (٢٨٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٩٧٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله، يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة» قال قتادة: بلى وعزة ربنا.

(١٨٩) يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفًا:

رواه الترمذي في التفسير (٣١٤٢)، وأحمد في مسنده (٨٤٣٣) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف صنفًا مشاة، وصنفًا ركبانًا، وصنفًا على وجوههم» قيل: يا رسول الله، وكيف يمشون على وجوههم؟! قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقنون بوجوههم كل حذب وشوك». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(١٩٠) الأنعام ٢٣ وتام الآية: ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آلَاءٌ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

(١٩١) تفسير الخطيب الشربيني ج ٢ ص ٣٢٣.

(١٩٢) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٩٧/١٥.

(١٩٣) أخرجه البخاري في ٩٧ - كتاب التوحيد، ١٩ - باب حدثنا معاذ بن فضالة حديث ٢٠١٢ عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة وجاء في شرح النووي على صحيح مسلم ج ٧ ص ٨٠ السح الصب الدائم، والدليل والهار منصوبان على الظرف ومعنى لا يفضيها شيء أي: لا يقصها يقال: غاض الماء وغاضه الله لازم ومتعد وفي رواية أبي هريرة في مسلم: «قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى».

(١٩٤) تفسير الخطيب الشربيني ج ٢ ص ٣٢٥.

(١٩٥) ورد ذلك في الآية ١٣٣ من سورة الأعراف وهي :

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ .

(والتوفان) ما طاف بهم وغشى أماكنهم ، وهو في اللغة: المطر الغالب والماء الذي يغشى كل شيء والسيل المغرق . (القمل) صغار الذر وقيل: أولاد الجراد واحدها: قملة ، وهي غير القملة المعروفة التي جمعها قمل (والضفادع) معروفة واحدها: ضفدع وضفدع .

والمعنى : أرسل الله على آل فرعون السيول تهلك مزارعهم والجراد يجتاح ثمارهم والقمل والضفادع فامتألت بها بيوتهم ، والدم تلوثت به مياههم فاستكبروا مع كل هذه البلايا وكانوا مجرمين .

(١٩٦) ورد ذلك في الآية ٩٠ من سورة يونس وفيها : ﴿وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتبهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت...﴾ وفي الآية ٧٧ من سورة طه : ﴿فأضرب لهم طريقا في البحر يبسا...﴾ .

(١٩٧) ورد ذلك أيضا في الآية ٦٠ من سورة البقرة ، وفي الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(١٩٨) ورد ذلك في سورة البقرة الآية ٥٧ ، وفي الأعراف الآية ١٦٠ ، وفي طه الآية ٨٠ حيث تقول الآية : ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ والمن: شيء حلو مثل العسل أبيض كالثلج كان ينزل بالليل على شجرهم ، والسلوى طائر السماء .

(١٩٩) ورد ذلك في الآية ٨٨ من سورة يونس ، والطمس: هو محق الأموال وإهلاكها .

(٢٠٠) تفسير النيسابوري ٩٨/١٥ ، وقارن بتفسير المراغي ١٥/١٠٤ .

(٢٠١) تفسير النيسابوري .

(٢٠٢) ﴿إذ جاءهم﴾ يتعلق بآياتنا أو ينتصب بإضمار اذكر ، أو هو للتعليل والمراد : فاسألهم يخبروك؛ لأنه جاءهم أي : جاء آباءهم وانظر تفسير النيسابوري .

(٢٠٣) ﴿ممسحورا﴾ بمعنى: سحرت فخلو عقلتك . أو بمعنى: ساحر ، على النسب أو حقيقة . وهو يناسب قلب العصا ثعبانا .

(٢٠٤) البصائر: جمع بصيرة بمعنى: مصرة ، أي : بينة أو المراد : الصحيح ، يجعلها كأنها بصائر العقول ، وتكون بمعنى: عبرة .

(٢٠٥) في تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المسمى : المنتخب في تفسير القرآن الكريم: أن هذه الآيات التسع هي : ١ - العصا ، ٢ - اليد البيضاء ، ٣ - الطوفان ، ٤ - الجراد والضفادع والقمل والدم ، ٥ - الجذب ونقص الثمار ، ٦ - فلق البحر ، ٧ - انبجاس الماء من الحجر ، ٨ - نقي الجبل كأنه ظله ، ٩ - خطاب موسى لربه .

(٢٠٦) قال القراء : ﴿مشورا﴾ أي : ملعونا محبوسا عن الخير من قولهم: ما نترك عن هذا أي : ما منعك وصرفك ، وقال مجاهد وقناة : أي: هالكا من البور وهو الهلاك ، وفي آية أخرى : ﴿لا تدعوا اليوم ثيورا واحدا وادعوا ثيورا كثيرا﴾ . (الفرقان : ١٤) .

(٢٠٧) تفسير النيسابوري ١٥/١٠٠ .

(٢٠٨) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٧٢/١٥ بتصرف .

(٢٠٩) قرآنًا منصوب بفعل محذوف يفسره فراءه .

(٢١٠) قال الطبري : اختلفت القراءة في قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة الأمصار : فقرأه بتخفيف الراء من فراءه بمعنى : أحكمناه وفصلناه وبيناه ، وذكر عن ابن عباس : أنه كان يقرؤه بتشديد الراء فقرأه بمعنى : نزلناه شيئاً بعد شيء ، آية بعد آية ، وقصة بعد قصة ، وأولى القراءتين بالصواب القراءة الأولى .

(٢١١) تفسير التيسابوري ١٠١/١٥ .

(٢١٢) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٧٢/١٥ .

(٢١٣) تفسير الطبري ١٢٠/١٥ .

(٢١٤) في ظلال القرآن ٧٣/١٥ .

(٢١٥) حاشية الجمل على الجلالين ٦٥٤/٢ .

(٢١٦) تفسير القاسمي ٤٠١٠/١٠ .

(٢١٧) فإن لم تكوا فباكوا :

رواه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٧) من حديث عبد الرحمان بن السائب قال: قدم علينا سعد بن أبي وقاص وقد كف بصره فسلمت عليه فقال: من أنت؟ فأخبرته فقال: مرحباً بابن أخي بلغني أنك حسن الصوت بالقرآن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن لم يتغن به: فليس منا» .

(٢١٨) ليس منا من لم يتغن بالقرآن :

رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لم يتغن بالقرآن، وزاد غيره: «يجهر به» . ورواه أبو داود في الصلاة (١٤٧١، ١٤٦٩) والدارمي في الصلاة (١٤٩٠) وفي فضائل القرآن (٣٤٨٨) وأحمد في مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يتغن بالقرآن» .

(٢١٩) عيان لا تمسهما النار : عين بَكَتْ من خشية الله :

رواه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٩) وقال : حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق . قلت : شعيب هذا ، ضعّفه بعضهم .

(٢٢٠) لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن :

رواه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣) وفي الزهد (٢٣١١) والنسائي في الجهاد (٣١٠٨) وأحمد في مسند (١٠١٨٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم» .

(٢٢١) تفسير النيسابوري ١٥/١٠٢ وتفسير النسفي ٢/٢٥٥، وقال أبو جعفر الطبري: ولدخول ما في قوله: «أياماً تدعوا» وجهاً: أحدهما: أن تكون صلة كما قيل: «عما قليل ليصبح نادمين» والآخر: أن تكون في معنى أن كررت لما اختلف لفظهما كما قيل: ما إن رأيت كالثيلة ليلة - تفسير الطبري ١٥/١٢٢.

(٢٢٢) تفسير القاسمي ١٠/٤٠١١، ١٢/٤٠١٢ وهذا المعنى في تفسير النيسابوري ١٥/١٠٢.

(٢٢٣) انظر حاشية الجمل ٢/٦٥٥، وفيها أن الإمام النوري فسر الإحصاء بالحفظ وهكذا فسر البخاري والأكثر، ويؤيده أن في رواية الصحيح: «من حفظها دخل الجنة» ونرى أن حفظها لابد أن يرافقه فهم معناها والعمل بمقتضاها.

(٢٢٤) انظر حاشية الجمل على الجلالين ٢/٦٥٥ - ٦٦٧ وأسماء الله الحسنى كما وردت في الحديث الصحيح هي «الله الذي لا إله إلا هو الرحمان الرحيم، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، الملئ، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحي، المميت، الحي، القيوم، الواحد، الماجد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الولي، المتعال، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

(٢٢٥) وردت هذه الآراء في تفسير الطبري وتفسير النيسابوري.

(٢٢٦) تفسير المراغي ١٥/١١١.

(٢٢٧) تفسير النيسابوري ١٥/١٠٤، بتصرف، وقارن بتفسير المراغي ١٥/١١١.

(٢٢٨) تفسير الطبري ١٥/١٢٦.

(٢٢٩) تفسير الطبري ١٥/١٢٦، بتصرف.

(٢٣٠) بصائر ذوى التميز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزي، في سنة ٨١٧ هـ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار، ج ١ ص ٢٩٧.

(٢٣١) الإنشاق في علوم القرآن ١ - ١٧.

(٢٣٢) في ظلال القرآن ج ١٦ ص ١٥ ط ١.

(٢٣٣) من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء:

رواه الدارمي في فضائل القرآن (٣٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري قال: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق. قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في السنن، عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين».

(٢٣٤) من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف :

رواه مسلم في صلاة المسافرين (٨٠٩) وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٣) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٦٨) وأحمد في مسنده (٢١٢٠٥) من حديث أبي الدرداء: أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال».

(٢٣٥) من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف :

انظر ما قبله .

(٢٣٦) من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف :

قال السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن الضريس والنسائي وأبو يعلى والرويانى ، عن ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف : فإنه عصمة له من الدجال » .

(٢٣٧) تفسير المراغي ١١٦/١٥ .

(٢٣٨) إن الدنيا حلوة خضرة :

بهذا اللفظ رواه مسلم في الذكر (٢٧٤٢) والترمذي في القتن (٢١٩١) من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت النساء» . وما أشار إليه المصنف حفظه الله من أن البخارى أخرجه فإنما أخرجه البخارى في الزكاة (١٤٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إني مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها .. الحديث» وفيه: «وإن هذا المال خضرة حلوة فتمم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل .. الحديث» . وكذلك ذكر البخارى تلك اللفظة في الرقاق (٦٤٤١) من حديث حكيم بن حزام قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ثم قال: «هذا المال» وربما قال: «سفيان» قال لى : «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بطيب نفس يورك فيه ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه .. الحديث» .

(٢٣٩) اللهم إني لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا :

ذكره البخارى في الرقاق تعليقاً بقوله : باب قول النبي ﷺ : هذا المال خضرة حلوة وقال الله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ قال عمر : اللهم ، إني لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا . اللهم ، إني أسألك أن أنفقه حقه .

(٢٤٠) انظر تفسير المراغي ١١٨/١٥ ، وصفوة التفسير للصابوني ١٨٤/٢ .

(٢٤١) زاد المسير ١٠٨/٥ .

(٢٤٢) ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبه رشدا :

رواه أحمد في مسنده (٢٤٦١٣) من حديث عائشة : أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فأراد أن يكلمه وعائشة تصلى فقال لها رسول الله ﷺ : «عليك بالكامل» أو كلمة أخرى فلما انصرفت عائشة سألته عن ذلك فقال لها : «قولى : اللهم ، إني أسألك من الخير كله عاجله وأجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وأجله ما علمت منه وما

لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد - ﷺ - وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك - محمد ﷺ - وأسألك ما قضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشداً .

(٢٤٣) اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها :

رواه أحمد في مسنده (١٧١٧٦) من حديث بئر ربيعة القرشي قال: سمعت رسول الله ﷺ يدعو: اللهم ، أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

(٢٤٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٤١٢/٢ .

(٢٤٥) ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم :

رواه الشافعي في مسنده (٦٧٣) من حديث المطلب بن حنطب : أن النبي ﷺ قال : «ما تركت شيئاً مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به ولا تركت شيئاً مما نهاكم الله عنه إلا وقد نهيتكم عنه وإن الروح الأمين قد نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفى رزقها فأجملوا في الطلب». وذكره العراقي في تخريج الإحياء فقال : «إني لا أعلم شيئاً يقرئكم من الجنة ويبعدكم عن النار إلا نهيتكم عنه وإن الروح الأمين نفث في روعي : أن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها وإن أبطل عنها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» رواه ابن أبي الدنيا في القناعة ، والحاكم من حديث ابن مسعود وذكره شاهد الحديث أبي حميد وجابر وصحبهما على شرط الشيخين، وهما مختصران، ورواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : إنه منقطع . قال المنائي في القفيض : رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة الباهلي ورواه عنه أيضاً الطبراني ورواه ابن أبي الدنيا والحاكم من ابن مسعود ورواه البيهقي في المدخل وقال : منقطع .

(٢٤٦) ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :

رواه البخاري في الإيمان (٢١،١٦) والإكراه (٦٩٤١)، ومسلم في الإيمان (٤٣) والترمذي في الإيمان (٢٦٢٤)، والنسائي في الإيمان (٤٩٨٨) وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٣) وأحمد في مسنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة : الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» .

(٢٤٧) إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله :

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد في مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. قال الجولوني في كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه، وكذا القضاة عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلي، فقال: «يا غلام، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله... الحديث»، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك، أو أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه»، وفيه: «واعلم أن أمصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»، وأوردته الضياء في المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضي

الله عنهما رفعه بلغظ: يا ابن عباس، احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله الريحاء يعرفك في الشدة»، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال في المقاصد: وقد بسط الكلام عليه تخريج الأربعين.

(٢٤٨) لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور :

رواه أبو داود في الجنايز (٢٢٣٦) والترمذي في الصلاة (٢٢٠) والنسائي في الجنايز (٢٠٤٣) وأحمد في مسنده (٢٠١٣) من حديث ابن عباس قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج .

(٢٤٩) وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد :

رواه مسلم في المساجد (٥٣٢) من حديث جندب قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهيكم عن ذلك .

(٢٥٠) لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد :

رواه البخاري في الصلاة (٤٣٦) وأحاديث الأنبياء (٤٤٥٤) والمغازي (٤٤٤٤) واللباس (٥٨١٦) ومسلم في المساجد (٥٣١) والنسائي في المساجد (٧٠٣) وأحمد في مسنده (١٨٨٧) من حديث عائشة وابن عباس يرفعاها «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا. ورواه البخاري في الصلاة (٤٣٧) ومسلم في المساجد (٥٣٠) وأبو داود في الجنايز (٢٢٢٧) والنسائي في الجنايز (٢٠٤٧) وأحمد في مسنده (٧٣١١) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». ورواه البخاري في الجنايز (١٣٩٠، ١٣٣٠) والمغازي (٤٤٤١) ومسلم في المساجد (٥٢٩) والنسائي في الجنايز (٢٠٤٦) وأحمد في مسنده (٢٣٩٩٢) من حديث عائشة رضی الله عنها عن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا .

(٢٥١) أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح :

رواه البخاري في الصلاة (٤٣٤) والجنايز (١٣٤١) والمناقب (٢٨٧٣) ومسلم في المساجد (٥٢٨) والنسائي في المساجد (٧٠٤) وأحمد في مسنده (٢٣٧٣١) من حديث عائشة: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأته بأرض الحبشة يقال لها: مارية فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح - أو الرجل الصالح - بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله». ورواه البخاري في الصلاة (٤٢٧) من حديث عائشة: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» .

(٢٥٢) إن من شرار الخلق عند الله يوم القيامة من تتركهم الساعة :

رواه البخاري في الفتن (٧٠٦٧) وأحمد في مسنده (٤٣٣٠) من حديث عبدالله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من البليان سحرا وشرار الناس الذين تتركهم الساعة أحياء والذين يتخذون قبورهم مساجد».

(٢٥٣) تفسير المراغي ١٣٤/١٥ ، وانظر التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي ٤٨/١٥ نقلا عن تفسير الآلوسي ٢٣٧/١٥ .

(٢٥٤) لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة :

رواه البخاري في المغازي (٤١١٩) من حديث ابن عمر رضی الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة» فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى تأتيناها وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فلم ينف من واحد منهم .

(٢٥٥) يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا :

رواه البخاري في العلم (٦٩) والأدب (٦١٢٥) ومسلم في الجهاد (١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا». ورواه مسلم الجهاد (١٧٣٢) من حديث أبي موسى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدا من أصحابه يعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» .

(٢٥٦) لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا :

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) والإكراه (٦٩٥١) ومسلم في البر (٢٥٨٠) وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) والترمذي في الحدود (١٤٢٦) وأحمد في مسنده (٥٦١٤، ٥٣٣٤) من حديث عبدالله بن عمر رضی الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة». ورواه مسلم في البر (٢٥٦٤) والترمذي في البر (٩٩٢٧) وأحمد في مسنده (٨٠٤٢، ٧٦٧٠) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». ورواه أحمد في مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث إيال يلتقيان فيصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» .

(٢٥٧) في ظلال القرآن بقلم : سيد قطب ٨٧/١٥ طبع عيسى البابي الحلبي .

(٢٥٨) انظر تفسير ابن كثير ، والتفسير الكبير لفخر الدين الرازي ، وفي صحيح مسلم: أن المشركين قالوا للنبي : اطرده هؤلاء الفقراء عنك أو اجعل مجلسا خاصا بأشراف قريش ؛ فنزلت الآيات .

(٢٥٩) هذا خير من ملء الأرض مثل هذا :

رواه البخاري في النكاح (٥٠٩١) والرقائق (٦٤٤٧) وابن ماجه في الزهد (١٢٠) من حديث سهل قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يستمع فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» .

(٢٦٠) ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله :

رواه أحمد في مسنده (١٢٠٤٥) من حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفورا لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات» .

(٢٦١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٤١٧/٢ .

(٢٦٢) كعكر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه :

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٤، ٢٥٨١) والتفسير (٣٣٢٢) وأحمد في مسنده (١١٢٧٥) من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قوله: «كالمهل» قال: «كعكر الزيت فإذا قربه إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه». قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث رشدين قد تكلم فيه .

(٢٦٣) تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء :

رواه مسلم في الطهارة (٢٥٠) وأحمد في مسنده (٨٦٢٣) من حديث أبي حازم قال: كنت خلف أبي هريرة وهو يتوضأ للصلاة فكان يمد يده حتى تبلغ إبطه فقلت له: يا أبا هريرة، ما هذا الوضوء؟ فقال: يا بني، فروخ أنتم هاهنا لو علمت أنكم هاهنا ما توضأت هذا الوضوء؛ سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». ورواه البخاري في اللباس (٥٩٥٣) وأحمد في مسنده (٧١٢٦) من حديث أبي هريرة دارا بالمدينة فرأى أعلاها مصورا يصور قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة» ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه فقلت: يا أبا هريرة، أشيء سمعته من رسول الله ﷺ قال: منتهى الحلية .

(٢٦٤) ما أنعم الله على عبد نعمة أهل أو مال :

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٧٨٤٢) بلفظ: «ما أنعم الله على عبد نعمة أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته» وقرأ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتْ قَلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ . ونسبه لأبي يعلى في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس وقال: ضعيف. قال البيهقي المجمع: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه عبد الملك بن زبارة وهو ضعيف. ورواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٥) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ» .

(٢٦٥) ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز :

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٩٢) والمغازي (٢٤٠٥) والدعوات (٦٣٨٤) والقدرد (٦٦١٠) والتوحيد (٧٣٨٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد في مسنده (١٩٢٤٦، ١٩١٠٢، ١٩٠٢٦) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال: لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ: «أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمًا ولا غائبًا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لي: «يا عبد الله بن قيس» قلت: ليك يا رسول الله قال: «ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة؟» قلت: يا رسول الله، فذاك أبي وأمي قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» .

(٢٦٦) في ظلال القرآن ٩٦/١٥ طبع عيسى البابي الحلبي .

(٢٦٧) يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٦١، ٣٣٤٠) والتفسير (٤٧١٢) ومسلم فى الإيمان (١٩٤) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٣٤) وأحمد فى مسنده (٩٣٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: أتى النبى ﷺ يوماً بلحم فقال: «إن الله يجمع يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم ...» فذكر حديث الشفاعة - فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبى الله وخليه من الأرض اشفع لنا إلى ربك فيقول: ... - فذكر كذباته - نفسى نفسى انهبوا إلى موسى ... تابعه أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢٦٨) فى ظلال القرآن .

(٢٦٩) لكل غادر لواء يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٧) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٧) وأحمد فى مسنده (١٢٠٣٥) من حديث أنس عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة قال: أحدهما: ينصب وقال: الآخرى يوم القيامة يعرف به». رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٨) والحيول (٦٩٦٦) والفتن (٧١١١) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٥) والترمذى فى السير (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٤٨٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «لكل غادر لواء ينصب بغدرته يوم القيامة. ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٦) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٧٢) والدارمى البيهق (٢٥٤٢) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٠) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان» . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٧٢) وأحمد فى مسنده (١٠٩١٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء عند أسفه يوم القيامة» .

(٢٧٠) يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا :

رواه أحمد فى مسنده (١٥٦١٢) من حديث جابر بن عبد الله قال: بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترت بجيرا ثم شددت عليه رحلى فسررت إليه شهرا حتى قدمت عليه الشام فإذا عبد الله بن أنيس فقلت للباباء قل له: جابر على الباب فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم ! فخرج يظاً ثوبه فاعتنقنى واعتنقته فقلت: حديثاً بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ القصص فخطبت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعاه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الناس يوم القيامة - أو قال: العباد - عراة غرلا بهما» قال: قلنا وما بهما؟ قال: «ليس معهم شئ ثم يناديهم بصوت يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقصه منه حتى اللطمة قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتى الله عز وجل عراة غرلا بهما؟ قال: «بالحسنات والسنيات» . وذكره البخارى تعليقا التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ ولم يقل: ماذا خلق ربكم وقال جل ذكره: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ ويذكر عن جابر عن عبد الله بن أنيس قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك أنا الديان» . ويشهد له ما رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٣٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا» قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ! فقال: «الأمر أشد من أن بهمهم ذلك» . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى

صفة القيامة (٢٤٢٣) وتفسير القرآن (٢٣٣٢) والنسائي في الجنائز (٢٠٨١) والدارمي في الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد في مسنده (٢٠٩٧، ١٩١٦) من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعْنِدَهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي! فيقولون: إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ فُهَيْدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾» إلى قوله: «العزيز الحكيم» ورواه الدارمي في الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: قيل له: ما المقام المحمود؟ قال: «ذاك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه ينط كما ينط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويحيا بكم حفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى: اكسوا خليلى فيؤتى بربطتين بيضاويتين من رباط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرين».

(٢٧١) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٩٦) وعبد بن حميد في مسنده (١٤٧٧) وأحمد في مسنده (١٦٨، ١٥٣/٦) من حديث عائشة.

(٢٧٢) ألا تصلين :

رواه البخاري في الجمعة (١١٢٧) والاعتصام (٧٢٤٧) والتوحيد (٧٤٦٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٥) من حديث علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال: «ألا تصلين؟» فقلت: يا رسول الله، أنفستنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلى شئنا ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

(٢٧٣) يعنى : من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

(٢٧٤) لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما :

رواه البخاري في العلم (١٢٢) وأحاديث الأنبياء (٣٤٠١) والتفسير (٤٧٢٦) ومسلم في الفضائل (٢٣٨٠) من حديث أبي ابن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام في بنى إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ الحديث...» وفيه: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما» قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا - قال - وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر في البحر فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر» قال سعيد بن جبيرة وكان يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافرا.

(٢٧٥) صفوة القاسير، تأليف محمد علي الصابوني ٢٠٣/٢ طبعة دار القرآن الكريم بيروت.

(٢٧٦) في ظلال القرآن بتصرف كبير.

(٢٧٧) إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا :

رواه مسلم في القدر (٣٦١١) وأبو داود في السنة (٤٧٠٦، ٤٧٠٥) والترمذي في التفسير (٣١٥٠) وأحمد في مسنده (٢٠٦١٨) من حديث أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لأرحق أبيوه طغيانا وكفرا».

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (الخامس عشر)

مجتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الإسراء:	٢٧٦٩
١	﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً...﴾	٢٧٧٩
٢	﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى...﴾	٢٧٩٧
٣	﴿ذرية من حملنا مع نوح...﴾	٢٧٩٧
٤	﴿وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب...﴾	٢٨٠٠
٥	﴿فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا...﴾	٢٨٠٠
٦	﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم...﴾	٢٨٠٠
٧	﴿إن أنسنتم أنسنتم لأنفسكم...﴾	٢٨٠٠
٨	﴿عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا...﴾	٢٨٠٠
٩	﴿إن هذا القرآن يهدى للقى هى أقوم...﴾	٢٨١٩
١٠	﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة...﴾	٢٨١٩
١١	﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير...﴾	٢٨٢٠
١٢	﴿جعلنا الليل والنهار آيتين...﴾	٢٨٢١
١٣	﴿وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه...﴾	٢٨٢٢
١٤	﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً...﴾	٢٨٢٢
١٥	﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه...﴾	٢٨٢٢
١٦	﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها...﴾	٢٨٢٦
١٧	﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...﴾	٢٨٢٨
١٨	﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء...﴾	٢٨٢٩
١٩	﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن...﴾	٢٨٢٩
٢٠	﴿كلنا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك...﴾	٢٨٣١
٢١	﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض...﴾	٢٨٣١
٢٢	﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر...﴾	٢٨٣٢
٢٣	﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه...﴾	٢٨٣٣
٢٤	﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة...﴾	٢٨٣٦
٢٥	﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم...﴾	٢٨٣٧
٢٦	﴿وأت ذا القرنى حقه والمسكين...﴾	٢٨٣٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٧	﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ...﴾	٢٨٣٩
٢٨	﴿وَمَا تَعْرَضْنَ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا...﴾	٢٨٤٢
٢٩	﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾	٢٨٤٢
٣٠	﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾	٢٨٤٢
٣١	﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ...﴾	٢٨٤٤
٣٢	﴿وَلَا تَقْرِبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً...﴾	٢٨٤٦
٣٣	﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾	٢٨٥١
٣٤	﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾	٢٨٥٣
٣٥	﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ...﴾	٢٨٥٦
٣٦	﴿وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾	٢٨٥٧
٣٧	﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا...﴾	٢٨٥٩
٣٨	﴿كُلَّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ...﴾	٢٨٦٠
٣٩	﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ...﴾	٢٨٦١
٤٠	﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا...﴾	٢٨٦٤
٤١	﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا...﴾	٢٨٦٤
٤٢	﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ...﴾	٢٨٦٤
٤٣	﴿سُبْحَانَهِ وَتَعَالَىٰ...﴾	٢٨٦٤
٤٤	﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ...﴾	٢٨٦٤
٤٥	﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ...﴾	٢٨٦٧
٤٦	﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً...﴾	٢٨٦٧
٤٧	﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ...﴾	٢٨٦٧
٤٨	﴿أَنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ...﴾	٢٨٦٧
٤٩	﴿وَقَالُوا أَأِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاقًا...﴾	٢٨٧٠
٥٠	﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً...﴾	٢٨٧٠
٥١	﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ...﴾	٢٨٧٠
٥٢	﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ...﴾	٢٨٧٠
٥٣	﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾	٢٨٧٢
٥٤	﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَاءُ يَرْحَمَكُم...﴾	٢٨٧٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٥	﴿وَبَرِكْ أَعْلَمَ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٢٨٧٢
٥٦	﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ...﴾	٢٨٧٥
٥٧	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَيْبِهِمُ الْوَسِيلَةَ...﴾	٢٨٧٥
٥٨	﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾	٢٨٧٥
٥٩	﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نَرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ...﴾	٢٨٧٥
٦٠	﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحْسَبُ بِالْإِنْسَانِ...﴾	٢٨٧٥
٦١	﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾	٢٨٨٠
٦٢	﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ...﴾	٢٨٨٠
٦٣	﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ...﴾	٢٨٨٠
٦٤	﴿وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتِطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ...﴾	٢٨٨٠
٦٥	﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾	٢٨٨٠
٦٦	﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ...﴾	٢٨٨٤
٦٧	﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ...﴾	٢٨٨٤
٦٨	﴿أَفَأَمْنَتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ...﴾	٢٨٨٤
٦٩	﴿أَمْ أَمْنَتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ...﴾	٢٨٨٤
٧٠	﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾	٢٨٨٤
٧١	﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ...﴾	٢٨٨٩
٧٢	﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ...﴾	٢٨٨٩
٧٣	﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾	٢٨٨٩
٧٤	﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبِيتَ نُنَاقُكَ...﴾	٢٨٨٩
٧٥	﴿وَإِذَا لَأَذْنُكَ لَاضَعُفَ الْحَيَاةَ وَضَعُفَ الْمَمَاتِ...﴾	٢٨٨٩
٧٦	﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ...﴾	٢٨٨٩
٧٧	﴿سَنَةِ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُلِنَا...﴾	٢٨٨٩
٧٨	﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ...﴾	٢٨٩٦
٧٩	﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ...﴾	٢٨٩٦
٨٠	﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صَادِقٍ...﴾	٢٨٩٦
٨١	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾	٢٨٩٦
٨٢	﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ...﴾	٢٨٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٣	﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ...﴾	٢٨٩٦
٨٤	﴿قُلْ كُلْ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ...﴾	٢٨٩٦
٨٥	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾	٢٩٠٦
٨٦	﴿وَلَكِنَّ شَتْنَا لِنَذْهَبِنَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾	٢٩٠٩
٨٧	﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي...﴾	٢٩٠٩
٨٨	﴿قُلْ لَكُنْ لِحُجَّتِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...﴾	٢٩٠٩
٨٩	﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾	٢٩٠٩
٩٠	﴿وَقَالُوا لَنْ نَمُوتَ نَحْنُ نَحْنُ...﴾	٢٩١٢
٩١	﴿أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ...﴾	٢٩١٢
٩٢	﴿أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ...﴾	٢٩١٢
٩٣	﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ...﴾	٢٩١٢
٩٤	﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى...﴾	٢٩١٢
٩٥	﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مَطْمَئِنِينَ...﴾	٢٩١٢
٩٦	﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ...﴾	٢٩١٢
٩٧	﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدُ...﴾	٢٩١٢
٩٨	﴿وَلَكِنْ جَزَاءُهمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا...﴾	٢٩١٢
٩٩	﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾	٢٩١٢
١٠٠	﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...﴾	٢٩١٢
١٠١	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾	٢٩٢٣
١٠٢	﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٢٩٢٣
١٠٣	﴿فَنَارَادَ أَنْ يَنْصِفَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ...﴾	٢٩٢٣
١٠٤	﴿وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا...﴾	٢٩٢٣
١٠٥	﴿وَيَا الْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ وَيَا الْحَقُّ نَزَلَ...﴾	٢٩٢٦
١٠٦	﴿وَقَرَأْنَا مَا فَرَّقْنَاهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكٍّ...﴾	٢٩٢٦
١٠٧	﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا...﴾	٢٩٢٦
١٠٨	﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا...﴾	٢٩٢٦
١٠٩	﴿وَيَخْتَرُونَ لَلْأَنْفِقَانِ يَبْكَوْنَ...﴾	٢٩٢٦
١١٠	﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾	٢٩٢٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١١	﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا...﴾	٢٩٢٦
—	تفسير سورة الكهف :	٢٩٣٥
—	دروس من سورة الكهف :	٢٩٣٦
—	أهداف سورة الكهف :	٢٩٤١
١	﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب...﴾	٢٩٤٦
٢	﴿فيمالينذر بأسا شديدا من لدنه...﴾	٢٩٤٦
٣	﴿ما كئيبين فبيده أبدا...﴾	٢٩٤٦
٤	﴿ويذذ الذين قالوا...﴾	٢٩٤٦
٥	﴿مالهم به من علم ولا آياتهم...﴾	٢٩٤٦
٦	﴿فأعالك بأخع نفسك على أثارهم...﴾	٢٩٤٦
٧	﴿إنما جاء لعل ما على الأرض زينة لها...﴾	٢٩٤٦
٨	﴿وإنما جاء لعل ما عليها...﴾	٢٩٤٦
٩	﴿لم حسب أن أصحاب الكهف والرقيم...﴾	٢٩٥١
١٠	﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف...﴾	٢٩٥١
١١	﴿فخبرينا على آذانهم فى الكهف...﴾	٢٩٥١
١٢	﴿ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين...﴾	٢٩٥١
١٣	﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق...﴾	٢٩٥٣
١٤	﴿وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا...﴾	٢٩٥٣
١٥	﴿هولاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة...﴾	٢٩٥٣
١٦	﴿وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله...﴾	٢٩٥٣
١٧	﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم...﴾	٢٩٥٣
١٨	﴿وتحسبهم أيقاظا وهم رقود...﴾	٢٩٥٣
١٩	﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم...﴾	٢٩٥٩
٢٠	﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم...﴾	٢٩٥٩
٢١	﴿وكذلك أمثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق...﴾	٢٩٥٩
٢٢	﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...﴾	٢٩٥٩
٢٣	﴿ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا...﴾	٢٩٦٧
٢٤	﴿إلا أن يشاء الله...﴾	٢٩٦٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٥	﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين...﴾	٢٩٧٠
٢٦	﴿قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السماوات والأرض...﴾	٢٩٧٠
٢٧	﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك...﴾	٢٩٧٢
٢٨	﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي...﴾	٢٩٧٢
٢٩	﴿وقل الحق من ربكم...﴾	٢٩٧٢
٣٠	﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	٢٩٧٢
٣١	﴿أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار...﴾	٢٩٧٢
٣٢	﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين...﴾	٢٩٧٩
٣٣	﴿كلتا الجنتين ءاتت أكلها ولم تظلم منه شيئا...﴾	٢٩٧٩
٣٤	﴿وكان له ثمرة فقال لصاحبه...﴾	٢٩٧٩
٣٥	﴿وبخل جنته وهو ظالم لنفسه...﴾	٢٩٧٩
٣٦	﴿وما أظن الساعة قائمة...﴾	٢٩٧٩
٣٧	﴿قال له صاحبه وهو يحاوره...﴾	٢٩٧٩
٣٨	﴿إكنا هو الله ربى...﴾	٢٩٧٩
٣٩	﴿ولولا إذ دخلت جنتك...﴾	٢٩٧٩
٤٠	﴿فعمسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك...﴾	٢٩٧٩
٤١	﴿أو يصبح ماؤها غورا...﴾	٢٩٧٩
٤٢	﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه...﴾	٢٩٧٩
٤٣	﴿ولم تكن له فئة ينصرونه...﴾	٢٩٧٩
٤٤	﴿منالك السولاية الله الحق...﴾	٢٩٧٩
٤٥	﴿واضرب لهم مثلا الحياة الدنيا كماء...﴾	٢٩٨٧
٤٦	﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا...﴾	٢٩٨٧
٤٧	﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة...﴾	٢٩٨٩
٤٨	﴿وعرضوا على ربك صفاء لقد جئتمونا...﴾	٢٩٨٩
٤٩	﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه...﴾	٢٩٨٩
٥٠	﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا...﴾	٢٩٩٣
٥١	﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض...﴾	٢٩٩٣
٥٢	﴿ويوم يقول نادوا شركاءى الذين زعمتم فدعهم...﴾	٢٩٩٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٣	﴿وراء المجرمون النار فظنوا...﴾	٢٩٩٣
٥٤	﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس...﴾	٢٩٩٨
٥٥	﴿وما منع الناس أن يؤمنوا...﴾	٢٩٩٨
٥٦	﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين...﴾	٢٩٩٨
٥٧	﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها...﴾	٢٩٩٨
٥٨	﴿وريك الغفور ذو الرحمة لويؤاخذهم بما كسبوا...﴾	٢٩٩٨
٥٩	﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا...﴾	٢٩٩٨
٦٠	﴿وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح...﴾	٣٠٠٢
٦١	﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما...﴾	٣٠٠٢
٦٢	﴿فلما جاوزا قال لفتهاه اتنا غداءنا...﴾	٣٠٠٢
٦٣	﴿قال أرميت إذ أوبينا إلى الصخرة...﴾	٣٠٠٢
٦٤	﴿قال ذلك ما كننا نبغ فارتدا...﴾	٣٠٠٢
٦٥	﴿فوجدنا عبدا من عبادنا أتيناها رحمة من عندنا...﴾	٣٠٠٢
٦٦	﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن...﴾	٣٠٠٢
٦٧	﴿قال إنك لن تستطيع معي صبرا...﴾	٣٠٠٢
٦٨	﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا...﴾	٣٠٠٢
٦٩	﴿قال ستجدني إن شاء الله صابرا...﴾	٣٠٠٢
٧٠	﴿قال فإن اتبعتنى فلا تسألني عن شيء...﴾	٣٠٠٢
٧١	﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة...﴾	٣٠٠٢
٧٢	﴿قال ألقم ألقم ألقم لك...﴾	٣٠٠٢
٧٣	﴿قال لا تؤاخذني بما نسيت...﴾	٣٠٠٢
٧٤	﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله...﴾	٣٠٠٢
-	تخريج أحاديث وهوامش .	٣٠١١
-	فهرس الكتاب .	٣٠٣٩

تم بحمد الله الجزء الخامس عشر
ويليه الجزء السادس عشر بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ لَكَ إِنْكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٧٥ ﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ٧٦ ﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوْجَدًا فِيهَا حِدَارٌ أُنْزِلُ يُدْأَنُ يَنْقُضُ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَّخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧ ﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٧٨ ﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ٧٩ ﴾ وَأَمَّا الْفُلَانُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١ ﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ نَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢ ﴾

المضردات :

للمساكين ، واحدهم : مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب : لأمر في نفسه ، أو في بدنه .

يعملون في البحر ، يواجزون ويكتسبون .

أعيبها : أجعلها ذات عيب .

وراءهم : أمامهم ، وهو لفظ يستعمل في الشيء وضده ، كما قال الشاعر :

أليس ورائي أن أديب على العصا فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي

خشيننا : خفنا .

يرهقهما : يحملها .

أن يسقط ؛ وإذا الخضر عليه السلام ، يشغل نفسه بإقامة الجدار ، وإصلاحه وتقويته وتعديله ؛ حتى يصبح بحالة جيدة .

وهنا يحس موسى بالتناقض بين عمل أهل القرية وبخلهم الشديد ، ورفضهم إطعام رجلين غريبين ، وبين الجهد الذى بذله الخضر فى إصلاح الجدار لهم دون مقابل ، وقال للخضر :

لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

أنكر عليه موسى صنع المعروف فى غير أهله ، وقال موسى : لو أخذت منهم أجرًا على إصلاح الجدار ؛ تستطيع أن تستعين به فى شراء الطعام .

روى : أن موسى قال للخضر : قوم استطعناهم فلم يطعمونا ، وضئفناهم فلم يضيفونا ، ثم قعدت تبني لهم الجدار ؛ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .

٧٨ - قَالَ هَلْذَا لِإِقَابِ بَنِي وَتِلْكَ سَائِلُكَ بِأَوَّلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

أى : قال الخضر لموسى : آن وقت الافتراق بيننا حسب قولك ، سأخبرك بالحكمة الكامنة والسّر المخبأ وراء هذه الأعمال الثلاثة ، التى أنكرتها ؛ لأنك لم تطلع على الأسباب الكامنة وراءها .

روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله أذى موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ، ولو لبث مع صاحبه : لأبصر العجب»^(١) .

٧٩ - أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَزَدْتُ أَنْ أُعِيْبَهَا وَكَانَ زُرَّاعُهُمْ مُلْكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا .

أى : أما فعلى ما فعلته بالسفينة ، فإنها كانت لقوم ضعفاء ، لا يقدرين على دفع الظلمة ، وكانوا يولجرونها ، ويكتسبون قوتهم منها ، فأردت أن أعيبها بالخرق الذى خرقتها ، وكان أمامهم ملك ظالم يستولى على كل سفينة صالحة للعمل غصبًا وعتوة ؛ فأردت أن أعيبها ؛ ليتركها الملك الظالم لهم ؛ فهو عمل مؤلم فى الظاهر ، لكنه نافع مفيد فى عاقبته .

٨٠ - وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا .

أى : وأما الغلام الذى قتلته ، فقد كان أبواه مؤمنين صالحين ، وكان الغلام كافرًا فاجرًا ، وقد روى مسلم فى صحيحه : (أن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرًا ولو عاش ؛ لأرهب أبويه طغيانا وكفرا)^(٢) .

أى : علم الله أنه لو أدرك الغلام وبلغ ؛ لدعا أبويه إلى الكفر فأجاباه ودخلا معه فى دينه ؛ لفرط حبهما له .

٨١- فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْا وَأَقْرَبَ رُحْمًا .

أى: أراد الله ووجه إرادة العبد الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلها الله خلقاً خيراً منه ، وأرحم بوالديه ، وأكثر شفقة عليهما وبرا بهما .
جاء فى مختصر تفسير ابن كثير للصابري :

قال قتادة : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزننا عليه حين قُتل ، ولو بقى : لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره ؛ خير له من قضائه فيما يحب ، وصح فى الحديث : «لا يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له»^(١) .

وقال تعالى : وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . (البقرة : ٢١٦) .

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْا وَأَقْرَبَ رُحْمًا .

أى: ولذا أركى من هذا . وقال قتادة: أبر بوالديه ، وقيل: لما قتله الخضر : كانت أمه حاملاً بغلام مسلم ، والله أعلم .

والخلاصة : أن الله أبدل والديه ذرية صالحة أكثر براً ورحمة وطاعة لله ، والأمر فى جملة خاضع لعلم علام الغيوب ، وحكمته سبحانه وتعالى .

٨٢- وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا كُنَّا عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا .

كان الخضر قد أقام الجدار وعدله وثبته فى مكانه ، وقصته: أن الجدار كان ملكاً للغلامين يتيمين ، قد مات أبوهما ولو سقط الجدار: لاستولى الأوصياء على الكنز الذى تحته ، وكان تحت الجدار كنز من ذهب وفضة ، فأراد الله سبحانه وتعالى ، أن يبلغ اليَتيمان أَشُدَّهُمَا ، أى: سن القوة والفتوة والرشد ؛ فيستوليان على هذا الحائط ، ويستخرجان الكنز من تحته ، وهذا كله بتوجيه الله ، وإرادته ورحمته بعبادة ولم يفعله الخضر برغبته ؛ بل بأمر الله سبحانه وتعالى له . وفى هذا ما يدل المسلم على أن يحنى رأسه لكل ما يجىء به القدر: فقد يأتى الله تعالى بالنعمة ، وقد يأتى بالحنة ، ونحن أمرنا أن نشكر على النعمة ، وأن نصبر على البأساء ، وأن نرضى بأسباب القضاء .

إن هذه المصالحة مع القدر ، وحلاوة الرضا والتوافق ، تمنح المؤمن زائداً من قوة اليقين ، وهدوء الباطن ، وحلاوة التسليم ؛ لكل ما يأتى به الله على حد قول القائل :

سَلِّمِ الْأُمُورَ تَجِدْنَا نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكَ مِنْكَ

وفى الحديث الصحيح: أن جبريل سأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال له النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومزّه»^(١).

وفى الحديث الشريف: «ما من عبد يبتلى بمصيبة فيقول: اللهم، اؤجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها: إلا عوضه الله خيراً مما فقد»^(٢).

ويقول النبي ﷺ: «إذا مات ولد المؤمن؛ قال الله تعالى: يا ملائكتى! أقبضتم روح ولد عبدى؟ فيقولون: نعم يا ربنا؛ فيقول سبحانه: أقبضتم قلبه وثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم يا ربنا، فيقول الله تعالى: فماذا قال عبدى؟ فيقولون: يا ربنا، حمد واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة، وسمّوه: بيت الحمد»^(٣).

ومعنى: حمد واسترجع، أى: قال: الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وروى البخارى فى صحيحه: أن رسول الله ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من هم ولا حزن ولا تعب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياها، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»^(٤).

وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»^(٥).

وهذه المعانى تلتقى مع قصة موسى والخضر، وترمز إلى الرغبة الإلهية العليا فى تسليم المؤمن، ورضاه بالقضاء والقدر، والتمتع بحلاوة الرضا، واليقين بالثواب والجزاء الكريم للصابرين.

قال تعالى: وَكُنْتُمْ تُكْمِ بِشْيءٍ مِّنَ الْغُرَفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَبِّشِرُ الْمَصِيرِينَ
الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ • أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ. (البقرة: ١٥٥ - ١٥٧).

وفى الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: إذا ابتليت عبدى فى حُببتيه (يعنى: عينيه) فصبر واحتسب؛ لم أجد له جزاءً دون الجنة»^(٦).

ويقول تعالى: يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلصَّيْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ • وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى
سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ. (البقرة: ١٥٣، ١٥٤).

وإلى هنا تنتهى قصة موسى والخضر عليهما السلام وعلمائنا ذكروا : فوائد ونصائح تتعلق بقصة موسى والخضر عليهما السلام نود أن نذكر جانباً منها :

١ - اللقدر حكمةً إلهية عليا ، وأسبابٌ خفية ، لم نطلع عليها ، من ذلك معرفة الخضر بأمور خفية وراء أفعاله الثلاثة ، وهى رمز لما ينبغي للمؤمن أن يعملهُ إزاء أحداث هذه الحياة ، علينا أن نحنى رءوسنا لكل ما يجرى به الله ، وكما قال القائل :

سَلِّمِ الْأُمُورَ تَجِدُنَا نَحْنُ أَوْلَى بِكَ مِنْكَ

٢ - الإخلاص فى طلب العلم والتواضع فى سبيله ، ومعرفة كل جديد ، وعدم الحياء من التعلم ؛ فقد يتعلم الفاضل من المفضول ، وقد شاهدت أساتذة فى علوم متعددة ؛ يجلسون تلامذة أمام معلم كمبيوتر أقل منهم درجة وعلماً ، وفى القرآن الكريم : وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٨٥) ، ويقول سبحانه : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا . (طه : ١١٤) .

٣ - الرحلة فى طلب العلم ، ومعرفة الرجال الفضلاء ، سمة من صفات العقلاء ؛ فموسى عليه السلام يرحل إلى الخضر ، مصمماً على بلوغ هدفه .

قال البخارى : ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أنيس فى طلب حديث واحد .

٤ - أنه يجوز دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر ؛ فإن خرق السفينة فيه ضرر ولكنه أقل من أخذ الملك لها غضباً ، وإن قتل الغلام شرٌ ولكنه أقل من الضرر الذى سيقرب على بقائه ؛ وهو إرهابه لأبويه وحملهما على الكفر .

٥ - إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ؛ بدليل قوله تعالى : وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا (الكهف : ٨٢) .

وقد ورد فى القرآن والسنة : ما يفيد : أن الرّجل الصالح يحفظ فى ذريته ، وتشملهم من بركة عبادته ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة .

قصص ذى القرنين ، ويأجوج وماجوج

مَكَنَ الله لذى القرنين فى الأرض ، وأعطاه الجند والأتباع والعزيمة والقوة؛ حتى استطاع أن يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وشمالها ، وأن يمتد ملكه فى أعظم بقاع الأرض ، وأعطاه الله أسباب القوة والنصر ، فاستغفلها ويسط ملكه محاولاً إحقاق الحق ، وقهر الباطل والظالم .

قال المفسرون :

ذو القرنين هو (الإسكندر اليوناني) ملك المشرق والمغرب : فسمى : (ذا القرنين) وكان ملكا مؤمنا : مكّن الله له في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما ، وروى : أن الذين ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان : فإسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران : فنمرود وبختنصر^(١٠١) .

ويرى بعضهم أن ذا القرنين من حمير ، واسمه : أبو بكر بن أفرقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرها ، وبنى مدينة أفريقية : فسميت القارة كلها باسمه ، وسمى : ذا القرنين : لأنه بلغ قرني الشمس^(١٠٢) .

وقيل : هو أبو كرب الحميري ، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، وينبغي أن تؤخذ بحذر : لما فيها من إسراتيليات وأساطير ، مثل قولهم : إنه ملك من الملائكة^(١٠٣) .

وحسبنا ما في كتاب الله تعالى ، فقد سجل القرآن الكريم له ثلاث رحلات : واحدة إلى المغرب ، وواحدة إلى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدين .

★ ★ ★

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۞ ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنْجِذُ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ ۞ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ۞ ۞ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۞ ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبِيلًا ۞ ۞ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۞ ۞ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۞ ۞ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۞ ۞ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوحٍ وَمَا جُوحٌ مُّفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۞ ۞ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

يَنْكُرُ وَيَنْهَمُ رَدْمًا ﴿١٥﴾ ءَاثُوْنِي زُبْرًا حَلِيْدًا حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاثُوْنِي أَفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٦﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوْهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿١٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَبَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٢٠﴾

التفسير :

٨٣- وَيَسْتَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا .

أى : يسألك اليهود يا محمد عن قصة ذى القرنين ؛ حتى تخبرهم عن تاريخه وشأنه وأعماله .

قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا .

أى : سأقص عليكم من نبأه وقصته قرآنا ووحيا .

٨٤- إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا .

أى : يسرنا له أسباب الملك والسلطان ، والفتح وال عمران ، وأعطينا كل ما يحتاج إليه : للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف .. وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة .

٨٥- فَاتَّبَعَ سَبَبًا

أى : استغل الأسباب التى يسرها الله له ، واجتهد فى استثمارها ، فكان كلما استولى على إقليم من الأقاليم أو بلدًا من البلاد ، استغل ما فيها من أقوات وجنود وآلات : لفتح البلاد القريبة منها .

قال ابن كثير :

كان كلما مَرَّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه ، وإلا أذلهم وأرغم أنافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم ^(١٣) .

وقد أخذ ذو القرنين طريقه إلى جهة الغرب .

٨٦- حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ...

أى : سار ذو القرنين غربا حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي - وكان يسمى : بحر الظلمات ، ويظن أن اليابسة تنتهى عنده ، فرأى الشمس تغرب فيه ، والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار

حيث تكثر الأعشاب ، ويتجمع حولها طين لزج هو : الحمأ ، وتوجد البرك وكأنها عيون الماء .. فرأى الشمس تغرب هناك .

قال صاحب الظلال :

ومغرب الشمس هو المكان الذى يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق ، وهو يختلف بالنسبة للمواضع ، فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل ، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الماء كما فى المحيطات الواسعة والبحار ، وفى بعض المواضع يرى أنها تغرب فى الرمال إذا كان فى صحراء مكشوفة على مدّ البصر .

أى: أن القرآن الكريم ، يأتي أحياناً فى تعبيراته على نحو ما يراه المشاهد ويعتقده أى : وصل ذو القرنين إلى مكان اعتقد أن الشمس تغرب خافه ، وأن هذا هو نهاية العالم من جهة الغرب .

وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَلْذَآ الْقَرْيَينِ إِمَّا أَنْ تُعَذَّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا .

لقد أمدّه الله بالأسباب والنصر ، ونصره على هؤلاء القوم ، وخيّرهُ عن طريق الإلهام أو الوحي ، أو هو حكاية حال ، فبعد أن تم له النصر؛ أصبح من حقه أن يتصرف كما يشاء ، فمن حقه الانتقام أو الإحسان .

٨٧ - قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَكِرًا .

أى : من أصر على الكفر ، والعدوان والظلم؛ فله عقابه الدنيوى ، بالقتل أو الرّد ، ثم يرد إلى ربّه يوم القيامة ، فيعذبه عذاباً منكرًا فى نار جهنم .

٨٨ - وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا .

أى : أما المؤمنون الصالحون الذين يقومون بالأعمال النافعة والسلوك الحميد؛ فلهم منا التكريم والإحسان وتيسير الأمور ، ولهم عند الله الجنة والمكانة اللائقة ، وتلك مهمة الحاكم العادل ؛ فعليه أن يعاقب المعتدين وأن يتكلم بالظالمين ، وأن يكافأ المحسنين ؛ وبذلك يستقيم حال الأمة ، وتتبوأ منزلة كريمة تليق بها .

٨٩ - ثُمَّ أَتَىٰ سَبْيًا .

أى : سلك طريقاً بجنده نحو المشرق .

٩٠ - حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَرْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سَبِيلًا .

أى : حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق ؛ حتى مطلع الشمس فى عين الرائي ، وجد قوما

ليس لهم بناء يكتنهم ، ولا أشجار تظلمهم ، ولا لباس يسترهم ، بل لهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ، فإذا غابت الشمس ؛ خرجوا للبحث عن معاشهم .

قال قتادة :

مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ، ويقتل الرجال ؛ إلا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قومًا في أسراب ، عراة ، ليس لهم طعام إلا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس ؛ خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم ، وذكر لنا : أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ، ويقال : إنهم الزنج^(٩١) .

٩١ - كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا .

أى : كذلك فعل بأهل المشرق ، مثل ما فعله بأهل المغرب ، فأكرم المحسنين ، وعاقب الظالمين الكافرين ، وأنصف أهل الحق ، ويطش بأهل الظلم ؛ وكان أمره وأمر جنوده وأتباعه وجيوشه من الكثرة ؛ بحيث لا يحيط بعلمه وجميع أحواله إلا اللطيف الخبير .

٩٢ - ثُمَّ أَتَى سَبْيًا .

أى : ثم سلك طريقه فى اتجاه ثالث ، معترضا بين الشرق والغرب ؛ أخذًا من مطلع الشمس إلى الشمال .

٩٣ - حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا .

أى : حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، يقال : إنها بمنقطع أرض بلاد الترك ، مما على أرمينية وأذربيجان .

قال الطبرى :

والسَّدُّ : الحاجز بين الشَّيْثَيْنِ ، وهما هنا جبالان ، سُدٌّ ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزًا بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ؛ ليقطع مادة غوائلهم وشَرِّهم عنهم .

والذى يفيد النص القرآنى : أن ذا القرنين وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو مرمر ؛ فوجد هناك قوما متخلفين ؛ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ؛ لبعدهم عن لغات غيرهم من قلة فطنتهم ، وعندما شاهد هؤلاء المتخلفين ، فاتحًا قويًا ، توسموا فيه القدرة والصلاح ؛ عرضوا عليه جُعْلًا من المال ؛ نظير إقامة سد بينهم وبين يأجوج ومأجوج ممكن الخطر .

٩٤ - قَالُوا يَنْذِرُ الْفَرِثِينَ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ قَهْلٌ نَجْعَلُ لَكَ غَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا .

أى : قال مترجموهم : يا ذا القرنين ، إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب ، وأخذ الأقوات ، وسائر ضروب الإفساد .

قال المفسرون :

كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون فى الربيع فلا يتركون أخضرا إلا أكلوه ، ولا يابسوا إلا احتملوه ، فعرض القوم على ذى القرنين أن يجمعوا له ضريبة من أموالهم ؛ حتى يبني سدا بينهم وبين يأجوج ومأجوج .

٩٥ - قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا .

أى : ما أعطاني الله تعالى من الملك والقوة والتوفيق خيرٌ من أموالكم ، ثم رغب فى أن يشترك القوم معه بالرجال والآلات والإمكانات والقوة؛ حتى يبني لهم سدا منيعا ، فحشدوا له الحديد والنحاس ، والخشب ، والفحم ، فوضع بين الجبلين قطع الحديد ، وحاطها بالفحم والخشب ، ثم أوقد النار وأفرغ عليها ذائب النحاس .

٩٦ - ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَارَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا .

أى : أعطوني قطع الحديد واجعلوها فى ذلك المكان ، حتى إذا ساوى البناء بين جانبيه للجبل أمرهم أن ينفخوا بالكبير عليه .

قيل : كان يأمر بوضع قطع الحديد والحجارة ، ويوقد عليها الحطب والفحم بالمنافع حتى تحمى ، والحديد إذا أوقد عليه ؛ صار كالنار المحمّرة ، ثم يؤتى بالنحاس المذاب فيفرغه على تلك الطاقة .

وقد ثبت علميا أن إضافة نسبة من النحاس إلى الحديد تضاعف مقاومته وصلابته ، وكان هذا الذى هدى الله إليه ذا القرنين ، وسجله فى كتابه الخالد ؛ سبقا للعلم البشرى الحديث بقرون عديدة^(٩٤) .

٩٧ - فَمَا آسَظُّهُمْ أَنَّ يُنْظَرُوا وَمَا آسَظُّهُمْ لَهُ نَجَاءً .

أى : أن هذا السد المنيع المرتفع ، المكون من الحديد الأملس لم يقدر يأجوج ومأجوج على تسوره ، والارتفاع فوقه ؛ لعلوه وارتفاعه ، ولم يستطيعوا نقبه من أسفل ؛ لصلابته وقخائنه ، وبهذا السد المنيع أغلق

ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ، ونظر هذا الرجل المؤمن إلى السد وقوته ، ومناعته وضخامته ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، بل شكر الله تعالى على توفيقه ومعونته .

٩٨ - كَانَ هَذَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّي إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا .

أى : هذا البناء العظيم ، تم بفضل الله ورحمته ، وتوفيقه ومعونته ، فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج ، وذلك قرب قيام الساعة : جعل الله هذا السد مستويا بالأرض ، وعاد متهدما كان لم يكن بالأمس .

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . أى : وكان وعده تعالى بخراب السد ، وقيام الساعة كائنا لا محالة : فقد أفاد القرآن : أن الجبال والحوارج والسدود ستدك قبل يوم القيامة : فتعود الأرض سطحاً أجرداً مستويا .

قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ * وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

وقال تعالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

وقال عز شأنه : إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . (الانشقاق : ١ - ٥) .

وتفيد آيات القرآن الكريم : أنه عند قيام الساعة : تلقى الأرض ما فى باطنها ، وتندك الجبال والسدود : ويحشر الناس على أرض بيضاء مستوية ، ينفذ إليهم البصر وتراهم العيون ، ويصطف الناس للحساب .

قال تعالى : كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا * وَجِئَاءَ يَوْمِئِذٍ بِجَهَنَّمَ ...

(الفجر : ٢١ - ٢٣)

إنه يوم القيامة تؤمن به ، وتؤمن بما جاء فى القرآن الكريم عنه ، ويأن الملك فى ذلك اليوم لله تعالى وحده ، قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ * وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

ملحق بتفسير الآية

٩٨ من سورة الكهف

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا .

أى : قال ذو القرنين : إن بناء السد بهذا الإحكام : رحمة وتفضل وتوفيق من الله تعالى : فإذا جاء يوم القيامة صار السد مستويا بالأرض ، وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس : هذا رأى .

ومن المفسرين من ذكر : أن معنى فإذا جاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ، أى : إذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج : اندك السد ، وخرج هؤلاء الناس يقتلون ويعتدون .

قال المراغى :

أى : فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد : جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضاً مستوية ، فسلط عليهم منهم ، أو من غيرهم من يهدمه ، ويسوى به الأرض .

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا .

أى : وكان ما وعد به سبحانه حقاً ثابتاً لا ريب فى تحقيقه .

وقد جاء وعد الله تعالى بخروج جنكيز خان سلطان خوارزم السلجوقى^(١٩) .

من تفسير الظلال

وبعد ، فمن يأجوج ومأجوج ؟ وأين هم الآن ؟

وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟

كل هذه أسئلة تصعب الإجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد فى القرآن ، وفى بعض الآثار الصحيح ، والقرآن يذكر فى هذا الموضع ما حكاه من قول ذى القرنين : فإذا جاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا .

وهذا النص لا يحدد زماناً ، ويعد الله ، بمعنى : وعده بدك السد ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار وانشأوا فى الأرض ، ودمروا الممالك تدميراً^(١٩) .

وفى موضع آخر فى سورة الأنبياء :

حَتَّىٰ إِذَا فُجِئَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ * وَاقْرَبِ الْوَعْدَ الْحَقَّ لِإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَنْهَرُ
الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَلَوَّاتٌ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ . (الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧) .

وهذه الآيات ترجح أن دك السدُ وخروج مأجوج ومأجوج : سيكون قرب قيام الساعة ، أو هو من علامات قيام الساعة . وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة ما يؤيد ذلك ^(٩٨) .

من هدى الستة

فى الصحيحين ومسند أحمد : عن زينب بنت جحش زوج النبی ﷺ قالت : استيقظ الرسول ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول : «ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وخلق بأصبعيه : السبابة والإبهام . قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا كثر الخبيث» ^(٩٩) .

والحديث من دلائل النبوة ، وهو فى نفس الوقت تحذير للأمة العربية من التردى والتففس ، وانتشار المنكر ، عندئذ يطعم فى الأمة أعداؤها ، ويسلط الله عليها الجبارون المنتقمون : جزاء خروجها عن الجادة .
إن الأمة العربية مدعوة ، إلى الوحدة والتماسك ، والتلاقى حول القرآن والسنة والتراث ، والاعتصام بحبل الله وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِهِ لَئِلَهُ قَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (آل عمران : ١٠١) .

إن عودة القدس ، وتحرير بيت المقدس يحتاج أمة مجاهدة ، وقيادة مؤمنة ، ورغبة صادقة فى الجهاد فى سبيل الله : وعندئذ يأتى النصر قال تعالى : إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ وَيُخِزِ الْأَعْدَاءُكُمْ . (محمد : ٧) .

٩٩ - وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا .

أى : ويوم يكد السد يخرج هؤلاء من ورائه ، يمجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ، ويتلفون أموالهم . وهذا معنى قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا فُجِئَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . (الأنبياء : ٩٦) .

أى : وهم من كل مرتفع من الأرض ، يسرعون فى النزول من الأكام والمرتفعات .

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا .

أى : فإذا دنا ميقات الساعة : نفخ إسرافيل فى الصور ، وهو البوق الذى يصعق الناس عند سماعه ، ثم يقومون بعد فترة للحساب ، وقد جمع الله فى هذا اليوم الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

من تفسير القرطبي

قال القرطبي :

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ .

الضمير في تَرَكْنَا لله تعالى ، أي : تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يَوْمَئِذٍ أي : يوم كمال السد يموج بعضهم في بعض ، واستعارة الموح لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون في الدنيا مختلطين ؛ لكثرتهم .

خلاصة

يأجوج ومأجوج قبائل كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض ودمروا كثيراً من الأمم . تمكن ذو القرنين - وهو مجاهد صالح يسر الله له النصر والملك - أن يبني سدا من الحديد والنحاس ، فحبسهم خلف السد .

وأبان للمفسرين

يرى عدد من المفسرين : أن يأجوج ومأجوج قد جاءوا بالفعل وهم المغول التتار ؛ ومن هؤلاء المفسرين : الشيخ القاسمي ، والمرآغي ، وصاحب الظلال .

ويرى فريق آخر من المفسرين : أن يأجوج ومأجوج لم يخرجوا بعد ، وأن خروجهم سيكون قرب قيام الساعة ؛ وهذا الفريق يؤيده أن سياق الآيات التي تحدثت عن يأجوج ومأجوج في سورة الأنبياء ، وهنا في سورة الكهف ، يوحي بأن ذلك قرب يوم القيامة ؛ والأحاديث النبوية الصحيحة فيها : خروج الدجال ، وبعث عيسى وقله الدجال ، .. ثم يبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون ، فينحاز عيسى ومن معه من المؤمنين إلى الطور .. ثم يرسل الله على يأجوج ومأجوج التغف في رقابهم فيموتوا ، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه : ما يفيد : أن خروج يأجوج ومأجوج سيكون من علامات الساعة ، والله تعالى أعلم .

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ١٠١ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ١٠٢ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ ١٠٣ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ١٠٤ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ ١٠٥ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ ١٠٦ ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَالِيَنِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ ١٠٧ ﴿

المفردات :

عرضنا، أظهرنا وأبرزنا .

غطاء، غشاوة محيطة بها .

ذكرى، الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدي وتمجيدى .

أولياء، معبودات يقونهم بأسى .

اعتدنا، هيأنا .

نزلنا، منزلنا .

ولقائهم، حين البعث والحشر وما يتبع ذلك .

الهزو، السخرية والاحتقار .

تمهيد :

تعرض الآيات مشهد جهنم أمام الكافرين ؛ بحيث يرونها وأى العين ، وفى ذلك تعجيل الهم والحنن لهم ؛ بسبب أنها تعاملوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق ، وحسبوا أن اتخاذهم أولياء من دون الله ينجيهم من عذابه .

التفسير :

١٠٠- وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا .

أى : أبرزنا وأظهرنا جهنم بأهوالها ونيرانها ، وألوان عذابها أمام الكافرين يوم جمع الخلائق أجمعين ؛ إبرازاً هائلاً فظيماً ، حيث يرونها ويشاهدونها بدون لباس أو خفاء ، فيصيبهم ما يصيبهم من رعب وفزع عند مشاهدتها .

١٠١- الَّذِينَ كَانَتْ أَغْنِيَهُمْ فِي غِنَا عَنْ ذِكْرِى وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا .

حجب الكافرون عقولهم عن التفكير فى أدلة الإيمان ، ومنعوا عيونهم عن النظر والتأمل فى أدلة الكون وأدلة القرآن على وجود الله ، ثم صموا أسماعهم عن سماع كلمة الحق ؛ فاستحقوا أن تعرض عليهم جهنم بجميع أهوالها عرضاً فظيعاً مؤلماً .

قال أبو السعود :

وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكأنهم عمى ، صم . ا هـ .

لقد ندسوا أنفسهم باجتراح المعاصى والآثام ، وأطاعوا وساوس الشيطان ؛ فسلب الله عنهم الهدى وتركهم أسرى للضلال والظلام ، فى قلوبهم مرض الكفر أو النفاق ، وفى عيونهم غشاوة النعمانى عن الحق ، وفى أسماعهم قروصم عن سماع الحق أو القرآن ، وقد تكرر هذا المعنى فى آيات القرآن الكريم ، قال تعالى :
صُمُّ بِكُمْ عَنْهُمْ فَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ . (البقرة : ١٨) .

١٠٢- أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِىَ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ نَزْلًا .

والهمزة هنا للاستفهام الإنكارى والتوبيخ ، أى : أظن هؤلاء الكافرين الذين اتخذوا عبادى أولياء لهم ؛ فعبدوا الملائكة ، وعيسى ، وعزيراً ، وغيرهم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابى .

قال القرطبي :

وجواب الاستفهام محذوف تقديره : أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم ؟!

لقد هيأنا لهم منزلاً فى جهنم ، وفيها ما فيها من ألوان العذاب . ويطلق المُنْزَلُ على المنزل ، كما يطلق على ما يقدم للضيف عند نزوله ، والقادم عند قدومه ؛ على سبيل التكريم والترحيب ، وقد جاءت الجملة الأخيرة فى الآية على سبيل التهكم بهم ، والتقريع لهم ؛ لأن جهنم ليست نزل إكرام للقادم عليها ، بل هى عذاب مهين ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : فَيُشْرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (التوبة : ٣٤) ، وقوله عز شأنه : وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَعَاثُوا أَيْمَاءَ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي آلُؤُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

١٠٣- قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .

أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الكافرين الذين أعجبتمهم أعمالهم ، وتصرفاتهم الجائرة : ألا تريدون أن أخبركم خيراً هاماً كله الصدق ، وأعرفكم عن طريقه من هم الأخسرون أعمالاً فى الدنيا والآخرة .

١٠٤ - الَّذِينَ خَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا .

أى : عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة ، مرضية مقبولة ، وهم مخدوعون بأعمالهم يظنون أنهم على صواب وأنهم يحسنون صنعا .

وقد ورد فى صحيح البخارى فى باب التفسير ، عن مصعب قال : سألت أبى - يعنى : سعد بن أبى وقاص - عن قول الله : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا . أهم الضرورية ؟ قال : لا هم اليهود والنصارى : أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة وقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والضرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد يسميهم : الفاسقين .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

والآية عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية : يحسب أنه مصيب فيها ، وأن عمله مقبول ، وهو مخطئ وعمله مردود .

فالآية تشمل المشركين ، واليهود ، والنصارى ، وغيرهم ممن يعتقدون أن كفرهم وضلالهم صواب وحق .

وقال الضحاك :

هم القسيسون والرهبان يتعبدون ، ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهى لا تقبل منهم .

١٠٥ - أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا .

أى : إن هؤلاء الأخرسين أعمالا ، هم الذين كفروا بدلائل الوجدانية المنبثة فى الآفاق ، وكفروا بالبعث والنشور وما يتبع ذلك من أمور الآخرة : ومن ثم حبطت أعمالهم أى : فسدت ويطلت .

فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا .

أى : ليس لهم عند الله قيمة ولا قدر ولا منزلة ، أو لأنه لا توجد لهم أعمال صالحة توجد فى ميزان حسناتهم ، فهى خالية من الخير .

روى البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إنه لياأتى الرجل العظيم السمين يوم

القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ، - وقال - اقرأوا إن شئتم : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا .^(١٠٦) .

وأخرج الحافظ البزار عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش

يخطر فى حلة له ، فلما قام على النبى ﷺ قال : «يا بريدة ، هذا ممن لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا»^(١٠٧) .

١٠٦ - ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا .

أي : إن دخولهم جهنم بسبب كفرهم بكل ما يجب الإيمان به ، وبسبب استخفافهم واستهزائهم بأيات الله ورسله ، فلم يكتفوا بالكفر بل امتد ضلالهم إلى السخرية بالآيات والمعجزات ، وبالرسل الكرام .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا الْبَٰعِرُ مَدَادًا لِّكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَٰعِرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جُنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾

المفردات :

الفردوس : وسط الجنة وأفضلها .

حولا : متحولا .

الممداد : ما يمد به الشيء ، واختص بما تمد به الدواة من الحبر .

كلمات ربي : كلامه وحكمه ومعلوماته غير المتناهية .

البرجاء : طمع حصول ما فيه مسرة مستقبلية .

لقاء ربه : هو البعث وما يتبعه .

تمهيد :

بينت هذه الآيات في ختام السورة ما يأتي :

(أ) جزاء المؤمنين في الفردوس الأعلى .

(ب) فضل القرآن وإعجازه واشتماله على العقائد ، وبيان : كمالات الله وشرائعه وأدابه وتوجيهاته . ولا حدود لهذه الكمالات ، ولا ما يمدنا به القرآن من العلوم والآداب .

(ج) أن العمل لا يقبل إلا إذا صاحبه أمران :

١ - الالتزام بمنهج الله .

٢ - الإخلاص بالعمل لوجه الله .

التفسير :

١٠٧- إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا .

إن الذين آمنوا بالله تعالى ، وبكل ما يجب الإيمان به ، وعملوا الأعمال الصالحة بإخلاص واتباع لما جاء به محمد ﷺ ؛ كان جزاؤهم عند الله تعالى جنات الفردوس منزلا ومستقرا وتكريما . وجنات الفردوس أعلى منازل الجنة ؛ كما ورد في الصحيحين .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت : أن النبي ﷺ قال : «إن في الجنة مائة درجة ، كل درجة منها ما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة ، ومن فوقها يكون العرش ومنه تنفجر أنهار الجنة الأربعة ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس»^(٣٧) .

١٠٨- خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا .

أى : أن أهل الجنة خالدون فيها خلودًا أبديا سرمديا ، وهم فى نعيم دائم لا يسأمون منه ، ولا يرغبون فى التحول عنه ؛ فالنفس البشرية فى الدنيا راغبة فى التنقل والاستكشاف ولكن أهل الجنة يخلق الله فيهم الرغبة فى الإقامة الدائمة بالجنة ، وعدم التحول عن منازلهم ومنزلتهم فى الجنة إلى أى مكان آخر ، ثم هم فى الجنة يجدون فيها نعيما دائما ، ونعما لا حصر لها وَلِيَهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ... (الزخرف : ٧١) .

١٠٩- قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَابًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَفْذَلَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِوَلَدِهِ مَدَدًا .

هذه الآيات تمثيل لسعة علم الله ، وعظيم ما تشتمل عليه آياته وكلماته ؛ فقد حوت من الإعجاز العلمى والأدبى والنفسى والغيبى آفاقا لا حدود لها . وعلم الإنسان محدود يرمز إليه بالبحر ، وعلم الله ومدلول آياته لا حدود له ؛ فلو تحول البحر إلى مداد ؛ لكتب به معانى آيات الله ، وما تشتمل عليه من آفاق وآداب وعلوم ؛ لنفذ البحر قبل أن تنفذ آيات القرآن وإعجازها المتعدد الوجوه ، ولو جئنا بمثل البحر مددا لنفذ أيضًا ، وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ؛ لأن البحر محدود ، وكلام الله تعالى من جملة صفاته ، وصفاته تعالى لا حد لها ولا منتهى ، وهكذا سائر صفاته كعلمه وقدرته ورحمته .

وفى معنى هذه الآية ورد قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّما فى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمَ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان : ٢٩) .

١١٠ - قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُةٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .

أى : قل لهم يا محمد : إني مثلكم ، لست ملاكاً ولست إلهاً ، بل أنا بشر ممن خلق الله ، اصطفاه الله بنزول الوحي والرسالة عليه ، وكلفني التبليغ عن الله وكمالاته التي لا نهاية لها ، وهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، لا ندُّ له ولا شريك له ، وليس له والد أو ولد . فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه : فليعمل الأعمال الصالحة التي تقرُّبه إلى ربه ، وليبتعد عن الإشراك بالله ، وليبتعد عن الرياء : فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

جاء في كتاب زبدة التفسير من فتح القدير ما يأتي :

أخرج أحمد وابن سعد عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً ؛ فليطلب ثوابه من عند غير الله : فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»^(٣٧) .

خاتمة سورة الكهف

مجمال ما تضمنته سورة الكهف :

- ١ - وصف القرآن بأنه قيم لا عوج فيه .
- ٢ - ما جاء على ظهر الأرض هو زينة لها ، وقد خلقه الله ابتلاء للإنسان ؛ ليرى كيف ينتفع به .
- ٣ - وصف الكهف وأهله ، ومدة لبثهم فيه ، وعدد أهله وبيان : قدرة الله على البعث والنشور .
- ٤ - الدعوة الإسلامية عامة للفقراء والأغنياء ، وللإنسان أيا كان هذا الإنسان ، ويجب على الرسول أن يصبر على مجالسة الفقراء ، ولا يهجرهم إلى الأغنياء .
- ٥ - ذكر ما يلاقيه الكفار من الوبال والنكال يوم القيامة .
- ٦ - قصة رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر ، وعرض النقاش بينهما تمثيلاً لحال فقراء المؤمنين وأغنياء الكافرين .
- ٧ - سجود الملائكة لآدم ، وإبلاء إبليس ، وعداوته لآدم وبنيه .
- ٨ - قصص موسى والخضر .
- ٩ - قصص ذى القرنين ، وسد يأجوج ومأجوج .
- ١٠ - وصف أعمال المشركين ، وبيان : أنها ضلال وخيبة فى الآخرة .
- ١١ - ما يلقاه المؤمنون من النعيم فى الآخرة .
- ١٢ - القرآن ينبوع العلوم والمعارف ، وآيات الله لا نهاية لها .
- ١٣ - الإخلاص لله وعدم الشرك والرياء من سبل السعادتين .

تفسير سورة مريم

دروس من سورة مريم

سورة مريم نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء وكانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة ، وكان الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة ، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة وشهرين .

أى : أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم ؛ لذكر قصة مريم فيها . وعدد آياتها (٩٨) آية ، وعدد كلماتها (١١٩٢) كلمة .

أهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم هي : تنزيه الله عن الولد والشريك ، وإثبات وحدانية الله ، والإمام بقضية البعث القائمة على التوحيد .

هذه هي الأهداف الأساسية للسورة . كالشأن في السور المكية غالباً .

والقصص هو مادة هذه السورة ؛ فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى ، فقصة مريم ومولد عيسى ، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه .. ثم تعقبها بإشارات إلى النبيين : إسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، وهارون ، وإسماعيل ، وإدريس . وأدم ، ونوح . ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة ، ويستهدف إثبات الوجدانية والبعث ، ونفى الولد والشريك وبيان : منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين .

ومن ثم بعض مشاهد القيامة وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ، واستنكار للشرك ودعوى الولد ، وعرض لمصارع المشركين والمكذابين في الدنيا وفي الآخرة وكله يتناسق مع اتجاه القصص في السورة ويتجمع حول محورها الأصيل .

وللسورة كلها جو خاص يظلها ويشيع فيها ويتمشى في موضوعاتها .. إن سياق هذه السورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية . الانفعالات في النفس البشرية ، وفي «نفس» الكون من حولها . فهذا الكون الذي تنصوره جماداً لا حس له يعرض في السياق ذا نفس وحس ومشاعر وانفعالات ، تشارك في رسم الجور العام للسورة حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل ؛ حتى لتكاد تنفطر وتنشق وتنهد استنكاراً ؛ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . (مريم : ٩١ ، ٩٢) .

أما الانفعالات في النفس البشرية فتبدأ مع مفتتح السورة وتنتهي مع ختامها والقصص الرئيس فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة . وبخاصة في قصة مريم ، وميلاد عيسى ^(ع) .

القصص في سورة مريم

القصص في سورة مريم امتداد للقصص في سورة الكهف . فهناك ظهرت قدرة الله البالغة في حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم ، وفي إعطاء الرحمة والعلم للخضر عليه السلام ، وفي منح ذئ القرنين أسباب الملك والسلطان والسيادة ، وهنا تظهر رحمة الله وفضله على زكريا ؛ إذ يمنحه يحيى . على كبر وشيخوخة ، وتظهر قدرة الله البالغة في خلق عيسى من أم دون أب ، ثم نعمته السابغة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتى يؤدوا رسالتهم ، ويظهر ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه ، وقصة موسى مع قومه ، وقصة إسماعيل الصادق الوعد ، وقصة إدريس الصديق النبی .

زكريا ويحيى

ذكرت حلقة من هذه القصة في سورة آل عمران ، ولكنها في سورة مريم تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة وتقص .

إن السمة الغالبة هنا هي سمة الرحمة والرضا والاتصال فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده زكريا وهو يناجي ربه نجاء خفياً .

فتصور أحاسيس ذلك الشيخ الهرم ورغبته في الذرية والولد ودعائه لله خفية بعيداً عن زوجته وعن الناس .

ثم ترسم لحظة الاستجابة في رعاية وعطف ورضا .. فالرب ينادي عبده من الملأ الأعلى يُنْزَكِرِيَا . ويعجل له البشري : إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ . (مريم : ٧) .

ويعمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشره : آسَمُهُ يَحْيَى . وهو اسم فذ غير مسبوق : لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . (مريم : ٧) .

وكأنما أفاق زكريا من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء ، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء فإذا هو يواجه الواقع .. إنه رجل شيخ بلغ من الكبر عتياً ، وهن عظمه واشتعل شيبه ، وامرأته عاقر لم تلد في فئوته وصباه : فكيف يا ترى سيكون له غلام ؟!

قَالَ رَبِّ إِنِّي بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . (مريم : ٨) .

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله . بأن هذا أمر هين يسير أمام قدرة الله فهو سبحانه الخالق الفعال لما يريد . وهو سبحانه الذى جعل العاقر لا تلد . وجعل الشيخ الفانى لا ينسل . وهو قادر على إصلاح العاقر وإزالة سبب العقم ، وتجديد قوة الإخصاب فى الرجل وهو على كل شئ قدير .

ومت ولادة يحيى وكبر وترعرع وأحكم الله عقله وهياًه لرعاية ميراث أبيه فى حزم وعزم ولم يكن هذا الميراث مالا أو عقارا وإنما كان رسالة الهدى ودعوة الإيمان ونداء الله : **يٰحَيُّ خُذِ الْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ وَّءَاتِنٰهُ اَلْحٰكَمَ صَبِيًا .** (مريم : ١٢) .

والكتاب هو التوراة ، كتاب بنى إسرائيل من بعد موسى وعليه يقوم أنبياؤهم يعملون به ويحكمون . وقد نودى : يحيى : ليحمل العبء وينهض بالأمانة فى قوة وعزم . لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة .

وقد زود الله يحيى بالحكمة فى صباه ووهبه الحنان والعطف : لتأليف القلوب واجتذابها إلى الخير وآتاه الطهارة والتقوى فكان موصولا بالله ، عابدا له ، مجاهدا فى سبيله يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخشى فى الله لومة لائم .

حكمة خلق عيسى

انتقلت السورة من قصة ميلاد يحيى إلى قصة ميلاد عيسى وقد تدرج السياق من القصة الأولى ووجه العجب فيها هو ولادة العاقر من بعلها الشيخ ، إلى الثانية ووجه العجب فيها هو ولادة العذراء من غير بعل وهى أعجب وأغرب .

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلا وإنشاءه على هذه الصورة فإن حادث ولادة عيسى ابن مريم يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها كله ويكون حادثا فذا لا نظير له من قبله ولا من بعده .

والبشرية لم تشهد خلق نفسها . وهو الحادث العجيب الضخم فى تاريخها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم . وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث ، فشاعت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى من غير أب على غير السنة التى جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض ؛ ليشهدها البشر ثم تظل فى سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال . إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التى لم يشهدا إنسان !

لقد جرت سنة الله فى امتداد الحياة بالتناسل من ذكر وأنثى فى جميع الفصائل بلا استثناء .

حتى المخلوقات التي لا يوجد فيها ذكر وأنثى متميزان تتجمع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث ، جرت هذه السنة ألقاباً طويلة حتى استقر في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة ونسوا الحادث الأول . حادث وجود الإنسان ؛ لأنه خارج عن القياس . فأراد الله أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ليذكروهم بحرية القدرة وطلاقة الإرادة . وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها . ولم يتكرر حادث عيسى ؛ لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله وأن ينفذ التاموس الذي اختاره . وهذه الحادثة الواحدة تكفي ؛ لتبقى أمام أنظار البشرية معلماً بارزاً على حرية المشيئة وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ؛ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ . (مريم : ٢١) .

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته فقد عز على فرق من الناس أن تصوره على طبيعته وأن تدرك الحكمة في إبرازه . فجعلت تضفى على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات ألوهية . وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير ، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب – وهي إثبات القدرة الإلهية التي لا تتقيد ، تعكسها فتشوه عقيدة التوحيد . والقرآن في هذه السورة يقص كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالتها الحقيقية وينفي تلك الخرافات والأساطير .

قصة ميلاد عيسى

وهب الله مريم التقوى واليقين ورزقها من فضله بغير حساب وفي يوم ما اعتكفت مريم كعادتها . وتوارت من أهلها واحتجبت عن أنظارهم . وبينما هي في خلوتها . مطمئنة إلى انفرادها . إذ ظهر أمامها رجل مكتمل سوى الخلقة فانتفضت انتفاضة العذراء المذعورة فجوها رجل في خلوتها ، فتلجأ إلى الله تستعذ به وتستنجد به وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل ، والخوف من الله والتحرج من رقيبته في هذا المكان الخالي . ولكن الرجل السوي هدأ من روعها وأعاد إليها طمأنينتها وأخبرها : أنه ملاك أرسله الله إليها ؛ لحكمة إلهية وفضل ريباني : قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . (مريم : ١٩) .

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهددة في عرضها ؛ فتسأل في صراحة وحجة قائلة : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . (مريم : ٢٠) .

فهى لم تخالط رجلاً في نكاح ولا في سفاح فأخبرها الملاك : أن هذا الحمل سيتم بقدرة الله وحده وهو أمر هين أمام هذه القدرة التي تقول للشئ : كن فيكون ، وقد أراد الله أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته .

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِتَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢١) .

ثم مضى الملاك واختفى . وتم الحمل بقدرة الله ، وجلست مريم حائرة تفكر فى أمر نفسها وتخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل ، وفى حدة الألم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل فى حسرة واكتئاب ، وجعلت تتمنى لو ضمها القبر . وفارقت هذا العالم قبل أن تصير أما من غير أن تنزوج فقالت : **يَلَيَّتِي مِثْ قَبْلِ هَذَا وَكُتْ نَسِيًا مُنِيًّا** . (مريم : ٢٢) .

لكنها ما لبثت أن سمعت صوت وليدها : فبدد مخاوفها وكفكف دموعها . وناداهما من تحتها : **أَلَا تَحْزَنِي لَقَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** . (مريم : ٢٤) .

أى : جدولا يجرى ماؤه فى تلك البقعة الجرداء والأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء فى الجبل . وهذه النخلة التى تستدين إليها هزيبها فتتساقط عليك رطباً . فهذا طعام وذاك شراب والطعام الحلو مناسب للنفساء . والرطب والتمر من أجود طعام النفساء : **فَكُلِي وَأَشْرَبِي** . هنيئنا وقرى عينا . (مريم : ٢٦) . واطمئني قلباً : بما ترين من قدرة الله التى اخضر بها جذع النخلة اليابسة . وطيبى نفساً بما حباك الله من جريان الماء فى تلك البقعة المقفرة ! واطمأنت مريم إلى فضل الله وإلى أن الله لن يتركها وحدها وإلى أن حجبها معها . هذا الطفل الذى ينطق فى المهد .

ورجعت مريم إلى قومها وعشيرتها تحمل وليدها على كتفها ، وسرعان ما شاع أمرها ، وعرف خبرها ، وجاء أقاربها : ونبؤونها بالسنة التقريع والتأنيب ويلومونها على هذه الفعلة المنكرة ويذكرونها بشرف أسرتها وكرم أصلها : والتزمت مريم الصمت وأشارت إليهم : أن كلوا هذا الوليد إن أردتم الوقوف على حقيقة الأمر .

فقال القوم لها : **كَيْفَ نَكْلُمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا** . (مريم : ٢٩) .

كيف نكلم وليدا لم تكتمل أدوات نطقه ، ولم تتحرك شفته إلى ثدى أمه : فانطلق الوليد يجيبهم فى بيان حجة وبرهان وقال : **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** . (مريم : ٣٠ - ٣٣) .

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام : عبوديته لله : فليس هو ابنه كما تدعى فرقة ، وليس هو إلهها كما تدعى فرقة ، وليس هو ثالث ثلاثة كما تدعى فرقة ، ويعلن : أن الله جعله نبيا لا ولداً ولا شريكاً ، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته .

أسلوب القرآن

تحسن فى كلمات هذه السورة السهولة والبسر ، والرضا واللفظ ؛ فهى كلمات معبرة عن معانيها ، فمعانى السورة تدور حول فضل الله على زكريا ومريم وغيرهما من الأصفياء .

ويتمثل الرضا والسلاسة والبسر فى معانى السورة ، كما يتمثل فى ألفاظها وقواصلها وهى : رَضِيًا ، سَرِيًّا ، خَفِيًّا ، نَجِيًّا .

فأما المواضع التى تقتضى الشدة والعنف ، فتجىء فيها الفاصلة مشددة على حرف الدال فى الغالب : مَدًّا ، حَبَدًّا ، إِذَا ، هَذَا ، أَوْ زَايَا : عَزًّا ، أَزًّا .

ويتنوع الإيقاع الموسيقى والفاصلة والقافية ؛ بتنوع الجو والموضوع فى هذه السورة . فهى تبدأ بقصة زكريا ويحىي فتسير الفاصلة والقافية هكذا : ذَكَرْ رَحِمْتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكْرِيَّا • إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّأْ خَفِيًّا . (مريم : ٣٠٢) ... إلخ وتليها قصة مريم وعيسى فتسير الفاصلة والقافية على النظام نفسه : وَادَّكُرْ لِي الْكُنُوبِ مَرِيَمُ إِذِ اتَّيَسَّتْ مِنْ أَمْلَهِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا • فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . (مريم : ١٧٠، ١٦) ... إلخ

إلى أن ينتهى القصص ، ويجىء التعقيب ؛ لتقرير حقيقة عيسى ابن مريم ، والفصل فى قضية بنوته ، فيختلف نظام القوافى والقوافى . تطول الفاصلة وتنتهى القافية بحرف الميم أو النون المستقر الساكن ، وكأنما الآيات تعبر عن حكم بعد نهاية القصة ، مستمد منها ، ولهجة الحكم تقتضى أسلوبًا تعبيريا غير أسلوب الاستعراض وتقتضى إيقاعًا قويًا رصينًا يدل إيقاع القصة الرضى المسترسل يقول سبحانه : ذَا لِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ • مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (مريم : ٣٤ ، ٣٥) .

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القصص عادت القافية الرضية الجديدة : وَادَّكُرْ لِي الْكُنُوبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا • إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . (مريم : ٤١ ، ٤٢) ... إلخ .

حتى إذا جاء ذكر المكذبين وما ينتظرهم من عذاب وانتقام ؛ تغير الإيقاع الموسيقى وجرس القافية : قُلْ مَنْ كَانَ فِي الْعِلْمِ فَلْيَسْأَلْهُ لَهَ الْارْحَمْنَ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَمَسْغُلُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا . (مريم : ٧٥) ... إلخ .

وفى موضع الاستنكار يشتد الجرس والنغم بتشديد الدال : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . (مريم : ٨٨ - ٩٠) ... إلخ .

وهكذا يسير الإيقاع الموسيقى فى السورة وفق المعنى والجو ويشترك فى إبقاء الأسلوب الذى يتناسق مع المعنى فى ثنايا السورة . وفق انتقالات السياق من فكرة إلى فكرة ، ومن معنى إلى معنى .

المعالم الرئيسية فى السورة

يمكننا أن نلمح ثلاث مجموعات رئيسة فى سورة مريم :

المجموعة الأولى : تتضمن قصة زكريا ويحيى ، وقصة مريم وعيسى ، والتعقيب على هذه القصة بالفصل فى قضية عيسى التى كثر فيها الجدل ، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى .

المجموعة الثانية : تتضمن حلقة من قصة إبراهيم مع أبيه وقومه واعتزاله لمة الشرك وما عوضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمة . ثم أشارت إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة ، ومصير هؤلاء وهؤلاء ، وينتهى بإعلان الربوبية الواحدة التى تعبد بلا شريك : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِحُكْمِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا . (مريم : ٦٥) .

المجموعة الثالثة والأخيرة : تبدأ بالجدل حول قضية البعث وتستعرض بعض مشاهد القيامة ، وتعرض صورة من استنكار الكون كله لدعوى الشرك ، وتنتهى بمشهد مؤثر عميق من مصارع القرون : وَكَمْ أَفْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ (مريم : ٩٨) ، أى : أمة من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا . (مريم : ٩٨) .

وقد جاء فى تفسير الطبرى لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم ما يأتى :

يقول تعالى ذكره : وَكثيراً أفلكننا يا محمد قبل قومك من مشركى قريش مِنْ قَرْنٍ يعنى : من جماعة من الناس : إذ سلكوا فى خلافى وركوب معاصى مسلكتهم ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ، يقول : فهل تحس أنت منهم أحداً يا محمد فتراه وتعاينه ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ، يقول : أو تسمع لهم صوتاً بل بادوا وهلكوا وخلص منهم دورهم وأوحشت منهم منازلهم وصاروا إلى دار لا ينفعهم فيها إلا صالح من عمل قدموه ، فذلك قهراً هؤلاء صائرون إلى ما صار إليه أولئك إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك^(١٤) .

وبذلك تنتهى سورة مريم بعد تقرير قدرة الله الفائقة وحكمته البالغة فى خلق يحيى وخلق عيسى وتقرير قدرته سبحانه على البعث والحشر والحساب والجزاء ، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَيْعَصَ ① ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَّرِيَّا ② إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ④ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ⑤ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَمَلِ يَعْقُوبَ ⑥ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑦ يَزَكِّرُنَا إِذَا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ⑧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ⑨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ⑩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ⑪ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⑫ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑬ ﴾

نردات :

① كهيعص : (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود وكان نجارًا .

② نادى ربه : دعاه .

③ خفيا : مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم .

④ وهن العظم : ضعف ورق من الكبر إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين .

⑤ عتيا : انتشر الشيب في الرأس .

⑥ عتيا : يقال : شقى بكذا أى : تعقب فيه ولم يحصل مقصوده منه ، أى : كنت أبعوك فتعزفتنى .

الإجابة فيما مضى .

(ب) وقيل : هي حروف للتحدي والإعجاز ، وبيان : أن القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ؛ فدل ذلك على أنه من عند الله تعالى ، وأصحاب هذا الرأي يذكرون : أن الحروف المقطعة في فواتح السور ، مجموعها ١٤ حرفا ، بينما حروف اللغة العربية ٢٨ حرفا ، فكان القرآن أخذ نصف الحروف في فواتحه ، وترك للناس النصف الباقي ؛ ليصنعوا منه قرآنا إن استطاعوا .

(ج) وذهب آخرون إلى أن هذه الأحرف للتنبيه مثل أدوات الاستفتاح ، أو الجرس الذي يضرب فيقننه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

٢- ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ، وَزَكْرِيَا .

أى : هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، والآية تبدأ بذكر : رحمة الله ، وتفصله على عبد من عبده ، ونبي عظيم من أنبياء بني إسرائيل . والمعنى : هذا الذي نذكره لك يا محمد هو جانب من قصة عبدنا زكريا ، وطرف من مظاهر الرحمة التي أسبغناها عليه ، ومنحناه إياها .

٣- إِذْ نَادَى زَيْدٌ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا .

لقد أخفى دعاءه عن الناس ؛ حتى لا يُنسب إلى الرعونة ؛ لكبر سنه ، أو رغبة في أن يثبت ربه ما به ، في صوت خفيض ، فإن الله يعلم القلب التقى ، ويسمع الصوت الخفى . وتلمح رجلا كبيرا مسنا يتضرع إلى الله تعالى في ظلام الليل ، أو صحوة النهار ، بعيدا عن الناس ، مناجيا له ، راغبا في الدعاء ، والله تعالى يسمع الدعاء ويجيبه .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٤- قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا .

أظهر زكريا ضعفه وعجزه أمام ربه في استعطاف ونبتل ونداء خافت .

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي .

أى : ضعف العظم وهو قوام البدن ، وإذا ضعف العظم كان غيره أضعف وأوهن .

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .

أى : شاب شعر الرأس ، وانتشر البياض فيه ، كما تنتشر النار في المشيم ، وأسند الاشتعال إلى الرأس

وهو مكان الشعر ومنبته ، ورسم صورة بارزة لرأس جليلها الشيب ، والبياض والكبر ، وكأنه يقول : يا ربي ، شخت وضعفت ، وكبرت وصرت شيخاً كبيراً فانيا قد وهن عظمه ، وشاب شعره .

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا .

أى : تعودت على دعائك ، وعلى مناجاتك ، وعلى طرق بابك ، وعودتى الفضل والإجابة والكرم ، وأنا الآن أحوج ما أكون إلى هذا الفضل وهذه الإجابة : فتوسل إلى الله بسابق دعائه ، وسابق فضل الله عليه ، وقد كان ذلك فى شبابه وقوته ، فأولى بفضل الله أن يناله فى مرحلة شيخوخته وكبر سنّه .

٥ - وَأِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا .

وإنى خفت بنى العم والعشيرة من بعد موتى ، أن يضيعوا الدين ، ولا يحسنوا وراثة العلم والنبوة : فقد أثر عنهم : أنهم كانوا من شرار بنى إسرائيل ، فخافهم ألا يحسنوا خلافته فى أمته ، لا فى الدين ، ولا فى المال ، ولا فى السياسة التى تتبّع فى إدارة شئونها .

وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا .

لقد أظهر أمام الله حاجته ، وبين أسباب دعائه : وهى خوفه على التراث والدين ، أن يضيع بسبب أقرابه غير الصالحين للقيام على ذلك التراث : فطلب من الله ولدًا من صلبه ، يغرّس فيه مبادئ الإيمان ، ويؤهله للقيام على التراث والديانة .

٦ - يَرْثِي وَيُورِثُ مِنْ عَالٍ يَغُفُّوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا .

أى : يرث النبوة والعلم ورعاية الدين ، وقد ورد فى الصحيحين : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث : ما تركنا صدقه» ^(٣٦) .

أما قوله تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ . (النمل : ١٦) . فهو ميراث العلم والدين والدعوة والرسالة .

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أمورًا ثلاثة :

أحدها : كونه ضعيفًا .

والثانى : أن الله ما ردّ دعاءه .

والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة فى الدين ، ثم صرح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيدا : لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته ، والتبرى عن الأسباب الظاهرة .

وقال ابن كثير :

يَرْبُّى وَيَرْبُّ مِنْ عَالٍ يَعْقُوبَ . يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة وَاجْعَلْهُ رَبِّ زَيْيًّا . أى : مرضيا عندك وعند خلقك تحبه وتحبه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

٧ - يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا .

تشير الآية إلى عظيم فضل الله على خلقه ، فقد استجاب الله دعاء زكريا وتقبله ، وناذره الحق سبحانه : بأنه قد استجاب دعاءه وهوب له غلاماً ، واختار الله اسمه ، وسماه : يَحْيَى . وقد أحياء الله من بين شيخ كبير تخطى عمره مائة سنة ، وامرأة عجوز لا تلد ، وهى عقيم فى صباها فكيف بها فى شيخوختها .

لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا . أى : لم يسم أحد بهذا الاسم قبله ، أو لم نجعل له مثيلاً فى ولادته ؛ حيث ولد لأب كبير عجوز واهن ؛ بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، وأم عاقر عقيم قاربت مائة سنة ، أو لم نجعل له مثيلاً فى زهده وطاعته وإخلاصه ، وجده فى الحق واجتهاده . ويحتمل أن يكون جامعاً لكل ما سبق . والله أعلم .
قال المفسرون :

كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وامراته ثمان وتسعين سنة . فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التى يرزقه الله بها هذا الغلام .

وقد ورد هذا المعنى فى الآية ٣٩ من سورة آل عمران حيث قال تعالى : فَادْنُتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى فى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُنْشِرُكِ بِحَيِّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

وهذه الآية تبين : أن الله تعالى قد استجاب دعاءه وبشره بواسطة الملائكة : أنه سيولد له غلام اسمه يحيى ، مؤيداً بآيات الله ، وله كرامة وسيادة ، وامتناع عن الشهوات - مع قدرته عليها - وهو من الأنبياء ومن الصالحين ، الذين بلغوا درجة عالية فى عبادة ربهم وطاعته ، ولعل هذه الصفات توضح معنى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ، أى : أنه متميز فى سلوكه ، وفى اسمه ، وفى ولادته من بين شيخين كبيرين عقيمين .

٨ - قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا .

إن زكريا هو الذى دعا ، وهو الذى طلب ، ثم تفضل الله عليه بالجواب ، وبشره بغلام ذكر اسمه : يحيى ؛ فذُ فى اسمه وفى مسماه وصفاته ، هنا تنبه زكريا على الواقع ، وناجى ربه مظهراً ما فيه من ضعف ، وهن ، وما فى امرأته من عقم وشيخوخة .

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ . وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب .

وَكَاثَتْ أَمْرَأَتِي غَافِرًا . أئى : والحال أن امرأتى عجوز عقيم ، لم تلد فى شبابها فكيف هى الآن عجوز !

وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . أئى : قد بلغت فى الكبر والشيخوخة نهاية العمر .

قال الطبرى :

عِتِيًّا . كل مقناه إلى غاية من كِبَرٍ أو فساد فهو عاتر وعاس .

٩ - قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَئِنَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا .

قَالَ كَذَلِكَ . أئى : الأمر كما ذكرت : بأنك شيخ كبير هرم ، وزوجك عجوز عقيم ، ولكن أمام قدرة الله فذلك أمر هين يسير ؛ فقد خلق الله آدم بدون أب ولا أم ، وخلق عيسى بدون أب وهو على كل شئ قدير ، إذا أراد أمراً هيناً له الأسباب ثم قال له : كن فيكون .

وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا . أئى : كما خلقتك من العدم ، ولم تك شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق

يحبى منكما .

قال المفسرون :

ليس فى الخلق هين وصعب على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدة ، كُنْ فَيَكُونُ . وإنما هو أهون فى اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم ، قادر على الخلق من شيخين هرمين .

١٠ - قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

أئى : طلب زكريا من الله تعالى أن يجعل له دليلاً على بداية الحمل : ليطمئن ويزداد شكراً لله تعالى . وذكر له وحماًدا .

قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا .

أئى : إن العلامة على بداية الحمل هى أن ينقطع عن الكلام مع الناس بلسانه ، مع كمال صحته وانطلاق لسانه فى قراءة التوراة وذكر الله ، وهى علامة تناسب الجو الذى يعيش فيه زكريا ، من تبتله وشكره وذكره وعرفانه لله : بأنه المنعم المتفضل ؛ فكلمة سَوِيًّا . حال من زكريا . أئى : أنك لا تكلم الناس بلسانك ؛ حال كونك سليماً سويماً معافى .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد : ثلاث ليالٍ كاملات بأيامهن ، والأرجح أن المراد بكلمة سُرِيًّا هو زكريا ، أى : لا تكلم الناس مع عدم وجود علة بك بل نطقك سليم .

وفى سورة آل عمران : قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آتَيْنَاكَ آلَا تَكَلَّمُ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْرًا وَتَذَكُّرًا رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعِيِّ وَالْإِنْكَارِ . (آل عمران : ٤١) .

١١ - فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا .

أى : خرج زكريا إلى قومه من مكان عبادته وصلاته لله تعالى ، فأشار إليهم : أن اذكروا الله وسبحوه ونزهوه عن الشريك والولد : فى أوائل النهار وأواخره بُكْرَةً : صباحًا ، عَشِيًّا : عصرًا .

وقد ورد فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وفى صلاة العصر اقرؤا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا^(٣٧) . (الإسراء : ٧٨) .

والمحراب يطلق على المصلى ، أو الغرفة التى كان يجلس فيها فى بيت المقدس : أو هو المسجد ، فقد كانت مساجدهم تسمى : المحاريب : لأنها الأماكن التى تحارب فيها الشياطين .

وفى تفسير المرازى :

والمحراب (هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة فى مقدم المبدع ، لها باب يُصعد إليه بسلم ذى درج قليله يكون من فيها محجوباً عن فى المعبد) .

وفى هذا المحراب الذى يتعبد فيه زكريا جاءت الملائكة فبشرته بيحيى . قال تعالى : فَتَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلَّى أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصْرًا وَنَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

(آل عمران : ٣٩)

﴿يَنْحِى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝١٣ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٤ وَبَرًّا بِوَالَدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٥ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾

المفردات :

الكتاب : التوراة .

القوة : الجد والاجتهاد .

الحكم : الحكمة والفقه في الدين .

صبيًّا : صغيرا في زمن الصبا (سبع سنين) .

حنانًا : ذا حنان وشفقة .

زكاة : طهارة من الدنس والذنوب والآثام .

تقيًّا : مطيعا لأمر ربه .

برًّا بوالديه : كثير الإحسان إليهما .

جبارًا : متعاليا عن قبول الحق والإنذعان له .

عصيا : مخالفا أمر مولاه .

سلام : أى : أمان من الله عليه .

تمهيد :

تفيد الآيات : أن الله أوجد يحيى إلى عالم الوجود، ونما وترعرع متصفا بصفات الجد والحكمة والفهم، متحليا بالرحمة والطهارة والتقوى وبر الوالدين، مبتعدا عن التكبر والتجبر، وقد منحه الله السلام والسلامة فى ميلاده وعند موته وعند بعثه .

التفسير :

١٢ - يَنْحِى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا .

لقد زود الله يحيى بمؤهلات عديدة ، ليحسن الميراث وليلبى دعوة والده حين قال :

فَهَبْ لِي مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا • يَرْثُنِي وَيَرْثُ مِنْ عَالِي عَقُوبٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَحِيمًا .

والكتاب هنا هو التوراة ، وهو ميراث الأنبياء ، يقولون شرحه والدعوة إليه ، أى : نادى الله يحيى وألهمه ووقفه فى أن يأخذ التوراة بالجد والاجتهاد ، وتطبيق ما اشتملت عليه من أحكام وآداب ؛ فإن بركة العلم فى العمل به .

وَعَاقِبَتُهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا .

أعطيناه بفضلنا الحكمة والفهم ، والعلم النافع مع العمل به ، وهو فى سن الصبا (سبع سنين) حيث قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا تلعب ؛ فقال : ما للعب خلقنا ، لذلك قال تعالى : وَعَاقِبَتُهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالحكم : النبوة ، واعترض آخرون بأن النبوة تحتاج إلى كمال العقل والفتنة ، والراجع أن المراد بالحكم هنا : الفهم والحكمة ، والعلم النافع والعمل به ، وذلك عن طريق حفظ التوراة وفهمها وتطبيق أحكامها .

١٣- وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا .

أعطاه الله الحنان والشفقة والرمة ، وطبعه على هذه الصفات ، وآتاه الطهارة والعفة ، ونظافة القلب والطبع ، وَكَانَ تَقِيًّا ، موصول القلب بالله ، مراقبا لمولاه ، مطيعا لأمره ، يستشعر رقابته عليه فى سره ونجواه .

١٤- وَبَرًّا بِرَبِّهِ وَيَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا .

كان يحيى كثير البر بوالديه ، والحدب عليهما ، بعيدا عن عقوبتهما ، وقد جعل الله طاعة الوالدين فى المرتبة التى تلى طاعته فقال سبحانه : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالُو الَّذِينَ إِحْسَنُوا ... (الاسراء: ٢٣) .

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا . أى : لم يكن متكبرا على الناس ، ولا مخالفا لأمر ربه ، بل كان لين الجانب ، متواضعا .

وقد أمر الله نبيه محمدا ﷺ بمثل هذا فى قوله : وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . (الشعراء: ٢١٥) ، وقال تعالى : وَلَوْ كُنْتَ ظَفَرًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَكُنْ أَوَّلًا عَازِمًا فَعَزَمَتْ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . (آل عمران: ١٥٩) .

١٥- وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا .

أى : وتحية وأمان له منا يوم ميلاده ، ويوم وفاته ، ويوم يبعث من قبره للحساب . وخص هذا المواطن الثلاث ؛ لأنها أخرج المواطن فى حياة الشخص ، فعند : الميلاد يخرج من مكان آمن إلى دنيا لم

يشاهد أحداً فيها ، وعند الموت : يرى قومًا لم يكن عاينهم ، وعند البعث : يرى نفسه فى مشهد عظيم ، فالإنسان أحوج ما يكون فى هذه المواقف إلى فضل ربه وعظيم رحمته ، ورأفته به .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

عن قتادة : أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لى ! أنت خير منى ، فقال له الآخر : أنت خير منى ، فقال له عيسى : أنت خير منى ، سلمت على نفسك ، وسلم الله عليك . فغرف والله فضلها .

★ ★ ★

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ يَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَهٗ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

المضردات :

انتبذت : اعتزلت وتنحت .

مكانا شرقيا : شرقى بيت المقدس ، أو قبل مشرق الشمس .

حجابها : ساترا يسترها عنهم وعن الناس .

روحنا : جبريل عليه السلام .

بشرا سويا : فى صورة رجل من بنى آدم معتدل الخلق .

اعوذ : أعظم ، وألجأ ، وأستجير .

إن كنت تقيا : ذا تقوى ، أن تنال منى ما حرم الله عز وجل .

زكيا : طاهرا من الأدناس والأرجاس والذنوب .

أنسى : كيف يكون ذلك ؟

بنفيا : زانية .

آية : علامة على قدرة خالقكم .

مقضيًا ، محتوما قد تعلق به قضاؤنا الأزلي .

تمهيد :

بدأت سورة مريم بذكر : قصة زكريا وقد رزق ولدًا وهو عجوز وزوجته عقيم ، وهي قصة مألوفة ، فأتى بها كالتمهيد لميلاد عيسى من أم دون أب للدلالة على كمال القدرة الإلهية ، وأنه هو مسبب الأسباب ، وإذا أراد الله أمرًا هيا له الأسباب ثم قال له : كن فيكون ، وقد ألف الناس أن يكون مجيء الأطفال بسبب تلقيح الذكر للأُنثى ، فجعل الله خلق عيسى معجزة وآية تدل على كمال القدرة الإلهية .

التفسير :

١٦ - وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا .

أى : وَاِتْلُ أَيُّهَا الرُّسُولُ الْكَرِيمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ : قصة مريم ابنة عمران حين اعتزلت أهلها وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذ النصرارى الشرق قبلة : لقول الله عز وجل : إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا . فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة .

١٧ - فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

أى : انفردت مريم لأمر يخصها : أو لتتفرغ لعبادة ربها ، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام ، متمثلاً فى صورة بشر مكتمل الحواس سوى الخلقه ، وسمى جبريل : روحًا : لأنه يحمل الوحي وهو روح وحياة .

قال تعالى : نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقد أضاف الله الروح إليه : إضافة تشريف وتكريم . روحًا : لأنه يتصرف بإذن الله وأمره .

١٨ - قَالَتْ إِنَّيْ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا .

هنا تنطفئ الفتاة مذعورة حين وجدت شخصًا سوى الخلقة فى مخدعها وتقول : إني أستجير بالله منك أن تنال منى ما حرم الله عليك : إن كنت ذا تقوى تتقى محارمه ، وتجتنب معاصيه ، وتمثل الآية موقف فتاة مؤمنة ، فى حجاب بينها وبين قومها ، تفاجأ بشخص سوى الخلقة ، فتحرك فيه دواعى التقى والإيمان ، وتذكره بالرحمان ، الذى تتحصن بسلطانه ، وتذكر الشخص بتقوى الله والخوف منه .

١٩ - قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا .

أى : قال جبريل لها ، مزيلاً ما حدث عندها من الخوف منه ، ومن النفور : لست شاباً رغباً فى الفاحشة كما تظنين ، إنما أنا رسول ربك بعثنى لأهب لك غلاماً طاهراً مبرأً من العيوب ، وقد نسب الهبة إليه ، من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

٢٠ - قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا .

أى : كيف يكون لى ولد ، وأنا لم أتزوج ، ولست فاجرة : فلم أتحذ الطريق إلى الولد بالزواج ، ولست من الزانيات . والولد لا يأتى إلا من نكاح أو من سفاح !

٢١ - قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ .

إن الولد لا يأتى إلا من نكاح أو من سفاح فى عادات الناس ، أما إذا كان الأمر أمر الله ، فإنه نافذ . لا محالة ، وليس على الله هين وصعب ، لكن أراد أن يقرب الأمر إلى فهم مريم ، والمراد : أن الله على كل شىء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريد ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى المواد والآلات .

وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً إِنَّ لِلنَّاسِ رِجْهَةً مِّمَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا .

ولنجعله معجزة ظاهرة أمام الناس ، ورحمة من الله لعباده : حين بعثه نبياً وهادياً ورسولاً ، وكان ذلك قضاء قد قضى فى سابق علم الله ، ومضى به فلا يغير ولا يبدل .

لقد خلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه ، ثم خلق حواء من أب دون أم ، ثم خلق عيسى من أم دون أب : ليظهر للناس أن الآباء والأمهات هم أسباب مادية ملموسة ، والمسبب الحقيقى هو الله قال تعالى : يَهْبِ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا وَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۚ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَّا نَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

(الشورى : ٤٩ ، ٥٠)

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۖ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلَةِ
 قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٣) فَتَادَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي
 قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۖ﴾ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ الْجَنَعُ النَّخْلَةَ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۖ﴾ (٢٥)
 فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ
 أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا ۖ﴾ (٢٦)

المضردات :

فانتبذت : اعتزلت .

قصيًّا : بعيدا من أهلها وراء الجبل .

فاجاءها : الجأها وأضرها .

الجنع : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن .

نسيًّا منسيًّا : كشيء ترك فلم يُطلب ، أو لم أكن في الأشياء .

فتادها من تحتها : اختلف في أنه عيسى ، أو جبريل .

سريًّا : نهرا أو عنى نفسه عيسى .

هزى : حركى .

رطبًا : يسرا ناضجا .

جنيًّا : صالحا للاجتناء .

قري عينا : طيبى نفسا وافرحى بولادتك إياي ولا تحزنى .

قولي : أشيرى إليهم .

صومًا : صمتًا .

التفسير :

٢٢ - فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا .

أى : اتنعت بكلام جبريل فنفع فى جيب درعها (الفتحة التى من الأمام فى القميص) فدخلت النفخة

فى جوفها فحملته ، قاله ابن عباس ، وقال غيره : نفخ فى كمها وقد تم الحمل بالجنين ، فاعتزلت وهو فى بطنها مكاناً بعيداً عن أهلها ؛ خشية أن يعيروها بالولادة من غير زوج .

٢٣ - فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنِيًّا .

أى : وبعد أن حملت مريم بعيسى ، وابتعدت به وهو محمول فى بطنها عن قومها ، وحن وقت ولادتها ، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة يابسة ؛ لتتكأ عليه عند الولادة ، فاعتراها الهم والحزن ، وتهيبت مقابلة الناس ، فهم كانوا يرونها عابدة زاهدة ، والآن يظنون أنها زانية عاهرة ؛ فقالت : يا ليتنى مت قبل هذا الحمل والمخاض الذى حلّ بى ، وَكُنْتُ نَسِيًا مَنِيًّا . شيئاً متروكاً لايهتم به أحد ؛ نسيا بفتح النون وكسرها لغتان فى الشيء الحقير المهمل ، مثل : الوتر ، والوتر بفتح الواو وكسرها .

وقد أدب نبينا محمد ﷺ المسلمين بالأدب الإلهى ومن ذلك ألا يتمنى المسلم الموت ؛ لضيق ماضى أو مرض ؛ روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به ، فإن كان لابد متمنياً فليقل : اللهم ، أحيى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى» (٢٢٨) .

٢٤ - فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا .

توجد قراءتان سبعيتان فى مِنْ تَحْتِهَا . الأولى : بفتح الميم بمعنى : الذى تحتها وهو عيسى ، والثانية : من تحتها بكسر الميم وهو جبريل عليه السلام ، ورجح الطبرى أن الذى ناداه هو عيسى عليه السلام ؛ لزيادة اطمئناننا ويقينا بهذه المعجزة ، أى : ناداه عيسى عند ولادته قائلاً : لا تحزنى لهذا الأمر ؛ فقد جعل الله تحتك جدولاً صغيراً يجرى أمامك .

قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض ، فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولاً .

٢٥ - وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِيًّا .

أى : حركى جذع النخلة اليابسة ؛ يتساقط عليك الرطب الشهى الطرى .

والرطب : هو ما نضج واستوى من التمر .

جنينا : صالحاً للأخذ والاجتناء .

لقد أراها الله تعالى عدداً من الكرامات ، منها وجود عين ماء تسيل لوقتها ، وتحريك نخلة يابسة تخضر وتثمر ، ثم تحريك يديها بهزّ النخلة يؤدى إلى وقوع الثمر ، وكل هذا ؛ لطمين القلب ، ولالحث على الأخذ بالأسباب ، ورحم الله القائل :

ألم تر أن الله قال لمريم ولو شاء أن ينجيه من غير هزة
وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
جنته ، ولكن كل شيء له سبب

وقد ذكر العلماء : أن أفضل ما تأكله النفساء هو الرطب ؛ لأن فيه حلاوة وقوة .

٢٦ - فُكِّلِي وَأَشْرَبِي وَفَرِّئِي عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا .

أى : فكللى من ذلك الرطب الشهى ، واشربى من هذا الماء العذب السلسبيل ، وفَرِّئِي عَيْنًا . أى : طيبى نفساً بهذا المولود ولا تحزنى ؛ فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا . أى : إذا رأيت أحداً من الناس وسألك عن شأن المولود ؛ فأشبرى إليهم ؛ بأنى أوجبت على نفسى لله صمتاً : ألا أكلم اليوم أحداً .

قال الفخر الرازى ما ملخصه :

إنما مُنعت من الكلام لأمرين .

أحدهما : أن يكون عيسى هو المتكلم عنها ؛ ليكون أقوى لحجتها فى إزالة اللثمة عنها .

ثانيهما : كراهة مجادلة السفهاء ، وفيه أن للسكوت عن السفهيه واجب ، ومن أنزل الناس سفهيه لم يجد مسافهيا .

★ ★ ★

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝٢٧﴾ يَتَأَخَذَ هَرُونَ
مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كُنْتَ أُمًّاكِ بَغِيًّا ۝٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ
فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا ۝٣٣﴾ ﴿

المفردات :

فريّا : عظيما خارقا للعادة ، وهى الولادة بلا أب .

هــسارون ، هو أخو موسى ، وقيل : هو رجل صالح من بنى إسرائيل .

يا أخت هارون ، يا شبيهة هارون فى الصلاح .

فى المسهد ، فى الحجر (حجر أمه) .

الكتاب : الإنجيل .

مباركا ، نفاعا للناس .

الجبار ، المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقاً .

الشقى ، العاصى لربه .

التفسير :

٢٧- فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَبْرَمِيمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا .

أى : حملت ابنها وجاءت إلى قومها بعد أن طهرت من النفاس ، فلما رأوها أنكروا عليها وجود الولد معها ، وقالوا لها : لقد جئت أمراً منكراً عظيماً .

٢٨- يَتَأَخَذَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ آمراً سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمْلَكُ بِعِثًا .

كان هارون رجلاً صالحاً فى بنى إسرائيل ، منقطعاً للعبادة : فشبهوها به فى صلاحها .

والمعنى : يا شبيهة هارون فى الصلاح والعبادة والتقوى ، ما كان أبوك بالفاجر ، وما كانت أمك بالبغى : فكيف أتيت بهذا الولد ؟!

أو المعنى : يا من أنت من نسل هارون أخى موسى : كما يقال للتميمي : يا أخا تميم ، وللمصرى : يا أخا مصر .

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبه قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون : يَتَأَخَذَ هَٰرُونَ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بَكْذَا وَكَذَا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»^(٢٧) .

٢٩- فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَهْدِ صَبِيًّا .

فأشارت إلى ابنها عيسى ولسان حالها يقول لهم : وجهوا كلامكم إليه : فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر ، ولكنهم لم يقتنعوا بإشاراتها ، بل قالوا لها : كيف نكلم طفلاً صغيراً لا يزال فى السرى يتغذى بلبان أمه ؟

جاء في التفسير الكبير لفخر الدين الرازي :

روى : أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك : ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان . ١ هـ .

وكلام عيسى في المهد معجزة إلهية ، أجراها الله على يديه ؛ تبرأة لمريم ، وإرهاصا لنبوة عيسى ، فنحن نؤمن بها كما وردت في كتاب الله ، وهو حسبنا .

٣٠- قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .

أى : قال عيسى في كلامه أمام قوم مريم : أنا عبد الله خلقتني بقدرته من غير أب ، فقدم ذكر العبودية ؛ ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية .

ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا .

أى : قضى ربي أن يؤتيني الإنجيل في المستقبل ، وأن يجعلني نبيا ، أدعوا الناس إلى عبادته وحده . وإنما جاء بلفظ الماضي ؛ لإفادة تأكيد تحققه ؛ فإن ما قضى به الله لا يد أن يقع ، وقريب منه قوله تعالى : آتَى أَمْرُ اللَّهِ ... (النحل : ١) ، وقوله سبحانه : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ . اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٣١- وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا .

أى : جعل في البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت ، وأوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي .

٣٢- وَيَرْبِّي بَوْلَدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا .

أى : وجعلني الله مطيعا لوالدتي ومحسنا إليها ، ولم يجعلني - سبحانه - متكبرا مرتكبا للمعاصي والموبقات .

٣٣- وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .

أى : سلام الله على في يوم ولادتي وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حيا من قبري .

هذا ما نطق به المسيح وهو طفل لا يزال في المهمل؛ فقد تبرأ ممن جعله إلها حيث نطق بأنه عبد الله. وأنه نبي سيؤتيه الله الإنجيل، وسيجعله كثير البركة محافظاً على الصلاة والزكاة، محسناً لوالدته، بعيداً عن التكبر والمعصية؛ ثم هو بشر يسأل الله السلام والأمان له في كل أطوار حياته.

وبهذا رد المسيح على من جعله إلها، وعلى من قال: إنه ابن زنى، وعلى من ذهب إلى أن الأب إله، والابن إله، وروح القدس إله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالمسيح في القرآن عبد الله ورسوله يحيا ويموت كسائر البشر خلقه الله من أم دون أب؛ ليكون آية على قدرة الله الباهرة.

وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني؛ أما شتمه إياي فقولوه: إن لي ولداً، وأما تكذيبه إياي فقولوه لا يبعثني الله بعد موتى...» (٣٠).

وقد تحدث القرآن مستنكراً أن يكون لله ولداً، مستخدماً الدال وهي حرف من حروف القلقلة في نهاية كل آية فقال:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۚ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَابِدٌ لِلرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ (مريم: ٨٨ - ٩٥).

وفي الصفحة الأخيرة من سورة المائدة يتبرأ المسيح عيسى عليه السلام ممن ادعى: بأنه إله، أو أن أمه مريم إله.

قال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوايَ وَأُمِّي ۖ إِنَّهِنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فَكُنْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ۚ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا إِلَهًا رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۚ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

(المائدة: ١١٦ - ١١٨)

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات :

قول الحق : قول الصدق الذي لا شبهة فيه .

يمتترون ، يشكون ويتنازعون ويختصمون : فزعم اليهود : أنه ساحر كذاب ، وزعمت النصارى : أنه ابن الله ، وثالث ثلاثة ، وإله - تعالى الله عن ذلك -

ماكان لله أن يتخذمن ولد ، ما ينبغي ولا يصح أن يجعل له ولد .

صراط مستقيم : طريق لا يضل سالكه .

الأحزاب : فرق النصارى الثلاث .

مشهد : شهود وحضور .

يوم عظيم : يوم القيامة .

اليوم : في الدنيا .

يوم الحسرة : يوم القيامة ، حين يندم الناس على ما فرطوا في جنب الله .

قضى الأمر : فرغ من الحساب .

التفسير :

٣٤- ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ .

أى : هذه هى القصة الحقيقية ، وهى القول الحق فى عيسى ابن مريم ، لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ، ويشكّون فى أمره ويمترون ويجادلون .

٣٥- مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

ما صح ولا استقام للاله الواحد الأحد ، السميع البصير القدير ، أن يتخذ ولداً ؛ لأن الولد إنما يتخذه القانون للامتداد ، ويتخذه الضعفاء للنصرة ، والله هو الباقي بقاء أبديا ، وهو القوى القادر الذي لا يعجزه شئ .

سُبْحَنَهُ تَنَزَّهَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ .

إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

أى : إذا أراد أمراً فإنما يأمر به ؛ ليكون كما أراد ؛ فليس فى حاجة إلى نصره الولد أو معونته كما يفعل البشر ؛ بل هو الإله القادر النافذ الأمر ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (ال عمران : ٥٩) .

٣٦- وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

لقد أُنطق الله عيسى فى المهد بهذه الحقائق ؛ حتى لا يضل الضالون ، ومن ذلك قوله : إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ رَبُّ الْكَوْنِ ، وَرَبُّ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَرَبُّ عِيسَى وَخَالِقِهِ ، وَإِلَيْهِ نَتَوَجَّهُ جَمِيعاً بِالْعِبَادَةِ وَلَا نَعْبُدُ سِوَاهُ ، وَهَذَا هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الْمُسْتَقِيمُ .

وهذا معنى لا إله إلا الله . أى : لا معبود بحق سواه . وقريب منه ما ورد فى سورة الصمد ؛ حيث أثبتت وحدانية الخالق ، المقصود فى الحوائج ، فهو لم يلد ولداً ولم يولد من أب ، كشأن البشر حيث يولد الصغير ثم يكبر فيصير أباً ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . أى : ليس له شبيه أو نظير أو مكافئ .

قال تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (الإخلاص : ١-٤) .

٣٧- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ شَهِيدٍ يَوْمَ عَظِيمٍ .

أى : اختلفت الفرق من أهل الكتاب فى شأن عيسى ؛ وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم : من يزعم : أنه ابن الله ، ومنهم : من يزعم : أنه ابن زنى .

ولقد جمع الإمبراطور الرومانى قسطنطين مجمعا من الأساقفة - وهو أحد المجامع الثلاثة الشهيرة - بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفاً ، فاختلّفوا فى شأن عيسى اختلافاً شديداً ، وقالت كل فرقة فيه قولاً .

قال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أمات وأمات ثم صعد إلى السماء ،

وقال بعضهم : هو ابن الله .

وقال بعضهم : هو أحد الأقانيم الثلاثة : الأب والابن وروح القدس .

وقال بعضهم : هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وعيسى إله ، وأمه إله .

وقال بعضهم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته .

وقالت فرق أخرى أقوالاً أخرى ، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية اتفقوا على قول ، فمال إليه الإمبراطور ونصر أصحابه وطرد الآخرين ، وشرد المعارضة وبخاصة الموحدين .

وقد سعى أتباع الملك قسطنطين الملكاني ، وقد ابتنى لهم حينئذ الكنائس الكبار في مملكته كلها ، بلاد الشام والجزيرة والروم ، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثني عشر ألف كنيسة^(٣١) .

ونلاحظ أنه قبل الفتح الإسلامي لمصر ، كان في مصر مذهبين منتشران بين أقباط مصر :

المذهب الملكاني : ويذهب إلى أن الابن مفصول من الأب قبل كل الأزمنة والدهور وهو جوهره ونوره اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم .

والمذهب يعقوبي : نسبته إلى عالم قبطي يسمى : يعقوب ، يرى أن اللاهوت حلّ في الناسوت ، أي : أن المسيح إنسان حلّت فيه روح إله . وكان المذهب يعقوبي منتشرا بين أبناء الشعب المصري ، وكان زعماء اليعاقبة مجاهدون غاضبون على المذهب الملكاني ، الذي تحبذه روما ؛ ولذلك فإن الشعب القبطي قد استقبل الفتح الإسلامي لمصر استقبالا حسنا ، وأمد الفاتحين المسلمين بالعلف والمثونة والمساعدة ؛ ليتخلص الشعب من ظلم الرومان وتعسفهم .

وكانت مصر تعتبر مزرعة للقمح تورده إلى روما ، وكانت روما تجبى الضرائب ، وتفرض المذهب الملكاني ، وتجنّي ثمار القمح ؛ مما جعل الأقباط راغبين في التخلص من جور الرومان وظلمهم ، كما أن تصوّر اليعاقبة لطبيعة المسيح كان أقرب إلى التصور الإسلامي ، من المذهب الملكاني الروماني^(٣٢) .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مُشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أي : فعذاب شديد للكافرين من شهد ذلك اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، الذي يشهده الثقلان وغيرهما من مخلوقات الله .

٣٨- أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوكَ فَتَقُفِي لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

ما أشد سمعهم وبصرهم يوم يقدمون على ربهم وقد شاهدوا بأعينهم حقيقة الآخرة ، وتفتحت أبصارهم وأسماعهم على الوعد الحق ، فأفاقوا بعد فوات الأوان !

لَكِنَّ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

إلا أن هؤلاء الظالمين اليوم في الدنيا ، في ضلال ظاهر ؛ قد أعمتهم الدنيا وشغلتهم الأمانى ، وسلبت أسماعهم وأبصارهم عن سماع الحق والتأمل في حقيقة التوحيد ، فهم عمى في الدنيا عن الحقيقة ، ثم يبصرون ويسمعون ويعرفون الحقيقة في الآخرة ، ولكن بعد فوات الأوان ، حيث يطلبون العودة إلى الدنيا ؛ لتدارك ما فات فلا يجابون إلى طلبهم !

صاح هل رَيْتَ أَوْ سَمِعْتَ بِرَاعٍ رَجَّ فِي الصَّرْعِ مَا فَرَى فِي الْحِلَابِ ؟

٣٩- وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : خوف الناس جميعا من يوم القيامة ، يوم يتحسر الظالمون على ما أسرفوا فيه وفرطوا في جنب الله ، وفي ذلك اليوم يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وقد ورد في الصحيحين أنه : «يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح ، يخالط بياضه سواد فينذب بين الجنة والنار ثم ينادى : يا أهل الجنة خلودوا فلا موت ، ويا أهل النار خلودوا فلا موت» ، ثم قرأ النبي ﷺ : وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (٣٧)

وذبح الكبش تصوير : لأن كلاً من الفريقين يفهم فهما لا ليس فيه ؛ أنه لا موت بعد ذلك ، وقوله : وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ . أى : والظالمون في غفلة عن يوم القيامة ، شغلتهم الدنيا وحظوظها عن التفكير في ذلك اليوم ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . لا يصدقون بالبعث ، والحساب ، ومجازاة الله لهم على أعمالهم .

٤٠- إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهَا يُرْجَعُونَ .

كل ما على وجه الأرض عائد إلى الله تعالى عودة الميراث كله إلى الوارث الوحيد ؛ فلا تأس يا محمد على تكذيبهم ؛ فإنهم سيرجعون إلينا فنجازيهم بالعدل والقسطاس المستقيم .

جاء في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني :

يخبر تعالى : أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعى ملكا ، ولا تصرفاً ؛ بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلم تظلم نفس شيئا ، ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢ يَتَابِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣ يَتَابِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ٤٤ يَتَابِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٥ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعِزَّنِي لَهُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨ فَلَمَّا آخَرْتَهُمْ وَمَا نِعَيْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ٤٩ وَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ زَمْزِمَنا وَجَعَلْنَا لَهُمُ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾

المفردات :

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ : أتل في هذه السورة .

صِدِّيقًا : مبالغا في الصدق لم يكذب قط .

صِرَاطًا سَوِيًّا : طريقا مستقيما ، موصلا إلى نيل السعادة .

وَلِيًّا : قرينا تليه ويليك في العذاب .

أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي : أكاره لها ؟

لَأَرْجُمَنَّكَ : لأشتمنك باللسان ، أو لأرجمنك بالحجارة .

مَلِيًّا : دهنًا طويلا ، قال مهلهل :

فَتَصْدَعْتُ صَمَّ الْجِبَالِ لِمَوْتِهِ وَيَكْتُبُ عَلَيْهِ السُّمُومَاتِ مَلِيًّا

حَفِيًّا : مبالغا في برى وإكرامى ، يقال : حفى به : إذا اعتنى بإكرامه .

شقيفا ، خائب المسعى .

لسان صدق ، ثناء حسنا .

تمهيد :

سورة مريم سورة إثبات القدرة الإلهية ، والوحدانية والبعث ، وإثبات النبوة ، وهناك من ادعى : أن عيسى إلهاً ، ومن ادعى : أن الأصنام آلهة تعبد من دون الله ؛

لذلك ، بدأ بقصة عيسى ؛ ليبين أنه عبد الله ورسوله ، ثم ثنى بقصة إبراهيم ؛ ليرد من خلال قصته على عبَاد الأوثان .

التفسير :

٤١- وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا .

أى : واثل أيها الرسول على قومك ، الذين يعبدون الأصنام ؛ ما كان من خير إبراهيم خليل الرحمان الذين هم من ذريته ، ويُدعون : أنهم على ملته وهو الصديق النَبِيُّ .

أى : إنه كان صديقاً ملازماً للصدق فى كل أقواله وأفعاله وأحواله ، كما كان نبياً من أولى العزم ، الذين فضّلهم الله على غيرهم من الرسل الكرام .

٤٢- إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا .

أى : إن الإنسان يعبد إلهاً قادراً حكيمًا سميعاً بصيراً مجيباً ، أما أن يعبد صنماً عاجزاً لا يصنع شيئاً ، ولا يسمع الدعاء ، ولا يرى من يعبده ، ولا يقدر على نفع نفسه ، فضلاً عن أن ينفع غيره ، فهذا العمل باطل ضائع .

٤٣- يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا .

إن الله أكرمنا بالرسالة ، وأفاض على من علمه وفضله ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ... (الجمعة : ٤) .

فقد اختص الله برسالاته وفضله وعلمه ، ولم يأتك مثل هذا العلم أو ذلك الفضل ، فاتبعنى فى دعوتى ورسالتى ، فإنك إن اتبعتنى ؛ يسرت لك الهدى والإيمان والطريق القويم المعتدل .

٤٤- يَتَّبِعْ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا .

إن الشيطان هو الذى يزين للناس عبادة الأوثان ويزين لهم البعد عن طريق الرحمان ، فمن عبد الأوثان فكأنما عبد الشيطان ، وهناك طريقان فى هذه الحياة : عبادة الرحمان ، وعبادة الشيطان ، فمن

ترك طريق الرحمان ، واتبع طريق الشيطان ، صار عاصيا للرحمان ، وهذه المعصية يتبعها غضب الرحمان ، وسوء الخاتمة وسوء المصير .

٥٤- يَتَّابَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابُ مَنْ الرُّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا .

يا أبت ، إننى أشفق عليك من غضب الله وعذابه ونقمته ، وإذا غضب الله على إنسان ؛ طرده من رحمته ، وصار من أولياء الشيطان ، وأعظم بها من نقمة؛ أن يطرد إنسان من مرضاة الله ، وأن ينضم إلى حزب الشيطان؛

قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦).

ونلمح فى الآيات رقة إبراهيم وأدبه وتواضعه فى مخاطبة أبيه ، واستعمال أيسر الألفاظ ، وأجمل الجمل ، فلم يصرح له بأنه على الكفر والضلال ، بل تدرج معه فى بيان جملة من الحقائق فأخبره بما يأتى:

١ - الأصنام لا تسمع ولا ترى ولا تنفع من يعبدها .

٢ - لقد جاءنى العلم والرسالة والهدى ، ولا عيب أن يتبع الكبير الصغير ما دام الصغير على الحق والهدى .

٣ - إن اتباع الشيطان وعبادة الأوثان جرم كبير .

٤ - وشتان بين طريق الله العامر بالرضى والإيمان ، وطريق الشيطان العامر بالإثم والعدوان .

٦٤- قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تُنْتَهُ لِرَجْمِكَ وَاهْجُرْنِي مِلًّا .

قال والد إبراهيم مجيبا دعوة إبراهيم بالإنكار والاستكبار ؛ إذ كيف يخرج إبراهيم عن متابعة أبيه ، وكيف لا يسجد لهذه الأصنام ، وكيف يعيب على من يعبدها ؟

ونلمح توافق عباد الأصنام جميعا على أنهم وجدوا آباءهم يعبدونها ، وأنها طريقهم للعبادة ، وأن من خرج عن عبادتها ؛ فقد خرج عن المعروف المألوف .

لَئِنْ لَمْ تُنْتَهُ لِرَجْمِكَ وَاهْجُرْنِي مِلًّا .

إذا لم تنته عن دعوتك هذه ؛ لأقتلك رميا بالحجارة ، وخير لك أن تبتعد عني بعدا طويلا لا أريد أن أراك فيه .

٧٤- قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا .

أجاب إبراهيم أباه فى هدوء ورفق وإيمان ، فقال : سَلِّمْ عَلَيْكَ ، وأمان الله أعوده ؛ أن يحل بك ، سأدعو الله أن يسامحك ، وأن يغفر لك ، فإن الله عودنى إجابته الدعاء ، والكرم والقرب والفضل ، وجاء هذا المعنى

فى قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٤٨- وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...

لقد كان موقف إبراهيم إيجابيا حين لم يستجب والده لدعوته ؛ فقد فارق أباه وقومه ، على وعد أن يدعو الله بأن يغفر لأبيه .

قال تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدْنَاهَا بِهَا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة : ١١٤) .

روى : أن إبراهيم عليه السلام هاجر من أرض العراق إلى بلاد الشام ؛ فراراً بدينه ، وبعداً عن عبادة والده للأصنام ، وفى بلاد الشام تزوج سارة حيث عوضه الله عما ترك ، وآواه إلى جواره وفضله .

وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا .

سأبتعد عنكم وألجأ إلى عبادة الله ودعائه ، آملاً أن يكون دعائى مستجاباً ، وألاً أكون خائب المسعى ، شقياً مرفوض الدعاء .

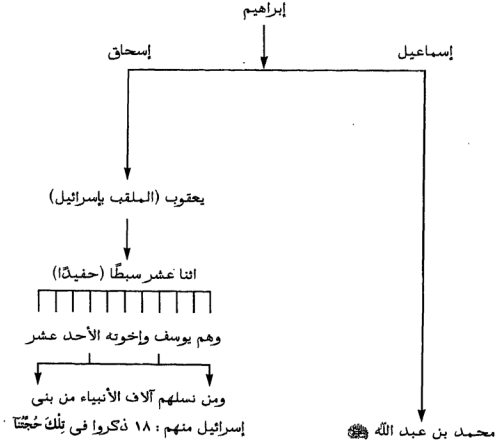
٤٩- فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَتَّبِدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا .

أى : عندما اعتزل إبراهيم قومه ، واعتزل أصنامهم التى يعبدونها ، آواه الله إليه ، وعوضه زوجة وذرية وأحفاداً ، هم آباء الأنبياء من بنى إسرائيل ، ولهم الشأن الخطير ، والقدر العظيم .

فقد وهبه الله إسحاق ، وولد لإسحاق يعقوب وهو الملقب بإسرائيل ، وقد رزق اثني عشر ولداً سجد منهم أحد عشر ولداً ليوسف ، تعبيراً لرؤيا يوسف فى قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . (يوسف : ٤) .

أما إسماعيل فتولى الله تربيته بعد نقله رضيعاً إلى المسجد الحرام ؛ فأحيا تلك المشاعر العظام ومن ثم أفردته بالذكر بقوله : وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ... (مريم : ٥٤) .

وهذا رسم تقريبي لشجرة الأنبياء :



ولم يكن من نسل إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ ، ومن هنا قال بعض العلماء : إن فرع هذه الشجرة ، يعدل فرعها الثاني . وآيات تِلْكَ حُجَّتُنَا يقول الله تعالى فيها :

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن لُّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ • وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُرْسَلِينَ • وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَأَلُوفًا مَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ • وَمِن عِبَادِنَا إِذْ يَبْتَهِمُ وُذُرِيَّائِهِمْ وَأَخَوَانَهُمْ وَاجْتَنَبَتْهُمُ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (الأنعام : ٨٣ - ٨٧) .

٥٠ - وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا .

ووهبنا وأعطينا لإبراهيم وإسحاق ويعقوب : من فضلنا الديني والدنيوي ما لم نؤتِه أحدًا من العالمين : فأتيناهم النسل الطاهر ، والذرية المباركة ، وإجابة الدعاء ، واللطف في القضاء ، والبركة في المال والأولاد ؛ إلى نحو ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا . فَمَحَامِدُهُمْ مذكورة على جميع الأزمان ، قد سجلها الدهر على صفحاته ؛

تلبية لدعوة إبراهيم : وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ . (الشعراء : ٨٤) .

فقد سجل الله لإبراهيم العديد من المواقف ومن بينها ما يأتي :

- موقفه من عبادة الأوثان .

- هجر والده وقومه عندما تبين له عدم إيمانهم .

- وفائوه بذبح ولده ؛ استجابة لأمر الله .

- دعاؤه : أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ رَسُولًا مِنْهُمْ .

- ذكره في التشهد والدعاء في الصلوات الخمس : «اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على

إبراهيم وعلى آل إبراهيم...»

- أن جعل الله موطن قدميه مباركا فقال : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ... (البقرة : ١٢٥) .

- أن الله مدحه بقوله : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . (النجم : ٣٧) .

- أنه عادى كل المعبودات في الله فقال : فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . (الشعراء : ٧٧) .

- أن الله سجل له الذكر الحسن فقال : وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . (الصافات : ١٠٨ ، ١٠٩) .



قصص موسى عليه السلام

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذِيرًا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ إِيمَانًا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

المفردات :

مخلصا : مختارا مصطفى .

قريبناه : تقرب تشريف وتكريم .

الطور : الجبل الذي بين مصر ومدین .

نجيا : مكلما لله بلا واسطة .

التفسير :

٥١- وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا .

أى : وائل أيها الرسول على قومك : ما اتصف به موسى من صفات كريمة : فقد كان مخلصاً أى : قربه الله واجتباؤه واستخلصه من عباده ، وهناك قراءة أخرى بكسر اللام أى : أنه كان مخلصاً لله فى عبادته يعبد الله عن إخلاص وتوحيد وتقوى وإيمان .

وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . فقد من الله عليه بصفتين : الأولى : الرسالة ، والثانية : النبوة ، والرسول هو الذى يوحى إليه بشرع ويكلف بالتبليغ ، مثل موسى وإبراهيم ونوح وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ؛ والنبى ﷺ هو الذى يوحى إليه بشرع ولا يكلف بالتبليغ ، مثل يوشع عليه السلام .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . (الأعراف : ١٤٤) .

٥٢- وَنَدَيْنَاهُ مِنَ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا .

نادى الله موسى حين عاد من أرض مدين إلى مصر ، واقترب من جبل الطور ، وكلمه الله من الجانب الأيمن للطور ، أى : الذى عن يمين موسى ، وأعلمه الله بأنه رسول الله ، وقد منحه الله البركة والرضا والقرب والمناجاة : حيث كلم الله موسى تكليماً .

وأى شرف أعظم من أن ينال البشر هذه المناجاة ، والمناداة والاختيار الإلهي للإنسان : ليحمل رسالة الله إلى خلقه ، وفى سورة طه يقول الله تعالى : وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى • إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلِي أَتَاكُمُ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى • فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى • إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى • وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى • إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . (طه : ٩ - ١٤)

٥٣- وَوَقَّعْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .

وهبنا لموسى من فضلنا ومعونتنا : أخاه هارون نبياً : ليؤازر موسى ويناصره ، ويقوم بالحجة والدفاع عن الرسالة معه ، حيث استجاب الله دعاء موسى حين دعا الله أن يعاونه برسالة هارون معه قال تعالى : وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمُونِ • قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَمْصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِابْنَيْتَا أَشْمَا وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا أَفْلَتُونِ . (الفصم : ٢٤ ، ٣٥) .

وقال عز شأنه : وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي • هَلُّوْنَ أَخِي • أَشْهَدُ بِهِ أَزْوَی • وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي • كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا • قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْحُوسَى (طه : ٢٩ - ٣٦) .

قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين ، وقال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد في الدنيا ، أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبيا .

★ ★ ★

قصص إسماعيل عليه السلام

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ٥٥﴾

تمهيد :

إسماعيل الذبيح الذي أجاب أباه يوم الذبح والغداء بقوله : يَتَأْتِى الْعَلَّ مَا تُؤْمَرُ سَجْدَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّبْرِ . (المصافات : ١٠٢) .

وهو ابن إبراهيم خليل الرحمان ، وقد أثنى عليه ربه بصفات هي مفخرة للبشرية .

التفسير :

٥٤- وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا .

أى : واذكر يا محمد فى القرآن العظيم خبر جدك إسماعيل الذبيح ابن إبراهيم : وهو أبو العرب جميعا .

إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ . أى : متميزا فى صدق الوعد والوفاء به .

قال المفسرون :

ذُكِرَ بصدق الوعد والوفاء به ، وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء ، تشريفا وإكراما ، ولأنه عانى فى الوفاء بالوعد ما لم يعانته غيره من الأنبياء ، فمن أخلاقه : الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه : وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . أى : جمع الله له بين الرسالة والنبوة .

قال ابن كثير :

وفى الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وكان محمد ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام .

٥٥- وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا .

وكان يحث أهله على فعل الخيرات خصوصا : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وفى هذا المعنى قال الله تعالى : وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... (طه : ١٣٢) .

والصلاة : هى الصلة بين المؤمن وبين ربه وهى مفتاح الخير وطهارة النفس ومعراج الروح .

والزكاة : طهارة المال وسبيل من أسباب تماسك المجتمع وتراحم الناس وتكاتفهم وتعاطفهم .

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا . أى : كان محمودا عند الله ، مقبولا قد نال رضى الله كما قال عز شأنه : رُضِيَ
أَنَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير : وهذا نهاية المدح : لأن المَرْضَى عند الله هو الفائز
فى كل طاعاته بأعلى الدرجات .

★ ★ ★

قصص إدريس عليه السلام

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

التفسير :

٥٦- وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا .

أى : واذكر فى القرآن الكريم بالثناء عليه : إدريس عليه السلام .

والناسيون يقولون : إنه جد نوح عليه السلام ، ويقولون : إنه أول من خط القلم ، وخاط الثياب ، ولبس
المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود .

وإدريس أول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب ، وجعل الله ذلك من معجزاته ^(٢١) .

وكل هذه الأخبار ، ليس لدينا سند صحيح يؤكدها أو ينفيها ، فننتوقف فى قبولها ، وكيفينا ما جاء

فى القرآن الكريم بشأنه .

قال صاحب الظلال :

وهناك رأى نذكره لمجرد الاستئناس به ولا نقرره أو ننفيه ، يقول به بعض الباحثين فى الآثار المصرية ، وهو أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس) المصرية القديمة ، كما أن يحيى تعريب لكلمة يوحنا ، وكلمة اليسع تعريب لكلمة إليشع .. وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة ، فهم يعتقدون بأنه صعد إلى السماء ، وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت فوجدت حسناته ترجح سيئاته ، فإنه يلحق بأوزريس الذى جعلوه إلها لهم ، وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صغوده إلى السماء . وعلى أية حال فنحن نكتفى بما ورد فى القرآن الكريم عنه ، ونرجح أنه سابق على أنبياء بنى إسرائيل ^(١) .

إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا .

لقد كان إدريس عليه السلام ملازماً للصدق فى جميع أحواله ؛ فسمى : صديقاً .

وفى الحديث النبوى الشريف : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق ؛ حتى يكتب عند الله صديقاً» . وكان إدريس نبياً يوحى إليه بوحى السماء .

٥٧- وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا .

أى : رفعنا قدره وأعلينا ذكره ، بشرف النبوة والزلفى عند الله ، ونحو هذا قول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . (الشرح : ٤) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وقد تقدم فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ مر بإدريس ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة ، وعن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً ، فكان لا يفرز إبره إلا قال : سبحان الله ، فكان يمسى حين يمسى وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه .

وقال سفيان : عن معاهد : وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا . قال : السماء الرابعة .

وقال الحسن وغيره : فى قوله تعالى : وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا . قال : الجنة ؛ إذ لا شرف أعلى منها .

وقال بعضهم : احتال إدريس فقال : يا رب ، أريد أن أرى الجنة ؛ فحمله ملاك فشاهد الجنة ، فقال إدريس : يا ربى ، اتركنى فيها فتركه الله فيها .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا
وَبُكِيًا ۖ﴾

المفردات :

إسرائيل : يعقوب عليه السلام .

اجتبيينا : اصطفينا واخترنا .

سجده : واحداهم : ساجد .

بكياء : واحداهم : باك .

قال الغليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى : لا صوت معه كما قال الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاءها وما يغنى البكاء ولا العويل

تمهيد :

بعد أن أفرد الله كل رسول من رسل الله العشرة ، الذين سبق ذكرهم : بالفناء عليه بما هو جدير به :
أردفه بما جازاهم به من الخير والاصطفاء والتفضيل .

التفسير :

٥٨- أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ...

أى : هؤلاء النبيون الذين قصصت أنباءهم عليك أيها الرسول ، هم الذين أنعم الله عليهم بما خصهم
به من القرب منه ، وعظيم المنزلة لديه .

وقال ابن كثير :

أى : هؤلاء النبيون ، وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط : بل جنس الأنبياء عليهم السلام ،
استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس .

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَاجْتَبَيْنَا ...

قال السدى وابن جرير رحمه الله :

فالذى عنى به من ذرية آدم : (إدريس) والذى عنى به ممن حملنا مع نوح : (إبراهيم) ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم : إسحاق ، ويعقوب ، وإسماعيل . والذى عنى به من ذرية إسرائيل : موسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ابن مريم .

أولئك النبيون ، ومعهم من هدى الله واجتنبى من الصالحين من ذريتهم ، صفتهم البارزة .

إِذَا تَقَالَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ غَرُّوا سُجَّدًا وَسُكُوتًا .

فقد جمعوا بين الإيمان ورقة الوجدان ، فهم يؤمنون بآيات الله ، وتفيض قلوبهم وأفئدتهم بالخشوع والخضوع : فيسجدون لله تعالى باكين خاضعين .

وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم فى معنى هذه الآية تدل على أن من صفات المؤمنين التأثر والخشوع والبكاء لسماع القرآن وأدلة الإيمان .

قال تعالى : إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . (الأنفال : ٢) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (المائدة : ٨٣) .

وقال سبحانه وتعالى : اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . (الزمر : ٢٣) .

★ ★ ★

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَا ۝٩٦﴾
﴿ لَا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلِئَلَيْكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٩٧﴾

المعزادات :

خلف : بسكون اللام ، عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق : خلف (يفتح اللام) .

أضاعوا الصلاة ، تركوها بتاتا .

اتبعوا الشهوات ، انهمكوا فى الم لذات والمعاصى .

شيئا ، خلا لاً ، والمراد : يلقون جزاءهم فى جهنم .

تمهيد :

ذكر سبحانه : حزب السعداء الأتقياء من الأنبياء والصالحين ، الذين اجتنباهم الله واختارهم : لركة قلوبهم ؛ ويكاء عيونهم وسجودهم لربهم .

ثم أردف هنا ذكر : من خلفهم ممن أضاعوا الواجبات وأقبلوا على شهوات الدنيا ، ثم أعقب ذلك بذكر ما ينالهم من النكال والويلال فى الآخرة ، إلا من تاب وأناب فإن الله عز وجل يقبل توبته ، ويدخله الجنة ويحسن مثوبته .

التفسير :

٥٩- فَخَلَفَ مِنْ بَٰعِثِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا .

أى : جاء بعد الأنبياء والصالحين ، خلف سوء من أهل الضلال ، تركوا أداء الفريضة ، وجحدوا أوامر الله وأحكامه ، واتبعوا الشهوات واستغرقوا فيها ؛ فما أشد المفارقة بين الفريقين .

فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا . والغى : الشرور والضلال ، والضياع والهلاك .

٦٠- إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا .

أى : لكن من تاب إلى الله تعالى ، وآمن به إيماناً صادقاً ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، فإن الله تعالى يقبل توبته ، ويدخله الجنة ، ويكافئه ويجازيه أحسن الجزاء ، ولا ينقصه شيئاً من جزاء عمله .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم : دعوة إلى التوبة وحثاً عليها ، ورأفة ورحمة ببنى آدم ، الذين أغواهم الشيطان ، ودعوة لهم أن ينتصروا على شهواتهم ، وأن يفرّوا إلى ربهم ؛ فإن بابهم مفتوح بالليل والنهار ، والصباح والعشى ، يقبل التوب ويغفر الذنب ، وفى الآيات الأخيرة من سورة الفرقان ، وصف لعباد الرحمن ، ثم قال سبحانه : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا ۖ يُضَلَّفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . (الفرقان : ٦٨ - ٧١).

ونذكرت آيات التوبة والدعوة إليها في القرآن الكريم كثيرا فالإنسان خطاء ، والله تعالى كريم حلیم ، لذلك يدعو عباده إلى التوبة والإنابة ، وينهاهم عن اليأس والقنوط قال تعالى : قُلْ يٰٓعِبَادِیَ الَّذِیْنَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣) .

وحفلت كتب السنة النبوية ، وكتب الأحاديث القدسية ؛ بالدعوة إلى التوبة النصوح ، وحث عليها المؤمنين ، وحذرتهم من التسويف واليأس ، ودعتهم إلى الرجاء والأمل في وجه الله تعالى .

وفي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة عن ابن مسعود والحكيم الترمذی : عن أبی سعید الخدری . يقول النبی ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» (٣٧) .

وفي صحيح البخاری يقول النبی ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدي إلى بشيء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن دعاني لأجيبنه ، ولئن سألتني لأعطينه» (٣٨) .

وروى الإمام أحمد في مسنده : أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لو أتاني عبدي ليلا قبلته ، ولو أتاني نهاراً قبلته ، وإن استقالني أقلت ، وإن استغفرني غفرت له ، ، ومن جاء إلى تلقيتي من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزد ، ومن تعرّف لحولي وقوتى أئنت له الحديد» (٣٩) .

★ ★ ★

﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ ، وَالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا فِي بُرُكٍّ وَعَشِيًا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴿

المضردات :

جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام .

بِالْغَيْبِ ، وهي غائبة عنهم .

وَمَعْدُهُ ، ما وعد به من الجنات .

مَاتِيًّا ، يأتيه من وعد به لا محالة .

لَقُوا ، فضولا من الكلام لا طائل تحته .

سلاما ، من الله أو من الملائكة .

تمهيد :

لما ذكر سبحانه وتعالى : أنه يدخل التائبين الجنة ، أتبع ذلك بعدة أوصاف لهذه الجنة .

التفسير :

٦١- جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا .

إن الجنة التي وعدها للتائبين هي جنات إقامة ، وعد الرحمان عباديه بها حال كون الجنة غائبة عنهم ؛ لكنهم آمنوا بها وصدقوا أن وعد الله آت لا محالة ، ومن أصدق من الله حديثًا .

٦٢- لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا .

لا يسمعون في الجنة فاحشا من القول ، ولا شيئا من فضول القول ، بل تسلم عليهم الملائكة ، على وجه التحية والإكرام ، ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب ؛ بدون كد ولا تعب ولا انقطاع .

٦٣- تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا .

إن هذه الجنة التي تقدم وصفها ؛ نورثها لعبادنا المتقين ، الذين أطاعوا الله ، وابتعدوا عن معاصيه ؛ فاستحقوا هذه الجنة بجدارة ؛ كأنها ميراث لهم ؛ كما قال سبحانه في وصف المؤمنين في أول سورة المؤمنون : أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (المؤمنون : ١٠ ، ١١) .

★ ★ ★

﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَآبِتِينَ أَتْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَآبِيرَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١٦) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

المفردات :

النسْنَزْل : النزول وقتا غب وقت .

ما بين أيدينا ، ما قدامنا من الزمان المستقبل .

ما خَلَقْنَا ، من الزمان الماضي .

ما بين ذلك ، هو الزمان الحاضر .

نسيباً ، تاركاً لك ، فهو لا ينسى شيئاً من أعمال العباد .

اصطبر عليها ، أثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق .

سمياً ، شبيهها ونظيراً .

تمهيد :

ذكر كثير من المفسرين كالطبري والقرطبي وغيرهم : أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ ثلاثة أسئلة بإيعاز من اليهود حيث قالوا لأهل مكة : أسألوه عن فتية ذهبوا في الزمان الأول وكان لهم أمر عجب ، وأسألوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأسألوه عن الروح ، فلما سألوا النبي ﷺ عنها قال : غدا أجيبكم ، ونسى أن يقول : إن شاء الله : فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ؛ حتى قال كفار مكة : إن إله محمد ودَّعه وقلاه ؛ فنزل قوله تعالى : مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . (الضحى : ٣) .

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وجماعة : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... (٣٩) .

قال العلماء :

ويمكن التوفيق بين الروایتين بأن الرسول ﷺ قال ذلك في محاورته السابقة أيضاً ، واقتصر في كل رواية على شيء مما وقع في المحاورة .

التفسير :

٦٤- وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ، مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .

أى : قال جبريل للنبي ﷺ : إنما أنا عبد مأمور إذا أمرت نزلت ، وإذا حبست احتبست فالله سبحانه هو الذى يملك كل شيء وهو المدبر لنا فى جميع الأزمنة ، مستقبليها وماضيها وحاضرها .

قال المراعى :

وقصارى ذلك : أن أمرنا موكل إلى الله تعالى ، يتصرف فينا بحسب مشيئته وإرادته ، لا اعتراض لأحد عليه ، فلا ننقل من مكان إلى مكان ، ولا ننزل فى زمان دون زمان ؛ إلا بإذنه عز وجل .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا .

سبحانه لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ، وإنما ينزل الوحي عندما تقتضى حكمته أن ينزل .

٦٥- رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا .

هو الله خالق السماوات والأرض وما بينهما ، أى : خالق الكون كله بما فيه : السماء والفضاء ، والأرض وما فيها من جبال ورمال وبحار وأنهار ، ونبات وحيوان وإنسان ، ومن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ .

أى : استمر فى عبادته ودارم عليها فى إتقان وإخلاص ، وتجرد وتمعن وصبر وتحمل ، عندئذ تجد لذة العبادة ، وتحمل كل أذى وشدة كما يقول أحد العباد : نحن فى سعادة لو عرفنا الملوك لما ربونا عليها بالسيوف .

هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا .

أى : ليس له مثيل أو شريك أو مساو ؛ لأنه تعالى هو الخالق الرازق المبدئ المعيد بيده الخلق والأمر وهو يجير ولا يجار عليه .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

ومعنى هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا . أى : هل تعلم له نظيراً أو شبيهاً يستحق معه المشاركة فى العبادة والطاعة ؟ والجواب : كلا إنك لا تعلم ؛ لأنه سبحانه هو الخالق لكل شيء وما سواه إنما هو مخلوق له .

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا مَتَّعْتُ سَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ۝٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ۝٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَهْبَاشًا غَدِيقًا ۝٦٩﴾ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِهِمْ خَلْقًا ۝٧٠﴾ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلَاتًا ۝٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِذْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝٧٢﴾ ثُمَّ نَنْحِيهِ ۝٧٣﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا ظُلُمَاتٍ فِيهَا حَيْثُمَا ۝٧٤﴾

المفردات :

يَذْكُرُ : يتذكر ، ويتفكر .

لنحشرنهم : لنجمعنهم .

جثيا : واحدهم : جاث وهو البارك على ركبتيه .

شيعة : جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه .

عتيا : تكبرا ومجاورة للحد .

صليا : دخولا من صلى بالنار ؛ إذا قاسى حرها .

واردها : مار عليها .

حتميا : واجبا .

مقضيا : قضى بوقوعه .

تمهيد :

روى الكلبي : أن هذه الآيات نزلت في أبي بن خلف ؛ أخذ عظما باليا فجعل يفتنه بيده ويذريه في الريح ؛ ويقول : زعم فلان : أننا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ، إن هذا لن يكون أبداً .

فنزلت هذه الآيات تناقش الفكرة وترد عليها ، وتثبت البعث والحساب والجزاء ، والنجاة للمتقين والعقوبة للظالمين .

التفسير :

٦٦- وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا .

أي : يقول الكافر الجاحد للبعث : إذا مت وصرت ترابا ، وعظما باليا ، أبعد ما يكون عن الحياة ، كيف أعود حيا بعد ذلك ، والاستفهام هنا استفهام استبعاد واستنكار .

وقد روى البخارى ومسلم عن خباب بن الأرت : قال كنت رجلا قينا - أي : حدادا - وكان لى على العاص بن وائل دينار ؛ فأتيته أنقاضاه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، أي : تموت الآن ، وتبعث أمامى ، وهذا من باب المستحيل ، قال : فإننى إذ مت ثم تبعث ؛ جئتني ولى مال فأعطيك ؛ فأنزل الله : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِكَائِنَاتٍ وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَلَدًا . (مريم : ٧٧) .

٦٧- أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا .

أي : لقد بدأنا خلق الإنسان من لاشيء ، والإعادة أهون من البدء ، وهذا من أقصر الأدلة على البعث قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وفى أواخر سورة يس ، يستعرض القرآن هذه الشبهة من المكذب الجاحد ويرد عليها بإثبات أن من بدأ الخلق قادر على إعادتهم ، بل إن إعادة أمون من البدء ، قال تعالى :

وَصَرْبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْزِلُ الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ • الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ • أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدُّهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٢) .

٦٨- فَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا .

يحشر الكفار ومعهم الشياطين الذين أغووه .

قال المفسرون :

يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة ، والموقف هنا موقف رهيب ، حيث تعرض الآية أمام الأعين ، موقف المشركين كل كافر مع شيطانه ، وقد اشتد الهول وعظم الكرب ؛ فجثا الجميع على ركبهم حول جهنم من شدة الهول ، حين عجزوا عن الوقوف .

وقد شرح هذا الموقف فى سورة الجاثية ، حيث تجتمع كل جماعة من المشركين ، حول سجل أعمالها ، وينادى عليهم : بأن اليوم هو يوم الجزاء بعذاب المهانة ، والإذلال جزاء تكبركم فى الدنيا .

قال تعالى : وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٨ ، ٢٩) .

٦٩- ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَىٰ الرَّحْمَنِ عِيبًا .

ثم لنستخرج من كل طائفة ، تشايحت وتعاهدت على الكفر بالبعث والجنود للحق ، الذين هم أشد خروجا عن طاعتنا وامتنال أمرنا .

وقصارى ذلك : أن الله يحضرهم أولاً حول جهنم ، ثم يميز بعضهم عن بعض ، فمن كان أشد تمرداً فى كفره ؛ خص بعذاب أعظم ، فعذاب الضالّ المُضِلّ أشد وأقوى من عذاب التابع .

٧٠- ثُمَّ تَنْحَنُّ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلًا .

أى : نحن أعلم بعتاة المجرمين ، وپرئوس الكفر الداعين إليه ، فبدأ بالأعلى فالأعلى . وهو منظر رهيب حين يقذف بكبار المجرمين فى جهنم أمام أعين الجميع : زيادة فى النكال بهم .
قال ابن مسعود : يبدأ بالأكابر جرماً .

جاء فى التفسير الوسيط :

ثم لنحن أعلم من كل أحد سوانا ، بالذين هم أحق بجهنم وباصطلاء نارها ، وبالاكتواء بحرهما وسعيرها : لأننا لا يخفى علينا شئ من أحوال خلقنا .

وقريب من هذه الآية ما ورد من عتاب المستضعفين للكبراء : لأن المستضعفين كانوا تبعاً للكبراء فى الدنيا : فهل ينفعهم الكبراء يوم القيامة ، ويجب الكبراء بأن العذاب سيشملنا جميعاً .

قال تعالى : وَإِذْ يَتَحَاوُونَ لى آثَارِ قُيُولِ الضُّعَفَاءِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ الْآثَارِ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ . (غافر: ٤٧ ، ٤٨) .

وأيضاً دعوة المتكبرين للضعفاء أن يتبعوهم ويتحملون عنهم جانباً من العذاب يوم القيامة ، ولكنهم يوم القيامة لا يحملون عن الضعفاء شيئاً ، إنما يتحملون جزاء كفرهم ، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ • وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنَّا لَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (العنكبوت: ١٢ ، ١٣) .

وخلاصة هذا : إنهم جميعاً يستحقون العذاب : لكننا ندخلهم فى جهنم بحسب عتيتهم وتجبرهم فى كفرهم ، وفى هذا جزاء عادل حيث يهان أئمة الكفر على رموس الأشهاد : جزاء عتوهم وضلالهم .

٧١، ٧٢- وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا • ثُمَّ نُتِجَى الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا .

قضى الله أن يمر الخلائق جميعاً على جهنم : حيث يشاهدها المؤمنون وهي تتلمظ غيظاً على من عصى الله تعالى ، ثم يمرؤن على الصراط إلى الجنة ، أما الكافرون فيبقون فيها قاعدين على ركبهم من شدة الهول .

روى السدى : عن ابن مسعود قال : يرد الناس جميعاً للصراط ، ويقومون حول النار ثم يصدرؤن عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم : من يمر مثل البرق ، ومنهم : من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم : من يمر كأجود الخيل ، ومنهم : من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ... فى حديث طويل .

وقال رسول الله ﷺ: يرد الناس كلهم النار ثم يصرون بأعمالهم .

ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا وَنَدَّرَ الظَّالِمِينَ فِيهَا جُثَا .

أى : يرد الناس جميعا على الصراط ، وهو على متن جهنم ؛ فيسقط فيها من يسقط من الكفار والعصاة؛ على قدر ما اجترحوا من الآثام والذنوب ، ثم ينجى الله المتقين منها بحسب أعمالهم ، ويترك الكافرين جاثين على الركب كما جاءوا .

آراء العلماء فى دخول جهنم

للعلماء أقوال متعددة حول المراد بقوله تعالى : وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ...

قال ابن عباس :

الورود : الدخول ؛ لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخل جهنم ؛ فتكون بردًا وسلاما على المؤمنين ؛ عند دخولهم إياها ، كما كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم ، وتكون لهيبا وسعيرا على غيرهم .

وقال ابن مسعود وقاعدة :

الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط كما فى قوله تعالى : وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَذْيَنٍ ... (القصص : ٢٣).
أى : أشرف عليه وقاربه ، فالمؤمنون يشرفون على جهنم ويشاهدونها؛ ويقتربون منها دون أن يدخلوها .
وقد توسع المفسرون كالطبرى والقرطبى وابن كثير والآلوسى وغيرهم فى سوق أدلة كل فريق .

قال القرطبى :

وظاهر الورود : الدخول .. إلا أنها تكون بردًا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين .

قال خالده بن معدان :

إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا : ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال لهم : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .
واختار كثير من المفسرين : أن المؤمنين يردون فيدون ويمرون بجهنم ؛ وهى تتأجج وتتملظ ، ويرون العتاة يُنزعون ويقذفون فيها ، ثم يزحزح المؤمنون عن النار ، وينجون منها لا يكادون ؛ ويترك الكفار يصطلون عذابها .

قال تعالى : فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۖ﴾ (٧٣) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا ۖ﴾ (٧٤) ﴿قُلْ مَن كَانَ
فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ
فَسَيَعْلَمُونَ مَن هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۖ﴾ (٧٥) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا
هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الْضَالِّينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ۖ﴾ (٧٦)

المفردات :

بينات : ظاهرات الإعجاز .

مقاما : مكانا ومنزلا .

نديا : مجلسا ومجتمعا ومثله النادى .

القرن : أهل كل عصر .

الأثاث : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له .

رثبا : المنظر ، والمراد به : النظارة والحسن .

فليمدد : فليمهله بطول العمر ، والتمكن من سائر التصرفات .

جندا : أنصارا .

البقيات الضالعات : الطاعات التى تبغى آثارها .

مردا : مرجعا وعاقبة .

تمهيد :

كان المشركون يفتخرون على المسلمين بالغنى والمال والسلطان ، ويرون أن المسلمين فى فقر وشدة :
فأجاب القرآن بأنه أهلك من الأمم السابقة : من كان أحسن حالا وأفضل مظهرا ، وعند قيام القيامة سيتميز
المشركون إلى جهنم ، والمعتقون إلى الجنة .

التفسير :

٧٣- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

إذا قرأ المؤمنون القرآن ، وشرحوا كلام الرحمان ، وعرضوا مبادئ الإسلام : قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ

ءَامَنُوا ، أَنْتُمْ فِى خَشَوْنَةٍ مِنَ الْعَيْشِ ، وَقَلَّةٍ مِنَ الْمَالِ وَالسُّلْطَانِ ، وَنَحْنُ نَعِيشُ فِى سَعَةٍ مِنَ الْمَالِ وَالْعِزِّ وَالْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ . وَالْإِلَهَ الْحَكِيمَ لَا يَذَلُّ أَحِبَّاهُ بِالْفَقْرِ ، وَلَا يَسْعِدُ أَعْدَاءُهُ بِالْغِنَى ، وَغَنَانَا هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ وَأَنْتُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ فَمَنْ مِنَّا أَفْضَلُ حَالًا وَأَحْسَنُ مُنْتَدَى وَمَجْتَمَعًا ؟

قال ابن عباس :

خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

المقام : المنزل ، والندى : المجلس .

٧٤- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا .

إن كثيرا من المكذبين لرسلم كعاد وثمود وأضرابهم من الأمم والقرون : أهلكتناهم بالعذاب ، وقد كانوا أكثر أموالا وأمتعة وأشكالا ، وأفخم منظرا ، وأكثر نعيما .

قال ابن عباس : الأثاث : المتاع ، والرثى : النظر .

والمقصود : ما أكثر متاعهم ؛ وما أبهى قصورهم ورياشهم ، وما أجمل ثيابهم ومناظرهم ، ولم تغن عنهم من عذاب الله شيئا !

قال تعالى : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَلْيُكَيْهِنَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ . (الدخان : ٢٥ - ٢٩) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

٧٥- قُلْ مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ فَلْيَمْزُقْ لَهُ ، أَلْرَحْمَتُ مَثًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ إِمَّا أَسَاعَةً فَيَسْتَعْلِمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين بربهم ، المدَّعين : أنهم على الحق ، وأنكم على الباطل : مَنْ كَانَ فِى الضَّلَالَةِ . منا أو منكم فَلْيَمْزُقْ لَهُ ، أَلْرَحْمَتُ مَثًا . فليمهله الرحمان فيما هو فيه ، وليدعه فى طغيانه حتى يلقى ربه ، وينقضى أجله ، وهذا غاية التهديد والوعيد .

وقصارى ذلك : إن من كان فى الضلالة فسنة الله أن يمد له ويستدرجه : ليزداد إثما ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ .

أى : إما بعذاب الدنيا يأتيه من حيث لا يحتسب ، وإما بعذاب فى الآخرة لا قبل له بدفعه .

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَعْفُ جُنْدًا .

أى : فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أى الفريقين ، شر منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصارًا ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا فى مقابلة قولهم :

أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا .

٧٦- وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَغِيضَتِ الصَّالِحِينَ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا .

يزيد الله المؤمنين المهتدين هداية ، وإيماناً وبصيرة ؛ والأعمال الصالحة التى تبقى لصاحبها ذخراً فى الآخرة : خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض ، من حيث الأجر والثواب ، وخير مرءًاً . وخير رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم .

وقال الشيخ الشنقيطى فى تفسير أضواء البيان :

ويظهر لى أن الكافر يجازى بعمله الصالح فى الدنيا ، مثل : صلة الرحم وبر الوالدين ؛ أما المؤمن فإن ثوابه فى الآخرة أكثر عاقبة ، وأفضل مردوداً ، وأبقى عاقبة .

وفى سنن ابن ماجه : عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال :

جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً قحط ورقه ثم قال : «إن قول : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله تحط الخطايا ، كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة» .

قال أبو سلمة :

فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث ، قال : لأهللن الله ، ولأكبرن الله ، ولأسبحن الله ، حتى إذا رأتى الجاهل حسب أنى مجنون^(١٠) .

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَا يُؤْتَى ۖ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾ (٧٨) ﴿كَأَلَّا سَكَتَ مِمَّا يَقُولُ ۚ وَمُذْ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَذًا ۖ﴾ (٧٩) ﴿وَنَرِثُهُ، مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ۖ﴾ (٨٠)

المفردات :

أطلع الغيب ، أظهر له علم الغيب ؟!

عهدنا ، وعدا من الله تعالى له بذلك .

كألا ، كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ .

سكتب ما يقول ، سنسجل عليه قوله ونحاسبه عليه .

ونمدله من العذاب ، سنطيله عليه ونضاعفه له .

ونرثه ما يقول ، نسلبه منه في الدنيا ، فيدخل القبر وحيداً ، ويبعث منفرداً بدون مال أو ولد .

ففردها ، بدون مال أو ولد أو حشم أو خدم أو غير ذلك مما كان يفتخر به في الدنيا .

التفسير :

٧٧- أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَا يُؤْتَى .

في صحيح البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والطبرانى وابن حبان : عن خباب بن الأرت قال : كنت رجلاً قينا (حداداً) وكان لى على العاص بن وائل دين ، فأتيته أتقاضاه ؛ فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإني إذا مت ثم تبعث جنت ولى ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ... الآيات (١١) .

وقال ابن عباس :

إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل بدين ، فأتوه يتقاضونه ؛ فقال : أستم تزعمون : أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن موعدكم الآخرة ، فوالله لأوتين ما لا وولدا ، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به ، فضرب الله مثله فى القرآن ، فنزلت الآيات (١٢) .

ومعنى الآية :

أنظرت أيها العاقل فرأيت هذا الكافر الجاحد ؛ الذى كذب بالقرآن والبعث والرسالة ، ولم يكتف بهذا

الكفر بل زعم أن : الله سيعطيه فى الآخرة المال والبنين .

٧٨- أَطْلَعِ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَهْدًا .

هل اطلع على الغيب الذي تفرد به علام الغيوب : أم أعطاه الله عهد بذلك فهو يتكلم عن ثقة ويقين .

٧٩- كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ...

كلا حرف ردع وزجر ، أى : ليرتدع هذا الكافر عن مقالاته الشنعاء : فسنسجل عليه قوله ، ونحاسبه عليه حسابا عسيرا ، ونزيدة عذابا فوق عذاب فنضاعف عذابه ، ونطيل عليه جزاء طغيانه واستهزائه .

٨٠- وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا .

أى : نرثه ما جمع من الدنيا وما عمل فيها ، فيدخل القبر بالكفن فقط ، ويأتينا يوم القيامة وحيدا لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ، ولا شيء مما كان يفتخر به فى الدنيا ، هو وأمثاله من المغرورين الجاحدين .

والآية وردت مورد الوعيد لإنسان غره ماله وولده : فاستهزا بالآخرة ، وادعى : أنه سيكون أكثر حظا فى الآخرة وسيوتى المال والولد : فهدد القرآن بأنه سيدخل القبر وحيدا ، وسيبعث فريدا بدون مال أو حشم أو خدم ، أو غير ذلك ، وسيلقى الحساب والجزاء .

★ ★ ★

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَهُمَ أَنَّ ۝٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا ۝٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ۝٨٥﴾ وَسَوْفَ الْعُجْبَرِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا ۝٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۝٨٧﴾﴾

المفردات :

العِزُّ : المنعة والقوة .

سَيَكْفُرُونَ : سيجحدون .

ضِدًّا : أعداء .

إِذَا : الأثر والهنز والاستفزاز : شدة الإزعاج ، والمراد : الإغراء بالمعاصى ، وتحبيب الشهوات .

فلا تعجل عليهم ، لا تطلب الاستعجال بهلاكهم .

إلى الرحمان ، إلى دار كرامته وهى الجنة .

وفــــــدا : الوفود والأوفاد ، واحدهم : وافد وهم القوم يقدمون مكرمين مبجلين راكبين .

وردا : مشاة مهانين باستخفاف واحتقار ؛ كأنهم نَعَمْ تساق إلى الماء .

العهد : شهادة ألا إله إلا الله ، والتبرى من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله ؛ وقيل : العهد :

المحافظة على الصلاة .

تمهيد :

تناقش الآيات شبهات المشركين ، وتبطل حججهم ، وتعلن خسارتهم يوم القيامة ، وتذكر أن الشياطين تستدرجهم فيستجيبون لها ، ولهم أيام معدودة فى الدنيا ، ثم يأتى الجزء فى الآخرة ، وهكذا تجمع الآيات بين الدنيا والآخرة فى أسطر معدودة ، فإذا الدنيا للعمل ؛ والآخرة للجزاء ، حيث يحشر المتقون إلى الجنة مكرمين مبجلين ، راكبين فى وفد الكرامة ، ويحشر الكافرون عطاشا مهانين راهبين ، لا شفيع لهم .

التفسير :

٨١- وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِّكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .

واتخذ المشركون من قومك أيها الرسول آلهة يعبدونهم من دون الله ، ليعتزوا بهم ، ويجعلوهم شفعاء عند ربهم يقربونهم إليه .

فمنهم من عبد الأوثان والأصنام ، ومنهم من عبد الجن أو استجار بهم ، وطلب منهم النصرة .

٨٢- كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا .

ليس الأمر كما زعموا ، فإن الآلهة التى عبدوها ؛ ستبترأ يوم القيامة ممن عبدها ، ويكونون أعداء لمن عبدهم ، ويُنطق الله من لم يكن ناطقا منهم ؛ ليتبرأ من عبادة المشركين . وتكون الآلهة المدعاة أعداء للعابدين وأعاوننا عليهم .

قال تعالى : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ . (الأحقاف : ٥ ، ٦) .

وقال عز شأنه : إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كُفْرَكُمْ وَلَا تَتَّبِعْكَ مَثَلُ خَيْبٍ . (فاطر : ١٤) .

كما يتبرأ المسيح عليه السلام يوم القيامة ممن عبده ، أو جعله إلها ، ويقول لله تعالى : سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... (المائدة : ١١٦ ، ١١٧).

٨٣- أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَوْ لَا .

كان المسلمون يتعجبون من إصرار الكافرين على الكفر ، أمام بيان القرآن ، وهداية الرسول وسماحة الإسلام . وهنا يقول للرسول ﷺ : لا تتعجب من تماديهم في الغي ، وإنهماكهم في الضلال : فإن الشياطين تغريهم بالشر ؛ وتزين لهم العناد .

قال الإمام فخر الدين الرازي :

أى : تغريهم بالمعاصي ، وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات .

وقال العوفي : تحرضهم على محمد وأصحابه .

وقال قتادة : تزعجهم إزعاجا إلى معاصي الله .

وقال سفيان الثوري : تغريهم إغراء ، وتستعجلهم استعجالاً .

وقال السدي : تطغيهم طغياناً^(١٧) .

وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . (الزخرف : ٣٦)

٨٤- فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا .

أى : لا تتعجل وقوع العذاب لهم ؛ فإنما نؤخرهم إلى أجل موعود .

قال السدي : إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا . السنين والشهور والأيام والساعات .

وقال ابن عباس : نعد أنفاسهم في الدنيا ، وكان ابن عباس إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد : خروج نفسك ، آخر العدد : دخول قبرك .

وعن ابن السماك : أنه كان عند المأمون فقرأ هذه الآية ثم قال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ .

لا يمنع الموتُ بواباً ولا حرساً
فتى يُعَدُّ عليه اللفظ والتفسرُ

إن الحبيب من الأحباب مُختلس
وكيف يفرح بالدنيا ولذتها

وقال شوقي :

دفات قلب المرء قائمة له إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسان عبرتان

٨٥- يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا .

أى : واذكر أيها الرسول لقومك : تكريم الله للمتقين يوم القيامة : حيث يحشرون فى وفد التكريم والإجلال ، يركبون مراكب العزّ والعظمة : حتى يدخلون جنة الرحمان مكرمين معززين .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مرزوق قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها وأطيبها ريحا ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك ، وحسن وجهك ، فيقول : أنا عملك الصالح ، وهكذا كنت فى الدنيا حسن العمل ، طيبه ، فطالما ركبتك فى الدنيا ، فلهم اركبنى فيركبه : فذلك قوله تعالى : يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا .

وقال قتادة : إلى الجنة .

وقال على فى هذه الآية : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلاً ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ^(١) .

٨٦- وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرُودًا .

ونسوق الكافرين بالله إلى جهنم مشاة ، قد تقطعت أعناقهم من العطش ، فهم كالذباب التى ترد الماء ، وأصل الورد : الإتيان إلى الماء بقصد الارتواء منه ؛ بعد العطش الشديد ، وشتان بين تكريم وفد المؤمنين ، وإهانة ورد الكافرين .

٨٧- لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا .

أى : لا يشفعون ولا يشفع لهم غيرهم ، لكن من اتخذ عند الرحمان عهداً : وهم المؤمنون الصادقون ؛ فإنهم يملكونها بتمليك الله تعالى لهم إياها ، وإذنه لهم فيها ، كما قال تعالى :

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وكما قال سبحانه : وَكَمْ مِنْ مُلْكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ يُرْضَى . (النجم : ٢٦) .

وقال ابن كثير فى تفسير الآية :

أى : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم :

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَافِيينَ﴾ (الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١) .

وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ . هذا استثناء منقطع بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمان عهداً ؛ وهو شهادة : أن لا إله إلا الله والقيام بحقها .

قال ابن عباس :

العهد : (شهادة أن لا إله إلا الله) ويبدأ إلى الله من الحول والقوة ولا يرجو إلا الله عز وجل ، وقال ابن أبى حاتم : عن الأسود بن يزيد ، قال : قرأ عبد الله ابن مسعود هذه الآية : ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ . ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يقول يوم القيامة : من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمان فاعلمنا ، قال : قولوا : اللهم ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، فإني أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا ، أنك إن تكلمنى إلى عملى يقربنى من الشر ، ويباعدنى من الخير ، وإنى لا أتفق إلا برحمتك ، فاجعل لى عندك عهداً تؤديه إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد .

قال المسعودى : وكان يلحق بهن : خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك ^(١٠) .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «من جاء بالصوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها ، لم ينتقص منها شيئاً ؛ جاء وله عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منها شيئاً فليس له عند الله عهد إن شاء رحمه وإن شاء عذبه» ^(١١) .

★ ★ ★

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ
يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّهُ الْجِبَالُ هَذَا ۝٨٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي
لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا
۝٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۝٩٤﴾

المفردات :

جئتم ، فعلتم .

إذا ، (يكسر الهمزة وفتحها) المنكر العظيم والإفة : الشدة ، يقال : أدنى الأمر وأدنى : أنقلنى وعظم على .
التفتطر : التثقف .

تخبر : تسقط وتهدم .

دعوا : نسبوا وأثبتوا .

صبا : منقادا خاضعا كما يفعل العبيد .

أحصاهم : عدّهم وأحاط بهم .

عدا : عد أشخاصهم .

فسردا : منفردا لا شيء معه من الأنصار والأتباع .

التفسير :

٨٨- وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا .

تأتى هذه الآيات فى الرد على اليهود الذين قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى الذين قالوا : المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا .

لما قرر سبحانه وتعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر : خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى الإنكار على من زعم أن لله ولدا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وتحدثت الآيات عن فظاعة هذا العدوان الذى يرتجف له ضمير الكون ، وتنبثق من هوله السماء والأرض ، وتميد الجبال ؛ فالكون كله خاضع لله تعالى خضوع القهر والغلبة ؛ يحس بهذا العدوان من بنى آدم ؛ ويغضب ويرتجف ، كما يرتجف كل عضو فى الإنسان عندما يغضب .

٨٩- لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا .

لقد جئتم أيها القائلون بمقالتهكم هذه أمرا منكرا فظيما . روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تبارك وتعالى : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقله : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد»^(١٧) .

٩٠- تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا .

لقد فزعنا من هول الشرك السماوات والأرض والجبال وغضب الكون كله ، فالكون كله خاضع لله خضوع القمر والغلبة ، وحين قال الله للسماوات والأرض : أَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (نمل : ١١) ، أى : أظهرنا من الخضوع لأمر الله والطاعة والامتثال ، بحيث لو نطق لسان حالهما لقال : أتينا طائعين ، أو تكلمنا بلسان التسبيح والحمد والطاعة كما قال سبحانه : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

فالكون خاضع لله تعالى مطيع لأمره ، وهو يغضب حين يتناول الإنسان على ربه : ويدعى : أن له ولدًا ؛ والله سبحانه غير مشابه للحوادث ، فالولد يقتضى الجسمية ومشابهة الحوادث ، والله منزّه عن ذلك .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

وفى الصحيحين : عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، أن يشرك به ، ويجعل له ولد ، وهو يعافهم ويدفع عنهم ويرزقهم» ^(١٨) .

وفى رواية أخرى : «إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافهم» .

ونقل ابن كثير عن ابن جرير : أن رسول الله ﷺ قال : «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله فمن قالها عند موته ؛ وجبت له الجنة» قالوا : يا رسول الله ، فمن قالها فى صحته ؟ قال : «تلك أوجب وأوجب» ، ثم قال : «والذى نفسى بيده لو جىء بالسماوات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضيغن فى كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى لرجحت بهن» ^(١٩) .

٩١- أَنْ دَعَوْا لِلْخُمُصَيْنِ وَلَدًا .

أى : من أجل أنهم نسبوا إلى الله : اتخاذ الولد .

٩٢- وَمَا يَنْبَغِي لِلْخُمُصَيْنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا .

أى : لا يصلح له ، ولا يليق به ؛ لجلاله وعظمته ؛ لأنه لا كفاء له من خلقه ؛ لأن جميع الخلائق عبيد له .

٩٣- إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا .

أى : ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، يتقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ويخضع له خضوع العبد لسيده .

٩٤- لَقَدْ أَحْضَيْنَاهُمُ وَعَدْنَاهُمْ عَذَابًا .

أى : قد علم عددهم ، منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنفاهم ، وصغيرهم وكبيرهم ، فهم جميعا تحت أمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ولا يفوته شيء منها .

٩٥- وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا .

وجميع الخلائق قد حشرت فى ذلك اليوم ، وكل فرد يقول : نفسى نفسى ! وقد أحاط الجبار بهم علما فما يستطيع أحد الفكاك من قبضته ، أو الهروب من الحساب ؛ بل يحشر كل إنسان وحيدا بلا مال ولا أتباع ؛ ولا حشم ولا خدم ، ولا ناصر ولا مجير ؛ إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم فى خلقه بما شاء ، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ولا يظلم ريك أحدا .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۖ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۖ ﴾

المفردات :

الود : المودة والمحبة .

بلسانك : بلسانك ، بلسانك .

السد : واحد : السد ، وهو الشديد الخصومة .

ركزا : صوتا خفيا .

تمهيد :

تختم السورة ببيان : منزلة المؤمنين ، ومودة الرحمان لهم ، وبيان : أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله ، يبشر المتقين ، وينذر الكافرين ، وأن الله قد أهلك العديد من القرون المكذبة ؛ فهلكت وبادت ، لا تسمع لها صوتا ولا ترى لها أثرا .

التفسير :

٩٦- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا .

تبشر هذه الآية المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة : أن الله تعالى ينشر محبتهم فى قلوب

العباد ، وينزل الله رحمته على عبده الصالح ، ويزرع الحب والمودة والألفة في قلوب الناس له ، فترى العبد محبوبا عند الناس ، مرضيا عنه في الملأ الأعلى .

روى الشيخان والإمام أحمد : عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إن الله إذا أحب عبدا: دعا جبريل فقال : يا جبريل ، إنى أحب فلانا فأحبه - قال :- فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء ، إن الله يحب فلانا فأحبوه - قال :- فيحبه أهل السماء ؛ ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبدا: دعا جبريل فقال : يا جبريل إنى أبغض فلانا فأبغضه - قال :- فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانا فأبغضوه - قال :- فيبغضه أهل السماء ؛ ثم يوضع له البغضاء فى الأرض» (١٠٠) .

وروى مسلم والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح وابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنما أحب الله عبدا: نادى جبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض ، فذلك قوله الله عز وجل : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رُحْمًا يُدْهِمُ**» .

قال مجاهد : **رُحْمًا** : محبة فى الناس فى الدنيا .

وقال سعيد بن جبير : يحبهم الله ويحبهم إلى خلقه المؤمنين .

وعن ابن عباس : **الود** من المسلمين فى الدنيا ، والرزق الحسن واللسان الصادق .

وقال هرم بن حيان : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله ، إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وكان عثمان رضى الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيرا أو شرا : إلا كساه الله عز وجل رداء عمله (١٠١) .

٩٧- **فَإِنَّمَا يَسِرُنَا لِسَانُكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنَبِّئُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا .**

لقد يسرنا نزول القرآن بلسان عيسى مبین ، ويسرنا حفظه وتلاوته وفهمه ، وقربناه إلى المؤمنين ؛ لنُبَشِّرَ به المتقين بالجنة ، فتسد خطاهم ، وتشد أزهرهم ، وتعلمهم بمكانتهم عند الله فى الدنيا ، ويمنزلتهم فى الجنة فى الآخرة .

وَنُنَبِّئُ بِهِ قَوْمًا لَّدُنَّا . عتاة الظالمين ، أشداء فى الخصومة ، يجادلون بالباطل ويصمون آذانهم عن سماع الحق .

قال تعالى : **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ** . (البقرة : ٢٠٤) .

أى : أشد الناس خصومة وجدالا بالباطل . وقد أنزل الله القرآن الكريم بلسان عربى مبين ، وقد جمع الله به شتات العرب ، وأحيا ذكركم ، ورفع شأنهم .

قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . (القمر : ١٧) .

وقال تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (الدخان : ٥٨) .

فالقرآن وحى السماء ، والرسول مبلغ يقرأ القرآن بلسانه العربى المبين ، ويبلغه لقومه ويؤدبهم بأدابه فيخرجهم من الظلمات إلى النور ؛ فما أعظم أن ييسر الله وحيه ، ويختار له الرسول والأمة والمؤمنين ، وبذلك يحق القول على الكافرين .

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (الشورى : ٥٢) .

وقد مدح الله الوحى ، ومدح الرسول ، ومدح الأمة ، التى استجابت لهذا الوحى ، وسيظل هذا الوحى روح الأمة ، وباب سعادتها ، وسبيل عزتها ، وباعت نهضتها قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا... (الشورى : ٥٢) .

٩٨- وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا .

لقد أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة ، التى كذبت رسلى ؛ فأغرقنا قوم نوح وقوم فرعون ، وأهلكنا عادًا وثمودَ وقوم لوط . وهذه الأمم التى بادت وهلكت بغضب لها ؛ كانت ملء السمع والبصر ، لها تحرك وقوة وقدرة فوق الأرض ، والآن بادت وأصبحت رميما تحت التراب ؛ لا ترى العين أحداً من أهلها ، ولا تسمع لأحدهم صوتا خافتاً . إنهم فى صمت القبور .

وبهذا الختام يشخص القرآن الكريم أمام العين أمما أقوى من كفار مكة كانوا يتحركون وينبضون بالحياة والأماني والمشاعر ، ثم إذا الصمت يُخَيِّم ، والموت يجثم ، وإذا الجفث والأشلاء والبلوى والدمار ، لا حس ، لا حركة ، لا صوت .

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ . انظر وتلفت .

أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا . تسمع وأنصت .

ألا إنه السكون العميق ، والصمت الرهيب ، وما من أحد إلا الواحد الحى الذى لا يموت ^(٩١) .

خلاصة لما اشتملت عليه سورة مريم

- ١ - دعاء زكريا لله : أن يرزقه ولدًا .
- ٢ - استجابة الله لدعائه ، وبشارته لزكريا بولد اسمه : يحيى .
- ٣ - صفات يحيى وهى القوة فى الدين ، والحكمة فى الصبا ، والحنان والتقوى ، وبر الوالدين والبعد عن التجبر والمعصية .
- ٤ - قصة مريم وحملها بعبسى ، ونطق عيسى فى المهد ، والرد على من اتخذ عيسى إلها .
- ٥ - معجزات عيسى ، واختلاف النصارى بشأنه .
- ٦ - قصص إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر ، واعتزاله لقومه ، ثم هبة الله لإبراهيم إسحاق ويعقوب .
- ٧ - جانب من قصة موسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام .
- ٨ - جبريل لا ينزل إلى الأنبياء إلا بلأذن ربه .
- ٩ - الإخبار : بأن جميع الخلائق ترد على النار يوم القيامة ، ثم ينجى الله المؤمنين إلى الجنة ، ويترك الكافرين فى جهنم .
- ١٠ - النعى على المشركين باتخاذ الشركاء ، وفى يوم القيامة سيكون الشركاء أعداء لمن عبدوهم من دون الله .
- ١١ - التفرقة بين حشر المتقين إلى دار الكرامة ، وسوق المجرمين إلى دار الخزي والهوان .
- ١٢ - النعى الشديد على من ادعى : أن الله ولدًا .
- ١٣ - أنزل الله القرآن بلسان عربى مبين ؛ ليبشر المتقين ، وينذر العتاة الظالمين .

تفسير سورة طه

أهداف سورة طه

نزلت سورة طه بعد سورة مريم ، وقد نزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء ، فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً . أى : بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة .

وفي المصاحف المطبوعة بالقاهرة : سورة طه مكية إلا آيتي ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وآياتها ١٣٥ آية ، نزلت بعد مريم .

وقال الفيروزبائي : السورة مكية إجمالاً ، وكلماتها ١٣٤١ كلمة ولها اسمان : طه : لافتتاح السورة بها ، وسورة موسى : لاشتمالها على قصته مفصلة .^(١٣)

معنى طه :

قيل : معناها : يا رجل ، وقيل : معناها : يا إنسان ، وقال آخرون : هي اسم من أسماء الله وقد أقسم الله به ، وقال آخرون : هي حروف مقطعة مكونة من الطاء والهاء يدل كل حرف منها على معنى واختلفوا في ذلك المعنى اختلفهم في ألمص وقد ذكرنا ذلك في التعريف بسورة الأعراف ، قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال : معناها : يا رجل ؛ لأنها كلمة معروفة في عك فيما بلغني وأن معناها : يا رجل .^(١٤)

وقيل : أصله طأها على أنه أمر لرسول الله بأن يطأ الأرض بقدميه فإنه كان يقوم الليل حتى ورمت قدماه من طول القيام . وقد أبدلت الألف من الهمزة ، والهاء كناية عن الأرض .^(١٥)

والمعنى : طأ الأرض بقدميك يا محمد ، وهون على نفسك في القيام وأرأف بنفسك ؛ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به تعباً ، بل لتسعد به وتذكر به الناس .

أهداف السورة

من أهداف سورة طه :

تيسير الأمر على رسول الله ﷺ وبيان : فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول وحصرها في الدعوة والتذكير والإنذار ، ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك إلى الله الواحد الذي لا إله غيره ، المهيم على ظواهر الكون وباطنه ، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها ، الذي تعنو له الجباه ، ويرجع إليه الناس : طائعهم وعاصيهم .. فلا على الرسول ممن يكذب ويكفر ، ولا يشقى لأنهم يكذبون ويكفرون .

ثم تعرض السورة قصة موسى من حلقة الرسالة إلى حلقة اتخاذ بنى إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصلة مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى ، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة .. وتتجلى فى غضون القصة رعاية الله لموسى الذى صنعه على عينه واصطنعه لنفسه ، وقال له ولأخيه : لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى . (طه : ٤٦) .

ثم تعرض السورة قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته ، وهدايته له ، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكيز والإنذار .

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة ، وكأنما هى تكملة لما كان أول الأمر فى الملأ الأعلى من خلق آدم ؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة ، ويذهب العصاة من ذريته إلى النار ؛ تصديقا لما قيل لأبيهم آدم وهو يهبط إلى الأرض بعد خروجه من الجنة .

ونلاحظ أن السياق يمضى فى هذه السورة فى شوطين اثنين :

الشوط الأول : يتضمن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول ﷺ : مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى . (طه : ٢ ، ٣) .

ثم تتبعه قصة موسى نموذجاً كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته فلا يشقون بها وهم فى رعايته .

والشوط الثانى : يتضمن مشاهد القيامة وقصة آدم وهما يسيران فى اتجاه مطلع السورة وقصة موسى . ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها ويتناسق معه ومع جو السورة .

وللسورة ظل خاص يغمر جوها كله .. ظل علوى جليل تخشع له القلوب ، وتسكن له النفوس ، وتعنو له الجباه .. إنه الظل الذى يخلعه تجلى الرحمان على عبده موسى بالوادرى المقدس . فى تلك المناجاة الطويلة ، والليل ساكن وموسى وحيد ، والوجود كله يتجاوب بذلك النجاء الطويل .. وهو الظل الذى يخلعه تجلى القديم فى موقف الحشر العظيم : وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٨) .

وَعَسَى أَن تَوْجِرَهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا . (طه : ١١١) .

والإيقاع الموسيقى للسورة كلها يستطرد فى مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها رخيا شجيا ندبا بذلك المد الزاهب مع الألف المقصورة فى القافية كلها تقريباً .^(٤٧)

قصة موسى فى القرآن

بدأت سورة طه بمقدمة مؤثرة عن القرآن وعن صفات الله وأسمائه الحسنى ، ثم قص الله على رسوله حديث موسى . نمونجا لرعايته للمختارين ؛ لحمل دعوته وقصة موسى هى أكثر القصص ورودا فى القرآن . وهى تعرض فى حلقات تناسب السورة التى تعرض فيها وجوها وظلها . وقد وردت حلقات منها حتى الآن فى سورة البقرة وسورة المائدة وسورة الأعراف وسورة يونس وسورة الإسراء . وسورة الكهف وذلك غير الإشارات إليها فى سور أخرى .

وما جاء منها فى المائدة كان حلقة واحدة : حلقة وقوف بنى إسرائيل أمام الأرض المقدسة لا يدخلون فيها ؛ لأن فيها قوما جبارين .

وفى سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة ، حلقة لقاء موسى للعبد الصالح وصحبته فترة وقد سبق الحديث عنها فى دروس من سورة الكهف بعنوان : قصة موسى والخضر .

فأما فى البقرة والأعراف ويونس وفى هذه السورة - طه - فقد وردت منها حلقات كثيرة ولكن هذه الحلقات تختلف فى سورة عنها فى الأخرى . تختلف الحلقات المعروضة . كما يختلف الجانب الذى تعرض منه تنسيقا له مع اتجاه السورة التى يعرض فيها .

فى البقرة سبقتها قصة آدم وتكريمه فى الملأ الأعلى ... فجاءت قصة موسى وبنى إسرائيل ؛ تذكيرا لبنى إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه ، واستسقاؤهم وتفجير ينبابيع لهم ، وإطعامهم الدن والسلوى . وذكرت عدوانهم فى السبت وقصة البقرة ، وفى الأعراف سبقها الإنذار وعواقب المكذبين بالآيات قبل موسى عليه السلام فجاءت قصة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة . وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل ، وخاتمة فرعون وملئه المكذبين ، وفى يونس سبقها عرض مصارع المكذبين ، ثم عرض منها حلقات ثلاث : حلقة الرسالة ، وحلقة السحرة ، وحلقة غرق فرعون .

أما هنا فى سورة طه فقد كان مطلع السورة يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته ، فجاءت القصة مظلة بهذا الظل تبدأ بمشهد المناجاة ، وتتضمن نماذج من رعاية الله لموسى فى طفولته وشبابه ورجولته ، وتثبته وتأييده وحراسته وتعهده .

قصّة موسى في سورة طه

ولد موسى في مصر ونما وترعرع في بيت فرعون ثم قتل قتيلا خطأ فخرج هاربا إلى أرض مدين وهناك تزوج بنت نبي الله شبيب ومكث في أرض مدين عشر سنين . ثم عاد بأهله إلى مصر .

وفى الطريق أدركته عناية الله ومن الله عليه بالرسالة والعناية .. وناداه. إني أَنَا رَبُّكَ فَاتَّخِذْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْمَعْ لِمَا يُوحَى . (طه: ١٢، ١٣).

وهذا الوحي يتعلق بثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة . وهي أسس رسالة الله الواحدة . ومن نداء الله لموسى : **إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** . **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا فَشَجِرُوا كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَمْشَى** . (طه : ١٤ ، ١٥) .

وخص الله موسى بمعجزات ظاهرة ، وآيات باهرة ؛ أمره أن يلقى عصاه فألقاها فإذا هي حية تسعى ، نمت وعظمت حتى غدت في جلادة الثعبان ، وضخامة الجان^(٤٧) . لمحها موسى فاشتد خوفه فناداه الله : خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى . (طه : ٢١) .

ثم أدخل موسى يده تحت إبطه فخرجت بيضاءً بياضاً يغلب نور الشمس ليس فيها بهاق أو برص أو مرض وتمت لموسى معجزتان هما اليد والعصا، فرأى آيات الله الكبرى، واطمأن للنهوض بالتبعية العظمى.

أمر الله موسى أن يذهب إلى فرعون رسولاً وداعياً إلى الهدى ومبشراً بالجنة لمن أطاع الله وبالنار لمن عصاه .

فطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره وأن ييسر له أمره وأن يحل حبسه لسانه ؛ ليفقه الناس قوله وأن يمن الله عليه بمعين من أهله هو أخوه هارون .

واستجاب الله دعاء موسى وحباه بفضل زائد وذكره بأفضاله عليه صغيراً وناشئاً حيث نجاه عندما قتل قتيلاً خطأ وألقى عليه المحبة ورباه برعايته وصنعه بعين عنايته .. قال سبحانه : **وَأَلْقَيْتُ عُودَكُمُوهَ مِنْ مَّنَىٰ وَخَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا نَاصِبًا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَاصِبُ ۚ كُلُّ شَيْءٍ قَدَرًا** (طه : ٣٩) .

وكانت عناية الله معه في شبابه حين نجاه من كيد أتباع فرعون ، وكانت عناية الله معه في رحلته إلى أرض مدين ثم في عودته إلى أرض مصر على موعد وتدبير إلهي .. قال تعالى : وَقُلْتُ نَفْسًا فَعَجَبْتُكَ مِنْ الْغَمِّ وَفَسَلْتُكُمُونا فَلَيْتَ سَبِيحٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ لَمْ يَجِدْ عَلَيَّ قَدْرًا يَمْسُو سَواً . وَأَصْمَعْتُكَ نَفْسِي . (طه : ٤٠ ، ٤١) .

وكلف الله موسى أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون بعد أن طغى فرعون وتجبر : ليقولا له قولا
لينا لا يهيج الكبرياء الزائف ولا يثير العزة بالإثم ، لعل قلبه أن يتعظ أو يتذكر .

أدلة موسى على وجود الله

توجه موسى وهارون إلى فرعون : ليبلغاه رسالة الله رب العالمين .

فقال فرعون : فَمَنْ رَبُّكُمَا يٰمُوسَى . (طه : ٤٩) .

فأجاب موسى : رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ، ثُمَّ هَذَى . (طه : ٥٠) .

وهي إجابة تلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود : هبة الوجود لكل موجود ، وهبة
خلقه على الصورة التي خلق بها ، وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها .

وثنى فرعون بسؤال آخر : قَالَ فَسَأَلُ الْقُرُونِ الْأُولَى . (طه : ٥١) .

ما شأن القرون التي مضت من الناس ؟ أين ذهبت ؟ ومن كان ربها ؟ وما يكون شأنها وقد هلكت لا
تعرف إليها هذا ؟

وأجاب موسى : إن علمها عند الله الذي لا تخفى عليه خافية وقد سجل عملها في كتاب لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وقد تفضل الله على الناس بالنعمة المتعددة : فمهد لهم الأرض وذلّل سبلها ،
وأنزل الماء من السماء : فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار : ليخرج بالماء أزواجا متعددة من النباتات
يستفيد منها الإنسان والحيوان ، وقد خلق الإنسان من الأرض ، ثم رزق من نباتها ومائها ، ثم يعود إليها ،
ثم يبعث منها يوم القيامة .

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون وأراه المعجزات الظاهرة الملموسة من اليد والعصا .

ولكن فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة ، والحجج البالغة ، بالحدود والكثود وأخذ فرعون يكيل
التهم لموسى ، ويسفه دعوته ويصفه بالطمع في الملك ، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبين .

موسى والسحرة

توعد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كل مكان : ليبطلوا سحره ويظهروا عجزه . وقبل موسى
التحدى ، وحدد يوم العيد واجتماع الناس في زينتها الجديدة موعدا للمبارزة : حتى يشيع الحق ويظهر ظهور
الشمس .

وجمعت السحرة فى يوم العيد ، ولم يتخلف واحد منهم ، فإذا بهم آلاف مع كل واحد منهم حبل وعصا وخيروا موسى قائلين : إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . (طه : ٦٥) .

فترك لهم موسى فرصة البدء واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة .

فتقدم السحرة وألقوا ما فى أيديهم من حبال فتحركت الحبال وماجت بها الساحة وسحرت عيون المشاهدين وملأتهم بالرهبة والإجلال لهذا العمل العظيم .

وخشى موسى أن يخدع الناس عن الحق وأدركه خوف الداعية على دعوته : فذكره الله بأن معه قوة كبرى ، وبأنه على الحق وعدوه على الباطل ، وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة ، وعدوه ساحر مضلل مخادع .

فَلَمَّا لَا تَخَفْ بِأَنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَلْبٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ . (طه : ٦٨ ، ٦٩) .

وألقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة فى سرعة مذهلة وأدرك السحرة أن عمل موسى ليس سحرا ولكنه معجزة ويرهان من الله على صدق رسالته ، فإذا بهم يخرون لله ساجدين : توبة عما صنعوا ، وخشوعا لهيبة الحق ، وإكبارا لذلك الأمر الخطير ، وإيمانا بالله رب العالمين .

وعندئذ غلت مراحل الحقد والحفيظة فى صدر فرعون ، ولام السحرة على إيمانهم بموسى ، قبل أن يأذن لهم ، وقال : إنه أستاذكم وكبيركم الذى علمكم السحر ، فاتفقتم معه على فعلكم ومؤامرتكم : فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَنَّآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ . (طه : ٧١) .

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان ، كان نور الإيمان قد تخلل صدورهم فوصلهم بخالقهم فزهدوا فى عرض الدنيا وسلطانها ، وتطلعت قلوبهم إلى مرضاة الله ، وفضلوا ثواب الآخرة على كل ما عدها وقالوا : إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَآ عَلَيْنَا مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (طه : ٧٢) .

غرق فرعون ونجاة موسى

استمر موسى فى أداء رسالته وقيامه بواجب دعوته ، وقد اشتد إيذاء فرعون وأتباعه للمؤمنين فاستغاثوا بموسى ، فخرج موسى بهم ليلا إلى الأرض المقدسة وقد سهل الله إليها طريقهم ، واعترض البحر سبيلهم فاستغاثوا بموسى قائلين : البحر أمامنا وفرعون وراءنا ! فأوحى الله إلى موسى : أن اضرب بعصاك البحر فضربه بعصاه فتولت قدرة الله أن تيسر لهم فى البحر اثنتى عشر طريقا يابسا مهيدا للسير فسار كل

فريق فى طريق وحفظتهم عناية الله من فرعون ، وحين حاول فرعون اللحاق بهم أطبقت عليه وعلى جنوده مياه البحر وأدركهم الغرق والهلاك . ونجى الله المؤمنين ، وأذل الكافرين . وجعل من ذلك عظة وعبرة لمن اعتبر ، فمن آمن بالله وجاهد فى سبيله ؛ كان فى كنف الله ورعايته ، ومن كفر بآيات الله وخرج عن طريق هدايته ؛ أعد الله له العذاب والنكال . ونظر بنو إسرائيل فى دهشة إلى مصرع الجبابرة العتاة ، ثم نجى الله فرعون ببدنه ؛ ليكون آية لمن خلفه ، ودليلا على أن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

موسى والسامرى

ترك موسى قومه وذهب لميعاد ربه عاجلا مشتاقا لمناجاة ربه وانتهن السامرى الفرصة فصنع لبنى إسرائيل عجلا من الذهب بطريقة فنية تجعل الريح تمر فيه فتحدث صوتا وخوارا .

وقال لهم : إن موسى لن يعود إليكم ؛ لقد ذهب لمقابلة ربه فضل الطريق إليه ، وهذا هو إلهكم وإله موسى ؛ وقتن بنو إسرائيل بعبادة العجل ، فقد ألفوا الذل وطاعة فرعون .

وعاد موسى غضبان أسفا يلوم هارون على تباطئه عن إخماد هذه الفتنة فاعتذر هارون بأنه صبر حتى يعود موسى فيلتنم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة .

وتوعد موسى السامرى بالعذاب والنكال وأمر بطرده من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريدا هو وأهله إلى البرارى ثم أتى موسى بالعجل فحرقه بالنار ، ونسف رماده فى اليم ؛ ليبين لقومه أن مثل هذا لا يصح أن يتخذ إلهها : إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا . (طه : ٩٨) .

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدمة فى بيان : جلال الله وقدرته وعلمه الواسع فى الآيات من ١ - ٨ .

ثم تحدثت عن رسالة موسى وجهاده فى مصر ، وجهوده مع بنى إسرائيل فى الآيات من ٩ - ٩٨ .

وبعد قصة موسى تجيء الآيات ٩٩ - ١١٤ تعقيب على هذه القصة ببيان : فضل القرآن ، وعاقبة من يعرض عنه ، وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة ، تتضامل فيه أيام الحياة الدنيا ، وتتكشف الأرض من جبالها وتعري ، وتخضع الأصوات للرحمان ، وتعنو الوجوه للحى القيوم ، لعل هذا المشهد وما فى القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى فى النفوس ، ويذكرها بالله ويوصلها به . وينتهى هذا المقطع بإراحة بال الرسول ﷺ من القلق من ناحية القرآن الذى ينزل عليه ، فلا يعجل فى ترديده ؛ خوف أن ينساه ، ولا يشقى بذلك فإلهه ميسره وحافظه إنما يطلب من ربه أن يزيده علما .

وبمناسبة حرص الرسول ﷺ على أن يردد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان ، تعرض الآيات ١١٥ - ١٢٣ نسيان آدم لعهد الله وتنتهى بإعلان العداوة بينه وبين إبليس وعاقبة من يتذكرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم . وترسم الآيات هذه العاقبة فى مشهد من مشاهد القيامة كأنما هو نهاية الرحلة التى بدأت فى الملأ الأعلى، ثم تنتهى إلى هناك مرة أخرى ... وفى ختام السورة تسلية للرسول ﷺ عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذبين فلا يشقى بهم فلهم أجل معلوم . ولا يحفل بما أوتوه من متاع فى الحياة الدنيا فهو فتنة لهم ، وينصرف إلى عبادة الله وذكره فترضى نفسه وتطمئن ولقد هلكت القرون من قبلهم ، وشاء الله أن يعذر إليهم بالرسول الأخير ، فلينبض يده من أمرهم ، وليعلن إليهم أنه متربص بهم ذلك المصير فليترقبوا هم كيف يشاءون : **وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ ۚ وَنَخْزَى ۚ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرِيقٌ مِّنْ أَصْحَابِ الْأَرْضِ الْأَسْوَى ۚ وَمَنْ أَهْتَدَى** (طه : ١٣٤ ، ١٣٥)

وبذلك تختتم السورة التى حددت وظيفة القرآن فى بدايتها : **إِلَّا تَذَكُّرُهُ لَّمَن يَخْشَى** .

وأكدت هذه الوظيفة فى نهايتها فهى التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة وليس بعد البلاغ إلا انتظار العاقبة والعاقبة بيد الله .

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون فى خلال السورة تحقيقا لهذا المعنى وتأكيذا لفوز المؤمنين ومصرع المكذبين ، وبذلك يتناسق المطلع والختام وتكون السورة أشبه بموضوع له مقدمة ، ثم قصة تؤيد المقدمة ، ثم خاتمة تؤكد الموضوع . وظهر أن بين أجزاء السورة وحدة فكرية خلاصتها : شمول فضل الله ورحمته وعطفه لأحبابه المؤمنين ، وإيقاع نقمته وعذابه بالكافرين والمكذبين .

سورة طه

سورة طه سورة مكية إلا آيتي ١٣٠ ، ١٣١ فمدينتان وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد سورة مريم .

وغرض السورة : تركيز العقيدة ، والدعوة إلى التوحيد ، والإيمان بالنبوة وبالبعث ، وفي بدايتها بيان : فضل الله على محمد ﷺ ، ثم قصة موسى من حلقة الرسالة ، وحلقة إيمان السحرة ، ومناقشة فرعون ، وحيل السامري وضلاله ، ثم حلقة من قصة آدم عليه السلام ، ثم عرض مشاهد القيامة .
وأسلوب السورة سهل رضى رضى ، وتنتهى الآيات بالألف اللينة فى انسياب وفضل من الله على أنبيائه ورسله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طه ١ ﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۖ ﴿ ٢ ﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّعَن يَحْشَى ۖ ﴿ ٣ ﴾ نَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۖ ﴿ ٤ ﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۖ ﴿ ٥ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۖ ﴿ ٦ ﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۖ ﴿ ٧ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۖ ﴿ ٨ ﴾ ﴾

المضردات :

لَتَشْقَى : لتتعب وتضرب .

تَذَكُّرٌ : تذكيرا وعظة .

يَحْشَى : يخاف الله .

الْعُلَى : واحدها : العليا مؤنثة الأعلى ، مثل : الكبرى مؤنثة الأكبر .

الْعَرْشُ : سرير الملك ، ويراد به فى لسان الشرع : مركز تدبير العالم .

اسْتَوَى : استولى عليه .

قال الشاعر :

من غير سيف ودم مهراق

استوى بشر على العراق

الشرى: التراب الندى، والمراد به هنا: مطلق التراب.

أخشى: يعلم الله ما هو أخفى من السر، وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوه به بحال.

الأسماء: الصفات.

الحسنى: مؤنثة الأحسن.

التفسير:

١ - طه .

هذه الحروف المقطعة فى فواتح السور للعلماء فيها رأيان رئيسان :

الأول : أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه .

الثانى : أن لها معان وتعددت آراء العلماء فى معانيها :

(أ) قيل : هى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يُقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة فهى مثل ألا الاستفتاحية .

(ب) قيل : حروف للتحذير والإعجاز ، وبيان : أن القرآن مركب من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله .

(ج) وقيل : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

(د) وقيل : هى علامة على انتهاء سورة وإبتداء أخرى .

وقال ابن عباس : طه . معناها : يا رجل .

وقال آخرون : هى اسم للرسول محمد ﷺ .

وقيل : معناها : طأ الأرض بقدميك .

٢ - مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى .

القرآن رحمة ونعمة ، وتذكيرة وروح وحياء ، وصلة بالملأ الأعلى .

وكان الرسول ﷺ حريصا على هداية قومه ، ودعوتهم إلى الإيمان ، وكلما أعرضوا عن الإسلام حزن وتألم ؛ فناداه الله ، وبين أنه أنزل القرآن للتبليغ والتذكير . أمّا الهدى فبيد الله تعالى ؛ فلا تحزن عليهم ، ولا تفرط فى الأسى على كفرهم وعنادهم ؛ قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بِنَشْخِ نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِئَذَا الْبَحْثُ أَسْفَا . (الكهف : ٦) .

وروى: أن رسول الله ﷺ، لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام، فقالت قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشتقى؛ فنزلت هذه الآية.

والشقاء يأتي في اللغة بمعنى: التعب، والعناء، ومنه المثل العربي (أشقى من رائض مهر) أى: أتعب من مروض المهر ومعلمه حتى يذلل للركوب.

ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

ذو العتل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقصارى معنى الآية:

إننا أنزلنا عليك القرآن لتذكر به، فمن آمن وأصلح فلنفسه، ومن كفر فلا يحزنك كفره، إن عليك إلا البلاغ، ولست عليهم بمسيطر. وفي الآية إيناس وتسليه وحنان للرسول ﷺ مما كان يعانيه، من جحود قومه وعنادهم؛ وقريب من معناها قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ... (البقرة: ٢٧٢). إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ... (الشورى: ٤٨). فَلَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ... (الغاشية: ٢١، ٢٢).

٣ - إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى.

أى: ما أنزلنا القرآن إلا عظة لمن رقى قلبه، وأضاءت بصيرته بنور القرآن فاستجاب له.

قال رسول الله ﷺ: «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» قيل: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: «نعم التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ثم تلا قوله تعالى: أَقْمِنَ لَّهِ ضَرْبُةً، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ. (الزمر: ٢٢).

٤ - تَنْزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى.

نُزِّلَ القرآن تنزيلاً من إله عظيم خلق الأرض وما عليها، والسموات العلى، المرتفعة العلياء. وما يستطيع خلق هذه السماوات العلى، وحفظها ملايين السنين سوى الإله الواحد الأحد سبحانه وتعالى.

والعلى جمع الغليا: مثل: كبرى وكبير، وصغرى وصغير، وغليا وغلى.

٥ - الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى.

الله سبحانه هو المهيمن على الكون كله، والمبدع لنظامه. والاستواء على العرش كفاية عن غاية السيطرة والاستعلاء، والإمساك بنظام الكون. وقد ذكر العرش في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية، وقد

ذهب سلف الأمة ، ومنهم الأئمة الأربعة ، إلى أن هذه الآية صفة لله تعالى بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل ؛ لاستحالة اتصافه تعالى بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه تعالى عما لا يليق به لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) . وأنه يجب الإيمان بهذه الآيات كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه تعالى .

أما الخلف فقد أولوا هذه الآيات بمعان تليق بذات الله تعالى . فقالوا : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . أى : استولى وسيطر وهيمن وأبدع ونظم مُلْكُ هذا الكون بلا خلل ولا اضطراب .

٦ - لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى .

الله تعالى له ما فى الوجود كله ، والمشاهد الكونية فى القرآن تستخدم لإبراز معنى الملك والإحاطة والتدبير ؛ فى صورة يدركها التصور البشرى والأمر أكبر من ذلك جداً ، فله ما فى الوجود كله ، وهو الملك والمالك لكل شئ .

فجميع ما فى الكون ملكه وفى قبضته وتحت تصرفه ومشيطته ، وإرادته وحكمه ، وهو خالق ذلك ومالكة ، وإلهه لا إله سواه^(٦) .

وهذا الكون أكبر مما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

وقال المفسرون :

له سبحانه ما فى الوجود كله ، السماوات السبع ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات ، وما تحت القرباب من معادن ومكنونات ، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه .

٧ - وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى .

فملكه لجميع ما فى الكون ، وعلمه شامل للجهر والسر ، وما هو أخفى من السر كخطرات النفس ، وأسرار الغد وما بعده الذى لا يعلمها العبد فى يومه . سبحان من أحاط بكل شئ علماً !

٨ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

ريكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ؛ فيجب أن يخلص الخلق له العبادة والطاعة ، ولا أحد غيره يستحق ذلك ، وهو صاحب الأسماء الحسنة ، الفضلى والعظمى ؛ لدلائها على معانى التقديس والتمجيد والتعظيم ، والنهاية فى السمو والكمال ، والحكمة والساداد . وفى صحيح البخارى ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها ؛ دخل الجنة»^(٧) .

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ أَنَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُعُ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَّى ﴿١١﴾ إِنِّي
أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ
﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتَجْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا سَعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ
هَوَاهُ فَتَرَدَّى ﴿١٦﴾﴾

المضردات :

الحديث : كل كلام يبلغ الإنسان ، من جهة السمع أو الوحى ، فى يقظته أو فى منامه .

الـكـث : الإقامة .

أتـسـت : أبصرت .

أتـيـكـم : أجيئكم .

بـقـبـس : بيشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه .

هـدًى : هادياً يُلْنى على الطريق .

طوى (بالضم) منوئاً : اسم لذلك الوادى .

اخـتـرتـك : اصطفتك .

لـذـكـرى : لتكون ذاكرًا لى .

أكاد أخفيها : أباغ فى إخفائها ولا أظهرها .

هـواه : ما تهواه نفسه .

فـتـردى : فتهلك .

تمهيد :

تأتى قصة موسى ، بعد مطلع سورة طه ، وفى هذا المطلع بيان : لعظمة الحق سبحانه ، وعظيم ملكه وسلطانه ، وفى قصة موسى جانب من هذا الفضل والحنان ، والاصطفاء لموسى ، وتسجيل لجهاده وصبره أمام عناد فرعون ، وفى هذا القصص تثبيت لقلب الرسول ﷺ ، وإيناس له ، ودعوة له إلى الصبر كما صبر

المرسلون قبله ، قال تعالى : قَاصِرٌ كَمَا صَبَرُ أُولُوا الْأَعْزَمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الاحقاف : ٣٥) ، وقال عز شأنه : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْبِثُ بِهِ فَرَأَدْتَ . (هود : ١٢٠) .

التفسير :

٩ - وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى .

وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحي إلى موسى ، وتكليم الله إياه ؟

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبیت الخبر ، وتقرير الجواب في نفس المخاطب ، أن يلقي إليه بطريق الاستفهام ؛ فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ، ويصفى إليه أتم الإصغاء .

ذكر المفسرون : أن موسى أتم المدة التي تعاقده عليها مع صهره شعيب ، فإذا بالحنين والشوق يتجدد في قلبه للعودة إلى مصر .

وهنا يتساءل الإنسان ، رجل مستقر في موضع فيه الزوجة والأهل والأمن والأمان .

وله في مصر عداوة وتهديد ، فقد قتل قبطيا كان يتشاجر مع إسرائيلى ، ثم استغفر الله ، وقد خرج من مصر خائفاً يترقب ، قال : رب تجنى من القوم الظالمين ، لكن الحنين يتجدد في العودة إلى مصر . فما سبب ذلك ؟

إنه الحنين الذى يودعه الله في القلوب ؛ لتتحرك في ستر خفى ، بيد القدرة الغالبة المحركة لهذا الكون ؛ والمهيمنة عليه .

قال العلماء : إذا كانت منية الإنسان بأرض ؛ حرك الله همة العبد للذهاب إليها .

قدم موسى من أرض مدين إلى مصر ، ومر بطور سيناء ، في ليلة باردة شاتية مظلمة وضل الطريق ، ونزل منزلاً يأتى شعاب وجبال ، وجعل يَدْعُ بِرَبِّهِ كَانَ مَعَهُ لِيُورِيَ نَارًا ، فلم تور المقدحة شيئاً ، وبينما هو يزاوِل ذلك ويعالجه ، إذ رأى نَارًا مِنْ بَعْدِ عَنْ يَسَارِ الطَّرِيقِ .^(٩)

١٠ - إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى آثَارِهِ هُدًى .

أبصر موسى نارا ؛ فقال لامراته وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم ؛ إنى أبصرت نارا ، وسأذهب إليها ؛ لعلنى أجيئكم بشعلة مقتبسة ، على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا يرشدنى إلى الطريق . وكانت الليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، قال تعالى : فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ

عَاسٍ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَلْعَلْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا بَخِيرٌ أَوْ جَذْوَةٌ مِنَ الْنَّارِ تَلْعَلْكُمْ تَصْطَلُونَ . (القصص : ٢٩) . ومعنى تَصْطَلُونَ . تستدفئون بها من البرد .

١٢، ١١- فَلَمَّا أَنَّهُ نُودِيَ يَمُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى .

لما وصل موسى إلى النار وجدها نارًا بيضاء تتقد كأضواء ما يكون ، فى شجرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ؛ وهناك سمع موسى النداء : يَمُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ . إنسان فى هذا الكون ، مخلوق من البشر ، يصطفيه الله من خلقه ؛ ليحمله رسالة ربه ، ويناديه ويكلمه تكلما ؛ ولك أن تتأمل هذا الفضل الإلهى : موسى فريد فى تلك الغلاة ، والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت مخيم ، وهو ذاهب يلتمس النار التى أنسها فى جانب الطور ، ثم إذا به يسمع صوتا يتردد من السماء والأرض وكل ما فى الكون : يَمُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . أى : إني أنا ربك الذى أكلمك ، فاخلع النعلين من قدميك ؛ رعاية للأدب وأقبل ؛ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . أى : لأنك بالوادي المطهر المسمى : طوى ؛ فاخلع نعليك ؛ ليحصل للقدمين بركته .

لقد أراد الله لموسى أن يستجمع نفسه ، وطهارة قدمه ، وتركيز عقله وجواسه فقال سبحانه .

١٣- وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى .

أى : اصطفيتك للرسالة والنبوة وتبليغ الدعوة ؛ فتأهب لهذا الأمر العظيم ، واستمع لما أوحى إليك ، ونحو الآية قوله تعالى : قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي ... (الأعراف : ١٤٤) .

قال العلماء :

إن من أدب الاستماع ، سكن الجوارح والأعضاء ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وجسور القلب ، والعزم على العمل .

١٤- إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

إنه نداء علوى إلهى من رب كريم تفضل على أحد خلقه فكلمه تكلما ، وعلمه تعليما ؛ فالكبرياء له وحده ، والعظمة له وحده ، فالعبد يحسن به التواضع ، وإذا فعل كل شئ كان كأنه لم يفعل شيئا ، أما الرب فهو وحده الذى يحق له الحمد والشكر ، والعظمة والكبرياء ؛ فهو وحده الواحد الأحد ، الخالق الرازق المهيمن المبدئ المعيد ، الواجد الماجد .

إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا . أَنَا المستحق للعبادة لَا إِلَهَ غَيْرِي ، أَنَا الله خالق الكون والحياة والإنسان وسائر الموجودات ، لَا إِلَهَ سِوَايَ ، لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخَلْقِ غَيْرِي .

إِنِّي أَنَا اللَّهُ . لإثبات الألوهية لله وحده ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا . لنفي الألوهية عن كل ما سواه ، والمقصود : إثبات عقيدة التوحيد ، واليقين الجازم بأن التصرف في هذا الكون كُلُّهُ بيد الله وحده .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على بغلته فقال لى : «يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بهن في الدنيا والآخرة ؟» قلت : بلى يا رسول الله علمنى ، فقال : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ؛ ما ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف» (٣٧) .

فَاعْبُدْنِي .

أى : وَإِذْ كُنْتَ أَنَا إِلَهًا وَحْدَى وَلَا مَعْبُودَ سِوَايَ ؛ فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

ادخل فى الصلاة بالخشوع والخضوع ، وحضور القلب وذكر الله ودعائه ، والتوجه إليه دون سواه .

وخص القرآن الصلاة هنا ؛ لأنها صلة بين العبد وربّه ، وسيلة للطهارة الحسية والمعنوية ، وباب من أبواب الرفعة ؛ حين يتطهر الإنسان الفانى ، ويكبر ويدخل فى الصلاة فيناجى الإله الباقي ، ويكبر ويسبح ويحمد خالقه ، ومن له الحمد فى الأولى والآخرة ؛ ولذا فإن الصلاة أفضل أركان الدين بعد التوحيد .

قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي .

وقال سبحانه : أَتَىٰ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ

أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . (العنكبوت : ٤٥) .

١٥ - إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ .

إن الساعة قادمة لا محالة ، والموت قادم ما فى ذلك شك ؛ كُلُّ نَفْسٍ دَاقَتْهُ الْمَوْتُ ... (ال عمران : ١٨٥) .

وقد أخفى الله الساعة ومعرفة الأجل ؛ حتى يجتهد الإنسان ، ويعمل الأعمال الصالحة ؛ وهو مطلق السراح فى هذه الدنيا فيكون الجزاء عادلا ، ولو علم الناس وقت موتهم ، فربما أسرفوا فى الشهوات فى حياتهم ، ثم تابوا واستقاموا قبل موتهم ؛ لذلك أخفى الله علم الساعة ، وميعاد الموت ؛ وإن كانت هناك النذر مثل الشيب ، وكبر السن ، والمرض ، وموت الأقران ، وقد يأتى الموت فجأة ، قال تعالى : وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٤) .

وقال بعض المفسرين :

إن الساعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسى ، فكيف أطلعكم عليها .

قال المبرد :

وهذا على عادة العرب ، فإنهم يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشيء : كتمته حتى من نفسى ، أى : لم أطلع عليه أحدا .

قال الطبرى فى تفسير الآية :

والذى هو أولى بتأويل الآية من القول ، قول من قال : معناه : أكاد أخفيها من نفسى ؛ لأن المعروف من معنى الإخفاء فى كلام العرب الستر ، يقال : أخفيت الشيء ؛ إذا سترته ، وإنما اخترنا هذا القول على غيره ؛ لموافقته أقوال أهل العلم من الصحابة والتابعين .

وجاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن عباس :

أَكَادُ أَخْفِيهَا . أى : لا أطلع عليها أحداً غيرى ، وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود (إنى أكاد أخفيها من نفسى) يقول : كتمتها من الخلائق ، حتى لو استطعت أن أكتبها من نفسى فعلت .

قال قتادة : لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء والمرسلين ، قلت : وهذا كقوله تعالى : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ... (النمل : ٦٥) . وقال تعالى : ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ ... (الأعراف : ١٨٧) . أى : ثقل علمها على أهل السماوات والأرض .

يُخْرِجُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ؛ لتنال كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

١٦ - فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى .

قال ابن كثير :

الخطاب لموسى والمراد به : آحاد المكلفين ، أى : لا تتبعوا من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه فى دنياه ، وعصى مولاة واتبع هواه ؛ فمن وافقهم فى ذلك ؛ فقد خاب وخسر . فتردّى . أى : تهلك وتعطب ، قال الله تعالى : وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى . (الليل : ١٦) .

والآيات السابقة من من الله على عبده ، وهى دعوة إلى التوحيد وإخلاص العبادة لله ، وإقامة الصلاة كاملة الأركان ، عامرة بالخشوع وحضور القلب ، فالساعة قادمة ، والموت حق ، وسيجزى كل إنسان جزاء عمله ، ولا ريب أن موسى قد نسى نفسه ، واستغرق فى سماع النداء الإلهى ، ثم أفاق على سؤال لا يحتاج إلى جواب .

★ ★ ★

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تُسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ ﴾

المفردات :

أتوكأ عليها : أعتمد عليها فى المشى ، والوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك .

وأهش بها : أخطب بها ورق الشجر اليابس ؛ ليسقط ، فترعاه أغنامى .

مآرب : منافع ، واحدها : مأربة (مثلثة الراء) .

الحيئة : تطلق على الصغير والكبير ، والذكر والأنثى من هذا النوع ، الثعبان : العظيم من الحيات ،

الجان : الصغير من الحيات .

سيرتها الأولى : حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه ثم عاد إليه : عاد سيرتها الأولى ، فلان سيرته الأولى .

التفسير :

١٧ - وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَى .

إنه سؤال تمهيدى من الحق سبحانه وتعالى ؛ يسأله عما يحملة فى يمينه أليست عصا عادية ، أبعد ما

تكون عن الحياة . إن قدرة الله تعالى قادرة على أن تدبّ فيها الحياة ، وأن يضرب بها البحر عند الحاجة إلى الطرق اليابسة للمشى فيه ، وأن يضرب بها الحجر عند الحاجة إلى نبع المياه منه .

وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ .

قال بعض المفسرين :

إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له ، فى هذا الموقف الرهيب ، وقيل : إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أى : أمّا هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها : فسترى ما نصنع بها الآن . وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يٰمُوسَىٰ . استفهام تقرير .

١٨ - قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنزَكُونَا عَلَيْهَا وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مُثَارِبٌ أُخْرَىٰ .

أى : الذى بيمينائى هو عصاى أَنزَكُونَا عَلَيْهَا . أى : أعتد عليها ؛ لتساعدنى فى حال السير ، وَاهْبُشْ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي . وأضرب بها الشجر اليابس ؛ ليسقط فترعاه أغنامى .

قال الإمام مالك : الهش : أن يضع الرجل المحجن فى الغصن ، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره ، ولا يكسر العود فهذا الهش ولا يخط .

وَلِي فِيهَا مُثَارِبٌ أُخْرَىٰ . أى : مصالح ومنافع أخرى غير ذلك . وقد أجمل عليه السلام فى المآرب ، رجاء أن يسأله ربه عنها ؛ فيسمع كلامه مرة أخرى ، ويطول الحديث ، والنجاء والمناجاة ، فما أجمل فى أن يناجى عبد ربه ، وأن يتفضل الرب باستماع عبده .

١٩ ، ٢٠ - قَالَ أَلْقَهَا يٰمُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ .

أى : قال الله لموسى : ألقها وارم بها على الأرض ؛ لترى من شأنها ما ترى ، فلما ألقاها ؛ صارت فى الحال حية عظيمة تسعى وتضطرب ، تبتلع الصخرة ، وتأكّل الشجرة ، وتلتهم ما يقابلها فى سرعة وقوة .

قال المفسرون :

لما رأى موسى هذا الأمر العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر ؛ عند رؤية الأهوال والمخاوف ؛ لاسيما هذا الأمر الذى يذهب بالعقول ، وإنما أظهر الله له هذه الآية وقت المناجاة ؛ حتى يأنس بهذه المعجزة ، وحتى لا يفزع إذا شاهدها أمام فرعون ؛ لأنه يكون قد تدرب وتعود عليها .

٢١ - قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى.

والسياق هنا لا يذكر ما ذكر في سورة أخرى من أن موسى عندما رأى الحية هائلة كبيرة ولّى مدبراً قال تعالى: وَأَنَّ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُهْزَتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ. (القصص: ٢١)؛ لأن سياق السورة سياق أمن ورحمة وطمأنينة فقال الحق هنا: قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى. وفي سورة أخرى: إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ. (النمل: ١٠). أى: أنت رسول كريم، ستحمل رسالة كلها أمن وأمان وتحمل تبعات.

ومعنى خُذْهَا وَلَا تَخَفْ. أى: خذ عصاك ولا تخف منها؛ فهي معجزة لك، تخيف غيرك، ولا تخف منها؛ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى. سترجعها إلى الحالة التي كانت عليها من قبل؛ عصا تمسكها؛ فأقدم على ذلك برياطة جأش دون تردد ولا زعر.

فائدة

ذكر الله هنا عن العصا: أَنَّهَا تَحُولَتْ إِلَى حَيَّةٍ تَسْعَى. وذكر في سورة الشعراء: أَنَّهَا تَحُولَتْ إِلَى نُعْبَانٍ مَبِينٍ. (الشعراء: ٣٢)

وقال في سورة أخرى: نُهْزَتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ. (القصص: ٢١) والجان هو الحية الصغيرة الجسم، وهى أقدر على سرعة الحركة ولا تنافى بين هذه الصفات؛ لأن الحية اسم جنس يطلق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والثعبان؛ هو العظيم منها، والجان؛ هو الحية الصغيرة الجسم، السريعة الحركة؛ فالحية كبيرة الجسم، لكنها فى سرعة الحركة شَبَّهَتْ بالجان فى هذه الخاصية وهى سرعة التحرك، فاجتمع لها ضخامة الجسم مع سرعة الحركة التى يُمَتَّعُ بها الصغير.

﴿وَأَضْمُكُمْ يَدَكُمْ إِلَى جَنَاحِكُمْ فَخُذْ بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (٢٢) ﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ (٢٣) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (٢٥) ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ (٢٦) ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ (٢٧) ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٢٨) ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي﴾ (٢٩) ﴿هَؤُلَاءِ أَخِي﴾ (٣٠) ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ (٣١) ﴿وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (٣٢) ﴿كَتَبْنَا بِكَ كَثِيرًا﴾ (٣٣) ﴿وَنَذَرُكَ كَثِيرًا﴾ (٣٤) ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِئَاثِمًا﴾ (٣٥) ﴿

المضردات :

الضم : الجمع .

يدك إلى جناحك ، ككك تحت عضدك ، وأصل الجناح للطائر ، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب ، وهو المراد هنا .

السوء : المرض أو البرص .

آية أخرى : معجزة ثانية غير العصا .

طغى : تجاوز الحد في عتوه وتجبره .

اشرح لي صدري : وسعه لتحمل أعباء الرسالة .

ويسر لي أمري : سهل لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة .

واحلل عقدة من لساني : أزل ذلك التعقد والحبسة التي في لساني ؛ لنلا يستخف بى الناس ، ولا يستمعوا لكلامى .

يفقهوا قولى : يفهموه .

وزيرا : معينا .

الأزر : القوة ، يقال : آزره ، أى : قواه وأعانه .

أشركه في أمري : اجعله شريكا لي في النبوة والرسالة .

بصيرا : عليما بأحوالنا ، لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

تمهيد :

تحدث الآيات عن معجزة موسى الثانية ، وهى اليد إذا وضعها فى جيبه وأخرجها ؛ خرجت كأنها

ضوء القمر ؛ ثم دعاء موسى ربه أن يشرح صدره ، وأن ييسر أمره .

التفسير :

٢٢ - وَأَحْمُمُ بِذَلِكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ أُخْرَى .

أى : أدخل يدك تحت إبطك ثم أخرجها تخرج بيضاء مضيئة كضوء الشمس والقمر ، من غير عيب ولا برص .

عَايَةُ أُخْرَى . معجزة ثانية بعد معجزة العصا .

٢٣ - لِيُرِيَنَّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى .

كى تشاهد عظيم سلطاننا ، وكامل قدرتنا ، وبديع تصرفنا فى ملكوت السماوات والأرض .

٢٤ - أَذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .

أى : اذهب إلى فرعون رسولا ، وادعه إلى عبادتى ، وحذره نعمتى ؛ فإنه قد تجاوز قدره ، وتمرد على ربه حتى تجاسر على دعوى الربوبية : وقال : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . (النازعات : ٢٤) .

أخرج ابن أبى حاتم : عن وهب بن منبه : أن الله قال لموسى : «انطلق برسالتى ، فإنك بسمعى وعينى ، وقد ألبستك جنة من سلطانى ؛ لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكبرى ، وغرته الدنيا عنى ، فبلغه رسالتى ، وادعه إلى عبادتى ، وتوحيدي وإخلاصى ، وذكره أيامى . وحذره من نعمتى وبأسى ، وقل له فيما بين ذلك قولا ليذا ؛ لعله يتذكر أو يخشى» (١٧) .

٢٥ ، ٢٦ - قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي .

أى : دعا موسى ربه ، حين علم بالمهمة العظيمة التى سيتوجّه إليها ؛ فإنه كان فى مصر وقد شاهد جبروت فرعون وظلمه وبطشه ؛ فطلب من الله العون فقال : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . اجعلنى رابط الجأش ؛ حتى لا أخاف سواك ، ولا أرهب غيرك ، فأعطنى الهمة والعزيمة ، وألهمنى التوفيق والقبول ، واجعلنى محبا لتبليغ الرسالة ، وهون على الصعب ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . اجعل بركتك معى ، وعونك لى ، وسهل على القيام بما تكلفنى به من تبليغ الرسالة ؛ فإن لم تكن أنت عونى ونصيرى ، وعضدى وظهيرى وإلا فلا طاقة لى بذلك .

٢٧ ، ٢٨ - وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لَسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي .

يسر لى القول والبيان ، واجعل لسانى فصيحاً ، وقولى واضحاً ؛ حتى يفهمه الآخرون ويستوضحوا معناه ومبناه .

روى : أنه كانت بلسانه حبسة تمنعه من الاسترسال في الكلام ؛ وكان هارون عليه السلام هادئ الطبع ، فصيح اللسان ، ثابت الجنان ، هادئ الأعصاب ، وكان موسى عليه السلام انفعاليا ، حاد الطبع سريع الانفعال .

٢٩ ، ٣٠ - وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰذُونَ أَخِي .

أى : واجعل لى معينا من أهل بيتى ، هارون أخى ؛ ليحمل معى أعباء الرسالة ، ويكون ظهيراً لى عند الشدائد ، وحلول المكاره .

٣١ ، ٣٢ - أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى * وَأَشْرِكُهُ لِيْ أَمْرَى .

أى : أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، حتى نتعاون على أدائها ، على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

٣٣ ، ٣٤ - كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا .

أى : إني طلبت أن يكون أخى هارون رسولا معى ؛ ليعاوننى فى أداء الرسالة ، وليكون عوناً لى فى تسبيحك تسبيحا كثيرا ، وذكرك ذكرا كثيرا ؛ فالتسبيح والذكر لله اتصال بالملأ الأعلى ، واستعانة بمن بيده الخلق والأمر . وذكر الله دواء وشفاء ، وهو سبحانه جليس من ذكره ، ومعين من استعان به ؛ قال تعالى :
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ . (الأحزاب : ٣٥) .

٣٥ - إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا .

إنك مطلع وشاهد ، عليم بأحوالنا ، وشدة حاجتنا إلى ما طلبناه منك .

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 أَمْرَكَ مَا بُوْحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي
 وَعَدُوٌّ لَهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
 أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَلْتَ فَنَسَافَ جُنُكَ
 مِنَ الْغَيْرِ ۖ وَفَنَكَ فُنُونَنَا ۚ فَأَلَيْتَ سَيِّدِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾
 وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ﴿٤٢﴾

المضردات :

السُّؤْلُ : بمعنى المسئول ، كالخبز بمعنى المخبوز .

مَنَّنَا : أنعمنا .

مَرَّةً أُخْرَى : فى وقت آخر غير هذا الوقت .

أَوْحَيْنَا إِلَى أَمْرِكَ : ألهمناها ما يلهم مثل : وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ . (النحل : ٦٨) .

أَقْذِفِيهِ : ألقيه واطرحيه .

السَّاحِلُ : البحر والمراد به هنا : نهر النيل .

السَّاحِلُ : الشاطئ .

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي : تربي وتغذى بحفظى ورعايتى .

يَكْفُلُهُ : يضمه إلى نفسه .

تَقَرَّ عَيْنُهَا : تسر .

الْفَتُونُ : الكدر الناشئ من خوف شئ أو فوات مقصود .

الْفَتُونُ : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ، ثم تخليصه منها .

لَسِبْتُ : أقمت .

مَدْيَنَ : بلد بالشام .

جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ : موعد وقت مقدر للرسالة .

تمهيد :

أجاب الله دعاء موسى ، وذكره بنعم الله السابقة عليه فى : نجاته من الذبح ، والقاء المحبة عليه صغيرا فكل من رآه أحبه ، والتقاط آل فرعون له ، ورجوعه إلى أمه ، وتربيته فى بيت فرعون ، وقتله للقبلى خطأ ، وذهابه إلى أرض مدين عشر سنين ثم عودته ؛ على تقدير من الله لتلقى الرسالة .

التفسير :

٣٦ - قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يٰمُوسَى .

فى جملة واحدة أجاب الله دعاءه فى جميع ما طلب متفضلا ، متحننا ، كريما ، مجيبا . أى : قال الله لموسى : قد أعطيتك جميع ما سألتنى عنه من : شرح صدرك ، وتيسير أمرك ، وحل عقدة لسانك ، وجعل أخيك هارون وزيراً لك ، وشذ أنرك به ، وإشراكه فى الرسالة معك .

٣٧ - وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ .

تفضلنا عليك بالنعم والمنن والرعاية والعناية : بدون سؤال . ومن يُعطى بدون سؤال ، ويملك كفاحاً بدون حجاب ، ويرعاك صغيراً ، وينجيك من المهالك ، وييسر لك الرعاية والزواج والدفع ؛ أياضن عليك بإجابة ما تطلبه من أجل نجاح الرسالة والدعوة ؟!

٣٨ - إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِ مُوسَىٰ أَنِ اضْمُرُوا كُفُّوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ يَدَيَّ وَأَنْظِرُوا .

ألهمنا أمك إلهاماً ، وأوقعنا فى قلبها عزيمة صادقة ، أن أمثل طريقة لنجاتك من فرعون وجنوده ؛ أن تضحك فى صندوق .

٣٩ - أَنْ أَقْبِلْهُ فِي الثَّابُوتِ فَأَقْدِفْهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ . وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي .

إن عناية الله ومعونته إذا شملت إنساناً ؛ تهيأ له كل خير .

عناية الله إن تولت ضعيفا تعبت فى مراسمه الأقوياء

ومن هذه العناية إلهام الأم فى وقت الشدة والمحنة ، والخوف العظيم ، أن تلقى فى صندوق ، وتلقى الصندوق فى نهر النيل ، ويحملة النيل إلى شاطئ البحر ؛ حيث يجلس فرعون وزوجته ، ويطلب فرعون إحضار الصندوق وفتحه ، فإذا طفل رضيع عليه المحبة من الله ؛ فكل من رآه أحبه ، حتى هذا الطاغية الجبار

صاحب الجند والطفليان ؛ يقهره الله بحب الصبى والولوع به ، والبحث له عن مرضعه ؛ وهكذا تجمع يد القدرة خيوط الرعاية لهذا الصبى ، وتجمع بينه وبين أمه .

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نسَم فالمخاوف كلهنَّ أمان

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مَّيِّ .

ألقي الله محبته على موسى فكل من رآه أحبه ، حتى أحبه فرعون ، وأحبته امرأة فرعون ، وَقَالَتْ أَمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَئِكَ لَا تَقْتُلُونَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص : ٩) .

وَلْتَمَنَعْ عَلَى عَيْنِي .

أى : لتربى برعايتى وحفظى وحنانى فى قصر فرعون وأمام بصره ، وأنت عدوه ، ولكن ألقيت عليك المحبة ؛ فسلبت من فرعون كل عداوة ، ووفر لك كل رعاية .

٤ - إِذْ تَنَسَّى أَخْتُكَ تَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَلْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَتُفَكِّكُ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْسِي .

امتن الله على موسى بالعديد من المنن من بينها ما يأتى :

١ - إلهام أمه أن تضعه فى صندوق وأن تضع الصندوق فى البحر .

٢ - إلقاء المحبة عليه فكل من رآه أحبه .

٣ - توفيق أخته حين تتبعت الصندوق وأرشدت آل فرعون إلى من يرضعه ويرعاه .

٤ - عودته إلى أمه ؛ ليكون قرة عين لها ، وليذهب عنها الحزن .

٥ - قتل قبطيا خطأ ثم تاب إلى الله فتاب الله عليه ، ونجاه الله من القتل .

٦ - تعرّض موسى للمحن والشدائد ، وبعد أن كان فى قصر الملك ونعمته يخرج من مصر خائفا يترقب ؛ ويؤجر نفسه عشر سنين ، ويعيش غريبا .

٧ - عودته وحنينه إلى مصر ؛ ليكون على موعد مع القدر الإلهى ؛ حيث يتحمل الرسالة والنبوة .

أسمع وأرى : أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل .

هاتيهما : قابلاه وجهها لوجه .

فأرسل معنابنى إسرائيل ، فأطلقهم من الأسر .

ولا تعذبهم : لا تيقهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير .

والسلام على من اتبع الهدى : السلامة من العذاب لمن صدق بآيات الله ، الهادية إلى الحق .

توولسى : أعرض .

التفسير :

٤٢ - أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيِنِي وَلَا تَبَيَّا لِي ذِكْرِي .

يفيد السياق السابق : أن المناجاة قد انتهت ، وأن الله قد استجاب لموسى دعاءه ، وأنزل الرسالة على هارون ، وأمره أن ينضم إلى موسى فى رسالتهما إلى فرعون ، وهذا من بلاغة القرآن ، أن يترك مساحة فى القصة يفهمها السامع .

وخلصة هذه المساحة : تمت المناجاة ، واتجه موسى إلى مصر ، وأوحى الله إلى هارون أن يلتقى به ، ثم أوحى إليهما ما يأتى : أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيِنِي وَلَا تَبَيَّا لِي ذِكْرِي . اذهب يا موسى أنت وأخوك هارون بالرسالة والمعجزة ، واستعينا بذكرى وطاعتي ؛ فإن ذكر الله عون للعبد ، فى قضاء مهمته والانتصار على خصمه . ويمكن أن يطلق الذكر على تبليغ الرسالة ؛ لأنها من أعظم الذكر ، أى : لا تقصرا فى تبليغ دعوتى إلى فرعون وقومه .

٤٣ - أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ .

أى : اتجها بالرسالة إلى فرعون فإنه قد طغى وبغى وتجاوز الحد وقال : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤) .

٤٤ - قُلْ لَّهِ قَوْلًا لَّيْسَ لَنَا لَعْلَهُ نَسْذَكَّرُ أَوْ يُخْشَىٰ .

استعملا معه أسلوب الأدب والملاينة ؛ فإن ذلك أدعى أن يهدد من كبريائه ، ويحمله على النظر فى الدعوة الموجهة إليه لَعْلَهُ نَسْذَكَّرُ . وبه وخالفه فيكف عن الكفر والتكذيب ، أَوْ يُخْشَىٰ . من وقوع عذاب الله له فيؤمن بالرسالة .

وقد شرح القرآن الكريم أسلوب الدعوة إلى الله ، وحت على أن تكون بالحكمة والهدوء واللين ، والموعظة الحسنة التى ترقق القلب وتقوده إلى الحق ، قال تعالى : أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ

وَجَدْنَاهُمْ بِآلِيهِ هِيَ أَحْسَنُ... (النحل: ١٢٥). وقال سبحانه فى آيات أخرى: أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ. (النازعات: ١٧ - ١٩). أى: هل لك يا فرعون إلى طريق يزكّيك، ويظهرك ويعلى شأنك؟ وأنا أقدم لك الهداية إلى الله؛ رجاء أن تخشى عقابه وتطمع فى رحمته.

٤٥ - قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ.

أى: قال موسى وهارون: ربنا وخالقنا، إننا نخاف من فرعون، أن يعجل بعقوبتنا قبل أن يشاهد الآيات. يقال فرط فلان يفرط: إذا عاجل الآخر بالعقوبة، وأذاه بدون تمهل. ومنه قولهم: فرس فارط، أى: سابق لغيره من الخيل.

أَوْ أَن يَطْغَىٰ. يعتدى ويتجاوز الحد، فيقول فى حقك يا ربنا ما لا نريد أن نسمعه ويقول فى حقنا ما نحن براء منه، ويفعل معنا ما يؤذينا.

٤٦ - قَالَ لَا تَخَالَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ.

أى: لا تخافا من فرعون، فإن ناصيته بيدي، وأنا معكما بمعونتي وعونى، أسمع كلامكما، وأرى حواركما، وسأمنحكما معونتي وحفظى، ونصرى ومهابتى وتأييدى. وإخلاصة: لست بغافل عنكما، وإنى سأفعل ما يؤدى إلى حفظكما ونصركما عليه، فلا تأبها به، ولا تهتما بأمره.

٤٧ - فَأَتَاهُ فُقُورًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ.

أى: انهبا إلى فرعون وقابلاه وجها لوجه، وقولا له: إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ. أرسلنا الله إليك بالرسالة وهو ربنا وربك، ولا رب سواه، فدعواك الربوبية دعوى باطلة.

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ. أى: أطلق سراح بنى إسرائيل، وأوقف عذابهم؛ حيث كان يقتل الذكور منهم ويستحيى الإناث، ويسخرهم الأقباط فى الأعمال الشاقة كالحفر والبناء.

قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكَ. والمراد بالآية: الجنس فيشمل اليد والعصا وغير ذلك من الآيات.

وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ. والسلامة والأمن من العذاب فى الدنيا والآخرة؛ على من اتبع رسل ربه وآمن بأياته، واهتدى بها إلى الحق.

قال الزجاج : أى : من اتبع الهدى ؛ سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب . اهـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم ، قال : «بسم الله الرحمان الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم ، تسلم ، يوتك الله أجره مرتين»^(٩١) .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجهه ؛ بأسلوب حكيم لئِنْ فيه الموعظة الحسنة ، والتبشير والدعوة إلى الله بالتى هى أحسن ، وما أجمل طريقة القرآن ، فى دعوة الطغاة بالقول اللين ؛ تأليفاً للقلوب ، وتيسيراً للاستجابة .

٤٨ - إنا قد أوحى إلينا أن الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ .

تأتى هذه الآية تحذيراً وإنذاراً لفرعون ومعناها : أن الله قد أوحى إلينا فى الرسالة التى أرسلنا بها : أن العذاب الدنيوى والأخروى لمن كذب بالرسول وأعرض عن هدايات السماء . وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ . (النازعات : ٣٧ - ٤١) . وقال تعالى : فَأَنْذَرْنَاهُمْ نَارًا تَلْتَظِي * لَا يُصْلَسُهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . (الليل : ١٤ - ١٦) .

قال ابن كثير :

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أى : كذب بقلبه ، وتولى بفعله .

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ٥٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٥ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٥ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَاسْلَكْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٢ ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ٥٣﴾ ﴿وَمِنْهَا نَعْيِدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ٥٥﴾ ﴿

المضردات :

أعطى كل شيء خلقه ، أى : وجوده والصورة التى تناسبه ، والشكل الذى يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع ، مثل العين والأذن واليد والرجل للإنسان .

ثم هدى ، ثم عرفه كيف يرتفق ويستفيد بما أعطى له .

فما بال ، فما حال ؟

فى كتاب ، فى دفتر مقيّد فيه ، والمراد بذلك : كمال علمه ، الذى لا يضيع منه شيء .

ضل الشيء ، أخطأه ولم يهتد إليه .

ونسىه : ذهب عنه ولم يخطر بباله .

المهد : ما يمهّد للصبى ويفرش له ، أى : جعل الأرض كالمهد .

وسلك : سهل .

السُّبُل : واحدها : سبيل أى : طريق .

أزواجها : أصنافا .

شئتى : واحدها : شتيت ، كمريض ومرضى ، أى : مختلفة النفع والطعم واللون والشكل .

لآيات : لدلالات .

النهى : واحدها : نهية (بالضم) وهى العقل ، سمى بها : لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

تمهيد :

تحكى الآيات القادمة : الحوار الذى دار بين موسى عليه السلام هو وهارون من جهة ، وفرعون من جهة أخرى .

التفسير :

٤٩ - قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى .

أى : قال فرعون لموسى وهارون : من ربكما يا موسى ؟

ولم تذكر السورة كيف وصلا إليه : لأن القرآن لا يهتم بجزئيات الأحداث التى لا تتوقف عليها العبر والعظات ؛ إنما يهتم بذكر الجوهر واللباب من الأحداث .

فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى . أى : فمن هذا الرب الذى أرسلكما يا موسى . وقد جعل الخطاب هنا لموسى ؛ لظنه أن موسى هو الأصل ، وأن هارون هو وزيره ومعاونه .

٥٠ - قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

أى : أعطى كل شىء فى الكون خَلْقَهُ . أى : شكله وصورته التى تناسب الانتفاع به ؛ فالسما والارض والبحار والجبال ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسحاب والرمال ، والنجوم والشجر ، والإنسان والدواب ، والنبات وسائر المخلوقات ؛ خلقها الله على صورة تناسب الانتفاع بها .

ثُمَّ هَدَى . ثم ألهم الله المخلوقات للانتفاع بما أعطاهما الله ؛ فالإنسان مثلا هداه الله إلى الانتفاع بالعين والأذن والعقل ...

وخلاصة هذا : ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق ؛ بما قدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

٥١ - قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى .

أى : فما حال القرون الماضية كعاد وثمود ، والذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟

فأجاب موسى :

٥٢ - قَالَ عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَغَيِّرُ رُبِّي وَلَا يَنْسَى .

أى : إن هذه الأمم أفضت إلى ربها ، وهو سبحانه علّام الغيوب سجل كل شىء وكتبه ، كما قال سبحانه : هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجاثية : ٢٩) .

لَا يَفْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى .

لا يخطئ ربي في علمه ولا تخفى عليه فإنه سبحانه أحاط بكل شيء علما .

وَلَا يَنْسَى .

أى : لا ينسى شيئا ولا يفوته ولا يزول علمه عن أى شيء .

لقد حاول فرعون أن يصرف موسى ، إلى الحديث عن القرون الماضية ، التى هلكت ولم تعبد ربه ، وهل الله معرفة بهذا الماضى السحيق ، الضارب فى القدم ، وكان جواب موسى مختصرا وواضحا : إن علم ذلك إلى الله .

لَا يَفْضِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى .

أى : لا يخطئ ربي ، ولا يغيب عن علمه شيء منها .

٥٣ - الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى .

تشتمل هذه الآية على أربع نعم يبشاهدها الناس في كل مكان ، خصوصا في أرض مصر حيث يمتد النيل ، وحوله الأرض الزراعية ، وكان الأولى بفرعون أن يشكر ربه ، ويعترف فضله ، بدلا من الجحود والكفران .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا .

جعل الأرض كالمهد للطفل يحوطه ويحافظ عليه ، وكذلك الكبار يمتهدون الأرض ويستقرون عليها ، وينامون ويسافرون على ظهرها .

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا .

أى : جعل لكم فى الأرض طرقا بين الجبال والأودية : تسلكونها من قطر إلى قطر ، لقضاء مآربكم ، ونحو الآية قوله تعالى : وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . (الأنبياء : ٣١) .

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى .

فى هذه الآية تحول من الغيبة إلى التكلم ، تنويعا للكلام وتقريبا لفضل الرحمان : فقد أنزل الله سبحانه المطر حيث ساق السحاب وأنزل المطر .

فَاخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى .

أى : أخرج الله بالمطر ألوانا وأنواعا من النبات : متعددة الألوان والأشكال والطعوم ، فهذا حلو وهذا حامض وهذا مرّ . وهذا النبات أزواج ؛ منه الذكر والأنثى . قال تعالى : سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتِ الْأَرْضُ وَمِن أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . (يس : ٣٦) .

وهذا التكامل فى الخلق آية تدل على كمال القدرة ، فالإنسان والنبات والحيوان ، والكون كله أزواج ؛ فالسما والارض ، والسحاب سائب وموجب ، والشمس والقمر ، والارض والجبال ، والكواكب والأقلاق والأبراج ، حتى نجم الشعرى الكبير الهائل العظيم السرعة ؛ يسير بجواره نجم قزم يلازمه فى مداره . قال تعالى : وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى . (النجم : ٤٩) .

وكان العرب يعبدونها من دون الله ؛ فبين القرآن أن الله هو المستحق للعبادة ؛ دون سواه .

وقد ورد مثل هذه المعانى فى أوائل سورة الرعد ، قال تعالى : وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ أَنْهَارًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّتَبَدِّلَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ عَنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِوَانٌ وَغَيْرُ صِوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ لِّى الْأَكْلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد : ٣ ، ٤) .

٥٤ - كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ .

أى : كلوا من هذه النباتات ، ومن خيرات الارض المختلفة ، واتركوا أنعامكم ترعى أيضا لتستفيد ؛ وتستفيدون بها ، إن فى ذلك - أى : اللّٰع المذكرة السابقة - تمهيد الارض ، ووجود الطرق ، ونزول المطر ، وإنبات النبات أزواجا ؛ يستفيد منها الإنسان والحيوان .

فى هذه النعم آيات ودلائل على عظيم قدرة الإله الخالق ، لأصحاب العقول .

وقريب من هذه الآيات قوله تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْتُ الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبَّأْنَا غُصْنًا وَزَيْفُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَّايقَ غُلَبًا * وَلَكِنَّهَا رَبًّا * مُّتَلَعًا لَّكُمْ وَلَأَنْعَمِيكُمْ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

٥٥ - مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُبْعِدْكُمْ وَمِنْهَا نَخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

من هذه الارض خلقنا أباكم آدم ، وأنتم تبع له وفرع عنه ، وإلى الارض تعودون عند موتكم ؛ فتدفنون

فيها ، وتستقر فيها أجسامكم ، ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للحساب والجزاء . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ . (الأعراف : ٢٥) .

أخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : «منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله ، وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله» .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسٍ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

المضردات :

أبى : امتنع .

مؤوس : ميعادًا معينا .

سوى : مستويا لا جبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة .

يوم الزينة : يوم عيد لهم .

يحشر الناس : يجتمعون .

الضحى : وقت ارتفاع النهار .

التفسير :

٥٦ - وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى .

أرينا فرعون سائر الآيات والدلالات ؛ على قدرة الله تعالى ، منها الآيات الكونية فى خلق هذا الكون ؛ بما فيه من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وإنسان وحيوان ونبات ، رَبَّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه : ٥٠) . أى : أعطى كل كائن فى الكون خلقه ووجوده ثم هدها إلى أداء وظيفته ، وأراه موسى اليد والعصا ؛ لكن فرعون كذب بهذه الآيات ، ولم يصدق بها ، وأبى وأعرض عن الإيمان ؛ عتوا وعتادا . قال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤) .

٥٧ - قَالَ أَجِئْتُكُمْ لِتُخْرِجُونَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى .

أى : قال فرعون ساحرا من موسى ، مستذكرا عليه دعوته : أجئتنا بعد ما غبت عنا عشر سنين ، ثم ظهرت بيننا مدعيا : أنك رسول ليتبعك الناس ، فتكاثرتنا بهم ، وتستولى على الأرض والملك ؛ بسبب أنك قدّمت لنا أعمالا من أعمال السحر هما : اليد والعصا !

٥٨ - فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مُثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى .

سنقابل سحرك بسحر مماثل ، فحدد يوما محددا : لا نتخلف عنه نحن ولا أنت ، وحدد مكانا مستويا لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ؛ حتى لا يحرم أحد الجالسين من المشاهدة . وهنا نلاحظ أن فرعون يظهر رباطة الجأش ، والاطمئنان إلى أن نتيجة المباراة ستكون لصالحه .

٥٩ - قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحُفَى .

قال موسى : هذا الميعاد هو يوم العيد حيث كان الناس يتزينون ويلبسون أحسن الثياب ، وأن يجتمع الناس لمشاهدة المباراة صُحُفَى . وقت ارتفاع النهار ، وقبل الظهر واشتداد الحرارة .

قيل : يوم الزينة هو عيد النيروز ، وقيل : هو يوم عاشوراء .

★ ★ ★

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۖ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ۖ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا نَ لَسِحْرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرَفَيْكُمُ الْمُثَلَّىٰ ۖ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ۖ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات :

فتولى فرعون : انصرف عن المجلس .

كيد : ما يكيد به من السحرة وأدواتهم .

أتى : أتى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة .

ويهلككم : هلاك لكم .

الافـــــــتراء : الاختلاق والكذب .

يسحتكم بعذاب : يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد .

فتتنازعوهم : فتفاوضوا وتشاؤروا .

وأسرؤا التجوى : بالغوا فى إخفاء كلامهم .

بحطريقتكم الثلى : بذهبيكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها .

فاجمعوا كيدكم : اجعلوا كيدكم مجمعا عليه .

صفىــــا : مصطفين ؛ لأنه أهيأ للصدور .

أفــــلح : فاز بالمطلوب .

استعــــلى : غلب .

تمهيد :

تفيد الآيات : جهد فرعون فى جمع السحرة مع آلاتها ؛ وأن موسى وجّه نصيحته للسحرة داعيا لهم إلى الإيمان بالله ؛ وحذرهم عقاب الله الشديد للمفترين ، بيد أن السحرة قاوموا هذه النصيحة ، واتفقوا سرا بينهم قائلين : إن لنا منزلة ونظاما ينبغى أن نحافظ عليه ، وأن نقف فى وجه موسى وهارون ؛ صفّا واحداً .

التفسير :

٦٠ - قَتَلُوا فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى .

أى انصرف فرعون من المجلس ليعد خطة منظمة ؛ يجمع بها السحرة من سائر المملكة ؛ ومعهم آلاتهم ومعه العدة المعنوية ؛ والحماس ليوم اللقاء .

وفى سورة الشعراء : قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُونَ بِكُلِّ سِحَارٍ عَلِيمٍ * فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيُبْقِيَ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّكُمْ تَخِيعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَأَعْرَابٌ إِنْ كُنَّا نَخُنُّ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ . (الشعراء : ٣٦ - ٤٢) .

٦١ - قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ يَلَيْكُمُ لَا تَقْرَءُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ .

قال موسى للسحرة : إني رسول من عند الله ، وما أيدنى الله به معجزة ، وليس سحرا ؛ فلا تكذبوا

وتخلفوا الكذب ؛ وتزعموا أن ما أفعله سحراً ؛ فيستأصلكم الله بعذاب شديد ؛ فى الدنيا والآخرة ، وقد خاب وخسر دينه ودنياه من افترى ؛ ويدل الحقيقة ولم يجهز بالصدق .

٦٢ - فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا آتَجَرُوا .

بعد أن سمع السحرة نصيحة موسى لهم ، تركت أثرها فى بعضهم . روى عن قتادة : أن بعض السحرة قال : إن كان ما جاءنا به موسى سحراً ؛ فسنغلبه ، وإن كان من عند الله ؛ فسيكون له أمر . وبعض السحرة ، سمع كلام موسى ثم قال : ما هذا بقول ساحر . وبعض السحرة أخذ يحث زملاءه المترددين ، على منازلة موسى ، ومغالبة ؛ لاكتساب الجاه والسلطان . ويبدو أن هذا الفريق الأخير كانت له الغلبة .

والخلاصة : أن نصيحة موسى كانت لها أثرها فى نفوس بعض السحرة ، ولم يظهر هذا الأثر عملياً ، وإنما مهّد للإيمان فيما بعد .

وجمل معنى الآية : اختلف السحرة فى أمر موسى ، فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر ، وأخفوا ذلك عن الناس ، وأخذوا يتناجون سراً .

٦٣ - قَالُوا إِن هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقِكُمُ الْمُثْلَىٰ .

أى : قال السحرة بعضهم لبعض : إن موسى وهارون ساحران ، يريدان أن يحتلا منزلة عالية ، ومكاناً ممتازاً فى أرض مصر ، وينشران دينهما بدعوى الرسالة ، ويضيع دين المصريين الحالى ، وهو أمثل الأديان وأفضلها .

قال المفسر :

فكانت نجوهم فى تلفيق هذا الكلام وتزييره ؛ خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما ، وتبيطا للناس من اتباعهما .

وقرأ المديون والكوفيون : إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ . بتشديد حرف النون .

قال القرطبي :

وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال منها : الأول : أنها لغة بنى الحارث بن كعب وزيد وخثعم ، يجعلون رفع المثنى ونصبه وخفضه الألف (أو يلزمون المثنى الألف) وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية . اهـ . ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير القرطبي .

٦٤ - فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَغَىٰ .

فأحكموا سحركم وترابطوا وتعاونوا ، ثم اتُّوا مصطفين مجتمعين ، وألقوا ما فى أيديكم دفعة واحدة :
لتبهروا الأبصار ، وتعظم هيبتكم لدى النظارة فى هذا المشهد الحافل .

وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَغَىٰ .

وقد فاز فى هذا اليوم من غلب : فالسحرة يتناجون لتأكيد عزمهم على النصر ؛ خصوصا أن فرعون قد وعدهم بالأجر والهدايا ؛ والمنن والعطايا .

★ ★ ★

﴿ قَالُوا يَمْؤُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ٦٥ ﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ سِحْرُهُمْ أَنهَاسَتِ ٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَىٰ ٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا أَمْ آتَابِرَبِّ هَٰؤُلَاءِ وَمُوسَىٰ ٧٠ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكِيدٌ كُذِّبَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا ضَلِيلَتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ٧١ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٧٢ إِنَّمَا آتَابِرَبِّنَا لِيَعْلَمَنَّ أَنَّاهُ لَكَاظِمِينَ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ ٧٣ إِنَّهُ مِنْ يَاقَتِ رَبِّهِ مُخْرِجٌ مَا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ٧٤ وَمِنْ بَاقِيَةٍ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ٧٥ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ٧٦ ﴾

المفردات :

إيجاس الخوف : الإحساس بشيء منه .

ما فى يمينك : هى العصا ، وأبهمها : تفخيما لشأنها .

تلقف: تبتلع بقوة وسرعة .

منعوا: زوروا وافتعلوا .

كيد ساحر: كيد سحري لا حقيقة له ولا ثبات .

حيث أتى: أينما كان .

كبيركم: زعيمكم ومعلمكم .

من خلاف: من حال مختلفة ، فتقطع الأيدي اليمنى ، والأرجل اليسرى .

أشد عذابا: أدم .

نؤثر: نفضلك ونختارك .

فطرنا: ابتدعنا وأوجدنا من العدم .

فما قض: فاحكم .

جنات عدن: جنات أعدت للإقامة .

من تحتها: من تحت غرفها .

تزيغى: تطهر من أدناس الكفر ، وأرجاس المعاصي .

تمهيد :

تبين الآيات : موقف السحرة ، حين خيروا موسى بين أن يلقي بسحره ، وبين أن يبدعوا هم ، فطلب منهم البدء فألقوا حبالا وعصيا ، صارت تتحرك وتثير الرهبة والإكبار فى عين من رآها ، حتى موسى عليه السلام توجس خيفة من هول ما رأى ، لكن الله جلّت قدرته سدّد خطاه وثبّته ، وأمره أن يلقي عصاه ، فألقى موسى العصا فابتلعت حبال السحرة ، وهنا أيقن السحرة أن عمل موسى ليس سحرا ، بل هو معجزة من عند الله ، فخوروا ساجدين ، قائلين : «أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى وَتَهْدِهِمْ فرعون بالعباد الشديدي ، فلم يترددوا فى إيمانهم ؛ بل أصرّوا عليه مختارين الإيمان والنجاة فى الآخرة على كل متع الدنيا .

التفسير :

٦٥ - قَالُوا يَهُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أُولَٰئِكَ مَنْ أُلْقِيَ .

قال السحرة لموسى : لك أن تختار : إما أن تلقى أعمالك أولا ، أو أن تلقى نحن أعمالنا أولا ، وهذا من باب الإنصاف معه ، أو من باب الثقة فى أنفسهم ، لكن موسى طلب منهم أن يبدعوا هم بإلقاء ما معهم ؛ حتى يسمح لهم بإظهار سحرهم وكيدهم وفنهم ، وكل ما يملكون من عمل ، ثم يأتى بعد ذلك دور المعجزة بل قدف بالحق على الباطل فيمنعه ، فإذا هو زاهق ... (الأنبياء : ١٨) .

٦٦ - قَالَ بَلْ أَنْتُمْ أَقْوَامٌ فَإِذَا جِئَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

سمح لهم موسى أن يبدؤوا هم بإلقاء عملهم ؛ فألقى كل ساحر عصاً وحبالاً ، وكانوا جميعاً غفيرا ، وكانوا قد أودعوا الزئبق داخل الحبال والعصى ، فكانت تتحرك ويركب بعضها بعضاً ؛ وأثر هذا المنظر فى عيون الناس بالرهبة والإكبار ؛ وخاف موسى عليه السلام من هول ما رأى ؛ لكنه حبس خوفه داخل نفسه ؛ ولم يظهره أمام الناس . وفى موضع آخر يقول القرآن الكريم : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ . (الأعراف : ١١٦) .

وتفيد : أن السحرة قدموا عملاً هائلاً ، وسحراً ممتازاً ، بمقياس أهل السحر ، لكن شتان ما بين السحر والمعجزة .

٦٧ - فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى .

أى : أوجس بشيء من الخوف داخل نفسه ؛ حين فوجئ بذلك على مقتضى الطبيعة البشرية .

٦٨ - قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى .

قلنا له : هدئ روعك ؛ فإن النصر سيكون لك فى النهاية .

٦٩ - وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .

أى : ألق عصاك تبتلع حبال السحرة ، فهذه أفعال سحرة ؛ تدربوا طويلاً ، ومارسوا أعمال السحرة كثيراً ؛ حتى صاروا مهرة فى السحر ، والساحر لا يفلح ولا يفوز ، أينما كان وحيثما أقبل وأنى اتجه .

قال ابن كثير :

لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى ، حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعت ، والناس ينظرون إلى ذلك عياناً نهراً ، فلما عين السحرة ذلك وشاهدوه ؛ علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة ، واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر .

قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وآخر النهار شهداء برة .

٧٠ - فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجُودًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى .

أى : ألقى موسى عصاه فابتلعت أعمال السحرة ؛ فخر السحرة حينئذ سجداً لله رب العالمين ، لما رأوا من الآية الباهرة .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

سبحان الله ، ما أعجب أمرهم ، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود . هـ .

روى : أن رئيسهم قال : كنا نغلب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا ، فلو كان هذا سحرا : فأين الذى ألقيناه ، فاستدلوا بتغيير أحوال الأجسام ؛ على وجود الصانع القادر ، ويظهرها على يد موسى على كونه رسولا صادقا من عند الله .

إنهم أعرف الناس بالسحر ، وقد أدركوا أن ما فعله موسى ليس سحرا ، ولكنّه معجزة ، لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يؤيد بها إلا رسول مرسل من عند الله ، من أجل ذلك خروا ساجدين لله ، وقالوا : ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى .

٧١ - قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحَرَ ...

كان فرعون قد ادعى الربوبية فقال : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . (النازعات : ٢٤) . وادعى الألوهية وقال : مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي . (القصص : ٣٨) . وفوجئ فرعون بإيمان السحرة ، وسجودهم لله رب العالمين ؛ وخشى أن يمتد الإيمان إلى سائر الشعب ؛ فادعى : أنها مؤامرة ، وادعى : أن موسى هو المعلم الذى تعلموا على يديه السحر ، وأنهم يبتقوا هذا الأمر ؛ ليتظاهروا أمام الناس بأنهم غلبوا ، وهدد السحرة بالغضب والانتقام ، والعذاب الأليم .

فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلْفٍ .

أى : قال آمنتم بموسى قبل أن أعطيكم الإنزى بذلك ؛ فلاقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى من خِلْفٍ . أى : لا يكون القطع لليد والرجل عن وفاق ؛ فيقطع اليد اليمنى والرجل اليمنى ؛ فيكون للإنسان نصف كامل ، بل يريد أن ينتشر النقص فى الجسم كله .

وَلَا تَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ شَدِيدًا وَابْقَى .

أى : لأصلبنكم على جذوع النخل من باب التشهير والتنكيل .

قال ابن عباس : فكان أول من عذب بهذا العذاب .

وَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ شَدِيدًا وَابْقَى .

أى : لتعلمن أيها السحرة أننا أشد تعذيبا لكم ، وأبقى فى إنزال الهلاك بكم ؛ أننا أم موسى وربه ؟

وكأنه بهذا التهديد يريد أن يهون من كل عذاب ؛ سوى عذابه لهم .

وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى : قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِدِقْلٍ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُخْرِجُوْهُنَّ مِنْهَا أَهْلَهَا فَنَسُوْفَ نَعْلَمُوْنَ ؕ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . (الأعراف : ١٢٣ ، ١٢٤).

لكن الإيمان كان قد خالط قلوب السحرة ، فاستهانوا بكل تهديد ووعيد ، واستعدوا لكل تضحية فى سبيل الإيمان الجديد .

٧٢ - قَالُوا لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ ۖ ٱلَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوةَ ٱلدُّنْيَا .

كان السحرة قد آمنوا بالله تعالى ربا ، ويموسى رسولا ، واستقر الإيمان فى قلوبهم ، وصار يقينا لا يتزلزل ؛ فهددهم فرعون ، وطلب منهم العدول عن هذا الإيمان ؛ وإلا أوقع بهم التعذيب والصلب ؛ فاستهانوا بوعيد فرعون ، وقالوا :

لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ ۖ ٱلَّذِي فَطَرَنَا .

لن نفضلك على ما وصل إلينا وشاهدناه من المعجزات ، ومن الذى خلقنا وأوجدنا ، أو نقسم بالذى فطرنا وخلقنا .

فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ .

أى : احكم بما تشاء ، ونفذ ما تريد من وعيد ؛ فإن ذلك لن يصيب إلا أجسامنا هذه الفانية .

إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوةَ ٱلدُّنْيَا .

أى : إنك تتسلط فى هذه الدنيا وحدها ، أما الآخرة فلا سلطان لك عليها ؛ لأن الملك فيها لله وحده .

٧٣ - إِنَّا ءَأَمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَّا خَطِيئَتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسَّحْرِ ۖ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي .

جمع فرعون السحرة بالقوة والإكراه ، وبالتلذذ والترهيب .

روى الحسن : أن السحرة الذين حشدوا من المدائن ليعارضوا موسى ؛ أحضروا مكهين ، وأكروهوا على إظهار السحر ، وروى : أن رؤساء السحرة كانوا (٧٢) اثنان منهم من القبط ، والباقيون من بنى إسرائيل ، وردت هذه الرواية فى تفسير المراغى ، لكنها لا تثبت أمام النقد العلمى .

والأرجح منها ما ورد فى مختصر تفسير ابن كثير ، وهو ما رواه ابن أبى حاتم : عن ابن عباس فى قوله تعالى : وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ . قال : أخذ فرعون أربعين غلاما من بنى إسرائيل ، فأمر أن يعلموا السحر بالغرماء ،^(٧٤) وقال : علموهم تعليما لا يعلمه أحد فى الأرض ، قال ابن عباس فهم الذين آمنوا بموسى وهم الذين قالوا : ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ .

ولعل الإيمان الحقيقى بدأ فى قلوب مجموعة من السحرة ؛ ثم انضم إليهم الباقون ؛ خصوصا بعد مشاهدة المعجزات الباهرة لموسى وهارون .

وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

أى : إن الله خير لنا منك وأفضل ، وعذابه ونعيمه أبقى وأدوم .

وقد اختلف المفسرون : هل فعل فرعون بهم ما توعدهم به أو لم يفعله بهم .

رجح ابن كثير أن فرعون فعل ذلك ، ونفذه بالسحرة ؛ ليكونوا نماذج فى التضحية ؛ كما قال ابن عباس وغيره من السلف : أصبحوا سحرة وأمسا شهداء برة .

وقال الشيخ الشنقيطى فى تفسير أضواء البيان ما يأتى :

قال قوم : قتلهم وصلبهم ، وقوم أنكروا ذلك ، وأظهرهما عندى أنه لم يقتلهم ، وأن الله عصمهم منه لأجل إيمانهم بالراسخ بالله تعالى ؛ لأن الله قال لموسى وهارون : أَتَمَّا وَمَنِ اتَّبَعُكُمْ أَتَّبِعُ . (القصص : ٣٥)

٧٤ - إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى .

استرسل السحرة فى موعظة فرعون ، وتقدير الحقائق أمام عينيه ، فذكروا له : أن الناس فى القيامة فريقان :

فريق المجرمين : ولهم عذاب فى جهنم طويل ، شاق يتمنون فيه الموت ، فلا يجابون إلى طلبهم ، فهم فى حياة بائسة بائسة .

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

وقال سبحانه وتعالى : وَنَادَىٰ زُلَيْكِلَا لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبَّنَا قَالَ إِنَّكُمْ مُّكِيدُونَ . لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . (٧٧ ، ٨٧) .

وقريب من ذلك ، ما قالته زوجة صخر ، حين سئلت عنه وهو مريض ، فقالت : لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فينعى .

أما الفريق الثانى : فهو فريق المؤمنين ، وهؤلاء لهم منازل سامقة فى عليا الجنان .

٧٥ - وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى .

ومن لقى ربه مؤمناً بالله ورسله ، وبالبعث والحساب ، وعمل الأعمال الصالحة فى دنياه ، فهؤلاء لهم الدرجات العالية فى الجنة ، والجنة منازل ودرجات ، ما بين كل درجة وأخرى كما بين السماء والأرض .

أخرج الإمام أحمد والترمذى : أن رسول الله ﷺ قال : « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والغردوس أعلاها درجة ، ومنها تخرج الأنهار الأربعة والعرش فوقها فإذا سألتهم فاسألوه الفردوس الأعلى »^(١٧) .

وفى الصحيحين : « إن أهل عليين ليرون مَنْ فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء : لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء ؟ قال : « بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »^(١٨) .

وفى السنن : أن أبا بكر وعمر لمنهم ونعماً .

٧٦ - جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى .

هذه الآية تفسير للدرجات العلى ، بأنها جنات إقامة تجرى من تحت غرقها الأنهار ، ماكتين فيها وخالدين فى نعيمها خلوداً أبدياً . وذلك العطاء الجزيل جزاء من تطهر من الشرك وتخلص من دنس الكفر والمعاصى ، وآمن بالله ورسله ، وهكذا انتهت تلك المحاورة بين فرعون والسحرة بصمود السحرة ، وانتقالهم من التلقى إلى المبادرة ؛ بالموعظة الحسنة وبيان : عقوبة المكذبين وجزاء المؤمنين .

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ
دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ﴾ (٧٧) ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَفَغَشَّيْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيَهُمْ ۖ﴾ (٧٨) ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ
قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ۖ﴾ (٧٩) ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْنَحْنَاكُمْ مِنْ عُدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۖ﴾ (٨٠) ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ
غَضَبِي ۖ وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۖ﴾ (٨١) ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
ثُمَّ اهْتَدَى ۖ﴾ (٨٢) ﴿

المفردات :

السرى والإسراء : السير ليلاً .

اضرب لهم : اجعل لهم .

يبس : طريقاً يابساً لا ماء فيه .

الدرك : الإدراك والحق .

تخشى : تخاف غرقاً .

اتبعهم : تبعهم .

فغشيه من اليم ما غشيه : فغمهم وعلامهم من البحر ما علامهم ، من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله .

أضل فرعون قومه : سلك بهم مسلكاً من الضلال والخسران .

وما هدى : ما أرشدهم إلى طريق السعادة والهدى .

الأيمن : الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام .

السلى : نوع من الحلوى يسمى : الترنجيبين .

السلى : طائر شبيه بالسمانى .

لا تطغوا فيه : لا تأخذوه من غير حاجة إليه .

فيحل عليكم غضبى : ينزل بكم .

هوى : سقط وهلك .

ضفــار : كثير المغفرة والستر للذنوب .

اهــتــدى : لزم الهداية واستقام .

تمهيد :

فى الآيات السابقة تحدث القرآن الكريم عن منازلة السحرة أمام موسى ، وانتهت هذه المنازلة بإيمان السحرة ، وقد استمر موسى بعد ذلك قرابة عشرين سنة ، يعرض دعوته ورسالته ، ويشدد فرعون فى التكذيب ؛ فأرسل الله عليه ألوانا من العذاب ؛ فصلها فى سورة الأعراف ، وطوى ذكرها هنا ؛ لينتقل إلى تعديد نعم الله على بنى إسرائيل ، حيث نجى الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، وعدد نعمه على بنى إسرائيل ؛ حيث نجاهم من عذاب فرعون ، وأنزل عليهم التوراة ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ودعاهم إلى التوبة والإنابة .

التفسير :

٧٧ - وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دُرُكًا وَلَا تُخَشِّى .

عندما ضاق الأمر على بنى إسرائيل ، واشتد العذاب من فرعون ، وقالوا : أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا مَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ . (الأعراف : ١٢٩) . عندئذ أمر الله موسى أن يسير مع بنى إسرائيل ليلا .

ومعنى الآية ما يأتى :

أوحينا إلى نبينا موسى : أن اخرج مع عبادى المؤمنين ليلا ، واتجه إلى البحر الأحمر ؛ وسحاول فرعون أن يجمع جيشا كبيرا ليدركه ؛ فلا تخف من فرعون ؛ فلن يدركه ، ولا تخشى البحر فسوف يكون به اثنا عشر طريقا يابساً ، فى قلب البحر ، بقدرة الله ؛ حتى تسير كل قبيلة فى طريق .

وفى الآية جميل عناية الله بالمؤمنين ، بعد أن آمن السحرة ، وأعلنوا إيمانهم ، واستعدادهم للاستشهاد ؛ وبعد أن صبر المؤمنون طويلا ، تدخلت عناية الله ، فالقوة غير متكافئة ؛ فرعون يملك المال والجند ووسائل التعذيب ، وموسى والمؤمنون يتعرضون لليلاء ؛ عندئذ تدخلت عناية الله فقال : أَسْرِ بِعِبَادِي . وسماهم : عباد الله ؛ تعطفوا وتحننا عليهم ؛ لما أصابهم من ظلم فرعون وعدوانه ، وبشرت الآية موسى بالنصر ، ولوج الماء على طرق يابسة .

فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا .

مع اطمئنان موسى أن فرعون لن يدركه .

لَا تَخْشَى دَرَكًا . وهى جملة حالية أى لا تخف من إدراك فرعون لك من الخلف .

وَلَا تَخْشَى . من أن تفرق أنت ومن معك فى البحر من الأمام .

٧٨ - فَاتَّبِعْهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُهُمْ .

عندما علم فرعون أن موسى جمع بنى إسرائيل ، وسار ليلاً ، جمع فرعون جيشاً كبيراً وسار خلفهم فأدركهم ؛ عند شروق الشمس ، وأحس قوم موسى بالخطر ، فالتدحرج خلفهم ، والبحر أمامهم ، لكن موسى كان على ثقة من وعد الله له ، فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، فانفلق البحر وكان به طريقاً . أى : جنس الطريق ؛ لأنه كان به اثنا عشر طريقاً يابساً ، سار فيها موسى وقومه ، وأمره الله أن يترك البحر مفتوحاً ، ولما وصل فرعون وجنوده ، اشتد الحرق والغيط بفرعون ، وسار وراء بنى إسرائيل ؛ بغيا وعدوانا ، فنجى الله موسى وقومه إلى الشاطئ الآخر ، ثم أطبق البحر على فرعون وقومه ، وغشيتهم الأهوال والموت وسكرات الغرق والاختناق قال تعالى :

فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُهُمْ .

أى : أهوال لا يعلمها إلا الله ، وفى قراءة فغشيتهم من اليم ما غشاهم . أى : أمواج وهلاك وموت .

٧٩ - وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ ، وَمَا هَدَى .

وقد سلك فرعون بقومه سبيل الهلاك والدمار ؛ فكانت عاقبتهم جميعا الاستئصال والهلاك ، وكان فرعون يدعى : أنه على الرشاد ، كما ورد فى سورة غافر : قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ . (غافر : ٢٩) .

وقد أجمل القرآن هنا فى هاتين الآيتين ما فصله فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، ففى سورة الشعراء قال تعالى : وَأَوْحَيْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ خَاسِرِينَ . إِنَّ هَذِهِ لَبِئْسَ بُدْمَةٌ قَالُوا . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَلِيرُونَ . فَأَغْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ . فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَوَارَءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَضْحَبْ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ . وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ . وَإِنَّ ذَٰلِكَ لَكُمُ الْعَذَابُ الرَّجِيمُ . (الشعراء : ٥٢ - ٦٨) .

وفى سورة الدخان يقول الله تعالى: وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَقْدُوا إِلَىٰ عَبْدًا لَهُمْ إِيَّائِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَصِمُوا لِي بِقَاعَتِ لُونٍ * فَدَعَا رَبِّي أَنْ هَبْ لَوْاءً قَوْمَ مَجْرُمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * وَاتْرِكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُرُبٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَلَنَعَمَ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهَيْنِ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ . (الدخان: ١٧ - ٢٩) .

وقال تعالى: وَجَلَّوْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَ الْفَرْقَ قَالَ ءَامَنْتُ بِاللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالْفُلْكِ وَقَدْ غَضِبْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُجَسِّدُكَ بِذَنبِكَ لِيَكُونَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتْلُو عَنَّا آيَاتِنَا لِيُحْفِلُوا . (يونس: ٩٠ - ٩٢) .

٨٠ - يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَهَجَيْتُكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَّاكُمْ جَابِ الطُّورِ الْآيَمْنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى .

شرح الله سبحانه وتعالى يعدد نعمه على بنى إسرائيل ومن هذه النعم ما يأتي :

١ - أنجاهم الله من العذاب على يد فرعون ، حيث كان يقتل الذكور ويستحيى الإناث ، فيسر الله لهم الخروج مع موسى ، ويسر الله لهم طريقا يابساً فى البحر ، وأغرق فرعون وهم ينظرون إليه .

٢ - بعد النجاة من فرعون واعد الله موسى بعد أربعين ليلة قضاها صائماً قائماً ، وطلب منه أن يأتي إلى الطور؛ حيث يكون الطور عن يمينه وهو فى طريقه من مصر إلى الشام^(٨٤) : فأنزل الله عليه التوراة وفيها الهداية والنور لكم .

٣ - وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ . وهو مادة حلوة تشبه العسل ، كانت تنزل لهم على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والسَّلْوَى . طائر يشبه السمانى حول لذيذ تحمله ريح الجنوب. فيأخذ كل فرد ما يكفيه من هذا الطير .

٨١ - كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى .

أى : قلنا لهم : كلوا يا بنى إسرائيل من الطيبات ، التى رزقناكم إياها مثل المن والسلوى وغيرهما ، ولا تتجاوزوا الحدود بالإسراف ، أو استخدام النعم فى المعاصى ، أو الخروج عن الحدود التى رسمها الله لكم، فإنكم إذا خالفتم أمر الله ، وتجاوزتم حدود الله ، أنزل بكم غضبه ونقمته ، ومن نزل به غضب الله وانتقامه: فقد هلك وعُذِبَ .

٨٢ - وَإِنِّي لَفَقَارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .

إن الله سبحانه كثير المغفرة لمن تاب إلى الله ، ورجع إليه ، وداوم عمل الأعمال الصالحة ، واستمر على الهداية إلى الموت ؛ فما أسعد الإنسان الذي يتوب إلى الرحمن ، ويداوم على الأعمال الصالحة والعبادة والصلاة والزكاة ، وغيرها من الطاعات ، حال كونه على هداية وطاعة ومحبة لله تعالى .

★ ★ ★

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّا فَدَقْنَا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَصْلَحُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٤﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ يَقُومِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٥﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْ زَارَ مِن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْتَنَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٧﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٨﴾ ﴾

المضردات :

جاء على أثره ، إذا جاء لاحقاً بلا تأخير .

فتثاقومك : اختبرناهم .

أصلحهم : أوقعهم في الضلال والخرسان .

السامري : من شعب إسرائيل ، من بطن يقال له : السامرة ، واسمه موسى .

الأسف : الحزين .

الوعد الحسن : إعطاء التوراة التي فيها هدى ونور .

العهد : زمان الإنجاز .

موسى : وعدكم وإيائى بالنبات على الإيمان ، وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكليف .

بملكنا : بقدرتنا واختيارنا .

الأوزار ، الأثقال والأحمال .

القوم ، القبط .

قذفتها ، طرحناها فى النار .

جسدنا ، جثة لا روح فيها .

الخوار ، صوت العجل .

فتسى ، غفل عنه موسى ، وذهب يطلبه عند الطور .

لا يرجع إليهم قولا ، لا يرد عليهم جوابا .

لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ، لا يملك أن يجلب لهم نفعا ، أو يدفع عنهم ضرا .

تمهيد :

هذه الآيات تذكر موقفاً مؤلماً من مواقف بنى إسرائيل : حيث ذهب موسى لميعاد ربه ، ومكث أربعين يوماً صائماً قائماً ، واستخلف أخاه هارون على قومه : بيد أن الله أخبره بأن السامري ارتكب ضلالا وفتنة لقومه ، حين صاغ من الحلى بعد أن وضعت فى النار : عجلا من الذهب ، مجوقاً إذا دخل الهواء فيه ، صار له صوت وخوار كصوت العجل ، وكان المصريون قد عبدوا عجل أبيس ، فحن اليهود إلى مثل تلك الوثنية ، ولما هم القرآن ووبخهم ؛ وذكر أن هذا العجل لا يسمع ولا يجيب ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا .

التفسير :

٨٣- وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى .

أى شىء عجل بقدمك بدون قومك يا موسى ؟

كان موسى قد استخلف هارون على قومه ، ووصاهم أن يلتزموا بهدى السماء ، ولا ينحرفوا عن الصراط المستقيم ، وظن موسى أنهم ساروا على نفس الطريق ، فقال إله تعالى : هم يسرون على طريقي ، وقد أسرع فى التقدم ؛ شوقا إلى مناجاة ربى .

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى .

أسرعت إليك : لتزداد عني رضا .

وقال الزمخشري :

كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ، ثم تقدمهم ؛ شوقا إلى كلام ربه .

٨٤ - قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ آلِيٍّ أَرَىٰ وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ .

قال المراغى :

هم أولاء بالقرب منى آتون على أخرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتد بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم بها بعض الرفقة على بعض ، ... والموعود بما يسر ، يود لو ركب أجنحة الطير : ليحظى بما يبتغى ويريد .

٨٥ - قَالَ إِنَّا قَدْ قَتَلْنَا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ...

أى : ابتليناهم واختبرناهم ، بعد فراقك إياهم .

قال ابن الأنبارى :

صيرناهم مفتونين ، أشقياء بعبادة العجل ؛ من بعد انطلاقتك من بينهم .

وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ .

أوقعهم السامرى فى الضلالة ، بسبب تزيينه لهم عبادة العجل .

قال المفسرون :

كان موسى حين جاء لمناجاة ربه : قد استخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفى أثناء غيبة موسى ، جمع السامرى الحلى ثم صنع منها عجلا ودعاهم إلى عبادته ، فعكفوا عليه ، وكانت تلك الفتنة قد وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما ، اعتبروا النهار يوما ، واللييلة بمقدار يوم فكانها أربعين يوما .

٨٦ - فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَلْقَوْنَ آلَمَ بَعْدَكُمْ رَبُّكُمْ وَغَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي .

أى : رجع موسى من الطور ، بعد ما استوفى الأربعين ، وأخذ التوراة ، واصطحب معه سبعين رجلاً من النقباء ؛ كانوا أسفل الجبل ، وعادوا جميعا إلى قومه ، وكان موسى شديد الغضب والأسف والحزن ؛ بسبب عبادة قومه للعجل ، وأخذ يلومهم ويقول لهم : آلَمَ بَعْدَكُمْ رَبُّكُمْ وَغَدَا حَسَنًا ؛ بإنزال التوراة فيها الهدى والنور ؟ والاستفهام هنا للتوبيخ ، ثم قال لهم : هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد ؟! أم أردتم بصنيعكم هذا : أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتم موعدى ؟! وكانوا قد أعدوا موسى ، أن يتمسكوا بالدين ولا يحيدوا عنه ، ثم خالفوا .

فقال موسى لهم : أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ . فَنَسِيتُمْ ؟ أم تَعْمَدْتُمُ الْمَعْصِيَةَ فَأَخْلَقْتُمْ ؟!

٨٧ - قَالُوا مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ تَفَنَّنَّا فِيكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ .

أى : قال قوم موسى له : ما أخلفنا العهد والوعد ، الذى أعطيناك بالثبات على طاعة الله ، بإرادتنا واختيارنا ، ولكن غلبنا على أمرنا ، وزين لنا السامرى عملنا ، وكانوا قد حملوا أَكْدَاسًا من حلى المصريين ، استعاروها من المصريين ؛ بحجة أن لهم عيدًا يتزينون فيه بها ، ثم حملوها معهم ، وأحسوا بالإثم والذنب ؛ لوجودها معهم ، فتخلصوا منها ، وألقوا بها فى حفرة واستغل السامرى الفرصة ، وأخذ هذه الحلى فصاغ منها عجلًا ، وجعل له منافذ ، إذا دارت فيها الريح ؛ أخرجت صوتًا ، كصوت الخوار ، ولا حياة فيه ولا روح فهو جسد - ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذى لا حياة فيه - فما كادوا يرون عجلًا من ذهب يخور ؛ حتى نسوا ربهم الذى أنقذهم من أرض الذل ، وعكفوا على عجل الذهب يعبدونه .

٨٨ - فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَلَلًا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَنَّى .

أى : صاغ السامرى من هذه الحلى ، صورة عجل تدخل فيه الريح بطريقة فنية ؛ فيصبح له خوار كصوت العجل الحقيقى ، فقال القوم فى بلاهة وبلاهة : هذا العجل هو إلهكم ، ومعبودكم الذى تعبدونه ، وهو إله موسى أيضًا ؛ ولكنه غفل عنه وذهب إلى الطور ؛ لمناجاة ربه ، ونسى أن هذا هو الإله .

٨٩ - أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

أفلا يفكرون بعقولهم ، فى أن هذا العجل لا يملك لهم خطابًا ؛ فهو لا يتكلم ولا يردّ جوابًا ، ولا يملك لهم جلب منفعة ، أو دفع مضرة ، فكيف يكون إلها ؟ وهنا احتكام إلى العقل واللب والفكر ، فى أن المعبود جسد أصم ، لا يملك الكلام ولا الحركة ؛ فهو لا يرفث ولا يتحرك ، ولا يسمع ولا يجيب ، ولا ينفع ولا يضر ، فكيف يعبد من دون الله الحق ؟!

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقُومُوا إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْدُونَكُمَا مَعَكُمْ إِذْ رَأَيْنَاهُمْ ضُلُوعًا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَذَكَّرُونَ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِيَ ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا بِرَأْسِي ﴿٩٤﴾ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُنِي ﴿٩٦﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٧﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٨﴾﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٩﴾﴾

المعزجات :

فتنتم به ، وقعتم فى الفتنة والضلال .

فاتبعو موسى ، فى الثبات على الحق .

لن نبرح ، لا نزال .

عاكفين ، مقيمين .

بلحيتى ولا برأسى ، بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .

خشيت ، خفت .

ولم ترقب قولى ، ولم تراع .

فما خطبك ، ما شأنك ؟ وما الأمر العظيم الذى صدر منك ؟

بصرت بما لم يبصروا به ، (بضم الصاد فيهما) أى : علمت ما لم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له .

من أثر الرسول ، قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل ؛ فطرحتها على العجل فكان له خوار .

سولت لى نفسى ، زينت وحسنت .

لا مــــــــــــــــــــــــاس ، لا مخالطة ، فلا يخالط أحدًا ، ولا يخالطه أحدًا ، فعاش وحيدًا فريدًا .

لن تخلفه ، لن يتخلف .

لنحرقنه ، لنحرقنه بالنار أو لنبردته بالمبرد .

لننسفته ، لنذريته رمادًا .

فى اليم نسفنا ، فى البحر نذريه فلا يبقى منه عين ولا أثر .

وسع كل شيء علما ، وسع علمه كل شيء وأحاط به .

تمهيد :

تحكى هذه الآيات جهود هارون وموسى عليهما السلام ؛ فقد نصح هارون قومه بالثبات على الحق، فلم ينتصخوا ؛ فهم قوم جاوروا الوثنية وعبادة عجل أبيس ؛ فما إن رأوا عجلا جسداً له خوار ؛ حتى عادوا إلى الوثنية ، وتحكى لهم موسى لهارون ، وتلطف هارون فى الاعتذار له ، ومناقشة موسى للسامرى ، وشرح السامرى لموقفه ؛ ثم دعاء موسى على السامرى أن يعيش وحيداً طريداً ، ثم تحريق العجل وإلقاء الرماد فى اليم ؛ ليقطع عبادته وحبّه من قلوب بنى إسرائيل ، الذين ألفوا الوثنية ، حتى إنهم بعد أن فرق الله بهم البحر، ونجاهم من البحر ، ومن فرعون وإذلاله لهم ، وجدوا قومًا يعبدون أصناما ، فاقترحوا على موسى أن يجعل لهم صنما مثلهم ليعبدوه ، فاستنكر موسى قولهم ، وذكرهم بالله ، الذى فضلهم على عالمى زمانهم ، وذلك لإيمانهم بالله واتباعهم التوراة ، فلما ضلُّوا وأضلُّوا ؛ فقدوا هذا التفضيل .

التفسير :

٩٠- وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يُقْرَأْ إِنَّمَا تُفْتَنُم بِهِ ...

إن هارون رسول الله لم يقصر فى نصيحتهم ، حيث بين لهم : أن هذا العجل الذى صنعه السامرى من الذهب ، وأودع فيه الأنابيب لتحديث هذا الخوار ؛ اختبار وامتحان لكم ؛ ليظهر مدى ثبات إيمانكم ، ومدى طاعتكم لربكم .

وَإِنْ رِبْكُمْ الرِّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي .

وإن ربكم المستحق للعبادة ، هو الرحمان الخالق الرازق ، الذى نجاكم من الذل ، وأسبغ عليكم نعمه فاتبعونى فى طاعتي لله ، وأطيعوا أمرى فى الثبات على عبادة الله ، وترك عبادة العجل .

٩١- قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

قالوا : لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى ، فينظر فى الأمر ، وليس غرضهم إلا التعلل والتسويق ، والبلادة الحسية والمعنوية ، فبدلاً من شكر الله وعبادته ، والتقرب إليه واتباع هارون فى نصيحته ، نَسُوا كُلَّ النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وعادوا إلى الوثنية ، وعبادة العجل .

٩٢، ٩٣- قَالَ يَلْهَثُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعُنَ أَفْصَيْتَ أَمْرِي .

يفيد السياق : أن موسى عاد من مناجاته لله ، غاضباً أسفاً حزينا وكان قد استخلف هارون على قومه ، فاتجه موسى إلى هارون ولامه وأنبه ، حيث إنه لم يتخذ موقفاً حاسماً من الذين عبدوا العجل ، فلم يقاتلهم مثلاً ، ولم يعتزلهم : بل استمرّ مقيماً معهم ، وأمسك موسى بشعر لحية هارون ، ويشعر رأسه ، فى حدة وصرامة وانفعال ، يريد أن يلومه ويؤنبه وينكر عليه ، ويقول له : ما منعك حين رأيت كفرهم وضلالهم ، أن لا تتبعنى فى الغضب لله ، والإنكار عليهم ، والزجر لهم عن الضلال .

أَفْصَيْتَ أَمْرِي .

أخالفتنى وتركت أمرى ووصيتى ؟! يشير إلى نصيحته السابقة له التى حكاها القرآن الكريم :

وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ . (الأعراف : ١٤٢) .

٩٤- قَالَ يَتَّبِعُونَ لَنَا أَخَذَ بِلَحِيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي .

قال هارون مستعظفاً أخاه موسى : يَتَّبِعُونَ . أى : يا أخى : لا تأخذ بشعر رأسى ، ولا بشعر لحيتى ، غاضباً منى محتدداً على ، فإننى رأيت من الحكمة الصبر والانتظار والتريث : حتى تحضر أنت ، فتتدارك الموقف ، وقد خشيت أن أقاتل الكافرين ، عبادة العجل : فيتفرق الناس إلى فريقين ، ويترك ذلك من الإحن والبغضاء فى النفوس ما يترك ، وربما صعب تدارك الموقف ، إذ يترسخ النفور والبغض بين الفريقين .

وخلاصة ذلك : إننى رأيت من صواب الأمر أن أحفظ العامة ، وأدأريهم على وجه لا يختل به نظامهم ؛ ولا يكون سبباً للومك ، حتى ترجع فتتدارك الأمر بحسب ما ترى ؛ لاسيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

كان موسى عليه السلام رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة ، والتصلب في كل شيء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلاً من دُون الله ، من بعد ما رأوا الآيات العظام ؛ أن ألقى ألواح التوراة : لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة : غضباً لله واستنكافاً وحميةً ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه - وكان أفرعاً - وعلى شعر وجهه بجره إليه . ١ هـ .

وقد تحدث القرآن عن هذه المعاني في سورة الأعراف ، وأضاف هناك إحساس بعض عبَاد العجل بالندم والخجل ، وأن من أصر على عبادة العجل واتخاذها إلهاً : فله غضب وذلة في الدنيا وعقوبة في الآخرة ، وأن من تاب : تاب الله عليه .

قال تعالى : **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيْهِمْ عِجْلًا حَسَدًا لَهُ خِوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ * وَلَمَّا سَفَقَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ الْقَوْمِ اسْتَظْغَفُونِي كَاذِبُوا وَيَقْتُلُونِي فَمَا تُنصِتُونَ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّعَدُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَعَمِنُوا إِنِّي أَنْتَ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَنُوا رَجِيمٌ . (الأعراف : ١٤٨ - ١٥٣) .**

٩٥- قَالَ فَمَا خَبَّكَ يَسْلَمِي .

أى : ما شأنك وما قصتك ، وما هو الخطب الجليل الذى اقترفته يا سامرى ، وما الذى حملك عليه ؟

٩٦- قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي .

تفيد كتب التفسير : أن السامرى شاهد أثر فرس جبريل عليه السلام ، ودبّ في نفسه أن أثر الفرس لا يخالط شيئاً إلا دبّت فيه الحياة : فأخذ قبضة من أثر فرس جبريل ، وألقاها على العجل الذى صورّه من زينة القوم : فدبت فيه الحياة ، وكان له خوار كصوت العجل .

وأُنكر أبو مسلم الأصفهاني مثل هذه الروايات ؛ لأنها لا سند لها ؛ بل هي من الإسرائيليات التي أمرنا بالتوقف نحوها ، فلا نصدقها ولا نكذبها ، وأيده في ذلك الإمام فخر الدين الرازي وقال ؛ إنه أقرب إلى التحقيق ، وقد رد الإمام الآلوسي على الإمام فخر الدين الرازي ، وذكر ؛ أن رؤية السامري دون غيره لجبريل كان ابتلاء من الله تعالى ؛ ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

والأستاذ سيد قطب يورد كلام المفسرين ، الذي يفيد ؛ أن السامري رأى جبريل فأخذ قبضة من تحت قدميه ؛ أو من تحت حافر فرسه ... إلخ ثم يقول ؛ والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ما حدث ، إنما هو يحكى قول السامري مجرد حكاية .. ونحن نميل إلى اعتبار هذا عذراً من السامري وتلمصاً من تبعه ما حدث ، وأنه هو الذى صنع العجل بطريقة فنية أدت إلى هذه الفتنة .

أما تفسير المراعى فقد رجح أن المراد بالآية ما يأتى :

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .

أى ؛ قال السامري ؛ إنى عرفت ما لم يعرفه القوم ، ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

فَقَبِضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ فَبَدَّتْهَا .

أى ؛ كنت قد قبضت قبضة من أثير أيها الرسول ، أى ؛ شيئاً من أثيرك ودينك ؛ فطرحته ورائى ظهرياً ، وسرت على النهج الذى اخترته وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي . أى ؛ حسنت وزينت لى نفسى أن أعمل هذا العمل .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

قال السامري لموسى ؛ عرفت من حذق الصناعة وحيلها ما لم يعلمه بنو إسرائيل ، وصنعت لهم صورة عجل له هذا الصوت ، وقبضت قبضة من التوراة فألقيتها فى جوف العجل تمويها على الناس .

٩٧- قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا .

أذهب مطروداً معزولاً لا يمسك أحدٌ لا بسوء ولا بخير ولا تمسُ أحدٌ ، وكانت هذه إحدى العقوبات فى ديانة موسى ، عقوبة العزل وإعلان دنس المدنس ، فلا يقربه أحدٌ ، ولا يقرب أحدٌ .

وقال ؛ هام السامري على وجهه فى البادية ، لا يخالط الناس ، ولا يخالطونه ، منبوذاً مطروداً .

قالوا : وهذه الآية الكريمة أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وعدم مخالطتهم .

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ .

وإن لك موعدًا للحساب والعقاب لن يتخلف ، وهذه قراءة الجمهور ، بضم التاء وفتح اللام ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو لَّنْ تُخْلَفَهُ بضم التاء وكسر اللام ، بمعنى : لن تستطيع التخلف عنه أو الإفلات منه بل ستأتيه وأنت صاغر .

وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا .

وانظر إلى هذا العجل الذى اتخذته إلها : لنحرقنه بالنار ، ونبرده برذا ؛ ليكون رمادا ، ثم نذروه فى آيَم البحر نسفا تذرية حتى لا يبقى منه عين ولا أثر ؛ ليتعظ الأغبياء ؛ أن مثل ذلك العاجز لا يمكن أن يكون إلها ، فلو كان إلها ؛ لدافع عن نفسه ، ومنع نفسه من الإحراق والتذرية .

٩٨- إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا .

أى : هذا العجل ليس إلها إنما إلهكم حقا ، هو الله سبحانه وتعالى ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ليس هناك إله سواه . وقد اشتملت الآية على جملة إيجابية تثبت الألوهية لله سبحانه وتعالى ، وعلى جملة منفية تنفى الألوهية عن غيره وهى تذكرنا بما ورد من قوله تعالى فى بدايات سورة طه : إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . (طه : ١٤) .

وقد اتجه موسى بهذا الكلام إلى بنى إسرائيل توبيخا لعبدة العجل ، وتوجيها لهم إلى الدين الحق .

وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا .

وسع علمه السماوات والأرض ، وكل شيء فى الكون ؛ فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وتنتهى مع هذه الآيات ، قصة موسى مع بنى إسرائيل فى سورة طه ؛ لأن ما تبع ذلك ، هو صور من العدوان والرزائل التى ارتكبوها ، والعقوبات التى عاقبهم الله بها ، وسورة طه لمسة حنان ، ومنن من الله تعالى على رسوله محمد ﷺ ، وعلى أخيه سيدنا موسى عليه السلام .

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۖ مَنِ اعْرِضْ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ۖ﴾ ﴿٩٩﴾ خَلِيدِينَ فِيهِمْ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠١﴾ يَخْفَتُونَ يَنْتَهُمُ إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَيْسَتْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾ ﴿١٠٤﴾

المضردات :

ذِكْرًا : قرأنا ، وسمى بذلك ؛ لأن فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم .

الـوِزْر : الحمل الثقيل ، والمراد به : العقوبة التي تثقل على حاملها .

الصـوْر : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يُدعى الناس إلى المحشر ، كما ينفخ فيه فى الدنيا حين الأسفار وفى المعسكرات .

زُرْقًا : زرق الأبدان ، سود الوجوه ؛ لما هم فيه من الشدائد والأهوال .

يَتَهَافَتُونَ بَيْنَهُمْ : يخفضون أصواتهم ويخفونها ؛ لشدة ما يرون من الهول .

إِلَّا عَشْرًا : عشرة أيام .

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً : أعدلهم رأيا ، وأرجحهم عقلا .

التفسير :

٩٩- كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ...

انتهت قصة موسى ، وقد بدأها الله تعالى مخاطبا رسوله بقوله : وَهَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ... وعندما انتهت القصة ؛ أخبر الله رسوله : أنه يخبره بقصة موسى وغيرها من قصص الأمم السابقة ؛ كقصة عاد وثمود ، وقارون وأصحاب الكهف ، وأصحاب الجنة وقوم نوح وقصة زكريا ؛ ويحيى وعيسى وغيرها ، أى : نقص عليك قصص الأمم السابقة ؛ تثبيتا لفؤادك ، وتذكيرا لك وللآخرين بما أصاب المكذبين من الهلاك ، وما أصاب المتقين من النصر ؛ وليكون فى ذلك عظة وعبرة .

قال تعالى : أَفَلَمْ يَكُنْ لِي فِصْصُهُمْ غَبْرَةً لَأُتْلَىٰ عَلَيْكَ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذِي رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا .

أعطيناك ذكراً هو القرآن الكريم ؛ تفضلاً ورحمة من عندنا ، والقرآن الكريم ذكر ؛ لأنه يذكر الناس بما ينفعهم فى شئون دينهم ودنياهم ، وهو شرف للرسول ولأمته ، ولكل من آمن به .

قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

والقرآن يذكر الناس : بآلاء الله ونعمائه ، ويلفتهم إلى ما خلق الله فى السماوات وفى الأرض ، وفى أنفسهم ؛ فقيه التذكير والوعظ .

١٠٠- مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا .

من أعرض عن القرآن الكريم وصد عنه ؛ فإنه أثم مذنب ، مرتكب للوزر والذنب ، وسيحمل يوم القيامة أحمالاً ثقيلة ينوء بها كاهله ؛ عقوبة على الأوزار والآثام التى ارتكبها فى الدنيا .

قال الزمخشري :

والمراد بالوزر : العقوبة الثقيلة الباهظة ، سمّاها : وزراً ؛ تشبيهاً فى ثقلها على المعاقب ، وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفتح الحامل ، وينقض ظهره ، أو لأنها جزء الوزر وهو الإثم .

وقد ذكر القرآن الكريم : أن الكافرين يحملون يوم القيامة أوزارهم وذنوبهم على ظهورهم ، ويحملون أيضاً ذنوب الذين أضلّوهم .

قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْقِطُوا الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ . (النحل : ٢٤ ، ٢٥) .

١٠١- خَلِيلَيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا .

أى : مقيمين فى ذلك الوزر ، أى : فى عقوبته التى لا يجدون عنها محيصاً ولا انفكاكاً . ويثس الحمل الذى حملوه فى الأوزار والآثام جزء إعراضهم وتكذيبهم وكفرهم !

١٠٢- يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا .

أى : هذا اليوم هو يوم ينفخ فى الصور النفخة الثانية ؛ إيداناً بالقيام للحشر والحساب .

وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا .

وفى هذا اليوم يساق المجرمون إلى المحشر ، شاحبي الألوان ، زرق الوجوه ؛ دلالة على انحباس الدم وتجمده فى كيان الإنسان ؛ مما يعانى من ضيق وبلاء ، وقد عبر القرآن عن الكآبة والحزن الذى يظهر على وجوه الكافرين ، وفى مقابل ذلك ذرى السرور والبشر على وجوه المؤمنين ، فالوجه هو المرأة التى تظهر عليها الحالة النفسية والمعنوية للإنسان .

قال تعالى: **وَجُودَ يُؤْمِلُ نَاصِرَةً • إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةً • وَجُودَ يُؤْمِلُ بِأَسْرَةٍ • تَنْظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .** (القيامة: ٢٢-٢٥) .

وقال عز شأنه : **وَجُودَ يُؤْمِلُ مُسْفِرَةً • صَاحِبَةً مُسْتَبْشِرَةً • وَجُودَ يُؤْمِلُ عَلَيْهَا غَبْرَةً • تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ • أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ .** (عبس : ٣٨ - ٤٢) .

١٠٣- **يَتَخَلَّفُونَ عَنْهُمْ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا .**

يخفضون أصواتهم ، ويهمس بعضهم فى أذن بعض ؛ لِمَا امتلأت به قلوبهم من الرعب والذعر ؛ وبمعنى الآية قوله تعالى : **فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا .** (طه : ١٠٨) .

إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا عَشْرًا .

يقول بعضهم لبعض : ما لبثتم فى قبوركم إلا عشرة أيام ، استقصاراً للمدة ، وتعبيراً عن سرعة انقضائها ، وعن الندم على ما كانوا يزعمونه : من أنه لا بعث ولا حساب .

وقال بعض المفسرين :

المعنى : ما لبثتم فى الدنيا إلا عشرة أيام ؛ وذلك أنهم حين شاهدوا أهوال الآخرة ، وشدة العذاب ؛ استقصروا أعمارهم فى الدنيا ، ورأوا أنها قليلة قصيرة فى جانب أيام الآخرة .

قال تعالى : **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .** (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

١٠٤- **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْ لَهُمْ طَرِيقَةٌ إِنْ لَبِثُمْ إِلَّا يَوْمًا .**

إن علمنا شامل لكل شئ ، وليس تهامسهم خافيا علينا ؛ فنحن أعلم بالذى يقولونه فى مدة لبثهم ؛ حين يقول أعدلهم رأياً ، وأكملهم عقلاً : ما لبثتم إلا يوماً واحداً .

ذلك أن الدنيا مهما تكررت أيامها : فهي قصيرة الأجل ، بالنسبة إلى الحياة الحقيقية ، والخلود الأبدى في الآخرة .

وقريب من ذلك قوله تعالى :

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُحْزِمُونَ مَا لِيُؤْتَىٰ غَيْرَ سَاعَةٍ ... (الروم : ٥٥) .

وقال سبحانه : كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى . (النازعات : ٤٦) .

وقال تعالى : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَاقِلِينَ . (المؤمنون : ١١٢، ١١٣) .

★ ★ ★

﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ۖ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات :

ينسفها : يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا .

يذرهما : يتركها .

القاع : الأرض التي لا بناء فيها ولا نبات .

الصفصف : الأرض الملساء .

العوَج : الانخفاض .

الأمست : النواء اليسير .

الصداسى : هو داعى الله إلى المحشر .

لا عوج له : لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليعلم الجميع .
خشعت : ذلت .

الهمس : الصوت الخفى .

عنت : خضعت وانقادت ، ومن ذلك العانى وهو الأسير .

القيوم : القائم بتدبير أمور عباده .

خاب : خسر .

من حمل ظلماً : شركاً .

فلا يخاف ظلماً : منع الثواب عن المستحق .

الهضم : النقص .

تمهيد :

تحدث الآيات عن مشاهد القيامة : فالجبال تنسف نسفاً وتصبح رماداً ، والأرض كلها تصبح ملساء مستوية ليس فيها منخفضات أو مرتفعات ، وينادى المنادى حين ينفخ فى الصور ، فيقوم الناس من قبورهم لا يتكلمون إلا همساً .

والشفاعة عندئذ لله وحده ولمن أذن له بذلك ، والله عليم بالخلق أجمعين ، ولا يحيطون بما علمه ، وقد ذلت الوجوه واستجابت لأمر الله ، وخاب الظالمون والمشركون ، أما المؤمنون فلهم جزاء كامل : لا نقص فيه ولا حيف .

التفسير :

١٠٥ - وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا .

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يا محمد ، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت الآية : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ...

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم ، واستهزاء ، وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق ، وقيل : كان السؤال من بعض المؤمنين ؛ للتعلم .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ... أى : يسألك الناس يا محمد عن الجبال : كيف تكون يوم القيامة ؟

فقل لهم : يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . أى : قل لهم : ستدك دكا وتصبح هباء تدره الرياح .

١٠٦- فَيَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا .

إن الأرض كلها تصبح مستوية : لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، والله يترك مكان الجبال قاعًا صَفْصَفًا .
والقاع : هو المكتشف من الأرض ، دون أن يكون عليه نبات أو بناء ، والصفصف : الأرض المستوية الملساء
حتى لكان أجزاءها صف واحد من كل جهة .

١٠٧- لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا .

أى : لا ترى فى الأرض بعد اقتلاع الجبال عنها : عِوَجًا مكانا منخفضا : وَلَا أَمْتًا مكانا مرتفعا :
فالأرض كلها فى ذلك اليوم مستوية ملساء : لا انخفاض فيها ولا ارتفاع ، ينكشف الناس جميعا عليها :
فلا يحجبهم منخفض أو مرتفع .

١٠٨- يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ...

فى ذلك اليوم يتبع الناس جميعا داعى الله ، إلى أرض المحشر ، لا ينحرفون عنه ولا يميلون عن
دعوته ، وقد كانوا فى الدنيا ينصرفون عن دعوة الحق ، وينصرفون عن الإسلام ، لكنهم اليوم يحشرون
خاشعين خاضعين ، وقد ظهرت على وجوه الكافرين المذلة والانكسار : من هول الحشر وويلات الحساب .

قال تعالى : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ . (القمر : ٨) .

أى : مسرعين إلى إجابة الداعى ، الذى يدعو الجميع إلى الحشر والنشر والحساب .

قيل : يناديهم بقوله : «أيها العظام البالية ، والجلود المنخرقة ، واللحوم المتفرقة .. قومي إلى ربك
للمحاسب والجزاء» ، فيسمعون الصوت ، ويقولون : لبيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك .

والخلاصة : أظهروا الاستجابة والخشوع والطاعة .

وَحُشِّنَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا .

ذلت الأصوات فى ذلك اليوم من هيئة الجبار ، فلا تسمع فى ذلك اليوم إلا صوتا خافتا لا يكاد أن يسمع .

قال ابن عباس : هو همس الأقدام فى مشيها نحو المحشر ، كما ورد فى تفسير الطبرى .

١٠٩- يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

فى ذلك اليوم ، لا تنفع الشفاعة أحدًا من الناس ، إلا لمن أذن له الرحمان فى الشفاعة ، ورضى
سبحانه قول الشافع فيمن يشفع له .

إن الشفاعة في ذلك اليوم لا تتم إلا على أساس مقبول؛ إذ يجب أن يكون المشفوع له من أهل لا إله إلا الله، كما قال ابن عباس.

أى: يجب أن يكون من أهل التوحيد، وأن تكون الشفاعة بالعدل والقسطاس المستقيم، وهذا كقوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... (البقرة: ٢٥٥).

وكقوله سبحانه: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ آذَنَ ... (الأنبياء: ٢٨).

وكقوله عز وجل: وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ إِلَّا مَن يُؤْذَنُ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرْضَى. (النجم: ٢٦).

وخلاصة القول: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمان في أن يشفع، وكان له قول يرضى.

قال عز شأنه: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا. (النبأ: ٣٨).

إنه يوم الدين أى: الجزاء العادل، فلا ظلم في ذلك اليوم، ولا مخالفة، ولا حيف؛ لأن الأمور كلها بيد الله سريع الحساب.

قال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ غَرَدٍ لَّا أُنْثِيَ بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ. (الأنبياء: ٤٧).

وقد ورد في الصحيحين: أن الموقف إذا اشتد، واشتد الزحام، ألهم الناس أن الشفاعة للأنبياء، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل واحد منهم: نفسى، نفسى؛ إن الجبار غضب اليوم غضبا شديدا لم يغضب مثله، ثم يذهبون إلى النبی محمد ﷺ، فيقول: «أنا لها، أنا لها» ثم يذهب تحت العرش فيخبر ساجداً الله تعالى، ثم يلهمه الله من الثناء على الله والحمد لله بما هوله أهل، ثم يقول سبحانه: «يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع قولك، واشفع تشفع» فذلك قوله تعالى: عَسَىٰ أَن يَنْتَكِلَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا. (الإسراء: ٧٩).

١١٠ - يَلْعَلْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.

يعلم الله تعالى ما بين أيدي عباده من شئون الآخرة وَمَا خَلْفَهُمْ من شئون الدنيا، ولا تحيط علومهم بمعلوماته عز وجل، فالخالق جميعا لا يحيط علمهم لا بذاته تعالى ولا بصفاته ولا بمعلوماته.

قال تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... (البقرة: ٢٥٥).

وقيل: المراد: لا يحيطون بمعرفة ذاته: إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله، واختاره في التسهيل.

١١١- وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا .

إنه الجلال والهيبة والخشوع، والخضوع لأمر الله في ذلك اليوم، وقد جاء الجميع في خشوع وخضوع، لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، القائم على كل نفس بما كسبت.

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ. ذلت وانقادت واستسلمت لأمر الله، وخص الوجوه؛ لأنها أشرف شيء في الإنسان، ولأن آثار المذلة أو السور تظهر كأوفى ما تكون في الوجه.

قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

المراد بالوجوه: وجوه العصاة، وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة: الخيبة، والشقوة، وسوء الحساب؛ صارت وجوههم عانية، أي: ذليلة خاضعة، مثل وجوه العناة وهم الأسارى؛ كقوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... (الملك: ٢٧).

وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا. خسر من أشرك بالله ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه.

١١٢- وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته، وهو مؤمن بربه وملائكته وكتبه ورسله؛ فلا يخاف ظُلْمًا بزيادة سيئاته، وَلَا هَضْمًا ولا بخساً ونقصاً لحسناته؛ فالإنسان يوفى جزاء عمله، ولا يظلم مثقال ذرة، وإن فعل حسنة ضاعف الله ثوابها.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكْ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء: ٤٠).

والخلاصة: أن العبد لا يواخذ بذنب لم يعمل، ولا تبطل له حسنة قد عملها.

قال تعالى: وَلَا تَرَوْا كَذِبًا يُرَىٰ وَلَا تَرَ وَاِذْرَأَةً يُرَىٰ ... (الأنعام: ١٦٤). أي: لا تحمل نفس مذنب ذنب نفس أخرى.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۖ فَتَعْلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۚ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾

المفردات :

صرفنا ، كررنا وفصلنا .

ذكرنا ، عظة وعبرة .

فتعالى الله ، تنزهه وتقدس .

الحق ، الثابت في ذاته وصفاته .

يقضى إليك وحيه ، يتم جبريل تبليغه لك .

تمهيد :

نزل القرآن بأسلوب عربى مبين ، واشتمل على صنوف البلاغة والبيان ولئن الله فيه ألوان الوعيد لعل ذلك يهدد كبرياء العصاة ، أو يذكرهم بعظمة الله . والله سبحانه وتعالى متصف بصفات الكمال ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحي .

التفسير :

١١٣- وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا .

أى : مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة ، وعلى هذا النسق أنزلنا عليك يا محمد هذا الكتاب بلغة العرب ؛ ليعرفوا أنه آية فى الفصاحة والبلاغة ، ونوعنا فى هذا القرآن من صور الوعيد ومواقفه ومشاهده ؛ لعله يستجيش فى نفوس المكذبين شعور التقوى أو يذكرهم بما سيلقون فى الآخرة ؛ لينزجروا ، ويمتنلوا ، ويفعلوا ما أمروا به ، ويتركوا ما نهوا عنه .

١١٤- فَتَعْلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ...

تنزه الله وجلّ فى علاه ، وتقدس الملك الحق ، الذى قهر سلطانه كل جبار ؛ عما يصفه به المشركون من خلقه .

وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، ...

ولا تعجل بقراءة القرآن في نفسك ، من قبل أن يتم جبريل تبليغه لك : بل استمع وانتصت وتفرغ تماما لتلقى الوحي . فإذا انتهى جبريل من تبليغه لك ، فاقرأه أنت .

قال ابن عباس :

كان النبي ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي ؛ حرصا على حفظ القرآن ومخافة النسيان ؛ فنهاه الله عن ذلك .

قال القرطبي :

وهذا كقوله تعالى : لَا تَحْرُغْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نَزْلَهُ . (القيامة : ١٦ - ١٩) . ١ هـ .

أى : إن علينا جمعه فى صدره ، وقراءته على لسانه : فإذا قرأه جبريل وانتهى من قراءته : فاقرأ أنت ، ثم إننا تكلفنا ببيان معانيه لك ، وإلهامك المعنى .

قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل : ٤٤) .

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا .

أى : سل الله : زيادة فى العلم ، دون استعجال الوحي ، وأنت مطمئن إلى ما يعطيك ، ولا تخشى عليه الذهاب : فإن ما أوحى إليك يبقى لا محالة .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقول : «اللهم ، انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار» ^(١٩) .

وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم ، زدنى إيمانا وفقها ، ويقينا وعلما .

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ (١١٦) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ (١١٧) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ (١١٨) ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ (١١٩) ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَذُكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ الْحَادِثِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ (١٢٠) ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ ثُهُمَا وَطِفِقَا بَخِيفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٢١) ﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَابَ عَلَيْهِ وَهْدَىٰ﴾ (١٢٢) ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا آئِلَتَكَ مِمَّنْ هَدَىٰ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١٢٤) ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ (١٢٥) ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَسَيِّبْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُ﴾ (١٢٦) ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِشَايَةِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٢٧)

المفردات :

العهد : الوصية يقال : عهد إليه الملك بكذا ، وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به .

من قبل : من قبل وجود هؤلاء المخالفين .

نسى : ترك .

ولم نجد له : ولم نعلم له .

العزم على الشيء : تصميم الرأي والثبات عليه .

أبى : امتنع .

تشقى : تتعب بمتاعب الدنيا وهي لا تكاد تحصى .

تظمأ : تعطش .

تضجى : تصيبك الشمس ، يقال : ضحا : إذا أصابته الشمس بحرما اللافتح .

شجرة الخلد؛ الشجرة التي إذا أكل منها الإنسان خلد ولم يمت .

لا يـبـلى؛ لا يفنى .

طفقا يخصفان؛ شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها .

غـوى؛ ضل عن الرشد ، حيث اغتر بقول عدوّه .

اجتياه؛ اصطفاه وقربه إليه .

وهـدى؛ إلى الثبات على التوبة .

عن ذكرى؛ عن الهداية بكتبي السماوية .

الضيق الشديد .

أعـمى؛ عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية .

آياتنا؛ أدلتنا .

فنسيتهـا؛ تركتها .

تنسى؛ تترك .

أسـرف؛ انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .

تمهيد :

تتناول الآية قصة آدم ، وقصة إبليس وامتناعه عن السجود لآدم ، وسوسة إبليس لآدم وحواء بالأكل من الشجرة ، ثم خروج آدم وحواء من الجنة إلى الدنيا .

التفسير :

١١٥ - وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ نَسِیَ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا .

أى : أمرنا آدم بالأكل من ثمار الجنة ، وعدم الأكل من شجرة معينة ؛ تدريباً له على الإرادة والعزيمة ، واتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات . والإنسان مخلوق من طين ، وقد نفخ الله فيه من روحه ، ويقدر تساميه وعنايته بروحه وطهارته ؛ تعلو منزلته وتشرف آدميته ، ويقدر اتباع شهوات النفس وحفظها ؛ تهبط منزلته .

وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا .

أى : نسى آدم عهدنا ، ولم نجد له ثبات قدم فى الأمور ؛ يجعله يصبر على عدم الأكل من الشجرة ؛ بل لانت عريكته ، وفترت همته بسبب خديعة الشيطان له .

من كلام المفسرين

قال في المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

المعنى : ولقد وصينا آدم ، من أول أمره ، ألا يخالف لنا أمراً ، فنسى العهد وخالف ، ولم نجد له أول أمره عزمًا وثيقًا ، وتصميماً قوياً ، يمنع من أن يتسلل الشيطان إلى نفسه بوسوسته .

وجاء في : أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي ما يأتي :

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا .

كم قال في تنزيه الأنبياء عن الذي لا يليق بمنزلتهم ، مما ينسبُ الجهله إليهم ، من وقوعهم في الذنوب عمدًا منهم إليها ، واقتحاماً لها مع العلم بها ، وحاشى الله ، فإن الأوساط من المسلمين يتورعون عن ذلك ، فكيف بالنبیین ، ولكن الباري سبحانه وتعالى بحكمه النافذ ، وقضائه السابق ، أسلم آدم إلى المخالفة ؛ فوقع فيها متمعداً ناسياً ، ف قيل في تعمله : وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ . (طه : ١٢١) .

وقيل في بيان عذره : وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ .

ونظيره من التمثيلات أن يحلف الرجل : لا يدخل داراً أبداً ، فيدخلها متمعداً ، ناسياً ليمينه ، أو مخطئاً في تأويله ، فهو عامد ناس ، ومتعلق العمد ، غير متعلق النسيان ، وجاز للمولى أن يقول في عبده : وَعَصَىٰ . تحقيراً وتعذيباً ، ويعود عليه بفضله فيقول : نَسِيَ . تنزيهاً . ولا يجوز لأحد منا أن يخبر بذلك عن آدم إلا ما ذكرناه في أثناء قول الله عنه ، أو قول نبيه ، وأما أن نبتدئ في ذلك من قبل أنفسنا ؛ فليس بجائز لنا في أبائنا الأذنين إلينا ، المماثلين لنا ، فكيف بأبينا الأقدم الأعظم ، النبي المقدم ، الذي عذره الله ، وتاب عليه ، وغفر له ^(١٧٠) .

١١٦ - وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ .

تقدم الكلام على قصة سجود الملائكة لآدم في سورة البقرة ، وفي الأعراف وفي الحجر والكهف وسيأتى في آخر سورة ص .

وقد ذكر الموضوع مجعلاً ، فالسورة لبیان الطاف الله وفضله .

ومعنى الآية :

واذكر أيها المخاطب ، وقت أن قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ؛ سجود تكريم لا سجود عبادة ؛ فامتثلوا لأمرنا ؛ إلا إبليس فإنه أبى السجود لآدم ، تكبراً وغروراً وحسداً على هذا التكریم لآدم .

وكان إبليس مقيماً مع الملائكة فَحَسِبَ منهم ، مع أنه غير داخل فيهم بل هو جنى بدليل قوله تعالى:
إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... (الكهف : ٥٠) .

قال الزمخشري :

فإن قلت : كيف صح استثنائه وهو جنى من الملائكة ؛ قلتُ : عمل على حكم التغليب ، فى إطلاق اسم الملائكة عليهم وعليه ، فأخرج الاستثناء على ذلك ، كقولك : خرجوا إلا فلانة لامرأة بين الرجال (٣١) .

ومعنى : إِلَّا إِبْلِيسَ أَيْ . أى : امتنع واستكبر .

١١٧ - قُلْنَا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزُوجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى .

أخبر الله آدم تنبيهها له ، وتحذيراً له من عدوه ، الذى امتنع عن السجود له .

والمعنى : قلنا : يا آدم ، إن إبليس عدو لك ولزوجك حواء ؛ يحاول أن يوسوس لك بالإغراء والتزيين، ومحاولة زحزحتك عن طريق الجادة ؛ فاحذر من طاعته ؛ لأنك إن أطعته ؛ أغضبت ربك ؛ فأخرجك من الجنة، التى تضمن فيها حياة هانئة ؛ لا جوع فيها ولا عرى ، ولا تعانى من شدة الحرارة أو شدة البرودة .

فإذا خرجت إلى الدنيا ؛ وجب عليك أن تشقى وتتعب فى زراعة الأرض والحصاد وإنصاج الطعام ، وسائر النفقات على نفسك وعلى زوجتك .

قال القرطبي :

وفى ذلك نعلم لنا أن نفقة الزوجة على الزوج ، فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم ، كانت كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية .

١١٨ ، ١١٩ - إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى .

إن الجنة نعيم دائم، وسعادة، وعز بلا ذل؛ فالجوع يذل الإنسان فى الباطن، والعرى يذله فى الظاهر، والظمأ حرارة الباطن ، وشدة الشمس وقوتها حرارة الظاهر .

فالجنة اجتمعت لها أسباب الأمن والسكن ، وراحة البال تمتعاً بأنواع المعاش ، وأصناف النعم : من المآكل الشهية ، والملابس البهية .

ومعنى الآية :

احذر يا آدم أن تطيع إبليس ؛ فيحل بك الشقاء ؛ بحثاً عن الطعام والرئى والكسوة والمسكن . وهذه الأمور الأربعة ، هى الأسس التى يدور عليها كفاف الإنسان فى الحياة الدنيا .

أما أهل الجنة فهم آمنون مطمئنون ؛ يصل إليهم الطعام والماء والملبس والمسكن ، مع النعيم الدائم ، والتمتع بكل مطالب الحياة الهنيئة الناعمة الدائمة .

١٢٠ - فَوَسَّوْا لِلَّهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَذْكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٌ لِّبَنِي .

الوسوسة : الخطرة الرديئة ، وأصلها من الوسواس وهو صوت الحلى ، والهمس الخفى ، والوسواس من أسماء الشيطان كما قال تعالى فى سورة الناس : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . (الناس : ١ - ٦) .

ومعنى الآية :

حدث الشيطان آدم خفية بطريقة الوسوسة ، قال : يا آدم ، هل أدلك على شجرة من أكل منها : خلد ولم يمت أصلا ، ونال الملك الدائم الذى لا يزول أبدا ؟!

وهى مكيدة لمس فيها الشيطان الموضع الحساس فى نفسه : فالعمر البشرى محدود ، والقوة البشرية محدودة ، من هنا يتطلع الإنسان إلى الحياة الطويلة ، وإلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، وآدم مخلوق بغطرة البشر ، وضعف البشر ، ولأمر مقدور ، وحكمة مخبوءة ، ومن ثم نسى العهد وأقدم على المحذور .

١٢١ - فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .

أى : أكل آدم وحواء من الشجرة ، فأنحسر عنهما نور الله الذى ألبسهما إياه ؛ كما قال ابن عباس (٩٣) .
وظهرت لهما عوراتهما ، وسميت سوءة : لأنها تسوء من تنكشف عنه .

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ .

جمهور المفسرين : أنهما أخذوا ورق التين ؛ ذلك أنه أكثر عَرَضًا من غيره ، وأخذوا يلزقان عليهما ورق الجنة ، ويشبكانه حتى يستر العورة .

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى .

أى : خالف أمر ربه بالأكل من الشجرة ؛ فأخطأ طريق الصواب ، وضلّ عن المطلوب ؛ الذى هو الخلود فى الجنة ؛ حيث اغتر بقول العدو .

قالوا : وقد سماه الله عصيانا وغواية مع صغير زلته ؛ تعظيما لها ، وتحذيرا ، وزجرا بليغا لأولاده عن أمثالها (٣٧) .

فإذا كان آدم قد خرج من الجنة بسبب ذنب واحد ؛ فكيف نطمع فيها مع كثير من الذنوب نرتكبتها ، ولا نتوب منها .

قالوا : ولكن آدم فى عصيانه كان متأولا ؛ لأنه اعتقد أن النهى عن شجرة معينة ؛ إلا عن النوع كله ، وقالوا : وتسمية ذلك عصيانا لعلو منصبه ، وقد قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، كما قالوا : إن من الأسباب التى حملت آدم على الأكل من الشجرة ؛ أن إبليس أقسم له بالله إنه له ناصح ، فصدقه آدم عليه السلام ؛ لاعتقاده أنه لا يمكن لأحد أن يقسم بالله كاذبا ، والمؤمن غر كريم ، والفاجر خب لثيم ، كما جاء فى الحديث الشريف .

واختار بعض المفسرين أن الأكل من الشجرة كان قبل النبوة ، ثم تاب الله عليه وهدى بالنبوة والرسالة .

١٢٢- ثُمَّ آتَيْنَاهُ رُؤْيًى فَنَآبَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ .

أى : ندم آدم هو وزوجته ، واعترفا لله بخطئهما ، وألهمهما التوبة ، وكلمات ودعوات كانت السبب فى قبول توبتهما قال تعالى : فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . (البقرة : ٣٧) .

١٢٣- قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْهُ وَلَا يَقْتُلْ .

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآية : اهبطوا يا آدم وحواء ، من الجنة إلى الأرض ؛ حال كون بعض نريكنم عدو للبعض الآخر ؛ بسبب التنافس فى المعاش والتجارة والحياة الدنيا .

وقال ابن كثير :

قال الله تعالى لآدم وحواء وإبليس : اهبطوا منها جميعا ، أى من الجنة كلكم .

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .

أى : آدم وذريته وإبليس وذريته ، وهذا رأى أقرب إلى ما ذكر فى القرآن كثيرا مثل قوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

فقد أعلن الله فى الملأ الأعلى للإنس والجن : أن الشيطان عدو للإنسان ؛ فليس لأحد أن يقول : إنما أخذت على غرة من حيث لا أدري ؛ فقد درى وعلم بما أعلنه الله فى الوجود كله .

بَعْضُكُمْ يَفْضَحُ عَدُوًّا .

ومع هذا الإعلان الذى دَوَّن به السماوات والأرضون ، وشهده الملائكة أجمعون : شاءت إرادة الله ، ورحمته بعباده ، أن يرسل إليهم الرسل ، وأن ينزل إليهم الكتب : دعوة إلى الهداية وإرشادًا إلى الاستقامة .

فَإِذَا يَأْتِيَكُم مِّنْهُدًى .

فإن جاءكم من جهتى الكتب والرسل لهدايتكم .

فَمَنْ أَتَّبَعَ هَٰذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

من اتبع الهدى وآمن بالله ، وعمل بكتابه وأوامر رسوله ﷺ : فلا يضل فى الدنيا ، ولا يخرج عن الهدى إلى الضلالة ، ولا يشقى فى الآخرة .

جاء فى تفسير القرطبي :

قال ابن عباس : ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه : ألا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، وتلا هذه الآية .

أخرج ابن أبى شيبه والحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: أجاز الله تابع القرآن من أن يضل فى الدنيا ، أو يشقى فى الآخرة : ثم قرأ الآية : ... فَمَنْ أَتَّبَعَ هَٰذَا فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

وروى عن ابن عباس مرفوعا إلى النبى ﷺ : «من اتبع كتاب الله : هداه الله تعالى من الضلالة فى الدنيا ووقاه سوء الحساب يوم القيامة» .

١٢٤- وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ...

من اتبع هدى الله ودينه وكتابه وشرعه : فلا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة ، ومن أعرض عن شرع الله ودينه وكتابه ، وأثر العاجلة ، فإن له معيشة ضنكا ، ضيقة مؤلمة ، وقد يوجد المال أو الجاه أو السلطان أو مظاهر الدنيا ، وهذا الإنسان الغنى أو الوجيه فى ضنك الداخل : ضنك بعده عن الله ، ضنك الخوف على المال أو الوجاهة ، ضنك الإحباط والحيرة والشقوة : حيث لم ينشرح صدره لوجى الله ودينه ، فصار قاسيا بعيدا عن الأنس بالله ، والرضى بالقضاء والقدر ، والسرور بمحبة الله ، قال تعالى : أَفَمَن كَرَّحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوْلًا لِّلْغَيْبِ قُلُوبُهُمْ مَّن ذَكَرَ اللَّهُ أَلَّا تَكُن فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى .

قال بعض المفسرين : نحشره أعمى عمى حسيا ، وهو عمى البصر ؛ عقوبة حسية على إعراضهم عن أدلة الحق ، وعن عدم النظر إليها ، واعترض آخرون عليهم بقوله تعالى : أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ... (مريم : ٣٨) . وأجابوا : بأن هناك منازل ومواقف متعددة يوم القيامة .

فالكافر في أول أمره يحشر أعمى لا يرى شيئا إلا جهنم ، وهى المصير الذى ينتظره ، وبعد فترة يبصر ليرى سوء منزلته ، وألوان العذاب الذى ينتظره .

وقال بعض المفسرين :

العمى هنا عمى البصيرة لا عمى البصر ، فهو أعمى عن كل حجة يدافع بها عن نفسه ؛ ذلك أن الله أعطاهم البصر والأذن والعقل فى الدنيا ، فلمّا لم ينظروا إلى القرآن سماع تأمل وإنصات ، ولم يفكروا فى هذا الدين ويتأملوا فيما اشتمل عليه ؛ صاروا كأنهم محرومين من هذه النعم فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة .

قال تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

قال ابن كثير فى التفسير :

ويحتمل أن يكون المراد : أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضا كما قال تعالى : وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا . (الإسراء : ٩٧) . ويؤيد ذلك الآية التى تليها .

١٢٥، ١٢٦- قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى .

أى : قال الكافر : يا رب ، لم حشرتنى أعمى عن حجتى ، وأعمى البصر وقد كنت فى الدنيا بصيرا ؛ قال الله تعالى له : «كما أتتك آياتى ورسلى وشريعتى فى الدنيا ؛ فتناسيتها وأعرضت عنها ، وعاملتها معاملة الأعمى الذى لا بصر له ، كذلك ننساك فى الآخرة كما نسينا فى الدنيا» ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : فَأَلْوَمْ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ... (الأعراف : ٥١) .

قال النيسابوري في غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٦٨/١ :

كَذَلِكَ. أى : مثل ذلك فعلت أنت ، ثم فسر ذلك بقوله : أَتُكْذِبُنَا . أى : دلالتنا واضحة مستنيرة فتبينتها . أى : تركت العمل بها ، والقيام بموجبها ، وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . تترك بلا فائدة النظر والاعتبار .

١٢٧- وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ...

أى : بمثل هذا الجزاء نجزي من أسرف على نفسه ، ودفع بها فى متهاتات الضلال .

وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ. التى عرضت عليه : إنه يحشر يوم القيامة أعمى ، ثم إن وراء هذا عذابا هو أشد من هذا العمى ، وأبقى أثرا .

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

أى : ولعذاب الآخرة فى النار ، أشد مما نعذبهم به فى الدنيا وأكثر بقاء : لأنه لا أمد له ولا نهاية .

★ ★ ★

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
النُّهَى﴾ (١٢٨) وَلَوْلَا كَيْدُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ
وَاطَّرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَعْدَنَّ عَيْنُكَ إِلَى مَامَتَعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ
رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِيبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٣٢﴾

المفردات :

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ : أفلم يبين لهم العبر ؟!

لأُولَى النُّهَى : لذوى العقول الراجعة .

لِزَامًا : لازماً لهم لا يتأخر عنهم .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه .

آتساء السليل، ساعاته .

ولا تمدن عينيك، لا تطيل النظر؛ رغبة واستحسانا .

متوئنا، جعلناهم يتلذذون بما يدركون به المناظر الحسنة، ويشمّون من الروائح الطيبة .

أزواجنا، أشكالا وأشباها .

زهرة الحياة الدنيا، زينتها وبهجتها .

لنقتنهم، لنبتليهم ونختبرهم .

وزرق ربك، ما أسخره لك .

واصطبر عليها، دم عليها .

تمهيد :

تشتمل الآيات ١٣٠ - ١٣٢ على منهج إلهي يأمر بالآتي :

١ - تسبيح الله وتنزيهه والمداومة على ذكره ، أو الصلاة المفروضة والنافلة ؛ فهذه وسيلة الرضا والرضوان .

٢ - عدم الالتفات إلى ما متع الله به الكافرين أو العصاة ؛ من زهرة الدنيا ؛ لتكون ابتلاء واختباراً ، وما عند الله خير وأبقى .

٣ - أن يأمر أهله وعشيرته وأمته بالصلاة ، ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقاً لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله ، وعظيم عطائه ، والعاقبة للمتقوى .

التفسير :

١٢٨ - أَفَلَمْ يَنْهَرْ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِينَهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي آَلِهَةٍ .

أرسل الله رسلا كثيرين إلى كثير من الأمم ، ولما كذّبت هذه الأمم رسلاها واستكبرت وأصمت آذانها عن سماع الحق ، ولم يبق فيها أمل للإيمان ؛ أهلك الله هذه الأمم ، فغرق قوم نوح بالطوفان ، وهلكت ثمود في شمال الجزيرة ، وهلك عاد في جنوب الجزيرة ، وأغرق فرعون في ماء النيل ؛ هؤلاء المكذبون كثيرون ، كانوا ينعمون ويتمتعون ، ثم يكفرون بالله ، فأهلكهم الله ، وليس هذا الهلاك بعيداً عن أي كافر ، فكيف لا يهتدون ولا يفكرون ؛ في مصير هذه الأمم السابقة ، وأن الله سبحانه يمكن أن ينزل بأهل مكة ، ما أنزله بالأمم ، والآية مبدوءة بالاستفهام الإنكارى .

والمعنى : أجهلوا فلم يهتدوا ويعرفوا حال الأمم السابقة المكذبة : كيف أهلك الله هؤلاء حال كونهم مطمئنين يمشون فى مساكنهم ، فباغتهم العذاب .

ويمكن أن يكون المعنى : أن هؤلاء المشركين من أهل مكة يملكون على قرى ثمود وعاد وأصحاب الأيكة، وغيرهم من الأمم البائدة ، ويشاهدون آثارهم ودورهم كيف هلكت وبادت ولم يبق بها أثر : أفلا يهتدون بحال هذه الأمم الهالكة ، وهم يمشون فى مساكنهم : ويمرّون عليهم فى أسفارهم إلى الشمال وإلى الجنوب.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى .

فى هذه الأمور عظة وعبرة لأصحاب العقول حتى ينتهوا عن غيهم ، ويهتدوا إلى رشدهم .

١٢٩ - وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ يُزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى .

لقد قضى الله أن يؤخر جزاء المشركين إلى الآخرة ، ومن سنة الله أن يمهّل العصاة ولا يعاجلهم فى الدنيا : رجاء توبتهم قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرٍهَا مِنْ ذَاتِهِ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا . (فاطر : ٤٥) .

كما أن الحق سبحانه أرجأ العذاب عن أهل مكة : إكرامًا لوجود محمد ﷺ بينهم .

قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٢) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

أى : لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين ، إلى مدة معينة : لجاءهم العذاب بغتة . اهـ .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

ولولا حكم سبق من ربك بتأخير العذاب عنهم إلى أجل مسمى هو يوم القيامة : لكان العذاب لازما لهم فى الدنيا ، كما لزم كفار القرون الماضية .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ٨٣٩/١٦ :

وقوله تعالى : وَأَجَلٌ مُّسَمًّى . معطوف على قوله تعالى : كَلِمَةٌ سَبَقَتْ .

أى : لولا كلمة سبقت من ربك ، وأجل مسمى : لكان لازماً ، وقدم جواب لولا على بقية الشرط للاهتمام به والإلغاف إليه .

وأن كلمة الله هي الرحمة التي رحمهم بها ؛ بفضل مقام النبي الكريم فيهم .. فلعل هؤلاء المشركين يعرفون نعمة الله فيهم ، ومقام النبي بينهم .

والأجل المسمى هو ما قدر لهم من آجال فى هذه الدنيا . ا هـ .

وذهب الكشف فى تفسير الآية إلى أن المعنى :

لكان الأخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم ، كما كانا لازمين لعاد وثمود ، ولم ينفرد الأجل المسمى ، دون الأخذ العاجل .

١٣٠ - فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

أى : إذا كان إسهال الله للمشركين ليس إهمالاً ؛ بل يؤجلهم إلى أجل مسمى ، فاصبر أيها الرسول الكريم على ما يقولون ، من كفر وتشكيك فى رسالتك ، وانشغل بذكر الله وتسبيحه وتحميديه فى أوقات متعددة ، خصوصاً قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وفى أوقات وآناء من الليل ، وفى أطراف النهار ، لعل الذكر والتسبيح يعمق الإيمان ، ويمنحك الرضا واليقين والسعادة ، وهذه أعلى وأعلى من كل ما فى الدنيا .

ونلاحظ أن بعض المفسرين فسر كلمة وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . على ظاهرها وهى التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى ، وبعضهم فسرهما بأن المراد بها : الصلاة .

فالمراد بذكر الله قبل طلوع الشمس : صلاة الصبح ، وقبل غروبها : صلاة العصر ، وآناء الليل هى : صلاة المغرب والعشاء ، وأطراف النهار : صلاة الظهر ؛ لأنه يجب عند نهاية الطرف الأول من النهار ، وابتداء الطرف الثانى عند الزوال .

وفى صحيح البخارى ومسلم ، عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ؛ فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»^(٧٤) . ثم قرأ هذه الآية : فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .

وروى مسلم وأحمد : أن رسول الله ﷺ قال : «لن يلج النار أحدٌ صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»^(٧٥) .

١٣١ - وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثِيَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ .

أعطاك الله الرسالة والنبوة ونجاح الدعوة ، وأعطاك فى الآخرة الشفاعة ، وقال سبحانه : وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . (الضحى : ٥) . وقال عز شأنه : عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) . وهو تفسير لقوله تعالى : لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ . (طه : ١٣٠) .

وهذه الآية تنهى الرسول والمراد : أمته ، عن النظر إلى ما أعطى الكفار من زهرة الدنيا ومتعها ؛ نظر إعجاب وإكبار . أمّا النظرة العاجلة غير الممدودة التى تستكشف الطريق ، وتتنظر نظراً غير ممدود ولا مستعظم فلا بأس بها .

وقال ابن كثير :

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما فيه هؤلاء المترفون ، وأشباههم ونظراؤهم من النعيم ؛ فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة ؛ لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : أَرْوَاجًا مِنْهُمْ . يعنى : الأغنياء فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم ، كما قال فى الآية الأخرى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَلِيّاتِ وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ . (الحجر : ٨٧ ، ٨٨) .

وقال فى ظلال القرآن :

وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ . من عرض الحياة الدنيا ، من زينة ومتاع ، ومال وأولاد ، وجاه وسلطان .

زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . التى تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة ، والزهرة سريعة الذبول ؛ على ما بها من رواء وزواق ، فإنما نمتعهم بها ابتلاءً ؛ لِنَفْثِيَهُمْ فِيهِ . فنكشف عن معادتهم ، بسلوكهم مع هذه النعمة ، وذلك المتاع ، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل .

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . وهو رزق للنعمة لا للفتنة ، رزق طيب خيرٌ باق ، لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن ، وما هى دعوة الزهد فى طيبات الحياة ، ولكنها دعوة إلى الاعتزان بالقيم الأصيلية الباقية ، وبالصلة بالله والرضى به ، فلا تنهوى النفوس أمام زينة الثراء ، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا ، وتبقى دائماً تحسُ حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التى تبهى الأنظار^(١٧) .

وخلاصة هذا : التنفير من الانهماك فى التمتع بزهرة الدنيا لسوء عاقبتها .

١٣٢ - وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى .

والخطاب للرسول ﷺ ، ولكل من يتأتى منه الخطاب من أمته ، أى : وأمر عائلتك وأسرتك وأمتك ، وليأمر كل مسلم أهله بالصلاة ، فما أحسن أن يتجه البيت المسلم إلى الله فى الصلاة ، إلى قبلة واحدة ورب واحد ؛ فهذا يملأ القلب بالتقوى والطهارة ، وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا . واصبر على أداء الصلاة والمداومة عليها فى خشوع وخضوع ؛ فإن ذلك سبيل العزة والكرامة ، والسعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة .

لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى .

لا تظنن أن الصلاة تشغلك عن أرزاق الدنيا ؛ فإن الرزق قد تكفل به الله تعالى . وطاعة الله وتقواه سبيل من سُبُل الرزق ؛ فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين .

قال ابن كثير :

وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى . أى : وحسن العاقبة فى الدنيا ، وفى الآخرة وهى الجنة لمن اتقى الله .

وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «رأيت الليلة كأننا فى دار (عقبة بن رافع) وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب» (٣٧) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ثابت قال : كان النبى ﷺ إذا أصابته خصاصة نادى أهله : «يا أهله ، صلوا صلوا» ، قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة (٣٨) .

وأخرج الترمذى وابن ماجة عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي ؛ أملأ صدرك غنى وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ؛ ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» (٣٩) .

إننا نتوجه بهذه الآية الكريمة إلى شباب المسلمين ، ورجالهم وفتياتهم ونسائهم ، وإلى كل مسلم ومسلمة ، نقول لهم : أقيموا الصلاة وأمروا بها أهلكم ، واصطبروا على أدائها فى خشوعها وآدابها . وهذا هو سبيل الاستقامة والنجاح والفلاح فى الدنيا والآخرة والله تعالى يقول : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ؛ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٢ ، ٣) .

أخرج مالك والبيهقى عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلّى من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلّى ، حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ، ويقول لهم : الصلاة الصلاة ، ويتلو هذه الآية : وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مِمَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْرُجَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ كُلُّ مَتَرَبِّصٍ ۖ فَتَرَوْهُمْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾

المفردات :

لَوْلَا ، هـ لا ، وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها .

آيَةً ، ع معجزة تدل على صدقه .

البَيِّنَةُ ، القُرْآن .

الصُّحُفِ الْأُولَى : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية .

نُزِلَ ، هـ نزل .

نَخْرُجُ ، ع نخرج .

مَتَرَبِّصٌ ، ع منتظر .

الصِّرَاطُ ، ع الطريق .

السَّوِيِّ ، ع المستقيم .

تمهيد :

تحكى الآيات الأخيرة من سورة طه : بعض الأقاويل الباطلة للمشركين ، ومنها : إيداعهم : أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ، ثم بين الحكمة من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وهى أن تكون حجة على العباد ، وإعذاراً من الله لعباده : حتى تنقطع معذرتهم ، ثم ختم السورة بضرب من الوعيد خلاصته : كل منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتبين المحق من المبطل .

التفسير :

١٣٢ - وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مِمَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى .

أى : قال المشركون : هـا جاء محمد بمعجزة مادية ملموسة ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى . وشفاء المرضى لعيسى : فهم يقترحون على النبى ﷺ أن يأتى بمعجزة ملموسة ، مثل تحويل الصفا ذهباً ، أو زحزحة جبال مكة ، وتفجير الينابيع والأنهار فى أرضها : حتى تنبت الزروع والثمار فى مكة مثل زروع الشام .

وقد رد عليهم الحق سبحانه ؛ بأن فى القرآن ما يكفى ويشفى ؛ فهذا الكتاب بيّن ما أنزله الله فى التوراة والإنجيل والزيور ، والصحف التى أنزلت على إبراهيم وموسى . ويكفى نزول هذا القرآن المعجزة على نبي أمى ؛ لم يقرأ كتابا ، فنزول القرآن مشتملا على أخبار القرون الأولى ، والصحف السماوية السابقة ؛ دليل على صدق محمد ﷺ ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يُكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُفَلِّى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (المعنكوت : ٥٠ ، ٥١) .

وقد أخرج البخارى ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»^(٨٠) .

وإنما ذكر ههنا أعظم الآيات التى أعطيها عليه السلام وهو القرآن ، وإلا فله من المعجزات ما لا يحُد ولا يحصر^(٨١) .

١٣٤ - وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُثَبِّحَ بِآيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نُّبْلَى وَنَخْرُجًا .

شاء الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل عليهم الكتب ؛ قطعاً لأعداء البشر يوم القيامة ؛ حتى لا يقولوا إذا أهلكهم الله بعذاب الاستئصال جزاء كفرهم وشركهم ؛ يا ربنا ، هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبّعه وننجوا باتباعه من ذل الدنيا ، وخزى الآخرة ؛

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَرُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّقَالِ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وغلاصة المعنى ؛ إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ؛ لقالوا : ربنا ، هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن تهلكنا ؛ حتى نؤمن به ونتبّعه ؛ لكن لم نهلكهم قبله ؛ فانقطعت معذرتهم^(٨٢) .

١٣٥ - قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصُّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى .

تأتى هذه الآية فى ختام سورة طه المكية ، تتوجه إلى المشركين الكافرين ؛ بهذا الإنذار الذى يقرع الأذان ، وهذا التهديد والوعيد .

ومعنى الآية : قل يا محمد لمن كذبتك ، وبخالفك ، واستمر على الكفر والعناد : أنتم تتريصون بنا ، ونحن نتريص بكم ، كلانا ينتظر ما ينزل بالآخر ، ولمن يكون الفلاح ، وإلام يؤول أمرى وأمركم ، فتريصوا وارقبوا ، فستعلمون غدا ، إذا قامت القيامة : من هو صاحب الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، أنحن أم أنتم ؟

وستعلمون من هم الذين تجنبوا الضلالة ، وامتدوا إلى ما يسعدهم فى دينهم وفى دنياهم وفى آخرتهم ، وكأن الآية تقول لهم : القيامة موعدها ، وسرى نحن وأنتم : من هو المستقيم منا والمعوج ، ومن هو المهتدى والضال ، كما قال سبحانه : وَإِنَّا أَزْهَقْنَا كَلِمَةً لِّعَلَىٰ هَٰذِهِ أَزْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (سبأ : ٢٤) .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرُ . (النمر : ٣٦) .

وقوله سبحانه : وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُؤْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا . (الفرقان : ٤٢) .

قال فى ظلال القرآن :

وعندما يصل السياق إلى تصوير المصير المحتوم الذى ينتظرهم : يؤمر الرسول ﷺ أن ينفذ يده منهم ، فلا يشقى بهم ، ولا يكره عدم إيمانهم ، وأن يعلن إليهم : أنه متريص بهم ذلك المصير ، فليتريصوا هم كيف يشاءون .

قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِيصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ .

وفى ختام تفسير سورة طه ندعو الله تعالى : أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونهاب همنا وحزننا . اللهم ، أكرمنا بالقرآن العظيم ، واجعله لنا هادياً ومرشداً وإماماً ، وأكرمنا بالقرآن فى الدنيا والآخرة . اللهم ، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفر لك ما لا نعلمه ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

خلاصة لما اشتملت عليه سورة طه

- ١ - إن القرآن أنزله الله على نبيه محمد ﷺ تذكرة لمن يخشى ، أنزله من خلق الأرض والسموات العلى .
- ٢ - قصص موسى عليه السلام فى موقف المناجاة ، والإنعام بالرسالة ، وإعطاء موسى معجزتين ، ودعاء موسى لله ، واستجابة الله دعاءه ، والتفضل عليه بنعم سابقة وتذكيره بها ؛ فقد حفظه صغيراً من القتل ، ورده إلى أمه ، وجاء من أرض مدين على قدر وميعاد .
- ٣ - مناقشة موسى وهارون مع فرعون ، وتقديم موسى أدلة الألوهية لله تعالى ؛ فهو سبحانه خالق الأكوان ، والذكر والأنثى ، وهو العليم بأحوال القرون الأولى .
- ٤ - قصة إيمان السحرة ، وتهديد فرعون لهم بالعذاب الشديد ، لكنهم صمدوا وأخلصوا لله فى إيمانهم .
- ٥ - قصة السامرى ، وصياغة عجل من الذهب له خوار ، وقوله : إن هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسى .
- ٦ - حياة السامرى منفياً منبوذاً فى البرارى والقفار .
- ٧ - صور من مشاهد القيامة حيث تنسف الجبال ، وتصبح الأرض مستوية تماماً ؛ لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وتخضع الأصوات ، وتعزى الجباه لله وحده ، فهو المالك لهذا اليوم .
- ٨ - قصة آدم عليه السلام ، وإسكانه الجنة ، ونهيهِ عن الأكل من الشجرة ، ثم وسوسة الشيطان له . واستدراجه حتى أكل آدم وحواء من الشجرة ثم خرجهما من الجنة ، ثم توبة آدم وقبولها .
- ٩ - بعض مشاهد القيامة .
- ١٠ - دعوة الرسول محمد ﷺ إلى المحافظة على الصلاة ، وعدم الاغترار بما أوتى الكفار والأغنياء من الأموال ؛ امتحاناً لهم واختباراً ، والدعوة إلى المحافظة على الصلاة ، وأمر الأسرة بالصلاة .
- ١١ - ختام السورة ، وفيه تهديد ووعيد لأهل مكة .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء السادس عشر ويليه تفسير الجزء السابع عشر

إن شاء الله

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السادس عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) رحم الله موسى لو ددت أنه كان صبر حتى يقص علينا :

رواه البخارى فى العلم (١٢٢) وأحاديث الأنبياء (٣٤٠١) والتفسير (٤٧٢٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٨٠) من حديث أبى ابن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قام موسى عليه السلام ببني إسرائيل فقتل: أى الناس أعلم؟.. الحديث» وفيه: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لو ددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما» قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى نسيانا» قال: «وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة ثم نقر البحر فقال له الخضر: ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر» قال سعيد بن جببر: وكان يقرأ: وكان إمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا، وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافرا .

(٢) إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا :

رواه مسلم فى القدر (٢٦٦١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٥ ، ٤٧٠٦) والترمذى فى التفسير (٣١٥٠) وأحمد فى مسنده (٢٠٦١٨) من حديث أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغلام الذى قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش: لأرْمَقْ أبويه طفيلانًا وكفرًا» .

(٣) لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٤٩٥) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبت للمؤمن إن الله لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له» . قال الهيثمى فى المجمع: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه إلا أنه قال: تبسم رسول الله ﷺ ثم قال ، فذكره ورجال أحمد ثقات وأحد أسانيد أبى يعلى رجاله رجال الصحيح غير أبى بحر ثعلبة وهو ثقة .

(٤) الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، وتفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨ ، ٩ ، والترمذى فى الإيمان ح ٣٦١٠ ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل بمشى فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان؟ قال : «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وتؤمن بالبعث الآخر» قال : يا رسول الله ، ما الإسلام؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رموس الناس، فذاك من أشراطها خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ» قال: الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام...» ثم انصرف الرجل فقال: «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء: ليعلم الناس دينهم» وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٥) اللهم ، أجرنى فى مصيبتى :

رواه مسلم فى الجنائز (٩١٨) ومالك فى الموطأ كتاب الجنائز (٥٥٨) وأحمد فى مسنده (١٥٩٠٩) من حديث أم سلمة أنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم مصيبة مصيبة فيقول ما أمره الله ﷻ وإننا إليه راجعون» اللهم ، أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها : إلا أخلف الله له خيرا منها» قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ قالت: أرسل إلى رسول الله ﷺ

حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له فقلت: إن لي بنتا وأنا غير فقال: أما ابتتها فندعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة .

(٦) إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته :

رواه الترمذى فى الجناز (١٠٢١) وأحمد فى مسنده (١٩٢٢٦) من حديث أبى ستان قال: دفنت ابنى ستانا، وأبو طلحة الخولانى جالس على شفير القبر فلما أردت الخروج أخذ بيدي فقال: ألا أبشرك يا أبا ستان قلت: بلى فقال حدثنى الضحاک بن عبدالرحمن بن عرزب عن أبى موسى الأشعرى: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي! فيقولون: نعم فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده! فيقولون: نعم فيقول: ماذا قال عبدي! فيقولون: حمدك واسترجع فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا فى الجنة وسموه: بيت الحمد». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب .

(٧) ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى، وعن أبى هريرة عن النبى؟ قال: «ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها: إلا كفر الله بها من خطاياها». رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب: ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سَوْأً يَجْزْ بِهِ...﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى؟ فقال: «قاربوا وسددوا». وكل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها». هذا حديث حسن غريب. ورواه البخارى فى المرضى باب: ما جاء فى كفارة المرضى (٥٣١٧) ومسلم فى البر والصلة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله: «ما من مصيبة تصيب المسلم: إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها».

(٨) أشد الناس بلاء الأنبياء :

يؤب به البخارى فى كتاب المرضى، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨، وابن ماجه فى اللغتن ح ٤٠٢٣، وأحمد ح ١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣، من حديث سعد بن أبى وقاص، وقال الترمذى: حسن صحيح .

(٩) إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٥٣) وأحمد فى مسنده (١٢٠٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «إن الله قال إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر! عوضته منها الجنة» يريد عينيه .

(١٠) التفسير الكبير لفخر الدين الرازى .

(١١) تفسير المازغى ١٦ / ١٣ .

(١٢) زبدة الفسر من فتح القدير ١ / ٣٩٣ .

(١٣) مختصر تفسير ابن كثير للمصاوي ٢ / ٤٣٥ .

(١٤) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(١٥) انظر في ظلال القرآن .

(١٦) تفسير المراغي ١٦ / ١٩ .

(١٧) في ظلال القرآن ١٦ / ١٥ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(١٨) فإن بما ورد في تفسير أضواء البيان للشنقيطي ، حيث رجح أن خروجهم سيكون قرب قيام الساعة وذكر عدة أدلة .

(١٩) ويل للعرب من شر قد اقترب ؛ فتح اليوم من ردم يأجوج :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣٤٦ ، ٣٣٤٧) ومسلم في الفتن (٢٨٨٠) وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٣) .

(٢٠) يري بالرجل العظيم لا يزن عند الله :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٢٩) ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: اقرءوا ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ .

(٢١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ٢ / ٤٣٩ .

(٢٢) إن الجنة مائة درجة :

جزء من حديث ، رواه البخاري في الجهاد والسيرح ٢٧٩٠ ، والتوحيد ح ٧٤٣٢ ، وأحمد ح ٧٨٦٣ ، ٨٢١٤ ، ٨٢٦٩ ، من حديث أبي هريرة مرفوعاً : من آمن بالله وپرسوله الحديث . ورواه الترمذي في صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً : من صام رمضان وصلى الصلوات الحديث . ورواه الترمذي أيضاً في صفة الجنة ح ٣٥٣٠ ، وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً : الجنة مائة درجة الحديث . وأشار الترمذي إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنهما .

(٢٣) إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين :

رواه البخاري في المناقب ح ٣٧١٤ ، ومسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٤٩ ، وأبو داود في النكاح ح ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ ، وابن ماجه في النكاح ح ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وأحمد ح ١٨٤٢٨ ، ١٨٤٣٢ ، ١٨٤٤٧ ، ١٨٤٤٥ .

(٢٤) في ظلال القرآن ١٦ / ٢٤ ط ١ .

(٢٥) تفسير الطبري ١٦ - ١٠٢ ط ١ بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق سنة ١٣٢٨ .

(٢٦) لا نورث ما تركنا صدقة :

رواه البخاري في فرض الخمس ح ٣٠٩٣ ، ٣٠٤٩ ، والمغازي ح ٢٠٣٤ ، ٤٠٦٣ ، ٤٢٤١ ، والنفقات ح ٥٣٥٨ ، والفرائض ح ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠ ، والأعتصام ح ٧٣٠٥ ، ١٧٥٧ ، ومسلم في الجهاد ١٧٥٩ ، ١٧٦١ ، والترمذي في السير ١٦١٠ ، والنسائي في قسم الفء ح ٤١٤٨ ، وأبو داود في الخراج ح ٢٩٦٣ ، ٢٩٦٨ ، وأحمد ح ١٠ ، ٢٦ ، ٥٩ ، ١٧٣ .

(٢٧) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان ح ٦٤٩ ، وتفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٣٥ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجة فى الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣ من حديث أبى هريرة أيضا بلفظ : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح يقول أبى هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿وَرَأَى الْقَوْمَ الْفَجَرَ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ فَجَعَلَ كَأَنَّهُمْ مَشْهُودٌ﴾ . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، والتوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٣٢ ، والنسائى فى الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، مالك فى النداء للصلاة ح ٤١٣ ، من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...» الحديث .

(٢٨) لا يتمين أحدكم الموت من ضر أصابه :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧١) والدعوات (٦٣٥١) ومسلم فى الذكر (٢٦٨٠) وأبى داود فى الجنائز (٣١٠٨) وأحمد فى مسنده (١١٥٦٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال النبى ﷺ : «لا يتمين أحدكم الموت من ضر أصابه فإن كان لا بد فاعلا : فليقل : اللهم ، أحنى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى» .

(٢٩) إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم :

رواه مسلم فى الآداب (٢١٣٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وأحمد فى مسنده (١٧٧٣٦) من حديث المغيرة بن شعبة قال : لما قدمت نجران سألونى فقالوا : إنكم تقرءون ﴿يا أخت هارون﴾ موسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال : «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم» .

(٣٠) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣١٩٣ ، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٨ ، وأحمد ح ٨٨٧٠ .

(٣١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٤ / ٥١١ .

(٣٢) محاضرات فى التاريخ الإسلامى لطلبة كلية دار العلوم جامعة القاهرة . أ . د حلمى ... سنة ١٩٥٤ م (مخطوط) .

(٣٣) يؤتى بالموت على صورة كبش :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٣٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٥٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهينة كبش أملح فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشربون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم ينادى : يا أهل النار ، فيشربون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا فيقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلدوا فلا موت ، ويا أهل النار خلدوا فلا موت ثم قرأ ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ ومولاء غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُمْنُونَ﴾» . ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٧) والدارمى فى الرقاق (٢٨١١) وأحمد فى مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٨٩ ، ٩١٨٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «يؤتى بالموت بكبش أغبر فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة ، فيشربون وينظرون فيقال : يا أهل النار ، فيشربون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج فيذبح ويقال : خلدوا لا موت» .

(٣٤) انظر تفسير الآلوسى والمراعى .

(٣٥) فى ظلال القرآن ١٦ / ٤٤ ، ٤٥ طبعة عيس الاباى الحلبى وشركاه ، وانظر تفسير المراعى ١٦ / ٦٤ ، حيث أفاد : أن الباحثين فى الآثار المصرية ، يعتقدون أن أوزوريس صعد إلى السماء ، وله فيها عرش عظيم .

(٣٦) الثائب من الذنب كمن لا ذنب له :

رواه ابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «الثائب من الذنب كمن لا ذنب له».

(٣٧) ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعانى لأعينه وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» . قلت : تغرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح؛ لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(٣٨) وعزى وجلالى لو أتانى عبدى ليلا لقبلته :

لم أفق عليه .

(٣٩) ألا تزورنا أكثر مما نترورنا :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢١٨) والتفسير (٤٧٣١) والتوحيد (٧٤٥٥) والترمذى فى التفسير (٣١٥٨) وأحمد فى مسنده (٢٠٤٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما نترورنا» قال: فنزلت: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا...﴾ الآية .

(٤٠) عليك بسبحان الله والحمد لله :

رواه ابن ماجة فى الأدب (٣٨١٣) من حديث أبى الدرداء قال : قال لى رسول الله ﷺ : عليك بسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر؛ فإنه يعنى يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها .

(٤١) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ، وفى بعض الروايات : أن خباب بن الارت صنع سيفا ، للعاص بن وائل ، فلما تقاضاه ثمنه ، تهكم به .

(٤٢) تفسير ابن كثير ، والآلوسى .

(٤٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢ / ٤٦٥ .

(٤٤) رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وأن جرير ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢ / ٤٦٦ .

(٤٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ٢ / ٤٦٦ .

(٤٦) من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة :

قال السيوطي في الدر المنثور : وأخرج الطبراني في الأوسط ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة ، قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئاً : جاء له عند الله عهد أن لا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئاً : فليس له عند الله عهد ، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه» .

(٤٧) يشتمني ابن آدم :

تقدم تخريجه ص (٣٠٩٤) .

(٤٨) لا أحد أصبر على أذى :

رواه البخاري في الأدب ح ٦٠٩٩ ، والتوحيد ح ٧٣٧٨ ، ومسلم في صفة القيامة ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبي موسى مرفوعاً : «ليس أحد أو ليس شيء أصبر على أذى سمعه من الله الحديث» .

(٤٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني حيث قال في التعليق عليه ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم . ١ هـ . وقد ورد في السنة النبوية ما يفيد : أن النار لا يقي فيها من قال : (لا إله إلا الله) .

(٥٠) إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل :

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٧) .

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد الصابوني ٢ / ٤٦٨ .

(٥٢) في ظلال القرآن ١٦ / ٥٧ مطبعة عيسى البابي الحلبي .

(٥٣) بصائر : ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي ص ٣٠ .

(٥٤) تفسير الطبري ٦ / ٠٣ . بولاق .

(٥٥) المصحف المفسر : محمد فريد جدوى ص ٤٠٦ .

(٥٦) في ظلال القرآن ١٦ - ٦٢ ، ٦٣ ط ١ .

(٥٧) نوع من الحيات .

(٥٨) إن النور إذا قذف به القلب اتسع له الصدر والشرح :

قال السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿المن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف أنشراح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب : أنشراح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : «الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقي في تخريج الإحياء : رواه الحاكم في المستدرک من حديث ابن مسعود .

(٥٩) مختصر تفسير ابن كثير : تحقيق الصابوني ٢ / ٤٧٠ .

(٦٠) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى فى الشريط (٢٧٣٦) والتوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦، ٣٥٠٨) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها : دخل الجنة . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها : دخل الجنة : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الحديث». وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ولا نعلم كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا هذا الحديث وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه : الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٦١) انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني .

(٦٢) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال : «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله، لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلوني فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله ... الحديث» وفيه : «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» وفيه : «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسرا» ، وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ : «يا ابن عباس ، احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» ، وذكره مطولا بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه تخريج الأربعين .

(٦٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ٢ / ٤٧٣ .

(٦٤) من عمده رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

رواه البخارى فى بدء الوحي (٧) والجهاد (٢٩٤١) والتفسير (٤٥٥٣) والاستبذان (٦٢٦١) ومسلم فى الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٣٦) والترمذى فى الاستبذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس .

(٦٥) القرما : هي العريش الآن ، وقد تم الفتح الإسلامي عن طريق القرما ، ثم وصلوا إلى مصر . أى : طريق سيناء والعريش .

(٦٦) تقدم تخريجه ص (٣٠٦٦) ، وخروج الأنهار من الجنة كناية عن طيب مياهاها كأنها من الجنة ؛ لأن هذه الأنهار منابعها معروفة في الدنيا ، لكن مائها طيب كماء الجنة والله أعلم .

(٦٧) إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٢١) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب: لتفاضل ما بينهم» قالوا يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ! قال : «بلى والذى نفسى بيده ؛ رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» .

(٦٨) «جانب» مفعول ثان لقوله : «واعدنا» و«الطور» مضاف إليه ، «الأيمن» منصوب ؛ لأنه صفة لجانب .

(٦٩) اللهم انتفعنى بما علمتنى :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٩٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «اللهم، انتفعنى بما علمتنى، وعلمتنى ما يتفعلنى، وزدنى علما، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار» . قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٧٠) أحكام القرآن : لأبى بكر محمد بن عبدالله المعروف : بابن العربى - تحقيق على محمد الجاوى ٣ / ١٢٦١ .

(٧١) تفسير الكشاف للزمخشري ٢ / ٥٥٥ مطبعة مصطفى البابى الحلبي سنة ١٩٧٢ م .

(٧٢) تفسير أبى السعود ٣ / ٣٢٧ .

(٧٣) تفسير أبى السعود .

(٧٤) إنكم سترون ربكم :

رواه البخارى فى التفسير ح ٤٥٨١ ، والتوحيد ح ٧٤٤٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٨٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٧٥) لن يلع النار أحد صلى قبل طلوع الشمس :

رواه مسلم فى المساجد (٦٣٤) وأبو داود فى الصلاة (٤٢٧) والنسائى فى الصلاة (٤٧١) من حديث عمارة بن ربيعة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلع النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعنى: الفجر والعصر، فقال له رجل من أهل البصرة : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم قال الرجل : وأنا أشهد أنى سمعته من رسول الله ﷺ سمعته أذنأى ووعاه قلبى !

(٧٦) فى ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٧ دار الشروق .

(٧٧) رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا :

رواه مسلم فى الرؤيا (٢٢٧٠) وأبو داود فى الأدب (٥٠٢٥) وأحمد فى مسنده (١٣٦٢٨) من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا فى دار عقبة بن رافع فأتينا برطب من رطب ابن مطاب فأولت: الرفعة لنا فى الدنيا والعاقبة فى الآخرة وأن ديننا قد مطاب» .

(٧٨) إذا أصابت أهله خصاصة نادى أهله بالصلاة :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن ثابت قال : «كان النبى ﷺ إذا أصابت أهله خصاصة : نادى أهله بالصلاة : صلوا .. صلوا ..» قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر: فزعوا إلى الصلاة .

(٧٩) تفرغ لعبادتي ؛ أملأ قلبك غنى :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٦٦) وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٧) وأحمد فى مسنده (٨٤٨١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي: أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك وإلا تفعل: ملأت يدك شغلا، ولم أسد فقرك» . قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وأبو خالد اللؤلؤى اسمه : هرمز . قال السيوطى فى الدر: وأخرج الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال : «قال رسول الله ﷺ: يقول ريكم : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي : أملأ قلبك غنى ، وأملأ يدك رزقا . يا ابن آدم ، لا تباعد منى : فأملأ قلبك فقرا ، وأملأ يدك شغلا» . قال البيهقى فى المجموع: رواه الطبرانى وفيه سلام الطويل وهى متروكة . وقال السيوطى فى الدر أيضا : وأخرج أحمد وأبو نعيم عن خيثمة قال : مكتوب التوراة : ابن آدم ، تفرغ لعبادتي : أملأ قلبك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لا تفعل : أملأ قلبك شغلا ، ولا أسد فقرك» وقال فى موضع آخر : وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : تلا رسول الله ﷺ «من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه... الآية» ثم قال : يقول الله : «ابن آدم، تفرغ لعبادتي : أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل : ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك» .

قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبى فى التلخيص لكنه كتاب الزهد نقله عن التوراة بهذا اللفظ ثم قال: يروى مرفوعاً ولا يصح . انتهى وفيه عند الترمذى أبو خالد اللؤلؤى عن أبيه . وأبوه لا يعرف كما فى المنار وزائد بن شبيب لا يعرف أيضاً .

(٨٠) ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مله آمن عليه البشر :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٤٩٨١) والاعتصام (٧٢٧٤) ومسلم فى الإيمان (١٥٢) وأحمد فى مسنده (٨٢٨٦) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» .

(٨١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابري ٢ / ٥٠٠ .

(٨٢) تفسير المراغى ١٦ / ١٧٠ .



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (السادس عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٥	﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ...﴾	٣٠٤٧
٧٦	﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا...﴾	٣٠٤٧
٧٧	﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ...﴾	٣٠٤٧
٧٨	﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ...﴾	٣٠٤٧
٧٩	﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ...﴾	٣٠٤٧
٨٠	﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ...﴾	٣٠٤٧
٨١	﴿فَأَرَادْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رِيبَهُمَا...﴾	٣٠٤٧
٨٢	﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ...﴾	٣٠٤٧
٨٣	﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْقُرْنَيْنِ...﴾	٣٠٥٣
٨٤	﴿إِنَّمَا مَكْنَالُهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ...﴾	٣٠٥٣
٨٥	﴿فَأَتْبَعَ سَبِيلًا...﴾	٣٠٥٣
٨٦	﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ...﴾	٣٠٥٣
٨٧	﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ...﴾	٣٠٥٣
٨٨	﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾	٣٠٥٣
٨٩	﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا...﴾	٣٠٥٣
٩٠	﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ...﴾	٣٠٥٣
٩١	﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا...﴾	٣٠٥٣
٩٢	﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا...﴾	٣٠٥٣
٩٣	﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ...﴾	٣٠٥٣
٩٤	﴿قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ...﴾	٣٠٥٣
٩٥	﴿قَالَ مَا مَكْنَى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ...﴾	٣٠٥٣
٩٦	﴿وَاتَوْنِى زَبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ...﴾	٣٠٥٣
٩٧	﴿ثُمَّ اسْطَاعَا أَنْ يَظْهَرُوهُ...﴾	٣٠٥٣
٩٨	﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى...﴾	٣٠٥٣
٩٩	﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ...﴾	٣٠٥٣
١٠٠	﴿وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ...﴾	٣٠٦٢
١٠١	﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِى...﴾	٣٠٦٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا...﴾	٣٠٨٦
١٨	﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ...﴾	٣٠٨٦
١٩	﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ...﴾	٣٠٨٦
٢٠	﴿قَالَتْ أَنسَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ...﴾	٣٠٨٦
٢١	﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هين...﴾	٣٠٨٦
٢٢	﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ...﴾	٣٠٨٩
٢٣	﴿فَاجَاءَهَا الْمَخاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ...﴾	٣٠٨٩
٢٤	﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِينَ...﴾	٣٠٨٩
٢٥	﴿وَهَمَزْنِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ...﴾	٣٠٨٩
٢٦	﴿فَكَلَى وَاشْرَيْتُ وَقُرَى عَيْنَا...﴾	٣٠٨٩
٢٧	﴿فَأُتِيتُ بِهِ قَوْمٌ هَا تَحْمِلُوهَ...﴾	٣٠٩١
٢٨	﴿يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ...﴾	٣٠٩١
٢٩	﴿فَأَشَارَتْ إِلَى يَمِينِهِ قَالُوا...﴾	٣٠٩١
٣٠	﴿قَالَ إِنِّي عِبِيدُ اللَّهِ...﴾	٣٠٩١
٣١	﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ...﴾	٣٠٩١
٣٢	﴿وَيُرَا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي...﴾	٣٠٩١
٣٣	﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ...﴾	٣٠٩١
٣٤	﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ...﴾	٣٠٩٥
٣٥	﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ...﴾	٣٠٩٥
٣٦	﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ...﴾	٣٠٩٥
٣٧	﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ...﴾	٣٠٩٥
٣٨	﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا...﴾	٣٠٩٥
٣٩	﴿وَأَنْذَرِهِمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ...﴾	٣٠٩٥
٤٠	﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا...﴾	٣٠٩٥
٤١	﴿وَإِذْ كَرَفَى الْكِتَابَ إِبْرَاهِيمَ...﴾	٣٠٩٩
٤٢	﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيئِهِ يَبَا أَبَتِ...﴾	٣٠٩٩
٤٣	﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ...﴾	٣٠٩٩
٤٤	﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ...﴾	٣٠٩٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿يَا أَيَّتُهَا النَّاسُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُمَسِكَ...﴾	٣٠٩٩
٤٦	﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ...﴾	٣٠٩٩
٤٧	﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي...﴾	٣٠٩٩
٤٨	﴿وَأَعْتَزَلَكَ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	٣٠٩٩
٤٩	﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	٣٠٩٩
٥٠	﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا...﴾	٣٠٩٩
٥١	﴿وَإِذْ كَرَفَى الْكِتَابَ مُوسَى...﴾	٣١٠٤
٥٢	﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ...﴾	٣١٠٤
٥٣	﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ...﴾	٣١٠٤
٥٤	﴿وَإِذْ كَرَفَى الْكِتَابَ إِسْمَاعِيلَ...﴾	٣١٠٦
٥٥	﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ...﴾	٣١٠٦
٥٦	﴿وَإِذْ كَرَفَى الْكِتَابَ إِدْرِيسَ...﴾	٣١٠٧
٥٧	﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا...﴾	٣١٠٧
٥٨	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾	٣١٠٩
٥٩	﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ...﴾	٣١١٠
٦٠	﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا...﴾	٣١١٠
٦١	﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ...﴾	٣١١٢
٦٢	﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا...﴾	٣١١٢
٦٣	﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا...﴾	٣١١٢
٦٤	﴿وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...﴾	٣١١٣
٦٥	﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾	٣١١٣
٦٦	﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ...﴾	٣١١٥
٦٧	﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ...﴾	٣١١٥
٦٨	﴿فَنُورِثُكَ لِنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ...﴾	٣١١٥
٦٩	﴿ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ...﴾	٣١١٥
٧٠	﴿ثُمَّ لَنُحْصِنَنَّ أَعْيُنَهُم بِالَّذِينَ...﴾	٣١١٥
٧١	﴿وَأَنْ مَنْ نَكُومُ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾	٣١١٥
٧٢	﴿ثُمَّ لَنَنْجِيَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا...﴾	٣١١٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٣	﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات...﴾	٣١٢٠
٧٤	﴿وكم أهلكنا قبلاهم من قرن...﴾	٣١٢٠
٧٥	﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا...﴾	٣١٢٠
٧٦	﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى...﴾	٣١٢٠
٧٧	﴿أفرءيت الذي كفر بآياتنا وقال...﴾	٣١٢٣
٧٨	﴿أطاع الغيب أم اتخذ...﴾	٣١٢٣
٧٩	﴿كلا سنكتب ما يقول...﴾	٣١٢٣
٨٠	﴿ونرثه ما يقول...﴾	٣١٢٣
٨١	﴿واتخذوا من دون الله آلهة...﴾	٣١٢٤
٨٢	﴿كلا سيكفرون بعبادتهم...﴾	٣١٢٤
٨٣	﴿ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين...﴾	٣١٢٤
٨٤	﴿فلا تعجل عليهم...﴾	٣١٢٤
٨٥	﴿يوم نحشر المتقين...﴾	٣١٢٤
٨٦	﴿ونسوق المجرمين...﴾	٣١٢٤
٨٧	﴿لا يملكون الشفاعة...﴾	٣١٢٤
٨٨	﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا...﴾	٣١٢٨
٨٩	﴿لقد جنئتم شيئا إذا...﴾	٣١٢٨
٩٠	﴿تكاد السماوات يتفطرن منه...﴾	٣١٢٨
٩١	﴿أن دعوا للرحمان ولدا...﴾	٣١٢٨
٩٢	﴿وما ينبغى للرحمان...﴾	٣١٢٨
٩٣	﴿إن كل من في السماوات...﴾	٣١٢٨
٩٤	﴿لقد أحصاهم وعدهم عدا...﴾	٣١٢٨
٩٥	﴿وكلهم آتية يوم القيامة فردا...﴾	٣١٢٨
٩٦	﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	٣١٣١
٩٧	﴿فلنمنا يسرننا بلسانك لتبشربه المتقين...﴾	٣١٣١
٩٨	﴿وكم أهلكنا قبلاهم من قرن...﴾	٣١٣١
—	(خلاصة لما اشتملت عليه سورة مريم)	٣١٣٤
—	(تفسير سورة طه)	٣١٣٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	(أهداف سورة طه)	٣١٣٦
١	﴿طه﴾	٣١٤٤
٢	﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾	٣١٤٤
٣	﴿إلا تذكرة...﴾	٣١٤٤
٤	﴿تنزيلاً لمن خالق...﴾	٣١٤٤
٥	﴿الرحمان على العرش...﴾	٣١٤٤
٦	﴿له ما فى السموات وما فى الأرض...﴾	٣١٤٤
٧	﴿وإن تجهر رب بالقول...﴾	٣١٤٤
٨	﴿إله لا إله إلا هو...﴾	٣١٤٤
٩	﴿وهل أتاك حديث موسى﴾	٣١٤٨
١٠	﴿إذ رآنا نارا فقلنا لأهله...﴾	٣١٤٨
١١	﴿فلما أتاهم نودى يا موسى﴾	٣١٤٨
١٢	﴿إنسى أنا ربك فأخضع نعماك﴾	٣١٤٨
١٣	﴿وأننا اخترتك فاستمع...﴾	٣١٤٨
١٤	﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا...﴾	٣١٤٨
١٥	﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها...﴾	٣١٤٨
١٦	﴿فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها...﴾	٣١٤٨
١٧	﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾	٣١٥٣
١٨	﴿قال هى عصاى أتوكؤا عليها...﴾	٣١٥٣
١٩	﴿قال ألقها يا موسى﴾	٣١٥٣
٢٠	﴿فألقاها فإذا هى حية تسعى﴾	٣١٥٣
٢١	﴿قال خذها ولا تخف...﴾	٣١٥٣
٢٢	﴿واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء...﴾	٣١٥٦
٢٣	﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾	٣١٥٦
٢٤	﴿انذهب إلى فرعون...﴾	٣١٥٦
٢٥	﴿قال رب اشرح لى صدرى﴾	٣١٥٦
٢٦	﴿ويسر لى أمرى﴾	٣١٥٦
٢٧	﴿واحلل عقدة من لسانى﴾	٣١٥٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٨	﴿وَفَقَّهُوا قَبُولَى﴾	٣١٥٦
٢٩	﴿وَأَجْعَلْ لى وَزىراً﴾	٣١٥٦
٣٠	﴿مَارُونَ أَخْسى﴾	٣١٥٦
٣١	﴿أَشْدد بى هَ أْزى﴾	٣١٥٦
٣٢	﴿وَأَشْرِكْ هَ فى أْمرى﴾	٣١٥٦
٣٣	﴿كفى نَسب بى حَك كَثِيراً﴾	٣١٥٦
٣٤	﴿وَنَذْكُرْكَ كَثِيراً﴾	٣١٥٦
٣٥	﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنزلاً بصيراً﴾	٣١٥٦
٣٦	﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾	٣١٥٩
٣٧	﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾	٣١٥٩
٣٨	﴿إِذْ أَوْحَى بِنزلى إِلَى أُمِّكَ﴾	٣١٥٩
٣٩	﴿أَنْ أَتَذْكُرْ هَ فى التَّابُوتِ﴾	٣١٥٩
٤٠	﴿إِذْ تَمْشى أَخْشَى أَخْشَكَ فَتَقُولُ﴾	٣١٥٩
٤١	﴿وَاصْطَلَيْتَ نَعْمَتَكَ لِنَفْسَى﴾	٣١٥٩
٤٢	﴿أَنْهَبْ أَنْتَ وَأَخْشَى بِأَيَّاتَى﴾	٣١٦٢
٤٣	﴿أَنْهَبْ بى إِلَى فَرْعَوْنَ﴾	٣١٦٢
٤٤	﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا﴾	٣١٦٢
٤٥	﴿قَالَ رَيْنَا إِنَّنَا خَافُ﴾	٣١٦٢
٤٦	﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنَى مَعَكُمَا﴾	٣١٦٢
٤٧	﴿فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾	٣١٦٢
٤٨	﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا﴾	٣١٦٢
٤٩	﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾	٣١٦٦
٥٠	﴿قَالَ رَيْنَا الَّذى أَعْطَى كُلَّ شَىءِ خَلْقَهُ﴾	٣١٦٦
٥١	﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾	٣١٦٦
٥٢	﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدِ رَبِّى فى كِتَابٍ﴾	٣١٦٦
٥٣	﴿الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾	٣١٦٦
٥٤	﴿كَأَنَّهُمْ وَارِعُوهَا أَنْعَامَكُمْ﴾	٣١٦٦
٥٥	﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نَعِيدُكُمْ﴾	٣١٦٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٦	﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا...﴾	٣١٧٠
٥٧	﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا...﴾	٣١٧٠
٥٨	﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَحَرٍ مِثْلِهِ...﴾	٣١٧٠
٥٩	﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ...﴾	٣١٧٠
٦٠	﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ...﴾	٣١٧١
٦١	﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا...﴾	٣١٧١
٦٢	﴿فَتَنَنَّا زَعْوَاءَ أَمْرِهِمْ بَيْنَهُمْ...﴾	٣١٧١
٦٣	﴿قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَانِ يَرِيدَانِ...﴾	٣١٧١
٦٤	﴿فَنَجْمَعُوهُمْ كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّوُوا صَفًّا...﴾	٣١٧١
٦٥	﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى...﴾	٣١٧٤
٦٦	﴿قَالَ بَلْ أُلْقُوا فَإِنَّا حِبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ...﴾	٣١٧٤
٦٧	﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً...﴾	٣١٧٤
٦٨	﴿قَالُوا لَا تَخَفْ...﴾	٣١٧٤
٦٩	﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِهِ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا...﴾	٣١٧٤
٧٠	﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةَ سَجْدًا قَالُوا...﴾	٣١٧٤
٧١	﴿قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذِنَ لَكُمْ...﴾	٣١٧٤
٧٢	﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ...﴾	٣١٧٤
٧٣	﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا...﴾	٣١٧٤
٧٤	﴿إِنَّهُ مِنْ يَدَاتِ رَبِّهِ مَجْرَمًا...﴾	٣١٧٤
٧٥	﴿وَمِنْ يَدَاتِهِ مَوْمِنًا...﴾	٣١٧٤
٧٦	﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾	٣١٧٤
٧٧	﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾	٣١٨١
٧٨	﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ...﴾	٣١٨١
٧٩	﴿وَأَخْضَلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ...﴾	٣١٨١
٨٠	﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ...﴾	٣١٨١
٨١	﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ...﴾	٣١٨١
٨٢	﴿وَأَنسَى الْغَفَارَ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ...﴾	٣١٨١
٨٣	﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ...﴾	٣١٨٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٤	﴿قال هم أولاء على أئرى وعجلت إليك...﴾	٣١٨٥
٨٥	﴿قال فلإننا قد فتنا قومك من بعدك...﴾	٣١٨٥
٨٦	﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا...﴾	٣١٨٥
٨٧	﴿قالوا ما أخلفنا موعدك بملكننا...﴾	٣١٨٥
٨٨	﴿فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار...﴾	٣١٨٥
٨٩	﴿أنلا يرون ألا يرجع إليهم قولا...﴾	٣١٨٥
٩٠	﴿ولقد قال لهم هارون من قبل...﴾	٣١٨٩
٩١	﴿قالوا لن نبرح عليه عاكفين...﴾	٣١٨٩
٩٢	﴿قال يا هارون ما منعك...﴾	٣١٨٩
٩٣	﴿ألا تتبعن أف عصيت أمرى...﴾	٣١٨٩
٩٤	﴿قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى...﴾	٣١٨٩
٩٥	﴿قال فما خطبك يا سامرى...﴾	٣١٨٩
٩٦	﴿قال بصرت بما لم يبصروا به...﴾	٣١٨٩
٩٧	﴿قال فإذهب فإن لك فى الحياة...﴾	٣١٨٩
٩٨	﴿إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو...﴾	٣١٨٩
٩٩	﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق...﴾	٣١٩٥
١٠٠	﴿من أعرض عنه فإنه يحمل...﴾	٣١٩٥
١٠١	﴿فإلدين فيه وساء لهم...﴾	٣١٩٥
١٠٢	﴿يوم ينفخ فى الصور...﴾	٣١٩٥
١٠٣	﴿يتخافتون بينهم...﴾	٣١٩٥
١٠٤	﴿نحن أعلم بما يقولون...﴾	٣١٩٥
١٠٥	﴿يسئالونك عن الجبال...﴾	٣١٩٨
١٠٦	﴿فإنذرهم أعاصفصفا...﴾	٣١٩٨
١٠٧	﴿لا ترى فيها عوجا...﴾	٣١٩٨
١٠٨	﴿يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له...﴾	٣١٩٨
١٠٩	﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة...﴾	٣١٩٨
١١٠	﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم...﴾	٣١٩٨
١١١	﴿وعنت الوجوه للحي القيوم...﴾	٣١٩٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٢	﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن...﴾	٣١٩٨
١١٣	﴿وكذلك أنزلناه قرءانا عربيا...﴾	٣٢٠٢
١١٤	﴿فتبعنا إلى الله الملك الحق...﴾	٣٢٠٣
١١٥	﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل...﴾	٣٢٠٥
١١٦	﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم...﴾	٣٢٠٥
١١٧	﴿فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك...﴾	٣٢٠٥
١١٨	﴿إن لك ألا تجـوع...﴾	٣٢٠٥
١١٩	﴿وأنك لا تـمـظـمـأ...﴾	٣٢٠٥
١٢٠	﴿فوسوس إليه الشيطان...﴾	٣٢٠٥
١٢١	﴿فأكلامنها قيدت لهما سوءاتهما...﴾	٣٢٠٥
١٢٢	﴿ثم اجتباه ربه...﴾	٣٢٠٥
١٢٣	﴿قال اهبطا منها جميعا...﴾	٣٢٠٥
١٢٤	﴿ومن أعرض عن ذكـرى...﴾	٣٢٠٥
١٢٥	﴿قال رب لم حشرتني أعمى...﴾	٣٢٠٥
١٢٦	﴿قال كذلك أتتك أياتنا فنسيتها...﴾	٣٢٠٥
١٢٧	﴿وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه...﴾	٣٢٠٥
١٢٨	﴿أنلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون...﴾	٣٢١٣
١٢٩	﴿ولولا كلمة سبقت من ربك...﴾	٣٢١٣
١٣٠	﴿فأصبر على ما يقولون وصبِح بحمد ربك...﴾	٣٢١٣
١٣١	﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم...﴾	٣٢١٣
١٣٢	﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها...﴾	٣٢١٣
١٣٣	﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه...﴾	٣٢١٩
١٣٤	﴿ولو أننا أهلكناهم بعداذب من قبله...﴾	٣٢١٩
١٣٥	﴿قل كل مريض فتريصوا...﴾	٣٢١٩
-	خلاصة لما اشتملت عليه سورة طه	٣٢٢٢
-	تخريج أحاديث وهوامش	٣٢٢٣
-	محتويات الكتاب	٣٢٢٣

تم بحمد الله تفسير الجزء (السادس عشر)

ويليه تفسير الجزء (السابع عشر) إن شاء الله





تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
بِإِسْنَادِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

د عبد الله شحاته

دار غريب

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته





تفسير سورة الأنبياء

أهداف سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية بالاتفاق وآياتها (١١٢) آية وقد نزلت قبيل الهجرة إلى المدينة أى: حوالى السنة الثانية عشرة من البعثة وسميت بسورة الأنبياء : لأنه اجتمع فيها على قصرها كثير من قصص الأنبياء : فسميت السورة باسمهم .

الغرض منها وترتيبها :

هى سورة مكية نزلت فى آخر العهد المكي أى: فى ذروة تجبر أهل مكة وعنتهم وانصرافهم عن الإسلام. فنزلت تنذر هؤلاء الكفار باقتراب العذاب ففى بدايتها : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . (الأنبياء : ١)

ثم ساقَت السورة الأدلة على الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث . وهى الموضوعات التى عنيت بها السور المكية : من أجل تقرير العقيدة والدفاع عنها .

ونلاحظ هنا أن السورة قد عالجت هذه الموضوعات بعرض النواميس الكونية الكبرى ، وربط العقيدة بها .

فالعقيدة فى سورة الأنبياء جزء من بناء هذا الكون يسير على نواميسها الكبرى .

وهذه العقيدة تقوم على الحق الذى قامت عليه السماوات والأرض ، وليست لعبا ولا باطلا ، كما أن هذا الكون لم يخلق عبثا ، ولن يترك سدى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لْعَجِبٍ . (الأنبياء : ١٦) .

ويلفت السياق أنظار الناس إلى مظاهر الكون الكبرى فى السماء والأرض ، والرواسي والغجاج ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، موجها الأنظار إلى وحدة النواميس التى تحكمها وتصرفها ، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر والمالك الذى لا شريك له فى الملك ، كما أنه لا شريك له فى الخلق . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢) .

ثم تتحدث السورة عن وحدة النواميس التى تحكم الحياة فى هذه الأرض ، وعن وحدة مصدر الحياة : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وعن وحدة النهاية التى ينتهى إليها الأحياء : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... (الأنبياء : ٣٥) .

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية ، فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ . (الأنبياء : ٢٥) .

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى ، فكذلك ملابسات هذه العقيدة فى الأرض . فالسنة التى لا تتخلف أن يغلب الحق فى النهاية وأن يزهق الباطل ؛ لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية: بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

وأن يحل الهلاك بالظالمين المكذبين وينجى الله الرسل والمؤمنين : ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ الْوَعْدَ فَأَعْبَتْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ . (الأنبياء : ٩) .

وأن يرث الأرض عباد الله الصالحون : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

ومن ثم يستعرض السياق أمة الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضا سريعا ، يطول بعض الشيء عند عرض حلقة من قصة إبراهيم عليه السلام وعند الإشارة إلى داود وسليمان عليهما السلام .

ويقصر عند الإشارة إلى قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى عليهم السلام .

وفى هذا الاستعراض تتجلى المعانى التى سبقت فى سياق السورة - تتجلى فى صورة وقائع فى حياة الرسل والدعوات ، بعد ما تجلت فى صورة قواعد عامة ونواميس .

كذلك يتضمن سياق السورة بعض مشاهد القيامة ، وتتمثل فيها تلك المعانى نفسها فى صورة واقع يوم القيامة .

وهكذا تتجمع الأساليب المنوعة فى السورة على هدف واحد هو استجاشة القلب البشرى لإدراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها خاتم الرسل ﷺ فلا يلقاها الناس غافلين معرضين لاهين . كما تصفهم السورة فى مطلعها .

إن هذه الرسالة حق كما أن هذا الكون حق وجد . فلا مجال للهوى فى استقبال الرسالة ، ولا مجال لطلب الآيات الخارقة ، وإن آيات الله فى الكون وسنن الكون كله توحى بأنه الخالق القادر الواحد ، والرسالة من لدن ذلك الخالق القادر الواحد .

نظم السورة :

النظم فى سورة الأنبياء يختلف عن النظم فى سورة مريم وسورة طه . هناك كان النظم سهلا والختام رخيا يختم فى الغالب بالألف اللينة .

أما فى سورة الأنبياء فالنظم هنا نظم التقرير الذى يتناسق مع موضوعها ، ومع جو السياق فى عرض هذا الموضوع ، ولذلك ختمت آياتها بالميم أو بالنون .

وإذا نظرنا إلى الجانب الذى عرض من قصة إبراهيم فى سورة مريم : وجدنا أن الحلقة التى عرضت هناك حلقة الحوار الرخى بين إبراهيم وأبيه . وقد ختمت آيات الحوار هناك بالألف اللينة مثل : نَبِيًّا ، صَبِيًّا ، عَلِيًّا .

وأما هنا فجاءت حلقة تحطيم الأصنام ، وإلقاء إبراهيم فى النار ، ولتتم التناسق فى الموضوع والجو والنظم والإيقاع فقد ختمت قصة إبراهيم هنا بالنون أو الميم التى تفيد : التقرير والتأكيد ، أو ما يشبه أحكام القضاء بعد تفكير وتأمل وترتيب .

أشواط أربعة

يمكن أن تقسم سورة الأنبياء إلى أربعة أقسام ، يمضى السياق خلالها من قسم إلى آخر ، ويمهد كل شوط للذى يليه .

الشوط الأول :

يبدأ الشوط الأول : بمطلع قوى الضربات ، يهز القلوب هذا وهو يلفتها إلى الخطر القريب المحقق ، وهى عنه غافلة لاهية : أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . (الأنبياء : ١) .

ثم يهزها هزة أخرى بمشهد من مصارع الغابرين الذين كانوا عن آيات ربهم غافلين : وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قُرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . (الأنبياء : ١١) .

ثم يربط بين الحق والجد فى الدعوة والحق والجد فى نظام الكون ، وبين عقيدة التوحيد ونواميس الوجود ، وبين وحدة الخالق المدبر ووحدة الرسالة والعقيدة ، ووحدة مصدر الحياة ونهايتها ومصيرها على النحو الذى أسلفناه ، ويستغرق هذا الشوط من أول السورة إلى الآية ٣٥ .

الشوط الثانى :

أما الشوط الثانى: فيرجع بالحديث إلى الكفار الذين يواجهون الرسول ﷺ بالسخرية والاستهزاء ، بينما الأمر جد وحق ، وكل ما حولهم يوحى باليقظة والاهتمام . وهم يستعجلون العذاب ، والعذاب منهم قريب .. وهنا يعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، ويلفتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرسول قبلهم ، ويقرر :

أن ليس لهم من الله من عاصم ويوجه قلوبهم إلى تأمل يد القدرة وهى تنقص الأرض من أطرافها ، وتزوى رقعتها وتطويها فلعل هذا أن يوقظهم من غفلتهم التى جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء .

وينتهى هذا الشوط بتوجيه الرسول ﷺ إلى بيان : وظيفته : قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ . وإلى الخطر الذى يهددهم فى غفلتهم : وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادِرُونَ . (الأنبياء : ٤٥) . حتى تنصب الموازين القسط وهم فى غفلتهم سادرون . ويستغرق هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧ .

الشوط الثالث :

ويتضمن الشوط الثالث : استعراض أمة النبيين وجهاد الرسل ويلائمهم فى سبيل الحق ويبدأ الشوط بموسى وهارون وقد أنعم الله عليهما بالفرقان وهو التوراة : لأنها تفرق بين الحق والباطل ، ثم ذكر : إبراهيم وقد أعطاه الله الرشد والهداية فأنكر على قومه عبادة الأصنام ثم حطمها ، فألقى فى النار فجعلها الله برداً وسلاماً عليه . ثم نجاه لوط من قومه المعتدين ، ونجاه نوح وأتباعه من الطوفان ، ثم ذكر : حكم داود وفهم سليمان ، وتسخير الشياطين والجن : لتعمل بين يديه بإذن ربه ، ثم تضرع أيوب ، ودعاء يونس ، وسؤال زكريا ، وصلاح مريم . ويعقب الشوط بأن هناك وحدة بين هذه الرسائل فى العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك : إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ . (الأنبياء : ٩٢) .

وتتجلى فى رسالة الأنبياء عناية الله بهم ، ورعايته لأهل رسالته وتوليهم بالعناية والرعاية وأخذ المكذبين والظالمين أخذ عزيز مقتدر ، ويستغرق هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥ .

الشوط الرابع :

أما الشوط الرابع والأخير : فيعرض النهاية والمصير ، فى مشهد من مشاهد القيامة المثيرة ، حين يفتح سد يأجوج ومأجوج ويعرض ذل الكفار فى عذاب جهنم ونعيم المؤمنين فى الجنة ثم طى السماوات فى ساعة القيامة ، ثم توجه السياق إلى الرسول بالخطاب فذكر : أن الله أرسله بالرحمة والإحسان لتبليغ رسالة الله إلى الناس . ثم ختمت السورة بمثل ما بدأت : إيقاعاً قوياً ، وإنذاراً صريحاً ، وتخليه بينهم وبين مصيرهم المحتوم ويستغرق هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢ .

وفى آخر آية للسورة رنين يتحدى الكفار ويتوعددهم بحكم الله العادل : قُلْ رَبِّ أَحْكَمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . (الأنبياء : ١١٢) .

اقترب الساعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُجَدِّدٍ إِلَّا آسَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَكَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمِمْ بَلَى أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلِيلًا أُنْبِئَانِي يَوْمَ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

المضردات :

اقترب : اقترب وقرب بمعنى واحد ، والمراد من اقتراب الحساب : اقتراب زمانه ، وهو مجيء الساعة .

الناس : هم المكلفون .

معرضون : عن التأهب لهذا اليوم .

من ذكر : قرآن .

مجدد : جديد إنزاله .

يلعبون : يسخرون ويستهزئون .

لاهيية قلوبهم : غافلة قلوبهم عن ذكر الله .

النجوى : التناجى ، والمراد : أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم .

أضغاث أحلام : تخاليط أحلام وأها في النوم .

افتراه : اختلقه من تلقاء نفسه .

بسم : تذكروا للانتقال من غرض إلى آخر ، ولا تذكروا في القرآن إلا على هذا الوجه كما قال ابن مالك .

التفسير :

١ - اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ .

مطلع قوى يهز القلوب هزاً ، ويثير الفزع عند كل غافل أو مستهتر ، أو معرض عن البعث والحساب والجزاء ، فالدنيا قصيرة الأمد ، واليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ، والموت يأتي بغتة ، فإذا جاء أجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (النحل : ٦١) .

و خلاصة معنى الآية :

دنا وقت الحساب والجزاء ، والناس غافلون عن حسابهم ، ساهون لا يفكرون فى عاقبتهم ، مع أن قضية العقل تقضى بجزاء المحسن والمسيء ، ومن شأن كفار مكة أنهم إذا تلى عليهم الوحي ، ونُيِّهوا من غفلتهم ، بما يتلى عليهم من الآيات والنذر ، أعرضوا ، وسدوا آذانهم عن سماع الوحي ، وعن التنبيه لأمر الآخرة .

٢ - مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ .

كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ يوقظ القلوب والنفوس ، ويطهر الأفئدة ، ويدعو إلى التأمل فى الكون وخالقه ، ويذكر الناس بالموت والبعث والحساب والجزاء وأحوال القيامة ، وكلما نزلت سورة جديدة قابلوها بالهلو والإعراض ، والعبث والجحود ، مع أن الأمر جد وليس بالهزل ، والحديث فى الآية عن المشركين .

و خلاصة المعنى :

ما جدد لهم الذكر وقتا فوقتا ، وكرر على أسماعهم للتنبيه والموعظة لعلهم يتعتنون ؛ إلا زادهم ذلك سخرية واستهزاء .

٣ - لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ . فَتُحْشَرُ لَهُ أَفْئَاتُهُ الْأَبْرَارَ وَفُتِنُوا لَهُمْ أَسْوَاقُ الْبِلَادِ وَأَفْئَاتُهُمُ الْفَاسِقُونَ .

لقد أعرضوا عن القرآن وشغلهم اللهو والمجون ، فقلوبهم لاهية عن الآخرة والمعاد والقرآن ، مشغولة بالفساد والضلال ، وترى أهل الباطل يتناجون سراً فى تدبير الكيد لأصحاب الحق .

وَأَسْوَاقُ الْبِلَادِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .

أى : تفاوضوا سراً ، وأسروا التناجى ، وتدبير المكر السيئ ، قائلين فى تناجيهم :

هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ .

إن محمداً ليس ملكا ، وإنما هو إنسان كسائر الناس ، لا فضل له ولا مزية ، وما يقدمه هو سحر .

أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْغِرُونَ .

أى : أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر ، وهو يعلم أنه سحر .

وخلاصة ذلك : أنهم طعنوا فى نبوته بأمرين :

١ - أن الرسول لا يكون إلا ملكاً .

٢ - أن الذى يظهر على يديه من قبيل السحر .

وقد رد القرآن الكريم عليهم فى أكثر من موضع ، مبيناً : أن الرسول إلى البشر يجب أن يكون بشراً مثلهم ، وأن محمداً ليس ساحراً ، وإنما عدم الإيمان بالله تعالى هو الذى يحملهم على تقوّل الأقاويل .

قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال عز شأنه : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ... (يوسف : ١٠٩) .

وقال تعالى : وَقَالَ أَطَّيْلُمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا * أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلِ فَضَلُّوا فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . (الفرقان : ٨ ، ٩) .

٤ - قَالَ رَبِّ يَعْلَمُ الْقَوْلُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

لقد أطلع الله ورسوله على ما تناجوا به ، حيث بيتوا المكر والكيد للرسول محمد ﷺ ودعوته ، وفى قراءة سبعية قل ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . أى : قل لهم يا محمد : إن الله مطلع على سرهم وجهرهم ، وهو عليم بكل قول فى السماء والأرض ، شاهد على السر والجهر فما أسمع الله وما أبصره ! فهو سبحانه يسمع دبيب النمل فى الليلة الظلماء تحت الصخرة الملساء ، وهو عليم بكل أمر ، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافاً تاماً دون سبق خفاء ، وفى الآية تهديد ووعيد للمخالفين .

٥ - بَلْ قَالُوا أَضَلُّنَا أَعْلَمَ بَلْ أَفْتَرْنَا بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ .

تردد الكفار فى اتهامهم للرسول ﷺ بصنوف الفرى ، فلم يثبتوا على تهمة معينة ، وفى الآية تعبير مصور لجماعة من الحائرين يقولون : إن ما يأتى به محمد من الوحي أضغاث أحلام ، أى : أخلاط من الرؤيا المنامية تهبأ له فى النوم ثم يجسدها فى اليقظة .

والضُّغْت : حزمة من الحشيش ، يختلط فيها الرطب باليابس ، ومنه قول القرآن الكريم : وَخُذْ بِذِكْرِ الْوَيْحِ

فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تُحْسَبْ . (ص : ٤٤) .

أى: خذ حزمة من الحشيش يخلط فيها الرطب باليابس فاضرب به زوجتك: برأ فى يمينك ، فالكفار يدعون : أن محمداً يرى عدداً من الأحلام المختلفة ، ثم يعبر عنها فى الصباح بهذا القرآن.

بَلْ أَفْتَرْتَهُ . ثم أضربوا عن القول السابق وقالوا : إن محمداً يتقول هذا الوحي من عند نفسه ، فهو كذاب أو مبتكر أو عبقري يؤلف الكلام وينسبه إلى الله .

بَلْ هُوَ شَاعِرٌ . تأتبه شياطين الشعر بهذه الأفكار فيصوغها ، ويدعى: أنها وحى. قال تعالى : وَمَا تَنْزَّلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبِئُ لَهُمْ وَمَا يَسْتَعْطُونَ . (الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١) .

وقال عز شأنه : إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . (الحاقة : ٤٠ - ٤٢) .

فَلْيَأْتِنَا بِنَافَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .

أى : على محمد أن يأتينا بمعجزة مادية ملموسة مثل : زحزحة الجبال عن مكة ، وتحويل أرضها إلى أرض سهلة تجرى فيها الأنهار مثل سهول الشام ، أو ليحول جبل الصفا إلى ذهب ، كما أعطى صالح الناقة تحلب لبنا يكفى جميع قومه ، وكما أعطى موسى اليد والعصا ، وكما أعطى عيسى شفاء المرضى ؛ فليظهر لنا محمد معجزات مادية ملموسة ، كما فعلت الرسل السابقة ، لكن الله سبحانه لم يجبههم إلى مطلبهم : لأن الله سننا لا تتخلف ، ومن هذه السنن : أن الأمة التى تعطى آية مادية ملموسة ثم تكذب : تستحق العذاب العاجل ، والحق سبحانه لا يريد أن يعجل بالعذاب لأمة بينها محمد ﷺ حيث قال : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ... (الأنفال : ٢٣) .

٦ - مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قُرْآنٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ .

أرسل الله رسلاً وأنبياء كثيرين ، لهداية الناس ، وأنزل عليهم كتبه وصحفه ، وأيدهم بالمعجزات ، لكن قومهم كذبوا بعد هذه المعجزات ، فاستحقوا الهلاك ، وكان أهل مكة أشد نكرانا وجحودا ، ذلك أن الله أمم رسوله محمداً ﷺ ، وأيده بالقرآن ، ويعدد من المعجزات المادية الملموسة ، مثل : النصر فى بدر ، ونزول الملائكة ، وشفاء المرضى على يديه ، وتكثير الداء ، ونبع الماء فى بعض الغزوات ، وعلم الله أن أهل مكة لن يؤمنوا ، إذا جاءتهم المعجزات المادية ، ولذلك قال سبحانه فى هذه الآية ما معناه : أرسلنا رسلا وأيدناهم بالمعجزات ، فلم يؤمن أهلهم بذلك ، فاستحقوا الهلاك ، أفؤمن هؤلاء الكفار برسالتك ؟

إن هذا بعيد ، وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، عَاتَيْنَا لَهُمْ ذَاتَ الْقُرْبَىٰ مُصِيقَةً فَلْيُلْهِمُوا بِهَا مَا نُلْهِمُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوُّفًا . (الإسراء : ٥٩) .

قال قتادة : قال أهل مكة للنبي ﷺ : إذا كان ما تقوله حقاً ويسرك أن تؤمن ! فحول لنا الصفا ذهباً ، فأثاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي سألك قومك ، ولكنه إن كان ، ثم لم يؤمنوا : لم ينظروا ، وإن شئت استأنيت بقومك ، قال : بل استأنى بقومى ، فأنزل الله .

مَا ءَانَت قَبْلَهُمْ مِنْ قُرَيْةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْلَهُمْ يَوْمَنَ .

★ ★ ★

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَجَاعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

المفردات :

أهل الذكر : هم أهل الكتاب .

الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان .

خالدين : باقين .

الوعود : هو نصرهم وإهلاك أعدائهم .

المسرفين : الكافرين .

ذكركم : شرفكم ، أو دينكم وعظمتكم .

تعقلون : تدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .

تمهيد :

تناقش هذه الآيات المشركين ، فبين : أن محمداً ﷺ بشر رسول ، وليس بدعاً من الرسل ، فقد كان الرسل السابقون رجالاً ، ينزل عليهم الوحي ، وبينهم أهل الكتاب فليسألوا اليهود والنصارى عن رسل الله السابقين ، ومحمد بشر يأكل الطعام ، ويدركه الموت كسائر البشر وكسائر الرسل ، وهؤلاء الرسل ودهم الله بالنصر والنجاة ويهلك المكذبين ، وقد صدقهم الله وعده ، والقرآن فيه شرف وحياة ورقى لهذه الأمة ، ولو استخدموا عقولهم ! لكان فى هذا الكتاب ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم .

التفسير :

٧- وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

لم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل ، بل كان مثل الأنبياء السابقين ، رجل أو بشر ينزل عليه وحى السماء ، وشاء الله أن يكون الرسول بشراً ؛ ليكون قدوة عملية ، أمام الناس فى سلوكه وزواجه ، وأكله وشربه ونومه ، لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (الأحزاب : ٢١) . ولو كان الرسول ملكاً (يفتح اللام) لامتنعت القدوة العملية ، فالملك لا يأكل ولا يشرب ولا ينسل ، ولا يتأثر بالحزن والفرح وسائر الانفعالات ، والملائكة معصومون من الخطيئة لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

لقد كان موسى وعيسى وإبراهيم وغيرهم رجالاً ، أنزل الله عليهم الوحى من السماء .

فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : اسألوا أهل التوراة والإنجيل ، عن ذلك ، إن لم يكن عندكم علم به .

وقد ورد مثل هذا المعنى فى القرآن الكريم كثيراً : للدفاع عن بشرية الرسول ﷺ حيث قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَشَاءُ عَلَيْهِمْ مَا يُلَيِّسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال عز شأنه : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ... (يوسف : ١٠٩) .

وقال تعالى : قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٩) .

وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم : أَبَشَرُ يَهُودُونَا ... (التغابن : ٦) .

قال ابن كثير :

فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى : اسألوا أهل العلم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف ، هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة وإنما كانوا بشراً ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ، إذ بعث فيهم رسلاً منهم ، يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم . اهـ .

٨ - وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ .

لم نجعل الرسل أجسادًا كالملائكة ، لا تأكل الطعام ، بل جعلناهم بشرًا يحتاجون إلى الأكل والإخراج والنسل ، ويعتريهم المرض والموت والفناء ، فقد كان كذلك رسل الله السابقون .
قال ابن كثير :

وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ .

أى : بل قد كانوا أجسادًا يأكلون الطعام ، كما قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ . (الفرقان : ٢٠) . أى : قد كانوا بشرًا من البشر ، يأكلون ويشربون مثل الناس ، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئًا كما توهم المشركون فى قولهم : مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جُنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَشْهُورًا . (الفرقان : ٨٠٧) .

وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ .

أى : فى الدنيا لا يموتون ولا يفنون ، ولكنهم قضوا حينًا من الدهر وهم أحياء ، ثم طواهم الثرى وضمتمهم القبور ، قال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا بَشَرٌ مِّن قَبْلِكَ الْخَالِدَ الْإِنْسَانِ مَتَّ فُهُمُ الْخَالِدُونَ . (الأنبياء : ٣٤) .

وخلاصة ذلك : إنا جعلنا الرسل أجسامًا تتغذى حين الحياة ، ثم يصير أمرها إلى الفناء ، بعد استيفاء أجلها ، ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ، وما كانوا مخلدين بأجسادهم ، بل يموتون كما مات الناس قبلهم ويعدم ، وإنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس ، بما يأتهم عن الله من الوحي والزلزلى عنده .

٩ - ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ .

لقد وعد الله رسله بالنصر ، قال تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُارُ . (غافر : ٥١) . وقد صدق الله ما وعد به رسله ، فنجاهم من أذى المشركين ، ونجى من يشاء من المؤمنين ، وأهلك الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والعصيان ، فقد نجى نوحا ومن آمن به ، وأغرق الكافرين ، ونجى إبراهيم من النار وجعلها بردًا وسلامًا عليه ، ونجى موسى ومن آمن معه من الغرق ، وأغرق فرعون ومن معه من الجنود ، ونجى عيسى ورفعاه إلى السماء ، ونصر محمدًا ﷺ ومن آمن معه من المهاجرين والأنصار ، حتى فتح مكة وجاء نصر الله والفتح .

١٠ - لَقَدْ أُنزِلَتْ إِلَيْكُمْ كِتَابٌ فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

لقد أنزلنا إليكم أيها العرب ، قرآنا فيه شرفكم ومجدكم وعزتكم ، ودينكم وتقويم أخلاقكم ، بما اشتمل عليه من الإيمان والتشريع والآداب ، والقصص وأسباب السعادة والقرينة المثلى ، فمن اتبعه ؛ نال السعادة فى الدنيا والآخرة .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ . ذلك فتقبلون على القرآن إقبال المصدق به ، المتبع لما جاء فيه .

لقد نزل القرآن عربياً مبيناً ، وكان شرفاً لهذه الأمة ، ويقدر اتباعها للقرآن ، بقدر ما جاء إليها من نصر وعز ، وبهذا القرآن تقدم العرب المسلمون ، فافتتحوا بلاد الفرس والروم ومصر ، وتقدموا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وحين ضعفت صلة المسلمين بهذا الكتاب ، وضعف الاقتداء به ؛ عمهم ظلام التخلف والتأخر ، ولا يزال الوحي نضيراً ، والسنة المطهرة قدوة حسنة ، وكلما عاد المسلمون إلى أصول دينهم ؛ كلما عاد إليهم مجدهم ، وصاروا خير أمة أخرجت للناس ، والبشرية فى حاجة إلى هدى هذا القرآن ، ولم يكن للعرب كبير شأن فى الجاهلية ، وإنما عرف فضلهم بهذا القرآن الذى عم نوره المشرق والمغرب ، فالعرب بالإسلام كلُّ شيء ، وبدون الإسلام لا شيء ، قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

إن القرآن شرف للرسول ﷺ وللعرب ؛ بما حوى من تشريع وآداب وأخلاق وقيم ، وهذه نعم سوف نُسأل عنها : هل تمسكنا بها وحملناها إلى غيرنا فى صورة كريمة تدعو إلى الاقتداء بها أم لا ؟

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣) .

فالأمة الإسلامية أمة وسط ، وهذه الوسطية تميز هذه الرسالة ، فهى رسالة وسط بين المادية والروحية ، وهى فى منطقة وسط بين ما حولها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وهى دعوة وسط بمعنى : مثالية الرسالة وصلاحياتها للدنيا والآخرة ، وهى لذلك تجعل للمسلمين القوامة على البشرية ، يتمسكون بالقيم ، ويدعون الناس إليها ، وحضارة القرن العشرين حضارة مادية ، تقدمت فى اختراع القنبلة الذرية ، ثم أُلقيت قنبلة فى هيروشيما ، وقنبلة فى نجازاكي سنة ١٩٤٥ فكان مع ذلك الوباء والبلاء ، وآلاف القتلى وأصحاب العاهات ، وامتد الأثر إلى الأرض والزراعة والإنسان والحيوان ، ويدنا هو دين الرحمة بالإنسانية وصدق الله العظيم . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَاسِ إِذَاهُمْ مِنْهَا نَزَّحُوا إِلَى مَأْتَرٍ فَأَمْشَوْا فِيمَهُمْ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا يُولِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا زِلْتَ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾

المفردات :

كَمْ : لفظ يفيد : تكثير وقوع ما بعدها .

القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء ، وإذها ب التناهما .

الإحساس : الإدراك بالحاسة ، أى : أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد .

الساس : الشدة .

الركض : الفرار والهرب .

الإتساف : إبطار النعمة ، يقال : أترف فلان أى : وسَّع عليه فى معاشه وقل فيه همَّه .

ياويلنا : يا هلاكنا .

دعواهم : دعوتهم التى يريدونها .

حصيدا : كالزرع المحصود بالمناجل .

خامدين : كالنار التى خمدت وانطفأت .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات بمثابة التهديد والوعيد لأهل مكة وتفيد : أن الله أهلك كثيرا من القرى الظالمة وأنشأ بعدها قوماً آخرين .

التفسير :

١١ - وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ .

لقد أهلكنا كثيرا من القرى الظالمة ، التى كذبت الرسل واستهزأت بهم ، فدمَّر الله قرى الكافرين ، مثل : عاد وثمود وفرعون وأشباهم ، والتدمير يعم الناس والمنازل وسائر المكان ، وتصور الآية شدة بطش الله بالظالمين ، فالتعبير بكلمة قَصَمْنَا تفيد : الغناء الكامل ، حيث إن القصم (بالقاف) يفيد : تفكيك الأجزاء وامتناع التناهما .

بخلاف القسم (بالفاء) لأنه يفيد : التصدّع ، وإمكانية الالتئام .

وحين تحدثت الآية عن الإهلاك جعلته للقرية ، كأن الإهلاك أصاب الأشخاص والأماكن وسائر الممتلكات والمنشآت ، أما عند الحديث عن الإنشاء والتعويض بالآخرين ، نسبته الله للأشخاص ، فيبدا الله بهم ، ثم يعمرون المكان .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، تفيد : هلاك الظالمين المفسدين ، فذلك باموس الله فى إزهاق الباطل وإحقاق الحق ، قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَعِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

وقال تعالى : فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ... (الحج : ٤٥) .

وقال عن شأنه : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ .

أى : أمة أخرى بعدهم ، فالله قد خلق الإنسان لعمارة الأرض ، فإذا أفسد وكذب وأترف : أهلكه الله ، وأنشأ أمة أخرى مكان الهالكين ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ . (محمد : ٢٨) . ويقول عن شأنه متحدثا عن هلاك فرعون وقومه : كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُوبٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَسَكِينٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ . (الضحان : ٢٥ - ٢٨) .

أى : عندما هلك فرعون : انتقلت ملكية النعيم إلى قوم آخرين ، كأنه ميراث ملكوه ، كما يملك الابن الميراث عن أبيه .

١٢ --- فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاسَاتِهِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ .

تصوّر الآية ما نزل بهؤلاء المكذبين من الزعر والخوف ، فهم أشبه بالفأر فى المصيدة ، يجرى من هول ما أصابه : لعل ذلك ينجيهم ، كذلك هؤلاء الأشرار ، عندما شاهدوا عذاب الله ، وأيقنوا بوقوع الهلاك عليهم : إذا بهم يفرّون من القرية مسرعين : ظنا منهم أن ذلك الفرار والجرى السريع ، ربما ينجيهم من العذاب .

١٣ - لَا تَرْكُضُوا وَآرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَتَرْتُمْ فِيهِ وَتَسْكَبُوا عَلَيْكُمْ ثَغْلُكُمْ تَسْلُفُونَ .

أى : يُقال لهم عند الفرار من قريتهم : لا تفرّوا وعودوا إلى النعيم والمال والترف والأبهة ، واسكنوا فى

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَمِينَ ﴿١٦﴾ لَوَ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَا نَخَذَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُتَابَ فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

الــــــــــــــــعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح .

الــــــــــــــــهو : الفعل يعمل ترويحاً عن النفس ، ومن ثم تُسمى المرأة والولد : لهوا : لأنه يُتروَّح بكل منهما ، ويقال لامرأة الرجل وولده : ريحانته .

مِن لَدُنَّا : من عندنا .

الــــــــــــــــقذاف : الرمي البعيد .

الــــــــــــــــدمغ : أصل الدمغ : كسر الشيء الرخو ، ويراد به هنا : القهر والإهلاك .

زاهــــــــــــــــق : زائل ذاهب .

الــــــــــــــــويل : الهلاك .

مِن عِنْدِهِ : الملائكة .

لَا يَسْتَكْبِرُونَ : لا يتعظمون .

يَسْتَحْسِرُونَ : يَكُونُ وَيَتَعَبُونَ ، يقال : حسر البعير : إذا أعيا وكل .

لَا يــــــــــــــــفُتْرُونَ : لا يضعفون ولا يتراخون .

تفهيد :

تردُّ الآيات على الطاعنين في نبوة محمد ﷺ ، فالكون كله خلقه الله بالحق ، ومن هذا الحق : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ولو أراد الله أن يتخذ ولدًا : لاصطفاه من الملائكة ، لكنه منزّه عن الصاحبة والولد ، ثم بين : أن الغلبة للحق دائماً مهما طال أمد الباطل ، وأن جميع من في السماوات ومن في الأرض كلهم عبيده وفي طاعته .

التفسير :

١٦ - وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لْعَيْنٍ .

إن الله لم يخلق الكون عبثاً ، بل خلقه بالحق ، وأرسل رسله بالحق ، وأنزل كتبه بالحق ، وبالحق قامت السماوات والأرض ، ومن هذا الحق : الإيمان بالرسول ، والكتب ، والبعث ، والجزاء . وثابتة الطائع ، وعقوبة العاصي ، وقد كان أهل مكة لاهين لاعبين ، ووقفوا من دعوة الإسلام موقف اللاعب المستهتر .

فقال القرآن : إن خلق الكون ، وخلق الإنسان ، تمّ بالعدل والجد ، ومن تأمل فى خلق الكون وخلق الإنسان : استدل بهذه المخلوقات على قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَلْطَلَّ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آثَارِهِ . (ص : ٢٧) .

إن هذا الكون البديع المنظم ، يحتاج إلى قدرة عليا ، تمسك بنظامه ، وترفع سماءه ، وتبسط أرضه ، وترسى جباله ، وتظلم ليله وتضيء نهاره ، وتسخر شمسه وقمره ونجومه ، وتنظم الهواء والماء ، وتحافظ على التكمال والتنسيق بين هذا الكون ، فكل شيء فيه لحكمة عليا أرادها الله ، فالإنسان مثلاً يستنشق الأكسجين ، ويخرج ثاني أكسيد الكربون ، والنبات عكس ذلك ، فلو وجد الإنسان وحده : لمات ، ولو وجد النبات وحده : للذبل واضمح ، وهكذا تركيب الهواء بنسب معينة ، تساعد على الحياة والتعلم والتحضر ، فلو زادت نسبة الأكسجين فى الهواء : لزادت الحرائق ، بحيث تكفى شرارة واحدة للغابة لتحترق ، ولو قلَّ الأكسجين : لتعطل التحضر الإنسانى ، فالكون كله بيد الله يدبّر نظامه ، ويرسل رسله وينزل كتبه .

ومن هذا الناموس الإلهي : إحقاق الحق ، ونصرة الرسل ، وإهلاك المفسدين .

١٧ - لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُفَّارِ لِعَيْنٍ .

أى : لو أردنا - على سبيل الفرض والتقدير - أن نتخذ ما ننتهى به : لاتخذناه من عندنا ومن جهتنا ، دون أن يمنعنا أحد مما نريده ، ولكننا لم نرد ذلك : لأنه مستحيل علينا استحالة ذاتية ، فيستحيل علينا أن نريده ، فالآية الكريمة من باب تعليق المحال على المحال : لأن كلا الأمرين يتنافى مع حكمة الله ومع ذاته الجليلة .

إِنَّ كُفَّارِ لِعَيْنٍ .

إن هنا بمعنى (ما) أى : ما كنّا فاعلين ، والفقرة هذه تذييل لتأكيد امتناع إرادة الله عليه سبحانه : لأن اتخاذ الله يستحيل عليه .

ونقل ابن كثير في معنى الآية ما يأتي :

قال الحسن وقتادة وغيرهما : لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوَ . اللهو : المرأة بلسان أهل اليمن .

وقال إبراهيم النخعي : لَتَتَّخِذْنَهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ .

وقال عكرمة والسدي : المراد باللهو هنا : الولد وهذا والذي قبله متلازمان ، وهو كقوله تعالى : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . (الزمر : ٤) . فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقا ، ولا سيما عما يقولون من الإفك والباطل ، من اتخاذ عيسى أو العزيز^(١) أو الملائكة ؛ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا . (الإسراء : ٤٣) .

و خلاصة المعنى :

لو أراد الله أن يتخذ لهما كما يتخذ العباد : لاتخذه من العوالم المجردة كالملائكة ، لكنه سبحانه منزّه عن اللهو ، فقد خلق الكون لحكمة عليا ، وخلق الإنسان وزوده بالسمع والبصر ، وأرسل له الرسل وأخبره بالحساب والجزاء ، فالجدّ ظاهر في خلق الكون ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . (الزخرف : ٨١ ، ٨٢) .

١٨ - بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَكُمُ الْقَوْلُ مِمَّا تَصِفُونَ .

بَلْ هُنَا لِلْإِخْرَابِ ، أى : ليس من شأننا أن نتخذ لهما ، ولكن من شأننا إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ومن هذا الحق : إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتكليف الرسل بالبلاغ والدعوة إلى الهداية ، والصراع بين الحق والباطل أنزلى ، ولحكمة إلهية عليا أن يوجد في هذا الكون وسائل الهداية ، ووسائل الغواية ، وأن يكون مع الإنسان العقل والرسالات السماوية ، وأمامه وسائل الإغراء ، وهذا للاختبار والابتلاء ، إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْذُلُوهُمُ إِلَيْهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) .

ومفردات الآية تصور الحق قذيفة موجهة إلى أم رأس الباطل ، فتشق دماغه ، فتنتهي حياته وتزهق روحه ، والقذف الرمى بسرعة .

فَيَدْمَغُهُ . يمحقه ويزيله .

قال القرطبي : وأصل الدماغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ .

قال صاحب الظلال :

والتعبير يرسم هذه الشئ في صورة حسية متحركة ، فكأنما الحق قذيفة في يد القدرة ، تقذف به على الباطل ، فيشق دماغه ! فإذا هو زاهق هالك ذاهب^(١) .

وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ .

ولكم أيها الكافرون الضالون العذاب الشديد ، مما تصفون الله به ، بأن له صاحبة أو ولدا ، أو أنه لا بعث ولا حساب ، أو التكذيب بالرسول ورسالة محمد ﷺ وبالقرآن المجيد .

١٩ - وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

ولله ملك السماوات والأرض وما فيهما ، من إنسان وحيوان وطيور وفضاء وهواء ، فهو سبحانه يملك جميع من في السماوات والأرض ، وله وحده جميع من في السماوات والأرض ، خلقا ، وملكا ، وتدبيرًا ، وتصرفًا ، وإحياء وإماتة ، لا يخرج أحد عن علمه وقدرته ، ولا يبعد أن يكون في السماوات والأرض كائنات حية تعيش في هذه المجرات والبروج على طريقة خلقها الله عليها ، وجعلها تتكيف في حياتها مع طبيعة ما حولها .

وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ .

ومن عنده من مخلوقاته التي لا يعلمها إلا هو ، ومن عنده الملائكة المقربون ، الذين فطروا على العبادة والطاعة ، فلا يستكبرون عبادة الله ، ولا يستحسرون أي : ولا يمتنعون ولا يكلون ولا يتعبون ، فقد فطروا على عبادة الله وطاعته ، عن راحة وطواعية ، فليس في طبيعتهم التكبر عن العبادة ، أو الامتناع عنها أو الكلال أو الملل منها .

٢٠ - يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .

التسبيح : تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، والفتور : الاسترخاء والراحة والإبطاء ، فالملائكة في تسبيح دائم ، وطاعة مستمرة لله ، بالليل والنهار في جميع الأوقات ، بدون فتور أو تقصير أو إهمال أو إبطاء ، كما قال سبحانه وتعالى : لَا يَغْصُونَ آلَهُ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

وقال سبحانه : فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ . (فصلت : ٣٨) .

قال في حاشية الجمل على الجلالين :

وتسبيح الملائكة لله تعالى ، يجرى منهم مجرى التنفس منا ، فهو سجيّه وطبيعه ، وكما أن اشتغالنا لا يمنعنا من الكلام ، فكذلك اشتغال الملائكة بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال . ا هـ .

والمؤمن يستطيع أن يحول كل أعماله إلى عبادة ، فتكون دراسته أو تعلمه ، أو زراعته ، أو صناعته عبادة ؛ إذا قصد بها الامتثال لأمر الله ، أو نفع عباد الله ، فتكون الأعمال العادية عبادة ، كعبادة الصلاة والصيام ؛ إذا حسنت فيها النية ، وفي الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» .^(٢)

★ ★ ★

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلَٰهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكُنَّ نَجْرِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

يُشْرُونَ : من أنشده أى : أحياه .

لَفَسَدَتَا : خرجتا عن نظامهما وخربتا .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ : تنزيها له عما وصفوه به .

هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ : هذا الوحي المتضمن للتوحيد غظة أمتي .

وَذِكْرُ مَن قَبْلِي : وموعظتهم وإرشادهم .

لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ : لا يتكلمون حتى يأمرهم .

مكرمون، مقربون عنده .

من خشيتهم : بسبب خوف عذابه .

مشفقون : حذرون .

تمهيد :

ما تقدم من أول السورة إلى هنا كان في النبوات وما يتعلق بها سؤالاً وجواباً ، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد ونفى الشرك .

التفسير :

٢١ - أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشِيرُونَ .

أى : بل اتخذوا أصناماً تُعبد من دون الله ، خلقت من الأرض كالأصنام والأحجار ، وهذه الأصنام على حقارتها وضعيتها هل تقدر على إحياء الموتى ، وبعث من فى القبور ؟! والاستفهام هنا للتوبيخ والتفريع : لأن الكفار أثبتوا لهذه الأصنام الألوهية وعبدوها على أنها وسيلة للتقرب إلى الله ، وهو هنا يسألهم : من له الألوهية والعبادة يستطيع البعث والنشر ، فهل ألهمتكم تلك هذه القدرة ؟! والجواب : لا طبعاً ؛ لأن الكفار يعرفون ذلك ، وهم وإن لم يقولوا ذلك صريحاً ، فما ادعوه لها من الألوهية ، يستدعى لها ثبوت إحياء الموتى ؛ لأنه من خصائصها ، وكأن الآية تشير ضمناً إلى أن الخالق الحق هو الله ، فهو الذى أنشأ الخلق من عدم ، وهو القادر على إعادة الخلق كما بدأهم ، قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

٢٢ - لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ .

إننا نلاحظ اتساق السماء واتساعها ونظامها ، وإحكام خلقها ، بلا خلل ولا تشقق ولا عيوب ، ونشاهد امتداد الأرض واتساعها وتماسكها وإحكام خلقها ، وتثبيتها بالجبال ، ولو كان فى الكون آلهة متعددة: لكثر بينهما التغالب والتنازع وأدى ذلك إلى فساد الكون ، واضطرابه ، والشاهد أماننا بنظام الكون وإبداعه ، فدل ذلك على أن خالقه إله واحد ، وأن خالقه هو الله وحده لا شريك له ، فلا يقدر على هذا الخلق البديع إلا الله ، والمنطق يقول ذلك ، والعقل يقول ذلك . فنظام الكون واحد ، وهذا الكون يسير على نسق واحد ، فى خلقه واستمراره ونهايته وإعادته ، وهذا النسق الواحد ، يشير إلى أن وراءه يداً واحدة ، هى يد القدرة الإلهية ، وقد تعددت آيات القرآن التى تشير إلى خلق الله للكون ، وبأن الكون البديع له ناموس بديع واحد ، يشير إلى خالق واحد مثل قوله تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

وقوله عز شأنه : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . (المؤمنون : ٩١) .

وقال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغُلُقُ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

وخلاصة معنى الآية :

لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله لفسدنا ، لكنهما لم تفسدا ، بل هما على غاية النظام والإبداع ، فدل ذلك على أن خالقهما الإله الواحد سبحانه وتعالى .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ .

أى : فتزئجها لله رب العرش العظيم ، الخالق المبدع ، المحيط بهذا الكون ، المدبر لهذا العالم ، عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولداً أو شريكاً .

٢٣ - لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ .

ليس فوقه أحد حتى يسأله ، إنه هو القاهر فوق عبادہ ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو الذى يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ . (المؤمنون : ٨٨) وهو سبحانه : الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، عظم سلطانه ، وامتد ملكه ، وعظمت قدرته ، وعظمت حكمته : فكل أعماله حكيمة ، ولذلك : لا يتناول إنسان فيقول : لم خلق الله كذا ، ولم عمل كذا ؟ لأننا قد ندرك سر الحكمة فى شىء ، وقد تغيب عنا أشياء ، وهذا معنى : لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ؛ لأنه سبحانه حكيم فى خلقه ونظامه وأوامره وتشريعاته ، والخلق جميعاً يُسألون يوم القيامة عما قدموه فى دنياهم ، ويجازون على الإحسان وإحساناً وعلى السوء سوءاً ، قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وجاء فى التفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى :

لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ . تأكيد لوحدانيتہ وقدرته سبحانه . أى : لا يسأله سائل عما يفعله بعباده ، من إعزاز وإذلال ، وهداية وإضلال ، وغنى وفقر ، وصحة ومرضى ، وإسعاد وإشقاء ؛ لأنه هو الرب المالك المتصرف فى شئون خلقه .

وَهُمْ يُسْأَلُونَ . يوم القيامة عن أعمالهم وأقوالهم ؛ لأنهم عبده ، وقد أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين ، فمنهم من اتبع الرسل فسد وفاز ، ومنهم من استحب العمى على الهدى فشقى وهلك^(١)

٢٤ - أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

أصبح بعد تقديم الأدلة السابقة ، أن يتخذ المشركون آلهة يعبدونها من دون الله ، قل لهم يا محمد: قدموا الأدلة والبراهين على ذلك، هذا القرآن الكريم تذكير لمن معي من المؤمنين ، مشتمل على أدلة التوحيد، حافل بلغت الأنظار إلى جمال الكون ، ويدبح نظامه ، وأنه في قبضة إله واحد .

قال تعالى : أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْ لَهَا رَوَابِي وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل : ٦١) .

وهذه التوراة والأنجيل والصحف السماوية ، كلها حافلة بالدعوة إلى التوحيد ، وقد نزلت هذه الكتب على الأنبياء من قبلى ، لأمر الأنبياء السابقين . وبذلك اتفق القرآن وجميع الكتب السماوية السابقة على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك ، أى : أن العقل والنقل يؤكدان التوحيد وينبذان الشرك .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

أكثر هؤلاء المشركين لا يعرفون الحق ، ولا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تنفع معهم الأدلة والبراهين ، لقد اتبعوا آباءهم فى عبادة الأصنام ، ولم يستخدموا عقولهم ، ولم يفتحوا قلوبهم لسماع دعوة الإسلام ، وصادروا الاستماع إليها ، وأعرضوا عنها وصموا أذانهم عن الهدى ، وأغلقوا عيونهم عن النظر .

فَهُمْ مُعْرِضُونَ .

لذلك أعرضوا عن الدخول فى الإسلام . والجهل بالحق داء دوى ، ومرضى يفسد الفطرة ، ويصرف الإنسان عن السير فى طريق الهدى والإيمان .

٢٥ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْهِ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ .

لقد أرسلنا رسلنا يدعون أقوامهم إلى التوحيد ، فآدم، ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وعيسى، وسائر الرسل ، كانوا يدعون أقوامهم إلى توحيد الله ، والإخلاص له فى العبادة ، وامتنال أمره واجتناب نواهيه .

وقد أوحى الله إلى كل رسول: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ؛ فلا معبود بحق غير الله .

وفى سورة طه: فَلَمَّا أَنَّهُمَا نَادَىٰ يَلْمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . (طه: ١١ - ١٤) .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ ... (النحل: ٣٦) .

والخلاصة: أن الفطرة والعقل والنقل تؤيد التوحيد، ورسالات جميع الأنبياء متحدة فى دفع الشرك وإقرار التوحيد .

٢٦ - وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ .

وقال فريق من هؤلاء المشركين: إن الملائكة بنات الله، وقد ناقش القرآن هذه الفكرة فى آيات كثيرة، وأثبت ضلالها وبين ضعف الأنثى، وعدم استطاعتها إقامة الحجة أو النجاح فى الخصومة، فكيف يجعلون لأنفسهم الذكور والله الأنثى؟

قال تعالى: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۖ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ .^(١) (النجم: ٢١، ٢٢) .

وقال سبحانه وتعالى: وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۖ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ۖ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۖ أَوْ مَنْ يَنْشُرُ لِي آلَ حُلَيْيَةٍ ۖ وَهُوَ لِي الْخِصَامُ غَيْرَ مُبِينٍ ۖ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّكَ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ۖ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . (الزخرف: ١٥ - ٢٠) .

وتفيد كتب التفسير: أن اليهود ادعوا لله ولداً هو العزيز، وأن النصارى ادعوا لله ولداً وهو المسيح عيسى بن مريم، وأن جموعاً من مشركى العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله، وهم بطون من خزاعة وجهينة وبنى سلمة، وقد ناقشتهم آيات القرآن وفندت حججهم، فكيف يتخذ الخالق مما يخلق البنات ويترك للمخلوقين البنين؟ مع أن العربى كان إذا بُشِّرَ بالأنثى: اسودَّ وجهه، وملأ الغيظ قلبه، وسيكتب الله قولهم ويحاسبهم عليه ويسألهم عنه .

ومعنى الآية :

وقال المشركون : اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا تنزه الله وتقدَّس الله تعالى عن ذلك ، جل وعلا عما يقولونه علوا كبيرا .
بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ .

لقد كذب المشركون فى قولهم : الملائكة بنات الله ، والحق أن الملائكة هم عباد مخلوقون له تعالى ، ومقربون إليه ومكرمون عنده ؛ لأنهم فى منتهى الطاعة والعبادة والامتثال لأمره ، والتسابق فى مرضاته ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

٢٧ - لَا يَسْجُدُونَ لِلْقَوْلِ بِهِمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ .

إنهم فى غاية الامتثال والطاعة لربهم ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، فهم نموذج للطاعة فى القول والعمل .

٢٨ - يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ .

شتان بين المخلوق والخالق ؛ فالله العلى العظيم ، يعلم أحوال الملائكة كلها ، صغيرها وكبيرها ، متقدمها ومتأخرها .

وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ .

ولا تشفع الملائكة إلا لمن رضى عنه الرحمان ، وهم أهل التوحيد ، وقد ثبت فى الصحيح : أن للملائكة شفاعة ، لكنها مرتبطة بمن رضى الله عنه ، وأذن لهم بالشفاعة له ، والملائكة لخوفهم من عقاب الله وعذابه ؛ حذرون وجلون ، يتسابقون فى طاعته وذكره ، وامتثال أمره ، واجتناب نهيهِ ، ولا يملكون إلا هذه الطاعة ، ولا يخالفون لله سبحانه أمراً ، فمن جعلهم بنات لله ، فقد افترى على الله الكذب ؛ لأن الابن يكون من جنس الأب ، وشتان بين الإله الخالق وبين الملائكة المخلوقة .

٢٩ - ... وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلِئَلَّكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

ومع طاعتهم لله تعالى وامتثالهم لأمره ، إذا فرضنا جدلاً أن واحداً منهم ، ادعى : أنه إله من دون الله ، فسوف يكون جزاؤه عذاب جهنم ، ومثل هذا الجزاء لكل مدعى للألوهية ، ولكل ظالم عات على أمر الله ، مثل إبليس الذى أقام مع الملائكة فنسب إليهم ، وعندما خالف أمر الله تعالى ، ولم يسجد لآدم ؛ طرده الله من جنته ورضوانه ، وكتب عليه اللعنة والطرده من رحمته ، ووعده فى الآخرة عذاب السعير .

قال تعالى : قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ • وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ • قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ • قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ • إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ • قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغَيِّرُهُمْ أَجْمَعِينَ • إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ • قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ • لَا مُلَأَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَعَلَتْ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص ٧٧ - ٨٥) .

★ ★ ★

الخلق

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَالنَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

المفردات :

الـرتق : الضم والالتحام ! خلقه كان أو صنعة .

الـفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين .

جعلنا من الماء كل شيء حي : أحيينا بالماء الذي نزل به من السماء كل شيء ، والنبات والشجر .

الـرواسي : الثوابت واحدا : راسية .

تـميد : تتحرك وتضطرب .

الـفجاج : واحدا : فج وهو طريق يكتنفه جبالان .

سـبلا : طرقا واسعة .

سـقفا مـحـفـوظا : السماء كالسقف للأرض ، محفوظة من الخلل والاضطراب ، ومن استراق السمع .

كـل فـلـك : في مدار خاص به .

يـسـبـحـون : ينطلقون ويتحركون ويعومون ، مرتبطين بنظام هذا الكون .

تمهيد :

تقدم الآيات دلائل القدرة الإلهية فى : خلق الكون ، ورفع السماء ، ويسط الأرض ، وإرساء الجبال ، وتسخير الليل والنهار ، والشمس والقمر ، وكل شئ له مجال يسبح فيه مرتبطاً بنظام هذا الكون المحفوظ بيد القدرة الإلهية .

التفسير :

٣٠- أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .

يمن الله على عباده بخلق هذا الكون وإيجاده من العدم .

والمعنى : ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة ، لا فتق فيها ولا انفصال وهو ما يسمى فى عرف علماء الفلك : بالسديم ، وبلغه القرآن : بالدخان فَفَتَقْنَاهُمَا ، بفصل بعضهما عن بعض ، فكان منها ما هو سماء ومنها ما هو أرض ^(١) .

وقد نقل ابن كثير عن ابن عباس وغيره عن أعلام التفسير قولهم : كانت السماوات رَتْقًا لا تمطر ، وكانت الأرض رَتْقًا لا تنبت ، وكانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما بالهواء فكان فى ذلك فتق السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات .

وقيل : الرتق : مجاز عن العدم ، والفتق : مجاز عن الإيجاد والإظهار كقوله تعالى : فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ^(٢) .

وقال بعض علماء الفلك :

معنى : كَانَتَا رَتْقًا ، أى : شيئاً واحداً ، ومعنى : فَفَتَقْنَاهُمَا : فصلنا بعضهما عن بعض .

قال : فتدل الآية : على أن الأرض خلقت كباقي الكواكب السيارة من كل وجه ، أى : أنها إحدى هذه السيارات ، وهى مثله فى المادة وكيفية الخلق وكونها تسير حول الشمس ، وتستمد النور والحرارة منها ، وكونها مسكونة بحيوانات كالكواكب الأخرى ، وكونها كروية الشكل ، فالسيارات أو السماوات هى متماثلة من جميع الوجوه ، وكلها مخلوقة من مادة واحدة وهى مادة الشمس ، وعلى طريقة واحدة - اهـ . كلامه ^(٣) .

ومعنى قوله تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ . صيرنا كل شئ حى بسبب الماء لا يحيا دونه ، فيدخل فيه النبات والشجر : لأنه من الماء صار نامياً ، وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر ، وإسناد الحياة إلى ظهور النبات معروف فى آيات شتى كقوله تعالى : وَيُخْرِى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ^(٤) . وخص بعضهم الشئ بالحيوان ، لما ورد فى الآية ٤٥ من سورة النور وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ ولا ضرورة إليه ، بل العموم أدل على القدرة ، وأعظم فى العبرة وأبلغ فى الخطاب وألطف فى المعنى ^(٥) .

٣١- وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ...

أى : ألقينا فى الأرض جبالا راسية حتى تحفظ توازنها فلا تضطرب ولا تختل ، ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب ؛ مما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان .

وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

أى : جعلنا فى الأرض طرقًا ؛ ليهتدوا أثناء السير فيها .

وقال ابن كثير :

جعلنا غزراً فى الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد فى الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ثغرة ؛ ليسلك الناس فيها من هنا إلى هنا ولهذا قال : لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

٣٢- وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ .

بارك الله فى الأرض ، وحفظ توازنها بالجبال ، وقدر فيها أركاناً بالماء والغضاء والهواء ، وجعل السماء سقفاً وغطاء لحفظ الأرض ، وحفظ الله السماء من اللخل والقطور والتشقق ، كما حفظها من الشياطين بالشهب ، قال تعالى : وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . (الحجر : ١٧) .

وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ .

أى : لا يتفكرون فيما خلق الله فى السماء من الارتفاع الباهر ، والاتساع العظيم ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى لييلها ونهارها ، من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذى قدرها وسخرها وسيرها .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

(يوسف : ١٠٥)

٣٣- وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

الله خَلَقَ اللَّيْلَ : ليسكن الإنسان فى ظلامه ويهدأ ، وخلق النَّهَارَ مبصراً ؛ ليسعى فيه على رزقه وينشط لعمله .

وخلق الله الشَّمْسَ : لتكون سراجاً للنهار ، ولتمد الناس والكون بالدفع والحرارة .

وخلق الله الْقَمَرَ نَوْراً لليل ، ويرتبط بالقمر المد والجزر ، وقد سخر الله هذه الكائنات ، وأبدع نظامها ، ويسر لها حركتها .

كُلُّ لَيْلٍ فَلَكُمْ يَسْجُونَ . كل واحد منهما يجرى فى الفلك كالسابع فى الماء .

قال فى ظلال القرآن :

والليل والنهار ظاهرتان كونيتان . والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان فى الأرض ، وبالحياة كلها .. والتأمل فى توالى الليل والنهار ، وفى حركة الشمس والقمر بهذه الدقة التى لا تختل مرة ، وبهذا الاضطراب الذى لا يكف لحظة .. جدير بأن يهدى القلب إلى وحدة الناموس ، ووحدة الإرادة ، ووحدة الخالق المدبر القدير ^(١١) .

★ ★ ★

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِيعِ قَبْلَكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (٣٤) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٥) ﴿وَأَذَارُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٦)

المضردات :

الخلد : الخلود والبقاء فى الدنيا .

فهم الخالسون : الباقيون فى الدنيا ؟ لا ، وهذه الجملة محل الاستفهام الإنكارى .

ذائقة الموت : كل نفس ستدرك الموت عند نهاية الحياة ، والمراد من الموت : مقدماته من الآلام الشديدة ، والمدرِك هى النفس المغارقة للجسد .

نبلوكم : نختبركم ، أى : نعاملكم معاملة المختبر .

بالشر والخير : بالبلايا والنعم ، أو المحبوب والمكروه ، كفقر وغنى ، وسقم وصحة ، وذل وعز .

فتنة : ابتلاء وامتحاناً : لننظر أتصبرون وتشكرون أم لا .

والينا ترجعون : فنجازيكم حسبما يوجد منكم من الصبر والشكر ، وفيه إيمان بأن المقصود من هذه الحياة : الابتلاء .

إن يتخذونك إلا هزواً : ما يتخذونك إلا مهزواً به مسخوفاً منه .

أهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ أَهْلَكُمْ، أَهَذَا الَّذِي يَعْجِبُ أَهْلَكُمْ .

وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَانَ، إِذَا ذَكَرَ إِلَهُ الرَّحْمَانِ الْوَاحِدِ .

هَمَّ كَافِرُونَ ، بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَالرَّسَالَ كَافِرُونَ جَاحِدُونَ ، فَهُمْ أَوْلَى بِالرِّثَاءِ وَالسَّخَرَةِ؛
لِكَفَرِهِمْ بِاللَّهِ الْحَقِّ .

تمهيد :

فى آيات سابقة ربط الله بين نواميس الكون ، ولغت الأنظار إلى خلق الكون ، والحياة والماء ، والأرض
والسماء ، والشمس والقمر .

وهنا يتحدث عن نواميس الحياة البشرية فى طبيعتها ونهايتها ومصيرها .

التفسير :

٣٤- وَمَا جَعَلْنَا نَبِيًّا مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ .

كان الكافرون يتريصون بالنبي الموت ، ويقولون : سيموت محمد كما مات شاعر بنى فلان ؛ فبين
القرآن : أن الموت سنة الأحياء ؛ فكل حى سيدركه الموت ، وكذلك كفار مكة سيموتون ، وإذا كانوا سيموتون
فلماذا لا يعملون عملاً صالحاً ينفهم بعد الموت ؟.

وَمَا جَعَلْنَا نَبِيًّا مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ .

لم يخلد نبي ولا رسول ولا بشر ؛ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلْسَلِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمان : ٢٦ ، ٢٧).

وإذا كان كل بشر فان ؛ فأنت ستمت يا محمد كما مات غيرك ، وستنكفل نحن بأمر الرسالة ونحافظ عليها .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الجزر : ٩) .

أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ .

وأنت إذا مت يا محمد ، فإن الكفار سيموتون أيضاً فى الوقت الذى حدده الله تعالى لانقضاء عمرك ،

وأعمارهم .

وما دام الأمر كذلك ، فلا تلتفت إليهم ، ولا تنزعج من شماتتهم فى موتك ، فإنك ميت وإنهم ميتون ،

وكل شئ هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون .

يقول الإمام الشافعي :

تمنّى أناس أن أموت ، وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى نهياً لأخرى مثلها ، وكان قد

ويقول شاعر آخر :

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلا كله أناخ بأخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

٣٥- كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .

فهى قضية عامة تشمل الإنسان والحيوان والنبات ، هذا هو الناموس الذى يحكم هذه الحياة ، إنه الموت نهاية كل حى ، وعاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض ، فما أجدر الإنسان بأن يُعد الزاد للحياة الحقيقية فى الدار الآخرة .

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (العنكبوت : ٦٤) .

والمقصود من هذه الحياة الدنيا : الاختبار ، والابتلاء ، والامتحان .

وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

نختبركم بالفقر والغنى ، والمرض والصحة ، والشقاء والسعادة ، والبلاء والعافية : امتحانا لكم ، واختباراً لأنفسكم ، ولنشاهد نحن وملائكتنا ماذا كان وقع الابتلاء بأنفسكم : هل صبرتم على البلاء ؟ هل شكرتم على النعماء ؟ جزعتم من البلاء ؟ وأترفتم بالنعماء ؟ هل أدبتم حق الله فى أنفسكم وأموالكم وسائر نعم الله عليكم ؟ هل صبرتم على المصائب ؟ هل شكرتم على النعم ؟

قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الملك : ٢) .

وقال سبحانه : إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ فِيهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا . (الكهف : ٧) .

فالحياة اختبار ، والمال والجاه والسلطان وسائر النعم ، هى مادة ذلك الاختبار ، وكثيرون ينجحون

نى الصبر والاحتمال ويحملون الشدائد ، وقليلون هم الذين ينجحون فى الرخاء والنعم والدعة والراحة والمال والغنى .

بقول الأستاذ سيد قطب :

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة ، وإن خيّل للناس أنه دون الابتلاء بالشر .

إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ، ولكن القلة القليلة هى التى تصمد للابتلاء بالخير .

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة ، ويكبحون جماح القوة الهائجة فى كيانههم ، الجامحة فى أوصالهم .

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تنهأى نفوسهم ولا تذلل ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الثراء والمقدرة ، وما يغريان به من متاع ، وما يثيرانه من شهوات وأطماع !

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم ، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم ، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالرغائب والمناصب والمتاع والثراء !

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح ؛ ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح ، ثم لا يصابون بالحرص الذى يذل أعناق الرجال ؛ وبلاسترخاء الذى يقعد الهمم .

إن الابتلاء بالشدّة قد يثير الكبرياء ، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب ، فتكون القوى كلها معبأة؛ لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخى الأعصاب وينميتها ، ويفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح ، حتى إذا جاء الرخاء سقطوا فى الابتلاء ! وذلك شأن لبشر... إلا من عصم الله فكانوا ممن قال فيهم رسول الله ﷺ : «عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ناك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»^(١) .

فاليقظة للنفس فى الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها فى الابتلاء بالشر ، والصلة بالله فى الحالين، هى وحدها الضمان^(٢) .

وإذا تأملت أيها المسلم وجدت أن المال والجاه والسلطان وسائر النعم هى خيرات يتفضل الله بها على عباده ، والقلب الموصول بالله ، يرى أن كل نعمة من الله ، وأنه مستخلف عن الله فى إدارتها وإنفاقها قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقد ورد في هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة : دعوة متكررة تحث على الصبر على البأساء وعلى الشكر على النعماء ، وتحذر من الجزع والهلع واليأس ، كما تحذر من البطر والتفرد والغرور .

والمؤمن حقاً متوازن : إذا جاءت النعم ، سخرها في طاعة الله ، وأنفق من ماله في جهات الخير والبر وسخر أنعم الله عليه في مصالح العباد ، ومرضاة الله رب العالمين ، وإذا ابتلاه الله بالشدة أو المرض أو الفقر لم يهلع ولم يجزع وصبر واحتسب .

قال تعالى : وَلَتَبْلُوَنكُمْ بَشِيئًا مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْفُتُرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

وقال عز شأنه :

إِنَّا لَإِلَاسِنٌ خَلْقَ هُلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . (المعارج : ١٩ - ٢٦) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ : «ما يصيب المؤمن من هم ولا حزن ، ولا تعب ولا وصب ، حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياها ، ولا يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» ^(١٨) .

ويقول النبي ﷺ : «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس» ^(١٩) .

وختاماً : إن لله حكمة عليا في هذا الكون ؛ فهو يمتحن عباده بالخير حيناً وبالشر حيناً كما قال سبحانه : وَلَتَبْلُوَنَّهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (الأعراف : ١٦٨) .

وقال عز شأنه : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِآثَابٍ أَسَاءٍ وَالضَّرَإِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ . (الأنعام : ٤٢) .

وقال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(الشورى : ٢٧)

٣٦- وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ لَهُمْ كَافِرُونَ.

كان الكفار يسخرون من النبي ﷺ ، ويستكثرون على الفقير البتيم أن ينزل عليه وحى السماء وأن يكون رسولا نبيا .

ومعنى الآية :

إذا شاهدك المشركون تهكموا بك هازئين ، قائلين : أهذا الذى يتجراً على ذكر آلهتكم : بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تحضر ، ولا تغيد من عبدها . وهم كافرون بالله ، الإله الحق ، الخالق لهذا الكون ، أى : إنهم يستكثرون على محمد أن يذكر آلهتهم وأصنامهم بسوء ، ولا يستكثرون على أنفسهم ، أن يجحدوا حق الله عليهم فى الإيمان به وبرسوله الصادق المصدق : فسبحان من جعلهم يخضعون للأصنام الباطلة ، ويجحدون رسالة الرسول ، والإيمان بالرحمان مع أن هذا الإيمان هو الحق المبين ، لقد وضعوا النشء فى غير موضعه ، فهم أحق بالاستهزاء والسخرية .

وقد سجل القرآن الكريم أن الله حفظ نبيه من المستهزئين فقال : إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ . (الجحر : ٩٥ ، ٩٦) .

وقال تعالى : وَإِذَا رَأَوْا أَنْ يَنْتَجِلُّوكَ إِلاَّ هَزُّوا أَهْلًا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا . (الفرقان : ٤٩ ، ٥٢) .

★ ★ ★

﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ٣٨ ﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿ ٣٩ ﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿ ٤٠ ﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ ٤١ ﴾

المفردات :

خلق الإنسان من عجل ، العجل والعجلة : طلب الشيء قبل أوانه .

والمراد بالإنسان : هذا النوع ، وقد جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مظلوق من

العجل مبالغة ، كما يقال للرجل الذكى : هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم ، قال المبرد : خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ، أى : إن من شأنه العجلة ، كقوله : خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ... (الروم : ٥٤) أى : خلقكم ضعفاء .

الآيات ١٠ : هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها .

ساربيكم آياتى : سأصيبكم بنقمتى .

الوعود : قيام الساعة .

لا يكتفون : لا يمتنعون .

بغتة : فجأة .

تبهتهم : تدهشهم وتحيرهم .

ينظرون : يمهلون ويؤخرون .

حماق : حل ونزل .

تهديد :

أقام القرآن فيما سبق أدلة عقلية ونقلية على وجود الله . وأبان: أن مصير الدنيا إلى فناء وزوال ، وأنها خلقت للابتلاء والامتحان ، ولتكون جسراً إلى الآخرة دار الخلود ، وأن مصير الخلائق كلها إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

وفى الآيات ٣٧ - ٤١ يذكر: أن العجلة خلقت فى طبيعة الإنسان ، وقد أمرنا الله بالصبر والاحتمال ، وقد كان كفار مكة يتعجلون وقوع العذاب بهم : سخرية بالنبى ﷺ وأصحابه : فبينت الآيات: أن العذاب آت لا ريب فيه ؛ فلا يغترن أحد بطول البقاء فى الدنيا ، ولا يسخرن برسول من عند الله ، فإنه سيلقى جزاء سخريته واستهزائه ، وهذا زجر واضح شديد التأثير .

التفسير :

٣٧ - خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ .

خلق آدم عليه السلام وفى طبيعته العجلة ، وعندما دخلت الروح وجهه ورأسه وأعلاه: استعجل القعود والقيام قبل أن تصل الروح إلى نصفه الأسفل .

وقد ورد فى تفسير ابن كثير :

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «خير يوم طلعت فيه الشمس : يوم الجمعة: فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أهبط منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة إجابة» (١٧) .

قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، هي آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهى التى خلق الله فيها آدم.

أى: أن فى طبيعة الإنسان العجلة: فهو يتعجل حصول الأشياء قبل وقتها، إلا إذا دخل الإيمان فى القلب: فتحل معه الطمأنينة، والإيمان بالقضاء والقدر، خيره وشره، حلوه ومره.

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ.

أى: أنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة، وجعلها من سجيته وجبلته، كما تقول للكرم: خلق فلان من الكرم، أو للجميل: خلق فلان من الجمال؛ ولذلك كان المشركون يتعجلون وقوع العذاب فى الدنيا.

وروى: أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث، وهو القائل: **اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَكَ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**. (الأنفال: ٣٢).

سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.

سأنزل بكم نعمتى، ومن ذلك ما أصابهم يوم بدر من الهزيمة، وتوالى تأييد الله لنبيه حتى فتح مكة، ودخل الناس فى دين الله أفواجا؛ وصدق الله العظيم: **وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَيْهِ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** ... (الأنعام: ٣٤).

وقد نهى الإنسان عن العجلة فقال تعالى: **فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**، مع أن العجلة مركبة فى طبيعته، والمراد أن يستحث نفسه على الصبر والاطمئنان، وعدم استعجال الأمور قبل أوانها.

فالمؤمن يعلم أن لكل أجل كتاب، وأن الله سبحانه هو النافع وهو الضار، وأن أحدا لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله، وهذا من شأنه أن يمنح الإنسان الصبر والرضا، والاطمئنان وحسن التوكل، واليقين بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

قال الألوسى فى تفسير الآية:

والنهي عن استعجالهم إياه - تعالى - مع أن نفوسهم جبلت على العجلة: ليمنعوها عما تريده، وليس هذا من التكليف بما لا يطاق: لأنه - سبحانه - أعطاهم من الأسباب، ما يستطيعون به كف النفس عن مقتضاها، ويرجع هذا النهي إلى الأمر بالصبر. ١ هـ.

وفى الحديث النبوى الشريف: «من يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله»^(١٧).

٣٨- وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

كان القرآن يتوعد المشركين بالعذاب ، ويضرب الأمثلة بما أصاب الأمم السابقة المكذبة ، مثل: طوفان نوح ، وهلاك عاد وثمود ، ولكن هؤلاء الكافرين لم يصيخوا السمع ولم يتأملوا كلام الله : بل قالوا ذلك بالسخرية ، واستعجال العذاب ، استخفافا وتهكما . وبلغ من عدم مبالاتهم أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ والمؤمنين : متى يأتي هذا الموعد بنزول العذاب إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟ وهذا منهم استبطاء للموعد به ، وإنكار لوقوعه وأنه لن يكون البتة .

٣٩- كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِكَافِرِينَ كَيْفَ يُكَفِّرُونَ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقُولُوا لِمَا يُكَفِّرُ عَنْ سُوءِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

جواب تُو محذوف ، والتقدير : لو يعلم الذين كفروا ما ينتظرهم من العذاب ، الذى يغشاهم من فوقهم ومن تحتهم ويشملهم من الأمام والخلف ، ويغشى وجوههم وظهرهم فلا يستطيعون دفعه ، ولا يجدون من ينصرهم : لما تعجلوا العذاب ، ولما استهزءوا بالنبي والمؤمنين .

وخص القرآن الوجوه والظهور بالذكر : لكونهما أظهر الجوانب ، وليبيان : أن العذاب سيغشاهم من أمامهم ومن خلفهم دون أن يملكو له دفعا ، ولأن مس العذاب للوجه أشد وقعا وألما ، والإنسان منا حريص على المحافظة على وجهه ، وإذا تعرض وجهه للخطر دافع عنه بيديه ، فإذا اشتد الخطر اتقى العذاب بوجهه ، وتلك أخطر المراحل ، قال تعالى : أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهُهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

وقال صاحب الظلال :

لو يعلمون ما سيكون : لكان لهم شأن غير شأنهم ، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم : فليظنوا ماذا سيكون : ها هم أولاء تنوشهم النار من كل جانب ، فيحاولون فى حركة مخيلة - يرسمها التعبير من وراء السطور - أن يكفوا النار عن وجوههم ، وعن ظهورهم : ولكنهم لا يستطيعون ، وكأنما تلقفتهم النار من كل جانب . اهـ .

فلا يستطيعون ردّها ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم فى ذلك اليوم .

٤٠- بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

بل تأتيهم النار بغتة فجأة : فتحيرهم وتشل تفكيرهم : لأنهم تعجلوا عذاب الله : فكان الجزاء أن تأتيهم النار فجأة ، دون استعداد فتحيرهم بأموالها : فليس لديهم قدرة على رد عذاب النار : ولا يعطون مهلة : يُنْظَرُونَ ويمهلون فيها ، إنه عذاب مفاجئ مباغت شديد قوى لا يملكون دفعه ولا تأجيله .

وقد قرأ الأعمش :

بَلْ يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ... عَلَى التَّذْكِيرِ وَالضَّمِيرِ لِلْوَعْدِ أَوْ لِلْحَيْنِ .

قال الزمخشري في تفسير الآية :

فإن قلت : فالإم يرجع الضمير المؤنث في هذه القراءة ؟ قلت : إلى النار أو الساعة ، أو إلى البغته . اهـ .

والخلاصة : أن بعض المفسرين أرجع الضمير إلى النار ؛ وبعضهم أرجعه إلى الساعة . ويكون معنى

الآية : **بَلْ يَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ** .

أى : بل تأتيهم الساعة الموعود بها وبعبابهم ، مفاجأة فتدهشهم وتُحيرهم ؛ فلا يستطيعون دفع

الساعة أو ردها عنهم ؛ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ، ولا هم يمهلون لتوبة أو معذرة .

٤١- وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَخَافَ بِاللَّيْلِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

تبين الآية : جانباً من سذن الله الإلهية ؛ ذلك أن بعض الرسل الكرام سخر منهم قومهم ؛ واستهزءوا

بهم ، فأنزل الله بالمستهزئين العذاب الماحق ، والعقاب الرادع ، الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله .

قال تعالى متحدثاً عن نوح عليه السلام : **وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا**

مِنَا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (هود : ٣٨ ، ٣٩) .

ومن لوازم مدلول الآية ، ما يأتى :

إذا كان العذاب قد نزل بالمستهزئين بالرسل فيما سبق ؛ فلن يعدو أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر

أسلافهم ، من الأمم المكذبة لرسولها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه مثل ما نزل بمن قبلهم .

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٤٢) أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُنْوِلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تَظْلِمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَنْ كُنَّا مِنْ حَبْرَةٍ مِّنْ خَرَدِلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنْىَ بِمَا حَسِبْتُمْ ﴿٤٧﴾

المضردات :

يكلؤكم — يحرسكم ويحفظكم ، والفعل الماضى كلاً : حفظ .

من الرحمان : من بأسه وعقابه الذى تستحقونه . وفى لفظ (الرحمان) تنبيه على أن لا كالى غير رحمته العامة .

ذكر ربهم : القرآن الكريم .

معرضون : لا يتفكرون فيه .

من دوننا : من عذابنا .

يصحبون : يجارون من عذابنا ، يقال : صحبتك الله ، أى : حفظك .

ننقصها من أطرافها : يستولى المسلمون على أطراف مكة ، ويقيمون معاهدات مع القبائل التى حولها .

أنذرکم بالوحى : من الله ، لا من قبل نفسى .

الصم — التاركون للعمل بما سمعوه ، فكأنهم صم .

نفحة : نصيب قليل أو أدنى شيء ، وأصل النفح : هبوب رائحة الشيء .

يا وويلنا ، يا هلاكنا ، و (يا) للتنبيه .

إنّا كنا ظالمين ، بالإشراك وتكذيب محمد ﷺ .

ونضع الموازين القسط ، ذوات العدل ، توزن بها صحائف الأعمال .

ليوم القيامة ، لجزاء يوم القيامة .

فلا تظلم نفس شيئا ، من نقص حسنة أو زيادة سيئة .

حبسة الخردل ، مثل فى الصغر .

أتيناها ، أحضرنا ، وأتينها بموزونها .

حاسبين ، محصين كل شيء ، إذ لا مزيد على علمنا وعدلنا .

تمهيد :

تنتقل الآيات من التقرير بأن الله سبحانه هو الحافظ للناس بالليل والنهار ، إلى الاستفهام عن الآلهة المدعاة وهل تستطيع أن تمنعهم من عذاب الله ، إلى الإخبار بأن النعم قد كثرت عليهم فلم يقنّبوا إلى قدرة الله وعظمته .

وتبين : أن وظيفة النبی هی الإنذار ، وأن العذاب إذا نزل بالكفار فسيعضون بنان الندم ؛ وأن القيامة فيها الحساب والميزان العادل ، فالله أعدل الحاسبين .

التفسير :

٤٢- قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ .

قل لهم يا محمد : من الذى يحفظكم بالليل فى نومكم وبالنهار فى عملكم من بطش الرحمان بكم؛ جزاء إعراضكم عن هدايته ، وتكذيبكم رسوله ، وفى تعبير الرَّحْمَنِ إشارة إلى أن تأخير العذاب عنهم ، واستمرار حفظ الله لهم ، إنما هو بمقتضى رحمته العامة ، وفضله الواسع ؛ كى يعود الإنسان إلى ربّه من تلقاء نفسه.

بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ .

أى : بل إن هؤلاء المشركين مع وجود الأدلة العقلية على وجود الله ، ووجود الحجج والبراهين على صدق رسوله التى قدمها لهم القرآن الكريم ، فإنهم معرضون عن هذا القرآن ، لا يسمعون سماع تدبر أو تأمل.

٤٣- أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّْا يُصْحِرُونَ .

هذه الآية استفهام إنكارى ، مكمل للآية السابقة ، على سبيل السخرية من هؤلاء المشركين ، الذين يعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع الضر عن نفسها ، ولا ترد عذاب الله إن جاء لمن عبدها .

ومعنى الآية الكريمة :

سلمهم يا محمد - مرة أخرى - : ألهؤلاء الجاحدين آلهة أخرى تستطيع أن تحرسهم وترعاهم سوانا ؟ كلا ليس لهم آلهة تمنعهم من عذابنا : إن أردنا إنزاله بهم .

فالأنصام التي يعبدونها لا يستطيعون نصر أنفسهم : فضلا عن نصر غيرهم .

وَلَا هُمْ مَتَّاعُونَ . يجارون ويمنعون من نزول الضر بهم .

تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان : بمعنى : أجيرك وأمنعك منه .

٤ - بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ .

إن الذي غر هؤلاء وآباءهم ، وحملهم على ما هم فيه من الضلال : أن الله تعالى من عليهم بالنعمة والمال والرخاء ، واستمروا طويلا يتمتعون بهذه النعم ، حتى طالت أعمارهم وهم في رخاء ونعمة ، فحملهم ذلك على الطغيان والبطر وظنوا أن هذه النعم لا تزول أبدا ، ولا يحرمون منها مطلقا .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .

والأطراف هم الأشراف ، أي : أن الله أهلك قبلهم فرعون وهامان ، وعادًا وثمودًا : وقرونا قبل ذلك كثيرا كانوا يتمتعون بالنعم ويكذبون الرسل فحق عليهم وعد الله ، وطواهم الزمان وأصبحوا أثرا بعد عين .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالأرض : أرض مكة .

وكان المسلمون قد حصنوا المدينة وما حولها ، وكانوا يرسلون السرايا والغزوات لعقد محالقات مع القبائل ، وفي كل عام من أعوام إقامته ﷺ في المدينة : يتقدم المسلمون خطوات ، وينكمش كفار مكة خطوات : فقال القرآن : أفلا يشاهد هؤلاء المشركون ، أن المسلمين يتقدمون وينتصرون ويغلبون : وأن الكفار ينهزمون وتنتقص أطرافهم حول مكة لحساب المسلمين .

أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ .

وهذا استفهام إنكاري مؤذاه ، أنكم في هزيمة مستمرة أمام الزحف الإسلامي ، بسبب كفركم وإيمانهم

فتدبروا : لأن الغلبة للمؤمنين ، كما قال تعالى : وَإِنْ جُذِنَا لَهُمُ الْغَلَبُونَ . (الصافات : ١٧٣) .

ويمكن أن يكون في الآية إشارة إلى اتساع دائرة الأرض عند خط الاستواء ، ونقصان دائرتها عند

القطبين ، فالأرض دائرة كروية لكنها منبعجة عند خط الاستواء ، مفرطة عند القطبين ، وهذا دليل قدرة الله وعظمته ، وأن حركة الكون تحت سلطانه وقدرته وغلبته .

وقد ثبت علميا الإعجاز العلمي في هذه الآية ، وأن محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء أطول منه عند القطبين .

وقد نزلت هذه الآية على نبي أمي ، وأظهرت الأيام إعجاز هذا القرآن .

وصدق الله العظيم : سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا إِلَى الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

٤٥- قُلْ إِنَّمَا أَدْعِيكُمْ بِالْحَيِّ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنَادُونَ .

لقد أثبتت الآية السابقة أن يد القدرة الإلهية تقبض وتبسط ، وتعطي وتمنع ، وأنها قادرة أن تطوى الأرض من تحتهم ، فإذا هم هالكون مغلوبون .

وفي الآية التي معنا يقول القرآن ما معناه :

أخبرهم يا محمد : أنك رسول الله تنذرهم بالوحي ، المنزل من عند الله ، وليس عليك إلا البلاغ ؛ ولا تملك لهم الهداية ، فإذا أصموا أسمعهم فلا أمل في هدايتهم ، ولا نفع في إنذارهم ، فكما أن الأصم لا يسمع النداء ، ولا يجيب الدعاء . فكذلك الكافرون لما أصموا أسمعهم ، وأغلقوا قلوبهم ، فلم يسمعوا القرآن سماع تامل ، ولم يتدبروا آياته ؛ أشبهوا المريض بالصمم ، فلا فائدة من توجيه النداء إليه .

٤٦- وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوَلُّنَا إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ .

ولئن أصابتهم لمسة قليلة من العذاب يوم القيامة ، ليصيبهم الهلع والجزع والندم ؛ ويصيحون قائلين: يا ويلنا ، ويا هلاكنا إنا كنا ظالمين في الدنيا حين كفرنا بالرسول وأنكرنا وحى السماء إليهم .

والمسّ : اللمس الخفيف ، والنفحة : تقال في الخير ، وهي اسم مرة ، وذكرت في جانب الشر ؛ للدلالة على القلة ؛ أي : إذا أصابهم عذاب خفيف في الدنيا ، أو في الآخرة ؛ ليظهرن الندم والتفجع حيث لا ينفع الندم ، فخير لهم أن يؤمنوا الآن ، وهم في السعة قبل أن يندموا ولات ساعة مندم .

٤٧- وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ

بِنَا حَسِيبِينَ .

أي : ونضع الموازين العادلة للحساب يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات ؛ فمن رجحت حسناته؛ فهو من الناجين ، ومن رجحت سيئاته ؛ فهو من الخاسرين .

وذهب بعض المفسرين : إلى الإيمان بالميزان ، وهو جهاز دقيق توزن عليه السننات والسيئات .

وقال آخرون : هذا تصوير لدقة الجزاء والحساب : فليس هناك جسم يسمى : الميزان ، بل المقصود :

بيان : العدل المطلق فى الحساب يوم القيامة : لأنه بيد أعدل الحاسبين .

وأكثر المفسرين على الإيمان بالميزان ، وأنه جسم توزن به الأعمال يوم القيامة ، وهو جسم حقيقى

حسى ، كما ذهب إلى ذلك ابن كثير فى تفسيره .

وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .

حبة الخردل : مثل فى الصغر : أى : إن كان العمل الذى عمله الإنسان صغيرا مقدار حبة الخردل :

جازينا عليه جزاء وفاقا سيما كان أم حسنا .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٨ ، ٧) .

وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ .

تصور هذه الجملة إحاطة علم الله بكل شيء فهو مطلع على الكبير والصغير ويجازى على الفتل

والقطمير ، كما تصور الآية سرعة الحساب ، فالله عالم بكل شيء وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله شيء

عن شيء ، فأعظم به عالما محاسبا عادلا حكيما !

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . (آل عمران : ٥) .

وإذا كان المحاسب عالما دقيقا عادلا : فمن الواجب على الجميع أن يخلصوا أعمالهم ، وأن يتقنوا

العمل وأن يضاعفوا أعمالهم الطيبة : لأن الجزاء من جنس العمل .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال سبحانه وتعالى : يَتَّبِعُنِي أَنفَاءُ وَإِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي

الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

من تفسير ابن كثير :

أورد ابن كثير فى تفسيره : طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، من بينها حديث البطاقة ، وهو يفيد :

«أن الله تعالى يعرض على رجل أعماله فى سجلات السيئات كل سجل مدّ البصر ؛ فيعترف العبد بذنوبه حتى

إذا ينس العبد : قال له الله تعالى : إن لك عندنا حسنة واحدة ، لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فتوضع فى كفة وسجلات السيئات فى كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقل مع اسم الله شئ»^(٩٨) .

وفى الصحيحين : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله ويحمده ، سبحان الله العظيم»^(٩٩) . وقد ختم البخارى صحيحه بهذا الحديث الشريف .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

المفردات :

الفرقان : التوراة ، وهى الضياء والموعظة ، وسميت : فرقانا ؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل وكانت ضياء ؛ لأنها تنير طريق الهدى للمتقين .

يخشون ربهم : يخافون عذابه .

مشفقون : خائفون .

ميسارك : كثير الخير ، غزير النفع .

تمهيد :

تحكى الآيات السابقة جانباً من جهاد الرسول محمد ﷺ مع قومه ، فهو يندبهم بالوحى . وتبيز الآيات التالية : أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الله الوحى ، ويلغهم الله من الشرائع والأحكام ، ما فيه هداية البشر وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم ، وقد بدأ هنا بموسى فى إشارة موجزة ؛ وسيأتى جها إبراهيم فى جانب بارز من قصته ، ويأتى بعد إبراهيم إشارات إلى أنبياء الله : لوط ، ونوح ، وداود ، وسليمان وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذى الكفل ، وذى النون ، وذكريا . ويعقب القرآن على ذكر هؤلاء الرسل ، به يؤكد الوحدة الإيمانية بين المؤمنين جميعاً ، فاللهم ، واحد والوحى الإلهى واحد ، والأسس العامة للشرائع واحدة ، وهى : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والدعوة إلى عمل الصالحات ، وترك المنكرات قال تعالى : **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ** . (الأنبياء : ٩٢) .

التفسير :

٤٨ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ .

فى سورة الأنبياء ذكرُ لطائفة كثيرة من الأنبياء : وكان السورة ترد على المشركين الذين استكثروا على محمد ﷺ أن يكون بشرا ! فتقول لهم : إن محمداً ليس بدعا من الرسل ، فقد أعطينا الرسالة لعدد من الرسل السابقين كانوا جميعا من البشر .

ومعنى الآية :

ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة ، وهى فرقان يفرق بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والتوراة ضياء ينير طريق الهدى ، وفى التوراة تذكير يستفيد به المتقون .

٤٩ - الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

تلك صفات المتقين ، فهم على صلة حسنة بالله : يخافون عقابه ، ويحذرون معصيته ويخشون غضبه .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ مع كونه غير مرئى لهم : لا تشاهده عيونهم ، ولكن تؤمن بوجوده قلوبهم .

وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

هم وجلون حذرون من القيامة ، وما يقع فيها من حساب وجزاء ، وليسوا كالكافرين مكذبين بها جاحدين لها ، يستعجلون حدوثها .

٥٠ - وَهَٰذَا ذِكْرٌ مَّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .

وهذا القرآن الذى أنزلناه على محمد ﷺ ، ذكر لمن تذكر به ، وشرف لمن آمن به ، وموعظة لمن اتعظ به ، وهو مبارك كثير النفع والخيرات ! لمن اتبع أوامره وانتهى بنواهيه .

أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .

أى : ماذا تنكرون من القرآن ! وقد سبقته الرسالات ونزلت الكتب قبله ، وكان العرب يسألون اليهود عن محمد ﷺ ورسالته ؟ فكان القرآن يقول لهم : إن رسلا سابقين عليه تعرفونهم ، ومنهم : موسى وهارون ، وقد نزلت عليهما التوراة ، مشتملة على أصول التشريع والهدى والضياء والتوحيد والرسالات كلها من عند رب واحد ، فكيف تصدقون بالتوراة ، وتنكرون القرآن ؟ مع أن القرآن مشتمل على أرقى أساليب البيان ، والإعجاز العلمى والبيانى والغيبى ، ولا يمكن لبشر أن يأتى بمثله .

وخلاصة ذلك : إذا علمتم أن شأن القرآن كشأن التوراة ، فكيف تنكرون أن يكون القرآن من عند الله؟!

حجاج إبراهيم لأبيه وقومه ودعوتهم إلى التوحيد

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ زَكَّرْتُكُمْ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ ﴿٥٧﴾ فَبَجَلَهُمْ جَدًّا إِلَى الْأَكْبَرِ ﴿٥٨﴾ ثُمَّ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا مَنْ هَذَا بِإِذَا لِهِنَّا أَنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا أَسْمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦١﴾ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٣﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَؤْهُمُ إِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المضردات :

الـرُشد : الاهتداء إلى وجهه الصلاح في الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية .

الـتماثيل : جمع تمثال ؛ وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله ؛ كطير أو شجر أو إنسان ، والمراد بها هنا : الأصنام ؛ سُمَّاها بذلك ؛ تحقيرًا لشأنها .

الـعكوف : الملازمة والإقبال .

بـالحق : بالشىء الثابت فى الواقع .

الـلاعبين : الهازلين .

فـطـرهم : أنشأهم .

من الشاهدين : المتحققين صحته ، المثبتة بالبرهان .

الكيد : الاحتيال فى إيجاد ما يضرّ مع إظهار خلافه ، والمراد : المبالغة فى إلحاق الأذى بها .

جذّاذًا : قطعًا ، من الجذّ ، وهو القطع .

يذكّرهم : يعييبهم ويسبهم .

على أعين الناس : على رموس الأشهاد فى الملإ .

يشهدون : بفعله أو قوله ، أو ليشهدوا العقاب الرادع له .

فرجعوا إلى أنفسهم : ففكروا وتدبروا .

الظالمون : الظالمون لأنفسكم بعبادة ما لا يستطيع الدفاع عن نفسه .

تكسوا على رؤوسهم : يقال : نكسته ، أى : قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد : أنهم انقلبوا من الاعتراف

بالحق إلى المكابرة والجدال بالباطل .

التفسير :

٥١ . وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ .

أى : ولقد آتينا إبراهيم ما فيه صلاحه وهدايه ، من قبل موسى وهارون ، ووقفنا للحق وأضأنا له سبيل الرشاد ، وأنقذناه من عبادة الأصنام .

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ .

وكنا عارفين أنه على يقين بالله ، جامع لأحسن الفضائل ، ومكارم الأخلاق ، وجميل الصفات .

وقال الفراء : أعطيناه هدايه ورشده من قبل النبوة والبلوغ ، أى : وقفناه للنظر والاستدلال على وحدانية الله : لما جنّ عليه الليل فرأى النجم والقمر ثم رأى الشمس ، وعلى هذا جرى كثير من المفسرين .

ويجوز أن تتسع الآية لتشمل المعنيين : فإبراهيم أبو الأنبياء وقد وجد فى الزمن قبل موسى وهارون ؛ وقد آتاه الله الرشد والتوفيق ، وحسن التأنى للأمور قبل الرسالة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٥٢ . إِذْ قَالَ لِأَيُّهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذَا التَّمَايُلُ الَّذِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ .

لقد كان إبراهيم راشداً جاداً موقفاً : حين سأل قومه عن الأصنام التى يعبدونها ، ويعكفون على عبادتها ، معتقدين فى أنها تنفع أو تضرّ : مع أنها حجارة صماء ، لا تسمع ولا تجيب ، ولا تملك النفع لذاتها فضلاً عن غيرها .

و خلاصة معنى الآية :

ما هذه الأصنام التى عكفتم على عبادتها ، وملازمتها والتعلق بها ، والوثوق فيها ؟

٥٣- قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ .

لم يجدوا شيئاً يدافعون به عن عبادتهم للأصنام ، سوى تقليد الآباء والأجداد ، فى عبادتهم لها .

والمعنى : وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام ، فعبدناها تبعاً لهم .

٥٤- قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

أراد أن يستحثهم إلى استخدام عقولهم ، والتفكير السليم فى خالق هذا الكون ، الذى سخر الشمس والقمر ، ورفع السماء وبسط الأرض ، إن هذا الإله هو الذى يستحق أن يعبد ، أما عبادة الأصنام - وهى حجارة صماء ، لا تنفع ولا تسمع ولا تجيب - فهو ضلال واضح ظاهر .

٥٥- قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ .

لقد فوجئوا بمن يسخر منهم ومن آلهتهم ، ويخبرهم أنهم فى ضلال واضح ؛ حين يعبدون حجارة من دون الله .

والمعنى : أهذا القول الذى تخبرنا به حق جاد ، أم أنت هازل مازح فى قولك ؛ وهذا يدل على أنهم كانوا فى شك من شأن آلهتهم ؛ فمن استخدم عقله وفكر ؛ وجد أن الحجر الأصم لا يمكن أن يكون إلهاً .

ويجوز أن يكون قولهم هذا ، من شدة التصاقهم بالأصنام وتعلقهم بها ، فاستكثروا هذا القول عليها ، واستبعدوا أن يكون آباؤهم على باطل ، فقالوا لإبراهيم : هذا الذى جئتنا به ، أهو جدٌ وحق ، أم لعب وهزل ؟ وقد أبدى الرأى الثانى الإمام الزمخشري فى تفسير الكشاف .

٥٦- قَالَ نَبِيُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ .

إن كل ما فى الكون لينطق بوحدة الخالق المدبر ، ووحدة الناموس ، ووحدة الإله .

ومعنى الآية : قال إبراهيم : لست مازحاً ولا لاعباً ، بل أنا جادٌ كل الجد وربكم الحق هو الذى خلق السماوات والأرض ، على غير مثال سابق ، وأنا شاهد على ذلك ومعنى من الحجج والأدلة ما يؤيدنى .

فمن تأمل فى هذا الكون وهو بهذا النظام والإبداع ؛ سيهتدى إلى أن خالقه ومبدعه ، إله واحد عليم قدير ؛ وهو الله رب العالمين .

٥٧- وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ .

أى : أقسم بالله ، الإله الحق لأدبرن كيدا لتحطيم أصنامكم ، بعد أن تذهبوا عنها إلى عيدكم : وكان لهم عيد يخرجون إليه كل سنة ، ثم يعودون فيسجدون للأصنام .

فقال أزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا : أعجبك ديننا !! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ، ألقى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم ، فتركوه ومضوا .

٥٨- فَجَعَلْنَاهُمْ جَذَاً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ نَعْلُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

أى : كسر الأصنام : حتى جعلها فئاتا وحطاما وكانوا سبعين صنما .

إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ نَعْلُهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ .

لم يكسر الصنم الأكبر بل تركه بدون تكسير ، وعلق الفأس فى رقبتة ، لعل القوم يرجعون إليه ، ويسألونه عن كسر الأصنام ؟ فيتبين لهم مدى عجز الصنم عن الإجابة عليهم .

٥٩- قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ .

لما عاد القوم من عيدهم وجدوا الأصنام قد كُسرت : وتقطعت قطعا قطعا : فآلمهم ذلك : ولم يحرك تكسير الأصنام تفكيرهم : فإن الإله ينبغي أن يحمى نفسه وأن يدافع عنها : لكنهم لم يستخدموا عقولهم فى هذه الناحية ، بل قالوا : من كسر آلهتنا إنه ظالم معتد .

٦٠- قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ .

تفيد الآية : صغر سن إبراهيم ، وتؤيد أن إبراهيم قد أعطاه الله الرشد والحكمة قبل النبوة ، وهذه الآية تؤيد رأى من ذهب إلى أن الله أعطاه الرشد والحكمة قبل النبوة .

ومعنى الآية : قال فريق من القوم : سمعنا فتى حدثا ، يذكر الأصنام بسوء ، ويقسم على الكيد لها ، وينعى على من يعبدها .

٦١- قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آَعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ .

رغب القوم فى التشهير وإظهار سوء فعله أمام الملا ، ومضمون الآية : أحضروا إبراهيم أمام جمع حاشد من الناس : ليكونوا شهودا على سوء فعله ، وحتى يشهر بإبراهيم على رءوس الأشهاد .

٦٢- قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يٰأَبْرَاهِيمُ .

فهم ما زالوا يصرون على أنها آلهة ، وهى جذاذ مهشمة .

والمعنى : هل أنت الذى كسرت الأصنام ، وجعلتها جذاذًا ؟ والسؤال أشبه باستجواب ومحاکمة : فإذا اعترف فقد استحق عقوبة صارمة ، تكون عظة وعبرة ، لكل من يجرو على مثل هذا الفعل .

٦٣- قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَلِقُونَ .

رغب إبراهيم فى تحريك عقولهم لعلمهم يتعظون ويتدبرون : فقال لهم ساخرًا من عبادتهم للأصنام : إن الذى كسر الأصنام هو الصنم الأكبر ، ربما لأنكم تركتم عبادته ، وعبدتم الأصنام الصغيرة ، وأمامكم فرصة للتأكد ممن كسر الأصنام .

فَسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَلِقُونَ .

أى : اسألوا الأصنام : من كسرها ؟ واسألوا الصنم الأكبر وقلوا له : نحن نراك سالما من التكسير ، والفأس فى رقبته ، ونرى الأصنام الأخرى مكسرة ، فمن الذى كسرها ؟!

قال القرطبي :

والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ، ويتخذونهم آلهة من دون الله : كما قال إبراهيم لأبيه : لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . (مريم : ٤٢) .

فقال إبراهيم : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ... : ليقولوا : إنهم لا ينطقون ، فيقول لهم : فلم تعبدونهم ؟! فتقوم عليهم الحجة منهم .

كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه ، فإنه أقرب فى الحجة وأقلع للشبهة ^(٢٠) .

٦٤- فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ .

كانت ومضة تحركت فيها مشاعرهم ، واستفاقت ضمائرهم ، كيف يعبدون أصناما لا تنطق ولا تنفع ولا تضر ولا تملك الدفاع عن نفسها ، فضلا عن غيرها ؟

٦٥- ثُمَّ نَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .

لقد قاوموا ضمائهم ، وركبوا رؤوسهم بلا عقل ، ولا تفكير ، وانقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ، فما أجمل تعبير القرآن بقوله : ثُمَّ نَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ . وهو تعبير مصور : يصور سلوك إنسان استبان له الهدى والنور : فسار على قدميه وفكر بعقله : واهتدى بفطرته لحظة : ثم قاوم الهدى ، ورفض التفكير العقلى ، ورفض الهداية والنور ، وسار على رأسه وعقله منتكسا .

ثم قالوا لإبراهيم : لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ .

إن الأصنام لا تنطق ، ولا تسمع ولا تعقل ، فاكثفوا بكلمة واحدة منها : لأنها تدل عليها ، فليس لدى الأصنام نطق ولا عقل ولا تفكير .

والانتكاس : أن يسير الإنسان على رأسه بدلا من أن يسير على قدميه ، وقد صور القرآن هذا المعنى فى سورة تبارك الملك حيث قال تعالى : أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (الملك : ٢٢) .

ومعناها : أتنعكس الحال ، فمن يمشى متعثرا ساقطا على وجهه أهدى فى سيره ، أم من يمشى مستوى القامة على طريق لا اعوجاج فيه ؟

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ أَفِىٰ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ ﴾ (٧٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَٰهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۚ ﴿٧٨﴾ قُلْنَا إِنَّا نُكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۚ ﴿٧٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۚ ﴿٨٠﴾

المضردات :

أف : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر .

الكيد : المكر والخديعة .

تمهيد :

ويُخ إبراهيم قومه على عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ، وقد ظهر عجزهم ، فانقلبوا إلى العناد ، واستعمال القوة الحسية : فأضرموا نارا عظيمة جدا ، وألقوا إبراهيم فى النار بواسطة المنجنيق ، فجعل الله النار بردا وسلاما عليه .

التفسير :

٦٦- قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ .

أى : قال إبراهيم لقومه : كيف تعبدون - من دون الله - أصناما لا تسمع ولا تجيب ولا تنفع ولا تضر ولا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئا من ذلك .

٦٧- أَفَلَا تَكُفُّوْا وَلَئِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أى : تبأ لكم ، وقبحا لمعبوداتكم ، التى تعبدونها وتتذللون لها ، وتلتصقون بها ، وهى صماء بكماء .
أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أفلا تستخدمون عقولكم وتفكيركم ، وتتجهون بعبادتكم إلى الإله الحق الواحد الأحد ، الذى بيده الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير ؟ فأقام عليهم الحجة وأوضح لهم أنهم فى ضلال وكفر غليظ لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر ، قال تعالى : **وَلَيْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ** . (الأنعام : ٨٣) .

٦٨- قَالُوا حُرِّقُوْهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ .

عندما غلبهم إبراهيم بالمنطق والحجة ، وبين لهم : سفههم وعاب عبادتهم للأصنام ، وانهمزوا أمام حجته وقدرته فى الحق : لجأوا إلى القوة الغاشمة فأمر نمرود ملك العراق ، أن يجمع حطب كبير فى حظيرة كبيرة واستمر جمع الحطب مدة طويلة ، رغبة فى النكاية والكيد به .

والمعنى : ألقوه فى نار متأججة لتحرقه ، وانصروا الآلهة التى حطمها وكسرها .

إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ .

أى : إن كنتم بحق تريدون أن تنصروا آلهتكم نصرًا يرضيها فأحرقوه بالنار .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

أجمعوا رأيهم - لما غلبوا - بهلاكه : وهكذا المبطل إذا قرعت شبهته بالحجة وافتضح ، لم يكن أحد أبغض إليه من المحق ، ولم يبق له مفرع إلا مناصبته العدا ، كما فعلت قريش برسول الله ﷺ حين عجزوا عن المعارضة ، والذى أشار بإحراقه هو نمرود .

واختاروا المعاقبة بالنار : لأنها أهول ما يعاقب به وأفظعه ، ولذلك جاء : « لا يعذب بالنار إلا خالقها » . ١ هـ .

٦٩- قُلْنَا يَنْتَارُ كُوبَىٰ بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

أى: إن الكافرين أضرموا النار ، واستخدموا المنجنيق : ليوضع إبراهيم فى وسط النار ؛ حتى تحرقه إحراقاً شديداً ؛ فأمر الله سبحانه وتعالى النار : أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم .

إن القدرة بيد الله والأمر بيده ، وهو سبحانه على كل شىء قدير قال تعالى : بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (البقرة: ١١٧)

إن يد القدرة الإلهية إذا أرادت أمراً كان ، فهو سبحانه خالق النار ، والنار تحرق الأجساد ، لكن الله سبحانه أراد أن يحفظ خليله ، الذى حطم الأصنام ، متجرداً لله . روى : أن إبراهيم عندما أخذ وأوثق بالحبال: قال : حسبي الله ونعم الوكيل .

كما رواه البخارى ، عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا : إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ^(١٣١) (ال عمران : ١٧٣) .

إن فضل الله يظهر فى كثير من حياة الأفراد ، والأمم والجماعات ؛ فكم من كربة فرجها ، وكم من شدة صرفها ، وكم من محنة تحولت إلى منحة ؛ لأن الله العلى القدير هو المحيط بكل شىء ؛ لا راد لقضائه ، ولا معقب لأمره .

وفى كتب التفسير : أن جبريل تعرض للخليل إبراهيم ؛ فقال : يا إبراهيم ، ألك حاجة ؟ قال إبراهيم: أمّا إليك فلا ، قال جبريل : ألك حاجة إلى الله ؟ فقال إبراهيم : «علمه بحالى يغنينى عن سؤالى» فقال الله تعالى : يَنْتَارُ كُوبَىٰ بَرْدًا وَسَلَّمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

فأحرقت النار الحبال التى أوثقوه بها ، وكان إبراهيم فى أسعد حال ، وأهنأ بال ، حيث نجاه الله من كيد الظالمين ، ولو كانت النار برداً فقط ؛ لمات من البرد ، لكنها كانت برداً وسلاماً^(١٣٢) .

وفى الصباح تقدم النمرود ؛ ليشاهد آثار النار من الحريق والهلاك ، فوجد العناية والحفظ والسلامة على إبراهيم .

وقد ورد : أن الله عاقب النمرود عقوبة شديدة ، وأهلكه هلاكاً تاماً قال تعالى :

٧٠- وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ .

وأراد الكافرون بإبراهيم كيداً أى : مكراً وهلاكاً وإحراقاً .

فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ .

فجعلناهم من ذوى الخسران والويل ، فسبحان الله القادر .

روى : أن نمرود جاء ليشاهد إبراهيم فى النار ؛ فانطلقت شرارة أصابت إصبعة ، وتسببت فى هلاكه ، وفى هذا القصص من العبرة أن الجهاد لنصرة الحق والفضيلة ، فيه الخير كل الخير ، وأنه مهما صادف المرء فيه من آلام وأحوال ؛ فهى هيئة لينة ؛ فلنجاهد إذاً ، مثل ما جاهد إبراهيم ؛ وإن بركة الله مع المجاهدين ، ونصره ثابت للمؤمنين .

وفى هذا القصص : تخليد لجهاد المرسلين وإحياء ذكراهم وبيان : كفاحهم .

وفيه : رعاية الله للمؤمنين ، فهذا الخليل مقيد بالأغلال ، يلقى فى أعظم نار أوقدت من أجله ، ويتبتل إلى الله ويتضرع إليه ، فتدخل القدرة الإلهية ، وتحفظه من النار بقدرة الله ، ويخرج إبراهيم من النار سليماً معافى ، فى أبهى حلة يتمتع بالمعجزة ، ويؤيده الله ، ويهلك أعداءه ؛ فسبحان الله رب العالمين !.

★ ★ ★

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا أَلَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبِثَاتِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

المفردات :

لوط : هو ابن أخى إبراهيم .

الأرض : أرض الشام ، وفيها بيت المقدس ، وفيها الأشجار والأنهار والثمار .

نافلة : عطية ومنحة .

حكماً : نبوة .

القصرية ، هى سدوم التى بُعث إليها لوط .

الخبثاء : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

تمهيد :

فى أعقاب المنة على إبراهيم بالنجاة من النار ، ذكر الله المنة على لوط ابن أخيه : حيث نجاهما من أرض العراق إلى أرض الشام ؛ حيث البركة فى الزروع والثمار ، ووجود المسجد الأقصى .

وامتن الله على إبراهيم بإسحاق ويعقوب ، وجعل إبراهيم وذريته ولوطاً أئمة يقتدى بهم ، فى إنزال الوحي عليهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

التفسير :

٧١- وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ .

أى : نجينا إبراهيم ولوطاً من أرض العراق إلى أرض الشام ، حيث الأنهار والأشجار ، وميلاد الرسل والأنبياء ؛ فهى أرض الشرائع ، وبها بيت المقدس ، وبها بركات مادية ومعنوية .

وكانت هذه الهجرة فراراً من أرض الشرك والوثنية ؛ انتصاراً لدين الله ، قال تعالى : فَتَأَمَّنْ لَهُ، لَوْ طُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (العنكبوت : ٢٦) .

٧٢- وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ .

أعطينا لإبراهيم إسحاق ، ورزقنا إسحاق ويعقوب نافلة وزيادة .

وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ . أى : إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب : هؤلاء الأربعة جعلناهم أهل خير وصلاح ، يطيعون ربهم ويتجنبون محارمه .

٧٣- وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يُهَدُونَ بَأْسَرْنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

أى : جعلنا إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب أئمة فى الهدى والإصلاح ؛ يهدون الناس بأمر الله ورسالاته ؛ وقد أوحى الله إليهم : فعل الخيرات وعمل الصالحات ، وعلى رأسها : إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وخصهما بالذكر ؛ لأنهما من أهم العبادات .

وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ .

أى : كانوا عابدين الله مطيعين له ؛ حيث صبروا على البأساء ؛ فعوضهم الله التقى والهدى ، وخير الدنيا والآخرة .

٧٤- وَلَوْ طَآءَنَاتِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ .

ذكر القرآن : قصة لوط فى مواضع كثيرة : للعتة والاعتبار ، وللتحذير من تكرار هذه الفعلة الشنعاء .

فقد تخصص قوم لوط فى أفعال منكرة منها: الشرك بالله ، وقطع الطريق، وسلب المارة أموالهم، اللواط وهو أشنع عمل حيث كانوا يفعلونه جهاراً فى مجتمعهم ، فهم يتعاونون على المنكر ، ولا يتناهون من منكر فعلوه ؛ فاستحقوا الهلاك ؛ حيث أمطرتهم السماء بالعذاب ، وجعلت أعلى القرية أسفلها ؛ فأصابهم إزال مدّمّر

ومعنى الآية هنا :

لقد أتينا لوطا: الحكمة، والنبوة، والعلم، ونجيناها من قرية سدوم، وكان لوط قد آمن بإبراهيم ، وهاجر عه من العراق إلى الشام ، وأرسله الله إلى قرية سدوم وتوابعها ، فدعاهم إلى التوحيد ، وحذرهم من اللواط العدوان ، فلم يؤمنوا ولم يلتزموا وهددوا لوطا ومن آمن به بالطرد من القرية ، وقالوا: أَشْرَجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن رَّبِّكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ . (النمل : ٥٦) .

فأمر الله لوطا أن يسير بمن آمن معه ليلا ، وألا يلتفت خلفه ؛ حتى لا تأخذه شفقة عليهم ، فقد قضى لله أمره بهلاكهم ؛ حيث قال تعالى : إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؕ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلیهَا سَافِلِیْهَا أَمْطَرْنَا عَلَیْهَا حَاجِرَةً مِّن سَجَلٍ مَّنصُودٍ ؕ مُّسَوِّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِیَ مِنَ الظَّالِمِیْنَ بِعِیدٍ . (مود : ٨١ - ٨٣) .

الخلاصة :

اختار الله لوطاً للرسالة ، ونجاه من هذه القرية الفاسقة التى كانت تعمل الأعمال الخبيثة ، وأشنعها اللواط . إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ .

أى : كانوا أهل سوء وغدر ومنكر ، خارجين عن طاعة الله تعالى .

٧٥- وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِّنَ الصَّالِحِينَ .

أدخلنا لوطاً فى رحمتنا ، أى : فى عنايتنا وحفظنا ورعايتنا ؛ لأنه من الصالحين الطائعين لربهم ، الرجل الصالح قدر الله فى الأرض ینفَذَ أمر الله ؛ فيعطيه الله رحمته وعنايته .

وقد حفظ الله لوطا والمؤمنين ، ونجاهم من هذه القرية ، التى كانت تعمل الخبائث ، وينتشر فيها لواط ؛ واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وكانوا يأتون المنكر جهره فى نواديهم ومجمعاتهم ؛ أمر الله لوطا بالخروج من القرية ليلا ، ومعه المؤمنون ، ثم أهلك القرية ؛ عقوبة عادلة لهؤلاء الفاسقين .

واكتفى القرآن هنا بهذه الإشارة : تخليداً للذكرى لوط، وتذكيراً بما يصيب مرتكب اللواط من الأمراض : لأنه خروج على الفطرة ، وتدمير لما أودعه الله فى الإنسان من تعاون الذكر والأنثى فى الحياة والإنجاب، والمتعة المشتركة المتكاملة بين الطرفين .

★ ★ ★

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ آلِ كَرِبٍ الْعَظِيمِ ٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

المفردات :

الكرب : الغم الشديد ، والمراد هنا : العذاب النازل بقومه وهو الغرق .

قوم سوء : منهمكين فى شهورهم وأثامهم .

تمهيد :

هذه إشارة إلى قصة نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للبشرية ، على المشهور من أن جميع الباقين بعد الطوفان ، من ذريته عليه السلام .

التفسير :

٧٦- وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَاهُ وَاهِلَةً مِنْ آلِ كَرِبٍ الْعَظِيمِ .

تقدمت قصة نوح بالتفصيل فى سورة هود ، وجاءت فى سورة خاصة هى سورة نوح لكنها هنا إشارة موجزة ، تركز على دعاء نوح لربه ، واستجابة الله لدعائه ، وهلاك المكذبين ، ونجاة المؤمنين .

وقد أرسل الله نوحاً إلى قومه ، وقدم لقومه أدلة متعددة على دعوته ، ولفت أنظارهم إلى هذا الكون ، وما فيه من ليل ونهار وشمس وقمر، ونبات وأثمار، وحياة وعمران، لكنهم كذبوا وتواصوا بالكفر جيلاً بعد جيل .

وقد جاءت الرسالة إلى نوح وعمره : أربعون عاماً ، ومكث مع قومه رسولاً ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعومهم ويقدم لهم الأدلة ويتفنن فى دعوتهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لكنهم كذبوا ، وصموا أذانهم عن دعوته ، فدعا عليهم بالهلاك : فاستجاب الله دعاءه ، وأهلكهم بالطوفان ، وأمره الله أن يصنع السفينة : وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ومن اتبعه من المؤمنين .

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ. (هود: ٤٠). قيل: كانوا ستة أو عشرين من أهل بيته، وأغرق الله الكافرين، ونجى المؤمنين وعاش نوح بعد الطوفان ستين عاما، أى: أنه عاش ألفاً وخمسين عاما.

ومعنى الآية:

واذكر يا محمد لقومك: قصة نوح - عليه السلام - حين دعا ربه من قبل حيث قال: أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْقِصِرْ. (القمر: ١٠). وقال: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ فَيَارَا. (نوح: ٢٦). أى: دعا ربه من قبل إبراهيم، أو من قبل رسالتك يا محمد، فاستجاب الله دعاءه، ونجاه ومن معه من المؤمنين من الغرق، أو من سوء معاملة الكافرين واضطهادهم للمؤمنين.

٧٧- وَصَرَفْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

أى: أيدناه وأنقذناه من قومه، الذين كفروا بالوحي وكذبوا بالرسول، وصموا أذانهم عن سماع الحق وتواصلوا بهذا الكفر جيلا بعد جيل.

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ.

أى: لأنهم كانوا فئات من الأشرار، الفجار الكفار، الذين صموا أذانهم عن سماع الحق، وأصروا على الباطل، واستكبروا استكبارا عن الدخول فى الإيمان.

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ.

حيث شمل الطوفان جميع الكافرين، ومنهم: ابن نوح وزوجته، وتوَّسل نوح إلى الله أن يرحم ولده، وينقذه من ذلك المصير؛ فأخبره الله بأن هذا الابن قد عمل عملاً غير صالح؛ فليس من أهلك ولا من فصيلتك؛ إنما أهلك حقاً، هم المؤمنون، الذين آمنوا بالله وصدقوا بالرسالة.

قال تعالى: وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يُنَادِ بِأَنَّهُ إِنِّي أُنَادِيكَ بِغَيْرِ صَاحِبٍ فَلَا تَسْمَعْ لِمَا يَسْأَلُكَ بِهِ عَالِمٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (هود: ٤٥ - ٤٧).

وتفيد هذه الآيات: العدالة الإلهية المطلقة: فلا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة، إلا بإذن الله وأمره، وهى الشفاعة لأهل التوحيد والإيمان. والله أعلم.

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

المفردات :

الحـرث : الزرع .

الـنفث : رعى الماشية بالليل بلا راع .

شاهـدين : حاضرين .

اللبـوس : الدروع .

اللبـاس : الحرب .

الريـح العاصفـة : الشديدة الهبوب .

إلى الأرض التي باركنا فيها ، هي أرض الشام .

الغـوص : النزول إلى قاع البحار لإخراج شيء منها .

دون ذلك ، غير ذلك كبناء المدن والقصور واختراع الصناعات الغريبة .

تفهيد :

تحدث الآيات عن نعم الله على داود وسليمان ، ومن هذه النعم : الفهم ، والعلم ، والحكمة .

(أ) وخص الله داود بما يأتي :

تسخير الجبال والطير للتسبيح معه ، تعليمه صناعة الدروع للوقاية من أذى الحرب .

(ب) وخص الله سليمان بما يأتي :

تسخير الريح العاصفة التي تجرى بأمره ، وتسخير الشياطين تغوص في البحر : لتخرج له اللؤلؤ والمرجان ، وتعمل له أعمالاً أخرى غير ذلك .

٧٨- وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي آلِخَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ .

تشير كتب التفسير والحديث إلى مضمون هذه الآية .

ذلك أن رجلين أحدهما صاحب زرع والثاني صاحب غنم ، انطلقت أغنام صاحب الغنم ليلاً فأكلت الزرع عن آخره ، فاشتكى الفلاح إلى داود عليه السلام : وسأل داود عن قيمة الزرع ، وقيمة الغنم : فلما علم أن قيمتهما متقاربة : قضى بالغنم لصاحب الزرع : عوضاً عن الخسارة التي أصابته .

وسار صاحب الزرع وصاحب الغنم : فمرا على نبي الله سليمان : فسألهما : بم حكم الملك ؟ فأخبراه به .

فقال سليمان : عدل الملك ، وغير ذلك كان أحكم : أن يعطى للفلاح الغنم فينتفع بألبانها وأصوافها ونتاجها ، ويعطى لصاحب الغنم الأرض فيحرقها ويزرعها ويسقيها : حتى يعود الزرع كما كان : فيستلم صاحب الأرض أرضه ، وصاحب الغنم غنمه ، فقال داود لما بلغه هذا القول : القضاء كما قضى سليمان .

وقد ناقش المفسرون : هل كان قضاء داود بوحى أم باجتهاد ؟ والراجع أن قضاء كل منهما كان باجتهاد لا بوحى : فداود نظر إلى العدل المطلق ، حيث إن صاحب الزرع : قد خسر زراعة تعادل قيمة الغنم ، أما سليمان فنظر إلى العدل الإيجابي : المشتمل على البناء والتكوين والنظرة العامة .

فصاحب الغنم : يعمل فى إصلاح الأرض وزراعتها : حتى يعود الزرع كما كان ، وصاحب الأرض : يستفيد بنتاج الأغنام وألبانها : ثم يستلم الأرض كما كانت ، ويستلم صاحب الأغنام أغنامه كما كانت : وكل منهما حكم باجتهاده بيد أن الله فهم سليمان هذه الطريقة المثلى : وفيها الرأفة والبناء والإبقاء على صاحب الغنم : بأن يجتهد فى إصلاح الأرض وزراعتها : ثم يسترد غنمه .

ولو كان حكم سليمان بوحى لما قال القرآن فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ : لأن القرآن أفاد : أنهما حكما فى الموضوع : واحدا بعد الآخر ، وأن الله فهم سليمان الأولى والأرفق .

وَكَُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ .

أى : كنا ناظرين مطلعين على حكمهم واجتهادهم : لذلك ورد فى صحيح البخارى : «المجتهد إذا أصاب له أجران : أجر الاجتهاد وأجر الصواب ، وإذا أخطأ فله أجر واحد هو أجر الاجتهاد» (٣) .

ومعنى الآية : واذكر أيها الرسول الكريم : قصة داود وسليمان : وقت أن كانا يحكما فى الزرع ، الذى نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ . أى : انطلقت وتفرقت فيه وانتشرت ليلاً : دون أن يكون معها راع : فرعته وأفسدته : وكنا لما حكم به داود وسليمان عالمين وحاضرين : بحيث لا يغيب عنا شيء مما قالاه .

وقد ورد فى صحيح البخارى ومسلم وأحمد والنسائى قصة أخرى تدل على مهارة سليمان فى القضاء ؛ والحكمة فى استخلاص الحقيقة من بين المتخاصمين .

ومعنى ما ورد فى الحديث الصحيح :

أن امرأتين إحداهما صغرى والثانية كبرى ؛ انطلقتا فى طريق إلى السوق ، ومع كل منهما طفل رضيع ، وفى الطريق استراحتا ووضعتا طفليهما على الأرض ، فجاء ذئب فالتقم ابن إحداهما .

فاشتكتا إلى نبي الله داود ؛ كل منهما تقول : إن الطفل الموجود ابنها ؛ وأن الذئب التقم ابن الأخرى ؛ فقضى نبي الله داود بالولد للكبرى ؛ حيث كان الولد معها تحمله وتحضنه وتحافظ عليه ، ولم تقدم الصغرى دليلاً لينقله إليها .

ثم عُرض الأمر بعد ذلك على سليمان ، فقال : عدل الملك وغير ذلك كان أحكم ؛ وبلغ الأمر إلى نبي الله داود ؛ فأحضر سليمان وسأله عن حكمه فى الموضوع فقال : أرى أن نقسم الصبى قسمين متناصفين ، ونعطى كل امرأة نصفاً ؛ فليست إحداهما أحق به من الأخرى ؛ فلما وضعت السكين الحادة على رأس الصبى ؛ صرخت الصغرى وقالت : هو ولدها فلتأخذه كله ، فقضى به للصغرى ^(٢١) .

وتوجد كُتب فى ذكاء القضاء ، وأساليبهم فى استخلاص الحقوق ، والاهتداء إلى الحقيقة ؛ وقد خص الله سليمان بهذا الفهم ، وهدهاه إلى الحكمة فى القضاء ؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

٧٩- فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكَلَّمَاءَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

أعطى الله سليمان الحكمة والفهم ، وألهمه حكماً يجمع بين العدل من جهة ؛ وبين الرحمة والعطف والبناء الهادف ؛ الذى يرمى الأطراف كلها من جهة أخرى .

وَكَلَّمَاءَ آتَيْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا .

إن داود وسليمان كليهما أعطاه الله الحكم والعلم ، أى : حكمة ومعرفة بالقضاء والحكم ، لكنه اختص سليمان بسعة الفهم ؛ والتصور الأوسع ، وهذا لا يطعن فى داود وحكمه ؛ لأن الفهم منة من الله ، قال تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (البقرة : ٢٦٩) .

وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ .

كان داود ذا صوت حنون ، جميل الصوت ، حاضر القلب ؛ فكان إذا قرأ الزبور أو سبح الله ؛ تجاوب معه كل ما حوله ؛ فالجبال تسبح بتسبيحه ؛ والطير تسبح بتسبيحه .

وَكُنَّا فَتْلِيلِينَ . وكان هذا بفعلنا وقدرتنا ؛ حيث جعلنا ذلك معجزة لداود عليه السلام ؛ أن تسبح الجبال معه ؛ وأن يردد الطير تسبيحه ؛ قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَسْجُدُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ أَكْثَرُ لَهُ الْحَمْدُ .

(سبأ : ١٠)

وكان هذا من فضل الله عليه ؛ أن ترجع وتردد الجبال معه التسبيح ؛ وكذلك الطير ينطق بمثل ما ينطق به ؛ قال تعالى : أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَلِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ . (حز : ١٧ - ١٩) .

قال ابن كثير :

وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور ؛ وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويها ؛ ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري ، وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب ؛ فوقف واستمع إليه ؛ وقال : «لقد أوتى أبو موسى مزامراً من مزامير آل داود» (١٤) .

ونظير الآية قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

٨٠- وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِيَنَّكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ .

ألان الله الحديد لداود عليه السلام ، وكان الحديد يلبس صفائح كما يلبس القميص ؛ فعلمه الله صناعة الزرد ؛ وهى حلقات تتشابه مع بعضها ويلبسها المحارب فتحشى صدره من السيوف والرماح .

ومعنى الآية : ألهمنا داود وعلمناه صناعة حلقات الحديد ؛ التى تتشابه مع بعضها فتكون درعا حصينة ؛ يلبسها المحارب؛ فيتقى بها ضربات الأعداء فى الحرب ؛ وقد تعلم داود عليه السلام صناعة الدروع بتعليم الله له ؛ حيث قال تعالى له : وَقَدْزُفَى السُّرْدُ أَى : اصنع الحلقة بتقدير محكم ؛ مناسب للمسمار الذى يربطها بالحلقة الأخرى .

لِيُحْصِيَنَّكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ . لتحصيكم وتحفظكم من حروبيكم ؛ حيث تحفظ المقاتل من ضربة السيف ؛ وطعنة الرمح .

فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ .

على تيسير الله لكم نعمة الدروع ؛ والمراد : اشكروا الله على ما يسر لكم من هذه الصناعة ؛ التى ألانها الله لداود ؛ وجعله بارعاً فى صنعاتها ، وتعلمها الناس منه جيلاً بعد جيل ؛ وفيه دليل على أهمية الصناعة ، وفضل العمل والحرفة وأن الأديان السماوية تحت على العمل والإنتاج ؛ وتحارب البطالة والكسل ؛ فهذه سنة من سنن الله يقرتّب عليها اعمار الكون .

لقد أخبرنا نبينا محمد ﷺ: أن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده: فقد كان يصنع الدروع وكان أيضًا يصنع الخوص: ليأكل من كد يمينه، فما أكل أحد طعاما خيرا من أن يأكل من عمل يده.

وكان آدم حرثا يحرق الأرض: وكان نوح نجارًا يصنع السفن، وكان إدريس ولقمان خياطين؛ وطالوت دباغًا، أو سقاءً، وكل ذلك يدل على أن العمل منهج الأنبياء والصالحين، وطريق المؤمنين الأقوياء.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان والنسائي عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يذهب إلى الجبل، فيحطب، فيبيع، فيأكل، ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس»^(٣٧).

قال القرطبي في تفسيره ما ملخصه:

وهذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقول والألباب، لا قول الجهلة الأغبياء؛ القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء، فالسبب سنة الله في خلقه: فمن طعن في ذلك: فقد طعن في الكتاب والسنة، وقد أخبر الله عن نبيه داود: أنه كان يصنع الدروع: وكان أيضًا يصنع الخوص وكان يأكل من عمل يده...؛ فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.

٨١- وَلَسَلِمَنَّ الْريِّحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ.

أي: وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، وهذه من نعم الله على سليمان أن دُلَّ له الريح العاصفة أي: المدمرة، التي تعصف بما تمر عليه وتدمره.

وقد وصف الله تعالى هذه الريح بأنها سهلة هينة مريحة: في موضع آخر فقال: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. (ص: ٣٦).

قال المفسرون:

فهذه الريح قوية وعاصفة في حد ذاتها: لكن إذا أمرها سليمان بأمر تحولت إلى طائفة سهلة منقادة لينة ورخاء، أو أنها حيناً عاصفة، وحيناً رخاء وهي مطيعة لسليمان: وكان سليمان قد دعا الله قائلاً: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبْغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيْطَانُ كُلُّ شَيْءٍ غَوَّاسٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. (ص: ٣٥ - ٣٩)

والخلاصة:

أن الله دُلَّ الريح لسليمان عليه السلام، فكان يتحرك مع جنوده وجيوشه وأتباعه، ويأمر الريح أن تنقلهم إلى أي مكان يريد الذهاب إليه، ثم يطلب من الريح أن تعيده إلى المكان الذي يريد أن يرجع إليه: فطيعه الريح وتجرى بأمره.

وكان ملك سليمان في بلاد الشام ؛ فقد حكم داود عليه السلام فلسطين ٧٠ سنة، وحكمها سليمان ٧٠ سنة، ويعد ذلك دب الخلاف بين أبناء سليمان وتقسّموا الملك ثم دالت دولتهم.

أمّا العرب المسلمون فقد فتحوا فلسطين وبيت المقدس سنة ١٥ هـ ومكثوا فيها أكثر من ألف عام ؛ ولم يخرجوا من بيت المقدس إلا أيام الحروب الصليبية ؛ ثم عادوا إليه بقيادة صلاح الدين الأيوبي ، وظلوا هناك إلى أن كانت حرب سنة ١٩٦٧ م فأخرجوا من ديارهم بغير حق .

وأملنا في الله أن يعودوا إلى بيت المقدس بفضل الله .

ونعود إلى تقرير معنى الآية فنقول :

سخرنا لسليمان الريح قوية ؛ تسير بأمره وتنقله هو وأتباعه في الصباح وتعود بهم في المساء ؛ حيث ترجع بهم إلى أرض الشام التي بارك الله فيها ؛ بوجود الأنبياء والزرع والثمار ؛ ووجود بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين .

وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ .

أى : أن علمنا امتد إلى كل كبيرة وصغيرة ، ونعرف الحكمة فيما نفعل ، ونعرف أن سليمان أهل لهذه النعمة؛ فنحن لنا حكمة في ابتلاء الناس بالخير أو بالشر ؛ كما قال سبحانه : وَتَبْلُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (الأنبياء : ٣٥) .

٨٢- وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .

كذلك سخرنا لسليمان الشياطين والجن يأتمرون بأمره ، ويعملون تحت حكمه ، لا يخرجون عن طاعته، ومن أعمال الشياطين : الغوص في البحار ، واستخراج اللؤلؤ والمرجان والجواهر ونحوها .

وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ .

أى : ويعملون أعمالا غير ذلك ؛ كبناء المدن والقصور ، والمحاريب والتمائيل ، والقصور الراسيات ونحوها ، وأما الصناعات فهي مثل الطواحين والقوارير والصابون .

وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .

أى : حافطين لأعمالهم ، نحرسه من أن يناله أحدهم بسوء ، وقد جعلنا له سلطة مطلقة عليهم ؛ إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء . نلّهم الله له ، وجعلهم طوع أمره ، ورهن إشارته ؛ لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منه ، ولا يستطيعون أن يفسدوا أعمالهم ، وأن يهيجوا أحداً من بنى آدم في زمان سليمان أو أن يهربوا أو يمتنعوا عن أمره .

قلله جنود السماوات والأرض ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، فهو سبحانه مالك الملك : وواضع التاموس وفاعل المعجزة : وإذا شاء وهب ما شاء لمن يشاء : ولا يبعد أن تكون لهذه الأفعال نواميس أخرى نحن لا نعلمها : وَمَا أَوْثَقْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٨٥) .

★ ★ ★

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٢) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (٨٤)

المفردات :

أيوب : هو أيوب بن أموص ، اصطفاه الله ، ويسطر له الدنيا وكثر أهله وماله ، ثم ابتلاه بموت أولاده ؛ بسقوط البيت ، ويذهاب أمواله ، وبالمريض في بدنه ثمانى عشرة سنة ، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم شفاه الله ، وآتاه من الأولاد ضعف ما كان له ، وسيأتى تفصيل قصصه فى سورة ص .

الضرر : الضرر (بالفتح) شائع فى كل ضرر وأذى ؛ والضُّرُّ (بالضم) خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

ذكرى : تذكرة .

تمهيد :

سبق ذكر داود وسليمان ، حيث امتحنهما الله بالنعمة فكان منهما الشكر لله ، واستخدام النعمة فى طاعة الله وأردف ذلك بقصة أيوب : فى إشارة سريعة إلى صبره على البلاء : ليكون تذكرة وعظة لكل إنسان ؛ فى الصبر على البلاء ، وفى الشكر على النعماء .

التفسير :

٨٣- وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

واذكر : نبأ أيوب ؛ حين دعا ربه متضرعاً متعطفاً : قائلًا : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ . أى : أصابنى المرض والبلاء والهزال ، فى نفسى وفى مالى وأولادى ؛ والضُّرُّ (بالفتح) كل ضرر ، والضُّرُّ (بالضم) خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

فأيوب عليه السلام يصف حاله أمام الله ، ويستحى أن يسأل الشفاء ؛ لأن الله أعلم بحاله ، كما قال إبراهيم في الشدة : «علمه بحالي يغنيني عن سؤالي» .

وَأَنْتَ أَزْخَمُ الرَّاحِمِينَ .

أى: أنت واسع الرحمة ، كثير العطاء والشفقة أَزْخَمُ الرَّاحِمِينَ ، وأفضل المعطين فالرحمة الواسعة صفتك، والفضل العميم هو فضلك ؛ فاشملنى برحمتك وأسبغ على من فضلك .

وقد توسعت بعض كتب التفسير ، فى أنواع البلاء والأمراض التى أصابت أيوب ، حتى اعتزل الناس ، وابتعدت عنه الناس ، وهى مبالغات أو إسرائيليات ؛ ليس لها سند ثابت ، فلنكتف بما ورد فى القرآن الكريم؛ فقد أفاد : أن الله ابتلى أيوب ؛ وامتحنه بالشدة فى نفسه وفى أولاده وفى زوجته وفى ماله ؛ ونحن نكتفى بما أجمله القرآن ، ولا نتردّد عليه ؛ وروح القرآن تفيد : أن الله تعالى جعل أيوب نموذجاً يقتدى به ، فى الصبر على البأساء وتحمل الشدائد واللجوء إلى الله تعالى فى البلاء .

٨٤- فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرُنَا لِلْعَابِدِينَ .

كان أيوب قد ابتلى فى نفسه بالمرض ، وفى أولاده بالموت ، وفى ماله بالضياح ؛ امتحانا من الله تعالى ، وكانت له الأموال والأولاد والزوجة والعافية ، وكان دائم الصبر ، حيث قالت له زوجته مرة : لو دعوت الله حتى يذهب عنك البلاء ؟ فقال لزوجته : كم مكثنا فى الصحة والعافية والنعمة ؟ قالت : ثمانين سنة ؛ قال أيوب : كم مكثنا فى البلاء ؟ قالت : ثلاثاً أو سبعة أو ثمانين سنة ، فقال أيوب : أستحى أن أدعو الله ليرفع البلاء ؛ ولم أمكث فى البأساء مثل ما مكثت فى النعماء .

فلما كثر إلحاح زوجته عليه ؛ مدّ يديه إلى الله متضرعاً ، طالباً أن يشمله الله برحمته ؛ فاستجاب الله دعاءه ؛ فكشف عنه الضر الذى نزل به اختباراً وابتلاء .

وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ .

استردّ زوجته وولدت له من الأولاد بعدد من مات من أولاده ؛ ثم ضاعف الله له عدد أولاده .

رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرُنَا لِلْعَابِدِينَ .

أى : تلافوا وتكرما وترحمنا من الله عليه ، حيث أكرمهم فى نفسه وأولاده وماله .

وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ.

وتذكيراً للعباد الصالحين : ألا يتيسوا من فضل الله ، وأن يتوقعوا من الامتحان بالبلاء ، والكشف بالرحمة والنعماء ! وقد ذكرت قصة أيوب فى مواضع أخرى فى القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى : **وَذِكْرُ عَيْنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ: أَلَيْسَ الَّذِي كُنتُ بِعَبْدٍ لِّكَ هَٰذَا مُتَقَلِّبٌ بِيَدِكَ هَٰذَا فُتْنٌ لِّي وَآيَاتُكَ بَارِدَةٌ وَشَرَابٌ * وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِلْأُولَىٰ الْأَلْبَسَ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْطًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ رَوَّابٌ** . (ص: ٤١ - ٤٤) .

لقد جعل الله من أيوب نموذجاً للصبر : فقد امتحن فى نفسه ، وفى أولاده وزوجته وأمواله : ثم عوضه الله بالشفاء والعافية ، حيث اغتسل بالماء فبرئ ظاهره ، وشرب من الماء فبرئ باطنه ، وورثه الله من الأولاد بعدد من مات منهم ، ثم ضاعف له عدداً من الأولاد والأحفاد : فقد نعم الله بالبلوى وإن عظمت ، ويختبر بعض الناس بالنعماء قال تعالى : **يَبْتَليَنَّهُ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ ... (النمل : ٤٠)** .

وأمره الله أن يأخذ حزمة من الحشيش الأخضر ، الذى يختلط فيها الرطب باليابس ، وبها أكثر من ١٠٠ عود ، فيضرب بها زوجته مرة واحدة ، حتى لا يحنث فى يمينه : وكان قد أقسم إذا شفاه الله ليضربن زوجته ١٠٠ ضربة : ثم وضع الحق سبحانه وساماً يؤيد الصبر ، وصدق العبودية ، والرجوع إلى الله وعبادته ، والتبطل إليه واستمرار ذكره : فقال تعالى : **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ رَوَّابٌ** .

وفى الحديث الشريف : «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأئمة فالأئمة» (٣٧) .

★ ★ ★

﴿وَأَسْمِعِ ۖ وَلِدْرِيسَ ۖ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۖ﴾ (٨٥) **وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ** (٨٦)

المفردات :

وَأَسْمَاعِيلَ : أى : واذكر : إسماعيل ، والصابر على الذبح : امتثالاً لأمر الله .

ذَا الْكِفْلِ : اختلف فيه ، هل هو نبي أو عبد صالح ، قيل : هو إلياس : قيل : خمسة من الأنبياء ذوو

اسمين : إسرائيل ويعقوب ، إلياس وذو الكفل ، عيسى والمسيح ، يونس وذو النون ، محمد

وأحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

كل من الصابرين؛ أى : كل هؤلاء من الصابرين : على مشاق التكليف وشدائد النوائب .

إنهم من الصالحين؛ أى : الكاملين فى الصلاح ، وهم الأنبياء ، فإن صلاحهم معصوم عن كدر الفساد .

تقعيد :

بعد أن ذكر الله أيوب ، وجعله المثل الأعلى فى الصبر : أتبعه بذكر ثلاثة من الصابرين وهم :

إسماعيل : الذى صبر فى بناء البيت الحرام ، وصبر على الانقياد للذبح ، وصبر على الإقامة فى بلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء : فأكرمه الله بأن جعل خاتم النبيين من صلبه .

وإدريس : فهو أول من خاط الثياب ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من اتخذ السلاح عدّة للحرب .

وأما ذو الكفل : فقد تكفل بثلاث صفات :

١ - قيام الليل . ٢ - صيام النهار . ٣ - عدم الغضب حين يقضى بين الناس .

وفى بذلك وما ضمن على نفسه ، قيل : إنه كان عبداً صالحاً ، وقيل : كان نبياً بدليل اقترانه مع الأنبياء .

التفسير :

٨٥- وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ .

أى : واذكر أيها النبى نبأ إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، وقد مدحه الله فيما سبق بصدق الوعد ، ورعايته لأسرته ، وأمرهم بالصلاة والزكاة : وقد رضى الله عنه جزاء صدقه وجميل أعماله قال تعالى : **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۖ وَكَانَ بِأَمْرِ أَهْلِهِ بِالصَّلَاةِ وَالزُّكْرِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا** . (مريم : ٥٤ ، ٥٥)

وكذلك نبى الله إدريس ، يقال : إنه جاء بعد آدم وقيل نوح عليه السلام ، ويقال : إن زمانه مجهول وكذلك مكانه ، وهناك قول بأنه أزوريس ، الذى عبده المصريون بعد موته ، وصاغوا حوله الأساطير ؛ بوصفه المعلم الأول للبشر ، الذى علمهم الزراعة والصناعة ولكننا لا نملك على هذا دليلاً ، فلنعلم أنه كان من الصابرين فى أداء رسالته ، وفى شتو حياته وقد قيل : إن الله كافأه بصبره على أدنى قومه : بأن رفعه إلى السماء الرابعة .

وقد قال تعالى فى شأنه : **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** . (مريم : ٥٦ ، ٥٧) .

وَذَا الْكِفْلِ ، أى : صاحب النصيب أو الحظ الكثير ، الذى هو إلياس وهو من بنى إسرائيل ، وقد عاش فى بلاد الشام .

كُلِّ مَنْ الصَّابِرِينَ .

أى : كل واحد من هؤلاء من الصابرين المحتسبين الذين صبروا على البلاء والمحن .

٨٦- وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

شملناهم برحمتنا وعطفنا وبركتنا فى الدنيا ، وأدخلناهم الجنة فى الآخرة .

إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

أى : الكاملين فى الصلاح : لأنهم أنبياء معصومون ، وصلاحهم لا يعكره فساد .

★ ★ ★

﴿ وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغْنَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المضردات :

التَّوْنُونَ : الحوت وجمعه تونان ، وَذَا التَّوْنِ . أى : صاحب الحوت وهو يونس بن متى .

مُغْنَضًا : غضبان من قومه : لتماديهم فى العناد والطغيان .

نُقْضِرَ عَلَيْهِ : نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه .

الظُّلُمَاتِ : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

تهديد :

هذا نموذج آخر للقدوة والتعليم ، نبي كريم يغضب من قومه فى نينوى بالعراق ، ويركب سفينة ، وتوشك السفينة على الغرق ، فيقتزع القوم لإلقاء أحد الركاب فى البحر ، وتصيب القرعة يونس ، فيلقى بنفسه فى البحر ، فيلتقمه الحوت ، ويتضرع إلى الله تعالى وهو محبوس فى بطن الحوت ، وفى ظلمات الليل والبحر وجوف الحوت ، فيستجيب الله دعاءه وينجيّه ، وهكذا ينجى المؤمنين .

التفسير :

٨٧ - وَذَا الثُّورِ إِذْ ذُهِبَ مُغْلَبًا فُظُنُّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : واذكر أيها الرسول قصة يونس بن متى عليه السلام ، حين بعثه الله إلى أهل قرية نينوى (من أرض الموصل) ، وكان اسم ملكها (حزقيا) فدعاهم إلى توحيد الله وطاعته ، فأبوا عليه ، فضاق صدره بهم ، فخرج من بلده ، مغاضبا لقومه ، ومغاضبته لقومه كانت غضبةً لله ، وأنفة لدينه .

فُظُنُّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ .

أى : ظن يونس أن لن نصيُق عليه بالعقوبة ، على خروجه من القرية بدون إذن من ربه ، فهى من باب قوله تعالى : وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ... (الطلاق : ٧) . أى ضَيِّقُ ، فهو من القُدْر لا من القدرة .

سأل معاوية ابن عباس عن هذه الآية : كيف يظن يونس أن الله لن يقدر عليه ؟! فقال ابن عباس : هذا من القُدْر لا من القدرة . ا هـ .

وعندما خرج يونس - عليه السلام - من عند قومه ، سار حتى وصل إلى شاطئ البحر ، فركب سفينة ، وفى وسط البحر ، أوشكت على الغرق ، فقالوا : لابد من إلقاء شخص فى البحر ! لتنجو السفينة ، فأجريت القرعة فخرجت على يونس ، فألقى بنفسه فى البحر ، فالتقمه الحوت ، وفى ظلام الحوت والحبس بداخله ، وظلام البحر ، وظلام الليل والنفس ، نادى يونس ربّه ، واستغاث بالله فأغاثة .

فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ .

لقد استجاب الله له ، عندما لجأ إلى الله ، وفزع إليه ، وهو فى ظلام الليل والبحر والحوت والكرب ، قائلاً : لا إله سواك ، أنت القادر المهيمن ، القائم على كل نفس بما كسبت .

سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

أى : تنزهت يا ربّ عن النقص والظلم ، وقد كنتُ من الظالمين لنفسى ، وأنا الآن من التائبين النادمين ، فاكشف عني المحنة ونجنى مما أنا فيه .

٨٨ - فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ .

فاستجاب الله دعاء يونس ، وفرّج عنه الكرب ، وأمر الحوت أن يحافظ عليه وأن يطرحه فى العراء ، وحافظ الله عليه ، وأرسله مرة أخرى إلى قومه ، فأمنوا : فأنقذهم الله من العذاب .

قال تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَقَعَهَا إِعْثَابُهَا إِلَّا قَوْمُ يُوسُفَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْعِزَّى فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَنَعْتْنَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . (يونس : ٩٨) .

وقد ورد في سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ قال : « دعوة أخى ذى النون فى بطن الحوت : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . لم يدع بها مسلم ربه فى شيء قط إلا استجاب له »^(١٢٨) .

وقد ورد فى القرآن الكريم : قصة يونس فى عدد من السور قال تعالى : فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ لَوْلَا أَن نَّدَّارُكُمْ بِنِعْمَةٍ مِّن رَّبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۚ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ ۖ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . (القصص : ٤٨ - ٥٠) .

وقال تعالى : وَإِنْ يُوسُفُ لَبِئْسَ لَوْنُ الْمُرْسَلِينَ ۚ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۖ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۖ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۚ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۖ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمٍ يُخْعَقُونَ ۖ فَتَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۚ وَأُنْبِتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقُطِينٍ ۖ وَآرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۖ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . (الصافات : ١٣٩ - ١٤٨) .

وروى البخارى ومسلم وأبو داود : عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال « لا تفضلونى على يونس ابن متى ؛ فإنى لم أكن وأنا فى سدرۃ المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو فى قعر البحر فى بطن الحوت »^(١٢٩) . وهذا دليل على أن البارئ سبحانه وتعالى ليس فى جهة معينة ، وأن المؤمن إذا لجأ إلى الله ودعاه ؛ استجاب الله دعاءه ، وأن على المسلم إذا وقع فى كرب أو عسر ، أو شدة أو هم ، أن يردد دعاء يونس عليه السلام : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ .

لأن الله وعد بإجابة دعاء المؤمن ، إذا قال هذا الدعاء صادقاً متضرعاً ، قال تعالى :

فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ .

أى : استجبنا دعاء يونس ، ونجينا من الغم ، فقد فرجنا كربته ، وأمرنا الحوت أن يلفظه على الشاطئ ، وأنبت الله عليه شجرة القرع .

وكان النبى ﷺ يحب القرع ويقول : «إنها شجرة أخى يونس ، وإنها تشد قلب الحزين» .

وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ .

أى : كما نجينا يونس من الغم وهو الحزن ، ننجى كل مؤمن إذا لجأ إلينا ودعانا مخلصاً قانتاً متبتلاً .

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

تمهيد :

تحدث الآيتان عن تضرع زكريا إلى ربه سبحانه وتعالى بأن يهبه ولداً صالحاً ، وقد استجاب الله دعاء زكريا ، وهب له يحيى وجعل زوجة زكريا صالحة للحمل والولادة والرعاية للمولود : فقد كان زكريا وزوجته أخیاراً ، وأبراراً أطهاراً صالحين .

التفسير :

٨٩ - وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

أى : واذكر : خبر زكريا حين طلب من الله أن يهبه ولداً يؤنس وحدته ، ويرث دينه وصلاحه ، وقيامه على شئون الدين ، وقال : إنك يا رب ، نعم الوارث لشئون العقيدة والراعى لها .

وقد سبقت القصة بتفصيل فى سورة مريم ، وقبلها فى سورة آل عمران ، وعلمنا أن زكريا نادى ربه نداء خفياً ، واشتكى إلى الله ضعفه ، وظهور الشيب فى رأسه ، وهن عظامه ، والحال أن زكريا كثير التضرع والدعاء لله ، وهنا يختصر القرآن القصة ، إلى إشارة سريعة ، تفيد : أن زكريا شكاً لله وحدته ، وأظهر لله رغبته فى ولد صالح ، يكون وارثاً لزكريا ، مجتهداً فى العبادة راعياً للعباد والأتقياء .

٩٠ - فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ... .

استجاب الله دعاء زكريا ، وبشره بغلام اسمه : يحيى ، يتميز بطاعة الله وبر الوالدين ، والزهد فى الدنيا ، والتبتل إلى الله ، وكانت زوجة زكريا عجوزاً عقيماً فأعاد الله إليها صحتها وعافيتها ، وجعلها صالحة للحمل والولادة ، بقدرة الله ، فهو سبحانه على كل شىء قدير .

إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ .

هذا تعليل لما سبق أى : لقد منحنا زكريا ولداً وأصلحنا له زوجة : لأنهم كانوا

يُسْرِغُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .

أى : يسارعون إلى عمل الخير والمعروف ، ومساعدة المحتاج ، ويدعون الله ويعبدونه ، راغبين فى رحمته وثوابه ورضاه ، راهبين بطشه وعذابه وغضبه .

وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ .

متواضعين متذللين ، لا يستكبرون عن طاعتنا ، والتضرع إلينا ، وسؤالنا والالتجاء إلى حمانا .

★ ★ ★

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ﴾

المفردات :

الإحصان ، المنع مطلقا .

الفرج ، الفرج فى الأصل : الشق بين الشيتين كالفرجة ، ثم أطلق على السوء ، وكثر حتى صار كالصريح فى ذلك .

الروح ، هو المعنى المعروف ، ونفخ الروح هو الإحياء .

آية ، برهاناً ودليلاً على قدرة الله .

التفسير :

٩١ - وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ .

وإذكر : مريم التى أحصنت فرجها ، وحفظته من أن ينال ، فلم يمسسها بشر بزواج ولم تك زانية ، بل حفظت فرجها فلم يقترب منه أحد ، وأرسل الله جبريل حيث نفخ فى جيب درعها فحملت بعبسى ، وجعلها الله هى وابنها آية ، أى : معجزة ودليلا على قدرة الله ، أمام الإنس والجن والملائكة ، فالإبشرية لم تشاهد آدم ، حين خلق بقدرة الله من غير أبوين ، ولم تشاهد حواء حين خلقت من آدم ، وإنما شاهد الناس آية خلق عيسى من مريم بدون زوج وإنما بقدرة الله القادر ، وقد جعل الله ميلاد عيسى ، دليلا وآية أمام الناس ، إن واضع الناموس هو الله ، الذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، ومع ذلك إذا أراد أمرا ؛ حصل ونفذ أمره .

قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

وقد جعل الله حمل مريم بعيسى آية واحدة ، لكن عندما تحدث عن الليل والنهار قال : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... (الإسراء : ١٢) ؛ لأن حال مريم مع ابنها آية واحدة ، وهى ولادتها من غير فعل ، كما ذكر الزمخشري فى تفسير الكشاف .

★ ★ ★

﴿ إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلِيْنَارٍ جُوعُونَ ۝ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ۝ وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيْبِهِ أَهْلَ كَنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُواِ تَوَلَّوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ ﴾

المفردات :

الأممــــــــــــــــة : القوم المجتمعون على أمر ، ثم شاع استعمالها فى الدين .

تقطعوا أمرهم بينهم ، أى : جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً .

حــــــــــــــــرام ، ممتنع .

قــــــــــــــــرية ، أهلها .

أهــــــــــــــــل كناها ، قدرنا هلاكها .

يأجوج ومأجوج ، قبيلتان مفسدتان فى الأرض ، بنى ذو القرنين سدًّا ؛ حماية للناس من أذاهما .

حــــــــــــــــدب ، مرتفع من الأرض .

يــــــــــــــــنسلون ، يسرعون .

اقــــــــــــــــترب ، قرب .

الوـــــــــــــعد الحق ، يوم القيامة .

شاحصة، مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول .

الويل : الهلاك .

التفسير :

٩٢ - إِنَّ هَٰذَا أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ .

تأتى هذه الآية ، فى أعقاب حديث طويل عن عدد من الرسل والأنبياء ، حيث ذكر قصة إبراهيم ولوط ونوح وداود وسليمان ، وأيوب وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ، وذى النون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، ثم عقب على ذلك بأن الأديان كلها من عند الله ، والرسل جميعا هدفهم واحد ، هو دعوة الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد ، والعناية بمكارم الأخلاق ، والاستقامة على الصراط المستقيم ، والبعد عن الرذائل والموبقات ، فأهداف الرسالات جميعا ، تتلخص فى هدفين :

١ - إصلاح العقيدة والإيمان بالله وحده لا شريك له .

٢ - إصلاح السلوك بالاستقامة على الطريق السوى ، وفعل الطاعات واجتناب المحرمات ، فالأديان كلها متفقة على تحريم القتل والزنى وعقوق الوالدين والكذب ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وعلى الأمر بصلة الرحم والتواضع والتعاون والتسامح ، والأديان كلها متفقة على عبادة الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر .

إِنَّ هَٰذَا أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِ .

إن هذه أمة الرسالات أمة واحدة ، تلتقى على الإيمان بالله ، والتحلى بمكارم الأخلاق ، والسير على الطريق القويم ، واجتناب الرذائل والمحرمات .

وقد روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «الأنبياء إخوة لعلات : أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (٢٠) .

ولإخوة اللات هم إخوة الضرائر ، أبوهم واحد وأمهم متعددة ، فالرسل جميعا ديانتهم تقوم على توحيد الله ، وقد اجتهد كل رسول فى إصلاح الخلل الاجتماعى والأخلاقى ، الذى ساد فى قومه ، فحارب لوط المثلية الجنسية ، وحارب شعيب تطفيف الكيل والميزان ، وحارب موسى طغيان الحاكم وتآليه الفرعون ، وحارب عيسى مادية اليهود ، وكانت رسالة محمد ﷺ رحمة للعالمين ، فعنيت بتوحيد الله وتعميق عقيدة التوحيد ، وعنيت بوسطية الرسالة ، فهى رسالة وسط ، تهتم بالروح والجسد ، وإصلاح الدنيا والآخرة ، وهى تؤمن بالرسول والكتب والملائكة واليوم الآخر .

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ .

أى : اتجهوا إلى الله تعالى بالإخلاص فى التقوى والعبادة ، فلا نعبد إلا الله ، ولا نستعين إلا بالله .
وفى سورة الفاتحة : **إِلَٰهَكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِينُ .**

والمسلمون جميعاً أمة واحدة ، دينهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، وقبيلتهم واحدة ،
وأمتهم واحدة ، يجمعهم وحدة الهدف ، ويدعوهم القرآن إلى الوحدة قال تعالى : **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ... (ال عمران : ١٠٣) .**

٩٣ - وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلَّ إِلَٰهَةٍ رَّجَعُوا .

مع أن الإله واحد وقد شرع لنا الدين الواحد ، وجعل أمة الأنبياء واحدة ، فإن أتباع الديانات قد تفرقوا
فرقا ، وتقطعوا قطعا ، كما تقطع أجزاء الشئ ، فكل فريق يقطع جماعة وينزع عن القطع الأخرى ، ثم يصير
الخصام والنزاع والتهاوش ، والحروب فى بعض الأحيان ، وجميع هؤلاء المختلفين المتنازعين ، سيرجعون
إلينا يوم القيامة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا .**

وقوله سبحانه : **خَرَجَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (الشورى : ١٣) .**

وقال عز شأنه : **وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَلْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَضْرِبُوا إِنْ أَلَّ اللَّهُ مَعَ الضَّالِّينَ . (الأنفال : ٤٦) .**

وكأن القرآن يقول : مع دعوتنا إلى الأمة الواحدة ، فإن الحاصل أن أتباع الديانات تقطعوا أمرهم ،
واختلفوا وتضاربوا وتحاربوا ، وسيرجع الجميع إلينا للجزاء .

٩٤ - فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ يَسْغِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَلِيمُونَ .

نحتاج إلى أمرين هامين :

١ - الإيمان . ٢ - العمل الصالح .

فلا ينفع الإيمان العاطل العاجز ، والعمل لايد أن يستند إلى إيمان مقبول ، فمن آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وضم إلى ذلك العمل الصالح النافع المفيد ، فجزاؤه عند الله عظيم .

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ .

فلا ضياع لنشء من سعيه ، بل سيوفى على هذا العمل جزاءه كاملا .

وَأَنَا لَهُ، كَاشِبُونَ .

أى : إن عمله مسجل مكتوب ليجازى عليه .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٩٥ - وَحَرِّمْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

للمفسرين آراء فى معنى هذه الآية :

الرأى الأول :

أن لا زائدة فى الآية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠) .

أى : أن من هلك وعُذِبَ وعوقب بالخسف أو الزلازل ، أو الموت بأى طريقة كانت ، لا يسمح له بالعودة إلى الدنيا ، فقد أعطى الفرصة كاملة فى الدنيا فأضاعها .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

الرأى الثانى :

هو الرد على أن القرى التى عوقبت بالخسف أو الزلازل أو أى نوع من أنواع الهلاك ، لا تقوم للحساب والجزاء يوم القيامة : لأن الناس تهلك بسبب غضب الله عليهم ، فهذه عقوبة عامة للجميع ، ثم يحاسبون يوم القيامة بحسب أعمالهم ، فالرؤساء والقادة لهم عقاب أشد من التابعين .

قال تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ... (العنكبوت : ١٣) .

وقريب من هؤلاء المنافقون المتلونون قال تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ

نَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

من تفسير ابن كثير :

وَحَرَّامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

قال ابن عباس : قد قُدر أن أهل كل قرية أهلكوا ؛ أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . هكذا صرح ابن عباس وأبو جعفر الباقر وقتادة وغير واحد .

وفى رواية عن ابن عباس : أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ . أى : لا يتوبون ، والقول الأول أظهر والله أعلم .

وقال المرحشوى فى تفسير الكشاف :

استعير الحرام للممتنع وجوده ، ومنه قوله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ حَزَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ . (الأعراف : ٥٠) . أى :

منعها منهم ، وأبى أن يكونا لهم ، ومعنى : أَهْلَكْنَاهَا عَزَمْنَا عَلَى إِهْلَاكِهَا أَوْ قَدَرْنَا إِهْلَاكَهَا .

ومعنى الرجوع : الرجوع من الكفر إلى الإسلام والإنابة .

ومجاز الآية : إن قوما عزم الله على إهلاكهم ، غير متصور أن يرجعوا وينبوا ، إلى أن تقوم القيامة ، فحينئذ يرجعون ويقولون : يَتَوَلَّيْنَا قَدْرَ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ . (الأنبياء : ٩٧) . يعنى : أنهم مطبوع على قلوبهم فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب^(٣) .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم لوزارة الأوقاف المصرية :

وممتنع على أهل كل قرية أهلكناهم بسبب ظلمهم ، أنهم لا يرجعون إلينا يوم القيامة ، بل لابد من رجوعهم وحسابهم على سوء أعمالهم .

٩٦ - حَتَّىٰ إِذَا فُيِّتَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ .

سبق الكلام عن يأجوج ومأجوج فى سورة الكهف ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى سبقتها .

وخلاصة المعنى :

ممتنع عن قرية أهلكها الله بسبب ظلمها ، أن يرجع أهلها إلى الدنيا ، بل تظل هالكة مدمرة إلى قرب قيام الساعة ، حتى إذا انهزم سد يأجوج ومأجوج ، فإذا هم يهبطون مسرعين ينزلون من فوق رموس الجبال يَنْسِلُونَ ، يسرعون الخطا .

والخلاصة : أنه لا تزال حياة من مات وهلك ممتنعة ، ولا يمكن رجوعهم إلى الدنيا حتى تقوم الساعة ، ويسرع الناس من كل حدب من الأرض ، أو يسرع قوم يأجوج ومأجوج من رموس الجبال إلى المحشر ، أو إلى الأماكن التى يوجههم الله تعالى إليها .

٩٧ - وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ إِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْزِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ .

اقترب مجيء القيامة ، والساعة حق لا ريب فيها ، وعند قيام القيامة ، يذهل الكافرون من هول المشهد ، وتفتح عيونهم وترتفع أجفانهم فلا تطرف ، بل تظل شاخصة من هول ما تشاهد ، قد أذهلها هول المفاجأة .

عندئذ يقولون : يا هلاكنا ! لقد كنا في غفلة وإعراض وتكذيب للقيامة والبعث ، بل كنا ظالمين في كفرنا وتكذيبنا للرسول ، والآية تعبير مصوّر عن مشاهد القيامة ، وشخوص العيون مرتفعة أجفانها إلى أعلى ، تبيرا عن هول الموقف ، ثم ندم الكافرين على كفرهم ، وقت لا ينفع الندم :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مربع مبتغيد وخيم

وجاء معنى الآية في المنتخب من التفسير كالآتي :

واقترب الموعد به ، الذي لا بدّ من تحقيقه ، وهو يوم القيامة ، فيفاجأ الذين كفروا ، بأبصارهم لا تعمض أبداً من شدة الهول ، فيصيحون قائلين : يا خوفنا من هلاكنا ، قد كنا في غفلة من هذا اليوم ، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكفر والعناد !

★ ★ ★

﴿ إِنَّا نَكُفِّرُكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۚ إِلَٰهَهُمْ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا شَاءَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلْقَاهُمْ أَلَمًا يَكْفِيكَ هَذَا يَوْمُكُمْ أَلَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

المضردات :

الحصب : ما يرمى به في النار لاشتعالها .

الزفير، صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف .

الجنسى: الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم ، حين الجزاء على أعمالهم .

الحسيس: الصوت الذى يُحسُّ من حركتها .

السجل: هو الصحيفة .

تهديد :

تستعرض الآيات مشاهد القيامة ، حيث يكون المشركون ومعبوداتهم من الأصنام حطبا للنار حين يردونها ، أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار ، فهؤلاء مبعدون من النار ، لا يسمعون أصواتها ، وتلقاهم الملائكة بالبشرى والتهنئة ، قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

وفى هذا اليوم تطوى السماء طويا ، كما يطوى الكاتب الطومار ، الذى يكتب فيه ، أو كما يجمع فهرس المكتبة محتوياتها ، ولعلَّ فيما استجد من وجود الأشرطة الممغنطة التى يجمع فيها محتويات مكتبة كبيرة، تفسيراً لهذه الآية .

التفسير :

٩٨ - إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .

إنكم أيها الكفار وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . من الأصنام والأوثان والشياطين ، أنتم جميعا حطب جهنم، أى : وقودها ، أنتم جميعا - العباد والمعبودون - داخلون فى جهنم ، وإنما جمع الله الكفار مع أصنامهم؛ ليزدادوا حسرة وتألما ، كلما شاهدوا أصنامهم تعذب أمامهم ، ولأنهم ظنوا أن الأصنام تشفع لهم عند الله، فها هم يشاهدونها تتقلب فى النار ، نكاية فيمن عبدها .

ولا يدخل فى هذه الآية ما عبده هؤلاء المشركون ، من الأنبياء والصالحين كعيسى والعزير والملائكة ، فإن هؤلاء الأخيار ما أمرهم بذلك ، وإنما أمرهم بعبادة الله ، وفى آخر سورة المائدة نجد آيات تفيد : براءة المسيح عيسى ممن عبده من دون الله حيث يقول : مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... (المائدة: ١١٧) .

روى محمد بن إسحاق فى سيرته : أن رسول الله ﷺ دخل المسجد الحرام ، وصناديد قريش فى الحطيم، فجلس رسول الله ﷺ إليهم ، فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : إِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . فأقبل عبدالله بن الرُبَيعى فقال للنبي ﷺ قد خصمك ورب الكعبة ، أليس اليهود عبدوا غزيرا ، والنصارى عبدوا المسيح ، وبنو مليح عبدوا الملائكة ؟!

فَقَالَ ﷺ: «بل عبدوا الشياطين التي أمرتهم بذلك» فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. (الأنبياء: ١٠١). يعنى: عزيزا والمسيح والملائكة عليهم السلام. اهـ.

والخلاصة: أن أصنام الكفار ستكون معهم فى جهنم، أما المسيح والملائكة وعزيز فهؤلاء قد أنوا واجبههم، ولم يرضوا عن عبادة الناس لهم، وقد سبقت لهم الحسنى والسعادة، ودخول الجنة والبعد عن النار.

٩٩ - لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ ٱللَّهُ مَا وَدَّوْهَا وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ.

لو كان هؤلاء الأصنام آلهة: لدفعت الضر عن نفسها، وما ألقى بها فى النار، وما قذفوا فيها كما يقذف الحطب.

وَكُلَّ فِيهَا خَالِدُونَ.

أى: العابدون والمعبودون باقون فى النار على سبيل الخلود الأبدى.

١٠٠ - لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ.

أى: ولهم فى النار من شدة العذاب وبشة الكرب والغم، أنين وتنفس شديد، يخرج من أقصى الجوف بصعوبة وعسر، كما هو شأن المغموّم المحزون، كما قال تعالى: لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَشَهِيقٌ. (هود: ١٠٦).

وأصل الزفير: ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع.

وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ.

أى: لا يسمعون ما يسرهم أو ينفعهم، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية.

قال القرطبي:

وسماع الأشياء فيه روح وأنس. فمنع الله الكفار من ذلك فى النار.

وقال ابن مسعود:

إذا بقى من يخلد فى نار جهنم، جعلوا فى توابيت من نار، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئا، ولا يرى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره، ثم تلا الآية: لَهُمْ فِيهَا زُفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ.

١٠١ - إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ.

أى: سبقت لهم منا السعادة، أو التوفيق للخير والطاعة، كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... (يونس: ٢٦).

روى : أن عليا رضى الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال : أنا منهم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بن عوف . ا هـ .

أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ .

أى : مبعدون عن دخول النار إبعاداً تاماً بفضل الله ورحمته ، لا يصلون حرماً ولا يذوقون عذابها .
قال ابن عباس :

أولئك أولياء الله ، يمرّون على الصراط أسرع من البرق ، ويبقى الكفار فيها جثياً

وقال ابن كثير :

نزلت فى عيسى وعزير والملائكة .

وقال الضحاك :

عيسى ومريم والملائكة والشمس والقمر .

١٠٢ - لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْطِهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ .

لا يسمعون صوت النار وحريقها ولهيبها وهيجانها : لأنهم قد استقروا فى الجنة ، وصاروا فى أمان
إطمئنان .

وَهُمْ فِي مَا أُشْطِهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَلِيدُونَ .

وهم فى ما تتمناه أنفسهم ، وتشتهيهِ أفئدتهم ، وتنشرح له صدورهم ، خالدون خلوداً أبدياً ، لا ينغصه
حزن أو انقطاع .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

١٠٣ - لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمْ الْمُمَلَكَةُ هَلْذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

يقارن القرآن بين صنوف العذاب فى النار ، وصنوف النعيم لأهل الجنة ، فأهل الجنة فى أمان
إطمئنان وانشرح صدر ، ونعيم مقيم ، وفى القيامة أهوال وفزع وهلك ، بيد أن أهل الجنة قد منحوا الرضا
حفظهم الله من النار ، ومن سماع أصواتها وهى تحرق الكافرين ، ولا يسمعون صوتها الذى يحس من
عركة حريقها ولهيبها .

لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ .

لا تخيفهم أهوال القيامة ، والنفخ فى الصور ، والبعث من القبور ، وأهوال البعث والحشر والحساب ، بل تلقاهم الملائكة فتبشروهم بالجنة والمصرة والكرامة .

وَتَلْقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

أى : تلقاهم الملائكة عند القيام من قبورهم ، وقيل : على أبواب الجنة فتقول لهم : هذا هو يومكم ، الذى كنتم توعدون به فى الدنيا من خالفكم ، جزاء إيمانكم وعملكم الصالح .

١٠٤ - يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

انكر : يوم نطوى السماء كما يطوى خازن الصحائف صحائفه ، وقد انتهت الدنيا ، وبُذلت الأرض غير الأرض والسموات ، وحشر الناس حفاة عراة غرلا ، كما ولدتهم أمهاتهم .

روى الشيخان والإمام أحمد : عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ، يقول الله : اكسوا خليلي لا أرى خليلي عرياناً^(٣٧) .

وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

أى : وعدا مؤكدا علينا ، لا يخلف ولا يبدل ، لازم علينا إنجازَه والوفاء به .

إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .

قادرين على ما نشاء ، وقد جاء هذا المعنى فى القرآن بما يفيد أن الأرض تطوى وتبدل ، وكذلك السموات ، وأن الناس تحشر ويعاد خلقها كما خلقها الله تعالى أول مرة .

قال تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

وقال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ - ٧٩) .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآية يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ لِلْكَتَبِ . تشير إلى التقدم العلمي فى حفظ وثائق المكتبات ومحتوياتها من الكتب داخل أشرطة ممغنطة يطوى فى داخلها معلومات آلاف الكتب، فتكون هذه الأشرطة سجلاً لكتب مكتبات كبيرة وكذلك تطوى السماوات يوم القيامة فى قبضة الرحمان سبحانه وتعالى كطى السَّجْلِ للكتب ، وهذه الأشرطة فى مجموعها مثل كرة كانت الأساس فى خلق السماوات والأرض وسائر أجزاء الكون ، والله أعلم .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾
 ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغٍ لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

المضردات :

الزبور ، الكتب التى أنزلت على الأنبياء .

الذكر ، اللوح المحفوظ .

البلاغ ، الكافية .

العابد ، من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

تمهيد :

تفيد الآيات أن ما أوحى إلى الرسول ﷺ ، كاف لمن يعتبر بسنن الله فى الكون فيستفيد منها ، ما ينفعه فى دينه ودنياه ، فجميع ما جاء به الوحي من المواعظ وأحكام الشرائع ، هداية وذكرى لو تدبرها المتدبرون ، وتأملها المنصفون .

التفسير :

١٠٥ - وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .

يطلق الزبور على الكتاب الذى أعطى لسيدنا داود ، قال تعالى : وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . (الإسراء : ٥٥) .

ويطلق الذكر على التوراة . قال تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَصَيَّاهُ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ . (الأنبياء : ٤٨) .

ويكون المعنى :

ولقد كتبنا فى زبور داود من بعد توراة موسى ، أن ميراث الأرض والسيطرة عليها ، والنجاح فى

الغلبة على أرض الدنيا ، يكون لمن أخذ بأسباب الحضارة والقوة والتقدم والعمل والأمل ، وودّع الكسل والترف والترأخي والفتور ، فهو صالح لعمارة الأرض واستغلال خيراتها ، وأهل لميراثها .

وتحتمل الآية وجهاً آخر :

أن المراد بالزبور : المزبور أى : المكتوب ، تقول : زبرت الكتاب ، أى : كتبت ، ويكون المراد بالزبور : جميع الكتب السماوية ، التى كتبها الله إلى رسله ، وأنزلها إلى خلقه ، ويكون المراد بالذكر : اللوح المحفوظ ، كأن الآية تشير إلى ناموس عام ، وقاعدة إلهية ، وسنة من سنن الله الكونية ، أن من تكون له الغلبة والرياسة ، والقدره والقوة والسيطرة على أرض الدنيا ، هم أهل الصلاح والعمل .

اتجاهان للمفسرين :

من المفسرين من رأى أن المراد بالأرض أرض الجنة ، واستشهد بقوله تعالى فى القرآن الكريم : وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . (الزمر : ٧٤) .

ومن المفسرين من رأى أن المراد بالأرض أرض الدنيا واستشهد بقوله تعالى : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَلَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ . (القصص : ٥ ، ٦) .

وعند التأمل نرى أنه لا يمنع أن يكون من إعجاز الآية ، صلاحها للإطلاقين معا فى وقت واحد ، فيراد من الأرض أرض الدنيا وعرضها ، وأرض الجنة ونعيمها ، فعباد الله الصالحون ، الذى يعملون ويجمعون بين العمل المادى ، والصلاح والتقوى ، أهل لميراث التفوق فى أرض الدنيا ، ودخول الجنة فى الآخرة .

من تفسير ابن كثير :

يقول تعالى : مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة ، فى الدنيا والآخرة ، ووراثه الأرض فى الدنيا والآخرة ، كقوله تعالى : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . (الأعراف : ١٢٨) .

وقال : إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

وقال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ ... (النور : ٥٥) .

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة ، ولهذا قال تعالى :

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .

قال مجاهد : الزبور : الكتب ، والذكر : أم الكتاب عند الله . واختار ذلك ابن جرير رحمه الله . اهـ .

وجاء في تفسير المراغي ما خلاصته :

صلاح الأمة يقوم على أربعة عمد :

١ - أن يكون قادتها علماء مفكرين ، وساستها حكماء عادلين بعيدين عن الجور والظلم ، يعملون لخير الأمة ورفقها .

٢ - أن يكون لها جيش منظم متطور متقدم ، فيه المهندسون والمخترعون والقادة البارعون ، ولديه من الأسلحة ووسائل الدفاع ، ما يكشف عنه العلم المتطور ، من طائرات وغواصات وسفن حربية ، وجند حذقوا فنون الحرب ، وبلوا أساليبها المختلفة .

٣ - أن يقوم أبناء الحرف المختلفة من تجار وصناع وزراع بأداء أعمالهم على الوجه المرضي ، وكل طائفة تظاهر الطوائف الأخرى ، وتعاونها الجميع .

٤ - أن تنظم هذه الطوائف أعمالها ، بحيث تتوزع هذه المهون بين الأفراد بحسب حاجة الأمة ، ويكون في كل طائفة جماعة مبرزين ، يفكرون فيما يرقى شئون الطائفة ، بحيث تنافس أمثالها في الأمم الأخرى أو تفوقها ، وهذا حكم أيّدته التجارب ، في سائر العصور لدى جميع الدول .

١٠٦ - إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَلِيلِينَ .

للعلماء رأيان في تفسير هذه الآية :

الأول : إن فيما ذكر في هذه السورة من أنظمة الدول وأسباب الرقي والترقى ، لكفاية لقوم يجمعون بين العلم والعمل ، فعلى المسلمين قاطبة ، أن يقوموا قومة رجل واحد ، متمسكين متعاونين ، في سبيل رقى أمتهم ، وتنظيم شئونها ، وتربية أبنائها ، تربية تؤهلهم أن يكونوا قادة العالم الإنساني .

الرأى الثاني : إن في هذا القرآن وما يكشفه من سنن في الكون والحياة ، ومن مصائر الناس في الدنيا والآخرة ، ومن قواعد العمل والجزاء ، إن في هذا لبلاغا وكفاية للمستعدين لاستقبال هدى الله .

قال ابن كثير :

إن في هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغا ومنفعة وكفاية ، لقَوْمٍ غَلِيلِينَ . وهم الذين عبدوا الله بما شرعه ، وأحبُّه ورضيه ، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان ، وشهوات أنفسهم . اهـ .

١٠٧ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .

أرسل الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل ، فكان رحمة مهداة ، وكانت شريعته جامعة لمطالب الجسم والروح ، مشتملة على أصول التشريع ، ومكارم الأخلاق ، وجوامع الآداب ، وأصول الخير والبر ، وتركت للعقل البشري أن يجتهد في شئون دينه ودنياه ، في كل ما يجد أمام الإنسان ، وقد اشتمل القرآن على أصول الرحمة والدعوة إلى التراحم والتعاطف ، وكان ﷺ أرحم الناس ، قال تعالى : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (التوبة : ١٢٨) .

والرحمة سمة ملموسة في التشريع الإسلامي ، لذلك خفف الله عن المريض والمسافر الصوم في رمضان ، وأباح للحامل والمرضع الشيخ الكبير الإفطار في رمضان ، وفتح الله باب التوبة لكل المذنبين ، ونهى عن اليأس والقنوط ، ودعا الناس جميعاً إلى الدخول في رحابه واللجوء إلى كنفه قال تعالى : قُلْ يٰٓعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٤) .

وقال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . (الأعراف : ١٥٦) .

وقد كان النبي ﷺ مبلغ الرسالة ، والرحمة المهداة ، الذى تحمل المشاق في الدعوة إلى هذا الدين في مكة والمدينة ، ولم يرسله الله سبباً ولا لعاناً ، بل أرسله ليتمم مكارم الأخلاق ، وقد وضعت هذه الرسالة أسس الحق والخير ، ومبادئ الكمال والبر ، فكانت نعمة على الناس أجمعين .

عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .

قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسح والقذف^(٣٣) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَازِنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
 إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَذْرِي
 لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتْنٌ إِلَىٰ جَيْنٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ
 مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المضردات :

مسلمون ، منقادون خاضعون .

تولوا ، أعرضوا .

أذنتكم ، أعلمتكم ، وكثر استعماله في الإنذار ، كما في قوله تعالى : فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

(البقرة : ٢٧٩)

ما توعدون ، من غلبة المسلمين عليكم .

فتنة ، اختبار .

احكم ، اقض .

بالحق ، بالعدل ، والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم .

ما تصفون ، ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم: بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ. (الأنبياء : ٥) وقولكم: إِنْ لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا.

تهديد :

تأتى هذه الآيات في ختام السورة ، بمثابة الإعذار والإنذار إلى الكافرين ، فإلله واحد لا شريك له ،

فهل أنتم مسلمون ومؤمنون به ؟

والموت يأتي بغتة ، ولا أعلم هل عذابكم قريب أم بعيد ؟

فإلله وحده العليم بكل شيء ، الخبير بما تستحقون ، فإلله قاض عادل يحكم بيني وبينكم ، وهو

المستعان على أقوالكم وكفركم .

التفسير :

١٠٨ - قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَعَلِمَ أَنَّمُ مُسْلِمُونَ .

هذه خلاصة لب الإسلام والأديان ، أن للكون كله إلهاً واحداً هو الله سبحانه وتعالى ، وهذا التوحيد يخلص البشرية من الخضوع للأوثان ، ومن الخضوع للخرافة والأسطورة ، ومن الخضوع للغرف والنزوات ، لأن الإيمان بإله واحد ، يرفع هامة الإنسان ، حيث يعتز بالإيمان ، وبالعتماد على الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وخلاصة معنى الآية :

قل يا محمد لقومك وللناس أجمعين ، إن الوحي الذي ينزل على أساسه ولبيّه أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ . أى : إن معبودكم واحد هو الله ، فَعَلِمَ أَنَّمُ مُسْلِمُونَ . هلا أسلمتم وجوهكم له ، وآمنتم به لتدخلوا فى ساحة التوحيد ، وتكسبوا سلامة الفطرة ، وحلاوة الإيمان ، وشرف الدنيا وسعادة الآخرة .

١٠٩ - فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذُنُكُمُ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ .

فإن أعرضوا عنك يا محمد ولم يؤمنوا بك ، فقل لهم : لقد أدبت رسالتى ، وأعلمتكم بوحى الله رب العالمين ، فليس على إلا البلاغ ، أما عاقبة تكذيبكم لى ، فلا أعلم تحديد الوقت ، الذى تصيبكم فيه عاقبة التكذيب ، فأنا بشر على البلاغ ، أما عذاب السماء فلا يعلم وقت نزوله إلا الله .

قال صاحب الظلال :

فالمقصود هو أن يعلنهم بأنه قد نفذ يده منهم ، وتركهم عالمين بمصيرهم ، وأنذرهم عاقبة أمرهم ، فلم يعد لهم بعد ذلك عذر ، فليذوقوا وبال أمرهم وهم عالمون .

وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ .

قال ابن كثير : أى : هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده .

وقال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ .

أى : إن غلبة المسلمين عليكم أمر كائن لا محالة ، ولا بد أن يلحقكم بذلك الذلة والصغار ، وإن كنت لا أدرى متى يكون ذلك ، لأن الله لم يعلمنى علمه ، ولم يطلعنى عليه . اهـ .

وقيل : المراد لا أدري متى تقوم الساعة ، ويأتيكم ما توعدون من الجزاء العادل الذى ينتظركم .

١١٠ - إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ .

إنه سبحانه مطلع على كل شيء ، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافاً تاماً دون سبق خفاء .

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (النور : ٦٤) .

فهو سبحانه مطلع على قولكم الظاهر ، وما تضمرونه فى صدوركم ، وحين يجازيكم على أعمالكم ، يكون جزاؤه عادلاً ، لأنه خبير بأعمالكم الظاهرة والباطنة ، ولا تخفى عليه خافية .

١١١ - وَإِنْ أَذْرَى لَعَلَّهُ يَنْفِتَهُ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ .

أى : ما أدري لعل تأخير العذاب لكم ، امتحان أو استدراج لكم ، تستمتعون بملأذ الحياة ، وتنعمون بأفضال الله وقتاً ما ، لتكون الفرصة سائحة للتوبة ، والمهلة كافية لأن يتزود الإنسان الكافر ، بكل عرض الدنيا وشهواتها ، حتى إذا أخذه الله ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، وهكذا يسير الحوار ويتركهم النبي ﷺ ، فى جهالة من وقت نزول العذاب ، ليستغفروا فيهم الترقب وانتظار المجهول ، والتذكر لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

١١٢ - قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

أى : قال محمد ﷺ مناجياً ربه : رب احكم بالحق والعدل بينى وبين قومى الذين كذبونى ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ . رحمته واسعة وقد أرسلنى رحمة مهداة ، الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ . أى : أستعين بالله وأتحصن به ، مما تصفون به الله من الشرك والكفر ، وأنه له ولد ، وأنه ثالث ثلاثة ، وما تصفون به القرآن ، من أنه أساطير الأولين ، أو سجع كهان ، وما تصفون به محمداً من أنه كذاب أو ساحر أو شاعر .

وخلصه ذلك : أنه طلب من ربه أن يحكم بما يظهر الحق للجميع ، وأمره به أن يتوعد الكفار بقوله :

وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

وقرأ أكثر القراء السبعة : قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ... بصيغة الأمر ، وهذه القراءة تدل على أن الرسول ﷺ

قد أمره الله تعالى أن يقول ذلك .

من تفسير ابن كثير :

قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ .

أى : افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق ، قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون : رَبُّنَا أَفْضَحُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاصِحِينَ . (الأعراف : ٨٩) . وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ، وعن مالك ، عن زيد بن أسلم : كان رسول الله ﷺ إذا شهد غزاة قال : رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ . وقوله :

وَرَبُّنَا أَرْحَمُنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ .

أى : على ما يقولون ويفترون من الكذب ، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك ، والله المستعان عليكم فى ذلك . ا هـ .

وَقَرِئَ تَصِفُونَ . بالتاء والياء .

قال الزمخشري :

كانوا يصفون الحال على خلاف ما جرت عليه ، وكانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة ، فكذب الله ظنونهم ، وخيب آمالهم ، ونصر رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وخذل الكافرين .

خلاصة ما تضمنته سورة الأنبياء

- ١ - الإنذار بقرب الساعة مع غفلتهم عنها .
- ٢ - إنكار المشركين نبوة محمد ﷺ لأنه بشر مثلهم ، وأن ما جاء به أضغاث أحلام ، وأنه قد افتراه ، ولو كان حقا لأتى بآية كمعجزات موسى وعيسى .
- ٣ - الرد بأن الرسل جميعا كانوا من البشر .
- ٤ - أهلك الله كثيرا من الأمم المكذبة لأنبيائها .
- ٥ - السماوات والأرض لم تخلقا عبثا .
- ٦ - إقامة الدليل على وحدانية الله ، باتساق الكون وبتدبير نظامه ، وتكامله وعدم فسادِه .
- ٧ - النُّعَى على من ادعى أن الملائكة بنات الله .
- ٨ - وصف النشأة الأولى ، بأن السماوات والأرض كانتا متصلتين ففصلهما الله ، وسخر الهواء ، وأرسى الجبال ، وسخر الشمس والقمر .
- ٩ - استعجال الكافرين للعذاب ، مع أنهم لو علموا كنهه ما طلبوه .
- ١٠ - بيان أن الساعة تأتِيهم بغتة وهم لا يشعرون .
- ١١ - قصص بعض الأنبياء ، مثل : موسى، وهارون، وإبراهيم، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذئ الكفل، ويونس، وزكريا، وقصص مريم .
- ١٢ - بيان أن الدين الحق عند الله هو الإسلام ، وبه جاءت جميع الشرائع .
- ١٣ - حادث يأجوج ومأجوج من أشراط قيام الساعة .
- ١٤ - الأصنام وعابدها يكونون يوم القيامة حطب جهنم .
- ١٥ - وصف ما يلاقيه الكفار من الأهوال فى النار .
- ١٦ - وصف النعيم الذى يتمتع به أهل الجنة .

- ١٧ - تبدّل الأرض ، وتطوى السماوات كطىّ السجل للكتب .
- ١٨ - سنة الله فى الكون أن يرث الأرض من يصلح لعمارتها ، من أى دين كان ، ومن أى مذهب اعتنق .
- ١٩ - الوحي إنما جاء بالتوحيد ، وأن لا إله إلا إله واحد .
- ٢٠ - طلب الرسول ﷺ ، أن يحكم الله بينه وبين أعدائه المشركين ، وأن الله هو المستعان على ما يصفونه به من أنه مفتر ، وأنه مجنون ، وأنه شاعر يتريصون به ريب المنون .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الحج

أهداف سورة الحج

سورة الحج مدنية نزلت بعد سورة النور

وقيل : إن سورة الحج من السور المكية ، وقد استثنى من ذهب إلى هذا الرأي الآيات من (١٩ - ٢٤) ^(١).

وكان الأولى أن يستثنى من قال إنها مكية آيات الإذن بالقتال من (٣٨ - ٤١) ، ومنها قوله تعالى :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . (الحج : ٣٩) .

وعند التأمل في سورة الحج نجد أن أسلوبها وموضوعاتها وطريقاتها أقرب إلى السور المكية .

فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة وإثبات البعث وإنكار الشرك ومشاهد القيامة وآيات الله

المبثوثة في صفحات الكون .. بارزة في السورة .

ويمكن أن يقال إن هذه السورة مشتركة بين مكة والمدينة كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص

آيات الإذن بالقتال وآيات العقاب بالمثل في قوله تعالى : ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ

لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ إِنْ أَلَّهَ لَتَعْفُوْ غُفُورٌ . (الحج : ٦٠) .

فهذه الآيات مدنية لأن المسلمين لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة وبعد قيام الدولة

الإسلامية في المدينة ، أما قبل ذلك فقد قال رسول الله ﷺ - حين بايعه أهل يثرب وعرضوا عليه أن يملوا

على أهل منى من الكفار فيقتلهم : «إني لم أؤمر بهذا» . حتى إذا صارت المدينة دار إسلام ، شرع الله القتال

لرد أذى المشركين عن المسلمين ، والدفاع عن حرية العقيدة ، وحرية العبادة للمؤمنين .

ومن الموضوعات المدنية في سورة الحج : حماية الشعائر ، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو

يرد العدوان ، والأمر بالجهاد في سبيل الله .

وفى السورة موضوعات أخرى عولجت بطريقة القرآن المكي وتغلب عليها السمات المكية وهذه

السمات تجعل سورة الحج مما يشبه المكي وهو مدني .

سمات القوة

تتضح فى سورة الحج سمات القوة والعنف ، وأساليب الرهبة والتحذير ، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله .

وتبدو هذه المعانى فى المشاهد والأمثال :

فمشهد البعث مزلل عنيف رهيب ، تذهل فيه الأم عن وليدها وهو بين يديها ، وكذلك مشهد العذاب :
 فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهِرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَّقْلِعٌ مِنْ حَافِدِهِ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . (الحج : ١٩ - ٢٢) .

ومشهد القرى المدمرة بظلمها :

فَكَأَنَّمِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْتَلَّةٌ وَقَصْرِ مَشِيدٍ . (الحج : ٤٥) .

تجتمع هذه المشاهد العنيفة المرهوبة إلى قوة الأوامر والتكاليف ، وتبرير الدفع بالقوة ، وتأكيد الوعد بالنصر والتمكين . إلى عرض الحديث عن قوة الله وضعف الشركاء المزعومين .

ووراء كل ذلك الدعوة إلى التقوى والوجل واستجاشة مشاهد الرهبة والامتنال لأمر الله ، تبدأ بها السورة وتتناثر فى ثناياها : يَتَأَيَّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ . (الحج : ١) .

ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَلِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . (الحج : ٣٢) .

فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الحج : ٣٤ ، ٣٥) .

فَنُيِّنَالِ اللَّهِ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآهَا وَلَكِنْ بِنَالِهِ اتَّقَوْا مِنْكُمْ . (الحج : ٣٧) .

ذلك إلى استعراض مشاهد الكون ، ومشاهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والأمثلة والعبر ، والصور والتأملات : لاستجاشة مشاعر الإيمان والتقوى والإخبات والاستسلام ، وهذه هى الروح السارية فى جو السورة كلها والتى تطبعها وتميزها .

أقسام السورة وأفكارها^(٢٥)

تشتمل سورة الحج على أربع مجموعات أو أقسام رئيسية يجرى السياق فيها كالاتى :

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بالنداء العام : نداء الناس جميعاً إلى تقوى الله ، وتخويفهم من زلزلة الساعة ووصف الهول المصاحب لها وهو هول عنيف مرهوب . فى ظل هذا الهول باستنكار الجدل فى الله بغير علم ، وإتباع كل شيطان محتوم على من يتبعه الضلال ، ثم يعرض دلائل البعث من أطوار الحياة فى حياة الإنسان وحياة النبات ، مسجلاً تلك القربى بين أبناء الحياة ، ويربط بين تلك الأطوار المطردة الثابتة ، وبين أن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شئ قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور.. وكلها سنن مطردة ، وحقائق ثابتة متصلة بناموس الوجود ثم يعود إلى استنكار الجدل فى الله بغير علم، ولا هدى ولا كتاب منير .

بعد هذه الدلائل المستقرة فى صلب الكون وفى نظام الوجود ، وإلى استنكار بناء العقيدة على حساب الريح والخسارة ، والانحراف عن الاتجاه إلى الله عند وقوع الضراء ، والالتجاء إلى غير حماه ، واليأس من نصرة الله وعقابه ، وينتهى هذا الشوط بتقرير أن الهدى والضلال بيد الله ، وأنه سيحكم بين أصحاب العقائد المختلفة يوم الحساب وهنا يعرض ذلك المشهد العنيف من مشاهد العذاب للكافرين ، وإلى جواره مشهد النعيم للمؤمنين . ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٤ .

القسم الثانى :

يبدأ القسم الثانى بالحديث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ، ويستنكر هذا الصد عن المسجد الحرام الذى جعله الله للناس جميعاً . يستوى فى ذلك المقيمون به والطارئون عليه ، وبهذه المناسبة يذكر طرفاً من قصة بناء البيت ، وتكليف إبراهيم - عليه السلام - أن يقيمه على التوحيد ، وأن يطهره من رجس الشرك ، ويستطرد إلى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة مشاعر التقوى فى القلوب، وهو الهدف المقصود ، وينتهى هذا القسم بالإذن للمؤمنين فى القتال ؛ لحماية الشعائر والعبادات من العدوان الذى يقع على المؤمنين ولا جريرة لهم إلا أن يقولوا ربنا الله . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٢٥ - ٤١) .

القسم الثالث :

يبدأ القسم الثالث بعرض نماذج من تكذيب المكذبين من قبل ، ومن مصارع المكذبين ومشاهد القرى المدمرة على الظالمين ، وذلك لبيان سنة الله فى الدعوات ، وتسلية الرسول ﷺ عما يلقيه من صد وإعراض

وتطمين المسلمين بالعاقبة التي لا بد أن تكون ، كذلك يتضمن عرض طرف من كيد الشيطان للرسل والنبیین فی دعوتهم ، وتثبيت الله لدعوته ، وإحكامه لآياته ، حتى يستيقن بها المؤمنون ، ويفتن بها الضعاف والمستكبرون . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٤٢ - ٥٩) .

القسم الرابع :

يتضمن القسم الرابع وعد الله بنصرة من وقع عليه البغى ؛ فقام يدفع عن نفسه العدوان ، ويتبع هذا الوعد بعرض دلائل القدرة في صفحات الكون ، وإلى جوارها يعرض صورة زرية لضعف الآلهة التي يركن إليها المشركون ، وينتهي هذا القسم وتنتهي السورة معه بنداء الذين آمنوا ليعبدوا ربهم ، ويجاهدوا في الله حق جهاده ، ويعتصموا بالله وحده ، وهم ينهضون بتكاليف عقيدتهم العريقة منذ أيام إبراهيم الخليل . ويستغرق هذا القسم الآيات : (٦٠ - ٧٨) .

ومن هذا العرض نجد تعاقب موضوعات السورة وتناسقها في حلقات متساقطة تسلم كل حلقة للتي تليها لتكون في مجموعها سورة كاملة هي سورة الحج .

حكمة التسمية

سميت هذه السورة بسورة الحج لأنها اشتملت على الدعوة إلى الحج على لسان إبراهيم الخليل ، وفي الحج منافع دينية وعلمية وتجارية وسياحية .

قال تعالى : وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . (الحج : ٢٧ ، ٢٨) .

في الحج يتجمع المسلمون من كل بلد ، للتعارف والتآلف والتشاور والتعاون ، وبذلك يصبحون بذا واحدة وقوة متألفة كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا .

في الحج يشاهد الإنسان الأماكن المقدسة ، التي شهدت ميلاد الإسلام وولادة الرسول ورسالته وجهاده وهديه .

في الحج يتعرف المسلمون من كل قطر على إخوانهم ، ويتدارسون شئونهم ويعرفون آلامهم وآمالهم . وربما تعاقدوا على شراء ما يلزمهم أو عمل ما ينفعهم .

فى الحج سياحة فى أرض الله وأداء لمناسك مقدسة فى موطن إبراهيم الخليل وهاجر وإسماعيل ، ورؤية الكعبة المقدسة وزمزم والصفا والمروة ومنى وعرفات ، وبعد الحج زيارة للمسجد النبوى وصلاة بالروضة ووقوف أمام قبر النبى ﷺ وزيارته ، وزيارة قبور الصحابة والشهداء ، ورؤية أمجاد الإسلام ومواقع المعارك ، وبذلك يستقر الإيمان فى القلب والشعور ويصبح الحج عبادة ذات منافع متعددة ، إذا فهم المسلمون حكمته ورسالته .

مقصود السورة إجمالاً^(٣)

إذا أردنا التعرف على الأفكار المنثورة فى سورة الحج فسنجد أنها تدور حول الأمور الآتية :

الوصية بالتقوى والطاعة ، وبيان هول الساعة وزلزلة القيامة ، والدليل على إثبات الحشر والنشر، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق . وذم أهل النفاق وعبادة الأوثان ، ومدح المؤمنين ، وبيان رعاية الله لرسوله ، ونصره رغم أنف الكافرين ، وسجود الكائنات لله . وقيام إبراهيم بالدعوة إلى الحج وبيان تعظيم الحرمات والشعائر ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وإهلاك القرى بسبب ظلم أهلها وذكر نسيان رسول الله ﷺ ، وسهوه حال تلاوة القرآن ، وتثبيت المؤمنين ، وشقاق الكافرين حتى تفاجئهم الساعة ، وبيان قدرة الله سبحانه ، وعجز الأصنام وعبادها ، واصطفاء الرسل من الملائكة كجبريل ، ومن الإنس كمحمد ، وتكليف المؤمنين بأنواع من العبادة كالصلاة والجهاد والإحسان ، وترغيبهم فى الوحدة والجماعة والتمسك بحبل الله فى قوله : **وَاعْتَصِمُوا بِآلِ اللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ** . (الحج : ٧٨) .

تقديم

هذه سورة اختلف العلماء بين كونها مكية أو مدنية ، ومن رأى أنها مدنية ، استشهد بآيات الدعوة إلى القتال والإذن به ، ولم يؤذن بالقتال إلا فى المدينة ، ومن رأى أنها مكية استشهد بقوة آياتها وشدة أسلوبها .

حتى قال العلماء : هى مما يشبه المكى وهو مدنى .

وقال العزيزى :

وهى من أعاجيب السور ، نزلت : ليلاً ونهاراً ، سفرًا وحضرًا ، مكيًا ومدنيًا ، سلميًا وحربيًا ، محكما ومتشابهًا ، وآياتها ٧٨ آية .

وقال الشيخ أحمد المراعى فى تفسير المراعى :

وهى بحسب موضوعاتها أقسام ثلاثة :

١ - البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .

٢ - الحج والمسجد الحرام .

٣ - أمور عامة كالقتال ، وهلاك الظالمين ، والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق ، وضرب المثل بعجز الأصنام ، وعدم استطاعتها خلق الذباب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

المضردات :

التقوى ، مراقبة الله تعالى ، والبعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك .

الزلزلة ، الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها .

الذَّهْـوَلُ ، الذُّهْشُ الناشئ عن الهم والغم الكثير .

المرضعة ، الأنثى حال الإرضاع ، والمرضيع : مَنْ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَرْضِعَ ، ولو لم ترضع حال وصفها به .

التفسير :

١ - يَنْتَهِيَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ .

افتتاح يدعو إلى التقوى ويحث عليها ، وتقوى الله مراقبته وامتنال أمره ، واجتناب نواحيه ، وقد تكرر الأمر بالتقوى في القرآن الكريم ، ففي أول سورة النساء : يَنْتَهِيَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . (النساء : ١)

وفي أوائل سورة البقرة : يَنْتَهِيَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . (البقرة : ٢١) .

وقال تعالى : يَنْتَهِيَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَخْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ • إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٣ ، ٣٤) .

إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ .

أى : إن الزلزلة التى تكون حين قيام الساعة ، قبل قيام الناس من قبورهم ، أمر عظيم هائل كما قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا • وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . (الزلزلة : ١ ، ٢) .

وقال تعالى : فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ • وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً • فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ • وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ • وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ غَرْهًا رَبُّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَمَنِيَّةً . (الحاقة : ١٣ - ١٧) .

وقال تعالى : إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ • لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ • خَالِصَةً رَافِعَةً • إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا • وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا • فَكَانَتْ هَبَاءً مُبْثُثًا . (الواقعة : ١ - ٦) .

وإذا كانت الزلزلة وحدها لا تحدث ، فما بالك بما يحدث فى ذلك اليوم من الحشر والجزاء ، والحساب على الأعمال ، لدى من لا يغيب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

٢ - يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرى النَّاسُ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

تصيف الآية أهوال القيامة التي تنزلزل القلوب :

(أ) ففي هذا اليوم تذهل كل مرضعة عن رضيعها ، وقد وضعت ثديها في فمه ، فتتحير وتأخذها الدهشة ، وتنشغل بنفسها عن رضيعها .

(ب) وفي هذا اليوم يشدد الهول ، بحيث إن الحامل تضع حملها سقطا ، من الهول والفرع .

(ج) وفي ذلك اليوم ترى الناس سكارى من الذهول والهول الذي اعتراهم ، وما هم بسكارى ، أى : إنهم لم يشربوا خمرا ، ولكن أذهلهم هول الموقف ، وشدة الهول والعذاب .

وَلَكنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ .

أى : إن الذى جعل الناس سكارى ذاهلين فى سكر معنوى ، بدون سبب حسى للسكر ، هو شدة عذاب الله فى هذا اليوم ، فشدّة العذاب هى التى أذهلت عقولهم ، وأذهبت تمييزهم ، وقد يكون المراد من ذهول المريض ، ووضع الحامل ، ضرب المثل لشدة الأمر ويلوغه أقصى الغايات ، كما يؤلّ به أيضا قوله تعالى : فَكَيْفَ تَعْلَمُونَ إِن كُنتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا • أَلَسَمَاءُ مُنْقَطِعَاتُ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا • إِنَّ هَلْدِهِ تَذْكِرَةٌ لِّمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا . (المزمل : ١٧ - ١٩) .

ملحق بتفسير الآيتين

— ذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الزلزلة قبل قيام الناس من قبورهم ، فهى مثل أشرط الساعة أو علاماتها .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . إلى آخر السورة

وقال تعالى : وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً • فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . (الحاقة : ١٤ ، ١٥) .

قال ابن كثير :

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة . عن علقمة فى قوله : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . قال : قبل الساعة . وقال عامر الشعبي : هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال كائن يوم القيامة ، فى العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير الطبرى ، واحتجوا بالأحاديث .

منها : ما ورد فى الصحيحين عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : «إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، قال : إن الأمر أعظم من أن ينظر بعضهم إلى بعض» (٢٧) .

وفى مسند الإمام أحمد ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال : «يا عائشة ، أمّا عند ثلاث فلا : أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأمّا عند تطاير الكتب ، إما يعطى كتابه بيمينه وإما بشماله فلا ، وأمّا عند المرور على الصراط حتى ينجد إلى الجنة أو يقع فى النار فلا» (٢٨) .

وعند التأمل نجد أنه يمكن الجمع بين الرأيين الأول والثانى ، بأن أهوال القيامة تبدأ مع أشراط الساعة ، وتستمر فى الموقف والحساب والميزان والصراط وجميع مشاهد القيامة ، نسأل الله السلامة ودخول الجنة ، والنجاة من النار . اللهم آمين .

★ ★ ★

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ۝﴾ (٤)

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان جبلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار ترابا .

التفسير :

٣ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ .

وبعض الناس يجادل فى وجود الله ، وفى قدرته على البعث والحشر والجزاء ، ويجادل فى صفات الله بغير بينة أو دليل ، وإنما اتباعا للشيطان والهوى ، والنزوة والكبرياء الباطلة ، ورغم أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، إلا أنها عامة فى كل من يجادل فى الله وصفاته ، وما يجب له وما يجوز بغير علم .

وَيَتَّبِعُ كُلُّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ .

المريد : المتجرد للفساد ، العارى عن الخير ، فهو فى جبروته وظلمه وعناده ، تابع للشيطان ، الذى يوسوس له بالشرك ، ويزين له عبادة الأصنام ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، ونحو ذلك .

٤ - كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .

فهو حتم مقدور أن يضل تابعه من الهدى إلى الضلال ، ويخرجه من النور إلى الظلمات ، ويرشده إلى الضلال ، ويزين له الغواية والفجور ، وسلوك سبيل المعاصى والآثام ، التى توبيقه فى جهنم وينس القرار .
وخلاصة ذلك :

أنَّهُ يُضِلُّهُ فى الدنيا ، ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير ، والأصل فى الهدى أن يكون فى الخير ، بيد أن القرآن تهكم بهذا الكافر ، ويقائده وهو الشيطان ، فسمى قيادته هداية وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ . فبالها من هداية ، إنها قيادة إلى الضلال المهلك المبيد .

★ ★ ★

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُتِبَ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُنَوِّفُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾

المضردات :

الـريب : الشك .

النطفة : أصل النطفة الماء العذب ، ويراد بها هنا : ماء الرجل .

العلقة : القطعة الجامدة من الدم .

الضعفة، القطعة من اللحم بقدر ما يُمضغ .

الأجل المسمى، هو حين الوضع .

الطفضل، يكون للواحد والجمع .

الأشدد، القوة .

أردل العمر، أدنؤه، وأردؤه .

هامة، مئة يابسة، من قولهم: همدت الأرض، إذا يبست ودرست، وهمد الثوب: بلى .

هتزت، اهتز نباتها وتحرك .

رببت، ازدادت وانتفخت، لما يتداخلها من الماء والنبات .

زوج، صنف .

بهيج، حسن سار للناظرين .

الحق، الثابت الذى يحق ثبوته .

ولله يحيى الولي، يقدر على إحيائها، كما أحيا النطفة والأرض الميتة .

ولله على قدرته لذاتها، فمن قدر على إحياء بعض الأموات لزم اقتداره على إحياء كلها .

لا ريب فيها، لا شك .

تهديد :

بيئت الآيات مراحل نمو الجنين فى بطن أمه ، والمراحل التى يمر بها الطفل ، من ولادته إلى أن يصبح فتى ثم ناشئا ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم كهلا ثم شيخا ... وبعض الناس يموت قبل أن يدرك هذه المراحل ، وبعضهم يصل إلى أردل العمر ، فتضعف الذاكرة ، ويغلب النسيان ، وما يحدث للإنسان ، يحدث للأرض الهامدة ، إذا نزل عليها الماء ، فتجد فيها الحياة والبهجة ، والزروع الناضرة البهيجة ، فالله سبحانه وتعالى حق ، وهو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، والقيامة حق ، والبعث حق ، وكذلك الحساب والجزاء .

التفسير :

٥ - يَتْلَاهَا آتَا سُ إِن كُنْتُمْ لِي رَيْبٌ مِّنَ الْبَحْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّيَبَيِّنَ لَكُمْ ...

تأتى هذه الآية ، لترد على المشركين فى إنكارهم للبعث ، فتضرب أمامهم مثالين ، هما حياة الإنسان وحياة الزرع ، ووراء كل ذلك يد القدرة ، ومعنى الآية: يا أيها الناس إن كنتم فى شك من بعثنا لكم بعد الموت،

ففى خلقنا لكم الدليل على قدرتنا على البعث ، فلقد خلقنا أصلكم من تراب ، وهو آدم عليه السلام ، ثم جعلنا منه نقطة هى ماء الرُّجُل ، الذى ينطلق إلى الرحم ، وبه ملايين الحيوانات المنوية ، ثم يتم الإخصاب بين حيوان واحد من الرُّجُل ، وحيوان واحد من المرأة ، حيث يتم تلقيح الخلية ، فتصبح بعده قطعة جامدة ، تعلق بجدار الرحم ، وتسمى علقة ، لشدة تعلقها وتشبُّثها بجدار الرحم ، ثم تتحول العلقة إلى قطعة من اللحم ، مصورة فيها معالم الإنسان ، وكل صفاته من اللون بدرجاته ، والطول أو القصر ، والذكاء ونسبته ، وسائر الأجهزة الهضمية ، والعصبية ، واللمفاوية ، والحسية ، والإدراكية ، أو غير مصورة وهى السقط الذى لم تنفخ فيه الروح .

ويحتمل أن المعنى ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .

المخلقة : التامة الخلقة السالمة من العيوب .

غير المخلقة : الناقصة فى العقل أو الذكاء أو الجوارح .

وقيل مخلقة : نفخت فيها الروح .

وغير مخلقة : لم تنفخ فيها الروح .

لُتَبَيِّنَ لَكُمْ . قدرتنا القادرة ، وأن وراء خلق الإنسان ، قدرة كاملة ، حيث تجعل أصغر الحيوانات المنوية ، يحمل خصائص كاملة من الوراثة .

أو لنبين لكم قدرتنا على الإبداع ، والتدرج فى التكوين .

وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْأَعْمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .

ونسقط من الأرحام ما نشاء ، ونبقى فيها ما نشاء ، حتى تكمل مدة الحمل ، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا ، ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة ، ومنكم بعد ذلك من يتوفاه الله ، ومنكم من يمد له عمره حتى يصير إلى الهرم والخرف ، فيتوقف علمه وإدراكه للأشياء ، ومن بدأ خلقكم بهذه الصورة البديعة المتكاملة ، لا تعجزه إعادتكم .

وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنتَبَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ .

وأمر آخر يدلكم على قدرتنا ، هو أنك ترى الأرض قاحلة يابسة ، فإذا أنزلنا عليها الماء ، دبَّت فيها الحياة ، وتحركت وزادت ، وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء ، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق

منظره ، ويبهر حسنه ، وتبتهج لمرآه ، والآية تأخذ بأيدينا إلى إبداع القدرة الإلهية ، فى تكوين الجنين فى بطن أمه ، ومراحل حياته ، ووجوده فى هذه الدنيا ، ونهايته وموته ، وكذلك الأرض وخصوبتها ، وحياتها بالمطر والنبات ، فإن الذى أحيا الإنسان ، وأحيا الأرض ، قادر على البعث والحشر والجزاء والثواب والعقاب. قال تعالى : **وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**. (الروم : ٢٧)

فى أعقاب الآية

أشارت الآية إلى سبع مراحل يمر بها الإنسان :

- ١ - أصلنا من التراب ، والمنى متولد من الماء والتراب والغذاء .
 - ٢ - النطفة وهى الحيوان المنوى من الذكر الذى يلحق البويضة ، عند الأنثى ، ثم يستقر بعد ذلك فى الرحم .
 - ٣ - العلقه التى تعلق بجدار الرحم .
 - ٤ - المضغة المخلقة التامة الحواس ، فتصير تامة الصورة لمعالم الجسم ، أو ناقصة التصوير والمعالم .
- جاء فى الصحيحين عن عبدالله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : «يجمع خلق أحداكم فى بطن أمه ، أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقه ، ثم أربعين يوماً مضغة ، ثم يبعث الملك فينفخ فيه الروح»^(٣٤) .
- وقد اتفق العلماء على أن نفخ الروح الحركية فى الجنين ، يكون بعد مائة وعشرين يوماً ، أى بعد تمام أربعة أشهر .

قال ابن عباس :

- وفى العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح ، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها ، أربعة أشهر وعشرة أيام .
- ٥ - **ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً** . حيث ينزل الجنين طفلاً مكتمل الحواس ، صالحاً للنمو شيئاً فشيئاً .
 - ٦ - **ثُمَّ تَلْبِغُوا أَوْلَادَكُمْ** . تتكامل القوة البدنية والعقلية ، حتى يصل الإنسان إلى حد الكمال فى عنقوان الشباب ، مروراً بمرحلة الطفولة والناشئة والفتوة ثم الشباب .
 - ٧ - مرحلة الشيخوخة والوصول إلى أرذل العمر والضعف ، ومن الناس من يموت قبل هذه المرحلة ، أو قبل المراحل السابقة عليها .
- قال تعالى : **اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** . (الروم : ٥٤) .

فأله سبحانه القادر على تكوين الجنين ، وتطوير خلقته فى بطن أمه ، وتطوير حياته من الضعف إلى القوة ثم الضعف ، هو سبحانه القادر على إعادة خلقه وإحيائه بعد موته ، كما يحيى الأرض بعد موتها وهو على كل شيء قدير .

وقريب من هذا المعنى ما ورد فى صدر سورة المؤمنون قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَيَخْلَقُنَا عِلْقَةً مُضْغَةً فَيَخْلَقُنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ - ١٦) .

٦ - ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : ذلك المذكور الذى بينته لكم ، من خلق الإنسان والحيوان ، والنبات ، وانتقال كل مخلوق من حال إلى حال ، بسبب أن الله هو الحق الثابت ، الذى لا شك فيه ، وهو القادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، كما أحيا الجنين فى بطن أمه ، وكما أحيا الأرض بعد موتها ، وهو سبحانه على كل شيء قدير ، فلا يعظم عليه شيء ، لأنه الإله الحق ، وما سواه كالأصنام لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يجيب ، وتأتى هذه الآية ، بمثابة الدليل والتأكيد ، على قدرة الله على البعث والحشر ، وعلى امتداد قدرته لتشمل كل شيء ، حيث كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويستكثرون عودة الأجسام بعد موتها وتفتتها ، وشمول البلى لها ، فبين القرآن أن قدرة الله لا حدود لها ، وأن الله الذى أوجد الإنسان من العدم ، قادر على إعادة خلقه ، قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩)

٧ - وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

أى : ذلك الذى تقدم من خلق الإنسان ، وإنبات الزرع ، شاهد على قدرة الله تعالى ، وعلى أن الساعة التى وعدكم بها آتية لا شك فيها ، حيث يبعث الله الموتى ويخرجهم من قبورهم ، أحياء إلى الموقف للحساب .
وخلاصة ذلك :

أن القادر على البدء قادر على الإعادة ، فالإنسان يمر بمراحل متعددة فى هذه الحياة ، لكنها ليست دار جزاء ، فلا بد من حياة أخرى يستكمل الإنسان بها رحلته ، وتحقق التوازن والتكامل مع الحياة الدنيا ، وتجعل هذا الخلق لحكمة عليا ، هى الابتلاء والاختبار فى الدنيا ، ثم الحساب والجزاء فى الآخرة ، ولذلك فالساعة آتية لا شك فى قدومها ، والله سيبعث الموتى من قبورهم للحساب والجزاء ، حتى تكتمل الحكمة الإلهية من هذا الخلق ، فأنفعاله تعالى مبنية على الحكم الباهرة ، والغايات السامية .

قال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا غَلَقْنَاكُمْ عِبْنًا وَأَنْكُمُ إِنَّا لَا تَرْجِعُونَ * فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ. (المؤمنون: ١١٥، ١١٦).

★ ★ ★

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝﴾

المفردات :

الهدى : الاستدلال والنظر الصحيح ، الموصل إلى المعرفة .

الكتاب المنير : الوحي المظهر للحق .

ثاني عطفه : لا ياب جانبيه مكتوباً مختالاً ، ونحوه تصغير الخد ، ولئى الجيد .

الخيزى : الهوان والذل .

عذاب الحريق : عذاب النار التى تحرق داخلها .

التفسير :

٨ - وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ .

تكلم فى الآية الثالثة عن الأتباع والضعفاء المقلدين ، وتكلم فى هذه الآية عن القادة المتجبرين مثل أبى جهل ، وقد أُنذره الله بالذل والهوان فقتل يوم بدر ، أو مثل النضر بن الحارث ، الذى قتل أيضاً يوم بدر ، ومعظم المفسرين على هذا كالأية الثالثة .

ومعنى الآية :

وبعض الناس يجادل فى الله تعالى وصفاته وتوحيده وأفعاله ، بلا عقل صحيح ولا نقل صريح بل بمجرد الرأى والهوى ، فهو لا يستند إلى المعلومات الصحيحة ، ولا إلى هدايات السماء ، ولا إلى كتب الوحي والرسالات التى تنير عقله وقلبه ، وتوضح له سبيل الرشاد .

٩ - ثَانِي عَطْفِهِ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلِنُفْقِهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابُ الْخَرِيقِ .

هذا نموذج للبطر والكبر والغرسة ، لقد تحدثت الآية الثامنة عن جهل بالعلوم ، وبهدايات السماء ، ويكتب الله .

ثَانِي عَطْفِهِ .

أى : آمال جانبه كبيراً وتبها ، كما قال تعالى فى وصية لقمان لابنه : وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ... (لقمان : ١٨) .
أى : لا تتكبر عليهم تبها وعجبا .

يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

فهو جاهل مغرور متكبر يرشد الناس إلى الضلال ، ولم يكتف بإضلال نفسه ، بل يحاول إضلال الناس وصرافهم عن طريق الهدى والرشاد ، وحملهم إلى طريق الكفر والفساد .

لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلِنُفْقِهِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ عَذَابُ الْخَرِيقِ .

إن عقاب هذا المتكبر هو خزي الدنيا وهوانها ، فلا بد أن ينزل به ما يستحقه ولو بعد حين ، وقد قتل أبو جهل يوم بدر ، وكذلك النضر بن الحارث ، وغيرهما من صناديد الشرك ، أما فى الآخرة فإنه يذوق عذاب الإحراق ، ويصطلى بنار جهنم .

١٠ - ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَذَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسِّرُ بَطْلَنُكَ لِلْعَبِيدِ .

أى : تقول له الملائكة : إن هذا الخزي والعذاب ، بسبب ما قدمت من الكبر والضلالة ، فأنت تستحق العذاب والإحراق فى نار جهنم ، وهذا العذاب عقاب عادل مناسب لك ، والله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ، فهو سبحانه عادل رحيم ، يجازى على السيئات ، ويضاعف الحسنات .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

قال سبحانه فى مثل هذا المعنى : خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ . (الدخان : ٤٧ - ٥٠) .

وقال سبحانه وتعالى : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . (النجم : ٣١) .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِّن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

المضردات :

على حـرف : على طرف لا ثبات له فيه .

خـسر : سعة فى المال وكثرة فى الولد .

فـتنـة : بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله ، فـعله : فـتنـه يفتنه فتنة : أى : اختبره وعذبه .

انقلب على وجهه : ارتد وكفر ، وهو من الكنايات .

خسر الدنيا والآخرة : ضيعهما ، إذ فاته فيهما ما يسره .

يدعوا من دونه الله : يعبد من دونه الله .

المـولـى : الناصر .

العـشـير : الصاحب والمعاش .

تهليل :

تفيد هذه الآيات أن من الناس فريقاً ألف النفاق والتظاهر ، فهو يدخل فى الإسلام من باب التجربة ، والنظر إلى المكاسب التى تصيبه ، فإذا كثرت زراعته وريح مالا ، وورق ولذا ذكراً ، وأصاب رزقاً واسعاً ، قال : هذا دين خير ؛ فاستمر فيه ، وإن اختبره الله بالفقر أو المرض ، أو موت ابن له أو حبيب ، قال : هذا دين شر ؛ فارتد عنه .

التفسير :

١١ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

ومن الناس من يعبد الله متشككا متخوفاً من الإسلام ، فهو أشبه بالجندي الذى يكون فى طرف الجيش ، إذا أصابت الجيش هزيمة كان أول الفارين ، وإذا أحرز الجيش نصراً ، انضم إليه وأكد تمسكه بالاستمرار معه .

فَإِنْ أَصَابَهُ غَيْرَ أَطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ .

روى القرطبي عن ابن عباس قال :

كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ، وأنتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه ، وورد ذلك فى مختصر تفسير ابن كثير .

فهو رجل نفعى كأنما العقيدة عنده سلعة ، تُعرض فى حساب الربح والخسارة ، فإذا استفاد مغنماً من الدنيا ، ثبت على إسلامه ، وإذا امتحنه الله فى ماله أو ولده أو نفسه : انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ . أى ارتد عن الدين وعاد إلى الكفر ، وهى كناية تصوّر هذا الإنسان كالفارّ من الميدان ، قد ولى وانتكس ، وارتد بوجهه مدبراً وعاد من حيث جاء .

خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ .

فلم يربح غنيمة ولا نصراً ، ولا تفوقاً فى قتال عدو ، أو جهاد نفس ، بل عاد من حيث أتى ، فدخل فى الإيمان قليلاً ثم انهزم وارتد ، ففسد موقعه فى الدنيا ، وخسر أيضاً ثوابه فى الآخرة ، لأن الله يعطى الجزاء للمخلصين الصادقين ، وهو فاسد العقيدة ، يتظاهر بالإسلام ، وقلبه غير راسخ فى دين الله .

ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

هذا هو الخسران الواضح الذى لا خسران مثله .

قال ابن كثير : هذه هى الخسارة العظيمة والصفقة الخاسرة .

١٢ - يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ، وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ .

أى : يعبد من دون الله آلهة أخرى كالأصنام والأوثان المخلوقين ، الذى لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم .

ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

ذلك هو الضلال الموهل فى الضلالة ، البعيد جداً عن طريق الصواب ، شبه حالهم بحال من أبعد فى التيه ضالاً عن الطريق .

١٣ - يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَبِيرُ .

إن بعض الناس عبد الفراعنة ، فقد تأله فرعون وقال : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ . (النازعات : ٢٤) .

وقال : مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي . (القصص : ٣٨) .

وهذا العابد غلب النفع المادّي على النفع الأخرى ، فعبد من له جاه أو مال أو مملكة ، ليستفيد فى الدنيا ، مع أن هذا المعبود ضرره أكثر من نفعه ، فنفعه فى الدنيا قليل ، ومهما أغدق من النعم على من عبده فى الدنيا ، فمتاع الدنيا قليل ، بالنسبة إلى العذاب الأليم والضرر البالغ الذى ينتظر من آثر الدنيا على الآخرة ، وفى يوم القيام يصبح العابد فى وجه من عبده ، ويقول له : بئس الولى أنت ، وبئس الصاحب أنت ، فقد خذلتنى وتركتنى ألقى مصيرى .

وخلاصة ذلك : أى عشير هذا ، وأى ناصر ذاك ، الذى لا ينفع ولا ينصر من يعاشره ؟ والله لبئس العشير ، ولبئس النصير .

★ ★ ★

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (١٤)

التفسير :

١٤ - إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

لما ذكر فيما سبق أهل الضلالة ، ذكر فى هذه الآية أهل السعادة ، فالله تعالى يدخلهم جنات وبساتين تجرى من تحتها أنهار اللبن والعسل والماء العذب النظيف ، إن الله تعالى يفعل ما يشاء ، فيكافئ الطائع بفضله ، ويعاقب العاصي بعدله ، وهو سبحانه : فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ . (البروج : ١٦) ، فلا رادَّ لأمره ، ولا معقب لإرادته ، لأنه لا إله سواه .

★ ★ ★

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ مِنْهَا إِنْ يَكُنْ مِنْ يَدْرِ مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾

المفردات :

بـسبب : بحبل .

إلى السماء : إلى سقف بيته ، وكلُّ ما علاك سماء .

ثم ليقطع : ثم ليختنق ، من قطع ، بمعنى اختنق - كذا فسرهُ ابن عباس - ولعلمهم أطلقوا القطع عليه لما فيه من قطع النفس ، وهذا كقولهم فى المثل العامى : (اشرب البحر) للدلالة على عدم الفائدة من الفعل.

هـل ينظر : فليقدر فى نفسه النظر .

كـيـده : فعله .

ما يغيط ، أى غيطه ، والمعنى : هل يذهب كيده فى عدم نصره النبى ﷺ غيطه ، أى : فليختنق غيطاً منها فلا بد منها .

التفسير :

١٥ - مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ .

أى : من كان يظن أن الله لن ينصر محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة ، أو لن ينصر دينه وكتابه ورسالته ورسوله ، فليذهب فليقتل نفسه ، إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة .

والمقصود : إن الله ناصر دينه وكتابه ورسوله لا محالة ، فليفعل أهل الغيظ ما شاءوا .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْلَزَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

قال في التفسير الوسيط بإشراف الأزهر ، ما خلاصته :

إن الله ناصر رسوله ، ومن كان يغيظه هذا النصر فليبالغ في استفراغ الجهد ، فغاية أمره خيبة مساعيه ، وقد وضع مقام هذا الجزاء قوله تعالى : فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ، مَا يَغِيظُ . لغرض التحدى والتهكم .

ومعناه : فليمدد بحبل إلى سقف بيته ثم ليختنق بهذا الحبل ، الذى وضعه غلاً في عنقه ، فلينظر وليتأمل : هل يشفيه من الغيظ قتله نفسه حسرة ، على نصرة الله لرسوله ؟ اهـ .

فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ ، مَا يَغِيظُ .

قال عطاء الخراساني : فلينظر هل يشفى ذلك ، ما يجد في صدره من الغيظ .

وقال أبو جعفر النحاس :

من أحسن ما قيل في هذه الآية أن المعنى : من كان يظن أن الله لن ينصر محمداً ، وأنه يتهبأ له أن يقطع النصر الذى أوتيّه ، فليطلب حيلة يصل بها إلى السماء ، ثم ليقطع النصر إن تهبأ له ذلك ، ثم لينظر هل يذهبن كيده وحيلته ما يغيظه من نصر النبى ﷺ ؟ والفائدة فى الكلام أنه إذا لم يتهبأ له الكيد والحيلة بأن يفعل مثل هذا ، لم يصل إلى قطع النصر . اهـ .

١٦ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُبَيِّنُ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ .

أى : ومثل ذلك الإنزال البليغ الواضح : أنزلنا القرآن آيات بينات الدلالة على معانيها الحكيمة ، وتوجيهاتها السديدة .

وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ .

وإرادة الله قد قررت سبق الهدى والضلال ، فمن طلب الهدى تحققت إرادة الله بهدائه ، وفق سنته ، وكذلك من طلب الضلال ، إنما يغرد هنا حالة الهدى بالذكر ، بمناسبة ما فى الآيات من بيان يقتضى الهدى فى القلب السليم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧)

المضردات :

الذين هادوا : اليهود .

الصابئين : قوم يعبدون الملائكة ، ويصلون إلى القبلة ، ويقرون الزبور ، وفي كتاب الملل والنحل
للشهرستاني : أن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابلهم الحنفاء ،
وعدة مذهبهم تعظيم النجوم ثوابتها وسفاراتها .

النجوس : قوم يعبدون الشمس والقمر والنار ، ويقولون : إن هناك إلهين اثنين للخير والشر ، وهما
النور والظلمة .

والذين أشركوا : عبدة الأصنام والأوثان ، فالأديان ستة : خمسة للشيطان ، وواحد للرحمان .

يقض ببنهم : يقضى بإظهار المحق من المبطل .

شهيده : عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

التفسير :

١٧ - إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

إن علم الله ومعرفته ورويته ومشاهدته شاملة لكل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وهو سبحانه مطلع
وشاهد لأحوال هذه الفرق كلها ، وسيجازي كل فرقة بما تستحق ، فيكافئ الذين آمنوا بالله بدخول الجنة ،
ويعاقب الذي كفروا بالله ، بدخول النار ، فإنه تعالى شهيد على أعمالهم ، حفيظ لأقوالهم وأفعالهم ، عليم
بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

المضردات :

ألم ——— : ألم تعلم .

يسجد له : يخضع له بما يراود منه ، وهو السجود بالتسخير والانقياد لارادته تعالى ، وهناك سجود
بالاختيار وهو خاص بالإنسان ، وبه يستحق الثواب ، وسجود بالتسخير والانقياد
لارادته سبحانه ، وهو دال على الذلة والافتقار إلى عظمته جلّت قدرته .

من فى السماوات : هم الملائكة .

ومن فى الأرض : هم الإنس والجن .

وكثير من الناس : ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة ، فهو فاعل فعل مضمّر .

وكثير حق عليه العذاب : وكثير منهم ثبت له العذاب وهم الكافرون .

ومن يهين الله : يجعله شقيا .

فما له من مكرم : فما له أحد يكرمه ويسعده .

إن الله يفعل ما يشاء : من الإهانة والإكرام .

تمهيد :

تفيد الآية أن جميع العوالم خاضعة لقدرة الله ، وسلطانه طوعا وكرها .

التفسير :

١٨ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ
وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

ألم تشاهد أيها العاقل أن هذا الكون بكل ما فيه ، خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، فقد سخر الله هذا
الكون وأبدع نظامه ، وهو دال على وجود الخالق وعظمته ، ويسجد لله من فى السماوات : من الملائكة
والأبراج والأفلاك وغيرها ، ومن فى الأرض : من الإنسان والجن وغيرهما ، ويسجد له أيضا : الشمس فى

مسارها وحركتها ، والقمر فى سيره واختفائه ، والنجوم فى ظهورها واختفائها ، والجبال تسجد خاضعة ، والشجر يسجد لله ، والحيوانات تسجد سجود تذلل وخضوع ، وكثير من الناس المؤمنين يسجدون لله سجود عبادة ، عن عقل وإرادة ، وكثير من الناس كفار جحدوا عبادته والسجود له ، فحق عليهم العذاب الدنيوى بالشقاء ، والأخوى فى جهنم ويئس المصير .

ومن يهن الله بإبعاده عن الهداية ، والطمس على قلبه ، فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ . فلن يستطيع أحد إبعاده أو إكرامه .

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ .

مما تقتضيه حكمته وعدله ، فلا معقب لحكمه ، ولا معارض لمشيئته .

ملحق بتفسير الآية

— أفرد الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر ، مع دخولها فى عموم من يسجد لله تعالى ، فى السماوات والأرض ، لأن الناس عبدوها مع الله ، مع أنها مخلوقة له ، وخاضعة لأحكامه .

قال تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .** (فصلت : ٣٧) .

وفى الصحيحين عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت : الله ورسوله أعلم . قال : «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها ارجعى من حيث جئت»^(١٠) .

وهذا الحديث يدل على خضوع الشمس لأمر الله ، فإنها تستأذن عند الغروب أن تسجد لله فيؤذن لها ، ثم تستأذن الله فى الشروق فيؤذن لها ، وعند قيام الساعة تستأذن فى الشروق أو الغروب فلا يؤذن لها ، فذاك قيام الساعة وطلوع الشمس من مغربها ، وهو رمز لاختلال نظام الكون ونهاية الحياة الدنيا .

وقد أورد ابن كثير فى تفسير هذه الآية طائفة من الأحاديث النبوية من بينها ما يأتى :

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله ، وإنهما لا ينكسان موت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل إذا تجلّى لشيء من خلقه خضع له»^(١١) .

والكسوف والخسوف ظاهرتان طبيعيتان ، تدلان على أن كل شيء فى هذا الكون له نظام محكم مرتب ، سخره الله ويسره ، وهذا رمز تجلّى الله لهذه المخلوقات ، أى تقديره لها وتسييره لها بالنظام الدقيق ، وأما الجبال والشجر فسجودهما بغير ظلالهما عن اليمين والشمال .

— روى الترمذى وابن ماجة وابن حبان ، عن ابن عباس قال :

جاء رجل فقال : يا رسول الله إننى رأيتنى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس : فقرأ رسول الله ﷺ سجدة ثم سجد ، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة^(١٧) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد لها ؛ اعتزل الشيطان يبكى يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار»^(١٨) .

★ ★ ★

﴿ هَذَا نِ حَصْمَانِ اَخْتَصِمُوا فِي رِيهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۝ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ (٢٢) إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝ (٢٣) وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ۝ (٢٤) ﴾

المضدرات :

حَصْمَان : الخصم المخاصم ، مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو مثنى أو جمعا ، وهو من له رأى غير رأىك فى موضوع ما ، وكل منهما يحاج صاحبه .

اِخْتَصِمُوا فِي رِيهِمْ : وقع الجدل بينهم فى شأن ريهم .

قُطِعَتْ لَهُمْ : قُذِّرَتْ لَهُمْ .

الْحَمِيم : الماء الحار ، الذى بلغت حرارته أقصى الغاية .

يُصْهَرُ بِهِ : يذاب به .

مَقْمِعٌ : جمع مقمعة كمكسة ، وهى الأعمدة من الحديد يضرب بها .

عَذَابَ الْحَرِيقِ : عذاب الاحتراق ، ويكون بالغليظ من النار .

من أساور، جمع أسورة ، وهى جمع سوار ، فالأساور جمع الجمع ، وهى حلية تلبسها النساء فى معاصمها .

ولؤلؤءا ، هو ما يستخرج من البحر من جوف الصدف .

الحرير ، هو المحرم لبسه على الرجال فى الدنيا .

الطيب من القول ، ما يقع فى محاوراة أهل الجنة بعضهم بعضا .

صراط الحميد ، الصراط المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

سبب النزول :

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن أبى ذر قال : نزلت هذه الآية : هَلْدَانِ حَصَمَانِ آخْتَصَمُوا فى رَبِّهِمْ . فى حمزة وعبيدة وعلى بن أبى طالب ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، أى الفريقين اللذين قاما بالمبارزة ، فى بداية معركة بدر^(١) .

وأخرج الحاكم عن على بن أبى طالب قال : فىنا نزلت هذه الآية ، وفى مبارزتنا يوم بدر .

وأخرج الحاكم من وجه آخر ، عن على قال : نزلت فى الذين بارزوا يوم بدر : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث ، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس : أنها نزلت فى أهل الكتاب .

قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم ، وأقدم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم ، فقال المؤمنون : نحن أحق بالله منكم ، آمنا بمحمد وينبئكم ، وبما أنزل الله من كتاب .

وقد اختار ابن جرير الطبرى وابن كثير : أن المراد بهذه الآية : الجدل بين المؤمنين والكافرين ، وهذا الرأى يشمل الأقوال كلها ، وتنظم فيه قصة يوم بدر وغيرها ، فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله عز وجل ، والكافرين يريدون إطفاء نور الإيمان ، وخذلان الحق وظهور الباطل^(٢) .

ولأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فحمل الآية على أنها جدال بين المؤمنين والكافرين أولى . لأنه يمكن أن يندرج فيه ، النقاش بين المؤمنين وأهل الكتاب ، وأن تندرج تحته المبارزة بين المسلمين والكافرين يوم بدر ، وكل ما يثار من جدال بين المؤمنين والكافرين إلى يوم الدين .

تمهيد :

تحدث الآيات عن جزاء الكافرين فى العذاب ، وعن جزاء المؤمنين فى النعيم .

التفسير :

١٩ - هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمُوا لِي رَبِّهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نُارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ .

تنازع الكافرون والمؤمنون في الله وصفاته وآلائه ، وما يجب له من الكمالات ، وما يستحيل عليه من النقص . أما الكافرون فهم فرق متعددة ، منهم من نسب لله ولدا ، ومنهم من عبد النجوم أو الشمس أو النار أو الأصنام والأوثان ، وهذا الفريق كله سيدخل جهنم ، وتفصل لهم ثياب من النار ، ويصب الماء الحار شديد الغليان فوق رؤوسهم ، فينفذ من الجمجمة إلى بطونهم ، فيحرقهم من الباطن كما يحرقهم من الظاهر ، وهذه ألوان من العذاب مربعة مفزعة ، والتعبير بـ ثِيَاب للإشارة إلى تراكم طبقات النار المحيطة بهم ، وكون بعضها فوق بعض ، وفي آية أخرى يقول القرآن الكريم : سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (إبراهيم : ٥٠ ، ٥١) .

فالعذاب متنوع ، والذل ظاهر ، والهوان ملازم لأهل النار جزاء كفرهم وجحودهم .

٢٠ - يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ .

أي : إن الحميم يصب فوق رؤوسهم فينزل إلى باطنهم فيحرقهم من الباطن كما يحرق جلودهم من الظاهر .

قال الإمام الفخر الرازي :

والغرض أن الحميم إذا صب على رؤوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر ، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم .

قال تعالى : وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

٢١ - وَلَهُمْ مَقْعُ الْحَدِيدِ .

ولهم أعمدة من الحديد يضربون بها من خزنة جهنم ، على سبيل التعذيب والإهانة والإذلال .

روى الإمام أحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : «لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلواها»^(٢١) .

٢٢ - كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .

إن العذاب في جهنم شديد أليم ؛ فتهوى بهم جهنم وترتفع .

قال الحسن :

إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم ، حتى إذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهوا فيها سبعين خريفاً^(٢٣) .

إن العذاب له ألوان متعددة منها الحسى ومنها المعنوى ، ومن هذا العذاب المعنوى شدة الغم والحزن ، وكلما أراد أهل النار الخروج منها من شدة غمها رُدُّوا إلى أماكنهم فيها ؛ ويقال لهم من خزنة جهنم: وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . أى : ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذى كنتم به تكذبون .

هذه ألوان العذاب الحسى والمعنوى : فالثياب من نار ، والحميم الذى اشتد غليانه يصب فوق رؤوسهم ، فيذيب أمعاهم وجلودهم ، والسياط الحديدية تقمعهم وتذلهم ، والهوان والغم يحيط بهم ، فإذا حاولوا الخروج من النار أعيدها فيها ، وقيل لهم توبيخاً وإذلالاً : ذوقوا عذاب الإحراق فى جهنم ، عقوبة على كفركم وعنادكم . ومن شأن القرآن أن يقرن بين عذاب الكافرين ونعيم المؤمنين ، تسرية للنفوس ومقابلة بين الأضداد ، ويضدها تتميز الأشياء .

٢٣- إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ .

تصف الآية نعيم الجنة ، ومن أعلى ألوان هذا النعيم ، أنه من عند الله ؛ فالدخول فى الجنة بفضل الله ورحمته ومنته ونعمائه .

ولهذا معنى : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ... (الحج : ١٤) .

فهم قد آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة ، والله سبحانه تفضل عليهم فأدخلهم الجنان والبساتين ؛ التى تجرى الأنهار من تحتها ، وتلبسهم الملائكة أساور من ذهب وأساور من لؤلؤ ؛ للترزين والتجمل ؛ كما يليسون الحرير فى الجنة ، لأن الله حرّمه على الرجال فى الدنيا ؛ وأحله للنساء ؛ فلبس المؤمنون حريرا ناعما حسن اللون والصنف ، أغلى وأعلى كثيرا من حرير الدنيا .

٢٤- وَهَذَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَذَا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ .

لقد وفق الله أهل الجنة إلى الكلام الحسن ، والردّ الجميل ، وذكر الله وشكره ، وحمد آلائه ، كما هداهم إلى الصراط المستقيم الذى يوصلهم إلى الجنة .

وهناك رأيان فى تفسير هذه الآية :

الأول : أن ذلك فى الدنيا : أى : هداهم الله إلى كلمة التوحيد فى الدنيا : وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وذكر الله وطاعته ، والكلام اللين الحسن : كما هداهم إلى الإسلام والإيمان والطريق المحمود.

الثانى : أن ذلك فى الآخرة : وهذا هو الرأى الأرجح ، لأن السياق فى الحديث عن أهل الجنة ، فهم يشكرون الله على ذهاب الحزن عنهم ، وعلى دخولهم الجنة ، وهم يذكرون الله حيث يلهمهم الله ذكره كما يلهمهم التنفس ، قال تعالى : وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . (فاطر : ٣٤ ، ٣٥) .

قال الشوكانى فى تفسير فتح القدير :

وَهَذَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ .

أى : أرسدوا إليه ، قيل : هو لا إله إلا الله ، وقيل : القرآن ، وقيل : هو ما يأتىهم من الله من بشارات ، وقد ورد فى القرآن ما يدل على هذا القول المجلل هنا ، وهو قوله سبحانه : وَسَبِّحْ لِلَّذِينَ أَنْقَرُوا عَنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ ذُرِّيًّا إِذَا جَاءُوهَا وَفُيْحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . (الزمر : ٧٣ ، ٧٤) .

وقال سبحانه وتعالى :

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ تَجَرَّوْا مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تَبْلُغُوا الْجَنَّةَ أَوْرَثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . (الأعراف : ٤٢ - ٤٤) .

وهذه الآيات تؤيد رأى من يرى أن أهل الجنة لهم عمل هو : الذكر ، والحمد لله ، والشكر لله ، ومناقشة أصحاب النار ، وهى أعمال كلها تناسب نعيم الجنة ، فى استمرار الترقى والعبادة والشكر والذكر : وهذه العبادة تصدر منهم كما يصدر التنفس أى : بدون تكلف أو إجهاد .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْعِمْرِ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

المسجد الحرام : المراد به : مكة ، وعبر بالمسجد الحرام عن مكة ، لأنه المقصود المهم منها .

العاكِف : المقيم .

البــــــــــــادى : الطارئ القادم عليها .

الإلــــــــــــــحــــــــــــاد : العدول عن الاستقامة .

بظــــــــــــلــــــــــــم : بغير حق بأن ارتكب منها عه .

نذقه من عذاب أليم : يتلقى بعض العذاب المؤلم ، وهو جواب الشرط لـ مَنْ يُرِدْ ، ويفهم خبر إن من قوله : نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .

سبب النزول :

قال ابن عباس :

نزلت هذه الآية فى أبى سفيان بن حرب وأصحابه : حين صدّوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام ، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم ، وكان محرما بعمره ، ثم صالحوه على أن يعود فى العام المقبل .

التفسير :

٢٥- إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .

تعرض الآية النزاع بين المسلمين والكفار ؛ وكان رسول الله ﷺ قد رأى فى منامه أنه دخل المسجد الحرام معتمرا ، فأخبر أصحابه بذلك ، وساق الهدى ، فلما اقترب من مكة منعته قريش من دخول مكة معتمرا ، ثم تم الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ؛ على أن يرجع هذا العام ، ثم يأتى فى العام القادم معتمرا ؛ كما اتفقا على وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، ثم فُتحت مكة فى العام الثامن من الهجرة .

وتصور الآية عنت المشركين فتقول : إن الذين كفروا بالله ورسوله ، ويمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام ، كما يمنعون المسلمين من أداء العمرة حول المسجد الحرام ، مع أن هذا المسجد منطقة أمان ،

والناس جميعا يعظمونه ويحجون إليه ويعتصرون ، سواء أكانوا عاكفين أى : مقيمين من أهل مكة ، أو قادمين من البادية : كل هؤلاء يحق لهم أداء المناسك ، وتعظيم هذا البيت .

ومن تعظيم البيت الحرام ، أن الله ضاعف الثواب والأجر للمقيم حول البيت ، كما ضاعف العذاب والعقاب لمن ارتكب إثما حول البيت . أو عزم على ارتكاب الإثم ، وإن لم يقرن ذلك بالتنفيذ .

والأصل فى ذلك ما ورد فى الحديث الصحيح : «أن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك : فمن همُّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وإن همَّ بها فعملها كتبت له عشر حسنات ، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء ، وإن همَّ بسيئة فعملها كتبت عليه سيئة واحدة» (١٨) .

وهذا فى الحياة العامة ، لكن عندما يكون الإنسان فى المسجد الحرام : يعاقب على الهم أو العزم بعمل سيئة ، وإن لم يقرن ذلك بالتنفيذ ؛ فيعاقب على مجرد العزم على الشر بالمسجد الحرام .

من محاسن الإسلام

أقام الإسلام منطقة أمان وسلام بالمسجد الحرام والحرم المحيط به ، هذه المنطقة يحرم فيها القتال والعدوان ، حتى لو وجد الإنسان قاتل أبيه بالمسجد الحرام : لا يمد يده إليه بسوء .

قال تعالى : **وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفِ فِيهِ وَالْبَادِ .**

أى : جعلناه للناس على العموم ، يُصلُّون فيه ، ويطوفون به ويحترمونه ، ويستوى تحت سقفه من كان مقيما فى جواره ، وملازما للتردد عليه ، ومن كان زائر له ، وطائرا عليه من أهل البوادي ، أو من أهل البلاد الأخرى سوى مكة : فهذا المسجد الحرام يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم ، بل الكل فوق أرضه وتحت سقفه سواء .

وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ .

قال مجاهد : **بِظُلْمٍ** : يعمل فيه عملا سيئا .

وقال ابن أبى حاتم :

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقب البادى فى الشر إذا كان عازما عليه وإن لم يوقعه ، والفقرة عامة تشمل جميع أنواع المعاصى والظلم .

قال ابن جرير الطبري :

وأولى الأقوال بالصواب : قول من قال : إن المراد بالظلم في هذا الموضع كل معصية لله ، وذلك لأن الله عم بقوله : وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ . ولم يخصص به ظلماً دون ظلم ؛ في خبر ولا عقل ، فهو على عمومها ، وتأويل الكلام : ومن يرد في المسجد الحرام بأن يميل بظلم فيعصى الله فيه نذقه يوم القيامة من عذاب موجه له . اهـ .

والخلاصة :

أن الآية عامة تشمل كل أنواع المعصية ، ويختص الحرم بعقوبة من هم فيه بسيئة وإن لم يعملها ، كما أن الله تعالى جعل الحرم مفتوحاً ومنسكاً لكل الناس ؛ أي : الذين يقع عليهم اسم الناس ، من غير فارق بين حاضر وباد ، ومقيم وطائر ، ومكى وآفاقى .

من تفسير ابن كثير :

اختلف الفقهاء في أرض مكة : هل تملك وتباع وتوهب وتورث وتؤجر ، أم لا ؟

فذهب أبو حنيفة وإسحاق بن راهويه ؛ إلى أنه لا يجوز بيع دور مكة ولا إيجارها ، مستدلين بهذه الآية ، وما رواه ابن ماجة والدارقطني عن علقمة بن نضلة : قال : توفي رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ؛ وما ترعى رباح مكة إلا السوائب ؛ من احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن فكانها محمية آمنة يلجأ إليها أهل الحواضر والبوادي ؛ فيسكنون ويأمنون .

قال عبد الله بن عمرو : لا يحل بيع دور مكة ولا كرائها .

وقال : من أكل من أجر بيوت مكة شيئاً فإنما يأكل ناراً .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن رباح مكة تملك وتورث وتؤجر ، واستشهد بأن عمر بن الخطاب ، اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة ؛ فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم .

وتوسط الإمام أحمد فقال : دور مكة تملك وتورث ؛ ولا تؤجر ؛ جمعاً بين الأدلة .

ليقضوا، ليزيلوا .

تثابتهم ، أوساخهم ، وشعثهم ، والمراد هنا : قصّ الشعور وتقليم الأظافر .

المنذور ، ما ينذر من أعمال البر في الحج .

العتيق ، القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

تمهيد :

تفيد الآيات منزلة البيت العتيق ، فقد هدى الله إبراهيم الخليل ، إلى مكان البيت ، وأمره أن يدعو الناس إلى الحج مشاة وركبانا ، ويمكن للحاج أن يؤدي المناسك فيحظى بالثواب والرضوان ، ويمكنه أن يمارس التجارة في أيام الحج ، وأن يتعرف إلى إخوانه المسلمين من قارات الدنيا ؛ وذلك يجمع بين المنافع الدينية والدنيوية .

التفسير :

٢٦- وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ .

واذكر حين أوردنا إبراهيم وألهمناه ، مكان البيت لبيئته للعبادة ، وأنزلناه فيه .

وقال الزجاج : المعنى بيئاً له مكان البيت لبيئته ، ويكون مباءة له ولعقبه ، يرجعون إليه ويحجونه .

ويقال : إنه كان مبنياً قبل أن يؤمر إبراهيم ببنائه ، ولكنه كان قد درس وفنى من عوادي الزمن ، فكشف الله لإبراهيم عن أساسه بما أرسله يومئذ من ريح عاتية أزالته عنه ما كان يطمس معالمه ، ويخفي حدوده ، ويستتر رسومه .

وسياق الآية يفيد أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم - عليه السلام - وأنه تعالى هداه إليها ، وقد روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه .

وقال الألوسي في تفسيره :

بنته قريش في الجاهلية وحضر بناءه رسول الله ﷺ وكان شاباً ، ثم بناه عبد الله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف الثقفي وهو البناء الموجود اليوم .

أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا .

أي : قائلين له ، لا تشرك بالله شيئاً في العبادة أنت وأبنائك ، كأنه قيل : وحدني في هذا البيت ، واجعل

العبادة فيه خالصة لوجهي . قال ابن كثير : ابنه على اسمي وحدي .

وَطَهَّرَ بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ .

أى : طهر بيتى من الأصنام والأوثان : واجعله خالصا لعبادة الله وحده ، من المتوجهين إليه سبحانه :
بالعبادة بالطواف والصلاة .

وأهم أركان الصلاة : القيام ، والركوع ، والسجود . فاكثفى هنا بذكر أهم أركان الصلاة للإشارة إليها ،
وقد دلت الآية على أن الطواف لا يشرع إلا حول البيت ، وأن الاتجاه فى الصلاة لا يكون إلا إليه ، ما لم يمنع
من ذلك مانع .

وفى الآية طعن على من أشرك من قطان البيت ، أى : هذا كان الشرط على أبيكم فمن بعده ، وأنتم
جعلتم فيه الأصنام فدنُسْتُموه بها .

٢٧- وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .

أى : ادع الناس إلى حج بيت الله الحرام : فسوف يلبى دعوتك المشاة والركبان ، الذين يركبون الإبل
المهزولة من كثرة السفر ويعد الطريق ، تأتى هذه الإبل من كل طريق بعيد فى أقطار الدنيا .

قال ابن عباس :

لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قيل له : أذن فى الناس بالحج ، قال : يا رب ، وما يبلغ صوتى ؟ قال :
أذن وعلى الإبلاغ ، فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا
البيت ليثيبكم به الجنة ، ويجبركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان فى أصلاب الرجال ، وأرحام
النساء : لبيك اللهم لبيك ^(١) .

قال القرطبي :

ورد الضمير إلى الإبل يأتين تكرمة لها لقصدها الحج مع أربابها ، كما قال وَأَلْعَدَيْتُمْ ضُبْحًا . (العاديات : ١)
فى خيل الجهاد : تكرمة لها حين سعت فى سبيل الله .

٢٨- تَشَاهَدُوا مَتَّعِ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا
وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ .

جعل الله الحج لشهود منافع متعددة ، تعود على الحجاج فى شئون دينهم ودنياهم : فهم يشاهدون
البيت العتيق ، وزمزم ، والمقام ، والصفاء والمروة ، وجبل عرفات وجبل الرحمة ، ومنى ومزدلفة ، وغيرها
من الأماكن والمشاهد ، التى نزل وحى السماء بجوارها .

ويدعون الله تعالى ، ويؤدون مناسك الحج والعمرة ، وهناك ترقى القلوب وتسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات . وفي الحج منافع كثيرة أخرى ، منها : تبادل التجارة ، والوقوف على أحوال المسلمين في أقطار الدنيا ، وتبادل الخبرة والمعرفة ، وانتقال العلوم والفنون والآداب بالتزاور والتجاور ، والحج وسيلة من وسائل ترابط المسلمين ؛ وتكاتفهم لتحرير بلادهم ورقبها ، وتخليص بلاد المسلمين من براثن الاستعمار والتجسس .

وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .

أى : ويذكروا اسم الله تعالى فى أيام الحج ، عند ذبح الهدى من الإبل والبقر والغنم والماعز . والأيام المعلومات هى أيام عشر ذى الحجة ، وأيام العيد الثلاثة أو الأربعة ، أى : يوم العيد ويومان بعده ، أو يوم العيد وثلاثة أيام بعده .

عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ . على ما أعطاهم وملّكهم من بهيمة الأنعام : فيذكرون الله عند ذبحها ويقولون باسم الله والله أكبر .

قال فخر الدين الرازى :

وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلى ذكر اسمه تعالى عند الذبح ، وأن يخالف المشركين فى ذلك ، فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان .

فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ .

فيسنّ الأكل من الهدى والأضحية ، مشاركة للأكليين ، وإقناعهم بسلامتها ، والأكل هنا للإباحة أو الندب أو الوجوب ، ففيه عدة آراء ، أما إطعام الفقراء والبائسين فهو للوجوب .

قال ابن عباس :

البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه ، والفقير الذى لا يكون كذلك ، ثيابه نقيه ، ووجهه وجه غنى .

٢٩- ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

تأتى هذه الآية فى أعقاب مناسك الحج ، والمحرم بالحج لا يستطيع أن يقص شعره ولا يقلم ظفره ؛ بل هو فى منطقة سلام وأمان وعبادة ، فإذا أتم المناسك يوم عيد الأضحي ، وفيه أربعة أعمال :

رمى جمرة العقبة ، ذبح الهدى ، الحلق أو التقصير ، الطواف بالبيت العتيق - فإن الله يبيح له التحلل من الإحرام بأن يقص شعره ويقلم أظفاره ، ويتنّف إبطه ، ويهتم بنظافة نفسه ، امتثالاً لأمر الله .

جاء في تفسير ابن كثير عن ابن عباس :

ثُمَّ يُقِطُّونَ تَفَثَهُمْ . قال : هو وضع الإحرام من حلق الرأس ، ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك .
وَيُؤَفِّقُونَ نُدُورَهُمْ .

وليؤفوا بما يندرونه من أعمال البر في حجهم ، والوفاء بالنذر واجب مطلقا ، وليس مختصا بالحج ،
ولكن الوفاء به في الحج أحق وأكد .

وَيُطَوِّفُونَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

أى : طواف الإفاضة ويسمى طواف الزيارة ، وهو واجب أو ركن من أركان الحج ، فللحج ركنان
أساسيان :

١ - الوقوف بعرفة .

٢ - طواف الإفاضة .

قال العلماء : الحج وقفة بعرفة ، وطواف بالبيت ؛ وقيل المراد به : طواف الوداع .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق وهكذا صنع رسول الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر ، بدأ برمى جمره العقبة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت .

وفى الصحيحين : عن ابن عباس أنه قال : أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف ، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض .

والبيت العتيق : أى : القديم لأنه أول بيت وضع للناس ، أو لأن الله اعتقه فلم يظهر عليه جبار قط ، ولم يردّه أحد بسوء إلا هلك ، أو لأن الله أعفاه من البلى والدثور ، فلا يزال معمورا منذ إبراهيم - عليه السلام - ولن يزال .

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه .

بيت أمر الله خليله - عليه السلام - بإقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك ، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج إليه ، ليشهدوا منافع متعددة : فى رؤية أماكن سعى فيها إبراهيم الخليل حين بنى البيت ، وحين أمر بذبح إسماعيل ، وحين ترك هاجر تسير مسرعة بين الصفا والمروة .

وهناك ذكريات عن ميلاد محمد خاتم النبيين ، ومشاركته في بناء البيت في الجاهلية ، ودعوته إلى الله ، ثم فتح مكة ، وتحطيم الأصنام من حول البيت الحرام ، وأداء مناسك الحج ، وفي الحج ذكر اسم الله تعالى - لا أسماء الألهة المدعاة - عند ذبح بهيمة الأنعام .

والحجاج يأكلون من الهدى ويطعمون الفقراء والبؤساء ، فالبيت الحرام ، حرمة الله فيه مصونة ، وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود ، إلى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق ، وحرمة الهدنة والسلام .

★ ★ ★

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعِظِمْ شَعْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُوهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٣﴾ ۝ ﴾

المضردات :

ذَٰلِكَ : الأمر هكذا ، ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهي كلام واحد ، كقوله تعالى : هَٰذَا وَإِنَّا لِلطَّالِعِينَ لَشَرٌّ مَّكَابٍ .

حُرْمَاتُ اللَّهِ : الحرمات : التكاليف الدينية من مناسك الحج وغيرها .

تَعْظِيمُهَا : العلم بوجودها والعمل على موجب ذلك .

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ : الرِّجْسُ : كل شيء يستقذر ، ويراد به الأوثان ، وهي أصنام من حجر أو خشب أو غيرهما .
الزُّور : الكذب .

حُنَفَاءَ : واحدهم حنيف ، وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق .

خَطَرٌ : سقط .

الْخَطَفُ : الاختلاس بسرعة .

تَهْوِي : تسقط .

سَحِيْق : بعيد .

الشعائر : واحدها شعيرة ، وهى العلامة ، والمراد بها : البدن الهدايا ، وتعظيمها أن تختار حسنا سمنا غالية الأثمان .

الأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح .

محلها : مكان نحرها .

إلى البيت العتيق : عنده والمراد : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم جميعه .

تمهيد :

الكلام هنا مرتبط بما قبله ، فقد ذكر فيما سبق تكليف إبراهيم بدعوة الناس إلى الحج لشهود المنافع المتعددة .

وهنا أبان ثواب تعظيم حرمات الله وثواب أداء مناسك الحج ، وبين أن ذبح الأنعام وأكلها حلال إلا ما حرم عليكم ، وأنه يجب اجتناب عبادة الأوثان وترك شهادة الزور ، وأن من يشرك بالله فقد هلك ، ثم أوضح كون تعظيم الشعائر من علائم التقوى ودعائنها ، وأن محل نحرها هو الحرم المكى .

التفسير :

٣٠ - ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُنْفَىٰ عَلَيْكُمْ ...

أى : ذلك التشريع الذى سبق بيانه ، يجب تعظيمه ، ومن يعظم تكاليف الله وشرائعه ، بعلمه بقداستها ، وعمله بمقتضى هذا العلم ، فهذا التعظيم خير له عند ربه حيث يثيبه عليه ثوابا عظيما فى أخراه ، ولا يحرمه من فضله فى دنياه .

وخص بعضهم ذلك بمناسك الحج ، وقال آخرون : هى عامة فى تعظيم جميع الحرمات ، واتباع الأمور ، واجتناب المنهيات .

وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُنْفَىٰ عَلَيْكُمْ .

أى : أحل الله لكم لحوم الأنعام بعد ذبحها : وهى الإبل والبقر والغنم والماعز .

إِلَّا مَا يُنْفَىٰ عَلَيْكُمْ . أى : إلا ما حرمه الله عليكم فى الكتاب المجيد : كالميتة ، والمنخفة ، والموقودة ،

وقد ورد ذلك فى الآية الثالثة من سورة المائدة حيث قال سبحانه : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخِفَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّدَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ ...

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .

أى : فابتعدوا عن عبادة الأوثان ؛ وهى الأصنام التى كانت العرب تتخذها من الأحجار أو الأخشاب أو الذهب أو الفضة أو نحوها ، ويعبدونها إشراكا وكفرا ؛ وقد جعل الله هذه العبادة رجسا أى : شركا وكفرا؛ ونجاسة وقذارة معنوية ؛ حيث يعبد الإنسان العاقل حجرا أو صنما .

وكلمة الرجس تذكر فى القرآن لكل عمل شائن بغضض ؛ قال تعالى : إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (المائدة : ٩٠) .

أى : ذنب وإثم ونجاسة وقذارة معنوية.

قال ابن كثير :

فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .

أى : اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس .

وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

واجتنبوا شهادة الزور ، وقد قرن القرآن النهى عن قول الزور بالنهى عن الشرك وعبادة الأوثان ؛ لما لقول الزور من أسوأ الأثر فى إثارة العداوات ، وغرس الأحقاد ، وتفجيت الجماعات .

وفى الصحيحين عن أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبهكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»^(١٠) .

وأخرج الإمام أحمد فى المسند ، عن خريم بن فاتك الأسدى قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح فلما انصرف قام قائما ، فقال : «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله عز وجل» ثم تلا هذه الآية : فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ^(١١) .

٣١ - حَقَّاهُ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ لِيِ

مَكَانٍ سَجِيقٍ .

أى : فاجتنبوا فى إسلامكم ما نهيتكم عنه من عبادة الأوثان ، وقول الزور ، فى حال كونكم مائلين عن كل دين زائف ، وغير مشركين به سبحانه شيئا من الأشياء ، فكل ما سواه فهو مخلوق له فلا يصح أن يعبد معه .

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ .

هذا مثل ضربه الله للمشرك يبين ضلاله وضياعه وهلاكه ، وبعده عن الهدى : فالمشرك بمنزلة من سقط من السماء فتمزق إربا إربا ؛ وتنشرت أشلاؤه ؛ وتناولت الطير أجزائه ؛ فلم تبق له أثرا .

أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ .

أو تشبه حال من عصفت به الريح في مكان بعيد ، فكان من الهالكين ، وفي كلا التشبيهين تبيّن للكافر من النجاة : حيث لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الهلاك ، الذي ينزله الله به في الآخرة .

٣٢- ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

ذَلِكَ . أى : ذلك ما أوضحه الله لكم من الأحكام والأمثال .

وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَتِرَ اللَّهِ . وهى المواشى التى تذبح هدية للحرم ؛ بأن يختارها جسيمة سميّة غالية الثمن . وشعائر الله تطلق على أحكام الدين ، وأوامره ونواهيه ، كما تطلق على مناسك الحج ، وكذلك تطلق على الأضاحى والهدايا .

فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . أى : فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله .

قال القرطبي :

أضاف التقوى إلى القلوب ؛ لأن حقيقة التقوى فى القلب ، وفى الحديث «التقوى هاهنا»^(١) وأشار ﷺ إلى صدره .

قال ابن العربى : فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ . الضمير يعود إلى البدن .

من الآثار

روى أنه ﷺ أهدى مائة بدنة ، فيها جمل لأبى جهل فى أنفه حلقة من ذهب .

وروى الإمام أحمد وأبو داود : عن عبد الله بن عمر قال : أهدى عمر نجيباً ، فأعطى بها ثلاث مائة دينار : فأثنى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى أهديت نجيباً ، فأعطيت بها ثلاث مائة دينار ، فأبغبعها - سترى بغمناها بدناً ؟ قال : « لا ، انحرها إياها »^(٢) .

وكان ابن عمر يسوق البدن مجلّة بالقباطى - ثياب مصرية غالية الثمن - فيتصدق بلحومها وجلالها .

٣٣- لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

لكم في هذه الإبل والبقرة والغنم وسائر الهدايا ، منافع دنيوية من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها ويركوبها .

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى .

إلى أن تنحر ويتصدق بلحومها ويؤكل منها .

ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

أي : ثم مكان حل نحرها عند البيت الحرام ، أي : الحرام جميعه : إذ الحرم كله في حكم البيت الحرام .

أخرج البخاري في تاريخه ، والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن جرير الطبري وغيرهم ، عن ابن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سماه الله البيت العتيق ، لأنه أعتقه من الجبابة فلم يظهر عليه جبار قطه»^(٢٤) .

والى هذا ذهب قتادة ، وقد قصده تبع ليهدمه فأصابه الفالج : فأشير عليه أن يكف عنه ، وقيل : إن له ربا يمنعه فتركه ، وهو أول من كساه ، وقصده أبرهة فأصابه ما أصابه .

★ ★ ★

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِلَٰهًا وَحَدًّا فَلَهُ اسْلُمُوا وَيُنْشِرَ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾

المفردات :

الأمم : الجماعة على مذهب واحد .

المنسك : بكسر السين وفتحها ، والنسك في الأصل العبادة مطلقا ، وشاع استعماله في أعمال الحج ،

والمراد به هنا : الذبح وإراقة اسماء على وجه التقرب إليه تعالى .

اسلموا ، انقادوا له .

المخبتين : المطيعين الخاشعين المتواضعين .

وجعلت ، خافت .

ما أصابهم : من البلى .

والمقيمين الصلاة ، فى أوقاتها .

يتصدقون ، يتصدقون .

تمهيد :

تفيد الآيات أن لكل أمة مناسك وذبائح ، تذكر بالله حين ذبحها ، والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر ، فالإله واحد ، والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح ، ويعتد أمر رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله ، الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم ، بجنت من تحتها الأنهار .

التفسير :

٣٤- وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لَّذِكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ .

أى : لكل أمة من الأمم من عهد إبراهيم إلى الآن ؛ ولكل دين من الأديان السابقة ، جعلنا لأهله ذبحا يذبحونه تقربا إلى الله تعالى ، وذلك ليس خاصا بأمة محمد ﷺ ؛ وإنما هو فى كل الملل . والصحيح كما قال ابن العربى : أن المنسك ما يرجع إلى العبادة والتقرب . أى : جعلنا لأهل كل دى دين منسكا وسبيلا وطريقا فى العبادة والتقرب إلى الله تعالى .

لَّذِكْرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَةٍ الْأَنْعَامِ .

أى : شرعنا لهم سنة ذبح الأنعام ؛ لكى يذكروا اسم الله حين الشروع فى ذبحها ؛ ويشكروه على نعمه التى أنعم بها عليهم ، وينبغى أن يكون الذبح خالصا لوجهه تعالى .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل .

روى الإمام أحمد وابن ماجه ، عن زيد بن أرقم قال : قلت : يا رسول الله ، ما هذه الأضاحى ؟ قال : «سنة أبيكم إبراهيم ، قالوا : ما لنا منها ؟ قال : بكل شعرة حسنة» (٥٥) .

وفى الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ووضع رجله على صفائحهما (٥٦) .

فَإِلَهُكُمْ إِلَهَةٌ وَاحِدَةٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ .

فريقكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد في ذاته، وفي ألوهيته، فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه، وانقادوا له في جميع ما كلفكم به .

وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . أى : بَشِّرِ المتواضعين المطيعين بجنات النعيم .

٣٥- الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

تصيف الآية المخبتين بأربع صفات وهى :

١ - وجل قلوبهم وخوفها وخشيتها عند ذكر الله .

٢ - الصبر على المصائب وعدم الهلع أو الجزع .

٣ - إقامة الصلاة وأداؤها تامة الأركان فى أوقاتها مستكملة الخشوع والخضوع .

٤ - أداء الزكاة والعطف على الفقراء والمساكين .

★ ★ ★

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعْتِكُمْ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ النُّقُورُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ
سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

المفردات :

البَدَنُ : جمع بَدَنَةٍ (بالتحريك) وأصل الجمع (بَدَن) بضم الباء والدال ، ثم خفف بتسكين وسطه ، وهى الإبل ، وكذا البقر كما قيل ، وتطلق على الذكر والأنثى .

شعائر الله : جمع شعيرة ، أى : علامة ، فالبدن من علامات دين الله فى الحج .

صَوَافٍ : أى : قوائم قد صفقن أيديهن وأرجلهن استعداداً لنحرها .

وجبت جنوبها : سقطت على الأرض ، ويراد بذلك : زهقت أرواحها وفقدت الحركة .

القنائع : الراضى بما عنده وبما يعطى من غير مسألة ، وفعله من باب فَرَح يَفْرَحُ ، ومصدره القناعة .

والمعتر: المتعرض للسؤال .

سخرناها لكم : ذللناها ومكناكم منها .

المحسنين : المخلصين .

تمهيد :

بعد أن حث سبحانه على التقرب بالأنعام كلها ، خص من بينها الإبل : لأنها أعظمها خلقاً ، وأكثرها نفعاً ، وأنفسها قيمة .

التفسير :

٣٦- وَالَّذِينَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرٍ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً ... الآية

يتمنُّ الله سبحانه وتعالى على عباده بتسخير الجمال والنياق لهم : فهي مع بدانتها وقوتها ، قد ذلها الله لنا وسخرها لنا : فركبها ونأكل لحمها ، ونشرب لبنها ، ونذبحها فلا تفر ولا تمتنع : مع أن بعض الوحوش أقل منها حجماً وقوة ، ولم يذل للإنسان ، وإذا جمح البعير ونذ استعصى على الأدمى ، وهي حين تُساق إلى البيت الحرام ، لتذبح في الحرم من شعائر الله ، ومعالم الدين والنسك : حيث تساق قربانا لله تعالى ، وتذبح عند البيت الحرام في منى ومكة : وفي الحديث الشريف : «فجاج مكة كلها منحـر» .

لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ .

جملة من المنافع الدينية والدنيوية : فأنتم تركبون عليها ، وتحملون عليها أمتعتكم ، وتشربون ألبانها ، وتأكلون لحومها ، وتقدمونها للهدى أو الأضحية أو التقرب إلى الله تعالى ، فلكم فيها طائفة من المنافع الدنيوية والدنيوية .

فَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً .

أى : عند إرادة الذبح يقول الذابح : باسم الله ، الله أكبر ، وبهذا يجمع بين التسمية والتكبير ، ويكون النحر للإبل وهي قائمة ، قد صفن أيديهن وأرجلهن ، وتعقل إحدى يديها : ليسهل وقوعها على الأرض بعد ذبحها .

وقرئ : صواف . أى : قائمات على ثلاث وتعقل إحدى يديها ، وعقل إحدى يديها سئة : فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما ، عن ابن عباس : أنه رأى رجلاً قد أناخ بدنته وهو ينحرها : فقال : ابعتها قياماً مقيدة ، سنة رسول الله ﷺ^(٥٧) .

فَإِذَا سَقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَزَهَقَتْ أَرْوَاحُهَا ؛ فَأَتَمُّوا سَلْخَهَا وَتَقَطُّعِهَا ، وَيَبَاحُ لَكُمْ الْأَكْلُ مِنْهَا وَإِطْعَامُ

الْفُقَرَاءَ الْقَانِعِينَ ، الَّذِينَ يُمْكِنُ فِي بُيُوتِهِمْ بَدُونُ سَوَالٍ ، وَالْمَتَعَرِّضِينَ لَكُمْ بِالسَّوَالِ ؛ سَوَاءٌ طَلَبُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ ، أَوْ بِالْمَرُورِ عَلَيْكُمْ صَامِتِينَ لِنُطْعَمِهِمْ مِنْ لَحْمِهَا .

وَالْأَكْلُ مِنَ الْهَدَايَا مَبَاحٌ أَوْ مَنُودٌ ، أَمَّا إِطْعَامُ الْفُقَرَاءِ فَوَاجِبٌ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ؛ حَيْثُ أَوْجِبَ إِطْعَامُ الْفُقَرَاءِ مِنَ الْهَدْيِ ؛ وَزَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ إِلَى أَنَّ الْإِطْعَامَ مَنُودٌ ؛ لِأَنَّهُ دِمَاءُ نَسَكٍ ، فَتَتَحَقَّقُ الْقَرِيبَةُ مِنْهَا بِإِرَاقَةِ الدَّمِ ، أَمَّا إِطْعَامُ الْفُقَرَاءِ فَهُوَ بَاقٍ عَلَى حُكْمِهِ الْعَامِ وَهُوَ النَّدْبُ .

كَذَلِكَ سَخَّرَ اللَّهُ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

هكذا سخّرناها لكم ولذلّناها لكم : لتستفيدوا منها بالركوب والحب والأكل ، والهدى والتقرب بها إلى الله تعالى ؛ لتشكروا إنعامنا عليكم ، بالتقرب والإخلاص في أعمالكم .

٣٧- لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ اتَّقْوَىٰ مِثْكُمْ ... الآية

أى : إنما شرع الله لكم نحر هذه الهدايا والضحايا ؛ لتذكروه عند ذبحها ، ولن يصل إليه شيء من لحومها ولا من دمائها ، ولكن يصله التقوى والإخلاص ، وترفع إليه الأعمال الصالحة .

قال ابن عباس :

كان أهل الجاهلية يضرجون البيت بدماء البدن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ؛ فنزلت الآية : لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا ...

أى : إنه تعالى ليس له حاجة إلى لحومها ودمائها ؛ حتى تضرجوا بها بيته ؛ ولكن يناله التقوى منكم في كل أعمالكم ، ومنها إطعام المساكين من لحومها وقد حث النبي ﷺ على الإخلاص في الأعمال والقربات ، كما جاء في حديث مسلم : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٥٨) .

كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ .

أى : مثل هذا التسخير العجيب سخرها لك ، وجعلها منقادة خاضعة ، فلا تستعصى عليكم مع ضخامتها .

لِتَكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ .

لكي تكبروا الله وتعظموه وتقصدوه ؛ بسبب هدايتكم للإيمان .

وقيل : لتكبروا الله عند الذبح ، وقد أمروا بالتسمية في قوله تعالى : فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوًّآفٌ .

وكان ابن عمر يجمع بينهما إذا نحر هديه فيقول : باسم الله والله أكبر .

وفى الحديث الصحيح ، عن أنس قال : ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين ^(١٩) أقرنين ، ورأيته

يذبحهما بيديه ، ورأيته واضعا قدمه على صفاهما ^(٢٠) وسمى وكبر .

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ .

المخلصين في أعمالهم بالقيام بها كما شرع الله تعالى من غير من ولا أذى ، وعن ابن عباس : هم

الموحدون .

قال صاحب الظلال :

وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ .

الذين يحسنون التصور ، يحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله في كل نشاط

الحياة ، وهكذا لا يخطئ المسلم خطوة ، ولا يتحرك حركة ، إلا وهو ينظر فيها إلى الله ويجيش قلبه فيها بتقواه ،

ويتطلع إلى وجهه ورضاه ؛ فإذا الحياة كلها عبادة ، تتحقق بها إرادة الله ، من خلق العباد ، وتصلح بها

الحياة في الأرض ، وهي موصولة السبب بالسماء .

ملحق بتفسير الآيتين ٣٦ ، ٣٧ الحج

البدنة مفرد البَدَن :

والبَدَنُ : تطلق في رأى أبى حنيفة وآخرين من الصحابة والتابعين على الإبل والبقر ، روى مسلم ، عن

جابر رضى الله عنه أنه قال : كنّا ننحر البدنة عن سبعة ، فقيل : والبقرة ؟ قال : وهل هى إلا من البَدَن . وقال

ابن عمر رضى الله عنهما : لا نعلم البَدَن إلا من الإبل والبقر .

ومذهب الشافعية : أنه لا تطلق البدن في الحقيقة إلا على الإبل ، وإطلاقها على البقر مجاز ، فلو نذر

بدنة لا تجزئته بقرة . وبدليل قوله تعالى : (صَوَّآفٌ) و (وَجِئَتْ جُبْرُهَا) . فنحر الحيوان قائما لم يعمد إلا فى

الإبل خاصة . ويؤيده ما رواه أبو داود وغيره ، عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «البدنة

عن سبعة ، والبقرة عن سبعة» ^(٢١) .

فإن العطف يقتضى المغايرة ، وأمّا قولاً جابر وابن عمر المتقدمان ؛ فيحملان على أنهما أرادا اتحاد الحكم فيهما ، وهذا هو الظاهر والأصح لغة .

وجاء فى تفسير القرطبي ما خلاصته :

تطلق البدنة على الإبل والبقر ، وفق ما قاله جمهور العلماء من أن البدنة تجزئ عن سبعة ، والبقرة تجزئ عن سبعة ؛ لذلك جعلنا فى الشريعة جنسا واحداً ؛ لتساويهما فى الإجزاء عن عدد متحد ، فضلاً عن تساويهما تقريبا فى البدانة .

وقيل : إن البدن خاص بالإبل ، بدليل الحديث الصحيح فى يوم الجمعة : «من راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ؛ ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ...» (١٧) الحديث .

فتفرقه عليه الصلاة والسلام ، بين البدنة والبقرة ؛ يدل على أن البقرة لا يقال عنها بدنة ؛ وإن كانت تكفى مطلقاً عن سبعة ، وأيضاً قوله تعالى : فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا . يدل على ذلك ؛ فإن هذا الوصف خاص بالإبل؛ أما البقر فتضجع وتذبح كالغنم .

★ ★ ★

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٢٨) أَذُنٌ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صُمُوعٌ وَيُبِيعَ وَصَلَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ﴿٣١﴾

المضردات :

خَوَّانٌ كَفُورٌ : الخوان : الكثير الخيانة ، والكفور : الشديد الكفر .

أذُنٌ : رُخْصٌ .

بأنهم ظلموا : بسبب كونهم مظلومين ، بظلم الكافرين إياهم . ذكر الجمل فى حاشيته أن هذه أول آية نزلت فى الجهاد ، بعدما نهى عنه فى نيف وسبعين آية .

الذين أخرجوا من ديارهم ، يعنى مكة .

بغير حق ، بغير موجب فى الإخراج .

إلا أن يقولوا ، أى يقولهم .

ربنا الله ، وحده . وهذا القول حق ، فالإخراج به إخراج بغير حق .

الصوامع : جمع صومعة ، وهى معبد خاص برهبان النصارى فى الصحراء .

الدير والبهيح : جمع بيعة بزنة جرقة ، وهى متعبد النصارى عامة .

وصلوات : جمع صلاة ، وهى كنيسة اليهود ، وأطلق عليها صلاة ، لأنهم يصلون فيها ، وصلواتا بالعبرية : معبد اليهود .

مساجد : واحدها مسجد وهو معبد المسلمين .

ولله عاقبة الأمور : أى : له تعالى مرجعها تدبيراً وحكماً .

سبب النزول :

إِنَّ اللَّهَ يَدْعُ...

روى أنها نزلت بسبب المؤمنين لما كثروا بمكة ، وأذاهم الكفار ، وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة ، أراد بعض مؤمنى مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ، ويغتال ويغدر ويحتال ، فنزلت هذه الآية .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ...

أخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، والنسائى ، والحاكم وصححه ، وابن سعد ، عن ابن عباس قال : خرج النبى ﷺ من مكة ، فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ، إنا لله وإنا إليه راجعون ! ليهلكن ، فأنزل الله : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

تمهيد :

فى آيات سابقة تحدث القرآن عن الحج ، فهو نُسك من أيام إبراهيم الخليل ، بيد أن قريشا عذبت المسلمين واضطرتهم للهجرة إلى الحبشة مرتين ، وإلى المدينة ، ومنعتهم من أداء عمرة الحديبية ، فنزلت هذه الآيات تندد بالمشركون ، وتأذن للمسلمين فى الدفاع عن أنفسهم ، وهو حق كفلته الأعراف الدولية ، والقوانين الدولية ، وتعتبر الآيات قاعدة عامة لمشروعية القتال الدفاعى ، وإن نزلت بسبب خاص .

التفسير :

٣٨ - إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ .

تكفل الله بحماية المؤمنين ورعايتهم ، فهو سبحانه يدفع عن عباده الذين توكّلوا عليه ، وأطاعوا أمره ، وأناّبوا إليه - شر الأشرار وكيد الفجار ، ويكلّوهم وينصرهم على أعدائهم ، ويكتب لهم الفلاح والنصر .

قال تعالى : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

وقال تعالى : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ .

لقد تأذن الله بالدفاع عن المؤمنين ، بسبب خيانة كفار مكة للأمانة ، وكفرهم بالله ، وصدّهم المسلمين عن المسجد الحرام في عمرة الحديبية ، مع أن هذا بيت الله ، وقد دعا إبراهيم الناس إلى الحج ، فلما جاء المسلمون محرمين بالعمرة ، صدّهم المشركون ظلماً وعدواناً ، فأعلن الله غضبه على الكافرين ، وحبّه ودفاعه عن المؤمنين .

والظاهر أن الآية وعد وبشارة للمؤمنين بنصر الله لهم ، وتمكينهم من عدوهم ، وتهديد للمشركين بقهرهم وخذلانهم ، وفيها تهديد وتوطئة لمشروعية الجهاد .

٣٩ - أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ هَلُمُّوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

رخص الله للمؤمنين المعتدى عليهم ، بالقتال دفاعاً عن أنفسهم ، ومحاربة للظالمين ، وانتصاراً للحق ، وتحملاً للمكاره في سبيل الله ، وفي رأى كثير من المفسرين أن هذه أول آية في القرآن نزلت تأذن بالجهاد ، بعدما نهى الله عن القتال في نيف وسبعين آية ، والقتال في الإسلام لم يكن للبغي ، ولا للعدوان ، ولم يكن من أجل مطامع الدنيا ، بل كان لعدة أسباب منها :

١ - إزالة طواغيت الكفر من وجه الدعوة ، حتى يكون الناس أحراراً ، في اعتناق ما يشاءون .

٢ - الدفاع عن النفس ، وردّ العدوان ، وحماية المستضعفين . قال تعالى : وَلَمَنْ آتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ

فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ • إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الشورى : ٤١ ، ٤٢) .

وقال عز شأنه : وَمَا لَكُمْ لَا تُقْبِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أُهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا . (النساء : ٧٥) .

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يؤذون في مكة أذى شديداً ، ويأتون إليه بين مضروب ومشجوج في رأسه ، ويتظلمون إليه فيقول لهم : صبراً صبراً ، فإنى لم أؤذن بالقتال ، حتى هاجر إلى المدينة وأنزل الله هذه الآية ، وفيها إذن بالجهاد ، ووعده بالنصر .

وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ .

أى : إن الله قادر على نصر المؤمنين ، وهزيمة الكافرين ، وقد أنجز الله وعده ، فكان النصر حليف المؤمنين فى معظم غزواتهم ، واستمر الجهاد يحقق البطولات ، ويؤيد الحق ، ويدحض الظلم ، ودخل المسلمون مع نبيهم فى ٥٢ غزوة وسرية ، أدت إلى انتصار الإسلام فى شبه جزيرة العرب ، وتتابع الجهاد فى حروب الردة ، وفى فتوحات العراق والشام ومصر وغيرها من البلاد ، وقد حقق الله وعده ، ونصر جنده .

وَمَا أَتَيْنُهُمْ إِلَّا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (آل عمران : ١٢٦) .

٤ - الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسَاجِدُ .

قال ابن عباس :

الَّذِينَ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ . أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ، يعنى : محمداً وأصحابه .
إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ .

قال ابن كثير :

ما كان لهم إساءة ولا ذنب ، إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ، كما قال تعالى : يُخْرِجُونَ الرُّسُلَ وَإِنَّا لَهُمْ بِآلِهِ رَبِّكُمْ . (المتحنة : ١) .

وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . (البروج : ٨) .

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصُلُوتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .

خلق الله الإنسان بيده ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة وزوجه حواء ، وأودع في الإنسان الصفات والإمكانات ، والاختيار والإرادة ، ما يجعله سيّد قراره ، فهو يختار الهدى بإرادته ، أو يختار الضلال بإرادته ، وشاء الله أن تكون لهذه الحياة الدنيا نواميس وسنن كونية ، ومن هذه النواميس صراع قوى الخير مع قوى الشر ، وقد تغلب الشرُ حيناً ، لكن العاقبة للمتقين ، من أجل ذلك أنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل ، وشرع الجهاد والنضال ، لإيقاف البغى والعدوان ، وكأنَّ القرآن يحثُ المؤمنين على الجهاد والنضال ، فقد جرت العادة أنه لا يدفع الشر إلا بمثله ، والبادئ أظلم ، يقول شوقي :

والشر إن تسلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تسلقه بالشر ينحسم
ويقول الآخر :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بؤاء رخمى صفوه أن يكدرأ
فوضع الندى في موضع السيف بالعلأ مضر كوضع السيف في موضع الندى

فلولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين ، من قتال الأعداء ، لهُدِّمت معابدهم ، واستبيحت حرماهم ، ومن هذه المعابد ما يأتي :

الصوامع : جمع صومعة ، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصارى ، وعباد الصابئة ، والمراد بها هنا : متعبد الرهبان .

البيع : جمع بيعة بوزن كسرة ، وهى مُصلًى النصارى جميعاً .

الصلوات : جمع صلاة ، وهى كنيسة اليهود .

المساجد : جمع مسجد ، وأكثر ما يطلق على مصلًى المسلمين .

وقيل : المعنى لولا هذا الدفع لهُدِّمت فى زمن موسى الكنائس ، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفى زمن محمد ﷺ المساجد .

يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا .

قيل : الضمير راجع إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات .

وقال الضحاك : الجميع يذكر فيها الله كثيراً .

وقال الطبرى :

الصواب لهُدِّمت صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود - وهى كنائسهم - ومساجد المسلمين ، التى يذكر فيها اسم الله كثيراً ، لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب .

وَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

إن الله تعالى تكفل بالنصر لمن نصر دينه وشريعته .

قال تعالى : إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً ، ويعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور ، وعدوه هو المقهور .

قال الله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

جاء في تفسير المراعي :

وَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .

أي : وليعين الله من يقاتل في سبيله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ولقد أنجز الله وعده ونصر المسلمين على صناديد قريش ، وأكاسرة العجم ، وقياصرة الروم ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

ونحو الآية قوله تعالى : يَلِكُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَصْرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَلِهِمْ . (محمد : ٧ ، ٨) .

٤١ - الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

تفيد الآيات ٣٨ - ٤١ مشروعية الجهاد ، والإنذار به من الله تعالى للدفاع عن الحرمات ، وإزالة طواغيت الكفر ، والحفاظ على الإيمان وأهله ، فإن من سذن الله أن يدفع ظلم الظالمين ، بجهاد المؤمنين ، ولولا ذلك لاشتد طغيان الكافرين وهذمو دور العبادة ومعابدها ، وقد تكفل الله بنصر المؤمنين ، وإكرام المجاهدين .

ثم تعدد الآية ٤١ من سورة الحج صفات هؤلاء المؤمنين الذين يستحقون نصر الله تعالى ، وهي :

١ - إقام الصلاة والمحافظة عليها بخشوعها وأركانها في أوقاتها .

- ٢ - إيتاء الزكاة ، ومساعدة المحتاجين وتحقيق التكافل والتراحم .
 ٣ - الأمر بالمعروف ، والحث على الخير والصالح وطاعة الله تعالى .
 ٤ - النهي عن المنكر ، والتحذير من الشر والفساد والمنكرات ومعصية الله .

وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

أى : له سبحانه ما تنول إليه أمور الناس من عز وذل ، وفقر وغنى ، وعلو وانحطاط ، قال تعالى : قُلْ
 اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ مُنَى الْمُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

من تفسير مقاتل بن سليمان :

وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ .

يقول : لولا أن يدفع الله المشركين بالمسلمين لغلب المشركون فقتلوا المسلمين .

لَهُمْ تِلْكَ . يقول : لخربت صوامعُ . الرهبان ، وبيعُ . النصارى ، وصلواتُ . اليهود ، ومساجدُ . المسلمين .

يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا : كل هؤلاء الملل يذكرون الله كثيرا في مساجدهم ، فدفع الله عز وجل
 بالمسلمين عن هذه الملل ، وَتَبَصَّرَنَّ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِ مَنْ يَنْصُرُهُ . من يوحده ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ فِي نَصْرِ أَوْلِيَائِهِ
 عَزِيزٌ . يعنى : منيع فى ملكه وسلطانه ، نظيرها فى الحديد : وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَنَعْلَمُ
 اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ... (الحديد : ٢٥) . يعنى من يوحده . ونظيرها فى الأحزاب^(٣٦) ، وهود^(٣٧) .

الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ .

يعنى : أرض المدينة ، وهم المؤمنون بعد القهر بمكة ، ثم أخبر عنهم فقال تعالى :

أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ .

يعنى : التوحيد الذى يعرف ، وَلَهُمْ عَنِ الْمُكْرَمِ . الذى لا يعرف وهو الشرك .

وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

يعنى : عاقبة أمر العباد إليه فى الآخرة^(٣٨) .

من تفسير القرطبي

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ .

أى : لولا ما شرعه الله تعالى ، للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء ، لاستولى أهل الشرك ، وعطلوا ما بناه أهل الديانات ، من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب الجهاد ، ليفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم فى الأمم ، وبه صلحت الشرائع ، واجتمعت المتعبدات ، فكانه قال : أذن فى القتال ، فليقاتل المؤمنون ، ثم قوى هذا الأمر فى القتال بقوله :

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ ...

أى : لولا الجهاد والقتال ، لتغلب أهل الباطل على أهل الحق فى كل أمة .

خلاصة المعنى

فى ختام الآيات نرى أن الجهاد فى الإسلام شرع للدفاع عن النفس ، وتمكين أصحاب الديانات جميعها من عبادة الله ، وتكليف المؤمنين بجهاد الكافرين ، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وتمكين الله للمؤمنين فى الأرض ، حتى يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ثم هم ينصرون المعروف ، وينهون عن المنكر ، ويحقون الحق ويبطلون الباطل .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ يَكْذِبْ بَوَكْ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِئُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾

المضردات :

وأصحاب مدين : أهلها ، وهم قوم شعيب .

هَامَاتٍ : أمهات .

أَخَذْتَهُمْ : أهلكتهم .

فكيف كان كبير ، فكيف كان إنكارى عليهم ، وعقابى لهم ؟ والاستفهام بكيف للتعجب ، مما عاقبهم الله به من الهلاك المدمر .

فكأن من قرية أهلكناها ، فكثير من القرى أهلكنا أهلها ، وإيقاع الإهلاك على القرى على سبيل المجاز .

خَاوِيَةً : ساقطة . من خوى النجم : إذا سقط ، أو خالية مع بقاء عروشها وسلامة بنيانها بعدما هلك أهلها ، من خوت الدار ، تخوى ، خَوَاءً : إذا خلت من أهلها ، وخوى البطن من الطعام .

على عروشها : على سقوفها .

مُعْطَاة : عطلت من منافعها لا يستقى منها لهلاك أهلها .

وقصر مشيد : مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشيد ، وهو الجص (الجير) .

تمهيد :

فى آيات سابقة أذن الله للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ، وفى هذه الآيات تسلية للرسول ﷺ ، وتوضيح بأنه ليس بأوحدى فى تكذيب قومه له ، فقد كذبت قبلهم أمم كثيرة ، فاستحقوا العذاب والدمار ، ومن الواجب أن يعتبروا بهم ، ويتعظوا بما أصابهم .

التفسير :

٤٢ - وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادُ وَثَمُودُ .

إذا كذبك أهل مكة فلا تحزن عليهم ، ولا تبخ نفسك حرصاً على تكذيبهم ، فلست وحدك فى هذا المجال ، فكثير من الأمم السابقة كذبت أنبياءها ، بيد أن الله أمهلهم قليلاً ، ثم أنزل بهم العذاب الشديد ، وفى الحديث الصحيح : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ النبي ﷺ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .^(٣٧) (مود: ١٠٢) .

قال صاحب الظلال :

فهى سنة مطردة فى الرسالات كلها ، أن يجيء الرسل بالآيات فيكذب بها المكذبون ، فليس الرسول ﷺ ، بدعا من الرسل حين يكذبه المشركون ، والعاقبة معروفة والسنة مطردة . ا هـ .

وَأَن يَكْذُوبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ .

قال مقاتل بن سليمان : يعزى نبيه محمداً ﷺ ، ليصبر على تكذيبهم إياه .

فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ . يعنى : قبل أهل مكة .

قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ . كل هؤلاء كذبوا رسلكم .

٤٣ - وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ .

كذبوا رسلكم أيضاً .

٤٤ - وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ .

يعنى : قوم شعيب عليه السلام كذبوا نبيهم .

وَكُتَّابٌ مُّوسَى . من فرعون وقومه ، فَأَمَّا نِيتُ لِكُفْرِهِنَّ . أمهلتهم فلم أعجل عليهم بالعقوبة ، لعلهم يرجعون ويثوبون إلى رشدكم .

ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

ثم أحللت بهم عقابى ، وأهلكتهم بعد انتهاء مدة إمهالهم وإملائهم ، عقاباً لهم ، وإنكاراً عليهم ، فكيف كان إنكارى عليهم ؟ لقد حوّلت عمارهم خراباً ، وأهلكتهم عن آخرهم ، فكذلك أفعل بالمكذبين من أهل مكة ، ونحو الآية قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

٤٥ - فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُنُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ .

كأَيِّنْ . اسم يراد به التكاثر ، مثل (كم) الخبرية ، وخواوية : بمعنى ساقطة أو خالية .

ومعنى الآية :

كثير من القرى أهلكناها حين ظلم أهلها ، فخلت منهم الديار ، وصارت خاوية خالية بلا جليس ولا أنيس . وكم من بئر معطلة لا تجد من يستقى منها لهلاك أهلها ، وكم من قصر مرفوع البنيان ، أو مبنى بالشيد - وهو الجص - أهلكنا أهله فصار خاويًا لا يجد من يعمره .

٤٦ - أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .

أفلم يسافر أهل مكة في البلاد ، ليشاهدوا مصارع الكفار ، فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار ، وقد كانت قبيلة عاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة ، وكانت قبيلة ثمود في شمال الجزيرة بين الحجاز والشام ، وكانوا يمرّون على هذه القرى في رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف ، لكنه مرور الغافلين ، وهنا يفتح عيونهم ويرشداهم إلى التعقل والتدبر ، أي : هلا تدبر قلوبهم وعقولهم ما أصاب هذه الأمم ، وهلا وعت أسماعهم أحاديث هلاكهم ، إن القلب الواعي يعتبر ، أما القلب الذي أصابه العمى ، فلم يبصر الحقائق ، ولم يتدبر ولم يتعظ بغيره ، فلا أمل فيه .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .

ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة ، فمن كان أعمى القلب ، فلا يعتبر ولا يتدبر مهما كان بصره سليماً .

قال الشاعر :

وإذا كان القلب أعمى عن الرشيد فمأذا تفيد العينا ؟

وفي الحديث الشريف : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ثم تلا قوله تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ... (١٧) (الزمر: ٢٢) .

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ وَكَأَنِّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ۝٤٨﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٤٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِرِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝٥١﴾

المفردات :

الإنذار، التخويف .

سعوا: أصل السعى: الإسراع في المشى، ثم استعمل في الإصلاح والإفساد، يقال: سعى في أمر فلان، إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه .

معاجزين: مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم، فكلما طلبوا إظهار الحق، طلب هؤلاء إبطاله، وأصله من قولهم: عاجزه فأعجزه، إذا سبقه فسبقه .

تمهيد :

كان أهل مكة يستعجلون وقوع العذاب بهم، استهزاء بالنبي ﷺ، ولكن الله لا يعجل لمعجلتهم، فهناك ميعاد من الله لا يخلف، وكمن القرى الظالمة أهلها الله عليها تقوب أو ترجع، حتى إذا بلغوا الحد الأكبر من الكفر، أخذهم الله أخذاً وببلا، ليكون ذلك عبرة للمعتبرين .

ثم أورد القرآن ذلك ببيان وظيفة الرسول ﷺ، وهي الإنذار والتخويف، وقد وعد الله المؤمنين بالمغفرة من الذنوب ودخول دار النعيم، وأوعد المكابرين بنار الجحيم .

التفسير :

٤٧ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

يتعجب القرآن من جرأة هؤلاء الكافرين، فقد خوفهم النبي ﷺ، أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب الأمم السابقة، فظنوا أن العذاب لن ينزل بهم، وقالوا في سخرية واستهزاء: متى ينزل هذا العذاب ؟

وقد جاء هذا المعنى في سورة الأنفال، في قوله تعالى: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَلِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال: ٣٢) .

لقد وعد الله المكذبين بالعذاب ، ووعد الله لا يتخلف ، وَكَأَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ . لكن الله لا يعجل لعجلة هؤلاء الكافرين ، وسيلقون هذا العذاب فى الدنيا والآخرة .

وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

قال ابن عباس ومجاهد : معنى : من الأيام التى خلق فيها السماوات والأرض .

وقال عكرمة : معنى : من أيام الآخرة ، أعلمهم الله إذا استعجلوه بالعذاب فى أيام قصيرة ، أنه يأتهم فى أيام طويلة .

وقال الفراء : هذا وعيد لهم بامتداد عذابهم فى الآخرة .

وقيل : المعنى : وإن يَوْمًا فى الخوف والشدة فى الآخرة ، كألف سنة من سنن الدنيا فيها خوف وشدة ، وقد توسع القرطبى فى نقل الآراء فى تفسير هذه الآية .

والخلاصة :

إن سنة الله لا بد من نفاذها ، ولا بد من إهلاك الظالمين ولو بعد حين ، أمما وأفراداً فى الدنيا والآخرة ، أو عذابهم فى الآخرة فقط ، وإذا تأخر عذاب الآخرة أمداً طويلاً ، فلا يكون فى ذلك إخلال للوعد ، فعشرون يوماً عند ربك كعشرين ألف سنة عندكم .

٤٨ - وَكَأَنَّ مِنْ قَرْنٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ .

تأتى هذه الآية مؤكدة لما جاء فى الآية التى قبلها ، فالله سبحانه وتعالى ، يمهل الظالمين ، ويملى لهم ولا يهملهم ، وكثير من القرى أمهلهم الله أمداً طويلاً ، عليهم يثوبون إلى رشدهم ، أو تتفتح بصائرهم ، حتى إذا آمنوا مكر الله ، واستخفوا بعذابه أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وإلى الله تعالى وحده مرجع جميع الناس ، وإليه مصيرهم ، وحكمه نافذ فيهم حين ينادى يوم القيامة : لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر: ١٦) .

٤٩ - قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُدِيرُ الشُّيُوءَ .

أخبر أيها الرسول قومك أن مهمتك هى تبليغ الرسالة إليهم ، وتحذيرهم من عقاب ربهم ، وليس من مهمة الرسول تحديد العذاب ، الذى يصيب المكذبين ، فذلك إلى الله وحده .

ومهمة الرسول تقتصر على البلاغ ، ويتفرع عن ذلك تبشير المؤمنين بالجنة ، وتحذير الكافرين من النار .

٥٠ - فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

فالذين آمنوا بإيماناً صادقاً بقلوبهم ، ثم أثمر الإيمان فقدموا الأعمال الصالحة فى دنياهم ، هؤلاء يشملهم الله بستره ومغفرته فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة رِزْقٌ كَرِيمٌ . فى جنات النعيم .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

وروى الشيخان وأحمد والترمذى وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» (٢٨) .

٥١ - وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْٓ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

والذين سعوا فى إبطال آياتنا ، فسَمَوْها مرة سحرا ومرة شعرا ومرة كهانة ، حال كونهم مسابقين المؤمنين ، يريدون أن يصدوا الناس عن دعوة محمد ﷺ ، ظننا منهم أنهم يعجزوننا ، ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم ، وأننا لا نقدر عليهم ، فهم أهل النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها ، المقيمون فيها على الدوام كأنهم أصحابها كما قال تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَنْهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ . (النحل : ٨٨) .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ٥٢ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٣ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٤ أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٥٥ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥٦﴾

المضردات :

الرسول ، من جاء بشرع جديد أنزله الله عليه ، وأيده بمعجزة تؤيد رسالته .
النبي ، صاحب معجزة تؤيد نبوته ، وقد أمره الله أن يدعو الناس إلى شريعة من قبله ، ولم ينزل الله عليه كتابا بشرع جديد ، فالرسول صاحب شرع ، والنبي حافظ شرع .
تمنى ، لها عدة معانٍ ، منها : أراد ، وقرأ .

ينسخ ، يزيل ويبطل .

يحكم ، يحفظها من التأثير بوساوس الشيطان ، ويجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .

فتنة ، اختباراً وامتحاناً .

مرض ، نفاق أو شك أو قلق .

القاسية قلوبهم ، الكفار المجاهرون بالكفر .

شقاق بعيد ، عداوة شديدة .

فخبت ، تذل وتخضع .

مريية ، شك .

بغتة ، فجأة .

الساعة ، الموت .

يوم عقيم : منفرد عن سائر الأيام ، لا مثيل له في شدته ، والمراد به : الحرب الضروس .

الملك ، التصرف والسلطان .

يحكم بينهم : يقضى بين فريقى المؤمنين والكافرين .

مسكين : مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

تهديد :

تأتى هذه الآيات مواساة للنبي ﷺ من ضلال قومه ، ويعددهم عن الحق ، واتباعهم للشيطان ، وخلصه معناها ما يأتى :

لا تحزن أيها النبي من محاولات هؤلاء الكفار ، فقد جرت الحوادث من قبلك مع كل رسول من رسلنا ، ونبي من أنبيائنا ، أنه كلما قرأ عليهم شيئاً يدعوهم به إلى الحق ، تصدى له شياطين الإنس المتمردون ، لإبطال دعوته ، وتشكيك الناس فيما يتلوه عليهم ، لكى يحولوا بين النبي وبين أمنيته فى إجابة دعوته ، فيزيل الله ما يدبرون ، ثم تكون الغلبة فى النهاية للحق ، حيث يثبت الله شريعته ، وينصر رسوله ، وهو علم بأحوال الناس ومكائدهم ، حكيم فى أفعاله ، وإنما مكن الله المتمردين على الحق من إلقاء الشبه والعراقيل ، فى سبيل الدعوة ، ليكون فى ذلك امتحان واختبار للناس ، فالكفار الذين تحجرت قلوبهم ، والمنافقون ومرضى القلوب ، يزدادون ضلالاً ، بترويج هذه الشبه ومناصرتها ، وليزداد الذين أوتوا علم الشرع والإيمان به ، إيماناً وعلماً ، بأن ما يقوله الرسل والأنبياء إنما هو الحق المنزل من عند الله تعالى .

التفسير :

٥٢ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

كان عليه الصلاة والسلام حريصاً على هداية قومه ، حزيناً من إعراضهم عن الرسالة والدعوة ، وكان إذا قرأ القرآن الكريم ، تصدى المنافقون ، وشياطين الإنس يؤولونه تأويلاً بعيداً ، ويلصقون التهم بالقرآن ، فيقولون إنه سحر وشعر وكهانة ، وأساطير الأولين ، والرسول بشر يمتنى لو اتسع نطاق الدعوة ، وكثر المؤمنون ، وربما دخل عليه الشيطان من هذا الباب .

روى البخارى عن ابن عباس فى ذلك : إذا حدث - أى : النبي - ألقى الشيطان فى حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان .

والمعنى : أن النبي ﷺ كان إذا حدث نفسه ، ألقى الشيطان في حديثه على جهة الحيلة ، فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغفرك ليتسع المسلمون . ويعلم الله عز وجل أن الصلاح في غير ذلك ، فيبطل ما يلقي الشيطان ، أى : أن المراد حديث النفس .

قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأعله وأجله .

رأيان في تفسير الآية

الأول :

تأويل تمنى بمعنى قرأ ، وأُمنيته : بمعنى قراءته ، ويدل على استعمال التمنى بمعنى القراءة ، قول حسان بن ثابت في عثمان بن عفان بعد قتله :

تمنى كتاب أول ليلة وآخرها لاقى حِمام المقادر

أى : قرأ كتاب الله في أول الليلة ، وفي آخرها قتله الشائرون عليه .

ويكون معنى الآية :

وما أرسلنا قبلك يا محمد - رسولاً ولا نبياً - إلا إذا قرأ وتلا كلام الله ، ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته ، بعض الأقاويل والأباطيل ، والشبه والتخيلات على أولياته ، ليجادلوه بالباطل ويردوا ما جاء به ، تعجيزاً لمسيرة دعوته ، قال تعالى : **وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُوحُونَ إِيَّاهُ لَكَاذِبٌ** (الأنعام : ١٢١) .

فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ .

فيزيل الله ما وسوس به الشيطان ، من الكلمات والخرافات والأباطيل ، التى تعلق بها بعض الكفار ، ثم يجعل آياته محكمة محصنة مثبتة ، لاتقبل التشويه والتزييف ، أو الزيادة والنقصان .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

وهو عليم بكل شيء ، له الحكمة التامة والحجة البالغة ، فيجازى المفتري بافترائه ، ويظهر الحق للمؤمنين .

ومن حكمة الله تمكين الشيطان من إلقاء الشبهات ، ليحاج أوليائه بها ، فيتمكن المؤمنون من ردها ، ودهض المفتريات التى يتشددون بها ، ويرجع الحق إلى نصابه ، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء من بين تلك الظلمات^(٣٩) .

الرأى الثاني :

تفسير التمنى بمعنى الرغبة والإرادة .

ويكون معنى الآية :

وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبيٍّ ، إلا إذا تمنى ، وأراد هداية قومه إلى الحق ، ألقى الشيطان فيما تمناه ، الشُّبه فى نفوس قومه ، ليصدهم عن سبيله ، ثم يبطل الله ما يلقى الشيطان من الشُّبه ، فى نفوس الناس ، ثم يحكم الله آياته ، ويحميها ويمنعها من أباطيل المبطلين .

وخلاصة المعنى :

إن الصراع بين الحق والباطل أمر قديم ، عرفه الأنبياء والمرسلون قبلك يا محمد ، وإن الأمر ينتهى بنصر الحق على الباطل ، بتدبير الله وحكمته ، فلا تجزع يا محمد مما يأتى به شياطين قومك من السعى بالباطل ، فى آيات الله معاجزين ، بتسويل الشيطان الرجيم ، أولئك أصحاب الجحيم وأباطيلهم إلى زوال^(٧٠) .

من تفسير المراغى

قال الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى :

هذا وقد دس بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنة الصحيحة ، وأصول الدين تكذيبها ، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ، وأنها ليست من الحق فى شيء . اهـ .
وخلاصة هذه الآراء المفتراة :

أن النبى ﷺ عندما قرأ سورة النجم وفيها هذه الآيات : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّيْلَ وَالنَّجْمَ * وَمَنْزِلَةَ الْغَائِيَةِ الْأُخْرَى * أَلَمْ يَكُنْ اللَّذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . (النجم : ١٩ - ٢١) .

ألقى الشيطان عندها كلمات ، فقال : وإنهن لهن الغرائيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة ، وانطلقت بها ألسنتهم ، واستبشروا بها ، ثم نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظ القرآن من الغرية .

وقال : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

وقد تصدى المفسرون والعلماء لبيان بطلان قصة الغرائيق ، واستدلوا على بطلانها بالقرآن والسنة والمعقول .

فالقرآن حافل بالتنديد بعبادة الأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب ، وليس لها شفاعة ، بل هي حصب جهنم ، وعبادتها احتقار للعقل ، وتقليد أحمق للأباء والأجداد .

وقد تكفل الله بحفظ كتابه من كل تحريف أو باطل ، قال تعالى : **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** . (فصلت : ٤٢) .

وقال سبحانه : **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ** . (الحجر : ٩) .

من تفسير الضخر الرازى

نقل فخر الدين الرازى كلاما طويلا ، يفيد أن قصة الغرائيق باطلة عند أهل التحقيق ، فحديث الغرائيق واهى الأصل ، لم يخرجها أحد من أهل الصحة ، ولا رواه بسند سليم متصل ثقة .

وقال أبو بكر البزار :

هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره ، وهو من ناحية موضوعه يصادم أصلا من أصول العقيدة ، وهو عصمة النبى ﷺ من أن يدس عليه الشيطان شيئا فى تبليغ رسالته ^(٣١) .

وقد قال الله تعالى : **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** . (النجم : ٣ ، ٤) .

وقال سبحانه : **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي أَنفْسِي ۚ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ... (يونس : ١٥) .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم ، فلما بلغ آية السجدة سجد معه المسلمون والمشركون والانس والجن ، وليس فيه حديث الغرائيق .

وروى حديث البخارى من طرق كثيرة ، وليس فيها البتة حديث الغرائيق .

وقد كان أعظم سعى النبى ﷺ فى نفي الأوثان ، وضلال عبادتها .

ولو جوزنا زيادة شئ على القرآن لارتفع الأمان عن الشرع ، فإنه لا فرق فى العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة ^(٣٢) .

وقال سبحانه : **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ** . (الحاقة : ٤٤ - ٤٧) .

وقد أبلغ المستشرقون والطاعنون في الإسلام بقصة الغرائق ، والأمر لا يثبت للمناقشة ، فالنص القرآني يقرر أن هذه قاعدة عامة ، في الرسائل كلها مع الرسل كلهم ، من حيث تعرضها للوجود والكفد ، والإغراء والوعد والوعيد ، قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْكُفَّارُ لِقَاءَ رُسُلِهِمْ لَنُصْخِرَنَّكَ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ إِلَيْنَا وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

ومن تأمل سيرة الرسل الكرام ، وسيرة الرسول الأمين محمد ﷺ وجد التفسير واضحا ، فالعقبات في وجه الدعوة كثيرة ، والرسول بشر ، فربما حاول أن يذلل العقبات من طريق الدعوة .

وربما فكر في عمل مجلس للفقراء ، ومجلس للأغنياء تلبية لرغبات المشركين فتنزل آيات القرآن توجب أن تكون الجلسة عامة ، وأن تفتح الأبواب للناس جميعا على السواء .

قال تعالى : وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا تُبَدِّلْ لِكَلِمَتِهِ وَكَانَ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَعَدِّيًا * وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرَةِ وَالْعَيْثِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ... (الكهف: ٢٧-٢٩) ، وكذلك في قصة عبدالله ابن أم مكتوم حين أعرض عنه النبي ﷺ ، وانشغل بأغنياء مكة رجاء أن يؤمنوا ، وأن يؤمن بعدهم الاتباع والأعوان ، فنزلت سورة عبس وتولى . توضح توجيه الله العلي الكبير ، في عرض الهدى على الناس أجمعين ، فليس على الرسول إلا البلاغ ، أما الإيمان فأمره موكل إلى الله تعالى .

قال تعالى : عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ * فَأَلْغَى لَهْهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَلْغَى عَنْهُ فَلْهُ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مُرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ . (عبس : ١ - ١٦) .

٥٣ - لَيَجْعَلَ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ .

لقد أراد الله بحكمته البالغة ، أن يخلق الإنسان وأن ينفع فيه من روحه ، وأن يعطيه العقل والاختيار والإرادة ، وأن يرسل له الرسل ، وأن ينزل له الكتب ، وأن يحقق له أسباب الهداية والإيمان ، كما أوجد بحكمته وسواس الشياطين وإغراءهم ، ووجودهم في طريق دعوات الرسل والأنبياء ، حتى ينسخ الله كيد الشياطين ، ويحكم آياته ، وتظهر الحقيقة واضحة جلية أمام الأعين ، ويكون دس الشيطان وكيده فتنة وامتحاناً ،

واختبارًا وبلاء للمنافقين الذين فى قلوبهم مرض ، وللكافرين الجاحدة قلوبهم والقاسية الغليظة المتكبرة ،
مثل قلوب عتاة المشركين كأبى جهل ، أو عتاة اليهود .

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

وإن المنافقين والمشركين لفي عداوة بالغة ، وبعد عن الرشاد والسداد ، وعداء شديد للحق ، فلا تجزع
لما يحدث من قومك يا محمد ، فشأنهم معك كشأن سائر الأمم مع الأنبياء والمرسلين قبلك ، والعاقبة
للمجاهدين الصابرين .

٥٤ - وَيَعْلَمُ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وليعلم المؤمنون الذين أعطاهم الله العلم الثَّافِع ، الذى يميزون به بين الحق والباطل ، أن القرآن هو الحق
النازل من عند الله ، فيزداد إيمانهم ويقينهم به ، فتخشع قلوبهم ، وتمتلئ بالخشية والإيمان ، والله تعالى
يرشد المؤمنين إلى الحق والصواب فى الدنيا ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الجنة فى الآخرة .

٥٥ - وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْةً أَوْ يُأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ .

أى : لا يزال كفار مكة فى شك وريبة من هذا القرآن ، حتى يأتيتهم الموت فجأة دون أن يشعروا ، أو
يأتيتهم عذاب يوم القيامة ، وقيل : عذاب يوم بدر ، حيث قتل منهم سبعون وأسر سبعون وفر الباقيون .

وقد رجح العلماء أن المراد بعذاب يوم عقيم : عذاب يوم القيامة ، لأن سياق الآية بعدها يرجع أن
المراد به : عذاب يوم القيامة .

قال أبو السعود :

وسمى بعذاب يوم عقيم ، لأنه لا يوم بعده ، كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون
عقيماً ، والمراد به الساعة أيضاً ، كأنه قيل : أو يأتيتهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل .

٥٦ - أَلَمْ لِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتٍ آتِيهِمْ .

الملك فى يوم القيامة لله وحده ، وهو الحكم العدل بين الخلائق فى ذلك اليوم ، فهو سبحانه :
مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ .

وهو الذى ينادى يوم القيامة : لَمَنْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

فى ذلك اليوم يجازى المؤمنون الذين عملوا الصالحات بدخول الجنة ، والتمتع بنعيمها ، وبكل ما فيها من نعم وخيرات .

٥٧ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

والذين كفروا بالله وكذبوا رسله ، وأنبياءه ووحيه ، وعارضوا الحق والرسالة ، والدعوة إلى الإيمان ، هؤلاء لهم عذاب مذل ، حيث يدخلون جهنم صاغرين أذلاء ، جزاء كفرهم وعنادهم وقد تكرر هذا المعنى فى قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰخِرِينَ . (غافر : ٦٠) .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خِزْيُ الرَّزْقِيبِ ٥٨ ﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ . وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ٥٩ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ٦٠ ﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ٦١ ﴾ ذَٰلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ٦٢ ﴾

تمهيد :

تتحدث الآيات عن جزاء المهاجرين والمقاتلين والشهداء ، وتوضح أن هذا الجزاء جزء عظيم ، فلهم جزاء العمل المستمر ، كأنهم أحياء يعملون فى مرضاة الله ، ولههم فى الآخرة جنات النعيم ، ومن انتصر لنفسه ودينه ، ورد العدوان بمثله ، ثم بغى عليه المعتدون ، فقد تكفل الله بنصره ، ثم تذكر أدلة القدرة الإلهية فى إدخال الليل فى النهار والنهار فى الليل ، بمعنى زيادة الليل فى الشتاء ، ونقصانه فى الصيف .

التفسير :

٥٨ - وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خِزْيُ الرَّزْقِينَ .

الذين هاجروا وتركوا الأهل والوطن ، إخلاصا لله وجهادا فى سبيله ، ثم قُتلوا شهداء أو ماتوا على فرشهم ، فإن الله يجرى عليهم جزاء أعمالهم ، ويحميهم من الفتن ، ويرزقهم دخول الجنة ، والتمتع بنعيمها ،

والله أفضل الرازقين ، وأنعم به وأكرم ، حيث يعطيهم ما يفوق الخيال ، ولا يخطر لهم على بال ، ويمتنعهم بغير حساب ، فهو الذى لا تغنى خزائنه ، ولا تنضب موارد نعمه ، ولا غاية لفضله وكرمه .

٥٩ - كَيْدُخِلْتُهُمْ مَّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ .

أى : إن الله تعالى يدخل المقتول فى سبيل الله ، والميت على فراشه ، إذا خرجا مجاهدين فى سبيل الله ، يدخلهما الله جنات النعيم ، ويمتّعهما فيها بالجزاء الحسن الذى يرضيهما ، ويكرمان فى الجنة بالنعيم الدائم ، ويتمتعان فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والله سبحانه عليم بنية المهاجرين والمجاهدين ، فيجازيهم بحسب نيتهم ، فمن خرج مهاجراً فله الجزء الأوفى ، سواء قتل شهيدا ، أو مات على فراشه ، ما دام راغبا فى الشهادة ، فمن طلب الشهادة بحق ، أعطاه الله أجر الشهداء وإن مات على فراشه ، «فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى» .

أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، عن سلمان الفارسي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من مات مرابطا أجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتّانين ، واقرأوا إن شئتم : وَاللّٰبِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا كَيْرُزْقُهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » كَيْدُخِلْتُهُمْ مَّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ .

وروى عن أنس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المقتول فى سبيل الله ، والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل ، هما فى الأجر شريكان» .

وروى النسائي حديثا فى معناه عن العرياض بن سارية .

وقد نزلت الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة الحج فى عثمان بن مظعون وأبى سلمة بن عبد الأسد ، ماتا بالمدينة مهاجرين ، ولم يقتلا فى سبيل الله ، فقال بعض المؤمنين : من قُتل فى سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه ، فنزلت هاتان الآيتان ، تسويان بينهما ، لأن كليهما عاهد الله على الموت فى سبيله ، بهجرته لنصرة دينه^(٣) .

٦٠ - ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَبْصُرْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَنَعُوذُ غُفُورٌ .

أى : الأمر ذلك الذى تقدم بيانه ، من حسن جزاء المهاجرين ، الذين قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا . ثم استأنف القرآن فبين حق المسلمين فى رد العدوان ، والانتصاف من الظالمين .

فقال ما معناه :

إن من قوتل ظلماً ، فدافع عن نفسه ، وعاقب الظالم بمثل عقوبته ، وجازى من اعتدى عليه ، ثم بغى عليه بإلجائه إلى الهجرة ، ومفارقة الوطن ، وابتدائه بالقتال ، لينصرنه الله نصرًا مؤزرًا .

إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ .

لمن أخذ بحقه ، وانتقم من ظالمه ، وإن كان العفو أقرب إلى التقوى ، قال تعالى : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... (الشورى : ٤٠) .

سبب النزول :

جاء في تفسير مقاتل بن سليمان ما يأتي :

إن مشركى مكة لقوا المسلمين « ليلة بقيت من المحرم » فقال بعضهم لبعض : إن أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فاحملوا عليهم ، فناداهم المسلمون ألا يقاتلوهم فى الشهر الحرام ، فأبى المشركون إلا القتال ، فبغوا على المسلمين فقاتلوهم وحملوا عليهم ، وثبت المسلمون ، فنصر الله المسلمين عليهم ، فوقع فى أنفس المسلمين شئ من القتال فى الشهر الحرام ، فأنزل الله عز وجل : ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لَيَنْصُرْهُ اللَّهُ .

إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ . يعفو عنهم لقتالهم فى الشهر الحرام (٧١) .

٦١ - ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

أى : إن سنة الله فى نصر من يقع عليه البغى ، وهو يدفع عن نفسه العدوان سنة مطردة ، مثل سننه تعالى الكونية التى تشي بالدقة والنظام فى هذا الكون ، ومن ذلك طول الليل فى الشتاء حتى يصل إلى ١٤ ساعة ، وقصره فى الصيف حتى يصل إلى عشر ساعات ، هذه السنة الكونية تتكرر كل عام ، ويراهم الناس أمام أعينهم ، فى دقة عجيبة لا تختل ، وفى اطراد عجيب لا يتخلف ، وهى تشي بأن وراء هذا الكون البديع ، ونظامه الدقيق ، يدا حانية تمسك بنظامه ، وتحفظ توازنه ، وهذه القدرة العالية ، تنصر المظلوم الذى يدافع عن حقه ، وينتصف من ظالمه ، ويدفع البغى والعدوان ، كما أنها تمتد الليل فى الشتاء حتى يدخل فى النهار ، ويقطع جزءاً منه عند الشروق والغروب ، وتمتد النهار فى الصيف حتى يأخذ جزءاً من الليل ، عند الشروق والغروب .

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

أى : إن الله سميع لكل قول ، بصير بكل حال ، ولذلك ينصر عباده المؤمنين ، ويعلم نظام الكون وسنته المطردة ، فى طول الليل حيناً وطول النهار حيناً آخر .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَلِيلٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ال عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

٦٢ - ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

أى : ذلك الاتصاف بكمال القدرة وكمال العلم ، بسبب أن الله هو الإله الذى لا إله معه ، وهو لذلك المعبود بحق ، وأن ما يعبداه المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان ، وكل ما عبد من غير الله هو باطل لا يقدر على صنع شيء ، ولا يملك ضرراً ولا نفعاً ، لأنه عاجز ضعيف ، ومصنوع مخلوق لربه القادر .

وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

أى : ولأن الله هو العظيم الذى لا أعظم منه ، العلى الذى لا شئ أعلى منه شأنًا ، الكبير الذى لا أكبر منه ولا أعم ولا أكبر منه سلطانًا ، كما قال تعالى : الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى . (الرعد : ٩) .

★ ★ ★

﴿الْقُرْآنُ﴾ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَهُهُ الْعَوْنُ الْحَكِيمُ ﴿١٤﴾ الْقُرْآنَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ ﴿

تمهيد :

تتحدث الآيات عن دلائل القدرة الإلهية ، فى إنزال المطر الذى يبعث الحياة والخضرة فى الأرض ، وله سبحانه ملك السماوات والأرض ، وقد سخر الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وحفظ نظام الكون كله ، وهو

سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وهو الذى أحيانا ثم يميتنا عند انتهاء آجالنا ، ثم يحيينا يوم البعث ، فما أعظم قدرة الله ، وما أشد كفر الإنسان .

التفسير :

٦٣ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ .

ألم تعلم أيها السامع أن الله جلت قدرته ، يسوق السحاب ، وينزل المطر ، الذى يقع على الأرض القاحلة ، فتنبت النبات ، وتكتسى لوناً سندسياً أخضر ، وتنزين الأرض بكل لون بهيج ، والله لطيف بأرزاق عباده ، خبير بما فى قلوبهم من القنوط ، والغرض من الآية سوق الدليل على قدرة الله ، فإن الذى يحيى الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الموتى كما قال سبحانه : إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (فصلت : ٣٩) .

٦٤ - لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

له سبحانه ما فى الكون كله ، وما فى السماوات وما فى الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ، وهو سبحانه غنى عن الأشياء كلها ، لا يحتاج لأحد وهو المحمود على كل حال .

٦٥ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ .

ومن نعم الله العديدة ، أن يسر الله لكم الانتفاع بما فى الأرض ، من معادن وأشجار ، وحيوان ونبات ، وكنوز من البنترول والذهب والحديد ، وسخر لكم الأرض وما عليها ، ودلل لكم الاستفادة بها وبما فيها ، وكان عليه الصلاة والسلام إذا ركب دابة يقول : سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . (الزحرف : ١٣) .

وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .

وسخر لكم السفن تسير فى البحر ، فنقل الأشخاص والسلع التجارية ، من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم ، طبقا لسنته فى الأجسام الطافية ، حيث أجازها بالرياح الجارية ، أو بالمحركات الدائرة التى ألهمكم صنعها .

وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

ومن رحمته سبحانه خلقه ، أنه خلق الأجرام والكواكب ، ودفع كلا منها فى مداره المرسوم ، وربطها

برباط الجاذبية طبقا لسنه الكونية ، وهذه الجاذبية ، من شأنها أن تجعل الأرض تجذب إليها بعض كواكب السماء القريبة منها ، لتسقط عليها ، ولكنه سبحانه جعل فى مقابل الجاذبية ما يسميه علماء الفلك بقوة الطرد المركزية ، وهى مساوية لقوة الجاذبية ، فيقع الجرم الفلكى بين قوتين متعادلتين ، مما يتيح له البقاء متوازيا فى فلكه المرسوم ، ولكن حينما يأذن الله بنهاية الخلق ، تضعف إحدى القوتين عن نظيرتها ، فيصطدم بعض الكواكب ببعضها الآخر ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : **إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۖ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . (الانفطار : ١ ، ٢) .**

إِنَّ اللَّهَ بِأَنفُسِكُمْ لَءَٰرِفٌ رَّحِيمٌ .

حيث هيا لهم العيش المناسب ، فوق سطح الأرض وتحت كوكب السماء ، وهم آمنون مطمئنون .

٦٦ - وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .

أى : خلقكم الله بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر ، ثم يميتكم عند انتهاء آجالكم ، والموت نعمة قال تعالى : **ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرُوهُ ۖ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرُوهُ . (عبس : ٢١ ، ٢٢) .**

ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . يوم القيامة للبعث والحشر والجزاء والصلاب ، فهو سبحانه الخلاق العليم بيده الخلق والأمر : قال تعالى : **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة : ٢٨) .**

أى : كنتم فى عالم العدم ، ثم أحياكم الله عند تلقيح الذكر للأنثى ، ونفخ الروح فى الجنين بقدرة الله ، وولادته إلى الدنيا ؛ ثم يموت الإنسان عند انتهاء أجله ، ثم يبعث يوم القيامة بقدرة الله .

وقريب من ذلك قوله تعالى : **قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلَّتَيْنِ وَأَٰمِنَتَا أَلَّتَيْنِ فَاغْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ . (غافر : ١١) .**

الموتة الأولى وجودهم فى عالم العدم ، ثم الحياة الأولى بالولادة إلى الدنيا ، والموتة الثانية عند خروج الروح ، والحياة الثانية عند البعث ، وإحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ .

أى : جحود لربه ؛ حيث خلقه وصوره ، وأحياه ثم أماته ، ثم أحياه بالبعث ، وهو يجحد قدرة الله ، وينكر البعث ، ويقول : لن يحيينى الله بعد موتى .

قال تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

وذهب بعض المفسرين إلى أن الحياة الأولى كانت والإنسان في عالم الذر حين أخذ الله العهد على ذرية آدم وهم في أصلاب آبائهم أن يعبدوه وألا يشركوا به شيئاً ، كما قال سبحانه : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَظْهَرَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۖ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ... (الأعراف : ١٧٢) .

وذهب آخرون إلى أن هناك حياة في القبر حين ترد الروح إلى الميت ويسأل : من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك . فيجيب ، ثم تسحب منه الروح ويعود الى الموت .

بيد أن ابن كثير في تفسيره ذهب إلى ضعف هذين الرأيين إذ يترتب على كل واحد منهما أن تكون هناك ثلاث إحياءات ، ورجح ابن كثير رأى جمهور المفسرين وهو : أن الموتة الأولى وجود الإنسان في عالم العدم ، ثم ولادته في هذه الدنيا ، ثم موته عند خروج روحه ، ثم حياته عند البعث يوم القيامة . والله أعلم .

★ ★ ★

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٦٩ ﴾

المفردات :

منسكا : شريعة ومنهاجا ومتعبدا .

ناسكوه ، عاملون به .

هلا ينازعك ، أى : لا ينبغي لهم أن ينازعوك ، فى أمر الدين ، وهو نهى براد به النفى ، أى : فلا يجوز لهم أن يخاصموك فى أمر الإسلام أو يجادلوك فى أوامره وتكاليفه : لأن أمر دينك أظهر من أن يقبل النزاع .

جادلوك ، ناقشوك وخاصموك .

التفسير :

٦٧- لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ...

قيل : نزلت هذه الآية بسبب جدال الكفار فى أمر الذبائح ، وهم كفار خزاعة ، قالوا للمسلمين : تأكلون

ما ذبحتم ، ولا تأكلون ما ذبح الله من الميتة ؟ أو ، ما لكم تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ فكان ما قتل الله أحق أن تأكلوه ، مما قتلتم أنتم بسكاكينكم ، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة ^(٧٩) .

لُكِّلْ أُمَّةٌ جَعَلْنَا مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ .

لكل أمة من الأمم جعلنا شريعة ومنهاجا يتعبدون بهذه الشريعة ؛ ويلتزمون بأحكامها ويتنسكون بتعاليمها ؛ مع تناسب هذه التعاليم مع مقتضيات الزمان والمكان ، فقد أنزل الله التوراة على موسى بنحو من الشدة ، لعلاج التمسك بالمادة ، ثم أنزل الإنجيل متما لحكم التوراة ، مع علاج الروح وإشاعة المحبة ، والعناية بجوهر الدين ، لا بمجرد المظاهر والشكليات والطقوس ، ثم أنزل القرآن حينما نضج العقل البشري ؛ لإرساء معالم دستور الحق ، والجمع بين العناية بالمادة والروح ، والتركيز على معايير العلم ، واستخدام العقل ، فكان أول دين يضع أسس الحضارة الإنسانية الشاملة ، وكان تشريعه وسطاً بين الشرائع ؛ وكانت هذه الأديان صالحة للزمان الذي جاءت فيه .

فَلَا يُنْزِلُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ .

أى : إذا كان هذا هو شأن التدرج فى الشرائع ؛ فلا ينبغي لمعاصريك يا محمد أن ينازعوك فى أمر الدين ، فلكل أمة شريعة خاصة ؛ تناسب الزمان الذى جاءت فيه ، ثم جاء القرآن ناسخاً لتلك الشرائع ؛ ومهيئاً عليها ، يقر الصحيح ، وينبه إلى الزيف ، ويحذر من الباطل ، فلا ينبغي لهم منازعتك فى أمور دينك ، والمراد : تهيبج النبى ﷺ ، وتثبيته على الحق ، وعدم الالتفات إلى ما يثيره الآخرون ، من شبهات وتشكيك .

وَأَذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ .

أى : استمر فى دعوتك إلى منهج الله ، وهو الإسلام ، فإن دينك هو الدين الحق ، وهو الهداية النافعة الناجحة الوسط ، والإسلام هو الصراط المستقيم ، والقرآن هو الركن الركين ، وتلك الدعوة الإسلامية هى الدعوة التى تناسب الزمان والمكان ، وهى دعوة وسط ؛ تناسب حال الناس إلى يوم القيامة ، فقد علم الله أنها خاتمة الرسالات ؛ فضمنها مقومات صلاحها وخلوها ، فهى شريعة خالدة ؛ فيها اليسر ومراعاة المصلحة العامة ، ورفع الحرج عن الناس ، وإعمال العقل ، والدعوة إلى الاجتهاد والاستنباط ، والتلفق فى أحكام الدين ، حتى يستنبط العلماء من روح هذا الدين ونظامه ، ما يناسب مستجدات الأمة إلى يوم القيامة .

آراء فى الآية :

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآية : طريقة الذبح ، وأداء المناسك فى موسم الحج ، والمكان الذى يذبحون فيه ذبائحهم .

قال الطبري :

واختلف أهل التأويل في معنى المنسك هنا ، ف قيل : عيداً ، وقيل : إراقة الدم ... والصواب من القول في ذلك أن يقال : عنى بذلك إراقة الدم أيام النحر بمنى ، لأن المناسك التي كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ كانت إراقة الدم في هذه الأيام ، ولذلك قلنا : عنى بالمناسك في هذا الموضع الذبح . اهـ .

وعند التأمل ، تجد أن الآية تتحدث عن نظام ومنهج ، لكل أمة من الأمم ، كما أن للإسلام نظامه ومنهجه ، فلا ينبغي لليهود أو النصارى أو المشركين ، مجادلتك أو منازعتك ، وعليك يا محمد ، أن تسير في طريقك ، وأن تجتهد في الدعوة إلى دين الله وهو الإسلام ، فإنه خاتمة الرسالات ، وهو الدين الوسط والصراط المستقيم .

٦٨ - وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلِ اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

إذا بلغت رسالتك ودعوتك ، فلا تهتم بجдал المجادلين ، ومماراة أهل الباطل ، واقتصد في جدالهم ، وقل لهم : قد بلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم .

اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : هو العليم بما تعملون وبما تعمل ، وهو مجاز كل واحد بعمله ، فهو الشهيد على وعليكم ، وهو المحاسب والمجازى كل إنسان بما عمله .

قال تعالى : وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . (يونس : ٤١) .

وقال تعالى : هُوَ أَغْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... (الأحقاف : ٨) .

لأنه ليس بعد إيضاح الأدلة إلا هذا اللون من الوعيد والتحذير .

٦٩ - اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

إن الآخرة هى دار الجزاء ، والثواب والعقاب ، وفى يوم القيامة يكون الحق سبحانه هو الحكم العدل ، فيكافئ الأخيار ، ويعاقب الأشرار ، وفى يوم القيامة يتبين من هو على الحق ، ومن هو على الباطل ، وسيجازى سبحانه وتعالى ، كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب .

الاقتصاد في الجدل

والآيات كما ترى دعوة للمؤمنين ، أن ينشروا دعوة الله ، وأن يدعوا الناس إليها ، فإذا لمحو راغباً في المراء والجدال ، جادلوه بالتى هى أحسن ، واقتصادوا فى الرد عليه .

قال القرطبي :

فى هذه الآية أدب حسن ، علمه الله عباده فى الرد على من جادل تعنتاً ، ومراءً ، ألا يجاب ولا يناظر ، ويدفع بهذا القول الذى علمه الله لنبيه ﷺ (٣٧) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧٠ ﴾ وَبَعْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ٧١ ﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَنِ ذَلِكُمْ أَلَا نَارُ وَعْدِهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ٧٢ ﴾

المضردات :

يسير : سهل .

سلطانا : حجة وبرهاناً .

نصير : ناصر ومعين .

يسطون : يبطشون بهم من فرط الغيظ .

تمهيد :

تبين الآيات إحاطة علم الله بما فى هذا الكون ، لقد أوضح الله دلائل قدرته وألوهيته ووحدانته ، ومع وضوح هذه الدلائل فقد عبد المشركون آلهة مدعاة ، ولا تستند عبادتهم لها على دليل نقلى أو عقلى ، وإذا تليت على المشركين آيات القرآن الكريم ، ظهر الغضب والإنكار فى وجوه الكافرين ، ومن شدة غضبهم ، يكادون يبطشون بمن يذكرهم آلاء الله ، ألا وإن عذاب النار فى الآخرة وألمها أشد وأكثر غيظاً وألماً ، من الغم والغيظ حين تلاوة آيات القرآن الكريم .

التفسير:

٧٠- أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ لَفِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

هذا استفهام تقرير ، وقد قيل : إنه استفهام تقرير للغير ^(٧١) .

فعلم الله تعالى شامل للسماء وما فيها ، من أفلاك وأبراج وشموس وكواكب وملائكة وغير ذلك ، وعلم الله شامل للأرض بكل ما فيها من إنس وجن ، وبحار وأنهار ، ونبات وسائر المخلوقات ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض .

إِنَّ ذَلِكَ لَفِي كِتَابٍ .

أى : كل ما يجرى في العالم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب ، وهو اللوح المحفوظ .

إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

هذه الإحاطة الشاملة بما كان وما يكون ، والرقابة الإلهية على هذا الحشد من الأشياء والأشخاص ، والأعمال والنيات ، والخواطر والحركات ، في عالم المنظور وعالم الضمير ، كل ذلك بالنسبة إلى قدرة الله وعلمه أمر يسير ، وقيل : الفصل بين المختلفين على الله يسير .

جاء في صحيح مسلم ، عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» ^(٧٢) .

وفي السنن من حديث جماعة من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال : وما اكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن . فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» ^(٧٣) .

وكتابة القلم تأكيد لمعنى الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره طوره ومُرّه ، وعلم الله وإطلاعه ، وإحاطته بكل كبيرة وصغيرة في هذا الكون ، ثم مجازاته سبحانه على مثقال الذرة من الحسنات والسيئات ، وإحاطته سبحانه إحاطة شاملة لكل ما في الكون ، وهذه الإحاطة شيء يسير على الله ، فهي جزء من علمه الشامل . إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الأنفال : ٧٥) .

قال تعالى : يَبْنِيْهَا إِنَّا تِلْكَ مُّثَقَلَةٌ حَبِيَّةٌ مِّنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِيْ صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوٰتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيَهَا إِلَهُهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

وقال تعالى : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٢ ، ٢٣) .

وقال أبو مسلم الأصفهاني : إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ . المراد بالكتاب فى مثل هذا : الحفظ والضبط الشديد بحيث لا يغيب عنه مقال ذرة .

٧١ - وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

يعبد المشركون أوثاناً وأصناماً من حجارة ، لم ينزل من الله دليل أو بيان يفيد أنها آلهة ، فليس لديهم حجة أو دليل نقلى من عند الله على ألوهية الأصنام ، وليس لديهم دليل عقلى يذكرونه يدل على صواب عبادتهم .

قال مقاتل بن سليمان فى تفسيره :

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ . من الآلهة . مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا . يعنى : ما لم ينزل به كتاباً من السماء لهم فيه حجة بأنها آلهة .

وجاء فى حاشية الجمل :

وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ . أى : دليل عقلى . ا هـ .

وإذا لم يكن هناك دليل نقلى من عند الله ، ولا دليل عقلى يحترم العلم والعقل والفكر والمنطق ، فاتباع الأصنام وعبادتها يكون عن تقليد للأباء والأسلاف ، أو عن جهل وشبهة وكل ذلك باطل .

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

أى : ليس للكفار الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا المسلمين بالعتاد ، وظلموا الرسل بالتكذيب ، ليس لهؤلاء من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العقاب .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ . (المؤمنون : ١١٧) .

وفى الآية دليل على أن الكافر قد يكون كافراً وإن لم يعلم كونه كافراً ، وفى الآية دليل أيضاً على فساد التقليد القائم على الجهل .

٧٢- وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بُشْرٌ مِّنْ ذٰلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ .

وإذا قرأ النبي المرسل القرآن وضحاً بيناً ، يخاطب العقل والفطرة السليمة ، فإنهم ينكرون كتاب الله ، ويكرهون سماعه ، وتلاحظ ذلك الإنكار على وجوههم ، وفي أقوالهم ، وتمتد أيديهم للبطش والإيذاء للمسلمين .

يَكَادُونَ يَسْطُونُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا .

أى : يكادون يبطشون بمن يقرأ القرآن ، ويقعون بمحمد ﷺ من شدة كراهيتهم للقرآن ، ويقولون : ما شأن محمد وأصحابه ، أهم أحق بهذا الأمر منا ، والله إنهم لأشر خلق الله .

فأنزل الله تعالى : قُلْ أَفَأَنْتُمْ بُشْرٌ مِّنْ ذٰلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ .

أى : هل أخبركم بما هو أشد من محمد وأتباعه ، هو النار وبئس المصير فى عذابها ، وقد وعدنا الله الذين كفروا جزاء كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : إِنَّهَا سَاعَةٌ مُّسْتَقَرَّةٌ وَمُقَامًا . (الفرقان : ٦٦) .

وجاء فى تفسير المراعى :

قُلْ أَفَأَنْتُمْ بُشْرٌ مِّنْ ذٰلِكُمُ .

أى : قل لهم : أنتم معون فأخبركم بشر من ذلكم ، الذى فيكم من الغيظ من التالين للآيات ، حتى قاربتم أن تسطوا بهم ، وتمدوا إليهم أيديكم وألسنتكم بالسوء ؟

ثم أجاب عن هذا الاستفهام فقال : النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمَصِيرُ .

أى : النار وعذابها أشق وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا ، ومما تتالون منهم ، إن نلتهم بإرادتكم واختياركم .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِنَخْلُقْوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْتَنْبِذْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٢﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٣﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٤﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٥﴾﴾

المضردات :

ضُرِبَ : جُعِلَ وَيُنَّ لَكُمْ حَالٌ مُسْتَغْرِبَةٌ .

الْمَثَلُ وَالْمَثَلُ : الشَّيْءُ .

لَا يَسْتَنْقِذُوهُ : لَا يَقْدِرُوا عَلَى اسْتِنْقَاذِهِ .

مَا قَدَرُوا اللَّهَ : مَا عَظَمُوهُ ، أَوْ مَا تَبَيَّنُوا عَظَمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسُلْطَانَهُ .

قَوِيٌّ : قَاهِرٌ لَا يَغْلِبُ .

عَزِيزٌ : مُنِيعٌ لَا يُضَامُ .

يَصْطَفِي : يَخْتَارُ .

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : مَا يَسْتَقْبِلُونَهُ .

وَمَا خَلْفَهُمْ : وَمَا يَسْتَدْبِرُونَهُ .

التفسير :

٧٣ - يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِنَخْلُقْوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ. وَإِنْ يَسْتَنْبِذْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

يا كلُّ النَّاسِ ، سأحكى لكم قصة عجيبة ، فاستمعوا لها ، بتدبر وتعقل ، والمثل قول سائر يشبهه مضربه - وهو الذى ضرب فيه - بمورده - وهو الذى ورد فيه أولا - وما ذكر فى الآية ليس مثالا لكنه قصة عجيبة تشبه المثل فى غرابتها واستحسانها^(٨) .

إن المعبودات الباطلة التي تعبدونها أيها المشركون لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة ، حتى لو اشتركت جميعها في محاولة خلق هذه الذبابة .

روى الشيخان وأحمد ، عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : «قال الله عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ؟ فليخلقوا ذُرَّةً ، فليخلقوا شعيرة»^(٨١) .

وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ .

أي : فضلاً عن عجز الأصنام مجتمعة عن خلق ذبابة ، فإن الذباب لو اختطف منها شيئاً من الأشياء ، لا تستطيع الأصنام استرداده لعجزها عن ذلك .

عن ابن عباس : أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران ، ورءوسها بالعسل ، فإذا سلبه الذباب عجزت الأصنام عن أخذه^(٨٢) .

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

أي : ضعف الصنم ، فهو عاجز تماماً عن الحركة ، أو استرداد ما أخذ منه ، وضعف المطلوب وهو الذباب .

قال القرطبي :

وخص الذباب لأربعة أمور تخصه : لمهانتة ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره ، لا يقدر من عبده من دين الله على خلق مثله ، ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأربابا مطاعين ، وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان .

وقال السدي :

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

الطالب العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف .

فالله سبحانه هو القوى المتين ، وهو يمد بالقوة والنصر من أطاعه والتزم منهجه ، أما من عصاه فهو هين ضعيف مهين ، وكذلك الصنم الذي يعبد من دون الله .

٧٤ - مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

لم يعظموا الله حق عظمتة ، حين يرون آثار قدرته وعظمتة ، في ملكوت السماوات والأرض ، وإحاطته بغيب السماوات والأرض ، وضعف الأصنام وعجزها ، ثم يعبدون هذه الأصنام ويسجدون لها ، ويجعلونها آلهة تعبد من دون الله .

إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .

إنه سبحانه لقوى قادر عظيم القدرة والسلطان . وهو سبحانه عزيز غلب على أمره ، وما سواه مهين ضعيف ذليل مغلوب .

٧٥- اللَّهُ يَضْطَرِّي مِنَ الْمَلَكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

ومن آثار قدرته وحكمته وعظمته ، اختيار أمناء الوحي من الملائكة ، ليحملوا أمانة الوحي من السماء إلى الأرض ، ويختار للرسالة من البشر من هو أجدر وأولى وأحق بذلك قال تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وقال تعالى : وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْغُلَبِينَ . (الدخان : ٣٢) .

يقال : إن الوليد بن المغيرة استكثر الرسالة على محمد ﷺ فقال : أَعَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... (ص : ٨) .

فنزل قوله تعالى : اللَّهُ يَضْطَرِّي مِنَ الْمَلَكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ .

فأمر اختيار الرسل من الملائكة ومن الناس ، مفوض إليه سبحانه لا إلى أحد سواه .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

فهو سبحانه عظيم السمع ، يسمع ويرى كل صوت ومشهد ، وقد أحاط بكل شيء علما ، وقريب من هذه الآية قوله وتعالى : وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ • أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرَآ وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . (الزخرف : ٣١ ، ٣٢) .

٧٦- يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

يعلم علما تاما بأحوال الملائكة والرسل والمكلفين ، وما يستقبلونه من أحداث ، ويعلم ما يخلفونه من آثار ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم .

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

والإله سبحانه الملك والقدرة والأمر والنهي ، والحساب والجزاء يوم القيامة .

قال تعالى : لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا أَيُّكُمْ إِتْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨) ﴿

المفردات :

فى الله : فى سبيله .

جاهدوا : الجهاد است فراغ الوسع فى مجاهدة العدو ، وهو ثلاثة أضرب :

١ - مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

٢ - مجاهدة الشيطان .

٣ - مجاهدة النفس والهوى وهذه أعظمها .

اجتباكم : اختاركم .

حرج : ضيق أو شدة .

مثلة : شريعة .

اعتصموا بالله : استعينوا به وتوكلوا عليه .

مولاكم : ربكم ومالك أمركم ومدير شئونكم .

النصير : المعين .

تمهيد :

تختم السورة بهذه الآيات الحكيمة ، التى تستحث المسلمين على الصلاة والعبادة وأفعال الخير والبر ، رجاء الفلاح والسيادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، ثم تدعو المسلمين إلى الجهاد فى سبيل الله حق الجهاد ، فالمسلمون أمة وسط ، فى شريعتها يسر وسهولة ، وفى دينها تعقل وحكمة ، وفى عباداتها ومعاملاتها رعاية لمصالح الناس ، وعقيدة الألوهية الإسلامية ، تتفق مع الرسائل السابقة ، ومع المنقول والمعقول ، من أجل ذلك فالمسلمون مؤهلون لقيادة البشرية ، نحو عقيدة سليمة ، وملة معتدلة ، وعبادات حقة ، ومعاملات نظيفة ، بشرط أن يلتزم المسلمون بدينهم فى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، واتباع أوامر الله

والتمسك بهديه ، وحين اتبع المسلمون هدى الله آتاهم الله سعادة الدنيا والآخرة ، ثم تتابعت قرون سوداء، ابتعد المسلمون فيها عن تعاليم القرآن ، فسلب الله منهم المنزلة السامية ، وإذا عاد المسلمون إلى هدى القرآن ، وتمسكوا بحبل الله نصرهم الله ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

التفسير :

٧٧ - يَتْلُوهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُوا الْخَبَرَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ .

تحت الآية على إقامة الصلاة ، وذكرت الركوع والسجود ، لأنهما سمة الخضوع والخضوع والالتزام بأمر الله ، ثم أمرتهم بعبادة الله والتمزام أمره ، واجتناب نهيه وتوحي رضاه ، ثم أمرتهم بفعل الخير ، وهي جملة عامة تشمل كل أنواع الخير ، من صلاة وزكاة وصيام وحج ، وصلة الرحم وإكرام الجار ورعاية اليتيم ، ومساعدة المحتاج ويزر الوالدين ، وزيارة المريض ، والسعى في تكافل المسلمين وتراحمهم وتعاطفهم ، وإصلاح ذات البين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الإسلام ، والعمل على تبليغ الدعوة الإسلامية على وجهها السليم ، ناصعة مشرقة جديدة بتحريك دواعي القبول ، وفعل الخير سبيل الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة .

٧٨ - وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ...

تدعو الآية إلى الجهاد في سبيل الله ، والقرآن الكريم حافل بالدعوة إلى الجهاد ، والحث على الشهادة ، في سبيل الإسلام ونصر الدين ومقاومة الكافرين ، وأعداء الدين ، ومن أنواع الجهاد ، جهاد الشيطان ، وسد منافذه وإفساد خططه وحيله .

قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

وقال عز شأنه : يٰٓأَيُّهَا آدَمُ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنْ الْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّهُ لَئِنْ لَمْ يَرْسُلْ لَكَ سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ؕ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

ومن أنواع الجهاد جهاد النفس والهوى وذلك بالمشاركة ، والمراقبة ، والمعاينة ، والمعاينة ، والمحاسبة ، والإخلاص في الدعاء ، فيشترط على نفسه الاستقامة ، والبعد عن المعاصي ، ويراقب نفسه في تصرفاتها ، ويلومها على الأخطاء ، فإذا تكررت الأخطاء ، عاقب نفسه بالصيام ، أو تلاوة القرآن ، أو غير ذلك .

وعلى المسلم أن يجلس وقتاً ما في نهاية كل يوم لتصفية الحساب مع نفسه ، فإن وجد خيراً فليحمد الله ، وإن وجد معصية ، ندم واستغفر ، وجدد التوبة والالتجاء إلى الله تعالى ، طالباً منه قبول التوبة والهداية والمعونة .

وأفضل الجهاد ، مقاومة الظلم ، قال رسول الله ﷺ : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (١٨٧) .

أخرجه ابن ماجه ، والخطيب ، وأحمد ، والطبراني ، والبيهقي .

هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

هو سبحانه اختاركم واصطفاكم لحمل خاتم الأديان ، وأرسل إليكم خاتم الرسل ، وأنزل إليكم أكرم الكتب السماوية ، وأتم الله عليكم نعمته بالتأييد والنصر .

وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ .

ولم يجعل في الدين الذي تعبدكم ضيقاً لا مخرج منه ، ولم يكلفكم ما يشق عليكم ، بل جعل التكليف في حدود الوسع والطاقة لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (البقرة : ٢٨٦) .

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ . (البقرة : ١٨٥) .

ومن ذلك التيسير أنه أباح للمسافر قصر الصلاة ، والإفطار في رمضان ، وأباح لنا التيمم عند فقد الماء ، أو تعذر استعماله ، وأباح في الصلاة القيام والقعود والنوم على الجنب ، حسب الحالة الصحية للمصلي ، وأباح الفطر في رمضان للحامل والمرضع والمشتغل في الأعمال الشاقة ، ولم يوجب علينا الجمعة في المساجد حين السفر أو المطر ، أو الخوف من عدو أو سبع ، إلى نحو أولئك ، كما فتح الله لنا باب التوبة ، وشرع لنا الكفارات في حقوقه ، ودفع الأدية بدل القصاص إذا رضى الولي .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (المائدة : ٦) .

وقوله عز شأنه : رَبَّنَا لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . (البقرة : ٢٨٦) .

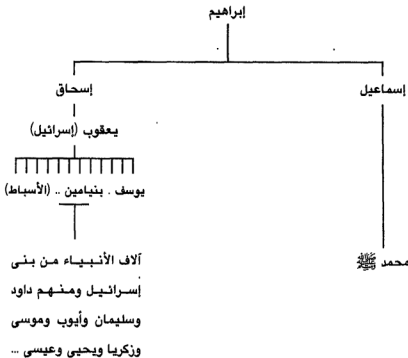
مَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ .

أى : وملتكم هى ملة أبيكم إبراهيم الحنيفية السمحة ، وإبراهيم هو الذى بنى البيت الحرام ، ودعا الناس إلى حجه والصلاة فيه ، بتكليف من الله تعالى ، ونحو الآية قوله تعالى : قُلْ إِنِّى هَدَيْتُ رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (الأنعام : ١٦١) .

قال ابن جرير : وهو منصوب على تقدير : الزموا ملة أبيكم إبراهيم .

والمعنى :

إن دينكم الذى لا حرج فيه هو دين إبراهيم ، فالزموه لأنه الدين القيم ، ووصف سبحانه إبراهيم عليه السلام بالأبوة لهذه الأمة ، لأن إبراهيم أب لشجرة الأنبياء ، فهو أبو الملة الإبراهيمية الحنيفية السمحة ، المائلة عن الباطل إلى الحق ، ومن نسل إبراهيم إسماعيل ، وكان من ذريته نبي واحد هو محمد ﷺ ، ومن نسل إبراهيم إسحاق ومن نسله يعقوب الملقب بإسرائيل ومن نسله الأسباط وهم الأحفاد ، أحفاد إبراهيم ، وكان من نسلهم آلاف الأنبياء لبنى إسرائيل . كما يتضح ذلك من الآتى :



هُوَ سَمُّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا .

أى : الله سَمَّاكم بهذا الاسم الأكرم من قبل فى الكتب المقدسة وَفِي هَذَا . يعنى : القرآن .

وقال بعض المفسرين : الضمير يعود إلى إبراهيم وذلك لقوله : رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... (البقرة : ١٢٨) .

ورجح ابن كثير الرأي الأول فإن الله تعالى هو الذى اختار هذه الأمة وجعلها خير أمة أخرجت للناس ، وسماها أمة المسلمين بدليل ما جاء بعد هذه الفقرة ، من امتياز هذه الأمة بالشهادة على الناس ، فمعها الدين الحق والشرعية السمحاء .

يَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .

أى : إنما جعلكم هكذا أمة وسطا عدولاً ، مشهودا بعد التكم بين الأمم ، ليكون محمد ﷺ شهيدا عليكم يوم القيامة ، بأنه قد بلغكم ما أرسل به إليكم ، وتكونوا شهداء على الناس بأن الرسل قد بلغوهم ما أرسلوا به إليهم ، وإنما قبلت شهادة الأمة الإسلامية على الناس لسائر الأنبياء ، لأنهم لم يفرقوا بين أحد منهم ، وعلما أخبارهم من كتابهم على لسان نبيهم .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « يدعى نوح - عليه السلام - يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، فيقال له من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيشهدون بأنه قد بلغ »^(١٨١) .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (البقرة : ١٤٣) .

فالأمة الإسلامية أمة وسط .

حيث إن مكة فيها البيت الحرام وهو فى منطقة وسط ، أشبه بمنتصف الدائرة حيث يتجه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها فى الصلاة إلى البيت الحرام ، والإسلام رسالة كاملة ، ساسها القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والاجتهاد الذى يعتمد على فهم النصوص وروح التشريع والقياس الاستحسان وأعمال الصحابة وسد الذرائع والمصالح المرسله وغير ذلك من القواعد ، التى تكسب الفقه لإسلامى مرونة ، وصلاحية للتطبيق فى كل زمان ومكان . وكان اليهود قد بالغوا فى المادية ، فنزلت توراة مشتتة على تشريعات فيها بعض العقوبات وتحريم بعض الطيبات .

قال تعالى : فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... (النساء : ١٦٠) .

ثم جاءت المسيحية تهتم بالنواحي الروحية ؛ ويعتبر العهد الجديد - أى : الأنجيل - متمما للعهد القديم أى : للتوراة والتلمود . (والتلمود) كتاب صعب وهو مقدس عند اليهود كتقديس التوراة ويقول المسيح عليه السلام : (ما جئت لأنقض الناموس بل لأتممه) ، ثم جاء الإسلام ، جامعا بين المادة والروح ، والعناية بالإلهيات والنبوات والعبادات والمعاملات ، مع العناية بالتقوى ويقظة الضمير ونظافة القلب ، وحسن العلاقة مع الله ، أى أن الإسلام اشتمل على محاسن المبادئ والدعوات ، وتخلص من مساوئها .

فَأَقِمْ وَفِى السُّبُلِ وَأَتُوا الزَّكَاةَ .

أى : قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض ، وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك : إقام الصلاة كاملة فى أوقاتها بخشوعها ، وإيتاء الزكاة التى كلفكم الله بها إلى مستحقيها .

وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ .

استعينوا بالله وتمسكوا بحبله وتوكلوا عليه وتأيدوا به ، هو حافظكم وناصركم على أعدائكم .

فَبِعَمَلِهِمُ امْتَدُّوا وَيَسِّرُهُ

نعم الولي ونعم المعين ، فمن تولاه كفاه كل ما أهمه ، وإذا نصر أحدا أعلاه على كل من خاصمه ، إذ لا ناصر فى الحقيقة سواه ، ولا ولي غيره ، فله الحمد وهو رب العالمين .

خلاصة ما تضمنته سورة الحج

- ١ - وصف أهوال يوم القيامة .
- ٢ - جدال عبدة الأوثان بدون حجة أو برهان .
- ٣ - تطور خلق الجنين فى بطن أمه .
- ٤ - دلائل القدرة الإلهية .
- ٥ - الله يحكم بين عباده يوم القيامة ، ويجازى كل فريق بما يستحق .
- ٦ - منزلة المسجد الحرام .
- ٧ - تكليف إبراهيم بدعوة الناس إلى الحج
- ٨ - بعض مناسك الحج .
- ٩ - حكمة مشروعية الجهاد .
- ١٠ - تسلية الرسول ﷺ ليصبر على أذى قومه ، وذكر ما أصاب المكذبين من الأمم السابقة .
- ١١ - شياطين الجن والإنس يقفون فى وجه دعوات الرسل والمصلحين .
- ١٢ - فضل الهجرة ، وفضل الدفاع عن النفس والدين .
- ١٣ - ألوان من تعنت المشركين ، وبطشهم بالمؤمنين .
- ١٤ - ضعف الأصنام ، وعظيم قدرة الله .
- ١٥ - اصطفاء جبريل من الملائكة ، واصطفاء الرسل من الناس .
- ١٦ - أفضلية الأمة المحمدية وشهادتها على الناس يوم القيامة .



تم بحمد الله تفسير الجزء (السابع عشر) ويليهِ تفسير الجزء (الثامن عشر) إن شاء الله

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السابع عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) تفسير ابن كثير ١٧٥/٣ .

(٢) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

(٣) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما

رواه البخارى (١ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ومسلم فى كتاب الإمارة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) والطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) والأيمان والنذور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود فى كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجه فى كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧) وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٣ ، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» .

(٤) التفسير الوسيط د . محمد سيد طنطاوى ١٧/٢٥٤ .

(٥) ضيزى : جائزة غير عادلة .

(٦) انظر تفسير النص السادس ، والعبارة من تفسير المنار .

(٧) الأنعام ١٤ ، وانظر تفسير القاسمى ١١-٢٦٦٠٤ .

(٨) تفسير القاسمى ١١-٢٦٦٠٤ .

(٩) الروم : ١٩ .

(١٠) انظر تفسير القاسمى ١١-٢٦٦٠٤ .

(١١) تفسير الآيات ٣٠-٣٣ من كتاب تفسير الآيات الكونية د . عبد الله شحاته .

(١٢) عجيباً لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجيباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» .

(١٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٧/٢٨ .

(١٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب :

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يشاكها» . ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة ،

عن النبي ﷺ قال : «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها» . رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب : ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : «لما نزلت : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوْءًا يَجْزْ بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال : «قاربوا وسدوا ، وكل ما يصيب المؤمن كفرارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» . هذا حديث حسن غريب .

(١٥) لا حسد إلا فى اثنتين :

رواه البخارى فى العلم (٧٣) ، والزكاة (١٤٠٩) ، والأحكام (٧١٤١) والاعتصام (٧٣١٦) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود . ورواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٦) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبى هريرة . رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٩) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذى فى البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (٦٣٦٧، ٤٥٣٦) من حديث ابن عمر .

(١٦) خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة :

رواه مالك فى الموطأ كتاب النذاه للصلاة (٢٤٣) ومسلم فى كتاب الجمعة (٨٥٤) وأبو داود فى كتاب الصلاة (١٠٤٦) والترمذى فى كتاب الجمعة (٤٨٨) ، (٤٩١) والنسائى فى كتاب الجمعة (١٣٧٢) (٨٩٥٤ ، ٢٧٦٠) من حديث أبى هريرة .

(١٧) ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦٩) والرقاق (٦٤٧٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٥٣) ومالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٨٨٠) والترمذى فى البر (٢٠٢٤) والنسائى فى الزكاة (٢٥٨٨) والدارمى فى الزكاة (١٦٤٦) وأحمد فى مسنده (١٠٧٠٧) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ، فقال : «ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر» . ورواه البخارى فى الزكاة (١٤٢٨) وأحمد فى مسنده (١٤٩٠٢ ، ١٥١٥٠) من حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعمل ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ، ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله» . وعن وهيب قال : أخبرنا هشام ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ بهذا .

(١٨) فروع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٣٩) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٠) وأحمد (٦٩٥٥) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله سيخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتتذكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة : فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : احضر ورتك ، فيقول : يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال : إنك لا تعلم ، قال : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يفل مع اسم الله شىء» . واللفظ للترمذى وقال : هذا حديث حسن غريب . وذكره السيوطى فى «الدر المنثور» وزاد نسبه لابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، واللالكائى ، والبيهقى فى البعث عن عبدالله بن عمرو .

(١٩) كلمتان خفيفتان على اللسان :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٤٠٦) والأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجه فى الأدب (٣٨٠٦) وأحمد فى مسنده (٧١٢٧) من حديث أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده» .

(٢٠) تفسير القرطبى ٣٠٠/١١ .

(٢١) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار :

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس : «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

(٢٢) انظر تفسيرى القرطبى والآلوسى .

(٢٣) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب :

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم فى الأفضية (١٧١٦) وأبو داود فى الأفضية (٣٥٧٤) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٤) وأحمد فى مسنده (١٧٣٢٠) من حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب : فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ : فله أجر» .

(٢٤) كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٧) والفرائض (٦٧٦٩) ومسلم فى الأفضية (١٧٢٠) وأحمد فى مسنده (٨٠٨١) من حديث أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «مثلى ومثل الناس كمثلى رجل استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب تقع فى النار وقال : كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك» فتحاكما إلى داود : فقضى به للكبيرة ، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه ، فقال : انتونى بالسكين أشقه بينهما فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله ، هو ابنها فقضى به للصغرى» . قال أبو هريرة : والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ وما كنا نقول إلا العدية .

(٢٥) لقد أوتيت زمزماراً من زمامر آل داود :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٣) والترمذى فى المناقب (٢٨٥٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال له : «يا أبا موسى ، لقد أوتيت زمزماراً من زمامر آل داود» .

(٢٦) لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٧٠ ، ١٤٨٠) والترمذى فى الزكاة (٦٨٠) والنسائى فى الزكاة (٢٥٨٩) وأحمد فى مسنده (٧٢٧٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره ، خير له من أن يأتى رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه» .

(٢٧) أشدكم بلاء الأنبياء:

يؤبَّ به البخارى كتاب المرمى، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨٤)،
١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣)، من حديث سعد بن أبى وقاص، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢٨) دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت:

الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٥) وأحمد فى مسنده (١٤٦٥) من حديث سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له».

(٢٩) لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٩، ٣٤١٢، ٣٤١٣) والتفسير (٤٦٣٠) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٧) وأحمد فى مسنده (٢١٦٨) من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤١٦) والتفسير (٤٦٣١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٧٦) من حديث أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى». ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٤٦٠٣) وأحمد فى مسنده (٣٦٩٥) من حديث عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس ابن متى».

(٣٠) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) وأحمد فى مسنده (٩٠١٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(٣١) تفسير الكشاف للزمخشري، مصطفى البابي الحلبي بمصر ٥٨٣/٢.

(٣٢) إنكم محشورون حفاة عراة غرلا:

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٣) وتفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (١٩١٦، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ثم قرأ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ لِعَبْدِهِ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناساً من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابى أصحابى، فيقول: إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي...﴾ إلى قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحشرون حفاة عراة غرلا، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض، فقال: الأمر أشد من أن يهملهم ذلك». ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قيل له: ما المقام المصمود، قال: «ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسية ينط كما ينط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ويجاء بكم حفاة عراة

غزلا ، فيكون أول من يكسى إبراهيم ، يقول الله تعالى : اكسوا خليلي : فيؤتى بريطتين بيضاوين من رباط الجنة. ثم أكسى على إثره ، ثم أقوم عن يمين الله مقاما يغبطنى الأولون والآخرون» .

(٣٣) تفسير ابن كثير ٢٠٢/٣ طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

(٣٤) بصائر ذوى التمييز للفيروزبازى تحقيق النجار ، وقد ذهب إلى أن السورة مكية بالاتفاق . والنظم الفنى فى القرآن لعبد المتعال الصعدي ص ٢٠٤ .

(٣٥) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبازى تحقيق النجار ٣٢٣/١ ، وفى لطلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٧١/١٧ .

(٣٦) انظر بصائر ذوى التمييز للفيروزبازى ٣٢٣/١ .

(٣٧) تحشرون حفاة غزلا :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة غزاة غزلا ، قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال : الأمر أشد من أن يهضم ذاك» .

(٣٨) أما عند ثلاث فلا :

رواه أحمد فى مسنده (٢٤٢٧٢) من حديث عائشة قالت : قلت : يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة قال : يا عائشة أما عند ثلاث فلا : أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب فإما أن يعطى بهميته أو يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فينطوى عليهم ويتعيط عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر ، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، وكلت بكل جبار عنيد ، قال : فينطوى عليهم ويرمى بهم فى غمرات ، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم ، فجاج مسلم ، ومخدوش مسلم ومكور فى النار على وجهه .

(٣٩) إن أحذكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٩٦٩) ، ومسلم فى القدر (٤٧٨١) ، وأحمد (٣٤٤١ ، ٣٨٨٢) ، والترمذى فى القدر (٢٠٦٣) .

(٤٠) أتدرى أين تذهب :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٩) والتفسير (٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣) والتوحيد (٧٤٣٣) ومسلم فى الإيمان (١٥٩) وأحمد فى مسنده (٢٠٧٩٣) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ لأبى ذر حين غربت الشمس : «أتدرى أين تذهب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ، يقال لها : ارجعى من حيث جئت : فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى : ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ .

(٤١) إن الشمس والقمر لا يتكسفان لموت أحد :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٤٣، ١٠٦١) من حديث المغيرة بن شعبه قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله يوم مات إبراهيم فقال الناس : كسفت الشمس لموت إبراهيم ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الشمس والقمر لا يتكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فصلوا وادعوا لله» . ورواه البخارى فى الجمعة (١٠٤٠، ١٠٤٨) ومسلم فى الكسوف (٩١٥) من حديث أبى بكره قال : كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس فقام النبى ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس فقال ﷺ : «إن الشمس والقمر لا يتكسفان لموت أحد فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى يكشف ما بكم» .

ورواه البخارى فى الجمعة (١٠٤١، ١٠٥٧) ويده الخلق (٣٢٠٤) ومسلم فى الكسوف (٩١١) من حديث أبى مسعود ، قال النبى ﷺ : «إن الشمس والقمر لا يتكسفان لموت أحد من الناس ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا» . ورواه مسلم فى الكسوف (٩٠٤) من حديث جابر قال : انكسفت الشمس فى عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فقال الناس : إنما انكسفت لموت إبراهيم ، فقام النبى ﷺ فصلى بالناس ست ركعات بأربع سجعات . . الحديث ، وفيه : فقال : «يا أيها الناس إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا يتكسفان لموت أحد من الناس - وقال أبو بكر : لموت بشر - فإذا رأيتم شيئا من ذلك فصلوا حتى تنجلي ، ما من شيء توعده إلا قد رأيته فى صلاتي هذه لقد جئى بالناز . الحديث . ورواه مسلم فى الكسوف (٩٠٧) من حديث ابن عباس قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فقام قياما طويلا . الحديث ، وفيه : ثم انصرف وقد انجلت الشمس فقال : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يتكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» قالوا : يا رسول الله ، رأيتهما تناولت شيئا فى مقامك هذا . . الحديث .

(٤٢) اللهم اكتب لى بها عندك أجرا :

رواه الترمذى فى الجمعة (٥٧٩) والدعوات (٣٤٢٤) من حديث ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى رأيته الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة فسجدت فسجدت لسجودى : فسمعتها وهى تقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، وضع عنى بها وزرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ، قال الحسن : قال لى ابن جريج : قال لى جديك : قال ابن عباس : فقرأ النبى ﷺ سجدة ثم سجد قال : فقال ابن عباس : فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة ، قال : قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٤٣) إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى :

رواه مسلم فى الإيمان (٨١) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٠٥٢) وأحمد فى مسنده (٩٤٢٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ، يقول : يا ويلى» . ورواية أبى كريب : «يا ويلى أمر ابن آدم بالسجود فسجد : فله الجنة ، وأمر بالسجود فأبىته فلى النار» .

(٤٤) هذان خصمان اختصموا فى ربهم :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٦٦، ٣٩٦٩) والتفسير (٤٧٤٣) ومسلم فى التفسير (٣٠٣٣) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٣٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : نزلت ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ فى ستة من قريش : على وحمة وعبيدة بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة . ورواه البخارى فى المغازى (٣٩٦٥) .

(٣٩٦٧) والتفسير (٤٧٤٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أنا أول من يجثو بين يدي الرحمان للخصومة يوم القيامة»، وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت ﴿هَٰذَا خِصْمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رُءُوسِهِمَا﴾ قال هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة.

(٤٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني ٥٣٦/٢.

(٤٦) لو أن مقععا من حديد:

رواه أحمد في مسنده (٢٧٦٢٣) من حديث أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مقععا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض». وذكره السيوطي في «الدر المنثور»، ونسبه لأبي يعلى وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في البعث، وزاد فيه: «ولو ضرب الجبل بمقمع من حديد لتفتت ثم عاد كما كان».

(٤٧) تفسير الفخر الرازي.

(٤٨) إن الله كتب الحسنات والسيئات:

رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩١) ومسلم في الإيمان (١٣١) وأحمد في مسنده (٢٥١٥) وأحمد في مسنده (٢٧٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة». ورواه البخاري في التوحيد (٧٥٠١) ومسلم في الإيمان (١٢٨، ١٣٠) وأحمد في مسنده (٧١٥٥) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله إذا أراد عبيد أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها فإن علمها فاعتبوا بها مثلاً، وإن تركها من أجل أن تكتبوها له حسنة، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاعتبوا بها له حسنة، فإن عملها فاعتبوا بها له بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف». ورواه مسلم في الإيمان (١٦٢) من حديث أنس أنَّهُ ذكره لحديث الإسراء والمعراج وفيه: «حتى قال يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى...» الحديث.

(٤٩) تفسير الفخر الرازي.

(٥٠) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر:

رواه البخاري في الشهادات (٢٤٦٠)، والأدب (٥٥١٩، ٥٥٢٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٦، ١٢٨)، وأحمد (١١٨٨٦، ١٩٤٩٩، ١٩٤٩٩).

(٥١) عدلت شهادة الزور بالشرك بالله:

رواه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٩)، والترمذي في الشهادات (٢٣٠٠) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٧٢) (١٨٤١٩) من حديث خريم بن فاتك الأسدي أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح فلما انصرف قام قائما فقال: «عدلت

شهادة الزور بالشرك بالله». ثلاث مرات ، ثم تلا هذه الآية ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ إلى آخر الآية . قال أبو عيسى : هذا عندى أصح ، وخريم بن فاتك له صحبة وقد روى عن النبي ﷺ أحاديث وهو مشهور . ورواه الترمذى فى الشهادات (٢٢٩٩) وأحمد فى مسنده (١٧٥١) من حديث أيمن بن خريم أن النبي ﷺ قام خطيباً فقال : «أيها الناس ، عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله». ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ . قال أبو عيسى : وهذا حديث غريب إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد ، واختلفوا فى رواية هذا الحديث عن سفيان بن زياد ولا تعرف لأيمن بن خريم سماعاً من النبي ﷺ .

(٥٢) الثقى هاهنا :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) والترمذى فى البر (١٩٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠ ، ٨٠٤٢) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» .

(٥٣) أهدى عمر بن الخطاب نجيباً :

رواه أبو داود فى المناسك (١٧٥٦) وأحمد فى مسنده (٦٢٨٩) من حديث ابن عمر قال : أهدى عمر بن الخطاب نجيباً فأعطى بها ثلاث مائة دينار فأتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أهديت نجيباً فأعطيت بها ثلاث مائة دينار فأبأبعتها وأشتري بثمانها بدناً ، قال : «لا ، انحرها إياها» .

(٥٤) إنما سمي الله البيت العتيق :

رواه الترمذى فى التفسير (٣١٧٠) من حديث عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سمي البيت العتيق لأنه لم يظهر عليه جبار» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . قال السيوطى فى «الدر المنثور» : وأخرج البخارى فى تاريخه ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل ، عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما سمي البيت العتيق : لأن الله أعتقه من الجبابة فلم يظهر عليه جبار قط» . قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : على شرط مسلم ، وأقره الذهبى ، وأقول : فيه عبد الله بن صالح كاتب الليث ، ضعفه الأئمة ، وبغية رجاله ثقات .

(٥٥) سنة أبيكم إبراهيم :

رواه ابن ماجه فى الأضاحى (٣٢١٧) وأحمد فى مسنده (١٨٧٩٧) من حديث زيد بن أرقم ، قال أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما هذه الأضاحى ؟ قال : «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا : فما لنا فيها يا رسول الله ؟ قال : «بكل شجرة حسنة» قالوا : فالصوف يا رسول الله ؟ قال : «بكل شجرة من الصوف حسنة» . وذكره الترمذى فى الأضاحى تعليقاً بقوله : ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «الأضحية لصاحبها بكل شجرة حسنة» . ويروى بقرونها .

(٥٦) بكشين أملحين :

رواه البخارى فى الأضاحى (٥٥٥٨ - ٥٥٦٤ ، ٥٥٦٥) ومسلم فى الأضاحى (١٩٦٦) من حديث أنس قال : ضحى النبي ﷺ بكشين أملحين ، فأريته واضعاً قدمه على صفاحهما يسمى ويكبر فذبحهما بيده .

(٥٧) ابعتها قياما مقيدة :

رواه البخارى فى الحج (١٧١٣) ومسلم فى الحج (١٣٢٠) من حديث زياد بن جبير قال : رأيت ابن عمر رضى الله عنهما أتى على رجل قد أناخ بدنته ينحرها ، قال : ابعتها قياما مقيدة سنة محمد ﷺ .

(٥٨) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) وابن ماجه فى الزهد (٤١٤٣) وأحمد فى مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

(٥٩) الأملح : الذى يباهه أكثر من سواده .

(٦٠) الصفاح : الجواب ، والمراد : الجانب الواحد من وجه الأضحية ، وإنما تئى إشارة إلى أنه فعل ذلك فى كل منهما .

(٦١) البلدة عن سبعة والبقرة عن سبعة :

رواه مسلم فى الحج (١٣١٨) وأبو داود فى الضحايا (٢٨٠٩) والترمذى فى الحج (٩٠٤) والأصاحى (١٥٠٢) وابن ماجه فى الأصاحى (٣١٣٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧١٣) من حديث جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة .

(٦٢) راح فكأنما قرب بدنة :

رواه البخارى فى الجمعة (٨٨١) ومسلم فى الجمعة (٨٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» .

(٦٣) عليه يشير إلى الآية ٩ من سورة الأحزاب ، وكذلك الآيات ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ من سورة الأحزاب حيث يقول سبحانه : ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ (الأحزاب : ٢٥) .

(٦٤) فى سورة هود ذكر القرآن قصة نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، وشعيب مع مدین ، وموسى مع فرعون ، وقد نصر الله فى هذا القصص الرسل وأهلك المكذبين ، وانظر الآية (٩٢٠ هود) .

(٦٥) تفسر مقال بن سليمان ، (٨٠ - ١٥٠هـ) تحقيق د . عبد الله شحاته ، المجلد الثالث طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ص ١٣٠ .

(٦٦) إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخارى فى التفسير باب : قوله : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم شديدا﴾ (٤٤٠٩) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . قال : ثم قرأ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم شديدا﴾ .

(٦٧) إن التور إذا قلب به في القلب اتسع له الصدر وانشرح :

قال السيوطي في «الدر المنثور» : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿المن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يارسول الله ، كيف انشراح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح . قلنا يارسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقي في تخريج الإحياء : رواه الحاكم في المستدرک ، من حديث ابن مسعود .

(٦٨) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى في بدء الخلق (٣٢٤٤) ، والتفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، والتوحيد (٧٤٩٨) ومسلم في الجنة (٢٨٢٤) ، والترمذى في التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١) ، والدارمى في الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٦٩) تفسير المراعى ١٧/١٣٠ .

(٧٠) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من العلماء بالأزهر ، حزب ٣٤ ، ص ١٢٣٩ .

(٧١) انظر أيضًا تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب .

(٧٢) انظر تفسير الفخر الرازى للآية .

(٧٣) التفسير الوسيط ، تأليف لجنة من علماء الأزهر ، ص ١٢٤٦ بتصرف .

(٧٤) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاته ١٣٥/٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٧٥) تفسير مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبد الله شحاته ١٣٧/٣ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٧٦) تفسير القرطبي ٤٦١٣/٥ ط ٢ دار الغد العربى ٣ ش دانش العباسية القاهرة .

(٧٧) تفسير القرطبي ٤٦١٣/٥ ط ٢ دار الغد العربى ٣ ش دانش العباسية القاهرة .

(٧٨) كتب الله مقادير الخلاق قبل أن يخلق السماوات :

رواه مسلم في القدر (٢٦٥٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كتب الله مقادير الخلاق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء» .

(٧٩) أول ما خلق الله القلم :

أخرجه الترمذى (٣٣١٩ ، ٢١٥٥) ، وأبو داود (٤٧٠٠) ، وأحمد (٢٢١٩٧ و ٢٢١٩٩) ، من حديث عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - . وقال الترمذى : حسن غريب . وقال الشيخ الألبانى : صحيح .

(٨٠) انظر تفسير الكشاف حيث قال : «لأن قلت : الذى جاء به سبحانه ليس بمثل ، فكيف سماء مثلا ؟ قلت : قد سميت الصفة أو القصة الرعاة المتخافة بالاستغراب مثلا ، تشبيها لها ببعض الأمثال السائرة لكونها مستحسنة مستغربة» .

(٨١) ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى :

رواه البخارى فى اللباس (٥٩٥٣) وأحمد فى مسنده (٧١٢٦) من حديث أبى هريرة أنه رأى مصورا يصور قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا حبة وليخلقوا ذرة» ، ثم دعا بتور من ماء فغسل يديه حتى بلغ إبطه فقلت : يا أبا هريرة شئ سمعته من رسول الله ﷺ قال : منتهى الحلية .

(٨٢) تفسير السلفى ١١١/٣ .

(٨٣) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر :

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٤) والترمذى فى الفتن (٢١٧٤) وابن ماجه فى الفتن (٤٠١١) وأحمد فى مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبى سعيد . وقال الترمذى : حديث غريب . ورواه النسائى فى البيعة (٤٢٠٩) وأحمد فى مسنده (١٨٣٥٩ ، ١٨٣٤٩) من حديث طارق بن شهاب . ورواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠١٢) وأحمد فى مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبى أمامة .

(٨٤) «يجىء نوح وأمه :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٩) والتفسير (٤٤٨٧) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «يجىء نوح وأمه فيقول الله تعالى : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، أى رب ، فيقول لأمه : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد ﷺ وأمه ، فنشهد أنه قد بلغ ، وهو قوله جل ذكره : ﴿وذلكم جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ . والوسط : العدل .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله وبها تم الجزء (السابع عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
-	تفسير سورة الأنبياء	٣٢٤٣
-	أهداف سورة الأنبياء	٣٢٤٤
١	﴿اقترب للناس حسابهم...﴾	٣٢٤٨
٢	﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث...﴾	٣٢٤٨
٣	﴿لا هيبة قلوبهم وأسروا النجوى...﴾	٣٢٤٨
٤	﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض...﴾	٣٢٤٨
٥	﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء...﴾	٣٢٤٨
٦	﴿ماء امت قبلهم من قرية أهلكناها...﴾	٣٢٤٨
٧	﴿وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم...﴾	٣٢٥٢
٨	﴿وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام...﴾	٣٢٥٢
٩	﴿ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم...﴾	٣٢٥٢
١٠	﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم...﴾	٣٢٥٢
١١	﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة...﴾	٣٢٥٦
١٢	﴿فلما أحسوا بأسنا...﴾	٣٢٥٦
١٣	﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه...﴾	٣٢٥٦
١٤	﴿قالوا يا ويلى لنا...﴾	٣٢٥٦
١٥	﴿فما زالت تلك دعواهم...﴾	٣٢٥٦
١٦	﴿وما خلقنا السماء والأرض...﴾	٣٢٥٩
١٧	﴿لو أردنا أن نتخذ لهم اتخذناه...﴾	٣٢٥٩
١٨	﴿بل نقذف بالحق على الباطل...﴾	٣٢٥٩
١٩	﴿ولنه من في السماوات والأرض...﴾	٣٢٥٩
٢٠	﴿يسبحون الليل والنهار...﴾	٣٢٥٩
٢١	﴿أم اتخذوا الهة من الأرض...﴾	٣٢٦٣
٢٢	﴿لو كان فيهما الهة إلا الله لفسدتا...﴾	٣٢٦٣
٢٣	﴿لا يسأل عما يفعل...﴾	٣٢٦٣
٢٤	﴿أم اتخذوا من دونه الهة...﴾	٣٢٦٣
٢٥	﴿وما أرسلنا من قبلك إلا نوحى إليه...﴾	٣٢٦٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٦	﴿وقالوا اتخذ الرحمان ولدا...﴾	٣٢٦٣
٢٧	﴿لا يسبقونه بالقول...﴾	٣٢٦٣
٢٨	﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم...﴾	٣٢٦٣
٢٩	﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه...﴾	٣٢٦٣
٣٠	﴿أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا...﴾	٣٢٦٩
٣١	﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تعمد بهم...﴾	٣٢٦٩
٣٢	﴿وجعلنا السماء سقفا محفوظا...﴾	٣٢٦٩
٣٣	﴿وهو الذي خلق الليل والنهار...﴾	٣٢٦٩
٣٤	﴿وجعلنا لبشر من قبلك الخلد...﴾	٣٢٧٢
٣٥	﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾	٣٢٧٢
٣٦	﴿ولذا رآك الذين كفروا...﴾	٣٢٧٢
٣٧	﴿خلق الإنسان من عجل...﴾	٣٢٧٧
٣٨	﴿ويقولون متى هذا الوعد...﴾	٣٢٧٧
٣٩	﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار...﴾	٣٢٧٧
٤٠	﴿بل تأتيهم بغتة فتبهمتهم...﴾	٣٢٧٧
٤١	﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك...﴾	٣٢٧٧
٤٢	﴿قل من يكلوكم بالليل والنهار...﴾	٣٢٨٢
٤٣	﴿أم لهم إلهة تمنعهم من دوننا...﴾	٣٢٨٢
٤٤	﴿بل تمنعنا هوائهم وإبائهم...﴾	٣٢٨٢
٤٥	﴿قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء...﴾	٣٢٨٢
٤٦	﴿ولئن مستهم نفحة من عذاب ربي...﴾	٣٢٨٢
٤٧	﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة...﴾	٣٢٨٢
٤٨	﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان...﴾	٣٢٨٧
٤٩	﴿الذين يخشون ربهم بالغيب...﴾	٣٢٨٧
٥٠	﴿وهذا نكرم مبارك أنزلناه...﴾	٣٢٨٧
٥١	﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل...﴾	٣٢٨٩
٥٢	﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل...﴾	٣٢٨٩
٥٣	﴿قالوا وجدنا آبائنا على هذا...﴾	٣٢٨٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٤	﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ...﴾	٣٢٨٩
٥٥	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ...﴾	٣٢٨٩
٥٦	﴿قَالَ بَلْ رِيكُمْ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٣٢٨٩
٥٧	﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ...﴾	٣٢٨٩
٥٨	﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا...﴾	٣٢٨٩
٥٩	﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا...﴾	٣٢٨٩
٦٠	﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ...﴾	٣٢٨٩
٦١	﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ...﴾	٣٢٨٩
٦٢	﴿قَالُوا وَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا...﴾	٣٢٨٩
٦٣	﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا...﴾	٣٢٨٩
٦٤	﴿فَرَجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا...﴾	٣٢٨٩
٦٥	﴿ثُمَّ نَكْسِوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ...﴾	٣٢٨٩
٦٦	﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ...﴾	٣٢٩٤
٦٧	﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	٣٢٩٤
٦٨	﴿قَالُوا احْرَقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ...﴾	٣٢٩٤
٦٩	﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا...﴾	٣٢٩٤
٧٠	﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا...﴾	٣٢٩٤
٧١	﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلَوَطَّا إِلَى الْأَرْضِ...﴾	٣٢٩٧
٧٢	﴿وَرَمَيْنَاهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً...﴾	٣٢٩٧
٧٣	﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾	٣٢٩٧
٧٤	﴿وَلَوَطَّا أَتَيْنَاهُ حَكَمًا وَعِلْمًا...﴾	٣٢٩٧
٧٥	﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا...﴾	٣٢٩٧
٧٦	﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ...﴾	٣٣٠٠
٧٧	﴿وَنَصْرْنَاهُ مِنَ الْقَوَى الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا...﴾	٣٣٠٠
٧٨	﴿وِدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ...﴾	٣٣٠٢
٧٩	﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَامَاتِنَا حَكَمًا وَعِلْمًا...﴾	٣٣٠٢
٨٠	﴿وَعَامَلْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ...﴾	٣٣٠٢
٨١	﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ...﴾	٣٣٠٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٢	﴿ومن الشياطين من يغوصون له...﴾	٣٣٠٢
٨٣	﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر...﴾	٣٣٠٨
٨٤	﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر...﴾	٣٣٠٨
٨٥	﴿واسماعيل وإدريس وذا الكفل...﴾	٣٣١٠
٨٦	﴿وأدخلناهم فى رحمتنا...﴾	٣٣١٠
٨٧	﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا...﴾	٣٣١٢
٨٨	﴿فاستجبنا له ونجينا من الغم...﴾	٣٣١٢
٨٩	﴿وزكريا إذ نادى ربه لا تذرنى فردا...﴾	٣٣١٥
٩٠	﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى...﴾	٣٣١٥
٩١	﴿والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها...﴾	٣٣١٦
٩٢	﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة...﴾	٣٣١٧
٩٣	﴿وتقطعوا أمرهم بينهم...﴾	٣٣١٧
٩٤	﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن...﴾	٣٣١٧
٩٥	﴿وحرام على قرية أهلكتها...﴾	٣٣١٧
٩٦	﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج...﴾	٣٣١٧
٩٧	﴿واقترب السوء والحق...﴾	٣٣١٧
٩٨	﴿إنكم وما تعبدون من دون الله...﴾	٣٣٢٢
٩٩	﴿لو كان هؤلاء الله ما وردوها...﴾	٣٣٢٢
١٠٠	﴿لهم فيها زفير...﴾	٣٣٢٢
١٠١	﴿إن الذين سبق لهم منا الحسنى...﴾	٣٣٢٢
١٠٢	﴿لا يسمعون حسيسها...﴾	٣٣٢٢
١٠٣	﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر...﴾	٣٣٢٢
١٠٤	﴿يوم نطوى السماء كطى السجل...﴾	٣٣٢٢
١٠٥	﴿ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر...﴾	٣٣٢٧
١٠٦	﴿إن فى هذا لبيلاغا...﴾	٣٣٢٧
١٠٧	﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين...﴾	٣٣٢٧
١٠٨	﴿قل إنما يوحى إلى أنما إلهكم...﴾	٣٣٣١
١٠٩	﴿فإن تولوا فقل ءأذنكم على سواء...﴾	٣٣٣١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٠	﴿إِنَّهٗ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ...﴾	٣٣٣١
١١١	﴿وَأَنْ أَدْرِي لَعَلَّاهُ فَتَنْتَنَةً...﴾	٣٣٣١
١١٢	﴿قَالَ رَبُّ احْكُم بِالْحَقِّ...﴾	٣٣٣١
-	(خلاصة ما تضمنته سورة الأنبياء)	٣٣٣٥
-	تفسير سورة الحج	٣٣٣٧
-	أهداف سورة الحج	٣٣٣٨
١	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...﴾	٣٣٤٢
٢	﴿يَوْمَ تَرُونَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ...﴾	٣٣٤٣
٣	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾	٣٣٤٦
٤	﴿كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ...﴾	٣٣٤٦
٥	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ...﴾	٣٣٤٧
٦	﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى...﴾	٣٣٤٧
٧	﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا...﴾	٣٣٤٧
٨	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾	٣٣٥٢
٩	﴿ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٣٣٥٢
١٠	﴿ذَلِكَ بِمِمَّا قَدَّمْتِ يَدَاكَ...﴾	٣٣٥٢
١١	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ...﴾	٣٣٥٤
١٢	﴿يَدْعُو مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ...﴾	٣٣٥٤
١٣	﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ...﴾	٣٣٥٤
١٤	﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٣٣٥٦
١٥	﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾	٣٣٥٧
١٦	﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ...﴾	٣٣٥٧
١٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا...﴾	٣٣٥٩
١٨	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ...﴾	٣٣٦٠
١٩	﴿هَذَا خِطْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾	٣٣٦٢
٢٠	﴿يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ...﴾	٣٣٦٢
٢١	﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ...﴾	٣٣٦٢
٢٢	﴿كَلِمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا...﴾	٣٣٦٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٣	﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ...﴾	٣٣٦٢
٢٤	﴿وَمَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ...﴾	٣٣٦٢
٢٥	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٣٣٦٧
٢٦	﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ...﴾	٣٣٧٠
٢٧	﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾	٣٣٧٠
٢٨	﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ...﴾	٣٣٧٠
٢٩	﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ...﴾	٣٣٧٠
٣٠	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾	٣٣٧٥
٣١	﴿حَنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ...﴾	٣٣٧٥
٣٢	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾	٣٣٧٥
٣٣	﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى...﴾	٣٣٧٥
٣٤	﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ...﴾	٣٣٧٩
٣٥	﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾	٣٣٧٩
٣٦	﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾	٣٣٨١
٣٧	﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا...﴾	٣٣٨١
٣٨	﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾	٣٣٨٥
٣٩	﴿وَأَن لِّلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا...﴾	٣٣٨٥
٤٠	﴿وَالَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾	٣٣٨٥
٤١	﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾	٣٣٨٥
٤٢	﴿وَأَن يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾	٣٣٩٢
٤٣	﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ...﴾	٣٣٩٢
٤٤	﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى...﴾	٣٣٩٢
٤٥	﴿فَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾	٣٣٩٢
٤٦	﴿فَأَمْلَأْ مِنْهُمُ الْغُلَّ وَجَعَلْنَا لِقَابَ الْكَافِرِينَ...﴾	٣٣٩٢
٤٧	﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾	٣٣٩٦
٤٨	﴿وَكَأَيُّ مَن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ...﴾	٣٣٩٦
٤٩	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾	٣٣٩٦
٥٠	﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٣٣٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥١	﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى ءَايَاتِنَا مُعَاجِزِينَ...﴾	٣٣٩٦
٥٢	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى...﴾	٣٣٩٩
٥٣	﴿وَلِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً...﴾	٣٣٩٩
٥٤	﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...﴾	٣٣٩٩
٥٥	﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى مَرِئَةٍ مِنْهُ...﴾	٣٣٩٩
٥٦	﴿وَالْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ...﴾	٣٣٩٩
٥٧	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾	٣٣٩٩
٥٨	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا...﴾	٣٤٠٦
٥٩	﴿وَلِيَدْخُلْنَهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَ...﴾	٣٤٠٦
٦٠	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٦
٦١	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٦
٦٢	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٦
٦٣	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٩
٦٤	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٩
٦٥	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٩
٦٦	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٠٩
٦٧	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٢
٦٨	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٢
٦٩	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٢
٧٠	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٥
٧١	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٥
٧٢	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٥
٧٣	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٩
٧٤	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٩
٧٥	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٩
٧٦	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤١٩
٧٧	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٢٢
٧٨	﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ...﴾	٣٤٢٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	خلاصة ما تضمنته سورة الحج	٣٤٢٨
—	تخريج أحاديث وهوامش	٣٤٢٩
—	فهرس الكتاب	٣٤٤١

تم بحمد الله الجزء (السابع عشر)

ويليه الجزء (الثامن عشر) بإذن الله

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

**دار غريب**
الطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة المؤمنون

أهداف سورة المؤمنون

سورة «المؤمنون» مكية ، وآياتها ١١٨ آية ، نزلت بعد الأنبياء ، وسميت سورة «المؤمنون» لافتتاحها بفلاح المؤمنين .

المؤمنون والإيمان :

تبدأ السورة بذكر صفات المؤمنين ثم يستطرد السياق فيها إلى دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، ثم إلى حقيقة الإيمان كما عرضها رسل الله - صلوات الله عليهم - من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد ﷺ خاتم الرسل والأنبياء ، وشبهات المكذبين حول هذه الحقيقة واعتراضاتهم عليها ؛ ووقوفهم في وجهها؛ حتى يستتصر الرسل ربهم ، فيهلك المكذبين وينجي المؤمنين ... ثم يستطرد إلى اختلاف الناس بعد الرسل في تلك الحقيقة الواحدة التي لا تتعدد ... ومن هنا يتحدث عن موقف المشركين من الرسول ﷺ ويستنكر هذا الموقف الذي ليس له مبرر وتنتهي السورة بمشهد من مشاهد القيامة يلقون فيه عاقبة التكذيب ، ويؤنبون على ذلك الموقف المريب ، وتختتم السورة بتعقيب يقرر التوحيد المطلق والتوجه إلى الله بطلب الرحمة والغفران ... فهي سورة «المؤمنون» أو هي سورة الإيمان بكل قضاياها ودلائله وصفاته وهو موضوع السورة ومحورها الأصيل .

الأقسام الرئيسية في السورة :

يمضي سياق سورة «المؤمنون» في أربعة أقسام رئيسية تتناول تاريخ الدعوة وحاضرها وتسوق الأدلة الحسية والنفسية على الإيمان بالله .

القسم الأول :

يبدأ القسم الأول بتقرير الفلاح للمؤمنين :

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .

ويبين صفات المؤمنين هؤلاء الذين كتب لهم الفلاح ، ويثني بدلائل الإيمان في الأنفس والآفاق فيعرض أطوار الحياة الإنسانية منذ نشأتها الأولى إلى نهايتها في الحياة الدنيا ، متوسعا في عرض أطوار الجنين ، مجملا في عرض المراحل الأخرى ... ثم يتابع خط الحياة البشرية إلى البعث يوم القيامة ، وبعد ذلك ينتقل من الحياة الإنسانية إلى الدلائل الكونية : في إنزال الماء ، وفي إنبات الزرع والثمار ، ثم إلى الأنعام المسخرة للإنسان ، والفلك التي يُحْمَلُ عليها ، وعلى الحيوان .

ويستغرق هذا القسم من أول السورة إلى الآية ٢٢.

القسم الثاني :

يشير القسم الثاني إلى قصة نوح - عليه السلام - وهلاك الكافرين ، ثم يتبع ذلك ببيان سنة الله في إرسال الرسل لهداية الناس ، وإبلاغهم كلمة الحق والإيمان ، ودعوتهم إلى الله ، فيقول نوح لقومه : **يُنْقُومُ آغْبِدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ** ... (المؤمنون : ٢٢) .

ويقول هذه الحقيقة كل نبي ورسول : يقولها موسى ، ويقولها عيسى ، ويقولها محمد ﷺ ، ويكون اعتراض المكذبين دائما : **مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ... (المؤمنون : ٢٣) .

ويقدم الكفار عددا من الحجج والأدلة على تكذيبهم ، فيلجأ الرسل إلى ربهم يطلبون نصره : فيستجيب سبحانه وينجي المؤمنين ويهلك الكافرين .

قال تعالى : **لَمَّا أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَفَرَّا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَبُوهُ فَآتَيْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** . (المؤمنون : ٤٤) .

وينتهي هذا القسم ببيان وحدة الرسالات ووحدة الأمم المؤمنة ، فالرب واحد ، والإيمان واحد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** • **وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** . (المؤمنون : ٥١ ، ٥٢) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٢٣ - ٥٢ .

القسم الثالث :

يتحدث القسم الثالث عن تفرق الناس بعد وصول الرسل إليهم ، وتنازعهم حول تلك الحقيقة الواحدة التي جاء بها الرسل : **فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** . (المؤمنون : ٥٣) .

ثم يتحدث عن غفلتهم عن ابتلاء الله لهم بالنعمة ، واغترارهم بما هم فيه من متاع ، بينما المؤمنون مشفقون من خشية ربهم يعبدونه ولا يشركون به ، ويخشون غضبه ويرجون رحمته ، وهنا يرسم مشهدا لأولئك الغافلين المغرورين يوم يأخذهم العذاب فإذا بهم يجأرون ، فيأخذهم التوبيخ والتأنيب :

فَذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قُلُوبٌ غَالِيَةٌ أَغْضَيْكُمْ يُنْكِرُونَ • **مُتَكَبِّرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْتَرُونَ** . (المؤمنون : ٦٦ ، ٦٧) .

ويستنكر السياق موقفهم العجيب من رسولهم الأمين ، وهم يعرفونه ولا ينكرونه ، وقد جاءهم بالحق لا يسألهم عليه أجرا ، فماذا ينكرون منه ومن الحق الذي جاءهم به ؟ وهم يسلمون بملكية الله لمن فى السماوات والأرض ، وربوبيته للسماوات والأرض ، وسيطرته على كل شئ فى السماوات والأرض ، وبعد هذا التسليم هم ينكرون البعث ويزعمون لله ولذا سبحانه ! ويشركون به آلهة أخرى : **غَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** . (المؤمنون : ٩٢) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٥٣ - ٩٢ .

القسم الرابع :

فى القسم الرابع والأخير حث للرسول أن يدعهم وشركهم وزعمهم ، وأن يدفع السيئة بالتي هى أحسن وأن يستعِذ بالله من الشياطين فلا يغضب ولا يضيق صدره بما يقولون .. ثم يرسم السياق مشهداً من مشاهد القيامة يصور ما ينتظرهم هناك من عذاب ومهانة وتأنيب . ويختتم السورة بتنزيه الله سبحانه : **فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ** . (المؤمنون : ١١٦) .

وينفى الفلاح عن الكافرين ، ليناسب ابتداءها بإثباته للمؤمنين ، وفى آخر آية أمر للنبي ﷺ أن يتوجه إلى الله بطلب المغفرة والرحمة : **وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ** . (المؤمنون : ١١٨) .

ويستغرق هذا القسم الآيات من ٩٣ - ١١٨ .

مظاهر عامة للسورة

جو السورة كلها جو البيان والتقرير ، وجو الجدال الهادئ ، والمنطق الوجداني واللمسات الموحية للفكر والضمير ، والروح السارية فى السورة هى روح الإيمان ففى مطلعها مشهد الخشوع فى الصلاة ، وفى وسطها مدح للإيمان والإحسان : **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ آلَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** . (المؤمنون : ٦٠) .

وفى اللمسات الوجدانية تجد قوله سبحانه : **وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** . (المؤمنون : ٧٨) .

وكلها مظلمة بذلك الظل الإيماني اللطيف ^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪ ﴾

المضردات :

الفسلاح ، الظفر بالمراد ، والإفلاح : الدخول فى الغلاح ، كالأبشار الدخول فى البشارة .

خاشعون ، خاضعون متذللون .

اللسغو ، هجر القول وقبحه .

الزكاة ، تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .

الفسرج ، سوء الرجل والمرأة .

حافظون ، متعففون عن الحرام .

وراء ذلك ، غير ذلك .

السادون ، المبالغون فى العدوان ومجاورة الحدود الشرعية .

راعون ، حافظون ، وأصل الرعى : حفظ الحيوان وتغذيته ، ثم استعمل فى الحفظ مطلقا .

الفسردوس ، أعلى درجات الجنان فى الآخرة .

التفسير :

١، ٢- قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ « الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .

هذه سورة «المؤمنون» ، وقد بدأت السورة بذكر صفات المؤمنين ؛ وهي :

- ١ - الخشوع فى الصلاة .
- ٢ - البعد عن اللغو .
- ٣ - إيتاء الزكاة .
- ٤ - البعد عن الزنا واللواط والانحراف .
- ٥ - أداء الأمانة .
- ٦ - الوفاء بالعهد .
- ٧ - المحافظة على الصلاة .

وجزاؤهم هو الفردوس الأعلى فى الجنة ، وهى منزلة سامية تستحق كل تضحية ، فلنتأمل الصفات التى استحقوا بها هذه المنزلة .

الخشوع فى الصلاة :

خشوع الصلاة روحها وحقيقتها ، ويقصد به حضور القلب ، والتأمل فى تلاوة القرآن ، وفى أداء الأركان ، واليقظة والتفهم لما يؤديه المسلم ، وهو واقف أمام الله تعالى .
جاء فى تفسير ابن كثير :

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها ، واشتغل بها عما عداها ، وآثرها على غيرها؛
وحينئذ تكون راحة له ، وقرة عين .

روى الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ، ثم قرأ : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . حتى ختم العشر^(١) .

وقال النسائى فى تفسيره ، عن يزيد بن أبينوس قال : قلنا لعائشة أم المؤمنين : كيف كان خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ؛ فقرأت : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . - حتى انتهت إلى : وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . قالت : هكذا كان خلق رسول الله ﷺ^(٢) .

إن الفلاح والنجاح والسعادة الحقة فى التزام المؤمن بأمر الله ، وتركيز ذهنه فى الصلاة ، ومراقبة مولاه ؛ وهو قائم بين يديه؛ فيتذكر عظمة الله وفضله ، ونعمه عند قراءة الفاتحة، ويؤدى الركوع فى خضوع، وكذلك يشكر الله ويحمده عند الرفع من الركوع ، ويقيم صلبه فى الصلاة حتى يعود كل فقار إلى موضعه ، ثم يسجد على سبعة أعظم ، وهى : الجبهة، واليدين، والركبتين، والرجلين ، ويكون سعيدًا بمناجاة الله ومنااداته وعبادته ، وإذا سها أو انشغل فى الصلاة ، عاد واسترد الخشوع والاستقرار ؛ ومما يساعد على

الخشوع ، نظر المصلّى إلى موضع سجوده قائما ، وإلى قدميه راکعا ، وإلى حجره جالسا ، وإلى أرنبة أنفه ساجداً ، ويحاول استحضار عظمة الله ومناجاته .

أخرج الإمام أحمد ، والنسائي ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ قال : «حُب إلى الطيب ، والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» ^(١) .

وقال أبو الدرداء : الخشوع هو : إخلاص المقال ، وإعظام المقام ، واليقين التام ، وجمع الاهتمام .

٣ - وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ .

لقد استفادوا من خشوع الصلاة ، وحسن سَمَتهم ، وإخلاصهم لربهم ، وتجردهم في مقابلة الله ، والانشغال به عن كل ما سواه . استفادوا من ذلك ، الجِد والعمل والاستقامة ، والإعراض عن اللغو والسبِّ والشتم وكل ما يعيب .

إن المؤمن على ثغرة من ثغور الإسلام : فهو ذاكر لله تعالى ، أو قارئ للقرآن ، أو نارس لللسنة المطهرة ، أو متفقه في شئون الدين ، أو متدارس مع إخوانه عوامل نفع المؤمنين وجمع كلمتهم ، ودفع العدوان عليهم ، وللمؤمن من إيمانه بالله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه : ما يعصمه عن اللغو ، وهو كل كلام ساقط حقه أن يلغى ، كالكذب والهزل والسبِّ ، وعن كل ما لا فائدة فيه ، ومن الأسف أن يضيع وقت المسلمين في لعب النرد ، والجلوس على المقاهى ، وارتياح الملاهى ، والانشغال بالسفاسف ، وترك الجِد والعمل والتقدم والنشاط والانشغال بالعلوم والفنون .

حتى أصبحت جماهير المسلمين تصنف ضمن العالم الثالث ، ولا سبيل إلى التقدم ، إلا بالعمل والأمل ، والجِد وإعداد العدة والقوة .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

٤ - وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ .

من صفات المؤمنين إخراج الزكاة ، وهى لغة : النماء والزيادة ، وشرعا : تملك مال مخصوص ، لشخص مخصوص ، وهى فى معناها البسيط : معونة الفقير بجزء من المال ، وهى فريضة محكمة ، ثبتت فريضتها بالكتاب والسنة والإجماع ، وقد حث الدين على أدائها ، وتوعّد تارك الزكاة بعذاب السعير ، كما اُتكر الأمر بها فى القرآن الكريم ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية .

قال تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (البقرة: ١١٠).

والزكاة طريق للتكافل الاجتماعي، والتراحم والتعاون بين الأغنياء والفقراء، والمؤمن يؤدي زكاة ماله، ويتطوع بالصدقات؛ تفاديا للشح والبخل ونفورا من طاعة الشيطان، الذي يحث على الإمساك والبخل.

قال تعالى: «الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (البقرة: ٢٦٨).

وقال ﷺ: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا»^(١).

أنواع الزكاة

الأنواع التي تجب فيها الزكاة شرعا خمسة:

١ - الذهب والفضة، ويلحق بها النقود والأوراق المالية بأنواعها، وأسهم الشركات؛ فتجب فيها الزكاة على أساس قيمتها.

٢ - البضائع التجارية.

٣ - المحصولات الزراعية وثمار الأشجار والكروم.

٤ - الحيوانات السائمة وغير السائمة من الإبل والبقر والغنم.

٥ - المعادن والكنوز والبتروول.

ويشترط في المال الذي تجب فيه الزكاة ما يأتي:

(أ) أن يكون مملوكا لصاحبه ملكا تاما.

(ب) أن يبلغ هذا المال النصاب.

(ج) أن تمضي سنة قمرية على هذا النصاب، وهو مملوك لصاحبه ملكا تاما.

أما زكاة الزروع والثمار فإنها تجب عند الحصاد.

قال تعالى: «وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ... (الأنعام: ١٤١).

٧، ٦، ٥- وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ .

ومن صفات المؤمنين العفة والاستقامة ، والبعد عن الزنا واللواط ، وفي الحديث الشريف : «من يضمن ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة»^(١) .

فالمؤمن يحفظ فرجه عن الحرام ، وكذلك المؤمنة ، والتسامي بالفرائض ، والبعد عن الشهوات : أمر دعا إليه القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول الأمين ، قال تعالى : وَتُتَّقِفُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ كِتَابًا حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... (النور : ٣٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «ما ظهرت الفاحشة في قوم يُعامل بها علانية : إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فيمن قبلهم»^(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «يا معشر الناس ، اتقوا الزنا ، فإن فيه ست خصال ، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة ، أما التي في الدنيا : فيورث الفقر ، ويذهب البهاء ، وينقص العمر ، وأما التي في الآخرة : فسخط الله ، وسوء الحساب ، وعذاب النار» .

وقد أحل الله الزواج وحث عليه ، قال تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ فَقَرَّاءَ يُمْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (النور : ٣٢) .

وحرم الله الزنا ونهى عنه ، قال تعالى : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِذَا كَانَ لَكُمْ جُنَّةٌ وَسَاءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

وقال تعالى : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . (النور : ٢) .

والآيات ٥ - ٧ من سورة «المؤمنون» ترسم طريقا للعفة والاستقامة ، والمتعة الحلال : فالمؤمنون يحفظون فروجهم ، وهو كناية عن ستر الفرج وعدم كشف العورة ، وكناية عن البعد عن الزنا واللواط وكل جماع محرّم .

لكن يباح للمؤمن جماع زوجته ، كما يباح للمؤمنة جماع زوجها ، وهذا أمر معروف ، وفي الأثر : «احفظ فرجك إلا عن زوجتك»^(٣) .

وملك اليمين : هي الجارية التي تسبى في قتال بين المسلمين والمشركيين ، وكان الفرس والروم يعاملون المسلمين بمثل ذلك ، وجاء الإسلام والرقّ نهر يجري ، فضيق الإسلام منابعه ، ووسع مصباته ، حتى يجف ذلك النهر : فحرّم الاسترقاق للأحرار ، وحرّم خطف الأطفال ، وحرّم جميع أنواع الاسترقاق ، إلا لأسرى الحرب ، معاملة بالمثل ، وحث الإسلام على عتق الرقاب ، وتحرير الأرقاء ، وجعل تحرير الأرقاء كفارة عن كثير من المخالفات .

قال تعالى : **فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ • وَمَا أَذْرٰىكَ مَا الْعَقَبَةُ • فَكُ رَقَبَةً** . (البقرة : ١١ - ١٣) .

وقال تعالى : **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفِئَةِ فِي إِيْمَانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عٰقَدْتُمُ الْإِيْمَانَ فَكُفِّرُواْ عَنْ عَشْرَةِ مَسْكِيْنَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيْكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ...** (المائدة : ٨٩) .

وخلاصة معنى الآيات ما يأتي :

- ١ - من صفات المؤمنين الاستقامة والعفة .
- ٢ - يباح للمسلم الزواج وجماع زوجته الحلال .
- ٣ - يباح للرجل الاستمتاع بالجارية التي يملكها ، فإذا أنجبت منه صارت أم ولد ، ولا يباح بيعها ، وتعتق إذا مات مالكاها .
- ٤ - المجتمع الإسلامي مجتمع نظيف ، ملتزم بما أحل الله ، مبتعد عما حرم الله .
- ٥ - من وقع في الزنا أو اللواط : صار معتديا على أعراض الآخرين ، مستحقا للعقوبة في الدنيا والعذاب في الآخرة .
- ٦ - الاستمتاع بالإماء خاص بالرجال ، فلا يباح للمرأة الاستمتاع بالعبد بالإجماع ، لأنه مملوك لها ، وليس مالكا فهي قوامة عليه ، بخلاف استمتاع السيد بأمته ، فإنه مالك لها وقوام عليها .

مختصر من تفسير القرطبي :

في الآيات ١ - ١١ من سورة «المؤمنون» تسع مسائل .

المسألة السابعة :

قوله تعالى : **فَمَنْ آتَبَنِي وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰٓئِدُونَ** . فسمى من نكح ما لا يحل عاديها ، وأوجب عليه الحد لدعوته ...

والإجماع منعقد على أن قوله تعالى: **وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرُونَهُمْ حَافِظُونَ** * **إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ** أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ **فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ** . خص به الرجال دون النساء : فقد روى معمر ، عن قتادة قال : تسربت امرأة غلاما ^(٩) فذكر ذلك لعمر فسألها : ما حملك على ذلك ؟ قالت : كنت أراه يحل لى بملك يمينى ، كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين ، فاستشار عمر فى رجمها ، أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا : تأولت كتاب الله على غير تأويله ، فلا رجم عليها ، فقال عمر : لا جرم ، والله لا أحل لك لحر بعدها أبداً . عاقبها بذلك ، ودرأ الحد عنها ، وأمر العبد ألا يقربها .

وعن أبى بكر بن عبد الله أنه سمع أباه يقول : أنا حضرت عمر بن عبد العزيز ، حين جاءته امرأة بغلام لها وضىء ، فقالت : إنى استسررت به : فمئنى بنو عمى من ذلك ، وإنما أنا بمنزلة الرجل تكون له الوليدة فيطوها : فإنه عنى بنى عمى ، فقال عمر : أتزوجت قبله ؟ قالت : نعم . فقال : أما والله لولا منزلتك من الجهالة لرجمتك بالحجارة ، ولكن اذهبوا به فبيعوه إلى من يخرج به إلى غير بلدها .

٨ - **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَءُونَ** .

أى : من صفات المؤمنين أداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وهذا يشمل أداء الأمانة التى أمرهم بها الله ، والتى ائتمنهم عليها الناس ، والوفاء بالعهد : الصدق فيه والالتزام به ، والأمانة لا يرتفع قدرها ، ولا يسمو شأنها ، إلا إذا كان فيها أداء الأمانة ، والوفاء بالعهد .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...**

(النساء : ٥٨)

وقال عز شأنه : **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا** . (الإسراء : ٣٤) .

وإذا فشا فى الأمة خيانة الأمانة وخلف العهد ؛ فذلك إيدان باضمحلال شأنها ؛ لأن هذه صفات المنافقين المخادعين .

قال ﷺ : «ثلاث من كن فيه كان منافقا : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» (رواه البخارى) .

وفى رواية : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» ^(١٠) .

وإخلاصة : إن المؤمنين يؤدون الأمانات ويحافظون عليها ، وكذلك يحافظون على العهود ويلتزمون بها .

٩ - **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** .

والذين يواظبون على الصلاة على أكمل وجه ، فى الأوقات التى رسمها الدين ، وقد بدأ الله صفات المؤمنين بالخشوع فى الصلاة ، وختمها بالمحافظة على الصلاة : أى : الالتزام بأدائها فى أوقاتها ، مستكملة الأركان .

قال في السهيل :

فإن قيل : كيف كرر ذكر الصلوات أولاً وآخراً ؟ فالجواب : أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان ، وكل ذلك يدل على أهمية الصلاة ، فهي أول الأركان ، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وهي آخر ما وصى به رسول الله ﷺ أمته ، حيث كان آخر وصيته : « الصلاة الصلاة ، واستوصوا بالنساء خيراً ، واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم »^(١١) .

وروى الشيخان ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »^(١٢) .

١٠ - أُولَئِكَ هُمُ الزَّوْرُونَ .

أى : هؤلاء المتصفون بالصفات السابقة ، أهل لميراث الجنة كأنها حق لهم ، كما يحق للابن مثلاً أن يرث والده ، فشبه استحقاقهم للجنة بالميراث ، فالجزاء الحق من جنس العمل .

١١ - الَّذِينَ يَرْتُونَ الْآفْرَدُوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

الذين يرتئون أعالي الجنة ، ويرتقون الخلود فيها ، خلوداً سرمدياً أبدياً ، كفاء ما زينوا به أنفسهم ، من الأخلاق الفاضلة ، والآداب العالية .

أخرج البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن»^(١٣) .

خلاصة معنى الآيات

- ١ - المؤمنون هم عباد الله المتقون ، لهم فى الدنيا الفلاح والرشاد والسيادة ، وفى الآخرة الجنة .
- ٢ - إنهم خاشعون فى صلاتهم ، بحضور القلب ، والتبتهل إلى الله وحصر الذهن ، والتأمل فى كلماتهم وعبادتهم وحسن مناجاتهم لربهم .
- ٣ - وهم فى معية ربهم ، فلا يتكلمون الفحش ، ولا ينطقون السب أو الشتم أو السوء ، لقد عاشوا جادين صالحين ، عن اللغو معرضين ، وَإِذَا مَرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ... (الفرقان : ٧٢) .
- ٤ - وهم يؤدون زكاة أموالهم حسبة لله ، ورغبة فى تزكية أنفسهم ، وتطهيرها من الشح والبخل .

٦٠٥- وهم محافظون على العفة والاستقامة ، لا يكشفون سوءاتهم إلا لأزواجهم أو جواريتهم .

٧ - من طلب قضاء شهوة فى غير زوجة له أو جارية يملكها؛ فهو معتد جائر ، مخالف للحق، هاتك للأعراض، «ومن زنى يزنى به ولو بجداره» .

٨ - والمؤمنون محافظون على الأمانة ، وأداء حقوق الناس ، والوفاء بالعهد ، والقيام بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ونحو عباد الله .

٩ - وهم يحافظون على الصلاة فى أوقاتها، ويؤدونها كاملة الأركان والشروط، فى تبتل وإنابة وطاعة لله.

١١، ١٠- هؤلاء المؤمنون أهل لميراث الجنة ، والنزول فى الفردوس الأعلى ، والخلود الأبدى السرمدى ، فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية .

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْإِطْفَارَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

المضردات :

السلالة : ما سلَّ من الشيء واستخرج منه ، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء ، كالزبد من اللبن، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكنااسة البيت .

ثم جعلناه : جعلنا نسله - نسل آدم - فحذف المضاف .

نطفة : منيا ؛ بأن خلقناه من النطفة وهى المنى .

قَرَارٍ مَكِينٍ : مستقر حصين أو متمكن ، يعنى : الرحم .

العلقة : الدم الجامد .

المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .

خلقًا آخر : بنفخ الروح فيه .

تبارك الله ، تعالى شأنه فى قدرته وحكمته ، وتقُدُّس .

الخالقين ، المقدرين تقديرًا .

التفسير :

١٢- وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .

أى : خلقنا آدم عليه السلام وهو أصل الإنسان، خلقه الله من خلصة سُلت من طين ، أو خلقنا جنس الإنسان من الطين ، باعتبار أن النطفة التى خلقوا منها، خلصة مستلة ومأخوذة من أغذية ناشئة من الطين والراجع أن المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام ، لأنه استلّ من الطين وخلق منه ، كما قال تعالى وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِشَرٍّ تَشْكُرُونَ . (الروم : ٢٠) .

١٣- ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .

ثم جعلنا نسله نطفة ، من منى فى أصلاب الذكور ، ثم قُذفت إلى أرحام الإناث ، فصار فى حزن مستقر متمكن حصين ، ابتداء من الحمل إلى الولادة .

قال تعالى : وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ • ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . (السجدة : ٧ ، ٨) .

أى : من ماء ضعيف .

كما قال تعالى : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ • فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ • إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ • فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدَرُونَ (المرسلات : ٢٠ - ٢٣)

القرار المكين

القرار المكين هو الرحم ، ومن يدرس تشريح الرحم ، وموضعه المكين الأمين فى أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ، ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأريطة العريضة والأريطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون ، التى تشد إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزره ، وتحميه من الميل أو السقوط ، وتطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقتصر إلى طولها الطبيعى تدريجيا بعد الولادة وكذلك من يدرس تكوين الحوض وعظامه : يعرف جليا صدق قوله تعالى : ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .

وكذلك فى الرحم سائل أمينوس ، داخل جيب المياه يعوم فيه الجنين بحرية ، ويدفع عن الجنين مـ قد تلاقية الأم من صدمات وهزات عنيفة ، قد تصل إليه فتؤذيه ، إن لم يهدئ هذا السائل من قوتها ويضعف من شدتها ، ثم هو يحتفظ للجنين بحرارة مناسبة ، حيث إنه موصل ردىء للحرارة ، وكذلك يقوم بعملية

تديد عنق الرحم ، وتوسيعه وقت الولادة (القرن) كما يقوم بعملية التطهير أمام الجنين بما فيه من خواص مطهرة ، فكل ذلك يزيد الرحم مكانة وأمناء^(١٤) .

وهكذا يظهر لنا مع تقدم العلم إعجاز هذا الكتاب ، وصدقه ، خصوصاً أنه نزل على نبي أمي ، في عصر لم تكتشف فيه هذه المعارف .

قال تعالى : سُرَّيْهِمْ وَأَيْتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَلِيَّ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

١٤- ثُمَّ خَلَقْنَا الطُّفْلَةَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ .

ثم حولنا النطفة البيضاء ، إلى علقه حمراء ، تعلق بجدار الرحم متشبثة به .
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .

أي : جعلنا العلقه قطعة كالمضغة من اللحم ، لا شكل فيها ولا تخطيط .
فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا .

صيرنا قطعة اللحم عظاما صلبة ؛ لتكون عموداً للبدن .

قال ابن كثير :

شكّلناها ذات رأس ویدین ورجلین ، بعظامها وعصبها وعروقها .

وفى الصحيح : «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجَبَ الذَّنْبِ : منه خلق وفيه يركَّب»^(١٥) .

فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا .

أي : جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ؛ فأشبه الكسوة الساترة للجسم .

ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ .

أي : نفخنا فيه الروح ، فدُبَّت فيه الحياة ، وتحول خلقاً مبايناً للخلق الأول .

قال الفخر الرازي :

حيث صار إنسانا وكان جمادًا ، وناطقًا وكان أبكم ، وسميعًا وكان أصم ، وبصيرًا وكان أكمه ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطره ، وغرائب حكمه ؛ لا يحيط بها وصف الواصفين .

قَبَّارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

فتعالى الله أحسن الخالقين خلقا ، وتقدس أعظم المقدرين المبدعين تقديرا وإبداعا وصنعا ، حيث أنشأ هذا الجمال الإنساني من تراب ؛ ثم من نطفة ثم من علقة فمضغة .

١٥- ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ .

ثم إنكم يا بنى آدم بعد هذه النشأة العجيبة ، والخلقة التي أبدعها الله بقدرته لا بد صائرون إلى الموت ، فهو حقيقة أزلية أبدية . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... (آل عمران : ١٨٥) .

١٦- ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ .

أى : بعد الموت ، يأتى البعث والحشر والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، فالله تعالى أحياكم ، ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، وهذه الحياة الأخيرة ، للحساب والجزاء .

قال تعالى : كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (البقرة : ٢٨) .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ ﴾ (١٧)

المضردات :

سبع طرائق : سبع سماوات طباقا بعضها فوق بعض ، والطرائق : جمع طريقة ، سميت بذلك لأنه طورق بعضها فوق بعض ، مطارقة النعل للنعل ، وكل ما فوقه مثله فهو طريقة ، أو لأنها طرق الملائكة ، وقيل : المراد بالطرائق : الأفلاك ، لأنها طرائق الكواكب ، فيها سيرها . والأول أصح .
الغسلق : المخلوقات التي منها السماوات السبع .

غافلين : مهملين أمرها ، بل نحفظها من الزوال والاختلال ؛ وندبر أمرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من الكمال .

التفسير :

١٧- وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ .

فى الآيات السابقة حديث عن خلق الإنسان ، ومروره بمراحل متعددة : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم

عظام ثم تكسى العظام لحما، ثم تنفخ فيه الروح ، وتدب فيه الحياة فيصبح إنسانا فيه السمع والبصر ، والبطش والعقل والحياة ، وكثيرا ما يقرن القرآن بين خلق الإنسان وخلق السماوات والأرض .

قال تعالى : **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ... (غافر : ٥٧) .

ومعنى الآية : ولقد خلقنا فوقكم سبع سماوات متطابقة ، كل سماء تشبه الأخرى ، وهى أيضا طرق للملائكة ، وطرق للكواكب .

وفى معنى الآية قوله تعالى : **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا** . (نوح : ١٥) .

وقوله سبحانه : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** . (الطلاق : ١٢) .

وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ .

لقد خلقنا الإنسان ، وخلقنا كل شيء بحكمة وقدر ، ولم نخلق الخلق ثم نهمله أو ننساه كما ادعى بعض الفلاسفة ، بل استمرت عنايتنا بال مخلوقات ، واستمر حفظنا لها ؛ لكفالة بقائها واستمرارها ، ونحن نعلم ما يحدث فيها من صغير أو كبير .

قال تعالى : **وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَنْسِفُهَا وَلَا يَأْبَسُ إِلَّا يَكْتُبُ مِيزَانَ** . (الأنعام : ٥٩) .

وقال تعالى : **يَعْلَمُ مَا يَلْجِ إِلَى الْأَرْضِ وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** . (الحديد : ٤) .

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَبَنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدَرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّالِ كَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

السماء : السماء في اللغة : كلُّ ما علاك ؛ والمراد بالسماء هنا : إما السحاب ، فمنه يَنْزِلُ المطر . وإما السماء المعروفة ، والمقصود من إنزال المطر من السماء ، إنزاله بسببها ؛ فإن المطر أصله أبخرة صاعدة من البحار ، بسبب تسلط حرارة الشمس عليها ، والشمس من السماء .

بِقَدَرٍ : بتقدير خاص ، وهو مقدار كفايتهم .

فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ : جعلناه ثابتاً قاراً في الأرض .

الذَّهَابُ : الإزالة ، بأن نحبس المطر عنكم ، أو ننقله إلى جهات أخرى ، أو نجعله يغور في الأرض ، إلى أماكن بعيدة لا تقدرُونَ على استنباطه منها .

الشَّجَرَةُ : شجرة الزيتون .

طُورِ سَيْنَاءَ : هو جبل الطور الذي نَجَى فِيهِ موسى ، ويسمى طور سينين .

وَصَبِغٍ لِلَّالِكِينَ : إدام يصبغ فيه الخبز ؛ أى : يُغْمَسُ فِيهِ ، وَيَلْوَنُ بِهِ ، كَالْخَلِّ وَالزَّيْتِ .

تمهيد :

يمتن الله على عباده بنزول المطر ، وإنبات البساتين والنخيل والأعْنَابِ ، والفواكه والحبوب ؛ وسائر الزروع والثمار ، كما يمتن عليهم بشجرة الزيتون في طور سيناء ؛ التي تنبت الزيت الذي يستخدم في الإنارة وفي الطعام .

التفسير :

١٨- وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَبَنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدَرُونَ .

أنزلنا من السحاب ماءً بتقدير الإله الحكيم ، ليس أكثر من اللازم ؛ فيتحول إلى سيول وطوفان يتلف ويغرق ، وليس أقل من اللازم ؛ فينتشر التصحُّر ، وتجذب الأرض ، ولكن الله أنزل الماء بقدر حتى إن الأرضين التي تحتاج إلى ماء كثير لزراعها ، ولا تحتمل تربتها إنزال المطر عليها ، يساق إليها الماء من بلاد أخرى

كما فى أرض مصر ، ويقال لمثلها : (الأرض الجرد) فيساق إليها ماء النيل ، من بلاد الحبشة ماراً بالسودان ، ويستفيد بهذا الماء الإنسان والحيوان والنبات .

فَأَسْكَنْهُ فِي الْأَرْضِ .

جعلنا الماء يستقر فى الأرض ، ويخزن فيها ، ومن هذا الماء تنبع العيون والأنهار والآبار .

وَأَنَا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَلْبُرُونَ .

لو شئنا أن نغوره فى بعد سحيق لفعلنا ، ولو شئنا أن نحوله إلى ملح أجاج لفعلنا ، ولو شئنا أن نحمله إلى بلاد أخرى لفعلنا ، ولو شئنا أن نمسك إنزاله من السماء لفعلنا ؛ فيقدرتنا ونعمتنا ننزل عليكم المطر ؛ لتستفيدوا به فى الزراعة والشرب والطهارة والاغتسال ، ويقدرتنا نحفظ جانباً منه فى الأرض ، لتستفيدوا به عند الحاجة .

ومن الواجب على العباد أن يتذكروا هذه النعمة ، وأن يديموا شكر الله عليها ، ويظهر وجه الإعجاز فى هذه الآية عندما نلمح أن الحروب القادمة ، ستكون بسبب التنازع على الماء ، وأن أفضال الله على العباد لا حصر لها ولا عدد ، وعندما نقارن بين النطفة وهى تستقر فى مكان أمين ، وهو الرحم الذى يحافظ عليها ، وكذلك ماء السماء الذى يستقر فى الأرض ، ويستفاد به عند الحاجة ، ويغذى العيون والآبار ؛ نلمح الإعجاز فى كلمة : فَأَسْكَنْهُ فِي الْأَرْضِ . أى : مكناه فى الأرض ؛ وجعلناها له قراراً ومهداً ؛ وسكناً وموتلاً ، كما جعلنا رحم الأم سكناً ومهداً ، وموتلاً للنطفة حتى يتم تخليقها بقدرة الله العلى القدير .

١٩- فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَبْنَا لَكُمْ فِيهَا فَاوَكِهِ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات ، أى : بساتين وحدائق ذات بهجة ومنظر حسن ، وفيها النخيل والأعناب ، وهى أغلب فواكه العرب ، ولكم فى الجنات فواكه كثيرة متنوعة من جميع الثمار ، عدا النخيل والأعناب ، وتأكلون من ثمار الجنات وتنتفعون ، وترزقون وتتعيشون ؛ بأن تبيعوا ما زاد عن حاجتكم ، ومنه فلان يأكل من حرفته أى : يتعيش منها .

٢٠- وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِّلْأَكِلِينَ .

أى : وأنشأنا وأخرجنا لكم بالماء شجرة ، هى شجرة الزيتون ، تخرج من طور سيناء فى هذا المكان المبارك ؛ حيث كلم الله موسى عليه السلام ، هذه الشجرة تنبت وفيها خاصية إخراج ثمر يجمع بين نعمتين :

إحداهما : نعمة الدهن وهو الزيت ، الذى تستعملونه فى سراجكم وسائر أموركم التى تحتاج إليه .

وقاليتينهما : أنه آدم : تصبغون به الخبز وتغمسونه فيه عند الأكل : فاشكروا الله المنعم والمتفضل بهذه النعم .

فائدة :

سَيْتَاءُ . بفتح السين والمد معناها : الحسن باللغة النبطية ، أو معناها : الجبل الملىء بالأشجار ، وقيل : مأخوذ من السنا بمعنى الارتفاع ، وخُصت شجرة الزيتون بالذكر ، لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيتها وطعامها وخشبها ، وهى من أقل الأشجار تكلفة لزراعتها .

وجمهور العرب والقراء على فتح السين مع مد الهمزة ، وقُرئ بكسرهما مع المد أيضًا ، وهى لغة بنى كنانة ، وفيه لغات وقراءات أخرى ، كطور سينين .

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسَيِّئِ كُفْرٍ مَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونُ ﴿٢٢﴾ ﴾

تفهيد :

تتابع الآيات ذكر نعم الله تعالى فى خلق الحيوان ، وانتفاع الإنسان بألبانه ويركوبه ، والاستفادة بلحمه وأوباره وشعره وصوفه ، وتسخيره ليكون سفينة متنقلة فى البر ، كما أن الفلك تجرى فى البحر حتى قالوا : الجمل سفينة الصحراء .

التفسير :

٢١ - وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسَيِّئِ كُفْرٍ مَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

العبرة هى العظة والاعتبار ، فقد سخر الله للإنسان الحيوان ، وذلك له ليستفيد به ومن هذه الفوائد ما يأتى :

١ - الدم المتولد من الأغذية ، يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيق الطعم صالح للتغذية ، وهذا اللبن مستخلص من بين فرث ودم ، وهذا دليل القدرة واللفظ الإلهى .

٢ - منافع متعددة للإنسان من الحيوانات، منها : الركوب، والاستفادة بأشعارها وأوبارها وأصوافها، وأكل لحومها.

وقريب من هذه الآية ما ورد فى آيات أخرى عن فوائد الحيوانات ومنافعها ، مثل قوله تعالى :

وَإِنْ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسَيِّدِكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِمْ إِن يَبْدُوهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيكُمْ فَهَبْ أَعْيُنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (النحل : ٦٦).

وقال تعالى : أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكَةٌ • وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ • وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . (يس : ٧١ - ٧٣) .

وقال تعالى : وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ • لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ تَلْكُورًا • إِذْ أَتَوْكُمْ بِكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ • وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . (الزخرف : ١٢ - ١٤)

وقال عز شأنه : وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ • وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ (النحل : ٥ - ٧) .

٢٢- وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ .

أى : تحملون أثقالكم وأحمالكم على الجمال فتنتقل أمتعتكم وأشخاصكم من بلد إلى آخر ، مما يبسر عليكم الانتقال والتجارة . ويجعل التنقل سهلا ميسورا . كما ذكر سبحانه : وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ... (النحل : ٧) .

ومن نعم الله تسخير الفلك ، وهى السفن التى تطفو فوق الماء ، وتحركها الرياح ، وتنقل المتاع والإنسان ، وتيسر الحياة ، فالسفينة تنقل الإنسان والأشياء فى البحر ، والجمل ينقل الإنسان والأشياء فى البر .

وقصارى ذلك : أن فى خلق الأنعام عبرا ونعما من وجوه شتى ، ففيها دلائل على قدرة الخالق ، بخلق الألبان من مصادر هى أبعد ما تكون منها ، ونعما لنا فى مرافقها وأعيانها ، فننتفع بألبانها وأصوافها ولحومها ، ونجعلها مطايا لنا فى أسفارنا ، إلى نحو أولئك من شتى المنافع .

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَالِكُمِينَ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَدَّعِي جَنَّةَ فَرَيْصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَ يَا عَيْنُنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِ فَقُلِ الصَّلَاةُ لِلَّهِ الَّذِي نَجِّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّوَنَّا الْمُتَّبِعِينَ ﴿٣٠﴾﴾

المفردات :

الـمـلأ : أشراف القوم .

يـتـفـضـل : يدعى الفضل والسيادة .

جـنـة : جنون أو ضعف عقل .

تـرـيـصـوا : انتظروا واحتملوا .

حـتـى حـين : إلى زمن ، لعله يفيق من جنونه ، أو إلى موته .

بـاـعـيـنـنـا : بحفظنا ورعايتنا .

وـوـحـيـنـا : أمرنا وتعليمنا .

فـإـذَا جـاء : بالركوب ، أو نزول العذاب والإهلاك .

وـهـنـا : نبع .

الـتـنـور : مكان خبز الخبز ، أو وجه الأرض ، وكان نبع الماء منه علامة لنوح عليه السلام .

فاسلك ههنا ، أدخل فيها .

من كل زوجين ، من كل نوع زوجين : ذكرا ، وأنثى ، من أنواع الحيوان الموجودة وتقتد .

الستين ، تأكيد أو زيادة تأكيد .

وأهـلك : أهل بيتك .

القول : القضاء بهلاكه لكفره .

استويت : علوت .

الليـات : عبرا .

مبتـلين ، مختبرين وممتحنين لهم ، أى : معاملتهم معاملة من يختبر ، بإرسال نوح إليهم ووعظه لهم .

تتهيد :

تأتى قصة نوح وبعده عدد من الرسل لبيان سنة الله فى خلقه ، فقد ذكر الله فى صدر السورة عددا من أدلة الإيمان ، منها صفات المؤمنين ، ومنها تطور خلق الجنين فى بطن أمه ، ومنها خلق الأنعام والفلك .

ثم ذكر قصة بعض الرسل ، وعاقبة المكذبين : لتحقيق العبرة والعظة من هذا القصص ؛ ومن هذه العبر اتعاظ الغافلين ، وتهديد الكافرين ، وتثبيت المؤمنين ، وتسجيل كفاح المرسلين ، وإحياء ذكراهم وتمجيد جهادهم .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهَذِهِ آيَاتُ الْقُرْآنِ يُرْوَى . (يوسف : ١١١) .

التفسير :

٢٣ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَلْقَوْمِ اتَّبِعُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

ولقد بعثنا نوحا رسولا منّا إلى قومه : ليدعوهم إلى توحيد الله ، ونبذ الأصنام والأوثان ؛ فقال لهم : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وليس هناك إله إلا هو ، فهو المتفضل عليكم بالنعيم جليلها وقليلها ، فاتقوا عقابه واحذروا غضبه ، فأنتم فى نعمته وعافيته ؛ فاشكروه ولا تكفروا به .

٢٤ - فَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

واجهوا دعوة الحق والهدى ، باتهام شخص الداعية ، ولم يتأملوا فى موضوع الدعوة .

والمعنى :

قال أشراف القوم وأغنيائهم ووجهائهم : إن نوحاً رجل منا لا يزيد عنا فى شىء ، وهو يريد أن يميز نفسه ويدعى لها منزلة سامية بهذه الدعوة ، ولو أراد الله أن يرسل رسولاً ، لجعله من الملائكة المقربين ، فهم أقرب وأكرم على الله ، فما سمعنا بهذا الذى يقوله نوح فى آبائنا الذين مضوا قبلنا حتى نصدق .

فهم يريدون أن يجردوا البشرية كلها من فضل الرسالة وأن يقصروها على الملائكة ، مع أن الحكمة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ؛ ليكون نموذجاً عملياً وقودة حسنة لهم .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (الأحزاب : ٢١) .

٢٥- إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهٖ جِنَّةٌ فَتَقَبَّلُوْا بِهٖ حَتَّىٰ يَخْرُجَ .

ما نوح إلا رجل به مس من الجن ، أو هو مجنون يتخيل أنه يوحى إليه ، فيقول ما يقول ، فاصبروا عليه لعله أن يفيق من جنونه ، أو ينزل به الموت فنستريح منه .

وهذه الغريبة ترددت مع الأنبياء والرسل ، ومع سيدنا محمد ﷺ ، وهى تدل على تخبط هؤلاء الكفار فى دعواهم واتهامهم للرسل .

قال تعالى : بَلْ قَالُوا أَطُغِيََتْ أَهْلُكُمْ بَلْ الْفَرَسُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ . (الأنبياء : ٥) .

وقال سبحانه : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ . (الذاريات : ٥٢) .

وقال تعالى : وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمُجْتَوٍ . (الحجر : ٦) .

وقال تعالى : وَيَقُولُونَ أَيُّ شَيْءٍ أَتَانَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ لَمُجْتَوٍ . بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ .

(الصافات : ٣٦ ، ٣٧)

٢٦- قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَدُّونِي .

قال نوح بعد أن يتس من إيمانهم ، وبعد أن مكث يدعوهم ، ويحثهم على الإيمان بكل سبيل ، وقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا عدد قليل ، قيل : عشرون وقيل : ثمانون ، وأوحى الله إليه : أَنَّهُ رَكْنٌ يُؤْمِنُ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ ... (هود : ٣٦) .

فدعا ربّه متبطلا راجيا أن ينصره الله على قومه فقد كذبوه وسخروا منه ، وأصرّوا على كفرهم وعنادهم .

قال تعالى : لَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَرٍ . (القم: ١٠ ، ١١) .

وقال عز شأنه على لسان نوح : رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَهُمْ يُبْغِلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا . (نوح ٢٦ ، ٢٧) .

٢٧- فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيًا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَلِّطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ .

أجبنا دعاء نوح ، ويسرنا له سبيل النصر ، فأمرناه أن يصنع سفينة النجاة بأمرنا وعنايتنا ؛ وحفظنا وتعليمنا ، وسيجيء الموعد لهلاك الظالمين ، ومن علامة بدء الطوفان (فوران التنور) أى : تدفق الماء من الموقد ، أو الفرن الذى يخبز به الطعام ، ويطلق التنور على وجه الأرض ، كما يطلق على طلوع الفجر .

ورجح الإمام ابن جرير الطبري أن يكون المراد بقوله تعالى : وَفَارَ التَّنُورُ . أن ينبع الماء من الفرن الذى يخبز فيه ، ويفور فورانا شديداً ، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب .

وهذه علامة على بدء الطوفان ، فعلى نوح عندئذ ، أن يحمل فى السفينة من كل نوع يتوالد زوجين اثنين : ذكرا ، وأنثى ؛ حتى يتم التوالد بين أجناس النبات ، والطير ، والحيوان ، والإنسان ؛ وتبدأ الحياة من جديد .

كما أمر نوح أن يحمل فى السفينة ، أهله المؤمنين وزوجاتهم ؛ فحمل معه أولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت ، وزوجاتهم ، وكانت له زوجة مؤمنة فحملها معه ، أمّا ابنه كنعان وأمّه الكافرة ، فلا مكان لهما فى السفينة لكفرهما ، وهذا معنى قوله تعالى : فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ...

أى : إلا من سبق عليه قولنا وقضاؤنا أولاً بهلاكه منهم ، وهما ابنك وزوجتك الكافران . ثم أمر نوح ألا يتشفع للكافرين ، ولا يحزن على هلاكهم أو غرقهم ، فقوانين الله عادلة فهو لا يحاسب أحداً ، بل يعاقب كل كافر ، وإن اشتدت قرابته من المرسلين ، ويكافئ كل مؤمن مهما كان نسبه أو ضعف منزلته .

قال تعالى : وَلَا تُخَلِّطْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ .

أى : لا تشفع لمن كفر وظلم فقد قضى الأمر بهلاكهم ؛ جزاء كفرهم ، والأرجح أن المراد بهم : زوجته الكافرة ، وابنه الكافر كنعان .

٢٨- فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

فإذا استقر بك المقام ، أنت ومن معك من المؤمنين على السفينة : فاشكر الله كثيرا على نجاتك أنت ومن معك من المؤمنين ، وقل : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . الشكر الجزيل لله الذي أغرق الكافرين الظالمين ، ونجاننا ومن معنا من المؤمنين .

قال ابن عباس :

كان في السفينة ثمانون إنسانا : نوح وامرأته سوى التي غرقت ، وثلاثة بنين : سام ، وحام ، ويافث ، وثلاث نسوة لهم ، وإثنا وسبعون إنسانا : فكل الخلائق نسل من كان في السفينة .

٢٩- وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ .

أى : قل عند النزول من السفينة : يا ربُّ وفقني إلى النزول في أرض مباركة ، فيها البركات والخيرات والثمار ، وأعطني الزيادة والبركة في خير الدارين ، وأنت خير من أنزل عبادك المنازل الطيبة بفضله وكرمه .

٣٠- إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِرِجَالٍ كَانُوا يُدَبِّرُونَ .

في نجاة المؤمنين ، وهلاك الكافرين ، عظة وعبرة ، ودليل على أن الله تعالى يمتحن المؤمنين ويمحق الكافرين ، والابتلاء أنواع : منه لتكفير السيئات ، ومنه لرفع الدرجات ، ومنه للتمحيص والامتحان ، ومنه للابتلاء والاختبار .

قال تعالى : وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . (آل عمران : ١٤٩) .

أى : هذه سنتنا مع رسلنا نرسلهم مجاهدين ، ونختبرهم بعناد قومهم ، ثم ننجي المؤمنين ونهلك الكافرين ، ونختبر عبادنا الصالحين بالخير والشر فتنة وامتحانا .

قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

قصة هود عليه السلام

﴿ قُرْآنُ شَأْنًا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرَأَ آخَرِينَ ﴾ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَائِهِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ (٣٤) أَعْبُدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ (٣٥) هِيَئَاتِ هِيَئَاتِ لِمَا توعَدُونَ ﴾ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّيُصْبِحَنَّ نَادِرِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً فَبَعَدَ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

المضردات :

المتقرون : الأمة ، والمراد بهم : عاد قوم هود : لقوله تعالى : وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ...

(الأعراف : ٦٩)

وقال الملأ : أشراف القوم ورؤسائهم .

وكذبوا ببقاء الآخرة : بالمصير إليها ، أو لقاء ما فيها من الثواب والعقاب .

أتترفناهم : وسفنا عليهم ، وجعلناهم في ترف ونعيم .

لخاسرون : مغبونون في آرائكم ، حيث أنزلتم أنفسكم لأمثالكم .

انكم مخرجون : من الأجدات ، أو من العدم تارة أخرى إلى الوجود .

هيهات ، بُعد .

ما توعدون : البعث والحساب .

بمؤمنين : بمصدقين .

عما قليل : بعد زمان قليل .

ليصيرن : ليصيرن .

الصيحة : العذاب الشديد ، كما قال الشاعر :

صاح الزمان بأل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذنان

الفناء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية ، وأصل الغناء : ثبت يبس ، أى : صيرناهم مثله فى اليبس .

بُعِداً : من الرحمة وهلاكاً .

للقوم الظالمين : المكذبين .

التفسير :

٣١- ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ .

أرسل الله نوحاً إلى قومه فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته سبحانه وعدم عبادة الأصنام ، وقد مكث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وما آمن معه إلا قليل ؛ ثم أهلك الله قومه بالطوفان .

وتبدأ من هذه الآية قصة قوم آخرين ، هم على الأرجح عاد قوم هود ، والمراد بقوله تعالى : قَرْنًا آخَرِينَ . أمة أو جماعة مجتمعة فى زمان واحد ، سموأ بذلك لتقديمهم على من بعدهم ، تقدم القرن على الحيوان .

وقال بعض المفسرين : هم ثمود قوم صالح ، لأنهم هم الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأنهم أهلكوا بالصيحة : أى : صاح بهم الملاك صيحة : قطعت لها قلوبهم فماتوا .

قال تعالى : فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (المؤمنون : ٤١) .

وقد يكونون أمة أخرى غيرهما ، ولهذا لم يصرح باسمهم ولا باسم رسولهم ، لأن المراد ببيان رسالة الرسل ، وتكذيب أقوامهم ، حتى لتتشابه كلمات الرسل وجوهرها : أَغْبَدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ؛ وتشابه كلمات الأمم المكذبة ، وتلخص فيما يأتى :

١ - الرسول بشر مثلنا لا يمتاز علينا .

٢ - لماذا نتبعه ونجعل له الفضل والسبق علينا وهو مثلنا .

٣ - البعث والحساب والجزاء أمر بعيد غير متوقع .

لهذا لم تهتم هذه السورة بذكر اسم الرسول ، ولا ذكر اسم الأمة المرسل إليها ؛ ليبين أن هذا شأن من شئون الرسل مع أقوامهم ، وقد تحدثت سورة «المؤمنون» عن عدد من الرسل ، ولم تهتم بالتفصيلات التى وردت فى سور أخرى ، كسورتي : الأعراف وهود ، لأن المراد هنا ليس التفصلي والتفصيل ، إنما هو لتقرير

الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع ، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع ، ومن ثم بدأ بذكر نوح - عليه السلام - ليحدد نقطة البدء ، وانتهى بموسى وعيسى ليحدد النقطة الأخيرة ، قبل الرسالة الخاتمة .

ولم يذكر الأسماء فى وسط السلسلة الطويلة ، كى يدل على تشابه حلقاتها بين البدء والنهاية ، إنما ذكر الكلمة الواحدة فى كل حلقة ، والاستقبال الواحد ، لأن هذا هو المقصود .

٣٢- فَارْسلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

أى : أرسلنا فى هذه الأمة رسولا من بينهم ، نشأ فيهم وعرفوا سلوكه وحسن أخلاقه ونسبه ، فالرسل تبعث فى أنساب قومها ^(١٧) .

فقال لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، ولا تعبدوا معه صنما ولا وثنا ، فإنه ليس لكم من إله سواه، حتى تشركوه معه فى العبادة ، أفلا تتقون الله وتخافون عقابه ، وعندئذ تجردونه وحده بالعبادة ، ولا تعبدون سواه .

٣٣- وَقَالَ الْمَلَأِينَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ أَتَرْفُضُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

تصدى أشرف القوم ورؤسائهم للتكذيب بدعوة الرسول ، وقد وصفتهم الآية بثلاث صفات :

١ - الكفر بالله وجود نعمته وعدم الإيمان به .

٢ - التكذيب باليوم الآخر .

٣ - الترف والانغماس فى الملذات والشهوات ، وهو أسوأ ما تصاب به أمة من الأمم ، وقد حذر القرآن من الترف ، وبين أنه طريق الهلاك والدمار .

وقد وصفوا الرسول بأنه بشر عادى ، لا ميزة له على غيره ، بل هو شبيه لنا فى صفاته وأحواله ، فكيف يدعى الفضل علينا ، ويزعم أنه رسول من الله إلينا ؟ ثم هو يأكل من طعامنا ، ويشرب من الماء الذى نشرب منه ، فلماذا يختص دوننا بالرسالة ؟ فهو الحسد والحقد الذى أعمى الأشراف والأغنياء عن اتباع الحق ، والاهتداء بهداية الإيمان .

٣٤- وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ .

إذا أطعتم إنسانا مثلكم فى المخبر والمظهر ، وسلمتم له بالقيادة والرئاسة : إنكم حينئذ تخسرون

عقولكم ، وتضيقون مجدهم وشرفكم ، بترككم آلهتكم ، واتباعكم إياه . وما علموا أن الرسالة فضل من الله يؤتية من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وفى كتاب الجوهرة - وهو منظومة فنية فى علم التوحيد - يقول الشيخ اللقاني :

ولم تكن نبوة مكتسبة ولورفى فى الخير أعلى عقبه
بل ذاك فضل الله يؤتية من يشاء جليل الله واهب المنن

٣٥- أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ .

إن هذا الذى يدعى الرسالة ، يخبركم أنكم إذا متم وصرتم ترابا ، وتحولت أجسادكم إلى تراب وعظام نخرة بالية ، أنكم قُبِعْتُمْ من قبوركم أحياء كما كنتم فى دنياكم ، فاستبعدوا البعث والحشر والحساب والجزاء .

ونلاحظ أن القرآن هنا لم يرد على شبهاتهم ، بل ذكرها مجردة من التعقيب ، كأنها لا تستحق التعقيب ، أو اكتفاء بما ذكره فى سور أخرى من الرد على شبهات المشركين حيث قال تعالى : وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ . (الأنعام : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً... (الرعد : ٢٨) .

وقال تعالى فى الرد على استبعاد البعث والجزاء : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْمُ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٣) .

٣٦- هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ .

أى : بُعد بُعد ما توعدون به أيها القوم ، من حدوث البعث الجسماني ، وإخراج الموتى من قبورهم ، وحسابهم وجزائهم ، هذا أمر بعيد الاحتمال ، لا يتصوره العقل ، ولا نوافق على حصوله .

٣٧- إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

ليست هناك آخرة ولا بعث كما يدعى هذا الرسول ، بل هى أجيال تعيش ثم تموت ، وتنشأ بعدها أجيال تحيا ، كما ينشأ الزرع وينقرض وينشأ مكانه زرع آخر : فما هى إلا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا

إلا الدهر، وليس هناك بعث ولا حشر ولا جزاء، إنما هي الدنيا ونحن نملك المال والمتاع والجاه والسلطان، ونريد الاستمتاع بالحياة والدنيا، ولا نريد من أحد أن ينغص علينا هذه المتعة.

٣٨- **إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .**

ما هو إلا رجل تقول على الله كذبا، وادعى أنه رسول من عند الله، واختلق الأكاذيب؛ فتارة يدعى أن الإله إله واحد، وتارة يدعى أن البعث والحشر والحساب والجزاء حق واقع، ونحن لا نصدق له ولا نؤمن به ولا نتبعه.

٣٩- **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُ .**

لجأ هود إلى ربه مستغيثاً مستنصراً من تكذيبهم له، وكفرهم بدعوته، فدعا الله قائلاً: رب انصرنى عليهم بسبب تكذيبهم لى.

٤٠- **قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِّیُصِیْحُنَّ لَدِیْنِی .**

قال الله عز وجل لرسوله: بعد زمن قليل، سينزل بهم العذاب الشديد، وحينئذ يندمون ولات ساعة مندم.

٤١- **فَاَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .**

فأخذهم العذاب العادل جزاء كفرهم وعنادهم، حيث صاح جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم؛ فصاروا لشدها غرأ كغذاء السيل، وهو الشيء التافه الحقير الذى لا ينفع منه شيء.

فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أى: فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم، إذ كفروا بربه وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم، ولفظ: **بُعْدًا** قد يراد به الدعاء أى: فهلاكا لهم، بمعنى: **أَهْلِكْهُمْ** يا الله إهلاكا، وقد يراد به الإخبار بمعنى: فبعدوا **بُعْدًا** من رحمة الله القريبة من المحسنين، بعدوا بهلاكهم من كل خير أو من النجاة.

ونلاحظ أن القرآن الكريم لم يقل: فبعداً لهم، وإنما قال: **فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**. لبيان أن علة إبعادهم هى ظلمهم لأنفسهم، بتكذيب رسولهم وعدم الاستجابة لدعوته.

قصص صالح وثوط وشعيب وغيرهم

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُلُّ مَاجَاءٍ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

المفردات :

تستري : من المواترة ، وهي التابع بين الأشياء ، مع فترة ومهلة بينها .

أحاديث ، واحدها أحديث ، وهي ما يتحدث به تعجبا منه وتلها به ، وقد جمعت العرب ألفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع ، وقال الزمخشري : الأحاديث اسم جمع للحديث ، ومنه أحاديث رسول الله ﷺ ، ولكن الجمهور على أنه جمع .

التفسير :

٤٢- ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ .

أى : أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء ، أمما وخلائق آخرين ، كقوم صالح وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب وغيرهم .

قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل ، وفى الكلام حذف تقديره : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم ، دل عليه قوله تعالى :

٤٣- مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ . (١٧)

ما تسبق أمة من الأمم التى قدر الله إهلاكها ، الوقت المقدر أن لا يهلكها ، وما تتأخر عنه ، فهلاكها مرهون بوقته ، لا يسبقه ولا يتأخر عنه ، وذلك مثل قوله تعالى : وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ (الأعراف : ٣٤) .

٤٤- ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَرَا كُلُّ مَاجَاءٍ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ ...

ثم أرسلنا رسلا متتابعين ، يتبع بعضهم بعضا ، إلى الأمم التى جاءت بعد هلاك من سبقوهم ، فقد أرسلنا إلى كل أمة رسولا خاصا بهم .

كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَبُوهُ ...

أى : سلكت كل أمة فى تكذيب رسولها مسلك من سبقها من المكذبين ، كأنما وصى السابق منهم اللاحق بأن يكذب الرسل .

قال تعالى : **أَتَوَّصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** . (الذاريات : ٥٣) .

وقال سبحانه : **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ** . (إبراهيم : ١٣) .

والظاهرة الملحوظة اجتماع الكفار على مقولة واحدة مع أن الواقع أن قوم نوح كذبوا نوحا ، وأن قوم هود كذبوا هوداً وحده ، وكذلك قوم صالح وقوم شعيب وقوم موسى وقوم عيسى وقوم محمد ﷺ ؛ لكن التكذيب لما كان واحداً فى مضمونه ؛ جمعه الله على لسان الكافرين ، وكأن كل أمة حين تكذب رسولها ، قد كذبت بالرسالات جميعها ، وهذا التكذيب ، والإهلاك للمكذبين ، تكرر فى آيات القرآن ؛ لتثبيت فؤاد النبى ، وشد أزره ، ومواساته على تكذيب قومه ، وقريب من ذلك قوله تعالى : **مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِّنْ قُرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** . (الأنبياء : ٦) .

أى : لم تؤمن الأمم السابقة التى قدر الله إهلاكها عقوبة لها ، فقد أغرق قوم نوح لتكذيبهم نوحا ، وكذلك أهلك قوم هود وقوم صالح وقوم شعيب ومن بعدهم ، وكذلك قوم محمد اشتد عنادهم وتكذيبهم فى مكة ، شأنهم شأن من سبقهم من المكذبين بيد أن الله أمهلهم ، وقال سبحانه : **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ لَيْسَ فِيهِمْ** ... (الأنفال : ٣٣)

فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ...

فأهلكنا بعضهم فى أثر بعض حين تألبوا على رسلهم وكذبوهم .

وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ... أى : أخباراً تروى وأحاديث تذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجبا وتسلياً .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...** (سبا : ١٩) .

وهذه الجملة : **فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ...** إنما تقال فى البشر ، ولا تقال فى الخير ، كما يقال : صار فلان حديثاً ، أى : عبثاً .

فَبَعْدَ آلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : فأبعد الله قوماً لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله .

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنْ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

المضردات :

الآيات : هي الآيات التسع كاليد والعصا ، وهي المذكورة في سورة الأعراف ، قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ عَائِيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ ... (الأعراف : ١٣٣) . وقال تعالى : لَبِى تَسْعَةً أَلَيْتَ ... (النمل : ١٢) . وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والبحر ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وسلطان مبين : حجة واضحة ملزمة للخصم ، والمراد بالسلطان المبين : إما الآيات أنفسها ، أى : هي آيات وحجة بيّنة ، وإما العصا لأنها كانت أم الآيات وأولها ، وتعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها حبال السحرة ، وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها .

قومًا عَالِينَ : متجبرين متكبرين .

صَابِدُونَ : خدم متقادون ، قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابداً . وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع .

المُهْلَكِينَ : المغرقين .

الْكِتَابَ : التوراة .

تمهيد :

هذه هي القصة الرابعة في هذه السورة ، ويلاحظ فيها وحدة الموضوع والهدف ، وشبهة إنكار النبوة : لأن الرسول بشر ، وما علموا أن البشر يتفاوتون في مداركهم واستعدادهم .

قال تعالى : اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

التفسير :

٤٥- ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ .

أرسل الله موسى وأخاه هارون ، ومعهما آيات تسع وقد اختلف المفسرون حولها فمنهم من قال : هي اليد والعصا ، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وقد رجح ذلك ابن كثير ، وقيل : هي العصا ، واليد ، والسنون ، والطمس ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

وعن الحسن :

المراد من الآيات : التكاليف الدينية التي أمروا بها ، ومن السلطان : كل معجزة أتيا بها . ويمكن أن يراد بالسلطان : تسلط موسى في المحاورة ، ووضوح الدلالة على الخالق سبحانه وتعالى والقوة والإقدام .

٤٦- إِلَىٰ إِبْرٰهٖمَ وَنٰوٖلَ ۖ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ .

أرسلنا موسى وهارون إلى فرعون وحاشيته ، وخص الملأ لأنهم أصحاب المشورة والرأى ، ويجوز أن يراد بالملأ : قوم فرعون جميعا ، فقد ورد استعمال الملأ بمعنى الجماعة مطلقا .

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عٰلِينَ .

أى : امتنعوا عن الإيمان تكبرا وعتوا وظلما وعنادا ، وحسداً وبغياً ، وكانت تلك عاداتهم ، وما فطروا عليه ، فقد كان من دأبهم البغى والعدوان على الناس ، وظلمهم كبراً وعلواً فى الأرض .

٤٧- فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰلِدُونَ .

أنكر فرعون وقومه رسالة موسى وهارون ، وحجبتهم فى ذلك أمران :

الأول : أنهما من البشر ، لا يمتازان بشيء على من أرسلنا إليهم ؛ فلماذا يتبعونهما ، وهى حجة متكررة :

أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رُّسُولًا . (الإسراء : ٩٤) .

الثانى : أن بنى إسرائيل قوم موسى وهارون ، كانوا خاضعين لفرعون وقومه ، وكان فرعون يقتل الذكور ، ويستحيى الإناث ، ويسخرهم فى المهن الحقيرة ، ويعرضهم لصنوف الذل والهوان والبلاء .

لقد نظر فرعون وقومه إلى المظاهر ، وما علموا أن التفاوت بين البشر كبير ، فممن البشر من يسمو فى الخير والروحانية وصنوف الهداية ، ومنهم من يرتكس فى الرذيلة والضلال إلى الحضيض ، والله يختار لرسالته أهل الصفاء الروحى ، والرقى النفسى ، فيمنحهم الرسالة لحكمة إلهية عالية . بفضلته تعالى وكرمه .

قال تعالى: **اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ ... (الأنعام: ١٢٤)**.

وقريب من اعتراض فرعون وقومه قول كفار قريش: **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فَرَجَلتْ يَنصِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِرْبًا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ . (الزخرف: ٣١، ٣٢) .**

٤٨- فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ .

فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون؛ فأهلكهم الله بالغرق في بحر القلزم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

٤٩- وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

أى: لقد أنزلنا على موسى التوراة، المشتملة على الأحكام والأوامر والنواهي، وقد كان ذلك بعد إهلاك فرعون وقومه، وإنجاء بنى إسرائيل، لعل من قوم فرعون وبنى إسرائيل يهتدون بالتوراة إلى الحق المبين .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ يَصَإِرُ لِلنَّاسِ وَهْدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (القصص: ٤٣) .**

جاء في تفسير ابن كثير:

وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين .

تذييل

كان موسى من أولى العزم من الرسل، ومعه هارون، وأعطاهما الله المعجزات، لكن فرعون وقومه استكبروا وعاندوا؛ فأغرقهم الله أجمعين في البحر الأحمر .

وأنزل الله التوراة على موسى في الطور، فيها هدى ونور وتشريع وأحكام، وخص موسى بالذكر هنا من باب الاقتصاد على الأصل وحده، فقد كان موسى الأصل في النبوة، وكان هارون وزيره ومعينه في دعوته، وذلك لا يمنع من إرادة هارون معه .

قال تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهْرُونَ الْقُرْآنَ ... (الأنبياء: ٤٨) .**

قصة عيسى عليه السلام إجمالاً

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ (٥٠)

المفردات :

آية : دلالة بينة على كمال قدرته تعالى .

آويناها : جعلنا مأواهما ومنزلهما .

ربوة : هي المكان المرتفع من الأرض ، قيل : كانت في مصر ، أو في بيت المقدس ، أو في دمشق .

ذات قرار : ذات استقرار ، يستقر عليها ساكنوها ، لأجل ما فيها من الثمار والزرع .

معين : ماء جار ظاهر للناس .

تمهيد :

سبق إيراد قصة عيسى وأمه مفصلة في سورة آل عمران وسورة مريم ، ووردت هنا موجزة لبيان قدرة الله تعالى فيها : فهو سبحانه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى .

التفسير :

٥٠- وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ...

وجعلنا عيسى ابن مريم آية ، وجعلنا أمه آية ، وهى مريم الطاهرة البتول ، وقد بشرها جبريل - عليه السلام - بغلام طاهر يكون رسولا ، وتم الحمل بقدرة الله ، الذى خلق آدم .

قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

وأزنا لهما في مكان مرتفع من الأرض ، به عيون وزروع وثمار ، وهواء طيب وحياة مريحة ، والآية تدل على رعاية الله وعنايته بعيسى ، وهو وليد بدون أب ، ورعايته لأمه ، وتيسير كفالاته وحمايته ، والإنعام عليه بنعم عديدة ، من بينها الإقامة في مكان صحى مرتفع ، يفيض بالخيرات والزرع والثمار لتوفير الحياة الكريمة .

وسبب الإيواء أن مريم أم عيسى فرت بابنها عيسى إلى الروبة ، وبقيت بها اثنتى عشرة سنة ، وقد ذهب بها ابن عمها يوسف النجار ثم رجعت إلى أهلها بعد أن مات ملكهم .

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرُّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ ۝٥٤ أَيْحَسِبُونَ أَنَّ مَا بُدِّعُوا مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾

المفردات :

الطيِّبات : ما يستطاب ويستلذ من المباحات فى المأكول والفاوكة .

واعملوا صالحا : من فَرَضَ ونَفَلَ .

أمتكم : ملتكم وشريعتكم .

فاتقون : فاحذرون .

فتقطعوا : أى : الأتباع قطعوا ومزقوا .

أمرهم : أمر دينهم .

زبيرا : قطعاً وأحزاباً متخالفين ، كاليهود والنصارى وغيرهم ، جمع زبور .

بما تسديهم : عندهم من الدين .

فرحون : مسرورون معجبون ، معتقدون أنهم على الحق ، كما هى حال قريش .

ذرهم : دعهم واتركهم .

فى غمرتهم : فى جهالتهم أو عماهم ، وأصل الغمرة : الماء الذى يغمر القامة ويسترها ، ويمنعها من رؤية الحقيقة والواقع .

حتى حين : إلى حين موتهم أو قتلهم .

أنما نمدهم به : ما نعطيههم ونجعل مددا لهم .

بل لا يشعرون : أن ذلك استدراج لهم ، وإنما هم كالبهائم لا فطنة عندهم ولا شعور ليتأملوا فيعلموا أن ذلك الإمداد استدراج .

تهديد :

بعد أن قص الله تعالى قصص بعض الأنبياء السابقين ، عقب ذلك بتوصية الرسل جميعا بالأكل من الطيبات والعمل الصالح ، والمراد بذلك أتباع الرسل أيضاً ، ثم أرشدهم إلى أن الدين واحد وهو الدعوة إلى

توحيد الله ، والتمسك بالعمل الصالح ، لكن أتباع الرسل فرقوا دينهم ، وتمسكت كل فرقة بما تدين به كما هي حال قريش ، وهم فى حيرة وعسى ، يظنون أن ما أنعم الله به عليهم من النعمة لرضاه عليهم ، وما يشعرون أنه استدراج لا مسارعة فى الخيرات .

التفسير :

٥١- يَتْلَاهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ...

هذا نداء من الله تعالى للرسول وأتباعهم ، بالأكل من الطيبات ، وهو ما تستطيه النفس من الطعام والفاكهة ؛ بشرط أن يكون حلالا ، ويتبع الأكل من الطيبات ، العمل الصالح ؛ شكراً لله على النعمة ، وامتنالاً لأمره تعالى ، حيث قَدِمَ الأكل من الطيبات على العمل الصالح .

إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

إنى مطلع على جميع أعمالكم ، ومجازيكم بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، حيث لا يخفى على شئ من أعمالكم . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقد حُوِّلَت كتب السنّة الصحيحة بأهمية الأكل من الحلال الطيب وتأكيد ذلك ، فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، كما نهى النبى ﷺ عن الأكل من الحرام وحذّر منه .

أخرج مسلم ، وأحمد ، والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس، إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : يَتْلَاهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وقال : يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ... (البقرة : ١٧٢)

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، يمدّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، فأنى يستجاب له ؟ (١٨) .

وأخرج أحمد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم ، عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس رضى الله عنها أنها بعثت إلى النبى ﷺ بقدر لبن حين فطره وهو صائم ، فردّ إليها رسولها ، وقال : «من أين لك هذا؟» فقالت : من شاة لي ، ثم رده ، وقال : «من أين هذه الشاة؟» فقالت : اشتريتها بمالى ، فأخذها ، فلما كان من الغد أمّته ، وقالت : يا رسول الله ، لم رددت اللبن ؟ فقال ﷺ : «أمرت الرّسل ألا يأكلوا إلا طيباً ، ولا يعملوا إلا صالحاً» .

وجاء فى بعض الأخبار : «إن الله تعالى لا يقبل عبادة من فى جوفه لقمة من حرام» .

وصح أيضًا : «أيما لحم نبت من سُحْتِ فالنار أولى به» ^(١٩).

٥٢- وَإِنْ هَلِدَةً آمَنُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .

أى : دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؛ واختلاف الشرائع والأحكام بحسب اختلاف الأزمان والأحوال لا يسمى اختلافًا فى الدين ، لأن الأصول واحدة.

وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .

أنا خالقكم والهكم وحدى لا شريك لى فى الربوبية : فاحذروا عقابى وخافوا عذابى. وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء فما ظن كل الناس بأنفسهم .

٥٣- فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

فتفرق أتباع الأنبياء فرقا وجماعات وأصبح كل فريق معجبا بنفسه ، فرحًا بما عنده ، معتقدًا أنه الحق الذى لا معدل عنه .

وَزُبُرًا . أى : قطعًا ، جمع : زُبُرَة ، وهى القطعة . ويجوز أن يكون المعنى : أن أتباع الأنبياء فرقوا دينهم بعد أنبيائهم ، فأمنا ببعض ما أنزل عليهم وكفروا بما سواه ، اتباعًا لأهوائهم ، أو أنهم وضعوا كتبًا وألفوها ونسبوا تلك الضلالات إلى الله .

وقيل : إنهم فرقوا بين الكتب المنزلة ، فأخذ كل منهم كتابا آمن به وكفر بما سواه .

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

كل جماعة أو هيئة أخذت قطعة أو جانبًا أو مِرْقَة من الدين ، ومضت بالمِرْقَة أو القطعة التى خرجت فى يدها لا تفكر فى شئ ، ولا تلتفت إلى شئ ، مضت وأغلقت جميع المنافذ ، وسدت كل نسيمة طليقة ، وكل فكر أو رأى أو نصيحة أو حوار رشيد .

فيا أتباع الأديان ، أما أن الألوان فى الاجتماع على كلمة سواء ، ما دام أصل الدين واحدًا ، وأساسه واحدًا ، وهو الإيمان بالله ربا وأتباع هدايات السماء ؛ ويا أتباع محمد ﷺ ، أما أن الألوان إلى التلاقى على جوهر الإسلام وحقائقه ، وسماحته وأصوله العامة ، والعودة به إلى منابعه الصافية ، واجتهادات الأئمة المشهود لهم بالعلم والرأى والإخلاص والاجتهاد المقبول ، والفتيا بما يتوافق مع أصول الدين ومصالح العباد المعتمدة .

٥٤- فَذَرْنَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ .

أي : اترك - أيها النبي - هؤلاء على حالهم من الغفلة والضلال الذي لا ضلال بعده ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فقد بلغت الرسالة التي أمرت بتبليغها حق الأداء . مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ... (المائدة : ٩٩) .
حَتَّىٰ حِينٍ . إلى موتهم أو قتلهم ورؤيتهم مقدمات العذاب وبوداره .

ونقل القرطبي في تفسيره عن مجاهد ، قال : حَتَّىٰ حِينٍ : حتى الموت ، فهو تهديد لا توقيت ، كما يقال : سيأتى لك يوم .

٥٥- أَيْخُسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيههم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ، كلاً ليس الأمر كما يزعمون في قولهم : نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ . (سبا : ٣٥) .

لقد أخطأوا في ذلك وخاب رجائهم ، بل إنما نفعل ذلك استدراجاً ، وإنظاراً ، وإمهالاً .
بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

لا يحسون ولا يعلمون أن ما هم فيه من نعمة ومال وبينين إنما هو اختبار وإبتلاء واستدراج ، وأخذ بأيديهم إلى العذاب .

كما قال تعالى : فَلَا تَعْلَمُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... (التوبة : ٥٥) .
وقال تعالى : فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِ لَئِنْ الْحَدِيثِ سَتَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .
(القلم : ٤٥، ٤٤)

أخرج أحمد ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن عتبة بن عامر : أن النبي ﷺ قال : «إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد من الدنيا ما يحب ، وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج» (٢) .
والخلاصة :

أن هذا الإمداد للكفار ليس إلا استدراجاً لهم إلى المعاصي ، واستجراً إلى زيادة الإثم ، وهم يحسبونهم مسارعة لهم في الخيرات إكراماً لهم ، وتجيلاً للثواب قبل وقته .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ،

فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : غشمة وظلمه ، ولا يكسب عبد مالا من حرام ، فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ، ولكن يمحو السيئ بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث .

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوْتُونَ مَاءَ أَنْوَاءِ قُلُوبِهِمْ وَجِلَّةٌ أُنْفُسُ إِلَى رَبِّهِمْ رَجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يَدْخُلُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَلَّا سَاقُونَ ﴿٦١﴾﴾

المفردات :

الخشية ، الخوف من العقاب .

الإشفاق : نهاية الخوف ، والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .

الآيات : هي الآيات الكونية في الأنفس والآفاق ، والآيات المنزل .

وجلة : خائفة .

سابقون : ظافرون بخيلها .

تمهيد :

من شأن القرآن أن يقابل بين الباطل والحق ، وبين صفات الكافرين وعقابهم ، وصفات المتقين وثوابهم .

وقد وصف المتقين هنا بأربع صفات :

١ - خشية الله والخوف منه .

٢ - الإيمان بآيات الله .

٣ - نفى الشريك عن الله .

٤ - أداء الواجبات كالزكاة والكفارة والصدقة ، وقلوبهم خائفة ألا يتقبل ذلك منهم .

التفسير :

٥٧ - إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ .

إن الذين هم فى إشفاق وخوف من التقصير فى حق ربهم ، مع صدق إيمانهم وصالح عملهم .

قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحسانا وإشفاقا ، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

٥٨ - وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُوْثِقُونَ .

أى : هم يؤمنون بآيات الله الكونية التى نصبها فى الأنفس والآفاق ، فيتأملون فى خلق السماوات والأرض ، وحركة الليل والنهار والشمس والقمر ، والنبات والشجر والمطر ، وغير ذلك من آيات الله التى يتأملها المؤمنون ويغفل عنها الغافلون .

كما فى قوله تعالى : وَكَانَ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْرَوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

والمؤمنون يؤمنون أيضا بآيات الله المنزلة على رسله ، كالتوراة والإنجيل والقرآن .

٥٩ - وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ .

هم يؤمنون بالله كما سبق ، وهم يخلصون له العبادة ، ولا يعبدون سواه ، ويعلمون أنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

فالآية السابقة وصف لله بتوحيد الربوبية ، وهذه الآية وصف له بتوحيد الألوهية ، ولم يقتصر على الأول ، لأن كثيرا من المشركين يعترفون بتوحيد الربوبية ، كما قال تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (الزخرف : ٨٧) . ولا يعترفون بتوحيد الألوهية والعبادة ، ومن ثم عبدوا الأصنام والأوثان على طرائق شتى ، وعبدوا معبودات مختلفة .

٦٠ - وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا قُلُوبُهُمْ وَجِلَّةٌ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ رَاجِعُونَ .

هم يقومون بإخراج الزكاة ومساعدة المحتاجين ، وإخراج الصدقة والقيام بما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، حال كونهم خائفين من ربهم ، خشية أن يكون قد صدر منهم تقصير ، فى أى حق من حقوق الله أو حقوق العباد ، كالزكاة والكفارة والودائع والديون ، والعدل بين الناس .

أَلَهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ .

أى : وجلت قلوبهم وأشفتت وخافت ، لتيقننها بالرجوع إلى الله يوم القيامة ، فتتكشف لهم الحقائق ، وتظهر حاجة العبد إلى عمل تام مقبول ، ينجيه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٦١ - أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ .

هؤلاء الموصوفون بما سبق تفصيله من الأوصاف الجليلة ، يبادرون إلى ذيل الخيرات ، ويحرصون على السبق إلى صلاة الجماعة ، وإخراج الزكاة عند استحقاقها ، ويبادرون إلى كل عمل صالح بهمة عالية ، كأنما يسبقون أنفسهم ، أو وهم لأجلها سابقون إلى الطاعات .

وقال ابن عباس : وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ . سبقت من الله لهم السعادة ، فسارعوا في الخيرات .

جاء في تفسير المراغي :

ومعنى هُم لَهَا : أنهم مُدْعُونَ لفعل مثلها ، من الأمور العظيمة ، كقولك لمن يُطلب منه حاجة لا ترجى من غيره : أنت لها ، وعلى هذا قوله :

مشكلات أعضلت ودهت يا رسول الله أنت لها

وخلاصة ذلك :

إن النعم ليست هي السعادة الدنيوية وذيل الحظوظ فيها ، بل هي العمل الطيب ، بإيتاء الصدقات ونحوها ، مع إحاطة ذلك بالخوف والخشية .

★ ★ ★

﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

المعزادات :

الوسع : ما يتسع على الإنسان فعله ، ولا يضيق عليه .

الكتاب : هو صحائف الأعمال .

بالحق : بالصدق .

التفسير :

٦٢ - وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا مَكْتَبٌ بِتِلْكَ بِالتَّحْقُّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أنزل الله كتبه وأرسل رسله وشرع شرائعه بما يوافق الفطرة السليمة ، ويكون فى وسع النفوس البشرية وطاقتها بلا حرج ولا مشقة ، فالأصل فى التكليف رفع الحرج ، والتكليف بما فى الوسع والطاقة ، فإذا سلب الله العقل أسقط التكليف ، وإذا كان الإنسان فقيراً يسقط عنه الزكاة والحج ، ويظهر ذلك فى قوله تعالى : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِيهَا . (الطلاق : ٧) . لأنه سبحانه عليم حكيم حلیم رحيم ، فلا يحاسب الناس إلا على ما فى وسعهم وطاقاتهم وإمكاناتهم .

وَلَدَيْنَا مَكْتَبٌ بِتِلْكَ بِالتَّحْقُّ .

إن كتاب صحائف الأعمال ، يسجل فيه أعمال الإنسان بالحق وبالصديق ، وكل كبيرة وصغيرة ، وكل خير أو شر يجده الإنسان فى كتابه يوم القيامة .

قال تعالى : مَا لَهُمْ ذَلِكَ أَنْ يَكْتَسِبَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقال عن شأنه : هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالتَّحْقُّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَسْمِعُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجنابة : ٢٩) .

وقال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

والله تعالى يقول فى الحديث القدسى : «يا عبادى إبنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٣١) .

فالله تعالى عادل ، لا يظلم أحداً .

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

لا يُبْخَسُونَ فى الجزاء من الخير شيئاً ، بل يثابون على ما قدموا من الأعمال القليلة والكثيرة ، ولا يزداد فى عقابهم ، فهم لا يظلمون بزيادة عقاب أو نقصان ، بل يعفو الله عن كثير من السيئات .

﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا
 مُتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ ﴿٦٥﴾ فَكَانَتْ
 آيَاتِنَا نَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْتُمُوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ لَا تَكْصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ
 ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ
 لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾
 وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ
 بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ قَسَمَ اللَّهُ خُرَاجَ رِيكِ خَيْرٍ وَهُوَ
 خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
 عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحَّمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
 يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا
 فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ ﴿٧٧﴾

المقدرات :

الغمرة ، الغفلة والجهالة .

من دون ذلك ، غير ذلك .

المسترف ، المتوسع في النعمة .

جاء الرجل ، صاح ورفع صوته .

لا تنصرون ، لا يجبركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون ، تعرضون عن سماعها ، وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب ، ورجوع الشخص على
 عقبه : رجوعه في طريقه الأولى ، كما يقال : رجع عوده على بدته .

سامرا ، تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه .

الْهَيْجَرُ : بضم الهاء ، الهذيان ، أو النطق بالهجر وهو الفحش .

الْجَنَّةُ : الجنون .

الذِّكْرُ : القرآن الذى هو فخرهم .

عَنْ ذِكْرِهِمْ : عن فخرهم .

خَرَجْنَا : جعلاً . وأَجْرًا .

صراط مستقيم : طريق لا عوج فيه .

نَاكِبُونَ : عادلون عن طريق الرشاد ، يقال : نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .

لَحَقَ هِيَ الْأَمْرُ : تهادى فيه .

يَعْمَهُونَ : يتحIRONون ويترددون فى الضلال .

اسْتَكَانُوا : خضعوا وذلوا .

وما يتضرعون : وما يتذللون إلى الله ويدعونه مخلصين أن يرحمهم .

مَسْبُوسُونَ : متحIRONون آيسون من كل خير .

تمهيد :

تحدث الآيات عن جملة من رذائل المشركين ، من بينها ما يأتى :

١ - غفلة قلوبهم عن القرآن .

٢ - سمرهم بالليل طاعنين فى القرآن مستهزئين بالنبي ﷺ .

٣ - دعا النبي ﷺ على المشركين فأصابهم الجذب والجوع ؛ حتى أكلوا العلهن يعنى : الوبر . الدم ؛ ولكنهم

لم يؤمنوا بالله ولم يتضرعوا إليه . فأنزل الله تعالى : وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا

يَتَضَرَّعُونَ .

٤ - استمر نفورهم وإعراضهم عن الهدى واستكبارهم .

٥ - افترؤا على النبي ﷺ واتهموه بالجنون .

٦ - لم يطلب النبي ﷺ منهم أجرا ولا خرجا على تبليغ الرسالة .

٧ - بل دعاهم إلى الهدى والطريق القويم .

٨ - ثم ابتلاهم الله بالجوع والقتل يوم بدر ، فما خضعوا ولا ذلوا .

التفسير :

٦٣ - بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ .

بل قلوب المشركين فى غفلة عن هدى القرآن وما فيه من هداية وصلاح ، وهم يجمعون بين جحوا الخالق ، وظلم المخلوقين ، فقد أنكروا رسالة النبى محمد ﷺ ، ولم يصدقوا بالحق الذى جاء به ، وإذا سهررو فى نواديهم ، عملوا أعمالاً سيئة من السخرية بالنبى ﷺ ، والتكذيب بالقرآن الكريم ، فقالوا عن القرآن الكريم ما هو إلا سحر مفترى ، وما هو إلا أساطير الأولين ، وقالوا عن النبى : ما هو إلا شاعر ، وزعموا أن به جنة وأنه قد تعلم القرآن من غيره من أهل الكتاب ، وانغمس المشركون فى عبادة الأوثان والأصنام ، وإذا جاءهم الهدى أعرضوا عنه ، وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون .

٦٤ - حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ .

لقد أترف المشركون بالنعمة والمال والغنى ، وغطى ذلك على قلوبهم وجعلهم فى غفلة ، وسيعجل الله عقوبتهم بالعذاب فيجأرون ويصيحون ويستغيثون حين نزول العذاب بهم .

وقال بعض المفسرين :

المراد بالعذاب فى الآية : عذاب الآخرة ، أى : إذا نزل بهم العذاب يوم القيامة ، سمع لهم جوار صراخ وخوار ، وأصوات استغاثة .

٦٥ - لَا تَجْعَلُوا آلِيَوْمَ إِنَّكُمْ مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ .

لا تصرخوا ولا تستغيثوا ، فقد أسرفتم على أنفسكم بالمعاصى فى الدنيا ، ولا تنصرون منا بقبول توبتكم ، أو يقال لهم يوم القيامة : لن يفيدكم الصراخ والعيول ، ولا يجديكم البكاء والاستغاثة ، فهذا وقت الجزاء ، ولا ناصر يحول بينكم وبين بأس الله وعقوبته .

٦٦ - قَدْ كَانَتْ آيَاتِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَغْفَابِكُمْ تَكْبُرُونَ .

لقد عاقبناكم عقاباً عادلاً ، فإنكم كنتم متى سمعتم آيات القرآن تتلى عليكم أعرضتم عنها ، ونفرتم من سماعها ، شأنكم شأن من يترك الطريق الواضح أمامه ، ويرجع القهقري ناكصاً ناحية عقبه ، والنكوص أقبح المشى ، لأن الناكص لا يرى ما وراءه .

٦٧ - مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلِيمًا تَهْجُرُونَ .

الضمير في **بِهِ** عائد على البيت الحرام ، فقد كان أهل مكة يرون أنفسهم سدنة البيت الحرام ، وأهل رعاية الحجيج وسقايتهم ، وأهل عمارة المسجد الحرام ، فاستكبروا وتعاطت إليهم أنفسهم بالمسجد الحرام ، ومنعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام ، أو أداء شعائر الإسلام حول الكعبة ، وإذا جلس المشركون للسمر حول البيت ، تكلموا بالهجر من القول ، وقيل : الضمير في **بِهِ** عائد إلى القرآن ، أو إلى محمد ﷺ ، فإنهم كانوا يصفون القرآن بأنه سحر أو شعر أو كهانة ، ويقولون عن النبي ﷺ : إنه شاعر أو كاهن أو كذاب أو مجنون ، وكل ذلك باطل .

والخلاصة :

إنكم كنتم عن سماع آياتي معرضين ، مستعظمين بأنكم خُدَام البيت وجيرانه ، فلا تضامون ، وتقولون الهجر والفحش والكذب في أمر القرآن ، وتقولون عنه ما ليس فيه مسحة من حق أو صواب .

٦٨ - أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ ...

أفلا يتفهم المشركون هذا القرآن العظيم؟ مع أنهم خُصُّوا به، وهو مشتمل على التشريع والآداب والعتبات، والفصاحة والبيان، ولم ينزل على رسول أكمل ولا أشرف منه ، فكان اللائق بهم تفهمه والعمل بمقتضاه .

أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ .

ألم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر على خلاف العادة ، مع أنهم عرفوا بالتواتر أن الرسل تواتت على الأمم ، مؤيدة بالمعجزات ، أفلا يدعوهم ذلك إلى تصديق هذا الرسول ، فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، فقد أرسل الله قبله إبراهيم وإسماعيل وهما جدَّ العرب ، قال تعالى : قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ... (الأحقاف : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (الشورى : ١٣) .

٦٩ - أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مَنكُرُونَ .

أى : أليكون سبب عدم إيمانهم ، عدم معرفتهم بالرسول محمد ﷺ ، وأمانته وصدقه وجميل خصاله؟ كلا ، فقد شهدوا له بالصدق والأمانة ، واشتهر بينهم بالصادق الأمين ، وقبلوا حكمه فى وضع الحجر الأسود عند إعادة بناء الكعبة فى الجاهلية ، وقالوا : هو الأمين رضينا له حكماً . فكيف ينكرون رسالته الآن؟! .

ولقد قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي : إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه ، ونعرف صدقه وأمانته . وكذلك قال أبو سفيان لملك الروم حين سأله وأصحابه عن نسبه ، وصدقه وأمانته ، وقد كانوا بعد كفارا لم يسلموا ، فإذا كان محمد معروفا عندهم بالصفات الحميدة ، فما الذي منعهم من الإيمان به ، إلا البغى والحسد .

قال سفيان الثوري : بل قد عرفوه ، ولكنهم حسدوه .

٧٠ - أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

انتقلت السورة إلى توبيخهم للمرة الرابعة ، فى إضراب انتقالى لتوبيخ الكافرين ، أى : بل أحتجون فى ترك الإيمان بأن محمداً مجنون ؟ وهذا باطل ينكره الواقع ، فقد كان محمد ﷺ راجح العقل ، ذكى الفؤاد ، حكيماً رزيناً أميناً شريفاً .

بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ ...

أى : بالدين الحق وهو الإسلام ، أو بالتوحيد والإيمان .

وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

معظمهم كره الإسلام تعنتاً وحسداً ، وكبرا وعناداً وبغياً ، وإنما قال : أَكْثَرُهُمْ . لأن بعضاً منهم تركوا الإيمان أنفة واستعلاء ، وتخوفاً من توبيخ القوم وتغييرهم ، لا كراهة للحق ، كما أثر عن أبي طالب من قوله :

فوالله لولا أن أجيء بسبة تجرّ على أشياخنا فى القبائل

إذاً لاتبعنا على كل حالة من الدهر جدّاً غير قول التخاذل

٧١ - وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ...

لقد جاء النبی محمد ﷺ بالقرآن وهو وحى السماء ، معلنا توحيد الله ناپذاً للشرك ، داعياً إلى مكارم الأخلاق محذراً من الفحشاء والمنكر ، لقد كان القرآن حرباً على الشرك والوثنية ، والبغى والعدوان ، وَرَسَمَ الطريق للقيام ، ودعا إلى مكارم الأخلاق ، وحذّر من الجنوح والرديلة ، والزنا والزبأ وأكل مال اليتيم ، والبغى والعدوان .

إن القرآن حق ، والحق لا يتبع الهوى ، بل الواجب على الإنسان ترك الهوى واتباع الحق ، فإن اتباع الهوى يؤدى إلى استباحة الأموال والأعراض ، والشرك بالله .. ولو اتبع القرآن أهواء الناس فأباح الشرك

بالله ، والزنا والربا ، وأقر السلب والنهب والسرقة ، وأهل القيم الخلقية ، لاختل نظام العالم ، ووقع التناقض وانتشرت الفوضى والفساد ، واختللت الأنساب وتهدمت الأسر .

وقال القرطبي : إن الحق هنا هو الله سبحانه وتعالى ، وتقديره في العربية : ولو اتبع صاحب الحق أهواءهم .

وقيل : المعنى : ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى ، لتنافست الآلهة وأراد بعضهم ما لا يريد به بعض ، فاضطرب التدبير وفسدت السماوات والأرض ، وإذا فسدنا فسد من فيهما .

وَمَنْ فِيهِنَّ .

إشارة إلى من يعقل من ملائكة السماوات وإنس الأرض وجننها ، وأما ما لا يعقل فهو تابع لما يعقل^(٣) .

ثم شئع القرآن عليهم ، لإعراضهم عن معالم الحق والخير والهدى فقال :

بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ

لقد جاء القرآن عظة وهداية ، ومجداً وشرقاً لهم ، وكان الأولى أن يهتدوا به ويلتفتوا حوله . قال تعالى : وَإِنَّهُمْ لَذَكَرُكَ لَوْ كُنْتَ وَقَوْمُكَ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) . أى : القرآن شرف لك يا محمد ولقومك : لأنه وحد العرب وجمعهم وعلمهم وطهرهم ، ولم يكن للعرب في الجاهلية كبير شأن ، فكانوا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس ، وكان القرآن روحاً وحياة لأمة العرب ، ولما دخلوا في الإسلام زلزلوا عروش الأكاسرة والقيصرة ، وفتح الله بهم البلاد ونصرهم على العباد ، وكلما اقترب المسلمون من القرآن ، وعملوا بأحكام الإسلام ؛ ارتفع شأنهم وعلا أمرهم ، وكلما بعدوا عن هدى القرآن ؛ ضعف شأنهم .

وخلاصة المعنى :

بل جئناهم بالقرآن الذي هو عزمهم وشرفهم ، وفخرهم وإعلاء سمعتهم ، ولكنهم معرضون عن هذا الذكر الذي سطر لهم الخلود والمجد .

٧٢ - أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرَاجُ ذَلِكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ .

انتقال إلى توبيخ آخر يوبخ به سبحانه وتعالى الكافرين ، على عدم إيمانهم بما جاء به الرسول من الحق دون أن يسألهم عليه أجراً ، أى : أنسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ، فبسبب ذلك لا يؤمنون بك ، ولأجله يعرضون عن رسالتك ؟

والمراد: أنك لا تسألهم أجراً ، فإن ما رزقك الله فى الدنيا والعقبى خيرٌ من ذلك ، لسعته ودوامه ، ولأنك تحتسب أجره عند الله لا عندهم ، وكيف ينتظر أجر المخلوقين ، من تعلق قلبه بما عند الله ، وما عند الله خير وأبقى وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . فِعْطَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَمَاطِلُهُ عِطَاءُ : لأن الأرزاق المادية والمعنوية منه تعالى ، ولا يقدر أحد أن يرزق مثل رزقه ، ولن يستطيع أن ينعم قدر إنعامه .

٧٣ - وَإِلَٰكَ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

وإليك يا محمد لتدعو الناس إلى دين الإسلام ، وهو دين الفطرة السليمة ، ومكارم الأخلاق ، وهو الدين الكفيل بحل مشاكل البشرية ، وهو العلاج لأدوائها ، كما شهدت بذلك العقول السليمة والدراسات الحيادية المجردة من أعداء الإسلام وعباقره العلم والمعرفة .

٧٤ - وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَسَكِرُونَ .

والكافرون المكذبون بالآخرة ، معرضون عن الصراط المستقيم ، متنكبون عن الجادة ، منحرفون عن هدى السماء ، لأنهم تركوا الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ ، والإسلام هو الطريق القويم ، والكفر انحراف عن الجادة .

٧٥ - وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

لقد غلب عليهم العناد ، وغلبت على طبيعتهم المكابرة ، فإن أصيبوا بالقحط والبلاء لم تلتن قناتهم ، ولم يتضرعوا إلى ربهم ، ولو أسبغنا عليهم واسع رحمتنا ، وأزحنا عنهم الضرر لما آمنوا بالقرآن ، ولما انقادوا له ، ولتتمادوا فى ضلالهم ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم ، وكان النبی ﷺ قد دعا عليهم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» (١٣) .

وقد حقق الله دعاء نبيه ، فأصاب أهل مكة القحط والجوع ، فجاء أبو سفيان إلى النبی ﷺ يسأله صلة الرحم ، والشفقة بأهل مكة ، وكتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تقول له : ألسنت تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين ، فقد قتل الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، وأنت تأمر بصلة الرحم ، وإنك قد طعنت أرحامنا . وكان ذلك قبل الفتح بقليل ، وكان ثمامة بن أثال الحنفي قد أسلم ، وتسبب فى منع الميرة من اليمامة إلى أهل مكة حتى أضربهم الجوع ، وأكلت قريش العلل - وهو طعام يؤكل فى المجاعة من الدم والوبر ، ويطلق أيضاً على القراد الضخم - فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة - رضى الله عنه - : «خل بين قومي وبين ميرتهم» . ففعل ، وقد نزلت الآية الكريمة ، لتبين أن كشف الضر عنهم ، بسعى رسول الله ﷺ ، وكتابته إلى ثمامة ، لن يؤثر فى قلوبهم المريضة ، بل سيستمرون على عنادهم وطغيانهم وكفرهم ، وسيظلون متحيرين مترددين .

قال تعالى : وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ قَتَلُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . (الأنفال : ٢٣) .

٧٦ - وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكْبَرُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ .

أخذنا أهل مكة بعذاب الجوع والقحط ، أو القتل يوم بدر ، فما خضعوا لربهم ، ولا انقادوا لأمره ، ولا تضرعوا إليه ، ولا تذللوا لمرضاته ، فقلوبهم مع أوثانهم ، وليست مع خالقهم .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الأنعام : ٤٣) .

ثم أبان حالهم إذا جاءتهم وفجأتهم القيامة .

٧٧ - حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

حتى إذا جاءتهم الساعة بفتح . ونزل بهم عذاب السماء ، خاب أملهم ، وانقطع رجائهم ، وأصيبوا باليأس والإحباط ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَيَوْمَ يَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . (الروم : ١٣) .

ويقول تعالى : لَا يَفْقَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . (الزخرف : ٧٥) .

وقيل : المراد بالعذاب الشديد : فتح مكة ، وانتصار الإسلام ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، عندئذ أصيب أهل مكة بالإحباط واليأس من الانتصار على الإسلام .

وخلاصة الآيات ٦٣ - ٧٧ ، إصرار الكفار على الشرك بالرغم من وضوح الأدلة أمامهم ، ومعرفتهم بمحمد ﷺ الصادق الأمين ، وأنه كامل العقل ، وقد جاء بالحق الواضح ، ولم يطلب منهم أجرا على تبليغ الرسالة ، ودعاهم إلى الصراط المستقيم ، ولكنهم تحجرت قلوبهم ، فلا يفيدهم البلاء ولا كشفه ونزول رحمة الله بهم .

★ ★ ★

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

المضردات :

أنشأ ، خلق .

الافئدة : القلوب ، مفردتها فؤاد ، وقد خلقها للتفكير والتدبر والتأمل .

ذراكم — خلقكم وبثكم .

اختلاف الليل النهار، تعاقبهما بالسواد والبياض ، والزيادة والنقصان ، وذلك مختص بالله تعالى ، لا يقدر عليه غيره ، كما يقال : فلان يختلف إلى فلان ، أى : يتردد عليه بالمجيء والذهاب .

تمهيد :

يعدد الله تعالى فى هذه الآيات ، مظاهر نعمه على عباده ، فهو الذى أنعم علينا بنعم السمع والبصر والعقل ، وهو الذى أوجدنا ويميتنا ثم يحيينا ، ويبد الله اختلاف الليل والنهار وتتابعهما كما أن بيده الحياة والموت والبدء والانتهاى للكون والإنسان .

التفسير :

٧٨ - وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

من شأن القرآن الكريم أن يتخوّل الناس بالموعظة بين الحين والحين ، فقد استعرض حال أهل مكة ، وإصرارهم على الكفر والعناد فيما سبق ، وهنا يذكّرهم بأنعم الله تعالى عليهم ، فالله تعالى أوجدهم إلى الدنيا ، لا يعلمون شيئاً ، ثم أنعم عليهم بحاسة السمع ، والطفل يبدأ فى السمع خلال الأسابيع الأولى من ولادته ، وخلال الشهر الثالث يبدأ فى الإبصار ، ولا يتم تركيز الإبصار إلا بعد الشهر السادس ، وأما الإدراك بالعقل فلا يكون إلا بعد ذلك .

وهذه الأجهزة العجيبة ، التى يتمتع بها الإنسان ، وكيفية عملها وأدائها لوظائفها ، أمر يدير الرءوس ، وقد كان اكتشاف طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها ، يعدّ كشفًا عظيمًا فى عالم البشر ، فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ؟

ونلاحظ أن القرآن الكريم يقدم السمع على البصر ، ويدل ذلك على أهمية السمع فى حياة الإنسان ، وكأنّ اختراع الإذاعة والتليفون ، والتليفون المحمول مما يبين أهمية السمع ، والسمع مرتبط بالفكر ، والأعمى يعتمد على السمع والفكر وهما وسيلة تميز الإنسان ، وفى الحديث الصحيح : أن الله اختبر ثلاثة من البشر ، كانوا مرضى وفقراء فشفاهم الله ، وأعطاهم المال ؛ ثم اختبرهم فى حال الصحة والغنى ، وكان أحدهم أبرص والثانى أقرع ، والثالث أعمى ، فرسب الأبرص والأقرع فى الامتحان ، ونجح الأعمى لأن الأول ضنّ بالمال ورفض مساعدة مريض فقير ، وكذلك الثانى ، أما الأعمى فقد قال : لقد كنت مثلك أعمى فشفانى الله ، وكنت فقيرًا فأغنانى الله ، خذ ما تشاء من أغنامى فلا أمنعك مالا أخذته فى سبيل الله ، فقال له الملاك : أمسك عليك مالك ، لقد رضى عنك وسخط على صاحبك^(١) .

وهذا الحديث الصحيح يبين أهمية البصيرة الداخلية ، وأهمية القيام بشكر الله تعالى على ما أنعم به .

وفى معنى الآية قوله تعالى : **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** . (النحل : ٧٨) .

وقد خص الله تعالى نعم السمع والبصر والعقل بالذكر ، لأن النظر العقلى والإيمان متوقف عليها ، ثم قال سبحانه وتعالى فى ختام الآية :

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

أى : إن الناس لم يستخدموا هذه النعم فى معرفة الحق سبحانه ، ولذلك آمن قليلهم وكفر أكثرهم .

قال تعالى : **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** . (يوسف : ١٠٣) .

وقال عز شأنه : **وإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ يَتَّبِعِي تَعْظِيمَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ...** (ص : ٢٤) .

وقال تعالى : **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** . (سبا : ١٣) .

وقيل : إن المعنى أن الناس يشكرون الله شكرا قليلا ، وكان أولى بهم أن يكثر من شكرهم لربهم عرفانا بفضلهم ، وذكرنا آلائهم ، وتلبية لأوامره ، وتبذلا إليه ، قال تعالى : **يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهُ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسِعْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وقال تعالى : **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** . (إبراهيم : ٧) .

٧٩ - **وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** .

فقد خلق الله آدم وخلق منه حواء ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، ونشر الخلق فى سائر أقطار الأرض ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ثم يميتهم الله وينزع أرواحهم ، ثم يوم القيامة يجمعون للحساب والجزاء العادل المنصف ، وكلها أنعم منه سبحانه .

٨٠ - **وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** .

والله تعالى هو الذى يملك الحياة والموت ، وفى كل لحظة نجد ملايين الأحياء تدب فيهم الحياة ، وملايين الموتى تنزع أرواحهم ، والحياة نعمة الوجود ، والموت نعمة تكريم الإنسان والأحياء ، والإنسان ربما

ظن أنه يمكنه الإحياء والإماتة ولكنها أمور ظاهرية ، لأن واهب الروح هو الله ، وقابضها هو الله بواسطة الملائكة ، قال تعالى : وَيَسْتَلْزِمُونَكَ غَيْرُ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٨٥) .

وقال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

وَلَهُ تَخْلِيفُ الْيَلِّ وَالنَّهَارِ ...

أى : مجيء أحدهما عقب الآخر بلا توانٍ ولا تخلف ، أو تميز أحدهما عن الآخر ، فالنهار مضيء ، فيه حياة وحركة وسعى وضجيج ، والليل ظلام وسكون ونوم وراحة ، أو المعنى : زيادة أحدهما عن الآخر ، فالليل يطول في الشتاء والنهار يقصر فيه ، والليل يقصر في الصيف ويطول النهار فيه .

أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

أترون هذه الآيات والدلائل ، فلا تتحرك عقولكم للتأمل في خلق الكون والإنسان ، والتبصر بأن وراء هذا الكون ، و وراء اختلاف الليل والنهار ، يدا حانية تمسك بنظام الكون وتحفظ توازنه ، وأن العقل يرشد إلى قدرة الله ووحانيته ، ويرشد إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

★ ★ ★

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالِ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا آءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

المضردات :

أساطير الأولين ، أباطيلهم وأكاذيبهم وأعاجيبهم ، التى سطرورها للتلهى بها ، وأساطير جمع أسطورة ، مثل : أحاديث جمع أحدىثة ، وأعاجيب جمع أعجوبة .

تمهيد :

ذكر الله فيما سبق أدلة التوحيد المبهوثة فى الأنفس والآفاق ، ثم ذكر هنا شبه المشركين ، فهم يستبعدون البعث بعد الموت ، لأنهم إذا ماتوا وصاروا عظاماً وتراباً ، كانوا أبعد ما يكون عن الحياة ، والرسول السابقون وعدونا بالبعث والحشر ، ولم يتحقق ذلك فالبعث أكاذيب الأولين .

التفسير :

٨١ - بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ .

أى : مع كل ما سبق من أدلة على وجود الخالق ، فإن هؤلاء المشركين أنكروا البعث واستبعدوه ، وأعادوا مقالة أسلافهم الذين كذبوا رسلهم ، تقليداً أعمى لهم دون برهان .

٨٢ - قَالُوا أَعَدَّامَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَهْنًا لِمَبْعُوثُونَ .

أى : هل إذا متنا وصرنا إلى الفناء والتراب والعظام البالية ، التى هى أبعد ما تكون عن الحياة ، هل نعود إلى البعث والحياة مرة ثانية ؟ فهم يستبعدون وقوع البعث بعد الهلى .

٨٣ - لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

لقد وعدتنا يا محمد بالبعث بعد الموت ، وكذلك وعد آبائنا ، على ألسنة رسلهم السابقين بهذا البعث والحشر والجزاء ، ولم يتحقق شئ من ذلك البعث الموعود ، فما هذا الحديث عن البعث إلا أكاذيب من أكاذيب السابقين ، لا وجود لها فى عالم الحقيقة والواقع .

وفى معنى الآيات السابقة ، نجد قوله تعالى حكاية عن المكذبين : أَوَدَّا كُنَّا عِظْمًا نَجْرَةً • قَالُوا تِلْكَ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ • فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ • فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١١ - ١٤) .

وقوله سبحانه : أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ • وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ • الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ • أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • فَسُبْحَنَ الَّذِى يَدِيرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٧ - ٨٣) .

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوُكَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدْبِرُ الْمَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) ﴿

المفردات :

تَذَكَّرُونَ ، أصله : تتذكرون ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، والتذكّر : الاعتبار .

مَكُوتٌ ، صيغة الملوك للمبالغة فى الملك ، فالمراد به : الملك العظيم الشامل .

وهو يجير ، وهو يمنع ويحفظ من يشاء ممن يشاء .

ولا يجار عليه ، لا يعين أحد منه أحداً .

تسحرون ، تخدعون وتصرفون عن الرشد .

التفسير :

٨٤ - قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

فى الآيات السابقة أنكر المشركون البعث، وفى هذه الآيات يدل الله على قدرته وعظمته بثلاثة أدلة:

الأول : ملكيته للأرض ومن فيها .

الثانى : ملكيته للسموات السبع .

الثالث : ملكيته لكل شىء فى الكون .

ومعنى الآية :

أى : قل أيها الرسول الكريم لمنكرى البعث : من خالق الأرض ومن فيها من إنسان وحيوان ونبات وبحار وأشجار وأنهار ، وغير ذلك من المخلوقات ؟

إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن كان عندكم علم فأظهروه واشهدوا بمقتضاه .

٨٥ - سَيَقُولُونَ لِيْلَهُ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

سيعترفون بما دل عليه العقل بداهة ، من أن ذلك ملك لله ، فلم يدع أحد أنه هو خالق هذه الأشياء .

قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

أفلا تتعظون أن خالق هذا الفضاء والجبال والأنهار والثمار والأشجار ، إله قادر خالق رازق يستحق أن يفرد بالعبادة ، وألا يشرك به أحد ، وألا يعبد معه أوثان أو أصنام .

٨٦ ، ٨٧ - قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِيْلَهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

قل أيها الرسول الكريم وكرر القول والأدلة والاستفهام منهم مرة بعد مرة ، قل لهم أيضاً : من خالق السماوات السبع ، وما فيها من أفلاك وأملاك ومجرات وكواكب ونجوم ، وعوالم تحرير العقول فى نظامها ودقتها ؟ ويسوق التأمل إلى عظمة خالقها وكماله ووحدانيته ، فيقول : وأسألهم من هو رب العرش العظيم ، المالك للعرش الكريم ؟ والعرش أصل الملك ودليله ، ورمز القدرة والعظمة ، قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن فى الكرى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن الكرى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة»^(٣٤) .

سَيَقُولُونَ لِيْلَهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

سيعترفون بأن ذلك خلق الله القدير ، قل لهم عندئذ : أفلا تتقون الله وتراقبونه وتلجأون إليه عابدين خاضعين لا تشركون به شيئاً .

٨٨ - قُلْ مَنْ يَبْدُو مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : توجه إليهم بسؤال ثالث ، من بيده ملك كل شيء منظور أو مستور ؟

كما قال تعالى : مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ ذَاخِرٌ بِهَا صَبِيحَتَهَا ... (هود : ٥٦) . أى : متصرف فيها . وهو السيد الأعظم الذى يغيث من يشاء ، ويحيمى من يشاء ، ولا يغيث أحد منه أحداً ، فلا يمانع ولا يخالف ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، إن كنتم من أهل العلم بذلك .

٨٩ - سَيَقُولُونَ لِيْلَهُ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ .

سيعترفون بأن الملك لله . وفى قراءة .

سَيَقُولُونَ اللَّهُ .

أى : سيعترفون بأن المالك المدبر هو الله لا غيره ، فلا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ .

أى : كيف تصرفون عن عبادته وتُخدعون ؟ والخادع هو الشيطان الذى زُين لهم الباطل وصرفهم عن الحق ، أى : فكيف تتقبل عقولكم أن تعبد مع الله غيره ، مع اعترافكم بأنه الخالق المالك المدبر ؟

٩٠ - بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

بل جئناهم بالقول الحق ، والدليل الصدق ، والإعلام الثابت بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة القاطعة على ذلك ، وإنهم مع ذلك لكاذبون فى إنكار الحق ، والإصرار على عبادة الأصنام ، وإنكار البعث ، وإنكار نبوة محمد ﷺ .

وقال القرطبي : وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فى قولهم : إن الملائكة بنات الله . ا هـ .

وإذا تأملت وجدت أن المشركين لا يكابرون ، ولا يعبدون الأوثان ، أو ينكرون نبوة محمد ﷺ عن دليل وبرهان ، وإنما اتباعاً لأبائهم وأسلافهم الحيارى الجاهل .

وإذا أعدت النظر فى الآيات ، وتأملت تكرار كلمة : قُلْ بهذا الأسلوب القوى المتحدى ، علمت منها جواز جدال الكفار ، وإقامة الحجة عليهم ، والتدليل على أن من ابتدأ بالخلق والاختراع ، والإيجاد والإبداع ، هو المستحق للألوهية والعبادة .

وتذييل الآيات بقوله تعالى : أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . أَفَلَا تَتَّقُونَ . إِنْ كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ . فَأَنَّى تُسْحَرُونَ . يعد حملة شديدة على المشركين للإقلاع عما هم عليه من الشرك ، إذ كيف تقبل عقولهم عبادة أحد مع الله مع اعترافهم الصريح بأن الله هو المالك للخلق المدبر له .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٩٢﴾

التفسير :

٩١ - مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ .

لقد نفى القرآن الولد عن الله تعالى في كثير من الآيات ، مثل سورة مريم : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . (مريم : ٨٨ - ٩٣) .

وفى هذه الآية ٩١ من سورة «المؤمنون» ينفي سبحانه أن يكون له ولد كما زعم المشركون، كما ينفي أن يكون مع الله إله آخر ، ثم يحتكم إلى العقل والمنطق في إبطال ذلك فلو أن اثنين اشتركا في خلق الكون ، لا هدر كل واحد منهما بإدارة الجزء الذي خلقه ، ووضع له نظاماً وناموساً يختلف عن نظام الجزء الآخر وإذا تعددت الآلهة لاتجه كل واحد منهم إلى قهر الآخر والتسلط عليه ، لتظهر قوة القوى على الضعيف، كما هو شأن ملوك الدنيا ، ولو حدث هذا التغالب والانقسام ، لاختل نظام الكون وفسدت السماوات والأرض ومن فيهن . إلا أن المشاهد أن الوجود منظم متنسق ، وفى غاية النظام والكمال ، وارتباط كل من العالم السفلى بالعالم العلوى دون تصادم ولا اضطراب كما قال تعالى : مَا تَرَىٰ لِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْهُوتٍ . (الملك : ٣) .

ولما ثبت كون التعدد فى الآلهة مستحيلا : بطل قول الكافرين فى عبادة الأصنام والأوثان ، وبطلت حجتهم فى قولهم : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... (الزمر : ٣) .

فلو كانت هناك آلهة مع الله لتقربت إليه تعالى بعبادته وحده ، فأولى بالإنسان أن يعبد ربه وحده ، قال تعالى : قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا إِلَهُهُ لَأَتَّخَفُوا إِذَا لَا تَهْفُوا إِلَيْ ذِي الْعَرْشِ سُبُلًا . (الإسراء : ٤٢) .

سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ .

تنزه الله الحق الواحد الأحد عما يقول الظالمون فى دعواهم الولد أو الشريك .

٩٢ - عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : هو سبحانه المتفرد بعلم الغيب ، والغيب كل ما غاب عنك ، فالسما والنجوم والأبراج والأفلاك والملائكة والجن والساعة والآخرة كلها يعلمها الله وحده ، ولا يشاركه فى علمها أحد ، لذلك فهو أهل للتفرد بالألوهية ، وكما أنه هو المتفرد بعلم الغيب ، فهو سبحانه يعلم كل شيء عن عالم الشهادة المشاهد الملحوظ فالخلق وإن علموا جانباً من عالم الشهادة إلا أنهم لا يستطيعون الإحاطة بعلم كل ما فى الدنيا من بشر وشجر وحجر ومدن وبحار وأنهار، وفضاء وهواء، وإنسان وحيوان، فאלله وحده هو الذى أحاط بكل شيء علماً.

فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وهو سبحانه منزّه عن الشريك والمثيل والنظير .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٤) .

وقال عز شأنه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِسْمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

تعليق على الآيتين ٩١ - ٩٢

يذكر علماء الكلام هنا دليل التمانع : وهو أنه لو فرض صانعان خالقان فصاعدا ، فأراد واحد تحريك جسم ، والآخر أراد سكونه ، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين ، والإله الواجب الوجود لا يكون عاجزاً ، ويمتنع اجتماع مراديهما وتحقيق رغبتيهما فى أن واحد لل تضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالاً .

فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب الوجود المستحق للألوهية ، والآخر المغلوب لا يكون كذلك ، لأنه لا يليق بصفة الواجب الوجود أن يكون مقهوراً .

إرشادات إلى النبي ﷺ

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا نُرِيَنَّكَ مَا يُوْعَدُونَ ﴿١٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا عِندَهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٥﴾ أَذْفَعَ بِأَلْيَِّ هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا بَصُفُونَ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المضردات :

إما ترينى ما يوعدون ، إن كان ولا بد من أن ترينى ما يوعدون من العذاب فى الدنيا والآخرة .

فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، أَيْ: قَرِّبْنَا لَهُمْ فَأَهْلِكْ بِهِالِكِهِمْ ، لِأَن شَرَّ الظَّالِمَةِ قَدْ يَحْيِي بِمَا وَرَاءَهُمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ... (الأنفال: ٢٥) .

المهميزات، الوسواس المغرية بمخالفة ما أمرنا به ، واحدها : هُمِزة ، وأصل الهمز : النخس والدفع بيد أو غيرها ، ومنه : مهماز الرائض (حديدة توضع فى مؤخر الرجل ينخس بها الدابة لتسرع) .

كـ_____ لا: كلمة تستعمل للردع والزجر عن حصول ما يطلب .

من ورائهم : من أمامهم .

بـ—————رؤخ، حاجز بينهم وبين الرجعة.

تمهید :

تحدثت الآيات السابقة عن تنزيه الله عن الشريك والولد، وهنا يوجه الله تعالى الرسول الأمين، بأن يلجأ إلى الله بالدعاء فى الشدائد، حتى لا يجعله مع القوم الظالمين فتحل به عقوبتهم، وأن يتعوذ بالله من وسوسة الشياطين، الذين يزينون للكفار الشرك فيطعونهم، وهؤلاء الكفار يتبينون الحقيقة عند الموت فيتمنون الرجوع إلى الدنيا لتدارك الموقف، لكن لا يجابون إلى طلبهم وبين الداعين الأول والأخير يتوسط توجيه سماوى بمقابلة الإساءة بالإحسان.

التفسير :

٩٣ ، ٩٤ - قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيْنِي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

عند الشدائد والمحن يلجأ المؤمن إلى ربه ، طالباً النجاة ، وهنا يوجه الله الرسول الأمين بأن يدعو الله قائلاً : إن كان ولابد من مشاهدتي عذاب الكافرين ، في الدنيا أو في الآخرة ، فلا تجعلني فيهم ، ونجني منهم ولا تعذبني بعدابهم ، ونجني من عذابك للظالمين ، واجعلني مع من رضيت عنهم ، من أوليائك المؤمنين .

فإن العذاب قد يصيب غير أهله ، كما قال تعالى : وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ... (الأنفال : ٢٥) .

وروى الإمام أحمد ، والترمذي وصححه : أن النبي ﷺ كان يقول : «وإذا أردت بقوم فتنة ، فتوفني إليك غير مقتون»^(٣٧) .

وعن الحسن : أنه تعالى أخبر نبيه أن له في أمته نقمة ، ولم يطلع على وقتها ، فأمره بهذا الدعاء ، والإرشاد إلى هذا الدعاء ليعظم أجره ، وليكون دائماً ذاكراً ربه ، ولتعلمينا ذلك .

٩٥ - وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيْكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ .

لو شئنا لأطلعناك أيها الرسول الكريم على العذاب الذي ينتظرهم ، وعلى الوقت الذي سيقع فيه عليهم لكن لحكمة إلهية أخفى الله ذلك ، إلى حين ، لعل بعض ذرياتهم يؤمن .

وسورة «المؤمنون» مكية ، والتوجه كان في مكة إلى الصبر والاحتمال ، ولذلك ستأتي آيات تحت على مقابلة السيئة بالحسنة ، وقد كشف الله لرسوله بعد ذلك عن عذاب الكافرين في غزوة بدر وفي فتح مكة .

٩٦ - أَذْلَعُ بَالِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَغْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ .

أى : قابل السيئة بالحسنة ، وتحمل ما تتعرض له من أذى الكفار وتكذيبهم ، وادفع بالخصلة التي هي أحسن ، بالصفح والعفو ، والصبر على الأذى ، والكلام الجميل كالسلام ، نحن أعلم بحالهم وما يصفوننا به من الشرك والتكذيب .

ونظير الآية قوله تعالى : أَذْلَعُ بَالِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حُظٍّ عَظِيمٍ . (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) .

أى : قابل الإساءة بالخصلة التى هى أحسن وهى الإحسان والعفو والصفح ، فإن الإحسان يحول العدو إلى صديق ، والبغيض إلى حبيب ، ولا يقدر على ذلك إلا الصابر عظيم الحظ فى الدنيا والآخرة .

وقيل : هذه الآية منسوخة ، نسختها آية السيف .

أشار بدر الدين الزركشى إلى أنها غير منسوخة لأنها تأمر بمكارم الأخلاق ، وبالصبر والاحتمال والمدارة وهى أمور مرغوب فيها ما لم تتعارض مع الدين والمروءة .

قال الزركشى ، والشاطبى فى الموافقات : ليست هذه الآية منسوخة بآية السيف ، وإنما هذا من باب التدرج فى التشريع ، فعندما كان المسلمون ضعافا فى مكة أمرهم الله بالصبر والمدارة ، وعندما صاروا أقوىاء فى المدينة أمرهم الله بالجهاد ، وهكذا كلما كان المسلمون ضعافاً أمروا بالصبر ، وكلما كانوا أقوىاء أمروا بالدفاع والجهاد .

٩٧ ، ٩٨ - وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ .

وقل : يارب إني ألتجأ إليك وأتحصن بك وأتمسك بعنايتك وفضلك من وساوس الشياطين وتزيينهم للشّر والمعصية ، وألتجئ إليك وأتمسك بفضلك ورجائك أن تعصمني من حضور الشياطين فى أى أمر من أمورى ، أو حضورهم سكرات موتى .

وكان النبى ﷺ دائم الذكر لله تعالى ، متذكرا فضله ونعمته فى كل أمر من أمور حياته ، فكان يذكر الله عند النوم واليقظة والأكل والجماع والذبح وغير ذلك ، وهذا الذكر لرفع الدرجة ، وزيادة الشكر ، وتعليم الأمة .

روى أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، والبيهقى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الغزغز : «بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون»^(٢٧) .

فكان عبدالله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ، ومن كان صغيرا لا يعقل أن يحفظها ؛ كتبها له ، فعلقها فى عنقه .

وأخرج أحمد ، عن الوليد بن الوليد أنه قال : يا رسول الله ، إني أجد وحشة ، قال : «إذا أخذت مضجعك فقل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لا يحضرك وبالحجرى لا يضر»^(٢٨) .

وروى أبو داود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم إني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهم ، ومن الغرق ، وأعوذ بك أن تتخبطنى الشياطين عند الموت»^(٢٩) .

وفى هذا المعنى علمنا القرآن الالتجاء والتحصن والاستعانة بالله من الشيطان الرجيم فى المعوذتين وغيرهما ، مثل قوله تعالى : **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** . (النحل : ٩٨) .

٩٩ ، ١٠٠ - **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ...**

يظل الكافر والمؤمن العاصى فى عمل السيئات ، وطاعة الشياطين ، حتى إذا نزل الموت بساحته وشاهد ما أعدّه الله للعصاة ، تحركت فيه الرغبة فى أن يعود للدين ، ليعمل عملاً صالحاً ، وتتكرر هذه الرغبة عند الحشر ، وعند معاينة جهنم ، وعند العذاب فى نار جهنم ، يطلبون فى كل هذه المواقف الرجعة إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم من العمل الصالح ، لكن الحق سبحانه لا يجيبهم إلى طلبهم ، بل يخبرهم أن طلبهم هذا مرفوض ، ويستمرون فى عذاب القبر ، إلى البعث ، ثم يتم الحشر والحساب ، ثم يتوجهون إلى جهنم لاستكمال العذاب .

وقد كرر القرآن مشاهد القيامة وأهلها ، ومشاهد النار وعذابها ، وتمنى الكافرين أن يعودوا إلى الدنيا ، ليؤمنوا بالله ويصدقوا برسله ، لكنهم لا يجابون إلى ذلك .

قال تعالى : **وَأُولَئِكَ النَّاسُ يَوْمَ نَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ يَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دُعَاؤَكَ وَنَتَّبِعِ أَرْسُلَ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَفْسَقْتُمْ مِّن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** . (إبراهيم : ٤٤) .

وقال تعالى : **وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُفْقَرُ عَلَىٰ آثَارِ فَقَالُوا يَذَلِّتُنَا رَبُّهُ وَلَا نَكْذِبُ بِمَا نُسِرَتْ رَبَّنَا وَلَكُونَ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** . (الأنعام : ٢٧) .

وتجد ذلك فى الآية ٥٣ من سورة الأعراف ، والآية ١٢ من سورة السجدة ، والآية ٤٤ من سورة الشورى ، والآية ٣٧ من سورة فاطر ، وهذا كله يدل على أن تمنى العودة إلى الدنيا يحدث حال المعاينة للعذاب عند الاحتضار ، وحين النشور وحين الحساب ، وحين العرض على النار ، وبعد دخولهم النار ، ولا يجابون إلى ذلك أبداً قال تعالى :

كَأَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

أى : لا جواب لهؤلاء ولا كرامة لهم ، إنها كلمة تخرج من أفواههم ، لا تلقى ترحيباً ولا جواباً ، ويستمرون محبوسين تعذب أرواحهم فى البرزخ ، ومن أمامهم حاجز يحول بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، فلا رجعة بعد البعث إلا إلى الآخرة ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : **وَأُفْقَرُوا مِّن مَّا رَزَقْتَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ** * **وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** . (المناقون : ١٠ ، ١١) .

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٠١) ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (١٠٣) ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (١٠٤) ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَى لُتْلَى عَلَيْهِمْ فكَنتُمْ بِآثَارِكُمْ كَذِبُونَ﴾ (١٠٥) ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ (١٠٦) ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (١٠٧) ﴿قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (١٠٨) ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٠٩) ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءً حَتَّى أَتَسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ (١١٠) ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١١)

المضردات :

الصُّور : يطلق على البوق فيكون مفرداً، ويطلق على الصُّور (بفتح الواو) فيكون جمعا لصورة، مثل: بُسْر وبُسرة .

فلا أنساب بينهم : فلا تنفعهم الأنساب ، وهى القرابات .

ولا يتساءلون : ولا يسأل بعضهم بعضا عن حاله .

فمن ثقلت موازينه : فمن رجحت موازناته من الأعمال الصالحة .

تَلْفَحُ : تحرق .

كَالِحُونَ : عابسون متقلصو الشفاة .

شِقْوَتُنَا : الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة ، وهى ضدُّ السعادة .

اخْسَوْا : اسكتوا سكوت ذلة وهوان .

سَخِرَاءَ : هزوا .

ذِكْرِي : خوف عقابى .

تمهيد :

تصف الآيات مشاهد القيامة حيث ينفخ فى الصور، وتعود الأرواح إلى الأجسام، ويتم البعث والحشر والحساب، ولا تنفع الأحساب فى ذلك اليوم، وإنما تنفع الأعمال، فالسعداء فى الجنة والأشقياء فى جهنم،

ويتم سؤال هؤلاء الأشقياء توبيخاً لهم ، فيقال لهم : ألم أرسل إليكم الرسل ؟ ألم أنزل على الرسل كتبى وهداياتى ؟

فيعرفون بذلك ، ويعترفون بشقوتهم وضلالهم فى الدنيا ، ويطلبون مهلة ليرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى فيتداركوا ما فاتهم ، فيجيبهم ربهم: امكثوا فى النار صاغرين أذلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، إنكم كنتم تستهزئون بعبادى المؤمنين ، وكنتم منهم تضحكون ، إنهم اليوم هم الفائزون جزاء صبرهم على أذاكم واستهزائكم بهم .

التفسير :

١٠١ - فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

إذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية : قام الناس للحساب ، وقد اشتد الهول ، وعظم الخطب ، وانشغل كل إنسان بنفسه ، ولم يعد هناك مجال للتفاخر بالأحساب والأنساب التى كان يفتخر بها فى الدنيا ، لأن الفخر حينئذ بالعمل الصالح وهو معيار التفاضل فى ذلك اليوم .

وَلَا يَتَسَاءَلُونَ .

لا يسأل بعضهم بعضاً عن أحوالهم لشدة الهول ، ولا نشغال كل إنسان بنفسه ، حتى الرسل وهم صفوة الله من خلقه يقول كل واحد منهم : نفسى نفسى ، حين يطلب منهم الشفاعة لإراحة الناس من هول الموقف .

فإن قيل : قد ورد فى القرآن أن الناس توقف للسؤال فى آيات أخرى ، مثل قوله تعالى : وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . (الصافات : ٢٤) .

وقوله سبحانه : وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . (الطور : ٢٥) .

فالجواب : أن يوم القيامة فيه مواقف متعددة ، فى بعضها يسمح للإنسان بالكلام والسؤال والتساؤل ، وفى بعضها لا يسمح له بالكلام ولا بالتساؤل .

وذلك شبيه بإنسان فى ساحة القضاء فى الدنيا ، يسمح له من يحقق معه بإبداء رأيه ودفاعه عن نفسه فإذا حُزرت القضية للنطق بالحكم : لم يعد يسمح له بالكلام .

فى أعقاب الآية

قرأ ابن عباس : فإذا نفخ فى الصُّورِ . بواو مفتوحة ، وهى جمع صورة ، والمراد بها : إطلاق الأرواح من البرزخ لتلحق بأجسادها .

قال الآلوسى : ولا تنافى بين النفخ فى الصور بمعنى القرن ، الذى جاء به الخبر ودلت عليه آيات آخر ، وبين النفخ فى الصور جمع صورة ، فقد جاء أن هذا النفخ عند ذاك .

ويكون معنى الآية :

إذا نفخ فى الصور وعادت الأرواح إلى أجسادها ، وقام الناس من قبورهم للبعث والحشر والحساب : فلا تنفعهم قراياتهم وأحسابهم كما كانت تنفعهم فى الدنيا ، إذ لا ينفع الإنسان حينئذ إلا عمله .

ومن جهة أخرى فكل إنسان مشغول بنفسه عن الآخرين قال تعالى : **يَوْمَ يُفْرَأُ لِلْمَرْءِ مِنْ أَخِيهِ • وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ • وَصَلَتِجَتِ وَيَبِيهِ • لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ •** (عبس : ٣٤ - ٣٧) .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود قال : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين : ثم نادى مناد : ألا من كان له مظلمة فليجيئ فليأخذ حقه ، قال : فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا ، ومصادق ذلك فى كتاب الله ، قال الله تعالى : **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ •** (٣٠) .

وروى الإمام أحمد ، عن المسور بن مخرمة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «فاطمة بضعة منى ، يغيظنى ما يغيظها ، وينشطنى ما ينشطها ، وإن الأنساب تتقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصبرى» .

قال ابن كثير فى التفسير : وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين : «فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذيني ما آذاها» (٣١) .

١٠٢ - **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ •**

أى : من ثقلت ورجحت حسناته على سيئاته : فأولئك هم الذين فازوا بالجنة والنعيم المقيم .

١٠٣ - **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ •**

ومن زادت سيئاته على حسناته : فهو ذاك هم الذين خسروا أنفسهم وضيعوها بكفرهم ، فهم بسبب ذلك خالدون فى جهنم مخلدون فى عذابها ، يشقون فيها شقاء لا سعادة بعده أبدا .

قال تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًّا •** (الكهف : ١٠٥) .

١٠٤ - تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ آثَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ .

تحرق النار وجوههم ، وهم فيها متقلصو الشفاة عن الأسنان من أثر احتراق الوجوه ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ، فبيان سوء حالها أدل على بيان سوء سواها .

١٠٥ - أَلَمْ تَكُنْ عَائِلِيَّ تَلِيَّ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ .

يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ألم أرسل لكم الرسل ، ألم أنزل عليهم الكتب ، ليلبغوكم ويوضحوا لكم الرسالات وسبل الإيمان والهداية ، فأعرضتم عنهم وكذبتهم بهم ؟

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ... (الملك : ٨ ، ٩) .

١٠٦ - قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا مِثْلُ بَئْسَ الْأَمْرِ .

قالوا : يا ربنا غلبت علينا أهواؤنا ونزعنا من حيث كنا ، فكذبنا بآياتك في دنيانا ، وآثرنا الباطل على الحق ، وتركنا الإيمان بالرسل عناداً وكبراً ويطراً ، وظلماً وعدواناً ؛ فظلمنا أنفسنا في الدنيا ، وحق علينا الشقاء في الآخرة .

١٠٧ - رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ .

لقد اعترفوا بخطئهم تمهيداً لرجائهم من الله أن يعيدهم إلى الدنيا مرة أخرى؛ حتى يصدقوا المرسلين ويؤمنوا بالله رب العالمين ، وما لهم لا يؤمنون وقد شاهدوا عذاب النار وذاقوا ويلها وسعيرها ، لذلك قالوا : فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ .

أى : فإن عدنا إلى التكذيب والجدود والعدوان ؛ فإننا متجاوزون الحد في الظلم .

١٠٨ - قَالُوا آخِسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون .

أى : قال الله تعالى لهم جواباً على طلبهم الرجعة إلى الدنيا : انزجروا وامكثوا في النار في ذل وهوان ، ولا تكلموني في شأن الرجوع إلى الدنيا .

وقد جاء في الأثر : إذا قال الكفار : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . يسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم : آخِسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون . فوالله ، ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة ، وما هو إلا الزفير

والشهيقي في نار جهنم ، فشبعت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق ، وقال ابن مسعود : إذا قال الله لهم : **أَخْسَوْا لَهَا وَلَا تَكْلُمُونْ** ؛ أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد^(٣١) .

١٠٩ - **إِنَّهٗ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .**

أى : كان جماعة من ضعفاء المؤمنين يتضرعون إلى الله تعالى ، سائلين منه المغفرة والرحمة والثبات على الإيمان ، فسخرتم بهم .

قال مجاهد : هم بلال ، وخباب ، وصهيب ، وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، كان أبوجهل وأصحابه يهزءون بهم .

١١٠ - **فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِغْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسُكُمُ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ .**

فتشاغلتم بهم ، ساخرين منهم ، مستهزئين بهم حتى نسيتم عبادتى ودعائى ، وشغلتم بغضهم والتفنتن فى إيدائهم عن النظر فى رسالة رسولى ، أو التفكير فى الإيمان بى .

وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ .

أى : من صنيعهم وعبادتهم ، ونحو الآية قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** . (المطففين : ٢٩ ، ٣٠) .

١١١ - **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ .**

لقد جازيت هؤلاء الضعفاء من المؤمنين أحسن الجزاء ، بسبب صبرهم فى الدنيا على أذاكم ، حيث جعلتهم أهلاً للفوز بنعيم الجنة ورضوان الله رب العالمين .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة المطففين ، حيث بين القرآن أن المؤمنين يثأرون لأنفسهم فى الجنة فقال سبحانه : **فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۚ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۚ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** . (المطففين : ٣٤ - ٣٦) .

أى : هل جزئى الكفار بسبب سخريتهم بالمؤمنين فى الدنيا أن صار الكفار من أهل النار ، وصار المؤمنون يضحكون مسرورين ، وهم يجلسون على الأرائك ويتمتعون بالنعيم ، ويشاهدون ذل الكافرين فى جهنم ؟

﴿ قُلْ كَمْ لِيَشْرُ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَيْسَ بِأَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قُلْ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المضردات :

العبث : الإقامة .

إن لبثتم إلا قليلاً ، ما لبثتم في الأرض إلا زمناً قليلاً .

العواديين : الحفظة العاديين لأعمال العباد وأعمارهم .

العبث : ما خلا من الفائدة .

تعالى الله : ترفع الله بذاته وتنزهه .

الملك الحق : المالك الثابت الملك دون سواه .

العرش : العرش في اللغة : سرير الملك ، ويكنى به عن العز والسلطان ، والعرش كائن عظيم يحيط بالكون ،

وتصدر من جهته أوامر الله تعالى إلى ملائكته دون أن يكون الله فيه : لاستحالة أن يكون لله مكان .

قال المراغي : العرش مركز تدبير العالم .

الكريم : الشريف ، وكل ما كرم في جنسه يوصف بالكرم مثل : وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . (الدخان : ٢٦) .

وقوله تعالى : وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . (الإسراء : ٢٣) .

يُعبَد : يعبد .

حسابه : جزاؤه .

تمهيد :

إذا استقر أهل النار في النار ، وأيقنوا أنهم مخلدون فيها أبداً ، يسألون سؤال تقريع وتوبيخ عن مدة لبثهم في الأرض ، أي : المدة التي قضوها في الدنيا ، ليتبين لهم أن ما ظنوه أمداً طويلاً ، يسير بالنسبة إلى ما أنكروه ، وحينئذ يزدادون حسرة وألماً على ما كانوا يعتقدون في الدنيا ، حين رأوا خلاف ما ظنوا ، ثم

بين بعد ذلك ما هو كالدليل على وجود البعث ، وهو تمييز المطيع من العاصي ، ولولاه لكان خلق العالم عبثا ، تنزه الله تعالى عن ذلك .

التفسير :

١١٢ - قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ .

أراد الله تذكيرهم وزجرهم على استهانتهم بالآخرة وعدم العمل لها ، وإقبالهم على الدنيا وشهواتها واعتبارها الهدف والأمل ، فوجه إليهم هذا السؤال إما مباشرة ، وإما على لسان ملك كلّفه الله به .

والمعنى : قال الله للكافرين : كم عدد السنين التي لبثتموها في دار الدنيا وأرضها واغترزتم بنعيمها وتوهمتم البقاء فيها ؟

١١٣ - قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ الْعَادِينَ .

أجاب الكافرون : بأن مدة مكثنا في الدنيا كانت قصيرة جدًا بالنسبة لما نراه من طول أيام الآخرة ، وما نتخيله إلا يومًا أو بعض يوم ، وقد دهتنا الدواهي وشغلتنا الشواغل وأحوال القيامة ، فاسأل الملائكة المحاسبين لأعمال العباد فهم أقدر منا على معرفة مدة مكثنا في الدنيا .

١١٤ - قُلْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

قال الله جوابا على كلام الكافرين : إن مكثكم في الدنيا كان قليلا حقا بالنسبة لما ينتظر الناس هنا من عذاب دائم أو نعيم دائم ، ولو أنكم كنتم من أهل العلم والتدبر لأدركتم في الدنيا ما أدركتموه اليوم من إثارة ما يبقى على ما يغنى .

وقد ورد في الأثر : لو كانت الدنيا من ذهب يغنى ، والآخرة من خزف يبقى ؛ لوجب إثارة ما يبقى على ما يغنى ، فكيف والحال أن الدنيا من خزف يغنى والآخرة من ذهب يبقى .

أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبيه عن عبد الكلاعي مرفوعا إلى رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ؛ قال : يا أهل الجنة ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ، قال : لنعم ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ، رحمتي ورضواني وجنتي ، امكثوا فيها خالدين مخلدين ، ثم يقول : يا أهل النار ، كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم ، فيقول : بئس ما أنجزتم في يوم أو بعض يوم ، نارى وسخطى ، امكثوا فيها خالدين مخلدين» (٣٧) .

وفي معنى هذه الآية يقول الله تعالى : كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى . (النازعات : ٤٦) .

١١٥ - أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ .

هذه الآية من تمام ردّ الله تعالى على أهل النار ، والمعنى : أجهلتم الحكمة فى الخلق والحساب والجزاء ، فظننتم أن الدنيا هى الغاية ، وأنكم خلقتم للعبث واللهو والترف دون حساب أو جزاء ، وظننتم أنه لا حساب ولا جزاء ولا بعث ولا حشر .

١١٦ - فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .

فتنزه الله بذاته عن خلق أفعاله عن الحكم والمصالح الحميدة فهو سبحانه حكيم فى أفعاله ، وكل عاقل لا يعمل عملاً إلا لحكمة ، ومن باب أولى الله المتصف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص ، فهو الملك الحق ذو الملك والملوك الذى لا يفتنى ملكه ، وهو الإله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد ، وهو الذى لا يفتنى والإنس والجن يموتون ، وهو سبحانه مالك العرش العظيم فى مكانته وشرفه .

قال ابن كثير :

فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أى : حسن المنظر بهى الشكل ، كما قال تعالى : فَانْزِلْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . (لقمان : ١٠) . وكانت آخر خطبة خطبها عمر بن عبدالعزيز ، أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، وإن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم بينكم ، والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقى عبد أخرجه الله من رحمته ، وحرّم جنة عرضها السماوات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن من عذاب الله غداً إلا من حذر هذا اليوم وخافه ، وباع نافذاً بباقي ، وقليلًا بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقيين ، حتى تردوا إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل ، قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تغيبوه فى صدع من الأرض ، فى بطن صدع غير ممهّد ولا موصّد ، قد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتّهن بعمله ، غنى عما ترك ، فقير إلى ما قدم ، فاتقوا الله عباد الله ، قبل انقضاء مواعيده ، ونزول الموت بكم ، ثم جعل طرف ردائه على وجهه ، فبكى وأبكى من حوله ^(٣١) .

وروى أبو نعيم ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية ، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . قال : فقرأناها فغمنّا وسلمنا ^(٣٢) .

١١٧ - وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

ومن يعبد آلهة أخرى مع الله كالأصنام والأحجار ، لا يمكن أن يكون له أى دليل على ربوبيتها وصحة عبادته لها ، فما حسابه وجزاؤه وعقابه إلا عند الله .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

إنه لا يسعد أهل الشرك ولا ينجيهم من العذاب . وما أَلطف افتتاح السورة بفلاح المؤمنين وختمها بعدم فلاح الكافرين وخيبتهم وعدم فوزهم بما يؤملون .

١١٨ - وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

أى : قل أيها النبى أنت وأمتك : رب استر وامح ذنوبى بعفوك عنها ، وارحمنى بقبول توبتى وترك عقابى على ما اجتريحت من آثام وأوزار .

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

أنت خير من رحم ذا ذنب فقبل توبته وتجاوز عن عقابه ، إنك ربنا خير غافر ، وإنك المرجو لإصلاح الضمائر ، وأنت الذى تمنح السداد والتوفيق فى الأقوال والأفعال .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى ، قال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاعفُ لى مغفرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم »^(٣٦) .

خلاصة ما تضمنته سورة «المؤمنون»

- ١ - فوز المؤمنين ذوى الصفات الفاضلة بدخول الجنة خالدين فيها أبداً .
- ٢ - ذكر حال النشأة الأولى ، وتكوين الجنين فى بطن أمه .
- ٣ - خلق السماوات السبع وإنزال المطر من السماء ، وإنشاء الجنات من النخيل والأعناب ، وذكر مناف الحيوان للإنسان .
- ٤ - قصص بعض الأنبياء كنوح ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، وعيسى عليهم السلام ، ثم أمرهم جميعاً بأكل الطيبات وعمل الصالحات .
- ٥ - وصف ما يلقاه الكافرون من العذاب والنكال يوم القيامة .
- ٦ - ذكر ما أنعم الله به على عباده من الحواس والمشاعر .
- ٧ - إنكار المشركين للبعث والجزاء ، والحجاج على إثبات ذلك .
- ٨ - تعليم نبيه ﷺ الأدب فى معاملة الناس ، وأمره أن يدعوه بدفع همزات الشياطين .
- ٩ - طلب الكفار العودة إلى الدنيا حين رؤية العذاب ، لعلمهم إذا عادوا عملوا صالحاً ، وتأنيب القرآن لهم .
- ١٠ - وصف أهوال القيامة وما فيها من الشدائد .
- ١١ - أوصاف السعداء والأشقياء .

تفسير سورة النور

بين يدي سورة النور

اسم السورة :

سورة النور مدنية، وآياتها ٦٤ آية ، ونزلت بعد سورة الحشر، وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها :

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ... (النور: ٣٥) .

نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ... (النور: ٣٥) .

وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ... (النور: ٤٠) .

روح السورة :

هذه سورة الآداب والأخلاق والتربية الإسلامية الهادفة .

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه ، كما ذكر بمظاهره وآثاره في القلوب والأرواح ، ممثلة هذه الآثار في بيان الفرائض والأحكام التي يقوم عليها بناء السورة ، وهي أحكام وآداب نفسية ، وعائلية وجماعية ، تؤدي إلى طهارة الفرد وسلامة المجتمع .

والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية ، التربية التي تشدد في وسائلها إلى درجة الحدود ، وترقى إلى درجة اللمسات الوجدانية الرقيقة التي تصل القلب بنور الله .

وتتداخل الآداب النفسية الفردية ، وآداب البيت والأسرة ، وآداب الجماعة والقيادة ، بوصفها وحدة كلها من معين واحد ، هو العقيدة والاهتداء بنور الله .

تاريخ نزول السورة :

نزلت سورة النور في مرحلة متأخرة من حياة المسلمين في المدينة ، بعد أن استقر الإيمان في القلوب ، واستعدت نفوس المسلمين لتقبل أحكام هذه السورة .

وأحكام الحجاب في الإسلام ، نزلت في سورتين فحسب من سور القرآن ، هما : سورة الأحزاب ، وسورة النور .

وقد اختلف العلماء في ترتيب نزولهما ، كما اختلفوا في ترتيب حدوث غزوتين شهيرتين ، ارتبطت كل غزوة منهما بإحدى السورتين .

فغزوة الأحزاب ارتبطت بسورة الأحزاب ، وغزوة بنى المصطلق ارتبطت بسورة النور ، وفي إثر غزوة بنى المصطلق تخلفت عائشة - رضى الله عنها - عن الجيش ، وتكلم المنافقون بحديث الإفك ، ونزلت ثلاث عشرة آية في سورة النور بشأن ذلك الموضوع .

الخلافاً بين المؤرخين هو :

هل كانت غزوة بنى المصطلق في السنة الخامسة قبل غزوة الأحزاب ، أم بعدها في السنة السادسة من الهجرة ؟ .

فإن كانت غزوة الأحزاب قبل غزوة بنى المصطلق ، فمعناه أن أحكام الحجاب في الإسلام ، كان بدؤها بالتعليمات التي وردت في سورة الأحزاب ، وكمالها بالأحكام التي وردت في سورة النور . وأما إذا كانت غزوة بنى المصطلق قبل غزوة الأحزاب ، انعكس الترتيب في نزول أحكام الحجاب ، وصار بدؤها بسورة النور ، وكمالها بسورة الأحزاب .

يقول ابن سعد :

إن غزوة بنى المصطلق وقعت في شعبان من سنة خمس ، ووقعت بعدها غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ، في ذى القعدة من السنة نفسها .

ويقول ابن إسحاق :

إن غزوة الأحزاب وقعت في شوال من سنة خمس ، وغزوة بنى المصطلق في شعبان من سنة ست .

وقد جزم ابن حزم وابن القيم وغيرهما من العلماء المحققين بصحة رواية ابن إسحاق ، ورجحانها على رواية ابن سعد .

وتفيد روايات صحيح البخارى وغيره أن أحكام الحجاب كانت قد نزلت قبل قصة الإفك ، أى : فى سورة الأحزاب ، ومما تفيد هذه الروايات كذلك ، أن النبى ﷺ كان قد تزوج زينب بنت جحش - رضى الله عنها - قبل ذلك ، فى ذى القعدة من سنة خمس ، وجاء ذكره فى سورة الأحزاب ، بل مما تفيد هذه الروايات كذلك أن حمزة أخت زينب بنت جحش ، إنما شاركت فى رمى عائشة لأنها ضرة أختها ، والظاهر أنه لا بد من أن تمضى مدة من الزمن - ولو يسيرة - على صلة الضرارة بين امرأتين ، حتى تنشأ فى القلوب مثل هذه النزعات ، فهذه الأمور كلها مما يؤكد رواية ابن إسحاق ويقويها ، وتجعلنا نختار أن سورة النور نزلت بعد سورة الأحزاب بأشهر ، فى النصف الأخير من سنة ست للهجرة (٣٧) .

قيام الدولة الإسلامية ،

نزلت سورة النور في مرحلة قويت فيها سواعد المسلمين ، وارتفعت راياتهم ، وتأكدت أخوتهم ، وترابطت صفوفهم ، وأصبحوا يدا واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

وكان عدد المسلمين قليلا لا يزيد على عشر العرب كلها ، وكان سلاحهم قليلا ، ويتمتع أعدائهم بتفوق في المال والسلاح ، والمكانة والتجارة .

وكان المسلمون يتميزون بسمو العقيدة ، وطهارة القلب ، ودقة النظام ، واحترام تعاليم السماء ، مما جعلهم ينتصرون على أعدائهم .

وإذ هُزم المشركون والمنافقون في معركة السلاح والحرب ، فإنهم قد ولجوا من باب آخر هو الدس والوقعة والفتنة ، فتحدث المنافقون عن السيدة عائشة واتهموها في طهارتها وعفتها ، وكان قصدهم إخراج النبي ، وإحداث الفتنة والبلبلة بين المسلمين ، ولكن الله أنزل أحكامه العادلة في هذه السورة ، لحفظ المجتمع وحفظ المسلمين ، وإحكام بناء الدولة الإسلامية ، والجماعة الإسلامية ، وتربية الفرد والمجتمع ، بما يحقق السمو النفسى والروحى ، ويخلق منافذ الشر ، ويقود الأمة إلى التماسك والتعاون على البر والتقوى ، والبعد عن الإثم والعُدوان .

من أحكام سورة الأحزاب :

تعتبر سورة الأحزاب مقدمة ومهدة لسورة النور ، ولذلك سنذكر بعض ما اشتملت عليه سورة الأحزاب من أحكام تنصل بحماية المرأة وسد ذرائع الفتنة :

١ - أمرت أزواج النبي ﷺ أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها بغير حاجة ، ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وإذا احتجن إلى الكلام مع غير المحارم من الرجال : فلا يخضعن بالقول فيقطع الذى فى قلبه مرض .

٢ - منع الرجال أن يدخلوا بيت النبي ﷺ إلا أن يؤذن لهم ، وإذا أرادوا أن يسألوا أزواجه شيئا : فليسألوهن من وراء حجاب .

٣ - أقيم الفرق بين المحارم وغير المحارم من الرجال .

٤ - قيل للمؤمنين إن أزواج النبي ﷺ أمهاتهم ، وإن حرمتهم عليهم أبدية ، فعلى المؤمنين جميعا أن يكونوا طاهري القلوب والنيات نحوهم .

٥ - أمرت أزواج النبي ﷺ وبناته ونساء جميع المسلمين أن يدينن عليهم من جلابيبهن ، والمراد : تغطية الوجه من فوق الرأس إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة .

من أحكام سورة النور :

- ١ - اعتبار الزنا جريمة جنائية ، وجعل حد الزانى مائة جلدة .
- ٢ - نهى المؤمنين عن أن يرتبطوا بالفاسقين والفاسقات بصلة الزواج .
- ٣ - جعل حد من يرمى المحصن أو المحصنة بالزنا ، ثم لا يأتى عليه بأربعة شهداء ثمانين جلدة .
- ٤ - جعل اللعان لمن يرمى زوجته بالزنا .
- ٥ - تحريم ظن السوء بالآخرين ، والتحريض على كبت الشائعة الباطلة والافتراءات الكاذبة .
- ٦ - وجوب الاستئناس والاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين .
- ٧ - أمر الرجال بالغض من أبصارهم ، وأمرت النساء بالغض من أبصارهن .
- ٨ - أمرت النساء بأن يضرين بخمرهن على نحورهن وصدورهن ورءوسهن .
- ٩ - أمرت النساء ألا يواجهن أحدا من غير المحارم وخدام البيت بزيتتهن .
- ١٠ - إذا خرجت النساء من بيوتهن لحاجة فليسترن زيتتهن ، بل لا يلبسن ما له صوت من حليهن .
- ١١ - فيها حث الرجال والنساء على الزواج ، وحث العبيد والإماء عليه ، وتأكيد أن الرزق من عند الله ، ليقبل الجميع على الزواج ، وإشباع النفس من الطريق الشرعى السليم ، ويقاء الرجال والنساء بدون نكاح مولد للفحشاء ، وأقل ما يكون من هؤلاء الأفراد الذين لا أزواج لهم أنهم لا يتماكون أنفسهم ، من تحسس الأخبار الفاحشة والتلذذ بنقلها فى المجتمع .
- ١٢ - جعلت المكاتبه لتحرير العبيد والإماء ، وأمر السادة بأن يجيبوهم إلى طلبهم إذا أرادوا منهم المكاتبه ، وأمر عامة المسلمين بأن يساعدوا المكاتبين مساعدة مالية .
- ١٣ - نهى عن إكراه الفتيات - وهن الإماء - على البغاء ، ولما كانت مهنة البغاء فى العرب مقصورة على الإماء ؛ فما كان هذا النهى عنها إلا سدا قانونيا للبغاء ، وبيع الأعراض .
- ١٤ - وجوب استئذان الخدم والأطفال دون البلوغ فى ثلاثة أوقات : قبل صلاة الفجر ، عند الظهر ، بعد صلاة العشاء . فيجب أن يعود الإنسان أطفاله على هذه القاعدة ، ويربيهم عليها ، فإذا بلغ الأطفال سن البلوغ وجب أن يستأذنوا فى جميع الأوقات .
- ١٥ - سمح للمعائن اللاتى لا أزب لهن فى الرجال ، أن يتخففن من ثيابهن ، وأن يخلعن الخمر من رءوسهن ووجوههن .

١٦ - جعل من حق الأقرباء الأذنين ، والأصدقاء الذين لا كلفة بينهم ، أن يأكل بعضهم من بيت بعض من دون إذنه ، وبهذا طوى ما بين أفراد المجتمع من التباعد والتحاسد ، وأزيلت الوحشة ليحل محلها الحب والإخلاص .

١٧ - أماطت السورة اللثام عن علامات المؤمنين والمنافقين ، واتجهت بكل قوتها إلى تربية المسلمين وتنظيم حياتهم ، وتهذيب سلوكهم ، وغرس مفاهيم الإيمان فى قلوبهم ، وسد الطريق أمام فتن المنافقين والأعبيهم .

١٨ - سلكت السورة سبيل الحكمة فى تشريع الأحكام ، وخلت من المرارة التى قد تنشأ فى الأذهان والقلوب ، عند رد الحملات الشنيعة، واتسمت بالرزانة والتدبير المعتدل، فى معالجة أقسى الظروف المثيرة للعواطف، إنها تشريع الحكيم العليم ، الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهو يشاهد أحوال الناس ومعاملاتهم دقيقتها وجليلها من مقام رفيع ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ . (المائدة : ٥٠) .

فقرات السورة

يجرى سياق سورة النور فى خمس فقرات :

الفقرة الأولى :

وفيهما بيان حد الزنا ، وحد القذف ، وأحكام اللعان ، ثم حديث الإفك وقصته ، وتستغرق هذه الفقرة من أول السورة إلى الآية ٢٦ .

الفقرة الثانية :

وفيهما وسائل الوقاية من الجريمة ، وتجنيب النفوس أسباب الإغراء والغواية ، وفيها آداب البيوت ، والاستئذان على أهلها ، والأمر بغض البصر ، والنهى عن إبداء الزينة لغير المحارم ، والحض على إنكاح الأياامى ، والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٢٧ - ٣٤ .

الفقرة الثالثة :

اشتملت على مجموعة من الآداب النفسية والقلبية ، فتحدثت عن تعمير بيوت الله ، وتسبيح الخلائق لله ، وإزجاء السحاب، وتقليب الليل والنهار، وخلق كل دابة من ماء ، ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجnasها مما هو معروف فى صفحة الكون للبصائر والأبصار ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٣٥ - ٤٦ .

الفقرة الرابعة :

تتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع الرسول ﷺ في الطاعة والتحاكم ، وتصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم لله والرسول ، وتعدهم على هذا بالاستخلاف في الأرض ، والتمكين في الدين ، والنصر على الكافرين ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٤٧ - ٥٧ .

الفقرة الخامسة :

تستأنف هذه الفقرة الحديث عن آداب الاستئذان والضيافة ، في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء ، وتحدث عن آداب الجماعة المسلمة كلها ، كأسرة واحدة مع رئيسها ومربيها رسول الله ﷺ ، وتتم السورة بإعلان ملكية الله في السماوات والأرض ، وعلمه بواقع الناس ، وما تنطوى عليه حناياهم ، ورجعتهم إليه ، وحسابهم على ما يعلمه من أمرهم ، وهو بكل شيء عليم ، وتستغرق هذه الفقرة الآيات من ٥٨ - ٦٤ .

وبصفة عامة فهي ، سورة النور ، نور يضيء القلب بتقوى الله ، ونور يرشد الفرد والمجتمع إلى أسباب العفة والتصون ، فهي سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى في الخطيئة ، وفيها أحكام فقهية ، وأحكام كونية ، ولمسات وجدانية ، وحث على التوبة والاستقامة والطهارة ، وبيان اطلاع الله على كل خافية ، وفي ختام السورة نجد هذه الآية الكريمة : **أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** . (النور : ٦٤) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

التفسير:

١ - سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

يقول تعالى: هذه سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا ، وفيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ، وَفَرَضْنَاهَا . أى : فرضنا أحكامها التي فيها .

قال مجاهد : أى بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهي والحدود .

وقال البخارى : فرضناها عليكم وعلى من بعدكم . ونلمح من فرضية أحكام هذه السورة إشارة إلى أن ما تحتوى عليه من الآداب والأحكام فى الحلال والحرام ، والأمر والنهي والحدود ؛ ليست بمثابة التوصيات بل إنها أحكام قاطعة لا بد أن تتبعوها ، وتكيفوا شئون حياتكم الفردية والاجتماعية على حسبها ، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر .

وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ يَنْتَبِهُ .

أى : مفسرات واضحات ليس فيها شيء من الالتباس والإبهام ، بل هى أحكام واضحة بينة لا يمكنكم أن تعتدروا عن العمل بها بأنكم لا تفهمونها .

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . لكى تتعظوا . فهذه الآية كأنها مقدمة لمرسوم ملكى ، وفيها التنبيه على مدى اهتمام الرب - سبحانه وتعالى - بما جاء فى سورة النور من الأحكام والآداب ، ولا تساويها فى هذا الشأن مقدمة أى سورة أخرى .

٢ - الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَشْهَدُونَ عَدْلَهُمَا عَلَيْهِمَا عَاقِبَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ .

١ - فى هذه الآية بيان لحد الزانى البكر، وفى السنة الصحيحة بيان لحد الزانى المتزوج وهو الرجم، وقد بينت الآية وجوب الصرامة فى إقامة الحد، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى إقامته، تراخياً فى دين الله وحقه، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين، فيكون أوجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

٢ - فى بيان حكم السرقة بدأ الله تعالى بالرجل فقال سبحانه : وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا كَعْلَا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (المائدة : ٣٨) .

وفى بيان حكم الزنا بدأ الله تعالى بالمرأة : لأن السرقة يغلب وقوعها من الرجال وهم عليها أجراً من النساء وأجلد وأخطر فقدموا عليهن لذلك . أما الزنا من المرأة فهو أشد خطراً لما يترتب عليه من فساد الأنساب وتلطيف فراش الرجل ، وهو عار على عشيرة المرأة وأشد وألزم ، والفضيحة بالحمل منه أظهر وأدوم ؛ فلذلك كان تقديمها على الرجل أهم .

قال القرطبي :

قدمت الزانية فى هذه الآية حيث كان زنا النساء فاشياً فى ذلك الزمان، وكان لإماء العرب ويغايا الوقت رايات، كن مجاهرات بذلك، وقيل : لأن الزنا فى النساء أعر وهو لأجل الحبل أضر، وقيل : لأن الشهوة فى المرأة أكثر وعليها أغلب ؛ فصدرها تغليظاً لتردد شهوتها، وإن كان قد ركب فيها حياء، لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله، وأيضاً : فإن العار بالنساء ألحق، إذ موضعهن الحجاب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً^(٣٨) .

٣ - بدأت دعوة الإسلام ببيان حكم العقيدة والدعوة إلى الإيمان بالله، ولو بدأت بتحريم الزنا لقال الناس : لا نترك الزنا أبداً، ولو بدأت بتحريم الخمر لقال الناس : لا نترك الخمر أبداً، كما قالت عائشة - رضى الله عنها - : فلما استقر الإيمان فى القلوب ؛ بين الله بالتدرج أحكام الحلال والحرام .

وفى الآية الخامسة عشرة من سورة النساء ذكر القرآن أن الزنا جريمة اجتماعية أو عائلية .

ثم بين القرآن فى سورة النور، أن الزنا جريمة جنائية، يجلد الزانى مائة جلدة إذا كان بكراً، وهناك مواصفات لطريقة الجلد منها : أن يضرب بسوط لا ثمرة فيه، وأن يكون السوط وسطاً، وأن يوزع الجلد على

جسمه لينال الألم كل عضو تمتع باللذة الحرام ؛ ولا يضرب على وجهه لأنه مجمع المحاسن ، ولا يضرب فى فرجه لأنه مقتل .

٤ - لقد حرم الزنا فى جميع الشرائع ، وبذلت المجتمعات الإنسانية سعيها لسد باب الزنا ، فهو رذيلة من ناحية الأخلاق ، وإثم من ناحية الدين ، وعيب وعار من ناحية الاجتماع ، وهذا أمر مازالت المجتمعات البشرية مجمعة عليه منذ أقدم عصور التاريخ إلى يومنا الحاضر ، ولم يخالفها فيه حتى اليوم إلا شرذمة قليلة من الذين جعلوا عقولهم تابعة لأهوائهم وشهواتهم البهيمية ، ويظنون كل مخالفة للنظام والعرف الجارى اختراعا لفلسفة جديدة .

والعلة فى هذا الإجماع العالمى ، أن الفطرة الإنسانية بنفسها تقتضى حرمة الزنا ، لأن التمدن الإنسانى لم يتكون إلا بمعاشرة الرجل والمرأة معا ، وإنشائهما أسرة ثم امتداد وشائج النسب والطهر بين تلك الأسرة ، «فالأسرة هى المحضن الصالح للتربية ، وهى الجو الملائم لتربية الأطفال ، ورعايتهم وتهذيب غرائزهم ، ورعاية نموهم النفسى والبدنى والاجتماعى»^(٣٨) .

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية الطويل ، رأينا أنه ما من أمة من الأمم فشئت فيها الفاحشة ؛ إلا صارت إلى انحلال وهزيمة .

٥ - الزنا المحض :

رغم اتفاق الشرائع على أن الزنا رذيلة ، إلا أن بعضها فرق بين الزنا المحض والزنا بزوجة الغير ، فاعتبر الأول خطيئة أو زلة يسيرة ، واعتبر الثانى جريمة مستلزمة للعقوبة .

والزنا المحض عندهم : أن يجامع رجل - بكرا كان أو متزوجا - امرأة ليست بزوجة أحد . فالعبرة هنا بحال المرأة ، فإذا كانت غير متزوجة فعقوبة هذه الخطيئة هين جدا فى قوانين مصر القديمة وبابل وآشور والهند ، وهذه القاعدة هى التى أخذت بها اليونان والروم ، وبها تأثر اليهود أخيرا ، فهى لم تذكر فى الكتاب المقدس لليهود ، إلا كخطيئة يلزم الرجل عليها غرامة مالية لا غير .

فقد جاء فى كتاب الخروج : «وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرا لنفسه زوجة ، إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى»^(٣٩) . وجاء هذا الحكم بعينه فى كتاب الاستثناء بشىء من الاختلاف فى ألفاظه ، وبعده التصريح بأنه : «إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة ، فأمسكها واضطجع معها فوجدا ، يعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين مثقالا من الفضة ، وتكون هى له زوجة من أجل أنه قد أنزلها»^(٤٠) . غير أنه إذا زنى أحد ببنت القسيس عوقب بالشنق بموجب القانون اليهودى ، وعوقبت البنت بالإحراق .

٦ - إن القوانين الغربية - وهي التي يتبعها معظم بلاد المسلمين في هذا الزمان - إنما تقوم على هذه التصورات المختلفة ، فالزنا في نظرها وإن كان عيباً أو رذيلة خلقية أو ذنباً ، ولكنه ليس بجريمة على كل حال . وإن الشيء الوحيد الذي يحوله إلى جريمة ، هو الجبر والإكراه ، أى : أن يجامع الرجل المرأة بدون رضائها ، أما الرجل المتزوج فإن كان ارتكابه لفعله الزنا سبباً للنزاع والشكوى ، فإنما هو كذلك لزوجته وحدها ، فلها - إن شاءت - أن تطلب من المحكمة تخليصها منه . وأما إذا كانت المرتكبة للزنا امرأة متزوجة ، فإن لزوجها أن يشكوها إلى المحكمة ويطلقها ، بل له أن يشكو إلى المحكمة ذلك الرجل الذي ارتكب الزنا بزوجته وينال منه غرامة مالية .

٧ - الزنا في الإسلام :

يقرر الإسلام أن الزنا جريمة مستلزمة للمواخاة والعقوبة ، وقد عرف الفقهاء الزنا بأنه : وطء الرجل المرأة في القبل حراماً ، كالميل في المكحلة ، أو القلم في الدواة .

وجاء في كتاب الاختيار في الفقه الحنفى ما يأتى : يثبت الزنا بالبينة والإقرار ، والبينة أن يشهد أربعة على رجل أو امرأة بالزنا ، فإذا شهدوا يسألهم القاضى عن ماهيته ، ومكانه وزمانه ، والمزنى بها ، فإذا بينوا ذلك ، وذكروا أنها محرمة عليه من كل وجه ، وشهدوا به كالميل في المكحلة ، والقلم في الدواة ، وغدّوا في السر والعلانية ؛ حكم القاضى عليه بالحدّ ، وحد الزانى إذا كان محصناً^(١) الرجم بالحجارة حتى يموت ، يخرج إلى أرض فضاء ، فإن كان ثبت بالبينة يبتدأ بالشهود ثم الإمام ثم الناس ، فإذا امتنع الشهود أو بعضهم لا يرجم ، وإذا ثبت بالإقرار يبتدأ الإمام ثم الناس . وإن لم يكن محصناً فحده الجلد مائة جلدة يضرب بسوط لا ثمرة له ، ضرباً متوسطاً^(٢) ، يفرقه على أعضائه إلا رأسه ووجهه وفرجه ، ويجرد من ثيابه إلا الإزار ، ولا تجرد المرأة إلا عن الفرو والحشو^(٣) .

٨ - التدرج في التشريع :

نبه القرآن المكى إلى ضرر الزنا وحذر المؤمنين من آثامه ، ومثال ذلك ما نجده في سورة الفرقان :
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .
(الفرقان : ٦٨)

ومن سورة الإسراء المكية يقول سبحانه : وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِلَهَ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . (الإسراء : ٣٢) .

وفي السنة الثالثة بعد الهجرة النبوية ، قرر القرآن أن الزنا جريمة مستلزمة للعقوبة ، ولكنه ما كان إذ ذاك جريمة قانونية ، حيث يكون لشرطة الدولة ومحكمتها أن تتأخذ عليها الناس ، وإنما كان بمثابة جريمة اجتماعية أو عائلية لأهل الأسرة أن يعاقبوا من يأتيها منهم بأنفسهم ، وهذا الحكم قد جاء في

الآيات ١٥، ١٦، ١٧ من سورة النساء . قال تعالى : **وَالَّذِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَلْحَةُ مِنَ نَسَائِكَمْ فَاسْتَغْنُوا عَنْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَنْصِبُوا لِي صَبْرًا** . **وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَإِذَا تَوَلَّيَا فَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا** . **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُوعِظُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** . (النساء : ١٥ - ١٧) .

وفى الآية الأولى إشارة واضحة إلى أن هذا الحكم مؤقت ، وسيأتى الحكم النهائي لحدِّ الزنا فى المستقبل ، وهذا الحكم هو الذى نزل بعد سنتين ونصف فى سورة النور ، وقد نسخ الحكم السابق ، وجعل الزنا جريمة قانونية مستلزمة لمواخذه الشرطة والمحكمة ^(١٤) .

٩ - رجم المحصن :

الحدُّ الذى أشارت إليه الآية الثانية فى سورة النور ، إنما هو حدُّ الزانى البكر الذى لم يتزوج ، أما حدُّ الزنا بعد الإحصان والزواج فهو الرجم ، وقد ثبت من السنة الصحيحة بغير واحدة ولا اثنتين من الروايات الصحيحة ، أن النبى ﷺ أقام حد الرجم على الزانى المحصن ، ثم أقامه بعده خلفاؤه الراشدون - رضى الله عنهم - فى عهدهم ، وأجمع على ذلك الصحابة والتابعون ، حيث لا نكاد نجد لأحد منهم قولاً ، يدل على أنه كان فى القرن الأول رجل عنده شك فى كون الرجم من الأحكام الشرعية الثابتة ، ثم ظل فقهاء الإسلام فى كل عصر ومصر ، على كونه سنة ثابتة ، بأدلة متضافرة قوية لا مجال لأحد من أهل العلم أن يشك فى صحتها . وقد خالف الجمهور فى هذه القضية الخوارج وبعض المعتزلة . فرأوا أن لا عقوبة فى الزنا غير مائة جلدة ، للمتزوج وغير المتزوج ^(١٥) .

١٠ - الرجم فى التوراة :

ورد فى التوراة أن عقوبة الزانى المحصن الرجم ، جاء فى سفر التثنية : «وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل بالمدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما من المدينة وارجموهما حتى يموتا ، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه ، فينتزع الشر من المدينة ، ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة فى الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها : يموت الذى اضطجع معها وحده ، وأما الفتاة فلا يفعل بها شيء» ^(١٦) .

١١ - وردت أحاديث فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، تفيد أن النبى ﷺ أقام حد الرجم على الزانى المحصن .

أخرج البخارى ، ومسلم : أن أعرابيين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عسيفاً - يعنى أجيئاً - على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم

فأخبروني أن علي ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفسى بيده لأقضي بينكما بكتاب الله تعالى : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها» فغدا عليها فاعترفت فرجمها^(٩٨) .

وعن ابن عباس : أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد .. أيها الناس ، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة أنزلها ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن من الرجال ومن النساء ، إذا قامت البينة أو الحمل أو الاعتراف^(٩٩) .

وفى رواية عنه : ولولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم أن عمر زاد فى كتاب الله ما ليس منه لأثبتها كما نزلت^(١٠٠) .

وهناك طرق أخرى لهذه الرواية ، كلها متعددة ومتعاضدة ودالة على أن آية الرجم كانت مكتوبة ، فنُسخت تلاوتها وبقي حكمها معمولاً به ، والله أعلم . وقد رجم رسول الله ﷺ (ماعزا) والغامدية) ، ولم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدتهما قبل الرجم ، ولهذا كان ذلك مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعى^(١٠١) - رحمهم الله - وذهب الإمام أحمد إلى أنه يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنن ، كما روى الإمام أحمد ، وأهل السنن ، عن عباد بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : «خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^(١٠٢) . وقد تمسك الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - بظاهر الآية فلم يجعل التغريب من الحد فى شيء ، إنما هو مفوض إلى رأى الإمام وحكمه فى ذلك حكم سائر التعزيرات .

وذهب الأئمة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، والثورى ، والحسن بن صالح ، إلى أن التغريب من تمام الحد ، على تفصيل فى ذلك .

١٢ - روى عن علي - رضى الله عنه - أنه قال فى البكرين إذا زنيا : إنهما يجلدان ولا يتغيبان ، وأن نفيهما من الفتنة . والأخبار المثبتة للنفي معارضة بغيرها ، وهى بعد لم تخرج عن كونها أخبار آحاد ، فليس بجائز أن تزيد فى حكم الآية بهذه الأخبار ، لأنه يوجب النسخ ، خاصة أنه يمكن استعمالهما على وجه لا يوجب النسخ فى الآية ، ولا يدفع حكم الأخبار ، وذلك بإبقاء الآية على حكمها ، وأن الجلد هو تمام الحد ، وجعل النفى على وجه التعزير ، ويكون النبى ﷺ قد رأى فى ذلك الوقت نفى البكر ، لأنهم كانوا حديثى عهد بالجاهلية ، فرأى ردهم بالنفى بعد الجلد ، كما أمر بشق روايا الخمر وكسر الأواني ، لأنه أبلغ فى الزجر وأحرى بقطع العادة^(١٠٣) .

١٣ - اللواط والسحاق :

ذهب الشافعية إلى أن حكم اللواط كحكم الزنا ، وقال بعض أصحاب الشافعي : إن اللواط زنا ، لأنه مثل الزنا في الصورة ، وفي المعنى ، فيكون اللواط زانيا فيدخل في عموم الآية ، وهي قوله تعالى : **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ** ، وقال بعض آخر من الشافعية : اللواط غير الزنا إلا أنه يقاس عليه ، بجامع كون الطبع داعيا إليه فيناسب الزاجر :

وقال أبو حنيفة : ليس في اللواط حد بل فيه تعزير ، لأنه وطء لا يتعلق به الحد ، ولأنه لا يساوي الزنا في الحاجة إلى شرع الحد ، لأن اللواط لا يرغب فيه المفعول به طبعاً ، وليس فيه إضاعة النسب ، وأيضاً فقلوه **﴿١﴾** : « لا يحد دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زنا بعد إحصان ، وكفر بعد إيمان ، وقتل نفس بغير حق » **﴿٢﴾** . قد حظر قتل المسلم إلا بإحدى هذه الثلاث ، وفاعل اللواط خارج عن ذلك لأنه لا يسمى زانياً **﴿٣﴾** . وقد اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - في حكم عمل قوم لوط وعقوبته ، فلو كانوا يعدونه من الزنا حسب الاصطلاح الإسلامي ، لما وجدنا بينهم أى خلاف في حكمه **﴿٤﴾** .

والمعلوم أنه لم يثبت عنه **﴿٥﴾** أنه قضى في اللواط بشيء ، لأن هذا المنكر لم تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه **﴿٦﴾** حادثة منه ، ولكن ثبت عنه **﴿٧﴾** أنه قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » **﴿٨﴾** . رواه أصحاب السنن الأربعة وإسناده صحيح ، وقال الترمذي : حديث حسن . وحكم أبو بكر الصديق بقتل اللواط ، وكتب به إلى خالد بن الوليد بعد مشاوره الصحابة .

ونقل بعض الحنابلة إجماع الصحابة على أن الحد في اللواط القتل ، وإنما اختلفوا في كيفيته ، فمنهم من قال : يرمى من شاهق ، ومنهم من قال : يهدم عليه حائط ، ومنهم من قال : يقتل رمياً بالحجارة . هذا ولا نعلم خلافاً بين الفقهاء في أن السحاق لم يشرع فيه إلا التعزير **﴿٩﴾** .

١٤ - الفعل القاضح :

إذا وجد رجل مع امرأة في صورة مريبة ، ولم يثبت عليهما فعل الزنا فإنه يعاقب على هذا الفعل القاضح بالتعزير ، والتعزير تأديب دون الحد ويرجع إلى تقدير القاضي للشخص ولطبيعة المخالفة . وإذا كان التعزير بالجلد فيجب أن يكون أقل من عشر جلدات ، لقوله **﴿١٠﴾** : « لا يجلد فوق عشر جلدات إلا في حد من حدود الله » رواه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود . وأما إذا جاء الشخص بنفسه إلى الحاكم ، معترفاً بذنب دون فعل الزنا الكامل ، ومعلناً ندمه عليه : فيكفي أن يلحق الاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله . روى مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، عن عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي **﴿١١﴾** فقال : يا رسول الله ، إني عالجت **﴿١٢﴾** امرأة في أقصى المدينة ، وإنني أصبت منها ما دون أن ألمسها **﴿١٣﴾** فأنا هذا

فأقضى في ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله ، لو سترت نفسك . قال : ولم يرد النبي ﷺ عليه شيئا . فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَ لِبُذُنِ السَّاعَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرَيْنِ . (هود : ١١٤) . فقال رجل من القوم : هذا له خاصة ؟ فقال : «بل للناس كافة»^(١١) .

بل لا تتيج الشريعة إذا جاء أحد إلى الحاكم معترفا بذنبه ولكن بألفاظ غير واضحة ، أن يكرهه الحاكم على التصريح بذنبه ، روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، عن أنس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله ، إنى أصبت حدا فأقمه على ، قال : ولم يسأله عنه ، وحضرت الصلاة : فصلى مع رسول الله ﷺ ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام الرجل فقال : يا رسول الله ، أصبت حدا فأقمه في كتاب الله ، قال : «ألست قد صليت معنا ؟» قال : بلى ، قال : «فإن الله قد غفر ذنبك أو حدك»^(١٢) .

١٥ - شروط جلد البكر :

(أ) أن يكون عاقلاً .

(ب) أن يكون بالغاً . فإذا اقترف الزنا مجنون أو صبي : فلا يقام عليه الحد .

شروط رجم المحصن :

(أ) أن يكون عاقلاً بالغاً ، كما سبق في البكر .

(ب) أن يكون الجانى حراً ، فإن كان عبداً جلد خمسين جلدة .

(ج) ألا يكون الجانى قد عقد قرانه فحسب ، بل يكون قد تمتع بالدخول الصحيح على زوجته بعد زواجه .

(د) أن يكون الجانى مسلماً ، وفيه الخلاف بين الفقهاء ، يقول الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وأبي يوسف -

رحمهم الله - : إن كل من ارتكب الزنا بعد الزواج ، فإنه يرجم مسلماً كان أو غير مسلم . ولكن أبا حنيفة

ومالكاً - رحمهما الله - متفقان على أن الرجم إنما هو للمسلم ، إذا ارتكب الزنا بعد زواجه .

وأقوى الدلائل على ذلك أنه لا بد لإقامة عقوبة شديدة كالرجم على أحد أن يكون فى الإحصان الكامل

ثم لا يرتد عن الزنا ، ومعنى الإحصان الكامل : الإحصان الخلقي ، ويقين الفرد بالإيمان بالله ، وبأن الله مطلع عليه وعلى أعماله ، واليقين بالحساب والجزاء والثواب والعقاب فى الآخرة .

روى عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : من أشرك بالله فليس بمحصن . رواه ابن إسحاق فى

مسنده ، والدارقطنى فى سننه . أما الاستدلال بحكم النبي ﷺ بالرجم على يهوديين زنياً فى عهده فلا يصح ،

لأن النبي ﷺ حكم عليهما بما فى التوراة ، وقد توافقت حكم التوراة مع حكم الإسلام ، روى مسلم : أن النبى ﷺ قال عند القضاء على اليهوديين : «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»^(١٧) .

١٦ - الإكراه على الزنا :

من شروط إقامة الحد عدم الإكراه على الزنا ، فلو أكره رجل امرأة على الزنا ، أقيم الحد على الرجل دون المرأة . روى البخارى ، عن صفية بنت عبيد : أن عبدا من رقيق الإمارة ، وقع على وليدة من الخمس فاستكرهها حتى أفتقها : فجلده عمر ولم يجلدها من أجل أنه استكرهها^(١٨)

١٧ - إقامة الحد مسؤولية الحكومة :

إن القانون الإسلامى لا يجيز أحدا غير الحكومة أن يؤاخذ الزانى والزانية ، ولا يجيز أحدا غير المحكمة أن يقيم عليهما الحد ، فقد أجمع فقهاء الأمة على أن الخطاب فى قوله تعالى : فَاجْلِدُوا . فى الآية الثانية من سورة النور إنما هو لحكام الدولة الإسلامية وقضاتها ، وليس لعامة الناس وأحاديهم .

١٨ - حكم التراضى بين المعتدى والمعتدى عليه :

إذا رفع الزانى إلى المحكمة ، فلا مجال لتراضى الناس فيما بينهم فى جريمة الزنا ، لأن إقامة الحد حق من حقوق الله تعالى ، وهو وسيلة لطهارة المجتمع ونظافته ، فلا يملك الزوج أن يتنازل عن دعوى الزنا على زوجته أو يسقطها عنها ، كما نجد ذلك فى القوانين الغربية ، التى يتعامل بها فى كثير من البلاد الإسلامية ، وهى قوانين تقوم على الديوثة وقلة الحياء .

١٩ - عدالة الشهود :

(أ) يجب أن يكون الشهود فى الزنا عدولا صادقين غير متهمين فى قضية سالفة ، وغير خائنين ، وألا يكون قد أقيم عليهم الحد من قبل ، وألا تكون بينهم وبين المتهم خصومة ، وعلى كل فإنه لا يجوز أن يرجم أو يجلد أحد بمجرد شهادة غير صحيحة .

(ب) يجب أن يكون الشهود متفقين على أنهم رأوا فلانا يزنى بفلانة بمكان كذا وساعة كذا .

(ج) يجب أن تكون شهادتهم بأنهم رأوها يزنيان ، وفرجه فرجها كالميل فى المكحلة ، أو القلم فى الدواة ، أو الرشاء فى البئر ، وإلا فاختلافهم فى أحد هذه الأمور يسقط شهادتهم .

وشروط هذه الشهادة تدل بنفسها ، على أن القانون الإسلامى ليس سيفاً مصلتا ، ولا سوطاً مضروباً على ظهور الناس ، بل الحق أنه لا يعاقب بعقوبة شديدة كالجلد أو الرجم ، إلا إذا وجد فى المجتمع الإسلامى رجل وامرأة يقيمان أدنى وزن للحياء ، ويأتیان بالفاحشة علنا على مرأى من الناس .

٢٠ - حكم إقرار الزاني بالزنا :

يثبت الزنا بإقرار الجاني بجنايته ، ومن اللازم أن يكون هذا الإقرار بكلمات صريحة بارتكاب فعلة الزنا ، أى : على الجاني أن يقر بأنه قد زنى بامرأة محرمة عليه كالميل فى المكحلة ، وعلى المحكمة أن تكون على ثقة بأن الجاني إنما يقر بجنايته بنفسه ، أى بدون أى ضغط خارجى ، وليس به شئ من الجنون أو الاختلال فى العقل .

وهنا اختلاف يسير بين الفقهاء ، فيقول أبو حنيفة ، وأحمد بن حنبل ، وابن أبى يعلى ، وإسحاق بن راهويه - رحمهم الله - : إن على الجاني أن يقر بجنايته أربع مرات بأربعة مجالس ، ويقول مالك ، والشافعى ، وعثمان البتى ، والحسن البصرى - رحمهم الله - : إنه يكفى أن يقر الجاني بجنايته مرة واحدة .

وقد أقر ماعز ، فرداه النبى ﷺ مرارا وقال له : «لعلك قبلت ، أو غمزت ، أو نظرت» ، قال : لا . فسأله النبى ﷺ : «هل تعرف الزنا» ؟ فقال : نعم ، أتيت منها حراماً ما يأتى الرجل من أهله حلالاً . فعند ذلك أمر برجمه فرج خارج المدينة^(٢٠) . واعترفت الغامدية وكانت حبلى من الزنا ، فردها النبى ﷺ حتى ولدت ، ثم ردها ترضعه وتطمعه ، ثم جاءت به وفى يده كسرة خبز ، وقالت : يا نبى الله ، قد فطمته وقد أكل الطعام . فذفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها^(٢١) .

٢١ - صفة الجلد :

أمر الله تعالى بجلد الزناة ، والمراد : أن يصل السوط إلى الجلد ، فلا يجوز أن يكون شديداً حتى يصل إلى اللحم ، فكل ضرب يقطع اللحم أو ينزع الجلد ويجرح اللحم مخالف لحكم القرآن . ويجب أن يكون السوط وسطاً ، لا رقيقاً جداً ولا شديداً جداً ، بل يجب أن يكون بين اللين والشدة .

روى أبو عثمان النهدي قال : أتى عمر بسوط فيه شدة ، فقال : أريد ألين من هذا . فأتى بسوط فيه لين ، فقال : أريد أشد من هذا . فأتى بسوط بين السوطين ، فقال : اضرب ولا يُرى إبطك - أى : لا تضرب بكل قوة يدك - وأعط كل عضو حقه . وروى مثل ذلك عن ابن مسعود ، وأنس بن مالك - رضى الله عنهما - والفقهاء متفقون على أن الضرب لا ينبغي أن يكون مبرحاً أى موجعاً ، ولا ينبغي أن يكون فى موضع واحد من الجسد ، بل ينبغي أن يفرق على الجسد كله : حيث يأخذ كل عضو من أعضائه حقه ، إلا الوجه والفرج والرأس .

ولا ينبغي أن يتولى الجلد والضرب جلادون من الجهال غلاظ الأكباد ، بل يجب أن يتولاه رجال من أهل العلم والبصيرة ، يعلمون كيفية الضرب لتحقيق مقتضى الشريعة .

والجاني إذا كان مريضاً لا يرجى شفاؤه أو كان فانياً ، يكفي أن يضرب بضربة واحدة بغصن عليه مائة فرع ، أو مكسة فيها مائة عود ، حتى يتحقق مقتضى القانون . انظر نظرة في هذه التفاصيل لقانون جلد الزاني في الإسلام ، ثم اعجب لجرأة الذين يقولون إنه عقوبة وحشية ، ويرون التهذيب كل التهذيب في عقوبة الضرب التي تجرى اليوم في السجون ، ثم لا يخفى ما تنزل الشرطة اليوم من عقوبات قاسية ، تقشع لسماعها الجلود ، لا على الجناة الذين تثبت جرائمهم فحسب ، بل على المشتبهين - ولا سيما السياسيين منهم - لغرض التفتيش والاستجواب .

٢٢ - تحريم الشفاعة في الحدود :

ينبغي للحاكم إذا انتهى إليه الحد أن يقيمه ، قال تعالى : **وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .** وهو نهى عن التخفيف في الجلد ، أو ترك الحد وإسقاطه ، وفيه دليل على أنه لا تجوز الشفاعة في إسقاط حد الزنا ، لأن فيه تعطيلاً لإقامة حدود الله ، ليس لخصوصية في الزنا ، بل مثله مثل سائر الحدود تحرم الشفاعة فيها ، فقد صرح أنه ﷺ أنكر على حبه أسامة بن زيد ، حين شفع في فاطمة بنت الأسود المخزومية وكانت قد سرقت قطيفة وحلياً ، فقال له : «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟»^(١٧) .

وفي الصحيحين أن الرسول ﷺ خطب فقال : «أيها الناس ، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١٨) .

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ يقول : «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى : فقد ضاد الله عز وجل»^(١٩) أخرجه أبو داود .

فلا يجوز أن يُترك الجاني بعد ثبوت الجريمة عليه ، ولا أن يخفف من حده ، بل يجب أن يضرب مائة جلدة كاملة تحقيقاً لقوله تعالى : **وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .**

٢٣ - إقامة الحدود علناً :

يجب أن يقام الحد علناً على مرأى من عامة الناس ومشهدهم ، قال تعالى : **وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** ، والطائفة اثنان فصاعداً ، وقيل : أربعة بعدد شهود الزنا ، وقيل : عشرة ، وأولى الأقوال بالصواب أن المراد هنا : جماعة يحصل بهم التشهير والزجر ، وتختلف قلة وكثرة بحسب اختلاف الأماكن والأشخاص ، ونلاحظ هنا أن أغراض الحدود في القانون الإسلامي ثلاثة :

١ - أن ينتقم من الجاني لاعتدائه .

٢ - أن يردع عن إعادة الجريمة .

٣- أن تجعل من عقوبته عبرة ، حتى تجرى مجرى عملية الجراحة الذهنية ، على أناس في المجتمع ، قد تكون في قلوبهم غرائز سيئة ، فلا يجترئون على ارتكاب مثل هذه الجريمة في المستقبل ، ومن فوائد إقامة الحدود علنا ، أن الحكام قلما يجترئون على التخفيف من العقوبة ، أو الزيادة فيها على وجه غير مشروع.

٢٤- الزنا بالمحارم :

الزنا بالمحارم كالأخت والبنت ، جنابة مغلظة تؤاخذ عليها شرطة الدولة ، وقد جاءت عدة روايات في سنن أبي داود ، والنسائي ، ومسنند أحمد ، تفيد أن النبي ﷺ كتب من ارتكب هذه الجنابة بالقتل ومصادرة الأموال ، وأما الرواية التي نقلها ابن ماجة عن ابن عباس ، فقد بين فيها الرسول ﷺ القاعدة الكلية الآتية : «من وقع على ذات محرم فاقتلوه»^(٧٠).

والفقههاء بينهم خلاف حول هذه المسألة ، فالذي يراه الإمام أحمد أن يقتل الرجل وتصادر أمواله حسب ما جاء في روايته ، وروايات أبي داود والنسائي ، ويرى أبو حنيفة ومالك والشافعي - رحمهم الله - أنه إن زنى بذات محرم من محارمه أقيم عليه حد الزنا ، وإن نكحها ووطئها عوقب عقابا أليما يعتبر به غيره.

٢٥- الشذوذ :

حرم الإسلام اللواط لأنه خروج على الفطرة ، فالله خلق الزوجين الذكر والأنثى ، وجعل الاستمتاع بينهما طبيعيا وفطريا ، وخلق الرجل والمرأة ليكمل كل منهما صاحبه بالزواج ، فاستغناء الرجال بالرجال ، يقابله استغناء النساء بالنساء ، وهو لون من الشذوذ والخروج على أوامر الله .

ومن المحرم شرعاً أن يأتي الرجل عمل قوم لوط بامرأته ، ففي سنن أبي داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لمعون من أتى المرأة في دبرها»^(٧١) . ونقل ابن ماجة ، وأحمد ، أنه ﷺ قال : «لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها» ، وفي رواية للترمذي أنه ﷺ قال . «من أتى حائضاً ، أو امرأة في دبرها ، أو كاهنا فصده : فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٧٢) .

أما إتيان البهيمة ، فيعده بعض الفقهاء من الزنا ويرون عليه حدّه ، إلا أن أبا حنيفة ، وأبا يوسف ، ومحمداً ، وزفراً ، ومالكاً ، والشافعي - رحمهم الله - يقولون : إنه ليس بالزنا فلا يستحق مرتكبه الحد ، وإنما يستحق التعزير ، والتعزير موكول إلى القاضي ، أو لمجلس الشورى في الدولة أن يقرر له حداً إن رأى إليه حاجة . وينبغي للدولة أن تسهر على حماية أبنائها من الانحراف ومن شيوع الفاحشة ، وأن تعمل على تيسير الحلال ، وأن تفلق منافذ الشرور والآثام .

٢٦ - من هدى السنة :

بيئت أحاديث الرسول ﷺ أضرار الزنا الصحية والنفسية والدينية ، فالزاني يتعرض لأمراض خطيرة مثل الزهري والسيلان وغير ذلك من الأمراض الفتاكة ، ويتعرض الزاني لأمراض نفسية لأنه عنصر فاسد ينتهك الأعراض ، ويرتكب الموبقات ، وعقوبة الزنا شديدة في الآخرة ، لمخالفة الزاني لأمر الله ، وتعديه على حدود الله .

١ - قال رسول الله ﷺ :

«يا معشر الناس ، اضمنوا لى ستا أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانة إذا أودعتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم»^(٣٧) .

٢ - روى البخارى فى صحيحه أن الرسول ﷺ قال :

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، بل ينزع إيمانه كالظلة فإذا نزع عاد إليه»^(٣٨) .

٣ - روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، والرجلان تزنيان وزناهما الخطا ، واليدان تزنيان وزناهما اللمس ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذب»^(٣٩) .

٤ - وفى الأثر :

«يا معشر الناس ، اتقوا الزنا ، فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا ، وثلاث فى الآخرة ، أما التى فى الدنيا : فيورث الفقر ، ويذهب البهاء ، وينقص العمر ، وأما التى فى الآخرة : فسخط الله ، وسوء الحساب ، وعذاب النار» .

٣ - الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

سبب نزول الآية ،

وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية ، ولا يبعد أن يكون هناك أكثر من سبب لنزول الآية ، فقد ذكر العلماء أنه إذا تعددت أسباب النزول ، وفيها الصحيح والضعيف ، أخذنا بالصحيح وتركنا الضعيف .

وإذا تعددت أسباب النزول وكلها صحيح ، وأمكن الجمع بينها لتقارب حدوثها ، حملنا ذلك على تعدد السبب والنازل واحد ، وهذه ثلاث روايات فى سبب نزول الآية :

١ - روى الترمذى ، وأبو داود ، والنسائى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال :

كان رجل يقال له : مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وكان رجلا يحمل الأسارى من مكة حتى يأتى بهم المدينة ، قال : وكانت امرأة بغى بمكة ، يقال لها : عناق ، وكانت صديقة له فى الجاهلية ، وأنه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله ، قال : فجننت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة فى ليلة مقمرة ، قال : فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلى تحت الحائط ، فلما انتهت إلى عرفتنى ، فقالت : مرثد؟ فقلت : فريد . فقالت : مرحباً وأهلاً ، هلم فبت عندنا الليلة . فقلت : يا عناق حرم الله الزنا ، فقالت : يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم . قال : فقبعتى ثمانية ، ودخلت الحديقة فانتهيت إلى غار ، أو كهف ، فدخلت فيه ، فجاءوا حتى أقاموا على رأسى ، فقالوا فظل بولهم على رأسى ، فأعصاهم الله عنى ، ثم رجعوا ، فرجعت إلى صاحبى ، فحملته وكان رجلا ثقيلاً ، حتى انتهيت إلى الأنحر ، ففككت عنه أحبله ، فجعلت أحمله ويعيننى ، حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله : أنكح عناقاً ؟ أنكح عناقاً ؟ مرتين ، فأمسك رسول الله ﷺ فلم يرد على شيئاً . حتى نزلت : **الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً** ... فقال رسول الله ﷺ : «يا مرثد ، الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة فلا تنكحها»^(٣٧).

٢ - وروى النسائى ، وأحمد ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال :

كانت امرأة يقال لها : أم مهزول ، وكانت تسافح - أى : تحترف البغاء - فأراد رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن يتزوجها ، واشترطت له أن تنفق عليه ، فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية^(٣٨) .

٣ - روى أنها نزلت فى جماعة من فقراء المهاجرين ، استأذنوا النبى ﷺ فى التزوج ببغايا من الكتابيات والإماء ، اللاتى كن بالمدينة ، فأنزل الله فيهم هذه الآية^(٣٩) .

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ...

وللمفسرين فى معنى هذه الآية أقوال شتى :

١ - قال النسفى :

الخبث الذى من شأنه الزنا ، لا يرغب فى نكاح الصوالج من النساء ، وإنما يرغب فى خبيثة من شكله ، أو فى مشركة .

والخبثية المسافحة كذلك لا يرغب فى نكاحها الصالحاء من الرجال ، وإنما يرغب فيها من هو من شكلها من الفسقة أو المشركين ، فالآية تهديد فى نكاح البغايا ، إذ الزنا عدل الشرك فى القبح ، والإيمان قرين العفاف والتحصين ، وهو نظير قوله : **الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ** . (النور: ٢٦) .

٢ - وقيل :

إن الكلام نهي جيء به في صورة الخبر للمبالغة ، ويؤيده قراءة عمر بن عبيد : لا يَنْكِحُ . بالجزم ، ويكون التحريم على ظاهره ، والإشارة إلى النكاح المفهوم من الفعل ، وكان الحكم كذلك في صدر الإسلام ثم نسخ ، قال سعيد بن المسيب : كان الحكم عاما في الزنا ألا يتزوج أحدهم إلا زانية ، ثم جاءت الرخصة ونسخ ذلك بقوله تعالى : وَأَنْكِحُوا الْأَيُّمَ مِنْكُمْ ... (النور : ٣٢) . والزانية من أيامى المسلمين ، وبهذا القول قال مجاهد ، والشافعى ، والجبائى ، وغيرهم ^(٨٤) .

قال ابن عمر : دخلت الزانية في أيامى المسلمين . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا القول عليه أكثر العلماء ^(٨٥) .

٣ - ذهب الإمام أحمد إلى أن زواج الزانى المعروف بالفسوق باطل غير صحيح ، ولا يجوز نكاحه حتى يتوب ، وقد رجح ابن تيمية رأى الإمام أحمد .

وقال ابن تيمية : يدل قوله تعالى : آلزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً . على أن الزانى لا يتزوج إلا زانية أو مشركة ، وأن ذلك حرام على المؤمنين ، وليس هذا لمجرد كونه فاجرا ، بل لخصوص كونه زانيا ، وكذلك فى المرأة ليس لمجرد فجورها بل لخصوص زناها ، بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانيا ، كما جعل الرجل زانيا إذا تزوج زانية ، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا ، وإذا كانا مشركين فينبغى أن يعلم ذلك ، ومضمونه أن الرجل الزانى لا يجوز نكاحه حتى يتوب ، وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها عن غير زوجها ، بل يأتيتها هو وغيره ، وإذا كان الزوج زانيا هو وغيره يشتركون فى وطئها كما يشترك الزناة فى المرأة الواحدة ، ولهذا يجب عليه نفى الولد الذى ليس منه ، فمن نكح زانية فهو زان ، أى تزوجها ، ومن نكحت زانيا فهي زانية ، أى تزوجته ، فإن كثيرا من الزناة قصروا أنفسهم على الزوانى ، فتكون المرأة خدنا وخليلا له لا يأتى غيرها ، فالرجل إذا كان زانيا لا يعف امرأته ، وإذا لم يعفها تشوقت هى إلى غيره فزنت به ، كما هو الغالب على نساء الزوانى ، أو من يلوط بالصبيان ، فإن نساء يزنين ليقضين أربهن ووطرن ، ويراعمن أزواجهن بذلك ، حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهن ، فهن أيضا لم يعفن أنفسهن عن غير أزواجهن ، ولهذا يقال : «عفا تعف نساؤكم وأبناؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» وكما تدين تدان .

ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، فإن الرجل إذا رضى أن ينكح زانية ، رضى أن تزنى امرأته ، والله تعالى قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، فأحدهما يحب لنفسه ما يجب للآخر ، فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانيا : فقد رضيت عمله ، وكذلك إن رضى الرجل أن ينكح زانية : فقد رضى عملها ، ومن رضى الزنا

كان بمنزلة الزاني ، فإن أصل الفعل هو الإرادة ، ولهذا جاء في الأثر : «من غاب عن معصية فرضيها : كان كمن شهدا أو فعلها» .

وفي الحديث : «المرء على دين خليله»^(٨٦) وأعظم الخلطة خلطة الزوجين^(٨٧) .

وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته إلا إذا أعجبه ذلك الغير ، فلا يزال يزني بمن يعجبه ، وتبقى امرأته بمنزلة المعلقة ، التي لا هي أيم ولا ذات زوج ، فيدعوها بذلك إلى الزنا ، ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص ، مكايده له ومغايلة ، فإنه ما لم يحفظ غيبته لم تحفظ غيبته ، ولها في بضعه حق ، كما له في بضعها حق ، فإن كان من العادين ، لخروجه عما أباح الله لم يكن أحسن نفسه ، وأيضاً فإن داعية الزنا تشتغل بمن يختاره من البغايا ، فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ، ولا غيرته كافية في إحسانه المرأة ، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدنا ، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها^(٨٨) .

٤ - جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

روى أن رجلاً زنى بامرأة في زمن أبي بكر - رضى الله عنه - فجلدهما مائة جلدة ، ثم زوج أحدهما من الآخر ، ونفاهما سنة ، وروى مثل ذلك عن عمر ، وابن مسعود ، وجابر - رضى الله عنهم - وقال ابن عباس : أوله سفاح وآخره نكاح ، ومثل ذلك مثل رجل سرق من حائط ثمرة ، ثم أتى صاحب البستان فاشترى منه ثمرة ، فما سرق حرام وما اشترى حلال ، وبهذا أخذ الشافعي وأبو حنيفة ورأوا أن الماء لا حرمة له^(٨٩) .

وروى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : إذا زنى الرجل بالمرأة ثم نكحها بعد ذلك ؛ فهما زانيان أبداً ، وبهذا أخذ مالك - رضى الله عنه - فرأى أنه لا ينكحها حتى يستبرئها من مائه الفاسد ، لأن النكاح له حرمة ، ومن حرمة ألا يصب على ماء السفاح ، فيختلط الحرام بالحلال ، ويمتزج ماء المهانة بماء العزة^(٩٠) .

٥ - بدأت الآية هنا بالحديث عن الزاني ، وفي الآية السابقة بدأت بالحديث عن الزانية .

لأن الآية الثانية من سورة النور تتكلم عن حد الزناة ، والزنا من المرأة أشنع ، لما يترتب عليه من اختلاط الأنساب وغيره ، فقال : **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةٍ...**

أما الآية الثالثة فتتحدث عن الزواج ، والرجل فيه هو الأصل ، لأن إبداء الرغبة والتماس النكاح بالخطبة، إنما يكون من الرجل لا من المرأة في مجرى العرف والعادة ، فبدأت الآية بالزاني لا بالزانية، حيث قالت : **الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.**

٦ - قال أبو الأعلى المودودي :

ومقصود الآية أن الفجار الذين يظهرون فجورهم ويعلنون خلاعتهم في المجتمع ، ليس الميل إليهم والاتصال بهم بصلة النكاح ، إلا ذنباً يجب أن يجتنبه أهل الإيمان ، لأن ذلك مما يشجع الفجار ، إذ إن الشريعة تريد أن تجعلهم في المجتمع عنصراً قبيحاً يعافه الناس ، وكذلك ليس معنى الآية أن نكاح الزاني المسلم لامرأة مشركة ، أو نكاح الزانية المسلمة لرجل مشرك ، صحيح ، وإنما معنى الآية : أن الزنا فعل شنيع ، إذا ارتكبه أحد مع كونه مسلماً ، لا يجدر بأن يرتبط بالصالحين الأعفاء ، من أفراد المجتمع ، بل عليه أن يرتبط إما بأمثاله من الزناة والفجار ، أو بالمشركين الذين لا يعتقدون أصلاً بالأحكام الإلهية^(٨١) .

* * *

حد القذف

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَأْتُوا بَأْرَ بَعْثَةٍ شَهَادَةٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٤٢﴾

المفردات :

الرمسى : معروف ، يقال : رمى بالحجر فى الماء ، أى : قذف به ، ثم استعير لنسبة أمر غير مرضى إلى الإنسان كالزنا والسرقة ، والرمى هو القذف ، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة .

المحصنات ، العفيفات الحرائر البالغات والعاقات المسلمات ، وأشهر معانى الكلمة : العفيفات المنزهات عن الزنا .

وأصل الإحصان : المنع ، والمحصن - بالفتح - يكون بمعنى : الفاعل والمفعول ، وهى إحدى الكلمات الثلاث اللاتى جئن نواذر . يقال : أحصن فهو محصن ، وأسهب فهو مسهب ، وأفلج - إذا افتقر - فهو مفلج ، الفاعل والمفعول فى هذه الأحرف الثلاثة سواء .

تمهيد :

أراد الإسلام أن يحفظ المجتمع من إشاعة السوء ، وإلقاء التهم وقذف الآخرين بسوء السلوك ، فإن هذا القول إذا انتشر فى المجتمع ، هوّن الجريمة ، وأوهم المستقيم أن الانحراف منتشر ، وأنه سهل التناول فتشيع الفاحشة وتنتشر قاله السوء بين الناس .

من أجل هذا أمر الإسلام بكبت الشائعات المغرضة ، وحفظ الألسن من الولوغ فى أعراض الناس .

التفسير :

٤ - وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُبْحَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ، ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم فى قذفهم ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، على قذفهم أعراض الناس دون وجه حق .

وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا .

وردوا شهادتهم ، ولا تقبلوها فى أى واقعة كانت لظهور كذبهم .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

الخارجون عما وجب عليهم من رعاية حقوق المحصنات .

فالإنسان إذا رأى منكرا ولم يكن معه شهود ، وجب أن يسكت سترا على الآخرين ، وحفاظا على سلامة المجتمع ، حتى لا يوقع الناس فى شك وحيرة وبلية .

والجماعة المسلمة لا تخسر بالسكوت عن تهمة غير محققة ، كما تخسر بشيوع الاتهام والترخص فيه ، وعدم التخرج من الإذاعة به ^(٨٧) .

قال السيوطى فى (الإكليل) :

فى هذه الآية تحريم القذف ، وأنه فسق ، وأن القاذف لا تقبل شهادته ، وأنه يجلد ثمانين جلدة ، إذا قذف محصنة أى عفيفة ، ومفهومه : أنه إذا قذف من عرفت بالزنا لا يحد للقذف ، ويصرح بذلك قوله : ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ . وفيها أن الزنا لا يقبل فيه إلا أربعة رجال لا أقل ، ولا نساء ، وسواء شهدوا مجتمعين أو متفرقين ، واستدل بعموم الآية من قال : يحد العبد أيضاً ثمانين ، ومن قال : يحد قاذف الكافر ، والرقيق ، وغير البالغ ، والمجنون ، وولده .

واحتج بها على أن من قذف نفسه ثم رجع لا يحد لنفسه ، لأنه لم يرم أحدا ، واستدل بها من قال : إن حد القذف من حقوق الله تعالى ، فلا يجوز العفو عنه . اهـ ^(٨٨) .

وقال ابن تيمية :

وقوله تعالى : وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا . نص فى أن هؤلاء القذفة لا تقبل شهادتهم ، واحدا كانوا أو عددا ، بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل ، لأنها نزلت فى أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث

والفقه والتفسير، وكان الذين قذفوا عائشة عدداً، ولم يكونوا واحداً لما رأوها قدمت فى صحبة صفوان بن المعطل، بعد قفول العسكر، وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها فقدت، فرفعوا هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها، ولم تكن فيه فلما رجعت لم تجد أحداً فمكثت مكانها، وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش، فلما رآها أعرض بوجهه عنها، وأناخ راحلته حتى ركبها، ثم ذهب إلى العسكر، فكانت خلوته بها للضرورة، كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة كسفر الهجرة، مثلما قدمت أم كلثوم بنت عقبة مهاجرة، وقصة عائشة.

ودلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم، مجتمعين ولا متفرقين، ودلت الآية على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور، فإنه كان من جملتهم مسطح، وحسان، وحمنة، ومعلوم أنه ﷺ لم يرد شهادة أحد منهم، ولا المسلمين بعده، لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها، ومن لم يتب حينئذ فإنه كافر مكذب بالقرآن، وهؤلاء مازالوا مسلمين، وقد نهى القرآن عن قطع صلتهم.

من أحكام الآية ما يأتى :

١ - أجمع الفقهاء على أن حكم الآية غير مقصور على قذف الرجال للنساء، بل إنه حكم شامل، سواء كان القذف من الرجال أو النساء، للرجال أو النساء.

٢ - هناك شروط لابد من استيفائها فى القاذف، والمقذوف، وفعلة القذف. قال القرطبي: للقذف شروط عند العلماء تسعة :

شرطان فى القاذف، وهما: العقل، والبلوغ، لأنهما أصل التكليف، إذ التكليف ساقط دونهما.

وشرطان فى المقذوف به، وهو أن يقذف بوطء يلزمه فيه الحد وهو الزنا واللواط، أو ينفيه عن أبيه دون سائر المعاصى.

وخمسة فى المقذوف، وهى: العقل، والبلوغ، والإسلام، والحرية، والعفة عن الفاحشة التى رمى بها، كان عقيفاً عن غيرها أو لا، وإنما شرطنا فى المقذوف العقل والبلوغ كما شرطناهما فى القاذف، وإن لم يكونا من معانى الإحصان، لأجل أن الحد إنما وضع للزجر عن الأذى بالضرورة الداخلة على المقذوف، ولا مضرة على من عدم العقل والبلوغ^(١٨).

٣ - اختلف العلماء فى حد القذف، فقال بعضهم: هو حق الله تعالى، فتقوم شرطة الدولة ومحكمتها بتنفيذه، سواء أطالب به المقذوف أم لم يطالب به، وهذا قول ابن أبى ليلى.

وهو من حق الله تعالى، ولكن للمقذوف فيه حق من حيث دفع العار عنه عند أبى حنيفة وأصحابه.

وذهب الشافعى، والأوزاعى إلى أنه إذا ثبتت الجريمة على أحد وجب أن يقام عليه الحد، ولكن يتوقف رفع أمره إلى الحكام على إرادة المقذوف ومطالبته، فهو من هذه الجهة من حقوق العباد.

قال القرطبي :

اختلف العلماء فى حد القذف ... هل هو من حقوق الله ، أو من حقوق الأدميين ، أو فيه شائبة منهما ، الأول قول أبى حنيفة ، والثانى : قول مالك ، والشافعى ، والثالث : قول بعض المتأخرين .

وفائدة الخلاف أنه إن كان حقا لله تعالى وبلغ الإمام : أقامه وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله تعالى ، وينشطر فيه الحد بالرق كالزنا .

وإن كان حقا للأدمى : فلا يقيمه الإمام إلا بمطالبة المقذوف ، ويسقط بعفوه ، ولم تنفع القاذف التوبة حتى يحلله المقذوف .

٤ - إذا ثبت عن رجل أنه ارتكب القذف ، فإن الشيء الوحيد الذى ينقذه من الحد ، هو شهادة أربعة شهود فى المحكمة بأنهم قد رأوا المقذوف يزنى بفلانة^(١٠٠) .

٥ - من لم يستطع أن يقدم للمحكمة أربعة شهود يؤيدون قوله ، فقد حكم عليه القرآن بثلاثة أحكام هى :

(أ) أن يجلد ثمانين جلدة .

(ب) ألا تقبل له شهادة أبدا .

(ج) ثبوت الفسق عليه .

٦ - مرتكب القذف بدون شهادة الشهود فاسق، ولو كان صادقا فى حد ذاته، لأنه أشاع التهم وبلبل المجتمع، بدون دليل حاسم يخرج الناس من الشك إلى اليقين، ولو سكت وستر لكان أولى به وأفضل .

٧ - يرى فقهاء الحنفية فى حد القذف ، أن يكون ضرب القاذف أخف من ضرب الزانى ، لأن الجريمة التى يعاقب فيها ، ليس كذبه فيها بمتيقن على كل حال .

٥ - إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فإذا تاب القاذف وندم واستقام : قبل الله توبته وعفا عنه .

اللعان

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

المفردات :

يرمون أزواجهم : يقذفونهن بالريبة وثمة الزنا .

لعنة الله : الطرد من رحمته .

يدفع : يدفع .

غضب الله : سخطه والبعد عن فضله وإحسانه .

التفسير :

٦، ٧، ٨، ٩، ١٠ - وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ... الآيات .

سبب النزول :

تعددت روايات أسباب نزول آيات اللعان ، ويمكن أن يجمع بينها بتعدد السبب والنازل واحد .

١ - أخرج البخاري من طريق عكرمة، عن ابن عباس : أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي ﷺ بشريك ابن سحماء ، فقال النبي ﷺ : «البينة أو حد في ظهره»^(١) ، فقال : يا رسول الله ، إذا وجد أحدا مع امرأته رجلا ، ينطلق يلتمس البينة ؟ وفي رواية أنه قال : والذي بعثك بالحق إنني لصديق ، ولينزلن الله تعالى ما يببرئ ظهري من الحد ، فنزل جبريل - عليه السلام - وأنزل عليه : وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ . حتى بلغ : إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . ١ هـ . وهي الآيات ٦ - ١٠ من سورة النور .

٢ - وأخرج الشيخان (واللفظ للبخاري) عن سهل بن سعد : أن عويمرا أتى عاصم بن عدى وكان سيد بني عجلان ، فقال : كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقضه فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ سل لي رسول الله ﷺ عن ذلك ، فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فكره رسوله الله ﷺ المسائل وعابها ، فقال

عويمر: والله ، لا أنتهى حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاءه عويمر ، فقال : يا رسول ، رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقظته فتقتلونه ، أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : «قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبك» ، فأمرهما رسول ﷺ بالملاعنة بما سمي الله فى كتابه فلاعنهما .^(١٧١) فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولهما شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، وتفيدان تأخر الجواب إلى وقت الحاجة إليه .

كيفية اللعان :

١ - روى أصحاب الصحاح الستة ، والإمام أحمد فى مسنده ، وابن جرير الطبرى فى تفسيره ، عن ابن عباس ، وأنس بن مالك - رضى الله عنهما - : أن هلال بن أمية وزوجته^(١٧٢) ، أرسل إليهما بعد نزول هذه الآية ، فتلاما عليهما رسول الله ﷺ فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله ، يا رسول الله ، لقد صدقت عليهما . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : «لاعنوا بينهما» . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل له : يا هلال اتق الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . وأيضاً قال لهما رسول الله ﷺ مرارا : «إن الله يعلم أن أحكما كاذب ، فهل منكما تائب؟» فقال هلال : والله لا يعذبني الله عليهما ، كما لم يجلدني عليهما . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين^(١٧٣) .

ثم قيل للمرأة : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب ، فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لا أفضح قومي . فشهدت فى الخامسة : أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرق بينهما رسول الله ﷺ وقضى ألا يدعى ولدها لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها .

ثم قال للناس : «إن جاءت به أصيبه^(١٧٤) أريشع^(١٧٥) حمش الساقين^(١٧٦) فهو لهلال ، وإن جاءت به أورك^(١٧٧) جعدا^(١٧٨) حماليا^(١٧٩) خدج الساقين^(١٨٠) سابع الإليتين^(١٨١) فهو للذى رميت به» . فجاءت به أورك ، حماليا ، خدج الساقين ، سابع الإليتين ، فقال رسول الله ﷺ : «لولا الأيمان - وفى رواية أخرى - لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن»^(١٨٢) .

٢ - جاءت قصة عويمر العجلاني التى سبق ذكرها فى الصحيحين^(١٨٣) وفيها أن رسول الله ﷺ دعا عويمرا وزوجته فذكرهما ، وقال لهما ثلاثا : «إن الله يعلم أن أحكما كاذب ... فهل منكما تائب؟» فلما لم يتب أحدهما لآعن بينهما .

قال عويمر: إن انطلقت بها يا رسول الله لقد كذبت عليها، فطلقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ. قال سهل بن سعد فنذرها رسول الله ﷺ وفرق بينهما، وقال: «لا يجتمعان أبدا». وزاد سهل بن سعد: وكانت حاملا فأنكر حملها، وكان ابنها يدعى إليها، ثم جرت السنة في الميراث أن يرثها وترث منه ما فرض الله لهما.

٣ - ولهايتين القضيتين شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة. وليس فيها التصريح بأسماء المتلاعنين، فقد تكون بعضها متعلقة بهاتين القضيتين، ولكن قد جاء في بعضها ذكر قضايا أخرى، فهذه التفاصيل تزودنا بكثير من الأمور الموضحة لأحكام اللعان:

(أ) روى الجماعة عن ابن عمر، أن رجلا رمى امرأته فانتفى من ولدها، في زمان رسول الله ﷺ فتلاعنا كما قال الله، ثم قضى بالولد للمرأة وفرق بينهما.

(ب) روى البخاري، ومسلم، وأبو داود، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «حسابكما على الله، أحكما كاذب ولا سبيل لك عليها». قال: يا رسول الله مالي؟ قال: «لا مال لك، إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها، وإن كنت كذبت فذلك أبعد لك منها».

(ج) روى البخاري، ومسلم، وأحمد، وأبو داود، عن أبي هريرة: أن رجلا قال للنبي ﷺ: إن امرأتى ولدت غلاما أسود. فقال: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «ما لونها؟» قال: حمر. قال: «فهل فيها أورك؟» قال: نعم. قال: «فكيف ذاك؟» قال: نزعة عرق. قال: «فلعل هذا نزعة عرق»^(١٠٤).

فلم يقبل نفية لولده، ولم يحمل قوله على الرمي بالزنا.

(د) روى أبو داود، والنسائي، والدارمي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أهما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم؛ فليست من الله في شيء، ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه: احتجب الله منه يوم القيامة، وفضحه على رموس الأشهاد من الأولين والآخرين».

فآيات اللعان؛ وهذه الروايات والشواهد، ومبادئ الشرع العامة هي المصادر لقانون اللعان في الإسلام، وهي التي على ضوئها وضع الفقهاء ضوابط مفصلة للعان.

ومن أهم هذه الضوابط ما يأتي:

١ - أجمع الفقهاء على أن اللعان كالشهادة، فلا يثبت إلا في المحكمة.

٢ - ليس الحق في المطالبة باللعان للرجل فحسب، بل هو للمرأة أيضا، إذا اتهمها زوجها بالفاحشة أو أنكر ولدها.

٣ - اختلف العلماء من السلف في من وجد مع امرأته رجلا فقتله ، هل يقتل به أم لا ؟ فقال بعضهم : يقتل به ، لأنه ليس له أن يقيم الحد بغير إذن من الحاكم ، وقال بعضهم : لا يقتل ، ويعذر فيما فعله إذا ظهرت أمارات صدقه ، وشرط أحمد وإسحاق رحمهما الله ، أن يأتي بشاهدين على أنه قتله بسبب ذلك ، وقد وافقهما على هذا الشرط ابن القاسم وابن حبيب من المالكية ، ولكن زاد عليه أن يكون المقتول محصنا ، وإلا فإن القاتل عليه القصاص إن كان بكرا ، أما الجمهور فذهبوا إلى أنه لا يعفى من القصاص ، إلا أن يأتي بأربعة يشهدون على الزنا ، أو يعترف به المقتول قبل موته بشرط أن يكون محصنا .

٤ - أن اللعان لا يجب بمجرد الكناية أو إظهار الشبهة ، وإنما يجب بأن يرمى الزوج زوجته بالزنا صراحة ، أو ينكر أن ولدها منه بألفاظ واضحة ، وقد زاد مالك ، والليث بن سعد - رحمهما الله - أن الزوج عليه أن يصرح عند اللعان بأنه قد رأى بعينه زوجته تزنى ، ولكن لا أصل لهذه الزيادة في القرآن ولا في السنة .

٥ - أخذ العلماء من أحاديث اللعان ، أنه يندب أن يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة ، وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد ، وأن يعظهما القاضي أو نائبه ، بمثل قوله لكل منهما عند الانتهاء إلى اللعنة والغضب : اتق الله فإنها موجبة ، ولعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة . كما يستحب التغليب بالزمان والمكان ، وحضور جمع من عدول المسلمين ، على خلاف في ذلك بين الفقهاء ومحل كتب الفروع .

٦ - قال القرطبي :

اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

عدد الألفاظ : وهو أربع شهادات ، والمكان : وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فعند الركن والمقام ، وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة ، وإن كان في سائر البلدان ففي مساجدها .

والوقت : وذلك بعد صلاة العصر .

وجمع الناس : وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعدا ، فاللفظ وجمع الناس مشروطان ، والزمان والمكان مستحبان^(١٠٧) .

٧ - من نتائج اللعان ما يأتي :

(أ) أن الرجل والمرأة لا يستحق أحدهما شيئا من العقوبة .

(ب) إن كان الرجل منكرا لولد المرأة ، ألحق الولد بها ، ولا يدعى إليه ولا يرثه ، وإنما يرث أمه وترث منه .

(ج) لا يجوز لأحد أن يقول للمرأة زانية ، ولولدها ولد الزنا ، ولو كانت عند اللعان حيث لا يشك أحد في زناها .

(د) من أعاد إليها الاتهام السابق ، وجب عليه حد القذف .

(هـ) لا يسقط عن الرجل صداق المرأة .

(و) لا نفقة ولا بيت للمرأة على الرجل .

(ز) تحرم المرأة على الرجل .

٨ - ذكر القرطبي في تفسيره أن آيات اللعان فيها ثلاثون مسألة ، منها كيفية وقوع الفرقة في اللعان :

قال مالك وأصحابه : ويتمام اللعان تقع الفرقة بين المتلاعنين ، فلا يجتمعان أبداً ولا يتوارثان ، ولا يحل له مراجعتها أبداً لا قبل زوج ولا بعده ، وهو قول الليث بن سعد ، وزفر بن الهذيل ، والأوزاعي .

وقال أبو حنيفة ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن : لا تقع الفرقة بعد فراغها من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما ، وهو قول الثوري ، لقول ابن عمر : فرق رسول الله ﷺ بين المتلاعنين . فأضاف الفرقة إليه ، ولقوله ﷺ : « لا سبيل لك عليها » . وقال الشافعي : إذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان ، فقد زال فراش امرأته ، التغتت أو لم تلتعن . قال : وأما التعانها فإتباعها هو لدفع الحد عنها لا غير^(١٠٧) .

«والذي تقتضيه حكمة اللعان أن يكون التحريم مؤبداً ، فإن لعنة الله وغضبه قد حلأ بأحدهما لا محالة ، ولا يعلم على من حل به ذلك منهما يقينا ، فوجب التفريق بينهما ، خشية أن يكون الزوج هو الذي قد وجبت عليه لعنة الله وباء بها ، فيعلو امرأة غير ملعونة ، وحكمة الشرع تأبى ذلك ، كما تأبى أن يعطو الكافر المسلمة ، وأيضاً فإن النفرة الحاصلة من إساءة كل واحد منهما إلى صاحبه لا تزول أبداً»^(١٠٨) .

٩ - قال العلماء : لا يحل للرجل قذف زوجته ، إلا إذا علم زناها ، أو ظنه ظناً مؤكداً ، كأن شاع زناها بفلان وصدقت القرائن ذلك ، والأولى به تطليقها سترًا عليها ما لم يترتب على فراقها مفسدة ، هذا إذا لم يكن هناك ولد ، فإن أتت بولد علم أنه ليس منه ، أو ظنه ظناً مؤكداً ، وجب عليه نفيه ، وإلا لكان بسكوته مستلحقاً لمن ليس منه وهو حرام ، كما يحرم عليه نفى من هو منه ، وإنما يعلم أن الولد ليس منه ، إذا لم يطأها أصلاً ، أو وطئها وأتت به لدون ستة أشهر من الوطء^(١٠٩) .

١٠ - قال تعالى في آخر آيات اللعان :

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ .

وهي تعقيب على هذا التخفيف والتيسير ، ومراعاة الأحوال والظروف ، فقد بين الله أحكام اللعان عند الحاجة إليها ، ليُعلم المؤمنون التزام أحكام الوحي ، وليثق المؤمن برعاية الله ، واستجابته لإحقاق الحق وإنهاق الباطل ، كما قال هلال بن أمية : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، والله يعلم أنى لتصادق .

قال السفى : وجواب لولا محذوف ، أى : لعاجلكم بالعقوبة أو لفضحكم .

والحكمة فى حذفه أن تذهب النفس فى تصويره كل مذهب . أى : ولكن الله ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان ، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف ، مع أن قرائن الأحوال تدل على صدقه ، لأنه أعرف بحال زوجته ، وأنه لا يفترى عليها ، لاشتراكهما فى الفضيحة ، ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنا عليها ، لأهمل أمرها وكثر افتراء الزوج عليها ، لضغينة قد تكون فى نفسه من أهلها ، وفى كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة .

ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم يكذب أحدهما ، دائرة عنه العقوبة الدنيوية ، وإن كان قد ابتلى الكاذب منهما فى تضاعيف شهادته ، بأشد مما دراه عن نفسه ، وهو العقاب الأخرى^(١١١) .

صيغة اللعان فى كتب الفقه

جاء فى كتاب الاختيار (فقه حنفى) ما يأتى :

«وصفة اللعان أن يبتدئ القاضى بالزوج فيشهد أربع مرات ، يقول فى كل مرة : أشهد بالله إنى لمن الصادقين فيما رميته به من الزنا . ويقول فى الخامسة : أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فيما رميته به من الزنا .

وإن كان القذف بولد يقول : فيما رميته به من نفى الولد ، وإن كان بهما يقول : فيما رميته به من الزنا ومن نفى الولد ، لأنه المقصود باليمين .

ثم تشهد المرأة أربع شهادات ، تقول فى كل مرة : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى به من الزنا ، وتقول فى الخامسة : غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، فيما رمانى به من الزنا ، وفى نفى الولد تذكره كما تقدم .

فإذا التعنا فرق الحاكم بينهما ، فإذا فرق بينهما كانت تطليقة بائنة .

فإن كان القذف بولد نفى القاضى نسبه وألحقه بأمه ؛ لأنه ﷺ نفى ولد امرأة هلال وألحقه بأمه .

ويصبح نفى الولد عقب الولادة ، وفى حالة التهنة ، وابتياح آلة الولادة فيلاعن وينفيه القاضى .

ومعلوم أن الإنسان لا يشهد عليه بنسب ولده ، وإنما يستدل على ذلك بقوله التهنة ، وابتياح متاع الولادة ، وقبول هدية الأصدقاء ، فإذا فعل ذلك أو مضى مدة يفعل فيه ذلك عادة ، وهو ممسك كان اعترافاً ظاهراً ، فلا يصح نفيه بعده ، وإن كان غائباً فعلم فكأنها ولدت حال علمه^(١١٢) .

خاصة :

ألا ليت قومي يعلمون أحكام دينهم ، وتشريع ربهم ، فيخلعون عن أنفسهم أوضاع الجاهلية ، ونظام القوانين الوضعية ، ويستعدون لقبول نظام الخالق ، وأحكام الإله العادل .

فهو العليم بحال عباده ، الحكيم فيما شرع لهم ، ولو أن المسلمين عادوا لأحكام الإسلام ، ونفذوا أوامره ، وحكموا مبادئه لعادت لهم وحدة الصف ، وقوة الكلمة ، وجلال الهيبة ، ولصاروا بنعمة الله إخواناً تباركهم السماء ، وتخشاهم قوى الشر والشرك .

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ . (المائدة : ٦٦) .

★ ★ ★

حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَنًى عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ أَلْيَتَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَهٌ وَفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

المعربات :

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء .

العصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين ، وقد عدت عائشة منها المنافق

عبد الله بن أبي بن سلول وقد تولى كبره ، وحملة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب - رضى الله عنها - وزوج طلحة بن عبيد الله ، ومسطح بن أثاثه ، وحسان بن ثابت .

كسبه : « بكسر الكاف وضما وسكون الباء » أى : معظمه ، فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .

لسولا : كلمة بمعنى هلا ، تفيد الحث على فعل ما بعدها .

مبين : ظاهر مكشوف .

أفضتم : خضتم فى حديث الإفك .

تلقونه : تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه . ومنه : فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ... (البقرة : ٣٧) .

سبحانك : تعجب ممن تفوه به .

بهتان : كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته .

يعظكم : ينصحكم .

تشيع : تنتشر .

الفاخرة : الخصلة المفرطة فى القبح ، وهى الزنا .

خطوات : واحدتها خطوة « بالضم » ، ما بين القدمين من المسافة ، ويراد بها : نزعات الشيطان ووساوسه .

المنكر : ما تنكره النفوس فتتنفر منه .

زكيا : طهر من دنس الذنوب .

لا ياتل : لا يحلف .

الفضل : الزيادة فى الدين .

السعة : الغنى .

قصة الآيات :

بعد أن ذكر - سبحانه - حكم من قذف الأجنيات ، وحكم من قذف الزوجات ، ذكر فى الآيات العشر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله ﷺ .

ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره ، عن عروة بن الزبير ، عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاهما فخرج سهمى « نصيبى » : فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب ، فحملت فى هودج فسرنا حتى

إذا قلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلاً ثم نودي بالرحيل ، فقامت ومشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فلمست صدرى فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغازه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجى فرحلوا على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى ، فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجنث منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب ، فتيمنت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ويعودون فى طلبى ، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فتمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش ، فلما رأى عرفنى فاستيقظت باسترجاعه ، فخرمت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها ، فقامت إليها فركبتها وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى حر الظهيرة ، وافتقدنى الناس حين نزلوا وماج القوم فى ذكرى ، فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاصوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبدالله بن أبى ، فقدمنا المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشئ من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطيف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل فيسلم ، يقول : «كيف تيكم» ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعدما نقيت ، وخرجت مع أم مسطح قبل المناصب وهو متبرزنا ، ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح «هى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبدالمطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق» قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعترت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أنتسبين رجالا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هنتاه ، أولم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازدردت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى منزلى ودخل على رسول الله ﷺ ثم قال : «كيف تيكم ؟» قلت : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ قال : «نعم» . قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجنث أبوى ، فقلت لأمى : أى أمه ، ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضئعة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، قلت : سبحان الله ، أوقد تحدث الناس بهذا ، وبلغ رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدخل على أبو بكر وأنا أبكى ، فقال لأمى : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها . فأكب يبكى ، فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يابنية . فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى فى نفسه من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا . وأما على فقال : لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية (يعنى بريرة) تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة

فقال : «هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟» قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت أمراً أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ من يومه فاستعذر من عبدالله بن أبى . فقال وهو على المنبر : «يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معي» . فقام سعد بن معاذ الأنصارى - رضى الله عنه - فقال : أنا أعذكرك يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عباد - وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية - فقال : أى سعد بن معاذ ، لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عباد : كذبت ، لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتناور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ، ثم أتانى رسول الله ﷺ وأنا في بيت أبوى ، فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ؛ فجلست تكبى معي ، قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس عندى ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأنى بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : «أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه» . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمعة ، قلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : أجيبي رسول الله ﷺ ، فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن - إني والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . (يوسف : ١٨) . ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا - والله - أعلم أنى بريئة ، وأن الله سيبرتنى ببراءتى ، ولكن - والله - ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرتنى الله بها ، قالت : والله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من البيت حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، إن الله قد برأك» ، فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله ، هو الذى أنزل براءتى ، فأنزل الله : إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ...

عشر الآيات كلها ، فلما أنزل الله هذا في براءتى : قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله : وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ . - إلى قوله - عَفُورٌ رَحِيمٌ . فقال أبو بكر : إني لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال : لا أنزعها منه أبدا .

قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت ، فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى ويصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا .

قالت عائشة : وهى التى كانت تسامينى ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك ^(١١٧) .

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق ، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة من السماء .

التفسير :

١١ - إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكَ غُصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ آيَةٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تبدأ هذه الآية الحديث عن موضوع الإفك ، وتبين أن الله خبا فيه الخير من حيث ظن المسلمون أن فيه الشر .

لقد كان حديث الإفك محنة شديدة مرت بالنبى الكريم ، فهو القائد الموحى إليه يُتهم فى عرضه وفى أحب نسائه إليه ، وكان محنة للصديق الذى أخلص للإسلام ولنبنى الإسلام ، ثم يُتهم فى كريمته ، ويجدها تبكى ذات يوم لما أصابها فيبكى لبيكائها ، ويقول : ما وقع منا ذلك فى الجاهلية ، فكيف نُتهم به فى الإسلام ؟ وكان محنة - أى محنة - لعائشة فهى الحصان الرزان المؤمنة الغافلة عن الإثم ، تعود مريضة من غزوة بنى المصطلق ثم تشفى من مرضها ، فتعرف أن القوم يتحدثون عنها ، وهى بريئة ولكنها لا تملك إلا البكاء والألم .

وكان محنة لصفوان بن المعطل الصحابى الجليل الذى شهد بدر ، وكان من ساقه الرسول والمدافعين عنه ، ولا يُعلم عنه إلا كل خير . وكان محنة للشرفاء والمخلصين من المسلمين ، فهذا أبو أيوب الأنصارى يقول لزوجته : يا أم أيوب ، ألا ترين ما يقال ؟ فقالت : لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءا ؟ قال : لا . قالت : ولو كنت أنا بدل عائشة - رضى الله عنها - ما خنت رسول الله ﷺ ، فعائشة خير منى ، وصفوان خير منك ^(١١٨) .

لقد كشف حديث الإفك عن المنافقين ، وكان درساً عملياً خاض فيه الناس شهراً كاملاً ، وملاً للمجالس والمنتديات ، ولم يتخرج بعض المسلمين من إطلاق ألسنتهم بهذه المقالة ، ويعد شهر كامل نزل الوحي من السماء ، يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف ، وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله .

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته ، والجماعة المسلمة كلها ، فهي ثمن التجربة وضريبة الابتلاء ، وفي الحديث الصحيح : «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه»^(١١١) .

لقد نجح الرسول ﷺ في هذا الامتحان ، فاجتنب أهله ، ولم تصدر منه كلمة جارحة لأحد ، ونجح الصديق وأهل بيته في الصبر والاحتساب ، وكانت هذه الآيات وساماً لعائشة .

ثم هي آيات ترسم الطريق للمسلمين ، فيما يجب عليهم أن يفعلوه إزاء مثل هذه الشائعات .

أما الذين خاضوا في الإفك ، ونشروا هذه المقالة الأثمة ؛ فلكل منهم عقوبته في الدنيا .

وكان عبدالله بن أبي بن سلول كبير المنافقين ، هو الذي روج هذا الأمر وبدأ به ، وأشاعه بين أتباعه ، فادخر الله له عقابه الأليم يوم القيامة .

رُوي أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين ، وعبدالله بن أبي بن سلول في ملاء من قومهم قال : من هذه ؟ فقالوا : عائشة - رضی الله عنها - فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها .

وقد وردت في الروايات أسماء الذين كانوا يتناقلون حديث الإفك في المجتمع وهم : عبدالله بن أبي ، وزيد بن رفاعه - والغالب أنه ابن رفاعه بن زيد من اليهود المنافقين - ومسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت ، وحمزة بنت جحش . فكان عبد الله بن أبي وزيد بن رفاعه من المنافقين ، ومسطح بن أثانة ، وحسان بن ثابت وحمزة بنت جحش من المؤمنين ، ولكن اندفعوا لمكائد الأولين ، وخاضوا في حديث الإفك على خطأ منهم وضعف ، ولا نعلم من كتب الحديث والسيرة أسماء غير هؤلاء ممن خاضوا في حديث الإفك وإشاعة أخباره .

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ...

إن الذين تقولوا بالإثم هم جماعة منكم ، تعاونوا على إعلانه وإذاعته بين الناس .

لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلَاءٌ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...

أي : لا تظنوا أن فيه فتنة وشرا ، بل هو خير لكم لما حمل في طياته من الابتلاء والامتحان ، ونزول آيات القرآن .

قال الزمخشري :

ومعنى كونه خيرا لهم ، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم ، لأنه كان بلاء مبينا ومحنة ظاهرة ، وأنه نزلت فيه ثمانى عشرة آية ، كل واحدة منها مستقلة بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسليية له ، وتنزيه لأم المؤمنين - رضوان الله عليها - وتطهير لأهل البيت ، وتهويل لمن تكلم فى ذلك أو سمع به فلم تمجّه أذناه ، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة ، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأملها .

لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ...

أى : لكل امرئ منهم جزاء ما اجتراح من الإثم بقدر ما خاض فيه ، فإن بعضهم تكلم ، وبعضهم ضحك كالمسرور الراضى بما سمع ، وبعضهم أقل ، وبعضهم أكثر .

وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ...

أى : والذى تحمل معظم ذلك الإثم ، وهو عبد الله بن أبى له عذاب عظيم فى الدنيا والآخرة . وكان عبد الله ابن أبى هو الذى ابتدأ هذا الكلام وقال : امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ، ثم جاء يقودها . فهو الذى بدأ الخوض ، وهو الذى بثه وأشاعه ، وقد أخزاه الله فى الدنيا وأظهر نفاقه ، وله فى الآخرة عذاب عظيم .

وقال الضحاك : الذى تولى كبره حسان ومسطح ، فجلدهما النبى ﷺ حين أنزل الله عذرها .

وهذا رأى ضعيف ، فحسان وقع فى الفتنة التى دبرها المنافقون ، ولم يكن هو الذى تولى كبر الإشاعة وأحكم تدبيرها .

قال ابن كثير :

وهو - أى كون حسان مصداقا لهذه الآية بدلا من عبد الله بن أبى - قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يدل على إيراد ذلك ، لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإن حسان من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر .

١٢- لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ .

هلا إذ سمعتم هذا الكلام ، ظننتم خيرا بأفراد ملتكم ومجتمعكم .

ثم إن عائشة لها منزلتها ، فهى زوج النبى ﷺ وابنة أبى بكر ، وهى أم المؤمنين وحرمتها عليهم كحرمة أمهاتهم .

والشخص الذى رمت به صحابى جليل مجاهد عفيف ، حيث أقسم بالله أنه ما كشف عن كنف أنثى قط ، أى فى حرام .

فكان أولى بالمسلمين إذ سمعوا هذه الشائعة ألا يصدقوها، ولكنهم ظنوا أسوأ ما يكون الظن بأنفسهم، وبأخلاق مجتمعهم . وكانت طبيعة الإيمان تقتضى أن ينفر المسلم من سماع هذا الإثم ، وأن يعلن رفضه بدون تردد ، وأن يقول : هذا كذب ظاهر ملفق ، وفرية صريحة ، وبهتان عظيم ، لا أساس له من الحقيقة والواقع .

قال الزمخشري :

فإن قلت : هلا قيل : (لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا) ؟ ولم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ؟ وعن الضمير إلى الظاهر ؟ قلت : ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات ، وليصرح بلفظ (الإيمان) دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ألا يصدق مؤمن على أخيه ، ولا مؤمنة على أختها ، قول عائب ولا طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن ، إذ سمع مقالة فى أخيه أن يبني الأمر فيها على الظن الحسن ، لا على الشك، وأن يقول بملء فيه - بناء على ظنه بالمؤمن الخير - : هذا إفك مبين ، هكذا باللفظ المصرح ببراءة ساحته، كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال ، وهذا من الأدب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له ، وليتك تجد من يسمع فيسكت ، ولا يشيع ما سمعه بأخوات . انتهى .

وينبغي أن يكون الأساس للروابط الاجتماعية فى المجتمع الإسلامى ظن الناس فيما بينهم خيرا ، فالأصل هو أن الإنسان برئ إلى أن تثبت إدانته .

١٣- تَوَلَّوْا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ .

أى : هلا جاء الخائضون فى الإفك بأربعة شهداء ، يشهدون على ثبوت ما قالوا وما رموها به ، فإذا لم يأتوا بهم فأولئك الكاذبون عند الله ، أى : فى قانون الله ، أو بحسب قانونه .

وإلا فمن الظاهر أن الاتهام فى نفسه كان إفكا وكذبا ، فما كان لأحد له حظ من العقل أن يقول فى مثل هذه الحال : إن عائشة تخلفت عن الرحيل بحيلة مدبرة ، لأن الذين يدبرون الحيل ، لا يدبرونها بأن تتخلف زوج رئيس القوم خفية مع رجل منهم ، ثم تأتى راكبة جهرة على بعير هذا الرجل نفسه فى وقت الظهيرة والجيش كله يشهد ذلك ، ورئيس القوم بين أظهرهم ، فهذه الصورة من الواقع ، تدل بنفسها دلالة واضحة على براءة ساحتها ، لأن الأساس الوحيد الذى كان من الممكن أن يتّهما عليه فى مثل هذه الحال ، هو أن يكون القائلون قد رأوهما يرتكبان الفاحشة بأعينهم ، وإلا فإن القرائن التى بنى عليها الظالمون اتهامهم ، ما كان فيها أدنى مجال للريبة والشبهة .

١٤ - وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى : ولولا تفضله - سبحانه - عليكم فى الدنيا بضروب النعم التى من أجلها الإمهال للتوبة ، ورحمته فى الآخرة بالعفو بعد التوبة ، لعجل لكم العقوبة فى الدنيا من جراء ما خضتم فيه من حديث الإفك والبهتان .

١٥ - إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ .

أى : ولولا تفضله ورحمته لمسكم ذلك العذاب ، وقت تلقىكم ما أفضتم فيه من الإفك ، وأخبر بعضكم إياه من بعض بالسؤال عنه ، وقولكم قولاً بالأفواه دون أن يكون له منشأ فى القلوب يؤيده ، وظنكم إياه هينا سهلا لا يعاب به ، وهو من العظائم والكبائر عند الله .

وخلاصة ذلك أنه وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام هى :

(أ) تلقى الإفك بالأسنة ، فقد كان الرجل يلقى أخاه فيقول له : ما وراك ؟ فيحدثه حديث الإفك : حتى شاع وانتشر ، ولم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه .

(ب) أنه قول بلا روية ولا فكر ، فهو قول باللسان لا يترجم عما فى القلب ، إذ ليس هناك علم يؤيده ، ولا قرائن أحوال وشواهد تصدقه .

(ج) استصغار ذلك وحسبانته صغيرا يسيرا هينا ، وهو عند الله عظيم الوزر ، مستحق لشديد العقوبة .

قال الزمخشري :

فإن قلت : ما معنى قوله : بِأَفْوَاهِكُمْ . والقول لا يكون إلا بالفم ؟

قلت : معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه فى القلب ، فيترجم عنه اللسان ، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجرى على ألسنتكم ، ويدور فى أفواهكم ، من غير ترجمة عن علم به فى القلب .

كقوله تعالى : يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ لِي قُلُوبِهِمْ ... (ال عمران : ١٦٧) .

وقيل : إنه توبيخ ، كما تقول : قاله بملء فيه ، فإن القائل ربما رمز ، وربما صرح وتشدد^(١١٧) .

وقد قيل هذا فى قوله : قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ... (ال عمران : ١١٨) .

١٦ - وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ .

لقد كان ينبغي أن تخرج الأسنة من مجرد النطق بهذا الإفك ، وأن تتوقف عن الخوض فيه ، وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا ، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدا عن ذلك الجو الطاهر الكريم .

ونذكر في هذا المقام موقف زينب بنت جحش « وهي التي تسامى عائشة في منزلتها، وفي قربها من النبي ﷺ » فقد سأل النبي زينب عن عائشة، فقالت: أحسب سمعي وبصري، والله ما رأيت إلا خيراً. إن هذا النموذج الكريم هو الذي طالبت به الآية، وأرشدت المسلمين إلى ما ينبغي قوله.

أى: هلا حين سمعتم هذا الإفك، قلتم: لا يحل لنا أن نتكلم بهذا، ولا ينبغي لنا أن نتفوه به، سبحانه! ربنا هذا كذب صراح، يحير السامعين أمره، لما فيه من جرأة على بيت كريم شهير بالعفاف والطهر، ولما فيه من مس عرض ذلك البيت الطاهر بيت النبوة، الذي هو في الذروة العليا من الإجلال والاحترام وعظيم المكانة.

١٧ - يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

لقد تكررت الآيات وألحت على هذا الموضوع لتبين خطورته، وعرضت هذه الخطورة بألوان متعددة، لتأخذ على النفوس كل سبيل حتى لا تعود إلى مثله.

وهنا يحذر القرآن المؤمنين أن يعودوا إلى مثل هذا الحديث، من القذف أو الاستماع إليه أبداً ما دمتم أحياء مكلفين.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فيه تهديد لهم ليعتظوا، وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو الإيمان الصادق عن كل قبيح^(١١٧).

١٨ - وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

أى: ويفصل الله لكم في كتابه، آيات التشريع، ومحاسن الفضائل والآداب، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . يعلم البواطن والنوايا والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح الفرد والمجتمع.

١٩ - إِنْ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَشْمُ لَا تَعْلَمُونَ .

تطلق الفاحشة على كل أمر قبيح، وأحياناً تطلق على الزنا خاصة.

ومقصود الآية ذم من ينشر الأخبار الكاذبة، ويذيع أنباء الزنا عن المحصنين والمحصنات من المؤمنين، فهناك صنف من الناس لا يحلوه الحديث إلا في تجريح الشرفاء ولمز الغافلات المحصنات.

هذا الصنف مريض، وربما كان فاسقاً أو زانياً ويرى في سلوك كل شريف وشريفة تحدياً له، وإعلاناً عن النزاهة والاستقامة في هذه الدنيا، فهو يريد أن يستر كل خير، وأن يذيع كل إثم، وقد توعيد الله هذا

الصف بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، وأوجب علينا أن نقفل أبواب الفتنة ، وأن نرفض كل حديث يتصل بتجريح الأعراض ، وأن نسد منافذ الشر والإثم في المجتمع ، وأن نحافظ على شبابنا ويناتنا من التيارات الغريبة ، والانحرافات الآتية .

يقول المودودي :

والآية تنطبق كذلك على إنشاء دور للفاحشة والبغاء ، وما يُرغب الناس فيها ويثير غرائزهم الدنيئة، من القصص والروايات والأشعار والغناء والصور والألعاب والمسارح والسينما ، كما تنطبق كذلك على المجالس والنوادي والفنادق ، التي يعقد فيها الرقص والطرب ويشترك فيه الرجال والنساء ، على صورة خليعة مختلطة .

فالقرآن يصرح بأن هؤلاء جميعا من الجنة ، يجب ألا ينالوا عقابهم في الآخرة فقط بل في الدنيا كذلك ، فمن واجب كل دولة مسلمة أن تبذل جهدها في استئصال جميع هذه الوسائل والأسباب لإنشاعة الفاحشة ، وتقرر أن جميع هذه الأفعال جرائم مستلزمة للعقوبة ، وتؤخذ عليها الشرطة والمحكمة^(١١٧) .

وقد رُوي من حديث أبي الدرداء : أن رسول الله ﷺ قال : «أيما رجل شد عضد امرئ من الناس في خصومة لا علم له بها ؛ فهو في سخط الله حتى ينزع عنها ، وأيما رجل حال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام ؛ فقد عاند الله حقا ، وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة ، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها براء ، يريد أن يشينه بها في الدنيا ، كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها في النار» ، ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**^(١١٨) .

٢ - وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

كرر الله تعالى تفضله على المؤمنين ببيان هذه الأحكام ، ليؤكد على أهمية الخطأ الجسيم الذي وقع ، فقد كان خليقا أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بالسوء ، «ولكن فضل الله ورحمته ، ورافته ورعايته.. ذلك ما وقاهم السوء ، ومن ثم يذكرهم به المرة بعد المرة ، وهو يريد بهم بهذه التجربة الضخمة التي شملت حياة المسلمين»^(١١٩) .

قال النسفي في قوله تعالى : **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...**

لعل لكم العذاب ، وكرر المنة بترك المعالجة بالعقاب مع حذف الجواب ، مبالغة في المنة عليهم والتوبيخ لهم . **وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** . حيث أظهر براءة المقدوف ، وقبل توبة القاذف^(١٢٠) .

٢١ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لقد حذر الله من اتباع طريق الشيطان فقال عز شأنه : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) . وإذا كان الشيطان للإنسان عدوًّا مبينًا ، فإن هذا الإنسان الغافل ينسى أحيانًا نفسه ، ويسلك سبل الشيطان وطرقه ، وينهج على منواله حين يشيع الفحشاء في الذين آمنوا ، ويذيعها وينقلها ويرويها بين الناس فيفتح العيون الغافلة ، ويوهم الأبرياء أن الشر فاش ومنتشر ، فيشجعهم ذلك على الرذيلة .

«إنها لصورة مستنكرة أن يخطو الشيطان ، فيتبع المؤمنون خطاه ، وهم أجدر الناس أن ينفروا من الشيطان ، وأن يسلكوا طريقًا غير طريقه المشئوم !

صورة مستنكرة ينفر منها طبع المؤمن ، ويرتجف لها وجدانه ، ويقشعر لها خياله !

ورسم هذه الصورة ، ومواجهة المؤمنين بما يثير في نفوسهم اليقظة والحذر والحساسية»^(١٢١)

وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...

إن الشيطان يتحين الفرصة لإضلالكم ، وإيقاعكم في الفواحش والمنكرات والمعاصي ، فاحذروا طريقه ، واقصدوا باب الله بالتوبة ، فهو الباب الوحيد الذي يعصمكم من الفتنة والغواية : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ غَلِيظٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ...

الهداية والتوفيق والتوبة كلها تتم بفضل الله ورحمته .

قال النسفي :

ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة المحمصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس الإفك .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ... يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محصوها .

وَاللَّهُ سَمِيعٌ . لقولهم . بضمائهم وإخلاصهم^(١٢٢) .

وليست مشيئة الله تعالى في تزكية الناس وتطهيرهم من أدناس الفواحش والمنكرات بدون قاعدة ولا نظام ، بل هي قائمة على نظام محكم ، وعلم واسع ، فالله يعلم من يطلب الخير ، ومن يرغب في الشر ، ويسمع كل ما يتكلم به الإنسان في خلواته ، ولا يخفى على علمه ما توسوس به نفسه .

فهو يمنح هدايته لمن يستحق هذه الهداية ، ولمن يسلك طريق الخير ويبتعد عن طريق الشر ، وهو سبحانه يحجب هدايته عن أعرض عن الله واتباع هواه ، ولم يصح لنداء الحق .

قال ﷺ : «اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له»^(١٢٢) ، إن الله - عز وجل - يقول :

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى • وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى • وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى • وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى • فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . (الليل : ٥ - ١٠) .

وجاء في تفسير ابن كثير :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَجْعَلُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ... يعني : طرائقه ومسالكه وما يأمر به .

وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... هذا تنفير وتحذير من ذلك بأصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها .

قال ابن عباس : خُطُوتِ الشَّيْطَانِ . عمله ، وقال عكرمة : نزغاته ، وقال قتادة : كل معصية فهي من خطوات الشيطان .

وسأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاماً ، وسماه . فقال : هذا من نزغات الشيطان ، كفر عن يمينك وكل .

وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده : هذا من نزغات الشيطان ، وأفتاه أن يذبح كبشاً .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَايَ مِنْكُمْ مَنْ أَحَدٌ أَبَدًا ...

أى : لولا أن الله يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شرورها وفجورها وندسها ، وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه : لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً^(١٢٣) .

٢٢ - وَلَا يَأْتِلُ أَزْوَاجُ الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيُغْفُوا وَلْيُصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : ولا يحلف من كان ذا فضل منكم وسعة - أيها المؤمنون بالله - ألا يعطوا ذوى قرباتهم المساكين المهاجرين .

قال ابن كثير :

وهذا فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ، ولهذا قال تعالى : **وَلْيُقْضُوا وَلْيَصْفَحُوا** . أى : عما تقدم منهم فى الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه - تبارك وتعالى - وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآيات نزلت فى الصديق - رضى الله عنه - حين حلف ألا ينفق على مسطح بن أثاثة بعدما قال فى عائشة ما قال ، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع - تبارك وتعالى ، وله الفضل والمنة - يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق .

وكان مسكينا لا مال له ، إلا ما ينفق عليه أبو بكر - رضى الله عنه - وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها ، وكان الصديق - رضى الله عنه - معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب ، فلما نزلت هذه الآية ، قال الصديق : بلى والله ، إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم أعاد إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله ، لا أنزعها منه أبدا . فلهذا كان الصديق هو الصديق ، رضى الله عنه وعن بنته ^(١٢٧) .

جاء فى تفسير القرطبي ما يأتى :

قال بعض العلماء : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى ، من حيث لطف الله بالقدفة العصاة بهذا اللفظ . وقيل : أرجى آية فى كتاب الله - عز وجل - قوله تعالى : **وَيَبْشِرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا** . (الأحزاب : ٤٧)

وقد قال تعالى فى آية أخرى : **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رُوحَاتِ الْجَنَاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** . (الشورى : ٢٢) .

فسرح الفضل الكبير فى هذه الآية ، ويشر به المؤمنين فى تلك .

ومن آيات الرجاء قوله تعالى : **قُلْ يَدْعَادَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** . (الزمر : ٥٣) .

وقوله تعالى : **اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ...** (الشورى : ١٩) .

وقال بعضهم : أرجى آية فى كتاب الله عز وجل : **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** . (الضحى : ٥) .

وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته فى النار ^(١٢٨) .

في أعقاب الآية :

من حلف على يمين ثم رأى الخير في غيرها ، فهل عليه أن يكفر عن يمينه أم لا ؟

تقول طائفة من الفقهاء : إن رجوعه إلى الخير هو الكفارة عن يمينه ، فلا كفارة عليه غيرها ، واستدلوا بهذه الآية : لأن الله تعالى وإن أمر فيها أبى بكر بالرجوع عن يمينه لم يوجب عليه الكفارة .

وتقول طائفة أخرى من الفقهاء : إن الله تعالى قد أنزل في كتابه حكماً واضحاً مطلقاً عن الرجوع في اليمين ، وهو قوله تعالى : لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِإِقَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسَوْتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... (المائدة : ٨٩) .

يقولون : إن هذا الحكم العام ما نسخته آية سورة النور ، ولا أدخلت فيه تغييراً بالألفاظ واضحة ، فهو لا يزال ثابتاً قائماً إذ إن الله تعالى لم يذكر في قصة أبى بكر أمر الكفارة نفياً ولا إثباتاً .

ويستشهدون بحديث قال فيه النبي ﷺ : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها : فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه» .^(١٣٧)

★ ★ ★

الجزاء

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

المضردات :

المحصنات ، الغافلات .

الغافلات ، أى : عن الفواحش ، وهن نقيات القلوب ، اللاتى لا يفكرن فى فعلها .

لعنوا : طردوا من رحمة الله فى الآخرة ، وعذبوا فى الدنيا بالحد .

دينهم : جزاءهم ، ومنه : «كما تدين تدان» .

الحق : الغابت الذى يحق لهم لا محالة .

أن الله، أي: وعده ووعيدته .

الحق، العدل الذي لا جور فيه .

تمهيد :

بعد أن ذكر قصص أم المؤمنين عائشة، وبين عقاب من اتهمها بالإفك، وشديد عذابه يوم القيامة، وأسهب في هذا؛ أعقب ذلك ببيان حكم عام، وهو أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة بالزنا، فهو مطرود من رحمة الله، بعيد عن دار نعيمه، معذب في جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة .

التفسير :

٢٣ - إِنَّ الَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

تأتى هذه الآيات فى أعقاب حديث الإفك، ولذلك قيل: إنها خاصة بعائشة رضى الله عنها .

فقد تحدثت الآيات (٤ - ٦) من سورة النور، عن عقوبة القذف وجعلت عقوبته الجلد، وعدم قبول الشهادة، والفسق، فإذا تاب القاذف تاب الله عليه .

أما الآية (٢٣) فجعلت عقوبة من قذف عائشة اللعنة والعذاب العظيم، والجزاء العادل يوم القيامة .

قال ابن جرير :

فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ... قال: هذا فى شأن عائشة وأزواج النبى ﷺ وهى مبهمه ^(١٧٨) وليست لهم توبة .

ثم قرأ: وَالَّذِينَ يُرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَدْلَةٍ شَهِدَاءَ... إلى قوله: إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (النور: ٤، ٥)، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف عائشة أو أزواج النبى ﷺ توبة . قال: فهم بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور .

وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ^(١٧٩)، ويعضد العموم ما ورد فى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ^(١٨٠) .

معنى الآية :

إن الذين يتهمون المؤمنات الغافلات، ويتحدثون عن ارتكابهن الفحشاء كذبا وزورا، يبعدون من رحمة الله فى الدنيا والآخرة، ولهم عذاب عظيم جزاء ما اقترفوا من جنائتهم .

«ويجسم التعبير جريمة هؤلاء ويبشعها ، وهو صورها رميا للمحصنات المؤمنات ، وهن غافلات غارأت غير أخذات حذرهن من الرمية ، وهن بريئات الطوايا مطمئنات لا يحذرن شيئا ، لأنهن لم يأتين شيئا يحذرهن ؛ فهى جريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة ، ومن ثم يُعاجَل مقترفوها باللعنة ، لعنة الله لهم وطردهم من رحمته فى الدنيا والآخرة»^(١٣١).

٢٤ - يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : لهم عذاب عظيم فى يوم يظهر فيه الحق ، وتشهد الجوارح بما ارتكبت من قول أو فعل ، إذ ينطقها الله بقدرته ، فتخبر كل جارحة بما صدر منها من أفاعيل صاحبها .

ونحو الآية قوله تعالى : وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ... (فصلت : ٢١).

روى مسلم، والنسائى، وابن أبى حاتم، عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : «أتدرون مم أضحك ؟» قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : «من مجادلة العبد ربه يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى على شاهد إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكram عليك شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنَّ وسحقا فعنكن كنت أناضل»^(١٣٢).

وقال قتادة :

ابن آدم ، والله ، إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك ؛ فراقبهم ، واتق الله فى شرك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

٢٥ - يَوْمَ يُؤْفِكُ إِلَهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ .

قال ابن عباس :

دِينُهُمْ . أى : حسابهم ، فإلهه يجزيهم جزاءهم العادل ويؤدى لهم حسابهم الدقيق ، ويومئذ يتيقنون أن وعد الله ووعيده وحسابه هو العدل الذى لا جور فيه .

قال النسفى :

ولم يغفل الله تعالى فى شىء من المعاصى تغليظه فى إفاك عائشة - رضى الله عنها - فأوجز فى ذلك وأشبع ، وفصل وأجمل ، وأكد وكرر ، وما ذاك إلا لأمر .

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - : من أذنب ذنباً ثم تاب منه ؛ قبلت توبته ، إلا من خاض فى أمر عائشة . وهذا منه تعظيم ومبالغة فى أمر الإفك ، ولقد برأ الله أربعة بأربعة :

برأ يوسف - عليه السلام - بشاهد من أهلها ، وموسى - عليه السلام - من قول اليهود فيه بالحجر الذى ذهب بثوبه ، ومريم - رضى الله عنها - بإنطاق ولدها ، وعائشة - رضى الله عنها - بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر بهذه المبالغات ، فانظر كم بينها وبين تبرة أولئك ، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسوله ، والتنبية على عظيم مكانته صلى الله عليه وعلى آله وسلم ^(١٣٣).

★ ★ ★

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٦﴾﴾

تمهيد :

بعد أن برأ الله - سبحانه - عائشة مما رميت به من الإفك ، ثم ذكر أن رامى المحصنات الغافلات مطرود من رحمة الله ؛ أردف ذلك دليلاً ينفى الريبة عن عائشة بأجلى وضوح .

ذلك أن السنن الجارية بين الخلق والصفات بين الزوجين ، فالطيبات للطيبين ، والخبيثات للخبيثين ، ورسول الله من أطيب الطيبين ، فيجب كون الصديقة من أطيب الطيبات ، على مقتضى المنطق السليم والعادة الشائعة بين الخلق .

التفسير :

٢٦- الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ... الآية

قال ابن زيد :

المعنى : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وكذا الخبيثون للخبيثات ، وكذا الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات .

وقال مجاهد وابن جبير وعطاء وأكثر المفسرين : المعنى : الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطيبون من الناس للطيبات من القول . قال النحاس فى كتاب معانى القرآن : وهذا من أحسن ما قيل فى هذه الآية ، ودل على صحة هذا القول : أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ... أى : عائشة وصفوان مما يقول الخبيثون والخبيثات . ^(١٣٤)

وللمفسرين أكثر من قول في معنى هذه الآية . قيل : إن هذه الآية مبنية على قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِ لَمْ يَنْكِحْ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ، واختار هذا القول النحاس أيضا ، وهو معنى قول ابن زيد : أَوَّلَئِكَ مُرَرَّوْنَ مِمَّا يَقُولُونَ ، يعني به : الجنس . وقيل : عائشة وصفوان ^(١٣٧) .

وتأتى هذه الآية فى ختام حديث الإفك ، وهو الحديث الذى هز المجتمع هزا شديدا ، وحاول الأعداء أن يصلوا إلى بيت القائد ، وأن يتهموه فى عرضه ، ثم جاءت آيات القرآن ببراءة عائشة ، وقدمت الدلائل تلو الدليل ، وأيدت ذلك بطبائع الناس وغرائزهم الفطرية .

ولقد أحببت نفس رسول الله عائشة حباً عظيماً ، فما كان يمكن أن يحبها الله لنبيه المعصوم ، إن لم تكن طاهرة تستحق هذا الحب العظيم .

جاء فى تفسير ابن كثير :

أى ما كان ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا ، ولهذا قال تعالى : أَوَّلَئِكَ مُرَرَّوْنَ مِمَّا يَقُولُونَ ... أى : هم بعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان .

لَهُمْ مُّغْفِرَةٌ . بسبب ما قيل فيهم من الكذب ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . أى : عند الله فى جنات النعيم ^(١٣٨) .

ويقول المودودى :

إن الله تعالى يبين فى هذه الآية مبدأ مهما من مبادئ الحياة الاجتماعية فى الإسلام ، وهو أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع النفوس الخبيثة من مثلها ، والنفوس الطيبة لا تمتزج إلا بالنفوس الطيبة من مثلها .

يقول سبحانه وتعالى إن هذه حقيقة تنطوى عليها النفس الإنسانية ، وتشاهدونها كل حين فى حياة الناس ، فكيف تظنون بعد ذلك أنه من الممكن أن يعيش رجل طيب - تعرفون حياته من بدنها إلى آخرها - إلى سنوات طوال مع امرأة زانية .

يؤكد الله هذه النصيحة للمسلمين فى هذا المقام حتى إذا رمى فيهم أحد بعد ذلك ، فلا يصدقون به لمجرد سماعه ؛ بل عليهم أن يزدادوا احتياطا ، ويتبينوا على بصيرة وبقطة : من الذى يرمى ؟ ويمانذا يرمى ؟ وهل حقا يصدق عليه ذلك الرمى ؟ فإن كان كلام الذى يرميه حيث يلتئم مع القرائن فقد يصدق به الناس ، أو يرونه ممكن الوقوع على الأقل .

ولكن كيف لهم أن يصدقوا بكلام تمجه القرائن والآثار ، لا لشيء إلا لأن رجلا خبيثا قد تفوه به وألقاه على عواهنه ^(١٣٩) .

وجاء فى تفسيرى القريظى والنسفى : أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لقد أعطيت تسعا ما أعطيتهن امرأة : نزل جبريل بصورتى فى راحته حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوجنى ، وتزوجنى بكرا وما تزوج بكرا غيرى ، وكان ينزل عليه الوحي وأنا فى لحافه ، وأنا ابنة خليفته وصديقه ، ونزل عذرى من السماء ، وخلقت طيبة عند طيب ، ووعدت مغفرة ورزقا كريما (تشير إلى هذه الآية) وتوفى - عليه الصلاة والسلام - ورأسه فى حجرى ، وقبر فى بيتى ولقد حفته الملائكة فى بيتى .

وعلى لسان عائشة قال القائل :

وإلى لسان عائشة قال القائل :	أنا ابنة الصديق صاحب أحمد
وجليسه وأنيسه ببيان	والله شرفنى وأنزل عصتى
فى محكم التنزيل والقرآن	يا لائسى لا تأت قبر محمد
وكفاك ما قد نلت من حرمان	

★ ★ ★

الاستئذان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات :

تستأنسوا ، تستأذنوا ، إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت ، ويدونه يستوخشون ويشق عليهم الدخول .

تذكرون ، تتعظون .

أزكى ، أظهر .

جناح ، حرج .

متاع ، أى : حق تمتع ومنفعة ، كإيواء الأمتعة والرحال ، والشراء والبيع ، كحوانيت التجارة والفنادق والحمامات ونحوها .

سبب النزول :

روى الطبري وغيره ، عن عدي بن ثابت : أن امرأة من الأنصار قالت : يا رسول الله ، إنى أكون فى بيتى على حال لا أحب أن يرانى عليها أحد ، لا والد ولا ولد ، فىأتى الأب فيدخل على ، وإنه لا يزال يدخل على رجل من أهلى ، وأنا على تلك الحال ، فكيف أصنع ؟ فنزلت الآية . فقال أبو بكر - رضى الله عنه - : يا رسول الله ، أفرأيت الحانات والمساكن فى طرق الشام ليس فيها ساكن : فأنزل الله تعالى : **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ...** (١٣٨) .

التفسير :

٢٧ - **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .**

أدب الله عباده المؤمنين بأداب نافعة فى بقاء الود وحسن العشرة ، ومن ذلك ألا يدخلوا بيوت غيرهم ، إلا بعد الاستئناس : وهو الاستعلام ، واستكشاف الحال هل يراد دخولهم أم لا .

وفسر بعضهم الاستئناس بالاستئذان ، وعند التدقيق نجد بين المعنيين فرقا لطيفا لا ينبغي أن يصرف النظر عنه ، فالاستئناس : تلمس الحالة النفسية ، والرغبة الوجدانية لأصحاب البيت ، ومن ذلك اختيار الوقت المناسب ، واستخدام المسرة (التليفون) لتعرف الاستعداد لتقبل الضيف ، ورضاهم عن زيارته أم لا ، فالاستئناس أعم وأشمل من كلمة (الاستئذان) ، إن الاستئذان طلب الإذن بالدخول أو عدمه ، أما الاستئناس : فهو معرفة التهيب ومدى استعداد المزور للأنس بالزائر .

وقيل : الاستئناس ، الاستعلام ، ومعنى **تَسْتَأْذِنُوا** : تستعلموا ، أى : تحاولون إعلام صاحب البيت بقدومكم ، قال مجاهد : بالتنحنج ، أو بأى وجه أمكن ، ويتأنى قدر ما يعلم أنه قد شعر به ، ويدخل إثر ذلك .

وفى سنن ابن ماجه ، عن أبى أيوب الأنصارى قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فما الاستئناس؟ قال : «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة ، ويتنحنج ويؤذن أهل البيت» (١٣٩) .

والسنة فى الاستئذان ثلاث مرات لا يزداد عليها ، قال ابن وهب : قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يسمع ، فلا أرى بأسا أن يزيد ، إذا استيقن أنه لم يسمع . (١٤٠) وثبت فى الصحيح : أن أبا موسى الأشعرى ، حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له فانصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبدالله بن قيس (يعنى : أبا موسى) يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول : «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له : فلينصرف» (١٤١) .

ويتعلق بالاستئذان ما يأتي :

١ - ينبغي ألا ينظر ببصره في دار غيره إلا بإذنه . روى البخارى ، ومسلم ، عن رسول الله ﷺ قال : «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»^(١١٦) ، فخلوة الإنسان مكفولة له ، ورسائله وخطاباته لا يصح أن يقرأها أحد بدون إذنه .

روى أبو داود ، عن عبدالله بن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فإنما ينظر في النار»^(١١٧) .

٢ - إذا جاء إلى بيت قوم ليستأذن ، فينبغي ألا يقف حيال الباب ، ولكن من جانب الباب الأيمن أو الأيسر . روى أبو داود ، عن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول : «السلام عليكم» . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور^(١١٨) .

٣ - ينبغي أن يكون الطرق على الباب خفيفا بحيث يسمع ، ولا يعنف في ذلك ، وكذلك استخدام جرس باب ينبغي أن يكون خفيفا لا ثقيلًا ولا مزعجا ، روى أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : كانت أبواب نبي ﷺ تقرع بالأظافر^(١١٩) .

٤ - صورة الاستئذان ، أن يقول الرجل : السلام عليكم أأدخل ؟ فإن أذن له دخل ، وإن أمر بالرجوع صرف ، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا ، ولا ينبغي أن يكون الاستئذان ثلاث مرات متوالية ، بل ينبغي أن يكون بين كل استئذان وآخر فصل من الزمن؛ حتى إذا كان صاحب الدار مشتغلا بأمر يمنعه من الإذن فليفرغ منه .

٥ - ينبغي أن يعرف الطارق بنفسه تعريفا يزيل عنه الجهالة ، وإذا قال له صاحب الدار : من أنت ؟ نول : محمد أو إبراهيم مثلا ، ولا يقول : أنا ، روى الشيخان وغيرهما ، عن جابر بن عبد الله - رضى الله بهما - قال : استأذنت على النبي ﷺ فقال : «من هذا» ؟ فقلت : أنا ، فقال النبي ﷺ : «أنا ، أنا» كأنه كره لك^(١٢٠) .

قال علماؤنا : إنما كره النبي ﷺ ذلك ، لأن قوله : أنا ، لا يحصل به تعريف ، وإنما الحكم في ذلك أن يكر اسمه ، كما فعل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأبو موسى ، لأن في ذكر الاسم إسقاط كلفة سؤال والجواب ، ثبت عن عمر بن الخطاب أنه أتى النبي ﷺ وهو في مشربة له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليكم أيدخل عمر^(١٢١) ؟ . وفى صحيح مسلم : أن أبا موسى جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : سلام عليكم ، هذا أبو موسى ، السلام عليكم ، هذا الأشعري ... الحديث^(١٢٢) .

٦ - يستحب أن يستأذن الرجل قبل دخوله بيته ، أو يأتي بما يدل على قدمه كالتسبيح أو التلحاح ، فإنه قد تكون المرأة في شأن لا تحب أن يطلع عليه زوجها أو سيدها^(١٢٣) . وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا^(١٢٤) .

٧ - جعل الفقهاء حكم السمع كحكم النظر ، فإذا دخل رجل أعمى فى دار قوم ، فهو وإن كان لا ينظر إلى شئ بعينه ، ولكنه يسمع أحاديث أهل الدار ، وهذا أيضاً تدخل غير مشروع فى حق الخلوة كالنظر . ويلحق بذلك التحسس والتجسس على أحاديث الغير ، وسماع المكالمات التليفونية الخاصة بالآخرين ، ومن المعبذين يوم القيامة رجل تسمع لقوم وهم لاستماعه كارهون . ويتبادر إلى الذهن الحديث عن فضيحة ووترجيت ، وقد ثبت فيها أن الرئيس نيكسون سمح بالتصنت على الحزب المنافس له ، وأدى اكتشاف ذلك مع ملايسات أخرى إلى إجباره على الاستقالة . وديننا الحنيف دعا إلى أدب الاستئذان منذ أربعة عشر قرناً ، وفى إحياء آداب ديننا إعادة لأمجاد الإسلام .

٨ - لا يجب الاستئذان إذا عرض فى الدار أمر مفاجئ شديد كمرض يستغيث ، أو حريق ، أو هجوم سارق أو غاصب ... إلخ .

٩ - لا عبرة إلا بإذن صاحب الدار ، أو من يعتقده المستأذن أنه يأذن من قبل صاحب الدار ، كالخادم وغيره من أفراد الدار المسؤولين ، فإن كان الآذن طفلاً فلا يكفى إذنه .

١٠ - عندما يأذن أصحاب الدار بالدخول ينبغى أن يبدأهم بالسلام عند مشاهدتهم ؛ لقوله تعالى :
حَتَّى تَسْأَلُوهُمُ عَنْ أَهْلِهَا ...

وظاهر الآية الكريمة أنه لا بد قبل الدخول من الاستئذان والسلام معا ، وعليه جمهور الفقهاء ، فكل من الاستئذان والسلام مطلوب ، غير أن الطلب فيهما متفاوت ، فالطلب فى الاستئناس على سبيل الوجوب ، والطلب فى السلام على سبيل الندب ، كما هو حكم السلام فى غير هذا الموطن .

وظاهرها أيضاً تقدم الاستئذان على السلام ، لأن الأصل فى الترتيب الذكرى أن يكون على وفق الترتيب الواقعى ، وبهذا الظاهر قال بعض العلماء ، وجمهور الفقهاء على تقديم السلام على الاستئذان ، وحثهم فى ذلك عموم قوله ﷺ فيما أخرجه الترمذى ، عن جابر - رضى الله عنه - : «السلام قبل الكلام»^(١٠١) . وما أخرجه ابن أبى شيبه ، والبخارى فى الأدب ، عن أبى هريرة فيمن يستأذن قبل أن يسلم ، قال : لا يؤذن له حتى يسلم . وبعض العلماء فصل فى المسألة وقال : إن كان القادم يرى أحداً من أهل البيت ، سلم أولاً ثم استأذن فى الدخول ، وإن كانت عينه لا تقع على أحد منهم ، قدم الاستئذان على السلام . وهذا قول جيد ، ولا ينافيه حديث الترمذى والبخارى ، فإنه يمكن أن يحمل ذلك على الحالات التى يكون فيها القادم ، بحيث لا يرى أهل البيت ، فالأفضل أن يقدم الاستئذان على السلام ، كما هو ظاهر الآية ، إلا أن يكون القادم بحيث يرى أهل الدار ، فينبغى أن يجيبهم أولاً ثم يستأذن ، وفى هذا جمع بين الأدلة^(١٠٢) .

١١ - كان العرب في الجاهلية يدخلون البيوت بغير استئذان ، ويهجمون على البيت هجوما ، ويرون أن الاستئذان مذلة تأباه النفوس . فلما شرع الله أدب الاستئذان قال سبحانه : **ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** . أى : أن أدب الإسلام في الاستئذان والسلام ، خير مما كان عليه العرب في الجاهلية . فقد جعل الله البيوت سكنا ، وفى إليها الناس ، فتسكن وتطمئن قلوبهم ونفوسهم ، ويأمنون على عوراتهم وحرمااتهم ، ويلقون أعباء الحذر والحرس المرهقة للأعصاب .

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا ، لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم ، وفى الوقت الذى يريدون ، وعلى الحالة التى يحبون أن يلقوا الناس عليها .

وكان الرجل في الجاهلية إذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته ؛ يقول : حيتم مساء ، ثم يدخل ، فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد . فأرشدهم القرآن إلى آداب الزيارة ، ثم بين أن هذه الآداب خير وأفضل لحفظ النفوس والأعراض ، والبعد عن الفتنة ، كى تتذكروا وتعملوا بما أمرتم به .

٢٨ - **فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَآلُهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** .

البيوت حرمت وعورات ، وقد تكون البيوت المسكونة خالية من أصحابها في وقت من الأوقات ، وفى هذه الحالة لا يحل أيضا لمن يجدها كذلك أن يدخلها ، فإن خبيثات البيوت عورات لها ، والدخول من غير إذن قد يؤدي إلى الاطلاع على هذه العورات ، فيجب على الطارق أن يمتنع عن دخولها حتى يأذن له أصحابها ، وليس شيء يبيح الدخول إلى هذا إلا الإذن الذى يصدر ممن يملكه ، فإذن العبد والصبي والخادم لا يبيح الدخول في البيوت التى لا يوجد بها أصحابها ، كما لا يبيح الدخول في البيوت التى يكونون فيها ، إلا أن يكون أحدهم رسولا من قبل صاحب الدار ، وفى هذه الحالة لا يكون الإذن من هؤلاء ، وإنما من صاحب الدار^(١١١) .

وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ...

ارجعوا دون أن تجدوا في أنفسكم غضاضة ، ودون أن تستشعروا من أهل البيت الإساءة إليكم ، أو النفرة منكم ، فللناس أسرارهم وأعذارهم ، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقرير ظروفهم وملابساتهم في كل حين . «فإن حق كل رجل إذا كان لا يريد مقابلة أحد أن يأبى مقابله ، أو يعتذر إليه إن كان مشتغلا بأمر يمنعه من الفراغ لمقابله ، وقد استدال الفقهاء بكلمة : **آرْجِعُوا** . في هذه الآية على أنه لا يجوز لأحد أن يقف على باب غيره ، إن لم يأذن له بدخول بيته ، بل عليه أن ينصرف ، ولا يجوز أن يكرهه على مقابله ، أو يزعه بالوقوف على بابه»^(١١٢) .

ولذا قال تعالى : هُوَ . أَيْ : الرجوع أَزْكَى لَكُمْ . أَيْ : أظهر مما لا يخلو عنه الإلحاح والوقوف على الأبواب من دنس الدنائة وأمنى لمحبتكم .

قال الزمخشري :

وإذا نهى عن ذلك لأدائه للكرامة ، وجب الانتهاء عن كل ما يؤدي إليها ، من قرع الباب بعنف ، والتصبيح بصاحب الدار ، وغير ذلك مما يدخل فى عادات من لم يتهذب من أكثر الناس .

٢٩ - لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .

ليس عليكم - أيها المؤمنون - إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة لسكن قوم معينين ، بل معة ليعتد بها من يحتاج إليها كائناً من كان ، كالفنادق والحوانيت والحمامات ونحوها ، مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها ، وإيواء الأمتعة ، والبيع والشراء ، والاعتسال ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيوت ، غير موجود فيها .

وسبب نزول هذه الآية : على ما أخرجه ابن أبى حاتم ، عن مقاتل : أنه لما نزل قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ ... الآية ، قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - : يا رسول الله ، فكيف بتجار قريش ، الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام وبيت المقدس ، ولهم بيوت معلومة على الطريق - يريد الحانات التى فى الطريق - فكيف يستأذنون ويسلمون وليس فيها ساكن ؟ فرخص الله - سبحانه - فى ذلك فأنزل قوله تعالى : لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ... فتكون الآية مخصصة لعموم الآية السابقة .

قال القاسمى :

فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ... أَيْ : منفعة وحاجة . وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ . أَيْ : والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان ، إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس ، أو من قصد ريبة أو فساد ، وفى هذا من الوعيد الشديد ما لا يخفى ^(١٥٥) .

جاء فى تفسير القرطبى :

قال جابر بن زيد : ليس يعنى بالمتاع الجهاز ، ولكن ما سواه من الحاجة ، إما منزل ينزله قوم من ليل أو نهار ، أو خربة يدخلها لقضاء حاجة ، أو دار ينظر إليها ، فهذا متاع ، وكل منافع الدنيا متاع .

قال أبو جعفر النحاس : وهذا شرح حسن من قول إمام من أئمة المسلمين ، وهو موافق للغة ، والمتاع فى كلام العرب : المنفعة ، ومنه : أمتع الله بك ، ومنه : «فمتعوهن» . قلت : واختاره أيضاً القاضى أبو بكر

بن العربي، وقال: أمّا من فسر المتاع بأنه جميع الانتفاع، فقد طبق المفصل وجاء بالفصل، وبين أن الداخل فيها إنما هو لما له من الانتفاع، فالطالب يدخل في الخانات - وهي المدارس - لطلب العلم، والسّاكن يدخل الخانات وهي الفنادق، والزبون يدخل الدكان للابتياح، والحاقد يدخل الخلاه للحاجة، وكل يأتي على وجهه من بابهِ^(١٠٠).

★ ★ ★

غض البصر

﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوْنَ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٢٠)

التفسير:

٣٠ - قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوْا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

سلك القرآن مسلك التربية السليمة في الحفاظ على سلامة الأنفس والأعراض، واستقرار النفوس، وسلامة الوجدان، وقد أمر الله المؤمنين بغض البصر عن المحرمات، وحفظ الفروج عن الزنا، وهذا أظهر للنفس وأدعى إلى السعادة والعزة. فمن أطاع الله: أطاع الله له كل شيء، ومن أعرض عن طريق الله: غلبته شهواته، وتحكمت فيه نزواته.

وما يتعلق بهذه الآية ما يأتي:

١ - للعلماء كلام طويل في فوائد غض البصر، فالنظر هو النافذة التي تربط الإنسان بالحياة، والحياة بالإنسان، فإذا استقام القلب عف البصر، وإذا غض المؤمن بصره استقام قلبه، قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
والسر ما دام ذأ عين يقلبها	في أعين العين موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها	فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسرناظرة ما ضر خاطرة	لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

٢ - غض البصر: إطباق الجفن على الجفن، أو خفض الجفن الأعلى وإرخاؤه. ومن الثاني قول كعب

ابن زهير:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا
إلا أغن غضيض الطرف مكحول

فلا يريد أنها مغمضة عينها مطبقة أجفانها ، بل أنها خافضة الطرف من الحياء والخفر ، ويقال :
غض بصره ، يغضه ، غضا ، قال الشاعر :

فغض الطرف أنك من نسيم فلا كعبا بلغت ولا كلابا
وقال عنترة :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

ولم يذكر الله ما يغض البصر عنه ، ويحفظ الفرج ، غير أن ذلك معلوم بالعادة ، وأن المراد منه المحرم دون المحلل^(١٩٧) . وفي البخاري : وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن : إن نساء العجم يكشفن صدورهن وروعوهن ؟ قال : اصرف بصرك ، يقول الله تعالى : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...^(١٩٨) .

٣ - معنى الغض في اللغة : النقص والخفض والوضع ، فيقال : غض من قدره ، أي : خفض ونقص ووضع قدره ، وغض الغصن أي : كسره^(١٩٩) . والمراد بغض البصر في الآية : ألا ينظر بلاء العين ، وأن يكف النظر عما لا يحل له ، بخفضه إلى الأرض أو بصرفه إلى جهة أخرى ، وكلمة : مِنْ : في : مِنْ أَبْصَارِهِمْ . للتبعيض ، أي : أن الله تعالى لا يأمركم بصرف كل نظر من أنظاركم ، وإنما يأمركم بصرف بعضها ، والمراد : صرف نظر الرجال إلى النساء ، أو إلى عورات غيرهم ، أو إلى المناظر الفاحشة ، فلا يحل لرجل أن ينظر إلى امرأة غير زوجته أو محارمه من النساء ، أما النظرة المفاجئة مرة واحدة فلا مؤاخذة عليها .

قال صاحب الكشاف :

إنما دخلت مِنْ : في غض البصر دون حفظ الفرج ، للدلالة على أن أمر النظر أوسع ، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن وذيديهن وأعضائهن وسوقهن وأقدامهن ، وكذلك الجوارى المستعرضات للبيع ، وأن الأجنبية ينظر إلى وجهها وكفيها ، وأما أمر الفرج فمضيق ، وكفكاف فرقا أن أبيح النظر إلا ما استثنى منه .

وقد اختلف في المراد بحفظ الفرج ، فقيل : إن معناه تجنب الزنا واللواط ، وقيل : إن المراد ستره ، فلا يحل للمؤمن أن يكشف عن سواته ، ولا أن يلبس لباسا رقيقا يشف عما تحته ويبين عورته ، ولا مانع من إرادة المعنيين جميعا^(٢٠٠) .

٤ - قال القرطبي في تفسيره :

البصر هو الباب الأكبر إلى القلب ، وأمر طرق الحواس إليه ، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ، ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المحرمات ، وكل ما يخشى الفتنة من أجله ، وقد قال ﷺ :

«إياكم والجلوس على الطرقات» فقالوا: يا رسول الله ، مالنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال : «فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه» . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»^(١٧١) رواه أبو سعيد الخدري ، وأخرجه البخاري ومسلم .

وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة : فأمرني أن أصرف بصرى . وهذا يقوى قول من يقول : إن من . للتبعض ، لأن النظرة الأولى لا تملك فلا تدخل تحت خطاب تكليف ، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودا ، فلا تكون مكتسبة ، فلا يكون مكلفا بها فوجب التبعض لذلك ، ولم يقل ذلك في الفرج ، لأنه يملك .

ولقد كره الشعبي أن يديم الرجل النظر إلى ابنته أو أمه أو أخته ، وزمانه خير من زماننا هذا ، وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذات محرم نظرة شهوة يرددها^(١٧٢) .

٥ - من أدب النبوة :

حفلت كتب السنة المطهرة بتوجيهات النبي ﷺ للمؤمنين والمؤمنات بغض البصر والعفة والنزاهة ، وقد أورد ابن كثير وغيره من المفسرين طائفة من هذه الأحاديث ، ومنها ما يأتي :

عن بريدة أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يا على ، لا تتبع النظرة النظرة : فإن لك الأولى وليس لك الأخرى»^(١٧٣) رواه الترمذي ، وأحمد ، وأبو داود ، والدارمي . وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل : إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم ، من تركه مخافتى أبدلته إيماننا يجد حلاوته في قلبه»^(١٧٤) أخرجه الطبراني .

وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره : إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها»^(١٧٥) رواه الإمام أحمد في مسنده .

وقال رسول الله ﷺ : «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك»^(١٧٦) ، أخرجه أحمد ، وأصحاب السنن . وعن عبد الله بن عباس قال : كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه : فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه ، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر^(١٧٧) رواه البخاري ، والترمذي ، وأبو داود .

٦ - هذا الأمر بغض البصر قد استثنيت منه صور تعرض للإنسان فيها حاجة حقيقية للنظر إلى وجه المرأة ، فإذا أراد مثلا أن ينكح امرأة ، فليس له أن ينظر إليها فحسب ، بل هو مستحب له على الأقل ، فمن المغيرة بن شعبه قال : خطبت امرأة ، فقال لى رسول الله ﷺ : «نظرت إليها؟ قلت : لا . قال : «فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما» .^(١٧٨) رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً أراد أن يتزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله ﷺ: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً»^(١٧٦).

وعن أبي حميد أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إليها، إذا كان إنما ينظر للخطبة»^(١٧٧). رواه أحمد.

وعن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خطب أحدكم المرأة فقد أن يرى منها بعض ما يدعو إلى نكاحها فليفعل»^(١٧٨). رواه أبو داود، وأحمد.

ومن هنا أخذ الفقهاء، أن هناك صوراً أخرى يجوز فيها للرجل أن ينظر إلى وجه المرأة، كالنظر إلى امرأة مشتبها عند تحقيق الجرائم، أو نظر القاضي إلى وجه المرأة عند تحقيق الشهادة، أو نظر الطبيب إلى وجه المرأة للمعالجة.

٧ - من مقاصد الأمر بغض البصر ألا ينظر الإنسان إلى عورة غيره، كما قال تعالى: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... وقال النبي ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة». رواه مسلم وأحمد، وأبو داود، والترمذي. وعن علي - رضى الله عنه - قال^(١٧٩): «قال رسول الله ﷺ: «لا تنظر إلى فخذ حتى ولا ميت»^(١٨٠) رواه أبو داود، وابن ماجه.

وقد مر بنا أن المراد بقوله تعالى: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ. البعد عن الزنا وما يلحق به، أو عدم كشف العورة، ولا مانع من إرادة المعنيين جميعاً.

وقد جعل رسول الله ﷺ عورة الرجل ما بين سرتة إلى ركبته، كما صرح عنه ذلك في رواية للدارقطني والبيهقي، فلا يحل للرجل أن يكشف هذا الجزء من جسده إلا أمام زوجته. عن جرهد الأسلمي من أصحاب الصفة - رضى الله عنه - أنه قال: «جلس رسول الله ﷺ عندنا وفخذى منكشفة، فقال: «أما علمت أن الفخذ عورة؟»^(١٨١) رواه أبو داود، ومالك، والترمذي.

وقال ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» فسأله السائل: يا رسول الله، فإن كان أحدنا خالياً؟ قال: «فأله - تبارك وتعالى - أحق أن يستحيى منه»^(١٨٢) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه^(١٨٣).

تلك نظم الإسلام شرعها الله العليم بالنفوس البشرية، الخبير بما يناسبها. وفي العصر الحديث شاهدنا نظريات تشجع العري والاختلاط، والانطلاق وراء الغريزة، وشاهدنا دولا تبنت هذه الأفكار والآراء، ثم عادت تشكو من الإرهاق النفسي والحسى، ومن كثرة الأمراض العصبية وغيرها. لأن الإنسان إنسان، لا غنى له عن القيود والضوابط، حتى يشبع غريزته في طريق مشروع، فالإسلام لم يصدم الغريزة، ولكنه

هذبها ووضع لها الطرق السليمة ، التي تكفل إشباعها في الحلال وإبعادها عن الحرام ، وفي وصف النبي ﷺ يقول القرآن :

وَجَعَلَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيَحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (الأعراف : ١٥٧) .

★ ★ ★

الحجاب

﴿ وَقُلِ الْمُؤْمِنَاتُ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ بِأُخُوَّتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣١)

المضردات :

الخمر ، واحدا خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها ، أى : الطرحة .

جيوههن ، الجيوب واحدا جيب ، وهو فتحة في أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد .

بُعُولَتِهِنَّ ، البعولة الأزواج ، واحدهم بعل .

الْأَرْبَةِ ، الحاجة إلى النساء .

الطِّفْلِ ، يطلق على الواحد والجمع .

لم يَظْهَرُوا ، لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

تمهيد :

يخاطب القرآن الرجال في كثير من آياته باعتبارهم الجنس الغالب الذي يتأتى منه الخطاب غالبا ، وهناك قواعد عامة وضعها القرآن ، وهي اشتراك النساء مع الرجال في أمور الشريعة ، إلا ما نص عليه الخطاب بخصوصية أى منهما . قال تعالى : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة : ٢٢٨) .

وقد أمر القرآن الرجال بغض البصر وحفظ الفرج ، ثم تكرر الخطاب للنساء للتأكيد عليه ، ولأنهن زدن على الرجال أحكاما تخصصهن ، وهي : النهى عن إبداء زينتهن إلا ما استثنى الله تعالى ، والأمر بإرخاء خمرهن على جيوبهن ، والنهى عن كل فعل يلفت النظر إلى زينتهن ، وينبه الناس إليها .
وتتعلق بهذه الآية الأحكام الآتية :

١ - وردت روايات مختلفة بشأن نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي ، ويمكن أن نستعرض هذه الروايات على النحو الآتى :

(أ) ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم فى المسجد يوم العيد ، وعائشة تنظر إليهم من وراءه وهو يسترها منهم ، حتى ملّت ورجعت ، وذلك سنة سبع من الهجرة ^(١٧٧) .

وصح أيضا أن النبى ﷺ مضى إلى النساء فى المسجد يوم عيد ، فذكرهن معه بلال ، وأمرهن بالصدقة ، ويعيد ألا ينظرن إلى النبى ﷺ وإلى بلال حين يسمعن الموعظة ، ويتصدقن ^(١٧٨) ، فذل مجمع ذلك على أنه بإباح للمرأة أن تنظر من الرجل الأجنبى ، إلى ما عدا ما بين سرتة وركبته ، وبهذا قال جمع من فقهاء الأمصار ، وهو أحد قولى الشافعى .

(ب) نصوص السنة واضحة فى تحريم نظر المرأة - من غير زوجها - إلى ما بين السرة والركبة ، سواء أكان ذلك بشهوة أم بغير شهوة ، كما حظرت عليها أيضا أن تنظر إلى شيء من بدن الرجل بشهوة ، كل هذا محل اتفاق بين الفقهاء جميعا ، أما نظرها ما فوق السرة وتحت الركبة فقد اختلفت الروايات فيه . فمنها ما يحظر على المرأة أن تنظر إلى شيء من بدن الرجل الأجنبى ، وهو قول أحمد ، وأحد قولى الشافعى ، وصححه النووي ، وهو أيضا ظاهر قوله تعالى : وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .

وقد استشهد أصحاب هذا الرأى بأحاديث متعددة منها : ما أخرج أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى وصححه ، عن أم سلمة قالت : كنت عند النبى ﷺ وميمونة ، فأقبل ابن أم مكتوم حتى دخل عليه ، وذلك بعد أن أمر بالحباب ، فقال رسول الله ﷺ : «احتجبا منه» . فقلنا : يا رسول الله ، أليس أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال : «أفعميا وإن أنتما ، أستماتا تبصرانه» ؟ .

وفى الموطأ ، عن عائشة أنها احتجبت عن أعمى ، فقيل لها : إنه لا ينظر إليك ، قالت : لكننى أنظر إليه .

وهناك نصوص اعتمد عليها من أباح نظر المرأة للرجل الأجنبى تقدم ذكرها ، فى الفقرة « أ » ، وقد حاول أصحاب كل رأى الدفاع عن رأيهم ، وتوهين حجة الفريق الآخر .

ولعل أولى ما يجمع به بين هذه الأحاديث المتعارضة ، أن يحمل الأمر بالاحتجاب من ابن أم مكتوم على النذب ، وكذلك احتجاب عائشة - رضى الله عنها - عن الأعمى كان ورعا منها ، وعملا بما هو أجمل وأولى بالنساء ، وحينئذ لا يكون حراما على المرأة أن تنظر من الأجنبى إلى غير ما بين السرة والركبة ^(١٨٧) .

ويقول أبو الأعلى المودودى :

والذى يستفاد من الجمع بين هذه الروايات المختلفة : أن ليست الشدة فى نظر النساء إلى الرجال الأجانب ، مثل الشدة فى نظر الرجال إلى النساء الأجنبيات . لا يحل لهن أن يقصدن النظر إليهم وجهها لوجه فى المجالس ، ولكن يحل لهن أن ينظرن إليهم وهم يمشون فى الطريق ، أو يلعبون ألعابا غير محرمة من البعيد ، بل لا حرج أن ينظرن إليهم فى البيوت عند الحاجات الحقيقية ، وبه تقريبا جمع بين هذه الروايات الإمام الغزالى ، والحافظ ابن حجر العسقلانى - رحمهما الله - وقد نقل الشوكانى فى «نيل الأوطار» قول الحافظ : ويؤيد الجواز استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأوقاف والأسفار ، منتقبات لئلا يراهن الرجال ، ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهن النساء ، فدل ذلك على مغايرة الحكم بين الطائفتين ^(١٨٨) .

على أنه لا يصح أن تكرر النساء النظر إلى الرجال ، ويمتنعن أنفسهن بحسنهم ^(١٨٩) .

٢ - ذكر القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى : **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ...** أن فى هذه الآية ٢٣ مسألة .

وفى المسألة الثانية حاول التوفيق بين الأحاديث المتعارضة : فذكر حديث الترمذى ، عن نيهان مولى أم سلمة : أن النبى ﷺ قال لها ولميمونة ، وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم : «احتجبا» ، فقالتا : إنه أعمى . قال : «أفعمياوان أنتما ، ألتستما تبصرانه» ^(١٩٠) ؟

ثم قال القرطبى : فإن قيل : هذا الحديث لا يصح عند أهل النقل ؛ لأن رواه عن أم سلمة نيهان مولاها ، وهو ممن لا يحتج بحديثه ، وعلى تقدير صحته فإن ذلك منه - عليه الصلاة والسلام - تغليظ على أزواجه لحرمتهن ، كما غلظ عليهن أمر الحجاب ، كما أشار إليه أبو داود وغيره ، ويبقى معنى الحديث الصحيح الثابت وهو أن النبى ﷺ أمر فاطمة بنت قيس أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : «تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك ولا يراك» ^(١٩١) . قلنا : قد استدل بعض العلماء بهذا الحديث ، على أن المرأة يجوز لها أن تطلع من الرجل على ما لا يجوز للرجل أن يطلع من المرأة ، كالرأس ،

ومعلق القرط ، وأما العورة فلا . فعلى هذا يكون مخصصا لعموم قوله تعالى : **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ...** وتكون من . للتبعيض كما هي في الآية قبلها .

قال ابن العربي : وإنما أمرها بالانتقال من بيت أم شريك ، إلى بيت ابن أم مكتوم ، لأن ذلك أولى من بقائها في بيت أم شريك مؤثرة بكثرة الداخل إليها ، فيكثر الرائي لها ، وفي بيت ابن أم مكتوم لا يراها أحد ، فكان إمساك بصرها عنه أقرب من ذلك وأولى ، فرخص لها في ذلك ، والله أعلم .

التفسير :

٣١ - **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...**

توسعت كتب التفسير في عرض ما يتصل بأحكام الآية ، ومن الخير أن نتعرض لتفسير كل جزء منها على حدة ، والله ولى التوفيق .

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ...

أى : فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة ، أو الهاتفة المثيرة ، ما يستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال .

وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...

عما لا يحل لهن من الزنا والسحاق ، ويسترنها حتى لا يراها أحد .

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...

أى : ولا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه مما جرت العادة بظهوره كالخاتم والكحل والخضابة ، فلا يؤخذن إلا في إبداء ما خفى منها كالسوار والخلخال والدملج والقلادة والإكليل والوشاح والقرط ، لأن هذه الزينة واقعة في مواضع من الجسد - وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن - لا يحل النظر إليها .

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...

الخمر جمع خمار ، وهو ما يخرم به - أى : يغطى به - الرأس . والجيوب جمع جيب ، وهو الصدر ، فالمراد بضرب النساء بخمرهن على جيوبهن ، أى : يطينن رءوسهن وأعناقهن ونحوهن وصدورهن بكل ما فيها من زينة وحلى ، على خلاف ما كانت عليه حال النساء فى الجاهلية .

قال ابن كثير :

لقد كانت المرأة في الجاهلية تمر بين الرجال مسفحة بصدورها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطه آذانها ؛ فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن .

ويقول الزمخشري في تفسيره عن نساء الجاهلية : كانت جيوياهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حوالها ، وكن يسدن الخمر من ورائهن فتبقى مكشوفة ؛ فأمرن بأن يسدلن من قدامهن حتى يغطيها .

كانت نساء الجاهلية قريبات الشبه بحال المرأة في الجاهلية الحديثة في عصرنا ، فلما نزل القرآن بهذه الآيات تهذب الذوق الإسلامي ، سارعت النساء إلى امتثال أمر الله ، فحجبن مفاتن أجسامهن طائعات ، وهذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة .

روى البخاري ، عن عائشة أنها قالت : رحم الله نساء المهاجرات ^(١٨٤) الأول لما نزل : **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ... شققن أزهرهن فاخترمن بها ^(١٨٥) .

وأخرج أبو داود ، عن صفية بنت شيبة قالت : بينما نحن عند عائشة ، قالت : فذكرن نساء قريش وفضلهن ؛ فقالت عائشة - رضى الله عنها - :

إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، أشد تصديقا لكتاب الله ، ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت سورة النور : **وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ** ... انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته ؛ فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل ^(١٨٦) ، فاعتجرت ^(١٨٧) به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رؤوسهن الغربان ^(١٨٨) . وفي مسند أبي داود ما يفيد أن الخمار ينبغي أن يكون من الثوب الغليظ ، ولا يكفى أن يكون ثوبا شفافا يصف ما تحته ^(١٨٩) .

وَلَا يَلْبِسْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُحُورِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ...

من هنا يشرع الله - سبحانه وتعالى - في ذكر من يجوز للمرأة المسلمة أن تبدى لهم زينتها ، أما الذين ليسوا في دائرة هؤلاء سواء أكانوا من الأقارب أم الأجانب ؛ فلا يجوز للمرأة المسلمة أن تبرز إليهم بزینتها .

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...

أى : قل للمؤمنات لا يظهرن هذه الزينة الخفية إلا لأزواجهن ، فالمرأة مأمورة شرعا بأن تتزين : لزوجها ، وأن تبحث عما يشبع رغبته ، ويسر ناظره ومسامحه .

قال رسول الله ﷺ : «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها زوجها سرتة ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته فى ماله وعرضه»^(١٩١) .

وكذلك أمر الإسلام الرجل أن يتزين لزوجته ليشبع عاطفتها ، وليشبع حاجاتها النفسية والغطرية ، وقد أخذ العلماء هذا الحق من قوله تعالى : وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ... (البقرة : ٢٢٨) . فكل ما يطلبه الرجل من زوجته من أمانة وعفة ونظافة ، هو مطالب به أيضاً ، بيد أن الله جعل القوامة للرجال فقال سبحانه : أَلَرَجُلٌ قَرُؤُنٌ عَلَى آلَتْسَاءٍ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ... (النساء : ٣٤) .

وقال سبحانه : وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ... (البقرة : ٢٢٨) . وهى درجة القوامة ، والعشرة بالمعروف والتسامح ، ولين الجانب . وقد أباح الله للزوج النظر إلى جميع بدن زوجته ، فقد خلق الله حواء لتكون سكناً لآدم . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (الروم : ٢١) .

جاء فى تفسير القاسمى :

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... أى : فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج ، لكن بكرامة على المشهور . وقال الإمام أبو الحسن بن القطان فى كتاب «أحكام النظر» : عن أصبغ : لا بأس به وليس بمكروه ، وروى عن مالك : لا بأس أن ينظر إلى الفرج فى الجماع ، ثم ذكر أن ما روى من أن ذلك يورث العمى ، حديث لا يصح ، لأن فيه بقية ، وقد قالوا : بقية أحاديثه غير نقية^(١٩٢) .

قال تعالى : أَوْ آبَائِهِمْ أَوْ أَبْنَاؤُهُمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بِنَاتُهُمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ أَوْلَادُهُمْ أَوْ إِيَّاهُمْ أَوْ إِيَّاهُنَّ أَوْ إِيَّاهُمْ أَوْ إِيَّاهُنَّ ...

أى : لأن هؤلاء محارمهن الذين تؤمن الفتنة من قبلهم ، فإن آباءهن وأولياؤهن الذين يحفظونهن عما يسوءهن ، وآباء بعولتهن يمنعون عن أبنائهم ما يسوءهم ، وأبناءهن شأنهم خدمة الأمهات ، وهم منهن ، وأبناء بعولتهن شأنهم خدمة أحبائهم ، وإخوانهم هم الأولياء بعد الآباء ، وبنينهم أولياء بعدهم ، وكذا بنى أخواتهن ، هم كبنى إخوانهن فى القرابة فيتعبرون بنسبة السوء إلى الخالة ، تعبرهم بنسبته إلى العمه ، هذا ما أشار له المهيامى^(١٩٣) .

وأجمل ذلك الزمخشري بقوله : وإنما سُمح في الزينة الخفية أولئك المذكورون ، لما كانوا مختصين به من الحاجة المضطرة إلى مداخلهم ومخالفاتهم^(١١٦) ، ولقلة توقع الفتنة من جهاتهم ، ولما في الطباع من النفرة عن ممارسة القرائب ، وتحتاج المرأة إلى صحبتهم في الأسفار للنزول والركوب وغير ذلك .
أَوْ يَسَاتِيهِنَّ ...

قيل : هن المؤمنات أخذنا من الإضافة ، فليس للمؤمنة أن تتجرد بين يدي مشركة أو كتابية ، وقيل : النساء كلهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض .

قال في الإكليل : فيه إباحة نظر المرأة إلى المرأة كمحرم .

وروى ابن أبي حاتم ، عن عطاء ، أن أصحاب النبي ﷺ لما قدموا بيت المقدس ، كان قوابل نساءهم اليهوديات والنصرانيات .

وقال الرازي : القول الثاني هو المذهب ، وقول السلف الأول محمول على الاستحباب والأولى^(١١٧) .

وقد ساق المودودي آراء الفقهاء والمفسرين في المراد بقوله تعالى : أَوْ يَسَاتِيهِنَّ . وخلصتها ما يأتي :

- ١ - تقول طائفة منهم : إن المراد بها النساء المسلمات فقط .
- ٢ - تقول طائفة أخرى : إن المراد جميع النساء ، وهذا هو أصح المذاهب عند الإمام الرازي .
- ٣ - وتقول طائفة ثالثة - وقولهم هو المعقول والأقرب إلى ألفاظ القرآن - : إن المراد النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف ، سواء أكن مسلمات أم غير مسلمات ، وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة النساء الأجنبية اللاتي لا يُعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن ، أو تكون أحوالهن الظاهرة مشتبهة لا يوثق بها ، يقولون : ليست العبرة في هذا الشأن بالاختلاف الديني ، بل هي بالاختلاف الخلقي ، فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تحرج للنساء الكريكات المنتميات إلى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها ، سواء أكن مسلمات أم غير مسلمات ، وأما الفاسقات اللاتي لا حياة عندهن ، ولا يُعتمد على أخلاقهن وآدابهن ، فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة صالحة ، ولو كن مسلمات ، لأن صحبتتهن لا تقل عن صحبة الرجال ضروا على أخلاقها .
- أما النساء الأجنبية اللاتي لا يُعرف شيء عن أحوالهن فحدود إظهار الزينة لهن - عندنا - هي ما يجوز إظهاره للرجال من الأقارب غير المحارم ، أي : على المرأة المؤمنة ألا تكشف لهن من جسدها وزينتها أكثر من وجهها ويديها^(١١٨) .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُهُنَّ ...

من الجوارى، أما العبيد فقد اختلفوا فيهم، فقال قوم : عبد المرأة محرم لها، فيجوز له الدخول عليها إذا كان عقيفاً، وله أن ينظر إلى بدن مولاته إلا ما بين السرة والركبة كالمحارم ، وروى ذلك عن عائشة وأم سلمة، وقد رُوي أن عائشة كانت تمتشط وعندها ينظر إليها . وقال قوم: هو كالأجنبي معها، وهو رأى ابن مسعود والحسن وابن سيرين، ومن ثم قالوا: لا ينظر العبد إلى شعر مولاته . وسئل طاووس: هل يرى غلام المرأة رأسها وقدمها ؟ قال : ما أحب ذلك إلا أن يكون غلاماً صغيراً، فأما رجل ذو لحية فلا .

أَوْ أَتَشِيحِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ.....

الإربة والأرب : الحاجة ، والمراد بالإربة هنا : الحاجة إلى النساء، والمراد بالتابعين: الذين يتبعون القوم ليصيبوا من فضل طعامهم، ولا غرض لهم إلا ذلك ولا حاجة لهم إلى النساء، وفي تعيين المراد بغير أولى الإربة أقوال كثيرة للسلف:

قال عبد الله بن عباس: هو المغفل الذى لا حاجة له إلى النساء.

وقال قتادة: هو التابع يتبعك ليصيب من طعامك.

وقال مجاهد: هو الأبله الذى لا يتبع إلا بطنه ، ولا يعرف شيئاً من أمر النساء.

وقال الشعبي: من تبع الرجل وحشمه، الذى لم يبلغ إربه أن يطلق على عورة النساء.

وقال ابن زيد: هو الذى يتبع القوم حتى كأنه كان منهم ونشأ فيهم، وليس يتبعهم لإربة نسائهم، وليس له فى نسائهم إربة، وإنما يتبعهم لإرفاقهم إياه.

وقال الزهرى وطاووس: هو الذى لا همة له بالنساء ولا أرب^(١٩٩) .

ويمكن أن نختصر ما ورد عن السلف فى الآتى: الشيخ الذى فنيت شهوته ، أو الأبله الذى لا يدري من أمر النساء شيئاً، أو المجبوب، أو الخصى، أو المسروح، أو خادم القوم للعيش، أو المخنث، والذى عليه المعول أن المراد به : كل من ليس له حاجة إلى النساء، وأمنت من جهته الفتنة ونقل أوصاف النساء للأجانب.

ومن ذلك نعرف أن هؤلاء الخدام والغلمان، المكتملين شباباً فى البيوت أو المطاعم والفنادق، لا يشلمهم هذا التعريف للتابعين غير أولى الإربة بحال من الأحوال . أخرج مسلم، وأبو داود، والنسائى، وغيرهم، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ فكانوا يعدونه من غير أولى الإربة فدخل النبى ﷺ على أم سلمة وعندها هذا المخنث، وعندها أخوها عبد الله بن أبى أمية،

والمختن يقول: يا عبد الله، إن فتح الله عليكم الطائف غدا، فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان^(١٩٧). فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «يا عدو الله، لقد غلغلت النظر فيها». ثم قال لأم سلمة: «لا يدخلن هذا عليك». فأمر بإخراجه من المدينة، فكان بالبيداء يدخل في كل جمعة مرتين، فيسأل ثم يرجع^(١٩٨)، وكذلك أخرج من المدينة من كان بها من المختنين غيره، لأن النساء ما كنَّ يحتجبن منهم، وكانوا يبينون للرجال أحوال النساء في البيوت.

أَوِ الطُّفْلَ الَّذِينَ نَمُ يُظْهِرُوا عَلَى عَوَازِ النِّسَاءِ ...

أى: لم يفهموا أحوالهن ولم يعرفوا ما العورة لصغرهم. «وهم الأطفال الذين لا يثير فيهم جسم المرأة وحركاتها شعورا بالجنس، وهذا التعريف لا ينطبق إلا على من كان في نحو عشر أو اثنى عشرة سنة على الأكثر من الأطفال، وأما الأطفال الكبار عن هذه السن فإن الشعور بالجنس يبدأ يثور فيهم، ولو كانوا لم يبلغوا الحلم»^(١٩٩).

وَلَا يُضْرِبْنَ بَأَرْجُلَيْهِنَّ يُخْلِمَنَّ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ...

أى: ولا يضربن بأرجلهن الأرض لتقعقع خلاخلهن، فإن ذلك مما يهيج الرجال ويورث ميلا إليهن، وللنساء أفانين في هذا، فقد يجعلن الخرز ونحوه في جوف الخلاخل: فإذا مشين ولو هونا كان له رنين وصوت خاص، ومن الناس من يتأثر بوسوسة الحلى أكثر من رؤيتها.

قال ابن كثير:

يدخل في هذا، النهي عن كل شيء من زينتها كان مستورا فتحركت بحركة، لتظهر ماخفى منها، ومن ذلك ما ورد من نهيهن عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشتم الرجال طيبها، فروى الترمذى، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ أنه قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا». وقال قولاً شديداً^(٢٠٠).

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أى: ارجعوا إليه، بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، لكى تفوزوا بسعادة الدارين.

قال ابن كثير:

أى: افعلوا ما أمركم به من الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به رسوله، وترك ما نهى عنه، والله المستعان.

ونلاحظ أن القرآن يختم أوامره بهذه الدعوة الرقيقة إلى التوبة والاستقامة، فإله يفتح بابه للتائبين، وهو عفو غفور رحيم، وبذلك يثير الحساسية برقابة الله، وعطفه ورعايته وعونه للبشر في ضعفهم أمام الميل الفطري العميق، الذي لا يضبطه مثل الشعور بالله ويتقواه.

في أعقاب الآية:

١ - نقل القرطبي عن مكى قال: ليس في كتاب الله - تعالى - آية أكثر ضماناً من هذه ، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع.

٢ - إذا كان السبب في تحريم ضرب الخلخال، ما يؤدي إليه من الفتنة والفساد، كان كل ما في معناه ملحقاً به في التحريم، كتحریم الأيدي بالأساور، وتحريك الجلاجل في الشعر، فالتنصيص على الضرب بالأرجل ليس لقصر النهي عليه، لأنه كان السبب في نزول الآية.

٣ - بالقياس على ما تقدم قال الفقهاء: إنه لا يجوز للمرأة أن تخرج من بيتها متعطرة بحيث تشم منها رائحة الطيب، فقد أخرج أبو داود ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يقبل الله صلاة امرأة تطيب لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة».(٣٠١).

٤ - استدلل الحنفية بهذا النهي على أن صوت المرأة عورة، فإنها إذا كانت منبهة عن فعل يسمع له صوت خلخالها، فهي منبهة عن رفع صوتها بالطريق الأولى، والظاهر أنه إن أمنت الفتنة لم يكن صوتها، عورة : فإن نساء النبي ﷺ كن يروين الأخبار للرجال وفيهم الأجانب من غير نكير ولا تأنيب(٣٠٢).

٥ - نهى رسول الله ﷺ أن يخلو أحد من الرجال بامرأة ، ولو كان من أقربائها، إذا لم يكن معها أحد من محارمها.

عن جابر بن عبد الله : أن الرسول ﷺ قال: «لا تلجوا على المغيبات»(٣٠٣) ، فإن الشيطان يجرى من أحكم مجرى الدم»(٣٠٤).

وعن جابر أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يخلو بامرأة ليس معها ذو محرم، فإن ثالثهما الشيطان»(٣٠٥).

٦ - ما أباح النبي ﷺ أن يمس الرجل بيده جسد امرأة غير ذات محرم، فكان يصافح الرجال عند البيعة ولا يصافح النساء، فعن عروة : أن عائشة - رضى الله عنها - أخبرته عن بيعة النساء قالت: مامس رسول الله ﷺ يد امرأة قط إلا أن يأخذ عليها، فإذا أخذ عليها فأعطته قال: «أنهبي فقد بايعتكم»(٣٠٦).

٧ - نهى رسول الله ﷺ بشدة عن الاختلاط بين الرجال والنساء ، وبذل سعيه للقضاء عليه . فلا يخفى على أحد ما للجمعة والصلاة بالجماعة في المسجد من الأهمية في الحياة الإسلامية . ومع ذلك فقد أغفى النبي ﷺ النساء من وجوب الجمعة ، وأعفاهن من وجوب الجماعة .

وقد صرح بأن صلاتهن في البيوت خير من صلاتهن في المساجد ، روى أحمد ، وأبو داود ، عن النبي ﷺ قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن » .^(٢٠٧) وبعض العلماء العاملين في زماننا يدعو إلى حث النساء على حضور مجالس العلم ، وإحياء نشاط المرأة المسلمة لتفهم أصول دينها ، وتدرك معالم الشريعة الغراء ، وتستغنى بنظام الإسلام ، عن نظام الغرب وتقاليده ، ويحث على أن تكون في المساجد أماكن للنساء ، حتى يلتزم بأحكام الإسلام وأدابه ، بعيداً عن تقاليد الجاهلية القديمة والحديثة .

« وإنه ليتضح من أحكام الشريعة أن المجالس المختلطة من الرجال والنساء لا تتفق بحال مع طبيعة الإسلام ومزاجه ، فالدين الذي لا يسمح باختلاط الجنسين للعبادة في مواضعها ، هل لأحد أن يتصور عنه أنه يبيح الاختلاط بينهما في الكليات والمكاتب والمجالس والنوادي الساهرة » .^(٢٠٨) .

اختلف الفقهاء في معنى قوله تعالى : وَلَا يُبَيِّنُ رِزْتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ...

(أ) فرأى الإمام أحمد بن حنبل أن معناه : أن النساء منهيات عن إبداء الزينة ، إلا الزينة التي ظهرت بنفسها من غير قصد فمفعول عنها ، كأن كشف الريح عن نحر امرأة أو ساقها . وذهب الإمام أحمد إلى أن بدن المرأة كله عورة ؛ فيحرم إبداء شيء منه للأجنبي ، وهو أصح قول الشافعي ، وقالوا : إن المراد بما ظهر منها : ما ظهر بنفسه بغير قصد إلى إظهاره .

(ب) وذهب الحنفية والمالكية إلى أن معنى الآية : وَلَا يُبَيِّنُ رِزْتَهُنَّ إِلَّا شَيْئًا جرت العادة بظهوره ، فلسن منهيات عن إبدائه ، وذلك هو الوجه والكفين وما فيهما من زينة كالكلل والخضاب والخاتم ، وعلى هذا التأويل تكون الزينة نوعين : ظاهرة ، وباطنة . فالله قد حظر إبداء شيء من الزينة الباطنة لغير من استثنى في بقية الآية ، ولم يحظر إبداء الزينة الظاهرة لأن الحاجة تقضى بظهورها .

وعلى هذا قال الحنفية والمالكية : إن الوجه والكفين ليسا بعورة وهو أحد قول الشافعي ، واستشهدوا بقوله ﷺ : « يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح لها أن يرى منها إلا هذا » . وأشار إلى وجهه وكفيه^(٢٠٩) . وفي رواية عن أبي حنيفة - رحمه الله - أن القدمين ليستا من العورة أيضاً ، ونظر في ذلك إلى أن الحرج في سترهما أشد منه في ستر الكفين ، لاسيما بالنسبة إلى أكثر نساء القرى الفقيرات ، اللاتي يمشين لقضاء مصالحهن في الطرقات ، وعن أبي يوسف أن الذراعين ليستا بعورة كذلك لما في سترهما من الحرج .

وقالوا: إن النساء منهيات عن إبداء زينتهن إلا ما دعت الحاجة إلى ظهوره، وجرى عرف الناس في عصر التنزيل على أنه من الزينة الظاهرة، التي لم يحظر إبدؤها .

(ج) وقد رجح الأستاذ أبو الأعلى المودودي رأى الحنابلة : لأن الظاهر من الآية أن القرآن ينهى عن إبداء الزينة، ويرخص فيها إذا ظهرت من غير قصد، فالتوسع في هذه الرخصة إلى حد إظهارها عمدا مخالف للقرآن، ومخالف للروايات التي يثبت بها أن النساء في عهد النبي ﷺ ما كن يبرزن إلى الأجانب سافرات الوجوه، وأن الأمر بالحجاب كان شاملا للوجه، وكان النقاب قد جعل جزءا من لباس النساء إلا في الإجماع^(٣١٠) .

(د) أما الأستاذ الشيخ محمد على السائيس فقد رجح رأى الحنفية فقال : ولعلك إذا نظرت إلى أن الشريعة سهلة سمحة ، لا حرج فيها ولا مشقة ، ترجح القول بأن الوجه والكفين من الأجنبية ليسا من العورة، فإن في تكليف النساء ستر الوجه والكفين حرجا ومشقة عليهن ، ولا سيما الفقيرات اللاتي ليس لهن خدم، فيضطرن إلى قضاء حاجاتهن من الأسواق بأنفسهن^(٣١١) .

وينبغي أن يكون القول بهذا الرأي خاصا بالحالات التي تؤمن فيها الفتنة ، أما في غيرها من الحالات التي تخشى فيها الفتنة ، وفي الأوقات التي يكثر فيها الفساق في الأسواق والطرقات ، فلا يجوز للمرأة أن تخرج سافرة عن وجهها ، ولا أن تبدى شيئا من زينتها .

★ ★ ★

الترغيب في الزواج

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣١٢)

المعمرات :

«الأيامى» واحد هم أيم، وهو كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها، بكرة كانت أم ثيبًا، وليس خاصا بالنساء، قال قائلهم :

فإن تنكحى أنكح وإن تتأيمى وإن كنت أفتى منكم أتأيم

ويقال: أمت المرأة ، وأم الرجل، إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله في الرجل إذا ماتت زوجته، وفي المرأة إذا مات زوجها .

قال ﷺ : «أنا وامرأة سفعاء^(٣١٣) الخدين، تأيمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا أو يغنيهم الله من فضله ؛ كهاتين في النجعة»^(٣١٤) .

الصالحين من عبادكم ، أى : الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه .

وامانكم ، الإمام جمع أمة ، وهى الرقبة غير الحرة .

واســــــــــــــــع ، غنى .

التفسير :

٣٢ - وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ ... الآية .

أى : زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر، أى : من الرجال والنساء ، والمراد بذلك : مد يد المساعدة بكل الوسائل حتى يتسنى لهم ذلك ، كإمدادهم بالمال وتسهيل الوسائل التى يتم بها الزواج والمصاهرة .

وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ...

أى : والقادرين والقادات على النكاح والقيام بحقوق الزوجية ، من الصحة والمال ونحو ذلك . وقيل : المراد بالصالح : معناه الشرعى المعروف ، وهو مراعاة أوامر الدين ونواهيه .

والخلاصة :

أن فى الآية أمراً للأولياء بتزويج من لهم عليهم حق الولاية ، وللسادة بتزويج العبيد والإماء . والجمهور قد حملوا الأمر على الاستحسان لا على الوجوب : لأنه كان فى عصر النبى ﷺ وفى سائر العصور بعده ، أيامى من الرجال والنساء ، ولم ينكر ذلك عليهم أحد ، والظاهر أن الأمر يكون للوجوب إذا خيفت الفتنة ، وغلب على الظن حصول السفاح من الرجل والمرأة .

جاء فى ظلال القرآن :

ونحن نرى أن الأمر هنا للوجوب ، لا بمعنى أن يجبر الإمام الأياى على الزواج ، ولكن بمعنى أنه يتعين إعانة الراغبين منهم فى الزواج ، وتمكينهم من الإحصان ، بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية العملية ، وتطهير المجتمع الإسلامى من الفاحشة ، وهو واجب ، ووسيلة الواجب واجبة . وينبغى أن نضع فى حسابنا - مع هذا - أن الإسلام - بوصفه نظاما متكاملا - يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجا أساسيا ، فيجعل الأفراد الأسوياء قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة إلى مساعدة بيت المال ، ولكنه فى الأحوال الاستثنائية يلزم بيت المال ببعض الإعانات ، فالأصل فى النظام الاقتصادى الإسلامى أن يستغنى كل فرد بدخله ، وهو يجعل تيسير العمل وكفاية الأجر حقا على الدولة ، واجبا للأفراد . أما الإعانة من بيت المال فهى حالة استثنائية ، لا يقوم عليها النظام الاقتصادى فى الإسلام .

فإذا وجد فى المجتمع الإسلامى - بعد ذلك - أيامى فقراء وفقيرات ، تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوجه ، وكذلك العبيد والإماء ، غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقا عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه ، رجالا ونساء - فالرزق بيد الله^(٣١١) .

حق الولي في التزويج :

استدل الشافعية بظاهر قوله تعالى : **وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ** ... على أنه يجوز للولي أن يزوج البكر البالغة بدون رضاها ، لأنهم تأولوا الآية على أن الخطاب فيها للأولياء ، فقد جعلت للولي حق تزويج المرأة مطلقا سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، وسواء رضيت أم لم ترض ، ولولا أن أدلة أخرى جعلت للثيب أحق بنفسها ، لكان حكمها حكم البكر الكبيرة .

وأنت تعلم أنه ليس في الآية دليل على إهدار رضا الكبيرة ، ولا اعتباره ، لكن قوله ﷺ : «البكر تستأمر في نفسها وإذنها صماتها» ، يدل على وجوب استئذانها ، واعتبار رضاها ، فكان ذلك مخصصا للآية .

وكذلك استدلو بها على أن المرأة لا تلي عقد النكاح ، لأن المأمور بتزويجها وليها ، فلو جاز أن تتولى النكاح بنفسها ، لغوت على وليها ما جعله الله حقا من حقوقه ، ولكنك قد علمت أن الأولى حمل الخطاب في الآية على أنه خطاب للناس جميعا ، على معنى نديهم إلى المساعدة في النكاح والمعاونة عليه ، وعلى هذا فحكم مباشرة العقد ينبغي أن يؤخذ من غير هذه الآية^(٣١٢) .

إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ...

أغلقت السورة منافذ الحرام ، وفي نفس الوقت حثت على تيسير الزواج ، ووعدت المتزوج بالغنى والفضل من الله ، قال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية . وقال عمر -رضى الله عنه- : «عجبي ممن لا يطلب الغنى في النكاح ، وقد قال الله تعالى : **إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** ... وروى هذا المعنى عن ابن عباس -رضى الله عنهما - أيضا^(٣١٣) .

وأخرج الترمذی، والنسائی، وابن ماجة فى سننه : أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف» .

ونذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية ليست وعدا من الله بإغناء من يتزوج ، بل المقصود الحث على المناكحة، والنهى عن التعطل بفقر المستكحين ، فالمعنى : لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم ، أو فقر من تريدون تزوجها ، ففى فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح ، وليس النكاح مانعا من الغنى ولا سببا فى الفقر ، وما استقر فى الطباع من أن العيال سبب الفقر ، إن هو إلا ارتباط وهمى ، فقد ينمو المال مع كثرة العيال ، وقد يحصل الإقلال مع العزوبة ، والواقع يشهد بهذا ، وتحقيق ذلك : أن المراد ببيان أن النكاح ليس

مانعا من الغنى ، فعبر عن ذلك ببيان أنه سبب فى الغنى مبالغة ، على حد قوله تعالى : فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَبِهُوا فِي الْأَرْضِ ... (الجمعة : ١٠) . فإن ظاهر الأمر بالانتشار فى الأرض إذا قضيت الصلاة ، والمراد تحقيق زوال المانع ، وأن الصلاة إذا قضيت فلا مانع من الانتشار ، بما يقتضى طلب الانتشار مبالغة^(٣١٧) .
ويقول المودودى :

الآية فى بنائها وصية لأهل الفتاة ألا يرفضوا شابا حسن السيرة والخلق لمجرد فقره ، وصية للشباب نفسه ألا يرحى أمر زواجه انتظارا للمزيد من الغنى واليسر ، بل عليه أن يقدم على الزواج متوكلا على الله ، ولو كان كسبه قليلا أو غير يقينى ، فإن الزواج نفسه كثيرا ما يكون السبب فى إصلاح أحوال الإنسان ، فكثيرا ما يتغلب على نفقاته بمساعدة زوجته ، كما أنه بنفسه يرغب فى الجهود لكسب معاشه بعد الزواج ، أكثر مما يبذل قبله ، وقد تساعده زوجته فى كسب معاشه ، بل لا تدرى نفس ما هو المقدر لها ولغيرها فى المستقبل ، فكثيرا ما تتبدل أحوال الغنى واليسر بأحوال الفقر والبؤس ، وبالعكس ، فعلى الإنسان أن يتجنب الدقة فى الحساب فى هذا الباب^(٣١٨) .

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

أى : والله ذو سعة وغنى ، فلا انتهاء لفضله ولا حد لقدرته ، فهو يسع هذين الزوجين وغيرهما ، وهو عليم ببسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

ولا يعترض على ذلك بأن كثيرا من الفقراء يتزوجون ويستمر فقرهم ، ولا يبسط لهم فى الرزق ، ووعده الله لا يتخلف ، لأن وعد الله مشروط بالمشيئة ، كما هو الشأن فى قوله تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (التوبة : ٢٨) . ويرشد إلى إضمار المشيئة قوله تعالى : وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . فإن المناسب للمقام أن يقال «واسع كريم» لكنه عدل عنه إلى ما فى النظم الجليل ، ليفيد أنه يعلم المصلحة فيبسط الرزق لمن يشاء ، ويقدر لمن يشاء ، حسبما تقتضى به الحكمة والمصلحة «وإن من عبادى من لا يصلح له إلا الفقر ، ولو أغنيته لفسد حاله»^(٣١٩) .

العضاف

﴿وَلَيْسَتَعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَانُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تَكْرِهُوا فَبَيْعَتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتَغُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرِهِنَّ عُفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ (٣٢)

المضدرات :

وليستعفف ، وليجتهد فى العفة .

لا يجسدون ، لا يتمكنون من وسائله ، وهى المال وغيره .

الكتاب ، والمكاتب ، كالعقاب والمعاتبة ، يراد بها شرعا : إعتاق المملوك بعد أداء شيء من المال منجما ، أى : فى موعدين أو أكثر ، فيقول له : كاتبك على كذا درهم ، ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بما كسبه ، كما صار أحق بنفسه .

الفتيات ، واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة : العبد والأمة .

البغاء : الزنا .

التحصن : العفة .

لتبتغوا : لتطلبوا عرض الحياة ، أى : الكسب ، وبيع الأولاد .

التفسير :

٣٣ - وَلَيْسَتَعْفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... الآية .

هذه الآية حلقة من سلسلة الأحكام التى جاءت بها سورة الأحزاب وأكملتها سورة النور . فقد حثت الآية السابقة على الزواج ، وأمرت بتفسير سبله ، والمعاونة على إتمامه وإنجاحه ، حتى يتم الأمن والاستقرار للفرد وللأسرة والمجتمع .

وهنا يحث القرآن من عجز عن الزواج لأى سبب من الأسباب ، أن يبحث عن العفة ، وأن يتمسك بأسبابها ، ومن أسباب العفة غض البصر ، والبعد عن أسباب الفتنة والإثارة ، وشغل الذهن بعمل نافع كتلاوة القرآن والبحث العلمى والعمل المفيد .

وفى «إحياء علوم الدين» يذكر أبو حامد الغزالي خمس وسائل لتدريب الإنسان على الاستقامة ، وهى : المشاركة ، والمراقبة ، والمعاتبة ، والمحاسبة ، والمعاقبة .

فالمشاركة : أن يشرط على نفسه صباح كل يوم أن يستقيم ، ويبتعد عن أسباب المعصية ومهيجاتها . والمراقبة : أن يكون رقيقا على نفسه ، وأن يشعرها برقابه الله عليها . روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سار فى الصحراء فاشتد به الجوع ، فوجد عبدا يرعى أغناما ، فقال له : بعنا شاة نتغذى بها . فقال العبد : إن الشياه ليست لى ولكنها لسيدى ، فقال له عمر : قل له : أكلها الذنب ، فقال العبد : يا هذا ، فأين الله ؟ فاشتراه عمر وأعتقه ، وقال له : هذه كلمة أعتقتك فى الدنيا ، وأرجو أن تعتقك يوم القيامة .

والمعاتبة : أن يعاتب نفسه إذا قصرت فى واجبها ، أو انخرفت عن طريق الحق .

والمحاسبة : أن يحاسب نفسه كل ليلة فإن وجد خيرا حمد الله ، وإن وجد أنه ارتكب معصية أو تقصيرا فى حق الله لام نفسه ، وأشعر قلبه الندم ، وجدد العزم على التوبة والاستقامة .

والمعاقبة : هى عقوبة الإنسان لنفسه على الذنب ، بالصيام أو القيام أو التلاوة ، أو أى عقوبة يراها مناسبة .

وهذه المعانى يستشهد لها الغزالي بآيات من كتاب الله ، وأحاديث نبوية ، وأثار من هدى السلف . فالمراقبة يستشهد لها بقوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** . (النساء : ٦) . ويقول سبحانه : **مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** . (المجادلة : ٧) . وقد أقسم الله بالنفس اللوامة ، وهى التى تلوم صاحبها على الذنب وتحفه على التوبة ، قال تعالى : **لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ • وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ** . (القيامة : ١ ، ٢) .

ويقول سبحانه : **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ فَاسِيسًا** . (الإسراء : ١٤) .

وفى الأثر : «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا» (٣٣) .

ويقول تعالى : **أَحْضَنَهُ اللَّهُ وَتَسَوَّهَ ...** (المجادلة : ٦) .

ويقول تعالى : **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

العفة في الإسلام :

العفة سلوك عملي في الحياة للفرد والجماعة ، وهي مرتبطة بالتربية الإسلامية ، وباحترام القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام ، ومن هذه المبادئ ما يأتي :

١ - الإيمان بالله واليوم الآخر : وهذا الإيمان وحده ينبعث عنه أكمل الصفات الإنسانية والاجتماعية : من الإيثار، والتضحية، والحب، والرحمة، وإسداء الجميل، والتعاون على البر والتقوى ، واحتمال مشاق الجهاد ، والبذل في سبيل الحق والخير ، وإقرار المثل العليا في أرض الله^(٣٣٣).

٢ - الالتزام بأداب الإسلام وأداء فرائضه والتمسك بأحكامه ، فالإسلام نظام شامل يشمل البيت والمدرسة والمسجد والحياة كلها .

وتنحصر نواحي الإصلاح التي جاء بها الإسلام في هذه الأصول :

(أ) الربانية .

(ب) التسامي بالنفس الإنسانية .

(ج) تقرير عقيدة الجزاء .

(د) إعلان الأخوة بين الناس .

(هـ) النهوض بالرجل والمرأة جميعا، وإعلان التكافل والمساواة بينهما، وتحديد مهمة كل منهما تحديدا دقيقا .

(و) تأمين المجتمع بتقرير حق الحياة والملك والعمل والصحة ، والحرية والعلم والأمن لكل فرد، وتحديد موارد الكسب .

(ز) ضبط الغريزتين : غريزة حفظ النفس ، وغريزة حفظ النوع ، وتنظيم مطالب الغم والفرج .

(ح) تأكيد وحدة الأمة ، والقضاء على كل مظاهر الفرقة وأسبابها^(٣٣٤).

قال القرطبي :

١ - «استعفف» وزنه استغفل ، ومعناه : طلب أن يكون عفيفا ، فأمر الله تعالى بهذه الآية كل من تعذر عليه النكاح ، ولا يجده بأى وجه ، أن يستعفف ، ثم لما كان أغلب الموانع عن النكاح عدم المال ، وعد بالإغناء من فضله ، فيرزه ما يتزوج به ، أو يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق ، أو تزول عنه شهوة النساء .

٢ - ظن جماعة من المفسرين أن المأمور بالاستعفاف هو من عدم المال الذي يتزوج به ، وفي هذا القول تخصيص المأمورين بالاستعفاف ، وذلك ضعيف ، بل الأمر بالاستعفاف موجه لكل من تعذر عليه النكاح بأى وجه تعذر ، والله تعالى أعلم .

٣ - من تأقت نفسه إلى النكاح فإن وجد الطول فالمستحب له أن يتزوج ، وإن لم يجد الطول فعليه بالاستعفاف، فإن أمن بالصوم فإن الصوم وجاء^(٢٢٢) ، ومن لم تتق نفسه إلى النكاح فالأولى له التخلي لعبادة الله تعالى وفي الخبر : «خيركم الخفيف الحاذق^(٢٢٣) الذي لا أهل له ولا ولد» .

ولما لم يجعل الله بين العفة والنكاح درجة ، دل على أن ما عداهما محرم ، ولا يدخل في ذلك ملك اليمين ، لأنه بنص آخر مباح وهو قوله تعالى : **أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ... (النساء : ٣) فجاءت فيه زيادة ، ويبقى على التحريم الاستمناء رداً على أحمد ، وكذلك يخرج عنه نكاح المتعة بنسخه ، وقد تقدم هذا في أول «المؤمنون»^(٢٢٤) .

وقال القرطبي في أول سورة «المؤمنون» :

١ - قوله تعالى : **وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَلِيفُونَ** . (المؤمنون : ٥) . قال ابن العربي : من غريب القرآن أن هذه الآيات العشر عامة في الرجال والنساء ، كسائر ألفاظ القرآن التي هي محتملة لهم فإنها عامة فيهم ، إلا قوله : **وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَلِيفُونَ** . فإنما خوطب الرجال خاصة دون الزوجات ، بدليل قوله تعالى : **إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ... (المؤمنون : ٦) . وإنما عُرف حفظ المرأة فرجها من أدلة آخر كآيات الإحصان عموماً وخصوصاً ، وغير ذلك من الأدلة .

قلت : وعلى هذا التأويل في الآية ، فلا يحل لامرأة أن يطأها من تملكه إجماعاً من العلماء ، لأنها غير داخلية في الآية ، ولكنها لو أعتقته بعد ملكها له جاز له أن يتزوجها ، كما يجوز لغيره عند الجمهور^(٢٢٥) .

٢ - قال محمد بن عبدالحكم : سمعت حرمة بن العزيز قال : سألت مالكا عن الرجل يجلد عميرة ، فتلا هذه الآية : **وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَلِيفُونَ** . إلى قوله : **أَتَعَاذُونَ** . وهذا لأنهم يكونون عن الذكر بعميرة ، وفيه يقول الشاعر :

إذا حلفت بواك لا أنيس به فاجلد عميرة لا داء ولا حرج

ويسميه أهل العراق الاستمناء ، استفعال من المنى ، وأحمد بن حنبل على ورعه يجوز به ، ويحتج بأنه إخراج فضلة من البدن فجاز عند الحاجة ، أصله الفصد والحجامة ، وعامة العلماء على تحريمه .

وقال بعض العلماء : إنه كالفاعل بنفسه ، وهي معصية أحدثها الشيطان ، وأجراها بين الناس حتى صارت قبيلة ، وياليتها لم تقل ، ولو قام الدليل على جوازها لكان ذو المروءة يعرض عنها لدناءتها ، فإن قيل : إنها خير من نكاح الأمة ، قلنا : نكاح الأمة - ولو كانت كافرة على مذهب بعض العلماء - خير من هذا ، ولو كان قد قال به قائل أيضاً ، ولكن الاستمناء ضعيف في الدليل ، عار بالرجل الدنيء ، فكيف بالرجل الكبير .

طريق القرآن :

لقد وضع القرآن طريق التسامى بالغرائز ، والعفة والبعد عن المحرمات واجتناب الشبهات ، وحث المؤمن على أن يجاهد نفسه وهواه ، وأن يصبر على ترك المعصية قال تعالى : **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...**

وقد رسم القرآن من قصة يوسف مثلاً أعلى للعفة والنزاهة والصبر ، ثم جعل الله يوسف على خزانة الأرض . ولما تنبه إخوته له :

قَالُوا أَتُكَلِّمُنَا لَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٩٠) .

مكانة الرقيق :

وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ...

أى : والمالِك الأرقاء الذين يرغبون فى الكتابة - وهى العتق على مال معين - فينبغى أن تحقق رغبتهم فى الحرية ، إذا كان العبد قادرا على الكسب عن طريق شريف .

ولقد جاء الإسلام والرق ظاهرة اجتماعية سائدة ، ولو ألغى الإسلام الرق لأدى ذلك إلى اضطراب فى المجتمع ، لأن هؤلاء العبيد كانوا قد تعودوا على حياتهم ، ولأنه من الصعب أن يخسر المالك صفقة كبيرة من المال دفعة واحدة .

ولقد لجأ الإسلام إلى تشجيع المسلمين على تحرير الأرقاء ، فجعل عتق الرقبة كفارة لكثير من الأشياء ، مثل كفارة اليمين والظهار والغطر فى نهار رمضان ، وحث المؤمن على عتق الرقبة ابتداء تقربا لله ، قال تعالى : **فَلَا تَقْهَمِ الْعُقُوبَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقُوبَةُ * فُكِّ رَقَبَةٍ * أَوْ أُطْعِمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَرَةٍ . (البقرة : ١٧١ - ١٧٤) .**

والآية التى نفسرها تشجيع على المكاتبه ، وهى وسيلة عملية للتحرير .

١ - قال القرطبي :

الكتاب والمكاتبه سواء ، مفاعلة مما لا تكون إلا بين اثنين ، لأنها معاهدة بين السيد وعبده ، يقال : كاتب يكتب كتابا ومكاتبه ، كما يقال : قاتل قتالا ومقاتلة . فالكتاب فى الآية مصدر ، كالقتال والجلاد والدفاع . وقيل : الكتاب ها هنا هو الكتاب المعروف ، الذى يكتب فيه الشيء ، وذلك أنهم كانوا إذا كاتبوا العبد كتبوا عليه وعلى أنفسهم بذلك كتابا ، يطلبون العتق الذى يكتب به الكتاب فيدفع إليهم .

٢ - قال القاسمي :

والمكاتبية أن يقول السيد : كاتبك . أي : جعلت عتقك مكتوباً على نفسي ، بمال كذا تؤديه في نجوم كذا ، ويقبل العبد ذلك ، فيصير مالكا لمكاسبه ولما يوهب له ، وإنما يجب معه الإمهال ، لأن الكسب لا يتصور بدونه ، واشترط النجوم لئلا تخلو تلك المدة عن الخدمة وعوضها جميعا ، وقوله تعالى : **إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ...** أي : كالأمانة ، لئلا يؤذوا النجوم من المال المسروق ، والقدرة على الكسب والصلاح ، فلا يؤذى أحدا بعد العتق .

٣ - قال في (الإكليل) :

في الآية مشروعية الكتابة ، وأنها مستحبة ، وقال أهل الظاهر : واجبة لظاهر الآية ، وأن لندبها أو وجوبها شرطين : طلب العبد لها ، وعلم الخير فيه ، وفسره مجاهد وغيره بالمال والحرفة والوفاء والصدق والأمانة .

٤ - ظاهر الإطلاق في قوله تعالى : **فَكَاتِبُوهُمْ** . جواز الكتابة سواء أكان البذل حالا أم مؤجلا بنجم واحد أو أكثر ، وإلى ذلك ذهب الحنفية ، ومنع الشافعية الكتابة على بدل حال ، قالوا : إن الكتابة تشعر بالتنجيم فتغني عن التقييد ، وأيضاً لو عقدت الكتابة حالة توجهت المطالبة للمكاتب في الحال وليس له مال يؤدي منه ، فيعجز عن الأداء ؛ فيرد إلى الرق ولا يحصل مقصود الكتابة . وكذلك منع الشافعية الكتابة على أقل من خمسين ، وسندهم في ذلك أنه عقد إرفاق ومن تمام الإرفاق التنجيم ، ومع أن هذا الرأي مروى عن عمر وعثمان وابن عمر ، تراه خلاف ظاهر الآية ، ومستند الشافعية فيه ليس بالقوى^(١٢٧) .

وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَبْلَىٰ ...

أي : أعطوا - أيها السادة - المكاتبين شيئا من مال الله الذي أعطاكم ، وليس لكم فضل فيه ، فإن الله يريكم ورب عبديكم . وأعطوا - أيها الحكام - المكاتبين سهامهم ، التي جعلها الله لهم في بيت المال ، في مصارف الزكاة يقول الله تعالى : **وَلِيَّ الرِّقَابِ ...** (التوبة : ٦٠) أي : في تحرير الأرقاء ، وفيه الأمر لعامة المسلمين بأن يساعدوا بسعة قلوبهم ، أيما مكاتب يطلب منهم المعونة لأداء ما عليه من مال الكتابة .

الإكراه على البغاء :

وَلَا تَكْرِهُوا فَتَيٰسِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا لِّمَا تَكْتُمُونَ عَرَضَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنِ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

سبب النزول :

روى جابر بن عبد الله ، وابن عباس - رضی الله عنهم - أن هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي ، وكانت له جارتان ، إحداهما تسمى معاذة والأخرى مسيكة ، وكان يكرههما على الزنا ويضربهما عليه

ابتغاء الأجر وكسب الولد ، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ : فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين ، ومعاذة هذه أم خولة التي جادلت النبي ﷺ في زوجها^(٢٣٨) .

وقد وردت أكثر من رواية في سبب نزول الآية ، عن ابن عباس : أن أهل الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ، ويأخذون أجورهم ، فنهوا عن ذلك في الإسلام ونزلت الآية . وقيل : نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما على الزنا ، أحدهما عبدالله بن أبي ، وقيل : كان له ست جوار أكرههن على البغاء ، وضرب عليهن ضرائب ، فشكت اثنتان منهن : فنزلت الآية .

ولا سبيل إلى تخصيص الآية بمن نزلت فيه ، بل هي عامة في سائر المكلفين ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

البغاء في الجاهلية :

يطلق البغاء على الفجور ، أو بيع العرض وهو الزنا ، وكان البغاء في بلاد العرب على وجهين : البغاء في صورة النكاح ، والبغاء العام . ويمكن إلقاء ضوء عليهما فيما يأتي :

البغاء في صورة النكاح :

كانت تحترف به الجارية التي نالت حريتها وليس لها من يكفلها ، والحرّة التي ليس لها بيت أو أسرة تضمها . فكانت إحداهن تجلس في البيت ، وتعاهد في آن واحد عدة رجال على أن ينفقوا عليها ، ويقوموا بأمرها ، ويقضوا منها حاجاتهم ، فإذا حملت ووضعت ومَرَّ ليلال بعد أن تضع حملها ، أرسلت إليهم حتى يجتمعوا عندها ؛ فنقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت وهو ابنك يا فلان ، فتسمى من أحببت منهم باسمه ، فيلحق به ولدها ، فكان هذا وجهاً من وجوه النكاح التي يتناكح بها أهل الجاهلية قبل الإسلام ، وربما سمي زواج العشرة ، نسبة إلى عدد الرجال الذين يتعاهدون المرأة ويقضون منها حاجاتهم .

ومن أنواع الزواج في الجاهلية زواج البضع ، ومنه زواج الشغار ، وغير ذلك . فلما جاء الإسلام ؛ أبطل جميع وجوه النكاح الراتجة في أهل الجاهلية ، ولم يقرّ منها إلا الزواج المعروف ، الذي لا يكون للمرأة فيه إلا زوج واحد معلوم .

البغاء العام :

أما البغاء العام فإن معظمه كان يتم بواسطة الإماء ، وهو على وجهين أيضاً :

الأول : أن الناس كانوا يفرضون على الإماء الشابات مبلغاً كبيراً من المال يتقاضونه منهن في كل شهر ، فكان يكسبن بالفجور ، لأنه لم يكن في وجوههن طريق غيره لكسب هذا المبلغ الكبير .

الثاني : يتم بأن يجلس الناس الشباب من إيمانهم في الغرفات ، وينصبوا على أبوابهن رايات تكون علما لمن أراد أن يقضى منهن حاجته ، فكان هؤلاء النساء يعرفن بالقليقيات ، ويقال لبيوتهن : المواخير ، فكان لكثير من الرؤساء والوجهاء في العرب ، مثل هذه البيوت قبل الإسلام . وهذا عبدالله بن أبي رأس النفاق ، كان له ست إماء شابات جميلات يكرههن على البغاء طلبا لكسبهن ، ورغبة في أولادهن ليكثر منهم خدمه وحشمه ، وكان يقدمهن لمن ينزل عليه من الضيوف ، إرادة الثواب منهم والكرامة لهم . وقد ورد في سبب نزول الآية : أن إحدى هؤلاء الجوارى أسلمت وأرادت التوبة ، ولكن عبدالله بن أبي أجبرها على البغاء فأنزل الله - عز وجل - هذه الآية .

إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصُنَا ...

لقد حرم الله البغاء في جميع الظروف والأحوال ، ولكنه نص على هذه الحالة مراعاة لسبب النزول وزيادة في تقييد حالهم ، والتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لا يرضى بفجور من يحويه بيته من إمانه ، فضلا عن أمرهن بذلك وإكراههن عليه ، ولا سيما عند إرادة التعفف والرغبة فيه .

تَتَّبِعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...

أى : لا تفعلوا ذلك رغبة في متاع زائل من عرض الحياة الدنيا . والبغاء محرم أصلا سواء رغب في عرض الحياة الدنيا أم لم يرغب ، فليس هو مدار النهي ، «بل ذكر هنا لأنه المعتاد فيما بينهم ، كما قبله ، جيء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير ، لأجل النزر الحقيق ، أى : لا تفعلوا ما أنتم عليه من إكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال ، يعنى من كسبهن وأولادهن»^(٢٢٤).

وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن ، والذنب على المكره لهن . وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله ، لهن والله .

واختار بعض العلماء أن المعنى : فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لهم ، أى : للمكرهين ، وجعل ذلك مشروطا بالتوبة ، وهو تأويل ضعيف لأن فيه تهوين أمر الإكراه على الزنا ، والمقام مقام تهويل وتشنيع على المكرهين ، خاصة إذا أدركنا أن سبب النزول إسلام فتاة من فتيات عبد الله بن أبى : ورغبتها في الطهارة ، ثم إكراهها على الزنا .

فكان الآية تأخذ بيد هذه الفتاة المسلمة ، وترفع عنها ذلة الإثم والمعصية ، وتشجعها على التوبة والاستقامة ، ما دامت صادقة الإيمان مستمسكة بالإسلام .

في أعقاب الآية :

وردت أحاديث نبوية صحيحة ، تنهى عن البغاء وتحرم ثمنه ، وتحث على إغلاق أبواب هذه التجارة المحرمة ، وتلزم المسلم ألا يأكل من كسب الأمة إلا إذا كان كسبا حلالا ، وعملا شريفا . فالزنا في حد ذاته حرام ، ودفع المال للزانية حرام أيضا ، والإسلام بهذا يغلّق الأبواب أمام هذا الشر المستطير ، حتى يبحث المؤمن عن الزوجة والأسرة وإشباع العاطفة عن طريق مشروع .

روى الجماعة، والإمام أحمد في مسنده، عن أبي مسعود عقبة بن عمرو: أن النبي ﷺ حرم مهر البغي^(٣٣٠) .
وروى أبو داود ، والترمذي ، وأحمد ، والنسائي ، عن رافع بن خديج : أن رسول الله ﷺ قال عن مهر البغي - أي أجرة الزانية - : «إنه خبيث وشر المكاسب»^(٣٣١) .

وروى أبو داود في كتاب الإجارة ، عن رافع بن خديج أنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن كسب الأمة حتى يعلم من أين هو^(٣٣٢) .

وروى أحمد ، وأبو داود في كتاب الإجارة ، عن طارق بن عبد الرحمن القرشي ، قال : جاء رافع بن رفاعا إلى مجلس الأنصار فقال : نهانا نبي الله ﷺ اليوم ، فذكر أشياء ، ونهى عن كسب الأمة إلا ما عملت بيدها ، وقال هكذا بإصبعه نحو الخبز والغزل والنفش^(٣٣٣) .

★ ★ ★

آيات مبيّنات

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣٣٤)

التفسير :

٣٤ - وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ... الآية .

لقد أنزلنا إليكم في هذه السورة آيات تبين لكم الأحكام والحدود والشرائع التي مر ذكرها من بدء السورة إلى الآن ، فقد ذكرت الآيات السابقة قانون الزنا والقذف واللعان ، وأمر أهل الإيمان بمقاطعة الخبيثين والخبيثات في أمر الزواج ، وأمر الرجال والنساء بالغض من أبصارهم ، والحفظ لغروجهن ، وجاء فيها بيان حدود الحجاب للنساء ، ونُذِر فيها ببقاء الرجال والنساء بغير زواج ، وأمر فيها السادة بمكاتبة عبيدهم وإمائهم إذا طالبوهم بها ووجدوا فيهم خيرا ، وأمر فيها بتطهير المجتمع من لعنة الفجور وبيع الأعراض ، فبعد بيان كل هذه الأحكام يقول الله - عز وجل - :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ ...

أى : قد بينا لكم أحكامنا وتعاليمنا على الوجه الذى ينبغى أن نبينها للذين يريدون أن يسلكوا فى حياتهم الصراط المستقيم .

وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ...

أى : خبرا عظيما عن الأمم الماضية ، وما حل بهم بظلمهم وتعتديهم حدود الله .

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ .

أى : فيتعظون بها وينزجرون عما لا ينبغى لهم .

وجاء فى تفسير المراعى :

أى : ولقد أنزلنا آيات مبينات لما أنتم فى حاجة إليه من الأحكام والآداب ، كما أنزلنا قصصا من أخبار الأمم السالفة ، كقصة يوسف ، وقصة مريم ، وفيها شبه بقصص عائشة ، وفيها موعظة لمن اتقى الله وخاف عقابه وخشى عذابه (٣٦١) .

★ ★ ★

آية النور

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ تُونُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ يُكَلِّ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ (٣٥)

المضردات :

نور : أى : ذو نور ، أى : هو هاد أهل السماوات والأرض ، والمراد : العالم كله .

مشكاة : لفظ حبشى معرب ، يراد به الكوة غير النافذة .

الزجاج : القنديل من الزجاج .

السدرى، المضىء المتلألئ، منسوب إلى الدر .

لا شرقية ولا غربية، أى : ضاحية للشمس لا يظلمها جبل ولا شجر، ولا يحجبها عنها شيء من الشروق إلى الغروب .

يضرب الله الأمثال، يبين للناس الأشباه والأمثال .

تمهيد :

بعد أن ذكر - سبحانه - أنه أنزل في هذه السورة آيات مبينات لكل ما يحتاج إليه الناس في صلاح أمورهم، من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق، بيّن أنه نور السماوات والأرض، بما بث فيهما من الآيات الكونية، والآيات التي أنزلها على رسله .

التفسير :

٣٥ - اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... الآية .

لقد رفع الله السماء، وبسط الأرض، ونظم الكون، وأحكم قوانين الحياة .

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

أى : أنه - سبحانه - صيرهما منيرتين باستقامة أحوال أهلهما، وكمال تدبيره - عز وجل - لمن فيهما، كمال يقال : الملك نور البلد، كما قال الحسن ومجاهد والأزهري والضحاك وابن جرير^(١٣١) .

فإذا رأيت الشمس ساطعة تملأ الكون بالنور والدفء والضياء، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض، وإذا رأيت القمر هلالاً ثم يكبر فيصير بدراً كاملاً، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض، وإذا رأيت الأشجار والأزهار والبحار والطيور، والهواء والفضاء والليل والنهار، وكل شيء فى الكون يؤدى دوره بنظام وكمال ودقة، فذلك بفضل الله نور السماوات والأرض .

وفى الصحيحين، عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ضياء السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لا إله إلا أنت، وعذك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق»^(١٣٢) .

وكلمة «النور» تستعمل للعلم أيضاً، كما يعبر عن الجهل بالظلمة، فإله - سبحانه وتعالى - نور الكون بمعنى أنه لا يمكن أن تعرف الحقائق معرفة مباشرة فى هذا الكون إلا به - سبحانه وتعالى - وإلا فإنه لا يمكن أن يكون فيه شيء غير ظلمة الجهل والضلالة بدون الارتشاف من فيض كرمه وهديته .

وقال الزمخشري :

اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... أي : ذو نور السماوات ، وصاحب نور السماوات والأرض ، وأضاف النور إلى السماوات والأرض لأحد معنيين : إما للدلالة على سعة إشراقه وفشو ضوئه حتى تضيء له السماوات والأرض ، وإما أن يراد أن أهل السماوات والأرض يستضيئون بنوره أو به ، أي : هو النور ^(٢٢٧) .

الاتجاه إلى التجسيم :

قال هشام الجواليقي : إنه - سبحانه - نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام ، وبهذا قال طائفة من المجسمة ^(٢٢٨) .

وهذا اتجاه غريب على الفكر الإسلامي ، فالله تعالى علة العلل ، وهو - سبحانه - منزّه عن الكيف والطول والعرض ، وهو يخلق ولا يُخلق ، وهو يجير ولا يجار عليه ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) . فادعاء طائفة من المجسمة بأن الله نور لا كالأنوار ، وجسم لا كالأجسام خطأ فاحش .

وقد ادعى بعضهم أن لله يدا وفما وأضراسا ولهوات وغير ذلك - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وإذا علمنا أن آيات القرآن ذكرت أن لله يدا ووجها مثل : يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... (الفتح : ١٠) . ومثل قوله تعالى : وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٧) .

فإن الصحابة - رضوان الله عليهم - قد فهموا هذه النصوص على نحو يليق بذاته تعالى وأيقنوا أنها تشير إلى قدرة الله وجلاله وبقائه وسائر كمالاته .

ولذلك لم يؤثر أن أحدا من الصحابة سأل النبي ﷺ عن تفسير أي آية من هذه الآيات ، التي سميت بآيات الصفات ، لأنها تصف الله تعالى بالسمع والبصر والوقية وغيرها .

فهم المسلمون منها كمال الله وجلاله وقدرته ، وإحاطة علمه وسمعه ورؤيته لساكنات الموجودات ، ولم يسألوا عن تحديد ذلك ، بل أيقنوا بالإيمان بالله ووصفاته وكمالاته ، واستمر المسلمون على ذلك في حياة الخلفاء الراشدين ، ثم لما دخل في الإسلام كثير من أصحاب الديانات الأخرى ، وترجمت الفلسفة اليونانية ، رأينا أصحاب المذاهب المنحرفة التي كانت تنسب إلى الآلهة الجمال والشكل ، والقوام والحواس ، تسقط هذه المعاني على صفات الله تعالى في الفكر الإسلامي ، وكان اتجاهها منحرفا قاومه المؤمنون .

والآن يهيب العلماء بنا أن نعود إلى طريقة القرآن في التفكير ، فنصف الله تعالى بالكمالات بدون تشبيه ولا تجسيم .

يقول المودودي :

والمراد بالنور ما تظهر به الأشياء ، أى : ما كان ظاهرا بنفسه ومظهرًا لغيره ، هذا هو المفهوم الحقيقي للنور فى ذهن الإنسان . فهو يعبر بالظلام عن كيفية عدم رؤيته شيئا ، ويقول عندما يتبين له كل شيء : قد بدا النور ، فكلمة نُورٌ . إنما استعملت لله - تبارك وتعالى - باعتبار مفهومها الأساسى هذا ، ولم تستعمل بمعنى أن الله تعالى - والعباد بالله - شعاع يسير ١٨٦٠٠٠ ميل فى كل ثانية ، وينعكس على الشبكية فى العين ، ويؤثر فى مركز البصارة فى الدماغ . فهذه الكيفية المخصوصة للنور ليست بشاملة لحقيقة المعنى الذى قد اخترع له الذهن الإنسانى هذه الكلمة ، بل نطلق عليه هذه الكلمة باعتبار الأنوار التى تأتى تحت تجربتنا فى هذه الدنيا المادية ، فكل كلمة من كلمات اللسان الإنسانى إنما تستعمل لله - تبارك وتعالى - باعتبار مفهومها الأساسى ، لا باعتبار مدلولها المادى . فنحن نستعمل لله تعالى كلمة البصر مثلا ، فليس معناها أن له عضوا يسمى بالعين ويرى به كالأإنسان والحيوان . وكذلك نستعمل له كلمة السمع ، فليس معناها أنه يسمع بأذنيه كما يسمع الإنسان . وكذلك نستعمل له كلمة البطش والأخذ فليس معناها أن له آلة تعرف باليد فيأخذ بها كما يأخذ الإنسان بيده . فكل هذه الكلمات إنما تستعمل لله - تبارك وتعالى - على وجه الإطلاق لا بمعنى من المعانى المحدودة ، ولا تكاد نظن بالنسبة لرجل له مسكة من العقل أن يقول باستحالة أن يوجد للسمع والبصر والبطش شكل غير الشكل المحدود المخصوص الذى نعرفه فى هذه الدنيا . وعلى هذا ، إذا قيل عن «النور» إنه لا يوجد المصداق لمعناه إلا فى صورة ذلك الشعاع الذى يخرج من جرم لامع و ينعكس على غطاء العين: فإن هذا القول لا يكون إلا من خطأ الفهم وضيقه . إن كلمة «النور» لم تطلق على الله - سبحانه وتعالى - بهذا المعنى الضيق المحدود وإنما أطلقت عليه بمعناها المطلق الواسع غير المحدود ، أى : أن الله - سبحانه وتعالى - هو وحده «سبب الظهور» فى هذا الكون . أما الأجرام اللامعة التى ينبعث منها النور ، فما نالت نورها ولا هى تنور الكون إلا بالنور الذى قد أنعم به عليها الله - سبحانه وتعالى - وإلا فما عندها شيء يمكن أن تنور به غيرها^(٣٢١) .

والمراد بالنور لدى الأكثرين هو الهداية والحق ، كما قال فى آخر الآية : يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ . فشبهه بالنور فى ظهوره وبيانه ، وأضافه إلى السماوات والأرض ، للدلالة على سعة إشرافه حتى تضيء السماوات والأرض ، أو على حذف المضاف ، أى : نور أهل السماوات والأرض ، وقيل : نور السماء بالملائكة وبالأجرام المنيرة ، والأرض بها وبالأنبيا والعلماء ، وهذا القول مروى عن أبى بن كعب ، والحسن ، وأبى العالية^(٣٢٢) .

ومن هدى السنة نجد رسول الله ﷺ يتبذل فى دعائه لله الذى أضاء الكون ، وأبدع الوجود ، وهو - سبحانه - نور السماوات والأرض ، ويديع السماوات والأرض ، وحين ضاق النبى ذرعا بأهل مكة ، ذهب إلى الطائف يدعوا للإسلام ، فكذب أهلها وأذوه ، فعد يده إلى بارئ النسم وقال : «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي

وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت ربي ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، عافيتك هى أوسع لى»^(٢١١) .

ونور الله يدركه قلب المؤمن ، وتشف روحه بهداية السماء وعناية الرحمن . قال تعالى : أَقْمَنُ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ... (الزمر: ٢٢) .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثّل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثّل القرحة يمدّها الدم والقيح ، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»^(٢١٢) .

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ لِّى زُجَاجَةٌ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ...

مَثَلُ نُورِهِ : أَيْ : صِفَةُ نُورِهِ الْعَجِيبَةِ الشَّانِ .

قال ابن كثير :

مَثَلُ نُورِهِ : فِي هَذَا الضَّمِيرِ قَوْلَانِ :

الأول: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - أَيْ : مَثَلُ هَدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ .

والثاني : أَن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام ، تقديره : مثل نور المؤمن الذى قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه ، بالقنديل من الزجاج الشفاف ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالنزول الجيد ، الصافي المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

وقالوا أيضاً : إن الرسول ﷺ هو المشكاة أو صدره ، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهده ، والزجاج قلبه^(٢١٣) .

كَمِشْكَاةٍ . قال مجاهد: هى الكوة بلغة الحبشة ، وزاد بعضهم فقال: المشكاة الكوة التى لا منفذ لها . فِيهَا مِصْبَاحٌ . أَيْ : سَرَجٌ ضَخْمٌ ثاقِبٌ ، شَدِيدُ الإِضَاءَةِ وَقِيلَ : الْمَشْكَاةُ الْأَنْبُوبِيَّةُ فِي وَسْطِ الْقَنْدِيلِ ، وَالْمِصْبَاحُ الْفَتِيلَةُ الْمُسْتَعْلَةُ .

أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ . أَيْ : قنديل من الزجاج الصافي الأزهر .

أَلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ . أَيْ : متألئق وقاد شبيه بالدر في صفائه وزهرته .

جاء في ظلال القرآن :

وهذا مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود ، ويرسم النموذج المصغر ، الذي يتأمله الحس حين يقصر عن تملئ الأصل ، وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور ، حين يعجز عن تتبع مداه وأفاقه المتزامية ، وراء الإدراك البشري الحسير .

ومن عرض السماوات والأرض إلى المشكاة ، وهى الكوة الصغيرة فى الجدار غير النافذة ، يوضع فيها المصباح ، فتحصر نوره وتجمعه ، فيبدو قويا متألقا : كَمِشْكُورَةٍ فِيهَا مِصْبَاحُ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ... تقيه الريح وتصفى نوره ، فيتألق ويزداد . أَلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ... فهى بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة .. هنا يصل بين المثل والحقيقة ، بين النموذج والأصل ، حين يرتقى من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير ، كى لا ينحصر التأمل فى النموذج الصغير ، الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير^(٢١٤) .

قال أبو تمام يمدح المأمون :

إقدام عمرو فى سباحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

فقال له الفيلسوف الكندى وكان حاضرا : الخليفة فوق من مثله بهم .

فأنشد أبو تمام على الغور :

لا تنكروا ضرى له من دونه مثلا شرودا فى الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنورا مثلا من المشكاة والنبراس^(٢١٥)

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُسْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ...

أى : رويت ذبالته «فتيلة المصباح» بزيت شجرة زيتونة كثيرة المنافع ، زرعت على جبل عال ، أو صحراء واسعة ، فهى ضاحية للشمس ، لا يظلمها جبل ولا شجر ، ولا يحجبها عنها حاجب من حين طلوعها إلى حين غروبها ، فزيتها أشد ما يكون صفاء .

لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ...

أى : لا شرقية تقع عليها الشمس وقت الشروق فقط ، ولا غربية تقع عليها عند الغروب ، ولا تصيبها فى الغداة ، بل هى شرقية غربية ، تصيبها الشمس من حين طلوعها إلى حين غروبها ، كما يقال : فلان لا مسافر ولا مقيم ، إذا كان يسافر أحيانا ويقيم أخرى .

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ...

أى : هو لصفائه وبريقه ولمعانه ، كأنه يضيء بنفسه دون أن تمسه النار ، لأن الزيت إذا كان خالصا صافيا ثم زُي من بعد ، يرى كأن له شعاعا ، فإذا مسته النار ازداد ضوءا على ضوء .

كذلك قلب المؤمن يهتدى إلى الحق بفطرته ، ثم يأتيه العلم فيؤكد هدايته ويؤيدها .

قال يحيى بن سلام : قلب المؤمن ، يعرف الحق قبل أن يبين له ، لموافقته إياه ، وهو المراد من قوله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله »^(٢١٦) .

نُورٌ عَلَى نُورٍ ...

أى : هو نور مترادف متضاعف ، قد تناصرت فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت ، حتى لم يبق بقية مما يقوى النور .

قال القاسمي :

وليس معنى نُورٌ عَلَى نُورٍ ... نور واحد فوق آخر مثله ، ولا مجموع نورين اثنين فقط ، بل هو عبارة عن نور متضاعف كتضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكره ، فإن المصباح إذا كان فى مكان متضايق كالمشكاة ، كان أضوأ له وأجمع لنوره ، بخلاف المكان الواسع ، فإن الضوء ينثب فيه وينتشر ، والقنديل أعون شئ على زيادة الإنارة ، وكذلك الزيت وصفاءه ، وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها إشراقا ، مرتبة أخرى عادة .

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ...

يلهم الله المؤمن طريق الرشاد والحق ، فيتبعه المؤمن بالعمل والجد ، ولزوم الطاعة والبعد عن المعصية .

قال الرمخشى :

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ . من عباده إلى إصابة الحق ، من نظر وتدبر بعين عقله ، والإنصاف من نفسه ، ولم يذهب عن الجادة الموصلة إليه يميناً وشمالاً ، ومن لم يتدبر فهو كالأعمى ، الذى سواء عليه جنح الليل الدامس ، وضحوة النهار الشامس^(٢١٧) .

ويقول المودودى :

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ... أى : أن نور الله المطلق ، وإن كان ينور الكون كله ، ولكن لا يهتدى لإدراكه ، والارتشاف من فيض نعمته إلا من يوفقه - سبحانه وتعالى - وإلا فكما أن الأعمى سواء عليه الليل

والنهار ، كذلك فإن الإنسان الأعمى بصيرة لا يدرك نور الله ، ولو كانت الكهرباء والشمس والقمر والنجوم له نورا ، كأنه ليس له في الكون إلا الظلمة لا غير^(٢١٨) .

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ...

أى : ويسوق الله الأمثال للناس فى تضاعيف هدايتهم ، بحسب ما تدعو إليه حالهم ، لما فيها من الفوائد فى النصح والإرشاد إذ بها تتفتق الأذهان للوصول إلى الحق ، وبها تأنس النفس بتصويرها المعانى بصور المحسوسات التى تألفها وتدين بها .

قال القاسمى :

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ... أى : ليدنو لهم المعقول من المحسوس توضيحا وبيانا ، ولذلك مثل نوره المعبر عنه بالقرآن ، بنور المشكاة^(٢١٩) .

وقال الشوكاني :

وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ... أى : يبين الأشياء بأشباهاها ونظائرها تقريبا لها إلى الأفهام ، وتسهيلا لإدراكها لأن إبراز المعقول فى هيئة المحسوس ، وتصويره بصورته يزيده وضوحا وبيانا^(٢٢٠) .

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

فيعطى هدايته من يستحقها ، وفى هذا وعد وبشارة لمن تدبر الأمثال ووعاها ، ووعد وإنذار لمن لم يتفكر فيها ولم يكثرث بها ، فإنه لا يصل إلى الحق ولا يهتدى لطريقه .

قال ابن القيم :

وقد جعل الله تعالى القلوب كالآنية ، كما قال بعض السلف : القلوب آنية الله فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاهما ، والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه ، والشجرة المباركة هى شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهى مادة المصباح التى يتقد منها ، والنور على النور نور الفطرة الصحيحة ، والإدراك الصحيح ، ونور الوحي والكتاب ، فيضاف أحد النورين إلى الآخر ، فيزداد العبد نورا على نور ، ولهذا يكاد ينبطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر ، بمثل ما وقع فى قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع ، والفطرة والوحي ، فيرييه عقله وفطرته وذوقه ، أن الذى جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة ، بل يتصادقان ويتوافقان ، فهذا علامة النور على النور^(٢٢١) .

عمارة المساجد

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۚ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ ۚ وَالْأَبْصَارُ ۚ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ ﴿٣٨﴾ ﴾

المفردات :

البيوت ، المساجد .

أذن ، أمر .

أن ترفع ، أن تعظم وتطهر عن الأنجاس ، وعن اللغو من الأقوال .

يسبح ، ينزه ويقدس .

الغدو ، أول النهار .

الاصال ، واحدھا أصيل ، وهو العشى ، أى : آخر النهار .

تلهيههم ، تشغلهم وتصرفهم .

تجارة ، أى : قصد الربح المادى .

يسع ، أى : فرد من أفراد البياعات ، والربح فى البيع ناجز بالفعل ، فهو أدخل فى الإلهاء .

إقام الصلاة ، إقامتها لمواقيتها .

إيتاء الزكاة ، إخراج المال للمستحقين .

يخافون يوما ، أى : يوم القيامة

تستقلب ، تضطرب وتتغير من الهول والغزع .

تمهيد :

بعد أن ذكر تعالى نوره لعباده وهدايته إياهم ، بين هنا حال من حصلت لهم هذه الهداية .

التفسير :

٣٦ - في يُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ.

لقد بينت هذه الآية أن النور السابق، يستقر في بيوت طاهرة، عامرة بذكر الله، فيها رجال طهروا قلوبهم وحسنت أعمالهم، أي: كمشكاة في بيوت أمر الله بتطهيرها من الأنجاس الحسية والمعنوية، وأمر بذكره فيها، وإخلاص العبادة له.

واختار المفسرون أن المراد بالبيوت هنا: المساجد.

قال قتادة: هي هذه المساجد، أمر الله - سبحانه وتعالى - ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها.

وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطيبها وتبخيرها.

أخرج الشيخان، عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله؛ بنى الله له مثله في الجنة»^(١٢٦).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب^(١٢٧).

ونذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالبيوت في الآية: المساجد، أو بيوت المؤمنين، حيث يذكرون ويتدارسون.

قال أبو الأعلى المودودي:

وقد اختلف المفسرون في ما هو المراد بالبيوت في هذه الآية. فقال بعضهم: إن المراد بها: المساجد، وإن المراد برفعها: بناؤها وعمارتها وتعظيمها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق به، وقال بعضهم: إن المراد برفعها: رفعها من الوجهة المعنوية والأخلاقية. وظاهر ألفاظ: وَيُذْكَرُ فِيهَا أَسْمُهُ، وإن كانت تؤيد التفسير الأول أكثر مما تؤيد التفسير الثاني، ولكن إذا تأملنا علمنا، أن تأييدها للتفسير الثاني لا يقل عن تأييدها للتفسير الأول، لأن شريعة الله لا تحد العبادة في المساجد كما تحدّها الديانات التي فيها الكهانة، ولا يمكن أن تقام فيها طقوس العبادة بدون فرد من طبقة الكهنة والقسيسين. أما الإسلام، فكل بيت فيه معبد كالمسجد، وكل فرد من أفراد المسلمين قسيس لنفسه. فلما كانت معظم آيات هذه السورة تتعلق بتعليم المؤمنين، وهدايتهم إلى رفع حياتهم الأسرية: فإن التفسير الثاني أنسب وأليق بموضوع السورة عندنا من التفسير الأول، غير أننا لا نجد سبباً معقولاً لعدم قبول التفسير الأول، ولا ضير البتة إذا قلنا: إن المراد بالبيوت في الآية: المساجد وبيوت المؤمنين معاً.

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...

أى : يزنه الله تعالى ، ويقدسه فيها بالصلاة والعبادة .

بِالْغُدُوِّ . أى : صلاة الفجر ، وَالْآصَالِ : صلاة العصر ، وخصهما بالذكر لحضور الملائكة فى هذين الوقتين .

روى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، اقرأوا^(١٧١) إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) .

وهذه النسبة إلى أن المراد بالعبادة : صلاة الفجر ، وبالأصال : صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، وإنما وحد الغدو لأن صلاته واحدة ، وفى الأصال جمع أصيل وهو العشى^(١٧٢) .

هؤلاء الرجال لا تشغلهم تجارة فى السفر ، ولا بيع فى الحضر عن ذكر الله .

والتجارة والبيع لتحقيق الكسب والثراء ، ولكنهم مع شغلهم بهما لا يغفلون عن أداء حق الله فى الصلاة ، وأداء حق العباد فى الزكاة .

ولقد كان المؤمنون يسمعون الأذان : فيتركون تجارتهم وبيضاعتهم وبيعهم ويذهبون إلى المساجد لذكر الله ، فالؤمن خليفة الله فى الأرض ، يضرب فيها بالتجارة والزراعة والصناعة والعمارة ، ولا تشغله الدنيا عن أداء حق الله والاستجابة لدعوته .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . (المنافقون : ٩) .

روى عمرو بن دينار أن ابن عمر - رضى الله عنهما - كان فى السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ...

وقال عمرو بن دينار الأعمش : كنت مع سالم بن عبدالله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة ، وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس فيها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ... ثم قال : هم هؤلاء .

وقال مقاتل بن حيان : لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة ، وأن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها .

ونلاحظ أنهم رجال متوازنون ، يشتغلون بالتجارة والبيع ، ويحفظون إلى ذكر الله وإقام الصلاة ، ذكركم لله ليس عبادة خاوية ، بل عبادة متكاملة ، لأنهم يخرجون زكاة أموالهم ، ويتعاونون مع المؤمنين في إقامة المجتمع الفاضل ، ومساعدة المحتاج ومد يد العون للآخرين .

٣٧ - رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ جِنَّةٌ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ .

إنهم يؤدون الصلاة ، ويخرجون الزكاة ، ويقومون بتعاليم الإسلام رغبة فيما عند الله ، وخوفا من عقاب يوم تضطرب فيه الأفئدة من الهول والفرع ، وتشخص فيه القلوب والأبصار من الهلع والحيرة والرعب والخوف .

وقد عبرت آيات كثيرة عن أهوال يوم القيامة ، في الحشر والبعث والحساب ، والميزان والصراط . قال تعالى : يَتْلَاهَا النَّاسُ انْقَرَاءً رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج : ١٠ ، ٢١)

ثم بين مآل الرجال الصادقين وحسن عاقبتهم فقال :

٣٨ - لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَرْزُقهمُ مِّنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

إنهم رجال أتقنوا أعمالهم ، وترفعوا عن الدنيا ولم تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، فأدوا واجباتهم مرضاة لله ، وهنا تفيد الآية أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الله يتقبل حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم . وَيَرْزُقهمُ مِّنْ فَضْلِهِ ...

فيضاعف لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويتفضل عليهم بالرضا والرضوان ، قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

وفي الحديث القدسي : «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(٢٢٦) .

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

أى : يثيب من يشاء ثوابا لا يدخل في حساب الخلق ، فلا حدود لفضله ولا حساب لإحسانه ، إنه واسع العطاء كريم متفضل ، يعفو ويصفح ، ويقبل الحسنة ، ويكافئ عليها بعشر أمثالها ، ثم هو يضاعف لمن يشاء أضعافا مضاعفة ، بحسب نية المؤمن واجتهاده ، وإخلاصه ومرضاته لربه ، قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة : ٨) .

أعمال الكفار

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ دَفْقًا لَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات :

الـسـرـاب : ما يُرى في الغلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة، يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء .

الـقـيـعة : والقاع : المنبسط من الأرض .

الـظـمـان : شديد العطش .

لـجـى : أى : ذى لج (بالضم) ، واللج معظم الماء ، والمراد : بحر عميق الماء كثيره .

يـغـشـاه : يغطيه .

لم يكد يراها ، لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها .

تمهيد :

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين ، وأنهم فى الدنيا يكونون فى نور الله ، وفى الآخرة يفوزون بالنعيم المقيم ، والثواب العظيم . أردف ذلك ببيان حال الكفار ، فذكر أنهم فى الآخرة يكونون فى أشد الخسران والوبار ، وفى الدنيا فى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لـكلنا الحاليين مثلا للتوضيح والبيان .

التفسير :

٣٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ...

قيل : نزلت هذه الآية فى عتبة بن ربيعة بن أمية ، كان يترهب ملتصقا للدين فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام كفر به ^(٣٩٧) ، وكان بعض الكفار يعمل أعمالا نافعة ، كان بعضهم أئمة فى الكفر يدعون الناس إليه ويحسونهم عليه ، ويرجون ثوابا عليه فى الآخرة ، فبين الله لهم ضياع أعمالهم ، وبين أنهم فى الآخرة سيجدون عقاب الله أمامهم .

قال ابن القيم :

تشير الآية إلى أهل الجهل والظلم ، الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به الرسول ﷺ ، والظلم باتباع أهوائهم .

وهؤلاء يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال ، يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالون أهله ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون ، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائى السراب .

و«السراب» ما يرى فى الغلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة ، يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى .

و«القيعة» و«القاع» هو المنبسط من الأرض الذى لا جبل فيه ولا وادى .

شبه علوم الكفار وأعمالهم ، بسراب يراه المسافر فى وقت شديد الحر ، فيؤممه ، فيخيب ظنه ويجده نارا تلتظى . فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم ، إذا حُشِرَ الناس واشتد بهم العطش ، بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء ، فإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب .

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . (الكهف: ١٠٣ ، ١٠٤) .

وهم الذين عنى بقوله : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا . (الفرقان : ٢٣) .

وهم الذين عنى بقوله تعالى : كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ آثَارٍ . (البقرة : ١٦٧) .

وخلاصة الآية :

أن الخيبة والخسران فى الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال فى الدنيا ، كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين، وقرى الأضياف ونحو ذلك ، وظنوا أنها تنجيهم من عذاب ربهم، وهم مع ذلك جاحدون بوحدانيته مكذبون لرسله ، فما مثلهم إلا مثل من اشتد عطشه ورأى السراب فخاله ماء ، وظن أنه قد وجد ضالته فسعى إليه ، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ورجع بخفى حنين .

وفى الصحيحين : أنه يقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزيز ابن الله ، فيقال : كذبتُم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : يارب ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا ، فينطلقون فيتهافتون فيها^(٢٤٨) .

٤ - أَوْ كَظَلَمْتَ فِي بَحْرِ نَجَى يَغْتَسُهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ...

أى : مثل أعمالهم التى غُملت على غير هدى ، مثل ظلمات مترادفة فى بحر عميق ماؤه ، بعيد غوره ، يغطيه موج من فوقه موج من فوقه سحاب .

فالظلمات هى أعمال الكافرين ، والبحر اللجى قلوبهم التى غمرتها الحيرة والضلالة ، فلا تعقل ما فى الكون من آيات ، ولا تسمع عظة الناصحين ، ولا تبصر حجج الله ، فتلك ظلمات بعضها فوق بعض .

قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل .

وقال ابن عباس : هى ظلمة قلبه وبصره وسمعه .

والخلاصة : أن الكافر لشدة إصراره على كفره ، تراكمت عليه الضلالات ، حتى إن أظهر الدلالات إذا ذكرت عنده لا يفهمها ، فقلبه مظلم ، فى صدر مظلم ، فى جسد مظلم .

ظَلُمْتَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ...

ظلمة البحر اللجى ، وظلمة الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله .

إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ، لَمْ يَكَدْ يَرِهَا ...

أى : إذا أخرج يده - وهى أقرب ما يرى إليه - لم يقرب أن يراها ، فضلا عن أن يراها .

وقالت طائفة من النحاة : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد ، وفى ذلك إثبات رؤيتها ، بعد أعظم العسر لأجل تلك الظلمات^(٢٤٤) .

وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ .

أى : ومن لم يرزقه الله إيمانا وهدى من الضلالة ، فما له هداية من أحد .

جاء فى ظلال القرآن :

والتعبير فى الآيتين يرسم لحال الكافرين مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة :

فى المشهد الأول : يرسم أعمالهم كسراب فى أرض مكشوفة مبسطة ، يلتمع التماعا كاذبا فيتعبه صاحبه الظامى ، وهو يتوقع البرى غافلا عما ينتظره هناك .. وفجأة يتحرك حركة عنيفة .. فهذا السائر وراء السراب ، الظامى الذى يتوقع الشراب ، الغافل عما ينتظره هناك .. يصل فلا يجد ماء يرويه ، إنما يجد

المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال ، المربعة التي تقطع الأوصال وتورث الخبال : وَجَدَ اللَّهُ عِذَّهُ ، الله الذي كفر به وجده ، وخاصمه وعاداه ، وجده هنالك ينتظره ، ولو وجد في هذه المفاجأة خصما له من بنى البشر لرؤعه ، وهو ذاهل غافل على غير استعداد ، فكيف وهو يجد الله القوى المنتقم الجبار .

فَوَفَّلَهُ حِسَابَهُ ... هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغطة والمفاجأة ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . تعقيب يتناسق مع المشهد الخاطف المرتاع .

وفي المشهد الثاني: تطبق الظلمة بعد الالتماع الكاذب ، ويتمثل الهول في ظلمات البحر اللجى ، موج من فوقه موج من فوقه سحب ، وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى لتخرج يده أمام بصره فلا يراها لشدة الرعب والظلام .

إنه الكفر ، ظلمة منقطعة عن نور الله الفائض في الكون ، وضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى ، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار .

وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . ونور الله هدى في القلب ، وتفتح في البصيرة ، واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض ، والتقاء بها على الله نور السماوات والأرض ، فمن لم يتصل بهذا النور فهو في ظلمة لا انكشاف لها ، وفي مخالفة لا أمن فيها ، وفي ضلال لا رجعة منه ، ونهاية العمل سراب ضائع ، يقود إلى الهلاك والعذاب ، لأنه لا عمل بغير عقيدة ، ولا صلاح بغير إيمان ، إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور ^(٣٦) .

ويقول أبو الأعلى المودودي :

والله تعالى قد ضرب ههنا مثلين للكفار والمنافقين :

ففي المثل الأول : بين حال أولئك الذين قد يأتون بأعمال حسنة على كفرهم ونفاقهم ، ويقولون بالحياة الآخرة في جملة معتقداتهم ، ويظنون أن مجرد أعمالهم الظاهرة - مع كونهم لا يؤمنون بصدق قلوبهم ، ولا يتصفون بصفات أهل الإيمان ، ولا يتبعون الرسول في ما يأمرهم به أو ينهاهم عنه - سوف تتقدمهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة . فإله تعالى بضربه هذا المثل يبين لهؤلاء أن هذه الأعمال الظاهرة التي يرجون عليها النفع في الآخرة ليست في حقيقتها إلا كسراب في الصحراء . فكما أن الظمان يحسب السراب ماء في الصحراء ويقصده ليشرب منه ، كذلك إن هؤلاء الكفار والمنافقين يقطعون مسافة الحياة الدنيا لينتهوا إلى حياتهم الآخرة ، لا يعتمدون في ذلك إلا على أعمالهم الكاذبة ، ولكن كما أن الظمان الذي يسرع إلى السراب في الصحراء ليشرب منه ولا يجده شيئا عندما ينتهي إليه ، كذلك فإن هؤلاء الكفار

والمنافقين عندما يدخلون منزل الموت بعد حياتهم الدنيا ، لا يجدون فيه عملا من أعمالهم ينقذهم من بطش الله تعالى وعذابه ، بل سوف يجدون الله تعالى ليوفيه حسابهم ، ويجازيهم على كفرهم ونفاقهم وسيئاتهم التي كانوا يعملونها فى حياتهم الدنيا مختلطة ببعض الحسنات الظاهرة .

وفى المثال الثانى : وهو يبدأ من قوله : **أَوْ كَظَلَّمْتِ... يبين الله تعالى حال جميع الكفار والمنافقين** ، وفيهم من قد مر ذكرهم فى المثال الأول . فאלله تعالى يقول عن هؤلاء جميعا أنهم لا يقضون حياتهم من بدنها إلى آخرها إلا فى حالة الجهل الكامل ، ولو كانوا حسب اعتبارات الدنيا كبار علمائها وأساتذتها الذين قد سبقوا سائر أهلها فى الفنون والعلوم والاختراع . ولكن مثلهم - حسب بيان القرآن - كمثّل رجل يعيش فى مكان ليس فيه إلا الظلمة ، ولا ينغذ إليه من أى جوانبه شعاع واحد من النور . فيظن هؤلاء أن العلم إنما هو عبارة عن اختراع القنبلة الذرية أو قنبلة الهيدروجين أو الصاروخ الطائر إلى القمر ، وأن المهارة فى الاقتصاديات والماليات والقانون والفلسفة هى العلم .. ألا إن العلم الحقيقى هو شىء آخر ليسوا على أدنى إلمام بألفه وبائه ، فهم على الجهل المحض باعتبار هذا العلم ، حيث إن رجلا من البدو هو أعلم منهم إن كان سعيذا بمعرفة الحق .

وقوله تعالى : **وَهَنَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ** . فيه يبين الله تعالى مقصوده الحقيقى الذى مهد له الكلام من قوله : **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...** فلما لم يكن فى الكون كله نور غير نور الله تعالى فى حقيقة الواقع ، ولا تظهر فيه الحقائق إلا بنوره ، فهل يكون فى غير الظلمة التامة من كان لم يجعل الله له نورا من عنده ؟ إن هدى الله هو الهدى ، وإن نور الله هو النور^(٣٩) .

من دلائل الألوهية

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفَافًا ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٤٢
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُرُ قُوَّةٍ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ۝٤٣ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝٤٤ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤٥ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مُبِينًا ۖ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٤٦﴾

المفردات :

ألم تر أن الله يسبح له .. الصلاة لبني آدم ، والتسبيح صلاة غيرهم من الخلق ، ويجوز أن يكون التسبيح بلسان الحال ، بمعنى : أن جميع من فى الكون ينطق بقدرة الله الخالق المبدع لهذا الكون .

والطير صافات ، فى الهواء تسبح ربها .

كل قد علم : كل من ذكر من الخلق قد علم .

صلاته وتسبيحه : الذى كلفه وألزمه ، أو كل قد علم الدور الذى يقوم به فى ناموس هذا الكون ، مما يدل على عظمة الإله ، فهو تسبيح بلسان الحال أو بلسان المقال ، وقيل : كل مصلٍّ ومسبح منهم قد علم الله صلاته وتسبيحه .

يزجي سحابا : يسوق سحابا .

ثم يؤلف بينه : يجمع كل مفترقه .

ثم يجعله ركاما : متراكما بعضه على بعض .

فترى الودق يخرج من خلاله ، الودق : المطر ، من خلاله : من خلال السحاب .

وينزل من السماء من جبال ، فى السماء مخلوقة هناك .

من ———— رد ، هن من برد ، كما يقال : جبال من طين .

ف———— ييب ، يعذب به ، ويجوز أن يكون المعنى : يغيث به ، ويرحم به .

ويصرفه عن يشاء ، رحمة بهم ، أو عقابا لهم .

يكاد سنا برقه ينهب بالأبصار ، يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار .

التفسير :

تشتمل هذه الآيات على ألوان من قدرة الله (٣٦) سبحانه وتعالى :

٤١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفَفَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ .

إن الكون جميعه خاضع لقدرة الله ، فالسما عالىة ، والأرض مبسوطه ، والجبال راسية ، والليل مظلم ، والنهار مضىء ، والشمس سراج ، والقمر نور ، والنجم زاهر ، والهواء والفضاء والسحاب والنبات والإنسان والحيوان ، كل ما خلقه الله ، له رسالة يؤديها فى هذا الكون ، ولسان حاله ينطق بقدرة الصانع سبحانه ، كل مخلوق له صلاة يؤديها ، وتسبيح يقوم به ، وكان النبی ﷺ يسمع تسبيح الحصى بين يديه ، وكان داود - عليه السلام - يسمع تسبيح الجبال وترديدها لدعائه وصلاته ، أو كل قد علم الله صلاته وتسبيحه على اختلاف ألستهم وأدوارهم قد علم وسمع صلاتهم وتسبيحهم ، وهو العليم بكل ما كان وما يكون فى هذا الكون .

٤٢ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

بيد الله ملك السماء وما فيها ، ويده ملك الأرض وما عليها ، وإليه المصير يوم القيامة حيث يرجع إليه الخلائق أجمعون ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . (الملففين : ٦) .

وينادى الرب - جل جلاله - : لَمَنْ أَمْلَكُ الْيَوْمَ . فيكون الجواب : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

٤٣ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيَهْبِطُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ .

إن يد الله تزجى السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان ، ثم يؤلف بينه ويجمع بين متفرقه ، فيقطع القطع المتفرقة قطعة واحدة ! فتشاهد المطر ينزل من خلال السحاب ، والسحب فى تراكمها فوق بعضها

أشبه بالجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة .. ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة ، وهى تعلق فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقا ، بخصامتها ومساقطها ، وارتفاعها وانخفاضها ، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الإنسان إلا بعدما ركب الطائرات .

وهذه الجبال مسخرة بأمر الله ، وفق ناموسه الذى يحكم الكون ، ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء ، ويصرفه عن يشاء .. وتكلمة المشهد الضخم : يَكَاذُ سَنَا بَرَقَ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ . يضئ البرق بشدة وسرعة ، حتى ليكاد البرق أن يخطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة ، إذ فيه توليد الضد من الضد ، ففيه توليد النار من الماء .

٤٤ - يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالتَّهَارُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ .

يتتابع الليل وراء النهار ، والنهار وراء الليل فى حركة مستمرة ، ويزيد الليل فى الشتاء وينقص فى الصيف ، ويختلف الليل والنهار وتتغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ، والزيادة والنقصان .

وفى مظهر الشروق والغروب والضحي والظهيرة عبرة لأصحاب البصيرة ، إذ يتأملون فى مظاهر هذا الكون ، وتنفس الصباح ، وتشابه النجوم ، وتألّق البدر ، فيتجدد إحساسهم مع التأمل والتفكير والتدبر فى بديع صنع الله .

٤٥ - وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

خلق الله كل حيوان يذب على الأرض من ماء مخصوص هو النطفة ، وفيه تنزيل للغالب منزلة الكل : لأن من الحيوانات ما لا يتولد من نطفة .

أو كل حيوان خلق من ماء هو جزء مادته ، وخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور احتياج الحيوان إليه ولاسيما بعد كمال تركيبه .

ثم فصل أقسام الحيوان مما يذب على وجه الأرض ، فقال :

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ... كالحيات والسملك، وغيرهما من الزواحف .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ... كالإنسان والطيور .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ... كَالْأَنْعَامِ وَالْوَحُوشِ .

يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ...

غير مقيد بشكل ولا هيئة ، فاختلاف هذه الحيوانات في الأعضاء والقوى ، ومقادير الأبدان والأعمال

والأخلاق ، لا بد أن يكون بتدبير إله قادر عليم حكيم .

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فهو الخالق المبدع ، الذى قدر فهدى ، والذى خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى .

٤٦ - لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

لقد أبدع الله آيات الخلق وأحكم صنع هذا الكون ، وأنزل على عباده آيات القرآن واضحة ، تذكرهم

ببديع صنع الله ، وتفتح قلوبهم وعقولهم على أسرار هذا الكون وجميع مشاهدته ، فمن تأمل فى هذا الخلق،

أيقن أن وراء الصنعة البديعة ، صانعاً قادراً هورب العالمين .

مرض ونفاق

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نَقْصِمُكُمْ أَطَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنْ اللَّهُ خَيْرٌ لِّمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

المضردات :

يَتَوَلَّوْنَ : يعرض .

مُذْعِبِينَ : منقادين .

مَرَضٌ : أى : فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال .

ارْتَابُوا : شكوا فى نبوتك .

يَحِيفُ : يجرى .

الظَّالِمُونَ : الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم .

وَيَخْشَى اللَّهَ : أى : فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى .

وَيَتَّقُهُ : أى : فيما بقى من عمره .

جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ : أى : أقصى غايتها ، من قولهم : جهد نفسه ، إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها .

تَوَلَّوْا : أى : تتولوا ، بحذف إحدى التاءين .

تمهيد :

بعد أن ذكر - سبحانه - الأدلة الواضحة على توحيدِهِ وأتمَّ بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها، وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيقولون : آمنا بالله وبالرسول ، ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا ، وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا ما دعى إلى الله والرسول : قال : سمعا وطاعة ، ثم بين بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها . فمنها أنهم يحلفون أغلظ الإيمان أنهم مطيعون للرسول فى كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراء ، ثم أمر الرسول بشيهم عن الحلف والإيمان ، لأن طاعتهم معروفة لا تحتاج إلى يمين ، وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقاً لا رياء ، فإن أبيتم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطمعتمونى اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق، دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ، ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ، ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودى : فلم يرض المنافق بقضائه ﷺ ، فقال : نتحاكم إلى عمر - رضى الله عنه - فلما ذهب إليه ، قال له اليهودى : قضى لى النبى ﷺ فلم يرض بقضائه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : بلى . فقال : مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل - رضى الله عنه - بيته ، وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ .

التفسير :

٤٧ - وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ .

أى : ويقول هؤلاء المنافقون ، صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الرسول ، ثم يخالفون ذلك فيعرضون عن طاعة الله ورسوله ضلالاً منهم عن الحق ، وما أولئك بالمؤمنين المخلصين الثابتين على الإيمان ، بل هم ممن فى قلوبهم مرض وقد مرنوا على النفاق ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

وخلاصة ذلك : لا يدخل فى زمرة المؤمنين من يقول : آمنا بالله والرسول وأطعنا ، ثم يعرض عما تقتضيه الطاعة ، وينحاز إلى غير المؤمنين .

ثم بين هذا التولى بقوله :

٤٨ - وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ .

أى : وإذا دعى هؤلاء المنافقون إلى كتاب الله ورسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه بحكم الله : أعرضوا عن قبول الحق ، واستكبروا عن اتباع حكمه ؛ لأنه لا يحكم إلا بالحق .

ونحو الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . (النساء : ٦٠ - ٦١) .

٩ - وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ .

أى : وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاءوا إلى الرسول مطيعين ، لعلمهم بأنه يحكم لهم ، لأنه لا يحكم إلا بالحق ، فإذعانهم لم يكن عن اعتقاد بأن حكمه الحق ، بل لأنه وافق هواهم ، ومن جراء هذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره .

ثم فصل ما يحتمل أن يكون السبب فى عدولهم عن قبول حكمه ﷺ .

٥٠ - أَفَبَىٰ قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْأَوْا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ...

أى : سبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷺ أنهم مرضى القلوب بالكفر والنفاق ، أم سببه أنهم ارتابوا وشكوا فى ثبوته ﷺ على ظهور أمرها ؟ أم سببه أنهم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم ؟
وخلاصة ذلك : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم بالكفر والنفاق ، أو عروض شك فى الدين ، أو خوف من أن يجور الله ورسوله عليهم ، وأيا كان الأمر فهو كفر وضلال ، والله عليم بما انطوت عليه قلوبهم من المرض .

ثم أبطل السببين الأولين وأثبت الثالث فقال :

بَلْ أَوَّلَتْ لِكُمْ هُمُ الظَّالِمُونَ .

أى : ليس العدول إلا للسبب الأول فحسب ، فهم ما عدلوا إلا لما فى قلوبهم من المرض والنفاق ، وظلمهم لأنفسهم بمخالفة أمر ربهم ومعصيتهم له فيما أمرهم به من الرضا بحكم رسوله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا ، والتسليم لقضائه .

وبعد أن نفى عنهم الإيمان الحق ، بين صفات المؤمن الكامل ، فقال :

٥١ - إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى : ينبغى أن يكون قول المؤمنين إذا دعاهم الداعون إلى حكم الله ورسوله فيما بينهم وبين خصومهم : سمعنا كلامكم وأطعنا أمركم ، وأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل خوف .

وبعد أن رتب الفلاح على هذا النوع من الطاعة أتبعه ببيان أن كل طاعة لله ورسوله موجبة للفوز فقال:

٥٢ - وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ .

أى: ومن يطع الله ورسوله فيما أمراه به ، وترك ما نهياه عنه ، ويخش الله فيما صدر منه من الذنوب فيحمله ذلك على الطاعة وترك المعاصي ، ويتقاه فى مستأنف أموره ، فأولئك الذين وصفوا بكل هذا هم الفائزون برضاه عنهم يوم القيامة ، والأمنون من عذابه .

ثم حكى سبحانه نوعا آخر من أكاذيب المنافقين بقوله :

٥٣ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنِ أَمَرْتَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ ...

أى: وحلفوا بالله جاهدين أيمانهم بالغين غايتها ، لئن أمرتهم بالخروج للجهاد والغزو: ليلبُن الطلب وليخرجن كما أمرت .

والخلاصة: أنهم أغفلوا الأيمان وشدوها فى أن يكونوا طوع أمرك ورهن إشارتك، وقالوا: أينما تكن نكن معك ، فإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا . فرد الله عليهم وزجرهم عن التفوه بهذه الأيمان الفاجرة ، وأمره أن يقول لهم :

قُلْ لَا تَقْسِمُوا ...

أى: قل لهم : لا تحلفوا ، فإن العلم بما أنتم عليه لا يحتاج إلى قسم ويمين لوضوح كذبه . ثم علل النهى عن الحلف بقوله :

طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ...

أى: لا تقسموا لأن طاعتكم معروفة لنا ، فهى طاعة باللسان فحسب ، من غير مواطاة القلب لها ، ولا يجهلها أحد من الناس .

ونحو الآية قوله : يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِئَرْضَا عَنْهُمْ إِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . (التوبة: ٩٦) .

وقوله : اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . (المجادلة: ١٦) .

ثم هددهم وتوعدهم على أيمانهم الكاذبة ، وأنه مجازيهم على أعمالهم السيئة ، ولاسيما ذلك النفاق المفضوح ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : أنه تعالى لا تخفى عليه خافية من ظاهر أعمالكم وخافيتها ، فيعلم ما تظهرونه من الطاعة المؤكدة بالآيمان الكاذبة ، وما تبطنونه من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين ، ونحو ذلك من أفاعين الشر والفساد التى دبّرتموها .

ولما نبه سبحانه إلى خداعهم ، وأشار إلى عدم الاغترار بآيمانهم : أمر بترغيبهم مشيراً إلى الإعراض من عقوبتهم بقوله :

٥٤- قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ...

أى : مرهم باتباع كتاب الله وسنة رسوله ، وفى هذا إيماء إلى أن ما أظهره من الطاعة ليسوا منها فى شىء .

ثم أكد الأمر السابق ، وبالحق فى إيجاب الامتثال به ، والحمل عليه بالترغيب والترهيب بقوله :

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ...

أى : فإن تولوا عن الطاعة بعد أن أمركم الرسول بها ، فما ضررتم الرسول بشىء ، بل ضررتم أنفسكم ، لأنه عليه ما أمر به من تبليغ الرسالة وقد فعل ، وعليكم ما أمرتم به من الطاعة ، فإن أنتم لم تفعلوا وتوليتهم فقد عرضتم أنفسكم لسخط الله وعذابه ، وإن أطيعتموه فقد خرجتم من الضلال إلى الهدى ، فالنفع والضرر عائدان إليكم .

وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ .

أى : وإن طيعوا الرسول فيما أمركم به ونهاكم عنه : تهتدوا إلى الحق الموصل إلى كل خير ، المنجى من كل شر ، وما الرسول إلا ناصح وهاد ومبلغ لكم ، فإن أطيعتموه لحظوظ أنفسكم أصبتم طريق الصواب ، وإن خالفتموه أوقعتم أنفسكم فى الهلكة .

والخلاصة : أن الرسول فعل ما يجب عليه من أداء الرسالة ، وقد بقى ما يجب عليكم أن تفعلوه .

ونحو الآية قوله : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠) . وقوله : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * كُنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْطَفٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

استخلاف المؤمنين

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا
 اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن
 بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُم
 الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾

تمهيد :

بعد أن بين الله تعالى أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجازاه دار
 النعيم ، أردف ذلك وعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء في الأرض ، ويؤيدهم
 بالنصرة والإعزاز ، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمناً ، فيعبدون الله وحده وهم آمنون ، ومن جحد هذه
 النعم من بعد ذلك فقد عصى ربه ، وكفر أنعمه .

روى الطبراني، والحاكم، وابن مردويه، عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وصحبه المدينة
 وآتهم الأنصار : رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه ،
 فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبني أمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية .

التفسير :

٥٥ - وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ... الآية.

أي : وعد الله المؤمنين منكم المصلحين لأعمالهم ، ليورثنهم أرض الشركيين من العرب والعجم،
 وليجعلنهم ملوكها وساستها ، كما استخلف بنى إسرائيل بالشام حين أهلك الجبابرة وجعلهم ملوكها
 وسكانها .

وقد وثق سبحانه بوعده ، فإنه لم يمض وقت ﷻ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة
 العرب، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم ، والمقوقس في
 مصر ، والنجاشي ملك الحبشة .

ولما قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، قام بالأمر من بعده الخلفاء الراشدون ، فنهجوا منهجه ، وافتتحوا
 كثيرا من المشرق والمغرب ، ومزقوا ملك الأكاسرة ، وملكو خرائنهم ، واستعبدوا أبناء القياصرة ، وصدق قول
 رسوله : «إن الله زوى لى الأرض ؛ فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمى ما زوى لى منها» (٣٦٤) .

وَلَيَكُنَّ لَهُمْ فِيهِمْ الَّذِينَ أَرْضَى لَهُمْ ...

أى : وليجعلن دين الإسلام راسخا قويا ثابت القدم ، ويعظم أهله فى نفوس أعدائه الذين يواصلون الليل بالنهار فى التدبير لإطفاء أنواره ، لتعفو آثاره .

وَلَيَكُنَّ لَهُمْ مَنْ يَغْفِرُ لَهُمْ أَمْثًا ...

أى : وليغيرن حالهم من الخوف إلى الأمن ، قال الربيع بن أنس : كان النبی ﷺ وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له ، وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين ، يُمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ما شاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال : يا رسول الله ، أبدأ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : «لن تصبروا إلا سيرا ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة» . فأنزل الله : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ... إلى آخر الآية .

ونحو الآية قوله تعالى : وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَظْفَرُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخطفَكُمُ النَّاسُ فَأُولَئِكَمْ وَأَيْدِكُمْ يَبْصُرُهُ وَرَزَقَكُم مِّنَ السَّمِیْنِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (الأنفال : ٢٦) .

ثم أتبع ذلك بتعليل التمكين وما بعده بقوله :

يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ...

أى : يعبدوننى غير خائفين أحدا غيرى .

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

أى : ومن جحد هذه النعم فأولئك هم الذين أنكروا فضل المنعم بها ، وتناسوا جليل خطرها .

رأى المودودى فى استخلاف المؤمنين الصالحين :

يقول الأستاذ المودودى : هذا وعد من الله تعالى للمسلمين بأنه سيجعلهم خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس وقادتهم . والمقصود من هذه الآية : تنبيه المنافقين إلى أن هذا الوعد الذى قد قطعه الله - تبارك وتعالى - للمسلمين ، ليس الخطاب فيه لكل من ينتمى إلى الإسلام ولو اسما ، بل إنما هو للمسلمين الذين هم صادقون فى إيمانهم ، وصالحون باعتبار أخلاقهم وأعمالهم ، ومتبعون لدين الله الذى قد ارتضاه

وملتزمون لعبادته وعبوديته وحده وغير مشركين به شيئا ، وأما الذين ليسوا على تلك الصفات وإنما يدعون الإيمان بأنسنتهم : فلا يستأهلون هذا الوعد لأنه لم يقطع لهم ، فلا يرجون أن ينالوا نصيبا منه .

قد رأينا بعض المغرضين من الناس يجعلون «الخلافة» بمعنى مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم والتمكن ، ثم يستنتجون من هذه الآية أن كل من حصل له العلو والغلبة فى الأرض ، فهو مؤمن صالح متبع لدين الله المرتضى ، قائم بعبوديته مجتنب للشرك به ، بل هم - فوق ذلك - يبدلون مفهوم كل كلمة من كلمات الإيمان والصلاح والدين والعبادة والشرك ، حتى يجعلوها متفقة مع أهوائهم ونظريتهم الزائفة هذه . فهذا أشنع تحريف معنوى للقرآن ، قد فاق تحريف اليهود والنصارى لكتبهم ، وبين لآية الاستخلاف هذه معنى يريد أن يمسح تعليم القرآن كله ولا يترك شيئا من الإسلام فى مقامه ، فإنه لا بد بعد هذا التحريف للخلافة أن تنطبق هذه الآية على كل من لهم العلو والغلبة فى الأرض اليوم ، أو كانت لهم فى الزمن الماضى ، ولو كانوا جاحدين بالله والرسالة والوحي واليوم الآخر ، منغمسين فى أنداس الفسق والفجور التى قد عدّها القرآن من الكبائر ، كأكل الربا وارتكاب الزنا وشرب الخمر ولعب الميسر وما إليها . فإن كان أمثال هؤلاء من المؤمنين الصالحين ، ولأجل إيمانهم وصلاتهم نالوا العلو والغلبة فى الأرض ، فأى معنى يمكن أن يكون للإيمان غير الإذعان لقوانين الطبيعة ، وللصلاح غير العمل وفق هذه القوانين ؟ وماذا يمكن أن يكون دين الله المرتضى غير بلوغ الكمال فى العلوم الطبيعية وترقية الصناعة والتجارة والسياسة القومية ؟ وهل يمكن بعد التسليم بنظريتهم الزائفة أن تكون عبادة الله غير التزام القواعد والضوابط التى تساعد على بلوغ النجاح فى السعى الفردى والاجتماعى فطرة ؟ وهل يبقى الشرك إذن عبارة عن شيء غير مزج هذه القواعد والضوابط المفيدة بالطرق المضرة ؟ ولكن هل لأحد قد قرأ القرآن مرة بقلب مفتوح وعينين مبصرتين أن يقول بأن هذه هى المعانى لكلمات الإيمان والعمل الصالح ودين الحق والعبادة والتوحيد والشرك المذكورة فى القرآن ؟ الحقيقة أنه لا يكاد يقول بهذه المعانى إلا رجل لم يكن قد قرأ القرآن ولا مرة واحدة من بدئه إلى آخره مع فهم معانيه ، وإدراك مقاصده ، وإنما أخذ آية من هنا وأخرى من هناك فحرفها وفقا لأهوائه ونظرياته وأفكاره ، أو رجل مازال عند قراءته للقرآن يبطل ويخطئ بزعمه جميع الآيات التى فيها دعوة الناس إلى الإيمان بالله ربا واحدا ، وإله لا شريك له ، وبوحى الذى أنزل على رسوله وسيلة وحيدة لمعرفة الهداية ، وبكل نبى أرسله إلى الدنيا قائدا يجب على الناس أن يطيعوه ، أو فيها الأمر للناس باعتقاد حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، بل قيل لهم فيها أن لا فلاح للذين يريدون الحياة الدنيا فقط وهم عن الآخرة غافلون .

وهذه الموضوعات قد أبدئ فى ذكرها وأعيد فى القرآن بكثرة وبطرق مختلفة وبألفاظ واضحة صريحة ، حيث يتعسر علينا تصديق أن يقرأ أحد القرآن بإخلاص وأمانة ثم يقع فى مثل الأخطاء والأغلوطات التى قد وقع فيها هؤلاء المفسرون الجدد لآية الاستخلاف ، فالحقيقة أن المعنى الذى بينوه

لكلمتى الخلافة والاستخلاف وعلى أساسه قد رفعوا بناءهم ، إنما اختلقوه من عند أنفسهم ، ولا يكاد يقول به أحد يعرف القرآن .

إن القرآن يستعمل كلمة الخلافة بثلاثة معانٍ مختلفة ، وفى كل موضع من مواضع استعماله لهذه الكلمة تعرف بسياقها ، فى أى معنى من هذه المعانى الثلاثة قد استعملها . فمعناها الأول : «حمل أمانة السلطة والصلاحيات» ، وبهذا المعنى أن نرية آدم كلها خليفة الله فى الأرض . ومعناها الثانى : «ممارسة صلاحيات الخلافة تحت أمر الله التشريعى ، لا تحت أمره التكوينى فقط ، مع التسليم بحاكميته العليا» ، وبهذا المعنى إنما المؤمن الصالح هو الخليفة فى الأرض ، لأنه هو الذى يؤدى حق الخلافة على وجهه الصحيح ، وعلى العكس منه ليس الكافر والفاسق بخليفة لله ، بل هو خارج عليه ، لأنه يتصرف فى ملكه على طريق معصيته . ومعناها الثالث : «قيام أمة جديدة مقام أمة غالبية فى عصر من العصور بعد انقراضها» . المعنيتان الأولان مأخوذان من الخلافة بمعنى النيابة ، والمعنى الثالث مأخوذ من الخلافة بمعنى البقاء والقيام مقام الغير ، وهذان المعنيتان لكلمة الخلافة معروضان فى لغة العرب . فمن قرأ الآن آية الاستخلاف بهذا السياق فإنه لا يكاد يشك لطرفة عين فى أن كلمة الخلافة قد استعملت فى هذا المقام بمعنى الحكومة القائمة بحق نيابة الله تعالى وفق أمره الشرعى ، ولأجل ذلك يأبى الله تعالى أن يشمل المنافقين المدعين بإسلامهم فى وعده الذى يقطعه للمسلمين فى هذه الآية ، فضلا عن أن يشمل فيه الكفار ، ولأجل ذلك يقول إنه لا يستحق هذا الوعد إلا المتصفون بصفات الإيمان والعمل الصالح ، ولأجل ذلك يذكر - سبحانه وتعالى - من ثمرات قيام الخلافة فى الأرض أن يقوم دينه الذى ارتضى - أى : الإسلام - على الأسس القوية ، ولأجل ذلك ذكر هذه النعمة مشترطة بأن يبقى المسلمون قائمين بحق عبادته : **يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** . أما توسيع هذا الوعد إلى النطاق الدولى ، والتقرب به إلى كل من كان له العلو والكلمة النافذة فى العالم - أمريكا أو روسيا أو غيرهما - فإن هو إلا طغيان فى الغى ، وتمادى فى الجهل والضلال ولا غير .

وأمر آخر يجدر بالذكر فى هذا المقام ، هو أن هذا الوعد ، وإن كان شاملا للمسلمين فى جميع الأزمان ، ولكن الخطاب المباشر فيه لأولئك المسلمين الذين كانوا فى عهد الرسول ﷺ ، وحقا إن المسلمين كانوا فى حالة شديدة من الخوف أيام نزول هذا الوعد ، حتى كانوا لا يضعون سلاحهم ، وما كان دين الإسلام قد تمكن لهم حتى ولا فى أرض الحجاز ، ولكن هذه الحالة ما تبدلت فى عدة سنوات بحالة الأمن والرفاهية والطمأنينة فحسب ، بل تجاوز فيها الإسلام حدود جزيرة العرب وانتشر فى أكبر جزء من أفريقية وآسيا ، ولم ترسخ جذوره فى منبت أرومته فقط بل وفى أكثر أقطار الأرض . فهذا شاهد تاريخى بأن الله تعالى قد أنجز وعده فى أبى بكر وعمر وعثمان - رضى الله عنهم - ولا يكاد يشك بعد ذلك رجل يقيم أدنى وزن للإنصاف فى أن خلافة أبى بكر وعمر وعثمان حق قد صادق عليه القرآن نفسه ، وأن الله تعالى نفسه يشهد

بكونهم مؤمنين صالحين . بيد أن من كان في ريب من ذلك ، فعليه أن يراجع كتاب نهج البلاغة ويقرأ فيه الكلام الآتي لسيدنا علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - لما استشاره عمر في غزو الفرس بنفسه :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله الذى أظهره ، وجنده الذى أعده وأمدّه حتى بلغ وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال - عز اسمه - : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ... والله منجز وعده وناصر جنده . ومكان القيم بالأمر^(٣١١) مكان النظام من الخرز : يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام ، تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا . والعرب اليوم ، وإن كانوا قليلين ، فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبا واستدر الرحي بالعرب وأصلهم دونك نار الحرب . فإنك إن شخصت^(٣١٢) من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولوا : هذا أصل العرب ، فإذا قطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكليهم عليك^(٣١٣) وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله - سبحانه - هو أكرمهم لمسيرهم وهو أقدر على تغيير ما يكره ، وأما ما ذكرت من عددهم ، فإننا لم تكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة^(٣١٤) .

ولكل من يقرأ هذا الكلام أن يرى : من الذى يجعله سيدنا علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - مصداقا لآية الاستخلاف ؟

وأما قوله تعالى بعد ذكر هذا الوعد : وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . فالمراد بالكفر فيه : إما الكفران بنعمة الله ، أو الإنكار لما أنزل من الحق .

فباعتبار المعنى الأول : يصدق هذا القول على الذين يعدلون عن الطريق الحق ، بعد نيلهم نعمة الخلافة ، وباعتبار المعنى الثانى : يصدق على المنافقين الذين يصرون على نفاقهم حتى بعد علمهم بهذا الوعد من الله تعالى^(٣١٥) .

الصلاة والزكاة

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

المضردات :

معجزين هي الأرض ، أى : جاعلين الله عاجزا عن إدراكهم وإهلاكهم ، وإن هربوا فى الأرض جميعها .

تمهيد :

بعد أن بشر الله المؤمنين بالتمكين فى الأرض ، أردف ذلك أمرهم بإقامة الصلاة ، فهى دليل الفلاح وسبيل النجاة وصلة بين المخلوق والخالق . وأمرهم بإيتاء الزكاة رحمة وصدقة ، وصلة بين الغنى والفقير ، وكل ذلك من شأنه أن يعود عليهم بالفلاح والرشاد وعن الدنيا وسعادة الآخرة .

التفسير :

٥٦ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أقيموا الصلاة فى أوقاتها ، وبالمحافظة على ركوعها وسجودها وخشوعها . قال ﷺ : «إن الله فرض خمس صلوات فى اليوم والليلة ، من حافظ عليهن فى أوقاتهن وخشوعهن كان له على الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له على الله عهد ، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» . (٣٧٧) .

٥٧ - لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ... الآية .

أى : أيها الرسول ، لا تظنن الكافرين يجدون مهربا فى الأرض إذا أردنا إهلاكهم ، بل نحن قادرون على أخذهم والبطش بهم متى أردنا ذلك .

وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ . ومآلهم جهنم يوم القيامة .

وَلَيْسَ الْمَصِيرُ .

أى : ينس المال مآل الكافرين ، وينس المهاد .

وتلك طبيعة القرآن ، فهو يتخول السامعين بالنصيحة ، ويرأف بين الأوامر والنواهي ، بالدعوة إلى طاعة الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وبتهديد الكافرين ، وبشارة المؤمنين ، ويتضمن ذلك دعوة للمؤمنين بأن أقيموا منهج الله ، وحققوا أوامره ، ولا عليكم بعد ذلك من كثرة أعدائكم .

«فما هم بمعجزين في الأرض، وقوتهم الظاهرة لن تقف لكم في طريق، أنتم أقوياء بإيمانكم، أقوياء بنظامكم، أقوياء بعدتكم التي تستطيعون، وقد لا تكونون في مثل عدتكم من الناحية المادية، ولكن القلوب المؤمنة التي تجاهد تصنع الخوارق والأعاجيب.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات، ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية. وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكمت هذا النهج في الحياة، وارتضته في كل أمورها.. إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتكمين والأمن، وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلفت في ذيل القافلة، وزلت، وطردها أبنائها من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء، ألا وإن وعد الله قائم، ألا وإن شرط الله معروف، فمن شاء الوعد فليقم بالشرط، ومن أوفى بعهده من الله» (١٧٧).

★ ★ ★

آداب البيوت

هذه السورة نور يضيء للمؤمنين طريق الحياة، وأدب رفيع مع النفس ومع الآخرين، ونظام إلهي عادل في الاستئذان وغض البصر، وحفظ الفروج وستر العورات، ونظام التعامل بين أفراد الأسرة وبين الأقارب والأصدقاء.

وإذا أردنا أن نتمعن في معنى هذه الآيات بالتفصيل، فمن الخير أن نأخذ كل آية على حدة، لنبين أحكامها وآدابها.

والله ولي التوفيق.

آداب الاستئذان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَغْنِيَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبِسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَبَيْنَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات :

ملكتم أيمنكم، يشمل العبيد والإماء، أي: الذكران والإناث.

الحلم : يسكون اللام وضمها ، أى : وقت البلوغ ، إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة ، من حلم يفتح اللام .

تضـمـون ، تـخلعون .

الظهيرة ، وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار .

عـسـورات ، أى : الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس ، إذا اختلت حاله .

جـنـاح ، إثم وذنب .

طوافون عليكم ، يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية .

ترتيب الآيات :

بيّن الله فى آيات سابقة آداب دخول البيوت ، وأوجب الاستئذان والتسليم على أهلها ، وبيّن أن فى ذلك الخير كل الخير للجميع ، فإن لم يجد الزائر أحدا رجع ، لما فى ذلك من صيانة الآداب العامة ، ومنع القيل والقال ، وحفظ الأعراض والأنساب .

ثم استثنى فى هذه الآيات دخول الأقارب بعضهم على بعض ، ودخول المملوكين على ساداتهم ، وبيّن أن الاستئذان لا يكون فى جميع الأوقات ، بل فى ثلاثة أوقات هى عورات لأرباب البيوت ، لما فيها من رفع الكلفة وقلة التحفظ فى الستر .

التفسير :

٥٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يُلْغُوا إِلَيْكُمْ الْحَلَمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ...

أى : لا يدخل عليكم - أيها المؤمنون - فى بيوتكم ، عبيدكم وإماؤكم ثلاث مرات فى ثلاثة أوقات من ساعات ليلكم ونهاركم إلا بإذن : قبل صلاة الفجر ، لأنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم ولبس ثياب اليقظة ، وكل ذلك مظنة انكشاف العورة ، وحين تخلعون ثيابكم التى تلبسونها وقت الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء لأنه وقت خلع ثياب اليقظة ولبس ثياب النوم .

وخص هذه الأوقات الثلاثة ، لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب ، وربما كان الرجل مع زوجته فى لحاف واحد ، كما ورد ذلك فى سبب النزول .

ثَلَاثُ عُرُوتٍ لَكُمْ ...

أى : هذه الأوقات الثلاثة ، ثلاث عورات لكم ، يختل فيها تستر عادة ، ويكون النوم فيها مع الأهل غالبا ، فالهجوم فيها على أهل البيت ، مما تأباه النفوس وتكرهه أشد الكراهة .

والعورة فى اللغة : الخلل فى ثغر البلاد وغيره ، مما يخشى هجوم الأعداء منه ، وفى القرآن : يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا . (الأحزاب : ١٣) .

والعورة كل شئ يستره الإنسان من أعضاء جسده ويستحى من انكشافه ، وقد تطلق أيضا على كل شئ غير محفوظ ، وهذه المعانى متقاربة ويشملها مفهوم الآية إلى حد كبير .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْضُهُنَّ ...

أى : إن للأطفال الصغار وخدام البيت من الرقيق ، أن يدخلوا عليكم فى حجراتكم أو أماكن خلوتكم ، بدون استئذان فى غير هذه الأوقات ، وإن احتمل فيها الإخلال بالتستر لندرتة .

طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...

أى : إن هذا هو السبب فى إذن الله تعالى للخدم والأطفال فى الدخول عليكم بدون استئذان ، فى غير أوقات الخطوة الثلاثة ، وذلك لأنهم طوافون عليكم فيعسر عليهم الاستئذان فى كل مرة .

بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... أى : بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا ، أو بعضكم يطوف على بعض .

قال الزمخشري :

يعنى إن بكم وبهم حاجة إلى المخالطة والمداخلة ، يطوفون عليكم للخدمة ، ويطوفون عليهم للاستخدام ، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأدى إلى الحرج .

وهذا ما يؤيد قاعدة مهمة من قواعد الفقه الإسلامى ، هى أن أحكام الشرع مبنية على المصلحة ، وأن لكل حكم من أحكامه علة سواء أكان الشارع قد بينها أم لم يبينها .

كَذَلِكَ يَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آلَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

أى : ومثل هذا التبيين لتلك الأحكام يبين لكم شرائع دينكم وأحكامه ، والله عليم بما يصلح أحوال عباده ، حكيم فى تدبير أمورهم : فيشرع لهم ما يصلح أحوالهم فى المعاش والمعاد .

فى أعقاب الآية :

١ - كان العمل بهذه الآية واجبا ، إذ كانت البيوت لا أبواب لها ولا أقفال ، ولو عاد الحال لعاد الوجوب ، حكاها المهدوى عن ابن عباس (٣٧٧) .

٢ - روى سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن: يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَلْزِمَهُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ... الآية، وقوله تعالى: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَزْذِقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا. (النساء: ٨).

وقوله تعالى: إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَلَّبُكُمْ... (الحجرات: ١٣).

٣ - روى عكرمة: أن نفرا من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس، كيف ترى في هذه الآية التي أمرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها أحد. قول الله - عز وجل -: يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَلْزِمَهُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ... قال ابن عباس: إن الله حلیم رحيم بالمؤمنين، يحب السر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجاب^(٣٧٢)، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله: فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد^(٣٧٣).

وقد عقب القرطبي على هذا الحديث بقوله: هذا متن حسن، وفيه رد على قول سعيد بن المسيب، وابن جبير بأنها منسوخة، فإنه ليس فيه دليل على نسخ الآية. ولكن على أنها كانت على حال ثم زالت، فإن كان مثل ذلك الحال فحكمها قائم كما كان، بل حكمها لليوم ثابت في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها^(٣٧٤).

٤ - قال فخر الدين الرازي:

الآية دالة على أن الواجب اعتبار العلل في الأحكام إذا أمكن: لأنه تعالى نبه على العلة في هذه الأوقات الثلاثة من وجهين: أحدهما: بقوله تعالى: ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ. والثاني: بالتنبيه على الفرق بين هذه الأوقات الثلاثة، وبين ما عداها، بأنه ليس ذاك إلا لعلة الكشف في هذه الثلاثة، وأنه لا يؤمن وقوع الكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الأوقات^(٣٧٥).

بلوغ الأطفال

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾

التفسير :

٥٩ - وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ ... الآية .

الحلم : وقت البلوغ والاحتلام ، والمراد : بلغوا حد العقل والتمييز ، أما الأولاد والبنات الذين لا تظهر في أجسادهم هذه التغيرات لسبب من الأسباب ، فيمكن أن يقدر لهم العمر الزمني للبلوغ ، وهو سن الخامسة عشرة على أرجح الأقوال .

لقد أذن الله للأطفال الصغار أن يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم دون استئذان إلا في ثلاثة أوقات يغلب فيها الكشف ، وكان هذا الإذن للأطفال لكثرة دخولهم ولحاجتهم إلى معونة أسرهم ، ولقلة إدراكهم لمعنى العورة . فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم خرجوا عن حد الطفولة بأن احتلموا ، أو بلغوا السن التي يحكم فيها عليهم بالبلوغ ، وجب أن يطمعوا عن تلك العادة ، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات ، كما يستأذن الرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن .

أو الذين ذكروا من قبلهم في قوله تعالى : يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ... (النور : ٢٧) .

تنبيهات :

١ - قال في الإكلیل :

في الآية أن التكليف إنما يكون بالبلوغ ، وأن البلوغ يكون بالاحتلام ، وأن الأولاد البالغين لا يدخلون على والديهم إلا باستئذان كالأجانب .

٢ - إذا لم تظهر علامات البلوغ على الصبي أو الفتاة ، يمكن أن نحكم لهم بالبلوغ الزمني وهو خمسة عشر عاما على الراجح ، وقد اختلف الفقهاء في تحديد سن البلوغ .

فقال الشافعي ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وأحمد بن حنبل ، رحمهم الله : إن الولد - وكذلك البنت - إذا بلغ خمسة عشر عاما يكون بالغا . ويؤيده قول من أبى حنيفة ، إلا أن قوله المشهور : أن الولد لا يكون بالغا

حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ، وأن البنت لا تكون بالغة حتى تبلغ سبع عشرة سنة ، وليس هذان القولان بمبنيين على نص فى الشريعة ، وإنما هما مبنيان على الاجتهاد الفقهي ، فليس من الضروري أن نقرر أن خمس عشرة أو ثمانى عشرة سنة ، هى سن البلوغ فى أمر الأولاد غير المحتملين ، والبنت غير الحائضات ، فى الدنيا كلها ، فإن أحوال نمو الجسد الإنسانى تختلف باختلاف الأقطار والأزمان^(٣٣) ، ومعرفة السن المعتادة للبلوغ ، أمر يرجع فيه إلى أهل الاختصاص كالأطباء ومن فى حكمهم ، فهؤلاء يقدرون العمر الزمنى للبلوغ فى قطر من الأقطار .

وعند ذلك يمكن لرجال القانون أن يقرروا حد البلوغ للأطفال غير العاديين فى ذلك القطر .

وما قدره الفقهاء من تحديد خمس عشرة سنة عمراً لبلوغ الولد غير المحتلم ، أمر قياسى يقوم على الاجتهاد لا على نص من النصوص الشرعية .

٣ - جاء فى كتب الفقه أن ابنة اللبان والجزار تترك البلوغ فى سن مبكرة عن مثيلاتها . وكأن الفقهاء بهذه اللمحة يتركون للقاضى تقدير سن البلوغ لكل فرد ، فقد يكون أحد الأطفال ضعيف البنية أو متأخر النمو ؛ فيتأخر العمر الزمنى للحكم ببلوغه ، ويكون طفل آخر قوى الجسم سليم البنية فنحكم ببلوغه فى سن متقدمة عن مثيله .

★ ★ ★

تخفف العجز عن الثياب

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ
يَاْبَهُنَّ غَيْرَ مَتَرِحَاتٍ رِزْنًا وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ﴾

المضردات :

القواعد : جمع قاعد ، بغير تاء ، لأنه مختص بالنساء ، كحائض وطامث ، قال ابن السكيت : امرأة لا يرجون نكاحا ، لا يطمعن فى الزواج لكبر سنهن .
أن يضعن ثيابهن ، يخلعنها .

التبرج ، التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، والبرج (بالضم) الحسن ، والبارجة : السفينة الكبيرة للقتال .

التفسير :

٦٠ - وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ... الآية .

أباح الله للأطفال وللتابعين غير أولى الإربة من الرجال أن يروا زينة المرأة ، وكذلك رخص للنساء المعانز أن يتخففن من ثيابهن الخارجية ، فلا حرج على العجوز أن تخلع خمارها وقناعها ، ولو أدى ذلك إلى كشف عنقها ونحرها للأجانب ما دامت الفتنة مأمونة^(١٧٧) بشرط ألا يقصدن - بهذا التخفف من الثياب - إبداء الزينة وإظهار المحاسن أمام الرجال ، وبشرط ألا تنكشف عوراتهن ، وخير لهن أن يبقين كاسيات بثيابهن الخارجية الغضاضة ، وسمى هذا استعافا ، أى : طلبا للعة ، وإثارا لها ، لما بين التبرج والفتنة ، وبين التحجب والعة من صلة ، وذلك حسب نظرية الإسلام ، فى أن خير سبل العة تقليل فرص الغواية ، والحيلولة بين المثيرات وبين النفوس .

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

يسمع ويعلم ويطلع ويشاهد ، فالأمر هنا أمر نية وحساسية فى الضمير ، قال تعالى :

يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . (غافر : ١٩) .

فى أعقاب الآية :

١ - لم تبين الآية الثياب التى رخص للقواعد أن يخلعن ، وللمفسرين فى بيانها رأيا :

الرأى الأول : أن المراد بها الثياب الظاهرة التى لا يفضى وضعها لكشف العورة ، كالجلباب السابغ الذى يغطى البدن كله ، والرداء الذى يكون فوق الثياب ، والقناع الذى فوق الخمار ، وحجة أصحاب هذا الرأى ما أخرجه ابن جرير ، عن الشعبي : أن أبياً وابن مسعود وابن عباس قد قرأوا : «أن يضعن من ثيابهن» بزيادة «من» . قال ابن عباس : وهو الجلباب . وروى عن ابن مسعود أيضا : «أن يضعن من جلابيبهن» وهى قراءة ابن عباس أيضا .

قال : والجلباب وما تغطى به المرأة ثيابها من فوق ، كالملحفة ، فلا حرج عليهن أن يضعن ذلك عند المحارم من الرجال ، وغير المحارم من الغرباء ، غير متبرجات بزينة .

الرأى الثانى : أنهن يضعن خمرهن وأقنعتهن إذا كن فى بيوتهن أو من وراء الخدور والستور .

وهو رأى ضعيف : لأن للشابة أن تفعل ذلك فى خلوتها ، فلا معنى لتخصيص القواعد بذلك .

٢ - قد يتساءل الإنسان قائلا : إذا كان وضع الثوب لا يترتب عليه كشف العورة ، فما معنى نفى

الجناح فيه؟ وهل ينفى الجناح إلا فى شىء قد كان يتوهم حظره ومنعه ؟

والجواب أن الله تعالى نذب نساء المسلمين إلى أن يبالغن في التستر والاستعفاف، بأن يدين عليهن من جلابيبهن، وجعل ذلك من الحشمة ومحاسن الآداب، فإنه أبعد عن الريبة بهن وأقطع لأطماع ذوى الأغراض الخبيثة، فكان إيداء الجلابيب من الآداب التي نذب إليها النساء جميعا، فرخص الله للقواعد من النساء أن يضعن جلابيبهن، ونفى عنهن الجناح في ذلك، وخيرهن بين خلع الجلباب ولبسه، ولكنه جعل لبسه استغافا وخيرا لهن من حيث إنه أبعد عن التهمة وأنفى للمظنة^(٢٧٨).

٣ - تقول العرب : امرأة واضع ، للتي كبرت فوضعت خمارها ، وقال قوم : الكبيرة التي أيست من النكاح، لو بدا شعرها فلا بأس ، فعلى هذا يجوز لها وضع الخمار، والصحيح أنها كالشابة في التستر، إلا أن الكبيرة تضع الجلباب الذى يكون فوق الدرع والخمار ، قاله ابن مسعود وابن جبير وغيرهما^(٢٧٩).

٤ - أخرج ابن أبى حاتم ، عن أم الضياء أنها قالت : دخلت على عائشة - رضى الله عنها - فقلت: يا أم المؤمنين، ما تقولين فى الخضاب والنفاض والصباغ ، والقرطين والخلخال وخاتم الذهب ، وثياب الرقاق ؟ فقالت : يا معشر النساء، قصتن كلها واحدة، أحل الله لكنّ الزينة غير متبرجات^(٢٨٠).

٥ - من هدى السنة : أخرج البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «ماتركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء»^(٢٨١).

وروى فى الصحيح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة : لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(٢٨٢).

قال ابن العربى :

وإنما جعلن كاسيات لأن الثياب عليهن، وإنما وصفن بأنهن عاريات لأن الثوب إذا رق يصفهن ويبدى محاسنهن. وذلك حرام .

وقال القرطبي :

«رءوسهن كأسنمة البخت» والبخت : ضرب من الإبل عظام الأجسام، عظام الأسنمة، شبه رءوسهن بها لما رفعن من ضفائر شعورهن على أوساط رءوسهن، وهذا مشاهد معلوم، والناسخ الإلهي ملوم^(٢٨٣).

الأكل من بيوت الأقارب

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَوْلِيَاءِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ مَفَاحِهِمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

المفردات :

الـعـرج : الضيق ، ومنه : الدرجة ، للشجر الملتف بعضه ببعض لضيق المسالك فيه ، والمراد بالـعـرج هنا : الإثم .

ما ملكتم مفاتيحه : المفاتيح : جمع مفتاح أو مفتاح ، وملك المفتاح كناية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه ، كأن يكون وكيلًا عن رب المال ، أو أمينًا وحافظًا .

الـصـديق : من يصدق في مودتك وتصدق في مودته ، يطلق على الواحد والجمع ، كالخليط والعدو ، والمراد بالصديق هنا : الجمع .

جميعًا : مجتمعين .

أشتاتًا : متفرقين ، واحد منهم شتيت .

على أنفسكم : أى : على أهل البيوت .

تحية : أصل معنى التحية : طلب الحياة ، كأن يقول : حياك الله ، ثم توسع فيه فاستعمل في كل دعاء ، وتحية الإسلام : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مباركة : بورك فيها بالأجر .

طيبة : تطيب بها نفس السامع .

أسباب النزول :

قال الحسن : أنزلت هذه الآية في ابن أم مكتوم ، وضع الله عنه الجهاد ، وكان أعمى .

وقال ابن عباس :

نزلت هذه الآية في الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله ﷺ غازيا وخلف مالك بن زيد مع أهله ، فلما رجع وجده مجهودا ، فسأل عن حاله فقال : تخرجت أن أكل من طعامك بغير إذنك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وهناك روايات أخرى في أسباب النزول تجدها في كتب التفسير ، وهي ما يعبر عنه بالسبب المباشر ، بيد أن ذلك لا يمنع أن تكون هناك أسباب عامة نزلت من أجلها الآية .

ومن هذه الأسباب ما يأتي :

الأول : هذا الانقلاب الهائل الذي حدث في عقلية العرب بتعاليم القرآن الخلقية ، وجعل حسهم مرفعا في التمييز بين الحلال والحرام ، والجائز وغير الجائز ، حتى أنه لما نزل قوله تعالى : وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ... (البقرة : ١٨٨) . قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام من أفضل الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد : فكف الناس عن ذلك : فأنزل الله عز وجل : لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ ... إلى : أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مُقَاتِلَتُهُ .^(١٣٨١)

الثاني : اشتملت الآية على جزئين :

(أ) رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، وغيرهم من المعذورين في التخلف عن الجهاد ، أو في الأكل من بيوت غيرهم .

(ب) رفع الحرج عن سائر الناس في أكلهم من بيوت أقربائهم المذكورين في الآية .

التفسير :

٦١ - لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ ... الآية .

أي : ليس على هؤلاء الثلاثة إثم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم . ونحو الآية قوله تعالى : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ... (التوبة : ٩١) .

وقوله عز شأنه : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ... (النساء : ٩٥) .

وعن ابن عباس : أن المراد من الحرج المنفى فى الآية : الحرج فى الأكل ، ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ** ... (البقرة : ١٨٨) ، تخرج المسلمون من مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام ؛ فأَنْزَلَ الله هذه الآية ، والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

وقيل : كانوا يخرجون إلى الغزو ، ويخلفون الضعفاء فى بيوتهم ، ويدفعون إليهم المفاتيح ، ويأذنون لهم أن يأكلوا من بيوتهم فكانوا يتخرجون ، فقيل : ليس على هؤلاء الضعفاء حرج فيما تخرجوا عنه ، ولا عليكم أن تأكلوا من هذه البيوت .

هذا بعض ما ذكر المفسرون ، ولا يخفى صدق الآية على جميع ذلك ونفى الحرج عنه كله .

وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ...

إنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليسأوى به ما بعده فى الحكم ، وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، وقد استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «أنت ومالك لأبيك» (٣٨٨) .

وقال الترمذى الحكيم : **وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ...** كأنه يقول : مساكنكم التى فيها أموالكم وأولادكم ، فيكون للأهل والولد هناك شيء قد أفادهم هذا الرجل الذى له المسكن ، فليس عليه حرج أن يأكل معهم من ذلك القوت ، أو يكون للزوجة والولد هناك شيء من ملكهم فليس عليه فى ذلك حرج (٣٨٩) .

أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ ...

لما علم بالعادة أن هؤلاء تطيب نفوسهم بأكل من يدخل عليهم من الأقارب . وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى المشهور عنهما .

وجاء فى ظلال القرآن :

ولأن الآية آية تشريع ، فإننا نلاحظ فيها دقة الأداء اللفظى ، والترتيب الموضوعى ، والصياغة التى لا تدع مجالاً للشك والغموض ، كما نلمح فيها ترتيب القرابات ، فهى تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم ، بل تقول الآية : **مِنْ بُيُوتِكُمْ** . فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج ، فبيت الابن بيت لأبيه ، وبيت الزوج بيت

لزوجته ، وتليها بيوت الآباء ، فبيوت الأمهات ، فبيوت الإخوة ، فبيوت الأخوات ، فبيوت الأعمام ، فبيوت العمات ، فبيوت الأخوال ، فبيوت الخالات (٣٨٧) .

أَوْ مَا مَلَكَكُمْ مَقَاتِحَهُ ...

عنى بذلك وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته ، فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ، ويشرب من لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر ، قال سعيد بن جبير ، والسدى : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

وقال الزهرى ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان المسلمون يذهبون مع النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحه إلى ضمنائهم ، ويقولون : قد أطلقنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء : فأنزل الله : أَوْ مَا مَلَكَكُمْ مَقَاتِحَهُ ...

أَوْ صَدِيقُكُمْ ...

أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهونه .

قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقال جماعة من المفسرين : إنما كان ذلك فى صدر الإسلام ، ثم نسخ ، واستقرت الشريعة على أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا برضاه .

قال ابن زيد :

هذا شئ قد انقطع ، إنما كان فى أوله ولم يكن لهم ستور أبواب ، أو كانت الستور مرخاة . فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، وربما وجد الطعام وهو جائع ، فسوغ له أن يأكل منه ، ثم قال : ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها ، فإذا خرجوا أغلقوها (٣٨٨) .

والصحيح الذى عليه المعول فى دفع التعارض بين النصوص : أن إباحة الأكل من هذه البيوت مقيدة ومشروطة بما إذا علم الأكل رضا صاحب المال ، بإذن صريح أو قرينة ، فإذا دل ظاهر الحال على رضا المالك : قام ذلك مقام الإذن الصريح (٣٨٩) .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ...

أى : لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين ، فقد كان من عادات بعضهم فى الجاهلية ألا يأكل طعاما على انفراد ، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام .

قال القرطبي :

قيل : إنها نزلت في بنى ليث بن بكر ، وهم حى من كنانة ، كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، ويمكث أياما جائعا حتى يجد من يؤاكله ، ومنه قول بعض الشعراء :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكىلا فإنى لست آكله وحدى

قال ابن عطية : وكانت هذه السيرة موروثة عندهم عن إبراهيم عليه السلام فإنه كان لا يأكل وحده ^(٣٩٠) .

وروى أن قوما من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا مع ضيفهم ^(٣٩١) ولو ترتب على ذلك لحوق الضرر بهم وتعطيل مصالحهم ، فنزلت الآية الكريمة لنفى الجناح عن الناس فى أكلهم مجتمعين أو متفرقين ، وتوسيع الأمر عليهم فى ذلك ، وبيان أن أمر الطعام ليس من العظم بحيث يحتاط فيه إلى هذا الحد ، وتراعى فيه الاعتبارات الدقيقة المعنوية ^(٣٩٢) .

فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ...

أى : فإذا دخلتم بيتا من هذه البيوت فليسلم بعضكم على بعض . وفى الآية تعبير لطيف عن قوة الرابطة بين المذكورين ، فالذى يسلم منهم على قريبه أو صديقه يسلم على نفسه .

تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ...

أى : حيوا تحية ثابتة بأمره تعالى ، مشروعة من لدنه ، يرجى بها زيادة الخير والثواب ، ويطيب بها قلب المستمع .

أخرج البخارى وغيره ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، تحية من عند الله مباركة طيبة» ^(٣٩٣) .

وأخرج الحافظ البزار ، عن أنس بن مالك قال : أوصانى النبی ﷺ بخمس خصال قال : «يا أنس ، أسبغ الوضوء يزد فى عمرک ، وسلم على من لقيت من أمتی تكثر حسناتک ، وإذا دخلت - يعنى : بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك ، يا أنس ، ارحم الصغير ، ووقر الكبير تكن من رفقاى يوم القيامة» ^(٣٩٤) .

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

يُبَيِّنُ الله لكم معالم دينكم ، كما فصل لكم فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ، والشرائع المتقنة المبرمة : لكى تفقهوا أمره ونهيه وأدبه ، وتأخذوا بأسباب السيادة ، وتذكروا ما فى المنهج الإلهى من حكمة وتقدير .

استئذان الرسول

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٦٢)

المضردات :

أمر جامع ، خطب جلل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء ، كقتال عدو ، أو التشاور في حادث قد عرض .

المعنى العام :

حثت الآيات السابقة على أدب الاستئناس والاستئذان في دخول البيوت ، وفي ختام سورة النور تبين هذه الآية أدب الاستئذان حين الخروج ، ولا سيما إذا كان المؤمنون في أمر عام مع الرسول ﷺ كتشاور في قتال أو تدارس حادث عرض ، ومن يلتزم بأدب الجماعة ويحرص على الالتزام بمهامها ؛ فهو كامل الإيمان حقاً ، وللرسول أن يأذن لمن شاء منهم إذا استأذنه .

التفسير :

٦٢ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ... الآية .

أي : ما المؤمنون حق الإيمان إلا الذين صدقوا الله ورسوله ، وإذا كانوا مع رسوله على أمر يجمعهم : من حرب حضرت ، أو صلاة اجتمع لها ، أو تشاور في أمر نزل : لم ينصرفوا عما اجتمعوا له ، حتى يستأذنوا الرسول ﷺ .

روى الترمذى ، والنسائى ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا أراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة» (٣١٩) .

وهذا الاستئذان كما يكون للنبي ﷺ ، هو كذلك لمن يأتى بعده من خلفائه ، وأمر النظام الإسلامى فى جماعة المسلمين ، فكلما اجتمع المسلمون لغاية اجتماعية - فى السلم والحرب - فإنه لا يحل لهم أن ينقضوا من هذا الأمر بدون إذن من أميرهم ، ولما كان الإذن كالدليل على الإيمان ، مدح الله الملتزمين به فقال :

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

أى : إن الذين لا ينصرفون إذا كانوا معك - أيها الرسول - فى أمر جامع إلا بإذنك لهم ، طاعة منهم وتصديقا ، أولئك هم المؤمنون حقا . وتشير الآية إلى أن الاستئذان لا يكون إلا فى عذر حقيقى ، وحاجة ماسة ، وأن للرسول وأمير الجماعة بعد الرسول ، أن يأذن أو لا يأذن حتى بعد بيانكم للحاجة والعذر ، فإن له تقدير الموقف ، وترجيح حاجة الجماعة أو حاجة المستأذن .

فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ...

أى : بحسب ما تقتضيه المصلحة التى تراها ، كما وقع لعمر - رضى الله عنه - حين خرج مع النبى ﷺ فى غزوة تبوك ، حيث استأذن فى الرجوع إلى أهله ، فأذن له ﷺ وقال له : «ارجع ، فلست بمنافق» .

وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ ...

فيه التنبيه على أن الاستئذان إذا كان فيه أدنى دخل للاحتيال ، أو يريد المستأذن أن يؤثر مصلحته الفردية على المصلحة الجماعية : فإن ذلك موجب للإثم واللوم ، ولأجل ذلك ينبغى للرسول وللخليفة من بعده ، ألا يكفى بالإذن لمن استأذنه من المسلمين ، بل عليه أن يستغفر لكل من يأذن له .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فهو يغفر الذنب للتائبين ، وهو رحيم لا يعاقبهم على الذنوب بعد توبتهم منها .

★ ★ ★

تعظيم الرسول

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦٣)

المضردات :

الـتـسـلـل : الخروج من المكان تدريجيا وخفية .

الـلـواذ : والملاوذة : التستر ، يقال : لاذ فلان بكذا ، إذا استتر به .

يخالفون عن أمره : يعرضون عنه ويخالفونه .

فـتـنـة : بلاء وامتحان فى الدنيا ، أو عذاب أليم فى الآخرة .

التفسير :

٦٣ - لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... الآية .

في معنى هذه الجملة ثلاثة وجوه :

الأول : لا تجعلوا أمر الرسول إياكم ، ودعاه لكم ، كما يكون من بعضكم لبعض ، أى : إن دعاء الرسول ونداءه لكم ، له أهمية ليست لدعاء غيره ، فإذا دعاكم غيره فلکم أن تجيبوه أو لا تجيبوه ، وأما إذا دعاكم الرسول ولم تجيبوه : فإنكم توقعون أنفسكم فى الحرج ، وإن ذلك مما يتهدد إيمانكم ، وينذرکم بحبط أعمالكم .

الثانى : ألا تنادوه كما ينادى بعضكم بعضا ، فلا تقولوا له : يا محمد . ولا تقولوا : يا بن عبد الله . ولكن شرفوه وعظموه فى الدعاء ، فقولوا : يا رسول الله ، أو يا نبى الله .

الثالث : ألا تعتقدوا أن دعاء الرسول على إنسان كدعاء غيره ، فإن دعاء الرسول مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم إذا علمتم ما يسخطه .

وقد رجح ابن كثير المعنى الثانى ، واستشهد له بجملة من الآثار ، منها ما يأتى :

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله - عز وجل - عن ذلك إعظاما لنبیه ﷺ ، وأمرهم أن يقولوا : يا نبى الله ، يا رسول الله .

وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبیه وأن يبجل وأن يعظم .

وقال مقاتل : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... يقول : لا تسموه إذا دعوتهم : يا محمد ، ولا تقولوا : يا بن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبى الله ، يا رسول الله ، وهذا كقوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ، لَتَكُولُوا بِهَيْبَةٍ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . (الحجرات : ٢) . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده . كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته (٢٢٢) .

وإذا ضمننا آخر الآية إلى صدرها ترجح لنا أن المراد هو المعنى الأول . أى : إذا دعاكم الرسول فلا تهملوا دعوته ، واستجيبوا لأمره .

ومن إعجاز القرآن : أن الآية تشير إلى معنى ، وتحتمل معنى ، وتستتبع معنى .

فَقَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ إِذَا ...

قال القرطبي :

التسلل والانسلاخ : الخروج ، واللواذ من الملاوذة : وهى أن تستتر بشيء مخافة من يراك ، فكان المنافقون يتسللون عن صلاة الجمعة «لواذا» - مصدر فى موضع الحال ، أى : متلاوذين - أى : يلوذ بعضهم ببعض ، ينضم إليه استتارا من رسول الله ﷺ ، لأنه لم يكن على المنافقين أنقل من يوم الجمعة وحضور الخطبة .

وقيل : كانوا يتسللون فى الجهاد ، رجوعا عنه ، يلوذ بعضهم ببعض .

وقال الحسن : لَوْأَذًا . فرارا من الجهاد . ومنه قول حسان :

وقريش تلوذ منا لواءا لم يقيموا وخف منها الخلو^(٢٩٧)

وروى أبو داود : أنه كان من المنافقين من يثقل عليه استماع الخطبة والجلوس فى المسجد ، فإذا استأذن أحد من المسلمين : قام المنافق إلى جنبه يستتر به ، فأنزل الله الآية :

فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ...

أى : يعرضون عن أمره .

وقال أبو عبيدة الأخفش : عَنْ . فى هذا الموضع زائدة^(٢٩٨) .

والآية تحذر من يخالف أمر الرسول ، أو يتهرب من دعوته ولا يلبى أمره ، بأن تصيبه الفتنة أو العذاب الأليم . وبهذه الآية قد احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب ، ووجهها أن الله - تبارك وتعالى - قد حذر من مخالفة أمره ، وتوعد بالعقاب عليها بقوله : أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . فتحرم مخالفته ويجب امتثال أمره^(٢٩٩) .

والفتنة هنا : القتل ، قاله ابن عباس ، وقال عطاء : الزلازل والأهوال ، وقال جعفر بن محمد : يسلط عليهم سلطان جائر . أى : إن المسلمين إن أعرضوا عن أحكام الرسول ﷺ وخالفوها ، فإن الله سيسلط عليهم من الحكام من لا يرحمهم ، وعلى كل حال فهذه إحدى صور الفتنة ، كما يمكن أن تكون لها صور كثيرة أخرى ، كتفرق كلمة المسلمين ، ونشوب الحرب الداخلية بينهم ، وانحطاطهم الخلقي ، وتشتت جماعاتهم ، وظهور الفوضى فيهم ، وانكسار قوتهم السياسية والمادية ، وتحكم غيرهم فى رقابهم^(٣٠٠) .

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْتَبِهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٦٤)

التفسير :

٦٤ - أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... الآية .

هذه الآية ختام السورة ، وقد بدئت السورة بقوله تعالى : سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ...

وهنا يثبت علمه الواسع ، وإحاطته الشاملة ، وملكه العميم ، لكل ما في السماوات والأرض ، وإطلاعه على الضمائر والنوايا ، وحسابه للجميع يوم القيامة .

قال ابن كثير :

قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ... وَقَدْ : للتحقيق ، كما قال قبلها : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ... وقال تعالى : قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّضِينَ مِنْكُمْ ... (الأحزاب : ١٨) . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر ، فقوله تعالى : قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ . أى : هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (يونس : ٦١) .

وقال تعالى : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتْلَى وَسَارٍ بِالنَّهَارِ . (الرعد : ١٠) . والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً^(٣٠١) .

وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ...

أى : ويوم يرجع الخلائق إلى الله ، وهو يوم القيامة .

فَيَنْتَبِهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا من جليل وحقيق وصغير وكبير .

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . من أعمالهم وأحوالهم . أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . (الملك : ١٤) .

وفى هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرعه الله من الأحكام ، كما أن فى الصدر حثا على القبول من جهة أن الله إنما شرعها لعلمه بحاجتهم إليها .

عن عقبة بن عامر قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية في خاتمة النور، وهو جاعل أصبعيه تحت عينيه يقول: «بكل شيء بصير». أخرجه الطبراني وغيره. قال السيوطي: بسند حسن.

رَوَى أن ابن عباس - رضى الله عنه - قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسرها على وجه لو سمعت الروم به لأسلمت. والله أعلم^(٢٠١).

والحمد لله حمدا كثيرا طيبا طاهرا مباركا فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، اللهم لك الحمد في الأولى والآخرة ، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لا إله إلا أنت ، وعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، ومحمد ﷺ حق .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الفرقان

أهداف سورة الفرقان

سورة الفرقان سورة مكية، نزلت بعد سورة يس، ونزلت سورة يس بعد سورة الجن، وكان نزول سورة الجن في رجوع النبي ﷺ من الطائف، وكان قد ذهب إليها سنة عشر من بعثته، فيكون نزول سورة الفرقان في السنة العاشرة من البعثة، وتكون من السور التي نزلت فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء. وهي فترة تميزت بقسوة مشركي مكة وعنفهم ورجبتهم في القضاء على الدعوة بكل سبيل، ولذلك تبدو سورة الفرقان وكأنها إيناس لرسول الله ﷺ وتسرية، وتطمين له وهو يواجه مشركي قريش وعنادهم وتعنتهم معه وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى وصددهم عنه.

سورة تشد أزر الرسول ﷺ

تنوعت جوانب هذه السورة وتعددت، لكنها في جملتها كانت مؤازرة لرسول الله تبيته الثقة والاطمئنان، وتفضح شبهات المشركين، وتنافخ عن الدعوة والداعية بالعديد من السبل.

فهى في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذى يحيط به الله عبده ورسوله، وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رقيقاً، ويفيض عليه بالرعاية واللفظ والمودة.

وهى في لمحة تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله، وهى تجادل في عنف، وتتعنت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح المبين.

إنها البشرية الضالة التى تقول عن هذا القرآن العظيم: **إِنْ هَذَا إِلَّا فُتْرَةٌ أَوْ فُتْرَةٌ وَآعَانُهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ غَاوُونَ ... (الفرقان: ٤).**

أو تقول: **أَسْطِطِرُّوا إِلَيْنِ أَكْتَبْتَهَا فَبِئْسَ تَمْلِكُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَعْيَاباً. (الفرقان: ٥).**

والتي تقول عن محمد رسول الله: **إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا. (الفرقان: ٨).**

أو تقول في استهزاء: **أَهْلًاؤُا الَّذِي يَبْتَئِلُ اللَّهَ رُسُولًا. (الفرقان: ٤١).**

وهذا التكذيب كان سمة الناس من عهد نوح إلى عهد محمد، لقد اعترض القوم على بشرية الرسول

ﷺ، واعترضوا على حظه من المال، فقالوا: **أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ... (الفرقان: ٨).**

واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن ، فقالوا : لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ... (الفرقان : ٣٢) .

وذلك فوق التكذيب والاستهزاء ، والافتراء والإيذاء . وعندما يتس النبي من أهل مكة توجه إلى الطائف ، وبها قبائل ثقيف ، وفيها نعمة وغنى وزراعة وأعناب ، حتى كان العرب يعتقدون أن طائفاً من الجن نقلها من اليمن السعيد إلى جنوب الحجاز .

وعندما ذهب إلى الطائف دعا أهلها للإسلام ؛ فردوه أسوأ رد وأغروا به السفهاء والعبيد يرمونه بالحجارة ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وأغنى على النبي الأمين ، فلما أفاق مد يده لله داعياً متضرعاً ، يقول :

«اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يارب العالمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أو بعيد ملكته أمري ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، عافيتك هي أوسع لي ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» .

وقد نزلت سورة الفرقان في أعقاب رحلة الطائف ، فكانت حناناً ورحمة من الله لنبيه تمسح آلامه ، وتسرى عنه ، وتهون عليه مشقة ما يلقي من عنت القوم وسوء أدبهم ، وتطاولهم على الرسول الذي اختارته السماء ليحمل رسالة الله إلى الناس .

وتعزيه عن استهزائهم بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه : أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ كَيْلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَفْقَهُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . (الفرقان : ٤٣ ، ٤٤)

ويتكفل القرآن بالعون والمساعدة في معركة الجدل والمحاجة : وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٣٣) .

ثم تعرض السورة أحوال القيامة ومشاهد المجرمين تهديدا ووعيدا : وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَزِيلًا * الْمُلْكُ يَوْمَ ذَلِكَ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .
وتصف ندم هؤلاء الكفار يوم القيامة فتقول : وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يُنَادِي يَتِيُّ لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا . (الفرقان : ٢٧ ، ٢٨) .

ثم تقدم السورة مسيرة الأنبياء وجهادهم وبلاءهم تسلياً للرسول الأمين ، ثم تحثه على الصبر والمصابرة ، وعلى جهاد الكفار بالحجة والبرهان : فَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَهْلَهُمْ بِجِهَادِكُمْ كَبِيرًا . (الفرقان : ٥٢) .

وهكذا تمضى السورة ، فى جانب منها إيناس وتسرية وعطف وإيواء من الله لرسوله ، وفى جانب آخر مشاققة وعنت من المشركين لرسول الله ، وتقدم السورة جوانب القدرة الإلهية ، وتصف عجائب صنع الله فى مد الظل وتسخير الشمس ، وخلق الليل والنهار ، والظلام والنور ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وخلق الإنسان والكواكب والبروج والأفلاك . وتتوعد المشركين بالعذاب والعقاب .

فإذا اقتربت السورة من نهايتها وصفت عباد الرحمن بالتواضع وقيام الليل ، والاقتصاد فى النفقة ، والاحتراز من الشرك والزنا وقتل النفس ، وتذكر فضل التوبة ومنزلة التائبين عند الله ، وتختتم السورة بتصوير هوان البشرية على الله لولا تلك القلوب المؤمنة التى تلتجئ إليه وتدعوه : **قُلْ مَا يَغَيِّرُكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** . (الفرقان : ٧٧) .

موضوعات السورة

رغم أن الخط الأساسى لسورة الفرقان هو العناية بالرسول ومسح آلام الحزن عنه وتثبيت قلبه ، إلا أنه يمكن أن تقسم هذه السورة إلى أربع فقرات أو أربعة موضوعات متميزة :

الموضوع الأول :

بدأ الموضوع الأول من سورة الفرقان بتسبيح الله وحمده على تنزيل هذا القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، ويتوحد الله المالك لما فى السماوات والأرض ، المدبر للكون بحكمة وتقدير ، ونفى الولد والشريك . ثم شرع فى ذكر ما أورده الكفار من شبه ، فذكر شبهتهم الأولى وهى قولهم : **إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ** ... (الفرقان : ٤) .

ورد عليهم بأن ادعاءهم ظلم وزور ، لأنه تحداهم به فلم يمكنهم أن يأتوا بمثله .

ثم ذكر شبهتهم الثانية وهى زعمهم أن القرآن أساطير الأولين اكتتبها ، ورد عليهم بأن الذى أنزله هو خالق الإنسان ، وهو العليم بأسراره وما يناسبه .

ثم ذكر اعتراضهم على بشرية الرسول ، وحاجته للطعام والمشى فى الأسواق ، واقتراحهم أن ينزل عليه ملك أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .

ورد عليهم بأن الله لو شاء لجعل لنبيه فى الآخرة جنات وقصورا خيرا مما ذكروه من نعم الدنيا ، وجميع الرسل قبل محمد كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق لأنهم بشر وذلك شأن البشر .

ويستغرق الموضوع الأول من أول السورة إلى الآية ٣٠ منها .

الموضوع الثانى :

بدأ الموضوع الثانى بذكر تطاول المشركين ، وزعمهم أنه كان يجب أن ينزل عليهم ملائكة تؤيد محمداً فى دعواه ، أو يروا ربهم .

ثم عاجلهم بمشهد اليوم الذى يرون فيه الملائكة لا تحمل البشرى ، وإنما تحمل الإنذار والوعيد . وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا . (الفرقان : ٢٦) .

ليكون فى ذلك تسلية للرسول ﷺ وهم يهجون القرآن ، وهو يشكو لربه هذا الهجران .

ثم ذكر اعتراضهم على عدم نزول القرآن جملة واحدة ، ورد عليهم بأنه نزل مفرداً لتثبيت قلب الرسول ، وللإجابة على استفهام المستفهمين ، وتوضيح الحق أمام السائلين .

ثم ذكر أنهم فى الآخرة يشنون مقلوبين ، وجوههم إلى تحت ، وأرجلهم إلى فوق ، فيضلون فى آخراهم كما ضلوا فى دنياههم .

ثم شرع فى تأييد ذلك بتصوير عاقبة المكذبين من قبلهم ، من قوم موسى وقوم نوح ، وعاد واثمود ، وأصحاب الرس والقرون الكثرية بين ذلك ، ويعجب من أمرهم وهم يمرّون على قرية لوط المدمرة ولا يعتبرون ؛ فيهنّ بذلك كله من وقع تطاولهم على الرسول ﷺ وقولهم : أَهْلًا لِلَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا . (الفرقان : ٤١) .

ثم عقب على هذا الاستهزاء بتحقيهم ووضعهم فى صف الأنعام ، بل دون ذلك : إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . (الفرقان : ٤٤) .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٢١ : ٤٤ .

الموضوع الثالث :

يبدأ الموضوع الثالث بعرض مظاهر القدرة الإلهية فى نظام هذا الكون وإبداع صنعته ودقة ناموسه .

فيعرض مشهد الظل ، ويستطرد إلى تعاقب الليل والنهار ، والرياح المبشرة بالماء المحيى ، وخلقة البشر من الماء ، ومع هذا فهم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، ويتظاهرون على ربهم وخالقهم ، فينصرون الشيطان على ربهم الذى يريد أن يرهبهم ويهديهم ، ويتناولون فى قحة إذا دعوا إلى عبادة الرحمن ، وقد جعل الله الليل والنهار خلفه أحدهما الآخر ، ويتعاقبان ليرى الإنسان الصباح المشرق والليل المظلم ؛ فيتذكر عظمة الله ويشكره ، ولكنهم لا يتذكرون ولا يشكرون .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٤٥ : ٦٢ .

الموضوع الرابع :

يصف الموضوع الرابع عباد الرحمن الذين يسجدون له ويعبدونه ، ويسجل مقوماتهم التي استحقوا بها هذه الصفة الرفيعة، ويفتح باب التوبة على مصراعيه لمن يريد الإقبال على الله ، ويصور جزاء المؤمنين الصابرين على تكاليف الإيمان والعبادة : **أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۖ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا** . (الفرقان : ٧٥ ، ٧٦) .

ويستغرق هذا الموضوع الآيات من ٦٣ : ٧٧ حيث تختتم السورة ببيان هوان البشرية على الله لولا دعاء المؤمنين، وعبادة المتقين .

وفى هذا الهوان تهوين لما يلقاه الرسول من عنت المشركين ، فهو يتفق مع ظل السورة وجوها، ويتفق مع موضوعها وأهدافها .

عظمة الخالق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا ۝٢ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾

المفردات :

تبارك : تكاثرت بركته وعمت الخلائق كلها .

الفرقان : القرآن ، وسمى فرقانا لأنه فرق بين الحق والباطل ، ولأنه نزل مفرقا ، ولم ينزل جملة واحدة ، قال تعالى : وَفُتِّرْنَا فِرْقَتَهُ لِنُفَرِّقَ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ... (الإسراء: ١٠٦) .

عبد : أى : محمد ﷺ ، ووصفه بذلك تشريفا له ، بكونه فى أقصى مراتب العبودية .

العالمين : أى : الثقليين من الإنس والجن .

نذير : مخوفا لهم من عذاب الله ، إن كفروا به ولم يوحّدوه .

فقدّره تقديرًا : سواه تسوية قائمة على أساس ، لا اعوجاج فيه ، ولا زيادة ولا نقص عما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

ضرًا ولا نفعًا : أى : لا دفع ضر ولا جلب نفع .

موتًا ولا حياة ولا نشورًا : أى : لا يقدرون على إماتة أحد ولا إحيائه ولا بعث الأموات .

التفسير :

١ - تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .

كثرت بركات الله ، وعظمت نعمائه وأفضاله ، فهو خالق الكون ، وبيده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير ، وقد أنزل الله القرآن على عبده محمد ﷺ ، ليكون داعية إلى الإيمان ، ونذيرًا للبشرية كلها من الكفر والتكذيب .

فى أعقاب الآية :

(أ) امتن الله على نبيه محمد ﷺ بالعبودية الحقّة لله ، وهذه أعظم درجة ينالها إنسان وهى أن يكون عبداً حقاً لله العلى الكبير ، وقد ورد هذا المعنى فى القرآن الكريم ، وفى صدر سورة الإسراء :
سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

وفى صدر سورة الكهف يقول الله تعالى : اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى اَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ الْكِتٰبَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَّهٗ عِوَجًا .

(ب) عالمية الدعوة : هذه السورة مكية ، والآية الأولى مكية ، وفيها عالمية الرسالة ، فقد أفادت الآية أن الله أنزل القرآن على محمد ﷺ ، ليبلّغه للعالمين .

وفيه رد على المستشرقين ، الذين ادعوا أن الإسلام كان دعوة محلية فى مكة ، فلما انتقل إلى المدينة وتكونت الدولة الإسلامية تحول إلى العالمية ، ويمكن الاستدلال بالأحاديث النبوية الصحيحة ، على عالمية الدعوة فى مكة ، فقد اشتكى المؤمنون الأولون من شدة ما يلقون من العذاب من أهل مكة ، وقالوا : يا رسول الله ألا تدعو عليهم . فقال ﷺ : «والذى نفسى بيده ليتمنّ الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، أو الذنب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

وفى صحيح البخارى : أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان عن النبى ﷺ ، فسأله عن نسبه ، وعن أتباعه ، وعن حروبه . فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب ، وأكثر أتباعه من الضعفاء ، والحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وينال منه . فقال هرقل لأبى سفيان : إن الرسل تبعث فى أنساب قومها ، وأتباع الرسل هم الضعفاء والفقراء ، والإيمان يتعرض للابتلاء حتى يكتمل نوره ، وإذا كان ما تقول حقاً فسيملك محمد موضع قدمى هاتين ، ولو كنت أصل إليه لغسلت عن قدميه (٢٠٣) .

وفى طريق الهجرة من مكة إلى المدينة ، تقدم فارس مقدم خلف النبى ﷺ يريد القبض عليه ، أو قتله ، ليحصل على مكافأة أهل مكة ، لكن عناية الله وحفظه لنبيه ، حفظ رسول الله ﷺ ، ثم قال النبى ﷺ : «يا سراقه ، أسلم ولك سوار كسرى» . ثم أسلم سراقه فيما بعد وليس خُف كسرى ، وتاج كسرى ، وسراويل كسرى ، فلما رآه عمر قال له : أقبل ، فأقبل ، ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، ثم قال عمر : ربّ يوم يا سراقه بن مالك ابن جشعم ، يكون هذا فخراً لك ولأبنائك من بعدك ، ثم خلعهما عمر عن سراقه ووضعها فى بيت مال المسلمين .

(ج) رسالة الرسول ﷺ للتبشير بالجنة للطائعين ، والإنذار بالنار للعاصين ، ولكنه اقتصر هنا على

الإنذار ، فى مواجهة الكافرين المعاندين .

بينما قال تعالى في سورة الأحزاب: يَتْلُوهَا أَشْيَى إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۖ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا. (الأحزاب: ٤٥، ٤٦).

وقال سبحانه: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ. (الأنبياء: ١٠٧).

٢ - الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ قَدْرًا، فَتَقَدَّرَ.

تشتمل هذه الآية على صفات الله تعالى، وكمالاته وقدرته:

١ - فقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وجعل السماء سقفاً مرفوعاً وزينها بالنجوم، وجعل فيها بروجاً وشمساً وقمرًا منيرًا، وخلق الله الأرض، وبسطها، وجعل فيها طرقاً يسير عليها الناس، وأرسل فيها الجبال، ويسر أعمارها بإنزال المطر وإنبات النبات، وخلق الحيوانات، والإنس والجن، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى في كثير من الآيات.

قال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا. (الفرقان: ٦١).

وقال تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا يَنْتَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى. (طه: ٦).

وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۚ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْكًَا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ عَابِئِهَا مُغْرَضُونَ ۚ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. (الأنبياء: ٣٠-٣٣).

تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ

ادعت النصراني أن المسيح ابن الله، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقد نفى القرآن ذلك عن الله ونزّهه عن مشابهة الحوادث.

قال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ... (المؤمنون: ٩١)

وفي الحديث الصحيح: «لا أحد أحلم من الله، إنهم ليدعون له ولداً، وإنه ليعافيههم ويرزقهم»^(٣٠١).

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «يشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني، فأما شتمه لى فقلوله: إن لى ولداً، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأما تكذيبه لى فقلوله: ليس يعيدنى كما بدأنى»^(٣٠٢).

وقد ردَّ القرآن في آياته على المكذبين بالبعث فقال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ. (الأنبياء: ١٠٤).

وقال سبحانه: وَهُوَ الَّذِي يُنْذِرُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (الروم: ٢٧).

وفي آخر سورة يس يقول الله تعالى: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. (يس: ٧٨ - ٨٢).

الخلق والتقدير

أبداع الله خلق الأشياء على غير مثال سابق، وآية ذلك تكامل هذا الكون، وتعاون أجزائه: فالشمس ساطعة، والقمر منير، والبحار شاسعة، والشمس ترسل أشعتها فوق المحيطات، فيتصاعد البخار، ثم تسوقه الرياح فيتساقط مطرًا، تتم به حياة الزرع والإنسان والحيوان، والإنسان يستنشق الأوكسجين، ويخرج ثاني أكسيد الكربون، والنبات يأخذ ثاني أكسيد الكربون ويستنشفه، ثم يخرج الأوكسجين، فلو وجد الإنسان وحده لمات، ولو وجد النبات وحده في هذا الكون لذبل وذوى، فمن حسن تقدير الله وترتيبه وتدبيره، وجود الإنسان والنبات، والهواء مثلاً فيه نسبة ٢١٪ من الأوكسجين، ولو زادت هذه النسبة إلى ٥٠٪ لزاد الاشتعال، بحيث إن شرارة واحدة في الغابة تكفي لاشتعال الأشجار كلها، ولو نقصت نسبة الأوكسجين في الهواء عن ٢١٪ لاختنق الإنسان، وانخفض مستوى تقدمه وحضارته.

واندلك قال تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا.

أى: أبداع خلق كل شيء في هذا الكون، مع التنظيم والسيك، والتكامل والإبداع، والتنسيق بين المخلوقات، بحيث يتم بينها التكامل والتعاون، في إعمار الكون وإبداع نظامه.

وفسر ابن كثير: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا. بأن كل شيء مخلوق مربوب لله، والله هو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره.

٣ - وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مُوتًا وَلَا حَيًّا وَلَا نُشُورًا .

تندد الآية بعبادة الأصنام، فقد وضّحت الآيات السابقة، مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته، وإفاضته الخير على الخلق ، واتصافه بالملك والقدرة والعلم والحكمة ، ثم تندد الآية الثالثة من سورة الفرقان بالشرك والمشركين ، فقد اتخذوا أصناما وأوثانا عبدوها من دون الله تعالى ، وهذه الأصنام لا تخلق شيئا ، بل يصنعها عبادها من الأحجار والأخشاب ، وهذه الأصنام لا تملك لنفسها ضرا ، أى : دفع الضر عن نفسها ، ولا تملك جلب النفع لنفسها ، ولا تقدر على إماتة أحد ولا إحيائه ، ولا تقدر على بعث الموتى من قبورهم .

والآية فيها تحريك للعقول ، ودعوة للتدبر ، فقد وصفت الأصنام بسبع صفات :

١ - لا تخلق شيئا .

٢ - هى مخلوقة ، خلقها الله ، إن كانت ملائكة أو المسيح أو عزيزا، وخلقها عبادها إن كانت أصناما .

٣ - لا تدفع الضر عن نفسها .

٤ - لا تجلب لنفسها نفعا .

٥ - لا تقدر على إماتة أحد .

٦ - لا تقدر على إحياء الموتى .

٧ - لا تقدر على بعث الموتى وإخراجهم من قبورهم للحساب والجزاء .

شبهات المشركين والرد عليها

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑤ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ ثَمَلٌ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑥ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ⑦ ﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَائِكَةً فَيَكُورُبَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑧ أَوْ يُنْفِقُ إِلَيْهِ كَنْزًا أَوْ تَكُونُ لَهُ بَنَاتٌ ⑨ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ وَقَالَ الْأَظْلَمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ⑩ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ⑪ ﴾

المضردات :

إفك : كذب .

افتراء : الافتراء : الاختلاق والكذب .

جاءوا : أتوا .

ظلموا : جورا وعدولا عن الصواب .

زورا : كذبا ، فهم نسبوا القبيح إلى القرآن ، وهو مبرأ منه .

أساطير : أكاذيب ، جمع أسطورة أو أسطار .

الأوليين : السابقين .

اكتتبها : أمر بكتابتها .

ثمل عليه : تلقى عليه بعد كتابتها ليحفظها .

بكورة وأصيل : صباحا ومساء ، والمراد : دائما .

قل أنزلناه : رد عليهم .

يعلم السر : ما يسره أهل السماوات والأرض في نفوسهم ، والمراد : اشتماله على مغيبات وأشياء خفية ، لا يعلمها إلا عالم الأسرار ، فكيف تجعلونه أساطير الأولين .

أوبلى إلى كثر: أى: من السماء فينفق منه، ولا يحتاج معه إلى الضرب فى الأسواق.

جنة يأكل منها: بستان فيه ما يغنيه من أنواع الحبوب والثمار.

رجلا مسحورا: أى: سحر فاختل عقله.

الأمثال: أى: السحر، والجنون، والشعر، والكهانة، والكذب، وما إلى ذلك.

فضلاوا: أى: بقوا متحيرين فى ضلالهم، فلا يهتدون إلى الهدى والإسلام.

سبب النزول:

قال مقاتل والكلبي ومجاهد وابن عباس: نزلت فى النضر بن الحارث، فهو الذى قال هذا القول، وعنى بقوله: وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ. عداسا مولى حويطب بن عبد العزى، ويسارًا غلام عامر بن الحضرمى، وأبو فكيهة الرومى مولى بنى الحضرمى، وكانوا من أهل الكتاب، يقرءون التوراة ويحدثون أحاديث منها، فأسلموا وكان النبى ﷺ يتعهدهم ويختلف إليهم، فمن ثم قال النضر ما قال (٣٧).

تمهيد:

بدأت سورة الفرقان بالتوحيد، وانتقلت إلى الرد على عبّاد الأوثان، وذكرت هنا شبهات المشركين وطعنهم فى القرآن، وطلعنهم فى نبوة النبى محمد ﷺ، الذى نزل عليه القرآن.

التفسير:

٤ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا.

ادعى مشركو مكة أن محمدا افترى القرآن واختلقه، وقاله من عند نفسه، وقد استعان بمن أسلم من أهل الكتاب حيث تبناهم ورعاهم، ولكون هذه التهمة ساقطة من تلقاء نفسها، أجاب عنها القرآن إجابة مجملة فقال:

فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا.

أى: ادعوا هذه الدعوى الباطلة المائلة عن الحق، المتصفة بالزور والبهتان والكذب، فشتان بين كلام المخلوق، وكلام الخالق، فالعرب كانوا أرباب الفصاحة والبلاغة، ويدركون ويميزون درجات الفصاحة والبلاغة، وقد أحسوا بما فى القرآن من إعجاز وبيان لا يقدر عليه بشر، ثم غالبوا هذا الحق، وادعوا أن محمدا ينقل القرآن عن أهل الكتاب، مع أن محمدا تحداهم أن يأتوا بمثل أو بعشر سور منه، أو بسورة واحدة، فعجزوا ولزمهم العجز، وكانوا أحرص الناس على الانتصار، فقد قاتلوا محمدا وقتلهم، وقاموا ودعوتهم بكل ما يستطيعون من سبيل، وإذا كان محمد ينقل عن أهل الكتاب، فلماذا لم ينقلوا هم كما

نقل ، ويقدموا سورة واحدة تحفظ ماء وجوهمهم ، خصوصا بعد أن تحادهم القرآن ، ووصمهم بالعجر ، حيث قال تعالى : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُهْوِئَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤) .

وقال عز شأنه : قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

هـ - وَقَالُوا أَأَسْلَطُوهُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِ تَمَلُّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

أى : ادعى مشركو مكة أن القرآن قد جمع قصص السابقين ، وتحدث عن أمم بائدة ، وتحدث عن قوم نوح وعاد وثمود وسبأ وفرعون ، كما تحدث عن زكريا ويحيى ويوسف وموسى وعيسى ، ومحمد كان يتلقى هذه الأساطير عن أسلم من أهل الكتاب ، حيث يقرؤها عنها عليه فى الصباح والمساء ، حتى يحفظها وينقلها للناس على أنها وحى من السماء .

التنصير بن الحارث

كان التنصير بن الحارث من شياطين قريش ، وكان يأتى الحيرة ويتعلم أخبار ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، وكان النبی ﷺ يجلس إلى قومه ، فيحدثهم بما أصاب قوم نوح وعاد وثمود من المكذبين لرسولهم ، ويدهمهم للإيمان ، خشية أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، فإذا قام النبی ﷺ من المجلس ، جلس التنصير بن الحارث وقال : تعالوا أقصص عليكم ، إنى أحسن حديثا من محمد ، ويقول : إن ما يقوله محمد هو من أكاذيب القصص وأساطيرهم ، التى سطورها فى كتبهم فهو يحدث بها ، وهى تملئ عليه ، أى : يملئها عليه غيره صباح مساء .

٦ - قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

قل لهم يا محمد : الذى أنزل هذا الكتاب هو الله ، عالم الأسرار والخفايا ، والمطلع على أعمال السابقين واللاحقين ، لذلك اشتمل القرآن على أخبار لم ترد فى التوراة والإنجيل ، أو وردت محرفة فصولها القرآن ، وبين الصواب للمختلفين .

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَفْصُلُ عَلَى بَيْنٍ إِسْرَافِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (النمل : ٧٦) .

وقال عز شأنه : أَلَمْ • اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ • نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ الْتُورَةَ وَالْإِنْجِيلَ . (ال عمران : ١ - ٣) .

فالقُرآنُ مصدق لما سبقه من الكتب والصحف ، وهو أيضا مهيم عليها ، يبين ويوضح ما حُرفَ فيها وغيّر ، ويصوّب الخطأ ، ويزيد على ما فيها ، ولو كان القرآن ناقلا عن أهل الكتاب ، ما زاد على ما عندهم ، ولا صوّب أخطاءهم ، ولا قوّم اعوجاجهم ، ولا بين انحرافهم .

قال تعالى : فَيُظْلَمُ مَنْ آلَيْنَ هَٰذَا وَحَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... (النساء : ١٦٠) .

وقال عز شأنه : كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَٰئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰئِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ الْتَّورَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . (آل عمران : ٩٣) .

لقد سجل القرآن على اليهود تحريف التوراة ، والزيادة فيها ، والنقص منها .

قال تعالى : أَتَقْطَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (البقرة : ٧٥) .

وقال عز شأنه : وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعَنُونَ أَلَيْسَتْ لَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (آل عمران : ٧٨) .

والخلاصة : أن القرآن منزل من عند الله وحده ، وهو سبحانه حلیم غفور يهمل العصاة ، ويغفر للمذنبين ، ويقبل توبة التائبين ، فتوبوا إليه حتى يقبلكم .

في أعقاب الآية :

إن المسلم يعتز بهذا الكتاب الذي نسبه الله إلى نفسه ، فقد خلا من التعارض والتضارب ، قال تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

ولو كان محمد مستعينا بأحد من الخلق ، لسهل عليهم الاستعانة بأخرين ، لياتوا بمثل ما أتى به محمد ، فلما عجزوا ، واستمرّ عجزهم مع وجود التحدي ، دلّ ذلك على أن القرآن ليس من صنع بشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

ثم إن القرآن مشتمل على الإعجاز العلمي والغيبى فقد أخبر عن أمم بائنة ، وأخبر عن أمور علمية ، تتصل بالعسل وأنه فيه شفاء ، وأهمية اللبن ، وقلة الأوكسجين في طبقات الجو العليا ، وأن الجلد مركز الإحساس ، وأن الكون مشتمل على تكامل وتجانس ونظام وإبداع . مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَقْوَىٰ ... (المك : ٣) . كما تحدّث القرآن عن بدء الخليقة ، وخلق السماوات والأرض ، والغضا والجبال والهواء والإنسان ، ولم يصطدم

ذلك ولا غيره بأى حقيقة علمية، بل كلما تقدم العلم، جاء بما يؤكد صدق هذا الكتاب، وصدق الرسول محمد ﷺ. قال تعالى: سُرِّيهِمْ ءَايَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَلِيَّ أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت: ٥٣).

فأله هو المطلع وحده على هذا الكون وما فيه من أسرار وخفايا، وهو وحده الغفور الرحيم، قال تعالى: قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.

مطاعن المشركين في محمد ﷺ

٧ - وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ لَكَ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا.

تشير كتب السيرة والتفسير، مثل تفاسير الألوسي والقرطبي والطبري وغيرها، عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث وغيرهم من وجوه قريش، اجتمعوا وأرسلوا إلى النبي ﷺ، فعرضوا عليه الملك أو الرئاسة أو السيادة أو ما يشاء نظير أن يترك دعوته، فأخبرهم أنه لا يريد شيئاً من ذلك، ولكن الله بعثه رسولا، وأنزل عليه كتابا، وأمره الله أن يدعوهم إلى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وأن يبشروهم بالجنة إن أطاعوا، وينذروهم بالنار إن عصوا.

فقالوا: يا محمد، إن كنت غير قابل شيئا مما عرضناه عليك، فسل لنفسك، سل ريك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما نقول ويراجعنا عنك، وسله أن يجعل لك جنانا وقصورا من ذهب وقضة تغنيك عما تبتغي، فإذ لك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ريك، إن كنت رسولا كما تزعم، فقال ﷺ: «ما أنا بفاعل، ما أنا بالذي يسأل ربّه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا». فأنزل الله تعالى: وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ...

وهذه الآيات بما فيها من مطالب مادية، تكررت في القرآن الكريم، وتشير إلى تعنت المشركين، واستكثارهم أن يشاهدوا رجلا مثلهم، يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون، ويمشي في الأسواق ويتكسب للمعاش، ثم ينزل عليه وحى السماء، استكثروا هذا وما علموا أنها إرادة الله في أن يكون الرسول بشرا يعيش كما يعيش الناس، ويتعرض لطلب الطعام، والمشي في الأسواق، وتكسب المال، ثم ينهض بواجب الدعوة إلى الله في مكة، متعرضا لصنوف الاضطهاد والعذاب، ثم يرحل إلى المدينة ويؤسس دولة الإسلام، ويقود غزوات ناجحة، وتأتيه الغنائم فيوزعها، ويفضل أن يعيش كما تعيش جماهير الأمة، رسولا عبداً وليس نبياً ملكا، حتى تتحقق فيه القدوة والأسوة، ويقبضى به الفقراء والأغنياء وسائر الخلق أجمعين.

وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ نُولَا أَنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .

أى : قال المشركون : أى سبب جعل هذا الذى يزعم أنه رسول يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشى فى الأسواق ساعيا على رزقه كما نسعى ، فلو كان رسولاً من عند ربّه لميزه علينا ، فهلا ميزه بأن ينزل عليه ملك ينذر المكذّبين به ، ليجعلنا مطمئنين إلى إرساله إلينا .

٨ - أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَتْرٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا .

أى : إذا لم ينزل معه ملك يوازره ويصدقّه ، فلا أقل من أن ينزل عليه مال يكتنزه ، ليستظهر به ، وترتفع حاجته عن اكتساب قوته والسعى فى الأسواق ، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فلا أقل من أن يكون له بستان يتعيش من ريعه ، مثل مياسير قریش ، متميزا عن عامتهم ، ثم قال مشركو مكة : إن محمداً قد غلب على عقله ، أو أصابه مسٌ من الجنون ، فصار يخلق كلام القرآن ثم يزعم أنه وحى .

٩ - أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلُ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا .

يتدخل القرآن مدافعاً عن الرسول ، مسجلاً على هؤلاء المشركين تخبطهم فى أقوالهم ، حيث قالوا : إن محمداً شاعر ، ثم قالوا : هو ساحر ، وكاهن ، ومجنون ، وكذاب ، ومتخيل يرى فى منامه ما يراه ثم يرويّه فى الصباح على أنه وحى ، وقريب من ذلك ما حكاه القرآن من تخبطهم وحيرتهم فى إلصاق التهم ، ومحاولة تشبيهه بالساحر والكاهن والشاعر والمفتري .

بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ سَبِيلَ نَبِيِّ قَوْمِ قَدْحَانٍ فَبَيَّنَّا أَنَّهُمْ كَذَّابُونَ . (الأنبياء : ٥) .

وخلاصة معنى الآية :

لقد أضلّوا بك التهم وشبهوك بالمسحورين مرة ، واتهموك بالتزوير مرة ، ومثلوك برواة الأساطير مرة ، وكله ضلال ويعد عن الحق .

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . فلا يجدون طريقا يسلكونه إلى الهدى والإيمان .

وهكذا سجل القرآن حيرة المشركين ، وضربهم الأمثال الواهية الرخيصة ، للصّد عن سبيل الله ، وقد باءت كل محاولاتهم بالفشل والخيبة والخذلان .

تصريف القول بين الدنيا والآخرة ، والنار والجنة

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا ۝١١ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١٢
إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۝١٣ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَعِيقًا
مُفْرَينَ دَعَوْهُنَا لِئَلَّا يَكُنُ ثُبُورًا ۝١٤ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا
۝١٥ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا
۝١٦ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خُلْدٌ ۚ كَانَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ أَكْشَافٌ ۝١٧﴾

المعردات :

تبارك : تقدس وكثر خيره ، وعمت بركته .

خيراً من ذلك : الذى اقترحه المشركون .

قصُوراً : أى : كثيرة لا قصراً واحداً .

السَّاعَةُ : قيام الناس لرب العالمين ، وسبب التسمية : أنه تعالى يفجأ بها الناس فى ساعة لا يعلمها إلا هو .

سعييراً : ناراً شديدة الاستعار ، أى : الاتقاد .

تغيظاً : سمعوا لها صوتاً يشبه صوت المتغيظ ، وهو إظهار أشد الغيظ والغضب .

زفيراً : الزفير : إخراج النَّفْسِ ، وضده الشهيق ، أى : صوت الزافر الحزين الذى يخرج النفس من جوفه ، والمراد : صوتاً حزيناً مرعباً .

مكاناً ضيقاً : أى : ألقوا من النار فى مكان ضيق لزيادة تعذيبهم .

شُبُوراً : هلاكاً ، أى : نادوا : يا هلاكنا احضر لتنتقذنا من هذا العذاب .

ثُبُوراً كثيراً : أى : نادوا هلاكاً كثيراً ، ليخلصكم من كل نوع من أنواع العذاب الذى ينتظركم فى جهنم ، فإن أنواعه كثيرة متجددة .

الْخُلْدُ : المكث الطويل .

جـزاء، ثوابا على إيمانهم وتقواهم .

مصيبرا، صاروا إليها لا يفارقونها .

وعدامستولا، موعودا يسأل الناس ربهم أن يتفضل بإنجازه .

التفسير :

١٠ - كَبَارَةُ اللَّيْلِ إِنَّمَا تَأْتِي لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جِئْتَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا .

تعالى الله ، الذي إذا شاء التوسعة عليك في الدنيا ، جعل لك خيرا من ذلك الذي اقترحوه ، بساتين تجري من تحتها الأنهار لا يستأنأ واحداً ، ويجعل لك قصورا عديدة تتمتع بها ، ولكنه ادخر لك الخير كله بجميع صورته في الآخرة ، بعد قيام الساعة التي كذبوا بها .

وقد أورد القرطبي في تفسيره طائفة من الأحاديث ، تفيد أنه عرض على النبي مفاتيح خزائن الدنيا ، مع أنه لا ينقص ما له في الآخرة شيئا ، وإن شاء جمع الله عز وجل له ذلك في الآخرة ، فقال ﷺ : «يُجمع ذلك لي في الآخرة» .

فأنزل الله عز وجل هذه الآية ، لقد اختار الرسول ﷺ أن يكون رسولا بشرا مثل سائر الناس ، يتعرض للفقر والغنى ، حتى يكون أسوة حسنة للفقراء ، وأسوة حسنة للأغنياء ، وقدوة عملية في شئون الحياة جميعها ، في تصرفه وحكمته وزهده وعطفه وكرمه ﷺ .

١١ - بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا .

أى : اصبر يا محمد على أذاهم ، فإنهم يؤمنون بصدقك ، ويتيقنون بأمانتك .

فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وليس المانع لهم من الإيمان هو كونك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، أو أن الله تعالى لم ينزل عليك ملكا ، بل المانع لهم هو تكذيبهم بالساعة ، فعلة كفرهم وعنادهم ، هي عدم إيمانهم بالبعث والجزاء ، فلو آمنوا بالحياة الآخرة ، لطلبوا كل وسيلة تنجيهم من عذابها ، وتسبب لهم الحصول على نعيمها ، لكنهم اهتموا بدنياهم ، وأعرضوا عن آخرتهم ، فلا تعجب من تكذيبهم إياك فيما جئتهم به من الحق ، وقد أعدنا لكل من كذب بالساعة نارا شديدة الاقتراد ، عظيمة الإحراق ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، وقيل : سَعِيرًا . دركة من دركات النار تسمى سعيرا .

١٢ - إِذَا رَأَوْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا .

إذا رأت النار أهلها من دوى الشرك والظلم والفساد ، وهم فى مكان بعيد مكشوف أمام النار ، تغيطت عليهم تغيطا ، وزفرت زفيراً مزعجاً ، فيسمعونه فترتعد له فرائصهم .

وإسناد الرؤية والزفير إلى النار على المجاز ، وقيل : إنه على الحقيقة ، حيث إن جهنم تشتاقي إلى المشركين ، وتتلطمز غيظا على من عصى الله تعالى ، وتظل تقول : هَلْ مِنْ مُّزِيْدٍ . حتى يضع رب العزة رحمته فيها فتقول : (قطنى قطنى) أى : كفانى كفانى .^(٣٠٧)

قال تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ آمَنَّا لَا تَقُولُ هَلْ مِنْ مُّزِيْدٍ . (ق : ٣٠) .

ورجح القرطبي أن النار ترى المشركين على الحقيقة ، لا على المجاز ، واستدل بما روى مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ قال : «من كذب على متعمداً ؛ فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا» .

١٣ - وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا .

هم يتعرضون لألوان العذاب والمهانة والضيق والكروب ، فإذا وضعوا فى مكان ضيق كضيق الجراب على السيف ، والزج على الرمح ، حال كون أيديهم مقرونة إلى أعناقهم ، ومقيدة بالسلاسل فى أعناقهم ، نادوا بأعلى صوتهم : يا ثبوراه ، أى : يا هلاكاه احضر فهذا أوان حضورك ، لتنقذنا مما نحن فيه .

قال بعض العلماء : دعاء الثبور ونداؤه كناية عن تمنيه الهلاك ، ليسلموا مما هو أشد منه ، كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت .

١٤ - لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا كَثِيرًا .

أى : لا تدعوا اليوم ويلأ واحداً ، وادعوا ويلأ كثيراً ، لتعدد العذاب بتعدد أنواعه ، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ، فهم بحاجة فى كل عذاب إلى هلاك وموت جديد يخلصهم منه ، وأنى لهم الموت ، وهيهات أن ينفعهم هذا الدعاء ، فإنهم خالدون فى النار أبداً ، فالمقصود فى الآية إقناطهم من النجاة ، وأن دعاءهم برفع العذاب لا ينتهى .

وقال ابن كثير : الأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون :

وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَلْفِرْغُونُ ثُبُورًا . (الإسراء : ١٠٢) . أى : هالكاً .

١٥ - قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا .

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين : أنلك العذاب الأليم خير وأفضل ، أم جنة النعيم المقيم والخلود الدائم التي وعد الله بها عباده المتقين ؟ وهذه الجنة كانت لأهل الإيمان والتقوى ، مثوبة ومكافأة لأعمالهم ، ومصيرًا يصيرون إليه لا يفارقونه أبداً ، ونلاحظ أن النار لا خير فيها ، ولا مناسبة بينها وبين الجنة ، وإنما هو التذكير فقط ، والمقابلة بين جزاء الأشرار ، ومكافأة الأخيار ، ليرتدع الكافرون ، ويجتهد المؤمنون .

١٦ - لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا .

لأهل الجنة ما يطلبون من النعيم ، وفي الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيها التكريم والتنعيم ، والخلود الأبدى بلا موت ، هذا وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد .

وقيل : إن هذا الجزاء العظيم ، من حق العباد الصالحين أن يطلبوه وأن يسألوه ، كما ورد في قوله تعالى : رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رَسُولِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ . (آل عمران : ١٩٤) . أو أن الملائكة تدعو للمؤمنين ، وتسال الله لهم المغفرة ، والجنة تكريما لهم ، واعترافا بفضلهم .

قال تعالى : الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ • رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (غافر : ٨٠٧) .

هي ختام الآيات

هذه آيات الله في سورة الفرقان ، خلعت الحياة على جهنم ، فجعلتها ترى المشركين ، وهي تتغيط في صوت الزفير الذي يخلع القلوب من هوله ، وشخصت منظر المشركين وهم يلقون في النار ، في أضييق مكان ، مقرنين بالسلاسل ، يتنادون بالويل والهلاك ، وأنى لهم الهلاك ، ثم يقارن القرآن بين هذا العذاب ، وما يقابله من نعيم المتقين في الجنة ، وهم يتمتعون بما يشاءون من النعيم والخلود والتكريم الإلهي لهم . والله العلي القدير يعرض النار والجنة أمام عباده ، وقد أعذر من أنذر ، والله الفضل والمنة ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

سؤال الأصنام والملائكة وعزير والمسيح

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِيبَاءَ هُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا أَنْفَوْنَا فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴿

المضردات :

يحشرهم : يجمعهم .

ضل السبيل : فقده ، وخرج عن طريق الحق .

سبحانك : تنزيها لك عما لا يليق بجلالك وكمالك .

الذكر : القرآن ، أو كل ذكر الله .

بُورًا : هالكين فاسدين ، وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع .

صرفها : دفعا للعذاب ، أو حيلة ، من قولهم : إنه يتصرف ، أى : يحتال .

التفسير :

١٧ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ .

تعرض الآية مشهدا من مشاهد القيامة يوم يحشر الله المشركين ، والآلهة التى عبدوها من دُونِ الله ، كالملائكة والجن والمسيح والأصنام والأوثان ، فيسأل الله هذه الآلهة سؤال توبيخ وتقريع لمن عبدوهم .

كما ورد فى قوله تعالى : وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ • بِأَى ذَنْبٍ قُتِلَتْ .. (التكوير : ٨ ، ٩) .

كَأَن قَاتِلَهَا لَيْسَ أَهْلًا لَّأَن يُوْجِهَ إِلَيْهِ السُّؤَالُ ، وَكَمَا وَرَدَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَتَبَرُّوْهُ الْمَسِيحُ مِمَّنْ عِبَدَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قَالَ تَعَالَى : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَبُ سِىِّئَ مَرْئِمٍ ؕ أَلَمْ تَكُنْ لِلنَّاسِ خَدِيْعَةً وَأَمْرًا إِلَيْنِهِمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ أَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ ... (المائدة : ١١٦) . وَسُؤَالُ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْجِمَادِ ، إِمَّا أَنْ يَكُوْنَ بِلِسَانِ الْحَالِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُوْنَ بِلِسَانِ الْمَقَالِ ، بِمَعْنَى أَنْ تَنْطِقَ هَذِهِ الْجِمَادَاتُ ، أَوْ تَشْهَدَ عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ تَعَالَى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

فَيَقُوْلُ ؕ أَنْتُمْ أَطْلَعْتُمْ عِبَادِيْ هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ طَلَعُوا السَّبِيْلَ .

فَيَقُوْلُ اللَّهُ لَهُذِهِ الْأَلْهَةِ : هَلْ دَعَوْتُمْ عِبَادِيْ هَؤُلَاءِ إِلَى عِبَادَتِكُمْ مِنْ دُونِيْ ؟ أَوْ هَلْ زَيَّنْتُمْ لَهُمُ الشَّرْكَ حَتَّى وَقَعُوا فِي الضَّلَالِ بِسَبَبِكُمْ ، أَمْ هُمُ الَّذِينَ ضَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ ، أَوْ عِبَدُوكُمْ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، مِنْ غَيْرِ دَعْوَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ ؟

١٨ - قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَكُنِيْ قَلَّا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْثَانٍ وَلَكِنْ مَّتَّعْتَهُمْ زُبُرًا بَعَثْنَا فِي نَفْسِكُمْ أَهْلًا لَّهُمْ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَرَّمُوا بِرَبِّهِمْ وَأَكَانُوا لَهُمْ آيَةً فَخَلُّوا أَعْيُنَكَ عَنْهُمْ وَإِيَّاكُمْ يَخْلُقُونَ ۖ قَالُوا

قَالَتِ الْأَلْهَةُ الْمَعْبُودَةُ مِنْ دُونِ اللَّهِ : تَنَزَّهَتْ يَا رَبَّنَا عَنِ الشَّرِكِ وَالْمَثَلِ ، لَا يَصِحُّ مِمَّا اتَّخَذَ أَوْلِيَاءُ مِنْ دُونِكَ ، فَدَعُوا عِبَادَكَ إِلَى عِبَادَتِهِمْ فَتَضَلُّهُمْ بِذَلِكَ ، أَوْ مَا دَعَوْنَاهُمْ إِلَى عِبَادَتِنَا ، بَلْ هُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَمْرِنَا وَلَا رِضَانِنَا ، وَنَحْنُ بَرَاءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ ، وَإِذَا كُنَّا لَا نَرَى مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ ، فَكَيْفَ نَدْعُو غَيْرِنَا إِلَى ذَلِكَ .

وَنظِيرُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُوْلُ لِلْمَلَكِكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۖ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ... (سبا : ٤٠ ، ٤١) .

ثُمَّ تَذَكَّرُ الْأَلْهَةُ الْمَعْبُودَةُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سَبَبَ انْحِرَافِ الْمُشْرِكِينَ وَيَطْرَهُمْ ، فَتَقُوْلُ :

وَلَكِنْ مَّتَّعْتَهُمْ زُبُرًا بَعَثْنَا فِي نَفْسِكُمْ أَهْلًا لَّهُمْ نَسُوا اللَّهَ الَّذِي كَرَّمُوا بِرَبِّهِمْ وَأَكَانُوا لَهُمْ آيَةً فَخَلُّوا أَعْيُنَكَ عَنْهُمْ وَإِيَّاكُمْ يَخْلُقُونَ ۖ قَالُوا

أَي : أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ، بِطُولِ الْأَعْمَارِ وَسِعَةِ الْأَرْزَاقِ ، وَغِنَى الْآيَاتِ وَالْأَجْدَادِ ، فَانْغَمَسُوا فِي الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَذَاتِ ، حَتَّى نَسُوا ذِكْرَكَ وَعِبَادَتَكَ ، وَمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَمَا نَزَلَتْ بِهِ كُتُبُ السَّمَاءِ ، فَكَانُوا بِذَلِكَ قَوْمًا هَلَكَى خَاسِرِينَ .

من تفسير القرطبي

قَوْمًا بُورًا. أى: هلكى، قاله ابن عباس، مأخوذ من البوار وهو الهلاك، وقال أبو الدرداء - رضى الله عنه - وقد أشرف على أهل حمص: يا أهل حمص، هلم إلى أخ لكم فاصح، فلما اجتمعوا حوله قال: ما لكم لا تستحون! تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنوا مشيدا، وجمعوا عبيدا، وأملوا بعيدا، فأصبح جمعهم بورا، وآمالهم غرورا، ومساكنهم قبورا.

قوله: بورا. أى: هلكى، وفى خبر آخر: فأصبحت منازلهم بورا، أى: خالية لا شىء فيها، وقال الحسن: بورا. لا خير فيهم، مأخوذ من بوار الأرض، وهو تعطيلها من الزرع، فلا يكون فيها خير، وقال شهر بن حوشب: البوار: الفساد والكساد، مأخوذ من قولهم: بارت السلعة، إذا كسدت كساد الفاسد، ومنه الحديث: «نعوذ بالله من بوار الأيام»، وهو اسم مصدر كالزور، يستوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد والاثنتان والجمع (٣٠٨).

١٩ - فَقَدْ كَذَّبُكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مَكُنتُمْ نُلْذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا.

يُخْجِه الخطاب من الحق سبحانه وتعالى إلى عُبَاد الأصنام فيقول لهم: لقد تبرأت منكم الأصنام، وسائر الآلهة التي عبدتموها من ذن الله، وكذبكم فى قولكم إنها آلهة، وأسقط الآن فى أيديكم، وظهر واضحا ضلال شرككم، واستحقاق العذاب لكم، وأنتم الآن لا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم، ولا تجدون من ينصركم ويدفع عقاب الله عنكم.

والخلاصة: إنكم لا تستطيعون النجاة، لا بالهرب، ولا بالانتصار لأنفسكم، فأنتم معذبون لا محالة.

وَمَنْ يَظْلِم مَكُنتُمْ نُلْذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا.

وهذا خطاب عام لسائر الناس، يقول تعالى: ومن يشرك بالله غيره، أو يعبد سواه، أو يظلم عباد الله فى الدنيا: نذقه عذابا شديدا فى الآخرة.

ونلاحظ أن المشهد فى السابق كان فى يوم القيامة على طريقة الحوار أو السؤال والجواب، وكانت نتيجة السؤال والجواب بيان حصر المسؤولية عن الضلال فى العابدين، دون المعبودين، وعندئذ يستحق هؤلاء العذاب الكبير جزاء شركهم وكفرهم.

قال صاحب الظلال :

وبيدنا المشهد فى الآخرة يوم الحشر ، ينتقل السياق فجأة إلى المكذبين ، وهم بعد فى الأرض :
وَمَنْ يَظْلِمُ مَنكُم نُدْفَهُ عَذَابًا كَبِيرًا . ذلك على طريقة القرآن فى لمس القلوب فى اللحظة التى تنتهى فيها
للاستجابة ، وهى متأثرة بمثل ذلك المشهد المرهوب .

٢٠ - وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

تأتى هذه الآية تسليية للرسول ﷺ ، فى أعقاب مشاهد الآخرة ، واستحقاق المشركين للعذاب ، يعود
السياق إلى الرسول ﷺ ، يسليه ويواسيه بأنه لم يكن بدعا من الرسل ، فجميع الرسل كانوا رجالا يأكلون
الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويختلطون بالناس ، ويتعرضون لصنوف البلاء ، ولو كان الرسل أغنياء
أمرء ، لدخل فى دعوتهم طلاب الدنيا وراغبوها ، لكن إرادة الله شاءت أن يكون الرسل بشرا ، وأن يكابدوا
فى سبيل دعوتهم البلاء الشديد ، قال تعالى : قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٢٥) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا
عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ...

أى : امتحانًا واختبارًا وابتلاء ، حيث يوجد فى هذه الدنيا الغنى والفقر ، والمريض والصحيح ،
والرسول والمرسل إليهم ، وصاحب الحق وطالب الهوى ، فلا ينبغى أن يحسد الفقير الغنى ، أو المريض
الصحيح ، ولا ينبغى أن يمنع الغنى الحق عن الفقير ، ولا أن يمنع السليم العون عن المريض ، فالفقير عليه
أن يبعد الحسد من قلبه عن الغنى ، والغنى عليه أن يبعد البطر والمنع عن الفقير ، فقد أراد الله أن تكون الدنيا
دار ابتلاء واختبار ، ووضع بها سننا ونواميس ، ينبغى أن ندرسها ونتعاون معها ولا نصطدم بها .

أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

الاستغهام هنا معناه الحث على الصبر والأمر به ، أى : اصبروا ولا تجزعوا من أذى المشركين ، أو اتهام
المبطلين ، أو نقاش المنحرفين ، فذلك سنة الله فى البلاء والاختبار ، وهو سبحانه مطلع وشاهد ، بصير بمن
يصبر ومن يجزع ، عليم بالمخلصين ، خبير بالقلوب والسرائر ، وسىجازى كل إنسان بما يستحق .

من تفسير مقاتل بن سليمان :

قال تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا .

نزلت هذه الآية حين أسلم أبو ذر الغفاري ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار بن ياسر ، وصهيب ، وبلال ، وخبّاب بن الأرت ، وجبر مولى عامر بن الحضرمي ، وسالم مولى أبي حذيفة ، والنمر ابن قاسط ، وعامر بن فهيرة ، ومهجع بن عبد الله ، ونحوهم من الفقراء - رضى الله عنهم جميعا - فقال أبو جهل ، وأمّية ، والوليد ، وعقبة ، وسهيل ، والمستهزئون من قريش : انظروا إلى هؤلاء الذين اتبعوا محمداً ، من موالينا وأعدائنا ، رذالة كل قبيلة ، فازدروهم ؛ فقال الله تعالى لهؤلاء الفقراء من العرب والموالي :

أَتَصْبِرُونَ . على الأذى والاستهزاء . وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . إن تصبروا .

فصبروا ولم يجزعوا ، فأنزل الله فيهم : إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ... أى : على الأذى والاستهزاء من كفار قريش^(٣٠٩) . أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ . (المؤمنون : ١١١) .

وجاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال : «ويل للعالم من الجاهل ، وويل للجاهل من العالم ، وويل للسلطان من الرعية ، وويل للرعية من السلطان ، وويل للمالك من المملوك ، وويل للمملوك من المالك ، وويل للشديد من الضعيف ، وويل للضعيف من الشديد ، بعضهم لبعض فتنة ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . أسنده الثعلبي^(٣١٠) .

وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن جمار ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتلي بك» .

وفى مسند أحمد ، عن رسول الله ﷺ قال : «لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة»

وفى صحيح البخارى : أنه ﷺ خير بين أن يكون نبيا ملكا ، أو عبدا رسولا ، فاختر أن يكون عبدا رسولا .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء (الثامن عشر)
ويليه تفسير الجزء (التاسع عشر) إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثامن عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمّد صالح سعيد فهمي

(١) انظر ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٨/١٨ .

(٢) لقد أنزل على عشر آيات :

رواه أحمد ح ٢١٨ ، والترمذي في تفسير القرآن ح ٣٠٩٧ .

(٣) كان خلقه القرآن :

كذا رواه مسلم في أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ١٢٣٣ ، وأحمد مختصراً ح ٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤٦٢٩ .

(٤) حب إلى الطيب والنساء :

رواه أحمد ح ١١٨٤٥ ، ١٢٥٨٤ ، ١٣٥٢٦ ، والنسائي في عشرة النساء ح ٣٨٧٨ .

(٥) بنى الإسلام على خمس :

رواه البخاري في الإيمان ح ٧ ، وفي تفسير القرآن ح ٤١٥٣ ، ومسلم في الإيمان ح ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٥٣٤ ، والنسائي في الإيمان ح ٤٩١٥ ، وأحمد ح ٤٥٦٧ ، ٥٤١٤ ، ٥٧٤٣ ، ١٨٤٢٣ ، ١٨٤٢٩ .

(٦) من يضمن لي ما بين لحيه :

رواه البخاري في الرقاق ح ٥٩٩٣ ، وفي الحدود ح ٦٣٠٩ ، والترمذي في الزهد ح ٢٣٣٢ ، ٢٣٣٣ ، وأحمد ح ٣٦١٣ ، ٢١٧٥٧ ، ومالك في الجامع ح ١٥٦٦ .

(٧) ما ظهرت الفاحشة في قوم :

رواه ابن ماجه في الفتن ح ٤٠٠٩ ، ومالك في الموطأ كتاب الجهاد ح ٨٧٠ ، بنحوه .

(٨) احفظ فرجك إلا عن زوجك :

رواه أبو داود في الحمام ح ٣٥٠١ ، والترمذي في الأدب ح ٢٦٩٣ ، ٢٧١٨ .

(٩) أي : جعلته يجامعها ويستمتع بها ، من السر بمعنى الجماع .

(١٠) آية المنافق ثلاث :

رواه البخاري في الإيمان ح ٣٣ ، وفي الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفي الوصايا ح ٢٧٤٩ ، وفي الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم في الإيمان ح ٥٩ ، ٧٤ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(١١) الصلاة الصلاة :

رواه أبو داود في الأدب ح ٥١٥٦ ، وابن ماجه في الوصايا ح ٢٦٩٨ ، وأحمد في مسنده ح ٥٨٦ . وليس فيه : واستوصوا بالنساء خيراً .

(١٢) الصلاة على وفئها :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح ٥٧٢ ، وفى الأديب ح ٥٩٧٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨٥ ، والنسائى فى المواقيت ح ٦١٠ ، وأحمد ح ٢٨٨٠ ، ٤١٧٥ . من حديث عبدالله بن مسعود .

(١٣) جزء من حديث ، رواه البخارى فى الجهاد والسير ٢٧٩٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٣٢ ، وأحمد ح ٧٨٦٣ ، ٨٢١٤ ، ٨٢٦٩ ، من حديث أبى هريرة مرفوعاً : من آمن بالله وبرسوله الحديث . رواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً : من صام رمضان وصلى الصلوات الحديث . ورواه الترمذى أيضاً فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠ ، وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً : فى الجنة مائة درجة الحديث . وأشار الترمذى إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما .

(١٤) تفسير المرافى ، تأليف أحمد مصطفى المرافى ١٨/١٠-١١ ، وقد نقل فى تفسير هذه الآية كلاماً علمياً عن الدكتور أحمد محمد كمال فى مجلة الدكتور ، وعن الدكتور سالم محمد فى مجلة الدكتور أيضاً .

(١٥) كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٩٥٣ ، ومسلم فى الفتن ح ٢٩٥٥ ، والنسائى فى الجنائز ح ٢٠٧٧ ، وأبو داود فى السنن ح ٤٧٤٣ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢٦٦ ، ومالك فى الجنائز ح ٥٦٥ ، وأحمد ح ٨٠٨٤ ، ٩٢٤٤ ، ١٠٠٩٩ ، ١٠١٠٠ . من حديث أبى هريرة مطولاً ومختصراً .

(١٦) ورد ذلك على لسان ملك الروم لأبى سفيان ، ورواه البخارى فى صحيحه .

(١٧) ضمير الجمع فى قوله تعالى : (يستأخرون) عائد على (أمة) باعتبار المعنى ، إذ المراد بها : الأفراد المجتمعون .

(١٨) يا أيها الناس إن الله تعالى طيب :

رواه مسلم فى الزكاة ح ١٠١٥ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٢٩٨٩ ، وأحمد ح ٨١٤٨ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧١٧ . من حديث أبى هريرة .

(١٩) أيما لحم لبث من سحت فالتار أولى به :

هذه اللفظة جزء من حديث طويل رواه الترمذى فى الجمعة ٦٤١ ، وأحمد ح ١٤٠٣٢ ، ١٤٨٦٠ ، والدارمى فى الرقاق ٢٧٧٦ ، مختصراً بنحوه . كلهم من حديث جابر بن عبدالله .

(٢٠) إذا رأيت الله تعالى يعطى العبد :

رواه أحمد فى مسنده ح ١٦٨٦٠ ، من حديث عقبة بن عامر ، وقال فى آخره : ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم...﴾ الآية .

(٢١) يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٧٧ ، وأحمد ح ١٥٤ / ٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذى ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجه ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرزاق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبى ثور .

(٢٢) تفسير القرطبي باختصار وتصرف ٥/٤٦٦٠ ، طبعة دار الفد العربي ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م .

(٢٣) اللهم اشد وطأتك على مضر :

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠٤ ، ومسلم فى المساجد ح ٦٧٥ ، والنسائى فى التطبيق ح ١٠٧٤ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٤٢ ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٤٤ ، وأحمد ح ٧٢١٩ ، ٧٤١٥ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٥٩٥ .

(٢٤) أن ثلاثة فى بنى إسرائيل :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٦٤ ، ومسلم فى الزهد ح ٢٩٦٤ .

(٢٥) ما السماوات السبع والأرضون :

البخارى فى التفسير (٤٨١١) ، ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٨٦/١٩-٢١) .

(٢٦) رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٢٣٣ ، ٣٢٥٣ ، وأحمد ح ٢١٦٠٤ ، وذكره مالك بلاغا فى النذاه للصلاة ، وابن جرير فى التفسير ١٧/٢٤ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٥/٣٣٦ .

(٢٧) بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامة :

مسلم فى الذكر والدعاء (٥٤/٢٧٠٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٤٣٧) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وابن ماجه فى الطب (٣٥٤٧) ، ومالك فى الاستئذان ٩٨٧/٢ (٣٤) ، وأحمد ٣٧٧/٦ ، كلهم عن خولة بنت حكيم رضى الله عنها . وكذا مسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٩) ، وأبو داود فى الطب (٣٨٩٩) . وابن ماجه فى الطب (٣٥١٨) ، ومالك فى الشعر ٩٥١/٢ (١١) ، وأحمد ٢٩٠/٢ ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢٨) أعوذ بكلمات الله التامة :

رواه أحمد ح ١٦١٣٧ ، ٢٣٣٢٧ ، وكذا رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٥٨٢ ، وأبو داود فى الطب ح ٣٨٩٣ ، ومالك فى الجامع ح ١٧٧٢ ، بنحوه . وانظر ما قبله .

(٢٩) رواه النسائى فى الاستعاذة ح ٥٥٣٣ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٥٥٢ ، وأحمد ح ١٥٠٩٧ .

(٣٠) إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين :

أبو داود فى العلم (٣٦٤٦) ، السيوطى فى الدر المنثور ٦/٢٩٢ ، وعزاه للدار قطنى .

(٣١) فاطمة بضعة مني :

رواه البخارى فى المناقب ح ٣٧١٤ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٢٤٤٩ ، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٦٩ ، ٢٠٧١ . وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ ، وأحمد ح ١٨٤٣٨ ، ١٨٤٣٢ ، ١٨٤٤٧ ، ١٨٤١٥ .

(٣٢) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٥٧٧/٢ .

(٣٣) إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة :

مسلم فى الإيمان (٢٩٨ / ١٨١) بنحوه .

(٣٤) أخرجه ابن أبي حاتم، عن رجل من آل سعيد بن العاص. وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني ٥٧٩/٢.

(٣٥) المرجع السابق.

(٣٦) اللهم إني ظلمت نفسي :

البخارى فى الأذان (٨٣٤) ، ومسلم فى الذكر (٤٨/٢٧٠٥) ، كلاهما عن أبى بكر.

(٣٧) تفسير سورة النور لأبى الأعلى المودودى : ١٠ .

(٣٨) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن : ١٦٠/١ .

(٣٩) تفسير سورة الإسراء د. عبدالله شحاتة : ١٣٢ .

(٤٠) الإصحاح الثانى والعشرون ، الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٤١) الإصحاح الثانى والعشرون ، الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

(٤٢) المحصن : هو الذى سبق له الزواج .

(٤٣) ثمرة السياط : عقدة أطرافها .

(٤٤) الاختيار (فقه حنفى) ، تأليف عبدالله الموصلى : ٤٠/٣ ، ٤١ .

(٤٥) هذا هو رأى الجمهور ، انظر تفسير المنار : ٣/٣٥٥ ، فقد توسع فى تفسير هذه الآيات .

(٤٦) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر : ١٨٥ .

(٤٧) كتاب التثنية ، الإصحاح الثانى والعشرون ، الآيات ٢٢ - ٢٦ . وتلاحظ أن الفتاة فى المدينة تستطيع أن تصرخ وتستنجد بالناس ، أما إذا كانت فى الحقل فربما لا يجيبها أحد إذا استغاثت .

(٤٨) لأقضي بينكما بكتاب الله :

رواه البخارى فى الصلح ٢٦٩٦ ، وفى الشروط ح ٢٧٢٥ ، وفى الأيمان والنذور ح ٦٦٣٣ ، وفى الحدود ح ٦٨٢٨ ، ٦٨٣٦ ، ٦٨٤٣ ، ٦٨٦٠ . وفى الأحكام ح ٧١٩٥ ، وفى أخبار الآحاد ح ٧٢٦٠ ، وفى الاعتصام ح ٧٢٧٩ ، ومسلم فى الحدود ح ١٦٩٨ ، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٣ ، والنسائى فى آداب القضاة ح ٥٤١٠ ، ٥٤١١ وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٤٥ ، وابن ماجة فى الحدود ح ٢٥٤٩ ، وأحمد ح ١٦٥٩٠ ، ١٦٥٩٤ ، ومالك فى الحدود ١٥٥٦ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٢١٧ ، من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى ، وفى بعضها من حديث أبى هريرة وحده ، وفى بعض الروايات من حديث أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنى وشبل .

(٤٩) أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق :

بهذا اللفظ رواه أحمد ح ٢٧٨ ، ٣٩٣ من حديث عمر بن الخطاب موقوفاً ، ورواه البخاري في المظالم ح ٢٤٦٢ ، وفي الحدود ح ٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠ ، وفي الاعتصام ح ٧٣٢٣ ، ومسلم في الحدود ح ١٦٩١ ، والترمذي في الحدود ح ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، وأبو داود في الحدود ح ٤٤١٨ ، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٥٣ ، ومالك في الحدود ح ١٥٥٨ ، ١٥٦٠ ، والدارمي في الحدود ح ٢٣٢٢ ، وفي الرقاق ح ٢٧٨٤ ، بنحوه .

(٥٠) لولا أن يقول قائل أو يتكلم متكلم :

رواه البخاري في أثناء حديث طويل من كتاب الحدود ح ٦٨٣٠ ، ومسلم في الحدود ح ١٦٩١ ، وأبو داود في الحدود ح ٤٤١٨ ، وأحمد ح ١٥٧ ، ١٩٨ ، وانظر ما قبله .

(٥١) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٥٨١ / ٢ .

(٥٢) عدلوا عني خلدوا عني :

رواه مسلم في الحدود ح ١٦٩٠ ، والترمذي في الحدود ح ١٤٣٤ ، وأبو داود في الحدود ح ٤٤١٥ ، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٥٠ ، وأحمد ح ١٥٤٨٠ ، ٢٢١٥٨ ، ٢٢١٩٥ ، والدارمي في الحدود ح ٢٣٢٧ ، من حديث عبادة بن الصامت .

(٥٣) تفسير آيات الأحكام : إشراف محمد علي السائس : ١١٠ / ٣ .

(٥٤) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخاري في الدييات ح ٦٣٧٠ ، ومسلم في القسامة ٣١٥٧ ، ٣١٦٧ ، والترمذي في الدييات ح ١٣٢٢ ، وفي الحدود ح ١٣٦٤ ، والنسائي في تحريم الدم ح ٣٩٥١ ، وفي القسامة ح ٤٦٤٢ ، وأبو داود في الحدود ح ٣٧٨٨ ، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٢٥ ، وأحمد ح ٣٤٣٨ ، ٣٨٥٩ ، ٤٠٣٤ ، والدارمي في الحدود ح ٢١٩٦ .

(٥٥) تفسير آيات الأحكام : إشراف محمد علي السائس : ١١٤ / ٣ .

(٥٦) أبو الأعلى المودودي ، تفسير سورة النور : ٥٠٠ .

(٥٧) من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط :

رواه الترمذي في الحدود ح ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٦١ ، وأبو داود في الحدود ح ٤٤٦٢ ، وابن ماجه في الحدود ح ٢٥٦١ ، وأحمد ح ٢٧٢٧ ، والدارمي في السير ٢٤٩٠ من حديث ابن عباس .

(٥٨) تفسير آيات الأحكام : إشراف محمد علي السائس : ١١٤ / ٣ .

(٥٩) اختلطت بها .

(٦٠) أجامعها .

(٦١) بل للناس كالة :

رواه مسلم فى التوبة ح ٢٧٦٣ ، والترمذى فى التفسير ٣١١٢ ، وأحمد ح ٤٢٣٨ ، ٤٢٧٨ عن عبدالله بن مسعود .

(٦٢) أليس قد صليت معنا :

رواه البخارى فى الحدود ح ٦٨٢٣ ، ومسلم فى التوبة ح ٢٧٦٤ ، من حديث أنس رضى الله عنه .

(٦٣) اللهم إني أول من أحيا أمرك :

إن المجتمع الذى يشجع الاختلاط ، ويتسامح بالخلوة بالأجنبية ، ويسمح بعرض الأنلام التى تغلسف الحرية الشخصية ، وتهون من أمر الفاحشة لا يشجع على إحصان أفرادها ، وأولى بالمسلمين إذا أرادوا معالجة الموقف أن ينظروا للمجتمع ككل ، فالفرد إنسان يحيا فى ظل المجتمع ويتأثر بكل مؤسساته : بالأسرة ، والمدرسة ، والنادى ، ووسائل الإعلام ، والنوابج أن تتكاتف هذه الوسائل كلها لبناء الفرد والمجتمع .

مضى يبلغ البنيان يوما تمامه .. إذا كانت تبنيه وبغيرك يهدم ، وقد ذكر ابن تيمية فى سورة النور أن شارب الخمر يحرص على الجماع فى حلال أو حرام ، فإن وجد الحلال أغناه عن الحرام ، وإن لم يجد الحلال فريما زنا بابنته أو بأخته .

وحديث قضاء النبى ﷺ فى اليهوديين رواه مسلم فى الحدود ١٧٠٠ ، وأبو داود فى الحدود ٤٤٤٨ ، وابن ماجه فى الحدود ٢٥٥٨ ، وأحمد ١٨٠٥٤ من حديث البراء .

(٦٤) أن عبدا من رقيق الإمارة :

رواه البخارى فى الإكراه ، باب : إذا استكرهت المرأة على الزنا ، تعليقا ، ورواه مالك عن نافع أيضا فى الحدود ح ١٥٦٥ .

(٦٥) لهلك قبلت أو غمرت :

رواه البخارى فى الحدود ح ٦٨٢٤ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٢٧ ، ٤٤٢٢ ، وأحمد ح ٢١٣٠ ، ٢٣١٠ ، ٢٤٢٩ ، ٢٦١٢ .

(٦٦) لقد ثابت توبة :

رواه مسلم فى الحدود ح ١٦٩٥ ، ١٦٩٦ ، والترمذى فى الحدود ح ١٤٣٥ ، والنسائى فى الجنائز ح ١٩٥٧ ، وأبو داود فى الحدود ح ٤٤٤٠ ، ٤٤٤٢ ، وأحمد ح ١٩٣٦٠ ، ١٩٤٠٢ ، ١٩٤٢٤ ، ١٩٤٥٢ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٢٤ ، ٢٣٢٥ .

(٦٧) أتشفع فى حد من حدود الله :

البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٧٥ ، وفى الحدود ح ٦٧٨٨ ، ومسلم فى الحدود ح ١٦٨٨ ، والترمذى فيه ح ١٤٣٠ ، والنسائى فى قطع السارق ح ٤٨٩٩ وأبو داود فى الحدود ح ٤٣٧٣ ، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٤٧ ، والدارمى فى الحدود ح ٢٣٠٢ .

(٦٨) أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم :

هو جزء من الحديث قبله .

(٦٩) من حالت شفاعة دون حد :

رواه أبو داود في الأفضية ح ٣٥٧٩ ، وأحمد ح ٥٣٦٢ ، ٥٥١٩ ، من حديث عبدالله بن عمر مرفوعاً .

(٧٠) من وقع على ذات محرم :

رواه ابن ماجة في الحدود ح ٢٥٤٦ .

(٧١) ملعون من أتى امرأة في دبرها :

رواه أبو داود في النكاح ٢١٦٢ .

(٧٢) من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها :

رواه للترمذي في الطهارة ح ١٣٥ ، وأبو داود في الطب ح ٣٩٠٤ ، وابن ماجة في الطهارة ح ٦٢٩ ، وأحمد ح ٩٠٣٥ والدارمي في الطهارة ح ١١٣٦ .

(٧٣) اضمنوا لي ستاً من أنفسكم :

رواه أحمد ح ٢٢٢٥١ ، من حديث عبادة بن الصامت .

(٧٤) لا يزلي الزاني حين يزلي :

رواه البخاري في المظالم ح ٢٤٧٥ ، وفي الأشربة ح ٥٥٧٨ ، وفي الحدود ح ٦٧٧٢ ، ٦٧٨٢ ، ٦٨١٠ ، ومسلم في الإيمان ح ٥٧ ، والترمذي في الإيمان ح ٢٦٢٥ ، والنسائي في قطع السارق ح ٤٨٧٠ ، ٤٨٧١ ، ٤٨٧٢ ، وفي الأشربة ح ٥٦٥٩ ، ٥٦٦٠ ، وأبو داود في السنة ح ٤٦٨٩ ، وابن ماجة في الفتن ح ٣٩٣٦ ، وأحمد ح ٨٦٧٨ ، ٩٨٥٩ ، ١٤٣٢١ ، ٢٤٥٦٥ ، والدارمي في الأشربة ح ٢١٠٦ .

(٧٥) إن الله كتب على ابن آدم حظه :

رواه البخاري في الاستئذان ح ٦٢٤٣ ، وفي القدر ح ٦٦١٢ ، ومسلم في القدر ح ٢٦٥٧ ، وأبو داود في النكاح ٢١٥٢ ، وأحمد ح ٧٦٦٢ ، ٢٧٤٣٧ ، ٢٧٠٢٣ ، من حديث أبي هريرة .

(٧٦) يا مردئ الزاني لا ينكح إلا زانية :

رواه الترمذي في تفسير القرآن ح ٣١٧٧ ، والنسائي في النكاح ٣٢٢٨ .

(٧٧) كانت امرأة يقال لها أم مهزول :

رواه أحمد ح ٦٤٤٤ ، ٧٠٥٩ .

(٧٨) تفسير القرطبي : ١٦٨ / ١٢ .

(٧٩) تفسير آيات الأحكام الساس : ١١٧ / ٣ ، وتفسير النسفي : ١٣١ / ٣ .

(٨٠) تفسير القرطبي .

(٨١) المرء على دين خليله :

رواه الترمذي في الزهد ح ٢٣٧٨ ، وأبو داود في الأدب ح ٤٨٣٣ ، وأحمد ح ٧٩٦٨ ، ٨٢١٢ ، وقال الترمذي : حديث حسن غريب .

(٨٢) تفسير سورة النور لابن تيمية ، مكتبة المنار الإسلامية - الكويت : ٥٠ .

(٨٣) تفسير سورة النور لابن تيمية : ٥١ .

(٨٤) أي : إن ماء الزنا لا حرمة له ، فلا يحرم الزنا زواج الزاني من الزانية ، لقوله ﷺ : «الحرام لا يحرم حلاله» رواه الطبراني والدارقطني .

(٨٥) تفسير القرطبي : ١٧٠/١٢ .

(٨٦) أبو الأعلى المودودي ، تفسير سورة النور : ٨٦ .

(٨٧) في ظلال القرآن : ٤/٢٤٩١ .

(٨٨) تفسير القاسمي : ١٢/٤٤٥٢ .

(٨٩) تفسير القرطبي : ١٧٣/١٢ .

(٩٠) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ٩٤ .

(٩١) البيئة أو حد في ظهره :

البخاري في الشهادات ح ٣٦٧١ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٧٤٧ ، وفي الحدود ح ٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠ ، ومسلم في الحدود ح ١٦٩١ ، والترمذي في الحدود ح ١٤٣٢ ، وأبو داود في الطلاق ح ٢٢٥٤ ، وفي الحدود ح ٤٤١٨ ، وابن ماجه في الطلاق ح ٢٠٦٧ ، وفي الحدود ح ٢٥٥٣ ، وأحمد ح ٢٧٨ ، ومالك في الحدود ح ١٥٥٨ ، ١٥٧١ ، والدارمي في الحدود ح ٢٣٢٢ .

(٩٢) قد أنزل الله فيك ... الملاعة :

رواه البخاري في الصلاة ح ٤٢٣ ، وفي التفسير ح ٤٧٤٥ ، وفي الطلاق ح ٥٢٥٩ ، وفي الأحكام ح ٧١٦٦ ، وفي الاعتصام ح ٧٣٠٤ ، ومسلم في اللعان ح ١٤٩٢ ، ١٤٩٥ ، والنسائي في الطلاق ح ٣٤٠٢ ، وأبو داود في الطلاق ح ٢٢٤٥ ، ٢٢٥٣ ، وابن ماجه ح ٢٠٦٦ ، ٢٠٦٨ ، وأحمد ح ٢٢٣٤٤ ، ومالك في الطلاق ح ١٢٠١ ، والدارمي في النكاح ح ٢٢٢٩ .

(٩٣) ذكرنا أنه كذب امرأته قبل نزول آية اللعان ، وانظر قصته في سبب نزول الآية .

(٩٤) يا هلال اتق الله :

تقدم تخريجه .

- (٩٥) أصيبه: تصغير أصهب، وهو الذى فى شعره حمرة.
- (٩٦) أریش: تصغير أرش، وهو خفيف لحم الإليتين.
- (٩٧) حمش الساقين: دقيقمها.
- (٩٨) أورك: أسمر.
- (٩٩) جعدا: شديد الأسر والخلق، والذى شعره غير سبط، وهما مدح.
- (١٠٠) الحمالي: الضخم الأعضاء، التام الأوصال.
- (١٠١) خدلج الساقين: عظيمهما.
- (١٠٢) سابغ الإليتين: تامهما وعظيمهما.
- (١٠٣) انظر كتب الحديث والتفسير مثل: القرطبي، والقاسمى، وفى ظلال القرآن. وأحكام اللعان مبسطة فى كتب الفقه.
- (١٠٤) وردت فى بقية الجماعة أيضا إلا الترمذى، عن سهل بن سعد الساعدي، وابن عمر.
- (١٠٥) هل لك من إبل:
- رواه البخارى فى الطلاق ح ٥٣٠٥، وفى الحدود ح ٦٨٤٧، وفى الاعتصام ح ٧٣١٤، ومسلم فى اللعان ح ١٥٠٠، والترمذى فى الولاء والهبة ح ٢١٢٨، والنسائى فى الطلاق ح ٣٤٧٨، وأبو داود فى الطلاق ح ٢٢٦٠، وابن ماجه فى النكاح ح ٢٠٠٢، وأحمد ح ٧١٤٩، ٧٢٢٣.
- (١٠٦) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٩٥.
- (١٠٧) تفسير القرطبي: ١٢ / ١٩٣.
- (١٠٨) تفسير آيات الأحكام، إشراف محمد على السائس: ١٤٢/٣.
- (١٠٩) تفسير آيات الأحكام، إشراف محمد على السائس: ١٤٤/٣.
- (١١٠) تفسير المرافى: ٧٦/١٨.
- (١١١) الاختيار شرح المختار - باب اللعان: ١٧١/٣.
- (١١٢) أبشرى يا عائشة إن الله قد برأك:
- البخارى فى الشهادات ٢٦٦١، وفى المغازى ٤١٤١، وفى التفسير ٤٧٥٠، ومسلم فى التوبة ح ٢٧٧٠، وأحمد ٢٥٠٩٥.
- (١١٣) تفسير الكشاف للزمخشري.

(١١٤) أشد الناس بلاء :

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١١٥) تفسير القاسمى ، المسمى : محاسن التأويل ، تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمى : ١٢ / ٤٤٦٣ .

(١١٦) تفسير النسفى : ٣ / ١٣٦ .

(١١٧) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٣٣ .

(١١٨) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٦ .

(١١٩) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٠٤ .

(١٢٠) تفسير النسفى : ٣ / ١٣٧ .

(١٢١) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٠٤ .

(١٢٢) تفسير النسفى : ٣ / ١٣٧ .

(١٢٣) اعملوا لكل ميسر لما خلق له :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٩٤٩ ، فى التوحيد ح ٧٥٥١ ، ومسلم فى القدر ح ٢٦٤٧ ، ٢٦٤٩ ، والترمذى فى القدر ح ٢١٣٦ ، وفى التفسير ح ٣١١١ ، وأبو داود فى السنة ٤٧٠٩ ، وابن ماجة فى المقدمة ح ٧٨ ، ٩١ ، وفى التجارات ح ٢١٤٢ ، وأحمد ح ٢٠ ، ٦٢٢ ، ١٣٥٢ ، من حديث على ، وعمر ، وعمران بن الحصين ، وأبى حميد ، وسراقة ، وأبى بكر الصديق .

(١٢٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٣ .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٢ / ٥٩٢ ، وقد ورد ذلك أيضا فى تفسيرى النسفى والقرطبى ، وذكر القرطبى أن قصة الآيات رويت فى الصحيح .

(١٢٦) تفسير القرطبى : ١٢ / ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

(١٢٧) من حلف على يمين :

مسلم فى الأيمان ١٣ / ١٦٥٠ ، والترمذى فى النذور والأيمان ١٥٣٠ ، وقال : حديث أبى هريرة حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والكفارات ٢ / ٤٧٢٢ ، كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبو داود فى الأيمان والنذور ٣٢٧٧ ، والنسائى فى الكبرى فى الأيمان والنذور ٤ / ٤٧٢٤ ، كلاهما عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه .

(١٢٨) قوله: «وهي مبهمة»، أي: عامة في تحريم قذف كل محصنة.

(١٢٩) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني: ٢ / ٥٩٤.

(١٣٠) اجتنبوا السبع الموبقات:

تقدم تخريجه.

(١٣١) في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب: ٤ / ٢٥٠٥.

(١٣٢) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني: ٢ / ٥٩٥.

(١٣٣) تفسير النسفي: ٣ / ١٣٨. وقد ورد هذا المعنى في تفسير الكشاف.

(١٣٤) تفسير القرطبي: ٢١١ / ١٢.

(١٣٥) تفسير القرطبي: ٢١١ / ١٢.

(١٣٦) مختصر تفسير ابن كثير: ٢ / ٥٩٥.

(١٣٧) تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي: ١٣٩ بتصرف واختصار.

(١٣٨) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢١٣.

(١٣٩) تفسير القرطبي: ١٢ / ٢١٤.

(١٤٠) تفسير القرطبي: ١٢ / ١١٤.

(١٤١) إذا أسأذن أحدكم ثلاثاً:

رواه البخاري في الاستئذان ح ٥٧٦٦، ومسلم في الآداب ح ٤٠٠٦، وأبو داود في الأدب ح ٤٥٠٩، وأحمد ح ١٨٧٨٦.

(١٤٢) إنما جعل الاستئذان من أجل النظر:

البخاري في الاستئذان ٦٢٤١، ومسلم في الأدب ٢١٥٦، والترمذي في الاستئذان ٢٧٠٩ وقال: حديث حسن صحيح.

(١٤٣) من نظر في كتاب أخيه:

رواه أبو داود في الصلاة ح ١٢٧٠، وأوله: لا تستروا الجدر من نظر الحديث.

(١٤٤) السلام عليكم:

رواه أبو داود في الأدب ح ٤٥١٢.

(١٤٥) كثير من أحكام هذا الباب مستنبط من تفسير القرطبي: ١٢ / ٢١٢ - ٢٢٢.

(١٤٦) أنا ، أنا :

رواه البخارى فى الاستئذان ح ٥٧٨١ ، ومسلم فى الآداب ح ٤٠١١ ، ٤٠١٢ ، وفى فضائل الصحابة ح ٤٥١٦ ، والترمذى فى الاستئذان ح ٢٦٥٣ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥١٣ ، وابن ماجة فى الأدب ح ٣٦٩٩ ، وأحمد ح ١٣٦٧٠ ، والدارمى فى الاستئذان ح ٢٥١٦ .

(١٤٧) السلام عليك يا رسول الله :

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلاء : رواه البخارى فى المظالم ح ٢٢٨٨ ، وفى التفسير ح ٤٥٣٢ ، وفى النكاح ٤٧٩٢ ، ٤٨٠٢ ، وفى الطلاق ح ٤٨٨٠ ، وفى اللباس ح ٥٣٩٥ ، وفى أخبار الأحاد ح ٦٧٢١ ، ومسلم فى الطلاق ح ٢٧٠٥ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٦٢ ، والنسائى فى الطلاق ح ٣٤٠٢ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٥٢٥ ، وأحمد فى مسنده ح ٢٦٢٠ .

(١٤٨) السلام عليكم هذا أبو موسى :

رواه مسلم فى الآداب ح ٤٠١٠ .

(١٤٩) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السائس : ١٥١ / ٣ .

(١٥٠) نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً :

رواه البخارى فى النكاح ٤٨٤٢ ، ومسلم فى الإمارة ح ٣٥٥٧ ، ٣٥٥٨ ، وأبو داود فى الجهاد ح ٢٣٩٥ ، وأحمد ح ١٣٦٧٦ .

(١٥١) السلام قبل الكلام :

رواه الترمذى فى الاستئذان ح ٢٦٢٣ ، وقال : هذا حديث منكر لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(١٥٢) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السائس : ١٤٨ / ٣ .

(١٥٣) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السائس : ١٥٢ / ٣ .

(١٥٤) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى ، مؤسسة الرسالة : ١٤٧ .

(١٥٥) تفسير المرازى : ٩٦ / ١٨ .

(١٥٦) تفسير القرطبى : ٢٢٢ / ١٢ .

(١٥٧) تفسير القرطبى : ٢٢٢ / ١٢ .

(١٥٨) اصرف بصرك :

رواه البخارى تعليقا فى كتاب الاستئذان .

(١٥٩) القاموس المحيط للفيروزبى : مادة الضاد ، فصل الغين .

(١٦٠) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد على السائس : ٣ / ١٥٦ .

(١٦١) إياكم والجلوس على الطرقات :

البخارى فى الاستئذان ٦٢٢٩ ، ومسلم فى اللباس ٢١٢١ / ١١٤ .

(١٦٢) تفسير القرطبي : ١٢ / ٢٢٣ بتصرف واختصار .

(١٦٣) يا على لا تتبع النظرة :

رواه الترمذى فى الأدب ح ٢٧٠١ ، وأبو داود فى النكاح ١٨٣٧ ، وأحمد ح ٢١٨٩٦ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٥٩٣ .

(١٦٤) النظر سهم مسموم من سهام إبليس :

الطبرانى فى الكبير ١٠٣٦٢ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٣ / ٨ وقال : فيه عبدالله بن إسحاق الواسطى ، وهو ضعيف .

(١٦٥) من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره عنها :

أحمد ٥ / ٢٦٤ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٦٦ / ٨ وقال : وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك .

(١٦٦) احفظ عورتك :

تقدم تخريجه .

(١٦٧) كان الفضل بن عباس وديف النى :

رواه البخارى فى الحج ح ١٤١٧ ، ١٧٢٢ ، وفى المغازى ح ٤٠٤٨ ، ومسلم فى الحج ح ٢٢٨٤ ، ٢٢٦١ ، ٢٣٧٥ .

٢٣٩٥ ، والنسائى فى مناسك الحج ح ٢٥٩٣ ، ٢٥٩٤ ، وفى آداب القضاة ح ٥٢٩٤ ، وأبو داود فى المناسك ح ١٥٤٤ ،

وأحمد ح ٢١٥٣ ، ومالك فى الحج ح ٧٠٣ ، والدارمى فى المناسك ح ١٧٦١ ، من حديث ابن عباس .

(١٦٨) نظرت إليها :

رواه النسائى فى النكاح ٣١٨٣ ، والترمذى فى النكاح ١٠٠٧ ، وابن ماجة فى النكاح ١٨٥٦ ، وأحمد ح ١٧٤٣٥ .

(١٦٩) انظر إليها ، فإن فى أعين الأنصار شيئا :

مسلم فى النكاح ٢٥٥٢ ، ٢٥٥٣ ، والنسائى فى النكاح ٣١٩٤ ، من حديث أبى هريرة .

(١٧٠) إذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه :

رواه أحمد ح ٢٢٤٩٧ .

(١٧١) إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن يرى :

رواه أبو داود فى النكاح ١٧٨٣ ، وأحمد ١٤٠٥٩ ، ١٤٣٤٠ .

(١٧٢) لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل :

مسلم في الحيش ح ٥١٢ ، وأبو داود في الحمام ح ٣٥٠٢ ، والترمذي في الأدب ح ٢٧١٧ ، وابن ماجه في الطهارة ح ٦٥٣ ، وأحمد ح ١١١٧٣ ، من حديث أبي سعيد الخدري . وقال الترمذي : حديث حسن غريب صحيح .

(١٧٣) لا تنظر إلى فخذ حي ولا ميت :

رواه أبو داود في الجنائز ح ٢٧٣٢ ، وفي الحمام ح ٣٤٩٩ ، وابن ماجه في الجنائز ح ١٤٤٩ ، وأحمد ح ١١٨٤ .

(١٧٤) الفخذ عورة :

ذكره البخاري في الصلاة تعليقاً ، ووصله الترمذي في الأدب ح ٢٧١٩ ، ٢٧٢١ ، ٢٧٢٢ ، وأبو داود في الحمام ح ٣٤٩٨ ، وأحمد ح ١٥٣٦١ ، ١٥٣٦٢ ، ١٥٣٦٣ ، والدارمي في الاستئذان ح ٢٥٣٦ . وقال الترمذي : حسن ما أرى إسناده بمتصل ، وقال في موضع آخر : حسن غريب من هذا الوجه . قلت : واللفظ لأبي داود .

(١٧٥) احفظ عورتك :

تقدم تخريجه .

(١٧٦) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ١٥٣ .

(١٧٧) تشبهين نظرين - النظر إلى الحشة وهم يلعبون :

رواه البخاري في الجمعة ح ٩٥٠ ، ومسلم في العيدين ح ٨٩٢ ، والنسائي في العيدين ح ١٥٣٩ ، ١٥٤٩ ، ١٥٩٥ ، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٨ ، وأحمد ح ٢٣٥٢٩ ، من حديث عائشة .

(١٧٨) لأنك تكثرن الشكاة وتكفرن العشير - وعظ النساء في العيد :

رواه البخاري في الجمعة ح ٩٥٨ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ومسلم في صلاة العيدين ح ٨٨٥ ، والنسائي في صلاة العيدين ح ١٥٦٢ ، وأبو داود في الصلاة ح ١١٤١ ، وأحمد ح ١٣٧٤٩ ، ١٣٩١٨ ، والدارمي في الصلاة ح ١٦٠٢ ، ١٦١٠ ، من حديث ابن عباس .

(١٧٩) تفسير آيات الأحكام ، للشيخ محمد علي السائس : ١٥٩ / ٣ .

(١٨٠) نيل الأوطار ، للشوكاني : ١٠٧٦ .

(١٨١) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ١٥٥ .

(١٨٢) احتجياً منه :

رواه الترمذي في الأدب ح ٢٧٧٨ ، وأبو داود في اللباس ح ٤١١٢ ، وأحمد ح ٢٥٩٩٧ ، من حديث أم سلمة . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(١٨٣) تلك امرأة يغشاها أصحابي :

مسلم فى الطلاق ١٤٨٠ / ٣٦ ، وأبو داود فى الطلاق ٢٢٨٤ .

(١٨٤) أى : النساء المهاجرات ، وهو نحو : شجر الآراك ، أى : شجر هو الآراك .

(١٨٥) رحم الله نساء المهاجرات :

رواه البخارى تعليقا فى تفسير القرآن باب ﴿وليضربن بخمرهن .. الآية﴾ ، ووصله أبو داود فى اللباس ٤١٠٢ ، من حديث عروة ، عن عائشة .

(١٨٦) كساء من صوف وتحوه ، يؤتزر به .

(١٨٧) أى : جعلته معجرا ، وهو الخمار يلبس على الرأس .

(١٨٨) لما نزلت سورة النور :

رواه أبو داود فى اللباس ح ٤١٠٠ ، وأحمد ح ٢٥٠٢٤ ، من حديث صفية بنت شيبة ، عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت نساء الأنصار فأثنت عليهن وقالت لهن معروفا وقالت : لما نزلت سورة النور عمدن إلى حجور أو حجوز - شك أبو كامل - فشققنهن فاتخذنهن خمرًا . وهذا لفظ أبي داود .

(١٨٩) انظر الحديث فى تفسير سورة النور للموددى : ١٦٠ .

(١٩٠) الدنيا متاع ، وغير متاعها المرأة الصالحة :

أحمد ٢ / ١٦٨ ، ومسلم فى الرضاع ١٤٦٧ / ٦٤ .

(١٩١) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٢ ، وانظر تفسير القرطبى : ١٢ / ٤٣٢ ، فقد نقل الخلاف بين العلماء فى الموضوع .

(١٩٢) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٢ .

(١٩٣) أى : دخولهم عليهم من خلفهم ، فتفاجأ المرأة بقربها أمامها .

(١٩٤) تفسير القاسمى : ١٢ / ٤٥١٣ .

(١٩٥) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى الموددى : ١٦٦ بتصرف واختصار .

(١٩٦) تفسير ابن جرير الطبرى .

(١٩٧) يعنى : تقبل بأربع عكن وتدير بثمانى عكن . والعكن والإعكان : ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .

(١٩٨) أخرجه من بيوتكم - إن فتح الله لك الطائف :

البخارى فى النكاح ٥٢٣٥ ، وفى اللباس ٥٨٨٧ ، ومسلم فى السلام ٣٢ / ٢١٨٠ ، وأبو داود فى الأدب ٤٩٢٩ ، والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء ٥ / ٥٢٤٩ ، وابن ماجه فى النكاح ١٩٠٢ ، وأحمد ٦ / ٢٩٠ ، كلهم عن أم سلمة .

(١٩٩) تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي: ١٧، وانظر القاسمي: ١٢ / ٤٥١٤. وتفسير آيات الأحكام، للسايس: ١٦٦/٣.

(٢٠٠) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح، في كتاب الأدب: ٤١، وباب ما جاء في كراهية خروج المرأة متعطرة: ٣٥، ورواه أبو داود، والنسائي، أيضًا، ومعنى كذا وكذا، أي: زانية.

(٢٠١) لا يقبل الله صلاة امرأة تطيب: :

رواه أبو داود في التلخيص ج ٤١٧٤، وابن ماجه في الفتن ج ٤٠٠٢، وأحمد ج ٧٣٠٩، من حديث أبي هريرة.

(٢٠٢) تفسير آيات الأحكام، للسايس: ١٦٧ / ٣.

(٢٠٣) المغيبات: جمع مغيبة، وهي التي غاب عنها زوجها.

(٢٠٤) لا تلجرا على المغيبات:

رواه الترمذي في الرضا ج ١١٧٢، وأحمد ج ١٣٩١٣، من حديث جابر، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد تكلم بعضهم في مجالد بن سعيد من قبل حفظه.

(٢٠٥) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغفلون بامرأة:

رواه أحمد ج ١٤٢٤١.

(٢٠٦) ما من رسول لله ﷺ بيده امرأة:

رواه مسلم في الإمارة ج ١٨٦٦، وأبو داود في الخراج ج ٢٩٤١، وأحمد ج ٢٤٣٠٨، من حديث عائشة.

(٢٠٧) لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ويوتنهن خير لهن:

البخاري في الجمعة ٩٠٠، ومسلم في الصلاة ٤٤٢/١٣٦، كلاهما عن ابن عمر.

(٢٠٨) تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي: ١٧٦.

(٢٠٩) يا أسماء إن المرأة إذا بلغت:

رواه أبو داود في اللباس ج ٤١٠٤، وقال: هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة.

(٢١٠) تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي: ١٥٨.

(٢١١) تفسير آيات الأحكام، للسايس: ١٦٢ / ٣.

(٢١٢) السفح: السواد والشحوب، أراد أنها بذلت نفسها وتركت الزينة والترفة حتى شحبت لونها واسود، إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها.

(٢١٣) أنا وامرأة سقاء الخدين تأملت :

رواه أبو داود في الأدب ح ٥١٤٩ ، وأحمد ح ٢٣٤٨٦ ، من حديث عوف بن مالك .

(٢١٤) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥١٥ .

(٢١٥) تفسير آيات الأحكام ، إشراف الشيخ محمد علي السائس : ٣ / ١٧٠ .

(٢١٦) تفسير القرطبي : ١٢ / ٢٤١ .

(٢١٧) تفسير آيات الأحكام ، للسائس : ٣ / ١٧٢ .

(٢١٨) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ١٨١ بتصرف .

(٢١٩) تفسير آيات الأحكام ، للسائس : ٣ / ١٧١ .

(٢٢٠) حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا :

ذكره الترمذي في صفة القيامة تحت حديث ٢٤٥٩ تعليقا بقوله : ويروى عن عمر ..

(٢٢١) المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية : ٢٠٤ ، عمر عودة الخطيب ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٩٧٠ .
وانظر : «علوم الدين الإسلامي» للدكتور عبدالله شحاتة «فصل رعاية الشباب» : ٢٧٧ .

(٢٢٢) «علوم الدين الإسلامي» د. عبدالله شحاتة «موضوع الإسلام والشباب» : ٢٧٤ .

(٢٢٣) جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم ، عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

الباءة : مؤن النكاح من مهر ونفقة وكسوة .

الوجاء : من الخصاص يكون برض عروق الأنثيين مع بقاء الخصيتين كما هما ، فشبه به الصوم في قطع شهوة النساء .

(٢٢٤) (الحازن) : الحال ، تفسيره ما بعده .

(٢٢٥) تفسير القرطبي : ١٢ / ٢٤٤ (سورة النور) .

(٢٢٦) تفسير القرطبي : ١٢ / ١٠٦ (سورة المؤمنون) .

(٢٢٧) تفسير آيات الأحكام ، للسائس : ٣ / ١٧٥ .

(٢٢٨) تفسير القرطبي : ١٢ / ٢٥٤ ، وتفسير ابن جرير وابن كثير ، والاستيعاب لابن عبد البر : ٢ / ٧٦٢ ، وقد أخرجه مسلم وأبو داود .

(٢٢٩) تفسير القاسمي : ١٢ / ٤٥٢٣ .

(٢٣٠) نهى عن مهر البغي :

رواه البخارى فى البيوع ح ٢٢٣٧، وفى الإجارة ح ٢٢٨٢، وفى الطلاق ح ٥٣٤٦ وفى الطب ح ٥٧٦١، ومسلم فى المساقاة ح ١٥٦٨، والترمذى فى النكاح ١١٣٣، وفى البيوع ح ١٢٧٦، وفى الطب ح ٢٠١٧، والنسائى فى الصيد والذبايح ح ٤٢٩٢، وفى البيوع ح ٤٦٦٦، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢٨، ٣٤٨١، وابن ماجه فى التجارات ح ٢١٥٩، وأحمد ح ١٦٦٢٢، ومالك فى البيوع ح ١٣٦٣، والدارمى فى البيوع ح ٢٥٦٨ من حديث أبى مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٣١) شر الكسب مهر البغي :

رواه مسلم فى المساقاة ح ١٥٦٨، والترمذى فى البيوع ح ١٢٧٥، والنسائى فى الصيد والذبايح ح ٤٢٩٤، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢١، وأحمد ح ١٥٣٨٥، ١٥٤٠٠، والدارمى فى البيوع ح ٢٦٢١، من حديث رافع بن خديج . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢٣٢) نهى عن كسب الأمة :

رواه أبو داود ح ٣٤٢٧، من حديث رافع . ورواه البخارى فى البيوع ح ٢٢٣٨، من حديث عون بن أبى جحيفة .

(٢٣٣) نهانا نبى الله :

رواه أحمد ح ١٨٥١٩، وأبو داود فى البيوع ح ٣٤٢٦، من حديث رافع بن رفاعة .

(٢٣٤) تفسير المرافى : ١٨ / ١٠٦ .

(٢٣٥) فتح القدير ، للشوكانى : ج ٤ .

(٢٣٦) اللهم لك الحمد أنت نور السموات :

تقدم تخريجه .

(٢٣٧) تفسير الكشاف : ٦٨ / ٣ .

(٢٣٨) فتح القدير ، للشوكانى : ج ٤ .

(٢٣٩) تفسير سورة النور ، لأبى الأعلى المودودى : ١٩٧ .

(٢٤٠) تفسير التنسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٩ / ٩٢ .

(٢٤١) اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى :

ذكره الهيثمى فى المجمع ٣٨ / ٦ وقال : رواه الطبرانى ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقيّة رجاله ثقات .

(٢٤٢) القلوب أربعة :

قال ابن كثير : إسناده جيد ولم يخرجوه ، وقد أخرجه أحمد ح (١٠٧٤٥) .

(٢٤٣) تفسير ابن كثير .

(٢٤٤) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٥١٩ .

(٢٤٥) تفسير النسفي : ٣ / ١٤٦ ، وفي كتب الأدب أن القصيدة كانت لأبي تمام في مدح أحمد بن أبي دؤاد ، فقال له الكندي : الأمير فوق من ذكرت ، فارتجل أبو تمام البيتين ، ولما أخذت منه القصيدة وجدت خالية منهما .

(٢٤٦) اتقوا فراسة المؤمن :

رواه الترمذي في تفسير القرآن ح ٣١٢٧ ، من حديث أبي سعيد الخدري ، وقال : حديث غريب .

(٢٤٧) تفسير الكشاف ، للزمخشري : ٣ / ٦٨ .

(٢٤٨) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ٢٠٠ .

(٢٤٩) تفسير القاسمي : ١٢ / ٢٥ / ٤٥ .

(٢٥٠) فتح القدير ، للشوكاني : ٤ / ٣٤ .

(٢٥١) انظر تفسير القاسمي : ١٢ / ٤٥٢٩ .

(٢٥٢) من بني لله مسجداً بني الله له بيتا في الجنة :

البخاري في الصلاة : ٤٥٠ ، ومسلم في المساجد ٥٣٣ / ٢٤ ، ٢٥ ، والترمذي في الصلاة ٣١٨ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه في المساجد ٧٣٦ ، كلهم عن عثمان بن عفان .

(٢٥٣) أمرنا رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور :

رواه الترمذي في الجمعة ح ٥٩٤ ، وأبو داود في الصلاة ح ٤٥٥ ، وأحمد ح ٢٥٨٥٤ ، من حديث عائشة .

(٢٥٤) يتعافون فيكم ملائكة الليل والليل والنهار :

رواه البخاري في مواقيت الصلاة ح ٥٥٥ ، وفي التوحيد ح ٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦ ، ومسلم في المساجد ح ٦٢٢ ، والنسائي في الصلاة ح ٤٨٥ ، وأحمد ح ٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦ ، ومالك في النداء للصلاة ح ٤١٢ ، من حديث أبي هريرة بلفظ : يتعافون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون . وليس فيه ذكر للآية .

ورواه البخاري في الأذان ح ٦٤٩ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٧١٧ ، ومسلم في المساجد ح ٦٤٩ ، والترمذي في التفسير ح ٣١٢٥ ، والنسائي في الصلاة ح ٤٨٦ ، وابن ماجه في الصلاة ح ٦٧٠ ، وأحمد ح ٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٢ من حديث أبي هريرة أيضاً بلفظ : فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ .

(٢٥٥) تفسير النسفي ٣ / ١٤٦ .

(٢٥٦) أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخاري في بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفي التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفي التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم في الجنة ح ٢٨٢٤ ، والترمذي في التفسير ح ٣١٩٧ ، ٣٢٩٢ ، وابن ماجه في الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمي في الرقاق ح ٢٨٢٨ من حديث أبي هريرة .

(٢٥٧) تفسير النسفي .

(٢٥٨) هل تضارون في رؤية الشمس والقمر - يقال لليهود - :

رواه البخاري في التفسير ح ٤٥٨١ ، وفي التوحيد ح ٧٤٤٠ ، ومسلم في الإيمان ح ١٨٣ ، من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢٥٩) تفسير القاسمي : ١٢ / ٤٥٣٦ .

(٢٦٠) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٢١ .

(٢٦١) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(٢٦٢) تفسير الآيات ٤١ - ٤٦ مأخوذ من كتاب «تفسير الآيات الكونية» للمؤلف .

(٢٦٣) إن الله زوى لي الأرض :

مسلم في الفتن ٢٨٨٩ ، والترمذي في الفتن ح ٢١٧٦ ، وأبو داود في الفتن ح ٢١٧٦ ، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢ ، وأحمد ٢٧٨/٥ ، ٢٨٤ ، من حديث ثوبان . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢٦٤) القائم : يريد الخليفة ، والنظام هو السلك الذي ينظم فيه الخرز .

(٢٦٥) شخصت : خرجت .

(٢٦٦) انتقاضهم عليك للقتل .

(٢٦٧) نهج البلاغة : ١ / ٢٨٣ .

(٢٦٨) تفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي ، مؤسسة الرسالة ، طبعة بيروت : ٢١٤ - ٢٢٠ .

(٢٦٩) إن الله فرض خمس صلوات في اليوم والليلة :

أبو داود في الصلاة ٤٣٠ ، ورواه النسائي في الصلاة ٤٦١ ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢٧٠) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب : ٤ / ٢٥٣٠ .

(٢٧١) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣٠٢ .

(٢٧٢) الحجال: جمع حجلة (بالتحريك) وهو بيت كالحلبة، يستر بالثياب ويكون له أزرار كبار .

(٢٧٣) سنن أبي داود، ووردت في تفسير القرطبي: ١٢ / ٣٠٣ .

(٢٧٤) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣٠٣ .

(٢٧٥) نقلا عن تفسير القاسمي: ١٢ / ٤٥٤٨ .

(٢٧٦) تفسير سورة النور، لأبي الأعلى المودودي: ٢٢٣، وتفسير آيات الأحكام، للسايس: ٣ / ١٨٥ .

(٢٧٧) تفسير آيات الأحكام، للسايس: ٣ / ١٨٧ .

(٢٧٨) تفسير آيات الأحكام، للسايس: ٣ / ١٨٦ .

(٢٧٩) تفسير القرطبي: ١٣ / ٣٠٩ .

(٢٨٠) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق الصابوني: ٣ / ٦٦٨، وتفسير القرطبي: ١٣ / ٣١٠ .

(٢٨١) ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء:

البخاري في النكاح ٥٠٩٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧٤٠، كلاهما عن أسامة بن زيد .

(٢٨٢) صفان من أهل النار من أمي لم أرهما بعد:

مسلم في اللباس والزينة ٢١٢٨، وفي الجنة ٢١٢٨، وأحمد ٣٥٦/٢ .

(٢٨٣) تفسير القرطبي: ١٣ / ٣١١ .

(٢٨٤) تفسير القرطبي، ونسب هذه الرواية إلى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس .

وقال القرطبي: تكلم الناس في تفسير علي بن أبي طلحة، فقيل: إنه لم ير ابن عباس، والله أعلم (١٢/٣١٢) .

(٢٨٥) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد وأصحاب السنن، وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني: ٦١٩ / ٢ .

(٢٨٦) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٤ .

(٢٨٧) في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب: ٤ / ٢٥٣٣ .

(٢٨٨) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٢ .

(٢٨٩) تفسير آيات الأحكام، للسايس: ٣ / ١٩٠ .

(٢٩٠) تفسير القرطبي: ١٢ / ٣١٧ .

(٢٩١) القاسمي والقرطبي والنسفي .

(٢٩٢) تفسير آيات الأحكام ، للسايس : ٣ / ١٩١ .

(٢٩٣) إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم :

لم أره هكذا ، إنما رواه مسلم في الأشربة ٢٠١٨ ، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٦٥ ، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٨٧ ، وأحمد ٣٤٦/٣ ، كلهم عن جابر بلفظ : إذا دخل الرجل منزله فذكر اسم الله عند دخوله ، وعند خروجه . وعند طعامة : قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء .

(٢٩٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابوني : ٢ / ٦٢٠ .

(٢٩٥) إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم :

رواه أبو داود في الأدب ح ٥٢٠١ ، والترمذي في الاستئذان ح ٢٧٠٦ ، وأحمد ح ٧١٠٢ ، ٩٣٧٢ ، من حديث أبي هريرة . وقال الترمذي : حديث حسن .

(٢٩٦) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابوني : ٢ / ٦٢١ .

(٢٩٧) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٢٢ .

(٢٩٨) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٢٣ .

(٢٩٩) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٢٣ .

(٣٠٠) تفسير القرطبي : ١٢ / ٣٢٣ ، وتفسير سورة النور ، لأبي الأعلى المودودي : ٢٣٢ .

(٣٠١) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني : ٢ / ٦٢٢ .

(٣٠٢) تفسير النسفي : ٣ / ١٥٧ .

(٣٠٣) قصة قرهه :

رواها البخاري في بدء الوحي ح ٧ .

(٣٠٤) لا أحد أحلم من الله :

رواه البخاري في الأدب ح ٦٠٩٩ ، وفي التوحيد ح ٧٣٧٨ ، ومسلم في صفه القيامة ح ٢٨٠٤ ، وأحمد ح ١٩٠٩٢ ، ١٩١٣٦ . من حديث أبي موسى مرفوعا : ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه من الله الحديث .

(٣٠٥) يشتمني ابن آدم :

رواه البخاري في بدء الخلق ح ٣١٩٣ ، والنسائي في الجنائز ح ٢٠٧٨ ، واللفظ له ، وأحمد ح ٨٨٧٠ .

(٣٠٦) انظر تفسير القرطبي: ٥/ ٤٨٥٢ دار الغد العربي القاهرة ، والتفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي ١٩ / ١٥ دار الفكر المعاصر ، بيروت ، وتفسير المراغي ١٨ / ١٥٠ ، وتفسير مقاتل بن سليمان ٣ / ٢٢٦ تحقيق د . عبدالله شحاته .

(٣٠٧) قط قط :

رواه البخارى في تفسير القرآن ح ٤٨٤٨ ، ٤٨٤٩ ، ٤٨٥٠ ، وفي الأيمان والنذور ح ٦٦٦١ ، وفي التوحيد ح ٧٤٤٩ ، ومسلم في الجنة ح ٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧ ، ٢٨٤٨ ، والترمذى في صفة الجنة ح ٢٥٥٧ ، وفي تفسير القرآن ح ٣٢٧٢ ، وأحمد ح ٧٦٦١ ، ٢٧٣٨١ ، والدارمى في الرقاق ح ٢٨٤٩ . وقال الحافظ في الفتح (٨ / ٤٦١) : وفي بعض النسخ (قطنى قطنى) ، و(قطنى) بزيادة نون مشبعة ... وكلها بمعنى : يكفى . ا هـ .

(٣٠٨) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٥ / ٤٨٦٠ ، وقد أورد طائفة من القراءات فى هذه الآية ، ومن ذلك قوله :
وقرأ الحسن وأبو جعفر «أَنْ نُنْخَذَ» بضم النون وتشديد التاء وفتح الخاء ، على الفعل المجهول .

(٣٠٩) تفسير مقاتل بن سليمان: ٣ / ٢٣٠ تحقيق د . عبدالله شحاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣١٠) تفسير القرطبي: ٥ / ٤٨٦٧ دار الغد العربي القاهرة ، والتفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبه الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ١٩ / ٤٠ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله
وبها تم الجزء (الثامن عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
-	تفسير سورة المؤمنون	٣٤٤٩
-	أهداف سورة المؤمنون	٣٤٥٠
١	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾	٣٤٥٣
٢	﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ...﴾	٣٤٥٣
٣	﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ...﴾	٣٤٥٣
٤	﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ...﴾	٣٤٥٣
٥	﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...﴾	٣٤٥٣
٦	﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ...﴾	٣٤٥٣
٧	﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ...﴾	٣٤٥٣
٨	﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ...﴾	٣٤٥٣
٩	﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ...﴾	٣٤٥٣
١٠	﴿أُولَٰئِكَ هُمُ السَّوَابُونَ...﴾	٣٤٥٣
١١	﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرِيدَ...﴾	٣٤٥٣
١٢	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ...﴾	٣٤٦١
١٣	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثًا...﴾	٣٤٦١
١٤	﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُثَ خَلْقًا...﴾	٣٤٦١
١٥	﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَدِ ذَلِكَ لَمُعِيتُونَ...﴾	٣٤٦١
١٦	﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعَتُونَ...﴾	٣٤٦١
١٧	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ...﴾	٣٤٦٤
١٨	﴿وَأَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ...﴾	٣٤٦٦
١٩	﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ...﴾	٣٤٦٦
٢٠	﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ...﴾	٣٤٦٦
٢١	﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً...﴾	٣٤٦٨
٢٢	﴿وَعَالِيهَا عَلَى الْفَلَاحِ حَامِلُونَ...﴾	٣٤٦٨
٢٣	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾	٣٤٧٠
٢٤	﴿فَنَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	٣٤٧٠
٢٥	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ...﴾	٣٤٧٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٤	﴿فذرهم فى غمرتهم حتى حين﴾	٣٤٨٦
٥٥	﴿أيحسبون أنما نمدهم به...﴾	٣٤٨٦
٥٦	﴿نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون﴾	٣٤٨٦
٥٧	﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾	٣٤٩٠
٥٨	﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾	٣٤٩٠
٥٩	﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾	٣٤٩٠
٦٠	﴿والذين يؤتون ما آتوا...﴾	٣٤٩٠
٦١	﴿أولئك يسارعون فى الخيرات...﴾	٣٤٩٠
٦٢	﴿ولا تكلف نفسك إلا وسعها...﴾	٣٤٩٢
٦٣	﴿بل قلوبهم فى غمرة من هذا...﴾	٣٤٩٤
٦٤	﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم...﴾	٣٤٩٤
٦٥	﴿لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون﴾	٣٤٩٤
٦٦	﴿قد كانت آياتى تتلى عليكم...﴾	٣٤٩٤
٦٧	﴿مستكبرين به سامرا تهجرون﴾	٣٤٩٤
٦٨	﴿أنام يدبروا القبول...﴾	٣٤٩٤
٦٩	﴿أم لم يعرفوا رسولهم...﴾	٣٤٩٤
٧٠	﴿أم يقولون به جنونة...﴾	٣٤٩٤
٧١	﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض...﴾	٣٤٩٤
٧٢	﴿أم تسألهم خرّجاً...﴾	٣٤٩٤
٧٣	﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾	٣٤٩٤
٧٤	﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة...﴾	٣٤٩٤
٧٥	﴿ولورحمناهم وكشفنا...﴾	٣٤٩٤
٧٦	﴿ولقد أخذناهم بالعذاب...﴾	٣٤٩٤
٧٧	﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً...﴾	٣٤٩٤
٧٨	﴿وهو الذى أنشأ لكم السمع...﴾	٣٥٠١
٧٩	﴿وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون﴾	٣٥٠١
٨٠	﴿وهو الذى يحيى ويميت...﴾	٣٥٠١
٨١	﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾	٣٥٠٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٢	﴿قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾	٣٥٠٤
٨٣	﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا...﴾	٣٥٠٤
٨٤	﴿قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا...﴾	٣٥٠٦
٨٥	﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ...﴾	٣٥٠٦
٨٦	﴿قُلْ مَنْ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ...﴾	٣٥٠٦
٨٧	﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ...﴾	٣٥٠٦
٨٨	﴿قُلْ مَنْ يَبْدُئُهُ مَا كُوتَ كُلُّ شَيْءٍ...﴾	٣٥٠٦
٨٩	﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ...﴾	٣٥٠٦
٩٠	﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ...﴾	٣٥٠٦
٩١	﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ...﴾	٣٥٠٩
٩٢	﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...﴾	٣٥٠٩
٩٣	﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ...﴾	٣٥١١
٩٤	﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ...﴾	٣٥١١
٩٥	﴿وَإِنِّي عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ...﴾	٣٥١١
٩٦	﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ...﴾	٣٥١١
٩٧	﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ...﴾	٣٥١١
٩٨	﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبُّ أَنْ يَحْضُرُونِ...﴾	٣٥١١
٩٩	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ...﴾	٣٥١١
١٠٠	﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...﴾	٣٥١١
١٠١	﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾	٣٥١٥
١٠٢	﴿وَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾	٣٥١٥
١٠٣	﴿وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا...﴾	٣٥١٥
١٠٤	﴿تَلْفَحُ وَجوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِجُونَ...﴾	٣٥١٥
١٠٥	﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلُو عَلَىٰ عِبَادِكَ...﴾	٣٥١٥
١٠٦	﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾	٣٥١٥
١٠٧	﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا...﴾	٣٥١٥
١٠٨	﴿قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ...﴾	٣٥١٥
١٠٩	﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ...﴾	٣٥١٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٠	﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّى أَنْسُوكُمْ ذِكْرِي...﴾	٣٥١٥
١١١	﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمَ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا...﴾	٣٥١٥
١١٢	﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدِدَ سِنِينَ...﴾	٣٥٢٠
١١٣	﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...﴾	٣٥٢٠
١١٤	﴿قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا...﴾	٣٥٢٠
١١٥	﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَرَبًا...﴾	٣٥٢٠
١١٦	﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...﴾	٣٥٢٠
١١٧	﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾	٣٥٢٠
١١٨	﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ...﴾	٣٥٢٠
-	خلاصة ما تضمنته سورة المؤمنون	٣٥٢٤
-	تفسير سورة النور	٣٥٢٥
-	بين يدي سورة النور	٣٥٢٦
١	﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا...﴾	٣٥٣٢
٢	﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا...﴾	٣٥٣٢
٣	﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحْ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾	٣٥٣٢
٤	﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا...﴾	٣٥٤٨
٥	﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ...﴾	٣٥٤٨
٦	﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ...﴾	٣٥٥٣
٧	﴿وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهُ عَلَيْهِ...﴾	٣٥٥٢
٨	﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ...﴾	٣٥٥٢
٩	﴿وَالْخَامِسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا...﴾	٣٥٥٢
١٠	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...﴾	٣٥٥٢
١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ...﴾	٣٥٥٩
١٢	﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ...﴾	٣٥٥٩
١٣	﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ...﴾	٣٥٥٩
١٤	﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ...﴾	٣٥٥٩
١٥	﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ...﴾	٣٥٥٩
١٦	﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ...﴾	٣٥٥٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله...﴾	٣٥٥٩
١٨	﴿ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم...﴾	٣٥٥٩
١٩	﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة...﴾	٣٥٥٩
٢٠	﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته...﴾	٣٥٥٩
٢١	﴿يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان...﴾	٣٥٥٩
٢٢	﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة...﴾	٣٥٥٩
٢٣	﴿إن الذين يرمون المحصنات...﴾	٣٥٧٣
٢٤	﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم...﴾	٣٥٧٣
٢٥	﴿يومنذونهم الله دينهم الحق...﴾	٣٥٧٣
٢٦	﴿الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات...﴾	٣٥٧٦
٢٧	﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم...﴾	٣٥٧٨
٢٨	﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها...﴾	٣٥٧٨
٢٩	﴿ليس عليكم جناح أن تدخلوا...﴾	٣٥٧٨
٣٠	﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم...﴾	٣٥٨٤
٣١	﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن...﴾	٣٥٨٨
٣٢	﴿وأنكحوا الأيامى منكم...﴾	٣٥٩٩
٣٣	﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً...﴾	٣٦٠٣
٣٤	﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات...﴾	٣٦١١
٣٥	﴿الله نور السماوات والأرض...﴾	٣٦١٢
٣٦	﴿فى بيوت أن الله أن ترفع...﴾	٣٦٢٠
٣٧	﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع...﴾	٣٦٢٠
٣٨	﴿ليجزيهم الله أحسن ما عملوا...﴾	٣٦٢٠
٣٩	﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة...﴾	٣٦٢٤
٤٠	﴿أو كظلمات فى بحر لجى...﴾	٣٦٢٤
٤١	﴿ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض...﴾	٣٦٢٩
٤٢	﴿ولله ملك السماوات والأرض...﴾	٣٦٢٩
٤٣	﴿ألم تر أن الله ينجى سبحانه ثم يولف بينه...﴾	٣٦٢٩
٤٤	﴿يققلب الله الليل والنهار...﴾	٣٦٢٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿وَاللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ...﴾	٣٦٢٩
٤٦	﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ...﴾	٣٦٢٩
٤٧	﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالرَّسُولِ...﴾	٣٦٢٣
٤٨	﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٣٦٢٣
٤٩	﴿وَأَنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ...﴾	٣٦٢٣
٥٠	﴿أَفَنَسَى قُلُوبُهُمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا...﴾	٣٦٢٣
٥١	﴿وَإِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٣٦٢٣
٥٢	﴿وَمَنْ يَطْغَعْ إِلَيْهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٣٦٢٣
٥٣	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ...﴾	٣٦٢٣
٥٤	﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾	٣٦٢٣
٥٥	﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...﴾	٣٦٢٨
٥٦	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ...﴾	٣٦٤٣
٥٧	﴿لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مَعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾	٣٦٤٣
٥٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾	٣٦٤٤
٥٩	﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا...﴾	٣٦٤٨
٦٠	﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا...﴾	٣٦٤٩
٦١	﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ...﴾	٣٦٥٢
٦٢	﴿وَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ...﴾	٣٦٥٧
٦٣	﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا...﴾	٣٦٥٨
٦٤	﴿أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٣٦٦١
-	تفسير سورة الفرقان	٣٦٦٣
-	أهداف سورة الفرقان	٣٦٦٤
١	﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾	٣٦٦٩
٢	﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٣٦٦٩
٣	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا...﴾	٣٦٦٩
٤	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	٣٦٧٤
٥	﴿وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا...﴾	٣٦٧٤
٦	﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ...﴾	٣٦٧٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧	﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام...﴾	٣٦٧٤
٨	﴿أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة...﴾	٣٦٧٤
٩	﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال...﴾	٣٦٧٤
١٠	﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك...﴾	٣٦٨٠
١١	﴿بل كذبوا بالساعة...﴾	٣٦٨٠
١٢	﴿إذا رأتهم من مكان بعيد...﴾	٣٦٨٠
١٣	﴿وإذا لقوا منها مكاناً ضيقاً...﴾	٣٦٨٠
١٤	﴿ولا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً...﴾	٣٦٨٠
١٥	﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد...﴾	٣٦٨٠
١٦	﴿لهم فيها ما يشاءون خالدين...﴾	٣٦٨٠
١٧	﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله...﴾	٣٦٨٤
١٨	﴿قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا...﴾	٣٦٨٤
١٩	﴿فقد كذبوكم بما تقولون...﴾	٣٦٨٤
٢٠	﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم...﴾	٣٦٨٤
—	تخريج أحاديث وهوامش	٣٦٨٩
—	فهرس الكتاب	٣٧١٣

تم بحمد الله الجزء (الثامن عشر)

ويليه الجزء (التاسع عشر) بإذن الله تعالى





تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
بِإِسْنَادِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

دَعْبُ اللَّهِ شَحَاتَهُ

دار غريب

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع عشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
الساهرة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِيْ
 أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرٰٓى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
 حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ ﴿٢٥﴾ نَزِيلًا
 تَنْزِيلًا ﴿٢٦﴾ الْمَلٰٓئِكَةُ يَوْمَئِذٍ رَّحْمٰٓةٌ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ
 يَعْصُفُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٨﴾ يٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي
 لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ
 الشَّيْطٰٓنُ لِلْإِنسٰٓنِ خَدُوْلًا ﴿٣٠﴾ ۝﴾

المفردات :

لا يرجون ، لا يخالفون ، أو لا يتوقعون .

لِقَاءَنَا : الرجوع إلينا للحساب ، أو لقاء جزائنا .

لَوْلَا أَنْزَلَ ، هَلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ لَكَي يَخْبِرُونَا بِصَدَقِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ، أَوْ هَلَّا نَرَىٰ رَبَّنَا جَهْرَةً وَمَعَانِيَةً ، لَيَقُولُ لَنَا إِنْ مُحَمَّدًا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِي .

اسْتَكْبَرُوا فِيْ أَنْفُسِهِمْ ، أَوْقَعُوا الْاِسْتِكْبَارَ فِي شَأْنِ أَنْفُسِهِمْ ، بَعْدَهَا كَبِيرَةُ الشَّأْنِ .

الْعَتَوْا ، تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الظلم والعدوان .

عَتُوًا كَبِيرًا ، وَصَلُوا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى مِنْهُ ، حِينَ كَذَبُوا الرِّسَالَ الَّذِي جَاءَ بِالْوَحْيِ ، وَلَمْ يَكْتَرِثُوا

بِالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَتَاهُمْ بِهَا .

حجراً محجوراً، كلمة تقولها العرب حين لقاء عدُوٍّ مَوْتورٍ، أو هجوم نازلة هائلة، يقصدون بها الاستعانة من وقوع ذلك الخطب الذي يلحقهم، والمكروه الذي يلمُّ بدارهم، أى: نسأل الله أن يمنع ذلك منّا، ويحجره حجراً.

وقدمنا، وعمدنا وقصدنا.

السهباء، دقاق التراب إذا انبث في الهواء، ولا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس.

المنشور، المتفرق في الجوّ، بحيث لا يتأتى جمعه أو حصره.

المقيل، المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج، والتمتع بحديثهن، سمى بذلك لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالباً.

تشقق، تنفتح السماء عن الغمام.

الحق، الثابت الذى لا يزول.

عسيرا، شديداً.

بعض الظالم على يديه، كناية عن الندم.

خليل، صديقاً وصاحباً.

الذكر، القرآن.

خسداً ولا، الخذل: الترك من الإعانة.

التفسير:

٢١ - وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ...

قال الكفار الذين لا أمل لهم فى البعث والجزاء والحساب، لأنهم ينكرون البعث ولا يتوقعونه، قالوا على سبيل التعنت والعناد: هلا أنزل علينا الملائكة، لكى يخبرونا بصدق محمد، أو هلا نرى ربنا فينبئنا بذلك.

وشبهه بهذه الآية قوله تعالى: أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ الْمَلَكُتُ قَبِيلاً. (الإسراء: ٩٢). أى: ليشهدوا بصدقك.

لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا.

لقد أضمروا فى أنفسهم الكبر والغرور، والبعد عن الحق، والظلم والطغيان، ووصلوا فى عتوهم إلى الغاية القصوى منه.

٢٢ - يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا .

إن الكفار طلبوا نزول الملائكة ، تعنتًا وكبرًا فيما سبق ، وهنا يقول : إن الكفار سيرون الملائكة في يوم الممات ، ولكن لا تحمل لهم البشري بالجنة ، بل تحمل الوعيد والتهديد للمجرمين ، الذين أسرفوا على أنفسهم في الدنيا ، وعندئذ يقول الكافرون : عوذًا معاذًا ، أى : نرجو ونأمل أن نستعيز من عذابكم .

واختار ابن جرير الطبري أن تكون جملة : حِجْرًا مَّحْجُورًا . من كلام الملائكة ، أى : تقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ^(١) .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْهَبَتْهُمْ ... (الأنفال : ٥٠) .

وقال تعالى : وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . (الأنعام : ٩٣) .

وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإن الملائكة تحضر وفاتهم ، وتبشرهم بالجنة وأنواع النعيم .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَّحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

قال ابن كثير :

جاء في الحديث الصحيح ، عن البراء بن عازب : «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها النفس الطيبة ، من الجسد الطيب كنت تعمريته ، اخرجي إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان» .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : يُبَيِّنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ . (إبراهيم : ٢٧) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله تعالى : يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ ... يعني يوم القيامة ، قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا ، وما تقدم . فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات ، ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين والكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشري يومئذ للمجرمين ^(٢) .

٢٣ - وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا .

كان المشركون يعملون أعمالا حسنة المظهر ، مثل صلة الرحم وإطعام الفقراء ، لكن لا أساس لها من الإيمان بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فهي أشبه بخضراء الدُّمن ، وهي المرأة الحسنة في المنبت السوء ، وفي يوم القيامة يجدون جزاء هذه الأعمال ضائعا ، ضياع ذرات التراب ، المنتشرة بسبب شعاع الشمس ، أو ضياع الوقش الجاف في شدة الرياح .

قال تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ... (إبراهيم : ١٨) .

قال قتادة : هَبَاءً مَّنْثُورًا . ييس الشجر إذا ذرته الريح ، فهو ذلك الورق .

وقال عبيد بن يعلى : الهباء : الرماد إذا ذرته الريح .

قال ابن كثير :

وحاصل هذه الأقوال : التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجوز ولا يظلم أحداً ، إذا بها لا شيء بالكلية ، وشبهت فى ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية .

كما قال تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ... (إبراهيم : ١٨) .

٢٤ - أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا .

المستقر : مكان الاستقرار ، والمقيل : المكان الذى يأوون إليه ، للاسترواح إلى أزواجهم ، والاستمتاع بمنازلتهم ، وملامستهم كحال المترفين فى الدنيا .

والمعنى :

أصحاب الجنة فى يوم القيامة فى مكان حسن ، وزمان حسن ، حيث إنهم من جهة المكان فى أحسن مكان ، ومن جهة الزمان فى أحسن زمان ، فهم فى الغرف من الجنة ، وفى منزل عظيم من المتعة والسرور ، والحبور والمؤانسة .

قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أَوَّلَ كُنْهِهُ يَجِيبُهُ * فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا * وَيَقْلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا . (الانشقاق : ٧ - ٩) .

وتفيد الآيات أن حساب المؤمن يكون يسيرا ، وأن موقف الحساب يكون هيئا من طلوع الشمس إلى ارتفاعها وقت الضحى ، ثم يقضى وقت القبول مع الحور العين ، فى جنات النعيم .

وروى ابن جرير الطبري بإسناده : أن يوم القيامة يقصر على المؤمن ، حتى يكون كما بين العصر إلى غروب الشمس ، وإنهم ليقيلون في رياض الجنة ، حتى يفرغ من الناس ^(٢) . وذلك قوله تعالى :

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا .

٢٥ - وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزُلُ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا .

تصف الآية مظهرًا من مظاهر القيامة ، حيث تنشق السماء على غلظها ، ويخرج الغمام من السماء ، وتتعلق الملائكة بأطراف السماء ، ثم تنزل إلى الأرض فتحيط بأهل الأرض ، والغمام : غيم أبيض رقيق مثل الضباب ، كما كان لبني إسرائيل في التيه ، حيث كان يقيهم وهج الشمس ، قال تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (البقرة : ٥٧) .

وقد ورد في القرآن الكريم وصف مشاهد القيامة ، ومن هذه المشاهد : انشقاق السماء ، وتعلق الملائكة بأرجاء السماء ، واشتداد الهول ، وتميز المؤمنين بالسعادة والسرور ، واختصاص الكفار بالعذاب والويل والذبور .

قال تعالى : وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَلِيَّةٌ * يَوْمَئِذٍ تَعْرُضُونَ لَا تُخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة : ١٦ - ١٨) .

وقال تعالى : هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . (البقرة : ٢١٠) .

وقال تعالى : وَجَاءَ بُرْكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . (الفرج : ٢٢) .

وتشير الآية إلى أن الملائكة تنزل إلى الأرض نزولاً مؤكداً ، لا لبس فيه ولا شك ، وفي هذا رد على المشركين الذين قالوا : لَوْلَا أَنزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ...

قال النيسابوري :

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ ...

أي : واذكر يوم تنفتح السماء ، بسبب غمام يخرج منها ، وفي الغمام الملائكة ، فينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَتْلَاهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَنُقِلَ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا . (الانشقاق: ١ - ٩) .

٢٦ - أَلَمْ لَكُمْ يَوْمَئِذٍ الْخَبْرُ لِلرَّحْمَنِ^(١) وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا .

فى هذا اليوم تبطل أملاك المالكين من الناس ، وتنقطع دعاواهم ، ويخلص الملك للرحمان وحده ، ويكون اليوم شديداً عصبياً على الكافرين ، كما يكون يسيراً ومبشراً للمؤمنين ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: لَمَنْ أَلْمَلْتُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَجْدِ الْقَهَّارِ . (غافر: ١٦) .

قال ابن كثير :

وفى الصحيح: «أن الله تعالى يطوى السماوات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول: أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون؟»^(٢) .

٢٧ - وَيَوْمَ يَعْصُ الطَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا .

وفى يوم القيامة يعصُ الطالِمُ على يديه ، كناية عن الندم والأسف والحسرة .

قال تعالى: وَأَسْرُوا الثَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي أَغْثَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ... (سبا: ٣٣) .

ويقول الطالِم فى ذلك اليوم : يا ليتنى اتبعت الرسول ، وسلكت معه طريق الحق والجنة ، وتجنبت طريق النار والمكابرة والعناد .

سبب النزول :

نزلت هذه الآية وما بعدها ، فى عقبه بن أبى معيط ، دعا النبى ﷺ لحضور طعام عنده ، فقال له النبى ﷺ: «لا أكل من طعامك حتى تنطق بالشهادتين» ، فنطق بهما ، فبلغ ذلك صديقه أبى بن خلف ، فقال له : يا عقبه ، بلغنى أنك أسلمت ، فقال له : لا ، ولكن قلت ما قلت تطيبباً لقلب محمد ، حتى يأكل من طعامى ، فقال أبى بن خلف لعقبه بن أبى معيط : كلامك على حرام ، حتى تفعل كذا وكذا ، من الإيذاء بمحمد ، ففعل الشقى ما أمره به صديقه ، أمّا عقبه بن أبى معيط ، فقد أمر النبى ﷺ بقتله فى غزوة بدر ، وأمّا أبى بن خلف فقد طعنه النبى ﷺ فى غزوة أحد طعنة لم يبق بعدها سوى أيام ، ثم هلك . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فإن الآية عامة فى كل ظالم يسلك طريق الهوى ، ويبتعد عن طريق الحق ، فيندم حين لا ينفع الندم .

قال جار الله الزمخشري : تمنى أن لو صحب الرسول ، وسلك معه طريقا واحداً ، وهو طريق الحق ، ولم تتشعب به طرق الضلالة والهوى .

٢٨ - يَنْوِيْلُنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلاً .

يا حسرتاه ، ويا هلاكاه ، ليتني لم أتخذ الفاجر الظالم صديقاً وخليلاً وأنيساً وصاحباً ، وكلمة : يَنْوِيْلُنِي . تستعمل عند وقوع داهية دهياء لا نجاة منها ، وكأن المتحسر ينادى ويلته ، ويطلب حضورها بعد تنزيلها منزلة من يفهم نداءه ، أي : يا هلاكى أقبل ، فهذا أوان إقبالك .

قال النيسابوري :

فإن أريد بالظالم عقبة بن أبي معيط ، فالمعنى : ليتني لم أتخذ أبي بن خلف خليلاً ، فكفى عن اسمه . وإن أريد به الجنس ، فكل من اتخذ من المضلين خليلاً ، كان لخليله اسم علم فجعله كناية عنه .

وقال ابن كثير :

والمراد بـ فَلَانًا : كل من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلال ، من دعاة الضلالة ، وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما . اهـ .

٢٩ - لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا .

أي : والله لقد أضلني هذا الصديق المشنوم ، عن الهداية والإيمان ، أو عن تعاليم النبي ﷺ ، بعد إذ وصلتني ، أو عن القرآن بعد أن بلغني ، وكان هذا الصديق وأمثاله أشبه بالشياطين ، التي تصرف الإنسان عن الحق والهداية ، أو أراد به الجنس فيدخل فيه كل من تشيطان من الجن والإنس .

قال ابن كثير :

وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا .

أي : يخذله عن الحق ويصرفه عنه ، ويستعمله في الباطل ، ويدعوه إليه . اهـ .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) . ومن خذلان الشيطان ، تحريض الإنسان على الشر ، وصرفه عن الحق ، ثم إن الشيطان لا ينفع الإنسان ، ولا ينجيه مما يحل به من البلاء بل يقترأ منه .

قال تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَكْثَرُكُمْ مِّنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (٢٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٢١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سَرُّ مَكَانٍ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

مَهْجُورًا : تركوه وصدُّوا عنه وعن الإيمان به ، أو أهملوه ولم يتعهدوه بالقراءة والحفظ والعمل به .

جُمْلَةً وَاحِدَةً : دفعة واحدة .

لِنُثَبِّتَ : لنقوى ونطمئن .

رَتَّلْنَاهُ : أتينا ببعضه إثر بعض ، على تَوَدَّة ومهل ، من قولهم : ثغر مرتل ، أى : متفلج الأسنان .

يُحْشَرُونَ : ينوع من الكلام جارٍ مجرى المثل ، فى تنميقة وتحسينه ، ورشاقة لفظه ، وصدق معناه .

الْحَقُّ : القول الثابت الذى يزهد باطلهم .

تَفْسِيرًا : إيضاحًا .

يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ : يسحبون على وجوههم ، ويجرُّون إلى جهنم .

التفسير :

٣٠ - وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا .

استكى الرسول محمد ﷺ إلى ربّه ، من تعنت المشركين ، وصدوهم عن الإيمان ، وإعراضهم عن سماع القرآن ، بل كانوا يتشغلون عن القرآن ، ولا ينصتون إليه خشية أن تلين له قلوبهم ، أو أن تتأثر به نفوسهم ، كما قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت : ٢٦) .

قال ابن كثير :

كانوا إذا تلى عليهم القرآن ، أكثروا اللغو والكلام في غيره ، حتى لا يسمعه ، فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به ، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام ، أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان ، القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه أثناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذي يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

٣١ - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .

استخلف الله الإنسان في الأرض ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل له الكتب لهدايته ، ودعوته إلى الحق والإيمان ، وقد وقف أهل الباطل في وجه دعوة الحق ، لحكمة إلهية عليا ، فلو نجحت دعوة الحق بدون معارضة ، لكثر الأعداء وكثرت دعاوى الباطل ، لكن مشيئة الله الغالبة ، أرادت أن تكون هناك مقاومة للحق من المجرمين المضلين ، حيث إن هؤلاء أشبه بالحشرات والديدان ، تكره الماء الصالح النقي ، وترغب الحياة في الماء الآسن ، والترية الآسنة ، ومن حكمة الله أن يبدأ الصراع بين دعاة الحق ، ودعاة الباطل ، وأن تقف الكتلة من الناس منتظرة متفرجة ، فإذا طال العذاب والتضحيات ، قالت الكتلة المتفرجة : ماذا يحمل هؤلاء على الصمود والتضحيات ؟ لابد أن هناك شيئا ما ، يهون عليهم الصبر والمصابرة ، فيدخلون في دعوة الحق لمشاهدة هذا الشيء ، ويكون ذلك سببا في هدايتهم إلى الحق ، وانتصار الحق على الباطل ، كما قال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَيَقْتِرُوا مَا هُمْ مُّقْتِرُونَ . (الأنعام : ١١٢ ، ١١٣) .

والآية تسلية للرسول ﷺ ، ليصبر على إيذاء قومه ، وليعلم أن هذه ضريبة الدعوة ، قد دفعها الرسل السابقون ، كما سيدفعها اللاحقون ، قال تعالى : فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

كما جعلنا قومك - يا محمد - يعادونك ويكذبونك ، جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ، يعادونه ويقامون دعوته ، وسينصرك الله ويهديك إلى قهرهم وكفى به هادياً ونصيراً . ١ هـ .

٣٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً .

تفطن الكافرون في اعتراضاتهم على القرآن والرسالة ، وفيما سبق طلبوا نزول الملائكة ، ورؤية الله تعالى ، وهنا ، يعترضون على نزول القرآن مفزقاً ، في ثلاث وعشرين سنة ، ويقولون : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة والإنجيل والزيور ؟ ويجب القرآن بالحكمة من نزوله مفزقاً منجماً ، وهي :

١ - تثبيت قلب النبي ﷺ ، بروية جبريل سفيراً عن الله في أحيان كثيرة .

٢ - ليتم التحدى والإعجاز ببعض سور القرآن ، فإذا عجزوا عن بعض القرآن ، كانوا عن الكل أعجز .

٣ - استمرار مناقشة الكافرين ، ومناقضة حججهم .

٤ - تربية المسلمين ورعايتهم والتشريع لهم ، والتدرج في ذلك التشريع بما يناسب أحوالهم .

٥ - علم الله أن هذا الكتاب ، آخر الكتب السماوية نزولاً إلى الأرض ، فشاء الله أن ينزله منجماً متفرقاً ، يواكب حياة المسلمين في مكة ، ويحثهم على الصبر ، ويحكي لهم خبر الأمم السابقة ، ثم يواكب حياة المسلمين في المدينة ، ويرصد جهادهم ، ويشرّع لهم ، ويراقب المنافقين ويحذر المسلمين من فتنهم ، وبذلك يكون القرآن الكريم كتاب الحياة ، والتربية والجهاد ، شأن الأوامر اليومية ، التي توزع على الجنود في كتيبهم ، فيطيعونها وينفذونها ، ويتخلقون بأخلاق القرآن ، على تودة وتمهل ، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن^(١) .

قال تعالى : وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنُزْلُهُ تَرْتِيلاً . (الإسراء : ١٠٦) .

أى : فرقنا القرآن لثبث قلوب المؤمنين ، ويتعهدهم بين الفينة والفينة ، ولو نزل جملة واحدة ، لكان كتاب علم أو معرفة أو متعة ، وقد أراد الله أن يكون كتاب حياة ، ومنهج عمل ، وتشريعاً وتربية وسلوكاً وبعثاً ، وتدريباً على الامتثال والحمل ، والطاعة والخيرية والوسطية .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ... (الشورى : ٥٢) .

وقال سبحانه : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...

(البقرة : ١٤٣)

٣٣ - وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا .

المثل يطلق على الأمر العجيب ، والقصة العجيبة ، وكان الكفار يتعننون في أسئلتهم ، ويقترحون تفجير العيون بمكة ، وانتشار البساتين حولها ، مثل بساتين الشام ، أو زحجة الجبال من حول مكة ، أو نزول الملائكة ، أو رؤية الله ، وكان القرآن ينزل منجما ليرد عليهم ، ويتحداهم ، ويوضح لهم مهمة الرسول والرسالة .

وقد جمع الله للقرآن من صفات العظمة ما جمع ، فأنزله جملة واحدة إلى اللوح المحفوظ ، في السماء السابعة ، ثم أنزله منجماً مفرقاً حسب الوقائع والحوادث .

قال في المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

ولا يأتونك بحال من الاعتراضات الواهية ، إلا جئناك بالحق نبينه ونفسره أحسن تفسيراً .

٣٤ - الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

كان كفار مكة يستهينون بالنبي الأمين ، ويقولون : أما وجد الله رسولا غير هذا اليتيم الفقير ، ويمنعهم الكبر والتعالى عن الإيمان ، والآية هنا تخبرهم : بأنكم ستكونون أخط منزلة ، وأسوأ حالا ، حين تُسحبون إلى النار على وجوهكم ، عقاباً على تكبركم ، وعدم استخدام عقولكم .

قال ابن كثير :

وفى الصحيح ، عن أنس : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟

فقال : «إن الذي أمشاه على رجليه ، قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»^(٧) .

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة ، وغير واحد من المفسرين . اهـ .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزِلْهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفْكَمَ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

المضردات :

وزيرا، الوزير : المعين والمساعد ، قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة بمرأه .

تدميرا، التدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه .

أعتدنا، هيأنا وأعدنا .

الرسس، البئر غير المبنية ، والجمع رساس ، قال أبو عبيدة : والمراد بهم كما قال قتادة : أهل قرية من اليمامة ، يقال لها : الرس والقليج ، قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح .

التنبيير، التنفيت والتكسير .

القرية : هي سدوم أعظم قرى قوم لوط .

لا يرجون ، لا يتوقعون .

النشور ، البعث للحساب والجزاء .

التفسير :

٣٥ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا .

يستعرض القرآن الكريم هنا قصص الأمم السابقة تسلياً للرسول ﷺ ، وتحذيراً للمشركين حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء المكذبين .

والمعنى :

والله لقد آتينا موسى التوراة ، وجعلنا معه هارون رسولا أيضا ، ووزيرا مساعدا ومعاوناً لموسى عليه السلام ، وكان موسى قد طلب من الله ، أن يرسل معه هارون مساعدا ومعاوناً ، فاستجاب الله لرجائه .

قال تعالى: **وَأَجْعَلْ لِّي زَيْرًا مِّنْ أَهْلِي * هَرُونَ أَخِي * أَشْهَدُ بِهِ أَزْرَى * وَأَشْرِكُ فِيْ أَمْرِي .** (طه: ٢٩ - ٣٢) .

وقال سبحانه وتعالى: **وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ** .

قَالَ سَتَشُعِدُ عِبْدُكَ بِأَخِيكَ ... (القصص: ٢٤ ، ٢٥) .

٣٦ - قُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْثْنَاهُمْ تَدْمِيرًا .

تستعرض الآية في إجمال قصة رسالة موسى، وتكذيب فرعون، واستحقاقه للعذاب والإغراق في ماء النيل.

والمعنى :

قلنا لموسى وهارون : اذهبا إلى فرعون وملئه ، فكنّذبا بالتوراة ورسالة موسى ، والمعجزات التي أعطاهما الله لموسى مثل : اليد ، والعصا ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وغيرها من الآيات ، وقد كذب فرعون وقومه ، وسخروا من موسى ، واشتد عذابهم لبني إسرائيل ، فاستدرج الله فرعون حتى خرج وراء موسى ، وضرب موسى البحر بعصاه فانفلق نصفين ، فصار فيه موسى وقومه ، ثم أتبعهم فرعون بجنوده ، فأغرقهم الله أجمعين ، ودمرهم تدميرا ، وأهلكهم إهلاكًا مبيهاً .

قال تعالى : **وَجَئِزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا ذَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاسَيْتُمْ أَنَّى لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نَجْعَلُكَ بَدَلِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ .** (يونس : ٩٠ - ٩٢) .

وقال سبحانه وتعالى : **فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَلْؤَلَاءَ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ * وَاتْرِكِ الْبَحْرَ زَفْوَ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جِبَلٍ وَغُرُونِ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ * كَذَلِكَ وَأَوْزَقْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ .** (الدخان : ٢٢ - ٢٨) .

٣٧ - وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

تشير الآية إلى قصة نوح مع قومه ، فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وتغذى في دعوتهم إلى توحيد الله ، وأرشدهم إلى عظمة الخالق وعظيم نعمائه ، وفي سورة نوح نجد طرفا من ذلك ، ثم سخر قوم نوح منه وكذبوا برسالته ، وبذلك صاروا مكذبين لرسالات الرسل أجمعين : لأن الرسل جميعا أرسلوا بدعوة التوحيد ، وعبادة الله تعالى ونبذ الشرك وعبادة الأوثان ، فمن كذب بدعوة رسول من رسل الله فكأنما كذب برسول الله أجمعين .

وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً...

أى : جعلناهم عظة وعبرة ، حيث أغرقهم الله أجمعين بالطوفان ، ونجّى الله نوحا ومن آمن معه .

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

وفى هذا تهديد ووعد لكل ظالم ، فالله يمهله ولا يمهله ، وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «يا عبادى إننى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»^(٨) .

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

هيأنا وأعدنا للظالمين عذابا أليما موجعا .

٣٨ - وَعَادَا وَثَمُودَا وَأَصْحَابُ الرُّسِّ وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا .

ودمرنا وأهلكنا قوم عاد ، بسبب تكذيبهم لنبيهم هود ، كما أهلكنا قوم ثمود بسبب تكذيبهم لنبيهم صالح .

قال تعالى : **الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادًا بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّلَاجَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَمَنْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ .** (الحاقة : ١ - ٨) .

كانت عاد تسكن فى جنوب الجزيرة فى مكان يسمى الأحقاف ، أى : الكتيب من الرمال .

قال تعالى : **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ...** (الأحقاف : ٢١) .

وهذا المكان الآن بين اليمن وسلطنة عمان . فى منطقة صلالة ، وتوجد فى صلالة سينما تسمى سينما الأحقاف ، وقد اكتشفت قرب صلالة ، آثار مطمورة ، طمرتها الرياح ، عبارة عن مدن بائنة يرجح أنها من آثار عاد قوم هود .

قال تعالى : **أَلَا بُعِدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .** (هود : ٦٠) .

وكانت ثمود تسكن فى شمال الجزيرة العربية ، بين الحجاز والشام . وقد مر النبى ﷺ على قراهم ، وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك ، ولما مر ﷺ على قرى ثمود قوم صالح ، حنى ظهره ، واستحث راحلته ، وقال لأصحابه : «لا تمرؤا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم»^(٩) .

قال تعالى : وَإِلَىٰ قَوْمِهِمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَبَّوْا إِلَيْهِ إِنِّي رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . (هود : ٦١) .

أصحاب الرس

الرس : البئر التى لم تبين بالحجارة ، وقيل : البئر مطلقا ، وقد اختار ابن جرير الطبرى : أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكرهم الله فى سورة البروج .

وقال بعض المفسرين : إنهم من بقايا قبيلة ثمود ، بعث الله إليهم نبيا فكتبوه ، ورسوه فى تلك البئر ، أى : ألغوا به فيها ، فأهلكهم الله تعالى .

وفى ذيل المنتخب فى تفسير القرآن ، طبعة ١٣ لوزارة الأوقاف المصرية ما يأتى :

وأصحاب الرس ، قوم كانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله شعيبا إليهم ، وقد ذكرهم شعيب بأنعم الله عليهم وما هم فيه من أشجار وآبار ، وخيرات كثيرة ، ولكنهم كفروا بنعمة الله ، وكذبوا رسولهم ، وعبدوا الأوثان ، وبينما هم حول الرس (أى : البئر) إذ انهارت بهم ، وخسف الله تعالى بهم الأرض .

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُعْ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعْدِ . (ق : ١٢ - ١٤) .

وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا .

أى : لقد أهلكنا عاذاً وثمود ، وأصحاب الرس لما كذبوا رسلهم ، وأهلكنا أمما كثيرة كانوا بين أمة نوح وبين عاد ، فأصابهم جزاء الظالمين ، والقرون جمع قرن، والمراد به : الجيل من الناس ، الذين اقتدروا فى زمان واحد من الأزمنة .

وفى الحديث الشريف : «خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ...»^(١) رواه البخارى .

ومن شأن الله أن يهلك الظالمين ، والأمم الظالمة ، وأن ينشئ بعدها أمما أخرى ، قال تعالى : أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ . (الأنعام : ٦) .

٣٩ - وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمُتِلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا .

أى : جميع هؤلاء المكذبين ، من قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس ، والأمم الكثيرة التى كذبت رسلها ، كل هؤلاء أرسلنا إليهم الرسل ، وأنزلنا لهم الكتب ، وقدمنا لهم المواعظ ، والنصائح والعظات ، والأمثال الصحيحة النافعة ، ولكنهم لم يتعظوا ، وأثروا الضلالة على الهدى : فاستحقوا الهلاك والنكال .

وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا .

أى : وكل قرن وأمة من هؤلاء ، أهلكناه إهلاكًا لا قيام له منه .

وأصل التبرير : التفتيت ، ومنه : التبر ، لفتات الذهب والفضة ، والمراد : التمزيق والإهلاك الشديد الذى يستأصل من نزل به .

٤٠ - وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمُتِرَتْ مَطَرُ السُّوءِ أَفْلَمَ يَكُونُوا يَرُوءُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

إن أهل مكة يَمُرُونَ فى طريقهم إلى الشام ، بقرى سدوم ، وهى أكبر قرية لقوم لوط ، وكان أهلها يأتون الذكران من العالمين ، ويتركون جماع النساء ، بحثا عن المثلية الجنسية ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وقد أهلك الله قرية سدوم ، بمطر بركانى ، من الأبخرة والحجارة فدمرها تدميرًا ، وصارت عظة وعبرة لكل مكذب فاجر .

أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُوءُهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا .

أفلم يشاهدوها ويشاهدوا ما حلَّ بأهلها ؟ لقد شاهدوها ، ولكنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا ، لأنهم كذبوا بالبعث والنشور والحساب : لذلك لم تتأثر قلوبهم بهذه الآية ، قال تعالى : وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فى السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ يُرُوءْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ، وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ . (يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦) .

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤١) ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرْوُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ (٤٣) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٤٤) ﴿

التفسير :

٤١- وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا .

كان أهل مكة أعرف الناس بصدق الرسول ﷺ وأمانته ، فقد مكث بينهم أربعين عاما قبل الرسالة ، شاهدوا سلوكه ، وقبلوا حكومته بينهم فى وضع الحجر الأسود عند بناء الكعبة ، وقد كان أحسنهم صورة من ناحية الشكل والمظهر ، وأحسنهم أخلاقا من ناحية المعانى والمخير ، وقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، وحين جمعهم عند الصفا ، وقال لهم : «لو أخبرتكم أن خيلا بالهدى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟» قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، فقال لهم : «والله الذى لا إله إلا هو ، إني لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة» ، فقال أبو لهب : تبأ لك ، ألهذا جمعتنا ؟^(١) ، فأنزل الله تعالى : كُتِبَ بِدَايَةِ نَهَبٍ وَتَبَّ ... إلى آخر السورة . (المسد : ١ - ٥) .

ومعنى الآية :

إذا شاهدك كفار مكة ، سخروا منك ، وأنقصوا من قدرك ، واستهزؤوا بك ، عنادا وسفها ومكابرة ، وقالوا ساخرين على سبيل التنقص والازدراء :

أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا .

أى : أما وجد الله غير هذا اليتيم الفقير حتى يرسله رسولا .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : وَإِذَا زَعَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرُّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ * خَلِقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَوْرِيكُمْ ءَالِيَنِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ . (الأنبياء : ٣٦ ، ٣٧) .

وفى هذا المعنى قال تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ... (الزخرف : ٣١ ، ٣٢) .

٤٢ - إِنْ كَادَ لَيُخِثُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

أى : كاد أن يصرفنا عن عبادة الأصنام ، لولا أن قاومنا دعوته ، وانصرفنا عنها ، وتمسكنا بعبادة الأصنام والأوثان .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ يُرَادُّ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْأَخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْلَانٌ * أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِي (ص : ٦ - ٨) .

ونجد فى هذه الآية اعترافاً من الكفار بقوة القرآن ، وأثره فى النفوس ، وإخلاص الرسول وقوة حجته ، حتى إنه أوشك أن ينقلهم من الكفر والشرك ، إلى الإيمان والتوحيد ، لولا صمودهم وتعاليمهم ، وإصرارهم على الكفر ، كما قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦)

ثم يعاجلهم القرآن ، بمشهد العذاب يوم القيامة ، حين يرون جهنم تلمظ غيظا على من عصى الله ، عددت سيعلمون علم اليقين ، من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، أهم أم المؤمنون . وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

قال النيسابورى : وإنما يرون العذاب عند كشف الغطاء عن بصر البصيرة .

وقال فى المنتخب فى تفسير القرآن :

معنى الآية : لقد أوتى هذا الرجل من حسن البيان وقوة الحجة ، ما يجذب السامعين ، ولقد نال من عقائدنا حتى كاد يزحزحنا عن آلهتنا ، ويميلنا إلى إلهه ، ولكننا ثبتنا على آلهتنا وديننا . وسنبين لهم جلية الأمر حين يرون العذاب يوم القيامة ، ويعلمون من هو أثبت فى الضلال والغواية .

٤٣ - أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا .

وهنا يتعجب القرآن من هؤلاء الكفار ، الذين عبدوا الأحجار ، ولم يفتحوا عقولهم للنظر فى الحق والهدى ، أى : إنهم - يا محمد - أهل لأن تعجب منهم ، ولكن لا تحزن على كفرهم ، فما عليك إلا البلاغ ، ولست مسئولاً عن هدايتهم .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، ثم إذا رأى غيره أحسن منه ؛ عبد الثانى وترك الأول .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ... (فاطر: ٨).

٤٤ - أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا .

وهل تظن أن أكثرهم يسمعون سماع الفهم ، أو يهتدون بعقولهم ؟ لقد نبذوا ما تأمرهم به أحلامهم ، وصاروا كالبهائم ، لا هم لهم إلا الأكل والشرب ومتاع الحياة الدنيا ، ولا تفكير لهم فيما وراء ذلك ، بل هم شر مكانا من البهائم ، فالبهائم تنقاد لأصحابها إلى ما فيه خيرها ، وتنأى عما يضرها ، وهؤلاء يلقون بأنفسهم فيما يهلكهم .

ومن كمال القرآن قوله : أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ... لأن هناك قلة منهم كانت تعرف الحق معرفة حقيقية ، لكن المكابرة والعناد والحسد وأشباه ذلك ، منعهم من الإيمان ، قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام: ٣٣) .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

فإن قلت : ما معنى ذكر الأكثر ؟ قلت : كان فيهم من لا يصدّه عن الإسلام إلا داء واحد ، وهو حب الرئاسة ، وكفى به داء عضالا .

﴿أَلَمْ تَر إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسَا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسًا كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآيَ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

المضردات :

ألم تنظر، ألم تنظر .

إلى ربك، إلى صنعه .

ممد : بسط .

الظل، ما يحدث من مقابلة جسم كثيف ، كجبل أو بناء أو شجر للشمس ، من حين ابتداء طلوعها إلى غروبها .

ساكننا، ثابتا على حاله في الطول والامتداد ، بحيث لا يزول ولا تذهب الشمس .

دليلا ، علامة .

قبضناه : محونا .

يسيرا ، على مهل قليلا قليلا ، بحسب سير الشمس في فلكها .

سباتنا : من السبت ، وهو القطع ، لانقطاع التعب فيه ، أو لانقطاع الحياة الكاملة .

النشور : البعث .

بشيرا ، (تخفيف بُشْر بضمين) واحدها : بشور ، كرسُل ورسُول ، أى : مبشرات .

بين يديه ، قدامه .

الرحمة ، المطر .

طهورا ، يتطهر به .

السلسلة ، الأرض .

المسيت ، التي لا نبات فيها .

الأنعام ، الإبل والبقر والغنم ، وخصها بالذكر لأنها نخيرة ، ومعاش أكثر أهل المدر منها .

أناسى ، واحداهم : إنسان (أصله : أناسين ، أبدلت النون ياء ، وأدغمت فى الياء) .

صرفناه ، حولناه فى أوقات مختلفة إلى بلدان متعددة .

ليذكروا ، ليحفظوا .

كفوراً ، كفرانا للنعمة ، وإنكاراً لها .

نذيراً ، نبياً ينذر أهلها .

مرج ، خلط ، ومنه قوله تعالى : **فَهُمْ فِيْ أُمْرٍ مُّزِجٍ** . (ق : ٥) . أى : مختلط ، ومنه قيل للمرجى : مرج ؛

لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض ، ويطلق المَرَج بمعنى الإرسال والتخليّة .

فـسـرات ، مفرط العذوبة .

أجـاج ، شديد الملوحة .

برزخا ، حاجزا .

حجرا محجورا ، تنافرا شديداً ، فلا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا يفسد الملح العذب .

نسبا وصهرا ، ذكورا ينسب إليهم ، وإنثاء يصاهر بهن .

التفسير :

٤٥ - **أَلَمْ تَرِ إِلَىٰ رَيْكُكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنٰ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا .**

فى هذه الآيات يلفت القرآن الأنظار إلى ما فى الكون من دلائل القدرة والعظمة ، والعناية والرعاية .

فهذا الكون أثر قدرة الله ، خلقه الله وأمدّه بمقومات الحياة ، وجعل فيه التكامل والتعاون بين أجزائه ،

ليستفيد بذلك الإنسان والحيوان والنبات ، ومن هذه النعم : نعمة الظل والشمس ، والنوم واليقظة ، والرياح

والسحاب والمطر ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وتيسير الأمطار ، وتكوين البحار والأنهار ، وخلق الإنسان

والحيوان والنبات ، وسائر الموجودات .

إن حركة الكون عند انقضاء الليل ، ومجئ الفجر ، ونور النهار ، تجد ظلاً كاملاً بين عتمة الليل المخيف ، وضوء الشمس وحرارتها اللافحة ، وعند طلوع الشمس يبدأ الظل يظهر ، ثم يتقلص قليلاً قليلاً .

قال في ظلال القرآن :

والظل هو ما تلقيه الأجرام من الظلمة الخفيفة ، حين تحجب أشعة الشمس في النهار ، وهو يتحرك مع حركة الأرض في مواجهة الشمس ، فتتغير أوضاعه وامتداداته وأشكاله ، والشمس تدل عليها وعليه بضوئها وحرارتها ، وتميز ساحته وامتداده وارتداده ، ومتابعة خطوات الظل في مدّه وانقباضه ، يشيع في النفس ندوة وراحة ، كما يثير فيها بقطة لطيفة شفيفة ، وهي تتبع صنع البارئ اللطيف الخبير . ا هـ .

وجاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم ما يأتي :

لقد نصبنا من الدلائل على التوحيد ما يهدي ذوى الألباب ، انظر إلى الظل فقد بسطه الله وجعله ساكناً أول النهار ، ثم سلطنا الشمس تزيل منه بما يحل محله من أشعتها ، فكانت الشمس دالة عليه ، ولولاها ما عرف الظل ، ولو شاء الله لجعل الظل ساكناً مطبقاً على الناس ، فتفوت مصالحهم ومرافقهم .

وفي هامش المنتخب ما يأتي :

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا .

هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ، فمدّ الظل يدل على دوران الأرض ، وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت ، بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس ، وكذلك انعدام دورانها حول محورها ، لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلاً ، مما يحدث لاختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض ، وكذلك إذا كان هذا هو حال الأرض ، فإن الظل يظل ساكناً ، وهذا أيضاً يحدث إذا كانت فترة دوران الأرض حول محورها هى نفسها فترة دورانها حول الشمس ، أى أن اليوم يصبح سنة كاملة ، ولكن لا يمكن أن يفعل ذلك غير الله ، هذا فضلاً عن أن الظل ذاته نعمة من نعم الله ، ولو أن الله خلق الأشياء كلها شفافاً لما وجد الظل ، ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه .^(١٧)

٤٦- ثُمَّ قَبِضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا .

عندما ترتفع الشمس تزيل آثار الظل شيئاً فشيئاً بالتدرج ، وينقبض الظل سهلاً هيناً لا يكسر شيئاً ، ولا يعطل حركة .

وقيل : المعنى : ثم قبضنا الشمس قبضاً يسيراً .

قال في الظلال :

وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب ، وهى تطول وتطول ، وتمتد وتمتد ، ثم فى لحظة ، لحظة واحدة ، ينظر الإنسان فلا يجدها جميعا ، لقد اختفى قرص الشمس ، وتوارت معه الظلال ، أين تراها ذهبت ؟ لقد قبضتها اليد الخفية التى مدتها ، لقد انطوت كلها فى الظل الغامر الطامى ، ظل الليل والظلام^(١) .

إنها يد القدرة القوية اللطيفة التى يغفل عنها البشر ، وهى تعمل دائبة لا يدركها الكلال .

٤٧ - وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا .

يمتن الله تعالى على عباده بثلاث نعم :

- ١ - الليل يأتى بظلامه البهيم فيهدأ الناس ، ويغشى الظلام كل شئ كأنه لباس تلبسه الأشياء .
 - ٢ - النوم يقطع الأعمال ، وتستريح الأبدان ، وتنسحب الروح من الجسم ، وتكون الأحلام فى النوم ، والراحة التى تكسب الإنسان قدرة وصفاء وتألقا .
 - ٣ - ثم يأتى النهار فتنبعث الحياة ، وتشرق الشمس ، ويعم الضياء ، ويهبُ الناس بحثًا عن أرزاقهم ، واستئنافا لأعمالهم .
- فالنوم مودة صغرى ، واليقظة بعث ونشور ، قال ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ، لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن على ما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبداً أولنار أبداً» .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ... أى : يلبس الوجود ويغشاه ، كما قال تعالى : وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى . (الليل : ١) .

وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ...

أى : قاطعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة ، فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن ، سكنت الحركات فاستراحت ، فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معًا .

وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا .

أى : ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى : وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧٣) .

والنوم أثر في تجديد الخلايا ، وراحة البدن ، وسياحة الروح في الملأ الأعلى ، وإمكان حدوث الرؤيا الصالحة في النوم ، وفي الحديث الصحيح : «ذهبت النبوات وبقيت المبشرات ، والمبشرات هي الرؤيا ، يراها الرجل الصالح أو ترى له»^(١٤) .

وفي تفسير هذه الآية تكلم الشيخ عبد الحميد كشك كلاما جيدا عن النوم ، فقد كان هناك كلام كثير عن النوم وأسبابه ، ثم رحب العلماء بما وصل إليه العلم ، من اعتبار أن النوم طرح روى مؤقت ، ونقل أن الرحالة أحمد حسنين باشا كان يستكشف واحة في الصحراء ، ثم نفذ الماء وعلف الدواب ، فاستراح الجميع في انتظار الموت ، ثم رأى أحمد حسنين في منامه امرأة تلبس ثيابا بيضاء ، وترشده إلى كتيب ، ثم يتابع المسير فيصل إلى مكان مأهول ، ثم نجا هو والقافلة بالعثور على ذلك المكان^(١٥) .

وقد تحدث القرآن عن النوم واعتبره آية من آيات الله وجميل قدرته .

قال تعالى : **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيم_Sكِ إِلَيَّ فَضِي عَلَيْهَا أَمُوتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** . (الزمر : ٤٢) .

والنوم بالنهار لفترة قصيرة ، تستريح فيها الأجسام والأرواح ، يؤدي إلى تجديد النشاط وتائق الذهن .

قال تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ** . (الروم : ٢٣) .

وقد نصح الأطباء ، بأن يغفو الإنسان غفوة كل يوم ، وهذه الغفوات التي تتخلل النهار تدفع الكلال ، وتخفف ضغط الدم حوالي ١٥ - ٣٠ مليمترا ، وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب ، وينصح (ديل كارنيجي) في كتابه : «دع القلق وابدأ الحياة» ، بأن تغفو نصف ساعة بعد ظهر كل يوم في غرفة مكتبك أو عملك ، ويقول : إن ساعة تنامها في خلال النهار ، مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلاً ، تجعل المجموع سبع ساعات ، أجدي لك من ثماني ساعات من النوم المتواصل ليلاً^(١٦) .

٤٨ - وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا .

الله تعالى يرسل الرياح فتكون بشيرا أمام فضله . بإنزال المطر ، وهذا المطر ينزل من السماء وهو في أعلى درجات الطهارة ، ورغم ما يحمله من شوائب في الجو ، إلا أنه يظل طاهر مطهرا ، ويظل الماء سببا في حياة النبات والإنسان والحيوان ، والعيون والآبار والبحار والأنهار ، بيد أن الزراعات التي تزرع على المطر مباشرة ، أصحابها يتعلقون بالمطر ، ويشاهدون نزوله ، ويستبشرون بالسحب ، لأنها تبشر بالمطر ، وتلقح السحب بعضها بعضا ، فينزل المطر بسببها ، وقد عرف العرب أنواعا من الرياح .

قال ابن كثير :

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا .

وهذا أيضًا من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها . والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير : فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشرا ، ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الأرض ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال الله تعالى : وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا . أى : آلة يتطهر بها ، كالسحور لما يتسحر به . اهـ .

وقد امتن الله على عباده بالماء وبالمطر وبالبحار والأنهار ، قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وقال سبحانه : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيُضْرِقُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ . (النور : ٤٣) .

وقال تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبَا وَقَضًّا * وَزَيَّنَّاهَا لِنُحَلِّقَ * وَحَدَّاثٍ عَلَيَّا * وَلَكِنَّهَا وَالْبَا * مَتْلَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِيكُمْ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) . وقال فى المنتخب :

وهو الذى سخر الرياح فتسوق السحب وتبشر الناس بالمطر ، الذى هو رحمة منه لهم ، ولقد أنزلنا من السماء ماء طاهر مطهرا ، مزيلا للأنجاس والأوساخ .

٤٩ - كُنْحِي بِهِ بِلَذَّةٍ مَيِّتًا وَنُسْفِيهِ، مِمَّا خَلَقْتَ أَعْلَمًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا .

سخر الله المطر لإحياء الأرض المجربة ، وهذه آية من آيات الله ، أن ترى الأرض هامدة لا حياة فيها ولا نبات ، فإذا نزل عليها الماء ، اخضرت وأثمرت وأينعت ، وتسبب ذلك فى إثراء الحياة .

وَنُسْفِيهِ، مِمَّا خَلَقْتَ أَعْلَمًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا .

كما أن المطر فيه حياة للأرض الميتة ، كذلك فإن هذا المطر يكون سببا لشرب الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم ، وسائر الحيوانات ، كما يشرب أناس كثيرون من هذه الأمطار ، وقد قدم الله حياة الأرض ، وسقى الأنعام على شرب الإنسان ، لأن الأرض والأنعام مسخرة للإنسان ، وإذا شربت الأرض والحيوانات ، فلن يعدم الإنسان وسيلة للشرب . بل الإنسان هو المستفيد بعد ذلك .

٥ - وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ يُدْكَرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا .

لقد ورّعنا هذا المطر بين عباد الله فى أرضه ، ليعتبروا ويتعظوا ، ويتذكروا أن تسخير السحاب ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، بقدرة الله ، فيقوموا بالشكر والتذكر لفضل الله ، لكن كثيرا من الناس ينسبون المطر إلى النجوم ، والظواهر الطبيعية ، وينسون أن الله هو الذى طبع الطبيعة ، وسخرها ويسرها لخدمة الإنسان ، ومع هذا فقليل من الناس من يشكر ، وكثير منهم من يكفر .

روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوما ، على إثر سماء أصابتهم من الليل : «أتدرون ماذا قال ربيكم ؟» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته : فذاك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا : فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب » ^(١٧) .

ونهب بعض المفسرين إلى أن الضمير فى الآية يعود إلى القرآن ، فقالوا : معنى هذه الآية : وهذا القرآن قد بينا آياته ، وصرفناها ولوناً فيها فنون القول وأنواعه : ليتذكر الناس ربهم ، وليتعظوا ويعملوا بموجبه ، ولكن أكثر الناس أبوا إلا الكفر والعناد .

٥١ - وَكَوْنُ شَيْئًا لِّعَيْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَدِيرًا .

لو أراد الله لأرسل نبيا إلى كل قرية من قرى الجزيرة العربية وغيرها ، ولكنه - سبحانه وتعالى - أراد أن تكون الرسالة الخاتمة رسالة واحدة ، ونبيا نبيا واحداً ؛ تفضيلا له وتكريما ، وفى صحيح البخارى ، يقول النبى ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، وألحمت لى الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبي إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ^(١٨) .

وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » ^(١٩) .

وهذه الرسالة تحمل فى مقوماتها عوامل صلاحها وخلودها ويقائنها إلى يوم الدين .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ نَبِيْرًا وَنَذِيرًا ... (سبا : ٢٨) .

وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩) .

ومن حفظ الله لرسالاته ، حفظ القرآن ، وحفظ الحديث النبوي الشريف ، وإرسال الهداة والمصلحين ، وحث المسلمين على الاجتهاد والاستنباط ، وتسخير العقول والأفكار لتستنبط ما يوائم مصالح الناس ، وما يبعث فيهم الحيوية والأمال والتقدم .

٥٢ - فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجُنُودَهُمْ بِدِينِهِمْ كَبِيرًا .

فلا تطع الكافرين فيما يريدونه منك من أمور باطلة فاسدة ، وجاهدهم بالقرآن الكريم ، جهاداً كبيراً شاقاً ، لإبطال شبهاتهم وأراجيفهم ، وقد كان القرآن الكريم أقوى من تسخير الجيوش ، فقد ناقش باطلهم ، وعاب عليهم تقليد الآباء والأجداد ، وعبادة الحجارة والأوثان ، وزلزل كبرياءهم ، ودخل عليهم من كل باب ، ولغت أنظارهم إلى الكون وخالقه ، وقصّ عليهم أخبار السابقين ، وتحدث عن القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار والميزان والصراف ، كأنما وضع أمامهم أهوال القيامة ؛ حتى نفذ إلى افئدتهم ، فقاموا سلطانهم وحاولوا مقاوته بالتصفيق والصراخ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت : ٢٦) .

وفى معنى الآية قوله تعالى : يَتْلَاهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . (التوبة : ٧٣) .

٥٣ - وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا .

تعرض الآية مظهرًا من مظاهر القدرة الإلهية ، فإله القدير خلط البحرين ومزجهما ، مع ما بينهما من التنافر والتضاد ، أحدهما حلو سائغ شرابه ، والثاني مالح شديد الملوحة ، وجعل بينهما حاجزًا من قدرة الله ، لا يختلطان ولا يمتزجان ؛ حتى لا يفسد أحدهما خصائص الآخر ، قال تعالى : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ » فَإِنِّي آءَاءٌ رَّبِّكُمَا تَكْذِبَانِ . (الرحمن : ١٩ - ٢١) .

وقال تعالى : أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَابِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ كُنْتُمْ مُعِلِّمِينَ . (النمل : ٦١) .

«ومن الفطرة التي فطرها الله تعالى أن مجارى الأنهار غالباً أعلى من سطح البحر ، ومن ثم فالنهر العذب هو الذى يصب فى البحر المالح ، ولا يقع العكس إلا شذوذاً ، وبهذا التقدير الدقيق ، لا يطغى البحر - وهو أضخم وأغزر - على النهر الذى منه الحياة للناس والأنعام والنبات ، ولا يكون هذا التقدير مصادفة عابرة ، وهو يطرأ هذا الاطراد ، إنما يتم بإرادة الخالق الذى أنشأ هذا الكون لغاية تحقيقها نواമيسه فى دقة

ولحكام ، وقد روعى فى نواميس هذا الكون ألا تطفئ مياه المحيطات الملحة ، لا على الأنهار ولا على اليابسة ، حتى فى حالات المدّ والجزر التى تحدث من جاذبية القمر للماء الذى على سطح الأرض ويرتفع بها الماء ارتفاعاً عظيماً^(٣٠) .

ويقول صاحب كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) : يبعد القمر عنا مسافة مائتين وأربعين ألفاً من الأميال ، ويذكرنا المدّ الذى يحدث مرتين تذكيراً لطيفاً بوجود القمر ، والمدّ الذى يحدث بالمحيط قد يرتفع إلى ستين قدماً فى بعض الأماكن ، بل إن قشرة الأرض تنحني مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات ، بسبب جاذبية القمر ، ويبدو لنا كل شئ منتظماً لدرجة أننا لا ندرك القوة الهائلة التى ترفع مساحة المحيط كلها عدة أقدام ، وتنحني قشرة الأرض التى تبدو لنا صلبة للغاية ...

ولو اقترب القمر منا أكثر مما هو عليه لفرقت القشرة الأرضية ، وتعدّرت الحياة على وجه الأرض .

ولكن اليد التى تدبّر هذا الكون ، مرجت البحرين ، وجعلت بينهما برزخاً وحاجزاً من طبيعتهما ، ومن طبيعة هذا الكون المتناسق ، الذى تجرى مقاديره بيد الصانع المدبر الحكيم ، هذا الجرى المقدر المنسق المرسوم .

ومن ماء السماء ، وماء البحر والنهر ، إلى ماء النطفة التى تنشأ منها الحياة البشرية المباشرة .

٥٤ - وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

وهذا أيضاً لون من ألوان القدرة ، حيث خلق الله من النطفة المهيئة حين يختلط ماء الرجل بماء المرأة ويتم الإخصاب ، حيث يتحول الماء المهيئ إلى نطفة مخصبة تعلق فى جدار الرحم وتتشبّه به ، وتسبح فى دماء من دماء الأم ، وتتحوّل العلقة إلى قطعة لحم قدر ما يمتصّغ تسمى المضغة ، ثم تتحوّل المضغة إلى عظام ، أو هيكل عظمى هو أساس تكوين الإنسان ، ثم يكسّى هذا الهيكل العظمى باللحم ، ثم يتحوّل خلقاً آخر متكامل الخلقة والتفاسيم ، مستكمل أسباب الوجود والحياة ، فيه العينان والأذنان واليدان والرجلان وسائر الأجهزة : كالجهاز العصبى ، والجهاز اللغواوى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز الهضمى ، فضلاً عن مشروع متكامل ، لإنسان مستكمل الجمال والأطراف والخلقة ، كالشعر والأنف والأسنان والغم واللهاة ، والبلعوم والمرئى والبطن والفخذ والساق ، والقدم وسائر الأجزاء ، التى تتمم إنسانية الإنسان ، وتجعل منه مخلوقاً كامل الأعصاب والإرادة والاختيار والعقل والتصرف ، وهو سيد المخلوقات ، قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٢ ، ٣) .

وقال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . (الإسراء : ٧٠) .

وقال عز شأنه : وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ... (النحل: ٧٨) .

وقال تعالى : أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . (البلد: ٨ - ١٠) .

وقال تعالى : يَتَّخِذُ الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدْلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ . (الانفطار: ٦ - ٨) .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا .

أى: خلق الله الإنسان من الماء، قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء: ٣٠). فالماء يروى الزرع، والإنسان يتغذى به، ثم تكون النطفة التى هى أصل الإنسان، أو أن الإنسان مخلوق من ماء المنى، حيث خلقه الله بشراً سوياً، وجعل منه الذكر والأنثى، فالذكر ينسب إليه الإنسان، فيقال: فلان ابن فلان، نسبة إلى أبيه، والأنثى تكون سبباً فى المصاهرة والزواج، وأصهار الزوج هم أقارب زوجته .

قال الشاعر:

بنونا بنو أبائنا وبناننا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقال تعالى : أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نُطْفَئْ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَلْخَلْقِ فَسْوَئًا * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . (القيامة: ٣٦ - ٣٩) .

قال النيسابورى : ومن دلائل القدرة، أحوال خلقه الإنسان، والماء إما ماء العنصر، كقوله: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء: ٣٠). أو النطفة .

ومعنى : فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا . أنه قسم البشر قسمين : ذوى نسب، وذوات صهر، والأول : الذكور الذين ينسب إليهم الإنسان، والثانى : الإناث اللاتى يصاهر بهن، ونحوه قوله تعالى : فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . (القيامة: ٣٩). والأصهار: أهل بيت المرأة، كما قال الخليل بن أحمد^(٣١) .

ملحق بتفسير الآية

١ - قال رسول الله ﷺ : «إن أهدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقه، ثم أربعين يوماً مضغه، ثم ينفع فيه الروح، ويكتب أجله ورزقه، وشقى أو سعيد»^(٣٢) .

٢ - إذا لم يكن النسب ثابتاً شرعاً لم تثبت حرمة المصاهرة ، وعليه قال الجمهور : إذا لم يكن نسب شرعاً ، فلا صهر شرعاً ، فلا يحرم الزنا بنت أم ولا أم بنت ، ولا بنتا من الزنا ، وما يحرم من الحلال ، لا يحرم من الحرام ، لأن الله امتن بالنسب والصهر على عباده ، ورفع قدرهما ، وعلق الأحكام فى الحل والحرمة عليها ، فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما ، وقال الحنفية : تحرم البنت من الزنا ، أو الأخت أو بنت الابن من الزنا ، بسبب التولد من ماء الرجل .

★ ★ ★

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

المضردات :

الظهير والمظاهر ، المعاون ، فهو يعاون الشيطان على ربه ، أى : على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده ، نزهه وصفه بصفات الكمال .

كفى ، يقال : كفى بالعلم جمالا ، أى : حسبك ، فلا تحتاج معه إلى غيره .

خبيرا ، الخبير بالشئ : العليم بظاهره وباطنه ، ويكل ما يتصل به .

البروج ، منازل السيارات الاثني عشر المعروفة ، وهى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

وهى منازل الكواكب السيارة السبعة ، وهى المريخ : وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها

الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها

الأسد ، والمشتري : وله القوس والحوث ، وزحل : وله الجدى والدلو ، قال الشاعر :

زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار

والبروج فى الأصل : القصور العالية ، وأطلقت عليها على سبيل التشبيه ، فهى للكواكب السيارة كالمنازل لسكانها .

الشمس : راجع الشمس .

عاشية : يخلف أحدهما الآخر ، ويقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه .

تمهيد :

تحدثت الآيات السابقة عن عظيم نعم الله تعالى فى خلق الظل والليل والنهار والنوم واليقظة ، وفى خلق الرياح والأمطار والبحار والأنهار ، وإنزال القرآن وإرسال الرسل ، ومن قدرته خلط البحار بالأنهار ، مع حاجز بينهما من قدرته سبحانه ، وخلق الإنسان من النطفة ، ومع هذه القدرة العالية ، والنعم العديدة ، ينصرف الكافرون إلى عبادة الأصنام ، التى لا تنفع من عبدها ولا تضر من لم يعبدوا ، ومن ثم تطلب من الرسول الأمين أن يتوكل على الله ، فهو سبحانه العليم الخبير القدير ، وهو الذى خلق الكون فى ستة أيام ، ورفع السماء وجعل فيها الأفلاك والبروج والشمس والقمر ، وهو سبحانه خالق الليل والنهار .

التفسير :

٥٥ - وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا .

مع هذه الأدلة المتظاهرة على قدرة الله تعالى ، فإن الكفار يعبدون من دون الله الأصنام والأوثان ، والأبقار والأحجار ، التى لا تنفعهم إذا عبدوها ، ولا تضرهم إذا لم يعبدوها .

لقد كفروا نعمة الله عليهم ، واتجهوا بعبادتهم إلى أصنام لا تملك لهم نفعاً ، ولا تملك لهم ضرراً ، ولا تملك لنفسها شيئاً .

قال تعالى : يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ مَا سَمِعُوا لَدُنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . (الحج : ٧٣) .

والكافر بعبادته للأحجار يعاون الشيطان ، ويساعده على معصية الرحمن .

قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه .

وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا .

أى : إن الكافرين يعاونون المشركين ، ويكونون أولياء لهم على معاداة رسول الله والمؤمنين ، قال تعالى : وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ... (الأعراف : ٢٠٢) . وقد يكون المعنى : وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً ، لا قدر له ولا وزن له عنده ، من قول العرب : ظهرت به ، أى : جعلته يظهره ولم تلتفت إليه ، ومنه قوله تعالى : وَاتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَكُمْ ظَهِيرًا ... (هود : ٩٢) . أى : هيناً .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى أبى الحكم بن هشام ، الذى سماه رسول الله ﷺ : أباً جهل بن هشام .

٥٦ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

أى : لقد أرسلناك بشيراً للمؤمنين بالجنة والثواب والتعظيم المقيم ، ونذيراً للكافرين بالعذاب الشديد وسوء المصير .

٥٧ - قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَا شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَٰهِي سَبِيلًا .

أى : لا أسألكم أجراً ولا مالا على تبليغ الرسالة ، وقصارى أن أرشد حائرا ، أو أهدى ضالا ، أو أخذ بيد مسترشد ، يريد أن يعرف طريقه وسبب هدايته ، كأنه يقول : لا أسألكم مالا ولا أجراً ، وإنما أسألكم الإيمان بالله وطاعته ، وأجرى على الله .

٥٨ - وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا .

أى : اعتمد على الله الحى الدائم الحياة ، الباقي الذى لا يدركه فناء ولا موت ، استوثق بحبله واعتمد عليه ، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب ، وهذا التوكل نعم العون للعبد على بلوغ هدفه .

قال تعالى : وَمَا تَلَّا وَلَا تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سَبِيلًا وَلَتَنْصَبِرْنَ عَلَىٰ مَا آذَيْنَكُنَّ وَإِنَّ اللَّهَ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . (إبراهيم : ١٢) .

قال ابن كثير :

كن متوكلاً على الله الحى الذى لا يموت أبداً ، الدائم الباقي السرمدى ، الأبدى الحى القيوم ، رب كل شئ ومليك ، اجعله ذخرك وملجأك ، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ، كما قال تعالى : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (المائدة : ٦٧) .

وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ...

أى : اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» (٣١)
أى : أخلص له العبادة والتوكل . اهـ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . (النصر : ١ - ٣) .

وقوله سبحانه : فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ... (هود : ١٢٢) .

وقوله تعالى : قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَّتَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... (الملك : ٢٩) .

ومعنى وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ : ذرّه الله تعالى ، عما يصفه به هؤلاء الكفار ، من الشركاء والأولاد ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ عَبَادِهِ خَيْرًا .

أى : حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد ، وهو عليهم رقيب وشهيد ، وسوف يجازيهم على أعمالهم ، فهو خبير بأحوالهم ، لا يحتاج إلى غيره ، وهو قادر على مجازاة المذنبين ، وفى هذا وعيد شديد وتهديد لكل مذنب بأن الله يراه ، ويعلم أعماله ، وسيجزيه عليها .

٥٩ - الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا .

هذه الآية كالتعليل لما قبلها ، فقد أمر الله تعالى بالتوكل عليه سبحانه وتسبيحه وتحميد ، وذكر إحاطة علمه بكل شىء ، ثم ذكر فى هذه الآية جانباً من قدرته التى لا حدود لها ، فقال : الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

فهو سبحانه الذى أبدع الكون على غير مثال سابق ، وإذا أراد أمراً قال له كن فيكون ، لكنه أراد أن يعلمنا الصبر ، ومراعاة سنن الفطرة وسنن الكون ، فخلق الكون فى ستة أيام ، وهذه الأيام ليست كأيام الدنيا ، حيث لم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر أو ليل أو نهار ، بل المراد : فى ست مراحل ، واليوم أحياناً يطلق على مدة طويلة مثل : يوم ذى قار ، ويوم بعث ، ويوم وقعة عمورية ، ويوم البسوس .

وفى القرآن الكريم : وَإِنْ يُؤْمَا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

وقال عز شأنه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

لقد كان الكون كرة ملتهبة ، كما تشير نظرية السديم ، ثم قذفت الكرة ، وانفصلت السماء وارتفعت ، وانفصلت الأرض وصارت كالسباط المفروش ، وكان بينهما الهواء والفضاء ، وتم ذلك فى مراحل طويلة متباعدة ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن السماء والأرض كانتا ملتصقتين ، ففتقهما الله ، حيث رفع السماء وبسط الأرض ، وسخر السحاب والهواء ، وبعد بلايين السنين ، أمكن أن تكون الأرض صالحة للحياة عليها ، حيث أمطرت السماء ، وأنبتت الأرض ، وجرى بينهما الهواء والفضاء . واستعد الكون لوجود خليفة فى الأرض ، لاستعمارها وزراعتها واستثمار خيراتها .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرِ الْبَيْنَ كَفَرُوا أَنَّا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

قال المفسرون : الرق ضد الفتق ، أى : كانت السماء صماء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وأجرى بينهما الفضاء والهواء ، والخلق والوجود . ويفيد العلم الحديث أن عمر الكون يقرب من ستة بلايين سنة ، قبل أن يخلق فيه الإنسان ، وأن عمر الكون ١٣ بليون سنة إلى الآن .

فلعل المراد بخلق الكون فى ستة أيام ، أن الله خلق الكون فى مدد ومراحل متتابعة تقارب ستة بلايين سنة ، حيث كان الكون ملتهباً ، ثم هدأت السماوات والأرض ، فى فترات ومراحل ، هى ست مراحل أو ستة أيام ، وقد تكرر ذلك فى آيات القرآن الكريم ، ومَرَّ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فى شرح الآية « ٣٠ » من سورة الأنبياء وما بعدها .

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...

أى : استولى على ملك الكون مع الاستعلاء والسيطرة ، استواء يليق بعظمته كما يقول السلف ، أو استولى وملك وسيطر كما يقول الخلف .

وهو سبحانه يدبر الأمر ، ويقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، ولفظ : ثَمَّ . لا يدل على الترتيب الزمنى ، إنما يدل على بعد الرتبة .. رتبة الاستواء والاستعلاء .

أَلَمْ نَخْلُقْ فَسَلْ بِهٖ خَيْرًا .

أى : مع الخلق والقدرة سعة الرحمة والعطف ، والخبرة المطلقة ، التى لا يخفى عليها شىء ، فإذا سألت الله فإنما تسأل خبيراً لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

وقيل : المعنى : اسأل عن الله وصفاته وكماله خيرًا ، من رسول أو عالم ، ثم اتبعه واقتد به ، فلا أحد أعلم بالله من الله ، ولا أحد أعلم بالله وكماله من رسوله محمد ﷺ .

وقيل : المعنى : فاسأل عنه علماء أهل الكتاب ، فليدبرهم الخبرة عن صفاته وكمالاته .

٦٠ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا .

إذا طلب من هؤلاء المشركين طاعة الله وحده ، والسجود له دون سواه ، والخضوع لفضله ورحمته ، فهو سبحانه الله الرحمان الرحيم : أنكروا ذلك وتطاولوا ، وقالوا : ما نعرف الرحمان إلا رحمان اليمامة ، يعنون : مسيلمة الكذاب .

أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا .

أنطيكع ونسجد لما تأمرنا بالسجود له دون سواه ، وزادهم ذلك نفورًا من طاعة الرحمان ، والامتنال لأمره ، والاهتداء بهداه ، بدل أن تزيدهم هذه الدعوة هداية وإيمانًا ، وهكذا ازدادوا بالتكذيب رجسًا وكفرًا ، أما المؤمنون فقد ازدادوا بآيات القرآن هداية وإيمانًا ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَلَيْكُمُ زَادَتْهُ هَلْهُنَا إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَلْفُرُونَ . (التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥) .

وقد اتفق العلماء على أن هذه السجدة التي في الفرقان ، يشرع السجود عندها لقارتها ومستمعها ، وهذا شأن المؤمنين ، روى الضحاک : أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون : تبعادوا في ناحية المسجد مستهزئين ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : وَزَادَهُمْ نُفُورًا . أى : فزادهم سجد المؤمنین نفورًا .

وجاء في تفسير القرطبي : أن سفيان الثوري كان يقول في هذه الآية : إلهي زادني لك خضوعًا ، ما زاد أعداءك نفورًا .

والاستفهام في هذه الآية استفهام إنكار وتطاول وتجاهل ، وهو قريب مما ورد في سورة الشعراء : قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . (الشعراء : ٢٣ ، ٢٤) .

٦١ - تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا .

يمجد الله تعالى نفسه ويذكر أنه أهل للحمد والشكر ، فقد كثرت بركاته وخيراته وآلؤه ، ومن ذلك أنه

جعل فى السماء نجومًا كبارًا عدها المتقدمون نحو ألف ، ورصدها الآلات الحديثة أكثر من مائتى ألف ألف ، كما جعل سبحانه فى السماء سراجًا هى الشمس التى تضىء الكون ، وجعل القمر نورًا يذير الأرض إذا طلع .

والبروج جمع برج ، وهو فى اللغة : القصور العالية الشامخة ، ويدل لذلك قوله تعالى : **أَتَيْمًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ...** (النساء : ٧٨) . والمراد بها هنا : المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة وعددها اثنا عشر منزلًا ، هى : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . وسميت بالبروج لأنها بالنسبة لهذه الكواكب كالمنازل لساكنيها .

جاء فى ظلال القرآن :

والبروج - على الأرجح - منازل الكواكب السيارة ، ومداراتها الفلكية الهائلة ، والضخامة هنا تقابل فى الحس ذلك الاستخفاف فى قول المشركين : **وَمَا لِّلرَّحْمَنِ** ؟

فهذا شىء من خلقه ضخم هائل ، عظيم فى الحس وفى الحقيقة ، وفى هذه البروج تنزل الشمس ، ويسمىها «سراجًا» ، لما تبعث به من ضوء إلى أرضنا وغيرها ، وفيها القمر المنير الذى يبعث بنوره الهادئ اللطيف .

٦٢ - **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .**

من دلائل قدرة الله تعالى أنه كَوَّن الكون ، وسخر الشمس والقمر بحساب ونظام محكم ، يؤدى إلى تتابع الليل والنهار ، ومجيء أحدهما بعد الآخر ، خلفًا له وتابعًا ، حتى يتأمل الإنسان فى هذه القدرة العالية ، التى جعلت الليل لباسًا ، والنوم سباتًا ، والنهار نشورًا ، ومن فضل الله وسعة رحمته أن من فاتته عمل بالليل ، ثم أراد أن يتداركه بالنهار قبل منه ، ومن فاتته خير بالنهار ثم أراد أن يتداركه بالليل قبل منه .

روى مسلم فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»^(٣١) .

وغن الحسن : من فاتته عمل من التذكر والشكر بالنهار ، كان له فى الليل مُسْتَعْتَبٌ ، ومن فاتته بالليل كان له فى النهار مُسْتَعْتَبٌ .

وروى أن عمر - رضى الله عنه - أطل صلاة الضحى ، فقليل له : صنعت اليوم شيئًا لم تكن تصنعه ، فقال : إنه بقى على من وردى شىء ، فأحببت أن أقضيه ، وتلا هذه الآية : **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا .**

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۝٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُّ فِيهِ مُهَنَّا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝٧٢ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝٧٣ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِبِينَ ۝٧٤ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا سَحَابَةً مَسْلُومًا ۝٧٥ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦ قُلْ مَا يَعْبُؤُنِي بِكُفْرِ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾

المضردات :

الـهـون : الرفق واللين ، والمراد : أنهم يمشون في سكونة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرًا ويطرًا .

الـجـاهـلون : السفهاء .

سـلامـا : سلام توديع ومتاركة ، لا سلام تحية ، كقول إبراهيم لأبيه : سَلِّمْ عَلَيْكَ ... (مريم : ٤٧).

يـبـيـتـون : يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا ، كما يقال : بات فلان قلقا .

غراما، هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزىلا فإنه لا يبالي

الإسراف، مجاوزة الحد في النفقة بالنظر لنظرانه في المال .

الاستقسير، التضييق والشح .

قسواما، وسطا وعدلا .

لا يدعون، لا يشركون .

الأثام، الإثم ، والمراد : جزاؤه .

مهائنا، ذليلا مستحقرا .

لا يشهدون الزور، لا يقيمون الشهادة الكاذبة ، والمراد : أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .

الافسو، ما ينبغي أن يلغى وي طرح مما لا خير فيه .

كراما، مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه .

الخورور، السقوط على غير نظام وترتيب .

قرة العين، الفرح والسرور .

الإمام، يستعمل للمفرد والجمع ، والمراد : الثاني ، أى : أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .

الفرشة، كل بناء عال مرتفع ، ويراد بها : الدرجات الرفيعة .

ما يعبا بكم، لا يعتد بكم .

دعاؤكم، عبادتكم .

لزاما، لازما يحق بكم حتى يكبكم فى النار .

تمهيد :

مكارم الأخلاق هدف رئيسى من أهداف الرسالة المحمدية ، حتى قال رسول الله ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١٩) .

وهذه الأخلاق الكريمة عنى بها القرآن الكريم ، وتحدث عنها خصوصا فى أماكن ثلاثة : أولا فى الربع الثانى من سورة الإسراء ، حيث ذكر ستة وعشرين أدبا من آداب الإسلام ، هى جماع ما ورد فى التوراة، وتبدأ بقوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (الإسراء : ٢٣) .

وهنا فى آخر سورة الفرقان ، ذكر عباد الرحمن فوصفهم بتسع صفات ، وذكر أنهم يجزون الدرجات العلى فى الجنة ، جزاء صبرهم وتمسكهم بأخلاق الإسلام ، وفى سورة لقمان نجد وصايا لقمان لابنه ، تكمل صورة طيبة للتربية الإسلامية ، وعنايتها بالنشء حتى يكونوا صورة للمسلم الصغير ، ولغتيان الإسلام وفتياته .

إن عناية الإسلام بالمخبر والقلب ، والضمير والفؤاد ، جعلته يتفوق فى صياغة الإنسان الفاضل ، وفى هذه الصفحة الأخيرة من سورة الفرقان ، نجد النموذج الفاضل فى صفات عباد الرحمن .

التفسير :

٦٣ - وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

تتصدر هذه الآية صفات عباد الرحمن ، وقد ذكر فخر الدين الرازى أنها تسع صفات فى هذه الآيات.

وقال القرطبي :

وصف تعالى عباد الرحمن بإحدى عشرة صفة حميدة ، من التحلى والتخلى ، وهى : التواضع والحلم ، والتهدد والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والنزاهة عن الشرك ، والبعد عن القتل والزنا ، والتوبة وتجنب الكذب ، والعفو عن المسيء ، وقبول المواعظ ، والابتهاج إلى الله ، ثم بيّن جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة التى هى الدرجة الرفيعة ، وهى أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

ومعنى الآية الكريمة :

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ...

أى : هم يسبرون فوق الأرض سيرًا هينًا فى رفق وتؤدة ، وفى غير تجبر أو تكبر ، كما قال تعالى :
وَأَقْصِبْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْظُضْ مِنْ صَوْلِكَ ... (لقمان : ١٩) .

وقال تعالى : وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . (الإسراء : ٣٧) .

إن الإيمان إذا استقر فى القلب ، نتج عنه سلوك حسن ، وهيكلة صالحة تذكر الناس بالله تعالى فى قاهرهم وسكبتهم ، وليس المراد هنا أن يمشى المؤمن ذليلا متمسكنا ضعيفا متمارضا ، فالقرآن حث على العزة والكرامة ، قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... (الإسراء : ٧٠) .

وقال تعالى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (المنافقون : ٨) .

وروى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً ، فقال : مالك ، آنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرة ، وأمره أن يمشى بقوة .

إن مشية المسلم فيها السكينة والوقار ، وهى بعيدة عن الذلة والمسكنة ، وبعيدة أيضاً عن التكبر والتبختر .

وفى الصحيح ، عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا» .^(٣٦)

فالسير إلى الصلاة ينبغى أن يكون سيراً عادياً ، يلتزم صاحبه الوقار والهدوء ، ولا يركض ولا يسرع إسراعاً قريباً من الجرى .

ولا يجوز أن يتناول الإنسان متبخترًا متكبرًا . فقد روى أن عمر - رضى الله عنه - رأى غلاماً يتبختر فى مشيته فقال : إن البخثرة مشية تُكره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواماً فقال : وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ... فاقصد فى مشيتك ، وعموماً المراد هنا : السير الوسط المعتدل ، مع تجنب التبختر والتكبر ، وتجنب المسكنة والضعف .

وقد كان ﷺ إذا مشى أسرع فى مشيته ، كأنما يتحدر من مكان مرتفع ، وكأنما الأرض تطوى له ، وكان عمر إذا مشى أسرع فى مشيته ، فتلك سمة المؤمن ، فالمؤمن القوى خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف .

وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .

إذا سغه عليهم الجاهل بالقول السيئ ، لم يقابلوه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، وقد كان رسول الله ﷺ لا يزيد شدة الجاهل عليه إلا حِلماً .

كما قال تعالى : وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ... (القصص : ٥٥) .

ومعنى : قَالُوا سَلَامًا . قالوا : سداً أو ردوا معروفاً ، وهو سلام للمたركة والمفارقة ، كما قال إبراهيم لأبيه : سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . (مريم : ٤٧) .

٦٤ - وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا .

أى : هم فى نهارهم مستقيمون لا يردون على السفهاء ، وفى ليلهم خاشعون مشغولون بقيام الليل ، والسجود لله والامتنال لأمره ، وقد حث القرآن على صلاة الليل ، والتهدج بالأسحار ، قال تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ * وَإِلَّا سِحْرًا مُّسْتَقْفِرُونَ . (الذاريات : ١٧ ، ١٨) .

وقال عز شأنه : تَجَنَّبَايَ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمُضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ... (السجدة : ١٦) .

وقال تعالى : أَمَّنْ هُوَ قَنِيتَ إِتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ... (الزمر : ٩) .

وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء : فقد بات لله ساجداً وقائماً .

٦٥ - وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا .

تصف الآية وجل المتقين ، فهم يتمثلون جهنم أمامهم ، تتلمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، فيسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، أى : لزماً مستمراً بلا موت ، «وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم .

قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السماوات والأرض»^(٣٦) .

٦٦ - إِنَّهَا سَاعَتٌ مُّسْتَقَرَّةٌ وَمُقَامًا .

أى : إن جهنم بنست مستقرة لمن استقر بها ، وبنتست مقاما لمن أقام بها .

قال صاحب الظلال :

وهل أسوأ من جهنم مكاناً يستقر فيه الإنسان ويقيم ، وأين الاستقرار ، وهى النار ؟ وأين المقام ، وهو التقلب على اللظى ليل نهار ؟

٦٧ - وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

من صفات عباد الرحمان ، الاعتدال فى النفقة والتوسط فيها ، فالإسلام قد جاء ينظمه فى العبادات والمعاملات ، ومن هذه النظم : إخلاص الوجه لله ، والتوسط فى العبادة وفى النفقة ، لقد حظى الإسلام بنظام اقتصادى متوازن ، فيه محاسن الرأسمالية والاشتراكية ، وليس فيه المساوئ التى فيها ، فالمال مال الله ، والعبد مستخلف عن الله فى إدارته ، والإنسان موظف فى ماله ، عليه إخراج الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعى وصلة الرحم ، ومساعدة المحتاجين ، قال تعالى : وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (المعارج : ٢٤ ، ٢٥) .

كما حرم الإسلام الشح والبخل ، قال تعالى : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (الحشر : ٩) .

وتوعد الكاذبين ومانعى الزكاة بالسعير والعذاب . قال تعالى : **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقُونَهَا . فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبْشَرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .** (التوبة : ٣٤) .

والخلاصة :

أن الفضيلة وسط بين رذيلتين ، وأن من صفة عباد الرحمان التوسط فى النفقة ، والبعد عن البخل وعن الإسراف ، فالإسراف والبخل كلاهما مفسدة للحياة والمال ، والجماعات والأمم .

قال تعالى : **وَلَا تَبْذُرْ تَبْلِيغًا ، إِنَّ الْمَبْتَلِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا .** (الإسراء : ٢٦ ، ٢٧) .

والبخل فيه إمساك للمال عن الإنفاق فى الوجوه المشروعة .

قال تعالى : **وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يُمِخَلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ...** (محمد : ٣٨) .

أما التوسط والاعتدال فى النفقة فهو سمة العقلاء ، الذين فقهوا رسالة المال ، وجعلوه وسيلة لإصلاح أنفسهم وأقاربهم ومجتمعهم ، وأسعدوا بتصرفهم الأفراد والجماعات .

قال تعالى : **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا .** (الإسراء : ٢٩) .

جاء فى تفسير النيسابورى :

وصف القرآن عباد الرحمان بالتوسط فى الإنفاق ، والقتل والإقتار ، والتضييق نقيض الإسراف ، وكان أصحاب محمد ﷺ لا يأكلون طعاما للتعلم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال والزينة ، ولكن ما يسد جوعتهم ، ويستر عورتهم ويكفهم من الحر والقر .

عن عمر : كفى شرها ألا يشتهى رجل شيئا إلا اشتراه فأكله . اهـ .

وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا .

قَوَامًا . أى : وسطا بين الإسراف والبخل ، وقوام الرجل : قامته ، وحسن طولهِ وهيبته .

وجاء فى تفسير ابن كثير طائفة من الأحاديث تمدح التوسط فى النفقة والاعتدال والقصد ، مثل :

قال الحافظ أبو بكر البزار : عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة» . ثم قال : لا نعرفه يروى إلا من حديث حذيفة رضى الله عنه .

وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف ، وقال غيره : السرف : النفقة في معصية الله عز وجل .

٦٨ - وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا .

من صفة عباد الرحمان أنهم أخلصوا عقيدتهم لله تعالى ، فعبدوه حق العباد ، ولم يشركوا معه إلها آخر في عبادتهم ، أى : لم يعبدوا صنماً ولا وثناً ولا ماله ولا ملكاً ، ولا مظهره ولا هوى ، بل أخلصوا العبادة لله وحده ، وهم لا يقتلون إلا بالحق ، أى : قصاصاً أو معاقبة ، وفى الحديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : زناً بعد إحصان ، والنفس بالنفس ، ومن بدل دينه فاقتلوه »^(٦٨) .

إن الإسلام شجع على الأمن والأمان ، وحارب العدوان وقتل الآخرين بدون وجه حق ، فالإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيان الله .

وَلَا يَزْنُونَ .

فقد شجع الإسلام الزواج وأمر بالعفة والاستقامة ، وحرم الله الزنا ، وحرم النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة وحارب الشعار بين الذكور والإناث ، ونمى العفة والاستقامة والبعد عن الزنا واللواط والسحاق .

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا :

من يقترب الشرك أو القتل أو الزنا ، يجد عقوبة عادلة في جهنم .

قال عبد الله بن عمر : أَثَامًا . واد فى جهنم .

وقال عكرمة : يَلْقَى أَثَامًا . نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جهنم ، وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول لابنه : يا بني ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة .

٦٩ - يُصْطَفَى لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا .

يكرر عليه العذاب فى جهنم غدواً وعشيا ، مع المهانة والمذلة والهوان النفسى ، والخلود الأبدى .

قال تعالى : الثَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ . (غافر : ٤٦) .

٧٠- إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

أى . من يرتكب هذه الموبقات من الشرك والقتل والزنا ، فإنه يدخل جهنم ، ويضاعف له العذاب والمهانة والمذلة ، لكن من تاب إلى الله توبة نصوحاً ، وآمن بالله ورسوله ، وعمل الأعمال الصالحة ، فإن الله تعالى يقبل توبتهم ، ويبدل سجلات سيئاتهم حسنات بعد توبتهم ، لأن الله واسع المغفرة ، رحيم بعباده ، يصفح عنهم ويغفر ذنوبهم .

وقيل : إن المراد بتبديل السيئات إلى حسنات : أن العبد بعد التوبة تتبدل أعماله من القبيح إلى الحسن ، فتسجل له الحسنات بدلاً من السيئات .

قال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصاً ، وأبدلهم بالفجور إحصاناً ، وبالكفر إسلاماً .

وباب التوبة دائماً مفتوح يدخل منه كل من استيقظ ضميره ، وأراد العودة والمآب ، لا يصد عنه قاصد ، ولا يغلق فى وجه لاجئ أيأ كان ، وأياً ما ارتكب من الآثام .

وقد ورد فى القرآن الكريم حث على التوبة النصوح ، وبيان فضل الله فى قبول التوبة ، وتكفير السيئات ، فالله تعالى من أسمائه الحسنى : غافر وغفار وغفور ، وغافر : اسم فاعل ، يدل على المغفرة ، وغفار وغفور : صيغة مبالغة ، تدل على كثرة المغفرة .

قال تعالى : غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُوفِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ . (غافر : ٣) .

وقال عز شأنه : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . (طه : ٨٢) .

وقال تعالى : نَبَرَلَهُ الَّذِي يَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَنِ كُم أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . (الملك : ١٠ ، ٢) .

التوبة فى الإسلام بابها مفتوح ، وهى وسيلة عملية للاستقامة ، حين تصدق النفس ، وتتغير الأعمال ، ويتحول الإنسان من الهوى والمعصية إلى الإيمان الصادق والاستقامة والطاعة ، فتفتح له أبواب السماء ، ويفرح به الحق تعالى ، إن الله يحب التوابين ، والتائب حبيب الرحمان ، حيث تاب إلى الله ، وهو أعظم مأمول ، فأنعم به من تائب ، وأنعم بالله من رب كريم .

٧١ - وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا .

أى : من رجع عن عمل الذنوب ، واستقام على عمل الأعمال الصالحة ، فقد حظى بالقبول والتوبة ، والرجوع إلى الله رجوعاً صحيحاً مقبولاً ، ويا له من عمل عظيم ، حتى رأينا الخبر هو نفس المبتدأ ، تفخيماً للموضوع وتعظيماً ، أى : من تاب وعمل صالحاً ، فقد تاب إلى إله كريم ، توبة نصوحاً خرية بالقبول ، وفى هذا التفخيم ورد الحديث الشريف : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٣١) .

روى مسلم فى صحيحه : كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . ١ / ١٧٧ .

عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار ، وآخر أهل الجنة دخولاً إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول : نَحْوًا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا ، وكذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، وكذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئاً ، فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها هنا» قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه^(٣٢) .

٧٢ - وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا .

من صفات عباد الرحمان أنهم لا يشهدون شهادة الزور والكذب ، ففيها تضليل العدالة ، وتضييع الحقوق .

وفى الصحيحين عن أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً ، قلنا : بلى يا رسول الله . قال : «الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : «ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور» . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت^(٣٣) .

وقيل : معنى : لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ... لا يحضرون مجالس الخمر ، أو اللغو والغناء ، أو مجالس السوء والخبثا .

ورأى أنه يمكن الجمع بين الرأيين ، بأن من صفات عباد الرحمان : عدم شهادة الزور ، وعدم الجلوس فى أماكن الريبة ، أو شرب الخمر ، أو ارتكاب المعصية .

وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا .

إذا مرؤا عرضاً على مجالس اللغو واللهو ، أعرضوا عنها حفاظاً على أنفسهم وأسماعهم وأبصارهم ، وانصرفوا كراماً على أنفسهم وعلى ربهم .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ . (القصص : ٥٥) .

إن المؤمن له من أمر دينه وربه ، ما يشغله ويصرفه عن حضور مجالس اللغو واللهو ، التي تذيب فيها الفضيلة ، ويضيع الحياء ، والمؤمن يصون لسانه وسمعه وفؤاده من التلوث بالباطل واللغو ، قال تعالى :
إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . (الإسراء : ٣٦) .

٧٣ - وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا .

إذا ذكرهم مذكر بكتاب الله وآياته ، استجابوا وفتحت قلوبهم لسماع الحق ، وعيونهم للنظر والتأمل والهدى .

وفى الآية تعريض بالمشركين والضالين ، لأنهم أصرروا على الباطل ، وقاوموا الحق والقرآن ، فإذا سمعوا الحق أعرضوا عنه ، وإذا ذكرهم مذكر بآيات الله صموا آذانهم ، وأغلقوا عيونهم ، وأوقفوا تفكيرهم ، وقاوموا كل سبيل للهداية والاستجابة للحق ، وقريب من ذلك قول نوح عليه السلام : وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَاحَهُمْ فِي عَادَتِهِمْ وَاسْتَعْصَفُوا لِيُأْتِيَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . (نوح : ٧) .

قال ابن عباس : إذا وعظوا بالقرآن لم يكونوا صمًّا وعميانًا ، بل كانوا خائفين خاشعين . اهـ .

أى : أهل للتذكر والتدبر والتفهم ، فإله أنار بصيرتهم وشرح صدورهم للحق والإسلام ، وهم بعيدون عن التعالى والإعراض ، بل هم يفتحون عقولهم وقلوبهم وسمعهم ويصرهم لآيات الله .

٧٤ - وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْزَاقِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

أى : هم مع إيمانهم وصلاتهم وحسن أخلاقهم ، يرغبون فى نقل الهداية إلى الآخرين ، وإلى أقرب الناس إليهم من الأزواج والذرية ، فهم يدعون الله ، أن يكون أبناؤهم وبناتهم وأحفادهم ، على طاعة لله ومرضاته ، حتى يفرحوا بهم ، وتقّر عيونهم باستقامتهم ، وحسن عبادتهم .

قال عبدالرحمن بن أسلم : يعنى : يسألون الله تعالى ، لأزواجهم وذرياتهم ، أن يهديهم للإسلام ، فقد كانوا يشاهدون المنافقين والكافرين والمشركين ، يقرؤون من الإسلام والإيمان ، حيث كانوا فى جاهلية جهلاء ، لا يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان ، ثم أرسل الله رسوله وأنزل عليه وحيه وهدايته ، فأخلص المسلمون فى دعائهم لربهم أن يتم سعادتهم ، بإسلام أقاربهم واستقامتهم .

وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .

أى : جعلنا قدوة يقتدى بهم فى الخير ، وجعلنا قدوة حسنة لأزواجنا وأبنائنا وأحفادنا ، وذلك أسعد للنفس ، وأدوم للأجر ، حيث يكون هدايم متعديا إلى غيرهم بالنفع .

جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» (٣٣) .

عن محمد بن كعب : ليس شئ أقر لعين المؤمن ، من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله .

وعن ابن عباس : هو الولد إذا رآه يكتب الفقه . وقيل : سألوا أن يلحق الله عز وجل بهم أولادهم ، وأزواجهم فى الجنة ، ليتم لهم سرورهم (٣٤) .

٧٥ - أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا .

هؤلاء المتصفون بهذه الصفات ، يستحقون جزاءهم فى الجنة ، أو فى الغرفات فى أعلى الجنة ، جزاء صبرهم على الطاعات ، وعن الشهوات ، أو على أذى الكفار ، وشدة الفقر وغير ذلك ، وهؤلاء يلقون فى الجنة التحية والتكريم والسلام والأمان ، قال تعالى : لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّيِّتَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَغَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ . (الزمر : ٢٠) .

وقال سبحانه : وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ . (سبا : ٢٧) .

وقال سبحانه : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

٧٦ - خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

هم خالدون فى الجنة خلوداً أبدياً سرمدياً ، لا يزولون ولا يتحولون عنها ، فما أحسن الجنة ، وما أطيّب هواءها ، وأعذب ماءها ، وأنعم أهلها ، وأجمل القرار بها ، وأطيب المقام فيها .

ونلاحظ هنا المقارنة بين النار والجنة ، ففى الحديث عن النار ، يقول المتقون : رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

وفى الحديث عن الجنة ، يقول القرآن :

خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا .

فالنار أسوأ مقام وقرار ، والجنة أحسن مقام وقرار .

٧٧ - قُلْ مَا يَعْبُدُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَانًا .

تشير الآية إلى هوان البشرية كلها على الله ، لولا طاعتها وعبادتها ، فهناك أكوان وعوالم من السماء والأرض ، والبحار والأفلاك ، والأبراج والشموس والأقمار ، وصدق الله العظيم : لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ... (غافر : ٥٧) . فالبشرية كلها صفحة فى كتاب الكون البديع ، والله غنى عنها وعن عبادتها ، فإذا عرف المؤمنون ربهم وعبده ، فقد أدركوا طريقهم ، وأرضوا ربهم ، وساروا فى المسار الصحيح للمخلوقات : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) . وإذا كذب الكافرون وأعرضوا ، فما أمونهم وما أجدرهم باستحقاق العذاب .

وفى مثل هذه المعانى يقول القرآن الكريم : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

ويقول سبحانه : وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ . (محمد : ٣٨) .

★ ★ ★

خاتمة السورة

سورة الفرقان فى جانب منها إيناس للرسول ﷺ ، وفى جانب آخر مناقشة للمشركين ، واستعراض حججه ومناقشتها ، وفى ختام السورة : بيان لعظمة الخالق ، وإبداع الخلق ، وأن الإنسان حين يتكبر ويتجبر ، أو يكفر ويكذب ، أو يتناول على خالقه : فقد لبس حلة أكبر من قدره ، وتعاضم فوق قدرته ، فناسب ذلك أن يكون ختام السورة حاملاً لهذه المعانى : لا يبالى بكم ربى ولا يكثر بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق لعبادته وتوحيده ، فَقَدْ كَذَّبْتُمْ . أيها الكافرون بكتابى ورسولى ، فسوف يكون تكذيبكم مقتضياً لعذابكم فى الدنيا والآخرة ، مستلزمًا هزيمتكم يوم بدر ، وعذابكم فى جهنم يوم القيامة .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الفرقان ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الشعراء

أهداف سورة الشعراء

سورة الشعراء مكية ، وآياتها ٢٢٧ ، نزلت بعد سورة الواقعة ، وسميت بهذا الاسم لذكر الشعراء فيها ،
فى قوله تعالى : **وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ** . (الشعراء : ٢٢٤) .

موضوع السورة

موضوع سورة الشعراء هو موضوع السور المكية جميعا ، وهو تثبيت العقيدة وتلخيص
عناصرها الأساسية ، ويمثل ذلك فى دعوة السورة إلى توحيد الله : **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ الْمُضِلِّينَ** . (الشعراء : ٢١٣) .

وبيان قدرة الله الفائقة ، ونعمه السابغة على لسان إبراهيم الخليل حين يقول : **الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ** * **وَالَّذِى يُبَيِّتُنِى نَوْمِى فَأُوذِى إِذَا سَخِرَ لِّى** * **وَالَّذِى يُبَيِّتُنِى نَوْمِى فَأُوذِى إِذَا سَخِرَ لِّى**
خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ . (الشعراء : ٧٨ - ٨٢) .

ثم تستطرد السورة إلى وعيد المكذبين بعذاب الدنيا أو بعذاب الآخرة . حيث تقول : **فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ
أَنْجَبُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** . (الشعراء : ٦) .

وتقول :

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . (الشعراء : ٢٢٧) .

ذلك إلى تسلية الرسول ﷺ وتعزيته عن تكذيب المشركين له والقرآن : **لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ** . (الشعراء : ٣) .

وإلى طمأننة قلوب المؤمنين وتصبيرهم على ما يلقون من عنت المشركين ، وتثبيتهم على العقيدة
مهما أوذوا فى سبيلها من الظالمين ، كما ثبت من قبلهم من المؤمنين .

القصص فى سورة الشعراء

القصص غالب على سورة الشعراء ، يشغل معظم السورة ، فمجموع آياتها ٢٢٧ آية ، منها ١٨٠ آية
تحتوى على قصص هادف يمس شغاف القلوب ، ويبين رعاية الله للأنبياء والمرسلين ، ومن هذا القصص :

قصة موسى :

ذكرت قصة موسى وفرعون في الآيات : (١٠ - ٦٨) .

وفيها سبعة مشاهد : أولها : مشهد النداء والبعثة والوحي والمناجاة بين موسى وربه . وثانيها : مشهد مواجهة موسى لفرعون وملئه : وتأيد موسى بآيتي العصا واليد البيضاء . وثالثها : مشهد التآمر وجمع السحرة وحشد الناس للمباراة الكبرى : ورابعها : مشهد إيمان السحرة وتهديد فرعون ، ووعيده . وخامسها : مشهد إحياء الله لموسى أن يسرى بعباده ليلا . وسادسها : مشهد إرسال فرعون في المدائن حاشرين يجمعون الجنود لملاحقة بني إسرائيل . وسابعها : مشهد المواجهة أمام البحر ، ونهاية القصة بانفلاق البحر ، وغرق الظالمين ، ونجاة المؤمنين .

قصة إبراهيم :

تستغرق قصة إبراهيم الآيات : (٦٩ - ١٠٤) ، والحلقة التي تعرض هنا من قصة إبراهيم - عليه السلام - هي حلقة الرسالة إلى قومه ، وحواره معهم حول العقيدة ، وإنكار الآلهة المدعاة ، والاتجاه بالعبادة إلى الله ، وبيان صفات الله وفضله وعظيم نعمائه ، فهو الذي يخلق ويطعم ويسقى ، ويشفي ويحيى ويميت ، ويغفر الذنب ، ويحاسب الناس ، ويكافئ المؤمنين ، ويعاقب الغاوين .

وفي أعقاب قصة إبراهيم مشهد كامل من مشاهد القيامة ، يتنكر فيه العباد للآلهة ، ويندمون على الشرك الذي انتهى بهم إلى ما هم فيه ، كأنهم قد صاروا فعلا في موقف الحساب والجزاء ، وهنا عبرة القصة للمشركين .

ومن ثم يتوسع في الحديث عن مقومات عقيدة التوحيد ، وفساد عقيدة الشرك ، ومصير المشركين في يوم الدين ، لأن التركيز متجه إليه ، وتختصر السورة ما عدا ذلك مما يفصل في سور أخرى .

قصة نوح :

تستغرق قصة نوح - عليه السلام - الآيات : (١٠٥ - ١٢٢) ونلاحظ أن القصص في سورة الشعراء لا يتبع التسلسل التاريخي فقد عرضت قصة موسى ، ثم قصة إبراهيم ، ثم قصة نوح . ولو أراد أن يتبع التسلسل التاريخي لعرض قصة نوح أولاً ، ثم قصة إبراهيم ثانياً ، ثم قصة موسى ثالثاً .

لكنه في هذه السورة كان يذكر الأحداث ، ثم يرجع القهقري من قصة إبراهيم إلى قصة نوح . لأن الخط التاريخي ليس هو المقصود هنا ، بل المقصود هو العبرة من نهاية الشرك والتكذيب .

وقصة نوح ومن قبلها قصة موسى وقصة إبراهيم قد عرضت في سور شتى سابقة .

لكن الجانب الذى يعرضه من القصة يأتى مناسباً لسياق السورة ، وللعظة والعبرة المقصودة منها .

وتعرض قصة نوح فى الغالب فى سلسلة مع قصص عاد وثمود وقوم لوط وأهل مدين - كما تشاهد فى هذه السورة - وأظهر ما فى الحلقة المعروضة فى سورة الشعراء هنا هو دعوة نوح قومه إلى تقوى الله ، وإعلانه أنه لا يطلب منهم أجراً على الهدى . وإبائه أن يطرد المؤمنين الفقراء الذين يستنكف منهم الكبراء - وهذا ما كان يواجهه رسول الله ﷺ فى مكة سواء بسواء - ثم دعاؤه لربه أن يفتح بينه وبين قومه واستجابة الله له بإغراق المكذبين وإنجاء المؤمنين .

قصة هود :

تستغرق قصة نبي الله هود الآيات : (١٢٣ - ١٤٠) .

وقبيلة عاد - وهم قوم هود - كانوا يسكنون الأحقاف ، وهى جبال رملية قرب حضرموت من ناحية اليمن ، وقد جاءوا بعد قوم نوح ، وكانوا ممن زأغت قلوبهم بعد فترة الطوفان الذى طهر وجه الأرض من العصاة .

واتخذت عاد المساكن المرتفعة والمصانع المشيدة ، وبلغت شأواً بعيداً من الحضارة الصناعية ، وزادت القوة بطراً وقسوة : فكفرت بنعم الله ، وتطاولت وتجبرت ونسيت الخالق الرزاق ، وكذبوا نبي الله هود فأهلكهم الله ودمر مصانعهم ودورهم ، وصب عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وتركهم عبرة لكل طاغية : **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ** . (الشعراء : ١٣٩) .

قصة ثمود :

تستغرق قصة ثمود الآيات : (١٤١ - ١٥٩) .

وقد دعاهم نبي الله صالح إلى عبادة الله ، وذكرهم بما هم فيه من نعمة ، وكانوا يسكنون بالحجر بين الشام والحجاز ، وقد مر النبی ﷺ بدورهم المدمرة مع صحابته فى غزوة تبوك ؛ فاستحث راحلته وحنى ظهره وجلاً وخشوعاً لله وقال للمسلمين : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون ، خشية أن يصيبكم ما أصابهم » .

لقد كانت ثمود فى نعمة فكفروا بنعمة الله عليهم ، وذكرهم صالح بقدرة الله ، فطلبوا منه معجزة؛ فأعطاهم الله الناقة ، على شرط أن يكون الماء الذى يستقون منه يوماً للناقة ويوماً لهم ، وحذرهم صالح أن ينالوا الناقة بسوء على الإطلاق ، وإلا أخذهم عذاب يوم عظيم .

ولكنهم استمروا فى عنادهم وظلمهم ، فنحروا الناقة ، وكذبوا صالحا ، وأحسوا بالندم بعد فوات الأوان ، فأخذهم عذاب الله العادل : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ « وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » . (الشعراء : ١٥٨ ، ١٥٩) .

قصة لوط :

تستغرق قصة لوط الآيات : (١٦٠ - ١٧٥) .

وقد كان قوم لوط يسكنون عدة قرى فى وادى الأردن ، واشتهر بينهم الشذوذ الجنسي بإتيان الذكور وترك النساء ، وهو انحراف شنيع فى الفطرة ، فقد برأ الله الذكر والأنثى وقطر كلا منهما على الميل إلى صاحبه لتحقيق حكمته ومشينته فى امتداد الحياة عن طريق النسل الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى ، فكان هذا الميل طرفا من الناموس الكونى العام .

ولكن قوم لوط خرجوا على الفطرة ، واستباحوا الفاحشة ، وهددوا لوطا بالطرد والنفى : فخسف الله قراهم وغطاها الماء ، ومنها قرية سدوم ، ويُظَن أنها ثابوية تحت البحر الميت فى الأردن .

أصحاب الأيكة :

تستغرق قصة أصحاب الأيكة الآيات : (١٧٦ - ١٩١) .

والأيكة : الشجر الكثيف الملفف ، وهم أهل مدين ، ونبههم شعيب عليه السلام ، وكان شأنهم تطغيف الكيل والميزان ، وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط وحسن المعاملة ، فكذبوا نبيههم : فأخذهم عذاب يوم عظيم فى يوم حار خانق يكتم الأنفاس ويثقل الصدور ، ثم تراءت لهم سحابة فاستظلوا بها ، فوجدوا لها بردًا ثم إذا هى الصاعقة المجلجلة المدوية ، تفزعهم وتدمرهم تدميرًا وكان ذلك يوم الظلة ، فالظلة كانت سمة اليوم المعلوم .

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء ١٨٩) .

فى أعقاب القصص

الآيات الأخيرة من سورة الشعراء تعقيب على قصص المرسلين فيها ، وتأكيد على بعض أهداف الرسالة السماوية ، فقد ذكر الله فى هذا القصص : قصة الرسل والرسالات ، وقصة التكذيب والإعراض ، وقصة التحدى والعقاب ، وتمثلت هذه المعانى فى قصة موسى مع فرعون ، وقصة إبراهيم مع أبيه وقومه ، وقصة نوح مع قومه ، وقصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وقصة لوط مع قومه ، وقصة شعيب مع

أصحاب الأيكة ، فلما انتهى القصص عاد السياق إلى موضوع السورة ، وهو العقيدة والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، وقد جاء التعقيب الأخير في السورة يتحدث عن القرآن فيؤكد أنه تنزيل من رب العالمين .

ويشير إلى أن علماء بنى إسرائيل يعرفون خبر هذا الرسول وما معه من القرآن : لأنه مذكور في كتب الأولين ، إنما المشركون يعاندون الدلائل الظاهرة ، ويزعمون أنه سحر أو شعر ، ولو أن أعجميا لا يتكلم العربية نزل عليه هذا القرآن فتلاه عليهم بلغتهم ما كانوا به مؤمنين ، لأن العناد هو الذى يقعد بهم عن الإيمان ، لا ضعف الدليل ، وما تفزلت الشياطين بهذا القرآن على محمد ﷺ كما تتنزل بالأخبار على الكهان ، وما هو كذلك بشعر ، فإن له منهجا ثابتا ، والشعراء يهيمون فى كل واد وفق الانفعالات والأهواء . إنما هو القرآن المنزل من عند الله تذكيرا للمشركين قبل أن يأخذهم الله بالعذاب ، وقبل أن تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزون : **وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ** . (الشعراء : ٢٢٧) .

وقد استغرق هذا التعقيب الأخير على القصص الآيات من ١٩٢ إلى ٢٢٧ ، وختم هذا التعقيب بهذا التهديد المخيف الذى يلخص موضوع السورة .

تلك السورة التى اشتملت على تصوير عناد المشركين ومكابرتهم ، واستهتارهم بالوعيد ، واستعجالهم بالعذاب ، كما اشتملت على مضارع المكذبين على مدار الرسالات والقرون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَمَ ١ ﴾ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٣ إِنْ
 نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٤ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ
 مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٥ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٦
 أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهٍ أَنْبَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٧ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 ٨ وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩ ﴾

المضردات :

نفسك ، لعل هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار ، وقال العسكرى : إنها للنهى .

بائع نفسك ، مهلكها من شدة الحزن ، وأصل البعج : أن تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق
 مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح .

ذكر : موعظة .

انباء : المراد بالأنباء : ما سجل بهم من العذاب .

زوج : صنف .

كريم : الكريم من كل شيء : المرضى المحمود منه .

التفسير :

١ - طَسَمَ .

هذه الأحرف المقطعة فى فواتح السور ، للعلماء فيها رأيان :

الأول : أنها مما استأثرت الله تعالى بعلمه ، ولا يعرف معها أحد سواه .

الثانى : أن لها معنى . وتعددت الآراء فى تحديد هذا المعنى ، فمنهم من قال : هى أسماء للسورة ، وقيل :
 هى إشارة إلى أسماء الله أو صفاته ، وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من

حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما تنزيل من حكيم حميد .

٢ - يَلِكْ ءَابِتْ الْكِتَابِ الْمُبِينِ .

أى : المذكور فى هذه السورة ، أو فى القرآن كله ، آيات القرآن الواضحة البيّنة ، المبينة للناس الحلال والحرام ، والحدود والأحكام ، ومناهج التربية والاستقامة ، وأسباب سعادة الدارين .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرِنَا ... (الشورى : ٥٢) .

٣ - لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

كان الرسول ﷺ يتألم لانصراف قومه عن هداية الإسلام ، وهو يعلم مصير المكذّبين من الهلاك ، ونزول العذاب بهم ، وكان القرآن يسرى عنه ، ويحدد له دوره فى الرسالة ، وهو البلاغ والإنذار ، وهنا يقول له : لعلك قاتل نفسك أو مهلكها ، حزنا على عدم إيمانهم ، فلا تحزن عليهم ، كما قال تعالى : فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ... (فاطر : ٨) .

وكما قال سبحانه : لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

وقال سبحانه : فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لُستَ عَلَيْهِمْ بِمُصَوِّرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

٤ - إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّ أَغْشَقُهُمْ لَهَا غُضْبِينَ .

لو نشاء لأنزلنا عليهم معجزة أو آية ، تضطرهم إلى الإيمان القهرى ، لكننا لا نفعل ذلك : لأننا لا نريد من الناس إلا الإيمان الاختيارى ، الذى يحتكم إلى العقل والإرادة والاختيار ، وتلك حكمة الله وإرادته ، فقد خلق الكون ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، ودعا الناس إلى الإيمان ، وشرح للناس مظاهر القدرة الإلهية ، وبيّن للناس أسباب الهداية ، وفضائل الإيمان وآدابه ، وثواب السير على الصراط المستقيم ، وبيّن أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ، وترك للإنسان اختيار الطريق الذى يريده ، عن حرية وطوعية ، قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمْنَاهَا فَجْرَهَا وَنَقَّوْنَهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . (الشمس : ٧ - ١٠) .

وقال سبحانه : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

وقال سبحانه : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ آتَاسُ أُمَّهُ وَاحِدَةً ... (هود : ١١٨) .

لقد علم الله أولاً أن هذه هي الرسالة الخاتمة ، وأن هذا القرآن هو آخر الكتب السماوية ، فاشتمل على ألوان من الإعجاز : الإعجاز فى أسلوبه وبيانه ، وألفاظه ونظامه ، الإعجاز فيما اشتمل عليه من ألوان العلوم والفنون ، التى لم يكن يعلمها أحد وقت نزول القرآن الكريم فى القرن السابع الميلادى ، الإعجاز فى إخباره عن أمور مستقبلية ، مثل هزيمة الفرس أمام الروم ، ومثل تطور العلوم تطوراً عظيماً ، ومع تقدم العلوم فإنها لم تصطدم بأى حقيقة علمية جاء بها القرآن ، بل إن تقدم العلوم أكد صدق القرآن وإعجازه ، فقد تحدث القرآن عن بدء الخليقة ، وعن خلق السماء والأرض والبحار والأنهار ، وعن حركة الأرض والشمس والقمر ، وعن تطور خلق الجنين فى بطن أمه ، وعن فقد الجسم للإحساس عند احتراق الجلد ، وعن خلق الله من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ، ليتم التوالد وإعمار الحياة ، يتناسل الإنسان والحيوان والنبات ، وتحدث القرآن عن نهاية الحياة وقيام القيامة ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وكل هذه الأمور وغيرها أيدها تقدم العلوم ، وكان تقدم العلوم فى حد ذاته توثيقاً لصدق القرآن وإعجازه ، قال تعالى : سُبْرِهِمْ وَأَيْلَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَلِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

٥ - وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ آيَاتِنَا فَتَحَدَّثُوا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ .

القرآن كتاب الله ، وهو كتاب البشرية الأخير ، يحمل أسباب الهداية والإيمان والتقدم ، ويعطى لكل إنسان ما يريده ، إذا فتح قلبه وعقله لتلاوته ، لكن هؤلاء المشركين أعرضوا عن القرآن ، وتكرر إعراضهم كلما تلى عليهم ، مع أن فيه سبب سعادتهم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : يَنْحَسِرُونَ عَلَى الْغِيَابِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . (يس : ٣٠) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا نُزْلًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّهُ رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ قِبْعًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . (المؤمنون : ٤٤) .

٦ - فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

لقد كذب كفار مكة الرسالة والرسول والكتاب المبين ، مع نزوله صباح مساء ، واشتماله على أسباب الهداية ، لكنهم كذبوا به فاستحقوا العذاب الذى سينزل بهم ، ونلمح تدرج مراحل الكفر ، فقد بدءوا بالإعراض ، ثم التكذيب ، ثم الاستهزاء ، والإعراض إنكار فى صمت ، والتكذيب تصريح بالإنكار ، والاستهزاء تجريح للدعوة ، وتهكم بالرسالة والرسول ، فأجاب القرآن بأنه : فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . أى : سيأتيهم

لا محالة مصداق ما كانوا به يستهزئون ، ويصيرون هم أحاديث للناس يتحدثون بها ويتناقلون أنباءها ، وفى التعبير عن وقوع العذاب بهم بإتيان أنبأه وأخباره تهويل من شأن هذا العذاب ، وتحقيق لنزوله .

قال اليسابورى : فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . وعيد لهم بعذاب بدر ، أو يوم القيامة .

وقال ابن كثير :

فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

فقد كذب هؤلاء بالحق الذى جئتهم به ، وسخروا منه ، فاصبر عليهم ، فسيرون عاقبة استهزائهم القاصمة . ا هـ .

٧- أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

لقد طلبوا معجزات وآيات مادية ، كى يستدلوا بها على صدق محمد ﷺ ، فلفت القرآن أنظارهم إلى خلق الله فى هذا الكون ، كيف أرسل الرياح وأنزل المطر ، فسقى به الأرض ، فأنبتت صنوفاً من النباتات ، وألواناً من الزروع ، منها نبات يفتقر فيه الذكر عن الأنثى ، ومنها نبات يتجاوز فيه ويجتمع فيه أعضاء التكثير وأعضاء التأنث ، فى عود واحد . أَوَلَمْ يَرَوْا ... ؟ والأمر لا يحتاج لأكثر من الرؤية والنظر ، إلى هذه الأرض ، كيف يحييها الله بعد موتها ، بإنبات صنوف النبات وأنواعه ، وكيف جعل هذا النبات أزواجاً ، ذكراً وأنثى ، لضمان استمرار الخضرة وتتابع الأرزاق .

قال تعالى : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ... (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأنه : سُبْحَنَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ... (يس : ٣٦) .

والقرآن هنا كعادته يأخذ طريقه إلى القلوب والأفئدة ، كى تتأمل وتفكر فى خلق الله ، وبهذا يوقظ الحس الخامد ، وينبّه الفكر الغافل ، ويبصر القلوب العمياء ، كما قال : وَكَانَ مِنْ ءَايَةِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ يُعْرَوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

ونلاحظ أن : كَمْ . تدل على الكثرة ، أى : كثيراً ما أنبتنا فى الأرض من الزروع والثمار ، وكل زَوْجٍ . إشارة إلى خلق كل نوع من أنواع النبات ، وفيه تنبيه على كمال القدرة ، ونهاية الجود والرحمة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، تدل على فضل الله على عباده فى خلق الكون ، وتسخير السماء والأرض ، وإنبات النبات ، قال تعالى : أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْشَبْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * بُمِرَّةٍ * وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحُمَيْدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ . (ق : ٦ - ١١) .

فالكون حافل بأدلة التوحيد والقدرة والعناية الإلهية ، قال الشاعر :

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

ووصف النبات بأنه كريم ، أى : نافع مفيد .

قال المفسرون : الكريم نعت لكل ما يرضى ويحمد فى بابهِ ، ومنه : وجه كريم ، إذا رضى فى حسنه وجماله ، وكتاب كريم ، مرضى فى مبانیه ومعانيه ، ونبات كريم ، مرضى فيما يتعلق به من المنافع ، من زروع وثمار وحيوان .

وفى سورة عبس يقول الله تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبَّأَ وَقَضَّبَّا * وَزَيَّنَّا وَنَخَلَّا * وَحَدَّاثًا عُثْبًا * وَقَلَكَةً وَابًّا * مِمَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

٨ - إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ .

أى : فيما ذكر لدليل على قدرة الخالق ، الذى خلق الكون وأبدع الخلق ، ورفع السماء وبسط الأرض ، وأرسل المطر ، وأنبت أنواعا وأزواجاً كريمة مثمرة نافعة مبهجة ، ومع هذه الأدلة لم يؤمن أكثر الناس ، بل كذبوا بالله وبرسوله ، وآثروا العمى على الهدى والغى على الرشد .

قال تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

وقال تعالى : وَإِنْ تُطْعَمُوا أَكْثَرَ مِّنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَشِيعُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . (الأنعام : ١١٦) .

٩ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

تأكيد على فضل الله ، فهو سبحانه العزيز . أى : المنيع الغالب القوى المتين ، وهو أيضاً الرحيم .
التواب الغفار .

قال المفسرون : العزيز . فى نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره . الرحيم . بمن تاب إليه وأناب . وقد تكررت الآيتان ٨ ، ٩ فى ثمانية مواضع من سورة الشعراء : هنا ، ثم عقب قصة موسى ، ثم إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَسْمَعُونَ ١١ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٢ وَضَيْقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ١٣ وَهُمْ
عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٤ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِمَا بِنَافِئًا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٥ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمْ تُرِيدْ
فِينَا وَلِيدًا وَلِئْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ
الْكَافِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي
رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ٢٢ ﴾

المفردات :

كــــلا ، كلمة زجر وردع ، والمراد : اتق الله ، وإنزجر عن خوفك منهم .

بـاياتنا ، المراد هنا : معجزاتنا .

وأنامن الضالين ، الجاهلين ، أو قبل أن ينعم الله على بالنبوة والرسالة .

هـفـررت منكم ، خرجت من بينكم إلى مدين .

تمهيد :

تعرض سورة الشعراء طائفة من أخبار السابقين ، فهى سورة مكية عنيت بأخبار الأمم السابقة ، تسليمة
للرسول الأمين وتحذيرا لأهل مكة ، أن يصيبهم مثل ما أصاب هذه الأمم ، وقد ذكرت قصة موسى فى مواضع

عديدة ، لكنها فى معظمها إشارات سريعة للغة والعبرة ، وفى ستة مواضع فى القرآن الكريم ، ذكرت قصة موسى بشئ من الإسهاب والتفصيل ، مثل سورة طه ، وسورة القصص ، وسورة الأعراف ، وسورة الشعراء ، وقد استغرقت قصة موسى فى هذه السورة (سورة الشعراء) الآيات من ١٠ - ٦٨ ، أى : قرابة ٥٨ آية .

التفسير :

١٠ - وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ آتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

تبدأ هنا قصة موسى من مرحلة الرسالة ، وقد بدأت من جانب الطور الأيمن ، وموسى فى طريقه من أرض مدين إلى مصر ، حيث شاهد ناراً ، فطلب من أهله أن ينتظروا فى مكانهم ، حتى يذهب إلى النار ليأخذ منها قُبْراً يستدفئ به ، ولعله أن يجد هناك من يرشده إلى الطريق السليم إلى مصر ، وهناك فاجأه الوحى والرسالة ، وكلف بتبليغ الرسالة إلى القوم الظالمين ، وهم فرعون وقومه حيث ألْهَوْا فرعون ، وظلموا بنى إسرائيل ، والقصة بمشاهدتها المتعددة ، فيها إيناس للرسول الأمين محمد ﷺ ، وتحذير لأهل مكة ، من أن يصيبهم الله بهلاك مماثل لهلاك فرعون وقومه ، وتخليد لذكرى أنبياء الله ورسله ، ودعوة إلى الإيمان والاعتاظ والاعتبار .

جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

وانذكر يا محمد لقومك قصة موسى حين ناداه ربك : يا موسى اذهب رسلاً إلى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وظلموا بنى إسرائيل بالاستعباد ، وذبح الأولاد .

١١ - قَوْمٌ فِرْعَوْنُ أَلا يَتَّقُونَ .

هنا يحدد القوم الظالمين ويذكر اسمهم ، ثم يعجب من عتوهم وظلمهم واستبدادهم ، أى : انت قوم فرعون ، وحثهم على تقوى الله ومراقبته وامتنال أمره ، وفرعون وقومه يعرفهم موسى ، ويعرف مقدار ظلمهم ، لذلك قال :

١٢ ، ١٣ ، ١٤ - قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَايَ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ .

وموسى هنا يظهر أمام ربّه تعالى مخاوفه وضعفه ، ويطلب منه المعونة والموازنة ، بأن يجعل هارون معه رسلاً ، وهى شفاعة من أفضل أنواع الشفاعة .

قال المفسرون : لم يكن موسى معترضاً على أداء الرسالة ، وإنما احتاط للمهمة فقال :

رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّبُونِ . فهم طغاة متمردون ، وفى لسانى حبسة ، فأخاف أن يضيق صدرى بتكذيبهم ، وأن يضطرب لسانى فى موقف المجادلة والمحاجة ، فأعجز عن شرح الرسالة على الوجه المبين . وكان هارون أفصح بيانا ، وأهدأ أعصابا ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه ، فإذا أخفق موسى أو قُتل ، أتم هارون الدعوة ، واستمر فى تبليغ الرسالة .

وكان موسى قد قتل قبطيا ، ثم خرج من مصر خائفا ، فاشتكى إلى الله خوفاً من أن يُقتل قيصاصاً قبل تبليغه الرسالة .

وقريب من هذه الآيات ما ورد فى سورة طه : قَالَ رَبِّ اشرحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي • وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي • هَلْ وُنْ أَخِي • اهْلُذْ بِهِ أَزْرَى • وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي • كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا • وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا • قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى . (طه : ٢٥ - ٣٦) .

١٥ ، ١٦ ، ١٧ - قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ • فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ • أُنْزِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ .

أى : قال له الله تعالى : كَلَّا . لا تخف من تكذيبهم ، ولا تخف من ضيق صدرك ، ولا تخف من حبسة لسانك ، وقد استجبت إلى طلبك ، وأعطيتك سؤلك ، وأوحيت إلى هارون أن يرافقك فى رسالتك ، فانهبا بآياتنا ، وهى المعجزات كالعصا واليد ، أو آيات التوراة ، ثم بين له الله أسباب الرعاية والعناية والحفظ حين قال : إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ . فهى معية عناية وحفظ ورعاية ، والله سميع لكل شىء ، لكنه هنا معهم يؤازرهم بمعيته ، ومن كان الله معه ، كان معه كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء ، وكما قال سبحانه : إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى . (طه : ٤٦) .

لقد ذهب الخوف والخشية من قلب موسى ، وآمنه الله بمعيته ، ومعونته ورعايته ، واستماع الحق له ، استماع رعاية ومعاونة ، ثم حدد الله له المنهج والقول ، فقال :

فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

بدون هيبة ولا تردد ولا خوف ، نحن مرسلان برسالة واحدة ، هى دعوتك إلى الإيمان بالله تعالى رب العالمين ، و«الْعَالَمِينَ» جمع عالم ، أى : عالم الإنس والجن والطير ، والأكوان والسماء والأرض والمخلوقات .

أَنْ أَرْسِلَ مَعَايِي إِسْرَءِيلَ .

أى : أطلقهم من إسمارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، وكان بنو إسرائيل أهل دين ، هو دين التوحيد من أيام إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام ، لكن هذا الدين كان قد بهت فى نفوسهم ، وفسد عقائدهم ، فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد .

١٨ - قَالَ أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ .

لقد انتهت مشهد إرسال موسى وهارون إلى فرعون ، وطوى القرآن ما بين المشهدين اكتفاء بفهم الإنسان لما بين المشهدين ، وعرض هنا مشهداً آخر ، هو مشهد الحجج التى تذرع بها فرعون أمام رسالة موسى ، أى : عندما ذهب موسى إلى فرعون رسولا ، ودعاه إلى الإيمان بالله تعالى ، جحد فرعون الرسالة ، وأخذ يتذرع بالحجج التى تمنعه من الإيمان .

فقال فرعون لموسى : أَلَمْ نُنْزِلْكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ .

أى : أنت ربيبي ، ربيتك فى بيتي حين كنت صغيراً ، ومكثت عدداً من سنن عمرك بيننا ، منسوباً إلينا ، تدخل بيتنا ، وتنعم بنعمتنا ، وكان الأمل أن تعترف لى بالفضل ، لكلك جئت تقول لى : إنك رسول ، وأن مهمتك استخلاص بنى إسرائيل من عذابى .

١٩ - وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكُ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

أى : قتلت القبطى وكان من شيعتى وأتباعى ، وبذلك جحدت نعمتى ، وكفرت بجميلى عليك ، أو كنت كافرا لم تعلن عن رسالتك ولا عن الوحي الذى أوحى إليك ، وموسى لم يكن يوماً ما من الكافرين بالله ، ولكنه كان يخفى أمره ، تقية من بطش فرعون وقومه .

٢٠ ، ٢١ - قَالَ فَاعْلَمْ أَنَا أَنَا مِنَ الصَّالِينَ * فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

ظن فرعون أنه ألهم موسى أحجاراً ، وأنه ألزمه الحجة وقهره ، لكن الله فجر الحكمة على لسان موسى ، ففد حجة فرعون ، لقد اعترف بأنه ارتكب هذا الخطأ لا عن عمد وإصرار ، ولكن عن خطأ حيث طعن القبطى فى خاصرته طعنة للتأبيب ، فكانت قاضية على حياته ، أى : كان موسى فتى غريراً يجهل تقدير الموقف ، ويندفع فى معاقبة المسىء بدون تبصر ، أما الآن فقد تغير الموقف ، وآتاه الله الرسالة والحكمة ، وأذهب عنه الضلالة والتهور .

فالمراد بالضلal في قوله : فَعَلَّيْهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . الجهل بالشئ ، والذهاب عن معرفة حقيقته ، أى . لا أجيد تقدير الموقف ، أو كان ذلك قبل مجيء الرسالة والهداية .

فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ...

أى : توقعت منكم الشرّ ، وخشيت منكم على نفسى ، فخرجت هاربا من وجوهكم إلى أرض مدين ، فأعطانى الله الحكمة والعلم النافع ، وأكرمنى بالرسالة واصطفانى بالنبوة والوحى .

٢٢ - وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ .

أى : أتمنّى على بتربىتى فى بيتك ، والسبب فيه هو استعباد بنى إسرائيل ، وقتل الذكور واستحباء الإناث للخدمة ، فألفت بى أُمى فى اليم خشية القتل ، فالتقطنى أهلك ، وتربيت فى بيتك ، ولولا الظلم والقهر منك ومن حاشيتك ، لتربيت مع أسرتى وإخوتى وأُمى وبين أهلى ، أى : أتمنّى على بحرمانى من تربيتى وسط أهلى وأسرتى وقومى ، وما تسبب فى ذلك إلا عدوانك ، حيث ألقيت فى البحر ، وحملت إلى بيتك ، وتربيت بعيدا عن أهلى ، بسبب ظلمك .

★ ★ ★

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير :

٢٣ - قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

وهذا استفهام إنكار وتجبر ، حيث قال فرعون مستفهما من موسى الذى قال هو وأخوه : إنا رسول ربّ العالمين .

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . هذا الذى جئت رسولا من قبله ، وهو سؤال استنكار من فرعون ، أن يكون هناك إله آخر سواه ، بدليل ما حكاه القرآن عنه فى آية أخرى : وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلُوا آيَاتِى أَلَمْ أُكَلِّمْكُم مِّنْ قَبْلِهِ غَيْرِى ... (القصص : ٢٨) .

٢٤ - قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ .

أى : قال موسى لفرعون ومن معه ، إن رب العالمين هو خالق السماوات والأرض ، وما بينهما من الفضاء والهواء ، فملكه واسع لا حدود له ، أى : إن ملكك يا فرعون محدود بهذه البلدة ، أو القطر الذى تدعى ألوهيتك لأمله ، على فرض صحة دعواك ، لكن رب العالمين يمتد ملكه إلى الأكوان كلها ، والعوالم كلها ، فهو يملك الأكوان ويملك ويملك ملكك وأرضك .

إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ .

إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، لتيقنتم بهذا الإله الحق .

٢٥ - قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ .

أى : قال فرعون لمن حوله : ألا تعجبون من قول هذا فى زعمه أن لكم إلهاً غبرى ، وفى آية أخرى قال القرآن : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . (الزخرف : ٥٤) .

٢٦ - قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .

لقد أضاف موسى زيادات مستمرة ، فى تعريف الإله الحق ، وبيان نعمائه وآلاته ، فهو الرب الحق الخالق للناس ، ولمن كان قبلهم من الآباء والأجداد ، وفرعون يفتخر بأنه ورث الملك والألوهية عن آبائه ، لكن موسى هنا يتكلم فى صراحة ووضوح ، إن الملك الحقيقى لله وحده .

٢٧ - قَالَ إِنْ رُسُلُكُمْ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ لَمُجْتَوُونَ .

أى : أراء فرعون أن يشوش على موسى ، فادعى أنه إنسان مسلوب العقل ، لا ينبغى أن نستمع إلى مهاراته ، وادعائه أن له رباً غير فرعون .

٢٨ - قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ .

استمر موسى يعدد مجال القدرة الإلهية ، فالله سبحانه هو الذى يأتى بالشمس والقمر والكواكب ، حيث يجعلها تشرق من جهة المشرق ، وتغرب من جهة المغرب ، والله تعالى رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن استخدمتم عقولكم وقلوبكم ووجدانكم ، أدركتم عظمته وجلاله ، وقد خص المشرق والمغرب ، لوضوح الأدلة على ملك الله تعالى وحده لهما ، فلم يدع أحد أنه يملك طلوع الشمس أو غروبها ، بدليل قول إبراهيم عليه السلام : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ... (البقرة : ٢٥٨) .

وهكذا تتوالى أدلة موسى على وجود الله تعالى على النحو التالي :

- ١ - فهو رب السماوات والأرض .
- ٢ - وهو رب الناس ورب آبائهم الأولين .
- ٣ - وهو رب المشرق والمغرب .

أى : أنه الخالق الأود ، والمالك العظيم ، والمكوّن لهذا الكون ، والمصرف لشئونه ، فمن ادعى الألوهية غيره فهو مقتري كذاب ، وإزاء وضوح الحجة والأدلة ، لم يجد فرعون مناصاً ، من التهديد باستخدام القوة ، فهو يملك السجون ، ويقدر على إدخال موسى بداخلها ، على نحو ما نرى فى الآيات التالية :

★ ★ ★

﴿ قَالَ لِّئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ۖ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْجِئُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ۖ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۖ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعْنَا مِنْهُ إِفْكًا ذَا هِيَ بِيضًا لِلنّٰظِرِينَ ۖ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۖ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۖ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ۖ ﴿٣٦﴾ يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ۖ ﴿٣٧﴾ ﴾

التفسير :

٢٩ - قَالَ لِّئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ .

ضاق فرعون ذرعا بأدلة موسى على وجود الله ، فقد أخذ موسى عليه كل سبيل ، فلجأ فرعون إلى التهديد والوعيد ، بأن موسى إذا جعل لنفسه إلهاً غير فرعون ، فسيدخله فى عداد المسجونين ، وكان فرعون جباراً فى سجنه ، حيث يلقى بالمسجون فى سحيق من الأرض ، لا يسمع ولا يرى فيه شيئاً ، ولا يخرج من السجن إلا بعد أن يموت .

٣٠ - قَالَ أَوْلَوْجِئُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ .

أى : أنفعل ذلك ، حتى لو قدمت لك أدلة واضحة بيّنة ، تدل على صدق رسالتى ونبوتى .

٣١ - قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ .

أى : قدّم هذا الدليل إن كنت صادقاً فى دعوى الرسالة ، أو صادقاً فى أن عندك دليلاً مبيناً واضحاً .

٣٢ - فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ .

ألقى موسى عصاه ، فتحوّلت إلى ثعبان كبير له طاقة هائلة ، ومنظر مربع مخيف ، لقد دبت الحياة في العصا بقدرة الله تعالى ، معجزة لموسى عليه السلام .

٣٣ - وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظَرِينَ .

وأخرج موسى يده ، فإذا هي بيضاء بياضاً ناصعاً ، تتلألأ كقطعة من القمر .

قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه ، فإذا هي بيضاء تلمع للناظرين ، لها شعاع كشعاع الشمس ، يكاد يغشى الأبصار ، ويسد الأفق .

وأمام هذه الحجج الواضحة ، والمعجزات التي تدل على صدق موسى ، في أنه رسول مؤيد من الله رب العالمين ، كابر فرعون ، ومع اعترافه بهذه القدرة الخارقة ، لجأ إلى المكابرة والعناد ، لكن الرهبة التي أصابته ، جعلته يلجأ إلى قومه ، طالباً مشورتهم ، شأن الجبارين المتكبرين ، في الرخاء يدعون الألوهية ، كما قال فرعون : مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... (القصص : ٣٨) . وفي الشدة يتظاهرون بطلب المشورة ، عندما أحس بأن الأرض تنزلزل من تحته .

٣٤ - قَالَ لِلْمَلِكِ حَوْلِي إِنَّ هَلْدَا لَسَاحِرٌ غِيلِمٌ .

أى : قال فرعون لأشرف دولته ، وحاشيته المحيطة به : إن ما جاء به موسى ليس معجزة كما يدعى ، بل هو سحر من ساحر وافر العلم والمقدرة والإحاطة بالسحر .

٣٥ - يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

أى : إن موسى يريد أن يكثر أتباعه وأعدائه ومريديه ، فتتقلب الأمور إليه ، ويكون هو الحاكم المتصرف في البلاد ، ويخرج الأمراء والحاشية والسلطان من الملك ، ليستولى هو عليه .

جاء في تفسير أبي السعود :

بهره سلطان المعجزة ، وحيرته حتى حطّ من نزوة ادعاء الربوبية ، إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه ، والامتثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم ، بعدما كان مستقلاً بالرأى والتدبير ، وأظهر استتعار الخوف ، من استيلائه على ملكه ، ونسبته إلى إخراجهم من الأرض لتغييرهم منه .

٣٦ ، ٣٧ - قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَلِيفِينَ * يَأْكُلْ بَکُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ .

أى : أشار الملأ والحاشية على فرعون بأن يمهّل موسى وأخاه ، فقد كان يفكر فى قتله ، فقيل له :

• أمهل اتخاذ القرار فى ذلك وأرجئه .

يقال : أُرْجأت هذا الأمر وأرجيته ، إذا أُخِّرته ، ومنه أخذ لفظ المرجئة ، لتلك الفرقة التى تؤخّر العمل ، وتقول : لا يضر مع الإيمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، واقتُرحت عليه أن يرسل جنوده وأتباعه وشرطته فى مدائن مملكته ، يحشرون السحرة عند فرعون ، ليختار منهم من يشاء ، ليقدموا عملاً مبهرًا يؤدى إلى انتصار فرعون وحاشيته ، على موسى ومعجزاته .

قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ، ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهره . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ أَلَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّاجَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِن لَّنَا أَجْرٌ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْبِلُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْزَةٌ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ أَمْسُوْهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَّكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا أَقْطَعُ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلَتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا إِن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

المضردات :

المِيقَاتِ : ما وقت به ، أى : حدد من مكان وزمان ، ومنه : مواقيت الإحرام .

يوم معلوم : هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله : مُوعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى . (طه : ٥٩) .

عزة فرعون : قوته التى يمتنع بها من الضيم .

تلقف، تبخلع بسرعة .

يسافكون، يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم .

من خلاف، يقطع الأيادي اليمنى، والأرجل اليسرى .

لاضيسر، لا ضرر علينا فيما ذكرت .

منقلبون، راجعون .

تمهيد :

هذا منظر المباراة بين موسى والسحرة ، فقد اجتمعوا يوم العيد ضحوة ، وكان السحرة جمعا غفيرا قيل : كان عددهم ١٢,٠٠٠ اثنى عشر ألفا ، قال ابن إسحاق : وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم ، وهم رؤساؤهم ، وهم : سابور ، وعاذور ، وحطط ، ومصفى . وألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وجاءوا بسحر عظيم أربح الناس ، واستولى على مشاعرهم ، ثم ألقى موسى عصاه فابتلعت حبال السحرة ، فأيقن السحرة أن هذا ليس سحرا ، وإنما هو معجزة وتأييد من الله لرسوله ، فخروا ساجدين لله مؤمنين به ، فتهدهم فرعون بالعذاب والقتل ، فما زادهم ذلك الوعيد إلا إصرارا على الإيمان ، وتمسكا به ليكونوا قدوة لقومهم .

التفسير :

٣٨ - فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

اجتمع السحرة وكانوا فئة كبيرة مثقفة، من أبرع الناس في السحر وأصنعهم ، وأشدهم تخيلا، جاءوا من أقاليم مصر العليا ، وأراد موسى أن تقع المباراة يوم عيد لهم ، ليكون ذلك أمام حشد عظيم ، ولتظهر الحجة أمام الجموع الغفيرة ، وهذا كله من لطف الله تعالى في إظهار أمر موسى .

٣٩ ، ٤٠ - وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُّحْتَمِلُونَ ۖ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ .

طلب فرعون من الناس التحنج والتجمهر ، بأساليب الدعاية والدعوة ، وإثارة النعرة والعصبية ، فالاجتماع موازنة للسحرة وانتفاء لهم ، لا للحق في حد ذاته ، أي : وقال قائلهم : إنا نرجو أن يتغلب السحرة ، فنستمر على دينهم ، ولا نتبع دين موسى ، ولعل مهارشة النوادي الرياضية ، والاتجاهات الفكرية والدينية والعلمانية ، مما يشغل الجماهير ويمتص اهتماماتها ، أمر مرغوب محبوب لدى القيادات السياسية في الماضي والحاضر .

٤١ ، ٤٢ - فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجُزُا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لُمْنَا الْمُقْرِينَ .

أى : عندما جاء السحرة إلى مجلس فرعون ، وحوله وزراؤه وحاشيته ، سألوها : هل يصرف لنا أجر من المال أو الجاه ، إذا انتصرنا على موسى ؟

قال فرعون : نعم ، لكم أجر وجزاء ما دئى ، وفوق ذلك أقربكم من حاشيتى ، وأجعلكم من أتباعى ومن المقربين منى .

٤٣ ، ٤٤ - قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ .

استشار السحرة موسى وفوضوا له الخيار ، وقالوا : يا موسى ، إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال : بل ألقوا .

أذن لهم موسى بإلقاء سحرهم وعصبيهم وأعمالهم ، فألقوا حبالهم وكانوا قد دهنوها بالزنبق ، فلما أرسلت الشمس أشعتها ، هبئ للناس أن الحبال تتحرك وتتموج ، وأرهب الناس بهذا العمل الفائق ، والسحر العظيم المبدع ، حتى خشى موسى أن يخسر الجولة ، وحتى فرح فرعون وحاشيته ، وظنوا أنهم اقتربوا من حافة النصر .

وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ .

أى : قال السحرة : بجاه فرعون وعظمته وجبروته وسطوته ، سنغلب موسى وننتصر عليه .

وقد قال تعالى : فَإِذَا حِبَالُهُمْ يُعْجِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . (طه : ٦٦ - ٦٨) .

وقال سبحانه : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ وَجَاءَ بِسِحْرِ عَزِيمٍ . (الأعراف : ١١٦) .

٤٥ - فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

بعد هذا العمل العظيم الذى قدّمه السحرة ، ألقى موسى عصاه فانقلبت حية كبيرة ، تبتلع كل ما ألقاه السحرة وما زيفوا وصفه ، ثم تعود كما كانت ، فبأخذها موسى ، ويشاهد الجميع هذه المعجزة .

٤٦ ، ٤٧ - فَأَتَى السَّحْرَةَ سَجْدِينَ * قَالُوا ءَأَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

أى : خَرَّ السحرة ساجدين لله ، فقد بذلوا أجلَّ عمل وأعظمه ، ثم شاهدوا عمل موسى ، وأدركوا أنه معجزة لا طاقة للبشر بعملها ، وأن موسى رسول من عند الله ، فقالوا : ءَأَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ .

٤٨ - رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ .

الإله الواحد الذى أرسل موسى وهارون ، أمنا به ، أى : وكفرنا بأن فرعون إله ، لقد كانوا منذ قليل يطلبون الأجر من فرعون ، فلما شاهدوا المعجزة الحقّة ، والعصا التى ابتلعت حبالهم ، أيقنوا أن موسى رسول من عند الله ، ولو كان ساحراً لوجدوا حبالهم وعصيمهم ، لكنهم وجدوا شيئاً فوق طاقة البشر .

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

ولما آمن السحرة ، وهم كهنة فرعون ، والمثقفون والمؤثرون على العامة ، أسقط فى يد فرعون ، وتحرير فى أمره ، فلجأ إلى التهديد والوعيد .

٤٩ - قَالَ ءَأَمَّتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزُجْلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ .

قال فرعون : كيف تؤمنون بموسى من قبل أن آذن لكم بذلك ؟

وما علم أن الإيمان له سلطانه على القلوب ، وأن «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٣١) .

ثم بدأ فرعون يتهم السحرة بالخيانة فقال : إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ ...

لقد قصرتم فى السحر ، وتواطأتم مع موسى ليظهر أمره ، وهذا تضليل لأهل مصر ، حتى لا يعتقدوا أن إيمان السحرة عن عقيدة واقتناع ، ثم تهددهم وتوعدهم بالعذاب والنكال :

فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأُزُجْلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : سأعاقبكم بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، حتى لا يكون لأحدهم نصف كامل ، ثم أقتلكم وأصلبكم ، وليس فى الإهلاك أشد من ذلك ، وفى آية أخرى حكى القرآن قول فرعون : وَلَا صَلْبَتِكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَلْفُي . (طه : ٧١) .

٥٠ - قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ .

أجاب السحرة فرعون في شجاعة وثبات وإيمان ، مؤثرين الآخرة على الدنيا ، مستهينين بالعذاب والقتل والصلب .

قَالُوا لَا ضَيْرَ ...

أى : لا ضرر علينا في ذلك ، ولا نبالى بوعيدك ، فكل حى ميت لا محالة .

وإن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على بن أبى طالب : لا أبالى أوقع على الموت أو وقعت على الموت .

فما أجل الإيمان بالله ، والرغبة فيما عنده ، إن هذا الإيمان يهون الحياة وكل مصائبها ، ما دام ذلك فى مرضاة الله .

إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ .

أى : إنا راجعون إلى الله فسيوفينا جزاءنا ، ونسعد بثواب ربنا .

٥١ - إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ .

إننا راغبون فى ثواب الله ، ونأمل أن يتقبل الله توبتنا ، ويغفر ذنوبنا السابقة فى تأليه فرعون ، وفى أعمال السحر ، والآن وقد دخل الإيمان قلوبنا ، فإننا نسارع فى إعلانه ، إظهاراً للحق ، وبراءة من الباطل والكفر ، لنكون أول من آمن بالله ، وناصر موسى وهارون ، لعل ذلك يرضى ربنا فيغفر لنا ما سبق من ذنوبنا .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَلَأَيْنِ خَشِيرَتَيْنِ ۝٥٣﴾
 إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ وَأَلَيْتَهُمْ لَنَا الْغَاطِطُونَ ۝٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ۝٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ
 جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ۝٥٩﴾ فَأَتَبَعُوهُمْ
 مُشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَأَّى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۝٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ
 رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
 كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ وَأَزَلَفْنَا لَهُمُ الْآخِرِينَ ۝٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥﴾ ثُمَّ
 أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ۝٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهِوَ الْعَزِيزِ
 الرَّحِيمِ ۝٦٨﴾

المضردات :

أسر : سرّ ليلاً .

متبعون : يتبعكم فرعون وجنوده .

شردمة : طائفة قليلة من الناس .

غانظون : فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا .

حادرين : من دأبنا الحذر ، واستعمال الحزم في الأمور .

كنوز : أموال كنزوها وخزنوها في باطن الأرض .

ومقام كريم : وقصور عالية ودور فخمة .

أورثناها : ملكناها لهم تملك الميراث .

مشرقين : داخلين في وقت الشروق .

ترأى الجمعان : تقاربا ، بحيث رأى كل منهما الآخر .

لمدركون : سيدركوننا ويلحقون بنا .

كلا : لن يدركوكم .

انفلق : انشق .

الـفـرق، الجزء المنفرد منه .

الـطـود، الجبل .

أزلفنا، قربنا .

ثـم، هناك .

لايـسـة، لعنة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

تهديد : فى (خروج بنى إسرائيل من مصر)

طالت مدة مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، يشرح لهم الدين ، ويقدم الأدلة والبراهين ، وفرعون وملوؤه يكابرون ويعاندون ، فأنزل عليه تسع آيات إلى فرعون وقومه ، منها : الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وغير ذلك ، ثم أمر الله موسى أن يخرج ليلاً ببني إسرائيل ، فى ليلة مقمرة ، واستعار بنو إسرائيل من القبط حلياً كثيراً ، قائلين إن لنا فى هذه الليلة عيداً ، ولما اتجه موسى مع قومه ، هارباً من فرعون وظلمه ، جمع فرعون جنوداً كثيرة ، وعياهم نفسياً ، فذكر أن موسى مع قومه شرذمة قليلة ، يخالفون أمرنا ، فينبغى أن نحاربهم ، وأن نتنصر عليهم ، وسار فرعون وجنوده فى وقت شروق الشمس ، حتى يدركوا موسى وقومه ، فيقاتلهم ويعاقبهم ، وأرشد الله موسى ، فضرب البحر بعصاه ، فانفلق وانقسم قسمين كبيرين ، وصار كل قسم مثل الجبل ، ثم سار موسى مع قومه فى طريق يابس ، ونجوا إلى الشاطئ الآخر ، وأغرق الله فرعون وقومه .

التفسير :

٥٢ - وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ .

جاء بنو إسرائيل إلى مصر أيام يوسف عليه السلام ، وأقاموا بها ٤٣٠ سنة ، ثم أوحى الله إلى موسى أن يسير بهم ليلاً جهة البحر ، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه ، وسيخرجون فى آثارهم .

٥٣ - فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ .

كان عدد بنى إسرائيل ستمائة ألف ماشٍ من الرجال ، ما عدا الأولاد ، وخبزوا فطيراً فى عيد الفصح وخرجوا به ، وساروا ليلاً ، وأخبر فرعون بذلك ، فأرسل فى مدائن مصر رجالاً من حرسه . ليجمعوا الجند ، ثم يتبعوا بنى إسرائيل فيردوهم إلى مصر ، ويعذبوهم أشد التعذيب على ما فعلوا ، وحاول فرعون تعبئة الجنود تعبئة معنوية ، فقال لهم :

٥٤ - إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ .

إن بنى إسرائيل فئة قليلة فيسهل اقتفاؤهم ، وإرجاعهم وكبح جماحهم .

٥٥ - وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ .

إنهم يفعلون ما يغيظنا من إثارة الشعب ، وأخذ أموال القبط ، وقد خرجوا على ديننا ، واتبعوا ديناً آخر .

٥٦ - وَإِنَّا لَنَجْمِعُ خَلْدِرُونَ .

إن فرعون ورجاله جميعاً ، قوم آخذون فى الحذر ، وإعداد العدة والسلاح لإبادة بنى إسرائيل .

٥٧ ، ٥٨ - فَأَخْرَجْنَهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ .

أخرجنا فرعون وقومه من النعيم إلى الجحيم ، وتركوا المنازل العالية ، والبساتين والأنهار ، والأموال والملك والجاء .

٥٩ - كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ .

أى : كان الأمر حقاً كما قلنا ، وكذلك كان إخراجنا كما وصفنا ، وورثنا بنى إسرائيل مثل تلك الثروات ، وتحولوا من العبودية إلى الحرية والاستقلال ، والترف والنعيم فهى وراثته لنوع ما كانوا فيه من جنات وعيون ، قال تعالى : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ... (الأعراف : ١٣٧) . ولم يعرف أن بنى إسرائيل عادوا إلى مصر ، لكنهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملته .

وقال سبحانه : وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . (القصاص : ٥) .

٦٠ - فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ .

أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس على خليج السويس .

٦١ - فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ .

فلما اقترب الفريقان من بعضهما ، وصار كل فريق يرى الفريق الآخر ، اشتد الخوف بينى إسرائيل ، وقالوا : إن فرعون وجنوده يلاحقوننا ونخشى أن نتعرض للإبادة أو القتل على يد فرعون وجنوده .

٦٢ - قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

أى : قال موسى لقومه : كلاً ، لن يدركنا فرعون ، ولن نهلك غرقاً فى البحر ، ولن نهلك قتلاً على يد فرعون ، فقد وعدنى الله بالنجاة والهداية ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، ومن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، بهذا اليقين والثقة فى النصر قال موسى : كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ .

ولم يكن يعلم حتى هذه اللحظة ، ما هى وسيلة النجاة .

٦٣ - فَأَرْحَمْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ .

أى : ألهم الله موسى وأمره أن يضرب البحر بعصاه ، وكانت قدرة الله وآيته ، فانفلق البحر ، وتشققت به طرق يابسة ، صالحة للمشى ، وعلى الجوانب مياه قائمة كالجبال ، ويسر الله لهم اثنى عشر طريقاً فى البحر ، بعدد أسباط بنى إسرائيل ، لكل سبط منهم طريق .

قال تعالى : فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخْفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . (طه : ٧٧) .

٦٤ - وَأَرْزَلْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ .

أى : قربنا من البحر هنالك الآخرين ، وهم فرعون وجنوده فتبعوهم .

٦٥ - وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ .

أى : أنجينا موسى ومن معه من المؤمنين ، فلم يغرق منهم أحد ، وكان هذا معجزة لموسى ، وآية ظاهرة على رسالته .

٦٦ - ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

أغرق الله فرعون وجنوده أجمعين ، فلم يبق منهم أحداً ، وحاول فرعون إظهار الإيمان بإله بنى إسرائيل فى اللحظة الأخيرة ، فأغلق الله فى وجهه هذه التوبة ، التى جاءت بعد ظهور شبح الموت .

قال تعالى : وَجَنَزْنَاهُ بَيْنَ يَدَيْ إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْفَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؕ ءَالْتَمَسْنَا وَقَدْ غَضِبْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِلِينَ ؕ قَالِیَوْمَ نُنَجِّیْكَ بِیَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقْنَا ءَايَةً وَإِنْ كَثِیرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ ءَايَتِنَا لَغٰفِلُونَ . (یونس : ٩٠ - ٩٢) .

وقال تعالى: فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَبْ لَنَا قَوْمٌ مُجْرُمُونَ * فَأَسْرِبْ بَعَادَى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ * وَاتْرَكِ الْبَحْرَ زَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوُجُوهِ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَالْكِيهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ . (الدخان: ٢٢ - ٢٩).

٦٧ - إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

إن فيما ذكر من قصة موسى، ونجاته مع المؤمنين به، وغرق فرعون وجنوده، آية واضحة، ودليلاً ظاهراً على قدرة الله تعالى، حيث نجى المؤمنين، وأهلك الطغاة المعتدين .

وهذه الآية من شأنها أن تأخذ بيد الناس إلى الإيمان، لكن أكثر الناس من القبط لم يؤمنوا، بعد أن شاهدوا ما شاهدوا، أو أكثر بنى إسرائيل لم يستقر الإيمان في قلوبهم، بدليل أنهم شاهدوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة .

٦٨ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

وإن الله سبحانه وتعالى لهو المنتقم من أعدائه، والرحيم اللطيف بأوليائه، كما أهلك فرعون وغيره من العتاة الظالمين، وكما نجى موسى وغيره من المرسلين .

قصة إبراهيم عليه السلام

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَا فَنظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ أَلا تَدَّبَّرُونَ ﴿٧٦﴾ فَانْتَهَمَ عِدْوَتِي إِلَى الرَّبِّ الْعَلَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

تمهيد :

تأتى قصة إبراهيم الخليل تسرية لرسول الله ﷺ ، وتخليداً لذكرى أبى الأنبياء ، وإرشاداً إلى سلوكه الممتاز ، فى نذب الأصنام ، وبيان أنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر ، ولا تستحق العبادة ، وأن من يستحق العبادة هو الله وحده ، الخالق الرازق المحيى المميت ، الباعث ، الحسيب الرقيب ، الذى هو على كل شئ قدير .

التفسير :

٦٩ ، ٧٠ - وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ .

أى : اتل على قومك المشركين قصة إبراهيم الخليل ، فقد كانوا يفتخرون بأنهم على دين إبراهيم ، فبين لهم إخلاص إبراهيم ، وتجرده وشجاعته ، حين سأل أباه وقومه ، عن عبادتهم وآلهتهم التى يعبدونها .

٧١ - قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَظِيمِينَ .

قال قوم إبراهيم له : نعبد هذه الأصنام ، ونظل مقيمين على عبادتها فى الليل والنهار .

٧٢ ، ٧٣ - قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ .

هل تسمع الأصنام عبادتكم وديعاءكم ، هل تملك أن تجلب لكم نفعاً ، أو تدفع عنكم ضرراً ؟ إذن ما الفائدة من عبادة ما لا يسمع ولا يعقل ، ولا يجيب ولا ينفع ولا يضر .

٧٤ - قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَّالِكَ يَفْعَلُونَ .

لم يجدوا حجة ولا دليلاً على استحقاق الأصنام للعبادة ، غير حجة التقليد الأعمى ، واتباع الآباء والأجداد .

قال تعالى : أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . (البقرة : ١٧٠) .

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ - قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

جهر إبراهيم بالحق بدون مجاملة أو خجل أو مواربة ، فقال لهم فى صراحة : إن هذه الأصنام التى تعبدونها ، وقد عبدها آباؤكم السابقون ، أنا لا أعترف بألوهيتها ، وأجاهر بعبادتها ، فهى لا تسمع ولا تجيب ، ولا تنفع ولا تضر ، وأنا لا أعبد إلا الله تعالى ، خالق الكون كله ، ورب الخلائق أجمعين .

وهو قريب من قول هود عليه السلام : إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (هود : ٥٤ - ٥٦) .

ثم ذكر إبراهيم صفات الرب الذى يعبده ويتبتل إليه ويعترف بأفضاله فقال :

٧٨ - الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ .

إنه الخالق الذى وهبنى حياتى ووجودى ، وعقلى وفكرى ، وهياً لى طرق الهداية ، وأودع فى العقل والفكر والاختيار .

كما قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ فَسُوِّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . (الأعلى : ٣٠) .

فهو سبحانه الخالق الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، والذى أودعه أسباب الهداية والمعرفة .

قال تعالى : هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ١ - ٣) .

٧٩ - وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ .

وهو سبحانه سائق السحاب ، ومنزل المطر ، ومحيط الأرض بعد موتها ، ومقدر الأرزاق فى الأرض ، ومرسى الجبال لتحفظ بالمياه فى رعوها ، قال تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ

شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَلَكَهَةً وَأَنْبًا * مَتَّعْنَاكُمْ وَلِأَنْعَمَكُمُ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

وقد أضاف إبراهيم النعم إلى الله في أدب وتجرد ، وتحبب إلى الله ، فنسب إليه كل خير ، ونسب المرض إلى نفسه ، فقال :

٨٠ - وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ .

وإذا طرأ على مرض ، فهو سبحانه الذى ينعم على بالشفاء منه .

وقريب من ذلك قول فتى موسى : وَمَا أَنَسِيَهُ إِلَّا السَّيْطَانُ ... (الكهف : ٦٣) ، وكما قالت الجن : وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرَ أُرِيدَ بَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . (الجن : ١٠) .

٨١ - وَالَّذِي يُؤَيِّنُ ثَمَّ يُخَيِّنِ .

فهو الإله القادر الذى يهب الحياة للأحياء ، والذى يميئنى عند نهاية عمرى وانتهاء أجلي ، ثم يحيينى يوم القيامة للبعث والحساب والجزاء ، وكل ذلك لا تقدر عليه أصنامكم .

٨٢ - وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ .

إن الله سبحانه يتصف بكل كمال ، ويتنزه عن كل نقص ، فهو الخالق الرازق ، وهو المحيي المميت ، وهو صاحب الفضل والعطف والرحمة ، فأنا أمل وأطمع أن يغفر لى ذنوبى ، ويصفح عن خطيئتى يوم القيامة ، والله تعالى يعصم الأنبياء والمرسلين من اقتراف الذنوب والمعاصى ، لكنه ربما اقترف خلاف الأولى ، أو ارتكب بعض المخالفات أو الصغائر ، فسامها خطيئة ، هضما لنفسه ، ورغبة فى استئزال رحمات ربه ، وتعليل للمخاطبين وإرشاداً لهم ، وتحبيباً لله تعالى إلى خلقه ، فهو غافر الذنب وقابل التوب ، وهو الرحمان الرحيم .

جاء فى صحيح مسلم عن عائشة ، قلت : يا رسول الله ، ابن جُدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطلع المسكين ، فهل ذلك نافع ؟ قال : «لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»^(٢٢) .

ويوم الدين هو يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم .

دعاء

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي
 الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِي إِنَّكَ كَانِ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)
 وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴿

المفردات :

الحكم : هو العلم بالخير والعمل به .

ألحقني بالصالحين ، وفقني للأعمال التي توصل إلى الانتظام في زمرة الكاملين ، المنزهين عن كبائر
 الذنوب وصغائرها .

لسان صدق ، ذكرنا جميلاً بين الناس ، بتوفيقى إلى الطريق السليم ، حتى يقتدى بهى الناس من بعدى ،
 ومن كلام الحكماء : « قد مات قوم وهم فى الناس أحياء » .

من ورثة جنة النعيم ، ممن يدخلون الجنة ، ويتمتعون بنعيمها ، كما يتمتع الوارث بميراثه .

السخـزى ، الهوان .

القلب السليم ، البعيد عن الكبائر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

تمهيد :

هذا دعاء من إبراهيم ، وفيه ذكر الله ، وتفويض الأمور إليه ، وفى الحديث : « من شغله ذكرى عن
 مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

التفسير :

٨٣ - رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ .

يارب وفقنى وألهمنى الحكمة ، والصدق فى القول ، والصواب فى العمل .

وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ .

وفقنى للأعمال الصالحة لأدخل فى زمرة الصالحين من عبادك ، فدرجة الصلاح درجة سامية ، هى
 أن يكون العبد طائعا لله ، كأنه قدر الله وتوفيقه ، وقد وصف الله بعض الأنبياء بالصلاح فقال : وَكُنَّا مِنْ
 الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) .

وفى التشهد «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ومن أدعية الملائكة الاستغفار للمؤمنين ، والدعاء لهم بالمغفرة ودخول الجنة ، والوقاية من النار .

وروى أن النبي ﷺ قال فى دعائه : «اللهم أحيينا مسلمين ، وأميتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبذلين» .

٨٤ - وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ .

أى : اجعل لى ذكراً حسناً ، وحياً فى قلوب الخلق ، حتى أكون قدوة حسنة لمن بعدى ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال سبحانه : وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

(الصفات : ١٠٨ - ١١٠)

٨٥ - وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ .

أى : اجعلنى ممن يدخلون الجنة ، ويتمتعون بنعيمها ، كما يتمتع الوارث بالميراث .

قال تعالى : وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورَثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الزحرف : ٧٢) .

٨٦ - وَاغْفِرْ لِأَيِّبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ .

أى : سامح أبى واغفر ذنوبه ، واستر عيوبه ، لأنه ضل عن الحق وعبد الأصنام .

قال تعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة : ١١٤) .

٨٧ - وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ .

أى : لا تفضحنى بعتاب على ما فرطت ، أو ينقص منزلتى فى الآخرة ، وأجرنى من الخزى والهوان ، يوم القيامة ، يوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم ، وفى هذا المعنى ورد من الأدعية فى القرآن الكريم : رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . (آل عمران : ١٩٢) .

٨٨ ، ٨٩ - يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

فى يوم القيامة لا ينفع الإنسان ماله وإن كثر ، ولا ابنه ، وإنما ينفعه الإيمان بالله وباليوم الآخر ، والإخلاص لله ، والبعد عن النفاق والرياء والشرك .

فلا ينفع في يوم القيامة منصف ولا جاه ، ولا مظهر ولا وجاهة ، ولا أى قيمة من القيم التى يحرص عليها المرءون ، إنما القيمة العليا فى ذلك اليوم ، لإخلاص القلب لله ، والبعد به عن الشهوات والانحرافات ، والمراد بالقلب السليم الخالى من شوائب النفاق والشرك ، والرياء وحب المظاهر . قال تعالى : **فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** . (البقرة : ١٠) .

ونلمح فى الآيات السابقة توفيق إبراهيم ، وتجرده مخلصا لله ، وذكره لآلاء الله ، ودعائه لله دعاء رخصيا نديا ، ينبض بالإخلاص حيث دعا الله أن يرزقه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أخرج أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، عن ثوبان قال : لما نزلت : **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...** (التوبة : ٣٤) ،

قال بعض أصحاب رسول الله ﷺ : لو علمنا أى المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله ﷺ : «أفضله :

لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن على إيمانه» (٣٣) .

★ ★ ★

﴿ وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٠٠ ﴾ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ١٠١ وَقِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ١٠٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ١٠٣ فَكَبَّكَوا فِيهَا هُمْ وَأَنفَاؤُنَ ١٠٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ١٠٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ١٠٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٠٧ إِذْ نُسَبِّحُكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٠٨ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ١٠٩ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ١١٠ وَلَا صَاحِقِينَ ١١١ جَمِيعَ قُلُوبِنَا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتُخَدِّعُكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١١٢ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١١٣ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعَزُّ الرَّحِيمِ ١١٤ ﴾

المضردات :

أزلفت : قريت .

برزت ، جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها .

الغاوين ، الضالين عن طريق الحق .

فكبكوا ، ألقوا على وجوههم مرة بعد أخرى ، من قولهم : كبه على وجهه ، أى : ألقاه .

يختصمون ، يخاصمون من معهم من الأصنام والشياطين .

نسويكم؛ نجعلكم مساوين له في استحقاق العبادة .

الصديق، الصادق في وده .

الحميم، هو الذى يهيمه ما أمك .

الكرة، الرجعة .

تمهيد :

فى هذه الآيات وصف ليوم القيامة حيث ينعم المتقون بالجنة ، ويعاقب المجرمون بالنار ، واقتصر فى وصف الجنة على آية واحدة ، ثم أسهب فى وصف جهنم وأهلها ، واختصامهم وحسرتهم فى جهنم، وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليكونوا من المؤمنين .

التفسير :

٩٠ - وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ .

وقد قربت فى يوم القيامة الجنة لمن اتقى الله تعالى وخاف عقابه ، كما قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . (ق : ٣١) .

٩١ - وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ .

أظهرت الجحيم للضالين عن الحق ، المنصرفين عنه إلى الغي والضلال ، بحيث يشاهدونها ويدركون أهوالها ، ويتيقنون بالعذاب فيها .

قال تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

٩٢ ، ٩٣ - وَقِيلَ لَهُمْ أَنِمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ .

أى : سئل أهل النار سؤال تقريع وتوبيخ ، لا سؤال استفهام . وقيل لهم : أين الأصنام ، والآلهة المدعاة التى عبدتموها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم وينقذونكم من النار ، بل هل ينتصرون لأنفسهم هم حين يلقون فى النار ، أذلاء تحرقهم النار ؟ كما قال تعالى : وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... (التحريم : ٦) .

٩٤ ، ٩٥ - فَكَبِهُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ .

أى : تكرر إلقاء العصاة فى جهنم ، فى صورة زرية منكرة ، تحس بها من هذا اللفظ المعبر : فَكَبِهُوا فِيهَا ... أى : ألقوا فيها جموعا فوق بعضها ، أو ألقوا فى النار على وجوههم ، من كبه : إذا دفعه فى النار على وجهه ، قال تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . (القمr : ٤٨) .

ونلاحظ أن الآلهة المدعاة تلقى أولاً ، ثم يلقى بالغاوين ، لينقطع رجالوهم وتشتد حسرتهم ، حين يشاهدون الآلهة تدفع فى جهنم دفْعاً وتدعُ دعا ، ثم يلقى فى جهنم جميع جنود إبليس ، وأتباعه الذين أطاعوه وعملوا فى خدمته ، والجميع من جنود إبليس ، فهو تعميم شامل بعد تخصيص .

٩٦ - قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ .

أى: قال الغاوون وهم يخاصمون من معهم فى جهنم، من الأصنام والشياطين والآلهة المدعاة.

٩٧ ، ٩٨ - تَالَلَّهِ إِن كُنَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

والله ما كنا إلا في ضلال واضح ، حين تركنا عبادة الله وحده ، وعبدنا معه أصناماً لا تضر ولا تنفع ، ولا تشفع ولا تنقذ .

والآيات تصوّر أهل النار ، فى مشهد حى مُشاهد ، كأنه واقع منظر ، حيث تلقى الأصنام والآلهة المدعاة فى النار أمام عبادها ، وحيث يتبرأ العباد من ألوهيتها ، ويندمون أشد الندم ، ولكن بعد فوات الأوان .

٩٩ - وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ .

لم يخرجنا عن طاعة الله إلى طاعة الشياطين والأصنام، إلا الرؤساء والقادة والكبراء، الذين أغرونا بالكفر بالله واتباع غيره، فهم مجرمون معتدون علينا، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُفَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا لَسَانَهُمْ * رَبَّنَا آهِمْ عَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا * وَالْعَذَابَ لَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَأَكْثَرُونَ (الأحزاب: ٦٧، ٦٨).

١٠٠، ١٠١ - فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَاحِبِ حَمِيمٍ .

فليس لنا اليوم شافع يشفع لنا، فينقذنا من العذاب، ولا صديق مخلص، يسعى لرحمتنا وإنقاذنا مما نحن فيه، ونلاحظ أن الشافعين جاءت بالجمع، لكثرة الشافعين في ذلك اليوم من المؤمنين، أما الصديق الحميم فجاء مفردة، للدلالة على ندرة الصديق، خصوصاً في وقت الضيق.

والخلاصة :

أن الأمر قد بلغ بهم من شدة الهول ، مبلغًا عظيمًا ، فهم فى النار خالدون مكدون ، وهم يتأسفون على حالهم ، ويندمون على عبادة غير الله ، ثم يظهرن الحسرة واللهفة على عدم وجود شقيق يشفع لهم ليخلصن مما هم فيه ، أو حتى مجرد صديق يتوجع لألمهم ، ويشاطرهم أحزانهم .

١٠٢ - فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : ليت لنا كرة ورجعة إلى الدنيا ، لنندارك ما فاتنا ، ونعمل صالحاً ، ونؤمن بالله تعالى وملائكه وكتبه ورسله واليوم الآخر ، حتى إذا متنا لا ينالنا ذلك العذاب ، والقرآن هنا يصور مواقف القيامة ، كأنها حاصلة مشاهدة أمام العين ، ليتدارك الإنسان نفسه قبل ضياع عمره .

قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصِلِّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

١٠٣ - إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

أى : فيما ذكر من قصة إبراهيم الخليل ، وجداله مع قومه ، وإلزامهم الحجة ، وفى عرض مواقف الحشر والحساب والجزاء ، آية وعظة وعبرة لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

وما كان أكثر قوم إبراهيم بمؤمنين بالله ورسوله .

١٠٤ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

إن الله تعالى القوى القادر ، له العزة جميعا ، والغلبة والأمر كله لله ، وهو مع ذلك رحيم بعباده يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن المذنبين ، ورحمته وسعت كل شئ ، وهو الرحمان الرحيم .

ويتكرر هذا التعقيب عقب قصة نوح مع قومه ، وهود مع عاد ، وصالح مع ثمود ، ولوط مع قومه ، كما جاء تعقيبا على آية وقعت للمكذابين .

وخلاصة هذا التعقيب :

فى هلاك الظالمين فى الدنيا ، وعذابهم فى الآخرة ، عظة وآية ، وقد كان سبب هلاكهم عدم إيمان أكثرهم ، وفى هذا التعقيب تسلية للرسول الأمين ، وتبصرة للمؤمنين بأن الله هو الغالب العزيز ، وهو الرحيم بعباده حيث خلقهم ورزقهم ، وأرسل لهم الرسل ، ثم بين لهم عاقبة أمرهم فى الآخرة ، ليتبصروا ويعتبروا .

قصة نوح عليه السلام مع قومه

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١١٠﴾﴾ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأذلة ﴿١١١﴾ قال وما علي بما كانوا يعملون ﴿١١٢﴾ إِنْ حَسِبْتُمْ إِلَّا عَلَى رَيْفٍ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قالوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قال رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذِبُونَ ﴿١١٧﴾ فَأَفْضَحْ بَنِي وَيَسْأَلُونِي فَتَحَاوَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجِنِي وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كُنَّا أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنْ رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

المفردات :

القوم : اسم لا واحد له من لفظه ، كرهط ونفر ، يذكر ويؤنث .

أخوههم : أخوة نسب ، كما يقال : يا أخا العرب ، ويا أخا تميم ، يريدون : يا من هو واحد منهم .

قال الحماسي :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

الأذلة : واحد : أذله .

والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم لاتضاع نسبهم ، وقلة حظوظهم من الدنيا .

من المرجومين : من المقتولين رميا بالحجارة .

فصافتج : احكم ، من الفتاحة بمعنى الحكومة ، أي : احكم بيني وبينهم حكماً .

نجنسى : من شؤم عملهم .

المشك : يطلق على الواحد والجمع .

المشحون : المملوء بالناس والحيوان .

السياقين ، من قومه .

لايـــــة ، عبرة شاعت وتواترت .

تمهيد :

هذه قصة نوح عليه السلام ، وهو أوّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، بعد أن عبّدت الأصنام والأنداد . فنهاهم عن ذلك ، وحذّروهم من وبال عقاب ربهم ، ومكث فيهم ألف سنة إلا خمسين ، فكذبوه قومه فدعا عليهم : فأغرقهم الله عقاباً لهم ، ونجى الله نوحاً ومن معه من المؤمنين .

التفسير :

١٠٥ ، ١٠٦ - كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحًا الْمُرْسَلِينَ ۖ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ .

تأتى قصة نوح فى سلسلة عدد من المرسلين ، دعوا أقوامهم إلى توحيد الله ، والتمسك بالفضائل . ولكن أقوامهم كذبوهم فاستحقوا عقاب الله تعالى .

ونلاحظ هنا أن قوم نوح كذبوا نوحاً وحده ، لكن لما كانت دعوة الرسل واحدة ، كان تكذيب رسول منهم تكذيباً لهم أجمعين .

والمعنى :

كذبت قوم نوح رسالات السماء ، حين قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون الله وتراقبونه ، وتؤمنون به سبحانه .

ونلاحظ أن نوحاً نشأ بينهم ، وهم يعرفون حسبه ونسبه وأمانته ، وكل ذلك يكون داعياً إلى تصديقه ، لكن المكذبين يرون أن الرسالة امتياز ، فيجدون ويكذبون ، حتى لا يتفضل الرسول على قومه ، ولا يتميز عليهم ، وهو لون من ألوان الحقد ، كما قال تعالى على لسان قوم نوح : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ... (المؤمنون : ٢٤) .

١٠٧ ، ١٠٨ - إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

إنى رسول من عند الله أرسلنى إليكم ، وإنى أمين على وحى السماء ، لا أغير فيه ولا أبذل ، وإنما أنطق بالحق والصدق .

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

أى : راقبوا الله واتبعوا وأمنوا به ، وأطيعونى فيما أمركم به من توحيد الله وطاعته ، والتصديق برسله وكتبه ، والإيمان بالبعث والجزاء والجنة والنار .

١٠٩ - وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجراً ، ولا مالاً ولا جعلاً ، لأن أجرى وجزائى عند الله ، فأنا أقوم بتبليغ رسالة الدين خالصة لوجه الله تعالى .

وقد كان الكهان ورجال الدين يستغلون الدين فى جمع المال ، بل والاحتياال بطرق عديدة ، لجمع الأموال من الناس ، لذلك صرح الرسل فى رسالاتهم بأن أجرهم على الله ، فهم أمناء على دعوة الله ، وهم يبلغونها ابتغاء مرضاة الله .

قال تعالى : الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . (الأحزاب : ٣٩) .

١١٠ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

كرر الأمر بتقوى الله ، لأنها رأس الفضائل ، وقدمها على طاعته ، لأن من خاف الله وراقبه ، يجرى خيره ويبره وطاعته لرسول الله . وتكرير التقوى هنا لترسخ فى أذهانهم ، وتلين قلوبهم ، وتظير هذا قول الأب لابنه : اتق الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيراً ، اتق الله فى عقوقى وقد علمتك كبيراً .

١١١ - قَالُوا آمَنُومُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأُوْدُلُونَ .

أتباع الرسل عادة يكونون من الفقراء والبسطاء ، لأنهم يؤمنون بالحق ، ويصدقون بوحى السماء ، بدون نظر إلى ربح أو خسارة ، أما المترفون فتشغلهم اللذات والمحرمات واتباع الهوى ، والإسراف على النفس ، عن الإيمان بالرسول ، قال تعالى : وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمُودٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ . (الزخرف : ٢٣) .

ومعنى الآية :

أنصدق برسالتك يا نوح ، ونحن نرى أتباعك من الفقراء والبسطاء ، وأصحاب الحرف المتدنية ؟ فكيف نجلس - ونحن الأغنياء والشرفاء - مع الفقراء الذين لا حسب لهم ولا نسب ؟ فهم من الأراذل الذين انحط نسبهم وقل قدرهم . وما علموا أن الله كرم الإنسان بعقله ، وميزه به على جميع المخلوقات ، فمن فكر وآمن بالله ورسله ، فقد حاز الشرف والأجر ، أما الكافر فهو متعرض لغضب الله والخزى والهوان ، قال تعالى : رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلْ آثَارَ أَخْرَجْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . (ال عمران : ١٩٢) .

١١٢ - قَالَ وَمَا عَلَّمِي مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

كَانَ الْكَفَّارُ ادْعُوا أَنْ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ وَالْبُسَطَاءُ قَدْ اتَّبَعُوا نُوحًا لِيُنَالُوا شَرْفًا فِي الدُّنْيَا ، وَمَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنَازِلَتِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُمْ نُوحٌ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَضُمَّهُ إِلَى قَائِمَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْ يَقْبَلَ ظَوَاهِرَهُمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقَبَ عَنْ بَوَاطِنِهِمْ ، لِأَنَّ الْمَطْلَعَ عَلَى الضَّمَائِرِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِ النَّاسِ وَلَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، «فَالْخَلْقُ جَمِيعًا عِبَادُ اللَّهِ ، يَدْرِكُونَ ثَوَابَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَيَتَفَاضِلُونَ عَنْهُ بِالتَّقْوَى» . وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : يَتْلَاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

١١٣ - إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ .

مَا حِسَابُهُمْ وَجَزَائُهُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ الْمَطْلَعِ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَلَوْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الشُّعُورِ وَالْإِدْرَاكِ لَعَلِمْتُمْ ذَلِكَ .

١١٤ - وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ .

كَانَهُمْ شَرَطُوا عَلَى نُوحٍ ، أَنْ يَطْرُدَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِهِ ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَيَّانٍ فِي «الْبَحْرِ الْمَحِيْطِ» ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى لِسَانِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرْسَلْتُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ • وَيَقُولُونَ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (هود : ٢٩ ، ٣٠) . وَقَدْ حَاولَ رُؤَسَاءُ قَرِيْشٍ مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنعام : ٥٢) .

١١٥ - إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ شَبِيْهُ .

مَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، أَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ، وَأُنْذِرُ الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ ، فَمَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ فِي زَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، سِوَاهُ أَكَانَ شَرِيفًا أَمْ وَضِيعًا ، جَلِيلًا أَمْ حَقِيرًا .

١١٦ - قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَنْتُوحُ فَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ .

طال مكث نوح فى قومه يدعومهم إلى توحيد الله ، ويناقشهم بالحجة والبرهان والأدلة العقلية ، ولما أفحمهم لجأوا إلى التهديد بالقوة فقالوا : لئن لم تنته يا نوح عن دعوتك لنا إلى الإيمان برسالتك ، وعن تحقيرك للأصنام التى نعبدُها ، لنزجمنك بالحجارة حتى تموت ، ولما هددوه بالقتل لجأ إلى الله يبيته أحواله ، ويشكو إليه تكذيب قومه ، ويطلب منه النصر والمعونة .

١١٧ ، ١١٨ - قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَاتَّبَعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَتْحًا وَنَجَّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : قال نوح لربه شاكيًا متضرعًا مستغيثًا به : إن قومي كذبوا رسالتى وأعرضوا عني ، وازدادوا عتوًا وتصميمًا على الكفر ، وقد ورد هذا المعنى بالتفصيل فى سورة نوح وغيرها ، مثل قوله تعالى : قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا . وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِيْ عَادَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَآسَتْكِرُوا أَسْكِارًا . (نوح : ٥ - ٧) .

فَاتَّبَعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ قَتْحًا ...

اقض بيننا بحكمك العادل ، الذى ينصر الحق ، ويخذل الباطل ، وينجي المؤمنين ، ويهلك الكافرين .

وَنَجَّيْ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : أنقذنى ومن آمن بى من مكرهم وكيدهم وعدوانهم .

١١٩ - فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلْكِ الْمَشْحُونِ .

كان الله قد أوحى إلى نوح أن يصنع سفينة لينجو بها مع قومه المؤمنين من الطوفان الذى يصيب الكافرين ، وكان الكفار يسخرون من نوح ومن عمله ، حيث يصنع سفينة فى منطقة يابسة ليس بها ماء ، والسفينة لا تجرى على اليبس .

قال تعالى : وَيُصْنَعُ الْفَلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ... (هود : ٣٨) .

وفى الوقت المعين ، أمطرت السماء ، وفجر الله عيون الأرض ، وتلاقت المياه واشتد الطوفان ، وأغرق الله الكافرين ، ونجى المؤمنين ، فى الْفَلْكِ الْمَشْحُونِ . أى : الممتلئ عن آخره ، قال تعالى : فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ

فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَّرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ
الْأَرْحِ وَدُسِرَ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ .

(الفرق ١٠ - ١٦)

١٢٠ - ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ .

بعد نجاة نوح في السفينة ، ومعه من كل زوجين اثنين ، يسر الله له مقومات الحياة ، ونجاه بسلام
وأمان من الطوفان هو والمؤمنين ، ثم أغرق الله الباقين من قومه على الكفر ، أو الباقين خارج السفينة
لكفرهم .

١٢١ - إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ .

إن فيما تقدم من هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ، لعظة عظيمة وعبرة لمن تدبر وتفكر ، وما كان
أكثر قوم نوح بمؤمنين ، ولذلك استحقوا الهلاك وعقوبة السماء ، وفي هذا تهديد لأهل مكة : أن أفيقوا
وتنبهوا ، وآمنوا حتى لا يصيبكم ما أصاب المكذبين من الأمم قبلكم .

١٢٢ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

فهو سبحانه الرب الكريم صاحب العزة والجبروت ، فلا يقهر ولا يذل ، وهو الغالب على ما يريده ،
القادر على استئصال أعداء دينه ، وهو على كل شيء قدير ، وهو سبحانه الرحيم بخلقه ، فلا يعاجلهم
بالعقوبة ، بل يمهلهم أحقاباً ودهوراً ، ويقبل توبة التائبين ، ويغفر للمستغفرين .

قصة عاد قوم هود عليه السلام

﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٢٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٠﴾ أَتَتَّبِعُونَ كُلَّ رِيعٍ ﴿١٣١﴾ أَيَّاهُ تَعْبَثُونَ ﴿١٣٢﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٣﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٣٤﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣٥﴾ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَجَنَّتْ وَعْيُونُ ﴿١٣٨﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٩﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَطَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا لَأَخْلَقَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤١﴾ وَمَنْحَنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٤﴾﴾

المضردات :

عَاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويُعبّر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب ، أو ببنى فلان أو آل فلان .

الرَّيْع : «بالفتح والكس» المكان المرتفع ، ويقال : كم ريع أرضك ؟ أى : ارتفاعها .

أَيَّاهُ : قصراً مشيداً عاليًا .

تَعْبَثُونَ : تتخذون اللعب ، وتفعلون ما لا فائدة فيه .

مَصَانِعُ : قصوراً مشيدة ، وحصونا منيعة .

لَعَلَّكُمْ : معناها هنا : التشبيه ، أى : كأنكم تخلصون .

الْبَطِشُ : الأخذ بالعنف .

الْوَعِظُ : المتسلط العاتى بلا رأفة ولا شفقة .

أَمَدَّكُمْ : سخر لكم .

الْوَعْدُ : كلام يلىن القلب بذكر الوعد والوعد .

خَلَقَ الْأَوَّلِينَ : عادتهم التى كانوا يدينون بها ، ونحن مقتدون بهم .

وما نحن بمعتدين ، على ما نحن عليه .

فكذبوه ، بالعذاب .

فأهلكناهم ، بسبب التكذيب فى الدنيا ، بريح صرصر .

تمهيد :

بعد هلاك قوم نوح بالطوفان ، جاء بعدهم عاد ، وكانوا يسكنون فى جنوب الجزيرة العربية قرب حضرموت ، بالأحاف : وهى جبال الرمل بين سلطنة عمان واليمن ، وقد ظهرت حفريات فى سلطنة عمان ترجح وجود قرية عظيمة البنيان والمصانع ، يرجح أنها قرية عاد ، التى أهلكها الله بالريح العاتية ، وفى سورة الأعراف يقول الله تعالى على لسان هود نبي الله إلى عاد : **وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ... (الأعراف : ٦٩) .**

التفسير :

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ - **كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .**

كذبت عاد رسول الله إليهم ، حين قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون الله وتراقبونه وتخافون بأسه ، فقد أهلك قوم نوح حين كذبوا .

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . ناصح مخلص فى تبليغ الرسالة ، فاتقوا الله واستجيبوا لدعوته ، وأطيعوا فيما أمركم به .

ومن هذه المقدمة نلاحظ اتحاد الرسائل فى الدعوة إلى توحيد الله ، فكل رسول كان يأتى ليبليغ هذه الدعوة ، ويمضى فى طريقه ، ويحاول أن يشرح لهم الرسالة التى يحملها ، ومضمون ما تقوم عليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

١٢٧ - **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .**

لا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجراً ولا مالا ، فأجرى جزائى أرجوه من ربى ، الله رب العالمين .

١٢٨ - **أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ عَايَةً تَبْتَغُونَ .**

أتبتنون بنىة بكل مكان مرتفع من الأرض ، مثل أبراج الحمام التى تبنى للهوى والعبث ، وكل مكان مرتفع تبنى به بنىة للهوى والترف .

قال ابن كثير :

الريع : المكان المرتفع ، كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنياناً محكماً هائلاً باهرًا ، لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبههم عليه السلام ذلك ، لأنه تضییع للزمان ، وإتعايب للأبدان ، واشتغال بما لا يجدى فى الدنيا ولا فى الآخرة .

١٢٩ - وَتَتَخَلَّدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ .

تتخذون قصورًا مشيدة محكمة ، أو سدودًا للمياه .

قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنیان المخلد ، وفى رواية عنه : بروج الحمام .

وقال قتادة : هى مأخذ الماء .

والمعنى على العموم هو :

وتتخذون سدودًا لحبس المياه ، أو حصونًا منيعة وقصورًا مشيدة ، مؤملين الخلود فى الدنيا ، كأنكم لا تعرفون الموت ، ولا تحسبون بسكان القبور .

والمقصود من ذمهم : اهتمامهم بدنياهم ، دون العمل لأخراهم ، فلو عملوا لهما جميعًا ، لما عيب عليهم ما صنعوه لدنياهم ، فى غير سرف ولا مخيلة .

١٣٠ - وَإِذَا بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ .

وإذا عاقبتم سواكم أسرفتم فى البغى عليهم ، جبارين غاشمين ، دون رافة أو رحمة .

قال الفخر الرازى :

وصفهم بثلاثة أمور :

١ - إتخاذ الأبنية العالية ، وهو يدل على السرف وحب العلو .

٢ - إتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود .

٣ - الجبارية : وهى تدل على حب التفرد بالعلو ، وكل ذلك يشير إلى أن حب الدنيا قد استولى عليهم ، بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول ادعاء الربوبية ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

١٣١ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

خافوا الله ، واتركوا هذه الأعمال ، وأطيعوا أمرى .

١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ - وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيَّنَّ « وَجَّسَتْ وَغُيُونَ .

خافوا الله الذى أنعم عليكم بنعم تعلمونها وتشاهدونها ، من أنواع النعماء والآلاء ، أمدكم بالإبل والبقر والغنم ، وأمدكم بالبنين لتكثروا ، وليعاونوكم فى حفظ أنعامكم وتنميتها ، وليحملوا عنكم بعض أعبائكم ، وأمدكم ببساتين مثمرات ، وعيون بالماء جاريات .

ونلاحظ أن نبي الله هود قد تدرج معهم فى ذكر عيوبهم وتكبرهم وتجبرهم ، ثم تطفم معهم فى ذكر أنعم الله عليهم ، حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم ، وبذلك أيقظهم من غفلتهم ، ونبههم إلى شكر ربهم خشية نزول العذاب بهم .

١٣٥ - إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : إبنى أخاف عليكم - إن لم تؤمنوا بالله وتطيعوا أمره - عذاب يوم القيامة ، الذى يشيب من هوله الوليد . أو أخاف عليكم عذاب الله فى الدنيا ، وهو عذاب عظيم ، حيث ينزل بكم العذاب ، فيصيبكم الفناء ، " حيث كانوا فى نعم وقوة وقدرة ، واستكبار وعتو ، قال تعالى : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَكْبَدُ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَكْبَدُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِبَاقِلَيْنَا بَیْجِدُونَ . (فصلت : ١٥) .

وهكذا نجد نبي الله هوداً يقدم لهم النصيح والموعظة الحسنة ، ويرشدهم إلى أنعم الله عليهم ، ويحذرهم من عقوبته ، لكنهم أصموا أذانهم عن نصيحته .

١٣٦ - قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعُظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ .

أى : يستوى عندنا تذكيرك لنا وعدمه ، فلا نبالى بما تقول ، ولا نزعوى عما نحن عليه .

قال أبو حيان : جعلوا قوله وعظاً ، على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به ، إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذب فيما ادَّعاه .

١٣٧ - إِنْ هَلَدْنَا إِلَّا خَلْقَ الْأَوَّلِينَ .

ما نحن عليه هو دين الآباء والأجداد ، أو هو سنة الدهر : أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا

الدهر، ولن يكون هناك بعث ولا جزاء، وهكذا استكثر أهل مكة البعث والحشر، كما قال تعالى: وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؕ أَوْ عَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ . (الواقعة : ٤٧ ، ٤٨) .

١٣٨ - وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ .

فلا بعث ولا حساب ولا جزاء ، أولن ينزل بنا عذاب في الدنيا ، وكذلك في الآخرة .

١٣٩ - فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

هذه خاتمة القوم في هذه القصة جاءت في كلمتين :

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ .

كذبوا رسولهم ، ولم يستمعوا إلى نصحه المتكرر ، وبيانه المستفيض ، وتعدد أنعم الله عليهم ، وتحذيره لهم من العقوبة ، بل تبجحوا وأنكروا البعث والحشر والجزاء ، واستمروا في تكذيب الرسول هود عليه السلام فأهلكهم الله ، حيث لم يفن عنهم طول أجسامهم ، ولا تشييد بيوتهم ومصانعهم ، ولا تجبرهم وبطشهم ، فأين قوة المخلوق من قوة الخالق ، وقد بينت سور القرآن الكريم أن الله أرسل عليهم ريحاً عاتية ، وأنهم حاولوا دفن أجسامهم في الرمال ، وإبقاء رءوسهم في الهواء ، فكانت الريح تقصف رءوسهم ، وتتركهم كالنخلة التي قطع رأسها ، وترك الجذر خراباً لا ثمر فيه ولا فائدة ، وقد طمرتهم الرياح ، وغفت على أنارهم وتمت إبادتهم عن آخرهم ، ليكونوا عظة وعبرة لسوء خاتمة المكذبين ، وما كان أكثر هؤلاء المهلكين بمؤمنين .

وفي سورة الحاقة وضع القرآن هذه المعاني بقوله تعالى : وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَّالٍ وَنَمْدِيَّةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَّارٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

١٤٠ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

إن الله هو القادر المنتقم من المكذبين الجاحدين ، الرحيم بالتائبين النادمين .

، قصة ثمود قوم نبي الله صالح

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُكُونُونَ فِي مَا هَلَنْتَاءَ أَمْنِيكُمْ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاهُنَا حُضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَبِيتَ بِبَنَاتِكُنَّ مِنَ الصَّالِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيبِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

المفردات :

الطَّلَع : أول ما يطلع من التمر ، ويَعْدَهُ يسمى خللاً ، ثم بلجاً ، ثم بسراً ، ثم رطباً ، ثم تمراً .

الهَضِيم : النضيج الرخّص ، اللين اللطيف .

السَّحَتْ ، النجر والبرى .

فارِهين : بطرين ، من الفره ، وهو شدة الفرح ، أو حاذقين ، من الفرامة : وهى النشاط ، فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب ، وقرئ : «فرهين» أى : بطرين ، وهو أبلغ .

المُسْحَرين : الذين سُحروا حتى ذهبت عقولهم .

المُسْرِف : «بالكس» ، النصيب والحظ .

فَعَقَرُوهَا : رموها بسهم ثم قتلوها .

تمهيد :

يتجاور القصص في القرآن الكريم ، وعادة تأتي قصة ثمود مع قصة عاد ، فقد كانوا عربياً يسكنون أطراف الجزيرة العربية ، تسكن عاد في الجنوب بين اليمن وسلطنة عمان ، وتسكن ثمود مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى والشام ، أي على طريق المدينة ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وتعرف اليوم بمدائن صالح ، وكان أهل قريش في رحلة الصيف يمرّون عليها وهم ذاهبون إلى الشام ، ومُرّ رسول الله ﷺ بهم حين أراد غزو الشام . وقال لأصحابه : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم »^(٣٧) .

وكانت ثمود بعد عاد ، وقبل إبراهيم الخليل عليه السلام ، والقصة ذكرت في عدد من سور القرآن الكريم ، وقد كانت هناك معجزة ظاهرة لثمود ، هي ناقه صالح ، تسقيهم لبناً في يوم ، وتشرب الماء في يوم ، ولكنهم كذبوا وقتلوا الناقة ، واستحقوا العذاب ، فأهلكهم الله العزيز القادر على المكذّبين ، الرحيم بالمؤمنين .

التفسير :

١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ - كَذَّبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

كذبت ثمود رسل الله أجمعين ، حين كذبت نبي الله صالحاً ، حين قال لهم صالح : ألا تتقون الله ، وتخافون عقابه ، إني لكم رسول أمين ، ناصح لكم ، أدعوكم إلى توحيد الله ، ونبت عبادة الأصنام ، وطاعة الله ورسوله ، فاتقوا الله وأطيعوني فيما أدعوكم إليه ، ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجراً ولا مالا ، فجزأتني وأجرى عند الله الخالق الرازق رب العالمين ، وخالق الأكوان ، وهو إله عالم السماء وعالم الأرض ، وعالم الفضاء وعالم الطير ، وعالم الحيوان وعالم الإنسان ، وعالم الجن ، وجميع العالمين .

وهذه الآيات بمضمونها تكررت في قصص الأنبياء السابقين واللاحقين ، لأن القرآن بهذا يؤكد وحدة الرسالات في الدعوة إلى توحيد الله ، ثم تميز كل رسالة بمعالجة خصائص مجتمعاتها .

١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ - أَتَنَزَّلُونا فِي مَا هَلْهَنَّا ءَامِينَ * فِي جَنَّتٍ وَعُودٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنَجُّونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتَا فَرِهِينَ .

أتظنون أن تنزكوا في أنعم الله تتمتعون بها ، حال كونكم آمنين من بطشه وعقابه ، وقد حاول أن يلمس قلوبهم وأفئدتهم ، وأن يذكرهم بالنعمة التي بين أيديهم ، من جنات ويساتين ، وعيون المياه الجارية ،

والزروع النضرة والتخيل المثمر ، ذى الرطب الهضيم ، اللين اللطيف سهل الهضم ، وتحتون من الجبال بيوتا حاذقين بطرين فى نحتها ويناتها ، مع البطر والأشر والفرح والتناول ، أتظنون أن تتمتعوا بكل ذلك من ألوان النعم ، وأنتم كافرون بأنعم الله المتعددة ، التى ذكرت بعضها تذكيراً لكم ، وتنبيهاً لأفئدتكم ؟!

١٥٠ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

فراقبوا الله وأقبلوا على طاعته ، وطاعة رسوله ، فهذه الطاعة هى التى تجملكم بالشكر ، وتجعلكم فيمن أحرز النعمة وقام يشكرها ، فاستحق التمكن فى الأرض ، والزيادة والسعادة فى الدنيا والآخرة .

١٥١ ، ١٥٢ - وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

أى : لا تتبعوا أمر السادة والقادة ، الذين يسرفون على أنفسهم فى اتباع الهوى والترف ، وينطلقون إلى الإفساد وارتكاب الموبقات ، ولا يصيخون السمع إلى الهداة والمصلحين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَكَانَ فِي الْمُلْكِ تَسْعَةٌ زُهْرًا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . (النمل : ٤٨) .

ونلاحظ هنا أن القرآن قال : الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

لبيان أن فسادهم خالص ، ليس معه شىء من الصلاح ، على عكس حال بعض المفسدين ، المخلوطة أعمالهم ببعض الصلاح .

١٥٣ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ .

أى : لست إلا رجلاً غلب السحر على عقله ، فأصبح يهذى بكلام المجانين (٢٨) .

١٥٤ - مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : لست إلا رجلاً مثلنا ، تأكل الطعام وتشرب الماء مثلنا ، فكيف تميزت علينا بالرسالة ، فإن كنت صادقاً ، فَأْتِ بِحُجَّةٍ تَدُلُّ عَلَى صَدَقِكَ .

وهكذا نجد أن البشرية فى تاريخها الطويل كذبت رسالة الرسل ، لأنهم بشر مثلهم ، وفى عهد النبى ﷺ استكثر كفار مكة عليه الوحي ، لأنه يعانى مثلهم ، فلماذا لا يعطيه الله أموالاً كثيرة ، أو بساتين يتعيش من دخلها ، وما علموا أنها إرادة الله فى أن يكون الرسول بشراً كسائر الناس ، يعيش مثلهم ، ويمارس الحياة والأكل والشرب والإخراج والنوم مثلهم ، حتى يكون قدوة عملية لهم .

وقد حكى القرآن كلام أهل مكة للنبي محمد ﷺ ، فقال : وَقَالُوا مَا لَهُ هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كِتَابٌ كَرُّوا لَمْ يَكُنْ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسَحُورًا . (الفرقان : ٧ ، ٨) .

والخلاصة : أنهم كذبوا بنبيهم صالحًا ، واقترحوا عليه أن يأتي بمعجزة تدل على صدقه .

١٥٥ - قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ .

أى : هذه معجزة ماثلة أمامكم ، وهى ناقة تخرج من بين جبلين ، وكان لهم نهير صغير ، فاشترب نبي الله صالح أن يتركوا لها ماء النهر كله فى يوم ، تشرب ماء النهر فى الصباح ، ثم يعلبون منها لبنا يكفهم جميعًا فى آخر النهار ، وفى اليوم التالى تترك لهم ماء النهر ولا تشرب منه .

قال تعالى : إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَبَشِّرْهُم بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ * وَبَشِّرْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَتَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ . (القمr : ٢٧ - ٣٢) .

ومع وضوح هذه الآية ، ودلالاتها على صدق نبي الله صالح ، فإن الكفر معدنه جحود وكنود ، فقد قتلوا الناقة وعتوا عن أمر ربهم واستحقوا عقاب السماء ، قال تعالى : وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الإسراء : ٥٩) .

١٥٦ - وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يُّومٍ عَظِيمٍ .

لا تؤذوا هذه الناقة بضرب أو عقر ، فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله عليكم عذابًا عظيمًا مهلكًا ، وسمى العذاب عذاب يوم عظيم ، تسمية لليوم باسم ما وقع فيه ، وهو العذاب العظيم .

١٥٧ - فَعَقَرُوْهَا فَاصْبِرْ أَوْ نَذِيرٍ .

اعتدوا على الناقة ، وانطلق شقى من الأشقياء - هو قدار بن سالف - فقعرها ، والقوم راضون عن عمله ، لم يمنعه ولم يأخذوا على يديه ، فاعتبروا مشاركين فى هذا العمل ، وقد ظهرت بوادر العذاب وعلاماته ، فأصبحوا نادمين خوفًا من حلول العذاب بهم ، لا توبة من ذنبهم ، أو تابوا عند معاينتهم العذاب ، حيث لا ينفع المتاب .

١٥٨ - فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ .

أرسل الله عليهم صاعقة فأهلكتهم ، كما قال سبحانه : وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الَّتِي لَّهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . (فصلت : ١٧ ، ١٨) .

وقال سبحانه : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

لقد عتوا وبغوا وطفوا وعقروا الناقة عتوا وكبرا ، فجاءهم العذاب المهين ، والهلاك المدمر ليكون الجزاء من جنس العمل .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ... في ما ذكر من قصة ثمود من هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .

وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . حيث آمن القليل وكفر الكثير ، فنجى الله المؤمنين ، وأهلك الكافرين .

١٥٩ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

وإن الله هو الغالب القادر ، الفعال لما يريد ، وهو الرحيم بالمؤمنين ، وقابل التوب من التائبين .

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

يقال : إنه ما آمن به من تلك الأمم إلا ألفان وثمانمائة رجل وامرأة ، وقيل : كانوا أربعة آلاف .

وقال كعب : كان قوم صالح اثني عشر ألف قبيل ، كل قبيل نحو اثني عشر ألفا ، سوى النساء والذرية ، ولقد كان قوم عاد مظلهم ست مرات ^(٣٩) .

قصة لوط عليه السلام

﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٦٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالُوا لَنْ نَمْنَعَكَ مِنَ الْفُلُوكِ وَنَبْنِي عَلَيْكَ وَلُوطَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ إِنِّي لَعَمْرِي كُنْتُ مِنَ الْفَالِقِينَ ﴿١٦٩﴾ رَبِّ يَخِجِّي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٠﴾ فَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧١﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٧٢﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٦﴾﴾

المضردات :

أخوههم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخى إبراهيم ، وهما من أرض بابل .

الذكوران : واحد : ذكر ، ضد الأنثى من كل حيوان .

عسادون : متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع .

من المخرجين : ممن نخرجهم من أرضنا ، وننفيهم من قريتنا .

من الفالقين : المبغضين لفلعلكم ، والقلبي : البغض الشديد ، كأنه يقلق الفؤاد ، يقال : قلبيته ، أجليه ، قلى وقلاء .

الغابريين : الباقين ، من غير بالمكان ، غبوراً : أقام به ، وقد يستعمل الغبور بمعنى المضى والذهاب ، فهو فى الشيء وضده .

دمرنا : الدمار والدمار : الإهلاك .

تمهيد :

هذه قصة لوط مع قومه ، ونبي الله لوط رحل من العراق إلى الشام مع عمه إبراهيم الخليل ، واسمه

لوط بن هاران بن آزر ، وقد بعثه الله إلى أمة عظيمة ، تسكن من قطاع الأردن سدوم وأعمالها ، التى أهلكتها الله ، وهى عمورة وثلاث مدن أخرى ، وجعل مكانها بلاد الغور المتاخمة لجبال بيت المقدس ، فدعاهم إلى

عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم ، وأن يجتنبوا الفواحش والمثلية الجنسية ، وهى استغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء .

التفسير :

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ - كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ » إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا » وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

تأتى هذه الآيات مماثلة لما سبق فى قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح عليهم السلام ، ذلك أن رسالة الأنبياء واحدة فى جوهرها وأساسها ، وهى الدعوة إلى توحيد الله ، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق ، والتخلّى عن الرذائل ، مع الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، وفى هذه الآيات نجد أن قوم لوط كذبوا جميع المرسلين ، حين كذبوا نبيهم ، وأن نبيهم لوط دعاهم إلى تقوى الله وطاعته ، والخوف من عقابه ، ويدين لهم أنه رسول من عند الله تعالى ، أمين على وحى السماء ، فعليهم مراقبة الله ، وطاعة رسوله ، وهو لا يطلب منهم أجراً ، إنما أجره على الله رب العالمين .

١٦٥ - أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ .

أتفعلون هذا المنكر وتلك الفاحشة ، التى لم يسبقكم إلى مثلها أحد من العالمين ، وهى جماع الرجل للرجل ، واستغناء الرجال بالرجال ، كأنه لا توجد نساء أمامكم .

ونلاحظ أن الفطرة السليمة تقتضى تعاون الذكر والأنثى ، من أجل استمرار الحياة وبقائها ، قال تعالى : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) . فالنبات أزواج ، والحيوان أزواج ، والإنسان أزواج ، والسحاب الممطر يتم تلقيح السالب فيه بالموجب ، والتكامل فى هذا الكون قائم على التعاون والتنوع ، والتناسق بين أجزائه ، قال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » . (الفرقان : ٦١ ، ٦٢) .

والخلاصة : أن الزواج هو الوسيلة العملية لإشباع الفطرة ، واستمرار الحياة ، ورعاية النشء والذرية ، وأن جماع الرجل للرجل منكر مرفوض .

١٦٦ - وَيَذْكُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ .

وتتذكرون الاستمتاع بالزوجات الحلال ، وتتذكرون الجماع فى مكان الحرث ، إلى الجماع فى اللبث ، وهذا عدوان منهم ومخالفة للفطرة السليمة ، واعتماد على ما أمر به العقل والشرع .

قال الرّمحشري :

مَنْ أَرُوْجُكُمْ : تبين لما خلق الله ، أو للتبعيض ، ويراد بما خلق : العضو المباح منها ، فكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم .

وقال الشيخ أحمد المراغي ، في تفسير المراغي :

أنتم دون الناس جميعاً ، تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء ، اللاتي جعلهن الله حلالكم ، تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم .

١٦٧ - قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَ مِنَ الْمُخْرَجِينَ .

لم يكن لوط من أهل سدوم ، بل رحل من أرض بابل بالعراق مع عمه إبراهيم ، ثم أقام في سدوم ، وأرسله الله رسولاً إلى أهلها ، فهددوه بالطرد من القرية ، وربما باحتباس أمواله ، شأن الظلمة المعتدين إذا غضبوا على شخص صادروا أمواله ، وكانوا بهذا يريدون إسكات فمه ، فلا يبشر برسالته ، وإسكات إنكاره وتشنيعه على ارتكابهم الفاحشة ، والاعتداء على الآخرين ، وقد وضع القرآن الكريم بعض آثامهم فقال : أَنْتُمْ قَاتِلُونَ آلَ رَاحِلٍ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ... (العنكبوت . ٢٩) . فهم قوم مردوا على الآثام والعدوان ، والسلب والنهب ، وارتكاب الفاحشة بصورة لم تخطر ببال أحد ممن سبقهم .

١٦٨ - قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ .

أى : إني من المبغضين لأعمالكم ، لا يهمنى وعيدكم ولا تهديدكم ، بل أجاهركم ببغض هذا السلوك الذي تسلكونه ، من قطع الطريق ، والاستيلاء على أموال السائرين ، والمجاهرة بالأفعال الشاذة ، وإتيان المنكر في الجموع المحتشدة ، بدون حياء أو خجل .

١٦٩ - رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ .

أحس لوط بفطرته أنهم معتدون ، مستحقون لعقوبة السماء ، فسأل الله أن ينقذه منهم ، وأن يخرجهم من بينهم .

١٧٠ ، ١٧١ - فَتَجَنَّبْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ .

استجاب الله دعاءه ، وأمره الله أن يسير مع المؤمنين به ليلاً ، مهاجراً هو والمؤمنين من هذه القرية ، ولا يلتفت منهم أحد حتى لا يرى العقوبة التي ستنزل بهم ، لكن زوجته المسنة المنافقة ستكون مع الكافرين ، وستهلك معهم .

قال تعالى : قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَنْتَفِتْ مِنكُم أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِن مَّوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٨١ - ٨٣) .

١٧٢ - ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ .

أهلكناهم عقوبة على أفعالهم بالخسف والحصب، أى: خسف الله بهم الأرض ، وأرسل عليهم الحجارة .
قال مقاتل : خسف الله بقوم لوط ، وأرسل الحجارة على من كان خارجاً من القرية .

١٧٣ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ .

قال قتادة : أمطرتنا على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكتهم .

وقال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار ، أى : فجر الله فيها البراكين النارية .

والخلاصة : أن عقابهم كان زلزالاً شديداً ، جعل بلادهم عاليها سافلها ، وكان مصحوباً بكبريت ونار وحجارة من السماء ، فأحرقت قراهم ، كما قال تعالى : فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ . (هود : ٨٢) .

قال فى ظلال القرآن :

قيل : خسفت قراهم وغطاها الماء ، ومنها قرية سدوم ، ويظن أنها ثابوية تحت البحر الميت فى الأردن . وبعض علماء طبقات الأرض ، يؤكدون أن البحر الميت ، يغمر مدنا كانت أهله بالسكان ، وقد كشف بعض رجال الآثار بقايا حصن بجوار البحر ، وبجوار المذبح الذى كانت تقدم عليه القرايين .

١٧٤ ، ١٧٥ - إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

فى هلاك الكافرين ، ونجاة لوط ومن معه من المؤمنين ، آية ملموسة ، ودليل على أن الجزاء الحق من جنس العمل .

وجاء فى تفسير المراغى لصاحبه الأستاذ أحمد مصطفى المراغى ، خاتمة تؤيد أن هذه القصة تاريخية ، ويؤكد ذلك بما كتبه الباحثون فقال : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلاً قالت فيه : روت الكتب المنزلة : أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم ناراً وكبريتاً

من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ، ولوط وابنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزح إليها من الشمال طلباً للكلأ والمرعى ، بحسب عادة القبائل الرحل في ذلك الزمن^(١٠) .

★ ★ ★

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ قَوْمٌ خَلِقْتُمْ وَالْحِيلَةَ ﴿٨٤﴾ أَوَّلِينَ ﴿٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿٨٦﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ رَبِّ ارْحَنِي أَنْتَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٩٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩٢﴾ ﴾

المضردات :

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين ، بعث الله إلى أهلها شعيبا ، كما بعثه إلى أهل مدين ، وكان نسب شعيب في أهل مدين ، ولم يكن من أصحاب الأيكة نسباً .

من المخسرين : المطففين الأخدين من الناس أكثر مما لهم .

القسطاس : الميزان .

المستقيم : العدل .

ولا تعثوا : ولا تفسدوا .

الجبنّة : « بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، ويضمهما وتشديد اللام » ، الخُلقة والطبيعة .

الأوليسن : الناس من قبلكم .

كسفاً : واه : كسفة ، كقطعة (وزنا ومعنى) .

الظلمة ، السحابة التي أظلمتهم ، ثم التهب عليهم ناراً .

لايــــة ، لعبرة وعلامة دالة على صدق الرسول ﷺ .

تمهيد :

هذه هي القصة السابعة في هذه السورة ، التي وردت باختصار نسبي لتسليية الرسول ﷺ ، وتشجيعه على تحمل أذى المشركين ، وتدريبه على الصبر ، وبيان عاقبة المكذبين ، حتى يرتدع كفار مكة ، بما أصاب المكذبين من قوم فرعون حين كذبوا موسى ، وقوم إبراهيم وقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم لوط ، وأخيراً أصحاب الأيكة قوم شعيب ، وقد كانوا أصحاب غيضة وشجر وثمر ، وكانوا يطففون الكيل والميزان ، ويفسدون في الأرض ، ويبدو أنهم كانوا في طريق القوافل بين الجزيرة العربية وفلسطين ، وهذه القوافل في حاجة إلى التعامل معهم ، لكنهم كانوا يعطون القليل ، ويطففون الكيل ، ويفسدون في الأرض ، فنصحبهم شعيب بالاستقامة ، وفاء الكيل وإعطاء الحق ، ودعاهم إلى توحيد الله ، فكفروا بالله ، وجحدوا نبوة شعيب ، وقد استمر شعيب في نصحبهم وتوضيح شبهتهم ، وشرح رسالته إليهم ، حتى ألزمهم الحجة .

وفي قصة شعيب في سورة هود نجد تفصيلاً وتوضيحاً لما قدمه هذا الرسول إلى قومه ، حتى قال ﷺ :
«يأتى شعيب يوم القيامة خطيباً للأنبياء» .

التفسير :

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ - كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسِلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أكثر المفسرين على أن أصحاب الأيكة ، هم قوم لهم أشجار وزروع بجوار مدين ، وأن أصحاب الأيكة هم ضاحية من ضواحي مدين .

قال ابن كثير : أصحاب الأيكة : هم أصحاب مدين على الصحيح .

ويرى بعض المفسرين أن شعيباً كان من أهل مدين ، وقد أرسل رسولاً إلى أهل مدين ، وأرسل أيضاً إلى أصحاب الأيكة ، ولم يكن أخاهم في النسب ، فهما جهتان ، وقد دعاهم شعيب إلى الإيمان بالله تعالى ، ومراقبته وتقواه وطاعته ، وأخبرهم أنه رسول لهم من عند الله ، وهو لا يطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة ، وإنما أجره جزاؤه على الله رب العالمين ، لكنهم كذبوه ولم يؤمنوا به .

١٨١، ١٨٢ - أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ .

أرسل كل رسول إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، واختص كل رسول بمعالجة عيوب المجتمع ، فقد حارب لوط المثلية الجنسية ، وهنا يحارب شعيب تطفيف الكيل والميزان ، وكان القوم معروفين بتطفيف الكيل والميزان ، والاستيلاء قسراً وغصباً على ما يزيد عن حقهم ، وإعطاء الناس أقل من حقهم ، ويشترون بثمن بخس ، ويبيعون بثمن مرتفع ، ويبدو أنهم كانوا فى ممر قوافل التجارة ، فكانوا يتحكمون فيها ، وقد أمرهم رسولهم بالعدل والقسط فى هذا كله ، وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة ، تحت على العدل والوفاء وأداء الأمانة ، وعدم تطفيف الكيل والميزان ، قال تعالى: **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .** (المطففين: ١ - ٣) .

وقد وردت قصة شعيب مع قومه فى الآيات ٨٥ - ٩٣ من سورة الأعراف ، وفى الآيات ٨٤ - ٩٥ من سورة هود ، وفيها نجد هؤلاء الناس متكبرين متجبرين ، مفسدين فى الأرض ، مطغفين للكيل والميزان ، رافضين لهداية السماء ، وفى نهاية القصة نجى الله شعيباً والذين آمنوا معه ، وأهلك المكذابين هلاكاً مدمراً ، فأصبحوا أذراً بعد عين .

١٨٣ - وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

ولا تنقصوا الناس من حقوقهم ، سواء أكانت مادية أم معنوية ، كالحفاظ على الكرامة والعرض .
قال الرازى : وهذا عام فى كل حق يثبت لأحد ألا يهضم ، وفى كل ملك ألا يغصب ماله ، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً .

وَلَا تَعْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ .

لا تبالغوا فى الإفساد فى الأرض ، بقطع الطريق والقتل والسلب وإهلاك الزرع ، وغير ذلك من أنواع الفساد التى كانوا يفعلونها .

١٨٤ - وَاتَّقُوا إِلَهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ .

راقبوا الله الذى خلقكم ، وخلق الأجيال الكثيرة قبلكم من عهد آدم ، وقد أهلك الضالين ، وأعز المؤمنين ، فراقبوه وابتعدوا عن طاعة الشيطان ، فهو الذى أغوى الضالين ، وتسبب فى هلاكهم .

قال تعالى : **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ .** (يس: ٦٢) .

١٨٥ ، ١٨٦ - قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِرُكَ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ .

قدّم إليهم شعيب دعوته إلى توحيد الله ، ونهاهم عن الرذائل ، ثم بين لهم قدرة الإله الخالق ، رغبة في استمالتهم وتحريك الإيمان في قلوبهم ، فكان جوابهم متضمنا ما يأتي :

١ - اتهامه بالسحر والجنون ، وهذا يبعد الثقة فيما يقول .

٢ - هو بشر مثلهم ، فلماذا يتفضل عليهم بالنبوة ؟

٣ - تأكيد كذبه في دعوى النبوة ، أو تهديدهم بالعذاب .

١٨٧ - فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : إن كنت صادقاً في دعوى الرسالة ، أو فى وعيدك لنا بالعذاب ، فأنزل علينا قطعاً من السحاب فيها نوازل العذاب ، وهذا شبيه بقول كفار مكة للنبي ﷺ : وَقَالُوا أَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . (الإسراء : ٩٠)

إلى أن قالوا : أَوْ تُسْقِطِ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلِهِ وَالْمَلَكَةِ قِيلًا . (الإسراء : ٩٢) .

وقوله تعالى : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِمَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ... (الأنفال : ٣٢) .

قال القرطبي :

فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ...

أى : جانباً من السماء وقطعة منها فننظر إليها ، كما قال : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ . (الطور : ٤٤) .

وقيل : أرادوا : أنزل علينا العذاب ، وهو مبالغة فى التكذيب .

قال أبو عبيدة : الكِسْف : جمع كسفة ، مثل : سيدر وسدرة . وقرأ السلمي وحفص : (كِسْفًا) جمع كسفة أيضاً . وهى القطعة والجانب ، تقديره : كسرة وكسر .

قال الجوهري : الكِسْفَة : القطعة من الشيء ؛ يقال : أعطنى كسفة من ثوبك ، والجمع : كِسْفٌ وكِسْفٌ ، ويقال : الكِسْف والكسفة واحد^(١) .

١٨٨ - قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الله هو المحاسب والمجازى والمطلع على أعمالكم ، فإن كنتم تستحقون العذاب فسينزله بكم ، فى الوقت الذى يشاء وكيف يشاء ، فلا راد لأمره ، ولا معقب لإرادته ، أما أنا فما على إلا البلاغ ، وليس بيدي نزول العذاب بكم .

١٨٩ - فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

أى : كذبوا شعيبا ، فبعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فدخلوا أجواف الببوت فدخل عليهم ، فخرجوا منها هربا إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابة فأظلمت من الشمس - وهى الظلة - فوجدوا لها برداً ولذة ، فنادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم ناراً فأهلكتهم جميعاً^(٩١) .

إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

إن هذا العذاب شديد الهول ، عظيم الوقع ، أدى إلى الهلاك والإفناء .

١٩٠ - إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ .

أى : فى هذه القصة عبرة وعظة ، وكذلك فيما سبقها من قصص موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط ، عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وما كان أكثر قريش مؤمنين ، أو ما كان أكثر قوم شعيب مؤمنين .

وقد نقل القرطبى فى تفسيره أنه لم يؤمن من قوم شعيب سوى تسعمائة نفر ، والله أعلم بصحة ذلك .

١٩١ - وَإِنْ رُبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

وإن ربك - يا محمد - لهو العزيز القادر على الانتقام من الكافرين . الرَّحِيمُ . لعباده المؤمنين .

خاتمة

تحدث القرآن عن قوم شعيب فى سورة الأعراف ، فذكر أنهم هددوا شعيبا ومن آمن معه : فعاقبهم الله بالرجفة ، قال تعالى : فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَلِيمِينَ . (الأعراف - ٩١) .

وفى سورة هود استهزءوا بنبى الله شعيب فناسب أن تأتيتهم صيحة تسكتهم .

قال تعالى : وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جُلُثِيمِينَ . (هود : ٩٤) .

وها هنا قالوا : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَاءِ ...

فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٨٩) .

ونلاحظ أن العذاب يمر بمراحل متعددة ، فترتجف الأرض تحت أقدامهم ، ويصيح بهم الملك صيحة تهلكهم ، أو ينزل عليهم ناراً من الظلة تهلكهم ، فهي ألوان من العذاب تنزل بهم ، وتنتهي بهلاكهم عقابا عادلا من الله تعالى على تكذيبهم .

★ ★ ★

القرآن الكريم

﴿ وَإِنَّهُ لَشَرِّ ٱلنَّازِلِينَ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ (١١٣) نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ يَلْسَنَ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ أَوْ لَوْ كُنْهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَآؤُنَا مِنِّي إِسْرَءِيلَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢٠﴾ لَّا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿١٢١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿١٢٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٢٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا أَهْلَكَنَا مِن قُرْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿١٢٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ ٱلشَّيْطَانُ ﴿١٣٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿

المضردات :

الروح الأمين : جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عباده .

على قلبك : على روحك ، لأن الروح هي المدركة المكلفة دون الجسد .

الزبير، الكتب، واحدها، زبرة، كصحف وصفحة .

آية، الدليل والبرهان والعلامة .

الأعجمين، واحدهم : أعجمي ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية .

سكناءه، أدخلناه (أى : التكذيب) فى قلوب المجرمين ، من كفار مكة .

منظرون، موخرون لنؤمن ، والجواب : لا .

أفـرأيت ، أخبرنى .

إن متعناهم سنين، أبقينا على حياتهم يأكلون ويشربون وينكحون .

ما كانوا يوعدون، من العذاب .

منذرون، رسل يذرون أهلها عاقبة الكفر والشرك .

ذكرى، عظة وعبرة لغيرهم .

وما يتبغى لهم ، وما يتيسر ولا يتسنى لهم .

وما يستطيعون ، وما يقدررون على ذلك .

لـعـزولـون ، لـمـنـوعـون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .

تمهيد :

بدأت سورة الشعراء بمقدمة عن الرسول ﷺ ، وحرصه على هداية قومه ، مع إعراضهم عن سماع القرآن الكريم ، وتكذيبهم للرسول الأمين ، ثم ساقَت السورة سبع قصص ، لسبعة من رسل الله الكرام ، دعوا أقوامهم إلى توحيد الله ، وأنذروهم بطشه وشدة عذابه ، لكن الكافرين لم يؤمنوا فاستحقوا العذاب ، أى : وكذلك أهل مكة ، أهلٌ لأن ينالهم عذاب الله ، بسبب تكذيبهم لرسوله محمد ﷺ ، وفى نهاية القصص عود إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فهو وحى السماء ، نزل به جبريل الأمين ، على فؤاد النبی محمد ﷺ ، ليكون من الرسل المنذرين لقومهم ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، وتحدث عنه التوراة والإنجيل ، وبشر به موسى وعيسى ، ولو نزل القرآن على رجل أعجمى ، فقرأه عليهم بلغتهم ، ما آمنوا مع هذه المعجزة البينة ، لأن التكذيب قد استقر فى قلوبهم ، كما استقر فى قلوب المجرمين المكذبين قبلهم .

التفسير :

١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ - وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .

إن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى ، وليس فيه سحر ولا كهانة ولا اختراع بشر ، وقد نزل به جبريل وهو الروح الأمين ، فهو أمين على وحى السماء ، فقد نزل بكتب الله على رسله ، قال تعالى : مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ . (التكوير : ٢١) . أى : إنه مطاع فى ملائكة السماء ، وهو أيضاً أمين على وحى الله .

عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ .

تنزل بالوحى على روحك وقلبك ، لتستوعبه وتحفظه وتفهمه ، ثم تنذر به الآخرين .

وخصَّ القلب ، لأنه محل النظر من الله ، ولأن القلب هو الذى يدير الجسم ، فإذا نشط فى العبادة نشطت الأعضاء .

قال الشاعر :

وَإِذَا حَلَّتْ الْهَدَايَةُ قَلْبًا نشطت فى العبادة الأعضاء
ويقول الآخر :

وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ أَعْمَى عَنِ الرَّشَدِ سد فمأذا تفيد العيان

وروى البخارى ، ومسلم : أن رسول الله ﷺ قال : «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب»^(١٢) .

وقال تعالى : إِنْ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرٌ لَّكَ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ... (ق : ٣٧) .

وقال تعالى : فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ . (الحج : ٤٦) .

فالنبي ﷺ قد استوعب القرآن بقلبه ، وحفظه وفهمه ، وبلغه إلى أمته وإلى الناس .

قال تعالى : بَلَّغْنَا الْكَلِمَةَ لَكَ إِذَا أَرْسَلْنَاكَ تُبَشِّرُ وَنَذِيرُ * وَذَاعِيَ إِلَى اللَّهِ إِذْ فِيهِ سِرَاجٌ مُبِينٌ . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .

فقد نزل القرآن بلغة العرب ، واضحاً مبيناً ميسراً ، وفى هذا دعوة للعرب أن يستوعبوه ويفهموه ، ويؤمنوا به ويعملوا به ، ويبشروا به عباد الله .

قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (الشورى: ٧).

وقال تعالى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ. (الزخرف: ٤٤).

وفى هذه الآيات تحدث القرآن عن مُنْزِلِ الكتاب، وهو رب العالمين، وعن الذى نزل به وهو جبريل الأمين، وعن المنزل عليه وهو قلب محمد ﷺ، وعن المبعوث إليهم وهم العرب المنذرون، وعن اللسان الذى نزل به القرآن، وهو اللسان العربى المبين، وعن أدلة صدقه، وهى بشاره التوراة والإنجيل به.

١٩٦ - وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ.

أى: إن كتب الأمم السابقة بشرت بالقرآن، وبالرسول محمد ﷺ.

قال تعالى: الرَّسُولُ الَّذِي أُمِّيَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ... (الأعراف: ١٥٧).

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا رَجُلٌ مِثْلُ الْأَوَّلِينَ. (المائدة: ١٠٦).

١٩٧ - أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنَّ إِلَهُهُمُ الْعَلَمُ أَنَّ يُسْرِعِيلَ.

أجهل أهل مكة وغفلوا ولم يكن لهم علامة على صدق القرآن، وصدق محمد ﷺ أن علماء بنى إسرائيل بشرت بهذا النبى، فقد كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، وقد بشر بالنبى ﷺ العدول من بنى إسرائيل، مثل عبد الله بن سلام وسلمان الفارسى، وغيرهما ممن كان له علم بكتب أهل الكتاب أسلم أو لم يسلم.

قال القرطبي: إنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين، لأنهم كانوا يرجعون فى أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب، لأنهم مظنون بهم علماً.

جاء فى «البحر المحيط» عن ابن عباس: أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبى ﷺ، فقالوا: هذا أوانه، وذكروا نعته، وهذا يدل دلالة واضحة على نبوته ﷺ، لأن تطابق الكتب الإلهية، على إيراد نعته ووصفه يدل قطعاً على نبوته.

١٩٨ ، ١٩٩ - وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ .

أى : لو نزل هذا القرآن على رجل أعجمى ، لا ينطق العربية ولا يستطيع نظمها ، ثم أنزلنا عليه القرآن ، وقرأه عليهم بلغتهم ، مع وجود الحجة الظاهرة على أنه من عند الله ما آمنوا ؛ لأن التكذيب غالب عليهم ، فسواء أنزلنا الكتاب على النبي محمد الذى يعرفون صدقه ، والذى بشرت به التوراة والإنجيل ، أو أنزلناه فرضاً على رجل أعجمى ، يتأكدون بالدليل أنه ليس من تأليفه ما آمنوا ؛ لأن الجحود فى جبلتهم ، كما قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُسِئُونَ إِلَهُ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

أى : هُوَن على نفسك يا محمد ، فأنت لم تقصر فى عرض الدعوة ، ولا فى بيان القرآن ، إنما كفار مكة هم الذين طبعوا على العناد والإعراض عن الحق . قال تعالى : وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سَكْرَاتُ أَبْصَرَ نَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْجُورُونَ . (الحجر : ١٤ ، ١٥) .

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ - كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ .

تشير هذه الآيات ، إلى تمكن التكذيب فى قلوب الكافرين من أهل مكة ، وفى قلوب من سبقوهم من المشركين ، فلا تأس عليهم يا محمد ؛ لأن الجحود والعناد ثابت فى جبلتهم ، وفى قلوب من سبقوهم من المشركين ، وقريب من ذلك قوله تعالى : وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (هود : ٣٦) .

قال فى ظلال القرآن :

والتعبير يرسم صورة حية لملازمة التكذيب لهم ، فيقول : إنه على هذه الهيئة ، هيئة عدم الإيمان ، والتكذيب بالقرآن ، على هذه الهيئة نظمناه فى قلوبهم وأجريناه ، فهو لا يجرى فيها إلا مكدباً به ، ويظل على هيئته هذه فى قلوبهم ، حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وقدبقى بعضهم فعلاً على هذا الوضع ، حتى فارق هذه الأرض بالقتل أو الموت ، ومن ثم إلى العذاب الأليم^(١٥) .

و خلاصة المعنى :

لقد تمكن التكبذب فى قلوب أهل مكة ، كما تمكن فى قلوب الأمم التى كذبت أنبياءها ، كقوم نوح ومن بعدهم ، فكيفما فعل بهم ، وعلى أى وجه دبر أمرهم ، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحود وإنكار ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . لا يصدقون بالقرآن ، بل يستمرون على ما هم عليه ، حتى يعاينوا العذاب .

قال تعالى : وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذينَ كَفَرُوا إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .
(الأنعام : ٧)

فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ينزل بهم العذاب فجأة وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم .

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ .

فيقولون على وجه التحسر والأسف ، والتمنى للإمهال ، هل نؤخر إلى حين ؟ وهل يؤجل هلاكنا حتى نوؤمن ونتدارك ما فاتنا ؟

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَيْسَتِ الْقُرُونُ بِعَمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتِّئْتُ السَّنَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَجْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٨) .

وقوله تعالى : وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

٢٠٤ - أَفَعَذَابُنَا يَسْتَعْجِلُونَ .

كان أهل مكة فى غنى ومكانة ووجاهة ، وكانت لهم تجارة رابحة تتحرك إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاء ، وكان الأمل أن تتحرك النعمة من بطونهم إلى عقولهم حتى يفكروا ويتأملوا ، لكنهم أبطرتهم النعمة ، وسيطر عليهم الأشر والبطر ، واستخفوا بهدايات السماء ، وكان النبى ﷺ إذا خوفهم عقوبة الله ، قالوا له على سبيل الاستهزاء : متى ينزل بنا هذا العذاب ؟

وقد سبق فى سورة الشعراء قول قوم شعيب : فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

(الشعراء : ١٨٧)

كما حكى القرآن عن كفار مكة أنهم تعجلوا نزول العذاب : وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا حِجَابَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٌ . (الأنفال : ٣٢) .

٢٠٥ . ٢٠٦ . ٢٠٧ - أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ .

أى : أخبرنى أيها العاقل عن هؤلاء الكفار ، لو استجبنا إلى مطالبهم وتركناهم فى الدنيا سنين عدداً ، يأكلون ويشربون وينسلون ويتمتعون ، ثم نزل بهم العذاب ، هل ينفعهم أو يغنى عنهم ما كانوا فيه من متاع الدنيا ؟ .

إن ذلك لن يغنى عنهم شيئاً فى دفع العذاب أو تخفيفه ، وإنما هم خالدون فى النار أبداً الآبدى .

والخلاصة : إن طول التمتع ليس بدافع شيئاً من عذاب الله ، إذا حل بهم ، وكأنهم لم يمتعوا بنعيم قط .

كما قال تعالى : كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا غَيْثَةً أَوْ ضَحُكًى . (النازعات : ٤٦) .

وقال سبحانه : يَوْمَ أَحْذَهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (البقرة : ٩٦) .

وقال تعالى : وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى . (الليل : ١١) .

قال الإمام ابن كثير : وفى الحديث الصحيح : «يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان فى الدنيا ، فيصبغ فى الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب» (١٧) .

ولهذا كان عمر بن الخطاب يمثل بهذا البيت :

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى كنت تطلب

ودوى القرطبي ، عن الزهرى : أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بليحيته ، ثم قرأ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ . ثم يبكى ويقول :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم
تسرّبما يغنى وتفرّج بالمتى
كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وليلك نوم والردى لك لازم
ولا أنت فى السّوَام ناج فسالم
كما سرّ باللدات فى النوم حالم
وتشعّى إلى ما سوف تكره غبّة

وروى عن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن - رضى الله عنه - فى الطواف ، وكان يتمنى لقاءه ، فقال له : عظمى ، فلم يد على تلاوة هذه الآيات : أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْتُهُمْ سِينٍ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ . فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

٢٠٨ ، ٢٠٩ - وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذَرُونَ * ذُكِّرُوا^(١٧) وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ .

شاعت حكمة الله تعالى ألا يهلك قرية من قرى الظالمين الذين كذبوا أنبياءهم ، والذين ذكر سبعة منهم فى هذه السورة ، إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل يدعونهم إلى التوحيد ، وينصحونهم بطاعة الله ، وينذرونهم عذاب الله إذا خالفوا ، وذلك تذكرة لهم وتنبيهاً وإرشاداً ، وليس من شأنه تعالى أن يظلم الناس ، أو يهلكهم قبل أن يُعذر إليهم ، وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم مثل : وَلَا يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقوله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا . (الإسراء : ١٥) .

وقوله سبحانه : وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ وَإِنَّا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ . (القصص : ٥٩) .

٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ - وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ .

أفاد القرآن فيما سبق أنه من عند الله رب العالمين ، وقد نزل به الروح الأمين ، وكانت العرب تدعى أن لمحمد ﷺ تابعا من الجن يخبره بالقرآن ، وهنا رد عليهم مبينا ضلال هذه الفكرة ، فقال :

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .

فالشياطين لم تنزل بهذا القرآن ، لأن طبيعة الشياطين شريرة عابثة ، تدعو إلى الشر ، وتحرض على الإثم ، وهذا القرآن هداية ونور ، ودعوة إلى الإيمان ، ومكارم الأخلاق .

قال ابن كثير :

ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، لأن سجايهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه نور وهدى ويرهان عظيم .

الثانى : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه ، وتأييده لشرعه فهو أعلم حيث يجعل رسالته .

الثالث : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرف واحد منه ، لئلا يشتهب الأمر . ا هـ .

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ .

أى : حفظ الله السماء من الشياطين ، حيث كانوا يصفون بعضهم فوق بعض ، وآخر جئى يتسمع كلام الملائكة ، مثل : قضى الليلة بموت فلان ، أو بسعادة فلان ، ثم ينزل فيخبر بها الكهان ، ثم يكذب الكاهن معها مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ شددت الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع أخبار السماء أصابه شهاب فقتله أو خيله ، وقد ورد هذا المعنى فى سورة الجن ، قال تعالى : وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدُ لِّلسَّمِيعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا . (الجن : ٩) .

وقال عز شأنه : إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مُّارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلَمًا لَّا أَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنِ خَطِئَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . (الصافات : ٦ - ١٠) .

قال النيسابورى :

إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ .

وذلك بواسطة رجم الشهب ، لما أخبر عنه الصادق ، والمعجزات يتساند بعضها ببعض ، ولو فرض أنهم غير مرجومين بالشهب ، فالعقل يدل على أن الاهتمام بشأن الصديق أقوى منه بشأن العدو ، وكان محمد ﷺ يلعن الشياطين ، ويأمر الناس بلعنهم ، فلو كان الغيب بإلقاء الشياطين ، لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم ذلك . ا هـ .

دعائم التوحيد

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ (٢١٣) ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢١٤) ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢١٥) ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاءِ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢١٦) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢١٨) ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السُّجُودِ﴾ (٢١٩) ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢٢٠)

المفردات :

عشيرة - تركك ، العشيرة : القبيلة ، والجمع : عشيرات وعشائر ، والمراد بها : قريش ، وقيل : عبيد مناف .

جناحك ، الجناح : اليد والعضد والإبط والجانب ، وهو المراد هنا ، أي : أذن جانبك .

حين تقوم ، إلى الصلاة ، أو حيثما كنت .

وتقابلك هي الساجدين ، المراد بالساجدين : المصلُّون ، أي : ويرى تصرفك وتغيرك من حال - كالجلوس - إلى

حال - كالقيام - بين المصلين إذا أتمتهم .

التفسير :

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ - ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ * ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ * ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِئَاءِ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ .

أي : أخلص العبادة لله وحده ، وتوجّه إليه بعبادتك وصلاتك ودعائك : فإنه سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ، ومن عمل عملاً يريد به الناس ، لم يلق عليه الثواب يوم القيامة ، والخطاب في هذه الآية للرسول ﷺ والمراد أمته ، فهو من باب خطاب الأمة في شخص زعيمها ورئيسها ، أو الخطاب لكل من يتأتى منه الخطاب سواء أكان رسولا أم مرسلًا إليه .

وتحقيق المراد هنا :

أي : إذا كان الرسول الأمين إذا دعا مع الله إلهاً آخر : عُدِّبَ وعوقب ، فمن باب أولى من عدهاء من الناس ، وليعلم الجميع أن الله سبحانه لا يقبل الشرك من أحد : قال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ . (البينة : ٥) .

وَأَنْزِلْ غَيْرَكَ الْأَقْرَبِينَ .

أرسل الله محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فوظيفته البلاغ وإعلام الناس بالرسالة ، يَتْلَاهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ... (المائدة: ٦٧) .

وفى هذه الآية يكلفه الله تعالى أن يبلغ أسرته القريبة النسب منه : فهم أولى بأن يخصصهم بدعوته ، وأن يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، وأن يرشدتهم إلى عدالة السماء : فالخلق كلهم عباد الله ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون عنده بالتقوى ويدركون ثوابه بالعمل الصالح ، وقد وردت أحاديث صحيحة متعددة تفيد أن النبي ﷺ دعا عشيرته دعوة للعالم والخاص ، وأعلن هذه الدعوة لكل العشيرة ، وخصص أقرب الناس إليه ، حتى لا يتكل أى إنسان على الحسب أو قرابة النسب ، بل عليه أن يقوم بالواجب نحو ربه ودينه ، وذلك بالإخلاص والعمل الصالح .

روى البخارى ، ومسلم وغيرهما ، عن أبى هريرة قال: لما نزلت هذه الآية : دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعمّ وخص ، فقال: «يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، يا معشر بنى كعب بن لؤى ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، يا معشر بنى قصي ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، يا معشر بنى عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرراً ولا نفعاً ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لك ضرراً ولا نفعاً ، ألا إن لكم رحماً وسأبليها ببلالها» . يريد : أصلكم فى الدنيا ، ولا أغنى عنكم من الله شيئاً^(٨) .

إن هذا هو الإسلام فى نصاعته ووضوحه ، ونفى الوساطة بين الله وعباده ، حتى عن رسوله الكريم ، وقريب من ذلك قصة نوح مع ابنه حين غرق مع الكافرين ، وحاول نوح الشفاعة له ، فبين الله أنه لا قرابة ولا نسب بالنسبة للعدالة الإلهية ، التى تكافئ الصالح وتعاقب الطالح .

وقد وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكذلك زوجة نوح وزوجة لوط ، خانتا الأمانة ، فقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين ، وزوجة فرعون أمنت بالله ، وأخلصت له وتبرأت من فرعون وعمله ، فجعلها الله مثلاً أعلى للمؤمنين .

هذه أمثلة توضح عدالة السماء ، التى جعلت الجزاء من جنس العمل .

مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ . (فصلت: ٤٦) .

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

ألن جانبك، وأرفق بأتباعك الذين آمنوا بك وصدقوك، فذلك أطيب لقلوبهم، وأدعى إلى قبول الدعوة، واستمرار تأثيرها، وكذلك كان ﷺ، سهلاً مألوماً محبباً متعته الله بمكافئ الأخلاق، حيث قال له الله تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القم: ٤) .

وقال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ . (ال عمران: ١٥٩) .

وقال ﷺ: «إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»^(١٩) .

وسئلت عائشة رضى الله عنها، عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن^(٢٠) .

أى: كان تطبيقاً عملياً لأداب القرآن الكريم، وسلوكه وأخلاقه، فهو صاحب الصفح الجميل والعفو الجميل، والحلم الجميل ﷺ .

فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ .

أى: إن عصاك أحد ممن أُنذرتهم من العشيّة فلا ضير عليك، وقد أدبت ما أمرت به، وما عليك إثم مما يعملون، وقل لهم: إني براء منكم، ومن عبادتكم الأصنام والأوثان، وإنكم ستجزون بجرمكم يوم الجزاء.

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء: ٨٨، ٨٩) .

٢١٧، ٢١٨، ٢١٩ - وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرْسُلُ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلَبُكَ فِي الْمَسَجِدِينَ .

تأتى هذه الآيات إيناساً وقرباً للرسول ﷺ، فتأمره أن يفوض أمره إلى الله، متوكلاً عليه بعد الأخذ بالأسباب، فهو العلى القدير. وهو العزيز الغالب، الرحيم بعباده المؤمنين، وهو سبحانه يراك - يا محمد - حين تقوم من الليل، متنظلاً أو مصلحاً ملتزماً بدعوة القرآن لك إلى التهجّد، حيث قال تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ... (الإسراء: ٧٩) .

وَتَقْلَبُكَ فِي الْمَسَجِدِينَ .

انتقالك من القيام إلى الركوع إلى السجود، أو عنايتك بالصحابة وتفقد أحوالهم، وتنظيم صفوفهم فى الصلاة، إلى غير ذلك مما هم فى حاجة إليه من إرشاد وتعليم .

وعبر عن المصلين بالساجدين : لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهذا التعبير من باب التشريف والتكريم لهم .

٢٢٠ - إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

إنه سبحانه سميع لجميع العباد بجميع اللغات ، عليم بكل ما يحدث في هذا الكون ، عليم بأفعال عباده وحركاتهم وسكناتهم ، قال تعالى : وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ... (يونس : ٦١) .

وقصارى ذلك ، أنه هو القادر على نفعكم وضرركم ، فهو الذى يجب أن تتوكلوا عليه ، وهو الذى يكفيكم ما أهمكم .

★ ★ ★

الشياطين والكهان

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٣٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٣٣﴾ وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٣٣٧﴾ ﴾

المضردات :

أنبئكم ، أخبركم .

أفَّاك ، كثير الإفك والكذب .

أثيم ، كثير الذنوب والفجور .

يلقون السمع ، يصغون أشد الإصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب .

الغَاوُونَ ، الضالون المائلون عن السنن القويم .

السَّعْب ، والشَّعْب ، والمراد : الذهاب فى مذاهب كثيرة ، من مدح الشيء ، وهجائه ، وذمه ، إلى غير ذلك .

يَهِيمُونَ ، يسيرون سير البهائم حائرين ، لايهتدون إلى شيء .

المنقلب ، المرجع .

تمهيد :

كانت للكهان منزلة عالية في الجاهلية ، ولهم سجع وتنبؤ بأخبار المستقبل ، ولما أرسل الله محمداً ﷺ ، وشاهدوا القرآن وبلاغته وسحره وأسره ، استبعدوا أن يكون هذا القرآن من كلام بشر ، فادعوا أن الشياطين تنزل على محمد فتلقى عليه هذا الكلام ، كما تلقى على الكهان ، وهنا يوضح القرآن أن الشياطين مردة ، منهجهم الإغراء بالشر ، والنزول على الكهان الكذابين ، فكلاهما من فصيلة واحدة ، أما القرآن فمنهجه الدعوة إلى الحق والعدل والإيمان ، ومحمد ﷺ معروف أنه صادق أمين .

التفسير :

٢٢١ - هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نُّزِّلُ السَّيِّطِينَ .

أى : قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم على من تنزل الشياطين ؟ وهذا رد عليهم حين ادعوا أن الذى يأتى محمداً بالقرآن تابع من الجن .

٢٢٢ - نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ .

أى : تنزل الشياطين على كل أفَّاكٍ . مبالغ فى الكذب ، متصف بالكذب الكثير ، أثيم . فاجر مبالغ فى الكذب والبهتان ، لا على سيد ولد عدنان ، أى : إن الشياطين إنما تنزل على فئة تحترف الكهانة ، ومعرفة الغيب من الفسقة الفجرة ، أمثال : سطيح ، وطليحة ، ومسيلمة ، فلا تنزل الشياطين إلا على مثلهم .

أما القرآن فملائكة الله المقربون هى التى تنزلت به على محمد ، كما قال تعالى : **وَأَنزِلْنَا نَزِيلُ رَبِّ الْعَلَمِينَ * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** . (الشعراء ١٩٢ - ١٩٤) .

وقد ورد فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم وغيرهما : أن الشياطين من الجن كانت ترص بعضهما فوق بعض ، حتى يستمع آخرهم إلى أخبار السماء ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ شدت الحراسة على السماء ، وكان الجنى الأخير يلقى بهذه الأخبار لمن تحته ، وهكذا ... ثم يحملها الأخير إلى الكاهن ، فيخبر الكاهن بها الناس ، ويكذب معها مائة كذبة ، فإذا قالوا له : إن أخبارك لم تتحقق . يقول الكاهن : ألم أخبركم بخبر كذا يوم كذا وقد تحقق ؟ .

٢٢٣ - يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ .

أى : إن الكهان الأفاكين يلقون سمعهم إلى الشياطين ، ويتلقون وحيهم إليهم ، والقاء السمع مجاز عن شدة الاهتمام فى الإصغاء ، إلى ما يلقى إليهم .. إلخ .

وأكثر الكهان مفترون كاذبون ، يفترون على الشياطين ما لم يخبروهم به ، لأن الشيطان يخبر وليه بأمر واحد : فيكذب معه مائة كذبة ، فهذا فريق للكذب والافتراء ، وليس كذلك محمد ﷺ .

وقيل : المراد من قوله تعالى : يُلقُونَ السَّمْعَ ... هم الشياطين ، وكانوا قبل أن يحجبوا بالرجم يتسمعون إلى الملائكة الأعلى ، فيخطفون بعض ما يتكلمون به ، ثم يوحون به إلى أوليائهم ، وأحياناً تظن الشياطين الأمر غنا ، فتلقى به إلى أتباعها من الكهان ، وهو كذب فى أكثره .

٢٢٤ - وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ .

اتهم أهل مكة النبی بأنه شاعر ، وأن القرآن شعر بدليل وجود القافية فيه ، وقد نفى القرآن الشعر عن الرسول ﷺ فقال : وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ؕ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ . (يس : ٦٩ ، ٧٠) .

وقال عز شأنه : وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُولِيُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ؕ تَزِيلُ مَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(الحاقة : ٤١ - ٤٣)

لقد كان محمد ﷺ مثلاً أعلى فى مكارم أخلاقه ، فهو الصادق الأمين ، وهو الداعى إلى الله وإلى الإيمان به ، والتزام طاعته واجتناب نواهيه ، أما الشعراء فكانوا فى جوانب كثيرة أصحاب أغراض وأطماع ، وتشبيب بالنساء ، وتكسب بالشعر ، فيمدحون ثم يذمون ، فإن أعطوا مالا مدحوا ، وإن لم يعطوا قدحوا .

قال المفسرون :

رُوى عن عبدالله بن عباس : أن هذه الآيات نزلت فى شعراء المشركين : عبدالله بن الزبير ، وهبيرة ابن وهب المخزومى ، ومسافع بن عبد مناف ، وأبى عزة الجمحى ، وأمينة بن أبى الصلت .

قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وكانوا يهجونهم ، ويجتمع لهم الأعراب من قومهم ، يستمعون أشعارهم وأهاجيهم ، وهم الغاؤون .

الإسلام والشعر

أراد الله توحيد لسان العرب ، تمهيداً لنزول القرآن عربياً مبيناً ، فكانت هناك أسواق للكلام الجيد ، والقصائد البليغة ، والخطب الرائعة ، والجيد من الشعر والنثر ، يعرض ذلك فى أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ، وكان العرب قد تميزوا بالشعر وفن القول ، وربما كان البيت من الشعر يرفع القبيلة إن كان مدحاً ، أو يخفضها إن كان عاً ، فلما نزل الكتاب الخاتم بلسان عربى مبين ، حاول القوم إلصاق التهم به ، فقالوا : كهانة ، وقالوا : شعر شاعر ، فرد القرآن هذه التهمة ، فشتان بين أهداف الشعراء ، وأهداف القرآن الكريم ،

والشعر وسيلة أدبية عالية ، وهو قيثارة رنانة ، منه الحسن والقبيح ، فالقبيح ما كان للهجاء والتشجيع على الرذيلة والكفر والفسوق ، أو التشبيب بالنساء ، أو هجاء الصالحين .

والحسن من الشعر ما كان مدحاً للحق ، ومنافحة عنه ، ودفاعاً عن الفضيلة ، فالشعر كلام حسنة حسن ، وقبيحه قبيح .

روى البخارى فى الأدب ، والطبرانى فى الأوسط ، عن عبد الله بن عمرو . وأبو يعلى ، عن عائشة - وهو حديث حسن - أن رسول الله ﷺ قال : «الشعر بمنزلة الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام» .

كما ورد هذا المعنى عن العلماء والأئمة والهداة :

فقال الإمام الشافعى : الشعر نوع من الكلام ، حسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام .

وقال ابن عبد البر : ليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر ، أو تمثل به ، أو سمعه فرضيه إذا كان حكمة أو مباحاً .

والخلاصة : إن من الشعر ما يجوز إنشاده ، ومنه ما يكره أو يحرم .

روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد ، عن أبيه قال : ردف رسول الله ﷺ يوماً فقال : «هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شئ» ؟ قلت : نعم ، قال : «هيه» فأنشدته بيتاً ، فقال : «هيه» ، ثم أنشدته بيتاً ، فقال : «هيه» ، حتى أنشدته مائة بيت^(١) .

وكان شعر أمية بن أبى الصلت مليئاً بالحكمة ، والدعوة إلى الإيمان ، حتى قال ﷺ : «كاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم» .

فالشعر الحسن ما كان حسن اللفظ ، حسن المعنى ، يحث على الخير ، أو يدافع عن الحق .

والشعر المكروه أو المحرم ما كان داعياً إلى الفجور أو اللهو ، أو العشق أو السوء ، أو الاستهانة بالقيم والخير ، وكان من شعر أمية بن أبى الصلت ، فى الجاهلية قبل الإسلام :

رينا فى السماء أمسى كبيراً

مجّداً الله وهو للحميد أهل

وقال أيضاً :

بالخير صبحنا ربي ومسانا

الحمد لله مسانا ومصبحنا

وكان أمية بن أبى الصلت من المتنسكين الذين زهدوا فى الخمر وعبادة الأصنام ، مثل قس بن ساعدة وورقة بن نوفل ، وكان أمية بن أبى الصلت يعلم أن نبيا سيُبعث قد أظل زمانه ، فكان يرجو أن يكون هو ذلك النبى ، فلما بُعث محمد ﷺ امتنع عن الإسلام حقداً وحسداً ، ولما أحسَّ أمية بن أبى الصلت باقتراب أجله ، أنشد قائلاً :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيَّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّ

وقد ورد من الحديث الشريف ، ما يذمُّ الشعر ، مثل ما رواه مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه»^(٢٧) ، خير من أن يمتلئ شعراً»^(٢٨) .

ومن الأحاديث التى مدحت الشعر ، ما رواه أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عباس : أن النبى ﷺ قال : «إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً»^(٢٩) .

ويمكن التوفيق بين الحديثين ، بحمل الحديث الأول على الشعر المذموم المردود ، كالشعر الذى يدعو إلى الفجور والفسق وارتكاب المحرمات ، ومدح الهوى والباطل ، وأن نحمل الحديث الثانى على الشعر المدحوح ، الحسن المقبول ، الذى قصد به إظهار الحق ، والدعوة إلى الخير ، ومدح الفضائل والمثل العليا ، والدفاع عن الوطن والذود عنه ، وكل ما فيه تربية للنفوس وتهذيب للعقول^(٣٠) .

عوداً إلى التفسير

وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ .

قال الضحاك : نهجى رجلان - أحدهما أنصارى ، والآخر مهاجرى - على عهد رسول الله ﷺ ، مع كل واحد غواة قومه وهم السفهاء ؛ فنزلت ، وقاله ابن عباس ، وعنه : هم الرواة للشعر ، وروى عن على بن أبى طلحة : أنهم هم الكفار يتبعهم ضلال الجن والإنس^(٣١) .

وأرى أن الآية عامة ، فى كل الشعراء الذين يقولون الشعر المذموم .

قال الماوردى :

الشعر كلام العرب ، مستحب ومباح ومحظور ، فالمستحب : ما حذر من الدنيا ، ورغب فى الآخرة ، وحث على مكارم الأخلاق . والمباح : ما سلم من فحش وكذب . والمحظور : ما كان كذباً وفحشاً . وجعل الرويانى منه ما فيه الهجو لمسلم ، سواء كان بصدق أو كذب .

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري :

وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوِرُونَ .

أى : أهل الغواية والضلال ، هم الذين يتبعون الشعراء ، فيروون لهم وينقلون عنهم ، ويصدقونهم فيما يقولون .

٢٢٥ - أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .

أى : إنهم ينطلقون فى القول هائمين على وجوههم ، ماضين فى قولهم ، فيمدحون ويذمون ، يهجون ويفخرون ، ويدعون أنهم فعلوا كذا وكذا وما فعلوا .

٢٢٦ - وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

فهم يرغَّبون فى الجود ، ويرغبون عنه ، وينفِّرون من البخل ، ويتمسكون به ، ويقدحون الأعراض لأدنى الأسباب ، ويرتكبون الموبقات ، تلك حال الشعراء وحال أتباعهم من الغاوين ، وحال سلوكهم من قول ما لا يفعلون ، فهل قول محمد ﷺ من جنس ذلك الشعر ؟ وهل أخلاقه وأتباعه توازى حال الشعراء وأتباعهم ؟

إن محمداً ﷺ مثل أعلى وقدوة حسنة ، وصحابته نماذج مضيئة ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَقْلِدَةً ... (الأنعام : ٩٠) .

فمن ادعى أن محمداً شاعر ، فليقل لنا هل سلوك محمد سلوك شاعر ؟ وهل يقول ما لا يفعل ؟ وهل صحابته غاؤون ضالون ؟ .

لقد وردت صفة محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن .

قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يَعْجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَكْثِفَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَغَدَا اللَّهُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الفتح : ٢٩) .

٢٢٧ - إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

كان من الشعراء مؤمنون صادقون ، دافعوا عن الإسلام ، وعن رسول الله ﷺ واتصفوا بصفات أربع :

١ - الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

٢ - عملوا أعمالاً صالحة كالجهاد والصلاة والصدقة ، وقول الشعر الذى يرسم المثل الأعلى ، ويمدح الإسلام ورسوله ، ويهجو الشرك وأهله .

٣ - ذَكَرَ الله ذِكْرًا كَثِيرًا وتمجيدته وتحميده والثناء عليه .

٤ - الانتصار للحق والدين والإسلام ، بعد هجاء المشركين ، ونيلهم من الإسلام وأهله .

فهذه الآية رَدَّت لشعراء المؤمنين اعتبارهم ، وشجعتهم على المضى فى طريق القول الجيد المفيد . وقد روى التاريخ لنا مآثر من شعر الخلفاء الراشدين ، وفى تفسير القرطبي نماذج طيبة من ذلك .

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ .

وهذه الآية وعيد عام لكل شاعر ظلم الحق والحقيقة ، أو لكل كفار مكة ، واختار بعض المفسرين أن الآية وعيد لكل ظالم ، بأنه سيلقى جزاءه فى الدنيا والآخرة ، وسيعلم أى مرجع يرجع إليه ، وأى مصير يصير إليه .

فإن مرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهى أقبح مصير .

وهكذا تختتم سورة الشعراء ، التى واست النبى ﷺ ، وذكرت قصص سبع من الأمم السابقة ، أهلك العذاب منهم المكذبين ، ونجى الله المؤمنين ، ثم تختتم فى آخرها بهذه الفقرة تهديداً للظالمين ، ووعداً للكافرين .

من كتب التفسير

١ - قال الطبرى :

فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ .

هذا مثل ضربه الله لهم فى افتنانهم فى الوجوه التى يَفْتَنُونَ فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ، ويهجون آخرين .

٢ - وقال أبو حيان في البحر المحيط :

أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة ، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواة لهم ، وسلوكهم أفتانين الكلام من مدح الشيء وذمه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا مخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون .

٣ - وجاء في تفسير ابن كثير :

قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغير واحد : إن الآية الأخيرة في سورة الشعراء : «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...» استثناء من عموم قوله تعالى : «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» . وهي تخص شعراء الإسلام كحسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، وكل من سلك مسلكهم .

وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان : «امجهم وجبريل معك»^(١٧) .

وقال الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه ، أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعراء ما أنزل ، فقال رسول الله ﷺ : «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل»^(١٨) أخرجه الإمام أحمد في المسند .

٤ - وجاء في تفسير الكشاف للزمخشري ما يأتي :

ذُكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند سليمان بن عبد الملك ، وكان في ضمنها قوله للنساء العذارى :

فبتن كأنهن مُصرَّعات
وبت أفض أغلاق الخنات

فقال له سليمان : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد درأ عنى الحد بقوله : «لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ» وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ . فعفا عنه .

٥ - نقل القرطبي جانباً كبيراً من شعر الذين آمنوا ، ومنه قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير ، وأبيات

لحسان بن ثابت ، وهي أبيات ذكرها الإمام مسلم في صحيحه^(١٩) ، وهي في السير أتم ، ومنها قوله

لأبى سفيان :

وجئت محبباً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
وإن أبى ووالداه وعرضى	لعرض محبب منكم وفاء
أنشئت له ولست له بكفء	فشركما لخيركما الفداء
لسانى صارم لا عيب فيه	ويحسرى لا تكدره الدلاء

وقال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب ربها	وليسغلبن مغالب الخداب
--------------------------	-----------------------

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الشعراء

- ١ - مقدمة في تسلية الرسول ﷺ عن إعراض قومه عن الدين ، وبيان أنهم ليسوا ببدع في الأمم ، فقد كُذِّبَتْ رسل سابقة فصبروا على ما كذبوا .
- ٢ - الاستدلال بخلق الثَّبات وأطواره المختلفة ، على وجود الإله ووجدانيته .
- ٣ - قصص الأنبياء مع أممهم ، لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين ، وأوردت سورة الشعراء سبع قصص هي : قصة موسى مع فرعون ، وإبراهيم مع قومه ، ونوح مع قومه ، وعاد ورسولهم هود ، وثمود ورسولهم صالح ، ولوط مع قومه ، وأخيراً قصة شعيب مع أصحاب الأيكة .
- ٤ - إثبات أن القرآن وحى من رب العالمين ، لا كلام تنزلت به الشياطين .
- ٥ - بيان أن محمداً ﷺ ليس بكاهن ولا شاعر .
- ٦ - وعيد المكذبين بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة النمل

أهداف سورة النمل

سورة النمل مكية ، وآياتها ٩٣ آية ، نزلت بعد سورة الشعراء .

وسميت بسورة النمل لاشتمالها على مناظرة النمل مع سليمان في قوله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُم لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** . (النمل : ١٨) .

نظام السورة

هذه السورة مجاورة لسورة الشعراء وهي تمضى على نسقها في الأداء : مقدمة وتعقيب يتمثل فيهما موضوع السورة الذى تعالجه ، وقصص بين المقدمة والتعقيب يعين على تصوير هذا الموضوع ، ويؤكد به ، ويبرز فيه مواقف معينة للموازنة بين موقف المشركين فى مكة ومواقف الغابرين قبلهم من شتى الأمم ، للعبرة والتدبر فى سنن الله وسنن الدعوات .

موضوع السورة

موضوع سورة النمل الرئيسى - كسائر السور المكية - هو العقيدة : الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، والإيمان بالآخرة ، وما فيها من ثواب وعقاب ، والإيمان بالوحى ، وأن الغيب كله لله لا يعلمه سواه ، والإيمان بأن الله هو الخالق الرزاق واهب النعم ، وتوجيه القلب إلى شكر أنعم الله على البشر ، والإيمان بأن الحول والقوة كلها لله ، وأن لا حول ولا قوة إلا بالله .

القصص فى سورة النمل

يأتى القصص فى سورة النمل لتثبيت أهداف السورة ، وتصوير عاقبة المكذابين ، وعاقبة المؤمنين .
تأتى حلقة من قصة موسى - عليه السلام - تلى مقدمة السورة . حلقة رؤيته للنار ، وذهابه إليها ، وندائه من الملائكة الأعلى ، وتكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه ، ثم يعجل السياق بخبر تكذيبهم بآيات الله وهم على يقين من صدقها ، وعاقبة التكذيب مع اليقين . **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** . (النمل : ١٤) .

واستغرقت هذه الحلقة من قصة موسى الآيات من ٧ - ١٤ .

قصة سليمان وبلقيس

استغرقت الآيات من ١٥ - ٤٤ فى الحديث عن داود وسليمان وبلقيس وبدأته بالإشارة إلى نعمة الله على داود وسليمان ، ثم ذكرت قصة سليمان مع النملة ، ومع الهدهد ، ومع ملكة سبأ وقومها وفيها تظهر نعمة الله على داود وسليمان وقيامهما بشكر هذه النعمة ، وهى نعمة العلم والملك والنبوة مع تسخير الجن والطير لسليمان ، وفيها تظهر كذلك أصول العقيدة التى يدعو إليها كل رسول .

قصة بلقيس

تبدأ قصة بلقيس بتفقد سليمان للطير ويحثه عن الهدهد فلم يجده ، ثم جاء الهدهد بعد ذلك ، وكان هدهداً عجبياً صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة فى عرض الأخبار ، فقد أخبر سليمان أنه رأى ملكة ولها رعية كبيرة فى بلاد سبأ ورأهم فى نعمة وغنى ولكنهم يسجدون للشمس من دون الله ، فكتب له سليمان رسالة ليلقيها إليهم وفيها : **إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوهُ مُسْلِمِينَ .** (النمل : ٣٠ ، ٣١) .

فلما ألقاها على الملكة جمعت قومها لتستشيرهم فيها ، فذكروا لها أنهم أولو قوة وبأس شديد ، وفوضوا أمر ذلك إليها ، فذكرت لهم أن عاقبة الحرب إفساد الديار ، وأنها ترى مسالمة سليمان بإرسال هدية إليه ، فلما جاءت الهدية لم يقبلها ، وهددهم بأن يرسل إليهم جنوداً لا قبل لهم بها فلم تجد الملكة مغراً من أن تدعن له وتسافر إلى مقر ملكه ، فجمع قومه وأخبرهم بأنه يريد أن يحصل على عرشها قبل حضورها ، فأخبره عفريت من الجن أنه يمكنه أن يأتيه به قبل أن يقوم من مجلسه ، وأخبره عالم من علماء قومه أنه يمكنه أن يأتيه به قبل مرور طرفه عين ، فشكر سليمان ربه أن جعل فى ملكه مثل هذا الرجل المؤمن المتصل بالله سبحانه .

وأمر سليمان قومه أن يغيروا شيئاً من شكل العرش ليختبر ذكاءها ، فانتقلت الملكة إلى جواب نكى أريب : **قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ...** (النمل : ٤٢) .

فهى لا تنفى ولا تثبت ودلت على فراسة ويدبية فى مواجهة المفاجأة العجيبة ، ثم تعرضت بلقيس لمفاجأة أخرى ، فى قصر من البلور أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة فلما قيل لها: ادخلى الصرح، حسبت أنها ستخوض فى لجة الماء وكشفت عن ساقها ، فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها وقال : إنه صرح مملى من زجاج .

ووقفت الملكة متعجبة مندهشة أمام هذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخرة له قوى أكبر من طاقة البشر ، فرجعت إلى الله وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ،

معلنة إسلامها مع سليمان - لا لسليمان - ولكن لله رب العالمين . قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (النمل : ٤٤) .

قصة صالح ولوط

وفى أعقاب قصة بلقيس نجد الآيات (٤٥ - ٥٣) تتحدث عن نبي الله صالح ومكر قومه فى حقه ، ونجد الآيات (٥٤ - ٥٩) تتحدث عن نبي الله لوط وارتكاب قومه لفاحشة اللواط بالرجال . ومحاولة لوط تقديم النصيحة لهم دون جدوى ، بل هددوه بالطرد والنفى فأنجاه الله وأمطر على قومه حجارة من السماء؛ فأهلكهم فبنس مطر الهالكين الخاطئين .

أدلة القرآن على وجود الله

فى ختام سورة النمل نجد آيات قوية تتحدث عن قدرة الله ومظاهر العظمة والقدرة فى هذا الوجود . لقد استعرضت السورة فى بدايتها حلقات من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط استغرقت الآيات (٧ - ٥٩) .

أما الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٠ - ٩٣) فلإنها تجول جولة هادفة فى تثبيت العقيدة ، جولة فى مشاهد الكون وأغوار النفس وأطواء الغيب ، وفى أشراف الساعة ، ومشاهد القيامة ، وأحوال الحشر ، التى يفزع لها من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله .

فى هذه الجولة الأخيرة يستعرض القرآن أمام الناس مشاهدات فى صفحة الكون وفى أطواء النفس لا يملكون تحليلها بغير التسليم بوجود الخالق الواحد المدبر القدير .

ويتوالى عرض هذه المشاهدات فى إيقاعات مؤثرة ، تأخذ عليهم أقطار النفس وأقطار المشاعر ، وهو يسألهم أسئلة متلاحقة : من خلق السماوات والأرض ؟ من أنزل من السماء ماء فأنبثنا به حدائق ذات بهجة؟ من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزاً ؟ من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ من يجعلكم خلفاء الأرض ؟ من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ؟ من يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من يرزقكم من السماء والأرض ؟ وفى كل مرة يقرعهم : أإله مع الله ؟ وهم لا يملكون أن يدعوا هذه الدعوى ، لا يملكون أن يقولوا : أن إلهاً مع الله يفعل من هذا كله شيئاً ، وهم مع هذا يعبدون أرباباً من دون الله !

وعقب هذه الإقاعات القوية التى تقتحم القلوب - لأنها إقاعات كونية تملأ صفحة الوجود من حولهم ، أو إقاعات وجدانية يحسونها فى قلوبهم - يستعرض تكذيبهم بالآخرة وتخبطهم فى أمرها ، ويعقب عليه بتوجيه قلوبهم إلى مصارع الغابرين الذين كانوا مثلهم يكذبون ويتخبطون .

ويخلص من هذا إلى عرض مشهد الحشر وما فيه من هول ومن فزع ، ويرجع بهم فى ومضة خاطفة إلى الأرض ، ثم يردهم إلى مشهد الحشر وكأنما يهز قلوبهم هزاً ويرجها رجاً .

وتختتم السورة بحمد الله الذى يستحق الحمد وحده ، وتكلمهم إلى الله يريهم آياته ، ويطلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن : **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّكُمْ ءَايَتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** . (النمل : ٩٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
زَيَّاتُهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْآخَسِرُونَ ⑤ وَإِنَّكَ لِنَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥ ﴾

المفردات :

طَسَّ : حروف مقطعة للتنبيه ، مثل : ألا ، ويا التي النداء ، وينطق بأسمائها فيقال : (طا - سين) .

تلك : إشارة إلى السورة .

مبين : موضح للأحكام والأخلاق والعبادات .

يعمَهُونَ : يتحيرون ويترددون في أودية الضلال .

الآخَسِرُونَ : أشد الناس خساراً ، لحراماتهم الثواب ، واستمرارهم في العذاب .

من لدن : من عند .

حكيم : عظيم الحكمة ، والحكمة : إتقان الأمور .

التفسير :

١ - طَسَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ .

طَسَّ ...

اسمان لحرفين من حروف المعجم ، هما الطاء والسين ، وقد مضى الكلام بشأن مثلهما ، في أول سور البقرة ، وآل عمران ، ويونس ، وهود ، وغيرها . ومن كلام العلماء أنها حرفان للتنبيه ، كالجرس الذي يقرع فيتنبيه التلاميذ لدخول المدرسة ، وهذه الأحرف فاجأت العرب بأمر لم يألفوه فتنبهوا ، فلما تنبهوا قال القرآن الكريم :

تِلْكَ ءَايَةُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ .

أى : هذه الآيات المنزل عليك يا محمد هي آيات القرآن المعجز في بيانه الساطع في برهانه .

وَكِتَابٌ مُبِينٌ .

وآيات كتاب واضح مبين لمن تفكر فيه وتدبر ، أبان الله فيه الأحكام ، وهدى به الأنام .

وقد لاحظ العلماء المهتمون بالإحصاء ، أن كل سورة بدئت بمثل هذه الفواتح ، تغلب فيها الحروف التي بدئت بها ، على سائر الحروف التي تكونت منها كلمات السورة ، وبما أن محمداً ﷺ أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، فذلك شاهد على أن القرآن ليس من تأليفه ، كما زعم أعداء الحق ، بل هو من عند الله العزيز الحكيم .

٢- هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .

القرآن إنما تحصل هدايته وبشارته لمن حلَّ في قلبه الإيمان ، فهو روح وهداية وبشارة بمن الدنيا وسعادة الآخرة ، لمن آمن بالله وألتزم بطاعته .

٣- الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

وصف الله المؤمنين بهذه الصفات :

١- إقامة الصلاة : أى المحافظة عليها فى أوقاتها ، كاملة الأركان ، فى خشوع وخضوع ، وتدبر وتفكر ، واستغراق فى عظمة العلى القدير .

٢- وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . يؤدونها كاملة ، متى بلغت النصاب ، وحال عليها الحول ، يرجون بها وجه الله ، وينفقونها فى مصارف الزكاة ، ويؤدونها مستوفاة شروطها ، كاملة متجردة من الرياء والتظاهر .

٣- وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

إنهم آمنوا بالآخرة وتيقنوا بها ، وهذا يزيدهم خشوعاً فى صلاتهم ، وإخلاصاً فى زكاتهم ، ويقيناً بريهم ، وبالجزاء العادل يوم القيامة ، وقد أكد إيمانهم بالآخرة ، لأن هذا الإيمان وذلك اليقين هو مبعث كل نشاط حسن .

من التراث

دخل جمع من الناس على عمر بن عبد العزيز ، فوجد بينهم شاباً نحيلاً ، فسأله الخليفة : ما الذى أحالك إلى هذا الذبول ، قال : يا أمير المؤمنين ، أسقام وأمراض ، فقال الخليفة : بالله عليك إلا ما أصدقنتى .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين ، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مريرة ، وهان على أمرها ، واستوى عندي ذهبها وحجرها ، وكأنني أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، والناس يساقون إلى الجنة أو إلى النار ، فأظلمات لذلك نهاري ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير ما أنا فيه ، بجانب ثواب الله وعقابه .

٤ - - إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ .

إن هؤلاء الكفار الذين رفضوا الإيمان بالآخرة ، وقالوا : إن هـى إلا أرحام تدفع ، وقبور تلبع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، هؤلاء الكفار سلبهم الله معونته وعونه وتوفيقه فصار الكفر والضلال حبيبا إليهم ، وضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فحبب إليهم اتباع الهوى ، وزين لهم الضلال ، فتراهم حيارى فى غيهم يترددون ، ونلاحظ أن العمى صفة البصر ، والغمَّة صفة البصيرة ، فبصيرتهم فى ظلام الضلال ، لا تدرك ما ينفعها ولا ما يضرها .

قال الرازى فى التفسير الكبير :

والمراد من التزيين : هو أن يخلق فى قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ، ولا يخلق فى قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات .

٥ - - أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ .

هؤلاء الكفار لهم سوء العذاب ، بالقتل والأسر فى الدنيا ، وهم فى الآخرة يدخلون جهنم ويعذبون فيها عذاباً أبدياً سرمدياً خالداً مخلداً ، فهم فى أكبر خسارة حيث خسروا دنياهم وآخرتهم .

٦ - - وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ .

تأتى هذه الآية ختاماً لمقدمة السورة ، وتمهيداً لما سيأتى بعدها من قصص ، فتخبر أن القرآن من عند الله ، تلقاه محمد ﷺ عن جبريل ، وتلقاه جبريل عن الله ، وقد أكدت الآية أن القرآن من عند الله ، ردعاً لمن افتترى بأن القرآن شعر أو كهانة أو أساطير الأولين ، وقد صرحت آية أخرى بهذا التلقى حيث قال سبحانه : نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) . وفى الآية إشعار بفضل الله على نبيه ، فهو يتلقى هذا الوحي بواسطة جبريل من الحكيم العليم ، فאלله حكيم أنزل القرآن منجماً ومجزأً حسب الوقائع والحوادث ، وقد اشتمل القرآن على حكمة التشريع ، وأداب الحياة ، ونظام العبادات والمعاملات ، وبيان الفرائض والأحكام ، لذلك نُسب إلى الحكيم واسع الحكمة ، الذى لا يعمل عملاً إلا لحكمة إلهية عليا ، وهو سبحانه : عَلِيمٌ . واسع العلم أحاط بكل شىء علماً ، وهو سبحانه : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وقال تعالى : وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا . (النساء : ١١٣) .

وقال سبحانه : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا . (طه : ١١٤) .

وخبر القرآن هو الصدق والعدل ، وشريعته هي الشريعة الوسط المعتدلة بلا تفريط ولا إفراط ، قال تعالى : وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ... (الأنعام ١١٥) .

★ ★ ★

قصة موسى عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ٧ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ نُورٌ أَن بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبَّحَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ٨ ﴿ يَمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩ ﴾ وَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ١٠ ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١ ﴾ وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ يَصْفَاءَ مِنْ عَرِسُوهُ فِي تَسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ١٢ ﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ أَتَيْنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٣ ﴿ وَجَعَلُوا بَهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ١٤ ﴾ ﴿

المفردات :

تَلَقَّى : تَلَقَّنَ وَتَعَطَّى .

آنَسْتُ : أبصرت إبصارًا حصل لى به أنس .

بشخبز : عن الطريق وحاله .

بشهاب : بشعلة نار .

قَبْس : قطعة من النار مقبوسة ، ومأخوذة من أصلها .

تَصْطَلُونَ : تستدفئون بها ، قال الشاعر :

أكل الفواكه شاتبا فليصطل

النار فأكهة الشتاء فمن يرد

بورك من النار ، جعلت البركة لمن فى البقعة التى فيها النار

ومن حولها ، ولمن فى الأماكن التى حولها .

جسمان ، حبة صغيرة سريعة الحركة .

ولى مديراً ، التفت هارباً .

ولم يعقب ، لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما وراءه . من قولهم : عقب المقاتل ، إذا كرّ بعد الفرّ .

من غير سوء ، من غير برص ولا نحوه من الآفات .

آيسات ، معجزات دالة على صدقك .

مبصرة ، بيئة واضحة .

جحدوا بها ، كذبوا .

استيقنتها ، علمت علماً يقيناً أنها من عند الله .

علوا ، ترفعوا واستكباراً .

التفسير :

٧- إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ مِّمَّنْ تَعْلَمُونَ .

كان موسى عليه السلام قد خرج من مصر حين علم أن الملأ من قومها يأتُمرون به ليقتلوه ، فخرج إلى سيناء وانتهى في رحلته إلى مدين ، حيث عمل أجيراً عند شعيب في مقابل تزويجه إحدى ابنتيه ، فلما قضى عشر سنين في أرض مدين ، جنّ للرجوع إلى مصر ، وسار بأهله ، فأدركها المخاض عند الطور ، فوضعت في ليلة شاتية باردة ، وكان قد حاد عن الطريق لأمر شاءه الله تعالى .

وقد أصبح بحاجة إلى امرين :

أحدهما : أن يجد من يرشده إلى الطريق الموصل إلى مصر .

ثانيهما : أن يوقد نارا ليستدفئ هو وأهله .

قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا تَعْلَىٰ آتِيكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ أَوْ جَذَرٌ : نَّ أَنْتَارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . (النقص : ٢٩) .

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ...

تأتى هذه الآية عقب قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل : ٦) .

أى: لست بدعاً من الرسل، ولست وحده الذى تلقيت وحى السماء إلى الأرض، فانذكر فضلاً مشابهاً، حين سار موسى من مدين إلى مصر ليلاً، فى طريق مظلم قرب الطور، فأنت ناراً فى ظلام الليل، وكانت النار توقد ليلاً لأمرين:

١ - إكرام الضيف.

٢ - هداية السارى بالليل.

ومن ذلك قول حاتم الطائى لغلامه:

- إن الليل ليل قرّ، والريح يا غلام ريح صر، فإن جلبت ضيفاً فأنت حرّ.

أردك موسى النار وقد فرح برويتها، وقال لزوجته: إني آنست ناراً قد سررت لرويتها، فامكثوا فى مكانكم، وسأذهب إلى هذه النار: سَتَأْتِيَكُمْ مِنْهَا بَخِيرٌ أَوْ عَائِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ.

لقد سررت بروية النار وتوقعت عندها الخير فامكثوا فى مكانكم، لأذهب إليها، حتى أسأل عن الطريق الموصل إلى مصر، وأحضر منها قبساً^(٩٠) نستدفئ به فى قرّ الصحراء، ومضى موسى إلى النار، التى أنسها ينشد خبراً، فإذا هو يتلقى النداء الأسمى.

٨ - فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تقدم موسى إلى النار فرأى عجبا، شجرة خضراء تتوقد منها النار، لا تزداد الشجرة إلا اخضراراً، ولا تزداد النار إلا نورانية وارتفاعاً إلى السماء، وتعجب موسى مما رأى، وسمع نداء الحق سبحانه وتعالى:

أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا...

ومن فى النار: الملائكة مستجيبة لأمر الله تعالى بإيقاد النار.

وَمَنْ حَوْلَهَا: كل من حولها من الأرض والناس، ومَنْهُمْ موسى عليه السلام.

والآية تسجل بركات الله وعنايته ورحمته وهدايته، ينزلها على ملائكته ورسوله موسى عليه السلام، والله منزّه عن الكم والكيف، والطول والعرض، لا يحده مكان ولا يحويه زمان، فهو سبحانه خالق الكون، وخالق الزمان والمكان.

وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تنزه الله الذى يفعل ما يشاء، ولا يشبهه شئ من مخلوقاته، وهو العلى العظيم، الواحد الأحد الفرد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وابن ماجة في سننه ، والبيهقي ، عن أبي موسى الأشعري قال :

قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، حجاب النور لو كشفها لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شيء أدركه بصره»^(١١) . ثم قرأ أبو عبيدة : أَنَّ بَوْرِكَ مَنْ فِي آثَارٍ وَمَنْ حَوَّلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

٩ - يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ، أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

نادى الله موسى نداء الإله الخالق المهيمن ، فموسى رسول سيكلف بالرسالة ، وتسمو البشرية في شخصه ، لتتلقى خبر السماء من الله العزيز . الغالب ، القوى القادر ، المهيمن المقتدر ، ذى الجلال والإكرام ، الْحَكِيمُ . فهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، وهو أحكم الحاكمين في تصرفاته وأفعاله ، جل جلاله ، ومن هذه الحكمة اختيار موسى ليكون رسولاً إلى أكبر الطغاة في الأرض ، في ذلك الحين ، ومن ثم جعل ربه يعبه ويجهزه ويقويه .

١٠ - وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...

أمر الله موسى أن يلقي عصاه ، فإذا هي تتحول إلى حية شديدة الحركة ، في سرعة وخفة مذهلة ، فلما رآها موسى في شكل مخيف مربع رهيب ، جرى سريعاً بعيداً عنها ، ولم يرجع إلى المكان الذى كان فيه ، حين ألقى عصاه ، فناداه الله مطمئناً له بقوله :

يَمْوَسَّىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ .

يا موسى لا تخف من العصا ولا من الحية الكبيرة ، العظيمة الحركة ، فأنت رسول رب العالمين ، الرسل لا يخافون في حضرة ربهم ، وهم يتلقون التكليف .

الشعبان ، والجبان

فى الآية ١٠٧ من سورة الأعراف قال تعالى : فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

والشعبان حية كبيرة .

وهنا قال تعالى : وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ...

والجبان ضرب من الحيات أكثرها حركة ، وأسرعها اضطراباً ، مع صغر فى الحجم .

ويجمع بين الآيتين : بأن العصا تحولت إلى حية كبيرة من ناحية الحجم ، وتحولت إلى صورة الجان من ناحية الحركة والاضطراب السريع ، ولهذا جاز التعبير عنها بالكلمتين في موضعين مختلفين : فهي نُعْبَانٌ كبير ، في سرعة جَانٌ . خفة واضطرابا .

١١ - إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

لكن من ظلم نفسه بارتكاب المعاصي ، ثم تاب إلى الله وعدل سلوكه ، وأقبل على الطاعات ويدل حسنا بعد سوء ، وعمل صالحا بعد عمل المعصية .

فَأِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ .

يغفر ذنبه ويرحم ضعفه ، ويقبل توبته ، فهو سبحانه خالق الخلق وهو أعلم بضعفهم ، ولهذا تكررت الدعوة إلى التوبة ، وفتح الله أبوابه لقبولها ترفقا بعباده ، وترحمًا بضعفهم .

قال تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . (طه : ٨٢) .

وقال سبحانه وتعالى : قُلْ يٰٓعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣) .

١٢ - وَأَذِّنْ لِّدَكَ فِي حَبِيبٍ^(١١) تَخْرُجُ يَبْضَاءَ مِن غَيْرِ سَوْءٍ فِي تِسْعِ ءَالَيْتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ .

هذه هي المعجزة الثانية في هذا المقام :

الأولى : إلقاء العصا تنقلب حية كبيرة .

الثانية : أن يدخل موسى يده في فتحة القميص التي يدخل الرأس منها ، فتخرج بياضا بياضا ناصعا ، كفلقة القمر في غير برص ولا مرض .

فِي تِسْعِ ءَالَيْتَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ...

هاتان الآيتان (العصا واليد) ضمن تسع آيات أيدتك بها وهي : سنوات الجذب ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ .

خارجين عن سنن الفطرة ، حيث كذبوا موسى ، وعتوا عن أمر ربهم .

١٣ - فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

فلما تقدم موسى إلى فرعون وقومه ، ومعه معجزات ملموسة تبصرها العين ، وتتيقن بها النفس ، ورفضوا الإيمان بها ، وقالوا : هذا سحر ظاهر وليس معجزة .

١٤ - وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

كذب فرعون وقومه بالآيات مع وضوحها وظهورها ، ولم يكن تكذيبهم بسبب نقص الدليل ، فإنهم يتيقنوا من صدق موسى وصدق رسالته ، ولكن الجحود والكنود والظلم والبغى والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، حملهم على التكذيب ، ظلمًا وترفعًا عن الحق وعدم خضوع له ، فاستبحقوا الهلاك والغرق .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ .

فتأمل يا كل من عنده عقل أو فكر ، كيف كانت نهاية المفسدين إلى الغرق والهلاك ، وكأن هذه الخاتمة موجهة إلى أهل مكة ، وكأنها تقول : لقد هلك من كذبوا موسى ، وأغرقوا فى اليم ، وحرموا من نعيم الدنيا وسعادة الآخرة ، وقد جاءكم محمد ومعه شريعة خاتمة الشرائع ، وكتاب مبين ، فإذا جحدتم وجب عليكم الهلاك والدمار ، فتأملوا كيف انتهى حال المكذبين لرسولهم ، قيل أن ينزل بكم ما نزل بهم .

وهكذا تنتهى قصة موسى فى لمجات ركزت ، على لقاء موسى الكليم والفضل الإلهى عليه والمعجزات التى أيدّه الله بها ، وفى إيجاز تكلمت عن سوء استقبال فرعون وقومه ، وعن نهاية المفسدين وهلاكهم .

قصة داود وسليمان عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
 ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَىٰئَهَا النَّاسُ عُلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَالْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَخَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَىٰئَهَا النَّملُ أَذْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

المقررات :

ورث سليمان ، قام مقام داود في النبوة والملك .

منطق الطير ، فهم ما يريده كل طائر إذا صَوَّت .

حشــر : جمع .

يوزعون ، يحبس أولهم ليلحق آخرهم ، فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد .

واد النمل ، واد بأرض الشام .

لا يحطمنكم ، لا يكسرنكم ويهشمنكم .

أوزعني ، ألهمني ويسر لي .

تمهيد :

تأتي قصة داود وسليمان بعد قصة موسى ، وقد امتن الله على داود بأن نصره على طالوت ، وآتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وامتن الله على سليمان بأن علمه منطق الطير ، وسخر له الإنس والجن والطير والرياح والشياطين المتمردين فأمكنه منهم ، وقد طلب سليمان من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكنه من العمل الصالح ، وأن يدخله جنات النعيم .

التفسير :

١٥ - وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

تأتى هذه القصة بعد ذِكر فضل الله على رسوله محمد ﷺ ، وفضله على رسوله موسى عليه السلام ، وذكر جانب من قصته ، ثم ذكر جانب بسير عن داود عليه السلام ، وقد آتاه الله الرسالة والنبوة ، والملك والعلم والقضاء ، ولأن له الحديد ، كما منحه الصوت الحسن ، وتلاوة الزبور ، حيث كانت الجبال والطير والكون تردد الزبور خلفه ، فقد آتاه الله علماً نافعاً ، وألهمه الشكر والاعتراف بالفضل لله العلى الكبير ، كما من الله على سليمان بعلوم متعددة ، منها معرفة لغة الطير ، وفهم أحكام القضاء ، وتسخير الرياح والجن والشياطين لخدمته ، كما وفقه الله للشكر ، وفى الآية فضل العلم ، وإعلاء درجته على درجات الملك ، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم والعلماء .

قال تعالى : يُرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ... (المجادلة : ١١) .

وقال سبحانه : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... (الزمر : ٩) .

وقال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (فاطر : ٢٨) .

وقد سعى موسى لتعلم العلم من الخضر وقال له : هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تَعْلَمَ مِنِّي مَا عَلَّمْتُ رُشْدًا . (الكهف : ٦٦) .

وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : قال الأب والابن : الشكر لله تعالى الذى منحنا الملك والنبوة والعلوم المتعددة ، وفضلنا بهذه المنح والعطايا ، على كثير من عبادہ المؤمنين ، الذين لم يؤتوهم مثل ما آتانا .

١٦ - وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا آتَاسُ عَلَّمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُجِينُ .

ورث سليمان والده فى ملكه وفى فضله ، وفى عطاء الله تعالى له ، وليس المراد ميراث المال ، لأن الأنبياء لا تورث مالا ، قال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة»^(١٦) وقد رواه أبو بكر وعمر أمام جمع من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد .

وأخرج أبو داود ، والترمذى ، عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، ولكن ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»^(١٧) .

وقد صرح القرآن بأن الله أعطى داود الفضل ، أى : التفضل عليه بالنعمة والهداية والرسالة ، وحسن الصوت وترديد الجبال والطيور لعبادته وأناشيده ، وقد ورث سليمان جانباً من هذا الفضل ، واعترف بهذه النعمة ، فقال لأهل مملكته : يا أيها الناس قد تفضل الله علينا بأن علمنا منطق الطير ولفته ، فإذا صوت أدركنا ماذا يريد أن يقول .

وقال سليمان : لقد أعطانا الله من كل شيء يحتاج إليه أمثالي ، فأتاح لى الذبوة والملك ، ومعرفة لغة الطير ، وغير ذلك من النعم .

إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ .

إن هذا تفضل ونعمة بينة ظاهرة واضحة ، قال ذلك اعترافاً بأنعم الله عليه ، ولم يقله على سبيل الفخر ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود، ومسلم، عن أبى هريرة : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر» . أى : أقول هذا القول شكراً ، ولا أقوله فخراً .

١٧ - وَخَيْرٌ لِّسُلَيْمَانَ جُودُهُ، مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .

كان لسليمان جيش كبير ، فى غاية النظام والترتيب ، يصطف الإنس ثم الجن ، وتصطف الطير فوق رؤوسهم لحمايتهم من هجم الشمس ، ولكل فئة من الثلاث قائد أو وازع ينظلمهم ، ويحبس أولهم حتى يحضر آخرهم .

ومعنى : يُوزَعُونَ . أى : يحبسون ويمنعون من المضى حتى يتلاحقوا ويجمعوا .

والإيزاع : الحث على الوزع ، وهو الكف والمنع .

ومنه قول عثمان رضى الله عنه : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

وقول الشاعر :

ومن لم يزعْه لبه وحيأولا فليس له من شئيب قودته وازع

لقد أعطى الله سليمان ملكاً لم يعطه لأحد من بعده ، مثل ملك الجن والريح والطيور ، استجابة لدعائه : قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ * وَأَخْرَجْنَا مَقَرِّيْنِ فِي الْأَصْفَادِ . (ص : ٣٥ - ٣٨) .

وقال تعالى : وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَمْعَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَمَتَابِلَ وَجْهَيْنِ كَالْجَوَابِ وَقُدِّرَ فِي السَّيِّئَاتِ ... (سبأ : ١٢ ، ١٣) .

كل هذا الملك ، والجيش المتعددة الأنواع ، ومعرفة لغة الطير ، وتسخير الجن ، والتفوق فى القضاء ، قابله داود بالشكر والعرفان .

قال تعالى : **اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** . (سبأ : ١٣) .

وعندما رأى سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، قال : **هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** . (النمل : ٤٠) .

عبرة بالآية

جاء فى أحكام القرآن لابن العربى - تعليقاً على قول عثمان : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن :-

قد جهل قوم المراد بهذا الكلام ، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن ، وهذا جهل بالله وحكمه وحكمته ، فإن الله تعالى ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة قائمة لقوام الخلق ، ولكن الظلمة خاسوا بها ، وقصروا عنها ، وأتوا ما أتوا بغير نية منها ، ولم يقصدوا وجه الله فى القضاء بها ، فلم يرتدع الخلق بها ، ولو حكموا بالعدل ، وأخلصوا النية ، لاستقامت الأمور ، وصلح الجمهور .

لغة الطير

يتسابق العلماء الآن فى معرفة لغة الطير والحيوانات ، وقد علمها الله تعالى لسليمان ، وأشار القرآن إلى تنظيم أمة النحل وأمة النمل ، وأمثالهما من الأمم ، حيث قال تعالى : **وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ** ... (الأنعام : ٣٨) .

وقد سبق القرآن الكشف العلمية ، وأيدته المشاهدة ، فالنحل له ملكة تدبر أمره ، وتسوسه ، وبلغ من دقة إدراكه أنه يصنع بيوتاً مسدسة الأضلاع لتجميع عسله فيها ، بمقاييس غاية فى الدقة ، وبالجمله فدراسة مملكة النحل وأمتة تحير الأفكار ، ومثلها النمل وجميع الكائنات الحية ، ومن أغرب المشاهدات تلك الطيور ، التى تقطع آلاف الأميال فى موسم الشتاء طلباً للداف والرزق ، ثم تعود أدراجها فى مواسم معينة ، إلى نفس العش الذى تركته ، فوق مبنى أو فوق شجرة ، ولا تخطئ طريقها ، وكل طائفة تسير خلف نذيرها ومرشدتها ، وهى تطير على هدى إدراك داخلى أقوى من (الرادار) ، لقد ألهمها الخالق سبحانه البحث عن رزقها ، والسير فى الفضاء والهواء ، بإلهام من الله العلى القدير ، وتجد أنواعاً من السمك ، تهاجر آلاف الأميال ، لتضع البيض ، ثم يفقس البيض ، ويتحول إلى سمك ، ويبدأ السمك رحلة العودة من حيث جاءت أصوله ، فسبحان الذى ألهم هذه الكائنات ، أسرار وجودها ، وطريقة حياتها ، ونظام معيشتها ، بما يفيد أن

وراء هذا الكون البديع ، يذا حانية تحفظ وجوده ، وتدعم تماسكه ، وتقدر أوقاته ، وانظر إلى قوله تعالى : قَالَ فَمَنْ يُكَلِّمُ الْيَتِيمَ إِذْ قَالَ لِلْيَتِيمِ أَغْنَىٰ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٤٩ ، ٥٠) .

وقال تعالى : وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا فُوقَاتِهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . (فصلت : ١٠) .

قصة النملة

١٨ - حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

سار سليمان في موكبه وجيوشه ، حتى اقترب من منطقة بها نمل كثير ، تسمى وادى النمل ، يقول بعض المفسرين : إنها قرية فى بلاد الشام ، ولهذه الأمة من النمل ملكة ترعى شئون النمل ، فأمرت النمل أن يدخلوا مساكنهم ، حتى لا يتعرضوا للهلاك ، والدَّهْسُ والتحطيم والموت ، إذا مرَّ عليهم سليمان وجنوده ، فتقتل النمل ، دون أن يشعر سليمان وجنوده بذلك ، وقد أدرك سليمان هذا الأمر ، حيث شاهد أمة من النمل ، تعرف بحسبها أن موكب سليمان قد اقترب ، فتأمر النمل أمراً ، ثم تحذروهم من الهلاك إذا تأخروا ، والآية فيها أمر ، وتحذير أو نهى ، واحتراس :

فالامر : ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ .

والتحذير أو النهى : لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .

والاحتراس : وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ثم كيف عرفت النملة أن هذا جيش سليمان ، وكيف كانت حازمة واضحة محذرة ، ذلك فضل الله ، الَّذِي أَغْنَىٰ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ . (طه : ٥٠) .

١٩ - قَتَبَسَم ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَالَّذِي أَوْلَىٰ أَنْ أَعْمَلَ صَلَاحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ .

التبسم : مبدأ الضحك من غير صوت ، والضحك : انبساط الوجه حتى تظهر الأسنان من السرور مع صوت خفى ، فإن كان فيه صوت يسمع من بعيد فهو القهقهة .

ومعنى الآية :

فتبسم سليمانُ مسروراً ضاحكاً راضياً من كلام النملة ، ومن نعمة الله عليه في فهم كلامها ، ومن شدة حسمها ، وقيامها بواجبها ، وتوضيح مقاصدها لطائفة النمل ، واحتراسها .

حين قالت : يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

ولما رأى سليمان ذلك رضى وشمله السرور والرضا ، وأخذ في دعاء الله قائلاً :

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ .

أى : قال : يارب تفضلت على بنعم كثيرة ، فألهمنى وسخرنى ووفقنى أن أقوم بشكر نعمك ، والثناء عليك ، والاعتراف لك بالفضل والمنة ، جزاء ما أنعمت به على وعلى والدى ، وزدنى توفيقاً ، حتى أعمل العمل الصالح الذى ترضاه وتقبله ، واجعلنى ممن تشمله رحمتك وفضلك ، حتى أكون فى جملة عبادك الصالحين ، الذين رضيت عنهم ورضوا عنك .

ومن هذه الآية ، نذكر قيمة الصلاح وأنه غاية سامية يتطلع إليها الأنبياء والمرسلون ، حتى قال تعالى : وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ٣٩) . فالعبد الصالح قدر الله فى الأرض ، تدعوله الملائكة ، ويتجاوب معه الكون ، ويصله السلام من ملايين المسلمين فى كل صلاة ، ففى قراءة التشهد : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وقد كان هذا الدعاء من سليمان من تواضع الكاملين ، فأبوه رسول أعطاه الله الفضل ، وأمه زوجة نبي وأم نبي ، وهو رسول أكرمه الله ، لكن الهدف الأصيل عنده هو الوصول إلى رضا الله ، والقيام بشكره ، والتوفيق لأن يعمل عملاً صالحاً مخلصاً يرضاه الله ، وأن ينتظم فى سلك العباد الصالحين ، فما أجلها من نعم ، وما أفضلها من أدعية .

رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَذْخُلِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ .

قصة التهدهد مع سليمان عليه السلام

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِيزِ ۚ﴾ (٢٠) ﴿لَا عُدْبَتَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحْنَهُ ۖ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ (٢١) ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِط بِهِ ۖ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢٢) ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطٰنُ أَعْمٰهُمْ فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢٤) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (٢٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٦) ﴿

المعطرات :

تفقد الطير : تعرف موجوده من مفقوده .

التهدهد : طائر معروف ، ويكنى بأبي الأخبار .

بسُلطان مبین : بحجة واضحة تبين عذره .

غير بعيد : زماناً غير مديد .

سبأ : هو سبأ بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة باليمن .

نبأ : خبر عظيم .

العرش : سرير الملك .

عن السبيل : عن سبيل الحق والصواب .

الخبء : المخبوء من كل شيء كالمطر وغيره من شئون الغيب .

التفسير :

٢٠ - وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَائِيزِ .

ملك الله سليمان الريح والطير والجن ، أى : سخر له هذه المخلوقات ، ومن شأن الملك الحاذق أن يتفقد رعيته ، ويتعرف على أحوالها ، ويقال : إن سليمان عليه السلام سار فى جيشه ، وأثناء الرحلة احتاج إلى

الماء ، وكان الهمد يرشده إلى الأرض التي بها ماء قريب ، والتي بها ماء بعيد ، فإذا أُرشد الهمد إلى أرض قريبة الماء ، أمر الجن أن تعمل فيها لتستخرج الماء فيشرب الجيش والدواب ، ويستفيد سائر الناس ، ولما احتاج سليمان إلى الهمد لم يجده ، فقال :

مَا لِي لَا أَرَى الْهَمْدَ ...

هل هو موجود ولكن ستره سائر فلا أراه ، ثم عرف أنه غير موجود ؛ فقال : أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . وأم للإضراب ، والمعنى : بل هو من الغائبين .

قال مجاهد : قيل لابن عباس : كيف تفقد الهمد من الطير ؟ قال : نزل سليمان منزلاً ولم يدر ما بعد الماء ، وكان الهمد مهتدياً إليه ، فأراد أن يسأله . قال مجاهد : فقلت : كيف يهتدى الهمد إلى الماء ، والصبي يضع له الحبال فيصيده ؟ فقال ابن عباس : إذا جاء القدر عمى البصر .

ونحن نقول : إدراك الهمد لمكان الماء ، هذه فراسة بحسب تكوين الله للهمد ، أما وقوعه حبساً في الفخ فلا أنه لا يعلم الغيب ، كالكلاب تترك الزلازل بأسباب تحسها داخلها ، ولكنها لا تدرى أن الطعام الذي قدّمه الصياد مسموم ليقتلها به ، وبالجمله فمنهاج التكوين الإلهي لخليقته عجيبة ، فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى^(٢٩) .

٢١ - لَا عَذَابَ لَكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْهَبَتْهُ أَوْ لَا يَأْتِي بِسُلْطَنٍ مُبِينٍ .

كان ههنا ذكياً بارعاً متفوقاً ، سخره الله لسليمان مع مجموعة خاصة من الطير ، وكان الهمد صاحب النوبة ، فلما تخلف عن الحضور ، وتأكد الملك من غيابه ، أقسم ليعذبه عذاباً شديداً ، مثل نقف ريشه ، أو ليقتلته ، إلا إذا جاء بحجة واضحة تدل على أنه كان معذوراً في غيابه .

٢٢ - فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ .

مكث الهمد وقتاً قصيراً ليس بالطويل ، وجاء متواضعاً أمام سليمان ، وقال :

أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ...

لقد اكتشف مملكة وملكة وقوماً يعبدون الشمس ، وذكر ذلك في إجمال ، ليفتح شهية الملك في الإحاطة بهذا الكشف الجديد ، الذي اهتدى إليه الهمد .

وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ .

أتيتك من مدينة سبأ بخبر حقيقي مؤكد لا ريب فيه ، وسبأ فى الأصل اسم لسبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان ، ثم أطلق على حى من الناس سُمُوا باسم أبيهم سبأ ، وأطلق على المدينة التى يقيم فيها هؤلاء الناس ، فقيل : مدينة سبأ .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

ألم الله الهدد ، فأخبر سليمان بهذا الكلام ، على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة ، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيهها على أن فى أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحط به ، لتحقاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفاً له فى ترك الإعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة . ا هـ .

٢٣ - إِنِّى وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

اشتمل كلام الهدد على صفات القوم وحالتهم الدنيوية ، وذكر منها ثلاثة أمور :

١ - أن ملكتهم امرأة ، هى بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها من قبلها ملكاً جليل القدر واسع الملك ، ولما مات لم يترك عقباً من الذكور فتولت الملك ابنته .

٢ - إن المرأة قد أوتيت من كل شيء يفيد أمثالها ، من عظمة الملك واتساعه ، وعظمة الجيش ونظامه ، واتساع الثراء ، وكثرة الأسلحة وأدوات الحرب ، مما لا يوجد مثله إلا فى الدول العظمى .

٣ - إن لها سريراً عظيماً تجلس عليه عند اجتماعها مع القادة والوزراء ، مرصعاً بالذهب والياقوت واللؤلؤ ، ومن أفخم العروش فى زمانها .

٢٤ - وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَبَضَّلَهُمْ عَنْ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ .

وجدت هذه الملكة وقومها يعبدون الشمس من دون الله ، ويسجدون لها سجود عبادة وتعظيم ، وقد زين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فرأوه حسناً ، وصددهم الشيطان عن الطريق الحق ، والسبيل الواضح ، وهو عبادة الله تعالى ، فهم لا يهتدون إلى الهدى ، ولا يرغبون فى الإيمان بالله .

٢٥ - أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ .

هلا سجدوا لله ، الإله الحق ، الذي سخر الشمس والقمر ، والنار والنهار ، ورفع السماء وبسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وهو سبحانه يحفظ هذا الكون ، ويخرج المنبوء مثل المطر من السماء ، والشمس تخرق ليلاً وتظهر نهاراً ، والنجوم تخرق نهاراً وتظهر ليلاً ، وكذلك القمر ، وقل مثل ذلك في خلق الإنسان وولادة الجنين ، وإنبات النبات ، وظهور المغتبي من المعادن والبتروك ، والكوز التي لا تحصى أنواعها ، وهو سبحانه يعلم ما يخفيه هؤلاء الذين يعبدون الشمس وما يظهرونه ، وليس الشمس شيء من ذلك ، فهي مسخرة لله تعالى ، فكيف ينصرفون عن عبادة الله إلى عبادة الشمس .

قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . (فصلت : ٣٧) .

وقال عز شأنه : سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَفَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . (الرعد : ١٠) .

٢٦ - أَلَلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

الله جل جلاله لا معبود بحق إلا هو ، صاحب الملك العظيم في السماء والأرض ، والفضاء والهواء ، والليل والنهار ، فهو المستحق للعبادة فعلاً ، وهو أهل لأن يُعبد لأنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل ، وهو المالك للكون ، وقد وسع كرسيه السماوات والأرض ، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة في فلاة كما ورد في السنة .

ويقف الإنسان مبهوراً أمام هذا الهدهد الذكي الأريب ، الذي اهتدى إلى اكتشاف أمة من البشر ، والتعريف بملكته وشؤونها الدنيوية والدينية ، لعله رئيس مجموعة الهداهد ، وقد ذكر الهدهد أن الملكة قد أوتيت من كل شيء يحتاج إليه ملكها ، ويجعله ملكاً متفوقاً ، ووصف عرشها بأنه عظيم ، بالنسبة إلى عروش ملوك الدنيا .

ثم نلاحظ رقى الحاسة الدينية عند الهدهد ، واعتراضه على عبادة سبأ للشمس ، ورغبته في أن يعبدوا الله الخالق الرازق ، صاحب العرش العظيم ، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه ، فكل عرش مهما عظم فهو دونه ، فكان الواجب إفراده سبحانه وتعالى بالعبادة .

تعليق

في قصة سليمان مع الهدهد دليل على مسئولية الحاكم عن تفقد الرعية ، والمحافظة عليها ، ومحاولة الرقى بها ، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله ، فكيف بعظائم الأمور ،

وقد ذكر القرطبي هذا المعنى ثم قال : ويرحم الله عمر بن الخطاب ، فإنه كان على سيرته ، قال : لو أن سخله على شاطئ الفرات أخذها الذئب ، لیسأل عنها عمر .

والخلاصة : استنبط العلماء من الآيات السابقة ، استحباب تفقد الحاكم أحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء والأقارب .

★ ★ ★

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَيْهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِلَى آلِفِي إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَىٰ وَأَتُونَ مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

المفردات :

تَوَلَّى عَنْهُمْ : تَنَحَّى عَنْهُمْ إِلَى مَكَان قَرِيبٍ تَتَوَارَى فِيهِ ، لِيَكُونَ مَا يَقُولُونَهُ بِمَسْمَعٍ مِنْكَ .

فَانْظُرْ : تَأَمَّلْ وَفَكِّرْ .

يَرْجِعُونَ : يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ مِنَ الْقَوْلِ ، وَيَدُورُ بَيْنَهُمْ بِشَأْنِهِ .

الْمَلَأُوْا : أَشْرَافُ الْقَوْمِ ، خَاصَّةً الْمَلِكُ .

أَلَا تَعْلَوْنَ عَلَىٰ : لَا تَتَكَبَّرُوا ، وَلَا تَتَّقَادُوا لِلنَّفْسِ وَالْهَوَى .

مُسْلِمِينَ : مُنْقَادِينَ خَاضِعِينَ .

تمهيد :

تصف الآيات موقف سليمان من كلام الهمد ، وتكليف الهمد برسالة إلى بلقيس ملكة سبأ ، وترصد أخبارها ، ونقل هذه الأخبار إلى سليمان عليه السلام .

التفسير :

٢٧ - قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ .

أَي : قَالَ سُلَيْمَانُ لِلْهَمْدِ : سَنَنْظُرُ وَسَنُخْتَبِرُ مَقَالَكَ ، وَنَتَعَرَفُ حَقِيقَتَهُ بِالْامْتِحَانِ ، أَصَادِقُ أَنْتَ فِيمَا تَقُولُ أَمْ كَاذِبٌ فِيهِ ، لِنَتَخْلَصَ مِنَ الْوَعِيدِ .

ونلاحظ أن سليمان لم يقل : أصدقت أم كذبت ، بل قال : أم كنت من الكاذبين ! لأن تلفيق الأخبار المنمقة ، واختيار الأسلوب الذي يستهوى السامع - من غير أن يكون للأخبار حقيقة تعبر عنها - لا يصدر إلا ممن مرّن على الكذب ، وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد أنه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

والخلاصة : سارى هل أنت صادق ، أم سجيتك الكذب .

٢٨ - أَذْهَبَ بِكَيْسَىٰ هَٰذَا فَأَلَقَتْهُمُ نَوْمٌ لَّعَنَهُمُ اللَّهُمَّ مَاذَا يَرْجِعُونَ .

كان سليمان قد أعد كتاباً لهذه الملكة ، ثم أمر الهدهد أن يحمله إليها فحمله الهدهد ، وألقاه من كوة فى قصرها تدخل منها الشمس ، فوقع على حجرها ، ثم اختفى الهدهد فى مكان لا يشاهدونه فيه ، وانشغل بمراقبة أحوالهم ومناقشاتهم ومراجعاتهم .

٢٩ - قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءَا إِنَّيٓ أُلْقِيْتُ آتً إِلَىٰ يَٰكُتُبَ كَرِيمٍ .

يترك القرآن الكريم مساحة من القول ، يدركها السامع ويستنبطها .

أى : ذهب الهدهد فألقى الخطاب إلى الملكة ، فى نظام عجيب لم تشاهد أمثاله الملوك ، فالرسول حامل الخطاب مهدد يتطامن ويتسلل إلى مخدع الملكة ، ويلقى إليها الخطاب ، ثم ينصرف فى أدب ، ليطرك لها فرصة المحاوره مع أهل الحل والعقد من حاشيتها .
ومعنى الآية :

جمعت المرأة حاشيتها ، وأخبرتهم بأن كتاباً كريماً قد ألقى إليها ، وطلبت المشورة فى هذا الخطب الذى نزل بها .

وفى الآية إيماء إلى الأمور الآتية :

١ - سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .

٢ - أنه أوتى قوة المعرفة فاستطاع أن يفهم بالسمع كلامهم .

٣ - أنها ترجمت ذلك للكتاب فوراً بواسطة مترجميها ، أو تعرّفت على محتواه إن كان باللغة التى تنطق بها .

٤ - أن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلاً عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

٣٠ ، ٣١ - إِنَّهُ، مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَثْنَيْنِ مُسْلِمِينَ .

إن هذا الخطاب من سليمان رسول الله ، وديارته : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . بأمر الله الخالق الإله الواحد الرَّحْمَنُ . كثير الرحمة . الرَّحِيمُ : الذى يتفضل برحمته على عباده ، أدعوكم ألا تنكبوا على دعوتى ، وأن تدخلوا فى دينى وهو الإسلام ، والخطاب على إيجازه خطاب بارع ، مشتمل على الأمور الآتية :

١ - إثبات الألوهية والوحدانية لله ، وكونه رحماناً رحيماً .

٢ - نهيهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .

٣ - أمرهم بالمجئ إليه منقادين خاضعين ، وبهذا يكون الخطاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

★ ★ ★

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِى فِى أَمْرِى مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْا ۖ ﴾ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا أَيْسَ شَدِيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ۖ ﴾ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوْا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ۖ ﴾ (٣٤) وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ۖ ﴾ (٣٥)

المضردات :

افْتُونِى ، أشيروا على بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث .

قاطعة أمرا ، قاضية وفاصلة فيه .

تشهدون ، تحضرونى .

أولو قوة ، وفرة فى العدد والآلات .

اليساس ، النجدة المفردة ، والبلاء فى الحرب .

الامر إليك ، البت فى الأمور موكل إليك .

دخلوا قرية ، محاربين منتصرين .

أفسدوها ، خربوها وقلبوأوضاعها ، وأتلفوا عمرانها .

أذلّة ، مهانين بالقتل والأسر ، جمع دليل .

هدية ، عطية عظيمة .

التفسير :

٣٢ - قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتِنِي فِيْ أَمْرِ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ .

تشهد الآية بأن الملكة جمعت حاشيتها ، وقادة جيوشها ، وكررت طلب المشورة منهم ، وقالت : أشيروا على ، وشاركونى فى الرأى فيما نزل ، فليس من شأنى أن أحسم الأمور وأبدى الرأى فيها قبل مشورتكم . ومثل هذا السير ، واستشارة الحاكم لأهل الحل والعقد فى أمور مملكته ، أمر حكيم ، حث عليه الإسلام وأمر به القرآن المكي والمدني قال تعالى : وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ... (الشورى : ٣٨) .

وقال سبحانه : وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ... (ال عمران : ١٥٩) .

وكان النبي ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه مع أن الوحي ينزل عليه ، وكذلك كان الخلفاء الراشدون ، ومن سار على نهجهم .

٣٣ - قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ .

قال أهل مشورتها ، وقادة جيوشها ، وقد أحسوا رغبة الملكة فى التعرف على رأيهم ، ومدى مناصرتهم لها فى مقاومة سليمان :

نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ ...

أصحاب خبرة فى الحرب ، والكر والفر ، مع وفرة فى العدد والآلات ، والاستعداد للحروب ، والمقاومة للغزاة ، لا ترهبنا قوة ، ولا ينهتينا وعيد ، وهذا دورنا وهذه مهمتنا ، وأما البت فى الأمور فهو موكول إليك ، تقضين فيه بما تشائين ، سلمًا وحرًا .

قال القرطبي : أخذت فى حسن الأدب مع قومها ، ومشاورتهم فى أمرها فى كل ما يعرض لها ، فراجعها الملائم بما يقر عينها ، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس ، ثم سلموا الأمر إلى نظرها ، وهذه محاوره حسنة من الجميع .

ونقل ابن كثير عن الحسن البصري أنه قال : فوضوا أمرهم إلى عجلة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا ، كانت هى أحزم رأيا منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والإنس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا فخافت أن ينتصر سليمان عليها وعلى قومها .

٣٤ - قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَافَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ .

قالت بلقيس للملأ من قومها ، وقد أحسّت منهم الرغبة في الحرب : لا طاقة لنا بحرب سليمان الملك ، فالملوك عادة إذا دخلوا بلدًا فاتحين منتصرين ، أو غزاة قاهرين ، فإنهم يفسدون هذا البلد ، بقتل الملوك والقادة وأسرمهم ، أو نفيهم وإخراجهم من البلد .

وَجَعَلُوا أَعْرَافَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً ... أنزلوا الملوك والقادة والوزراء والأمراء من منازلهم ، وحولهم إلى مشردين مأسورين مطرودين . فإهانة الأشراف وتبديل القيادات ، أمر مستمر لهم ليضعفوا استمرار سيطرتهم على البلد ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . وهذا شأنهم وديدنهم ، في كل وقت وحين .

٣٥ - وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ .

كانت ملكة أريية عاقلة ، داهية ذكية ، فإذا كانت لا تطيق حرب سليمان ، فلتشتري مودته ، فقررت أن ترسل إليه هدية عظيمة ، تليق بأمثاله ، من الذهب واللؤلؤ والدُّر ، والغلطان والوصيفات .

قال قتادة : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها !! علمت أن الهدية تقع موقفًا من الناس .

وقال ابن عباس : قالت لقومها : إن قَبِلَ الهدية فهو ملك يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه ^(١٧) .

فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ .

سأرى وأشاهد ما تشاهده الرسل ، الذين أرسلهم بالهدية لمشاهدته ومقابلته ، وتعرف أحواله ، ثم أقرر ما يقتضيه المقام .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ اتَّبِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتِّبِنِ ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا أَتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ فَرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُنُودٍ لَّا قَبْلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أُذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

المضردات :

اتَّبِعُونَنِي ، تساعدونني .

لا قبل لهم بها ، لا طاقة لهم بلقائها ، وأصل القَبِيل : المقابلة ، ثم جُعِلَ فى الطاقة .

صاغفرون ، مهانون أذلة .

التفسير :

٣٦ - فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنُ قَالَ أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ قَمَآءَ تِلْكَ أَلَلَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ .

ذكر غير واحد من المفسرين : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة ، من ذهب وجواهر ولآلى وغير ذلك .

قال ابن كثير : والصحيح أنها أرسلت إليه بأنية من ذهب ، فلم ينظر سليمان إلى ما جاءوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم : أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ ؟

أى : أنصانعوننى لأترككم على شرككم وملكمكم ؟

قَمَآءَ تِلْكَ أَلَلَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتَكُم ...

أى : ما أعطانى الله من الملك والنبوة والرسالة ، ومحبة الآخرة ، وإيثار ما يرضى الله ، خير مما أنتم فيه .

بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ .

أى : أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكافأة فى الدنيا .

٣٧ - أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ .

أى : قال لرئيس الوفد : ارجع إليهم بالهدية ، فلن أقبلها ، ولا أقبل إلا الإسلام أو السيف ، ولدى جنود لا طاقة لهم بقتالهم ، وسنخرجهم من بلدهم أدلاء حقراء إن لم يأتونى مسلمين .

جاء فى حاشية زاده على البيضاوى : قال ابن عباس : لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان ، وأخبروها الخبر ، قالت : قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وَيَعَثَّتْ إِلَى سُلَيْمَانَ إِنِّى قَادِمَةٌ إِلَيْكَ بملوك قومى ، حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ، ثم ارتحلت إليه فى اثنى عشر ألف قائد .

وقال ابن كثير : فلما رجعت رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان ، سمعت وأطاعت هى وقومها ، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، ناوية متابعته فى الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام من قدمها عليه ، فرح بذلك وسره .

﴿قَالَ يَتَابِئُهَا الْمَلَأُوا أَفْكُم بِاتِّبَاعِي بَعَثْنَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُوَنِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ عَفِيتُ مِنَ الْحِنِّ أَنَا وَإِنَّكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا وَإِنَّكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَحْمَتِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرَشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْسِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

المضردات :

الحرش : سرير الملك .

مسلمين : خاضعين منقادين .

عفريت : مارد خبيث .

لقتوى : لقادر عليه لا يقلقني حملي .

أمين : لا أختلس منه ولا أغير فيه .

من مقامك : من مجلسك الذي تجلس فيه للقضاء ، أو من جلستك .

الذي عنده علم : سليمان ، أو أصف بن برخيا وزير سليمان ، وقيل : الخضر ، وقيل : ملك أیده الله به .

يسرّك : يرجع .

الطرف : تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة .

مستقرا : ساكنا قارئا على حاله التي كان عليها .

الفضل : التفضل والإحسان .

تيلوتى : ليختبرنى .

أم أكضر : أقصر فى أداء واجب الشكر .

تمهيد :

رفض سليمان هدية بلقيس ، حيث إنه دعاها إلى الإسلام هى وقومها ، فرغبت فى مهادنته ، بإرسال هدية أشبه برشوة ، للمهادنة والسكوت عنهم ، فرفض سليمان الهدية ، وأنذرهم بالحرب ، وكان لهذا الإنذار أثره ، وقد تأكد لدى الملكة أن سليمان صادق فى دعوته ، ولديه من وسائل القوة ما يكفى للنصر ، وقتل أعدائه وأسرمهم ، فأرسلت إليه تخبره بقدموها ، مع أشرف قومها ورؤسائهم ، وكانت الجن تخدم سليمان ، وتخبره بتحركات بلقيس مع رؤساء قومها ، فرغب سليمان أن يحضر عرش بلقيس ، قبل أن تأتى وتظهر إسلامها .

التفسير :

٣٨ - قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ إِنَّكُمْ يَأْتِيَنِ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .

قال سليمان : أيها السادة الأعوان ، أريد إحضار عرش الملكة من اليمن إلى الشام ، فى وقت وجيز قبل قدموها مسلمة ، ليؤكد لديهم ما منحنى الله من العناية والتأييد ، وتسخير القوى الخارقة لخدمتى ، وتأيدى بالمعجزات ، فيكون لذلك أثره فى تعميق الإيمان فى قلوبهم .

ونذكر بعض المفسرين أنه أراد إحضار العرش قبل أن يأتوه مسلمين ، لأنه بعد إسلامهم لا يحل له الاستيلاء على العرش ، والظاهر : أن نبي الله سليمان كان زاهدا فى الهدايا ، راغباً فى ثواب الله ، وقيل : أراد أن يختبر ذكاء الملكة ، عند تنكير العرش وتبديل بعض صفاته .

٣٩ - قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيْ أَمِينٌ .

أى : قال شيطان مارد من الجن : أنا أستطيع إحضاره فى فترة مجلسك للقضاء ، وكان يمتد قرابة نصف نهار ، من الضحى إلى الظهيرة ، وإنى على هذا العمل قوى متمكن منه ، أمين على ما به من الجواهر الثمينة . فقال سليمان : أريد من ينقله فى فترة أقل من هذه الفترة .

٤٠ - قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ... الآية .

أى : قال شخص عنده علم بأسرار الكتاب الإلهى ، والتشريع وألوان الهدايا : أنا أحضره لك فى لمح البصر ، قبل أن تغض عينيك ، وقبل أن يرجع إليك نظرك ، وهذا العالم ، قيل : كان من الملائكة ، إما جبريل وإما غيره من الملائكة ، أي الله تعالى به سليمان عليه السلام . وقيل : كان من الإنس ، وهو أصف بن برخيا

وزير سليمان ، وهو المشهور من قول ابن عباس ، وكان يعلم الاسم الأعظم الذى إذا دُعِيَ به أُجيب ، وقيل : يا حى ، يا قيوم . هو الاسم الأعظم ، وقيل : الذى عنده علم من الكتاب هو الخضر عليه السلام .

والرابع فى رأى الراى أنه سليمان عليه السلام : لأنه أعرف بالكتاب من غيره ، لأنه هو النبى .

وقال أبو حيان : ومن أغرب الأقوال : أنه سليمان عليه السلام ، كأنه يقول لنفسه : أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . وإسهم أنه حدث ما وعد به هذا العالم ، والله أعلم به : والأوفق أن يقال : عبد صالح عالم بكتاب الله وشرائعه . أو أسرار أسمائه الحسنى ، أحضر العرش فى طرفة عين ، وكان ما عنده من علم بالكتاب باعثاً له على الترقى الروحى والسمو النفسى ، واستخدام ما وهبه الله من قوى وأسرار .

فَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ...

لمست هذه النعمة قلب سليمان ، حذر رأى العرش مستقراً وموجوداً فى مكان يجاوره ، فى سرعة لمح البصر ، فأرجع النسبة إلى المنعم ، وقال : هذا من فضل الله ومعونته : ليدفع رنى هل أشكر النعمة فأنسبها إلى صاحبها وهو الله ، أم أجدد وأقول إن ذلك بحسن تقديرى وقدرتى .

وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَنْشُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ .

من شكر الله تعالى فإن الله يزيده من نعمائه ، ويعطيه المعونة والتوفيق والبركة ، ومن كفر فإن الله غنى عنه ، كريم متفضل يعطى العباد ولا ينتظر الجزاء .

قال تعالى : يَتْلُوهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : «يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكها إياها : فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» .

ثم أراد سليمان أن يختبر بلقيس ، كما حكى تعالى :

٤١ قَالَ نَكُرُوا لَهَا غُرُبَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ .

قال سليمان : غيروا فى صفات العرش بالزيادة والنقصان مثلاً ، أو جعل أعلاه أسفله ، وأسفله أعلاه : لنختبر ذكاءهم ، ونقدرتها على الإجابة فى أحداث غريبة .

فقد تركت عرشها في اليمن وحوله أبنية ضخمة وحراس أقوياء ، وهى تراه مستقرا في بيت المقدس على مسافة بعيدة ، لكنها كانت فى غاية الذكاء ، واهتدت إلى إجابة مناسبة .

٤٢ - فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَفَكَذًا عَرَضُكَ قَالَتُ كَانَهُ هُوَ ...

أقبلت بلقيس من اليمن ، وشاهدت عرشها وفيه بعض التغيير ، وأمام هذه الدهشة المحيرة أجابت إجابة مناسبة .

قَالَتْ كَانَهُ هُوَ ...

هو يشبهه إلى درجة بعيدة ، فلم تثبت ولم تنف .

واستطردت بلقيس فقالت :

وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ .

أى : أدركنا عظمة الله وفضله ، وعلمنا قدرته وسلطانة العظيم ، وعلمنا أن فضل الله على سليمان كان عظيما ، حيث سخر له الطير والجن وقوى كونية : فأسلمنا وأمنا بالله تعالى ربا ، ويسليمان رسولا .

والخلاصة : علمنا بالله ربا ، ويسليمان رسولا ، من قبل مشاهدة نقل هذا العرش أو تغيير أوصافه ، وهذا رأى جمهور المفسرين ، وبعضهم رأى أن الجملة من كلام سليمان ، وتفيد أن الله أعطاه العلم والإسلام والنبوة ، والفضل العظيم فى تسخير قوى الكون ، والرأى الأول أرجح .

٤٣ - وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ .

أى : منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر .

إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . أى : بسبب كفرها ونشوتها بين قوم مشركين .

وقال ابن كثير :

وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى

قول مجاهد ، أى : قال سليمان : وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ .

وهى كانت قد صدّها ، أى : منعها من عبادة الله وحده . مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ .

وهذا الذى قاله مجاهد ، هو قول سعيد بن جبير ، وقد اختاره ابن جرير ، وابن كثير .

٤٤ - قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

كان سليمان عليه السلام قد بنى قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، وظهر كأنه لجة .
فلما قيل : ادخلي قصر سليمان عليه السلام ، حسبت أنها ستخوض تلك اللجة من الماء : فكشفت عن ساقها ، لتمنع ثيابها من البلل . فقال سليمان عليه السلام : إنه قصر مملئ من الزجاج الصافى .

وهنا نجد الملكة تتابع أمامها مشاهد المفاجآت ، واحدة وراء الأخرى ، وتشاهد هنا عظمة بالغة فى بناء القصر ، والصرح العظيم ، والمياه المتدفقة ، والزجاج المموج ، وألوان التقدم العلمى والتقنى والفنى ، مع العظمة الباهرة فى الجنود والأتباع ، والقصور والقوى العجيبة المسخرة ، فأعلنت ندمها على عبادة الشمس من دون الله ، وتأخير إسلامها وإيمانها بالله رب العالمين . قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ... بالشرك وعبادة الشمس .

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وتابعت سليمان فى دينه ، والإيمان والانقياد لله رب العالمين ، وخالق الأكوان من الأزل إلى الأبد .
قال ابن كثير : والغرض أن سليمان عليه السلام ، اتخذ قصرا عظيما ، منيفا من زجاج لهذه الملكة ، ليريه عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، وعظمة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره ، انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم ، ومليك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى : وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ... استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان ، وأنشد بعضهم :

سَنَ سُلَيْمَانَ لَنَا سُنَّةٌ وَكَانَ فِيهَا سُنَّةٌ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مَلِكِهِ فَقَالَ : مَالِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَا

خاتمة

تبلورت قصة سليمان مع بلقيس فى تلك الخاتمة المشرقة ، وهى تبرؤ بلقيس من الشرك الذى كانت عليه ، وإعلان إيمانها بالله الواحد الأحد ، وإظهار إسلامها كإسلام سليمان ، وخضوعها لله رب العالمين .

هل تزوج سليمان بلقيس؟

يستطرد المفسرون في نهاية هذه القصة إلى قضية زواج سليمان عليه السلام من بلقيس ، قال الرازي : والأظهر في كلام الناس أنه تزوجها ، وليس اذلك ذكر في الكتاب ، ولا في خبر مقطوع بصحته . وذكر الرازي في تفسيره عن ابن عباس : أنها لما أسلمت قتال لها سليمان : اختارى من قومك من أزوجك منه ، فقالت : مثلى لا ينكح الرجال مع سلطاني ، فقال : النكاح من الإسلام ، فقالت : إن كان كذلك فزوجني ذا تبع ، ملك همدان ، فزوجها إياه ثم رنهما إلى اليمن ، ولم يزا بها ملكاً ، والله أعلم .

خلاصة نعم الله على سليمان عليه السلام

ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرة في سور: البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسبأ ، وقد بين القرآن نعم الله الكثيرة عليه ومن بينها ما يأتي .

١ - نكاؤه وفراسته في القضاء ، فقد منح الله سليمان نكاه نادراً ، وإصابة في القضاء والحكم ، وكان حكمه أصوب من حكم أبيه داود عليه السلام .

قال تعالى : **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْخَرْتِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۖ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ .** (الأنبياء : ٧٨ - ٧٩) .

وقد روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «سارت امرأتان ومع كل واحدة ولدها، واستراحتا في الطريق فالتقم الذئب ابن إحداهما، فجاءتا إلى نبي الله داود ، الكبرى معها الولد وتقول : هو ولدى ، والصغرى تقول : بل هو ولدى ؛ فقاضى داود بالولد للكبرى ، وسارتا عائدتين فوجدتا نبي الله سليمان ، فقال لهما : بم قضى الملك ؟ قالتا : قضى بالولد للكبرى . فقال سليمان : عدل الملك ، وغير ذلك كان أوفق ، فبلغ ذلك داود ، فأرسل إليه وسأله عن رأيه فقال : أرى أن نقسم الولد نصفين ، ونعطي لكل واحدة نصفاً ، فليست إحداهما أحق به من الأخرى ، فأحضر الملك سيافاً ماهرًا وأحضر الصبى ، ووضع السياف السيف على رأس الصبى ، ليقسمه نصفين ، فصرخ الصغرى وقالت : هو ولدها فلتأخذه كله ، فقضى سليمان بالولد للصغرى»^(١٧) .

٢ - تعليم الله له منطلق الطير ، فكان يفهم مراد الطيور من أصواتها ، قال تعالى : **وَوُورِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبَايَأُ النَّاسُ عُلَمًا مَطِيقَ الطَّيْرِ وَأُوتِيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** (النمل : ١٦) .

٣ - تسخير الرياح له تنقله من مكان إلى آخر بعيد ، ويوجه الرياح حيث يشاء ، قال تعالى :

وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١) .

وقال تعالى : فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . (ص : ٣٦) .

وقال تعالى : وَلَسُلَيْمَنَّ الرِّيحَ عُدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا ... (سبا : ١٧) .

٤ - تربية الخيول : وهى الصافنات الجياد للجهاد ، وكان رباط الخيل مندوباً إليه فى ملة سليمان عليه السلام ، كما هو مندوب فى شرعنا .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، والنسائى : أن رسول الله ﷺ قال : «الخيول معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم»^(٩٨) .

وكان سليمان يستعرضها مسروراً بها ويمسح بناصيتها وسوقها وأعناقها ، تشريقاً لها وإعزازاً لنعمتها فى جهاد العدو ، وتفقداً لأحوالها وأمراضها وعبوبها ، قال تعالى : وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَاسِيِ الصُّفْتَتِ الْجِيَادُ « فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ . (ص : ٣٠ - ٣٣)

وأما تفسير الآيات بما يفيد أن سليمان انشغل بالخيول عن صلاة العصر حتى غربت الشمس ، فطلب إعادة الخيل عليه فقطع أعناقها وسوقها فمما يتناقى مع منصب النبوة ، كما ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير .

٥ - فتنة سليمان ، وإلقاء الجسد على كرسيه ، وقد اختار العلامة أبر السعود والآلوسى فى هذا الموضوع ما ورد فى الصحيحين مرفوعاً : «أن سليمان قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة من زوجاتى ، تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ، ولم يقل : إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق رجل ، والذى نفسى بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون»^(٩٩) .

قال تعالى : وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ « قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْسِفْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَرْوَاهُ » فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ « وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعُورٍ » . (ص : ٣٤ - ٣٧)

وأما التفسير الأخرى المشوبة بالآخلاق والروايات الإسرائيلية ، فلم تصح ولا يعول عليها .

٦ - رسالة عين القطر (النحاس المذاب) له : أنعم الله على سليمان عليه السلام بطوبيع النحاس المذاب له ، لاستخدامه لتوثيق المباني العظيمة الضخمة ، ذات الحجارة الكبيرة ، مثل الهيكل المعروف بهيكل سليمان ، كما ذكر تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحَهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ... (سبا : ١٢).

٧ - تسخير الجن لسليمان، تبنى له المحاريب والقصاص الكبيرة، والقصور الراسيات والتماثيل ، وكانت التماثيل جائزة الصنع عندهم، قال تعالى : وَمِنَ الْجِنَّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمْلِيْلٌ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ... (سبا : ١٢ ، ١٣)

وقال سبحانه : فَسَقَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَتَاءٍ وَغَوَاصٍ * وَاعْرِضْ عَنْ مَقْرِنٍ فِي الْأَصْفَادِ * هَلْذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ص : ٣٦ - ٣٩) .

ومن هذه الآيات يتبين أن العصاة والمردة من الجن ، يسر الله له عقوبتهم ، وتقييدهم في السلاسل والأغلال، وظل الجن يخدمون سليمان ، ويلبون أوامره ومن تمرد على طاعته عاقبه وسجنه وقيده بالسلاسل.

٨ - إسلام ملكة سبا على يديه ، فقد علم من الهدهد قصتها فأرسل لها رسالة يدعوها للإسلام ، ورغبت الملكة في مجاملته ومصانعته ، فأرسلت له هدية فرفضها ، وهددها بالحرب ، فخشيت الملكة عاقبة الحرب ، ليقينها بأن الله سخر له الجن والطير والإنس ، وقوى عزيمة تساعده ، فجاءت بلقيس مع قومها ، وأعلنت إسلامها ، وعرض عليها سليمان مقدرته وتفوقه ، فنقل عرشها في طرفه عين ، وبنى لها قصرًا عظيمًا ، ومرد أرضه بالزجاج ، وهذا فن مستحدث لا عهد لأهل اليمن به ، ثم لما دخلته حسبته ماء ، فكشفت عن ساقبها لتخوضه ، فقال لها سليمان : إنه صرح أملت من الزجاج ، موه بألوان المياه ، يهيا لمن شاهده أنه لجة الماء ولكنه زجاج فوق الماء ، عندئذ أحسست الملكة أنها أمام مشاهد عجيبة ، تعجز عن تفسيرها ، وكلها تدل على أن سليمان رسول مؤيد بالمعجزات ، ومعونة الله رب العالمين ، فأعلنت إسلامها وقالت : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

٩ - قصة النملة التي أحسّت بقدوم سليمان وجنوده ، فأمرت قومها بدخول مساكنهم ، وفهم سليمان لغتها ، وشكر الله على نعمه ، قال تعالى : وَخُيِّرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا تَوَّأَ عَلَىٰ وَادٍ اتَّشَبَلَ نَمْلَةٌ بِكَأَنَّهَا اتَّشَبَلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَخْشَوْنَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ : أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . (النمل : ١٧ - ١٩) .

١٠ - موت سليمان : عندما مات سليمان أخفى الله موته على الجن مدة طويلة ، قيل : إنها قرابة عام ، فظلت الجن مسخرة فى البناء والأعمال الصعبة ، حتى لا تدعى الجن أنها تعرف الغيب ، قال تعالى : فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتَ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ . (سبا : ١٤) .

إن هذا الملك والتسخير والمقدرة ، وتذليل الرياح والطير والجن ، وعين القطر والتشديد والإعمار ، لا بد له من نهاية محتومة هى الموت ، كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالنُّشْرِ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥) .

★ ★ ★

قصة صالح مع قومه ثمود

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا أَطِيعُوا نَارَكُمْ وَيَمْنُ مَعَكُمْ قَالَ طَاعُوا اللَّهَ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٥٢﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعْرَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾ فَبَلَكَ يَوْمَهُمْ خَاوِيَةً يُبَاطِلُ أُولَئِكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَنْبِئْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفَقُونَ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات :

فريقان ، طائفتان : طائفة مؤمنة ، وأخرى كافرة .

يختصمون ، يتنازعون .

اطيرنا ، تشاءمنا بك .

طائرهم ، ما يصيبكم من الخير والشر ، والطيرة : تعليق الخير او الشر على طيران الطائر يميناً أو شمالاً .

تفتنون : تختبرون بتعاقب السراء والضراء

المدينة : المراد بها : الجحر .

الرهط : النفر من الثلاثة إلى التسعة .

تقاسموا : احلفوا .

البيات : مباغة العدو ، ومفاجأته بالإيقاع به نيلاً

وليئسه : من له حق القصاص من ذوى قرابته إذا قتل .

التمهلك : الهلاك .

المكر : التدبير الخفى لعمل الشر .

دمرناهم : أهلكناهم .

خاوية : خالية :

لايسة : لعبرة وعظة .

تمهيد :

فى سورة النمل نجد طرفاً من قصة موسى تحكى أفضال الله عليه ، ثم جانباً محدوداً من قصة داود عليه السلام ، ثم حديثاً موسّعاً عن قصة سليمان مع النملة ومع الهدد ، ومع بلقيس التى أسلمت مع سليمان لله رب العالمين ، ونجد طرفاً من قصة نبي الله صالح مع قومه ثمود ، وكثيراً ما كانت تذكر مع قصة عاد ونبيهم هود ، فى سياق قصص عام ، مع نوح ولوط وشعيب ، وأحياناً تجيء قصة إبراهيم فى هذا السياق أو لا تجيء .

أما فى هذه السورة - سورة النمل - فقد كان التركيز فيها على قصص بنى إسرائيل ، فقد جاءت قصة موسى ، وقصة داود وسليمان ، ثم جاءت قصة صالح مع ثمود ، ولم تذكر قصة الناقة ، إنما يذكر فيها تبييت الرهط التسعة المفسدين لصالح وأهله ، ومكرمهم به وهو لا يشعر ، فمكر الله بالمفسدين وهم لا يشعرون ، ودمرهم وقومهم أجمعين ، وترك بيوتهم خاوية ، وجعلها لمن بعدهم آية ، والمشركون فى مكة يعمرون بهذه البيوت المدمرة الخاوية ولكنهم لا يعتبرون .

التفسير :

٤٥ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ .

فى أعقاب قصة سليمان وإيمان بلقيس ملكة سبأ ، يذكر الله تعالى جانباً من قصة صالح مع قومه ثمود .

المعنى :

والله لقد أرسلنا رسولنا صالحاً إلى قومه ثمود ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فأمن به ريق من المؤمنين ، وكفر به فريق من الكافرين ، وكان الفريق الجاحد الكافر أكثر عدداً ، وأكثر قوة ، وقد شابت إلى هذا المعنى سورة الأعراف في قوله تعالى : قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَغْفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِاللَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . (الأعراف : ٧٥ ، ٧٦) .

٤٦ - قَالَ يَتَقَوْمٌ لِمَ تَسْتَغْفِرُونَ بِالسَّيِّئَةِ قِيلَ الْحَسَنَةُ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

أى : قال صالح لقومه مستعملاً لهم : لم تعاجلون بالتكذيب والجحود والنكران قبل الإيمان والتوبة والإنابة .

لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

هلا تبتعد إلى الله ، وأمنتهم به رجاء أن ينزل بكم رحمته وفضله ومعونته .

٤٧ - قَالُوا أَطِيعُوا بِكِ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالِ طَيْبَرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُفْسِدُونَ .

أى : قالوا : تشاء منا بك ويمن معك من المؤمنين ، فمنذ قدمت بدعوتك أصابنا القحط ، وشاعت فينا الفرقة واشتد الخلاف ، وهكذا نجد من دسّ نفسه وغلب عليه الكفر والضلال ، ينسب البشر إلى رسول الله والمؤمنين به ، والحقيقة أن الله تعالى قد قسّم لكل إنسان رزقه وعمره وأجله ، وشقاءه أو سعادته حسب اختياره ، بعد أن أعطاه العقل والفكر ومنحه الرأى والاختيار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه :

قَالَ طَيْبَرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ...

حظكم ومستقبلكم ومصيركم عند الله ، والله قد سنّ سنناً ، وأمر الناس بأمر ، وبين لهم الطريق المستدير ، فمن اتبع سنة الله وسار على هداه فهناك الخير ، ومن انحرف عن سنة الله فهناك الشر . ١ هـ .
وسمى التشاؤم طييراً من عادة العرب بزرع الطير ، أى : رميه بحجر ونحوه ، فإن تحوّل يميناً تفاءلوا ، وسموه السائح ، وإن اتجه يساراً تشاءموا وسموه البارح .

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَفْتَنُونَ .

يختبركم الله بإرسال الرسول وإنزال هداية السماء ، ليرى مَنْ المؤمن المستحق للنجاة ، وَمَنْ الكافر الجاحد المستحق للعقوبة .

والبشرية دُعيت إلى الإيمان بالله تعالى ربا ، والإيمان برسالة الرسل ، ولكن التكذيب لازم المكذبين ، والتطير لازم أعداء الدين سابقاً ولاحقاً ، فنرى بعض الناس يعلقون أهمية ضخمة على رقم ١٣ ، وعلى مرور قط أسود يقطع الطريق أمامهم ، وعلى إشعال أكثر من لفافتين يعود ثقاب واحد ، إلى آخر هذه الخرافات الساذجة ، ذلك أنهم يعاندون حقيقة الفطرة ، وهى جوعتها إلى الإيمان وعدم استغنائها عنه ، وهذا الإيمان توجد العقيدة السليمة والسلوك السوى والتوفيق الإلهى ، قال تعالى : وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨)

٤٨ - وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَسْعَةٌ زَهَقَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ .

وكان فى مدينة تمود - وهى الحجر - تسعة رجال من أشراف قومها وسادتها ، وقيل : كانوا رؤساء ، وراء كل واحد منهم جنوده وأتباعه ، منهم قدار بن سالف عاقر الناقة ، وكانوا عتاة قوم صالح ، وقادة الشر فقيم ، يفسدون فى الأرض ، ويتبجحون عورات الناس ومعاييبهم ، يظلمون الناس ولا يمنعون الظالم عن ظلمه ، ولا يعملون صالحاً ، ولا يدعون إليه ولا يعرفون طريقه ، فعادتهم الدائمة المستمرة الإفساد البحت الذى لا يخالطه الصلاح فى عمل أو قول ، وهم الذين تواطأوا على عقر الناقة ، وعلى قتل صالح ومن آمن به .

٤٩ - قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

أى : قال بعضهم لبعض أثناء المشاورة فى قتل صالح ومن آمن به : احلفوا لنباغتنه وأهله بالهلاك ليلاً ، ثم لنقولن لأوليائه الدم ما حضرنا هلاكهم ، ولا ندري من قتل صالحاً ولا من قتل أهله ، ونحلف إنا لصادقون فى قولنا .

قال الزجاج : كان هؤلاء النفر تحالفوا أن يببئوا صالحاً وأهله ، ثم ينكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكرًا منهم .

٥٠ - وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

دبروا أمراً خفياً فى قتل صالح ومن آمن به ليلاً ، ثم الحلف بعد ذلك أنهم ما فعلوا هذا ولا شاهده ، والحلف أنهم صادقون . دبروا ذلك ، فدبر الله إهلاكهم فى الشعب ، من حيث لا يشعرون أن الله يستدرجهم إلى الإهلاك .

٥١ - فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ .

فتأمل يا محمد ، وتأمل يا كلُّ من يتأتى منه النظر والتفكر ، كيف كان مصير تأمرهم ، أنا أهلكناهم قومهم جميعاً ، ولم نبق أحداً منهم ، إلا الذين آمنوا بصلاح عليه السلام .

ملاحظة : المكر هنا تدبير الفتك بصلاح وأمله ، ومكر الله مجازاتهم وإهلاكهم ، وسميت المجازاة كراً للمشكلة ، كما فى قوله تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخْلِدُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَالِدُهُمْ ... (النساء : ١٤٢) . وكما فى قوله تعالى : وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيرِينَ . (آل عمران : ٥٤) .

وكان صالح - عليه السلام - قد توعدهم بالهلاك خلال ثلاث ليال ، فقالوا : تعالوا نهلكه قبل أن يهلكنا ، فأرسل الله صخرة أهلكت هؤلاء التسعة ، ثم صاح بهم جبريل صيحة مدمرة ، وأمطرت السماء حجارة قاتلة ، قتلت جميع الكافرين .

قال القرطبي : والأظهر أن التسعة هلكوا بعذاب مفرد ، ثم هلك الباقون بالصيحة والدمدمة .

٥٢ - فَبَيْنَمَا يُبَوِّسُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

هذه مساكنهم خاوية خربة مظلمة ، بسبب ظلمهم وكفرهم وعنادهم ، إن فى ذلك لبينة ودليلاً وموعظة لأناس أهل معرفة وعلم ، يعلمون سبب الله فى خلقه ، وأن النتائج مرتبطة بالأسباب ، وأن الظلم مؤذن بالخراب والهلاك ، وأن الله تعالى بالمرصاد لكل ظالم ، قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوِيهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَغُورُوا فَذُئِبَتْ عَلَيْهِمْ بِهِمْ فَوَسَّوْنَهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

٥٣ - وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

أنجينا المؤمنين الذين آمنوا بصلاح ، وكانوا يتقون الله ويتعدون عن المعاصى ، قيل : آمن بصلاح قدر أربعة آلاف رجل ، حيث خرج بهم إلى أطراف الشام ، ونزل رملة وفلسطين .^(١٠٠) والله أعلم بصحة ذلك . اللهم ثبتنا على الإيمان ، اللهم لا تهلكنا بعذابك ونجنا قبل ذلك ، اللهم وفقنا للصلحات ، وأمدنا بمعونتك ، وعنايتك وفضلك وهدايتك ورحمتك ، يا أرحم الراحمين .

قصة لوط مع قومه

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ أَنْ تَأْتُوا الشَّهْوَةَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

المفردات :

الفاحشة ، الفعلة الشنيعة المتناهية في القبح .

تبصرون ، تعلمون عاقبة فعلها ببصيرتكم ، أو يبصر بعضكم بعضاً علانية أثناء الفاحشة .

تمهيد :

هذه هي القصة الرابعة في هذا الجزء التاسع عشر ، وتتمتها في الجزء العشرين ، فقد قسم العلماء القرآن إلى ٣٠ جزءاً ، والجزء إلى جزئين ، والحزب إلى أربعة أرباع . وكان القصد من ذلك تيسير الحفظ والقراءة ، وتم هذا التقسيم من ناحية الكم ، ولو روعي فيه ناحية الكيف لامت القصة في الجزء التاسع عشر ، أو ابتدأ بها الجزء العشرون ، لكنهم التزموا بعدد الآيات وكميتها ، وثلثس لهم العذر في ذلك .

التفسير :

٥٤ - وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ .

أي : واذكر لوطاً حين حذر قومه من المثلية الجنسية ، وعاقبة اللواط ، واستغناء الرجال بالرجال . والنساء بالنساء ، فقال لوط لقومه : أتركبون المنكر الغليظ ، وتفعلون فاحشة لم يسبقكم إليها أحد من العالمين ، وأنتم تعلمون مبلح قبحها وشناعة جرمها ، ففيها ضرر شديد للمفعول به ، وضرر شديد للفاعل ، وقيل : كانوا يأتون المنكر في مجتمع ويشاهد بعضهم بعضاً ، فأذكر لوط عليهم هذه الأفعال ، والاستفهام هنا استفهام إنكارى .

٥٥ - أَيْنَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ أَنْ تَأْتُوا الشَّهْوَةَ مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ .

صرح هنا بعملهم منكراً عليهم ، حيث قال لهم : والله إنكم لتجامعون الرجال في أدبارهم ، وتقودكم الشهوة إلى هذه الفعلة الشنعاء ، وتذرون النساء التي خلقت لهذه الشهوة حيث فيهن الجمال والمتعة واستكمال الاستمتاع بين الذكر والأنثى ، حيث خلق الله الرجل مجهزاً لاستقبال الأنثى ، وألهم كل طرف كيف

يأتى الطرف الآخر ، حتى الحيوان الأعجم لا يفعل مثل أفعالكم ، كما قال سبحانه وتعالى فى موضع آخر :
 أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ ۖ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَشْمَقَوْمٌ غَادُونَ . (الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦) .

فهم قوم خارجون على الفطرة ، وقد وضع لهم لوط سوء عملهم فى ثلاثة أمور هى :

١ - إتيان الرجال فى مكان الغائط .

٢ - ترك النساء ، ولهن حق الاستمتاع والإمتاع من زوج كريم مستقيم .

٣ - أن هذا عمل الجهلاء الذين لا عقول لهم ، ولا يدركون قبح ما يفعلون ، فقال :

بَلْ أَشْمَقَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

تفعلون فعل السفهاء الممعنين فى الفحش ، وعدم تقدير العاقبة ، وما يترتب على ذلك من أمراض
 حسية وسلوكية ، فعملكم هذا عمل الجهلاء الذين لا يميزون ولا يعقلون الفرق بين الحسن والقبح ، وإزاء كل
 ذلك أجابوه بما لا يصلح أن يكون جواباً مقبولاً ولا معقولاً فى ميزان العقلاء ، وهو ما سيأتى فى مطلع
 الجزء التالى إن شاء الله ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

تم الجزء التاسع عشر

ويليه الجزء العشرون إن شاء الله تعالى

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء التاسع عشر)

خرج أحاديثه
الأستاذ
إمامة سعيد فهمي

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٤ .

(٣) نقلا عن تفسير ابن كثير ٣ / ٣١٥ .

(٤) الملك : مبتدأ . يرمئذ : ظرف للمبتدأ . الحق : نعت له . للرحمان : خبره .

(٥) إن الله تعالى يطوى السماء :

رواه مسلم فى صفة القيامة ح ٤٩٩٥ ، وأبو داود فى السنة ح ٤١٧٠ .

(٦) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ح ١٢٣٣ ، وأحمد مختصراً ح ٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤٦٢٩ .

(٧) إن الذى أمشاه على رجليه :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠٦٧ ، وأحمد فى مسنده ح ٨٢٩٣ ، ٨٤٠٠ ، ١٢٢٤٧ من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن .

(٨) يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٧٧ ، وأحمد ٥ / ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذى ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجه ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرزاق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبى ذر .

(٩) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

رواه البخارى فى الصلاة ح ٤١٥ ، وفى أحاديث الأنبياء ح ٣١٢ ، ٣١٣ ، وفى المغازى ح ٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٣٣٣ ، ومسلم فى الزهد ح ٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣ ، وأحمد ٤٣٣٣ ، ٤٩٧٤ ، ٥٠٩٠ . من حديث عبد الله بن عمر بلفظ : «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ...» الحديث .

(١٠) غير القرون قرئى :

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٤٥٨ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٤٦٠١ ، وأحمد فى مسنده ح ٣٤١٣ ، ٣٧٦٧ ، والترمذى فى المناقب ح ٣٧٩٤ ، وابن ماجه فى الأحكام ح ٢٣٥٣ ، من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١١) لو أخيرتكم أن عيلاً بالوادى :

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٣٩٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٣٠٧ ، وأحمد فى مسنده ح ٢٤١٣ ، والترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٢٨٦ ، من حديث ابن عباس . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٢) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، طباعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بوزارة الأوقاف بمصر ص ٥٣٧ .

(١٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، دار الشروق ٥ / ٢٥٦٩.

(١٤) ذهب النبوات وبقيت المبشرات... الرويا يراها الرجل:

رواه مسلم فى الصلاة ح ٧٣٨، وأحمد ح ١٨١، والنسائى فى التطبيق ح ١٠٣٥، ١١٠٨، وأبو داود فى الصلاة ح ٧٤٢، وابن ماجه فى. تغيير الترويا ح ٣٨٨٩، والدارمى فى الصلاة ح ١٢٩١، ١٢٩٢.

(١٥) فى رحاب التفسير: عبد الحميد كثره ٤ / ٢٢١٤ الناشر: المكتب المصرى الحديث.

(١٦) فى رحاب التفسير: عبد الحميد كثره، المجلد الرابع، نشر المكتب المصرى الحديث، ٢ شوارع شريف عمارة اللواء بالناصرة ت ٣٩٣٤١٢٧.

(١٧) تدرؤن ماذا قال ربكم... أصبح من عبادى مؤمن وكافر:

رواه البخارى فى الأذان ح ٨٠١، وفى الجمعة ح ٩٨٠، وفى المغازى ح ٣٨٣٢، وفى التوحيد ح ٦٩٤٩، ومسلم فى الإيمان ح ١٠٤، وأحمد فى مسنده ح ١٦٤٤٤، وأبو داود فى الطب ح ٣٤٠٧، ومالك فى النذاه للصلاة ح ٤٠٥.

(١٨) أعطيت خمسا لم يعطهن نبى:

رواه البخارى فى التيمم ح ٣٢٣، وفى الصلاة ح ٤١٩، ومسلم فى المساجد ح ٨١٠، وأحمد ح ٢٦٠٦، والنسائى فى الغسل والتيمم ح ٢٩، والدارمى فى الصلاة ح ١٣٥٣، وفى السير ح ٢٣٥٨.

(١٩) بخت إلى الأحمر والأسود:

رواه أحمد فى مسنده ح ١٣٧٤٥، ١٨٩٠٢، ٢٠٣٣٧، ٢٠٣٥٢، والدارمى فى السير ح ٢٣٥٨.

(٢٠) فى ظلال القرآن ١٩ / ٤٨، طبعة دار إحياء الكتب العربية.

(٢١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى، ١٩ / ٣٢.

(٢٢) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه:

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٢٩٦٩، ومسلم فى القدر ح ٤٧٨١، وأحمد ح ٣٤٤١، ٢٨٨٢، والترمذى فى القدر ح ٢٠٦٣.

(٢٣) سبحانه اللهم ربنا وبحمك:

رواه مسلم فى الصلاة ح ٦٠٦، والترمذى فى الصلاة ح ٢٢٥، ٢٢٦، ٤٤٣، وفى الدعوات ح ٣٣٥٥، والنسائى فى الافتتاح ح ٨٨٩، ٨٩٠، وفى التطبيق ح ١١١٩، وفى السهو ح ١٣٢٧، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٨، ٦٥٩، وفى الأدب ح ٤٢١٦، ٤٢١٧، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ٧٩٦، ٧٩٨، ٨٧٩، وأحمد فى مسنده ح ٣٦٩٦، ٣٦٩٧، والدارمى فى الصلاة ح ١٢١١، وفى الاستئذان ح ٢٥٤٣.

(٢٤) إن الله عز وجل يسط يده بالليل :

رواه مسلم فى التوبة ح ٤٩٥٤ ، وأحمد ح ١٨٧٠٨ ، ١٨٧٩٣ .

(٢٥) إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده ح ٨٥٩٥ من حديث أبى هريرة .

(٢٦) إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون :

رواه مسلم فى المساجد ح ٩٤٥ ، وأحمد ح ٦٩٥٢ ، ٩٥٥٠ ، ١٠٤٢٧ ، والترمذى فى الصلاة ح ٣٠١ ، والنسائى فى الإمامة ح ٨٥٢ ، وابن ماجه فى المساجد ح ٧٦٧ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ١٣٧ . ورواه البخارى فى الأذان ح ٦٣٦ ، بنحوه .

(٢٧) انظر تفسير ابن كثير ، وفى رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ٤ / ٢٢٩٥ .

(٢٨) لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث :

رواه البخارى فى الديات ح ٦٣٧٠ ، ومسلم فى القسامة ٣١٥٧ ، ٣١٦٧ ، والترمذى فى الديات ح ١٣٢٢ ، وفى الحدود ح ١٣٦٤ ، والنسائى فى تحريم الدم ح ٣٩٥١ ، وفى القسامة ح ٤٦٤٢ ، وأبو داود فى الحدود ح ٣٧٨٨ ، وابن ماجه فى الحدود ح ٢٥٢٥ ، وأحمد ح ٣٤٣٨ ، ٣٨٥٩ ، ٤٠٢٤ ، والدارمى فى الحدود ح ٢١٩٦ .

(٢٩) إنما الأعمال بالنيات :

رواه البخارى فى بدء الوحي ح ١ ، وأطرافه عنده : ٥٤ ، ٢٥٢٩ ، ٣٨٩٨ ، ٥٠٧٠ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣ ، ومسلم ح ١٩٠٧ ، وأحمد ١ / ٤٣ ، ٢٥ ، وأبو داود فى الطلاق ح ١٨٨٢ ، ٢٢٠١ ، والترمذى ح ١٦٧٤ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢١٧ .

(٣٠) إني لأعرف آخر أهل النار خروجاً من النار :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٧٣ ، ٢٨٨ ، والترمذى فى صفة جهنم ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٣٤١٤ ، ٧٧٦٢ ، ١٠٧٧٠ ، ١٤٤٢٠ .

(٣١) ألا أنبئكم بأكثر الكبائر :

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٤٦٠ ، وفى الأدب ح ٥٥١٩ ، ٥٥٢٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٢٦ ، ١٢٨ ، وأحمد ح ١١٨٨٦ ، ١٩٤٩١ ، ١٩٤٩٩ .

(٣٢) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم فى الوصية ح ٣٠٨٤ ، والترمذى فى الأحكام ح ١٢٩٧ ، والنسائى فى الوصايا ح ٣٥٩١ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٢٣٨ ، وأحمد ح ٨٤٨٩ ، والدارمى فى المقدمة ح ٥٥٨ . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٣٣) تفسير النيسابورى (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) على مصحف التهجد ، ٣ / ٢٥٣٠ دار الصفوة .

(٣٤) قلوب العباد بين أصابع الرحمن :

رواه مسلم فى القدر ح ٤٧٩٨ ، وأحمد ح ٦٢٨١ ، ٦٣٢١ .

(٣٥) رواه مسلم فى الإيمان ح ٢١٤ ، وأحمد ح ٢٤٩٠٠ .

(٣٦) أفضله لسان ذاك :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠١٩ ، وأحمد ح ٢١٣٥٨ ، ٢٢٠٢٢ ، وقال أبو عيسى : حديث حسن . قلت : وهو كما قال ، إلا أن سالم بن أبى الجعد لم يسمع من ثوبان - راوى الحديث - فهو مرسل .

(٣٧) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٩) .

(٣٨) قيل : ﴿من المسحurin﴾ أى : من المعلنين بالطعام والشراب ، مأخوذ من السحر وهو الرئة ، يعنون : أنه بشر له رئة يأكل ويشرب مثل الناس .

(٣٩) تفسير القرطبى ٦ / ٤٩٨٥ مطابع دار اللغ العربى ، العباسية - القاهرة .

وهذا الكلام ننقله لمجرد الإحاطة ، ومثل هذه الأخبار تحتاج إلى توثيق ، وفى القرآن الكريم ما يكفى للحظة والاعتبار .

(٤٠) تفسير المرامى ١٩ / ٩٦ ، وقد نقل عن رجال الآثار الإفادة بوجود خمس مدن تحت البحر الميت ، وهى التى كانت فى منطقة الأردن ، ثم طفا عليها البحر الميت ، ثم قال : والخلاصة أن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين انتقم الله منهم ، فأمطر عليهم ناراً وكبريتاً من السماء ، فألهب البراكين النارية التى فيها ، ففجعت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن .

(٤١) تفسير القرطبى ٦ / ٤٩٩٠ دار اللغ العربى ، العباسية - القاهرة .

(٤٢) أخرجه ابن جرير ، وابن أبى حاتم وغيرهما ، عن ابن عباس ، وانظر تفسير ابن كثير .

(٤٣) ألا وإن فى الجسد مضغة :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، ومسلم فى المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٣٩٧٤ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٤١٩ .

(٤٤) قال القرطبى : قرأ ابن عامر ﴿أو لم تكن لهم آية﴾ برفع آية على أنها اسم كان ، والخبر ﴿أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ . وقرأ الباقرى بالنصب ﴿أو لم يكن لهم آية﴾ بنصب آية على أنها خبر يكن ، والاسم مصدر مؤول من ﴿أن يعلمه...﴾ والتقدير : أو لم يكن لهم علم علماء بنى إسرائيل آية واضحة . وقرأ عاصم الجحدري ﴿أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾ .

(٤٥) فى خلال القرآن ١٩ / ١١٥ .

(٤٦) يأتي بالكافر فيغمس في النار غمسة :

رواه مسلم في صفة القيامة ح ٥٠٢١ ، وأحمد ح ١١٣٤٢ ، ١٢٦٣٨ ، ١٣١٦٧ ، ولفظه : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار الحديث» .

(٤٧) قال القرطبي في تفسيره : قال الكسائي «ذكرى» في موضع نصب على الحال . ويجوز أن تكون «ذكرى» في موضع رفع على إضمار مبتدأ ، أي : ذلك ذكرى ، أو تلك ذكرى . هـ .
والخلاصة : أنه يجوز إعرابها حالاً أو مصدرًا أو خبرًا .

(٤٨) يا معشر قريش أنقلوا أنفسكم من النار :

رواه مسلم في الإيمان ح ٣٠٣ ، والترمذي في تفسير القرآن ح ٣١٠٩ ، والنسائي في الوصايا ح ٣٥٨٤ ، وأحمد ح ١٠٣٠٧ ، ٨٣٧٢ ، ٨٠٥١ .

(٤٩) إن أحبكم إلي وأقربكم مني منازل :

رواه البخاري في الأدب ح ٥٥٧٥ ، ومسلم في الفضائل ح ٤٢٨٥ ، والترمذي في البر ح ١٨٩٨ ، ١٩٤١ ، واللفظ له ، وابن ماجه في الأحكام ح ٢٤١٤ ، وأحمد ح ٦٥٢٦ ، ٦٢١٥ .

(٥٠) كان خلقه القرآن :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٦) .

(٥١) هل معك من شعر :

رواه مسلم في الشعر ح ٢٢٥٥ ، وابن ماجه في الأدب ح ٣٧٥٨ ، وأحمد ح ١٨٩٦٣ ، ١٨٩٧ ، ١٨٩٨٢ . كاد أمية بن الصلت أن يسلم .

(٥٢) وري القيق جوفه ، يريه ورثا : أكله ، والقيق : المدة يخالطها دم .

(٥٣) لأن يتلى جوف أحدكم قبحاً :

البخاري في الأدب ح ٦١٥٤ ، ومسلم في الشعر ح ٢٢٥٨ ، والترمذي في الأدب ح ٢٨٥١ ، ٢٨٥٢ ، وأبو داود في الأدب ح ٥٠٠٩ ، وابن ماجه في الأدب ح ٣٧٦٠ ، وأحمد ح ١٥٠٩ ، ١٥٠١٠ ، والدارمي في الاستئذان ح ٢٧٠٥ .

(٥٤) إن من البيان سحراً :

رواه أبو داود في الأدب ح ٥٠١١ ، والترمذي في الأدب ح ٢٨٥٤ ، وأحمد ح ٢٤٢٠ ، ٢٤٦٩ ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . ورواه البخاري في النكاح ح ٥١٤٦ ، وأبو داود في الأدب ح ٥٠٠٧ ، وأحمد ح ٤٦٣٧ ، ومالك في الجامع ح ١٨٥٠ ، من حديث ابن عمر بلفظ : «إن من البيان لسحراً» . هكذا مختصراً .

ورواه مسلم في الجمعة ح ٨٦٩ ، وأحمد ح ١٧٨٥٣ ، ١٨٤١٠ ، والدارمي في الصلاة ح ١٥٥٦ ، من حديث عمار بن ياسر بلفظ : «إن طول صلاة الرجل وإن من البيان سحراً» .

(٥٥) انظر التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ١٩ / ٢٤٨ .

(٥٦) تفسير القرطبي ٦ / ٥٠٠٦ ، قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ في هذه الآية ست مسائل ، وتحدث عنها من صفحة ٤٩٩٩ إلى ٥٠٠٦ .

(٥٧) اهجهم وجبريل معك :

رواه البخاري في بدء الخلق ح ٣٢١٣ ، وفي المغازي ح ٤١٢٤ ، وفي الأدب ح ٦١٥٣ ، ومسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٨٦ ، وأحمد ح ١٨١٧٦ ، ١٨٢١٤ ، ١٨٢١٥ . من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٥٨) إن المؤمن يجاهد بسيفه :

رواه أحمد في مسنده ح ٢٦٦٣٣ .

(٥٩) هجوت محمداً فأجبت عنه :

هذه الأبيات الشعرية ذكرها مسلم في فضائل الصحابة ح ٢٤٨٩ ، ٢٤٩٠ .

(٦٠) قال القرطبي : قرأ عاصم وحزمة والكسائي ﴿بشهاب قيس﴾ بفتحة شهاب ، وقرأ الباقر ﴿بشهاب قيس﴾ على الإضافة ، أي : بشعلة نار ، من إضافة النوع إلى جنسه كخاتم فضة ، والشهاب كل ذي نور ، نحو الكواكب والعود الموقد ، والقبس اسم لما يقتبس من حجر وما أشبهه ، فالمعنى بشهاب من قيس . ومن قرأ ﴿بشهاب قيس﴾ بالفتحة ، جعله بدلا منه أو صفة له ، وتأويله بمعنى المقبوس .

(٦١) إن الله لا ينام :

رواه مسلم في الإيمان ح ١٧٩ ، وابن ماجه في المقدمة ح ١٩٥ ، ١٩٦ . واللفظ لابن ماجه

(٦٢) الجيب : فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس ، قال تعالى : ﴿وَلِيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور : ٣١) . أي : تسدل الخمار على فتحة الصدر حتى تستر صدرها .

(٦٣) لا نورث ما تركناه صدقة :

رواه البخاري في فرض الخمس ح ٣٠٩٣ ، ٣٠٩٤ ، وفي المغازي ح ٢٠٣٤ ، ٢٠٦٣ ، ٤٢٤١ . وفي النفقات ح ٥٣٥٨ ، وفي الفرائض ح ٦٢٢٥ ، ٦٧٢٨ ، ٦٧٣٠ ، وفي الاعتصام ح ٧٣٠٥ ، ١٧٥٧ ، ومسلم في الجهاد ح ١٧٥٩ ، ١٧٦١ ، والترمذي في السير ح ١٦١٠ ، والنسائي في قسم الغنى ح ٤١٤٨ ، وأبو داود في الخراج ح ٢٩٦٣ ، ٢٩٦٨ ، وأحمد ح ١٠ ، ٢٦ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ١٧٣ .

(٦٤) إن العلماء ورثة الأنبياء :

رواه البخاري في العلم معلقا ، والترمذي في العلم ح ٢٦٨٢ ، وأبو داود في العلم ح ٣٦٤١ ، وابن ماجه في المقدمة ح ٢٢٣ ، وأحمد ح ٢١٢٠٨ ، والدارمي في المقدمة ح ٣٤٢ . وأوله : «من سلك طريقا يلتمس فيه علما...» الحديث .

أنا سيد ولد آدم :

رواه مسلم فى الفضائل ح ٢٢٧٨ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٤٨ ، وفى المناقب ح ٣٦١٥ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٧٣ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٣٠٨ ، وأحمد ح ١٦ ، ٢٥٤٢ ، ٢٦٨٧ .

(٦٥) التفسير الوسيط : بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وانظر تفسير القرطبي فقد أسهب ، وقال فيه ١٨ مسألة .

(٦٦) تفسير ابن كثير .

(٦٧) كانت امرأتان معهما ابناهما :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٢١٧٣ ، وفى الرقاق ح ٦٠٠٢ ، وفى الفرائض ح ٦٢٧١ ، ومسلم فى الأفضية ح ٢٢٤٥ ، والنسائى فى آداب القضاة ح ٥٣٠٩ ، وأحمد ح ٧٩٣١ ، ٨١٢٤ ، من حديث أبى هريرة .

(٦٨) الخيل معقود فى نواصبها الخير إلى يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجهاد ح ٢٦٢٨ ، ٢٦٤٠ ، وفى فرض الخمس ح ٢٨٨٧ ، وفى المناقب ح ٣٣٧٢ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٦٤٨ ، وفى الإمارة ح ٣٤٧٩ ، ٣٤٨٠ ، وأبو داود فى الجهاد ح ٢٥٣٢ ، والترمذى فى فضائل الجهاد ح ١٥٦٠ ، والنسائى فى الخيل ح ٣٥٠٥ ، ٣٥٠٦ ، وابن ماجه فى الجهاد ح ٢٧٧٨ ، وأحمد ح ٤٨٥٦ ، ٤٩٥٣ ، ٥٥٠٨ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٣١٩ ، ٢٣٢٠ ، من حديث عروة البارقي ، وأنس ، وأبى هريرة ، وابن عمر ، وجابر .

(٦٩) لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل منهن ثأنى بغارس :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣١٧١ ، وفى الأيمان ح ٦١٤٨ ، وفى كفارات الأيمان ح ٦٢٢٥ ، وفى التوحيد ح ٦٩١٥ ، ومسلم فى الأيمان ح ٣١٢٦ ، ٣١٢٤ ، والترمذى فى النذور ح ١٤٥٢ ، والنسائى فى الأيمان ح ٣٧٧١ ، ٣٧٩٦ ، من حديث أبى هريرة .

(٧٠) انظر تفسير المراعى ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩ / ٢٢٢ ، وقارن بالتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث

وهوامش الجزء (التاسع عشر)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢١	﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا...﴾	٣٧٢١
٢٢	﴿يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين...﴾	٣٧٢١
٢٣	﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً...﴾	٣٧٢١
٢٤	﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً...﴾	٣٧٢١
٢٥	﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً...﴾	٣٧٢١
٢٦	﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً...﴾	٣٧٢١
٢٧	﴿ويوم يعض الظالم على يديه...﴾	٣٧٢١
٢٨	﴿يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً...﴾	٣٧٢١
٢٩	﴿لقد أضلننى عن الذكر بعد إذ جاءنى...﴾	٣٧٢١
٣٠	﴿وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً...﴾	٣٧٢٨
٣١	﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين...﴾	٣٧٢٨
٣٢	﴿وقال الذين كثروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة...﴾	٣٠: ٢٨
٣٣	﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق...﴾	٣٧٢٨
٣٤	﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم...﴾	٣٧٢٨
٣٥	﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه...﴾	٣٧٣٢
٣٦	﴿فقلنا اذهبوا إلى القوم الذين كذبوا...﴾	٣٧٣٢
٣٧	﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم...﴾	٣٧٣٢
٣٨	﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً...﴾	٣٧٣٢
٣٩	﴿وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً...﴾	٣٧٣٢
٤٠	﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء...﴾	٣٧٣٢
٤١	﴿وإذا رأوك إن يستخذونك إلا هزواً...﴾	٣٧٣٧
٤٢	﴿إن كاد ليضلننا عن آلِهتنا...﴾	٣٧٣٧
٤٣	﴿أو رأيت من اتخذ إلهه هواه...﴾	٣٧٣٧
٤٤	﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون...﴾	٣٧٣٧
٤٥	﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل...﴾	٣٧٤٠
٤٦	﴿ثم قبضناه إينا قبضاً يسيراً...﴾	٣٧٤٠
٤٧	﴿وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً...﴾	٣٧٤٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٨	﴿وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته...﴾	٣٧٤٠
٤٩	﴿لنحى به بلدة ميتة ونسقيه مما خلقنا...﴾	٣٧٤٠
٥٠	﴿ولقد صرفناه ببئهم لئذكروا...﴾	٣٧٤٠
٥١	﴿ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً...﴾	٣٧٤٠
٥٢	﴿فلا تطع الكافرين وجاھدھم به جھاداً كبيراً...﴾	٣٧٤٠
٥٣	﴿وهو الذى مرج البحرین...﴾	٣٧٤٠
٥٤	﴿وهو الذى خلق من الماء بشراً...﴾	٣٧٤٠
٥٥	﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم...﴾	٣٧٥٠
٥٦	﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً...﴾	٣٧٥٠
٥٧	﴿قل ما أسألكم عليه من أجر...﴾	٣٧٥٠
٥٨	﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت...﴾	٣٧٥٠
٥٩	﴿الذى خلق السماوات والأرض وما بينهما...﴾	٣٧٥٠
٦٠	﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن...﴾	٣٧٥٠
٦١	﴿تبارك الذى جعل فى السماء بروحاً...﴾	٣٧٥٠
٦٢	﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خليفة...﴾	٣٧٥٠
٦٣	﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً...﴾	٣٧٥٧
٦٤	﴿والذين يبنيون لربهم سجداً وقياماً...﴾	٣٧٥٧
٦٥	﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم...﴾	٣٧٥٧
٦٦	﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً...﴾	٣٧٥٧
٦٧	﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا...﴾	٣٧٥٧
٦٨	﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر...﴾	٣٧٥٧
٦٩	﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً...﴾	٣٧٥٧
٧٠	﴿إلا من تاب وعمل صالحاً...﴾	٣٧٥٧
٧١	﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً...﴾	٣٧٥٧
٧٢	﴿والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً...﴾	٣٧٥٧
٧٣	﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم...﴾	٣٧٥٧
٧٤	﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين...﴾	٣٧٥٧
٧٥	﴿وأولئك يجزون الغرفة بما صبروا...﴾	٣٧٥٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٦	﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مَسَاقِرُهُمْ وَمَقَامُهُمْ﴾	٣٧٥٧
٧٧	﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾	٣٧٥٧
—	(خاتمة السورة)	٣٧٦٨
—	(تفسير سورة الشعراء)	٣٧٦٩
—	(أهداف سورة الشعراء)	٣٧٧٠
١	﴿طس ————— طس﴾	٣٧٧٥
٢	﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٣٧٧٥
٣	﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٣٧٧٥
٤	﴿إِن نَشَاءُ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً...﴾	٣٧٧٥
٥	﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ...﴾	٣٧٧٥
٦	﴿فَنَقُذْ كُذِّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبِيَاءٌ...﴾	٣٧٧٥
٧	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا...﴾	٣٧٧٥
٨	﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾	٣٧٧٥
٩	﴿وَإِنْ رَيْكَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾	٣٧٧٥
١٠	﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	٣٧٨٠
١١	﴿قَوْمٌ فَارِعُونَ لَا يَتَّقُونَ﴾	٣٧٨٠
١٢	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾	٣٧٨٠
١٣	﴿وَيَضْحِكُ صَدْرِي وَلَا يَنْظُرُ لِسَانِي...﴾	٣٧٨٠
١٤	﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾	٣٧٨٠
١٥	﴿قَالَ كَلَّا فَإِنَّهُمْ يَبْأَيَاتُنَا...﴾	٣٧٨٠
١٦	﴿فَأْتِيَافِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٣٧٨٠
١٧	﴿إِنْ أَرْسَلْ مَعْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾	٣٧٨٠
١٨	﴿قَالَ أَلَمْ نَرِكَ فِينَا وَلِيدًا...﴾	٣٧٨٠
١٩	﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ...﴾	٣٧٨٠
٢٠	﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾	٣٧٨٠
٢١	﴿فَنَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ...﴾	٣٧٨٠
٢٢	﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ...﴾	٣٧٨٠
٢٣	﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	٣٧٨٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٤	﴿قال رب السماوات والأرض وما بينهما...﴾	٣٧٨٤
٢٥	﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾	٣٧٨٤
٢٦	﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾	٣٧٨٤
٢٧	﴿قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون﴾	٣٧٨٤
٢٨	﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما﴾	٣٧٨٤
٢٩	﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين﴾	٣٧٨٦
٣٠	﴿قال أولو جنتك بشئ مبين﴾	٣٧٨٦
٣١	﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾	٣٧٨٦
٣٢	﴿فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين﴾	٣٧٨٦
٣٣	﴿ونزع يده فإذا هى بيضاء لناظرين﴾	٣٧٨٦
٣٤	﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾	٣٧٨٦
٣٥	﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾	٣٧٨٦
٣٦	﴿قالوا أرجه وأخاه وابتع فى المدائن حاشرين﴾	٣٧٨٦
٣٧	﴿يأتوك بكل ساحار عليم﴾	٣٧٨٦
٣٨	﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾	٣٧٨٨
٣٩	﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾	٣٧٨٨
٤٠	﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾	٣٧٨٨
٤١	﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون﴾	٣٧٨٨
٤٢	﴿قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾	٣٧٨٨
٤٣	﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾	٣٧٨٨
٤٤	﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا﴾	٣٧٨٨
٤٥	﴿فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون﴾	٣٧٨٨
٤٦	﴿فألقى السحرة ساجدين﴾	٣٧٨٨
٤٧	﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾	٣٧٨٨
٤٨	﴿رب موسى وهارون﴾	٣٧٨٨
٤٩	﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾	٣٧٨٨
٥٠	﴿قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون﴾	٣٧٨٨
٥١	﴿إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾	٣٧٨٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٢	﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبيدي...﴾	٣٧٩٣
٥٣	﴿فأرسل فرعون في البعثات حاشرين﴾	٣٧٩٣
٥٤	﴿إن هؤلاء لشردمة قليلون﴾	٣٧٩٣
٥٥	﴿وإنهم لنا لغائظون﴾	٣٧٩٣
٥٦	﴿وإننا لجمع جاثرون﴾	٣٧٩٣
٥٧	﴿فأخرجناهم من جنات وعيون﴾	٣٧٩٣
٥٨	﴿وكنوز ومقام كريم﴾	٣٧٩٣
٥٩	﴿كذلك وأورثناها بنى إسرائيل﴾	٣٧٩٣
٦٠	﴿فأتبعوهم مشرقين﴾	٣٧٩٣
٦١	﴿فأما تراءى الجمعان...﴾	٣٧٩٣
٦٢	﴿قال كلا إن معى ربي سيهدين...﴾	٣٧٩٣
٦٣	﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب...﴾	٣٧٩٣
٦٤	﴿وأنزل فناتم الآخرين﴾	٣٧٩٣
٦٥	﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾	٣٧٩٣
٦٦	﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾	٣٧٩٣
٦٧	﴿إن فى ذلك لآية...﴾	٣٧٩٣
٦٨	﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾	٣٧٩٣
٦٩	﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾	٣٧٩٨
٧٠	﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾	٣٧٩٨
٧١	﴿قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين﴾	٣٧٩٨
٧٢	﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون﴾	٣٧٩٨
٧٣	﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾	٣٧٩٨
٧٤	﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾	٣٧٩٨
٧٥	﴿قال أفمرأيتم ما كنتم تعبدون﴾	٣٧٩٨
٧٦	﴿أنتم وأبائكم الأقدمون﴾	٣٧٩٨
٧٧	﴿فإنهم عدول لى إلا رب العالمين﴾	٣٧٩٨
٧٨	﴿الذى خلقنى فهو يهدين﴾	٣٧٩٨
٧٩	﴿والذى هربط عمنى ويسقين﴾	٣٧٩٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٠	﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهْوَ يَشْفِيكَ﴾	٣٧٩٨
٨١	﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي﴾	٣٧٩٨
٨٢	﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾	٣٧٩٨
٨٣	﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾	٣٨٠١
٨٤	﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾	٣٨٠١
٨٥	﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾	٣٨٠١
٨٦	﴿وَإِنِّي أَخَافُ إِنْهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾	٣٨٠١
٨٧	﴿وَلَا تَخْزَنْنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾	٣٨٠١
٨٨	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾	٣٨٠١
٨٩	﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	٣٨٠١
٩٠	﴿وَأَزَلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾	٣٨٠٣
٩١	﴿وَبَرَزْتُ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ﴾	٣٨٠٣
٩٢	﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾	٣٨٠٣
٩٣	﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصِتُونَ﴾	٣٨٠٣
٩٤	﴿فَكَبِكَبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾	٣٨٠٣
٩٥	﴿وَجَنَّبُودَ إِيلَاسَ أَجْمَعُونَ﴾	٣٨٠٣
٩٦	﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾	٣٨٠٣
٩٧	﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	٣٨٠٣
٩٨	﴿إِنْ نَسُوكَم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٣٨٠٣
٩٩	﴿وَمَا أَضِلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾	٣٨٠٣
١٠٠	﴿فَمَا لَنَأْمَنُ مِنْ شَافِعِينَ﴾	٣٨٠٣
١٠١	﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾	٣٨٠٣
١٠٢	﴿فَلَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ فَنَّكَوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٣٨٠٣
١٠٣	﴿إِنْ فَسَّيْ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُ﴾	٣٨٠٣
١٠٤	﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾	٣٨٠٣
١٠٥	﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾	٣٨٠٧
١٠٦	﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾	٣٨٠٧
١٠٧	﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾	٣٨٠٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠٨	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾	٣٨٠٧
١٠٩	﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾	٣٨٠٧
١١٠	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾	٣٨٠٧
١١١	﴿قَالُوا أَنْتُمْ مَن لَّكَ وَاتَّبِعْكَ الْأَرْذَلُونَ﴾	٣٨٠٧
١١٢	﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	٣٨٠٧
١١٣	﴿إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾	٣٨٠٧
١١٤	﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤَمِّنِينَ﴾	٣٨٠٧
١١٥	﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾	٣٨٠٧
١١٦	﴿قَالُوا الْإِنِّ لَم نَنْتَقِهَا يَا نُوحُ...﴾	٣٨٠٧
١١٧	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ بِكُذِّبُونَ﴾	٣٨٠٧
١١٨	﴿فَنَفِثَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ فَتَحَا...﴾	٣٨٠٧
١١٩	﴿فَنَاجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾	٣٨٠٧
١٢٠	﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾	٣٨٠٧
١٢١	﴿إِنْ فَـــــــسى ذَلِكَ لَا يـــــــتـــــــة...﴾	٣٨٠٧
١٢٢	﴿وَإِنْ رَيْكَ لَهْوَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	٣٨٠٧
١٢٣	﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾	٣٨١٣
١٢٤	﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودُ أَلَا تَتَّقُونَ﴾	٣٨١٣
١٢٥	﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾	٣٨١٣
١٢٦	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾	٣٨١٣
١٢٧	﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾	٣٨١٣
١٢٨	﴿أَتَيْبُونُ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾	٣٨١٣
١٢٩	﴿وَتَتَخَذُونَ مِصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾	٣٨١٣
١٣٠	﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾	٣٨١٣
١٣١	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾	٣٨١٣
١٣٢	﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾	٣٨١٣
١٣٣	﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبِئَنِينَ﴾	٣٨١٣
١٣٤	﴿وَجَنَّاتٍ وَعِـــــــون﴾	٣٨١٣
١٣٥	﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾	٣٨١٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٣٦	﴿قَالُوا سِوَاهُ عَلَيْنَا أَوْعَلْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾	٣٨١٣
١٣٧	﴿وَإِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾	٣٨١٣
١٣٨	﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾	٣٨١٣
١٣٩	﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَمَّا لَكُنَّاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةٌ...﴾	٣٨١٣
١٤٠	﴿وَإِنْ رَيْكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	٣٨١٣
١٤١	﴿كَذَبْتَ ثَمُودَ الَّتِي مَرَّسَلِينَ﴾	٣٨١٨
١٤٢	﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَتَتَّقُونَ﴾	٣٨١٨
١٤٣	﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾	٣٨١٨
١٤٤	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾	٣٨١٨
١٤٥	﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ...﴾	٣٨١٨
١٤٦	﴿أَنْتُمْ تَكُونُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمَنِينَ﴾	٣٨١٨
١٤٧	﴿فَنَسِيَ حِسَابَاتِ وَعِيسُونَ﴾	٣٨١٨
١٤٨	﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾	٣٨١٨
١٤٩	﴿وَنَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾	٣٨١٨
١٥٠	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾	٣٨١٨
١٥١	﴿وَلَا تَطْغَوْا أَمْرًا الْمُسْرِفِينَ﴾	٣٨١٨
١٥٢	﴿الَّذِينَ يَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلَحُونَ﴾	٣٨١٨
١٥٣	﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾	٣٨١٨
١٥٤	﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا...﴾	٣٨١٨
١٥٥	﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ...﴾	٣٨١٨
١٥٦	﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ...﴾	٣٨١٨
١٥٧	﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُلَامًا مِثْلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾	٣٨١٨
١٥٨	﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةٌ...﴾	٣٨١٨
١٥٩	﴿وَإِنْ رَيْكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾	٣٨١٨
١٦٠	﴿كَذَبْتَ ثَمُودَ الَّتِي مَرَّسَلِينَ﴾	٣٨٢٣
١٦١	﴿إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَتَتَّقُونَ﴾	٣٨٢٣
١٦٢	﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾	٣٨٢٣
١٦٣	﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾	٣٨٢٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦٤	﴿وما أسألكم عليه من أجر...﴾	٣٨٢٣
١٦٥	﴿أتأتون الذكران من العالمين﴾	٣٨٢٣
١٦٦	﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾	٣٨٢٣
١٦٧	﴿قالوا لئن لم تنته بالوط...﴾	٣٨٢٣
١٦٨	﴿قال إنى لعمركم من القالين﴾	٣٨٢٣
١٦٩	﴿رب نجنى وأهلك مما يعملون﴾	٣٨٢٣
١٧٠	﴿فنجيناها وأهلك أجمعين﴾	٣٨٢٣
١٧١	﴿إلا عجوزاً فى الغابرين﴾	٣٨٢٣
١٧٢	﴿ثم دمرنا الأخريين﴾	٣٨٢٣
١٧٣	﴿وأطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين﴾	٣٨٢٣
١٧٤	﴿إن فى ذلك لآية...﴾	٣٨٢٣
١٧٥	﴿وإن ربك لهُو العزيز الرحيم﴾	٣٨٢٣
١٧٦	﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾	٣٨٢٧
١٧٧	﴿إن قال لهم شعيب ألا تنقون﴾	٣٨٢٧
١٧٨	﴿إنى لكم رسول أمين﴾	٣٨٢٧
١٧٩	﴿فأتقوا الله وأطيعون﴾	٣٨٢٧
١٨٠	﴿وما أسألكم عليه من أجر...﴾	٣٨٢٧
١٨١	﴿أو فؤاد الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾	٣٨٢٧
١٨٢	﴿وزنبوا بالقسطاس المستقيم﴾	٣٨٢٧
١٨٣	﴿ولا تبخسوا القياس أشياءهم...﴾	٣٨٢٧
١٨٤	﴿واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين﴾	٣٨٢٧
١٨٥	﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾	٣٨٢٧
١٨٦	﴿وما أنت إلا بشر مثنا...﴾	٣٨٢٧
١٨٧	﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء...﴾	٣٨٢٧
١٨٨	﴿قال ربى أعلم بما تعملون﴾	٣٨٢٧
١٨٩	﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة...﴾	٣٨٢٧
١٩٠	﴿إن فى ذلك لآية...﴾	٣٨٢٧
١٩١	﴿وإن ربك لهُو العزيز الرحيم﴾	٣٨٢٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩٢	﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾	٣٨٣٢
١٩٣	﴿نزل به الروح الأمين﴾	٣٨٣٢
١٩٤	﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾	٣٨٣٢
١٩٥	﴿بلسان عربي مبين﴾	٣٨٣٢
١٩٦	﴿وإنه لفى زبور الأولين﴾	٣٨٣٢
١٩٧	﴿أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل﴾	٣٨٣٢
١٩٨	﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾	٣٨٣٢
١٩٩	﴿فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾	٣٨٣٢
٢٠٠	﴿كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين﴾	٣٨٣٢
٢٠١	﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾	٣٨٣٢
٢٠٢	﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾	٣٨٣٢
٢٠٣	﴿فيقولوا هل نحن من نظرون﴾	٣٨٣٢
٢٠٤	﴿أفبعذابنا يستعجبون﴾	٣٨٣٢
٢٠٥	﴿أفأرأيت إن متعناهم سنين﴾	٣٨٣٢
٢٠٦	﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾	٣٨٣٢
٢٠٧	﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾	٣٨٣٢
٢٠٨	﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون﴾	٣٨٣٢
٢٠٩	﴿ذكرى وما كنا نظالمين﴾	٣٨٣٢
٢١٠	﴿وماتنزلت به الشياطين﴾	٣٨٣٢
٢١١	﴿وما ينبغى لهم وما يستطيعون﴾	٣٨٣٢
٢١٢	﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾	٣٨٣٢
٢١٣	﴿فلا تدع مع الله إلها آخر﴾	٣٨٤١
٢١٤	﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾	٣٨٤١
٢١٥	﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾	٣٨٤١
٢١٦	﴿فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون﴾	٣٨٤١
٢١٧	﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾	٣٨٤١
٢١٨	﴿الذى يراك حين تقوم﴾	٣٨٤١
٢١٩	﴿وتقلبك فى الساجدين﴾	٣٨٤١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٢٠	﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	٣٨٤١
٢٢١	﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تُنْزِلُ الشَّيَاطِينُ﴾	٣٨٤٤
٢٢٢	﴿تُنْزِلُ عَلَيْنَا كُلَّ آثَانٍ أَتِينَا﴾	٣٨٤٤
٢٢٣	﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾	٣٨٤٤
٢٢٤	﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾	٣٨٤٤
٢٢٥	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾	٣٨٤٤
٢٢٦	﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾	٣٨٤٤
٢٢٧	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٣٨٤٤
—	(خلاصة ما اشتملت عليه سورة الشعراء)	٣٨٥٢
—	(تفسير سورة النمل)	٣٨٥٣
—	(أهداف سورة النمل)	٣٨٥٤
١	﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾	٣٨٥٨
٢	﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٣٨٥٨
٣	﴿الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾	٣٨٥٨
٤	﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ...﴾	٣٨٥٨
٥	﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ...﴾	٣٨٥٨
٦	﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾	٣٨٥٨
٧	﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...﴾	٣٨٦١
٨	﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نَادَىٰ أَنْ يَبْرُكْ مِنْ فِي النَّارِ...﴾	٣٨٦١
٩	﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	٣٨٦١
١٠	﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَتْهَا نُهَزَّ كَأَنَّهُمَا جَانٌ...﴾	٣٨٦١
١١	﴿وَلَا مِنْ ظَلَمٍ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بِعَدِ سَوْءٍ...﴾	٣٨٦١
١٢	﴿وَأَخْلَجَ يَدَكَ فَمِى جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءُ...﴾	٣٨٦١
١٣	﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا...﴾	٣٨٦١
١٤	﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...﴾	٣٨٦١
١٥	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا...﴾	٣٨٦٧
١٦	﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ...﴾	٣٨٦٧
١٧	﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...﴾	٣٨٦٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٨	﴿حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ...﴾	٣٨٦٧
١٩	﴿فتبسم ضاحكاً من قولها ...﴾	٣٨٦٧
٢٠	﴿وتفقد النبطير فقال ...﴾	٣٨٧٣
٢١	﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه ...﴾	٣٨٧٣
٢٢	﴿فمكث غير بعيد فقال ...﴾	٣٨٧٣
٢٣	﴿إنني وجدت امرأة تمالكهم ...﴾	٣٨٧٣
٢٤	﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ...﴾	٣٨٧٣
٢٥	﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء ...﴾	٣٨٧٣
٢٦	﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ...﴾	٣٨٧٣
٢٧	﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ...﴾	٣٨٧٧
٢٨	﴿أذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ...﴾	٣٨٧٧
٢٩	﴿قالت يأيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم ...﴾	٣٨٧٧
٣٠	﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ...﴾	٣٨٧٧
٣١	﴿ألا تعملوا على وأنوني مسامحين ...﴾	٣٨٧٧
٣٢	﴿قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ...﴾	٣٨٧٩
٣٣	﴿قالوا نحن أولو قوة ...﴾	٣٨٧٩
٣٤	﴿قالت إن المملوك إذا دخلوا قرية ...﴾	٣٨٧٩
٣٥	﴿وإننى مرسله إليهم بهدية ...﴾	٣٨٧٩
٣٦	﴿فلما جاء سليمان قال ...﴾	٣٨٨١
٣٧	﴿أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود ...﴾	٣٨٨١
٣٨	﴿قال يأيها الملأ أليكنى بعرشها ...﴾	٣٨٨٣
٣٩	﴿قال عفريت من الجن ...﴾	٣٨٨٣
٤٠	﴿قال الذى عنده علم من الكتاب ...﴾	٣٨٨٣
٤١	﴿قال تكبروا لها عرشها ...﴾	٣٨٨٣
٤٢	﴿فلما جاء قيل أمكذا عرشك ...﴾	٣٨٨٣
٤٣	﴿وصدهما ما كنت تعبداً من دون الله ...﴾	٣٨٨٣
٤٤	﴿قيل لها ادخلى الصرح ...﴾	٣٨٨٣
٤٥	﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ...﴾	٣٨٩١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٦	﴿قال يا قوم لم تستعجلون...﴾	٣٨٩١
٤٧	﴿قالوا اطيننا بك ويمن معك...﴾	٣٨٩١
٤٨	﴿وكان فى المدينة تسعة رهط...﴾	٣٨٩١
٤٩	﴿قالوا تقاسموا بالله...﴾	٣٨٩١
٥٠	﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون...﴾	٣٨٩١
٥١	﴿فانظر كيف كان عاقبة مكروهم...﴾	٣٨٩١
٥٢	﴿فتلك بيوتهم خاوية...﴾	٣٨٩١
٥٣	﴿وانجيننا الذين آمنوا وكانوا يتقون...﴾	٣٨٩١
٥٤	﴿والوطأ إذ قال لقومه...﴾	٣٨٩٦
٥٥	﴿انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء...﴾	٣٨٩٦
—	تخريج أحاديث وهوامش	٣٨٩٩
—	فهرس الكتاب	٣٩٠٧

تم بحمد الله الجزء (التاسع عشر)
ويليه الجزء (العشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء العشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غيب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُّوطُ مِنْ قَرِيبِكُمْ إِنَّهُمْ
 أَنْاسٌ يَبْطِئُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾

المفردات:

أخرجوا آل لوط: المراد بهم: لوط وأهله، كما يراد من بنى آدم، آدم وبنوه.

من قريبتكم: من مدينتكم سدوم.

يبتطهرون: ينزهون أنفسهم عن الأقدار والأوساخ، ويتباعدون عما نفعله، ويزعمون أنه من القاذورات.

قَدَرْنَاهَا: قضينا وحكمنا.

الغابرين: الباقين في العذاب.

سَاءَ: قبح

مطر المنذرين: من أهل الجرائم، وهو حجارة من سجيل.

تمهيد:

لقد ذكر القرآن الكريم قصة لوط في عدد من السور، وشنع على هذه الفاحشة وحذر من إتيانها، وقد عاقب أصحابها بالهلاك.

ونرى المدنية الحديثة التي أباحت المثلية الجنسية، والزواج الشاذ، وأباحت إنشاء نوادٍ للعرافة، ونوادٍ للشواذ، قد فوجئت بانتشار مرض الإيدز أو نقص المناعة، وهو مرض خطير يؤدي بالكثير من المرضى، وقد أصيب القوم بالرعب من الإيدز؛ فمرض الإيدز قد يهرب منه الطبيب والممرضة التي تعالجه، وربما أسرته.

والنوادى الليلية التي كانت ترعى الشواذ أصيبت بالإفلاس، وأدرك الناس خطر الإيدز وخطر الشذوذ والبنفاء، بعد أن شاهدوا بأعينهم هلاك أكثر من نصف المرضى بنقص المناعة؛ وكل ذلك يوضح للمتأمل أن سبب هذه الأمراض نقص الإيمان والخروج على منهج الله، ولعل في هذا دعوة لنا جميعاً إلى احترام الزواج الشرعي، باعتبارها الوسيلة المستترة لإشباع العاطفة، ورعاية الذرية وإمتاع النفس، والالتزام بمنهج الله تعالى القائل في

كتابه الكريم: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. (الروم: ٢١).

التفسير:

لما أنذر لوط عليه السلام قومه، وخوفهم نقمة ربه؛ هددوه بالطرد من سدوم هو ومن آمن به، قال تعالى:

٥٦ - فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ .

كان سائلا سأل سؤالا هو: ماذا كان جواب قوم لوط؟ والجواب هو: فما كان جواب قومه على دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى، وهجر الشذوذ الجنسي، والامتناع عن إتيان الرجال في أديارهم؛ إلا أن رفضوا دعوة لوط، وأعلنوا هذا الرفض، حيث بيّنوا أمرهم على إخراج لوط، وأهله من المؤمنين من قرية سدوم؛ بحجة أنهم يبالغون في التطهر، ولا يشاركونهم في عمل هذه الفاحشة، وهذا إغراق في الشذوذ والخروج على القطرة، حيث يُعاقب المستقيم الطاهر بالطرد من البلد عقوبة له على استقامته.

٥٧ - فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (١).

أنجينا لوطا ومن آمن به، وأهلكنا المكذبين، ومعهم عجوز هي زوجة لوط، كانت تتعاطف مع الشواذ، وترشدهم إلى أضياف لوط ليفعلوا بهم الفاحشة؛ فأهلكها الله معهم، كما قال تعالى: فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ. (الشعراء: ١٧٠، ١٧١).

٥٨ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ .

أمطر الله عليهم مطرا لم يعدوا له مثيلا، حيث كان مطر عذاب ونقمة، فأرسل عليهم حجارة قوية صلبة متتابعة النزول، معلّمة بسيما تتميز بها عن حجارة الأرض، كان فيها الهلاك لهم، عقوبة رادعة لهم على شذوذهم، كما قال تعالى: وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ * مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود: ٨٢، ٨٣) .

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ غَفُورٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٥٩) آمَنَ
 خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ
 بَهْجَةٍ مَّا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ يَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
 آمَنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَواسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ
 الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ آمَنَ يُحْيِي الْمُضْطَرَّ
 إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا
 مَّا نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ آمَنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ
 بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ آمَنَ يَنْدُوا
 الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْبُدُكُمْ وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَمْ لَهُمْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

المضردات:

اصْطَفَى: اختار لرسالته، وهم الأنبياء عليهم السلام.

حَدَائِقُ: جمع حديقة، وهي البستان عليه سور أو حائط، من أحْدَقَ بالشئ: إذا أحاط به، ثم توسع فيها فاستعملت في كل بستان وإن لم يكن محوطًا بحائط.

ذَاتُ بَهْجَةٍ: البهجة: حسن المنظر.

يَعْدِلُونَ: يميلون، يقال: عدل عنه، أي: مال عنه.

قَرَارًا: مكانًا يقر عليه الإنسان وغيره، بمعنى يستقر.

خِلَالَهَا: بين جهاتها المختلفة.

حَاجِزًا: مانعًا بين العذب والملح حتى لا يبغي أحدهما على الآخر.

الْمُضْطَرَّ: ذو الحاجة المجهود، أو الذي أصابه الضرر.

يَكْشِفُ السُّوءَ: يرفع عنه الظلم والضرر.

خُلَفَاءَ الْأَرْضِ: الذين يرثون سكنها والتصرف فيها.

يَهْدِيكُمْ، يرشدكم بالنجوم وغيرها.

بُشْرًا، جمع بشير، والمراد: مبشرات بقدوم المطر.

تمهيد:

هذه الآيات تحكى دلائل القدرة الإلهية، وتسير على طريقة الاستفهام الذى يأخذ على النفس أقطارها، فلا تجد مناصا من التسليم، فهى تبدأ بمقدمة للخطبة تذكر الحمد لله على نعمائه، والسلام على رسله وأوصيائه، ثم تستفهم وتواجه الكافرين فتقول:

١ - من خلق السماوات والأرض وأنزل المطر المفيد النافع؟

٢ - من جعل الأرض قرارا مستقرة، وبارك فيها بالبحار والأنهار، ومنع البحرين من الالتقاء؟

٣ - من يجيب المضطر اللاجئ، ويكشف عنه سوءه، وينظم حياة الناس على الأرض بالموت والحياة؟

٤ - من يهديكم فى ظلام الليل والبحر، بالنجوم وغيرها من وسائل الهداية، ومن الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول المطر؟

٥ - من خلق الكون والإنسان، ثم يعيد خلق ذلك؟ ومن يرزقكم من السماء بالمطر والهواء والفضاء، ومن الأرض بالنبات والمعادن واليتروك وغير ذلك ؟

ولا يملك أى إنسان أن يقول إن أحداً غير الله يفعل ذلك، فإن ادعى قليات بالدليل والبرهان، وأنى له بذلك؟ لقد سبق هذه الأدلة على وجود الله ذكر قصص موسى، وداود، وسليمان، وصالح، ولوط؛ وكلها تبين عظيم قدرة الله وجليل نعمائه، وتأخذ بيد الراغب فى الهداية إلى الإيمان بالله تعالى، ثم ساق القرآن الكريم هذه الأدلة المتتابعة، وبدأ كل دليل بهذا الاستفهام الإنكارى، وكأنه يقول لأهل مكة: تدبروا فى الكون حولكم، وتاملوا فى أنفسكم، وستجدون أدلة وجود الله ظاهرة أمامكم.

التفسير:

٥٩ - قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

قل يا محمد أنت وكل من يتأتى منه القول: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فله الحمد حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه كما يرضى ويحب، وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، أى: السلام على الأنبياء والرسل وكل من اصطفاهم الله من خلقه، كما قال تعالى: وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الصافات: ١٨١، ١٨٢) .

اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .

أيهما خير، الله الذى خلق ورزق وهدر الأقوات وبيده الخلق والأمر، أم الأصنام التى يعبدونها ويشركونها بالله فى العبادة؟ إن الله أوجد الموجودات، وأمسك بنظام الكون، وبدأ الخلق ثم يعيده، وكان العقل أن يعيدوه وحده لا شريك له، فهل هذه الأصنام مصدر خير ومنفعة لهم حتى يتركوا عبادة الله، ويعبدوها من دون الله تعالى.

وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، لا إله إلا أنت، وعبدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق» (١).

٦٠ - أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ يَلُفُّهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .

من الذى بدأ الخلق ورفع السماء وبسط الأرض، وجعل الفضاء والهواء بين السماء والأرض، وأنزل المطر من السماء لمصلحة الإنسان، فأنبت بالماء الحدائق والبساتين التى تبهج الإنسان وتسعد، وإن نظرة إلى ما حولنا، من ارتفاع السماء، واتساع الفضاء، والأرض المسوطة، والفضاء والهواء والماء، ونزول المطر وإنبات النبات وكل زهرة فيها لمسة الإبداع، التى تعجز ريشة الفنان عن إبداعها، فضلاً عن سريان الماء فى أوراق الأشجار وأغصانها، وما كان للإنسان أن يسخر المطر أو ينبت النبات، أو يبدع جريان الماء فى داخل الشجر.

إِلَّهِ مَعَ اللَّهِ ...

أى: أكل هذه النعم الجليلة، والخلق البديع، يخلقه خالق آخر مع الله؟ أو يمكن أن يبدعه صنم أو وثن أو جن أو ملائكة، حتى تعبدوا الصنم وغيره، وتتركوا عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد .

بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .

انتقال من تبيكتهم بطريق الخطاب إلى تبيكتهم بطريق الغيبة، أى: بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ، ينصرفون عن الحق وهو التوحيد إلى الباطل وهو عبادة الأصنام.

٦١ - أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ يَلُفُّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

من الذى جعل الأرض مستقرة ليتمكن الإنسان من الحياة عليها، والاستفادة بخيراتها، إن موقع الأرض ودورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، وموقعها من القمر، وحركة الشمس التى ترسل أشعتها على المحيطات فيتصاعد البخار ويتشكل السحاب والرياح، والأمطار التى تصب بقدرة الله فى مكان، وتصرف عن مكان؛ كل هذا الإعمار والتقدير والتكامل فى الكون لابد أن يلفت أنظاركم وعقولكم وتأملكم لتسألوا أنفسكم: من الذى بسط الأرض وجعلها قراراً؟ من الذى سخر خلالها أنهاراً ليشرّب منها الإنسان والحيوان والنبات ؟ من الذى خلق الجبال الرواسى بحكمة عالية، ونشرها على سطح الأرض لحفظ توازنها، واحتباس الأمطار فى رموس الجبال فى الشتاء، ليستفيد منها الإنسان فى الصيف، وللجبال منافع عدة، ففوق رموسها هبطت الرسالات، وفيها ملجأ للهارب، وأمطارها وسيلة للسقى والرى لوديان لا تصد إليها المياه، وغير ذلك من المنافع.

وجعل بين البحرين حاجزاً...

أى: خلق المحيطات وفيها مياه مالحة لحياة السمك والمعادن واللآلئ والحيات، وسفر البواخر والبوارج، ولو كانت مياهها عذبة لأنتنت وتلوث الهواء، وجعل أنهار النيل ودجلة والفرات وغيرها من الأنهار للسقيا ونفع البلاد والعباد.

وهناك حاجز من قدرة الله بين العذب والملح، فلا يطغى أحدهما على الآخر، بل بينهما تكامل نظمته يد القدرة الإلهية، قال تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ . (الرحمن: ١٩، ٢٠)، أى: خلق البحرين العذب والملح، وجعل بينهما حاجزاً من القدرة الإلهية، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

أَلَيْهٖ مَعُ اللَّهُ...

أى: أبعد كل هذه الأعمال الجليلة التى أبدعها الله وحده، تعتقدون أن معه آلهة أخرى كالأصنام والأوثان؟ والاستفهام هنا إنكارى لعبادتهم غير الله.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى: أكثر هؤلاء الكافرين لا يعلمون ما يتحتم عليهم معرفته من العلم الحق، الذي يوجب عليهم إخلاص عبوديتهم لله سبحانه وتعالى.

٦٢ - أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرُ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءُ الْأَرْضِ أَلَيْهٖ مَعُ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .

من الذى يجيب المضطر الذى أحزبه أمر أو أحزنه مكروه، أو اشتدت به الكرب، أو كثرت به الظلم، أو اعتدى عليه معتد، أو ظلمه ظالم، أو كثرت به الكوارث، واكفهرت فى وجهه الحياة، من يجيب هذا البائس المشفق المكروه، سوى الله الذى تكفل بإجابة دعوة المضطر سواء أكان مسلماً أم كافراً، مؤمناً أم مشركاً، حتى إذا عاد المشرك إلى شركه أمهله ولم يعاجله بالعقوبة، قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّجْنَا بِهَمْ بَرِيحَ طَبِيعَةٍ وَفَرَّجُوا بِهَا جَاءَتَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَتَاهُمْ إِذَا هُم بِغَوْنٍ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَنِّيَا النَّاسِ إِنَّمَا بِغَيِّكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (يونس: ٢٢، ٢٣) .

وقد فتح الله بابه للقاصدين وقال سبحانه: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة: ١٨٦)، وقال سبحانه: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ... (غافر: ٦٠)، والالتجاء إلى الله فطرة فى النفس خصوصاً فى الشدائد والمحن، قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ . (فصلت: ٥١).

وذكر ابن كثير في تفسيره: أن بعض الصالحين وقع في محنة، وتعرض للقتل ظلماً، فاستأذن في صلاة ركعتين، وقرا الفاتحة وارتج عليه فلم يجد ما يقرؤه من القرآن، فقال له الظالم: عجل بالصلاة، فألهمه الله: **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ**. وما إن أتم الصلاة حتى أقبل فارس بحرية توجه بها إلى فؤاد الظالم؛ فأصابته وأردته قتيلاً؛ فوقف الرجل الصالح، وقال للفارس: أسألك بالله، من أنت؟ فقال الفارس: أنا رسول من يجيب المضطر إذا دعاه. وكان الظالم قد استولى على فارس الرجل الصالح وأمتعته؛ فأخذ الرجل الصالح فرسه ومتاعه وعاد إلى أهله سليماً معافى.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ ...

أي: ويكشف الفقر أو المرض أو المحنة التي أحوجت المضطر إلى التضلع إلى الله تعالى، فإن الله يرفع عنه ما نزل به من فقر أو مرض أو خوف أو غيره.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ...

ورثة من قبلكم من الأمم في سكنى الأرض والديار، ومن حكمة الله أن خلق الموت والحياة، فإذا مات جيل حل مكانه جيل آخر، ولو استمر توالد الناس بدون موت كبار السن، أو موت أصحاب الحوادث والزلازل والبراكين وغير ذلك؛ لضافت الأرض بالناس، واشتد الصراع؛ لذلك دبر الله الحياة قرناً بعد قرن، بالتوارث والخلافة، حتى يخلف اللاحق السابق، قال تعالى: **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... (الأنعام: ١٦٥)**.

إِلَهَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ. أي: على كل ما سبق إليه غير الله المتفرد بهذه الأفعال، لكنكم تذكرون الله كثيراً في الشدائد والمحن، ولا تذكرونه إلا قليلاً في الرخاء والنعيم، فما أقل تذكركم نعم الله عليكم.

٦٣ - **أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**.

من الذي يرشد الضال في المفازة المهلكة، بأن سخر لكم النجوم لتتهدوا بها في ظلمات البر والبحر، ويغيث المستغيث إذا لجأ إليه ٩

ومن ماثور الدعاء ما يأتي: «اللهم إني أسألك بحق أني أشهد أنك أنت الله، الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»^(٣). «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فلا تكني إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك»^(٤). «يا ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام، أسألك بجلالك ونور وجهك أن تنور بالقرآن وجهي، وأن تطلق به لسانى، وأن تشرح به صدرى، وأن ترزقنى تلاوته على النحو الذى يرضيك عنى فإنه لا يعيننى على الحق غيرك، ولا يهدينى إليه إلا أنت، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»^(٥).

ثم تدعو بعد ذلك بما تشاء .

وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ...

من الذى أبدع تصميم هذا الكون، بحيث تسيّر الرياح قبيل نزول المطر، تبشّر به عبادة قاحلين فى أمس الحاجة إلى المطر؟ لا أحد غير الله يملك التصرف فى هذا الكون.

إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أهانك إله آخر يدعى أنه يفعل مثل هذه الأفعال؟ هل الأصنام العاجزة تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك.

تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه الإله عن أن يكون له شريك فى ملكه أو فى تصرفاته، وهو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

٦٤ - أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

من الذى خلق هذا الكون فرفع السماء وبسط الأرض، وأرسى الجبال وسير الهواء، وأجرى الرياح وسخر الشمس والقمر والنجوم، والبحار والأنهار، وأنبت النبات، لا أحد غير الله يقدر على خلق هذا الكون، وقد عجز الناس عن إثبات أن هذا الكون وجد بالصدفة، أو أن الكون خلق نفسه، أو أنه يقود نفسه بنفسه، فكل هذه دعاوى لا تثبت أمام الدليل والبرهان، أو استخدام العقل والفكر والمنطق السليم، وكان كفار مكة يقرّون بأن الله خالق الكون، ويتكرون البيعت والحشر والجزاء، أو يترددون ويطنون ظناً غير مستيقن، فبين الحق أنه هو الذى يعيد خلق الكون، قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم: ٢٧).

فالله تعالى خلق هذا الكون وأبدع خلقه على غير مثال سابق، وهو يعيده كما قال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء: ١٠٤).

وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ...

ورزق السماء يتمثل فى المطر والهواء، والجاذبية والمغناطيسية، وتسخير الشمس والقمر والقوى المتعددة، ومن رزق السماء إرسال الرسل وإنزال الوحي والهداية للناس. وأمّا رزق الأرض فيتمثل فى الزرع والنبات، والبترول والمعادن والفلزات، وكنوز البحر من طعام وزينة، ومنها القوى العجيبة من مغناطيسية وكهرباء، وقوى أخرى لا يعلمها إلا الله، ويكشف عن شيء منها لعباده أننا بعد أن.

أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلُوبٌ هَآئِلَةٌ يُرَاهِنُكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

أنا هنا لك مع الله يصنع هذا؟ إذا زعمتم ذلك فقدموا الدليل عليه إن كنتم صادقين في هذه الدعوى؟
وانهم ليعجزون عن تقديم هذا البرهان، كما يعجز عنه من يحاوله حتى الآن، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في إثبات العقيدة الإلهية، يستخدم مشاهد الكون بكل ما فيه، وأغوار النفس بكل خَلجاتها، ويستدل بهذا ويستخدمه لتحريك الفطرة الغافلة وإيقاظ الضمير؛ وبذلك نرى أن لله كتابين:
- كتاب مقروء، وهو القرآن الكريم.

- وكتاب مفتوح، وهو كتاب الكون الذي خلقه الله وحث الإنسان على التأمل فيه، وعلى ترديد البصر إلى السماء والجبال والأرض والبحار، والليل والنهار، والشمس والقمر، والإنسان والحيوان، والطيور وسائر المخلوقات، لينتقل من إبداع الصنعة إلى قدرة الصانع سبحانه وتعالى.

قال تعالى: **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.**
(آل عمران: ١٩٠، ١٩١).

ويقول عز شأنه: **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِـ ۚ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ.**
(المؤمنون: ١١٧)

★ ★ ★

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثَبُونَ﴾ (٦٥) بَلْ
أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (٦٦)

المفردات:

الغـــــــــيب: كل ما غاب عنك، وجمعه: غيب.

وما يشعرون: وما يعلمون به، ولا يفطنون له.

أَيَّانَ: متى.

يُعْثَبُونَ: يقومون من القبور للحساب والجزاء.

ادرك: تنابع علمهم بها عن طريق الأدلة، وقيل: معناه: اضمحل علمهم بالآخرة، من التدارك؛ وهو التتابع في الفناء والاضمحلال.

نفسه شكك: في تردد من تحقق الآخرة نفسها.

مؤمنون: لا يدركون دلائلها مع وضوحها، كأنهم فقدوا أبصارهم، واحدهم: عم، وهو أعمى القلب والبصيرة.

تمهيد:

بعد أن قدم الأدلة على الألوهية والوحدانية، أتبع ذلك بتمرده بعلم الغيب والساعة، وبأن الكفار في شك من القيامة، وقد عميت بصيرتهم عن رؤية الأدلة على مجيئها.

التفسير:

٦٥ - قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْثُونَ.

قيل: إن هذه الآية نزلت لما سأل الكفار الرسول ﷺ عن وقت الساعة.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ...

اختص الله تعالى بعلم الغيب لحكمة إلهية عليا، ولا يعلم الغيب من في السماوات من الملائكة الكرام، وكذلك من في الأرض من الرسل، ومن الجن، ومن الخلق أجمعين.

روى الشيخان، والترمذي، وأحمد، والنسائي، وجماعة من المحدثين، من حديث مسروق، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من زعم أن محمداً يعلم ما في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ... (٦).

وقد يطلع الله بعض خلقه على الغيب ويظهرهم عليه، قال تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ... (الجن: ٢٦، ٢٧).

والتنبؤ بالمطر أو درجات الحرارة أو أشباه ذلك ليس من الغيب، بل هو علم ودراسة لأسباب وأمارات، كما يحصل من علماء الفلك من الراصدين لحركات الرياح والشمس والقمر والكواكب، حين يخبرون بهبوب الرياح شديدة أو معتدلة، ويكسوف الشمس، وخسوف القمر» (٧).

فهذه دراسة وعلم له أسباب تؤدي دراستها إلى المعرفة أو غلبة الظن، وقد تقع هذه الأمور غالباً وقد تتخلف.

أما العراف الذي يتحدث عن المستقبل، إدعاء بأنه على علم بالغيب، كقوله لمن يستخبره عن مستقبله: ستكسب مبلغ كذا، أو ستتزوج فلانة، أو تفقد كذا في سفرك أو نحو ذلك، فهو كافر - كما قال القرطبي - والمؤمنون منهيون عن إتيان العرافين، فقد جاء في صحيح مسلم: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» (٨).

إن الله تعالى استخلف الإنسان في هذه الأرض؛ ليعيث ويعمل ويتنافس ويكشف المخبوء، ويحاول الوصول إلى معرفة أسرار هذا الكون، وعن طريق ذلك يخترع ويبتكر ويجود عمله، ويفيد نفسه والآخرين، وقد أخفى الله علم الغيب عن الإنسان، وعن سكان السماوات وسكان الأرض؛ فقد اختص الله نفسه بعلم الغيب، ومعرفة الساعة وهي القيامة، ونزول المطر، ونوع الجنين ومستقبل أمره وسعادته أو شقاوته، ومعرفة الأرض التي يموت فيها الإنسان، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**. (لقمان: ٢٤).

وامتدادًا لاختصاص الله تعالى نفسه بعلم الغيب قال سبحانه:

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُعْتَبُونَ.

أى: هؤلاء الكفار لا يدرون متى يكون البعث، والحشر والجزاء، فلا داعى لأن يكثروا من السؤال عن الساعة، ولا داعى لأن يسألوا نبيهم من حين لآخر عن وقت نزول العذاب؛ فكل ذلك مما استأثر الله تعالى بمعرفته، قال تعالى: **وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**. (يونس: ٤٨).

٦٦ - **بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ**.

بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ...

تحتمل هذه الفقرة معنيين:

الأول: ضُفِّ علمهم بالآخرة وذبل، فأصبح باهتا ضعيفا لا أثر له في تحسين العمل والسعى الجميل في الدنيا، من قولهم: (تدارك بنو فلان) إذا تابعوا في الهلاك.

قال صاحب القاموس: **بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**. جهلوا علمها، ولا علم لهم بشئ من أمرها.

وقال ابن عباس: **بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**. أى: غاب.

وقال قتادة: **بَلْ أَدَارِكْ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**. يبنى: بجهلهم بريهم، يقول: لم ينفذ لهم علم في الآخرة.

المعنى الثاني: أن التدارك هنا بمعنى التكامل واليقين، أى: تكامل علمهم بشئون الآخرة، حين يعاينون ما أُعِدَّ لهم فيها من العذاب. قال تعالى: **وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِقُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا**. (الكهف: ٥٢).

لقد تيقنوا بحقيقة الآخرة، وتكامل علمهم بها حين شاهدوها وراوها رأى العين، قال تعالى: **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**. (مریم: ٢٨).

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ .

ويل هنا للإضراب: أى: إنهم فى الدنيا على علم باهت، يقولون: إن نطنن إلا ظننا وما نحن بمستيقنين، فهم فى الدنيا فى شك من مجيء الآخرة والحساب والجزاء.

بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ .

أى: عميت بصائرهم وأبصارهم عن توضيح حقائقها ووصف أحوالها، وقد حفل القرآن بذلك، وعنى رسول الله ﷺ بتوضيح أمر البعث والجزاء، لكن بصيرتهم عمياء لا تهتدى إلى هذه الحقائق.

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَابُؤُنَا أَبْنَاءَ الْمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءِذَا بَابُؤُنَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات:

إِنَّا يُخْرِجُونَ: إنكار لإخراجهم من قبورهم أحياء.

أساطير الأولين: أباطيل الذين سبقوهم، جمع إسطار بكسر الهمزة، وأسطورة بضمها.

ضيق: ضيق صدر.

مما يَمْكُرُونَ من مكْرهم، أى: فإن الله يعصمك من الناس، وهذا تسلية للنبي ﷺ، أى: لا تهتم بمكرهم وتآمرهم عليك، فإننا ناصروك عليهم.

التفسير:

٦٧ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَابُؤُنَا أَبْنَاءَ الْمُخْرَجُونَ .

تردد إنكار الكافرين للبعث والقيامة والحساب والجزاء، وادعوا أن الحياة الدنيا هى الحياة الأخيرة، وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، ولما أنكروا البعث والجزاء أخذوا فى التدليل على دعواهم فقالوا: أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءِذَا بَابُؤُنَا أَبْنَاءَ الْمُخْرَجُونَ . أى: إذا متنا، وتحولت أجسامنا إلى تراب ورماد بال بعيد عن الحياة، كما لقى مثل ذلك آبائنا السابقون؛ أنبعث ونخرج من قبورنا بعد ذلك؟ وهذا الاستفهام للاستبعاد وإنكار البعث واستبعاده.

٦٨ - لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

استئناف مسوق لتقرير الإنكار، وصدر بالقسم، أى: والله لقد وعدنا بهذا البعث، كما وعد به آباؤنا وأجدادنا من قبل أن يأتى به محمد، ولكننا لم نجد له أثراً ولا واقعا، فلم نسمع أن رجلاً بُعث من بعد أن مات.

إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

أى: ما هذا البعث إلا أباطيل الأولين، وأكاذيبهم، وما سطورهم من الخرافات فى كتبهم من غير أن يكون لهم بينة على إمكان تحققه ووجوده.

٦٩ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ .

أى: قل لهم يا محمد: سيروا فى أرض الحجاز والشام واليمن ومصر وغيرها، وانظروا مصير من سبقكم من المكذبين، مثل: عاد، وثمود، وقوم فرعون، وأمثالهم من الطغاة العتاة المجرمين، الذين كذبوا رسلهم، واغتربوا بما هم فيه من تقدم ومتاع وزينة، ومصانع ومسكن، وكانت عاقبتهم الهلاك المروع بالصاعقة، أو الفرق أو النهاية المؤلمة، التى تركتهم أثرا بعد عين، ونجى الله المرسلين، وأهلك المجرمين، الذين كذبوا الرسل ولم يصدقوهم.

٧٠ - وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ .

كان النبى ﷺ حريصا على هداية قومه، حزينا لاستمرارهم فى الكفر والتكذيب، وكان القرآن يواسيه ويشد أزره، ويقول له هنا: لا تكثر أسفك وحزنك على إعراضهم، ولا تكن ضيق الصدر حزينا من مكرهم وتديبر السوء للدعوة الإسلامية، والمراد: طمأنينة يا محمد فقد تكفلنا بإهلاك عدوك، ونصرك عليهم، كما قال تعالى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . (الفتح: ١ - ٣) .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنْ رَيْكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنْ أَكَثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنْ رَيْكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

المفردات:

ردف لكم: تبيكم ولحقكم.

بعض الذي تستعجلون: القتل يوم بدر، وبقي العذاب يأتيهم بعد الموت.

ما تكن صدورهم: ما تخفيه من الأسرار.

غائبة: أى شيء فى غاية الخفاء على الناس.

إلا فى كتاب مبين: اللوح المحفوظ، فكل شيء يعلمه الله قديماً، ومنه تعذيب الكفار.

التفسير:

٧١ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

كان القرآن الكريم يهددهم بأن يصيبهم عذاب كما أصاب من سبقهم من الأمم، مثل: عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وما أصاب سبأ من الهلاك والبنوار، وما أصاب قوم نوح من الطوفان، وما أصاب فرعون وقومه من الغرق، وهم عصاة مكذبون فليحذروا أن يصيبهم العذاب الذى أصاب المكذبين، قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧).

وقال عز شانه: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿١٠٠﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنِ اخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (المنكوت: ٣٩، ٤٠).

ومعنى الآية:

ويقول كفار مكة: متى هذا الوعد الذى تخوفوننا به؟ إن كان ما تقولونه صحيحاً فهيا عجلوا لنا هذا

العذاب. قالوا ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية والاستهانة.

٧٢ - قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفُكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ .

أى: عسى أن يكون عَجَلُكم وقُرْبُكم لكم جانب من المذاب الذى تستعجلون وقوعه، فقد أصابهم القحط فى مكة، والقتل فى غزوة بدر، وسيصيبهم العذاب يوم القيامة.

والخلاصة:

عسى أن يكون العذاب قريباً منكم، قرب راكب الدابة من الريدف الذى أودعه خلفه، قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً . (الإسراء: ٥١).

وقال تعالى: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . (النكيت: ٥٤).

والقرآن بذلك يثير الخوف فى قلوبهم، والقلق من شبح العذاب، فقد يكون وراءهم رديفاً لهم، كما يكون الريدف وراء الراكب فوق الدابة.

قال صاحب المصباح المنير:

والريدف: الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة ... ومنه: ردف المرأة وهو عجزها، والجمع أرداف، وترادف القوم إذا تتابعوا، وكل شيء تبع شيئاً ردفه.

والمقصود:

لا تتعجلوا نزول العذاب بكم، فقد يكون بعض هذا العذاب قد عجل لكم فى الدنيا، وبعضه فى طريقه إليكم وأنتم لا تشعرون بذلك لشدة غفلتكم، وحتى إذا أفلتتم من عذاب الدنيا، فإن عذاب الآخرة ينتظركم، وكل آت قريب.

٧٣ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

إن الله تعالى متفضل على الناس فى خلقهم ومنعهم العقل والإرادة والاختيار، والتفضل عليهم بالرزق المادى والمعنوى، قال تعالى: وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... (إبراهيم: ٣٤).

لكن أكثر الناس لا يشكرون أنعم الله عليه، ولا يولونها ما تستحقه من شكر الله وطاعته.

قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ . (إبراهيم: ٢٢ - ٢٤).

وهناك القليل الذى يشكر ولا يكفر، قال تعالى: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ . (سبا: ١٣). وقال سبحانه: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ... (ص: ٢٤).

٧٤ - وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ .

إن الله تعالى مطلع على السرائر والضمائر، وهو رقيب على كل نفس بما كسبت، وأحرى بهم أن يلزمهم الحياء والخوف من مشاهدة الله تعالى ومعرفته بما يُسرون وما يعلنون.

قال تعالى: فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه: ٧).

وقال تعالى: سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . (الرعد: ١٠).

٧٥ - وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ .

إن علم الله مطلق شامل لكل ما فى السماوات من أسرار وأفلاك، وقوى وأملاك، وخفايا وخبايا، وعلم الله شامل لكل ما فى الأرض من نبات وأوراق، وظاهر وخفى، وقد سجل كل ذلك فى اللوح المحفوظ، وشمله علم الله وسطره كتب الغيب والقدر، قال تعالى: مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد: ٢٢ ، ٢٣).

وقال تعالى:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ . (الأنعام: ٥٩).

وقال تعالى: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . (الحج: ٧٠)

والمقصود: إن علم الله شامل لكل ما فى الكون فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، أى: ما غاب عن العباد وما شاهدوه، وهو مطلع على ما فى ضمائرهم، ومحيط بكل تحركاتهم المشبوهة، وأنشطتهم المريبة، فيستحيل وقوع ما يريدونه من إيداء النبى ﷺ، أو النيل من رسالته، أو تحقيق الظفر على المسلمين.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ رَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٧٨ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الْأَصْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴿

المفردات:

بنى إسرائيل: المراد بهم اليهود والنصارى، وإسرائيل: يعقوب عليه السلام.

على الحق المبين: الواضح البين، أو الفاصل بين الحق والباطل.

ولا تسمع الصم: لا تسمع من ذهب سمعه لسبب من الأسباب؛ وفعله من باب علم، فللذكر أصم، وللأنثى صماء، والجمع صم، مثل أحمر وحمرأ وحمر، ويتعدى بالهمزة، فيقال: أصمه الله.

ضلالتهم: كفرهم، يقال: ضل، يضل ضلالا وضلالة؛ مال عن الطريق فلم يهتد.

التفسير:

٧٦ - إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

ذكر تعالى أدلة واضحة على الألوهية، وهنا يذكر أدلة على إعجاز القرآن، وصدق نبوة محمد ﷺ؛ فهذا النبي الأُمِّي أنزل عليه وحى مهيم على الكتب السابقة، فهو يقص على اليهود والنصارى القول الفصل في أمور كثيرة يختلفون بشأنها.

فقد اتهم اليهود مريم، وقالوا عنها بهتاناً عظيماً، واختلف النصارى بشأن المسيح، منهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه أحد الأقانيم الثلاثة الأب والابن وروح القدس.

وتعددت المذاهب المسيحية، واختلفت الكنييسة الغربية عن الكنييسة الشرقية فيما يتعلق بطبيعة المسيح، وكان المذهب الملكاني، مذهب روما، ومذهب الحكام في مصر يرى أن الابن متصل بالأب قبل كل الأزمنة والصور؛ وهو جوهر ونوره اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم.

والمذهب يعقوبى مذهب الشعب القبطى في مصر يرى أن اللاهوت حل في الناسوت، أى: أن الله حل في الإنسان، فالسبح مكون من جانب إلهي وجانب إنساني. وكان المذهب يعقوبى أقرب إلى روح الإسلام من المذهب الملكاني.

وكان زعماء اليعاقبة زعماء شعبيين، هم رجال دين وهم قادة لمصر في وجه روما، فلما جاء الإسلام إلى مصر ساعد الأقباطُ الفاتحين، وقدموا للجيش الإسلامي العلوقة والمؤونة عند قدومهم، كما أن المسلمين الفاتحين أحسنوا معاملة الأقباط، وخلصوهم من ظلم الرومان، وقد وردت أحاديث متعددة تحت على إكرام أهل مصر لأنهم أهل كتاب، ولأن هاجر أم إسماعيل جدّ النبي ﷺ منهم، وكذلك مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي محمد ﷺ.

روى مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «ستفتح عليكم بعدى مصر، وهى بلد يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما»^(١). فالأقباط أهل كتاب، ولهم قرابة بالأنبياء.

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَنْقُصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

لقد اختلف اليهود والنصارى بشأن الخنزير، فاليهود تحرمه والنصارى تبيع أكله، وقد بين القرآن أنه حرام. كذلك موت عيسى، منهم من قال: إنه قتل، ومنهم من قال: دفن ثلاثة أيام ثم رفع إلى السماء.

وقد ذكر القرآن القول الفصل عن المسيح؛ فهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد نطق المسيح بأنه عبد الله، فكان أول كلام له: قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . (مريم: ٣٠).

وقال سبحانه: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ... (النساء: ١٥٧).

والخلاصة:

أن هذا الكتاب الذى أنزله الله على رسوله، أخبر أخبارًا صادقة، وكان حكمًا عادلًا بين المختلفين من أهل الكتاب، وصوب كثيرًا من الأخطاء، فقد اتهم اليهود الأنبياء بالزنا، مثل نبي الله لوط، الذى اتهموه مع ابنتيه أنه زنى بهما، وأنجب منهما، واتهموا حواء بأنها المسئولة عن الأكل من الشجرة؛ فصوب القرآن أفكارهم الخاطئة، وحكى قصة آدم وبين أن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء، وتحدث القرآن عن كثير من الأنبياء والرسول، وصوب ما ورد فى التوراة والإنجيل، وكان القرآن هو الفيصل وهو القول الحق؛ فصوب تشريعات القصاص التى حُرِفَتْ فى التوراة، قال تعالى: وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... (المائدة: ٤٥).

وقد ذكرت التوراة عن آدم وحواء ما يأتى:

(بينما الرب يتمشى فى الجنة نادى: يا آدم، فقال آدم: يا رب إني عريان، فقال الله: ما أعلمك أنك عريان، لا بد أنك أكلت من الشجرة، ما حملك على ذلك؟ قال آدم: وسوست لى حواء، قال الله: يا حواء ما حملك. على ذلك قالت: وسوس لى الشيطان، قال الله: يا شيطان، كيف دخلت إلى الجنة؟ قال الشيطان: دخلتُ فى جوف الحية، فقال الله للحية: أما إذ فعلت هذا فعمياء تعيشين، وعلى بطنك تزحفين وتترادى. أكليين، وأجعل

عداوة بينك وبين بنى آدم فهو يرصد عقبك وأنت ترصدين عقبه. وقال الله: يا حواء أما إذ فعلت هذا، فإنى أكثر عليك مشقات الحمل والولادة، وأجعل الرجل سيداً عليك إلى يوم القيامة. وقال الله: يا آدم أما إذ فعلت هذا فإنك لا تأكل رزقك إلا بعرق جبينك، وكذّ يمينك) ١ هـ.

ونلاحظ على هذا النص المنقول عن التوراة قوله: بينما الرب يتمشى فى الجنة. والله فى الإسلام علة العلل لا يحدّه مكان، ولا يحويه زمان، فهو أول بلا ابتداء، وآخر بلا انتهاء، وليس جسماً ولا حالاً فى جسم، وليس جوهراً ولا عرضاً، ولا كما ولا كيفاً، قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (الشورى: ١١).

فالمشى خاص بالحوادث والإله منزّه عن الطول والعرض، والكيف والمشى وسائر صفات الحوادث وكان من دعاء النبى ﷺ قوله: «أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء» (١٠).

فإنه فى الإسلام هو القوة العظمى التى أوجدت هذا الكون، وجعلته متكاملًا، وهو يمسك بزمام هذا الكون، وهو الخالق للكون وللإنسان، وللسماء والأرض، وللشمس والقمر، والبحار والأشجار، والليل والنهار، وقد كان الله ولا شيء معه، والله ليس جسمًا ولا حالاً فى جسم، وليس له طول ولا عرض، ولا يحويه مكان، لأن ذلك من صفات الحوادث، والله قديم أبدى أزلى، يخلق ولا يُخلق؛ ويجبر ولا يجار عليه، وليس له مثل أو نظير أو مكافئ، أو مساو أو معادل له، قال تعالى:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (الإخلاص: ١-٤) . وكفؤًا أصلها: كفؤًا، أى: مكافئ ومماثل، فحذفت الهمزة فصارت كُفُوًا.

كما أن القرآن الكريم أنصف حواء، وبين أن المسئولية مشتركة بين آدم وحواء، وأشار إلى أن المرأة تابعة للرجل فى سكنه، قال تعالى: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... (الأعراف: ١٩).

وقال سبحانه:

فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لُبْدِيَّ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَلَدَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطَا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ . (الأعراف: ٢٠ - ٢٥).

ومن هذه الآيات نرى أن الإسلام أنصف المرأة، حيث تفيد التوراة أنها سبب خطيئة آدم، بينما يفيد القرآن أنهما (آدم وحواء) يتحملان مسئولية الخطأ، وقد اعترفا بذلك وتابا إلى الله تعالى.

وصوب القرآن فكرة أن المسيح صلب لتخليص البشرية من خطيئة آدم، حيث ذكر القرآن أن باب التوبة مفتوح لجميع الناس، ولا تتحمل نفس وزر نفس أخرى، وأن العبد قريب من ربه، فאלله تعالى يقول: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دُعَاةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ. (البقرة: ١٨٦).

٧٧ - وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

وإن هذا القرآن هدايةً لتقريب العباد، حيث اشتمل على العقائد وأخبار الرسل، ووصفت قدرة الله على خلق الكون وما فيه، وتحدثت عن رحمة الله الواسعة، فالقرآن وسيلة من وسائل رحمة الله للعباد، وفيه وسائل شفاء القلوب من الأمراض الظاهرة والباطنة، قال تعالى: وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... (الإسراء: ٨٢).

٧٨ - إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .

أى: إن ربك يقضى يوم القيامة بين اليهود والنصارى، والمشركون والمؤمنين، وجميع الخلائق، فينصف المؤمنين، ويعاقب الكافرين المبطلين، وقيل: يقضى بينهم فى الدنيا بإظهار ما حرقوه، وبيان الحق فيما اختلفوا فيه.

وقيل: المراد بالآية: المشركون من أهل مكة المكذوبون للرسول محمد ﷺ، أى: لا تحزن عليهم، فليس عليك إلا البلاغ، واليوم عمل ولا حساب، وغدا فى الآخرة سيحاكمهم الله تعالى، ويجازيهم على كفرهم وشركهم، وهو: العزيزُ. الغالب المقتدر، الْعَلِيمُ. بكل شيء من الأشياء فلا تخفى عليه خافية؛ فهو مطلع على ما تكنه الصدور، ومحاسب على الفتيل والقطمير.

٧٩ - فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ .

اعتمد على الله سبحانه وتعالى، فانت على الحق الواضح المبين الظاهر، وقد جعل الله انتصار الحق سنة كونية؛ فالؤمن بالله فى سلام نفسه، لأنه متناسق مع الكون، مؤمن بوجود الله، مطيع لأمره، وقد وعد الله أن ينصر رسله والمؤمنين؛ قال تعالى: إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. (غافر: ٥١).

٨٠ - إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ .

الرسول ﷺ مبشر ونذير، وداع إلى الله تعالى، وهؤلاء الكفار أعرضوا عن هداية القرآن، وأغلقوا قلوبهم وآذانهم وعقولهم، وأصروا على الكفر والعناد، فصاروا أمام الدعوة كالموتى الذين فقدوا الحسَّ والشعور، أو الصُّمَّ الذين فقدوا حاسة السمع، وحتى إذا سمعوا أذبوا وأعرضوا ولم يصيخوا السمع، فالمقبل أو المريض

بالصمم ربما سمع بعض الكلام إذا أنصت، لكنهم يُعرضون ويدبرون إديار الحمر الوحشية إذا هجم عليها الأسد؛ فتقر فراراً سريعاً، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. (البقرة: ٦ - ٧).

٨١ - وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

القرآن الكريم يرسم لوحة هادفة تصوّر هؤلاء الكفار وقد تبلّد إحساسهم، وانصرفوا عن الحق، فاصبحوا كالموتى أو الصمّ المعرضين المديبرين، وفي هذه الآية يصورهم بصورة الأعمى الذى لا يبصر نور الإسلام، وقد أصيب بعمى البصيرة؛ فلم يبصر هداية القرآن، ونور الإيمان، ونضارة الوحي وشرف الرسالة، بل ارتكس فى الضلالة والطفيان، قال تعالى: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الأعراف: ١٧٩).

ويقول الشاعر:

وَإِذَا كَانَ الْقَلْبُ أَعْمَىٰ عَنِ الرَّشَدِ سَدَ فَمَاذَا تَنبِيذُهُ الْعَيْنَانِ

إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

إن رسالتك الواضحة، وصوت الوحي وشرف الرسالة، إنما يصل إلى من أنار الله قلبه بالإيمان، وهداه إلى الإسلام؛ فهو الذى يسمع القرآن سماع متدبر مهتد، فيدخل فى الإسلام دخول واثق مؤمن، مخلص وجهه لله تعالى. قال تعالى: بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (البقرة: ١١٢).

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (٨٢) وَيَوْمَ نَخْسِفُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّابْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلَ لُوطٍ لِّيْسَ كُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرٌ إِلَيْنَا فِي ذَلِكَ لَا يَكُن لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦)

المفردات:

وقع القول: قرب وقوع ما وعدوا به من العذاب بعد البعث.

دابة: هى دابة كبيرة يخرجها الله قرب قيام الساعة.

تكلّمهم: تكلم الناس، وتطرق بكلام الناس، من الكلام.

تكلّمهم: قراءة بفتح التاء وسكون الكاف وكسر اللام، من الكلّم وهو الجرح.

فوجاء: جماعة من الرؤساء.

بآياتهم: القرآن، أو سائر الآيات فى الأفاق والأنفس.

يوزعون: يُحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة.

بما ظلموا: حلّ بهم العذاب الموعود بسبب ظلمهم.

تمهيد:

تختتم السورة بالحديث عن الآخرة، وموقف الحساب والجزاء، ومكافأة المحسنين، ومعاقبة المسيئين، ومن علامات الساعة خروج الدابة من مكان فى مكة، تتطرق بكلام مثل كلام الناس.

التفسير:

٨٢ - وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ .

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ...

أى: إذا اقترب قيام الساعة، وتحقيق كلمة الله فى عذاب الكافرين، والإحسان إلى المحسنين؛ أخرجنا لهم دابة عظيمة فى هيكلها تخرج من أرض مكة، وتكلّم الناس بكلام فصيح واضح مبين؛ تقول للكافرين: لقد كنتم لا تؤمنون بالقرآن، ولا بدلائل قدرة الله فى الأنفس والأفاق، وما أنتم تشاهدون القيامة وأهوالها وعلاماتها، ومن هذه العلامات ما يأتى:

١ - طلوع الشمس من مغربها .

٢ - خروج دابة من الأرض تكلم الناس بكلام واضح مفهوم، تقول: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» .

٣ - ظهور المسيح الدجال، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»^(١١).

ما يلحق بتفسير الآية:

١ - الدابة معجزة أو آية جعلها الله من علامات قيام الساعة، وهى من العلامات الكبرى التى جعلها الله من علامات القيامة.

٢ - من عادة الناس أن الدواب لا تتلق، ولا تتكلم، فجعل الله نطقها بكلام واضح بين دليلاً على نهاية الدنيا وقرب قيام الساعة.

٣ - القول في قوله تعالى: «وَإِذَا قُورِئَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ...» يراد به تحقيق ما وعد به الله، مثل: «لَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (السجدة: ١٣).

٤ - ورد في القرآن وفى الأحاديث الصحيحة، ما يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وهى هذا ما يكفى المسلم للاعتقاد به، ولا يحتاج بعد ذلك إلى السؤال عن أوصاف هذه الدابة، فقد وردت آثار غير صحيحة فى وصفها لا يعول عليها، وحسبنا أن نعرف أنها حيوان أعجم ضخم الجنة يتكلم قاتلاً: «أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ» . أى: لا يصدقون بعظيم آيات الله، وعظيم قدرته.

٥ - ورد فى صحيح مسلم بسنده، عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيتهما كانت قبل صاحبتهما، فالأخرى على إثرها قريباً»^(١٢).

٦ - وروى الإمام مسلم، وأهل السنن، والإمام أحمد، عن حذيفة بن أسيد الغفارى، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرة ونحن نتذاكر أمر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»^(١٣). قال الترمذى: حسن صحيح.

٧ - روى مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستا: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدجال، والدابة، وخاصة أحلكم، وأمر العامة»^(١٤).

٨ - خلاصة معنى الآية، إذا قرب وقوع ما قلناه على الكافرين من قيام الساعة وعقابهم على كفرهم، أخرجنا لهم من الأرض دابة عظيمة، تكلمهم بما يفهمونه عنها، فتوبخهم على كفرهم، وتتعى عليهم أنهم كانوا لا يؤمنون بالله وآياته وبراهينه، ولا يصدقون بالبعث ولا يستيقنون به، وقد حان وقت الجزاء العادل في القيامة، على الإحسان إحسانا وعلى السوء سوءاً.

٩ - قرأ بعض القراء: وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تُكَلِّمُهُمْ... يسكنون الكاف وكسر اللام من الكَلَم وهو الجرح، أى: أن الدابة تجرحهم بكلام جارح؛ عتاباً ولوماً على عدم الإيمان، أو تجرحهم جرحاً حسياً، وهذا أمر محتمل، لكن الآراء السابقة هي المفهوم لأول وهلة من كلام القرآن الكريم والسنة الصحيحة.

٨٢ ، ٨٤ - وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ « حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا أَذًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

تتحدث الآيات عن موقف من مواقف القيامة، حيث يجمع الله جماعة من رؤساء كل أمة من الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله، ويحبس أولهم على آخرهم، ليجتمعوا في موقف الحشر والحساب، للمساءلة والعتاب، لقد أراد الله بذلك الحشر تحديد مسئولية الرؤساء والكبراء عن إضلال من خلفهم، فجمع هؤلاء الكبراء والرؤساء الجاحدين المكذبين، وحبسهم جميعاً ليشاهد بعضهم بعضاً، ثم وجَّه إليهم اللوم والعتاب والتكبر، فقال: حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عَلِمًا أَمَّا أَذًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . حتى إذا اجتمعوا جميعاً، وجه اللوم لكل هذه المجموعة المكذبة، وقال لهم: أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي فِي كُتُبِي الْمُنْزَلَةِ، وَفِي رِسَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ، وَفِي الْكُتُبِ وَالْأَفَاقِ وَفِي النَّفْسِ، وَلَمْ تَكْلِفُوا أَنْفُسَكُمْ عَنَاءَ النَّظَرِ الْمُتأمل، ولم تحاولوا معرفة حقائق هذه الآيات، والتأمل في الكون وفي النفس وفي الوحي، ولم تنظروا إلى هذه الآيات نظراً يجعلكم تحيطون بها علماً ويدفعكم إلى الإيمان بربوبيتي ووحدانيتي.

أَمَّا أَذًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وهو استهزاء للتوبيخ، يقال لمن رسب في الامتحان: ماذا كنت تعمل طول العام؟ ويقال لهؤلاء الكفار: كنذبتم بآيات ربكم، ولم تبدلوا جهداً في العلم بها، فلم يكن لكم عمل سوى الفساد والتكذيب، والإصرار على الكفر، ولم تبدلوا جهداً للعلم بآيات الله.

أَمَّا أَذًا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى عمل عملتموه في الدنيا، يمكن أن ينفعكم في هذا اليوم، ما هو كشف حساب أعمالكم؟ ولما كان كشف حساب أعمالهم كله خسائر! فقد سكوتوا سكوت العاجز المعترف بالتقصير.

٨٥ - وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقِرُونَ .

ووجب عليهم العذاب الذي قلناه على السنة رسلنا، حيث قال تعالى: وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة: ١٢).

أي: لزمتهم مقولة العذاب، بسبب ظلمهم وتكذيبهم، ولم يجدوا حجة ولا وسيلة للاعتذار؛ فصاروا كالمجرم الذي تقدم للمحكمة، والأدلة كلها تؤكد ارتكابه للجريمة، فعجز عن الدفاع لوضوح الأدلة، وسكت عن النطق بما ينفي عنه التهمة.

وذكر المفسرون هنا أن القيامة فيها مواقف متعددة، في بعض المواقف تكون المسألة والاستجواب وسماع أقوال الناس، قال تعالى: وَقَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . (الصافات: ٢٤).

وفي بعض المواقف تنتهي الاستجابات، ويوقف سماع أي كلام، وهذا يشبه على نحو ما عمل المحكمة في استجواب الخصوم، وسماع أدلة الاتهام والدفاع، وإفصاح صدرها لكل رأى أو شهادة أو دفاع أو كتابة مذكرات؛ ثم تحجز القضية للنطق بالحكم، فلا يقبل حينئذ سماع كلام.

قال تعالى: هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْتَقِرُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ . (المرسلات: ١٥ - ٣٦).

وقال سبحانه: وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقِرُونَ .

ومن مآثور السابقين: الامتناع عن الكلام مع القدرة عليه كلام.

فالسمت لغة لها دلالتها ومضمونها، وعدم نطق الكفار يوم القيامة، معناه ما يأتي:

١ - هم لا يملكون كلاماً مفيداً ينقذهم من العذاب.

٢ - أو هم في مرحلة لا يسمح لهم فيها بالنطق، تبيكتا وزجراً.

وقال ابن كثير في التفسير:

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْتَقِرُونَ . أي: هُتُوا فلم يكن لهم جواب، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد رُدُّوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

٨٦ - أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُونَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

للقرآن الكريم طريقته الفذة في عرض مشاهد القيامة، ثم الانتقال بالناس إلى الدنيا، والانتقال بالقلوب إلى التأمل، كأنما يقول: كان الأولى بهؤلاء الكافرين أن ينظروا إلى آيات الله في الآفاق، ألم يتأملوا في آثار قدرة

الله؛ حيث جعل الليل مظلمًا هادئًا ساكنًا، ليستكثروا فيه نائمين هادئين، تهدأ أعصابهم، وتقام أجسامهم، وتستريح أبدانهم.

وَالنَّهَارُ مُبْهِرٌ... إى: النهار مضى، فيه الشمس والنور والحياة والحركة والسعى والعمل.

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

إى: فى تكامل هذا الكون بكل ما فيه، حيث جعل الليل والنهار، وجعل الليل ساعات محددة، والنهار كذلك؛ ليعمل الناس بالنهار، وليستريح الناس بالليل، ولو امتد النهار نصف عام، لأحرقت الشمس الزروع وفستت الحياة، ولو استمر الليل نصف عام، لتجمدت الأشياء وتعطنت الأجسام، وتعطلت المصالح، وفى تتابع الليل والنهار بهذه الحكمة وتلك القدرة آيات بينات لمن أراد الإيمان بالله رب العالمين.

قال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَأَظْلَامٌ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (القصاص: ٧١ - ٧٣).

★ ★ ★

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات:

الصُّور: البوق.

فَزِعَ: خاف.

أَتَوْهُ: جاءوه.

داخِرِينَ: صاغرين.

مَرَّ السَّحَابِ: سرعة السحاب.

التفسير:

٨٧ - وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ .

وإذكر يوم ينفخ إسرافيل في البوق أو القرن؛ فيقوم الناس من قبورهم فزعين خائفين، قال تعالى: قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . (يس: ٥٢).

وقد استثنى الله بعض مخلوقاته من هذا الفزع، قيل: الرسل والشهداء، وقيل أيضا: رؤساء الملائكة، مثل: جبريل، وإسرافيل، وميكائيل، وجميع الناس جاءت للبعث والحساب صاغرين أدلاء من هول الموقف وشدة الكرب، قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اقْبُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنها تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج: ٢٠١).

النفخ في الصور

ذكر القرآن الكريم النفخ في الصور على أنه من مشاهد القيامة، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح، وقد أورد ابن كثير عددا من الأحاديث، منها حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم، عن عبد الله بن عمرو، وتكلم عن ذلك أبو السعود، والقرطبي وغيرهما .

وقد ذكر ابن كثير أن النفخ في الصور ثلاث مرات:

الأولى: نفخة الفزع.

الثانية: نفخة الصعق وهو الموت.

الثالثة: نفخة البعث وقيام الناس لرب العالمين.

ورجح غيره من المفسرين أن النفخ في الصور سوف يكون مرتين:

الأولى: تموت عندها الخلائق، ويمكن أن تشتمل على الفزع والصعق والموت.

الثانية: نفخة البعث التي يقوم الناس عندها لرب العالمين.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . (يس: ٥١).

وقال تعالى: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ . (الروم: ٢٥).

وقد اختلف العلماء فيما جاء بهذه الآية رقم ٨٧ من سورة النمل، أمى النفخة الأولى أم النفخة الثانية؟ فمنهم من رجح أنها النفخة الثانية، التي يكون بعدها الجزاء والحساب، واستشهد بآخرة الآية حيث يقول الله تعالى: وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ .

ورجح العلامة الطيبي وغيره من المفسرين أن الآية تشير إلى النفخة الأولى، والمراد بالفزع: الخوف الذى ينتهى إلى الموت لغاية شدة الهول.

قال تعالى فى الآية ٦٨ من سورة الزمر: وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيَّامٍ يَنْظُرُونَ .

قال العلامة الطيبي: فالآية ٨٧ من سورة النمل تشير إلى النفخة الأولى، وقوله تعالى: وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ . إشارة إلى النفخة الثانية.

من تفسير القرطبي

قال القرطبي فى تفسيره:

والصحيح فى الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل، والصحيح - أيضا - فى النفخ فى الصور انهما نفختان وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق، لأن الأمرين لازمان لهما... والمراد هنا - النفخة الثانية - أى: يحيون فزعين يقولون: من بعثنا من مرقدنا؟ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم ١٠ هـ وأرجح أن المراد فى الآية النفخة الأولى.

وخلاصة المعنى:

وأذكر أيها المشاهد يوم ينفخ أسرافيل فى الصور، فيفزع سكان السماوات وسكان الأرض، إلا من حفظه الله من الفزع، ويعقب ذلك موت الناس وصعقهم أربعين سنة، ثم ينفخ إسرافيل مرة أخرى فيقوم الناس لرب العالمين ويحشرون جميعا أذلاء صاغرين. وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ .

٨٨ - وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدةً وَهِيَ تَمُورُ مِنَ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

جمهور المفسرين على أن هذه الآية تشير إلى أهوال القيامة، ومن أهوال القيامة النفخ فى الصور مرتين: الأولى: للصعق والفزع ويعقب ذلك الموت.

الثانية: للبعث ثم الحساب والجزاء.

أما الجبال فلها حالتان:

الحالة الأولى: أنها تسف نسفاً، وتندك دكا عند النفخة الأولى. قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ... (طه: ١٠٥ - ١٠٨).

الحالة الثانية للجبال: أنها تعود من ناحية الهيئة والشكل، لكنها تحول إلى عهن منفوش، أى: صوف منشور ثم تُسير تسير السحاب فى طريقه إلى الزوال.

والمعنى الإجمالى للآية:

وترى أيها الإنسان الجبال يوم القيامة وأنت واقف بعيد عنها، تحسبها جامدة ثابتة فى مكانها، ولكنها قد سحقت وأصبحت كالعهن المنفوش، وقد سيرها الله سبحانه وتعالى فوق سطح الأرض، وجعلها تمر فوقها فى طريقها إلى الزوال.

صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ ...

أى: هذا الصنع العجيب من حركة الجبال وتلاشيها دليل على إتقان الصنعة، وذلك صنع الله الذى أحكم الخلق فى البدء، وأحكم أمر البعث والنهاية، حتى يكون الجزاء والثواب والعقاب.

إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ .

إنه عليم بأعمالكم فيجازيكم عليها جزاء عادلا، قال تعالى: **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .** (الزلزلة: ٧، ٨).

قال تعالى: **يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .** (إبراهيم: ٤٨ - ٥١).

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية من إبداع القرآن الكريم؛ فهو يتحدث عن الآخرة وأحوالها، ثم يعود إلى تذكير القلوب بفضل الله، بأن جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرًا، ثم يتحدث عن النفخ فى الصور وأحوال البعث والحشر والجزاء.

ثم يتحدث عن عظمة المصانع فى الدنيا، حيث إن الأرض تتحرك حول نفسها، ولها حركة أخرى حول الشمس، وهذه الحركة يترتب عليها مجيء الليل والنهار بشكل متوازن يترتب عليه سعادة الناس، وانتاعهم بالليل والنهار، ومن جملة ما يتحرك بعركة الأرض الجبال أيضا، تظنها جامدة ثابتة، لكنها تتحرك حركة يسيرة كحركة السحاب، وهى الحركة التى تتحركها مع حركة الأرض، هذه الحركة تؤدى إلى التكامل والتناغم والنظام، وعموم الفائدة فى هذا الكون، وهو سبحانه مطلع على أعمالكم فى الدنيا وسيجازيكم عليها فى الآخرة.

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه الإسلامى بجامعة دمشق:

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على دوران الأرض حول الشمس بسرعة فائقة، لكن الظاهر أن ذلك فى الآخرة، لأن الكلام عن يوم القيامة.

وإنا لا نستبعد أن تكون هذه الآية تلفت النظر إلى بديع صنع الله في الدنيا، بدليل قوله سبحانه: صنع الله الذي أتقن كل شيء... فإله خلق السماء والأرض، والبحار والأنهار، والشمس والقمر، والليل والنهار، وخلق الجبال، وتحدث القرآن عن الجبال حديثاً متعددًا، فهي دليل قدرة التقدير، وإبداع الصانع، ولا يكاد القرآن يتحدث عن الأمطار والزراعة إلا ويتحدث عن الجبال، فالماء يتجمع في ريوس الجبال في الشتاء، ثم ينزل في الصيف، والجبال لها جذور ممتدة في أصول الأرض تمسك بها، وتحفظ توازنها، والجبال وسيلة من وسائل الاستقرار ومنع الزلازل والبراكين.

قال تعالى: أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ يَعْصِلْ اللَّهُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل: ٦١).

وقال تعالى: أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . (الناحية: ١٧ - ٢٠).

فإن القرآن الكريم تحدث عن الجبال كدليل من دلائل القدرة والعظمة والإبداع، والخلق والتكوين والتكامل، والحفظ لهذا الكون في الدنيا، وتحدث أيضا عن الجبال وتسييرها في الآخرة.

قال تعالى: يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا . (الطور: ٩، ١٠).

وقال تعالى: وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ تَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف: ٤٧).

وقال تعالى: يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم: ٤٨).

وقال تعالى: وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبا: ٢٠).

فإن كون كله بيد الله، وهو سبحانه قادر على حفظ هذا الكون في الدنيا، وعلى نسف الجبال وتسييرها في الآخرة.

من المنتخب في تفسير القرآن الكريم

«لوزارة الأوقاف المصرية»

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

المعنى:

وترى - أيها الرسول - الجبال تظنها جامدة لا تتحرك، ولكنها في واقع الأمر تتحرك بسرعة كالسحاب، وهذا من صنع الله الذي خلق كل شيء وأبدعه، إنه سبحانه كامل العلم بما يفعل الناس من طاعة ومعصية ومجازيهم عليه .

تعليق بالهامش مختصراً:

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ... تقرر هذه الآية الكريمة أن جميع الأجسام التي تخضع لجاذبية الأرض، مثل الجبال والبحار والغلاف الجوي... إلخ، تشترك مع الأرض في دورتها اليومية حول محورها، ودورتها السنوية حول الشمس، لكن هذه الدورة لا تدرك، فهي مثل حركة السحاب في الجو، يراها الناظرون بعيونهم، ولكن لا يسمعون صوتها أو يلمسونها، وتبين هذه الآية الكريمة أن الله عز وجل: خلق الكون والقوانين التي تنظمه، وهو قادر على أن يجعل الأرض ساكنة لا تدور حول محورها، أو يجعل فترة دورانها حول محورها تساوي فترة دورانها حول الشمس، وبذلك يصبح نصف وجه الأرض في ظلام دامس لمدة ستة أشهر، والنصف الآخر في نهار ساطع الضوء لمدة ستة أشهر، مما يؤدي إلى اختلال التوازن الحراري على الأرض كلها، وفي هذا فناء الأحياء التي عليها، والله سبحانه وتعالى هو الذي وضع هذا النظام المحكم رحمة ورأفة بعباده.

وبالرغم من أن (أريستارخوس) الفلكي السكندري ٣١٠ - ٢٣٠ ق.م، كتب في موضوع دوران الأرض حول نفسها، فإن هذه الكتابات العلمية القديمة لم تصل إلى العرب وقت محمد ﷺ أو قبله؛ بل إن أول من أشار إلى هذه المعلومات هو البيروني عام ألف للميلاد بعد حركة الترجمة في الدولة العباسية، فإن إيراد هذه الحقائق العلمية على لسان النبي ﷺ - التي لم تكن قد وصلت إلى علمه - دليل على أنها موحى بها من عند الله (١٥).

من تفسير القرطبي:

يقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة، ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها، وإبراز ما كانت توأريه، فأولى الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصوير كالعن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل (أي: الزيت المذاب)، وقد جمع الله بينهما، فقال تعالى: يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ. (المعارج: ٨، ٩).

والحالة الثالثة: أن تصوير كالعن، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعن.

والحالة الرابعة: أن تنسف.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض، فتظهرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار.

والحالة السادسة: أن تكون سراجاً.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

المفردات:

من جاء بالحسنة، الإيمان والعمل الصالح.

الفزع، الخوف من العذاب.

بالسيئة، الإشرار بالله، أو المعاصي.

كُبَّتْ، أُلْقِيَتْ وجوههم في النار منكوسة، أو هي كناية عن الأنفس، وكُبِّها: إلغاؤها.

التفسير:

٨٩ - مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ .

من جاء بالصلاة والصيام والإيمان، وما يتصل بذلك من الحسنات كذكر الله وطاعته، فله جزاء أفضل وثواب أعظم مما عمل، إلى جوار الأمن النفسى وعدم الخوف، قال تعالى: لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ. (الأنبياء: ١٠٣).

وفسر ابن عباس، وابن مسعود وغيرهما من السلف الحسنة في الآية بشهادة التوحيد، وهذا لا ينافي أن كل حسنة لها جزاء خير منها، أو يقال: إن الحسنة تشمل كلمة التوحيد، وتشمل كل حسنة يعملها الإنسان، قال تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَثْقَالٍ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. (الأنعام: ١٦٠).

٩٠ - وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

المراد بالسيئة هنا: الشرك أو الكفر، ويمكن أن يراد بها: المعاصي والسيئات والذنوب.

والمعنى:

ومن جاء بالكفر أو الشرك؛ فإنه يلقي في النار على وجهه منكوساً، لأن الوجه أغلى شيء في الإنسان، فإذا ألقي الوجه في النار، كان دليلاً على إصابة العذاب للجسم كله.

قال تعالى: أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهٍ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... (الزمر: ٢٤).

كما تشمل الآيات مرتكب السيئات من الفسوق والعصيان والذنوب، كالزنا والسرقة والقتل، وترك الفرائض وإهمال الواجبات، هؤلاء جميعاً يلقون في النار ويعذبون فيها، ويقال لهم على سبيل التبكيت والإهانة:

هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . أى: إن الجزء هنا من جنس أعمالكم فى الدنيا: فأنتم تعذبون عقوبة على أعمالكم السيئة، والمكث فى النار يختلف من شخص لآخر، فالكفار والمشركون يخلدون فى النار، لأنهم كانوا عازمين على الكفر بالله أبداً، فكان عذابهم الخلود فى النار خلوداً أبدياً.

أما المؤمنون بالله مع العصيان وارتكاب السيئات، فإنهم يلقون جزاءهم فى جهنم، ثم يخرجون منها إلى الجنة، فلا يخلد فى جهنم من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان، كما جاء فى صحاح السنة، وفى حديث البطاقة ما يفيد: «أن الله تعالى يحاسب عبداً على أعماله فيجد سجلات كثيرة فيها السيئات، فيسأله الله تعالى: هل ظلمك الكرام الكاتبون؟ فيقول: لا يا رب، حتى إذا ينس العبد، قال الله له: إن لك عندنا بطاقة، فيها شهادة لا إله إلا الله: فيقول العبد: يا رب، وما تصنع هذه البطاقة أمام هذه السجلات الكثيرة، فتوضع البطاقة فى كفة، وفرجعت البطاقة وطاشت السجلات». قال ﷺ: «ولا يرجع مع اسم الله شيء».

وقال ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك، والحسن، وقتادة، فى قوله: «ومن جاء بالسبيّة». يعنى: الشرك. ا. هـ .

ونقول: إن مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء واردة فى روح القرآن الكريم وآياته:

قال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» . (الزلزلة: ٧، ٨).

وقال سبحانه: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» . (النساء: ٤٠).

كما جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة، أن الله يضاعف ثواب الحسنة عشر أمثالها أو أكثر، والسيئة تكتب سيئة واحدة.

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فعملها كتبت له عشر حسنات إلى أضعاف مضاعفة، ومن هم بها فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن هم بها فعملها كتبت له سيئة واحدة» (١٦).

وقال تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» . (الأنعام: ١٦٠).

والخلاصة:

إن روح القرآن والسنة تؤيد أن الآيتين ٨٩، ٩٠ من سورة النمل بشأن ثواب الحسنة وعقاب السيئة، وأن ذلك عام وليس خاصاً. فمن أشرك فقد جاء بالسيئة، وعقوبته الخلود فى النار، ومن عصى الله وأسرف على نفسه بفعل المحرمات فسيدخل النار، وسيمكث فيها بمقدار العقوبة التى يستحقها، ثم يزحزح عن النار إلى الجنة، حيث يأتى وقت لا يبقى فى النار من قال: (لا إله إلا الله).

وإذا أمعنا النظر في الآية وجدناها تفيد أن الجزء من جنس العمل وعلى قدره، قال تعالى: وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبَةِ فَكَبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

فللشرك عقوبة تناسبه، وللمؤمن العاصي عقوبة تناسب المعصية، قال تعالى: وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا .
(الكهف: ٤٩).

★ ★ ★

ختام سورة النمل

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٩١ ﴾ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأَنَا مَهْتَدِي لِنَفْسِيهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ٩٢ ﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٣ ﴾

المفردات:

هذه البلدة: المراد بها مكة.

من المسلمين: من المتقدين لملة التوحيد.

سيريتكم آياته: دلائل قدرته، وأمارات سلطانه في الدنيا والآخرة.

التفسير:

٩١ - إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

تأتى هذه الآيات في ختام السورة فتلخص الفكرة الإسلامية، والدعوة المحمدية، في الدعوة إلى إخلاص الوجه لله تعالى وحده لا شريك له، مع العناية بإخلاص العبادة لله، والبعد عن الشرك وعبادة الأوثان، وكان العرب يقيمون في مكة، ويشاهدون حرمتها وأهميتها، والله تعالى يذكرهم بفضلته عليهم، في تيسير الأمن والأمان لهم، فلماذا لا يعبدونه سبحانه وتعالى؟

ومعنى الآية:

لقد أمرني الله تعالى أن أعبد وحده لا شريك له، فهو ربنا ورب كل شيء، ومليكه، وهو رب مكة البلد الحرام الذي حرّم مكة، وحرّم العدوان فيها، وجعلها حرماً آمناً، والله تعالى له كل شيء في الكون، خلقاً وإيجاداً

ورعاية وحفظاً، فبيده سبحانه ملكوت السماوات والأرض، وهي آية الكرسي: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . (البقرة: ٢٥٥).

وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

الذين أسلموا وجوههم لله، وانقادوا لشرعية الإسلام مخلصين لله، راغبين في ثوابه، راغبين من عقابه.

قال تعالى: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ . (الزمر: ١١، ١٢).

وقال تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . (الأنعام: ١٦١ - ١٦٤).

ومن ماثور الدعاء: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت، وأنت رب العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً».

فى معنى الآية:

قال تعالى: أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النقص: ٧٥).

وقال سبحانه وتعالى: لِإِبِلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . (قريش: ١ - ٤)

وجاء فى الصحيحين، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعصده شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تتلقت لمقطه إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها» (١٧).

وقال تعالى: أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ . (النكبت: ٦٧).

٩٢ - وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ .

تلك هي دعوة الإسلام: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... (البقرة: ٢٥٦). إنما هي دعوة إلى الله تعالى، وإخلاص الوجه لله، وعلى الرسول الأمين أن يتلو القرآن، فهو كتاب الدعوة الإسلامية وأصل أصولها، وهو الذي أنزله الله هدى ونورا، وهو الذي حرك في النفس نشاطها وإيمانها، ولفت الأنظار إلى الخلق والإبداع، وإلى كتاب الكون المفتوح. وإلى النفس البشرية، ويبيّن كرامة الإنسان وسلامة فطرته، وبين أن الله منح الإنسان العقل والإرادة والاختيار، وترك له تحديد مسار نفسه بالاهتداء أو بالكفر.

فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ... فمن اختار الهدى والإيمان، فقد اختار الفلاح لنفسه.

قال تعالى: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .
(الشمس: ٧ - ١٠).

وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ :

ومن أعرض عن سماع القرآن، واختار الضلالة على الهدى، فليس على إلا البلاغ، وما أنا إلا نذير، أحذر من الكفر والضلال، وأبشر بالجنة لمن أطاع، والإنسان حرّ في اختيار ما يناسبه، قال تعالى: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان: ٢، ٣).

وقال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢).

وقال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٧٢).

وقال سبحانه: إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . (فاطر: ٢٣).

٩٢ - وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيَّاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

وقل يا محمد: الشكر لله فهو أهل للثناء والحمد، له الشكر على ما أنعم، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ فهو سبحانه الخالق الرزاق المنعم المتفضل، له الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يرضى ويحب، وله الحمد بعد الرضا، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وكان من دعاء النبي ﷺ:

«يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، رضينا بالله تعالى ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً» (١٨).

«اللهم ربنا ولك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما ترضي ربنا وتحب، ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

سُرِّيَكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ...

سيطلعكم الله على دلائل قدرته، وعظيم نعمائه في الكون والآفاق، وفي آفاق النفس وأقطار العلم؛ فتعرفون وحدانيته وعظمته، قال تعالى: سُرِّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت: ٥٢).

أو سيريكهم آياته يا أهل مكة في بلاغة القرآن وإعجازه وصدقته، حيث هزمتهم يوم بدر، وانتصر المسلمون بعد ذلك حتى فتحوا مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

فهو مطلع وشاهد، وسيحاسب الناس ويجازيهم على أعمالهم، وهكذا تختتم السورة بهذا التعبير الملقوف، اللطيف الخفي، ثم يدعهم يعملون ما يملون، وفي أنفسهم أثر الإيقاع العميق: وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

روى أن عمر بن عبد العزيز، قال: فلو كان الله مغفلًا شيئًا لأغفل ما تغفل الرياح من أثر قدمي ابن آدم.

وكان الإمام أحمد بن حنبل كثيرًا ما ينشد هذين البيتين:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ

خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَى رَقِيبٍ

وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً

وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

خلاصة ما تضمنته سورة النمل

- ١ - وصف القرآن الكريم بأنه هدى ورحمة للمؤمنين.
- ٢ - قصص موسى عليه السلام.
- ٣ - قصص سليمان.
- ٤ - قصص ثمود، وقصص قوط لوط.
- ٥ - الأدلة على توحيد الله تعالى، وربوبيته لكل شيء.
- ٦ - إنكار المشركين للبعث والنشور.
- ٧ - علم الله بما فى الصدور.
- ٨ - حكم القرآن على ما اختلف فيه بنو إسرائيل.
- ٩ - قطع الأطماع فى إيمان المشركين، وتشبيههم بالعمى والصم.
- ١٠ - أشراف الساعة مثل: خروج الدابة من الأرض، وحشر فوج من كل أمة.
- ١١ - الجزاء على العمل خيراً كان أو شراً.
- ١٢ - ختام السورة، فى تجرّد المؤمن فى عبادة الله والبعد عن الأوثان.
- ١٣ - حمد الله، والثناء عليه، وتلاوة القرآن الكريم.
- ١٤ - سيرى المشركون آيات الله فيعرفونها حين لا يفيدهم ذلك شيئاً.



تم تفسير سورة النمل، والحمد لله رب العالمين.

تفسير السورة القصص

أهداف سورة القصص

سورة القصص مكية، وآياتها ٨٨ آية؛ نزلت بعد سورة النمل، وقد نزلت في الفترة المكية الأخيرة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء، وقد سميت بسورة القصص لاشتغالها على القصص الذي حكاه موسى لنبي الله شعيب في قوله سبحانه: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (القصص: ٢٥).

قصة موسى

تستغرق قصة موسى حيزاً كبيراً من سورة القصص، فمن بداية السورة إلى الآية ٤٨ نجد حديثاً مستفيضاً عن موسى عليه السلام.

وفي الآيات (٧٥ - ٨٢) نجد حديثاً عن قارون، أي أن معظم سورة القصص يتناول قصة موسى ويتناول قصة قارون، والحكمة في ذلك أن هذه السورة نزلت بمكة في مرحلة قاسية، كان المسلمون فيها قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان، فنزلت هذه السورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، وتقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود . هي قوة الله، وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى.

ومن ثم يقوم كيان سورة القصص على قصة موسى وفرعون، وتعرض السورة من خلال هذه القصة قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، وفي مواجهتها موسى طفلاً رضيعاً لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية.

وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعاً، واستضعف بنى إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيى نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم . لكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته، لا تقني عنه شيئاً، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير المجرى من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة، ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمى عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحدياً سافراً، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امراته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكثوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه.

لقد طمعت آسية أن يكون موسى وليداً لها تتبناه مع زوجها فرعون، فقالت لفرعون: فُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكْ لَا تَقْتُلُوهُ عَنِّي أَنْ يَفْتَنَّا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (القصص: ٩).

وهكذا دبر الله أن يتربى موسى في بيت فرعون، وأن يؤتى الحذر من مكمنه، ولما حرم الله المراضع على موسى، جاءت أمه كمرضعة له، وأرضعته في بيت فرعون، وصار فرعون يجرى عليها كل يوم ديناراً من الذهب، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها» (١٩).

موسى في سن الرجولة:

بلغ موسى أشده، واستكمل نيغاً وثلاثين عاماً، وقد صنعه الله على عينه؛ فصار يتأمل في هذا الكون، ويبتعد عن حاشية فرعون، ودخل العاصمة في فترة الظهيرة فرأى قبلياً يعمل طباًخاً في قصر فرعون يتشاجر مع إسرائيلى، فاستغاث به الإسرائيلي: فضرب موسى القبطى بجمع يده فوق جثة هامدة، وندم موسى على ذلك واستغفر الله وتاب إليه.

وتربص قوم فرعون بموسى ليقتلوه، فانتدبت يد القدرة واحداً منهم يكتم إيمانه عنهم، وجاء لموسى وقال له: **إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ**. (القصص: ٢٠).

خرج موسى هارباً مهاجراً متجهاً إلى أرض مدين وحيداً فريداً فتأواه الله ورعاه، وتعرف هناك على نبي الله شعيب وتزوج بابنته ومكث هناك عشر سنين، ثم عاوده الحنين إلى مصر فجاء إليها عبر سيناء، وعند الشجرة المباركة نودى من قبل الله: **أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**، وأمن الله عليه بالرسالة وأيده بالمعجزات.

موسى مع فرعون:

عاد موسى إلى فرعون مرة أخرى يدعوهم إلى الإيمان بالله ويقدم له الأدلة العقلية والمعجزات الظاهرة، ولكن فرعون طغى وتجبر وكذب وعصى؛ فهاهلكه الله وأخذته نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى.

الحلقة الجديدة في القصة:

عنيت سورة القصص بإبراز حلقة ميلاد موسى، وتربيته في بيت فرعون، وهى حلقة جديدة في القصة تكشف عن تحدى القدرة الإلهية للظلم والظلم، وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ.

لقد ولد موسى في ظروف قاسية في ظاهرها، فصاحبته رعاية الله وعنايته، في رضاعه وفي نشأته وفتوته، وصنعه الله على عينه وهياًه للرسالة، وإذا أراد الله أمراً هياً له الأسباب ثم قال له كن فيكون.

قارون:

ذكرت سورة القصص قصة موسى في بدايتها وقصة قارون في نهايتها، والهدف واحد، فقصة فرعون تمثل طغيان الملك، وقصة قارون تمثل طغيان المال.

كان قارون من قوم موسى وكان غنيا ذا قدرة ومعرفية، وأوتى من المال ما إن مفاتيحه لتعني العvisبة من الرجال الأقوياء، وخرج على قومه في زينته وأبهته ليكسر قلوب الفقراء، ونصحه قومه بالاعتدال وإخراج الزكاة، والإحسان إلى الناس والابتعاد عن الفساد.

فزادته النصيحة تبها وعلا، وخرج يباهي الناس بماله وكنوزه، ثم تدخلت يد القدرة الإلهية فخسفت به ويداره الأرض، ولم يغن عنه ماله ولا علمه.

وهكذا تصير عاقبة الظالمين، كما غرق فرعون في البحر، هلك قارون خسفا في الأرض، ولا تزال بحيرة قارون تذكر الناس بنهاية الظالمين. قال تعالى: وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٦٦﴾ فَكَلَّا أَهَذَا بَشَرًا فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (المنكوت: ٣٩، ٤٠).

أهداف السورة

يهدف سورة القصص إلى إثبات قدرة الله ورعايته للمؤمنين، فهو سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد المتصرف بالحكم والقضاء، قد آزر موسى وحيدا فريدا طريدا، ونجاه من بطش فرعون، وأغرق فرعون وجنوده، كما أملاك قارون وقومه.

وبين القصصين نجد الآيات من (٤٤ - ٧٥) تعقب على قصة موسى وتبين أين يكون الأمن، وأين تكون المخافة، وتقول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعادي، تجول معهم جولات شتى في مشاهد الكون، وفي مشهد العشر، وفيما هم فيه من الأمن، بعد أن تعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم ﷺ، وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين، بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود، وهو رحمة لهم من العذاب، لو أنهم كانوا يتذكرون.

ختم السورة

في ختام السورة نجد الآيات (٨٥ - ٨٨)، تعد الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة فاتحا منتصرا، ينشر الهدى ويقيم الحق والعدل، ومن العجيب أن هذا الاعد بالندى جاءه وهو مُخْرَج من بلده، مطارد من قومه، مهاجر إلى المدينة ولم يبلغها بعد، فقد كان بالجنحة تربية من مكة، قريبا من الخطر، يتعلق قلبه ويصره ببلده الذي يحبه، ويقول عند غرقه مغاطبا مكة: «والله إنك لمن أحب البلاد إلى، ومن أحب البلاد إلى الله، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت».

ويعد الله بالرجوع إلى مكة فيقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مُعَادٍ . . . (القصص: ٨٥).

وبين سبحانه أن كل ما دون الحق فهو عرضة للفناء والزوال، وأن زمام الحكم بيده تعالى، وتختم السورة بهذه الآية إثباتا للوحدانية ولجلال القدرة الإلهية : وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٨٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسّم ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أُنْثَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾

المفردات:

الكتاب: القرآن، لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، أو لأنه يكتب في الصحف.

المبين: الواضح المبين للأحكام.

نتلوا عليك: نزل عليك.

النبأ: الخبر العجيب.

علا في الأرض: تجبر واستكبر.

شيعاء: فرقاً، يستخدم كل صنف في عمل، من بناء وحرق وحفر، إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة، أو إحزاباً، يغري بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا.

يستضعف: يجعلهم ضعفاء مقهورين.

طائفة: بنو إسرائيل.

يستحيي نساءهم: يبقي إناثهم دون قتل.

نمكّن: نتفضل.

أنهم: واحداهم إمام، وهو من يقتدى به في الدين أو في الدنيا.

نمكّن لهم: يقال: مكّن له، إذا جعل له مكاناً موطئاً معهداً يجلس عليه، والمراد هنا: التسلم على أرض مصر والتصرف فيها.

يريد، وهو الذى إذا أراد أمراً قال له كن فيكون، وفى قصة موسى ربه وليد مرغوب فى قتله، ولا قدرة له ولا حيلة، وفى قصة فرعون وهو الملك المتعطرس الذى ادعى الألوهية؛ وقال: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري... (القصص: ٢٨)، وقد بطش وظلم وجعل الناس شيعا وأحزابا، وقتل الأطفال الأبرياء.

ثم جعل الله نهايته وهلاكه عظة وعبرة، وبيانا لكل ظالم أن يد الله قوية قادرة فاضرة، ولكل مظلوم أن السماء لا تنام وعليك أن تأخذ بالأسباب ثم تتوكل على الله، قال تعالى: زِمْنِ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُكَ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق: ٣).

٤ - إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ .

إن فرعون تكبر وتجبر فى أرض مصر، فهو نموذج لحاكم ظالم، يقرب طائفة من القبيط، ويسخر طائفة فى البناء أو الحرت أو الأعمال الشاقة، ويستضعف طائفة ويستذلها وهم طائفة بنى إسرائيل، وكانوا أفضل الطوائف فى ذلك الوقت، وكان فرعون قد رأى رؤيا خلاصتها: أن نارا جاءت من جهة بنى إسرائيل فأحرقت عرشه، وفسرها الكهنة له بأن طفلا يولد من بنى إسرائيل يكون على يديه زهاب ملك فرعون، فأمر فرعون بقتل المواليد الذكور من بنى إسرائيل، واستحياة الإناث للخدمة والسخرة، لقد كان مقسداً طاغيا باغيا، فلقى حتفه فى فعله، وحفر لنفسه بظلفه، حيث خشى من طفل يولد من بنى إسرائيل، وخافت أم موسى عنيه فألقته فى البحر، والتقطه آل فرعون وألقى الله الحب على موسى؛ فأحبته امرأة فرعون، وترى فى قصر فرعون وأكل من طعامه، ثم أوحى الله بالرسالة إلى موسى، فبلغ رسالته، وجاهد طويلا حتى نصره الله وأغرق فرعون.

٥ - وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

يريد الحق سبحانه وتعالى، وهو فعال لما يريد، أن يتفضل على هؤلاء الذين كانوا ضعايفا أذلاء، مقهورين مغلوبين؛ ليجعلهم هداة يهتدى بهم فى أمور الدين والدنيا، وأن يرفع عنهم المذلة والمهانة.

وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ .

المتصرفين فى نعمتنا وفضلنا تصرف الوارث فى المال الذى ورثه، ولم يثبت فى التاريخ أن بنى إسرائيل حكموا مصر، أو ورثوا أرضها، فالمراد: أن الله أورثهم أرضا شبيهة بها فى فلسطين، أو كانت فلسطين فى ذلك الوقت تابعة لحكم فرعون، والثابت أنهم خرجوا من مصر، ثم حكم الله عليهم بالتبعية فى صحراء سيناء أربعين سنة، ثم هلك الجيل الذليل، ونشأ جيل عزيز مؤمن، فتح فلسطين بقيادة يوسف بن نون، ولعل هذا هو الميراث المذكور.

٦ - وَنَمَكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتَرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ .

لقد أراد الله - ولا رادَّ لقضائه - أن يمكن لبني إسرائيل في أرض فلسطين وقتاً ما، ثم فتحوا فلسطين واستمر ملكهم بها فترة محدودة، وغرق فرعون وهامان وجنودهما في ماء النيل، وأراد الله إعزاز المؤمنين، وإذلال المفسدين، وكان فرعون يخشى من بني إسرائيل، ويخاف من موسى وقومه، فتصر الله لموسى، ومكّن لبني إسرائيل في الأرض، ولم ينفع فرعون ظلمه وغشمه وقتله للأطفال الأبرياء؛ فغرق في النيل وهلك جيشه معه، وحصل ما كان يحذره فرعون ويخاف منه، فإن الحذر لا يمنع القدر، قال الشاعر:

عناية الله إن تولت ضعيفنا تعبت في مراسه الأتقياء

وفى الأثر: عبيد، أنت تريد وأنا أريد، ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لى فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد .

قال تعالى: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ . (الأعراف: ١٣٧).

وقال سبحانه: وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِنْهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانِكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ . (السخان: ٢٤ - ٢٩).

وقال جل شأنه: فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ .

(الشعراء: ٥٧ - ٥٩).

وقد ذكر المفسرون هنا أن بني إسرائيل لم يحكموا مصر، قلل المراد: أن الله عوضهم بما يشبه هذه النعم، في التيه أو في فلسطين.

﴿٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تخَافِي وَلَا تحزني إِنَّا رَاضُونَ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ قَالَ لِنَطْمِئِنَّ أَلْفِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمُّنَ وَخُثُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْسِيهِ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودُ أُمِّ مُوسَىٰ فَتَرَىٰ أَنَّ كَذَاتٍ لِلْبَدْرِ بِهِ لَوْلَا أَنَّ رَبَّنَا عَلَيَّ فَلْيَهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُنْهَكِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتِ لِأَخِيهِ فَصِّصْهُ فَنُصِّصْهُ بِهِ عَنْ حُبِّ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَبَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آثِنِهِ كِي نَفْرَعَيْنَهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

المضردات:

الوحي، الإلهام، كما جاء في قوله تعالى: وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... (النحل: ٦٨).

اليوم، البحر، والمقصود هنا النيل، وكل نهر عظيم يطلق عليه بحر لاستبحاره.

الخوف: غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث في المستقبل.

الحزن: غم يحدث بسبب مكروه قد حصل.

الالتقاط: أخذ شيء فجأة من غير طلب له.

آل فرعون: المراد بآله: من ينسبون إليه، ولو بالخدمة.

عــدوا فتكون عاقبة أمره أن يكون لهم معاديا.

وَحُزْنَآ، مصدر حزن لهم.

خاطئين: مشركين عاصين لله، متعمدين لارتكاب الخطأ.

قـرة عين، سكون وطمأنينة، يقال: قَرَّتْ عينه تَقَرُّ «بفتح القاف وضمهما» تَرَةً، إذا سكنت بعد حيرة، أو

بردت وانقطع بكاؤها.

فَارْقَاءُ، خالِيا من العَقل وحسن التصرف لما دهمها من الخوف والحيرة، أو خالِيا من كل شيء إلا من شأن موسى.

إِنْ كَادَتْ لَتَمْلُنَ أَمْرَهُ لِلنَّاسِ.

رِيطْنَا عَلَى قَلْبِهَا، مجاز عن التثبیت بالصبر.

قُصِيْهِ، اقتضى أثره وتتبع خبره.

فَبَصَرَتْ بِهِ، أبصرته.

عَنْ جُتَيْبٍ، عن بعد.

لَا يَشْعُرُونَ، لا يدرون أنها أخته.

حُرْمَتًا، منمتا.

يَكْفُلُونَهُ، يتولّونه ويقومون على تربيته ورضاعته.

نَاصِحُونَ، النصيح: إخلاص العمل، والمراد: أنهم يعملون ما ينفعه في غذائه وتربيته، ولا يقصّرون في خدمته.

تمهيد:

تحدث الآيات عن حلقة معينة من حياة نبي الله موسى هي حلقة ميلاده، وما لابس ذلك من عنايات إلهية، منها الوحي والإلهام لأم موسى أن ترضعه في خفاء، فإذا خشيت عليه من جواسيس فرعون فعلها أن تلقيه في البحر، وسترعاه عناية الله ليردّه إلى أمّه، وقد التقطت أسرة فرعون هذا الوليد، وألقى الله محبته في قلب آسية، فقالت: لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... (القصص: ٩).

ودبرت العناية الإلهية لهذا الوليد أن يرى في بيت فرعون، وأن ترضعه أمّه، وإذا أراد الله أمراً هياً له الأسباب، ثم قال له كن فيكون.

التفسير:

٧ - وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذَا فَخَّرَتْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ فِي أَيْمٍ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ .

أي: ألهمنا أم موسى، أو أرسلنا إليها ملكا يطلب منها ذلك، وهذا الوحي لا يُثبت لها نبوة، لاتفاق العلماء على أن النبوة خاصة بالأنبياء الذكور، أو كُلفت بذلك في النوم.

والمقصود أن الله أعلمها وأمراها أن ترضعه وقتما تكون آمنة عليه، فإذا خشيت عليه القتل من جواسيس فرعون، فعلها أن تضعه في تابوت أو صندوق خشبي وتلقيه في النيل، وقد أمرها الله ألا تخاف عليه الضياع،

ولا تحزن على مفارقتة إياها، فإن الله سيرده إليها بفضله وقدرته، وعندما يبلغ سن الرسالة سيجمعه الله من المرسلين برحمته وفضله.

ملاحق حول هذه الآية

أولاً:

اتصال السماء بالأشخاص مئة إلهية، ووحى الله إلى أم موسى معناه إعلامها بهذا الأمر، قيل: بواسطة ملك، وقيل: بواسطة رؤيا منامية، كرؤيا إبراهيم بذبح ولده، وقيل: إلهام قذف في قلبها.

ويذكر المفسرون هنا قصة اتصال الملائكة بالناس في أحاديث صحيحة، مثل قصة الأقرع والأبرص والأعمى^(٢٠)، وكانوا مرضى وفقراء، فأراد الله أن يختبرهم فأرسل ملكاً إلى كل واحد منهم، فطلب كل واحد منهم الشفاء من مرضه، وأعطى الأول بقرة عشراء، والثاني ناقة عشراء، والثالث شاة عشراء. ثم كثرت أموالهم وصاروا أغنياء أصحاء، فأراد الله اختبارهم في حالة الغنى، فأرسل الملك إلى الأول في صورة شخص أقرع مريض يرجو المعونة، ولكن الشخص الذي كان أقرع سابقاً، رفض مساعدته، فذكره الملك بأنه كان مريضاً وفقيراً، فقال الرجل: إنما ورثت هذا المال كائناً عن كابر، فقال الملك: اللهم إن كان هذا الرجل فاعداً إلى ما كان عليه، فعاد الرجل فقيراً كما كان، مريضاً كما كان، وفعل الأبرص مثل الأقرع، فعاد مريضاً فقيراً. أما الأعمى فقد نجح في الامتحان، وقال للسائل: خذ ما تشاء من المال، فوالله لا أمنعك مالا أخذته في سبيل الله، فقال له الملك: أمسك عليك مالك، فقد رُضيت عنك، وسُخِّط على صاحبك.

وفي الحديث الصحيح، يقول النبي ﷺ: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يُكَلِّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمره»^(٢١).

وقد سلمت الملائكة على عمران بن حصين ولم يكن نبياً، كما في تفسير القرطبي.

وفي الحديث النبوي: «إن رجلاً ذهب لزيارة أخ له في الله؛ فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، وسأله: أين تذهب، ولماذا؟ فقال الرجل: أزور أخاً لي في الله، لأنني أحبه في الله؛ فقال الملك: إن الله أرسلني إليك لأخبرك أن الله يحبك بحبك لأخيك»^(٢٢).

وقد كلمت الملائكة مريم ابنة عمران ويشترتها بعميسى... إلخ، كما نزلت الملائكة في غزوة بدر، وفي غزوة بني قريظة، وفي غزوتي حنين والطائف، وفي غيرها من الغزوات والمواقف.

قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا.

(الأحزاب: ٤٣).

وفي الحديث الشريف: «إن لله ملائكة طوافين عليكم، فإذا أتوا إلى مجلس ذكر قالوا: هلموا إنا قد وجدناهم، فيحفونهم بأنجحتهم ويشملونهم بالرحمة والسكينة...»^(٢٣) إلى آخر الحديث.

وكلاهما تلتقى على أن الله تعالى يسخر الملائكة لإنفاذ أمره، وتيسير مراده، ورعاية المؤمنين، ومعاقبة المفسدين.

ثانياً:

اشتملت الآية القرآنية على أمرين ونهيين، وخبرين وبيشارتين.

يروى أن امرأة انشدت شعراً^(٢٤)، فمدح الأصمعي فصاحتها وبلاغتها، فقالت: أبعد قوله تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ... فصاحه، وقد جمعت بين أمرين ونهيين، وخبرين وبيشارتين، وتفصيل ذلك:

أن قوله تعالى: (أَرْضِعِيهِ وَأَلْقِيهِ) أمران.

وأن قوله تعالى: (لا تخافى ولا تحزنى) نهيان.

وقوله تعالى: (إنا رآه إليك، وجاعلوه من المرسلين) خبران وبيشارتان.

ثالثاً:

يروى المفسرون هنا قصصاً كثيراً حول بطش فرعون ببنى إسرائيل، ومن ذلك ما ورد في تفاسير: ابن كثير، ومقاتل بن سليمان، والقرطبي وغيرهم.

وخلصته:

أن فرعون رأى رؤيا فيها أن نازراً جاءت من بنى إسرائيل فأحرقت عرشه، ففسرها الكهان بأن طفلاً يولد فى بنى إسرائيل يكون على يديه نهاية ملكه، فأمر أن تقتل الذكور من بنى إسرائيل وتستحيى الإناث. فقتل فرعون الآلاف من أطفال بنى إسرائيل، ليموت موسى بينهم، بيد أن عناية الله جعلت فرعون يلتقطه ويربيه ويرعاه لتكون نهايته على يديه، فإذا أراد الله أمراً هياً له الأسباب، ثم قال له كن فيكون.

رابعاً:

ولد موسى فى ظروف صعبة، فأرضعته أمه ثلاثة أشهر، وقيل: أربعة أشهر، حتى خشيت عليه من جواسيس فرعون: فصنعت له تابوتاً على هيئة صندوق من ورق البردى ودهنته بالقار وأغلقت الصندوق، ووضعتة فى البحر، وشتان بين صبي فى حضن أمه وتديها وحنانها، ونفس هذا الصبي يلقي فى البحر عند الخوف عليه، فيلقى الله عليه المحبة، فكل من رآه أحبه، وتصنع الأقدار ما تشاء، لتجمل من هذا الصبي المنقذ لبنى إسرائيل، ولتكون نهاية فرعون على يديه.

٨ - فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

أفادت الآية السابقة أن الله أوحى إلى أم موسى أن أرضعيه ما دمت آمنة عليه من اتباع فرعون، فإذا خفت عليه منهم فآلقيه فى البحر.

ونفهم من السياق أن أم موسى أرضعته فترة، ذكر بعض المفسرين أنها ثلاثة أشهر، وقال بعضهم: أربعة أشهر، فلما اشتد خوفها عليه من العسس والجواسيس الذين يذبحون الذكور بسكاكين حادة، ثم يتركونها ذاهبين، عندئذ صنعت تابوتا وضعت فيه موسى وألقته في نهر النيل، فأخذته الأمواج قرب قصر فرعون، وشاهدته أسيمة امرأة فرعون، فأمرت الجنود بإحضاره؛ فأحضروه لها، ففتحت الصندوق فأبصرت غلاماً وضيئاً يشع النور من جبينه، فألقى الله محبته في قلبها، فتمسكت به ورغبت في حضناته لحكمة أرادها الله، هي أن يرى في بيت فرعون، وبين سمعه وبصره، وليكون موسى هو المخلص لبني إسرائيل من عنت فرعون.

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ...

أي: التقت أهل فرعون وحاشيته الوليد من ماء النيل، ليتحقق ما أراد الله، في أن يكون هذا الوليد الذي التقطوه وأتقنوه وكفلوه، هو الذي أوحى إليه برسالة سماوية عادلة، أمرت بعبادة الله وحده، لا بعبادة الفرعون، وحررت الناس من العبودية، وقاد موسى بني إسرائيل في ليلة معينة، ونجاه الله من البحر، وأغرق فرعون.

قال المفسرون، واللام هنا لام العقابية والصيرورة؛ لأنهم التقطوه ليكون لهم قرة عين، فكانت عاقبته أن كان مصدر عداوة وحزن، كما في قول الشاعر:

وللنمابا تربي كل مرضعة
وحزناً لحرب الدهر نبنيها

ويرى بعضهم أن اللام هنا يصح أن تكون لام التعليل؛ بمعنى أن الله تعالى بمشيئته وحكمته يسر لموسى التقاط آل فرعون له، وتربيته وكفالته ورعايته؛ ليكون يد القدر في إهلاك فرعون وجنوده، وليكون ذلك أبلغ في إبطال حذرهم منه، فقد رويهم رجاء نفعه أو أن يكون لهم ولداً. وأراد الله أن يكون وسيلة الانتقام منهم.

إِنَّ فِرْعَوْنَ هَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ .

فقد ارتكبوا ذنوباً عظيماً، وقتلوا آلاف الأطفال الأبرياء، وعذبوا بني إسرائيل واستذلوهم؛ فعاقب الله فرعون وقومه عقاباً يستحقونه.

خَاطِئِينَ . مرتكبين للخطأ، أو مرتكبين للخطيئة والإثم، ويطلق عليه الخطء بكسر الخاء وسكون الطاء.

قال تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . (الإسراء: ٣١).

٩ - وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

حين رأت أسيمة بنت مزاحم الصبي تخيلت فيه وسامة وذكاء ونورا، وألقى الله محبته في قلبها؛ فقالت لزوجها: قُرْتُ عَيْنِي وَلَكَ ... أي: مصدر سرور وفرح لي ولك، لا تقتلوه كما تقتل أطفال بني إسرائيل، وكأنها

أحست من فرعون برغبة في قتله، فحببت فيه فرعون؛ وقالت: انظر إلى براءة وجهه وطهارته ونجابته وأصالته، ثم خاطبت الفرعون والحاشية المكلفة بقتل الأطفال فقالت: لَا تَقْتُلُوهُ... وكانت عقيما لا تلد، أو ولدت بنتا مريضة، شفيت عند قدوم موسى.

فَقَالَتْ لِفِرْعَوْنَ: عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا... عَسَى أَنْ يَكُونَ عِزًّا لَنَا وَمُسَاعِدًا، فَإِنِّي أَرَى فِيهِ كَرَمَ الْأَصْلِ، وَمَسْحَةَ الذِّكَاةِ، وَخَيْرًا وَبِرَّةً.

أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا. نَتَّبِئَاهُ فَيَكُونُ لَنَا وَلَدًا، نَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي كِبَرِنَا، وَيَشُدُّ أَرْزَنًا، وَنُسَعِدُ بِهِ كَمَا يَسْعَدُ الْآبَاءُ بِأَبْنَائِهِمْ.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.

أن يد القدرة الإلهية تحرك الأمور، وتلقى الحب لموسى في القلوب، ليكون الحب له وسيلة عملية، تستولى على قلب الطاغية، وعلى قلب زوجته؛ لتصنع الأقدار بيد هذا الطفل هلاك الطاغين، ونجاة المؤمنين.

١٠ - وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِعًا إِنْ كَادَتْ لِتُيَدِّي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

الفت الأم وليدها في البحر امتثالاً لأمر الله تعالى، لقد ألقته ليلاً، وفي الصباح اشتد حزنها وهلعها، حين رأت الأمواج ترتفع وتتخفّض، أو حين خشيت عليه الغرق أو الضياع، أو القتل أو الموت.

قال المفسرون: أصبح قلبها فارغاً من كل شيء إلا من موسى، أين ذهب؟ من أخذه؟ هل هو حي أم ميت؟ ماذا يصير أمره إذا عثر عليه؟

وهي عاطفة الأم، تكاد تسيطر على تصرفاتها، فتسببها الحكمة أو الصبر، أو التجلّد أو انتظار الفرج، وفي تلك اللحظة أوشكت أن تصيح في الناس قائلة: أدركوني، لقد ألقيت وليدي بيدي في البحر، فهل من سبيل لإرجاعه لي؟

لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: لولا أن ثبتت الله قلبها بالإيمان، وملأ قلبها باليقين والثقة بوعده الله، فأعاد الله إليها الهدوء والاطمئنان وثبات الفؤاد، لتكون من الملتزمين بتصديق الله في وعده، والآية تصور فطرة الأم وعاطفتها في حالة من حالات الشك واليأس، ثم يأتي فضل الله فيجعل في القلب برذاً وسلاماً ويقيناً وثقة واطمئناناً. وقريب من هذا المعنى قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَى الرَّسُلُ وَظَنَّا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا... (يوسف: ١١٠)

١١ - وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ قَبِرْتُ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

أى: كلَّفت أم موسى أخته الكبرى أن تقص أثره وأن تعرف مصيره، وأن تحاول التعرف على أخباره، فأبصرته من بعيد وهى ترقبه بعينها، وتحاول أن تصرف عنه وجهها، وأهل فرعون لا يشعرون أنها أخته، ولا يدركون أنها تتعرف على حاله ومصيره.

فما أعظم هذه الأخت التى تخوض الأهوال، بقلب ثابت وعزيمة راسخة، وروح فدائية، وتتسبب فى خير كثير، وتكون وسيلة القدر فى إعادة الطفل إلى أمه، وتربيته فى أحضان والدته، والله على كل شيء قدير.

١٢ - وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَتِيمٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ .

عندما فرحت آسية بالوليد، ورغبت فرعون فى كفالاته وتبنيه، قبل الفرعون ذلك، ووضع الله لموسى الحب، فكل من رآه أحبه، قال تعالى: وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه: ٣٩).

واستقدم آل فرعون المراضع لارضاع موسى، فرفض الرضاع منهن جميعا، واشتد جزع آسية إشفافا على الوليد، وخوفا على حياته، فلما شاهدت أخته ذلك تقدمت إليهم بالنصح وقالت: أعرف امرأة طيبة اللبن، طيبة الريح، يمكن أن ترضع هذا الوليد لكم، فسألوها: هل تعرفين هذا الوليد؟ قالت: لا، وإنما نحن جميعا ناصحون للملك، نريد خدمته والمحافظة على أحيابه، فطلبوا منها إحضار هذه المرضعة، فجاءت يوكابد أم موسى فى صورة مرضعة، فلما رآها الوليد فرح بها ورضع منها، فسألوها: هل أنت أمه؟ قالت: لا، لكنى امرأة طيبة اللبن، طيبة الريح، لا أوتى بصبي إلا رضع منى، فقدموا لها بعض الأطفال الرضع فرضعوا منها جميعا، ولم يرفضها رضيع، ففرحت بذلك آسية، وأكرمت يوكابد، وقدمت لها الصلة والمعروف، وسمحت لها أن تحمل الوليد إلى بيتها لترضعه وترعاه، فذلك قوله تعالى:

١٣ - فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

فأرجع الله الوليد إلى أمه يعيش آمنا مطمئنا، وتعيش أمه معه فى بحبوحة من العيش، وسعادة وقرة عين بلا حزن ولا خوف، وقد كان الوقت قليلا بين إلقائه فى البحر، وبين عودته إلى أمه فى أمان ويسر وسعادة، حتى قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمن كأم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرتها»^(٢٥).

فالمؤمن يصلّى ويصوم ويطيّع الله، فيحفظه الله فى الدنيا، ويدخّر له الثواب فى الآخرة، فله جهتان للمنفعة، وأم موسى ترضع ابنها فتسعد وتفرح، وتأخذ أجرة من بيت فرعون زيادة من الله فى الفضل والعناية.

وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .

حين وعدها الله أن يردها إليها ولدها، وأن يجعله رسولا، ليتأكد لها صدق الوحي والإعلام بذلك، أو ما وعد الله به رسله من النصر، حين قال: كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة: ٢١).

فقد دبر الله لهذا الوليد سلامته ورعايته وتربيته بإشراف فرعون، وإحضار أمه مرضعة له، وقبول آل فرعون أن يربى في بيت أمه، وما يعلمون أن القدر يدبر ويسخر ويمهد لما يشاؤه الله.

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى: لا يعرفون حكمة الله في أفعاله وعواقبها المحمودة، فربما وقع الأمر كرهها إلى النفوس وعاقبته محمودة، كما قال تعالى: وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (البقرة: ٢١٦).

ويشبه أن تكون جملة وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . تعريضا بما حدث من أم موسى، حين أصبح قلبها فارغا من كل شيء في الدنيا إلا أمر موسى، وأوشكت أن تصيح في الناس قائلة: ألقيت بولدى في البحر. لكن الله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين، ثم رد إليها ولدها لتتيقن بأن وعد الله حق لا ريب فيه، ولكن كثيرا من الناس يخامرهم الشك في ذلك.

قال القرطبي:

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . يعنى: أكثر آل فرعون لا يعلمون.

أى: كانوا في غفلة عن التقدير وسر القضاء.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٤﴾ وَدَخَلَ
 الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَمِنَ
 عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّتِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّتِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَٰذَا
 مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ
 إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ
 ١٧ فَاصْبِرْ فِي الْمَدِينَةِ حَافِيًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ
 مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨ فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى
 أَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِمَا نَقُولُ قُلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ
 تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ١٩﴾

المقررات :

أشده ، قوته ، ما بين ١٨ - ٣٠ سنة ، كما في القاموس ، وقال الببضاوى : هو من ٣٠ - ٤٠ سنة .

واستوى ، واعتدل وبلغ المبلغ الذى لا يزداد عليه ، واستوى الرجل : بلغ أشده ، أو أربعين سنة .

حكما ، حكمة .

وعِلما ، ومعرفة وفهما .

شيعته ، جماعته وحزبه ، أى : من بنى إسرائيل .

فاستغاثه ، طلب عونه ونصرته ومساعدته .

فوَكَزَهُ موسى : ضربه بكفه مقبوضة الأصابع فى صدره ، وقد يطلق الوكز على معنى الطعن والدفع .

فَقَضَى عَلَيْهِ : أنهى حياته فمات .

ظاهيرا ، معينا ومساعدًا .

يَتَرَقَّبُ ، ينتظر ويترصده المكروه .

استنصره ، طلب نصرته ومعاونته .

يستصرخه : يستغيث به .

يسبطش : البطش الأخذ بالشدّة والعنف .

جسّاراً : الجبار . اسم من أسمائه تعالى ، والجبار : العظيم القوّة ، وكل عاتر ، ومن يقاتل في غير حق .

التفسير :

١٤ - وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَآسَؤَىٰ ءَاتِيَنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

سكت القرآن عن الحلقة التالية لحلقة الرضاعة ، وقد كانت هذه الحلقة في كفالة الفرعون ، وقد يلقب موسى بن فرعون ، لكن آيات القرآن تشير إلى رعاية الله له وإلقاء المحبة عليه ، كما قال تعالى : وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه : ٣٩) .

فلابد أن أمه أخبرته بحقيقة نسبه ، وعشيرته . والمتوقع أن طبيعة موسى الكريمة تأنف ظلم فرعون وبطشه ، وغشمه ، والمتوقع أن فجوة ما تحدث بين موسى وبين فرعون وحاشيته ، بسبب سلوك موسى الكريم ، الأنف من الظلم .

وتشير الآية إلى أن موسى قد بلغ مبلغ الرجال ، وَآسَؤَىٰ . بلغ غاية الكمال الجسمي والعقلي .

قال بعض المفسرين : بلغ أربعين سنة ، وقال بعضهم : ثلاثين سنة ، ونختار أن تكون سنّه في ذلك الوقت مقاربة للثلاثين ، لأنه مكث في أرض مدين عشر سنين ثم عاد إلى مصر ، فاختره الله رسولاً .

ءَاتِيَنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ...

أي : سيرة الحكماء والعلماء وأخلاقهم وسمتهم قبل البعثة .

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

أي : ويمثل هذا الفضل والرعاية ، والمعونة والخير ، نجزي كل محسن في عمله ، بأن نفتح له أبواب الفتح والحكمة والعلم .

ونلاحظ أن هذه الآية من المتشابه ، حيث قال تعالى في سورة يوسف : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . (يوسف : ٢٢) .

ونلمح أن يوسف هنا بلغ مبلغ الرجال ، أي : فيما بين العشرين والثلاثين فهو أقرب إلى سن الخامسة والعشرين .

وفى سورة القصص قال تعالى: وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

فهذه الآية زادت كلمة: وَاسْتَوَىٰ، أى: اكتمل جسمه وعقله ورشده، فهو أقرب إلى سن الثلاثين . وقد تعددت آراء العلماء فى بلوغ الأشد والاستواء .

عن ابن عباس: الأشد ما بين الثامنة عشرة والثلاثين، والاستواء ما بين الثلاثين والأربعين .

وقال مجاهد: الأشد فى الثلاثين، والاستواء فى الأربعين .

وقال الزجاج: الأشد ما بين الثلاثين والأربعين .

والمحققون يقولون :

بلوغ الأشد فى الأصل الانتهاء إلى حد القوة وذلك وقت تمام النمو وغايته، والاستواء تمام العقل وكماله ونضجه، وذلك يختلف باختلاف الأقاليم والعصور والأحوال، ولذا وقع له تفاسير كثيرة فى كتب اللغة والتفسير .

١٥ - وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَلَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا مِنْ عَدُوِّ هَٰذَا فَاسْتَغْلَفَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَةِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمْرِىَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ .

كان موسى عليه السلام قد جاهر بعداوة فرعون، وندد بسلوكه كما أخبر بذلك ابن إسحاق، وقد اختفى موسى بعض الوقت، ثم دخل مصر أو مدينة منف من أرض مصر متكرراً، فوجد رجلين يقتتلان ويتشاحنان، أحدهما قبطى من أتباع فرعون، والثانى إسرائيلى من شيعة موسى، فاستعان به الإسرائيلى طالباً نصرته لأنه مظلوم، والآخر يريد أن يسخره بدون وجه حق، فوكزه موسى بقبضة يده، بعد أن جمع فيها أصابعه، واتجه بها إلى صدر القبطى، فوقع القبطى ميتاً، وتلمح من ذلك قوة موسى، وشدة انفعاله، لكن موسى لم يقصد قتل الرجل بل تأديبه، فلما رآه ميتاً، ندم وقال: هذا من الغضب، والغضب من الشيطان، فالشيطان عدو بين العداوة، يريد أن يستدرج الإنسان إلى الشر والإثم .

١٦ - قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

رجع موسى فوراً إلى ربه نادماً مستبشراً أنه فعل ذنباً، أدى إلى قتل نفس ووفاة هذا القبطى، فقال:

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ...

لجأ إلى الله تعالى نادماً مستغفراً تائباً، طالباً من الله تعالى المغفرة والستر، وأحس موسى بمغفرة

الله تعالى له، قاله هو كثير المغفرة، كثير الرحمة بعباده .

لقد رأى موسى في الوكز دفع ظالم عن مظلوم ، فلما خرَّ الرجل ميتاً تبين أنه تسرع ، وأنه كان يمكن دفعه بدون الوكز ، ولعلَّ موسى كان غاضباً من تصرف هذا القبطي ، ويقال : إن القبطي كان خبّازاً للملك ، وأنَّه كلف الإسرائيلى حمل الحطب إلى مطبخ فرعون فأبى فاقتتلا ، وشاهد موسى ذلك فوكز القبطي فقتله ، ثم ندم واستغفر ، وتبين أنه فعل خلاف الأولى ، وأنه كان ينبغي أن يترث . وأن يمنع القبطي عن الظلم بدون هذه الضربة القاضية .

١٧ - قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ .

أى : قال موسى مُناجياً ربه : رب أنعمت علىَّ بالقوة والحكمة ، والعلم وسائر النعم ، وقبلت توبتي ، فأنى أعاهدك ألا أناصر ظالماً ، ولا أمشي في ركابه ، ولا أكون وسيلة من وسائل بطشه ، وتعذيبه للضعفاء والمظلومين .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ، أن المؤمن لا ينبغي أن يكون آلة في يد الظالم ، يسير خلفه أو ينفذ أوامره ، أو يعذب الناس ويضطهدهم ، بل ينبغي للمؤمن أن يكون عوناً للضعفاء والمظلومين .
جاء في تفسير التيسابورى :

وفى الآية دليل على عدم جواز إعانة الظلمة والفسقة ، حتى يرى القلم وليق الدواة .

١٨ - فَأَصْحَبْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبْ فَإِذَا الَّذِي ائْتَصَرَ بِإِلَاسٍ يَنْتَصِرْهُ قُلْ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ .

أصبح موسى فى مدينة منف حيث يستقر الحاكم ، أو مدينة مصر ، خائفاً من عاقبة ما حدث بالأمس من قتل القبطي ، يترقب وقوع الشر والمكروه ، وما سيسفر عنه هذا القتل من اتهامات وعقوبات ومساءلات ، ونشعر من هذا التعبير ، بما أصاب موسى عليه السلام ، من هم وحزن وقلق نفسى ، من جراء ما حدث ، وما أحاط به من ملاسات ، ونشعر كذلك أن علاقة موسى بالقصر الفرعونى ، لم تكن علاقة مودة ومحبة ، بل كانت بينهما محبة مفقودة ، ورغبة فى الانتقام .

فَإِذَا الَّذِي ائْتَصَرَ بِإِلَاسٍ يَنْتَصِرْهُ ...

أى : بينما موسى فى هذه الحالة من الخوف والترقب ، إذا الشخص الإسرائيلى الذى طلب نصرته بالأمس ، يصرخ طالباً نجده ونصرته على قبطى آخر .

قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ .

أى : نهر موسى ذلك الإسرائيلى الذى لا عمل له سوى الشجار ، ودخول معارك بدون استعداد لها ، فقال له موسى : إنك كثير الغواية والشر ، واضح انغماسك فى المشاجرات والمشاحنات .

١٩ - فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ .

رغم حالة موسى النفسية ، وما هو فيه من الخوف والترقب ، إلا أنه لم يشأ أن ينفرد القبطى الظالم ، بالإسرائيلى المظلوم ، وعزم على أن يبطش بالقبطى ويدفعه بقوة وعنق ، فإذا بالإسرائيلى يتوقع الشر من موسى ، ويظن أنه يريد أن يبطش به هو ، بعد أن قال له : إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ، فقال الإسرائيلى :

يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ...

ولم يكن أحدٌ يعرف أن قتل الأمس قتل على يد موسى ، فلما سمع القبطى ذلك حمل هذه الأخبار إلى فرعون وحاشيته ، فقد كان قتل الأمس قد قتل فى وقت الظهيرة والقبولة ، أو فيما بين المغرب والعشاء ، ولم يتأكد لدى السلطة من الذى قتل القبطى ، ولكن الإسرائيلى الخائف هو الذى صرح باسم القاتل ، وقال : يا موسى أتريد أن تبطش بى أنا ، فتقتلنى بقوةك وجبروتك ، كما قتلت قتيلًا بالأمس .

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ ...

ما تريد إلا أن تكون باطشًا بالناس ، كثير القتل وسفك الدماء ، مفسدًا فى الأرض .

وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ .

الذى يصلحون بين الناس ، أو يعلمون الناس الدين والسلوك القويم ، وكان موسى مشهورًا بدعوته إلى الاستقامة ، والصفح والتعاون ، والنهى عن الحقد والحسد والشر .

والخلاصة : أنت صاحب دعوة إلى التسامح والعفو ، لكنى أرى الشر فى عينيك ، أتريد قتلى كما قتلت نفسك بالأمس ؟ ما تريد بتصرفك هذا إلا الفساد والعدوان ، وما تريد أن تكون من المتسامحين المصلحين .

رأى لبعض المفسرين

الرأى السابق هو رأى جمهور المفسرين .

وذهب الإمام الرازى فى تفسيره الكبير ، والأستاذ سيد قطب فى لطلال القرآن ، والدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسيره ، والصابونى فى صفوة التفسير وغيرهم ، إلى أن هذا القول :

يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ تُقَاتِلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ .

كان من كلام القبطي ، واستدلوا على ذلك بالآتي : كان المناخ الذي عاشت فيه مصر ، مناخ ظلم من فرعون وجنوده ، ومناخ استسلام وعدم مقاومة للظلم من بنى إسرائيل ، وكان موسى يكره الظلم ويقاومه ، ولعل الإسرائيلي قد تحدث إلى بعض عشيرته من الإسرائيليين بما فعله موسى من قتل القبطي ، ومثل هذه الحادثة من شأنها أن تروج ، وأن تنال الإعجاب من الإسرائيليين ولعل خبرها قد انتقل إلى هذا القبطي ، ولعله أحس من توبيخ موسى للإسرائيلي ، بأن قتل الأمس كان بسببه ، فقال لموسى مقالته وهو في موقف الخوف من البطش ، ولتذكيره بما يدعو إليه من التسامح والإصلاح ، ثم إن سياق الآية هكذا :

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ...

فالسباق يؤيد أن موسى عندما أراد أن يبطش بالقبطي ، قال القبطي خائفاً مسترحماً : يا موسى أتريد قتلي كما قتلت نفساً بالأمس ، ما تريد إلا أن تكون عاتياً مفسداً منتقماً في قسوة ، وما تريد أن تكون مصلحاً متسامحاً ، فأين دعوتك إلى التسامح ، وما اشتهر عنك من الرغبة في الصلاح والتقوى ؟

وسياق الآية محتمل للرأيين ، والله تعالى أعلم .

★ ★ ★

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ الْوَلَدِ أَتَأْتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلُوهُ فَأَخْرَجَ إِلَىٰكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

أقصى المدينة : أبعد نواحي المدينة .

الـمـبـلـا : الأشرف ، والقوم ذوو الشأن والتجمع .

يـاتـمـرـون : يتشاورون ويطلب بعضهم أمر بعض ليقتلوك ، والانتمار والمؤامرة : المشاورة والهمُّ بالشر .

فـاـخـرـج : اخرج من هذه البلاد إلى أخرى .

خائفاً يترقب ، خائفاً من القتل ، يترقب ما يحدث له .

سواء السبيل : الطريق السوي .

التفسير :

٢٠ - وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْمُو سَيِّئُ الْمَوْلَاةِ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُونَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ .

يفيد السياق السابق أن خبر قتل موسى للقبطي قد انتشر ، وبلغ أسماع فرعون وحاشيته ، فاجتمعوا للتشاور في الأمر ، ولو كانت جريمة قتل عادية ، ما احتاجت أن يجتمع فرعون بنفسه مع حاشيته ، ولكنها جريمة قتل تحمل طابع الثورة ، والمقاومة والتصدى ، فرغب القوم في قتل موسى عقوبة على قتله القبطي ، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون ، والراجح أنه هو الذي قدم لهم النصيحة بعدم قتل موسى فلم يقبلوها .

وفى الآية ٢٨ من سورة غافر : وَقَالَ رَجُلٌ مُُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ الْفِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ...

فلعل هذا الرجل كان من حاشية فرعون ، أو من أهل المشورة والرأى فى حاشيته ، فلما أحس بالخطر ، جاء من أطراف مدينة منف حيث يسكن فرعون يسعى . أى : يسرع فى مشيته لمزيد اهتمامه ، بإخبار موسى ونصحه .

فقال : يا موسى إن أشرف القوم يتشاورون فى قتلك ، قصاصاً للقبطي الذى قتلت بالأمس ، فاخرج من مصر قبل أن يظفروا بك ، إننى لك من الناصحين المخلصين .

٢١ - فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أى : خرج موسى من مصر خائفاً من قتله ، يتوجس خيفة من أن يصيبه مكروه ، فالتجأ إلى الله تعالى فى هذه الشدة العصبية قائلاً :

رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

أنتقذنى من فرعون وملئه الراغبين فى قتلى ، وأنت يا الله ملجأ المظلومين ، وغياث المستغيثين ، ومجيب المضطرين ، وقد استجاب الله دعاءه ، وألهمه الصواب ، أو أرسل له ملكاً أو جبريل يرشده إلى الطريق .

٢٢ - وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَلَيْنِ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ .

خرج موسى من مصر على عجل وبدون استعداد ، ولا معرفة بالطريق ، يريد الوصول إلى أرض مدين ، جهة بلاد الشام ، وشمال الجزيرة العربية ، ولا علم له بالطريق ، لكنه كان على أمل فى وجه الله ، ومعونته وبركته وعنايته ، فقال :

عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ .

آمل من الله أن يلهمني الطريق السوي ، الموصل إلى بلاد مدين ، وقد استجاب الله دعاءه ، وألهمه الصواب ، ويسر له السير في سفر شاق صعب ، بدون معونة أو زاد ، إلا معونة الله رب العالمين .

عناية الله إن تولت ضعيفًا تعبت في مراسه الأفياء

ويقول الآخر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نعم فالمخاوف كلهن أمان

★ ★ ★

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ
أَمْرَاتَيْنِ تَذْوَدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ۝٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
﴿٢٤﴾ تَجَاءتُوهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبَى يَدْعُوكَ لِجَعْدِكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَفَضَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمْلِكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ فَإِنْ
أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ
عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

المضردات :

ورد ماء مدين ، وصل إليه .

تذودان ، تدفعان وتمنعان غنهما عن الماء ، ومنه قول الرسول ﷺ : «فليذان رجال عن حوضي»

أى : ليطردن ويمنعن .

ما خطبكما ، ما شأنكما ، قال رؤية : « يا عجباً ما خطبه وخطبى » .

يصـلـد : من أصدر بمعنى أرجع ، أى : حتى يرجعوا مواشيهم .

الـرعاء : جمع راعٍ ، مثل : صاحب وصحاب ، وهو الذى يرعى الغنم .

تـاجـرنـى : تكون أجيراً لى ، وفى القاموس : أجره يأجره ، جزاه ، كأجره ، والأجر : الجزاء على العمل .

حـجـج : جمع حجة بكسر الحاء وهى السنة .

انشق عليك ، أوقعك فى المشقة والصعب .

فلا عدوان على ، لا يعتدى على فى طلب الزيادة .

التفسير :

٢٣ - وَلَمَّا رَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ .

يسر الله الأسباب لموسى ، ووصل إلى أرض مدين ، مجهلاً متعباً من سفر طويل ، جائئاً محتاجاً إلى المعونة والرعاية ، لكنه وجد على الماء جموعاً كثيرة من الناس ، منهم من يروى إليه ، ومنهم من يروى غنمه ، والناس مشغولة بسقى الماشية ، فى زحام يحتاج إلى قوة ومنافسة ، ووجد دون ذلك الزحام ، أو أسفل منه ، امرأتين تمنعان الغنم من الاختلاط بأغنام القوم ، وتحبسان الغنم عن ورود الماء ، فرق موسى لهما ، رغم إجهاده وتعبه ، وسألهما : ما شأنكما ، ولماذا تمنعان الغنم من السقى ؟ فأجابتا : إنما يزاحم على السقى الرجال الأشداء ، أما نحن فنساء متحفظات :

لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ .

من عادتنا أن نصبر حتى يسقى الرعاة أغنامهم وينتهى الزحام ، فليس من عادتنا مزاحمة الرجال ، بل نمتنع عن السقى إلى أن يفرغ الماء لنا ، فنسقى ، وأبونا شيخ كبير ، ضعيف عن سقى الغنم ، ولذلك اضطررنا أن نسقى الغنم بأنفسنا .

قال أبو حيان فى البحر المحيط : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتهما السقى بأنفسهما ، وتنبيه على أن أباهما لا يقدر على السقى لشيوخته وكبره ، واستعطف لموسى فى إعانتهم .

اسم الشيخ الكبير

المشهور عند كثير من العلماء أنه شعيب عليه السلام ، الذي أرسل إلى أهل مدين .

وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب .

قال الآلوسى : والأخبار مختلفة ، ولم يتميز عندنا ما هو الأرجح فيها .

٢٤ - فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

وصل موسى إلى أرض مدين متعباً مجهداً جائعاً ، شديد الإجهاد والتعب ، لم يأكل فى الطريق سوى البقل وورق الشجر ، وقد استمر فى الطريق بضعة أيام حتى اشتد به التعب والجوع ، وما إن شاهد امرأتين ضعيفتين تبتعدان عن الرجال ، حتى رقى لهما ونزع غطاء البئر ، وكان لا ينزعه إلا عصبية من الرجال ، ثم سقى لهما أغنامهما ، وأدى لهما مهمة رغبة فى المعروف ، وإغاثة الملهوف ، ثم جلس تحت ظل شجرة - وهو من أكرم الخلق على الله - وتضرع إلى الله تعالى ونجاه قائلاً :

رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ .

إنى محتاج إلى رزقك وفضلك ، فقير إلى معروفك وعونك ، واستجابت السماء لدعاء موسى عليه السلام .

٢٥ - فَجَاءَهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرُ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ .

جاءت الفتاة إلى موسى فى أدب واستحياء ، تقوم بمهمة فى عفة وكمال ، فقالت :

إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرُ مَا سَقَيْتَ لَنَا ...

إن دعوة كريمة موجهة من أبى إليك ، ليكافئك على سقى الغنم لنا ، أرادت أن توضح له الموقف ، حتى لا يظن بها الظنون ، ولبنى موسى الدعوة ، وسار أمام المرأة ، وطلب منها أن ترشده بصوتها إذا أخطأ الطريق ، ثم وصل إلى شعيب عليه السلام ، أو إلى رجل صالح من قوم شعيب ، وأخبره بقصته مع فرعون ، وإلقائه فى اليم ، ورضاعته ورعاية فرعون له ، ثم قتل موسى للقيطى ، ثم خروجه هارباً من أرض مصر . فقال الرجل الصالح لموسى : طب نفساً وقر عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم ، ولا سلطان لهم علينا ، لقد نجاك الله من فرعون وجنوده ، ونزلت أرض مدين على الرحب والسعة .

٢٦ - قَالَتْ إِحْدَهُمَا يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتِجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ.

أرسل الشيخ إحدى ابنتيه لدعوة موسى إلى الضيافة ، فلما حضر وقص عليه قصته ، طمأنه وهدأه ورحب به ، فقالت إحداهما (والراجع أنها هي التي ذهبت إلى موسى لدعوته) : يَأْتِيَنَّكَ اسْتِجْرَاهُ . على رعى الغنم ، فإنه يجمع أفضل الخصال ، وهي : القوة والأمانة .

فالقوة : تعين الإنسان على أداء العمل كاملاً ، وتشمل الخبرة والمعرفة .

والأمانة : تشمل المحافظة والعفة والاستقامة وعدم الخيانة ، وهي شروط لازمة لمن يقوم بالعمل ، أو يلى شئون الدولة ، بيد أنه فى بعض الأعمال كالحرب تقدم القوة ، وفى بعض الأعمال كالاقتصاد والمالية وسياسة المال تقدم الأمانة .

ومن كلام عمر رضى الله عنه : إلى الله أشكو قوة الفاجر وعجز الثقة .

أحياناً يكون الفاجر قوياً شجاعاً ، ويكون الثقة الأمين ضعيفاً أو متردداً ، فإذا اجتمعا فى شخص كان أهلاً لولاية العمل المناسب له . وفى السياسة الشرعية نجد أن من صفات الحاكم العادل الحكم بالعدل ، والشورى ، واختيار الأمناء الثقات ، لأنه لا يستطيع أن يتولى جميع شئون الدولة بنفسه ، فلا بد له من مساعدين ، فينبغى أن يتوخى فيهم الكفاءة ، وتكون بالقوة والأمانة ، فلا يؤلى شخصاً لقربائه ، أو لمصلحة تعود على الحاكم .

وفى الحديث النبوى الشريف : «من ولى رجلاً شيئاً من أمر المسلمين ، وهو يعلم أن فى المسلمين من هو أكفأ منه ، فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين»^(٢٧) .

غيرة محمودة

روى أن شعبياً قال لابنته : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : رفع الصخرة من على البئر ولا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كوني من ورائى ودُلّيني على الطريق ، ولما أتيت خفض بصره فلم ينظر إلى ، فرغب شعيب فى مصاهرته وتزويجه بإحدى ابنتيه .

روى ابن كثير ، والمزمخشري ، عن ابن مسعود ، قال : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب حين قالت :

إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتِجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . وصاحب يوسف حين قال : أَكْرَمِي مُثْلَهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنِي ... (يوسف : ٢١) .

وأبو بكر فى عمر ، أى : فى اختياره وترشيحه ليكون خليفة بعده .

٢٧ - قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَٰئِنِ عَلَىَّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَبِنْ عَبْدَكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

أى : قال شعيب لموسى : إني أريد أن أزوجه واحدة من ابنتي هاتين ، الكبرى أو الصغرى ، ولك أن تختار من تروق لك ، على أن يكون مهرها أن تعمل عندي أجيراً لرعى الغنم ثمانى سنوات ، فإن أتممت عشراً فى الخدمة والعمل فهذا بفضل منك وتطوع وتبرع لا ألزمتك به ، وما أريد أن أصعب عليك الأمر فأنزمتك بأبعد الأجلين ، ولا أشدد عليك فى العمل بل ستجد المياسرة والسماح ، وستجدنى إن شاء الله من الصالحين ، المحسنين للمعاملة الموفين للعهد ، وفى هذه الآية سنّة حسنة ، حيث عرض صالح مدين ابنته على صالح بنى إسرائيل ، وعلى هذه السنّة سار الخلفاء ، فقد عرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، فلا بأس بعرض الرجل ابنته ، والمرأة تعرض نفسها على الرجل الصالح ، اقتداء بالسلف الصالح .

ونلاحظ أن الأب عرض إحدى ابنتيه فهو عرض لا عقد ، لأنه لو كان عقداً لعين المعقود عليها له ، لأن العلماء اتفقوا على أنه لا يجوز الإيهام فى النكاح ، فلا بد من تعيين المعقود عليها .

أما تعيين الفتاة فقد حدث عند العقد ، أن اختار موسى إحداهما للزواج منه ، وتم الزواج وبدأ تنفيذه والالتزام بالأجرة ، وتنفيذ الشروط حتى تم الأجل المتفق عليه .

وفى الآية تيسير الزواج والمعاونة على إتمامه ، والأخذ بيد الشباب ليقفوا على أقدامهم ويفتحوا بيتاً فى الحلال .

وفى صحيح البخارى أن النبی ﷺ زوّج رجلاً امرأة على أن يعلمها عشرين آية ، وإذا وسّع الله عليه عوضها ، وهذا يعبر عن روح الإسلام فى تيسير العفة والتصون ، وتعاون الأغنياء والصلحاء والجمعيات الخيرية فى حل أزمة الزواج ، وتيسير التعارف بين الراغبين فيه ، وتيسير المسكن والحياة الزوجية ، وبذلك نوسع فرص الحلال ، ونقضى على الشذوذ والانحراف والزنا والخيانة ، وتعود إلينا قيمنا الأصيلة ، ومنها العفة والاستقامة والتطهر ، وغض البصر وحفظ الفرج والبعد عن الريبة والغاشقة .

٢٨ - قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ بِكَوْنٍ .

قول موسى عليه السلام مصاهرة شعيب، وترك لنفسه الخيار فى إتمام أى الأجلين، الثمانى أو العشر، وقال لشعيب : ذلك الاتفاق حاصل وموافق عليه منى ومنك ، وعلى كل واحد منا أن يقوم بما يجب عليه فيه، وسأحتفظ لنفسى بتحديد أى الأجلين : الثمانى أو العشر ، أى واحد منهما قضيت ، فلا أطالب بما هو أكثر منه ، وهذا عهد بيننا ، والله وكيل وشاهد على اتفاقنا ، والمراد توثيق العقد ، وأنه لا سبيل لأحد منهما إلى الخروج عليه أصلاً .

وبما سبق في الآيتين استدلل العلماء على أن اليسار لا يعتبر في الكفاءة ، فإن موسى لم يكن حينئذ موسراً ، وقد استدلل أبو حنيفة والشافعي بالأحاديث النبوية الشريفة ، على أن النكاح يحتاج إلى شهادة الشهود . وفي الحديث الشريف : « لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل »^(٢٧).

وقال مالك : ينعقد النكاح ، ولا يشترط فيه الإشهاد لأنه عقد معاوضة ، وإنما يشترط فيه الإعلان والتصريح ، وفارق ما بين النكاح والسفاح الدف ، كما ذكر ذلك القرطبي في المسألة ٢٣ .

وقد ذكر البخاري ، عن ابن عباس : أن نبي الله موسى قضى أكثر الأجلين وأطيبهما ،^(٢٨) أي : عشر سنين ، والله تعالى أعلم .

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا فَصَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾^(٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ ۚ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ لَّيْ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعَتْ كَانَتْهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمَّا يُعَقَّبُ يَمْوِسُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٣١﴾ أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْجُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

المضردات :

قضى موسى الأجل ، أتم المدة المضروبة بينه وبين شعب .

آنَسَ ، أبصر ، وأصل الإيناس : إبصار ما يؤنس .

بخبر ، نبأ يعلم منه الطريق .

جذوة ، « مثلثة الجيم » ، وهي عود غليظ مشتعل .

تصطلون ، تستدفئون .

نـــــــودي : ناداه الله تعالى .

شــــاطئ : جانب الوادى الأيمن بالنسبة لموسى .

الأيمــــن : اليمين : الجهة اليمنى بالنسبة لموسى ، وقيل : الأيمن ، أى : المبارك ، من اليمين بمعنى البركة .

البــــقعة : قطعة الأرض ، التى عليها الشجرة الكائنة بشاطئ الوادى .

تــــهتــــنر : تضطرب وتتحرك بسرعة .

جـــــــسان : حية كحلاء العين بيضاء ، تكثر فى الدور ولا تؤذى .

مــــدبــــرا : منهزماً خلفه من الخوف .

ولم يــــعقب : ولم يرجع لخوفه وفزعها منها .

اســــلك : أدخل .

جــــيبك : الجيب : فتحة القميص من حيث يدخل الرأس .

جــــناحك : الجناح : العضد والذراع ، لأن الذراع للإنسان كالجناح للطائر .

ســــوء : عيب ومرض ، كبرص ونحوه .

الســــرهــــب : الخوف ، بفتح الراء وسكون الهاء ، بقراءة حفص عن عاصم ، وقرأ الجمهور : (الرهــــب)

بفتح الراء والهاء .

بــــرهــــانــــان : حجتان وأضحتان ، تثنية برهان ، وهو الحجة القاطعة .

تمهيد :

عاش موسى حياة القصور فى رعاية فرعون ، وشاء الله أن يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، وأن يساعد إسرائيليا ، بوكرة لقطي قضت عليه ، وأن يخبره رجل مؤمن بأن حياته فى خطر ، وأن يخرج من مصر خائفاً يترقب ، وأن يسير فى الطريق إلى مدين جائعاً خائفاً ، وأن يمكث فى مدين أجيراً راعياً للغنم ، وأن يتزوج من ابنة شعب ، وأن يعود من نفس الطريق ، وكأن الله يمهده لرسالة شاققة ، وليألف الطرق المؤدية للخروج من مصر ، والعودة إليها ، حتى يكون على بينة من هذه الطرق ، عندما يخرج مع بنى إسرائيل قائداً لهم إلى البحر ، حيث ينجو بهم ويغرق فرعون ، وفى الآيات حلقة المناجاة والرسالة ، والمعجزات الباهرة ، والتمرين على إلقاء العصا ، وإدخال اليد فى الجيب ، مع فضل الله على موسى واصطفائه ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، واختياره لمهمة من أشق مهمات الرسل - عدا محمد ﷺ - لأن بنى إسرائيل ، كانت لديهم رسالة محرفة ، وبهم ذل وخسف أذل طباعهم ، وبذل مـ " " عليه السلام

جهودًا كثيرة ، وصبر صبرًا طويلاً ، وقد أمدّه الله بمعونته وتوفيقه ورعايته ، ورباه بفضلّه قال تعالى :

وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه : ٣٩) .

التفسير :

٢٩ - فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

أنادت الآيات السابقة اتفاق موسى وشعيب على أن يتزوج موسى بإحدى ابنتي شعيب ، نظير أن يقوم برعى الغنم مدة من السنين ، وقد أتم موسى المدة المتفق عليها ، والراجع أنه أكمل عشر سنين ، ثم طاف به الحنين إلى أمّه وأسرته ، فاستأذن ليعود إلى أرض مصر مع زوجته ، وكانت حاملاً لا تعلم هل يتم الوضع ليلاً أو نهاراً ، وجاء الليل بارداً شاتياً مظلماً ، وضل موسى الطريق ، وحاول أن يقدح زنده ليوقد ناراً فأصلد ولم يخرج ناراً ، فنظر فإذا نار تلوح في الأفق ، فأنس بها واطمأن إليها ، وقال لأهله : أقيموا مكانكم وامكثوا في هذا الوضع ، فقد شاهدت ناراً سأقصدها .

لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ .

لعلّي أجد عند هذه النار من يرشدني إلى الطريق الصحيح ، أو أحضر لكم عوداً غليظاً ملتهباً بالنار ، تستدفئون به من شدة البرد .

ونلمح أن موسى شاهد ناراً فاقترّب منها ، فإذا النار نوراً أثيرياً ، وإذا الموقف موقف تفضل ورحمة وإكرام ، وإذا المنعم الجليل يختار موسى ، ليحمل رسالة إلهية سامية .

٣٠ - فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَنْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

عندما اقترب موسى من النار ، وجد النار نوراً أثيرياً ، وسمع نداء الحق سبحانه وتعالى ، من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة .

أَنْ يَنْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

لقد كان النداء من الله متفضلاً بالرسالة على موسى ، ونداده الله تعالى : إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

أنا الله الخالق الرازق الواهب الماجد المحيي المميت ، رَبُّ الْعَالَمِينَ . خالق الإنس والجن والطير والكون ، والليل والنهار والبحار وسائر الموجودات .

وفى سورة طه : فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَمْمُوسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . (١٤٠ : ١١١ - ١٤٠) .

وفى سورة النمل : نُودِيَ أَنَا بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ : يَمْمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (النمل : ٨٠ : ٩٠) .

جاء في التفسير الوسيط ، بإشراف مجمع البحوث بالأزهر :

ونذهب الإمام إلى أن الله تعالى حكى فى كل من هذه السور بعض ما اشتمل عليه النداء ، لما أن المطابقة بين ما فى المواضع الثلاثة تحتاج إلى تكلف ما .

ومثل هذا يقال فيما تكرر ذكره من القصص فى القرآن الكريم ، مع اختلاف التعبير فيه ، لأن كل سورة تعنى عند ذكر القصة بالجانب الذى تسوقها من أجله والتعبير الذى يناسبه .

إن المقام مقام تجلٍ إلهى ، رب كريم ينجى عبداً من عباده اصطفاة للرسالة ، وصنعه عاى عنه ، ويسر له المجرى إلى هذا المكان المبارك ، الذى بورك بالرسالة وبكلام الله لموسى ، إلى جوار جبل الطور ، والوادي إلى يمين موسى فى بقعة مباركة قد باركها الله منذ هذه اللحظة ، عند شجرة وحيدة فى ذلك المكان .

أَن يَمْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوى ، وبوركت البقعة التى تجلّى عليها ذو الجلال ، وتميّز الوادى الذى كرم بهذا التجلّى ، ووقف موسى فى أكرم موقف يلقاه إنسان^(٢٩) .

٣١ - وَأَن أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْمُوسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .

ألقي موسى عصاه فانقلبت حية كبيرة ضخمة ، تصطك أنيابها ، لو صادفت صخرة لاقتلعتها وابتلعته ، كأن الصخرة تندك من جبل إلى وادٍ سحق ، ومع عظم الحية وضخامتها ، فهى تتحرك فى خفة وسرعة ، كأنها حية صغيرة فى خفة حركتها وشدة سرعتها ، عندئذ خاف موسى خوفاً شديداً ، ولّى مدبراً مسرعاً إلى الخلف ، ولم يعقب ويرجع مرة أخرى ، ليشاهد هذه الحية ويتأمل صفاتها ، يقال : عقب الفارس ، إذا أقبل بعد أن أدبر ، وكّر بعد أن فرّ ، فناداه الله سبحانه وتعالى : يا موسى أقبل إلينا ، ولا تخف من الحية أو غيرها فأنت فى معية الرحمان ، ومن كان فى معية الله فلا خوف عليه .

قال تعالى: إِنِّي لَا يَخَافُ لَدُنِّي الْمُرْسَلُونَ . (النمل : ١٠) . أى : أنت فى كنفى ورعايتى وحفظى ، وأنت آمن فأنت رسولى أحفظك بحفظى ، وأكلوك برعايتى .

٣٢ - أَسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

أدخل يدك فى جيبك . والجيب فتحة الثوب تكون فى الصدر ، ومن هذا الجيب تدخل الرأس عند لبس الثوب ، قال تعالى : وَلْيَضْحَكُوا بَخْمِيرِهِمْ عَلَىٰ حُجُوبِهِمْ ... (النور : ٣١) . أى : على المرأة المسلمة أن تضع طرف الخمار على فتحة الصدر حتى تستر صدرها .

والمراد : أن الله طلب من موسى عليه السلام أن يدخل يده فى فتحة القميص أو فتحة الثوب الخارجى ، فإذا أخرجها خرجت بيضاء بياضاً ساطعاً ، مثل ضوء الشمس ، بدون مرض أو برص ، فهذه معجزة ثانية ، والعهد فى يد موسى أنها تميل إلى السواد أو الحمرة ، فربما دخله الرعب أو الخوف من شدة بياض اليد ، وشدة إشراق الضوء منها ، فأمره الله تعالى أن يضم يده إلى صدره فإن ذلك يذهب عنه الرعب والخوف ، وهى وسيلة عملية لكل خائف ، أن يضع يده فى صدره ، حتى يخفف من خفقان قلبه .

قال القرطبي :

وما فسروه من ضم اليد إلى الصدر يدل على أن الجيب موضعه الصدر . وقرأ حفص : مِنَ الرَّهْبِ . بفتح الراء وإسكان الهاء . وقرأ جمهور القراء بفتح الراء والهاء : مِنَ الرَّهْبِ . لقوله تعالى : وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ... (الأنبياء : ٩٠) . وكلها لغات ، وهو بمعنى الخوف .

والمعنى : إذا هالك أمر يدك وشعاعها فأدخلها فى جيبك ، واردها إليه تعد كما كانت .

قال ابن عباس :

ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ، ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب ^(٣٠) .

فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ...

هاتان حجتان واضحتان ، ومعجزتان بارزتان ، تأييداً من الله لك ، وهما العصا تنقلب حية ، واليد تضىء كالشمس .

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِمْ كُؤُوسًا فَتُلَاقِيهِمْ .

هاتان الآيتان أرسلناك بهما إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قومًا خارجين على طاعة الله ، فأبدك بالمعجزتين دعماً لموقفك ، وإعلاماً للجميع بأنك رسول من عند الله مؤيد بالمعجزتين .

من هداية الآيات :

١ - الأنبياء أوفياء ، فموسى قضى أوفى الأجلين ، عشر سنين .

٢ - مشروعية السفر بالأهل ، وقد يحصل للمرء أن يضل الطريق ، أو يحتاج إلى شيء ويصبر .

٣ - فضل تلك البقعة التي كلم الله تعالى فيها موسى ، وهى من جبل الطور .

٤ - مشروعية التدريب على السلاح قبل استعماله .

٥ - لا يلام على الخوف الطبيعى .

٦ - من خاف فوضع يده على صدره زال خوفه إن شاء الله (٣١) .

★ ★ ★

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (٣٢) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ قَالَ سَنُنْصِرُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِأَيْنِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٣٦﴾

المفردات :

ردء : معينا لى .

يصدقنى : بإيضاح الحق بلسانه ، وبسط القول فيه ، ونفى الشبهة عنه .

سننصرك : سنؤيك ونعينك .

سلطاننا : حجة قوية وبرهاننا ، وتسلطاً وغبلة ، وحماية وحفظاً .

آياتنا، المعجزات، أو آيات التوراة .

بيِّنات، واضحات الدلالة على صدق موسى في رسالته .

سحر مفترى، مختلق مكذوب .

الأوليين، السابقين .

عاقبة الدار، العاقبة المحمودة في الدار الآخرة . قال تعالى : **أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** . (الرعد : ٢٢) .

الظالمون ، المشركون الكافرون .

التفسير :

٣٣ - **قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ** .

حظى موسى بالمنجاة والتأييد بالمعجزات ، وهو في حضرة الجبار القهار الذى بيده الخلق والأمر: فرغب فى أن يحتاط لنفسه ، وللدعوة التى يحملها ، فهو قد قتل قبطيا أثناء نزاعه مع إسرائيلى ، ورغب القوم فى قتله فخرج خائفا إلى أرض مدين ، حيث مكث بها عشر سنين .

وكان موسى قد عزم أن يعود إلى مصر ، وأن يزور أسرته سرا . لكنه الآن سيعود حاملا رسالة، مجابها لفرعون وقومه ، وله تاريخ سابق، ونقاط ضعف أظهرها أمام الله قائلا :

رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ .

أى : لقد قتلت قبطيا فى لحظة غضب ، ورغب فرعون وقومه فى قتلى ، فخرجت من مصر خائفا أترقب ، والآن أعود بالرسالة ، وأخاف أن يقتلنى فرعون وقومه قصاصا لذلك ، وليس ذلك لخوف موسى على نفسه ، بل لخوفه على ضياع الدعوة بعد قتله .

٣٤ - **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَلِّمُونِي** .

كان هارون مقيما فى مصر طوال غياب موسى فى أرض مدين ، وكان هارون هادئ الأعصاب ، خبيرا بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان فى موسى لكمة أو حُسنه فى لسانه ، فخشى أن يرتج عليه ، ويعجز عن إقامة الحجة فى مجالس النقاش والجدال مع فرعون ، فناجى موسى ربه وقال : **إن أخى هارون أَفْضَحُ مِنِّي لِسَانًا** ، وأقدر على إقامة الحجة ، أو تلخيص الدعوة ، أو شرح الرسالة ، أو إقامة الدليل والبرهان ، أو الرد على الاعتراض والإنكار ، فأرسل هارون معى ، معينا ومساعداً ، يؤكد دعوتى ، ويشرحها ويفصلها ويدافع عنها .

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . أَخْشَى أَنْ يَكْذِبَنِي فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ، فَأَحْتَاجُ إِلَى مُسَاعِدٍ وَمَعِينٍ يَشُدُّ أَرْصِي وَيَعَاوَنُنِي .

قال العلماء : أعظم شفاععة ، هي شفاععة موسى لهارون ، حتى يكون رسولا معه .

٣٥ - قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَنَا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَابِعَاتِنَا أُنْتُمَا وَمَنْ أَتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ .

طلب موسى من ربه المعونة ، وفي سورة طه : قَالَ رَبِّ أَسْرِحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَأَخْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي • يَفْقَهُوا قَوْلِي • وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي • هَـذَرُونَ أَخِي • أَشْهَدُ بِهِ أَزْرَى • وَأَسْرِكُ فِيهِ أَمْرِي • كُنِيَ نَسَبَكَ كَثِيرًا • وَذَكَرَكَ كَثِيرًا • إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا • قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمُوسَى . (طه : ٢٥ - ٣٦) .

وقد استجاب الله لرجاء موسى وأعطاه ما طلب .

والمعنى : قال الله تعالى لموسى : سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ... سنقويك ونؤازرك ، ونساعدك فى مهمتك بهارون عليه السلام ، وسأمنحكهما من مهابتى وسلطانى وعنايتى وجلالى فلا يستطيع الأعداء إزاءكما أو النيل منكما ، وسأعطيكما الآيات الباهرة والمعجزات التسع حتى ينتصر سلطانكما ، وتغلب دعوتكما ، وسيهلك فرعون ، وتنتصران أنتما ومن اتبعكما من المؤمنين .

٣٦ - فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِتَابِعَاتِنَا يَتَّبِعُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

على طريقة القرآن الكريم الفذة ، يطوى الزمان والمكان وحركة الأحداث ؛ ليستنبط المشاهد استجابة الله لموسى ، ثم يسير موسى وهارون بالرسالة إلى فرعون ، ويقدمان الأدلة الباهرة على وحدانية الله وقدرته وجلاله ، ووجوب عبادته وحده ، وقد فصلت سورة طه هذه المعانى مثل :

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى • قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . (طه : ٤٩٠ ، ٥٠) .

وتصور هاتان الآيتان وما بعدهما دلائل القدرة الإلهية ، واستعانة فرعون بالسحرة ، ثم إيمان السحرة واستهانتهم بتهديد فرعون ، وغير ذلك ، لكن السياق هنا يطوى هذه الجوانب من قصة موسى ، لأن السياق هنا مهتم بجوانب الفضل الإلهى على موسى ، فى صغره وشبابه ورسالته ، وبيان معونة الله له ، فقد وهبه سلطان الجلال الذى قهر به سلطان الفرعون ، وغرق الطاغية فى الماء ، ونجا موسى والمؤمنون .

ومعنى الآية :

فلما تقدم موسى إلى فرعون وقومه ، وقدم لهم رسالته وأيد دعواه بالمعجزات ، وأزره هارون في رسالته ، قال فرعون وقومه .

مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى ...

أنت ساحر تفتري على الله ، وتدعى أنك رسول ، ومعجزاتك مهارة في السحر ، وأنت مخلق متقول على الله .

وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

وما سمعنا بهذه الدعوى - دعوى التوحيد وتفرد الله بالألوهية - في آبائنا وأجدادنا السابقين .

بكل هذه البساطة كان ردهم وجوابهم، الإنكار بدون مناقشة ، أو تقديم أدلة أو براهين يقبلها العقل والمنطق .

ومثل ذلك كان موقف أهل مكة من دعوة محمد ﷺ ، كأنما هي طبيعة الكفار في كل رسالة ودعوة ، وكأنما وصى الكفار السابقون من جاء بعدهم من المكذبين ، قال تعالى : أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٣) .

٣٧ - وَقَالَ مُوسَى رَبِّىْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِهَٰذِهِ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ .

أجاب موسى إجابة مهذبة ، فهم لم يقدموا حجة ولا دليلاً حتى يناقشهم ، لكنهم اتهموه بدون دليل ، وموسى واثق في صدقه وفي نصرته ربه .

ومعنى الآية :

قال موسى : الله أعلم بأئى جئت بالرسالة من عنده صادقاً ، وأن العاقبة ستكون للمؤمنين ، بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة ، وحاشا لله أن ينتصر الظالمون ، فتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

ويتعلق بالآية أنها جاءت لوحة هادفة في أدب الخطاب فموسى لم يجبههم بأنهم كاذبون ، وأنه رسول مؤيد من عند الله ، لكنه أجابهم بطريق التجهيل ، أى الجهل بمن تكون له العاقبة ، على طريقة القرآن الكريم حين قال : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (سبأ : ٢٤) . وكذلك موسى هنا يقول : الله أعلم بالصادق منا ، وبمن تكون له العاقبة والغلبة في النهاية ، لأن الظالم منا أن يفلح .

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا أَلَمَلَا مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٣٨﴾ وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَانَا لَا يُرْجَعُونَ ٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاْنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتَارِ وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ لَا يُبْصَرُونَ ٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْفَيْصَمَةِ هُمْ مِنَ الْمُقْبُوحِينَ ٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بِكَارٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾

المضردات :

الملك : الأشراف وذوو الرأى .

من إله غيرى : من رب يطاع ويذل له ويعظم غيرى .

هـامان : أحد وزراء فرعون ، لعله وزير الصناعة ، أو العمل والعمال .

أوقسد : أشعل النار على الطين شديدة قوية ، ليتحول إلى آجر ، فيكون أقوى في البناء .

صرحاً : قصرًا عاليًا ، أو بناءً شامخًا .

بغير الحق : بالباطل .

فتبذناهم : طرحناهم ورميناهم .

السيم : البحر ، والمراد به : نهر النيل لاستبحاره واتساعه .

انهم : رؤساء يقتدى بهم .

يدعون إلى النار : إلى الكفر والشرك والمعاصى .

لعمنة : طردًا وإبعادًا عن الرحمة .

المقبحون : المبعدين من كل خير ، مشوهى الخلقة .

الكتاب : التوراة .

القرن الأول؛ هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم .

بصائر للناس ؛ أنوارًا لقلوبهم .

التفسير :

٣٨ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتْلِيهَا السَّمَلُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَسُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه من الكلدانيين .

كان بيان موسى واضحًا ، وشرحه لصفات الإله مقتنًا ، لكن فرعون خشى من تأثير كلام موسى ، ومن إيمان السحرة ، وتحذيرهم لكل عذاب في سبيل الإيمان .

وتفيد الآية ما يأتي :

قال فرعون مخاطبًا أشراف قومه : ليس في علمي أن هناك إلها آخر لكم غير الفرعون الملك ، وهذه بقية عقائد فاسدة ، ترى الملك إلها ، أو حاول فرعون أن يستخف بعقول قومه فأعلن ألوهيته ، وأنكر وجود أي إله آخر ، قال تعالى : فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ . (الزخرف : ٥٤) .

ومبالغة في استخفافه بعقول قومه تظاهر بأنه يريد البحث عن إله موسى ، فطلب من هامان أن يوقد النار على الطوب اللين ، ليتحول إلى آجر ، فيكون أقوى في البناء ، ثم يبني هامان من هذا الآجر قصرًا عاليًا ، أو بناءً شامخًا ، متجهًا نحو السماء ، حتى يصعد عليه الفرعون باحثًا عن إله موسى صوب السماء .

ثم قال فرعون :

وَإِنِّي لأظنه من الكلدانيين .

أي : إنني متيقن من كذب موسى ، لكنني مبالغة في الإنصاف سأبحث عن إله موسى بنفسى ، وهى مبالغة في استخفافه بعقول المخاطبين ، وسير في طريق الكبرياء الكاذب ، والجبروت المفتعل ، وقريب من ذلك قوله تعالى : فَحَشَرَ فَنَادَى • فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . (النازعات : ٢٣ ، ٢٤) .

لقد جمع قومه ونداء فيهم بصوته العالى مصرحًا بأنه الرب الأعلى ، فأجابوه ساء ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة^(٣٧) ، وقد جاء هذا المعنى فى وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَسُنْ آبَن لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ • أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى كَذِبًا ... (غافر : ٣٦ ، ٣٧) .

٣٩ - وَاسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَٰهَاتٌ لَا يَرْجِعُونَ .

أى : استكبر فرعون وجنوده وحاشيته فى أرض مصر ، حيث نشروا الفساد ، وأحدثوا فرقة بين الطوائف ، واستبدلوا بنى إسرائيل ، وبغوا فى الأرض بغير الحق ، حيث تعظموا على الإيمان بالله ورسوله ، ولم يناقشوا رسالة موسى مناقشة عقلية فكرية ، قال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

إن تواضع الحاكم وعدله ، واعتماده على الشورى ، واختيار أكفأ الناس لولاية الأمور ، كلها وسائل استدامة الملك ، أما التكبر والتجبر والتعالى والتأله بدون وجه حق ، فهو خسران وبطلان ، لأن رؤية العظمة للنفس على الخصوص دون غيرها لا تكون حقاً إلا من الله عز وجل .

قال الزمخشري : الاستكبار بالحق إنما هو لله وحده ، وكل مستكبر على سواه ، فاستكباره بغير حق . وفى الحديث القدسي : «الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعنى فى واحد منهما ألقيته فى النار ، ولا أبالي»^(١) . رواه أبو داود ، وابن ماجه ، وابن جبان فى صحيحه ، عن أبى هريرة وابن عباس .
وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَٰهَاتٌ لَا يَرْجِعُونَ .

اعتقدوا ألاما قيامة ولا بعث ولا حشر ولا معاد ولا حساب ، ويشموا من نعيم الدنيا عتوًا وعنادًا وظلمًا وفسادًا ، معتقدين أنهم لا يعودون إلينا ، ولا يرجعون لنا لملاقاة الجزاء ، ومواجهة العذاب .

٤٠ - فَأَعَدُّنَا وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

تطوى السورة أحداثًا كثيرة ذكرت بتوسع فى سور أخرى ، وتنقل إلى الخاتمة التى أنزلها الله بفرعون وقومه ، حينما استدبرهم الحق سبحانه وتعالى ، عندما خرج موسى ليلاً مع بنى إسرائيل ، فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، ثم نجى الله موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، ولمح يد القدرة الإلهية ، كأنما أخذتهم أخذاً فنبدتهم فى اليم ورمتهم فيه رمى النواة ، والأشياء المستغنى عنها التى لم تعد صالحة .

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

فتأمل النهاية المؤلمة ، وتعجب كيف صار الملك الجبار هالكاً بين الأمواج ، وكيف حاول الإيمان عندما رأى الموت رأى العين ، فلم يقبل منه ذلك ، ونجى الله جثته لتكون عظة وعبرة ودليلاً عملياً على سمو القدرة ، وهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين .

قال تعالى: وَجَعَلْنَا بَيْنَ يَدَيْ إِبْرَاهِيمَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَيْنَا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَ الْقَرْقُ قَالَ: ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بُنَوُا إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ «ءَالْأَنْسِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» قَالِیَوْمَ نُنَجِّیكَ بِذَنْبِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَنُفْلِحُنَّ. (یونس: ٩٠ - ٩٢).

٤١ - وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْآثَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ.

لقد صاروا أئمة في الشر، ومثلاً أعلى في الفجور والعدوان، ونموذجاً في طريق الضلال، والصد عن آيات الله، فهم قدوة للفجار وأئمة يقتدى بهم في رفض الحق والتمسك بالباطل، وبئس الإمامة التي تؤدي بصاحبها ومن اقتدى به إلى النار.

وفي الحديث الشريف: «من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(٣٤) رواه مالك، وأحمد، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، عن أبي هريرة وجريير بن عبدالله البجلي.

لقد صار فرعون إمام الظالمين، وعلماء يقتدى به كل ضال، وينهج نهجه كل فاجر، فبأس يؤسه ويا بأس من اقتدى به.

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ.

وفي يوم القيامة يخذلون ويدخلون النار، فاجتمع عليهم ذل الدنيا موصولاً بذل الآخرة، فقد غرق الفرعون في الدنيا، وهو أشد الناس عذاباً يوم القيامة، ويا ليتة العذاب وحده، بل القبح والمهانة، جزاء مجاوزته الحد في العدوان.

٤٢ - وَأَتَيْنَهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ.

قال ابن كثير: وشرع الله لعنتهم، ولعنة ملكهم فرعون، على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله، كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك.

وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ.

فهم في عرصات القيامة صورة مشوهة، يعروها الذل والعار، ويكسوها الفضيحة والهول والقطران، قال تعالى: أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ. (هود: ١٨).

وقال سبحانه: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ يَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. (إبراهيم: ٤٢، ٤٣).

فيا بؤسا لفرعون وجنده ومن سار على نهجه، إن اللعنة تنزل عليهم في الدنيا من الصالحين، وفي الآخرة لا يجدون من يكرمهم، ولا من يستقبلهم بالكرامة أو حسن الاستقبال، بل يجدون الذل والصغار كما قال تعالى: وَأُلْجِئُوا فِي هَلْدِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقَيْئَمَةِ يَشَسُّ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ. (هود: ٩٩).

٤٣ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

لقد كان الحديث طويلاً عن قصة موسى وفرعون، واستأثر فرعون في الآيات السابقة بقسط كبير، فاتجه السياق إلى الحديث عن نصيب موسى، وبيان أن الله من عليه بالتوراة، بعد قرون طويلة لم يرسل فيها رسول، فتكون حاجة الناس أشد إلى الهداية.

قال تعالى: لِنَبِّئَ قَوْمًا مَّا أَتَدْرَأُ أَنَّا وَهُمْ غَفِلُونَ. (يس: ٦).

وكان القرآن - وقد طال الحديث عن عنت فرعون وظلمه، وعاقبته في الدنيا والآخرة - أراد أن يقدم ميزة لهذا الرسول الصابر موسى عليه السلام.

ومعنى الآية:

لقد أعطينا موسى التوراة بعد هلاك الأمم السابقة، مثل قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط، وهذه التوراة جاءت بعد الحاجة إليها، حيث نزلت على فترة من الرسل، ويعد مدة زمنية من انقطاع الرسالات.

بَصَائِرَ لِلنَّاسِ... هداية للقلوب من العمى والغى.

وَهُدًى وَرَحْمَةً... وهداية وإرشاداً وتشريعاً وبياناً للعبادات والمعاملات، مشتملة على رحمة من الله للعباد، حيث شرع لهم ما ينفعهم في الدنيا، ويسعدهم في الآخرة.

لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. لعل الناس يتذكرون بهذا الكتاب ويهتدون بسببه.

وذهب ابن كثير إلى أن هذه الآية تفيد أن الله أهلك الأمم السابقة التي كذبت رسولها، كما أهلك فرعون ومن قبله عقوبة على كفرهم، ويعد نزول التوراة لم تتدخل السماء بعقوبة لإهلاك الظالمين

بل أمر الله المؤمنين بجهاد الكافرين . كما قال تعالى : **وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً .** (الحاقة : ٩٠ ، ٩١) .

روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعداب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض ، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ، ثم قرأ : **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .**

والمقصود هنا : أن الله أهلك الأمم السابقة عندما كذبت رسلها ، وأهلك فرعون ومن قبله من الجبارين ، ثم أنزل التوراة هداية للناس ، ورحمة بهم ، حيث اشتملت على التشريع والقصص والآداب ونظام الدين والدنيا ، لعل الناس يتذكرو فضل الله ، فتطيع وتسعد في دنياها وأخرها ، وكانت التوراة تمهد وتبشر بمحمد ﷺ وأمته ، وكذلك الإنجيل ، فهذه الآية كالتمهيد لما يأتي بعدها من سوق الأدلة على صدق الرسول ﷺ .

قال يحيى بن سلام : التوراة أول كتاب نزلت فيه الفرائض والحدود والأحكام .

★ ★ ★

﴿ وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الْغَرِيبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٤٤) **وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَاحًا وَلَعَلَّهُمْ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتَ تَأْوِيهِمْ أَهْلَ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ** (٤٥) **﴿ وَمَا كُنْتَ بِحَايِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾** (٤٦) **﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** (٤٧) **﴿**

المفردات :

الغريبى : الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات ، وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى .

قضينا : عهدنا إليه ، وكلفناه أمرنا ونهينا .

الأممر : أمر الرسالة .

الشاهدين ، الحاضرين للوحى من جملة السبعين المختارين .

انشاناقرونا ، خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة .

فتطاول ، تمدادى وتباعد .

عليهم العمر ، عليهم الزمن ، قال تعالى : فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الحديد : ١٦) .

شاوييا ، مقيما .

أهل مدين ، قوم شعيب عليه السلام .

الطور ، الجبل .

تنشر ، لتخوف وتحذر .

مصيبة ، عذاب الدنيا والآخرة .

تولا «الثانية» ، هلا ، وتفيد تمنى حصول ما بعدها والحث عليه .

تمهيد :

قص القرآن الكريم جانباً من قصص موسى وشعيب وغيرهما من الأنبياء ، وهنا يقدم القرآن الأدلة على صدق رسالة الرسول ﷺ ، فقد حوى القرآن أخبار الأمم السابقة ، كقصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى ، مع من أرسلوا إليهم ، وهذه الأخبار تطاول عليها الزمن ، ووجد نصيب منها فى التوراة سليماً من التحريف ، ونصيب منها محرف ، قومه القرآن وأرشد إلى الصواب واليقين فيه ، ومحمد ﷺ كان أمياً نشأ فى أمة أمية ، ولم يتجول فى البلاد ، ولم يقرأ أخبار الأمم ، ثم قص هذا القصص بالحق ، فلا يمكن أن يروى هذا القصص بهذا التفصيل البارع إلا أن يكون ذلك عن طريق الوحى الإلهى ، الذى أنزله الله عليه ليبلغه للناس ، تحقيقاً لوعده الله ألا يعذب أمة إلا بعد أن يرسل إليها الرسل ، ويبلغها الكتب وأمر الرسالة وشئونها على وجه يحرك فيها داعية القبول ، فإذا أطاعت فلها السعادة فى الدارين ، وإلا فقد أعذر من أنذر .

التفسير :

٤٤ - وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْتَ إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

والغربى هو الجانب الغربى للطور الذى جعله الله ميقاتاً مع موسى عليه السلام ، بعد أجل محدد ثلاثين ليلة ، أتمها بعشر فكانت أربعين ليلة .

قال تعالى : وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْتَهَا بِعَشْرِ فَمِمَّا قِيلَتْ رَبِّهِ أَتَبِعِينَ لَيْلَةً ... (الأعراف : ١٤٢) .

وفى هذا الميقات قضى الأمر لموسى فى الألواح ، لتكون شريعته فى بنى إسرائيل . وما كان رسول الله ﷺ موجوداً بجانب الجبل الغربى ، حين عهد الله تعالى بالرسالة إلى موسى ، وأحكم أمر نبوته بالوحى وإنزال التوراة ، وما كان من جملة الشاهدين الحاضرين للوحى ، وهم السبعون المختارون للميقات المنوّه عنهم بقوله تعالى : **وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ...** (الأعراف : ١٥٥) .

أو ما كنت من الشاهدين بجميع ما أعلمناك من شأن موسى ، وأخبرت به ، فهو نفى لشهادته ﷺ جميع ما جرى لموسى .

٤٥ - وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

هذه الآية استدراك ، لتأكيد المعنى السابق قبلها .

والمعنى :

ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا وأمما كثيرة ، تمارى وتباعد عليها الزمن ، فتغيرت الشرائع ، وتبدلت الأحكام ، وعميت عليهم الأنباء ، ولاسيما ما كان منهم فى آخر هذه الأزمان ، من الذين أنت فيهم ، فافتضت حكمة الله أن يرسل محمداً ﷺ على فترة من الرسل ، لينذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبله لعلهم يهتدون .

وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا ...

لقد تحدث القرآن عن قصة موسى ، واتجاهه صوب مدين وإصهاره إلى شعيب ، ومحمد ﷺ لم يكن مقيماً فى أرض مدين ليتسمع منهم ويتعلم هذه الأخبار عنهم ، ثم يتلوها على قومه ، بهذا الإخبار الصادق الذى أخبر به .

وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

ولكن ذلك لأننا أوحينا إليك ، وأرسلناك رسولا .

٤٦ - وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِّنْ رَبِّكَ لِتَلْزَقَ قَوْمًا مَّا أَنلَهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

لقد أخبرت عن الأنبياء والرسل ، والأمم والقيامة والبعث ، وما كان لك من علم بذلك إلا عن طريق الوحى ، فأنت لم تشاهد موسى عند تلقيه الرسالة ، ولم تكن بجانب الطور حين ناداه ربه وأوحى إليه ، فالآية اختيار اللحظة معينة اتصلت فيها السماء بالأرض ، وتفضل فيها الرب الكريم على موسى .

قال تعالى: فَلَمَّا آتَاهَا نُودِيَ يَمْؤُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى * وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي . (طه : ١١ - ١٤) .

ونلمح هنا أن الآية ٤٤ تكلمت عن رسالة موسى بصفة عامة ، أما الآية ٤٦ فقد اختارت لحظة التفضل على موسى بالدعاء والمناجاة ، فهذه أخص والسابقة أعم .

وقال قتادة : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا . موسى ، وهذا أشبه بقوله : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرْبَىٰ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ... ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك وهو النداء ، كما قال تعالى : وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ... (الشعراء : ١٠) . وقال تعالى : إِذْ نَادَيْنَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى . (النازعات : ١٦) .

وقال تعالى : وَلَنَذْنِبُهُنَّ مِنْ حَاجِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا . (مريم : ٥٢) .

ولكن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

أى : إنك لم تكن بجانب الطور حين نادينا موسى ، ولكن أعطاك الله الرسالة : رحمة وفضلاً وكرامة ، وفيها هذه الأخبار ، وفيها أيضاً التشريع والهداية ، لتتذنب بها قومك الذين لم يرسل إليهم رسول منذ عهد إسماعيل عليه السلام ، وهى مدة تزيد على ألفى عام ، فقد طال العهد عليهم ، ويعدّ الأمد بالرسل ، فكان من رحمة الله وفضله أن أرسلك على حين فترة من الرسل ! لترشد الناس إلى الإيمان ، وتذكركم بالوحي ، وترشدهم إلى الخالق الواحد سبحانه وتعالى .

٤٧ - وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

وأرسلناك لتقيم عليهم الحجة ، وتقطع عنهم العذر ، حين ينزل عليهم عذاب فى الدنيا أو الآخرة ، فيقولون : يا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً يرشدنا ويحذرننا ، فننتبع آياتك المنزلّة عليه ، ونكون من المؤمنين به ، فالآية تعقيب يبين الحكمة فى إرسال الرسل عامة ، وفى رسالة محمد ﷺ خاصة ، وهى الإعذار إلى الناس ، وإخبارهم بحقائق الكون وخلق الدنيا ، والبحث فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا . (الإسراء : ١٥) .

ويقول عز شأنه : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

جاء في ظلال القرآن :

فهي رحمة الله بالقوم ، وهي حجة كذلك عليهم ، كيلا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة ، وأنهم لم يُنذروا قبل أخذهم بالعذاب - وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب - فأراد الله أن يقطع حجتهم ، وأن يعذر إليهم ، وأن يوقفهم أمام أنفسهم ، مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان . اهـ .

★ + ★

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

المفردات :

الحق : القرآن المنزل على محمد ﷺ ، أو الرسول المصدق بالقرآن .

سحـــــران : أى : ما أوتيهم موسى ، وما أوتيهم محمد ﷺ .

تظاهـــــرا : تعاونا بتصديق كل منهما الآخر .

أهـــــدى : أقوى فى الهداية .

منـــــهما : من القرآن والتوراة .

فإن لم يستجيبوا ، فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به .

تمهيد :

تناقش الآيات مشركى مكة مناقشة عقلية ، فتستعرض تكذيبهم بالقرآن ، وتعللاتهم ، واقتراحاتهم المتعنتة ، وتقدم عليهم الإتيان بكتاب أهدى من التوراة والقرآن ، فإن عجزوا وأصروا على الكفر فهم أتباع الهوى والضلال ، وكفى .

التفسير :

٤٨ - فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّوْنٌ .

بعد فترة من الرسل أرسل الله محمداً ﷺ ، فلما جاءهم بالحق : بالرسالة الحق ، وبالقرآن الحق ، وبالقول الحق والصدق ، والدعوة إلى الإيمان والإسلام : أنكروا رسالة محمد ﷺ ، وقالوا في أسباب كفرهم : هلا أوتى محمد ﷺ معجزات مادية ملحوظة مثل ما أوتى موسى ، «يعنون مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقيص الزروع والثمار مما يضييق على أعداء الله ، وكفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة على يدى موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه» (٣٠) .

وقريب من هذا المعنى ما حكاه القرآن عنهم حين قالوا : لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ... (الفرقان : ٨٠٧) .

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ...

أولم يكفر أمثالهم فى الكفر والعناد بما أوتى موسى ؟ حيث كذبوا موسى ، وكفروا برسالته ، كما قالوا : أَرَجَسْنَا نَتْلُوَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ... (يونس : ٧٨) .

وقال تعالى : فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ . (المؤمنون : ٤٨) .

قال ابن كثير :

أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ...

أى : أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة .

قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا ...

أى : سحر موسى وسحر هارون تعاونا .

وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّوْنٌ .

أى : بكل منهما كاذبون . ١٠ هـ .

أى : إن التكذيب لم يكن فى أهل مكة وحدهم ، بل سبقهم قوم فرعون ، حيث أيد الله موسى بآيات باهرة منها تسع آيات بينات ، لكنهم كذبوا موسى وهارون ، وقالوا : ساحران تعاوننا وإنا كافرون بهما ، فالكفر والعناد كانا طبيعة فى المكذبين بالرسل على مختلف العصور ، كأنما وصى السابق منهم اللاحق .
قال تعالى : **أَتَوَّضَّؤُا بِهِمْ قُرْءَ طَافُونُ** . (الذاريات : ٥٢) .

رأى آخر فى تفسير الآية

رُوى أن أهل مكة بعثوا رهطاً إلى رؤساء اليهود ، فسألوهم عن شأن محمد ﷺ ، فقالوا : إنا نجده فى التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود ، قال كفار مكة : **سِحْرَانِ تَظْهَرَا** ... أى : سحر موسى وسحر محمد . **وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّكُفْرُونَ** . أى : بكل من الكتابين - التوراة والقرآن - كافرون ، قالوا ذلك تأكيداً لكفرهم وعتوهم وتماديهم فى العناد والطغيان .

قال الألوسى :

وقرأ الأكثرون : **قَالُوا سِحْرَانِ تَظْهَرَا** ... وأرادوا بهما محمدًا وموسى عليهما الصلاة والسلام .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

لقد كان فى الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة ، ولقد علموا أن صفة محمد ﷺ مكتوبة فى التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ، فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر ، **قَالُوا سِحْرَانِ تَظْهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَذِبٍ لَّكُفْرُونَ** .

فهو المرء إذن واللجاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

٤٩ - **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُ** **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** .

أى : إن لم يعجبكم القرآن ولم تعجبكم التوراة ، فأتوا أنتم بكتاب منزل من عند الله أفضل منهما ، وأكثر اشتمالاً على الهدى وبيان التشريع ، والقصص والآداب ومكارم الأخلاق ، فإذا أنيتم بهذا الكتاب فسأتبعه وألتزم بهديته .

إِنْ كُنْتُمْ صَالِحِينَ . فَيَأْتِيهِمْ سَحَابٌ مِّمَّا فِي السَّمَاءِ ، وَأَوْفَى أَنْ سَبَّ رَفُضَكُمْ نَقَصَ الْحُجَّةَ وَالِدَلِيلَ ، لَا اتِّبَاعَ الْهَوَىِّ وَالْمَكَابِرَةَ بِدُونِ دَلِيلٍ .

قال ابن كثير :

وقد علم بالضرورة لذوى الأبواب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء - فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه - أكمل ولا أشمل ولا أفصح ، ولا أعظم ولا أشرف ، من الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ ، وهو القرآن ، ويعدّه فى الشرف والعظمة ، الكتاب الذى أنزله على موسى عليه السلام ، وهو الكتاب الذى قال الله فيه : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... (المائدة : ٤٤) .

والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ، ومحلاً لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ، ولهذا قال الله تعالى :

قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَالِحِينَ .

أى : فيما تدافعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل ^(٣١) .

٥٠ - فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكَ الْغَنَاءُ وَهُمْ وَأَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتَّبِعَ هَوَاهُ بَغْيٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

فإن لم يستجيبوا لك فى الإتيان بكتاب هو أهدى من التوراة والقرآن ، فطب نفساً ، واطمئن قلباً ، وازدد ثقة بأنك على الحق ، وأنهم إنما يتبعون الهوى ، والكبر والعناد بلا دليل ولا حجة .

وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَتَّبِعَ هَوَاهُ بَغْيٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ ...

أى : لا أحد أضل ممن سار على هواه وشيطانه ، بدون أن تكون معه هداية الله ومعونته .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

لقد ظلموا أنفسهم باتباع الباطل ، ورفض الحق ، فسلب الله عنهم الهدى ، وتركهم فى الغي والضلال ، جزاء ظلمهم وعنادهم .

جاء فى تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ما يأتى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق واتباع سبل الرشده من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسله ، وبدلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم ، إشاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمان ا . هـ .

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ أُنزِلَتْ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنُ قَالُوا أَمْنَابِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (٥٦)

المفردات :

وصلنا لهم : التوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض ، قال الشاعر :

فقل لبني مروان ما بالي نيتي
بحبل ضعيف ما يزال يوصل

والمراد به هنا : إنزال القرآن منجماً مفروقاً ، يتصل بعضه ببعض .

يتذكرون : يتعظون ويتدبرون :

مسلمين : متقادين خاضعين لله .

يدفعون : يدفعون .

الافغوا : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول .

سلام عليكم : كلمة توديع ومشاركة لا تحية .

لا تبتغي الجاهلين : لا نطلب صحبة الجاهلين ، ولا نريد مخالطتهم ولا جدالهم .

تمهيد :

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، أثبت هنا أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تنظاً على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

التفسير :

٥١ - وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .

تواصلت الرسالات رسولاً بعد رسول ، وتواصلت الكتب التى ختمت بالقرآن الكريم ، الذى و تواصلت السابقة ، وجاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه .

فوصل الله سلسلة الرسالات بالإسلام ، ووصل سلسلة الكتب والصحف بالقرآن ، لعل الناس تذكر ربها ودينها ، وليستمر صوت التذكير والتنبيه ، وتتجدد الدعوة إلى الإيمان حالاً بعد حال ، وزماناً بعد زمان ، لقد خلد الله صوت الحق الإلهي بهذا القرآن ، وجعله ذكرى متجددة دائمة للأجيال ، بما تكفل له من الصون والحفظ عن التغيير والتبديل ، وبما اشتمل عليه من التنوع في الأسلوب والخطاب ، وعداً ووعيداً وقصصاً وعبراً ، نصائح ومواعظ ، إرادة أن يتذكر الناس به ويعملوا بموجبه فيفعلوا .

قال القرطبي : الآية الكريمة رد على من قال : هلا أوتي محمد القرآن جملة واحد ، مثل ما أوتي موسى التوراة كذلك ١٩ هـ .

والمعنى :

أنزلنا القرآن الكريم منجماً ومقسطاً ، حسب الوقائع والحوادث ، ليتواصل تذكير الناس بربهم ، وليكون القرآن الكريم كتاب الحياة ، يجب على أسئلة الناس ، ويناقش المشركين ، ويصحح المفاهيم ، وينسخ الأحكام عند الحاجة إلى النسخ أو التيسير ، فقد نزل القرآن الكريم في مكة ثلاثة عشر عاماً ، يشرح العقيدة ، ويعمق الإيمان ، ويرد على شبهات المشركين ، ونزل القرآن في المدينة عشر سنوات ، نزلت فيها آيات الأحكام والجهاد والرد على شبه أهل الكتاب ، وكشف لأعيب المنافقين ، وتفصيل أحكام السلم والحرب ، والعبادات والمعاملات ، فتواصلت آياته ، وامتد نزوله ، ليساند المؤمنين ويذكر الغافلين ، وكان الرسول أمياً ، فكان من الرفق به أن ينزل القرآن منجماً يؤازره ، وييسر عليه حفظ القرآن وكتابته لدى كتاب الوحي .

قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) .

٥٢ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ .

كان بعض اليهود والنصارى يدخلون في الإسلام راغبين باكين مصدقين بالقرآن ، معلنين أن التوراة نصت على رسالة محمد ﷺ ، وأنهم آمنوا بالقرآن ، وبصدق محمد ﷺ لمطابقة القرآن لأصول كتبهم ، ويشارة تلك الكتب بمحمد ﷺ ، وتطابق الأوصاف عليه .

قال القرطبي : ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلاً قدموا المدينة ، منهم اثنتان وثلاثون رجلاً من الحبشة مع جعفر بن أبي طالب ، وثمانية من الشام ، وكانوا أئمة النصارى ، وأنزل الله فيهم هذه الآية وما بعدها .

وأخرج ابن جرير ، عن علي بن رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب ، منهم رفاعة - يعنى أباه - إلى النبی ﷺ ، فأمّنوا فأودوا فنزلت : الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ الْكِتَابُ ... الآيات .

وأخرج ابن جرير أيضاً عن قتادة قال : كنا نتحدث أنها نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على الحق ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فأمّنوا به ، منهم سلمان الفارسي وعبدالله بن سلام .

وقال سعيد بن جبیر : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبی ﷺ قرأ عليهم : يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . (يس : ١ ، ٢) . حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا^(٣٧) .

وفي معنى الآية قوله تعالى : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ ... (ال عمران : ١٩٩) .

٥٣ - وَإِذَا يُنْقَلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ .

وإذا قرئ القرآن عليهم استجابوا له ، وقالوا : آمنا به وصدقنا بأنه كلام الله لاشتماله على الحق والصدق ، ولأنه معجز للبشر وهو من كلام ربنا ، إنا كنا قبل نزول هذا القرآن منقادين لأحكام الله ، نجد في التوراة بشارة بأحمد وأمنه ، والكتاب المنزل عليه .

قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَكُونُ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنَةِ ... (الفتح : ٢٩) .

وقال عز شأنه : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْقُرْآنَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يُتْلَى مِنْ بَعْذِ آسْمَائِهِمْ أَحْمَدُ ... (الصف : ٦) .

٥٤ - أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

هؤلاء المؤمنون بالقرآن والإسلام من أهل الكتاب يضاعف لهم الثواب ، ويؤتون أجرهم مرتين الأولى : لإيمانهم بنبِيِّهم موسى ، أو بنبِيِّهم عيسى ، وصبرهم على اتباع تعاليم اليهودية أو المسيحية والثانية : لإيمانهم بالقرآن ورسالة محمد ﷺ ودخولهم في الإسلام ، وصبرهم على الأذى ، واحتمالهم الإساءة ممن يعيرهم بذلك ، أو يعيب عليهم الدخول في الإسلام وقد مدحهم الله بما يأتي :

١ - الثبات على الإيمان والصبر وتحمل تبعات الإيمان .

٢ - مقابلة الإساءة بالإحسان .

٣ - الإنفاق من النفس والمال والعلم وسائر ما رزقهم الله .

وقد وردت عدة روايات في تفسيرى القرطبى وابن كثير ، وسيرة ابن إسحاق ، تفيد أن مجموعة من أهل الكتاب ، أو من علماء النصارى أو أحيار اليهود ، أو أصحاب النجاشى ، قدمت على النبى ﷺ ، فسألوه عن هذا الدين ، ثم قرأ عليهم القرآن ، ففاضت عيونهم بالدمع ، ودخلوا فى الإسلام ، واستجابوا لله وأمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره ، فلما قاموا من عند النبى ﷺ بالمسجد الحرام بمكة ، اعترضهم أبو جهل ويخهم على ترك دينهم ، وتصديقهم محمداً ، فقالوا لأبى جهل ومن معه : سلام عليكم ، لانجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه ، وقد قيل : إنهم النفر النصارى من أهل نجران ، ونقل ابن إسحاق أنهم قدموا بمكة على رسول الله ، وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك ، وأخرج ابن جرير أنهم كانوا عشرة من أهل الكتاب .

وفى تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبیر : نزلت هذه الآية وما بعدها ، فى سبعين من القيسيين بعثهم النجاشى ... فأسلموا ، وإذا تأملنا فى هذه الروايات ، نقول : لعل حضور وفد من أهل الكتاب تكرر أكثر من مرة ، فحيناً كان عشرة ، وحيناً كان عشرين ، وحيناً كان سبعين ، فذكرت كل رواية قصة وفد معين ، وعموماً فالعبرة باللفظ لا بخصوص السبب .

وقد ورد فى صحيحى البخارى ومسلم روايات عديدة تفيد أن من آمن من أهل الكتاب بالإسلام فله أجران ، فعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها ، فتنزوجها» (٢٨) .

وروى أبو أمامة قال : إني لثخت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح ، فقال قولاً حسناً جميلاً ، وقال فيما قال : «من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا» (٢٩) .

٥٥ - وَإِذَا سَمِعُوا اللَّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغَى الْجَاهِلِينَ .

يؤتيهم الله أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بنبيهم ثم آمنوا بمحمد ﷺ ، ولأنهم تخلقوا بالأخلاق الحسنة ، ومنها مقابلة الإساءة بالإحسان ، والهجر من القول بالصمت أو بالترك .

وتفيد كتب السيرة والتفسير مثل الألوسى وابن كثير والطبرى وغيرهم ، أن وفداً من نصارى نجران ، أو من أصحاب النجاشى قدم على رسول الله ﷺ فى المسجد الحرام ، فلما سمع القرآن بكى وأسلم ، ثم قام

الوفد فاعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، تردادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تظمنن مجالسكم عنده حتى فارقتن دينكم، وصدقتموه فيما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. ا. هـ.

وتقرير معنى الآية ما يأتي

إذا غيرهم المشركون أو غيرهم، أو أذاهم الناس بالقول أو الفعل، أعرضوا عن الأذى وسكتوا عن الرد على الجاهلين، وقالوا: لنا أعمالنا سنجاسب عليها وحدنا، ولكم أعمالكم ستحاسبون عليها وحدكم، سلام عليكم، سلام متاركة، أي: وداعاً سنترككم، لا نريد صحبة الجاهلين، ولا نريد أن نخوض في الجدل والمشامة مع السفهاء.

٥٦ - إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

كان ﷺ حريصاً على هداية قومه وذوى قرابته، خصوصاً عمه أبا طالب، الذي بذل نفسه لحماية ابن أخيه والدفاع عنه، حماية وعصبية لا من أجل العقيدة، لقد كان أبو طالب صخرة تحطمت عليها أطماع قريش في النيل من النبي ﷺ، وبذل الكثير من أجل حمايته والدفاع عنه، وتحمل أبو طالب المقاطعة في شعب بني هاشم مع كبر سنه، وكان النبي ﷺ حريصاً على هداية عمه إلى الإسلام، ضيقاً به أن يعذب في نار جهنم، والله تعالى وحده يعلم من هو الشخص الذي سبقت له الهداية، ومن هو الشخص الذي ختم على قلبه فلا يقبل الهداية، فما أجل هذا الإسلام، وما أعظم الهدف، وما أسمى وأعدل الحكمة الإلهية، ابن نوح عليه السلام يغرق مع الكافرين، ويحاول أبوه أن يشفع له فيقول له الله تعالى: قَالَ يَتُوحُّ إِلَهُ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِلَهُ، عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْظَمَكَ بُنَىٰ تَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (هود: ٤٦).

وهنا يثوب نوح إلى الحقيقة الثابتة، والعدالة الإلهية، وهي أن كل إنسان بما كسب رعين، فلا ينفع الإنسان علو درجة أقرب الناس إليه، ولا يضُرُّه تهوى أقرب الناس إليه. وأمثلة ذلك كثيرة: إبراهيم عليه السلام دعا أباه للإسلام، واعتزله واستغفر له، ثم تبرأ منه عندما علم أنه عدو لله، امرأة نوح وامرأة لوط خانتاهما فدخلتا النار، امرأة فرعون أسلمت وأمنت وتحملت الآلام، فجعلها الله مثلاً أعلى للذين آمنوا.

وقد ثبت في الصحيحين: أن الآية نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ.

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب، عن أبيه - وهو المسيب بن حزن المخزومي رضى الله عنه - قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أبي أمية

ابن المغيرة ، فقال رسول ﷺ : «يا عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»^(١٠١) . فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ : «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك» ، فأنزل الله تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ... (التوبة : ١١٣) .

وأنزل في أبي طالب : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ...

وروى الترمذي من حديث يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة قال : لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : «يا عماء ، قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»^(١٠٢) . فقال : لولا أن تعبرني بها قريش ، يقولون ما حملته عليها إلا جزع الموت ، لأقربت بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك . فأنزل الله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .

وخالف في ذلك الشيعة ، وقالوا بليمان أبي طالب ، وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك .

★ ★ ★

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهَدَىٰ مَعَكَ نُنْخَفِظُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ مَنَايِجَ إِلَيْهِ ثَمَرَتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِطَرَفِ مَعِيشَتِهَا فَبِئْسَ مَا كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تُنْفَخُ الْأَفْئِدَةُ مِنَ الْأَرْضِ وَلِقَائِهَا أَصْحَابُ الْأَنْثَارِ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْتَلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُونَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۚ لَا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ مِّنَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَئِيْقٍ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾

المفردات :

نُخَفِظُ : نخرج ، أو يبطش بنا أعداؤنا ، وأصل الخطف : الاختلاس بسرعة ، فاستعير لما ذكر .

أَمِنَّا، مَكِينًا .

يجبى إليه ، يحمل إليه ويجمع إليه من كل جانب وجهة .

بطرت معيشتها ، بغت وتجبرت ولم تحفظ الله ، من البطر ، وهو جود النعمة ، وكفران الفضل ، وفى القاموس : البطر : الأشر وقلة احتمال النعمة ، أو الطغيان بها ، وفعله بطر كفرح .

أَمَّهَا ، أكبرها وأعظمها ، وهى أصلها وعاصمتها ، وأمّ القرى : مكة ، لأنها توسطت الأرض ، أو لأنها قبله الناس يؤمونها .

لَاقِيَهُ ، مدرك له ، ظافر به .

من المحضرين ، الذين يحضرون مرغمين للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن ، كما قال : لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . (الصافات : ٥٧) . أى : المرغمين على الحضور ، لأن فيه إشعاراً بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل أشبه بمجالس المكاره .

التفسير :

٥٧ - وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَذَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

قال بعض الكفار للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن ما جئت به هو الحق ، ولكننا نخشى إذا اتبعنا دينك أن تغير علينا القبائل ، أو تهاجمنا فارس والروم .

وكان العرب فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ، ويقيمون الحروب لأتفه الأسباب ، وهم فى صحراء واسعة ، ليس لها ملك أو حكومة ، وإنما كل قبيلة لها شيخ قبيلة ، وإذا ثار نزاع احتكموا إلى السيف ، والحرب والغارة والعدوان ، وكان أهل مكة آمنين مطمئنين ، سالمين من العدوان عليهم ، فهم سدة البيت الحرام ، والقائمون عليه ، وكانوا يتحركون بتجارتههم شمالاً وجنوباً ، صيفاً وشتاءً ، ولا يعتدى عليهم أحد ، مع العدوان على غيرهم من الناس ، فامتن عليهم بتلك النعم ، وهى نعمة الأمن والأمان ، وواجههم بذلك قائلاً :

أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ تَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ...

لقد كانوا مقيمين بواد غير ذى زرع عند البيت الحرام ، والعرب يعظمون البيت الحرام ، ويحافظون على حرمة ، ويحملون الثمار والخيرات إلى هذا البيت من كل مكان .

رَزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

كان هذا الرزق الذى يحمل إلى البيت الحرام وأهله فضلاً من الله تعالى ، واستجابة لدعاء إبراهيم الخليل ، وتيسيراً من الله تعالى لاحترام بيته ، وإكرام المقيمين حوله ، وهذا الرزق والفضل والحماية ، والحصانة والنعمة من الله القادر الرزاق ، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون ذلك ، فيتركون الإسلام والإيمان ، وإذا كان الله قد تفضل عليهم بالرزق وهم كفار مشركون ، يعبدون الأصنام ، أفيتركهم حين يدخلون فى الإسلام ، قال تعالى : **لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُرْسِدُ الْبُلُوكَ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَسْرِ لِيُصْرِفَهُمُ فِي سُبُلٍ مَّخْرُوجَةٍ لَّا يَعْلَمُونَهَا لِيُفْلِتُوا مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَفْعَلُونَ قَدِيرٌ** . **الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ** : (قريش : ١ - ٤) .

وقال تعالى : **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّا عَمِنَا وَإِذْ يُخَفُّ الْوَيْطُ يَنْظُرُونَ لِيَرْجِئَهُمُ اللَّهُ لِيُرْسِلَ شِيعًا يُخَيِّرُونَ** . (المنكوت : ٦٧) .

٥٨ - **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ** .

أراد القرآن أن يؤكد لأهل مكة أن سبب هلاك القرى يكمن فى ظلمها وكفر النعمة ، والبطر والأشر والعدوان ، والقتل بدون وجه حق .

والخلاصة : أن الكفر بنعمة الله هو سبب الهلاك ، وليس الإيمان بالله أو بالرسول محمد ﷺ .

ومعنى الآية :

كثيراً ما أهلكنا من قرى الظالمين ، كعاد وثمود وقوم لوط ، بسبب عتوهم ويطهرهم بالنعمة وكفرهم بالرسول ، وسوء استخدامهم للنعمة ، فهذه بيوتهم خاوية بعد هلاكهم ، لم تُسكن بعد هلاك أهلها ، إلا وقتاً قليلاً ، هو وقت المستريح بها من القيلولة ، أو من ظلام الليل ، لأنها لا تصلح للإقامة الدائمة ، لما أصابها من التصدع .

وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . فلم يوجد من أبناء الهالكين من يرثها ، لهلاك الجميع والقضاء عليهم ، أو لأنها بعد الصاغة أو الطاغية أو التدمير لم تعد تصلح للسكنى .

قال القرطبي :

بين سبحانه لمن توهم أنه لو آمن لقاتلته العرب وتخطفته أن الخوف فى ترك الإيمان أكثر ، فكمن من قوم كفروا ثم حل بهم البوار ، والبطر : الطغيان بالنعمة . ١ هـ .

٥٩ - وَمَا كَانَ رِزْقُ مَهْلِكِ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ .

الله تعالى لا يظلم الناس ، ولا يهلكهم بدون وجه حق ، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

ومن عدالة الله تعالى ورحمته بالعباد إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وتقديم النصيحة ، ومن شأن الرسل أن تكون في القرى الرئيسية كالعاصمة للقطر ، أو عاصمة الإقليم كالمحافظة ، أو قرية تكون أساساً وعماداً لما حولها من القرى ، مثل مكة فهي أم القرى ، أى : عاصمة الجزيرة العربية .

والمعنى : ما صحح ولا استقام فى حكمتنا وشرعنا أن نهلك قرية من القرى ، حتى نرسل رسولاً فى عاصمة هذه القرية للتبليغ والإرشاد ، والنصح والتوجيه ، وتلك مهمة الرسل ، قال تعالى : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

هؤلاء الرسل يقرءون الوحي والقصص ، ويدعون الناس إلى الله تعالى ، بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، ويبان منهج الله تعالى وسنته وشريعته ، وأوامره ونواهيه ، فمن أطاع الله كانت له سعادة الدارين ، ومن عصى وطفى وبغى أهلكه الله جزاء ظلمه وبغيه .

وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ..

فأله تعالى لا يهلك الناس عبثاً ، ولا يعاقبهم جزافاً ، وإنما يهلك من كذب الرسل ، وجحد النبوات ، وظلم وطفى وبغى ، فاستحق الهلاك بعمله وبغيه ، قال تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً بِأَيِّهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

وقد أرسل الله محمداً ﷺ فى مكة وهى أم القرى ، وقد كذب أهلها ، فكأن فى الآية وعيداً وتهديداً لأهل مكة ، والله أعلم .

٦٠ - وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .

تأتى هذه الآية كالدرد على قول المشركين : إِنَّ تَتَّبِعِ الْهَيْدَىٰ مَعَكَ تَتَخَفُفَ مِنْ أَرْضِنَا ...

فبين الله فيما سبق أن الإيمان سبب للأمان المادى والنفسى ، وأن الكفر والطغيان سبب فى الهلاك والعذاب ، وهنا يقول القرآن : إن كل ما يناله إنسان فى هذه الدنيا من مال أو جاه أو سلطان ، هو متاع قليل من متاع الدنيا محدودة الأجل .

قال تعالى : **فَمَا مَتَلَعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ** . (التوبة : ٣٨) .

وقال تعالى : **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

فالدنيا فانية والآخرة باقية ، ومتاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة دائم لا يزول ، وما عند الله من ثواب وجنة ونعيم ورضوان أفضل وأبقى وأعز وأكرم ، فهلا استخدمتم عقولكم لتسارعوا إلى الإيمان ففتنوا عز الدنيا وبشرف الآخرة .

وقد كثر حديث القرآن عن هذا المعنى فبين أن متاع الدنيا ظل زائل وعرض حائل ، وأن متاع الآخرة خلود فى الجنة ، ومغفرة من الله ورضوان .

قال تعالى : **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَلَعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ * فَمَنْ أُؤْتِسُكُمْ بَخِيرٌ مِّنْ ذَلِكَُمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِنَّا عِذَابُ النَّارِ * الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالْقَائِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** . (آل عمران : ١٤ - ١٧) .

ويقول الشاعر :

نالله لو عاش الفتى فى دهره	ألفا من الأعوام ممالك أمره
متنعها فيها بكل نفيسة	مثلثذا فيها بنعمى حمرة
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترك الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفنى	بمبيت أول ليلة فى قبره

وقال عمر بن عبد العزيز للحسن البصرى : يا تقى الدين عظنا وأوجز ، قال : يا أمير المؤمنين ، صم عن الدنيا وأطرد على الموت ، وأعد الزاد لليلة صباحها يوم القيامة .

٦١ - أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَغَدَاً فَهُوَ لَقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

تأتى هذه الآية لتقارن بين نصيب المؤمن ونصيب الكافر ، فالمؤمن متيقن بالآخرة مؤمن بالله وكتبه وملأنته ورسله ، مؤمن بالجزاء والثواب والعقاب ، هذا المؤمن وعده الله وعداً حسناً : أى : جنة عالية وقد صدق بوعده الله فسيلقى هذا النعيم ، أهذا فى حصوله على النعيم الدائم ، كرجل كافر متعه الله بمتاع الدنيا من المال والزواج والجاه وسائر المتع ، ثم هو كافر ، مطالب بالحضور والمثول أمام عدالة الله يوم القيامة ، أيهما أفضل ؟

وفى سبب نزول هذه الآية ، قال ابن عباس : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب ، وأبى جهل بن هشام . وقال مجاهد : نزلت فى النبی ﷺ وأبى جهل . وقال الثعلبى : نزلت فى كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وفى كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ، ثقة بوعده الله وله فى الآخرة الجنة . اهـ .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٩﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٢١﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾﴾

المضردات :

حق عليهم القول ، ثبت ووجب عليهم آيات الوعيد كقوله تعالى : وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة : ١٧) .

اغويننا ، أضلنا ، بأن دعوناهم إلى الغي والضلال .

تبرأنا إليك ، تبرأ بعضنا من بعض ، فالشياطين يتبرءون ممن أطاعهم ، والرؤساء يتبرءون ممن تبعهم .

فعميت عليهم الأنباء ، خفيت عليهم الحجج ، خفاء المرئى على الأعمى .

لا يتساءلون ، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الحجج .

الخيبة ، الاختيار .

ما تكن صدورهم ، ما يخفون في صدورهم من الاعتقادات الباطلة ، وعداوتهم للرسول ﷺ .

وما يعلنون ، ما يظهره من الأفعال الخبيثة ، والظلم في الإسلام .

له الحكم ، لله وحده القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره .

تمهيد :

تعرض الآيات بعض مشاهد القيامة ، كأنك تراها رأى العين :

فالله يسأل المشركين : أين الآلهة الباطلة التى عبدتموها من دون الله ؟ فلا جواب ، وكأنَّ الرؤساء والشياطين أحسوا أنهم المقصودون ، فثبروا إلى الله من عبادة الأتباع ، وقالوا : ربنا هؤلاء الذين حق عليهم عذاب جهنم ، لم نجبرهم على الكفر ، إنما دعوناهم فقط ، فاستجابوا بقولهم وإرادتهم .

كان الكفار يعبدون أصناماً وأوثاناً ، وآلهة كثيرة بدون وجه حق ، فطلب منهم الاستعانة بهؤلاء الشركاء ، فدعوهم فلم يجدوا منهم استجابة ، وهنا شاهدوا العذاب ، وتمنوا لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا . والقرآن بهذا يعرض الآخرة ليراهها الناس رأى العين ، ويفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان .

ويوجه القرآن أسئلة معلوماً جوابها ، لكنها للتبكيك والتقريع ، فيسأل الكافرين : بماذا أجيتم المرسلين ؟ فخفيت عليهم الحجة ولم يجدوا جواباً ولاذوا بالصمت ، وهنا يعرض القرآن لوحة مشرقة للتائبين ، ويوضح أن الحكم والأمر والاختيار لله تعالى أحكم الحاكمين .

التفسير :

٦٢ - وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

تعرض الآية مشهداً من مشاهد القيامة ، حين ينادى الله المشركين فيقول لهم :

أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ .

أين الأصنام والأوثان والآلهة الباطلة الذين عبدتموهم وزعمتم أنهم آلهة .

ومعروف أنه لا جواب ولا حجة ، والسؤال هنا للتقريع والتبكيك ، وفى مواقف أخرى أفاد القرآن : أن الأتباع يلقون التبعة على الزعماء والشياطين ورؤساء الضلال ، وكأنَّ هؤلاء القادة أحسوا بأن الأتباع يلقون عليهم المسؤولية ، فتنصلوا منها .

٦٣ - قَالَ الَّذِينَ هَئِلَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا بَعْدُونَ .

القول فى الآية يراد به كلمة العذاب ، أو المكث فى جهنم ، تحقيقاً لعدالة الله الغافل : وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (السجدة : ١٣) .

أى : قال الرؤساء والشياطين ورموز الإغواء والإضلال : إن هؤلاء الأتباع اختاروا الضلال ، وساروا وراءنا مختارين ، وما كان لنا عليهم من سلطان ، إلا أن دعوناهم فاستجابوا بإرادتهم واختيارهم ، كما

ضللنا نحن دعوانهم للضلال فضلوا ، ونحن نتبرأ إلى الله من عبادتهم ومن ضلالهم ، ما كانوا يعبدوننا ، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم ونزواتهم ، ولو أعملوا عقولهم ، وشحذوا أفكارهم ، لاهتدوا في الدنيا ، وما ساروا وراءنا ، وهكذا يتبرأ القادة من الأتباع ، ويتبرأ الأتباع من القادة ، في وقت لا يتجى فيه الإنسان إلا العمل الصالح والتوبة النصوح .

قال تعالى : **إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَبَّأَوَ الْعَذَابِ وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَفْقَهُ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلْتُمْ خَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ .**
(البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧)

٦٤ - **وَقِيلَ آذَعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ .**

أى : قيل لهؤلاء الكفار على سبيل التذكير والتقريع ، والفضيحة على رءوس الأشهاد :

آذَعُوا شُرَكَاءَكُمْ . الذين عبدتموهم من دون الله وزعمتم أنهم ينفعونكم فى هذا اليوم .

فَذَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ...

أى : دعوهم ياتسين مغلوبين على أمرهم ، فلم يلتفت إليهم الشركاء لانشغالهم بأنفسهم ، ولأنهم لا يملكون لهم أى نفع أو مصلحة ، وشاهد الكفار العذاب بأعينهم رأى العين ، فتمنوا لو أنهم كانوا قد رغبوا فى الهدى واستقاموا عليه فى الدنيا^(١٢) .

قال الزمخشري :

حكى - سبحانه وتعالى - أولاً ما يوبخهم به ، من اتخاذهم له شركاء ، ثم ما يقوله الشياطين أو أنتمهم عند توبيخهم ، لأنهم إذا وُخِّوا بعبادة الآلهة ، اعتذروا أن الشياطين هم الذين استغفروهم وزينوا لهم عبادتها ، ثم ما يشبه الشماتة بهم ، من استغاثتهم آلهتهم ، وخذلانهم لهم ، وعجزهم عن نصرتهم ، ثم ما يبيكون به من الاحتجاج عليهم ، بإرسال الرسل وقطع الحجة ، وإبطال المعاذير .

٦٥ - **وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ .**

إنها مواقف محيرة ، فقد سئلوا فى السابق سؤال تقريع وتوبيخ على اتخاذهم شركاء لله ، وهنا يُسألون أيضاً سؤال تقريع وتوبيخ على رفضهم الاستجابة لرسول الله ، وعدم استماعهم أدلة الهدى ، وآيات الإيمان ، ولغت الأنظار إلى هذا الكون وما فيه من أدلة القدرة الإلهية ، وقصص الأولين ، وأخبار البعث والمعاد ، لقد صموا أذانهم فى الدنيا عن سماع صوت الرسل ، وأغصوا عيونهم عن رؤية الحق ، وهنا فى

يوم القيامة يوجه إليهم السؤال التالي : بماذا أجبتم المرسلين الذين بعثهم الله لإرشادكم ، ودعوتكم للإيمان والتوحيد ؟

٦٦ - فَعَيَّنَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ .

خفيت عليهم الحجج ، وغابت عنهم الأدلة ، فلاذوا بالصمت والإبلاس .

قال الزمخشري :

لا يسأل بعضهم بعضاً ، كما يتساءل الناس في المشكلات ، لأنهم يتساوون جميعاً في عمى الأنباء عليهم ، والعجز عن الجواب . ا هـ .

وجاء في ظلال القرآن :

والتعبير يلقي ظل العمى على المشهد والحركة ، وكأنما الأنبياء عمياء لا تصل إليهم ، وهم لا يعلمون شيئاً عن أى شيء ! ولا يملكون سؤالاً ولا جواباً ، وهم فى ذمهم صامتون ساكتون ا هـ .

٦٧ - فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَقَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ .

فى مقابل الصفحة القائمة لموقف المشركين وتبكيتهم وتقريعهم ، وتبرؤ الزعماء والقادة منهم ، وعدم استجابة الشركاء لهم ، وغياب الحجة عن عيونهم ، توجد صفحة أخرى مشرقة ناصعة للتائبين ، وكأنها دعوة مفتوحة للناس أجمعين .

والمعنى :

فأما من تاب عن الشرك بالله أو عن المعصية ، وآمن بالله تعالى ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، فهو جدير بالفلاح فى الدنيا ، والنجاة من العذاب يوم القيامة . قال تعالى : وَإِنِّي لَنَفَّارٌ لَّكَ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ آتَيْنَاهُ . (طه : ٨٢) .

فَعَسَىٰ . هنا للتحقيق على عادة القرآن .

قال ابن كثير : فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ . يوم القيامة و(عسى) . من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة . ا هـ .

وقيل : فَعَسَىٰ . للترجى من قبل التائب المذكور ، بمعنى : فيتوقع أن يفلح ويفوز .

٦٨ - وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

اختار المشركون آلهة باطلة ، وتمنّوا أن يكون الرسول أحد زعماء مكة أو الطائف ، وقالوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) . يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف ، فأنزل الله هذه الآيات توضح أن الخلق بيده ، والاختيار بيده ، واختيار الرسل للبشر ، أو اختيار الملائكة للنزول بالوحي أمر بمشيئة الله تعالى ، واختياره وحكمته ، على مقتضى علمه باستعداد عباده لذلك ، فليس من حق العباد ولا في مقدورهم أن يختاروا على الله ما يشاءون من أديان باطلة وآلهة زائفة .

سُبْحَنَ اللَّهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تنزه الله تعالى بذاته تنزهًا خاصًا به ، من أن ينافعه أحد أو يزاحم اختياره ، وتقديسه وتمجده عن إشراكهم .

قال الزمخشري : إن الاختيار إلى الله تعالى فى أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة فيها ، ليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ، ولا يبعث الله الرسل باختيار المرسل إليهم . اهـ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... (الأحزاب : ٣٦) .

قال الشاعر :

العبد ذو ضجر والربّ ذو قدر والدهر ذو ثول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه اللّوم والشّوم

وروت عائشة ، عن أبى بكر رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ كان إذا أراد أمرًا قال : «اللهم خذلى واخترلى»^(١٧) .

وروى أنس ، أن النبى ﷺ قال : «يا أنس ، إذا هممت بأمر فاستخريك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه»^(١٨) .

فالله تعالى هو وحده العليم ، وهو سبحانه عالم الغيب ، والمؤمن يصلى الاستخارة ويدعو بدعائها ، الذى ورد فى صحيحى البخارى ومسلم .

عن جابر بن عبدالله قال : كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : «إذا هم أحدكم بالأمر لا يدري عاقبته فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى عاجله وآجله ، فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شلى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى عاجله وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضى به»^(١) .

قال العلماء : وينبغى له أن يفرغ قلبه من جميع الخواطر ، ومن رغبة له فى الموضوع قبل الاستخارة أو رغبة عنه ، حتى لا يكون مثالا إلى أمر من الأمور ، فعند ذلك ما يسبق إلى قلبه يعمل عليه فإن الخير فيه إن شاء الله ، فإن وجد انتشاراً وسوراً وارتياحاً فالأمر خير ، وإن وجد انقباضاً وضيقاً فالأمر شر .

٦٩ - وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْتَنُونَ .

هو سبحانه العليم علماً مطلقاً بسرائر النفوس ، وما يخفيه المشركون فى صدورهم ، حين قالوا : نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) . وهو عالم بما يعلنونه ، ومطلع على كل أمر سواء منه الخفى والعلن ، والسر والجهر ، والباطن والظاهر ، وهو علام الغيوب .

٧٠ - وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...

هو سبحانه المتفرد بالألوهية ، فلا معبود سواه ، كما أنه لا رب يخلق ما يشاء ويختار غيره ، فهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .

لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ...

له كل الحمد والشكر ، فهو الخالق الرازق المتفضل على عباده ، وهو سبحانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها ، على الخلق كافة ، يحمده المؤمنون فى الدنيا على إنعامه وهدايته ، وفى الآخرة على عدله ومثوبته .

وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

له القضاء النافذ فى كل شىء ، فلا معقب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحيم اللطيف الخبير ، وإليه ترجع جميع الخلائق يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير أو شر ، ولا تخفى عليه منهم خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ، ونهاية تقوية القلب للمطيعين ، فهو سبحانه الحاكم العادل ، يجازى المحسنين على طاعتهم ، ويعاقب العصاة على عصيانهم .

★ ★ ★

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ﴾ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

المفردات :

قل أرايتم : أخبروني .

سرمدا : دائما متصلاً مؤبداً متتابعاً .

تسكنون فيه : تهدأون فيه وتستريحون .

نزعنا : أخرجنا بشدة وقلعنا وانتزعنا .

شهيذا : شاهداً .

برهانكم : حجتكم ودليلكم .

ضل عنهم : ذهب وغاب عنهم غيبة الضال ، أي : الضائع .

ماكانوا يفترون : ما كانوا يخلطونه في الدنيا من الباطل والكذب على الله تعالى ، من أن معه آلهة تعبد .

تمهيد :

سورة القصص تبين من أولها عظمة القدرة الإلهية ، وتؤكد أن الله فعال لما يريد ، حيث رعى طفلاً رضيعاً ، جعل على يديه هلاك ملك قوى مستبد .

وتذكر مشاهد القيامة ، وحيرة المشركين وضياح حجتهم ، وذكرت في الآيات السابقة وحدانية الله تعالى ، وإنفراده بالخلق والاختيار ، واستحقاقه وحده الحمد والشكر في الدنيا والآخرة ، وتفريده بالحكم والفصل بين العباد ، وإليه المرجع والمصير .

وتواصل الآيات ٧١ - ٧٥ من سورة القصص بيان القدرة الإلهية ، بأمثلة محسوسة حيث جعل الله الليل والنهار متتابعين ، يعقب أحدهما الآخر ، ولو استمر الليل سرمداً دائماً لتعطلت مصالح الناس ، وتعطلت أجسامهم ، ولو استمر النهار دائماً لتلفت أعصاب الناس ، وقلت راحتهم ، ومن رحمة الله أنه جعل الليل لباساً ، والنهار معاشاً ، ثم عرض مشهداً من مشاهد القيامة ، لتكرير العظة والذكرى .

التفسير :

٧١ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِمْ أَلَّا تَسْمَعُونَ .

أبدع الله نظام هذا الكون ، رفع السماء وبسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وأظلم الليل وأضاء النهار ، وسخر الشمس والقمر ، ولو خلق الله الأرض بحيث يكون ليلاً دائماً ، أو بحيث يكون نهاراً دائماً كذلك ، فليس هناك إله غير الله يستطيع أن ينعم عليهم بالليل والنهار المتعاقبين ، والناس لطول الإلف والعادة قد ألفوا تتابع الليل والنهار ، وظهور الشمس والقمر ، وهنا يذكرهم الله بهذه النعمة ، فيقول : أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً متتابعاً إلى يوم القيامة ، فتعطلت مصالحكم ، وطال شوقكم للضياء والشمس والحركة والسعي ، من إله غير الله يقدر أن يقدم لكم الضياء ، أَلَّا تَسْمَعُونَ . سماع تدبر وتأمل أن الله وحده هو الذي يرسل النهار ، ويحفظ نظام الكون ، ويسخر الشمس والقمر ، ويجعل تتابع الليل والنهار من أسباب سعادة الناس ، واستمرار حركتهم ، وقضاء مصالحهم ، والاستمتاع بالراحة أيضاً .

٧٢ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِمْ لَأَيُّكُمْ يَكْفُرُ بِهِ أَلَّا تُبْصِرُونَ .

ثم تلمس السورة القلوب والأفئدة ، والعقول والخيال ، فلو تخيل الإنسان أن الحياة نهار دائم مستمر ، لا ليل فيه ولا ظلام ، ولا سكن ولا هدوء ، حينئذ تتأثر أعصاب الناس من كثرة الضوء والعمل ، ومن قلة الهدوء والظلام ، وفي ليالي الشتاء الطويلة يشتاق الناس إلى طلوع الفجر ، ثم طلوع الشمس ثم الحركة والسعي ، وكذلك في نهار الصيف القاتظ يضيق الناس بالهجير والحرارة والضوء ، ويشتاقون إلى نسيم الليل وهدوئه وراحته ، مع أن الليل محدود في الشتاء ، والنهار محدود في الصيف ، لكن إذا طال الليل قليلاً زاد الحنين إلى النهار ، وإذا طال النهار قليلاً اشتد الحنين إلى الليل .

والمعنى :

أخبروني إن جعل الله عليكم النهار سمرًا مستمرًا دائمًا أبدًا إلى يوم القيامة ، هل يوجد صنم أو وثن أو إله آخر غير الله يستطيع أن يأتيكم بليل يكون لكم سكنًا وراحة ، ونومًا وهدوءًا ، أفلا تنظرون بعيونكم ، وتأملون ضياء النهار ، وانسحاب الظلام ، كما قال سبحانه : **وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرَتْ * وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَتْ** * إنها لإحدى الكبر . (المدثر : ٣٢ - ٣٥) .

ونلاحظ ما يأتي :

عندما تحدث الله عن استمرار الليل قال : **أَفَلَا تَسْمَعُونَ** . لأن الإنسان إذا كان في الظلام يعتمد على حاسة السمع ، وهى حاسة لا تنام ، وقد وردت في القرآن قبل البصر لأنها وسيلة الفكر والتعلم .

وعندما تحدث القرآن عن استمرار النهار قال : **أَفَلَا تُبْصِرُونَ** . لأن الإنسان في النهار يستخدم البصر فى رؤية ما حوله .

وقال الألوسي :

أَفَلَا تُبْصِرُونَ . الشواهد المنصوية الدالة على القدرة الكاملة ، لتقفوا على أن غير الله لا قدرة له على ذلك . فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على الإتيان بالليل والنهار غير الله ، فلم تشاركوا ١٩ هـ .

ونلاحظ أنه لم يجتمع السمع والبصر فى كتاب الله إلا وقُدِّمَ السمع على البصر .

قال تعالى : **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ** ... (المؤمنون : ٧٨) .

وقال تعالى : **إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا** . (الاسراء : ٣٦) .

وقد ذكر العلماء والمحدثون أن السمع أول حاسة تؤدى وظيفتها فى الدنيا ، وهو أداة الاستدعاء فى الآخرة ، ولأن الأذن لا تنام ، فالسمع أسبق وأنفع وأدوم^(١٩) .

٧٣ - **وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** .

إن كل شئ فى الكون يسير وفق ناموس ونظام وحكمة عليا ، تعلم مصالح الناس ، وتيسر لهم أسباب راحتهم وسعادتهم .

ومن رحمة الله وفضله أن جعل الليل ظلامًا لينام الناس ، ويجددوا نشاطهم ، ويستقروا ويسكنوا ، وتهذب أبدانهم ونفوسهم وأرواحهم ، ثم يعقب ذلك النهار لينشط الناس ، ويحركوا إلى أعمالهم وأرزاقهم ، وسعيهم ونشاطهم ، وبذلك يجمع الناس بين العمل والراحة ، والسعى والنشاط ثم الهدوء والاستقرار .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . الله تعالى الذى تابع بين الليل والنهار ، وجعل أحدهما يأتى وراء الآخر ، فمن فاتته عمل بالليل تداركه بالنهار ، ومن فاتته صلاة أو عبادة بالنهار تدارك التقصير بالليل .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا . (الفرقان : ٦٢) .

٧٤ - وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

هذا توبيخ وزيادة خذى لهؤلاء المشركين ، حيث يناديهم الله تعالى على رموس الأَشهاد ، فيسألهم : أين الشركاء ، أين الأصنام ، أين الأوثان ، أين الآلهة التى زعمتم أن لها تصرفاً وسلطاناً ؟

قال القرطبي :

ينادى الله المشركين مرة فيقول لهم : أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ .

فيدعون الأصنام فلا تستجيب ، فتظهر حيرتهم وخزيهم ، ثم ينادون مرة أخرى على رموس الأَشهاد فيسكتون ، وهو توبيخ وزيادة خذى .

٧٥ - وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

انتزعنا وأخرجنا من كل أمة شهيداً يشهد عليها ، بما فعلت مع الرسل الذين أرسلهم الله إليها ، وقال الله تعالى للكفار والمشركين : هاتوا أدلتكم وبرهانكم على أن هناك آلهة أخرى مع الله تعالى ، فضع منهم الدليل ، وغابت عنهم الحجة ، وعلموا أن الحق لله وحده فى العبادة والألوهية والوحدانية .

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

ضاع منهم واثه ، ولم يجدوا له أصلاً ، كما يضيع الشيء من الإنسان ، فلا يجد له أثراً ، أى : ضاع منهم الافتراء على الله تعالى ، بأن له شريكاً من الأصنام أو الأوثان أو الآلهة المدعاة .

إنها مواقف التيكيت واللوم والإزعاج ، فقد عجزوا عن إحضار شركاء لله ، ثم شهدت عليهم الرسل ، بأن الرسل بلغوا رسالة الله إليهم فقابلوها بالرفض والجحود والنكران ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا . (النساء : ٤١) .

والخلاصة ما يأتى :

١ - مواقف الآخرة متعددة .

٢ - تتكرر مناداة الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان وغيرها أمام الله تعالى ، ليظهر للناس عجزها ، وليثبت توبيخ ولوم عابديها ، ولتظهر حسرتهم وألمهم .

٣ - يشهد كل رسول على أمته أنه بلغها رسالة ربها فكذبت ، ويطلب من المكذبين تقديم الدليل على جحودهم ، وتقديم البرهان على أنهم كانوا على حق حين كذبوا الرسل وكفروا بالله فلا يستطيعون ، عندئذ يدركون إدراكاً جازماً أن الرسل كانوا على حق فيما جاءوا به ، وأن الله وحده هو الإله الحق .

٤ - قال ابن كثير :

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . ذهب معبوداتهم فلم ينفعوهم .

★ ★ ★

قصة قارون ، وغرور المال

﴿إِنْ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَاتَّبَعَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَكَثَرَتْ جَمْعًا وَلَا يَسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

المضردات :

فبغى عليهم : ظلمهم أو تكبر عليهم .

الكنوز : الأموال المدخرة المحبوسة ، من كنزه بمعنى : ادخره ، وحبسه عن الناس ، ومنه قوله تعالى : **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفقونها في سبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** . (التوبة : ٣٤) .

مفاتيحه : جمع مفتاح «بكسر الميم» ، وهو المفتاح الذي تفتح به الأغلاق .

لتنوء بالعصبة : العصبة ، الجماعة يتعصب بعضها لبعض ويشد أزره ، ومعنى **لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ** : تثقلها ، يقال : ناء به الحمل ، أى : ثقل عليه .

لا تفرح ، لا تفرح بدنياك فرحاً يذهلك عن أخراك .

الضريحين ، الفريحين والفارحين سواء ، والفريح صيغة مبالغة تفيد زيادة الفرح .

وابتغ ، واطلب .

ولا تبيع الفساد ، ولا تطلبه .

أوتيته ، أعطيه .

القسرون ، جمع قرن ، وأصح ما قيل فيه : إنه مائة سنة ، ويطلق على أمة هلكت فلم يبق منها أحد ،

ويطلق على أهل زمان واحد ، ومنه قول الشاعر :

وخلفت في قرن فأنت غريب

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم

المجرمون ، المذنبون .

تمهيد :

تفيد سورة القصص فضل الله على عباده ، وكمال قدرته وجبروته ، فهو سبحانه مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، وقد ظهرت آثار القدرة في تجريد فرعون من ملكه ، وغرقه في اليم مع جيشه .

وفي ختام السورة نجد لوحة هادئة ، تبين قصة قاريون فتذكر غناه وظلمه وتباهيه بالمال ، وعدم تواضعه ، وعدم شكره لله ، ثم خسف الله به ويداره الأرض ، والقصة فيها عظة وعبرة ، فالمال مال الله وهو نعمة تستحق الشكر ، وتستحق إخراج الزكاة وإعطاء الفقراء حقهم ، ومن منع الزكاة فإنه يعذب أشد العذاب يوم القيامة ، وقد وضع القرآن الكريم والسنة المطهرة منهجاً سليماً للسلوك المالي المطلوب فيما يأتي :

١ - الإسلام يحترم الملكية الفردية .

٢ - وقد جعل الإسلام الغنى موظفاً في ماله ، فالمال مال الله ، والغنى يستثمره ويخرج حق الله فيه ، بالزكاة والصدقة وصلة الرحم والتكافل الاجتماعي .

٣ - شجع القرآن تقارب الطبقات ، وحث على عتق الرقبة والوفاء بالنذر ، وجعل هناك كفارة مالية لكثير من الأفعال ، مثل : كفارة الظهار ، واليمين ، والفطر في رمضان ، والغنية في الحج ، والتقرب إلى الله تعالى .

التفسير :

٧٦ - **إِنْ قُلُّوْا كَانَ مِنْ قَوْمٍ مُّؤَسَّى عَلَيْهِمْ وَعَائِيَةٌ مِنْ الْكُفُوْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِيحَهُ لَتُنَوَّى بِالْغَضَبَةِ أُولَى الْقُرُوْ...**

أفادت كتب التفسير أن قارون كان قريباً لموسى ، فذكرت روايات أنه كان ابن عمه ، وقيل : كان عمه ،

وقيل : ابن خالته .

وذكر المفسرون أن قارون كان جميل الصورة ، واسع الثراء ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، حسن الصوت ، فدخله النفاق كما دخل على السامري .

وقيل : إنه حسد موسى وهارون ، حيث قال : موسى يبلغ الرسالة ، وهارون يشرح التوراة ، وقارون ليس له فى الرسالة أدنى نصيب .

والقرآن ليس فى حاجة إلى هذه الروايات التى تفتقر إلى قوة السند وصحته ، وحسبنا كتاب الله الذى يفيد أن قارون كان من قوم موسى ، فهو من بنى إسرائيل ، ولم يذكر زمن الحادثة ، ولم يبين هل كانت أيام إقامة موسى فى مصر قبل خروجه مع بنى إسرائيل ، أم كانت أثناء تيهه ، أم كانت بعد موسى عليه السلام .

وتفيد روايات أن قارون ساهم فى إيذاء موسى ، حيث وعد موسى بإخراج الزكاة ، وذهب ليخرجها فوجدها مقداراً عظيماً جداً ، فاختال على منع الزكاة ، واتفق مع امرأة بغى ، أن تقول : إن موسى زنى بى ، وهذا الولد منه ، فأنطق الله الوليد ، وقال : أنا ابن الراعى .

ونحن نقول : حسبنا كتاب الله فى تقديم العظة والعبرة ، والقرآن غنى عما سواه ، ونحن نريد أن نعرف ماذا قال القرآن الكريم ، فلنتأمل فى معنى الآية الكريمة :

إن قارون كان من بنى إسرائيل قوم موسى ، فبغى عليهم حيث ظلمهم وتكبر عليهم ، أو منع إخراج الزكاة والمعونة للمستحقين ، وقد أعطيناه من الأموال التى كنزها وحبسها عن المساهمة فى إسعاد الناس والتيسير عليهم ، مع كثرة هذه الأموال ، حتى إن مفاتيح هذه الخزائن أو الخزائن نفسها ، يعجز عن حملها عصبية قوية من الرجال الأشداء ، ما بين العشرة والأربعين ، وقد أظهر قارون الفرح والتفاخر بكنوزه ، إذ قال له أتقياء قومه : لا تفرح فرح البطر والكفران ، إن الله لا يحب الفرحين البطرين ، الذين يكفرون ولا يشكرون ، ويتباهون بالمال ويسخرونه لأهوائهم ، ويمنعون نصيب الله منه .

٧٧ - وَاتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ آثَارَ الْآخِرَةِ وَلَا تَسْ نَمِيصِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْبَافْسِدِينَ .

يريد الإسلام إنساناً متوازناً ، يقصد بعمله وجه الله ، فالمال مال الله ، والإنسان مستخلف عن الله فى إدارته ، قال تعالى : وَأَفْقَرُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقد حرر الإسلام الإنسان من عبادة المال والهوى ، والجاه والسلطان ، وطلب منه أن يقصد بعمله وجه الله ، ويعلم أن متاع الدنيا قليل وأن الآخرة خير وأبقى ، ولقد وجه الأتقياء النصيحة إلى قارون قائلين : قدّم من المال رصيذاً لك فى الآخرة ، بإخراج الزكاة والصدقة والمساعدة ، واقصد بعملك وجه الله ، ولك أن

تستمتع بمالك بالطرق التي أحلها الله ، فى المأكّل والملبس والسكن والمتعة الحلال ، وكما أحسن الله إليك بالمال ، فأحسن إلى الفقراء وعليك بالشكر ، وشكر النعمة استخدامهما فيما خلقها الله له ، أى : قابل الإحسان من الله ، بالإحسان إلى عباده ، وبالشكر لله والتواضع والرأفة والرحمة بالآخرين ، ولا تستغل كنوزك فى الفساد والتعالى ، وارتكاب الموبقات والشور ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . بل يبغضهم وينتقم منهم .

٧٨ - قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ .

أى : قال قارون لمن وجه إليه النصيحة : إنما أوتيت هذا المال لمعرفتى بطرق كسب المال واستثماره ، ومهارتى فى ذلك واجتهادى ، أو لأنى أثير عند الله حبيب إليه ، فقد كان قارون أكثر الناس نصيباً من التوراة ، وأحسنهم صوتاً ، وكان يلقب بالمتور ، وهنا يبين القرآن أن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فقد أهلك الله أمماً وأفراداً وقروناً كانوا أكثر مالاً وجاهاً من قارون ، وأكثر خبرة بجمع المال وطرق تحصيله ، لكنهم أذنبوا وأجرموا وأسرفوا على أنفسهم فى الملمات والشهوات ، أو منعوا حق الله فى المال ، فأهلكهم الله ، كما أهلك فرعون مع ملكه وغناه ، وأهلك عاداً وثموداً وأصحاب مدين وقوم لوط ، فالمتذنبون يهلكهم الله عقوبة عادلة ، كما عاقب سبأ جزاء إغراضهم عن شكر النعمة ، فتهدم سد مأرب ، وتلفت الزراعة وعم الجفاف ، وهلك الكافرون .

من كلام المفسرين

قال الإمام عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير الآية :

إِنَّمَا أُوتِيَهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ...

إنما أوتيته على علم من الله باستحقاقى إياه ، فلولاً رضاه عني ، وعلمه بفضلى ما أعطانيه .

وقيل : إنه علم التوراة ، فإنه كان أعلم بنى إسرائيل بها ، وقال أبو سليمان الداراني : علم التجارة ووجهه المكاسب ، وقيل : علم استخراج الكنوز والدفائن .

وقيل : علم الكيمياء ، فكان يحول الرصاص والنحاس ذهباً ، وردّه العلماء بأن فيه دعوى قلب الحقائق ، وذلك لا يكون إلا لله تعالى ، ولم يثبت حدوثه منه بطريق صحيح ، وما يشاع بين العامة من إمكان ذلك إنما هو من باب الأراجيف التى لم تثبت فى الواقع ، بل هى من الصبغ والتزييف^(١٧) .

وقريب من الآية قوله تعالى: فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ... (الزمر: ٤٩).

وقال تعالى: وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ... (نصت: ٥٠). أى: هذا أستحقه.

ويقول شوقي أمير الشعراء:

عجبت لمعشر صلّوا وصاموا	ظواهر خشية وتقى كذابا
وتلقاهم حيال البال صبا	إذا داعى الزكاة بنهم أهبا
لقد منعوا نصيب الله منه	كانّ الله لم يحص النصابا
فخذ لبنك والأيام ذخرا	وأعط الله حصته احتسابا
فلو صادفت أحداك الليالي	وجدت الفقر أقربها انتسابا
وأن البر خير فلى حياة	وأبقى بعد صاحبه نوابا
وأن الشر يصدع فاعليه	ولم أر خيرا بالشر آبا

وجاء فى التفسير المنير للأستاذ د. وهبة الزحيلي ما يأتى:

إن أصول الحضارة الإسلامية أربعة:

١ - العمل الصالح ثواب الآخرة.

٢ - عمارة الدنيا بإتقان دون أن تستولى على مشاعر الإنسان.

٣ - الإحسان إلى الناس، إحساناً مادياً أو معنوياً أو خلقياً.

٤ - قمع الفساد والعصيان والخراب.

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَنْتَبِهتَ لَنَا مِثْلَ
 مَا أُوتِيَ قَدْ رَوْنَاهُ إِنَّهُ لَفُضِّلَ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ
 ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْآصِفِرُونَ ﴿ ٨٠ ﴾ فَخَسَفْنَا
 بِهِ وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ
 ﴿ ٨١ ﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَسُبُّوا اللَّهَ يَسُبُّوا الرِّزْقَ
 لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُنْفِلُ
 الْكَافِرُونَ ﴿ ٨٢ ﴾

المضردات :

فِي زِينَتِهِ : فيما تزين به من متاع الحياة الدنيا .

وَيَلَكُمْ : هو في الأصل دعاء بالويل وهو الهلاك ، ثم شاع استعماله في الزجر عما لا ينبغي ،
 وهو المراد هنا .

ثَوَابُ اللَّهِ : في الآخرة بالجنة .

وَلَا يُلْقَاهَا : ولا يلقى هذه النصيحة ، أي : لا يتقبلها ويعمل بها .

إِلَّا الصَّابِرُونَ : على الطاعات ، وعن المعاصي .

فَخَسَفْنَا وَبَدَارَهُ الْأَرْضَ : أي : بقارون ، وخُسف : غار في الأرض ، والمراد : جعلنا عاليها سافلها ، أي : أدخله
 الله وداره في جوف الأرض .

فَفِئَةٌ : جماعة .

وَيَكُنَّ اللَّهُ : ألم تر أن الله ، أو : عجباً ألم تر أن الله ، أو : بل إن الله .

يَسُبُّوا : يمدّ ويعطى .

وَيَقْدِرُ : يضيق ويقتصر بمقتضى مشيئته ، لا لكرامة تقتضى البسط ، ولا لهوان يوجب القبض .

التفسير:

٧٩ - فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُودُنُ إِنَّهُ لَنَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ .

بعد أن قدمت له النصيحة ، كابر واشتد غروره ، وخرج فى أبهى حلة وأحسن متاع ، يستعرض نعم الله عليه ، وجمع كل ما عنده من جنود ورجال وجوار ، وخيل ويغال ، فى كسوة ثمينة ومظهر أخاذ ، ليكسر قلوب الفقراء ، ويعاند الناصحين .

قال الراغبون فى الدنيا وزينتها^(٨٠) : ليت لنا مثل ما أوتى قارون من المال والجنود والرجال ، والخيل واليغال ، والحشم والخدم ومظاهر الحياة وزينة الدنيا .

إِنَّهُ لَدُو حَظٌّ عَظِيمٌ .

إنه حصل على نصيب وأقر من دنياه .

٨٠ - وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ .

أى : قال أهل العلم والنصح والتقوى لهؤلاء المتعلقين بالدنيا ، الذين جعلوا الدنيا غايتهم : عجا لكم ، أو تبأ لكم وخسراً ، كيف تتغاللون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، ما هذا الحرص على المظاهر الكاذبة ، والدنيا الفانية ، وما عند الله تعالى من ثواب وجنة ورضوان لمن آمن بالله وأطاعه ، خير مما تقيمون ، فإن نعيم الآخرة باقى لا يزول ، خالص من الأحزان والأكدار ، وهو خير مما ترون وتتمنون ، وما يتلقى الصبر والرضا والهدوء النفسى إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المعاصى ، وكان قدوة حسنة فى مجد أمته وإعلاء شأنها ، ورعاية الفقراء والضعفاء ، والإحسان إلى عباد الله ، وبذا ينال محبة الخلق ورضوان الخالق .

٨١ - فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ .

أصاب قارون العجب والكبر والبطر ، وافترى على موسى واستحق غضب السماء ، فزلزل الله به وبداره الأرض ، فخسف به وبداره ، وأصبح هو وبداره فى حفرة فى وادٍ سحيق ، وذهبت ثروته وزينته ودُمِّر كل ذلك تدميراً .

وقد روى البخارى فى صحيحه ، من حديث الزهري ، عن سالم ، أن أباه حدثه ، أن رسول الله ﷺ قال : «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة»^(٨١) .

فالرجل يسير وهو معجب بنفسه ، مغرور متكبر ، يتيه فخرا وتعاليا بثروته أو ماله أو جاهه أو سلطانه أو نفوذه ، ناسياً فضل الله عليه .

ونذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذا الحديث يشير إلى قارون .

وقد وردت أحاديث فى الصحيح تفيد أنه لا مانع من تمتع المؤمن بزينه الدنيا وجمالها ، فإن الله جميل يحب الجمال^(١٠) ، والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عباده . والممنوع هو الكبر والخيلاء ومنع المال عن صاحبه ، وحبس المعروف عن مستحقه ، وأن يتحول الغنى إلى أنانى مسرف ينفق على نفسه وأسرته ، ويكابى ويتعالى ، ويمنع الحق عن أهله .

ملحق بتفسير الآية

١ - يوجد فى محافظة الفيوم بحيرة صغيرة تسمى بركة قارون ، ويجوز أن يكون قارون وقومه كانوا يقيمون فى هذا المكان ، وأنه خرج على قومه فى زينته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، وانخفض مستوى الأرض ، وتحول إلى بركة تسمى بركة قارون ، وهذا مجرد احتمال .

٢ - ذكرت كتب التفسير روايات لاسند لها ، من ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حمراء ، منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرجوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحلى والثياب الحمراء ، يركبن البغال الشهباء . اهـ .
والمرجح أن مرد ذلك إلى الإسرائيليات ، وفى كتاب الله ما يغنى ، فقد خرج فى أبهى حلة وزينة ، متظاهراً بكل ما عنده عجباً وتبها . قال تعالى : فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ لِيُزَيِّنَهُ ...

عود إلى الآية :

فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ .

إن الخسف مقصود به ضياع ماله وداره ونفسه ، وما نراه من تهوى أسعار البورصة ، وأسعار العملات ، وانتشار الأزمات الاقتصادية فى الشرق حينا ، وفى الغرب حينا ، ينبغى أن يذكر الناس بأن هناك خسفاً للفرد حينا ، وخسفاً للأمة حينا ، وأن هناك خسفاً حسياً ، وخسفاً معنوياً .

فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ .

أى : لم يغن عنه حشمه ولا خدمه ، ولا جيشه ولا نفسه ، ولم تكن له جماعة تعصمه من الخسف ، أو تنصره ، وما صح ولا استقام أن يكون من الممتنعين من بطش الله ، بأى سبب من أسباب الامتناع ، فإنه لا بد واقع ، وليس له من دافع .

وحريّ بالأمم الإسلامية أن تراقب ربها ، وأن تتقى الله فى تصرفاتها وأموالها وسلوكها ، حتى تجنى حصاد السعادة فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، قال تعالى : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَيْمَانِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . (النحل : ١١٢) .

٨٢ - وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ الرِّقْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

صار الذين كانوا معجبين بقارون ، وكثرة أمواله ومظاهر زينته ، يتعجبون مما أصابه ، ويتذكرون أن الله تعالى يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويُعز من يشاء ويذل من يشاء ، وليس عطاء المال دليل على محبة الله للعبد ، ولا سلب الدنيا منه دليل على بغض الله له ، فله تعالى حكمة سامية ، قال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّقْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نَزَّلَ بِقَدَرٍ مِمَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ . (الشورى : ٢٧) .

وقد روى عن ابن مسعود مرفوعاً : «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يحب»^(١) .

لقد طرق الإيمان قلوب المؤمنين الذين غرَّتهم مظاهر العظمة والأبهة فى قارون ، وتمنوا أن لهم مثل ما لقارون غبطة لا حسداً ، وحين شاهدوا نهايته تعجبوا كثيراً لما أصابه ، وعجبوا من نهايته ، وحمدوا الله على أنه لم يخسف الأرض بهم كما خسف بقارون ، لأنهم تمنوا أن لهم مثل ما لقارون وقالوا : لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا ...

أى : لولا أن لطف الله بنا وأحسن إلينا ، لخسف بنا الأرض كما خسف بقارون ، لأننا وبدنا أن نكون مثله .

وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ .

عجايباً ألم تر أن الله لا يحقق الفوز والنجاح للكافرين به ، المكذبين رسله ، المبكرين ثواب الله وعقابه فى الآخرة ، مثل قارون .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾

المفردات :

صلوا : استكباراً وقهراً وغلبة .

فساداً : ظلماً للناس كما أراد فرعون وقارون .

العاقبة : المصير المحمود .

للمتقين : المراقبين لله .

تمهيد :

تأتى هذه الخاتمة فى أعقاب قصة فرعون وقارون ، فتبين أن محل جزاء المؤمنين هو الآخرة ، التى جعلها الله للمتواضعين ، الذين لا يظلمون الناس ولا يفسدون ، ولا يأكلون حقوق الآخرين ، ثم وضع مقدار ذلك الجزاء الذى يحصل فى الآخرة ، فالحسنة تضاعف إلى عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف فأكثر فضلاً من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها لطفاً من الله وعدلاً .

التفسير :

٨٣ - تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

هذه الجنة والمنزلة العالية نجعلها للمؤمنين المستقيمين الأسوياء الذين يصبرون على البأساء ، ويشكرون على النعماء ، ويرضون بأسباب القضاء ، وإذا أعطاهم الله المال أو الجاه أو السلطان أنفقوا المال فى سبيل الله ومرضاته ، ولم يستطيلوا به على عباد الله ، ولم يتخذوا المال ذريعة للفساد والعدوان والتعالى .

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : العاقبة الحسنة والتمكين فى الأرض ، والرفعة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، لمن اتقى الله وراقب مولاه ، ورضى بالحلال وزهد فى الحرام ، ولم يكن مثل فرعون وقارون .

وتأتى هذه الآية بمثابة التعقيب على قصة قارون ، فقد غرّه ماله وتباهى به وتعالى ، وضنّ به على الفقراء والمساكين ، ثم خسف الله به وبداره الأرض ، فكان المال مصدر بؤس وشقاء له فى الدنيا والآخرة ، أما من اتقى الله فى ماله فوصل به رحمه وأنفق منه على المستحقين ، ولم يتطاول به على عباد الله فله سعادة الدنيا ، والنجاة فى الآخرة ، ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «إنه أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد»^(٩٦) .

وروى مسلم ، وأبو داود ، أن النبى ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ، فقال : «إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس»^(٩٧) .

وروى أبو هريرة : أنه جاء رجل إلى النبى ﷺ ، وكان جميلاً ، فقال : يا رسول الله ، إني رجل حُبب إليّ الجمال ، وأعطيتُ منه ما ترى ، حتى ما أحبُّ أن يفوقنى أحد بشراك نعل ، أفمن ذلك ؟ قال : «لا ، ولكن المتكبر من بطر الحق ، وغمط الناس» .

وعن عدى بن حاتم قال : لما دخلت على النبى ﷺ ألقى إلى وسادة ، وجلس على الأرض ، فقال : • أشهد أنك لا تبغى علواً فى الأرض ولا فساداً ، فأسلم^(٩٨) . أخرجه ابن مردويه .

٨٤ - مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

• من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة ، أو الأعمال الحسنة ، ومنها كلمة التوحيد «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ، وعمل بحقها ، وهو أداء واجبات الإسلام ، والبعد عما يغضب الرحمان ، فله خير منها ، حيث يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ... بالخصلة السيئة عقيدة أو عملا .

فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . دون زيادة ، فالجزاء الحق من جنس العمل ، قال تعالى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) .

وقال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وهذا من عدالة الله وسعة فضله ، فهو يكافئ على الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، تفضلاً ورحمة ، أما الذى جاء بالسيئة فيعاقب بمثلها فقط ، دون ظلم أو جور .

ونحو الآية قوله تعالى : وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ رُجُوهُمْ فِي آثَارِهَا هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (النمل : ٩٠) .

ختم سورة القصص

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

المعردات :

فرض ، أوجب عليك تبليغه .

لـرأـدك ، لراجعك .

إلى معاد ، إلى مكان عظيم تعودته وهو مكة ، أو إلى مكان تعود إليه بعد الخروج منه ، من العود ، وهو مكة أيضاً ، وذلك في يوم فتحها سنة ثمانٍ من الهجرة ، وهذا من باب المغيبات ، لأن السورة مكية بحملت بشرى فتح مكة سنة ثمانٍ من الهجرة .

ترجـو ، تتوقع .

يلقى ، ينزل .

الكتاب ، القرآن .

ظهيرا ، معينا للكافرين بإجابتهم إلى طلبهم .

ولا يصدك ، ولا يمنعك الكافرون .

هالك ، فان .

الإوجهه ، إلا ذاته ، فالوجه مجاز عن الذات ، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل .

التفسير :

٨٥ - إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

تأتى هذه الآيات فى ختام سورة القصص ، فى أعقاب قصة موسى مع فرعون ، وقصة قارون وغوربه بالمال ، وكما نصر الله موسى وأغرق فرعون ، تأتى هذه الآيات تبشّر النبى ﷺ بأنه سيعود إلى مكة فاتحاً منتصراً .

قال الضحّاك : لما خرج النّبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزلت عليه هذه الآية .

فالنّبي خارج من مكة ، مجارداً من أهلها ثانياً اثنين ، والله ينزل عليه البشري ، بأنّه سيعود إلى مكة فاتحاً منتصراً ، ثم أمره الله أن يفوّض الأمر إليه ، وأن يجيب الكافرين بما يأتي :

قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

الله أعلم بى ويكم ، من منا على الهدى ، ومن منا على الضلال الواضح ، وهذا رد على الكفار حين قالوا : إنك يا محمد فى ضلال مبين .

٨٦ - وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ .

ما كنت تأمل أن تكون يا محمد صاحب الرسالة الخاتمة ، وأن تكون آخر الرسل ، لقد كان اليهود يبشّرون بنبي قرب زمانه ، وتطلّع عدد من المتحنّثين والحنيفيين إلى الرسالة والنبوة ، وما كان محمد الأمي يتطلع إلى ذلك ، ولكن الله هو الذى اختاره واصطفاه ، رحمة منه وفضلاً .

وكان قومه يعرضون عليه أن يرجع إلى دين آبائه ، فأمره الله ألا يكون معينا للكافرين فى كفرهم ، والمقصود من ذلك : أن يباس الكفار من طلبية طلبهم ، وتستمر الآيات تشهد أن الرسول ﷺ .

٨٧ - وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَأَذْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين المخالفين ، ولا تتأثر بهم ، ولا تركز إلى قولهم فيصدوك عن اتباع آيات الله المنزلة إليك ، وعليك أن تستمر فى دعوتك إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ، مخلصاً لله فى عملك .

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

واحذر أن تكون مع المشركين ، الذين حاولوا أن يعبدوا إلهك يوماً ، وأن تعبد إلههم يوماً ، فعليك أن ترفض الحلول الوسط .

قال الدكتور وهبة الزحيلي فى التفسير المنير :

وهذا النهى عن مظاهرة المشركين ونحو ذلك ، من باب إلهاب الحماس ، وتهذيب العاطفة ، وإثارة الغيرة على استقلال دين التوحيد وعبادة الله . ا . هـ .

ويمكن أن يقال : حاشا لله ، أن يتطرق الشرك إلى رسول الله ﷺ ، فربما كان الخطاب للرسول والمراد أمته ، كأن الله وجه الخطاب إلى الأمة في شخص رسولها : ابتعدوا عن الشرك ، وعن خيوط الشرك ، وعن الأشرار الخداعية الموصلة إلى الشرك ، وأخلصوا لله تعالى غيبتكم وتوجهاتكم ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ، فينبغي أن نقصد بأعمالنا وجه الله تعالى ، وحده لا شريك له ، وفي ختام السورة تأتي آية تلخص الفكرة فتقول :

٨٨ - وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

إن سورة القصص التي ذكرت قصة موسى ، ورعاية الله له حتى أدى رسالته ، ثم أغرق الله فرعون ونجى موسى ، كما ذكرت قرب الختام قصة قارون ونهايته إلى الخسف والهلاك ، تأخذ بيدنا إلى أن الخيوط كلها مرتبطة بيد القدرة الإلهية التي تفعل ما تريد ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ...

لا تعبد مع الله الواحد الأحد إلهاً آخر ، سواء أكان صنماً أم وثناً أم جناً أم ملائكة ، أم نجما أم حيوانا ، لأن هذه آلهة مدعاة ، لا حقيقة لها ، وليس هناك إله بحق إلا الله ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . ولا معبود بحق سواه ، وفي معنى ذلك قوله تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ...

كل ما تراه في هذه الدنيا يدركه الفناء والموت والهلاك ، إلا ذات الله المقدسة ، فهو الدائم الباقي ، الحي القيوم الذي يميز الخلائق ولا يموت ، كما قال سبحانه : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال عز شأنه : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... (ال عمران : ١٨٥) .

أي : كل إنسان يموت ، وكل حيوان يموت ، تلك سنة الله في هذه الحياة ، أن يهلك جيل ، لينشأ جيل آخر ، حتى تنتسج رقعة الأرض للناس ، جيلاً بعد جيل ، والله خالق الأرض ، وهو الذي قدر فيها أوزانها وأقواتها ، وهو الذي خلق الموت والحياة ، وأحكم الخلق ، وقدر الأمور ، تقدير الحكيم العليم ، فهو الإله وحده ، وهو غنى عن العالمين ، والناس فقراء إليه ، يخلقهم ويرزقهم ويميتهم ويحييهم .

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر ، لبيد حين يقول : ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(١).

وقال تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ٣) .

فهو سبحانه قبل كل شيء وليس قبله شيء ، وهو سبحانه آخر كل شيء وليس بعده شيء ، وكل الذوات فانية زائلة ، إلا ذاته سبحانه وتعالى ، فهو منزّه عن الفناء والموت ، والنوم ومشابهة الحوادث ، ومتصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وهو سبحانه حي لا يموت ، والإنس والجن يموتون .
لَهُ الْحُكْمُ ... له الأمر والتصرف ، والقضاء النافذ في الخلق ، ويده الخلق والأمر .

وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . فيجازيكم بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً .

وبهذا الختام نجد الآية لوحة هادفة في تقرير الألوهية والوحدانية والبقاء لله تعالى ، وأن الحكم بيده ، فهو سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ومصير الخلائق بيده ، ليقضى بينهم بالحكم والعدل .

فلا معنى لعبادة إله آخر غير الله ، ما دامت خيوط القدرة كلها بيده سبحانه ، وما دام هو الأول والآخر ، والباقي بعد فناء جميع الموجودات ، والمتصرف تصرفاً مطلقاً في هذا الكون ، وإليه المرجع والمآب .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ولله تعالى الفضل والمنة ، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

خلاصة ما تضمنته سورة القصص

- ١ - قصة موسى وفرعون .
- ٢ - ولادة موسى ، رضاعه ، نشأته .
- ٣ - قتل موسى للقيطى ، وهربه إلى أرض مدين .
- ٤ - زواج موسى ، ويقاؤه فى أرض مدين عشر سنين .
- ٥ - عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .
- ٦ - معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .
- ٧ - تبليغ موسى رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له .
- ٨ - هارون وزيراً لموسى ، ورسولاً معه .
- ٩ - إثبات نبوة محمد ﷺ لإخباره عن قصص الأولين دون أن يكون حاضراً معهم .
- ١٠ - إنكار قريش لنبوة محمد ، وانتحالهم المعاذير لتكذيبه ، وتفنيد القرآن لحججهم ، ودحض أكاذيبهم .
- ١١ - التذكير بنعمة الله على عباده باختلاف الليل والنهار .
- ١٢ - شهادة الأنبياء على أمهم .
- ١٣ - ذكر قارون ويغيه فى الأرض ، ثم خسف الأرض به .
- ١٤ - ثواب الآخرة للمتقين لا للمفسدين .
- ١٥ - الإنبياء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتح لمكة .
- ١٦ - بيان أن كل ما فى الوجود هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .



تفسير سورة العنكبوت

أهداف سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكية ، نزلت بعد سورة الروم ، وآياتها ٦٩ آية ، وقد نزلت سورة العنكبوت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة قبل الهجرة ، وكانت هذه الفترة من أقسى الفترات ولذلك تعرضت السورة لتجذبات المؤمنين على الإيمان ، وبيان أن هناك ضريبة يدفعها المؤمن ، هى الفتنة والامتحان بالإيذاء أو بالإغراء أو بالوعد أو بالوعيد .

وتناولت قصص الأنبياء السابقين وجهادهم وبلاءهم ، ثم إهلاك الكافرين وانتصار المؤمنين، وسميت سورة العنكبوت بهذا الاسم لتكرر ذكر العنكبوت فيها فى قوله تعالى : **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَلَّوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .** (العنكبوت : ٤١) .

وفى المصحف المطبوع بالقاهرة والمتداول بين الناس نجد فى عنوان السورة : سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ إلى غاية آية ١١ فمدنية .

وقد رجحت اللجنة المشرفة على طبع المصحف الرأى القائل بأن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية ، وذلك لذكر الجهاد فيها ، وذكر المنافقين .

وعند التأمل يترجح لدينا أن السورة كلها مكية ، أما تفسير الجهاد فيها فمرجعه أنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة ، أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن . وهذا واضح فى السياق ، وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

ثلاثة فصول

الخط الأساسى لسورة العنكبوت هو الحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحق التى تكشف عن معدنه فى النفوس ، فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والثبات فى المحن .

ومع أن موضوع السورة هو تكاليف الإيمان والثبات فى المحنة .. إلا أنه يمكن أن نقسم سورة العنكبوت إلى ثلاثة عناصر لهذا الموضوع أو ثلاثة فصول :

الفصل الأول : من أول السورة إلى الآية ١٣ .

ويتناول حقيقة الإيمان ، وسنة الابتلاء والفئة ، ومصير المؤمنين والكافرين ، ثم فردية التبعية فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة .

وَكَيْسَ لَكُنْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (العنكبوت : ١٣) .

الفصل الثاني : من الآية ١٤ إلى الآية ٤٥ .

ويتناول قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب ، وإشارة إلى قبيلتي عاد وثمود ، ويصور هذا القصص ما وجد من عقبات وفتن في طريق كل دعوة ، ويتحدث عن التهوين من شأن هذه العقبات أمام قوة الإيمان والاعتماد على قدرة الله ، والمضى في تبليغ رسالته وتحمل تبعات هذه الرسالة إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل . قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

الفصل الثالث : من الآية ٤٦ إلى آخر السورة .

ويتناول النهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ، ويتناول وحدة الدين والعقيدة والإيمان ، واتحاد ذلك مع الدين الأخير الذى يجحد به الكافرون ويجادل فيه المشركون ، ويختم بالتهنيت والبشرى والطمأنينة للمجاهدين فى الله المهيدين إلى سبيله .

ويتخلل السورة من المطلاع إلى الختام إيقاعات قوية عميقة حول معنى الإيمان وحقيقته تهز الوجدان هذا ، وتوقفه أمام تكاليف الإيمان وقفة حازمة ، فإما النهوض بها ، وإما النكوص عنها ، وإلا فهو النفاق الذى يفضح الله .

القصص فى سورة العنكبوت

استغرقت الآيات من(١٤ - ٤٥) فى الحديث عن قصص الأنبياء ، والتعليق عليه ، وبيان العظة

والعبرة منه .

وبدأت بالحديث عن نوح عليه السلام ، فقد مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، هى مدة الرسالة وجزء من حياته كان قبل الرسالة ، وجزء منها كار ، بعد الطوفان وهو عمر مديد ، ولكن نتيجته محدودة فلم يؤمن به إلا قليل من قومه .

ثم ثنى بالحديث عن إبراهيم الخليل صاحب الرسالة الكبرى ، إذ دعا قومه إلى عبادة الله الخالق الرزاق ، ونبد الأوثان والأصنام ، والتوجه إلى الله الإله الواحد : فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ... (العنكبوت : ٢٤) .

وفى قصة لوط يتبدى تبجح الرذيلة وسفورها بلا حياء ولا تحرج ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف والشذوذ ، مع الاستهتار بالإنذار : **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ .** (العنكبوت : ٢٩) .

وفى قصة شعيب مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل فاستحقوا عذاب السماء : **فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيْمِينَ .** (العنكبوت : ٢٧) .

وتذكر الإشارة إلى عاد وثمود بالاعتزاز بالقوة والبطر بالنعمة ، كما تذكر الإشارة إلى قارون وفرعون وهامان بطغيان المال واستبداد الحكم والتمرد على أمر الله .

وفى النهاية يلقي الظالم حتفه جزاء ظلمه ، وقد تكرر هذا المعنى فى سور سابقة وتؤكد هنا ليستقر فى الأذهان أمام المشركين والظالمين .

قال تعالى : **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .** (العنكبوت : ٤٠) .

وتعقب السورة على هذا القصص يمثل ضربته لهوان قوى الشرك والظلم ، فالباطل مهما علا لا مستقبل له ، والحق مهما امتحن مستقبله هنىء مرئى ، قال تعالى : **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .** (العنكبوت : ٤١) .

وينتهى هذا القصص بهوان الشرك وعزة الإيمان ، وبيان قدرة الله الذى يضرب الأمثال ليتعظ بها العقلاء وليفهمها العلماء . قال تعالى : **وَبَلَّغْنَا الْأَمَثِلَ لِنَضِرَ بِهَا النَّاسَ وَمَا يَعْزِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .** (العنكبوت : ٤٢) .

الدرس الأخير فى سورة العنكبوت

يستغرق الدرس الأخير فى السورة ربعاً كاملاً من الآية ٤٦ إلى الآية ٦١ . والسورة بدأت بإعلان ثقل تكاليف الإيمان ، وتعرض المؤمنين للبلاء والامتحان ، ثم ذكرت قصص الأنبياء وبلاءهم من عهد نوح .

وفى هذا الدرس الأخير يبين القرآن وحدة الرسالات فى الهدف ، فالرسالات كلها من عهد نوح والرسال من بعده إلى عهد محمد ﷺ دعوة واحدة من عند إله واحد ، ذات هدف واحد هو إصلاح العقيدة وتبذير السلوك ورد البشرية الضالة إلى قوانين الله العادلة ، وأن المؤمنين بكل رسالة إخوة للمؤمنين بسائر

الرسالات : كلهم أمة واحدة تعبد إلهاً واحداً ، وأن البشرية فى جميع أجيالها صنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله ، وصنف المشاقين وهم حزب الشيطان .

ولقد ختم الجزء العشرون فى القرآن بآية شهيرة تدعو إلى تلاوة الكتاب وقراءة القرآن وإقامة الصلاة،
 هى قوله تعالى : **أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ . (العنكبوت : ٤٥) .

ويبدأ الجزء الحادى والعشرون بالحديث عن هذا الكتاب ، والعلاقة بينه وبين الكتب السابقة ، ويأمر المسلمين ألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن ، لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة - إلا الذين ظلموا منهم وبدلوا فى كتبهم وانحرفوا إلى الشرك ، والشرك ظلم عظيم - ودعت الآية المؤمنين أن يعلنوا إيمانهم بالدعوات كلها وبالكتب جميعها ، فهى حق من عند الله يصدق ما معهم من القرآن والإسلام . قال تعالى : **وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِأَلَدَىٰ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالنَّهْنُ وَالنَّهْنُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** . (العنكبوت : ٤٦) .

ثم يحذر القرآن المشركين من استعجالهم بعذاب الله ، ويهددهم بمجيئه بغتة ، ويصور لهم قربه منهم ، وإحاطة جهنم بهم ، ويصف حالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ثم يلتفت إلى المؤمنين الذين يتلقون الفتنة والإيذاء فى مكة يحضهم على الهجرة بدينهم إلى الله ليعبدوه وحده ، يلتفت إليهم فى أسلوب عجيب ، يعالج كل هاجسة تخطر فى ضمائرهم ، وكل موق يقعد بهم ، ويقلب قلوبهم بين أصابع الرحمان فى لمسات تشهد بأن منزل هذا القرآن هو خالق هذه القلوب ، فما يعرف مساريها ومداخلها الخفية إلا خالقها اللطيف الخبير الذى تكفل برزق كل دابة فى كل مكان وزمان ..

وينتقل من هذا التعجب من حال أولئك المشركين ، وهم يتخبطون فى تصوراتهم ، فيَقْرُونَ لله سبحانه بخلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض الموت ، وإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله وحده مخلصين له الدين ، ثم هم بعد ذلك يشركون بالله ويكفرون بكتابه ، ويؤذون رسوله ، ويفتنون المؤمنين به ، ويذكر المشركين بنعمة الله عليهم بهذا الحرم الأمن الذى يعيشون فيه ، والناس من حولهم فى خوف وقلق وهم يفترون على الله الكذب ويشركون به آلهة مفتراة ، ويعدم على هذا جهنم وفيها مثوى للكافرين .

وتختتم السورة بوعد من الله سبحانه بهداية المجاهدين ورعايتهم ، فيقول سبحانه : **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** . (العنكبوت : ٦٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَآئٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

المضردات :

الْفِتْنَةُ : الامتحان والاختبار ، من قولهم : فتن الذهب ، إذا أدخله النار ليختبر جودته .

صَدَقُوا : آمنوا عن عقيدة وإخلاص .

أَنْ يَسْبِقُونَا : أن يفوتونا ويعجزونا ، فلا يلاقوا جزاء أعمالهم .

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ : قبح حكمهم أنهم يهرون مثلاً .

يَسْرِجُوا : يطمع .

لِقَاءِ اللَّهِ : نيل ثوابه وجزائه .

أَجَلَ اللَّهِ : الوقت المضروب للقائه .

جَاهَدَ : بذل جهده في جهاد حرب أو نفس .

لِنَفْسِهِ : أى : منفعة الجهاد من الأجر عائد على نفسه .

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ : ولنجزينهم على أعمالهم بأحسن عمل كانوا عملوه .

تمهيد :

كان المسلمون في مكة يتعرضون لصنوف الأذى وألوان الاضطهاد ، فنزلت سورة العنكبوت تبين أن الابتلاء والاختبار سنة الله في خلقه ، وقيل : إن سورة العنكبوت هي آخر ما نزل بمكة .

وفى المصحف المتداول في البلاد العربية ما يأتي :

(سورة العنكبوت مكية إلا من آية ١ إلى الآية ١١ فمدنية)

وقد اعتمدت المصاحف على بعض الروايات التي ذكرت أن الإحدى عشرة آية الأولى من سورة العنكبوت مدنية وذلك لذكر «الجهاد» فيها وذكر «المنافقين» .

وقد رجح العلماء أن السورة كلها مكية للأسباب الآتية :

١ - الجهاد الذي ورد في صدر السورة يراد منه الجهاد ضد الفتنة ، أي : جهاد النفس بالصبر والثبات والتحمل ، رجاء ثواب الآخرة .

٢ - ذكر النفاق جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

٣ - ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص ، وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال .

٤ - السورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام .

التفسير :

١ - آلَمْ .

سبق الحديث عن هذه الأحرف في سورتي البقرة وآل عمران وغيرهما .

والخلاصة أنها حروف للتنبيه والتحذير والإعجاز ، كالجرس الذي يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

٢ - أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءِأَمَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .

حين خلق الله آدم عليه السلام استخلفه في الأرض ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار ، فإن اختار الطاعات فهو من المفلقين ، وإن اختار المعصية فهو من الخاسرين ، وهنا يذكر الله تعالى أنه جعل البلاء ضريبة في هذه الدنيا ، يمتحن به الناس ، ويظهر به المؤمنين ، ويختبر به الصادقين ، فتنة لهم وامتحاناً ، كما يفتن الذهب الإبريز ، إذ يوضع في النار ليخرج منه الخبث .

ومعنى الآية :

أُظِنَ الناس أن يتركوا بدون اختيار وامتحان ، لمجرد قولهم آمنا ، بدون أن يخوضوا تجربة عملية ، فيها البلاء أو الإيذاء أو التكذيب أو التعرض لألوان من القهر أو الإغراء ، أو أى لون من ألوان الامتحان ؟
وقد تعرض المسلمون فى مكة لصنوف الأذى ، وألوان الاضطهاد ، وتعجلوا الفرج والنصر ، فنزلت هذه الآيات .

جاء فى السهيل لابن جزى وغيره من المفسرين :

نزلت فى قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، كسلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، والوليد ابن الوليد ، وعمار بن ياسر ، وأبيه ياسر ، وأمه سمية ، وغيرهم . ا . هـ .
تعرض هؤلاء للفتنة والعذاب فنزلت هذه الآيات تشد أزهم ، وتبارك جهادهم ، وتذكرهم بأن ذلك قانون الله ونظامه ، يمتحن المؤمنين سابقاً ولاحقاً .

قال العلماء : والآيات وإن نزلت فى قوم معينين ، إلا أنها باقية فى أمة محمد أبد الدهر .

وقيل : نزلت فى مهجع مولى عمر بن الخطاب ، أول من قُتل من المسلمين يوم بدر ، رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله ، فجزع عليه أبواه وامراته ، فقال النبي ﷺ : «سيد الشهداء مهجع ، وأول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة» (١) .

٣ - وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .

لقد اختبرنا الأمم قبلكم ، وكذلك الرسل والأنبياء ، واختبرنا المؤمنين والصالحين فى كل أمة وجيل ، وبهذا الاختبار وذلك البلاء يظهر المؤمن الصادق الثابت فى البلاء ، ويظهر الكاذب المرائي ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فالحياة الدنيا حافلة بأنواع البلاء والامتحان ، ومنه امتحان بالشر والتعذيب والسجن والقهر والإحباط ، وامتحان بالإغراء والمال والجاه والسلطان .

قال تعالى : وَبَلَّوْكُمْ بِالْأَسْرِ وَالْغَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْتَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥) .

وقال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْزِئِينَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَرَأُلُوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ . (البقرة : ٢١٤) .

وقال تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُفْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ... (التوبة : ١٦) .

وفى الحديث الصحيح : «أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمتل فالأمتل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء»^(١٧) .

قال ابن كثير :

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .

أى : الذين صدقوا فى دعوى الإيمان ، ممن هو كاذب فى قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : «لَا تَعْلَمُ ... إِلَّا لَنَرَى ، وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود . ا . هـ .

إن الله تعالى يعلم أزل كل شيء ، والله بكل شيء عليم ، لكنه لم يحاسب العباد بمقتضى علمه القديم ، بل اختبرهم وامتحانهم بألوان التكاليف ، وصنوف الاختبار ، ليكون الجزاء فى الآخرة على مقتضى سلوك العبد بالشكر أو بالكفر ، ويكون الجزاء نتيجة للتجربة العملية للإنسان .

أخرج ابن أبى حاتم أن : أَلَمْ • أَحْسِبَ ... نزلت فى أناس كانوا بمكة أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب الرسول عليه السلام بالمدينة ، ألا يقبل منهم حتى يهاجروا ، فخرجوا إلى المدينة فردّهم المشركون .

٤ - أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أظن الكافرين والفاسقين أن يفوتونا ، ويهربوا من حسابنا ، فلا نقدر على مجازاتهم ، بمساوئ أعمالهم ؟ لقد ظنوا كذباً ، وحكموا فاسداً .

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . بنس الحكم الذى يحكمونه ، وبنس الظن الذى يظنونه .

ونلاحظ أن الحساب الأول كان من المؤمنين ، وهذا الحساب من الكافرين .

قال ابن عباس :

يريد سبحانه بالذين يعملون السيئات : الوليد بن المغيرة ، وأبى جهل ، والأسود ، والعاص بن هشام ، وشيبة وعتبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وعقبة بن أبى معيط ، وحنظلة بن ائيل ، وأنظارهم من صناديد قريش . ا . هـ .

ونقول : إن الآية تعم جميع من يعمل السيئات ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية وعيد للكافرين ، وللعصاة من المؤمنين الذين يجاهرون بالمعصية ، والسلب والنهب والغدر ، والإثم

والعدوان ، ويظنون أنهم سيفتوتون من عذاب الله ، أو يرون أمور الآخرة باهتة غائمة ، وينتصرون للدنيا ، أو يبيعون الباقية ويشترون الفانية ، ولا يشبعون من الحرام ولا من انتهاك الحرمات .

«فلا يحسب مفسد أنه مفلت ولا سابق ، فإذا كانت الفتنة سنة جارية لامتحان القلوب وتمحيص الصفوف ، فخبية المسيئين وأخذ المفسدين سنة جارية لا بد أن تجيء»^(٢٨) .

٥ - مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

من كان يطمع فى ثواب الله يوم القيامة فليبادر إلى فعل ما ينفعه ، وعمل ما يوصله إلى مرضاته ، وتجنب ما يسخطه .

فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

إن رجاء الله وثوابه حق واقع لا محالة ، وسيوفى الله كل عامل عمله كاملاً موفوراً ، لأن الله سميع الدعاء ، عليم بكل شئ ، محاسب على الفتيل والقطمير ، والقليل والكثير .

قال تعالى : فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا . (الكهف : ١١٠) .

وقال سبحانه : لَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٦ - وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

من جاهد نفسه أو جاهد عدوه ، وبذل الجهد فى سبيل الجهاد ، فإن ثوابه وجزاءه عائد على نفسه ، فليستمر فى الجهاد ولا ييأس ، وليثق فى ثواب الله وفضله ، وليثق فى أن ثواب عمله عائد عليه ، فمن بذل نفسه فى سبيل الله ، فسينال الشهادة والجنة والدرجات العلا ، ومن جاهد نفسه وصرفها عن المعاصى ، وحملها على الطاعات ؛ فنفع ذلك عائد عليه ، لأن الله غنى عن عباده ، لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم .

إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ .

فهو سبحانه غنى عن جميع خلقه ، له الملك وله الأمر يفعل ما يشاء .

ونحو الآية قوله تعالى : مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ... (فصلت : ٤٦) .

وقوله تعالى : إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ... (الإسراء : ٧) .

وقوله سبحانه: يَتَكَايَهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥) .

٧- وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وصبروا على تكاليف الجهاد ، وأدوا الفرائض واجتنبوا المحرمات ، هؤلاء لهم جزاء عظيم ، من تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب ، ومكافأتهم على الحسنات بما هو أحسن وأفضل ، حيث تضاعف الحسنات إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وهؤلاء إن فاتهم الجزاء في الأرض قلن يفوتهم عند الله تعالى .

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَّضْعِفْهَا وَيُزِدْ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء: ٤٠) .

★ ★ ★

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٍ إِلَهٍ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

المضردات :

وصيئنا: أمرنا .

حسنا: برهما وعدم عقوبتهما .

جاهداك: بذلا الجهد في حملك على الشرك .

مرجعكم ، عودتكم بعد الموت .

أنبئكم ، أخبركم .

الصالحين ، المؤمنين ، أو ندخلهم الجنة .

أودى في الله ، عذب من الكافرين بسبب إسلامه .

فتنة الناس ، أذاهم له .

كعذاب الله ، أى : فى الخوف منه ، فيطيعهم فيناقق .

إنّا كنّا معكم ، كنّا مشايعين ومناصرين لكم فى الدين .

اتبعوا سبيلنا ، أى : ديننا وما نحن عليه .

خطاياكم ، أوزاركم وسيئاتكم .

أشغالهم ، خطاياهم وذنوبهم الفاحشة .

يفترون ، يختلقون فى الدنيا من الأكاذيب والأباطيل .

التفسير :

٨ - وَوَعَيْتُمُ الْإِنْسَانَ بَوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه ، والبرّ بهما ، وعدم العقوق لهما ، والتلطف فى القول معهما ، والتواضع لهما ، وإذا هفا هفوة ، أو أخطأ فى حقهما ، فينبغى أن يعتذر لهما ويطلب الصفح منهما .

وطاعة الوالدين مشروطة بأن تكون مقترنة بطاعة الله ، إنما السمع والطاعة فى المعروف ، فإذا بذل الأب أو الأم جهده فى حمل الابن على الشرك والكفر بالله : فلا طاعة لهما ، ومع ذلك يجب عليه أن يبرّ بهما ، ويتلطف فى معاملتهما ، مع المحافظة على دينه وإيمانه ، واليقين بأن الجزاء الأوفى سيكون فى الآخرة ، فتفهون الدنيا بما فيها من صعاب ، وهناك جزاء عادل من الله تعالى فى الآخرة .

من هدى السنة

روى الترمذى أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص ، وأمّه حمنة بنت أبى سفيان ، لما أسلم وكان من السابقين الأولين وكان باراً بأمه ، قالت له : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا أكل ولا أشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت فتعبر بذلك أبد الدهر ، يقال : يا قاتل أمّه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة ، لم

تأكل ولم تشرب ولم تستظل ، فأصبحت وقد جهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أمّاه ، لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني ، فكلّي إن شئت ، وإن شئت فلا تأكلّي . فلما أليست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية ، أمراً بالبر بالوالدين ، والإحسان إليهما ، وعدم طاعتهما في الشرك به^(١٩) .

وجاء في الإصابة ١٦٠/٤ رقم ٣١٨٧ في ترجمة سعد بن أبي وقاص أن اسم أمه : حمنة بنت سفيان ابن أمية ، بنت عم أبي سفيان بن حرب .

وقيل : نزلت الآية في عيَّاش بن أبي ربيعة ، وقد فعلت أمّه مثل هذا الفعل ، ويجوز أن الحادثة تكررت ، عند سعد بن أبي وقاص مع أمّه ، وعند عيَّاش بن أبي ربيعة مع أمّه ، فنزلت الآية في شأن كل منهما . والعلماء يقولون : إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي لجميع الأمة .

٩ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ .

الذين آمنوا بالله تعالى رباً وقاموا بالأعمال الصالحة ، من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وتلاوة القرآن وفعل الصالحات وترك المنكرات ، هؤلاء ينزلون منازل الصالحين ، الذين يدخلهم الله فسيح الجنة ، ويسكنهم الدرجات العالية ، وقد بارك القرآن الصلاح ، وجعل العبد الصالح قدر الله في الأرض ، فالخضر نموذج للعبد الصالح الذي آتاه الله رحمة من عنده ، وعلمه علماً من لدنه ، وأفاض عليه من بركته ، وعونه وتوفيقه .

وسليمان عليه السلام يقول : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . (النمل : ١٩) .

وقال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام : وَإِنَّهُ لَفِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . (النحل : ١٢٢) .

والملائكة تستغفر للمؤمنين وتدعو للصالحين ، كما ورد في الآية الثامنة من سورة غافر^(٢٠) .

والصلاح هو منتهى درجات المؤمنين ، وغاية ما امتدح الله به الأنبياء والمرسلين .

١٠ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .

ترسم الآية نموذجاً لفئة من الناس تعلن الإيمان ، وتظن أن الإيمان كلمة تقال باللسان ، لا يتبعها تضحية أو صبر أو فداء ، فإذا لقي في سبيل الإيمان عذاباً أو نكابة أو سجناً ارتد عن دينه ، زاعماً أن عذاب

الناس فى الدنيا مثل عذاب الله فى الآخرة ، وشتان ما بينهما ، فعذاب الناس امتحان من نجح فيه كان جزاؤه الجنة ، وعذاب الله فى الآخرة عقوبة أبدية خالدة ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة ، تطيب النفس لها ولا تعدها عذاباً .

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله .

أخرج أحمد ، والترمذى ، وابن ماجة ، عن أنس قال : قال ﷺ : «لقد أوديت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثة ، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا ما وارى إبط بلال»^(١) .

أسباب النزول

قيل : نزلت فى المنافقين .

وقال مجاهد : نزلت فى أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة فى أنفسهم افتتنوا .

وقال الضحاك : نزلت فى أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون ، فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك .

وقيل : نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أسلم وهاجر ، ثم أودى وضرب فارتد ، وقدم إلى المدينة أبو جهل والهارث ، وكانا أخوين لأمه ، فأخذاه وعذباه فارتد ، ثم عاش بعد ذلك بدهر وحسن إسلامه .

والآية دعوة إلى الثبات على الإيمان وتحمل الأذى فى سبيل الله ، وفيها ذم للنفاق ، وذم للارتداد عن الإسلام .

وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّنْ رَبِّكَ يَقُولُ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ .

تعتبر الآية عن انتهازية المنافقين ونفيعتهم ، فهم يفرّون من البأساء ويتواجدون عند الغنيمة والنصر . هم عند التعرض للعذاب والآلام يفرّون ولا يثبتون ، فإذا جاء نصر من الله للمؤمنين أعلنوا عن أنفسهم ، وقالوا : إنا كنا معكم فى الحرب ، نشد أزركم ونناصركم ، ونستحق أن ننال من الغنائم ، والله تعالى مطلع وشاهد على ما تكنه ضمائرهم من الإيمان والنفاق ، فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ، وهم عالم السر وما هو أخفى من السر .

١١ - وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ .

إن الله تعالى مطلع وشاهد وعالم بالذين آمنوا وصدّقوا ، وبالذين نافقوا وتلوّنوا ، وسيجازى المؤمنين بحسن الجزاء ، وسيعاقب المنافقين .

وفى معنى ما سبق يقول الله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ... (النساء: ١٤١).

وقال سبحانه وتعالى: وَتَبَلَّوْا نَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ. (محمد: ٣١).

١٢ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

قال الكفار في مكة لمن آمن من أهلهم وقرباتهم: اتبعوا ديننا واثبتوا عليه، وانصرفوا عن كلام محمد ودعوته، فإنه لا بعث ولا حشر ولا حساب، وإذا فرض أن هناك بعضاً وحساباً، فذنوبكم في رقيبتنا نتحملها عنكم، فلنا من الكافرين أن العائلة تحمي أفرادها، كما يخطئ قاتل فتتحمل العائلة الدية معه، فكل ذلك في الآخرة يتحملون خطايا أقاربهم، إذا تركوا الإسلام وانضموا إلى الكافرين.

وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ...

فذلك يوم يتحمل فيه كل فرد مسئولية عمله وحده، قال تعالى: كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ. (الطور: ٢١).

وقال عز شأنه: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى... (الأنعام: ١٦٤). أى: لا تحمل نفس مذنبية وزر نفس أخرى.

وقال تعالى: وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ... (فاطر: ١٨).

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ.

تأكيد لما سبق وتكذيب لهؤلاء الكافرين الذين يغترون بالناس، ويدعون حمل أفعالهم عنهم.

١٣ - وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ.

سيحمل دعاة الكفر ذنوبهم التي تثقل ظهورهم، وسيحملون نصيباً آخر من الأثقال، مضافاً لأوزار من أضلّوهم عن الهدى، وزينوا لهم الكفر، وسيساءلون عن سلوكهم وكذبهم وزعامتهم للشرك وإضلال من خلفهم.

كما قال تعالى: يَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ... (النحل: ٢٥).

وكما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه ابن ماجه في السنن، عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ

قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من

أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»^(٨٧).

وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : «ما قُتِلَ نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سنَّ القتل»^(٨٨).

وأخرج مسلم وغيره ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : «من سنَّ سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من وزره شيء»^(٨٩).

★ ★ ★

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

تمهيد :

ذكر الله تعالى في صدر سورة العنكبوت الاختبار والابتلاء لعباده ، ثم ذكر قصص عدد من الأنبياء ، منهم نوح وإبراهيم ولوط ، وهود وشعيب وصالح ، وذلك لبيان عاقبة المكذبين ، ولتسلياة النبي ﷺ عما يلاقيه من كفار قومه .

التفسير :

١٤ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ .

أي : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، ونهذ عبادة الأصنام ، ونوح عليه السلام أطول الأنبياء عمرا ، وتعددت الآراء في عمر نوح عليه السلام ، وأورد القرطبي في تفسيره آراء كثيرة في عمر نوح ، ومن أشهر الآراء : أن نوحا عليه السلام بعث بالرسالة وعمره أربعون سنة ، ثم مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، فيكون عمره كله ألف سنة وخمسين سنة.

ويرى صاحب الظلال : أن طول العمر سببه قلة عدد البشر ، فعوضهم الله بطول أعمارهم ليستمر استعمارهم الأرض وإعمارها . ١ هـ .

وقد لَوْن نوح فى دعوة قومه إلى توحيد الله ، ودعاهم سرّاً وجهراً ، وقدم لهم طائفة من الأدلة على التوحيد ، مثل ما ورد فى قوله تعالى : فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْتَبِهُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا . (نوح : ١٠ - ٢٠).

ولما طالت مدة نوح مع قومه ، واستمر تكذيبهم لرسالته ، دعا على قومه .

فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ .

أرسل الله المطر من السماء ، وفجر سبحانه عيون الأرض ، فالتقى ماء السماء وماء الأرض ، بتقدير الله تعالى ، وأمر الله نوحاً أن يصنع سفينة ، فكانت وسيلة النجاة له ولقومه .

قال تعالى : حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَخْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُسَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . (هود : ٤٠ ، ٤١).

وقد ذكرت قصة نوح فى القرآن الكريم فى ثلاثة وأربعين موضعا ، وجاءت قصته مع قومه بصورة فيها شئ من التفصيل فى سور الأعراف وهود والمؤمنون ونوح ، وينتهى نسب نوح إلى شِيث بن آدم عليه السلام .

١٥ - فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

نجى الله نوحا والمؤمنين معه ، وكانوا قرابة الثمانين نسمة ، وبعضهم من الذكور ، وبعضهم من الإناث ، وسارت السفينة فى البحر بإذن الله ، وأغرق الله الكافرين ونجى المؤمنين ، ثم رست السفينة على جبل الجودي ، وتركها الله عليه مدة طويلة ، لتكون عظة وعبرة للناس ، حتى لا يعصوا رسل الله ، ولا يشركوا بالله شيئا .

من كلام المفسرين

ذكر المفسرون أن زوجة نوح وابنه كنعان هلكا مع الكافرين ، ونجى الله نوحاً والمؤمنين ، كما نجى أولاده الثلاثة وهم : سام ، وهو أبو العرب وفارس والروم وهم الجنس السامى . وحام ، وهو أبو القبط والسودان والبحرير ، ويافث ، وهو أبو الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج^(١١) .

من هدى السنة

أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والحاكم - وصححه - عن ابن عباس قال : بعث الله تعالى نوحا عليه السلام وهو ابن أربعين سنة ، ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى الله تعالى ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، حتى كثر الناس وفشوا .

★ ★ ★

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا اتَّقَوْهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَمْرًا مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٦٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٧١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُسَوِّمُ اللَّهُ مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

المفردات :

اتَّقَوْهُ ، اتقوا أن تشاركوا به شيئا .

أَوْثَانًا ، أصنامًا مصنوعة .

إِفْكًا ، كذبا .

فابْتَغُوا ، فاطلبوا .

المبين ، الواضح البين في نفسه ، المبين لغيره . الموضح له .

أولم يروا ، المراد من الرؤية هنا العلم ، أى : أولم يعلموا علما يشبه المشاهدة بالبصر .

يبدئ الخلق ، يوجده ابتداء على غير مثال سابق .

يعيده ، يحييه بعد موته وتحلل أجزائه ، بل وتلاشيها .

إن ذلك ، الخلق الأول ، والثانى : هو الإعادة .

على الله يسير : سهل لا صعوبة فيه .

تسلبون ، تزلون وترجعون ، فيحاسبكم على أعمالكم ، الحسنة منها والسيئة .

بمعجزين ، بقائتين ولا هارين من عذاب الله .

ولسى : معين وناصر يمنعكم من العذاب .

يسئسوا ، انقطع رجاؤهم وقنطوا .

رحمتى ، جنتى .

تمهيد :

ذكر الله قصة نوح فيما سبق ، وذكر هنا قصة إبراهيم مع قومه كنموذج لتحمل البلاء ،

قال تعالى : فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

التفسير :

١٦ - وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

واذكر أيها الرسول لقومك قصة إبراهيم حين قال لقومه : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وراقبوه وخافوا عقابه ، فإنه هو الإله الواحد الأحد الذى لا شريك له ، ذلك التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له . ونبت عبادة الأصنام والأوثان ، خير لكم فى دنياكم وآخرتكم ، إن كنتم تعلمون . ذلك فاعبدوا الله وحده ، واتركوا عبادة ما سواه . أو إن كنتم من أهل العلم بوجه من الوجوه ، تبين لكم أن الخير كله فى عبادة الله وحده لا شريك له .

١٧ - إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّقُوا عَبْدَ اللَّهِ الرَّزَّاقَ وَأَغْنُواوْهُ وَتَشْكُرُوا لَهُ إِنَّهُ تَرْجِعُونَ .

كان قوم إبراهيم يصنعون تماثيل بأيديهم ، ثم يعبدونها من دون الله ، فقال لهم إبراهيم : إنكم انصرفتم عن عبادة الله ، وهو الإله الحق ، واتجهتم بعبادتكم إلى الأوثان والأصنام ، وأنتم صنعتُموها بأيديكم كذباً وزوراً ، لأن عبادتها وتأييدها كذب وزور واقتراء .

إن هذه الأصنام والأوثان التي تعبدونها لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لكم رزقاً ولا نفعاً ولا لنفسها ، فاعبدوا الله وحده ، والتمسوا الرزق بعبادته وشكره ، وإليه مرجعكم ومصيركم يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

١٨ - وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَن يَنْبَلِغَ الْوَعْدُ .

هذه الآية وما بعدها يحتمل أن تكون من كلام إبراهيم لقومه ، ويحتمل أن تكون توجيهاً من الله لنبيه محمد ﷺ ، ليقول هذا القول لأُمته ، فهو كلام مقحم بين أول قصة إبراهيم وآخرها ، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن معناه ما يأتي : وإن تكذبوني وتجددوا رسالتى فلا ضرر على من ذلك ، إنما الضرر عليكم أنتم ، فقد كذب قوم نوح نوحاً ، وكذب أقوام الرسل من بعده ، فأهلك الله المكذبين ، والرسل ليس ملزماً بهداية قومه ، فإن الهدى هدى الله ، وليس على الرسول إلا البلاغ الواضح ، وتقديم الدليل والحجة والبرهان في أسلوب مقنع ، يحرك النفوس إلى الإيمان ، ويدعوها إلى النظر والمشاهدة والتأمل ، والتفكير في هذا الكون الكبير .

١٩ - أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ : إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أولم يشاهدوا دلائل القدرة الإلهية ، حيث خلق الله الكون على غير مثال سابق ، ورفع السماء وبسط الأرض ، وسخر الرياح والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والمطر والنبات ، وأبدع نظام الحياة ، ثم خلق الإنسان والحيوان والطير ، والملائكة والجن وسائر المخلوقات ، وهذه المخلوقات يدركها الموت والفناء ، ثم يعيدها الله بالبعث والحشر والحساب والجزاء ، وذلك كله هين يسير على الله ، لأن الله على كل شيء قدير ، بل ليس عليه هين وأهون ، وإنما ضرب ذلك مثلاً لتقريب الأمر إلى نفوسنا ، قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

وقال عز وجل : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

تَرْجِعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

٢٠ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُنْشِئُ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

قل يا محمد لقومك ، أو قل يا إبراهيم لقومك : سيروا فى الأرض متأملين فى السماء وأبراجها ، وشموسها وأقمارها ، والأرض وسهولها وجبالها ، ووديانها وبحورها ، والهواء والفضاء ، وأثار السابقين ، وهلاك المكذبين ، وهذا السير يشمل السير بالأبدان ، والتأمل فى المخلوقات ، والقرون البائدة ، وتطور الخليقة ، وأصناف النباتات والجبال ، وغير ذلك من المشاهد ، ويشمل السير بالفكر والنظر ، والتأمل فى هذا الكون الذى أوجده الله بعد عدم ، وهو دليل على أن له موجداً نظمه وأبدعه وخلقه على غير مثال سابق ، ومن خلق هذا الخلق ، يميتهم ويفنيهم ، ثم يعيدهم للحساب والجزاء .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ ... (الأنبياء : ١٠٤) . والبدء والإعادة هين يسير على الله ، فهو على كل شيء قدير .

قال القرطبي :

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... أى : قل لهم يا محمد : سيروا فى الأرض . فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ... على كثرتهم وتفاوت هياتهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية ، وديارهم وآثارهم ، كيف أهلكهم ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله . ١ هـ .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : سُرِبِهِمْ غَابٍ مِّنَ الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ أُنْفِثُوا هُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت : ٥٣) .

٢١ - يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ .

لقد خلق الله الإنسان بقدرته ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتوجيه الإنسان وإرشاده ، ومساعدته على الإيمان والتأمل والاعتبار ، والله تعالى يعذب من يشاء من الكافرين بعدله ، ويرحم من يشاء من المؤمنين بفضلته ، وإذا أمهلكم فى الدنيا ، فلا تظنوا أنكم أفلتم من المسألة ، فسترجعون إليه فى الآخرة ، فيحاسبكم ويجازى كل إنسان بما عمل .

وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . ترجعون وتردون .

٢٢ - وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

أى : ما أنتم أبها الناس على كثرتكم ، واختلاف أحوالكم ، بفائتين من حساب الله وجزائه ، بالتواری فى الأرض الغسيحة ، أو التخفى فى مناكبها ، ولا بالتحصن بالسماء التى هى أمتع من الأرض ، إن استطعتم

الوصول إليها ، فإله تعالى لا يعجزه أحد من أهل سماواته ولا أرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فما لكم من مهرب منه ولا ملجأ .

وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

إذا أراد عذابكم وجزاءكم فليس لكم أيها الناس من ولى يلى أموركم ، ويحرسكم من أن يصيبكم بلاء أَرْضَى أَوْ سَمَوَى ، ولا نصير يدفع عذاب الله عنكم .

٢٣ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والذين جحدوا آيات الله ، ودلائل وحدانيته ، وما أنزله على رسله من الدلائل والبراهين والغطات والعبر ، وكفروا بالميعاد ولقاء الله : هؤلاء لا أمل لهم فى رحمة الله بسبب كفرهم ، ولهم عذاب مؤلم شديد موجع .

قال تعالى : إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُّوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

★ ★ ★

جواب قوم إبراهيم

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَلَّنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّصِيرٍ ﴿٢٥﴾﴾ ﴿فَأَمَّا لَهُ لُطُوفٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَأَعِثْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾

المضردات:

أَوْثَانًا : أصناما تعبدونها من دون الله .

مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ : سببا فى تواصلكم واجتماعكم على عبادتها .

مأواكم، منزلكم الذي تأوون إليه خالدين فيه أبدا.

آمن له لوط: أي: آمن بإبراهيم وأسلم له قياده.

مهاجر: الهجرة: مفارقة بلد إلى آخر، فإن كانت قرية إلى الله فهي الهجرة الشرعية.

وهبتنا، منّا وأعطينا.

إسحاق: ابنه الأكبر، ويعقوب حفيده وابن إسحاق.

أجر الدنيا: الرزق الواسع الهنيء، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن.

التفسير:

٢٤ - فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

قدم إبراهيم إلى قومه عدداً من الأدلة على وجود الله، وحثهم على السير في الأرض والتأمل فيها، والاعتبار بمن سبقهم من الأمم، فبماذا أجابوه ؟

ما كان جوابهم مقارعة للحجة بالحجة، ولا مقابلة للبرهان بالبرهان، بل قالوا: اقتلوه بأداة قتل، أو حرقوه بالنار حتى تستريحوا منه، وفعلوا استقر رأيهم على تحريقه بالنار، فجمعوا حطباً كثيراً جداً، ولم يستطيعوا الاقتراب من النار، فاهتدوا إلى المنجنيق ليقذفوه في النار من بعيد، لكن الله تعالى جعل النار برداً وسلاماً عليه، فلم تحرق سوى الحبل الذي أوثق به، وجعل الله ذلك آية على قدرته، ودليلاً على صدق إبراهيم، ومعجزة له، حتى يؤمن برسالته من شارف الإيمان قلبه، وقد ذكرت هذه المعاني في سور عديدة من القرآن الكريم.

قال تعالى: قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ . (الأنبياء: ٦٨ - ٧٠).

وقال سبحانه وتعالى: قَالُوا ابْتُلُوا آلَنَا نَرَاهُمْ فِي الْحَرِّمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ .

(الصافات: ٩٧، ٩٨)

٢٥ - وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَمَ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُم النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ .

قال إبراهيم لقومه: إنكم عبدتم الأصنام والأوثان، لا عن عقيدة واقتناع بعبادتها، لكن مجاملة من بعضكم لبعض، وتعبصاً ومودة وتآلفاً لنصرة الأصنام، وهذه المودة الزائفة تنقلب يوم القيامة إلى عداوة، حيث يكفر بعضكم ببعض، ويتبرأ بعضكم من بعض، ويلمعن بعضكم بعضاً، ومأواكم جميعاً النار، هي مآلكم ومصيركم، وليس لكم من دون الله من ناصرين يخلصونكم من عذابها.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى:

إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . (البقرة: ١٦٦)

ويقول سبحانه وتعالى:

الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ . (الزخرف: ٦٧)

٢٦ - قَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

لقد خرج إبراهيم من النار سليماً معافى، وكانت هذه معجزة باهرة تستدعى إيمان الكثيرين بإبراهيم عليه السلام، بيد أنه لم يؤمن بإبراهيم إلا لوط عليه السلام، ابن أخى إبراهيم، وسارة زوجته، وكان إبراهيم فى سن الخامسة والسبعين، فعزم على الهجرة بعد أن وجد القوم فى العراق محججين عن الإيمان، مصممين على الكفر، وانتقل إبراهيم من قرية كوثى «بضم الكاف»، وهى قرية من سواد الكوفة بأرض العراق، إلى حران ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه، لوط بن هاران بن تارح، وامراته سارة.

ثم أرسل لوط فى حياة إبراهيم عليه السلام، إلى أهل سدوم وإقليمها، قرب البحر الميت، أو بحيرة لوط كما سميت بعد ذلك.

وجمهور المفسرين على أن إبراهيم هو الذى قال: إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . أى: آمن لوط بإبراهيم، ويأنه رسول من عند الله تعالى كما آمنت به زوجته سارة، ولما رأى إبراهيم قلة المؤمنين به أعلن هجرته من العراق إلى الشام، وقال: إني مهاجر لتنفيد أمر ربي، ولنشر دعوته فى أماكن أخرى تجد آذاناً صاغية ومؤمنين بها، إنه هو. العزيز. الغالب الذى نجاتى من النار، الحكيم. الذى اختار لى الهجرة، وهو الحكيم فى كل أفعاله.

وقال صاحب الظلال:

معنى الآية: فآمن لوط بإبراهيم ورسالته، وقال لوط: إني مهاجر إلى ربي ابتغاء مرضاته هنى هجرة فى سبيله، وهو سبحانه العزيز الحكيم . أى: الغالب القادر الحكيم فى أوامره (٣٦).

٢٧ - وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَاتَّيَاهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

رزق الله إبراهيم بعد هجرته إلى الشام من زوجته سارة - وهى عجوز عقيم - بولد إسحاق، وكانت هبة عظيمة، حيث رزق به بعد أن أيس من الولد، وقالت زوجته حين بشرتها الملائكة بذلك: أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

(هود: ٧٢ ، ٧٣)

وبعد أن رزق الله إبراهيم ابنه إسحاق، رزق الله إسحاق ولده يعقوب الملقب بإسرائيل، وقد نشأ في حجر إبراهيم فتنسب إليه، وهو حفيده، ومن نسل إبراهيم كان جميع الأنبياء، فقد رزق بإسماعيل من زوجة شابة، هي هاجر، ولم يكن من نسل إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

أما إسحاق فقد أنجب يعقوب ورزق يعقوب بالأسباط، أي: الأحفاد، أحفاد إبراهيم، وكانوا اثني عشر سبطاً، من بينهم يوسف "الذي رأى في منامه أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً يسجدون له، وتأويل ذلك أن أباه وأمه وإخوته، سيسجدون له سجد تعظيم وتحية لا سجد عبادة، ومن نسل الأسباط كان آلاف الأنبياء من بني إسرائيل مثل: داود صاحب الزبور، وموسى صاحب التوراة، وعيسى صاحب الإنجيل، وهذا رسم توضيحي:



وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...

جعلنا في ذرية إبراهيم النبوة والرسالة، والكتاب، أي: جنس الكتب السماوية، فمن نسل إسماعيل رسول واحد هو محمد ﷺ، ومن نسل إسحاق يعقوب، ومن نسله الأسباط (الأحفاد) وهم أحفاد إبراهيم، ومن نسلهم آلاف الأنبياء والمرسلين.

وَرَزَقَ إِبْرَاهِيمَ فِي الدُّنْيَا، بِالنَّشَاءِ الْحَسَنَ وَالذِّكْرَ الْجَمِيلَ، قَالَ تَعَالَى: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى. (النجم: ٢٧).

حيث وفق الله إبراهيم إلى الوفاء في جميع ما كلف به، من محاربة الشرك وإعلاء التوحيد، والطاعة له حده، والاستجابة لما أمر به من ذبح ولده، والصلاة على إبراهيم إلى آخر الدهر.

وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ .

أي: جمع الله له استحقاق الأجر والفوز، وكثرة العطاء في الدنيا، والفوز في الآخرة بالدرجات العلى والحسنى وزيادة، لأنه من الصالحين الاتقياء، ودرجة الصلاح درجة سامية هي وسام للأنبياء الصالحين.

كما يحشر إبراهيم يوم القيامة في زمرة الكاملين في الصلاح، الذين لهم الدرجات العلى، وقصارى أمره، أنه سبحانه جمع له بين سعادة الدارين، وآتاه الحسنى في الحياتين.

★ ★ ★

قصة لوط عليه السلام

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾

المفردات:

الفاحشة: الفعل القبيحة التي تنفر منها النفوس الكريمة.

السبيل: الطريق «وكلتاها تذكر وتؤنث»، وكانوا يتعرضون للسبلة بالقتل واخذ الأموال.

تأتون: تقتربون.

المنكر: الأمر القبيح الذي ينكره الدين والخلق، كاللواط وأنواع الفجش.

المفسدين: العاصين بإتيان الرجال، أو بابتداء الفاحشة، فاستجاب الله دعاءه.

تمهيد:

بعد قصة إبراهيم عليه السلام، تأتي قصة لوط، إذ كان لوط معاصراً له، وهو ابن أخيه على الراجح: أو ابن أخته، وقد افتن قوم لوط في فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب، جاءوا ضيوفاً لإبراهيم عليه السلام، فقد أخبروه أنهم في طريقهم إلى قرية سدوم لإهلاك أهلها المفسدين.

التفسير:

٢٨ - وَلَوْ لَوْطَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ .

أي: واذكر لوطا حين قال لقومه أهل سدوم، وكان لوط قد أقام بهذه القرية، بعد أن هاجر إلى ربه مع إبراهيم، على ضفاف البحر الميت أو بحيرة لوط كما سميت فيما بعد، وصار لوط من أهل سدوم بالصهر والمعيشة (٦٧)، قال لهم:

إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ . . .

أي: ترتكبون المنكر، وتفعلون أمرا فاحشا ابتدئتموه، ولم يسبقكم إليه أحد من البشر .

مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ .

فهو أمر مخالف للفطرة، مناف للطبيعة البشرية، حيث خلق الله الذكر والأنثى، وجعل في كل منهما ميلا للأخر لقضاء وطره وإمتاع نفسه، وإمتاع الطرف الآخر، والاستمتاع بلذة مشتركة بين الرجال والنساء، يتم على آثارها الحمل والولادة وإثراء الحياة.

أما جماع الرجل للرجل، فهو شذوذ وانتكاس للفطرة، وخروج على سنة الحياة، حيث يستغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ويترتب على ذلك أمراض وعلل، وانقطاع للنسل، وأفات جنسية وصحية.

٢٩ - أَفَأَنْتُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . . .

أي: إنكم تجامعون الرجال جماع شهوة، فبدلا من أن يجامع الرجل زوجته في قبلها، كما هو شأن المتعة بين الذكر والأنثى، فإنه يجامع رجلا مثله في دبره، فهي فاحشة وشذوذ، وانتكاس بالفطرة، وخروج على ما سمه الله، وفساد في التركيب النفسى والتركيب العضوى سواء بسواء.

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ . . .

تقفون في الطرقات تقتلون المارة، وتأخذون أموالهم، أو تفعلون بهم الفاحشة كرها، وهي خطوة أبعد في الفاحشة من الأولى.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ . . .

يفعلون اللواط في مكان اجتماعهم العام، لا يخجل بعضهم من بعض، حيث يفعلون الأفعال المشينة، ومنها حل الإزار، والسباب والفحش في المزاح، والسلوك الماجن المستهتر بكل القيم.

ونلاحظ أن لوطاً عرض عليهم أفعالهم، مترقياً معهم من سيئ إلى أسوأ، ووضع فسادهم أمام أعينهم، فقالوا للوط:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّتَا بَعْدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

كان الأولى بهم أن يهتدوا ويخرجوا، ويكشوا عن اللواط والعدوان على الآخرين، وممارسة الشذوذ أمام أعين الآخرين.

لكلهم لم يرفعوا، ورفضوا النصح، فهددهم لوط بعذاب الله وانتقامه، فقالوا مستهزئين به، مستهينين بأمر العذاب، مكذبين له في هذا الوعيد:

إِنَّا بَعْدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . أى: فى وعيدك.

قال صاحب الظلال:

والقصة هنا مختصرة، وظاهر أن لوطاً أمرهم ونهاهم بالحسن، وأنهم أصرُّوا على ما هم فيه، فخوفهم عذاب الله. ١ هـ.

وقد استهانوا بالعذاب، وكذبوا رسولهم، وتحذَّوه أن يأتيهم بهذا العذاب إن كان صادقاً.

٣٠- قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

حار لوط مع قومه، فقد نصحهم وبين لهم قبح فعلهم، وتكرر نصحه لهم، وفى آيات مرشدة قال لهم:

اتَّاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَنْتُمْ أَوَّلَ حَرٍ شَاءَ اللَّهُ . (الشعراء: ١٦٥، ١٦٦)

وقال عز شأنه:

وَلَوْ طَإِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اتَّاتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَرُونَ * فَانْجِبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . (الأعراف: ٨٠ - ٨٤)

ويذكر الألوسى فى تفسيره المعانى الآتية:

تعددت نصائح لوط لقومه، وفى مرحلة من مراحل إرشاد لوط لقومه وابتداء نصحه لهم، قالوا له:

إِنَّا بَعْدَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (العنكبوت: ٢٩)

ولما تكرر وعظه لهم، وتوبيخه وتحذيره، واستمر لوط يحذّر وينذر، فحروا إخراجهم من سدوم، وطرده هو

ومن اتبعه من المؤمنين.

وبذلك نجمع بين ما ورد هنا في سورة العنكبوت، بأنهم طلبوا نزول العذاب بهم، وما ورد في سورة الأعراف من قرار إخراج لوط وأتباعه من القرية.

قال تعالى: فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ... (النمل: ٥٦).

وقال سبحانه: وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ... (الأعراف: ٨٢).

ونلاحظ أن لوطا ضاق بقومه وفسادهم، وعدوانهم وتفاقم شرهم، فعدَّ يده إلى ربه داعيًا متضرعًا:

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ .

لأنهم فسدوا وأفسدوا، والله لا يحب المفسدين.

★ ★ ★

حضور الملائكة

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشَرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُهْـٔكُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِـٔءَ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ كَانَتْ مِنَ الْغَايِبِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٣٥)

المضردات:

بالبشرى: بالبشارة بالولد.

هذه القرية: هي سدوم.

الغايبين: الباقيين في العذاب.

سوء بهم: اعترته المساءة والغم، خوفًا عليهم من قومه.

ضاق بهم ذرعاً: عجز عن تدبير شئونهم، يقال: طال ذرعه وذراعه على الشيء، إذا كان قادراً عليه، وضده: ضاق ذرعه، لأن طویل الذراع ينال ما لا يناله قصيرها.

وجــــــــــــزأ عذاباً من السماء يزعجهم، يقال: ارتجز فلان وارتجس، أى: اضطرب.

آية بينة، هى آثار القرية الخربة التى تدل على قصتها العجيبة.

لقوم يعقلون: يستعملون عقولهم فى الاعتبار والاستبصار.

تمهيد:

الملائكة رسل الله، وصلت إلى إبراهيم الخليل، تحمل البشرى له بهيلاذ إسحاق ويعقوب الذى يولد لإسحاق، ثم قالوا له: إننا مهلكو أهل قرية سدوم؛ لتماذى أهلها فى الشر، وأشفق إبراهيم على لوط، فطمأنته الملائكة بنجاة لوط ومن آمن به، وإهلاك القرية بالزلازل البركانية، وإرسال الصواعق والأمطار المهلكة عقوبة عادلة لهم.

التفسير:

٣١- وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِى قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ .

أرسل الله الملائكة إلى إبراهيم الخليل بالبشارة السارة، وهى أن تحمل امرأته سارة فى غلام يسمى إسحاق، وببشارة أخرى هى أن إسحاق سيبلغ مبلغ الرجال ويتزوج وينجب ولداً يسمى يعقوب.

قال تعالى: وَأَمْرَاتُهُ قَالِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَهَرَّانَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَنَّى وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ (هود: ٧١ - ٧٣).

ثم أخبرت الملائكة إبراهيم بأن الله تعالى أرسلهم أيضاً لإهلاك قوم لوط جزاء فسوقهم وعدوانهم، ونكاح الذكور وترك الإناث.

٣٢- قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنِ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

تفيد الآية رقة قلب إبراهيم وإشفاقه أن يصيب العذاب لوطاً ومن آمن به، فقال إبراهيم للملائكة: إن قرية سدوم فيها لوط ومن آمن به، وهم أهل إيمان وصلاح، ولم يشتركوا فى الفساد والظلم، قالت الملائكة: نحن أكثر علماً بلوط، وأكثر حرصاً على نجاته، ونجاة من آمن به.

لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أقسموا وأكفوا نجاة لوط وأهله المؤمنين، لكن امرأته الكافرة ستترك مع القرية لتتال العذاب معهم، فقد كانت تعاون أهل القرية وتساعدهم، وتتمنى لهم النجاح فى ارتكاب الفاحشة مع أضياف لوط.

٣٣- وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

وصلت الملائكة إلى قرية لوط في صورة شبان حسان الوجوه، وقد اعتمد لوط، واعتزته المساءة، خوفاً على ضيوفه من قومه الذي يرتكبون الفاحشة قسراً مع الضيوف، وتمنى لوط لو كانت معه قوة أو عصبة من الرجال؛ تحميه وتحمي أضيافه، وتأسف لوط لضيق يده وعدم قدرته على الدفاع عن أضيافه أمام قوم فاسقين، قد أغرموا بإتيان الذكور في أديارهم، وقد أهدت آيات أخرى جدال لوط مع قومه، وتحريضهم على الزواج بالنساء، فجماع النساء أظهر وأفضل حيث يكون في مكان الحرث، وتتم المتعة مشتركة بين الذكر والأنثى، بل عرض عليهم زواج ابنتيه، فقال:

هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزَنْ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُرَّةٌ أَوْ أَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود: ٧٨ - ٨٣)

لقد فصل القرآن ذلك في سور سابقة، وكرر هذه القصة للعظة والاعتبار، ولما شاهدت الملائكة مخايل الضجر على لوط، وعابنوا تأله لعجزه عن حماية أضيافه، ودفع الظلم عنهم طمانوه:

وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ .

أخبره الضيوف أنهم ملائكة، فلا خوف عليهم من قومه، وأنهم يحملون العذاب لهذه القرية الظالمة التي فسدت أهلها وغلبت عليهم الشهوات، فسيخسفون بهم الأرض، ويمطرون عليهم حجارة من السماء، وينزلون العذاب بالكافرين، وستتم نجاة لوط وأهله المؤمنين، بيد أن امرأته ستهلك مع الهالكين، لأنها كانت تساعد أهل القرية، وتغشى أسرار لوط، وتتمنى لو نجح الكافرون في عمل الفاحشة مع أضياف لوط، وهذا أمر عجيب من هذه المرأة، وقد أهلكها الله مع الهالكين، ولم ينفعها قريبها من لوط رسول الله، لأن عدالة الله قد شملت الإحسان إلى كل محسن، ومعاقبة كل مسيء.

قال تعالى: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ . (الرحمن: ٦٠)

وقال سبحانه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨)

والخلاصة: أن الملائكة طمأنّت لوطاً وأخبرته بنجاته مع المؤمنين، وأن زوجته الكافرة ستهلك مع الهالكين.

٢٤ - إِنْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

زلزل الله بهم الأرض زلزلة شديدة، خسفت بقرية سدوم الأرض، وابتلعتهم في باطنها، وصار مكان قرينتهم بحيرة ملحة (البحر الميت).

قال ابن كثير:

إن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً إلى يوم الميعاد. أ هـ.

والخلاصة: قالت الملائكة سننزل على أهل قرية سدوم عذاباً عظيماً من السماء، تضطرب له نفوسهم بسبب فسقهم.

٢٥ - وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ترك الله هذه القرية خراباً ييباً فيها آثار الهلاك والدمار، عظة بيّنة، وآية واضحة لمن استخدم عقله وفكره وبصيرته.

قال تعالى: وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَاللَّيْلِ أَفْلا تَعْلَمُونَ . (الصافات: ١٣٧، ١٣٨).

وفي السيرة النبوية: أن النبي ﷺ لما سار إلى غزوة تبوك مر بقرى ثمود؛ فأنحنى على راحلته واستحثها، وقال: «لا تمرّوا على قرى القوم الذي ظلّموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢٨).

ومثل ذلك يقال في قرى قوم لوط، التي أثبتت الاكتشافات الحديثة ترجيح وجودها في مكان بحيرة لوط بجوار البحر الميت، وهي عبرة وعظة، ودليل على عظم هذه الفاحشة، فهي كبيرة بالإجماع، وأشدّ حرمة من الزنا^(٢٩).

قصص شعيب وهود وصالح وموسى

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيم ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِ نُهُمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُوتَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا اسْمِعِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات:

والى مدين، وأرسلنا إلى مدين، وأصلها: أبو القيلة.

ارجوا اليوم الآخر، اضلوا ما ترجون به ثواب اليوم الآخر.

لا تعموا، لا تقصدوا

الرجفة، الزلزلة الشديدة، وقيل: صيحة جبريل.

جاثمين، باركين على الركب ميتين.

وصادوا وحمود، وأهلكنا

من مساكنهم، كانت قبيلة عاد تسكن الأحقاف، قرب اليمن، وثمود تسكن الحجر، قرب وادى القرى، (بين

الحجاز والشام).

أعمالهم، من الكفر والمعاصي.

السبيل، سبيل الحق الذى بيئه الرسل لهم.

مستبصرين، عقلاء ذوى بصائر، ولكنها لم تنفعهم.

سابقين - فاثنتين عذابنا غير مُبركين، بل أدركهم أمر الله.

حاصباً - سحاباً أو ريحاً تحصيهم بالحجارة.

الصيخوخة - الموضع شديد في الهواء، يحدث هزة عنيفة مهلكة.

خسفناه الأرض - غيبناه في جوفها.

التفسير:

٣٦ - وإلى مدين آخاهم شعباً فقال يا قوم أعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعفوا في الأرض مفسدين .

أرسل الله تعالى عبده شعبياً، رسلًا ناصحاً إلى قبيلة مدين، إخوته في النسب، فنصحبهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وبالعمل الصالح الذي يؤهلهم للنجاة في اليوم الآخر، مع خشية الله والخوف من حسابه، والبعد عن الفساد، وتطهير الكيل والميزان، وقطع الطريق والعدوان على الآخرين، وقد مضت قصتهم مبسطة في فنود الأعراف وهود، والشغراء.

ونلاحظ أن الله تعالى قصَّ علينا فيما سبق قصص نوح وإبراهيم ولوط، ثم أردف ذلك بقصص شعيب وهود وصالح وموسى بإيجاز، لغائدة العظة والإعبار بأحوال هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم.

كما نلاحظ أن القرآن فيما سبق تكلم عن قوم الرسول: قوم نوح، وقوم لوط؛ لأنهم لم يكن لهم اسم خاص بهم، أما هنا فتكلم عن القبيلة، أو القوم الذين أرسل إليهم الرسول مثل: مدين، وعاد، وثمود.

لأن هؤلاء كان لهم نسب معروف، اشتهروا به عند الناس، فجرى الكلام على أصله، وهو الحديث عن القبيلة أو القوم.

وقد اشتهر أمر قارون وفرعون وهامان بالطغيان، فتحدث القرآن عن أعيانهم.

٣٧ - فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَمِينَ .

أي: فقابلوه بالتكذيب والعناد والإصرار على الكفر والعصيان؛ فعاقبهم الله بالهلاك، حيث صاح بهم جبريل صيحة عظيمة زلزلت نفوسهم، أو زلزلت أركان ديارهم، وقد أرسل الله عليهم عذاب يوم الظلة الذي أزهر الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم أدَّى إلى إمامتهم، فأصبحوا بسبب ذلك باركين على ركبهم ميتين.

قصص هود وصالح

٣٨ - وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاكِينِهِمْ رَزَقِنَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ .

أي: وأهلكنا عاداً قوم هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون بالاحقاف قرب حضرموت، وقد حدثت خفريات حديثة قرب منطقة صلالة، في سلطنة عمان، وشاهد الناس قرى مغمورة غمرتها الرياح، وكشفت

الخفريات عن مبان بائدة، يرجع أنها لقبيلة عاد، حيث وجدت مبان ضخمة لها أعمدة صلبة، ونشرت الصحف والمجلات نبأ هذا الكشف، وأشارت إلى قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . (النجر: ٦ - ٨)

وقد تحدث القرآن في كثير من السور عن قبيلة عاد، وتقوهم واعتزازهم بقوتهم، وغرورهم واستكبارهم، وظنهم أن أحداً - أي أحد - لن يقدر عليهم.

قال تعالى:

فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَزْوَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ . (فصلت: ١٥، ١٦)

كما تحدثت سورة الحاقة عن قصة ثمود وعاد، فقالت:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخَلٍ خَاوِيَةٍ * فَمَنْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ .

(الحاقة: ٤ - ٨)

ثمود قوم صالح

أهلك الله ثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى بين الحجاز والشام، ومداين صالح ظاهرة إلى اليوم، وكانت العرب تعرف مساكنهم جيداً، وتمرّ عليهم كثيراً.

ورأى النبي ﷺ مساكن صالح، حين مرّ بها في غزوة تبوك، فأسرع واستحثّ راحلته، وانحنى على ظهرها، إشفاقاً ووجلاً واعتباراً بهلاكهم، وقال لأصحابه: «لا تمرّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم» (٧٠).

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مُسَاكِينِهِمْ ...

أي: أنتم يا أهل مكة تمرّون على ديارهم، وتشاهدون كيف أهلكهم الله، فاعتبروا واتعظوا، خشية أن يصيبكم ما أصابهم.

وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ .

لقد كانوا في نعمة وغنى وقوة جسدية ومعنوية، مع عقل وبصيرة وفهم، لكن الشيطان أغراهم بالفجور والكفر والعدوان، وزين لهم الانحراف عن الطريق القويم، وسبيل الهداية والإيمان، قال تعالى:

وَأَمَّا نُمُودَ فُهِدْنَاهُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ سَاعَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجِّنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . (فصلت: ١٧، ١٨)

٣٩ - وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

أى: واذكر أيها الرسول الكريم قارون الذى أوتى العلم والمال، فطنى وبغى وأفسد، وفرعون الذى ملك مصر، وأرسل الله إليه موسى ومعه الآيات البينات، فكذب بها واستكبر، وذبح أبناء بنى إسرائيل واستحى نساءهم، وتكبر فى الأرض، وفرّق بين الفرق، يستدل فريقا ضعيفا، ويقرب منه فريقا آخر، وهامان وزير فرعون ويطانة السوء، هؤلاء الثلاثة جاءهم موسى بالمعجزات الواضحات، ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع هدى السماء، فاستكبروا فى الأرض، وخالفوا هداية السماء.

وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ .

لم يفتلوا من عذاب الله بأى حال، فهم في قبضة الملك الجبار القاهر، فقد عاقبهم بالعذاب والهلاك.

٤٠ - فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

عقاب السماء

أرسل الله ألوان العذاب على المكذبين، وكانت عقوبتهم أربعة أنواع:

- ١ - الريح العاصفة تحمل الحصباء (الحجارة الصغيرة) فتلقى عليهم، وتقتلعهم من الأرض، ثم تصرعهم فيصيحون جثثا هامدة كقوم عاد.
- ٢ - الصيحة الشديدة، التى زلزلت نفوسهم وبيوتهم، وأخمدت أصواتهم مثل ثمود وأهل مدين.
- ٣ - الخسف بالإنسان وكنوزه وأمواله مثل قارون، الذى اختال وتكبر وطفى؛ فخسف الله به وبداره الأرض.
- ٤ - الغرق، كما أغرق الله فرعون فى ماء النيل، وجعل الله نهايته عبرة وعظة لهلاك ملك قوى، لكنه ظلم وبغى فاستحق الغرق والهلاك.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

إن الله تعالى عادل لا يظلم متقال ذرة: وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩)

فهو سبحانه وتعالى لم يظلمهم حين عاقبهم بالهلاك على أى وجه من الوجوه السابقة، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعُدوان، وترك طرق الهداية واتباع سبل الغواية.

قال تعالى: وَتُؤْمِرُ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَاكْتُرُوا فِيهَا الْفُسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمٍ صَادٍ . (الفجر: ٩-١٤)

وقال تعالى: مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ . (فصلت: ٤٦)

★ ★ ★

تشبيه حال عبدة الأصنام بحال العنكبوت

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِيْتًا وَإِنْ أَوْهَرَ الْبُيُوتُ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

المفردات:

مثل: المثل: الصفة التي تشبه المثل في الغرابة.

أولياء: أصناما يرجون نفعها.

العنكبوت: حشرة تتسج نسيجاً رقيقاً واهياً.

اتخذت بيتاً: لنفسها تأوى إليه مما نسجت من شبكة واهنة ضعيفة.

أوهـن: أضعف البيوت عن دفع أى أذى.

من دونـه: غيره.

وهو العزيز الحكيم: الغالب القوى فى ملكه، الحكيم فى صنعه.

تلك الأمثال: هذا المثل ونظائره.

نفسريها للناس، نجعلها مثلاً تقريباً لأفهامهم..

وما يحقلها، يفهمها.

إلا العالمون، المتدبرون

التفسير:

٤١ - مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَلَوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

المتجه إلى الله تعالى في العبادة يتجه إلى إله قوى قادر، عليم حكيم بيده الخلق والأمر والنفع والضرر، والمتجه لعبادته إلى الصنم أو الوثن أو الجن، أو الملائكة أو غيرها من المعبودات، يتجه إلى أمر واهن ضعيف لا ينفع ولا يضر، فكما أن بيت العنكبوت غاية في الضعف، لا يحمي من حر الصيف أو برد الشتاء، فكذلك عابد الوثن أو الصنم يتجه إلى قوة متهاكمة لا تملك له نفعاً ولا ضرراً.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية كالأتي: المؤمن الذي يعبد الله كمثال رجل بنى بيتاً من آجر وحجر، أو نحته في صخر، والمشرِك الذي يعبد الوثن كمثال عنكبوت اتخذت بيتاً، وكما أن أضعف البيوت - إذا استقرأناها بيتاً بيتاً- هو بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان - إذا استقرأناها ديناً ديناً - هو عبادة الأوثان.

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وإن أضعف البيوت بيت العنكبوت، لأنه يخرِبُ بأدنى شيء ولا يبقى منه أثر، وكذلك أمر دينهم وعبادتهم للأصنام، فإنه قد بلغ الغاية التي لا غاية بعدها في الضعف والوهن.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . علماً صحيحاً أن أصنامهم وعبادتهم لا تنفعهم شيئاً ما فعلوا ذلك، إلا أنهم في الواقع في غاية الجهل، لا يعلمون شيئاً من عواقب الأمور، فتراهم يظنون ذلك النفع.

٤٢ - إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

من يتجه إلى الاعتزاز بالشيطان أو الصنم أو الوثن، أو المال أو الجاه أو السلطان، يتجه إلى غير ما طائل، لأن هذه الأمور مظاهر فانية، والله تعالى يعلم حقيقتها وضعفها وعجزها، وهو سبحانه وحده القوى الغالب، الحكيم في تشريعه وعلمه، وما سواه من الأصنام وغيرها كالمعدم البحت، وهو سبحانه وتعالى قادر على مجازاة المشركين ومعاقبتهم، لكنه يؤجل ذلك لحكمة يعلمها.

٤٣ - وَلَئِكَ الْأَمْثَالُ تُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

هذا المثل وأشباهه في القرآن الكريم، يضربه الله تعالى للناس تقريبا للمعاني، وتيسيرا عليهم في فهم الأمور، حيث يبرز المعاني المستورة ويوضحها، فتخرج في قالب محسوس مشاهد أمام العيان.

وكان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من ذلك، فلهذا قال سبحانه وتعالى: وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .

أي: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم فائدتها إلا العلماء الأثبات، المتأملون في القضايا والمسائل.

روى جابر أن النبي ﷺ تلا هذه الآية فقال: «العالم من عقل عن الله تعالى، فعمل بطاعته واجتنب سخطه».

من تفسير القرطبي:

قال عطاء الخرساني: نسجت العنكبوت مرتين: على داود حين كان جالوت يطلبه، ومرة على النبي ﷺ، ولذلك نُهي عن قتلها .

ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه في البيوت يورث الفقر (٧١)، ١ هـ.

ونحن ندعو الناس جميعا إلى نظافة بيوتهم، وتطهيرها من العنكبوت وغيره من الهوام، فإن الله تعالى نظيف يحب النظافة، جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيبين.

وقد بنى الدين على النظافة، ومن أجل ذلك شرع الإسلام الوضوء والغتسال، وطهارة البدن والثوب والمكان، وفي الحديث الشريف: «الطهور شطر الإيمان» (٧٢).

وقال تعالى: وَيَبَايِكَ فَطِيرُهُ . (المدثر: ٤).

وقال عز شانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا ... (المائدة: ٦).

تلاوة القرآن وإقامة الصلاة

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٤٤﴾ أَتَلَّ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

المضردات:

بالـحق: بالعدل والقسط، أو بحكمته وقدرته المنزهة عن العيب.

لآية: علامة ودلالة.

اتـل: اقرأ القرآن تقريرا إلى الله بقراءته، واستكشافاً لمعانيه.

واقم الصلاة: أدأها في وقتها بخشوعها وكمال أركانها، وحضور القلب والتقرب إلى الله تعالى.

تنهى عن الفحشاء والمنكر تكون سببا في البعد عن المعاصي، والتبصيح السيئ الذي ينكره العقل والشرع، لأن المصلى يناجى ربه، ويتقرب إليه مخلصا تائباً راغبا راهبا؛ فيخلع الله عليه أنواره وهدايته وتوفيقه.

التفسير:

٤٤ - خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

خلق الله السماوات والأرض خلقا مقترنا بالحق، لم يخلقهما عبثاً بل خلقهما لحكمة إلهية سامية، هي أن يخلق الإنسان، وأن يجعله خليفة في الأرض، وأن يمنحه العقل والإرادة والاختيار، وأن يرسل إليه الرسل، وينزل إليه الكتب، فمن أطاع فله الجنة، ومن عصى وأعرض وطغى ويغى فله النار.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ .

في خلق السماء مرفوعة مزينة بالنجوم، والشمس والقمر والبروج والأفلاك والأملك، وخلق الأرض وفيها الجبال والبحار والأنهار، والنبات والفضاء والهواء، لدلائل واضحة للمؤمنين بالله، الذي يتأملون في خلق الله، ويستدلون بالنعمة على الصانع، قال تعالى:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ .

(آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

وقال تعالى: لِيُجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى . (طه: ١٥)

وقال سبحانه وتعالى: لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى . (النجم: ٣١)

٤٥ - اَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

اقرأ يا محمد القرآن الكريم، ففيه التشريع والهداية، والحلال والحرام، والآداب ومكارم الأخلاق، فاقرا القرآن، ويُلغِ أمتك قراءة القرآن، والتهدج به والعمل بأحكامه، فقارئ القرآن يأجره الله عن كل حرف عشر حسنات، وتشهد الملائكة تلاوته.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ...

حافظ على إقامة الصلاة كاملة الأركان، مستوفاة الخشوع والخضوع، وحضور القلب، ومراقبة الله بأن المصلى مناجى ربه فليستحضر عظمته.

إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...

إن مداومة الصلاة مع الإخلاص والخشوع، والخشية من الله وتدبر القراءة، وتامل عظمة الخالق ومناجاته، والانشغال بذكره وتعظيمه، وتسبيحه وحمده، من شأن ذلك أن يتبعه نور وهداية ومعونة، وتوفيق من الله للعبد، فتراه عازفاً عن الفحشاء والمنكر، مبتعداً عن الكبائر والموبقات.

قال أبو العالية:

إن الصلاة فيها ثلاث خصال: الإخلاص، والخشية، وذكر الله.

فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست صلاة.

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ...

أي: تذكرك عظمة الله، وذكر الله بلسانك وقلبك في الصلاة أكبر وأعظم، أو إذا ذكرت الله تذكرك الله، فذكره لك أكبر وأعظم.

وفي الحديث القدسي: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» (٣٧).

فالصلى والمؤمن الذى يذكر الله فى حياته وصلاته، ونهاره وليله، ويحفظه ونومه، ويبيعه وشرائه، هذا الذكر أكبر من كل شيء فى الدنيا.

قال تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَنَسُوا اللَّهَ أَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب: ٢٥)

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوُوهَ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا .

(الأحزاب: ٤١ - ٤٤)

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

الله تعالى مطلع وشاهد لأعمالكم وسيجازيكم عليها. وفي الحديث الشريف: «والذي نفس محمد بيده لتموتن كما تاملن، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن على ما تعملن، ولتجزون بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا».

مختارات من تفسير ابن كثير

روى ابن أبي حاتم، عن عمران بن حصين قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: إِنَّ الصَّلَاةَ تَهَيَّ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... فقال: «من لم تهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد بها من الله إلا بعدا» (٧٤).

وروى الحافظ أبو بكر البزار، قال: قال رجل للنبي ﷺ: إن فلانا يصلّي بالليل فإذا أصبح سرق، قال: «إنه سينهاه ما تقول» (٧٥).

وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى، وهو المطلوب الأكبر، ولهذا قال تعالى:

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... أي: أعظم من الأول.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ .

أي: يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... يقول: ولذكر الله لعباده أكبر - إذا ذكروه - من ذكرهم إياه (٧٦).

وعن عبد الله بن ربيعة قال: قال لي ابن عباس: هل تدري ما قوله تعالى: وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ؟ قلت: نعم، قال: فما هو؟ قلت: التسبيح والتحميد في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك. قال: لقد قلت قولا عجيبا، وما هو كذلك، ولكنه إنما يقول: ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه، إذا ذكرتموه، أكبر من ذكركم إياه.

وقد روي هذا من غير وجه، عن ابن عباس، واختاره ابن جرير (٧٧).

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير الجزء العشرين، والحمد لله، له الحمد في الأولى والآخرة، اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، يا ربّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء العشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) الهالكين .

(٢) اللهم لك الحمد :

«اللهم لك الحمد ، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنجيبون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك أمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت» .
رواه البخارى فى التهجد ١١٢٠ ، ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها ح ١٢٨٨ ، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٤٠ ، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٠١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٦٥٥ ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٣٤٥ ، وأحمد ح ٢٥٧٥ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٤٥١ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٤٤٨ .

(٣) اللهم إني أسألك بأني أشهد :

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٣٩٧ ، وابن ماجه فى الدعاء ح ٣٨٤٧ من حديث بريدة ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

(٤) يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث :

بهذا اللفظ ذكره الهيملى فى المجموع ١٨٣/١٠ وعزاه للطبرانى فى الصغير والأوسط ، من طريق سلمة بن حرب بن زياد ، عن أبى مدرك ، عن أنس ، وسلمة بن حرب : مجهول كشيخه أبى مدرك ، وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبو مدرك قال الدارقطنى : متروك ، فلا أدري هو أبو مدرك هذا أو غيره ، ويقفه رجاله ثقات ، وانظر: ابن حبان فى الثقات ٦ / ٣٩٨ .

ورواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٣٥٨ ، من حديث أبى هريرة قال : «.. وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يا حى يا قيوم» . اهـ . وقال : حديث غريب ، وذكره فى نفس الباب برقم ٣٤٤٦ ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا كربه أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» اهـ .

(٥) يا ذا الجلال والإكرام :

رواه الترمذى بنحوه فى الدعوات ح ٣٤٩٣ وقال : حديث حسن غريب .

(٦) من زعم أن محمداً :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٥٩ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٩٤ ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٧) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من علماء الأزهر ، ص ١٧٠٥ .

(٨) من أتى عرفاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة :

مسلم فى السلام ٤١٣٧ ، وأحمد ح ١٦٠٤١ ، ٢٢١٣٨ ، عن بعض أزواج النبى ﷺ .

(٩) سفتحنون أرضاً يذكر فيها القبراط :

رواه مسلم فى فضائل الصحابة ح ٤٦١٤ ، من حديث أبى ذر .

(١٠) أنت الأول فليس قبلك شيء :

مسلم فى الذكر والدعاء ٤٨٨٨ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٣٩٢ ، والترمذى فى الدعوات ح ٣٣٢٢ ، ٣٤٠٣ ، وقال : حديث حسن صحيح ، وابن ماجه فى الدعاء ح ٣٨٦٣ ، ٣٨٢١ ، وأحمد ح ٨٦٠٣ ، ١٠٥٠٣ ، كلهم عن أبى هريرة .

(١١) ثلاث إذا خرجن :

رواه مسلم فى الإيمان ح ٢٢٧ ، والترمذى فى التفسير ح ٢٩٩٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٧ ، من حديث أبى هريرة .

(١٢) إن أول الآيات خروجا :

رواه مسلم فى الفتن ح ٥٢٣٤ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٣٧٥٦ ، وأحمد ح ٦٥٨٦ ، من حديث عبد الله بن عمرو .

(١٣) لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات :

رواه مسلم فى الفتن ح ٥١٦٢ ، ٥١٦٣ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٣٧٥٧ ، والترمذى فى الفتن ح ٢١٠٩ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٣١ ، ٤٠٤٥ ، وأحمد ح ١٥٥٥٥ ، ١٥٥٥٧ ، من حديث حذيفة بن أسيد الغفارى .

(١٤) بادروا بالأعمال ستا :

رواه مسلم فى الفتن ح ٥٢٤١ ، ٥٢٤٢ ، وأحمد ح ٧٩٥٢ ، ٨٠٩٢ ، ٨٤٩٤ ، ٨٩١٠ ، ١٠٢٢٩ ، من حديث أبى هريرة .
ورواه ابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٤٦ ، من حديث أنس بن مالك ، وفى إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(١٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، لجنة القرآن والسنة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، بوزارة الأوقاف المصرية ص ٥٧٤ ، وهذا النص به أخطاء مطبعية فصولت الخطأ ، واختصرته .

(١٦) إن الله كتب الحسنات :

البخارى فى الرقاق ح ٦٠١٠ ، ومسلم فى الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٣٢٢٨ ، من حديث ابن عباس .

(١٧) انظر صحيح مسلم ، كتاب الحج ، ج ٢ ص ٩٨٦ .

(١٨) يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك :

رواه ابن ماجه فى الأدب ح ٣٧٩١ ، من حديث عبد الله بن عمر . وليس فيه زيادة : «رضينا بالله رباً ...» الحديث .

(١٩) أى : المؤمن يعبد الله فيستفيد من العبادة نظافة القلب ، وثقة النفس ، وثبات اليقين ، وهدهو الحال ، وصحة الجسم والروح . ثم ينال ثواب العبادة فى جنة عرضها السماوات والأرض يوم القيامة ، وبذلك ينال أجره مضاعفاً : مرة فى الدنيا ، ومرة فى الآخرة .

(٢٠) إن ثلاثة فى بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٤٦٤ ، ومسلم فى الزهد ح ٢٩٦٤ ، ٣٠٠٥ ، وأحمد ح ١٦ ، كلهم من حديث أبى هريرة .

(٢١) إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم يكلمون زانه :

رواه البخارى فى المناقب ح ٢٤٦٩ ، ٣٦٨٩ من حديث أبى هريرة . ورواه مسلم ح ٢٣٩٨ ، وأحمد ٢٣٧٦٤ ، والترمذى ٢٦٩٣ ، من حديث عائشة .

تنبيه : حديث عائشة رضى الله عنها ليس فيه «يكلمون» إنما ذكرت فيه «محدثون» .

(٢٢) إن رجلاً زار أخاه فى قرية أخرى ، فأرصد الله له على :

رواه مسلم ٢٥٦٧ ، وأحمد ٧٨٥٩ ، ١٠٢٢٢ ، من حديث أبى هريرة . «مدرجته» : الطريق ، سميت به لأن الناس يدرجون فيها ، أى : يمشون .

(٢٣) إن لله ملائكة طوافين عليكم :

رواه البخارى ٦٤٠٨ من حديث أبى هريرة ، ورواه الترمذى ٣٦٠٠ ، وأحمد ٧٣٧٦ ، قال الأعمش : من حديث أبى هريرة أو أبى سعيد - شك الأعمش - .

(٢٤) هو :

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِذُنُوبِي كُلِّهِ قَتَلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حَقِّهِ
مِثْلَ غَزَالٍ نَاعِمٍ فِى دَلِهِ انْتَصَفَ اللَّيْلَ وَلَمْ أَصَلِّهِ

(٢٥) مثل المؤمن كأم موسى :

ذكره الغزالي فى «الإحياء» ، كتاب الحج ، الباب الثانى : فى ترتيب الأفعال الظاهرة . بلفظ : «مثل الذى يغزو ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراً» وقال العراقى : أخرجه ابن عدى من حديث معاذ ، وقال : مستقيم الإسناد، منكر المتن .

وكذلك أخرجه أبو داود فى المراسيل ، عن جبير بن نفير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجدل - يعنى : يتقوون على عدوهم - مثل أم موسى ، ترضع ولدها وتأخذ أجراً» . نقلًا عن السيوطى فى «الدر المنثور» المجلد السادس - تفسير سورة القصص ، وصححه . وذكره السيوطى كذلك فى «الجامع الصغير» ٨١٤٣ ، ونسبه لأبى داود فى مراسيله ، والبيهقى فى السنن عن جبير بن نفير مرسلًا .

(٢٦) من ولى شيئاً من أمر المسلمين :

تقدم تخريجه .

(٢٧) لا نكاح إلا برلى :

أبو داود ٢٠٨٥ ، وأحمد ١٩٠٢٤ ، ١٩٢١١ ، ١٩٢٤٧ ، ٢٢٦٠ ، وابن ماجه ١٨٨١ ، والترمذى ١١٠١ ، والدارمى ٢١٨٢ ، ٢١٨٣ ، من حديث عبد الله بن عباس . ورواه أحمد ٢٥٧٠٣ ، وابن ماجه ١٨٨٠ ، من حديث عائشة . وفى الباب عن ابن عباس وأبى هريرة وعمران .

(٢٨) قضى أكثرهما وأطيهما إن رسول الله إذا قال فعل :

رواه البخارى فى التفسير ٢٦٨٤ ، عن عبد الله بن عباس .

(٢٩) فى ظلال القرآن ٢٠ / ٦٣ .

(٣٠) تفسير القرطبي ٦ / ٥١٤٤ .

(٣١) أيسر التفاسير ، أبو بكر الجزائري ، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ٧٠ / ٤ .

(٣٢) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٤ / ٣ .

(٣٣) الكبرياء ودائي والعزة إزارى فمن نازعنى واحدا منهما :

أبو داود فى اللباس ٤٠٩٠ ، وأحمد ٧٣٣٥ ، ٨٦٧٧ ، ٩٠٩٥ ، ٩٢٢٤ ، ٩٤١٠ ، وابن ماجه فى الزهد ٤١٧٤ ، من حديث أبى هريرة . ورواه ابن ماجه أيضاً ٤١٧٥ ، من حديث عبد الله بن عباس .

(٣٤) من سن سنة حسنة كان له أجرها :

رواه مسلم فى العلم ١٠١٧ ، وفى الزكاة ٢٥٥٤ ، والدارمى فى المقدمة ٥١٢ ، ٥١٤ ، والترمذى فى العلم ٢٦٧٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ٢٠٣ ، وأحمد ١٨٦٧٥ ، ١٨٧٠١ ، ١٨٧١٨ ، ١٨٧٢٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلي . ورواه أحمد ١٠١٧٨ ، ١٠٢٧٠ من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد أيضاً ٢٢٧٧٨ من حديث حذيفة . ورواه ابن ماجه فى المقدمة ٢٠٧ من حديث وهب بن عبد الله .

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٦ / ٣ .

(٣٦) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٧ / ٣ .

(٣٧) تفسير ابن كثير .

(٣٨) ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين :

رواه البخارى فى الجهاد والسير ٣٠١١ ، ومسلم فى الإيمان ١٥٤ ، والنسائى فى النكاح ٣٣٤٤ ، والدارمى فى النكاح ٢٢٤٤ ، والترمذى ١١١٦ فى النكاح ، وأحمد ١٩١٠٥ ، ١٩١٣٧ من حديث عبد الله بن قيس «أبى موسى الأشعرى» .

(٣٩) من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين :

رواه أحمد ٢١٧٣١ من حديث صدى بن عجلان «أبى أمارة الباهلى» وزاد فيه : «ومن أسلم من المشركين» وذكره الهيثمى فى «مجمع الزوائد» كتاب الإيمان ، باب : فممن أسلم من أهل الكتاب وغيرهم . وقال : رواه أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، وفيه القاسم أبو عبد الرحمن وقد ضعفه أحمد وغيره . قلت : فى إسناده ابن لهيعة ، وهو ضعيف أيضاً .

(٤٠) أخرجه البخارى ، باب : قصة أبى طالب ٦٥ / ٥ - ٦٦ ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب : أول الإيمان قوله لا إله إلا الله ٥٤ / ١ .

(٤١) يا عماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها :

رواه مسلم فى الإيمان ٢٥ ، والترمذى ٣١٨٨ ، وأحمد ٩٣٢٧ ، ٩٣٩٤ من حديث أبى هريرة . وانظر ما قبله .

(٤٢) وأجاز المفسرون أن تكون «لو» : به وجوابها محذوف ، والتقدير : لو أنهم كانوا فى الدنيا مهتدين إلى طريق الحق لما أصابهم هذا العذاب المهيّن

(٤٣) اللهم خذ لي واختر لي :

رواه الترمذى فى الدعوات ٣٥١٦ من حديث أبى بكر الصديق وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث زنفل ، وهو ضعيف عند أهل الحديث ، ويقال له : زنفل بن عبد الله العرفى ، وكان يسكن عرفات ، وتقرب بهذا الحديث ولا يتابع عليه . قال النووى فى «الأذكار» : باب دعاء الاستخارة ، وروينا فى كتاب الترمذى بإسناد ضعيف ، ضعفه الترمذى وغيره - فأشار إلى ضعفه .

وقال العجلونى فى «كشف الخفاء» ٥٥٨ : رواه الترمذى ، والبيهقى فى الشعب ، عن عائشة ، بسند فيه زنفل بن عبد الله ضعيف ، قال النجم : روى الترمذى وأبو يعلى والبيهقى وضعفه عن أبى بكر الصديق .

(٤٤) يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات :

رواه ابن السنى (٦٠٣) من حديث أنس . وذكره السيوطى فى «الجامع الصغير» ٨٨٢ وعزاه لابن السنى فى عمل اليوم والليلة ، والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس ، وقال السيوطى : ضعيف .

قال المناوى فى «فتح القدير شرح الجامع الصغير» : فيه إبراهيم بن البراء ، قال الذهبى فى الضعفاء : اتهموه بالوضع عن أبيه وهو ضعيف . وقال النووى فى الأذكار : إسناده غريب فيه من لم أعرفهم . وقال ابن حجر فى الفتح بعد زوجه لابن السنى : هذا الحديث لو ثبت كان هو المعتمد ، لكن إسناده واه جدًا .

(٤٥) اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك :

البخارى فى الجمعة ١١٦٦ ، وفى الدعوات ٦٣٨٢ ، وفى التوحيد ٧٣٩٠ ، وأبو داود فى الصلاة ١٥٣٨ ، والترمذى فى الصلاة ٤٨٠ ، والنسائى فى النكاح ٣٢٥٣ ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ١٣٨٣ ، وأحمد ١٤٢٧٩ ، كلهم من حديث جابر ، ومعنى : «فاقدته لى» ، أى : اجعله مقدورًا لى ، أو قدره . وقيل : معناه يسره لى .

(٤٦) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٤٧) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وانظر تفسير ابن كثير ، ومختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ، حيث علق الصابونى فى الهامش باستحسان كلام ابن كثير فى ردّ هذا الرأى الأخير .

(٤٨) قيل : هم جماعة من المؤمنين ، تمنوا أن تكون لهم دنيا كدنيا قارون ، جريا على سنة البشر فى حب التوسع فيها ، وقيل : هم جماعة من الكفار أو المنافقين الذين لا همّ لهم إلا دنياهم ، والظاهر مع الرأى الأول .

(٤٩) بينا رجل يمر إزاره من الخيال غسّفه به فهو يتجلجل :

رواه البخارى ٣٤٨٥ ، ٥٧٩٠ ، وأحمد ٥٣١٨ ، والنسائى فى الزينة ٥٣٢٦ ، من حديث عبد الله بن عمر . ورواه البخارى فى اللباس ٥٧٨٩ ، ومسلم فى اللباس ٢٠٨٨ ، والدارمى فى المقدمة ٤٣٧ ، وأحمد ٧٥٧٤ ، ٨٨٢٢ ، ٩٠٨٢ ، ٩٥٦٧ ، ٧٧٢٦١ ، ٧٧٣٩٤ ، ١٠٠١٠ ، ١٠٠٧٧ ، ١٠٤٨٨ ، من حديث أبى هريرة .

ورواه الترمذى فى صفة القيامة ٢٤٩١ ، وأحمد ٧٠٣٤ ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أحمد ١٠٩٦٠ ، ١٠٩٦٣ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٥٠) إن الله جميل يحب الجمال :

مسلم فى الإيمان ٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ١٩٩٩ . من حديث عبد الله بن مسعود .

(٥١) إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم :

رواه أحمد ٣٦٦٣ ، وذكره الهيثمى فى «المجمع» وقال : إسناده مستور ، وأكثرهم ثقات . من حديث عبد الله بن مسعود .

(٥٢) إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفنى أحد على أحد :

مسلم فى الجنة ٢٨٦٥ ، وأبو داود فى الأدب ٤٨٩٥ ، وابن ماجه فى الزهد ٤١٧٩ ، من حديث عياض بن حمار . ورواه ابن ماجه فى الزهد أيضاً ١٢١٤ ، من حديث أنس بن مالك .
قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده حسن ، للاختلاف فى اسم سنان بن سعد أو سعد بن سنان .

(٥٣) لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر :

رواه أبو داود فى اللباس ٤٠٩٢ ، من حديث أبى هريرة .
وانظر حديث : «إن الله جميل يحب الجمال» فهو جزء من هذا الحديث .

(٥٤) أشهد أنك لا تبغى علواً فى الأرض :

قال العجلونى فى «كشف الخفا» : وروى العسكرى بسند ضعيف عن عدى بن حاتم ، فذكره .

(٥٥) أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

البخارى فى المناقب ٢٨٤١ ، وفى الأدب ٦١٤٧ ، ومسلم فى الشعر ٢٢٥٦ ، وابن ماجه فى الأدب ٣٧٥٧ ، وأحمد ٨٨٦٦ ، ٩٧٢٤ من حديث أبى هريرة .

(٥٦) انظر تفسير مقاتل بن سليمان .

(٥٧) أشد الناس بلاء الأنبياء :

بواب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٢٣ . وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٥٨) فى ظلال القرآن ١٠٧/٢٠ ، ط ١ .

(٥٩) قصة سعد بن أبى وقاص :

رواها مسلم فى فضائل الصحابة ١٧٤٨ ، والترمذى فى تفسير القرآن ٣١٨٩ ، من حديث سعد .

(٦٠) قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾. (انظر سورة: غافر: ٧ - ٩).

(٦١) لقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله :

رواه ابن ماجة في المقدمة ١٥١ ، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧٢ ، وأحمد ١١٨٠٢ ، ١٣٦٤١ من حديث أنس بن مالك ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٦٢) من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه :

رواه ابن ماجة في المقدمة ٢٠٥ من حديث أنس إلا أنه بلفظ: «أيما داع دعا إلى ضلالة فأتبع : فإن له مثل أوزار من اتبعه ولا ينقص من أوزارهم شيئاً ، وأيما داع دعا إلى هدى فأتبع فإن له مثل أجور من اتبعه ولا ينقص من أجورهم شيئاً» .

أما اللفظة التي ذكرها المصنف فرواها مسلم في العلم ٢٦٧٤ ، وابن ماجة في المقدمة ٢٠٦ ، والدارمي في المقدمة ٥١٣ ، وأبو داود في السنة ٤٦٠٩ ، وأحمد ٨٩١٥ ، والترمذي في العلم ٢٦٧٤ من حديث أبي هريرة .

(٦٣) لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان علي ابن آدم الأول كفل من :

البخاري في الأنبياء ٣٣٣٦ ، وفي الديات ٦٨٦٧ ، وفي الاعتصام ٧٣٢١ ومسلم في القسامة ١٦٧٧ ، والترمذي في العلم ٢٦٧٣ ، والنسائي في تحريم الدم ٣٩٨٥ ، وابن ماجة في الديات ٢٦١٦ ، وأحمد ٣٦٢٣ ، ٤٠٨١ ، ٤١١٢ .

(٦٤) من سن سنة سيئة :

تقدم تخريجه .

(٦٥) انظر تفسير القرطبي ٥١٩٦/٦ دار الغد العربي ، القاهرة .

(٦٦) انظر تفسير الأنوسى ، حيث قال : وقيل : الضمير في قوله تعالى : ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي...﴾ للوط عليه السلام ، وليس بشيء لما يلزم عليه من التفتيك .

(٦٧) في ظلال القرآن ، سيد قطب ٢٠ / ١٢٣ .

(٦٨) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

رواه البخاري في الصلاة ح ٤١٥ ، وفي أحاديث الأنبياء ح ٣١٢ ، ٣١٣ ، وفي المغازي ح ٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦ ، وفي تفسير القرآن ح ٤٣٣٢ ، ومسلم في الزهد ح ٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣ ، وأحمد ٤٣٣٢ ، ٤٩٧٤ ، ٥٠٩٠ ، من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا بأكين...» الحديث .

(٦٩) التفسير الوسيط : تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، ص ١٨٥٤ ، الحزب الأربعون .

(٧٠) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم :

تقدم في الحديث قبله .

(٧١) طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر :

ذكره المنائى فى «شرح الجامع الصغير» ٥٧٣٩ ، وقال : قضية تصرف المصنف أن ابن عدى خرجه وأقره ، والأمير بخلافه ، فإنه أورده فى ترجمة مسلمة بن على الخشنى ، وقال : عامة حديثه غير محفوظ ، وفى الميزان : هو شامى واه تركه ، وقال أبو حاتم : لا يشتغل به ، وقال النسائى : متروك ، وقال البخارى : متكرر الحديث .

(٧٢) الظهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان :

رواه مسلم فى الطهارة ٢٢٢ ، وأحمد ٢٢٣٩٥ ، والدارمى فى الطهارة ٦٥٣ . من حديث أبى مالك الأشعرى .

(٧٣) من ذكرنى فى نفسه :

البخارى فى التوحيد ٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ومسلم فى الذكر والدعاء ٢٦٧٥ ، والترمذى فى الزهد ٢٣٨٨ ، وفى الدعوات ٣٦٠٣ ، وابن ماجه فى الأدب ٣٨٢٢ ، وأحمد ١٠٣٢٦ ، ١٠٤٠٣ ، ١٠٥٢٦ ، ٢٧٢٨٣ ، ٢٧٣٩٥ ، ٨٨٣٣ ، ٩٠٨٧ ، ٩٤٥٧ من حديث أبى هريرة .
ورواه أحمد ١٢٧٨٠ ، ١٣٥٢٧ من حديث أنس بن مالك .

(٧٤) من لم تنه صلاته :

ذكره اللغزالي فى «الإحياء» وقال العراقى فى تخريجه : أخرجه على بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح ، ورواه الطبرانى ، وأسند ابن مردويه فى تفسيره من حديث ابن عباس بإسناد لين .
وذكره العجلونى فى «كشف الخفاء» وقال : رواه أحمد فى الزهد ، عن ابن مسعود موقوفًا ، ورواه ابن جرير عنه مرفوعًا .
وذكره الهيثمى فى «المجمع» ، وقال : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه ليث بن أبى سليم ، وهو ثقة ولكنه مدلس .

(٧٥) إنه سينهاه ما تقول :

رواه أحمد ٩٤٨٦ ، وذكره الهيثمى فى «المجمع» من حديث أبى هريرة ، وقال : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، إلا أن الأعمش قال : رأى أبا صالح عن أبى هريرة . وذكره من حديث جابر ، وقال : رواه البزار ، ورجاله ثقات .

(٧٦) وهو قول مجاهد ، وبه قال غير واحد من السلف .

(٧٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٣٨/٣ - ٣٩ .



تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث

وهامش الجزء (العشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٦	﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾	٣٩٢١
٥٧	﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ...﴾	٣٩٢١
٥٨	﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ...﴾	٣٩٢١
٥٩	﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى...﴾	٣٩٢٣
٦٠	﴿أَمِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٣٩٢٣
٦١	﴿أَمِنْ جَعَلِ الْأَرْضَ قَرَارًا...﴾	٣٩٢٣
٦٢	﴿أَمِنْ يَجْعِبُ الْمَضْطَرُ إِذَا دَعَاهُ...﴾	٣٩٢٣
٦٣	﴿أَمِنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾	٣٩٢٣
٦٤	﴿أَمِنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ...﴾	٣٩٢٣
٦٥	﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ...﴾	٣٩٢٩
٦٦	﴿بَلْ أَدَارِكُهُمْ فِي الْآخِرَةِ...﴾	٣٩٢٩
٦٧	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا...﴾	٣٩٣٢
٦٨	﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ...﴾	٣٩٣٢
٦٩	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾	٣٩٣٢
٧٠	﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ...﴾	٣٩٣٢
٧١	﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾	٣٩٣٤
٧٢	﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ...﴾	٣٩٣٤
٧٣	﴿وَإِنْ رَيْكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ...﴾	٣٩٣٤
٧٤	﴿وَإِنْ رَيْكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ...﴾	٣٩٣٤
٧٥	﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ...﴾	٣٩٣٤
٧٦	﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَتْلُو عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾	٣٩٣٧
٧٧	﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾	٣٩٣٧
٧٨	﴿وَإِنْ رَيْكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ...﴾	٣٩٣٧
٧٩	﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ بِهِ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ...﴾	٣٩٣٧
٨٠	﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ السَّمُوتَ...﴾	٣٩٣٧
٨١	﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ...﴾	٣٩٣٧
٨٢	﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ...﴾	٣٩٤٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٣	﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا...﴾	٣٩٤٢
٨٤	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي...﴾	٣٩٤٢
٨٥	﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا...﴾	٣٩٤٢
٨٦	﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ...﴾	٣٩٤٢
٨٧	﴿وَيَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ...﴾	٣٩٤٦
٨٨	﴿وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً...﴾	٣٩٤٦
٨٩	﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا...﴾	٣٩٥٢
٩٠	﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَيْتٌ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ...﴾	٣٩٥٢
٩١	﴿إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ...﴾	٣٩٥٤
٩٢	﴿وَأَنْ أَتَىٰ الْوَالِدَ الْفُلْكَ...﴾	٣٩٥٤
٩٣	﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ...﴾	٣٩٥٤
—	خلاصة ما تضمنته سورة النمل	٣٩٥٨
—	تفسير سورة القصص	٣٩٥٩
—	أهداف سورة القصص	٣٩٦٠
١	﴿طس...﴾	٣٩٦٣
٢	﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٣٩٦٣
٣	﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ...﴾	٣٩٦٣
٤	﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾	٣٩٦٣
٥	﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْعَوْا...﴾	٣٩٦٣
٦	﴿وَنُفِخُ فِي الصُّورِ...﴾	٣٩٦٣
٧	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ...﴾	٣٩٦٧
٨	﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا...﴾	٣٩٦٧
٩	﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قَرَتْ عَيْنِي عَلَىٰ وَلَدٍ...﴾	٣٩٦٧
١٠	﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا...﴾	٣٩٦٧
١١	﴿وَقَالَتِ لَأُخْصِتَّهُ قَصِيحَةً...﴾	٣٩٦٧
١٢	﴿وَحَزَنًا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعُ مِنْ قَبْلِ...﴾	٣٩٦٧
١٣	﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا...﴾	٣٩٦٧
١٤	﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾	٣٩٧٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٥	﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها...﴾	٣٩٧٥
١٦	﴿قال رب أنى ظلمت نفسى فاغفر لى...﴾	٣٩٧٥
١٧	﴿قال رب بما أنعمت علىّ...﴾	٣٩٧٥
١٨	﴿فأصبح فى المدينة خائفًا يترقب...﴾	٣٩٧٥
١٩	﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدولهما...﴾	٣٩٧٥
٢٠	﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى...﴾	٣٩٨٠
٢١	﴿فخرج منها خائفًا يترقب...﴾	٣٩٨٠
٢٢	﴿ولما توجه تلقاء مدين قال...﴾	٣٩٨٠
٢٣	﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة...﴾	٣٩٨٢
٢٤	﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل...﴾	٣٩٨٢
٢٥	﴿فجاءته إحداهما تمشى على استحياء...﴾	٣٩٨٢
٢٦	﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره...﴾	٣٩٨٢
٢٧	﴿قال أنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين...﴾	٣٩٨٢
٢٨	﴿قال ذلك بيّننى وبيّنك...﴾	٣٩٨٢
٢٩	﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله...﴾	٣٩٨٧
٣٠	﴿فلما أتاهم نودى من شاطئ الوادى الأيمن...﴾	٣٩٨٧
٣١	﴿وإن ألقى عصمك...﴾	٣٩٨٧
٣٢	﴿اسلك يداك فى جيبك...﴾	٣٩٨٧
٣٣	﴿قال رب أنى قتلت منهم نفسًا...﴾	٣٩٩٢
٣٤	﴿وأخى هارون هو أفصح منى لسانًا...﴾	٣٩٩٢
٣٥	﴿قال سنشد عضدك بأخيك...﴾	٣٩٩٢
٣٦	﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا...﴾	٣٩٩٢
٣٧	﴿وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى...﴾	٣٩٩٢
٣٨	﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم...﴾	٣٩٩٦
٣٩	﴿واستكبر هو وجنوده فى الأرض...﴾	٣٩٩٦
٤٠	﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم...﴾	٣٩٩٦
٤١	﴿وجعلناهم أممًا يدعون إلى النار...﴾	٣٩٩٦
٤٢	﴿وأنبعناهم فى هذه الدنيا لعنة...﴾	٣٩٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٣	﴿ولقد آتينا موسى الكتاب...﴾	٣٩٩٦
٤٤	﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر...﴾	٤٠٠١
٤٥	﴿ولكننا أنشأنا قرونًا فتناول عليهم العمر...﴾	٤٠٠١
٤٦	﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا...﴾	٤٠٠١
٤٧	﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم...﴾	٤٠٠١
٤٨	﴿فلما جاءهم الحق من عندنا...﴾	٤٠٠٥
٤٩	﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله...﴾	٤٠٠٥
٥٠	﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم...﴾	٤٠٠٥
٥١	﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون...﴾	٤٠٠٩
٥٢	﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون...﴾	٤٠٠٩
٥٣	﴿وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به...﴾	٤٠٠٩
٥٤	﴿أولئك يؤثنون أجورهم مرتين...﴾	٤٠٠٩
٥٥	﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه...﴾	٤٠٠٩
٥٦	﴿إنك لا تهدي من أحببت...﴾	٤٠٠٩
٥٧	﴿وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف...﴾	٤٠١٤
٥٨	﴿وكم أهلكننا من قرية بطرت معيشتها...﴾	٤٠١٤
٥٩	﴿وما كان ريك مهلك القرى حتى يبعث...﴾	٤٠١٤
٦٠	﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا...﴾	٤٠١٤
٦١	﴿أفمن وعدناه وعندًا حسنًا...﴾	٤٠١٤
٦٢	﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي...﴾	٤٠٢٠
٦٣	﴿وقال الذين حق عليهم القول...﴾	٤٠٢٠
٦٤	﴿وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم...﴾	٤٠٢٠
٦٥	﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتكم المرسلين...﴾	٤٠٢٠
٦٦	﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون...﴾	٤٠٢٠
٦٧	﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحًا...﴾	٤٠٢٠
٦٨	﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار...﴾	٤٠٢٠
٦٩	﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون...﴾	٤٠٢٠
٧٠	﴿وهو الله لا إله إلا هو...﴾	٤٠٢٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧١	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...﴾	٤٠٢٦
٧٢	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا...﴾	٤٠٢٦
٧٣	﴿وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...﴾	٤٠٢٦
٧٤	﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ...﴾	٤٠٢٦
٧٥	﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...﴾	٤٠٢٦
٧٦	﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...﴾	٤٠٣٠
٧٧	﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ...﴾	٤٠٣٠
٧٨	﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي...﴾	٤٠٣٠
٧٩	﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾	٤٠٣٥
٨٠	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...﴾	٤٠٣٥
٨١	﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ...﴾	٤٠٣٥
٨٢	﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ...﴾	٤٠٣٥
٨٣	﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا...﴾	٤٠٣٩
٨٤	﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا...﴾	٤٠٣٩
٨٥	﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ مُعَادٌ...﴾	٤٠٤١
٨٦	﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً...﴾	٤٠٤١
٨٧	﴿وَلَا يَصْدَنُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ...﴾	٤٠٤١
٨٨	﴿وَلَا تُدْعِ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾	٤٠٤١
—	خلاصة ما تضمنته سورة القصص	٤٠٤٥
—	تفسير سورة العنكبوت	٤٠٤٧
—	أهداف سورة العنكبوت	٤٠٤٨
١	﴿الـ﴾	٤٠٥٢
٢	﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَمُوتُوا...﴾	٤٠٥٢
٣	﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ...﴾	٤٠٥٢
٤	﴿أَمْ حَسِبِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ...﴾	٤٠٥٢
٥	﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاحَةً...﴾	٤٠٥٢
٦	﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ...﴾	٤٠٥٢
٧	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ...﴾	٤٠٥٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨	﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً...﴾	٤٠٥٧
٩	﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	٤٠٥٧
١٠	﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله...﴾	٤٠٥٧
١١	﴿وليعمل من الله الذين آمنوا...﴾	٤٠٥٧
١٢	﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا...﴾	٤٠٥٧
١٣	﴿وليحملن أثقالهن وأثقالاً مع أثقالهن...﴾	٤٠٥٧
١٤	﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...﴾	٤٠٦٢
١٥	﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة...﴾	٤٠٦٢
١٦	﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه...﴾	٤٠٦٤
١٧	﴿إنما تعبدون من دون الله آثاناً...﴾	٤٠٦٤
١٨	﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم...﴾	٤٠٦٤
١٩	﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق...﴾	٤٠٦٤
٢٠	﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...﴾	٤٠٦٤
٢١	﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء...﴾	٤٠٦٤
٢٢	﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء...﴾	٤٠٦٤
٢٣	﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه...﴾	٤٠٦٤
٢٤	﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا...﴾	٤٠٦٨
٢٥	﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله آثاناً...﴾	٤٠٦٨
٢٦	﴿فأما من الله لوط...﴾	٤٠٦٨
٢٧	﴿ورميناه إسحاق ويعقوب...﴾	٤٠٦٨
٢٨	﴿ولو طأ إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة...﴾	٤٠٧٢
٢٩	﴿أتئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل...﴾	٤٠٧٢
٣٠	﴿قال رب أنصرني على القوم المفسدين...﴾	٤٠٧٢
٣١	﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى...﴾	٤٠٧٥
٣٢	﴿قال إن فيهما لوطاً...﴾	٤٠٧٥
٣٣	﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطاً...﴾	٤٠٧٥
٣٤	﴿إننا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً...﴾	٤٠٧٥
٣٥	﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون...﴾	٤٠٧٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٦	﴿والى مدين أخامم شعيباً...﴾	٤٠٧٩
٣٧	﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة...﴾	٤٠٧٩
٣٨	﴿وعاداً وتمود وقد تبين لكم من مساكنهم...﴾	٤٠٧٩
٣٩	﴿وقارون وفرعون وهامان...﴾	٤٠٧٩
٤٠	﴿فكلاً أخذنا بذنبه...﴾	٤٠٧٩
٤١	﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء...﴾	٤٠٨٣
٤٢	﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء...﴾	٤٠٨٣
٤٣	﴿وتلك الأمثال نضربها للناس...﴾	٤٠٨٣
٤٤	﴿خلق الله السماوات والأرض بالحق...﴾	٤٠٨٦
٤٥	﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة...﴾	٤٠٨٦
—	تخريج أحاديث وهوامش .	٤٠٨٩
—	فهرس الكتاب .	٤٠٩٩

تم بحمد الله (الجزء العشرون)

ويليه الجزء (الحادى والعشرون) بإذن الله تعالى





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار عريب

إهداء 2005

أحد محمد الله سبحانه

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الحادى والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غيب
الطبعة والنشر والتوزيع
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَحْدُنَا لَهُ الْمُسْلِمُونَ﴾ (٤٦)
 وَكَذَلِكَ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِسِمِينِكَ إِذَا لَا رَأْيَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

المفردات:

الجـادل: الججاج والمناظرة والمناقشة.

أهل الكتاب: اليهود والنصارى، أتباع موسى وعيسى عليهما السلام.

إلا بالتي هي أحسن: إلا بالخصلة التي هي أحسن كمعارضة الخشونة باللين، والغضب بالكظم وضبط النفس، والمشاغبة بالنصح والتبويه إلى آيات الله وحججه.

إلا الذين ظلموا منهم: لكن الظالمون منهم بالإفراط في الاعتداء والعناد والمحاربة، فجادلوهم وعاملوهم بالمثل.

وأُنزل إليكم: صدقنا بالقرآن، وبالتوراة والإنجيل في أصولهما الصحيحة.

مسلمون: خاضعون مطيعون.

وما يجحد بآياتنا: مع ظهورها وقيام الحجة على صدقها، والجحد: إنكار الشيء بعد معرفته والعلم به.

إلا الكافرون: المتوغلون في الكفر، وهم المشركون الذين كفروا برسالة محمد ﷺ وجحدوا بالقرآن.

الارتكاب: الشك.

المبطلون: أتباع الباطل وهم الكافرون.

الظالمون: الذين ظلموا أنفسهم وجحدوا وجه الحق.

التفسير:

٤٦ - وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

دعوة للمسلمين أن يتلطفوا فى النقاش والجدال مع أهل الكتاب باستعمال النعمة الهادئة، والحكمة والأسلوب اللين.

كما قال تعالى: ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ هِيَ أَحْسَنُ ... (النحل: ١٢٥).

وقال سبعمائة لموسى وهارون: اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (طه: ٤٣، ٤٤).

وهذا منهج الإسلام فى النقاش والجدال، ورحابة صدره حيث يدعو إلى الإيمان بالرسول والكتب والأنبياء السابقين؛ لأن الرسل جميعا أرسلهم إله واحد بالدعوة إلى توحيد الله، والتحلّى بمكارم الأخلاق، والتخلّى عن الرذائل والقبائح.

يقول الله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة: ٢٨٥).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١).

ما أجمل دين الإسلام، وما أسمى أهدافه، فقد احترمت الرسالات السماوية، وصُدّق بالكتب السابقة، وحث على النقاش الهادئ مع أهل الكتاب، واستعمال اللغة المهذبة، والتعرف على ما عند الآخرين بالأسلوب الأحسن، على حدّ قول علمائنا: تتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

لكن من ظلم من أهل الكتاب واعتدى فى فعله أو قوله فإنه يعامل معاملة مماثلة:

فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ... (البقرة: ١٩٤).

وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ...

أى: آمنا بالقرآن، وبالتوراة والإنجيل إيماناً مجملاً.

أخرج البخارى، عن أبى هريرة، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (٢).

أى: ربنا وربكم واحد لا شريك له فى الألوهية، ونحن له مسلمون مطيعون، مستسلمون لحكمه وأمره.

٤٧ - وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ .

أى: وكما أنزلنا التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، أنزلنا إليك القرآن، كتاب الله الخالد، المجرد عن المثل والنظير، المشتمل على الإلهيات والتشريعات، والآداب والقصص وأخبار السابقين، ونظام الإسلام وآدابه وتشريعاته وأحكامه وحكمه.

فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ...

فالذين آتيناهم التوراة والإنجيل، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، وأشباههما ممن أسلم من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن، ويصدقون برسالة محمد ﷺ.

وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ...

ومن أهل مكة من يؤمن بالقرآن كذلك، مثل المتحنثين الذين تركوا الإثم والشرك، وآمنوا بالقرآن عند نزوله مثل بحيرا الراهب.

وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ .

لا يرفض الإسلام ولا يكذب بالقرآن إلا المتوغل فى الكفر، الذى يجحد بآيات الله مع ظهورها وقيام الحجة على صدقها؛ أى: فهؤلاء هم المتوغلون فى الكفر المصرون على العناد.

٤٨ - وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكِ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ .

ما كنت يا محمد كاتباً ولا قارئاً، بل كنت أمياً لا تعرف القراءة والكتابة، لحكمة إلهية عليا، هى نفي التهمة عن رسول الله ﷺ، بأنه نقل هذا القرآن من الكتب السابقة ثم ادعى أنه من عند الله.

وهكذا يفتد القرآن شبه الكافرين حتى الطفولى منها، فمحمد ﷺ عاش بين قومه مدة من الزمان، عرفوا ويتقنوا بصدقه وأمانته، حتى قال هرقل ملك الروم لأبى سفيان: هل جربت عليه الكذب؟ قال أبو سفيان: لا، فقال هرقل: ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

ومع وضوح الدلالة والحجة على صدق القرآن، وشهادة الأعداء بأنه فوق طاقة البشر، وأن له حلاوة، وعليه طلاوة، وكلما تكرر حلا، وما يستطيع أن يقول مثله بشر، مع شهادة سناديد الكفر بأن القرآن فوق طاقة البشر، وأن مصدره قوة عليا - فقد ادعى بعض المشركين أن محمداً نقل أساطير الأولين وعلومهم، ثم صاغها من عنده مدعياً أنها قرآن من عند الله، قال تعالى: وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَخِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَوَّارًا رَحِيمًا (الفرقان: ٦، ٥).

روى الطبرى، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب.

وقال ابن كثير:

المعنى: قد لبثت فى قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً، ولا تحسن الكتابة، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمى لا تقرأ ولا تكتب، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة، ولا يخط حرفاً ولا سطرًا بيده، بل كان له كتّاب يكتبون له الوحي والرسائل إلى الأقاليم، وما أورده بعضهم من الحديث، أنه لم يمت حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له (٣).

٤٩ - بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ .

القرآن العظيم حفظه الله من التغير والتبديل بطريقتين، الأولى: حفظه فى الصدور، والثانية: حفظه فى السطور.

فقد كان المسلمون يهدرون بالقرآن ليلاً ونهاراً، سحرًا وقيل الفجر، فى السلم والحرب، وكانت أناجيلهم صدورهم، يقرأون القرآن عن ظهر قلب، كما أن النبى ﷺ اتخذ لنفسه كتّاباً يكتبون الوحي على العظام، وجريد النخل والكاغد - وهو الورق الغليظ - وما تيسر لهم من وسائل الكتابة.

وانتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، والقرآن محفوظ فى الصدور، ومكتوب فى السطور.

ثم استشهد سبعون من القراء فى معركة اليمامة، فأشار عمر على أبى بكر بجمع القرآن فى كتاب واحد، فعهد أبو بكر إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي بكتابة المصحف فى كتاب واحد؛ خشية أن يضيع منه شيء بموت القراء.

وقد كان القرآن يقرأ على سبعة أحرف، فتغالط القراء وتمصب كل حافظ للقرآن للطريقة والقراءة التى حفظ بها، فأشار المسلمون على عثمان بكتابة المصحف باللغة القرشية، على لهجة واحدة، هى اللغة الأم، وإحراق ما عداها من اللهجات.

وظل المصحف العثمانى فى يد المسلمين إلى يومنا هذا، فالجمع فى عهد أبى بكر بمعنى تدوين القرآن كاملاً فى كتاب واحد، والجمع فى عهد عثمان، هو كتابة القرآن باللغة العربية الفصحى، ونشر القرآن فى المدن الرئيسية، وإحراق اللهجات العربية الأخرى، وجمع الناس جميعاً على المصحف الإمام الذى تكفل الله بحفظه، فقال تعالى:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر: ٩).

فالقرآن آيات بينات ظاهرة واضحة الصدق، فى صدور الصحابة والحافظين، وإعجازه واضح للعيان، ودلائل صدقه واضحة، فهو لم يصطدم بالعلم، وأتى بمعجزات غيبية وعلمية وأسلوبية وبلاغية، تؤكد أنه من عند الله تعالى وليس من صنع بشر، فقد تكلم القرآن عن مراحل تكون الجنين فى بطن أمه، وأشار إلى بدء

الخلقة، وإلى خلق السماوات والأرض، وإلى قلة الأسسجين فى طبقات الجو العليا، وإلى تطور العلوم فى آفاق الكون، وآفاق النفس، وتميز القرآن بالصحة والصواب وعدم الاضطراب، قال تعالى:

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا . (النساء: ٨٢).

وَمَا يَجْعَلُ يَأَيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ .

أى: المتعدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه.

★ ★ ★

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المفردات:

الكتاب: القرآن.

ذكى: عظة وتذكرة.

شهادة: حاضرا بعلمه.

التفسير:

٥٠ - وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين .

أى: وقال كفار مكة على سبيل التعنت والعناد: هلا أنزلت على محمد معجزات واضحات تؤكد صدق رسالته، كثافة صالح، وعصا موسى، ومعجزات عيسى.

قل لهم يا محمد: أنا رسول مبلغ عن الله ليس على إلا البلاغ، أما المعجزات والآيات فهي شأن من شئون الله تعالى ينزلها بمشيئته وإرادته، وليس من شأنى كمد يبلغ عن الله، أن أفتخر عليه إنزال المعجزات.

قال تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا . (الإسراء: ٥٩).

٥١ - أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

مرت البشرية بمرحلة الطفولة ثم بمراحل النمو، ونزلت معجزات مادية كفاية صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، وكانت رسالة محمد ﷺ رحمة عامة للناس أجمعين، فأراد الله أن تكون معجزة هذه الرسالة، معجزة خالدة للبشر كافة بخلاف المعجزات السابقة، فتاقت صالح لم يشاهدها إلا الجيل الذى شاهد حياة صالح، وعصا موسى لم يشاهدها إلا الجيل الذى عاصر موسى، ومائدة عيسى لم يشاهدها إلا الجيل الذى شاهد حياة عيسى، أما القرآن الكريم فقد اشتمل على صنوف البيان، وأخبار التاريخ، وآيات التشريع، وألوان الهداية، وهو يقرأ ويحفظ عن ظهر قلب، وقد تكفل الله بحفظه، لنشاهده الأجيال السابقة واللاحقة.

والمعنى: أقصر هذا الكتاب، فلم يوضح لهم حقيقة الرسالة المحمدية، المشتعلة على التوحيد والإيمان بالرسول والكتب، واتباع الفرائض واجتنب المنهيات.

أولم يكفهم هذا القرآن المعجز، المبين الحكيم الصادق، دليلا على صدق محمد، وآية عقلية خالدة، ومعجزة مستمرة، حيث يقرأ هذا القرآن صباح مساء، وفيه ألوان الهداية والتوضيح، قال تعالى: لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء: ١٠).

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى: فى هذا القرآن الكريم الذى تعم معجزته الزمان والمكان لنعمة عظيمة، وتذكرة بالغة لقوم يطلبون الإيمان ويحرصون على تحصيله.

٥٢ - قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

أى: قل لهم يا محمد: كفى بالله علما وحكما عادلا وشهيدا حاضرا، يشهد لى بتبليغ الرسالة إليكم، ويشهد عليكم بالتكذيب والعناد، وهو سبحانه مطلع وعالم بما فى السماوات من أفعالك وأملاك، وبما فى الأرض من مخلوقات، وبالتالي يعلم رسالتى إليكم وتكذيبكم لى، ولو كنت كاذبا لأهلكنى، كما قال سبحانه وتعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (الحاقة: ٤٤ - ٤٧).

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

أى: والذين صدقوا بالأوثان والأصنام ونحوها، وجحدوا الإيمان بالله ورسوله، أولئك هم الخاسرون . حيث باعوا آخرتهم وآثروا دنياهم، واشتروا الكفر بالإيمان، واتباعوا الباطل والطواغيت والكفر بلا دليل، فكانوا هم الخاسرين خسارة كبرى، حيث حرموا الجنة ونعيمها، واستحقوا النار وعذابها.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٥٤) ﴿يَوْمَ يَفْسَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥٥) ﴿

المضردات:

يستعجلونك: يطلبون تمجيل العذاب الذي توعدتهم به.

أجل مسمى: هو الأجل الذي ضربه الله لوقوع العذاب.

بغتة: فجأة بدون توقع.

لا يشعرون: لا يتوقعون نزوله بهم.

يفسأهم: يحيط بهم ويمهمهم.

ويقول: الله أو الملك الموكل بالعذاب.

ما كنتم تعملون: جزاءه فلا تقوتوننا.

التفسير:

٥٢ - وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

أي: يستعجلك كفار مكة بنزول العذاب بهم، استهتاراً وتحدياً لك، مثل قولهم: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال: ٣٢، ٣٣) .

ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون .

ولولا أن الله سبحانه وتعالى لا يعجل لعجلة العباد، وقد اقتضت حكمته إهمال الظالمين، رجاء هدايتهم، أو تحقيق الثواب للمؤمنين من أجل امتحانهم وطول بلائهم، أو لتخرج من ظهور الكافرين ذرية صالحة تعبد الله، وتتهدي بهدياته، أو لغير ذلك من حكم إلهية عليا يعلمها الله، من بينها: أنه يريد إهمال الظالمين إعداراً لهم، أو استدراجاً حتى يكون عذابهم عادلاً، قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِبَيَادِهِ بَصِيرًا . (فاطر: ٤٥) .

وخلاصة المعنى:

لولا أن الله تعالى حدد أجلاً مسمى لنزول العذاب بهم، لجاءهم العذاب عاجلاً في الدنيا .

وَلَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

وسوف يأتيتهم العذاب فجأة وهم لا يحسبون بمجيئه، بل يكونون فى غفلة عنه.

ويشمل المعنى ما أصابهم من العذاب يوم بدر، حيث فاجأهم القتل والأسر، وهم فى غرور وتيه وكبرياء، لا يتصورون معه أن يصيبهم مثل ما أصابهم.

أو المراد: وليأتيتهم العذاب، وهم قارؤون آمنون، لا يخطر ببالهم أن ينزل بهم العذاب، كشأن العقوبات النازلة على بعض الأمم السابقة بيئاتاً وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون.

٥٤ - يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ .

أى: يطلبون منك حدوث العذاب، وهو واقع بهم لا محالة، وإن جهنم ستحيط بهم من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، حيث لا يستطيعون منها فكاً ولا هرباً.

قال تعالى: يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . (الطور: ١٢، ١٤).

وقال تعالى: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ . (القمر: ٤٨).

٥٥ - يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

يوم يعمهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ومن جميع جهاتهم، بحيث يجدون من الهوان والأهوال ما لا يفى به مقال، ويقال لهم على سبيل التوبيخ والتوبيخ: ذوقوا جزء ما كنتم تعملون فى الدنيا من كفر ومعاصٍ.

قال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ... (الأعراف: ٤١).

وقال تعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... (الزمر: ١٦).

وقال عز وجل: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ .

(الأنبياء: ١٠)

﴿يَعْبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ ارْضَى وَسِعَةً فَإِنِّى فَاعْبُدُونِ ٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ط
ثُمَّ إِنِّى أَنَا رَاحِمٌ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ٥٩﴾ وَكَأَنِّى مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ٦٠﴾

تمهيد:

تتحدث الآيات عن المؤمنين بمكة، وكانوا يتعرضون للاضطهاد والتعذيب، فتدعوهم إلى الهجرة إلى أرض الله الواسعة، وتَهْوَنُ شأن الدنيا وتبين أن الموت واقع لا محالة، سواء فى مكة أو الحبشة أو المدينة، فلا داعى للإقامة بدار مذلة أو هوان، وتذكر جزاء المؤمنين فى الجنة ونعيمها، وأنهارها وحسن جزائها، وتؤكد أن الرزق بيد الله، الذى يرزق الطير والنمل والحيوان والإنسان.

التفسير:

٥٦ - يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ ارْضَى وَسِعَةً فَإِنِّى فَاعْبُدُونِ .

نداء للمؤمنين أينما كانوا، إذا أحسُّوا بالظلم أو الهوان، أن يرغبوا فى الهجرة إلى مكان آخر.

رُوى عن مقاتل، والكلبي أن الآية نزلت فى المستضعفين من المؤمنين بمكة، أمروا بالهجرة عنها، وعلى هذا أكثر المفسرين.

والعبارة هنا بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فالآية تغلق فى المؤمن حافزاً إلى الهجرة، وتحثه على التخلص من الأذى والضيق، والهجرة إلى أرض الله الواسعة.

أخرج الإمام أحمد، عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والمباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فاقم»^(١).

وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة مرتين، واستقبلهم أصحمة النجاشى استقبالا حسناً، فاقاموا فى بلاد الحبشة يعبدون الله تعالى.

ثم هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة، وأقاموا بها دولة الإسلام، وكانت الهجرة إلى المدينة فتحة مبيناً، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة قبل فتح مكة للقادر عليها، فلما جاء نصر الله والفتح، قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استقروا فانفروا»^(٢).

٥٧ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ .

تأتى هذه الآية فى القرآن لتهوين أمر الدنيا، وبيان أن الجزاء العادل سيكون فى الآخرة، وأن الدنيا متاعها قليل، فيمكن للإنسان أن يستهين بأمر الهجرة، والانتقال من بلد إلى بلد، مادام ذلك فى مرضاة الله .

والمعنى:

كل نفس - سواء أكانت فى وطنها الذى عاشت فيه أم فى غيره - ذائقة الموت، وخارجة من الدنيا إلينا، فتوفيها جزاءها، فالتزموا أمرنا ولبوا ندائنا، لأن عاقبتكم وجزاءكم الحقيقى عندنا .

٥٨ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أُنْجِرُ الْعَالَمِينَ .

والذين صدقوا بالله وأكثروا من عمل الصالحات، لننزلنهم منازل رفيعة فى الجنة، حيث يتمتعون بقصورها العالية، ومنازلها الرفيعة، والأنهار تجري من تحتهم، وهم خالدون فيها خلوداً أبدياً سرمدياً، فأنعم بذلك الجزاء، وهو سكى المنازل العالية فى الجنة، والتمتع بنعيمها، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

جاء فى تفسير القرطبي:

خرج الترمذى، عن على رضى الله عنه، قال: رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها» فقام إليه أعرابي فقال: لمن هى يا رسول الله؟ قال: «هى لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى لله بالليل والناس نيام»^(١).

٥٩ - الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

وتلح أن الله تعالى يمدح المؤمنين ويثني على صفاتهم، بعد أن ذكر عقاب الكافرين وعييدهم، فقد أثنى الله على صفاتهم، ومنها الصبر والتوكل، أى: صبروا على أذى المشركين، وعلى الهجرة وفراق الوطن، متوكلين على الله، فهم قد عملوا ما عليهم، وتركوا لله نجاح سعيهم، وهذه حقيقة التوكل، أى: الأخذ بالأسباب، وترك النتائج على رب الأرباب، وبهذا تفرق بين التوكل والتوكل، فقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب قوما من أهل اليمن فقال لهم: ما حرفةكم؟ قالوا: نحن متوكلون، فقال لهم: أنتم متوكلون، المتوكل هو الذى يبذر البذرة وينتظر من الله إنضاج الثمرة .

أى: أن الفلاح يحترق الأرض ويسقيها، ويبذر البذرة ويتمهدها بالنظافة والسماد والسقى، ثم ينتظر الحصاد، وكذلك المتوكل يأخذ بالأسباب، ويعمل الأعمال اللازمة فى السعى للدنيا والجهاد والهجرة، ثم يتوكل على الله تعالى معتمداً على فضله ورزقه .

٦٠ - وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

كثير من الدواب التى تدب على وجه الأرض كالنمل والطير والبهائم، لا تطيق حمل رزقها، ولا تحمل شيئا لغد، أو تاكل بأفواهها ولا تحمل رزقها، الله تعالى يرزقها أينما توجهت، كما يرزقكم، وهذه الدواب مع ضعفها وتوكلها، وأنتم مع قوتكم واجتهادكم، سواء هى أنه لا يرزقها وإياكم إلا الله.

قال القرطبي:

اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ... يسوئ بين الحريص والمتوكل فى رزقه، وبين الراغب والقانع، وبين صاحب الحيلة فى الرزق والعاجز، حتى لا يفتر الجلد أنه مرزوق بجلده، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه، وفى الصحيح عن النبى ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطناء» (٧).

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . دعائكم وقولكم: لا نجد ما تنفق بالمدينة، الْعَلِيمُ . بما فى قلوبكم.

★ ★ ★

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (١١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٣) ﴿

المفردات:

وسخر الشمس والقمر، ذللهما وسيرهما فى مساراتهما.

فانى يصرفون، فكيف يصرفون عن توحيد الله ؟

يبسط الرزق، يوسعه ويزيده.

ويقتدر، يضيقه ويقلله.

أحيا به الأرض، أخصبها وجعلها ذات زرع.

موتها، جديها.

التفسير:

٦١ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ .

أى: إذا سألت هؤلاء المشركين عن الصانع لهذا الكون، الذى خلق السماء مرفوعة وخلق الأرض مبسطة، وسخر الشمس تجرى لأجل مسمى، وقدر نور القمر وجعله هلالاً ثم بدراً ثم يعود هلالاً، ثم يدخل فى المحاق والظلمة فى آخر الشهر، أى: من أبدع نظام الكون، وخلق السماء والأرض، وسير الشمس والقمر؟ ليقولن: الله تعالى هو الذى خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر.

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ .

فكيف يصرفون عن عبادته وعن توحيده؟ أى: كيف يعترفون بأنه الخالق وحده، ثم يشركون معه فى العبادة اصناماً وأوثاناً، لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تجيب؟

ولما ذكر سبحانه وتعالى اعترافهم بالخلق، ذكر حال الرزق، من قبيل أن كمال الخلق ببقاء الرزق، ولا بقاء للخلق إلا بالرزق، فقال سبحانه:

٦٢ - اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

الله تعالى يوسع على من يشاء من عباده، فى المال أو الجاه، أو السلطان أو العلم أو الهيبة أو القبول، أو الزوجة الصالحة أو الذرية الفاضلة، كما يضيق على من يشاء فى هذه الأرزاق لحكمة إلهية عليا، فهو سبحانه أعلم بخلقه وبما يصلحهم.

قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة سبحانه وتعالى: «إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك».

وفى معنى الآية قوله تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (الشورى: ٢٧، ٢٨).

٦٢ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

وإذا سألت هؤلاء المشركين: من الذى ساق السحاب وأنزل المطر، وأخصب الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، بعد أن كانت جدياء ميتة، فأحيائها الله بالمطر؟

إذا سألتهم عن مسعّر السحاب ومنزل المطر، ومحى الأرض بالنبات، ليقولن: الله هو الذى فعل ذلك، قل: الحمد لله، والشكر لله، الذى خلق الخلق ويسر الرزق، وأنزل المطر وأنبت النبات، فله وحده الحمد والشكر، أو الحمد لله الذى أنطقهم بذلك.

ومع اعترافهم بأنه سبحانه الخالق الرازق فإنهم يعبدون غيره، أو يشركونه معه فى العبادة، مثل التجوم والأنواء والأصنام والأوثان.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ .

بل أكثرهم ليسوا من أهل العقل والتدبر والتأمل، والاهتداء إلى أن الله وحده هو الخالق الذى يستحق العبادة دون سواه.

★ ★ ★

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْتَهُمْ وَلِيَسْتَمْنَعُوا فُسُوقَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الهُوُّ: الاستمتاع باللذات.

اللعِب: العبث وما لا فائدة فيه.

لهى الحيوان: لهى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها، والحيوان مصدر حى، كالحياة، وأصله: الحيان تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلت واوا، وفى بناء المصدر على فعلان زيادة معنى لما يفيد من الحركة والاضطراب، لأن الحياة حركة، والموت سكون.

تمهيد:

ذكر القرآن فيما سبق اعترافهم لله سبحانه وتعالى بأنه الخالق الرازق، ثم هم بعد ذلك يتركون عبادته ويعبدون ما سواه، اغتراروا بزينة الحياة الدنيا، فذكر هنا أن الحياة الدنيا زائلة، ثم أرشدهم إلى أنهم مع شركهم بالله، إذا عابثوا الفرقت أو الهلاك دعوا الله مخلصين له الدين، فإذا نجوا وانتقلوا إلى اليابسة، عادوا إلى كفرهم وشركهم، وغداً يلقون جزاءهم.

التفسير:

٦٤ - وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

ما هذه الدنيا الفانية التى يتشبث بها المشركون، إلا لهو يلهو به الكبار فى غفلة وعمه، ولعب يلعب به الصغار فى عبث وبهجة، ثم لا تلبث أن تزول.

وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

إن الدار الآخرة لهى الحياة الحقيقية، التى لا موت بعدها، ولا يُكدر صفوها، ولا ينقطع نعيمها.

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . ذلك ويفقهونه لما آثروا عليها الدنيا الفانية.

٦٥ - فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكَ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ .

أى: إذا ركب هؤلاء المشركون السفينة، وسارت بهم فى عباب البحر، ثم اكفهر الجو واشتدت الرياح، وعصفت بهم العواصف، نسوا آلهتهم، وأخلصوا العبادة والدعاء لله أن ينجيهم، فلما استجاب الله لهم ونجاهم إلى اليابسة عادوا إلى الشرك وإلى عبادة الأصنام، وكان الأولى أن يشكروا الله وحده، وأن يعبدوه وحده.

قال عكرمة بن أبى جهل:

كان أهل الجاهلية إذا ركبوا فى البحر حملوا معهم الأصنام، فإذا اشتدت عليهم الرياح القوما فيه، وقالوا: يارب يارب.

قال الفخر الرازى:

وهذا دليل على أن معرفة الرب فى فطرة كل إنسان، وأنهم إن غفلوا فى السراء، فلا شك أنهم يلوذون إليه فى حال الضراء. أ هـ.

٦٦ - لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

أى: يشركون لتكون عاقبة أمرهم الكفران بما آتيناهم من نعمة النجاة، وليتمتعوا باجتماعهم على عبادة الأصنام، فسوف يعلمون عاقبة ذلك حين يلقون عذاب يوم القيامة.

وذهب بعض المفسرين إلى أن اللام فى قوله تعالى: لِيَكْفُرُوا . لام الأمر، وأن الأسلوب مسوق مساق تهديدهم ووعيدهم، فهو على حدّ قوله تعالى: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . (فصلت: ٤٠).

أى: اكفروا بنعم الله، وتمتعوا بلذائذ دنياكم، وتجمعوا على عبادة أصنامكم، فسوف تعلمون عاقبة كفركم حين تلقون العذاب الشديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ
أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ
لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

المفردات:

حَرَمًا آمِنًا: مكانا مقدسا يأمنون فيه، وهو مكة.

وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ: الخطف والتخطف: الأخذ بسرعة، والمراد به: القتل والسلب.

افْبِالْبَاطِلِ: الأصنام أو الشيطان.

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا: اختلق على الله كذبا حيث ادعى له شريكا.

أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ: أو كَذَّبَ بالرسول ﷺ وبما جاء به.

مَثْوًى: دار إقامة دائمة ومستقر.

جَاهَدُوا فِينَا: غالبوا أنفسهم وشيطانهم وأعداءهم لأجلنا.

لَنَهْدِيَنَّهُمْ: لنيسر لهم.

سُبُلَنَا: طرق الوصول إلينا.

تمهيد:

يتمن الله على مشركى مكة بنعمة الأمن والأمان، مع أن العرب من حولهم كثير، وهم أهل إغارة وقتل، ولكن الله حفظهم من ذلك، وأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، فكان الأولى بهم أن يشكروا هذه النعم، وأن يؤمنوا بالرسول المرسل الأمن، لكنهم كفروا بالله، وعبدوا الأصنام، وكذبوا محمداً ﷺ، فاستحقوا الثواء والإقامة فى جهنم، أما المؤمنون المجاهدون، فإن الله تعالى ييسر لهم سبل النصر والسعادة، جزاء إيمانهم وإحسانهم.

التفسير:

٦٧ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ .

أولم يشاهدوا بأنفسهم أن مكة أمنة مطمئنة، سالمة من الغزو والقتل والإغارة، والعرب حولهم يشنون الحروب لآفته الأسباب، ويقومون بالإغارة والقتل، بعضهم على بعض، وكان الأولى بهم بعد ذلك أن يؤمنوا بالله وحده، فإذا بهم يؤمنون بالأوثان والأصنام، ويتركون الإيمان بالله، ويكفرون بمحمد رسول الله ﷺ.

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . (قریش: ١-٤).

وقال تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ... (آل عمران: ٩٧).

وقال ﷺ: «من أصبح آمناً فى سربه، معافى فى بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» (٨).

٦٨ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ .

أى إنسان أشد ظلماً لنفسه، ممن اختلق على الله كذباً، فادعى أنه له شريكاً، مع وضوح الأدلة على وحدانيته، وتواثر الشواهد على الوهيته، أو جاوز الحدود فى الظلم حين كذب بمحمد ﷺ مع صدقه، ومع عجزهم عن الإتيان بمثل ما جاء به، لقد استوجبوا الثواء فى جهنم، ففيها متسع لهم ولأمثالهم من الكافرين المكذبين.

٦٩ - وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

تأتى هذه الآية فى آخر السورة لتربط أولها بآخرها، فقد تحدثت فى أولها عن الجهاد، وتحمل البلاء، والمراد به جهاد النفس والصبر على الابتلاء، ثم ختمت السورة ببيان أن الله يكرم المجاهدين بعز الدنيا وسعادة الآخرة.

والمعنى: والذين غالبا وجاهدوا من أجلنا، وفى سبيل نشر ديننا، وتحملوا فى سبيل ذلك البلاء والامتحان، لنيسرن لهم السبل الموصلة إلى مرضاتنا.

وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ .

بالنصر فى الدنيا، وبالنعيم المقيم فى الآخرة.

روى ابن أبى حاتم، عن الشعبى قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وقال ابن عطية:

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ... هى قبل الجهاد العرفى، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته.

وقال أبو سليمان الداراني:

ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين، والرد على المبطلين، وقمع الظالمين، وأعظمه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

خلاصة ما تضمنته سورة العنكبوت

- ١ - اختبار المؤمنين ليعلم صدقهم فى إيمانهم.
- ٢ - فى الجهاد اختبار للمجاهد، والله غنى عن ذلك.
- ٣ - الحسنات يكفّرُن السيئات.
- ٤ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين وبرهما، مع عدم طاعتها فى الإشراك بالله.
- ٥ - حال المنافق الذى يظهر الإيمان ولا يحتمل الأذى فى سبيل الله.
- ٦ - حال الكافرين الذين يُضَلُّون غيرهم، ويقولون للمؤمنين: نحن نحمل خطاياكم.
- ٧ - قصص الأنبياء: كنوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح، وموسى وهارون، ويان ما آل إليه أمر الأنبياء من النصر، وأمر أمهم من الهلاك بضروب مختلفة من العقاب.
- ٨ - حجاج المشركين بضرب الأمثال لهم بما فيه توبيخهم وتأنيبهم.
- ٩ - حجاج أهل الكتاب بالحسنى والحكمة.
- ١٠ - إثبات النبوة ببيان صدق معجزته ﷺ.
- ١١ - الرد على شبهات المشركين.
- ١٢ - استعجالهم بالعذاب تهكماً.
- ١٣ - أمر المسلمين بالهجرة وتقوى الله.
- ١٤ - اعتراف كفار مكة بأن الخالق للكون هو الله سبحانه وتعالى.
- ١٥ - بيان أن الدار الآخرة هى الحياة الحقة.
- ١٦ - امتنانه على قريش بالأمن والأمان، ثم كفرانهم بنعم الله وإشراكهم به سواء.
- ١٧ - الجهاد أنواع، منه قتال الكافرين، ومنه جهاد النفس، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد وعد الله بهداية المجاهدين وإكرامهم.



تم تفسير سورة العنكبوت، والحمد لله رب العالمين.

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الروم

أهداف سورة الروم

سورة الروم مكية، نزلت بعد سورة الانشقاق، وآياتها ٦٠ آية، وقد نزلت سورة الروم فى السنة التى انتصر فيها الفرس على الروم، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة.

وسميت هذه السورة بسورة الروم، لقوله تعالى فى أولها: **الْم * غَلِبَتِ الرُّومُ** . (الروم: ١، ٢).

سبب نزول السورة:

قال المفسرون ^(١): بعث كسرى جيشا إلى الروم واستعمل عليهم رجلا يسمى «شهريران»، فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم، وكان قيصر قد بعث رجلا يدعى «يحنس» فالتقى مع «شهريران» بأذرعات ويصرى وهى أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم، وبلغ ذلك النبى ﷺ وأصحابه بمكة فشق عليهم. وكان النبى ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح كفار مكة وشمتوا، وقالوا للمسلمين: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لتظهرن عليكم.

فأنزل الله تعالى سورة الروم، وفيها ما يفيد أن أهل فارس قد غلبوا الروم فى أرض الأردن وفلسطين وهى أقرب البلاد إلى جزيرة العرب، ثم وعد الله بأن ينتصر الروم على الفرس فى جولة أخرى خلال بضعة سنين. والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع أو العشر، وقد التقى الجيشان فى السنة السابعة من الالتقاء الأول، وغلبت الروم فارس.

وعن أبى سعيد الخدرى قال: لما كان يوم بدر غلب المسلمون كفار مكة، وأتى المسلمين الخبر بعد ذلك - والنبى والمؤمنون بالحديبية - بأن الروم قد غلبوا أهل فارس ^(١٠) ففرح المسلمون بذلك، لانتصار أهل الكتاب على عباد الأوثان، فذلك قوله تعالى: **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بَنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** . (الروم: ٤، ٥)

فصلان مترابطان:

يمضى سياق سورة الروم فى فصلين مترابطين:

الفصل الأول: يربط بين نصر المؤمنين والحق الذى تقوى عليه السماوات والأرض وما بينهما، ويرتبط به أمر الدنيا والآخرة، ويوجه إلى سنة الله فىمن مضى قبلهم من القرون، وقيس عليها قضية البعث والإعادة، ومن ثم يعرض عليهم مشهدا من مشاهد الكون، وآيات الله الماثلة فى شأياهم، ودلالة تلك المشاهد وإيحائها للقولوب، ويضرب لهم من أنفسهم ومما ملكت أيمانهم مثلا يكشف عن سخافة فكرة الشرك، وقيامها على الأهواء التى لا تستند إلى حق أو علم .. وينتهى هذا الموضوع بتوجيه الرسول ﷺ إلى اتباع طريق الحق الواحد الثابت الواضح،

طريق الفطرة التى فطر الله الناس عليها، والتى لا تتبدل ولا تدور مع الهوى، ولا يتفرق متبعوها شيئا واحزابا، كما تفرق الذين اتبعوا الهوى.

ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٢٢ .

الفصل الثانى: يكشف هذا الفصل عما فى طبيعة الناس من تقلب لا يصلح أن تقام عليه الحياة، ما لم يرتبطوا بمعيار ثابت لا يدور مع الأهواء، ويصور حالهم فى الرحمة والضر، وعند بسط الرزق وقبضه، ويستطرد بهذه المناسبة إلى وسائل إنفاق هذا الرزق وتنميته، ويعود إلى قضية الشرك والشركاء فيعرضها من هذه الزاوية فإذا هم لا يرزقون ولا يميّتون ولا يحيون، ويربط بين ظهور الفساد فى البر والبحر وعمل الناس وكسبهم، ويوجههم إلى السير فى الأرض، والنظر فى عواقب المشركين من قبل، ومن ثم يوجه الرسول ﷺ إلى الاستقامة على دين الفطرة من قبل أن يأتى اليوم الذى يجزى فيه كل إنسان بما كسبت يده، ويعود بهم بعد ذلك إلى آيات الله فى مشاهد الكون - كما عاد بهم فى الفصل الأول - ويعقب على ذلك بأن الهدى هدى الله، وأن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدى العمى ولا يسمع الصم، ثم يطوف بهم فى جولة جديدة فى ذات أنفسهم، ويذكرهم بأطوار نشأتهم من بدنها إلى منتهاها، منذ الطقولة الواهنة الضعيفة إلى الموت والبعث والقيامة، ويعرض عليهم مشهدا من مشاهدها، ثم ينتهى هذا الموضوع ويختتم معه السورة بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر على دعوته، وما يلقاه من الناس فيها، والأطمئنان إلى أن وعد الله حق لا بد أن يتحقق، فلا يقلقه الذين لا يوقنون.

ويستغرق هذا الفصل من الآية ٢٢ إلى آخر السورة.

الأفكار العامة للسورة

الفكرة الرئيسية فى سورة الروم هى الكشف عن الارتباطات الوثيقة بين أحوال الناس وأحداث الحياة، وماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها، وسنن الوجود ونواميس الكون، ومن خلال هذه الارتباطات يبدو أن كل حركة وكل حالة وكل نصر وكل هزيمة كلها مرتبطة بريابط وثيق محكمة بقانون دقيق، وأن مرد الأمر كلها لله: **لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . . . (الروم: ٤)** ، وهذه هى الحقيقة الأولى التى يؤكدها القرآن كله، بوصفها الحقيقة الموجهة فى هذه العقيدة، الحقيقة التى تنشأ عنها جميع التصورات والمشاعر والقيم والتجديرات، والتى بدونها لا يستقيم تصور ولا تقدير.

وهناك أفكار متعددة مبثوثة فى ثنايا السورة منها:

ذكر أخبار القرون الماضية، وذكر قيام الساعة، وآيات التوحيد والحجج 'الترادفة الدالة على الذات والصفات، وبيان البعث يوم القيامة، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين، وتقرير المؤمنين على الإيمان، والأمر بالمعروف والإحسان إلى ذوى القربى، ووعد الثواب على أداء الزكاة، والإخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر، وعن آثار القيامة، وذكر عجائب صنع الله فى السحاب والأمطار، وظهور آثار الرحمة فى إنبات النبات وظهور

الربيع، وذكر إصرار الكفار على الكفر، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز، وإحياء الخلق بعد الموت والحشر والنشر، وتسليمة الرسول ﷺ.

عالمية الدعوة الإسلامية:

لم يقف القرآن في سورة الروم عند حادث هزيمة الروم أمام الفرس، ثم الوعد بغلبة الروم على الفرس. ولكنه انطلق من ذكر هذه الحادثة ليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية، والحق الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما، وليصل بين ماضى البشرية وحاضرها ومستقبلها.

ثم يستطرد إلى الحياة الآخرة ومشاهدها، ثم يطوف بالمسلمين في مشاهد الكون ومشاهد النفس وأحوال البشر وعجائب الفطر، ومن ثم يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير، ويشعرون بدقة السنن التي تحكم هذا الكون وتصرف أحداث الحياة، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة.

وفي ظل ذلك التصور الواسع الشامل، تتكشف عالمية هذه الدعوة، وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها.

ويدرك المسلم موقفه وموقف أمته في ذلك الخضم الهائل، ويعرف قيمته وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله، فيؤدى حينئذ دوره على بصيرة، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام.

سورة الروم مكية، وآياتها ستون، نزلت بعد سورة الانشقاق

وقد بُدئت سورة العنكبوت قبلها بالجهاد وختمت به، وبدئت سورة الروم بما يفيد أن الله ينصر المؤمنين، واشتملت سورة الروم على أدلة التوحيد، والنظر فى الأفاق والأنفس، وهى معان ذكرت فى سورة العنكبوت، وتاكدت فى سورة الروم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ غَلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾
فِي بِضْعِ سَنِينَ ۖ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾
يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ
غَافِلُونَ ﴿٧﴾

المفردات:

الروم: قوم من الفرنج يستوطنون الجنوب الشرقى من أوروبا، ويقول المؤرخون: إنهم عرفوا باسم جد لهم اسمه روم، أو رومى، من ذرية يافث بن نوح.

فى أدنى الأرض: فى أقرب أرضهم من الروم، أو من أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث.

من بعد كونهم مغلوبين.

فى بضع سنين: البضع: من الثلاث إلى التسع.

ظواهر الحياة الدنيا: هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم، التى تستدعى انهماكهم فيها، وعكوفهم عليها.

العزيم: الغالب.

التفسير:

١ - الْم

حروف للتحدى والإعجاز، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن، مع أنه مكوّن من حروف عربية ينطقون بها ويتكلمون بها، وقيل: هى حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته، وقيل: إنها أدوات للتعبية، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة.

٢ ، ٣ ، ٤ - غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَبْعُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ
وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ .

غَلَبَتِ فارس الروم فى اقرب ارضهم الى فارس، او فى اقرب ارضهم الى بلاد العرب، وهى الأردن وفلسطين.
ولما بلغ الخبر اهل مكة فرحوا بذلك وشمتموا فى المسلمين، وقالوا: انتم والنصارى اهل كتاب، ونعم
وفارس وثيون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن عليكم.

فتحدث القرآن الكريم بأن الروم ستمادو الكرة، وستنتصر على الفرس خلال بضع سنين، والبضع من ثلاث
إلى تسع سنوات، وقد تم ذلك بعد ٧ سنوات من هزيمة الروم أمام الفرس، وانتصر الروم على الفرس، وجاءت
الأخبار بذلك إلى المسلمين، بعد عودتهم من صلح الحديبية، وتحقق وعد الله، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

وكان أبو بكر الصديق قد اتفق مع أبى بن خلف على رهان، خلاصته أن الروم إذا غلبت الفرس يدفع أبى
ابن خلف لأبى بكر مائة بعير، وإذا غلبت الفرس الروم يدفع أبو بكر لأبى بن خلف مائة بعير .

ومات أبى بن خلف فى غزوة أحد، فلما تم نصر الروم على الفرس فى صلح الحديبية، دفع ورثة أبى بن
خلف لأبى بكر مائة بعير، وجاء بها إلى النبى ﷺ فأمره أن يتصدق بها، وكان ذلك قبل أن ينزل تشريع تحريم
الرهان إلا فى صور معينة .

فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ .

أى: تم النصر خلال سبع سنين، وكان ذلك بأمر الله وتدييره، فليست الغلبة دائما بحسب القوة والكثرة،
بل هناك سنن وضعها الله للغلبة والنصر، ومن هذه السنن:

أخذ العدة، وإعداد القوة، والاستعانة بالله، فالنصر من عند الله: كَمَنْ فَتَنَّا قَلِيلًا غَلَبَتْ فَتَنًا كَثِيرًا يَازِّنُ اللَّهُ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . (البقرة: ٢٤٩) .

ومن تدبير الله أن جعل هذه الأمم الكبيرة تتهارش وتتعارب مع بعضها، حتى تضعفا معا، ثم يأتى
الإسلام بقوته الفكرية والمادية فينتصر على الفرس وعلى الروم وعلى غيرهما .

وعندما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بانتصار أهل الكتاب من الروم على الفرس الوثنيين، والله
تعالى ينصر من يشاء، فلا معقب لأمره، وهو العزيز الغالب، الرحيم بعباده المؤمنين .

٥ - بَنَصِرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .

سيفرح المؤمنون بهذا النصر الذى نصر الله فيه الروم النصارى، أصحاب قيصر ملك الشام على فارس
أصحاب كسرى الوثنيين المجوس، والله هو المنتقم من أعدائه، المعز لأوليائه، الرحيم بعباده .

قال العلماء:

نزلت الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة، وأقاصى بلاد الروم، وهجم على هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية، وحاصره فيها مدة طويلة، ثم عادت الدولة لهرقل، فبعد نزول سورة الروم سنة ٦٢٢ م ببضع سنين، أحرز هرقل أول نصر حاسم للروم على الفرس، في نينوى على نهر دجلة، وانسحب الفرس لذلك من حصارهم للقسطنطينية، ولقى كسرى أبرويز مصرعه سنة ٦٢٨ م، على يد ولده (شبرويه).

ولقد كانت هاتان الدولتان مسيطرتين على العالم القديم، فارس في الشرق، والروم في الغرب، وكانتا تتنازعا على السيادة على بلاد الشام وغيرها^(١١).

٦ - وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إذا أخبر الحق سبحانه خبراً تحقق، وإذا وعد وعداً فقد صدق، وإذا أخبر عن غيب وقع مصداقه، واستبان للجاحدين من نور إشرافه ما يؤيد صدق القرآن وإعجازه، وتحقق سائر ما أخبر به كذلك من ظهور الإسلام على الدين كله، وزهوق الباطل، وعلو الحق، وجعل المستضعفين أئمة، وإيراثهم أرض عدوهم إلى غير ذلك.

وما لطف ما قال الزبير الكلائي: رأيت غلبة فارس الروم، ثم رأيت غلبة الروم فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين على فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة، من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين^(١٢).

لقد وعد الله أن ينصر رسله، وأن يؤيد المؤمنين، وأن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين، والله تعالى لا يخلف وعده.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أي: بحكمته في كونه وأفعاله المحكمة، الجارية على وفق العدل، لجهلهم وعدم تفكيرهم.

وقال في ظلال القرآن:

وتحقيق هذا الوعد طرف من الناموس الأكبر الذي لا يتغير. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . ولو بدا في الظاهر أنهم علماء، وأنهم يعرفون الكثير، ذلك أن علمهم سطحي بظواهر الحياة، ولا يتعمق في سننها الثابتة، وقوانينها الأصلية، ولا يدرك نواحيها الكبرى وارتباطاتها الوثيقة. ١ هـ.

٧ - يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

أي: أكثر الناس لهم علم ظاهري بالدنيا وعلومها المادية، كتدبير شئون المعيشة، وتحصيل الأموال، والكسب من تجارة وزراعة وصناعة وغيرها، ولكنهم غافلون عن أمور الدين والآخرة، ولا ينظرون إلى المستقبل، وما ينتظرهم من نعيم مقيم إن آمنوا وعملوا الصالحات، أو عذاب مهين إن كفروا وعصوا ربه.

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف:

أفاد قوله تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها ما يعرفه الجاهل من التمتع بزخارفها والتعمق بملاذها، وباطنها وحقيقتها أنها مجاز إلى الآخرة، يتزود منها إليها، بالطاعة والأعمال الصالحة. اهـ.

ولله در الناقل:

ومن البلية أن ترى لك صاحباً فى صورة الرجل السبع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله وإذا أصيب بدينه لم يشعر

★ ★ ★

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوا وَهَاجَرُوا فِيهَا سُلُوكًا مَّا بَالَيْتُمْ بِهَا لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا السَّوْءَ إِنَّ كَذِّبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

المفردات:

فى أنفسهم: أى تفكروا عميقاً لا تفكروا ظاهرياً، أو: أولم يتفكروا فى أمر أنفسهم، فإنها أقرب إليهم من غيرها، فبال تفكر يرجعون عن غفلتهم.

بالحقوق: بالعدل والحكمة.

وأجل مسمى: وقت سماء الله لا بد من الانتهاء إليه، وهو قيام الساعة.

يلقأهم بهم: بالبعث بعد الموت.

كافرون: جاحدون، يحسبون أن الدنيا بداية ونهاية، وأن الآخرة لا تكون.

أشد منهم قوة: كماد وثمود.

البينات: المعجزات والآيات الواضحات.

أساءوا السوإ: كذبوا، والسوإ تأنيث الأسوأ، أى: الأقبح، أى: كان عاقبة المكذبين النار.

تمهيد:

هذه الآيات مرتبطة بما قبلها، تتضمن تهديد المشركين، وحثهم على التفكير والنظر فى المخلوقات الدالة على وجود الله تعالى، فهو سبحانه الخالق الرازق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه، بعد ما صدر منهم من إنكار الإله، وإنكار البعث، وغفلتهم عن الآخرة.

التفسير:

٨ - أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ .

أى: أغفل هؤلاء الناس عن التأمل فى انفسهم تأملًا عميقًا، كيف خلقهم الله ومنحهم العقل والفكر، ليتأملوا فى خلق السماء والأرض، وما بينهما من فضاء وهواء، وتكامل فى الخلق، فهذا الكون لم يخلق إلا بالحق والعدل، ووجد لغاية محددة وأجل مسمى، ثم تنتهى هذه الحياة الدنيا، لتبدأ مرحلة أخرى من الموت والبعث والحشر والحساب والجزاء.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ .

أى: أكثر الناس فى انشغال تام بدنياتهم ولذائذهم، غافلون عن آخرتهم، أو جاحدون كافرين، بينما القليل من الناس مؤمن بالله مصدق بالآخرة، وبالبعث والحساب والجزاء.

قال القرطبي:

وفى هذه الآية تنبيه على الفناء، وعلى أن لكل مخلوق أجلا، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسىء. ١ هـ.

٩ - أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

السير فى الأرض قد يكون بالجسم للسباحة والتأمل، وقد يكون بالعقل واستقراء التاريخ، أى: أو لم يحركوا عقولهم وأفهامهم ونظريهم فى سماع أخبار الماضين من الأمم السابقة والقرون السالفة، الذين عمروا فى الأرض أكثر من أهل مكة، وكانوا أكثر من أهل مكة أموالا وأولادا وعمرانا.

ولما جاءتهم رسلهم كنوح وهود وصالح وموسى وعيسى، بِالْبَيِّنَاتِ . بالرسالات والمعجزات، كذبوا رسلهم، فاستحقوا العذاب والمقاب، وما كان الله ليظلمهم فيما حل بهم من عذاب ونكال، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم حين جحدوا آيات الله وكفروا بها، فاستحقوا ما نزل بهم من العذاب.

١٠ - ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاؤُوا السَّوْءَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ .

جعل الله عاقبة المكذبين لرسله، والجاحدين للإيمان بكتبه وأنبيائه، العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، وهى الهلاك فى الدنيا، أو النار فى الآخرة، أو هما معا .

أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ .

أى: أوقفنا بهم العذاب، لأنهم كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله، واستخفوا بها .

وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . (هود: ٨) .

★ ★ ★

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) ﴿

المفردات:

يبلس الجرمون: يسكتون وتقطع حجتهم، يقال: أبلس الرجل، إذا سكت وانقطعت حجته، والمبلس: الساكت المنقطع الحجة، اليائس منها .

من شركائهم: من أصنامهم ومعبوداتهم .

شفعاء: يجيرونهم من عذاب الله .

كافرون: كفروا بالأصنام وتبرأوا منها، حين يشأوا من شفاعتها، وجاء التعبير بمعنى الماضى لتحققه .

يتفرقون: يتفرق المؤمنون والكافرون .

روضعة: بستان أو أرض ذات أزهار وأنهار، والمراد بها هنا: الجنة .

يحبرون: يسرّون سرورًا تهلت له وجوههم، يقال: حبره يحبره، «بضم الباء حُبُورًا، إذا سره سرورًا يتهلل له وجهه .

محضرون: مجيرون على الحضور، لا يغيبون عنه .

التفسير:

١١ - اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

الله تعالى خلق هذا الخلق وأنشأه من العدم، فبيد القدرة الإلهية رفع الله السماء، وبسط الأرض، وأرسي الجبال، وسخر الهواء والرياح والأمطار، والشمس والقمر والليل والنهار، وهو سبحانه قادر على الإعادة والحشر والحساب والجزاء، فالإعادة أهون من البدء، قال تعالى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (الأعراف: ٢٩).

وعند الله الملتقى فى الآخرة فيكون الجزاء والثواب والمقاب، قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٨، ٧).

١٢ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ .

يعرض القرآن هنا مشهداً من مشاهد القيامة، أى: عند قيام الساعة وابتداء اليوم الآخر للحساب والجزاء، يبلس المجرمون ويقفون ساكتين يائسين، قد انقطعت حجتهم، فلا أمل ولا رجاء فى النجاة من هول هذا اليوم.

١٣ - وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ .

لم يجد الكفار من يشفع لهم من الأصنام والأوثان، التى كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها، إذ قالوا فى الدنيا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... (الزمر: ٣).

لقد خاب ظنهم وانقطع رجائهم، وذهب أملهم فى الأصنام التى عبدوها، ثم لم يجدوا لهذه العبادة نفعا أو شفاعة، عندئذ كفروا بالأصنام وتبرأوا من عبادتها، وندموا على شركهم فى الدنيا، ولات ساعة مندم.

قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّعُوا مِنَّا... (البقرة: ١٦٦، ١٦٧).

والآية دليل على إعلان إفلاسهم، وإعلان خسرتهم، وجاءت بصيغة الماضى للإعلان بأنه واقع لا محالة، فكانه وقع فعلاً وأُخبر عنه.

١٤ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ .

فى يوم القيامة مشاهد عدة، وقد سبق ذكر إبلاس المجرمين وإفلاسهم وإعلان خسرتهم، وهنا يبين أنه عند قيام القيامة يتفرق الخلق إلى مؤمنين وكافرين، قال تعالى: وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . (يس: ٥٩). فيذهب الأشقياء إلى النيران، ويؤخذ السعداء إلى الجنان.

قال قتادة: هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها.

١٥ - فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ .

أى: إن المؤمنين الذين آمنوا بالله واملأوا قلبه وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحات، فأحسنوا العبادات والمعاملات، هؤلاء يدخلون الجنة، حيث يعمهم الفرح والسرور والحبور الذى يملأ القلب، ويظهر أثر البشاشة والحبور والسرور على وجوههم التى تتهلل فرحا، بما هم فيه من نعيم ورضوان ومسرة.

قال تعالى: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة: ١٧).

وروى أحمد، والشيخان، والترمذى، وابن ماجه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ، قال: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» (١٢).

١٦ - وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

وأما الذين كفروا بالله ورسوله، وكذبوا بآياته التشريعية والكونية، وأنكروا وقوع البعث بعد الموت، فهم مخلدون فى عذاب جهنم، لا غيبة لهم عنه وهم مجبرون على حضوره.

قال تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ... (الحج: ٢٢).

وقال سبحانه وتعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ

نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ . (فاطر: ٣٦).

★ ★ ★

﴿ قَسَبَحْنَاهُ فِي السَّمَوَاتِ ۖ وَفِي الْأَرْضِ وَعِشْيَا ۖ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۚ ﴾ (١٧) ﴿ وَفِي السَّمَوَاتِ ۖ وَفِي الْأَرْضِ وَعِشْيَا ۖ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۚ ﴾ (١٨) ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١٩)

المفردات:

قَسَبَحْنَاهُ اللهُ، سَبَحْنَاهُ: هو التسبيح، وهو إخبار فى معنى الأمر، بتزيه الله تعالى والثناء عليه، أى: سَبَّحُوا الله وعظموه وادكروه فى هذه الأوقات، أو صلوا فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته، وتتجدد فيها نعمته.

حين تَمَسُّونَ، تدخلون فى المساء، وفيه صلاتا المغرب والعشاء.

وحين تمسبحون، حين تدخلون فى الصباح وفيه صلاة الصبح.

وعشيــــــــــــــــاء، العشى آخر النهار وفيه صلاة العصر.

وحين تظهرون، تدخلون فى الظهيرة وفيه صلاة الظهر.

يخرج الحي، المؤمن من الكافر، والدجاجة من البيضة.

من الميت، من الكافر، والنبات من الأرض.

ويخرج الميت من الحي، كالكافر من المؤمن، والمسقط من الأم.

وكذلك تخرجون، تبعثون من قبوركم.

تمهيد:

تذكر الآيات مظاهر القدرة الإلهية التى يسنّ ابتهاال الإنسان عندها بالذكر والتسبيح، فى موعد المساء وقدم الليل، وعند الصباح، وفى وقت العشى والظهيرة.

فالله سبحانه وتعالى بيده القدرة، وإنبات النبات، وهداية الناس، فيخلق الكافر من المؤمن، ويخلق المؤمن من الكافر، ويحيى الأرض بالأمطار وإخراج النبات، وكذلك البعث وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية.

التفسير:

١٧ - فَسَبِّحْهُنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .

أى: نزهاوا الله سبحانه فى وقت المساء حين إقبال الليل وظلامه، وفى وقت الصباح حين إسفار النهار بضياها، أى اذكروا الله وعظموه وسبحوه، واذكروا قدرته وعظمته، فهو الذى يسخر الليل ليكون سكنا ونوما وهدوءا، ويسخر النهار ليكون بعثا ونشاطا وسعيا وعملا.

أو أقيموا الصلاة عند المساء، وهى صلاة المغرب وصلاة العشاء، وعند الصباح وهى صلاة الصبح.

١٨ - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ .

وهو سبحانه مستحق للحمد من جميع خلقه، فى السماوات من الملائكة، وفى الأرض من أهلها، من أصناف خلقه فيها، من جن وإنس وطير، ووحش وسباع وسائر المخلوقات والموجودات تحمده، فبيد القدرة الإلهية خلق هذا الكون ويسر له أسباب البقاء والحياة، والتكامل والتناغم.

قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء: ٢٢).

وَعَشِيًّا وَحِينَ تَظْهَرُونَ .

أى: سبحانه ونزههه فى وقت العشى، أى: فى صلاة العصر فى آخر النهار.

وَحِينَ تَظْهَرُونَ . وفى وسط النهار وقت الظهيرة بصلاة الظهر.

١٩ - يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

أى: هو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض، فهو يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والنبية من الغافل، والغافل من النبية، والطائر من البيضة، والبيضة من الطائر، والإنسان من التلطفة، والتلطفة من الإنسان، ويحيى الأرض بعد موتها بإنزال المطر وإنبات النبات.

وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

ويعمل ذلك تخرجون من القبور أحياء، بعد أن كنتم أمواتا، وذلك على الله يسير.

تعليق على الآيات:

من شأن القرآن أن يحرك القلوب، ويلفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية، عند قدوم المساء وظهور الشفق و قدوم الليل، وكذلك عند الصباح وانتشار الضوء، وعند الظهيرة حيث تتحول الشمس من جهة المشرق إلى الوقوف فى كبد السماء، وعند العشى حين يقترب النهار من نهايته.

وقد ذكر العلماء أن الآيات تشير إلى الصلوات الخمس:

ففى المساء صلاتا المغرب والعشاء.

وفى الصباح صلاة الفجر.

وفى الظهيرة صلاة الظهر.

وفى العشى صلاة العصر.

وكلها أوقات تظهر فيها آثار القدرة، فى المساء والصباح والظهيرة والعشى، والآيات تحرك القلوب لتتفقد، وتذكر الخالق القادر، وهو سبحانه القاهر فوق عباده، وله الحمد فى السماوات والأرض، لحفظهما بنظامهما وتكاملهما، كما أن الموت والحياة والتقدير والتحويل بيده سبحانه.

قال تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... (الأنعام: ١).

وقد أقسم الله بالليل والنهار والشمس والقمر، والضحى والرياح، ويغير ذلك من مظاهر الكون؛ ليلفت أنظارنا إلى عظمة الخالق وجمال الكون ونظامه.

قال تعالى: وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءُ وَمَا بَيْنَاهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاهَا. (الشمس: ١ - ٦).

وقال تعالى: **وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّىٰ**. (الليل: ١، ٢).

وقال تعالى: وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. (الضحى: ١، ٢).

وقال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَوُكُنَّ مِنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران: ٢٦، ٢٧).

★ ★ ★

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ الْأَسْبَابَ وَالنُّجُومَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المضردات:

ان خلقکم من تراب، خلق اباکم آدم من تراب.

بَشَرًا مِنْ لَحْمٍ وَدَمٍ.

تنتشرون: أى: فى الأرض تستغون من فضل الله.

من أنفسكم من جنسكم.

أزواجـــــــــــــــــاء زوجات.

اتمسكوا اليهـــــــــاء لتميلوا إليها وتأنفوها.

مـــــــــــــــــــــودة محبة.

رحمـــــــــــــــــــــة شفقة.

يتفكـــــــــــــــــــــرون فى صنع الله وحكمته.

واختلاف السنـــــــــــــــــــــكم واختلاف لغاتكم مع أن الأصل واحد.

والوائـــــــــــــــــــــم من بياض وسواد وهيئة وجمال، بحيث وقع التمايز والتماثل.

منامكم بالليل والنهار، نومكم فيهما لاستراحة الجسد والنفس والفكر.

يسمـــــــــــــــــــــون سماع تدبر وتفهم.

البـــــــــــــــــــــــــــــرق شرارة كهربائية تظهر فى الجو، نتيجة احتكاك السحب، وينشأ عنها الرعد.

خوفـــــــــــــــــــــاء للمسافر من الصواعق.

وطمـــــــــــــــــــــاء فى الثبث للمقيم.

أن تقوم السماء والأرض بأمره أن توجد فى الفضاء بقدرته وتديره.

تخرجـــــــــــــــــــــون تفاجأون بالخروج من قبوركم للبية لنداء الله.

تمهيد:

تتحدث الآيات عن جوانب القدرة الإلهية، فهو سبحانه خلق آدم من تراب، وخلق ذريته من نطفة مرت بمراحل إلى أن صارت خلقاً آخر، وهو الذى خلق للرجل زوجة من جسده ليأنس إليها، وجعل بين الزوجين الشفقة والمحبة والرأفة، وهو خالق الكون، وخالق الإنسان من طين الأرض، فممنه الأصيل وممنه الكفور.

ومن فضل الله علينا نعمة النوم بالليل والنهار، ونعمة اليقظة والبحث عن الرزق، وتنوع الناس فى السفر والتجارة والعمل.

ومن آيات الله تسخير السحاب والبرق والرعد والمطر، وكذلك الإحياء والإماتة، والبعث والحشر، والحساب والجزاء.

التفسير:

٢٠ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ .

ومن دلائل قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، وخلقكم من نطفة، تحولت إلى علقة، ثم إلى مضغة، ثم إلى عظام، ثم كسا العظام لحماً، ثم أنشأ الله هذه الخلقة خلقاً آخر متكاملًا، فيه الروح والحياة، فإذا به بشر عاقل

يتصرف في قنون المعاش والمكاسب، كما فاوت الله بين الناس في العلوم والفكر، والحسن والقبح، والفنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

٢١ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

ومن دلائل قدرته أن خلق لكم من جنسكم الأدمى أزواجاً لتأنسوا بها وتسكنوا إليها، بالمحبة والشفقة والمؤانسة، ولو كانت من جنس آخر، كالجن أو الحيوان، لما حصل هذا الائتلاف بين الأزواج، بل كانت تحصل النفرة، وذلك من تمام رحمته ببنى آدم.

قال ابن عباس:

المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة: شفقه عليها أن يصيبها بسوء.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

أى: يتأملون في خلق الإنسان، وفي تيسير أسباب الزواج ليعمر الكون بامتداد الإنسان في ذريته وأولاده، فقبل أن يموت يترك أسرة تعمل وتتزوج وتتجرب وتتفكر، وتنافس الآخرين في إعمار الكون.

٢٢ - وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْأَوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ .

ومن دلائل القدرة خلق السماوات سقفا مرفوعاً، ممتداً بدون عمد، وخلق الأرض وإعمارها بالجبال والبحار، والأنهار والقضاء والهواء.

ومن دلائل القدرة اختلاف اللغات والأصوات من عربية وعجمية وتركية، وإنجليزية وفرنسية وأردية، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر، واختلاف الهياكل والسمات، بحيث وقع التمايز والتعارف، حتى لا يشبه شخص بشخص، ولا إنسان بإنسان، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ .

أى: دلائل لائحة لأولى العلم الذين يتفكرون فيما خلق الله، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثاً بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن تذكر.

٢٣ - وَمِنْ آيَاتِهِ نَسْأَمُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ .

ومن دلائل القدرة نومكم في ظلمة الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، راحة لأبدانكم، ومطلبكم الرزق بالنهار.

قال تعالى: وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا . (النبا: ١٠-١١).

أى: جعلنا النوم راحة تامة تقطع العمل والحركة، وجعلنا الليل سكناً مهدوفاً مناسباً للراحة، وجعلنا النهار يقظة وحركة وطلباً للمعاش.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

سماع تفهم واستبصار، فيتعظون بذلك، ويدركون أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم وإعادة.

من هدى السنة:

كان ﷺ إذا وضع جنبه للنوم يقول: «باسمك رب وضعت جنبى ويك أرفعه، إن أمسكت روحى فأرحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» (١٤).

وإذا استيقظ من النوم يقول: «الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» (١٥).

وإذا أرق من الليل يقول: «اللهم غارت النجوم، وهذات العيون، وأنت حى قيوم، يا حى يا قيوم أُنم عيني وأهدئ ليلي» (١٦).

وعلم النبي ﷺ أحد أصحابه هذا الدعاء عند الأرق: «اللهم رب السماء وما أظلت، والأرضين وما أقلت، والشياطين وما أضلت، كن لى جاراً من شرار خلقك عز جارك» (١٧).

٢٤ - وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

ومن دلائل قدرة الله أنه يريكم البرق والرعد والمطر خوفاً من عذابه، وطمعاً فى رحمته بنزول المطر، خصوصاً أهل البادية الذين يعرثون الأرض ويضعون البذر، ويخافون من تأخر المطر، ويرجون نزوله، أو خوفاً للمسافرين فى البر الذين يمنعهم المطر من السفر، وطمعاً للمقيمين فى نزول المطر لإصلاح الأرض ونجاح الزراعة.

وعادة يأتى بعد البرق والرعد المطر، وأحياناً يصاحب المطر هذه الظواهر الطبيعية الكونية، وعند مجيء المطر ونزول الماء يتحرك الثبات، وتهتز الأرض بالزراعة، ويعبى الله الأرض بعد موتها، فمن استخدم عقله وفكره، أدرك جوانب القدرة الإلهية، التى سخّرت هذا الكون، وسيطرت عليه، وسخّرت السحاب والأمطار والرعد والبرق.

جاء فى ظلال القرآن:

وظاهرة البرق ظاهرة ناشئة من النظام الكونى، ويعملها بعضهم بأنها تشأ من انطلاق شرارة كهربائية بين سحابتين محملتين بالكهرباء، أو بين سحابة وجسم أرضى، كتمة جبل مثلاً، ينشأ عنه تفريغ فى الهواء يتمثل فى الرعد الذى يعقب البرق، وفى الغالب يصاحب هذا وذاك تساقط المطر، نتيجة لذلك التصادم، وأياً ما كان السبب، فالبرق ظاهرة ناشئة عن نظام هذا الكون، كما خلقه البارئ وقدره تقديراً. ١ هـ.

والقرآن الكريم يتخذ من الظواهر الكونية وسيلة لوصول القلوب بالله، فإذا كان الكون خليفة حية متعاطفة متجاوبة، مطيعة لربها خاضعة خاشعة، فالإنسان الذى يدبُّ على هذا الكوكب الأرضى واحد من خلائق الله، ينبغى أن يتفق مع هذا الكون فى طاعته وامتناله لأمر الله.

ومن استخدم عقله وفكره، وتدبّر وتأمّل فى خلق الله، أدرك أن وراء هذه الصنعة البديعة يدا حانية تحفظها وتمسكها.

٢٥ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

ومن دلائل قدرته قيام السماء والأرض بأمره، وارتضاعها فى الفضاء بنظام دقيق، وقيام الأرض مبسطة، وفوقها الجبال والهواء بأمر الله وقدرته.

فهو الذى خلق هذا الكون، وسخّره وأبدع نظامه، والكون كله خاضع لله خضوع القهر والغلبة، وكذلك السماء والأرض.

قال تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت: ١١، ١٢).

وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ... (فاطر: ٤١).

ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

أى: بيد الله البعث والحشر والحساب والجزاء، فإذا انتهت أمور الدنيا أمر الله القبور أن تلقى من فيها، وأمر الأرواح أن تمود للأجسام، وحُشر الخلائق أجمعون.

قال تعالى: وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف: ٤٧).

وقال تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء: ٥٢).

وقال تعالى: إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . (يس: ٥٢).

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانُونٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات:

قَانُونٌ: منقادون خاضعون.

المثل الأعلى: الوصف الأعظم.

العزیز: الغالب.

التفسير:

٢٦ - وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانُونٌ .

أى: جميع من فى الكون من إنس وجن وملك، وما عسى أن يكون به من مخلوقات لا علم لنا بها، هؤلاء جميعا خاضعون لما يريد الله بهم، من موت أو حياة، وحركة أو سكون، فبيد الله الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير.

٢٧ - وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

الله تعالى بدأ خلق الكون كله، قال تعالى: لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ... (غافر: ٥٧).

والله تعالى يعيد هذا الكون بالبعث بعد الموت، والإعادة أهون من البدء بالنسبة للمخاطبين، وإلا قاله تعالى ليس عليه هين وأهون، فجميع الأمور فى قبضته وتحت قدرته.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدَأُ الْمَكْرُوتَ كُلَّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس: ٨٢، ٨٣).

والمقصود من الآية التقريب بالنسبة لعقول المنكرين للبعث والإعادة، فإن إعادة شىء من مادته الأولى، أهون على الناس من إيجادها ابتداء.

وقصارى ذلك:

إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم، وبالقياص إلى أقداركم، وذهب بعض المفسرين إلى أن «افعل التفضيل» على غير بابها، فيكون معنى: وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ . وهو هين عليه.

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وله الوصف الأعلى الذى ليس لغيره ما يدانيه فيهما، كالقدرة العامة والحكمة التامة، فكل شيء بدءاً وإعادة، وإيجاداً وإعداماً عنده على حد سواء، ولا مثل له ولا ند، فهو منزّه عن التظير والمثيل. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى: ١١).

وَهُوَ الْعَزِيزُ . الغالب الذى لَا يُغْلَبُ وَلَا يُغَالَبُ .

الْحَكِيمُ . فى تدبير خلقه وتصريف شئونه فيما أراد وفق الحكمة والساداد .

★ ★ ★

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات:

من أنفسكم: منتزعا من أحوال أنفسكم، التى هى اقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم.

ملكتم أيمانكم: مماليتكم وعبيدكم.

هيما رزقناكم: من المقار والمقول.

فانتم فيه سواء: يتصرفون فيه كتصرفكم.

تخافونهم: تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه.

كخيفتكم أنفسكم: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

نفصل الآيات: نبينها بالتمثيل الكاشف للمعاني.

التفسير:

٢٨ - ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

أى: إن الله تعالى يضرب لكم مثلا منتزعا من أنفسكم تشاهدونه وتفهمنه، وهو:

هل يَقْبَلُ أحدكم أن يكون عبده شريكاً له فى ماله، يتصرف العبد فى ماله تصرفاً كاملاً بدون الرجوع إليه، فيكون العبد وسيده سواء فى التصرف فى المال والعقار؟

فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ...

هذا من تنمة المثل، أى: لستم وعبيدكم سواء فى أموالكم، وأنتم لا تعطون عبيدكم حرية التصرف فى أموالكم، بحيث تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيها، كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض.

وإذا كنتم لا ترضون لأنفسكم أن يشارككم عبيدكم فى أموالكم وتصرفاتكم، فكيف رضيتم لله تعالى شريكاً له فى خلقه وملكه، حيث كانوا يقولون فى تلييتهم بالحج: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

كذلك نوضح المعانى بضرب الأمثال، وإخراج المعقول فى صورة المحسوس، لتتضح الحقيقة كاملة أمام عيونكم، فنتحرك عقولكم إلى التأمل والتدبر، فى أن أحدكم يأنف أن يساويه عبده فى التصرف فى أمواله، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟

٢٩ - بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .

لقد ذكرنا عددا من الأدلة على وجود الله، وأرسلنا رسولنا إليهم، وأنزلنا عليه كتاباً مبيناً لهدايتهم، لكنهم اختاروا اتباع الهوى وتقليد الآباء، «وآثروا عبادة الأصنام باتباع أهوائهم فى عبادتها، وتقليد الأسلاف فى ذلك»، كما يقول القرطبى فى تفسير الآية . ١ هـ.

فلا أحد يستطيع هداية من أضلهم الله عن الحق، بسبب إعراضهم عنه، وما لهؤلاء من ناصرين يخلصونهم من الضلال وتبعاته.

قال ابن كثير: وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير.

وقال القاسمى: لا يقدر على هدايته أحد، وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . أى: ينصرونهم من الله إذا أراد بهم عذاباً.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا ۚ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المفردات:

أَقِمْ، من أقام العود وقومه إذا عدّله، والمراد: الإقبال على دين الإسلام، والثبات عليه.

حَنِيفًا، من الحنف وهو الميل، فهو مأثل عن الضلالة إلى الاستقامة، ويطلق الحنيف على صحيح الميل للإسلام، وعلى دين إبراهيم، ذكره صاحب القاموس.

الْفِطْرَة، الحال التي خلق الله الناس عليها، من القابلية للحق، والتهيؤ لإدراكه.

خلق الله، هو فطرته المذكورة أولاً.

القائم، المستقيم الذي لا عوج فيه.

منيبين إليه، راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، من أناب، إذا رجع مرة بعد أخرى.

اتقوه، خافوه.

فرقوا دينهم، اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم.

شيعاء، فرقا، تشايح كل فرقة إمامها الذي مهد لها دينها، وقرره ووضع أصوله.

كل حزب، الحزب: الطائفة من الناس، والجمع: أحزاب.

تهديد:

هذه الآيات توجيه للرسول ﷺ أن يثبت على الإسلام مخلصاً له، غير ملتفت عنه يمنة أو يسرة، فهو فطرة الله التي خلق العقول معترفة بها.

التفسير:

٢٠ - فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أي: أعرض عن هؤلاء المشركين الضالين، وأقبل بذاتك على دين الإسلام، معرضاً عن المشركين، فالإسلام دين الفطرة البشرية، التي فطر الله الناس عليها، وخلق عقولهم قابلة للاهتداء إلى الحق، والإيمان بالله، واليقين بأن هذا الكون البديع المنظم لابد له من إله قادر متصف بكل كمال.

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ...

خير مراد منه النهى، أى: لا تبدلوا دين الله وخلقته التى خلق الناس عليها.

وقال الفخر الرازى:

لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك، حتى إن سألتهم من خلق السماوات والأرض، يقولون الله، لكن الإيمان الفطرى غير كاف.

ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ... أى: المستقيم الذى لا عوج فيه.

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . أن ذلك هو الدين المستقيم الذى يجب الإيمان به، لعدم تدبرهم، وإمدارهم عقولهم.

٣١ - مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَقْوَاهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

سبق أن أمر الله نبيه ومن آمن به بالتوجه لهذا الدين، وإخلاص العبادة لله وحده، فهو دين الفطرة، ولما كان الخطاب للنبي وأمته، أو من آمن به، أو لكل من يتأتى منه الخطاب، جاءت هذه الآية بلفظ الجمع.

مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَقْوَاهُ ...

أى: اقيموا وجوهكم - أيها الناس - لخالقكم وحده، حال كونكم راجعين إليه بالتوبة والإنابة المتكررة، مقبلين عليه بالاستغفار والتوبة، متقين له فى كل أحوالكم.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ...

داوموا على الصلاة فى خشوع واطمئنان.

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

الذين يقصدون الرياء والسمعة، أو يعبدون معه الملائكة أو الجن، أو البقر أو الشجر، أو الملوك أو غير ذلك، بل أخلصوا له العبادة وحده سبحانه، لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص له وحده.

٣٢ - مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْماً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

أى: لا تكونوا من المشركين الذين اختلفوا فى شأن دينهم اختلافات شتى، على حسب أهوائهم، وصاروا شيعا وفرقا وأحزابا متنازعة.

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

أى: كل حزب منهم صار مسرورا بما لديه من دين باطل، وملة فاسدة، وعقيدة زائفة، وهذا الفرع بالباطل سببه جهلهم وانطمانهم بصائرهم عن الانقياد للحق.

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ما يأتى:

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ ... أثبت التوحيد الذى هو مخرج عن الإشراك.

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

أراد إخراج العبد عن الشرك الخفى، أى: لا تقصدا بميلكم إلا وجه الله، ولا تطلبوا به إلا رضا الله، فإن من حصل على رضا الله، فقد حصل على سعادة الدنيا والآخرة.

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا ...

يعنى لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل واحد إلى مذهب، ويحتمل أن يقال: رَكَنُوا شِيْعًا ... يعنى بعضهم عبد الله للدنيا، وبعضهم للجنة، وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد بما فى نظره فرح، وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يرضى الله، ويقف بين يديه، وذلك لأن كل ما لدينا نافذ، لقوله تعالى: مَا عِنْدَكُمْ يَفْءُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ... (التحل: ١٦). فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به، وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح، كما قال تعالى:

وَلَا تَحْسِنُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ...

(آل عمران: ١٦٨، ١٧٠).

جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم، ويكون ما أوتوا من فضله الذى لا نفاذ له.

ولذلك قال تعالى: قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ... (يونس: ٥٨). لا بما عندهم، فإن كل ما عند

العبد نافذ (١٨).

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ مِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٦﴾﴾

المفردات:

مَسَّ النَّاسَ: أصابهم شيء قليل.

ضُرٌّ: قحط، وشدة، وهزال ومرض وغير ذلك.

يُشْرِكُونَ: يشركون به غيره فى العبادة.

ليَكْفُرُوا: ليجحدوا النعمة التى أعطيت لهم.

تَمْتَعُوا: انتعموا به كما شئتم.

سُلْطَانًا: حجة وبرهاناً.

وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ: بلاء وعقوبة.

يَقْنَطُونَ: ييأسون من رحمة الله.

وَيَقْدِرُ: ويضيق.

التفسير:

٢٢ - وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ .

إذا مسَّ هؤلاء المشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر، ضُرٌّ. فأصابهم جُدد وقحط، أو أى بلاء وشدة، كالمرض أو التعرض للخطر، فى جو أو بحر أو بر، ونحو ذلك من حالات الاضطراب، تضرعوا إلى الله مستغيثين به، مقبلين عليه راجعين إليه، حتى إذا كشف عنهم البلاء، وأسبغ عليهم النعمة والخصب والسعة، إذا جماعة منهم يشركون به فيعبدون معه الآلهة والأوثان.

فما أعجب هذا الإنسان، عند الشدة والبلاء والخوف والاضطرار يدعو ربه مخلصاً له الدين، متقرباً إليه وحده لا شريك له، فإذا استجاب الله دعاءه، وكشف عنه الضر، وأسبغ عليه النعمة، نجد طائفة من الناس تشرك بالله آلهة أخرى، وتعبد معه سواه.

٣٤ - لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّوا قَسُوفَ تَعْلَمُونَ .

أى: فليجحدوا نعمتى كيف شاءوا، وليستمتعوا بمتع الدنيا ورحاها، فمتاعها قليل زائل.

قَسُوفَ تَعْلَمُونَ . عقابى وشدة عذابى فى الآخرة على كفركم فى الدنيا.

والفعل فى الآية فعل أمر للتهديد، مثل قوله تعالى: اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ... (فصلت: ٤٠).

أى: اكفروا وتمتعوا بالملذذ فى دنياكم فإن العذاب ينتظركم فى الآخرة على كفركم فى الدنيا.

قال بعضهم: والله لو توعدتى حارس درب لخفضت منه، فكيف والمتوعد هنا هو الذى يقول للشئء كن فيكون.

٣٥ - أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ .

والاستفهام هنا استفهام إنكارى، والمعنى: هل نزل عليهم ملك أو كتاب أو حجة، فيها تقرير ما يفعلون من عبادة الأوثان، أو فيها دليل لهم يبيح لهم الشرك.

والجواب معروف، وهو أن الله لم ينزل عليهم كتابا، ولم يبعث لهم رسولا ولا حجة تبيح لهم الشرك، بل هو عمل اخترعوه من عند أنفسهم.

٣٦ - وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ .

من شأن الإنسان إذا جاءت إليه النعمة والصحة، والمال والأولاد والجاه والسلطان وأشباه ذلك، فرح بهذا فرح البطر والأشر، وإذا سلبت عنه النعمة بسبب سلوكه وارثكابه للمعاصى والآثام، إذا به يصيبه القنوط والبأس من روح الله وفضله، وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إنسان، فهو جازع فى البأساء، شحيح فى النعماء، ما عدا المؤمن فهو صابر فى البأساء، شاكى لربه فى النعماء.

روى مسلم فى كتاب الزهد والرفائق، أن رسول الله ﷺ، قال: «عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» (١٩).

٣٧ - أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أو لم يشاهدوا بأعينهم أن الله تعالى له حكمة إلهية عليا، فهو يبسط الرزق لمن يشاء، فيعطيه المال والصحة، أو الجاه والسلطان، أو أشباه ذلك.

ويَضِيقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ لِحُكْمَةِ إِلَهِهِ يَعْلَمُهَا سَبِيحَانَهُ.

لذلك لا ينبغي للإنسان أن يقتنم أو ييأس عند التقدير فى الرزق، ولا يجوز له أن يبطر أو يطغى عند وجود الفنى والخير.

إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

دليل لمن آمن بالله، وأن بيده الخلق والأمر، وتوسيع الرزق وتضييقه، فأسلم القيادة له سبحانه وصبر في البأساء وشكر على النعماء .

قال تعالى: وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

(الشورى: ٢٧).

فكم أخفق الجادون، ونجح الميطلون، لحكمة يعلمها الله، ونحن نحنى رءوسنا لمشيتته وحكمته .

★ ★ ★

﴿ فَتَاتِذَا أَتَقَرَّبُ حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣٨) وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لَّيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيحُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣٩) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠)

المفردات:

حَقُّهُ: هو صلة الرحم، والبر به .

والمسكين: المعدم الذى لا مال له، أو له شيء لا يقوم بكفايته .

وابن السبيل: المسافر المحتاج إلى نفقة سفره .

يريدون وجه الله: يقصدونه بمعرفهم خالصاً .

ويُضَاعَف: زيادة وفضلاً، والمراد به: الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة .

فلا يريح عند الله: فلا يزيد عند الله، فهو مباح ولكن لا ثواب فيه .

الزكاة: الصدقة، لأن السورة مكية، والزكاة فرضت فى المدينة، أو مطلق الإنفاق .

الْمُضْعِفُونَ: الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء .

تحديد:

إذا كان الغنى والفقر بيده سبحانه، وهو سبحانه كريم رحيم، فَتَمَطَّف على ذوى القربى والمسكين وابن

السبيل، وساعد المحتاجين والفقراء، فإن الله مخلف على المتفقين وهو سبحانه الخالق الرازق المحيى المميت، ولا

تستطيع الأصنام أن تصنع شيئاً من ذلك .

التفسير :

٢٨ - قَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

اعط ايها النبي الكريم، ومن تبعك من المؤمنين، القرابة حقوقهم من الصلة والعطف عليهم، ومساعدتهم، وقد حكى عن ابي حنيفة انه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذي رحم محرم.

والسورة مكية، لكنها تحدثت عن وجوب الإنفاق على فئات من الفقراء والمحتاجين، ثم فصلت الزكاة وحددت مصارفها في المدينة، وقد بين القرآن أن المال مال الله، وأن العبد مستخلف عن الله في هذا المال، لذلك يجب أن يؤدي حقوق الله فيه، ومن هذه الحقوق: الزكاة والصدقة وصله الرحم، ورعاية المسكين وابن السبيل، وكفالة اليتيم، وتمكين العاجز عن العمل من مهنة يتكسب منها.

قالت خديجة للنبي محمد ﷺ عندما نزل عليه الوحي لأول مرة: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الزمان، والله لا يخزيك الله أبداً (٢٠).

تلك هي أخلاق الإسلام في المؤاخاة والتكافل والتراحم والتعاون.

قال القاسمي في تفسير الآية:

قَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ... أي: من البرِّ والصلة، واستدل به أبو حنيفة - رحمه الله - على وجوب النفقة للمحارم إذا كانوا محتاجين عاجزين عن الكسب، لأن: قَاتَ . أمر للوجوب. والظاهر من «الحق» أنه مالي، وهو استدلال متين.

وَالْمِسْكِينَ . وهو الذي لا شيء له ينفق عليه، أو له شيء لا يقوم بكفايته.

وَابْنَ السَّبِيلِ . أي: السائل في الطريق، والذي انقطع به الطريق، فلا يستطيع مواصلة السفر.

وحقهما هو نصيبهما من الصدقة والمواساة (٢١).

وقال القرطبي:

واختلف في هذه الآية، فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم في البرِّ على كل حال، وهو الصحيح، وقال مجاهد وقتادة: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج. أ هـ.

ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ...

أي: هذه النفقة والرعاية والعطف والمواساة، خير وفضل لمن أنفق عليهم، وأعطاهم المال والرعاية، ابتغاء ثواب الله وفضله، أو أملا في النظر إليه يوم القيامة.

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . الفائزون فى الدنيا والآخرة.

وكون هذا الإعطاء خيراً، لأنه سبب التكافل والتعاون بين المسلمين، وفى التعاون والتكافل قوة وتوَاد وتراحم وتآزر، وتخلص من أمراض الفقر والتمزق والحقد والحسد.

٣٩ - وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّرَبِّوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيهِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ .

للمفسرين فى هذه الآية رايان:

الأول: أن الربا فى الآية يراد به: الهدية يقدمها إنسان إلى الأغنياء يرجو أن يعوضوه أحسن منها، وهذا مباح وإن كان لا ثواب فيه، لأنه قصد بهديته ثواب الدنيا والترجى منها، فقد أخذ عوضه من الناس.

الراى الثانى: أن الآية نزلت فى الزيادة التى حرّمها الشارع.

قال ابن عباس:

الربا نوعان: ربا لا يصح، وهو ربا البيع.

وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها، ثم تلا هذه الآية: وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِّرَبِّوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيهِ عِنْدَ اللَّهِ ...

وقد رجح القاسمى أن هذه الآية فى التحذير من الربا المحرم وذكر خمسة أدلة:

الأول: أن هذه الآية شبيهة بقوله تعالى: يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... (البقرة: ٢٧٦). وهى فى ربا البيع الذى كان فاشيا فى أهل مكة، حتى صار ملكة راسخة فيهم، امتصوا بها ثروة كثير من البؤساء، مما خرج عن طور الرحمة والشفقة، والكمال البشرى، فعنى عليهم حالهم، طلبا لتزكيتهم بتوبتهم منه، ثم أكد ذلك فى مثل هذه الآية بمبالغة فى الزجر^(٢٢).

وقد استرسل القاسمى فى ذكر أدلة على أن الآية يراد بها الربا الذى حرّمه الله تعالى بعد ذلك تحريما قاطعا، وأن المقصود من الآية التفسير من الربا على سبيل التدرج فى التشريع، حتى إذا جاء التحريم النهائى له، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم^(٢٣).

وقال الألوسى: الظاهر أن المراد بالربا هنا الزيادة المعروفة فى المعاملة التى حرّمها الشارع، ويشهد لذلك ما روى السدى من أن الآية نزلت فى ربا ثقيف، كانوا يرايون، وكذلك كانت قريش تتعاطى الربا.

ورجّح الزمخشري فى تفسير الكشف أن المراد بالآية تحري الربا، ويبان أن الله لا يبارك للمرابى فى ماله، بل يبارك للمزكى والمتصدق.

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ .

ومن أعطى صدقة أو زكاة يقصد بها وجه الله خالصا، فله الثواب المضاعف والجزاء الأفضل عند الله تعالى.

قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ... (البقرة: ٢٤٥).

وقال سبحانه: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ . (الحديد: ١١).

وقد أخرج البخارى، ومسلم، والتمسائى، والترمذى، وابن ماجه، وابن خزيمة فى صحيحه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «... وما تصدق أحد بعدلَ ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمان يمينه فيريها لصاحبها، كما يرى أحدكم فلوَّه أو فصيله، حتى تصير الثمرة أعظم من جبل أحد» (٢٤).

٤٠ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

كان المشركون يقرّون لله بالخلق والإيجاد، قاله تعالى خالق هذا الكون وخالق الإنسان، وهو سبحانه الرازق ومسبب أسباب الرزق، يتسخير السحاب والأمطار وإنبات النبات، وتسخير السفن فى البحر، وتيسير الصيد من البحر والبر، وتيسير التجارة والزراعة وأنواع المكاسب لإعمار الأرض، حيث قدر فى الأرض أرزاقها، واستعمرنا فيها، وبهد الله الموت وقبض الروح والبعث والإحياء يوم القيامة.

ثم يستفهم القرآن استفهاما إنكاريا مرادًا به التوبيخ والتفريع، فيقول:

هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

هل من الأصنام أو الآلهة المدعاة التى تعبدونها من يفعل شيئاً من الخلق أو الرزق أو الإمامة أو الإحياء.

وهو استفهام إنكارى للتفريع والتوبيخ، أى: لا يقدر أحد من الأصنام أو الشركاء أن يفعل شيئاً من ذلك.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

تنزه الله تعالى وتسامى أن يكون له شريك فى الوهيته، من صنم أو وثن أو ملك أو جن أو عزيز أو مسيح،

فجميع عباد خاضعون لله، لا شركاء له.

قال تعالى: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . (المؤمنون: ٩١).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا أَلَانَهُمْ
 يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقْرَرْتُمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
 يَصْدَعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾

المفردات:

ظَهَرَ الْفَسَادُ: الفساد: الخلل فى الأشياء، كالجدب والقحط وقلة النبات، وكثرة الحرق والفرق، وأخذ المال
 ظلماً، وكثرة المضار وقلة المنافع.

الْبَرِّ: الجزء اليابس من الأرض.

الْبَحْرِ: الجزء المائى، والمراد من أهل البر: سكان القرى والمدن والقيافى، وأهل البحر: سكان
 السواحل وركاب البحار.

بِمَا كَسَبَتْ: بسبب معاصيهم وذنوبهم.

لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ: ليذيقهم ويال بعض أعمالهم، وعقوبته فى الدنيا.

يَرْجِعُونَ: يتوبون.

عَاقِبَةُ: عاقبة كل شئ آخره ونهايته والعبرة منه.

أَقْرَرْتُكُمْ: وجه نفسك للعمل بالدين المستقيم.

الْقَيِّمِ: البليغ الاستقامة وهو الإسلام.

لَا مَرَدَ لَهُ: لا يقدر أحد أن يرد.

يَصْدَعُونَ: يتفرقون، فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

يَمْهَدُونَ: يوطئون منزلهم ويسوونه فى الجنة.

تمهيد:

تشير الآيات إلى عدالة السماء، وبيان أن الله تعالى يعجل العقوبة على بعض الناس فى الدنيا، انتقاماً
 عاجلاً عنهم يتوبون، وقد انتقم الله من أمم سابقة كعاد وثمود، فمَجَّلَ بالتوبة والاستقامة والتمسك بالإسلام، قبل
 أن يأتى يوم القيامة فيثرق الناس حسب أعمالهم، فالكافر يلقى عقوبة كفره، والصالح يزيد الله من فضله.

التفسير :

٤١ - ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى: انتشر الغلاء والوباء، والخلل والانحراف، ونقص الزروع والأنفس، والتممرات، وقلة المطر وكثرة الجذب والقحط والتصحر، بسبب شؤم معاصى الناس، وذنوبهم من الكفر والظلم، وانتهاك الحرمات، ومعاداة الدين الحق، والاعتداء على الحقوق، ومعصية الله على وجه الأرض، وعلى ظهر السفن فى لجج البحر، ليذيقهم الله تعالى جزاء بعض عملهم، وسوء صنيعهم، لعلهم يرجعون عما هم عليه، ويتوبون إلى الله تعالى فى الدنيا قبل الموت.

٤٢ - قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ .

أى: تأملوا فى اخبار الأرض، وقصص الأمم البائدة، الذين أهلكهم الله لشركهم المستتب لكل عصيان، كقوم نوح وعاد وحمود وفرعون وقومه، وقوم لوط وقوم شعيب، وأمثالهم من المكذبن للرسل، الذى أهلكهم الله جزاء كفرهم وشركهم، وترك آثارهم عظة وعبرة.

قال تعالى: فَكُنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْنَوعُ مَعْلَلٌ لُفُوفُهَا (الحج: ١٥).

والمراد: اتعظوا واعتبروا بمن أهلكهم الله بسبب كفرهم وشركهم، لتتجوا من المصير المحتوم، الذى يصيب كل كافر وظالم.

٤٣ - فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصْذَعُونَ .

اتجه بذاتك إلى الدين المستقيم وهو الإسلام، عابداً لله، مؤمناً بكتبه ورسله واليوم الآخر، مستقيماً على الطاعة، من قبل أن يأتى يوم القيامة، حيث لا يستطيع إنسان أن يمنع مجيء هذا اليوم، لأنه يأتى بأمر الله ومشيئته وقدره، وما قدره الله وأراد حدوثه فلا راد له، ولابد أن يكون ذلك اليوم، الذى يتفرق فيه الناس بحسب أعمالهم، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير.

قال تعالى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومَذُّ مَنْ يَتَفَرَّقُونَ . (الروم: ١٤).

٤٤ - مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ يَمْهَدُونَ .

من كفر فعليه وبال كفره.

قال الزمخشري: كلمة جامعة لا لا غاية وراءه من المضار، لأن من ارتكب ضرر الكفر، فقد أحاطت به كل

أى: فعلى الكافر إثم الكفر وعقوبته، ووُزَّره وسوء عاقبته، ومن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحة، فقد مهد لنفسه فراشا وثيرا مريحا، ومسكنا قسيحا، وقرارا دائما فى الجنة.

فمعنى: يَهْلُدُونَ . يَجْهَرُونَ الفراش ويعتدون المنزل فى الجنة، توطئة من يريد الراحة والاستقرار على أسرة الجنة وفرشها.

٤٥ - لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

أنا أجازى المؤمنين الصالحين بفضلى وإحسانى وإنعامى، هاكافئ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، تفضلا وترحمًا ومكافأة بالحسنى وزيادة.

قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (يونس: ٣٦).

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إنه يفيض الكافرين ويعاقبهم عقابا عادلا لا جور فيه، وفيه تهديد ووعد.

قال تعالى: أَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَلْدُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ . (الزلم: ٢٥ - ٢٨).

﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرًا وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ لَجَرُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٧) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمُبْلِسٍ﴾ (٤٩) ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٥٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفًى ۚ لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ (٥١) ﴿

المفردات:

ومن آياته: من دلائل قدرته.

الرياح: رياح الخير والرحمة، وهى الشمال والصبا والجنوب، وأما الدبور فريح العذاب، قال ۞:

«اللهم اجعلها رياحا، ولا تجعلها ريحا».

مبشرات: مبشر بالخير وهو المطر.

ليذيقكم من رحمته: نزول المطر، وحصول الخصب والمنافع.

الفلك بأمرة: السفن بإذنه عند هبوب الرياح.

ولعلكم تشكرون: ولتشكروا نعم الله عليكم.

البيِّنات: المعجزات والحجج الواضحات.

تثييره تحرك.

يبسطه: ينشر.

الودق: المطر.

مبلسين: ساكنين متحيرين من شدة الحزن، آيسين من إنزاله.

تَمْهِيد:

القرآن الكريم يراوح فى أسلوبه، ويتخول النفوس بالموعظة، فقد تحدث فيما سبق عن الفساد فى الأرض، وعن عقوبة المفسدين، وهنا يتحدث عن أدلة القدرة الإلهية فى إرسال الرياح وإنزال المطر وإنبات النبات، وتخلل ذلك التسمية عن الرسول ﷺ، بأنه ليس أول من كذبه الناس، فقد كُذِّبَ رسل سابقة كتوح ولوط وإبراهيم وموسى، ثم انتقم الله من المكذبين، وفى هذا تهديد ووعد لأهل مكة.

التفسير:

٤٦ - وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَغْفِرُوا مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

من آيات القدرة الإلهية أن الله تعالى يحفظ هذا الكون، ويمدّه بموامل البقاء والنماء، فهو سبحانه يرسل الرياح بين يدي المطر، لتبشّر الناس بقدوم المطر، فيحرثون أرضهم ويبنون الزرع، ثم ينزل المطر فيعم الخصب والنماء، وتحيا الأرض ويخضر الزرع، وتحرك السفن فى البحر بحركة الرياح.

ثم يأكل الإنسان والحيوان، وتنقل السفن التجارة والزراعة، من مكان إلى مكان، فيستفيد البائع والمشتري، وينتفع الناس، وعندئذ يجب أن يشكروا الله تعالى الذى أنعم عليهم بالعديد من النعم.

قال تعالى: وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... (النحل: ٥٣).

وقال تعالى: وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... (النحل: ١٨).

٤٧ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَفَعْنَا مِنَ الَّذِينَ أُجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ .

من حفظ الله لهذا الكون أنه سخر الشمس والقمر، والرياح والأمطار، والليل والنهار، والنبات والثمر، وسخر السفن، ويسر التجارة والزراعة والصناعة، ليستفيد الإنسان بإصلاح دنياه وليشكر ربه.

وقد أرسل الله الرسل، وأنزل عليهم الكتب لهداية الناس، فأنزل التوراة على موسى، والإنجيل على داود، والصحف على إبراهيم، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد، كما أعطى هؤلاء الرسل البينات والمعجزات، فأمن بعض الناس وكفر أكثرهم، فأرسل الله نقمته وعذابه على المكذبين، وتكفل الله تعالى بنصر المؤمنين، وجعل ذلك حقا واجبا عليه.

وقد يتأخر النصر لحكمة إلهية عليا، فمن الواجب ألا ييأس المؤمنون، بل عليهم أن يستمروا فى أداء دعوتهم، وتحقيق رسالتهم، وأداء النصيحة، والتحذير من الغواية، ولا ينبغي للمؤمن أن يترك راية الحق، بل هو يحمل رسالته ويمضى، ويسلم الراية من جيل إلى جيل، وقد تكفل الله بحفظ كتابه.

قال سبحانه: وَلَقَدْ كُنَّا فِي الزُّبُرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. (الأنبياء: ١٠٥).

روى ابن أبي حاتم، والطبراني، والترمذي، وابن مردويه، عن أبي الدرداء رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه، إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ. (٢٥).

قال الزمخشري:

في قوله تعالى: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ. تعظيم للمؤمنين، ورفع من شأنهم، حيث جعلهم مستحقين عليه أن يظهرهم ويظفرهم.

٤٨ - اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَيَسْطُوْهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ قَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

يقرر القرآن هذه الحقائق المشاهدة أمام أعين الناس، فهو سبحانه يرسل الرياح وفق ناموسه، في تكوين الكون وتنظيمه وتصريفه، فتتشب سحابا بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض، حيث ترسل الشمس أشعتها، فيتصاعد البخار صوب السماء، فتحمله الرياح، فينشره الله في السماء، ويوجهه إلى الجهة التي قدر لها أن يساق المطر إليها، وأحيانا يجمع الله السحاب ويجعله قطعا، فتري المطر يخرج من وسطه، فإذا نزل المطر على من يشاء الله من الخلائق، إذا بهم قد استبشروا وفرحوا بما أصابهم من المطر، فلما حياة الزرع والضرع.

قال القاسمي في تفسيره:

إما سائرا وواقفا، مطبقا وغير مطبق، من جانب دون جانب إلى غير ذلك. وَيَجْعَلُهُ كَيْفًا. أى: قطعا تارة أخرى. قَرَى الْوَدْقَ. أى: المطر. ١ هـ.

٤٩ - وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ.

أى: كان الناس قبل نزول المطر قد استحكم بأسهم من المطر، فقد تطاول عليهم الجذب، وتعد عهدهم بالمطر حتى يسئوا منه، وأبلسوا وقتلوا، وانقطع رجاؤهم في نزول المطر، فسبعان مغير الأحوال من اليأس إلى الرجاء، ومن القنوط إلى البشري، ونزول الرحمة والنعمة.

٥٠ - فَأَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أى: تأمل أيها العاقل في أثر القدرة الإلهية في هذا الكون، حيث أرسل الله المطر، وتوجه إلى الأرض الميتة، فأحياها بالنبات والزراعة، إن تأملك بعين قلبك سيعطيك الفهم والبصيرة والعظة، بأن من أحيا الأرض

بعد موتها قادر على بث الموتى، وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية، فهو سبحانه قادر على كل شيء.

ومن آثار هذه القدرة خلق هذا الكون وحفظه، وتسخير السحاب والمطر، وإحياء الأرض بعد موتها، كذلك إحياء الموتى ويعيهم من قبورهم للحساب والجزاء.

٥١ - وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ .

أى: إذا أرسل الله ريحاً عاتية تحمل التراب والغبار والإعصار، فتلون الزرع واصفر، وذبل وفقد الاخضرار والنضارة، فإن الناس تتغير بسرعة، وتكفر بنعمة الله الذى ساق إليهم المطر، وأحيا الأرض وأنبت الزرع، فهم لا يحتملون البلاء، ولا يصبرون على البأساء، ولا يتأملون فى أن المصيبة فى الثمار، قد تكون ابتلاء من الله، تستحق الصبر على البأساء، والرضا بأسباب القضاء.

قال القاسمى:

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا . على الزرع، فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا . أى: من تأثيرها فيه، لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ . أى: من بعد اصفراره يجحدون ما تقدم إليهم من النعم، أو يقتلون ولا يصبرون على بلائه، وفيه من ذمهم وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم، لعدم تفكرهم وسوء رأيهم، ما لا يخفى (٣). أ هـ.

والخلاصة: أن الناس ترى بأعينها أنعم الله متكررة، وإذا جاءت ريح ضارة أو سامة، فاصفر الزرع ومال إلى الفساد، فإن الناس تتكرر للخالق الرازق، وتنسى فضله السابق، ولا تصبر بل تكفر.

★ ★ ★

﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدَرِينِ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ۚ إِنَّ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ ۖ يَتَّبِعُنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

المفردات:

لا تسمع الموتى: أى: سماع تدبير واتعاظ، لأنهم سئوا عن الحق مشاعرهم.

ولا تسمع الصم: لأنهم قد أصيبوا بالصمم، وهو ثقل السمع، والمفرد: أصم.

إذا ولوا مدبرين: إذا عرضوا عنك موئلين، قيّد عدم السماع بالإعراض، فإن الأصم إذا أقبِل على السماع، وإن لم يسمع الكلام، استفاد منه بواسطة الحركات على اللسان بعض الأشياء.

الْعُمَى: من أصابهم العمى، وهو ذهاب البصر كله، والعمى أيضاً: ذهاب بصر القلب، والمفرد: أعمى.

بآياتنا: القرآن.

مسلمون، مخلصون منقادون لما تأمرهم به.

التفسير:

٥٢ - فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .

هذه الآية تسليية للرسول ﷺ عما يلقيه من عناد المشركين، فهم أشبه بالموتى وبالصم والعمى، لعدم استعدادهم لسماع أدلة الهداية، سماع تدبر واتعاظ، وإرشاد الميت محال، وإرشاد الأصم صعب، خصوصاً فى حالة إعراضه وإدباره، وكذلك من مات قلبه وعميت بصيرته، فإن من الصعب هدايته وتوجيهه.

والمعنى:

أنت مبلّغ عن الله، عليك البلاغ وليس عليك هدايتهم، فلا تياس ولا تبتئس إذا أعرض المشركون عن دعوتك، مع وضوح الأدلة أمامهم، فإنك لا تستطيع أن تسمع الميت، سماعاً فيه الفهم والاستجابة.

وكذلك هؤلاء الكفار فقد ماتت قلوبهم، وأنت لا تستطيع أن تسمع الأصم المصاب بالصمم، وكذلك لا تستطيع أن تسمع المشركين دعوتك؛ لأنهم أصمّوا أذانهم، وأعرضوا بعقولهم وأفكارهم عن الإسلام، ولم يسموا لك سماع تفهم وتدبر.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (البقرة: ٦، ٧).

٥٣ - وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

ليس فى وسعك أن تهدى من عميت بصيرته، واختار الضلال على الهدى، إنما أنت نذير، والله على كل شئ قدير، فهو سبحانه الذى يهدى من يشاء، ويضلّ من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه.

إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .

أى: لا تسمع السماع الذى ينتفع به سامعه، فيتأمل ويتدبر، ويتأثر بما يسمع، إلا من آمن بالقرآن فآمن قلبه، وزاد يقينه، وتوكل على الله، وأسلم وجهه إلى الله، فهو خاضع لأمر الله مستمسك بهديه.

قال تعالى: أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ... (الزمر: ٢٢).

«إن المؤمن هو الذى يسمع دعوة الإسلام، فيستجيب لهداية السماء، وينضم إلى جماعة المؤمنين، وهؤلاء قلوبهم حية، وبصائرهم مفتوحة، وإدراكهم سليم، فهم يسمعون فيسلمون، ولا تزيد الدعوة على أن تنبه فطرتهم فتستجيب» (٢٧).

فى اعقاب تفسير الآيتين ٥٢، ٥٣ من سورة الروم:

تكلم المفسرون عن سماع الموتى، واستفادتهم بدعاء الحى لهم، وخلصا كلامهم: أن من العلماء من افاد أن الموتى لا يسمعون، استدلالا بقوله تعالى: فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ...

وذهبت طوائف من أهل العلم إلى سماعهم فى الجملة، وقال ابن عبد البر: إن الأكثرين على ذلك، وهو اختيار ابن جرير الطبري، وثنا ذكره ابن قتيبة وغيره، واحتجوا بما فى الصحيحين عن أنس، عن أبى طلحة رضى الله عنهما. قال: لما كان يوم بدر وانتصر رسول الله ﷺ على مشركى مكة، أمر الرسول ﷺ ببضعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فآلقوا فى طوى - أى: بئر من أطواء بدر - وأن رسول الله ﷺ ناداهم: «يا أباجهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، اليس قد وجدتم ما وعد ريكماً حقاً؟ فإننى قد وجدت ما وعد ربي حقاً»، فقال عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا روح لها؟ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» (٢٨).

وهذا هو الصحيح المؤيد بالشواهد الكثيرة، منها ما رواه ابن عبد البر مصححاً له، عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبور أخيه المسلم، كان يعرفه فى الدنيا، فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام».

وروى ابن أبى الدنيا، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، ورد عليه حتى يقوم».

وقال أبو هريرة رضى الله عنه: إذا مر الرجل بقبر يعرفه، فسلم عليه، رد عليه السلام.

وأجمع السلف على هذا، وشرع السلام على الموتى، مما يدل على شعورهم وعلمهم بالمسلم، وعلم النبى ﷺ أمته إذا راوا القبور أن يقولوا - فيما رواه مسلم عن بريدة -: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، أنتم السابقون، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العاقبة». (٢٩).

وكل ذلك دال على أن السلام والخطاب والنداء لوجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلم الرد. (٣٠).

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (٥٤)

المفردات:

خلقكم من ضعف: ابتداءكم ضعفاء، وقيل: خلقكم من أصل ضعيف وهو التطفة.

ثم جعل من بعد ضعف قوة: بعد ضعف الطفولة قوة الشباب، بعد بلوغ الحلم.

ضعفاً وشيبة: ثم رددكم إلى أصل حالكم من الضعف بالشيخوخة والهرم.

التفسير:

٥٤ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

خلق الله الإنسان من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم كوّن عظامه، ثم كسا العظام لحماً، ونفخ فيه الروح، ثم أخرجهم من بطن أمه وإهنا ضعيفاً، فقلوله: مِنْ ضَعْفٍ... أى: ابتداءً ضعيفاً، ثم يشب الوليد قليلاً قليلاً، فيكون صغيراً، ثم فتى، ثم شاباً قوياً يتمتع بالقوة فى الكيان الجسدى، وفى البناء الإنسانى، وفى التكوين النفسى والعقلى.

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً...

ينحدر الإنسان من قمة هرم الشباب، إلى سفح الهرم متدرجاً من القوة إلى الضعف فى الجسم والإرادة، حتى ليهو الشيوخ أحياناً كما يهوى الطفل، ولا يجد من إرادته عاصماً، ومع الشيخوخة الشيب، يذكر تجسيميا وتشخيصاً لهيئة الشيخوخة ومنظرها.

وإن هذه الأطوار التى لا يقلت منها أحد من أبناء الفناء، ولا تتخلف مرة فيمن يمدّ له فى العمر، دليل على أن الخليفة فى يد القبضة الإلهية المدبرة.

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

يفعل الله ما يشاء ويوجد ويبدع ما يشاء، من ضعف وقوة، وبدء وإعادة، ويتصرف فى عبيده بما يريد، وهو العليم التام العلم بتدبير خلقه، القدير الشامل القدرة على ما يشاء.

والآية وصف لمرآحल العمر التى يمر بها الإنسان، حيث يولد ضعيفاً، ثم يصل إلى القوة فى مرحلة الشباب، ثم يعود إلى الضعف فى مرحلة الشيخوخة، ولو تصورنا الحياة أشبه بهرم، فإن مرحلة الشباب هى قمة ذلك الهرم، والطفولة بداية السفح، والشباب صعود للقمة، والشيخوخة عود إلى سفح الهرم.

وقد أمرنا الإسلام بإعداد القوة، والمحافظة على الصحة، والرقى النفسى والفكرى والعاطفى، وذلك بالقراءة والرياضة، والمشى والسياحة، والتأمل والتدبُّر، فى ملكوت السماوات والأرض، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره، وتقبل مراحل العمر، والإبداع فيها بما يناسبها من تقديم الخبرة، ومساعدة العباد، والتعاون والتراحم وعمل الخير، وتفريغ كربة المكروب، والإحسان للعمل، وبذلك يكون المؤمن منفعه ومعونة ونعمة لكل من حوله.

★ ★ ★

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُؤْتُوا عَصَاكَ كَذَلِكَ كَانُوا تُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

المضردات:

الساعة: يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا.

ما لبثوا: ما أقاموا بعد الموت.

غير ساعة: غير قطعة قليلة من الزمان.

يؤفكون: يصرفون عن الحق، يقال: أفلك الرجل، إذا صرف عن الصديق والحق والخير، أى: مثل ذلك الصرف عن الواقع فى مدة اللبث، كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق الذى هو البعث، وغيره من قول الحق والنطق بالصدق.

فى كتاب الله: فيما كتبه فى سابق علمه وقضائه، أو فى اللوح المحفوظ.

ولاهم يستعذبون: يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة، فقد حق عليهم العذاب، يقال: استعذبنى فلان فاعتبته، أى: استرضانى فأرضيته.

التفسير:

٥٥ - وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُؤْتُوا عَصَاكَ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ .

أى: ويوم تجىء ساعة البعث، فيبعث الله الخلائق من قبورهم، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله فى الدنيا، ويكتسبون فيها الآثام، أنهم ما أقاموا فى قبورهم إلا قليلا من الزمان، وهذا تقليل منهم لمدة لبثهم فى البرزخ على طولها، وهم قد صرفوا فى الآخرة عن معرفة مدة مكثهم فى ذلك الحين.

كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ .

مثل ذلك الصرّف عن حسن التقدير، كانوا يُصرّفون فى الدنيا عن معرفة الحق، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فالأية تفتح عيونهم فى الدنيا قبل فوات الأوان، وترشدهم إلى أن الحياة الدنيا قصيرة بالنسبة للآخرة، فلا يفرغون من فيها من لهو وعبث وباطل، فكل ذلك قصير الأمد، فارجعوا إلى سبيل الرشاد.

ويحتمل أن يكون قسمهم منصباً على مدة لبثهم فى القبور، كما يحتمل أن يكون ذلك عن لبثهم فى الأرض أحياء وأمواتاً، كما يحتمل أن يكون عن مدة مكثهم فى الدنيا.

قال ابن كثير:

يخير الله تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم يُنتظروا حتى يُعذر إليهم. أ هـ.

«وقيل: كان قسمهم استئثالا لأجل الدنيا، لما عاينوا الآخرة، تأسفاً على ما أضاعوا فى الدنيا» (٣١).

٥٦ - وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَئْتِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَئْتِ وَلَكِن كُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى: قال الذين أعطاهم الله العلم والإيمان من الأنبياء والملائكة وصالح المؤمنين: لقد مكثتم فى الدنيا فترة كافية للعمل الصالح، ولكتم كفرتم، فسجلت أعمالكم فى كتب الله، التى تسجل فيها أعمال الناس إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث الذى أنكرتموه، ولكتم كنتم تجهلون أنه حق، فتستعجلون به استهزاء، وهى الآية دليل على فضل العلماء وعظيم قدرهم.

وقال أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى:

وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله، والإيمان بالله، لأولئك المنكرين: لقد لبثتم من يوم مياتكم إلى يوم البعث فى قبوركم، وفى هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه، وإطلاع لهم على الحقيقة. أ هـ.

فَهَذَا يَوْمُ الْبَئْتِ وَلَكِن كُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

أى: قال العلماء المؤمنون لهم أيضاً: هذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا، وزعمتم أنه لن يكون لغروركم بالدنيا، وغفلتكم عن الأدلة المتظاهرة على أن البعث حق، وأن القيامة حق، وأن الدنيا عمل ولا حساب، وأن الآخرة حساب ولا عمل.

٥٧ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْدِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

فى يوم البعث والجزاء لا يقبل من الذين ظلموا اعتذارهم، ولا ندمهم على ما فعلوه فى الدنيا، ولا يقال لهم ارضوا ربيكم بتوبة وطاعة، كما كان يقال لهم ذلك فى الدنيا، وذلك لفوات أوان العمل.

والخلاصة: أنهم لا يعاتبون على سيئاتهم، بل يعاقبون عليها، ولا تقبل منهم التوبة، لأن الوقت وقت جزاء، لا وقت عمل، فالآية تذكير للظالمين بالتوبة والتندم قبل فوات الأوان.

ونحو الآية قوله تعالى: وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ . (فصلت: ٢٤)

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ (٥٨) ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٩) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾ (٦٠) ﴿

المفردات:

من كل مثل: من كل صفة عجيبة هى فى غرابتها كالأمثال، مثل: أدلة التوحيد، وصدق الرسول ﷺ، وأدلة البعث والحشر والحساب والجزاء.

بآية: من آيات القرآن، أو بمعجزة.

مبطلون: مزورون أصحاب أباطيل.

يطبع: يختم.

لا يعلمون: جهلة متقنون لا يطلبون العلم، ويصرون على خرافات اعتقدها.

لا يستخفُّكَ: لا يهملكَ على الخفة والتلق.

لا يؤقنون: لا يصدقون بالبعث، ولا يؤمنون بالله ورسوله إيماناً حقاً.

التفسير:

٥٨ - وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .

قدمنا للناس فى هذا القرآن من كل صفة عجيبة، حيث اشتمل على بدء الخليقة، وقصص الأنبياء والمرسلين، وأحاديث الأمم السابقة، ولفت الأنظار إلى هذا الكون العجيب، وبيان أنعم الله على عباده، وآيات الله

فى الكون والنفس، والخلق والبعث والحشر والجزاء، كل ذلك فى أسلوب بديع، وبيان معجز، ينتقل بالإنسان من قصة إلى خبر إلى أحكام إلى عظة، ومن نظام الدنيا إلى مشاهد الآخرة، حيث صرّف الله القول، ونوّع فى أساليب الأحكام والمطاطات، تنويعاً كأنه المثل والقصة العجيبة.

قال تعالى: وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ . (إبراهيم: ١٥).

وقال سبحانه: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا . (الإسراء: ٤١).

وَلَنْ جَنَّتْهُمْ بَايَةٌ لِّقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ .

أى: أقسم يا محمد، لئن أتيتهم بآية جديدة من آيات القرآن الكريم، أو بمعجزة جديدة مما اقترحوه، أو من غير ما اقترحوه؛ فلن يؤمنوا ولن يصدقوا، وإنما يقابلون المعجزات والتكذيب، وادعاء أنها سحر وباطل.

٥٩ - كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

أى: بمثل ذلك التكريب والإعراض يترك الله القلوب مقلقة، مختروماً عليها ومطبوعاً عليها، فلا تسمح بدخول جديد من الهداية والإيمان، ولا بخروج قديم من التقليد والاعتقاد الفاسد، فهم لا يبحنون عن الحق، ولا يطلبون العلم، بل يُصرون على خرافات اعتقدوها، وترهات ابتدعوها.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ وينكر الفم طعم الماء من سِنَرٍ

فهم جاهلون للحق، ويجهلون أنهم جهلة بالحق، أى: إن جهلهم مركب، فهو صارف لهم عن طلب العلم، ومعرفة الصواب. كما قال الشاعر:

قال حمار الحكيم: تما لو أنصفوني لكنت أركب
لأننى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

وهكذا نجد هذه السورة المكية، سورة الروم، تأخذ بأذهان المشاهدين إلى الآخرة، والبعث والحساب، ثم تشدّهم إلى الدنيا والقرآن وعجائبه.

وفى ختام السورة وصية جديدة للرسول والمؤمنين بالصبر، واليقين بالنصر، ليتوافق الختام مع البدء، حيث بُدئت السورة ببيان هزيمة الروم أمام الفرس، ويوعده الله أن ينتصر الروم على الفرس فى بضع سنين، وأن هذا الوعد لن يتخلف فإله لا يخلف الميعاد، ثم يكون الختام مؤيداً لهذا المعنى.

٦٠ - فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .

أى: اصبر يا محمد على أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك، أنت ومن معك من المؤمنين، متحملين الشكوك من الكافرين، والعقبات من المشركين.

وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .

أى: لا يعملك على الخفة والقلق، الذين لا يوقنون بوعدهم الله، فهم فى شك منه وفاق وحيرة، لأن قلوبهم محجوبة عن الإيمان بالله، واليقين بما عنده.

إن الله تعالى منجز لك وعده بالنصر والتوفيق، فلا يتسرب إليك القلق أو الشك أو الخفة، من تكذيبهم بالآيات، وإنكارهم لها ومكرهم فيها، فإن العاقبة للمتقين، ولن اعتصم بما جئت به من المؤمنين، وفى هذا إرشاد للنبي ﷺ وتعليم له، بأن يتلقى المكروه بصدر رحب، وسعة حلم.

أخرج ابن أبى شيبه، وابن جرير، وابن المنذر، والحاكم، والبيهقى: أن رجلا من الخوارج نادى عليًا وهو فى صلاة الفجر، فقال: وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. (الزمر: ٦٥)، فاجابه وهو فى الصلاة: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصل اللهم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

خلاصة موجزة لما اشتملت عليه سورة الروم

- ١ - إثبات النبوة بالإخبار بالغيب.
- ٢ - البراهين الدالة على وحدانية.
- ٣ - الاعتبار بما حدث للمكذبين من قباهم.
- ٤ - الأدلة التى فى الآفاق، شاهدة على وحدانية الله، وعظيم قدرته.
- ٥ - الأدلة على صحة البعث.
- ٦ - الأمر بعبادة الله وحده، وهى الفطرة التى فطر الله الناس عليها.
- ٧ - النهى عن اتباع المشركين الذين فرقوا دينهم بحسب أهوائهم.
- ٨ - من دأب الناس الفرج بالنعمة والقنوط من الشدة، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.
- ٩ - الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل.
- ١٠ - فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر.
- ١١ - تسلية الرسول ﷺ على عدم إيمان قومه، بأنهم صم عمى، لا يسمعون ولا يبصرون.
- ١٢ - الرسول ﷺ قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار، لكن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار.
- ١٣ - أمره ﷺ بالاستمرار فى تبليغ الدعوة، مهما لاقى من الأذى والإحباط، فإن العاقبة للمتقين.

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة لقمان

أهداف سورة لقمان

سورة لقمان سورة مكية، وآياتها ٢٤ آية، نزلت بعد سورة الصافات، وسورة لقمان من أواخر ما نزل بمكة فقد نزلت بعد الإسراء وقبل الهجرة. وقد سميت بسورة لقمان لورود قصة لقمان فيها، وكان من الحكماء الأقدمين، ولم يرد اسم حكيم غيره فى القرآن.

وسورة لقمان رحلة هائلة بعيدة الأماد والأفاق، تطوف بالقلب فى جولات متعددة لتأكيد قضية العقيدة وترسيخها فى النفوس، وهى القضية التى تعالجها السور المكية فى أساليب شتى، ومن زوايا متنوعة، تتناول القلب البشرى من جميع أقطاره، وتلمس جوانبه بشتى المؤثرات التى تخاطب الفطرة وتوقظها.

هذه القضية الواحدة - قضية العقيدة - تتلخص هنا فى توحيد الخالق وعبادته وحده، وشكر آلائه، وفى اليقين بالآخرة، وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، وفى اتباع ما أنزل الله، والتخلّى عما عداه من مآلوفات ومعتقدات.

والسورة تتولى عرض هذه القضية ثلاث مرات فى ثلاث جولات، تطوف كل منها بالقلب البشرى فتعرض عليه دعوة الهدى من جانب الوحي، ومن جانب الحكمة، ومن جانب الكون الكبير: سمائه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وأجوائه وبحاره وأمواجه، وأمطاره ونباته وأشجاره، وأخيراً من جانب القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء، صاحبة الملك فى الأولى والآخرة.

فقرات السورة

يمكن أن نقسم سورة لقمان إلى ثلاث فقرات أو جولات:

الجولة الأولى:

تبدأ الجولة بعد افتتاح السورة بالأحرف المقطعة، فتقرر أن هذه السورة من جنس تلك الأحرف، هى آيات الكتاب الحكيم، وهى هدى ورحمة للمحسنين. وهؤلاء المحسنون هم: الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . (لقمان: ١) فتقرر قضية اليقين بالآخرة، وقضية العبادة لله، ومعها مؤثر نفسى ملحوظ: أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (لقمان: ٥) . ومن ذا الذى لا يريد أن يكون من المفلحين؟

وفى الجانب الآخر فريق من الناس يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذ تلك الآيات هزواً، وهؤلاء يعاجلهم بمؤثر نفسى مخيف مناسب لاستهزائهم بآيات الله: أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . (لقمان: ٦).

ثم يمضى فى وصف حركات هذا الفريق؛ وإذا تَطَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَكِنَّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا... (لقمان: ٧). ومع الوصف مؤثر نفسى منفر من هذا الفريق: كَأَن فِي أُذُنِهِ وَقْرًا. ومؤثر آخر يخيفه مع التهكم الواضح فى التعبير: قَبْشَرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ. (لقمان: ٧). والبشارة هنا فيها ما فيها من التهكم الملحوظ.

ثم يعود إلى المؤمنين يفصل شيئاً من فلاحهم الذى أجمله فى أول السورة ويبين جزاءهم الحسن فى الآخرة. ثم يعرض صفحة الكون الكبير مجالاً للبرهان القاطع الذى يطالع الفطرة من كل جانب، ويخاطبها بكل لسان ويواجهها بالحق الهائل الذى يمر عليه الناس غافلين... وأمام هذه الأدلة الكونية التى تهول الحس وتنبه الشعور، يأخذ بتلايب القلوب الشاردة، التى تجعل لله شركاء وهى ترى خلقه العظيم: هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. (لقمان: ١١).

وتستغرق هذه الجولة من أول السورة إلى الآية ١١.

الجولة الثانية:

تبدأ الجولة الثانية من خلال نفوس آدمية، وتتناول القضية ذاتها بأسلوب جديد ومؤثرات جديدة، إنها نصيحة من رجل حكيم يعظ ابنه فيقدم له خلاصة تجاربه وحكمته، فيأمره بالتوحيد، وينهاه عن الشرك، ويحثه على بر الوالدين وطاعتهما فيما يأمران به، إلا إذا أمرا بالشرك ونحوه، وينبه لقمان ولده إلى إحاطة علم الله بكل شيء، إحاطة يرتعش لها الوجدان البشرى.

ثم يتابع لقمان وصيته لابنه فيأمره أن يقوم بتكاليف المقيدة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يصبر ويحتمل، فإن الصبر من أمهات الفضائل.

ويحث لقمان ولده على مكارم الأخلاق، وآداب النفس والسلوك، فينهاه عن الكبر والبطر، ويأمره أن يعتدل فى مشيته، وأن يفيض من صوته، وأن يلزم الرفق والهدوء والاعتدال.

وقد استغرقت هذه الجولة الآيات من (١٢ - ١٩).

الجولة الثالثة:

تستغرق الجولة الثالثة بقية السورة: الآيات من (٢٠ - ٢٤)، وتبدأ بعرض أدلة التوحيد فى خلق السماء والأرض، وفى تسخير الكون وإسباغ النعم الظاهرة والباطنة، وفى ظل هذه النعم الظاهرة والأدلة الملموسة يبدو الجدل فى الله مستكراً من الفطرة، تمجده القلوب المستقيمة.

ثم يتابع السياق استنكار موقف الكفر والجمود وتقليد الآباء دون تبصر وروية، ومن ثم يعرض قضية الجزاء فى الآخرة مرتبطة بقضية الكفر والإيمان.

ثم يقف الكافرون وجها لوجه أمام منطق الفطرة وهى تواجه هذا الكون فلا تملك إلا الاعتراف بالخالق الواحد الكبير، وتعرض الآيات مشهداً كونياً يهز القلب البشرى، مشهد الليل وهو يطول فيدخل فى جسم النهار ويمتد، والنهار وهو يطول فيدخل فى جسم الليل ويمتد، ومشهد الشمس والقمر مسخرين فى فلكيهما يجريان فى حدود مرسومة إلى وقت لا يعلمه إلا خالقهما. ويتخذ من هذا المشهد الكونى دليلاً إلى الفطرة على القضية المعهودة وهى قضية التوحيد.

ثم يلمس القلوب بمؤثر آخر من نعمة الله على الناس فى صورة الفلك التى تجرى فى البحر، ثم يوقفهم أمام منطق الفطرة حين تواجه هول البحر مجردة من غرور القدرة والعلم الذى يبعتها عن بارئها، ويتخذ من هذا المنطق دليلاً على قضية التوحيد: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظَّلَالِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ . (لقمان: ٢٢).

ويمتناسبة موج البحر وهوله، يذكرهم بالهول الأكبر، وهو يقرر قضية الآخرة، الهول الذى يفر فيه الولد من ولده، والولد من والده: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... (لقمان: ٢٣).

وتختتم السورة بآية تقر القضايا التى عالجتها فى إيقاع قوى عميق مرهوب، فتذكر أن الله قد استأثر بخمس لا يعلمهن سواه: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان: ٢٤).

هذه الجولات الثلاث بأساليبها ومؤثراتها ودلائلها وآياتها نموذج من أسلوب القرآن الكريم فى معالجة القلوب، هذا الأسلوب المختار من خالق هذه القلوب، العليم بمدخلها، الخبير بما يصلح لها وما تصلح به من الأساليب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾

المفردات:

الحكيم: المشتغل على الحكمة، أو الحكيم قائله.

هدى ورحمة: أى: الآيات هادية راحمة.

يقيمون الصلاة: معنى إقامتها: تعديل أركانها، وحفظها من أن يقع زيغ فى فرائضها وآدابها، من: أقام العود، إذا قومه.

يوقنون: يؤمنون أقوى الإيمان.

أولئك على هدى: أولئك المحسنون فى أعمالهم، متمكنون من الهدى الذى جامعهم من ربهم.

المفلحون: الفائزون، لاستجماعهم العقيدة الحققة، والعمل الصالح.

تمهيد:

سورة لقمان سورة مكية، تهتم بالعقيدة والسلوك والآيات الكونية الدالة على قدرة الله، الخالق العظيم القادر المنعم المتفضل.

وعنت بالحث على مكارم الأخلاق فى وصية لقمان لابنه، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وير الوالدين، والصبر والتواضع.

ودعت إلى أعمال النظر والفكر، وذم التقليد والجمود، لأن فيه إنكاراً للعقل وتعطيلاً له.

التفسير:

١ - أَلَمْ .

حروف للتبويه كالجرس الذى يقرع، فيتبته التلاميذ لدخول المدرسة، أو هى للتعدي والإعجاز، وبيان أن الخلائق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع أنه مؤلف من حروف عربية، ينطقون بها، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر، ولكنه تنزيل من حكيم جميد.

٢ - تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ .

هذه الآيات المشتملة عليها هذه السورة، أو المشتمل عليها القرآن الكريم، آيات القرآن ذى الحكمة، التى لا خلل فيها ولا عوج، ولا تناقض ولا اختلاف. فالقرآن مشتمل على الحكمة والصواب، محفوظ من كل تحريف وتبديل، ناطق بكل ما يوصل إلى السعادة الدنيوية والأخروية.

٣ - هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ .

هذه الآيات هداية كاملة، ورحمة شاملة للمحسنين فى أقوالهم وفى أفعالهم، وفى كل أحوالهم.

٤ - الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

أى: من صفات هؤلاء المحسنين أنهم يؤدون الصلاة كاملة فى خشوع وحضور قلب، ومحافظة عليها كاملة الأركان، والسنن والآداب، فى وقتها، فتكون بمثابة عهد بين المؤمن وربّه، يستوجب بها الجنة، كما صرح فى الحديث الشريف.

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...

يدفعون الزكاة لمستحقّيها، وفى الزكاة ترابط وتعاون وتكافل، وصلاح للأفراد والمجتمعات، والتزام بحق الله وأوامره، وقد اقترنت الزكاة بالصلاة، فى عشرات المواضع فى القرآن الكريم.

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

يؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وجزاء وجنة ونار، أشد الإيمان وأقواء.

٥ - أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

أى: أولئك المحسنون المتصفون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، واليقين الجازم بالآخرة، على هداية عظيمة بالغة من ربهم، توصلهم إلى المطلوب، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة، فالفلاح والهدى والتوفيق، والرعاية والعناية الإلهية من نصيبهم.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۖ﴾ ﴿٦﴾ وَإِذْ أَنشَأَ عَلَيْهِ ابْنُ نَاحٍ مَّسْكِرًا ۖ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَ آيِ الْيَمِّ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

المضردات:

لهو الحديث: كل ما كان من الحديث وكان مهليا عن سبيل الله، مما نهى الله أو رسوله عن الاستماع إليه، واختار ذلك الطبرى.

ليضل: ليصد ويمنع.

سبيل الله: دينه الموصل إليه، أو كتابه الهادى إليه.

هُزُوًا: يكذب بها أو يستهزئ بها، وقد قرأ جميع القراء: «هُزُوًا» إلا حفصا فإنه أبدل من الهمزة واوا مفتوحة على أصل التخفيف.

وليس: أعرض عنها غير معتمد بها.

مسكبرا: مبالغا فى التكبر.

كان لم يسمعها: مع أنه سامع.

وقرأ: الوقر: الصمم كليا أو جزئيا، وهو مانع من السماع.

فبشره: أعلمه، وذكر البشارة للتهكم.

التفسير:

٦ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

من الناس من يؤثر الباطل على الحق، والكفر على الإيمان، ويؤثر أحاديث الباطل وأغاني المجون وتحريك الهوى على القرآن والإيمان. بغير علم . بأهمية الحق والقرآن والإيمان، فى سلامة الفرد والمجتمع، أو بغير بصيرة، حيث يستبدل الضلال بالهدى، والباطل بالحق، جهلا منه بالضلال الذى يسير فيه.

وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ...

يتخذ آيات الله ووحيه سخرية، حيث يكذب بها ويستهزئ بها .

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

هؤلاء اصديقاء الباطل وأعداء الحق، لهم عذاب شديد، مثل مهين لهم، جزاء عنادهم ومكابرتهم.

وقد ذكر جمهور المفسرين أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث، كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري أخبار الأعاجم، وفى بعض الروايات كتب الأعاجم فيرويه، ويحدث بها قريشا، ويقول لهم: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، فنزلت هذه الآيات.

ذكر ذلك ابن عطية فى تفسيره، وابن العريى، والقرطبى، وابن الجوزى، والآلوسى، والواحدى فى أسباب النزول، والسيوطى فى الدر المنثور. مع اختلاف عباراتهم فى حكاية ذلك بين التظويل والاختصار.

هل تدل هذه الآية على تحريم الغناء ؟

ذكر الطبرى وغيره فى تفسير هذه الآية، أنها نزلت فى قرشى اشترى مغنية، شغل بها الناس عن اتباع الرسول ﷺ.

وروى الترمذى فى سننه (٥ / ٢٤٦ / التفسير)، عن أبى أمامة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «لا تبعوا القينات ولا تشربوهن ولا تعلموهن، ولا خير فى تجارة فيهن، وثمنهن حرام»، وفى مثل ذلك أنزلت هذه الآية: وَمَنِ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ... الآية.

قال الترمذى: هذا حديث غريب، إنما يُروى من حديث القاسم، عن أبى أمامة، والقاسم ثقة، وعلى بن يزيد يُضعف فى الحديث.

وقال ابن كثير عن هذا الحديث فى تفسيره (٣ / ٤٤٢): على وشيخه الراوى عنه، كلهم ضعفاء، والله أعلم.

وقال ابن عطية فى تفسيره (١١ / ٤٨٤): والذى يرجح أن الآية نزلت فى لهو حديث مضاف إلى كفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ... وبالتوعد بالمذاب المهيّن. وأما لفظة الشراء فتحتمل الحقيقة والمجاز. ١ هـ.

أما الحقيقة فإن النضر بن الحارث كان يشتري كتب الأعاجم، وينقل منها حديث رستم وأسفنديار، ويقول: إن حديثى أحسن حديثاً من محمد.

وأما المجاز فالمراد بالشراء هنا: الاختيار والاستحسان، والترغيب فى الباطل، حتى يشغل الناس عن القرآن والإسلام، قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . (البقرة: ١٦).

وقال قتادة: اشتراؤه: استحبابه، يختارون حديث الباطل على حديث الحق.

من تفسير القرطبى:

ذكر القرطبى فى تفسيره (١٤ / ٥٤) حديث أبى أمامة وأثراً بنحوه فى ذم الغناء والتحذير منه، ثم قال:

ولهذه الآثار وغيرها، قال العلماء بتحريم الفناء، وهو الفناء المعتاد عند المشتهرين به، الذى يحرك النفوس، ويبيع على الهوى والغزل، والمجون الذى يحرك الساكن، ويبيع الكامن، فهذا النوع إذا كان فى شعر يشيب فيه بذكر النساء، ووصف محاسنهن، وذكر الخمور والمحرمات؛ لا يُختلف فى تحريمه، لأنه اللهو والفناء المذموم بالاتفاق.

فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح، كالعرس والعيد وعند التشييط على الأعمال الشاقة، فأما ما ابتدع اليوم من الإدمان على سماع المنانى بالألات المطرية من الشبابات والطار والمعازف، والأوتار فحرام.

وقد استطرد القرطبى فى تفصيل أحكام الفناء والسماع، كما فصل الألوسى ذلك أيضا عند تفسير هذه الآية وإطال فيه (٣٢).

من الدر المختار:

التغنى لنفسه لدفع الوحشة لا بأس به عند العامة، على ما فى (العناية) وصححه المعينى وغيره، وإليه ذهب شمس الدين السرخسى، قال: ولو كان فيه وعظ وحكمة فحائز اتفاقاً، ومنهم من أجازته فى العرس كما جاز ضرب الدف فيه، ومنهم من أباحه مطلقاً، ومنهم من كرهه مطلقاً. انتهى كلام الدر.

من تفسير الألوسى:

ومثل الاختلاف فى الفناء الاختلاف فى السماع، فأباحه قوم كما أباحوا الفناء، واستدلوا على ذلك بما رواه البخارى، عن عائشة، قالت: دخل على النبى ﷺ، وعندى جاريتان تغنيان بفناء بُعات، فاضطجع على الفراش وحول وجهه.

وفى رواية لمسلم تسجى بثوبه، ودخل أبو بكر فانتهرنى، وقال: مزمار الشيطان عند النبى ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: «دعهما»، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد. (٣٣).

والحق أن الفناء الذى لا يحرك الشهوة، ولا يحث على الفجور وشرب الخمور، يجوز فى المناسبات كالعديد، كما ورد فى حديث البخارى السابق عن عائشة، والعرس، لما ورد أن الرسول ﷺ حينما علم بزواج فتاة، قال: «هلاً بمتهم معها من يقول:

أنيماكم أنيناكم فحيرونا نحبيكم
فلولا الحبة السمرا لم نحلل برايكمر (٣٤)

وعند التشييد، على القيام بالأعمال الشاقة، كفناء وأناشيد أصحاب الحرف والصناعات، وكهداء الإبل للصبر على قطع المفاز واجتياز الصحراء، كما يجوز سماع ذلك، والله أعلم. (٣٥).

٧ - وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ .

وإذا تقرأ على هذا الضال آيات الله أعرض عنها، غير معتد بها، متكبراً مبالغاً فى الكبر، وحاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع، كأن فى أذنيه صمماً وثقلًا مانعاً من السماع، فأنذره يا أيها الرسول بالعذاب الأليم، جزاء إعراضه عن آياتنا، وتكبره عن الاستجابة لهدايتنا.

قال ابن كثير فى تفسير الآية ما يأتى:

أى: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولّى عنها وأعرض وأدبر، وتصامّ وما به من صمم، كأنه ما يسمعها، لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها.

فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ أَلِيمٍ .

أى: يوم القيامة يؤله، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

★ ★ ★

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾

المفردات:

جَنَاتُ النَّعِيمِ، أى: جنات النعيم الكثير، حيث يتعممون بأنواع الملاذ، من المأكول والمشارب.

وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا، أى: هذا ثابت لا محالة، لأنه وعد الله، ووعد لا يتخلف.

الْعَزِيزُ، الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء.

الْحَكِيمُ، فى أقواله وأفعاله.

التفسير:

٨ ، ٩ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

تأتى هاتان الآيتان فى بيان جزاء المؤمنين، الذين استجابوا لأمر الله، فالذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله؛ ما لهم إلى جنات النعيم، التى يتعممون فيها بأنواع المأكول والملابس والمسكن، والمراكب والنساء والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد، وهم فى ذلك مقيمون دائماً فيها، قد حقق الله لهم وعده، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، وهو سبحانه، العزيز . الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء، الحكيم . فى أقواله وفى أفعاله، الذى يضع الشىء فى موضعه.

★ ★ ★

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات:

بغير عمد: العمَد واحدُها: عماد، وهو ما يُعمَد به، أي: يستند به، تقول: عمدت الحائط، إذا دعمته.

رواسي: جبالاً ثوابت.

تميد: تضطرب.

بث فيها: البث: الإثارة والتفريق، كما قال تعالى: كَأَفْوَاشٍ الْمُبْثُوثِ . (القارعة: ٤). والمراد: الإيجاد والإظهار.

زوج: صنف.

كريم: شريف كثير المنفعة.

التفسير:

١٠ - خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

خلق الله السماوات ورفعها فوق رؤوسنا بدون أعمدة، ونحن نشاهدها صباح مساء، مرفوعة عالية بدون أعمدة، مع أن بيوتنا لا ترتفع أسقفها إلا على أعمدة، ومن تسبيح المؤمنين: سبحان الأبدى الأبد، سبحان من رفع السماء بلا عمد، سبحان من قسم لأرزاق فلم ينس أحد، سبحان من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

فالضمير في: تَرَوْنَهَا، عائد على السماوات، قال الحسن وقتادة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية، ويجوز أن يعود الضمير على الأعمدة فيكون مخفوضاً مثلها.

أي: إن الله خلق السماوات. بغير أعمدة مشاهدة بالعين، وإن كانت لها أعمدة غير مرئية منها الجاذبية، أو قوة القدرة الإلهية التي أبدعت كل شيء خلقته. قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد: لها عمد لا ترونها.

وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ...

ووضع الله في الأرض جبالاً راسية، أرست الأرض وثقلتها، حتى لا تميد ولا تضطرب بأهلها، قال تعالى: وَالْجِبَالُ أَرْسَامًا . (التألاعات: ٣٢).

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ...

أوجد في الأرض من أصناف الحيوانات ما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ .

أنزل الله من السماء ماءً، فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت فيها أصناف النباتات، مختلفة الألوان والأشكال، كما أنبت فيها أصناف الحيوان والإنسان.

قال الشعبي: والناس أيضا من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

وجاء في تفسير روح البيان، للشيخ إسماعيل حقى البروسوى، المتوفى سنة ١١٣٧ هـ :

واعلم - وفقنا الله جميعا للتفكير في عجائب صنعه، وغرائب قدرته - أن عقول العقلاء، وأفهام الأذكاء قاصرة متعيرة في أمر النباتات والأشجار، وعجائبها وخواصها وفوائدها، ومضارها ومنافعها، وكيف لا وأنت تشاهد اختلاف أشكالها، وتباين ألوانها، وعجائب صور أوراقها، وروائح أزهارها، وكل لون من ألوانها ينقسم إلى أقسام، كالحمرة مثلا: كوردى، وأرجوانى، وسوسنى، وشقائقى، وخمرى، وعنابى، وعقيقى، ودموى وغير ذلك، مع اشتراك الكل في الحمرة، ثم عجائب روائحها، ومخالفة بعضها بعضا، واشتراك الكل في طيب الرائحة، وعجائب أشكال أثمارها وحبوبها، وأوراقها، ولكل لون وريح وطعم، وورق وثمر وزهر وحب، خاصية لا تشبه الأخرى، ولا يعلم حقيقة الحكمة فيها إلا الله، والذي يعرفه الإنسان في ذلك بالنسبة إلى ما لا يعرفه كقطرة من بحر (٣٦). أ هـ.

من ألوان البيان:

في الآية بيان قدرة الخالق الذى خلق السماء مرتفعة بغير عمد مرئية، وأحكم بناءها وحفظها من السقوط، ويسط الأرض وحفظ توازنها بالجيال المرتقمة الشاهقة، ونثر فيها المخلوقات من الحيوان والإنسان، ثم تحدث عن قدرة الرازق، بعد أن تحدث عن قدرة الخالق، فبين قدرته على إنزال المطر، وإنبات صنوف النباتات المتعددة، كثيرة المنافع جميلة المنظر.

١١ - هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

أى: هذا الذى ذكر من خلق السماوات والأرض، وما فيها من جمال وإبداع ونظام، خلق الله الواحد القادر، المستحق للعبادة، ومع هذا فأنتم عبثتم الأوثان والأصنام، وغير ذلك من المخلوقات، فأخبرونى ماذا خلقت هذه الأصنام حتى يكونوا شركاء لله .

ثم صرح بظلم أهل مكة، وشركهم وضلالهم الواضح، فقال: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . أى: الكافرون من أهل مكة ظلّموا أنفسهم بمدولهم عن الإيمان والإسلام، إلى الضلال الواضح البين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ١٢﴾ وَلِذَٰلِكَ لَقُمْنُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَبْنِي لِأَشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾

المفردات:

لقمان: كان نجاراً أسود من سودان مصر، ذا مشافر، آتاه الله الحكمة.

الحكمة: العقل والفطنة.

الشكر: الشاء على الله تعالى، وإصابة الحق، وحب الخير للناس، وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له.

تمهيد:

حكم منسوبة إلى لقمان

نُسب إلى لقمان من المقالات الحكيمة شيء كثير، كقوله لابنه ما يأتي:

أى بنى: إن الدنيا بحر عميق، وقد غرق فيها ناس كثيرون، فأجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها بالإيمان، وشراعها التوكل على الله، لعلك تتجو، ولا أراك ناجياً.

وقوله: من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ.

وقوله: من أنصف الناس من نفسه، زاده الله بذلك عزاً، والذلّ فى طاعة الله أقرب من التعزّز بالمعصية.

وقوله: يا بنى، لا تكن حلواً فتبتلع، ولا مرّاً فتلفظ.

وقوله: يا بنى، إذا أردت أن تؤاخى رجلاً فأغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه فأخه، وإلا فاحذره.

التفسير:

١٢ - وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .

ولقد أعطينا لقمان الفهم والعقل، وحسن التبصر والإصابة فى القول، وأمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه، وخصّه به من بين أبناء جنسه، وأهل زمانه، ومن يشكر الله فإن فائدة الشكر إنما تعود عليه، حيث يمنحه الله زيادة فى النعمة والحكمة، ومن يكفر بنعمة الله فإنما يعود ضرر الكفر على نفسه، لأن الله غنى عن عبادته، محمود بالفعل فى السماء والأرض.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥).

وقد أفاض الطبرى فى وصف لقمان وحكمته وبلده، وكذلك ابن كثير، وجمهور المفسرين على أن لقمان كان عبداً صالحاً أعطاه الله الحكمة، ورجح ابن كثير أنه كان عبداً صالحاً حكيماً، ولم يكن نبياً، واستند إلى أن بعض الروايات أفادت أنه كان عبداً مملوكاً لبعض الناس، ثم من الله عليه بالحكمة والعلم والقبول، فراه زميل له فى مجلس، وقد خضع له الناس، وانصتوا واستمعوا، فقال له: ألسنت أنت الذى كنت ترمى معى الغنم فى مكان كذا وكذا؟ قال: نعم، قال: ما بلغ بك ما أرى؟ قال: صدق الحديث، والصمت عما لا يعينى.

وروى جابر، عن عكرمة، قال: كان لقمان نبياً.

وذهب ابن كثير إلى أنه لم يكن نبياً، لأن الرسل تبعث فى أحساب قومها، قال: وجمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما نُقِلَ كونه نبياً عن عكرمة، وإسناده ضعيف، والله أعلم.

وروى ابن كثير فى تفسيره، عن قتادة، عن عبد الله بن الزبير، قال: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى إليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيراً أفلس من التوبة.

وقال يحيى بن سعيد الأنصارى، عن سعيد بن المسيب، قال: كان لقمان من سودان مصر، ذا مشاعر، أعطاه الله الحكمة، ومنعه النبوة^(٣٧).

١٣ - وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطِيهِ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

واذكر إذ قال لقمان الحكيم لابنه المشفق عليه، وهو ينصحه، ويقدم له التذكير بالخير، فيما يرق له القلب، قائلاً له:

يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ...

أى: اعبد الله وحده، ولا تشرك بعبادته أحداً من خلقه، فليس من العدل أن تسوى بين الخالق الرازق، الذى بيده الخلق والأمر، وهو على كل شىء قدير، وبين من لا يخلق ولا يرزق، ولا يُصَوِّرُ منه شىء من ذلك.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .

أى: أعظم الظلم، والظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه، ومن أشرك بالله فقد وضع العبادة والتأليه والخضوع والدعاء فى غير موضعه.

روى البخارى، ومسلم، عن عبد الله، قال: لما نزلت: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ... (الأنعام: ٨٢). شق ذلك على أصحاب رسول ﷺ، وقالوا: أينما لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ .» (٣٨).

وفى الحديث الصحيح، أن رجلاً قال: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يأكل معك»، قال: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حيلة جارك» (٣٩).

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَى ثَمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنِشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾

المفردات:

الوهن، الضعف.

الفصال، القطام.

جـاهدك، حرصا على متابعتك لهما في الكفر.

أنـصاب، رجع.

التفسير:

١٤ - وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ.

هذا كلام مستأنف على نهج الاستطراد في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما في الوصية من النهي عن الإشراك، فهو من كلام الله عز وجل، ولم يقله للقمان، وقيل: هو من كلامه تعالى للقمان.

والمعنى:

وأمرنا الإنسان أن يحسن إلى والديه، وأن يردَّ الجميل إليهما، فقد تكفلا بتربيته ورعايته ووصيئاه بالأم خاصة، لأنها تحملت المشقة والوهن والضعف في الحمل والولادة والرضاع والكفالة، وقيل: وهناً على وهن... مشقة على مشقة.

قال الزجاج: المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة، ويقال: الحمل ضَعْفٌ، والطلق ضعف، والوضع ضعف، وقيل: الحمل كلما عظم ازدادت ثَقَلًا وضعفاً.

وفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ ...

أي: فطامه في عامين، والحوْلان نهاية مدة القضاء.

قال تعالى: وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرُّضَاعَةَ ... (البقرة: ٢٣٣).

ومفهوم الآية أنهما الغاية التي لا تتجاوز، والأمر فيما دون ذلك موكول إلى اجتهاد الأم.

أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ.

وصينا الإنسان أن يشكر ربّه لقاء ما أنعم به عليه من النعم التي لا تحصى، وأن يشكر والديه لقاء ما تحملا في سبيل تربيته، وذلك بالدعاء لهما، والبرّ بهما وإكرامهما وطاعتهما، والمراجع والمصير إلى الله تعالى، فيجازى عبادته على ما قدّموا، وفي الحديث الشريف: «والذى نفس محمد بيده، لثموتنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبنّ على ما تعملون، ولتجزونّ بالإحسان إحسانا، وبالسوء سوءا، وإنها لجنة أبداء، أو لنار أبداء».

وروى ابن كثير، عن معاذ بن جبل، أنه قال في خطبة له: وأن المصير إلى الله، وإلى الجنة أو إلى النار، إقامة فلا ظعن، وخلود فلا موت.

١٥ - وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وإن حملك والدك بجهد على أن تشرك بالله ما لا تعلم أنه إله - والله تعالى لا شريك له - فلا تطعهما في الشرك، ومع هذا صاحبهما بالمعروف، والكرم والمروءة والبر، مثل القيام بشئونهما من طعام وكسوة، وعدم جفائهما، وكذلك رعايتهما في المرض والموت، وما يتصل بذلك من شئون الدنيا فهي قصيرة الأمد.

وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

واسلك طريق المؤمنين الراشدين الملتزمين، ولا تتبع والديك المشركين، وإن كنت مأمورا بحسن مصاحبتهم في الدنيا، ثم إن المرجع والمآب إلى الله، والجزاء منه تعالى.

قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨).

والآية الكريمة نزلت في سعد بن أبي وقاص، ورد ذلك في كتب التفسير وأسباب النزول.

قال ابن جرير الطبري: وذكر أن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص وأمه.

قال سعد: لما أسلمتُ حَلَفْتُ أُمِّي لَا تَأْكُلُ طَعَامًا، وَلَا تَشْرَبُ شَرَابًا، فَنَاشَدْتَهَا أَوَّلَ يَوْمٍ قَابَتِ وَصَبِرَتْ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي نَاشَدْتَهَا قَابَتِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ نَاشَدْتَهَا قَابَتِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ لَكَ مِائَةُ نَفْسٍ خَفَرْتَ نَفْسًا نَفْسًا، مَا تَرَكْتَ دِينِي هَذَا، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ، وَعَرَفَتْ أَنَّي لَسْتُ فَاعِلًا، أَكَلْتُ (٤٠).

﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٦) يَبْنِيْ أَقْبَرُ الصَّلَوةِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴿

المضردات:

إنه ———: أى: الخصلة من الإساءة أو الإحسان.

إن تَكُ ———: أى: إن تكن فى الصغر قدر حبة الخردل مثلاً.

مِثْقَالُ ———: المِثْقَالُ ما يقدر به غيره لتساوى ثقلهما، وهو فى العُرف معلوم وزنه.

يأت بها الله، يحضرها فيحاسب عليها.

لطيف: يصل علمه إلى كل خفى.

خبير: عالم بكنهه.

إن ذلك ———: إشارة إلى ما ذكر من الصبر على ما أصابك وغيره.

من عزم الأمور: مما عزمه الله وقطعه على عباده وأمر به.

ولا تصعر خدك: ولا تمل خدك عن الناس، ولا تولهم صفحة وجهك، كما يفعل المتكبرون.

التفسير:

١٦ - يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم، ليمثلها الناس ويقتدوا بها، فقال:

يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ...

أى: إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت فى الصغر قدر حبة الخردل مثلاً، وكانت مع ذلك فى أخفى مكان، وأحرزه كجوف الصخرة، أو بعيدة فى السماء، أو قريبة فى الأرض.

يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ...

يحضرها الله يوم القيامة، حين يضع الموازين القسط، ويجازى عليها إن خيرا فخييرا، وإن شرا فشرا.

قال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧).

وقوله تعالى: يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ... إما على ظاهره، أو معناه: بمعنى يحضر ثوابها وجزائها، ويجعلها كالحاضر المشاهد للتذكير والاعتراف بها.

إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . يصل علمه إلى كل خفى، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقت ولطفت واستترت.

خَبِيرٌ . عالم بكنهه ومستقره، عالم بديبب النمل فى الليل البهيم.

١٧ - يَا بَنِي آدَمُ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

يا بنى، حافظ على الصلاة، بحدودها وأركانها وخشوعها، وأدائها فى أوقاتها، لتكون صلة بين العبد وربه.
وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...

بحسب طاقتك وجهدك، محتسبا لله صابرا على ما تلقاه فى سبيل ذلك، إن الصبر على ما أصابك وعلى سائر ما أمرت به مما عزمه الله تعالى، وأمر به أمر إيجاب وإلزام، فلزم قبوله والعمل به والحرص عليه.

١٨ - وَلَا تَصْعَقْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

ولا تتكبر على عباد الله، ولا تمل خدك فيها وعجباً، بل تواضع للناس.

قال الطبرى:

وأصل الصُّعْر داء يأخذ الإبل فى أعناقها أو رءوسها، حتى يلوى أعناقها عن رءوسها، فشبه به الرجل المتكبر.

ومنه قول عمرو التغلبى:

وَكُنَّا إِذَا الْجِبَارُ صَعَّرَ خَدَهُ أَقْسَمْنَا لَهُ مِنْ مَبِيلِهِ فَنَتَوَرَّأُ

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ...

جدلا فرحا متكبرا، متبطرا جبارا عنيدا، أى: لا تفعل ذلك فيفضك الله.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُجِبُ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

والمختال: المتكبر المعجب بنفسه، وهو مأخوذ من الخيلاء وهو التبختر فى المشى كبرا.

والفخور: كثير الفخر والمباهاة بنفسه، وماله، وأعماله وعطائه، والقيل منه جائز إذا كان تحدثا بنعمة الله، مثل اختيال المجاهدين بين الصفيين.

١٩ - وَأَغْضَضْ فِي مَثَبِكَ وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ .

أى: امش مشيا وسطاً بين بين، ليس مثل ديبب المتماوتين، ولا مثل سرعة المفرطين، بل سيرا مقتصداً معتدلاً، والقصد: الاعتدال.

وَأَغْضَضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ .

أى: اخفض من صوتك، واجعله قصداً ولا ترفعه إذا تكلمت، فالصوت الهادئ أوقر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه، إن أقبح ما يستنكر من الأصوات ويستكره منها صوت الحمير.

وهذا تعبير بالصورة حيث لفت الأنظار إلى صورة الحمار عند نهيقه، تحذيراً من رفع الصوت، حتى لا يتشبه صاحبه بالحمار، وهى صورة للتحذير والتنفير من رفع الصوت، وقد استشهد الحافظ ابن كثير بحديث النبى ﷺ: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً»^(١١). ثم قال ابن كثير: وقد أخرج بقية الجماعة سوى ابن ماجه، وفى بعض الألفاظ: «بالليل»، فالله أعلم.

وساق ابن كثير فى تفسيره طائفة من حكم لقمان مثل: إن الحكمة أجلمت المساكن مجالس الملوك.

ثم ساق فصلا فى الخمول والتواضع، وفصلا آخر فى ذم الشهرة، أو الاشتهاى بين الناس بالبيدعة أو الفسوق، ثم فصلا فى حسن الخلق، ثم فصلا فى ذم الكبر، وفصلا فى ذم الاختيال.

وكلها تتلاقى على رسم صورة للمؤمن الموصول قلبه بالله، فهو متواضع ملتزم بمكارم الأخلاق، بعيد عن التكبر والتجبر، يفر من البدعة والخروج عن الصراط المستقيم، وهو ملتزم بهدى النبى ﷺ فى رحمته وتواضعه ومراقبته لله، ويعدى عن التكبر والتجبر، وهذ الوصايا النافعة فى سورة لقمان، ورد نظير لها فى سورة الإسراء، وأيضاً ورد وصف عباد الرحمن فى سورة الفرقان، ومجموع هذه الوصايا التى وردت فى الآيات ٢٢ - ٣٩ من سورة الإسراء، وفى الآيات ٦٣ - ٧٧ من سورة الفرقان، وفى الآيات ١٢ - ١٩ من سورة لقمان، هذه المواطن الثلاثة فى القرآن الكريم، تكون نموذجاً مثالياً لمكارم الأخلاق فى القرآن الكريم، كما ورد فى السنة المطهرة طائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة، تحث المسلمين على التمسك بروح هذا الدين، مثل التكافل والترامح والتعاون، والبعد عن الخصام والسخرية والاستهزاء، وتطفيف الكيل والميزان، والزنا والربا والغرور، وكل أموال الناس بالباطل.

أى أن القرآن والسنة يتلاقيان فى الحث على مكارم الأخلاق، ويحذران من الكبائر والرذائل.

قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (١٣).

وقال ﷺ: «إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منازل يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتقيهون»، قيل: يا رسول الله، هؤلاء الثرثارون المتشدقون، فما المتقيهون؟ قال: «المتكبرون» (١٣).

★ ★ ★

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

المفردات:

سَخَّرَ: ذل، والتسخير: سياقة الشئ إلى الفرض المختص به قهراً.

أَسْبَغَ: أتم وأكمل.

نِعَمَهُ: جمع نعمة، وهى: كل نفع قصد به الإحسان.

يُجَادِلُ: يجاور ويخاصم وينازع فى توحيد الله، وعبادته وصفاته.

بِغَيْرِ عِلْمٍ: بغير برهان من الله.

وَلَا هُدًى: ولا هدى رسول.

كِتَابٍ مُّنِيرٍ: كتاب مرشد.

مَّا أَنزَلَ اللَّهُ: أى: على رسوله من الشرائع المطهرة.

مَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا: يريدون ما عبد آبائهم من دون الله.

التفسير:

٢٠ - أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ .

ألم تمشاهدوا أيها الناس من أدلة القدرة الإلهية، أن الله ذللكم الاستفادة مما خلق فى هذا الكون، حيث جعل السماء سقفا مرفوعا، وزينها بالنجوم والشمس والقمر، والملائكة والسحاب والمطر.

وذلل لكم ما فى الأرض من الثبات والأشجار والأنهار والبحار، والثمار والهواء والفضاء والليل والنهار، والمعادن والدواب وما لا يحصى من النعم.

واسبغ عليكم نعمه الظاهرة منها كالسمع والبصر وحسن القامة، وتسوية الأعضاء، كاليدنين والقدمين والشفنتين واللسان، والبلعوم والمرىء والقلب والمعدة وسائر الأجهزة، كالجهاز الهضمى والجهاز العصبى والجهاز التناسلى والجهاز اللغوى، كما أسبغ عليكم النعم الباطنة التى تشاهد آثارها كالهداية والفهم والعقل.

وكم فى بدن الإنسان من نعم لا يعلمها ولا يهتدى إلى العلم بها، وصدق الله العظيم: وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ... (التحل: ١٨).

فالإنسان مغمور فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار، بنعم الله السابغة الوافرة، التى لا يدرك مداها، ولا يحصى أنماطها.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ .

مع وضوح الأدلة على وجود الله، وظهور آياته فى الأفاق، وتعدد نعمائه وآلائه، فإن فريقاً من المنكرين الجاحدين ينكرون وجود الله، ولا يشكرون ولا يتذكرون، ولا يتدبرون ما حولهم، ولا يهتدون بالنعم المتفضل الكريم، وهم فى جدالهم لا يعتمدون على كتاب ماثور، أو علم صحيح معقول، أو هداية من رسول يوحى إليه، أو كتاب مبين كالقرآن الكريم.

٢١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .

وإذا قيل لكفار مكة أو النضر بن الحارث، وأبى بن خلف، وأشباههم من المجادلين بالباطل: اتبعوا ما أنزل الله تعالى من الوحي والقرآن على رسوله محمد ﷺ، قال هؤلاء المجادلون المكابرون: بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا، من عبادة الأوثان، والتقرب إلى الأصنام، فيصرون على التقليد الأعمى لأبائهم، قل لهم يا محمد: اتبعون الآباء وتصرون على تقليدهم بدون تفكير أو تفكير، وإن كان الشيطان هو الذى يوسوس للأباء والأجداد، ليصدهم عن طاعة الله، ويزين لهم الضلال والكفر وعبادة الأوثان، حتى تكون نهايتهم النار، وعذابها وسعيرها وأهوالها.

وقريب من الآية قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ . (البقرة: ١٧٠).

والآية دليل واضح على تحرير الإسلام للعقل والفكر، وجوب النظر فى الدليل والحجة، والبعد عن التقليد والجمود.

قال الألوسى:

وفى الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر.

وأما اتباع الغير فى الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق، فاتباع فى الحقيقة لما أنزل الله تعالى وليس من

التقليد المذموم فى شيء، وقد قال سبحانه: فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (النحل: ٤٣).

★ ★ ★

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (٢٢) ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهَا إِنَّمَا رَجَعُهُمْ فَنِيَّتُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٢٣) ﴿نَمْنَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٤)

المفردات:

يسلم وجهه: يفوض إلى الله جميع أموره.

محسن: مطيع لله فى أمره ونهيه.

العروة الوثقى: أوثق العرى وأمتنها، وهو مثل، وأصله: أن من يرقى إلى جبل شاهق، أو يريد النزول منه،

يستمسك بحبل متين مأمون الانقطاع.

عاقبة الأمور: مصير الأمور ونهايتها.

فَنِيَّتُهُمْ: فتخبرهم.

ذات الصدور: خبيثة القلوب ودخيلاتها.

نضطرهم: نلجئهم ونلزمهم.

عذاب غليظ: عذاب شديد ثقيل، ثقل الأجرام الغلاظ.

التفسير:

٢٢ - وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

ومن يفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه سبحانه، مع إخلاص القلب وطهارة النية، فقد تمسك بالعروة

الوثقى، والحبل القوى المتين.

والأصل فى العروة الوثقى: أنها الحبل القوى الذى إذا أراد إنسان صعود جبل أو النزول منه تعلق به، فهى

تعبير مصور لبيان أن المسلم المخلص لله، المعتمد عليه، متمسك بأقوى سبب، وأوثق قوة.

وَالِىَ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ .

أى: مصير الأمور ونهايتها إلى الله، ومن وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء.

قال ابن كثير: فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ... أى: فقد أخذ موثقاً من الله متيناً انه لا يمدّبه.

وقال الفخر الرازى فى التفسير الكبير:

أوثق العرى جانب الله، لأن كل ما عداه هالك منقطع، وهو باق لا انقطاع له.

٢٢ - وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

يقابل القرآن بين موقف المؤمن المستمسك بحبل الله تعالى، وموقف الكافر، فيقول للنبي ﷺ: لا تحزن ولا تبتئس بإصرار الكافرين على الكفر، وإعراض المشركين عن دعوة التوحيد، فكل هؤلاء سيرجعون إلى الله تعالى فى الآخرة، فيعلمهم بأعمالهم، ويحاسبهم ويجازيهم جزاء عادلاً من جنس أعمالهم، فالله تعالى مطلع على ما فى نفوسهم، وخبير بخبيثة القلوب ودخيلاتها، قال تعالى على لسان لقمان الحكيم:

يَا بُنَيَّ إِنِّي إِذَا نَكَرْتُ مَقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان: ١٦).

جاء فى صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابوني:

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . أى: عليم بما فى قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليه.

٢٤ - نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

هؤلاء الكفار يتمتعون فى الحياة الدنيا بما يستمتع به الكافر من زينة الدنيا وبهجتها، لكنه فى الآخرة يلجأ لجوء المضطر إلى عذاب شديد اليم، يضيق عليه فى جهنم، وإذا شاهد ألوان العذاب والضيق، رأى أنه لم ير نعيماً قط فى الدنيا، بالنسبة لما هو فيه من ألوان العذاب.

قال تعالى: مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . (يونس: ٧٠).

وقد عبر القرآن عن متاع الدنيا بأنه قليل، لأن الآخرة هى الحياة الحقيقية البرزخية الأبدية.

قال تعالى: قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء: ٧٧).

وقال سبحانه وتعالى: بَلْ تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (الأعلى: ١٦، ١٧).

وفى الحديث النبوى الشريف: «إذا دخل المؤمن الجنة، قال الله تعالى له: يا عبدى هل رأيت بُؤْسًا قط، فيقول: لا يا ربّ ما رأيت بُؤْسًا قط، وإذا دخل الكافر جهنم، قال له الله تعالى: يا عبدى هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا يا ربّ لم أر نعيمًا قطه»^(٤٤).

فالكافر من هول ما يرى من العذاب الغليظ، يهون ويضعف ويذهب فى سبيل البعد عنه كل نعيم، فيقول: يا رب لم أر نعيمًا قط، بجوار ما أنا فيه من العذاب.

قال تعالى: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . (العنكبوت: ٦٤).

أى إن الحياة الحقيقية الأبدية السرمدية هى حياة الآخرة.

★ ★ ★

﴿وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٤٥) لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٦﴾

التفسير:

٢٥ - وَلَيْنَسْأَلَنَّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أقسم حقاً أنك يا محمد إذا سألت هؤلاء المشركين: من الذى خلق السماوات والأرض؟ فإن أجابتهم ستكون: خلقهن الله.

فهذه السماء المرفوعة الممتدة العالية، لا يرفعها ولا يمسكها غير الله، وهذه الأرض المبسوطة الممتدة الواسعة الأطراف طولاً وعرضاً، لا يحفظها غير الله، والقطرة السليمة تشهد بأن هذا الخلق البديع المنظم لا يقدر على خلقه غير الله، ولم يدع أحد أنه خلق السماوات والأرض، ولابد لهما من خالق، لأن كل مخلوق لابد له من خالق، ولن يكون هذا الخالق إلا الله.

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ...

الحمد لله الخالق القادر، الحمد لله الذى أودع فى فطرة الإنسان الاعتراف بالحق، وبالعظمة والقدرة لله، والحمد لله على كلِّ حال.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى: أكثر المشركين لا يعلمون من له الحمد، ومن له الخلق والأمر، ومن يستحق العبادة، ومن ثمَّ يجادلون ويجهلون منطق الفطرة ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم.

٢٦ - اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

الله تعالى له ما فى السماوات من املاك وافلاك، وابراج وشموس واقمار وغير ذلك، وله ما فى الأرض من خلق وشجر ونهر، وبحر وجبل وسهل وغير ذلك، له سبحانه ما فيهما ملكا وخلقاً وتصرفاً، وليس ذلك لأحد سواه، فلا يستحق العبادة فيهما غيره، إن الله تعالى هو، الْغَنِيُّ . عن جميع خلقه، الْحَمِيدُ . المحمود على سائر صفاته والطافه وإنعامه.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر: ١٥).

★ ★ ★

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾

التفسير:

٢٧ - وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

تدل الآية على سعة علم الله تعالى، فكمالاته تعالى لا تحد، وقدرته وعلمه وإرادته وسائر صفاته لا حدود لها .

ويضرب القرآن مثالا محسوساً، حيث كانت الناس تكتب بأقلام البوص، وتملأ الدواة أو الزجاجاة بالحبر لكتابتها المحدودة، فأفاد القرآن أن جميع ما فى الأرض من أشجار لو تحولت إلى أقلام، والبحر تحول إلى مداد، لتكتب كلمات الله وآياته ومعلوماته لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله، ولو جئنا لهذا البحر بسبعة أبحر مثله، وتحولت البحور إلى مداد لتكتب آيات الله وكلماته، فستنفد البحور كلها قبل أن تنفد كلمات الله وآياته .

إن الله عَزِيزٌ . غالب مقتدر، حَكِيمٌ . فى تصرفاته فلا يخرج عن الحكمة ما يتكلم به .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مِدَادًا . (الكهف: ١٠٩).

وقد ذكر ابن كثير وغيره أن سبب نزول هذه الآية ما يأتى:

قال المشركون: إنما هذا الكلام الذى يأتى به محمد يوشك أن ينفد، فقال تعالى: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ...

وعن ابن عباس: أن أحبار يهود قالوا للنبي ﷺ: أرايت قولك: وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء: ٨٥) .
 إيانا تريد أم قومك؟ فقال ﷺ: «كلا عنيته»، فقالوا: ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتيتنا التوراة فيها تبيان لكل
 شيء؟ فقال ﷺ: «إنها في علم الله قليل، وعندكم من ذلك ما يكفيكم»، وأنزل الله فيما سألوه عنه من ذلك: وَلَوْ
 أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ... أ هـ .

قال العلماء: والمراد بالآية الإعلام بكثرة معانى كلمات الله، وهى غير متناهية فى نفسها، وإنما قرب
 الأمر بهذا المثال لأفهام البشر بما يتناهى؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، لا أنها تتفد بأكثر من هذه
 الأقلام والبحور ...

قال الآلوسى: والمراد بكلمات الله تعالى، كلمات علمه سبحانه وحكمته .

وقيل: المراد بها: مقدوراته، وعجائب خلقه، والتى إذا أراد سبحانه شيئاً منها، قال له كن فيكون . أ هـ .

وفى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ما يأتى:

ليس المراد بذكر العدد فى قوله: سَبْعَةُ أَبْحُرَ . خصوص العدد، وإنما المراد الكثرة، واختير عدد سبعة
 بخصوصه من بين الأعداد، لأن كثيراً من المعدادات التى لها شأن سبع، كالسماوات، والكواكب السيارة، وإيام
 الأسبوع، إلى غير ذلك . أ هـ .

ومما يستحق التأمل أننا الآن فى عام ١٤٢١ هـ بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن
 الكريم، وقد كتب فى تفسير القرآن الكريم أكثر من ثلاثة آلاف تفسير، فضلاً عن كتب علوم القرآن وبلاغته
 وإعرابه وإعجازها، وما يتصل به من دراسات متعددة، ولا يزال القرآن الكريم مصدر هداية وإعجاز وإرشاد، ومع
 تقدم العلوم والتقنية، فإن هذا التقدم العلمى، لم يصطدم بأى حقيقة علمية ذكرت فى القرآن، بل إن العلم الحق
 أصبح يؤكد ويؤيد ويتناسق مع ما ذكره القرآن.

وفى كتاب: «التوراة، والإنجيل، والقرآن فى ضوء العلم»، للمستشرق موريس بوكاى ما يفيد الآتى:

تكلمت التوراة عن بدء الخليقة، وعن أمور تاريخية وعلمية، واصطدمت أخبار التوراة بحقائق العلم،
 وكذلك الأنجيل، لكن القرآن تكلم عن خلق الكون، وخلق آدم ومراحل تكون الجنين فى بطن أمه، وانتهاء إحساس
 الجلد بالعذاب بعد احتراقه، وأهمية الحديد والصلب فى الصناعة والعلم، وتنوع الاختراعات والابتكارات فى
 آفاق العلم، وفى أفاق النفس، وتطور وسائل المواصلات، وتقوى الأوكسجين فى طبقات الجو العليا، واضطراب
 الكون عند نهاية الدنيا، وتحول الشمس إلى ما يشبه النجوم القزمة، وتسيير الجبال، وتشقق السماء وانطلاس
 ضوء النجوم، وانمحاق الشمس والقمر، وتبديل الأرض والسماوات، وغير ذلك من الحقائق التى أيدها العلم، ولا
 يزيدها التقدم العلمى إلا تأليداً وتصديقاً، مما يؤيد أن القرآن هو حقاً كتاب الله، وأنه معجز، خصوصاً أنه نزل
 على نبي أمي، خلال القرن السادس الميلادى، ولم تكن اكتشفت حقائق علمية كثيرة عرفت فيما بعد .

فالدورة الدموية مثلا يعتبرها العلماء من ابتكار هارفى فى القرن العاشر الميلادى، وهذه الحقيقة جاءت على لسان نبي أمى فى قول القرآن الكريم: وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُؤْذِنُوا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ . (التحل: ٦٦).

وكذلك قوله تعالى: سَتَرْنَاهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت: ٥٢).

والخلاصة: القرآن كلام الله حقا، ومعانيه وآدابه وأحكامه وتشريعاته وهداياته، لا نهاية لفضلها وبركتها. كما قال سبحانه: وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

٢٨ - مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّا إِلَّا كَفَسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

قدرة الله لا حدود لها فهو على كل شيء قدير، وخلق الخلائق جميعا من أول آدم إلى قيام الساعة حين على الله تعالى خلق نفس واحدة، ويث جميع الخلائق وإخراجهم من قبورهم، وإعادة الحياة إليهم للحساب والجزاء حين على الله تعالى، كعبث نفس واحدة، لأن الله على كل شيء قدير، فهو يصدر الأمر مرة واحدة لا يكرره.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس: ٨٢).

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم: ٢٧).

قال ابن كثير:

أى: ما خلق جميع الناس، ويعثهم يوم الميعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كفسية خلق نفس واحدة، الجميع حين عليه.

قال تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ . (القم: ٥٠).

أى: لا يأمر بالشئ إلا مرة واحدة فيكون ذلك الشئ، لا يحتاج إلى تكراره وتوكيده.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

أى: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم، كسمعه ويصره بالنسبة إلى نفس واحدة، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة.

ولهذا قال تعالى: مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّا إِلَّا كَفَسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُبْلِغُ أَلْفَ نَفْسٍ فِي النَّهَارِ وَيُؤْتِيهِمُ الْغَاثَ وَالشَّرَّاءَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ أَبْطُلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٣٠) الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٣١) وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْأَكْثَرُ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)

المفردات:

يؤتوهم الليل، يدخل الليل، والمراد: أنه يضيف الليل إلى النهار، والعكس بالعكس، فبعضها بذلك حال أحدهما زيادة وتقصانا.

سبحانهم: سبىهم وذلل.

كل يسير، كل يسير سيرا سريعا.

إلى أجل مسمى: قيل: هو يوم القيامة، وقيل: هو منتهى دورتهما.

بتعمة الله: بما تحمله من الطعام والمتاع ونحوهما.

غشاهم: غطاهم وأحاط بهم.

كالظلل، الظل: جمع ظلة، وهو ما يستظل به من جبل وسحاب وغيرهما، وقال الراغب: الظل: السحابة تظل.

مقنصدا: سالك للقصد السوى من التوحيد.

غفار: شديد الغدر والخسر، قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وخسر

تمهيد:

تعدد الآيات جانباً من دلائل القدرة الإلهية، والنعمة المتعددة من الله على عباده، ومن هذه النعم ما يأتي:

١ - زيادة الليل في الشتاء والنهار في الصيف، وتسخير الشمس والقمر طلوعاً وأقرباً.

٢ - الله هو الحق، والأصنام والأوثان باطل.

٣ - السفن تسير فى البحر، تحمل نعم الله من القمح والشعير والأغذية، والفواكه والملابس وسائر الأمتعة، ليستفيد من ذلك المصنِّد والمستورد.

٤ - راكب البحر يتعرض لهياج البحر، فيخلص فى الدعاء، فإذا هدا البحر ووصل إلى اليابسة، فالناس قسمان: مؤمن شاكر، وكافر جاحد.

التفسير:

٢٩ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

ألم تنظر أيها العاقل، أو يا كلَّ من يتأتى منه النظر، أن الله يطيل الليل فى الشتاء، فيأخذ الليل ساعات النهار، تدريجيا حتى يصل الليل إلى أربع عشرة ساعة، ثم يقصر الليل تدريجيا، حتى يصل فى الصيف إلى عشر ساعات، والنهار إلى أربع عشرة ساعة، وقد ذلَّ الشمس والقمر، وخلقهما مسخرين، تطلع الشمس فى ميعادها، تملأ الكون بأشعتها، وتدير للمخلوقين، وتمدُّ الكون بالضوء والحرارة، ويستفيد منها الإنسان والحيوان والنبات، والقضاء والهواء والأفلاك والأقمار، وقد سخر الله القمر قييدا هلالاً صغيراً، ثم يكبر تدريجيا حتى يصبح بدرًا كاملاً، ثم يتناقص فيرجع صغيراً كما بدأ، وإذا انتهى أمر الدنيا انعدم ضوء الشمس، وانعدم ضوء القمر، فالشمس والقمر نيران مسخران إلى أمد محدد، هو يوم القيامة، أو نهاية عمرهما حيث تصبح الشمس من النجوم القزمة.

قال تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ . (التكوير: ١، ٢).

أى: إذا انتهت وظيفة الشمس والنجوم، قامت القيامة وبدأ الحساب والجزاء.

وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

فهو سبحانه مطلع وشاهد، يرى كل شيء، لا تخفى عليه خافية، وسيحاسب الإنسان على عمله، ويجازيه عليه جزاء السميع البصير الخبير.

٣٠ - ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

ما تراه من أثر القدرة الإلهية فى الخلق والمراقبة والإيجاد والعدم، واختصاص البارئ سبحانه وحده بذلك، ثابت بسبب أن الله وحده هو المتحقق فى ذاته، وفى جميع صفاته، والكلمات الثلاثة بربوبيته، فهو سبحانه الحقيقة الأبدية، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، هو سبحانه حتى لا يموت، والجن والإنس يموتون، وكل ما نراه متغير وفان، والله وحده الدائم الباقي.

قال تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

هنا يبين الله تعالى أن كل ما على الأرض من أصنام وأبقار وأشجار، وآلهة متعددة، باطل ليس له حقيقة الألوهية، فلا إله إلا الله، وأن الله سبحانه هو العلى الكبير، المتعالى على جميع الأشياء، الكبير عن أن يتصف بنقص، أو أن يكون له شريك.

٣١ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نَبْعَةً اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

من شأن القرآن أن يلفت أنظار الناس، وأن يرشدهم إلى أنعم الله حولهم، فقد سبق أن لفت نظرهم، إلى ما فى السماء، من تسخير الشمس والقمر، والليل والنهار، وفى هذه الآية يلفت النظر، إلى أنعم الله فى الأرض والبحر، فتسلك والسفن تجرى فوق سطح الماء، وتحركها الرياح التى سخرها العليم القدير، فأنعم الله تحركها، وهى فى نفس الوقت تحمل التجارة والطعام، والفواكه والأرزاق، من بلد إلى آخر فيستفيد المصدر والمستورد، ويربح التاجر ويستفيد الناس، وفى هذه النعم دلائل بينات، لكل صبار كثير الصبر على البأساء، شكور كثير الشكر على النعماء.

فالصبر نصف الإيمان، ومن دلائل الإيمان الصبر على البأساء، والشكر على النعماء، والرضا بالقضاء.

وراكب البحر إذا كان مؤمنا صبر على الأنواء والرياح العاتية، منتظرا الفرج، فإذا سارت الريح رخاء وهذا الموج شكر الله تعالى على أنعمه، فهو الجدير بأن يرى آيات الله أمامه، متمثلة فى أنعمه العديدة، فيصبر على الشدائد، ويشكر الله على النعم المتعددة، كما قال تعالى:

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

وقال سبحانه وتعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ . (إبراهيم: ٧).

٣٢ - وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...

تصور هذه الآية طبيعة الإنسان، فهو فى الشدة والكرب يلجأ إلى الله لجوء المضطر، وعندما يكون فى البحر وتشتد الرياح، ويرقع الموج ويظلل الناس من شدة ارتفاعه، كأنه غمامة فوق رؤوسهم، فإنهم يستولى عليهم الهلع والجزع، ويخافون الموت، فيخلصون فى الدعاء لله تعالى أن ينجيهم من هذه الكارثة.

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

فإذا استجاب الله الدعاء، ونجاهم من البحر إلى البر، ووطئت أقدامهم اليابسة، وجدنا بعض الناس مستمرًا على إيمانه وإخلاصه، فهو مقتصد مقيم على القصد، أى: الطريق السوى وهو التوحيد، باق على الإخلاص الذى كان عليه فى البحر عند القزع.

كما نجد أن بعض الناس قد رجع إلى الغدر والكفر، فلا يذكر لله فضلا، ولا يشكر لله نعمة.

وَمَا يَجِدُ بآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

وما ينكر نعم الله وفضله، إلا كل غادر شديد الغدر، كفور شديد الكفر.

جاء فى تفسير القرطبي:

قال ابن عباس: مُقْتَصِدٌ . موف بما عاهد عليه الله فى البحر.

وقال النقاش: يعنى عدلٌ فى العهد، وفى فى البر بما عاهد عليه الله فى البحر.

وقال الحسن: مُقْتَصِدٌ . مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة.

وقيل: فى الكلام حذف، والمعنى: فمنهم مقتصد، ومنهم كافر، ودلّ على المحذوف قوله تعالى:

وَمَا يَجِدُ بآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .

الختار: الغدار، والختر: أسوأ الغدر.

قال عمرو بن معد يكرب:

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدرٍ وختَرٍ

قال الجوهرى: الختر: الغدر، يقال: ختره فهو ختار، وقال عطية: إنه الجاحد.

والخلاصة:

أن أنعم الله متعددة، ومن بين هذه النعم استجابة دعاء المضطرين، ونجاة المكروبين من قلب العاصفة، إلى البر والسلام والأمان، وبعد النجاة نجد المؤمن الشاكر، والختار الشديد الغدر، والكفور الجاحد، الذى يجحد آيات الله وينكرها، بعد أن شاهدها بعينه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٢﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

المفردات:

اتَّقُوا رَبَّكُم: خافوا عقابه.

واخشوا يومًا: هو يوم القيامة.

لا يَجْزِي: لا يُغْنِي ولا يقضى.

فَلَا تَغُرَّنَّكُم: فلا تلهينكم ولا تخدعنكم.

الْغُرُور: الشيطان، أو ما غرَّ الإنسان من مال وجاه، وشهوة وشيطان.

السَّاعَةِ: القيامة.

الْغَيْث: المطر.

مَا فِي الْأَرْحَامِ: ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله، ومستقبله وعمره ورزقه، وشقى أو سعيد.

وَمَا تَدْرِي: وما تعلم.

التفسير:

٣٢ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ.

فى ختام سورة لقمان يأتى هذا النداء الإلهى للناس أجمعين، يدعوهم للإيمان بالله ومراقبته وتقواه، أى خشيته والخوف من معصيته، والالتزام بطاعته، والخوف من الحساب والجزاء يوم القيامة، حيث يشتد الهول ويشيب الوليد، ويذهل الإنسان سكران من غير مسكر، فى ذلك اليوم تكون المسئولية فردية، ويتحمل كل إنسان جزاء عمله، فلا ينفع الأب ابنه، ولا يقضى عنه شيئاً، وكذلك المولود لا ينفع أباه ولا يقضى عنه شيئاً، فكل إنسان مرتبه بعمله، إن وعد الله تعالى بمجىء القيامة، ومحاسبة الناس حق، وصدق لا خلف فيه.

فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...

بمشاغلها وأموالها، وما فيها من مناصب وجاه وسلطان، وتجارة وعمارة، يتنافس الناس فيها، فالعاقل من جعل الدنيا مزروعاً الآخرة، واستثمر دنياه فى إعمار آخرته، هاquam الصلاة وآتى الزكاة، وأدى الواجبات، واجتنب المنهيات.

وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .

لا تغرركم متع الدنيا، من الشباب والمال والجاه والسيطان.

قال الراغب: الغرور كل ما يغر من مال وجاه وشهوة وشیطان.

وقال غيره: لا يغرركم الشيطان بتزيين المعاصى، وتأخير التوبة، حتى يفاجئكم الموت.

قال فى ظلال القرآن:

وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . من متاع يُلهى، أو شغل يُبْسِى، أو شيطان يوسوس فى الصدور، والشياطين كثير، الغرور بالمال شيطان، والغرور بالمع شيطان، والغرور بالمعمر شيطان، والغرور بالقوة شيطان، والغرور بالسلطان شيطان، ودفعة الهوى شيطان، ونزوة الشهوة شيطان، وتقوى الله وتصور الآخرة هما المعاصم من كل غرور.

٣٤ - إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

هذه الآية ختام سورة لقمان، وتعرض جانباً من مظاهر علم الله تعالى، فهو سبحانه علام الغيوب، وتذكر الآية خمسة أمور:

١ - إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ . فهو سبحانه المستأثر بمعرفة يوم القيامة، لا يعلم ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل، لَا يُجْلِيهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ ... (الأعراف: ١٨٧).

ولعل حكمة ذلك أن يظل الإنسان مترقباً الموت، فقد يأتى فجأة فى ليل أو نهار، وفى الأثر : من مات فقد قامت قيامته.

٢ - وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ . فهو سبحانه الذى يرسل المطر فى وقته، بلا تقديم ولا تأخير، وفى بلد لا يتجاوزه إلى غيره، وبمقدار تقتضيه حكمته.

٣ - وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ . فهو سبحانه العليم بكل ما يتصل بهذا الجنين، من رزق وعمر، وهداية أو ضلال، وإن علم الإنسان ما يتصل بنوع الجنين من ذكورة أو أنوثة، فإنه لا يعلم شيئاً عن مستقبله وأجله ورزقه وشقاوته أو سعادته.

٤ - وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . لا يعلم الإنسان ماذا يكسب غداً من خير أو شر، ومن نفع أو ضرر، ومن يسر أو عسر، ومن صحة أو مرض، ومن طاعة أو معصية، كل ذلك فى أمر الغيب، يعلمه علام الغيوب وحده، وشاعت حكمته أن يخفى ذلك، ليستمر تعلق الإنسان بربه، ودعاؤه له وصلاته، فهو سبحانه يقول: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... (غافر: ٦٠).

هـ - وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . أى: لا يدري أحد أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم في بر، أم في سهل أم في جبل.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

هو سبحانه عالم الغيب مطلع على الظاهر والباطن، محيط علمه بكل كبيرة وصغيرة، خبير بخفايا النفوس وبواطنها وظواهرها.

قال تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (الأنعام: ٥٩) .

فهذا العلم الشامل لكل ما في الغيب، وللبر والبحر، وللأشجار والأوراق، وللورقة الساقطة من فوق الشجر، ولكل حبة في ظلمات الأرض، وللأرض اليابسة والأرض التي غمرتها المياه، كل ذلك مسجل في علم الله الذي لا يحول دونه حائل، من ليل أو نهار، أو أرض أو سماء، أو غائب أو شاهد. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

روى البخارى، ومسلم، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ، قال: «مفاتيح الغيب خمس: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، إن الله عليم خبير» (١٥).

وأخرج ابن المنذر، عن عكرمة، أن رجلاً يقال له: الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، متى قيام الساعة؟ وقد أجبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأى أرض ولدت، فيأى أرض أموت؟ فنزلت الآية: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

خلاصة ما اشتملت عليه سورة لقمان

- ١ - القرآن هداية ورحمة للمؤمنين.
- ٢ - قصص من ضل عن سبيل الله بغير علم، واتخذ آيات الله هزوا.
- ٣ - وصف العالم العلوى، والعالم السفلى، وما فيهما من العجائب الدالة على وحدانية الله.
- ٤ - قصص لقمان، وإيتاؤه الحكمة، ثم نصائحه لابنه.
- ٥ - النعى على المذنبين فى ركونهم إلى التقليد، إذا دعوا إلى النظر فى الكون وعبادة الله.
- ٦ - تعجيب الرسول من المشركين، حيث يقرون بأن الله هو الخالق لكل شىء، ثم هم يعبدون معه غيره ممن هو مخلوق مثلهم.
- ٧ - نعم الله ومخلوقاته لا حصر لها.
- ٨ - الأمر بالنظر إلى الكون وعجائبه، لتسترشد بذلك إلى وحدانية الصانع.
- ٩ - الأمر بالخوف من عقاب الله يوم لا يجزى والد عن ولده.
- ١٠ - مفاتيح الغيب الخمسة التى استأثر الله بعلمها.
- ١١ - إحاطة علمه تعالى بجميع الكائنات ظاهرها وباطنها.

تفسير سورة السجدة

أهداف سورة السجدة

سورة السجدة مكية، وآياتها ٣٠، نزلت بعد سورة غافر، وقد نزلت سورة السجدة فى المرحلة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة، إذ كان نزولها بعد الإسراء وقبيل الهجرة.

أسماء السورة:

لسورة السجدة ثلاثة أسماء:

الاسم الأول: سورة السجدة، لاشتغالها على سجدة التلاوة فى قوله تعالى: **إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** . (السجدة: ١٥).

الاسم الثانى: سجدة لقمان^(١٦)، للتمييز عن حم السجدة، وهى سورة فصلت.

الاسم الثالث: المضاجع، لقوله تعالى: **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ** ... (السجدة: ١٦).

مخاطبة القلوب

سورة السجدة نموذج متميز من نماذج الخطاب القرآنى للقلب البشرى، بالمقيدة الضخمة التى جاء القرآن ليوقظها فى القطر، ويركزها فى القلوب، وهى عقيدة الدينونة لله الأحد، الفرد الصمد، خالق الكون والناس ومدبر السموات والأرض وما بينهما، وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله، والتصديق برسالة محمد ﷺ، الموحى إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلى الله، والاعتقاد بالبعث والقيامة، والحساب والجزاء... هذه هى القضية التى تعالجها السورة، وهى القضية التى تعالجها سائر السور المكية، كل منها تعالجها بأسلوب خاص، ومؤثرات خاصة، تلتقى كلها فى أنها تخاطب القلب البشرى، خطاب العليم الخبير المطلع على أسرار هذه القلوب وخفاياها، المعارف بطبيعتها وتكوينها، وما يستكن فيها من مشاعر، وما يعترئها من تأثيرات واستجابات فى جميع الأحوال والظروف.

وسورة السجدة تعالج تلك القضية بأسلوب وبطريقة غير أسلوب وطريقة سورة لقمان السابقة، فهى تعرضها فى آياتها الأولى، ثم تمضى بيقينها تقدم مؤثرات موقظة للقلب، منيرة للروح، مثيرة للتأمل والتدبر كما تقدم أدلة وبراهين على تلك القضية، معروضة فى صفحة الكون ومشاهده، وفى نشأة الإنسان وأطواره، وفى مشهد من مشاهد اليوم الآخر حافل بالحياة والحركة، وفى مصارع الغابرين، وآثارهم القاطعة الناطقة بالعبارة لمن يسمع لها ويتدبر منطقها.

«كذلك ترسم السورة صورةا للنفس المؤمنة فى خشوعها وتطلعها إلى ربها، وللنفس الجاحدة فى عنادها ولجأها، وتعرض صورةا للجزاء الذى يتلقاه هؤلاء وهؤلاء، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان، يشهده كل قارئ لهذا القرآن.

وفى كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشرى بما يوقظه ويحركه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة، وإلى الخوف والخشية مرة، وإلى التطلع والرجاء مرة، وتطالع تارة بالتحذير والتهديد، وتارة بالإطماع وتارة بالإقناع .. ثم تدعه فى النهاية تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين، تدعه لنفسه يختار طريقه، وينتظر مصيره على علم، وعلى هدى، وعلى نور» (٤٧).

أفكار السورة ونظامها

تبدأ سورة السجدة بالحديث عن القرآن، وتبين أنه حق من عند الله، وتبين قدرة الله وعظمته، فهو خالق السماوات والأرض، وهو المهيمن على الكون، وهو المدبر للأمر كله، وهو الخالق للإنسان، الذى وهبه السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلا ما يشكرون. وبذلك عالجت قضية الألوهية وصفتها: صفة الخلق، وصفة التدبير مذكورة فى سياق آيات الخلق والتكوين، وتستغرق هذه المجموعة بما فيها صفة الإحسان، وصفة الإنعام، وصفة العلم، وصفة الرحمة، تستغرق من أول السورة إلى الآية ٩ .

ثم تتحدث الآيات عن إنكار الكافرين للبعث والحساب، وتجييبهم بأن البعث حق، وتعرض مشهدا من مشاهد القيامة يقف فيه المجرمون أذلاء يعلنون يقينهم بالآخرة، ويقينهم بالحق الذى جاءت به الدعوة المحمدية.

وإلى جوار هذا المشهد البائس المكروب تعرض مشهد المؤمنين فى الدنيا وهم يعبدون الله، ويسجدون لعظمته، ويقومون الليل بالصلاة والعبادة، ثم تبشرهم بحسن الجزاء: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (السجدة: ١٧).

ثم تشير الآيات إلى أن منطق العدالة يأتى أن يستوى المؤمن والفاسق، فقد اختلفا فى العمل فى الدنيا، فيجب أن يختلف الجزاء فى الآخرة، فلهؤمنين جنات المأوى، وللفاسقين عذاب منوع فى جهنم، وتستغرق هذه المجموعة الآيات من (١٠ - ٢٢).

وفى الآيات الأخيرة من السورة ترد إشارة إلى موسى عليه السلام، ووحدة رسالته ورسالة محمد ﷺ والمهتدين من قومه.

وتتقب هذه الإشارة جولة فى مصارع الغابرين من القرون وهم يمشون فى مسالكهم غافلين، ثم جولة فى الأرض الميتة ينزل عليها الماء بالحياة والنماء فيتقابل مشهد البلى ومشهد الحياة فى سطور، ويتسائل الكفار فى

استخفاف عن موعد يوم الفصل بين الفريقين، ويجب القرآن بأنه إذا أتى يؤمنون بصدقه، فلا ينفعهم إيمانهم، ولا يهولون ليستدركوا ما فاتهم.

وتختتم السورة بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ أن يعرض عنهم، وأن ينتظر ما يحل بهم من جزاء لعنادهم وكفرهم، قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ . (السجدة: ٢٨ - ٣٠).

وتختتم السورة على هذا الإيقاع العميق، بعد تلك الإيعاءات والمشاهد والمؤثرات، وخطاب القلب البشرى بشتى الصور التى تأخذه من كل جانب، وتأخذ عليه كل طريق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ
بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مَن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

المفردات:

الـم، حروف للتحدى، والتبويه على إعجاز القرآن الكريم، أو هى كالجرس الذى يُقرع؛ فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة.

تنزيل الكتاب، أنزل القرآن.

لا ريب فيه، لا شك فيه.

افتراه، اختلقه من عند نفسه.

بل هو الحق، القرآن هو الحق الثابت المنزل من الله.

لتنذروا، لتخوف وتحذروا.

ما أتاهم من نذير، إذ كانوا أهل الفترة، لعلهم يهتدون بإنذارك إياهم.

التفسير:

١ - الم .

أحرف للتحدى وبيان إعجاز القرآن الكريم، فهو مؤلف من حروف عربية ينطقون بها، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر، ولكنه تنزيل من حكيم حميد.

وقيل: هى أدوات للتبويه، وإثارة الاهتمام، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة، فكذاك إذا قرعت أسماع العرب هذه الأحرف، التى لم يألخوا سماع أمثالها تبهوا، فيقرأ القرآن عليهم ما بعدها من الآيات.

٢ - تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

هذا القرآن الكريم، لا شك أنه منزل من عند الله رب العالمين، على رسوله محمد ﷺ، فليس سحرا ولا شعرا ولا كهانة، ولكنه كلام الله خالق الناس أجمعين.

٣ - أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ بِأَنَّ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُبَرِّرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

بل يقول كفار مكة: محمد قد افترى القرآن واختلقه من عند نفسه، وادعى أنه وحى من السماء وما هو بوحى.

بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ...

القرآن حق من عند الله خالق الكون، والقرآن تشريع إلهى عادل، لا تضارب فيه ولا تناقض، بل هو تشريع عادل منصف، يخاطب الفطرة الإلهية، ويواجه الناس أجمعين، الأمى والمتعلم، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فهو هداية السماء، وحقيقة الوحى، أنزله الله رب العالمين.

لَتُبَرِّرَ قَوْمًا مَا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ .

أرسل الله محمدًا ﷺ إلى العرب خاصة، وإلى الناس عامة، وكانت رسالة إسماعيل عليه السلام إلى جرهم من العرب العاربة، ومرت فترة طويلة بين إسماعيل ومحمد ﷺ، فلم يرسل رسول فى هذه الفترة إلى قريش، ولا إلى آبائهم الأقربين، وقريش من العرب المستعربة التى هى من نسل إسماعيل وجرهم، وكان محمد ﷺ أول رسول إلى قريش، ولا يعرف التاريخ رسولا بين إسماعيل عليه السلام جد العرب الأول، وبين محمد ﷺ، وقد أنزل عليه القرآن الكريم لينذرهم به.

لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . إلى شرع الله والإيمان به وباليوم الآخر.

★ ★ ★

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾

المفردات:

فى ستة أيام: فى ست مراحل من مراحل الخلق والتكوين، تقدر عند العلماء بـ ٦ مليارات سنة، ولم تكن مثل أيام الدنيا، حيث لم يكن فى ذلك الوقت شمس أو قمر.

ثم استوى: ثم استولى.

على العرش، العرش أعظم المخلوقات، وهو لغة: سرير الملك، والمقصود: قام وحده بملك كل شيء، وتدبير سمواته وأرضه بعد خلقهما.

من ولي ولا شفيع، من ناصر ينصركم، ولا وسيط يشفع لكم.

يدبر الأمر: يدبر أمر الدنيا مدة بقائها، على وجه الإقتان ومراعاة الحكمة.

التفسير:

٤ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ .

الله تعالى هو الذي خلق السماوات وما فيها من أفلاك وأبراج وأملاك، وشموس وأقمار ونظام بديع، مرت عليه ملايين السنين، دون أن يصيبه خلل أو اضطراب، وكذلك خلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، وليل ونهار، ورياح وقضاء وهواء.

وَمَا بَيْنَهُمَا ... من قضاء وهواء وكائنات لا يحيط بحقائقها إلا الله الواحد القهار .

في سِتَّةِ أَيَّامٍ ... في ست مراحل من مراحل الخلق والتكوين، حيث كان الكون كرة ملتهبة، مرت بها مراحل متعددة، لتفصل السماء وترتفع، وتتفصل الأرض وتتبسط، ويكون بينهما خلق وسيط من القضاء والهواء، وقد مرت ستة بلايين سنة على خلق هذا الكون حتى صار صالحا للحياة^(٤٨).

قال في ظلال القرآن:

تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما، حتى انتهت إلى ما هي عليه، أو ست مراحل في النشأة والتكوين، أو ستة أدهار، لا يعلم ما بين أحدهما والآخر إلا الله.

وهي على أية حال شيء آخر غير الأيام الأرضية، التي تعارف عليها أبناء الفناء، فلنأخذها كما هي، غيبا من غيب الله، لاسبيل إلى معرفته على وجه التحديد .

إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير في الخلق، وفق حكمة الله وعلمه، وإحسانه لكل شيء خلقه، في الزمن والمراحل والأطوار المقدرة لهذا الخلق العظيم .

ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ...

ثم استولى على ملك الأشياء، ودبر ملكه بعد تمام خلقه، لم يمنه في ذلك أحد، ولم يحتج إلى نصير أو شريك، فقدروا قدرته، واشكروا نعمته.

مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ...

إنه سبحانه وتعالى المالك للكون والمدير له، وهو الإله الواحد، فاقصدوه واعبدوه، فمن ترك عبادته لا ينفعه ناصر ينصره، ولا وسيط يشفع له، أو يدفع عنه عذابه، أو يجيره من بأسه.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله، والاتجاه إليه وحده دون سواه.

٥ - يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

يدبر أمر الكون كله فى العالم العلوى والسفلى، ثم يصعد إليه اثر الأمر وتنفيذه بواسطة الملائكة، وهذا تمثيل لعظمة الله، وامتنال المخلوقات جميعا لمراده وتدييره، كالحاكم المطلق الذى يصدر أوامره، ثم يتلقى من اعوانه ما يدل على تنفيذهما.

قال الألوسى:

والمراد بعروج الأمر إليه بعد تدييره - سبحانه - وصول خبر وجوده بالفعل كما دبر، إظهارا لكمال عظمته وعظيم سلطانه، وذلك كمرض الملائكة عليه أعمال العباد الوارد فى الأخبار. أ هـ. (باختصار).

وفى تفسير القرطبى ما يأتى:

وقال ابن عباس: المعنى كان مقداره لو سار غير الملك ألف سنة، لأن النزول خمسمائة والصعود خمسمائة. وروى ذلك عن جماعة من المفسرين، وهو اختيار الطبرى، ذكره المهدوى....

والمعنى: أن جبريل لسرعة سيره يقطع مسيرة ألف سنة فى يوم من أيامكم، ذكره الزمخشرى.

وقيل: معنى: فى يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ .

ترفع الأُمُور الحاصلة فى الدنيا صغيرها وكبيرها إلى الله تعالى يوم القيامة ليفصل فيها، ويحكم فى شأنها، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، التى نعدّها فى هذه الحياة.

والمراد من الألف: الزمن المتطاوّل الذى هو فى لغة العرب أقصى نهاية العدد.

وفى موضع آخر وصف الله تعالى مقدار هذا اليوم بخمسين ألف سنة، قال تعالى: تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مَقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج: ٤).

قال القرطبى: المعنى أن الله تعالى جعله فى صعوبته على الكفار كخمسين ألف سنة، قاله ابن عباس، والعرب تصف أيام المكروه بالطول، وأيام السرور بالقصر، قال شاعرهم:

ويوم كظّل الرمح قصّر طوله دمر الزّرق عناً واصطفناك المزاهر

وقيل: إن يوم القيامة فيه أيام، فمنه ما مقداره ألف سنة، ومنه ما مقداره خمسون ألف سنة (١٩).

من تفسير ابن كثير:

يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ...

أى: يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة، كما قال تعالى:

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ فُتْنُهُ يُنْزَلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ... (الطلاق: ١٢).

وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا، ومسافة ما بينها وبين الأرض خمسمائة سنة، وسمك السماء خمسمائة سنة.

وقال مجاهد والضحاك: النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام، ولكنه يقطعها فى طرفة عين، ولهذا قال تعالى: فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ١ هـ.

أى: فى يوم عظيم، هو يوم القيامة، طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله.

★ ★ ★

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ٨ ثُمَّ رَسَوْنَاهُ فَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ٩ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ١٠ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ١١ وَقَالُوا أَلَمْ نَأْخُذْ لَكَ فِي الْأَرْضِ آءًا نَّالِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٢ هُمْ يَلْقَاءُ رَبَّهُمْ كَغَفْرُونَ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

المفردات:

الغـيـب: ما غاب عن الخلق وخفى.

الشـهـادـة: ما شاهدوه ورأوه.

العـزـيز: المنيع فى ملكه.

الرحيم: باهل طاعته، وفيه إشارة إلى أنه تعالى يراعى مصالح الناس تقضلا وإحسانا.

أحسن: اتقن ونظم وجمل وأبدع.

الإنسان: آدم.

نسـلـه: ذريته.

سـلـالـة: نطفة، وسلالة الشيء ما استل منه.

وقال تعالى: مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ ... (المك: ٣) .

فسبحان الله، والحمد لله على جليل نعمائه وهدايته، الذى خلق وأبدع، وقدم الهداية للإنسان ليتأمل فى هذا الكون البديع، وفى نفسه وخلقته.

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ .

وبدأ خلق آدم أبى البشر من طين، والطين مكوّن من ماء وتراب.

وعند التأمّل نجد أن القرآن الكريم تحدّث عن خلق الإنسان من تراب ومن طين، ومن سلالة ومن حمأ مسنون، ومن صلصال كالفضار، وكلها مراحل مرّ بها خلق الإنسان، حيث كان تراباً، ثم خلط بالماء فتحول إلى طين، ثم ترك الطين فترة فتحوّل إلى حمأ مسنون، ثم تحوّل إلى صلصال كالفضار، ثم نفخت فيه الروح.

٨ - ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ .

ثم جعل ذرية الإنسان يتناسلون من امتزاج نطفة الرجل بماء المرأة الذى فيه البيوضة، التى تنلقح بنطفة الرجل، فيتّم التوالد والتناسل، ويقاء النوع الإنسانى من خلاصة ماء ضعيف، ممتهن عادة وهو المنيّ.

٩ - ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

أتم الله خلق الإنسان وتسوية أعضائه، وتحوّل فى بطن أمّه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام، ثم كسا الله العظام لحماً، ثم نفخ الله فيه الروح، وجعل الله له السمع ليسمع، والبصر ليبصر، والفتؤاد ليفهم ويفقه، وأنعم عليه بأجل النعم، بيد أن الإنسان قليلاً ما يشكر ربه على هذه النعم الجليلة، بل كثيراً ما يقابل ذلك بالكفؤ والكفر.

قال تعالى: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . (سبا: ١٣).

١٠ - وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .

أى: إذا دقنا فى الأرض وتحوّلنا إلى لحم ودم ورفات وعظام بالية تختلط بتراب الأرض، وغبنا فيها وامتزجتنا بأجزائها، بدون تمييز بيننا وبين ترابها، أنجمع مرة أخرى ونبتع من جديد، فما أبعد الخلق والحياة مرة أخرى، بعد أن يصبح الإنسان تراباً بالياً غائباً فى الأرض.

بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .

إنهم نظروا إلى قدرتهم المحدودة، وقاسوا عليها قدرة الله، وهو سبحانه يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه على كل شيء قدير، فهو سبحانه قادر على إحيائهم، وبعث الحياة فيهم كما خلقهم أول مرة.

إنهم أنكروا البعث والحشر، والحساب والجزاء والعقاب، فاستبعدوا الحياة بعد الموت، وأنكروا قدرة الله على البعث والحشر، بل اعتقدوا ما هو أشنع من ذلك حيث كفروا باليوم الآخر.

وفى معنى هذه الآية، قال القرآن الكريم:

وَصَرَبْنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس: ٧٨، ٧٩).

وقال سبحانه وتعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ... (الأنبياء: ١٠٤) .

وقال القرطبي:

بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ .

أي: ليس لهم جحود قدرة الله تعالى عن الإعادة لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا أن لا حساب عليهم، وأنهم لا يلتون الله تعالى.

★ ★ ★

﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَنَبْذِيَهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

المفردات:

يتوبواكم: يقبض أرواحكم، يقال: توفاه الله، أي: استوفى روحه وقبضها.

ناكسو رؤوسهم: خافضوها ومطاطئوها حياء وخزيا.

أبصرتنا، ما وعدتنا من البعث.

وسمّعنا، منك تصديق الرسل فيما كذبناهم فيه .

فارجعنا، إلى الدنيا .

مـوقنون، الآن ولم يبق لنا شك .

هداهنا، رشدنا وتوفيقها إلى الإيمان .

حق القول منى، ثبت قضائى وسبق .

الجنة، الجن .

بما نسيتم، بما تركتم لقاء اليوم الآخر وذكره، فالنسيان مشترك بين الغفلة والترك العمد .

نسيناكم، تركناكم فى العذاب ترك النسي .

التفسير:

١١ - قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

أى: قل للمشركين يا محمد: إن ملك الموت الموكَّل بقبض أرواحكم سيقبضها فى الوقت المحدد لانتهاه الأجل .

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

بالبعث والحساب والجزاء، وهو تهديد لهم ووعد .

ونلاحظ أن الله تعالى أضاف الموت إلى الملائكة، فقال: تَوَفَّهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . (الأنعام: ٦١) .

وأضافه إلى ملك الموت فى هذه الآية، فقال: قُلْ يَتُوفَاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ...

قال القرطبي: واسمه عزرائيل، ومعناه عبد الله، وتصرفه كله بأمر الله تعالى، فهو سبيحانه الفاعل

حقيقة لكل فعل، قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاجِمِهَا ... (الزمر: ٤٢) .

وقال تعالى: هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... (غافر: ٦٨) .

وقال تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (الملك: ٢) .

فملك الموت يقبض، والأعوان يعالجون، والله تعالى يزهمق الروح، وهذا هو الجمع بين الآى والأحاديث .

وروى عن مجاهد: أن الدنيا بين يدى ملك الموت، كالمطست بين يدى الإنسان، يأخذ من حيث شاء . وقد

روى هذا المعنى مرفوعاً .

وروى أن ملك الموت لما وكَّله الله تعالى بقبض الأرواح، قال: رب جعلتني أذكر بسوء، ويشتمني بنو آدم، فقال

الله تعالى: إنى أجعل للموت عللاً وأسباباً من الأمراض والأسقام، ينسبون الموت إليها، فلا يذكرك أحد إلا بخير .

وروى أن ملك الموت يدعو الأرواح فتحيته ويقبضها، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة أو العذاب^(٥١).

١٢ - وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ .

ولو ترى يا محمد، والخطاب له والمراد أمته، أو كل من يتأتى منه الرؤية من المخاطبين، والقرآن هنا يعرض مشهداً من مشاهد القيامة حاضراً، حيث يشاهد هؤلاء المجرمون المكثبون بالبعث، وقد حشروا يوم القيامة يعلوهم الخزي والخجل، حيث طأطأوا رؤوسهم عند حساب ربهم وملكوته وتصرفه، وقد تبينوا الحقيقة وأيقنوا بصدق الرسل، وقالوا: يا ربنا، أبصرنا بأعيننا حقيقة البعث والجزاء، وسمعنا بأذاننا تصديقك للرسل فيما أرسلوا به، وأيقننا بصدق البعث والحساب والجزاء، فارجعنا إلى الدنيا مرة أخرى لنعمل عملاً صالحاً، بعد هذا اليقين والتأكد من صدق البعث والجزاء.

١٣ - وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

لو شاء الله لمنح كل نفس تقواها وإيمانها، لكنه ميز الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار، وهذه التجدين وبيّن له الطريقين، وأرسل له الرسل، وأنزل الكتب، وبيّن له أدلة الإيمان في هذا الكون ومخلوقاته، وحركات الليل والنهار، والنوم واليقظة، وشرق الشمس وطلع القمر، وارتفاع السماء وانسباط الأرض، وخلق البر والبحر والهواء والفضاء، والنبات والرياح وسائل المخلوقات، كل هذه أدلة تأخذ بيد الإنسان إلى الإيمان، والهداية عن تبصر وتفكر.

لكن الكافر أو الفاجر يرفض استخدام عقله وفكره ولثبه، ويقاوم سبل الهداية، ويصر على الكفر والفجور والكثود، وقد أقسم الحق سبحانه أن يملأ جهنم بالعصاة وأتباع إبليس، كما أن المؤمنين أهل لطاعة الله في الدنيا ودخول جنته في الآخرة.

جاء في تفسير القاسمي ما يأتي:

وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ... أى: تقواها.

وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ... أى: فى القضاء السابق.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . أى: سبق القول، حيث قال تعالى لإبليس عند قوله: **وَأَعْرِضْهُمْ أَجْمَعِينَ** * **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** . (الحجر: ٢٩، ٤٠). فرد عليه سبحانه: **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقْرَبُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** . (ص: ٨٤، ٨٥).

أى: فيموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم، بل منعاه عن اتباع إبليس، الذين هؤلاء من جعلتهم، حيث صرفوا اختيارهم إلى الغى والفساد، ومشيتته تعالى لأفعال العباد منزلة باختيارهم إياها، فلماً

لم يختاروا الهدى، واختاروا الضلالة، لم يشأ إعطاء الهدى لهم، وإنما آتاه الذين اختاروه من النفوس البارة، فيكون مناهل عدم مشيئة إعطاء الهدى فى الحقيقة، سوء اختيارهم لا تحقق القول. أفاده أبو السعود (٥٢).

وفى تخصيص الجن والإنس، فى قوله تعالى: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** . إشارة إلى أن الله عصم ملائكته من عمل يستوجبون به جهنم.

١٤ - **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** .

تصف الآية مشهداً من مشاهد القيامة، حيث يقال للكافرين المعرضين عن الإيمان: ذوقوا وتعرضوا لألام العذاب فى جهنم، بسبب أنكم أهملتم الاستعداد ليوم القيامة، ولم تقدموا له عملاً ينفعكم فيه، فأهملتم هذا اليوم وعاملتموه معاملة الناسى له، المهمل لشأنه، وقد عاملهم الله بنفس عملهم وجازاهم من جنس سلوكهم، فأهملهم وتركهم فى العذاب، وعاملهم معاملة الناسى لهم، والله تعالى لا ينسى شيئاً، ولا يضل عنه شيء، ولكن قابل نسيانهم وإهمالهم ليوم القيامة، بإهمالهم وتركهم فى جهنم، وهذا ما يسمى بأسلوب المبالغة أو المشاكلة.

قال تعالى: **وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ... (الجالية: ٣٤).**

وقال تعالى: **نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ... (التوبة: ٦٧).**

ويقال لهؤلاء الكفار توبيخاً وتأكيداً:

وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى: اصلوا عذاب جهنم خالدين فيها أبداً، جزاء كفركم وأعمالكم السيئة، ونلاحظ هنا تكرار القول لهم، حيث قال لهم أولاً:

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ...

ثم كرر القول لهم للإشعار بأن سبب العذاب ليس مجرد ما ذكر من التسيان، بل له أسباب آخر من قنوت الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا .

فقال سبحانه: **وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** .

ثم أسدل الستار على المشهد، وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه، وترك المجرمون لمصيرهم المهيّن.

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ١٥ ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ١٦ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٧ ﴿

المضردات :

ذَكَرُوا بِهَا، وعظوا.

خَرُّوا سُجَّدًا، سقطوا ساجدين.

سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، جمعوا بين التسبيح والحمد فى سجودهم، فقالوا: سبحان الله وبحمده، والتسبيح التنزيه.

تَتَجَافَى، ترتفع وتبتعد.

الْجُنُوبُ، جمع جنب، وهو الشَّقُّ أو الجانب الأيمن أو الأيسر.

الْمَضَاجِعُ، واحدُها مضجع، وهو مكان النوم.

خَوْفًا وَطَمَعًا، خوفًا من عذابه، وطمعًا فى ثوابه.

مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، من شىء نفيس تقر به أعينهم وتسرّ.

تمهيد :

عقب الحديث عن جزاء الكافرين فى جهنم، تعرض الآيات مشهد المؤمنين الذين يستحقون أفضال الله ومنته فى الجنة، هؤلاء المؤمنون خاضعون ساجدون لله تعبدًا وطاعة وعدم تكبر، وهم فى ظلام الليل ورغبة الجسم فى النوم، يقاومون هذه الرغبة بالقيام والعبادة والتهجد، فاستحقوا النعيم الذى لا مثيل له من السعادة وقرّة العين.

وفى معنى الآيات يقول عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله ينلو كتابه إذا انشق معروف من الصبح طامع
يبيت يحافى جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع

التفسير :

١٥ - إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .

يقارن القرآن بين موقف المشركين وعذابهم، وموقف المؤمنين ونيعيمهم، فقد تحدثت الآيات السابقة عن موقف الخزي والهوان والعذاب للمجرمين، وهنا نتحدث الآيات عن مشهد وضى يتناول صفات المؤمنين، ومعنى الآية: إذا

امتنع المجرمون عن الإيمان، فإن للإيمان قوماً هداهم الله إليه، ومن صفاتهم أنهم إذا سمعوا آيات الله، أو وعظهم واعظ، وذكرهم بأنهم لله، وقموا على الأرض ساجدين لله، سجدوا عبادة خالصة، وجمعوا في سجودهم بين التسبيح والحمد، أى قالوا: سبحانك اللهم ربنا ويحمدك اللهم اغفر لنا، حال كونهم متواضعين خاشعين لله، غير مستكبرين ولا ممتنعين عن السجود لله، والامتثال لأمره.

١٦ - تَجَافَى جُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

هؤلاء المؤمنون يصلون لله تعالى فى أوقات ينام فيها الآخرون، ويتلذذون بالرقاد، مثل الصلاة بين المغرب والمشاء، أو صلاة المشاء فى جماعة، والفجر فى جماعة، أو التهجد فى الثلث الأخير من الليل، وهو وقت غارت فيه النجوم، ونامت العيون، وبقي الله الواحد القيوم.

واللهى: من صفات المؤمنين مناجاة ربهم بالليل، حين يحب الآخرون الرقاد، فإنهم يقومون لله عابدين، يهجرون المضجع والسرير والرقاد، ويتطهرون ويصلون لله خائفين من عذابه، طامعين فى رحمته.

فمقيدتهم سليمة، وعبادتهم وصلاتهم وخشوعهم ودعائهم لله، متحقق بصورة طيبة، وكذلك يؤدون زكاة أموالهم، ويتصدقون على الفقراء، وينفقون من كل ما أعطاهم الله، من العلم والجاه، والفتوح والتقوى والتجليات الإلهية.

من كتب التفسير:

حفلت كتب التفسير بطائفة من الأحاديث النبوية الشريفة، فى فضل قيام الليل وثواب التهجد، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى تفسيري القرطبي وابن كثير وغيرهما، كما نجد ذلك فى كتب السنة المطهرة، وكتاب إحياء علوم الدين للغزالي، بتخريج الحافظ العراقي.

نماذج من الأحاديث النبوية الشريفة :

أخرج أحمد والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن جرير، والحاكم، وابن مردويه، عن معاذ بن جبل، قال: كتب مع النبي ﷺ فى سفر (٥٣)، فأصبحت قريباً منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرنى عما يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار، فقال: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه: تبتدئ بالله ولا تذكره بـ شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤدى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» ثم قال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل فى جوف الليل»، ثم قرأ: تَجَافَى جُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ثم قال: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» فقلت: بلى يا رسول الله، فقال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله»، ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» فقلت: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه، ثم قال: «كفَّ عليك هذا»، فقلت: يا رسول الله، وإننا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «تكنك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم» (٥٤).

وروى البخاري، ومسلم، والترمذي، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... (٥٥).

١٧ - فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى: فلا يعلم أحد عظيم ما أخفى لهم، وخيئ لهم من ألوان النعيم، والرضا والقريب، جزاءً وفاقاً بما كانوا يعملون، لقد أخفوا أعمالهم فآخفى الله ثوابهم.

أخرج القرطبي، وابن أبي شيبه، وابن جرير، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود، قال: إنه لمكتوب في التوراة: لقد أعد الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإنه لفي القرآن: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ...

وقال ابن عباس: الأمر في هذا أجل وأعظم من أن يُعرف تفسيره.

قال القرطبي: وهذه الكرامة إنما هي لأعلى أهل الجنة منزلة (٥٦).

وجاء في صحيح مسلم، عن المغيرة بن شعبة، يرفعه إلى رسول الله ﷺ، قال: «سأل موسى عليه السلام ربه، فقال: يا رب، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يأتي بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أى رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقال له: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك، فيقول: رضيت رب...» (٥٧).

وأخرج مسلم أيضاً، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، دُخْرًا بَلَّه ما أطلعكم عليه»، ثم قرأ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... (٥٨).

وقال ابن سيرين: المراد به: النظر إلى الله تعالى.

وقال الحسن: أخفى القوم أعمالاً فآخفى الله تعالى لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت (٥٩).

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ۚ ﴾ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِءُ كَذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَتَايَتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿

المفردات:

مُؤْمِنًا، مصدقاً بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

فَاسِقًا، كافراً خارجاً من الإيمان وأحكام الشرع، فهو أعم من الكفر، وأصل الفسق: الخروج، يقال: فسقت الثمرة، إذا خرجت من قشرها.

جَنَّاتِ الْمَأْوَى، جنات المسكن الحقيقي، أما مساكن الدنيا فمترحل عنها.

نُزُلًا، ثواباً وجزاء وعطاء، وأصل النُّزْل: ما يُعد للضيف من طعام وشراب ومبيت، ثم أطلق على كل عطاء.

فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ، ملجؤهم ومنزلهم.

الْعَذَابِ الْأَدْنَى، الأقرب والأقل، وهو عذاب الدنيا، مثل: القحط، والأسر، والقتل.

دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، قبل عذاب الآخرة.

ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا، فلم يتذكر فيها.

مِنَ الْمُجْرِمِينَ، ممن أذنبوا أو أشركوا.

تهديد:

لما بيّن مآل الكافرين والمؤمنين، عطف على ذلك سؤال العقلاء: هل يستوى الفريقان؟ ثم بين أنهما لا يستويان، وأعقب ذلك ببيان جزاء المؤمنين، وعقوبة القامقين.

سبب النزول:

قال ابن عباس، وعطاء بن يسار: نزلت الآية الثامنة عشرة من سورة السجدة في علي بن أبي طالب والوليد بن عتبة بن أبي معيط، وذلك أنهما تلاحيا، فقال الوليد: أنا أبسط منك لساناً، وأحد سنناً، وأملأ في الكتبية جسداً، فقال له علي: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية.

وذكر الزجاج والنحاس أنها نزلت فى على وعقبة بن أبى معيط.

قال ابن عطية: وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قتل فى طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، وقد ناقش القرطبى سبب نزول الآية مناقشة عقلية طريفة (١٠).

التفسير:

١٨ - أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ .

استقهم موجه لكل من يتأتى منه الخطاب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، أى: أيستوى المؤمن الصالح المستقيم المطيع لربه، المؤمن برسوله، الملتزم بأصول دينه، والفاسق الذى خرج على هدى السماء، وكذب بالرسول، واجترأ على معصية الله ١٩

لَّا يَسْتَوُونَ .

أى: لم يستويا فى الدنيا، من ناحية العمل والسلوك والاعتقاد، فليس من المناسب أن يستويا فى الآخرة، من ناحية الجزاء والثواب والعقاب.

قال تعالى: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مِّمَّنْهُمْ وَمَنْهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ . (الاجاثية: ٢١).

وقال تعالى: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ . (الحشر: ٢٠).

وقال سبحانه وتعالى: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص: ٢٨).

وتتلاقى هذه الآيات على تأكيد عدالة السماء، وأن الله سبحانه وتعالى لا يسوئى فى الجزاء بين المؤمن المستقيم البار الذى يعمل الصالحات، والفاسق المنحرف الذى يعمل السيئات، لقد اختلفا فى العمل، فوجب أن يختلفا فى الجزاء.

١٩ - أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أما الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، فمآلهم وجزاؤهم ونزلهم فى جنات المآوى التى يقيمون فيها إقامة دائمة، وينزلون فيها منزلة الإعزاز والتكريم، جزاء بما قدموا فى الدنيا من عمل صالح.

٢٠ - وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا وَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

وأما الفاسقون الخارجون على أوامر الله، فمآلهم جهنم يضربهم ليهيبها، وتجمعهم الملائكة بالعذاب.

قال الفضيل بن عياض:

والله إن الأيدي لموتقة، وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، والملائكة تجمعهم، ويتمنى الكفار الخروج من النار، فتردهم الملائكة إلى جهنم فى حالة من الذل واليأس، وتقول لهم الملائكة على سبيل الجزع والتائب، وزيادة الحسرة فى قلوبهم:

ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

أى : تنوqوا وتحملوا عذاب النار، الذى كذبت به فى الدنيا، فإن الله أعدّه للمشركين به.

كما قال تعالى: كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ... (الحج: ٢٢).

وكما قال تعالى: وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبْكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونٌ . (الزخرف: ٧٧).

ثم بيّن أن عذاب الآخرة له مقدمات فى الدنيا، لأن الذنب مستوجب لنتائجه، عاجلا وأجلا، فقال سبحانه:

٢١ - وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

ولنبتليهم بمصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا، من المجاعات والقتل والأسر ونحو ذلك، عظة لهم ، ليقبلوا عن دنوبهم قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب يوم القيامة.

جاء فى تفسير القرطبى:

قال الحسن ، وأبو العالىة ، والضحاك، وأبى بن كعب، وإبراهيم النخعى: العذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها، مما يبتلى به العبيد حتى يتوبوا .

وقال ابن مسعود، والحسين بن على ، وعبد الله بن الحارث: هو القتل بالسيف يوم بدر.

وقال مقاتل ، ومجاهد: الجوع سبع سنين بمكة، حتى أكلوا الجيف، ولا خلاف أن العذاب الأكبر عذاب جهنم ١٠ هـ.

وقال القاسمى:

وَلَنَذِيقَنَّهُمْ . أى : أهل مكة، مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى . أى : عذاب الدنيا والجذب والقتل والأسر.

دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ . يعنى عذاب الآخرة.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . أى : يتوبون عن الكفر، ويرجعون إلى الله عند تصفية فطرتهم بشدة العذاب الأدنى. أ هـ.

وقال النيسابورى:

ولم يقل : الأصغر ، فى مقابلة الأكبر، أو الأبعد فى مقابلة الأدنى، لأن المقصود هنا هو التخويف والتهديد، وذلك إنما يحصل بالقرب لا بالصغر، وبالكبر لا بالبعد.

٢٢ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ .

أى : لا أحد أشد ظلما ممن جاءت إليه الرسل والكتب والمواعظ، تذكره بآيات الله، وتدعوه للإيمان والإسلام، فأعرض واستكبر وظلم وأجرم، إن هذا المجرم الظالم أهل للانتقام الله وعذابه.

قال القرطبى:

وَمَنْ أَظْلَمُ . أى : لا أحد أظلم لنفسه.

مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ . أى : بحججه وعلاماته.

ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا . بترك القبول.

إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ . لتكذيبهم وإعراضهم . أ هـ.

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥)

المفردات:

الكتاب: التوراة.

فى مـريـة: فى شك.

من لقائـه: من لقاءك الكتاب مثله، كما قال تعالى: وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل: ٦).

وقيل : المقصود : من لقاء موسى الكتاب، أو من لقاء محمد بموسى، وقد التقيا ليلة الإسراء والمعراج.

انـفـصـلـة: قادة يفتدى بهم فى دينهم.

لَنَا صَبِيرُوا، عَلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَعَلَى الْبَلَاءِ فِي الدُّنْيَا.

يُوقِنُونَ، بِصِدْقِهِمْ، لِإِمْعَانِهِمُ النَّظَرَ فِيهَا.

التفسير:

٢٢ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ .

إنزال الكتب شأن إلهي، وكذلك إرسال الرسل، فليست يا محمد بدعاً من الرسل، فقد أرسلنا موسى بن عمران رسولاً، وأنزلنا عليه التوراة كتاباً، كما أرسلناك يا محمد، وأنزلنا عليك القرآن، فلا تكن في شك من الوحي المنزل عليك.

قال القاسمي:

والمعنى: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه من الوحي مثل ما لقيناك، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله.

ونهي ﷺ عن الشك، المقصود به نهى أمته، والتعريض بمن صدر عنه الشك في القرآن الكريم.

وقيل : معنى الآية: آتينا موسى التوراة، فلا تكن في مرية من لقاء موسى ليلة الإسراء والمعراج، فقد لقاه النبي ﷺ وتفاقت معه، وفي صحيح البخارى : «ولقيت في السماء السادسة موسى، ونعم صاحب كان لكم».

لكن الزمخشري في تفسير الكشاف رجح الرأي الأول، حيث قال: والضمير في : لقائه ، لموسى، ومعناه: إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله، ولقيت نظيره، كقوله تعالى: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ... (يونس: ٩٤).

ورجح صاحب الظلال هذا الرأي، حيث قال :

وتفسير هذا العبارة المعترضة : فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ . على معنى تثبيت الرسول ﷺ على الحق الذي جاء به، وتقرير أنه الحق الواحد الثابت، الذي جاء به موسى في كتابه، والذي يلتقى عليه الرسولان، ويلتقى عليه الكتابان، هذا التفسير أرجح عندي، مما أورده بعض المفسرين من أنها إشارة إلى لقاء النبي ﷺ لموسى عليه السلام في ليلة الإسراء والمعراج، فإن اللقاء على الحق الثابت، والعقيدة الواحدة، هو الذي يستحق الذكر، والذي يتسلك في سياق التثبيت، على ما يلقاه النبي ﷺ من التكذيب والإعراض، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء، وكذلك هو الذي يتسق مع ما جاء بعده في الآية: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ . للإيحاء للقلة المسلمة يومذاك في مكة، أن تصبر كما صبر المختارون من بنى إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا، ليكون منهم أئمة للمسلمين، كما كان أولئك أئمة لبني إسرائيل، ولتقرير طريق الإمامة والقيادة، وهو الصبر واليقين. أ هـ.

وقال الألوسي:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ . أَيْ : جنس الكتاب .

فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ . أَيْ : شك . مِنْ لِقَائِهِ . أَيْ : من لقاءك ذلك الجنس .

وَجَعَلْنَاهُ هَدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ .

أَيْ : وجعلنا الكتاب الذي أنزل على موسى وهو التوراة، هداية لبني إسرائيل إلى طريق الحق والصواب .

٢٤ - وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ .

وجعلنا من بني إسرائيل أئمة يقتدى بهم في الدين، والإيمان والهداية، وكان ذلك بسبب صبرهم على عنت فرعون، وشدة تعلقهم بالتوراة وإيمانهم بها .

والآية توجيه لأتباع محمد ﷺ بالصبر على الحق، واليقين والإيمان بالوحي، فإن ذلك سبيل الإمامة والتفوق، وعز الدنيا وشرف الآخرة .

٢٥ - إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفْعِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن الله تعالى يقضى ويحكم بين المؤمنين والكفار، فيجازى كلا بما يستحق، أو إن ربك يقضى بين عباده فيما اختلفوا فيه من أمور الاعتقاد والدين والحساب، والثواب والعقاب، والأعمال، فيثيب المطيع بالجنة، ويعاقب العاصي بالنار .

قال في التفسير المنير:

إن الله سبحانه هو القاضى العدل، والحاكم المطلق ، يُحقِّق بين المؤمنين والكفار، فيجازى كلا بما يستحق، ويفصل بين المختلفين من أمة واحدة، كما يفصل بين المختلفين من الأمم .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات:

اولم يهدهم: أو لم يتبين لكفار مكة.

كم اهلكنا: كثرة من اهلكنا قبلهم.

من القرون: من الأمم الماضية بسبب كفرهم.

افلا يسمعون: سماع تدبر واتعاط.

الأرض الجُرْز: اليابسة التى لا نبات فيها، لأنه جرز نباتها، أى : قطع وأزيل.

ويقولون: للمؤمنين.

متى هذا الفتح: النصر، أو الفصل فى الحكم.

إن كنتم صادقين: فى الوعد به.

قل يوم الفتح: بإنزال العذاب بهم يوم القيامة.

ولا هم ينظرون: يمهلون لتوبة أو معذرة.

فأعرض عنهم: لا تبال بتكذيبهم.

وانتظر: النصر أو إنزال العذاب بهم.

إنهم منتظرون: الغلبة عليك، أو الموت ، أو القتل.

التفسير:

٢٦ - أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ .

يلمس القرآن القلوب فى ختام السورة، ويرشد كفار مكة إلى دلائل القدرة، فيقول: أو لم يتبين لهم كثرة الأمم التى أهلكها الله عقابا لكفرها، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط، وقوم شعيب، أنزل بهم العذاب فأهلكهم، وعرب الجزيرة كانوا يمرّون على مساكن الهالكين، ويشاهدون بأعينهم، فهلا نظروا نظرة تبصّر، وهلا حذروا بصيرتهم ليتأملوا فى أن من أهلك الكافرين من الأمم السابقة، قادر على أن يهلك كفار مكة.

٢٧ - أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَاهُ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَتَخْرُجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ .

أو لم يشاهدوا بأنفسهم قدرة الله وعظمته، فهو سبحانه يسوق السحاب، وينزل المطر على الأرض الجرز، وهي اليابسة التي لا نبات فيها لانقطاع الماء عنها، وبسبب هذا الماء تختضر الأرض بالنبات، وتخرج أنواعا من الزروع، تستفيد بها الأنعام، كالكلأ والعشب والتبن، والبرسيم والبقول الخاصة بالأنعام، كما تبرز الأرض من الحبوب والشمار والفاكهة والخضراوات، ما يفيد الإنسان نفسه.

أَفَلَا يُبْصِرُونَ . ذلك بأعينهم فيعتبرون ويتأملون في فضل الله وإحسانه على عباده.

وفي معنى الآية، قال تعالى:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقَبًّا * وَزَيَّنَّا أَنْجِلًا * وَجَدَّاتٍ عَلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ . (عبس: ٢٤ - ٣٢).

٢٨ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

تختتم السورة بعرض مشهد من مشاهد الحرب الفكرية بين المشركين والمؤمنين، فقد كان كفار مكة يستهزئون بالمؤمنين، ويحاولون النيل من دين المؤمنين وعقيدتهم، فإذا قال المؤمنون لهم: إن هناك بعثاً وحشراً وثواباً وعقاباً، ويوماً يفتح الله فيه بين المؤمنين والكافرين، أى: يحكم ويقضى بينهم، كما يحكم القاضى فى الدنيا بين المتخاصمين، وسمى القاضى فاتحاً لأنه يفصل فى القضايا المعلقة فيفتح أمرها، ويفصل بين المظلوم والظالم.

ومعنى الآية:

يقول كفار مكة مستهزئين بالمؤمنين: متى يجىء يوم الفتح ويوم الفصل بيننا وبينكم إن كنتم صادقين؟ أو متى يوم النصر الذى تتصرون فيه علينا؟ يقولون ذلك استبعاداً لوقوع العذاب بهم، واستهانة بالمؤمنين، وبعقيدتهم وإيمانهم باليوم الآخر.

٢٩ - قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

أى: إذا جاء يوم النصر فى الدنيا، كيوم بدر أو فتح مكة، أو جاء يوم القيامة، فلن تقبل من الكفار توبة ولا إيمان، لأن ذلك لا يقبل إلا فى الدنيا.

والخلاصة:

إن جاء النصر يوم بدر فستقتلون ولا يقبل منكم الإيمان ولا تنفعكم، لحيلولة القتل دون إيمانكم، وإذا كان يوم القيامة فسيحكم لكم بالنار، ولا تقبل منكم التوبة ولا الإيمان، لأنه جاء بعد فوات الأوان.

قال القاسمى:

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى:

أى : إذا حلَّ بكم بأس الله وسخطه، وغضبه فى الدنيا والأخرى، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون، كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هَٰلِكَ الْكَافِرُونَ . (غافر : ٨٢ - ٨٥) .

ومن زعم أن المراد من هذا الفتح، فتح مكة، فقد أبعد النجمة، وأخطأ فافحش، فإنه فى يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى :

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ ...

وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا ... (الشعراء: ١١٨).

وكقوله تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ . (سبا: ٢٦).

وقال تعالى: وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . (إبراهيم: ١٥).

وقال تعالى: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ... (الأنفال: ١٩).

٣٠ - فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ .

لقد أدبت رسالتك، وبلغت لهم دعوتك، وقابلوها بالرفض والاستهزاء، فوجب أن تمضى فى طريقك، داعياً إلى الله تعالى، مبشراً برسالتك قوماً آخرين، معرضاً عن هؤلاء الكافرين، منتظراً ما ينزل بهم من الهزيمة فى الدنيا، والعقوبة فى الآخرة ، إنهم ينتظرون هلاكك، أو الانتصار عليك، ولكن الله تعالى سيخلف ظنهم، وينزل بهم عاقبة كفرهم وجحودهم، كقوله تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرَ تَرْتَبِصُ بِهِ رَبُّ الْمُنُونِ ﴿١﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ . (الطور: ٢٠، ٢١).

وكقوله تعالى:

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يَنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَابُّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . (التوبة: ١٨).

قال القرطبى :

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . قيل : معناه : فأعرض عن سفيهم، ولا تجهيم إلا بما أمرت به.

وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ .

أى : انتظر يوم الفتح، يوم يحكم الله لك عليهم. ١ هـ.

من تفسير الفخر الرازى:

قوله تعالى: قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْعَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

أى : لا يُقبل إيمانهم فى تلك الحالة، لأن الإيمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا .

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . أى : ولا يمهلون بالإعادة إلى الدنيا ليؤمنوا، فيقبل إيمانهم، ثم لما بين المسائل وأتقن

الدلائل ولم ينقمهم، قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ . أى : لا تناظرهم بعد ذلك، وإنما الطريق بعد هذا هو القتال .

وقوله تعالى: وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ . يحتمل وجوها: أحدها : وانتظر هلاكهم، فإنهم ينتظرون هلاكك،

وعلى هذا فرق بين الانتظارين، لأن انتظار النبى ﷺ بأمر الله تعالى بعد وعده، وانتظارهم بتسويل أنفسهم، والتعويل على الشيطان .

وثانيها : وانتظر النصر من الله، فإنهم ينتظرون النصر من آلهتهم، وفرق بين الانتظارين .

وثالثها : وَأَنْتَظِرُ . عذابهم بنفسك، فإنهم ينتظرونه بأنفسهم استهزاء .

كما قالوا: فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا ... (الأعراف: ٧٠) .

وقالوا: مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (الأنمل: ٧١) .

إلى غير ذلك . والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد

المرسلين محمد النبى وآله وصحبه أجمعين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ^(١١) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الأحزاب

أهداف سورة الأحزاب

سورة الأحزاب مدنية ، وآياتها ٧٣ آية ، نزلت بعد سورة آل عمران ، وتقع أحداث السورة فيما بين السنة الثانية والسنة الخامسة من الهجرة ، وهى فترة حرجة لم يكن عود المسلمين قد اشدت فيها ، إذ كانوا يتعرضون لدسائس المنافقين واليهود .

وسميت هذه السورة بهذا الاسم ، لذكر غزوة الأحزاب فيها ، فى قوله تعالى : **يَخْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَلْهَوْا ... (الأحزاب : ٢٠)** .

أحداث السورة

تتناول سورة الأحزاب قطاعاً حقيقياً من حياة الجماعة المسلمة ، فى فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى إلى ما قبل صلح الحديبية ، وتصور هذه الفترة من حياة المسلمين فى المدينة ، تصويراً واقعياً مباشراً ، وهى مزدحمة بالأحداث التى تشير إليها خلال هذه الفترة ، والتنظيمات التى أنشأتها أو أقرتها فى المجتمع الإسلامى الناشئ .

ولهذه الفترة التى تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة فهى الفترة التى بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ، ولم يتم استقرارها بعد ، ولا سيطرتها الكاملة ، كالذى تم بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية .

والسورة تتولى جانباً من إعادة تنظيم الجماعة المسلمة ، وإبراز تلك الملامح ، وتثبيتها فى حياة الأسرة والجماعة ، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ، كما تتولى تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها وإخضاعها فى هذا كله للتصور الإسلامى الجديد ، وفى ثنايا الحديث عن تلك الأوضاع والنظم يرد الحديث عن غزوة الأحزاب وغزوة بنى قريظة ، ومواقف الكفار والمنافقين واليهود فيهما ، ودسائسهم فى وسط الجماعة المسلمة ، وما وقع من خلطة وأذى بسبب هذه الدسائس وتلك المواقف ، كما تعرض بعدها دسائسهم وكيدهم للمسلمين فى أخلاقهم وبيوتهم ونسائهم .

ونقطة الاتصال فى سياق السورة بين تلك الأوضاع والنظم وهاتين الغزوتين وما وقع فيهما من أحداث ، هى علاقة هذه وتلك بموقف الكافرين والمنافقين واليهود ، وسعى هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف الجماعة المسلمة ، سواء عن طريق الهجوم الحرى ، والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى

اللهزيمة ، أو عن طريق خلطة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية .. ثم ما نشأ فى أعقاب الغزوات والغنائم من آثار فى حياة الجماعة المسلمة ، تقتضى تعديل بعض الأوضاع الاجتماعية ، ومن هذا الجانب وذلك تبدو وحدة السورة ، وتماسك سياقها ، وتناسق موضوعاتها المنوعة ، وهذا وذلك إلى جانب وحدة الزمن تربط بين الأحداث والتنظيمات التى تتناولها السورة .

فصول السورة

يمكن أن نقسم سورة الأحزاب إلى خمسة فصول ، يبدأ الفصل الأول منها بتوجيه الرسول ﷺ إلى تقوى الله ، وعدم الطاعة للكافرين والمنافقين ، واتباع ما يوحى إليه ربه ، والتوكل عليه وحده .

ويعد ذلك يلقى بكلمة الحق والفصل فى بعض التقاليد والأوضاع الاجتماعية ، مبتدئاً ببيان أن الإنسان لا يملك إلا قلباً واحداً ، ومن ثم يجب أن يتجه إلى إله واحد ، وأن يتبع نهجاً واحداً . ولذلك يأخذ فى إبطال عادة الظهار ، وهو أن يحلف الرجل على امرأته أنها عليه كظهر أمه ، فتحرم عليه حرمة أمه ويقرر أن هذا الكلام يقال بالأفواه ولا ينشئ حقيقة وراءه ، بل تظل الزوجة زوجة ولا تصير أمًا بهذا الكلام ، ثم من هذا إلى إبطال التبنى : **رَمَا جَعَلَ أَذْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ** ... (الأحزاب : ٤) .

والدعى هو المتبنى يدعى الإنسان بنوته ، وهو لا يصير ابناً بمجرد القول ، ثم يأمرهم أن يدعوا المتبنى إلى أبيه ، فإن ذلك أقسط وأعدل من دعوتهم لمن يتبنونهم .

ثم ينشئ الولاية العامة لرسول الله ﷺ على المؤمنين جميعاً ، كما ينشئ صلة الأمومة الشعرورية بين أزواج النبى ﷺ والمؤمنين ، ويعقب على هذا التنظيم الجديد بالإشارة إلى أن ذلك مسطور فى كتاب الله القديم ، وإلى الميثاق المأخوذ على النبيين وعلى أولى العزم منهم بصفة خاصة . على طريقة القرآن فى التعقيب على النظم والتشريعات والمبادئ والتوجيهات لتستقر فى الضمائر والنفوس ، ويستغرق هذا الفصل من أول السورة إلى الآية ٨ .

غزوات الأحزاب وبنى قريظة

نجد الفصل الثانى من السورة ممتداً من الآية ٩ إلى الآية ٢٧ ، ويتناول هذا الفصل غزوة الأحزاب ، ويصف مشاهدتها وملابساتها ، ويصور أحوال المسلمين فيها ، وقد جاءتهم قريش من أسفل الدواى ، وغطان من أعلاه ، وأسقط فى يد المسلمين ، فالأحزاب أمام المدينة ، ويهود بنى قريظة نقضوا عهودهم ، وأظهروا الخيانة والغدر للمسلمين ، وحفر المسلمون خندقاً لحماية المدينة ، وكان المسلمون فى غاية الإجهاد والعسرة المادية ، واشتدت الفتن ، وفى وسط هذه المحن بشر النبى المؤمنين بالنصر ، ووعدهم كنوز كسرى وقيصر ، وظهر النفاق من بعض

المنافقين فقالوا: إن محمداً يعدنا كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الخلاء وحده، وفي ذلك يقول القرآن: وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. (الأحزاب: ١٢).

واستجد النبى بربه، ورفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم رب الأرباب، ومسبب الأسباب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين». فأرسل الله ريحاً عاتية، فى ليلة شاتية مظلمة، خلعت خيام الكافرين، وكفأت قدورهم، وانسحبت قريش وأحزابها فى ظلام الليل يجرون أذيال الخوف والانكسار، وسجل الله ذلك فى القرآن بقوله: يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا. (الأحزاب: ٩ - ١١).

وتصف الآيات صدق بعض المؤمنين وبلاءهم الحسن، وإخلاصهم لله فى الجهاد، حتى رضى بعض الشهداء وفيه أكثر من سبعين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وفى مثل هؤلاء تقول السورة: وَلَمَّا رَمَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرُسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرُسُولُهُ، وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ * وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِمِثْلِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنِ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا. (الأحزاب: ٢٢ - ٢٤).

ثم تصف الآيات رحيل الكافرين بغيظهم لم ينالوا خيرا، وحماية الله للمسلمين فى هذه الموقعة، وهو سبحانه القوى العزيز، ولما رحلت الأحزاب عن المدينة نزل جبريل من السماء وقال: يا محمد، إن الملائكة لم تضع السلاح بعد، اذهب إلى بنى قريظة فإن الله ناصرك عليهم، جزاء خيانتهم وغدرهم، فقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»^(٣٧). وهناك حاصر المسلمون بنى قريظة، ثم - أجلوهم عن ديارهم، وغنم المسلمون أرضهم ودورهم وأموالهم وحصونهم المنيعه بقدرة الله، وهو على كل شىء قدير، قال تعالى: وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا * وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِنَبِ مِنْ صِيَاهِهِمْ وَقَذَلَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّغْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَرْزَكْنَاهُمْ أَزْوَاجَهُمْ وَبَنِيَّاهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَقْطُوعْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا. (الأحزاب: ٢٥ - ٢٧).

زوجات الرسول

نتناول الآيات ٢٨ - ٣٦ حديثاً عن زوجات الرسول، وكانت الغنائم قد جاءت للمسلمين، وأقبل المال بعد غزوة بنى قريظة، فطلعت زوجات الرسول إلى المتعة والنفقة الواسعة، وقلن: يا رسول الله،

نساء كسرى وقيصر بين الحلى والحلل ، والإماء والخدم ، ونساءك على ما ترى من هذه الحال . فنزلت الآيات تخبرهن بين متاع الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة ، وخير النبی نساءه ، وبدأ بعائشة ، فقال لها : «سأعرض عليك أمرين ، أرجو ألا تقطعي في اختيار أحدهما ، حتى تستشيرى أبويك» ، وقرأ عليها الآيتين : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب: ٢٨ ، ٢٩) .

فكانت عائشة : أفيك أيا رسول الله ؟ أختار الله ورسوله ، وقالت كل نسائه مثل ذلك ، فجعلهن الله أمهات المؤمنين ، وأشارت الآيات التالية إلى جزائهن المضاعف في الأجر إن اتقين ، وإلى العذاب المضاعف إن ارتكبن فاحشة مبينة ، لأنهن في بيت النبوة والقدوة والأسوة ، فلهن ضعف الأجر إن أحسن ، وضعف العقوبة إن أسأن ، فزلة العالم يقرع بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، ثم أمرت الآيات زوجات الرسول بخفض الصوت وجعله مستقيما بدون تكسر . حتى لا يطمع الشباب المنافق فيهن ، وحثهن على الاستقرار في البيت ، وعدم التبرج ، وتلاوة القرآن والتفقه في أحكامه ، واستطردت الآيات في بيان جزاء المؤمنين والمؤمنات كافة ، وكان هذا هو الفصل الثالث في سورة الأحزاب .

قصة زينب بنت جحش

أرسل الله محمدًا ﷺ للناس كافة ، فحرر العبيد ، وعلم الناس المساواة ، وكرم إنسانية الإنسان ، وبين أن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى .

وخطب النبي ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت وقالت : أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله تعالى : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا . (الأحزاب: ٣٦) . فقالت زينب : هل رضيته لى يا رسول الله زوجاً ؟ قال رسول الله : «نعم» ، قالت : إذن لا أعصى الرسول ﷺ ، قد أنكحتك نفسك .

وتم هذا الزواج ، ولأمر أراده الله لم يدم طويلا ، فقد كانت زينب تفخر على زيد بن حارثة بأنها حرة قرشية جميلة ، وأنه عبد لا يداينها في نسبها وحسبها ، فلما تكرر ذلك منها عزم زيد على طلاقها ، وذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال له النبي : «أمسك عليك زواك واتق الله» ، رغبة في إبقاء هذا الزواج ، وكان النبي يعلم بوحي من السماء أن زينب ستطلق وأنها ستكون زوجة للرسول ، ليبطل بهذا الزواج آثار التبني بسابقة عملية يختار لها رسول الله ﷺ بشخصه ، لشدة عمق هذه العادة في البيئة العربية ، وصعوبة الخروج عليها ، ولما طلقت زينب من زيد خطبها النبي لنفسه ونزل الوحي من السماء بذلك ، حتى كانت زينب تفخر على أزواج النبي ، فتقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات .

ولم تمر المسألة سهلة ، فقد فوجئ بها المجتمع الإسلامي كله ، كما انطلقت أسنة المنافقين تقول:
تزوج حليمة ابنه .

وكانت المسألة مسألة تقرير مبدأ جديد ، لأن العرف السائد كان يعد زينب مطلقة ابن محمد فلا تحل
له ، حتى بعد إبطال عادة التبنّي في ذاتها ، ولم يكن قد نزل بعد إحلال المطلقات الأديع ، إنما كان حادث
زواج النبي بزينب هو الذي قرر القاعدة عملياً ، بعدما قوبل هذا القرار بالدهشة والمفاجأة والاستنكار .

وفى هذا ما يهدم كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث ، والتي تثبت بها أعداء الإسلام قديماً
وحديثاً ، وصاغوا حولها الأساطير المغفريات ، إنما كان الأمر أمر الله ، تحمله النبي وواجه به المجتمع
الكاره لهذا الأمر كل الكراهية ، حتى ليعتد النبي في تحمله ومواجهة الناس به .

قال تعالى : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا
اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . (الأحزاب: ٣٧) .

واستمرت الآيات توضح أنه لا حرج على النبي فيما فرض الله له ، فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن
يبطل عادة العرب في تحريم أزواج الأديع ، وذكرت الآيات أن محمداً لم يكن أباً أحد من رجال العرب حتى
يحرم عليه الزواج من مطلقة ، وإنما محمد رسول الله وخاتم النبيين ، فهو يشرع الشرائع الباقية ، لتسير عليها
البشرية إلى يوم الدين ، ثم حثت الآيات على ذكر الله وطاعته .

وقد استغرق هذا الموضوع الرابع ، الآيات من ٣٦ - ٤٤ .

أدب بيت النبوة

يستغرق الموضوع الخامس الآيات من ٤٥ إلى آخر السورة ، ويبدأ ببيان حكم المطلقات قبل الدخول ،
ثم يتناول تنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ ، فيبين من تحل له من النساء المؤمنات ومن تحرم عليه ،
ويستطرد إلى تنظيم علاقة المسلمين ببيوت النبي . وزوجاته في حياته وبعد وفاته ، وتقدير احتجابهن إلا
على آبائهن أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، وإلى بيان جزاء الذين يؤذون
رسول الله ﷺ في أزواجه وبيوته وشعوره ، وهددهم باللعن في الدنيا والآخرة ، مما يشي بأن المنافقين
وغيرهم كانوا يأتون من هذا شيئاً كثيراً .

ويعقب على هذا بأمر أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين كافة أن يدنين عليهن من جلابيبهن : ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ... (الأحزاب: ٥٩) .

ويتهديد المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، بتسليط النبى ﷺ عليهم ، وإخراجهم من المدينة كما خرج بنو قينقاع من قبل وينو النضير بعدهم ، أو القضاء عليهم كما وقع لبنى قريظة ، وكل هذا يشير إلى إيذاء هذه المجموعة للمجتمع الإسلامى بوسائل شريرة خبيثة .

ثم ذكر من شرور هؤلاء الناس أنهم كانوا يسألون النبى عن وقت الساعة على سبيل الاستهزاء والاستخفاف ، وأجابهم بأن علم الساعة عند الله ، ولوح بأنها قد تكون قريباً ، وأتبع هذا بمشهد من مشاهد القيامة حيث يتقلب المجرمون فى جهنم ، ويتمرغون فى العذاب والندامة .

ثم تعقب السورة بنهى المؤمنين عن إيذاء النبى ، حتى لا يكونوا كالذين آذوا موسى بالطعن عليه ، ثم برأه الله وجعله نزيهاً وجيهاً .

تحمل الإنسان للأمانة

فى آخر السورة نجد آية شهيرة تكشف عن جسامه العبه الملقى على عاتق البشرية ، وعلى عاتق الجماعة الإسلاميه بصفه خاصه ، وهى التى تنهض وحدها بعبء الأمانة الكبرى ، أمانة العقيدة والاستقامة عليها .

لقد عرض الله حمل الأمانة على السماوات والأرض والجبال ، فأبين حملها لخطر أمرها ، وحملها الإنسان الذى خلق مزوداً بالإرادة والكسب والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية .

فالسماوات والأرض والجبال والبحار والكون كله يخضع لله خضوع القهر والغلبة، ولا يحتمل التكاليف، ولا يستطيع أن يتحمل الأمانة والتكاليف الشرعية ، فيثاب على الطاعة ويعاقب على المعصية ، إنما الإنسان وحده الذى ميزه الله بالعقل والإرادة ، وكرمه وفضله بالكسب والاختيار ، فله قدرة على الطاعة وقدرة على الظلم والجهل ، وقد استعمر الله الإنسان فى الأرض واستخلفه فيها لعلمه أنه وحده هو الذى يصلح خليفة عنه ، لما ركز فى غرائزه وطبائعه من حب التنافس ، والتسابق فى عمارة الأرض ، فمن أطاع الله من طائفة الإنسان فله الجنة وله التوبة عند الخطأ ، ومن كفر ونافق فله العذاب والعقاب . قال تعالى : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ه لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . (الأحزاب: ٧٢ ، ٧٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
 ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يوحىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ
 عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

المضردات :

اتَّقِ اللَّهَ ، دُم على تقواه ، أو زد على ما أنت عليه من تقوى ، وفيه توجيه للمؤمنين بتقوى الله ،
 فإن أمر الأعلى يراد به الأدنى من باب أولى .

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ، فيما يخالف شريعتك وأوامر ربك .

عَلِيمًا حَكِيمًا ، واسع العلم ، عظيم الحكمة .

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، فوض الأمر إليه .

وَكُفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ، كفى به حافظًا ومعينًا .

تمهيد فى أسباب النزول

أخرج ابن جرير ، عن الضحاک ، عن ابن عباس قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة
 ابن ربيعة ، دعوا النبى ﷺ أن يرجع عن قوله ، على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود
 بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات .

وذكر الواحدى فى أسباب النزول أن الآيات نزلت فى أبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وأبى الأعور
 السلمى ، قدموا المدينة بعد قتال أحد ، فنزلوا على عبدالله بن أبى (زعيم المنافقين) ، وقد أعطاهم النبى ﷺ
 الأمان على أن يكلمه ، فقالوا للنبى ﷺ : ارفض ذكر آلهمنا اللات والعزى ومناة ، قل : إن لها شفاعة
 ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربك ، فشق على النبى ﷺ قولهم ، وأنزل الله عز وجل هذه الآيات .

وكل هذه الروايات تتلاقى على أن المشركين فى مكة والمنافقين فى المدينة حاولوا النيل من
 الإسلام والمسلمين ، فأنزل الله هذه الآيات تشدُّ أزر الرسول ﷺ ، وتنبهته وتعلن رفض الإسلام لحيل الكفار
 والمنافقين .

وروى أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، تابعه ناس من اليهود نفاقاً ، وكان يلين لهم جانبه ، ويظهرون له النصيح خداعاً ، فحذره الله منهم ونبهه إلى عداوتهم .

التفسير :

١ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

«إن الإسلام عقيدة تنبثق منها شريعة ، يقوم على هذه الشريعة نظام ، وهذه الثلاثة مجتمعة مترابطة متفاعلة هي الإسلام»^(١) .

وقد بُدئت السورة بدعوة النبى ﷺ إلى تقوى الله ومراقبته ، وامتنال أمره والابتعاد عن نواهيه ، وهو توجيه لأمتة على توالى العصور والدهور .

قال طلق بن حبيب : التقوى هي أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله .

وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

لا تستجب لمطالبهم ، ولا تستمع لنصائحهم المغرضة ، بتخصيص بعض المجالس للأغنياء ، وطرد الضعفاء والفقراء عن هذه المجالس ، وقد كان ضغط الكافرين والمنافقين عنيفاً فى المدينة وما حولها ، فى هذه الفترة التى نزلت فيها السورة ، حوالى سنة خمس من الهجرة .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

فهو العليم بما يضمرونه ، الحكيم فى تدبير أمرك وأمر أصحابك ، وسائر شئون خلقه ، فهو أحق أن تتبع أوامره وتطاع .

٢ - وَأَتَّبِعْ مَا يَرْحَبُ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

اتبع الوحي والقرآن الذى ينزل عليك أيها النبى بواسطة جبريل من عند الله ، وهذا الوحي هداية السماء لك ولأمتك ، وللناس أجمعين إلى يوم الدين .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

فهو سبحانه مطلع وخبير بما تعمل أنت وأصحابك ، لا يخفى عليه شيء منه ، ثم يجازيكم على ذلك بما وعدكم به من الجزاء .

٣ - وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

اعتمد على الله وحده ، فهو نعم المولى ونعم النصير ، والتوكل على الله يتضمن الاعتماد عليه والثقة به ، وانتظار النجاح والتوفيق منه ، بعد الأخذ بالأسباب .

التوكل غير التواكل :

المتوكل يعمل ويكدح ويأخذ بالأسباب ، كالفلح الذى يحرق الأرض ، ويسقيها وينظفها ويهيئ التربة للغرس ، ثم يضع الحب ويعتمد على الرب .

رأى عمر بن الخطاب قومًا من أهل اليمن فسألهم : ما هى حرفةكم ؟ قالوا : نحن متوكلون ، فقال عمر لهم : أنتم متواكلون ، المتوكل هو الذى يأخذ بالأسباب ، يغرس الحب ثم يعتمد على الرب .

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

كفى الله حافظًا ومعينًا ووليًا ونصيرًا .

والمقصود : إن الله عاصمك وحسيك ، فهو وحده جالب النفع لك ، ودافع الضرر عنك .

إن هذه الآيات الثلاث تهدف إلى غرس العزة والكرامة فى نفوس المسلمين .

وقد اشتملت على ما يأتى :

١ - تقوى الله وطاعته واتباع وحيه .

٢ - الابتعاد عن طاعة الأعداء من الكافرين والمنافقين .

٣ - التوكل على الله ، فمن وجد الله وجد كل شئ ، ومن فقد الله فقد كل شئ .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنهِنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۚ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ۖ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ ۚ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾

المفردات :

جعل ، خلق .

تظاهرون ، الظهار : قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمي ، يريد بذلك تحريمها كما تحرم الأم .

أدعياءكم ، جمع دعى ، والمراد به هنا : الابن بالتبني ، وقد كانت تجرى عليه أحكام الابن في الجاهلية ،

وصدر الإسلام .

السبيل ، الطريق .

ادعوهم لأبائهم ، انسابهم لأبائهم الذين ولدوهم .

هو أقسط ، أعدل .

مواليكم ، أولياؤكم فيه .

جنح ، إثم .

فيما أخطأتم به ، فيما فعلتموه مخطئين جاهلين قبل النهي .

تعمدت قلوبكم ، قصدته عمدًا بعد النهي عنه .

التفسير :

٤ - مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنهِنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

تمهيد :

ورد في أسباب النزول ، وفي تفسيرى القرطبى وابن كثير وغيرهما : أن هذه الآية عالجت ما كان متفشيا في الجاهلية من أخطاء ، ومن هذه الأخطاء أن الظهار وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمي ،

يحرم الزوجة فتحرم عليه كما تحرم الأم ، وقد بين القرآن أن هذا عدوان ، وتحريم للحلال ، فالزوجة أحلها الله للإنسان ، فلا يجوز أن يحرمها كما تحرم عليه الأم ، فالأم تجب طاعتها والبر بها ، والزوجة يحل الاستمتاع بها .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا أعجبه إنسان لظرفه ونبله ألحقه بنسبه ، فقال : هذا ابنى ويرثنى ، فيصبح له حكم الابن فى الميراث ، وفى حق النسب إلى أبيه المدعى ، ولا يجوز للأب المدعى أن يتزوج امرأة ابنه بالتبني ، وقد أراد القرآن إبطال هذه العادة المستحكمة فى الجاهلية ، واختار القرآن محمداً ﷺ ليكون قدوة عملية فى ذلك .

قصة زيد بن حارثة

كان زيد بن حارثة مسيباً من الشام ، سبته خيل من تهامة ، فاشتراه حكيم بن حزام بن خويلد ، فوهبه لعمته خديجة ، فوهبته خديجة للنبي ﷺ ، فأقام عنده مدة ، ثم جاء عمه وأبوه يرغبان فى فداءه ، فقال لهما النبي ﷺ : «خيّراه فإن اختاركما فهو لكما دون فداء» ، فاختار زيد بن حارثة الرّق مع رسول الله ﷺ . وقال : هذا الرجل ما رأيت منه إلا كلّ خير ، وأنا أفضله على أبى وعمى ، فلما رأى النبي ﷺ تعلقه به ، قال : «يا معشر الناس ، اشهدوا أن زيد بن حارثة ابنى يرثنى وأثره» ، فرضى بذلك أبوه وعمه ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فلما حرم الله نسبة الولد المتبنى إلى غير أبيه ، قال النبي ﷺ له : «أنت زيد بن حارثة ابن شراحيل» .

من تفسير القرطبى

قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى :

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ...

عن الواحدى والقشيرى وغيرهما : نزلت فى جميل بن معمر الفهرى ، وكان رجلاً حافظاً لما يسمع ، فقالت قريش : ما يحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : لى قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد ، فلما هزم المشركون يوم بدر ومعهم جميل بن معمر ، رآه أبو سفيان فى العير ، وهو معلقٌ إحدى نعليه فى يده ، والأخرى فى رجله ، فقال أبو سفيان : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بال إحدى نعليك فى يدك ، والأخرى فى رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما فى رجلى ، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله فى يده . اهـ .

وقال ابن عباس : سببها أن بعض المنافقين قال : إن محمداً له قلبان ، لأنه ربما كان فى شيء فنزع فى غيره نزعاً ، ثم عاد إلى شأنه الأول ، فقالوا ذلك عنه ، فأكذبهم الله عز وجل^(١) .

مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ ...

خلق الله الإنسان وله اتجاه ومنهج وطريق يسير عليه ، فمن اختار الإسلام والإيمان والهداية ، سار فى هذا الطريق ، ومن اختار الضلال أو الكفر أو النفاق ، سار فى طريقه ، ومن أمثلة العرب : (إنك لا تجنى من الشوك العنب) ، فالمؤمن يصدر عنه السلوك المستقيم ، والكافر يصدر عنه أفعال الكفر والضلال .

فلم يخلق الله لرجل قلبين فى جوفه ، يكون فى أحدهما إيمان وفى الآخر كفر ، بل الإنسان له قلب واحد ، فإذا اعتنق التقى والهدى ظهر ذلك فى سلوكه ، وإذا اعتنق الفسوق والكفر ظهر ذلك فى سلوكه .

قال ﷺ : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة؟ قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(١) ، ثم تلا قوله تعالى : أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ... (الزمر: ٢٢) .

وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ...

كان الرجل إذا قال لامرأته : أنت على كظهر أمى ، حرمت عليه على التأبيد ، فرسم القرآن طريقاً جعل الطلاق مؤقتاً ، بأن يعتق المظاهر رقبة ، فإن لم يجد صام ستين يوماً ، فإن لم يجد أطعم ستين مسكيناً ، قبل أن يقرب زوجته .

كما بين القرآن الكريم أن هناك فرقاً بين الأم والزوجة ، فالأم تجب طاعتها والبر بها ، والزوجة أحل الله الاستمتاع بها ، وأوجب لها حسن العشرة ، وحين يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، لا تتحول إلى أم ، ولا تكون الزوجة التى ظاهر منها زوجها مثل الأم .

وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ...

لم يجعل الولد المدعى مثل الابن ، لأنه ليس ابناً صليبا ، وأجمع أهل التفسير على أن هذه الآية نزلت فى زيد بن حارثة ، وقد أبطل الله هذا الإلحاق الوهمى ، وهذا النسب المزعوم بهذه الآية ، ويقول تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ... (الأحزاب: ٤٠) .

وهذا هو المقصود بالنفى ، قدم الله له نفى أمر حسى معروف ، وهو ازدواج القلب ، ثم أردفه بنفى أمرين معنويين ، هما : اجتماع الزوجية مع الظهار ، والتبنى مع النسب ، فالثلاثة باطلة لا حقيقة لها .

ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ...

هذا كلام تدعونه ليس له أساس فى الواقع ، فليس لرجل من قلابين فى جوفه ، والزوجة لن تكون أمًا ، والابن الدعى لن يكون ابنا حقيقيا ، هذه دعاوى بألسنتكم وأفواهكم لا واقع لها .

وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

والله هو الذى يقرر الصدق والعدل ، ويرشد إلى السبيل القويم الصحيح ، فدعوا قولكم وخذوا بقوله عز وجل .

جاء فى صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابوني ما يأتى :

والغرض من الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أمًا ، ولا الولد المتبنى ابنا ، لأن الأم الحقيقية هى التى ولدته ، والابن الحقيقى هو الذى ولد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناء لهم ، مع أنهم ليسوا من أصلابهم؟^(٣٧)

هـ - اذْعُرْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاذْعُرْهُمْ لِدِينٍ وَمَوْلَاهُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

انسبوا هؤلاء الأديعاء إلى آبائهم الحقيقيين فذلك أعدل عند الله وأفضل ، فى نسب من كان معروفاً نسبه إلى أبيه ، وكان زيد بن حارثة يسمى زيد بن محمد فأصبح يسمى زيد بن حارثة ، أما من لم يكن معروف النسب ، فيقال له : يا أخى فى الدين ، أو يا مولاي ، بمعنى يا صديقى ، أو يا نصيرى .

قال ابن كثير :

أمر الله برّد أنساب الأديعاء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، عوضا عما فاتهم من النسب ، وإلهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : «أنت أخونا ومولانا»^(٣٨) ، وقال ابن عمر : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت : اذْعُرْهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ...^(٣٩) أخرجه البخارى .

وقيل لسالم بعد نزول الآية : مولى حذيفة ، وكان قد تبناه من قبل .

جاء فى الحديث الذى رواه أحمد ، والشيخان ، عن أبى ذر : ليس من رجل ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه ،

إلا كفر^(٤٠)

قال ابن كثير : هذا تشبيه وتهديد ووعد أكيد ، فى التبرى من النسب المعلوم .

وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ...

ليس عليكم ذنب فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى ، أو بعده نسياناً أو سبق لسان .

وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ...

ولكن الذنب والإثم لمن تعمد إلحاق الابن بغير أبيه ، فتلك معصية موجبة للعقاب ، ولا إثم ولا تحریم فيما غلب عليه اسم التبنی ، كالمقداد بن عمرو ، فإنه غلب عليه نسب التبنی ، فيقال له : المقداد بن الأسود ، والأسود هو الأسود بن عبد يغوث ، كان قد تبناه فى الجاهلية ، فلما نزلت الآية ، قال المقداد : أنا ابن عمرو ، ومع ذلك بقی الإطلاق عليه .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

وكان الله - وما زال - سائرا لذنوب المخطئ والمتعمد إذا تابا ، رحيماً بهما فلا يعاقبهما ، فمن رحمته أنه رفع الإثم عن المخطئ ، وقَبِلَ توبة المسيء عمداً .

قال تعالى : رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيتَ أَوْ أَخْطَأْنَا ... (البقرة : ٢٨٦) . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله عز وجل : قد فعلت»^(٢٠) .

وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(٢١) .

وروى ابن ماجه ، عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»^(٢٢) .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، عن قتادة أنه قال فى الآية : لو دعوت رجلاً لغير أبيه ، وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس ، ولكن ما تعمدت وقصدت دعاءه لغير أبيه .

وروى الإمام أحمد ، عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل معه الكتاب ، فكان مما أنزل عليه آية الرجم ، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : «ولا ترغبوا عن آبائكم ، فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم»^(٢٣) .

وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : «فلان فى الناس كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم»^(٢٤) .

وقال فى التفسير المنير :

هناك فرق بين التبنى انتهى عنه ، والاستلحاق الذى أباحه الإسلام ، فالتبنى هو ادعاء الولد مع القطع بأنه ليس ابنه ، وأما الاستلحاق الشرعى فهو أن يعلم المستلحق أن المستلحق ابنه أو يظن ذلك ظناً قوياً ، بسبب وجود زواج سابق غير معلن^(٧٥) .

★ ★ ★

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولَئِ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ٨ ﴿يَسْأَلُ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٩﴾

المفردات :

أولى : أحق .

أمهاتهم : مثل أمهاتهم فى التحريم واستحقاق التعظيم .

أولو الأرحام : أصحاب القرابات .

بعضهم أولى ببعض : بعضهم أحق ببعض فى التوارث .

إلى أوليائكم : إلى حلفائكم من المهاجرين والأنصار .

معروفًا : برًا ، كالتوصية .

كان ذلك : كان ما ذكر من الأحكام فى الآيات السابقة .

مسطورًا : فى اللوح المحفوظ .

ميثاقهم : عهدهم بالدعوة إلى دين الله .

ميثاقًا غليظًا : عهدًا عظيم الشأن ، أو قوياً متينًا .

الصادقين : الأنبياء الصادقين .

عن صديقهم : فى تبليغ الرسالة وعما قالوه لقومهم .

التفسير :

٦- أَلَيْسَ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَتْهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ...

سورة الأحزاب نزلت في السنة الخامسة للهجرة ، وكانت أوضاع المسلمين قد استقرت بعض الشيء . ولذلك اشتملت على تشريعات مناسبة ، فقد كان التوارث في بداية الهجرة على أخوة الدين . حيث هاجر المسلمون من مكة فراراً بدينهم ، وتركوا أموالهم وأزواجهم ، وملاعب الصبا وأوطانهم الحبيبة ، إيماناً لدين الله ودعوته ، وكان الأنصار أهل المدينة نعم الأهل والعشيرة ، أحبوا المهاجرين ، ورغبوا في إكرامهم وأخوتهم ، فما نزل مهاجري على أنصارى إلا بقرعة ، إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الأنصار . وبهذه الأخوة في الإسلام ، كان الأخ يرث أخاه إذا مات ، ويعقل عنه إذا جنى ، وكانت أخوة حقيقية ، ثبتت دعائم الإسلام ، وباركت فكرته في النفوس ، قال تعالى : وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

ويعد أن جاءت الغنائم ، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي ، عاد الميراث إلى طبيعته ، فأصبح التوارث على القرابة .

ومعنى الآية :

النبى محمد ﷺ يبلغ عن الله ، وهو القدوة العملية للمسلمين ، وهو حامل وحى السماء ، فالواجب على المسلمين محبته وطاعته ، فهو أولى بالطاعة من آبائهم وأمهاتهم ، وأولى بالمحبة من حبيبهم لأنفسهم ، كما ينبغي أن يكون حكمه نافذا فيهم ، مقدما على ما يختارونه لأنفسهم .

قال تعالى : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَحْكُمُوا لَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . (النساء : ٦٥) .

وَأَزْوَاجُهُمْ أَمْهَتْهُمْ ...

أى : هن بمنزلة الأمهات فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام ، وفيما عدا ذلك هن كالأجنبيات . فلا يحل النظر إليهن ، ولا إرثهن ، ولا نحو ذلك .

وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ .

وأصحاب القرابة أولى بالتوارث فيما بينهم ، فذلك حق موجود ثابت فى كتاب الله تعالى ، أو فى اللوح المحفوظ ، وهذا الحق - وهو التوارث بين الأقارب - أولى من التوارث بين المؤمنين بحق الدين ، والمهاجرين بحق الهجرة .

لقد كان التوارث بين المهاجرين والأنصار أمراً عارضاً ، دعت إليه ظروف الهجرة ، فلما استقرت الأحوال عاد التشريع إلى الأصل وهو التوارث بحق القرابة ، وهذا التوارث بحق القرابة هو الأصل فى كتاب الله ، وقد عدل عنه لضرورة طارئة ، فلما استقرت الأحوال عاد التشريع إلى الأصل ، ثم استثنى من الميراث بحق القرابة أن يتطوع إنسان فيوصى لإخوانه فى الدين ، أو لأى فرد من الناس ، فيجب تنفيذ الوصية ، وتقديمها على الميراث ، وكذلك الذين يُقدّم على الميراث .

حيث قال تعالى فى سورة النساء : **مَنْ بَعَلَ وَصِيَّةً يَوْصِي بِهَا أَوْ ذَنْبٍ ... (النساء: ١٢) .**

إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا .

أى : إنَّ التوارث على القرابة لا يمنعكم من أن تقدموا لأوليائكم من الأنصار والمهاجرين وغيرهم معروفاً ويرا سوى الميراث ، كالوصية والهبة والهدية والصدقة ، وما تقدم من الأحكام فى هذه السورة ، كان مسطوراً ومسجلاً فى كتاب الله وهو القرآن ، أو اللوح المحفوظ ، فهو واجب التنفيذ والطاعة والامتثال .

ملاحق بالآية

١ - أخى رسول الله ﷺ بين أبى بكر وخارجة بن زيد ، وأخى بين عمر وشخص آخر ، وأخى بين الزبير وكعب بن مالك . فكان التوارث على هذه الأخوة حتى نسخ الله ذلك بقوله تعالى : **وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ...**

٢ - روى البخارى ، عن أبى هريرة قال : إن رسول الله ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرعوا إن شئتم : **الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...** فأياها مؤمن ترك مالا فلقرته عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ذيباً (عياً) فليأتنى فأنا مولاه» (٣) .

قال العلماء : كان ﷺ لا يصلى على أحد وعليه دين ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالا فلقرته» (٣) .

٣ - استنبط الفقهاء من هذا الحديث السابق أنه يجب على الإمام أن يقضى من بيت المال دين الفقراء ، اقتداء بالنبى ﷺ .

٤ - المراد من كتاب الله اللوح المحفوظ أو القرآن الكريم ، ومن لفظ : **الْمُؤْمِنِينَ** . الأنصار ، ومن لفظ (المعروف) : الوصية أو الهدية أو الهبة أو ما أشبه ذلك ، ومن (الأولياء) : الأصدقاء من المؤمنين ، ويدخل فيه المهاجرون والأنصار ، فإن الوصية تصح لكل مؤمن ومؤمنة ، وتقدم على الميراث بالقرابة والمصاهرة .

٧ - **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .**

واذكر إذ أخذنا ، **مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ** ... أى : العهد المؤكد على أن يبلغوا الرسالة ، ويدعوا أممهم إلى الحق ، والصبر والتعاون والتناصر ، وإقامة الدين وعدم التفرق فيه ، هذا العهد أخذه الله على المرسلين عامة فى تبليغهم الرسالة ، والتزامهم بحمل تبعة القيادة ، وتربية الأمة ، ثم خصص خمسة من أولى العزم من الرسل لشهرتهم ونجاح دعوتهم وأهمية رسالتهم فقال : **وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ... وقدم محمداً ﷺ لأنه صاحب الرسالة الخاتمة ، ولأنه المخاطب هنا ، ثم ذكر أربعة بعده حسب تسلسلهم التاريخي ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ابن مريم . نوح هو الأب الثانى للبشرية ، وإبراهيم أبو الأنبياء ، وموسى صاحب التوراة والصبر على بنى إسرائيل ، وعيسى آخر نبي قبل محمد ، ونسبه إلى أمه مريم لينفى عنه ما شاع من أنه ابن الله ، فهو عبد الله ورسوله .

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا .

تأكيد للميثاق السابق ، أى : عهداً مؤكداً .

قال القرطبي : أى عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ، وأن يصدق بعضهم بعضاً ، والميثاق هو اليمين بالله تعالى ، فالميثاق الثانى تأكيد للميثاق الأول باليمين ، وقيل : الأول هو الإقرار بالله تعالى ، والثانى فى أمر النبوة ، ونظير هذا قوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ أَنْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . (ال عمران : ٨١) .**

أى : أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمداً رسول الله ﷺ ، ويعلن محمد ﷺ ألا نبي بعده ^(٧٨) .

وقد صرح القرآن بأولى العزم هنا ، وفى قوله تعالى : **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (البورى : ١٣) .**

قال ابن كثير : فهذه الوصية التى أخذ عليها الميثاق بها .

وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا .

أى : عهداً عظيم الشأن ، وكيف لا ؟ وقد يعترضه من الماكيرين والمحادين والمشاقين ما تزول منه الجبال ، لولا الاعتصام بالصبر عليه .

٨ - قَسَمْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

لقد أخذ الله الميثاق على الرسل بتبليغ الرسالة والدعوة ، والصبر والمجاهدة فى سبيل هذه الدعوة ، حتى يسأل الله الأنبياء عن نتيجة تبليغهم للرسالة ، فالمراد بالصادقين الرسل .

والمعنى : ليسأل الصادقين عن نتيجة تبليغ رسالتهم ، فمن استجاب وصدق فله الجنة ، ومن كفر فله العذاب الأليم .

وأفاد القرطبى أن الآية تحتل معنى آخر ، وهو : ليسأل الله المؤمنين الصادقين عن صدقهم ومآثرهم وأعمالهم الجليلة ، كما يسأل التلميذ النجيب عن إجابته المتميزة ، فهو سؤال تشريف وتكريم ، كما يسأل الكفار سؤال توبيخ .

قال تعالى : فَتَسْأَلُنَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَيْهِمُ الْمُرْسَلِينَ . (الأعراف : ٦) .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ . (المائدة : ١٠٩) .

وفى هذا تنبيه ، أى : إذا كان الأنبياء يسألون ، فكيف من سواهم ؟!

قال ابن كثير :

ونحن نشهد أن الرسل بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلى ، الذى لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعادنين ، والمارقين والقاسطين ، فما جاء به الرسل فهو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال . ١ هـ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُسْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوَّاهَا وَمَا تَلَبَّسُوا بِهَا إِلَّا لَيَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ إِلَّا نَجْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

المضردات :

جَنُودًا : من قريش ومن تحزب معها فى غزوة الأحزاب .

وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا : الملائكة .

مِنْ فَوْقِكُمْ : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وهم بنو غطفان وبنو قريظة .

وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ : من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وهم قريش وياقوت خلفائها .

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ : مالت عن مستوى نظرها حيرة وبهشة .

بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ : بلغت القلوب الحناجر ، فزعت فرعًا شديدًا ، والحناجر جمع حنجرة ، وهى الحلقوم حيث مخرج الصوت .

هُنَالِكَ : فى ذلك الحين ابتلى المؤمنون ، وتعرضوا لامتحان شديد .

زُلْزِلُوا : اضطربوا .

زِلْزَالًا : اضطربوا اضطرابًا شديدًا من الفزع وكثرة العدو .

ممرض، ضعف اعتقاد.

إلا غرورا، باطلا من القول لا حقيقة له.

يثرب، من أسماء المدينة.

لا مقام لكم، لا ينبغي الإقامة ها هنا.

مورة، غير حصينة.

من أقطارها، من جوانبها.

الفتنة، الردة وقاتل المسلمين.

يسيرا، زمنا قليلا، مقدار السؤال والجواب.

تمهيد موضوعه

غزوة الأحزاب في كتب السيرة

في السنة الخامسة من الهجرة اجتمع حول المدينة عشرة آلاف من الكفار الوثنيين وأهل الكتاب للقضاء على النبي ﷺ، وكان سبب الوقعة اليهود، وكان بنو النضير قد خانوا النبي ﷺ، وهموا بقتله حين كان في زيارتهم، وبينما هو جالس بجوار حائط لهم، اتفق اثنان منهم أن يشغله أحدهما في الكلام، بينما يلقي عليه الثاني حجرا من أعلى البيت، ثم أخبر الله رسوله ﷺ بتدبيرهم، فذهب وتركهم، ثم حاصرهم وأجلاهم عن المدينة، فذهب فريق منهم إلى خيبر وعلى رأسهم حيى بن أخطب، وآل أبى الحقيق، وذهب آخرون إلى أذرعات، فلم يقر لهم قرار، وذهب جماعة منهم برئاسة حيى بن أخطب، إلى قريش لتحريضهم على قتال النبي ﷺ، ثم حرّضوا غطفان فاستجابوا لهم، فأمر رسول الله ﷺ بحفر خندق من الحرّة الشرقية، إلى الحرّة الغربية، حيث قال سلمان الفارسي: يا رسول الله، كنا إذا حوصرنا خندقنا، وفوجئ المشركون بالخندق، فقالوا: والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها، وحاول بعض المشركين اقتحام الخندق، فرمى بالحجارة، واقتحمه بعضهم بفرسه فهلك أو قتل، منهم الفارس المشهور عمرو بن ودّ الحامري، الذي تبارز مع علي رضي الله عنه فقتله على، وفرّ أصحابه عكرمة بن أبى جهل، وضرار بن الخطاب، واستشهد سعد بن معاذ رضي الله عنه في غزوة بنى قريظة.

ثم وقعت مكيدة محكمة بين الأحزاب، فقد جاء نعيم بن مسعود الأشجعي إلى رسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال النبي ﷺ: «خُذْ عَنَّا النَّاسَ إِنْ اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خِدْعَةٌ»، فذهب إلى بنى قريظة، ونصحهم بالألّا يحاربوا مع قريش وغطفان، إلا إذا أخذوا رهائن من أشرفهم، حتى يستمروا معهم في حرب محمد إلى النهاية، لأنهم إذا ستموا الحرب عادوا إلى بلادهم،

وتركهم وحدهم أمام محمد ، ولا طاقة لهم به ، وذهب نعيم إلى قريش ، فأخبرهم أن اليهود ندموا على نقض عهدهم مع محمد ، ويريدون أن يأخذوا رهائن من أشرافكم ، لتستمروا معهم إلى النهاية في قتال محمد ، ولما حاول أبو سفيان ومن معه خوض معركة فاصلة ، أرسل إلى اليهود ليحكموا الهجوم ، فتباطأ اليهود ، وطلبوا رهائن من رجال قريش ، فامتنعوا وصدقوا حديث نعيم بن مسعود ، وتخاذل اليهود والعرب ، وتفرقت الكلمة .

واشتد الظلام ، ومكث النبي ﷺ قائما يصلى رافعا يديه يقول : «يا صريح المكروبين ، ويا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكبرى ، فقد ترى حالى وحال أصحابي» ، «اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم» فأرسل الله ريحا عاتية ، فى ليلة شاتية باردة ، خلعت خيام الكافرين ، وكفأت قدورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، فخطب فيهم زعيمهم أبو سفيان ، ونصحهم بالرحيل فرحلت قريش وغطفان ، ومن جاء معهم من الأحزاب ، ولما رحلت الأحزاب عن المدينة ، قال رسول الله ﷺ : «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» .

ثم ذهب النبي ﷺ إلى بنى قريظة ، وعاتبهم على نقض العهد ، والاتفاق مع المشركين على قتال المسلمين ، وحاصرهم النبي ﷺ ، ثم نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فحكم أن يقتل مقاتليهم ، وتسيب ذراريهم ونسائهم ، فقال النبي ﷺ : «لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات»^(٣٩) .

التفسير :

٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

ويذكر القرآن المسلمين بهذه المعركة الكبيرة فيقول : يا أيها الذين آمنوا بالله تعالى ، تذكروا نعمة الله عليكم وفضله ، حيث كف أنكم أعداءكم ، حيث جاءتكم جنود كثيرة ، تزيد على عشرة آلاف مقاتل ، فأرسل الله عليهم ريحا عاتية ، فى ليلة شاتية باردة ، فخلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، وقد فعل الله ذلك بالأعداء مكافأة لكم على اجتهدكم فى حفر الخندق ، وطاعة الرسول ، وبذل النفس والنفيس ، دفاعا عن الإسلام ورسوله .

وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ... أى : الملائكة .

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . أى : مطلع وشاهد على أعمالكم ، وخبير بما فى قلوبكم فيجازيكم عليه .

١٠ - إِذْ جَاءَكُمْ مِّنْ قُوِّكُمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مَيْكُمُ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا .

وانذكروا حين جاءكم الأحزاب من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وجاء اليهود من أسفل الوادى من جهة المغرب ، وقيل غير ذلك .

والخلاصة : أن الأعداء كانوا كثيرين ، وأن هجومهم كان من جبهتين ، قريش والأحزاب من جهة ، واليهود من جهة أخرى ، واشتد الكرب بالمسلمين ، وباتوا فى حالة من الترقب ، خشية هجوم الأعداء عليهم من الأمام والخلف ، وعبر القرآن عن هذا القلق بقوله :

وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ...

حين مالت عن كل شىء ، فلم تلتفت إلا إلى عدوها .

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ...

أى : خافت القلوب خوفاً شديداً ، كأنها من خوفها بلغت الحناجر .

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا .

وتظنون بالله مختلف الظنون ، فالمؤمنون توقعوا من الله النصر والتأييد ، ورأوا فى ذلك امتحاناً ، يستحق الصبر والرضا واليقين ، وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله .

أما المنافقون فقد ظهر نفاقهم ، ومرض قلوبهم ، وظنوا أن الأحزاب ستنتصر على المؤمنين ، وستدخل المدينة غازية منتصرة ، وسيهزم المؤمنون أمام المشركين .

١١ - هُنَالِكَ آتَى الْمُؤْمِنُونَ رَسُولَهُمْ بِأَمْرِ شَدِيدٍ .

أى : عند هذه المعركة أمحن المؤمنين امتحاناً قاسياً ، واضطربوا اضطراباً قوياً من شدة الفزع ، وهجوم قوة كبيرة عليهم من قريش وغطفان وحلفائهما ، ثم خيانة اليهود العهد ، واتفاق بنى قريظة مع الأعداء على استئصال المسلمين ، وكانت هذه المعركة من أشد المعارك وأقساها على المسلمين ، حتى همَّ النبى ﷺ أن يتفق مع غطفان على أن يرجعوا عن حرب المسلمين ، ولهم ثلث ثمار المدينة ، واستشار النبى زعماء الأوس والخزرج ، فقالوا : لم يكربوا بنالون منا شيئاً فى الجاهلية ، فكيف نعطيهما وقد أعزنا الله بالإسلام ؟ لا نعطيهما إلا السيف .

١٢ - وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا .

وانذكروا أيها المؤمنون حين نجم النفاق من المنافقين ، حين شاهدوا حرج الموقف ، وشدة الضيق بالمسلمين ، فألحزب أمامهم كثيرون ، واليهود نقضوا العهد ، والمؤمنون فى كرب شديد ، يتوقعون الهجوم عليهم من جهتين ، وهم فى قلة وعسرة ، عند ذلك ظهر النفاق والمرض سافراً ، حيث قالوا : إن محمداً يعدنا بالنصر على كسرى وقيصر ، وأعدنا اليوم لا يستطيع الخروج إلى الخلاه وحده .

روى النسائى بإسناده ، عن البراء قال : لما أمرنا رسول الله ﷺ أن نحفر الخندق ، عرضت لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكتنا ذلك لرسول الله ﷺ ، فألقى ثوبه وأخذ المعول وضرب الصخرة ، فصارت كتيباً أهيل ، ثم قال لأصحابه : «إن الله أضاء لى من هذه الصخرة كنوز كسرى وقيصر» . عند ذلك قال المنافقون ومرضى القلوب : ما وعدنا الله ورسوله من النصر والاستيلاء على الممالك ، إلا وعداً باطلاً لا سبيل إلى تحقيقه .

١٣ - وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا .

وانذكروا حين ظهر النفاق من جماعة من المنافقين ، فنصحوا أهل المدينة بعدم الصبر على الجهاد والكفاح ، وكان رسول الله ﷺ قد اتخذ موقعاً حصيناً للقتال ، فجبجبل سلع خلف ظهور المسلمين ، والخندق بينهم وبين المشركين ، فقالت طائفة من المنافقين : يا أهل المدينة ، ليس هذا الموقع مناسباً لإقامتكم ، فارجعوا إلى المدينة للإقامة فى بيوتكم ، أو لا مقام لكم فى دين الإسلام ، فارجعوا إلى ما كنتم عليه ، فزارا من تبة الجهاد والدفاع عن الإسلام .

وفريق آخر من المتخاذلين بعثوا من يستأذن لهم من النبى ﷺ ، بالعودة إلى بيوتهم لحمايتها ، فهى ذليلة غير حصينة ، يخاف عليها من السراق ، والحال أن بيوتهم سليمة حصينة ، ولكن السبب الحقيقى وراء استئذانهم هو الفرار والهرب من تكاليف الجهاد وأعبائه .

ملاحق بتفسير الآية

١ - روى أن بنى حارثة بعثت بأوس بن قيطى إلى رسول الله ﷺ ، يقولون : إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ... وليس دار من دون الأنصار مثل دورنا ، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردُّهم عنا ، فَأَذِنَ لَنَا فَلَنتَرَجِعْ إِلَى دُورِنَا ، فَنَمْنَعُ ذُرَارِينَا وَنَسْأَنَا ، فَأَذِنَ لَهُمْ ﷺ ، فبلغ ذلك سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ، لا تأذن لهم ، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة ، إلا صنعوا هكذا ... فردُّهم .

٢ - قال القاسمى :

(فائدة) : يثرب من أسماء المدينة كما فى الصحيح ^(٨٠) : «أُرِيتَ فى المنام دار هجرتكم ، أرض بين حرتين ، فذهب وهلى أنها هَجْر ، فإذا هى يثرب» . وفى لفظ : المدينة .

قال ابن كثير : فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد ^(٨١) عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : «من سعى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى ، إنما هى طابة هى طابة» فقد تفرد بروايته الإمام أحمد ، وفى إسناده ضعف . اهـ .

١٤ - وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَلِطُوا الْفِتْنَةَ لَأْتَوْهَا وَمَا تَلَبَّوْا بِهَا إِلَّا سِيرًا .

ولو دخل الأعداء عليهم المدينة من كل جانب من جوانبها ، ثم طُلب منهم الكفر والردة عن الإسلام ، والعودة صراحة إلى الكفر وقتال المسلمين لغطوا ، وما تأخروا عن ذلك إلا وقتاً قليلاً ، وهو مقدار ما يكون بين السؤال والجواب ، وهذا دليل على ضعف إيمانهم ، وجبنهم وعدم ثباتهم ، وهذا هو سر استئذانهم للعودة إلى بيوتهم جبنًا وفرقًا ، فلا ثبات عندهم على المحن ، ولا صبر فى البأساء ، بل قلوبهم هواء ، وإيمانهم ضعيف ، ويقينهم مضطرب وإو .

والخلاصة : إنهم لضعف إيمانهم مستعدون لترك الإسلام والدخول فى الكفر والفتنة ، عند أدنى صدمة ، فلا ثبات عندهم ولا عزيمة ولا صبر .

١٥ - وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْثِرُوا الْأَذْهَبَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مُسْتَوْلاً .

ولقد كان هؤلاء المستأذنون فى العودة إلى المدينة هرباً ، قد عاهدوا الله من قبل على الثبات ، وعدم الفرار ، وعدم تولية الأذبار ، وكان عهد الله واجب الوفاء به .

قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق فى السيرة : هم بنو حارثة ، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين همتا بالفشل يومها ^(٨٢) ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبداً ، فذكر لهم الذى أعطوا من أنفسهم . اهـ .

لقد تداركهم الله برحمته ورعايته يوم أحد ، حيث ثبتهم وعصمهم من مواقف الفشل ، وكان ذلك درساً من دروس التربية فى أوائل العهد بالجهاد ، فأما فى غزوة الأحزاب فقد انقضى زمن يزيد على خمس سنوات فى الإسلام ، فالقرآن هنا يواجههم هذه المواجهة العنيفة .

١٦ - قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ إِذَا لَا تُمَتُّونَ إِلَّا قَلِيلًا .

لقد كتب الله على كل نفس أجلها ورزقها وقدرها ، وما يستقبل من أمرها ، قال تعالى : فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (الأعراف : ٣٤) .

فاستئذنان المنافقين فى ميدان القتال ، فرارًا بأنفسهم إلى المدينة ، وهربًا من الموت أو القتل ، لن يطيل أجالهم ، وربما عرضهم لأخطار أشد ، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولذلك تقول لهم الآية : لن ينفعكم فراركم من المعركة ، ولن يؤجل وفاتكم بالموت أو القتل ، وحتى إذا نجوتم فإن الباقى من أعماركم قليل ، بالنسبة إلى الخلود فى الآخرة ، قال تعالى : قُلْ مَتَلَعِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء : ٧٧) .

قال القرطبي :

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ...

أى : من حضر أجله مات أو قتل ، فلا ينفع الفرار .

وَإِذَا لَا تُمَتُّونَ إِلَّا قَلِيلًا .

أى : فى الدنيا بعد الفرار ، إلى أن تنقضى آجالكم ، وكل ما هو آتٍ قريب . ا هـ .

قال الربيع بن خيثمة : وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى : إن فررتم من الموت أو القتل لا ينفعكم الفرار ، لأن مجيء الأجل لا بد منه . ا هـ .

١٧ - قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِيكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ...

إن مراد الله نافذ لا محالة ، فقل لهم أيها الرسول الكريم : من ذا الذى يمتنعكم من قضاء الله ، ويعصمكم مما يريد أن ينزل بكم ، إن أراد بكم هلاكًا أو شرًا ، فلن يستطيع أحد أن يدفعه عنكم ، وإن أراد بكم رحمة أو نفعًا وخيرًا ، فلن يستطيع أحد أن يمنع وصوله إليكم ، قال تعالى : مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (فاطر : ٢) .

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

ولا يجد هؤلاء المنافقون من يعصمهم مما يريد الله تعالى بهم ، ولا يجدون من دونه سبحانه قريبًا ينفعهم ولا ناصرًا ينصرهم ، فإن الله سبحانه وحده هو الناصر والمغيث والمجير .

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾
 أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
 فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ
 يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوَأْنَهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ
 وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَسَمُوا إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠﴾

المفردات :

المعوقين : المثبطين عن القتال مع رسول الله ﷺ .

هلم إلينا ، أقبولوا إلينا .

الـبـاس : الحرب والقتال ، وأصل معناه الشدة .

أشحة عليكم : مفردة شحيح ، أى : يخيل بالنصرة والمعاونة .

تدور أعينهم : تدبر أعينهم أحداقهم من شدة الخوف .

سلقوكم : أذوكم بالكلام وبالعوا في شتمكم .

السنة حديد : قاطعة سلطة ، تفعل فعل الحديد .

أشحة على الغير : بخلاء على الإنفاق فى سبيل الله .

أحبط : أبطل الله أعمالهم لإضرارهم بالكفر .

بادون فى الأعراب : كائنون فى البادية مع الأعراب .

ما قاتلوا إلا قليلا ، رياء وسمعة .

التفسير :

١٨ - قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا .

ترسم هذه الآية والآيتان بعدها صورة زرية للمنافقين ، الذين اشتد جبنهم وعلعهم وخوفهم ،

وفى آيات سابقة ذكر القرآن تعطلهم بالحجج الباطلة ، وقولهم : إِنْ يُّوتِنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا

فِرَارًا . (الأحزاب : ١٣) . وأنهم لا ثبات لهم ، ولا بطولة ولا صبر فى المعارك .

وهنا يتوَعَّدُهم القرآن بأن الله عالم بهم ، مطلع على رذائلهم ، فهم مثبطون مخذلون في صفوف الجماعة المسلمة ، وهم دعاة إلى النكوص عن الجهاد ، حيث كان بعض المنافقين يرسلون إلى إخوانهم المنضمين إلى كتيبة الجهاد ، فيقولون لهم : هلموا فانضموا إلينا في القعود والتخلف ، ثم هم لا يشتركون في الحرب إلا اشتراكا قليلا ، حتى يراهم الناس ، ثم يتسللون في خفية ويهربون فرادى .

قال قتادة : كان المنافقون يقولون لإخوانهم من ساكني المدينة من الأنصار : ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس ، (يريدون أنهم قليلو العدد) ، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه ، فدعوه فإنه هالك .

١٩ - أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ جِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

ترسم الآية صورة بارزة للمعالم للمنافقين ، عنوانها : الجبن في البأساء ، والطمع في الرخاء وعند الغنيمة .

أَشِحَّةٌ عَلَيْكُمْ ...

عندهم شح ويخل بالمال والنفس ، والإنفاق في سبيل الله ، وإذا جاء الخوف وبدأت المعركة وطار الشجعان إلى القتال ، رأيت هؤلاء المنافقين الجبناء في خوف وهلع ، وقد دارت أعينهم في رءوسهم ، فرقا وخوفا ، كدوران عين الذي قرب من الموت ، وغشيتة أسبابه ، فإنه إذ ذاك يذهب لبه ، ويشخص بصره فلا يتحرك طرفة .

فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالْأَسِنَّةِ جِدَادٍ ...

فإذا جاء الرخاء وانتهت المعركة ، تحول هؤلاء الجبناء إلى متظاهرين بالشجاعة ، يفخرون بما لهم من المشاركة في البأساء والحرب ، ولهم أسنة قوية كأنها الحديد ، في بيان الحجة ، والمنازل العالية التي قدموها في الحرب .

قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوؤه مقاسمة ، يقولون : أعطونا أعطونا ، لقد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق . ١ هـ .

قال الشاعر :

أفنى السلم أعيان جفاء وغلظة

وفي الحرب أمثال النساء العوارك^(١)

أَشِجَّةٌ عَلَى الْخَيْرِ ...

بخلاء أشحاء بالمال ، لا ينفقونه فى سبيل الله ، أو مبالغون فى حب المال والغنيمة ، والشح بها أن تنتقل من أيديهم إلى أيدي المؤمنين ، بسبب نفاقهم ، فالإيمان لم يتسرب إلى قلوبهم ، وإن تظاهروا بالإسلام .

قال الفخر الرازى :

أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ...

يعنى لم يؤمنوا حقيقة وإن أظهروا الإيمان لفظا ، فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين .

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

أى : كشف أعمالهم ، وتبيين خفاياهم ، ومعاملتهم بالعدل والحق ، والقسطاس المستقيم كان أمرا سهلاً هيناً على الله ، فهو سبحانه قادر عادل مطلع لا معقب لأمره ، ولا يخشى من اعتراض أحد ، لأنه عادل منصف .

قال الزمخشري : وفى هذا حث على إتقان المكلف أساس أمره ، وهو الإيمان الصحيح ، وتنبيه على أن الأعمال الكثيرة من غير تصحيح الإيمان ، كالبناء على غير أساس ، وأنها مما يذهب عند الله هباء منثورا .

٢٠ - يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ لِفِي الْأَغْرَابِ يَسْتَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا إِلَّا قَلِيلًا .

ترسم الآية معالم المنافقين وشدة جبنهم ، فحتى بعد رحيل الأحزاب ، ويعد أن رَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، فإن المنافقين يظنون أن الأحزاب لم يذهبوا ، ولم يرحلوا بعيداً عن المدينة ، وعلى فرض عودة الأحزاب مرة ثانية ، فإن المنافقين يطمنون أن يكونوا من أهل البداية ، بعيدين عن المدينة والدفاع عنها ، ويتمنون أن يسمعو أخبار المدينة من بعيد ، مع أنهم لم يشتركوا فى القتال اشتراكاً حاسماً ، ولو كانوا مع المؤمنين أثناء القتال ما قاتلوا إلا قتالا قليلاً ، كالرمى بالنبل والسهم ، دون الالتحام المباشر الذى يسبب النصر ، فهم لا يقاتلون عن رغبة ، وإنما يقاتلون رياء ومخادعة .

لقد رسمت الآيات صورة زريّة للمنافقين ، وكشفت عن نفوس ملأها الهلع والجبن ، فهم عوامل شر وتببط ، وهم فى الكريهة والحرب فى خور وهلع ، وفى السلم فى جشع وحب للمال ، والسنة سليطة ، وأقوال

كاذبة ، لا مدلول لها من الأعمال ، ولشدة هلعهم يتمنون الإقامة فى البادية ، يستطلعون أخبار المدينة عن بعد ، دون المشاركة فى القتال وتبعاته .

★ ★ ★

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا ۖ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۚ﴾ (٢٢)

المفردات :

أسوة حسنة : قدوة طيبة ، والمراد به : المقتدى به .

يرجو الله : يأمل رضا الله .

واليوم الآخر : وثواب اليوم الآخر .

صدق الله : ظهر صدق خبر الله .

وتسليما ، وانقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

التفسير :

٢١ - لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا .

من شأن القرآن أن يقارن بين موقف المنافقين من الضعف والخور ، وموقف المؤمنين من الثبات فى المحنة ، والأمل والعمل للنصر .

ومعنى الآية :

لقد كان لكم دليل هادٍ ونبراس مضيء ، فى محمد ﷺ رسول الله ، فكان القائد الرائد ، نظم ورتب ، وشارك فى حفر الخندق ، وشارك فى تثبيت المؤمنين ، وضرب كدية شديدة لم تعمل فيها المعاول ، ضربها فعادت كتيباً أهمل ، وأخلص فى الدعاء لله يوم الخندق ، حتى أرسل الله الريح والملائكة تعاون فى نصر المؤمنين ، والافتداء برسول الله كائن ومتحقق ، لمن كان له أمل ورجاء فى ثواب الله ، وفى عطاء اليوم الآخر فى الجنة ، ولمن ذكر الله ذكراً كثيراً ، حتى يتحقق اتصاله بالله ، وطاعته لأمره ، فهو القائل : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوا بِحُكْمٍ وَأَصِيلًا** . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) . ورغم أن الآية نزلت فى مدح موقف الرسول ﷺ يوم الأحزاب ، ومدح المؤمنين الثابتين فى البأساء ، إلا أن الآية مع ذلك أصل كبير فى

التأسى برسول الله ﷺ ، فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وصبره ومصابرته ، ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه (٨١) .

والآية وإن سيقف للاقتداء به ﷺ فى أمر الحرب ، من الثبات فى القتال ونحوه ، فهى عامة للاقتداء به فى كل أفعاله ، ما لم يعلم أنها من خصوصياته ، فالقرآن قد حث المسلمين على توقيف الرسول ﷺ ، وطاعته وتعظيمه وحبه ، وهدد القرآن المخالفين لأمر الرسول ، قال تعالى : **مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...** (النساء : ٨٠)

وقال سبحانه : **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...** (آل عمران : ٣١) .

وقال سبحانه : **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .** (النور : ٦٣) .

٢٢ - **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا .**

لما شاهد المؤمنون الأحزاب ، مع كثرتهم وقوتهم ، وتعدد جموعهم ، قابلوا ذلك بالثبات ، ورباطة الجأش ، وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، حيث بين القرآن أن ثمن الجنة هو الثبات فى المحنة ، والصبر على البأساء ، وبين الرسول الأمين أن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، وقيل : إن الآية من دلائل النبوة ، حيث أخبر النبى المؤمنين بقدم الأحزاب ، وأنهم جمع كبير ، وسيصلون بعد تسع ليال أو عشر ليال ، من أول الشهر ، فلما وصلت الجموع فى الميعاد ، ازداد يقين المؤمنين ، واستعدوا للحرب ولقاء الأحزاب ، فى صدق ويقين ، ولم تزدهم مشاهدة الأحزاب إلا إيماناً بالله وتصديقاً بشريعته ، وتسليماً لأوامره ، وانقياداً وطاعة لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ .

قال تعالى : **أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يَمُرُّوا أَنْ يَقُولُوا عَٰمَتًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ .** (العنكبوت : ٢) .

وقال سبحانه : **أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِكُمْ أَلَيْسَ الْضُرَّاءُ وَرُزُلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .** (البقرة : ٢١٤) .

من تفسير القرطبى

ومعنى الآية : وما زادتهم الرؤية للأحزاب إلا إيماناً بالرب وتسليماً للضضاء ، ولما اشتد الأمر على المسلمين ، وطال المقام فى الخندق ، قام عليه السلام على التل ، الذى عليه مسجد الفتح فى بعض الليالى ، وتوقع ما وعده الله من النصر ، وقال : «من يذهب لياتينا بخبرهم وله الجنة» فلم يجبه أحد . وقال ثانياً

وثالثاً فلم يجبه أحد ، فنظر إلى جانبه وقال : « من هذا؟ » فقال : حذيفة . فقال : « ألم تسمع كلامى منذ الليلة؟ » قال حذيفة : فقلت : يا رسول الله ، معنى أن أجيئك الضر والقر . قال : « انطلق حتى تدخل فى القوم فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم ، اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئاً حتى تأتينى » . فانطلق حذيفة بسلاحه ورفع رسول الله ﷺ يده يقول : « يا صريخ المكروبين ، يا مجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال أصحابى » . فنزل جبريل وقال : إن الله قد سمع دعوتك وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله ﷺ على ركبتيه ويسط يديه وأرخى عينيه وهو يقول : « شكراً لكما رحمتنى ورحمت أصحابى » . وأخبره جبريل أن الله تعالى مرسل عليهم ريحاً ، فيشر أصحابه بذلك . قال حذيفة : فانتبهت إليهم وإذا نيرانهم تنقد ، فأقبلت ريح شديدة فيها حصباء فما تركت لهم ناراً إلا أطفأتها ولا بناء إلا طرحته ، وجعلوا يتترسون من الحصباء . وقام أبو سفيان إلى راحلته وصاح فى قريش : النجاء النجاء ! وفعل كذلك عيينة بن حصن والحارث بن عوف والأقرع بن حابس ، وتفرقت الأحزاب ، وأصبح رسول الله ﷺ فعاد إلى المدينة وبه من الشعث ما شاء الله ، فجاءته فاطمة بغسل فكانت تغسل رأسه ، فأتاه جبريل فقال : وضعت السلاح ولم يضعه أهل السماء ما زلت أتبعهم حتى جاؤزت بهم الروحاء ، ثم قال : انهض إلى بنى قريظة ، وقال أبو سفيان : ما زلت أسمع قعقة السلاح حتى جاؤزت الروحاء^(٨٤) .

★ ★ ★

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾

المضردات :

صدقوا ما عاهدوا : من الثبات فى القتال مع الرسول ﷺ ، حتى الاستشهاد أو النصر ووفوا بذلك .
قضى نحبه : مات أو قتل فى سبيل الله شهيداً ووفى نذره ، كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر ، والنحب : النذر ، فجعل كناية عن الموت .

من ينتظر : كعثمان وطلحة .

وما بدلوأ : العهد ولا نقضوا شيئاً منه .

ويعذب المنافقين : بأن يميتهم على النفاق ، فيعذبوا بكفرهم .

أو يتوب عليهم : أو يوفق المستعد منهم للتوبة .

سبب النزول

روى البخارى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر رضى الله عنه : **مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ...**

وروى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، والنسائى ، عن أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن بدر ، فشق عليه ، وقال : **أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْبُ عَنْهُ ، لَنَنِ ارَأْنِي اللَّهَ تَعَالَى مَشْهَدًا فِيمَا بَعْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لِيرِيَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَا أَصْنَعُ ، قَالَ أَنَسٌ : فَهَابَ أَنْ يَقُولَ غَيْرَهَا ، فَشَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَاسْتَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ أَنَسُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا أَبَا عَمْرٍو ، أَيْنَ ؟ وَاهَا لِرِيحِ الْجَنَّةِ ، إِنِّى لِأَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى قَتَلَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَوُجِدَ فِى جِسَدِهِ بَضْعٌ وَثَمَانُونَ ، بَيْنَ ضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ وَرُمِيَةٍ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : **مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ...** الْآيَةُ . وَكَانُوا يَرُونَهَا نَزَلَتْ فِيهِ وَفِى أَصْحَابِهِ ^(٨٧) .**

وذكر الزمخشري فى تفسير الكشاف :

نذر رجال من الصحابة أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ، ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ، وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وحمزة ، ومصعب بن عمير ، وغيرهم رضى الله عنهم .

التفسير :

٢٢ - **مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا .**

من المؤمنين الصادقين الأوفياء رجال أى رجال ، قد أخلصوا أنفسهم لله ، وعاهدوه على الصدق فى الحرب ، والجِدَّ فى طلب الشهادة ، ونصرة الإسلام ، فلما جَدَّ الجِدَّ ، وكثُرَت الحرب عن أنيابها ، خاضوا غمار الحرب ، واصطَلوا بنارها ، غير هيَّابِينَ ، فمنهم من قُتِلَ شهيداً ، قد أدَّى واجبه وقَدَّمَ روحه لله ، ومنهم من عاد سليماً معافى ، ينتظر دوره فى الشهادة والفداء ، ولم يغيروا عهدهم مع الله ، ولم ينكصوا على أعقابهم ، كما فعل بعض المنافقين .

٢٤ - **يُجِزِىَ اللَّهُ الصَّالِحِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .**

لقد اختبر الله الناس بالشدائد والمحن ، والجهاد والقتال ، وسائر أحداث الدنيا ، ليتبين وليظهر المؤمن الصادق المستقيم ، ويظهر الكافر والفاجر والمنافق ، فيكافئ الله الصادقين بالجزاء الأوفى ، وهو

جزاء صدقهم ، ويعذب المنافقين الذين ماتوا على النفاق بدون توبة ، أو يتوب عليهم بأن يوقفهم إلى التوبة ، وقد تاب بعض المنافقين وحسن إسلامهم .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .

فهو سبحانه يستر على العصاة ، ويتوب على من تاب من الناس ، ولا يعاقبهم على ما مضى بعد التوبة ، فرحمته واسعة ، وفضله عميم ، وهو سبحانه يفتح أبوابه للتائبين ، وفى هذا حث على التوبة والإيمان قبل فوات الأوان ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَلَتَلَوْنُكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَلَتَلَوْنَا أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٢١) .

وقوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... (آل عمران : ١٧٩) .

★ ★ ★

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝٢٥ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧ ﴾

المعقدات :

الذين كفروا ، الأحزاب .

بغيطهم ، الغيظ : أشد الغضب والحنق .

لم ينالوا خيرا ، غير ظافرين بشيء من مرادهم .

وكفى الله المؤمنين ، وقاهم القتال بالريح والملائكة .

ظاهروهم ، عاونوهم .

من أهل الكتاب ، من يهود بنى قريظة .

من صياصيسهم ، من حصونهم ، جمع صيصة ، وهى كل ما يمتنع به .

الرعب ، الخوف الشديد .

أورثكم ، ملككم إياها وجعلها لكم .

وأرضاء لم تطووها ، بعد وهى خير ، أخذت بعد قريظة ، وعن عكرمة : كل أرض تفتح إلى يوم القيامة .

تمهيد :

تشير الآيات إلى ختام غزوة الخندق ، فقد كانت البداية بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم ، فى إرسال الريح والملائكة على الأحزاب ، ثم عرض لجهود المؤمنين الصادقين ، وصور النفاق والغدر والخور والضعف من المنافقين ، ثم ختم الحديث عن الغزوة بفضل الله تعالى فى هزيمة الأحزاب ، وعودتهم يجرّون أنيال الخبيبة والحرمان ، ثم هزيمة بنى قريظة .

التفسير :

٢٥ - رَزَدَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

تبين هذه الآية إتمام الله النعمة على المؤمنين ، برحيل الأحزاب عن المدينة ، مذعورين خائفين فى شدة من الغيظ والحقد ، فقد تفرقت الأحزاب عن المدينة ، ورحلوا فى جنح الظلام ، بعد أن أرسل الله عليهم الريح ، فخلعت خيامهم ، وكفأت قُدُورهم ، وألقت الملائكة الرعب فى قلوبهم ، فرحلت الأحزاب وهم فى حالة من الخوف والفرع ، وانصرفت قريش وغطفان بنغمهم ، بغوت ما أمَلُوا من الظفر ، فلم ينتصروا فى معركة ، ولم يصيبوا مالا ولا إسارا ، ولم يحتج المؤمنون إلى منازلتهم ومبارزتهم لإجلالهم عن بلادهم ، بل كفى الله المؤمنين القتال ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

روى الشيخان من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا .

فأله تعالى قادر على تنفيذ ما يريد ، عزيز لا يغلبه غالب ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، وهو على كل شيء قدير .

قال محمد بن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق قال ﷺ فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغزهم قريش بعد ذلك ، وكان رسول الله ﷺ يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله تعالى مكة .

وهذا الحديث الذى ذكره محمد بن إسحاق صحيح ، كما قال الإمام أحمد ، وروى مثله الإمام البخارى فى صحيحه ^(٨٧) .

٢٦ - وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْبِرُونَ فَرِيقًا .

تحدث الآيتان ٢٦ ، ٢٧ عن يهود بنى قريظة ، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق على حسن الجوار ، فللمسلمين دينهم ، وللإهود دينهم ، وإذا هجم عدو على المدينة يتعاون المسلمون واليهود فى الدفاع المشترك عن المدينة ، فلما قدمت الأحزاب لحرب المسلمين نقض بنو قريظة هذا العهد ، وانقلبوا على النبى ﷺ وأصحابه ، وكوّنوا جبهة متعاونة مع الأحزاب ، وأصاب المسلمين بلاء شديد بسبب ذلك ، فلما أزع الله المسلمين ، ورحلت الأحزاب بدون نصر أو أسرى ، وإنما رحلت كسيرة ذليلة فى خوف وهلع ، عاد المسلمون إلى المدينة ، واستراحوا واغتسلوا ووضعوا أسلحتهم ، فجاء جبريل إلى النبى ﷺ ، وقال له : يا محمد ، إن الملائكة لم تضع السلاح بعد ، اذهب إلى بنى قريظة ، فإن الله ناصرك عليهم ، فنهض ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة ، وكانت على بُعد أميال من المدينة ، وقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة»^(٨٨) .

فسار الناس فأمركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلّى بعضهم فى الطريق ، وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة ، فلم يعنف واحداً من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة عبدالله بن أمّ مكتوم رضى الله عنه ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم نازلهم رسول الله ﷺ ، وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ، رضى الله عنه ، لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، فحكم سعد ابن معاذ بأن يقتل رجالهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم^(٨٩) ، لأنهم لو ظفروا بالمسلمين لأجهزوا عليهم .
ومعنى الآية :

وأُنزل اليهود الذين ساعدوا الأحزاب ، وعاونوهم على حرب رسول الله ﷺ من حصونهم وقلاعهم التى كانوا يتحصنون بها ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب والخوف ، حتى فتحوا الحصون واستسلموا ، فقتل المسلمون الرجال المقاتلين ، وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ، وتم أسر النساء والذرية .
قال ابن كثير :

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ...

وهو الخوف ، لأنهم كانوا مألواً المشركين على حرب النبى ﷺ ، وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ، فانعكس عليهم الحال .

٢٧ - وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِينَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْغَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

غنمتم أرض بنى قريظة ، وصارت حقاً واجباً لكم كما يجب الحق بالميراث ، وملكتكم ديارهم وحصولهم ومقاعهم وأموالهم ، ومواشيهم وأنثاهم وكل ما كانوا يمتلكون ، كما أورتكم ملك أرض أخرى ، لم تطغوها بعد بأقدامكم ، وهى خيبر لأنها أخذت بعد قريظة ، وقيل : مكة ، وقيل : فارس والروم .

قال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً .

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

فهو سبحانه فعال لما يريد ، وهو على كل شىء قدير ، فقد نصر المؤمنين على الأحزاب ، وعلى بنى قريظة ، ويسر لهم ملك أرض خيبر ، ومكة وفارس والروم ، وكل ما فتحه المسلمون فى أنحاء المعمورة ، كل ذلك بتوفيق الله ، وقدره وقدرته ، وهو سبحانه قدير على أن يملككم ما شاء .

★ ★ ★

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَتَذَرُنَّهَا فَنَّالَيْكُم مِّمَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۚ وَأَسْرَحِكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُم أَجْرًا عَظِيمًا ۝٢٩ يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنكُم بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴿

المفردات :

زينة الدنيا ، زخرفها ونعيمها والسعة فيها .

فتعالين ، أقبلن بإرادتك واختياركن .

أستعسكن ، أى : أعطكن متعة الطلاق ، وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة - ملاءة - بحسب السعة والإقتار .

واسرحكن ، أطلقكن .

سراحا جميلا ، طلاقاً من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة .

بفاحشة مبينة ، فعلة قبيحة أو معصية كبيرة .

مبينة ، ظاهرة القبح ، من قولهم : بين كذا ، بمعنى ظهر وتبين .

ضعفين، ضعفى عذاب غيرهن، أى: مثليه.

يسيسيرا، هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبي، بل هذا سبب له.

المناسبة

فى أعقاب رحيل الأحزاب، ونصر الرسول ﷺ على بنى قريظة، وغنيمة أموالهم، رغبت زوجات الرسول ﷺ فى مزيد من المتعة والنفقة، واجتمعت زوجاته من حوله يقنن: يا رسول الله، نساء كسرى وقيصر بين الحلى والحلل، والإماء والخدم، ونساؤك على ما ترى من هذه الحال من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه بمطالبتهن بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، وكان الله تعالى قد خير نبيه بين أن يكون نبياً ملكاً، أو نبياً مسكيناً، فاختار أن يكون نبياً مسكيناً، وهى أعلى درجة، أى: اختار الرسول الأمين أن يكون زاهداً فى الدنيا، لا فقراً، فقد جاءت الغنائم، ولكن ترفعاً عن زينة الدنيا ومتعها، ورغبة فى التسامى بنفسه وروحه، رغبة فيما عند الله.

التفسير:

٢٨ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنَّ يُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَّتْ لِّفِتَاكِ أَمْتَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَّاحًا جَبِيلًا.

جاء هذا التخيير من الله تعالى، حيث أمر رسوله ﷺ، أن يخير نساءه بين أمرين: زينة الدنيا ومآلها ومتاعها، من الثياب والفراس والمال، وهذا ممكن بعد المتعة والطلاق، أو الحياة فى بيت الرسول ﷺ، راغبات فى التزام أمر الله وشرعه، وطاعة رسوله ﷺ، وإيثار الآخرة، وجزاء ذلك الأجر العظيم، والجزاء الجزيل، وقد خير الرسول ﷺ نساءه، وكُنَّ تسع نسوة، فاخترن جميعاً الله ورسوله والدار الآخرة، فعوضهن الله أن جعلهن أمهات المؤمنين، وحرم على النبي ﷺ تطليقهن، وأمره ألا يتزوج عليهن.

فى أعقاب الآية

١ - من اختارت الطلاق فلها المتعة، وهى كسوة للمطلقة حسب حالة الزوج، قال تعالى: وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمَقْتِرِ قَدَرَهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ. (البقرة: ٢٣٦).

٢ - السراح الجميل، هو الطلاق مع الإحسان، بلا شكاية ولا إيذاء، بل بتقديم مؤخر الصداق، والمكارمة وترضية المطلقة بالمال والمجاملة، لأنها كانت تأمل أن تعيش فى كنف زوجها، وأولى بالمسلمين أن يفعلوا ذلك مع المطلقات، قال تعالى: فَإِنْ سَأَلْتُمُوهُنَّ أَوْ تَسْرِحْنَ بِأَحْسَنِ... (البقرة: ٢٣٩). ونرجو أن نخفف من ويلات الطلاق، وأن يكرم الرجال النساء بإغداق الأموال والتعويض والمكارمة، وإذا

علمنا أن القضاء الأمريكي يعطى للمطلقة نصف الأموال التي اكتسبتها زوجها تعويضاً لها ، فأولى بنا أن نكرم المطلقة امتثالاً لأمر الله في سراح جميل ، وتسريح بإحسان .

٣ - خلاصة معنى الآية :

يا أيها النبي خير زوجاتك بين أمرين :

الأول : الطلاق ولهن عندئذ المتعة وهى الكسوة ، والتسريح أى والطلاق ، سراحاً جميلاً . فراقاً حسناً بلا مشادة ، بل فيه مكارمة ودفع التعويض والترضية المناسبة .

٢٩ - وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْأَثَرِ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً .

وإذا فضلتكم ثواب الله ، ومرضاة رسوله وطاعته ، والرغبة فى ثواب الآخرة وهو الجنة ، فنعم الاختيار ، لأن الله أعد للمحسنات منكم ثواباً عظيماً ، تستحق زينته الدنيا دونه ، ولما اختارت نساء النبي ﷺ جميعاً رسول الله وطاعة الله وثواب الآخرة ، سر رسول الله ﷺ بذلك ، وعوضهن الله فجعلهن أمهات المؤمنين ، وشكرهن الله على حسن اختيارهن وكرمهن ، فقال : لَا يَجِلُّ لَكَ أَتْسَاءٌ مِنْ بَعْدٍ وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ... (الأحزاب : ٥٢)

وقال تعالى : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبْهَلاً ... (الأحزاب : ٥٣) .

ملاحق بتفسير الآيتين (٢٨ ، ٢٩)

١ - عدد زوجاته ﷺ :

عند نزول آيات التخيير بين الدنيا أو الآخرة ، كان عند الرسول ﷺ يومئذ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة رضى الله عنهن .

وأربع من غير قريش : زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيى ابن أخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

ولم يعتبر ذلك التخيير طلاقاً ، لا واحدة ولا أكثر ، لقول عائشة فيما أخرجه الشيخان : خيرنا رسول الله ﷺ ، فاخترناه ، فلم يعدّه علينا طلاقاً .

٢ - المغيرة :

هى التى خيرها زوجها بين الطلاق أو البقاء مع الزوج ، فإذا اختارت نفسها ، وهى مدخول بها فهو الطلاق كله ، ولا عبرة بإنكار الزوج ، لأن معنى التخيير : التسريح ، والتسريح البتات .

قال الله تعالى : **الطَّلَقُ مَرَّتَانِ فَإِنْ سَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنٍ ... (البقرة: ٢٢٩)**.

وقال تعالى فى آية التخيير: **فَتَخَالَتَيْنِ أَمْتَكَ وَأَسْرَحَكُنْ سَرَاحًا جَمِيلًا**. والتسريح بإحسان : هو الطلاق الثالثة، ومعنى التخيير التسريح ، وعلى هذا يكون طلاق المخيرة ثلاثا عند الإمام مالك .

٣ - جعل العصمة فى يد المرأة :

قال ﷺ : **«إنما الطلاق لمن أخذ بالساق»** ^(٩٠).

أى : إن الطلاق حق ثابت للرجل دون المرأة ، لكن الرجل يملك أن يتنازل عن هذا الحق لزوجته عند الحنفية ، ويمكن أن ينص فى العقد على ذلك ، لكنها تستخدم هذا الحق نيابة عن الرجل ، فيقول الرجل : قد جعلت عصمة زوجتى فى يدها ، ولها أن تقول أمامه : لقد ملكتنى عصمة نفسى ، وأنا أملك نيابة عنك حق الطلاق ، وإنى أطلق نفسى منك ، وبذلك تصبح طالقة من زوجها .

وجمهور الفقهاء على أن هذا تبديل لحكم الله ، يتضمن مذلة للرجل ، وقلبا للأوضاع ، ولذلك رفضه جمهور الفقهاء .

٣٠ - **يُنِسَاءُ آتِي مَنْ يَأْتِ مِنْكِ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** .

زوجات الرسول الأمين يظلهن بيت الرسول ﷺ ، وفيه ينزل وحى السماء وتعاليم الله لعباده ، وهن يشاهدن رسول الله أمامهن وهو القدوة والأسوة والمثل الأعلى ، لذلك ضاعف الله عقوبتهن على المعصية ، ولما كان الله قد عصم زوجات النبى ﷺ من ارتكاب فاحشة الزنا ، فإن المراد بالفاحشة المبينة ، القبيح من الأفعال ، كعصيان الله ورسوله ، وطلب ما يشق على الرسول ، وضيق به ذرعا ، ويغتم لأجله ، إذا فعلت إحدى زوجات الرسول ﷺ ذلك ، فإن الله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين ، أىضاعف عذاب غيرها ، لأن زلة العالم يقرع بها الطبل ، وزلة الجاهل يخفيها الجهل ، فلعلوا منزلتهن ، ضاعف الله عقوبتهن عند المعصية ، كما ضاعف الله لهن الثواب عند الاستقامة والعمل الصالح .

روى أن رجلا قال لزين العابدين رضى الله عنه : إنكم أهل بيت مغفور لكم ، فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى ﷺ ، من أن نكون كما قلت ، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ، ولمسيئنا ضعفين من العذاب ، وقرأ هذه الآية والتي تليها .

جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى :

قال القاضى : لأن الذنب منهن أقبح ، فإن زيادة قبحه ، تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ، ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد ، وعوتب الأنبياء بما لا يعاتب به غيرهم .

وجاء فى تفسير الفخر الرازى ما ملخصه :

وحكمة مضاعفة العذاب لزوجاته ﷺ ، أن امرأة لو كانت تحت النبى ﷺ وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبى ، ويكون ذلك الغير خيراً عندها من النبى وأولى ، والذى أولى من النفس التى هى أولى من الغير ، فقد نزلت منصب النبى مرتين ، فتعذب من العذاب ضعفين ، واعلم أن الله قد صان زوجات الرسول ﷺ عن الفاحشة ، فقوله تعالى : مَنْ يَأْتِ مِنْكُ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ ، من باب قوله تعالى : لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ... (الزمر: ٦٥) .

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

أى : ليس كونك تحت النبى ﷺ ، وكونك شريفاً جليلات ، مما يدفع العذاب عنك ، وليس أمر الله كأمير الخلق ، حيث يتعذر عليهم تعذيب الأعداء ، بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم ، أو شفعائهم وإخوانهم ^(٩١) .

وجاء فى تفسير القرطبي ما خلاصته :

أخبر تعالى أن من جاء من نساء النبى ﷺ بفاحشة ، يضاعف لها العذاب ضعفين ، لشرف منزلتهن ، وفضل درجتهن ، وتقديمهن على سائر النساء أجمع ، وكذلك بينت الشريعة فى غير ما موضع ، أنه كلما تضاعفت الحرمات فهتكت ، تضاعفت العقوبات ، وقيل : لما كان أزواج النبى ﷺ فى مهبط الوحى ، وفى منزل أوامر الله ونواهيه ، قوى الأمر عليهن ولزمهن ، بسبب مكانتهن ، أكثر مما يلزم غيرهن ، فضعف لهن الأجر والعذاب ، وقيل : إنما ذلك لعظم الضرر فى جرائمهن ، بإيذاء رسول الله ﷺ ، فكانت العقوبة على قدر عظم الجريمة ، فى إيذاء رسول الله ﷺ .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... (الأحزاب: ٥٧) .

واختار هذا القول الكيا الطبرى .

وكان عمر رضى الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب فى الصباح ، وكان إذا بلغ : يُنْسَاءُ النَّبِيُّ ... رفع بها صوته ، فقل له فى ذلك ، فقال : أذكرهن العهد .

وقرأ الجمهور : مَنْ يَأْتِ . بالياء ، وقرأ يعقوب : مَنْ تَأْتِ ، و : تفتت ، بالتاء من فوق .

وقال قوم : الفاحشة إذا وردت معرفة فهى الزنا واللواط ، وإذا وردت منكورة فهى سائر المعاصى ، وإذا وردت منعوتة فهى عقوب الزوج وفساد عشرته ، وقالت فرقة : بل قوله : بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ . تعم جميع المعاصى ، وكذلك الفاحشة كيف وردت .

قال ابن عباس : ما بغت امرأة نبى قط ، وإنما خانت فى الإيمان والطاعة .

وقال بعض المفسرين : العذاب الذى توعدن به ضِعْفَيْنِ . هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فكَذلك الأجر^(٣)

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وزوجاته أمنهات المؤمنين ، فقد أدين الرسالة ، ونصحن الأمة ، وكن مثلاً أعلى فى الاستقامة والعفة ، ونصح المؤمنين والمؤمنات ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء (الحادى والعشرين)

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الحادى والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
إسماعيل سعيد فهمي

(١) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٣) ، وأحمد فى مسنده (٩٠١٧) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة ، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» .

(٢) لا تصلحوا أهل الكتاب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٥) وفى الاعتصام (٧٣٦٢) وفى التوحيد (٧٥٤٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ :
«لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا ﴿أما بالله وما أنزل إلينا﴾ الآية .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤٠/٣ .

(٤) البلاد بلاد الله والعباد عباد الله :

رواه أحمد فى مسنده (١٤٢٣) من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «البلاد بلاد الله والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم» .

(٥) لا هجرة بعد الفتح :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٧٨٣ ، ٢٨٢٥) ، والترمذى فى السير (١٥٩٠) ، والدارمى فى السير (٢٥١٢) (١٩٩٢ ، ٣٢٢٥) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» . رواه البخارى فى المناقب (٢٨٩٩) وفى المغازى (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر . رواه مسلم فى الإمامة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الهجرة فقال : «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» . وفى الباب عن : أبى سعيد الخدرى ، ومجاهد بن مسعود .

(٦) إن فى الجنة غرفا ترى ظهورها :

رواه الترمذى فى البر (١٩٨٤) وفى الجنة (٢٥٢٦) ، وأحمد فى مسنده (١٣٤٠) من حديث على قال : قال النبى ﷺ :
«إن فى الجنة غرفا ترى ظهورها من بطونها ، ويطونها من ظهورها» ، فقام أعرابى فقال : لمن هى يا رسول الله ؟ قال :
«لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(٧) لو أنكم توكلون على الله حق توكله :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٤) ، وابن ماجه فى الزهد (٤١٦٤) ، وأحمد فى مسنده (٢٠٥ ، ٣٧٢) من حديث عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خصاصا وتروح بطاناه» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو تميم الجشثانى اسمه عبد الله بن مالك .

(٨) من أصبح منكم آمناً فى سربه :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٦) ، وابن ماجه فى الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محصن الخطمى ، عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصبح منكم آمناً فى سربه معافى فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية . وحيزت : جمعت .

(٩) انظر تفسير الجلالين ، والطبرى ، ومقاتل بن سليمان ، وظلال القرآن ، وفى أسباب النزول للواحدى .

(١٠) فى تفسير الجلالين أن نصر الروم كان يوم بدر ، فإذا لاحظنا أن نزول سورة الروم كان قبل الهجرة بسنة ، رجحنا ما ورد فى تفسير مقاتل بن سليمان من أن نصر الروم على الفرس جاء خبرة للمسلمين وهم فى الحديبية (٦ هجرية) وبذلك يكون بين الهزيمة والنصر بضع سنين ، أو سبع سنين .

(١١) التفسير المنير أ . د وهبة الزحيلي ٤٩/٢١ ، وتفسير القاسمى ٤٥٦/١٣ تحقيق أ . محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

(١٢) تفسير القاسمى .

(١٣) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح ٣٢٤٤ ، وفى التفسير ح ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ، وفى التوحيد ح ٧٤٩٨ ، ومسلم فى الجنة ح ٢٨٢٤ ، والترمذى فى التفسير ح ٣١٩٧ ، ٣٢٩٢ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٣٢٨ ، وأحمد ح ٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٨٢٨ من حديث أبى هريرة .

(١٤) باسمك رب وضعت جنى وبك أرفعه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) وفى التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ فراشه بإذنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك رب وضعت جنبنى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

(١٥) الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣١٢ ، ٦٣١٤ ، ٦٣٢٤) والترمذى فى الدعوات (٣٤١٧) وأحمد فى مسنده (٢٢٧٦٠) من حديث حذيفة بن اليمان قال : كان النبى ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : «باسمك أموت وأحياء» وإذا قام قال : «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» . ورواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل قال : «اللهم باسمك أموت وأحياء» ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور» .

(١٦) اللهم غارت النجوم وهذأت العيون :

قال الهيثمى فى المجمع : عن زيد بن ثابت قال : أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : قل : «اللهم غارت النجوم وهذأت العيون وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم أتم عينى وأهدئ ليلى» فقلتها فذهب عني . وقال : رواه الطبرانى وفيه عمرو بن الحصين العقبلى وهو متروك . وذكره مالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة فقال : وحدثنى عن مالك أنهم بلغهم أن أبى الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول : نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحي القيوم . فذكره هكذا من قول أبى الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البر مع تتبعه لذلك... إلخ . الفتوحات الربانية ١٧٧/٣ .

(١٧) اللهم رب السماوات السبع :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٣) من حديث بريدة قال : شكأ خالد بن الوليد المخزومى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق ، فقال النبى ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط على أحد منهم أو أن

يبنى، عن جارك رجل ثناؤك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت». قال أبو عيسى: هذا حديث ليس إسناده بالقوى، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث، ويروى هذا الحديث عن النبي ﷺ مرسلًا من غير هذا الوجه.

(١٨) للتفسير الكبير لغفر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان، طبعة جديدة ملوثة، المجلد التاسع ص ٩٩.

(١٩) عجباً لأمر المؤمن:

آخرجه مسلم فى الزهد (٢٩٩٩)، وأحمد (١٨٤٥٥، ١٨٤٦٠، ٢٣٤٠٦، ٢٣٤١٢)، والدارمى (٢٧٧٧)، من حديث صهيب بن سنان قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

(٢٠) والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم:

رواه البخارى فى بدء الوحي (٤) وفى الحوالة (٢٢٩٨) وفى المناقب (٣٩٠٦) وفى التفسير (٤٩٥٤) ومسلم فى الإيمان (١٦٠) من حديث عائشة قالت: أول ما يدعى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة.. الحديث. وفيه: فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق... الحديث.

(٢١) تفسير القاسمى المجلد الخامس، ص ٤٦٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي مطبعة دار إحياء التراث العربى بيروت، لبنان.

(٢٢) تفسير القاسمى المجلد الخامس ص ٤٦٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء التراث العربى بيروت لبنان، وهناك بقية الأدلة.

(٢٣) رجح ذلك الرأى د. محمد سيد طنطاوى فى تفسير الآية.

(٢٤) من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب:

رواه البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) والترمذى فى الزكاة (٦٦١) والنسائى فى الزكاة (٢٥٢٥) وابن ماجه فى الزكاة (١٨٤٢) والدارمى فى الزكاة (١٦٧٥) وأحمد فى مسنده (٨١٨١، ٨٧٣٨، ٩١٤٢، ٩٢٨١، ٩٧٣٨، ١٠٥٦٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الخليل وإن الله يتقبلها بيومئذ ثم يريها لصاحبها كما يرمى أحدهم فقلوه حتى تكون مثل الجبل»، ورواه أحمد فى مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليرمى لأحدهم التمرة واللغة كما يرمى أحدهم فقلوه أو فصيلة حتى يكون مثل أحد».

(٢٥) من ردد عن عرض أخيه:

رواه الترمذى فى البر (١٩٣١) وأحمد فى مسنده (٢٦٩٨٨) من حديث أبى الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

(٢٦) تفسير القاسمى المجلد الخامس ص ٤٦٩ مطابع دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.

(٢٧) فى ظلال القرآن ٢١ / ٥٤ طبعة عيسى الهابى الحلبي وشركاه.

(٢٨) والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم :

رواه البخارى فى المغازى (٢٩٧٦) من حديث أبى طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقتلوا فى طوى من أطواء بدر خبيث مخبث ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعروة ثلاث ليال فلما كان بيدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا : ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم : «يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطلعكم الله ورسوله فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ، فقال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ، قال قتادة : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحسرة وندماً . ورواه البخارى فى الجنائز (١٢٧٠) وفى المغازى (٤٠٢٦) من حديث ابن عمر قال : اطلع النبي ﷺ على أهل القليب فقال : «وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقيل له : تدعو أمواتنا ، فقال : «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون» . ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٢) من حديث أنس : كنت مع عمر ح وحدثنا شيبان بن فروج واللفظ له ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك قال : كنا مع عمر بين مكة والمدينة فقرأ علينا الهلال وكنت رجلا حديد اليبس فرأيتهم وليس أحد يزعم أنه رآه غيري ، قال : فجعلت أقول لعمر : أما تراه ، فجعل لا يراه قال عمر : سأراه وأنا مستلق على فراشي ، ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله قال : فقال عمر : فوالذى بعثه بالحق ما أخبطوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ قال : فجعلوا فى ينز بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليه فقال : «يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإني قد وجدت ما وعدنى الله حقا؟ قال عمر : يا رسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال : «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شيئا» . ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال : «يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإني قد وجدت ما وعدنى ربي حقا؟ فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا؟ قال : «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ، ثم أمر بهم فمحبوا فألقوا فى قليب بدر .

(٢٩) السلام عليكم دار قوم مؤمنين :

رواه مسلم فى الجنائز (٩٧٤) والنسائي فى الجنائز (٢٠٣٩) وأحمد فى مسنده (٢٣٩٠٤) من حديث عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأناكم ما توعدون ، غدا مؤجلون وأنا إن شاء الله بكم لاحقون ، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» ، ولم يقل بقبية قوله : وأناكم .

(٣٠) انظر تفسير ابن كثير ، وتفسير الآلوسى ، وتفسير الطبري ، وتفسير القاسمى ، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، والتفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي .

(٣١) تفسير القاسمى .

(٣٢) انظر تفسير القرآن للشيوخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٨ - ٦٦٠ هـ) ، اختصار النكت للماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠ هـ) تحقيق د . عبدالله بن إبراهيم الوهيبي طبع ونشر المحقق ، السعودية ، الإحصاء ، ص ب ١٧٣٠ هاتف ٥٨٢٠٤٤١ . قال المحقق : راجع فتح الباري (٢/ ٤٤٠ - العبدین ، ٢٠٢ / ٩ - النكاح ، ٥١ / ١٠ - الأشربة) . وصحيح مسلم (٦٠٧/٢) - صلاة العيدين - ٤) والمعلى لابن حزم (٩٢/٥) . اهـ .

وقد ذكر علماؤنا أن الشعر كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح ، ويمكن أن يقاس عليه الغناء فالحسن منه والقليل منه فى أيام الأعياد والزواج ، والأناشيد عند الأعمال الشاقة حسن ولهو مباح ، وما كان فيه ميوعة أو تخت أو إغراء بالمحرم فحرام .

(٣٣) دخل أبو بكر وعدي جاريان من جوارى الأنصار :

رواه البخارى فى الجمعة (٩٥٢) وفى المناقب (٣٩٣١) ، ومسلم فى المناقب (٨٩٢) والنسائى فى العيدين (١٥٩٣) وابن ماجة فى النكاح (١٨٩٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٥٢٩ ، ٢٤١٦١ ، ٢٤٤٣١) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعدي جاريان من جوارى الأنصار تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعث ، قالت : وليستا بمغنيات فقال أبو بكر : أما مير الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ، وذلك فى يوم عيد فقال رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر ، إن لكل قوم عيدا وهذا عيدنا» .

(٣٤) أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم :

رواه ابن ماجة فى النكاح (١٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٤٧٧٨) من حديث ابن عباس قال : أنكحت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار فجاء رسول الله ﷺ فقال : «أهديتم الفتاة؟ قالوا : نعم ، قال : «أرسلتم معها من يغنى؟» قالت : لا ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الأنصار قوم فيهم غزل فلو بعثتم معها من يقول أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم» .

(٣٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحادى والأربعون ص ٨٢ - ٨٣ ، ويهامشه ما يأتى :

فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٧ ص ٢٨٩ أن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : كانت النساء إذا تزوجت المرأة أو الرجل خرج جوارى الأنصار يغنين ويلعنن فمزوا فى مجلس فيه رسول الله ﷺ وهن يغنين ويقولن :

أهدى لها زوجها أكبثا يبحبحن فى المريد
وزوجها فى النادى يعلم ما فى غد

فقال : «سبحان الله ، لا يعلم ما فى غد إلا الله ، لا تقولوا هكذا ، وقولوا : أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم» .

قال البيهقى : هذا مرسل جيد . هامش جمع الجوامع ص ٢٢٢٨ العدد ١٩ من الجزء الثانى تفسير القرآن العظيم لإسماعيل ابن كثير تحقيق سامى بن محمد السلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع السعودية . الرياض ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٣٦) تفسير روح البيان للشيخ إسماعيل حقى البرسوى ، دار إحياء التراث العربى بيروت - لبنان مجلد ٧ ص ٧١ .

(٣٧) تفسير ابن كثير تحقيق سامى بن محمد السلامة ، دار طيبة السعودية الرياض ٣٣٣/٦ .

(٣٨) أينما لم يظلم :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٢) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٦٠ ، ٣٤٢٨ ، ٣٤٢٩) وفى التفسير (٤٦٢٩ ، ٤٧٧٦) وفى استنباه المرتدين (٦٩١٨ ، ٦٩٣٧) ومسلم فى الإيمان (١٢٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٦٧) وأحمد فى مسنده (٤٢٢٨ ، ٣٥٧٨) من حديث عبد الله قال : لما نزلت : ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم...﴾ قال أصحاب رسول الله ﷺ : أينما لم يظلم ، فأذن الله عز وجل : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ .

(٣٩) أى الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٧٧) ومسلم فى الإيمان (٨٦) ، من حديث عبد الله بن مسعود قال : سألت النبى ﷺ : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله ندا وهو خلقك» ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تقتل ولدك تخاف أن يطعم منك» ، قلت : ثم أى ؟ قال : «أن تزانى حليلة جارك» .

(٤٠) جامع البيان فى تأويل أى القرآن تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ٧٠/٢١ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٩٦٨ م .

(٤١) إذا سمعتم صياح الديكة :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٣٠٣) ومسلم فى الذكر (٢٧٢٩) وأبو داود فى الأدب (٥١٠٢) والترمذى فى الدعوات (٢٤٥٩) وأحمد فى مسنده (٨٠٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعنوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطانا» .

(٤٢) إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبى هريرة .

(٤٣) إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة :

رواه الترمذى فى اللب (٢٠١٨) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة للثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» ، قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون» ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب . ورواه أحمد فى مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحبكم إلى وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى فى الآخرة مساويكم أخلاقا للثرثارون والمتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد فى مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بشراركم» فقال : «هم الثرثارون والمتشدقون ، ألا أنبئكم بخياركم أحاسنكم أخلاقا» .

(٤٤) يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار :

رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٧) وأحمد فى مسنده (١٢٦٩٩) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصحب فى النار صبغة» ، ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعم قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصحب صبغة فى الجنة فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يا رب ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قطه .

(٤٥) مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٢٧ ، ٤٦٩٧ ، ٤٧٧٨) وفى التوحيد (٧٣٧٩) وأحمد فى مسنده (٤٧٥٢) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» .

(٤٦) أى سورة السجدة المجاورة لسورة لقمان .

(٤٧) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٩٢/٢١ .

(٤٨) عقد مؤتمر علمى عالمى فى الولايات المتحدة الأمريكية حوالى سنة ١٩٩٥ م ، وذكر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، أما عمر وجود الإنسان فى هذا الكون فعدته حوالى سبعة بلايين سنة ، أى أن المدة التى قضاها الكون ليتحول من كرة ملتهبة ، إلى دنيا صالحة للحياة ، فيها سماء وأرض وهواء ، هى ستة بلايين سنة ، ونحن لا نحكم هذه المعلومات فى تفسير الآية ، وإنما نستأنس بها بجوار فهمنا للآية ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق من التفسير .

(٤٩) قال الفخر الرازى :

وهذا مثل ما يقول القائل لغيره :

إِن يَوْمًا وَلِدْتَ فِيهِ كَانَ يَوْمًا مَبَارَكًا

وقد يجوز أن يكون قد ولد ليلا ، ولا يخرج عن مراده ، لأن المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولادته . ا هـ .

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى مجلد ٩ ص ١٣٦ - ١٣٩ وانظر تفسير المرافى ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي .

(٥٠) فى ظلال القرآن ١٠١/٢١ مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه .

(٥١) تفسير القرطبي المجلد ٦ ص ٥٣٢٧ دار الغد العربى القاهرة .

(٥٢) تفسير القاسمى ، محمد جمال الدين القاسمى المتوفى ١٣٢٢ هـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان المجلد الخامس ص ٤٨٦ .

(٥٣) فى غزوة تبوك .

(٥٤) لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦١٦) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٧٣) وأحمد فى مسنده (٢١٥١١) من حديث معاذ بن جبل قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقلت : يا رسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : «لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» ، ثم قال : «ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل من جوف الليل» ، قال : ثم تلا : ﴿تسبيحهم عن المضاجع﴾ حتى بلغ ﴿يصلون﴾ ثم قال : «ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه»؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد» ، ثم قال : «ألا أخبرك بملاك ذلك كله»؟ قلت : بلى يا نبى الله ، فأخذ بأساتنه وقال : «كف عليك هذه» ، فقلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : «تلك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥٥) أعددت لعيادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤) ، وفى التفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفى التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤) والترمذى فى التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجة فى الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١) ، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٥٦) انظر تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٣٣٨ ففيه طائفة من الأحاديث كما تجد ذلك فى تفسير ابن كثير ، والتفسير المنير ، وتفسير المراغى وغيرها .

(٥٧) ما أدنى أهل الجنة منزلة :

رواه مسلم فى الإيمان (١٨٩) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٩٨) من حديث المغيرة بن شعبه يرفعه قال : سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : أدخل الجنة ، فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصدقته فى كتاب الله عز وجل : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ الآية .

(٥٨) أعددت لعيادى الصالحين ما لا عين رأت :

تقدم تخريجه ، انظر هامش رقم (٥٥) .

(٥٩) تفسير القرطبى المجلد ٦ ص ٥٣٣٨ مطابع دار الغرب العربى .

(٦٠) تفسير القرطبى مجلد ٦ / ٥٣٣٩ .

(٦١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى المجلد ٩ ص ١٩٢ ، دار إحياء التراث العربى بيروت ، لبنان .

(٦٢) لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة :

رواه البخارى فى المغازى (٤١١٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ يوم الأحزاب : «لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة» ، فأدرك بعضهم العصر فى الطريق فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتىها ، وقال بعضهم : بل نصلى لم يرد منا ذلك ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فلم يعنف ولحدا منهم .

(٦٣) فى ظلال القرآن ١١٩/٢١ مطبعة عيسى البابى الحلوى وشركاه .

(٦٤) تفسير القرطبى المجلد ٦ ص ٥٣٥٢ ، دار الغرب العربى العباسية القاهرة .

(٦٥) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «فإن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه» فقلنا : يا رسول الله كيف انشرح صدره ؟ قال : فإذا دخل النور

القلب انشرح وانفسح». قلنا: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجاني عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». قال العراقي فى تخريج الإحياء: رواه الحاكم فى المستدرک من حديث ابن مسعود.

(٦٦) صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابوني، المجلد الثانى ص ٥١٢ دار القرآن الكريم بيروت.

(٦٧) أنت أخوتنا ومولانا:

رواه البخارى فى الصلح (٢٧٠٠) وفى المغازى (٤٢٥١) من حديث البراء بن عازب قال: اعتمر النبى ﷺ فى ذى القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقالوا: لا نقر بها فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: «أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله».. الحديث وفيه: وقال لعل: «أنت منى وأنا منك» وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى»، وقال لزيد: «أنت أخوتنا ومولانا».

(٦٨) ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد:

رواه البخارى فى التفسير (٤٧٨٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٥) والترمذى فى التفسير (٣٢٠٩) وفى المناقب (٣٨١٤) وأحمد فى مسنده (٥٤٥٥) من حديث عبد الله بن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد حتى نزل القرآن «ادعهم لأبائهم هو أقسط عند الله».

(٦٩) ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر:

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٠٨) ومسلم فى الإيمان (٦١) وأحمد فى مسنده (٢٠٩٥٤) من حديث أبى نر أنه سمع النبى ﷺ يقول: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى قومًا ليس له فيهم فليتبوا مقعده من النار».

(٧٠) قد فعلت:

رواه مسلم فى الإيمان (١٢٦) من حديث ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء فقال النبى ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال: فأتى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال: قد فعلت ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا﴾ قال: قد فعلت ﴿واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا﴾ قال: قد فعلت.

(٧١) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب:

رواه البخارى فى الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم فى الأقضية (١٧١٦) وأبو داود فى الأقضية (٣٥٧٤) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣١٤) وأحمد فى مسنده (١٧٣٢٠) من حديث عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر».

(٧٢) إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان:

رواه ابن ماجه فى الطلاق (٢٠٤٣) من حديث أبى نر الغفارى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروا عليه». ورواه ابن ماجه فى الطلاق (٢٠٤٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «إن الله يرفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروا عليه». قال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح إن سلم من الانقطاع.

وأنظاره أنه منقطع بدليل زيادة عبيد بن نمير في الطريق الثانى وليس ببعيد أن يكون السقط من جهة الوليد بن مسلم فإنه كان يلس . قال المناوى فى فيض القدير : (عن ابن عباس) قال الزيلعى : سنده ضعيف ورواه الطبرانى باللفظ المذكور وقال الهيثمى : وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وفيه كلام لا يضر وبقيته رجاله رجال الصحيح وقال ابن حجر : أخرجه الفضل التميمى فى فوائده بإسناد ابن ماجة بلفظ رفع بدل وضع ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعلة غير قاذحة فإنه من رواية الوليد عن الأوزاعى عن عطاء عن ابن عباس وقد رواه بشر بن بكر عن الأوزاعى فزاد عبيد بن عمير بن عطاء وابن عباس وأخرجه الحاكم والدارقطنى . انتهى . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث ثوبان عن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تجاوز عن أمتى ثلاثة الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرجبى وهو ضعيف . قال المناوى فى فيض القدير : (ثوبان) رمز المصنف لصحته وهو غير صحيح فقد تعقبه الهيثمى بأن فيه يزيد بن ربيعة الرجبى وهو ضعيف ١ هـ . وقصارى أمر الحديث أن النورى ذكر فى الطلاق من الروضة أنه حسن ولم يسلم له ذلك بل اعترض باختلاف فيه وتباين الروايات ويقول ابن أبى حاتم فى العلل عن أبيه هذه أحاديث منكرا كأنها موضوعة وذكر عبد الله بن أحمد فى العلل أن أباه أنكره ونقل الخلال عن أحمد من زعم أن الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف الكتاب والسنة وقال ابن نصر : هذا الحديث ليس له سند يحتج بهملأ ١ هـ . وقد خفى هذا الحديث على الإمام ابن الهمام فقال : هذا الحديث يذكره الفقهاء بهذا اللفظ ولا يوجد فى شىء من كتب الحديث . وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عقبة بن عامر عن النبى ﷺ قال مثله مثل حديث قبله عن النبى ﷺ : «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف وذكره الهيثمى فى المجمع من حديث عمر عن النبى ﷺ قال مثله . قلت مثل حديث قبله عن النبى ﷺ : «وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» . وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن مصفى وثقه أبو حاتم وغيره وفيه كلام لا يضر ، وبقيته رجاله رجال الصحيح .

(٧٣) إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق :

رواه أحمد فى مسنده (٢٣٢) من حديث عمر رضى الله عنه أنه قال : إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله ﷺ ورجعنا بعده ثم قال : قد كنا نقرأ : ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أو إن كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ، ثم إن رسول الله ﷺ قال : «لا تطرونى كما أطرى ابن مريم وإنما أنا عبد فقولوا : عبيده ورسوله» وربما قال معمر : كما أطرت النصارى ابن مريم .

(٧٤) الفخر فى الأحساب والطنن فى الأنساب :

رواه البخارى فى المناقب (٢٨٥٠) من حديث ابن عباس قال : خلال من خلال الجاهلية الطنن فى الأنساب والنياحة ونسى النافلة قال سفيان : ويقولون إنها الاستسقاء بالأنواء . ورواه مسلم فى الجنائز (٩٣٤) وابن ماجة فى الجنائز (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٢٣٢٩٦) من حديث أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال : «أربع أمتى من أمر الجاهلية لا يتركهن : الفخر فى الأحساب والطنن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة» وقال : «النافلة إذا لم تتب قيل موتها تقام يوم القيامة وعليها سريال من قطران ودرع من جرب» .

(٧٥) التفسير المنير للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي ٢٤٢/٢١ .

(٧٦) ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا :

رواه البخارى فى الحولة (٢٢٩٧) وفى الاستقراض (٢٣٩٩) وفى التفسير (٤٧٨١) وفى النفقات (٥٣٧١) وفى الفرائض (٦٧٤٥ ، ٦٧٣١) . ومسلم فى الفرائض (١٦١٩) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به

فى الدنيا والآخرة اقرعوا إن شئتم : ﴿والنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فأيا مؤمن مات وترك مالا فليورثه عصبته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضيقاً فليأتنى فأننا مولاه .

(٧٧) أخرجه الشيخان ، وانظر تفسير القرطبي مجلد ٦ ص ٥٣٦٠ .

(٧٨) تفسير القرطبي مجلد ٦ ص ٥٣٦٢ مطبعة دار الفد العربى القاهرة .

(٧٩) حكمت بحكم الله من فوق سبع سموات :

رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبي ﷺ (٢٨٠٤) وفى المغازى (٤١٢١) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٨ ، ١٧٦٩) .

(٨٠) أخرجه البخارى باب علامات النبوة فى الإسلام حديث رقم ١٧٠٣ .

(٨١) أخرجه أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٥ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

(٨٢) يشير إلى قوله تعالى : ﴿وإذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليترك المؤمنون﴾ (آل عمران : ١٢٢) .

(٨٣) الأعيار جمع غير وهو الحمار ، العوارك : النساء الحيض .

(٨٤) انظر تفسير ابن كثير .

(٨٥) تفسير القرطبي مجلد ٦ ص ٥٣٩٢ طبعة دار الفد العربى العباسية القاهرة .

(٨٦) لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٠٦) وفى التفسير (٤٧٨٣) ومسلم فى الإمارة (١٩٠٣) من حديث أنس قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعنى أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعنى المشركين ، ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنايه ، قال أنس : كنا نرى أن نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ومن المؤمنین رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ إلى آخر الآية وقال : إن أخته وهى تسمى الربيع كسرت ثنية امرأة فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أنس : يا رسول الله والذى بعنك بالحق لا تكسر نتيقتها فافرضوا بالأرض وتركوا القصاص ، فقال رسول الله ﷺ : «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» .

(٨٧) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وقارن بالتفسير المنير أ . د . وهبة الزحيلي ، وتفسير ابن كثير .

(٨٨) لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٦٢) .

(٨٩) تفسير ابن كثير ، وزاد المسير ، والتسهيل فى علوم التنزيل .

(٩٠) إنما الطلاق لمن أخذ بالساق :

رواه ابن ماجة فى الطلاق (٢٠٨١) من حديث ابن عباس قال : أتى النبی ﷺ رجل فقال : يا رسول الله إن سيدى زوجتى أمتى وهو يريد أن يفرق بينى وبينها ، قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : «يا أيها الناس ما بال أحدكم يزوج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما إنما الطلاق لمن أخذ بالساق» .

(٩١) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى مجلد ٩ ص ١٦٦ .

(٩٢) تفسير القرطبى مجلد ٦ ص ٥٤١٢ ، دار الغد العربى - القاهرة .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث بحمد الله تعالى

وبها تم الجزء (الحادى والعشرون)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٦	﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن...﴾	٤١٠٧
٤٧	﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب...﴾	٤١٠٧
٤٨	﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب...﴾	٤١٠٧
٤٩	﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم...﴾	٤١٠٧
٥٠	﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه...﴾	٤١١١
٥١	﴿أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب...﴾	٤١١١
٥٢	﴿قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً...﴾	٤١١١
٥٣	﴿يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى...﴾	٤١١٣
٥٤	﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين...﴾	٤١١٣
٥٥	﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم...﴾	٤١١٣
٥٦	﴿يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة...﴾	٤١١٥
٥٧	﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾	٤١١٥
٥٨	﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرقاً...﴾	٤١١٥
٥٩	﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون...﴾	٤١١٥
٦٠	﴿وكأنن من دابة لا تحمل رزقها...﴾	٤١١٥
٦١	﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض...﴾	٤١١٧
٦٢	﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده...﴾	٤١١٧
٦٣	﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء...﴾	٤١١٧
٦٤	﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب...﴾	٤١١٩
٦٥	﴿فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله...﴾	٤١١٩
٦٦	﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا...﴾	٤١١٩
٦٧	﴿أولم يروا أننا جعلنا حرمات آمناً...﴾	٤١٢١
٦٨	﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً...﴾	٤١٢١
٦٩	﴿والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا...﴾	٤١٢١
—	خلاصة ما تضمنته سورة العنكبوت	٤١٢٣
—	تفسير سورة الروم	٤١٢٥
—	أهداف سورة الروم	٤١٢٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١	﴿إِلَهُمَّ﴾	٤١٢٩
٢	﴿غُلِبْتُ بِالْغُلْبَةِ﴾	٤١٢٩
٣	﴿فَى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سِيغْلِبُونَ﴾	٤١٢٩
٤	﴿فَى بَضْعِ سَنَنِىنَ...﴾	٤١٢٩
٥	﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ...﴾	٤١٢٩
٦	﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلُفُ اللَّهُ وَعْدَهُ...﴾	٤١٢٩
٧	﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	٤١٢٩
٨	﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فَى أَنْفُسِهِمْ...﴾	٤١٣٢
٩	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فَى الْأَرْضِ...﴾	٤١٣٢
١٠	﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوْءَى...﴾	٤١٣٢
١١	﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾	٤١٣٤
١٢	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾	٤١٣٤
١٣	﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفْعَاءُ...﴾	٤١٣٤
١٤	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ الَّذِينَ يَتَفَرَّقُونَ﴾	٤١٣٤
١٥	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٤١٣٤
١٦	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا...﴾	٤١٣٤
١٧	﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾	٤١٣٦
١٨	﴿وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤١٣٦
١٩	﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ...﴾	٤١٣٦
٢٠	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾	٤١٣٩
٢١	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...﴾	٤١٣٩
٢٢	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤١٣٩
٢٣	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾	٤١٣٩
٢٤	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾	٤١٣٩
٢٥	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ...﴾	٤١٣٩
٢٦	﴿وَلِلَّهِ مِنْ فَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤١٤٤
٢٧	﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ...﴾	٤١٤٤
٢٨	﴿ضَرْبَ لَكُمْ مِثْلًا مَنْ أَنْفَسَكُمْ...﴾	٤١٤٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٩	﴿يَلِ اتَّبِعِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْوَالَهُمْ...﴾	٤١٤٥
٣٠	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾	٤١٤٧
٣١	﴿مَنْ يَبْغِبِ يَنْ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ...﴾	٤١٤٧
٣٢	﴿مَنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا...﴾	٤١٤٧
٣٣	﴿وَإِذَا مِنَ النَّاسِ ضُرُّ دَعَوْا رَبَّهُمْ...﴾	٤١٥٠
٣٤	﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ...﴾	٤١٥٠
٣٥	﴿ثُمَّ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا...﴾	٤١٥٠
٣٦	﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا...﴾	٤١٥٠
٣٧	﴿وَلَوْ يَرَوُا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾	٤١٥٠
٣٨	﴿فَإِنَّ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾	٤١٥٢
٣٩	﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبَا لِيَرْوِي أَمْوَالَ النَّاسِ...﴾	٤١٥٢
٤٠	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ...﴾	٤١٥٢
٤١	﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...﴾	٤١٥٦
٤٢	﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾	٤١٥٦
٤٣	﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ...﴾	٤١٥٦
٤٤	﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ...﴾	٤١٥٦
٤٥	﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٤١٥٦
٤٦	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ...﴾	٤١٥٩
٤٧	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ...﴾	٤١٥٩
٤٨	﴿اللَّهُ الَّذِي يَرْسِلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا...﴾	٤١٥٩
٤٩	﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ...﴾	٤١٥٩
٥٠	﴿فَنَظُنُّهُمْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾	٤١٥٩
٥١	﴿وَلَكِنْ أَرْسَلْنَا رِجَالًا قَرِئَةً مِصْفَرًا...﴾	٤١٥٩
٥٢	﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ النَّمْوتَ...﴾	٤١٦٢
٥٣	﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ...﴾	٤١٦٢
٥٤	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ...﴾	٤١٦٥
٥٥	﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ...﴾	٤١٦٦
٥٦	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ...﴾	٤١٦٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٧	﴿يَوْمَنْذَلَايَنْفَعُالَّذِينَظَلَمُوامَعذِرَتَهُمْ...﴾	٤١٦٦
٥٨	﴿وَلَقَدْضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾	٤١٦٨
٥٩	﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾	٤١٦٨
٦٠	﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ...﴾	٤١٦٨
—	خلاصة موجزة لما اشتملت عليه سورة الروم	٤١٧١
—	تفسير سورة لقمان	٤١٧٣
—	أهداف سورة لقمان	٤١٧٤
١	﴿إِلَّا...﴾	٤١٧٧
٢	﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ...﴾	٤١٧٧
٣	﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ...﴾	٤١٧٧
٤	﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾	٤١٧٧
٥	﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾	٤١٧٧
٦	﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٤١٧٩
٧	﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا...﴾	٤١٧٩
٨	﴿وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ...﴾	٤١٨٢
٩	﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...﴾	٤١٨٢
١٠	﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾	٤١٨٣
١١	﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ...﴾	٤١٨٣
١٢	﴿وَلَقَدْآتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ...﴾	٤١٨٥
١٣	﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ...﴾	٤١٨٥
١٤	﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ...﴾	٤١٨٧
١٥	﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾	٤١٨٧
١٦	﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي كُنْتُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ...﴾	٤١٨٩
١٧	﴿يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ أَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ...﴾	٤١٨٩
١٨	﴿وَلَا تَصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا...﴾	٤١٨٩
١٩	﴿وَاقْصِدْ فِي سَبِيلِكَ وَانْمِضْ مِنْ صَوْتِكَ...﴾	٤١٨٩
٢٠	﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾	٤١٩٢
٢١	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا...﴾	٤١٩٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٢	﴿وَمَنْ يَسْلَمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ...﴾	٤١٩٤
٢٣	﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهِ...﴾	٤١٩٤
٢٤	﴿نَعْتَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَبْطِرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ...﴾	٤١٩٤
٢٥	﴿وَلَنُنْزِلَنَّ سَاءَ لَهْمٍ مِنَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤١٩٦
٢٦	﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤١٩٦
٢٧	﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾	٤١٩٧
٢٨	﴿وَمَا خَلَقَكُمْ وَلَا نَعْتَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾	٤١٩٧
٢٩	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ...﴾	٤٢٠٠
٣٠	﴿ذَلِكَ بِأَنَّ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ...﴾	٤٢٠٠
٣١	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ...﴾	٤٢٠٠
٣٢	﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَإِلَاطٍ لِّلْغَيْثِ...﴾	٤٢٠٠
٣٣	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ كَمَا...﴾	٤٢٠٤
٣٤	﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ...﴾	٤٢٠٤
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة لقمان	٤٢٠٧
—	تفسير سورة السجدة	٤٢٠٩
—	أهداف سورة السجدة	٤٢١٠
١	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي...﴾	٤٢١٣
٢	﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾	٤٢١٣
٣	﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ...﴾	٤٢١٣
٤	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾	٤٢١٤
٥	﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ...﴾	٤٢١٤
٦	﴿ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ...﴾	٤٢١٧
٧	﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ...﴾	٤٢١٧
٨	﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ...﴾	٤٢١٧
٩	﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ...﴾	٤٢١٧
١٠	﴿وَقَالُوا أَأَتَدْعُنَا إِلَىٰ دِينِ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ...﴾	٤٢١٧
١١	﴿قُلْ يَتُوبَ إِلَيْكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...﴾	٤٢٢٠
١٢	﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرْجُومِينَ كَاسُورَةً عَلَيْهِمْ...﴾	٤٢٢٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٣	﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَاهَا...﴾	٤٢٢٠
١٤	﴿فَذَرُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا...﴾	٤٢٢٠
١٥	﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا...﴾	٤٢٢٤
١٦	﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾	٤٢٢٤
١٧	﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ...﴾	٤٢٢٤
١٨	﴿وَأَنَّمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا...﴾	٤٢٢٧
١٩	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى...﴾	٤٢٢٧
٢٠	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ...﴾	٤٢٢٧
٢١	﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ...﴾	٤٢٢٧
٢٢	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا...﴾	٤٢٢٧
٢٣	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ...﴾	٤٢٣٠
٢٤	﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَثْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا...﴾	٤٢٣٠
٢٥	﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾	٤٢٣٠
٢٦	﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ...﴾	٤٢٣٣
٢٧	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ...﴾	٤٢٣٣
٢٨	﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾	٤٢٣٣
٢٩	﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ...﴾	٤٢٣٣
٣٠	﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ...﴾	٤٢٣٣
—	تفسير سورة الأحزاب	٤٢٣٧
—	أهداف سورة الأحزاب	٤٢٣٨
١	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾	٤٢٤٤
٢	﴿وَاتَّبِعْ مَا يوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾	٤٢٤٤
٣	﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا...﴾	٤٢٤٤
٤	﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ...﴾	٤٢٤٧
٥	﴿وَأَدْعُوهُمْ لِآيَاتِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ...﴾	٤٢٤٧
٦	﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ...﴾	٤٢٥٢
٧	﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ...﴾	٤٢٥٢
٨	﴿لَيْسَالِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾	٤٢٥٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	٤٢٥٧
١٠	﴿وَإِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ...﴾	٤٢٥٧
١١	﴿مِنَالِكُمْ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا...﴾	٤٢٥٧
١٢	﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾	٤٢٥٧
١٣	﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ...﴾	٤٢٥٧
١٤	﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَاطِرِهَا ثُمَّ سَلَّوُا الْفِتْنَةَ...﴾	٤٢٥٧
١٥	﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ لَا يُؤْلُوا الْأَذْيَارَ...﴾	٤٢٥٧
١٦	﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْغَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ...﴾	٤٢٥٧
١٧	﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ...﴾	٤٢٥٧
١٨	﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوقِينَ مِنْكُمْ...﴾	٤٢٦٤
١٩	﴿أَشْحَةَ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ...﴾	٤٢٦٤
٢٠	﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَنْهَضُوا...﴾	٤٢٦٤
٢١	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾	٤٢٦٧
٢٢	﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا...﴾	٤٢٦٧
٢٣	﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ...﴾	٤٢٦٩
٢٤	﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ...﴾	٤٢٦٩
٢٥	﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا...﴾	٤٢٧١
٢٦	﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾	٤٢٧١
٢٧	﴿وَأَوْثَرَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيُدَارِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ...﴾	٤٢٧١
٢٨	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ كُنْتُمْ تَرَدُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾	٤٢٧٤
٢٩	﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ...﴾	٤٢٧٤
٣٠	﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ...﴾	٤٢٧٤
-	تخريج أحاديث وهوامش	٤٢٨١
-	فهرس الكتاب	٤٢٩٥

تم بحمد الله الجزء (الحادى والعشرون)

وبليه الجزء (الثانى والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثانى والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



آداب بيت النبوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا تَوْفَاهَا أَجْرًا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهُا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١) يَنْسَاءُ النَّبِيَّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٣٤)

المفردات :

يَفْعَلْتُ ، يَطْعُ وَيَخْضَعُ .

تَوْفَاهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ، نَضَاعَفَ لَهَا أَجْرَ عَمَلِهَا الصَّالِحِ ، حَتَّى يَكُونَ ضِعْفُ عَمَلِ امْرَأَةٍ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ نِسَاءِ النَّبِيِّ .

رِزْقًا كَرِيمًا ، فِي الْجَنَّةِ .

لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ، لَسْتَنَ كَجَمَاعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ فِي الْفَضْلِ ، فَمَقَامُكَ أَرْفَعُ وَأَفْضَلُ ، بِشَرْطِ تَقْوَاكَ لِلَّهِ .

إِنْ اتَّقَيْتُنَّ ، بَلْ أَنْتُنَّ أَشْرَفُ وَأَفْضَلُ بِشَرْطِ تَقْوَاكَ لِلَّهِ .

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَلَا تَجْنُنَ بِالْقَوْلِ خَاضِعًا لِنَا .

مَرَضٌ ، مَرَضُ النِّفَاقِ ، أَوْ مَرَضُ الشَّهْوَةِ .

قَوْلًا مَعْرُوفًا ، قَوْلًا مَعْرُوفًا بِالْجِدِّ .

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ، اقْرَبْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ مِنْهَا إِلَّا لِحَاجَةٍ ، وَهُوَ مِنَ الْقَرَارِ فِي الْمَكَانِ بِمَعْنَى الثَّبُوتِ

فِيهِ ، وَفَتْحُ الْقَافِ فِي (قَرْنَ) قِرَاءَةُ حِفْصٍ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِهَا (وَقَرْنَ) وَهُوَ مِنَ الْوَقَارِ .

ولا تبهرجن، ولا تتزين وتخرجن متبخترات، تبدين من محاسنكن ما يجب ستره .

السرّجس، الذنب والدنس والردائل .

آيات الله، القرآن الجامع لكونه آيات الله .

الحكمة، السنة .

لطيفاً، اللطف من الله : الرفق والتوفيق والعصمة .

خبيراً، عالماً بدقائق الأمور .

التفسير :

٣١ - وَمَنْ يُفْسِدْ مِنْكُمْ لِرَبِّهِ وَرَسُولِهِ وَفَعَلَ صَلَاحًا ثُمَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا .

هذه الآية والتي قبلها، واللأني بعدها، آداب من الله تعالى لنساء النبي ﷺ .

والمعنى :

ومن يطع منكم الله ورسوله في قنوت وخشوع وإخبات ، وتستمر على العمل الصالح من صلاة وزكاة، وطاعة لرسول الله والتزام ما يرضيه ، وتجنب مطالبته بما ليس عنده ، هذه يضاعف الله لها الثواب مرتين، وأعد الله لها رزقاً كريماً منه سبحانه في الجنة ، أو في الدنيا والآخرة ، فكما ضاعف الله العذاب لمن عصت منهن ، ضاعف سبحانه وتعالى الثواب لمن أطاعت منهن ، رفعا لمنزلتهن ، وإكراماً لهن .

أخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس ، في حاصل معنى هذه الآية والتي قبلها قال : من عصت منكن فلن العذاب يكون عليها ضعف سائر نساء المؤمنين ، ومن عملت صالحاً منكن ، فإن أجرها يكون ضعف سائر نساء المسلمين . وهذا يستدعي أنه إذا أتيب سائر نساء المسلمين على الحسنه بعشر أمثالها ، أثبت على الحسنه بعشرين مثلاً ، وإن زيد للنساء على العشر شيء زيد لهن ضعفه . ١ هـ .

والله تعالى يضاعف لمن يشاء ، بحسب نية العبد وظروفه ، ولا حرج على فضل الله في العطاء والجزاء ، فهو سبحانه واسع الكرم والعلم ، والله واسع عليم .

٣٢ - يَنْسَاءَ الَّتِي لَسَتْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ ائْتَيْنِ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

مَعْرُوفًا .

لقد فضل الله زوجات الرسول ﷺ ، فجعلهن أمهات المؤمنين ، ورفع الله منزلتهن ، وضاعف لهن الثواب إن أطعن ، وضاعف لهن العقاب إن عصين .

ومعنى الآية :

يا زوجات النبي أمهات المؤمنين ، إنكن لستن كجماعات النساء ، إن شرفكن أعظم ، ومقامكن أسمى ، ما دمتن فى طاعة لله ، والتزام أمره واجتناب نواهيه ، والتمسك بالتقوى ، فلأن من التقوى ، فإنها مصدر الشرف والعز .

فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

ينبغى أن يكون كلامكن جزلاً ، ونطقكن فصلاً ، بدون لين فى القول ولا تكسر ، ولا ريبة ولا تخشع ، حتى لا يطمع فى الفاحشة من كان فى قلبه نفاق ، أو رغبة فى الفسوق ، أو الإكثار من محادثة النساء .

وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

ليكن كلامكن بجد وحزم ، وقوة واستقامة ، تقطع الطريق على كل فاجر أو فاسق ، وليس هذا الوصف خاصاً بزوجات الرسول ﷺ ، بل نساء الأمة تبع فيه لزوجات الرسول ﷺ ، فالمرأة حين تخاطب زوجها تميل إلى اللين والخضوع ، وترخم الصوت وترقيقه ، وحين تخاطب الأجانب تميل إلى الجد والحزم والقوة ، حتى لا يطمع فيها من فى قلبه شهوة ، ورغبة فى الفجور ، وهذا النهى لا يعنى أن أزواج النبي ﷺ على حال من السوء تقتضى المنع والكف ، وإنما المراد رسم المثل الأعلى والطريق الأسمى لهن وللنساء المسلمات .

كما قال تعالى فى مطلع السورة : يَأْتِيهَا أَتَىٰ أُتِيَ اللَّهُ ... فإذا نودى الرسول ﷺ بذلك فمن باب أولى عامة المسلمين ، وكذلك إذا أمرت زوجات الرسول ﷺ بالجد فى القول ، والبعد عن الريبة ، وإطماع الرجال ، فذلك من باب التوجيه الأسمى من الله رب العالمين .

قال تعالى : وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . (الزمر : ٦٥) .

لكن الخطاب هنا للرسول ﷺ ، والمراد أمته ، أو كل من يتأتى منه الخطاب ، أو للتبهيج على ازوم التوحيد والبعد عن الشرك .

٣٣ - وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

أى : الزمّن القرار فى بيوتكن ، ولا تخرجن منها إلا بسبب مشروع ، مثل : إقامة الصلاة فى المسجد ، أو حضور العلم ، أو زيارة الوالدين ، أو المشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو المشاركة فى

كل ما أمر به الله ، وحثت عليه الشريعة ، مثل شهود الجمع والجماعات ، وشهود نعم الله تعالى في البر والبحر ، والنباتات والزراعة ، ما دام ذلك يتم في تمسك بالمظهر الحسن ، والاحتشام في الملابس ، وعدم إظهار المفاتن التي تحرك الشهوة في الرجال ، وقد كانت المرأة في الجاهلية ترسل خمارها على ظهرها وتبدي أقراطها ورقبتها ، وزينتها ودلالها ، بما يثير الإعجاب في نفوس الرجال ، فقال القرآن :

وَلَا تَبْرَحْنَ تَرَجَّ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ...

أى : لا تبدين محاسنكن التي أمر الله بسترها ، مثل كشف الرقبة أو الصدر أو الظهر ، أو التبخر والتكسر من المرأة في مشيتها وصوتها لفتنة الرجال .

وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ...

حافظن على إقامة الصلاة تامة الأركان ، في خشوع وخضوع ، لأن الصلاة وسيلة إلى طهارة النفس ، والبعد عن الرذائل ، وهى وسيلة للتحلى بالفضائل .

وَعَاتِينَ الزَّكَاةَ ...

أخرجن الزكاة ، ففيها حق للفقير ، حتى لا يحس أنه ضائع ولا جائع ، وفيها حق لله تعالى الذى أعطانا المال ، وفيها حق للمجتمع الذى نعيش فيه ، ويربح منه التاجر ، ويكسب منه العامل ، والزكاة وسيلة من وسائل تماسك المجتمع وقوته .

وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...

وذلك يشمل كل طاعة لله ورسوله ، فى التزام هدى الإسلام وأوامره ، وتجنب نواهيه .

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا .

إنما أراد الله سبحانه بتلك الأوامر والتوجيهات تطهير أمهات المؤمنين من المعاصى والذنوب ، وتعمير قلوبهن بنور الإيمان ، وذلك تكون الطاعة وسيلة عملية إلى تزكية النفس وطهارتها ، وعلو منزلتها ، وأهل البيت : كل من لازم النبى محمدا ﷺ ، من الأزواج والأقارب ، وتوجيه الأوامر لهم لأنهم قدوة .

روى الإمام أحمد ، والترمذى ، عن أنس بن مالك قال : إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ، ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : «الصلاة يا أهل البيت : إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا» (١).

وأهل البيت النبوي : هم نساؤه ﷺ ، وقرباته منهم العباس ، وأعمامه ، وبنو أعمامه منهم .

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية :

والأولى أن يقال : هم أولاده ، وأزواجه ، والحسن ، والحسين ، وعلى منهم لأنه كان من أهل بيته ، بسبب معاشرته بنت النبي ﷺ ، وملازمته للنبي ﷺ .

وقال القرطبي : والذي يظهر من الآية أنها عامة في جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ^(٩) .

٣٤ - وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلِي فِي يَوْمِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا .

تذكرن أنكن في بيت النبوة ، حيث يهبط الوحي ، ويعاني رسول الله ﷺ أمامكن من برحاء الوحي ، وهذه قدوة عملية للسنة العملية والقولية ، فتذكرن ذلك ، ويلغنه للمسلمين ، حتى يعم ذلك الخير للمسلمين أجمعين ، وهي حكمة إلهية عليا ، إذ جعل زوجاته وسيلة لإبلاغ المسلمات والمسلمين أحكام الشريعة وما نزل من الوحي ، فهو سبحانه لطيف بعباده خبير بأعمالهم .

قال ابن العربي : في هذه الآية مسألة بديعة ، وهي أن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بتبليغ ما أنزل عليه من القرآن ، وتعليم ما علمه من الدين ، فكان إذا قرأه على واحد أو ما اتفق سقط عنه الغرض ، وكان على من سمعه أن يبلغه إلى غيره ، ولا يلزمه أن يذكره لجميع الصحابة ، ولا كان عليه إذا علم ذلك أزواجه ، أن يخرج إلى الناس ، فيقول لهم : نزل كذا ، ولا كان كذا ، ولا يلزم أن يبلغ ذلك الرجال ^(١٠) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ
وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّيِّمِينَ وَالصَّيِّمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ
وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٣٥)

المفردات :

المسلمين ، الداخلين في الإسلام ، والإسلام هو : الانقياد والخضوع لأمر الله .

المؤمنين ، المصدقين بأركان الإيمان ، والإيمان هو : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى .

الْقَانِطِينَ، الْخَاضِعِينَ لِلَّهِ، الْمَدَامِينَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْقَنُوتَ هُوَ: الطَّاعَةُ فِي سَكُونٍ .
الْخَاشِعِينَ، الْمَتَوَاضِعِينَ لِلَّهِ بِقُلُوبِهِمْ وَأَعْضَائِهِمْ، وَالْخُضُوعَ هُوَ: السَّكُونُ وَالطَّمَأْنِينَةُ .
وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ، عَنْ الْحَرَامِ .

وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ، بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ .

مَغْفِرَةً، غَفْرَاتًا يَمْحُو ذُنُوبَهُمْ .

وَأَجْرًا عَظِيمًا، ثَوَابًا جَزِيلًا عَلَى طَاعَتِهِمْ، وَهُوَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ .

سبب النزول :

أخرج الإمام أحمد، والنسائي، وابن جرير، عن عبد الرحمن بن شعبة قال: سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعنى منه ذات يوم، إلا وندأوه على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله تعالى يقول: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...»^(١).

التفسير :

٣٥ - إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ... الآية .

الآية - كما ترى - وسام على صدر كل مسلم ومسلمة، ملتزم وملتزمة بأحكام الإسلام وصفاته، وفيها رفع لشأن المرأة، وتمجيد لصفاتها الحسنة، حيث قرن الرجال والنساء في عشر صفات، كلها تعبر عن السلوك الحسن، والصفات الكريمة .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...

الذين دخلوا في الإسلام، والإسلام يشمل الالتزام بالأركان والآداب والتشريعات التي شرعها الله في كتابه الكريم .

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...

الذين استقر الإيمان في قلوبهم، بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فالإسلام يعنى الانقياد الظاهري لأحكام الله، والإيمان يعنى التصديق الباطني واليقين الداخلي .

وَالْقٰنِیْنَ وَالْقٰنِیْنَ...

والقنوت هو دوام العمل الصالح ، والطاعة فى سكون ، كما قال تعالى : أَمَنْ هُوَ قَنِيتَ ۚ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ... (الزمر : ٩) .

وقال عز وجل : يٰمَرْيَمُ اقْنُتِ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . (ال عمران : ٤٣) .

ويلاحظ التدرج بين هذه الصفات ، فالإسلام : إسلام المظهر من النطق بالشهادتين ، والصلاة والصيام ، والزكاة والحج ، والإيمان : التصديق الباطنى والإنعان القلبى لله ، ثم ينشأ عن مجموعهما القنوت والإخبات واستمرار الطاعة فى خشوع ويقين .

وَالصّٰدِقِیْنَ وَالصّٰدِقِیْنَ...

والصدق فى القول والعمل منزلة سامية تأتى بعد القنوت ، فإن الصدق رأس الفضائل ، ودليل إلى البر والجنة .

وفى الحديث الصحيح عند أحمد ، والبخارى فى الأدب ، ومسلم ، والترمذى ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»^(٩) .

لذا كان بعض الصحابة رضى الله عنهم ، لم تجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الإسلام .

وَالصّٰبِرِیْنَ وَالصّٰبِرِیْنَ...

وقد ذكر الصبر فى القرآن سبعين مرة ، والصبر فى كتاب الله تعالى على ثلاث درجات : صبر على الطاعات وله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن المعاصى وله ستمائة درجة ، وصبر على المصائب عن الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة .

فالصبر أنواع : منه صبر على أداء الطاعات ، مثل غض البصر وأداء الصلاة فى أوقاتها وفى خشوعها وخضوعها ، وأداء الصيام والزكاة والحج ، وله ثلاثمائة درجة .

والصبر عن المعصية : أى البعد عن الزنا والربا والقتل ، واليمين الغموس والسحر ، والابتعاد عن كل ما يغضب الله ، أى ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك ، وله ستمائة درجة .

وقمة الصبر: الصبر على المصائب عند الصدمة الأولى، والرضا بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره، وتحمل المكاره والنوائب، والابتلاء في المال والنفس، وثوابه تسعمائة درجة، وفي الحديث: «الصبر جزاؤه الجنة».

وَالْخَشِيعِينَ وَالْخَشِيعَتِ ...

والمتواضعين بقلوبهم والمتواضعات، فإذا فعلوا الحسنات تواضعوا وتطامنوا، رجاء أن يقبلها الله، أي: لا ينالهم العجب ولا التطاول والتكبر، بل هم في إحسان ومراقبة لله، وفي الحديث الصحيح: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٩). والخشوع صفة تجعل القلب والجوارح في حالة انقياد تام لله تعالى ومراقبته، واستشعار لجلاله وهيئته.

وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَتِ ...

المخرجين زكاة أموالهم، والمتصدقين بأموالهم تطوعاً ورحمة بعباد الله، والمتصدقات بأموالهن رجاء ثواب الله.

وفي الحديث الذي ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه، ورجلان تحاباً في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين»^(١٠).

وموضع الشاهد هنا هو من يخرج الصدقة خفية، لا يعلم بها أحد إلا الله تعالى.

وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَتِ ...

أي: يصومون رمضان، ويصومون تطوعاً، قال سعيد بن جبیر: من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى: وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَتِ.

والصوم ركن من أركان الإسلام، وفريضة من فرائضه، وهو وسيلة إلى التزكي والتطهر، والتقرب إلى الله تعالى وتقواه ومراقبته، وهو علاج لثورة الشهوة، روى البخاري، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»^(١١).

ومعنى وجاء : قاطع لثوران الشهوة .

وَالْحَافِظِينَ لُرُوحِهِمْ وَالْحَافِظَاتِ ...

أى : الملتزمين بالعفة والملتزمات ، المحافظين على الاستقامة ، والبعد عن الزنا ، وعن كشف العور ، قال تعالى : وَالَّذِينَ هُمْ يَلْفُورُوهُمْ خَفِظُونَ ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ زَوْجًا دَلِكَ فَلَا يَزَلْ لِيَكَ هُمُ الْعَاذُونَ . (المؤمنون : ٥ - ٧) .

وَالَّذَاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ...

أى : المداومين على ذكر الله وتذكره والمداومات على ذلك ، وذكر الله يشمل تذكره بالقلب وتذكره باللسان ، وعبادته بالجوارح بنية صادقة ، وقد أمرنا بالذكر الكثير لتأكيد الإيمان فى القلب ، والوصول إلى محبة الله تعالى ومرضاته ، وفى الحديث القدسى : «أنا جليس من ذكرنى ، إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاً ذكرته فى ملاً خير منه» .

وقال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وقد ختمت هذه الصفات بالذكر لأنه قمة العمل الصالح ، فأكثر الصائمين أجراً ، أكثرهم لله ذكراً ، وكذلك المصلون والمزكون والمتصدقون والحجاج ، أكثرهم فضلاً أكثرهم لله ذكراً ، حتى ذهب الذاكرون لله بكل خير ، كما ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد .

ثم قال تعالى :

أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْزًا عَظِيمًا .

أى : هيا الله للمتصفين بهذه الصفات مغفرة لذنوبهم ، وثواباً عظيماً فى الآخرة وهو الجنة ، وأنعم بها من أجر عظيم وثواب جليل .

ونلاحظ أن ذكر الله تعالى يشمل ذكره عقب الصلوات ، وعند المضاجع ، وعند الانتباه من النوم .

قال مجاهد : لا يكون العبد ذاكراً لله تعالى ذكراً كثيراً ، حتى يذكره قائماً وجالساً ومضطجعاً .

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (٣١) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٣٢) ﴿وَمَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٣) ﴿الَّذِينَ يَلِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٤) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٣٥)

المضردات :

وما كان لمؤمن ، وما صح ولا استقام .

الخيرة ، حق الاختيار فيما حكم الله فيه ورسوله بالجواز أو المنع .

ضلّ ضلالا مبينا ، أخطأ طريق الفلاح خطأ واضحا .

أنعم الله عليه ، بالإسلام .

وأنعمت عليه ، بالعق ، وهو زيد بن حارثة .

واتق الله ، في أمر زينب زوجتك فلا تحاول طلاقها .

وتخفي في نفسك ، أمر تزوجها الذي شرعه الله ، حذرا من قالة الناس .

وطـــــرا ، حاجة ، كناية عن أنه طلقها .

حـــــرج ، ضيق .

في أزواج أدعيائهم ، في أزواج من دعوهم أبناءهم وهم غريباء .

وكان أمر الله مفعولا ، وكان حكمه وقضاه نافذا .

في الذين خلوا من قبل ، في الرسل السابقين .

قدرًا مقدورًا، قضاء مقضيا، وحكما مفعولا .

حسيبًا، كافيا للمخاوف أو محاسبًا .

خاتم النبيين، آخرهم فلم يجرى نبي بعده .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات لإبطال بعض عادات الجاهلية ، وهى احتقار العبيد والفقراء ، والتباهى بالأحساب والأنساب ، وقد أراد القرآن أن يبين أن الإسلام والإيمان وطاعة الرحمان ، هى مصدر العزة والمجد ، فقد خطب النبى ﷺ زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وهى قرشية ذات حسب ونسب ، لزيد بن حارثة مولاها ، وكان رقيقًا ، وقد حضر أبوه ليشتريه من النبى ﷺ ، فقال له النبى ﷺ : «إن اختارك فخذهُ بدون ثمن ، وإن اختارنى فسيبقى معى» ، فاختر زيد البقاء مع النبى ﷺ ، وعيَّره عمه قائلًا : كيف تختار الرق على الحرية ، فقال زيد : لقد رأيت من هذا الرجل كل عطف وخير وبركة ، ولا أؤثر أحدًا على بقائى مع رسول الله ﷺ ، ولو كان أبى ، فعندئذ ذهب النبى ﷺ بزيد إلى المسجد ، وقال : «اشهدوا أيها الناس ، إن زيد بن حارثة ابنى ويرثنى» ، فكان بعد ذلك يدعى زيد بن محمد ، فلما أبطل الله التبني ، بقوله سبحانه : **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ...** (الأحزاب : ٥) . قال زيد : أنا زيد بن حارثة .

ثم شرع الله زواجه من امرأة قرشية شريفة ، ليبين للحق سبحانه أن الإيمان الصادق له اعتباره فى الزواج ، وتم هذا الزواج ، وشاء الله ألا يستمر ، لأن زينب بنت جحش كانت تفتخر على زيد بأنها قرشية أصيلة لم يجر عليها الرق ، وأن زيدًا كان رقيقًا ، ورجب زيد فى طلاقها لتعاليلها عليه ، ولأن فيها حدة ، وكان النبى ﷺ يطلب من زيد الثريت ، وإمساك زينب ، وعدم المسارعة فى طلاقها ، وكان الله قد أعلم رسوله ﷺ ، أنه سيتزوج زينب بعد أن يطلقها زيد بن حارثة ، ومع هذا كان يخشى تعجيل هذا الزواج ، خوفًا من كلام الناس ، وقولهم : إن محمدًا تزوج حليلة متبناه ، فلأم الله نبيه على ذلك ، وبين له أن الخشية تكون من الله ، لا من كلام الناس ، وكانت فى الآيات دروس عديدة ، منها ما يأتى :

- تقدير الناس حسب أعمالهم .

- إطاعة أمر الله وأمر رسوله طاعة مطلقة وعلى كل حال .

- لا خشية من كلام الناس ما دام الإنسان ممتثلًا لأمر الله .

- لا ينبغي لمؤمن ولا لمؤمنة تقديم الهوى الشخصى على أوامر الله ورسوله .

- إبطال أحكام التبني التى كانت فى الجاهلية .

- تقرير نبوة الرسول ﷺ ، وأنه خاتم الأنبياء فلا نبي بعده .

- جواز عتاب الله لرسوله .

- ذكر فضل الله على زيد ، حيث ذكر اسمه في القرآن ، وسيظل يُقرأ إلى يوم الدين .

- ذكر فضل الله على زينب ، حيث زوجها الله من علياء السماء ، وكان السفير في ذلك جبريل .

التفسير :

٣٦ - وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْتِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا .

أى : ما صح ولا استقام لرجل ولا لامرأة من المؤمنين ، إذا قضى الله ورسوله أمراً ، أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا ، بل يجب عليهم طاعة أمر الله ، وطاعة أمر رسوله ﷺ ، فإنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، ومن يعص الله ورسوله فقد بعد عن طريق الحق بعداً بعيداً واضحاً .

وكان النبي ﷺ قد خطب زينب بنت جحش ، لنتزوج زيد بن حارثة مولاه ، وقالت : أنا أشرف منه نسباً ، وأزهرها أحوها فى امتناعها ، فلما أنزل الله على رسوله هذه الآية ، قالت زينب : يا رسول الله ، هل رضىته لى زوجاً ؟ قال : « نعم » ، فقالت زينب : إذن لا أعصى رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسى .

٣٧ - وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ...

روى عن على زين العابدين بن الحسين ، أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بتزويج الله إياها له ، فلما اشتكى زيد للنبي ﷺ خُلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال له النبي ﷺ على جهة الأدب والوصية : اتق الله فى قولك ، وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أن زيداً سيفارقها ، وأنه ﷺ سيتزوجها ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس ، فى أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر ، من أنه خشى الناس فى شئ قد أباحه الله له ، بأن قال : أَمْسِكْ . مع علمه أنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية فى كل حال ^(٩) .

قال القرطبي :

قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل فى تأويل الآية ، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري والقاضي أبى بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبى بكر بن العربى وغيرهم ، والمراد بقوله : وَتَخْشَى النَّاسَ . إنما هو إرجاف المنافقين ، بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء ، وتزوج بزوجة ابنه ، فأما ما روى أن النبي ﷺ هوى زينب امرأة زيد - وربما أطلق بعض المجان لفظ عشق - فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا ، أو مستخف بحرمة .

قال الترمذى الحكيم فى نوارى الأصول :

قال على بن الحسين : إنه إنما عتب الله عليه ، فى أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... وأخذتك خشية الناس ، أن يقولوا : تزوج محمد امرأة ابنه ، والله أحق أن تخشاه .

قال بعض العلماء : ليس هذا من النبى ﷺ خطيئة ، ألا ترى أنه لم يؤمر بالتوبة ، ولا بالاستغفار منه ، وقد يكون الشئ ليس بخطيئة ، إلا أن غيره أحسن منه ، وأخفى ذلك فى نفسه خشية أن يفتتن الناس^(١) .

وقال الخفاجى :

واضح أن الله تعالى لما أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى ، أوحى إلى نبيه محمد ﷺ أن يتزوج زينب إذا طلقها زيد ، فلم يبادر له ﷺ مخافة طعن الأعداء فعوتب عليه . اهـ .

من صحيح البخارى

صح من حديث البخارى ، والترمذى أن زينب - رضى الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات .

تفسير الآية

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ...

واذكر أيها النبى الكريم ، حين تقول لزيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه بالإسلام والهداية ، وأنعمت عليه بالعنق والتقريب منك ، حين جاء يشتكى من زينب ، ويذكر أنها تستعلى عليه ، فقلت له :

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ... فلا تطلقها ، وَاتَّقِ اللَّهَ ... فيما تقوله عنها .

وَتُخْفَى فِى نَفْسِكَ ... أنك مأمور بتزوجها ، مع أن الله سيبيده ويظهره علنا ، وتخاف من تعيير الناس ونقدهم واعتراضهم ، النابع من منطق الجاهلية .

وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ... وقد أراد منك الزواج من زينب بعد طلاقها ، وانقضاء عدتها ، هدمًا وقضاء على الأحكام التى جعلت الدعى كابن الصلب .

فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا .

لما قضى زيد حاجته منها ، وملأها وطلّقها ، وانتهت عدتها ، جعلناها لك زوجة بأمرنا ، ليرتفع الحرج والضيق من بين المؤمنين ، إذا أرادوا الزواج بمطلقات أدعيائهم ، وهم الذين تبذروهم فى الجاهلية . ثم أبطل الإسلام حكم التبني ، وألغى جميع آثاره ، وصفى كل نتائجه ، وكان قضاء الله وقدره نافذاً وكائناً لا محالة .

قال محمد بن عبد الله بن جحش : تفاخرت زينب وعائشة رضى الله عنهما ، فقالت زينب : أنا التى نزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى من السماء ، فاعترفت لها زينب .

وذكر القرطبي ، وابن جرير ، عن الشعبي قال : كانت زينب رضى الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأدُلّ عليك بثلاث ، ما من نساءك امرأة تدلّ بهن : أن جدّى وجدك واحد ، وأن الله أنكحك إياي من السماء ، وأن الصغير فى ذلك جبريل .

٣٨ - مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا .

أى : ما صبح ولا استقام أن يكون على محمد ﷺ نبي الله ورسوله ، من ضيق أو عيب فيما أحل الله له ، وأمره به من زواج زينب ، وهذا حكم الله تعالى فى الأنبياء من قبله ، لم يكن لأمّهم بشيء ، وعليهم فى ذلك حرج أو ضيق ، وكان أمر الله الذى يقدره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وهذا رد على المنافقين الذين عابوا على رسول الله ﷺ زواجه من امرأة زيد ، ورد على اليهود الذين عابوه من كثرة الزوجات ، فقد كان لداود وسليمان عليهما السلام عدد كثير من النساء .

٣٩ - الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا .

هؤلاء الأنبياء والرسل هم الذين يلغون رسالات السماء ، ويخشون الله وحده دون سواه ،

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا . فهو سبحانه المحاسب والمجازى والمكافى ، وأنعم وأكرم به على عطاياه ومكافآته . وقد كان محمد ﷺ سيد الناس فى هذا المقام ، وفى كل مقام ، فإنه قام بتبليغ رسالات الله إلى أهل المشارق والمغارب ، وإلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله به كلمته ودينه وشرعه ، على جميع الأديان والشرائع ، حيث بعثه الله إلى جميع الخلق ، عريهم وعجمهم ، قال تعالى : قُلْ يَتْلِيهَا نَاسٌ مِنْهُنَّ نِسَاءٌ وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (الأعراف : ١٥٨) . ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بذلك بعده أصحابه ، رضى الله عنهم حيث بلغوا عنه كما أمرهم به ، فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ،

وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم ، إلى زماننا هذا ، فينورهم يهتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون^(١) .

وفى هذه الآية إشارة إلى أنه ﷺ ، ليس عليه بأس من لائمة الناس ، فى أمر قضاء الله ، لنسخ عادة التبنى .

٤ - مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

تأتى هذه الآية رداً على المنافقين الذين قالوا : إن محمداً ينهانا عن زواج امرأة الابن ، وقد تزوج امرأة ابنه ، فأفاد القرآن أن محمداً لم يكن أباً نسبياً لزيد ، إنما رياه ورعاه وأدعاه ، فلما أبطل الله التبنى صار يدعى زيد بن حارثة ، فما كان محمد أباً لزيد ، ولكن هو رسول الله ، يبلغ رسالات الله ، ويصل بين وحى السماء ، وتعليم الناس شرائع الله تعالى ، وقد ختم الله به النبيين فلا نبى بعده ، ومن أجل ذلك اشتملت شريعة الإسلام على مقومات حياتها ، وخلودها ويقائنها ، حيث نص القرآن الكريم على ثوابت الشريعة ، ووضحت السنة القرآن ، ورسمت للناس معالم الحياة وتطبيقاتها العملية ، وكان عمل الصحابة وسلوكهم وقضاؤهم ، وفتاواهم وفقههم ، مصدرًا تشريعيًا من مصادر التشريع ، وكذلك اجتهاد التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، فالاجتهاد أصل من أصول التشريع الإسلامى ، ويبقى لهذه الشريعة جدتها ونضارتها وخلودها إلى يوم الدين ، قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْلُظُونَ . (الحجر : ٩) . وقد وردت الأحاديث الصحيحة فى البخارى ومسلم وكتب السنن ، تؤيد أن رسالة النبى ﷺ رسالة خاتمة للرسول ، فلا نبى بعده ، وكل من ادعى الرسالة أو النبوة بعده ، افتضح أمره ، وعرف الناس كذبه ، لقوله تعالى : وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . يفتح التاء عند حفص ، وفى قراءة الجمهور : وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . بكسر التاء ، أى : أن الله ختم به الرسالات ، وقال ﷺ : «أنا العاقب فلا نبى بعدى» ، وقال ﷺ : «أنا خاتم الرسل» . صلوات الله وسلامه عليه .

من تفسير القرطبى

١ - اعلم أن محمداً ﷺ ، لم يكن أباً أحد من الرجال المعاصرين له فى الحقيقة ، ولم يقصد بهذه الآية أن النبى ﷺ لم يكن له ولد ، فقد ولد له ذكور : إبراهيم ، والقاسم ، والطيب ، والمطهر ، ولكن لم يعيش له ابن حتى يصير رجلاً ، وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ، ولم يكونا رجلين معاصرين له .

٢ - قال ﷺ : «ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(٢) .

وقد حفلت كتب التفسير كالقرطبى وابن كثير والتفسير المنير وغيرها بإيراد طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، تدل دلالة قاطعة على أن محمداً ﷺ خاتم الرسل .

وجاء في التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ما يأتي :

وقد أفادت هذه الآية أنه لا نبي بعده ﷺ بإجماع المسلمين خلفاً عن سلف ، وإصراحة الآية لم يستطع المارقون أن يدعوا النبوة ، بل ادعى بعضهم الرسالة كاليهات ، وهذا إفك وكفر مبين ، فإنه إذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا عكس ، وقد وردت الأحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ بأنه لا نبي بعده . أخرج البخاري ، ومسلم بسنديهما عن النبي ﷺ قال : «إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بهي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي ، ولم يبق من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(١٣) ، وقال ﷺ : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(١٤) . ولهذا قال ﷺ : «ليس يبقى بعدى من النبوة إلا الرؤيا الصالحة»^(١٥) . وقد روى الإمام مسلم بسنده ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلني ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون : لولا موضع اللبنة» . قال رسول الله ﷺ : «فأنا موضع اللبنة ، جئت فخمت الأنبياء»^(١٦) ونحوه عن أبي هريرة ، غير أنه قال : «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» ، وروى الإمام أحمد بسنده ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت ، فلا رسول بعدى ولا نبي» ، قال أنس : فشق ذلك على الناس ، قال : فقال ﷺ : «ولكن المبشرات» ، قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : «رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة»^(١٧) .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ﴾^(٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾

المضردات :

ذكروا كثيراً ، في أغلب الأوقات ، ويشمل مختلف أنواع التقديس والتمجيد والتهاويل والتحميد .

بكرة أصيلاً ، أول النهار وآخره ، ويشمل صلاتي الفجر والعصر .

يصلى عليكم ، بالرحمة والرعاية والتوفيق .

وملائكته ، بالاستغفار .

من الظلمات ، من الكفر والمعصية .

إلى النور، إلى الإيمان والطاعة .

يوم يلقونه ، عند الموت أو البعث أو دخول الجنة .

سلام ، إخبار بالسلامة من كل مكروه .

أجراً كريماً ، أجراً عظيماً ، هو الجنة .

التفسير :

٤١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا .

تحريض للمؤمنين والمؤمنات على ذكر الله تعالى ، بألسنتهم وقلوبهم ، ويشمل ذلك كل عبادة تصل صاحبها بالله ، فى قنوت وخشوع ، كالصلاة وتلاوة القرآن والجهاد ، وشرح أحكام الشريعة ، ورعاية الأيتام ، والقيام بأحكام الدين وحدوده .

وعن قتادة : قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٤٢ - وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

ونزهوه عما لا يليق به من الشريك والولد ، بحيث يستقر التوحيد فى قلوبكم ، وتمتلئ به مشاعركم ، وتتحقق خشية الله الجليل ، وتنزيهه عن كل نقص ، والاعتراف له بكل كمال ، كالحمد والشكر والتوحيد ، والسمع والبصر ، والرحمة والعطاء ، وتنزيهه تعالى عن الظلم والجور ، وعن كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى .

بُكْرَةً وَأَصِيلًا .

فى الصباح وقبل الغروب .

وقال الزمخشري : أى فى كافة الأوقات ، وإنما ذكر هذان الوقتان ، لكونهما مشهودين بملائكة الليل والنهار . اهـ .

والزمخشري يشير بذلك إلى حديث صحيح رواه البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «تجتمع ملائكة

الليل وملائكة النهار فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ

قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» (١٨) . (الإسراء : ٧٨) .

فهناك حفظة على كل إنسان ، وهم : عشرة من الملائكة بالنهار ، وعشرة بالليل ، وفي صلاة الفجر تتلاقى ملائكة الليل وملائكة النهار ، ثم تصعد الملائكة التي باتت بالليل مع المؤمنين ، فيسألهم ربهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : يا ربنا تركناهم وهم يصلون صلاة الفجر ، وأتيناهم وهم يصلون صلاة العصر ، فاعفر لهم يوم الدين ، وفي صلاة العصر تصعد ملائكة النهار ، فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : يا ربنا تركناهم وهم يصلون صلاة العصر ، وأتيناهم وهم يصلون صلاة الفجر ، فاعفر لهم يوم الدين .

وقريب من ذلك قوله تعالى : **وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** . (غافر: ٧) .

قال المفسرون : والتسبيح نوع من الذكر ، وإفراده من بين الأذكار ، لكونه عمدة في ذكر الله تعالى ، فما لم ينزه الله تعالى عما لا يليق به ، لا يتحقق ذكر الله تعالى .

٤٣ - **هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَىكُمْ وَعَلَيْكُمْ وَيُبَدِّلُ لَكُمْ لُحُوزَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا** .

الله تعالى يشملكم برحمته وعنايته وفضله وهدايته ، والملائكة تستغفر لكم وتسال الله لكم المغفرة ودخول الجنة والنجاة من النار ، ويرحمه الله ، واستغفار الملائكة ، يخرجكم الله من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهداية ، ورحمة الله واسعة ، فيشمل بها المؤمنين والمؤمنات .

قال ابن عباس : الصلاة من الله تعالى رحمة وبركة ، وصلاة الملائكة استغفار ، وصلاة المؤمنين دعاء .

وقال ابن كثير : هذا تهديد إلى الذكر ، أي أنه تعالى يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ... (البقرة: ١٥٢) .

٤٤ - **تَجِيبُهُمْ يَوْمَ يَقْرَأُ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا** .

تحية المؤمنين عند خروج روحهم من الدنيا ، أن الله تعالى يسلم عليهم ، ويبشرهم بالجنة ، جزاء طاعتهم له في الدنيا ، وقيل : السلام عند البعث ، وقيل : السلام من الله عليهم عند دخولهم الجنة ، والآية تتسع لكل ذلك ، فالله تعالى يلقي المؤمنين بالسلام عند الموت ، وعند البعث ، وعند دخول الجنة ، وقد أعد لهم في الجنة نعيمًا كبيرًا .

قال تعالى : دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَجِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَاقِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (يونس : ١٠) .

وقال تعالى : وَالْمَلَكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَعِمَّ غُفَى الدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ هُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

المفردات :

شاهدا ، على من أرسلت إليهم .

ومبشرا ، من صدقك وأطاعك بالجنة .

وداعيا إلى الله ، إلى الإقرار به وتوحيده وطاعته .

بإذنه ، بتيسيره ومعونته .

نكحتم ، عقدتم .

تمسوهن ، تجامعوهن .

فمتتعوهن ، فأعطوهن المتعة .

وسرحوهن ، خلوا سبيلهن من غير إضرار ولا إيذاء ، إذ ليس لكم عليهن عدة .

التفسير :

٤٥ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

نداء للرسول الأمين ببيان صفاته وأعماله ومآثره ، بعد أن سبق الحديث عن زيد بن حارثة ، وزواج الرسول ﷺ بزَيْنَب بنت جحش ، لإبطال عادة التبنّي ، وإباحة زواج الأب بزوجة الابن الدّعي ، مما يدل على أن هذه العادة كانت راسخة في المجتمع العربي ، واحتاج إبطالها إلى جهد بالغ ، ثم بينت هذه الآية وما

بعدها أن الرسول محمدًا ﷺ رسول من عند الله ، أرسله الله تعالى شاهدًا على الناس بما عمله وبما آداه ، ميسرًا للمؤمنين بالجنة والنعيم الدائم ، محذرًا للكافرين ومنذرًا لهم بالعذاب إذا لم يتوبوا .

٤٦ - وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَيَرْجَا مُبِيرَا .

أى : إن الرسول محمدًا ﷺ داع إلى دين الله وطاعته ، وهو فى ذلك مكلف بأمر الله وإذنه أن يبلغ الدعوة ، ويحتمل تبعات هذا التبليغ ، وهو يضىء للناس طريقهم إلى الإسلام والإيمان ، كما يرشد السراج الأبصار إلى الطريق الواضح ، فإن رسالة الإسلام ، ودعوة نبي الإسلام ، تضىء البصائر وترشدها إلى الهدية والإيمان .

ومقتضى تشبيه النبي ﷺ بالسراج ، يفيد أن دينه يكون ظاهرًا واضح الحجة والبرهان ، لا تعقيد فيه ولا التواء ، ولا خفايا فيه ولا أستار ، وإنما شُبه بالسراج لا بالشمس التى هى أشد إضاءة من السراج ، لأن ضوء الشمس يبهل العين ، وأما ضوء السراج فترتاح له الأعين ، ووصف السراج بالإنارة ، لأن بعض السرج لا يضىء لضعفه ودقة فتيله .

٤٧ - وَيَشْرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا .

أعلن البشارة للمؤمنين بالله ورسوله ، بأن الله تعالى قد أعد لهم منحة عظيمة ، وفضلًا كبيرًا ، وهو الجنة ونعيمها .

أخرج ابن جرير بسنده قال : لما نزل قوله تعالى : يُبَغِّرْ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... (الفتح : ٧) . قال رجال من المؤمنين : هنيئًا لك يا رسول الله ، قد علمنا ما يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ ... (الفتح : ٥) .

وأنزل فى سورة الأحزاب : وَيَشْرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا .

٤٨ - وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَذَعِ أَدْنَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .

هذه الآية تأكيد لما ورد فى أول السورة ، حيث أمره الله تعالى قائلًا : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا . (الأحزاب : ١) .

ومعنى الآية :

داوم أيها الرسول على ما أنت عليه ، من عدم طاعة الكافرين والمنافقين ، وعدم الإلانة معهم ، أو اللقاء بهم فى منتصف الطريق ، والآية تبيّن للكافرين والمنافقين منه ﷺ ، من باب : «إياك أعنى واسمعى

يا جارة» ، والرسول مستمر في تبليغ رسالته ، مهتم بالمؤمنين وتربيتهم ، معرض عن الكافرين والمنافقين ، تارك للرد عليهم ، تارك لإيذاء الكافرين والمنافقين ، متوكل على الله وحده فهو سبحانه الوكيل والكفيل والنصير .

٤٩ - يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسْوَءُكُمْ سِرَاحًا جَبِيلًا .

يا أيها الذين آمنوا ، إذا عقدتم عقد النكاح على امرأة مؤمنة ، ثم تم الطلاق قبل الدخول بها ، فليس عليها عدة ، لأن العدة لتعرف براءة الرحم ، أو للحداد على الزوج ، وهذه لم يدخل عليها زوجها ، ولم يخل بها خلوة شرعية ، لكن ينبغي تطييب خاطرها ، وكسوتها بملايس مناسبة لحال الزوج ، حسب يساره أو إعساره ، وينبغي أن يتم الطلاق بالمعروف ، بدون نزاع أو مخاصمة ، بل يتم مع مكرامة وعطاء وتسامح ، فهذا هو (السراح الجميل) أى : الطلاق الكريم ، وقيل : السراح الجميل ألا يطالبوهن بما آتوهن .

فى أعقاب التفسير

جاء فى التفسير المنير ٢٢/ ٥٠ - ٥٤ ، عدة أسماء للنبي ﷺ ، رغبت أن أنقلها هنا ، حباً لرسول الله ﷺ ، وتيمناً بأسمائه المباركة ، وعشقا لذاته الشريفة ﷺ .

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمنت الآيات الأحكام التالية :

أولاً : وصف النبي ﷺ بسبع صفات أو أسماء ، فهو الشاهد على أمته بالتبليغ إليهم ، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم ، وهو المبشر للمؤمنين برحمة الله وبالجنة ، وهو المنذر للكافرين والمعصاة والمكذابين من النار وعذاب الخلد ، وهو الداعى إلى الله بتبليغ التوحيد والأخذ به ومكافحة الكفرة ، وهو نور كالسراج الوضاء بشرعه الذى أرسله الله به ، وهو الذى بشر المؤمنين بالفضل الكبير من الله تعالى ، وهو ذو شرع مستقل مطالب بالأطاعة الكافية فيما يشيرون عليه من أنصاف الحلول والمداينة فى الدين والمالاة ، لكنه مأمور أيضاً أن يدع أذاهم مجازاة على إيذائهم إياه ، فلا يعاقبهم ، وإنما يصفح عن زلهم ، معتمداً على الله وحده بنصر دينه وحفظه وتأيبه وعصمته من الناس .

روى ابن أبى حاتم ، والطبرانى ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . دعا رسول الله ﷺ علياً ومعاذاً فقال : «انطلقا ، فبشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، فإنه قد نزل على الليلة آية : يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا . - بالجنة - ونذيراً . - من النار - وداعياً إلى الله . - شهادة أن لا إله إلا الله - بإذنه . - بأمره - وسراجاً منيراً . بالقرآن» .

ثانيًا: قال القرطبي^(١٧): هذه الآية فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين ، وتكريم لجميعهم ، وهذه الآية تضمنت من أسمائه ﷺ ستة أسماء ، ولنبينا ﷺ أسماء كثيرة وسمات جليلة ، ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة ، وقد سماه الله في كتابه محمدًا وأحمد .

وقال ﷺ فيما روى عنه انثقات العدول عند الطبراني عن جابر : «لى خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب» . وفى صحيح مسلم من حديث جبير بن مطعم : وقد سماه الله رؤوفًا رحيمًا . وفيه أيضًا عن أبى موسى الأنصرى قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء ، فيقول : «أنا محمد ، وأحمد ، والمقفى (أى أنه آخر الأنبياء) ، والحاشر ، ونهى التوبة ، ونهى الرحمة» .

ونذكر القاضى ابن العريى فى أحكامه (١٥٣٤/٣) بمناسبة هذه الآية سبعة وستين اسمًا للنبي ﷺ

هى :

الرسول ، المرسل ، النبي ، الأمى ، الشهيد ، المصدق ، النور ، المسلم ، البشير ، المبشر ، النذير ، المنذر ، المبين ، الأمين^(١٨) ، العبد ، الداعى ، السراج ، المنير ، الإمام ، الذُكر ، المذكر ، الهادى ، المهاجر ، العامل ، المبارك ، الرحمة ، الأمر ، الناهى ، الطيب ، الكريم ، المحلل ، المحرّم ، الواضع ، الرافع ، المخبر ، خاتم النبيين ، ثانى اثنين ، منصور ، أذن خير ، مصطفى ، أمين ، مأمون ، قاسم ، نقيب ، مزمل ، مدثر ، العلى ، الحكيم ، المؤمن ، المصدق^(١٩) ، الرؤوف ، الرحيم ، صاحب ، الشفيع ، المشفع ، المتوكل ، محمد ، أحمد ، الماحى ، الحاشر ، المقفى ، العاقب ، نبي التوبة ، نبي الرحمة ، نبي الملحمة ، عبد الله ، نبي الحرمين . ذكر ذلك أهل ما وراء النهر .

فالرسول : الذى تتابع خبره عن الله ، وهو المرسل من ربه ، والمرسل غيره لتبليغ الشرائع إلى الناس مشافهة ، والنبي مهومز من النبأ وهو الخبر ، وغير مهومز من النبوة : وهو المرتفع من الأرض ، فهو مخبر عن الله ، رفيع القدر عنده ، والأمى : الذى لا يقرأ ولا يكتب ، والشهيد لشهادته على الخلق فى الدنيا والآخرة ، والمصدق بجميع الأنبياء قبله ، وصديق ربه بقوله ، وصديق قوله بفعله ، والمنور الذى نور الله به الأفئدة بالإيمان والعلم ، ويدد ظلمات الكفر والجهل ، والمسلم : خير المسلمين وأولهم ، والبشير : الذى أخبر الخلق بثوابهم إن أطاعوا ويعقابهم إن عصوا ، والنذير والمنذر : المخبر عما يخاف ويحذر ، والمبين : الذى أبان عن ربه الوحي والدين وأظهر الآيات والمعجزات ، والأمين : الذى حفظ ما أوحى إليه وما وظف به ، والعبد : الذى نزل لله خلقًا وعبادة ، والداعى الخلق إلى الحق وترك الضلال ، والسراج : النور الذى يبصر به الخلق الرشد ، والمنير : المنور ، والإمام : المقتدى به المرجوع إلى قوله وفعله ، والذكر : الشريف فى نفسه ، المشرف غيره ، والمذكر : الذى يخلق الله على يديه الذكر ، أى تذكر الله ، والهادى : الذى أبان النجدين ، أى طريقى

الخير والشر ، والمهاجر : لأنه هجر ما نهى الله عنه ، وهجر أهله ووطنه ، والعامل : لأنه قام بطاعة ربه ، ووافق فعله قوله واعتقاده ، والمبارك : الذي جعل الله في حاله زيادة الثواب ، وفي حال أصحابه فضائل الأعمال ، وفي أمته زيادة العدد على جميع الأمم ، والرحمة : الذي رحم الله به العالمين في الدنيا من العذاب الشامل ، وفي الآخرة بتعجيل الحساب ، والأمر والنهاي : المبلغ الأمر والنهي ، والطيب : فلا أطيّب منه ، لسلامته عن خبث القلب وخبث القول وخبث الفعل ، والكريم : الجواد على التمام والكمال ، والمحلل والمحرم : مبين الحلال والحرام ، والواضع والرافع : الذي وضع الله به قومًا ورفع به آخرين ، والمخبر : النبي ، وخاتم النبيين : آخرهم ، وثاني اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر في غار جبل ثور ، والمنصور : المعان من قبل الله بالعزة والظهور على الأعداء ، وأذن خير : لا يعي من الأصوات إلا خيرًا ولا يسمع إلا الأحسن ، والمصطفى : المخير عنه بأنه صفوة الخلق ، والأمين كما تقدم : المؤتمن على المعاني ، والمأمون : الذي لا يخاف من جهته شر ، وقاسم : يقسم الزكوات والأخماس وسائر الأموال بين الناس ، ونقيب : يتولى الأمور ، ويحفظ الأخبار ، وقد وصف نفسه للأنصار بذلك فقال : أنا نقيبكم ، والمزمل : المتلفف بثيابه ، والمدرثر : المتغشى بثيابه ، والعلی : الرفيع القدر والمكان ، الشريف الشأن ، والحكيم : العامل بما علم ، والمؤمن : المصدق لربه اعتقادًا وفعلًا ، والرزوف الرحيم : لما أعطاه الله من الشفقة على الناس ، والصاحب : الذي كان مع أنبأه حسن المعاملة ، عظيم الوفاء ، والشفيع المشفع : الراغب إلى الله في أمر الخلق بتعجيل الحساب ، وإسقاط العذاب وتخفيفه ، والمتوكل : الملقى مقاليد الأمور إلى الله علمًا وعملاً ، والمقفى : العابد ، ونهى التوبة : لأنه تاب الله على أمته بالقول والاعتقاد ، دون تكليف بقتل أو إصر ، ونهى الرحمة : المشفق على الناس ، ونهى الملحمة : المبعوث بحرب الأعداء والنصر عليهم .

ثالثًا : يرى مجاهد أن الأمر بالعفو والصفح عن الكافرين في قوله تعالى : وَدَعْ أَذُنَهُمْ ... منسوخ بآية السيف .

رابعًا : في آية : إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... أحكام كثيرة منها :

١ - المرأة المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها بنص الكتاب وإجماع الأمة على ذلك ، فإن دخل بها فعليها العدة إجماعًا .

والمشهور عند الفقهاء أن العدة ليست خالص حق العبد ، وإنما يتعلق بها حق الله وحق العبد معًا ، لأن منع الفساد باختلاط الأنساب من حق الشارع أيضًا ، ولا تسقط العدة إذا أسقطها المطلق ، لأن الشارع أثبتّها . والعدة شرعًا : المدة التي تنتظر فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها من الحمل ، أو للتعبد ، أو للتفجع على زوج مات .

٢ - إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اتفق العلماء على أن المراد بالنكاح هنا العقد ، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله إلا في معنى العقد . والنكاح في الأصل حقيقة في الوطء ، ولكن من أدب القرآن الكناية عن الوطء أو الجماع بألفاظ : الملامسة والمماسة والقریان والتغشى والإيتان . وسمى العقد نكاحاً من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثماً ، لأنها سبب في اقتراف الإثم .

٣ - إباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وهذه الآية مخصصة لقوله تعالى : **وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ...** (البقرة : ٢٢٨) . ولقوله تعالى : **وَالَّذِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نَسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ...** (الطلاق : ٤) .

٤ - قوله تعالى : **الْمُؤْمِنَتُ** . خرج مخرج الغالب من حال المؤمنين أنهم لا يتزوجون إلا بمؤمنات ، ولكن لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في إباحة الزواج بالاتفاق (٣) ١ هـ .

★ ★ ★

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٠ ﴾

﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُعْوَِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ أَبْنَعِيَتٍ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عِيَّتَهُنَّ وَلَا تَحَرَّبَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ۝١١ ﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدِّلَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ۝١٢ ﴾

المفردات :

أجورهن : مهرهن .

وما مملكت يمينك، وما كان من الإمام، بسبب السبي والغنيمة في الحرب، كصفية، وجويرية.

أفاء الله عليك، غنمته من الكفار بتيسير الله لك.

يستنكحها، يتزوجها.

ما فرضنا عليهم في أزواجهم، أي على المؤمنين في أزواجهم من الأحكام، مثل: العقد، والمهر، والنفقة على الزوج، وألا يتم الزواج إلا بولي وشهود.

وما مملكت أيمنهم، من الرقيق بشراء أو غيره، وأن تكون الأمة ممن تحل لمالكها، كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية، وأن تستبرئ بحيضة قبل الوطء.

تترجى، تؤخر، من الإرجاء وهو التأخير.

تؤوى، تضم وتضاجع.

ومن ابتغيت ممن عزلت، ومن طلبته ممن نحيت وأبعدته.

فلا جناح عليك، فلا إثم عليك، في طلبها وضمها إليك.

أن تقر أعينهن، تبرد سروراً.

من بعد، من بعد التسع اللائى في عصمتك.

ولا أن تبدل بهن، ولا أن تستبدل بهن أزواجاً، ببعضهن أو بكلهن.

تمهيد:

تحدث هذه الآيات، وآيات ستأتي بعدها، عن تنظيم بيت رسول الله ﷺ، وقد كلف بأعباء الرسالة، ودعوة القبائل إلى الإسلام، وبذل جهوداً مضنية في الدعوة إلى الله تعالى، في مكة والمدينة، وشاء الله أن يجعل من بيت النبوة صفحة معروضة للأجيال، فضمنها هذا القرآن الباقي، المثلوق في كل زمان ومكان.

التفسير:

٥ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكُ وَنَبَاتٍ عَمَلِكُ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ النَّبِيِّاتِ هَاجِرَاتٍ مَعَكَ وَأَمْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْبِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.

أحللنا لك أيها الرسول أربعة أصناف من النساء:

أولاً: الزوجات اللاتي دفعت مهرهن - ولو كن فوق الأربع - مما هو محرم على غيره ﷺ، وكان في عصمة النبي ﷺ، في هذا الوقت تسع نساء تزوج بكل منهن لمعنى خاص: عائشة بنت أبي بكر وزيرة

وصاحبه ، وحفصة بنت عمر وزيره وصاحبه ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وزينب بنت خزيمة ، من المهاجرات اللواتي فقدن أزواجهن ، وأراد النبي ﷺ تكريمهن ، ولم يكن ذوات جمال ولا شباب ، وزينب بنت جحش لتحليل زوجة الابن الدعوى ، ثم جويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وصفية بنت حيى بن أخطب ، وكانتا من السبى ، فأعتقهما رسول الله ﷺ ، وتزوج بهما الواحدة تلو الأخرى ، تعويضاً لهما ، وقد أسلمتا بعد ما نزل بأهلتهما من الشدة .

ثانياً : ما ملك النبي ﷺ من سبايا الجهاد كصفية بنت حيى بن أخطب ، فقد اصطفاها من سبى خيبر ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية ، أدنى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، وقد أهديت له مارية القبطية من المقوقس عظيم القبط بمصر ، فتسرى بها ، وهى أم ابنه إبراهيم .

وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ... أى مما رده الله عليك من غنائم الكفار .

ثالثاً : القرشيات من بنات عمك وبنات عماتك ، والزهریات من بنات خالك وبنات خالاتك من بنى زهرة ، وقد كان عند النبي ﷺ ست من القرشيات ، ولم يكن عنده زهرية .

وهذا المنهج وسط كما يقول ابن كثير فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بينها وبين الرجل سبعة أجداد ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاء الإسلام وسطاً فأباح القرابة غير القريبة ، كبنت العم وبنت الخال ، وحرم القرابة القريبة كبنت الأخ والأخت .

واشترط القرآن فى زواج بنت العم أو الخال للرسول ﷺ ، أن تكون من المهاجرات من مكة إلى المدينة فأما من لم تهاجر فلا تحل له .

رابعاً : المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها للنبي ﷺ ، إذا قبل النبي هبتها ، وأراد أن يتزوجها ، فإنها تحل له ، خاصة به من دون المؤمنين ، أما المؤمنون فلا بد من المهر والولى والشهود . وقد رغبت زوجات كثيرات فى هبة أنفسهن للنبي ﷺ .

وقد قال ابن عباس : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له ، أى أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ومخصوصاً به ، لأنه مردود إلى مشيئته .

وقد أخرج البخارى ، ومسلم ، وأحمد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك ، فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله ﷺ : «هل عندك من شيء تصدقها إياه» ؟ ، فقال : ما عندى إلا إزارى هذا ، فقال

ﷺ: «إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً» ، فقال : لا أجد شيئاً ، فقال : «التمس ولو خاتماً من حديد» فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : «هل معك من القرآن شيء» ؟ فقال : نعم ، سورة كذا وسورة كذا ، فقال له النبي ﷺ : «زوجتكها بما معك من القرآن»^(٣٧) .

قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيْ أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ...

أى : قد علمنا ما أوجبنا على المسلمين من نفقة ، ومهر ، وشهود فى العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك .

لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ...

أى : لنلا تكون عليك مشقة أو ضيق فيما اقتضته الحكمة والعناية بك .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

عظيم المغفرة ، واسع الرحمة ، فهو سبحانه يغفر ما يعسر التحرز منه ، ويرحم فيما يوسع فى مواقع الحرج .

٥١ - تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤَيَّ إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ أَتَيْتَ مِنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا أَتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا .

تأتى هذه الآية فى استمرار التيسير على رسول الله ﷺ ، حيث خصه الله ببعض الخصائص تمييزاً له ، ورعاية لجناحه ، ولما يقوم به من أمر الدعوة الإسلامية ، وتأليف القبائل ، ورعاية شئون نسائه التسع ، فأباح سبحانه له أن يطلق من يشاء منهن ، وأن يبقى معه من يشاء منهن ، والإرجاء : التأخير والإبعاد ، ومع هذا فلم يطلق النبي ﷺ أياً من زوجاته .

وقيل : المعنى : وضعنا عنك التسوية بينهن فى المبيت ، فلك أن تبعد وتؤخر من تشاء منهن فى المبيت معها ، وتؤوى وتقرب من تشاء منهن فى المبيت معها ، وإذا أبعدت واحدة منهن عن المبيت معها ، ثم رغبت فيها بعد عزلها وإبعادها ، فلا جناح عليك ولا إثم ولا حرج فى ذلك ، ومع هذا التيسير الإلهى من الله عز وجل ، فقد كان ﷺ يقسم بين نسائه ويعدل .

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل ، ثم يقول : «اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»^(٣٨) .

وقال بعض المفسرين: الإرجاء والإيواء لإطلاقهما فى الآية، يتناولان ما فى التفسيرين من التخيير فى القسم، والطلاق.

وأما صاحب الكشاف أن الآية متضمنة قسمة جامعة لما هو الفرض، لأنه ﷺ إما أن يطلق، وإما أن يمسك، وإذا أمسك ضائع أو ترك، وقسم أو لم يقسم، وإذا طلق وعزل، فإما أن يخلى المعزولة، لا يبتغيها أو يبتغيها. اهـ.

ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلُّهُنَّ ...

هذا التخيير لك أيها الرسول من شأنه أن يقر عين أزواجك، ويرضيهن ويذهب الحزن عنهن، لأنهن إذا علمن أن الله لم يفرض عليك العدل فى القسمة بينهن، وأباح لك طلاق بعضهن، وإيواء بعضهن، ثم تفضلت أنت بالعدل فى القسمة بينهن، والإبقاء عليهن وعدم طلاق بعضهن، فرحن بنصيبهن منك، لأنه تفضل منك وكرم وعطية.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ...

من الرغبة فى المخالطة، والميل إلى بعض الزوجات دون بعض، وإنما خير الله رسوله، تيسيراً عليه وتخفيفاً، لما له من مهام متعددة، لا يقدر عليها عظماء الرجال، ولو كانوا فى القوة والتحمل كالجبال. وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا. بذات الصدور، مطلعاً يعلم السر وما هو أخفى من السر. خَلِيمًا. ذا حلم على عباده، فيعفو ويغفر.

٥٢ - لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْبَجَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا.

تأتى هذه الآية تكريماً لنسائه التسع، حيث اخترن رسول الله، ورفضن زينة الدنيا، فعوضهن الله أن جعلهن أمهات المؤمنين، وحرّم على النّبي الزواج بغيرهن، كما حرم عليه تطليقهن كلهن، أو طلاق بعضهن، ليتزوج بدلاً منهن أخريات، حتى ولو أعجبه جمالهن.

لكن يحل للنّبي أن يضم إليه من يشاء بملك اليمين، وقد تسرى بمارية القبطية، بعد أن أهداها المقوقس إليه، مع بغلة تسمى الدلدل، وهى أول بغلة تدخل أرض الحجاز، وكان الله مطلعاً ورقيباً، لكل ما فى الكون، لا تخفى عليه خافية.

وهذا التفسير للآية رأى جمهور علماء المسلمين، وذهب بعض المفسرين إلى أن الله أحلّ للرسول ﷺ أربعة أصناف من النساء، ذكرن فيما سبق، وهن:

١ - زوجاته اللاتي دفع مهرهن .

٢ - ما ملكت يمينه بسبب الفء أو الشراء أو الهبة .

٣ - بنات عمه وعماته وبنات خاله وخالاته اللاتي هاجرن من مكة إلى المدينة .

٤ - من وهبت نفسها للنبي من المؤمنات .

ثم قال الله له : لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ ...

أى : لا يحل لك الزواج من غير هذه الأصناف الأربعة ، المذكورة فى الآية السابقة ، ولو أعجبك حسنهن ، لكن يباح لك التسرى بما ملكت يمينك .

قال ابن كثير : والنساء التسع اللاتي حرّم الله تعالى على نبيه ﷺ ، الزيادة عليهن ، والاستبدال بهن ، هن : عائشة بنت أبى بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حى بن أخطب ، وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث .

ملحق بتفسير الآيات

١ - يرغب الإسلام فى العدل بين الزوجات ، ويوجب القسم لهن ، ولا يسقط حق الزوجة بمرضها ولا حيضها ، ويلزم الزوج المقام عندها فى يومها وليلتها ، وعليه أن يعدل بينهن فى مرضه كما يفعل فى صحته ، إلا أن يشتد المرض ، فيستأذن منهن فى البقاء عند إحداهن .

روى أبو داود ، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «من كانت له امرأتان ، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل»^(٣٤) .

٢ - كان النبى ﷺ يشدد على نفسه فى رعاية التسوية بين زوجاته ، تطيباً لقلوبهن ، وكان فى مرضه الذى توفى فيه ، يطاق به محمولاً على بيوت أزواجه ، إلى أن استأذنه أن يقيم فى بيت عائشة .

روى البخارى فى صحيحه ، عن عائشة قالت : أول ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة ، فاستأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له^(٣٥) .

٣ - يفيد قوله تعالى : وَلَوْ أَغْنَىٰكَ حُسْنُهُنَّ ... جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها ، روى الإمام أحمد وأصحاب السنن ، عن المغيرة بن شعبة أنه أراد أن يتزوج امرأة ، فقال له النبى ﷺ : «انظر إليها فإنه أجد أن يؤدم بينكما»^(٣٦) .

ومعنى يؤدب : يؤلف ويوفق وتستديم العشرة .

٤ - كان زواج النبي ﷺ بتسع نساء لحكم سامية ، تتلخص فى أن المصاهرة من أقوى عوامل التناصر والتآلف ، ونشر دعوة الإسلام ، وكان المؤمنون يرون أعظم الشرف فى مصاهرة النبي ﷺ وقربهم منه ، كما أن تشريعات الإسلام الخاصة بالنساء تحتاج معرفتها إلى نسوة يبلغن الأحكام إلى المسلمات ، فكانت أزواج النبي ﷺ يقمن بهذه المهمة .

★ ★ ★

آداب دخول البيت النبوى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ لَهُ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْشَرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِخَدِيثِ إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِىَّ فَيَسْتَحِىْ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحِىْ مِنْ الْخَبِثِ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٣﴾ لَأَجْنَحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءِهِنَّ وَلَا مَمْلَكَتٍ أَيْمَنُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٤﴾﴾

المفردات :

غير ناظرين إياه : غير منتظرين إدراكه ونضجه ، وأنى هو مصدر أنى يأنى : أى أدرك ، وحان نضجه .

فإذا طعتم : أكلتم .

مستأنين لحديث : مستمعين لحديث أهل البيت ، أو لبعضكم بعضا .

إن ذلكم : المكث أو اللبث .

فيستحى منكم : من إخراجكم .

متصاصا، المتاع : هو كل ما ينتفع به ، كالطعام والثياب وأثاث البيت وغيره .

من وراء حجاب ، وهو الساتر ، لأنه يمنع من المشاهدة .

أظهم ، أزكى وأنفى للريبة وسوء الظن .

إن تبدوا شيئا ، إن تظهروا أمرا من الأمور ، أو تستروه في أنفسكم .

لا جناح ، لا إثم .

ولا نساءهن ، النساء المؤمنات .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات الكريمات لبيان أدب بيت النبوة ، فقد روى عن ابن عباس : أن أناسا من المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، فيقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون .

وقال إسماعيل بن أبي حكيم : وهذا أدب أدب الله به الثقلاء .

وعند أكثر المفسرين أن سبب نزول هذه الآيات ، ما وقع يوم أن تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والنسائى ، والبيهقى فى سننه وغيرهم من طرق ، عن أنس قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم إلى طعام فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فالقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ** ... (٣٨) الآية .

التفسير :

٥٣ - **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ ...**

إذا دعاكم الرسول ﷺ إلى طعام ، فلا تأتوا قبل الميعاد المتعارف عليه ، أو قبل معرفة أن الطعام قد تم نضجه وإعداده ، حيث يكون أصحاب البيت فى انشغال بالطعام ، وفى ثياب البذلة والمهنة ، وحضوركم ميكيرين يجعل أصحاب البيت ينشغلون بكم ، ويتكلفون الحديث من أجلكم ، ومعنى : **غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ ...** غير منتظرين إدراكه ونضجه .

قال ابن كثير :

حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية ، وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، فإذا دعى المؤمن إلى طعام لبى الدعوة ، وليحذر الحضور قبل الميعاد ، كما يحذر الجلوس بعد الميعاد ، حيث يشغل صاحب المنزل ، إلا لحاجة ماسة .

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا دعا أحدكم أخاه فليجبه ، عرساً كان أو غيره»^(١) .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «لو دعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كراع لأقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض»^(٢) .

وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا ...

أى : إذا قدمت لكم الدعوة ، فلبّوا الدعوة ، وادخلوا البيت .

فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْرِبِينَ لِحَدِيثٍ ...

فإذا أكلتم الطعام ، فأخرجوا من البيت ، ولا تمكثوا فيه ، لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

قال أبو حيان : نهوا أن يطيلوا الجلوس ، يستأنس بعضهم ببعض ، لحديث يحدثه به .

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَخِيْهِ مِنْكُمْ ...

إن ذلك المكث فى المنزل بعد الطعام يؤذى النبى ﷺ ، حيث يمنعه من تصريف مصالحه ، والعناية بشئونه ، وهو مسئول عن أسرته ، وعن شئون المسلمين ، وكان ﷺ لشدة حيائه يستحى أن يأمرهم بالانصراف ، لخلق الرفيع وقلبه الرحيم .

وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِيْهِ مِنْ الْحَقِّ ...

والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبينه لكم .

قال القرطبي : هذا أدب أدب الله به الثقلاء .

وقال الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ...

وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات فاطلبوها من وراء ساتر .

وقد نزلت هذه الآية في ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربي عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله ، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : **وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** ... (البقرة : ١٢٥) . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو احتجبن ، فأنزل الله آية الحجاب : **وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ** ... وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه : **عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ** ... (التحریم : ٥) . فنزلت كذلك .

ذَٰلِكُمْ أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ...

أى : هذا الذى شرعته لكم من الدخول بالإذن والخروج عقب الطعام دون الاستئناس بالحديث ، وطلب الأشياء من وراء حجاب ، أظهر وأطيب للنفوس ، وأبعد عن الريبة والتهمة ، وأكثر طمأنينة للقلوب ، من الهواجس والوساوس الشيطانية .

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ...

لقد أمر الله المؤمنين بتوقير الرسول وتعظيمه ومناصرتة ، ونهى المسلمين عن إيذاء النبى ﷺ ، وإزعاجه وإفلاق راحته ، ومثال ذلك ما ورد النهى عنه فى سورة الحجرات ، من التقدم عليه أو رفع الصوت عليه أو مناداته من وراء الحجرات ، وهنا أدب الله المسلمين ، بعدم دخول بيت النبى إلا بالإذن ، وعند نزوج الطعام ، إذا كانت الدعوة إلى طعام ، وعدم إطالة المكث بعد الأكل ، وإذا طلبوا شيئاً من زوجاته طلبوه من وراء حجاب ، وبين أن مثل هذه الأمور مما يؤذى رسول الله ، وما ينبغي لمؤمن أن يؤذى الرسول أى إيذاء ، كما ينبغي للمؤمنين توقير زوجاته فهن أمهات المؤمنين ، فينبغى احترامهن احترام الأم ، ولا يحل لمؤمن أن يتزوج زوجة من زوجات النبى ﷺ ، سواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته .

إِنْ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا .

أى : إيذاء الرسول بأى نوع من أنواع الإيذاء ، أو زواج زوجاته من بعده ، كان فى حكم الله تعالى من الكبائر المحرمات التى لا ذنب أعظم منها .

٥٤ - إِنْ تُبْذَرُوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوا فِإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

إن تظهروا أمراً من الأمور ، أو تخفوه فى صدوركم عن الناس ، فإن الله تعالى كامل العلم بكل شئ ، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، فراقبوه وأطيعوه ، وأخلصوا له ضمائرکم وقلوبكم .

قيل فى سبب نزول هذه الآية : إن رجلا من المسلمين قال - لما نزلت آية الحجاب - : أنْتَهَى أَنْ نَكَلِمَ بنات عمنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لأتزوجن عائشة ، فأنزل الله هذه الآية ، ليعلم الناس بربقابة الله ، ووجوب البعد عن إيذاء الرسول .

قال أبو السعود : وفى هذا التعميم مزيد تهويل ، وتشديد ومبالغة فى التوبيخ والوعيد .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** . (غافر : ١٩) .

٥٥ - لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أُنْثَاءٍ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَيْنَ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا .

تأتى هذه الآية للتفسير على زوجات النبى ﷺ ، فى عدم الحجاب عن أقاربهم ، لأن الفتنة مأمونة ، فقد أمرت الآية السابقة المؤمنين ، إذا كان لهم طلب من زوجات النبى ﷺ أن يسألوهن قضاء هذا الطلب من وراء حجاب ، وهذا أمر عام ، لكن فى هذه الآية بين أنه لا حرج أن تظهر أمهات المؤمنين فى ملابسهن العادية أمام الآباء أو الأبناء أو الإخوة ، أو الصديقات المخلصات المتصفات بالأخلاق الكريمة ، سواء أكن مسلمات أم كتابيات ، أو العبيد الموثوق بهم ، ثم دعاهن إلى تقوى الله ، والحرص على العفاف والتستر والاحتشام ، لأن الله مطلع على كل ما يصدر عنهن ، وهو سبحانه على كل شئ شهيد ، وهو المجازى على كل عمل بحسبه .

وهذه الآية أباحت لزوجات الرسول ﷺ مقابلة القرابة القريبة من الرجال ، لأنهم مسئولون عن رعاية النساء وحمايتهن ، وهم : الآباء ، والأبناء ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات ، والصديقات المخلصات ، والعبيد الذين لا أرب لهم فى المرأة ، ونلاحظ أن آية سورة النور قد أمرت نساء المؤمنين بغض البصر ، وستر الجسم ، وأباحت إبداء التزين أمام الزوج أو الأقارب الأقربين ، لأنهم حماة المرأة والمدافعون عنها .

قال تعالى : **وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَنْحَضِرْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُجُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَى أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ أَتْلِحْنَ غَيْرَ أُولَى الْإِرَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الْطِفْلِ الَّذِينَ نَمَّ يَطْهَرُوا عَلَى غُزَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** . (النور : ٣١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبَ سَبُّوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

تمهيد :

تأتى هذه الآيات وفاءً لحق رسول الله ﷺ ، الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فاعترافاً له بالفضل ، رأينا أن الله عز وجل يصلّى عليه وتصلّى عليه الملائكة ، وإنه لجلال ما بعده جلال ، وعناية ما بعدها عناية ، أن يتفضل الله جل جلاله بالرحمة والعناية ، والمعونة لرسول الله ، وأن تدعو وتستغفر الملائكة للرسول ، ثم يدعو الله المؤمنين أن يصلوا على النبي وأن يسلموا عليه ، وتأتى الأحاديث النبوية الشريفة فتبين فضل الصلاة على النبي ، فالله يضاعف الأجر والثواب لمن يصلّى على النبي محمد ﷺ ، والله تعالى يصلّى على من يصلّى على رسوله ، وإنه لفضل عظيم وشرف للنبي ﷺ ولأمته ، سجدّه الله فى القرآن الكريم .

التفسير :

٥٦ - إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

الصلاة من الله هى أن رحمته سبقت غضبه ، وصلاة الله على النبي تعنى الثناء عليه فى الملأ الأعلى ، وشموله برحمة الله وبركته وتوفيقه وعنايته ، وصلاة الملائكة عليه معناها : الاستغفار ، والدعاء له بعلو المنزلة والتوفيق .

وصلاة المؤمنين : الدعاء له بعلو المنزلة ، ونيل الشفاعاة والوسيلة والفضيلة ، والدرجة الرفيعة يوم القيامة .

وقد روى البخارى عن أبى العالية قال : صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء (٣٩) .

معنى الآية :

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

أى : إن الله يصلّى على نبيه بالرحمة والرضوان ، والملائكة تدعو له بالمغفرة ورفعة الشأن ، لذا

فأنتم أيها المؤمنون بالله ورسوله قولوا: اللهم صل وسلم على محمد، أي: ادعوا له بالرحمة، ومزيد الشرف والدرجة العليا.

قال القرطبي:

هذه الآية شُرِّفَ الله بها رسوله عليه السلام، حياته وموته، ويُكْرَمَ منزلته...، والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.

ثم أورد القرطبي خمس مسائل تتعلق بهذه الآية، حول صفة الصلاة على النبي ﷺ، وفضل الصلاة على النبي ﷺ، وحكم الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير من الصلاة.

وقد وردت صيغ بالصلاة على النبي ﷺ منها صحيح ومنها سقيم.

قال ابن العربي: ينبغي أن نعتد على الصحيح دون الضعيف. اهـ.

روى الشيخان وأحمد وغيرهم عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أمّا السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(٣٦).

وأما التسليم فهو بأن يقولوا: السلام عليك يا رسول الله، ومعنى السلام عليك، الدعاء لك بالسلامة من الآفات والنقائص.

وروى مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى على واحدة، صلى الله عليه بها عشرا»^(٣٧).

ويسن الإكثار من الصلاة على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة، وعند زيارة قبره ﷺ، وبعد النداء للصلاة، وفي صلاة الجنازة.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، عن أوس بن أوس الثقفي رضى الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على»، قالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض عليك صلاتنا وقد أُرمت؟ - يعنى وقد بليت - قال: «إن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء»^(٣٨).

وروى مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها

عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» (٣٤) .

أربع مسائل

المسألة الأولى :

صلاة الجنازة أربع تكبيرات .

التكبير الأولى : يقرأ بعدها الفاتحة .

التكبير الثانية : يصلى على النبى ﷺ بالصيغة الإبراهيمية وهى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد .

التكبير الثالثة : بعدها الدعاء للميت .

التكبير الرابعة : بعدها التسليم .

المسألة الثانية :

إذا سمع المسلم الأذان ، فليقل مثل ما يقول المؤذن ، ثم يصلى ويسلم على رسول الله ﷺ ، ثم يقول : «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا ﷺ الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعته المقام المحمود الذى وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد ، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم» .

المسألة الثالثة :

قال جمهور العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ، لأن هذا قد صار شعارا للأنبياء إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم .

قال عمر بن عبد العزيز : اجعلوا صلاتكم على النبيين ، ودعاءكم للمسلمين عامة ، ودعوا ما سوى ذلك (٣٥) .

المسألة الرابعة :

قال النووي : إذا صلى على النبى ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، فلا يقل : صلى الله عليه فقط ، ولا عليه السلام فقط ، بل يقول : (صلى الله عليه وسلم) أو (صلى الله عليه وسلم تسليما) ، لقوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

ومن أدب الدعاء أن تبدأه بالصلاة على النبي ﷺ، ثم تدعو، ثم تختتمه بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

٥٧- إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا .

الذين يؤذون الله بنسبة الولد أو الشريك له ، أو مخالفة أمره ، أو بسبّ الدهر ، والله تعالى هو الدهر يقلب ليله ونهاره ، كما جاء في الصحيح ، أو يؤذون رسول الله ﷺ ، بسب أو شتم أو انتقاص ، أو تعرض له أو لآل بيته ، أو أمته أو سنته أو دينه ، أو قولهم عن الرسول ﷺ إنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو مجنون ، هؤلاء لعنهم الله في الدنيا والآخرة ، أى : طردهم من رحمته في الدنيا والآخرة ، وهياً لهم عذاباً مؤلماً ، مذلاً مهيناً محقراً في نار جهنم .

روى الإمام أحمد ، عن ابن عباس : أن هذه الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيى بن أخطب .

٥٨- وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغِيرٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا .

كان المنافقون يؤذون المؤمنين ، ويشيعون عنهم قالة السوء ، وقد أشاع المنافقون عن عائشة حديث الإفك ، وأشاعوا عن بعض الصحابة مثل عمر وعلىّ أنّهما بدون حق ، والآية عامة في كل من يؤذى المؤمنين والمؤمنات ، في كل زمان ومكان .

والمعنى :

والذين ينسبون للمؤمنين والمؤمنات ما يتأذون به من الأقوال والأفعال ، بغير جنائية يستحقون بها الأذية شرعاً ، أو يعيرون المؤمن بحسب مذموم ، أو حرفة مذمومة ، أو شيء يثقل عليه سمعه ، أو يفتابون المؤمنين والمؤمنات ، ويشيعون عنهم قالة السوء ، بدون حق ، فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا . فقد ارتكبوا كذباً وذنوباً واضحاً واتهاماً بغير حق .

روى مسلم ، عن أبي هريرة : أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : «ذكرك أخاك بما يكره» ، قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن كان فيه غير ما تقول فقد بهته» (٢٧) .

والبهت والبهتان هو افتراء الكذب على الناس ، لأنه يبهت صاحبه أى يحيره .

روى أن عمر رضى الله عنه قرأ هذه الآية فغزع منها ، وقال لأبى بن كعب : والله إنى لأضربهم وأنهرهم ، فقال له أبى : يا أمير المؤمنين ، لست ممن يؤذون المؤمنين والمؤمنات ، إنما أنت معلم ومقوم .

أما الإيذاء بحق ، مثل إقامة حد الزنا ، وحد السرقة ، وحد القذف ، والقصاص ، وقتال المرتدين ، فغير محرم ، بل هو واجب ، لإقامة معالم الدين ، قال ﷺ في الحديث المتواتر الذي رواه أصحاب الكتب الستة عن أبي هريرة : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها» (٢٨) .

وقد فهم أبو بكر من هذا الحديث أن الزكاة حق المال ، فقاتل مانعي الزكاة ، وقال : والله لو منعوني عناقا كانوا يعطونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، وحاجه في ذلك عمر ، فقال أبو بكر : إلا بحقها ، والزكاة حق الأموال ، فشرح الله صدر عمر لما انشرح له صدر أبي بكر .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

المضردات :

جلابيبهن ، الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب واسع يغطي جميع الجسم ، كالملاء والملحفة والعباءة ، يتخذنه إذا خرجن لداعية من الدواعي .

أدنى ، أقرب .

أن يعرفن ، أن يتميزن عن الإماء والقيينات ، اللاتي هن موضع التعرض للإيذاء من أهل الريبة .

فلا يؤذَيْنَ ، أي : فلا يؤذِن من أهل الريبة ، بالتعرض لهن بالكلمات الجارحة .

التفسير :

٥٩ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

تفيد كتب التفسير وأسباب النزول أن المسلمات في المدينة كن يخرجن لقضاء حاجتهن في الفضاء ، أو بين النخيل بعيداً عن البيوت ، قبل اتخاذ الكنف في البيوت ، وكان الفساق يتبعون النساء ، فإذا صرخت المرأة من غزلهن ومتابعتهن ، علموا أنها حرة فتركوها ، وشكت النساء إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية .

المعنى :

أيها الرسول قل لزوجاتك أمهات المؤمنين ، وبناتك الطاهرات ، ونساء المؤمنين ، يسدن عليهن جلابيبهن إذا خرجن لقضاء حاجة ، حتى يعرفهن الرجال ، فلا يطعم فيهن الفساق ، ولا تؤذى إحداهن بكلمة جارحة ، أو مرادة على الزنا .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

فيغفر ما سلف منهن من التفريط فى لبس الجلاب ، الساتر للجسم كله ، حيث كانت النساء فى الجاهلية وصدر الإسلام ، يخرجن لقضاء حاجتهن غير محتشمات ، فأمر الله النساء بالاحتشام ، وإسدال الثوب الخارجى الذى يستر الجسم ، فيعلم الناس أن هذه امرأة حرة ملتزمة ، فيبتعدون عن إيذائها بكلمة تجرح حيائها ، أو مرادتها عن نفسها .

تعليق :

الآن نشتكى كثيرًا من حوادث اختطاف البنات واغتصابهن ، حتى شددت مصر العقوبة على الاغتصاب ، وجعلت عقوبته الإعدام ، وتنادى الغيوريون على الدين بوجود التستر والاحتشام ، وقدم الناس دعوة للآباء والأمهات بمراقبة زى بناتهن ، ليكون مناسبًا ساترًا للجسم ، وأقول لكل مسلمة : عودى إلى دينك وتراثك وقرآنك ، وتمسكى بالزى الإسلامى ، الذى يدعو إلى ستر جميع جسم المرأة ، ما عدا الوجه والكفين ، وهذا التستر يضمن لك التصون والعفاف ، ويحميك من النظرات الجائعة ، والعيون الأثمة ، والكلمات الجارحة ، ويضمن لك ثواب الله ورضوانه ، وسعادة الدنيا والآخرة .

أما صحبات الأزياء ، واستعراض الأزياء العارية ، فليس ورامها إلا إرضاء الشيطان ، وإغضاب الرحمان ، وإذا كسبت المرأة الشارع والمعجبين ، وخسرت الزوج والأسرة والذرية ، فما أشد ضياعها ، إن سوق الزواج أصبحت راکدة ، ونسبة الطلاق زادت على ٣٣٪ ، وهى أعلى من ذلك بين الشباب ، ومن الخير أن نلتزم بأحكام الإسلام وآدابه فى الترتية ، وفى الزى ، وفى المنزل ، وفى العمل ، وفى المجتمع ، وبذلك نحافظ على بناتنا ، ونحافظ على شبابنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى أمتنا والله ولى التوفيق .

فى أعقاب الآية

١ - فى الطبقات الكبرى لابن سعد ، أن أحمد بن عيسى من فقهاء الشافعية ، استنبط من هذه الآية أن ما يفعله العلماء والسادات من تغيير لباسهم وعمائمهم أمر حسن ، وإن لم يفعله السلف ، لأن فيه تمييزاً لهم ، حتى يعرفوا فيعمل بأقوالهم .

٢ - فسر عدد من المفسرين إدناء الجلباب ، بأنه دعوة إلى لزوم تغطية وجه المرأة .

وأورد ذلك الطبرى ، وابن الجوزى ، وابن كثير ، وأبو حيان ، وأبو السعود ، والجصاص الرازى ، وأبو تغطية الوجه والأبدان والشعور عن الأجانب ، أو عند الخروج لحاجة .

٣ - الأستاذ عبدالحليم أبو شقة قدم كتاباً من عدة أجزاء عن «معالم شخصية المرأة المسلمة» اعتمد فيه على القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وقرر مشروعية سفور وجه المرأة ، وظهور يديها ، ومشروعية مشاركتها فى الحياة الاجتماعية بحضور الرجال ، مع رعاية الضوابط الشرعية .

٤ - الأدلة الشرعية فى القرآن والسنة ، وكتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، وأصول الفقه ، توضح أن جسم المرأة عورة ، ما عدا وجهها وكفيها ، وعند بعض الفقهاء : وقدميها ، ونحن نبارك ذلك امتداداً لقوله تعالى : وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (الحج : ٧٨) .

وندعو المسلمين إلى الالتزام بروح الدين وهديه ، بعيداً عن تبايرين :

الأول : التشدد والتزمت .

الثانى : الإباحية والخروج على أوامر الله .

أما الطريق الثالث الذى ندعو إليه فهو التوسط والاعتدال ، والاعتدال بروح القرآن ، وروح السنة المطهرة ، وأقوال الفقهاء ، وروح الإسلام العامة ، وهى الوسطية المعتدلة ، التى تراعى أوامر الشرع من جهة ، ومصالح العباد المشروعة من جهة أخرى .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... (البقرة : ١٤٣) .

وقال ﷺ : «يسروا ولا تعسروا ، ويسروا ولا تنفروا» (٣٧) .

وقال الله تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ بِكُمُ الْيَسْرَ وَلَا يُزِيدَ بِكُمُ الْعُسْرَ ... (البقرة : ١٨٥) .

﴿لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ۖ ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ ﴿٦٢﴾﴾

المضردات :

للمنافقون ، الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

مريض ، ضعف إيمان ، أو فسوق وعصيان .

المرجفون ، مروّجون الأخبار الكاذبة ، ليعبثوا الرجفة والزلزلة في قلوب المؤمنين بأكاذيبهم .

لتغريتك بهم ، لنحرضك ونسلطك عليهم .

ملعونين ، مطرودين من رحمة الله .

شقشعوا ، وجدوا .

أخذوا ، أسروا .

سنة الله ، سنّ الله ذلك في الأمم الماضية ، وهو أن يُقتل المنافقون الذين نافقوا الأنبياء ، وسعوا في وهنهم بالإرجاف ونحوه .

التفسير :

٦٠- لَنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا .

كان المنافقون يشيعون الأراجيف عن المسلمين ، فيقولون مثلاً إن السريّة الفلانية هُزمت ، أو قتل عدد منها ، يعنون من وراء ذلك بثّ الذعر والخوف في نفوس المؤمنين ؛ فهددهم الله بالقتل والنفي واللعن والطرد . ومعنى الآية :

أقسم لأن استمر المنافقون في إيذاء المؤمنين ، واستمرّ رواد الزنا في تتبع المؤمنين ، واستمرّ أهل الإرجاف في إشاعة الأخبار الكاذبة عن المؤمنين ، وإشاعة الهزيمة عنهم ؛ لنسلطك عليهم يا محمد ، فتعاقبهم بالعقاب الرادع ، ثم لا يقيمون معك في المدينة إلا وقتاً قليلاً ريثما يتم إخراجهم ، وطردهم أو قتلهم ، وقد أفاد بعض المفسرين أن الآية تشير إلى ثلاث طوائف :

الْمُتَّقُونَ. الَّذِينَ أَبْطَنُوا الْكُفْرَ وَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ.

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. أَيْ: شهوة الزنا.

وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَلِيئَةِ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمَرْأَةَ حَتَّى يَغْلِبُوهَا عَلَى عَفْتِهَا، وَيَتَصَبَّوْهَا عَنوةً.

وهؤلاء الطوائف يستحقون العقوبة الرادعة، مثل قتل الزناة الذين يفتصبون المرأة، فيكون قتلهم من باب السياسة الشرعية، رعاية لحق المجتمع في الأمن والالتزام^(١).

وهذه أغلب المفسرين إلى أن الآية تشير إلى فئة واحدة تتصف بثلاث صفات هي: النفاق، والغش والخديعة، والإرجاف في المدينة، وهو إشاعة السوء عن المؤمنين.

والآية تهديد للمنافقين وأضرابهم من اليهود، بأن الله سيمكن رسوله من طردهم وإخراجهم عقوبة لسوء فعلهم.

٦١- مُلْعُونِينَ أَيْنَ مَا تُقَفُّوا أَخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا.

مُبْغِضِينَ مطرودين من رحمة الله أينما وجدوا؛ لأنهم ينشرون الفتن، فأينما وجدتهم أخذتهم وعاقبتهم، فقتلتهم تقتيلًا، جزاء خيانتهم وزجرًا وتشريعًا لمن خلفهم.

٦٢- سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

شريعة الله العادلة التي شرعها وبينها وجعلها سمة باقية، وسنة متبعة في السابقين، وهي مكافأة العاملين المصلحين، ومعاقبة المنافقين المفسدين.

فقد أنفذ الله سنته وعدالته في المكذبين المفسدين من الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد وثمود، وأصحاب مدين وفرعون وملته، واليهود عندما بغوا وأفسدوا سبط الله عليهم من ينتقم منهم.

وهكذا استمرت عناية الله بعباده، أن يسلط بطشه على الظالمين، وأن يعاقب المفسدين، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ. (البقرة: ٢٠٥).

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

فهو سبحانه عادل في حكمه، فعَلَّ لما يريد، وكما أنزل بطشه بالمنافقين المكذبين فيما سبق، فسيُفعل ذلك باللاحقين، قال تعالى: أَلَمْ نَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نَبْعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَلَنْ يَوْمِئِلَ لِلْمُكَذِبِينَ. (المرسلات: ١٦-١٩).

وقال تعالى : إِنْ يَطْشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ • إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ • وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ • ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ • فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ • هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ • فِرْعَوْنُ وَنَمُودُ • بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ • وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ • بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ • فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (البروج ١٢-٢٢) .

★ ★ ★

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٢﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٤﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٦﴾ رَبَّنَا أَنِمْ ضَعُفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنَا كَبِيرًا ﴿٦٧﴾ ﴾

المضردات :

المناس : أهل مكة المشركون .

عن الساعة : عن القيامة ، استهزاءً وتعنتاً ، أو امتحاناً .

قريباً : ربما توجد في زمن قريب ، وفيه تهديد للمستعجلين .

لعن الكافرين : طردهم وأبعدهم عن رحمته .

سـعـيرـاً : ناراً شديدة الاتقاد والاشتعال والاستعار .

ولـيـيـاً : معيلاً .

نـصـيـراً : ناصراً يخلصهم من النار .

تقلب وجوههم : تدار من جهة إلى أخرى ، كاللحم يشوى بالنار .

سادتنا : ملوكنا وقادتنا ، الذين لقنوه الكفر .

وكبراءنا : علماءنا .

فأضلونا السبيل : أضلونا طريق الهدى بما زينوا لنا من الكفر .

ضعفين : مثلين .

العنهم لعنا، عذبهم وأبعدهم بلعن هو أشد اللعن وأعظمه .

كـــــــــــــــــبيراً، أى : عدده ، أو عظيماً .

التفسير :

٦٣- يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

أى : يسألونك عن وقت قيامها ، وكان المشركون فى مكة يسألون عن الساعة على سبيل الهزاء والسخرية ، وكان اليهود يسألون عنها امتحاناً وتعنتاً ، لأنهم يعلمون من التوراة أن الله قد أخفاها ، فلم يطلع عليها ملكاً مقرباً ، ولا نبيّاً مرسلأ ، حتى يجتهد الناس فى دينهم وتقواهم ، وطاعتهم لله خشية قيام الساعة التى لا وقت لها ، فريماً نزل الموت بالإنسان فجأة ، إثر حادثة أو نازلة ، ومن مات فقد قامت قيامته، وهذا يجعله فى حالة ترقب وانتظار وتوقع .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ...

فلا يعلم وقت مجيئها إلا الله سبحانه وتعالى ، وفى آيات كثيرة يفيد القرآن أن الله أخفاها لحكمة إلهية عليا ، حتى يجتهد العباد ، ويجازى الناس على اجتهداهم عن عدالة ، كما أخفى الله الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، وأخفى ساعة الإجابة فى ساعات يوم الجمعة ، وأخفى أوليائه فى خلقه ، وأخفى ليلة القدر فى شهر رمضان ، أو فى العشر الأواخر من رمضان ، وأخفى اسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى ، كل ذلك ليظل المؤمن مراعيًا لحزمة الصلوات جميعا ، وحرمة شهر رمضان ، أو العشر الأواخر كلها ويواظب على الاجتهاد فى يوم الجمعة وليلته ، ويذكر أسماء الله الحسنى كلها .

وبعض الناس يدعى أن لعدد تسعة عشر أهمية كبرى ، ويدعى أن قيام الساعة سنة ١٩٩٩ م ، وكلها ترهات وأكاذيب لا حقائق لها ، وقد سبق أن ادعى كُهان ومتجمنون وفلكيون موعد قيام الساعة ، وظهر كذبهم وتخطبهم ، ثم هربوا من ملاحقة الناس لهم ، والساعة غيب لا يعلمه إلا الله .

قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا • فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا • إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَلُهَا • إِنَّمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَخْشَىٰهَا • كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى • (النازعات : ٤٢-٤٦) .

وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

أى : إنها مع استئثار الله بعلمها ، فإنها مرجوة المجيء عن قريب ، فليعمل لها كل إنسان ، فمتاع الدنيا قليل مهمما طال أمدها ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء : ٧٧) .

وفى الصحيحين: أن جبريل سأل النبى ﷺ عن الساعة ؟ فقال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأنبئكم عن علاماتها : أن تلد الأمة ربتها ، وأن يتطاول رعاة الإبل البهيم فى البنيان ، وأن يصبح الحفاة العالة سادة الأمم» (١١) .

والموت أقرب إلى الإنسان من شرك نعله .

قال الشاعر :

كل امرئ مصبّح فى بيته والووت أدنى من شرك نعله

وقال تعالى : وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . (ق : ١٩) .

٦٤- إِنَّ اللَّهَ لَنَنَّ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا .

إن الله طرد الكافرين من رحمته، فقد كفروا بالله تعالى، وجحدوا نعمه، فعاقبهم الله تعالى بالطرد من رحمته، وإبعادهم عنها، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتسعر وتتلظى حتى يدخلوها ، ويصلوا سعيها ونارها.

قال تعالى : فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (الليل : ١٤-١٦) .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... (النساء : ١١٦) .

٦٥- خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .

ماكثين فى جهنم ، خالدين فيها خلودا أبديا ، لا ينقذ عنهم العذاب ، ولا يخفف عنهم ، ولا يجدون من يوالىهم ويكون لهم مغيثا ومعينا ينقذهم مما هم فيه ، ولا من ينصرهم ويخلصهم منه ، والمقصود أنه لا شفع لهم يدفع عنهم العذاب .

٦٦- يَوْمَ تَقُفُّ أَوْجُوهُهُمْ فِي آثَارٍ يَقُولُونَ بَلَلَيْتْنَا أَعْطَا اللَّهُ وَأَعْطَا الرُّسُلَا .

اذكر يوم تقفب وجوههم فى النار، كما يشوى اللحم فيتعرض للنار من جميع جوانبه ؛ حتى لا تبقى صفحة لم تصل إليها النار .

وقد ذكر الوجه - مع أن جسمهم كله يتعرض للنار - لأن الوجه أعلى ما فى الجسم ، فإذا تعرض الوجه للنار كان أشد وأنكى وأظهر للعذاب .

قال تعالى : أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِسْمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

وذلك أن الوجه إذا تعرض للألم في الدنيا دافع عنه الإنسان بيده أو بجسمه ، لكن يوم القيامة يتعرض الوجه للعذاب ، ويتقلب ويتلون من لون إلى لون ، أو من حالة إلى حالة ، ثم يندم الكافر في وقت لا ينفع فيه الندم ، على حد قول الشاعر :

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ويعنى الكافر حين يعذب أنه أطاع الله وأمن به ، وأطاع رسوله ، ودخل في دينه ، وصدق برسالته .

قال القرطبي :

وهذا التقلب : تغيير ألوانهم بلفح النار ، فتسود مرة ، وتضمر أخرى . ا هـ .

وحين يشتد العذاب عليهم ، وتبدل جلودهم : يتمنون أنهم ما كفروا ، وهى أمنية ضائعة ، فقد فات الأوان ، إنما هى الحسرة على ما كان ، ثم تنطلق من ألسنتهم النقرة على سادتهم وكبرائهم الذين أضلوهم .

٦٧- وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُرَّاءَنَا فَأُصَلُّونَا السَّيِّئَاتِ .

وقال الكفار وهم يعذبون فى جهنم : يا ربنا لم نكن مجرمين أصلاء ، ولا أئمة فى الكفر والضلال ، بل كنّا ضعفاء تابعين ، سرنا وراء الملوك والحكام والعلماء وأطعناهم ، فمالوا بنا عن طريق الحق والهدى ، وساروا بنا فى طريق الضلال والكفران ، يريدون أن يتملصوا من المسؤولية والتبعة ، وأن يلقوا الذنب والإثم على القادة والكبار ، ولكن هيهات ، فقد أعطى الله كل إنسان العقل والإرادة والاختيار ، وجعل عليه مسئولية شخصية .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْةٌ . (المدثر : ٢٨) .

٦٨- رَبَّنَا ءَاتِنَهُمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا .

أى : أعط لهؤلاء الرؤساء والقادة والأئمة فى الكفر ضعفى عذابنا ؛ فضيعف لكفرهم ، وضعف لإضلال الناس وغوايتهم ، وأبدعهم يا ربنا من رحمتك بعداً عظيماً سحيقاً لا أمل فى رحمة بعده ، وهم بهذا إنما ينفسون عما فى أنفسهم من غيظ وغضب ، والسعيد من شمله الله برحمته ، والشقى من لعنه وطرده من رحمته .

روى البخارى ، ومسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، أن أباً بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى ، قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »^(١٧) .

وذكر ابن كثير أن هذه الآية تقرأ : (لعنا كثيراً) ، وتقرأ : (لعنا كثيراً) ، وهما بمعنى واحد .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ۖ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمِن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۖ﴾ ﴿٧١﴾

التفسير :

٦٩- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا .

هذه تربية للمؤمنين نحو نبيهم ، أن يحترموه ويعزروه ويوقروه ، وألا ينسبوا إليه ما لا يليق ، كقول بعض المنافقين : إن محمدا تزوج مطلقة ابنه ، وشغبوا عليه في ذلك ، بحثا عن أي نقطة ينفذون منها إلى إنقاصه ﷺ .

وفى الصحيح : أن بعض الأعراب قال للنبي ﷺ ، وهو يوزع الغنائم : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، اعدل ، فتمتغر وجه النبي ﷺ ، وقال للأعرابي : «ويحك ، فمن يعدل إن لم أعدل» ، ثم قال ﷺ : «يرحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» ^(١٢) .

وقد أفاد القرآن الكريم أن بنى إسرائيل كثر عنتهم ، فقالوا لموسى :

أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً ... (النساء : ١٥٣) .

وقالوا : آجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ... (الأعراف : ١٣٨) .

وقالوا : فَادْعُ أَنتَ رَبَّنَا فَفَصِّلَا إِنَّا هَلْهَنَّا فُلُجْدُونَ . (المائدة : ٢٤) .

وأفادت كتب الصحيح ، مما رواه الإمام البخارى ، والترمذى ، أن بنى إسرائيل اتهموا موسى بأن فى جلده برصا ، أو به أدرة ، أى : كبىز الخصية ، وأنه لذلك يستتر بعيدا عنهم عند الاستحمام ، وأن موسى اغتسل يوما ووضع ثوبه على حجر ، فطار الحجر بثوبه ، فसार موسى وراء الحجر ، يقول : ثوبى حجر .. ثوبى حجر ، فأراه جمع من بنى إسرائيل ، فأروه عريانا أحسن ما خلق الله ^(١٣) .

وقد أفاد الفخر الرازى وغيره من المفسرين أن بنى إسرائيل أشاعوا عن موسى النقائص : فنسبوا إليه السحر والجنون ، ولطخوه بالزنا ، وأشاعوا عنه أنه قتل أخاه هارون ، وكان هارون قد مات دفننه فى سيناء وعاد وحيدا .

وقد أظهر الله براءة موسى من كل هذه التهم والأكاذيب ، وقد حياه الله بالفضل حين رعاه وصنعه على عينه ، ونجاه من اليمِّ ، ومن فرعون وملئه ، وأعطاه الرسالة ، وناداه من جانب الطور الأيمن ، وجعل له سلطاناً ، وحفظه من أذى فرعون ، وجعله الله من أولى العزم من الرسل ، ورفع منزلته وأعطاه التوراة ، وجعلها وجيها ذا وجهة وشرف وسيرة حسنة .

ومقصود الآية نهى المسلمين عن إيذاء الرسول ﷺ ، فالله تعالى مدح رسوله ويوَّاه المنازل العالية ، والابتعاد عن التشبه بقوم موسى الذين آذوه ، وقد برأه الله من التهم التي نسبت إليه ، وكان موسى وجيهاً عالى القدر والمنزلة عند الله تعالى .

قال تعالى : **وَإِذْ ذُكِّرُوا فِي الْكِتَابِ مَوْسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَلَنَذِّنَنَّهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا .** (مريم : ٥١-٥٢) .

٧٠- **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .**

يا أيها الذين آمنوا راقبوا الله بطاعته واجتناب معصيته ، والتزام الصواب من القول ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهداية الضال ، وقول الحق وإن كان مرأ ، والبعد عن السب والافتداف ومقالة السوء ، وتطهير اللسان من كل فحش وبذاءة .

٧١- **يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .**

أى : إذا اتقيتم وقلتم قولاً صواباً صادقاً كان الجزاء من الله تعالى أن يصلح أعمالكم ، بأن يمنحكم التوفيق والهداية ، وإخلاص النية ويوفقكم للأعمال الصالحة .

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... يسترها ويمنحكم المغفرة والتوبة والمسامحة ، وتكفير السيئات وتطهيركم من الذنوب .

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا .

أى : من أطاع الله والرسول فى أداء الواجبات وترك المنهيات ، وتنفيذ أوامر الشرع ، والاعتداء بالرسول الأيمن فى قوله وعمله وهديه وسلوكه وأدابه ، فقد نال خيراً كبيراً بحسن السلوك فى الدنيا ، وسعادة القلب ، وراحة الضمير والتوفيق فى حياته وسلوكه ، وفاز فوزاً عظيماً فى الآخرة بدخول الجنة والتمتع برضوان الله رب العالمين .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) ﴿ يَعْذِبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٧٣)

المضردات :

عرضنا الأمانة ، طلبنا القيام بحق الأمانة ، وهي الثواب على الطاعة ، والعقاب على المعصية .

الأمانة ، التكاليف الشرعية كالصلوات .

أبـيـن ، امتنعن .

أشفقن ، خفن .

وحملها الإنسان ، والتزم الإنسان القيام بها .

ظـلـومـا ، كثير الظلم .

جـهـولـا ، كثير الجهل .

التفسير :

٧٢- إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا .

خلق الله الكون بقدرته ، ورفع السماء ووسط الأرض ، وأرسى الجبال ، وسخر الهواء والفضاء ، وسير الشمس والقمر والليل والنهار ، وجعل الظلمات والنور .

وهذا الكون خاضع لله خضوع القهر والغلبة ، فالسما مرفوعة ، والأرض ميسوفة ، والجبال راسية والبحار جارية ، والليل مظلم ، والنهار مضى ، والشمس مسخرة ، والقمر منير ، وكل في فلك يسبحون ، ولا يملك أن يغير مساره ، أو يتمرد على وظيفته .

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (يس : ٤٠) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَسْرَوْنِي إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

(فصلت : ١١)

أى : أظهرت السماء والأرض من الخضوع والامتثال لأمر الله ما لو نطق لسان حالهما لقال : أَيْنَا طَائِعِينَ، فهذا الكون مسخر للطاعة الآلية، لا يملك غير الطاعة والالتزام، بدون تفكير أو امتناع عن أداء وظيفته.

أما الإنسان فقد خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفة فى الأرض، ومنحه الله العقل والإرادة والاختيار، أى أنه يملك أن يطيع الله، ويملك المعصية والكفر، وترك الطاعات واقتتراف المحرمات.

قال القفال وغيره :

العرض فى هذه الآية ضرب مثل، أى : أن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها، لثقل عليها ثقل الشرائع، لما فيها من الثواب والعقاب، أى أن التكليف أمر حقه أن تعجز السماوات والأرض والجبال عن حمله .

وقد كُلِّفَ الإنسان بحمل الأمانة فقبل الالتزام بأدائها، حيث أعده الله لذلك بما زوَّده من ملكات وغرائز وطبائع، وما غرس فيه من قدرات . ١ هـ .

إن الكون كله خاضع لله تعالى خضوعاً تاماً، وامتناعاً عملياً بدون عقل أو تفكير أو إرادة، أما الإنسان فقد أعطاه الله العقل والإرادة والاختيار وتحمل المسؤولية .

وحين عرض الله تحمل الأمانة على الكون أبى أن يتحملها، فلم يكن مهياً لذلك، كما تقول : عرضت الحمل على البعير فأبأه، أى أن قدرات البعير كانت دون تحمل هذا الجمل .

أما الإنسان فقد تحمل الأمانة، وهى قبوله أن يتأب إذا أطاع، وأن يعاقب إذا عصى، وقد التزم بأداء الأمانة قلة قليلة .

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشُّكُورُ . (سبأ: ١٣) .

وقد فُرِطَ معظم أفراد بنى آدم فى أداء حق الأمانة، حيث كان معظم أفراد الإنسان (ظُلُومًا) تاركاً للأمانة (جَهْلُولًا) بقيمة أداء الأمانة حيث يكون ذلك سبباً فى سعادته فى الدنيا والآخرة .

أى : أن من أفراد الإنسان من يختار المعصية والإفساد والشر، ويستحق النار وجهنم عن جدارة، وفى الحديث القدسى أن الله تعالى قال للجنة والنار : «ولكل واحدة منكما على ملؤها» .

٧٣- يُحِبُّذِبَ اللَّهُ الْمُنْتَفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

فإنه منخ الإنسان العقل والإرادة، وأرسل له الرسل وأنزل الكتب، لتتم إقامة الحجة : ولتُبْضَحَ آسامه طرق الهداية والغواية .

قال تعالى: **إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** . (الإنسان : ٣) .

وقال عز شأنه: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** .
(النساء : ١٦٥)

ولما كان الله قد زود الإنسان بالعقل ، والقدرة على تحمل الأمانة ، وكَرَّمَ الله الإنسان بالعقل ، وسخر له الكون ، فمن الطبيعي أن يطيع الله ، ويلتزم بأوامره بعض أفرادهِ .

قال تعالى : **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ** . (سبأ : ١٣) .

وأن يعصى كثير من أفراد الإنسان لوجود الظلم والجهل والغرور في تركيبهم ، وقصورهم عن التعالَى والتسامى ، كما قال سبحانه : **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** . (الشمس : ٧ - ١٠) .

كان كل ذلك مؤدياً إلى استحقاق العصاة للعذاب ، واستحقاق المؤمنين الطائعين للتوبة والمغفرة والرحمة .

جاء في ظلال القرآن :

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا .

فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة ، وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ، ويهتدى بنفسه ، ويعمل بنفسه ، ويصل بنفسه .. هذا كان ليحمل عاقبة اختياره ، وليكون جزاؤه من عمله ، وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات ، وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف ، وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع ، وما يشدهم من جوارب وأنقال ، فذلك فضل الله وعونه ، وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده ^(١٠) . **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** .

خاتمة

اشتملت سورة الأحزاب على كثير من الشئون الزوجية ، ومن المناسب أن نذكر نبذة عن أمرين كثير الخوض فيهما من بعض المغرضين ، ومن نابتة الإسلام الذين تعلموا في مدارسهم ، وسمعوا كلام المبشرين ، وليتهم فكروا وتأملوا قبل أن يتكلموا .

أرى العنقاء تكبر أن تصاد! فعاند من تطيق له عنادًا

الأول : تعدد زوجاته ﷺ .

الثاني : إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

أسباب تعدد زوجاته ﷺ

مقدمة :

تزوج النبي ﷺ خديجة بنت خويلد وعمره خمس وعشرون سنة ، ومكث معها خمسًا وعشرين سنة ، وماتت وعمره الشريف خمسون سنة ، ولم يتزوج عليها في حياتها ، وظل وفيها لذكرها ، وكانت تدافع عنه وتسانده في تبليغ الرسالة ، وسمى العام الذي ماتت فيه عام الحزن ، وكان عمر خديجة عندما تزوج بها النبي ﷺ أربعين سنة ، وعندما ماتت كان عمرها خمسًا وستين سنة ، وقد أنجب منها القاسم ، وعبد الله الذي كان يلقب بالطيب والطاهر ، ورزق منها فاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم .

أسباب عامة

الرسول ﷺ مكلف بتبليغ رسالته للرجال والنساء ، وزوجاته كنَّ يبلغن الشريعة وأمور النساء إلى النساء ، ثم إن الرسول ﷺ مكلف بالبلاغ للرسالة ، فكان إذا بلغَ زوجاته قد أدى هذا البلاغ ، وهن يبلغن المسلمين والمسلمات .

وكانت القبائل تتشرف بإصهار الرسول ﷺ إليها ، وتسارع في نصرته الإسلام لذلك ، وكان معظم زوجاته من قريش ، قبيلة الخلافة والرئاسة للعرب .

أسباب خاصة

١ - تزوج عائشة بنت أبي بكر وزيره ، وكانت فقيهة أدبية شاعرة عالمة ، وقد استدركت على الصحابة كثيرًا من أحكام الفقه والحديث وعالوم الدين .

٢ - تزوج حفصة بنت عمر مكافأةً لزوجها الذي توفى مجروحًا في غزوة بدر ، وكان في زواجها إكرام لأبيها عمر بن الخطاب .

٣ - سودة بنت زمعة بنت عبد شمس القرشية ، توفى عنها زوجها السكران بن عمر بن عبد شمس (ابن عمها) بعد الرجوع من الحبشة ، ولم يُرو أن سودة كانت جميلة أو غنية ، إنما كانت من المهاجرات المؤمنات ، وقد مات زوجها ، فتزوجها النبي ﷺ ليعولها ويكرمها .

٤ - زينب بنت جحش الأسدية ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ﷺ ، ربيت بعينه ورعايته وخطبها لمولاه زيد بن حارثة ، ولم ينجح هذا الزواج لحكمة إلهية ، فأمر الله النبي ﷺ بزواجها ، ليبطل عادة مستحكمة في العرب ، وهي اعتبار الابن المتبنى كالابن الصلبي ، في أنه لا يجوز أن يتزوج الأب زوجة ابنه الدعى .

قال تعالى: فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدُ مَتْنَهَا وَطَرَا زَوْجُهَا لَيْكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . (الأحراب: ٣٧) .

٥ - أم سلمة ، وهي هند بنت أبي أمية المخزومية ، مات زوجها في غزوة أحد ، وترك لها أولادًا صغارًا ، فتزوجها النبي ﷺ لكفالتها ورعاية أطفالها ، وهي صاحبة المشورة الحسنة في صلح الحديبية .

٦ - جويرية بنت الحارث الهلالية ، وأبوها سيد بني المصطلق ، وقد وقعت في الأسر ، ففك النبي أسرها وتزوجها ، فكانت أيمن امرأة على قومها ؛ فقد أعنق المسلمون أسرى بني المصطلق ، وقالوا : لا نسترق أصهار النبي ﷺ .

٧ - صفية بنت حيى بن أخطب الإسرائيلية ، وقد وقعت في الأسر فاصطفاه النبي ﷺ وأعتقها وتزوجها ، على عادة الملوك إذا غلبوا على قوم أن يتزوجوا بنت ملكهم تقرباً إليهم وتألفاً لهم .

٨ - أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، أسلمت بمكة وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش ؛ فتتصرّ زوجها هناك وفارقها ، فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها له ، وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار مهرًا نيابة عن النبي ﷺ .

والخلاصة : أنه ﷺ راعى المصلحة العامة في زواجه ، وراعى كفالة الأيتام ، وتعويض الأرملة عن موت زوجها شهيدًا ، وردّ الجميل لوزيريه أبي بكر وعمر ، وتعويض بني المصطلق عن هزيمتهم بزواج بنت سيدهم ، ومكافأة اليهود من بني النضير بزواج صفية بنت حيى بن أخطب سيد بني النضير ، إلى غير ذلك من الأهداف السامية .

كما تسرّى النبي ﷺ بمارية القبطية التي أهداها له المقوقس عظيم القبط بمصر في جملة هدايا ، فأسلمت ودخل بها ﷺ ، وولدت له إبراهيم ؛ فأنعتت (٤٧) .

تعدد الزوجات عند المسلمين

فى صدر الإسلام كثرت الغزوات والفتوح ، وأباح الله تعدد الزوجات كطريق مشروع إلى إحصان الرجل والمرأة على السواء ، فالرجل أكثر تعرضاً لمخاطر الحروب ، ويترتب على ذلك توافر أعداد من النساء ليس لهن من يكفلهن أو يحصنهن ، فالتعدد وسيلة لإشباع حاجة المرأة .

وقد تمرض الزوجة مرضاً يمنعها من أداء وظائفها ، ويريد زوجها أن يعف نفسه عن الحرام ، وأن يرعى زوجته الأولى فى نفس الوقت .

وقد تكون الزوجة عقيماً لا تلد ، وتشهد حاجة الزوج إلى الولد ، مع الوفاء لزوجته العقيم .

وقد تقوى طبيعة الرجل الجنسية ، وتشهد حاجته إلى زوجة أخرى ، وقد تغلب العاطفة والحب قلب الرجل المتزوج ، ويجد فى نفسه القدرة على الزواج مرة ثانية حفاظاً على دينه وعرضه .

وقد اشترط الإسلام شروطاً وإجبة منها : القدرة على النفقة ، والقدرة على العطاء بكل أنواعه لكل زوجة ، والقدرة على العدل ، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل وجب أن يقتصر على زوجة واحدة .

وفى الحديث الشريف : «من كانت له زوجتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيقه مائل»^(١٧) .

وقد تحدثت فى توسع عن هذا الموضوع فى كتاب «المرأة فى الإسلام» الباب الخامس : تعدد الزوجات ، وذكرت أن علماء الدين الإسلامى فى موضوع تعدد الزوجات ، فريقان :

الفريق الأول : يرى أن التعدد غير مرتبط بالضرورة ، بل هو جائز أصلاً من غير ضرورة .

الفريق الثانى : يرى أن التعدد وجد فى القرآن عندما يكون الإنسان وصياً على يتييمات ، وفيهن من تصلح للزواج ، وهو مضطر للدخول عليهن ، ولا يقبل أن يكون فاتناً أو مفتوناً ؛ فأبجى له التعدد كخروج من مأزق عدم العدل فى اليتامى ، وإذا خاف من عدم العدل بين الزوجات وجب الاقتصار على زوجة واحدة .

وهكذا يصبح التعدد فى الإسلام للضرورات التى تبيح المحظورات ، ولكنها تقدر بقدرها .

ويرى الإمام محمد عبده أن التعدد فى صدر الإسلام كانت له محاسنه ، حيث النفوس سليمة ، والتربية الإسلامية لها آثارها الطيبة فى النفوس ، لكن التعدد الآن له أضرار متعددة ، ولا نستطيع تربية الأمة تربية إسلامية حسنة مع انتشار تعدد الزوجات .

ويرى الإمام محمد عبده، والسيد رشيد رضا، والشيخ محمد المدنى عميد كلية الشريعة بالأزهر سابقا، أنه ليس فى دين الله ما يمنع من أن يعهد بإباحة التعدد إلى جهة حكومية، أو شرعية، أو أهلية تكون مهمتها التأكد من أن هناك دواعى حقيقية للتعدد، وأن هناك ضمانات للعدل وعدم الجور، ومهمة هذه الهيئة الاطمئنان على تنفيذ ما شرطه القرآن الكريم من شروط لإباحة التعدد، وأن طالب التعدد أهل للالتزام بالضوابط التى وضعها الإسلام لذلك^(١٨).

قال تعالى: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَسْمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا . (النساء : ٣) .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الأحزاب

- ١ - الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين .
- ٢ - إبطال العادة الجاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم الابن ، وبيان أن الدين منه براء .
- ٣ - إرجاع التورث إلى الرحم والقرابة .
- ٤ - ذكر النعمة التى أنعم الله بها عليهم فى وقعة الخندق ، من تيسير النصر بعد أن اشتد الخطب .
- ٥ - تخيير نساء النبى ﷺ بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا ، والبقاء معه إذا أردن الله ورسوله والدار الآخرة .
- ٦ - التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إن ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع ، وأمرهن بالقرار فى البيوت ، ومداواة القرآن والسنة ، ونهيهن عن التبرج .
- ٧ - قصة زينب بنت جحش ، وزيد مولى رسول الله ﷺ .
- ٨ - ما أحل الله لنبيه من النساء ، وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .
- ٩ - النهى عن إيذاء المؤمنين للنبي ﷺ ، إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه .
- ١٠ - الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب .
- ١١ - أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .
- ١٢ - تهديد المنافقين وضعاف الإيمان ، والمرجفين فى المدينة .
- ١٣ - سؤال المشركين عن الساعة متى هى .
- ١٤ - النهى عن إيذاء النبي ، حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .
- ١٥ - ما هى الأمانة ؟ وما معنى عرضها وتحملها ؟

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة سبأ

أهداف سورة سبأ

سورة سبأ سورة مكية ، نزلت بعد سورة لقمان . وقد نزلت سورة سبأ في الفترة ما بين السنتين الحادية عشرة والثانية عشرة من حياة الرسول بمكة بعد البعثة ، فقد جاء الوحي إلى النبي وعمره أربعون سنة ، ثم مكث في مكة ثلاثة عشر عاما ، وفي المدينة عشرة أعوام ، ومات وعمره ثلاث وستون سنة .

وكانت سورة سبأ ضمن مجموعة السور التي نزلت في السنوات الأخيرة من حياة المسلمين بمكة .

وعدد آيات سورة سبأ ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لاشتمالها على قصة سبأ ، وهي مدينة من المدن القديمة في اليمن ، وكانت عاصمة دولة قديمة بها ، وقد خربت عند انهيار سد مأرب بسبب سيل العرم .

قال تعالى : **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جِئَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ لَئِنْ رَأَوْا إِلَّآ الْكَفُورَ . (سبأ: ١٥-١٧) .**

موضوعات السورة

موضوعات سورة سبأ هي موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله ، والإيمان بالوحي ، والاعتقاد بالبعث ، وإلى جوارها تصحيح بعض القيم الأساسية المتعلقة بموضوعات العقيدة الرئيسية ، وبيان أن الإيمان والعمل الصالح – لا الأموال ولا الأولاد – هما قوام الحكم والجزاء عند الله ، وأنه ما من قوة تعصم من بطش الله ، وما من شفاععة عنده إلا بإذنه .

والتركيز الأكبر في السورة على قضية البعث والجزاء ، وعلى إحاطة علم الله وشموله ، ودقته ولطفه ، وتتركز الإشارة في السورة إلى هاتين القضيتين بطرق متنوعة ، وأساليب شتى ، وتظلل جو السورة كله من البدء إلى النهاية .

فعن قضية البعث تقول السورة : **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ: ٣) .**

ويرد قرب ختام السورة : **قُلْ إِنِّي رَأَيْتُ بِالْحَقِّ عَلَّمَ الْغُيُوبِ . (سبأ: ٤٨) .**

وقد عرض الفيروزبادى مقصود السورة فقال :

بيان حكمة التوحيد ، ويرهان نبوة الرسول ﷺ ، ومعجزات داود وسليمان ووفاتهما ، وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة أهل الضلالة ، وذكر معاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعده المنفقين والمتصدقين بالإخلاف ، والعودة إلى إلزام الحجة على منكرى النبوة ، وتضمن الكفار فى وقت الوفاة الرجوع إلى الدنيا . ١ هـ .

ونلاحظ أن هذه القضايا التى تعالجها السورة ، قد عالجتها السور المكية فى مواضع شتى ، ولكنها تعرض فى كل سورة مصحوبة بمؤثرات متنوعة جديدة على القلب فى كل مرة ، ومجال عرضها فى سورة سبأ يأتى مصحوباً بمؤثرات عدة ، ممثلة فى رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفى عالم الغيب المجهول المربوب ، وفى ساحة الحشر الهائلة العظيمة ، وفى أعماق النفس المطوية اللطيفة ، وفى صحائف التاريخ المعلوم والمجهول ، وفى مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة وغريبة ، وفى كل منها مؤثر موح للقلب البشرى ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود .

فمنذ افتتاح السورة وهى تفتح العيون على هذا الكون الهائل ، وعلى صحائفه وما فيها من آيات الله ، وعلى مجال علمه اللطيف الشامل ، الدقيق الهائل .

وتستمر السورة فى مناقشة المكذبين وإلزامهم بالحجة وإيقافهم أمام فطرتهم ، وأمام منطق قلوبهم بعيداً عن الغواشى والمؤثرات المصطنعة ^(٨٩) .

قال تعالى : قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقْرُمُوا لِلَّهِ مَتًىٰ وَفَرَادًىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . (سبأ : ٤٦) .

وهكذا تطوف السورة بالقلب البشرى فى مجالات متنوعة ، وتواجهه بالحقائق والأدلة والحجج ، حتى تنتهى بمشهد عنيف أخاذ من مشاهد القيامة .

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى جولات قصيرة متلاحقة متماسكة ، يمكن تقسيمها إلى ستة فصول :

١ - الألوهية وإثبات البعث :

تحدثت الآيات التسع الأولى من السورة عن عظمة الخالق المالك لما فى السماوات والأرض ، المحمود فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ، وقررت شمول علمه الدقيق لما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من

السماء وما يعرج فيها ، ثم تطرقت للحديث عن إنكار الكافرين لمجنى الساعة ، وردت عليهم بتأكيد إتيانها ، لتتم إنابة المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، وليستيقن العلماء والمؤمنون أن القرآن حق وصدق ، وهداية إلى صراط العزيز الحميد ، ثم تحدثت عن عجب الكفار من قضية البعث واستبعادهم لوقوعه ، بعد أن يموتوا ويمزقوا كل ممزق ، وأجابت عن ذلك بأنه لا وجه لاستبعادهم ، وهم يرون من كمال قدرة الله ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ، وهددت المكذبين بخسف الأرض من تحتهم ، أو إسقاط السماء كسفا عليهم .

٢ - داود وسليمان :

تتناول الآيات من (١٠ - ١٤) طرفاً من قصة داود وسليمان وتذكر نعمة الله عليهما وفضله ، فقد أعطى داود النبوة والزبور والصوت الحسن ، وإذا سبح الله سبحت معه الجبال والطير ، ولأن الله له الحديد ، وأوحى إليه أن يعمل دروعاً سابغات للحرب ، كما حثه الله على العمل الصالح ، فإنه سبحانه بصير خبير .

وقد سخر الله لسليمان الريح ، ذهابها شهر ورجوعها شهر ، تحمل بساطه هو وخاصته إلى حيث يشاء ، وقد ذلل الله له الجن تعمل له أنواع المصنوعات ، فلما انقضى أجله مات واقفاً متكئاً على عصاه ، وما دل الجن على موته إلا أرضه قرضت عصاه فسقط ، فانطلقوا بعد أن كانوا مسجونين .

٣ - قصة سبأ :

ضرب الله مثلاً للشاركين بـداود وسليمان ، وقليل من الناس من يدرك فضل الله عليه ، وعظيم نعمائه التي لا تعد ولا تحصى ، ثم ضرب الله مثلاً للبطر وجود النعمة بمملكة سبأ ، وقد سبق أن وصفت في سورة النمل بالعظمة والقوة ، فلما أمنت بلقيس وكفر من جاء بعدها وأعرضوا عن شكر الله أصابهم الدمار .

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبي اليمن ، وكانوا في أرض مخصصة لا تزال منها بقية إلى اليوم ، وقد ارتقوا في سلم الحضارة ، حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق ، فاقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على قم الوادي بينهما سدّاً به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا المياه بكميات عظيمة وراء السد وتحكموا فيها وفق حاجتهم ، فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم ، وقد عرف باسم : سد مأرب .

وهذه الجنان عن اليمين والشمال ، رمز لئذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ولكنهم لم يشكروا نعمة الله ولم يذكروا آلاءه ، فسلبهم هذا الرخاء ، وأرسل السيل الجارف الذي يحمل العرم في طريقه - وهى الحجارة - لشدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطغت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخزن بعد ذلك جففت الجنان واحترقت ، وتبدلت تلك الجنان الفيحاء صحراء تتناثر فيها الأشجار البرية الخشنة ، ذَلِلكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا ... أى : بنعمة الله ، وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ . (سبأ : ١٧) .

وقد استغرقت قصة سبأ الآيات من (١٥ - ٢١).

٤ - الشرك والوحيد :

المتأمل في الآيات من (٢٢ - ٢٧) في سورة سبأ يجد ظاهرة متميزة، حيث تكرر قول: **قُلْ**، في أول هذه الآيات، كما تضمنت عدداً من الأسئلة والحقائق، في أسلوب رائع قوى.

لقد بدأت الآيات بتحدى المشركين أن يدعوا الذين يزعمون أنهم آلهة من دون الله، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون شفاععة عند الله - ولو كانوا من الملائكة - فالملائكة يتلقون أمر الله بالخشوع والراجف ولا يتحدثون حتى يزول عنهم الغزع والارتجاف العميق، ويسألهم الله عمن يرزقهم من السماوات والأرض، والله مالك السماوات والأرض وهو الذي يرزقهم بلا شريك، ثم يفوض أمر النبي وأمرهم إلى الله، وهو الذي يفصل فيما هم فيه مختلفون، ويختتم هذا الفصل بالتحدى كما بدأه، أن يروه الذين يلحقونهم بالله شركاء، **كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**. (سبأ: ٢٧).

وهكذا تطوف الآيات بالقلب البشري في مجال الوجود كله: حاضره وغيبه، سمانه وأرضه، دنياه وآخرته، وتقف به أمام رزقه وكسبه وحسابه وجزائه، كل ذلك في فواصل قوية، وضربات متلاحقة وآيات تبدأ كل آية منها بفعل الأمر: **قُلْ**، وكل قولة منها تدمج بالحجة، وتصعد بالبرهان في قوة وسلطان.

وفي أعقاب هذه الآيات بيان لرسالة الرسول، وأنها عامة للناس أجمعين: **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**. (سبأ: ٢٨).

٥ - مشاهد القيامة والجزاء :

يستغرق الفصل الخامس في السورة الآيات من (٢٩ - ٤٢)، ويبدأ بسؤال يوجهه الكفار للنبي عن يوم القيامة، استبعاداً لوقوعه، والجواب أن ميعاده لا يتقدم ولا يتأخر، وقد اعتز الكفار بالأموال والأولاد، وقالوا: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب السابقة عليه.

وهنا يعرض القرآن موقف الظالمين أمام ربهم، حيث يتحاورون فيراجع بعضهم بعضاً، كل منهم يحاول أن يلقي التبعة على أخيه، فيقول الضعفاء للسادة والكبراء: لقد تصدتم لنا بالإغراء، والمكر بنا ليلاً ونهاراً، حتى أفسدتم علينا رأينا، وجعلتمونا نكفر بالله، ونجعل له نظراء من الآلهة الخيالية، ويحتج الكبراء ويقولون: نحن منعناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم مجرمين إذ أخذتم الكفر عنا بالتقليد.

وعض الجميع بنان الندم حين رأوا العذاب، والأغلال في أعناقهم، ثم نرى المترفين يقاومون كل إصلاح، ويكذبون كل رسالة: **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ**. (سبأ: ٣٤).

وقد احتج المترفون بكثرة أموالهم وأولادهم ، واعتقدوا أن فضلهم فى الدنيا سيمنعهم من العذاب فى الآخرة ، وهنا يضع القرآن موازين الحق والعدل ، ويقرر القيم الحقيقية التى يكون عليها الجزاء والحساب ، وهى قيم الإيمان والعمل الصالح ، لا الأموال والأولاد .

وفى مشاهد القيامة يتضح أنه لا الملائكة ولا الجن الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، يملكون لهم فى الآخرة شيئاً .

كما توضح الآيات أن بسط الرزق وقبضه أمران يجريان وفق إرادة الله ، وليس دليل على رضا أو غضب ، ولا على قرب أو بعد ، إنما ذلك ابتلاء واختبار .

٦ - الدعوة إلى التأمل والفكر :

فى الآيات الأخيرة من السورة من (٤٣ - ٥٤) ، حديث عن عناد الكافرين وجحودهم من غير برهان ولا دليل ، وتبينه من القرآن بما وقع لأمثالهم ، وعرض لمصارع الغابرين الذين أخذهم التكبر فى الدنيا ، وهم كانوا أقوى منهم وأعلم وأغنى .

ويعقب هذا عدة إيقاعات عنيفة ، كأنما هى مطارق متوالية ، يدعوهم فى أول إيقاع منها إلى أن يقوموا لله متجربين ، ثم يتفكروا غير متأثرين بالحوادث التى تمنعهم من الهدى ومن النظر الصحيح . وفى الإيقاع الثانى يدعوهم إلى التفكير فى حقيقة البواعت التى تجعل الرسول ﷺ يلاحقهم بالدعوة ، وليس له من وراء ذلك نفع ، ولا هو يطلب على ذلك أجراً ، فما لهم يتشككون فى دعوته ويعرضون ؟

وتوالت الآيات تبدأ بلفظ : قُلْ ... وكل منها يهز القلب هزاً ، فمحمد لم يسألهم أجراً بل أجره على الله ، ومحمد ﷺ مؤيد بالحق ، والحق غالب والباطل مغلوب .

ثم تطف فى وعظهم فذكر أن محمداً ﷺ إن ضل فضلاله إنما يعود عليه وحده ، وإن اهدى فبهدى الله له ، ثم بين سوء حالهم إذا فزعوا يوم القيامة إلى ربهم ، فلا يكون لهم فوت منه ولا مهرب ، وذكر أنهم يؤمنون به فى ذلك الوقت فلا ينفعهم إيمانهم ، وتختتم السورة بمشهد هؤلاء الكفار ، وقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان فى غير موعده ، والإفلات من العذاب والنجاة من أهوال القيامة ، كما فعل بأشباعهم من كفره الأمم التى قبلهم ، إنهم كانوا فى شك موقع فى الارتياب .

وهكذا تختتم السورة بمشهد ثبت قضية البعث والجزاء ، وهى القضية التى ظهرت خلال السورة من بدايتها ،

قال تعالى : وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّبِينٍ . (سبأ : ٥٤) .

سورة سبأ

سورة مكية ، وعدد آياتها ٥٤ آية ، وسميت بهذا الاسم لورود قصة سبأ بها .

أهم مقاصد سورة سبأ :

١ - تمجيد الله والثناء عليه ، وتخصيصه بالحمد في الآخرة .

٢ - إثبات أمر قيام الساعة .

٣ - قصة داود أو جانب منها .

٤ - قصة سليمان أو جانب منها .

٥ - قصة سبأ وعاقبة كفرهم .

٦ - مشاهد القيامة .

٧ - عاقبة المترفين والكافرين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُوفُ ﴿٢﴾ ﴾

المفردات :

الحمد لله : الحمد هو الثناء على الله بما هو أهله ، أو الثناء على الله بجميل صفاته وأفعاله .

الحكيم : الذي أحكم أمر الدارين ودبره بمقتضى الحكمة .

الخبير : الذي يعلم بواطن الأمور .

يلج في الأرض : يدخل فيها ، كالماء ينفذ في موضع وينبع في آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات .

وما يخرج منها : كالزروع والنباتات والحيوان والفلزات وماء العيون .

وما ينزل من السماء : من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق ، والأرزاق والملائكة والكتب والمقادير .

وما يعرج فيها ، يصعد فيها من أعمال العباد ، والأبخرة والأدخنة والملائكة ، وغير ذلك .

تهديد :

تبدأ السورة بالحمد لله ، ضمن خمس سور في القرآن الكريم بدأت بالحمد لله ، وهي :

١ - الفاتحة : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

٢ - الأنعام : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ...

٣ - الكهف : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِزًّا .

٤ - سبأ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

٥ - فاطر : الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

التفسير :

١ - الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

الشكر والثناء على الله تعالى خالق الكون ، بديع السماوات والأرض ، وله ما فيها خلقاً وإيجاداً وعناية ورعاية ، له ما في السماوات من الملائكة والأبراج والشموس والأقمار والنجوم وغير ذلك ، وله ما في الأرض من الإنسان والحيوان والنباتات والبحار وغير ذلك ، وله الحمد في الدنيا حيث خلق ورزق ويسر ونظم وأبدع ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وله الحمد في الآخرة حيث يتم الحساب والميزان والصراط ، وتوزيع الكتب ، ومكافأة العاملين المخلصين ، ومعاقبة الكافرين المفسدين ، فمكافأة العاملين نعمة ، ومعاقبة الظالمين نعمة ، لتحقيق العدل وحسن الجزاء : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ . (فصلت : ٤٦)

وَهُوَ الْحَكِيمُ . الذي أتقن كل شيء صنعا ، وأحسن كل كائن خلقاً وإبداعاً .

الْخَبِيرُ . المطلع على بواطن الأمور ، المحيط بكل شيء علماً .

٢ - يُعَلِّمُ مَا يُلْقِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ .

إن علم الله تعالى يمتد ليشمل كل شيء في هذا الكون ، لا يشغله شأن عن شأن ، فيشمل علمه ما يدخل في الأرض من حبة أو دودة ، أو جشرة أو هامة ، أو زاحفة تلج في أقطارها المترامية ، أو قطرة ماء أو ذرة

غاز ، أو إشعاع كهرياء يندس في أرجاء الأرض الفسيحة ، أو غير ذلك مما لا حصر له ولا عدد ، تراه عين الله التي لا تنام .

قال تعالى : وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمْتِ الْأَرْضِ وَلَا زَبْذَبٌ وَلَا يَابِسُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

ويعلم ما يخرج من الأرض من نبات ، ونبع ماء وثمار وأشجار ، ويدركين تتفجر ، وزلازل ، ومعادن وبتروا ، وغير ذلك مما يكون حياة ورزقا ، أو عذابا وعقوبة ، ويعلم سبحانه ما ينزل من السماء ، من الأرزاق والأمطار والشهب والرحمات ، والكتب والوحي والضوء والحرارة والأشعة ، والملائكة والإلهام والخيرات للمتقين ، والعذاب والنكال للمكذبين .

ويعلم سبحانه ما يعرج في السماوات من دعوات صالحات ، وملائكة وأبخره وصواريخ ، وموجات لاسلكية ، وأضواء منعكسة من الأرض ، إلى غير ذلك مما يعلمه علام الغيوب ، وهو الكامل الرحمة بعباده ، واسع المغفرة ، وعلم الله تعالى ممتد يحيط بال مخلوقات كلها ، وبالأكوان كلها في كل مكان ، وفي كل زمان ، وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر ، وما له من حركات وسكنات ، تحت عين الله التي لا تغفل ولا تنام .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ عَلَيْهَا الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايٰتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ وَيَرَى الَّذِينَ ءَاثَرُوا آلَٰعِلَمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّبِينٍ الْحَمِيدُ ﴿٥﴾ ﴾

المضردات :

لا تأتينا الساعة ، أي : القيامة .

بـ : حرف جواب يأتي بعد النفي للإثبات .

يـ : يبعد أو يغيب .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَزَنَ ذَرَّةً : أصغر نملة أو هباءة .

وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ ، أصغر من الذرة ولا أكبر منها .

كِتَابٌ مَّبِينٌ ، اللوح المحفوظ .

مُعَاجِزِينَ ، مغالبين لنا ، طائنين عجزنا عنهم .

عَذَابٌ مِنْ رَجْزِ آيِمٍ ، من أقبح العذاب وأسوأه .

الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ ، علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه .

هَـوَ الْحَقُّ ، القرآن هو الحق الموحى به من الله تعالى .

الْعَزِيزُ ، ذو العزة .

الْحَمِيدُ ، المحمود .

التفسير :

٣- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُغْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .

أنكر كفار مكة قيام الساعة ، وقالوا : ما هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، فليس هناك بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء .

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُغْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ...

أى : قل لهم يا محمد : سيقع ما تتكرونيه ، وأقسم على ذلك بالله الذى يعلم كل شيء ، ولا يغيب عنه علم أصغر نملة أو هباءة كائنه فى السماوات ولا فى الأرض ، فقد أحاط علمه بكل شيء كبير كان أو صغيراً ، ومن باب أولى أن يحيط علمه بكل إنسان ، وجميع أجزاء جسمه بعد موته ، فقد أحاط سبحانه بكل شيء علماً ، ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها إلا سجل فى اللوح المحفوظ عند علام الغيوب .

لطيفة أولى :

كان العالم يعتقد أن الذرة هي أصغر شيء ، فأشار القرآن إلى أن هناك ما هو أصغر منها ، وما هو أكبر وذلك منذ أكثر من ألف وأربعمائة م .

لطيفة ثانية :

هذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع الميعاد والبعث .

الأولى في سورة يونس :

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَخَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ . (يونس : ٥٣) .

والثانية في هذه الآية :

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ : ٣) .

والثالثة في سورة التغابن :

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ مِنْ دَارِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (التغابن : ٧) .

٤- لَيُخْرِجَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَزْوَاجًا مُتَّحِفِينَ . (سبأ : ١٣) .

أى : سيكون البعث ليكون بعده الجزاء الحسن للمؤمنين .

والمعنى : ليكافئ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالجنة ، ولهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم طيب

واسع فى دار النعيم .

٥ - وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَرٍ أَلِيمٍ .

والذين كفروا وقاوموا دعوة الإسلام ، وقالوا عنها إنها سحر أو شعر أو كهانة ، ظانين أنهم يستطيعون إبطالها وصرف الناس عنها ، أو : مُعْجِزِينَ ، ظانين أنهم يفوتوننا فلا تقدر عليهم ، أو نعجز عن إبطال العذاب لهم (٤) ، يقال : عاجز فلان فلاناً وأعجزه ، إذا غلبه وسبقه .

وفى القرآن الكريم : لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن مَّوْجِدٍ . (النور : ٥٧) .

وقال تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (العنكبوت : ٤) .

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَرٍ أَلِيمٍ .

هؤلاء لهم عذاب شديد فى نار جهنم هو أسوأ العذاب وأشدّه ، وهو مؤلم شديد الألم .

٦- وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

ليشاهد الذين أوتوا علم التوراة أو الإنجيل من أهل الكتاب ، أن القرآن الذى أنزله الله عليك هو الحق حيث صدّق الرسل والكتب السابقة ، وأرشد إلى ما فيها من حق ، وإلى ما طرأ عليها من تحريف ، وهذا الذى

أنزل إليك من ربك هو الوحي ، وهو القرآن الذى يهذى إلى الطريق القويم ، وإلى صراط الله العزيز الغالب ، المحمود فى الأرض وفى السماء .

ويمكن أن يطلق الذين أوتوا العلم على الصحابة والتابعين ، الذين آمنوا بالله وصدقوا برسوله ، وتلقوا علوم الإسلام ، كما يمكن أن تشمل أهل الكتاب ، وعلماء المسلمين ؛ أى : الذين أوتوا العلم فى أى زمان وفى أى مكان ، ومن أى جيل ومن أى قبيل ، يرون أن القرآن الكريم كتاب حق وصدق ، فى تشريعاته وأخباره ، وأدابه وهدايته .

وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

ويرشد إلى الناموس الذى يهيمن على أقدار هذا الكون ، ويصحح منهج التفكير ، ويرشد إلى إقامته على أسس سليمة ، ويعدّ الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية ، ويعد الجماعة لرعاية الأفراد وللتناسق مع الآخرين ، فصرط الله هداية للحق ، وسلوك سليم نظيف ، وتعاون مع الآخرين ، واسترشاد بهدى السماء لتقويم المسيرة ونفع العباد والبلاد .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلُّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ٧ ﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ٨ ﴾ أَفَتَدْعُونَنَا إِلَى مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّتَبِعٍ ٩ ﴾

المفردات :

هل ندلكم على رجل ، محمد ﷺ .

إذا مزقتم كل ممزق : قطعتم قطعاً صغيرة ، أى : تمزيقاً شديداً .

إنكم لفي خلق جديد ، تبعثون خلقاً جديداً لم ينقص منكم شيء .

أفــــــتــــرى ، الافتراء هو اختلاق الكذب ، أى : أكذب واختلق ؟

أم به جنة ، جنون يومه ذلك ، ويجعله يتخيل البعث .

فى العذاب ، فى الآخرة .

والضلال البعيد ، الضلال البعيد عن الصواب فى الدنيا ، أى : ليس بمحمد افتراء أو جنون ، ولكن بالكفار بُعد عن الحق فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

نخسف بهم الأرض ، نغيبهم فى بطنها .

كسفاً ، قطعاً ، جمع كسفة .

منسحب ، راجع وتائب إلى الله تعالى .

التفسير :

٧- وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّتُمْ كُلٌّ مُمَرِّقًا إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .

وقال الذين كفروا من قريش : هل نخبركم بأمر عجيب لا يصدق ، وأمر غريب غير مألوف يقوله محمد ، حيث يدعى أن الناس إذا ماتوا وتقطعت أجسامهم وعظامهم ، وتفتتت وصارت أجزاء كثيرة يصعب جمعها ، ويستحيل عودة الحياة إليها - يدعى محمد أنها تعود مرة أخرى للبعث والحساب .

٨- أَفَرَأَيْتَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ ...

إن حال محمد لا يخلو من أمرين : إما أن يكون قد اختلق هذا القول على الله كذبا وزورا دون أن ينزل عليه وحى ، أو أن يكون محمد به مرض الجنون الذى جعله لا يعقل ما يقول ، ويتوهم البعث ويتخيله .

بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ .

أى : ليس محمد بكاذب ، ولا بمجنون ، لكن كفار مكة قد ضلوا عن الحق ضلالاً بعيداً ، واستحقوا العذاب الشديد فى الآخرة .

ويجوز أن يكون المعنى : إن الكفار فى بعدهم عن الله فى قلق نفسى ، واضطراب وعدم استقرار ، فهم فى عذاب دنيوى ، وعذاب آخرى ، وهم فى ضلال شديد ، لعدم امتدائهم بهدى الله ، ولعدم اتباعهم لرسول الله .

٩- أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَاءُ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ...

يلفت القرآن الكريم نظرهم إلى آثار القدرة الإلهية التى رفعت السماء بدون أعمدة ، وزينتها بالنجوم ، وخلقت الفضاء والهواء ، والأنهار والبحار ، والأرض والجبال ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإنسان والحيوان والنبات ، وأمسكت بزمام هذا الكون تحفظه وترعاه ، وتمده بمقومات الحياة والتكامل .

فهلأ نظروا نظر اعتبار إلى ما بين أيديهم من أخبار الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وثمود ، الذين كذبوا فأهلكوا أو إلى ما بين أيديهم من السماء التي فوقهم ، والأرض التي تحتهم ، وهم محاطون من كل جانب بنعم الله التي تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، وعن أيمانهم وشمالهم ، فضلا عن أنهم جميعا لا يستطيعون أن يخرجوا من أقطار السماوات والأرض ، فالله قاهر لهم ، وهم جميعا فى قبضته ، إن شاء خسف بهم الأرض ، بالزلازل والبراكين كما فعل بقارون .

قال تعالى : فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ ... (القصص : ٨١) .

أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ...

أو نسقط عليهم عذابا من السماء ، أو جزءا من الشهب أو الصواعق أو النوازل التي أهلكت أصحاب الأيكة .

قال تعالى : فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٨٩) .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ...

إن هذه القدرة العالية التي تسيطر على هذا الكون ، ويبيدها حفظ هذا النظام ، وتقلب الليل والنهار ، وإرسال العذاب من السماء أو الأرض ، فيها أبلى الأدة وأصدق الآيات الهادية إلى الإيمان .

لُكُلْ عَبْدٌ مُّثِيبٌ . رجاء إلى الله ، وإلى الإيمان به ، والاهتداء إلى شرائعه ، والإيمان برسله وباليوم الآخر .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أُوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبْعَ نَفْسٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا أَصْلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلَسَلِمْنَا مِنَ الرِّيحِ غَدُوِّهَا شَهْرًا وَرَوَّاحِهَا شَهْرًا وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَبْغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثَّلُوا بِحَفَافٍ كَلْجَوَابٍ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خِرَ تَيْنَتِ الْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

المفردات :

فضلاً : لا ، نبوة وملكا .

أوبى معه : رجعى معه بالتسبيح .

والطير : والطير تسبح أيضا .

الناله الحديد : جعلناه له فى اللين كالعجينة يعجنها من غير نار ولا مطرقة .

أن اصمل سابغات : دروعاً طويلة تستر المقاتل ، وتقويه ضرب السيف .

وقرنته : أحكم أو اقتصد .

السرد : نسج الدروع ، أى : اجعل المسامير مقدرة على قدر الحلق ، فلا يكون غليظا ولا دقيقا .

ولسليمان الريح : وسخرنا لسليمان الريح .

غدوها شهر : جريها بالغداة مسيرة شهر .

ورواحها شهر : وجريها بالعشى كذلك .

وأسلمنا له عين القطر : أجرينا معدن النحاس سائلا كما ينبع الماء من العين .

يـ : يعدل ويخالف ما أمرناه به .

من محاريب : جمع محراب ، قيل : المساجد ، وقيل : المقصورة تكون إلى جوار المسجد للتعبد فيها

تمائيل، جمع تمثال وهى الصور، قيل: إن التصوير كان مباحاً فى شرع سليمان، ثم نسخ ذلك فى شرع نبينا محمد ﷺ.

وجفان، جمع جفنة، وهى ما يوضع فيها الطعام، من أعظم القصاع وأكبرها، ويلبها فى الصغر القصة، ويلبها المئكة، ويلبها الصخرة.

كـ الجواب، كالحياض الكبار التى يجبى فيها الماء للإبل، والجواب جمع جابية.

قـ قُدور، جمع قدر، وهى ما يطبخ فيه من فخار ونحوه، على شكل مخصوص.

راسيات، ثابتات على الأثافي، لا تنزل عنها لعظمها.

فلما قضينا عليه الموت، حكمتنا عليه بأن مات.

دابضة الأرض، الأرضة.

منسأته، عصاه، لأنه ينسأ بها، أى: يطرد ويزجر.

خـ خر، سقط.

يحلّمون الغيب، كما زعموا لعلموا بموته.

العذاب للمهين، الأعمال الشاقة التى كلفوا بها، لظنهم حياته.

تمهيد:

تعدد الآيات أنعم الله تعالى على داود وسليمان، حيث أنعم الله على داود بالنبوة والملك والجنود، والزيور والصوت الحسن، وعلمه صناعة الدروع الحربية، وألأن له الحديد، وسخر الله لسليمان الريح تحمله مسرعة مسافة شهر، تختصرها إلى نصف يوم، ويعود إلى بيته على بساط الريح فى نصف يوم، ولولا الريح لقطع المسافة فى شهر ذهاباً، وفى شهر إياباً، وإذابة النحاس له كإذابة الحديد لأبيه داود، وتسخير الجن لبناء القصور الكبيرة أو المساجد، والجفان الكبيرة كالأحواض، والقذور الكبيرة التى لا تتحرك ليعتتها وكبرها.

التفسير:

١- وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰحَبِيبُ أُوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَآلَنَّا لَهُ الْخَبِيرَ.

ذكر الله تعالى هنا ما أنعم به على عبده داود، حيث حباه بالنبوة والملك والفضل، وأعطاه المعجزات والجنود الكثيرة، والصوت الجميل الحسن الشجى، حيث كان إذا سبَّح الله وذكره بصوته الجميل رددت الجبال معه التسبيح والنشيد، وكذلك الطير تصدح بذكره ونشيد، ولأن الله الحديد فى يده، فكان مثل العجين لنا سهل التشكيل، فكان يصنع منه دروع الحرب وآلاتها، ويأكل من عمل يده.

وفى الصحيح عن النبي ﷺ قال : «إن خير ما أكل المرء من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» (١٩) .

١١- أَنْ أَعْمَلَ سَلِيبًا وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلِيحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : أوحينا إليه أن يعمل دروعا سابغات، أى : كاملات تامة واسعات، يقال : نعمة سابغة ، أى : كاملة وافرة.

قال تعالى : وَأَسَخَّ عَلَيكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ... (لقمان : ٢٠) .

وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ...

أى : أحكم صنع الدروع ، بحيث تكون فى أكمل صورة وأحسن هيئة ، متناسبة الحلقات والمسامير ، فلا تكون الحلقات واسعة ولا ضيقة ، بل متناسقة على قدر الحاجة ، محكمة على قدر حاجة الجسم ، وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع المحكمة .

قال قتادة : كانت الدروع قبله صفائح ثقالا .

وقال المفسرون : وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ... أى : لا تغلظ المسامير فيوسع الثقب ، ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها (٢٠) .

قال الفخر الرازى :

قيل : إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال ، فألأن له الحديد ، وعلمه صنعة اللبوس ، وهى الدروع .

وَأَعْمَلُوا صَلِيحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : اعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ، فإننى مطلع ومشاهد ومراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على شئ منها .

وفى معنى ذلك قوله تعالى : إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ . (ص : ١٨) .

وقوله عز شأنه : وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ • وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ

لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ . (الأنبياء : ٧٩ ، ٨٠) .

١٢- وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهَرَ وُرُوحَهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَلُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ .

وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وتنقله حيث يشاء ، مسرعة بحيث تقطع فى نصف النهار الأول مسيرة شهر ، وتقطع فى نصف النهار الآخر مسيرة شهر ثان .

قال تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصِقَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يُوْصَوْنَ لَهُ ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُم مَّخْفُوفِينَ . (الأنبياء : ٨١ ، ٨٢) .
وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ...

وأجرينا له معدن النحاس بعد إذابته ، فسال ونبع كما ينبع الماء من العين ، فذلك سعى عين القطر ، باسم ما آل إليه ، وكانت الأعمال تتأتى به وهو بارد ، ولم يلق ولا ذاب لأحد قبله .

لقد ألان الله الحديد لداود ، فصنع منه الدروع السابغات ، وألان لسليمان النحاس ينبع ويسيل كما يسيل الماء ، ويتشكل إلى الأدوات التى يحتاج إليها سليمان ، كالقصاص الكبيرة ، والقذور الكبيرة .

وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ...

وسخرنا له الجن يخدمونه ، ويعملون له الأعمال الشاقة ، والأبنية العظيمة ، ويفوصون فى البحر يستخرجون منه الأحجار الكريمة ، كالدرد والياقوت .

وَمَن يَرِغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذَلُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ .

ومن يخرج من الجن عن طاعة سليمان ، أو عن الخضوع لأمرنا ، يتعرض لأشد ألوان العذاب فى الدنيا والآخرة .

١٣- يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيسَةٍ أَعَمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ .

أى : يعمل الجن لسليمان ما يريد عمله ، من بناء المحاريب وهى المساجد ، أو القصور الشاهقة ، والأبنية العالية التى يحارب من خلالها .

وقيل : المحراب هو المقصورة بجوار القبلة ، أو التجويف تجاه القبلة .

وَتَمَثِّلُ : وهى الصور المجسمة المصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرخام للأنبياء والصالحين تشجيعاً للهمم فى العبادة ، والاقتداء بهم ، وكان ذلك جائزاً فى عهد سليمان ، ثم نسخ فى شريعة محمد ﷺ خشية التشبه بعبادة الأصنام .

وأباح الفقهاء عمل تماثيل لكل ما ليس فيه روح ، كالأنهار والأشجار ، وكذلك لعب الأطفال من التماثيل : لحديث رواه مسلم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكانت لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه ، فيسريهن إلى فيلعبن معى ^(١٢١) .

وأجاز جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب اتخاذ الصور إذا كانت مما يوطأ ويداس أو يمتتن بالاستعمال كالوسائد والمفارش ، أما التصوير الشمسى والفوتوغرافى فهو جائز لأنه ليس تصويراً بالمعنى الذى جاءت به الأحاديث ، بل حبس للصورة أو الظل ، فيكون مثل الصورة فى المرأة أو الماء .

وأما الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ، ومسلم ، عن ابن مسعود ، وابن عباس : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصوّرون» ^(١٢٢) . فقد قال بعض العلماء : المراد به من يصنعون تماثلاً يضاهئون به خلق الله ، بدليل حديث : «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله» ، ومن طريق آخر : «يقال لهم : أحيوا ما خلقتم» .

وفى فتح البارى : أن فريقاً من العلماء قال بتحريم عمل التماثيل ، وفريقاً قال : إن ذلك مكروه فقط ، فقد حرم فى صدر الإسلام ، حيث فيه تشبه بعبادة الأصنام ، وكان القوم حديثى عهد بعبادة الأصنام ، فنهوا عن عمل التماثيل ، أما الآن فعملها مكروه فقط .

وقال فريق ثالث : ليس ذلك مكروهاً بل هو جائز ، خصوصاً ما لا تتم به الحياه ، كالتماثيل النصفى ، وكل ما هو غير كامل .

وَجَفَانٌ كَالْجَوَابِ ...

الصحاف والقصاص الكبيرة التى تكفى لعدد كبير من الناس ، وتشبه حياض الإبل .

وَقُدُورٌ رَأْسِيَّتٍ ...

القُدُور جمع قدر ، وهو ما يطبخ فيه من خَافَر وغيره ، على شكل مخصوص .

ورأسيات : ثابتات على الأنافى لا تنزل عنها لعظمها ، أى : إن السماط كان عظيماً بديعاً ، فيه كثير من حسن الاتساق والجمال والضخامة .

أَعْمَلُوا إِنَّا دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

أى : أطيعونى واشكرونى واستخدموا نعمتى فيما خلقت له ، والهجوا بذكرى والصلاة والحمد لى
يا آل داود .

وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ .

والشكور هو الذى يشكر الله فى جميع أحواله ، من الخير والضرّ ، فهو شاكر على النعماء ، وصابر على
البأساء ، وهو راض بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره .

ورد فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، كان ينام
نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر
يوماً ، ولا يفرّ إذا لاقى» (١٠٤) .

قال ابن عباس : الشكور هو الذى يشكر على أحواله كلها .

وقال الزمخشري فى الكشاف : الشكور هو المتوفّر على أداء الشكر ، البازل وسعه فيه ، وقد شغل به
قلبه ولسانه وجوارحه ، اعترافاً واعتقاداً وكبحاً .

وقيل : الشكور هو من يرى عجزه عن الشكر ، لأن توفيقه للشكر نعمة تستدعى شكراً آخر لها إلى ما لا
نهاية .

على حد قول الشاعر :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمةً	على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلته	وإن طالت الأيام واتسع العبر
إذا مسّ بالنعماء عمّ سرورها	وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر

وقد كان النبى محمد ﷺ صابراً شاكراً قدوة ومثلاً أعلى ، روى مسلم فى صحيحه ، عن عائشة : أن
رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفتطّر قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ؟ فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» (١٠٥) .

ومن شكر النعمة التواضع ، والعفو والاستقامة ، قال ﷺ : «أوصانى ربي بتسع : الإخلاص لله فى
السّر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من
حرمنى ، وأغفو عن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبرة .»

١٤ - فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتَ الْجَنُّ أَنْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبُؤْا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .

أى : جمع الله لسليمان النبوة والملك ، وتسخير الرياح ، وتسخير الجن ، ونبع النحاس من عين كالماء ،
وسخر الله الجن لسليمان تعمل له التماثيل والمحاريب والقصاع الكبيرة ، والقدور الجميلة الكبيرة الراسية
على الأثافي ، وقيل لهم : الزموا شكر الله على هذه النعم ، ومع كل هذه النعم فقد مات سليمان متكئا على
عصاه ، والجن مستمرة فى العمل الشاق ، ونزل الموت بسليمان واستمرت الجن حتى أتت عملها ، ثم أكلت
الأرض من عصا سليمان فخر ساقطا على الأرض ، فظهر جليا للإنس وللجميع أن الجن لا تعلم الغيب ، وأن
الغيب لا يعلمه إلا الله ، ولو كانت الجن تعلم الغيب ما مكثت فى العذاب المهين ، عاملة ناصبة فى البناء
والتشديد .

وذكر القرطبي ، عن ابن عباس مرفوعا : أن سليمان نحت عصا الخرنوبية ، فتوكأ عليها حولا لا
يعلمون ، فسقطت ، فعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب ، فنظروا مقدار ذلك ، فوجدوه سنة .

وليس لدينا خبر صحيح نطمئن إليه فى تحديد المدة التى قضاها سليمان ميتا والجن تعمل بين يديه
فنكتفى بما أشار إليه القرآن من أنه مكث فترة ما ميتا ، والجن عاملة ناصبة لا تعلم بموته ، حتى أكلت
الأرض عصاه ، فوقع على الأرض ، فعلمت الجن بموته .

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُ بِلْدَةِ طَيْبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ سَئِئ
بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى
ظَاهِرَةً وَغَدْرًا فِيهَا أَلْسِنُ سَيْرٍ وَأَفْهَالِي وَأَيَّامَاءُ آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَرْقِئٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ أَنِّلَيْسُ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّي بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي
شَاكٍ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾﴾

المفردات :

سبأ : اسم قبيلة من قبائل العرب العاربة في بلاد اليمن ، وهم قوم بلقيس ، وقد سميت
قبيلة سبأ باسم جد لهم من العرب ، هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ومن
نسلهم عبد الله بن سبأ ، المنسوبة إليه السبئية من غلاة الشيعة .

مسكنهم : موضع سكنهم في مأرب ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال .

آية : علامة على قدرة الله .

جنتان : جماعتان من البساتين ، جماعة عن يمين إقليمهم ، وجماعة عن شماله .

طيبة : طيبة المناخ ، بعيدة عن الأوباء وأسبابها .

فأعرضوا : عن شكر الله ونعمه .

سيل العرم : سد السيل العرم ، وهو سد يعترض الوادي ، ويطلق على المطر الشديد ، والعرم : الصعب .

وبدلتناهم : آتيناهم بدل جنتيهم .

ذواتي أكل خمط : أي : صاحبتني أكل مرّ بشع .

أشجار ، شجر يشبه شجر الطرفاء لا ثمر له .

سدر ، شجر النبق .

جزيناهم ، عاقبتاهم .

الكفور ، المبالغ فى الكفر المتشبه به .

القرى التى ياركناها فيها ، هى قرى الشام ، مبارك فيها بكثرة أشجارها ووفرة ثمارها ، والتوسعة على أهلها .

قرى ظاهرة ، متواصلة من اليمن إلى الشام .

وقلنا فيها السير ، جعلنا المسافات بينها مقدرة على أبعاد قريبة ، بحيث يسهل التنقل بينها .

باعد بين أسفارنا ، اجعل المسافات والأبعاد بيننا وبين القرى المباركة طويلة ممتدة ، لتطول أسفارنا إليها .

أحدنا ، لمن جاء بعدهم ، ولم يبق منهم إلا أخبارهم الغريبة .

ومزقناهم كل ممزق ، فرقناهم فى البلاد كل التفرق .

صدق عليهم إبليس ظنه ، صدق ظن إبليس فيهم ، أنه يستطيع إغواءهم .

فاتبعوه ، فى الكفر والضلال والإضلال .

إلا فريقا من المؤمنين ، لكن فريقا من المؤمنين لم يتبعوه ، فخاب ظنه فيهم ، زاده الله خيبة إلى يوم القيامة .

سلطان ، تسلط واستيلاء .

لنعلم ، لنعرف ونميز المؤمن بالآخرة من الشاك فيها .

حفيظ ، محافظ رقيب .

تمهيد :

تحدث القرآن فيما سبق عن داود وسليمان كنموذج للشاكرين ، ثم تحدث عن سبأ كنموذج لقوم أبطرتهم النعمة ، فلم يشكروا ربهم : فاستحقوا سلب النعمة ، والعقوبة جزاء كفرهم ، وتلك سنة من سنن الله العادلة ، مكافأة المؤمنين ، ومعاقبة الكافرين .

التفسير :

١٥ - لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَانِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ .

لقد كان لشعب سبأ فى مساكنهم التى يسكنونها ، وقصورهم ووديانهم التى يعمرونها آية وعلامة على قدرة الله وأفضاله على عباده ، وهى جنتان إحداهما عن يمين الوادى ، وأخرى عن شماله ، كلها فواكه

وخضرة تسقى بماء سد مأرب ، وتنبت الفواكه والثمار والنخيل والأعناب ، وصنوف النعم ، روى أن المرأة كانت تخرج وعلى رأسها المكلت ، وتسير بين الأشجار فيمتلئ المكلت مما يتساقط من الثمار ، فهذا قوله تعالى : **كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ...**

كانها تناديهم بلسان الحال ، وتقول لهم : كلوا من هذا الرزق العظيم الذى بسطه الله لكم ، واشكروا الله عليه شكراً عملياً باستخدام النعمة فى طاعة الله ، واشكروه بذكره وطاعة رسله ، واحترام نواميسه وطاعة أوامره .

بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ .

هذه بلدة طيبة الهواء ، وهى صنعاء اليمن ، مناخها طيب ، وتربتها طيبة ، لا يوجد بها وباء ولا هوم ولا حشرات كالعقارب ونحوها .

وَرَبٌّ غَفُورٌ . واسع المغفرة عظيم الرحمة لمن تاب إليه ورجع .

١٦ - **فَاعْرِضْهُ فَإِزْهَرْنَا عَلَيْهِمْ سِلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ .**

فأعرضوا عن شكر الله ، وعن المحافظة على السد ، وأترفوا وفسقوا ، فعاقبهم الله بتحطيم سد مأرب ، حيث أرسل أمطاراً غزيرة كالحجارة القوية ، فأزاحت سد مأرب ، وأغرقت المياه الأشجار والبساتين الجميلة ، ويعد تحطيم السد ذبلت الأشجار وجفت الزراعة ، ولم تبق لهم إلا أشجار متناثرة فى الصحراء ، كثيرة الشوك ، سميت بالجنان على سبيل المشاكلة والتهكم .

قال قتادة : كان شجرهم خير الشجر ، فصيرره الله شر الشجر بأعمالهم .

وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ...

وأبدلناهم بجنتيهم النضرتين جنتين ذواتى ثمر ، **خَمْطٌ** . مر بشع ، يجمع بين المرارة والحموضة لا يستسيغه أحد .

وَأَثَلٍ... شجر لا ثمر له يشبه شجر الطرفاء .

وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . وشيء قليل من شجر السدر وهو المعروف بالنبق ، وهذا النوع ينتفع به وله شأن

عند العرب ، ولكنه كان قليلاً عقاباً لهم ، ولو أطلق لكان نعمة لا نقمة .

١٧ - ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرَ .

أى : ذلك العقاب الذى نزل بهم ، حيث ذُمرت البساتين الخضراء المثمرة ، ولم تبق لهم إلا أشجار متفرقة فى الصحراء ، كثيرة الشوك ، قليلة النفع والفائدة ، هذا الجزاء العادل والعقاب الرادع بسبب كفرهم بنعمة الله ، حيث أعملوا سد مأرب ، وأعرضوا عن الإيمان بالله ، فاستحقوا هذه العقوبة ، وهل نجازى الجزاء المؤلم ، والعقوبة الرادعة إلا لكثير الكفر المصّر على الجحود والمبالغ فيه ؟

١٨ - وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَنَكُنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيً وَأَيَّامًا ءَامِينَ .

تأتى هذه الآية كالتعقيب على قصة سبأ ، فقد ذكر فيما سبق أن الله أنعم عليهم بالجنان والبساتين والنعم المتعددة ، لكنهم كفروا وجحدوا فاستحقوا العقوبة .

وأردف ذلك بذكر نوع آخر من النعم التى أنعم الله بها عليهم ، وهى نعمة القرى المتتابعة المرتفعة الظاهرة على الطريق الموصل بين اليمن والشام ، قيل : من سافر من قرية صباحاً وصل إلى الأخرى وقت الظهر والقيلولة ، ومن سار من قرية بعد الظهر وصل إلى الأخرى بعد الغروب إلى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ، ولا يحتاج لحمل زانو ، ولا مبيت فى أرض خالية .

وقوله تعالى : سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيً وَأَيَّامًا ءَامِينَ . على إرادة القول ، بمعنى أبجناها وقلنا لهم : سيروا فيها حيث شئتم ، وكيف شئتم ، لىالى وأياماً آمنين ، لا تحسّون مشقة ، ولا تستشعرون جوعاً ولا عطشاً ، ولا ترهبون عدواً .

وهذا القول إما بلسان الحال ، بمعنى أن وضع القرى وتأمين السير فيها واقترباها من بعضها ، كأنه يقول للسائر : سر آمناً مطمئناً ، وإما بلسان المقال ، أى قال أنبياءهم ومرشدهم : سيروا فيها آمنين مطمئنين ، وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت أياماً وليالى كثيرة .

١٩ - قَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أسبغنا عليهم نعمنا فبطروا النعمة ، وسثموا من طيب العيش ، وملؤا العافية ، وطلبوا الكد والتعب وطول الأسفار ، والتباعد بين الديار ، وقالوا : ربنا اجعل بيننا وبين البلاد التى نساfer إليها مفاوز وقفاراً ، ليركبوا فيها الرواحل ، وليتزوّدوا بالماء والزاد ، إظهاراً للتمايز الطبقي ، والتكبر والتفاخر على الفقراء والعاجزين .

وَعَلَّمُوا أَنْفُسَهُمْ... إِذْ عَرَضُوهَا لِلسُّخْطِ وَالْعَذَابِ حِينَ بَطَرُوا النِّعْمَةَ وَلَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهَا .

فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ...

شردوا ومزقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة ، مبددى الشمل ، وأصبحوا أحاديث يرويها السمار فى مجالسهم ، وفرقنا شملهم فى البلاد كل تفریق ، فصارت العرب تضرب بهم المثل فتقول : (تفرقوا أيدى سبأ) أى : مذاهب سبأ وطرقها .

فنزلت الأوس والخزرج بيثرب ، وغسان بالشام ، والأزد بعمان ، وخزاعة بتهامة ، فمزقهم الله كل ممزق ، وهدم السيل بلادهم .

إِنِّى فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

أى : فى قصة سبأ وما حل بهم جزاء كفرهم ويطهرهم لعبرة يعتبر بها كل صبور على الشدائد ، فلا يجزع ولا يهلع ، بل يقابلها بالإيمان والرضا بالقضاء والقدر ، خيره وشره حلوه ومره .

شُكُورٍ . لله على نعمائه ، اللهم اجعلنا من الشاكرين .

وفى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «عَجَبًا لِلْمُؤْمَنِ لَا يَقْضِى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ» (٣٧) .

ومن كلام العارفين : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

٢٠ - وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها كالتعقيب العام ، لبيان السنة الإلهية فى الإغواء والهداية ، فالشيطان حين رأى منهم الانهماك فى الشهوات والملذات ، والعدول عن الاعتدال والهدى ، توقع منهم السير وراءه ، واتباع إغوائه .

ومعنى الآية :

ظن الشيطان بهؤلاء السبئيين أنه إذا أغواهم اتبعوه ، فكان كما ظن بوسوسته ، فانتقادوا لإغوائه ، وعبدوا الشمس من دون الله ، إلا فريقاً قليلاً من المؤمنين صمدوا أمام وسوسة الشيطان ، وثبتوا على الإيمان .

٢١ - وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ.

لم يكن للشيطان عليهم سلطان قاهر لا يملكون مقاومته ، بل كل ما كان منه هو الإغواء والوسوسة والتزيين ، وذلك للاختبار والابتلاء ، ليظهر أمام الواقع من يؤمن بالآخرة فيعصمه إيمانه من الانحراف ، ومن هو من الآخرة فى شك ، فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية بلا عاصم من رقابة الله ، ولا تطلع لليوم الآخر .

وهذا التعقيب الذى ذكر فى ختام قصة سبأ ، أمر عام ينطبق على قصة كل قوم ، بل كل فرد فى كل مكان وفى كل زمان .

الله خلقنا فى هذه الدنيا للاختبار والابتلاء ، وحذرننا من الشيطان ، وبين لنا أنه عدو مبين ، ومع هذا فمننا من يطيعه ، رغبة فى اتباع الهوى ، وضعفاً أمام الشهوات والذنوب ، ومننا من يصبر ويستمسك بهداية الله ، فيعينه الله .

قال الحسن البصرى : والله ما ضربهم الشيطان بعضاً ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غروراً وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ .

أى : هو مطلع وشاهد ورقيب ، فلا يند عنه شىء ولا يغيب ، ولا يهمل شيئاً ولا يضيع ، وبهذا يتسع مجال التعقيب ، فلا يعود قاصراً على قصة سبأ ، وإنما يصلح تقريراً للحال البشر أجمعين ، فهى قصة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما ونتائجهما فى كل حال .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا آتَا بِمُضِرِّخِكُمْ وَمَا أَتَمَّ بِمُضِرِّخِي إِلَى كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

المضردات :

زَعَمْتُمْ : ظننتم وقلتم إنهم آلهة .

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ : وزن ذرة موقدرها .

وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ : وليس لهم من شركة في السماوات ولا في الأرض .

ظَهِيرٌ : معين .

فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ : أزيل الخوف عن قلوبهم ، يقال : فُزِعَ عنه ، مثل قولهم : قُرِدَتِ البعير ، إذا أزلت قراده ، والفزع : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف .

التفسير :

٢٢ - قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ .

تكلمت الآيات السابقة عن داود وسليمان كنموذج للشاكرين ، ثم تكلمت عن قصة سبأ كنموذج للكافرين ، وهذه الآيات تعود إلى خطاب المشركين بمكة ، ومناقشتهم بشأن الأصنام التي يعبدونها ، أو الملائكة التي عبدوها ، فتقول :

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : ما دمتم مصريين على الشرك ، وأن الأصنام أو الملائكة لها شفاعة لكم ، يوم البعث فاعلموا أن الحقيقة غير ذلك ، وهى أن الذين تدعونهم من دون الله ، وجعلتموهم لله شركاء لا يملكون وزن ذرة ولا هبَاء ، ولا شيئاً مطلقاً فى هذا الكون ، لا فى السماء ولا فى الأرض ولا فى غيرهما . وإذا كانوا من العجز بحيث لا يملكون أى شىء ولم يخلقوا أى شىء فى الكون ، ولم يشاركوا مع الله فى خلق أى شىء ، لأنه غنى وقادر ولا يحتاج إلى مشارك ، وليس لله تعالى منهم ظهير ولا معاون ، أى :

وإذا كانوا لا يملكون شيئاً ، ولا يستطيعون جلب نفع ولا ضرر ، فكيف يكونون آلهة تُعبد ؟ وذكر السماوات والأرض للتعميم عرفاً ، فيراد جميع الموجودات كما يقال : صباحاً ومساءً لجميع الأوقات ، وشرقاً وغرباً لجميع الجهات ، والمراد : نفى قدرة الشركاء على شئ من النفع أو الضرر ، أو الإيجاد أو الإعدام .

قال الزمخشري :

يريد أنهم على هذه الصفة من العجز والبعد عن أحوال الربوبية ، فكيف يصح أن يُدْعَوْا كما يدعى ، ويرجوا كما يرجى ؟

٢٣ - وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

كان الكفار يعتقدون أن الأصنام أو الملائكة أو غير ذلك من الآلهة المدعاة تشفع لهم عند الله يوم القيامة ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... (الزمر: ٢٣) .

فبين القرآن أن الشفاعة لا تكون إلا لمن أذن له الله ، من نبي مرسل ، أو ملك مقرب ، وأن هول القيامة ، والخوف من الله يملك الناس والخلق أجمعين ، وكذلك الخوف من عدم قبول الشفاعة ، فإذا ذهب الخوف وتأمل الجميع في رضوان الله وسابغ رحمته سأل الأنبياء والمرسلون الملائكة المقربين : ماذا قال ربكم ؟ قَالُوا الْحَقُّ . أى : قالت الملائكة : قال الله تعالى الحق ، فهو سبحانه الحق ، وقوله الحق ، أى الحق الكلى ، الحق الأزلى ، الحق اللدنى .

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . صاحب الكبرياء والعظمة والملك والتصرف له وحده سبحانه .

من تفسير القرطبي :

في صحيح الترمذى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : «إذا قضى الله فى السماء أمراً ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، قال : والشياطين بعضهم فوق بعض» قال : حديث حسن صحيح .

أى : لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم اليوم فزعون مطيعون لله تعالى ، دون الجمادات والشياطين ، وقد أورد القرطبي كلاماً كثيراً فى تفسير الآية خلاصته ما يأتى :

إنه إذا أذن للشفاعة فى الشفاعة ، وورد عليهم كلام الله فزعوا ، لما يقتدرن بذلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف أن يقع فى تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير ، فإذا سرى عنهم ، قالوا للملائكة فوقهم ، وهم

الذين يوردون عليهم الوحى بالإن : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ . أى : ماذا أمر الله به ، قَالُوا الْحَقُّ . وهو أنه أذن لكم فى الشفاعة للمؤمنين ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . فله أن يحكم فى عبادته بما يريد .

★ ★ ★

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تَسْتَلُوبُ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْتَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِى الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَّكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْنُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات :

مَنْ يَرْزُقُكُمْ : من السماوات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإنبات النبات .

قُلِ اللَّهُ : فهذا هو جواب الفطرة .

وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ : أهدنا على الهدى ، والآخر على الضلال ، فنراجع أنفسنا ، وهذا أبلى من التصريح ، وفيه تلافى بالخصم يحمله على التفكير دون تكبر .

عَمَّا أَجْرَمْنَا : أذنبنا .

وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ : فالمسئولية فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وهو تلافى آخر .

قُلِ أَرُونِى : أعلمونى بالدليل عن هذه الأصنام ، ماذا خلقت فى هذا الكون حتى تستحق العبادة مع الله .

كَلَّا : ردع وزجر ، فلن تكون الأصنام أهلاً للعبادة .

بَلْ هُوَ اللَّهُ : الخالق الرازق العزيز الحكيم ، هو أهل للعبادة وحده .

كَافَّةً لِّلنَّاسِ : لجميع الناس عربهم وعجمهم .

بَشِيرًا : للمؤمنين بالجنة .

ونـبـذـيـرـا ، للكافرين بالنار .

مـيـسـادـيـوم ، هو يوم القيامة .

تمهيد :

مازال السياق مستمرا في تبيكيت المشركين وإلزامهم الحجة ، وحملهم على التفكير في جدوى عبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ، فكيف يجعلونهم شركاء لله الخالق الرازق .

التفسير :

٢٤ - قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلِ اللّٰهُ وَاِنَّا اَوْ اِيَّاكُمْ لَعَلٰى هٰذِىْ اَوْ فِى ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ .

تلقت الآية النظر إلى الحجج والأدلة على وحدة الألوهية ، فتقول للكافرين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بالمطر والهواء ، وتسخير الشمس والقمر ، وسائر الأرزاق المادية والمعنوية ؟ ومن يرزقكم من الأرض بالنبات والسير في الأرض والأرزاق ؟ فإن ترددوا في الإجابة خوف الهزيمة العقلية ، فأجب أنت قائلا : الله هو الرازق ، إذ ليس لهم من جواب سواه ، وقد صرحوا بهذا الجواب في قوله تعالى : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ اَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّٰهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ . (يونس : ٣١) .

وَإِنَّا اَوْ اِيَّاكُمْ لَعَلٰى هٰذِىْ اَوْ فِى ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ .

نحن نوحّد الله ، وأنتم تعبدون الأصنام ، فتحن فريقان مختلفان ، فلا بد أن يكون واحد منا على الهدى والحق ، والآخر في الضلال والباطل ، وهو طريق يراود به حمل الخصم على التفكير والتدبر ، دون أن نجبه بالحقيقة أو نقول له : أنت على الباطل ، لأنك تكفر بالله وتعبد الأصنام ، وهذا الأسلوب يقال له : أسلوب المنصف ، وهو ألا يذكر المجادل لمن يجادله ما يغيظه أو يثير حفيظته ، رجاء هدايته إلى الحق .

٢٥ - قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

كان المشركون يتهمون المسلمين بالخروج على المألوف ، والتحول عن دين الآباء والأجداد إلى الدين الجديد ، ويقولون : هؤلاء هم الصابئة ، أي الخارجين على الدين المألوف ، وهنا يوجه القرآن الرسول أن يقول لهم : كل منا مسئول عن نفسه يوم القيامة ، فحتى لو كنّا قد ارتكبنا جريمة باعتراف الإسلام فأنتم لن تتحملوا تبعة هذا الجرم ، ونحن ان نتحمل تبعة أعمالكم ، فروّوا رأيكم ، وفكروا في مستقبلكم ، فالتبعة فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين .

ونلاحظ أنه أضاف الإجماع إلى المؤمنين ، وأضاف العمل إلى الكافرين استمراراً في طريقة القرآن الحكيمة في استلال الضغينة ، وعدم إغضاب الخصم أو إزعاجه ، حتى لا يحمله ذلك على الكبرياء الكاذب ، وعدم التدبر والتأمل .

٢٦ - قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ .

تستمر كلمة : قُلْ . لغناً لهم ، واستنهاضاً لهممهم .

والمعنى : قل لهم : إن يوم القيامة هو يوم الجمع حيث يجمع الله الجميع من المؤمنين والكافرين : ليقضى بينهم بحكمه ، فهو الحاكم العادل ، وهو العليم بأهل الهدى والضلال ، ويطلق الفاتح على القاضى والحاكم لأنه يفتح طريق الحق ويظهره .

قال القرطبي في تفسير الآية :

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ... يريد يوم القيامة .

ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ... أى : يقضى فيثيب المهتدى ، ويعاقب الضال .

وَهُوَ الْفَاتِحُ . أى : القاضى بالحق . الْعَلِيمُ . بأحوال الخلق .

٢٧ - قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ كَفَرُوا بِحَنَانِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

يراد بهذه الآية بيان فائدة هؤلاء الشركاء ، أى الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر .

ومعنى الآية :

أرئيت هذه الآلهة التى صيرتموها لله شركاء ونظراء معادلين ، حتى أراهم وأشاهد ما يقدرون عليه ، إن الحق واضح ، وإن هذه الأصنام لا تقدر على شيء ، فارتدعوا عن هذا الشرك ، فلا نظير ولا عدل لله ، بل هو الله الواحد الأحد ، المتفرد بالخلق والألوهية ، ذو العزة التى قهر بها كل شيء ، الحكيم فى أقواله وأفعاله حكمة باهرة لا يعلوها شيء .

٢٨ - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَنْ يُكْفِّرَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

أرسل الله كل رسول إلى قومه ، وختم الله الرسالات بمحمد ﷺ ، فجعل رسالته رسالة عامة للعرب والعجم ، والإنس والجن ، وتضمنت رسالته عوامل خلودها ، بما اشتملت عليه من الأصول الصحيحة فى العقيدة والعبادات والمعاملات ، والبس والحث على الاجتهاد والاستنباط فيما لم يرد فيه نص .

والمعنى : لقد جعلنا رسالتك عامة للناس أجمعين تبشر من أطاعك بالجنة ، وتذنر من عصاك بالنار ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة رسالتك ، فيكذبونك ولا يهتدون بهدایتك .

قال تعالى : وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ . (يوسف : ١٠٣) .

وقد دل القرآن على عموم رسالة النبي ﷺ إلى الناس أجمعين ، كما دلت على ذلك السنة المطهرة .

قال تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (الأعراف : ١٥٨) .

وقال تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . (الفرقان : ١) .

وقال ابن عباس ، فيما رواه ابن أبي حاتم : إن الله فضل محمدًا على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قالوا : يا ابن عباس ، فبم فضله الله على الأنبياء ؟ قال رضى الله عنه : إن الله تعالى قال : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) . وقال للنبي محمد ﷺ : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ... فأرسله إلى الجن والإنس .

قال ابن كثير :

وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة»^(١٤) .

وأخرج مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت إلى الأسود والأحمر» .^(١٥) قال مجاهد : يعنى الجن والإنس ، وقال غيره : يعنى العرب والعجم . ١ هـ .

وقال القاسمى فى تفسيره :

والتحقيق فى معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا ، وأى زمان وجدوا ، مما لم يتفق فى شرع قبله قط ، ولهذا ختمت النبوات بنبوته ﷺ . ١ هـ .

٢٩ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

يقول كفار مكة : متى تأتى هذه القيامة ، أو متى يجىء العذاب الذى تخوفوننا به إن كنتم صادقين فى أن محمدًا رسول من عند الله ، وهذا لون من ألوان الاتهام والتهكم والخلط بين وظيفة الرسول التى هى

البلاغ والتبشير والإنذار ، وما يختص به الله ، وهو علم الساعة أو معرفة وقت مجيء العذاب ، وهذه الآية كقوله تعالى : **يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ** . (الشورى : ١٨) .

٣٠ - **قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ** .

إن الساعة أو الموت ، أو القتل يوم غزوة بدر ، أو العقوبة التي تصيبكم جزاء كفركم لها ميعاد لا يعلمه إلا الله ، وإذا جاء هذا الميعاد فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر .

قال تعالى : **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ** . (الأعراف : ٣٤) .

قال في التفسير المنير :

قل لهم يا محمد : لكم ميقات معين ، هو يوم البعث أو القيامة ، لا يزيد ولا ينقص ، ولا تتقدمون عنه ولا تتأخرون ، وهو أمر لا محالة ، وعلمه عند الله لم يطلع عليه أحدًا من خلقه . ١ هـ .

قال تعالى : **وَمَا تُؤَخِّرُونَ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّغَلَّدٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسْعِيذٌ** . (هود : ١٠٤ ، ١٠٥) .

★ ★ ★

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِدَا الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** ٢١ **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْخُ صَدَدْتَكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرِينَ** ٢٢ **وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الْإِيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ٢٣ ﴾

المفردات :

الذين كفروا : المشركون من أهل مكة .

ولا بالذى بين يديه ، من الكتب السابقة الدالة على البعث ، كالتوراة والإنجيل .

الظالمون ، المنكرون للبعث .

موقفوفون ، محبوسون فى موقف الحساب .

يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب .

الذين استضعفوا ، فى الدنيا من الكافرين ، وهم الأتباع .

الذين استكبروا ، الرؤساء والقادة .

لولا أنتم ، لولا إضلالكم وصدكم لنا عن الإيمان وإغراؤكم لنا بالكفر .

لكننا مؤمنين ، باتباع الرسول .

صددناكم ، منعناكم .

بل كنتم مجرمين ، ظلمة فاسدين مفسدين .

مكر الليل والنهار ، صدنا المكر والخديعة والاحتيال علينا بالليل والنهار .

أنشداداً ، شركاء ونظراء لله فى العبادة ، نعبدهم معه .

وأسروا الندامة ، أضمر الفريقان الندم على ما فعلا من الضلال والإضلال ، وأسروا : من الأضداد

بمعنى أخفى ، وبمعنى أظهر .

الأغلال ، جمع غل ، وهى حديدة تجعل فى عنق المجرم .

هل يجزون ، ما يجزون إلا ما كانوا يعملون .

تمهيد :

تستعرض الآيات موقف المشركين من أهل مكة ، فقد علموا أن التوراة والإنجيل والكتب السماوية ذكرت البعث والحشر والحساب والجزاء ، فقالوا : لن نؤمن بالقرآن ولا بالذى بين يديه من الكتب التى سبقتها ، ثم تستعرض الآيات موقف المحاورة بين الأتباع الفقراء وبين المتبوعين الأغنياء والسادة ، كل فريق يلقى التبعة على الآخر ، ثم يعم الندم جميعهم ويلقى كل فريق منهم جزاء عمله .

التفسير :

٣١ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِمْ هَذَا الْقُرْآنُ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ .

روى أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عن محمد ، فأخبروهم أنهم يجدون صفة رسول الله ﷺ فى

كتبهم ، فأغضبهم ذلك ، وكفروا بالقرآن وبالكتب السابقة عليه ، وقيل : إن الذى كفروا به هو يوم القيامة ، أى أنهم كفروا بالقرآن ، وبما جاء به من البعث والجزاء .

ومعنى الآية :

تعنت الكافرون ، وأعلنوا صدودهم وكفرهم بالقرآن ، وبما سبقه من الكتب السماوية ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة ، فلو ترى يا كلُّ من هو أهل للرؤية مشهد القيامة ، وترى الظالمين الكافرين محجوزين عند الله الذى بيده الخلق والأمر ، وتبدأ الخصومة الشديدة بين الأتباع البسطاء وبين القادة الأقوياء ، كل فريق يريد أن يلقى التبعة على الآخر .

يقول الفقراء الذين تنازلوا عن استخدام عقولهم وأفكارهم اتباعاً للقادة الكبراء فى الدنيا ، يقولون للذين استكبروا عن الإيمان : لولا أنكم كنتم قدوة لنا لكنّا مؤمنين بالرسول وباليوم الآخر ، وكانت لنا نجاة من هذا العذاب المهيمن فى هذا اليوم .

٢٢ - قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ .

دافع الكبراء عن أنفسهم ، فقالوا للضعفاء : هل سلبنا عقولكم ؟ هل منعناكم من التفكير ؟ نحن عرضنا عليكم الأمر ، ولكم كنتم مجرمين ، مشركين مصريين على الكفر باختياركم ، وما زدنا على أن دعوناكم فاستجبتم لنا ، راغبين فى إشباع شهواتكم فى الدنيا ، معرضين عن دعوة الرسل وهدايات الأنبياء .

٢٣ - وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأَ التَّأَمَّةُ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِيْ أَغْتَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

تقدم الضعفاء بحجة حقيقية للذين استكبروا ، فقالوا : أنتم لم تحملونا على الكفر حملاً ، ولكنكم زينتكم لنا الغواية ، وحسنتم لنا الكفر ، وقدمتم لنا كل خديعة ومكر وحيلة ، حتى تنقيد بالكفر ، ولا نفكر فى الانتقال إلى الإيمان ، وكرهتم أقوالكم تدعوننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً من الشركاء والأصنام والأوثان ، وهنا يظهر العذاب الأليم الذى ينزل بالفريقين ، فيخفون الندم على ما فعلوا فى الدنيا ، لكن آثار الحزن ظاهرة على الوجوه ، حين تجعل القيود وأغلال الحديد والسلاسل ، تجمع بين أيدي الكافرين وأغناقهم ، ويعترضون للذل والمهانة والعذاب ، وهذا عقاب عادل جزاء كفرهم وطمغيان الكبراء فى الدنيا ، وإهمال الضعفاء لكرامتهم ، ولعدم استخدام عقولهم ، ورفض دعوة الظالمين لهم ، فاستحق الجميع العقاب .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

أى : ما يجزون إلا ما كانوا يعملون ، فالجزاء بحسب العمل ، إن كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر ، وكانت أعمالهم كلها شراً وظلماً وباطلاً .

هذا وجواب : لَوْ ، فى أول السياق محذوف ، يُقَدَّرُ بمعنى مستخلص من المشهد ، مثل : لرأيت أمراً فظيماً ، واكتفى بعرض المشهد عن ذكره ، فإنه أتم وأشمل .

★ ★ ★

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُم جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابِلَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

المضردات :

مترفوها ، رؤساؤها المنعمون فيها من أهل المال والجاه .

كافرون ، لا يؤمن برسول ولا نتبعه .

أكثر أموالاً ، من المؤمنين ، فنحن أكثر كرامة عند الله منهم ، فلن نعذب في الآخرة .

يبسط الرزق ، يوسع امتحاناً .

ويعتد ، يضيقه ابتلاء .

لا يعلمون ، الحكمة فى التقدير على البعض ، والتوسع على البعض .

زُلْفَى ، قريبى .

جزاء الضعيف ، الثواب المضاعف ، والجزاء .

الغرفسات، غرفات الجنة، ومنازلها العالية.

آمنون، من المرض والموت وكل مكروه.

يسعون في آياتنا، يمضون مسرعين في إبطال القرآن، والرد عليه.

معاجزين، مقدّرين عجزنا، وأنهم يفوتوننا، فلم نعاقبهم.

يخلفه، يعطى بدله.

خير الرازقين، خير المعطين للرزق.

التفسير:

٣٤ - وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قُرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثْرُفَهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

المترفون هم أصحاب المال والغنى، مع الترف وركوب الشهوات والملذات، هؤلاء يضيّقون برسالات السماء، حيث إن الرسائل تفرض فرائض وأوامر، وتبين الحلال والحرام، وهؤلاء يحبّون الانطلاق في شهواتهم، لذلك رأينا الفقراء هم أتباع الرسل، لأن الرسائل تشتمل على بيان حقوق الإنسان، من حرية ومساواة وعدالة اجتماعية، ولأن قلوب الفقراء خالية من الانهماك في الملذات والشهوات، وهم عادة أتباع الرسل، وفي حديث الصحيحين الطويل: أن هرقل ملك الروم سأل أبا سفيان عن محمد ﷺ، فقال هرقل: هل يتبعه ضعفاء الناس أم أشراهم؟ قال أبو سفيان: بل ضعفاؤهم، قال هرقل: هم أتباع الرسل، وسيملك محمد موضع قدمي هاتين^(١).

وفي حديث رواه ابن أبي حاتم: أن رجلاً كان يقرأ في كتب السابقين، سأل شريكاً له عن محمد، فكتب إليه شريكه أنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، فترك الرجل تجارته بالساحل، وأتى النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو؟ قال: «أدعو إلى كذا وكذا»، قال: أشهد أنك رسول الله، قال النبي ﷺ: «وما علمك بذلك؟» قال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية: وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قُرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مَثْرُفَهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: «إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت».

وقد تكلم القرآن عن الترف والمترفين في أكثر من آية، فقال عن قوم صالح: قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ. (الأعراف: ٧٦).

وقال جل وعلا: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قُرْيَةٍ مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ... (الأنعام: ١٢٣).

وقال تعالى: وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا. (الإسراء: ١٦).

وقد حكى القرآن الكريم عن قوم نوح قولهم له: قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً مِنَ السَّمَاءِ. (الشعراء: ١١١).

٣٥ - وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ.

هكذا ينظر المترفون إلى نعم الله عليهم ، على أنها مكافأة من الله لهم ، وقد فضلهم الله في الدنيا لكرامتهم عليه ، وإن يعذبهم في الآخرة لأنهم أهل الامتياز والتقدير ، فهم في الدنيا أكثر أموالاً وأولاداً وأتباعاً من المؤمنين ، وذلك في تقديرهم لعلو منزلتهم عند الله ، وما كان الله ليعطيهم ذلك في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك ، فإن مقاييس الدنيا مختلفة عن حسابات الآخرة ، فالله تعالى قد يعطي الظالمين استدراجاً لهم ، حتى يستحقوا العذاب عن جدارة واستحقاق ، وقد يمتحن المؤمنين بالفقر أو المصائب ليظهر إيمانهم وصبرهم ، ويتبين استحقاقهم للفضل والأجر وحسن المثوبة .

وفي القرآن الكريم :

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ. (المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦).

٣٦ - قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

إن الغنى والثروة والمال والرياش ليست دليلاً على محبة الله للعبد ، وكذلك الفقر ليس دليلاً على بغض الله له ، فالله تعالى له حكم إلهية عليا ، فهو يبسط الرزق لمن يشاء ، ويضيّق على من يشاء بحكمته العليا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك ، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى ربما وسّع على العاصي ، وضيّق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على المطيع والعاصي تارة ، ويضيّق عليهما أخرى ، يفعل كل ذلك بحسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، التي قد نعلمها وربما خفي علينا أمرها .

وفي الحديث الصحيح : «أشكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأئمة فالأئمة»^(١).

انظر إلى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وإلى أولى العزم من الرسل ، كانوا أشد الناس بلاء ، وانظر إلى قارون وفرعون وهامان كانوا في غنى وملك وعظمة ، لكن العاقبة كانت للرمسين ، وقد أهلك الله الكافرين .

يقول الشاعر :

ومن الدليل على القضاء وحكمه
بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويقول آخر :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً
هذا الذي ترك الأفهام حائرة وصير العالم التَّحْرِيرَ زنديقاً

٣٧ - وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلًّا إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ .

ليست الأموال ولا الأولاد ولا الجاه ولا السلطان ، تعنى أن العبد مقرب من الله وذو جاه ومنزلة ، لكن المؤمن الصالح الذى صدق فى إيمانه ، وأعماله الصالحة ، هو الذى يضاعف له الثواب فى الآخرة ، ويدخل الجنة فى أعلى الدرجات ، حال كونه آمناً من كل بأس أو خوف ، أو أذى وحرمان .

روى مسلم ، وأحمد ، وابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٣٧) .

فالخلاصة : أن لله حكمة لا يعلمها إلا هو ، بالنسبة للغنى والفقر ، قال تعالى : أَنْظِرْ كَيْفَ فَعَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا . (الإسراء : ٢١) .

أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى موسع عليه ، فكذا فى الآخرة : هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى النار فى أسفل الدرجات .

وقد أخرج مسلم ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ، ورزق كافاً ، وقنَّعه الله بما آتاه»^(٣٨) .

وروى الترمذى ، عن سهل بن سعد أن النبى ﷺ قال : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٣٩) .

وروى ابن أبى حاتم ، عن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها ، ويطونها من ظهورها» ، فقال أعرابى : لمن هى ؟ قال ﷺ : «لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام»^(٤٠) .

٣٨ - وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .

الذين يعملون بجِدٍّ فى إبطال آياتنا ، والصدِّ عن كتاب الله ، وإلهاة الناس بالباطل ، وقذف الوهن والرعب فى قلوب المؤمنين ، ليشغلهم عن الإيمان والقرآن ، ويظنون أنهم معاجزون لنا ، أى : فانتون لنا ،

لا ندرکہم ولا نعاقبہم ، هؤلاء المغرورون فی العذاب محضرون ، أی : كأنک بهم وهم محضرون فی جہنم یعذبون فیہا أبداً .

٣٩ - قُلْ إِنْ رَّبِّي يَسْتَطِيعُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .
أكد القرآن هنا ما سبق أن قرره .

ومعنى الآية : إن الله تعالى يوسع على من يشاء ، ويضيق على من يشاء ، لحكمة إلهية عليا ، فقد يمتحن الإنسان بالغنى ، كما يمتحن آخر بالفقر أو البلاء .

قال تعالى : وَتَبْلُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء : ٣٥) .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

تكفل الله أن يعوض من أخرج نفقة في سبيل الله ، فعطاء الله متجدد ، وفي الحديث القدسي عند مسلم : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك»^(٣٧) .

وروى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان يزنان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط متفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً»^(٣٨) .

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

أى : هو سبحانه أفضل من رزق ، وأكرم من أعطى ، فإذا وزع السلطان أرزاق الجنود ومراتبهم ، أو وزع الرجل أموالاً على أولاده ، أو وزع الحاكم الأعطيات والمنح ، فذلك من رزق الله أجراه على أيدي هؤلاء ، وهو خالق الرزق ، وخالق الأسباب التي ينتفع بها المرزوق بالرزق .

وقال القرطبي :

ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ، ولا مخلوف له ، وأما البنيان فما كان منه ضرورياً يكن الإنسان ويحفظه ، فذلك مخلوف عليه ، ومأجور ببنيانه .

وقال الفخر الرازى :

وخيرية الرزق في أمور :

أحدها : ألا يؤخر عن وقت الحاجة .

والثاني : ألا ينقص عن قدر الحاجة .

والثالث : ألا ينكده بالحساب .

والرابع : ألا يكدّره بطلب الغواب ، والله تعالى كذلك .

فهو سبحانه عالم وقادر ، وهو غنى واسع ، وهو كريم يرزق من يشاء بغير حساب ، وهو سبحانه يعطى عباده ، ولا ينتظر منهم مكافأة .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

★ ★ ★

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِ يَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

المضردات :

جِيعًا : عابدين ومعبودين .

أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ : أهؤلاء خصوصكم بالعبادة دوني .

سُبْحَانَكَ : تنزيها لله عن الشرك .

أَنْتَ وَلَيْسَ مِنَّا : أنت ربنا الذي نواليه ونطيعه ، ونخلص له في العبادة .

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ : أي : الشياطين ، حيث أطاعوهم في عبادة غير الله .

فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ : فالיום لا يملك المعبدون للعابدين .

نَفْعًا : شفاعاة ونجاة .

وَلَا ضَرًّا : عذابًا وهلاكًا .

لِلَّذِينَ ظَلَمُوا : أشركوا غير الله في عبادته ، من الملائكة والأنبياء ، أو الأولياء والصالحين .

التفسير :

٤٠ - وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا إِلَيَّ كَانُوا يَعْبُدُونَ .

وانكر - أيها النبي - يوم يحشر الله المستكبرين والمستضعفين ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، ثم يقول الله للملائكة : أَهْلُوا إِلَيَّ كَانُوا يَعْبُدُونَ . أى : أرضيتم بعبادتهم لكم ؟

وهو سؤال تقريرى ، يراد به توبيخ المشركين وإذلالهم ، حيث تشهد الملائكة أنهم ما رضوا عن عبادتهم ، على حد قول عيسى يوم القيامة ، وتبرئته من عابديه .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي وَلِيِّيَ يَا مَعْشَرَ الَّذِينَ هَادُوا قُلُوا لَهُمْ هَؤُلَاءِ سُبْحَتِكُمْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ... (المائدة : ١١٦) . والمقصود من السؤال والجواب ، إعلام المشركين بخيبة أملهم ، وضياح عبادتهم ، حيث إن الملائكة تنزه الله تعالى عن الشريك والمثيل ، وتعترف لله وحده بالوحدانية والملك ، وأن عبادتهم وولاءهم لله وحده ، وتقريهم من الله ، لا من هؤلاء العابدين .

٤١ - قَالُوا سُبْحَتِكَ أَنْتَ أَوْلَىٰ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

أى : قالت الملائكة لله تعالى : تنزهت يا ربنا عن الشريك والمثيل ، أنت الذى نواليه بالطاعة والعبادة ، إذ لا موالاة بيننا وبينهم ، وما رضينا عن عبادتهم لنا ، إن طاعتهم وعبادتهم كانت للجن والشياطين ، الذين زينوا لهم عبادة الأصنام والأوثان .

وقال ابن عطية : فى الأمم السابقة من عبَدَ الجن ، وفى القرآن ما يشير إلى ذلك ، قال تعالى : وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ... (الأنعام : ١٠٠) .

أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .

أى : مصدقون ، فاطاعوهم فى عبادة الأصنام ، وعصوك وعصوا رسلك ، فلم يعبدوك ولم يطيعوا رسلك .

ونذكر ابن الوردي فى تاريخه : أن سبب حدوث عبادة الأصنام فى العرب ، أن عمرو بن لحي مر بقوم فى الشام ، فرأهم يعبدون الأصنام ، فسألهم ، فقالوا له : هذه أرباب نتخذها على شكل الهياكل العلوية ، فنستنصر بها ونسقى ، فتبغهم ، وأتى بصنم معه إلى الحجاز ، وسؤل للعرب عبادته فعبدوه ، واستمرت عبادة الأصنام فيهم إلى أن جاء الإسلام .

٤٢ - قَالِيزُمْ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ آثَارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ .

فاليوم يوم القيامة ، لا يملك المعبدون للعابدين نفعًا ولا ضرًا ، ولا شفاعة ولا نصرًا ، إذ الملك لله وحده ، وقد تحقق العابدون للأصنام والجن والملائكة ، وكل ما سوى الله ، باليأس والإبلاس ، وانقطاع الأمل ، ويقال للمشركين الذين كذبوا بالبعث والحساب والجزاء : ادخلوا جهنم وصلوا عذابها ، وذوقوا ليهيبها ، تلك التي كنتم تكذبون بها في الدنيا .

★ ★ ★

﴿ وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ أَيْتَانِي يَنْتَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَاءَ آيِنْتُهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آيِنْتُهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المضردات :

آيَاتِنَا بَيِّنَات ، آيات القرآن واضحة ، ظاهرة المعنى ، بيينة الدلالة .

قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ : ما محمد إلا رجل من الرجال .

يَصُدُّكُمْ : يصرفكم ويمنعكم .

عَمَّا كَانُ يَعْبُدُ آبَاكُمْ : من الأصنام .

إِفْكٌ مُفْتَرٍ : كذب مخلوق .

لِلْحَقِّ : للقرآن أو دين الإسلام .

سَحَرٌ مُبِينٌ : محمد ساحر ، والقرآن سحر ظاهر .

كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا : يقرءونها فأباحث لهم الشرك ، وأذنت لهم فيه .

مِنْ قَبْلِهِمْ : من رسول يدعوهم إلى الشرك ، لقد اختلقوا الشرك ، ولم ينزل به كتاب ، ولم يُرسل به رسول .

وما بلغوا معشار ما آتيناهم، لم يبلغ أهل مكة عشر ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، وطول العمر وكثرة المال ، كعاد وثمود ونحوهما .

فكيف كان فكيف ، فكيف كان إنكارى عليهم ، والاستفهام للتهويل ، أى : كان إنكارى شديداً بالعذاب والعقوبة .

التفسير :

٤٣ - وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِلَٰهُكَ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .

يتجه الكفار إلى النيل من ثلاثة أشياء فى هذه الآية :

١ - الرسول محمد ﷺ .

٢ - القرآن الكريم .

٣ - الإسلام .

ومعنى الآية :

إذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات ، مشتملة على التشريع والآداب والقصص وألوان البيان ، قال كفار مكة : محمد ليس رسلاً ، بل هو رجل مثلنا ، يريد أن يزهنا فى عبادة الأصنام ، ويصرفنا عن عبادة الآلهة التى كان آباؤنا يعبدونها .

وقالوا : إن القرآن كذب مختلق ، وليس وحياً من الله ، وقالوا عن الإسلام ودعوته - وهو حق مبين : ما هذا إلا سحر واضح ، فمحمد ساحر ، والقرآن سحر يستولى على الناس ، ويأخذ بالألباب ، وفيه قوة خارقة هى السحر وليست الوحي .

لقد كان للقرآن الكريم أثره البالغ فى نفوس العرب من جهة بلاغته وفصاحته وبيانه ، واشتماله على أخبار السابقين ، وعلى ما فى الكون من جمال وجلال ، واشتماله على أخبار القيامة والحساب والجنة والنار ، مع صدق القرآن ، وأثره فى زلزلة العقائد الفاسدة ، ومناقشة العقول والألباب ، وقد أحس كبراء مكة بهذا الصدق وذلك التأثير ، فادعوا أن القرآن سحر يؤثر ، مع أنهم كانوا يتسللون لوإذا للاستماع إلى القرآن من النبى ﷺ ليلاً ، فإذا تقابلوا وواجه بعضهم بعضاً ، تلاوموا واتفقوا ألا يعودوا للاستماع إلى القرآن الكريم ، خشية أن يراهم الضعفاء والأتباع من المشركين ، فيميلوا إلى سماع القرآن الكريم ، واتباع النبى الأمين ، وإن ذلك كثر تخبط القادة من المشركين فى توجيه التهم للقرآن الكريم ، والرسول الأمين ، ومن هذه

التيهم أن القرآن سحر، ينزع من آمن به من بين أهله وعشيرته، ويفرق بين الأخ وأخيه، والابن وأبيه، ولو صدقوا مع أنفسهم وما بدخلهم، لقالوا: إنه وحى من الله تعالى، لا يستطيع بشر أن يأتي بمثله.

٤٤ - وَمَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يُدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ .

أى: كيف يتمسكون بتقليد الآباء والأجداد فى عبادة الأصنام، وهى عبادة باطلة، لم ينزل بها كتاب سماوى، ولم يرسل بها رسول من عند الله، لقد كان أولى بهم أن يتبعوا محمداً ﷺ، الذى أرسله الله، وأنزل عليه القرآن الكريم.

وتشير الآية إلى زمن الفترة السابقة على الرسالة المحمدية، حيث خفيت معالم رسالة إبراهيم وإسماعيل، لبعد العهد وطول المدة، وعبادة تماثيل ترمز لملكوت السماء، ثم انقطاع الصلة مع طول العهد، وبقاء الكفار على عبادة الأصنام قصداً، بدون اعتماد على كتب يتدارسون شرائعها، ولا اتباع لنبى ينذرهم عقاب الله إن خالفوا أوامره.

وفى معنى الآية قوله تعالى: أَمْ أُنْزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُونَهُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ. (الروم: ٣٥).

وقوله تعالى: أَمْ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَحْسِبُونَ. (الزخرف: ٢١).

وقوله تعالى: أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَنْذُرُونَ؟ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخِيرُونَ. (القلم: ٣٧، ٣٨).

وقوله تعالى: لَتَنْذِرُنَّ قَوْمًا مَا أَنتَ لَآبَأُ لَهُمْ فَهُمْ عَشَقُوا. (يس: ٦).

٤٥ - وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَرَ مَا أَتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

أى: لا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك، فإن هذه جيلة وطبيعة فى البشر، قال تعالى: وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. (يوسف: ١٠٣).

لقد كذب قبلهم كثير من الأمم، مثل أقوام نوح وهود وصالح، وكذب موسى وعيسى، وقد كان هؤلاء السابقون أهل صناعة ومال وعمران، وبلغوا فى الحضارة والغنى مبلغاً كبيراً، لم يبلغ أهل مكة عشر ما بلغوا من الغنى والثروة والصناعة، بل ربما لم يبلغوا عشر معشار من سبقهم من المكذبين، أى ١٪ من غنى وتفوق من سبقهم، ومع هذا الغنى والجاه للسابقين، لما كذبوا الرسل أنزل الله بهم أشد العذاب، فممنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من هلك بالغرق أو الطوفان، أو غير

ذلك من ألوان العذاب فليعتبر أهل مكة بما أصاب من قبلهم ، وليرتدعوا عن الشرك ، خشية أن يصيبهم ما أصاب المكذبين .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةً أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ ۚ فَاتَّبِعْ رِيسَاسَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۚ قُلْ مَا يَصْحَابُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۚ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ رِئَايَ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۚ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِىُّنِي إِلَىٰ رَبِّ ۖ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِجْلٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ۚ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ۝﴾

المفردات :

اعظمكم بواحدة : أذكركم وأحذركم بكلمة واحدة ، هى :

أن تقوموا لله ، أن تقوموا فى طلب الحق بالفكرة الصادقة ، أى : تتجهوا وتهتموا بالبحث عن الحقيقة ، وليس المراد به القيام الذى يقابل القعود .

مثنى وفردى ، اثنين اثنين ، وواحداً واحداً .

ثم تتفكروا ، تنظروا فى حقيقة أمر النبى ﷺ ، وما جاء به من القرآن .

ما يصحبكم من جنة ، ليس بمحمد من جنون ، ولا سحر ، بل هو الصدق والوحى .

ما سألتكم من أجر ، ما طلبت منكم من أجر ومال فى مقابل تبليغى للرسالة .

فهو لكم ، فهذا المال مردود عليكم ، كما تقول لشخص : ما أخذت منك من مال فخذ ، وأنت تعلم

أنك لم تأخذ منه شيئاً ، ويحتمل أن يكون المعنى : فالأجر لكم إن أنتم بالله ورسوله .

إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، مَا ثَوَابِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .

يَقْدَفُ بِالْحَقِّ ، يَلْقِيهِ وَيَنْزِلُهُ لِيَرْمِيَ بِهِ الْبَاطِلَ .

وَمَا يَبْدَأُ الْبَاطِلَ ، لَمْ تَعُدْ لِلْبَاطِلِ كَلِمَةً يَبْدَأُ بِهَا أَوْ يَعِيدُ .

فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ، فَإِنَّمَا يَعُودُ ضَرَرُ الضَّلَالِ عَلَيْهَا .

إِذْ فَسَزَعُوا ، خَافُوا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ الْبَغْثِ .

فَلَا هَوْتُ ، فَلَا نَجَاةَ وَلَا مَهْرَبَ مِنَ الْعَذَابِ .

مَكَانَ قَرِيبٍ ، مَوْقِفَ الْحَسَابِ .

التَّنَافُوشُ ، تَنَافُلُ الْإِيمَانِ وَالتَّوْبَةِ .

مَكَانَ بَعِيدٍ ، هُوَ الْآخِرَةُ ، إِذْ كَانَ الْإِيمَانُ هُوَ الدُّنْيَا .

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ ، وَقَدْ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِهِ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ .

وَيَقْدَفُونَ بِالْغَيْبِ ، يَرْجُمُونَ بِالظُّنُونِ .

مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، مِنْ جِهَةٍ بَعِيدَةٍ ، لَيْسَ فِيهَا مُسْتَنْدٌ لظَنِّهِمْ ، حَيْثُ قَالُوا : شَاعِرٌ ، كَاهِنٌ ، سَاحِرٌ ، وَقَالُوا

فِي الْقُرْآنِ : سِحْرٌ ، شَعْرٌ ، كَهَانَةٌ .

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ ، مَنَعُوا مِنَ الْإِنْتِفَاعِ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ فَوَاتِ الْأَوَانِ ، أَوْ الرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا .

بِأَشْيَاعِهِمْ ، بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

مُسْتَرِيبٌ ، مَوْقِعٌ فِي الرِّيبِ وَالْقَلَقِ ، وَالشُّكِّ بِمَعْنَى الرِّيبِ وَالتَّهْمَةِ ، وَالشُّكِّ الْمَرِيبِ أَقْوَى مِنْ مَطْلَقِ

الشُّكِّ ، كَمَا تَقُولُ : عَجِبَ عَجِيبٌ ، وَشَعَرَ شَاعِرٌ .

التفسير :

٤٦ - قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقْرُمُوا لِلَّهِ مَشْيًى وَفَرْدَيْ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

حث الإسلام على استخدام العقل والفكر والرأى ، والتدبر والتأمل فى هذا الخلق وذلك الوجود ، وفى دين الإسلام والرسول محمد ﷺ ، وهذه الآية دعوة إلى استخدام العقل والفكر .

والمعنى :

قل لهم يا محمد : إنما أقدم لكم نصيحة واحدة ، هى أن تتجهوا إلى الله مخلصين له ، حال كونكم اثنين اثنين ، أو واحداً واحداً ، ثم تتفكروا وتتأملوا فى رسالة محمد ﷺ ، فليس به جنون أو شعر أو سحر ،

أو سفه أو اختلاط ، أو غير ذلك من الدعاوى التى يرددها مشركو مكة بألسنتهم ، دون اقتناع بها من قلوبهم ، فمحمد صادق أمين ، ورسول كريم ، يدعو الناس إلى دين الله ، وينذر الكافرين الجاحدين للإيمان بالعذاب الشديد يوم القيامة .

وقوله تعالى : **بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** .

أى : إن الرسالة المحمدية جاءت خاتمة الرسالات ، وقد أرسل الله محمداً ﷺ بين يدى الساعة .

روى الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة جميعاً ، إن كادت لتسبقنى»^(١٨)

والحديث يشير إلى قصر مدة الدنيا ، فضلاً عن مدة الرسالة الخاتمة التى تختم بها هذه الدنيا .

٤٧ - **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** .

إنى لم أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ولا مالاً ، إنما عملت عملى فى دعوتكم للهداية ، خالصاً لوجه الله ، وهو سبحانه مطلع على كل شئ ، وهو شهيد ومراقب ومحاسب ومجازٍ على كل شئ .

قال الزمخشري :

وفى الآية معنيان :

أحدهما : نفى سؤاله الأجر رأساً ، كما يقول الرجل لصاحبه : إن أعطيتنى شيئاً فخذ ، وهو يعلم أنه لم يعطه شيئاً ، ولكن يريد به عدم الأخذ ، لتعليقه الأخذ على ما لم يحدث وهو الإعطاء .

والمعنى الثانى : أنه يريد بالأجر الهداية إلى الإيمان ، أى : ما أطلب على تبليغ الرسالة أجراً ، إلا هدايتكم إلى الله ، على حد قوله تعالى : **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا** . (الفرقان : ٥٧) .

٤٨ - **قُلْ إِنْ رَبِّى يَقْدِرُ بِالحَقِّ عَلَنُ الغُيُوبِ** .

إن الله تعالى يرسل رسالته ، ويختار لها من يشاء من عباده ، وهو عالم بمن يصلح لهذه الرسالة .

قال تعالى : **يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... (غافر : ١٥)** .

وقال ابن عباس :

يقذف الباطل بالحق ، كقوله تعالى : **بَلْ يَقْدِرُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَنْهَكُهُ** ، فإذا هو زاهق ... (الأنبياء : ١٨) .

وقيل في معنى الآية :

إن الله يرسل الإسلام إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدًا بإظهار الإسلام ونشره ، وهو سبحانه علام الغيوب .

وفي الحديث الشريف : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، بعز عزيز أو بذل ذليل»^(٣٩) .

وقد أنجز الله وعده ، فامتد نور الإسلام إلى آفاق المعمورة ، ولم تمض عشر سنوات على وفاة الرسول ﷺ ، حتى كان خلفاؤه يفتحون فارس والروم ومصر ، وينشرون دين الله في المشرق والمغرب .

٤٩ - قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ .

سطع نور الإسلام ، وظهert حجته ، وانتشرت فكرته ، وخبا ضوء الشرك ، واضمحلت قوته ، ووهنت دولته .

قال ابن مسعود : أى لم يبق للباطل مقالة ، ولا رئاسة ، ولا كلمة .

وقال الزمخشري :

إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فاجعلوا قولهم : وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ . مثلاً في الهلاك ، والمعنى : جاء الحق ، وهلك الباطل .

وأخرج البخاري ، ومسلم أن رسول الله ﷺ عندما فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، دخل المسجد الحرام فوجد أصنام المشركين حول الكعبة ، فجعل يطعن بها بطرف قوسه وهو يقرأ : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا . (الإسراء : ٨١) . ويقرأ : قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ^(٤٠) .

٥٠ - قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

ذكر القرطبي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ : تركت دين آبائك فضلت ، فقال له : قل يا محمد : إن ضللت كما تزعمون فإنما أضل على نفسي . اهـ .

أى : إذا ضللت فلا أضر إلا نفسي .

وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ...

وإذا اهتديت إلى الدين الحق ، والإيمان والإسلام ، فذلك يسبب وحى السماء الذى أنزله الله على .

إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

يسمع الدعاء ويحيي النداء ، وهو قريب غير بعيد ، مطلع وشاهد ، خلق الخلق ورزقهم ويرعاهم ويسمع دعاءهم .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

٥١ - وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ .

ولو ترى يا محمد ، أو ولو ترى يا كل من يتأتى منه الرؤية ، حين يشتد بهم الفزع ، عند القيام من القبور ، والحشر والحساب ، ولا يملكون الهرب أو الفوت من الحساب ، ويساقون إلى أرض المحشر ، في مكان قريب منهم ، لا يملكون معه الهرب ولا الفوت ولا الفكاك .

قال الفخر الرازي :

وَلَوْ تَرَى . جوابه محذوف ، أي : ترى عجباً .

وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . لا يهربون ، وإنما الأخذ قبل تمكنهم من الهرب .

٥٢ - وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ اتِّقَافُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

في يوم القيامة وعند البعث ومشاهدة الحساب يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأنى وكيف يتأتى لهم تناول الإيمان تناولاً سهلاً ، من مكان بعيد عن محل القبول ؟ لأن الدار الآخرة هي دار الجزاء ، والدنيا هي دار العمل ، وفي الأثر : «الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل» .

قال الفخر الرازي :

الماضي كالأسس الدابر ، لا يمكن الوصول إليه ، والمستقبل وإن كان بينه وبين الحاضر سنون فإنّه آت ، وفي يوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها ، وفي الدنيا يوم القيامة قريب لإتيانه .

قال تعالى : لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . (الشورى : ١٧) .

وقوله تعالى : مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . والمراد : ما مضى من الدنيا . اهـ .

وبعبارة أخرى : كما أن رجوع الزمان الماضي من الدنيا بعيد أو مستحيل ، فكذلك قبول الإيمان في الآخرة بعيد أو مستحيل .

وفى الأدب العربى : أن كليبا لما قُتل رَغِبَت قَبِيلَةُ الْقَاتِلِ فى الصلح ، فأرسلت إلى أخيه جساس تعرض عليه الصلح ، نظير أن يَنْقُذُوا له ما يطلب ، فقال جساس : (انشروا لى كليبا) أى : طلب أمراً مستحيلاً وهو إعادة كليب حيا ، حتى يصططح ، ومن شعر جساس :

يا لبكر أنشروا كليبا يا لبكر أين أين الفرار

أو يكون معنى الآية : الإيمان لا يقبل إلا فى الدنيا ، والعودة إلى الدنيا مستحيلة ، فأنى لهم الإيمان من مكان بعيد عن الدنيا ، وأنى لهم العودة إلى الدنيا .

وفى سورة المؤمنون : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ آخُسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . (المؤمنون : ١٠٧ ، ١٠٨) .

٥٣ - وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

لقد كفروا بالإسلام من قبل فى الدنيا ، واتهموا نبي الإسلام ﷺ بأمر بعيد عنه ، حيث قالوا : ساحر أو شاعر أو مجنون أو كذاب ، وهم يعلمون بَعْدَهُ عن هذه الأمور ، ويعلمون صدقه وأمانته ، وتارة يقولون عن القرآن : سحر أو شعر أو كهانة أو إفك مفترى ، وتارة يقولون : لا بعث ولا نار ولا حساب ولا جزاء ، وما نحن بمعذبين .

قال القرطبي :

قوله تعالى : وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ... أى : بالله عز وجل ، وقيل : بمحمد ، مِنْ قَبْلُ . يعنى : فى الدنيا . وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ ... العرب تقول لكل من يتكلم بما لا يحقه ، هو يقذف ويرجم بالغيب .

مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ . على جهة التمثيل ، لمن يرمج ولا يصيب ، أى : يرمون بالظن ، فيقولون : لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار ، رجما منهم بالظن . ١ هـ .

والمقصود من الآية تقييدهم على ما كانوا يتفوهون به من كلام ساقط ، بينه وبين الحقيقة مسافات بعيدة .

٥٤ - وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ .

وهكذا تختتم السورة بمشهد هؤلاء الكفار ، يحاولون الإيمان بالله والرسول ، بعد البعث والحشر ، أو يحاولون الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا عملاً صالحاً ، بيد أن الله لا يقبل منهم ذلك ، شأنهم شأن الكفار

السابقين ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وفرعون وملته ، وأشياعهم وأشباههم من الكافرين ، الذين لم يقلل منهم الإيمان بعد معاينة الموت .

قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَفْعُهُمْ بِمَنْهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقَ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ . (غافر : ٨٥) .

إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ .

لقد استحق كفار مكة العذاب ، كما استحقه أشياعهم من المكذبين السابقين للرسل ، لأنهم جميعاً كانوا فى شك مُعين فى الريبة ، فى أمر الرسل والبعث ، والجنة والنار ، بل وفى الدين كله والتوحيد .

قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه ، أحياناً الله وبعثنا على اليقين ، إنه أرحم الراحمين ، وولى المؤمنين .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة سبأ ، مساء السبت ١٩ ربيع الأول ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٣ يوليه ١٩٩٩ م ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله رب العالمين .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة فاطر

أهداف سورة فاطر

سورة فاطر سورة مكية ، نزلت بعد سورة الفرقان ، وقد نزلت سورة فاطر فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء .

وإذا قسمنا حياة المسلمين بمكة إلى ثلاث فترات : الفترة المبكرة للدعوة ، والفترة المتوسطة فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، والفترة الأخيرة فيما بين الإسراء والهجرة إلى المدينة ، رأينا أن سورة فاطر نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة .

ولسورة فاطر اسمان : الاسم الأول سورة فاطر ، والاسم الثاني سورة الملائكة ، لقوله تعالى في أول السورة : **الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَرِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . (فاطر : ١) .

موضوعات السورة

قال الفيروزبادي :

مقصود سورة فاطر هو : بيان خلق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتذكير النعمة ، والتحذير من إغواء الشياطين ، وتسليية الرسول ، وصعود كلمة الشهادة إلى الله ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وسير الليل والنهار ، وعجز الأصنام عن الربوبية ، وفقر العباد إلى الله ، وفضل القرآن وشرف تلاوته ، وأصناف الخلق في وراثة القرآن ، وخلود الجنة لأهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض من الخلل والاضطراب ... (٣١)

سياق السورة

سورة فاطر لها نسق خاص في موضوعها وفي سياقها ، أقرب ما تكون إلى نسق سورة الرعد . «فهى تمضى فى إيقاعات تتوالى على القلب البشرى من بدئها إلى نهايتها ، وهى إيقاعات موحية مؤثرة تهز القلب هزاً ، وتوقظه من غفلته ليتأمل عظمة هذا الوجود ، وروعة هذا الكون ، وليتدبر آيات الله المبتوثة فى تضاعيفه ، المتناثرة فى صفحاته ، وليتذكر آلاء الله ويشعر برحمته ورعايته ، وليتصور مصارع الغابرين فى الأرض ومشاهد يوم القيامة ، وليخشع ويعنو وهو يواجه بدائع صنع الله ، وآثار يده فى أطواء الكون ، وفى أغوار النفس ، وفى حياة البشر ، وفى أحداث التاريخ ، وهو يرى ويلمس فى تلك البدائع وهذه الآثار

وحدة الحق ووحدة الناموس ، ووحدة اليد الصانعة المبدعة القوية القادرة .. ذلك كله فى أسلوب وفى إيقاع لا يماسك له قلب يحس ويدرك ، ويتأثر تأثر الأحياء .

والسورة وحدة متماسكة متوالية الحلقات ، متتالية الإيقاعات يصعب تقسيمها إلى فصول متميزة الموضوعات فهى كلها موضوع ، كلها إيقاعات على أوتار القلب البشرى ، تستمد من ينباع الكون والنفس والحياة والتاريخ والبعث ، فتأخذ على النفس أقطارها وتهتف بالقلب من كل مطلع إلى الإيمان والخشوع والإنعاع .

والسمة البارزة الملحوظة هى تجميع الخيوط كلها فى يد القدرة المبدعة ، وإظهار هذه اليد تحرك الخيوط كلها وتجمعها ، وتقبطها وتبسطها ، وتشدها وترخيها فلا معقب ولا شريك ولا ظهير^(٣) .

فقرات السورة

رغم أن السورة كلها وحدة متماسكة إلا أنها يمكن تقسيمها إلى خمسة موضوعات أو مجموعات :

١ - رحمة الله وفضله

إذا تأملنا الآيات من (١ - ٨) فى سورة فاطر ، نجد فيضا من أنعم الله التى لا تعد ولا تحصى على عباده ، فهو خالق السماء والأرض ، وجاعل الملائكة رسلاً يوصلون آثار قدرته وجليل وحيه إلى عباده ، وإذا لاحظت عناية الله عبداً زالت من أمامه القيود والسدود : **مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا** ... (فاطر : ٢) . لقد فتح الله رحمته لأنبيائه وأصفياه : جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأنقذ يوسف من الجب ومن السجن ، واستجاب دعاء يونس فى بطن الحوت ، وأزر موسى فى طريقه إلى فرعون ، وأنزل رحمته بأصحاب الكهف وحفظهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، وشملت رحمة الله محمداً ﷺ فى الهجرة ، وهو طريد : **ثَلَاثِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ... (التوبة : ٤٠) .

وإذا أمسك الله رحمته عن عبد ، فلن ينفعه مال ولا رجال ، وإذا استقر اليقين فى القلب تنبه إلى كيد الشيطان وفنه ، فالمؤمن يعلم أن الشيطان عدو لنا يزين لنا الشر ليوقعنا فى المعصية ، فمن أطاع الشيطان زين له سوء عمله فرآه حسناً ، ووقع فى الضلال ، ومن يضل الله فما له من هاد .

٢ - آيات الله فى الكون

فى الآيات من (٩ - ١٥) نلاحظ آثار القدرة الإلهية فى نفس الإنسان ، وفى صفحة الكون ، وفى الرياح يسوقها الله ، ثم تثير السحب فتسوقها يد القدرة مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك البعث والحياة بعد الموت .

والله خالق الإنسان ويده رعايته فى مراحل تكوينه ، وتخليقه فى بطن أمه ، ثم رعايته وليدًا وناشئًا وزوجًا ، وهو عليم بمن يموت مبكرًا ، إن ذلك على الله يسير .

وتمتد قدرة الله إلى كل مظهر من مظاهر الوجود ، فتراها فى مشهد البحرين المتميزين أحدهما عذب فرات ، والآخر ملح أجاج ، وفيهما من نعم الله على الناس ما يقتضى الشكر والعرفان .

وفى مشهد الليل والنهار يتداخلان ، ويطولان ويقصران ، دليل على التقدير والتدبير ، وكذلك مشهد الشمس والقمر مسخرين بهذا النظام الدقيق .

هذه آثار قدرة الله ، والذين يدعون من دونه لا يسمعون ولا يستجيبون ، ويوم القيامة يتبرءون من عبادهم الضلال . ولا يخبر بهذه الحقائق مثل الإله الخبير .

٣ - الله غنى عن عبادتنا

فى الآيات من (١٥ - ٢٦) بيان لحقيقة أساسية ، هى أن الله غنى عن عبادتنا ، فلا تنفعه طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، ولكننا نحن الفقراء المحتاجون إلى رضاه وعنايته ، فمن وجد الله وجد كل شيء : وجد الهداية والسعادة والثقة بالنفس ، والأمل فى الغد ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، ولو شاء الله أن يذهب الناس لأهلكهم ، وأتى بخلق جديد يعرفون فضله عليهم .

ويشير القرآن إلى أن طبيعة الهدى غير طبيعة الضلال ، وأن الاختلاف بين طبيعتهما أصل عميق ، كأصالة الاختلاف بين العمى والبصر ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والموت والحياة ، وأن بين الهدى والبصر والنور والظل والحياة صلة وشبه ، كما أن بين العمى والظلمة والحرور والموت صلة وشبه ، ثم تنتهى الجولة بإشارة إلى مصارع المكذبين للتنبيه والتحذير .

٤ - كتابان إلهيان

عند قراءة الآيات من (٢٧ - ٣٨) يتضح أماننا أن لله عز وجل كتابين يدلان عليه : أحدهما كتاب الكون ، والثانى الكتاب المنزل ، والمؤمن يقرأ دلائل القدرة فى كتاب الكون : فى ضحائفه العجيبة الرائعة ، المتنوعة الألوان والأنواع والأجناس ، والثمار المتنوعة الألوان ، والجبال الملونة الشعاب ، والناس والدواب والأنعام وألوانها المتعددة الكثيرة .. هذه اللفظة العجيبة إلى تلك الصحائف الرائعة فى كتاب الكون المفتوح .

والمؤمن يقرأ فى الكتاب المنزل ويستيقن بما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة ، وتورث هذا الكتاب للأمة المسلمة ، ودرجات الوارثين وما ينتظرهم جميعًا من نعيم بعد عفو الله وغفرانه

للمسيئين ، ومشهدهم فى دار النعيم ، ومقابلهم مشهد الكافرين الأليم ، وتختتم الجولة العجيبة المديدة المنوعة الألوان بتقرير أن ذلك كله يتم وفقاً لعلم الله العليم بذات الصدور .

٥ - دلائل الإيمان

تشتمل الآيات من (٣٩ - ٤٥) على الفقرة الأخيرة من السورة ، وفيها دلائل يقدمها القرآن ليحرك القلوب نحو الإيمان ، وتجول الآيات جولات واسعة المدى تشتمل على إحياءات شتى : جولة مع البشرية فى أجيالها المتعاقبة يخلف بعضها بعضاً ، «وجولة فى الأرض والسموات للبحث عن أى أثر للشركاء ، الذين يدعونهم من دون الله ، وجولة فى السماوات والأرض كذلك لرؤية يد الله القوية تمسك بالسموات والأرض أن تزولا ، وجولة مع هؤلاء المكذبين بتلك الدلائل كلها ، وهم قد عاهدوا الله من قبل لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، ثم نقضوا هذا العهد وخالفوه ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، وجولة فى مصارع المكذبين من قبلهم وهم يشهدون آثارهم الدائرة ، ولا يخشون أن تدور عليهم الدائرة ، وأن تمضى فيهم سنة الله الجارية»^(٣٩) . ثم الختام الموحى الموقظ للقلب ، المبين فضل الله العظيم فى إمهال العصاة ، فإن تابوا قبل توبتهم ، وإن أصروا على المعصية عاقبهم وحاسبهم ، قال تعالى : وَلَوْ يُرِيدُ اللَّهُ الْفَسَادَ أَفْسَادًا لَمَا كَانَ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَبْقَى . (فاطر : ٤٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلُثَ وَرُبْعٍ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۚ وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٢) يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَ تُؤْفَكُونَ ۝ (٣) وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَلِلَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ ۝ (٤) ﴾

المفردات :

الحمد لله : قولوا : الحمد لله ، فإنه واجب الحمد ، ومقتضى الحمد ما ذكر بعد .

فاطر السماوات والأرض : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق .

جاعل الملائكة رسلا ، أى : جعل منهم رسلا إلى الأنبياء كجبريل .

أولى أجنحة : ذوى أجنحة ، جمع جناح كجناح الطائر .

مثنى وثلاث ورباع ، أى : اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وأربعة أربعة ، حسب مراتبهم .

يزيد فى الخلق ما يشاء ، يزيد بحكمته فى بعض مخلوقاته ما يشاء من الزيادات على بعض آخر ، وإن اتفقوا

فى الجنس والنوع .

فلا مُمْسِكَ لَهَا ، فلا أحد يستطيع إمسакها ومنعها .

الْعَزِيزُ ، الغالب ، يتصرف فى ملكه كما يشاء .

الْحَكِيمُ : فى فعله ، يضع الأمر فى موضعه المناسب .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لا معبود بحق إلا هو ، إذا فاعبده ووجدوه .

فَأَنسَىٰ تَوَفُّكَوْنُ ، فكيف تصرفون عن عبادة الله تعالى وحده .

تمهيد :

تبدأ سورة فاطر بحمد الله تعالى ، وقد بدأت بحمد الله خمس سور ، هي : الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ، وتشتمل البداية على دلائل القدرة والعظمة والملك ، وتدبير شئون الكون ، وإرسال الرزق والوحي ، ومنافع العباد المادية والمعنوية .

التفسير :

١ - اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ جَاعِلِ الْمَلٰٓئِكَةِ رُسُلًا اُولٰٓئِىْ اُجْبِهَ مَشٰى وَلَئِنْ زِدْنٰهُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ .

الشكر لله منشئ السموات والأرض من العدم ، وخالقهما على غير مثال سابق ، وهو سبحانه جعل الملائكة وسائط بينه وبين عباده لتبليغ رسالات السماء ، وتصريف الرياح والأمطار ، والسحاب والأرزاق ، والعذاب والبهاداة ، وغير ذلك ، ومن هؤلاء الملائكة : جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ، وهم ذوو أجنحة متعددة ، بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة أجنحة ، وبعضهم له أربعة أجنحة ، وبعضهم له أكثر من ذلك ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها من الأرض إلى السماء .

جاء فى الحديث الصحيح عند مسلم ، عن ابن مسعود : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ، وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ^(١) .

يَزِيْدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ اِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ .

يزيد فى خلق الملائكة ما يشاء ، من ناحية عددهم أو فى عدد أجنحتهم ، أو يزيد فى جميع الخلق ما يشاء نوعاً وعدداً وقوة ، وعقلاً وعلماً وحسناً ، وغير ذلك من الكمالات أو ما يقابلها ، لا يمنعه مانع من تنفيذ مشيئته ، إن الله على كل شيء قدير ، وقد تعددت الآراء فى الزيادة فى الخلق ، فقيل : حسن الصوت وملاحة العين ، وحسن الأنف ، وحلاوة الفم ، وحكمة العقل ، وجودة الرأى ، وغير ذلك .

قال الزمخشري فى تفسير : يَزِيْدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ...

الآية مطلقة تتناول كل زيادة فى الخلق ، من طول قامته ، واعتدال صورة ، وتمام فى الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة فى العقل ، وجزالة فى الرأى ، وجراءة فى القلب ، وسماحة فى النفس ، وذلاقة فى اللسان ، ولباقة فى التكلم ، وحسن تأثر فى مزاوله الأمور ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف . اهـ .

٢ - مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

إذا أراد الله إكرام عبد من عباده ، يَسِّرْ له أسباب الرزق والأمن والهداية ، والصحة والعلم والكرامة والحكمة ، وغير ذلك من أسباب الرحمة وألوان النعم ، وهذا العطاء لا يستطيع أحد أن يمسكه ، أو يمنعه عمن يريد الله إكرامه به ، وإذا أراد إهانة عبد أو منع الخير عنه ، فلا يستطيع أحد أن يرسل الخير إليه ، بعد أن أمسكه الله عنه ، فأسباب الرزق السماوى والأرضى بيده ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر لا معقب لأمره ، ولاراد لقضائه ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

وهو سبحانه الْعَزِيزُ . الغالب على أمره ومراده ، الْحَكِيمُ . فى صنعه وتدبير خلقه .

روى الإمام أحمد ، والشيخان ، عن المغيرة بن شعبه أن رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »^(٣٦) .

وروى مسلم بسنده ، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد »^(٣٧) .

ونظير الآية قوله تعالى : وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الأنعام : ١٧) .

وهذه الآية مكمله لما سبقها فى أن الفضل والرحمة والنعمة بيد الله تعالى .

٣ - يَتْلَاهَا النَّاسُ آذْكُرُوا إِلَهُ عَلَيْهِمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآتَى يُوقِظُكَ .

نداء من العلى الكبير لأهل مكة ، وللناس أجمعين ، يلفتهم إلى إحياء قلوبهم بذكر رحمة الله تعالى ، فى إرسال النعم والخيرات والأرزاق والأمطار من السماء ، والنبات والأرزاق من الأرض بالزراعة والصناعة والتجارة ، وأنواع الحرف وألوان الكسب .

والاستفهام هنا للتقرير ، جوابه لا أحد غير الله يملك هذا الرزق ، سبحانه لا إله سواه ، فكيف تصرفون عن هذه الحقيقة ، وكيف تمتنعون عن توجيده والإيمان بما جاء به رسوله .

والآيات الثلاث السابقة كلها تأكيد لفيض الرحمة والنعمة والعظمة من الله ، وإذا استقر ذلك في القلب ، دفع صاحبه إلى السعادة والرضا واليقين ، وقريب من هذا المعنى قوله سبحانه في أوائل سورة آل عمران : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَبَى الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَرِغُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

٤ - وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

تأتى هذه الآية تسليية للرسول ﷺ ، حين كذبه أهل مكة ولم يؤمنوا به ، وهى تسليية للدعاة والهداة ، فقد كَذَّبَ الكفارُ الرسلَ من عهد نوح ، ومن بعده من الأنبياء والرسل ، بيد أن الحساب والجزاء بيد الله ، حيث يعاقب المكذبين ، ويكافئ المؤمنين ، وإليه وحده ترجع الأمور يوم القيامة ، وهو الملك لذلك اليوم ، حين ينادى سبحانه : لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

★ ★ ★

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ⑤
 إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاجْتَدُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑥
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦
 أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ أَلَّفَ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ مِّنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِّنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ
 نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ⑧﴾

المفردات :

وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، بالبعث والحشر والجزاء لا خلف فيه .

فَلَا تَغُرَّكُمْ ، لا تلهينكم ويذهلكم التمتع بها .

وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ ، فى حلمه وإيمانه .

الشَّيْطَانُ الْخَدَّاعُ ، بالأنبياء والرسول ﷺ .

فَلَا تَغُرَّكُمْ ، فلا تلهينكم ولا تقبلوا ما يغركم به .

حَسْرَتُهُ ، أتباعه فى الباطل والشر والفساد .

ليكونوا من أصحاب السعير، ليؤول أمرهم إلى أن يكونوا من أصحاب النار المستعرة .

زُيِّنَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ : حَسَّنَتْ لَهُ نَفْسُهُ وَشَيْطَانُهُ عَمَلَهُ السَّيِّئَ .

فَرَأَاهُ حَسَنًا ، رَأَاهُ حَسَنًا لَا قَبِيحَ فِيهِ .

فَلَا تَذْهَبِ نَفْسُكَ ، فَلَا تَهْلِكِ نَفْسُكَ .

عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٌ ، تَحْسُرًا عَلَيْهِمْ لِكُفْرِهِمْ .

تمهيد :

هذه الآيات توجيهات إلهية من الله لعباده بعدم الغرور بالدنيا ، وعدم طاعة الشيطان ، وبيان جزاء الكافرين والمؤمنين ، وبيان أن الهدى والضلال بيد الله ، بحسب ما يعلمه من استعداد العبد للأول أو للثاني .

التفسير :

٥ - يَنَازِلُهَا قَاسٍ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .

يا كلَّ النَّاسِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، بِالْحَشْرِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، وَالْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ ، وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا ، هُنَاكَ قِيَامَةٌ وَثَوَابٌ أَوْ عِقَابٌ .

فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ...

بطول أعماركم وصحة أبدانكم ، وسعة أرزاقكم ، فإن ذلك زائل عنكم لا محالة ، ولا يغرنكم الشيطان ، ولا يخدعنكم عن أنفسكم بتزيين المعاصي ، والإصرار على الكبائر ، أملاً في المغفرة مع التسوية في التوبة .

قال تعالى : وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَكَانَ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١) .

ثم حذر الله الإنسان من الشيطان ، الذي أخرج آدم من الجنة ، واستمر في عداوته للإنسان وتزيين الشرِّ له ، فكيف يسير الإنسان خلف عبوه وهو يعلم أنه يستدرجه إلى الضلال المبين ؟

٦ - إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ .

الشيطان يغريكم بالمعصية والفحشاء والمنكر ، والبخل والصدود عن طاعة الله ، وهو عدو لكم وقد جند نفسه وأتباعه لغوايتكم ، فاحذروه ولا تتبعوه ، ولا تتركوا إليه ، ولا تتخذوه ناصحاً لكم ، ولا تتبعوا

خطاه ، وهو لا يدعوكم إلى خير ، ولا ينتهي به إلى نجاة ، إنما يدعو أتباعه ويغريهم بالمعصية فى الدنيا ، ليكونوا من أصحاب النار المستعرة يوم القيامة ، فهل من عاقل يجيب دعوة الداعى إلى عذاب السعير ؟

٧ - الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

الذين ساروا وراء الشيطان ، وكفروا بالله وملأنكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لهم عذاب شديد فى الآخرة ، والذين آمنوا بالله رباً ، وصدقوا برسله ، وعملوا الصالحات لهم مغفرة لذنوبهم ، جزاء عظيم فى الجنة ، حيث أطاعوا الرحمان ، وامتنعوا عن طاعة الشيطان .

قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة بابن آدم ، ولللك لمة» (٣٧) ، فأما لمة الشيطان فإيعاد البشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق» (٣٨) .

٨ - أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ آتَاهُ اللَّهُ بُعْثًا مِّنْ يَّشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَنْهُمْ حَسْرَاتٍ إِنْ آتَاهُ اللَّهُ عِلْمًا بِمَا يُصْنَعُونَ .

هذا هو مفتاح الشر فى الحياة ، أن يزين الشيطان للإنسان عمله القبيح ، فلا يستمع إلى نصيحة ، ولا يراجع نفسه ، ولا يحاسبها على أمر ، بل يسير معجباً بنفسه قد تملكه الغرور ، أهذا المغرور المعجب بنفسه ، المرتكب للآثام ، مع اعتقاد أنه الأفضل والأحسن ، كمن استقبح الكفر ، واختار الإيمان والعمل الصالح ؟ كلا لا يستويان ، والمراد بمن زين له سوء عمله : كفار مكة .

وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية ، عن جوير ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : أن النبی ﷺ قال : «اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بأبى جهل بن هشام ، فهدى الله عمر بن الخطاب ، وأضل أبا جهل ، ففهيما أنزلت : فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَّشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ ...

إن قلوب العباد بين أصمبعين من أصابع الرحمان ، يقلبها كيف يشاء ، فمنهم من يمنحه الهدى والتوفيق ، ونفاز البصيرة واختيار الإيمان ، ومنهم من يؤثر الضلالة والجور والكند ، فيتركه الله مخذولاً شاردًا فى الضلال ممعناً فى الكفر ، فلا تغتم بكفرهم ، ولا تهلك نفسك حزناً على ضلالهم ، فالله مطلع وشاهد على أعمالهم ، وسوف يجازيهم بما يستحقون .

وشبيهه بهذه الآية قوله تعالى : لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ٣) .

وقوله تعالى : فَلَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ عَلَى آلِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف : ٦) .

من دلائل القدرة

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ سَحَابًا فُسْقَنَتْهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُسَوِّرُ
﴿١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ
إِلَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرٌ ۝١١﴾

المفردات :

فثير سحابا : تظهره وتنشره وتحركه بشدة ، فيجتمع ويسير .

بلد ميت : لا زرع فيه ولا نبات .

فأحيينا به الأرض : بالماء والزرع والنبات والعشب والكلأ .

كذلك النشور : مثل إحياء الأرض بالنبات ، البعث والحياة الثانية .

العزة : الشرف والرفعة .

فله العزة جميعا : فلنطلب العزة بطاعة الله فإنها لا تنال إلا بذلك .

الكلم الطيب : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، وكل ذكر وتلاوة قرآن ، وأمر بمعروف ونهى عن

منكر ، والمراد من صعوده : قبوله .

والعمل الصالح : الإخلاص يعلى قدر الكلم الطيب عند الله تعالى .

يمكرون السيئات : يعملونها ويكسبونها .

يسبب — — — يهلك ويفسد ويبطل .

خلقكم من تراب : خلق أبائكم آدم من تراب .

نطفة : منى يخلق نريته منه ، أى : ماء الرجل وماء المرأة .

ثم جعلكم أزواجا : ذكرانا وإناثا .

وما تحمّل من أنثى، ما تحمّل من جنين ولا تضعه.

إلا بعلمه، إلا بإذنه وتدبيره، وعلمه ومشئته.

وما يعمر من معمر: وما يطول من عمر ذي عمر طويل إلا في كتاب .

ولا ينقص من عمره ، بأن يجعله أقل وأقصر من العمر الطويل ، وذلك بحسب العرف والعادة الشائعة بين الناس .

إلا في كتاب: في صحيفة المرء في اللوح المحفوظ.

یســـــیـــــر : شہل میسور .

التفسير :

٩- وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبِيرُ سَحَابًا فُسْقِنَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ .

آيات القدرة ظاهرة فى هذه السورة ، ومنها بعث الحياة فى الأرض الميتة الهامدة الجافة ، حيث يبعث الله الرياح من مكامنها ، فتثير السحاب وتبعثه ليجتمع ، ويسير شمالاً أو جنوباً ، وشرقاً أو غرباً ، حسب توجيهه الله وإرادته ، فإذا نزل مطراً بأرض ميتة لا زرع فيها ولا نبات ، فإن الماء مع البذور يترتب عليه النبات والزرع ، والتحرك والاختضار ، وإذا الأرض الجافة الهامدة قد تحركت بالماء والزرع والنبات ، فصارت بهجة للناظرين ، وإن الله القادر الذى جمع السحاب ، وأنزل المطر ، وبعث الحياة فى الأرض الميتة ، قادر على إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ، وكما أحيا الله الأرض بالماء والزرع ، فهو يحيى الموتى ، ويعيد إليهم أرواحهم ، ويبعثهم للحساب والجزاء .

قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ إِلَهَ الْأَرْضِ لَخَبِيرٌ
الْمُؤْتِي أَمْرَهُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (فصلت: ٣٩).

وقد أورد ابن كثير والقرطبي حديث أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين ، أما مررت بواذى قومك ممحلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله ، قال ﷺ : « فكذا يحيى الله الموتى » .

١٠ - مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْخِزْفُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَرُ.

من أراد عز الدنيا وشرف الآخرة ، فإن ذلك لا ينال إلا بطاعة الله تعالى ، فإن العزة لله وحده ، فهو سبحانه يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء ، يرفع رقيعاً ويرفع ضيقاً ، ويغني فقيراً ويفقر غنياً ، ويعافي مبتلى

ويبتلى معافى ، بيده الخلق والأمر ، كل يوم هو فى شأن ، أى شئون يبدىها ولا يبتديها : قُلِ اللَّهُمَّ مِثْلُ الْمَلِكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ... (ال عمران : ٢٦) .

وقد كان كفار مكة يتقربون إلى الأصنام ويعبدونها ، يلتمسون عندها العزة ، فبين القرآن أن العزة لله ، وأن أسباب العزة مجتمعة فى يده وقدرته ، وأنه سميع قريب مجيب ، وآية ذلك أن الكلم الطيب ، مثل ذكر الله وتسبيحه وتلاوة القرآن والصلاة على النبى ﷺ ، وأنواع الأعمال الطيبة الصالحة ، تصعد إلى الله فيقبلها ، ويثيب عليها ، وهو جليس من ذكره ، فمن ذكره فى نفسه ، ذكره الله فى نفسه ، ومن ذكر الله فى ملاً ، ذكره الله فى ملاً خير منه .

والعمل الصالح المقتنر بالإخلاص ، وأداء الفرائض يرفعه الله ويقبله ، فالرفعة هنا إشارة إلى القبول وحسن الجزاء ، أما كفار مكة ومن يدبر سوء ، مثل اجتماعهم فى دار الندوة للتشاور فى أمر النبى ﷺ ، فممنهم من يقترح قتله ، ومنهم من يقترح حبسه ، ومنهم من يقترح نفيه ، ولكن الله أبطل كيدهم ، ونجى رسوله .

وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُورِ .

والذين يمكرون المكرات السيئات من قريش ضد محمد ﷺ ، لهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة ، ومكر هؤلاء يفسد ولا يتحقق ، ويصبح بائراً تالفاً .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

لقد أكرم الله رسوله وجعل هجرته نصراً ، وأزرى جهاده فى غزوات متتابعة ، مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، ثم فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وبات مكر الكافرين ، وبطل شأنهم ، ونصر الله المؤمنين ، وأعز الله دينه ، وصدق الله العظيم حيث يقول :

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٩) .

وقال تعالى : وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... (فاطر : ٤٣) .

١١ - وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعْتَمَرٍ وَلَا يُقْصِرُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

بدأ الله خلق آدم من تراب ، ثم خلق ذريته من النطفة ، وهى ماء الرجل الذى فيه الحيوانات المنوية ، وماء المرأة الذى فيه البويضة ، ثم جعلكم أزواجاً حيث خلقكم أصنافاً ذكراً وإناثاً ، بقدر معلوم ، قال تعالى : وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِلَّا سَعْيَكُمْ لَشَتَى . (الليل : ٤ ، ٣) .

وقال سبحانه : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

فتجد الإنسان والحيوان والنبات أزواجاً ، ليتم التناسل وتعمر الأرض ، وتستمر الحياة إلى يوم "قيامة" .

قال تعالى : وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا . (النبا : ٨) .

وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ...

أى : لا تحمل أنثى بعد الزواج ، ثم تضع مولوداً كامل الخلقة إلا بعلم الله ، أو تضع سقطاً قبل استكمال ولادته إلا بعلم الله ، ونظير ذلك قوله تعالى : اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِحَقِّقَارٍ ۖ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . (الرعد : ٨ ، ٩) .

فسبحان من أحاط بكل شيء علماً .

وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعْتَمَرٍ وَلَا يُقْصِرُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

أى : لا يُعطى إنسان عمراً طويلاً ، حتى يصبح معمرًا طويل العمر ، إلا قد سجل ذلك فى علم الله ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحف الملائكة ، ولا ينقص من عمر غيره ، بأن يُعطى عمراً ناقصاً عن هذا العمر ، إلا كان ذلك ثابتاً فى كتاب ، أى سجل فى اللوح المحفوظ ، إن ذلك سهل هين يسير ، وكذلك البعث والنشور .

وفى معنى الآية قوله تعالى : مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . (الحديد : ٢٢) .

أى : قبل أن نخلق النفس ، وهى لا تزال جنيناً فى بطن الأم ، كتبنا العمر والرزق ، والشقاء أو السعادة .

سائق، سهل اتحداره لخلوه مما تعافه النفس .

ملح أجاج، مالح شديد الملوحة يحرق بملوحته .

حلية كاللؤلؤ والمرجان .

مواخير، شاقات للماء حين جريانها .

يولوج، يدخل .

سفر الشمس والقمر، ذللهما وأجرهما خاضعين لمشيئته .

قطمير، لغافة النواة، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة .

يكفرون بشركهم، يجحدون بإشراككم إياهم، وعبادتك لهم .

ولا ينبتك مثل خبير، ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

التفسير:

١٢ - وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَقَبْتُوا مِنْ فَضْلِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

هذا لون جديد من ألوان النعم التى أنعم الله بها على عباده، فالماء العذب الفرات يشربه الإنسان، فيروى ظمأه، ويقطع عطشه، ويسعد نفسه، ويمدّه بالطاقة والعافية، وماء البحار مِلْحٌ . أى: مالح شديد الملوحة، لانه لا يستساغ تناوله، فالأول نافع فى الرى وإطفاء العطش، والآخر غير نافع فى ذلك، فإن ماء البحار المالح يزيد العطشان عطشاً .

قال بعض المفسرين: لعل فى ذلك إشارة إلى أن المؤمن لا يستوى مع الكافر، كما لا يستوى الماء العذب بالماء المالح، ومع التباين فى بعض الأمور ومنها الشرب، فإن البحر والنهر يشتركان فى استخراج السمك من كل منهما، واستخراج الحلية أيضاً مثل اللؤلؤ والمرجان .

وقد أثبت العلم وجود الحلية فى الماء العذب، كما أثبتته الواقع، ففى المياه العذبة بانجلترا واسكتلندا وويلز، وتشيكوسلوفاكيا واليابان، وغيرها، توجد أنواع من أهداف اللؤلؤ، من الماس والياقوت، كما جاء فى التفسير المنتخب للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر .

وفى هذا دليل على أن الحلية تستخرج من البحر ومن النهر، كما قال تعالى: يُخْرِجُ مِنْهُمُ اللَّؤْلُؤَ
وَالْمَرْجَانَ . (الرحمن: ٢٢) .

ثم يلفت القرآن النظر إلى السفن التي تمخر عباب البحر ، وتنقل التجارة والثمار والملبوسات والمصنوعات وغيرها من بلد إلى آخر فقال :

وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاجِرَ يَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ .

وترى الفلك على اختلاف أحجامها تشق الماء وهي تجرى بكم فيه ، لتطلبوا من فضل الله ورضقه ، منتقلين فيها من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ولكم بهذا تعرفون فضل الله عليكم ، وعظيم نعمائه فتحمدوه وتشكروه وتطيعوه .

وأذكر بهذه المناسبة منظر قناة السويس ، والسفن فيها متعددة الأحجام والأشكال والألوان ، تنتقل وراء بعضها ، تابعة للعديد من الجنسيات ، تنقل البضائع والسلاح والتقنية وسائر الأشياء ، وتتزود في الطريق بالوقود ، وتشترى وتبيع ، ويستفيد الجميع من هذه الحركة ، ولعلمهم يشكرون الله العلى الكبير .

١٣ - يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

إيلاج الليل في النهار ، أى إدخاله فيه عند الغروب ، حيث يتلاشى الضياء شيئاً فشيئاً ، ويعم دبيب الظلام ، ويستولى على الكون كأنما الليل يدخل في النهار فيطمس الضوء ، ومثل ذلك إيلاج النهار في الليل ، عندما يسطع الفجر الصادق ، ويظهر الضوء في الأفق ، ويستمر الضياء في الظهور شيئاً فشيئاً ، حتى تطلع الشمس ، فكانما النهار قد دخل في الليل وأخذ مكانه .

قال تعالى : وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرُ ۖ وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرُ ۚ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . (المدثر : ٣٢ - ٣٥) .

فهما حالتان تستوليان على القلب بحركة الظلام عند المساء ، وحركة الضياء عند الصباح ، فالفترة من المغرب إلى العشاء قرابة ساعة ونصف ساعة ، تقابلها الفترة من الفجر إلى طلوع الشمس ، كل منهما نهار يختلط بظلام الليل ، أو ظلام يختلط بضوء النهار ، وكل منهما فترة تمهيدية لما يأتى بعدها ، فلا هي ضوء خالص ، ولا هي ظلام خالص .

قال تعالى : فَسُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . (الروم : ١٧) .

وقال عز شأنه : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى . (طه : ١٣٠) .

والقرآن يلفت النظر إلى هذه المشاهد الكونية قبل الغروب ، وعند هجوم المساء ، وقبل الشروق ، وعند إقبال الصباح ، باعتبار أن ذلك آية تدل على عظمة الخالق ، فيقول المؤمن فى الصباح والمساء ، سبحان الله رب العالمين .

ويشمل إيلاج الليل فى النهار ، طول الليل فى الشتاء حتى يصل إلى أربع عشرة ساعة ، كأنما الليل دخل فى جزء من النهار واحتله ، كما يشمل إيلاج النهار فى الليل ، طول النهار فى الصيف حتى يصل إلى أربع عشرة ساعة ، وقصر الليل فى الصيف حتى يصل إلى عشر ساعات ، كأنما النهار دخل فى جزء من الليل زائداً عن اختصاصه ، والتعبير القرآنى يشملهما معاً ، ويطوف بالقلب البشرى ليتحرك ، ويرى يد القدرة تحرك الليل وتمدّه فى الشتاء ، وتحرك النهار وتمدّه فى الصيف ، أو يشاهد تعاقب الليل والنهار ، فى نظام دقيق مطرد ، لا يتخلف مرة ولا يضطرب ، ولا يختل يوماً أو عامًا على توالى القرون .

وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ...

نلّل الله الشمس تجرى أمام أعيننا نهارًا ، فى حركة دائية لا تغتر من الشروق إلى الغروب ، فى كل يوم وفى فصول السنة الأربعة ، لا تتخلف يومًا عن الظهور ، ولا تتقدم ولا تتأخر ، وكذلك القمر يظهر فى بداية كل شهر دقيقًا رقيقًا ، ثم يكبر قليلًا قليلًا حتى يصبح بدرًا كاملاً فى منتصف الشهر ، خلال الليالى البيض : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ من الشهر العربى ، وتسمى الليالى البيض لشدة ضوء القمر فيها ، ويسنّ صيام نهارها شكرًا لله القادر ، ثم يميل البدر إلى التناقص شيئًا فشيئًا ، حتى يصبح رقيقًا كقوس صغير نراه على حرف الجريدة من النخل ، بعد أن تقطع من النخلة أو (القحف) الذى يدق ويستقوس ، ويصبح طرفه فى هيئة الهلال الصغير .

قال تعالى : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ • وَالْقَمَرَ قَلْبَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ • لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٣٨ - ٤٠) .

فكل من الشمس والقمر يجرى فى فلكه ، ويرسل نوره لأجل سمّاه الله ، وهو يوم القيامة ، أو هو مدة الدورة فى كليهما ، فدورة القمر تستغرق شهرًا قمرىً ، ودورة الشمس تستغرق سنة شمسية ، ثم يعود كل منهما لابتداء دورة جديدة .

ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ...

ذلكم هو الله الخالق البارئ المهيمن المقتدر ، الذى بيده ملك هذا الكون ، وحفظ توازنه ونظامه .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ .

والأصنام والأوثان ، أولجن والملائكة ، أو عيسى والعزير ، أو غيرهم من الآلهة المدعاة ، لا يملكون قشرة نواة ، أى لا يملكون أى شىء فى هذا الكون ، فمالكة هو الله وحده سبحانه وتعالى .

١٤ - إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ .

إن هذه الأوثان والأصنام وغيرها إذا طلبتم منها شيئاً لا تسمع نداءكم ، وعلى فرض أنهم سمعوا ، كالجن والملائكة وعيسى والعزير ، فلن يستجيبوا لكم بشىء ، لأن الجميع سيتبرأ ممن عبده يوم القيامة .

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ ...

وفى يوم القيامة يتبرأ عيسى ممن عبده ، وكذلك كل إله مدعى ، فكل من الأصنام والأوثان ، والكواكب والشجر ، والإنسان والحيوان ، حتى الشيطان يتبرأ ممن عبده واتبعه ، يحدث بذلك الخبر بكل شىء ، وبكل أمر ، وبالدنيا والآخرة .

وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ .

ولا يخبركم عن عاقبة الأمور فى الدنيا والآخرة مثل الله العليم بكل شىء ، وهذه الفقرة صارت مثلاً ، فإذا نجح أستاذ متخصص فى عرض موضوع ، فلك أن تعقب عليه قائلاً : وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَيْرٍ .

★ ★ ★

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَاءْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَآ لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

الفقراء إلى الله : المحتاجون إليه .

الغنى، المستغنى عنكم أيها الناس، وعن سائر خلقه.

الجميد، المحمود بأفعاله وأقواله وحسن تدبيره، أو كل الخلائق تحمده بكل لسان.

ويأت بخلق جديد، بأن يفتنكم، ويستبدل بكم غيركم.

بعضيز، يصعب أو ممتنع، بل هو سهل.

ولا تـزر، ولا تحمل.

السوز، الإثم والثقل، أى: لا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى، بل كل وازرة تحمل وزرها وحدها.

مثقلة، نفس أثقلها الإثم حتى لم تقدر على الحركة.

لا يعمل منه شيء، لا تجد من يستجيب لها، ويحمل عنها بعض ذنبها، حتى لو دعت ابنها أو أباه أو أمها، فضلاً عن غيرهم.

بالغيب، لأنهم لم يروه بأعينهم.

ومن تزكى، طهر نفسه من الشرك والمعاصي.

فإنما يتزكى لنفسه، فإن ثمره صلاحه تعود إليه.

المصير، المرجع والمآب.

التفسير:

١٥ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

نداء إلهي علوي، يبصر الإنسان بحقيقة افتقاره إلى الله الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، وأنزل له الكتب، وأرسل إليه الرسل، وهده النجدين، وبين له الطريقين، ثم هو سبحانه لم يخلق بابيه فى وجه هذا الإنسان، بل فتح له باب التوبة على مصراعيه، يسمع النداء، ويجيب الدعاء، ويرشد المسترشدين، ويهدى الضالين، ويأخذ بيد التائبين، فما أعز جنابه، وما أغناه عن عبادته، وهو سبحانه المحمود على عطاياه، الرؤوف الرحيم بالخلق أجمعين، يتفضل بالنعم، ويعطى الجميع قبل أن يسألوه، فما أكثر نعماءه، وما أجل ثنائه، وصدق الله العظيم حيث يقول.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْقُلُوكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَءَاتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلُومٌ كَفَّارٌ. (إبراهيم: ٣٢ - ٣٤).

كم من شدة فرجها ، وكم من ظلمة بددها ، وكم من عسر يسره ، وكم من ذليل أعزه ، وكم من عزيز أذلّه ، وكم من غنى أفقره ، وكم من فقير أغناه ، وكم من ضال هداه ، وكم من مستجير أجاره ، وكم من مضطر أجابه ، وكم من يائس يائس أجابه وأكرمه ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، وله الثناء الحسن الجميل ، وقد كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يقول : «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ضياء السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، لا إله إلا أنت ، وعذك حق ، والجنة حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق»^(٨١).

اللهم ربنا لك الحمد ، أنت الغني ونحن الفقراء إليك ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

١٦ - إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ .

تهديد ووعيد للعصاة ، بأنه لو أراد الله لأهلكهم ، كما أهلك الأمم السابقة ، من عاد وثمود وأصحاب مدين وفرعون وملته ، وأتى بخلق جديد ، يكون أطوع لله من العصاة المهلكين .

١٧ - وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

وما ذلك بصعب عليه ولا بعسير ، بل هو سهل يسير ، فهو سبحانه على كل شيء قدير : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

١٨ - وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكَا فِئَامًا يَتَّزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

روى أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين : اكفروا بمحمد وعلى وزركم ، فنزلت هذه الآية ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه الآية من مفاخر الإسلام ، لتحقيق مبدأ المسؤولية الشخصية في الدنيا والآخرة ، فلا يسأل إنسان عن جريمة غيره ، ولا يتحمل امرؤ عقوبة جانٍ آخر . ومعنى الآية :

ولا تحمل نفس مثقلة بالذنوب ذنب نفس أخرى ، كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

فعدالة الله تأتي أن يعذب إنسان بذنوب آخر ، وفي القرآن الكريم على لسان يوسف الصديق : قَالَ تَعَادَى اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عَنْدَهُ ۖ إِنَّا إِذَا لَطَلُمُونَ . (يوسف : ٧٩) .

وفى يوم القيامة يعظم الهول ، ويتشوف كل إنسان إلى النجاة بنفسه من هذا اليوم العصيب ، حتى يذهل الإنسان عن أقاربه ، وعن قلدة كبده ، ويغفر من أقرب الناس إليه ، لشدة انشغاله بالنجاة من النار .

وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ...

وإن طلبت نفس مثقلة بالأوزار والذنوب مساعدة من نفس أخرى ، لتحمل عنها أى ذنب من ذنوبها ، لم تلق أى استجابة ، ولم تجد من يحمل عنها بعض ذنوبها ، ولو كانت قريبة لها فى النسب ، كالأب والابن والزوجة ، لأن كل إنسان مشغول بنفسه وحاله ، وله من الهموم ما يغنيه .

قال تعالى : يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَلَتِيهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس : ٣٤ - ٣٧) .

وقال تعالى : يَأْتِيهَا النَّاسُ آفُقًا وَرُبُكُم * وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَخْزَىٰ وَالِدُ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ... (لقمان : ٣٣) .

روى عن عكرمة :

إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة ، فيقول : يا بُنَى ، أى والد كنت لك ؟ فيقضى خيرا ، فيقول : يا بُنَى ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة ، أو يا هذه ، أى زوج كنت لك ؟ فتتبنى خيرا ، فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة ، تهبينها لى ، لعلى أنجو بها مما ترى ، فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أخوف مثل الذى تتخوف ، فذلك قوله تعالى : وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلَةٍ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ...

وقال الفضيل بن عياض :

هى المرأة تلقى ولدها فتقول : يا ولدى ، ألم يكن بطنى لك وعاء ؟ ألم يكن ثديى لك سقاء ؟ ألم يكن حجرى لك وطاء ؟ فيقول : بلى يا أماه ، فتقول : يا بنى ، قد أثقلتنى ذنوبى فاحمل عني منها ذنبا واحداً ، فيقول : إليك عني يا أماه ، فإني بذنبي عنك مشغول .

إِنَّمَا تُنَبِّرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ...

أى : إنما يتعظ بما جئت به أيها الرسول أولو البصيرة والعقل ، الذين يخشون الله فى خلواتهم ، أو يخافون من عذاب ربهم قبل معاينته ، وقد حافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها كاملة الأركان ، فى خشوع وخضوع ومناجاة لله رب العالمين .

وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ...

ومن تطهر من الذنوب والمعاصي ، وأطاع الله بصنوف الطاعات ، واستجاب لدعوة الرسول الأمين ووحى الله رب العالمين ، فإنما يتطهر لنفسه ، وفائدة الطهارة والسمو الروحي ، والسلوك الأمثل ، يعود نفعها على فاعلها .

قال ابن كثير : ومن عمل صالحاً فإنما يعود على نفسه .

وإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .

أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

★ ★ ★

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١﴾
 ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ۝٢٢﴾
 ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ۝٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
 ﴿٢٤﴾ وَإِن يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ وَبِالزُّبُرِ
 وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ۝٢٥ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾

المفردات :

الأعمى والبصير ، مثل للكافر والمؤمن .

ولا الظلمات ولا النور ، مثل للباطل والحق .

ولا الظل ولا الحرور ، مثل للثواب والعقاب ، والحرور : الريح الحارة كالسموم ، إلا أن السموم تكون بالنهار ، والحرور بالليل والنهار .

الأحياء ولا الأموات ، شبه المؤمنين بالأحياء ، وشبه الكافرين بالأموات .

يسمع من يشاء : هدايته .

من فى القيور ، الكفار ، شبههم بالموتى الذين لا يجيبون .

نكير : منذر مخوف وهو النبي ، أى : ما أنت إلا منذر من العذاب ، أما الإسماع فبيد الله وحده .

من جماعة كثيرة أو أهل عصر .

البيّنات ، المعجزات الدالة على صدقهم فيما يدعون .

وبالزبير ، الكتب المكتوبة ، كصحف إبراهيم ، جمع زيور ، أى : كتاب .

فكيف كان كبير ، فكيف كان إنكارى عليهم بالعقوبة والإهلاك .

تمهيد :

نوع القرآن الكريم فى أساليب الهداية والدعوة ، ومن ذلك بيان أنواع الناس أمام هداية القرآن الكريم ، فمنهم الأعمى عن الهدى والبصير به ، ومن يعيش فى ظلمات الكفر ، ومن يعيش فى نور الإيمان ، ولا يستويان فى الدنيا ، كذلك لا يستوى الثواب المريح كالظل ، والعقوبة المؤلمة كالحرور ، لكن الرسول مبلغ ومنذر وليس بهاء ، إنما الهدى والضلال بيد الله وحده ، وهذه المهمة يشترك فيها الرسل الذين أرسلهم الله إلى الأمم السابقة ، وأزل معهم المعجزات والصحف ، والكتاب المشتمل على الشرائع والأحكام كالنوراة .

التفسير :

١٩ - وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ .

لا يستوى الأعمى الفاقد للبصر مع المبصر الذى يرى الطريق ، ويهتدى إلى الصراط السليم ، وكذلك لا يستوى الكافر الذى عمى عن الحق مع المؤمن الذى هداه الله للإيمان ، واستمرت الأمثلة للتأكيد والتوضيح فيما يأتى .

٢٠ ، ٢١ - وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ .

ولا تستوى ظلمات الباطل وفنونه مع نور الحق وهدايته ، وجمع الظلمات مع أفراد النور ، لتعدد فنون الباطل مع اتحاد سبل الحق .

٢٢ - وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ .

لا يتساوى المؤمنون أحياء القلوب والمشاعر ، والكافرون أموات القلوب والحواس .

قال تعالى : مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ... (هود : ٢٤) .

وقال سبحانه : أَوَمَنْ كَانَ مِثًا فَآخِيتُهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ... (الأنعام : ١٢٢) .

قال قتادة : هذه كلها أمثال ، أى : كما لا تستوى هذه الأشياء ، كذلك لا يستوى الكافر والمؤمن .

إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ .

إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ، وكما أنك لا تسمع الأموات الذين توسدوا القبور ، كذلك لا تسمع من مات قلبه من هؤلاء المشركين .

٢٣ - إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ .

ما أنت إلا رسول منذر عذاب الله لمن كفر ، ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، أما الهدى والضلال فهما بيد الله وحده ، وهو الحكيم فى أفعاله ، العليم بعباده .

٢٤ - إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .

إن الله هو الذى أرسلك بالحق والصدق ، فالمرسيل محق ، والمرسل محق ، والرسالة بالحق والصدق ، والإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ، مشتملة على الشرائع والأحكام والآداب ، والعبادات والمعاملات ، لإرشاد الناس فى الدنيا ، وإسعادهم فى الآخرة .

وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ .

ما من جماعة كبيرة من الأمم ، إلا أرسل الله لها من بينهم من يرشدهم ، وينذرهم عذاب الله .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

وقال عز شأنه : رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وقال تعالى : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا . (الإسراء : ١٥) .

وقال سبحانه : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ... (النحل : ٣٦) .

٢٥ - وَإِنْ يَكْذِبُكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْجَبَلِ الْمُنِيرِ .

إذا كذبك كفار مكة والطائف وأشباههم ، فلا تأس ولا تحزن ، فقد أرسلنا قبلك رسلا إلى قومهم ، فقابلوهم بالكذب والعناد ، مع أن هؤلاء الرسل حملوا إلى قومهم النصائح والشرائع والمعجزات البينة ، والزُّبُر وهي الصحف ، كصحف إبراهيم وموسى ، وزبور داود ، وصحف شيث ، ومن الرسل من حمل إلى قومه كتاباً مشتملاً على الشرائع ، والحدود والقصاص والآداب ، والعبادات والمعاملات مثل التوراة - على إرادة التفصيل - يعنى أن بعض الرسل جاء بالبينات لقوم ، وبعضهم جاء بالزبور لآخرين ، وبعضهم جاء بالكتاب المنير لغيرهم ، لا على معنى إرادة الجمع ، وأن كل رسول جاء بجميع ما ذكر .

٢٦ - ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ .

لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وألوان الهدايات ، لكن الكافرين عاندوا وكذبوا رسلهم ، وكفروا بالله ورسله ، رغم وضوح الأدلة وصدق المعجزات والكتب السماوية ، ثم أخذت الكافرين أخذ عزيز مقتدر ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، فكيف رأيت إنكارى عليهم شديداً بليغاً ؟ لقد استأصلهم فلم يبق منهم بقية ، وفى الآية تهديد ووعد لمشركى مكة ، أى : كما أهلكت السابقين ، فإنى قادر على إهلاك اللاحقين : سَنُتِلِّهِ الْآلِىَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا . (الفتح : ٢٣) .

★ ★ ★

﴿الْقُرْآنَ أَنَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيدٌ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنْ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَأَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

المضردات :

ألوانها ، من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

جسد، الجدد: الطرائق المختلفة فى ألوان الجبال، جمع جُدَّة، بضم الجيم: وهى الطريقة.

الغرابيب، واحدها: غريب، وهو شديد السواد، يقال: أسود غريب، وأبيض يقق، وأصفر فاقع، وأحمر قان، وفى الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الغريب»، يعنى: الذى يخضب بالسواد، وقال امرؤ القيس فى وصف فرسه:

العين ظلمحة واليد سابحة والرجل لافحة والوجه غريب

السواب، جمع دابة، وهى ما دب من الحيوان، وغلب على ما يركب، ويقع على المذكر أيضاً. يتلون، يقرءون، ويتبعون القراءة العمل، من قولهم: تلاه، إذا تبعه، لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها. تجارة، معاملة مع الله لنيل الثواب.

تبور، تكسد، أو تهلك، يقال بار الشئ بوراً بالفتح: كسد، لأنه إذا ترك صار غير منتفع به، فأشبهه الهالك من هذا الوجه، فالمعنيان متقاربان.

تمهيد:

يعرض القرآن هنا بعض المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان، كألوان النبات والأزهار والثمرات، وكذلك ألوان الجبال، كالأسود والأبيض والأحمر وغير ذلك، ومثله فى النبات والدواب والأنعام، تحريكاً للقلوب للعظة والاعتبار.

التفسير:

٢٧- أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ...

قال أبو حيان: آيات لتقرير وحدانية الله تعالى، بأدلة سماوية وأرضية. ١ هـ.

والمعنى:

ألم تتأمل أيها المشاهد كيف أنزل الله المطر، فأنبث به من الأرض ألواناً متعددة، وثمرات مختلفة الألوان، متعددة الأصناف من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض وأسود ونحو ذلك.

قال تعالى فى سورة الرعد: وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُتَجَلِّزَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. (الرعد: ٤).

وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ.

وخلقنا الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرابيب، وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضاً.

٢٨ - وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ...

وخلق الله خلقاً آخر من الناس والدواب والأنعام ، التي هي الإبل والبقر والغنم ، مختلفة الألوان في الجنس الواحد ، بل وفي النوع الواحد ، وفي الحيوان الواحد ، كاختلاف الثمار والجبال .

قال تعالى : وَمِنْ عَائِلَتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ... (الروم : ٢٢) .

والدواب هي كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، وكلمة : كَذَلِكَ . هنا تمام الكلام ، أي : كذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان .

إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...

فالعلماء والباحثون ، والعارفون بأسرار الكون وجمال الخلق ، والمتأملون في ألوان الجبال والناس والحيوان ، هم الذين يخشون الله ، ويدركون جلال قدره ، وعظيم نعمائه وكثير عطائه ، وجليل قدرته ، والمراد بالعلماء هنا : علماء الطبيعة والحياة وأسرار الكون .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ .

أي : هو سبحانه كامل العزة والقدرة ، وكامل المغفرة لأهل طاعته ومعرفته .

وفي بعض الآثار : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ، وقد ظهرت عليه هذه الخشية حتى عرفت فيه .

خلاصة من ظلال القرآن :

الجمال عنصر مقصود في هذا الكون ، فالألوان والأصباغ والأشكال عنصر جمالي ، وألوان الزهرة وجمالها يجتذب الفراشة والنحلة ، لتؤدي وظيفة نقل اللقاح إلى الزهور الأخرى . وألوان البشر وأصباغها ، وتفاوت درجات الألوان والأصباغ بين أخوين شقيقين وربما بين توءمين ، تؤدي إلى الرغبة الجنسية بين الذكر والأنثى ، وتؤدي إلى إعمار الكون ، والتناسل والنسب والصهر ، ومثل هذه الرغبة نجدها بين الحيوانات والطيور لحكمة إلهية ..

قال تعالى : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأن : سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ . (يس : ٣٦) .

إن العلماء هم الذين يدركون روعة هذا الكون ، وبروعة الجمال في الألوان والأصباغ ، ودرجات التفاوت ونسبتها في اللون الواحد ، فيؤمنون بالله عز وجل عن معرفة دقيقة وعلم مباشر .

٢٩- إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجَرَّةً لَّنْ تَبُورَ .

إن الذين يقرءون القرآن الكريم قراءة تدبر وتمعن وتعلم واهتداء بما فيه ، وعمل بأوامره ، واجتناب نواهيه ، حال كونهم قد أقاموا الصلاة كاملة الأركان ، مشتملة على الخشوع وحضور القلب ، وقد أدوا زكاة أموالهم ، وأخرجوا نفقة مناسبة للفقراء والمساكين ، ووجه الخير في السر والعلن ، هؤلاء قد أحسنوا التجارة مع الحق سبحانه ، فباعوا قليلاً ، واشتروا كثيراً ، وأنفقوا في هذه الحياة الفانية ، وحصدوا ثمار ذلك في الباقية ، فتجارتهم رابحة ، وجزاؤهم مضاعف .

قال تعالى : وَإِنَّ بَيْنَكَ حَسَنَةً يَضِلُّعَظَمُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

٣٠- لِيُؤْفِقَهُمْ أَجْرُهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ .

ليوفيقهم ثواب ما عملوا ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم على بال ، فهو سبحانه صاحب الفضل والمنة ، والمغفرة للذنوب ، وهو الشكور للحسنات ، حيث يضاعفها لفاعليها .

قال قتادة : كان مطرف - رحمه الله - إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

★ ★ ★

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢١) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنَّ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَآ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٥﴾

المفردات :

من الكتاب ، القرآن .

ثم أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، أعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث .

أصْطَفَيْنَا ، اخترنا ، واشتقاقه من الصفو وهو الخلو من شوائب الكدر .

ظالم لنفسه، الظلم تجاوز الحد، أو من رجحت سيئاته على حسناته.

مقتصد، متوسط، أو هو من تساوت حسناته مع سيئاته.

سابق بالخيرات، سبق غيره بعمل الخير، أو هو من رجحت حسناته على سيئاته.

أساور، جمع سوار، وهى حلية تلبس فى اليد.

أذهب عنا الحزن، أزال الحزن الشامل لأحزان الدنيا والآخرة.

نصب، تعب ومشقة.

لغوب، إعياء وكلال من التعب، يقال: لغب لغوباً كمنع، أعيا أشد الإعياء.

التفسير:

٣١ - وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ.

بيان لتشريف الله لهذه الأمة، وتكريم لرسولها، وتوثيق للكتاب المنزل، وأنه من عند الله، وتنبيه

لغفوات النبى ﷺ.

والمعنى: والقرآن الكريم الذى أوحيناه إليك بواسطة جبريل هو الحق، أنزله الله بالحق، ونزل على

رسوله بالحق، وقد نزل مشتملاً على الحق والصدق، والهدى والإيمان وشرائع الإسلام.

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...

مؤيداً لما سبقه من الكتب، كالزبور والتوراة والإنجيل، التى أنزلها الله داعية إلى الإيمان، محرّضة

على التقوى والهداية، فالقرآن نزل مؤيداً ومصدقاً لما سبقه من الكتب، حيث اشتدت الحاجة إلى رسول

جديد، وكتاب جديد، يكون جامعاً لشريعة خالدة، وصالحاً لهداية الناس.

وفى معنى الآية قوله تعالى: وَيَا الْحَقُّ أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا ... (الاسراء: ١٠٥).

وقوله عز شأنه: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلِ هَٰذَا

لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ... (آل عمران: ٣، ٤).

والله تعالى يصطفى لرسالته من يشاء.

قال تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام: ١٢٤).

وهو الخبير بعباده، البصير بحاجة الخلق إلى رسول، الحكيم فى اختيار الرسول.

٣٢ - ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

جمهور المفسرين على أن هذه الفئات الثلاث من المؤمنين من هذه الأمة ، ويعضهم فسر الظالم لنفسه بالكافر ، وقد سئل أبو يوسف رحمه الله عن هذه الآية ، فقال : كلهم مؤمنون ، وأما الكافرون فصفتهم بعد هذا ، وهو قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ... (فاطر: ٣٦) .

ومعنى الآية مع ما قبلها : الذى أُوحيىناه إليك من القرآن الكريم هو الحق ، وقد أَوْرَثْنَا هذا الكتاب أصحابك من الإصحابة والتابعين ، وتابعيهم ممن يسير سيرتهم إلى يوم القيامة .
أو المعنى :

اصطفينا أمة محمد ﷺ ، وجعلناها أمة وسطاً ، وزودناها بميراث عظيم هو هذا القرآن الكريم ، المشتمل على العبادات والمعاملات والآداب ، والأخبار عن الأمم السابقة ، والبيان الجميل ، والإعجاز فى عرض أدلة القدرة ، وبيان جمال الكون وإبداع الخلق ، ومظاهر البعث والقيامة .

وقد ورث القرآن طوائف ثلاث : طائفة ظلمت نفسها بارتكاب المعاصى ، أو التقصير فى حق هذا الكتاب ، وطائفة مقتصدة متوسطة ، تعمل بالقرآن حيناً وتهمل حيناً آخر ، وطائفة سبّاقة للخير بإذن الله وتوفيقه ، فهى حريصة على الكتاب والعمل بما فيه ، والمسابقة إلى تلاوته وتنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه بإذن ربها وعنايته وهدايته .

روى عن عمر رضى الله عنه قال - وهو على المنبر - : قال رسول الله ﷺ : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له»^(٨٧) .

وإنما قدم الظالم للإيدان بكثرة أفراده ، وأن المقتصدين قليل بالنظر إليهم ، والسابقين أقل من القليل ، وقيل : قدم الظالم لئلا ييأس من رحمة الله ، وأخر السابق لئلا يعجب بعمله ، فتعين توسيط المقتصد .

ونلاحظ أن القرآن الكريم فى سورة الواقعة بدأ بالسابقين ، فقال تعالى :

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ . (الواقعة: ١٣ ، ١٤) .

وثنى بأصحاب اليمين ، وقال عنهم : ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ . (الواقعة: ٣٩ ، ٤٠) .

ثم تكلم عن أصحاب الشمال وذكر أنهم فى جهنم .

كما ذكر القرآن الكريم أن السابقين قلة ، حين قال : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . (سبا : ١٣) .

وقال عز شأنه : وَإِن تَطْعَ أَكْثَرَ مِّنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... (الأنعام : ١١٦) .

ولعل من المناسب أن نقول إن القرآن الكريم يبدأ فى كل حالة بما يناسبها ، ففي سورة البقرة مثلاً بدأ بالمؤمنين ، وثنى بالكافرين ، ثم تحدث طويلاً عن المنافقين وعن شياطينهم ، وضرب أمثلة توضح حالهم ، فلعل سياق حكمته وطريقته ومناسبته .

٣٣ - جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ .

أى : يدخل هؤلاء الطوائف الثلاث جنات إقامة : السابقون لسبقهم ومساعدتهم فى الخيرات ، والمقتصدون لترجع حسناتهم أو تعادلها مع سيئاتهم ، والظالمون لأنفسهم لأنهم عملوا معاصي ثم تابوا منها ، أو لم يتوبوا فاستحقوا العذاب فى جهنم ، ثم يدخلون الجنة لإيمانهم وإسلامهم وتوحيدهم لله ، ويحلّون فى الجنة بأساور من ذهب مرصع باللؤلؤ ، ويكون لباسهم حريراً خالصاً ، وقد أباحه الله لهم فى الآخرة ، لأنهم امتنعوا عن لبسه فى الدنيا ، استجابة لأمر الله تعالى لهم .

ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» (٨٦) .

وقال : «هى لهم فى الدنيا ، ولكم فى الآخرة» (٨٧) .

وعلى هذا تكون الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، والعلماء أولى الناس بهذه النعمة .

أخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء رضى الله عنه ، وهو بدمشق ، فقال أبو الدرداء : ما أقدمك يا أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ ، قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ، قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم ، قال رضى الله عنه : فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ، سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» (٨٨) .

٣٤ - وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ .

لقد متّعهم الله في الجنة بألوان من النعيم الحسى والمعنوى ، ذكر النبي ﷺ حتى أهل الجنة فقال : «مسؤولون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من درّ وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك ، شباب جرد مرد مكحولون»^(٨٧) .

متّعهم الله بما كانوا يشترقون إليه في الدنيا ، لتقرّ أعينهم وتتلج صدورهم ، وأراحهم الله من الدنيا وأحزانها والابتلاء فيها ، كما طمأنهم بعد الحساب والجزاء بدخول الجنة ، فقالوا شاكرين معترفين : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، الذى أذهب عنا حزن الدنيا ، وأذهب عنا رهبة الحساب والخوف من العقاب ، وغفر لنا برحمته ، وشكر لنا بفضلته ، إن زينا لغفور . يغفر الجنايات وإن كثرت ، شكور . يقبل الطاعات وإن قلت .

أخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس أنه قال فى ذلك : غفر لنا العظيم من ذنوبنا ، وشكر القليل من أعمالنا .

٣٥ - الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

الذى أسكننا الجنة وهى دار الإقامة الدائمة من فضله ، وفيها نعيم أبدي سمردي لقاء عملنا المحدود في الدنيا ، حيث كنا نتعب وننصب أملاً فى متاع الجنة ، فأدخلنا الله بفضلته جنات إقامة دائمة ، لا عمل فيها ولا نصب ، فله سبحانه الفضل والمنة ، والثناء الحسن الجميل ، فقد كافأنا على القليل ، بالنعيم الدائم الأبدى السمردى .

روى البخارى فى صحيحه ، أن رسول الله ﷺ قال : «لن يدخل أحدكم الجنة عمله» قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته ، فسدوا وقاربوا ، ولا يمتنن أحدكم الموت ، إما محسناً قلعله أن يزداد فى إحسانه ، وإما مسيئاً قلعله أن يتوب»^(٨٨) .

جاء فى تفسير ابن كثير :

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ .

أى : لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء ، والنصب واللغوب كل منهما يستعمل فى التعب ، وكأن المراد بنفى هذا وهذا عنهم ، أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم والله أعلم ، فمن ذلك أنهم كانوا يجهدون أنفسهم فى العبادة فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة مستمرة .

قال تعالى : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . (الحاقة : ٢٤) .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ۝٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾

المفردات :

لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا ، لا يحكم عليهم بموت ثان فتحصل لهم الراحة .

يَصْطَرِّخُونَ ، يستغيثون فى النار بصوت عال ، والصراخ : الصوت المرتفع المصحوب بالتعب .
والمشقة ، ويستعمل كثيرًا فى العويل والاستغاثة ، وأصله : يصترخون ، فأبدلت التاء طاء .

نَعْمَرُكُمْ ، من التعمير بمعنى الإبقاء والإمهال فى الحياة الدنيا ، إلى الوقت الذى كان يمكنهم فيه الإقلاع عن الكفر إلى الإيمان .

مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ ، ألم تعظكم من الوقت ، الذى كنتم تتمكنون فيه من التذكر والاعتبار .

مِنْ تَذَكُّرٍ ، متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه .

النَّذِيرُ ، الرسول ، أو المشيب ، أو العقل ، أو موت الأقارب ، أو كل أولئك .

ذَاتِ الصُّدُورِ ، خفاياها من النزوات والميول .

التفسير :

٣٦ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ .

بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة ، وحدهم لله ، وشكرهم له سبحانه أن أدخلهم الجنة فى راحة وسرور ، ذكر هنا عقاب أهل النار .

والمعنى : أعدنا للذين كفروا بالإسلام ، ورفضوا الإيمان بالله ورسوله نار جهنم ، عذابها مستمر أبدي سرمدي ، فهم فى عذاب أبدي لا يحيون حياة كريمة ، ولا يموتون فيستريحوا ، ولا يخفف عنهم من

العذاب ، وقد استحق هذا العذاب الشديد كل كافر ، شديد الكفر والجحود ، وقد ورد هذا المعنى فى آيات القرآن الكريم ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : **وَنَادُوا يَنْصُرُكُمْ لِيَقْضِيَ عَلَيْهِمُ رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ** . (الزخرف : ٧٧) .

وقوله تعالى : **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ، لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ** . (الزخرف : ٧٤ ، ٧٥) .

وقوله تعالى : **ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى** . (الأعلى : ١٣) .

وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون»^(٨٨) .

فما أشد شقاء الكفار ، وما أشد عنتهم .

٣٧ - **وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** .

تصف الآية ألوان العذاب والهوان والنكال الذى يتعرض له أهل النار ، فهم يصرخون ويستغيثون بصوت مرتفع ، حيث يشتد عويلهم وصراخهم واستغاثتهم يقولون : يا ربنا ، أخرجنا من هذا العذاب الشديد ، وأرجعنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً ، نتدارك به الأعمال الكاسدة التى كنا نعملها فى الدنيا .

أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ...

أو لم نعطكم عمراً طويلاً كافياً لأن يتعظ ويتذكر فيه من أراد التذكر والاعتبار ، وجاءتكم الرسل أو الشيب أو موت الأقران ، أو وجوب استخدام العقل والفكر واللب ، فى أن وراء هذا الكون البديع إلهاً خالقاً واحداً بيده الخلق والأمر .

قال ابن كثير :

أى : أو ما عشتُم فى الدنيا أعماراً ، لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانفعتم به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد ههنا :

فقال زين العابدين : إنه مقدار سبع عشرة سنة .

وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نُعَيَّر بطول العمل ، وقد نزلت هذه الآية وإن فيهم لآين ثمانى عشرة سنة .

وقال وهب بن منبه : عشرين سنة .

وقال الحسن : أربعين سنة .

وقال مجاهد ، عن ابن عباس : ستين سنة . وهذا أصح الآراء .

أخرج الإمام أحمد ، والبخاري ، والنسائي ، وغيرهم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ :
«أعذر الله تعالى إلى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة»^(٨٩) .

فَذُرُّوهُمَا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

فذوقوا ونالوا عذاب جهنم ، لأنه معد للظالمين أمثالكم ، وليس لكم ناصر ولا معين ، جزاء ظلمكم وكفركم بالله ورسوله .

٣٨ - إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

إنه سبحانه مطلع على الخفايا والنوايا ، وعلى ما غاب عنكم في السماوات والأرض ، فاتقوه واحذروا
أن يطلع على ما في ضمائركم من الكيد لرسوله ، وأنكم تريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التي لا
تنفعكم شيئاً يوم القيامة .

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

هو سبحانه مطلع على ما تكنه الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، وسيجازي كل عامل بما عمل .
لقد صمم الكافرون على ما هم فيه من الضلال إلى الأبد ، فمهما طالأت أعمارهم ، فلن تتغير أحوالهم ،
وكان عقابهم في جهنم جزاءً وفاقاً على عزمهم وتصميمهم ، أنهم لو خلدوا في الدنيا أبداً لما آمنوا بالله
ورسوله أبداً .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا ۚ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أُنثِيَ لَهُمْ كُتُبٌ فَهُمْ عَلَى يَتْنَبٍ مِنْهُ ۚ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

المضردات :

خلائف : جمع خليفة ، وهو مطرد في فعيلة ، أى : جعلكم خلفاء بعد خلف ، وقرناً بعد قرن ، تراثون ما بأيديهم من مال وجاه ، والخلف التالى للمتقدم .

مقتاً : بغضاً وغبضاً .

خساراً : هلاكاً وضللاً .

أرايتهم شركاءكم : أخبرونى عن آلهتكم الذين أشركتموهم فى العبادة .

شرك فى السماوات : نصيب فى خلقها .

بينت : حجة ظاهرة .

غشوراً : أباطيل تغر ، وهى قول الرؤساء للأتباع : إن هذه الآلهة تنفعكم وتقربكم إلى الله .

يمسك : يحفظ .

أن تمزولا : أن تنهدأ وتضمحلا .

التفسير :

٣٩ - هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۖ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا .

جعل الله الناس خلائف ي خلف بعضها بعضا ، فأمة تغنى ، وأمة تقوم ، وجيل يغنى ، وجيل يأتى بعده ، وأمة تعتز وتقوى ، وأمة تذل وتهوى ، وبيد الله مقاليد السماوات والأرض ، يغير ولا يتغير ، يحيى

ويميت ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، وهو على كل شيء قدير ، ومن واجب المخلوق الغاني أن يتأمل فيمن فنى قبله ، وفيمن سيأتى بعده ، وأن يتفكر فى الأمم التى بادت كعاد وثمود ، وأن الله قادر على إهلاك الظالمين فى كل وقت وحين ، وأن المسئولية فردية ، والتبعة فردية .

فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، ...

فمن جحد الخالق ، وأهمل العقل والتدبر والتأمل ، فيستحمل تبعه كفره ، وعقاب عمله .

وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا .

أى : إن عاقبة الكفر هى المقت الشديد ، والغضب من جبار السماوات ، وإصرار الكافرين على الكفر لا يزيدهم إلا هلاكًا ويوارًا وخسارًا فى الآخرة ، بدخول النار والحرمان من الجنة .

٤٠ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فُهِمَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

هذه الآية مناقشة ومواجهة للمشركين عباد الأصنام ، أو لكل مشرك يعبد غير الله من الجن أو الملائكة أو البقر أو غير ذلك .

والمعنى :

أخبرونى عن هؤلاء الشركاء الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة ، هل خلقوا شيئًا فى هذه الأرض ، وهى تشهد كلها بوحداية الصانع سبحانه ، وأنه ليس له شريك ؟ وهل هذه الأصنام أو الشركاء شاركوا فى خلق السماوات ، وهى بكل ما فيها من علو وأبراج وشموس وأقمار وليل ونهار ، تنطق بأنها صنعة الله الواحد القهار ؟ وهل أنزلنا كتابًا من السماء على هؤلاء الشركاء ، بأنهم آلهة يستحقون العبادة ؟ ويتسع المعنى لأن يكون أيضًا كالاتى : هل أنزلنا عليكم يا كفار مكة كتابًا من السماء ، فأنتم منه على بينة ودليل ، بأن الأصنام التى تعبدونها آلهة تستحق العبادة ؟ والاستفهام فى الثلاثة استفهام إنكارى ، جوابه : أن الأصنام لم تشارك فى خلق الأرض ، ولم تشارك فى خلق السماء حتى تستحق العبادة ، ولم ينزل كتاب من السماء يبين ويؤكد أن الأصنام تستحق العبادة ، ولمّا تقرر نفى أنواع الحجج ، أضرب عنهم بذكر ما حملهم على الشرك ، فقال :

بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .

أى: إن الذى حملهم على الشرك هو تغيير الرؤساء للأتباع ، وقولهم: إن الأصنام ترجى شفاعتها ، والحقيقة أنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تشفع ، وقولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... (الزمر: ٣) ما هى إلا أباطيل اقتترفوها ، وستلقى هذه الأصنام فى النار مع عبّادها ، مهينة ذليلة هى ومن عبدها .

قال تعالى: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا تُبَشِّرْكُمْ مِثْلَ خَبِيرٍ . (فاطر: ١٣ ، ١٤) .

وقال تعالى: آخِشُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . (الصافات: ٢٢ ، ٢٣) .

٤١ - إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

إن القدرة بيد الله ، والعزة لله جميعاً ، وهو وحده الخالق الرازق ، قيوم السماوات والأرض ، خلقهما على غير مثال سابق ، وهو سبحانه يمسك نظام الكون ويحفظه ، ويرفع السماء بلا عمد ، ويبسط الأرض ، ويحفظ السماء والأرض من الفناء أو الزوال والتلاشى ، ولئن أشرقتا على الفناء أو الزوال ما أمسكهما من أحد بعد الله كائنًا من كان ، أو بعد زوالهما ، حين تشاء القدرة ذلك ، فتبدل الأرض غير الأرض والسماوات حين تنتهى الحياة ، فتنتشق السماء على غلظها ، وتستجيب لخالقها ، وتمتدد الأرض ، ويشد زلزالها ، وتخرج الأنقال من باطنها ، استجابة لأمر الله .

قال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم: ٤٨) .
إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .

فهو واسع الحلم على العصاة والكفار ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وهو واسع المغفرة ، يتوب على التائبين ، ويقبل من أذاب إليه ، ويمهل العصاة إلى حين .

قال تعالى: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . (طه: ٨٢) .

جاء فى الصحيحين ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٩٠) .

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا ﴿٤٢﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أُولَٰئِكَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكُنُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَأَبَتْ اللَّهُ كَانَ يَعْبَادِيهِمْ بِصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

المضردات :

جهداً أي مائتهم ، طاقتها و غايتها .

نذير ، نبي يبلغهم ويخوفهم .

أهدى من إحدى الأمم : أهدى من كل واحدة من أمتى اليهود والنصارى ، وغيرهما .

تقورا ، إعراضا وتباعدا عن الحق .

استكبارا ، عتوا وتعاليا عن الإيمان .

مكر السيئ ، مكر العمل السيئ ، وهو الشرك ، وخداع الضعفاء ، وردهم عن الإيمان ، والكيد لرسول

الله .

ولا يحيق ، ولا يحيط .

ينظرون ، ينتظرون .

سنة الأولين ، سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم .

تبديلا ، وضع غير العذاب موضع العذاب .

تحويلا ، نقل العذاب من المكذبين إلى غيرهم .

ليعجزه ، ليمنعه بالقهر والغلبة ، أو ليسبقه ويفوته .

كسبوا، فعلوا من السيئات .

دَابَّةٌ: حيوان يدبُّ على الأرض ، وقيل : المراد الإنس والجن .

قال في ظلال القرآن :

إن نظرة إلى عالم السماوات والأرض ، وإلى هذه الأجرام التي لا تحصى ، منتثرة في ذلك الفضاء ، الذي لا نعلم له حدوداً ، وكلها قائمة في مواضعها ، تدور في أفلاكها ، محافظة على مداراتها ، لا تختل ولا تخرج عنها ، ولا تبطل أو تسرع في دورتها ، وكلها لا تقوم على عمد ولا تشد بأحبال ، ولا تستند على شيء من هنا أو هناك ... نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة ، جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية القادرة ، التي تمسك بهذه الخلائق وتحفظها أن تزول .

تمهید :

بعد أن وصف القرآن يد القدرة ، التى تمسك بخلق السماوات والأرض ، وتحفظهما من الزوال ، أخذ يناقش أهل مكة فى موقفهم ، وصدودهم عن الإيمان ، بعد أن أقسموا بالله جهد أيمانهم إن جاءهم رسول من عند الله فسوف يطيعوه ويمنعونه .

التفسير :

٤٢ - وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنَ الْإِثْمِ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۚ

كانت العرب تسمع عن أعمال اليهود مع أنبيائهم ، حيث كذبوهم وقتلوا بعضهم ، وحرقوا التوراة ، واعتدوا في السبت ، فأقسموا بالله وبالقوا في القسم ، واجتهدوا أن يأتيوا به على أبلغ ما في وسعهم من جهد ، لأن جاءهم رسول كما جاء اليهود والنصارى ، يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده ، ليكون في تصديقه واتباعه أهدى من كل أمة من اليهود والنصارى ، ومن أية أمة بلغت من الطاعة والهداية وحسن الاتباع ، أن يقال فيها واحدة الأمم تفضيلاً لها على غيرها ، فلما جاءهم النذير وهو محمد ﷺ ، يدعوهم للإيمان ، ويحذرهم وينذرهم عذاب الله إن كذبوا ، كفروا به وأعرضوا عنه ، وما زادتهم دعوته وهداياته إلا نفوراً من الإسلام ، وإعراضاً عن نبيه محمد ﷺ .

٤٣ - اسْتَجَارَا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْيُنِنَا قُلْ إِنظُرُونِ إِلَّا سُبُطَ الْأَرْبَابِ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

تكمل هذه الآية السابقة، فعندما جاءهم محمد ﷺ أعرضوا عنه وابتعدوا، وما زادهم دعاؤه وهدايته إلا نفورا منه، ومن تفصيل ذلك النفور: تكبرهم واستعلاؤهم بالباطل، وادعائهم أنهم أعلى شأنًا

من المؤمنين ، وأن المؤمنين فقراء ضعفاء ، ثم اجتهد هؤلاء الكفار فى الكيد والدس ، ومكر العمل السيئ ، حيث عذبوا المؤمنين وضايقوهم ، وحاولوا حبس النبى أو نفيه أو قتله ، ودبروا الكيد ، ودبر الله حفظ رسوله ، وحل بهم عاقبة مكروهم ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ...

ولا يحيط المكر السيئ ، ولا ينزل عقابه إلا بأهله الذين دبروه وبيتوه ، ومن أمثال العرب : (من حفر لأخيه جُبًا ، وقع فيه منكبًا) ، وقد حاق مكر هؤلاء بهم يوم بدر ، حيث قتلوا وأسروا وانهزموا ، ونصر الله المؤمنين عليهم نصراً عزيزاً .

تلك سنة الله التى لا تتخلف ، أن يمهل الظالمين وأن يحق الحق ، وأن يأخذ الظالمين بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ .

أى : ما ينتظرون إلا سنة الله تعالى فى المكذبين السابقين ، كعاد وتماد حيث أخذهم الله بتعذيب مكذبيهم .

فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

تلك قوانين كونية ثابتة ، وضعها الله تبارك وتعالى ، ومنها أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب ، ويمهل الناس ، ويقدم لهم المعجزات والبيّنات ، ويوضح لهم صدق الدعوة ، وأدلة الإيمان ، فإذا اشتد العنت والتكذيب كانت العقوبة للمتقين ، والعذاب للكافرين ، تلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول ، فلا ينقل العذاب عن المكذبين ، ولا يحوله إلى غيرهم ، لأنه عادل حكيم ، فلا يضع الشيء فى غير موضعه .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُخْرِجُوكَ أَوْ يُقَتِّلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

٤٤ - أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَخذَ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا .

أعنى هؤلاء الكفار ، فلم يسيروا فى الأرض جهة الشام أو اليمن ، ليعتبروا بما أصاب المكذبين قبلهم ، مثل ثمود وعاد ، وغيرهم من الأمم الظالمة ، التى كذبت أنبياءها ، وعاندت وحدثت المعجزات

والبينات ، وكانوا فى قوة ومنعة ، وأجساد متينة شديدة ، وعمارات ومصانع ، وأبنية قوية عزيزة ، وقد اشتد عنتهم ، واعتدادهم بقوتهم ، وظنوا أن قدرة الله لا تصل إليهم .

قال تعالى : فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنُلْغِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ . (فصلت : ١٥ ، ١٦) .

إن يد القدرة الإلهية التى أهلكت السابقين ، وكانوا أشد قوة من أهل مكة ، قادرة على أن تنزل العذاب بالكافرين المكذبين ، وقدرة الله لا تحد ، وما كان الله ليمنعه عن مراده أى شيء ، فى السماوات ولا فى الأرض ، فهو سبحانه فعّال لما يريد : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

وكان سبحانه : غليماً . لا يغيب عن علمه شيء ، وكان سبحانه : قديراً . لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

٤٥ - وَلَوْ يُرِيدُ اللَّهُ الْفِتْنَةَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا .

هذا هو ختام سورة فاطر ، التى بدأت بحمد الله فاطر السماوات والأرض ، جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة .

وختمت ببيان رحمة الله وحلمه ، فكان سائلاً سأل من هؤلاء الكفار وقال : لِمَ لَمْ يُعْجَلِ اللَّهُ لَنَا الْعِقَابَ ؟ وأين هو العذاب الذى تهددنا به ؟

فكان الجواب هو هذه الآية التى تفيد الآتى : لو عجل الله العقوبة لكل مخطئ فى هذه الأرض لأهلك الناس جميعاً ، ولأصبحت الدواب بسبب خطأ ابن آدم ، حين تنزل الصواعق ، أو اجتاحت الأرض الأوبئة ، أو الأمراض أو الزلازل أو البراكين ، لكن حكمة الله تعالى اقتضت أن يؤجل عقاب المكذبين .

إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

هو انتهاء حياتهم ، أو يؤجل عقاب الأمة إلى انتهاء الأجل المحدد لها فى هذه الأرض ، فإذا انتهت الحياة على هذا الكوكب ، وجاء البعث والحشر والحساب والجزاء ، فإن الله تعالى عالم مطلع ، وشاهد وبصير ، بكل فرد من الأفراد ، وبكل أمة من الأمم ، وبكل جيل من الأجيال ، وهو سبحانه سريع الحساب لا يشغله شأن عن شأن .

وفى معنى الآية قوله تعالى: أَكْفَرَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ • أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ • سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلَوْنَ الدُّبُرَ • بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ . (القم: ٤٣ - ٤٦) .

وقوله سبحانه: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود: ١٠٢) .

من تفسير ابن كثير

لغوله تعالى: أَوْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ... الآية .

قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به من الرسالة: سيروا فى الأرض، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل، كيف دمر الله عليهم، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم، بعد كمال القوة، وكثرة العدد والغدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء، لأنه تعالى لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض .

إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا .

أى: عليم بجميع الكائنات، قدير على مجموعها .

تفسير الشيخ عبد الحميد كشك للآية الأخيرة

من سورة فاطر

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكْنَا عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ...

على هذا منطق العدل .

ولكن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

هذا منطق الفضل، فإن يعاقب فبمحض العدل، وإن يثب فبمحض الفضل، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم .

روى البخارى، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٨١) .

وفى معنى الآية قوله تعالى فى سورة النحل: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكْنَا عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ . (النحل: ٦١) .

فالله عاملنا بفضلك وإحسانك، ولا تعاملنا بميزانك، وعاملنا بما أنت أهل له، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة^(٨٢) .

مَجْمَل مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ فَاطِر

- ١ - الأَبَلَّةُ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ بِإِبْدَاعِهِ لِلْكَوْنِ وَأَنَّهُ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ .
- ٢ - تَذَكِيرُ النَّاسِ بِالنِّعَمِ لِيَشْكُرُوهَا .
- ٣ - تَثْبِيْتُ فُؤَادِ الرَّسُولِ ﷺ بِذِكْرِ تَكْذِيبِ السَّابِقِينَ لِلْمُرْسَلِينَ .
- ٤ - بَيَانُ اخْتِلَافِ أَلْوَانِ الْجِبَالِ وَالنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ .
- ٥ - تَقْسِيمُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ الْعَمَلُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ .
- ٦ - جَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْوَانِ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ ، وَجَزَاءُ الْكَافِرِينَ بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ فِي النَّارِ .
- ٧ - مَنَاقِشَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ لِلْمَشْرُوكِينَ ، وَلَفَتْ أَنْظَارَهُمْ إِلَى مَظَاهِرِ الْقُدْرَةِ فِي السَّابِقِ وَالْآخِقِ .



تم بحمد الله تفسير سورة فاطر بمدينة بورسعيد
 مساء الثلاثاء ٢١ ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٣ أغسطس ١٩٩٩ م
 والحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه كما يرضى ويحب
 والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تفسير سورة يس

أهداف سورة يس

سورة يس مكية ، نزلت فى الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، أى فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن .

وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها بها ، وسورة حبيب النجار لاشتغالها على قصته ، فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَلْقَؤُمُ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** . (يس : ٢٠) .
أن هذا الرجل يسمى «حبيب النجار» .

مقصود السورة

قال الفيروزى :

معظم مقصود سورة يس : تأكيد أمر القرآن والرسالة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وضرب المثل بأهل قرية أنطاكية ، فى قوله تعالى : **وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ** . (يس : ١٣) .

وذكر قصة حبيب النجار الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة ، وإبداء الليل والنهار ، وسير الكواكب ودوران الأفلاك ، وجرى الجوارى المنشآت فى البحار ، وذلة الكفار عند الموت ، وحيرتهم ساعة البعث ، وسعادة المؤمنين المطيعين ، وشغلهم فى الجنة ، وتميز المؤمن من الكافر فى القيامة ، وشهادة الجوارح على أهل المعاصى بمعاصيهم ، والمنة على الرسول ﷺ بصيانتهم من الشعر ونظمه ، وإقامة البرهان على البعث ، ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون ، وكمال ملكذى الجلال على كل حال ^(١) فى قوله سبحانه : **فَسَيَحْنُ الَّذِى يَدِىهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** . (يس : ٨٣) .

ملاحج السورة

سورة يس لها وقع خاص فى نفوس المسلمين ، يرددون قراءتها فى الصباح والمساء ، وتقرأ على المريض للشفاء ، وعلى المحتضر لتيسير خروج الروح ، وعلى المقابر لتنزّل الرحمة على الموتى ، وقد أخرج ابن حبان فى صحيحه مرفوعاً : «من قرأ يس فى ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له» ^(٢) .

وتتميز سورة يس بقصر الآيات ، وسهولة القراءة ، وتتابع المشاهد وتنوعها ، من بدء السورة إلى نهايتها .

والموضوعات الرئيسية في السورة ، هي موضوعات السور المكية ، وهدفها الأول هو بناء أسس العقيدة ، فهي تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرسالة ، وتسوق قصة أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القرآن في استخدام القصص لتدعيم قضاياه ، وقرب نهاية السورة تعود إلى الموضوع ذاته فتوضح أن ما يوحى إلى محمد ﷺ ليس شعرا ولكنه ذكر وقرآن مبين .

كذلك تتعرض السورة لقضية الألوهية والوحدانية ، فيجئ استنكار الشرك على لسان الرجل المؤمن ، الذي جاء من أقصى المدينة ليعلم إيمانه بالمرسلين ، وهو يقول : وَمَالِيَ لَا أُعْبُدُ إِلَّا لِلَّهِ قَطِرْنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٢٢) .

والقضية التي يشتد عليها التركيز في السورة ، هي قضية البعث والنشور ، وهي تتكرر في مواضع كثيرة من السورة ، وتحكى السورة قصة أبي بن خلف ، حين جاء بعظم قد رم ولى وصار تراباً ، ثم ضغط عليه بيديه ، ونفخ فيه فطان في الفضاء ، ثم قال : يا محمد تزعم أن ربك يبعث هذا بعدما رم ولى وصار تراباً ، فقال له النبي ﷺ : «نعم وبيعتك ويدخلك النار» ، قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

والقضايا المتعلقة ببناء العقيدة ، تتكرر في السور المكية ، ولكنها تعرض كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها .

«وهذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة – بصفة خاصة – ومن مشاهد القصة ومواقفها وجوارها ، ومن مصارع الغابرين على مدار القرون ، ثم من المشاهد الكونية الكثيرة ، المتفرعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة ، ومشهد الليل يسلك منه النهار فإذا هو ظلام ، ومشهد الشمس تجري لمستقر لها ، ومشهد القمر يتدرج في منازلته حتى يعود كالعرجون القديم ، ومشهد الفلك المشحون يحمل نرية البشر الأولين ، ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين ، ومشهد النطفة وتحولها في النهاية إلى إنسان فإذا هو خصيم مبين ، ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون»^(١٤) .

فصول السورة

يجرى سياق السورة فى عرض موضوعاتها فى ثلاثة فصول :

١ - رسالة ورسول

يستغرق الفصل الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٩) ، ويبدأ بالقسم بالحرفين «يا . سين» وبالقُرآن الحكيم على صدق رسالة النبي ﷺ ، وأنه على صراط مستقيم ، ثم يبين أن القرآن منزل من عند الله ، للإنذار العرب الذين لم ينذر آبائهم من قبل . فوقعوا فيما وقعوا فيه من الغفلة ، وحق العذاب على أكثرهم بسببها ، وقد جرت سنة الله ألا يعذب قوما إلا بعد أن يرسل إليهم من ينذرهم ، ثم وصف حرمانهم من الهداية وإمعانهم فى الغواية ، كأنما وضعت أغلال فى أعناقهم بلغت إلى أذقانهم ، ووضعت سدود بين أيديهم ومن خلفهم فصاروا لا يبصرون ، ويبين أن الإنذار إنما ينفع من اتبع الذكر ، وخشى الرحمن بالغيب ، فاستعد قلبه لاستقبال دلائل الهدى ، ومحيات الإيمان . ثم يوجه النبي ﷺ إلى أن يضرب لهم مثلا أصحاب القرية .

قصة أصحاب القرية :

ضرب الله لأهل مكة مثلا قصة أهل أنطاكية بالشام ، أرسل الله إليهم رسولين ، هما يوحنا ويولس من حوارى عيسى ، فكذبهما أهل القرية ، فأرسل الله ثالثا على درجة من الذكاء فى توجيه الدعوة ، واستمر التكذيب من الكافرين ، وبيان الحجة وأدلة الإيمان من المرسلين . ثم جاء رجل مؤمن يسمى حبيب النجار فدعا قومه إلى الإيمان بالرسول ، فاتهموه بأنه مؤمن ، فأعلن إيمانه فى ظروف حرجة ، وتعرض الرجل للإيذاء والقتل ، فحظى بالشهادة والجنة ، وتمنى لو أن قومه يعلمون منزلته الآن عند الله .

أما القرية الظالمة فقد صاح بها ملك صيحة أهلكتها ، أفلا يعتبر أهل مكة بهذه القرية ، وبالقرون التى هلكت جزاء كفرها ؟ وسيجتمع الجميع أمام الله يوم القيامة ، ويتميز المؤمنون بحسن الثواب ، ويحل بالكافرين سوء العقاب .

٢ - أدلة الإيمان

بعد الحديث فى الدرس الأول عن المشركين الذين واجهوا دعوة الإسلام بالتكذيب ، والمثل الذى ضربه الله لهم فى قصة أصحاب القرية المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم من الهلاك بصيحة الملاك فإذا هم خامدون ، تحدثت الآيات من (٣٠ - ٦٨) عن موقف المكذبين بكل ملة ودين ، وعرضت صور البشرية الضالة على مدار القرون ، ثم أخذت فى استعراض الآيات الكونية ، التى يمررون عليها معرضين غافلين ، وهى مثبتة فى أنفسهم وفيما حولهم .

فالماء الذى يحيى الأرض بأنواع الجنان والنبات والأعشاب ، والليل والنهار والشمس والقمر ، والنبات والإنسان ، وكل ما فى الكون قد أبدع بنظام دقيق ، فللشمس مدارها ، وللقمر مساره ، ولليل وقته ، وللنهار أوانه ، لا يتأخر كوكب عن مواعده ، ولا يختل نظام ، ولا تضطرب حركات الكون : وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس : ٤٠) .

ثم تحدثت الآيات عن عناد المشركين ، واستعجالهم بالعذاب غير مصدقين : وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (يس : ٤٨) .

وبمناسبة ذلك يستعرض مشهدا من مشاهد القيامة ، يرون فيه مصيرهم الذى به يستعجلون : كأنه حَاضِرُ تَرَاهُ الْعِیُونَ .

٢ - وحي لا شعر

يشتمل الدرس الثالث على الآيات من ٦٩ إلى آخر السورة ، ويكاد هذا الفصل يلخص موضوعات السورة كلها ، فينفى فى أوله أن ما جاء به محمد ﷺ شعر ، وينفى عن الرسول كل علاقة بالشعر أصلا ، ثم يعرض بعض المشاهد واللمسات الدالة على الألوهية المنفردة ، وينعى عليهم اتخاذ آلهة من دون الله يبتغون عندهم النصر ، وهم الذين يقومون بحماية تلك الآلهة المدعاة ، ويتناول قضية البعث والنشور ، فيذكرهم بالنشأة الأولى من نطفة ، ليروا أن إحياء العظام وهى رميم كذلك النشأة ولا غرابة ، ويذكرهم بالشجر الأخضر الذى تكون فيه النار ، وهما فى الظاهر بعيدان ، ويخلق السماوات والأرض وهذا الخلق شاهد بالقدرة على خلق أمثالهم من البشر فى الأولى والآخرة ، وفى ختام السورة نجد برهان القدرة الإلهية والإرادة الربانية ، فإله مالك كل شئ فى الدنيا والآخرة ، وإليه المآب والمرجع ، قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسَبِّحْ لِلَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ نَزِيلَ
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ آفَاقًا فَهُمْ إِلَى الْآفَاقِ فَهُمْ
مُقَمَّحُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا نُنذِرُ مَنِ
اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ
نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢﴾

المضردات :

يس، س، تقرأ: (يا، سين)، بمد السين، وإظهار النون الساكنة، أو بإدغام نون السين في الواو
التي بعدها، والمراد من هذه الحروف المقطعة: الاستفتاح والتنبيه مثل: ألا ويا،
والإشارة إلى أن القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها، وقد عجزتم عن الإتيان
بمثله، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر.

والقرآن الحكيم، الواو للقسمة، يقسم بالقرآن ذى الحكمة.

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، أقسم: إِنَّكَ من الأنبياء المرسلين إلى قومهم.

على صراط مستقيم، طريق قويم، من عقائد صحيحة، وشرائع حقة.

حق القول، ثبت ووجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكة.

أفـ لا، جمع غل، وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب.

مقـ حون، رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها، غاضون أبصارهم في عدم التفاتهم إلى
الحق، وهو تمثيل يراد به أنهم لا يدعون للإيمان، ولا يخفون نفوسهم له.

من بين أيديهم ، أمامهم .

فأغشيناهم ، فغطينا أبصارهم وأعميناهم .

الذكر ، القرآن .

خشى الرحمان ، خشى عقابه .

بالغيب ، قبل حلوله ، ومعاينة أهواله .

وأجر كريم ، هو الجنة .

إننا نحن نحيى الموتى ، نبعثهم بعد الموت .

ما قدموا ، ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة .

وأثأروهم ، ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت ، كالعلم والكتاب والمسجد

والمستشفى والمدرسة ، أو من السيئات كنشر البدع والمظالم ، والأضرار والضلالات

بين الناس .

إمام مبين ، أصل يؤتم به ، أو اللوح المحفوظ ، أو صحائف الأعمال .

أسباب النزول :

ورد أن الآيات من ١ - ٧ نزلت حين حاول جمع من كفار قريش ، أن يأخذوا النبي ﷺ ليمنعوه من

تلاوة القرآن ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فلم يستطيعوا إيذاؤه ﷺ .

وأن الآية الثامنة : **إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً** ... نزلت في أبي جهل ، حين قال : لئن رأيت محمداً

لأفعلن به ، فقالوا له : هذا محمد ، فكان يقول : أين هو ، أين هو ؟ لا يبصره .

وورد في سبب نزول الآية الثانية عشرة : **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَخَّرُهُمْ** ...

أخرج الترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه ، عن أبي سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة في ناحية

المدينة ، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد ، فنزلت هذه الآية ، فقال النبي ﷺ «عليكم منازلكم فإنما نكتب

آثاركم»^(٩٧) .

التفسير :

١ - يَس .

قال ابن عباس : معناها يا إنسان . والمراد به محمد ﷺ ، كما يشير إليه الخطاب بعده ، في قوله تعالى : **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** .

وقيل : إن يَس . اسم من أسمائه ﷺ ، فاسمه طه ، واسمه يَس ، واسمه محمد وأحمد ، ومزمل ومدثر ، ويشير ونذير ، واسمه العاقب الذي لا نبي بعده ﷺ .
وقيل : إنها حروف للتنبيه يفتح بها الكلام مثل : أَلَا ، وَيَا .
وقيل : إنها حروف للتحدي والإعجاز .

٢ - **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ** .

وأقسم بالقرآن الحكيم ، المشتمل على الحكمة ، والحكمة صفة العاقل ، وقد كان القرآن حكيما في دعوته ورسالته ، وعرض أدلة الله في هذا الكون ، وحديثه عن قصص السابقين ، وعرضه لشرائع هذا الدين وأدابه ، ووصوله إلى الفكر والقلب والوتر الحساس للإنسان ، في حديثه عن بدء الخليقة ، وعن تكوين الإنسان ، وعن تصوير الميعاد والحساب والجزاء ، وعن ذلة الأصنام ، وضياح الشركاء المزعومين ، وعن تفرد الله تعالى بالقدرة والعزة ، والملك والملوك .

٣ - **إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** .

أقسم الحق تعالى بحروف مقطعة ، وأقسم بالقرآن الحكيم ، على أن محمداً ﷺ من جنس المرسلين ، الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده ، لتعليمهم وإرشادهم ، وفي هذا رد على الكافرين الذين كذبوه ، ووصفوه بأنه شاعر أو مجنون .

٤ - **عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** .

أنت على طريق قويم ، واضح سهل ميسر ، وشريعة سهلة سمحة ، لا تعنت فيها ولا التواء ، وكتاب واضح في بيان العقيدة والشريعة ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وهذا الكتاب ، وهذه الشريعة وهي الإسلام ، بسيطة سهلة ، يفهمها الأمي والمتعلم ، وساكن الكوخ وساكن القصر ، ورجل البادية ورجل المدينة ، والقرآن يعطي لكل إنسان ما يناسبه ، والإسلام دين الله المستقيم ، وقد مدح القرآن الاستقامة .

قال سبحانه: **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتْلُو عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ...** (نصبت: ٣٠).

وفى سورة الفاتحة: **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ.** (الفاتحة: ٦).

وقال رجل: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً أو قل فيه لعلى أعيه، فقال له ﷺ «قل آمنت بالله ثم استقم»^(٣١).

وقال تعالى: **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ...** (الأنعام: ١٥٣).

٥ - **تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.**

استئناف لإظهار فخامة القرآن الكريم الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية، بالقسم به ووصفه بالحكمة، فهذا القرآن كلام الله، وهو تنزيل العزيز الغالب، الرحيم بعباده، ولهذا ففية عزة المؤمنين، وقوتهم وتماسكهم، وهم به خير أمة أخرجت للناس، وهم بالقرآن والتمسك به أهل لرحمة الرحيم.

٦ - **لِنُنْزِلَ قَوْلًا مَا أَنْزَلْنَا آبَاءَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ.**

أنزل عليك القرآن لتنذر به أمة العرب، الذين بعد عهدهم بالرسالة، فقد أرسل إسماعيل منذ فترة بعيدة، ويعد عهد العرب بالرسالة والرسول، لذلك ساد بينهم الجهل، والغفلة عن الإيمان وأسبابه، لأنهم لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، فكثرت فيهم الغفلة، وتجاهل قوانين الله وأحكامه، وآياته فى خلق الكون، وإرسال الرسل، فكان محمد ﷺ بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين.

٧ - **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.**

لقد حق قضاء الله فيهم، حين قال: **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.** (السجدة: ١٣).

لقد حق عليهم عدم الإيمان، بسبب تعنتهم وكفرهم، وإصرارهم على الضلال والغواية، فسلب الله عنهم الهدى، وتركمهم فى غوايتهم.

٨ - **إِنَّا جَعَلْنَا فِيْ أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً سَافِلًا فَهَى إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ.**

قمح البعير: إذا أصابه داء يفرض عليه أن يظل رأسه مرفوعاً، فالكفار أعرضوا عن الحق واستكبروا، وأصروا على الكفر، كأن فى أعناقهم طوقاً من الحديد، يكون ملتقى طرفيه تحت الذقن، فلا يمكن أحدهم من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحا، رأسه مرفوع إلى أعلى، ونظره منخفض إلى أسفل، والمراد أنهم

بتكبرهم وتجبرهم ، كأنهم ممنوعون عن اتباع الحق ، مصورون بصورة إنسان لا يكاد يرى الحق أو يلتفت إلى جهته ، أو يحنى له رأسه .

٩ - وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

لقد عاشوا في ظلام النفس ، وظلام الكفر ، وظلام الإعراض عن الحق ، كأن سدا عظيمًا أمامهم ، يحجب رؤيتهم ، وكأن سدا عظيمًا خلفهم ، وغطينا أبصارهم فهم لا يقدرّون على إبصار شيء أصلاً ، لا من أمامهم ولا من خلفهم .

وقيل : إن الآيتين نزلتا في بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلّي ليرضخن رأسه ، فأثاه وهو يصلّي ، ومعه حجر ليدمغه ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، حتى فكّوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه فأخبرهم ، لكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالأولى أن تظل الآية عامة ، لتشمل كل معرض عن الحق ، ولا مانع أن يكون أبو جهل ضمن من اشتملت عليهم من المشركين ، الذين حق القول على أكثرهم .

١٠ - وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

لكون إعراضهم عن الحق إعراضاً قوياً أصيلاً ، فقد استكبروا في أنفسهم ، وعتوا عتوا كبيراً ، كأنما وضع سدّ أمامهم ، وسدّ خلفهم ، واشتد العمى في أبصارهم ، فلا يرون الحق ولا يهتدون إليه ، ونتيجة لذلك أن إنذارك إياهم أوعدم إنذارك سواء عندهم ، فإذا أنذرتهم لا يؤمنون ، وإذا لم تنذرهم لا يؤمنون ، فلا تأس على كفرهم ، ولا تتعذب بإعراضهم ، فلا فائدة ترجى منهم ، فقد ماتت قلوبهم ، وعميت بصائرهم ، وكلّت عقولهم عن رؤية الحق ، أو البحث عن الهداية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** * **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** . (البقرة : ٦ ، ٧) .

١١ - إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْعَلِيمَ قَبَسْرَهُ بِمُغْفَرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .

إنما ينفع الإنذار وتفيد الدعوة إلى الإسلام القلوب الصالحة ، التي اتبعت القرآن وهدايته ، وأدامت فيه الفكر والنظر ، وتأمّلت في معانيه ، ولم تصرّ على اتباع الشيطان ، بل راقبت ربّها في السرّ والعلن ، وخشيت في الخلوة والجلوة ، فمن كان هذا حاله ، وذلك سلوكه فهو حريٌّ بأن تبشره بمغفرة واسعة ، وأجر عظيم ، لا يقدر قدره .

قال تعالى : وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . (طه : ٨٢) .

١٢ - إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاتَاهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ .

إنا قادرون على إحياء الموتى ، ويعتدهم من قبورهم للحساب والجزاء ، وقد سجلنا لجميع الموتى - مؤمنين أو كافرين ما قدموه وأسلفوه من عمل صالح أو سيئ ، وما تركوه من أثر صالح أو خبيث ، فنجزهم على كل عمل قدموه في حياتهم ، أو تركوا أثره بعد وفاتهم ، نجازيهم بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وقد ضبطنا كل شيء وأحصيناه في سجل مضبوط .

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث ، ويقولون : ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، والسورة مكية تواجه كفار مكة ، وتخبرهم أن البعث حق ، وأن الجزاء من جنس العمل ، والله سيحصي على كل إنسان ما قدمه وما أخره ، ما قدمه من عمل صالح كالصلاة والزكاة والصدقة ، وما أخره وما خلفه بعد موته من وصية نافعة أو بناء ملجأ أو مدرسة أو مستشفى ، أو كتاب علم أو تفسير قرآن ، أو علم تطبيقي يفيد الأمة ، ويأخذ بيدها إلى التقدم والقوة ، كل ذلك يسجله الله ويحاسب عليه ، كما يسجل على الكافرين والفاستين والعابثين ما قدموا من ضلالات وذنابل ، وما أخروا من عمل على نشر الرذيلة والسوء ، في الملامهي أو الكتب الخلية ، أو الأفكار الضالة .

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ .

وكل عمل كائن ما كان قليلاً أو كبيراً ، عظيماً أو صغيراً ، نافعاً أو ضاراً ، بيّناً وحفظناه في إمام مبين ، وأصل عظيم الشأن ، مظهر لما كان وما سيكون ، وهو اللوح المحفوظ الذي يؤتم به ويقتدى ويتبع ولا يخالف .

قال تعالى : وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا • أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) .

وقال عز شأنه : عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَغَيِّرُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى . (طه : ٥٢) .

وقال سبحانه : وَكُلَّ شَيْءٍ قَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ • وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَقَرٌّ . (القمر : ٥٢ ، ٥٣) .

وقال سبحانه : إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجنات : ٢٩) .

وقال تعالى : أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وذهب بعض المفسرين إلى أنه يمكن تفسير هذه الآية بأن الله تعالى يخفى قلوب الكافرين ، ويهديهم إلى الإيمان ، كما صنع يوم فتح مكة ، حين دخل الناس في دين الله أفواجًا ، وحين اتسع صدر الإسلام ، فعفا عن كفر مكة ، وتحول كفار الأمس ، إلى مؤمنين مجاهدين يفتحون فارس والروم ، ومصر وشمال أفريقيا ، حتى دانت ثلاثة أرباع المعمورة بالإسلام ، خلال مائة عام من الرسالة المحمدية ، ونطق باللغة العربية كثيرون ممن دخلوا في الإسلام ، وكانت الثقافة الإسلامية ، واللغة العربية والقرآن الكريم وعلومه التي نشأت حوله ، موردًا صافيًا ، للأمم التي دخلت في الإسلام ، وساعد على ذلك أن الإسلام رسالة عامة للعرب والعجم ، والإنس والجن ، والناس أجمعين .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

من تفسير ابن كثير

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ...

أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار ، الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب : **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُخْفِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** . (الحديد : ١٧) .

وقوله تعالى : **وَنُكْتُبُ مَا قُلْتُمُوهَا ...** أى : من الأعمال .

وفى قوله تعالى : **وَعَاثَرَهُمْ** . قولان ، أحدهما : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وأثارهم التي أثروها من بعدهم ، فنجزهم على ذلك أيضًا ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

وهذا كقوله ﷺ فيما أخرجه مسلم ، عن جرير بن عبد الله البجلي : «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»^(١٨) .

وهكذا الحديث الآخر الذى أخرجه مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده»^(١٩) .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : **وَنُكْتُبُ مَا قُلْتُمُوهَا وَعَاثَرَهُمْ** . ما أورثوا من الضلالة .

وقال سعيد بن جبير : **وَعَاثَرَهُمْ** . يعنى : ما أثاروا .

يقول : مَا سَوَّأَ مِنْ سَنَةٍ فَعَمِلَ بِهَا قَوْمٌ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ الْبَغْوِيِّ .

والقول الثاني : أَنِ الْمَرَادُ بِذَلِكَ أَثَارَ خَطَاهُمْ إِلَى الطَّاعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ : مَا قَدَّمُوا . أَعْمَالَهُمْ وَءَاتَرَهُمْ . قَالَ : خَطَاهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ .

وقال قتادة : لو كان الله عز وجل مغفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره ، وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر ، فيما هو من طاعة الله تعالى أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل .

وقد وردت في هذا المعنى أحاديث : منها ما أخرجه الإمام أحمد ، والإمام مسلم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : «إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك فقال ﷺ : «يا بنى سلمة : دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم»^(١٠٠) .

أى : الزموا دياركم حتى تكتب آثار خطواتكم إلى المسجد .

وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْتُهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ .

أى : وجميع الكائنات مكتوبة في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ .

إِمَامٌ مُبِينٌ . ههنا هو أم الكتاب : قاله مجاهد وقتادة ، وكذا في قوله تعالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ . (الإسراء : ٧١) .

أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر ، كما قال عز وجل : وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالنَّبَاهُءَ ... (الزمر : ٦٩) .

وقال تعالى : وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَنَزَلَ الْمَجْرِمِينَ مِنْهُ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) ^(١٠١) .

قصة أصحاب القرية

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّيْطَانِ فَقَالُوا لِنَا إِلَٰهَ الْيَوْمِ كَمَا كُنَّا لَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا آتَاكُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّا نَعْلَمُ إِنَّا إِلَٰهَكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا نَطْغُرُ نَايَكُمْ لِنَمُنَّ وَهُوَ الرَّحْمَنُ الْكَرِيمُ وَلَيْسَ سَكْرَتُكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِقُونَ أَنْتُمْ وَأَنْتُمْ كَارِهُونَ ﴿٢٠﴾ أَنْتُمْ تَقُولُونَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا ذِي الْفَرْقِ وَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَأَنْتُمْ لَا تَتُحَرِّصُونَ ﴿٢٢﴾ أَنْتُمْ تَقُولُونَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا قَوْمٌ يَمُوتُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَصَوْا رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرُمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات:

واضرب لهم مثلاً، اذكر لهم قصة عجيبة، قصة أصحاب القرية، وضرب المثل يستعمل تارة في تشبيه حال غريبة بأخرى مثلاً، مثل: وضرب الله مثلاً للذين آمنوا أمراًت فرعون... الآية، (التحريم: ١١). وتارة أخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بنظيرة لها، مثل قوله تعالى: وطهرنا لكم الأنثال. (إبراهيم: ٤٥). أي: وبينا لكم أحوالاً غاية في الغرابة كالأمثال.

القرية، قال القرطبي: هذه القرية هي أنطاكية، في قول جميع المفسرين (وهي قرية ببلاد الشام شمالي سوريا).

المرسلون، هم أصحاب عيسى، أرسلهم مقررين لشريعته.

ويرى أ. عبد الكريم الخطيب أن المرسلين هم: موسى، وهارون، والثالث هو مؤمن من

آل فرعون يكتف بإيمانه، وقيل: هم رسل أرسلهم الله إلى القرية مستقلين بالرسالة.

عزّزنا، قوّينا وشدّدنا.

البلاغ المبين، التبليغ الواضح الظاهر للرسالة.

طيطرنا، تشاءمنا، وأصل التطين: التفاؤل والتشاؤم بالطير.

لنرجمنكم، لنرميكنم بالحجارة.

ليمسنكم، ليصيبنكم.

أليم، موجه.

طائركم، سبب شؤمكم.

مسرفون، مجاوزون الحد في العصيان.

أقصى المدينة، أبعد مكان فيها.

رجل، قيل هو حبيب النجار.

يسعى، يعدو ويسرع.

فطرني، خلقني وأبتدأ وجودي.

ترجعون، تردون من الموت إلى الحياة بالبعث.

لا تفنن، لا تنفع.

ولا ينقذون، لا يخلصوني من الضر الذي أرادني الرحمان به.

إنسى إذا، إذا اتخذت من دونه آلهة.

مبين، واضح.

قيل ادخل الجنة، قيل له عند موته: ادخل الجنة.

يأليت قومي يعلمون، تمنى أن يعلموا بحاله وحميد عاقبته، فيؤمنوا مثل إيمانه.

تمهيد:

هذه قصة رسل الله إلى قرية ما ، ومقاومة أصحاب القرية للرسل، وقيامهم بتعطلات باطلة لعدم الإيمان، مثل بشريّة الرسل، ومثل أن الرُّسل شؤم عليهم، وهى تهم باطلة، ناقشها القرآن فى عدد من قصص المرسلين .

فقد شاء الله أن يكون الرسل بشرًا من الناس، يأكلون ويشربون ويمرضون ، وتصيبهم الآفات، والأمراض والأحزان فيصبرون، ويأتيهم النصر والفتح فيشكرون ، وبهذا تتم القدوة والأسوة ، وهى قصة فيها تضحية من الرسل ، وتضحية من حبيب النجار ، أو من شخص مؤيد للرسل جاء من أقصى المدينة ، وأعلن إيمانه بالرسل فى شجاعة ، وقدم الأدلة لقومه عن أسباب إيمانه ، ثم تعرض للبلاء المبين ، حتى مات قتيلا شهيداً فدخل الجنة ، وتمنى لقومه الهداية.

التفسير:

١٣ - وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ .

واضرب أيها الرسول الكريم لكفار مكة ، قصة عجيبة تنطبق على حالهم، قصة رسل من رسل الله تعالى، أرسلوا إلى قرية ما، يدعون للإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر.

وقد ذهب القرطبي إلى أن هذه القرية هى أنطاكية، وهى قرية ببلاد الشام، تقع شمال سوريا، وقيل: إن عيسى بعثهم إلى أنطاكية للدعاء إلى الله تعالى.

ونلاحظ أن سياق القصة يدل على أن هؤلاء الرسل، كانوا من عند الله تعالى.

قال تعالى: إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتِّبِنِ كَذِبُوهُمْ فَمَا فَعَزَّوْنَا بِثَالِثٍ ... (يس: ١٤).

كما نلاحظ أن أهل أنطاكية آمنوا برسل عيسى، وكانوا أول مدينة أمنت بالمسيح عليه السلام، ولهذا كانت عند النصراني إحدى المدائن الأربع اللاتي فيهن بطارقة، وهى: (القدس) لأنها بلد المسيح، و(أنطاكية) لأنها أول بلدة أمنت بالمسيح عن آخر أهلها، و(الإسكندرية) لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطارقة والمطارنة والاساقفة والقساوسة، ثم (رومية) لأنها مدينة الملك قسطنطين، الذى نصر دينهم ووطده.

وقد اختار هذا الرأى ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات وأيده بعدة أدلة (١٠٧).

ونلاحظ أن القرآن الكريم أهمل أسماء أشخاص وبلاد، لأن العبرة لا تتعلق باسم الشخص أو اسم القرية، ومن ثم أغفل القرآن التحديد، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها.

١٧ - وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ .

مهمتنا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا، بالآيات الشاهدة على صدقنا، وبذلك التبليغ نكون قد أدينا المهمة، لأن الهداية من الله، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

١٨ - قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرَّجَمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

قال أصحاب القرية للرسول: إنا تشاء منا منكم، وضائق نفوسنا برويتكم، وكرهنا دعوتكم، وهذه عادة الجاهل عندما يضيئون بأمر ويكرهونه، فإنهم يتشاءمون به، ولا يطيقون رؤيته أو الاستماع لمن يدعو إليه. ثم هددوا الرسول وزجروهم قائلين: إن لم تنتهوا عن الاستمرار فى تبليغ رسالتكم، لنقتلنكم رميا بالحجارة، ولنيزلن عليكم منا صنوف العذاب والآلام.

١٩ - قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

قالوا لهم: إن تطيركم وتشاؤمكم نابع من داخل أنفسكم، ومن تفكيركم السيئ، فنحن لم نفعل شيئا يقتضى تشاؤمكم، كل ما فعلناه أن ذكرناكم بالله، ودعوناكم للإيمان به، وخوفناكم من عذابه، وهذا كله خير، وداع للتفاؤل والسرور، والهدى والإيمان.

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ .

متجاوزون الحد فى الظلم والعتو، ممعنون فى الشرك، تعيشون فيه وتقيمون عليه، والمصائب التى حاقت بكم من سوء أعمالكم.

٢٠ - وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْفِرُكُمْ أَبْعَادُ الْمُرْسَلِينَ .

وصلت دعوة الرسل فيما سبق إلى مرحلة حرجية، أهل القرية يكذبونهم ويهددونهم، ويرفضون دعوتهم، ونجد رجلا فى آخر المدينة قد استقر الإيمان فى قلبه، واطمأن اليقين فى فؤاده، فلم يقبع ساكنا، بل جاء يعدو مسرعا، ينصح قومه بالإيمان، ويقول لهم: يَنْفِرُكُمْ أَبْعَادُ الْمُرْسَلِينَ . الذين يحملون هدى السماء، ووحى الله العلى القدير، ويرشدونكم إلى توحيد الله، والإيمان به ويملائكنه ورسله واليوم الآخر.

٢١ - أَتَبْعُوا مَنْ لَا يَسْتَلِكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ .

إن هؤلاء الرسل لا يطلبون منكم مالا، ولا يبتغون كسبا ولا نفعا، وإنما يقومون بأعمالهم ابتغاء وجه الله، ورجاء هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه استقامة دنياكم، وسعادة آخرتكم.

لقد سلكت الهداية والإيمان قلوبهم، فأرادوا أن ينقلوا إليكم هذه الهداية وذلك الإيمان باله، احتساباً لوجهه وطمعا فى رحمته.

٢٢ - وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لَمْ لَا أَعْبُدُ الَّذِي خَلَقَنِي، ويبدد الخلق والأمر، وملك الدنيا والآخرة، وإليه ترجعون يوم القيامة، فيحكم بينكم بالعدل، ويكافئ المؤمنين، ويعاقب المجرمين، إن هذا الخالق الذى فطرنا وأوجدنا من العدم، من حقه أن يُعبد وأن يُوحَّد، وألا يعبد معه آلهة أخرى .

٢٣ - ءَاتَيْنَاهُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ .

أثبت فى الآية السابقة أن الذى خلقه هو الله، وأن العبادة ينبغي أن تتجه إلى الخالق سبحانه وتعالى، لا إلى الأصنام التى لم تَخْلُقْ، وهى لا تنفع ولا تضر ولا تشفع، ولا تنقذ عابدها من عذاب النار .

ومعنى الآية :

إنه لا يصح لى أن أتخذ من دون الله أصناماً أو آلهة أخرى، كائنة ما كانت هذه الآلهة، لأنه: إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ .

لأن هذه الآلهة لا تملك شيئاً، ويبدد الله كل شيء، وإذا أراد الرحمان أن يصيبني بضر، فإن هذه الآلهة لا تنفعني بشيء، ولا تملك حتى أن تشفع لى عند الله، ولا تملك أن تنقذني من عذاب الله، وبهذا المنطق العقلى ظل هذا المؤمن يناقش قومه ويقدم الأدلة العقلية على وجود الله، وعلى أن بيده سبحانه النفع والضرر وحده، وأن الأصنام والأوثان التى يعبدونها لا تملك شفاعاة له إلى الله ، ولا تملك إنقاذه من عذاب الله، فلماذا يعبدونها إذا .

وَلَا يَقْدِرُونَ . ولا تستطيع هذه الآلهة إنقاذه، وتخلصي مما يصيبني من ضر أراد الرحمان أن ينزله بى .

٢٤ - إِنِّي إِذَا أَنْفَىٰ هَلَكَ مُمْبِينٌ .

إنى إذا عبت من دونة آلهة لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا شفاعاة، ولا إنقاذاً لى، فإننى أكون فى ضلال مبين، وهلاك أكيد، فعبادة غير الله سفه بؤس، وضلال واضح، يضر فاعله فى الدنيا والآخرة.

٢٥ - إِنْىَ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ .

أعلن إيمانه بالله فى غير مواربة ولا تردد، وجعلها صيحة قوية ليسمعوها، فقال: فَاسْمَعُونِ . فاسمعوا إيمانى، وسجلوه علىّ، وقيل: إن أهل القرية قالوا لحبيب التجار، أو لهذا الرجل المؤمن الذى جاء ساعيا: أو أنت على دين هؤلاء الرسل؟ فأجابهم بالإيجاب، وورد أن أهل القرية عذبوه عذابا أليما، حتى خرجت أعضاؤه من دبره، فأتجه جهة الرسل، وأعلن إيمانه بربهم، فى جهر وإعلان ليسمعوا إيمانه، ويشهدوا له عند الله.

والسياق يحتمل هذا وذلك، أى أن يكون خطابه لأهل القرية أو للرسل، كما يثبت لهذا المؤمن الروح القدائية فى تأييد الرسل، والإيمان بالله تعالى، والجهر بهذا الإيمان، وتقديم الأدلة على صدق الإيمان، وعلى بطلان عبادة الأصنام.

قال قتادة: جعلوا يرمونه بالحجارة، وهو يقول: (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون)، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة.

٢٦ - قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتُ قَوْمِي يَعْلَمُونَ .

لقد قتله قومه، وعذبوه عذابا أليما، فقال له الله تعالى عند خروج روحه مؤمنا بالله، مجاهدا فى سبيل الله: ادخل الجنة مع الشهداء الأبرار، الذين هم فى حياة برزخيه أبدية، أرواحهم تسبح فى الجنة، وترد أنهارها وأشجارها، وتتمتع بنعيم الجنة وخيراتها وظلالها ورحماتها.

وحين دخل هذا المؤمن الجنة ورأى نعيمها، تمنى لقومه أن يعلموا هذا الثواب العظيم الذى آل إليه، والنعمة الكبرى التى من الله بها عليه.

٢٧ - بِمَا غَفَر لِي رَبِّيَ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ .

ليتهم يعلمون بمآلى وحسن حالى، ومغفرة ربى لذنوبى، وما نالنى من الكرامة وحسن الجزاء، حتى يعملوا مثل عملى، وينالوا مثل جزائى.

قال العلماء: نصح قومه حيا، ونصح قومه ميتا، وهذا شأن المؤمن المخلص، يحب الخير للناس جميعا.

قال قتادة: لا تلقى المؤمن إلا ناصحا، لا تلقاه غاشئا.

وقال القرطبي في تفسيره :

فى هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم على أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه فى غمار الأشرار، وأهل البغى، والتشمر فى تخليصه، والتلطف فى اقتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام. اهـ
والحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما يرضى ربنا ويحب، اللهم لك الحمد حتى ترضى،
ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

رَبَّنَا ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهِيَ تَأْتِيْنَا مِّنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . (الكهف : ١٠) .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الثاني والعشرين من كتاب الله العزيز، مساء يوم الأحد ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٤٢٠ هـ
الموافق ٨ أغسطس سنة ١٩٩٩ م ، بمدينة بورسعيد بجمهورية مصر العربية.
والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثاني والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
جمال سعيد فهمي

(١) كان يمر باب فاطمة ستة أشهر :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٢٧٠٦) وأحمد فى مسنده (١٢٣١٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : «الصلاة يا أهل البيت ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه إنما تعرفوه من حديث حماد بن سلمة . ورواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٤) من حديث صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج النبی ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٠٥) وفى المناقب (٢٧٨٧) من حديث عمر بن أبى سلمة ربيب النبی ﷺ قال : لما نزلت هذه الآية على النبی ﷺ ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ فى بيت أم سلمة ، دعا فاطمة وحسنا وحسيناً فجعلهم بكساء وعلى خلف ظهره فجعله بكساء ثم قال : «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» ، قالت أم سلمة : وأنا معهم يا نبي الله ؟ قال : «أنت على مكانك وأنت على خير» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث عطاء عن عمر بن أبى سلمة . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٥٤٠) من حديث وثالة بن الأسقع قال : أتيت فاطمة رضى الله تعالى عنها أسألها عن علي قالت : توجه إلى رسول الله ﷺ فجلست أنتظره حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضى الله تعالى عنهم أخذوا كل واحد منهما بيده حتى دخل فادنى عليا وفاطمة فأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه أو قال كساء ثم تلا هذه الآية : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ وقال : «اللهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق» .

(٢) ادعى بعض الشيعة أن هذه الآية خاصة بعلى وفاطمة والحسن والحسين ، دون أزواج النبی ﷺ ، مع أن الخطاب فى الآية لأزواج النبی ﷺ ، وحديث الكساء لا يناقئ إدخال زوجات النبی ﷺ ، إذ ليس فيه صيغة من صيغ التخصيص المعروفة فى القرآن الكريم ، ونصه فى صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مرط مرحل فجاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم...﴾ الآية .

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١٥٢٧ .

(٤) إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين :

رواه أحمد فى مسنده (٢٦٠٣٥) من حديث أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله : ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال قالت : فلم يرعنى منه يوم إلا ودناؤه على المنبر : «يا أيها الناس» قالت : وأنا أسرح رأسى فلغت شعرى ثم دوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد فسمعتة يقول : «إن الله عز وجل يقول ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...﴾ هذه الآية قال عفان ﴿أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾ . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبی ﷺ فقالت : ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء فنزلت هذه الآية ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات...﴾ الآية ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ورواه الترمذى فى التفسير أيضاً (٣٠٢٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يغزو الرجال ولا تغزو النساء وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض...﴾ قال مجاهد : وأنزل فيها ﴿إن المسلمين والمسلمات...﴾ وكانت أم سلمة أول طعينة قدمت المدينة مهاجرة ، قال أبو عيسى : هذا حديث مرسل ورواه بعضهم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت كذا وكذا .

(٥) عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٤) ومسلم فى البر (٢٦٠٧) وأبو داود فى الأدب (٤٩٨٩) والترمذى فى البر (١٩٧١) وابن ماجة فى المقدمة (٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٥) وأحمد فى مسنده (٣٦٣١) من حديث عبد الله عن النبي ﷺ قال «إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» . ورواه أحمد فى مسنده (٤٥) من حديث أوس بن عمرو قال : قدمت المدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ بسنة فألفيت أبا بكر يخطب الناس فقال : قام فينا رسول الله ﷺ عام الأول فخنقته العبرة ثلاث مرار ثم قال : يا أيها الناس سلوا الله المعافاة فإنه لم يؤت أحد مثلاً يقين بعد معافاة ولا أشد من ريبة بعد كفر وعليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وهما فى الجنة ، ولياكنم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وهما فى النار .

(٦) الإحسان أن تعبد الله :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ومسلم فى الإيمان (٩ ، ٨) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجة فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩) ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٧) سبعة يظلمهم الله فى ظله :

رواه البخارى فى الأذان (٦٦٠) وفى الزكاة (١٤٢٣) وفى الرقاق (٦٤٧٩) وفى الحدود (٦٨٠٨) ومسلم فى الزكاة (١٠٢١) ، والترمذى فى الزهد (٢٣٩١) والنسائى فى آداب القضاة (٥٣٨٠) وأحمد (٩٣٧٣) ومالك فى الجامع (١٧٧٧) من حديث أبى هريرة .

(٨) يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٠٥) وفى النكاح (٥٠٦٦ ، ٥٠٦٥) ومسلم (١٤٠٠) وأبو داود فى النكاح (٢٠٤٦) والترمذى فى النكاح (١٠٨١) والنسائى فى الصوم (٢٢٤٠ ، ٢٢٤١) وفى النكاح (٢٢٠٧) وابن ماجة فى النكاح (١٨٤٥) والدارمى فى النكاح (٢١٦٥ ، ٢١٦٦) وأحمد فى مسنده (٣٥٨١ ، ٤٠١٣ ، ٤٠٢٥ ، ٤١٠١) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً : «يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

(٩) تفسير القرطبى ٥٤٢٥/٦ .

(١٠) تفسير القرطبى ٥٤٢٦/٦ .

(١١) انظر تفسير ابن كثير ، فقد كتب كلاماً موقفاً ، اقتبسنا منه ذلك .

(١٢) الرؤيا الصالحة :

رواه البخارى فى التعبير (٦٩٩٠) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا : وما المبشرات ؟ قال : «الرؤيا الصالحة» . ورواه مسلم فى الصلاة (٤٧٩) ، وأحمد (١٩٠٣) ، والنسائى فى التطبيق (١٠٥٤ ، ١١٢٠) ، وأبو داود فى الصلاة (٨٧٦) ، وابن ماجة فى تفسير الرؤيا (٣٨٩٩) ، والدارمى فى الصلاة

(١٢٢٥) من حديث ابن عباس قال : كشف رسول الله ﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال : «أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، ألا وإنني نهيته أن أقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموها فيه الرب عز وجل ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم» . ورواه الترمذى فى الرؤيا (٢٢٧٢) وأحمد فى مسنده (١٣٤١٢) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي» ، قال : فشق ذلك على الناس فقال : «لكن المبشرات» قالوا : يا رسول الله ، وما المبشرات ؟ قال : «رؤيا المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب . ورواه ابن ماجه فى تعبير الرؤيا (٢٨٩٦) والدارمى فى الرؤيا (٢١٢٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٠٠) من حديث أم كرز الكعبية قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «نهيته النبوة ويقيت المبشرات» . ورواه أحمد فى مسنده (٢٣٢٨٣) من حديث أبى الطفيل قال : قال رسول الله ﷺ : «لا نبوة بعدى إلا المبشرات» . قال : قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : «الرؤيا الحسنة أو قال الرؤيا الصالحة» . ورواه أحمد فى مسنده (٢٤٤٥٦) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : «لا يبقى بعدى من النبوة شئ إلا المبشرات» قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال «الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له» . ورواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٨٣) من حديث عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : «لن يبقى بعدى من النبوة إلا المبشرات» فقالوا : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

(١٣) إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وأحمد فى مسنده (١٦٢٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لى أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب» .

(١٤) جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة :

رواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٣) ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٤) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٧) من حديث عبادة ابن الصامت عن النبى ﷺ قال : «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٨) ومسلم فى الرؤيا (٢٢٦٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» . ورواه البخارى فى التعبير (٦٩٨٩) من حديث أبى سعيد الخدرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» .

(١٥) لا يبقى بعدى من النبوة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٢)

(١٦) إن منى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣٤ ، ٣٥٣٥) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن منى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

(١٧) الحزب ٤٣ ص ١٩٤ - التفسير الوسيط بإشراف الأزهري .

(١٨) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان (٦٤٩) وفى تفسير القرآن (٤٧١٧) ومسلم فى المساجد (٦٤٩) والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) والنسائى فى الصلاة (٤٨٦) وابن ماجه فى الصلاة (٦٧٠) وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضا بلفظ «فصل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح» يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، وفى التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦) ومسلم فى المساجد (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٣٣٦، ٩٩٣٦) ومالك فى النذاه للصلاة (٤١٣) من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث .

(١٩) تفسير القرطبي ١٤/ ٢٠٠ .

(٢٠) مكرر مع ما بعده «أمين» ويكون النبىء والنبي اسمين .

(٢١) مكرر مع ما قبله ، ويكون المرسل والمرسل اسمين .

(٢٢) التفسير المنير للأستاذ وهبة الزحيلي ، الجزء ٢٢ ص ٥٠ - ٥٤ .

(٢٣) زوجتكها بما معك من القرآن :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٩) وفى النكاح (٥١٣٢) وأبو داود فى النكاح (٢١١١) والترمذى فى النكاح (١١١٤) وأحمد فى مسنده (٢٢٣٤٣) من حديث سهل بن سعد قال : أتت النبىء ﷺ امرأة فقالت إنها قد وهبت نفسها لله ولرسوله ﷺ فقال : «ما لى فى النساء من حاجة» ، فقال رجل : زوجنيها ، قال : «أعطيها ثوبا» قال : لا أجد قال : «أعطيها ولو خاتما من حديد» فاعتل له فقال : «ما معك من القرآن» قال كذا وكذا ، قال : «فقد زوجتكها بما معك من القرآن» .

(٢٤) اللهم هذا فعلى فيما أملك :

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٣٤) والترمذى فى النكاح (١١٤٠) والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٤٣) وابن ماجه فى النكاح (١٩٧١) ، وأحمد (٢٤٥٨٧) والدارمى فى النكاح (٢٢٠٧) من حديث عائشة ، واللفظ لأبى داود ، وأشار الترمذى إلى تضعيفه .

(٢٥) من كانت له امرأتان :

رواه أبو داود فى النكاح (٢١٣٣) والترمذى فى النكاح (١١٤١) والنسائى فى عشرة النساء (٣٩٤٢) وابن ماجه فى النكاح (١٩٦٩) .

(٢٦) فاستأذن أزواجه أن يعرض فى بيتها :

رواه البخارى فى الوضوء (١٩٨) وفى الأذان (٦٦٥) وفى الهبة (٢٥٨٨) وفى فرض الخمس (٣٠٩٩) وفى المغازى (٤٤٤٢) وفى الطب (٥٧١٤) ومسلم فى الصلاة (٤١٨) واللفظ له من حديث عائشة قالت : أول ما اشتكى رسول الله ﷺ فى بيت ميمونة فاستأذن أزواجه أن يعرض فى بيتها وأذن له قالت : فخرج ويد له على الفضل بن عباس ويد له على رجل آخر وهو يخط برجليه فى الأرض .

(٢٧) انظر إليها فإنه أحرى أن يؤتم :

رواه الترمذي في النكاح (١٠٨٧) والسنائي في النكاح (٢٢٣٥) وابن ماجه في النكاح (١٨٦٥) والدارمي في النكاح (٢١٧٢) وأحمد في مسنده (١٧٦٨٨) من حديث المغيرة بن شعبه أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ : «انظر إليها فإنه أحرى أن يؤتم بينكما» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(٢٨) لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٩١ ، ٤٧٩٢) وفي الاستئذان (٦٢٣٩ ، ٦٢٧١) ومسلم في النكاح (١٤٢٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتعيا للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية .

(٢٩) إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسا كان أو نحوه :

رواه مسلم في النكاح (١٤٢٩) وأبو داود في الأطعمة (٢٧٣٨) وأحمد في مسنده (٦٣٠١) من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : «إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرسا كان أو نحوه» .

(٣٠) لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت :

رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٨) وأحمد في مسنده (٩٢٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت ، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت» .

(٣١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ١٠ - باب ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ .

(٣٢) اللهم صل على محمد :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٠) وفي التفسير (٤٧٩٧) وفي الدعوات (٦٣٥٧) ومسلم في الصلاة (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه ، أنه قيل : يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم بارك على آل إبراهيم كما باركت على آل إبراهيم» . ورواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٩) وفي الدعوات (٦٣٦٠) ومسلم في الصلاة (٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري قال : قلنا : يا رسول الله هذا السلام عليك فكيف نصلي ؟ قال : «قولوا : اللهم صل على محمد وعديك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم» . ورواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٩) وفي الدعوات (٦٣٦٠) ومسلم في الصلاة (٤٠٧) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه ، أنهم قالوا : يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : «قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» . ورواه مسلم في الصلاة (٤٠٥) من حديث أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادَةَ فقال له بشئ من سعد : أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسألنا ثم قال رسول الله ﷺ : «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم» .

(٣٣) من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرين :

رواه مسلم في الصلاة (٤٠٨) وأبو داود في الصلاة (١٥٣٠) والترمذي في الصلاة (٤٨٥) والنسائي في السهو (١٣٩٦) وأحمد في مسنده (٨٦٢٧) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرين» .

(٣٤) إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة :

رواه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧ ، ١٥٣١) والنسائي في الجمعة (١٣٧٤) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) وفي الجنائز (١٦٣٦) والدارمي في الصلاة (١٥٧٢) وأحمد في مسنده (١٥٧٢٩) من حديث أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علي» قال : قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أوتيت ؟ يقولون بليت ، فقال ﷺ : «إن الله عز وجل حرم على الأرض أجساد الأنبياء» .

(٣٥) إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول :

رواه مسلم في الصلاة (٢٨٤) وأبو داود في الصلاة (٥٢٢) والترمذي في المناقب (٣٦١٤) والنسائي في الأذان (٦٧٨) وابن خزيمة في صحيحه (٤١٨) وأحمد في مسنده (٦٥٣٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي ، فإن من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة» .

(٣٦) قال ابن كثير : وهذا أثر حسن ، وقد توسع ابن كثير في فضل الصلاة على النبي ﷺ وآدابها ، وما يتعلق بهذه الآية ، فليرجع إليه من أراد .

(٣٧) أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم :

رواه مسلم في البر (٢٥٨٩) وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤) والترمذي في البر (١٩٣٤) والدارمي في الرقاق (٢٧١٤) وأحمد في مسنده (٧١٠٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «نذكر أخاك بما يكره» قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ، قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته» .

(٣٨) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله :

رواه البخاري في الصلاة (٣٩٢) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤١) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨) والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦) وفي الإيمان (٥٠٣) وأحمد في مسنده (١٢٦٤٣ ، ٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، رواه مسلم في الإيمان أيضاً (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . رواه في مسلم في الإيمان (٢١) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٠) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٢) وفي تحريم الدم (٣٩٧١) وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٧) وأحمد في مسنده (٦٨ ، ٨٦٧٨ ، ٩١٩٠) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم

وأمرهم إلا بحققها وحسابهم على الله». ورواه الترمذى فى التفسير (٣٢٤١) وابن ماجه فى الفتن (٣٩٢٨) وأحمد فى مسنده (١٣٧٩٧ ، ١٤١٥٠) عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» ، ثم قرأ : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لِّسَاءٍ فِى بَعْضِكُمْ مَصِيرٌ﴾ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائى فى تحريم الدم (٢٩٧٩) من حديث النعمان بن بشير قال : كنا مع النبى ﷺ فجاء رجل فساره فقال : «اقتلوه» ثم قال : «أيشهد أن لا إله إلا الله» قال : نعم ، ولكننا يقولها تعوداً فقال رسول الله ﷺ : «لا تقتلوه فإنما أمرت أن أقاتل للناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» . ورواه النسائى فى تحريم الدم أيضاً (٢٩٨٣) وأحمد فى مسنده (١٥٧٢٧) من حديث أوس بن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ثم تحرم دماهم وأموالهم إلا بحقها» . ورواه أحمد فى مسنده (٢٤١) من حديث عمر أنه قال لأبى بكر : كيف تقاتل للناس يا أبا بكر وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر رضى الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها لى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها ، قال عمر رضى الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر رضى الله عنه للقتال فعرفت أنه الحق .

(٣٩) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» . رواه مسلم فى الجهاد (١٧٢٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه فى بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا» . ورواه أحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) من حديث سعيد بن أبى بردة عن أبيه أن النبى ﷺ بعث معاذاً وأباً موسى إلى اليمن فقال : «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا ، وتطاولوا ولا تختفأوا» قال : فكان لكل واحد منهما فسطاط يكون فيه يزور أحدهما صاحبه .

(٤٠) انظر تفسير القاسمى ٥٤٣/٥ نقلاً عن عن الإكليل وفيه ما يفيد : لو أن رجلاً أو أكثر اقتصدوا أثر امرأة ، فغلبوها على نفسها ، ففجروا بها كان عقابهم أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم ، لقوله تعالى : ﴿اعْلُوا وَقْتُوا﴾ .

(٤١) ما المسئول عنها بأعلم من السائل :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٦)

(٤٢) اللهم إني ظلمت نفسى ظلمًا كبيرًا :

رواه البخارى فى الأذان (٨٢٤) ومسلم فى الذكر (٢٧٠٥) . كلاهما عن أبى بكر .

(٤٣) لمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله :

رواه البخارى فى فرض الخمس (٣١٥٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٦٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم حنين أذن النبى ﷺ أناساً فى القسمة فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة مثل ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب فأأنزهم يومئذ فى القسمة ، فقال رجل : والله إن هذه للقسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فقلت : والله لأخبرن النبى ﷺ فأنيت به فأخبرته ، فقال : «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر» .

(٤٤) انظر تفسير ابن كثير .

(٤٥) فى ظلال القرآن ٥١/٢٢ مطابع عيسى البابى الحلبي وشركاه - مصر .

(٤٦) انظر كتاب «المرأة فى الإسلام» د . عبد الله شحاتة ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الباب السادس : زوجات الرسول ﷺ وحكمة تعددهن .

(٤٧) من كانت له امرأتان :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٢٥)

(٤٨) انظر تفسير المنار للآية الثالثة من سورة النساء ، وتفسير الشيخ محمد المدنى للآية فى كتابه : «المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء» ، وتفسير القرآن الكريم : للدكتور عبد الله شحاتة الجزء الرابع ، الآية ٢ من سورة النساء .

(٤٩) انظر ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٥٣/٢٢ - ٥٦ .

(٥٠) قال الفخر الرازى : «معاجزين» حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز ، أى : إبطال عمل الآيات ومنع الناس من التمسك بها ، والعجز عن الوصول إلى هديها .

(٥١) ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٣) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤١٧) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أن داود النبى عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده . ورواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٢) من حديث المقدم رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» .

(٥٢) الفخر الرازى ١٩٦/٩ ، دار إحياء التراث العربى بيروت .

(٥٣) تفسير القرطبي ٥٥٠٩/٦ وفيه : قال العلماء : وذلك للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات حتى يتدرجن على تربية أولادهن ، ثم إنه لا بقاء لذلك ، وكذلك ما يصنع من الحلاوة أو من العجين لا بقاء له ، فرخص فى ذلك ، والله أعلم .

(٥٤) إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصرون :

رواه البخارى فى اللباس (٩٥٠) ومسلم فى اللباس (٢١٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصرون» .

(٥٥) أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣١) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له : «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً» .

(٥٦) أفلا أكون عبداً شكوراً :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣٠) وفى تفسير القرآن (٤٨٣٦) وفى الرقاق (٦٤٧١) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨١٩) والترمذى فى الصلاة (٤١٢) والنسائى فى قيام الليل (١٦٤٤) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٤١٩) وأحمد فى مسنده (١٧٧٣٢) من حديث المغيرة : إن كان النبى ﷺ يقوم ليصلى حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له ، فيقول : «أفلا أكون عبداً شكوراً» . ورواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٣٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٢٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٣٢٢) من حديث عائشة رضى الله عنها أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً» ، فلما كثر لحمه صلى جالساً فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع . ورواه ابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٤٢٠) من حديث أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يصلى حتى تورمت قدماه فقليل له : إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» .

(٥٧) عجبا للمؤمن :

أخرجه مسلم فى الزهد (٢٩٩٩) ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(٥٨) أعطيت خمسا لم يعطهن نبى :

رواه البخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة (٤٢٨) ومسلم فى المساجد (٥٢١ ، ٥٢٣) والنسائى فى الغسل (٤٣٢) وفى المساجد (٧٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم فى المساجد (٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وابن ماجه فى الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الصلاة (٤٨٩) والدارمى فى السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبى ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦) ، (٢٧٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٣٣٦) من حديث أبى موسى رضى الله عنه .

(٥٩) يبعث إلى كل أحمر وأسد :

رواه مسلم فى المساجد (٥٢١) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى كل أحمر وأسد الحديث . وانظر ما قبله .

(٦٠) هرقل سأل أبا سفيان عن رسول الله :

رواه البخارى (٥١ ، ٧ ، ٢٦٨١ ، ٣١٧٤ ، ٤٥٥٣ ، ٦٢٦١ ، ٧١٩٦) ومسلم (١٧٧٣) والترمذى (٢٧١٧) من حديث صخر بن حرب .

(٦١) أخذ الناس بلاء الأنبياء :

بَوَّبَ به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨) ، وابن ماجه فى الفتن (٤٠٢٣) ، وأحمد (١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠) ، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣) ، من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٦٢) إن الله لا ينظر إلى صوركم :

رواه مسلم في البر (٢٥٦٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) وأحمد في مسنده (٧٧٦٨) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

(٦٣) قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقعه الله :

رواه مسلم في الزكاة باب في الكفاف والقناعة (١٠٥٤) والترمذي في الزهد باب ما جاء في الكفاف والمصبر عليه (٢٤٥٢) من حديث عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقعه الله» .

(٦٤) لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة :

رواه الترمذي (٢٣٢٠) وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . ولفظ الترمذي : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً...» الحديث . ولفظه عند ابن ماجه : «والذي نفس بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل...» الحديث . قال السيوطي في زيادة الجامع في تخريج الحديث : الترمذي والحاكم وصححه ، من حديث سهل بن سعد وضعفه الذهبي . قال المناوي في الفقيه : قال الترمذي : صحيح غريب ، وليس كما قال ففيه عبد الحميد بن سليمان أورده في الضعفاء وقال أبو داود : غير ثقة ، ورواه ابن ماجه أيضاً وفيه عنده زكريا بن منظور ، قال الذهبي في الضعفاء : منكر الحديث ، ورواه عنه الحاكم أيضاً وصححه فرداه الذهبي بأن زكريا بن منظور ضعفوه . وقال في موضع آخر : ولتعدد هذه الطرق رمز المؤلف لحسنه .

(٦٥) إن في الجنة غرفا ترى ظهورها :

رواه الترمذي في البر (١٩٨٤) وفي الجنة (٢٥٢٦) وأحمد في مسنده (١٣٤٠) من حديث علي قال : قال النبي ﷺ : «إن في الجنة غرفا ترى ظهورها من بطونها ويطونها من ظهورها» فقام أعرابي فقال : لمن هي يا رسول الله ؟ قال : «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

(٦٦) يا ابن آدم أنفق أنفق عليك :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٤) وفي التوحيد (٧٤٦٩) ومسلم في الزكاة (٩٩٣) من حديث أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال : «قال الله تبارك وتعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك ، وقال : يمين الله المأى» وقال ابن نمير : ملأن سحاء لا يغيضها شيء الليل والنهار .

(٦٧) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان يتزلان :

رواه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) ، وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٦٨) بعثت أنا والساعة جميعاً :

رواه أحمد في مسنده (٢٢٤٣٨) عن بريدة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني» .

(٦٩) ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار :

رواه أحمد في مسنده (١٦٥٩٠) من حديث تميم الداري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به الإسلام وبذلاً ينزل الله به الكفر» ، وكان تميم الداري يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذل والصغار والجزية . قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد ، والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٧٠) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخاري في المغالمة (٢٤٧٨) ، وفي المغازي (٤٢٨٧) وفي التفسير (٤٧٢٠) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٨١) ، وأحمد (٢٥٧٤) والترمذي في التفسير (٣١٢٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وفيه عن ابن عمر . رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٠) ، وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبي هريرة .

(٧١) انظر بصفائهم ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، للغريزي (٣٨٦/١) .

(٧٢) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٩٦/٢٢ .

(٧٣) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ١٣٦/٢٢ .

(٧٤) أنه رأى جبريل له ستمائة جناح :

رواه البخاري في بدء الخلق (٤٨٥٦ ، ٤٨٥٧) ومسلم في الإيمان (١٧٤) سئل زرين جبريل عن قول الله تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَرْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَرَى﴾ فقال : حدثنا ابن مسعود : أنه رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٧٥) اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت :

رواه البخاري في الأذان (٨٤٤) وفي الدعوات (٦٣٣٠) وفي القدر (٦٦١٥) وفي الاعتصام (٧٢٩٢) ومسلم في المساجد (٥٩٣) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥) والنسائي في السهو (١٣٤١) والدارمي في الصلاة (١٣٤٩) وأحمد في مسنده (١٧٦٧٣) من حديث وراد كاتب المغيرة بن شعبه ، قال : أُملي على المغيرة بن شعبه في كتاب إلى معاوية أن النبي ﷺ كان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

(٧٦) ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض :

رواه مسلم في الصلاة (٤٧٧) وأبو داود في الصلاة (٨٤٧) والنسائي في التطبيق (١٠٦٨) وأحمد في مسنده (١١٤١٨) من حديث أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : «ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» .

(٧٧) اللمة : الخطرة التي تقع في القلب ، أو الإيعاز والتوجيه إلى العمل ، أو اللطائف الذي يطوف بالنفس لتحريكها إلى نوازع الشر أو الخير .

(٧٨) إن للشيطان لمة بابن آدم :

رواه الترمذى فى التفسير (٢٩٨٨) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، ثم قرأ ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...﴾ الآية . قال السيوطى فى الدر : أخرجه الترمذى وحسنه والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود .. الحديث ، فذكره مرفوعاً .

(٧٩) إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٢٩٦٩) ، ومسلم فى القدر (٤٧٨١) ، وأحمد (٢٤٤١ ، ٢٨٨٢) ، والترمذى فى القدر (٢٠٦٣) .

(٨٠) من سره أن يسطر له فى رزقه أو ينسأ له :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٦٧) وفى الأذب (٥٩٨٥ ، ٥٩٨٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٥٧) وأبو داود فى الزكاة (١٦٩٣) (١٢١٧٨ ، ١٢١٧٣) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من سره أن يسطر له فى رزقه أو ينسأ له فى أثره فليصل رحمه» .

(٨١) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض :

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (١٢٨٨) ، والترمذى فى الدعوات (٢٣٤٠) ، والنسائى فى قيام الليل (١٦٠١) وأبو داود فى الصلاة (٦٥٥) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٤٥) ، وأحمد (٢٥٧٥) ، ومالك فى النداء للصلاة (٤٥١) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٤٨) .

(٨٢) سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبه وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا نزع بهذه الآية قال : لا إن سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له . وقال : وأخرج العقيلي وابن لال وابن مردويه والبيهقى من وجه آخر عن عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» ، وقرأ عمر ﴿فمنهم ظالم لنفسه...﴾ . وقال : وأخرج ابن النجار عن أنس أن النبى ﷺ قال : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» . قال المناوى فى الفيض : أعله العقيلي بالفضل وقال : لا يتابع عليه .. وفيه أيضاً الفضل بن عميرة القرشى ، قال فى الميزان عن العقيلي : لا يتابع على حديثه ثم ساق له هذا الخبر رواه عنه عمرو بن الحصين وعمرو ضعفوه ا هـ . وتعجب منه ابن معين فكانه استنكره .

(٨٣) من ليس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٨٣٢٢) ومسلم فى اللباس (٢٠٧٣) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «من ليس الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة» . ورواه البخارى فى اللباس (٨٣٢٢) من حديث عبد الله بن الزبير ، عن النبى ﷺ قال : «من ليس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» . ورواه البخارى فى اللباس (٨٣٢٤) ومسلم فى اللباس (٢٠٦٨) من حديث عمر قال : قال النبى ﷺ : «من ليس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» . ورواه مسلم فى اللباس (٢٠٧٤) من حديث أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : «من ليس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة» .

(٨٤) هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٣١) وأبو داود فى الأشربة (٣٧٢٣) والترمذى فى الأشربة (١٨٧٨) وابن ماجه فى الأشربة (٢٤١٤) (٢٢٨٤٨) من حديث حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «الذهب والفضة والحريز والديباج هي لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة» .

(٨٥) أخرجه الإمام أحمد ، ورواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، انظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد ٣ ص ١٤٩ .

(٨٦) رواه ابن أبى حاتم عن أبى أمامة رضى الله عنه ، انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى .

(٨٧) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) . من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحداً عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا وأنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة ، فسدوا وقاربوا ولا يمتحن أحداكم الموت إما محسناً فله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فله أن يستعذب» .

(٨٨) أما أهل النار الذين هم أهلها :

رواه مسلم فى الإيمان (١٨٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٣٠٩) وأحمد فى مسنده (١٠٦٩٣) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناساً أصابتهم النار يذنبونهم - أو قال بخطاياهم - فأما موتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبثون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

(٨٩) أعذر الله إلى امرئ آخر أجله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤١٩) وأحمد فى مسنده (٧٦٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال «أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة» .

(٩٠) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب قوله ﷺ : «إن الله لا ينام...» ١٦/١ رقم ١٧٩ ، وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ، باب أنكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ ، والإمام أحمد فى مسنده ٤٠٠/٤ - ٤٠١ ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ١٥٢ تحقيق محمد على الصابونى .

(٩١) البخارى ، كتاب التفسير ، سورة هود ٩٤/٦ ، ومسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣ .

(٩٢) فى رحاب التفسير ، عبد الحميد كشك ، المجلد الخامس ، المكتب المصرى الحديث ص ٤٥٦١ ، القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللوات ٣٩٣٤١٢٧ .

(٩٣) بصائر ذوى التمييز ٣١٠/١ يتصرف .

(٩٤) انظر بصائر ذوى التمييز ٣٩٢/١ .

(٩٥) في ظلال القرآن ٢٣/٧ .

(٩٦) إن آثاركم تكذب فلا تنتقلوا :

رواه الترمذى في تفسير القرآن (٢٢٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية ﴿إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ فقال رسول الله ﷺ : «إن آثاركم تكذب فلا تنتقلوا» . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٩٧) قل أمت بالله ثم اسقم :

رواه مسلم في الإيمان (٢٨) والترمذى في الزهد (٢٤١٠) وابن ماجة في الفتن (٣٩٧٢) وأحمد في مسنده (١٤٩٩١) ، ١٤٩٩٢ ، ١٤٩٩٣ ، ١٨٩٣٨ ، والدارمى في الرقاق (٢٧١٠ ، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٩٨) من سن في الإسلام سنة حسنة :

رواه مسلم في العلم (١٠١٧) وفى الزكاة (٢٥٥٤) ، والدارمى في المقدمة (٥١٢ ، ٥١٤) ، والترمذى في العلم (٢٦٧٥) ، وابن ماجة في المقدمة (٢٠٢) ، وأحمد (١٨٦٧٥ ، ١٨٧٠١ ، ١٨٧١٨ ، ١٨٧٢٠) من حديث جرير بن عبد الله البجلي . ورواه أحمد (١٠١٧٨ ، ١٠٣٧٠) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد أيضاً (٢٢٧٧٨) من حديث حذيفة ، ورواه ابن ماجة في المقدمة (٢٠٧) من حديث وهب بن عبد الله .

(٩٩) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم في الوصية (٣٠٨٤) ، والترمذى في الأحكام (١٢٩٧) ، والنسائى في الوصايا (٣٥٩١) ، وابن ماجة في المقدمة (٢٣٨) ، وأحمد (٨٤٨٩) ، والدارمى في المقدمة (٥٥٨) . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٠٠) دياركم تكذب آثاركم :

رواه مسلم في المساجد (٦٦٥) وأحمد في مسنده (١٤١٥٦) من حديث جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : «إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد» ، قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ، فقال : «يا بنى سلمة ، دياركم تكذب آثاركم دياركم تكذب آثاركم» . وانظر هامش (٩٦) .

(١٠١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٥٧/٣ باختصار ، ويه عدد من الأحاديث النبوية فمن أراد المزيد فليرجع إليه .

(١٠٢) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٦١/٣ ، حيث اختار ابن كثير أن هؤلاء الرسل رسل مستقلون في رسالتهم إلى قرية ما ، ليست أنطاكية ، وإن كان اسمها أنطاكية فهو توافق أسماء مع قرية أخرى ، غير أنطاكية المسيحية .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الثاني والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣١	﴿ومن يقنط من كن لله ورسوله...﴾	٤٣٠٣
٣٢	﴿يا نساء النبی استن كأحد من النساء...﴾	٤٣٠٣
٣٣	﴿وقرن فی بیوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلیة الأولى...﴾	٤٣٠٣
٣٤	﴿واذکرن ما یتلى فی بیوتكن من آیات الله والحكمة...﴾	٤٣٠٣
٣٥	﴿إن المسلمین والمسلمات والمؤمنین والمؤمنات...﴾	٤٣٠٧
٣٦	﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضی الله ورسوله أمراً...﴾	٤٣١٢
٣٧	﴿وإذ تقول للذی أنعم الله علیه وأنعمت علیه...﴾	٤٣١٢
٣٨	﴿ما كان علی النبی من حرج فیما فرض الله له...﴾	٤٣١٢
٣٩	﴿الذین یبلغون رسالات الله ویخشونه...﴾	٤٣١٢
٤٠	﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالکم...﴾	٤٣١٢
٤١	﴿یا أيها الذین آمنوا اذكروا الله ذکراً كثيراً...﴾	٤٣١٨
٤٢	﴿وسبب حوره بكرة وأصیلأ...﴾	٤٣١٨
٤٣	﴿هو الذی یصلی علیکم وملائکته...﴾	٤٣١٨
٤٤	﴿تحیتهم یوم یلقونه سلام وأعد لهم أجراً کریماً...﴾	٤٣١٨
٤٥	﴿یا أيها النبی إنا أرسلناک شاهداً ومبشراً ونذیراً...﴾	٤٣٢١
٤٦	﴿وداعیاً إلی الله بیأنه وسراجاً منیراً...﴾	٤٣٢١
٤٧	﴿وبشر المؤمنین بأن لهم من الله فضلاً كبيراً...﴾	٤٣٢١
٤٨	﴿ولا تطع الکافرین والمنافقین ودع أناهم...﴾	٤٣٢١
٤٩	﴿یا أيها الذین آمنوا إذا نکحتم المؤمنات...﴾	٤٣٢١
٥٠	﴿یا أيها النبی إنا أحللناک أزواجک...﴾	٤٣٢٦
٥١	﴿ترجى من تشاء منهن وتؤوی إلیک من تشاء...﴾	٤٣٢٦
٥٢	﴿لا یحل لک النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج وأوعیجک حسنن...﴾	٤٣٢٦
٥٣	﴿یا أيها الذین آمنوا لا تدخلوا بیوت النبی...﴾	٤٣٣٢
٥٤	﴿إن تبدوا شیئاً أو تخفوه فإن الله کان بکل شیء علیماً...﴾	٤٣٣٢
٥٥	﴿لا جناح علیهن فی آباتهن ولا أبنااتهن...﴾	٤٣٣٢
٥٦	﴿إن الله وملائکته یصلون علی النبی...﴾	٤٣٣٧
٥٧	﴿إن الذین يؤذون الله ورسوله لعنهم الله...﴾	٤٣٣٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٨	﴿وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا...﴾	٤٣٣٧
٥٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾	٤٣٤١
٦٠	﴿لَنْ يَنْتَهِيَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...﴾	٤٣٤٤
٦١	﴿مُتَعَمِّدِينَ أَيَّنَ مَا تُخَفُّوهُمُ أَخَذُوا وَقَتْلُوا تَقْتِيلًا...﴾	٤٣٤٤
٦٢	﴿سَنَةِ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ...﴾	٤٣٤٤
٦٣	﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ...﴾	٤٣٤٦
٦٤	﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا...﴾	٤٣٤٦
٦٥	﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا...﴾	٤٣٤٦
٦٦	﴿يَوْمَ تَقَلِّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ...﴾	٤٣٤٦
٦٧	﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا...﴾	٤٣٤٦
٦٨	﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ...﴾	٤٣٤٦
٦٩	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى...﴾	٤٣٥٠
٧٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا...﴾	٤٣٥٠
٧١	﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...﴾	٤٣٥٠
٧٢	﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ...﴾	٤٣٥٢
٧٣	﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ...﴾	٤٣٥٢
—	خلاصة ما تضمنته سورة الأحزاب	٤٣٥٩
—	تفسير سورة سبأ	٤٣٦١
—	أهداف سورة سبأ	٤٣٦٢
١	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾	٤٣٦٧
٢	﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا...﴾	٤٣٦٧
٣	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ...﴾	٤٣٦٩
٤	﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	٤٣٦٩
٥	﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ...﴾	٤٣٦٩
٦	﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...﴾	٤٣٦٩
٧	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ...﴾	٤٣٧٢
٨	﴿أَفَنُتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جُنَّةٌ...﴾	٤٣٧٢
٩	﴿أَنلُمُ يَرَوْنَ إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾	٤٣٧٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنْهَا مَفْضِلًا...﴾	٤٣٧٥
١١	﴿أَن أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدْرِفَى السَّرْدِ...﴾	٤٣٧٥
١٢	﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدَوْهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا...﴾	٤٣٧٥
١٣	﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَثِيلٍ...﴾	٤٣٧٥
١٤	﴿فَلَمَّا قُضِيَنا عَلَيْهِ الْمَوْتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ...﴾	٤٣٧٥
١٥	﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ...﴾	٤٣٨٢
١٦	﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ...﴾	٤٣٨٢
١٧	﴿ذَلِكَ جِزْيَانُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهُمْ فِيهَا نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ...﴾	٤٣٨٢
١٨	﴿يَجْعَلُنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً...﴾	٤٣٨٢
١٩	﴿نَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا...﴾	٤٣٨٢
٢٠	﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ...﴾	٤٣٨٢
٢١	﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ...﴾	٤٣٨٢
٢٢	﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	٤٣٨٨
٢٣	﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...﴾	٤٣٨٨
٢٤	﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤٣٩٠
٢٥	﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَهُمْ أَجْرًا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ...﴾	٤٣٩٠
٢٦	﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا...﴾	٤٣٩٠
٢٧	﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ...﴾	٤٣٩٠
٢٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...﴾	٤٣٩٠
٢٩	﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾	٤٣٩٠
٣٠	﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ...﴾	٤٣٩٠
٣١	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ...﴾	٤٣٩٤
٣٢	﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنَحْنُ صَدْدُكُمْ...﴾	٤٣٩٤
٣٣	﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾	٤٣٩٤
٣٤	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا...﴾	٤٣٩٧
٣٥	﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا...﴾	٤٣٩٧
٣٦	﴿قُلْ إِنْ رِئِيسُ الرِّزْقِ لَمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ...﴾	٤٣٩٧
٣٧	﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقْرِيكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى...﴾	٤٣٩٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٨	﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين أولئك...﴾	٤٣٩٧
٣٩	﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده...﴾	٤٣٩٧
٤٠	﴿ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة...﴾	٤٤٠٢
٤١	﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم...﴾	٤٤٠٢
٤٢	﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا...﴾	٤٤٠٢
٤٣	﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا...﴾	٤٤٠٤
٤٤	﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها...﴾	٤٤٠٤
٤٥	﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم...﴾	٤٤٠٤
٤٦	﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى...﴾	٤٤٠٧
٤٧	﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم...﴾	٤٤٠٧
٤٨	﴿قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب...﴾	٤٤٠٧
٤٩	﴿قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد...﴾	٤٤٠٧
٥٠	﴿قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي...﴾	٤٤٠٧
٥١	﴿ولست ترى إذ فزعوا فلا فوت...﴾	٤٤٠٧
٥٢	﴿وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد...﴾	٤٤٠٧
٥٣	﴿وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب...﴾	٤٤٠٧
٥٤	﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم...﴾	٤٤٠٧
—	تفسير سورة فاطر	٤٤١٥
—	أهداف سورة فاطر	٤٤١٦
١	﴿الحمد لله فاطر السماوات والأرض...﴾	٤٤٢٠
٢	﴿وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها...﴾	٤٤٢٠
٣	﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم...﴾	٤٤٢٠
٤	﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك...﴾	٤٤٢٠
٥	﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق...﴾	٤٤٢٣
٦	﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا...﴾	٤٤٢٣
٧	﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد...﴾	٤٤٢٣
٨	﴿أنؤمن زين له سوء عمله فرآه حسناً...﴾	٤٤٢٣
٩	﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا...﴾	٤٤٢٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠	﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً...﴾	٤٤٢٦
١١	﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة...﴾	٤٤٢٦
١٢	﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات...﴾	٤٤٣٠
١٣	﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل...﴾	٤٤٣٠
١٤	﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم...﴾	٤٤٣٠
١٥	﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله...﴾	٤٤٣٤
١٦	﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد...﴾	٤٤٣٤
١٧	﴿وما ذلك على الله بعزيز...﴾	٤٤٣٤
١٨	﴿ولا تـــــــرزوا زرة وزرأـــــــرى...﴾	٤٤٣٤
١٩	﴿وما يستوى الأعمى والبصير...﴾	٤٤٣٨
٢٠	﴿ولا الظلمات ولا النور...﴾	٤٤٣٨
٢١	﴿ولا الظلل ولا الظهور...﴾	٤٤٣٨
٢٢	﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات...﴾	٤٤٣٨
٢٣	﴿إن أنت إلا نذير...﴾	٤٤٣٨
٢٤	﴿إننا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً...﴾	٤٤٣٨
٢٥	﴿وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم...﴾	٤٤٣٨
٢٦	﴿فلم أضنن الذين كفروا...﴾	٤٤٣٨
٢٧	﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء...﴾	٤٤٤١
٢٨	﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك...﴾	٤٤٤١
٢٩	﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة...﴾	٤٤٤١
٣٠	﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله...﴾	٤٤٤١
٣١	﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق...﴾	٤٤٤٤
٣٢	﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا...﴾	٤٤٤٤
٣٣	﴿جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور...﴾	٤٤٤٤
٣٤	﴿وقالوا الحمد لله الذي أنهب عنا الحزن...﴾	٤٤٤٤
٣٥	﴿الذي أحلنا دار المقامة من فضله...﴾	٤٤٤٤
٣٦	﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم...﴾	٤٤٤٩
٣٧	﴿وهم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً...﴾	٤٤٤٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٨	﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤٤٤٩
٣٩	﴿مَوَاسِيءُ يَوْمَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ...﴾	٤٤٥٢
٤٠	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	٤٤٥٢
٤١	﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا...﴾	٤٤٥٢
٤٢	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ...﴾	٤٤٥٥
٤٣	﴿وَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ...﴾	٤٤٥٥
٤٤	﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ...﴾	٤٤٥٥
٤٥	﴿وَلَوْ يَرَأَوْنَ اللَّهَ وَالنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ مِنْ دَابَّةٍ...﴾	٤٤٥٥
—	مجملة ما اشتملت عليه سورة فاطر	٤٤٦٠
—	تفسير سورة يس	٤٤٦١
—	أهداف سورة يس	٤٤٦٢
١	﴿س...﴾	٤٤٦٦
٢	﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ...﴾	٤٤٦٦
٣	﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...﴾	٤٤٦٦
٤	﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ...﴾	٤٤٦٦
٥	﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ...﴾	٤٤٦٦
٦	﴿لَتَنْذِرُنَا قَوْمًا مَا أَنْذَرْنَا أَوْهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ...﴾	٤٤٦٦
٧	﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	٤٤٦٦
٨	﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ...﴾	٤٤٦٦
٩	﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا...﴾	٤٤٦٦
١٠	﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنْذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ...﴾	٤٤٦٦
١١	﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ...﴾	٤٤٦٦
١٢	﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ...﴾	٤٤٦٦
١٣	﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ...﴾	٤٤٧٤
١٤	﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا...﴾	٤٤٧٤
١٥	﴿فَالْوَاوُا أَنْتُمْ إِلَّا بِشْرُ مَثَلِنَا...﴾	٤٤٧٤
١٦	﴿قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ...﴾	٤٤٧٤
١٧	﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ...﴾	٤٤٧٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٨	﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ...﴾	٤٤٧٤
١٩	﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ...﴾	٤٤٧٤
٢٠	﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...﴾	٤٤٧٤
٢١	﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ...﴾	٤٤٧٤
٢٢	﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَالَّذِي تَرْجِعُونَ...﴾	٤٤٧٤
٢٣	﴿أَتُخَذَ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ...﴾	٤٤٧٤
٢٤	﴿إِنِّى إِذَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ...﴾	٤٤٧٤
٢٥	﴿إِنِّى أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ...﴾	٤٤٧٤
٢٦	﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ...﴾	٤٤٧٤
٢٧	﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّى وَجَعَلَنى مِنَ الْمُكْرَمِينَ...﴾	٤٤٧٤
—	تخريج أحاديث وهوامش	٤٤٨٣
—	فهرس الكتاب	٤٤٩٩

تم بحمد الله الجزء (الثاني والعشرون)

ويليه الجزء (الثالث والعشرون) بإذن الله تعالى





تفسير القرآن الكريم
بسم الله الرحمن الرحيم

د عبد الله شحاته

دار عريب

إهداء 2005

أ.د. محمد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

تعذيب مكذبي الرسل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ (٢٨) **إِنْ كَانَتْ**
إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فِإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) **يَحْصِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ**
إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ**
لَا يَرْجِعُونَ (٣١) **وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ** (٣٢) ﴿

المفردات :

صيحة : صوتاً قوياً .

خامدون : ميتون ، وخامدون كما تخدم النار .

يا حصرة : الحسرة : الغم والندم .

القرون : جمع قرن : والمراد بهم : القوم المقترنون فى زمن واحد .

التفسير :

٢٨ - وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ .

أفادت الآيات السابقة أن أصحاب القرية قد اعتدوا على هذا الرجل المؤمن ، الذى جاء يسعى من آخر المدينة لنصرة المرسلين ، وقدم لقومه أدلة عقلية ليؤمنوا بالله ، لكنهم كذبوا هذا الداعية وقتلوه ، فأدخله الله الجنة ، وتمنى لقومه الهداية والإيمان ، وهنا يخبر القرآن الكريم أن الله لم يعتب على قوم هذا المؤمن ، ولم ينزل عليهم وحياً بعد ذلك ، فقد أرسل إليهم الرسل ، وأنزل الوحي على هؤلاء الرسل ، فكذبهم أصحاب القرية ، وقتلوا الرجل المؤمن الذى أخلص لهم النصيحة ، وكان فى هذا ما يكفى من البلاغ والإنذار ، فلم ينزل عليهم من السماء وحى ولا عتاب ، بل نزل العذاب والهلاك .

ويقيد بعض المفسرين : أن الكفار كانوا يستغربون أن يكون الرسول بشراً ، ويقولون : تَوَلَّى أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ ... (الفرقان : ٧) .

فأفاد القرآن أنه لم ينزل ملك كما طلب المشركون ، وما ينبغي أن يكون الرسول ملكاً ، بل الحكمة تقتضى أن يكون الرسول إلى البشر بشراً مثلهم .

وقال بعض المفسرين : ما أنزلنا لعذابهم جنودَ السماء ، كما حدث فى غزوتى بدر وحنين مع محمد ﷺ ، بل كانوا أهون من ذلك ، حيث أخذتهم صيحة ، خرجت معها أزواحهم ، فأصبحوا جثثاً هامدة ، والله تعالى له حكمة فى إهلاك بعض الناس بالصيحة ، أو الخسف ، أو الغرق ، أو غير ذلك .

قال تعالى : فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ يَظْلِمُهُمْ وَلَكِنَّ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٤٠) .
قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ .

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ، لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم جنداً من السماء ، وما احتاج فى إهلاكهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك .

قال ابن مسعود : ما كاثرتناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك .

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَلَمِدُونَ .

فأهلك الله تعالى ذلك المَلِكَ ، وأهلك أهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية .

وقيل :

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ ...

أى : من رسالة أخرى إليهم ، قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ^(١) .

٢٩ - إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَلَمِدُونَ .

ما كان إهلاكهم وعقوبتهم إلا بصيحة واحدة أرسلناها عليهم ، فإذا هم ساكنون سكون الميِّت ، كالنار الخامدة . وفى ذلك تحقير لهم وتقليل لشأنهم .

قال الآلوسى والنيسابورى وغيرهما :

بعث الله عليهم جبريل فصاح بهم صيحة فماتوا ، ثم شُبِّهَ هلاكهم بخمود النار وهو صيرورتها رمادًا ، لأنهم كانوا كالنار الموقدة فى القوة الغضبية ، حيث قتلوا من نَصَحَهم ، وتجبرُّوا على من أظهر المعجزة لديهم . ١ هـ .

والسياق محتمل أن تكون الصيحة من جبريل ، كما قد تكون من صوت العذاب النازل من السماء .

٣٠ - يَلْحَسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

الحسرة انفعال نفسى على حال مؤسفة ، لا يملك الإنسان شيئًا حيالها ، سوى أن يتحسر وتألم نفسه ، والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حال هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ، فهى حال بائسة مؤسفة ، تنتهى بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم .

قال الزمخشري :

قوله : يَلْحَسِرَةُ عَلَى الْعِبَادِ . نداء للحسرة عليهم ، كأنما قيل لها : تعالى يا حسرة ، فهذه من أحوالك التى حُكِّمَ أن تحضرى فيها ، وهى حال استهزائهم بالرسول .

والمعنى : أنهم أحمقاء بأن يتحسر عليهم المتحسرون ، ويتلطف عليهم المتلهفون . ١ هـ .

فما أعظم الحسرة عليهم : تتاح لهم فرصة النجاة فيُعْرَضُونَ عنها ، وأمامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ، ولا ينتفعون بها ، ويفتح الله لهم أبواب رحمته ، بإرسال الرسل إليهم الحين بعد الحين ، ولكنهم يتجافون أبواب الرحمة ، ويسئون الأدب مع الله .

قال الراغب : الحسرة : الغم على ما فات ، والندم عليه ، والمراد بالعباد : مكذبو الرسل ، ويدخل فيهم المهلكون المتقدمون دخولاً أولاً .

٣١ - أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ .

ألم يتدبر الكافرون وينظروا نظر اعتبار وتأمل إلى حال الأمم السابقة التى كذبت أنبياءها ، وجحدت رسالات السماء ، كيف أهلك الله هذه الأمم بصنوف الهلاك ، فبادوا وماتوا ، وانقطع نسبهم ونسلهم ، ولن يعودوا إلى الحياة مرة أخرى ، راجعين إلى الدنيا .

٣٢ - وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ^(٣٢) .

وسيجتمع أهل القرون السابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم ، كما يبعث أهل مكة وغيرهم ، كل هؤلاء سيحشرون في موقف الحساب والجزاء .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ الْآثَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَلَعُ الْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

قال ابن كثير :

وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

أي : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة ، بين يدي الله جل وعلا ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها ، وهذا كقوله جل وعلا : وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لَيُوفِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ ... (هود : ١١١) .

★ ★ ★

دلائل القدرة الإلهية

﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٢) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَاهُمْ مِّنْ مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

المفردات :

الميتة : المجذبة التى لا نبات فيها .

جَنَـاتٍ : بساتين من شجر النخيل والأعناب .

فَجَرْنَا : شققنا وأنبعنا فيها عيوناً كثيرة .

سَبَّحَانَ : تنزيها لله عما لا يليق به .

الأزواج : الأصناف والأنواع المختلفة ، وقال قتادة : الذكر والأنثى .

نسلخ منه النهار : ننزع من مكانه الضوء ، ونزيله ونفصله فيظلم .

لمستقر لها : لحد معين من فلكها تنتهى إليه فى آخر السنة ، والشمس حجمها يبلغ نحو مليون ضعف

حجم أرضنا ، وهى تجرى فى الفضاء لا يسندها شيء ، سوى قدرة القدير سبحانه وتعالى .

قدرناه منازل ، قدرنا له منازل ، مجموعها ٢٧ منزلاً ، والمنازل جمع منزل ، وهى المسافة التى يقطعها

القمر فى يوم وليلة .

العرجون القديم : أصل شمرخ النخل القديم ، وهو اليابس الذى دق وانحنى واصفر ، وهو (القحف) من الجريد .

فَسَى فَلَكَ : الفلك هو المدار الذى يدور فيه الكوكب ، سُمى به لاستدارته كفلكة المغزل .

يسبـحون : يسبـرون ويدورون بانسباط وسهولة .

المشـحون : المملوء .

فلا صريـخ : فلا مغيث لهم من الغرق .

تمهيد :

هذه آيات تدل على مظاهر قدرة الله تعالى ، وآية عملية على البعث والحشر والجزاء ، ولفت الأنظار

إلى مظاهر قدرة الله تعالى فى هذا الكون البديع المنظم المرتب ، وفى حركة الشمس والقمر والليل والنهار ،

والفضاء والهواء ، وبدائع صنع الله العلى القدير .

التفسير :

٣٣ - وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ .

ودليل واضح على قدرتنا على البعث وإحياء الموتى ، هذه الأرض الجذباء التى لا نبات فيها ولا

زروع ولا ثمار ، نسوق الماء إليها ، ويضع الزارع فيها الحب وأنواع الزرع ، فتتهز الأرض وينمو النبات ،

كأنما هو أرواح صفار ، تنمو وتتحرك ، وتكسو الخضرة هذه الأرض ، وتجد فى الأرض الحبّ والذرة والقمح

والشعير، وهى مصدر الأكل الأساسى الذى يعيش عليه الإنسان والحيوان، فالذى أحيا الأرض بعد موتها، قادر على إحياء الإنسان بعد موته.

قال تعالى: **إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى ... (فصلت: ٣٩).**

٣٤ - وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ .

وجعلنا فى الأرض بساتين من النخيل الذى ينبت التمر والبلح والرطب والبُس وسائر أنواع التمر، وأشجاراً من العنب والزبيب، ويجوار ذلك توجد العيون التى تغور بالمياه الجوفية، وخص الله التمر والعنب بالذكر لأنهما غذاء ودواء وفاكهة.

والجنت جمع جنة، وهى كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض، وقد تسمى الأشجار الساترة جنة، من الجنّ وهو الستر، وكذلك الجنّ مستور لا يرى، والمجنّ يستر المقاتل ويحميه من النبال والسهام والرصاص والقذائف، وجنّ الظلام ستر كل ما تحته، والمجنون من عقله غائب مستور لا أثر له، والجنين فى بطن أمه، والأجنة فى بطون الأمهات مستورة لا ترى، فمادة: جنّ، وجنة وجنين، وأجنة، ومجنون، كلها من السّتر.

٣٥ - لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

ليأكلوا من ثمار النخيل والأعناب، طعاما وغذاء وفاكهة، لم تعمله أيديهم، فالمطر لم ينزله، والنبات لم ينبتوه، والهواء والماء والليل والنهار والفضاء والتربة، كل ذلك لم يصنعه، وهى عناصر أساسية لاستكمال حياة التمر والعنب وسائر النباتات، فهلاً شكروا الله الخالق الرازق.

ويجوز أن يكون معنى الآية :

ليأكلوا من ثمار التمر والعنب، ومما صنعه أيديهم من الثمر، كالعصير والدبس والتمر المصنّعة المعبأة، والزبيب المجفف.

وقال الزمخشري :

وما عملته أيديهم من الغرس والسقى والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ منتهاه، وإبان أكله، يعنى أن الثمر فى نفسه فعل الله وخلقه، وفيه آثار من كد بنى آدم . اهـ .

أَفَلَا يَشْكُرُونَ . الخالق الذى يسر لهم ذلك، وأرشدهم إلى الاستفادة به، وحثهم على الشكر، واستخدام النعمة فيما خالقت له، وإخراج زكاتها، وإطعام الناس منها.

٣٦ - سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْسَبُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ .

تنزه الله الخالق القادر، الذي خلق الزوجين الذكر والأنثى، فالنبات أزواج، والإنسان أزواج، والحيوان أزواج، وحتى السحابة والأمطار، سببها تلقيح سحابة موجبة بسحابة سالبة.

وثبت علمياً أن بعض النجوم مشدود في مساره بنجم آخر، وكذلك حركة الأفلاك والشموس والأقمار، وغير ذلك مما لا نعلمه والله يعلمه، بل لا يبعد أن يكون الجماد نفسه أزواجاً حتى الذرة والمجرة.

قال تعالى: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات: ٤٩) .

جاء في المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

الحرف : مِنْ ، في هذه الآية للبيان، أى أن الله تعالى جعل الذكور والإناث فى مخلوقاته كلها، سواء فى ذلك النباتات والحيوانات والبشر ، وما لا يعلمه الناس من الأحياء غير المنظورة .

٣٧ - وَآيَةٌ لَهُمْ الْيَلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ .

من دلائل قدرة الله تعالى تعاقب الليل والنهار ، فإذا سلخ الله الضوء عن الظلام ، انتهى النهار وجاء الليل ، وفى الحديث : «إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا ، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»^(٣) .

وربما أشارت الآية إلى أن الأصل فى هذا الكون هو الظلام ، وأن النور طارئ عليه ، فإذا سلخ الله جلد النور عن الظلام ، صار الناس فى الليل ، وإذا كسا الله الظلام بالضوء والنور ، صار الناس فى النهار .

قال فى ظلال القرآن :

والتعبير القرآنى فى الآية تعبير فريد ، فهو يصوّر النهار متلبساً بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلّمون ، ولعلنا ندرك شيئاً من سرّ هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته ، فالأرض الكروية فى دورتها حول نفسها فى مواجهة الشمس ، تمرّ كل نقطة منها بالشمس ، فإذا هذه النقطة نهار ، حتى إذا دارت الأرض ، وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ، ولغها الظلام ، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلك فيحل محله الظلام ، فهو تعبير مصوّر للحقيقة الكونية أدق تصوير .

٣٨ - وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

الشمس تتحرك بحركة سريعة في مدارها الذي حدده السميع العليم ، وقدره العزيز الغالب ، الذي نظم وأبدع كل شيء ، فالقمر له مساره والشمس كذلك ، والأرض والأفلاك والشموس والأقمار ، كل شيء يسبح في الفضاء بنظام بديع متكامل ، تحركه يد السميع العليم ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، «ونلاحظ أن الشمس تدور حول نفسها ، وكان الظن أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها ، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها ، إنما هي تجرى ، تجرى فعلاً ، تجرى في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل ، بسرعة حسبها الفلكيون باثنى عشر ميلاً في الثانية ، أي قرابة (٤٣,٠٠٠) ثلاثة وأربعين ألف ميل في الساعة الواحدة ، والله ربها الخبير بها ويجريانها ويمصيرها يقول :

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ...

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجرى في الفضاء ، لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود ، عن قوة وعن علم»^(١) ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

٣٩ - وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ .

قدرنا نور القمر منازل ، فله في كل ليلة منزلة ، يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً في الليلة الثانية ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير : كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . وهو أصل العنقود من الرطب ، إذا قدم فذق وانحنى واصفرّ .

قال ابن عباس : وهو أصل العذق ، أي : أصل العنقود من الرطب ، إذا عتق ويبس وانحنى .

٤٠ - لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

للشمس مدار تسبح وتجرى فيه ، وللقمر مدار بعيد جداً عن مدار الشمس يسبح فيه ، وللأرض حركة حول نفسها ، وحركة حول الشمس ، ولكل من الشمس والقمر والأرض مجال خاص بكل واحد منها ، فهو يجري ويسبح ، وخلفه سائر مجموعته ، بسرعة هائلة ، وتقدير عظيم ، بحيث لا يصطدم أي كوكب بالآخر ، ولا يتوانى أي كوكب عن حركته ، فللشمس مجالها ، وللقمر مجاله ، وللأرض مجالها ، وللأرض مجاله ، وللنهار مجاله .

ولا يتسنى للشمس أن تظهر ليلاً فتطمس نور القمر، أو تنير الليل، ولا يتسنى لليل أن يتقدم عن موعده ليطمس نور النهار، بل هما جديداً متتابعان، يعقب النهار الليل ويعقب الليل النهار، بدون تخلف أو تأخر، أو اضطراب أو اصطدام، لأن القدرة الإلهية هي التي تحرك هذا الكون بكل ما فيه.

جاء في هامش المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

وصفوة القول أن الآية الكريمة تنص على أن الشمس تجري لمستقر لها، ولم يتعرف على معانيها العلماء إلا في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، ولا يمكن أن تدرك الشمس القمر، لأن كلا منهما يجري في أفلاك متوازية، فيستحيل أن يتقابلا، كما يستحيل أن يسبق الليل النهار، حيث يتطلب ذلك أن تدور الأرض حول محورها من الشرق إلى الغرب، بدلاً من اتجاهها الحالي من الغرب نحو الشرق، والقمر خلال دورته حول الأرض، ودورة الأرض حول الشمس يمر بمجموعات من النجوم تسمى بمنازل القمر، وفي الربيعين الأول والأخير من الشهر، يظهر القمر كالعرجون القديم، أي: يصير كالسباطة إذا قدمت وابتعدت وأعوجت^(٤).

وجاء في ظلال القرآن ما يأتي :

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

ولكل نجم أو كوكب فلك، أو مدار، لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة، فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال، والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال، وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس ببعد ما بين مجموعتنا الشمسية، وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا، وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة! (أي أن أقرب نجم إلينا يبعد عنّا بنحو مائة وأربعة مليون مليون ميل) وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب، ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع، حتى يأتي الأجل المعلوم، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر، والليل لا يسبق النهار، ولا يزحمه في طريقه، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً، فلا يسبق أحدهما الآخر، أو يزحمه في الجريان !

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

وحركة هذه الأجرام في الفضاء أشبه بحركة السفينة في الخضم الفسيح، فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطة سابحة في ذلك الفضاء المرهوب، وإن الإنسان ليتضائل ويتضائل، وهو ينظر إلى هذه

الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة ، متناثرة فى ذلك الفضاء ، سابعة فى ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح ، وأحجامها الضخمة تائهة فى ذلك الفضاء الفسيح^(١) .

٤١ - وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ .

تشير الآية إلى فضل الله سبحانه وتعالى على بنى آدم ، فحين كَذَّبَ قوم نوح نوحًا ، واستمروا فى عنادهم أغرق الله الكافرين ، وأمر نوحًا عليه السلام أن يصنع السفينة ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، فحمل ذكرًا وأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، وكانت السفينة مليئة موقرة ومشحونة بهذه الأصناف .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

وإطلاق الذرية على الأصول صحيح ، فإن لفظ الذرية مشترك بين الضدين : الأصول والفروع ، لأن الذرية من الدَّرء بمعنى الخلق ، والفروع مخلوقون من الأصول ، والأصول خلقت منها الفروع ، فاسم الذرية يقع على الآباء ، كما يقع على الأولاد .

ومعنى الآية :

وأية أخرى لهم ، أننا حملنا ونجينا المؤمنين فى سفينة نوح ، التى كانت موقرة ومشحونة بأبائهم وأجدادهم وأصولهم ، التى حملت الذرية فى أصلابها ، ثم تناسل الناس بعد ذلك إلى يوم القيامة ، وبذلك دبر الحق سبحانه وتعالى صيانة الجنس البشرى وسلامته ، بنجاة الآباء فى السفينة ، أى : سفينة نوح عليه السلام .

من تفسير ابن كثير

ودلالة لهم أيضًا على قدرته تبارك وتعالى ، تسخير البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين . ولهذا قال تعالى : وَءَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ . أى : آباءهم ، فى الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ . أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله تبارك وتعالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . ا هـ .

٤٢ - وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ .

وخلقنا للناس السفن والزوارق التى كانت بعد سفينة نوح ، وسررنا لهم الهواء والماء وكل شئ ، ليستفيدوا بهذه السفن فى نقل المؤن والتجارة وغيرها ، أو خلقنا لهم الإبل والحمير والبغال وأشباهها ، ليستفيدوا بها فى البر ، كما يستفيدون بالسفن فى البحر .

٣٤ - وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ .

هذه السفن الصغيرة أو الكبيرة فى أعالى البحار ، إذا اشتدت الريح ، وقويت العواصف ، وجدت هذه السفن كالريشة فى مهبّ الرياح ، ويصبح الغرق والموت أقرب إلى الإنسان من شرك نعله ، وحين تأتى العواصف والرياح العاتية ، أو الدّوامات المائية المهلكة ، تهلك السفينة فى وقت قصير ، فلا مغيث لهم يحفظهم مما نزل بهم ، ولا هم ينجون من الغرق بعد وقوعه .

٤٤ - إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتْنًا إِلَىٰ حِينٍ .

لكن برحمتنا الواسعة نحفظكم من المهالك ، ونسيركم فى البرّ والبحر ، ونرزقكم بخيرات السماء والأرض ، ونمتعكم بمتاع الحياة الدنيا إلى انتهاء آجالكم وإلى حين موتكم ، فالإنسان قد ولد وقد سجل معه أجله ورزقه وشقاؤه أو سعادته ، وحين ينجو من الهلاك فى البحر بفضل الله ورحمته ، فهذا الإنقاذ إمتاع بالحياة الدنيا إلى وقت انتهاء أجله ، وقريب من ذلك ما أنشدّه أبو الطيب المتنبى فى وصف الحمى حيث يقول :

تخبّ بى المطىّ ولا أمانى
يملّ لقاء فى كل عام
كثير حاسدى صعب مرامى
فليس تزور إلا فى الظلام
كأنا عاكفان على حرام
مدامعها بأربعة سجام
مراقبة المشوق المستهام
إذا ألقاك فى الكرب العظام
فكيف نجوت أنت من الزحام
مكان للسيوف ولا السهام
وإن أحسم فما حمّ اعتزامى
سلمت من الحمام إلى الحمام

أقبت بأرض مصر فلا ورائى
وملّنى الفراش وكان جنبى
قليل عائدى أسف فؤادى
وزائرتى كأنّ بها حياء
إذا ما فارقتنى غسلتنى
كان الصبح يطردها فتجرى
أراقب وقتها من غير شوق
ويصدق وعدها والصدق شر
أبنت الدّهر عندى كل بنت
جرحت مجرّحاً لم يبق فيه
فإن أمرض فما مرض اضطبارى
وإن أسلم فما أبقى ولكن

وموضع الشاهد أنه إذا سلم من الحمى فلن يخلد فى الدنيا ، بل يسلم من الحمى لوقت محدد ، ثم يلقى

الحمام وهو الموت .

قال ابن كثير :

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ... وهذا استثناء منقطع ، تقديره : ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال تعالى : وَمَتَّعْنَا إِلَىٰ حِينٍ . إلى وقت معلوم عند الله عز وجل ^(٢) .

★ ★ ★

إعراض الكافرين عن آيات الله

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

المضردات :

اتقوا ما بين أيديكم : خافوا واحذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم .

وما خلفكم : عذاب الآخرة ، وقيل : ما بين أيديكم . ما تقدم من ذنوبكم ، وما خلفكم . ما يأتى منها .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات لبيان إعراض الكافرين عن النصيح ، وعن التأمل والتبصر فى آيات الله ، مع شحهم وبخلهم على الفقراء والمحتاجين .

التفسير :

٤٥ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

كان النبى ﷺ يذكرهم بالله ويعظهم ، ويقرأ عليهم آيات القرآن الكريم ، وفيها حديث عما أصاب المكذبين للرسول من العذاب والعقاب .

ومعنى الآية :

وإذا قيل لأهل مكة : احذروا مثل عذاب الأمم التى قبلكم ، وما خلفكم . أى : عذاب الآخرة الذى أعده الله لكم ، لسوء عملكم وإصراركم على كفركم ، أى : اتقوا ما بين أيديكم ، واحذروا أن يصيبكم مثل عذاب قوم نوح وعاد وثمود ، وخافوا الله واحذروا عقوبته بعد الموت ، لعل هذا الخوف يكون سبيلا إلى رحمة الله ولطفه بكم ، إذا قيل لهم ذلك ، أعرضوا وسدوا أذانهم ، وتكبروا ، ودليل ذلك قوله تعالى :

٤٦ - وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ .

لقد تمرّسوا بالضللال والكبرياء الكاذب ، والإعراض عن آيات الله تعالى فى الكون ، وفى خلق السماء والأرض والجبال والبحار والليل والنهار ... ، ثم إعراضهم عن آيات الله التنزيلية التى أنزلها على رسوله ، ومنها آيات القرآن الكريم ، ومنها المعجزات التى أظهرها الله على يد محمد ﷺ ، ومنها الحجج والعلامات الدالة على توحيد الله تعالى ، وكمال قدرته ، ودلائل تفردة سبحانه بالخلق ، واستحقاقه وحده للعبادة ، وعدم إغناء الأصنام عنهم شيئاً .

والخلاصة :

ما تظهر أمام عيونهم من آية من الآيات الدالة على ألوهيته سبحانه ، وتفردة بالألوهية ، إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ . تاركين للنظر الصحيح فيها ، كبراً وعناداً .

٤٧ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَئَلَّيْنِ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

كان أهل مكة على جانب كبير من الغنى والجاه والمال ، ولهم تجارة رابحة تتحرك إلى الشام صيفاً وإلى اليمن شتاء ، ومع ذلك حافظوا على التكبر والعنوّ ، والاستزادة من الخمر والمتعة ، والزهد فى ثواب الآخرة ، وإذا قيل لهم : أخرجوا شيئاً من المال للفقراء والمساكين ، وأطعموا الجائع واكسوا العارى واقدسوا حاجة المحتاجين ، رفضوا ذلك وتعللوا بأن الله هو الذى أفقر هؤلاء الفقراء ، ولو شاء الله لأطعمهم ، فنحن ننفذ مشيئة الله ولا نطعمهم ، وهذه أفكار ضالة : لأن الله تعالى له حكمة ، حيث أغنى بعض عباده ، وأفقر بعضهم ، وحث الأغنياء على العطف ، وإخراج الزكاة والصدقة للفقراء ، وبذلك يصبح المال وسيلة للتعاون والتراحم والترابط ، ونشر المودة والرحمة ، فإله تعالى أفقر وأغنى ، ولكنه ذم البخل والشح .

قال تعالى : وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفْسِهِ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (الحشر : ٩) .

وحت القرآن على الصدقة ، وأمر بالزكاة ، وحث على مساعدة الفقراء واليتامى والمساكين ، ورعاية الجار وصلة الرحم ، وبذلك أصبح للفقير حق معلوم من الزكاة والصدقة والمساعدة ، وأصبح الغنى موظفاً فى ماله ، يتاجر ويربح لكنه مطالب بالزكاة ، ويسد حاجة المحتاجين إذا لم تكف الزكاة .

وعن ابن عباس : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمرؤا بالصدقة على المساكين قالوا : لا والله ، أيققرهم الله

ونطعمهم نحن ؟!

وورد فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآية روايات ، منها ما يأتى :

روى أن أبابكر الصديق - رضى الله عنه - كان يطعم مساكين المسلمين ، فلقبه أبو جهل ، فقال له : يا أبابكر ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء ؟ قال : نعم ، قال : فما باله لم يطعمهم ؟ قال أبو بكر : ابتلى سبحانه قومًا بالفقر ، وقومًا بالغنى ، وأمر الفقراء بالصبر ، وأمر الأغنياء بالإعطاء ، فقال أبو جهل : والله يا أبابكر إن أنت إلا فى ضلال ، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء وهو لا يطعمهم ، ثم تطعمهم أنت ؟ فنزلت هذه الآية .

وقيل : كان العاص بن وائل السهمى إذا سأله المسكين ، قال له : اذهب إلى ربك فهو أولى منى بك ، ثم يقول : قد منعه الله فأطعمه أنا^(١) .

★ ★ ★

الموت والبعث

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولُوكَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدٍ نَاهَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

المفردات :

الوعد : وعد البعث .

صيحة واحدة : نفخة واحدة هى نفخة إسرافيل فى الصور ، حيث يموت جميع الناس .

تأخذهم : تقهرهم وتستولى عليهم فيهلكون .

يخضمون : يختصمون ويتنازعون فى أمورهم غافلين عنها .

الصور : القرن حيث ينفخ فيه إسرافيل النفخة الثانية .

الأجساد، القبور، واحدها جَدَّتْ بفتحتين، أى: قبر.

يَسْرَعُونَ: يسرعون.

الْوَيْلُ: الهلاك.

من مَرَقَدْنَا: من منامنا، أو من موتنا.

تمهيد:

تصف الآيات تشكك الكافرين في البعث والحساب، وسؤالهم عنهما سؤال مُستبعد مستنكر لوقوعهما، وعلى طريقة القرآن الكريم في عرض مشاهد القيامة، فقد عرض نفخة إسرافيل الأولى في الصور، التي تباغت الناس فيموتون في اللحظة تَوًّا، حيث لا يستطيع أحد أن يقدِّم وصية، أو يرجع إلى أهله، وبعد هذه النفخة الأولى يصعق الناس ويموتون، ثم ينفخ إسرافيل نفخة أخرى، تجتمع بعدها الأجسام، ويقوم الناس من القبور، يتساءلون عما حدث، ويلقون الجواب بأنه وعد الله، الذى وعدكم بالبعث والحشر، وأرسل الرسل بذلك، وقد صدقت الرسل، وتأييد ذلك بما تشاهدونه من الموازين والكتب، والحساب والجنة والنار، حيث يلقى كل إنسان جزاء عمله.

التفسير:

٤٨ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.

كان الكفار يستنكرون البعث والحشر، والحساب والجزاء، ويقولون: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر، فلما نزل القرآن الكريم، وكثر حديثه عن البعث والقيامة وأحوالها، قال الكفار للمؤمنين: متى هذا الوعد الذى تعدوننا به؟ سؤال استبعاد لوقوعه.

إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فى قولكم عنه، فأخبرونا بوقت مجيئه، والله تعالى لا يَعْجَلْ لعجلة العباد، وقد فُتِّرَ فى الأزل أجل كل إنسان، وهنا يجيب القرآن بالحديث عن القيامة وأحوالها، لا عن وقتها.

٤٩ - مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صِichةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ.

ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، لا ثانية لها، حيث يموت الناس.

النفخ فى الصور

الصور هو القرن أو النفير، ونجد شيئاً قريباً من ذلك فى الجيش حيث نجد بُروجى (عسكرى) ينفخ فى مكبر للصوت، نوبة صحيان، فيستيقظ جميع المعسكر، وهكذا نوبة غداء، ونوبة عشاء.

وقد أفاد القرآن والسنة، وتفسير ابن كثير وغيره، أن هناك ثلاث نفحات في الصور:

النفخة الأولى: نفخة الفَرَج، حيث تَفَزَع جميع الخلائق.

النفخة الثانية: نفخة الموت، حيث يموت جميع الخلائق، ولا يبقى حيًّا سوى الرحمان جل جلاله.

النفخة الثالثة: نفخة البعث، حيث يقوم الناس لرب العالمين.

ومن العلماء من أدمج النفخة الأولى في الثانية، حيث أفاد أن هناك نفختين:

الأولى: يصعق الناس جميعًا ويموتون أربعين عامًا.

الثانية: يبعثون للحساب.

قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ. (الزمر: ٦٨ - ٧٠).

وقد أفادت السنة الصحيحة أن هذه النفخة الأولى، تأخذ الناس وتفاجئهم بالموت والحذف ونهاية حياتهم، فلا يستطيع إنسان أن يتم أكل اللقمة التي في فمه، أو يشرب من الحوض الذي بناه بالجص والطين، ولا يتم أي موضوع بدأ فيه.

أخرج الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة والرجل يليط حوضه - أي يسده بالطين والجص - فلا يسقى منه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نجسته فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته^(١) إلى فمه فلا يطعمها»^(٢).

٥٠ - فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ.

ترتبط هذه الآية بما قبلها، أي: حين ينفخ إسرافيل في الصور نفخة واحدة، فإن صوت هذه النفخة يأخذهم ويميتهم وتنتهى حياتهم بنفخة واحدة، لا يحتاجون إلى تكرارها، تأتي هذه النفخة وهم سائرون في حياتهم، يتبايعون ويتخاصمون، فلا يستطيع أي واحد منهم أن يتم ما بدأه، أو أن يكمل ما عمله، لأن الموت يفاجئهم، وينهى حياتهم في لحظة، فلا يستطيع أحدهم أن يكتب وصيته، أو يتكلم بها لمن حوله، ولا يستطيع أن يرجع إلى بيته، لأن الموت قد أعجله، ومنعه من كل ذلك، بل إن الموت ينزل به وبمن حوله، وبأهل بيته.

٥١ - وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ .

هذه النفخة الثانية ، وقد ورد أن أهل القبور يهجعون أو ينامون قبل النفخة الثانية ، فإذا نفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، قام الناس من قبورهم ، يسرعون السير إلى ربهم للحساب والجزاء ، والآية تعبير مصور لمرحلة البعث .

فقد أفادت الآية السابقة موت الناس بعد النفخة الأولى موتاً مفاجئاً ، لا يستطيعون معه إنجاز أى عمل فى أيديهم ، وبينما هم فى نومهم يأتى موضوع هذه الآية :

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ .

أى : بعد الموت يأتى دور البعث ، فينفخ إسرافيل فى الصور ، وهو القرن أو النقيير ، فإذا هُوالء الموتى فى أجداثهم - أى قبورهم - قد قاموا من قبورهم يسرون سيراً حثيثاً ، مسرعاً سرعة إجبارية إلى ربهم للحساب والجزاء .

٥٢ - قَالُوا يَنْبُؤُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَلْذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

وحين بُعث الناس من قبورهم ، تساءل الكفار ، وقالوا : يا هلاكنا من هول ما نشاهد ، من الذى أحيانا وبعثنا من قبورنا ؟! وهو تساؤل الإنسان عندما يشاهد هولاً ، فيقول : يا ويلتى ، أى : يا هلاكى احضر فهذا أوان حضورك ، وهى كلمة تقال للتعبير عن الحزن والأسى لما يراه الإنسان مثل قوله تعالى : يَنْبُؤُنَا لَيْتَى لَمْ أَخَذْ فَلَانَا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا . (الفرقان : ٢٨ ، ٢٩) .

ونلاحظ أن الكفار كانوا يتكرون البعث والحساب والجزاء ، والقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، والقبر أصعب مما قبله وأخف مما بعده ، فإذا شاهد الكفار جهنم وأيقنوا بما فيها من عذاب ، رأوا أن ما كانوا فيه فى القبر مثل الرقاد .

وروى عن ابن عباس : أن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون ، فإذا بعثوا بالنفخة الثانية ، وشاهدوا الأحوال قالوا ذلك : يَنْبُؤُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ...

فيقول لهم الله تعالى : هَلْذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . وقيل : من جهة الملائكة .

وقال قتادة ومجاهد : من قبل المؤمنين .

وقال ابن زيد : هذا الجواب من قبل الكفار ، على أنهم أجابوا أنفسهم ، حيث تذكروا ما سمعوه من المرسلين ، أو أجاب بعضهم بعضا : هَلْذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

أى : هذا ما وعد الرحمان عباده ، بالبعث والحشر والجزاء ، وقد صدق المرسلون فى رسالاتهم التى حملوها إلينا ، مذكّرين بالبعث بعد الموت ، والجزاء العادل لكل إنسان بما عمله .

قال ابن كثير : ولا منافاة بين هذه الأقوال إذ الجمع ممكن . ا هـ .

أى أن هؤلاء الكفار يسمعون الجواب من عند الله ، وتحمله الملائكة ، وينطق به المؤمنون ، ويردده الكفار أنفسهم ، بل الكون والمشهد كله ينطق بلسان الحال ولسان المقال : هَلْذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَقَالُوا يَتْلُوَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ * هَذَا يَوْمَ الْقُصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ . (الصافات : ٢٠ ، ٢١) .

وقوله تعالى : وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ (النحل : ٧٧) .

٥٣ - إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ .

أى : ما كانت النفخة التى تمت إلا صيحة واحدة ، نفخها إسرافيل فى الصور ، فإذا هم مجموعون عندنا ، وفى محل حكمنا ، محضرون للحساب من غير تأخر ، وفيه من تهوين أمر البعث والحشر ، والإيذان بقدرة القدير ، وتنفيذ الأوامر فور صدورها .

وفى معنى الآية :

قوله تعالى : فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

وقوله سبحانه : يَوْمَ يُدْعَوُكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٥٢) .

٥٤ - قَالَتِمْ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

قَالَتِمْ ، أى : فهذا يوم القيامة ، ويوم الفصل والحكم بين الناس ، والحكم لله تعالى فى ذلك اليوم ، وهو سبحانه عادل ، وقد حرّم الظلم على نفسه ، لذلك فهو سبحانه لا يبخص الناس شيئا من أعمالهم ، ولا يُنقص حسنة لمحسن ، ولا يزيد فى سيئات مسيء ، بل إن الجزاء من جنس العمل ، والجزاء العادل بالجنة ونعيمها للمتقين ، وبالنار وعذابها للكافرين والظالمين .

قال تعالى : وَلَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

وقال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

ويقول النبي ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تضلون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنتفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل سائل مسألته ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، إلا كما ينقص المحيط إذا وضع فى البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»^(١) .

★ ★ ★

نعيم المؤمنين فى الجنة

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَارِكِ مُتَكِفُونَ ۝٥٦ هُمْ فِيهَا فَكِهِةٌ وَهُمْ مَائِدَعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ۝٥٨ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيَّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

المفردات :

الشغل : الشأن الذى يصد الإنسان ، ويشغله عما سواه ، من شئونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصل مسرة كاملة ، أو مساءة عظيمة .

فاكهون : متلذذون ، أو فرحون ، والفاكه : الطيب النفس الضحوك .

الظلال ، واحدها ظلّ ، وهو ضد الضجّ (ما تصيبه الشمس) .

الأرائك : واحدها أريكة ، وهى سرير منجد مزين ، فى قبة أو فى بيت .

لهم ما يدعون : لهم ما يطلبون ، أى : يتمنون .

استأزوا : تميزوا وانفردوا عن المؤمنين .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم أهل الجنة ، فهم فى نعيم مقيم ، وهم فاكهون مع زوجاتهم يتمتعون بوارف الظلال ، ومُريح الأسيّة ، يتمتعون بالفاكهة ، وكل ما تشتهيه الأنفس ، وتلد الأعين ، ويأتيهم السلام من الربّ الرحيم .

التفسير :

٥٥ - **إِنْ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغْلٍ فَكِهِونَ .**

لقد وعد الحق سبحانه بأن يجازى كل إنسان الجزاء المناسب بعمله ، فى الآية السابقة ، ثم تكلم سبحانه عن نعيم أهل الجنة وسرورهم ، فهم مستغرقون فى النعيم ، قد ملأ عليهم نفوسهم ، وتمتعوا بالملاذ والنعيم المقيم ، ولهم فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قال بعض المفسرين :

شُغْلٌ وأى شغل ، عُرِف الأوتار على ضفاف الأنهار ، تحت أشجار الثمار ، وضيافة الجبار .

والشغل هو الشأن الذى يشغل الإنسان ، ويصدّه عما سواه من شئون ، لكونه أهم عنده من الكلّ ، إما لإيجابه كمال المسرة أو كمال المساءة ، والمراد هنا الأول ، وتنكيره للتعظيم ، كأنه شغل لا يدرك كنهه ، والمراد به النعيم الذى شغلهم عن كل ما سواه .

وعن ابن كيسان : الشغل : التزاور وضيافة الله .

فَكِهِونَ . متلذذون ، متنعمون بالنعمة التى تحيط بهم ، معجبون بما أكرمهم الله به ، والفاكهة والفكه : المتنعم المتلذذ ، ومنه الفاكهة لأنها مما يتلذذ بها ، وكذلك الفكاهة التى هى المزاحة .

٥٦ - **هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلٍّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِينُونَ^(١) .**

إن أصحاب الجنة هم وحلائلهم قد اجتمع شملهم فى ظلال وارفة ممدودة ، يجلسون على الأسيّة ، ويتكئون على الفرش الوثيرة فى متعة ولذة .

والظلال الوارفة نعمة ومسرة ، فلا يستوى الظل ولا الحرور ، وقد صح من رواية الشيخين أن رسول الله ﷺ قال : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، فاقروا إن شئتم : وَظِلُّ مُمْدُودٍ^(١٣) . (الواقعة : ٣٠) .

عَلَى الْأَرْآكِ مُتَكِبُونَ .

على السرر المنجدة المزينة بالسطور متكئون في لذة ومتعة ورضا .

٥٧ - لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ .

لهم في الجنة فاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، مدللة لهم ، إن شاءوا أكلوا وإن شاءوا أمسكوا ، ولهم فيها كل ما يطلبونه ويتمنونه .

قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادَّعَ عَلَى ما شئت ، أى : تمنى عَلَى ، وتقول : فلان في خير ما ادَّعى ، أى : في خير ما تمنى .

٥٨ - سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ .

ما أعظم نعيم أهل الجنة ، فهم في أنس مع أزواجهم ، وراحة وعدم وحدة مع حسن المكان ، وإعطائهم كل ما يحتاجون إليه ، وتلذذهم بالنعيم ، وتلقيهم لأجمل تحية ، كما يقول الفخر الرازي في تفسيره .

إن نعيم الجنة عظيم ، ومعه سعادة ونضارة ، وسرور مقيم ، ورضوان من الله أكبر .

روى ابن أبي حاتم بسنده ، وابن ماجة في كتاب السنّة من سننه ، وجماعة ، عن جابر قال : قال النّبي ﷺ : «بينما أهل الجنة في نعيم ، إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فذلك قوله تعالى : سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ . قال : فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ، ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم»^(١٤) .

وقيل : يسلم الله على أهل الجنة عن طريق الملائكة .

لقوله تعالى : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ . (الرعد : ٢٣ ، ٢٤) .

وعند التحقيق نجد أنه لا منافاة بين القولين ، فאלله تعالى يسلم على أهل الجنة ، والملائكة تسلم عليهم ، فما أعظم نعيمهم ، وما أكرم جزاءهم ، اللهم اجعلنا من أهل الجنة ، واجعلنا من أهل رضوانك ونورك وبركتك في الدنيا والآخرة .

٥٩ - وَامْتَنَزُوا إِلَيْهَا الْمُجْرِمُونَ .

أى : تفرقوا وانفردوا عن المؤمنين ، وانهبوا إلى جهنم ، فهم فى عذاب النار ، وهم فى عذاب آخر ، وهو عذاب الوحدة ، والبعد عن المؤمنين ، وعدم الأنس وعدم السعادة .

يقال : امتاز وتميز القوم بعضهم عن بعض ، إذا انفصل كل فريق عن غيره .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ لَى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ لَى الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ . (الروم : ١٤ - ١٦) .

وقال تعالى : وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ... (يونس : ٢٨) .

★ ★ ★

جزاء المجرمين

﴿ أَلَمْ آعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١٠) وَأَن
أَعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا
تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

المفردات :

ألم آعهد إليكم : العهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة .

عبادة الشيطان ، يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الأمر بها ، والمزين لها .

عدو مبين : عدو واضح العداوة .

هذا صراط مستقيم : هذا العهد طريق لا عوج فيه .

جيل كثير : جماعة عظيمة ، وخلقاً كثيراً ، قال الراغب : الجيل : الجماعة العظيمة ، وقال غيره : الجيل : الأمة ، وهى معانٍ متقاربة .

التفسير :

٦٠ - أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

تحدث القرآن طويلا عن خلافة الإنسان فى الأرض ، وعن خلق آدم وإسكانه الجنة ، وإباحة الأكل له من ثمار الجنة جميعها ماعدا شجرة واحدة ، ثم إغواء الشيطان لآدم وحواء ، وأكلهما من الشجرة ، وخروجهما من الجنة ، وتنبية الله لبنى آدم ، وتحذيرهم من طاعة الشيطان ، الذى أخرج آدم من الجنة ، واستمر فى عداوته لأبناء آدم بالسوسة والتزيين والفتنة ، رغبة فى غواية الإنسان .

قال تعالى : يَبْنَىءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر : ٦) .

فالله تعالى بين فى كتبه المنزلّة ، وعلى لسان الرسل المرسله ، جدّ الشيطان فى إغواء الإنسان كما بين القرآن أن كيد الشيطان كان ضعيفا ، فإذا استعان الإنسان بالله ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعانه الله ونصره .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال سبحانه : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل ٩٩ ، ١٠٠) .

وقد ورد تحذيرنا من الشيطان فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، وفى سورتي الفلق والناس استعاذة ، أى : تحصن واستعاذة بالله ، والتجاء إليه ، ليحفظنا من وسوسة الشيطان .

وفى موقف القيامة يذكر الله الناس بما أنزله فى كتبه وعلى لسان رسله ، بعدم عبادة الشيطان أى بعدم طاعته والسير وراء وسوسته وتزيينه ، بعبادة آلهة أخرى غير الله ، كالأصنام والأوثان والجاه والسلطان والهوى ، والمرأة والمظهر والدينار والدرهم .

وفى صحيح البخارى : «تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد المرأة ، تعس عبد الخميسة ، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الساقه ففى الساقه ، وإن كان فى المقدمة ففى المقدمة ، وإن استأذن لم يؤذن له»^(١٥) .

ونذكر بعض المفسرين أن العهد المذكور فى الآية هو الميثاق المأخوذ على بنى آدم فى عالم الذر ،
والمشار إليه بقوله تعالى : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ
قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ... (الأعراف : ١٧٢) .

وفسر بعضهم عهد : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .

بأن الله أودع فى الفطرة والعقول ، والأفهام والأفئدة والقلوب ، ما لو تأملت فى هذا الكون وما فيه ،
وفى الدنيا وما فيها ، وفى المخلوقات ونظام الليل والنهار ، وسير الشمس والقمر ، وحركة الأرض والسماء
والفضاء وسائر الأشياء ، لو تأملت بفطرتها ومواهبها وعقولها لاهتدت إلى طاعة الرحمان والفرار من طاعة
الشیطان .

ومعنى الآية :

ألم أوصكم يا بنى آدم ، وأنزل إليكم هدى السماء ، وأنصحكم بعدم عبادة الشيطان وعدم طاعته ، لأنه
لكم عدو بالغ العداوة .

٦١ - وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

هذه الآية مكمله لما سبقها ، فالله تعالى عهد ووصى بنى آدم بعدم عبادة الشيطان وعدم طاعته ،
كما وصاهم بعبادة الله تعالى وحده ، فهذا هو الصراط المستقيم والطريق القويم ، أى الاهتداء بهدى الله
وطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه ، والابتعاد عن إغواء الشيطان وفتنته .

وفى معنى الآيتين السابقتين ، وردت آيات كثيرة ، كلها تؤكد عداوة الشيطان للإنسان ، ووجوب
الحذر من طاعة الشيطان والحذر من استدراجه للإنسان ، وأن كيد الشيطان ضعيف ، وأنه سيبتراً ممن أطاعه
يوم القيامة .

قال تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ
مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ ..
بِمَا أَشْرَكْتُكُمْ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

وقال عز شأنه : الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ
عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦٨) .

٦٢ - وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .

لقد زين الشيطان للكافرين كفرهم حتى كذبوا الرسل ، واستحقوا عذاب الدنيا والآخرة .

جِبِلًّا كَثِيرًا . أى : أمما كثيرة ، وجماعات عظيمة ، وخلقاً كثيراً ، فهذا الشيطان قد اخترق صفوفكم ، وأضل جمعا كبيرا ، من الكافرين والمبطلين ، أفلم تشاهدوا ما أصاب المكذبين الذين استهوتهم الشياطين ، ففسدوا دنياهم وآخرتهم ، حتى تغفلوا عن طاعة الشيطان ، وتكونوا فى طريق الرحمان ، وعلى هديه وأمره وصراطه المستقيم .

قال تعالى : وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا . (النساء : ٣٨) .

وقال سبحانه : وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا . (الفرقان : ٢٩) .

وقال سبحانه وتعالى : اسْتَحْذِرُوا عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانَ فَإِنَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أَوْلِيَّكَ فِرْيَانًا أَفَلَا تَحْزَنُ . (المجادلة : ١٩) .

★ ★ ★

مشاهد القيامة

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٦٣) أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾
 الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾
 وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْ يَبْصُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ
 لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ
 نَعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

المفردات :

اصْلَوْهَا : ادخلوها وقاسوا سعيها .

نختم على أفواههم : نمنعها من الكلام .

وتكلمنا أيديهم : كلام دلالة أو نطق .

لطمسنا على أعينهم : لمحونا وأزلنا معالمها .

فاستبقوا الصراط ؛ فسارعوا إلى الطريق .

فأنسى يبصرون ؛ فكيف يبصرون الحق ويهتدون إليه ؟

لمسخناهم ؛ المسخ : تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة .

على مكانتهم ؛ فى أماكنهم حيث يرتكبون القبائح .

نعمَّـره ؛ نطل عمره .

ننكسه فى الخلق ؛ نقلبه فيه ، فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء

أمره ، حتى يُردَّ إلى أرذل العمر .

تمهيد :

تشمثل الآيات على تهديد ووعيد للكافرين بجهنم وسعيرها ، ونطق للجوارح عليهم بالذنوب والسيئات التى ارتكبوها فى الدنيا .

وقدرة الله لا حدود لها ، فאלله قادر على أن يطمس على عيونهم فينعدم البصر ، ثم يتسابقون إلى السير فى الطريق ، فكيف يبصرون مع عمى العيون ؟

ولو شاء لمسخهم فى أماكنهم ، وسلب منهم الحياة ، فلا يستطيعون تقدما للأمام ولا رجوعا للخلف ، وهب أنه لم ينزل بهم العمى ولا المسخ ، فهناك ظاهرة طبيعية تصيب جميع البشر ، هى كبر السن والضعف والشيخوخة ، مع تهقر الحواس ، أفلا يعقلون ، ويغتمنون الوقت ، ويسارعون إلى الإيمان قبل عقوبة الآخرة ، أو قبل ضياع الفرصة فى الدنيا ؟

يقول النبى ﷺ : «اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك ، وصحتك قبل سقمك ، وحياتك قبل موتك ، وفراغك قبل شغلِكَ» .

التفسير :

٦٣ - هَلْدِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

من شأن القرآن أن يتحدث عن الآخرة ، وأن يعرض القيامة كأنها ماثلة أمام الإنسان ، وفى ذلك اليوم يقال للكفار : هَلْدِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ .

أى : هذه جهنم ، بما فيها من عذاب وسعير ، وحريق ومهانة ، التى وعدكم بها رسلى وكتبى ، فهى مأل كل كافر .

قال تعالى : إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَنَآبًا . (النبا : ٢١ ، ٢٢) .

٦٤ - آصْلُوهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ .

ذوقوا سعيها ولهيبتها وعذابها ، بسبب إصراركم على الكفر فى الدنيا ، والإعراض عن الرسل .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَلْهِيَ آتَارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . (الطور: ١٣ ، ١٤) .

٦٥ - الْيَوْمَ نَخِيمُ عَلَى أَقْرَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

فى ذلك اليوم ينكر الكفار كفرهم وجرائمهم التى فعلوها فى الدنيا ، فيختم الله على أفواههم فلا تنطق ، ويأمر الجوارح أن تشهد عليهم بما اجترحوه من المعاصى ، فتنتطق اليد وترشد إلى المعاصى التى ارتكبتها ، وتنطق الرُّجُل وتشهد بالمعاصى التى اجترحتها وفعلتها .

قال المفسرون :

وشهادة الأيدى والأرجل عليهم دلالتها على أفعالها ، وظهور آثار معاصيها عليها .

وقيل : ذلك على الحقيقة ، بأن ينطقها الله فتتكلم وتشهد ، ويؤيد ذلك ما ماورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

قال تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَ لَا يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ . (النور: ٢٤ ، ٢٥) .

وقال تعالى : وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودُنَا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (فصلت: ١٩ - ٢١) .

وفى كتب السنة النبوية ما يفيد أن الله يضع كَنَفَهُ على المؤمن ، ويذكره بذنوبه التى فعلها فى الدنيا ، فيعترف بها لرَبِّه ، ولا ينكر منها شيئا ، فيقول له الله تعالى : لقد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، وأما الكافر فينكر أنه فعل شيئا من الذنوب ، فتنتطق جوارحه عليه ، وتفضح جوارحه على رموس الأَشْهاد .

روى ابن أبى حاتم ، والإمام مسلم ، والنسائى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال ﷺ : «أتدرون مم أضحك ؟» قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ :

«من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : ربِّ أَلَمْ تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أُجيز على إلا شاهداً من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، وبالكرام الكاتبين شهدا ، فيختم الله على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بعمله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعْداً لَكَ وسحقا ، فعنكَ كنت أناضل»^(١٧).

وخلاصة معنى الآية :

اليوم نغضى على أفواههم فلا تنطق ، وتكلمنا أيديهم ، وتنطق أرجلهم شاهدة عليهم بما كانوا يعملون.

وجاء فى حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

قال الكرختى : أسند سبحانه فعل الختم إلى نفسه ، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدى والأرجل ، لئلا يكون فيه احتمال أن ذلك منهم كان جبرا ، أو قهرا ، والإقرار مع الإيجاب غير مقبول ، فقال : وَتَكَلَّمْنَا أَيَّدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ... أى باختيارها ، بعد إقدار الله لها على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم . اهـ .

٦٦ - وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُصِرُّونَ .

إنهم جميعا داخل سيطرة القدير ، الفَعَال لما يريد ، فلو شاء سبحانه لطمس عيونهم ، وسلب نورها ، ثم يتسابقون إلى الطريق المستقيم ، فكيف يبصرون والعمى قد أذهب أبصارهم ؟
وتحتمل الآية معنى آخر هو :

لو نشاء سلبنا عنهم الهداية ، وأعمينا بصيرتهم ، فإذا حاولوا السير فى طريق الإيمان والإسلام ، فلن يتذوقوا حلاوته ، ولن يبصروا هدايته ، وكماله وجماله .

قال ابن عباس : لو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟

وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عميا يترددون .

وقال ابن زيد : فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ... يعنى بالصراط هنا الحق ، فأنى يبصرون وقد طمسنا على أعينهم ؟

٦٧ - وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ .

ولو نشاء لغيرنا صورهم إلى صور قبيحة ، أو حجارة أو قردة أو خنازير أو جعلناهم قعودا على أرجلهم ، مع ما لهم من مكانة ومنزلة فى الدنيا ، فإنا قادرون على سلب القوة منهم ، وجعلهم يتحجرون فى أماكنهم ، فلا يستطيعون مضيا وتقدما للأمام ، ولا يستطيعون رجوعا وتقهقرا للخلف ، فقد سلبت منهم القدرة على الحركة .

ومقصود هذه الآية ، والآية السابقة عليها التهديد ، وبيان أنهم يستحقون العمى ، أو المسخ ، ولو شاء الله لفعل بهم ذلك ، لكنّه يمهّلهم ، علّهم أن يتوبوا أو يتذكروا ، على حد قوله سبحانه : وَلَوْ يُوَآخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا . (فاطر : ٤٥) .

٦٨ - وَمَنْ نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ .

أى : ماذا ينتظر هؤلاء الكافرون الذين أعرضوا عن الهدى ، واستمروا فى هذا الضلال ، إن الله تعالى إن شاء أعماهم أو مسخهم ، وحتى إذا تركوا على حالهم فلا بد أن تتقدم بهم السن ، حيث يردون إلى أرذل العمر ، فتضعف قواهم ، ويتحولون من النموّ والزيادة فى حالة الطفولة والشباب ، إلى النقص والذبول فى حالة الشيخوخة ، حيث يضعف السمع والبصر والجوارح .

وكان من دعاء النبى ﷺ : «اللهم إنى أعوذ بك أن أَرُدَّ إلى أرذل العمر»^(٩٧) .

وفى معنى الآية قوله تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وقوله سبحانه : وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ... (الحج : ٥) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

والمراد من هذا -- والله أعلم -- الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار ، ولهذا قال عز وجل : أَفَلَا يَعْقِلُونَ ؟

أى : يتفكرون بعقولهم فى ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى ، لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة^(٩٨) .

وجاء فى هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

ومن نطل عمره نردّه إلى عكس ما كان عليه من القوة ، فيصبح ضعيفاً ، وذلك لأن حياة الإنسان تأخذ ثلاث مراحل : نموّ ، ونضج ، وضمور النسيج الحشوى ، فى الكلى والكبد والغدة الدرقية والبنكرياس ، وهذا له أثر فى إضعاف الجسم كله ، وتبدأ كذلك الشرايين فى التصلّب والضمور ، وبذلك يقلّ الدم الزاغب إلى جميع أعضاء الجسم ، فيزيده ضعفاً على ضعف ، ومن أسباب الشيخوخة زيادة قوى الهدم ، على قوى البناء فى الجسم ، Metabolism وذلك أن خلايا الجسم كلها فى تغير مستمر ، وكذلك خلايا الدم ، ما عدا خلايا المخ والنخاع ، فإنها لا تتغير مدى الحياة ، فإذا كانت نسبة تجدد الخلايا كنسبة هلاكها ، لا تظهر

الأعراض، أما إذا زادت نسبة هلاك الخلايا، على تجدها في أى عضو، ظهر ضмор هذا العضو، وعلى ذلك فكلما تقدمت السن تضاءلت نسبة التجدد، وزادت نسبة الانحلال الخلوى، وظهر الضмор العام، وتختلف نسبة التجدد والضмор باختلاف نوع الأنسجة، فالظاهر منها كالبشرة الكاسية للجسم، والأغشية المبطنة للقنوات الهضمية، وقنوات الغدد، تضممر بنسبة أكبر، كلما تقدمت السن بالإنسان، وهذا هو السبب المباشر لأعراض الشيخوخة^(١٩).

★ ★ ★

محمد ليس شاعرًا بل رسول الله

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

المفردات :

وما ينبغى له : لا يليق به ولا يصلح له .

ذكر : عظة من الله وإرشاد للثقلين .

وقرآن مبين : وكتاب مقروء واضح يقرأ للاعتبار .

حيًا : حى القلب مستنير البصيرة .

ويحق القول : ويثبت القول بالعذاب ، ويجب على الكافرين .

التفسير :

٦٩- وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ .

لا شك أن القرآن الكريم قد أدهش العرب ، ودخل عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الحس ، ولفت أنظارهم إلى الكون وما فيه ، وذكرهم بالأمم السابقة ، ووضع أمامهم القيامة والبعث والحشر ، والحساب والصراط والميزان واللجنة والنار ، وقد أحس الكفار أنه كلام فوق طاقتهم ، وقال بعضهم : إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر ، لكنهم لم يؤمنوا بالقرآن ، ولم يتبعوا الرسول ، وتعددت اتهاماتهم للرسول وللقرآن ، ومن هذه التهم : أن محمدًا شاعر يجيش صدره بالكلام فيخرجه رفيحًا عاليًا ، فنفي عنه القرآن هذه التهمة .

ومعنى الآية :

ما نزل جبريل ليعلمه الشعر ، وليس ذلك فى طبيعة محمد ، فالشعر خيالات وأوهام ، وله بحور وقوافر ، وأغراض معروفة ، وأعذبه أكذبه ، والقرآن هداية من الله ، ومواعظ معلومة ، ووحى نزل من السماء ، داعياً إلى توحيد الله ، متحدثاً عن العقيدة الإسلامية ، وما ينبغي لله من كمال وصفات ، كالقدرة والإرادة والسمع والبصر ، وما يحتاج إليه الناس من صنوف العبادات والمعاملات ، فمحمد ﷺ ليس شاعراً ، والقرآن ليس شعراً ، ولا فنّاً من فنون القول ، لأن القرآن كتاب الإسلام قد أحيا أمة ، وقدم فكرة ، وأنشأ دولة ، وعلم الناس أجمعين آداباً وأحكاماً وهدايات ، ولو أنصف الكفار لقالوا : القرآن شئ فوق الطاقة ، فيه ما لا نقدر عليه ، ونحن نتخرّص فى القول ، ونوجّه التهم إليه وإلى محمد ، ولو أنصفوا صادقين لقالوا : القرآن وحى من السماء .

قال تعالى : رَجَعُوا بِهَا وَاسْتَفْتَيْنَاهَا أَنْفُسُهُمْ ... (النمل : ١٤) .

وقال سبحانه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقد حدث أن النبى ﷺ قال بعض عبارات قابلة لأوزان الشعر ، مثل قوله يوم حنين : «أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب»^(٢٠) .

وهذا لا يجعل صاحبه شاعراً ، لأنه كلام يرد على خاطر من غير قصد إلى الشعر ، ولا تكلف له ، ولا التفات منه إليه ، إن جاء موزوناً ، كما يتفق فى كثير من إنشاءات الناس ، فى خطبهم ورسائلهم ، أشياء موزونة ، ولا يسميها أحد شعراً ، ولا يخطر ببال السامع ولا المتكلم أنها شعر .

وقد ذكر الزمخشري فى الكشف ، والآلوسى فى تفسيره وغيرهما الحكمة من ذلك .

فقال الزمخشري :

وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ... أى : وما يصح له ، ولا يتطلبه إن طلبه ، أى : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له ، ولم يتسهل كما جعلناه أمياً .. لتكون الحجة أثبت والشبهة أدهض ... اهـ .

موقف الإسلام من الشعر

نزل القرآن الكريم عربياً مبيناً ، مشتملاً على صنوف البيان ، وألوان الإعجاز ، وأرقى الأساليب ، وأفصح ألوان البيان ، وكان النبى ﷺ فصيحاً بليغاً ، وقال ﷺ : «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش واسترضعت فى بنى سعد بن بكر» .

فقد جمع الله له البيان ، والقول الحسن ، والمعرفة الكاملة بسياسة الأمم ، وحسن الدعوة ، وتألف القوم ، حتى كان سبباً في جمع كلمة الإسلام ، وإحياء أمته .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا آتِيْنَا إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَذَاعِيَإِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا** . (الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦) .

وقد وردت أحاديث صحيحة تذكّر الشعر وتنبه عنه ، كما وردت أحاديث صحيحة تمدح الشعر وتحث عليه ، وقد بين العلماء الثقات طريقة التوفيق بين هذه الأحاديث فقالوا : المنهى عنه من الشعر ما كان في الهجاء وذكر العورات والفخر الممقوت والمدح الكاذب ، والمحمود من الشعر ما كان فيه تمجيد للفضائل ، ودعوة إلى مكارم الأخلاق ، وآداب الإسلام ، والمحامد والمثل العليا .

وقد كان النبي ﷺ يطرب للقول الجيد ، والخطب الفصيحة ، والشعر الحسن ، فكانت الخنساء تنشد الشعر بين يديه ، وكان يستجيد شعرها ، ويقول : « هيه يا خناس » . وقال ﷺ لأحد أصحابه : « هل تحفظ شيئاً من شعر أمية بن أبي الصلت » ؟ قال : نعم ، فأنشده بيتاً ، فقال ﷺ : « هيه » ، فأنشده آخر حتى أنشده مائة بيت ، وقال ﷺ عن أمية بن أبي الصلت : « أسلم شعره ، وكفر قلبه » . وقال ﷺ : « إن كاد أمية ليسلم » .

وقد استجاد النبي ﷺ شعر كعب بن زهير ، وكان ﷺ قد أهدر دمه عند فتح مكة ، مع عدد ممن كثرت جرائمهم ، وحاول كعب بن زهير أن يتشفع بأبي بكر الصديق فأبى عليه ، فجاء كعب بن زهير وأنشد بين يدي النبي قصيدة مشهورة جاء فيها ما يأتي :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول	متنيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ ظهرت	إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ثم يقول :

وقال كل صديق كنت آمله	لا ألفينك إنني عنك مشغول
فقلت خلّوا سيبلى لا أباكمو	فكل ما قدر الرحمان مأمول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته	يوماً على آلة حذاء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هذاك الذي أعطاك نافلة	القرآن فيها مواعظ وتفصيل
إن الرسول لنور يستضاء به	مهند من سيوف الله مسلول

وهنا خلق النبي ﷺ البردة التي كان يلبسها ، وأعطاهها هدية لكعب بن زهير ، كدليل على استجادته لشعره .

لقد كان ﷺ فى الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ، وتذوق الشعر ، وكان يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد ، ليلقى عليه الشعر ، ويقول له النبى ﷺ : «اهجهم وروح القدس معك» .

وقد صح أن النبى ﷺ أنشد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك ما لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا يا رسول الله ، فقال ﷺ : «إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى» .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن : أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت هكذا : «كفى بالإسلام والشيب ناهياً للمرء» .

والرواية : كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً .

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغى لك .

لقد أراد الله أن يكون النبى أمياً لتكون الحجة أتم ، والبرهان على المشركين أقوم ، كذلك منعه قول الشعر ، حتى لا يكون لهم حجة ، أن يدَّعوا عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها ، والأباطيل التى ينمقها ، وليس بوحى من عند ربه .

وقد سبق أن تكلمنا باستفاضة فى هذا الموضوع عند تفسير قوله تعالى : وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . (الشعراء : ٢٢٤ - ٢٢٧) .

فمن أراد المزيد فى هذا الموضوع فليرجع إلى تفسيرى لهذه الآيات .

٧٠ - لَيْلِئِدَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

القرآن الكريم ليس شعراً ، ومحمد ﷺ ليس شاعراً ، وما ينبغى أن يكون شاعراً ، وما الوحي إلا وعظ وهداية وتوجيه ، وقرآن واضح المنهج منير للطريق ،

لَيْلِئِدَ مَنْ كَانَ حَيًّا ...

ليحذر من كان فى قلبه حياة وتفتح ، ويعد عن الكفر والهوى ، فيستجيب لكتاب الله وينتفع به .

وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

وتجب كلمة العذاب على من كفر بالله ، بعد أن تقوم عليه الحجة ، وتصله الرسالة ، وآيات القرآن المبين .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِقَالِ يُكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

من تفسير ابن كثير

ثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، ولكن تبعا لقول أصحابه ، رضى الله عنهم ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبتت الأقدام إن لاقينا
إن أولاء قد بغوا علينا إذا أراءوا فتنه أبيعنا^(٣١)

ويرفع ﷺ صوته ، بقوله : «أبيعنا» ويمدّها ، وقد روى هذا بزحاف في الصحيحين أيضا .

وكذلك ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه ، قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في غار ، فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت^(٣٢)

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما علّم شعرا وما ينبغى له ، فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم^(٣٣) : لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . (فصلت : ٤٢) .

★ ★ ★

منافع الأنعام

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

المضردات :

مما عملت أيدينا؛ مما صنعته قدرتنا ، وخلقناه ، ولم يخلقه غيرنا .

أنعاماً، جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم والمعز.

ثمانية أزواج، من الإبل اثنين: ذكر وأنثى، وهما الجمل والناقة، وكذلك البقر والغنم والمعز، خلق الله الثور والبقرة، والخروف والنعجة، والتميس والعنزة.

وذلك لأنهم جعلناها مذللة منقادة لهم، فهم يركبونها ويسخرونها ويأكلون لحمها ويشربون لبنها.

تمهيد:

يستعرض القرآن أمامهم أدلة القدرة الإلهية، فبيد القدرة وحدها خلق الله لهم الأنعام كالإبل والبقر والغنم، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك بالبيع والشراء، والهبة والتسمين وسائر أنواع الانتفاع.

وقد ذلل الله لهم هذه الحيوانات فهم يركبونها ويذبحونها فيأكلون لحمها، ويشربون لبنها، ولهم فيها طائفة من المنافع كالاستفادة بجلودها، وأشعارها وأوبارها، أفلا يشكرون الله تعالى على هذه النعم السامية.

التفسير:

٧١ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ .

من شأن القرآن أن يفتح العيون، ويلفت الأنظار إلى ما فى الكون من جمال وإبداع، ومن ذلك إرشاده إلى قدرة الله وحده، الذى خلق للإنسان أنواع الحيوانات، بسائر أشكالها وألوانها:

فخلق من الإبل اثنين هما الجمل والناقة.

ومن البقر اثنين هما الثور والبقرة.

ومن الغنم اثنين هما الكبش والنعجة.

ومن المعز اثنين هما التيس والعنزة.

وهذا الخلق بيده سبحانه أى بقدرته وحده، كما تقول: عملت هذا العمل بىدى وحدى.

فَهُمْ لَهَا مَلَكَونَ . يستفيدون بهذه الأنعام، بالبيع والشراء، ويتصرفون فيها تصرف الملاك، وكان من الواجب أن يقولوا: سبحان الذى سخّر لنا هذا، وذلك ومكننا منه، فله الحمد والمنة.

٧٢ - وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .

سخرنا لهم هذه الأنعام، تطيعهم وتخدمهم، فمنها ما يركبونه كالجمل والحصار والبغل والفرس، ومنها ما يأكلون لحمه كالبقر والغنم، وما يستفيدون بثمنه أو يشربون لبنه.

ولو شاء الله لجعل هذه الحيوانات نافرة غير مطوعة ، لكنه سبحانه ذللها وسخرها للصغير والكبير ، كما قال قائل :

لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
يصرّفه الصبي بكل وجه ويحبسه على الخسف الجري^(٢١)
وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غير لديه ولا نكير^(٢٢)

٧٣ - وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ .

يعدد الله سبحانه وتعالى بعض نعمه فى خلق الأنعام ، فيذكر أن للناس فى هذه الأنعام منافع متعددة أخرى ، مثل الاستفادة بجلودها وعظامها وتسخيرها فى حراث الأرض ، وسقي الزرع ، وهم يشربون ألبانها ويستفيدون بنتاجها ، وينتفعون بأثمانها .

أَفَلَا يَشْكُرُونَ . هلا شكروا الله الخالق القادر ، الذى ذلل لهم هذه الأنعام وسخرها لهم ، ويسر لهم منافعها والاستفادة بركوبها ، والانتفاع بأشعارها وأوبارها ، وجلودها فى صناعة الخيام والأحذية والحقائب ، تم الاستفادة بشرب الألبان ، ونتاج الحيوان والتجارة فى الحيوان وفى منتجاته ، أفلا يشكر الإنسان ربّه على هذه النعم ، وكان ﷺ إذا ركب الدابة يقول : سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . (الزخرف : ١٣) .

أى أن الله سخر لنا هذا الحيوان الضخم القوى ، وذلك لخدمتنا ، وما كنا له مطيقين لو كان غير مذل .

قال تعالى : وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسَتُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ . (الزخرف ١٢ - ١٤) .

وقال عز شأنه : وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَاغِهِ إِلَّا نَفِثَ الْأَنفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (النحل : ٥ - ٨) .

وجود الله ووحدانيته

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَخْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّآ نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

المفردات :

من دون الله : من غير الله .

جند محضرون : جند معدون لحفظهم ، أو محضرون فى النار .

التفسير :

٧٤ - وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ .

ومع هذه النعم التى أنعم الله بها عليكم ، ومن بينها الأنعام التى كانوا يرونها فى الجزيرة العربية ، ويستفيدون بها فى تنقلاتهم ورحلاتهم ، وأكلهم وشربهم ومنافعهم ، مع هذه النعم المتعددة ، فإن هؤلاء المشركين لم يعبدوا الله وحده ، وعبدوا من دون الله أصناماً ، يرجون أن تنصرهم فى الدنيا ، وأن تشفع لهم يوم القيامة .

٧٥ - لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ .

لا تستطيع هذه الأصنام أن تقدم لهم معونة فى الدنيا ، ولا شفاعة فى الآخرة ، لأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، بدليل أن هؤلاء المشركين قد جندوا أنفسهم لحفظ هذه الأصنام ، وخدمتها ونظافتها والدفاع عنها . ويجوز أن يعود الضمير على الأصنام ، أى : وهذه الأصنام ستكون جنوداً حاضرة يوم القيامة فى النار ، حيث ستكون حصب جهنم ، ووقودها حين تحمى هذه الأصنام فى النار ليعذب بها المشركون .

أو محضرون عند حساب الكفار ، لإظهار عجز الأصنام . اقنطاط المشركين من شفاعتهم .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله سبحانه : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨ ، ٩٩) .

٧٦ - فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .

فلا تحزن يا محمد مما يقولون فيك ، ومن اتهامهم لك بالسحر والكهانة والشعر ، ومن اتهامهم للقرآن بأنه شعر أو أساطير الأولين أو غير ذلك ، فما حملهم على ذلك إلا الحسد ، ونحن نعرف دخائلهم وخباياهم ، وسرهم وعلنهم ، وسنحاسبهم على ذلك وسنجازيهم عليه ، فطب نفساً ، ولا تأس ولا تحزن عليهم ، لأن جزاءهم وعقابهم سيكون على يد السميع العليم ، الخبير بكل صغيرة وكبيرة من عملهم ، البصير بالسر وما هو أخفى من السر ، وبالعلانية والجر .

★ ★ ★

ختام سورة يس وإثبات البعث

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

المضردات :

أولم يــــر : أو لم يعلم .

من نطفة : من منى يصب في الرحم .

خصيم مبين : شديد الخصومة واضحا .

وضرب لنا مثلاً : أورد في شأننا قصة عجيبة هي في غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة .

الرميم : البالي أشد البلى كالرمة والرفات .

بلى : كلمة جواب كنعم ، تأتي بعد كلام منفي ، لتحويل النفي إلى إثبات .

أمــــره : شأنه في الإيجاد .

ملكوت ، مبالغة فى الملك ، كالرحموت فى الرحمة ، والرهبوت فى الرهبة ، ومعناه الملك التام .

تمهيد :

تختم سورة يسّ بهذه الآيات التى تدل على عظمة الخالق وجليل قدرته ، فهو قد خلق الإنسان من منى يمنى ، وجعله سميعا بصيرا ، لكن هذا الإنسان تحول إلى مجادل واضح الخصومة ، حيث يأخذ العظام البالية فيفتتها ، ويستدل بذلك على عدم إمكان البعث ، وقد رد عليه القرآن بأن الذى خلق الإنسان أول مرة ، قادر على إعادته عند البعث ، إذ كل من أوجد عملا تكون إعادته أهون عليه ، ثم ذكر بعض أمثلة القدرة ومنها استخلاص النار من الشجر الأخضر ، وخلق السماوات والأرض ، ومن قدر على خلق الأكبر يكون قادرا على خلق الأهون .

وفى الختام يبين القرآن أن جميع ما فى الكون يطيع الله إطاعة المأمور للأمر ، بلا توقف ولا افتقار إلى مزاوله عمل ، ولا استعمال آلة .

التفسير :

٧٧- أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ .

من نطفة مذرة ، ومن منى يمنى ، ومن ماء مهين ، يصبُّ فى رحم المرأة ، ويتم الإخصاب ، ويتحول الجنين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، ثم يكسو الله العظام لحما ، ثم يُنشئه خلقا آخر بديعا ، فيه الحواس والعقل والسمع والبصر والإدراك .

وكان الأولى به أن يكون عارفا بقدره ، مؤمنا بقدرته ، لكنه حاول أن يجادل ، وأن يثبت استبعاد البعث والحشر ، لأن الميت يتحول إلى عظام بالية ، بعيدة عن الحياة فى رأيه ، وما علم أن الذى خلقه أول مرة ، قادر على أن يبعثه حيا مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَغَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

٧٨- وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن أبى بن خلف (الذى قتله النبى ﷺ فى غزوة أحد) جاء هذا الرجل فى مكة إلى النبى ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يفتته ويذريه فى الهواء ويقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال ﷺ : «نعم ، يملكك الله تعالى ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار» ، ونزلت هذه الآية إلى آخر السورة .

ومعنى الآية :

إن الإنسان الكافر المسمى أبى بن خلف^(٧٦) قد استبعد البعث ، ونسى أن الله خلقه من منى يمنى وأنه قادر على بعثه وحسابه ، فعمد إلى عظم رميم ففتقه وذراه فى الريح ، وقال يا محمد : أتزعم أن ربك يبعث هذا بعدما رمى وبلى وصار ترابا ؟ فقال النبى ﷺ : «نعم ، ويبعثك ويدخلك النار» ، والمثل يطلق على القصة العجيبة الغريبة ، والموضوع أشبه بالقصة ، أو الأمر العجيب بالنسبة للكفار ، حيث اعتقدوا أن الموت يترتب عليه وهن العظام ، واستبعاد الحياة ، فكان البعث أشبه بالشئ العجيب بالنسبة لهم .

انظر إلى قوله تعالى : وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (السجدة : ١٠) .

وقوله أيضا على طريق الحكاية : أَيْدَا مِثَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلَمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ .

(الواقعة : ٤٧ ، ٤٨)

وقد ناقش القرآن الكريم هذا الموضوع ، وقدم أدلة متعددة على إمكان البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويبيّن أنه بدون ذلك يصبح الخلق عبثا ، فالدنيا ليست دار جزاء ، فقد ينجح الفاجر والمرتشى والوصولى ، وقد يستشهد الشخص الفاضل الغدائى ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا بد من دار جزاء عادل ، هى الدار الآخرة .

قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ

الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . (المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَوَكَلِّدَى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ . قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٥٩) .

وإجمال معنى الآية :

إن بعض المشركين استبعد إعادة الحياة للأجساد وللعظام الرميم ، ونسوا أنفسهم ، وأنه تعالى خلقهم من العدم ، فكيف هم بعد هذا يستبعدون أو يجحدون .

٧٩- قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

قل أيها الرسول لهذا السائل القائل : مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قل له : يحييها الله الذي خلقها أول مرة ، ولم تكن شيئاً ، وهو العليم بالعظام وأين تفرقت في سائر أقطار الأرض ، وأين ذهبت ؟ لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه ، وهو القدير على جمع هذا الرفات ويعث الحياة فيه .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وكان الفارابي الفيلسوف المسلم يقول : وددت لو أن أرسطو وقف على القياس الجلى في قوله تعالى : قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... «وهو الله تعالى ، أنشأ العظام وأحيائها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئاً أولاً قادر على إنشائه وإحيائه ثانياً ؛ فيلزم أن الله عز وجل قادر على إنشائها وإحيائها بقواها ثانياً» . اهـ .
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ .

وهو بكل مخلوق واسع العلم ، ولهذا يعلم من كل إنسان صفاته التي كان عليها في الدنيا ، وتفصيل أجزائه وأوضاعها ؛ فيعيد كل ذلك على النمط الذي كان عليه .

قال تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (الأعراف : ٢٩) .

٨٠- الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مُنْتَقِدُونَ .

الله سبحانه وتعالى أنبت لنا النبات والأشجار حيث نستفيد من أخشابها وأعوادها بالوقود والدفع وسائر المنافع ، وكثير من المفسرين يرون أن المراد بالشجر الأخضر نوعان : أحدهما : المرخ ، والثاني : العفار ، بفتح العين ، نقطع منهما عصوين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهو أنثى - فتقدح النار بإذن الله ^(٣٧) .

وفى المثل : فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، أى : استكثروا من النار ، كأنهما أخذتا من النار ما هو حسبهما ، وأجاز بعضهم - جمعا بين الرأيين - أن يكون المعنى : الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا بالفعْل ، بقدح المرخ بالعفار ، فإذا أنتم من الشجر الأخضر المذكور توقدون النار فى سواء .

وقد حدثنى من أثق به أنه شاهد العودين الأخضرين هذين يقطران الماء والخضرة ، وعند سحق أحدهما بالآخر تنقد النار ، وهما وسيلة المحتاج إلى النار .

والقرآن بهذا يلفت النظر إلى بدائع القدرة الإلهية ، فمن يَسِّر للإنسان استخراج النار من الشجر الأخضر وهما ضدان ، قادر على بعث الحياة فى الموتى ، فهو على كل شىء قدير .

٨١- أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

تتوج هذه الآية آثار القدرة الإلهية الظاهرة للعيان ، فهو سبحانه الذى خلق الإنسان أول مرة ، وهو سبحانه الذى جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا ، وهو الذى خلق السماوات وما فيها ، والأرض وما عليها ، أليس خالق هذا الكون العظيم بقادر على أن يعيد خلق الناس أجمعين ؟ وقد أجاب الحق سبحانه وتعالى بقوله : بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

أى : بلى هو قادر على خلق الناس ويعتهم مرة أخرى وهو الخلاق ، كثير الخلق والإبداع ، العليم بحال عبادہ فلا يند عن علمه شىء ، وقد استدل سبحانه وتعالى بخلق الأكبر والأعظم وهو الكون ، على قدرته على خلق الأهمون وهو الناس ، أى بعثهم وإعادة الحياة فيهم .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ... (غافر: ٥٧) .

ويقول تعالى : أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْنَىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الأحقاف: ٣٣) .

إن قدرته تعالى لا حدود لها فهو الخلاق ذو القوة المتين ، وهو سبحانه فعّال لما يريد .

٨٢- إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ .

وهذا أثر من آثار قدرته ، فهو سبحانه الخالق المبدع ، الذى أبدع نظام الكون على غير مثال سابق ، وهو خالق الإنسان حيث استخلفه فى الأرض ، وهو رافع السماء ، وباسط الأرض ، ومسرخر السحاب ، ومسير الشمس والقمر ، وهو فعال لما يريد .

ومعنى الآية :

إنما شأنه تعالى إذا أراد فعل شىء ، أن يتجه إلى إيجاده فيقول له : تَكُونُ ؛ فيتكون ، ويحدث فورًا بلا تأخير ، وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد ، بأمر المطاع لمن يطيعه فى حصول الأمور به بلا توقف ، ولا افتقار إلى مزاوله عمل ، ولا استعمال آلة .

قال الشاعر :

إذا ما أراك الله أمراً فإنما يقول له (كن) قوله فيكون

أى : هو سبحانه نافذ القدرة ، فعال لما يريد ، لا يعجزه فعل شيء فى هذا الكون ، فهو قادر على إعادة خلق الناس ، وهو على كل شيء قدير .

٨٣- فَسُبْحَنَ الَّذِى يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

بهذا الختام القوىّ الرهيب تختتم سورة يس .

أى : فتنزه الله عن النقائص ، وتنزه عن العجز ، ووجب له كل كمال ، كما وجب تنزهه عن كل نقص ، ويده ملك كل شيء ، ويده مقاليد السماوات والأرض ، وكل شيء فى هذا الوجود فى قبضته وملكه ، وخاضع لمشيئته ، فلا يعجز عن شيء ، وهو القدير على كل شيء ، وإليه ترجع الخلائق أجمعون ، فيحاسبهم ويجازيهم بما يستحقون .

قال تعالى : تَبَرَّكَ الَّذِى يَدِيهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الملك : ١) .

وقال سبحانه وتعالى : قُلْ مَنْ يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ... (المؤمنون : ٨٨) .

ويترنم بعض الدعاة بهذا النظم :

والكون مشحون بأسرار إذا	حاولت تفسيراً لها أعيانها
قل للطبيب تخطفته يد الردى	يا شافى الأمراض من أركانها
قل للمريض لجأ وعوفى بعد ما	عجرت فنون الطب من عافاك
قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها	من ذا الذى أرداك
بل سائل الأعمى يمرّنى وسط الزحام بلا	اصطدام من ذا يقود خطاك
قل للجنين يعيش معزولاً بلا راع ولا	مرعى من ذا الذى يرعاك
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت	شهاداً وقل للشهد من حلاك
الله فى كل الحقائق مائل	إن لم تكن لتراه فهو يراك

والحمد لله رب العالمين ، اللهم لك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما ترضى ربنا وتحب ، اللهم لك الحمد ، ولك الشكر ، ولك النعمة ، ولك الفضل ، ولك الثناء الحسن الجميل ، سبحانه لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، سبحانه أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء .

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ٣) .

أهم مقاصد سورة يس

- ١ - بيان أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله حقا ، وأنه نذير للأمينين وغيرهم .
- ٢ - حقت كلمة العذاب على أكثر المنذرين ، فلم يستجيبوا للنبي ﷺ .
- ٣ - عاند أهل مكة وكذبوا النبي ﷺ ، كأنما عميت عيونهم عن رؤية نور الحق ، وانسد في وجههم طريق الهداية .
- ٤ - ضرب المثل بقصة أهل أنطاكية الذين كذبوا الرُّسل ، ونصحهم ناصح باتباع الرسل فقتلوه ؛ فأدخله الله الجنة .
- ٥ - عاقب الله المكذبين بالصيحة الواحدة فانتهت حياتهم .
- ٦ - دلائل القدرة الإلهية في إحياء الأرض بعد موتها ، وخلق الأزواج كلها من النبات والحيوان والإنسان ، وأشياء أخرى لا نعلمها .
- ٧ - سير الشمس والقمر بحسبان ونظام بديع لا يتخلف .
- ٨ - إثبات البعث بما أقامه تعالى من أدلة في الأنفس وفي الآفاق .



تم تفسير سورة يس بحمد الله تعالى

ظهر الاثنين ١٢ جمادى الأولى ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٢٣ أغسطس ١٩٩٩ م

بنادى ضباط الشرطة بحى الجميل فى بورسعيد جمهورية مصر العربية

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين



تفسير سورة الصافات

أهداف سورة الصافات

سورة الصافات مكية ، وآياتها (١٨٢) آية ، نزلت بعد سورة الأنعام فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، فقد نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة إلى المدينة .

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها بالقسم بالصافات ، والمراد بها : الملائكة التى تقف صفوها للعبادة ، أو تصف أجنحتها فى الهواء امتثالاً للطاعة ، وانتظاراً لوصول أمر الله إليها .

مقصود السورة

قال الفيروزبَادى :

معظم مقصود السورة هو : الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوحدانية ، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين فى الجنان ، وقهر المجرمين فى النيران ، ومعجزة نوح ، وحديث إبراهيم ، وفداء إسماعيل فى جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإتياء الكتاب ، وحكاية الناس فى حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس فى بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة ^(١٨) ودرجات الملائكة فى مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصر والتأييد ، وتنزيه حضرة الجلال عن الأنداد والأضداد فى قوله سبحانه : **سُبْحَنَ رَبُّكَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** . (الصافات : ١٨٠) .

سياق السورة

تميزت سورة الصافات بقصر الآيات ، وسرعة الإيقاع ، وكثرة المشاهد والمواقف ، وتنوع الصور والمؤثرات .

وهى تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة فى النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك فى كل صورته وأشكاله ، ولكنها بصفة خاصة تعالج صورة معينة من صور الشرك ، التى كانت سائدة فى البيئة العربية الأولى ، وتقف أمام هذه الصورة طويلاً ، وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى . تلك هى الصورة التى كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهى تزعم أن هناك قرابة بين الله سبحانه وبين الجن ، وتستطرد فى تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزاوج بين الله - سبحانه - والجنة ولدت الملائكة ، ثم تزعم أن الملائكة إناث وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية فى هذه السورة ، تكشف عن تفاهتها وسخفها ، ونظرا لأنها هى الموضوع البارز الذى تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : وَالصَّفَّاتِ صَفًا * فَالْزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالَّتِي لَيْتَ ذُكْرًا .

ويتلوها حديث عن الشياطين المردة، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، كيلا يقرّبوا من الملاً الأعلى، ولا يسمّعوا لما يدور فيه، ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة.

ويمناسبة ضلال الكافرين وتكذيبهم، تعرض السورة سلسلة من قصص الرسل: نوح، وإبراهيم وابنه، وموسى وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس، تتكشف فيها رحمة الله ونصره لرسله، وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل، ويمكننا أن نقسم سورة الصافات إلى ثلاثة موضوعات رئيسية:

١ - وصف الملائكة ومشاهد الآخرة :

يستغرق الموضوع الأول من السورة الآيات من (٧٠-١) ويتضمن افتتاح السورة بالقسم بذلك الطوائف من الملائكة: وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالَّذِينَ جَاءَتْ زَجْرًا * فَالَّذِينَ كُتِرُوا . على وحدانية الله رب المشارق، مزين السماء بالكواكب ، ثم تجيء مسألة الشياطين ، وتسميهم للملأ الأعلى ، ورجمهم بالشهب الثاقبة ، يتلوها سؤال لهم : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِّنْ خَلْقٍ ... من الملائكة والكواكب والشياطين والشهب ؟ ، للتوصل من هذا إلى تسفيه ما كانوا يقولونه عن البعث ، وإثبات ما كانوا يستبعدونه ويستهزئون بوقوعه ، ومن ثم يعرض ذلك المشهد المطول للبعث والحساب والنعيم والعذاب ، وهو مشهد فريد ، حافل بالصورة والحركة ، والمقابلة بينه وبين منازل الأبرار وآلام الفجار .

٢ - قصص الأنبياء :

تتعرض الآيات من (٧١-١٤٨) لبيان أن هؤلاء الضالين لهم نظائر في السابقين ، الذين جاءتهم النذر فكان أكثرهم من الضالين ، ويستطرد في قصص أولئك المنذرين ، من قوم نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس ، وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين .

ومن الظواهر المؤثرة فى هذا القصص تجرد الأنبياء لربهم ، وإخلاصهم له ، فيونس يسبح بحمد ربه ويناجيه فى بطن الحوت ، وإبراهيم يطيع الله ويستسلم لأمره فى قصة الذبح والغداء ، ونشاهد من الذابح والذبيح التحرد والامتثال لأمر الله ، فى أعمق صورة وأروعها وأرفعها .

وقد كانت الإشارة إلى قصص الأنبياء لمحات سريعة في آيات قصيرة ، تحتوى على عبرة القصة، والتذكير بمضمونها .

٣ - أسطورة تعقبها الحقيقة :

تناولت الآيات من (١٤٩ - ١٨٢) حيث آخر السورة ، الحديث عن الأسطورة الكاذبة ، أسطورة نسبة الجن والملائكة إلى الله ، ثم فندت هذه الأسطورة ، ونزهت الله عنها ، وبينت أن الملائكة خلق من خلق الله ملتزم بطاعته . وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ . (الصافات : ١٦٤ - ١٦٦) .
وقررت الآيات وعد الله لرسله بالظفر والغلبة . وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

وتنتهى السورة بتنزيه الله سبحانه ، والتسليم على رسله ، والاعتراف بريوبيته ، وهى القضايا التى تناولتها السورة فى الصميم .

سُبْحَنَ رَبُّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الصافات : ١٨٠-١٨٢) .

إعلان وحدانية الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّفَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ۝٥﴾

المفردات :

الصفات : جماعة من الملائكة يقفون صفوفًا ، لكل واحد منهم مرتبة معينة في الشرف والفضيلة .
الزاجرات : وصف ثان للملائكة المقسم بهم ، مأخوذ من الزجر وهو المنع ، أو الحث أو السُّوق ، فالملائكة لهم زجر وتأثير في قلوب بنى آدم ، من ناحية زجرهم عن المعاصي ، وإلهامهم الخير .
التاليات ذكرا : الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، أو يتلون ذكر الله .
المشارق : مشارق الشمس على امتداد خط المشرق .

التفسير :

١، ٢، ٣، ٤- وَالصَّفَّاتِ صَفًّا * فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ :

أقسم الله تعالى ببعض خلقه تنبيهًا لأهميته ، ولفتحًا للأنظار إلى عظمة هذا المخلوق ، كما أقسم سبحانه ببعض مظاهر الكون ، مثل الضحى والرياح ، والشمس والقمر والشفق ، والليل والنهار ، وكلها تلفت أنظارنا إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، والقسم بالملائكة يلفت أنظارنا إلى هذا الخلق العظيم ، العابد الساجد المسبح المصطف للعبادة ، المكلف بإنزال الوحي من السماء ليتلوه البشر ، أو قيام الملائكة بتلاوة آيات الله وذكره وطاعته ، وقد أخبر القرآن أن الملائكة صفوف منتظمة ، وأنهم عابدون لله حق العبادة .

قال تعالى : رَجَاءُ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . (الفجر : ٢٢) .

وقال سبحانه : فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ . (فصلت : ٣٨) .

وقد ذكر المفسرون عدة آراء فى المراد بهذه الصفات ، فقيل : أقسم الله بنفوس العلماء المصطفين للعبادة ، الزاجرين الناس عن المعاصى ، التالين لكتاب الله وسنة نبيه ، ذكرًا لله وعبادة له .

وقيل : أقسم الله بنفوس الغزاة الصافين فى الجهاد ، الزاجرين للخيل أو العدو ، التالين لذكر الله لا يشغلهم العدو عنه .

والرأى الراجح عند المفسرين أن المراد بهذا القسم : طوائف الملائكة ، فهم يصفون أنفسهم فى طاعة الله ، كما يصف المسلمون أنفسهم فى الصلاة ، وفى السنة الصحيحة أن الله ميز هذه الأمة وميز رسولها ، بصف المسلمين أنفسهم فى الصلاة كما تصف الملائكة ، والملائكة لها إلهام ومعونة للمؤمنين تزجرهم عن المعاصى ، وتحثهم على الطاعات ، والملائكة تبلغ وحى الله إلى الأرض ، وتذكر الله تعالى .

قال تعالى : **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** . (الحج : ٧٥) .

وقال سبحانه : **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ** . (الشورى : ٥١) .

وقد أرسل الله جبريل بوحي السماء ، وجعله أميناً عليه .

قال تعالى : **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ** . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وقال سبحانه : **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ** . (النجم : ١-٧) .

أى أن الله تعالى أقسم بصنوف الملائكة على وحدانيته ، وأنه سبحانه وتعالى واحد أحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وجواب القسم هو :

إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ .

أى : ليس صنما ولا وثناً ولا أى شئ من الآلهة المدعاة ، بل هو سبحانه إليه واحد منزّه عن الشريك والمثيل ، ليس له شريك ولا ند ولا نظير .

قال تعالى : **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء : ٢٢)** .

وهذه مقدمة جوابها : لكن السماء والأرض لم تفسدا ، والنتيجة : ليس فى الكون آلهة إلا الله سبحانه وتعالى.

٥- رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ .

من صفة الله أنه رب الكون وخالقه وموجده من العدم ، وهو الذى يحفظه ويمسك بزمامه .

ومعنى الآية : الله الواحد هو رب السماوات وما فيها ، ورب الأرض وما عليها ، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وقفار وزراعات ، وسائر ما خلق فى الأرض ، وهو سبحانه رب الفضاء والهواء والعوالم العظيمة التى بين السماء والأرض .

قال تعالى : لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . (طه : ٦) .

وهو سبحانه وتعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ .

أى : مشارق الشمس ومغاربها ، فلها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم مغرب معين تغرب منه ، واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب ، لأن أحدهما يغنى عن الآخر ولأن الشروق سابق على الغروب .

ونلاحظ أن القرآن الكريم عبّر عن الشروق والغروب أحيانا بالمفرد مثل قوله تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا . (المزمل : ٩) .

وأحيانا بلفظ المثنى مثل : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمن : ١٧) .

وأحيانا بلفظ الجمع مثل : وَرَبُّ الْمَشْرِقِ .

فالمفرد المراد به : الجهة ، جهة الشرق وجهة الغرب ، والمثنى المراد منهما : مشرق الشتاء ومشرق الصيف ، أو مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، والمشارك المراد منها : مشارق النجوم والكواكب والشمس ، بل والشموس فى أيام السنة ، وهى مشارق متعددة بعدد أيام السنة .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

قوله : وَرَبُّ الْمَشْرِقِ .

أى : ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، فهى مشارق كثيرة فى كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة .. وللتعبير دلالة أخرى دقيقة فى التعبير عن الواقع فى هذه الأرض التى نعيش عليها كذلك ، فالأرض فى دورتها

أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة ، كما تتوالى المغارب ، فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له فى الكرة الأرضية.. وهى حقيقة ما كان يعرفها الناس فى زمان نزول القرآن الكريم ، أخبرهم الله تعالى بها فى ذلك الزمان القديم . اهـ .



فوائد النجوم فى السماء

﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِنَجْمٍ الْكَوَاكِبِ ۖ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۖ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۖ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۖ ﴿٩﴾ إِلَّا مَن خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ۖ ﴿١٠﴾ ﴾

المضردات :

الدنيا : مؤنث الأدنى ، أى : أقرب السماوات من أهل الأرض .

مسارد : المارد والمريد ، خارج على الطاعة ، من قولهم : شجر أُمرد ، إذا تعرى من الورق .

يسمعون : يتسمعون .

الملاء : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا : الملائكة .

يُقذَّفون : يرمجون .

الدحور : الطرد والإبعاد .

واصب : دائم شديد .

الخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرة .

شهاب : هو ما يرى مضيئاً مارقاً بسرعة فى الجو ، كأنه كوكب ساقط .

ثاقب : مضىء .

تمهيد :

تحدث الآيات عن بعض جوانب القدرة الإلهية فى حفظ السماء ، فقد خلقها الله وأبدع خلقها ، حيث جعلها سقفا مرفوعاً ، محفوظاً فى غاية الإبداع ، وهى آية من آيات الله ، حيث استمرت ملايين السنين بدون أن يصيبها خلل أو اضطراب ، وقد زينها الله بالنجوم ، وجعل النجوم فى السماء الدنيا ، أى : القربى من أهل الأرض ، لأهداف ثلاثة :

١ - زينة للسماء كما تزِين البيوت بالثريا .

٢ - هداية للسائرين فى البر والصحراء والبحر .

٣ - حفظا ومنعا للشياطين من استراق السمع ، وتلصص الجن على أخبار السماء ، فمن اختلس أخبار السماء أصابه شهاب ثاقب ، يرمى به ليخبله أو يقتله ، كل ذلك بين دعائم الحفظ والنظام والإبداع من الله تعالى فى ذلك الكون البديع .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . (الأنبياء : ٣٢) .

وقال عز شأنه : الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَإِذْ جَافَى الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . (الملك : ٣) .

التفسير :

٦ - إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ .

لقد خلق الله السماء ثم زينها بالنجوم ، ومعنى الآية : إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ القريبى من أهل الأرض بالنجوم والكواكب المتنوعة فى أشكالها وأحجامها ونظامها .

وقد قرأ جمهور القراء بإضافة زينة إلى الكواكب ، أى بلا تنوين فى لفظ زينة ، وقرأ حفص عن نافع بتنوين لفظ زينة ، وخفض لفظ الكواكب على أنه بدل منه ^(١٩) .

ومنظر السماء فى الليالى المظلمة بديع أخاذ ، خصوصاً لراكب البحار الواسعة ، أو الغيافى المقفرة حيث تتراءى له الكواكب ، وكل نجم يوصوص ، ويبعث ضوءه فى ظلام الليل ، كدليل ملموس على إبداع القدرة الإلهية .

٧ - وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ .

أى : جعل الله النجوم زينة للسماء ، وهداية للسائرين فى البر والبحر ، ولها وظيفة ثالثة ، وهى : حفظ غيب السماء وحديث الملائكة من تلصص الجن عليه .

وفى السنة الصحيحة ، أن الجن كانوا إذا أرادوا معرفة غيب السماء ، أو مستقبل بعض الناس فى الأرض ، كانوا يرسون بعضهم فوق بعض ، فيضع جنئ قدميه فوق أكتاف جنئ آخر ، ويضع الجنئ الثالث قدميه فوق أكتاف الجنئ الثانى وهكذا ، حتى يستطيع الجنئ الأخير سماع أصوات الملائكة ، والتقاط حديث الملائكة عن أمور الخلائق فى هذه الدنيا ، ثم ينزل الجنئ الأخير فيخبر الكهَّان بأخبار السماء ، ثم يكذبُ

الكاظم مع هذا الخبر الصادق مائة كذبة ، فإذا لامة الناس على كذبه ، قال : ألم أخبركم بخبر صادق يوم كذا وكذا ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شدّت الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع أخبار السماء أو التقاط أخبارها : أصابه شهاب ثاقب ، أى : نجم مضى يصيب الجنى الذى استرق السمع ، فيقتله أو يخبّله ، فلما شاهد ذلك رئيسُ الجنّ قال لأتباعه : انطلقوا فى الأرض فانظروا ماذا حدث فيها حتى نعرف السبب فى تشديد الحراسة على السماء ، والرمى بالشهب لمن أراد استراق السمع . فانطلق آلاف الجن إلى مكة ، فاستمعوا إلى النبى ﷺ وهو قائم فى صلاة الفجر ، فأمنوا به ، وقد نزلت الآيات الأولى من سورة الجنّ فى هذا المعنى.

حيث يقول سبحانه وتعالى : قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . (الجن : ١ ، ٢) .

ويقول سبحانه وتعالى على لسان الجن : وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ، فِيهَا بَابًا رَّصَدًا * وَأَنَا لَا نَذَرُ أَشْرًا أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رُدًّا * وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا . (الجن : ٨ - ١١) .

وتفيد الآيات أن الجن طوائف و فرق كثيرة ، منهم الصالح المطيع ، ومنهم العاصى المتمرد ، ومنهم الذكى ومنهم الغبى ، وقد تحدث القرآن عن الجنّ ، كما تحدثت السنة الصحيحة عن الجن ، ومن ذلك أن الله تعالى سخر الجن لسليمان تبنى له ما يشاء من محاريب وتماثيل وقصاع كبيرة ، وقدور كبيرة راسية فى أماكنها ، واستمرت الجن فى خدمة سليمان ، حتى بعد موته لحكمة أَرادها الله ! حتى يتيقن الجميع أنهم لا يعلمون الغيب .

قال تعالى : فَلَمَّا قُضِيَتْ عَلَيْهِ أَمُورَتُ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مُرْئِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتِهِ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِئُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ . (سبا : ١٤) .

والجنّ يستغلون السدج والبسطاء من الناس ، ويستغلونهم ويزيدونهم رهقا ، ولا سلطان للشياطين على المؤمنين الأقوياء ، الذين يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم .

ومن وسائل الحفظ من الجن ما يأتى :

١ - قراءة آية «الكرسى» .

٢ - قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة «البقرة» .

٣ - قراءة «قل هو الله أحد» و«المعوذتين» .

٤ - اليقين الجازم بأن الله تعالى هو النافع الضار ، وأن أحدا لا ينفع أو يضر إلا بإذن الله وحده .

قال تعالى : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... (البقرة : ١٠٢) .

والمؤمن المتحصن بطاعة الله وذكره ، وقراءة أدعية من القرآن الكريم والسنة المطهرة في حرز حصين ، والذي يجرى وراء الدجالين والمشعوذين ، يتعرض للاضطراب والإحباط والاستغلال ؛ لأن الجن نفسها تشمت في الإنسان الذي يتحصن بها ويلجأ إليها ، فتزيده خبالا .

قال تعالى : وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . (الجن : ٦) .

ومن أدعية القرآن الكريم :

١ - حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

٢ - وَأَقْرَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . (غافر : ٤٤) .

٣ - قَالَهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

ومن أدعية السنة المطهرة :

١ - «أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» ^(٣١) .

٢ - «أعنيك بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» ^(٣٢) .

٣ - «أعنيك بكلمات الله التامات المباركات ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شر ما ينزل في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمان» ^(٣٣) .

وفي السنة الصحيحة أن النبي ﷺ كان يقرأ «قل هو الله أحد» والمعوذتين ٣ مرات كل ليلة ، ويتفل في يديه ، ويمسح بهما وجهه وما أقبل من صدره ، ويفعل مثل ذلك صباح كل يوم .

ومن السنة أن يقول صباح كل يوم : «اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه ، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه» ^(٣٤) .

وخلاصة معنى الآية الكريمة :

وَحَفِظْنَا كُلَّ شَيْءٍ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . وحفظنا السماء حفظًا بتلك الكواكب ، من كل عفريت من الجن شرير متمرد خارج على الطاعة ، حيث تنزل منها الشهب ، فتحرق من يحاول استراق السمع .

٨ - لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ .

الْمَلَأِ الْأَعْلَى . أى : الملائكة أو رؤسائهم .

أى : لا تستطيع المردة من الشياطين استراق السمع من الملأ الأعلى من الملائكة ، وإذا حاولوا ذلك قذفتهم الشهب التى تحرقهم أو تخبلمهم .

٩ - دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

دُحُورًا . مقعول لأجله ، بمعنى : الطرد والإبعاد ، وهذه الآية مرتبطة بالآية التى قبلها ، أى : أنهم يقذفون بالشهب للطرد والإبعاد من الاستماع إلى الملائكة وهم يتحدثون فيما عهد الله به إليهم ، من شئون الخلق ، ولهؤلاء المردة عذاب شديد دائم فى الآخرة ، غير عذاب الإحراق بالشهب فى الدنيا .

١٠ - إِلَّا مَنْ خُطِفَ الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ، شِهَابٌ ثَاقِبٌ .

خُطِفَ : أخذ الشيء بسرعة وخفية واختلاس ، وغفلة من المأخوذ منه ، أى : لا تستطيع المردة من الشياطين أن تستمع إلى حديث الملأ الأعلى من الملائكة ، إلا من اختلس منهم كلام الملائكة بسرعة وخفة ، فيما يتفاوضون فيه من أحوال البشر ، فتصيبه شعلة من النار تحرقه أو تخبلمه .

شِهَابٌ : واحد الشهب ، وهى أحجار صغيرة منفصلة عن الكواكب ، سابحة فى فضاء الله تعالى ، فإذا وصلت فى دورانها إلى جاذبية الأرض ، جذبتها فمرت بسرعة متجهة نحوها ، فمن سرعتها تحترق بقوة احتكاكها المتتابع السريع بالهواء ، ويكون لاحتراقها لمعان مستطيل .

ثَاقِبٌ : أى : ساطع ، وهذه الشهب تُقَذَّفُ بأمر الله العلي العظيم ، لتحرق هؤلاء المردة من الشياطين ، فسبحان من جلت حكمته ، وأحاط بكل شيء عهده .

إثبات البعث والقيامة

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ۝ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ (١٥) أَمْ دَامِنَا وَكُنَّا نُرَآبَا وَعَظْمًا أَمْ نَالْمَبْعُوثُونَ ۝ (١٦) أَوْءَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ۝ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ۝ (١٩) وَقَالُوا يُبْلَغُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۝ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ تَكْذِيبُكَ ۝ (٢١) ﴾

المفردات :

فاستفتيتهم : فاستخبر أهل مكة ، من قولهم : استفتى فلانا ، إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه .

أشد خلقا : أصعب خلقا ، وأشق إيجادا .

طين لازب : طين ملتصق ببعضه ببعض .

يسخرون : يستهزئون .

وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا وعظوا لا يتعظون .

آية : معجزة .

يستسخرون : يبالغون في السخرية والاستهزاء .

داخرون : صاغرون .

زجرة : صيحة .

ينظرون : يبصرون أو ينتظرون .

ياويلنا : يا هلاكنا .

يوم الدين : يوم الجزاء ، تقول : دنته ، أى : جازيته .

الفصل : القضاء بعد البعث .

تمهيد :

لَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَسْلُوبَ الْخُطَابِ ، فَتَحَدَّثَ عَنْ خَلْقِ السَّمَاءِ ، وَعَنِ النُّجُومِ ، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ لِأَغْرَاضٍ ثَلَاثَةٌ : فَهِيَ زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ ، وَهَدَايَةٌ لِلنَّاظِرِينَ ، وَلِحِفْظِ الْغَيْبِ مِنَ الْمُتَلَصِّصِينَ مِنَ الْجِنِّ ، وَمَنْ خُطِفَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْغَيْبِ سَلَطَتْ عَلَيْهِ الشَّهْبُ لِتَحْرِقَهُ أَوْ تَخْبِلَهُ .

هَذَا الْكَوْنُ الْعَظِيمُ : السَّمَاءُ وَمَا فِيهَا ، وَالْمَلَائِكَةُ وَطَوَائِفُهُمْ ، وَالْجِنُّ وَالسَّيْطَرَةُ عَلَى الْمُتَمَرِّدِينَ مِنْهُمْ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْحَاءِ الْكَوْنِ وَالْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ، أَهْوَأُ عَظَمُ أَمْ خَلْقُهُمْ أَعْظَمُ ؟

وَالْجَوَابُ : إِنْ خَلَقَ الْكَوْنُ أَعْظَمَ مِنْ خَلْقِهِمْ ، فَقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ طِينٍ رَخْوٍ مُلْتَصِقٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، بَلْ إِنْ أَمَرَهُمْ لِيدْعُو إِلَى الْعَجَبِ ، وَمَعَ هَذَا فَهَمْ يَسْخَرُونَ مِنَ الرُّسُولِ الْأَمِينِ ، وَإِذَا وَعَظَهُمْ لَا يَتَعَذَّلُونَ ، وَإِذَا قُرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَاتُ أَوْ بَيِّنُ لَهُمُ الْمَعْجَزَاتُ تَدَّاعَوْا لِلْخَسْرَةِ وَالِاسْتِهْزَاءِ مِنَ الرُّسُولِ الْأَمِينِ ، وَاتَّهَمُوهُ بِالْسِحْرِ الْوَاضِحِ ، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ ، سِوَاهُ لَهُمْ أَوْ لِأَبَائِهِمُ الْقَدَامَى .

التفسير :

١١- فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ .

أَيُّ : اسْأَلُهُمْ يَا مُحَمَّدُ سُؤَالَ مُسْتَفْتِهِمْ مِنْهُمْ : هَلْ خَلَقَهُمْ أَصْعَبُ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ؟ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا ، وَالْمَلَائِكَةَ وَالْجِنِّ وَالنُّجُومَ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالِدَوَابَّ وَالنَّاسَ ، فَهَلْ خَلَقَ النَّاسَ أَصْعَبَ ، أَمْ خَلَقَ الْكَوْنَ وَمَا فِيهِ ؟ إِنْ الْإِنْسَانُ قَدْ خَلَقَ مِنْ طِينٍ رَخْوٍ ، مُلْتَصِقٍ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ الرُّوحَ فَصَارَ إِنْسَانًا سَوِيًّا .

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧).

إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ... قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى دَلِيلَيْنِ عَلَى الْبَعْثِ .

الْأَوَّلُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْكَوْنَ ، وَخَلَقَ الْكَوْنَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى الْأَكْبَرِ كَانَ أَقْدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَصْغَرِ .

الثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ بَدَأَ خَلْقَهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ، وَالْإِعَادَةُ أَهْوَنُ مِنَ الْبَدْءِ ، فَمَنْ خَلَقَهُمْ أَوَّلًا قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ خَلْقِهِمْ عِنْدَ الْبَعْثِ مَرَّةً أُخْرَى .

١٢- بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ .

وَالْخُطَابُ هُنَا لِكُلِّ مَنْ يَتَأَتَى مِنْهُ الْخُطَابُ ، وَهُوَ أَيْضًا لِلرُّسُولِ ﷺ .

والمعنى : بل عجبت يا مُنصف الحق ، من قدرة الله تعالى على ما خلقه من الكائنات العلوية والسفلية ، ومع هذا ينكر الكافرون البعث ، ويسخرون منك يا محمد حين تقرر لهم البعث ، وتؤكد لهم الجزاء والحساب فى يوم الدين .

والخلاصة : إن قلوبهم مغلقةٌ محجوبةٌ عن التأمل فيما حولها من خلق الله ، وإبداع خلق السماوات وما فيها ، والأرض وما عليها ، مما يستحق التعجب والتأمل ، ولكنهم يسخرون من مقالك ومن اهتمامك بإقناعهم برسالتك .

١٣- وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ .

وإذا وجهت إليهم الدعوة إلى تذكر آلاء الله ونعمائه ، والالتفات إلى خلق الله وآثاره فى الأنفس والآفاق ، لا يتعظون ولا يتأملون بسبب الرآن الذى ران على قلوبهم ، من حُب الدنيا وشهواتها وملذاتها ، والإعراض عن الآخرة وما يذكرهم بها .

١٤- وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ .

وإذا شاهدوا معجزة أو برهاناً أو آية قرآنية تدل على صدق رسالتك ، وجمال دعوتك ؛ تداعوا إلى السخرية والاستهزاء بها ؛ ليغالبا داعى الحق ، وليرفضوا كل سبيل إلى الهداية ، وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَّاهُ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت : ٢٦) .

١٥- وَقَالُوا إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

أى : ما هذا الذى يأتينا به محمد إلا ألعيب ساحر ، وخداع أريب ماهر يريد أن يلفتنا عما كان يعبد آبائنا ، وما هى من دلائل الحق فى شىء ، فإياكم أن تُخدعوا بها وترجعوا عن دين آبائكم ، وعقائد أسلافكم والحق أن القرآن الكريم قد دخل عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الحس ، وناقشهم فى عقائدهم ، وخَلَب ألبابهم ، وهرَّ عقائدهم ، وبين لهم أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ولا تعقل ، ولا تستحق السجود والعبادة ، وإنما يستحق ذلك الله الخالق بديع السماوات والأرض ، والعرب - وهم أهل الفصاحة والبيان - قد أخذوا بهذا البيان وهذه البلاغة والمناقشة الهادئة ، وتقديم الأدلة الواضحة ، فحاولوا تشويه القرآن ، وإلصاق التهم بالرسول الأمين ، فتخبطوا فى هذه التهم ، فقالوا : محمد ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا : كاهن ، وقالوا : كذاب ؛ وقالوا : يقدم أساطير الأولين ، وقالوا : تأتبه أضغاث أحلام بالليل فيصوغها بالنهار ؛ وقالوا : مُفتر ينسب الوحي إلى الله ، وهو يقدِّمه من عند نفسه .

قال تعالى: **بَلْ قَالُوا أَضَلُّتُمْ أَحْسَنَ بَلْ أَفْتَرْتُمْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ** . (الأنبياء : ٥).

والآية تعبير واضح عن تخبطهم فى التَّهْم ، وعدم استقرارهم على حال ، وقد ناقشهم القرآن فى أقوالهم وبيَّن فسادها .

١٦، ١٧ - **أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيُّنَا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَّاهَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ** .

أنُبعث مرة أخرى بعد أن نموت وندفن فى الأرض ، ونصبح ترابا وعظاما بالية هى أبعد ما تكون عن الحياة ، وكذلك آبأؤنا السابقون الذين دُفِنوا فى التراب منذ مئات وآلاف السنين ، وصاروا رميما باليا وعظاما نخرة ، وعَمَّهُم البلى والفناء ، وصاروا أبعد الناس عن الحياة والأحياء ؟ إن هناك بعدا بين الموت والفناء ثم العودة إلى البعث والحياة مرة ثانية .

لكن القرآن أمر الرسول ﷺ أن يردَّ عليهم بما يأتى :

١٨ - **قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ** .

أى : قل أيها الرسول الأمين : نعم ستبعثون أنتم وآبائكم الأولون ، حال كونكم ، دَاخِرُونَ ، أى : صاغرون أنلاء أمام القدرة البالغة .

١٩ - **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ** .

أى : لا تستصعبوا البعث من القبور ، فإنما هى صيحة واحدة ، حين ينفخ إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ؛ فيقوم الناس لربِّ العالمين .

والخلاصة :

إن الأمر هين علينا ، فإذا أمرنا بالبعث نفخ الملاك فى الصور ؛ فقام الكفار من القبور ينظرون حولهم متعجبين مما حدث لهم ، فقد كانوا ينكرون البعث ، فإذا بهم يجدونه حقيقة واقعة .

قال تعالى: **وُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** . (الزمر : ٦٨) .

وقال سبحانه: **وَكُلُّ أُنُوفٍ ذَاخِرِينَ** . (النمل : ٨٧) .

وقال عز شأنه: **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** . (عافر : ٦٠) .

٢٠- وَقَالُوا يَتُولَىٰ هَٰذَا يَوْمَ الدِّينِ .

أى : قال الكافرون عندما شاهدوا البعث مشاهدة العيان : يا هلاكنا ، هذا يوم الفصل والقضاء ، والحساب والجزاء ، أو قال بعضهم لبعض : هذا يوم الدين ، أى : يوم الجزاء ، تقول : أدانته القاضى ، أى : جازاه .

٢١- هَٰذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

الفصل : القضاء والحكم ، ففيه فصل بين الحق والباطل ، أى : قال بعضهم لبعض : هذا يوم الفصل فى الحكم ، حيث يكافأ المؤمنون ، ويعاقب المكذبون ، حيث كنا فى الدنيا نكذب الرسل ونكفر بالبعث والحشر والجزاء .

وكان أبو حاتم يقف على قولهم : يَتُولَىٰ ، ويجعل ما بعده من كلام الملائكة جواباً للمتكبرين وتوبيخاً لهم ، وقد مر فى القرآن أشباه هذا الموقف ، حيث يعتبر الكفار بعد فوات الأوان ، ويصيحون نادمين معترفين بالواقع ، وبأن هذا يوم الدين ويوم الفصل بين الناس ، حيث يحشر الكفار مع بعضهم ، والزناة مع بعضهم ، وشاربو الخمر مع بعضهم ، وفى هذا اليوم يتمتع المؤمنون بالنعيم ، ويعاقب الظالمون بالجهنم .

قال تعالى : وَامْتَلُوا إِلَيْهِمْ يَوْمَ آيَٰهَا الْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

★ ★ ★

مسئولية المشركين فى الآخرة

﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهَٰذِهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْحَنِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونََنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانُوا لَنَا عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غُورِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ رَبِّنَا لَشَاعِرٍ يُجْتَنُونَ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَٰبِقُوا الْعَذَابِ الْآلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴿

المضردات :

احشـروا : اجمعوا الظالمين .

أزواجـهم : أمثالهم وأشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنا كذلك .

وما كانوا يعبدون : من الأصنام والأوثان ، فإنها تحشر معهم .

فـاهدوهم : ذلّوهم ووجهوهم .

صـرراط : طريق .

الجـحيم : جهنم ، أى : فدلّوهم إلى طريق النار .

وقـضوهم : احبسوهم فى الموقف .

مـسئـولون : عن عقائدهم وأعمالهم .

لا تـنـاصـرون : لماذا لا ينصر بعضكم بعضا ؟

مـسـتـسـلمـون : منقادون ، أو قد أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجز ، وأصل الاستسلام : طلب السلامة ،

والانقياد تابع لذلك عرفا .

يـتـسـاءـلون : يتخاصمون بطريق الجدال .

عـن الـيـمـين : من جهة الخير وناحيته فتنهوننا عنه ، أو تمنعوننا بقوة وغلبة وقهر .

مـن سـلـطـان : من قهر وتسلط عليكم .

طـاغـين : مجاوزين الحد فى الضلال .

فـأفـويناكم : زينا لكم ما كنتم عليه من الكفر .

غـاويـن : بالسوسة لكم .

بـالـجـرمـين : بالمشركين .

لشاعر مجنون ، يعنون محمدا ﷺ ، وقد كذبوا فما هو بشاعر ولا مجنون .

بـالـحـق : بالتوحيد .

تفهيد :

تذكر الآيات موقف الحساب والعقاب للظالمين ، فالملائكة تحشرهم مع قرنائهم : الزناة مع بعضهم ،

وشاربو الخمر مع بعضهم ... إلخ .

كما تحشر معهم الآلهة المدعاة التي عبدوها من دون الله ، كل هؤلاء يُرْسَدُونَ إلى الطريق المؤدية إلى جهنم ، ويوقفون في الطريق ، وتوجه إليهم أسئلة للعتاب والملامة ، ومن هذه الأسئلة : لماذا لا ينصر بعضكم بعضا كما زعمتم في الدنيا ، حيث قال أبو جهل فيما حكاه عنه القرآن : نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَمِصُونَ . (القدر : ٤٤) .

ثم نجد مشهداً مزرياً بين الأتباع الضعفاء ، الذين يلقون التبعة في ضلالتهم على القادة والرؤساء ، ويتبرأ القادة من تبعة الإضلال ، ويقدمون عدداً من الأدلة على ذلك ، ثم يأس الجميع من النجاة ويستسلمون للعذاب .

التفسير :

٢٣، ٢٢ - أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ .

يراد بالظلم الشرك ، قال تعالى : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . (لقمان : ١٣) .

أي : يقول الله تعالى للملائكة : اجمعوا الظالمين مع نظرائهم ، فالزاني مع الزاني ، والسارق مع السارق ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، والمشارك مع المشارك ، والكافر مع الكافر ، حيث تتلاقى كل فئة مع أفرادها ، وقيل : مع زوجاتهم الكافرات اللاتي رضين عن الكفر ، وقيل : مع قرنائهم من الشياطين ، بأن يحشر كل كافر مع شيطانه ، والآيات تشمل كل ذلك ، لكن الأولى إطلاق الأزواج هنا على الأشباه والنظائر في الصفات والعادات .

قال تعالى : وَامْتَرُوا يَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . (يس : ٥٩) .

ويحشر مع الكفار الأصنام التي عبدوها من دون الله لزيادة التحسير والتخجيل ، ثم يقال للملائكة : أرشدوا هؤلاء المجرمين إلى طريق النار ، فقد أعرضوا عن الهداية إلى الإيمان في الدنيا ، فاهدوهم إلى الحميم في الآخرة ، والتعبير بالهداية للتكهم .

٢٤ - وَفُتِنُوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتُولُونَ .

بعد إرشادهم إلى أول طريق الجحيم ، يوقفون للسؤال والتقرير ، والاعتراف بأخطائهم ، كبراهيم ساطعة وأدلة دامغة على أنهم يدخلون الجحيم جزاء عادلاً للجرائم التي ارتكبوها في الدنيا .

قال المفسرون :-

وظاهر الآية : أن الحبس للسؤال بعد هدايتهم إلى طريق الجحيم ، بمعنى تعريفهم إياه ، ودلالته عليه ،

لا بمعنى إدخالهم فيه .

٢٥- مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ .

ما الذى جعلكم تقفون عاجزين ، لا ينصر بعضكم بعضا ، وقد كان أبو جهل يقول فى مكة : نَحْنُ جَمِيعٌ مُتَقَصِرٌ . (القمر : ٤٤) . وهذا السؤال للتقريع والتوبيخ .

٢٦- بَلْ هُمْ أَتَوْا مُسْتَسْلِمُونَ .

قد سدت فى وجوههم جميع الحيل ، فأظهروا العجز والانقياد لأمر الله ، والاستسلام أصله : طلب السلامة ، والمراد به هنا : الانقياد التام ، والخضوع المطلق ، يقال : استسلم العدو لعدوه ، إذا انقاد له وخضع لأمره .
والخلاصة :

ليسوا فى هذا اليوم بقادرين على التناصر ، بل هم اليوم خاضعون ومستسلمون ، لعجزهم عن أى حيلة تنقذهم مما هم فيه من بلاء .

٢٧- وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

أقبل الأتباع الضعفاء على القادة الكبراء يسألونهم ويلقون التبعة عليهم ، وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلُ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . (سبا : ٣١) .

٢٨- قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ .

اليمين يطلق على فعل الخير ، فقد كانوا يتيامنون باليمين ، ويتشاءمون بالشمال ، وتطلق اليمين على القسم والpledge باليمين ، وتطلق اليمين على القوة ، فاليمين فى العادة أقوى من الشمال ، وهذه المعانى الثلاثة يمكن أن تكون مرادة فى الآية .

أى : قال الضعفاء للكبراء والقادة : كنتم تزعمون لنا أن الشرك والكفر خير وأفضل من محمد ودينه ، وكنتم تقسمون لنا بالإيمان على ذلك ، وكنتم فى نفس الوقت تستخدمون القوة والتهديد والوعيد لإجبارنا على متابعتكم والسير خلفكم .

٢٩- قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .

أى : قال القادة والكبراء للضعفاء والأتباع : نحن لم نجبركم على الكفر ، ولم نكرهكم عليه ، بل أنتم كنتم كارهين للإيمان ، راغبين فى الكفر ، تتوقون إلى الهوى وتوثرون الضلالة .

٣٠- وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيْنَ .

كانت لكم عقول وأفكار ، وقلوب وأبصار وأفئدة ، وكنتم تستطيعون أن تنظروا فى دلائل الإيمان ، وتتفكروا فى دعوات الرسل ، وتهتدوا إلى الإيمان بالله ورسله ، لكنكم أثرتم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى، والطغيان وعدم الاعتدال على العدل والسير على الطريق المستقيم ، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

٣١- فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ .

من المفسرين من رأى أنها من كلام الأتباع ؛ أى : اعترف الأتباع والضعفاء بأنهم اختاروا الضلال بأنفسهم ؛ فلزمهم ما ورد فى القرآن الكريم : قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَعَثَ مِنْهُمُ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤ ، ٨٥) .

ومن المفسرين من رأى أن الآية من كلام الرؤساء ؛ لأن ما قبلها وما بعدها من كلام القادة والرؤساء ، أى : قال الرؤساء : لقد اخترنا الكفر بأنفسنا ، وسنتعرض للعذاب نحن وأنتم ، الرؤساء والأتباع ، إذ كان من عدله أن يجازي كل نفس بما كسبت ، ويثيبها بما عملت ، فلا يلومنَّ كلُّ منا إلا نفسه ، ولا يلم بعضنا بعضا ، ولا داعى للجدل والخصام والנקير ، فلا يجنى من الشوك العنب ، ولا يعقب الضلال إلا النار .

وفى هذا المعنى يقول تعالى : قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آغْثِ الدِّينِ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (سبا : ٣٢، ٣٣) .

والقرآن الكريم بتكرار هذه المحاوره بين القادة والأتباع يفتح العيون والأبصار على حقائق القيامة ومشاهدها ، ويبين أن التبعية فردية ، وكل امرئ بما كسب رهين ، ولن يتحمل الكبار شيئا من وزر الصغار ، بل ينال الصغار الجزاء كاملا ، ثم ينال الكبار جزاء كفرهم من جهة ، وجزاء إضلال غيرهم من جهة أخرى .

قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (العنكبوت : ١٢ ، ١٣) .

٣٢ - فَأَعْوَيْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا عَلَوَيْنَ .

لم يكن لنا فى شأنكم إلا حبنا أن تكونوا مثلنا ، وهو غير ملزم لكم ، وإنما أضركم سوء اختياركم ، وقبح استعدادكم ، وقريب منه قوله تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنُكُمْ بِمُصْرِحِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم : ٢٢) .

وقوله سبحانه : قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا ... (القصص : ٦٣) .

٣٣ - فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

فإنهم - الاتباع والقادة - هم جميعا يوم القيامة يشتركون فى العذاب ، وهذا الاشتراك فى مبدأ العذاب لا يمنع تميّز القادة بنصيب من العذاب لضلالهم ، ونصيب آخر لإضلال غيرهم .

قال رسول الله ﷺ : «من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(٣٤) .

٣٤ - إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ .

إننا بمثل ذلك الفعل الذى يدل على الحكمة التشريعية ، نعذب هؤلاء الكافرين ، جزاءً وفاقا لشركهم ، وتكذيب المرسلين وإيذائهم .

٣٥ - إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ .

إنهم كانوا إذا سمعوا كلمة التوحيد ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، استكبروا وأنفوا أن يدينوا بها . ومن ذلك ما روى أن النبى ﷺ لما قال لأبى طالب عند موته ، واجتماع قريش حوله : «قولوا لا إله إلا الله ، تملكوها بها العرب ، وتدين لكم العجم» : أبوا وأنفوا من ذلك . وفى تفسير القرطبي :

رُوى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، لما أنزل الله فى كتابه ، فذكر قوما استكبروا ، فقال : إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ . وقد استكبر عنها المشركون يوم الحديبية ، يوم كاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة . ا هـ .

لقد اتفق النبي ﷺ مع كفار مكة على هدنة مدتها عشر سنوات، لكن قريشا نقضت العهد، فساعدت قبيلة بكر حليفة قريش على قبيلة خزاعة حليفة النبي ﷺ، وذهب عمرو بن سالم الخزاعي إلى النبي ﷺ بالمدينة، وأنشد بين يديه قصيدة عصماء جاء فيها:

إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا رُكْعاً وسُجّدا
فانصر هداك الله نصرّاً أيّدا وادع عبادك الله يأتوا مددا

فقال النبي ﷺ: «نُصرت يا عمرو بن سالم»، وقاد النبي ﷺ جيشاً فتح به مكة، وأنزل الله بسبب ذلك سورة النصر.

٣٦ - وَيَقُولُونَ إِنَّا نَقَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ .

لقد جمعوا في كلمتهم بين إنكار الوجدانية، وإنكار الرسالة.

حيث قالوا: أنترك عبادة الآلهة التي ورثنا عبادتها عن آبائنا كابراً عن كابر، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى، فمثله لا يصغى لكلامه، ولا يستمع لقوله، فرفضوا دعوة التوحيد، ورفضوا رسالة محمد ﷺ.

٣٧ - بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ .

ردّ الله عليهم افتراءهم وزعمهم أن محمداً شاعر مجنون، فبيّن سبحانه أن هذا الرسول الأمين جاء بالقرآن الكريم، الذي أنزله الله بالحق، وبالحق نزل.

وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ. الذين أرسلهم الله فقصّ سيرتهم وسجلّ كفاحهم، وبيّن أن جميع الرسل تعرضوا للبلاء والاختبار، قال تعالى: مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ... (فصلت: ٤٣).

وقال عزّ شأنه: فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ... (الأحقاف: ٣٥).

وقد جاء في القرآن والسنة ما يفيد أن المسلم مطالب بالإيمان بالرسول والكتب السابقة، فجميع الرسل دعوا إلى التوحيد، وحثوا على مكارم الأخلاق، والنبي ﷺ يقول: «إنما مثلى ومثّل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بالدار، ويقولون: ما أجمل هذه الدار لو وضعت هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة، وأنا خاتم الرسل»^(٣٦). رواه البخارى

وقال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات»^(٣٧)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٣٨) رواه البخارى.

وقال تعالى: «فُولُوا أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفَرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (البقرة: ١٣٦)» .

وقال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٣٨) .

٣٨- إِنْكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ .

إن العذاب الأليم واقع بكم لا محالة ، ستذوقونه وتتجرعون غصته وآلامه ، وسينزل بكم الذل والمهانة والخزي، ويجعلكم فى حزن دائم .

٣٩- وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

إن الجزاء الحق من جنس العمل، فقد أشركتم بالله وكفرتكم برسله، وكذبتكم بآيات الله، ولم تعملوا عقولكم ولا فكريكم ، بل تكبرتم وأخذتكم العزة بالإثم، وقد استمرت الدعوة الإسلامية فى مكة ثلاثة عشر عاما ، وفى المدينة عشرة أعوام، أى قرابة ربع قرن من الزمان ، كان أمامكم وقت متسع للهداية والإيمان، فأثرت الضلالة ، ولم تبدلوا جهدا للبحث عن الهداية ، فذوقوا العذاب جزاء أعمالكم .

قال تعالى: «وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (الشورى: ٣٠)» .

وقال سبحانه: «وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيمٍ وَلَا لَشَفِيعٍ يُطَاغُ» .

(غافر: ١٨)

★ ★ ★

جزاء المؤمنين

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَكَهَهُمْ مَكْرُمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) ﴿

المفردات :

على سرر متقابلين ، لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ، وإنما ينظر فى وجهه تواصلًا وتحابيًا .

بـ كـ أس : بخمر .

من معين : من نهر ظاهر للعيون ، جار على وجه الأرض .

لـ لـ لـ ذات لذة .

لا فيها غول : لا تغتال عقولهم وصحتهم .

يُنزفون : لا تذهب عقولهم بالسكر ، كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه .

قاصرات الطرف : قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم .

عيون : جمع عينا ، وهي شديدة بياض العين شديدة سوادها ، وقيل : عين ، أى : حسان العيون .

بيض مكنون : بيض مصون عن الريح والغبار ، حيث تكئه النعامة أو الدجاجة بريشها .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم أهل الجنة ، فهو نعيم أى نعيم ، فلهم فى الجنة أرزاق وفواكه ، وكرامة ونعيم ، يشربون خمراً بيضاء لذيذة ، لا تغتال عقول شاربها ، ويتمتعون بالهور العين ، وجمالهن أخاذ كأنهن بيض محفوظ مصون .

التفسير :

٤ - إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، حيث أخبر الله عن الكافرين بقوله تعالى : **إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** . (الصفات : ٣٨ ، ٣٩) .

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

أى : لكن عباد الله الذين أخلصهم لطاعته لا يذوقون العذاب ، وإنما يجزون بالثواب أضعافاً مضاعفة بالنسبة لأعمالهم ، فيجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله .

وقد قرأ بعض القراء بفتح لام المخلصين ، أى : الذين أخلصهم الله لطاعته وتوحيده ، وقرأ بعض القراء بكسر اللام : المخلصين ، أى : الذين أخلصوا لله العبادة والطاعة .

قال تعالى : **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ** . (البينة : ٥) .

٤١ - أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ .

هؤلاء العباد المخلصون لهم مكانهم فى الجنة ، ورزقهم معلوم محفوظ ، يأتيهم بغير سؤال ، وبغير احتياجهم إليه ، وإنما يأتيهم للتكريم والإعزاز ، وللتفكه والتلذذ .

قال تعالى : وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا . (مريم : ٦٢) .

أى : إن الرزق معلوم الوقت فى الصباح والمساء .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ - فَوَاكِهَ وَهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .

كلمة : فَوَاكِهَ ، بدل مما قبلها أى أن هذا الرزق المعلوم هو فواكه ، والمراد بها : ما يؤكل لمجرد التلذذ ، دون الاقتيات ، وجميع ما يأكله أهل الجنة كذلك حتى اللحم ، لكونهم مستغنين عن القوت ، لأن خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل الموحج إلى البذل ، والمراد بالفواكه : الثمار كلها ، رطبها وبابسها .

قال تعالى : وَلَفِيهَا مِمَّا يَنْتَحِرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ . (الواقعة : ٢٠ ، ٢١) .

وقال تعالى : وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

ومع ذلك تقدم لهم الأطعمة والفواكه وألوان النعيم ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ . معززون كالملوك والوجهاء والكبراء ، والتكريم هنا إشارة إلى ما يلقونه عند الله تعالى برفع الدرجات ، وسماع كلام الرحمان ، فلا يلحقهم هوان ، وذلك أعظم المثوبات ، وأليقها بأولى الهمم ، أى أن النعيم الإلهي للمؤمنين فى الجنة نوعان :

الأول : حسى ، يشمل الجنة والأنهار والأشجار والثمار والظلال ، والحور العين والطعام والفواكه والخمر والنعيم .

والثانى : معنوى ، يتناول رضوان الله ، والأنس به ، وسماع كلامه ، والاستمتاع برضاه وبركته ورويته .

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ .

فى جنات ليس فيها إلا النعيم والتنعم الحسى والمعنوى .

عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ .

على سرر يقابل بعضهم بعضاً ، لا يرى أحدهم قفا الآخر ، بل تتحرك بهم الأسرة وتدور بهم كيف شاءوا ، تواصلًا وتحاببا بالنظر إلى الوجوه .

٤٥ - يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ .

الكأس فى القرآن الكريم يراد بها الخمر ، وهى خمر حلال ، فيها رقة وعذوبة وكثرة ، كأنها تؤخذ من نهر جارٍ ، فلا تقتير ولا بخل ، بل كلما طلبوا وجدوا .

والمعين : الماء الجارى الظاهر للعيون ، وكذلك تجرى الخمر فى الجنة ، كما قال تعالى : وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَّدُنِّى لِلشَّارِبِينَ ... (محمد : ١٥) . وهى خمر نظيفة ، ليست كخمر الدنيا تداس بالأقدام .

قال الشاعر :

وشمولية من عهد عاد قد غدت صَرَعى تداس بأرجل العصَّار
لانت لهم حتى انتشوا فتمكَّنت منهم فصاحت فيهم بالثَّار

٤٦ - يُمِضَاءُ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ .

الخمر بيضاء فى لون بهى مشرق ، يشيع اللذة والسرور فى نفوس الشاربين ، كأنها نفس اللذة والسعادة .

قال أبو نواس :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لومسها حجر مسته سراء

٤٧ - لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ .

ليس فى الخمر أى ضرر من أضرار خمر الدنيا ، فهى لا تغتال عقول الشاربين كما فى خمر الدنيا ، ولا هم عنها - أى : بسببها - يسكرون ، وقد صرف الله السُّكْرَ عن أهل الجنة ، لئلا ينقطع الالتذان عنهم ، فعقولهم كاملة ، وسعادتهم مستمرة ، ولا تفسد الخمر عقولهم .

قال الشاعر :

فما زالت الخمر تغتالنا وتذهب بالأول الأول

لقد جمع الله فى خمر الآخرة كل محاسن الخمر ، وخلصها من مساوئها ، مثل : اغتيال العقل ، والسكر ، والصداع ، والإدمان ، والتردى ، وعدم الغيرة على العرض .

يقول المتنبي :

وغير فؤادى للغوانى رمية وغير بنانى للزجاج ركاب
وللسرمنى موضع لا يناله صديق ولا يطغى إليه شراب

وللخود مئى ساعة ثم بيننا
وما العشق إلا غرة وطماعة
تركنا لأطراف القنا كل شهوة
فليس لنا إلا بهنّ لعب
٤٨ - وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ عَيْنٌ .

وَعِنْدَهُمْ . أى : عند أهل الجنة ألوان من المتع والتعيم الذى لا حد له .

قال تعالى : رَبِّهِ . شَبَّهَهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَدُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ . (الزخرف : ٧١) .

وفيهما نساء جميلات قصرن أبصارهنّ على أزواجهنّ ، فلا ينظرن إلا إلى أزواجهنّ ، مع جمال العين
وشدة بياضها مع شدة سوادها ، فهى عين عينا واسعة جميلة .

وقيل : قَصِيرَاتُ الظُّرْفِ . أى : ذابلات الجفون فى تكسّر ، كأنها نائمة وما هى بنائمة ، أو ضعيفة
مريضة وما هى بمريضة .

قال ابن الأزدى :

مَرِضَتْ سَلَوَتِي وَصَحَّ غِرَامِي
من لحاظ هن المراض الصحاح
وقال الآخر :

إن العيون التى فى طرفها حور
يصرعن ذلّ اللبّ حتى لا حراك به
قتلننا ثم لم يحين قتلانا
وهنّ أضعف خلق الله إنسانا

٤٩ - كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكُونٌ .

كأنهنّ بيض النعام المستور ، الأعشاش ، الذى لم تمسه الأيدى ، ولم يصبه الغبار ، وقد شبههن
ببيض النعام ، لأنّ لونه أبيض يخالطه قليل من الصفرة ، وهو لون محبوب فى النساء عند العرب .

قال امرؤ القيس :

وبيضه خدر لا يرام حبأوها
تمتعت من لهوبها غير مُعْجَل

وقيل : البيض المكنون ، أى : المصون من الكسر ، والمراد : أنهنّ عذارى .

قال تعالى : لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ مِنْ أَنْفُسِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . (الرحمن : ٧٤) .

وفى الحديث عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف على ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون -» (٣).



مشاهدة المؤمن لعذاب الكافر

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ٥١ يَقُولُ ٥٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ٥٣ إِيَّاهُ مَتَّبِعْنَا إِنَّهٗ أَعَزُّ مَلَأً نَّالْمَدِينُونَ ٥٤ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ٥٥ فَأُطِّلَعُوا فَرَأَوْهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ٥٦ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينَ ٥٧ وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُم مِّنَ الْمُحْضَرِينَ ٥٨ أَفَمَا تَحْنُ بِمَيِّتِينَ ٥٩ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ٦٠ إِنَّ هَٰذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦١ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ٦٢ ﴾

المفردات :

يَتَسَاءَلُونَ : يتفاوضون فيما بينهم بأحاديثهم فى الدنيا ، وهو من تمام الأنس فى الجنة .

قَرِينٌ : خليل وصاحب .

لَمَدِينُونَ : مجزيون محاسبون بعد الموت .

فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ : وسط النار ، وسمى الوسط سواء ، لاستواء المسافة منه إلى الجوانب .

لَتُرْدِينَ : تهلكنى إن أطعته ، والردى : الهلاك .

لَكُنْتُمْ مِنَ الْمُحْضَرِينَ : المسوقين للعذاب مثلك .

تمهيد :

نعيم أهل الجنة لا حدود له ، وقد مرَّ ما يتنعمون به من ألوان المآكل والمشارب ، والمساكن والأزواج الحسان ، ثم بيَّن هنا خلُقَ بالهم من المشاغل والهموم ، وطيب نفوسهم ، وسمَّهم مع بعضهم البعض بما كان يقع لهم فى الدنيا ، حتى ليقصَّ بعضهم على بعض أن خليله كاد يوقعه فى الهلاك ، لولا لطف ربه به ، وقد كانت عاقبة صديقه الكافر أن أصبح فى وسط الجحيم ، فشكر المؤمن ربه لنجاته وسلامته من جهنم .

التفسير :

٥٠ - فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

هذه الآية معطوفة على الآيتين السابقتين ، فقد وصفت الآيات أهل الجنة بأنهم فى نعيم ورزق معلوم ، ولهم فى الجنة فواكه وخمر وحرور عین ، أى : بينما هم فى النعيم والأنس ، والتفكه وشرب الخمر الحلال ، أخذوا يتسامرون ، ويتذاكرون شئونهم فى الدنيا .

ومعنى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

أخذوا يتسامرون ، ويتذاكرون ما فات ، ويتساءلون عن الفضائل والمعارف ، وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا ، وما أحلى تذكر ما فات عند رفاهية الحال وخلو البال .

٥١ - قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ .

قال رجل من أهل الجنة فى تضاعيف محاوراته وكلامه مع رفاقه ، متسامراً معهم : إني كان لى صاحب ملازم ، وقيل : أراد به شقيقه الكافر الذى وردت قصته فى سورة الكهف ، وتبدأ بقوله تعالى : **وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا . (الكهف : ٣٢) .**

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره للآيات قصة طويلة عن السدى ، أخرجها ابن أبى حاتم ، خلاصتها : أن الأخوين ورثا عن أبيهما ستة آلاف دينار ، كل أخ أخذ نصيبه ثلاثة آلاف دينار ، أما الكافر فقد اشترى أرضاً ونخلًا وزرعاً بألف ، واشترى رقيقاً بألف ، ودفع مهرًا لزوجته مقدار ألف ، وأما المؤمن فتصدق بماله ، واشترى من الله تعالى أرض الجنة ، ورقيق الجنة ، والحرور العين فى الجنة ، ثم تقابلا ، الكافر فى حشم وخدم وأتباع ، فسلم على أخيه ، وسأله : أين مالك ؟ هل ضاربت به أو تاجرت به ؟ قال : لا ، قال : فأين هو ؟ قال : أقرضته الملىء الوفى . قال : من ؟ قال : الله ربي ، فانتزع الكافر يده من يده ، ثم قال : **أَءَنْتَ لَوْ أَنَّ الْمُصَدِّقِينَ * أَهْدَا مِتًّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَعْنَا لَمُذِبِّينَ . (الصفات : ٥٢ ، ٥٣) .**

ثم تمت القصة بأن أدخل الكافر وسط الجحيم ، وأدخل المؤمن الجنة ، وشاهد النخيل والثمار والأنهار التى أعدت له ، كما شاهد الخدم الذين سيخدمونه ، وشاهد قبة من ياقوتة حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك ، ثم يذكر المؤمن شريكه فيقول : **إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَءَنْتَ لَوْ أَنَّ الْمُصَدِّقِينَ ... إلى آخر الآيات .**

٥٢ ، ٥٣ - يَقُولُ أَعْلَنَّاكَ لِمَنِ الْمَصْدَقِينَ * أَعْدَامَتَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْلَمًا أَعِنَّا لَمَدِينُونَ .

أى : كان لى صديق أو رفيق أو شقيق ينكر البعث ، ويقول لى مستنكرا على : أئِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدِقِينَ بالبعث والجزاء بعد أن نموت ونصبح ترابًا وعظامًا رميمًا متهالكًا ؟ هذا أبعد ما يكون عن الحياة ، أنُبعث ونُحاسب ونجازى على أعمالنا ؟

ومعنى : لَمَدِينُونَ . لمحاسبون ومجزيون بعد الموت .

٥٤ - قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلَبُونَ .

قال الأخ المؤمن لإخوانه فى الجنة : هيا نطلع على أهل النار ، لنبحث عنه بين أهلها .

وفى الأثر: إن فى الجنة كُوى يطلع منها أهل الجنة على أهل النار ، إذا رغبوا فى ذلك ، ليزدادوا شكرًا لله على نجاتهم من النار ، وتمتعهم بالجنة .

وقيل : القائل هو الله عز وجل لأهل الجنة ، وقيل : القائل بعض الملائكة .

٥٥ - فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ

أى : اطلع المؤمن على أهل النار ، فرأى قرينه فى وسط جهنم .

قال الألوسى :

واطلاع أهل الجنة على أهل النار ، ومعرفة من فيها ، مع ما بينهما من التباعد غير بعيد ، بأن يخلق الله تعالى فيهم حدة النظر ، ويعرفهم من أرادوا الاطلاع عليه ، ولعلمهم - إذا أرادوا ذلك - وقفوا على الأعراف، فاطَّلَعُوا على من أرادوا الاطلاع عليه من أهل النار ، وقيل : إن لهم طاقات فى الجنة ، ينظرون منها من علو إلى أهل النار ، وعلم القائل بأن القرين من أهل النار ، لأنه كان منكراً للبعث^(١) . اهـ .

٥٦ - قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ تُفْرِدِينَ .

قال المؤمن لقرينه أو لشقيقه : كنت على وشك أن توقعنى فى الردى والهلاك ، بما كنت تزينه لى وتوسوسه لى عن عدم البعث والحشر والجزاء .

٥٧ - وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ .

ولولا فضل الله وتوفيقه وعنايته ورحمته بى ، لكنْتُ مثلك حاضراً فى وسط النار ، أصطلى بعذابها ، ولكن الله رحمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيده .

٥٨ - أَلَمَّا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ .

أنعيش مخلدين فى الجنة ، متمتعين بنعيمها ، لا يدركنا الموت ، ولا يعترينا الفناء ؟

٥٩ - إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

ورد أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة ، وأن أهل النار إذا دخلوا النار ، نادى مناد من قبل الله تعالى : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت ، وهذا معلوم ، لكن إذا كان أهل الجنة فى نعيم مقيم لا حدود له ، فإنهم يتحدثون هنا عن نعمة الله عليهم ، وتفضله عليهم بالنعم ، أو يتساءلون تسأول العارف ليزداد يقيناً ، وهم هنا فى نعيم ويريدون أن يتأكدوا أن هذا النعيم لن ينفد ، وأن الموت لن يدركهم ، وأن العذاب لن يصيبهم ، يتحدثون بذلك عرفاناً لله وشكراً ، أو سؤالاً للملائكة ليزدادوا يقيناً ، أو يتحدثون مع بعضهم تلذذاً وعرفاناً لله بالفضل والمنة .

وقريب من ذلك ما شاهدناه من دعاء زكريا لله أن يرزقه بولد ، فلما بشرته الملائكة تساءل وقال : أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ... (ال عمران : ٤٠) .

ومعنى الآية :

إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .

أى : أكرمنا الله بالخلود فى الجنة وعدم الموت ؟ لكننا ذقنا الموتة الأولى فى الدنيا ، ولن يتكرر الموت فى الجنة ، ولن يصيبنا العذاب مثل أهل النار ، فنحن فى نعيم دائم وسرور دائم ، ويُعد عن العذاب . قال ابن كثير : هذا من كلام المؤمن ، مغبطاً نفسه ، بما أعطاه الله تعالى من الخلد فى الجنة ، والإقامة فى دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب .

٦٠ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

يجوز أن تكون هذه الآية وما بعدها من تنمة كلام المؤمن ، أو كلام أهل الجنة ، حيث يتحدثون عن فضل الله عليهم بالنجاة من النار ، ودخول الجنة ، فيقولون : إن دخول الجنة هو الفوز الأكبر بالنعيم المقيم .

قال تعالى : فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ غَرُورٌ . (ال عمران : ١٨٥) .

٦١ - لِيَمِثِلْ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ .

أى : هذا هو المثل الأعلى ، والجائزة الكبرى ، التى تستحق أن يجتهد من أجلها أهل الدنيا ، فيسهرُوا ليْلهم ، وينشطوا فى نهارهم ، ويجتهدوا فى حياتهم لجائزة كبيرة تستحق هذا التعب ، وهى الجنة ، أما العمل للدنيا وحدها ، فجزاؤه محدود ، ونهايته فناء لا خلود .

قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة .

وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز ، فليعمل العاملون فى الدنيا ، ليصيروا إليه فى الآخرة^(١١) .

أخرج ابن أبى حاتم ، وابن ماجه فى كتاب الزهد من سننه ، عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا هل مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هى ورب الكعبة نور كلِّها يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة ، فى محلة عالية بهية» ، قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : «قولوا إن شاء الله» ، فقال القوم : إن شاء الله^(١٢) .

وكان أحد المسلمين فى غزو الروم يقول :

طيب وبارك شرابها

خبذا الجنة واقتربها

على أن لاقيتها قتالها

والروم روم قد دنا ضرابها

أنواع العذاب في جهنم

﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ لَّأُمَّ شَجَرَةِ الزُّقُومِ ۖ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ۚ﴾ (٦٢) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٦٣) ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ۚ﴾ (٦٤) ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كُونَ مِنْهَا فَمَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۖ﴾ (٦٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حِمِيمٍ ۚ﴾ (٦٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ۖ﴾ (٦٧) ﴿إِنَّهُمْ الْفَوَاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِينَ ۖ﴾ (٦٨) ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ ۖ﴾ (٦٩) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ (٧٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٧١) ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ۖ﴾ (٧٢) ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ (٧٣)

المفردات :

الزُّقُومُ : ما يعد للضيف وغيره من الطعام والشراب .

الزَّقُومُ : شجرة صغيرة الورق ، كريهة الرائحة ، مرة الطعم ، تكون بتهامة .

فِتْنَةٌ : ابتلاء لهم في الدنيا ، ومحنة وعذاباً في الآخرة .

أصل الجحيم : قعر جهنم .

طالعوها : ثمرها .

رءوس الشياطين : في قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبح الصورة بالشیطان ، فتقول : وجه

كأنه وجه شيطان ، كما يشبهون حسن الصورة بالملك .

المرسل : حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه .

الشراب : الخلط ، قال الفرّاء : شاب طعامه وشرابه ، إذا خلطهما بشيء يشويهما .

مرجعهم : مصيرهم .

الضالون : وجدوا .

ضالين : بعيدين عن الحق .

يسرعون : يسرعون إسراعاً شديداً .

منذرين: رسلاً أنذروهم العذاب فكفروا.

عاقبة المنذرين: نهاية الذين أنذروا وحذروا، وهى إهلاكهم لكفرهم.

تمهيد:

بعد أن وصف القرآن ثواب أهل الجنة، وذكر ما يتمتعون به فيها، أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار، وما يلقونه من العذاب الأليم فى مآكلهم ومشربهم وأماكنهم، جزاء التقليد الأعمى للأباء والأجداد، وعدم التفكير والتأمل فى رسالة الرسل.

التفسير:

٦٢ - أَذَلِكَ خَيْرٌ تُزَلُّوا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ.

أهذا الرزق المعلوم الذى أعطيته لأهل الجنة والنعيم المقيم، أفضل أم ما أعددت لأهل النار من الزقوم المرّ البشع، وهذا ضرب من التهكم والسخرية بهم، وهو أسلوب كثير الورد فى القرآن الكريم، حيث يقارن القرآن بين نعيم أهل الجنة، وعذاب أهل النار.

قال تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ. (محمد: ١٥).

٦٣ - إِنْ أَجَعَلْنَاهَا نِتْنَةَ لِلظَّالِمِينَ.

امتحاناً واختباراً لهم فى الدنيا، وعذاباً ومحنة لهم فى الآخرة، وذلك أن كفار مكة لما سمعوا أن شجرة الزقوم فى وسط جهنم، قالوا: كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر؟ وما علموا أن قدرة الله فوق كل قدرة، فقد ألقى إبراهيم فى النار، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه، وفى النار حيات وعقارب، وخزنة للنار، لأن النار لا تحرق إلا بإذنه تعالى، فالله قادر على خلق الشجر فى النار، وحفظه من الاحتراق.

وذكر بعض المفسرين أن هناك دويبة تعيش فى النار، وتتلذذ بالنار.

قال القرطبي:

لا يستحيل فى العقل أن يخلق الله فى النار شجراً من جنسها، لا تأكله النار، كما يخلق الله فيها الأغلال والقيود والحيات والعقارب. اهـ.

٦٤ - إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ .

إنها شجرة تنبت في قعر النار ، وأغصانها ترتفع إلى أركانها .

٦٥ - طَلَعَهَا كَأَنَّهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ .

إن ثمرها في قبح منظره ، وهول رؤيته شبيه برءوس الشياطين ، والعرب تتخيل صورة الشيطان قبيحة لا تعدلها صورة أخرى في ذلك ، فيقولون لمن يسمونه بالقبح المتناهى : كأن رأسه رأس شيطان ، وقد سلك امرؤ القيس هذا المسلك ، فشبه سيفه المسنن بأنياب الغول ، أى أنه سيف بشع في حصد الرءوس ، وقتل الأعداء ، فقال :

أَيْقَنْتَلْنِي وَالْمَشْرِفَى مَضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرُقِ كَأَنِيَابِ أَعْوَالِ

وعلى العكس من هذا تراهم يشبهون الصورة الحسنة بالملك ، من قيل أنهم اعتقدوا فيه أنه خير محض لا شر فيه ، فارتسم في خيالهم بأبهى صورة ، وعلى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي بهرن جمال يوسف : فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَلَشَ لَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . (يوسف : ٣١) .

٦٦ - فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَيْتُوا مِنْهَا الْبُطُونَ .

بينما يتمتع أهل الجنة بالتفكه والتبعم بأفضل الأطعمة ، وألذ الفاكهة ، والخمر الحلال ، والحدود العين ، نجد أهل النار يأكلون الزقوم ، وهم يعرفون مرارة طعمه ، ومدى نتنه ، وبشاعة رائحته ، لكنهم يجبرون على أكله لشدة الجوع ، أو لأنهم مجبرون على أكله تعذيباً لهم وإذلالاً ، ويجبرون على ملء بطونهم لشدة حاجتهم .

قال تعالى : لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ . (الغاشية : ٦ ، ٧) .

والمضطر يركب الصعب والذلول ، ويستروح من الضر بما يقاربه فيه .

٦٧ - ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ .

الشوب : الخلط ، حميم : شراب مخلوط بماء شديد الحرارة ، يُقَطَّعُ الأحشاء .

قال تعالى : وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

والمعنى :

أنهم بعد الأكل من الزقوم امتلأت بطونهم ، فيستغيثون منه ، فيغاثون بشراب مزج بالحميم ، قد انتهى حرّه ، فإذا أدنوه من أفواههم شوى لحوم وجوههم ، وإذا شربوه قطع أمعاءهم ، نعوذ بالله من حال أهل النار .

قال تعالى : **وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوْا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوْهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** . (الكهف : ٢٩) .

فأكلهم عذاب ، وشرابهم لهيب ، وإقامتهم الدائمة في جهنم ، وبئس المصير .

٦٨ - **ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْجِعُهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ** .

إنهم يؤخذون من منازلهم في الجحيم ، فيأكلون الزقوم إلى أن تمتلئ بطونهم ، ثم يشربون الحميم ، ثم يرجعون إلى منازلهم في الجحيم .

قال تعالى : **هَلْدِهِ جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذَّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ فِيْهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ** . (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤) .

أى أنهم يترددون بين النار ، وبين حميم قد انتهى إلى أعلى درجة من الحرارة ، فهو يغلى ويشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء ، فى مقابل شراب أهل الجنة ، وخمر أهل الجنة ، وفواكه أهل الجنة ، وبالجملته نعيم أهل الجنة ، فى مقابل عذاب أهل النار .

٦٩ ، ٧٠ - **إِنَّهُمْ أَكْفَرُوا أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ** .

كأن إنساناً يتساءل : ما سبب هذا العذاب الشديد ، والطعام المؤلم ، والشراب الحار المهلك ؟ فكان الجواب هو ما يأتى : إنهم وجدوا آباءهم ضالين عن الحق ، عابدين للأصنام ، فأسرعوا فى السير خلفهم بدون تدبّر أو تعقل ، أو تفكير فيما يعرض عليهم من الوحى ، وكلام الرسل .

والآيتان تنبيه للناس - كلّ الناس - إلى خطورة التقليد الأعمى ، واتباع السابقين لمجرد الإلف والعادة ، والجري وراء التقليد الأعمى بدون تبصّر أو تفكير ، ولو لم يكن فى القرآن كله سوى هاتين الآيتين فى ذم التقليد الأعمى وبيان سوء عاقبته : لكان فيهما الكفاية .

٧١ - **وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ** .

أى : ليس الضلال خاصاً بأهل مكة ، وأشراف قريش ، والأغنياء والكبراء من قومك يا محمد ، فقد ضل قبلهم أكثر الأولين من الأمم السابقة ، مثل قوم نوح ، ومثل عاد وثمود .

قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧) .

٧٢ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ .

إننا رحمة بالعباد ، وتوجيها لهم ، وقطعا لأعدائهم أرسلنا رسلنا بالبينات والآيات ، وأعطيناهم المعجزات لدعوة الناس إلى التوحيد والعبادات والمعاملات السليمة ، وتخفيفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا ، وتبشيرهم بالجنة إن أطاعوا ، واكتفى هنا بذكر أحد المثلين عن الآخر ، لأن المكذبين كانوا يستحقون الإنذار والتخويف .

قال تعالى: رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء: ١٦٥)

٧٣ - فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ .

فتأمل أيها الرسول ، وتأمل يا كل من يتأتى منه النظر، كيف كان عاقبة المنذرين الذين كذبوا رسلهم، وحذرهم الرسل وأنذروهم فلم يأبهوا بالإنذار ، وسخروا من الرسل واستهزءوا بهم ، فكانت العاقبة الهلاك المخيف الذي أصاب المكذبين مثل : غرق قوم نوح ، وغرق فرعون وملئه ، وخسف الأرض بقارون ، والهلاك الذي أصاب عادًا وثمود ، وكانت عاد تسكن جنوب الجزيرة قرب اليمن ، بين اليمن وسلطنة عمان ، وكانت ثمود تسكن شمال الجزيرة بين المدينة والأردن ، وكان القوم من أهل مكة يمرّون على بلادهم ، ويعرفون ما أصابهم .

قال تعالى: وَإِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ * وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الصفات: ١٣٧ ، ١٣٨) .

وخلاصة المعنى :

تأملوا ما أصاب المنذرين من الهلاك ، وأنتم أهل لمثل هذا الهلاك إن لم تؤمنوا .

٧٤ - إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ .

المخلصين ، بفتح اللام ، أى : الذين استخلصهم الله من الكفر للإيمان والعمل الصالح ، ومعرفة الله تعالى وطاعته ، والقراءة الثانية : المخلصين ، بكسر اللام ، أى : الذين أخلصوا قلوبهم لطاعة الله ومرضاته ومراقبته وابتغاء وجهه فى أعمالهم .

والمعنى : لكن عباد الله المخلصين (بالفتح) الذين أخلصهم الله بتوفيقهم للإيمان ، أو المخلصين (بالكسر) الذين أخلصوا إيمانهم لله ولنصرة دينه ، أنجاهم الله من عذاب الدنيا ، وفازوا بجنة عرضها السماوات والأرض فى الآخرة .

قصة نوح عليه السلام

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنْعَمْ الْمُجِيبُوْنَ ۝٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ ﴿٧٦﴾
 وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِيْنَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِيْنَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلٰى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِيْنَ ﴿٧٩﴾
 اِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٨٠﴾ اِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ اَغْرَقْنَا الْآخِرِيْنَ ﴿٨٢﴾ ﴿٨٢﴾

المضمرات :

نَادَيْنَا : من النداء : وهو الاستغاثة .

فَلْيَنْعَمْ الْمُجِيبُونَ : أجابناه أحسن إجابة .

ونَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ : أهل دينه .

من الكَرْبِ الْعَظِيمِ : الغرق ، أو الغم الشديد .

تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ : ثناء حسنًا في كل أمة ، لأنه محبب إلى جميع الأديان .

تمهيد :

ذكر القرآن على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السابقة ، ثم شرع يفصل ذلك ، فذكر طائفة من قصص الأنبياء ، وعناية الله بهم ، واستجابة دعائهم ، وقصة نوح عليه السلام قد وردت في القرآن الكريم في سور متعددة ، منها : سورة الأعراف ، وسورة هود ، وسورة نوح ، وسورة المؤمنون ، والجانب المذكور منها هنا هو استجابة الله دعاءه ، وإهلاك الكافرين ، ونجاة المؤمنين ، وبقاء النسل في أولاده الثلاثة : سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم ، ويعد قصة نوح ذكر القرآن قصص إبراهيم ، وإسماعيل ، وموسى وهارون ، وإلياس ، ولوط ، ويونس ، عليهم السلام ، وفيها عبر بالغة وإنذار لقريش ، وتسلية للرسول ﷺ .

التفسير :

٧٥ - وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَنْعَمْ الْمُجِيبُوْنَ .

مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، حتى يؤس من إيمانهم ، وأخبره الله أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فدعا الله أن يهلكهم قائلًا : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاٰجِرًا كَفَّارًا . (نوح : ٢٦ ، ٢٧) .

لقد استغاث بالله تعالى : فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوْبٌ فَأَنْتَصِرُ . (القمر : ١٠) .

أى : قال : إني مقهور مغلوب على أمرى ، فانتصرلى يا الله ، فنعيم ما أجاب به الله ، حيث نصره الله بالطوفان الذى أغرق الكافرين ، وحمله الله فى سفينة يركب فيها مع من اتبعه من المؤمنين .
 وخلاصة معنى الآية :

استغاث بنا نوح فأجبناه أحسن إجابة ، حيث نجيناه من الغرق ، ونصرنا المؤمنين ، وأهلكنا الكافرين .

٧٦ - وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ .

ونجيننا نوحاً وأهله المؤمنين ، ومن آمن به من الغرق ، ومن الإحساس بالقهر والإحباط .

٧٧ - وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ .

أى : أهلكنا الكافرين بالغرق ، وجعلنا النسل والتوالد فى أبناء نوح الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، فسام أبو العرب وفارس ، وحام أبو السودان من المشرق إلى المغرب ، ويافث أبو الروم ، وهذا هو المشهور على ألسنة المؤرخين ، وليس فى القرآن ولا فى السنة نص قاطع على شيء من هذا .

٧٨ - وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ .

تركنا عليه الثناء الحسن إلى آخر الدهر ، فهو الأب الثانى للبشرية ، وهو مثل أعلى فى الصبر والاحتمال .

٧٩ - سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعُلَمِينَ .

أى : أبقينا له دعاء الناس ، وتسليمهم عليه ، أمة بعد أمة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقولهم : سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعُلَمِينَ .

أى : تحية وأمان وثناء على نوح فى العالمين : فى الملائكة ، والإنس ، والجن .

وفى معنى الآية قوله تعالى : قِيلَ يٰ نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ... (هود : ٤٨) .

وقال بعض المفسرين :

المراد من العالمين : الأنبياء ، إذ لم يُبعث نبى بعده إلا أمر بالاعتداء به .

قال تعالى : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ... (الشورى : ١٣) .

وقال سبحانه : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنْ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وأولو العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

٨٠ - إنا كذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

لقد أكرمنا نوحاً واستجبنا دعاءه ، وجعلنا ذريته هم الباقين ، وجعلنا الملائكة والإنس والجن تستمر في الرضا والتقدير والدعاء لنوح ، والتسليم عليه : سَلِّمْ عَلَى نُوْحٍ فِي السَّمٰوٰتِ . لأننا نجازي الإحسان بالإحسان ، وقد كان نوح محسناً ، فجعلنا له لسان صدق يذكر مآثره وجهاده الطويل مع قومه ، وصبره عليهم .

٨١ - إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

لقد كان نوح مؤمناً قوى الإيمان في دعائه لربه ، وجهاده مع قومه ، وصبره وتحمله ، وأساس ذلك صدق إيمانه ، وعظيم إخلاصه .

والمقصود من الآية الدلالة على جلال الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم .

٨٢ - ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ .

لقد أضفنا إلى النعم التي أنعمنا بها على نوح ، أننا أغرقنا أعداءه الكافرين ، الذين آذوه وأعرضوا عن دعوته ، وحرف العطف : ثُمَّ ، للتراخي في الذكر لا في الواقع ، إذ بقاؤه عليه السلام ومن معه متأخر عن الإغراق ، أى : وفوق ذلك أغرقنا الآخرين من كفار قومه ، ولم نبق لهم عينا ولا أثرا .

★ ★ ★

إبراهيم الخليل يحطم الأصنام

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعِنِهِ لَبِزْهِيمٌ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَكُلَّاءِ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْتَاكُمْ كُؤُومٌ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾﴾

المفردات :

من شيعته : من أنصاره وأعوانه ، ومن سار على دينه ومنهجه .

بقلب سليم : بقلب خالص من آفات القلوب ، كالحقد والحسد والنية السيئة ، مع الإقبال على الله بقلب

ظاهر متبتل ، راغب فى مرضاته .

الإفك : أسوأ الكذب والاختلاق .

نظّر : تأمل بعينه .

سقيم : مريض عليل .

فتولوا عنه : أعرضوا عنه .

مدبرين : راجعين .

فراغ إلى آلهتهم : فذهب إلى أصنامهم فى خفية وحيلة .

باليمين : بيده اليمنى ، أو بالقوة والشدة .

يسرعون : يسرعون ، من زفّ القوم زفيفا : إذا أسرعوا ، ومنه : زفيف النعام ، وهو صوت النعام إذا أسرع .

تمهيد :

نتناول الآيات جانباً من قصة إبراهيم الخليل ، وقد كان إبراهيم أمة . أى : متعدد الجوانب ، مخلصاً لله تعالى ، وقد ذكرت قصة إبراهيم الخليل فى سور كثيرة من القرآن الكريم ، لكن كل سورة عنيت بجانب من جوانب قصة إبراهيم .

ففى سورة البقرة نجد امتاماً بجانب العقيدة وتوحيد الله والإخلاص له ، حيث نجد نقاشه مع النمرود ، وإخلاصه فى بناء البيت ، وقوله الله : رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ... (البقرة : ٢٦٠) .

وفى سورة مريم نجد حوار إبراهيم مع أبيه ندياً هادئاً ، حكيماً مؤيداً بالأدلة والبراهين .

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتَبَتْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . (مريم : ٤٢) .

وفى سورة الأنبياء نجد الآيات (٥١ - ٧٢) تتحدث عن مناقشة قومه فى عبادة الأصنام ، ثم تكسير إبراهيم للأصنام ، ثم رغبة قومه فى معاقبته بالتحريق بالنار : قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

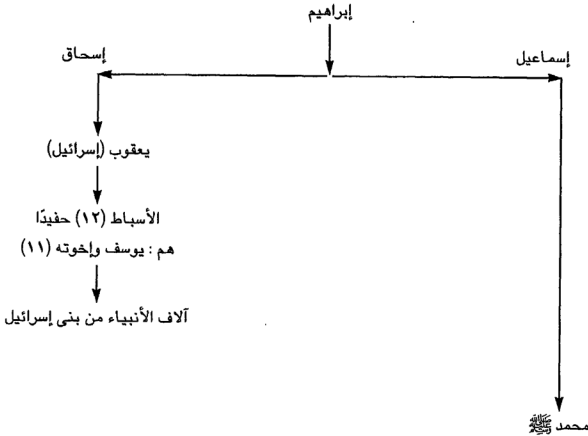
(الأنبياء : ٦٩)

وفى سورة الشعراء نجد آيات كريمة تتحدث عن إخلاص إبراهيم ومحبه لخالقه ، حيث يقول : **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** . (الشعراء : ٧٨ - ٨٢) .

ثم تأتى هذه السورة - سورة الصفات - فنجد الآيات (٨٢ - ١١٣) .

تتحدث عن إبراهيم الخليل وتكسيره الأصنام ، ودعائه أن يرزقه الله ذرية صالحة ، واستجابة الله له ، حيث رزقه بإسماعيل ، وابتلائه تعالى لإبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، واستجابة الصبي والأب لأمر الله تعالى ، ثم فداء إسماعيل بذبح عظيم ، واعتباره قدوة وأسوة فى هذا البلاء المبين ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، ومن نسل إسحاق يعقوب ، الملقب بإسرائيل ، وإنجاب اسرائيل اثني عشر ولدًا ، منهم يوسف عليه السلام .

ويعتبر إبراهيم الأب الثالث ، أو آدم الثالث بالنسبة للأنبياء من بعده ، قادم الأب الأول ، ونوح الأب الثانى بعد الطوفان ، وإبراهيم آدم الثالث بالنسبة لشجرة الأنبياء ، على نحو ما ترى فى هذا الرسم :



فلم يكن من نسل إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ ، وكان من نسل إسحاق جميع الأنبياء والرسل ، وهم آلاف من المرسلين ، ذكر القرآن بعضهم وترك بعضهم .

قال تعالى: مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... (غافر: ٧٨).

وقال تعالى: وَبَلَّغْنَا حُجَّتَنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

(الأنعام: ٨٣ - ٨٧)

التفسير:

٨٣- وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ.

الضمير يعود إلى نوح عليه السلام، أي: وإن ممن شايع نوحاً في دعوته إلى الله، وصبره على قومه، وبذله النفس والنفيس في مرضاة الله، مع سلامة القلب والإخلاص لله - إبراهيم عليه السلام فقد اتفقت شريعتاهما على توحيد الله، واختصاصه بالعبادة، وإن اختلفت فروع الشريعتين.

٨٤- إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

أي: شايعه حين جاء ربه، أي: أقبل على خالقه بقلب سليم من الحقد والحسد والآفات، طاهر من الرياء، نقي من العلائق الدنيوية، حافل بالتبذل والإخلاص والرجاء في جانب الله تعالى، وسلامة القلب أهم ما ينبغي أن يتوافر في المسلم لسلامة أعماله، وصلاح جميع أحواله.

٨٥- إِذْ قَالَ لِأَيُّهِمْ وَقَوْمِهِ مَاذَا تُعْبُدُونَ.

هذه الآية وما بعدها بيان وتفسير لسلامة قلب إبراهيم، وإخلاصه في الدعوة إلى الله: فقد ناقش أباه في عبادة الأصنام، وكذلك قومه، وهنا يسألهم سؤال منكر عليهم، لأن الذي يُعبد هو الخالق الرازق القوي القادر، والأصنام لم تخلق ولم ترزق، ولا تدفع عن نفسها ضرراً، ولا تجلب نفعاً لنفسها، فضلاً عن غيرها.

٨٦- أَفَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَرْيَدُونَ.

والإفك: أشد الكذب، أي: أتعبدون آلهة كاذبة، أو عبادة كاذبة لآلهة موهومة، وأصنام تصنعونها بأيديكم، ثم تؤمنون بها، وتخشونها من دون الله بالعبادة، ولو فكرتم لرأيتم أنكم أشرف منها: لأنكم الصانعون وهي المصنوعة.

٨٧- فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

فما ظنكم بما يفعل بكم رب العالمين ، وكيف يعاقبكم بعد ترك عبادته ، وعبادة أصنام من دونه .

قال قتادة : يعنى : ما ظنكم بما هو فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟

٨٨- فَتَنْظُرْ نَظْرَةً فِيِ الْجُحُومِ .

يروى أنه كان للقوم عيد - ربما كان هو عيد النيروز - يخرجون فيه إلى الحدائق والخلوات بعد أن يضعوا الثَّمار بين يدي آلهتهم لتباركها ، ثم يعودون بعد الفُسحة والمرح ، فيأخذون طعامهم المبارك ، وقد ينتظر إبراهيم هذا اليوم لينفذ ما اعترزم عليه ، فلما طلبوا منه الخروج معهم إلى عيدهم اعتذر لهم ، بعد أن نظر إلى السماء ، وقال : إِنِّى سَقِيمٌ . أى : عليل القلب ، ضيق أشد الضيق من تصرفاتكم ، فتركوه خوفا من العدوى .

٨٩، ٩٠- فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ .

أى : إبنى سقيم القلب ، ضيق الفؤاد ، مريض بالهم والحزن مما أنتم عليه ، لكنهم فهموا أنه مريض مرضاً حَسِيًّا ، فأسرعوا فى الإدبار والذهاب إلى عيدهم ، وتركوه مع الأصنام ، وهى فرصة كان يتحين وجودها ويستعد لها .

٩١- فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ .

فمال إبراهيم إلى الآلهة المدَّعاة ، وتسلل فى خفية إلى الأصنام ، وقال للأصنام - فى استهزاء وسخرية - : ألا تأكلون من هذا الطعام المتعدد الأصناف ، المختلف الأنواع الذى نثره حولكم هؤلاء السفهاء فى يوم عيدهم ؟

٩٢- مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ .

ما الذى جعلكم صامتين لا تردون جوابا ولا تنطقون ؟ وهو سؤال يقصد به المبالغة فى السخرية والاستهزاء .

٩٣- فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِأَيْمِينِ .

فمال إبراهيم على الأصنام يضربها ضربا قويا ، ويستخدم يمينه - وهى أقوى الجارحتين - فى تكسير الأصنام ، وجعلها جذازا وقطعا مهشمة .

٩٤- فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ .

فأقبلوا يسرعون الخطى ، ويحدثون حوله زفيفا ، كصوت النعام حين يسرع بالجرى ، إنهم جمع هائج غاضب ، يريد أن ينتقم ممن كسر أصنامهم .

★ ★ ★

نجاة إبراهيم من النار ، وفداء إسماعيل

﴿ قَالَ اتَّعَبُدُونِ مَا نَحْنُ حُشُونٌ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ قَالُوا اتَّبُوا اللَّهَ بُدِينًا فَالْقُوهُ
فِي الْحَجِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ
﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
يَبْنِيْ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٢﴾ قَالَ يَتَأَبَّتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّخِذْ بِهِمْ ﴿١٠٥﴾ قَدْ
صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٧﴾ وَفَدَيْنَاهُ
بِذَبِجٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
﴿١١٣﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾

المفردات :

ما تَنَحَّتُونَ : ما تصنعونه بأيديكم .

الحجيم : النار الشديدة الإيقاد .

كَيْدًا : مكرًا وسوءًا .

الأسفلين : الأذلين المقهورين .

ذاهب إلى ربى : مهاجر إلى حيث أمرنى ، أو حيث أتجرّد لعبادته .

هابى من الصالحين : ارزقنى الولد الصالح .

فلما بلغ معه السعى : فلما بلغ السن التى تساعد على أن يسعى مع والده فى أعماله ، وحاجات المعيشة .

تسرى ، تشير وتفكر ، مأخوذ من رأى .

أسلمنا : أسلمنا لأمر الله وانقادا له .

تله : كبه على وجهه .

صدقت الرؤيا : وفيتها حقها بالعزم على تنفيذ ما أمر الله .

البلاء المبين : الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلص من غيره .

بذبح عظيم : كبش سمين عظيم القدر .

باركنا عليه : أفضنا عليه البركات .

ظالم لنفسه : موبق لها ، ومهلكها بالكفر والمعاصي .

تهديد :

إبراهيم الخليل له مواقف كثيرة فى وفائه وإخلاصه وتطوعه لعمل الخير ، وموضوع تكسير الأصنام ونقاش قومه سبق ذكره فى سورة الأنعام وغيرها ، لكن موضوع ذبح إسماعيل لم يذكر فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع من سورة الصافات ، ورؤيا الأنبياء حق ، فقد رأى إبراهيم فى منامه التكليف من الله بأن يذبح ولده إسماعيل ، وفى الصباح أخبر ولده بذلك ، فقال إسماعيل : **يَتَأَبَّسُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** . (الصافات : ١٠٢) .

ولما حاول ذبح إسماعيل لم تنجح المحاولة ، وأنزل الله كبشا سمينا من السماء فداء لإسماعيل .

وقال سبحانه : **إِنَّ هَذَا لَهُوَ آتِلَتُوا الْمُبِينُ** . (الصافات : ١٠٦) .

لقد كان امتحانا قاسيا ، نجح فيه إبراهيم وإسماعيل ، وسُنَّ من أجله ذبح الأضحية فى العيد الأكبر ، ورزق الله إبراهيم غلاما آخر ، هو إسحاق ، وبارك الله على إبراهيم وعلى إسحاق بالرضا والتوفيق ، ومن نسل إسحاق كان يعقوب ، ومن نسل يعقوب الأسباط ، وهم أحفاد إبراهيم ، ومن نسلهم آلاف الأنبياء لبني إسرائيل .

التفسير :

٩٥- قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ .

أى : قال إبراهيم عليه السلام لقومه حين سأله : **ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ** . (الأنبياء : ٦٢) . قال لهم : أيستقيم منكم أن تعبدوا أصناما تحتونها من الصخر ، وتصنعونها بأيديكم من الحجارة ؟ والإله لا ينبغي أن يكون مصنوعا ، بل هو الصانع الخالق للكون وما فيه .

٩٦- وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

أى : إن الله تعالى هو خالقكم ، وخالق ما تعملونه من الأصنام ، فهو سبحانه الذى وهبكم القدرة والقوة واليد والعمل .

قال القرطبي :

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ .

(مآ) فى موضع نصب ، أى : خلقكم وخلق ما تعملونه من الأصنام ، يعنى الخشب والحجارة وغيرها.

وروى البخارى ، عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعتة» ، ذكره ابن كثير فى تفسيره ، فهو سبحانه الخالق ، وهو سبحانه الصانع ، وهو سبحانه المستحق للعبادة .

٩٧- قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ .

هكذا الباطل ورجاله ، عندما يغلبهم الحق بالمنطق والحجة والدليل ، بأن الله هو الصانع الحقيقى لكل شىء فى الكون ، حتى الإنسان وعقله ويده ومداركه وصنعتة ، فهو المستحق للعبادة ، أما الأصنام فإنها مصنوعة لا صانعة ، والإله الحق صانع لا مصنوع .

أى : عندما قهرهم إبراهيم بالحجة تعمدوا إفحامه بالقوة ، فعزموا على بناء بنيان يجمع فيه الحطب، وتضرم فيه النيران ، ويلقى إبراهيم فى وسط النيران ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج عليهم.

٩٨- فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ .

أى : أرادوا تدبير الهلاك له وإحراقه ؛ فنجاه الله من النار وجعلها بردًا وسلاما عليه ، وكان ذلك معجزة لإبراهيم ، حيث أرادوا الكيد له وإهلاكه ، فنجاه الله ورفع شأنه ، وأظهر صدقه ، وعلا شأن إبراهيم ، وأصبح أعداؤه مهزومين أذلاء أسفلين .

٩٩- وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَّهْدِينَ .

أى : قال إبراهيم حين نجاه الله من النار ، وأمره بالهجرة إلى بلاد الشام : إني ذاهب إلى طاعة ربي ، والطريق الذى اختاره لى ، وهو بلاد الشام ، وقد تكفل الله بهدايتي إلى ما فيه صلاح ديني ودنياي .

قال القرطبي :

هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة ، وأول من فعل ذلك إبراهيم - عليه السلام - وذلك حين خلّصه الله من النار ، فقال : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي . أى : مهاجر من بلد قومي ومولدى ، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ، فإنه ، سَيَهْدِينِ . فيما نويت إلى الصواب . ا هـ .

وقال مقاتل :

هو أول من هاجر من الخلق مع لوط وسارة إلى الأرض المقدسة ، وهى أرض الشام .

ويتبادر إلى الذهن موقف مُشابه ، هو موقف موسى عليه السلام ، حين خرج مهاجراً من مصر .

قال تعالى : فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . (القصص : ٢١ ، ٢٢) .

١٠٠ - رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ .

أى : هب لى من لدنك ذرية صالحة ، تشدُّ أزرى ، وتعيننى فى كبرى ، فقد تركتُ وطنى وتوجهت وحيداً حيث أمرتنى ، وأنا فى حاجة إلى ذرية صالحة ، تكون قرّة عين لى ، وتؤنسنى فى غربتى ووحدى .

١٠١ - فَبَشِّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ .

استجاب الله دعاء إبراهيم ، وبشره بولده البكر الحليم الصابر .

وقد انطوت البشارة على ثلاث :

١ - أنه ولد ذكر .

٢ - أنه يبلغ ويدرك مدارك الشباب .

٣ - أنه يكون فى غاية الحلم والخلق والرضا .

وجمهور العلماء والمفسرين على أن البشارة الأولى كانت بإسماعيل ، فلما امتحن الله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ، فصبر وأطاع وامتثل لأمر الله هو وابنه إسماعيل ، صرف الله عنه التكليف بذبح إسماعيل وأنزل الغداء من السماء ، وهو كبش كان يرعى فى الجنة قدّمه قابيل ، ثم حملة الملك إلى إبراهيم ليذبحه بدلاً عن ذبح إسماعيل ، ثم كافأ الله إبراهيم بأن بشره بإسحاق ، وبشره بأن إسحاق سيلد حفيداً لإبراهيم يسمى يعقوب .

وزعمت اليهود أن الذبيح هو إسحاق ، حيث حسدوا المسلمين أن يتصف جدّ نبيهم بالحلم والصبر ، وقد اختار هذا الرأى ابن جرير الطبرى .

واختار ابن كثير أن الذبيح هو إسماعيل ، وأورد مبحثاً فى تفسير هذه الآيات عنوانه : (ذكر الآثار الواردة بأن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وهو الصحيح المقطوع به) ، وفيه رواية عن ابن عباس أنه قال : المُغْدَى إسماعيل عليه السلام ، وزعمت اليهود أنه إسحاق ، وكذبت اليهود .

وقد قال تعالى : فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يُعْقُوبَ . (هود : ٧١) .

أى : يا بنى وابن ابن ، فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق ، وله فيه من الموعيد بما وعده ، وما الذى أمر بذبحه إلا إسماعيل .

١٠٢ - فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَسُوبُ إِلَى أَبِيهِ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَتَأَبَّسُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّائِرِينَ .

تبدأ قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام ، وقد بشر الله الخليل بإسماعيل ، ويفهم من السياق أن إسماعيل قد شبَّ عن الطوق ، وبلغ مبلغ القدرة على السعى ، ومساعدة والده فى العمل ، وقيل كان عمره ثلاثة عشر عاماً .

ورأى إبراهيم فى المنام أن الله يأمره بذبح إسماعيل ، وكان ذلك ليلة الثامن من ذى الحجة ، فتروى إبراهيم فى الأمر ، وقال : هل هذه الرؤيا من الله أم أضغاث أحلام ؟ فسُمى يوم الثامن من ذى الحجة بيوم التروية . وفى الليلة التالية تأكد الأمر بذبح إسماعيل ، وفى الصباح عرف أنه أمر من الله ، فسُمى عرفات . وفى ليلة العيد تأكد الأمر فعزم على التنفيذ فى الصباح ، فسُمى يوم الأضحية ، أى : يوم الذبح والتضحية ، وقد شاور إبراهيم ولده ليعد نفسه للأمر ، وليتَّبه ويصبره إن احتاج إلى ذلك .

فالأمر كان خطباً كبيراً : الخليل يسلم أمره لله ، ويتكلم فى هدوء وريانة ، فيقول : يَسُوبُ إِلَى أَبِيهِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ... أى : فلما رزق الخليل بإسماعيل ، وكبر إسماعيل ، وأصبح قادراً على مساعدة والده ، ومعاونته فى العمل ، أجلس الخليل ولده إسماعيل بجواره ، وقال : يا بنى ، إني رأيت رؤيا من الله تعالى ، يكلفنى بذبحك تقرباً إليه ، لكن إسماعيل كان هادئاً رزيناً ، ثابتاً موفقاً حين قال : يَتَأَبَّسُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّائِرِينَ .

يَتَأَبَّسُ . فى هدوء وثبات ، أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ . نفذ ما أمرك الله به من ذبحى ، ستجدنى بمشيئة الله وتوفيقه ومعونته من الصابرين الثابتين الملتزمين .

ونلاحظ هنا أنه قدّم المشيئة : لأنه لا حول له ولا قوّة فى هذا الأمر الجلل إلا بمشيئة الله وتوفيقه .

قال العلماء :

علّق صبره على مشيئة الله فى قوله : سَجِدْنِيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّغِيرِينَ . فلما استثنى وفقه الله للصبر ، وإنه لموقف مؤثر فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ البشرية : أبّ يضحى فى هدوء وامتنال ، وغلّام فى ميعه الصبا - ثلاثة عشر عاما - يمثل هادئاً مستعينا بالله ، صابراً راضياً مستجيباً ، صادقاً فى وعده ، حليماً مطيعاً لربه ولوالده ، لقد كان بلاءٌ أىّ بلاء ، وقد استجابا لأمر الله ربّ العالمين ، وهكذا الأنبياء عليهم السلام ، يلهمهم الله تعالى فى جميع مراحل حياتهم ما يجعلهم فى أعلى درجات السمو النفسى ، واليقين القلبي ، والكمال الخلقى .

كمّ تحمّل نوح الذى مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، كمّ تحمل أيوب الذى مرض مرضاً شديداً ، وانهدم منزلٌ على أولاده ؛ فصبر أيوب ، ودعا الله فى تضرع وإخلاص ، فاستجاب الله دعاءه ، ويسر له الشفاء ، ورزقه ذرية صالحة ، ضعف أولاده السابقين . ويونس حين تضرع إلى الله وهو فى جوف الحوت ، فاستجاب الله له ، وأمر الحوت أن يلفظه على الشاطئ ، ثم أرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ؛ فأمّنوا فأكرمهم الله فى الدنيا والآخرة . وموسى الذى قارع جبروت فرعون ، وصاول السحرة ، واستعد للهجرة ، وفلق الله له البحر ؛ فسار فيه هادئاً فوق طريق يابس ، ثم أغرق الله فرعون وقومه ، ونجّى موسى ومن معه من المؤمنين . وعيسى وقد حاول الأعداء قتله وصلبه فرفعه الله إليه ، ومحمد ﷺ وقد مكث فى مكة يدعو قومه ثلاثة عشر عاماً ، ثم هاجر إلى المدينة ، وحارب فى غزوات متعددة ، مثل : بدر ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، وفتح مكة ، وتبوك ، وحنين ، والطائف ؛ ثم نصره الله نصراً مبيناً .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأئمة فالأئمة ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، وما يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة» (١٢) .

١٠٣- فَلَئِمَّا أَسْلَمْنَا وَلَلَّهِ لِلْجَبِينِ .

فلما استسلمنا لأمر الله ، حيث انقاد إبراهيم للأمر ، وسلّم إسماعيل نفسه فى رضا وإيمان وتجاوب ، وألقى الأب ولده على جنبه ، حيث جزء من الجبين على الأرض ، أو كبّه على وجهه بإشارة الولد ، كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بين الأب وبين تنفيذ أمر الله .

قال الآلوسى فى تفسيره :

أخرج غير واحد أنه قال لأبيه : لا تذبحنى وأنت تنظر إلى وجهى ، عسى أن ترحمنى فلا تجهن على ، اربط يديّ إلى رقبتي ، ثم ضع وجهى للأرض .

وفى الآثار حكاية أقوال كثيرة غير ذلك ، وكل هذه الأقوال تدور حول امتثال الغلام لأمر الله وإذعائه لقضائه .

١٠٤، ١٠٥، ١٠٦- وَلَدَيْتُهُ أَنْ يَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

أى : عندما امتثالا لأمر الله ، واستعداً تمام الاستعداد : أرسل الله الملك من خلف إبراهيم ، فناداه : يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، أى : قد استعددت استعداداً تاماً لتنفيذ الرؤيا وتصديقها ، ورأينا منك الصدق والاستجابة ، ومن إسماعيل صدق الوعد ، فكان الفضل العظيم ، والفرج الكبير ، والاستبشار والاعتباط ، والحمد لله والشكر له على ما أنعم عليهما من دفع البلاء العظيم بعد حلوله ، والثواب الجزيل ، ورضوان الله الذى ليس وراءه مطلوب .

إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

أى : فعلنا ذلك - بقبول عمل إبراهيم ، والغذاء بذبح عظيم - لأن من سنتنا إكرام المحسنين ، ورفع درجاتهم ، وتفريج كرباتهم ، وكشف الهم والغم عنهم .

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

هذا هو الامتحان الشديد والاختبار القوى ، والمحنة الصعبة ، البالغة أقصى غايات القسوة والمرارة ، التى لا يحتملها إلا أصحاب العزائم العالية ، والقلوب السليمة ، والنفوس المخلصة لله رب العالمين ، فمن المعتاد أن يذهب الناس للجهاد ، وأن يتطوعوا بالشهادة فى طلب النصر ، وأن يضحي فرد من أجل حياة أمة ومستقبلها ، أما أن يكلف أب بأن يذبح ولده الوحيد البكر الذى جاءه على الكبر ، وأن يعرض الرأى على الغلام ، فتكون منه الاستجابة والمعونة ، ومعاونة الأب فى هذا التكليف ، فهذا فعلا هو البلاء المبين ، والاختبار الشديد ، والامتحان الصعب الذى لا ينجح فيه إلا أمثال الخليل إبراهيم ، وأمثال إسماعيل الصادق الوعد ، الرسول النبى .

قال تعالى : وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا . (مریم : ٥٤ ، ٥٥) .

١٠٧- وَلَدَيْتُهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ .

والذَّبْحُ بمعنى المذبوح ، فهو مصدر بمعنى اسم المفعول ، كالطَّحْنُ بمعنى المطحون ، قال الحسن البصرى : أى : وفديناه بوعْلٍ أهبط عليه من جبل ثبير . ا هـ .

وقيل : فديناه بكبش عظيم الجثة مكنزٍ لحما وشحما ، أو كبش عظيم القدر لأنه عطاء الله ، والعطاء يعظم بعظم معطيه ، ولأنه يفدى به الله نبيا ابن نبي .

١٠٨، ١٠٩ - وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

أى : فوق منتنا عليه بالفداء والتوفيق ، أبقينا له ذكرا حسنا بين الناس ، فاليهود يجلونه ، والنصارى يعظمونه ، والمسلمون يبجلونه ، والمشركون يحترمونه ، ويقولون : إننا على ملة إبراهيم أبينا ، وذلك استجابة لدعوته حين قال : وَاجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . (الشعراء : ٨٤ ، ٨٥) .

سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ .

وجعلنا التحية والسلام على إبراهيم منا ومن الملائكة ، ومن الإنس والجن ، ومن سائر الأمم المتعاقبة بعده ، فكل أهل الأديان يحيونه بالسلام عليه بلغاتهم .

١١٠ - كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

أى : مثل هذا الجزاء الحسن من دوام الذكر ، وخالد الثناء ، نجزي به المحسنين فى أعمالهم ، الصادقين فى إخلاصهم ونياتهم .

١١١ - إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

إن إبراهيم من جملة عبادنا المؤمنين ، الراسخين فى الإيمان ، الصادقين فى العقيدة ، والآية فيها تعظيم لقدر الإيمان الصادق ، وبيان كاشف عن أن الذى حمل إبراهيم على الوفاء بذبح ابنه ، والصدق فى طاعة ربه ، والنجاح فى البلاء ، إنما كان سببه صدق العبودية لله ، وصدق الإيمان بالله رب العالمين .

١١٢ - وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ .

نظرا لصدق بلاء إبراهيم ، ووفائه فى الاستعداد لذبح إسماعيل ؛ بشرناه بولد آخر يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون نبيا من الصالحين ، فهى عدة بشارات ، منها : أن المَبَشَّرَ به غلام ، واسمه إسحاق ، وأنه يبلغ مبلغ الرجال ، ويوحى إليه بالنبوة ، ويكون من الصالحين ، أى : المطيعين لله ، المتسمين بالصلاح وفعل الخيرات ، وترك السيئات .

١١٣- وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ .

أنزلنا البركة على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وعلى إسحاق ابنه ، حيث باركنا فيه وجعلنا النبوة في عقبه ، وطلبنا من المسلمين في صلواتهم أن يدعوا لهم بالبركة فيقولوا : «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، في العالمين إنك حميد مجيد» .

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ .

أي : ومن ذرية إبراهيم وإسحاق من أحسن في عمله فأمن بربه ، وأطاع أمره ، واجتنب نواهيه ، ومن ذريتهما من ظلم نفسه ظلما مبينا واضحا ، حيث دسّ نفسه بالكفر والفسوق والمعاصي ، وفي ذلك تنبيه إلى أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر دائما ، فقد ولد البار فاجرا ، وقد ولد الفاجر بارا ، فابن نوح أغرق ودخل النار ، ووالد إبراهيم كان من الضالين ، وزوجتا نوح ولوط نموذج لكافرتين في النار ، وزوجة فرعون نموذج لامرأة مؤمنة لها في الجنة منزلة عالية .

وهكذا لا يضير الآباء ظلم الأبناء ، ولا يعود عليهم بنقيصة ، ما داموا لم يقصروا في تربية أو توجيه أو نصيحة .

قال تعالى : أَلَا تَذَرُوا بَعْضَ مَا كَفَرْتُمْ بِهِ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُمْ الْفَاسِقُونَ (النجم : ٣٨) .

★ ★ ★

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَخَيَّرْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنْ آلِ كَرِبَ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَائِزِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَيِّنَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

المضردات :

مننا ، أحسننا وأنعمنا عليهما بالنبوة والنجاة والنصرة .

الكرب، المكروه والشدة .

الكتاب المستبين ، الواضح ، وهو التوراة .

الصراط المستقيم ، الذي لا عوج فيه ، لأنه الموصل إلى الحق والصواب .

التفسير :

١١٤- وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ .

بعد الفراغ من قصة إبراهيم وإسماعيل ، وما تضمنته من أخبار غريبة وأحداث عجيبة ، ومنح جزيلة ، ومواقف جليلة ، شرعت الآيات فى تقديم شريحة من قصة موسى وهارون ، وصُدرت القصة بالمنة : لإبراز فضل الله على رجلين أعزّلين من السلاح والقوة ، ونجاحهما فى رسالتهما ، ونجاتهما من القتل والذل ، ونصرهما على فرعون وجيشه ، وفوق ذلك أعطاهما الله التوراة هدى ونورا ، وهدهما الطريق الواضح ، وأعقبهما الذكر الحسن والثناء الجميل .

وخلاصة معنى الآية :

كانت لنا منن ونعم على موسى وهارون : بالرسالة والنبوة ، والانتصار على السحرة ، والنجاة من الظالمين ، والنجاة من الغرق ، وهلاك فرعون وجيشه ، ونجاة موسى والمؤمنين به .

١١٥- وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ .

نجينا موسى وهارون ومن تبعهما من المؤمنين من تسلط فرعون وقومه وظلمهم ، حيث كانوا يقتلون أبناء بنى إسرائيل الذكور ، ويستحيون الإناث ، ويعاملون بنى إسرائيل معاملة العبيد والأرقاء ، إلى ضروب أخرى من المهانة والمذلة ، وكانت ولادة موسى فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

قال تعالى : وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ . (البقرة : ٤٩) .

١١٦- وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ .

لقد مرت المدن على موسى وهارون بعدة مراحل :

(أ) تبليغ الرسالة إلى فرعون وقومه .

(ب) نجاتهما ومن آمن بهما من عذاب الإبادة الذى يمارسه فرعون ، بقتل الذكور واستحياء الإناث .

(ج) النصر على فرعون والغلبة عليه .

ومع أن النصر مصاحب للغلبة وللنجاة من فرعون ، إلا أن القرآن هنا أظهر النجاة كمئة من المنن تستحق الشكر وحدها ، ثم نعمة النصر على ملك قوى متمكن ، ذى بطش وقوة ، وبطانة وجيش قوى مطيع فهي منن متعددة .

١١٧- وَعَآئِنَهُمَا أَلْكِتَبِ الْمُسْتَقِيمِ .

بعد النجاة والنصر أعطاهما الله التوراة فيها هدى ونور ، وتشريع وأحكام : لتنير لهما الطريق ، فهي كتاب جامع مبين واضح ، مشتمل على ما يحتاج إليه البشر فى مصالح الدين والدنيا .

قال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ... (المائدة : ٤٤) .

وقال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ . (الأنبياء : ٤٨) .

١١٨- وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ .

يسرنا لهما الطريق الواضح ، وألهمناهما الخطة المحكمة الموصلة إلى تبليغ الرسالة ، وإقامة الحجة ، وأنعمنا عليهما بالمعجزة والنصر ، ثم الذكر الحسن .

١١٩، ١٢٠- وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ .

جعلنا لهما ذكراً حسناً ، وثناءً متصلاً فى أمم الأرض وعالم السماء ، فالملائكة والجن والإنس يسلمون عليهما أبد الدهر ، ويثنى عليهما الناس الثناء الجميل .

وتظل الأمم والجماعات والأفراد إلى يوم الدين ، تقول : سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . وما فى معناه : أى : ما أبدع عملهما فى إحقاق الحق ، وإنهاق الباطل ، وإبلاغ الرسالة ، وإنقاذ المستضعفين ، وإهلاك الظالمين ، ونشر الإيمان بين الناس ، فلهم من الجميع السلام اللفظى والسلام المعنوى .

١٢١، ١٢٢- إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

يمثل هذا التكريم نجازى المحسنين ، ونكافئ العاملين جزاء سخيا وافيا .

إنهما ، أى : مُوسَىٰ وَهَارُونَ . من عبادنا المؤمنين ، الذين أخلصوا فى إيمانهم ، وتحملوا عبء الرسالة والنبوة إلى ملك ظالم قاهر ، فأوضحا له الحجة والبينة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وكان الدافع لهما هو الإيمان الصادق ، فما أعظم الإيمان ، إنه مفتاح الخير ، وطريق النجاة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة .

قصة إلياس عليه السلام

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٢) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَأَنْتُمْ تَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ
لَمُخَضَّرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى
إِلْيَاسٍ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

المضردات :

إلياس : هو إلياس بن ياسين من سبط هارون ، أخى موسى - عليهم السلام - بُعث بعده ، وقيل :
إنه إدريس .

بَعْلًا : اسم صنم لأهل (بَكَّة) من الشام ، وهو البلد المعروف اليوم باسم «بعلبك» ، وقيل : البعل :
الرب بلغة اليمن .

يُخَضَّرُونَ : لشاهدون العذاب ، مساقون إليه .

إلياسيين : لغة فى إلياس ، كسيناء فى سينين ، وقيل : هو جمع له ، أريد به هو وأتباعه ، مثل :
المهلبيين ، والناصرين ، والخببيين .

تمهيد :

قصة نبي كريم ، دعا قومه إلى توحيد الله ونبت عبادة الأصنام فكذبه قومه ، واستحقوا عذاب الآخرة ،
ونجى الله عباده المخلصين ، وترك الذكر الحسن والثناء الجميل على إلياسين .

التفسير :

١٢٣- وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

قال ابن جرير الطبرى :

هو إلياس بن ياسين بن فينحاص بن العيزار بن هارون أخى موسى عليهما السلام ، فهو إسرائيلي
من سبط هارون ، وينتهى نسبه أيضا إلى إبراهيم وإسحاق ، ويعرف إلياس فى كُتُب الإسرائيليين باسم
(إيليا) ، وقد أرسله الله إلى قوم كانوا يعبدون صنما يسمونه (بعلا) ويقال : إن رسالته كانت فى عهد (أخاب)
أحد ملوك بنى إسرائيل فى حوالى القرن العاشر ق . م .

ونلاحظ أن القرآن الكريم قد لَوَّنَ فى عرض القصص ، ففى قصة نوح كان المدخل : وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا ... (الصفات : ٧٥) . وفى قصة إبراهيم : وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . (الصفات : ٨٣) . وفى قصة موسى وهارون : وَلَقَدْ مَتَّأ عَلَى مُوسَى وَهَارُونُ . (الصفات : ١١٤) . وهنا عند الحديث عن قصة إلياس قال : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . وهو لون من ألوان التفتن فى القول ، وروائع الإعجاز ، حيث يختار لكل قصة ما يختاره منها ، ويختار لها المدخل والجزء المعروض من القصة ، والخاتمة ، لقد أراد الله تصريف القول ، وتلويته لأنه العليم بعباده ، الخبير بما يناسبهم .

وخلاصة معنى الآية :

وإن من أنبياء الله تعالى ورسله الذين أرسلهم الله إلى قومهم لإرشادهم - إلياس عليه السلام .

١٢٤- إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ .

حين قال لقومه : ألا تتقون الله الذى خلقكم ورزقكم ، ويده الخلق والبعث ، وتخافونه وتطيعونه .

١٢٥- أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلِيقِينَ .

أتعبدون صنما يسمى بَعْلًا ، لا ينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يجيب ، وتتركون أحسن من يسمي خالقا ، فهو خالق الكون والإنسان ، ويده الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير .

والبعل : اسم الصنم الذى كان يعبد قومه ، وقيل : سميت باسم هذا الصنم مدينة (بعلبك) بالشام ، وكان قومه يسكنون فيها ، وقيل : البعل ، أى : الرب بلغة اليمن .

١٢٦- اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ .

ولفظ الجلالة فى قوله : اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ . بدل من : أَحْسَنَ الْخَلِيقِينَ .^(١٤)

أى : أتعبدون صنما ، وتتركون أحسن من خلق ، وهو الله الذى خلقكم وأنعم عليكم ، وهو ربكم ورب آبائكم السابقين عليكم ، من لدن آدم عليه السلام ، الذى عمرت بهم الدنيا ، وعن طريقهم أتيتم إلى هذه الحياة ، فهو مستحق للشكر منكم ومن آبائكم .

١٢٧- فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

أى : فكذبوه فى دعوته إلى توحيد الله ، ونبت عبادة الصنم ؛ فاستحقوا أن يحضروا يوم القيامة ، وأن يحشروا للسؤال والحساب والعقاب ، فلفظ الحضور كناية عن استحقاقهم للحضور ، كما يستدعى المجرم

للحضور للمساءلة فى النيابة أو قسم الشرطة ، وليس المراد الإحضار وحده ، بل ما يترتب عليه من المساءلة والمحاسبة والمعاقبة والمعاقبة: ثم أخرج من بينهم جماعة لم يكذبوا بنبههم بل أطاعوه ، فقال :

١٢٨- إِيَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

إلا قوماً أخلصوا لله العبادة ، وأطاعوا رسوله ، فإن الله يحسن جزاءهم وعاقبتهم فى الجنة .

١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢- وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ *
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ .

تركنا على إياسين فى الأمم التالية بعده الذكر الحسن ، والثناء الجميل المشتمل على قولهم : سَلَّمَ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ . وما فى معناه ، وإنا بمثل هذا الجزاء الحسن نجازى كل محسن من عبادنا المؤمنين .

قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ . (الرحمن : ٦٠) .

★ ★ ★

قصة لوط عليه السلام

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٣٢) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٢﴾ إِلَّا جَعُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٠﴾
ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّا لَنُفْرِدُ عَنْهُمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالْبَيْتِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

المفردات :

الغابرين ، الباقيين فى العذاب ، أو الماضين الهالكين ، من : غير ، أى : بقى أو مضى ، فهو من الأضداد .
دمرنا ، أهلكننا .

مصبحين ، وبالليل ، داخلين فى الصباح والمساء ، أى : نهاراً وليلاً .

التفسير :

١٣٣- وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .

هذا مدخل لجانب من قصة لوط عليه السلام ، وهو ابن أخ لإبراهيم ، وقد آمن به وهاجر معه من العراق إلى الشام ، وأرسل الله لوطاً إلى قرية سدوم ، من قرى الشام ، وكان أهلها يعبدون الأصنام ، ويرتكبون فاحشة اللواط ، أى استغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهى المثلية الجنسية : فأرسل الله لوطاً إليهم يدعوهم إلى توحيد الله تعالى ، والابتعاد عن هذه الفاحشة النكراء .

قال تعالى: أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعُلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَ يَنْلُوطَ لَنْكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . (الشعراء: ١٦٥ - ١٦٧) .

١٣٤- إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ .

على طريقة القرآن الكريم فى عرض بعض جوانب القصة للعظة والاعتبار ، ولاستنباط الإنسان الأجزاء المحذوفة .

و خلاصة المعنى :

لقد أرسلنا لوطا إلى قومه لدعوتهم للإيمان ، والابتعاد عن اللواط ، فكذبوه وهددوه ومن آمن معه بالطرده من قرية سدوم ، وتمادوا فى عتوهم وعنادهم ، وكانوا يأتون المنكر فى ناديم وأماكن اجتماعهم ، ويفعلون الطريق ويغتصبون المارة ، ولما تمادوا فى عنادهم أمره الله أن يسير مع من آمن به فى جزء من الليل ، ولا يلتفت إلى قومه حتى لا يرق قلبه من أجلهم ، فإن الله عز وجل قد قدر إهلاكهم ، وسار لوط وأهله أجمعون ليلا فنجاهم الله .

١٣٥- إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ .

إلا امرأته العجوز التى انتصرت لقومها ، وتعاونت معهم ، وأُنشئت أسرار نبي الله لوط لهم ؛ فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، وجعلنا محلّتهم من الأرض بحيرة ذات ماء ردىء الطعم ، منتن انريخ^(٤٤) .

١٣٦- ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ .

حمل جبريل قريتهم إلى أعلى ، ثم جعل عاليها سافلها ، وأمطارت عليها السماء حجارة مهلكة فتم تدميرهم جزاء خروجهم على أمر الله ، وسلوكهم السيئ الذى سبب رداء ستهانة برسول الله لوط والمؤمنين به .

١٣٧، ١٣٨- وَإِنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْعَبِينَ * رَبِّائِيلُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

وكان أهل مكة يسرون فى تجارتهم إلى الشام ، ويمرون على سدوم فى طريقهم ، فلفت القرآن أنظارهم إلى أنهم يمرون على هذه النية صباحاً أو مساءً أفلا تتعظون بهم ، وتستخدمون عقولكم ، فى أن هؤلاء هلكوا بسبب مخالفة رسولهم ، وعدم إيمانهم بربهم ، وأنتم تفعلون نفس فعلهم ، وتستحقون مثل هذه العقوبة ، أو تبادروا بالتوبة إلى الله تعالى ، والإيمان برسوله محمد ﷺ .

وقد خرج النبي ﷺ من المدينة إلى غزوة تبوك على مشارف الروم ، ومَرَّ بالطريق على قرية ثمود، فحنى رأسه ، واستحث راحلته ، وأسرع في السير ، وقال لأصحابه : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، إلا وأنتم مشفقون ^(١٢٦) أن يصيبكم ما أصابهم ^(١٢٧) .

وقد قال ﷺ : « ملعون من عجل عمل قوم لوط » ^(١٢٨) .

وقال ﷺ : « إن الله لا يستحيى من الحق ، لا تجمعوا النساء في حشاشتهن » ^(١٢٩) ، أى : فى أديارهن ، وقد حرم الإسلام جماع المرأة فى دبرها ، وحرم الإسلام المثلية الجنسية ، وهى استغناء الرجال بالرجال ، واستغناء النساء بالنساء ، لأن ذلك شذوذ جنسى ، وخروج على فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالله عز وجل خلق الزوجين الذكر والأنثى ، فى الثِّبَات والحيوان والإنسان ، وعن طريق التلقيح بين الذكر والأنثى يتم الإخصاب والتوالد ، وتعمر الأرض ، ويتم التناسل ، كما خلق الله صدر الرجل وصدر الأنثى بصورة يتم معها التقابل والإمتاع ، والمودة والرحمة ، والاستمتاع الحلال .

قال ﷺ : «وفى بضع أحدكم صدقة» فقلنا : يا رسول الله ، يأتى أحدنا شهوته فيكون له ثواب ؟ قال : «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه عقاب» ؟ قلنا : نعم ، قال : «فكذلك لو وضعها فى حلال كان له ثواب» ^(١٣٠) .

إن أوروبا وأمريكا وغيرها من البلدان ذاقَت العلقَم من جراء الإيدز ، وعادت هذه البلاد إلى التحذير من العلاقة الجنسية غير المشروعة طلباً للوقاية من نقل الأمراض ، وقد سبق الإسلام حين حرم الزنا ، وحث على العفة والاستقامة ، وشجع الزواج الحلال ، وبناء الأسرة والعشرة بالمعروف ، وكل ما من شأنه إسعاد الرجل والمرأة ، وإقامة أسرة سعيدة آمنة مطمئنة نفسياً وجنسياً وسلوكياً وأخلاقياً ودينية ، تتمتع بالمودة والرحمة والألفة والانسجام .

قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

قصة يونس عليه السلام

﴿وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَبْتَلْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

المضردات :

أَبَقَ : هرب ، وأصل الإباق : هروب العبد من سيده بغير إذنه ، فاستعير لهرب يونس من قريته قبل أن يأذن له ربُّه .

الْمَشْحُونُ : المملوء .

فَسَاهَمَ : قارع ، أجرى قرعة مع ركاب السفينة .

الْمُدْحَضِينَ : المغلوبين بالقرعة .

الْتَقَمَهُ : ابتلعه .

وهو ملِيم : داخل في الملامة ، مستحق لها .

الْمُسَبِّحِينَ : الذاكرين .

لِثَّ : مكث .

يَوْمِ يُبْعَثُونَ : يوم القيامة .

فَنَبَذْنَاهُ : طرحناه .

بِالْعَرَاءِ : بالأرض الفضاء .

سَقِيمٌ : مريض ضعيف البدن .

يَقْطِينٍ : شجرة القرع العسلى ، وليس لها ساق تقوم عليه .

تمهيد :

تأتى قصة نبي الله يونس فى ختام القصص القرآنى فى سورة الصفات ، ومن الملاحظ أن أول القصص كان قصة نوح ، وقد غرق المكذبون به بالطوفان ، وآخر القصص كان قصة يونس ، وقد غرق يونس فى اليمّ وابتلعه الحوت ، ثم نجّاه الله إلى الشاطئ ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، فأمنوا ... ؛ وهى قصة تذكّر المؤمن بالالتجاء إلى الله تعالى ، وصدق الإيمان ، وعدم اليأس ، وتسبيح الله والدعاء فى الشدائد بدعوة يونس : **لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** . (الأنبياء : ٨٧) .

التفسير :

١٣٩- **وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** .

وإن يونس لمن جماعة المرسلين ، فاذا ذكر أيها الرسول قصته وخبره لقومك .

١٤٠- **إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** .

وخلاصة قصة يونس كما ذكرها الألوسى وغيره من المفسرين :

أن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى بالعراق ، فى حوالى القرن الثامن قبل الميلاد ، فدعاهم إلى إخلاص العبادة لله تعالى ، فاستعصوا عليه ، فضاق بهم ذرعا ، وأخبرهم أن العذاب سيأتيهم خلال ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بلد قومه ، قبل أن يأذن الله له بالخروج ، فلما افتقده قومه آمنوا ، وتابوا وتضرعوا بالدعاء إلى الله قبل أن ينزل بهم العذاب ، أما يونس عليه السلام فقد ترك قومه ، وركب سفينة مشحونة بالناس ، ثم سارت السفينة واحتواها البحر ، وفى وسط اللجة ماجت واضطربت وكادت تغرق وكان من تدبير ركاب السفينة التخفف من أحمالها ، ثم التخفف من بعض ركابها ؛ ليسلم الباقون ، فأجريت القرعة ثلاث مرات ، وفى كل مرة تصيب نبي الله يونس ، فقال : أنا العبد الأبق ، أى : هربت من قومى حين ضقت بهم ذرعا ؛ فألقى بنفسه فى البحر .

١٤١- **فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ** .

فَسَاهَمَ . فقارع من فى السفينة بالسهم ، يقال : استهم القوم إذا اقتربوا .

فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ .

أى : من المغلوبين ، حيث وقعت القرعة عليه دون سواه ، يقال : دحضت حجة فلان ، إذا بطلت وخسرت .

ومنه قوله تعالى : **حُجِّتُهُمْ دَاخِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ** . (الشورى : ١٦) .

١٤٢- فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ .

فابتلعه الحوت ، كأنما كان مستعدا لابتلاعه .

وَهُوَ مُلِيمٌ . وهو واقع فى اللوم حيث أتى من الأفعال ما يلام عليه .

وَمُلِيمٌ . اسم فاعل من الفعل ألام ، بمعنى اسم المفعول ، أى : داخل فى الملامة ، ومنه المثل : (رب لائم

مليم) أى : يلوم غيره ، وهو أحق منه باللوم .

١٤٣، ١٤٤- فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

أى : لولا أنه كان كثير التسبيح والذكر لله تعالى لكان بطن الحوت قبرا له إلى يوم البعث ، وهو يوم

القيامة ، والمراد من التسبيح : مطلق الذكر لله تعالى .

وقال النيسابورى فى تفسير الآية :

الأظهر أن المراد بالتسبيح هو ما ذكره الله تعالى فى قوله : فَتَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨) .

وفى النص حث على مداومة ذكر الله ، والالتجاء إليه .

وقد قيل فى الأثر : «تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة»^(١) .

وقد اختلف فى مدة مكث يونس فى بطن الحوت ، فقيل : أربعون يوما ، وقيل : عشرون ، وقيل : سبعة ،

وقيل : ثلاثة ، وقيل : لم يمكث إلا قليلا ثم أخرج من بطنه عقب الوقت الذى التقم فيه .

والرأى الأخير هو الأرجح لأنه هو الذى يساعد عليه السياق ، لأن الله عطف النجاة بالفاء ، فقال سبحانه

وتعالى : فَتَبَدَّلْنَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ . والفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، ولأن رحمة الله قريب من المحسنين ،

ولأن الله قال فى سياق آخر : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ... (الأنبياء : ٨٨) . ولأن الله قريب من عباده .

وقد ورد فى الحديث الشريف الذى أورده النيسابورى وغيره من المفسرين : «إن دعاء يونس فى بطن

الحوت صعد إلى العرش فسمعه الملائكة ، وكان صوتا ضعيفا ، فشفعوا له ، فأمر الله الحوت فققذه بالساحل» .

وروى عطاء : أنه حين ابتلع الحوت يونس ، أوحى الله تعالى إلى الحوت : أن قد جعلت بطنك له

سجنا ، ولم أجعله لك طعاما ، والمراد أن الله ألهم الحوت ذلك ، وحبس جهازه الهضمى عن هضمه ، والله

أعلم .

١٤٥ - فَتَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ .

أى : أمرنا الحوت أن يلفظه ويطرحه فى الفضاء الواسع من الأرض ، وهو عليل واهن البدن خائر القوى مما أصابه .

قال ابن عباس : كبذن الصبى حين يولد ، قيل : إنه نبذه على شاطئِ بجلة قرب مدينة (نينوى) .

١٤٦ - وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ .

أنبتنا عليه مظلة له كالخيمة تقيه من الحر والبرد ، وأكثر المفسرين على أنها شجرة القرع ، وتسمى (الدُّباء) : القرع العسلى ، وقيل : شجرة الموز يتغطى بورقها ، ويستظل بأغصانها ، فتقيه لفع الشمس ووهجها ، وبرد الصحراء ، ويأكل من ثمارها فتغنيه عن طلب الغذاء من أى جهة أخرى ، وقيل : اليقطين شجرة التين .

والخلاصة : أنها شجرة أنبتت من أجله ، لتقدم له الرعاية ، وكل ما يحتاج إليه ، كمعجزة إلهية .

وذكر الزمخشري : أنه قيل لرسول الله ﷺ : إنك لتحب القرع ، قال : «أجل هي شجرة أخى يونس ، وإنها تشد قلب الحزين» .

وذكر القرطبي : عن أنس - رضى الله عنه - قال : قُدِّمَ للنَّبى ﷺ مرق فيه دبء وقديد ، فجعل يتَّبِعُ الدُّبَاءَ حول القصعة ، قال أنس : فلم أزل أحب الدُّبَاءَ من يومئذ^(٩٧) - أخرج الأئمة - .

١٤٧ - وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ .

قيل : أرسله الله إلى قوم آخرين ، فاستجابوا جميعاً لدعوته وآمنوا برسالته .

وقال الأكثرون : هم قومه الذين أرسل إليهم قبل ذلك فكذبوه ، فتوعدهم بالعذاب ، وتركهم يونس قبل أن ينزل بهم ، فتابوا واستغفروا وندموا ، فتاب الله عليهم وقبل توبتهم ، ولما أرسل إليهم يونس بعد نجاته من الغرق ، ونجاته من بطن الحوت ، ورعاية الله له فى العراء ، آمن به قومه عن آخرهم ، وكان عددهم يزيد على مائة ألف ولا ينقص ، قيل : يزيد عشرة آلاف ، وقيل : عشرين ألفاً ، وقيل : أربعين ألفاً .

قال تعالى : فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْنَسَ لَّمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي

الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . (يونس : ٩٨) .

١٤٨ - فَتَأْتُونَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ .

أى أن قوم يونس عندما عاد إليهم يونس بعد غرقه ونجاته ، آمنوا به وصدقوه واتبعوا رسالته ، فكشف الله عنهم العذاب المُخْزِى المذل ، الذى كان قد توعدهم به يونس ، ومتَّعهم الله بصحتهم وأموالهم وحياتهم إلى حين انتهاء آجالهم .

لقد كفر أكثر الناس بالرسول الذى أرسل إليهم ، كقوم نوح ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وفرعون وقومه الذين كذبوا موسى وهارون ، وقوم عيسى ، وأهل مكة الذين كذبوا محمداً ﷺ ، فساق القرآن الكثير من قصص الأنبياء والمرسلين ، لتكون عظة وعبرة لهم كما ساق قصة يونس ، وفيها تضرع وتسبيح ، واستجابة من الله ليونس ، وفيها توبة قومه وإيمانهم ، فكشف الله عنهم العذاب ، ومتَّعهم بحياتهم فى الدنيا ليكون واضحاً للناس عاقبة المكذبين من الهلاك ، وعاقبة المؤمنين من النجاة .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (يوسف : ١١١) .

★ ★ ★

مناقشة المشركين وتفنيد عقائدهم

﴿ فَاسْتَفْتِهِمَ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَاتُوا بِكُنْيَتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

المضردات :

فاستفتهم ، فاستخبر كفار مكة توبيخاً لهم ، وسلهم على سبيل الإنكار عليهم .
إفكهم : كذبهم .

أصطفى : أختار ، وهو استفهام توبيخ .

سلطان مبين، حجة واضحة وبرهان على أن الملائكة بنات الله .

الجنة: الملائكة لأنهم يستجنون ، أى : يختفون ويستترون ، أو الجن .

تمهيد :

تحدث القرآن الكريم فى سورة الصفات عن عدد من الرسل فذكر جهادهم ، وإخلاصهم ، ونصر الله لهم ، ليعتبر الناس بما كان منهم ومن أقوامهم ، وفى الآيات الأخيرة من سورة الصفات مناقشة للمشركين فى عقائدهم الفاسدة ، حيث كان بعض القبائل العربية تزعم أن الله تعالى تزوج من الجن فأنجبت الجن له الملائكة ، واعتقدوا أن الملائكة إناث ، وهم كانوا يكرهون الإناث ، فناقشهم القرآن بحسب زعمهم واعتقاداتهم ، أى إذا كان الله سيتخذ ولداً ، فينبغى أن يكون ذكراً لا أنثى ، والله منزّه عن الصاحبة والولد ، أى منزّه عن أن يكون له زوجة ، ومنزّه عن أن يختار ذريته من الإناث دون البنين ، ثم ناقشهم فى هذه الدعاوى الباطلة ، وسألهم : هل عندكم حجة قوية بذلك ؟ إن كان لكم فأين هى ؟ إن الجن سيحضرون يوم القيامة للحساب والجزاء ، وللعاصى منهم جهنم ، وللطائع الجنة ، والعباد الطائعون لله سينجيهم الله من العذاب ويدخلهم الجنة .

التفسير :

١٤٩ - فَاسْتَفْتِهِمُ أَلِرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ .

أئ : أسألهم يا محمد عن مصدر هذا الزعم الكاذب ، أيليق بهم أن ينسبوا لله الملائكة ويجعلوهم إناثاً ، وينسبوا البنين إليهم ؟

وفى سورة النجم يقول القرآن الكريم : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى . (النجم : ٢١ ، ٢٢) .

أى : قسمة جائرة ، حيث جعلوا للخالق الرازق الإناث ، وللمخلوقين الذكور ، والملائكة عباد الله ، ملتزمون بأمر الله ، طائعون له ، لا يستكبرون عن طاعته ، ولا يمتنعون عن الامتثال لأمره .

قال سبحانه وتعالى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ كَيْسُ مَوْءِنَ الْمَلَائِكَةِ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً . (النجم : ٢٧ ، ٢٨) .

١٥٠ - أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ .

إضراب وانتقال من التبكيت بالسؤال الأول ، إلى التبكيت بهذا .

أى : بل أخلقنا الملائكة إناثاً ، وهم شاهدون لخلقهم ؟ فإن هذه الأمور الغيبية لا تعلم إلا بالمشاهدة ، وهو هنا يناقشهم بمقتضى قولهم وأفكارهم البعيدة عن الحق والواقع ، حيث ارتكبوا ثلاثة أنواع من الكفر :

أحدها : التجسيم لأن الولادة مختصة بالأجسام .

الثاني : تفضيل أنفسهم على ربهم ، حيث جفّلوا أقلّ الجنسين فى نظرهم له ، وأرفعها لهم .

قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا صَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ . (الزخرف : ١٧ ، ١٨) .

الثالث : أنهم استهانوا بالملائكة ، وهم عباد مكرمون ، حيث حكموا عليهم بالأنوثة ، ولو قيل لأحدهم : فيك أنوثة ، غضب وثار لكرامته ، وليس لقائله ثوب النمر .

قال تعالى : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَتَبُ شَهِدَتْهُمْ وَيُسْأَلُونَ . (الزخرف : ١٩) .

والمقصود أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة حتى يكون قولهم هذا عن بيئة و يقين .

١٥١ ، ١٥٢ - أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

استئناف لإبطال أصل مذهبهم الفاسد ، وبيان أن مبناه الإفك والكذب ، من غير دليل أو مشاهدة ، أو وحى من السماء يفيد ذلك .

والمعنى : ألا إنهم من كذبهم ، وشدة جهلهم ، ليقولون زورًا ويهتانًا : وَلَدَ اللَّهُ . أى : اتخذ الله ولدًا ، وهو سبحانه منزّه عن الوالدية والولدية ، فليس جسمًا ولا حالًا فى جسم ، وهو واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولذا ، ولم يولد من أب ، ولم يكن له نظير أو مثيل ، قال تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فى ذلك ، فالناس جميعًا عباد لله . قال تعالى : لَنْ يَسْتَكْبِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... (النساء : ١٧٢) .

١٥٣ - أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ .

والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ ، فأى شىء يحمله - وهو الخالق المختار - أن يختار لنفسه الإناث ، هل فضّل الله البنات على البنين حتى تنسبوا إليه البنات ، وتختاروا لأنفسكم البنين ؟

١٥٤ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

ماذا أصابكم ، أو أى شيء حدث لكم حتى أصدرتم هذه الأحكام الفاسدة ، مع وضوح بطلانها .

١٥٥ - أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

معطوف على محذوف ، تقديره أتجهلون هذه الأمور الظاهرة ، فلا تتذكرون ، أى : أنسيتم دلائل القدرة والتنزيه المركزة فى كل العقول ، فلا تتذكرون أنه لا يجوز أن يكون لله ولد ، بل يجب أن يكون منزلها عن مشابهة الحوادث .

قال تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا * تَكَادُ السَّمَلَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ * وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَلَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا . (مریم : ٨٨ - ٩٥) .

١٥٦ ، ١٥٧ - أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

إضراب وانتقال من توبيخهم على جهالاتهم إلى تحديهم وإثبات كذبهم .

والمعنى :

بل ألكم حجة واضحة ، أو كتاب منزل من عند الله يفيد أن الملائكة بنات الله ؟ إن كانت لديكم هذه الحجة والبينة ، فأتوا بها إن كنتم صادقين ، وهكذا دخل القرآن عليهم من كل باب ، وحاكمهم إلى الأدلة الحسية الملموسة بعد المعقولة .

١٥٨ - وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا * وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ .

ادعى بعض قبائل العرب أن الله تعالى تزوج من بنات الجن فأنجبت له الملائكة ، وهو اعتقاد فاسد ، سيحضرون يوم القيامة ليناقدشوا فى الحساب وليناوالوا عنه الجزاء .

وروى عن الحسن : أشركوا الشيطان فى عبادة الله ، فهذا النسب الذى جعلوه .

قال مجاهد ، ومقاتل : القائل ذلك هم كنانة وخزاعة ، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن ، فزوجه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات بنات الجن .

وقال قتادة والكليبي :

قالت اليهود لعنهم الله : إن الله صاهر الجن فكانت الملائكة من بينهم ، وتطلق الجنة على الملائكة ، لأنها مستترة لا ترى ، مثل الجنين مستور في بطن أمه ، والمجنون عقله مستور ، والمجنى يستتر صدر المحارب ، وجنّ الظلام : ستر ما تحته ، أى : ادعت بعض القبائل العربية أن الله تزوج من الجن ، من بين أمراء الجن وسراتهم ، فاختار بنتا من بناتهم ، فأنجب منها الملائكة ، والملائكة تعلم أن هؤلاء الكفار سيحضرون ويحاسبون .

أخرج آدم بن أبي إياس ، وعبد بن حميد ، وابن جرير وغيرهم ، عن مجاهد قال : قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال لهم أبو بكر الصديق على سبيل التبكيت : فمن أمهاتهن ؟ فقالوا : بنات سروات الجن .

والخلاصة :

إن هؤلاء سيحضرون إلى القيامة ، ويعذبون في النار ، حيث ادعوا أن الله تزوج من الجن فأنجب منها الملائكة ، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً .

١٥٩ - سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .

تنزه الله تعالى وتقدس عما يقوله هؤلاء الجاهلون ، فالله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وهو منزّه عن أن يكون جسماً ، أو حالاً في جسم ، ومنزّه عن اتخاذ صاحبة والولد ، فالخلق كلهم عباده ، والملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وقد سار القرآن الكريم في مناقشة عقائد المشركين ، وإبطال أفكارهم الباطلة ، بالعقل والحجة ، والبرهان والمنطق .

قال تعالى : أُنِّى يُكُونُ لَهُ، وَلَهُ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ، صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الأنعام : ١٠١) .

وقال سبحانه : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ . (المؤمنون : ٩١) .

طاعة الملائكة لربهم

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ١٦٠ فَإِنَّكُمْ وَمَنْ تَعْبُدُونَ ١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتَنَيْنِ ١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ
الْجَحِيمِ ١٦٣ وَمَا نَبَأُ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ١٦٦
وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٦٩ فَكْفَرُوا بِهِ ١٧٠
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

المضردات :

بفاتنين : بمضلين أو مفسدين .

صال الجحيم : داخلها ومقاس حرجها .

الصافون : الواقفون في العبادة صفوفًا .

المسبحون : المنزهون الله عما لا يليق به .

ذكرنا : كتابًا ، أو من يذكرنا بأمر الله أو بكتابه .

تمهيد :

تتبرأ الملائكة ممن جعلها آلهة أو بنات لله ، وتقول : إن الكفار لا يضرُّون إلا أنفسهم ، ولا يستميلون
للضلال إلا من خلق أصلًا لذلك ، وعلم الله منه اختيار الضلال ، وتبين الملائكة أنهم عبيد لله مخلصون ،
يلتزمون بمنزلهم ، ويصطفون للعبادة ، ويسبحون الله وينزهونه ، وقد كانت العرب تتمنى أن ينزل عليها
كتابٌ من السماء ، يذكرها بالله ، ويحدثها عن الأمم السابقة ، ويرشدها إلى أمر دينها ودنياها ، فلما جاءهم
محمد ﷺ - وهو خاتم المرسلين ، ومعه أفضل كتاب - كفروا به فسوف يعلمون عاقبة كفرهم .

التفسير :

١٦٠ - إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

لكن عباد الله المؤمنين بالله حقًا ، المنزهين له عن الصاحبة والولد ، المتبعين لهدى القرآن الكريم ،
ناجون من العذاب ، بعيدون عن النار ، وهم من أهل الجنة إن شاء الله .

١٦١، ١٦٢، ١٦٣ - فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَلْسِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ .

وفى هذه الآيات استخفاف بالمشركون ، حيث إنهم لا يستطيعون فتنة مؤمن عن دينه ، ولا إضلال أحد حتى يتبع مذهبهم ، إلا من كان شقياً فى الأصل ، مستعداً للنار والاصطلاء بها بفطرته .

والمعنى :

إنكم أيها الكفار وما تعبدونه من أصنام وأوثان ، أو ملائكة أو جن أو أوهام ، لا تفتنون مؤمناً أو راسخاً فى الإيمان ، ولا تضلون إلا من خلق مستعداً للضلال ، والاصطلاء بنار الجحيم ، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى عن الشيطان : إِنَّهُ نَسَّ لَهٗ سُلْطَنٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ وَالَّذِينَ هُم بِهٖ مُّشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

قال النحاس :

أهل التفسير مجمعون فيما علمت على أن المعنى : ما أنتم بمضلين أحداً ، إلا من قدر الله عز وجل أن يضل .

١٦٤ - وَمَا مِثَّا إِلَّا لَهٗ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ .

هذا من قول الملائكة تنزيهاً لله أن تكون له بنات من الملائكة ، حيث تقول الملائكة : نحن مطيعون لله ، ملتزمون بمنازلنا ودرجاتنا فى طاعة الله وتنفيذ أوامره ، لا نعصى له أمراً ، ونفعل ما يأمرنا به ، ولا نتقدم أو نتأخر عن الموقع الذى يضعنا فيه ، فنحن خدم مخلصون ، وعبيد مطيعون ، ملتزمون بمنزلتنا . والآية تشير إلى أن الملك لا يتعدى مقامه إلى ما فوقه ، ولا يهبط عنه إلى ما دونه .

قال مقاتل :

هذه الثلاث آيات : وَمَا مِثَّا إِلَّا لَهٗ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ . وما بعدها ، نزلت ورسول الله عند سدره المنتهى ، فتأخر جبريل ، فقال النبى ﷺ : «أهنا تفارقنى» ؟ فقال : ما أستطيع أن أتقدم من مكانى ، وأنزل الله تعالى حكاية عن قول الملائكة : وَمَا مِثَّا إِلَّا لَهٗ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ... إلى آخر الآيات .

١٦٥ - وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ .

أى : تصطف الملائكة للعبادة صفوفاً منتظمة ، حيث يتمون الصف الأول ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، وقد أمرنا بإتمام صفوف الصلاة ، والانتظام فيها ، والاقتراء فى ذلك بالملائكة .

جاء فى صحيح مسلم ، عن جابر بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد ، فقال : «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» ، فقلنا : يا رسول الله ، كيف تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قال : «يَتَمَوَّنُ الصُّفُوفَ الْأُولَى ، وَيَقْرَأُونَ فِي الصَّفِّ»^(٤٣) .

وأخرج مسلم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «فُضِّلْنَا عَلَى الْأُمَمِ بِثَلَاثَ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَجُعِلَتْ لَنَا تَرْتِبَتُهَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ ، وَلَيْسَ يَصْطَفِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَلَلِ فِي صَلَاتِهِمْ ، غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ»^(٤٤) .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، قالوا : قال أبو نضرة : كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة ، استقبل الناس بوجهه ، ثم قال : أقيموا صفوفكم ، استووا قيامًا ، يريد الله بكم هَذَى الْمَلَائِكَةِ ، ثم يقول : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ . تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر^(٤٥) .

١٦٦ - وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ .

أى : ننزه الله عما لا يليق به ، وعن دعوى الكفار أن الملائكة بنات الله ، أو المعنى : وإنا نحن المصلون . قال قتادة : الْمُسَبِّحُونَ . أى : المصلون .

وقال ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن بمعنى الصلاة ، أى : الذاكرون لله ، القائمون بتنزيهه وذكره ، والصلاة له بدون ملل أو فتور ، والإنسان لا يخلو من فتور وانشغال بالمعاش ، أما الملائكة فلا ينقطعون عن ذكر الله ، وكان مسروق يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم» فذلك قوله تعالى : وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ^(٤٦) .

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ - وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَن عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ .

كان المشركون من أهل مكة يتشوقون أن ينزل عليهم كتاب من كتب السماء ، كالتوراة التى أنزلت على موسى ، والإنجيل الذى أنزل على عيسى ، والزبور الذى أنزل على داود ، والصحف التى أنزلت على إبراهيم ، ويقولون : نتمنى أن ينزل علينا كتاب فيه قصص الأولين ، وأخبار السابقين ، وأحكام وشرائع النبيين ، ثم اختار الله لهم خاتم المرسلين ، وأنزل عليه كتابًا مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه ، مشتملاً على القصص والأخبار ، والشرائع والآداب ، ومشاهد القيامة والحساب والجزاء ، مشتملاً على الإعجاز ، وجمال العرض وبدائع الأخبار ، وألوان البلاغة والبيان ، لكنهم أعرضوا عن القرآن ، وكفروا بالنبي محمد ﷺ ، كما قال جل جلاله : وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِذْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . (فاطر : ٤٢) .

١٧٠ - فَكْفُرُوا بِهِ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ .

فجاءهم الكتاب الذى طالما تمئوه ، واشتاقوا إليه ، فقابلوه بالكفر والتكذيب ، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم .

لقد كان العرب أهل فصاحة وبيان ، وشعر ونثر وحكمة ، وكان القرآن فى الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة والبيان ، وكانوا أعرف الناس بارتفاع قدر القرآن ، وعلو منزلته ، وجلال رتبته ، وأنه فوق طاقة البشر ، لكنهم عاندوا ، فنسبوه للسحر والكهانة والأساطير ، وما هو بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن ، بل هو تنزيل من رب العالمين ، لكنهم كذبوا بالقرآن الكريم عنادًا ومكابرة .

قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

★ ★ ★

نصر المرسلين

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْمَنُنَا الْإِبْرَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّا جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُؤْوِلُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْ هُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَعِدَّاءُنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

المفردات :

كَلِمَتُنَا ، وعدنا الرسل بالنصر ، مثل : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ... (المجادلة : ٢١) . وقد تم فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا .

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، فأعرض عن كفار مكة .

حَتَّى حِينٍ ، إلى الوقت الذى أمهلوا إليه ، أو إلى بدر أو فتح مكة .

بِسَاحَتِهِمْ : بفنائهم ، والمراد : بهم .

هَسَاءُ صَبَاحِ الْمُنْتَرِينَ : فَبَسَّ الصَّبَاحُ صَبَاحَهُمْ .

سَبَّحَانَ رَبِّكَ : تنزيها لربك يا محمد عما يصفه به المشركون .

الْمُعَزَّةُ : الغلبة والقدرة .

التفسير :

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ - وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

وعد الله المؤمنين بالنصر ، وحسن الخاتمة ، وقد يهزم المؤمنون في معركة ، وقد يمتحنون في موقف ، لكن الله وعد الصادقين بالجزاء الحسن في الدنيا ، أو الآخرة ، فإن استشهدوا فلهم حسن الجزاء في الآخرة ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وهى أن العاملين المخلصين يستحقون النصر .

قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقال تعالى : إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

وتاريخ الكفاح بين المسلمين في مكة مع المشركين يثبت ذلك ، حيث مكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً ، وكل من آمن به مائتاً رجل وامرأة ، ثم رحل إلى المدينة ووضع أساس الدولة ، وخاض غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية ، ثم فتحت مكة ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستمر المد الإسلامي في غزوتي حنين والطائف ، وغزوة تبوك ، وحروب الردة ، ثم فتح المسلمون بلاد فارس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وقد أصاب المسلمين ليلٌ طويل ، وظلام دامس ، فسقطت بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ ، واستولى الضعف والعجز على كثير من البلاد الإسلامية ، لكن ذلك لم يمنع المسلمين من أن يهبوا في معركة عين جالوت ، حيث هزموا التتار ، وأعادوهم ناكسين على أعقابهم ، ثم دخل التتار في الدين الإسلامي .

ثم كانت الحروب الصليبية ، التي أعقبها تقدم صلاح الدين بجيش يجمع رجال مصر والشام ، وانتصر في معركة حطين ، ودخل المسجد الأقصى ، وحمد الله حمداً كثيراً .

وفى عصرنا الحاضر نجد المعارك دائمة بين الإسلام والصهيونية وغيرها ، وإذا تأملنا وجدنا أن أقوى أسلحة الأمة هو ما يأتي :

١ - التزامها بدينها وصدق إيمانها وطاعة ربها .

٢ - ترك الفرقة والاختلاف والبعد عن النزاع والتخاصم .

٣ - الوحدة وضم الصف وجمع الكلمة .

٤ - إعداد العدة بالعلم والعمل والتفوق العلمى والحضارى .

لقد نصر الله أنبياءه ورسله مثل : إبراهيم ، نوح ، يونس ، موسى ، عيسى ، ومحمد ﷺ ، وهزم الكافرين المعاندين .

وإن أعدى أعدائنا هو الذى يلهينا عن عقيدتنا ، وإن باب النصر فى التمسك بهذه العقيدة ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى السلف الصالح ، والأخذ بنصيب وافر من العلوم والتقنية وكل أبواب التفوق ، وهذا هو الإعداد الجيد لأسباب النصر ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

قال ابن كثير :

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِلِينَ .

أى : تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال جل جلاله :

إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ .

أى : فى الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ، ممن كذبهم وخالفهم ، كيف أهلك الله الكافرين ، ونجى عباده المؤمنين .

وَأَنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . أى : تكون لهم العاقبة .

وهذا النصر للمؤمنين فى أغلب الأحيان فى الدنيا ، وباليقين والتأكيد فى الآخرة ، لقد انهزم المؤمنون فى غزوة أحد ، وكان ذلك درساً عملياً للمؤمنين فى حياتهم ، وسلوكهم مع الهزيمة والنصر ، بالثبات واليقين والأمل ، وأن رعى الحرب دائرة ، يوم لك ويوم عليك ، وأن الجراح التى تصيبك والآلام تماثلها جراح سابقة ولا حقة عند الأعداء ، لكن العاقبة للمتقين ، والثواب للمؤمنين ، وإن لم تصادف النصر فى الدنيا ، فستلقى الثواب وحسن الجزاء فى الآخرة ، ورضواناً من الله أكبر .

قال النيسابورى :

ثم بين أن رسل الله وجنده منصورون غالبون عاجلاً وأجلاً ، والأول أكثرى ، والثانى تحقيقى يقينى . اهـ .

وهو يقصد أن قوله تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

أن النصر كان في الأكثر للمسلمين ، فقد انهزموا في بعض الغزوات ، وفي بعض المعارك ، لكن العاقبة كانت للمؤمنين ، فنصر المؤمنين في الدنيا كان هو الأعم الأغلب ، أما النصر في الآخرة فهو يقيني على التحقيق .

وكل ذلك يفتح الباب أمام الدعاة والهداة ، وقرى الأمة الإسلامية ورموزها وقادتها للأمل والعمل ، حتى لا تصاب الأمة بالإحباط والتردى ، نحن نشاهد الأمم الكبرى تتقدم علميًا واقتصاديًا ، لكن ذلك يوجب علينا ألا نياس من المستقبل ، وأن نثق في قدرات أمتنا على استعادة الكُرَّة .

وبعض علماء الاجتماع يذكرون أن التطور والتقدم دائري متحرك ، تقدم المسلمون في عصر النبوة والعصر الأموي والعباسي الأول ، ثم تقهقروا ومر بهم ليل طويل ، تقدم فيه الغرب وأمريكا وروسيا ، ثم تضععت روسيا وتفككت ، وليس ببعيد أن تعود الكُرَّة للعالم العربي والإسلامي لاسترداد المجد ، والتفوق والتقدم ، بيد أن ذلك مرهون بالأخذ بالأسباب ، وبالعامل والأمل ، وبالتوكل لا بالتواكل ، والتوكل هو الأخذ بالأسباب ، ثم الاعتماد على الله تعالى .

قال تعالى : **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** . (الجمعة : ١٠) .

وقال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** . (الكهف : ٣٠) .

وقال ﷺ : «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»^(٥٧) .

ويقول تعالى : **وَلَا تَأْتِسُ سُوْرَةٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ لَهُ ، لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** . (يوسف : ٨٧) .

فعلينا أن نحارب اليأس والقفوظ ، وأن نزرع الأمل وحب العمل ، والاستشراق لمستقبل أفضل ، ولا يشترط أن نجنى نحن ثمار النصر ، يكفي أن نعمل وأن نبني ، وأن تكمل الأجيال القادمة ما وضعنا أساسه ، وأقمنا أصوله .

قال ﷺ : «إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة يفرسها فليفرسها»^(٥٨) .

وهذا الحديث يحثنا على العمل والأمل في سائر الأحوال والظروف ، ودائمًا يعقب الليل ظهور الفجر ، وأنوار الصباح ، وقد انهزمت ألمانيا في الحرب العالمية ، وكذلك اليابان ، لكن الإصرار والعمل والأمل ، والرغبة في التفوق ، جعلهما يستعيدان المجد والمكانة ، ونحن أولى بالأمل في وجه الله القائل : **إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** . (الشرح : ٥ ، ٦) .

ويقول تعالى: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٠٤) .

ويقول تعالى: حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

وفى التفسير: إن الله يمتحن المؤمنين بالشدة والبلاء ، تلك سنته فى عبادته ، قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ . (البقرة : ٢١٤) .

فله حكمة سامية فى اختبار المرسلين ، واختبار عبادته المؤمنين ، حتى إذا طال الظلام ، واشتدت عوامل اليأس ، ومرت بعض لحظات من الخوف والتوجُّس ، ومرّت ولو لبرهة لحظات اليأس أو الخوف من تخلف النصر ، أو تكذيب الاتباع أنفسهم ، عند هذه الشدة يأتى نصر الله ووعده الصادق فى نصر المؤمنين ، وهزيمة المجرمين المكذّبين .

وصدق الله العظيم: وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

١٧٤ - قَوْلُ عَنْهُمْ حَتَّىٰ جِئَ .

أى: أعرض عن كفار مكة ، واصبر عليهم ، وانتظر ما سيحلّ بهم ، مثل النصر عليهم يوم بدر ، وفتح مكة سنة ٨ هـ ، ودخول الناس فى دين الله أفواجاً .

١٧٥ - وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

وأبصر ما يكون عليه حالهم يوم القيامة ، فسوف يرون هذا اليوم ، ويرون صنوف العذاب الذى ينتظرهم فى ذلك اليوم ، والآية محتملة أن يكون ذلك فى الدنيا ، أى: أنظرهم وارقب ما يصيبهم ، وما يحلّ بهم من العذاب والنقمة ، بسبب مخالفتهم وتكذيبهم لك .
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ . فسوف يرون ذلك ويشاهدونه .

١٧٦ - أَفَعِدَّائِنَا يَسْتَعْجِلُونَ .

أى: هم طالما سخرنا منك ، ومن تهديدهم بعذاب السماء ، الذى أصاب المكذّبين قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، أرنا العذاب الذى تخوفنا به ، فنزلت هذه الآية .

١٧٧ - فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ .

فإذا نزل العذاب الموعود بساحتهم ، وحل بهم وهم مصرّون على الكفر ، فبئس صباح المنذرين صباحهم .

قال النيسابورى فى تفسير الآية :

وكان من عادة العرب أن يغيروا صباحًا ، فسميت الغارة صباحًا ، وإن وقعت فى وقت آخر ، وشبه نزول العذاب بساحتهم بعدما أنذروه ، برجل أنذر قومه بهجوم جيش للأعداء عليهم ، فلم يلتفتوا إلى إنذاره ، ولا أخذوا أمبتهم ، حتى أناخ جيش الأعداء بفنائهم بغتة ، فشن الغارة عليهم ، قيل نزلت فى فتح مكة ١هـ .

وروى فى الصحيحين ، عن أنس رضى الله عنه قال : لما أتى رسول الله ﷺ خيبر ، وكانوا خارجين إلى مزارعهم ومعهم المساحى ، قالوا : محمد والخميس ، ورجعوا إلى حصونهم ، فقال ﷺ : «الله أكبر فتحت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين»^(٩٧) .

لقد كان النبى ﷺ ينذر قومه بالعذاب ، ليتخذوا طريقهم إلى الإيمان والإسلام ، فكذبوا نبيهم ، واستحقوا ما نزل بهم يوم بدر أو يوم فتح مكة .

قال الزمخشري : وما فصّحت هذه الآية ، ولا كانت لها الروعة التى تحسُّ بها ، ويروك موردها ، على نفسك وطبعك ، إلا لمجيئها على طريق التمثيل^(٩٨) .

١٧٨ - وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ .

أى : أعرض عنهم إلى حين يلقون العذاب ، ولا تهتم كثيرًا بتكذيبهم إياك .

١٧٩ - وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ .

أى : أبصر ما يستقبلك ويستقبلهم ، فسوف يرون العذاب الذى يستعملون به ، والآيتان تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، أو المراد بإحداهما عذاب الدنيا ، وبالثانية عذاب الآخرة ، والله أعلم .

١٨٠ - سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ .

ونلاحظ أن السورة ناقشت الكافرين والمكذبين ، فى كفرهم وشبهاتهم ودعواهم ، وتخرفهم على الله ، بأنه اتخذ زوجة من الجن ، فأنجبت له الملائكة ، لذلك جاءت آخر السورة لتنزه الله جل جلاله عما لا يليق به .

ومعنى الآية :

تنزهه ريك يا محمد وهو صاحب العزة والجلال ، والمجد والكمال ، عما يصفه به الكافرون من اتخاذ صاحبة الولد ، تنزهه الله وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا .

١٨١ - وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ .

أى : تحية أمان وتكريم للمرسلين ، الذى بلغوا رسالات ربهم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، حتى أتاهم اليقين ، فعليهم السلام فى الدنيا وفى الآخرة .

١٨٢ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

والشكر لله الذى أرسل المرسلين ، وأنزل الكتب ، وبين للناس الطريقين ، وأنعم عليهم بسائر النعم ، التى لا تعد ولا تحصى ، فله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، وهذه الكلمات تقال عندما يغادر الإنسان مجلسه ، فيقرؤها اقتداء بالنبي محمد ﷺ .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن الشعبى قال : قال رسول الله ﷺ : «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم : سُبْحَنَ رَبُّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

اللهم لك الحمد ، ولك المنة والفضل ، ولك الثناء الحسن الجميل ، الحمد لله رب العالمين ، حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى إخوانه النبيين والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

مَجْمَل ما اشتملت عليه سورة الصافات

- ١ - التوحيد ودليله في الآفاق والأنفس .
 - ٢ - خلق السماوات والأرض .
 - ٣ - إنكار المشركين للبعث ، ومحاورة أهل الجنة لأهل النار ، وهم يطلعون عليهم .
 - ٤ - وصف الجنة ونعيمها .
 - ٥ - قصص بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وإسماعيل .
 - ٦ - دفع فرية قالها المشركون ، إذ قالوا الملائكة بنات الله .
 - ٧ - تنزيه الله عن ذلك .
 - ٨ - بيان أن المشركين لا يفتنون إلا ذوى الأحلام الضعيفة ، المستعدة للإضلال .
 - ٩ - وصف الملائكة بأنهم صافون مسبحون .
 - ١٠ - مدح المرسلين ، وسلام الله عليهم .
 - ١١ - حمد الله ، وثناؤه على نفسه بأنه رب العزة ، ورب الخلق أجمعين .
- سُبْحَنَ رَبُّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .



كان ختام تفسير سورة (الصافات) مساء يوم الاثنين ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ٦ سبتمبر سنة ١٩٩٩ م ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تفسير سورة ص

أهداف سورة «ص»

سورة «ص» سورة مكية ، نزلت في الفترة المتوسطة من حياة المسلمين بمكة ، فيما بين الهجرة إلى الحبشة والإسراء ، وآياتها ٨٨ آية ، وسميت بهذا الاسم لابتدائها بهذا الحرف .

مقاصد السورة

قال الفيروزى :

معظم مقصود سورة «ص» : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى ﷺ ، ووصف الكافرين لرسول الله بالاختلاق والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء وعجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان ، وذكر قصة أيوب في الابتلاء والشفاء ، وذكر إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكنى جنة المأوى ، وعجز حال الأشقياء فى سقر ولظى ، وواقعة إبليس مع آدم وحواء ، وتهديد الكفار على تكذيبهم للمجتبى ^(١) .

قال تعالى : **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ** . (ص : ٨٧ ، ٨٨) .

قضايا السورة

أثارت سورة «ص» عدداً من القضايا أهمها : قضية التوحيد ، وقضية الوحي ، وقضية الحساب فى الآخرة ، وقد عرضت هذه القضايا الثلاث فى مطلعها ، الذى يمثل الدهشة والاستغراب من كبار المشركين فى مكة ، حين جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى التوحيد ، وسأقت السورة شبهات الكافرين حول قضية الوحي .

فقد استكثروا أن يختار الله سبحانه رجلاً منهم لينزل عليه الذكر من بينهم ، وأن هذا الرجل هو محمد ابن عبد الله الذى لم تسبق له رئاسة فيهم ولا إمارة ، فقالوا : **أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ...** (ص : ٨) .

وبينت السورة لهم أن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد أن يفتحها على من يشاء ، وأنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض ، وإنما يفتح الله رزقه ورحمته على من يشاء .. وأنه يختار من عباده من يعلم استحقاقهم للخير ، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ولا حساب .. وفى هذا السياق جاءت قصة داود وقصة سليمان ، وما أغدق الله عليهما من النبوة والملك ، ومن تسخير الجبال والطير ، وتسخير

الجن والريح ، فوق الملك وخزائن الأرض والسلاطن والمتاع ، وجاء مع القصتين توجيه النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلقاه من المكذبين : أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . (ص : ١٧) .

كذلك جاءت قصة أيوب تصور ابتلاء الله للمخلصين من عباده بالضراء ، وصبر أيوب مثل في الصبر رفيع ، وتصور السورة حسن العقابة للصابرين .

ونلاحظ أن السياق يجري في سورة «ص» فيربط بين أربعة موضوعات رئيسية ، هي : شبه الكافرين ، وقصص الأنبياء ، والمقابلة بين نعيم المتقين وعذاب الكافرين ، ثم قصة خلق آدم وسجود الملائكة له وإبليس .

١ - شبهات الكافرين

تشتمل الآيات من (١ - ١٦) على شبه الكافرين حول بشرية الرسول ، واختصاصه بالوحي ، وإنكار توحيد الآلهة في إله واحد ، والرد على هذه المفتريات ، وبيان جزاء المكذبين ، من قوم نوح وعاد ، وفرعون وثمود ، وقوم لوط وأصحاب الأيكة ، إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ . (ص : ١٤) .

٢ - قصص الأنبياء

تشتمل الآيات من (١٧ - ٤٨) على قصص وأمثلة من حياة الرسل صلوات الله عليهم .

وفى هذا القصص بيان لآثار رحمة الله بالرسول من قبل ، وتذكير بما أعدق الله عليهم من نعمة وفضل ، وبما آتاهم من ملك وسلطان ومن رعاية وإنعام ، وذلك ردًا على عجب الكافرين من اختيار الله لمحمد رسولاً من بينهم ، وما هو بدع من الرسل ، وفيهم من آتاه الله إلى جانب الرسالة الملك والسلطان ، وفيهم من سخر له الجبال يسبحن معه والطير ، وفيهم من سخر الله له الريح والشياطين ، كداود وسليمان .. فما وجه العجب أن يختار الله محمداً الصادق ، لينزل عليه الذكر من بين قريش في آخر الزمان .

كذلك يصور هذا القصص رعاية الله الدائمة لرسله ، وحياطتهم بتوجيهه وتأديبه فقد كانوا بشرًا - كما أن محمداً ﷺ بشر - وكان فيهم ضعف البشر ، وكان الله يرعاهم فلا يدعمهم لضعفهم ، إنما يبين لهم ويوجههم ، ويبتلهم ليغفر لهم ويكرمهم ، وفى هذا ما يطمئن قلب الرسول إلى رعاية ربه له ، وحمايته له من أذى المشركين ، وفى تلك القصص سلوى ومواساة لما لقيه النبي من تكذيب واتهام وتعجيب وإفتراء ، وفيه دعوة إلى الصبر حتى ينال رضوان الله ، كما ناله السابقون من الأنبياء .

٣ - النعيم والجحيم

تعرض الآيات من (٤٩ - ٦٤) مشهد المؤمنين فى الجنة ، وقد فتحت أبوابها ، وجرت أنهارها ، وكثر حورها وولدانها ، وتنوعت أرزاقها : **إِنَّ هَٰذَا لَرْزُقْنَا مَا لَكُم مِّن نَّفَادٍ** . (ص : ٥٤) .

كما تعرض مشهد الطاغين فى النار ، وقد اشتد لهيبها ، وتنوع عذابها ، واختصم الأتباع والرؤساء فيها ، وأخذوا يبحثون عن ضعفاء المؤمنين بينهم فلا يجدونهم فى النار ؛ لأن هؤلاء الضعفاء فى الجنة والرضوان .

٤ - سجود الملائكة لآدم

تشتمل الآيات من ٦٥ إلى آخر السورة على تأكيد وحدانية الله ، وشمول قدرته وملكه لما فى السماوات والأرض .

وتستعرض قصة آدم وسجود الملائكة له ، كدليل على أن هؤلاء الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما تتضمن القصة لونا من الحسد فى نفس الشيطان ، هو الذى أبعدته وطرده من رحمة الله ، حينما استكثر على آدم فضل الله الذى أعطاه ، وفى هذا إحياء لهم ألا يستكثروا على محمد فضل الرسالة وتبليغ وحى السماء ، كذلك تصور الآيات المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم ، والتى لا يهدأ أوارها ، ولا تضع أوزارها ، والتى يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم فى حباله ، لإيرادهم النار معه ، انتقاماً من أبيهم آدم ، وقد كان طرد إبليس من الجنة بسبب امتناعه من السجود له ، فالمعركة بين إبليس وذرية آدم معروفة الأهداف ، ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم .

وتختتم السورة بتوكيد قضية الوحي ، وإخلاص الرسول فى تبليغ الرسالة ، لا يبتغى أجراً ولا يتكلف قولاً ، وإنما يبلغ القرآن ، وسيكون لهذا القرآن أبلغ الأثر فى حياة البشرية .

تفنيد عقائد المشركين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ①﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّ وَشِقَاقٍ ② ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ
فَنَادَوْا وَلَا تَجِئْ مِنْ مَنَاصِرَ ③﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ
④ أَجْعَلِ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ⑤ وَأَنْطَلِقُ لِمَ لَا مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا
عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ⑥ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ⑦
أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ ⑧ أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ
رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ⑨ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي
الْأَسْبَابِ ⑩ جُنْدٌ مَا هَٰئِلًا لَمْ يَهْزُومْ مِنْ الْأَحْزَابِ ⑪﴾

المفردات :

ص : حرف للتنبية ، كالجرس الذي يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة .

ذِي الذِّكْرِ : ذى الشرف ، أو الموعظة .

عِزَّة : حمية واستكبار عن الحق .

وَشِقَاق : ومعاندة ومخالفة لرسول الله ﷺ .

قَرْنٌ : يطلق مجازاً على الأمة .

فَنَادَوْا : فاستغاثوا وجأروا .

وَلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ : وليس الوقت وقت فرار و خلاص .

الْمَنَاصِ : التأخر والقوت ، ويطلق على التقدم ، فهو من الأضداد .

عَجَابٌ : بالغ الغاية فى العجب ، مثل : طويل وطوال .

الْمِلَّةُ الْآخِرَةُ : دين النصرانية .

اختلاق، كذب واقتراء .

فليسرتقوا، فليصعدوا .

فى الأسباب، المعارج إلى السماء ، ومنه قول زهير :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه

وإن يرق أسباب السماء بسلم

مهزوم، مغلوب .

الأحزاب، المجتمعين لإيذاء محمد وكسر شوكته .

تمهيد :

سورة «ص» سورة مكية ، تطوف بالقلب البشرى حول تكذيب المكذبين ، وعنت كفار مكة ، وتورد جانباً من قصص الأنبياء ، وقضية الحساب فى الآخرة ، وقصة آدم وإبليس .

وفى مقدمة السورة تصوّر استغراب أهل مكة ودهشتهم من توحيد الألوهية والربوبية لله الواحد القهار ، فقد ألقوا عبادة الأوثان والأصنام ، ونجد القرآن يستعرض حجتهم ، ويناقش آراءهم .

التفسير :

١ - ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ .

بدأ القرآن الكريم بعض السور بحروف المعجم ، مثل : ص ، ق ، ن ، حم ، ألم

هى حروف للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، كذلك القرآن عندما يفتتح بعض السور بهذه الأحرف ، يتنبه الكافرون لهذا الأمر العجيب ، ثم يقول : وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ .

وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وقيل : هى حروف للقسم ، باعتبار أن القرآن مكوّن من هذه الأحرف ، أى أقسم بـ : ص ، وأقسم بالقرآن ذى الذكر .

وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ .

أى : والقرآن ذى الشرف والمنعة والمكانة العالية ، أو القرآن المشتمل على تذكير الناس ووعظهم بما ينفعهم فى المعاش والميعاد ، ولا منافاة بين القولين ، فالقرآن كتاب شريف ، والقرآن مشتمل على التذكير والإنذار وأسباب الهداية ، وبذلك يسود الناس ، وينتقلون من كمّ مهمل إلى أمة متحضرة منظمة ، لها فكر ونظام ، وقوة واحترام .

قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

أى : إنه شرف لك أن ينزل عليك وحى السماء ، وشرف لقومك إذا اتبعوه وعملوا به ، وجواب القسم محذوف دل عليه السياق ، تقديره : إن القرآن حق ، أو إنه لمعجز ، أو إن محمدًا صادق ، أو إن البعث حق ، ويفهم الجواب من روح القرآن وأفكاره ، فى السابق واللاحق .

٢ - بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ .

معنى الآية مع ما قبلها كما يلي :

وحق القرآن المشتمل على التذكير والعبرة أنه يجب الإيمان به ، لكن الكافرين لم يؤمنوا ، لا لخلل وجدوه فيه ، بل لأنهم فى استكبار شديد عن اتباع الحق ، وَشِقَاقٍ . أى : مخالفة لله ومعاندة ، ومشاقة لرسوله ، ولذلك كفروا به ، والمراد بالعزة هنا : التكبر والعناد ، كما قال تعالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ... (البقرة : ٢٠٦) ، أى : الحمية والاستكبار .

وأصل الشقاق أن يكون كل واحد من الفريقين فى غير شق صاحبه ، فهو يترفع عليه بأن يكون معه فى شق واحد ، لقد كان كفار مكة على جانب من الغنى والجاه والثروة ، فلما جاءهم محمد ﷺ بالإسلام أنفوا من اتباعه وهو بشر مثلهم ، لا يتميز عليهم بوسائل الدنيا كالغنى والجاه ، وحقدوا عليه أن يكون اليتيم الفقير ، نبيًا رسولاً ، وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

لقد استكبروا وأخذتهم حمية الجاهلية أن يدخلوا فى دينه ، وكفروا به ، ودانوا للأصنام والأوثان ، وشاقوا الرسول والمؤمنين .

والله حين يصطفى بعض الناس لرسالته ، يختار الرسول لمواصفات إنسانية خلقية .

قال تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام : ١٢٤) .

٣ - كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قُرُونٍ فَتَدَاوَى وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ .

كثيرًا ما أهلكنا المكذابين من الأمم ، كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وحين رأوا العذاب صاحوا بالإيمان والتوبة بعد فوات الأوان ، وليس الحين حين مناص ، وليس الوقت صالحًا للإيمان ، أو الفرار من العذاب ، أو الدخول فى الإيمان .

وكلمة : مَنَاصٍ . من الأضداد ، تطلق على التقهقر والفرار ، كما تطلق على التقدم .

قال ابن عباس :

وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أى : ليس بحين فرار .

وعن الكلبي أنه قال : كانوا إذا تقاتلوا فاضطروا ، قال بعضهم لبعض : مَنَاصٍ . أى : عليكم بالفرار ، فلما أتاهم العذاب قالوا : مَنَاصٍ . فقال تعالى : وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ .

أى : إنهم آمنوا بعد فوات الأوان ، حين رأوا العذاب .

قال تعالى : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ... (غافر : ٨٥) .

وقريب منه رفض إيمان فرعون حين عاين الموت ورأى الغرق بأم ناصيته .

٤ - وَعَجِيبًا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ .

هذا العجب من أن يكون الرسول بشراً مثلهم مرت به البشرية ، وتكلم به الكفار فى حق الرسل ، وقال الذين كفروا لرسلمهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ... (إبراهيم : ١٠ ، ١١) .

أراد الله أن يكون الرسول بشراً مثل الناس ، يحس بإحساسهم ، ويعرف قدراتهم وطاقتهم ، وما يتقبلونه ويستحسنونه ، وما يطبقونه وما لا يطبقونه ، ويكون الرسول قدوة عملية أمامهم ، يلتزم بما يأمرهم به ، فيكون نموذجاً للعمل بما يأمر به ، والترك لما ينهى عنه ، فالرسول محمد ﷺ كان خلقه القرآن ، يصلى ويصوم ، ويذكر ويحج ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهو صادق أمين مجاهد ، يزور المرضى فى أقصى المدينة ، يتعهد أصحابه ، يرحم الضعفاء ، يعلم الرجال والنساء ، ويبلغ وحى السماء ، لكن الكفار رغبوا فى رسالة غامضة تقوم على الأساطير التى كانت تروج بينهم قبل الإسلام ، ورفضوا الدين الواضح الذى يقوم على الحجة والمنطق والوضوح ، واستكبروا أن يكون اليتيم الفقير هو النبی الرسول ، وكانوا يلقبون محمداً قبل الدعوة إلى الإسلام بالصادق الأمين ، فلما جاءهم بالرسالة كفروا به حسداً وعناداً ، وقالوا : إنه ساحر يفرق بين المرء وقومه ، والمرء وأبيه وأمه ، وهو كذاب لا ينزل عليه الوحى من السماء ، لكنه يدعى ذلك .

٥ - أَجْعَلْ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ .

كانوا يعبدون آلهة شتى ، مثل اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، وكان القرآن يناقشهم فى عبادة أصنام لا تسمع ولا تجيب ، ولا تنفع ولا تضر ، ويستثير عقولهم للتفكير والتأمل ، فذهبوا إلى أبى طالب ، واشتكوا له من حملة محمد على الأصنام ، وتسفيه العقول التى تعيدها ، فأرسل إليه أبو طالب وقال له : أى ابن أخى ، ما بال قومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ...؟ وتكلم رسول الله ﷺ فقال : «يا عم ، إنى أريدكم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب والعجم» ، ففرحوا لذلك وقالوا : ما هى ؟ وأبيك لنعتيها وعشرا ، قال : «لا إله إلا الله» ، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون : أَجْعَلْ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ .

ومدار تعجبهم عجز الإله الواحد عن إدارة هذا الكون الكبير الواسع ، وعدم وفاء علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة الموجودة فيه .

ومعنى الآية :

ألفنا عبادة آلهة شتى ، لكل قبيلة إله ، ومحمد يريد منا أن نعبد جميعاً إلهاً واحداً ، إن هذا أمر عجيب عجباً شديداً ، بل هو غاية فى الغرابة ، وقد بين القرآن لهم أن الغرابة هى عبادة آلهة شتى ، وأن العقل يحتم أن يكون إله الكون واحداً ، قادراً متصفاً بكل كمال ، منزهاً عن كل نقص .

٦ - وَاتَّطَلَّ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ .

وانطلق أشراف قريش ، وقد يتسوا من استمالة محمد ﷺ إلى دينهم ، بعد أن وسطوا عمه أبا طالب ، فقال ﷺ : «والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو تنفرد منى هذه السالفة» - أى : الرقبة - ، فلما شاهدوا تمسكه بدينه يتسوا منه ، وقالوا لبعضهم : اصبروا على عبادة آلهتكم ، فمحمد يريد دعوته ولن يتركها ، فلا أمل فى استمالاته إلينا ، وقد سار على ذلك جمهور المفسرين ، وقيل : إن هذا الشئ من نوائب الدهر يراد بنا ، فلا حيلة إلا تجرع مرارة الصبر وقيل : إن هذا دينكم ، يُطلب لينتزع منكم ، وي طرح ويراد إبطاله.^(١٧)

٧ - مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْأَعْرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَيْلٌ .

عُرفت اليهودية فى بلاد العرب ولم تنتشر بينهم : لأن اليهودية ليست ديانة دعوة ، ولا يعتبر يهودياً عندهم إلا من كانت أمه يهودية ، وعُرفت النصرانية فى بلاد العرب ، وكانت هناك أديرة للرهبان والراهبات تنتشر فى أنحاء الجزيرة العربية ، وسجل الشعر العربى جمال بعض الراهبات ، وانشغال بعض العرب بهن .

فقال أحدهم :

يا دير عنثرة المنفدى قد أوريثنى حزنًا وكداً

وقال شاعر آخر :

لو أنها نظرت لأحور راهب عبد الإله ضرورة المتعبد

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولخاله رشدًا وإن لم يرشد

لكن المسيحية لم تنتشر انتشارًا كبيرًا بين العرب ، لأنها تأمر بالتسامح والعفو والصفح ، والعربى كان يميل إلى الغارة والعدوان والانتقام .

وقد عرف العرب شيئًا عن اليهودية والنصرانية ، وعرفوا أن النصارى يدينون بالتثليث ، ويزعمون أنه الدين الذى جاء به عيسى ، ويقولون : باسم الأب والابن وروح القدس ، إله واحد أمين ، لذلك قاوم مشركو العرب فكرة التوحيد الذى جاء به محمد ﷺ ، وقالوا : ما سمعنا بذلك التوحيد فى ملة النصارى ، وهى الرسالة الأخيرة التى جاء بها عيسى .

إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْيَلُّ .

يعنى : ما جاء به محمد من رسالة الإسلام إن هو إلا افتراء اخترعه من تلقاء نفسه ، وليس وحياً من عند الله .

وقيل : ما سمعنا بهذا الدين الذى يدعوننا إليه محمد ﷺ ، فى ملة العرب التى أدركنا عليها آباءنا .

٨ - أَعَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ .

كان فى مكة جموع من الأغنياء ، وأصحاب الثراء والجاه والسلطان ، وقد استراحوا لهذه المنزلة ، وما يتبعها من خمر ولهو ، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ يتيمًا فقيرًا من بنى هاشم ، حسدوا هذا النبى ، وجدوا رسالته بغيًا وحسدًا : وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

أى : هلا كانت الرسالة فى أحد أغنياء مكة ، أو أحد أغنياء الطائف .

وقالوا : أما وجد الله غير هذا اليتيم الفقير ليتخذه رسولاً ، وقد أشار القرآن إلى أن الله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، وهو يوزع الأرزاق ، والرسالة أسمى رزق ، فاختيار الرسول شأن من شئون الله تعالى ، وليس من شأنهم ، قال تعالى : أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَيعَشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبَّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . (الزخرف : ٣٢) .

أى : إذا كان الأدنى - وهو المال - قد قسمناه ، فإن الأسمى - وهو الرسالة - أولى ألا يُقسَّمه إلا العلى الأعلى .

والمعنى :

أُءَنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ...

كيف ينزل عليه الوحي من دوننا ، ونحن أهل الفضل والمنزلة ؟

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ...

هم لم يعتمدوا فى إنكار رسالتك على أدلة أو براهين عقلية ، بل قَدَمُوا الشك فى الرسول وفى القرآن ، بدليل قولهم : إن محمداً ساحر ، ثم قالوا : كاهن ، ثم قالوا : كذاب ، ثم قالوا : أساطير الأولين جمعها ولُفَّقَها ، وادعى أنها كتاب من عند الله ، ولو تأملوا فى القرآن تأمل راغب فى الوصول إلى الحق ، لزال عنهم هذا الشك والمكابرة والعناد .

بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ .

أى : إنهم لم يذوقوا عذابى بعد ، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الحسد والشك .

والخلاصة : إنهم لا يصدِّقون إلا أن يمسه العذاب ، فيضطروا حينئذ إلى التصديق بذكرى .

ويقول النحاة : إن كلمة : لَمَّا . تؤذن بقرب وقوع ما بعدها .

مثل قول الشاعر :

أزف الترحل غير أن ركابنا لهما نزل برحالنا وكان قد

ولذلك ذكر المفسرون هنا أن معنى : بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ . أن ذوقهم العذاب محقق وقريب الوقوع إن لم يؤمنوا .

وتذكرنا هذه الآية بأن بعض رجاله من كبار المشركين كانوا يتسللون ليلاً قرب بيت النبى ﷺ ، ليستمعوا القرآن فى الظلام دون أن يراهم أحد ، وفى الصباح عند انصرافهم يتلاومون على ذلك ، ومنهم : أبو سفيان ، وأبو جهل ، والأخنس بن شريق ، وأن الأخنس بن شريق ذهب إلى أبى جهل فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منّا نبى يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، فقام

عنه الأخنس وتركه ، فهو الحسد الذى حمل أبا جهل على الكفر بمحمد ﷺ ، ومقاومة دعوته ، وهو السرفى قول من قال : أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ...

٩ - أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ .

هل هم يملكون خزائن رحمة الله القوى الغالب الوهاب ، كثير العطاء والهباء ؟

لقد اختار الله محمداً لرسالاته وعطائه ، فأعطاه الوحي والرسالة ، وليس لهم أن يعترضوا على عطاء الله لأحد خلقه ، لأن الله هو المالك ، وخزائنه ملء السماوات والأرض ، والاستفهام فى الآية إنكارى ، أى : إذا كانوا لا يملكون خزائن رحمة الله القوى القادر الوهاب ، فليقفوا عند حدودهم ، ولا يعترضوا على رسالة محمد ﷺ ، ولا يقترحوا أن تكون الرسالة إلى أحد أثرياء مكة أو الطائف .

١٠ - أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ .

هل هم يملكون السماوات والأرض وما بينهما ، والاستفهام هنا إنكارى ، مكمل للآية السابقة ، أى : إنهم لا يملكون رحمة ربك العزيز الوهاب ، ولا يملكون السماوات والأرض وما بينهما حتى يتحكموا فى شئون الوحي والرسالة ، ويختاروا الرسالة والنبوة لمن يشاءون ، ويمنعوها عن من يشاءون ، ثم تحداهم غاية التحدى فقال : فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ .

أى : إذا كانوا يملكون السماوات والأرض وما بينهما ، فليصعدوا إلى السماوات العلى ، وليستولوا على عرش الله ، وليدبروا ملكوت السماوات والأرض .

قال المفسرون :

وقوله سبحانه : فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ . تعجيز لهم ، وتهكم بهم ، واستخفاف بأقوالهم ومزاعمهم ، والأسباب جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى غيره من حبل أو نحوه .

وقال ابن كثير :

أى : إن كان لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليصعدوا فى الأسباب .

قال ابن عباس : يعنى طرق السماء .

وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة ^(١٦) .

وقال النيسابورى :

فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ .

أى : فإن كانوا يصلحون لتدبير الخلائق ، وقسمة الرحمة ، فليصعدوا فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى المقصود . ا هـ .

١١ - جُنْدًا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ .

ماذا يمثل كفار مكة وصناديدها بالنسبة لقدرة الله العلى القدير ، إنهم ، جند ما هُنَالِكَ . بعيدا ، لا يقرب من تصريف هذا الملك ، وتدبير تلك الخزائن ، ولا قدرة له على الاعتراض على مشيئة الله وإرادته ، فليس له حق المُلك ، وليس له حق الاعتراض ، وقد أهلكنا قبلهم جنودا كثيرة ، كقوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم فرعون ، فليس يبعد علينا إهلاكهم .

قال ابن كثير :

هؤلاء الجند المكذبون سيهزمون ويغلبون ويكبتون ، كما كُبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين ، وهذه الآية كقوله جلَّتْ عظمتة : أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ * سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّفُونَ الدُّبُرَ (القمر : ٤٤ ، ٤٥) . وقد كان ذلك يوم بدر ^(٨١) . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذًى وَأَمْرٌ . (القمر : ٤٦) .

★ ★ ★

إنذار ووعيد

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٤﴾ إِنَّ كُلًّا إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٥﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

الأوتــــاد : جمع وتد ، وهو معروف .

وأصحاب الأليكة : الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وأصحابها هم قوم شعيب .

وما ينظر هؤلاء : وما ينتظرون .

فَوَاقٍ : الفواق : الوقت بين الحلبتين .

قِطْنًا : قسطنا ونصيبنا .

التفسير :

١٢ - كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ .

كذبت قبل قومك أمم من المكذبين فحق عليهم عذاب الله فى الدنيا : فقد غرق قوم نوح ، وأرسل الله ريحاً عاتية أهلكت قوم عاد ، وفرعون صاحب الملك الثابت ثبات الأوتاد ، أو صاحب الأهرامات التى تمثل الثبات والاستقرار فى ملك الدنيا كالأوتاد ، أو الذى كان يعذب المذنبين بالأوتاد يشدون بها ، ويعذبون عليها ، أو صاحب الجنود الكثيرة الذين يوطدون ملكه كالأوتاد .

والخلاصة : ليس قومك يا محمد أول المكذبين ، فقد كذبت قبلهم أقوام فأهلكناهم ، ومنهم قوم نوح وعاد وفرعون .

١٣ - وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ .

أى : وكذبت ثمود نبي الله صالحاً ، وعقروا الناقة ، قال تعالى : كَذَبَتْ تَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

وَقَوْمُ لُوطٍ ، كذبوا نبيهم لوطاً ، فأصابهم عذاب مهلك .

وَأَصْحَبُ لَيْكَةِ .

الأيكة : الشجر الكثيف الملتف ، وهم قوم شعيب كذبوا نبيهم ، وخالفوا تعاليم السماء فاستحقوا العذاب المهلك .

أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ .

أولئك الكفار ، المتحزبون على الرسل عليهم السلام ، كما تحزب عليك قومك يا محمد .

١٤ - إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ .

ليس لهؤلاء الأقوام من صفات سوى تكذيب الرسل ، فكانت نتيجة ذلك أن حل بهم عقابى ، وثبت عليهم عذابى ، فأغرق قوم نوح ، وعاد أهلك بالريح العقيم ، وفرعون أغرق مع جيشه ، وأهلكت ثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالحاصب ، وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة .

١٥ - وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ .

ما ينتظر هؤلاء المكذبون من أهل مكة ، إلا أن يصيح بهم الملك صيحة واحدة فيهلكوا جميعاً ، ولا يُنتظر بهم سحابة نهار ، أو ظلام ليل ، أو مقدار فواق ناقة ، والفواق : ما بين الحلبتين ، حيث كانت تحلب الماشية فى الصباح ، وفى المساء ، وما بينهما يسمى فَوَاقًا .^(٨٩) بفتح الفاء وضمها .

أو أن المراد بالصيحة : النفخة الثانية التى ينفخها إسرافيل فى الصور ؛ فيقوم الناس للحساب والجزاء والذهاب إلى الجنة أو النار .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

والمقصود من الآية : تأكيد جزائهم ، وتلقيهم لما يستحقون ، وأن الصيحة سريعة الوقوع ، وأنها لن تتأخر عن وقتها ، وأنها صيحة واحدة فقط ، يتم بعدها كل شيء يتعلق بالبعث والجزاء .

١٦ - وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ .

الِقَط : النصيب من العذاب أو النعيم ، ويطلق على الحظ ، والكتاب بالجوائز .

استعرض القرآن أفكارهم عن الألوهية والنبوة والجزاء .

فقال عنهم : أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ... (ص : ٥) .

وقال عنهم : أَعُزِّرْ عَلَيهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ... (ص : ٨) .

وهنا يستعرض سخريتهم بالبعث والجزاء والحساب ، وطلبهم تعجيل نصيبهم من العذاب فى الدنيا قبل الموت .

والمعنى :

عَجِّلْ لَنَا نصيبنا وقسطنا من الجزاء الأخرى هنا فى الدنيا قبل يوم الحساب ، وهو لون من ألوان التعتنت ، حكاه القرآن عنهم فى سور سابقة ، مثل : وَإِذْ قَالُوا آلَٰلَهُمْ إِنْ كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

ونسب سبحانه وتعالى القول إليهم جميعاً ، مع أن القائل هو النضر بن الحارث الذى تعجل نزول العذاب ، وفيه نزل قوله سبحانه : سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . (المعارج : ١ ، ٢) .

وقيل : الذى تعجل نزول العذاب هو أبو جهل ، لكن الجميع قد رضوا بقول هذا القائل ، ولم يعترضوا عليه فنسب إليهم جميعاً ، وقيل : المراد بقوله تعالى : **عَجَّلْنَا قِتْلَنَا** ... أى : صحائف أعمالنا لننظر فيها قبل يوم الحساب .

وقيل : المراد : نصيبنا فى الجنة التى وعد بها محمد أتباعه ، وكل هذه الآراء تشير إلى سخريتهم وتطاولهم وغرورهم ، أو التحدى والتكذيب لما يحدث فى الآخرة .

قال تعالى : **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** . (الحج : ٤٧) .

وقال تعالى : **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** . (الأنفال : ٣٣) .

★ ★ ★

قصة داود عليه السلام

﴿ **أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (١٧) **إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ** ﴾ (١٨) **وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ** ﴾ (١٩) **وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَوْعَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ** ﴾ (٢٠)

المفردات :

الأيد : القوة فى العبادة ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً .

أواب : رجع إلى الله أو مسبح ، من قولهم : أب إذا رجع ، قال عبيد بن الأبرص : وكل ذى غيبة يثوب وغائب الموت لا يثوب

العشى : من زوال الشمس إلى غروبها .

الإشراق : وقت الضحى ، يقال : شرقت الشمس ، أى : طلعت ، وأشرقت إذا أضاءت وصفت .

محشورة : محبوسة فى الهواء أو مجموعة .

كل له أواب : منقاد ، يسبح تبعاً له .

شددنا ملكه : قويناه بالهيبة والنصر .

الحكمة : إصابة الصواب فى القول والعمل .

فصل الخطاب، الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل .

تمهيد :

من شأن القرآن تصريف القول ، والانتقال من فن إلى فن ، ترويحاً للسامع ، وتلويحاً فى أسلوب الحديث ، وهنا ينتقل القرآن إلى حكاية قصص بعض الأنبياء تسلياً للرسول ، وليرى أن رسل الله تعرضوا للشدائد مثله ، وصبروا حتى جاءهم النصر .

التفسير :

١٧ - أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك ، وعلى قولهم : سَلَجِرٌ كَذَّابٌ . وقولهم : أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ... وغير ذلك من أقوالهم ، واذكر لهم قصة داود عليه السلام ، صاحب القوة فى الدين ، والرجوع إلى الله تعالى بالصلاة والتسبيح وقراءة الزبور والمزامير .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفتر إلا لاقى ، وإنه كان أَوَّابًا»^(١) .

أى : رجاعاً إلى الله تعالى فى جميع شئونه ، فكان كلما ذكر ذنبه أو خطر على باله ، استغفر الله . وأخرج البخارى فى تاريخه ، عن أبى الدرداء قال : كان النبى ﷺ إذا ذكر داود وحدث عنه قال : «كان أعبد البشر» .

والخلاصة : إن داود كان قوياً فى دينه بالصلاة والصيام والعبادة ، وكان رجاعاً تواباً إلى الله . وفى القرآن الكريم : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

١٨ - إِنَّا سَجَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ .

ذللنا الجبال وطوعناها بحيث إذا سَبَّحَ كانت الجبال تسبح معه ، فى وقت العشى : وهو من الزوال إلى الغروب ، وفى وقت الإشراق : وهو وقت صفاء الشمس ونورها وذلك وقت الضحى ، وارتفاع ضوء الشمس ، وتسبيح الجبال كان بلسان المقال لا بلسان الحال ، لأن الله قيد التسبيح بأنه كان فى وقت العشى والإشراق ، وبأنه كان مع داود .

أما التسبيح بلسان الحال فهو موجود فى كل وقت ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله .

قال تعالى: تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء: ٤٤).

وخصَّ تسبيح الجبال بوقت العشى وبوقت الإشراق ، لأهمية الوقتين ، ففي الأول صلاة العصر ، وفيه تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار ، وفي الثانى وقت صلاة الضحى ، وقد ورد فيها أحاديث كثيرة مشهورة ، حتى قال محمد بن جرير الطبرى : بلغت مبلغ التواتر ، وذكر الشافعية أنها أفضل التطوع بعد الرواتب ، وأقلها ركعتان ، وأدنى كمالها أربع ، فست ، فثمان .

١٩ - وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ .

أى : وسخرنا له الطير ، حال كونها محبوسة فى الهواء ، تسبح بتسبيحه ، فإذا مَرَّتْ به الطير وهى سابعة فى الهواء ، وسمعته يترنم بقراءة الزبور ، تقف وتسبح معه ، وفى هذا إيماء إلى ما لداود من حسن الترتيل ، والصوت الجميل الذى يعجب به الحيوان الأعجم ، فيجتمع عند رأسه يظله ويتحرك بحركته ، كأنما حُسِرَ وجمع من أجل ذكر داود لله .

كُلٌّ لَهُ أَوَابٌ .

أى : كلٌّ من الجبال والطير مطيع مرجاع إلى أمره ، يسبح تبعاً له .

٢٠ - وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاثَيْنَاهُ الْجِحْمَةَ وَفُضِّلَ الْخِطَابُ .

وقوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء ، ونفوذ الكلمة ، والنصر على الأعداء .

وَءَاثَيْنَاهُ الْجِحْمَةَ . وهى وضع الشئ فى موضعه ، وحسن التأتى للأمور ، أو النبوة ، أو كمال العلم وإتقان العمل ، وتطلق الحكمة على إتقان الأمور ، وصاحبها : حكيم .

قال تعالى : يُؤْتِي الْجِحْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْجِحْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . (البقرة : ٢٦٩) .

وَفُضِّلَ الْخِطَابُ . الخطاب الجامع المانع ، أو الفصل فى الخصومات ، وعلم القضاء ، مثل البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

وروى أن فصل الخطاب هو قول : أما بعد ، لأنها تفصل بين المقدمة والموضوع الذى يتحدث فيه .

قال الألوسي :

والمراد بفصل الخطاب : علم القضاء والفصل في الخصومات ، وهو يتوقف على مزيد علم ، وبدقة فهم وتفهم ، وفيه تمييز بين الحق والباطل ، وإيتاء الحقوق أربابها ، وهو العدل الذي هو أساس الملك ، ويلائمه أتم ملاءمة ، قوله تعالى بعد ذلك : **وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ ...** (ص : ٢١) . والله أعلم .

★ ★ ★

خصمان يحتكمان إلى داود

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصْمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٢٥﴾﴾

المضردات :

وهل أتاك ، استفهام يراد منه التعجب والتشويق إلى استماع ما بعده .

نـبـأ : خبر .

الخصم : المتخاصمين أو الخصماء ، ويطلق الخصم على المفرد والمثنى والجمع ، والمذكر والمؤنث .

تسـوـروا : التسور : اعتلاء السور والصعود فوقه ، مثل : تسنم الجمل ، إذا علا فوق سنامه .

المـحـرـاب : في الأصل : صدر المجلس ، ومنه : محراب المسجد ، لأنه في صدره ، ويطلق على مكان العبادة .

فـفـزعـهـمـ : الفزع : انقباض يعتري الإنسان من الشيء المخيف .

بـغـى بـعـضـنـا : جار وظلم .

وـلـا تـشـطـط : الشطط : مجاوزة الحق في كل شيء ، يقال : شط فلان على فلان في الحكم ، واشتط ، إذا ظلم

وتجاوز الحق إلى الباطل .

واهدننا ، دلنا وأرشدنا .

سواء الصراط ، الطريق السوي .

نعجة ، هي أنثى الضأن ، وتطلق على المرأة مجازاً .

أكفلتنيها ، اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ، والمراد : ملكنيها ، أو اجعلها كفلي ، أي : نصيبي .

وعزّئسي ، غلبنني .

في الخطاب ، في المجادلة والمحاجة .

الخلطاء ، الشركاء .

فتناه ، امتحنّاه وابتليناه .

فاستغفر ربه ، سأله المغفرة والصفح .

خرّ راعها ، سقط وهوى ساجداً .

وانساب ، ورجع إلى الله تعالى بالتوبة .

لزلّفتني ، لقربي ومكانة .

مساب ، مرجع في الآخرة .

تمهيد عن فتنة داود عليه السلام

تعرض داود عليه السلام لفتنة أو محنة ، حيث تسوّر عليه رجالان السور ، ووصلا إلى الغرفة التي يتفرغ فيها للعبادة ، وعرضا عليه خصومة بينهما ، وتنبه داود إلى أنه قضى في الخصومة قبل أن يسمع الطرف الثاني ، فاستغفر الله وتاب إليه ، فغفر الله له ، وجعل له زلفى وحسن مآب ، وقد تعددت الآراء حول فتنة داود وخطيئته ، والقرآن لم يذكر خطيئة هنا ، وحسبنا كتاب الله ، فيه غنية عما في غيره ، لأن اليهود ادّعت على داود أنه رأى امرأة حسناء جميلة تغتسل ، فلما أحسّت به أرسلت شعرها فسترها ، فازداد تعلقاً بها ، وذهب إليها وسألها عن زوجها ، فعلم أنه جندي يقاتل ، فطلب من قائد الجيش أن يجعله في صدر الجيش ، حتى قُتل ، ثم تزوج داود المرأة ، وهي قصة من الإسرائيليات التي أمرنا بالتوقف عن قبولها ، لأن عصمة الأنبياء جزء من عقيدتنا ، فالله تعالى عصم ظواهر الأنبياء وبيواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه ، وهذه القصة لا تليق بالأسوياء من الناس ، فضلاً عن رسول كرمه الله ، وقال عنه : **وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَتَابٍ** . (ص : ٢٥) . وتكریم القرآن له يغنينا ، ويجعلنا نثق بكلام ربنا ، ونرفض اتهام اليهود له بأنه ساق (أوريا) إلى الحرب حتى يقتل ، ولم يحزن عليه ، وتزوج امرأته بعد وفاته ، أو أنه خطبها بعد أن خطبها

أوريا ، ففضل أهلها داود ، أو أنها أعجبتة فطلب من زوجها أن يتنازل عنها لداود ، فقبل على استحياء ، وطلقها ثم تزوجها داود ، وكلها آراء مذخولة ، تحتاج إلى سند قوى من النقل والعقل ، ولا سند لها من النقل ولا من العقل ، فالنقل يفيد أن الله قوى ملكه ، وأعطاه القول الحق ، والمنطق والحكمة وفصل الخطاب ، والعقل يفيد أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإذا اختار رسولا ملكا ، وأعطاه المواهب الإلهية ، حفظه من التلبس بما لا يليق بالرسول الكرام ، وقد ورد الثناء على داود فى الصحيحين بأنه أفضل الناس عبادة وصلاة وصياما .

وعن سعيد بن المسيب ، أن على بن أبى طالب قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد القذف فى حق الأنبياء .

كما روى أنه حدث بذلك عمر بن عبدالعزيز وعنده رجل من أهل الحق ، فكذب المحدث به ، وقال : إن كانت القصة على ما فى كتاب الله ، فالتماس خلافها كذب واختلاق ، فقال عمر بن عبدالعزيز : لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس .

والأنبياء والمرسلون يجب فى شأنهم العصمة والصدق والأمانة ، والتبليغ والفظانة ، لأن الله جعلهم واسطة بينه وبين الناس ، وأقام بهم الحجة على البشر بأنه بلغهم وحيه وأمره .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

وقال سبحانه : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْلُهُمْ أَتَتِدَّةٌ ... (الأنعام : ٩٠) .

التفسير :

٢١ - وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ .

وهل وصل إلى علمك أيها الرسول الكريم ذلك النبأ العجيب ، وهو تسوّر خصمين السور على داود ، حال كونه متفرغا للعبادة ، إن كان هذا النبأ العجيب لم يصل إلى علمك ، فما نحن نقصه عليك .

٢٢ - إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ .

فما إن دخلوا على داود حتى فزع خوفا منهم ، فهو متفرغ للعبادة ، وحوله حراس ، ولم يأتوه من الباب ، ولم يستأذنوا فى الدخول عليه ، ولم يأتوه فى اليوم الذى يجلس فيه للقضاء ، فظن أنهم يريدون به

سوءاً ، كالقتل أو الإيذاء ، لكنهم بادروه مطمئنين ، وقالوا له : لا تخف منا ، فما أردنا بك سوءاً ، لكن قصدناك لتقضى بيننا فى خصومة ، فنرجو أن تحكم بيننا بالحق والعدل ، ولا تباعد عن الإنصاف إلى الشطط والجور ، وأرشدنا إلى الطريق السوى الذى نتبعه ، فقد بغى أحدنا على الآخر ، ويبدو أن الذى كلم داود وطلب منه الحكم بالعدل ، والبعد عن الجور والظلم ، هو ذلك الخصم الذى شعر بمرارة الظلم وفداحته ، فلم يتلطف فى القول ، وتجراً فى أمر داود بالحكم بالعدل والبعد عن الشطط ، وكان نبى الله داود مثلاً يحتذى ، ونموذجاً يقتدى به فى احتمال خطأ الخصوم ، والصبر والاحتمال ، والحلم والابتعاد عن الغضب .

من تفسير القرطبي

قال القرطبي :

فإن قيل : لم فزع داود وهو نبى ، وقد قويت نفسه بالنبوة ، واطمأنت بالوحى ، ووثقت بما آتاه الله من المنزل ، وأظهر على يديه من الآيات ، وكان من الشجاعة فى غاية المكانة ؟

قيل له : ذلك سبيل الأنبياء قبله ، لم يأمنوا القتل والأذية ، ومنهم من كان يخاف ، ألا ترى إلى موسى وهارون - عليهما السلام - كيف قالوا : إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى . (طه : ٤٥) . أى : فرعون ، فقال الله لهما : لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى . (طه : ٤٦) .

ويمكن أن نزيد على كلام القرطبي ما يأتى : إن داود جاء فى أعقاب موسى ، وقد اعتدى بنو إسرائيل على الأنبياء بالقتل .

قال تعالى : سَكَتُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... (آل عمران : ١٨١) .

وقال تعالى : فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ... (النساء : ١٥٥) .

٢٣ - إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ .

إن هذا أخى يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وأنا أملك نعجة واحدة ، فطلب منى أن أتنازل له عن نعجتى حتى تكتمل النعاج عنده مائة ، وهو رقم مكتمل ، وجاء بحجج وأدلة قوية غلبنى بها ولم أستطع الرد عليها ، لقد كانا أخوين فى النسب ، أو فى شركة ، أو فى الدين ، أو فى الصحبة ، لكن الغنى كان جشعاً لا يشبع ، فالمفروض أن يساعد الغنى الفقير ويعطف عليه .

قال تعالى : وَءَاتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ... (النور : ٣٣) .

٢٤ - قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ .

أى : قال داود للشاكي : إن أحاك قد ظلمك حين طلب منك أن تضم نعتك إلى نعاجه ، فأنت فقير بسيط ، يجب عليه أن يقويك ويزيدك ، لا أن يأخذ منك ، ورغب داود في مواساة الشاكي فبين له أن كثيراً من الخطاء والشركاء يجور بعضهم على بعض في التعامل ، كما قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عِفةٍ فلعلية لا يظلم

إلا المؤمنين الذين يراقبون الله ، ويرغبون في صالح الأعمال ، فيبتعدون عن الظلم والطمع والجشع ، وما أقل هؤلاء عدداً ، وأندرهم وجوداً ، كما قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . (سبا : ١٣) .

ولعل هذه القضية ذُكرت داود بشيء ما طمع فيه من صاحبه ، قد يكون فرساً جميلاً ، أو أرضاً ، أو أى شيء رغب في تملكه وهو النبي الملك ، وكانت هذه القضية وسيلة ذكّرت شيئاً ما فعله شبّيحاً بها ، فاستغفر الله عما فعله ، وخَرَّ ساجداً ، راجعاً مُنِيباً إلى الله تعالى مستغفراً .

وقيل : إن داود تسرع في الحكم فقاضى للمدعى قبل أن يسمع دفاع المدعى عليه ، ثم تنبّه للأمر فاستغفر الله وخر ساجداً لله ، وأَنَابَ إليه لأنه لم يسمع شهادة الشهود ، أو لم يسمع قول المدعى عليه .

وقيل : إن داود عليه السلام احتجب عن رعيته متبتلاً ، منقطعاً لعبادة ربّه ، فعوتب في ذلك ، وكانت هذه المحاوراة لتذكيره بأن القضاء بين الناس ، والانشغال بشئون الرعية أولى من التبتل والعبادة ، فاستغفر الله لذلك فغفر الله له .

قال ابن عباس : إن داود جرّ زمانه أربعة أجزاء : يوماً للعبادة ، ويوماً للقضاء ، ويوماً للاشتغال بخواص أموره ، ويوماً يجمع فيه بنى إسرائيل فيعظهم ويبكيهم ، ففاجأوه في غير يوم القضاء ففزع منهم لأنهم نزلوا عليه من فوق ، وفي يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه .

٢٥ - فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكْ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّثَابٍ .

أى : قَبِلَ الله تعالى منه توبته ، ورفع درجته ، وإنَّ له عند الله مآباً حسناً ، ومرجعاً كريماً في الآخرة ، عند ملكٍ مقتدر ، وتذكرنا هذه الآية بأن النبي ﷺ كان يستغفر الله تعالى في اليوم والليلة مائة مرة ، وأن الأبرار المقربين يرجعون إلى الله ، ويتبتلون إليه ، ويكثر من التوبة والاستغفار ، وأن الله يحفظ الرسل الكرام من الخطايا والكبائر ، فهم لا يرتكبون إلا خلاف الأولى ، ثم هم يعودون لله تائبين راجعين باكين

مستغفرين ، وقد كان داود كثير السجود ، كثير البكاء ، كثير العبادة ، كثير الرجاء ، وتكفى هذه الآية كدليل على ذلك ، وكلها حنان وعطف ومغفرة فى الدنيا ، وبيان بالزلزلى والقربى والجنة فى الآخرة ، مع حسن المآب والمرجع ، وحسن المنزلة عند الله تعالى .

★ ★ ★

﴿يٰۤاٰدٰوْدُ اِنَّا جَعَلْنٰكَ خَلِيْفَةً فِى الْاَرْضِ فَاَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ اِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّوْنَ عَنْ سَبِيْلِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ يَّمَسُوْنَ اَيَّوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَما خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَما بَيْنَهُمَا بِطِلَافٍ ذٰلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا قَوْلٌ لِّلَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ النَّارِ اَمْ يَجْعَلُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ كَالْمُفْسِدِيْنَ فِى الْاَرْضِ اَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِيْنَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٧﴾ كَتَبَ اَنْزَلْنٰهُ اِلَيْكَ مُبٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوْا اٰيٰتِهٖ وَلِيَتَذَكَّرُوْا اَلَّا يَلْبَسَ ﴿٢٨﴾﴾

المضردات :

خليفة : استخلفناك على الملك فى الأرض ، أو جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء القانمين بالحق .

سبيل الله : طريق الله الحق ، وصراطه المستقيم .

نساو يوم الحساب : أهملوه وتناسوه كأنه غير موجود ، وتركوا العمل له .

باطلا ، عبثا ولهوا .

ويهل : هلاك وعذاب يأتيهم من النار .

الفجار : جمع فاجر ، وهو من ينطلق فى المعاصى .

مبارك : كثير المنافع الدينية والدنيوية .

ليدبروا : ليتفكروا .

ليتذكروا : ليتعظوا .

الأسباب : جمع لب ، وهو العقل ، وجمعه : عقول ، أى : ليتذكر أصحاب العقول ربهم .

تمهيد :

أتبع الحق سبحانه وتعالى قصة داود بدعوته ودعوة الناس جميعا إلى الحكم بالعدل ، والبعد عن الهوى والظلم .

ويقول العلماء : إنك إذا ابتليت بشخص معاند مكابر ، لا يفتح قلبه للدليل ، ولا يفتح عقله للمنطق والبرهان ، فمن أساليب السياسة الحكيمة أن تروى له قصة ، أو تحكى له موضوعاً ، فيفتح مداركه لاستيعابه ، ويسترسل وراءك لمتابعته ، ومن السهل بعد ذلك أن تعيد عليه عرض الموضوع ، فربما ترك المكابرة والعناد .

ولذلك أعاد القرآن هنا عرض قضية التوحيد والحساب ، وقيام الكون كله على طاعة الله وتوحيده ، فبين أن الكون لم يخلق عبثاً ، وإنما ليشهد بقدرة الخالق ، ولولا البعث والجزاء لتساوى الأتقياء والفجّار ، وقد أنزل الله القرآن للتدبر وإعمال العقل ، فهو كتاب مبارك ، يأخذ بيد العقلاء إلى التأمل والتفكير ، ثم الإيمان بالله واليوم الآخر .

التفسير :

٢٦ - يَلْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

تأتى هذه الآيات بعد قوله تعالى : فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكْ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ .

فالله غفر له ، وجعل له منزلة عليا ، وأرشده إلى استكمال هذه المنزلة العالية ، أو أمره أمراً مستقلاً بأن يحكم بالعدل .

ومعنى الآية :

لقد استخلفناك يا داود فى الحكم بين الناس ، وجعلناك رسولاً ملكاً ، جمعت بين الرسالة والملك ، فاحكم بين الناس بالعدل ، وقد تكرر الأمر بالعدل فى القرآن الكريم ، وعلى العدل قامت السماوات والأرض ، والله تعالى هو الحق ، والقرآن نزل بالحق .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (النساء : ٥٨) .

وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ...

أى : لا تمل عن الحق ولا تحد عنه ، فتتبع هوى نفسك ، فإن اتباع الهوى يبعدك عن طريق الله السوى ، وسبيله المستقيم .

واتباع الهوى يطلق على الميل الشخصى ، أو طاعة الشيطان ، أو الخروج عن العدل إلى الظلم ، وقد حذر القرآن الكريم من اتباع الهوى فى كثير من آياته .

قال تعالى : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجناتية : ٢٣) .

ويقول البوصيرى :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على
فاحذر هواها وحاذر أن تولّيه

حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
إن الهوى ما تولّى يصم أو يصم

إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ .

الذين يتركون الحق ، ويضلّون عن سبيل معالمة ، ويترضّون بالباطل ، لهم عذاب شديد يوم القيامة ،
لنسيانهم ما فى القيامة من الأحوال العظام التى يشيب لها الوليد ، وأنه يوم الدين ويوم العدالة ، وأن الله
سيحاسب فيه كل نفس بما كسبت ، وسيجازى فى هذا اليوم على الإحسان إحساناً ، وعلى السوء سوءاً .

قال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا . (الشمس : ٧ - ١٠) .

ويقول الله تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه النبى ﷺ : «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى
وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(٧٧) .

٢٧ - وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ .

لم نخلق السماء والأرض ، والفضاء والهواء ، والكون كله باطلاً وعبثاً ولهواً ، بل خلقناه لحكمة ، وهى
معرفة الناس لله وعبادته وطاعته ، وامتنال أمره ، واجتناب نواهيه .

قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) .

أى : ليعرفونى ويعبدونى ويطيعونى .

ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ...

بأنهم خلقوا عبثاً ، وسيتركون سدى ، فلا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، والآية ردٌ على المشركين
فى إنكار البعث ، ذلك لأن هذا الكون البديع يحتاج إلى إله عادل ، والدنيا ليست دار جزاء ، فلا بد من يوم
للجزاء العادل ، وإنكار هذا اليوم كفر .

قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آثَارٍ .

الذين كفروا بالله ، وعزموا على هذا الكفر ، وأصروا على أنهم لو مكثوا في الدنيا خالدين لاستمر كفركم بالله ، فسيكون عقابهم النار ، التي يصلون عذابها فتحرق أجسامهم ، ويأكلون الضريع والزقوم وجمر جهنم وحجارتها ، ثم يسقون من الحميم الذي يقطع أمعاءهم ، ويشوى وجوههم .

٢٨ - أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ .

على العدل والحق قامت السماوات والأرض ، والكون لم يخلق عبثاً وإنما لحكمة سامية هي معرفة الله وطاعته ، فمن أطاع الله في الدنيا فله الجنة في الآخرة ، ومن عصاه في الدنيا فعقوبته النار في الآخرة .
وهنا في هذه الآية إضراب انتقالى .

والمعنى :

بل أنجعل المؤمنين بالله ، الذي عمروا دنياهم بالأعمال الصالحة ، ونفع البلاد والعباد مرضاة لله ، كالمفسدين في الأرض ، بالزنا والسرقة والكبر والبطر واتباع الهوى ؟ أم نجعل المتقين لله الخائفين من عقابه الممثلين لأمره ، كالفجار الذين خرجوا على طاعته ، واستحلوا مخالفته ، وتكبروا على هدى رسله ؟ وتلتقى هذه الآية مع الآية السابقة عليها ، على أن البعث حق حتى يكافأ العاملون المصلحون ، ويعاقب المفسدون الفجار .

٢٩ - كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

أى : هذا القرآن كتاب مبین ، أنزلناه من السماء إليك يا محمد ، مشتملاً على البركة والخير ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وقد أنزلناه بواسطة جبريل الأمين ليتدبروا آياته وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، فتشع قلوبهم ، وتلين أفئدتهم . وقد أنزلنا هذا الكتاب ليستخدم أصحاب العقول عقولهم ، فى تأمل حديث القرآن عن بدء الخليقة ، وعن إبداع الكون ، وعن قصص الأولين ، وعن التشريع والأحكام ، والآداب والوصايا ، وعن القيامة وأحوالها ، وبذلك يؤمنون ويهتدون بعد تدبر وتذكر .

والآية كما ترى دعوة إلى استخدام العقل والفكر واللب ، وترك التقليد الأعمى ، والتدبر لا يكون بحفظ حروفه وإهمال حدوده ، بل بهما معاً .

قال الحسن البصرى :

قد قرأ القرآن عبید وصبيان ، لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيّعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً ، وقد - والله - أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء والأتقياء ، لا أكثر الله فى الناس من مثل هؤلاء .

قصص سليمان عليه السلام

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٢٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٢١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٢٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٢٣﴾﴾

المضردات :

وهبنا : أعطينا ومنحنا .

نعيم : كلمة تدل على المدح والثناء .

أواب : رجّاع إلى الله بالتوبة والتسبيح .

بالعشي : من زوال الشمس عن كبد السماء إلى آخر النهار .

الصافنات : جمع صافن ، والصافن من الخيل هو الذي يرفع إحدى يديه أو رجله ، ويقف على مقدم حافرها ، كما قال الشاعر :

ألف الصّفون فما يزال كأنه
مما يقوم على الثلاث كسيراً

الجِيَاد : أحدها جواد ، وهو السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل .

حب الخير : حب الخيل .

توارت : غابت عن البصر .

المسح : إمرار اليد على الجسم .

التفسير :

٣٠ - وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

أنعم الله على داود بسليمان .

قال تعالى : وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ... (النمل : ١٦) .

ووصف الله سليمان بأنه نعم العبد ، أى : نعم العبد المطيع لله ، والعبودية الحقّة لله أعلى منزلة .

قال تعالى : سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ... (الإسراء : ١) .

ويقول الشاعر :

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عِبْدَهَا فَإِنَّهُ أَفْضَلُ أَسْمَائِي
إِنَّهُ أَوْابٌ .

رجَّع إلى الله ، كثير التوبة والاستغفار والذكر ، والرجوع إلى الله تعالى ، وقد كان سليمان كثير الاستغفار والتوبة والدعاء ، ومن ذلك ما حكاه القرآن عنه : قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَخِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . (ص : ٣٥) .

والخلاصة : أنعمنا على داود بسليمان وهو نعم الإنسان ، فهو رجَّع إلى الله .

٣١ - إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ الْغَلِيظُ الْأَصَلِيتُ الْجِيَادُ .

كان سليمان يستعرض خيله ، ليتبين مدى استعدادها للحرب وتأمين المملكة .

ومعنى الآية :

اذكر حين عرضت عليه الخيل الممتازة ، فهي إذا وقفت وقفت على ثلاث أرجل هادئة منضبطة ، وإذا جرت أسرع سرعة الجياد الأصيلة ، وقد استعرضها سليمان فى وقت العشى من بعد الظهر إلى غروب الشمس .

والخلاصة : استعرض سليمان الخيل الأصيلة فى مساء اليوم .

٣٢ - فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ .

إن سليمان هنا يعترف بأنه يحب الخيل ، وهو يفعل ذلك طاعة لله وامتناعاً لأمره ، واحتساباً للجهاد بها ، لا ترفاً ولا رياءً ولا تظاهراً بحب الدنيا وخيلها ، وفى صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «الخير معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (١٨) .

وقد أقسم الله بها ، وبأصواتها وصهيلها فى قوله تعالى : وَالْعَلِيلِيتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَنْزَلْنَهُنَّ نَفْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا . (العاديات : ١ - ٥) .

وهو قسم بالخيل تعدو عدوا فتسمى العاديات ، وتسهل ضبحاً ، ويتطاير الشرر من حوافرها كأنها توقد ناراً عند العدو . فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا .

وتغير على العدو فى الصباح ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا .

فتثير النقع فى سماء المعركة ، فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا .

فتتوسط الجموع لتحقيق النصر ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا .

وكأن الله يحفزنا إلى الهمة ، والفروسية والنشاط والجهاد ، حفاظًا على حرماننا وأوطاننا .

وسليمان عليه السلام كان يحب الخيل ، ويقول : إني أحب هذا الحب ، لأنه عن ذكر ربي وطاعته ، فالإنسان قد يحب شيئًا جميلًا فيحب هذا الحب ، وقد يحب ابنه العاصي ، أو يعشق امرأة لا يتيسر زواجه منها ، فيكره هذا الحب .

وهنا نجد نبي الله سليمان يقول : إني أحببت حب الخيل عن ذكر ربي وطاعته وامتنال أمره .

حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ .

حتى أسرع الخيل وغابت عن بصره .

٣٣ - رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ .

السوق جمع ساق ، والأعناق جمع عنق ، أى : قال سليمان لجنده : رُدُّوا الخيل على - بعد أن غابت عنه - لأزاد تعرفًا عليها ، وتقديرًا لها ، فلما ردها عليه ، أخذ يمسح على أرجلها وعلى أعناقها ، تقديرًا لها وحبًا وتكريمًا لها ، وقد فعل سليمان ذلك بنفسه ، وهو الرسول الملك ، ليكون قدوة لأُمَّته ورجاله فى تكريم الخيل وتقديرها ، لأنها آلة النصر ووسيلة الجهاد .

آراء للمفسرين

كثير من المفسرين ذهب إلى أن سليمان عليه السلام ، استعرض الخيل وانشغل باستعراضها ، والنظر إلى عَدُوِّها وسرعتها حتى غابت الشمس ، وانشغل بالخيل عن صلاة العصر .

فقال لجنوده : رُدُّوا على الخيل ، فلما ردها عليه ، أخذ السيف وجعل يقطع أرجلها ورقابها ، لأنها شغلته عن الصلاة ، نجد ذلك فى تفسير النسفى ، وحاشية الجمل على الجلالين ، وغيرهما من كتب التفسير .

لكن الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، رفض هذا رأى ، ورأى أن سليمان كان يكرّم الخيل ويختبرها بيده ، تشريفًا لها ، لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو .

كذلك فإن الإمام ابن حزم قد رفض أن سليمان قد قتل الخيل ، لأنها شغلته عن صلاة العصر ، وقال : إن هذه الفكرة خرافة موضوعة مكذوبة ، لأن فيها معاقبة خيل لا ذنب لها والتمثيل بها ، وإتلاف مال منتفع

به بلا معنى ، ونسبة تضييع الصلاة إلى نبي مرسل ، ثم يعاقب الخيل على ذنبه ، لا على ذنبها ، ويُنَّ أن معنى الآيات أن سليمان أحب الخيل طاعة لله ، وأنه أمر بردها فطُفِقَ مسحاً بسوقها وأعناقها بيده برأ بها وإكراماً لها ، وليس فى الآيات ما يشير إلى قتل الخيل ، أو تعطيل الصلاة ^(٣٩) .

تعليق

إننا فى التفسير نحتاج إلى تحكيم النقل الصحيح ، والعقل السليم ، حتى نجرد تفسير القرآن الكريم من الدخيل ، ومن الإسرائيليات ، ومن الآراء التى تتصادم مع العقل والنقل ، وتسيء إلى رسل الله وإلى روح الأديان .

ومن المفسرين من ادعى أنه طلب ردّ الشمس حتى يصلّى العصر ، وليس لهذا رأى سند من النقل ولا من العقل ، وكتاب الله غنى عن هذه الأقوال المدخولة ، وكما يقول الإمام محمد عبده : إن الله تعالى لن يسألنا يوم القيامة عما قال الناس فى تفسير القرآن ، وإنما سيسألنا ماذا فهمتم من القرآن ، والقرآن غنى عن الأقوال المريضة فى تفسيره .

نحن فى حاجة إلى أن نلتصق بالقرآن وأن نعود إلى روحه وروحانيته ، وآياته وأدابه وهدايته ، وفيه ما يكفى وما يشفى إن شاء الله رب العالمين .



فتنة سليمان وقبول دعائه

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْغَى لِأَحَدٍ مِنِّى بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِىءَ رُجَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّا لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

المفردات :

فتنا : ابتلينا وامتحنا .

جسداً : جسد إنسان .

أناب : رجع إلى ربه .

لا يبغي : لا يتيسر .

من بعدى، من دونى .

سخرنا، ذلنا ويسرنا .

رخاء، لينة طيبة له ، لا تمتنع عليه .

أصاب، قصد وأراد .

الأضداد، القيود والأغلال .

امسن، أنعم على من شئت .

أمسك، احبس وامنع من شئت .

تمهيد :

يمتحن الله عباده لرفع درجاتهم ، وتكفير سيئاتهم ، وتمرينهم على تحمل البلاء ، وتوجيههم إلى الطريق المفيد النافع ، فهى دروس يمتحن الله بها الرُّسل والأنبياء ، ليأخذوا منها العبرة ونور البصيرة .

قال تعالى : **وَلْتَبْلُوْنَكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِيْنَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِيْنَ وَنَبْلُوْا أَخْبَارَكُمْ** . (محمد : ٣١) .

ومن ذلك امتحان سليمان ، وفتنته بالاختبار والبلاء ، ثم إنابته ورجوعه إلى الله .

وفى الحديث الصحيح أنه عزم أن يطوف على أربعين زوجة من زوجاته ، يبدأ ذلك من ليلة معينة ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، وكان يأمل أن تأتى كل امرأة منهن بولد ، فلم تأت أى واحدة منهن بولد ، إلا واحدة جاءت بسقط ، فوضعت القابلة على كرسيه ، فهذا أقرب الآراء إلى فتنة سليمان عليه السلام .

وقد وردت فى الإسرائيليات قصص كثيرة ، أمرنا أن نضرب عنها صفحا لغرابتها ، ويُعدها عن النقل الصحيح ، والعقل السليم ، مثل أن سليمان أعطى خاتمه لجرادة وكانت أحب نساءه إليه ، فجاء الشيطان لها فى صورة سليمان ومثل صوت سليمان ، وطلب منها الخاتم الذى أعطاه لها ، فأعطته له ، فصار يتحكم فى الملك ، وسليمان محروم من الملك ، حتى استرد خاتمه ، وقد رفض المفسرون الثقات هذه الآراء^(٧٠) .

لقد أمرنا أن نستخدم تراثنا الأمين ، وأن نحكم عقولنا المتخصصة ، أى عقول من درس القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتاريخ التشريع ، وعلوم الدين الإسلامى ، ليقول كلاماً حكيماً فى تفسير كتاب الله تعالى .

قال تعالى : **فَسَلُّوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ** . (الأنبياء : ٧) .

التفسير :

٣٤ - وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ .

اختبرنا سليمان ، وامتحناه امتحاناً شديداً ، كما يوضع الذهب الأبريز في النار ، ليتبين جيده من خبثه .

وقد ورد في الصحيحين وفي غيرهما : أن سليمان عليه السلام قال : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله ، ولم يقل إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذي نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله ! لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون .

والذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة أنه قال : لأطوفن الليلة على أربعين امرأة^(٧١) .

وفي شرح الحديث : «لأطوفن الليلة» : كناية عن الجماع ، قالوا : ولعل المقصود طوافه عليهن ابتداء من تلك الليلة ، ولا مانع من أن يستغرق طوافه بهن عدة ليال ، وقد استنبط العلماء من هذا الحديث أن فتنة سليمان هي أنه لم يقل (إن شاء الله) وأن عقابه على ذلك كان عدم تحقيق ما طلبه .

وهذا الحديث الشريف يذكرنا بالآية القرآنية : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (الكهف : ٢٣ ، ٢٤) .

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن المشركين سألوا النبي ﷺ ثلاثة أسئلة : عن أهل الكهف ، وعن نذى القرنين ، وعن الروح ، فقال النبي محمد ﷺ : «غدا أجيبكم» ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، ثم نزلت الإجابة على هذه الأسئلة ، ونزل توجيه السماء لنا جميعاً وللنبي الأمين ، أن نقول : (إن شاء الله) عند العزم على عمل شيء .

والأقرب إلى تأويل الآية ٣٤ من سورة «ص» ما جاء في الحديث الصحيح السابق ، ويكون تأويل الآية هكذا : اختبرنا سليمان وامتحناه ، وكان يأمل أن يرزقه الله سبعين أو أربعين ولذا لجاهدوا في سبيل الله ، ونسى أن يقول إن شاء الله ، فلم تحوّل من نسائه امرأة ، إلا امرأة واحدة جاءت بسقط ، وضعته القابلة على كرسي ملكه ، فتيقّظ وتنبّه ، ثم أناب ورجع إلى الله تائباً مستغفراً منيباً .

٣٥ - قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

قدّم سليمان طلب المغفرة من الله ، حتى يكون طاهراً ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى ، فاحتاج إلى طلب المغفرة ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن هذا في مقام التذلل والخضوع ، كما قال ﷺ : «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» .

وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .

أى : هب لى ملكًا لا يكون لأحد غيرى لعظمه ، أى أن يكون زائدًا على الممالك زيادة خارقة للعادة ، بالغة حد الإعجاز ، ليكون ذلك دليلًا على نبوته ، وقاهرًا للمبعوث إليهم ، ونلاحظ أن سليمان قدّم الدعاء بطلب المغفرة ، وأخر الدعاء بطلب الملك ، وقد نتساءل : كيف يهتم رسول أمين بمطالب دنيوية ؟ والجواب : أن سليمان كان مشغولاً بنشر الدعوة ، وتبليغ الرسالة إلى الممالك المجاورة ، فطلب من الله تعالى أمرًا عظيمًا معجزًا ، ليساعده فى إعلاء كلمة الله ، ونشر العدالة بين الناس ، وإنصاف المظلوم ، وتنفيذ شرع الله على الوجه الأكمل .

٣٦ - فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ .

استجاب الله دعاء سليمان ، فسخر له الريح تجرى بأمره وتذهب إلى أى مكان يريد ، لينة مذلة حينًا ، وعاصفة قوية حينًا آخر .

قال تعالى فى موضع آخر : وَلِسَلِمُنَّ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَلَرْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ . (الأنبياء : ٨١) .

٣٧ - وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ .

وسخر الله له الشياطين ، وهم مردة الجن وعتاتهم ، سخر له بعضهم فى أعماله ، فاشتغلوا له ببناء المحارِبِ والتمائيل ، والقصاع الكبيرة ، والقُدُور الكبيرة الراسية فى مكانها لصعوبة انتقالها ، وسخر له بعضًا آخر من الجن يغوص فى البحر ، ليستخرج له ما يحتويه من اللؤلؤ والمرجان والأحجار الكريمة .

٣٨ - وَءَاخِرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ .

وسخر الله له عقوبة المردة من الجن ، فوضع الأغلال والقيود فى أيديهم ، أو وضع الأغلال فى جماعة منهم مع بعضهم ، والأصفاد : جمع صفد ، وهو ما يوثق به الأسير ، وقد يكون القيد فى يد الأسير مستقلا ، وقد يقيد الأسير مع مجموعة من الأسرى .

وقد سخر الله له هؤلاء المتمردين ، ليعملوا له ما يحتاج إليه أيضًا ، وقريب منه المحكوم عليه بالأشغال الشاقة ، الذى يشتغل بأعمال تُطلب منه ، أو يحكم عليهم بالعزل الانفرادى ، فيقيدون بالأغلال والسلاسل ليُتقى شرمهم ، ونحن لا نعلم حقيقة تلك القيود ، ولا كيف تكون العقوبة ، فعلىنا أن نؤمن بأن سليمان لعظم ملكه لم يكتف بتسخير الإنسان فى أعماله ، بل سخر معهم الجن فيما يصعب عليه ، ونقبل هذا كما قصه القرآن الكريم ، فالعبرة به ماثلة ، ولا ننزئ فيه .

٣٩ - هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْتَنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

أعطيناك هذا الملك العظيم ، وسخرنا لك الريح والشياطين ، وسلطانك على المردة تحبسهم وتقيدهم ، وأبحنا لك العطاء لمن تشاء ، والإمساك ممن تشاء ، فلا نسألك ، ولا نحاسبك ، ولا عتاب عليك ولا تثريب ، يقول الله ذلك ، وهو يعلم حسن تصرفه فيما فوّضه إليه .

٤٠ - وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ .

ومع هذا الملك العظيم الذى لم يُسخر لأحد سواه ، فإن له عند الله الزلفى والقربى والجنة والرضوان ، وحسن المآب فى الآخرة .

قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة : ٨) .

وقد تكررت قصة سليمان وعطاء الله له فى القرآن الكريم .

قال تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَاصَّةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الْجِبَلِ لِبْنٌ مِّنْ يَّغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ . (الأنبياء : ٨١ ، ٨٢) .

من تفسير المراضى

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، حيث ادّعت بعض الإسرائيليات أن إحدى زوجات سليمان كانت تسجد لوثن هى ووصيفاتها ٤٠ يوماً دون علم سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود ، دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون ، ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم ، كسعيد بن المسيب ، وزيد بن أسلم وآخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب . اهـ .

قصص أيوب عليه السلام

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

تمهيد :

مرت قصة داود وسليمان ، وقد أنعم الله عليهما بالنبوة والملك ، وطائفة من النعم ، وهذه قصة أيوب وقد ابتلاه الله بالمرض ، وفقد الأبناء ، وتفرق الأتباع ، ووسوسة الشيطان ، حتى كان الرجل يقول لصاحبه : إن طول مرض أيوب دليل على أنه قد ارتكب معصية كبيرة ، فعاقبه الله عليها بهذا المرض الطويل المؤلم ، وقد مد أيوب يده إلى الله في أدب وترحم ، فشكا حاله ولم يطلب شيئاً ، وترك لله أن يمن عليه باللطف والفضل .

التفسير :

٤١ - وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .

هذه الآيات مواساة لرسول الله ﷺ ، وفيها قدوة وأسوة ، حتى يقتدى الرسول محمد ﷺ بأيوب في صبره ، وفي دعاء ربه ، وتقتدى به الأمة من بعده .

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ...

أى : واذكر لنفسك ولأمتك عبدنا أيوب ، كنموذج فى الصبر على البلاء ، واحتمال المصائب فى النفس والولد ، والأهل والأتباع .

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ .

وقد نسب ما أصابه إلى الشيطان تأديباً مع الله تعالى .

وقال فى سورة الأنبياء : أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . (الأنبياء : ٨٣) .

أى : أصابنى البلاء فى صحتى ، وأولادى ، وتفرق أتباعى ، وكان أيوب فى صحة وعافية ، وأبناء أصحاب مجتمعين حوله ، وزوجة مطيعة ، وأتباع مخلصين ، وحاول الشيطان أن يوسوس له بأنه فى نعمة

عظيمة تغرى بالزهو والغرور ، فازداد لله شكراً ، فابتلى الله أيوب بالمرض فشكر ، وابتلى بفقد الأولاد فصبر ، وابتلى بتأخر زوجته عليه فى تلبية طلبه ، فأقسم لئن شفاه الله ليضربنّها مائة ضربة ، ومع طول مدة البلاء نجد أيوب صابراً مؤمناً محتسباً ، لكنّه لم يصب بمرض منفّر ، لأن الله أرسل الأنبياء ليبلغوا رسالته للناس ، وحفظهم من الأمراض المعدية والمنقّرة ، ولعله ابتلى بمرض جلدى أو سطحي ، وقد حاول الشيطان الوسوسة له ، ليغريه باليأس والقنوط ، كما وسوس الشيطان لبعض أتباعه بأن أيوب لو كان نبياً حقاً لما مرض هذا المرض الطويل ، وكان لأيوب تابعون مُخلصون ، فقال أحدهم للآخر: لولا أن أيوب أذنب ذنباً عظيماً ، لما عاقبه الله بهذه العقوبة . وبلغ هذا الكلام أيوب ، فاشتكى لله تعالى ما به .

أَنى مَسَى الشَّيْطَانُ بِضَرْبٍ وَعَذَابٍ .

والنَّصَبُ : المشقة والتعب ، أى : وسوس لى الشيطان فى النعماء ، وسوس لى فى البأساء ، وأنا أُلجأ إليك يا ربّ ، وأتحصن بالرجاء إليك ، والرحمة فى فضلك وعفوك وعافيتك ، والشيطان لا ينال من الإنسان إلا ما يقدمه من وسوسة وتزيين .

وقد بين الشيطان أنه سيحاول إغواء عباد الله ، مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ... (الأعراف : ١٧) .

وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن للشيطان طيفاً وسوسة وفتنة ودعوة ، وحذر المؤمنين من الاستجابة لهذه الدعوة .

قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (فاطر : ٦) .

وقال سبحانه : لَا يَفْسِدُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقال عز وجل : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقد ورد أن الشيطان قال لله : إن أيوب يعبدك لأنه سليم البدن ، عنده المال والذرية ، والزوجة والبيوت والأموال ، ولو فقد شيئاً من ذلك ما عبدك ، وفقد أيوب صحته فشكر الله وصبر ، وفقد أولاده فسجد لله وشكر وصبر ، وفقد المال والمنزل ، وساءت العلاقة مع الزوجة ، فصبر صبراً جميلاً ، ولجأ إلى الله راغباً فى رحمته وعفوه ، وفى أن يصرف عنه وسوسة الشيطان وكيده ، وإن كان الشيطان لا ينال من عقيدة الأنبياء ، ولا من عباد الله الصالحين بأكثر من الوسوسة والتزيين .

قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ - ١٠٠) .

٤٢ - أَرْكَضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ .

أى : حرك الأرض برجلك ، واضربها بها ، يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه فيبرأ الظاهر ، وتشرب منه فيبرأ الباطن .

من تفسير المراغى

جاء فى تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ما يأتى :

وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية ، كالإكزيما والحكة ونحوهما ، مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء ، لكنه ليس بقتال ، وقد شفى باطنه وظاهره بماء العيون ، كما نرى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوروبا ومصر وغيرها ، واستعملت فيها مشاتى ومصحات للأمراض الجلدية ، والأمراض الباطنية ، كمياه فيشى وسويسرا وحلوان . ا هـ .

تعقيب

والأستاذ أحمد مصطفى المراغى يحاول أن يقرب لنا أسباب الشفاء ، بأنه قريب من استخدام مياه متخصصة فى علاج الأمراض ، وإذا تأملنا أسلوب القرآن اتضح لنا أن الشفاء كان بفضل الله ، وهو معجزة لشفاء نبي مرسل .

وقد كان هناك اتجاه فى تفسير الشيخ محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، ومن تأثر بهما ، يحاول تقريب المعجزات إلى الأفهام ، فأفاد الشيخ محمد عبده أن عيسى عليه السلام كان روحاً أو روحانية غالبية ، والرياح تؤثر فى الأشجار فتخلعها ، وكان من تأثير روحانية المسيح أنه كان يلمس الطين المصنوع كهينة الطير فتدب فيه الحياة ، وتكلم عن السحر بأنه وهم وخيال لا حقيقة .

وهناك من العلماء من يرى غير ذلك ، وحجته أن المعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد المبعوث بالرسالة ، تصديقاً له فى دعوته ، مثل : سفينة نوح ، وناقية صالح ، وشفاء أيوب ، وعصا موسى ويده ، وشفاء المسيح للأعمى والأبرص ، وإعجاز القرآن الكريم ، وكلها أمور خارقة للعادة ، لا طاقة للبشر بفعل شئ منها ، ولا نرى من الحكمة تقريب المعجزة من أعمال الناس^(٧٦) ؛ لأن أعمال الناس تعتمد على أسباب علمية أو طبية ، أو غير ذلك ، أما المعجزة فتعتمد على قدرة الله ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٨٤) .

٤٣ - وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ .

أى : شرب أيوب من ماء العين واغتسل ، فعاد سليم الظاهر والباطن ، ولم نكتف بهذا بل وهبنا له أهله ، فجمعناهم معه بعد أن كانوا متفرقين ، أو شفيانهم بعد أن كانوا مرضى .

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ .

بأن رزقناه بعد الشفاء أولاداً كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفاؤه من مرضه ، فصار عددهم مضاعفاً .

رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَنْبِيَاءِ .

أى : يسرنا له المنن والعطاء ، والشفاء لأولاده واجتماعهم ، وزواجهم وتناسلهم ، بحيث تضاعف عددهم ، وكثرت لديه البركات والخيرات ، لطفاً وفضلاً ، ومنة ونعمة ، وليعلم العقلاء والفضلاء أن الصبر والشكر يعقبه مضاعفة الثواب ، والفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر .

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم فى خليقته أمر

وفى القرآن الكريم : فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب . (الشرح : ٥ - ٨) .

٤٤ - وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

كان أيوب فى مرضه قد كلف زوجته بأمر ، فأبطأت عليه ، فأقسم بالله لئن شفاه الله ليضربنها مائة ضربة ، ثم تم الشفاء ، ورغب فى أن يبرق بفسمه ، وفى نفس الوقت كانت زوجته وفيه له فى محنته ، تعطف عليه ، وتتألم لألمه ، وتغمره بعطفها وحنانها وخدمتها ، بعد أن تفرق عنه الأهل والأصحاب ، فأمره الله أن يأخذ حزمة من حشيش أو ريحان ، يختلط فيها الرطب باليابس فيها مائة عود ، فيضرب زوجته ضربة واحدة ، فيبرق فى يمينه ولا يحنت ، وفى نفس الوقت ييسر على زوجته الصابرة الوفية .

قال تعالى : وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرُبْ بِهِ وَلَا تَحْتِثْ ...

حيث أمره الله أن يتحلل من قسميه بأهون شئ عليه وعليها ، والضغث فى اللغة : القبضة من الحشيش ، اختلط فيها الرطب باليابس ، وقيل : هى قبضة من عيدان مختلفة ، يجمعها أصل واحد .

إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

يأتى هذا الثناء من العلى القدير ، تقديراً لصبر أيوب وثباته ، ورجوعه إلى ربه ، ولا يقال إنه اشتكى ، لأن الشكوى لله تعالى تضرع ودعاء ومناجاة ، فقد قال يعقوب : إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ ... (يوسف : ٨٦).

ومن دعاء النبي ﷺ بعد أن آذاه أهل الطائف : «اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحلّ على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» .

وتضرع يونس فى بطن الحوت ، وظلام البحر ، وظلام النفس : فَتَدَاوَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

لقد تعرض الأنبياء والمرسلون لكثير من الآلام فى الدنيا ، فكانوا يرفعون أكتفهم إلى الله ، يشتكون البلاء ويسألون الله العافية ، لقد وضع فى النار إبراهيم ، وأضجع للذبح إسماعيل ، واشتد البلاء بأيوب ، وبكى يعقوب : وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ . (يوسف : ٨٤) .

وخرج موسى من مصر خائفاً يترقب قال : ربى نجنى من القوم الظالمين ، واشتد الجوع والمعاناة بموسى ، فقال : رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فِجَاءَهُ إِحْدِلُهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . (القصص : ٢٤ : ٢٥) .

وتعرض المسيح لمحاولة قتله وصلبه ، قال تعالى : وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ... (النساء : ١٥٧) .

وكانت حياة النبي محمد ﷺ فى مكة والمدينة ملحمة طويلة من العمل والأمل والأحزان ، والدعاء الذى حفلت به كتب السنة ، فقد اشتكى إلى الله حين قُتل سبعون من القراء عند بئر معونة ، وألحف إلى ربه فى الدعاء عند الهجرة ، وعند غزوة بدر ، وفى غزوة الأحزاب جثا ﷺ على ركبتيه فى ليلة باردة شتائية ، وقال : «اللهم رب الأرياب ومسبب الأسباب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين ، يا جبار المستجيرين ، يا أمان الخائفين ، يا ملاذ المضطرين ، انصرنا عليهم يا رب العالمين ، فأرسل الله ريحاً عاتية ، خلعت خيام الكافرين ، وكفأت قدورهم ، وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، ففرّوا مذعورين .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَازْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . (الأحزاب : ٩) .

فالجوء إلى الله والشكوى إليه ، والتضرع والدعاء ، عبادة وتذلل وإنابة .

وفى الحديث يقول النبى ﷺ : «عجبت لمن ابتلى بثلاث كيف يغفل عن ثلاث : من ابتلى بالمرض كيف يغفل عن دعاء أيوب لربه : أَلَيْ مَسْنَى الصُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . (الأنبياء : ٨٣) .

ومن ابتلى بالغم كيف يغفل عن دعاء يونس : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) ..

فإن الله تعالى يقول : فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّى الْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٨) .

ومن ابتلى بالأعداء كيف يغفل عن قول المؤمنين : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

فإن الله يقول : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضِّلْ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ . (آل عمران : ١٧٤) .

والخلاصة :

إن شكوى أيوب إلى ربه ، دعاء وتضرع وإنابة ، وقد استجاب الله دعاءه ، وفرج كربه ، وأنعم عليه بالشفاء ، ويسر له التواصل مع زوجته الصابرة ، ثم أثنى عليه ثناء خالداً أبداً الأبدى ، فقال : إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ .

لقد وجدناه صابراً محتسباً ، نعم العبد المطيع لربه ، إنه أَوَّابٌ كثير الأوبة والرجوع والذكر والتسبيح لله رب العالمين .

من دعاء أيوب

روى أن أيوب كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت ، وأنت أعطيت ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم أكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسياً ومعى جائع أو عريان .

ذكر مجموعة من المرسلين

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِن لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَثَابٍ ﴿٤٩﴾﴾

المفردات :

أولى الأيدي : أصحاب القوى فى طاعة الله .

الأبصار : واحدها بصر ، ويراد به هنا : البصيرة والفقه فى الدين ومعرفة أسرارهِ .

أخلصناهم : جعلناهم خالصين لنا .

بخالصة : بخصلة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكر الدار الآخرة والعمل لها .

المصطفين : جمع مصطفى ، وهو المختار من بنى جنسه .

الأخيار : واحدهم خير ، وهو المطبوع على فعل الخير .

تمهيد :

بعد أن عرض سبحانه وتعالى قصص داود وسليمان وأيوب بشيء من التفصيل ، أتبع ذلك بالحديث عن عدد من الأنبياء على سبيل الإجمال ، فذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل ، وكلهم من الأخيار ، الذين عمروا دنياهم بالأعمال الصالحة ، فاصطفاهم الله وذكر مآثرهم .

التفسير :

٤٥ - وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ .

على طريقة القرآن الكريم فى أن يبسط القول حينئذ ، ويجمله حينئذ آخر ، فقد أجمل الحديث هنا عن عدد من الرسل الكرام ، لهم مواقف خالدة فى الصبر والجد والعمل ونفاذ البصيرة .

ومعنى الآية :

واذكر لقومك أيها الرسول ، أو تذكر أنت المواقف الكريمة لعبادنا :

(أ) إبراهيم الخليل ، الذى حطم الأصنام ، وألقى فى النار ، وأضجع ابنه للذبح امتثالاً لأمر الله ، وبنى الكعبة ، وأخلص فى الدعاء أن يبعث الله فى الأمة العربية رسولاً يتلو عليها الآيات ، ويعلمها الكتاب والحكمة .

(ب) إسحاق بن إبراهيم ، فقد صبر على طمع قومه وجشعهم ، فكان يحفر الآبار ليسقى دوابه ، ويروى زرعه ، فيأتى هؤلاء العصاة أكلة السحت والحرام ، فيأخذونها منه فيتركها لهم ، ويحفر غيرها وهكذا ، ثم ما عاناه من تقدم السن ، ووهن العظم ، وفقد البصر .

(ج) يعقوب حفيد إبراهيم ، قال تعالى : قَبَسْنَا لَهَا مِنْ فَخْرِهَا وَمَنِيبَةً إِلَى نَسَبِهَا فَأَنسَى . (هود : ٧١) . أى : يشرناها بالابن وابن الابن ، ونُسب يعقوب إلى إبراهيم لأنه تربى فى بيت إبراهيم ، وهو حفيده ، ويعقوب هو الملقب بإسرائيل وقد رزق اثنى عشر ولداً ، أحدهم يوسف صاحب الرؤيا المشهورة ، وفيها : إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . (يوسف : ٤) .

وسارت قصة يوسف بعد ذلك فوضع فى السجن ، وصار على خزائن الدولة ، واحتاج إخوته إلى الميرة والطعام ، فجاؤه لطلب الميرة ، ثم جاءوا ومعهم بنيامين ، ثم جاءوا المرة الثالثة عند الجهد والحاجة ، وعرفوا يوسف ، وأرسل معهم قميصه وعادوا بأبيهم وخالاتهم ، وخروا ساجدين ليوسف ، فقال يوسف : هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ... (يوسف : ١٠٠) .

أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَرِ .

أى : هم أصحاب القوة فى الدين ، والبصيرة النافذة فى الدعوة إليه ، وهؤلاء هم الصفوة الذين أدركوا سر وجودهم ، فشغلوا أنفسهم بالعمل للدين ، والتفكر والتبصر فى هداية الخلق إلى طريق الحق .

٤٦ - إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ .

إننا جعلناهم خالصين لطاعتنا ، عاملين بأوامرنا ونواهينا ، لاتصافهم بخصلة جليلة الشأن ، لا يساويها غيرها من الخصال ، وهى : تذكرهم الدار الآخرة فى كل أعمالهم فهى مطمح أبصارهم ، وغاية آمالهم وأهدافهم ، فى كل ما يأتون وما يذرون ، ليفوزوا ببقاء ربهم ، وينالوا رضاه فى جنات النعيم .

٤٧ - وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُضْطَّيِّئِينَ الْأَخْيَارِ .

لقد اصطفياناهم واخترناهم على علم بهم ، وهم أخيار أطهار ، عمل الخير جبلة وطبيعة فيهم .

قال تعالى : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ آتَاهُ اللَّهُ سَمِيحًا بَصِيرًا . (الحج : ٧٥) .

٤٨ - وَادَّكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ .

وانكر لقومك أو لنفسك هؤلاء الأخيار الذين صبروا وصابروا ، وكانوا مثلاً يحتذى فى الصبر والمروءة ، والتضحية والفداء .

وقد ذكر في هذه الآية ثلاثة من الأخيار الذين يعملون الخير والبر والطاعة والمعروف ، وهم :

١ - إسماعيل عليه السلام ، فقد كان مثلاً للطاعة لأبيه ، والصبر على البلاء ، ومعاونة أبيه على تنفيذ أمر الله .

قال تعالى : فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَسَّىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَكْتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . (الصافات : ١٠٢) .

وقال ﷺ : «أنا ابن الذبيحين» (٣٧) .

الذبيح الأول : إسماعيل ، فقد أمر الله إبراهيم بذبح إسماعيل ، ثم وفى إبراهيم واستعد للذبح ، ففداه الله بذبح عظيم .

والذبيح الثانى : عبد الله والد النبى ﷺ ، فقد نذر عبدالمطلب إذا رزقه الله عشرة من البنين ليذبحن أحدهم قرباناً ، ورزق فعلاً ذلك ، وجاءت الهواتف تطلب من عبد المطلب الوفاء بالنذر ، وخرجت القرعة على عبد الله والد النبى ، ثم اقترحت عرافة باليمن أن يقدموا فدية عن عبد الله هى مائة من الإبل ، وهى مقدار دية القتل ، فقدموا هذه الفدية ، ونجا عبد الله ليكون أكرم والبر لأكرم مولود .

٢ - اليسع عليه السلام ، وقد استخلفه إلياس على بنى إسرائيل فصبر على جهلهم وسفاهتهم وظلمهم وكفرهم ، ثم اصطفاه الله رسولاً .

٣ - ذو الكفل عليه السلام ، وهو نبى مرسل عند الجمهور ، وكان من شأنه أنه جابه الظلم ، وتصدى لقوم طاردوا عدداً كبيراً من أنبياء بنى إسرائيل ، وتعقبوهم ليقتلوهم ، فكفلهم ذو الكفل ، وآواهم غير مبالٍ بعسف الظالمين وكيدهم .

٤٩ - هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَآبٍ .

هذه الآيات التى ذكرنا فيها هؤلاء الرسل الكرام ذكر وشرف ، وتخليد لذكرى هؤلاء الرسل أو المجاهدين فى الدنيا .

قال ابن عباس : هذا ذكر من مضى من الأنبياء .

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَآبٍ .

وإن الله أعطى المتقين الذكر الحسن فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة حسن المآب والمرجع فى الجنة إن

شاء الله .

نعيم أهل الجنة

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِينٍ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطُّرْفِ أُنْرَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَمْ يَمُنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

المضردات :

جنات عدن : جنات استقرار وثبات ، من قولهم : عدن بالمكان ، أى : أقام به .

متكئين : مُسْنِدِينَ ظهورهم أو جنوبهم إلى شىء ، معتمدين عليه فى حال قعودهم .

قاصرات الطرف : حابسات عيونهن على أزواجهن .

أنـراب : لدات على سن واحدة .

نـفاد : انقطاع .

تمهيد :

فى هذه الآيات بيان لنعيم المتقين فى الجنة ، ثم يأتى بعد ذلك بيان لعذاب الكافرين ، ومن شأن القرآن أن يقارن بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، ليزداد الإنسان رغبة فى الجنة ، ورهبة من النار ، وللتنوع والتصريف فى آيات القرآن الكريم ، فمن الناس من يستميله الوعد بالنعيم ، ومنهم من يرهبه الخوف من عذاب الجحيم .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

التفسير :

٥٠ - جَنَّتٍ عَدْنٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْبُوبُ .

أى : لهم جنات إقامة وخلود دائم بلا موت ، قد فتحت أبوابها قبل قدومهم إليها ، زيادة فى تكرمهم وحسن استقبالهم .

الحرف فى القرآن

الحرف الواحد فى القرآن الكريم يشير إلى معنى ، ويستتبع معنى ، ومثال ذلك ما ورد فى آخر سورة

الزمر ، حين تحدث القرآن فى الآيتين (٧١ ، ٧٢) من سورة الزمر عن أهل النار قال : وَسَيَقَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ

جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبَحَّتْ أَبْوَابُهَا ...

أى أن الأبواب لا تفتح إلا عند قدومهم ، إذلاً لهم بالوقوف ولو قليلاً على الباب ، كالمساجين تفتح أبواب السجن إثر قدومهم .

وقال تعالى فى وصف أصحاب الجنة فى الآيات (٧٣ - ٧٥) من سورة الزمر: وَسَيَقُولُ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...

فالوا هنا تفيد أنهم يدخلون الجنة والحال أن أبوابها قد فتحت قبل قدومهم تكريماً لهم ، كما يستقبل الضيف العزيز بتفتيح الأبواب فى قصر الضيافة قبل قدومه .

لهذا قال الله تعالى هنا :

جَنَّاتٍ عَذْنٍ مُّفْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ .

فتحت أبواب الجنة تكريماً لأصحابها حتى يدخلوها على أحسن حال وأجمل هيئة .

٥١ - مَتَكِينٍ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَلَكَهٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ .

يجلسون جلسة المستريح المُنعم المكرم ، معتمدين فيها على أرائك أو وسائد من ديباج ، فى هيئة المطمئن الآمن الفرح المسرور ، وهم فى هذه الحالة من الحبور والسرور والرضا ، يطلبون من ربهم أن يمدهم من ألوان الفاكهة ، وأصناف الشراب ، فيستجيب الله لهم ، ويعطيهم جميع ما يطلبون .

قال تعالى : لَهُمْ فِيهَا فَلَكَهٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ . (يس : ٥٧) .

٥٢ - وَعِنْدَهُمْ قَلْصِرَاتُ الْطَّرَفِ أَتْرَابٌ .

وعند أهل الجنة زوجات ، قصرن أبصارهن على أزواجهن ، فلا ينظرن إلى سواهم ، أو قصرن أبصار أزواجهن عليهن لجمالهن الفائق ، وهؤلاء الزوجات أَتْرَابٌ . أى : لدات متشابهات ، متساويات فى السن ، فى حسن يوسف ، وكلهن شابات ، أبناء ٣٣ ، ليس بينهن عجوز ، وذلك يستدعى محبة بعضهن لبعض ، وفى ذلك راحة لأزواجهن ، فإن تباغض الضرائر بسبب الفوارق فى الحسن بينهن يُنغص عيش الأزواج ، فلذا تشابهن فى الحسن والطباع ، حتى تصفو الحياة فى الجنة ، وقيل : إن التساوى بينهن وبين أزواجهن ، وذلك أشمل وأكمل ، وأبعث على قصر الزوجات أبصارهن على أزواجهن .

قال تعالى : وَعِنْدَهُمْ قَلْصِرَاتُ الْطَّرَفِ عَيْنٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ . (الصفات : ٤٨ ، ٤٩) .

ومعنى : عَيْنٌ . واسعات العيون حسانها ، كأنهن بيض النعام ، تكنه النعامة بريشها من الريح والغبار .

قال ابن عباس :

والآية في الزوجات آدميات . ا هـ .

أى : إن الله يعيد إلى الزوجات والأزواج الشباب والجمال والمساواة فى السن ، فهم جميعاً أبناء ٣٣ .

٥٣ - هَلْذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ .

أى : هذا هو الجزاء الذى وعدتم به أيها المتقون جزاء إيمانكم وعملكم الصالح ، من أجل يوم الحساب والجزاء ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

٥٤ - إِنْ هَلْذَا لَرِزْقًا مِمَّا لَهُ مِنْ نَفَادٍ .

إن هذا الرزق والنعيم والجزاء الحسن فى الجنة ، هذا النعيم دائم لا ينقطع ، موفور لا ينقص ، وفى معنى هذه الآية :

قال تعالى : إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ . (التين : ٦) . أى : غير منقوص .

وقال سبحانه : مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ... (النحل : ٩٦) .

وقال تعالى : عَطَاءٌ غَيْرٌ مَعْدُودٍ . (هود : ١٠٨) . أى : غير مقطوع .

وقال تعالى : أَكُلْهَا ذَاتِمْ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ . (الرعد : ٣٥) .

ونلاحظ أن القرآن الكريم عندما تحدث عن النار قال : أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ... (الكهف : ٢٩) .

أى أن سور النار مغلق على أهلها ، وقال عن الجنة : مُفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ . (ص : ٥٠) .

عذاب أهل النار

﴿هَذَا وَابْتَكَ لِلطَّغْيِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ إِلَيْهَا ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْجَاءَ بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ أَهْلٌ أَنْ تَقُولُوا قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَنْسِفُ اللَّهُ الْقَرَارَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا يُضَعِّفُنَا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَمْ تَخَذَ اللَّهُ مِنْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

المضردات :

الطغايين : المجاوزين الحد ، والمراد بهم : الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله .

شرماب : قبح مرجع .

يصلونها : يدخلونها ويقاسون حرها .

المهاد : الفراش ، وزنا ومعنى .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

العساق : عصاة أهل النار ، وعن ابن عباس : الزمهرير ، يغسق من صديد أهل النار ، يقال : غسقت

العين ، أى : سال دمعها .

وآخر : وعذاب آخر .

من شكله : من مثل المذاق فى الشدة والفظاعة .

أزواج : أجناس .

فوج : جمع كثير من أتباعكم فى الضلال .

مقتحم معكم : داخل معكم ، والاحتحام : ركوب الشدة ، والدخول فيها .

لا مرحبا بهم : لا رحبت عليهم الأرض ولا اتسعت .

صالوا النار : داخلون فيها .

فنبس القرار : نبس المقر جهنم .

الأشهرار، الأراذل الذين لا خير فيهم، يريدون بذلك المؤمنين.

سخرياء، مسخوراً ومستهزأ بهم.

زاغت عنهم، مالت عنهم.

تخاصم، تنازع.

تمهيد:

يصف القرآن جهنم، كأن العين تنظر إليها، فأهلها يشربون الحميم الحار، والغساق عصارة أهل النار، أو البارد الزمهرير، وهناك أصناف أخرى من العذاب تحت بنود متعددة، ونجد حواراً بين القادة والزعماء من أهل جهنم وأتباعهم، فالقادة لا يرحبون بأتباعهم، لأنهم من أهل جهنم، ولن يستفيدوا منهم شيئاً، والأتباع يقولون لهم: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ. أنتم السبب في شقوتنا وضلالنا، ودخولنا جهنم فيئس المستقر والقرار جهنم، وتضرع الأتباع إلى الله أن يزيد الرؤساء ضعفاً من النار، جزاء إضلالهم للآخرين، ويبحث أهل النار عن الفقراء الضعفاء من المؤمنين، أمثال: بلال، وصهيب، وعمار بن ياسر، وأبيه وأمه، هؤلاء الذين سخروا منهم ومن فقرهم، ولم ينظروا إليهم في الدنيا نظرة احترام، بل تجاوزوا النظر إليهم، وزاغت الأبصار عنهم إهمالاً لشأنهم، والنتيجة أن هؤلاء الفقراء ينعمون بألوان النعيم في الجنة.

التفسير:

٥٥ - هَٰذَا وَإِنْ لِلطَّٰغِيْنَ كُشْرٌ مَّآبٍ .

تقدم الحديث عن أهل الجنة، وما يلقون من ألوان النعيم، وهنا يتحدث عن عقوبة الظالمين، فمهد لذلك بقوله سبحانه: هَٰذَا، أي الأمر هذا، فهو خبر لمبتدأ محذوف.

قال ابن الأنباري: هَٰذَا. وقف حسن، ثم تبتدئ: وَإِنْ لِلطَّٰغِيْنَ كُشْرٌ مَّآبٍ .

ومعنى الآية:

الأمر هذا الذي ذكر في جزاء المتقين، وإن للطغاة الذين كذبوا الرسل لشرك مرجع يثوبون إليه.

٥٦ - جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيُسَّ أَلْبِهَآءُ .

أي: هم يدخلون جهنم فيصَلُّونَ حرَّها، ويقاسون لهيبها، فيئس الفراش فراش النار، ونظير الآية قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ... (الأعراف: ٤١).

٥٧ - هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ .

أى : العذاب هذا فليذوقوه ويتجرعوا مرارته ، صنف منه ماء حار يشوى الوجوه ، يسمى الحميم .

قال تعالى : وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ . (محمد : ١٥) .

وصنف منه ماء بارد لا يستطيع شربه لبرودته ، يسمى الغساق أو الزمهير ، كما فسره ابن عباس .

وقال آخرون : الغساق صديد أهل النار يسيل من أجسادهم .

وقيل : الغساق عذاب لا يعلمه إلا الله .

قال الحسن رضى الله عنه :

إن الناس أخفوا لله طاعة فأخفى لهم ثواباً فى قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

وأخفوا معصية فأخفى لهم عقوبة ، فالغساق عذاب لا يعلمه إلا الله تعالى .

٥٨ - وَآخِرُ مِنْ سُكُلِهِ أَزْوَاجٌ .

ولهم عذاب آخر من شكل هذا العذاب ، فى الشدة والفضاعة ، أصناف وأجناس ، كالزقوم والسموم .

٥٩ - هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ .

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية :

إن القادة إذا دخلوا النار ، ثم دخل بعدهم الأنباغ ، تقول الخزنة للقادة : هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحباً بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم .

قال النابغة :

لا مرحباً بخيل ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة فى غد

ونلاحظ دقة التعبير فى الآية ، فالفوج جمع غفير ، ومقتحم معكم ، داخل النار كرها وعلى غير اختيار ، وإنما يساق سوقاً إلى جهنم فى ذلة ومهانة .

والرحب : السعة ، تقول مرحباً ، أى : أتيت سعة وأهلاً ، فاستأنس ولا تستوحش ، بخلاف لا مرحباً ، فإنها على العكس ، وهى تشير إلى أنهم لا يريدون لقاءهم ، فصدورهم لا تتسع لهم ، لأنهم صالوا النار

مثلهم ، فلا منفعة فى لقائهم تقتضى الترحيب بهم ، وهنا يتضح أمامنا أَنَّ أهل النار قد تقطعت الصلّات بينهم ، وفقدوا المودة والتناصر والتعاون الذى كان يربط بينهم فى الدنيا ، لأن الغشاوة قد أزيحت عن العيون ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ريك أحداً .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ... (الأنعام : ٩٤) .

ويقول تعالى : الْأَحْيَاءُ يُؤْمِلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ . (الزخرف : ٦٧) .

٦٠ - قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُسَّ الْقَرَارُ .

ردُّ الأتباع على الرؤساء قائلين : بل أنتم الذين لا مرحبا بكم ، وإنما الضيق والهلاك لكم ، وهل أصابنا ما أصابنا إلا بسببكم ، فأنتم دعوتونا فى الدنيا إلى الكفر فاتبعناكم ، وصرنا جميعاً فى جهنم ، فبئس المستقر والنزل والقرار لنا ولكم جهنم ، وهذا التلاعن بين أهل النار ، كل واحد منهم يلقى التبعة على الآخر ، ويحاول أن يتنصل من المسئولية ، يصوره قوله تعالى : كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرُكُورُ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِبْنَهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَبْنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٣٨ ، ٣٩) .

والقرآن بهذا يفتح العيون والأبصار ، وينبه الطغاة والكفار ، من هول يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يسند الإنسان فيه كبير أو أمير ، إنما ينفع الإنسان فى هذا اليوم القلب السليم ، والعمل المستقيم .

قال تعالى : يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنَ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨ ، ٨٩) .

٦١ - قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ .

عندما شاهد الأتباع جهنم وعذابها ، وما فيها من أغلال وعذاب ، تضرعوا إلى الله تعالى أن يزيد العذاب فى النار للقادة والكبار ، الذين كانوا سبباً فى إضلالهم وكفرهم فى الدنيا ، ودخولهم النار فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم على لسانهم : رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا . (الأحزاب : ٦٧ ، ٦٨) .

٦٢ - وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ .

وقال الطاغون والكافرون لبعضهم لبعض : ما لنا لا نرى رجالاً من الفقراء والأراذل والضعفاء ، كُنَّا نَعُدُّهُمْ من الذين لا خير فيهم ولا منفعة لهم ، يعنون فقراء المؤمنين ، الذين احْتَقَرُوهم وأزْدَرَوْهم ، ثم تفقدوهم في النار فلم يجدوهم ، فقالوا :

٦٣ - أَتَتَّخِذُنَا سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصَرُ .

أمن أجل أننا سخرنا منهم في الدنيا ، واحتقرناهم بالازدراء والتعالى عليهم ، وغض الطرف عن النظر إليهم ، ولم يكونوا أهلاً لذلك بل كانوا خيراً منا ، فدخلوا الجنة وتنعموا بنعيمها ، أم هم في النار معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟

٦٤ - إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ .

إن الذي قصصناه عليك أيها الرسول الكريم ، من تخاصم الأتباع والمتبوعين ، وندم كبار الكفار حين يرون أنفسهم في جهنم ، يتعرضون لأشد ألوان العذاب ، بينما فقراء المسلمين وضعفاؤهم في جنات النعيم وظهور الأسى والندم ، ولات ساعة مندم ، هو حق تخاصم أهل النار وتنازعهم .

روى القرطبي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى :

مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ .

يريدون أصحاب محمد ﷺ ، يقول أبو جهل : أين بلال ، أين صهيب ، أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ، واعجباً لأبي جهل ، مسكين ، أسلم ابنه عكرمة ، وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه ، وكفر هو ، قال القائل :

ونوراً أضاء الأرض شرقاً ومغرباً
وموضع رجلى منه أسودٌ مظلمٌ

النبا العظيم

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مَنَ إِلَهِي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٦٥) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى
إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) ﴿

المضردات :

القهار : الغالب .

نبا عظيم : خبر عظيم ، وهو نزول وحى السماء على أمة ، لإحيائها وبعثها بعثًا جديدًا بفكر جديد .

الملا الأعلى : جماعة الملائكة اختصموا مع إبليس فى شأن آدم .

تمهيد :

تأتى هذه الفقرة تأكيدًا لما مرَّ فى أوَّل السورة من تنبيه للقرآن : صَ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . حيث تنبيه على عظمة القرآن ، وأهمية الوحي فى التعليم ، والتوجيه والإرشاد ، والإسعاد والرقى .

قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ .

وهو يتحدث عن الملائكة وآدم وإبليس ، وهى أمور غيبية ، ما كان للنبي الأُمى علم بها ، إلا عن طريق الوحي .

وتمهد الآيات لقصة آدم وإبليس ، ولمحاورة ومناقشة بين الحق سبحانه وتعالى وإبليس ، تصوّر الحكمة فى خلق الخير والشّر فى هذه الحياة ، وتنبيه البشر إلى رغبة الشيطان فى إضلالهم ، وأنه لا ملجأ للإنسان فى هذه الدنيا إلا الاعتصام بفضل الله ، والتمسك بكتابه وهديه ، والالتجاء إلى عنايته وفضله ورعايته وتوفيقه .

التفسير :

٦٥ ، ٦٦ - قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مَنَ إِلَهِي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

قل يا أيها الرسول لأهل مكة إنما أنا منذر من الله تعالى ، أخوفكم عذابه ومخالفته ، وأمركم بطاعته واحترام وحيه وكتابه ، ولست ساحرًا ولا كاهنًا ولا كاذبًا كما تدعون ، إنما أنا رسول من عند الله ، أحمل لكم وحى السماء ، ولا أملك الهداية ، ولا أستطيع أن أجبركم عليها .

قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢١، ٢٢).

وقال تعالى: إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ... (الشورى: ٤٨).

أما الأصنام التي تعبدونها فليست بآلهة، لأنها لم تَخْلُق ولم تَرْزُقْ، ولا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضررا، فضلا عن أن تنفع غيرها.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

ليس هناك من إله سوى الله تعالى، الواحد الأحد الفرد الصمد، الْقَهَّارُ . الذى قهر كل شئ وغلبه بعزته وجبروته، فهو خالق الكون، وهو رافع السماء، وباسط الأرض، وهو العزيز الغالب، الغفار لمن تاب ورجع إليه .

رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

قاله تعالى قد وصف نفسه فى الآيتين بخمس صفات :

١ - أنه الإله الواحد لا شريك له .

٢ - القهار الذى قهر كل شئ بقدرته .

٣ - رب السماوات والأرض وما بينهما، حيث رفع السماء ويسط الأرض، وسخر الهواء والغضاء، والرياح والسحاب والأمطار، والنبات والليل والنهار .

قال تعالى: لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . (طه: ٦).

٤ - العزيز الغالب الذى لا يغلب .

٥ - الغفار الذى يفتح بابه للتائبين، ويغفر للمذنبين .

قال تعالى: وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى . (طه: ٨٢).

٦٧ - قُلْ هُوَ نَبُؤٌ عَظِيمٌ .

إن خبر الوحى وإرشاد السماء، واختيار رسول ليكون واسطة بين الله وبين خلقه نبأ عظيم، وأمر خطير، أن تكلّم السماء الأرض، وأن يتفضل الله على عباده بأن يرسل محمداً ﷺ مبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، إن هذا الوحى فى حد ذاته شرفاً للإنسانية كلها، حيث اختار الله من بينها يتيماً فقيراً أمياً، وأنزل عليه الوحى من السماء لهداية الناس وإرشادهم .

٦٨ - أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ .

لكن أهل مكة أخذهم الغرور والكبر ، ومنعهم حب الذات والعظمة الكاذبة من أن يتبعوا هذا الرسول ، رغم عظم الأمانة ، وفضل ما يحمله .

قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وليت أمتنا تعيد النظر فى أمر هذا الكتاب وهدية وتشريعاته وآدابه وصفاته ، لتتجه نحوه قراءة وحفظاً ، وتدبراً وشرحاً ، وعملاً به واقتداء ، وتتمثله سلوكاً وخلقاً ، إذا لعاد إليها المجد والخير والبركة والسعادة الحقيقية .

٦٩ - مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى : ولولا الوحي ما كنت أدرى باختلاف الملاء الأعلى ، يعنى فى شأن آدم عليه السلام ، وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

قال القرطبي :

الملاء الأعلى هم الملائكة فى قول ابن عباس والسدى ، وقد اختصموا فى أمر آدم حين خلق ، فقالوا : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... (البقرة : ٣٠) .

وقال إبليس : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . (ص : ٧٦) .

وفى هذا بيان أن محمداً ﷺ أخبر عن قصة آدم وغيره ، وذلك لا يتصور إلا بتأييد إلهى . اهـ .

وقال ابن كثير :

مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى : لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملاء الأعلى فى شأن آدم ، وامتناع إبليس عن السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه . اهـ .

٧٠ - إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : ما ينزل الوحي على من السماء ، إلا بسبب أنى رسول من عند الله أبلغكم دعوته ، وأحذركم عقابه وأقدم لكم هذا التحذير واضحاً جليلاً مبيناً ، وخص الإنذار بالذكر مع أنه ﷺ مبشر ونذير ، لأنهم لما خالفوا

رسالته ودعوته ولم يستجيبوا له ، كانوا أهلاً لأن يكون لهم نذيراً مبيناً ، محذراً لهم من مخالفة الوحي ، مبيناً وموضحاً لهم عاقبة الإعراض عن هدى السماء .

★ ★ ★

قصص آدم عليه السلام

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرٌ مِّن طِينٍ ۖ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۖ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۖ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۖ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ أَتَمُكُنْتِ مِنَ الْعَالِينَ ۖ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِن طِينٍ ۖ (٧٦) قَالَ فَأَخْرِجْهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ وَجَهِمُ ۖ (٧٧) وَإِن عَلَيكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۖ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۖ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۖ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۖ (٨١) قَالَ فِيعَزْكَ لَا عُودَ لَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۖ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ۖ (٨٤) لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۖ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۖ (٨٧) وَلَنُعَلِّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۖ (٨٨) ﴾

المضردات :

الملائكة : أجسام من نور قادرة على التشكل ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

بشرا من طين : هو آدم عليه السلام .

سويته : أتممته وعدلته وأتممت خلقته .

ونفخت فيه من روحي : ومنحته الحياة ببث الروح فيه ، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذ فيه .

فقعوا له : فخروا له ، أو اسقطوا له .

ساجدين : سجدوا تحية لا سجود عبادة .

كلهم أجمعون : سجدوا جميعاً في وقت واحد .

إبليس : هو أبو الجن ، وعاش مع الملائكة فنسب إليهم .

لما خلقت بيدي : لمن خلقته بنفسي من غير توسط أب ولا أم .

لكنهم لم يكتفوا بذلك، أنكبرت الآن من غير استحقاق، أم كنت ممن علا، واستحق التفوق والترفع عن طاعة الله ؟ وهو استفهام توبيخ .

رجيم : مرجوم مطرود من الرحمة .

لعنتى : طردى .

أنظرنى : أمهلنى .

يبعثون : يبعث الناس .

إلى يوم الوقت المعلوم، يوم النفخة الأولى .

لاغيوئهم : لأضلئهم .

المخلصين : الذين أخلصتهم للعبادة .

تمهيد :

تقدمت قصة آدم عليه السلام فى سور: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وفيها ذكر بدء الخليقة، أى بدء خلق آدم، وتكليف الملائكة بالسجود له، وسجود الملائكة جميعاً فى وقت واحد، وامتناع إبليس عن السجود، ولوم الحق سبحانه لإبليس على امتناعه عن السجود، وادعاء إبليس أنه خير من آدم، فقد خلق من نار ترتفع إلى عنان السماء، وخلق آدم من طين منخفض، وجهل أن الطين أمين ينمى النباتات، ويحتفظ بالأمانات، أما النار فتحرق الأمانة وتخونها، ثم إن السجود امتثال لأمر الله، وطاعة له، وتمرين على التواضع والامتثال للعلی القدير، والابتعاد عن الحقد والحسد والكبر، وقد تكررت القصة لتكرار العظة والعبرة، وتذكير كفار مكة بأنه ما حمل إبليس على ذلك سوى الحسد والكبر، وما حملهم على الكفر بمحمد، والبعد عن اتباعه إلا الحسد والكبر، وتذكير لنا بالحذر من وسوسة الشيطان واتباعه .

التفسير :

٧١ - إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ .

أى : اذكر حين أعلم ربك الملائكة أنه سيخلق إنساناً من طين هو آدم عليه السلام، وقد مر فى سورة البقرة أنه سيكون خليفة فى الأرض، وأن الملائكة تمتت أن تكون الخلافة فى الأرض للملائكة لا لآدم، وقد علم الله آدم الأسماء كلها، أى أودع فى فطرته القدرة على التفكير، واستنباط المجهول من المعلوم، واستخدام العقل والفكر واللب والفؤاد، والابتكار والتطوير، بخلاف الملائكة فهم عباد مكرمون، مجبولون على الطاعة والامتثال لأمر الله تعالى، ونطق آدم بالأسماء فيه دليل على قدرة هذا الإنسان على التعلم والتعليم المستمر، ولهذا وصل الإنسان إلى القمر، بينما القروء لا تزال على الشجر .

٧٢ - فَإِذَا سَوَّيْتَهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ .

فإذا أتممت خلقه وسويته وعدلته ، فخروا له ساجدين ، سجود تحية لا سجود عبادة ، وقد كرم الله الإنسان بهذه الروح فهي نفخة تكريم ، أكرم الله بها هذا الإنسان ، وبذلك صار أهلاً لمناجاة الله ، وعبادته والتبذل إليه ، وذكره وشكره ، وكلما سما بهذه الروح زاد صفاء ونقاءً ، وطهراً وبركة وتوفيقاً ، وفي الحديث القدسي يقول النبي ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدى إلىّ بشيء أحب إلىّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنتُ سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألنى لأعطينه»^(٧٢) . (رواه البخارى) .

٧٣ - فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .

فسجد جميع الملائكة فى وقت واحد لآدم ، خضوعاً لأمر الله ، وتعظيماً لهذا الإنسان ، الذى نفخ الله فيه من روحه .

٧٤ - إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

لكن إبليس لم يسجد لآدم ، وامتنع عن السجود كبراً وحسداً ؛ فصار من الكافرين ، وقد كان إبليس من الجن ، قال تعالى : إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... (الكهف : ٥٠) .

وقد أقام مع الملائكة فنسب إليهم ، ولما صدرت الأوامر للملائكة بالسجود شملت من يقيم معهم ، لكن طبيعته غلبت عليه ، فامتنع عن السجود لآدم ، وادعى أنه خير من آدم ، أى : لو كان مثلى لما سجدت له ، فكيف أسجد له وأنا خير منه ؟ وما علم أنه يسجد امتثالاً لأمر الله ، الذى أراد تكريم آدم بالسجود فوجب ذلك عليه ، والله يصطفى من خلقه ما يشاء ، وهو سبحانه : لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . (الأنبياء : ٢٣) .

ولما عصى إبليس وكفر بذلك «أبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه ، وطرده من باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض»^(٧٣) .

٧٥ - قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

أى : قال له ربّه : ما الذى صرفك وصدّك عن السجود لمن خلقته بذاتى من غير واسطة أب وأم ؟

قال القرطبى : أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم ، وإن كان الله خالق كل شيء ، كما أضاف إلى نفسه الروح ، والبيت ، والناقة ، والمساجد ، فخاطب الناس بما يعرفونه .

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .

أى : أستكبرت الآن على ربك ، أم كنت قديماً من المتكبرين المتعالين ؟ وهو استفهام توبيخ وإنكار له ، لامتناعه عن السجود .

٧٦ - قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ .

أى : قال إبليس : أنا أفضل من آدم ، فقد خلقتنى من نار و خلقت آدم من طين ، فكيف يسجد الفاضل للمفضول ؟ وما علم اللعين أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، فأطاعت والتزمت ، وبهذه الطاعة ظلت فى منزلتها السامية .

٧٧ - قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ .

أى : اخرج من الجنة ، أو من السماء ، أو من الخلقة النورانية المطيعة ، إلى خلقة مظلمة عاصية .
فإِنَّكَ رَجِيمٌ .

أى : مرجوم مطرود من رحمة الله وفضله ، وعنايته وهدايته .

٧٨ - وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وإن عليك لعنتى و غضبى إلى يوم القيامة ، فأخرجه الله من الجنة مذبذباً مدحوراً ، أو أخرجه الله من صورة المتقين ، إلى صورة المردة العصاة المطرودين من رحمة الله .

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ - قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ .

طلب إبليس من الله إمهاله حياً ، إلى يوم تبعث فيه الخلائق للحساب والجزاء ، يريد بذلك الفرار من الموت ، فأخبره الله أنه سيؤخر ويؤجل موته إلى يوم الوقت المعلوم لله وحده ، وهو يوم النفخة الأولى ، التى يصعق فيها جميع الخلائق .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

فشاء الله - لحكمة يعلمها هو - أن يستجيب لإبليس فى تأخير موته إلى يوم النفخ فى الصور ، حيث يموت جميع الخلائق .

٨٢ ، ٨٣ - قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ .

عندما اطمأن إبليس إلى بقاءه حيًّا إلى يوم النفخة الأولى في الصور ، تجرأ على الله ، وأقسم بعزة الله وجبروته ، ليزين المعاصي لآدم وذريته أجمعين ، لكن العباد الذين أخلصهم الله له ، ليس له عليهم سلطان ، وقد ترك إبليس غوايتهم ، لا تفضلاً منه أو زهداً ، ولكن عجزاً عن إغوائهم ، لأن الله يحفظهم ويحصنهم ضد غوايته .

قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْهُ، وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٨٤ ، ٨٥ - قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

قال سبحانه وتعالى الحق والأمر الثابت ، ولا يقول سبحانه سوى الحق ، فهو سبحانه الحق ، ولا ينطق إلا الحق : والله لأملأن جهنم من جنسك ، وممن اتبعك من ذرية آدم أجمعين .

٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ - قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .

قل أيها الرسول لقومك : لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ، وما أنا داعي كذاب أتكلف القول بالرسالة وأدعيه ، بل أنا رسول حق ، وما هذا القرآن إلا ذكر ورسالة وتذكير من الله تعالى للناس أجمعين ، ولتعرفن خبره وأثره وفضله بعد وقت من الزمان ، حين يظهر فضل القرآن ، ويسطع نوره في المشارق والمغارب ، وتفتح البلاد ، وتنضوى تحت علمه بلاد الفرس والروم ، ومصر ومعظم بلاد المعمورة في ذلك الحين ، أو المراد : ستعلمون صدق القرآن عند موتكم ، وعند البعث والحشر والحساب والجزاء .

وكان الحسن البصري يقول : يا ابن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين . ١ هـ .

(اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام يا رب العالمين) .

خلاصة ما تضمنته سورة «ص»

- ١ - صَافَّ المشركين وإعراضهم عن الحق ، مع ضرب الأمثلة لهم بالأمم الماضية التي حادت عن الحق فهلكت .
- ٢ - إنكارهم لرسالة محمد ﷺ وما اشتملت عليه .
- ٣ - قصص داود وسليمان ، وأيوب ، وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وبعض أسماء النبيين الآخرين .
- ٤ - وصف نعيم أهل الجنة .
- ٥ - وصف عذاب أهل النار ، وتلاعن بعضهم بعضا .
- ٦ - قصص آدم عليه السلام .
- ٧ - قصة إبليس - لعنة الله عليه - وامتناعه عن السجود لآدم ، وقسمه ليغويين بنى آدم .
- ٨ - القرآن ذكر للعالمين .



تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (ص) ، صباح يوم الأربعاء ١٢ جمادى الآخرة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ١٩٩٩/٩/٢٢ م بمدينة المقطم ، بالقاهرة .

اللهم لك الحمد ، ولك النعمة ، ولك الشكر ، ولك الثناء الحسن الجميل ، على نعمائك وفضلك ورحمتك وتوفيقك ، اللهم لك الحمد كالذى نقول وخير مما نقول ، سبحانه لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .





تفسير سورة الزمر

أهداف سورة الزمر.

سورة الزمر مكية ، نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٧٥ آية .

نزلت بعد سورة سبأ ، وقد سميت سورة الزمر بذلك الاسم لقوله تعالى فى آخرها : **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... (الزمر: ٧١)** ، وقوله تعالى : **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا ... (الزمر: ٧٣)** .

وللسورة اسمان : سورة الزمر، وسورة الغرف ، لقوله تعالى : **لَنُكَفِّرَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ ... (الزمر: ٢٠)** .

أدلة التوحيد

سورة الزمر تهز القلب هزًّا ، وتسكب فيه مؤثرات الإيمان بالله ، وتستعرض أمامه أدلة القدرة الإلهية ، والجزاء العادل فى الدنيا والآخرة ، وتفتح باب الرجاء الأمل فى رحمة الله ورضوانه ، ومن آياتها الشهيرة قوله تعالى : **قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٣)** .

ومنذ افتتاح السورة إلى نهايتها وهى تؤكد على قضية التوحيد الخالص ، وفى مطلع السورة : **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... (الزمر: ٣)** .

وفى خلال السورة نجد لمسات متوالية للقلوب والأفئدة ، تعرض عليها أدلة القدرة ومشاهد الكون ، وخلق الليل والنهار ، وإنزال المطر وإنبات النبات ، وبدء الخليقة ، ومراحل خلق الجنين ، وطبيعة النفس فى اللجوء إلى الله فى البضراء ، والإعراض عنه فى السراء ، مع أن الموت قائم على رءوس العباد .

ظل الآخرة

مشاهد الآخرة تظلل السورة وتسيطر على ختامها ، حيث نجد الملائكة حافين من حول العرش ، ونرى المؤمنين يساقون إلى الجنة أفواجًا وجماعات فى تكريم إلهى ، وسلام ونعيم فى الخلود ، ونرى الكفار يساقون إلى جهنم زمرًا فى مهانة وإذلال .

«وظل الآخرة فى السورة يتناسق مع جوها ، وأهداف اللمسات التى تأخذ القلب البشرى بها ، فهذه اللمسات أقرب إلى جو خشية والخوف والفزع والارتعاش ، ومن ثم نجد الحالات التى ترسمها للقلب البشرى هى حالات ارتعاش وانتفاضة وخشية ، نجد هذا فى صورة القانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، وفى صورة الذين يخشون ربهم ، حيث تقشعر جلودهم لهذا القرآن ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، كما نجده فى التوجيه إلى التقوى ، والخوف من العذاب والتخفيف منه ، ثم نجده فى مشاهد القيامة ، وما فيها من فزع ومن خشية ، وما فيها كذلك من إنابة وخشوع»^(٧) .

فقرات السورة

١ - التوحيد الخالص :

فى الآيات الأولى من السورة حث على إخلاص العبادة لله ، ثم نهى عن اتخاذ الأنداد والأولياء ، ثم نجد القرآن يلمس القلوب فيبين قدرة الله فى خلق الناس من نفس واحدة ، وتزويجها من جنسها ، وخلق الأنعام أزواجاً كذلك ، وخلقهم فى بطون أمهاتهم فى ظلمات ثلاث ، ومنحهم خصائص جنسهم البشرى أول مرة ، ثم منحهم خصائص البقاء والارتقاء . وقد استغرقت هذه الفقرة الآيات من (١ - ٧) .

٢ - أنواع الإنسان وحالته :

فى الفقرة الثانية نجد أن الآيات من (٨ - ٢٠) قد لمست القلوب لمسة أخرى ، وهى تعرض على الناس صورتهم فى الضراء وصورتهم فى السراء ، وترهم قلوبهم وضعفهم وقلة ثباتهم على نهج إلا حين يتصلون بربهم ويتطلعون إليه ، ويقتنون له ، فيعرفون الطريق ، ويعلمون الحقيقة وينتفعون بما وهبهم الله من خصائص الإنسان .

ثم وجهت الآيات النبى ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة ، وإعلان خوفه من معصية الله ، وإعلان تصميمه على منهجه وطريقه وتركهم هم إلى منهجهم وطريقهم ، وبيان عاقبة هذا الطريق وذلك يوم يكون الحساب .

٣ - مظاهر القدرة :

فى الآيات من (٢١ - ٣٥) لفحة إلى حياة النبات فى الأرض عقب إنزال الماء من السماء ، ثم نهاية النبات فى فترة وجيزة ، وكذلك شأن الدنيا ، ثم تشير الآيات إلى الكتاب المنزل من السماء كذلك لتحيا به القلوب وتنشرح له الصدور ، مع تصوير لعاقبة المستجيبين لذكر الله ، والقاسية قلوبهم من ذكر الله .

ثم تضرب الآيات مثلاً لمن يعبد إلهاً واحداً ، ومن يعبد آلهة متعددة ، وهما لا يستويان مثلاً ، ولا يتفان حالاً ، كما لا يستوى العبد الذى يملكه سادة متنازعون ، والعبد الذى يعمل لسيد واحد لا يتنازعه أحد فيه .

ثم تضع حقيقة واقعة ، وهى تعرض الناس جميعاً للموت والفناء ، الرسول والمرسل إليهم ، وسيتنوع الجزاء يوم القيامة ، فيُجازى الكافرون فى جهنم ، ويُجازى الصادقون المصدقون جزاء المحسنين .

٤ - نقاش متنوع :

فى الآيات من (٣٦ - ٦١) نلمس قدرة القرآن الفائقة على إقامة الحجة وإقناع الإنسان ، وأخذ السبيل على النفس البشرية حتى لا تجد بدا من الإذعان والانقياد ، وقد تناولت هذه الفقرة التوحيد من جوانب متعددة فى لمسات متنوعة ، تبدأ بتصوير حقيقة القلب المؤمن ، وموقفه إزاء قوى الأرض واعتداده بالقوة الوحيدة ، واعتماده عليها دون مبالاة بسواها من القوى الضئيلة الهزيلة ، ومن ثم ينفذ يده من هذه القوى الوهمية ، ويكل أمره وأمر المجادلين له إلى يوم القيامة ، ويمضى فى طريقه ثابتاً واثقاً مستقيماً .

يتلو هذا بيان الرسول ﷺ أنه ليس وكيلاً على العباد فى هداهم وضلالهم ، إنما الله هو المسيطر عليهم ، الآخذ بناصيتهم فى كل حالة من حالاتهم ، وليس لهم من دونه شفيع فإن الشفاعة لله جميعاً ، وإليه ملك السماوات والأرض وإليه المرجع والمصير .

ثم تتعرض الآيات لوصف المشركين وانقباض قلوبهم عند ذكر كلمة التوحيد ، وانبساطها عند ذكر كلمة الشرك ، وتعقب على هذا بدعوة الرسول ﷺ إلى إعلان كلمة التوحيد خالصة وترك أمور المشركين لله ، وتصورهم يوم القيامة يودون لو يفتدون بملء الأرض ومثله معه ، وقد تكشف لهم من الله ما يذهل ويخيف !

وتعرض الآيات موقف الإنسان فى حال الهلع والجزع ، ثم فى حال النعمة والرخاء ، فهو إذا أصابه الضر دعا الله وحده ، فإذا وهبه الله النعم والرخاء ادعى دعاوى عريضة ، وقال : إنما أوتيته على علم عندى ، هذه الكلمة التى قالها من سبق من المتبطرين والمتكبرين فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وهو قادر على أن يبطش بكل جبار عنيد ، وما كان بسط الرزق وقبضه إلا سنة من سنن الله تجرى وفق حكمته وتقديره ، وهو وحده الباسط القابض بيده الخلق والأمر .

ثم فتح الله أبواب رحمته على مصاريعها بالتوبة ، ودعا العصاة إلى الإنابة والاستقامة ، واتباع منهج الحق والعدل من قبل أن يأتى يوم الحساب فتندم كل نفس ظالمة ، وتتمنى أن تعود إلى الدنيا لتستدرك ما فاتها ، وفى هذا اليوم تظهر الكآبة فى وجوه الكافرين ، ويظهر الفوز والسرور فى وجوه المؤمنين .

هـ - الله مستحق للعبادة دون سواه :

تعرض الآيات الأخيرة فى السورة من (٦٢ - ٧٥) ألوان قدرة الله وجلاله وتفريده بالملك والتصرف فى كل شىء ، وإذا تبيننا لنا آثار هذه القدرة ظهرت أمامنا دعوة المشركين للنبي إلى مشاركتهم عبادة آلهم فى مقابل أن يشاركوه عبادة إلهه ، مستغربة مستنكرة ، فكيف يعبد معه سبحانه غيره ، وله وحده مقاليد السماوات والأرض ؟ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . وهم يشركون به ، وهو وحده المعبود القادر القاهر . وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . فهى فى تصرفه وملكه كما يتصرف الإنسان فيما هو داخل قبضته . وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... (الزمر: ٦٧) .

وستطوى هذه السماوات وتبدل بقدرة الله ، وبمناسبة تصوير هذه الحقيقة على هذا النحو يوم القيامة يعرض مشهداً فريداً من مشاهد القيامة ، ينتهى بموقف الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم . وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الزمر: ٧٥) .

سورة الزمر

سورة مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، أي بعد الإسراء وقبل الهجرة ، وقد نزلت تهزّ القلب هزّاً ، وتقدم أدلة التوحيد ، وتأخذ بيد الإنسان إلى التوبة والإنابة ، وتفتح أبواب التوبة على مصاريعها ، وتحذّر من الإصرار على الذنوب إلى أن يأتي الموت ، ويتمنى الإنسان العودة إلى الدنيا ، ليستدرك ما فاتته فلا يستجاب له ، ثم تعرض في نهاية السورة مشاهد القيامة ، وتقدّم المتقين إلى الجنة ، وحمدهم لله رب العالمين .

الدين الخالص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ① ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ② ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ ۝ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ④ ۝ ﴾

المفردات :

الكتاب : القرآن ، تنزيل الكتاب : مبتدأ ، من الله : خبر .

العزیز الحكيم : العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه وتدبير خلقه .

مخلصا له الدين : مفرداً إياه بالعبادة فلا تشرك بعبادته أحدا .

ألا لله الدين الخالص : العبادة الخالصة .

أولياء : شركاء ، وهي الأصنام .

زلفى : قربى ومنزلة ، وتشفع لنا عند الله .

كَاذِبٌ كَفَّارٌ : كاذب على الله ، كفَّار بعبادته غير الله .

سَيِّئَاتِهِ : تنزيهاً له عن الولد والشريك .

الْقَهَّارُ : الشديد القهر ، يغلب ولا يُغلب .

تمهيد :

بدأ الله عددًا من السور بما يفيد أنه سبحانه الذى أنزل الكتاب بالحق ، وأتبع ذلك بذكر صفات الله سبحانه .

ففى سورة يس : تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . (يس : ٥) .

وفى هذه السورة : تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (الزمر : ١) .

وفى أول سورة فصلت : حَمَّ * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . (فصلت : ١ ، ٢) .

وفى أول سورة الجاثية : حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (الجاثية : ١ ، ٢) .

وفى أول سورة الأحقاف : حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (الأحقاف : ١ ، ٢) .

وهذه البدايات تؤكد تنزيل القرآن من عند الله على رسوله محمد ﷺ ، وإتصاف الله بصفات العزة والحكمة والرحمة ؛ أى أنه سبحانه قوى غالب حكيم رحيم ، فهو أهل للألوهية ، وأهل لأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى .

التفسير :

١ - تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

بهذه البداية البليغة بدأ الله تعالى سورة الزمر ، والزمر جمع زمرة وهى الفوج المتبوع بفوج آخر ، فما أعظم الوحي والتنزيل الذى نزل به جبريل على النبی الأمين ، من الله العزيز الغالب الحكيم ، فى أفعاله وتصرفاته ، ومن ذلك اختياره محمدًا ﷺ لتبليغ رسالته للناس أجمعين .

٢ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ .

الله تعالى يخبر نبيه ﷺ ويخبر الناس أجمعين من خلاله ، أنه سبحانه الذى أنزل الكتاب على رسوله بالحق والصدق ، مشتملاً على شرائع الإسلام وعباداته ومعاملاته ، وهى شرائع نافعة مفيدة ، ما تمسكت بها أمة إلا صعدت إلى مدارج العلياء ، وما حادت عنها أمة إلا هوت إلى الحضيض ، وقد أمر الله

رسوله بإخلاص العبادة لله وحده ، وتجريد العبادة عن كل شريك ، وإخلاص النية لله سبحانه ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك .

وفي الحديث القدسي : «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيرى تركته وشريكه» (٣٧) .

وقد كان العرب يتخذون أصناماً على شكل تماثيل للملائكة والأنبياء والصالحين ، ويدعون أن الله أعظم وأكبر من أن يتجهوا إليه بالعبادة مباشرة ، فهم يتقربون إلى تماثيل الأولياء والصالحين ، رجاء أن يشفعوا لهم عند الله ، وأن يكونوا وسطاء عند الله في تقريبهم إليه ، ولذلك تكررت آيات القرآن في نفي الشفاعة عن هذه الأصنام ، وبيان أن الله واحد أحد لا شريك له ، وأن أحداً من الأصنام والأوثان لا يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو سبحانه يحيط بهذه المعبودات ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن ملكه يشمل السماوات والأرض ، وسهل هين يسير عليه حفظ الكون كله ، فهو قريب من عباده ، ولا يحتاج إلى واسطة أو شريك ، نجد ذلك واضحاً في آية الكرسي : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** . (البقرة : ٢٥٥) .

وروى الحسن ، عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى أتصدق بالشئ وأصنع الشئ أريد به وجه الله وثناء الناس ، فقال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، لا يقبل الله شيئاً شورك فيه» ثم تلا رسول الله ﷺ : **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ...

٣ - **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** .

الدين الخالص والعبادة الخالصة التي لا تشوبها شائبة شرك ، هي العبادة المقبولة عند الله تعالى ، وأما من اتخذوا الأصنام والأوثان ، وعبدوا الملائكة والجن ، والشجر والبقر ، والنجوم والكواكب والشمس والقمر ، فكل هؤلاء يدعون أنهم يعبدون هذه التماثيل والمخلوقات ليكونوا شفعاء ووسطاء لتقريبهم عند الله ، وهذا كذب وزور ، فالله أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، وهو سيحكم بين عباده يوم القيامة فيما كانوا يختلفون فيه في الدنيا ، وسيطلق سبحانه بالحق في شأن عباده الشركاء والوسطاء ، فيدخل المؤمنين المخلصين الجنة ، ويعاقب المشركين بدخول النار .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .

لا يهدي إلى دينه من اختار الضلالة وزعم أن لله ولداً ، وأن الأصنام والآلهة المدعاة تشفع له وتقربه إلى الله ، وهذا كذب وكفر بالله الواحد الأحد ، المستحق للعبادة ، المنزه عن الشريك والمثيل .

٤ - لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

لقد جعلوا لله ولداً ، وجعلوا الملائكة بنات الله ، وادعوا أنه سبحانه تزوج من سراة الجن فأنجبوا له الملائكة ، واتخذوا تماثيل الكواكب والملائكة والأنبياء والصالحين الذين مضوا ، وتوجهوا بالعبادة إلى هذه المخلوقات ، وهي عاجزة عن جلب الخير لنفسها ، أو دفع الضر عنها ، فكيف تحقق ذلك لغيرها ، والآية تقول لهؤلاء المشركين : سنسلم جدلاً أن الله أراد أن يتخذ ولداً ، فكان الأوفى أن يختار الأفضل وهو الذكر لا الأنثى ، والأمر كما ترى استدراج لهم إلى التفكير السليم ، فالله كامل كاملاً مطلقاً ، وقديم قدماً مطلقاً ، والولد صنو أبيه ، والولد لا يكون إلا حادثاً ، ومن هنا استحالة الوالدية عليه .

أي : لو أراد اتخاذ ولد ، لاتخذة ابناً ذكراً على سبيل تقدير المستحيل .

سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

تنزه الله تنزهاً مطلقاً عن أن يتخذ ولداً ، أو شريكاً في الألوهية ، لأن الولد مخلوق لله ، والمخلوق لا يسمى ولداً لخالقه ، ولا يصلح لذلك ، فضلاً عن أن يكون شريكاً له ، فهو سبحانه واحد أحد فرد صمد ، قادر مقتدر ، قهر الكون والكل بملكوته وجبروته وقدرته ، فهو غنى عن الشريك والنظير والمثيل ، منزه عن الولد والوالد .

وقد روى البخاري في صحيحه ، أن النبي ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : يكذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني ، ويشتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ، فأما تكذيبه لي فقلوه ليس يعيدني كما بدأنى ، وأما شتمه لي فقلوه إن لي ولداً»^(٧٨) .

والآيات تؤكد ما سبق في القرآن الكريم ، من تقرير الألوهية والوحدانية ، وصدق نبوة محمد ﷺ ، وبطلان الشرك ، والتعدي بالشرک والمشرکين .

دلائل القدرة الإلهية

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى
 اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْغَفُورُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
 ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ
 ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنِي تُصِرُّونَ ۝ إِن تَكْفُرْ أَفَاطَ اللَّهُ
 عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۚ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ
 ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنشِتُكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ ﴾

المضردات :

بالحق : بالحكمة والصواب .

يكور الليل على النهار : يلفه فيخفيه ، من كار العمامة وكورها على رأسه إذا لفها ، أو من كور المتاع :
 ألقى بعضه على بعض . والمراد : يذهب الليل ، ويغشى مكانه النهار ، والعكس
 بالعكس .

وسخر الشمس والقمر : ذللها لمراده ، وجعلهما متقادين له .

أجل مسمى : يوم القيامة .

ثم جعل منها زوجها : حواء .

ثمانية أزواج : الإبل والبقر والغنم والمعز ، ولكل واحد من الأربعة ذكر وأنثى .

في ظلمات ثلاث : ظلمات البطن ، والرحم ، والمشيمة .

ولا تزر وازرة وزر أخرى : ولا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى .

التفسير :

٥ - خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

خلق السماوات وما فيها ، وخلق الأرض وما عليها ، بالحق والعدل والإنصاف لأغراض ضرورية ، وحكم ومصالح ، وجعلهما فى أبدع نظام ، وهذا يدل على كمال القدرة الإلهية ، واستغناؤه عن الشريك والولد .

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ...

يُغشى الليل النهار فتأتى الظلمة فيستريح الناس وينامون ، ويُغشى النهار مكان الليل ، فيحل به النور ، فتتشط الخلائق ويعملون لما خلقوا من أجله .

وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ...

ذل وطموع الشمس والقمر ، حيث جعلهما يجريان فى مدارهما ، فيترتب على تذليلهما وجود النهار تارة ، والليل تارة أخرى ، والفصول الأربعة : الربيع ، فالصيف ، فالخريف ، فالشتاء ، لمصلحة الإنسان والحيوان والنبات ، وهذا الدوران فيه من الفوائد والمصالح للعباد ما لا يقدّر قدره ، من ذلك معرفة عدد السنين والحساب .

أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

فهو العزيز القادر على عقاب المقصرين ، الغفار للتائبين النادمين .

٦ - خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِيمَا يُبْغُونَ أَنَّهُمْ خَلَقَكُمْ مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُصْرَفُونَ .

خلقكم من نفس واحدة ، هى آدم عليه السلام ، وخلق من آدم حواء من قصيره .

قال تعالى : يَتَّخِذُهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... (النساء : ١) .

وخلق الله لنا من الأنعام ثمانية أزواج ، هى : الإبل ، والبقر ، والغنم ، والماعز ، وخلق من كل صنف ذكراً وأنثى ، فالجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والمعزة .

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ...

يخلق الإنسان والحيوان في بطن الأمهات ، خلقًا متدرجًا متطورًا من حال إلى حال ، أى : نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم عظامًا ، ثم يكسو العظام لحمًا ، فإذا هو إنسان كامل .

فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ...

هى : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، ثلاثة أغشية يحفظ الله فيها الجنين ، حيث يكون فى قرار مكين ، مستقرًا فى غشاء يحميه ويحافظ عليه ، حتى يتم الخلق وينزل وليدًا إلى الحياة .

ويعد أن قدم أدلة على الألوهية والوحدانية ، والقدرة البالغة ، والإرادة النافذة فى خلق الكون وخلق الإنسان والحيوان ، أتبع ذلك بفذلكة أو نتيجة فقال : ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ .

هذا الإله القادر الخالق ، المبدع للكون والإنسان والحيوان ، هو الله ربكم وخالقكم ومالك الملك والمتصرف فيه ، خلقًا وإيجادًا ورعاية وحفظًا ، لا إله سواه ، ولا شريك له ولا ند له ولا مثيل .

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

فكيف تصرفون عن طاعته وعبادته إلى طاعة الشيطان ، أو الكفر وعبادة الأوثان .

٧- إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

إن تكفروا بالله فإن الله غنى عنكم وعن عبادتكم ، ولا تضره معصيتكم ، ولا تنفعه طاعتكم ، ومع هذا فهو حريص على مصلحة عباده ، ولا يرضى لعباده الكفر ، رحمة بهم حتى لا يتعرضوا لغضبه وعذابه ، وإن تشكروا يرضه لكم ، وإذا آمنتم بكم .

وفى الحديث القدسى الذى رواه الإمام مسلم ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكى شيئًا» (٧٩) .

وفى القرآن الكريم : يَتْلَاهَا نَاسٌ أُنثَمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...

ولا تحمل نفس ذنب نفس أخرى ، وقد كان رؤساء الكفر يقولون لاتباعهم : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ ... (العنكبوت : ١٢) .

وقد بين القرآن أن الإنسان مسئول عن عمله ومحاسب عليه ، قال تعالى : كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

وقال تعالى : يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَلَاتِهِ وَبَيْتِهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس : ٣٤ - ٣٧) .

فالإنسان المذنب يتحمل ذنوبه وحده ، ولا يتحمل ذنب آخر ، إلا إذا كان مسئولاً عنه ، فإنه يتحمل شيئاً من المسؤولية ، كالأب المنحرف الذي يغري أولاده بالانحراف ، فيتحمل الأب ذنبه ، وذنوب إرشاد أولاده إلى السوء ، أو وقوعهم في الرذيلة .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ... (التحريم : ٦) .

وفي النهاية سيعود الخلائق إلى ربهم فيحاسبهم ، ويخبرهم بأعمالهم ويجازيهم عليها ، فهو سبحانه مطلع على السرائر ، خبير بالسر والعلن .

ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ ...

أى : الموت والبعث والحشر والحساب والجزاء .

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ...

فيخبركم بأعمالكم تمهيداً للحساب والجزاء عليها .

إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

إنه مطلع على ما تكنه السرائر وما تخفيه الضمائر ، وفيه تهديد للعاصي وبشارة للطائع .

تناقض الكفار واستقامة المؤمنين

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۝ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ أَنَّاءَ آلِ لَيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ (٩) قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُرْ أَبْصَارَكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ (١٠) ﴾

المضردات :

ضــــر : شدة من البلاء والفقر .

منيبا إليه : راجعا إليه .

خوئله نعمة : أعطاه وملكه نعمة عظيمة ، والأصل : أعطاك خوْلاً - بفتحتين - أى : عبيداً وخداماً ، ثم ععم لمطلق العطاء .

الــــقــــائــــت : المطيع ، أو الذى يطيل القيام فى صلاته .

أناء الليل : ساعاته : أوله ووسطه وآخره ، أو جوفه .

وأرض الله واسعة : فهاجروا فيها ، ولا تقيموا مع من يقترب المعاصى .

التفسير :

٨ - وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ .

من شأن الإنسان أن يذكر ربه ويتضرع إليه فى البأساء والشدة ، وأن يلجأ إليه عند المرض والمصاب والأمر الجلل ، ثم إذا أنعم الله عليه بالنعم المتعددة ، نسى الشدة التى لجأ إلى الله من أجلها ، أو نسى الرب الذى دعاه فى البأساء ، وأخذ يتقرب إلى الأنداد والشركاء ، التى يضل بها عن سبيل الله وطريقه ، وهنا يهدد الله المعرضين عنه بالعذاب الشديد فى الآخرة ، وينذر المعرض بأن ما يتمتع به فى الدنيا ، من جاه أو مال

أو سلطان عرض حائل ، ثم عند الموت يجد النار أمامه ، جزاء كفره ، أو جزاء تضرّعه إلى الله في الضّرّاء ، ثم الإعراض عنه عند النعماء .

والآية عامة ، واستظهر أبو حيان أن المراد بالإنسان جنس الكافر ، وقيل : المراد بالآية عتبة بن ربيعة وأبو جهل .

وعلى هذا يكون معنى الآية : وإذا مسّ الإنسان الكافر ضرٌّ وبلاء أو مرض وبأساء ، دعا الله تعالى وحده مخلصاً له في العبادة والتضرع ، ثم إذا منّ الله عليه بالنعماء والرخاء ، نسى الدعاء الذي كان يدعو به ، أو نسى من كان يدعو من قبل ، أو نسى الضرّ الذي كان يدعو الله إلى إزالته وكشفه ، وجعل لله أوثاناً وأصناماً وشركاء ، يعيدهم ضالاً عن طريق الله تعالى ، فقل له يا محمد : تمتع بكفرِكَ متاعاً قليلاً ، مدة الدنيا ومتاع الدنيا قليل ، أما في الآخرة فعمالك جهنم لعبادة غير الله ، أي : قد أبيت أن تستمر على دعاء الله ، والإخلاص له في النعماء والرخاء ، فاستمتع بهذا الكفر الذي أنت فيه تمتعاً قليلاً ، لا ينجيك من عذاب النار في الآخرة .

٩ - أَمَّنْ هُوَ قَلْبِي عَائِدًا إِلَيْكَ أَتَيْتُكَ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ .

أهذا الكافر الذي سبق ذكره في الآية السابقة ، يستوى بالمؤمن القانت الخاشع لله في جوف الليل ، حال كونه ساجداً لله يتضرع إليه ، وقائماً يقرأ القرآن في تضرع وحب وخشية لله ، لأنه يخاف عذاب الآخرة ، ويرجو رحمة الله تعالى ، فقد جمع بين الخوف والرجاء ، وهما جناحان يطير بهما المؤمن في ملكوت الرياضة الروحية ، وسلوك منازل الآخرة ، فالخوف إذا زاد عن حده صار بأساً : إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

والرجاء والأمل بدون عمل طمع بدون حقّ ، وفي الحديث النبوي : «ليس الإيمان بالتمنّي ، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل ، ألا وإن أقواماً غرتهم الأمناء ، خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظن بالله ، وكذبوا على الله ، لو أحسنوا الظن لأحسنا العمل» .

وقال تعالى : فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ...

هل يستوى العالم والجاهل ؟ أي : وكما لا يستوى العالم والجاهل ، كذلك لا يستوى المطيع والعاصي .

إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَآ الْأَلْبَابِ .

أى : إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة ، وإنما ينتفع بأمثلة القرآن أصحاب القلوب المستنيرة ، والعقول الخالصة من شوائب الخلل .

قال ابن كثير :

وينبغي أن يجمع المؤمن بين الخوف والرجاء . وفى الشباب يغلب الخوف على الرجاء ، وفى الشيخوخة يغلب الرجاء على الخوف ، وكذلك عند الاحتضار يكون عظيم الأمل فى رحمة الله وفضله .

روى الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، عن أنس رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت فقال له : «كيف تجدك» ؟ فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : «لا يجتمعان فى قلب عبر فى مثل هذا الموطن ، إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمنه الذى يخافه»^(٨٠) .

وقرأ ابن عمر : أَمِنْ هُوَ قَلْبِي أَمَّا الْيَلِ سَاجِدًا وَقَاتِمًا يَحْلُزُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ... فقال : ذاك عثمان ابن عفان رضى الله عنه - أخرجه ابن أبى حاتم .

وذلك لكثرة صلاة عثمان بالليل وقراءته ، قال الشاعر : يقطع الليل تسبيحًا وقرآنًا .

قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير :

واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو القنوت والسجود والقيام ، وأما العلم ففى قوله : هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور فى هذين المقصودين ، فالعمل هو البداية ، والعلم والمكاشفة هو النهاية ، وفى الكلام حذف تقديره : أَمِنْ هُوَ قَانَتْ كغيره ؟ وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية الكافر ، ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . ا هـ .

١٠ - قُلْ لِّلْعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يا من آمنتم بالله ربًا ، ضموا إلى الإيمان بالله تعالى ، التقوى ومخافة الله ومراقبته .

والتقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : هى ألا يراك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك .

وقيل : هي ذبيان الحشا لما سبق من الخطأ .

وقيل : هي الاجتهاد في عمل الطاعات ، والابتعاد عن اقتراف المعاصي .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ...

للذين أحسنوا عملهم ، وراقبوا ربهم حسنة في الدنيا ، من رضوان الله وتوفيقه ورزقه وعنايته ، أو لمن أحسن في هذه الدنيا حسنة في الآخرة ، ويمكن أن يراد الاثنان معاً ، أى : للمؤمنين المحسنين حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة .

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ...

أى : فهاجروا من دار الكفر إلى دار الإيمان ، ولا تقيموا في أرض لا تتمكنون فيها من إقامة شعائر الله . قال المفسرون : نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة ، والغرض منها التأنيس لهم والتنشيط إلى الهجرة^(٨) .

إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

يكافأ الصابرون الذين صبروا على هجرة الأهل والوطن ، مكافأة لا يهتدى إليها حساب الحُساب ، أى بغير تقدير ، أى : حين يكافأ أهل الطاعات كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، والجهاد وصلة الرحم وإكرام الجار والعطف على المساكين ، يكافأ هؤلاء على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، فإن أهل البلايا والصبر على البأساء يلقون جزاءهم بدون حصر ويدون عدد .

قال الأوزاعي : ليس يوزن لهم ولا يكال ، إنما يغرف غرقاً .

وقال ابن جريج : بلغنى أنهم لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدادون على ذلك .

وقال السدي : يعنى في الجنة .

لقد كان القرآن يأخذ بيد المؤمنين ، فيحثهم على الثبات والصبر ، والمجاهدة في تحمل مشاق الهجرة ومتاعبها ، واحتمال البلايا في طاعة الله ، وكان الرسول الأمين وصحابته الأبرار قدوة عملية في الثبات والتضحية .

وفي الحديث الشريف : «تنصب الموازين لأهل الصلاة والصدقة والحج فيؤتون بها أجورهم ، ولا تنصب لأهل البلايا ، بل يصب عليهم الأجر صباً ، حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تقرض بالمقاريض ، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» .

الإخلاص

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۚ﴾ (١١) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۚ﴾ (١٢) ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۚ﴾ (١٣) ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ ۚ﴾ (١٤) ﴿الْمُبِينُ ۚ﴾ (١٥) ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ﴾ (١٦) ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَعْبَادُوا ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ﴾ (١٧)

المفردات :

مخلصا له الدين ، أى : اعبده عبادة خالصة من الشرك والرياء موحدا له .

أول المسلمين ، أول من خالف دين آبائه ، وخلق عبادة الأصنام ، أو أول المسلمين من هذه الأمة .

مخلصا له ديني ، طاعتي وعبادتي .

﴿فاعبدوا ما شئتم﴾ ، أمر تهديد وتوبيخ لهم ، أى : ستلقون حتما جزاء كفركم .

الخاصرين ، الكاملين فى الخسران ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ . بالضلال ، وَأَهْلِيهِمْ . بدخولهم النار .

عن ابن عباس : ليس من أحد إلا خلق الله له زوجة فى الجنة ، فإذا دخل النار خسر نفسه وأهله .

المبين ، البين الواضح .

ظلال : طبقات كثيرة من النار فوقهم كهيئة الظل ، جمع ظلة ، وأصلها : السحابة تظل ما تحتها .

ومن تحتهم ظلال : ومن تحتهم طبقات من النار ، والمراد أن النار محيطة بهم إحاطة تامة من جميع الجوانب .

التفسير :

١١ - قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها من آيات لإعلان عقيدة التوحيد ، خالصة نقية من الرياء والشرك ، ومن عبادة غير الله ، كالملائكة أو الأصنام والأوثان .

و خلاصة معنى الآية :

قل لهم يا محمد : أمرنى ربي سبحانه وتعالى أن أعبد عبادته خالصة ، نقية من الشرك أو الرياء .

١٢ - وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ .

وكذلك أمرنى ربي أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة ، فقد أنزل الله على الوحي ، وخصني بالرسالة ، لأدعو نفسي والناس أجمعين إلى توحيد الله بالعبادة ، ونبذ عبادة غير الله ، من الأوثان والأصنام ، فأنا أول من خالف دين آبائه وأجداده فى نبذ عبادة الأصنام ، وأنا أعتز بذلك وأفتخر به ، أن أكون قدوة لكل مسلم ، ومقدمة لكل مؤمن ، قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب : ٢١) .

١٣ - قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

تتكرر هنا أدلة التوحيد ، والدعوة إليه ، وتأکید عبادة الله وحده ، فى إخلاص وإنابة ، والابتعاد عن عبادة الأوثان ، وسبب ذلك أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ : ألا تنظر إلى أبيك وجدك وسادات قومك ، يعبدون اللات والعزى ؛ فنزلت رداً عليهم .

أى : إني لن أقرب الشرك ، ولن أعبد الصنم ، ولن أميل إلى دينكم وعبادتكم الأوثان ، لأننى أخاف ترك الإخلاص ، والميل إلى الشرك ، فأتعرض لعذاب يوم عظيم ، وهو يوم القيامة ، ولسان حاله يقول : إذا كنت أنا أخاف هذا الخوف ، من الميل إلى عبادة الأوثان ، فأنتم أولى بهذا الخوف ، وأجدر أن تهربوا من الشرك إلى توحيد الله سبحانه وتعالى .

١٤ - قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي .

تتدرج الآيات وتتتابع فى تأكيد توحيد الله وحده ، وإخلاص العبادة له ، وترك عبادة ما عبده الآباء والأجداد ، والهلع والخوف من التقرب للأصنام ، فإن ذلك شرك ، يعرض صاحبه لعذاب يوم القيامة ، وأحوال هذا اليوم العظيم ، وفى قمة هذا التوجه نجد هذه الآية ، وخلصتها : إني أعبد الله لذات الله ، لا خوفاً من النار ، ولا طمعاً فى الجنة ، وإنما عبادة له ذاته ، وإخلاصاً لوجهه ، لا رياء فى عبادتى لله ولا سمعة ، ولا ميل لغيره ولا إشراك .

وكان من دعاء المؤمنين فى الحج ، والنبي ﷺ يسمعه فلا ينكره :

لبيك حقاً حقاً نعبداً ورقاً

وفى معنى الآية قوله تعالى : وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ . (البينة : ٥) .

وكان من دعاء رابعة العدوية : إلهي .. غارت النجوم ، ونامت العيون ، وبقيت أنت يا حي يا قيوم ، إلهي .. أغلقت الملوك أبوابها ، وسكن كل حبيب إلى حبيبه ، إلهي فأنت حبيبي ، ولو طردتنى عن بابك ما طردت لعلمي بعظيم فضلك ، وعميم جودك ، إلهي .. إن كنت أعبدك شوقاً إلى الجنة فأحرمني منها ، وإن كنت أعبدك خوفاً من النار فأحرقني بها ، وإن كنت أعبدك لك ذاتك لأنك تستحق العبادة ، فلا تحرمني من نور وجهك الكريم يا رب العالمين .

ومن شعرها :

أحبك حبين حب الهوى	وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وقد بدأ أبو حامد الغزالي باب الإخلاص فى كتاب «إحياء علوم الدين» بقوله : أما بعد .. فالناس هلكى إلا العاملين ، والعاملون هلكى إلا المخلصين ، والمخلصون على خطر عظيم .

وبيّن أبو حامد الغزالي أن الإخلاص هو أكسير العبادة ، وروحها وسر قبولها ، والإخلاص هو التوجه إلى الله وحده بالعمل ، بدون رياء ولا سمعة ، وإذا عظم الإخلاص فى قلب المؤمن أصبح يقيناً بأن المطلع عليه هو الله وحده ، فلا يلقى بالا لمن يراه من الناس ، بل يعظم توجهه وإخلاصه ، ويقينه بأن الله حسبه وكافيه ، وهذه مرتبة الإحسان ، وهى أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : ما تقرب عبدى إلى بشىء أحبّ إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى عليها ، ولئن دعانى لأجيبنه ، ولئن سألتنى لأعطينه» (١٧) .

١٥ - فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

وهذا أمر تهديد ووعد ، أى : أنا أخلصت عبادتى له وحده ، وسرت فى طريق التوحيد والإخلاص لله تعالى وحده بالعبادة ، فاعبدوا أنتم ما شئتم من الأصنام والأوثان والشركاء من دون الله ، فستلقون عقاب ذلك يوم القيامة ، قل لهم يا محمد : إن الخاسرين كمال الخسران ، هم الذين خسروا أنفسهم ، حيث حرموها من الإيمان بالله تعالى ، ومن سماع القرآن ، ومن هدى محمد ﷺ ، كما أنهم خسروا أهلهم ، حيث أُرشدوهم إلى الكفر والشرك ، أو حرموا من الحور العين فى الجنة ، أو حرموا أهلهم الذين أعدهم الله لهم فى الجنة لو آمنوا بالله وأطاعوه .

أخرج عبدالرزاق ، وعبد بن حميد ، عن قتادة قال : ليس أحد إلا قد أعد الله تعالى له أهلاً فى الجنة إن أطاعه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، أنه قال فى الآية : خسروا أهلهم من أهل الجنة ، وكانوا قد أعدوا لهم لو عملوا بطاعة الله .

أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

إن هذا لهو الخسارة الفادحة الظاهرة ، أن تخسر نفسك فلا تكون مصطلحاً عليها ، بل ترغمها على الكفر ، وتهرب منها إلى الشرك ، وأن تخسر أهلك وزوجك وذريتك ، فترشدهم إلى الكفر والمعصية ، وأنت حادى الطريق ، وأنت الراعى المستول عن رعيته ، فبدلاً من أن تقدم لها الهداية ، قدمت لها الغواية ، فحرمت سعادة الدنيا والآخرة ، وحرمت مع أسرتك نعيم الجنة وأهلها وبحبوحتها ، وصرت أهلاً للعذاب الشديد بين صفائح جهنم .

١٦ - لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَكُلُّهُمْ فِي سَفَاهٍ .

هؤلاء الخاسرون تمام الخسارة ، يعدَّبون بين صفائح جهنم ، فالنار تظلهم من فوقهم ، تهكمًا بهم ، فالأصل أن الإنسان يتظلل بالمظلة والشفرة ، والسحابة الواقية من الحر وشدته ، وهؤلاء تظلهم طبقات جهنم من فوقهم ، وطبقات جهنم من تحتهم ، وسُمي ما تحتهم ظلالاً ، مشاكلة لما فوقهم ، أو لأن ما تحتهم من طبقات النار ، يظلل فئة أخرى تعدَّب تحتهم ، فينظر الإنسان فوقه فلا يجد إلا النار ، وتحتة فلا يجد إلا النار ، كما أن النار تحيط به عن يمينه وعن شماله ، وعن سائر الجهات التى حوله .

قال تعالى: يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (العنكبوت: ٥٥) .

وقال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ . (الأعراف: ٤١) .

ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَلْعَبِدُ فَاتَّقُونَ .

أى : ذلك العذاب الشديد الذى ذكره الله عقوبة للكافرين ، مما يحذر الله به عباده ، ويخوفهم من هذه النهاية البائسة ، ويضع أمامهم هذا المنظر الرهيب ، منظر إنسان قد خسر نفسه ، وخسر أهله ، وهو يعذب بين طبقات النار ، ولا يجد وسيلة للهرب أو الفرار ، يا عباد - أى يا كل عبادى - خافوا عذابى واتقوا غضبى ، وسيروا فى طاعتى ، وابتعدوا عن الكفر والشرك ، والمراد بالفقرة الأخيرة : المؤمنون ، لأنهم هم المنتفعون بهذا التوجيه ، وعممه آخرون فى المؤمن والكافر ، أى : يا كل من يتأتى منه العبودية لله ، اتقوا غضبى وعذابى ، وقيل : هو خاص بالكفار . ا هـ .

والأولى أن يقال إنه خطاب عام للناس كل الناس ، وللعباد كل العباد بأن يتقوا الله ويراقبوه .

★ ★ ★

سعادة المؤمنين

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْنَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

المضردات :

الطاغوت : الأوثان والمعبودات الباطلة ، والمراد به : الشيطان .

وأنابوا إلى الله : رجعوا إليه وتابوا .

البشرى : الثواب على ألسنة الرسل أو الملائكة عند حضور الموت وحين يحشرون ، والبشرى اسم لما يعطاه المبرر .

فيتبعون أحسنه ، أى : يأخذون بالواجب والأفضل ، مع جواز الأخذ بالمندوب والحسن ، أو يختارون العفو ويتركون العقاب ، مع أنه جائز ، أو ينتقدون الردىء ، ويختارون الأحسن .
 ونحو الأسباب : أصحاب العقول السليمة .

كلمة العذاب : إشارة إلى قوله تعالى : **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** . (ص : ٨٥) .
 لهم غرف : منازل رفيعة عالية فى الجنة ، قد أعد بناؤها قبل يوم القيامة .

التفسير :

١٧ - **وَالَّذِينَ آجَتَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ** .

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، وقد تحدث فيما سبق عن الخاسرين وعذابهم فى النار ، وهنا يتحدث عن الذين أقبلوا على الله تعالى ، وابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وطاعة الشيطان ، فقال : **وَالَّذِينَ آجَتَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ...**
 أى : ابتعدوا عن عبادة الأوثان والأصنام ، وعن طاعة الشيطان .

وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ...

ورجعوا إلى الله مؤمنين قانتين ، هؤلاء يستحقون النجاة والفوز والبشارة بالجنة .

لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ .

أى : ببشرهم القرآن بالثواب الجزيل ، ورضوان الله عليهم فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة .

وقيل : البشرى هى أن الملائكة تنزل عليهم عند الموت ، تبشرهم بأن الله تعالى سيحفظهم فى ذريتهم فلا يخافون عليهم ، وسييسر لهم دخول الجنة ، ونعيم القبر .

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

والخلاصة :

أن الملائكة تنزل على المؤمنين عند خروج الروح ، فتبشرهم بأن الله يحفظهم فى ذرياتهم ، فلا يخافون عليهم ، وتبشرهم بنعيم القبر ونيعم الجنة ، وبولاية الله لهم فى الدنيا وفى الآخرة .

قال ابن إسحاق :

نزلت الآية السابعة عشرة من سورة الزمر في عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والزبير ، رضى الله عنهم ، سألوا أبا بكر رضى الله عنه فأخبرهم بإيمانه ، وذكرهم بالله فآمنوا .

وقيل : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، كانوا يقولون في الجاهلية : (لا إله إلا الله) ، لكن علماء القرآن يقولون : العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، أى أننا لا نقصر الآيات على هؤلاء الأشخاص . بل نقول : كل من هجر عبادة الأوثان ، وابتعد عن السير وراء الطاغوت والطغيان ، وأطاع الله وحده لا شريك له ، منيباً إلى الله تعالى ، يستحق البشرى بالأخبار السارة ، فبشر أيها الرسول عبادى المؤمنين .

١٨ - الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

هؤلاء نفوسهم طيبة ، وقلوبهم طيبة ، يستمعون الأقوال المتعددة ، فتلتقط نفوسهم الكلم الطيب والفكر الحسن ، والذكر المفيد ، وتترك الردىء ، فالنفوس الحسنة تبحث عن القول الحسن ، والفكر الحسن ، والتوجه الحسن ، وكل ما يدعو إلى الخير ، ويرغب في الفضيلة ، ويحث على الاستقامة ، أما النفوس الخبيثة فإنها تبحث عن القول الردىء ، والتفكير الخبيث ، لأن الطيور على أشكالها تقع .

وقيل : المراد بالآية توجيه المؤمنين إلى أن يكونوا نقاداً في الدين ، يميزون بين الحسن والأحسن ، والفاضل والأفضل ، فإذا اعترضهم أمران ، حرصوا على ما هو أقرب عند الله ثواباً ، وأرجى قبولاً .

وقيل : هم الذين يسمعون أوامر الله ، فيتبعون أحسنها ، مثل : القصاص أو العفو ، والانتصار وأخذ الحق أو الإغضاء والتجاوز ، وإظهار الصدقة وإخفائها .

قال تعالى : وَأَنْ تَعْلَمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ... (البقرة : ٢٣٧) .

وقال سبحانه : إِنْ تَبَدَّلُوا الصَّدَقَاتِ فَعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُجَاهِلُوهَا الْفُقَرَاءُ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ ... (البقرة : ٢٧١) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .

أى : هؤلاء المتصفون بالصفات الجميلة ، والقلوب الخيرة ، التي تختار الأحسن والأولى والأفضل ، هم الذين هداهم الله لمعرفة دينه ، واختيار ما يرضيه ، وهؤلاء هم أصحاب العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة البعيدة عن اتباع الهوى .

١٩ - أَقْمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِذُ مِنْ فِي النَّارِ .

كان النبي ﷺ حريصاً على هداية قومه ، من أمثال أبي جهل وأضرابه ، ممن عبدوا الطاغوت وأطاعوا الشيطان ، وكفروا بالإسلام ، فاستحقوا الضلالة والشقاء ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، حيث قال تعالى : قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤ ، ٨٥) .

لقد اختار الضلالة على الهدى ، فوجبت عليه كلمة العذاب ، وهي قسم الله أن يملأ جهنم من الشيطان وأتباعه ، فاستحق ذلك الوعيد ، واستوجب الخلود في جهنم ، ولم يعد ممكناً لك يا محمد أن تنقذه من النار التي استحقها بعدالة الله تعالى .

والمعنى :

إنك يا محمد لا تقدر على هدايته فتخلصه من النار ، والمقصود : طلب نفساً وقرْ عيناً ، ولا تجزع لإعراض قومك ، فإن العذاب سيصيبهم جزاءً وفاقاً ، وفي هذا المعنى نجد قوله تعالى : فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية : ٢١ ، ٢٢) .

وقوله سبحانه : طَسَمَ * تِلْكَ ءَايَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَلَّغْتَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (الشعراء : ١ - ٣) .

وقول الله عز وجل : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (القصص : ٥٦) .

وقوله تعالى : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . (المدثر : ١١) .

وقوله عز وجل : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

من تفسير الفخر الرازي

ذكر الفخر الرازي عند تفسير هذه الآية ثلاث مسائل ، نترك ما قاله في المسألتين الأولى والثانية ، وننقل هنا ما قاله في المسألة الثالثة وهو ما يأتي :

احتج القاضي بهذه الآية على أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر ، قال : لأنه حق عليهم العذاب ، فتلك الشفاعة تكون جارية مجرى إنقاذهم من النار ، وأن الله تعالى حكم عليهم بالإنكار والاستبعاد ، فيقال له : لا نسلم أن أهل الكبائر قد حق عليهم العذاب ، وكيف يحق العذاب عليهم مع أن الله تعالى قال : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... (النساء : ٤٨) . ومع قوله : إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (الزمر : ٥٣) ، والله أعلم ^(٨٣) .

٢٠ - لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّيِّبَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَاتِ .

لكن الذين خافوا عذاب الله ، وراقبوا الله وأخلصوا له العبادة : أعد الله لهم فى الجنة غُرَفًا مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ . وهى قصور عالية ، ذات طبقات مزخرفات ، قد تم بناؤها بحالة تشرح الصدر وتسر العين ، فالأنهار تجرى من تحتها لكمال بهجتها ، وزيادة رونقها ، وهذا وعد الله للمتقين المؤمنين ، ووعد الله ثابت لا ينقض ولا يخلف .

قال ابن عباس : غرف الجنة من زبرجد وياقوت .

وروى الإمام أحمد بسنده ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنهما من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وصلى بالليل والناس نيام»^(٨١) .

ونلاحظ أن النار دركات ، وأن الجنة درجات ، والآية تنطوى على ما أعد الله للمتقين من كرامة ومنزلة ونعيم مقيم ، فى جنات مبنية بيد الرحمان وقدرته ، تجرى من تحتها أنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، وأنهار من لبن ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّنْ رَبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

★ ★ ★

الهداية للإسلام

﴿الَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٓ قَوِيلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِٓ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

المضردات :

فسلكه ينابيع ، أى : أدخله فى الأرض فصار جارياً تحتها ، ينبع منها فكان بذلك ينابيع .

قال تعالى : وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا . (الكهف : ٤٥) .

٢٢ - أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقُلُوبِ السَّيِّئَةِ الْقُلُوبُ مِّنْ ذَكَرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

دلَّت الآية السابقة على بديع القدرة فى إنزال الماء ، منه ما يكون أنهارًا تجري ، كالنيل والفرات ودجلة ، ومنه ما ينزل فى الأرض فيكون وسيلة لتكوين الينابيع ، وسقى الزرع والنبات المختلف الألوان والأنواع ، الذى يعيش فترة أخضر يانعا ، ثم يذبل ويصفى ويكون حطامًا ، والقلوب المتفتحة هى التى تتأثر بيد القدرة الإلهية ، وتشاهد هذه القدرة فى كل مظاهر الحياة والنماء ، فى بسمه الوليد وانفلاق الصباح وسطوع الشمس ، وحركة الظلام وتحرك النبات ، ونمو الإنسان من ضعف إلى قوة ثم وصوله إلى المشيب والموت .

وفى هذه الآية نجد أيضًا أن من الناس من حلت فيه بركة الله وهدايته ، فشرح صدره للإسلام ، وأثار قلبه بالقرآن والسنة المطهرة والموعظة الحسنة ، فترى قلبه حيًا بذكر الله ومراقبته وخشيته ، فهو على نور وهداية من الله تعالى .

وجواب الاستفهام محذوف دل عليه السياق ، والتقدير : أفمن شرح الله صدره للإسلام فاهتدى به ، كمن ضاق صدره وامتنع عن الإسلام ؟

أى : هل يستوى المؤمن والكافر ؟ أو هل يستوى الأحياء والأموات ؟

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . (فاطر : ١٩ ، ٢٢) .

فَوَيْلٌ لِلْقُلُوبِ السَّيِّئَةِ الْقُلُوبُ مِّنْ ذَكَرِ اللَّهِ ...

العذاب الشديد لأصحاب القلوب الصماء القاسية كالصخر ، التى لا تلتين لذكر الله ، ولا تتسع لسماع القرآن ، ولا لنداء الرحمان ، بل يزيدها سماع القرآن إعراضًا وبعذاً وكرهاً وكفرًا .

وبعض المفسرين قال : إن ، مِّنْ ذَكَرِ اللَّهِ . معناها : عن ذكر الله ، فهى قلوب غافلة عن القرآن والإيمان ، وأسباب الهداية والتوفيق ، لأنها قاسية صلبة لا تلتين لذكر الله .

أَوْ لَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

أى : إن هؤلاء الكافرين الضالين قد غلبهم الضلال واستهوهم الكفر ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فهم فى ضلال واضح ، وعمى عن الحق والنور والهدى .

قال تعالى : أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ ، فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ... (الأنعام : ١٢٢) .

قال ابن عباس : من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : قلنا : يا رسول الله ، قوله تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ... كيف انشرح صدره ؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفتح» ، قلنا : يا رسول الله ، وما علامة ذلك ؟ قال : «الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»^(٨٥) .

وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، عن ابن عمر ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أى المؤمنين أكيس ؟ قال : «أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً ، وإذا دخل النور فى القلب انفسح واستوسع» ، قالوا : فما آية ذلك يا نبي الله ؟ قال : «الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» .

وعن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : «قال الله تعالى : اطلبوا الحوائج من السمحاء ، فإنى جعلت فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم ، فإنى جعلت فيهم سخطى»^(٨٦) .

وقال مالك بن دينار :

ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب ، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم .

٢٣ - اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّتَابِي تَشْعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

عن ابن عباس : أن قوماً من الصحابة قالوا : يا رسول الله ، حدثنا بأحاديث حسان ، وبأخبار الدهر ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى :

الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن من السماء ، فهو سبحانه الذى أنزله ، فنعم الذى أنزل ، ونعم الكتاب المنزل ، فهو أحسن الحديث ، حيث أنزله مشتملاً على دلائل التوحيد والوعظ والإرشاد ، والقصص وأخبار الأولين ، والتشريع والآداب ، وأخبار البعث والحساب ، والصراط والميزان ، والجنة والنار .

مُتَشَبِّهًا . يشبه بعضه بعضاً فى أحكامه وسمو بيانه ، ودقه بنيانه ، وليس فيه خلل ولا ضعف ولا اضطراب ، ولا ركاسة أسلوب ، بل كله يشبه بعضه بعضاً فى قوته وجزالته ، وإحكامه وسمو معانيه .

مُتَنَبِّئًا . يثنى ويكرر فى قصصه وأخباره ووعظه ووعده ووعيده ، لحكمة إلهية يقتضيها السياق ، وتحتاج إليها الخلائق ، مع الجزالة والإعجاز ، لا تملّ إعادته ، بل كلما تكرر حلا ، فهو يأتى بمناسبة جديدة فى كل قصة ، وتوضع القصة فى سياق مناسب .

قال تعالى : **صَ وَالْقُرْآنِ ذِىَ الْذِكْرِ . (ص : ١) .**

وقال تعالى : **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .**

وهذا الكتاب إذا سمعه المؤمنون ، وأصغى إليه المتقون ، وتأملّهُ الذاكرون ؛ وجلت قلوبهم ، واقشعرت جلودهم من خشية الله تعالى ومخافته ، حيث ترتعش القلوب ، وتبكي العيون من خوف العذاب والوعيد ، ومن خوف غضب الله وعقابه .

تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...

فمن هيبة القرآن وجلاله ، إذا سمع المتقون قوارع آياته ووعيده ؛ أصابتهم رهبة وخشية تقشعر منها جلودهم ، وإذا سمعوا وصف الجنة ونعيمها ، ورحمة الله واتساعها ، وآيات الرجاء فى فضل الله ، ومحبة لتوبة العباد ؛ تبدل خوفهم إلى رجاء ، وخشيتهم إلى رغبة فى فضل الله .

قال تعالى : **ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ...**

فما أصدق هذه القلوب ، وما أيسر هذه الشفافية والاستجابة لآيات الله ، حيث نجد الخوف والبكاء والأنين عند آيات الوعيد ، ونجد الأمل والانشراح والرجاء عند آيات الرحمة والوعد وذكر الجنان والنعيم .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله .

قال القرطبي في تفسير الآية :

مُتَشَبِّهًا . يشبه بعضه بعضًا فى الحسن والحكمة ، ويصدق بعضه بعضًا ، ليس فيه تناقض ولا اختلاف .

وقال قتادة : يشبه بعضه بعضًا فى الآى والحروف ، وقيل : يشبه كتب الله المنزلة على أنبيائه ، لما يتضمنه من أمر ونهى وترغيب وترهيب ، وإن كان أعم وأعجز .

ثم وصفه فقال : مَثَانِي . تثنى فيه القصص والمواظ والأحكام ، ويثنى للتلاوة فلا يملّ .

تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...

تضطرب وتتحرك بالخوف مما فيه من الوعيد .

ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ...

أى : عند آية الرحمة ، وقيل : إلى العمل بكتاب الله والتصديق به ، وقيل : إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ . يعنى : الإسلام .

قال زيد بن أسلم : قرأ أبى بن كعب عند النبى ﷺ ومعه أصحابه فرقوا ! فقال النبى ﷺ : «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة» ^(٨٧) .

وعن العباس ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا اقشعر جلد المؤمن من مخافة الله تحاتت عنه خطايا»^(٨٨) .

ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ ...

ذلك الكتاب هداية الله لعباده ، أو هذا الفضل والتوفيق ، والخوف من الوعيد ، والرجاء والأمل فى الرحمة ، هداية السماء يهذى بها الله من يشاء من المتقين .

وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ .

ومن قسا قلبه وأعرض عن الله تعالى سلب الهداية والتوفيق ، وعاش فى الضلال بسبب الإصرار والعناد ، وهذا ليس له من هاد يهديه بعد الله أبدًا .

والمقصود :

إن القلوب قلوبان :

- ١ - قلب قابل للهداية ، تحلُّ فيه هداية السماء ، وفيه الرقة والرحمة والخشوع والإيمان .
- ٢ - قلب غير قابل للهداية ، وفيه القسوة والصلابة ، والإعراض عن ذكر الله ، والكفر بهدى السماء .

قال الفخر الرازى :

وَمَنْ يُضِلِّلِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

أى : من جعل قلبه قاسيًّا مظلمًا بليد الفهم ، منافيًّا لقبول هداية الله ، فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . فلن يستطيع أحد هدايته ، أو يؤثر فيه حتى يهتدى . اهـ .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَلْشًا مُّتصدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر: ٢١) .

وقال ابن كثير :

اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّغْنَى تَقْشَعْرِ جُلُودٍ مِّنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ...

يصف الله المؤمنين بأنهم يلزمون الأدب عند سماع القرآن ، كما كان الصحابة رضى الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك .

تلا فتادة - رحمه الله - هذه الآية فقال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله عز وجل ، بأنهم تقشعر جلودهم ، وتبكي عيونهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم ، والغشيان عليهم ، إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان^(٨٨) .

عذاب الكافرين

﴿ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾
 ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْهَمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ
 الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

المفردات :

يَتَقَى بِوَجْهِهِ : يتلقى العذاب بوجهه لا شيء يقيه منه ، أهذا كمن أمِن ؟

سُوءَ الْعَذَابِ : أقساؤه وأشدّه .

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ : أى : المشركين فى جهنم .

ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ : جزاء كسبكم الشرّ والفساد .

مِنْ قَبْلِهِمْ : من قبل أهل مكة .

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ : من الجهة التى لا يخطر ببالهم إتيان الشرّ منها .

الْخِزْيَ : المسخ والذلّ والإهانة .

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ : لو كانوا يعلمون ذلك ما كذبوا ولا كفروا .

التفسير :

٢٤ - أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الكافرين ، ونعيم المتقين .

وهنا يقول : أفمن يلقى فى النار موثقاً بالحبال قد ربطت يداه بالحبال ، فاضطر أن يستقبل النار

بوجهه ، كمن هو آمن سعيد مطمئن بالجنة ونعيمها ؟!

ويجوز أن يراد بالوجه الجسم كله ، فهو يسحب فى النار على وجهه ، ويُهَانُ أعز جزء عليه وهو الوجه ،

فالإنسان فى الدنيا يدافع عن وجهه بيديه ، وفى الآخرة يلقى الكافر فى النار مكتوفاً .

قال عطاء وابن زيد : يرمى به مكتوفاً فى النار ، فأول شيء تمسّ منه النار وجهه .

وقال مجاهد : يجرّ على وجهه فى النار . اهـ .

قال تعالى : يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ . (القمر : ٤٨) .

وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ .

للكافرين فى جهنم عذاب بين طبقات النار ، ومعهم مهانة وتقريع من الملائكة لهم ، حيث تقول لهم الملائكة : تذوقوا ألوان العذاب ، جزاء كفركم بالله ، واجتراح المعاصى ، وتكذيب الرسل ، فالجزاء من جنس العمل .

٢٥ - كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ .

كذبت أمم رسلها من قبل كفار مكة ، وكانوا فى أمن ودعة ونعمة وعافية ، لا يتوقعون نزول العذاب الشديد بهم ، وبينما هم قارئون آمنون مطمئنون ، جاءهم العذاب من حيث لا يتوقعون قدومه ، فجاءهم ضحى وهم يلعبون وعند القيلولة والهدوء ، أو فى ظلام الليل وسكونه ، وذلك مثل غرق قوم نوح ، وغرق فرعون وجنوده ، والعذاب المهلك لعاد وثمود .

قال تعالى : وَكَانَ مِنْ قَرْنِهِ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنَيْكَ الَّذِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . (محمد : ١٣) .

٢٦ - فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

من شأن القرآن أن يعرض عذاب الآخرة مشاهداً ، كأنما يراه الإنسان واقعا أمامه ليتعظ ويعتبر ، وهنا يقول : لقد ذاق الكفار ألوان العذاب فى الدنيا .

قال تعالى : فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ... (العنكبوت : ٤٠) .

لقد أصابهم العذاب المادى ، وأذاقهم الله مع ذلك الخزى والهوان والذل فى الحياة الدنيا ؛ حيث أصبحوا مثلاً وعبرة يعتبر بها فى الدنيا ، وفى الآخرة عذاب أكبر ، وأحوال جسام ، حيث يجدون فى النار ألوان العذاب والهوان والقهر والإذلال .

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . ذلك علماً يقيناً ما كذبوا ولا كفروا ، أو لو كان من شأنهم أن يعلموا شيئاً لعلموا ذلك واعتبروا به .

قال الفخر الرازي:

وَلْعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

يعنى أن أولئك ، وإن نزل عليهم العذاب والخزى كما تقدم ذكره ، فالعذاب المؤخر لهم فى يوم القيامة أكبر وأعظم من ذلك الذى وقع ، والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب ^(١٠) .

★ ★ ★

أدلة التوحيد

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْءَانَا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٩) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِّمُونَ﴾ (٣١) ﴿

المفردات :

ضرب مثلاً ، تشبيه بحال عجيبة بأخرى ، وجعلها مثلاً لها .

متشاكسون ، مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم .

سلمان الرجل ، خالصا لسيد واحد .

بل أكثرهم لا يعلمون ، لا يعلمون الحق فيتبعوه .

مسيّت ، بالتشديد ، من لم يمّت وسيموت ، (ميّت بالتسكين ، من فارقت الروح ومات بالفعل) .

تختصمون ، فى يوم القيامة أمام الله تعالى ، يتخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم ، يقال :

اختصم القوم ، أى : خاصم بعضهم بعضا .

التفسير :

٢٨، ٢٧ - وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانَا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

وصف الله القرآن الكريم فى الآية الثالثة والعشرين من هذه السورة بخمس صفات ، وهنا ذكر الله تعالى أنه اختص هذا الكتاب بما يأتى :

ضرب فيه الأمثال : فبيّن أحوال الأمم السابقة ، وبيّن ما أصاب المكذّبين من الهلاك ، وما أصاب المؤمنين من الفوز والتمكين فى الأرض ، كما ضرب الأمثال للكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وللكمة الخبيثة - وهى كلمة الكفر والفسوق - بالشجرة الخبيثة ، وضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة فرعون ، وضرب مثلاً للذين كفروا بامرأتى نوح ولوط .

وفى القرآن جانب من الأمثلة التى جمعت المعنى الكثير فى الألفاظ القليلة ، مثل : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ . (الرحمن : ٦٠) . ومثل : إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) . ومثل : قُبِهُتِ اللَّيْلِ كَفَرًا ... (البقرة : ٢٥٨) . ومثل : إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... (الإسراء : ٧) .

كما قارن القرآن بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، وقارن بين هدوء المؤمن واطمئنان قلبه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وحيرة الكافر وتشقته بين عدد من الأصنام والأوثان ، وسيأتى مزيد توضيح لذلك فى الآية التاسعة والعشرين من سورة الزمر .

كما شبه القرآن إنزال الماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، بإحياء الموتى عند البعث والنشور ، أى أن القرآن دخل على الناس من كل باب ، فقدم لهم عقيدة التوحيد ، وقدم الأدلة المتعددة على صحة هذه العقيدة ، وذكر قصص السابقين وأمثالهم ، وضرب المثل بظلم بعض القرى وكفرها وإهلاكها ، ونوع الأمثال فشبه الإيمان بالنور والبصر والظلم والحياة ، وشبه الكفر بالظلام وبالعُمى ، وبالحرور وبموت القلوب ، وكان ذلك تحريكا للعقل ، وتنبيها للفؤاد ، وتذكيرا للغافلين .

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . أى : كى يتعظوا ويتنبهوا ويتذكروا الإيمان ، فيكون سبيلا إلى الفلاح فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة .

قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

أنزلنا قرآنا ناطقاً باللغة العربية ، سليما من العوج والنقص ، غاية فى البلاغة والفصاحة ، سليما فى لفظه وفصاحته وبلاغته وجزالة ألفاظه ، سليما فى معانيه من الدعوة إلى توحيد الله وإقامة العبادات والمعاملات والآداب والأحكام ، فقد سلم ميناه ومعناه وليس فيه عوج ولا اضطراب ، ولا نقص أو خلل فى ألفاظه ، ولا عيوب فيما اشتمل عليه من معانٍ ، ليكون القرآن وسيلة إلى تقوى الله تعالى ، والخوف منه ، والتقوى غاية المنى من كل تشريع .

قال تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ...
(الطلاق : ٢، ٣)

٢٩- ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

هذا أيضًا من أمثلة القرآن الموضحة التي يشبه فيها حالاً عجيبة بأخرى مثلها .

ومعنى الآية :

ضرب الله مثالا للمشرك والموحد ، فالمشرك صفته صفة عبد يملكه أشخاص متعددون متنازعون . مختلفون ، يكلفونه بأعمال متعددة فى وقت واحد ، وإذا طلب من أحدهم مالا أو طعاما أو كساء ، أو غير ذلك مما يحتاج إليه ، أحاله على المالك الآخر ، فيصاب بالإحباط والتشوش ، إذ لا يدرى من الذى يطيع ، وعلى من يعتمد من هؤلاء المالكين له ، هذا شأن المشرك بالله ، الذى يعبد أصناماً شتى لا تنفعه ولا تفيده ولا تدفع عنه ضرراً ، فهو فى حالة إحباط وتشوش ، كاسفاً باله قليل الرجاء ، أما المثل الآخر فهو حالة رجل سلم لرجل ، أى عبد لا يملكه إلا رجل واحد ، يكلفه بمطالبه فى نظام وترتيب ، ويتكفل المالك الواحد بما يحتاج إليه العبد من طعام وشراب وكساء وغير ذلك ، وهذا مثال للمؤمن الذى يعبد رباً واحداً ، يلجأ إليه فى البأساء ، ويشكره فى النعماء ، ويؤمن به وحده ، ويعبده وحده لا شريك له ، ويتكفل الله تعالى به ويرعاه الله القوى القدير .

هَلْ يَسْتَوِيَانِ .

هل يستوى من توزع بين عدة ملاك متشاكسين ، يقول له أحدهم : اذهب إلى مكان كذا ، فيقول الثانى : لا تذهب لأنى أريدك فى عمل كذا ، وبين عبد ملكيته سالمة وخالصة لشخص واحد ، وأوامره مرتبة وهذا المالك متكفل برعاية عبده ، وسد حاجاته .

والجواب : لا يستويان .

الْحَمْدُ لِلَّهِ . أى : الثناء الجميل والشكر العظيم له تعالى ، على أنه رب واحد ، وإله واحد ، لا إله غيره ولا رب سواه .

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

بل أكثر المشركين ، لا يعلمون عدم تساوى الرجلين ، ولا يدركون هذا الفرق بينهما ، فيشركوا مع الله غيره .

٣٠ - إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مُّيْتُونَ .

كان الكافرون يستطيلون عمر النبي ﷺ ، ويقولون : غدا يموت فنستريح منه ، أو نشمت فيه ، فأكد القرآن هنا أن الموت لاحق بالنبي ﷺ ، ولاحق بالكفار المشركين ، فلا داعي لأن يشمت فان في فانٍ ، فالموت سيدرك محمدًا ، وسيدرك أعداء محمد .

٣١ - ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

أي : تعاد الخصومة التي بينك وبينهم يوم القيامة أمام الله تعالى ، فتشهد يا محمد بأنك بلغت الرسالة ، وأدّيت الأمانة ، وأنهم قد كذبوا بالحق ، وكفروا بالله ورسوله ، ويعتذرون بما لا طائل تحته .

وقد أورد ابن كثير وغيره من المفسرين ، طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ، تفيد أن التخاصم يوم القيامة يكون بين المؤمن والكافر ، وبين الظالم والمظلوم ، وأن الله تعالى يعيد الخصومة التي كانت في الدنيا بين المتخاصمين مرة أخرى لتحقيق العدالة الكاملة الحق ، ومعاقبة الظالمين ، ومكافأة المؤمنين .

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ .

يعنى تخاصم الكافر والمؤمن ، والظالم والمظلوم .

وقال الزبير : لما نزلت هذه الآية قلنا : يا رسول الله ، أيكسر علينا ما كان بيننا في الدنيا من خواص الذنوب ؟ قال : «نعم ، ليكررن عليكم حتى يؤدّى إلى كل ذى حق حقه» . فقال الزبير : والله إن الأمر لشديد .

وأخرج مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون من المفلس»؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال ﷺ : «المفلس من أمّتى من أتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح فى النار»^(١١) .

وفى البخارى ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»^(١٢) .

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يجاء بالحاكم الجائر الخائن يوم القيامة ، فتخاصمه الرعية ، فيقلحون عليه ، فيقال له : سدّ ركننا من أركان جهنم»^(١٣) .

★ ★ ★

تم تفسير الجزء الثالث والعشرين ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثالث والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٦٠/٣ .

(٢) (إن) حرف نفى ، و(كلّ) مبتدأ ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، و(لها) بمعنى إلا ، و(جميع) خبر المبتدأ ، و(محضرون) خبر ثان .

(٣) إذا أقبل الليل من ههنا :

رواه البخارى فى الصيام (١٩٥٤) ومسلم فى الصيام (١١٠٠) من حديث عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم».

(٤) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٦٨ .

(٥) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف بمصر ، ص ٦٥٥ (الهامش) .

(٦) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، المجلد الخامس ص ٢٩٦٩ .

(٧) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٦٤/٣ .

(٨) د. محمد سيد طنطاوى ، تفسير سورة يس ، ص ٤٦ نقلاً عن : حاشية الجمل على الجلالين جـ ٣ ص ٥١٨ .

(٩) (أكلته) بضمّ الهمزة اللقمة ، وبالفتح للمرة من الأكل ، وانظر تفسير الآلوسى وغيره .

(١٠) ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٦) وفى الفتن (٧٢٢١) ومسلم فى الفتن (٢٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت قرأها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً﴾ ولتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقوم الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقوم الساعة وقد رفع أحدىكم أكلته إلى فيه فلا يطعمها» .

(١١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٤٤ ، وانظر فتح المبين لشرح الأربعين ص ١٩٠ ، ومفتاح السنة للدكتور عبد الله شحاتة ص ٤٣ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٦ م .

(١٢) (هم) مبتدأ ، (وأزواجهم) معطوف عليه ، و(متكئون) خبر المبتدأ .

(١٣) إن فى الجنة شجرة يسير الراكب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٨١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يبلغ به النبى ﷺ قال : «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقرأ إن شئتم: ﴿وظل ممدود﴾» .

(١٤) انظر تفسير ابن كثير ، حيث قال ابن كثير : وفى إسناده نظر .

(١٥) تعس عبد درهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة:

رواه البخارى فى، الجهاد (٢٨٨٧)، وفى الرقاق (٦٤٣٥)، وابن ماجه فى الزهد (٤١٥٣، ٤١٣٦) من حديث أبى هريرة.

(١٦) بعدا لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل:

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «من مخاطبة العبد ربه يقول: يارب ألم تجزنى من الظلم؟ قال: يقول: بلى قال: فيقول: فإننى لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقى قال: فتتطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعدا لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل».

(١٧) وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر:

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٥) من حديث مصعب قال: كان سعد يأمر بخمس وينكرهن عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بهن: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا - يعنى فتنة النجال - وأعوذ بك من عذاب القبر.

(١٨) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٦٩/٣ .

(١٩) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وزارة الأوقاف - مصر ، ص ٦٥٨ هامش .

(٢٠) أنا النبى لا كذب:

رواه البخارى فى المغازى (٤٣١٦) ومسلم فى الجهاد (١٧٧٦) من حديث أبى إسحاق قال: قيل للبراء وأنا أسمع: أوليتم مع النبى ﷺ يوم حنين فقال: أما النبى ﷺ فلا كانوا رماة فقال: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب».

(٢١) لولا أنت ما اهتدينا:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٣٧) ومسلم فى الجهاد (١٨٠٣) من حديث البراء رضى الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول:

ولا تصدقنا ولا صلنا	لولا أنت ما اهتدينا
وثبت الأقدام إن لاقنا	فالأزلى سكتة علنا
إذا أراى فتنه أبنا	إن الألى قد بغوا علنا

(٢٢) هل أنت إلا إصبع دमित:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٠٢) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٩) من حديث جندب بن سفيان أن رسول الله ﷺ كان فى بعض المشاهد وقد دमित إصبعه فقال:

هل أنت إلا إصبع دमित وفى سبيل الله ما لقيت

(٢٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٧٠/٣ .

(٢٤) الجبر: الحبل الذى يربط به .

(٢٥) أى : فلا غيره لديه ولا إنكار منه لما ينزل به من خسف .

(٢٦) فى بعض الروايات أنه العاص بن وائل ، وقيل : هو أبو جهل ، وقيل غير ذلك ، لكن الروايات متفقة على موضوع القصة ، وإن اختلفت فيمن خاصم الرسول ﷺ .

(٢٧) انظر تفسير ابن كثير ، والنسفى ، وأبو السعود .

(٢٨) أى فى اعتقاد نسب بينه سبحانه وبين الجنة والملائكة ، فى قولهم : الملائكة بنات الله ، وهو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ والمراد بالجنة : الملائكة أو الجن .

(٢٩) وقرأ بعضهم بتونين لفظ (زينة) ونصب لفظ (الكواكب) على أنه مفعول به لفعل محذوف ، أى : أعنى الكواكب ، ففيها ثلاث قراءات .

(٣٠) أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر :

رواه مسلم فى السلام (٢٢٠٢) وابن ماجه فى الطب (٣٥٢٢) من حديث عثمان بن أبى العاص الثقفى أنه شكاً إلى رسول الله ﷺ وجعاً يده فى جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ : «ضع يدك على الذى تألم من جسدك وقل باسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» .

(٣١) أعوذ بكلمات الله التامة :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٧١)، والترمذى فى الطب (٢٠٦٠)، وأبو داود فى السنة (٤٧٣٧)، وابن ماجه (٣٥٢٥)، وأحمد (٢١١٣، ٢٤٣٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبی ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة».

(٣٢) ومن طوارق الليل والنهار :

رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٧٣) من حديث يحيى بن سعيد أنه قال: أسرى برسول الله ﷺ فرأى عفریتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله ﷺ رآه فقال له جبريل: أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتين طفتن شعلته وخر لفيه فقال رسول الله ﷺ: «بلى» فقال جبريل: فقل: أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها وشر ما ذرأ فى الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمان.

(٣٣) اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٨٤) بلفظ: «إذا أصبح أحدكم قليلاً: أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين اللهم إنى أسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده»، ثم إذا أمسى قليلاً مثل ذلك.

(٣٤) من سن في الإسلام سنة حسنة :

رواه مسلم في العلم (١٠١٧) وفي الزكاة (٢٥٥٤) ، والدارمي في المقدمة (٥١٢، ٥١٤) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٥) ، وابن ماجة في المقدمة (٢٠٣) ، وأحمد (١٨٦٧٥، ١٨٧٠١، ١٨٧١٨، ١٨٧٢٠) من حديث جرير بن عبد الله البجلي. ورواه أحمد (١٠١٧٨، ١٠٣٧٠) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد أيضاً (٢٢٧٧٨) من حديث حذيفة، ورواه ابن ماجة في المقدمة (٢٠٧) من حديث وهب بن عبد الله.

(٣٥) إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخاري في المناقب (٢٥٣٤، ٢٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين».

(٣٦) العلل : الضرائر ، شبه الرسل بأبناء الضرائر ، أمهاتهم متعددة ، وأبوهام واحد ، وكذلك الرسل رسالاتهم متعددة ، ودينهم واحد ، يدعو إلى التوحيد ومكارم الأخلاق ، فالله سبحانه وتعالى أرسلهم جميعاً ، وتميز كل رسول بهداية قومه ، ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق ، ومحاربة الرذائل المتفشية بينهم .

(٣٧) الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٢٤٤٣) وأحمد في مسنده (٩٠١٧) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

(٣٨) إنما بعث لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد في مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبي هريرة.

(٣٩) أخرجه ابن أبي حاتم ، وروى بعضه الترمذي ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ١٧٩/٣ .

(٤٠) تفسير الألوسي ٢٣ / ٩٢ ، وهذه الأقوال يمكن مناقشتها ، فالأمر في الآخرة لا يقاس بمقياس الدنيا ، إن الحديث عن أصحاب الجنة ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، فإذا اشتهى مؤمن من أهل الجنة أن يرى قرينه في أهل النار ، فسيره بقدرة الله وتيسيره .

وإذا كان من عهده علم من الكتاب قد استطاع إحضار عرش بلقيس في طرفة عين لنبي الله سليمان ، واستطاع ذو القرنين بتيسير الله أن يصل إلى مشارق الأرض ومغاربها ، واستطاع الهمد أن يستكشف مملكة سبأ ، وأن يوصل خطاب سليمان إلى بلقيس ، وكل هذا في الدنيا بتيسير الله وتوفيقه ، والأمم في الآخرة ليسوا سوى أمم مسور ، ولا يحتاج إلى إجهاد الألوسي نفسه لتلمس معرفة كيفية اطلاع مؤمن في الجنة على كافر في النار ، يكفي أنه قول الله ، والله على كل شيء قدير .

(٤١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني ١٨١/٣ .

(٤٢) أورده ابن كثير في تفسيره ، عند تفسير الآية ٥٦ من سورة يس : ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون . هم وأزواجهم في ظلل على الآراك متكئون﴾ (يس : ٥٥ ، ٥٦) .

(٤٣) أشد الناس بلاء الأنبياء:

بوَّب به البخارى فى كتاب المرضى، ورواه الترمذى فى الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨٤، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠)، والدارمى فى الرقاق (٢٧٨٣)، من حديث سعد بن أبى وقاص، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٤٤) قرأ غير واحد من السبعة، (الله ربكم)، برفع لفظ الجلالة على أنه مبتدأ، ورفع (ربكم) على أنه خبر.

(٤٥) اشتهرت بتسميتها (بحيرة لوط) وهى قريبة من شرق الأردن، انظر مختصر تفسير ابن كثير: محمد الصابونى ١٩٠/٣.

(٤٦) المقصود الاعتاظ بالهالكين مثل ثمود قوم صالح، ومثل قوم لوط.

(٤٧) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة (٤١٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣١٢، ٣١٣)، وفى المغازى (٤٠٧٦، ٤٠٨٦)، وفى تفسير القرآن (٤٣٣٣)، ومسلم فى الزهد (٥٢٩٢، ٥٢٩٣)، وأحمد (٤٣٣٣، ٤٩٧٤، ٥٠٩٠). من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا بأكين...» الحديث.

(٤٨) ملعون من عمل بعمل قوم لوط:

رواه أحمد فى مسنده (١٨٧٨) والترمذى تعليقا فى الحلو (١٤٥٦) من حديث ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غير تخوم الأرض، ملعون من كره أسمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط».

(٤٩) إن الله لا يستحيى من الحق لا تأتوا النساء فى أدبارهن:

رواه الترمذى فى الرضاع (١١٦٤) والدارمى فى الطهارة (١١٤١) من حديث على بن طلق قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحدث أحدكم فى الصلاة فليصرف وليتوضأ ثم يصل». وقال رسول الله ﷺ: «لا تأتوا النساء فى أدبارهن فإن الله لا يستحيى من الحق». وقال الترمذى: حديث على بن طلق حديث حسن وسمعت محمدا يقول: لا أعرف لعلى بن طلق عن النبى ﷺ غير هذا الحديث الواحد ولا أعرف هذا الحديث من حديث طلق بن على السحيمى وكأته رأى أن هذا رجل آخر من أصحاب النبى ﷺ. وروى وكيع هذا الحديث. ورواه ابن ماجة فى النكاح (١٩٢٤) وأحمد فى مسنده (٢١٣٥١) من حديث خزيمه بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يستحيى من الحق - ثلاث مرات - لا تأتوا النساء فى أدبارهن».

(٥٠) وفى بضع أحدكم صدقة:

رواه مسلم فى الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبى ذر أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليل صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة وفى بضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله أيتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر».

(٥١) تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة :

قال العجلوني في كشف الخفاء: رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه، وكذا القضاعي عن أبي هريرة رضى الله عنه، ورواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى فقال: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله...» الحديث، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفكوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» وفيه: «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»، وأورده الضياء في المختارة وهو حسن، وله شاهد رواه عبد ابن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ: «يا ابن عباس احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى، قال في المقاصد: وقد بسطت الكلام عليه في تخريج الأربعين.

(٥٢) فلم أزل أحب الدباء من يومئذ :

رواه البخاري في البيوع (٢٠٩٢) من حديث أنس بن مالك قال: إن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعته قال أنس بن مالك: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام فقرب إلى رسول الله ﷺ خبزاً ومرقاً فيه دباء وقديد، فرأيت النبي ﷺ يتبع الدباء من حوالى القصعة قال: فلم أزل أحب الدباء من يومئذ.

(٥٣) ألا تصفون كما تصف الملائكة :

رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠) وأحمد في مسنده (٢٠٤٥٦) من حديث جابر بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «ما لي أراكم راغبي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس اسكنوا في الصلاة» قال: ثم خرج علينا فرأنا حلقات فقال: «أراكم عزين» قال: ثم خرج علينا فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها»، فقلنا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف».

(٥٤) فضلنا على الناس بثلاث :

رواه مسلم في المساجد (٥٢٢) من حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». وذكر خصلة أخرى.

(٥٥) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني، وفيه طائفة أخرى من الأحاديث النبوية.

(٥٦) ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد :

يشهد لهذه اللفظة ما رواه أحمد في مسنده (٢١٠٠٥) والترمذي في الزهد (٢٣١٢) من حديث أبي نر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطلت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لأضحككم قليلاً ولبيكنم كثيراً ولا تلدنتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم على - أو إلى - الصعدات تجازون إلى الله»، قال: فقال أبو نر: والله لو بدت أنى شجرة تعضد.

وأخرجه الضحاك في تفسيره، ورواه ابن عساكر بنحوه، وأصله في الصحاح، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ١٩٣/٣.

(٥٧) ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده :

رواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٣) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤١٧) من حديث أبى هريرة عن رسول الله ﷺ: «أن داود النبى عليه السلام كان لا يأكل إلا من عمل يده». ورواه البخارى فى البيوع (٢٠٧٢) من حديث المقدم رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٥٨) إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٥٦٩) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل».

(٥٩) الله أكبر خربت خيبر :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٤٥) ومسلم فى الجهاد (١٣٦٥) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس، فقال النبى ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم، فساء صباح المنذرين».

(٦٠) انظر كشف الزمخشري، وتفسير النيسابورى ٧٢/٢٣، ومختصر تفسير ابن كثير ١٩٤/٣، ١٩٥.

(٦١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ تحقيق الأستاذ محمد على النجار ج ١ ص ٤٠٠.

(٦٢) تفسير الألوسى .

(٦٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ١٩٨/٣.

(٦٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى .

(٦٥) يجوز فى قوله تعالى: ﴿ما لها من فراق﴾ أن تكون ما نافية و﴿لها﴾ يرفع فواق على الفاعلية لاعتمادها على النفى، أو أن تكون جملة من مبتدأ وخبر، وعلى التقديرين فالجملة المنفية صفة لـ ﴿الصيحة﴾، و﴿من﴾ مزيدة.

(٦٦) أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٣١) وفى أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال له: «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً».

(٦٧) يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) وأحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧)، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى نر.

(٦٨) الخيل في نواصيها الخير :

رواه البخاري في الجهاد (٢٦٣٨، ٢٦٤٠)، وفي فرض الخمس (٢٨٨٧)، وفي المناقب (٢٣٧٢)، ومسلم في الزكاة (١٦٤٨)، وفي الإمارة (٣٤٧٩، ٣٤٨٠) وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٢) والترمذي في فضائل الجهاد (١٥٦٠) والنسائي في الخيل (٣٥٠٥، ٣٥٠٦) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٨)، وأحمد (٤٨٥٦، ٤٩٥٣، ٥٥٠٨)، والدارمي في الجهاد (٢٣١٩، ٢٣٢٠)، من حديث عروة البارقي، وأنس، وأبي هريرة، وابن عمر، وجابر. بلفظ: "الخيال في نواصيها الخير إلى يوم القيامة"

(٦٩) انظر تفسير القاسمي .

(٧٠) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان، وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، والتفسير الوسيط للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي، وتفسير: القرطبي، والطبري، والآلوسي .

(٧١) لأطرفن الليلة على سبعين امرأة، كل منهن تأتي بفارس :

كلا اللفظين رواهما البخاري في أحاديث الأنبياء (٣١٧١)، وفي الإيمان (٦١٤٨)، وفي كفارات الأيمان (٦٢٢٥)، وفي التوحيد (٦٩١٥)، ومسلم في الإيمان (٣١٢٤، ٣١٢٦)، والترمذي في النور (١٤٥٢)، والنسائي في الإيمان (٣٧٧١، ٣٧٩٦)، من حديث أبي هريرة .

(٧٢) انظر تفسير المراغي جزء ٢٣ ص ١٢٤ حيث يقول: (إن الماء كان من المياه الكبرى ذات الفائدة الناجحة في تلك الأمراض) .

(٧٣) أنا ابن النبيين :

قال العجلوني في "كشف الخفاء" (٦٠٦) : كذا في الكشف، قال الزيلعي وابن حجر في تخريج أحاديث: لم نجده بهذا اللفظ، وقال في المقاصد: حديث ابن النبيين رواه الحاكم في المناقب من مستدركه من حديث عبيد الله بن محمد العتبي قال حدثنا عبد الله بن سعيد عن الصنابجي قال جئنا مجلس معاوية بن أبي سفيان، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فقال بعضهم: النبي إسماعيل، وقال بعضهم: بل إسحاق، فقال معاوية: سقطتم على الخير، كنا عند رسول الله ﷺ فقال أعرابي يشكو جرب أرضه: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة، والماء يابس، هلك المال وضاع العيال، فعد على مما آفاه الله عليك يا ابن النبيين فتبسم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليه، فقلنا لمعاوية: من النبيان يا أمير المؤمنين فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر له إن سهل له أمرها أن ينحر بعض ولده، فأخرجهم وأسهم بينهم، فخرج السهم لعبد الله، فأراد نحه فممنعه أخواله من بني مخزوم، وقالوا له: أرض ربك، وإفد ابنك، ففداه بمائة ناقة فهو النبي، وإسماعيل الثاني. انتهى مع زيادة وقال في المواهب وشرحا للزرقاني: وعند الحاكم في المستدرک وابن جرير وابن مروي والثعلبي في تفاسيرهم عن معاوية بن أبي سفيان قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه أعرابي، فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة، والماء يابس، وفي نسخة الكلا يابس، وخلفت المال عابسا، هلك المال وضاع العيال، فعد على مما آفاه الله عليك يا ابن النبيين، فتبسم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليه. والحديث حسن بل صححه الحاكم والنسائي لثبوته بتعدد طرقه، انتهى، وأقول: فحينئذ لا ينافي ما نقله الطبري في سيرته عن السيوطي أن هذا الحديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف. انتهى، وفيه دليل على أن النبي إسماعيل، وهو الصحيح، وفي الهدى لابن القيم : إسماعيل هو النبي على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم، أما القول بأنه إسحاق فمروود بكثير من عشرين وجها ونقل عن الإمام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل في كتابهم، فإن فيه : إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بركه، وفي لفظ وحده، وقد حرفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم أذبح ابنك إسحاق .

ولبعضهم وقد أجاد :
 إن الذبيح ، هُذِيتْ ، إسماعيل
 نطق الكتاب بذاك والتنزيل
 شُرفُ به خَصَّ الإلهُ نبيناً
 وأبانه التفسير والتأويل

(٧٤) وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيننه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساعته». قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح لعنوه من منكرات خالد بن مخلد.

(٧٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ٢٠٩/٣ .

(٧٦) فى ظلال القرآن ٢٤ / ٨ .

(٧٧) من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٨٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٠٢) وأحمد فى مسنده (٩٢٣٦) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه» .

(٧٨) يشتمنى ابن آدم :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٣) ، والنسائى فى الجنائز (٢٠٧٨) وأحمد (٨٨٧٠) .

(٧٩) لو أن أولكم وآخركم :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وأحمد (١٦٠/٥) ، عن أبى ذر رضى الله عنه. وأوله عند مسلم وأحمد : «يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى» . وعند الترمذى: «يا عبادى كلّم ضال إلا من هديته» . وقال: حديث حسن.

(٨٠) لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن :

رواه الترمذى فى الجنائز (٩٨٣) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٦١) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف» .

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب

(٨١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٩٢/٣ .

(٨٢) وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه :

تقدم تخريجه، انظر هامش (٧٤).

(٨٣) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، مجلد ٩ ص ٤٣٨، ٤٣٩، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(٨٤) إن في الجنة غرفاً ترى ظهورها :

رواه الترمذي في البر (١٩٨٤) وفي الجنة (٢٥٢٦) وأحمد في مسنده (١٣٤٠) من حديث علي قال: قال النبي ﷺ: «إن في الجنة غرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى لله بالليل والناس نيام». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب.

(٨٥) إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح :

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن مريويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه» فقلنا: يا رسول الله كيف انشرح صدره؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» قلنا: يا رسول الله فما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت». قال العراقي في تخريج الإحياء: رواه الحاكم في المستدرک من حديث ابن مسعود.

(٨٦) اطلبوا الحوائج :

قال السيوطي في الجامع الصغير (١١٠٦): اطلبوا الحوائج إلى نوى الرحمة من أمتى ترزقوا وتتجحدوا؛ فإن الله تعالى يقول: «رحمتي في نوى الرحمة من عبادي». ولا تطلبوا الحوائج عند القاسية قلوبهم فلا ترزقوا ولا تتجحدوا، فإن الله تعالى يقول: «إن سخطي فيهم». ونسب للعقيلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط عن أبي سعيد، وقال: ضعيف. قال المناوي في الفيض: وقد ذكر السخاوي الحديث من عدة طرق عن نحو عشرة من الصحب. ثم قال: طرقة كلها ضعيفة لكن المتن غير موضوع. انتهى. وسبقه لنحوه ابن حجر فقال: طرقة كلها ضعيفة وبعضها أشد ضعفاً من بعض.

(٨٧) اغتسموا الدعاء :

قال المناوي في الفيض: (اغتسموا الدعاء) أى اجتهدوا في تحصيله وفوزوا به فإنه غنيمة (عند الرقة) يكسر الراء وشدة القاف أى عند لين القلب وخشوعه وقشعرير البدن بمشاهدة عظمة الله أو خوفاً من عذابه أو حباً من كرمه أو غير ذلك مما يحدث الرقة وهو ضد القسوة التي هي علامة البعد عن الرب ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾ (فإنها رحمة) أى فإن تلك الحالة ساعة رحمة فإذا دعا العبد فيها كان أرجى للإجابة والدعاء عند الرقة يصدر عن القلب حالة رغبة ورهبة فتسرع الإجابة قال تعالى ﴿يدعوننا رغبا ورهبا﴾ أى عن قلب راغب راهب خاشع ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾. (وغير) وكذا القضاعي (عن أبي) بن كعب وفيه عمر بن أحمد أبو حفص بن شاهين قال الذهبي: قال الدارقطني: يخطئ وهو ثقة. وشبابة بن سوار قال في الكاشف: مرجئ صدوق. وقال أبو حاتم: لا يحتج به.

(٨٨) إذا اقشعر قلب المؤمن :

قال العراقي في تخريج الإحياء: حديث "إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطاياهم كما يتحانت من الشجرة ورقها" أخرجه الطبراني والبيهقي، من حديث العباس بسند ضعيف.

(٨٩) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابوني المجلد الثالث ص ٢١٨.

(٩٠) التفسير الكبير للفخر الرازي، مجلد ٩ ص ٤٩٩، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.

(٩١) أتدرون ما المفلس :

رواه مسلم في البر (٢٥٨١) والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) وأحمد في مسنده (٧٩٦٩) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار» .

(٩٢) من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه :

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه».

(٩٣) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) مجلد ٦ ص ٥٨٦٧ ، مطبعة دار الغد العربي ، العباسية - القاهرة .

(٩٤) يجاء بالحاكم الجائر :

نكره الهندي في كنز العمال (١٤٧٧١) بلفظ: يؤتى بالحاكم يوم القيامة بمن قصر وبمن تعدى، فيقول : أنتم خزان أرضي ورعاء عبيدي وفيمك بغيتي، فيقول للذي قصر: ما حملك على ما صنعت؟ فيقول: رحمته، فيقول الله: أنت أرحم بعبادي مني، ويقول للذي تعدى: ما حملك على الذي صنعت؟ فيقول: غضبا مني، فيقول: انطلقوا بهم فسدوا بهم ركننا من أركان جهنم. وقال: رواه أبو سعيد النقاش في كتاب القضاة من طريق ابن عبد الرحيم المروزي عن بقية ثنا سلمة بن كلثوم عن أنس، وعنده قال أبو داود: لا أحدث عنه، وسلمة شامى ثقة وبقية روايته عن الشاميين مقبولة، وقد صرح في هذا الحديث بالتحديث.



تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء (الثالث والعشرون)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٨	﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ...﴾	٤٥٠٧
٢٩	﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَلِإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾	٤٥٠٧
٣٠	﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ...﴾	٤٥٠٧
٣١	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ...﴾	٤٥٠٧
٣٢	﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾	٤٥٠٧
٣٣	﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...﴾	٤٥١٠
٣٤	﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ...﴾	٤٥١٠
٣٥	﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ...﴾	٤٥١٠
٣٦	﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...﴾	٤٥١٠
٣٧	﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ...﴾	٤٥١٠
٣٨	﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا...﴾	٤٥١٠
٣٩	﴿وَالْقَمَرُ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾	٤٥١٠
٤٠	﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ...﴾	٤٥١٠
٤١	﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾	٤٥١٠
٤٢	﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾	٤٥١٠
٤٣	﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ...﴾	٤٥١٠
٤٤	﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾	٤٥١٠
٤٥	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ...﴾	٤٥١٨
٤٦	﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ...﴾	٤٥١٨
٤٧	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ...﴾	٤٥١٨
٤٨	﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٤٥٢٠
٤٩	﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ...﴾	٤٥٢٠
٥٠	﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾	٤٥٢٠
٥١	﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَلِإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ...﴾	٤٥٢٠
٥٢	﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا...﴾	٤٥٢٠
٥٣	﴿إِنْ كُنَّا نَتَّبَعُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾	٤٥٢٠
٥٤	﴿فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُرُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا...﴾	٤٥٢٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٥	﴿إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكْهُونِ﴾	٤٥٢٥
٥٦	﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكئونَ﴾	٤٥٢٥
٥٧	﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾	٤٥٢٥
٥٨	﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾	٤٥٢٥
٥٩	﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرَمُونَ﴾	٤٥٢٥
٦٠	﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾	٤٥٢٨
٦١	﴿وَأَنْ أَعْبُدُونَنِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾	٤٥٢٨
٦٢	﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا...﴾	٤٥٢٨
٦٣	﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾	٤٥٣١
٦٤	﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾	٤٥٣١
٦٥	﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾	٤٥٣١
٦٦	﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ...﴾	٤٥٣١
٦٧	﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ...﴾	٤٥٣١
٦٨	﴿وَمَنْ نَعْمَرِهِ نَنْكَسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾	٤٥٣١
٦٩	﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾	٤٥٣٦
٧٠	﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾	٤٥٣٦
٧١	﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا...﴾	٤٥٤٠
٧٢	﴿وَنَلْلَنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾	٤٥٤٠
٧٣	﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾	٤٥٤٠
٧٤	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾	٤٥٤٣
٧٥	﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾	٤٥٤٣
٧٦	﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾	٤٥٤٣
٧٧	﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ...﴾	٤٥٤٤
٧٨	﴿وَضَرْبِ لَنَّا مِثْلًا وَنَسِيَ خَالِقَهُ...﴾	٤٥٤٤
٧٩	﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾	٤٥٤٤
٨٠	﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا...﴾	٤٥٤٤
٨١	﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ...﴾	٤٥٤٤
٨٢	﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾	٤٥٤٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨٣	﴿فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾	٤٥٤٤
—	أهم مقاصد سورة يس	٤٥٥٠
—	تفسير سورة الصافات	٤٥٥١
—	أهداف سورة الصافات	٤٥٥٢
١	﴿والصافات صافات﴾	٤٥٥٥
٢	﴿فالسافات زاجرات زجراً﴾	٤٥٥٥
٣	﴿فالسافات ذكراً﴾	٤٥٥٥
٤	﴿إن إلى الله كنتم لواحدا﴾	٤٥٥٥
٥	﴿رب السماوات والأرض وما بينهما رب المشارق﴾	٤٥٥٥
٦	﴿إننا زينا السماء الدنيا بزينه الكواكب﴾	٤٥٥٨
٧	﴿وحفظنا من كل شيطان مارد﴾	٤٥٥٨
٨	﴿لا يسمعون إلى الملائه الأعلى...﴾	٤٥٥٨
٩	﴿بحوراً ولهم عذاب واصب﴾	٤٥٥٨
١٠	﴿إلا من خطف الخطفه فأتبعه شهاب ثاقب﴾	٤٥٥٨
١١	﴿فاستقتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا...﴾	٤٥٦٣
١٢	﴿بيل عجب وتيسخرون﴾	٤٥٦٣
١٣	﴿وإذا نكروا لا ينكروا﴾	٤٥٦٣
١٤	﴿وإذا رأوا آية يستسخرون﴾	٤٥٦٣
١٥	﴿وقالوا إن هذا إلا سحر مبين﴾	٤٥٦٣
١٦	﴿أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لَمَبْعوثون﴾	٤٥٦٣
١٧	﴿أو أبائنا أو نساء الأولاد﴾	٤٥٦٣
١٨	﴿قل نعم وأنتم داخلون﴾	٤٥٦٣
١٩	﴿فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون﴾	٤٥٦٣
٢٠	﴿وقالوا يا ربنا هذا يوم الدين﴾	٤٥٦٣
٢١	﴿هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون﴾	٤٥٦٣
٢٢	﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم...﴾	٤٥٦٧
٢٣	﴿من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾	٤٥٦٧
٢٤	﴿وقنفوهم إنهم مستنولون﴾	٤٥٦٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٥	﴿مَالِكُمْ لَا تَنْصَارُونَ﴾	٤٥٦٧
٢٦	﴿بَلْ هُمَ الْيَوْمَ مُسْتَسَامُونَ﴾	٤٥٦٧
٢٧	﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾	٤٥٦٧
٢٨	﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾	٤٥٦٧
٢٩	﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾	٤٥٦٧
٣٠	﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾	٤٥٦٧
٣١	﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾	٤٥٦٧
٣٢	﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾	٤٥٦٧
٣٣	﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾	٤٥٦٧
٣٤	﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾	٤٥٦٧
٣٥	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾	٤٥٦٧
٣٦	﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾	٤٥٦٧
٣٧	﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾	٤٥٦٧
٣٨	﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾	٤٥٦٧
٣٩	﴿وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٤٥٦٧
٤٠	﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾	٤٥٧٤
٤١	﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعَالُومٌ﴾	٤٥٧٤
٤٢	﴿فَوَاكِهِ وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾	٤٥٧٤
٤٣	﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾	٤٥٧٤
٤٤	﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾	٤٥٧٤
٤٥	﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾	٤٥٧٤
٤٦	﴿بِيضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾	٤٥٧٤
٤٧	﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾	٤٥٧٤
٤٨	﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عِينٍ﴾	٤٥٧٤
٤٩	﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾	٤٥٧٤
٥٠	﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾	٤٥٧٩
٥١	﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾	٤٥٧٩
٥٢	﴿يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدُوقِينَ﴾	٤٥٧٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٣	﴿أئنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾	٤٥٧٩
٥٤	﴿قال هل أنتم مطاعون﴾	٤٥٧٩
٥٥	﴿فاطلع قراءه فى سواء الجحيم﴾	٤٥٧٩
٥٦	﴿قال تالله إن كنت لتردين﴾	٤٥٧٩
٥٧	﴿ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين﴾	٤٥٧٩
٥٨	﴿أفما نحن بميتين﴾	٤٥٧٩
٥٩	﴿إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين﴾	٤٥٧٩
٦٠	﴿إن هذا هو الفوز العظيم﴾	٤٥٧٩
٦١	﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾	٤٥٧٩
٦٢	﴿أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم﴾	٤٥٨٤
٦٣	﴿إننا جعلناها فتنة للظالمين﴾	٤٥٨٤
٦٤	﴿إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم﴾	٤٥٨٤
٦٥	﴿طالعها كأنه رؤس الشياطين﴾	٤٥٨٤
٦٦	﴿فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون﴾	٤٥٨٤
٦٧	﴿ثم إن لهم عليها لشوىا من حميم﴾	٤٥٨٤
٦٨	﴿ثم إن مرجعهم لالى الجحيم﴾	٤٥٨٤
٦٩	﴿إنهم ألفوا آباءهم ضالين﴾	٤٥٨٤
٧٠	﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾	٤٥٨٤
٧١	﴿ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين﴾	٤٥٨٤
٧٢	﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين﴾	٤٥٨٤
٧٣	﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾	٤٥٨٤
٧٤	﴿إلا عباد الله المخلصين﴾	٤٥٨٤
٧٥	﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾	٤٥٨٩
٧٦	﴿ونجيناه وأهله من الكرب العظيم﴾	٤٥٨٩
٧٧	﴿وجعلنا ذريته هم الباقين﴾	٤٥٨٩
٧٨	﴿وتركنا عليه فى الآخرين﴾	٤٥٨٩
٧٩	﴿سلام على نوح فى العالمين﴾	٤٥٨٩
٨٠	﴿إننا كبذلك نجزي المحسنين﴾	٤٥٨٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨١	﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٥٨٩
٨٢	﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾	٤٥٨٩
٨٣	﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾	٤٥٩١
٨٤	﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَالِيمٍ﴾	٤٥٩١
٨٥	﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾	٤٥٩١
٨٦	﴿أَنْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَعْبُدُونَ﴾	٤٥٩١
٨٧	﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٤٥٩١
٨٨	﴿فَنَظَرْنَا نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾	٤٥٩١
٨٩	﴿فَنَقَالَ إِنَّمَا سِقَاقِيمٌ﴾	٤٥٩١
٩٠	﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾	٤٥٩١
٩١	﴿فَنَارَغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾	٤٥٩١
٩٢	﴿مَالَكُمْ لَا تَنْتَظِقُونَ﴾	٤٥٩١
٩٣	﴿فَنَارَغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾	٤٥٩١
٩٤	﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ﴾	٤٥٩١
٩٥	﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾	٤٥٩٦
٩٦	﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	٤٥٩٦
٩٧	﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بَنِيَانًا فَاُلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾	٤٥٩٦
٩٨	﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾	٤٥٩٦
٩٩	﴿وَقَالَ إِنَّمَا ذَاهِبَ إِلَى رِيْسِي سَيَهْدِينِ﴾	٤٥٩٦
١٠٠	﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾	٤٥٩٦
١٠١	﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾	٤٥٩٦
١٠٢	﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ...﴾	٤٥٩٦
١٠٣	﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾	٤٥٩٦
١٠٤	﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾	٤٥٩٦
١٠٥	﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	٤٥٩٦
١٠٦	﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبْتَلِينَ﴾	٤٥٩٦
١٠٧	﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾	٤٥٩٦
١٠٨	﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾	٤٥٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠٩	﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾	٤٥٩٦
١١٠	﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	٤٥٩٦
١١١	﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٥٩٦
١١٢	﴿وَيُشْرِنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾	٤٥٩٦
١١٣	﴿وَيَبَارِكُنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ...﴾	٤٥٩٦
١١٤	﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾	٤٦٠٤
١١٥	﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾	٤٦٠٤
١١٦	﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾	٤٦٠٤
١١٧	﴿وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾	٤٦٠٤
١١٨	﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾	٤٦٠٤
١١٩	﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾	٤٦٠٤
١٢٠	﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾	٤٦٠٤
١٢١	﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	٤٦٠٤
١٢٢	﴿إِنَّهُمْ مِمَّنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٦٠٤
١٢٣	﴿وَإِنْ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾	٤٦٠٧
١٢٤	﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾	٤٦٠٧
١٢٥	﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾	٤٦٠٧
١٢٦	﴿إِلَهَ رَبِّكُمْ رَبِّ آبَائِكُمْ الْأُولِينَ﴾	٤٦٠٧
١٢٧	﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾	٤٦٠٧
١٢٨	﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾	٤٦٠٧
١٢٩	﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾	٤٦٠٧
١٣٠	﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾	٤٦٠٧
١٣١	﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	٤٦٠٧
١٣٢	﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾	٤٦٠٧
١٣٣	﴿وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾	٤٦٠٩
١٣٤	﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾	٤٦٠٩
١٣٥	﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾	٤٦٠٩
١٣٦	﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِيْنَ﴾	٤٦٠٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٣٧	﴿وإنكم لتمررون عليهم مصبحين﴾	٤٦٠٩
١٣٨	﴿وبالأييل أفلاتة قلوب﴾	٤٦٠٩
١٣٩	﴿وإن يوش لمن المرسلين﴾	٤٦١٢
١٤٠	﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾	٤٦١٢
١٤١	﴿فسأهم فكان من المدحضين﴾	٤٦١٢
١٤٢	﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾	٤٦١٢
١٤٣	﴿فالولا أنه كان من المسبحين﴾	٤٦١٢
١٤٤	﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾	٤٦١٢
١٤٥	﴿فنبذناه بالعرء وهو سقيم﴾	٤٦١٢
١٤٦	﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾	٤٦١٢
١٤٧	﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾	٤٦١٢
١٤٨	﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾	٤٦١٢
١٤٩	﴿فاستفتهم أريك البنات ولهم البنون﴾	٤٦١٦
١٥٠	﴿أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون﴾	٤٦١٦
١٥١	﴿ألا إنهم من إفكهم ليقولون﴾	٤٦١٦
١٥٢	﴿ولبد الله وإنهم لكانذبون﴾	٤٦١٦
١٥٣	﴿أصطفى البنات على البنين﴾	٤٦١٦
١٥٤	﴿مالكم كيف تحكمون﴾	٤٦١٦
١٥٥	﴿أفأفلات تذكر﴾	٤٦١٦
١٥٦	﴿أم لكم سلطان مبين﴾	٤٦١٦
١٥٧	﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾	٤٦١٦
١٥٨	﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾	٤٦١٦
١٥٩	﴿سبحان الله عما يصفون﴾	٤٦١٦
١٦٠	﴿إلا عباد الله المخلصين﴾	٤٦٢١
١٦١	﴿فإنكم وماتعبدون﴾	٤٦٢١
١٦٢	﴿ما أنتم عليه بفاتنين﴾	٤٦٢١
١٦٣	﴿إلا من موصال الجحيم﴾	٤٦٢١
١٦٤	﴿ومامننا إلا له مقام معلوم﴾	٤٦٢١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦٥	﴿وإنا لنحن الصافون﴾	٤٦٢١
١٦٦	﴿وإنا لنحن المسبحون﴾	٤٦٢١
١٦٧	﴿وإن كانوا ليقولون﴾	٤٦٢١
١٦٨	﴿لو أن عندنا ذكراً من الأولين﴾	٤٦٢١
١٦٩	﴿إكنا عباد الله المخلصين﴾	٤٦٢١
١٧٠	﴿فكفروا به فسوف يعلمون﴾	٤٦٢١
١٧١	﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾	٤٦٢٤
١٧٢	﴿إنهم لهم الممتصرون﴾	٤٦٢٤
١٧٣	﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾	٤٦٢٤
١٧٤	﴿فتول عنهم حتى حين﴾	٤٦٢٤
١٧٥	﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾	٤٦٢٤
١٧٦	﴿أفبعضنا يستعجلون﴾	٤٦٢٤
١٧٧	﴿فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾	٤٦٢٤
١٧٨	﴿وتول عنهم حتى حين﴾	٤٦٢٤
١٧٩	﴿وأبصر فسوف يبصرون﴾	٤٦٢٤
١٨٠	﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾	٤٦٢٤
١٨١	﴿وسلام على المرسلين﴾	٤٦٢٤
١٨٢	﴿والحمد لله رب العالمين﴾	٤٦٢٤
-	مجمّل ما اشتملت عليه سورة الصافات .	٤٦٣١
-	تفسير سورة ص	٤٦٣٣
-	أهداف سورة ص	٤٦٣٤
١	﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾	٤٦٣٧
٢	﴿يل الذين كفروا فى عزة وشقاق﴾	٤٦٣٧
٣	﴿كم أهلكنّا من قبلهم من قرن فنادوا...﴾	٤٦٣٧
٤	﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم...﴾	٤٦٣٧
٥	﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾	٤٦٣٧
٦	﴿وانطلق الملائة منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم...﴾	٤٦٣٧
٧	﴿ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة...﴾	٤٦٣٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٨	﴿أَنْزَلَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي...﴾	٤٦٣٧
٩	﴿أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ.﴾	٤٦٣٧
١٠	﴿أَمْ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٤٦٣٧
١١	﴿جَنَدٌ مَا هُنَاكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ.﴾	٤٦٣٧
١٢	﴿كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ.﴾	٤٦٤٥
١٣	﴿وَتِمْوُدَ وَقَوْمَ لُوطٍ وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ.﴾	٤٦٤٥
١٤	﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذِبَ الرِّسْلِ فَحَقَّ عِقَابُ.﴾	٤٦٤٥
١٥	﴿وَمَا يَنْظُرُهُوْلَاءُ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾	٤٦٤٥
١٦	﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ.﴾	٤٦٤٥
١٧	﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدِنَا دَاوُدَ...﴾	٤٦٤٨
١٨	﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشَى وَالْإِشْرَاقِ.﴾	٤٦٤٨
١٩	﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَابُ.﴾	٤٦٤٨
٢٠	﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ.﴾	٤٦٤٨
٢١	﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسُوْرُوا الْمَحْرَابِ.﴾	٤٦٥١
٢٢	﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ...﴾	٤٦٥١
٢٣	﴿إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾	٤٦٥١
٢٤	﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ...﴾	٤٦٥١
٢٥	﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنْ لَهُ عِنْدُنَا لُزْلَفَى وَحَسَنَ مَا بَ.﴾	٤٦٥١
٢٦	﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ...﴾	٤٦٥٦
٢٧	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا...﴾	٤٦٥٦
٢٨	﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾	٤٦٥٦
٢٩	﴿كِتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ...﴾	٤٦٥٦
٣٠	﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَابُ.﴾	٤٦٦٠
٣١	﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعُشَى الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ.﴾	٤٦٦٠
٣٢	﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي...﴾	٤٦٦٠
٣٣	﴿رَبِّدْهَا عَلَى فُطْفُقٍ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ.﴾	٤٦٦٠
٣٤	﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا...﴾	٤٦٦٣
٣٥	﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا...﴾	٤٦٦٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٦	﴿فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾	٤٦٦٣
٣٧	﴿والشياطين كل بناء وغواص﴾	٤٦٦٣
٣٨	﴿وآخرين مقرنين فى الأصفاد﴾	٤٦٦٣
٣٩	﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾	٤٦٦٣
٤٠	﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾	٤٦٦٣
٤١	﴿وانذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه...﴾	٤٦٦٨
٤٢	﴿اركض برجلك هذا مفتسل بارد وشراب﴾	٤٦٦٨
٤٣	﴿ووهبنا له أهله ومثلهم معه رحمة منا...﴾	٤٦٦٨
٤٤	﴿وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث...﴾	٤٦٦٨
٤٥	﴿وانذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب...﴾	٤٦٧٤
٤٦	﴿إننا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾	٤٦٧٤
٤٧	﴿وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾	٤٦٧٤
٤٨	﴿وانذكر إسماعيل واليسع وذو الكفل...﴾	٤٦٧٤
٤٩	﴿هذا نذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾	٤٦٧٤
٥٠	﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾	٤٦٧٧
٥١	﴿متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾	٤٦٧٧
٥٢	﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾	٤٦٧٧
٥٣	﴿هذا ما توعدون ليوم الحساب﴾	٤٦٧٧
٥٤	﴿إن هذا الرزقنا ما له من نفاد﴾	٤٦٧٧
٥٥	﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾	٤٦٨٠
٥٦	﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾	٤٦٨٠
٥٧	﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾	٤٦٨٠
٥٨	﴿وأخر من شكاه أنواج﴾	٤٦٨٠
٥٩	﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم...﴾	٤٦٨٠
٦٠	﴿قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا...﴾	٤٦٨٠
٦١	﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً فى النار﴾	٤٦٨٠
٦٢	﴿وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار﴾	٤٦٨٠
٦٣	﴿أتخذناهم سخرىاً أم زاغت عنهم الأبصار﴾	٤٦٨٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦٤	﴿إِنْ ذَلِكَ لِحَقِّ تَخَاصُمِ أَهْلِ النَّارِ﴾	٤٦٨٠
٦٥	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مَخْذُومٌ مِّنْ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾	٤٦٨٥
٦٦	﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾	٤٦٨٥
٦٧	﴿قُلْ هُوَ نَبِيٌّ عَظِيمٌ﴾	٤٦٨٥
٦٨	﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرِضُونَ﴾	٤٦٨٥
٦٩	﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾	٤٦٨٥
٧٠	﴿إِنْ يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنْمَأَ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾	٤٦٨٥
٧١	﴿إِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾	٤٦٨٨
٧٢	﴿فَإِذَا سُوِّتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾	٤٦٨٨
٧٣	﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾	٤٦٨٨
٧٤	﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾	٤٦٨٨
٧٥	﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدِي...﴾	٤٦٨٨
٧٦	﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾	٤٦٨٨
٧٧	﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾	٤٦٨٨
٧٨	﴿وَأَنْ عَلَيكَ لعننتي إلى يوم الدين﴾	٤٦٨٨
٧٩	﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾	٤٦٨٨
٨٠	﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾	٤٦٨٨
٨١	﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾	٤٦٨٨
٨٢	﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٤٦٨٨
٨٣	﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾	٤٦٨٨
٨٤	﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾	٤٦٨٨
٨٥	﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾	٤٦٨٨
٨٦	﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾	٤٦٨٨
٨٧	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٤٦٨٨
٨٨	﴿وَلِتَعْلَمَ مَنْ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾	٤٦٨٨
—	خلاصة ما تضمنته سورة ص	٤٦٩٣
—	تفسير سورة الزمر	٤٦٩٥
—	أهداف سورة الزمر	٤٦٩٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١	﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾	٤٧٠٠
٢	﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين﴾	٤٧٠٠
٣	﴿ألا لله الدين الخالص...﴾	٤٧٠٠
٤	﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء...﴾	٤٧٠٠
٥	﴿خلق السماوات والأرض بالحق...﴾	٤٧٠٤
٦	﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها...﴾	٤٧٠٤
٧	﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر...﴾	٤٧٠٤
٨	﴿وإذا مس الإنسان ضرده ربه منيباً إليه...﴾	٤٧٠٨
٩	﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً...﴾	٤٧٠٨
١٠	﴿قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم...﴾	٤٧٠٨
١١	﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾	٤٧١٢
١٢	﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾	٤٧١٢
١٣	﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾	٤٧١٢
١٤	﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾	٤٧١٢
١٥	﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾	٤٧١٢
١٦	﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾	٤٧١٢
١٧	﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله﴾	٤٧١٦
١٨	﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾	٤٧١٦
١٩	﴿أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من فى النار﴾	٤٧١٦
٢٠	﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية﴾	٤٧١٦
٢١	﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾	٤٧٢٠
٢٢	﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾	٤٧٢٠
٢٣	﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾	٤٧٢٠
٢٤	﴿أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة﴾	٤٧٢٧
٢٥	﴿كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾	٤٧٢٧
٢٦	﴿فأذاقهم الله الخزي فى الحياة الدنيا﴾	٤٧٢٧
٢٧	﴿ولقد ضررنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل﴾	٤٧٢٩
٢٨	﴿قرآنًا عربيًا غير ذى عوج لعلهم يتقون﴾	٤٧٢٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٩	﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون....﴾	٤٧٢٩
٣٠	﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾	٤٧٢٩
٣١	﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾	٤٧٢٩
—	تخريج أحاديث وهوامش .	٤٧٣٣
—	فهرس الكتاب .	٤٧٤٥

تم بحمد الله الجزء (الثالث والعشرون)

ويليه الجزء (الرابع والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



وعيد المكذبين ووعد الصادقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ﴾ (٣٢) **وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** (٣٣) **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** (٣٤) **لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٣٥) **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۚ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۚ﴾ (٣٧)**

المفردات :

كذب على الله : بنسبة الشريك والولد إليه .

وكذب بالصدق : وهو القرآن الذي جاء به محمد ﷺ .

مَثْوًى : مقاماً ومأوى ، من ثوى بالمقام يثوى به ، إذا أقام به .

وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ : هو الرسول محمد ﷺ .

وَصَدَّقَ بِهِ : هم أتباعه المؤمنون ، كآبى بكر وكل أصحاب رسول الله ﷺ .

الْمُتَّقُونَ : المراقبون لله ، المبتعدون عن الشرك .

جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ : على إحسانهم .

أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا : أسوأ وأحسن بمعنى السيئ والحسن ، أو أسوأ ما عملوه من المعاصي قبل الإسلام .

بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ : أى : يجزيهم على الطاعات بأحسن جزاء ، ويزيدهم فى الثواب لفرط إخلاصهم .

بِكَافٍ عَبْدَهُ : بحافظٍ ومانعٍ رسوله مما يخوفونه به .

تمهيد :

ذكر الله تعالى فيما سبق بعض هنات المشركين وهنا ذكر نوعاً آخر منها ، وهو أنهم يكذبون على الله فيثبتون لله ولداً ، ويثبتون له شركاء ، ثم أتبع ذلك بوعد الصادق المصدق ، ووعده أتباعه المصدقين المؤمنين بتكفير السيئات ، وبمنحهم أفضل الثواب ، ليكون الوعد مقروناً بالوعيد .

التفسير :

٣٢ - فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ .

أى : لا أحد يبلغ فى ظلمه مبلغ من افترى على الله الكذب ، بأن نسب له شريكاً ، أو ادعى أن الملائكة بنات الله ، أو ادعى أن لله ولداً أو صاحبة ، ثم كذب بالوحي والقرآن ورسالة محمد فور مجيء ذلك إليه ، فلم يتأمل ولم يتدبر .

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ .

أليس فى جهنم الواسعة مكان ومستقر لهؤلاء المكذبين بالوحي والرسالة ؟

٣٣ - وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .

والذى جاء بالصدق - وهو محمد ﷺ رسول الله وخاتم النبيين - والذين صدقوه - مثل أبى بكر الصديق ، وسائر أصحاب النبى ﷺ - هم الذين اتقوا الله فوحدوه وبرتوا من الأوثان والأصنام .

٣٤ - لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .

لهؤلاء المؤمنين الصادقين المصدقين المتقين ما يشاءون من ألوان النعيم فى الجنة ، ومن التكريم عند الله العلى القدير ، ففى الجنة ما تشتهيهِ الأنفس ، وتلذ الأعين ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن هؤلاء المتقين قد أحسنوا العمل فاستحقوا أحسن الثواب .

ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .

أى : ذلك الذى ذكر من حصولهم على ما يشاءون فى الدنيا والآخرة ، جزاء للمحسنين الذين أخلصوا إيمانهم وأحسنوا أعمالهم .

٣٥ - لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

لقد صاروا فى جوار الله تعالى ، وكرمه وفضله ، وحسن مثوبته ورعايته ، فأعطاهم فى الجنة ما يشاءون من رفيع المنزلة ، وأحسن المنازل فى الجنة جزاء إحسانهم ، وقد فعل الله بهم ذلك ليكفر عنهم أسوأ الذى عملوا من الكفر والشرك قبل الإسلام ، أو المعاصى بعد الإسلام التى تابوا منها ، وليجزئهم أحسن الجزاء ، حيث يرفع درجة الحسن من أعمالهم إلى درجة أحسنها ، ويثيبهم على الحسن ثواب الأحسن ، فهم فى زيادة القرب ، وفى زيادة الثواب والفضل من الله تعالى .

٣٦ - أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

سبب النزول :

كان المشركون يخوفون رسول الله ﷺ من إيذاء الأصنام التى يعبدونها له ﷺ ، وقالوا له : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو لتصيبنك بسوء .

وقال قتادة :

مشى خالد بن الوليد إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سادتها : نحذركها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شيء ، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس ، وقد أنزل الله هذه الآية تأكيداً لفضل الله ، وعظيم رعايته لرسوله وللمؤمنين ، وأن الأصنام لا تملك نفعا ولا ضرا ، فهو سبحانه الخافع الضار .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ... .

استفهام للتقريب والإثبات ، فقد دخلت همزة الاستفهام على النفى لإفادة التقرير ، والجواب : بلى الله تعالى حافظ عبده .

والمعنى :

الله تعالى يحفظ رسوله ويكفيه كل سوء ، ويمنع عنه كل أذى وكل ضرر .

وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ...

ويخوفك المشركون من الأصنام والأوثان ، حتى تكف عن عيبها وذمها ، مع أنها عاجزة لا تنفع ولا تضر .

وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

من أضله الله تعالى وسلب عنه التوفيق والهدى ، يتركه محباً للفسوق والكفر ، غارقاً فى بحار الضلال ، لا يجد هادياً يهديه .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . (البقرة : ١٣٧) .

وقوله سبحانه حكاية عن إبراهيم : وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . (الأنعام : ٨١) .

٣٧ - وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ .

من يوفقه الله تعالى ويشرح صدره للإسلام، ويرشده إلى الحق ونور الإيمان ، فلن يستطيع كفار مكة إضلاله وتخويفه وإرهابه .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ .

أى : أليس الله بغالب لا يُغَالَب ، منيع لا يُنَازَع ، ذى انتقام وعقوبة بالغة لمن يتمرّد على أمره أو نهيه .

والآية عامة تشمل كل مؤمن هداه الله إلى الإسلام والإيمان ، فلن تستطيع أى قوة فى الأرض أن تخرجه عن الحق ، وفى الآية تسليّة للرسول الأمين ، وتثبيت للمؤمنين ، وتهديد للكافرين ، وعيد لمشركى مكة بشدة انتقام الله .

دلائل الألوهية ، وضعف الأصنام وعدم نفعها

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

كاشفات ضره : دافعات ضره ورافعاته .

ممسكات رحمته : مانعات رحمته وحابسات لها .

حسبى الله : كافينى فى جميع أمورى .

مكانتكم : حالتكم التى أنتم عليها من العداوة التى تمكنتم فيها .

يخزيه : يذله ويهينه .

مقيم : دائم لا ينقطع .

سبب النزول :

روى عن مقاتل أن النبى ﷺ سأل المشركين قائلاً : «من خلق السماوات والأرض» ؟ فسكتوا ؛ فنزل ذلك .

وقال غيره : قال المشركون : لا تدفع الأصنام شيئاً قدره الله ، ولكنها تشفع ؛ فنزلت .

وتفيد الآيات ما يأتى :

١ - أن هؤلاء المشركين مقرّون بوجود الإله الخالق القادر العالم .

٢ - أن هذه الأصنام لا قدرة لها على جلب خير أو دفع شر .

التفسير :

٣٨ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

لم يدع أحد أنه خلق السماء أو الأرض أو الجبال أو البحار ، أو الأنهار أو الأشجار أو الليل أو النهار ، وكان الكفار يعتقدون أن الله تعالى هو الذى خلق هذا الكون ، ومع ذلك يعبدون الأصنام حتى تشفع لهم عند الله ، وكانوا يخوفون النبى ﷺ ويحذرونه من إصابته بالأذى والضرر بسبب ذم الأصنام ، وتأكيدهم غنائها وعدم نفعها أو ضررها .

والمعنى :

ولئن سألت هؤلاء المشركين المعاندين : من خلق السماوات ورفّعها ، وزيّنها بالنجوم والقمر والشمس ؟ ومن بسط الأرض ، وأجرى بها الأنهار والبحار ؟ ومن أرسى الجبال وأظلم الليل وأضاء النهار ؟ ليقولن : الذى خلق ذلك الله العزيز العليم ، وهنا يأمر الله نبيه أن يجيبهم قائلاً : أريتم هذه الأصنام والأوثان ، مثل اللات والعزى ومناة التى تعبدونها وهى لم تخلق شيئاً ، ولا تملك قدرة ولا نفعاً ولا ضرراً ، إن أرادنى الله بضرٍ أو شر ، هل تستطيع الأصنام أن تكشف عني الضر الذى أرادته الله لى ، أو أرادنى برحمة ونعمة ، هل تستطيع أن تمنعها منى ، أو تحبسها عنى ؟

فلما سكتوا ، أو قال بعضهم : نعبدوا رجاء شفاعتها لنا عند الله ، أنزل الله تعالى قوله : قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ... أى : أعبه وأتوكل عليه ، وهو حسبى وكافينى فى جميع أمورى من إصابة الخير ودفع الشر .

عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ .

على الله وحده يعتمد المؤمنون ، ويثق المتقون ، ويتوكل المتوكلون فى كل أمورهم ، ويعتمدون على حوله وقوته فى جميع شئونهم ، لعلمهم أن كل ما سواه تحت ملكوته تعالى .

٣٩ - قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

تأتى هذه الآية وما بعدها فى مقام التهديد والوعيد ، أى : اعملوا على طريقتكم التى تمكنت من نفوسكم ، وهى عداوة الإسلام والقرآن ورسالة محمد ﷺ ، أى استمروا على كفركم ، وتمكن العداوة للإسلام فى قلوبكم ، فإنى مستمر فى الدعوة إلى الإسلام والإيمان ، والنتيجة ستظهر فيما بعد ، وسيظهر المحق من المبطل .

التفسير :

٤١ - إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِرَكِيلٍ .

الآية فيها لمسة الحنان والفضل من الله على نبيه ، أى : لقد أنزلنا عليك القرآن الكريم ، متلبساً بالحق والصدق ، مشتملاً على ألوان البلاغة والبيان ، والتشريع والآداب ، وعرض مشاهد القيامة وخلق الكون ومشاهد الوجود ، وتصريف القول فى الدعوة إلى الإيمان ، فمن اهتدى إلى الإيمان بالله ورسوله فنفع ذلك يعود عليه ، ومن ضلَّ وعزَّف عن الإيمان فضرر ضلاله لا يعود إلا عليه .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكِيلٍ .

لست مسلطاً عليهم حتى تجبرهم على الهداية والإيمان ، والمراد : طب نفساً أيها النبى ، ولا تبخع نفسك حرصاً على عدم إيمانهم .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وفى هذا تسلية للنبي ﷺ ، والمعنى : ليس هدامم بيدك ، حتى تقهرهم وتجبرهم عليه ، وإنما هو بيدنا فإن شئنا هديناهم ، وإن شئنا أبقيناهم على ما هم عليه من الضلال .

٤٢ - اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

يقبض الله أرواح الموتى بواسطة ملك الموت ومن يساعده من الملائكة .

قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

والله تعالى يتوفى أنفس النائمين عند النوم ، فتجتمع أرواح النائمين وأرواح الميتين .

عن على رضى الله عنه قال : تخرج الروح عند النوم ، ويبقى شعاعها فى الجسد ، فبذلك يرى الرؤيا ، فإذا انتبه من النوم عادت الروح إلى جسده بأسرع من لحظة .

وعن سعيد بن جبیر : إن أرواح الأحياء وأرواح الأموات تلتقى فى المنام ، فيتعارف منها ما شاء الله أن يتعارف ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجسادها ، إلى انقضاء مدة حياتها^(١) .

قال القرطبي :

وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته تعالى ، وانفراده بالألوهية ، وأنه يحيى ويميت ويفعل ما يشاء ، لا يقدر على ذلك سواه . اهـ .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

فيما ذكر لدلائل واضحة لقوم يعملون عقولهم ، ويتفكرون ويتأملون ، فى أنه تعالى هو المتصرف فى الوجود كما يشاء ، وأنه سبحانه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى ، بما يرسل من الملائكة الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان ، والوفاة الصغرى عند المنام .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الأنعام : ٦٠) .

أخرج البخارى، ومسلم، من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بدخلة إزاره - طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن - فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقول : باسمك ربى وضعت جنبى وباسمك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(١) .

وأخرج أحمد ، والبخارى ، وأبو داود ، عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال لهم ليلة الوادى : «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردّها عليكم حين شاء»^(٢) .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فىرى الشيء ولم يخطر على باله ، فتكون رؤياه كأخبر باليد ، ويرى الرجل الرؤيا فلا تكون رؤياه شيئاً ، فقال على رضى الله عنه : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين ؟ يقول الله تعالى : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... فالله يتوفى الأنفس كلها ، فما رأت وهى عنده سبحانه فى السماء فهى الرؤيا الصادقة ، وما رأت إذا أرسلت إلى أجسادها فهى الكاذبة ، لأنها إذا أرسلت إلى أجسادها تلقتها الشياطين فى الهواء فكذبته ، وأخبرتها بالباطيل فكذبت فيها ، فعجب عمر من قوله رضى الله عنهما .

ونلاحظ أنه لا منافاة بين هذه الآية التى صرحت بأن الله تعالى هو الذى يتوفى الأنفس عند موتها .

وبين قوله تعالى : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . (السجدة : ١١) .

وقوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ . (الأنعام : ٦١) .

لأن المتوفى في الحقيقة هو الله تعالى ، وملك الموت إنما يقبض الأرواح بإذنه سبحانه ، وملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ينتزعون الأرواح بأمره المستمد من أمر الله عز وجل .

قال القرطبي في تفسيره :

وفى الآية تنبيه على عظيم قدرته سبحانه وتعالى وانفراده بالألوهية ، وأنه يفعل ما يشاء ويحيى ويميت ، ولا يقدر على ذلك أحد سواه .

ويقول أيضاً :

فإذا قبض الله الروح في حاليين ، في حال النوم وحال الموت ، فما قبضه في حال النوم ، فمعناه أنه يغمره بما يحبس عنه التصرف فكأنه شيء مقبوض ... ، وما يقبضه في حال الموت فهو يمسه ولا يرسله إلى يوم القيامة .

٤٣ - أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْلَمُونَ .

بل اتخذ المشركون من الأصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله ، أملين أن تشفع لهم هذه الأصنام عند الله ، ثم يكتهم القرآن ويلفت أنظارهم إلى أنها جمادات لا تنفع ولا تضر ، ولا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعا أو ضرا ، وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به .

٤٤ - قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

لله وحده سبحانه الشفاعة جميعا بكل صورها وكافة أغراضها ، قال تعالى : مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... (البقرة : ٢٥٥) .

ولله ملك السماوات والأرض ، وملك ما بث فيهما من دابة ، ومن حق المالك ألا يتكلم أحد في أمر من أمور ملكه إلا بإذنه ، فهو سبحانه المتصرف في الملك والملوك .

قال البيضاوي :

أي : هو تعالى مالك الملك كله ، لا يملك أحد أن يتكلم في أمره دون إذنه ورضاه .

آمارات الشرك

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

المفردات :

إذا ذكر الله وحده : دون ذكر الأصنام .

اشمأزت : انقبضت ونفرت .

من دونه : من دون الله .

يستبشرون : يفرحون ويسرون .

فاطر السماوات : خالق ومبدع السماوات على غير مثال سابق .

عالم الغيب والشهادة : عالم السر والعلن .

لافتدوا به : لقدّموه فداء لهم من العذاب .

وبدأ : ظهر .

يحتسبون : يدخل في تقديرهم وحسابهم .

التفسير :

٤٥ - وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ .

إن توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وإخلاص التوجه إليه هدف أساسي من أهداف الإسلام ، لكن هؤلاء المشركين إذا ذكر الله وحده ، خالصاً فرداً صمداً متفرداً بالقدرة والإرادة في هذا الكون ، يفتاظ

المشركون أشد الغيظ، ويغضبون لعدم ذكر آلهتهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان، مثل اللات والعزى ومناة، استبشروا وفرحوا، وظهر أثر ذلك الفرح على بشرة وجوههم.

قال الزمخشري :

ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز، إذ كل منهما غاية فى بابيه، لأن الاستبشار هو أن يمتلئ قلبه سروراً، حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، والاشمئزاز هو أن يمتلئ غمًا وغيظًا، حتى يظهر الانقباض فى أديم وجهه. اهـ.

وقال ابن عباس :

اشمأزت : قست ونفرت قلوب هؤلاء الأربعة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وهم : أبو جهل بن هشام، والوليد بن عتبة، وصفوان، وأبى بن خلف.

٤٦ - قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

تأتى هذه الآية وعيدًا للمشركين وتهديدًا لهم، بفصل القضاء بينهم وبين الرسول الأمين يوم القيامة، وفيها تعليم للرسول ﷺ ولأمته بالالتجاء إلى الله تعالى فى الشدة .

والمعنى :

ادع الله تعالى وقل : يا الله يا خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق، لقد بدأت الخلق فرفعت السماء، وبسطت الأرض، وسخرت الهواء والرياح والأمطار، والليل والنهار، وأنت العليم الذى أحاط علمه بكل صغيرة وكبيرة، وأنت العالم بالخفايا، وبالسرى والعلن، فقد أحاط علمك بما غاب فى الأرض والسماء، وبما ظهر وشهد فى هذا الكون، وأنت المحيط بكل شيء، وأنت أيضاً الحكم العدل الذى يحكم بين الكافرين والمؤمنين، وبين الرسل وأقوامهم، وبين دعاة الإيمان ودعاة الكفر؛ فتحق الحق وتبطل الباطل .

وكان ﷺ إذا قام من الليل قرأ هذه الآية، وروى عن سعيد بن جببر أنه قال : إنى لأعرف آية ما قرأها أحد قط فسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه : قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

وأخرج مسلم، وأبو داود، وغيرهما، عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته : «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

وأخرج الإمام أحمد ، والترمذى ، عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصديق : أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعى من الليل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلا أنت ، رب كل شئ ومليكه ، أعوذ بك من شر نفسى ، وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم^(٥) .

٤٧ - وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ .

لو أن الكافرين الذين ظلموا رسول الله ﷺ ، وظلموا أنفسهم بالكفر ، كانوا يملكون جميع ما فى الأرض من خيرات ونعم ، ويملكون مثله معه ، لافتدوا به أنفسهم من سوء العذاب ، وهوله وشدته يوم القيامة ، حيث يظهر لهم من أهوال القيامة ، وألوان العذاب ، وغضب الجبار عليهم ، ما لم يكن يخطر لهم على بال ، وفى الآية تفخيم لألوان العذاب والنكال الذى ينزل بالكافرين ، يقابله أن المتقين يجدون فى الجنة ما لم يكن يخطر لهم على بال من ألوان النعيم .

قال تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

وقال ﷺ : «إن فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(٦) .

وخلاصة معنى الآية :

ترقبوا أيها الظالمون هولاً وعذاباً لم يخطر لكم على بال ، وقد تكرر معنى الآية فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٦ ، ٣٧) .

٤٨ - وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

وظهر لهم فى صحائف أعمالهم عقوبة كفرهم وعنادهم ، وأثار تلك السيئات التى اكتسبوها فى الدنيا ، وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون بوقوعه فى الدنيا ، أو أيقنوا أنهم هالكون لا محالة لاستهزائهم بما كان ينذرهم به الرسول ﷺ ، حيث كان يذكرهم بالبعث والجزاء والعذاب والحساب ، فلا يتعظون ولا يصدقون .

دعاء الإنسان ربّه في الشدائد ، وججوده عند النعمة

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

المضردات :

مسّ : أصاب وتمكن .

خوّلناه : أعطيناه وملكناه تفضلاً .

على علم : على معرفة بوجوه الكسب ، أو على استحقاق وجدارة بما عندى من العلم .

فتنة : محنة وابتلاء .

بمعجزين : بغائبين من العذاب ناجين .

تمهيد :

تستمر الآيات في بيان ردائل المشركين ، فهم عند الشدة والمحنة يخلصون الدعاء لله ، ليقينهم أن الأصنام لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، وإذا أعطاهم الله النعمة ادعوا أنهم يستحقون هذه النعمة بما لهم من علم ومعرفة بكسب المال والجاه والسلطان ، والحقيقة أن هذه النعم امتحان واختبار من الله ، والدليل على ذلك أن من سبقهم من الظالمين قال مثل هذه المقالة ، مثل قارون وأشباهاه : فخسف الله بقارون الأرض ، وأنزل العذاب بكثير من الظالمين ، وسيلحق هذا العذاب مشركى مكة ، ولن يفلتوا أبداً من عذاب الله تعالى ، ويجب أن يعرفوا أن الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده ، ويضيّق على من يشاء ، وفى هذا دلائل وعلايات للمؤمنين على سعة قدرته سبحانه وعظيم سلطانه .

التفسير :

٤٩ - فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

هذه الآية معطوفة على ما سبقها أو هي متفرعة عنها، وقد كان صدر المجموعة السابقة من الآيات قوله تعالى: وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الزمر: ٤٥) .

وهنا يتحدث عن نتيجة مترتبة على ما سبق ، وهي أن هذا الإنسان الكافر أو الإنسان عموماً ، إذا أصابه ضررٌ أو مرضٌ أو محنة أو فقر : أخلص الدعاء لله تعالى أن يزيح عنه الضرر أو البلاء ، ثم إذا تفضل الله عليه بكشف الضرر أو دفع البلاء ، أو الغنى بعد الفقر ، أو الشفاء بعد المرض ، نسب هذا الفضل إلى نفسه ، وادعى أن هذه النعمة أو الغنى أو الصحة إنما جاءت بسبب معرفته ، واجتهاده في تجميع المال ، أو الذهاب إلى الطبيب ، أو خبرته في جلب النعم ودفع النقم ، وما علم هذا الإنسان أن حضور النعم ودفع النقم امتحان واختبار وابتلاء من الله .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : أكثر كفار مكة ، أو أكثر البشر لا يعلمون أن ما يجرى عليهم من النعم اختبار من الله ، يتمحص به الشاكر والكافر ، والحامد والجاحد ، أو لا يعلمون سبل الخلاص ووسائل النجاة .

٥٠ - قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : هذا طبع في الإنسان ، السابق فيه مثل اللاحق ، فالذين سبقوا ادعوا أنهم أهل للفضل والمال والغنى ، فهذا قارون قد قال : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ... (القصص: ٧٨) .

وهذا فرعون قد تأله وتجبّر وقال : أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ... (الزخرف: ٥١) .

وقال أيضاً متطاولاً على مقام النبوة : أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . (الزخرف: ٥٢) .

كما قال النمرود : أَنَا أَحْيَىٰ وَأُمِيتُ ... (البقرة: ٢٥٨) .

وصدق الله العظيم : كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَىٰ . (العلق: ٦ ، ٧) .

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : إن الكفار السابقين ، حين عتوا عن أمر ربهم ، وتناولوا على مقام النبوة ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ . (سبأ : ٣٥) . لم ينفعهم هذا القول شيئاً حين نزل العذاب بساحتهم . فقد غرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلكتمود بالصيحة المهلكة ، وأهلكت عادٌ بريح صرصر عاتية ، وأغرق فرعون وهامان ، ولم ينفعهم الملك ولا المال ولا الجاه ولا السلطان .

٥١ - فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ .

أى : أصاب السابقين من الكافرين جزاء ما كسبوا من الكفر والظلم ، مثل غرق فرعون وهامان ، والذين ظلموا من أهل مكة ، وجددوا نبوة محمد ﷺ سيصيبهم عقوبة كفرهم وظلمهم ، من القتل والأسر والقهر ، وما هم بفائتين منّا ، هرباً يوم القيامة ، بل مرجعهم إلى الله ، يصنع بهم ما يشاء من العقوبة .

٥٢ - أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : أعموا عن التفكر والإبصار ، فلم يشاهدوا بأعينهم أن الله تعالى يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ، ويضيقه على من يشاء من عباده ، لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

فى هذه القدرة البالغة دلالات واضحة ، وعلامات ظاهرة لقوم يؤمنون بالله ، ويقرّون بوحداانيته ، وأنه هو المتحكم فى هذا الكون ، الفعّال لما يريد ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

الدعوة إلى التوبة النصوح

﴿قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٥٢﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٣ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ٥٤ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِكَ عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لِمِنَ السَّخِرِينَ ٥٥ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ٥٦ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٧ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٥٨﴾

المفردات :

الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا : الإفراط فى المعاصى .

لَا تَقْنَطُوا : لَا تَيْأَسُوا .

وَأَنِيبُوا : ارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ .

وَأَسْلِمُوا لَهُ : أَخْلَصُوا لَهُ الْعَمَلَ وَالْعِبَادَةَ .

أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ : هُوَ الْقُرْآنُ .

بَغْتَةً : فَجَاءَةً .

يَا حَسْرَتَكَ : يَا نَدَامَتِي وَيَا حَزَنِي .

فَرَطْتُ : ضَيَعْتُ وَقَصُرْتُ .

فِي جَنْبِ اللَّهِ : فِي عِبَادَتِهِ وَطَاعَتِهِ .

السَّخِرِينَ : الْمُسْتَهْزِئِينَ بِدِينِ اللَّهِ .

كَرَّةً : رَجْعَةً .

تمهيد :

هذه آيات من أرجى الآيات فى كتاب الله تعالى ، أى أكثر الآيات رجاءً وأملًا فى رحمة الله ، ذلك أنها تتحدث عن عظيم رحمة الله ، وسابغ فضله ، وتوبته على كل من تاب ورجع إلى الله ، سواء أكان كافرًا فدخل فى الإسلام ، أم مؤمنًا وتاب إلى الله تعالى من المعاصى .

التفسير :

٥٣ - قُلْ لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

يا أيها الناس ، ويا عباد الله تعالى ، يا أيها العباد الذى أكثروا من الذنوب ، وتجاوزوا الحدود فى المعاصى أو فى الكفر ، لا تيأسوا من رحمة الله ، ولا تجبنوا وتمتنعوا عن التوبة يأسًا أو قنوطًا ، فتصابوا بالإحباط والتردد ، وعدم الإقدام على الإسلام أو على التوبة ، فإن باب الله مفتوح للتائبين ، وهو سبحانه يغفر الذنوب جميعًا للمستغفرين ، وهو سبحانه واسع المغفرة وعظيم الرحمة .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله ، ونلمح أن الله تفضل على عباده فى هذه الآية بالبشارات التالية :

- ١ - نسب العباد إلى نفسه فقال سبحانه : قُلْ لِّعِبَادِيَ ...
- ٢ - وصفهم بالإسراف فى المعاصى .
- ٣ - دعاهم إلى عدم القنوط من رحمة الله ، ودعاهم إلى الأمل والرجاء فى مغفرته .
- ٤ - إخبارهم بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا :
- ٥ - تأكيد ذلك بأنه سبحانه هو الغفور الرحيم .

سبب النزول :

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، عن ابن عباس ، أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثرُوا ، وَزَنُوا فأكثرُوا ، ثم أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعوا إليه لحسن ، أوتخبرنا أن لنا توبة ، أو أن لما عملنا كفارة ؟ فنزلت : وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ^(١) . (الفرقان : ٦٨ - ٧٠) .

ونزل قوله تعالى: **قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ...**

وأخرج ابن جرير، عن عطاء بن يسار قال: نزلت هذه الآيات: **قُلْ يٰعِبَادِيَ ... إلى : وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .** بالمدينة في وحشى قاتل حمزة ، لأنه ظن أن الله لا يقبل إسلامه .

وقد فرح النبي ﷺ بنزول هذه الآية ، فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، وغيرهم ، عن ثوبان قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية : **قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ...** (٨) إلى آخر الآية .

فلسفة التوبة .

يفتح الإسلام باب الرجاء في وجه الله أمام الحيارى والمسرفين وجميع المذنبين ، أملاً في توبتهم واستقامتهم وهدايتهم ، وبذلك تكسب البشرية إنساناً تائباً مستقيماً ، معتدلاً مهتدياً ، وفي نفس الوقت تطارد اليأس والإحباط في نفوس العصاة ، ونخير الناس بأن باب الله مفتوح للتائبين بالليل والنهار ، وفي الحديث الصحيح : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داع فاستجب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له ؟ حتى يطلع الفجر» ، وقد تردد في القرآن سعة رحمة الله ، وعظيم مغفرته وتوبته على عباده ، وأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعاً .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... (النساء : ٤٨) .**

وقال تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ . (آل عمران : ١٣٥ ، ١٣٦) .**

وقال ابن كثير : هذه الآية دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت . ١ هـ .

وقد أورد ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فيها نفى القنوط ، ومحاربة اليأس .

من ذلك ما ورد في الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ في حديث الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ، ثم ندم وسأل عبداً من عبّاد بنى إسرائيل هل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله وأكمل به مائة ،

ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها ، وكان ذلك سبيلاً إلى قبول التوبة وحسن الخاتمة ، لأنه قصد باب الله مخلصاً فقبله الله تعالى^(٩) .

٥٥،٥٤ - وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ .

أى : ارجعوا إلى خالقكم ، وتوبوا إلى الله تعالى ، واخضعوا لأحكامه ، وفرُّوا إليه تائبين نادمين خاشعين خاضعين ، من قبل أن يغضب عليكم ، وتحل عليكم نعمته سبحانه وتعالى .

٥٦ - أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرَتْنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ .

أى : بادروا بالتوبة كراهة أن تقول نفس يوم القيامة : يا ندامتى ويا حسرتى على ما ضيعت وقصرت فى حقوق الله ، وفى أداء واجباته .

وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ .

أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر ، مستهزئ غير موقن ولا مصدق .

٥٧ - أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ .

أو تقول تلك النفس المذنبة : لو أن الله هدانى لاهتديت إلى الحق وأطعت الله ، وكنت من عباده الصالحين المتقين ، يقول ذلك تحسراً وتألماً حين يرى أهوال القيامة ، وشدة عذاب أهل النار ، ويرى بحبوحة النعيم لأهل الجنة .

قال ابن كثير : يتحسر المجرم ويودّ لو كان من المحسنين المخلصين ، المطيعين لله عز وجل .

٥٨ - أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي كُنتُ أَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

أو تقول النفس المذنبة عند مشاهدة العذاب يوم القيامة ياليت لى رجعة إلى الدنيا حتى أتمكن من الإيمان والعمل الصالح والإحسان .

قال ابن عباس : أخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعلمهم قبل أن يعملوه .

قال تعالى : وَلَا يَنْبَغُكَ مِنْهُ خَبِيرٌ . (فاطر : ١٤) .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين :

إن الكافر أولاً يتحسّر ، ثم يحتجّ بحجج واهية ، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا . ا هـ .

ولو رجع هذا الكافر إلى الدنيا لعاد إلى ضلاله ، كما قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ . (الأنعام : ٢٨) .

٥٩- بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

أيها العبد النادم بعد فوات الأوان ، المحتج بعدم هداية الله لك ، المتمنى الرجوع إلى الدنيا ، لقد جاءتك الرسل والكتب ، وأعطيتك العقل والإرادة والاختيار ، ولفتُ نظرك إلى الكون وما فيه من عظات وعبر ، ودلائل ومشاهد تدلّ على قدرة الإله الخالق ، وأخبرتكم بقصص الأولين وما أصاب المكذبين ، وحدثتكم عن القيامة والبعث والحشر والجزاء ، كأن القيامة ماثلة أمامك .

وكان في هذه الآيات ما يكفى ويرشد للإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، لكنك كذبت المرسلين ، وجحدت باليوم الآخر ، وأثرت الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهدى ؛ فلا تلوّمن إلا نفسك ، ولا تحتج بأن هداية الله لم تصبك ، لأن الله يعطى هداه لمن أحب الهدى ، ويرسل معونته وهدايته وفضله وتوفيقه لمن رغب في الإيمان وسعى إلى باب الرحمان ، وفي الحديث الشريف : «اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلق له ، إن الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . (الليل : ٥ - ١٠) .

وقال تعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا * فَأَلْهَمْنَاهَا تُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

(الشمس : ٧ - ١٠)

شقاء المكذبيين ونعيم المتقين

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

المضردات :

كذبوا على الله : وصفوه بما لا يليق ، مثل من ادعى أن له شريكاً ، أو أن للأصنام شفاعة عند الله .

وجوههم مسودة : حقيقة ، أو لما يعلوها من كآبة .

مَثْوًى : مأوى ومقاماً .

بِمَفَازَتِهِمْ : بفوزهم وظفرهم ببغيتهم .

التفسير :

٦٠ - وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ .

تصف هذه الآية مشهد الكافرين في القيامة ، هؤلاء الذين ادّعوا أن لله شركاء وصاحبة ولداً ، فتراهم في حالة من الهلع والجزع والكآبة والحزن ، وسواد الوجوه إما أن يكون حسياً مشاهداً أمام الناس ، حيث يراهم الناس في حالة من القنم والسواد ، ويجوز أن يكون السواد من باب المجاز لما يعلو وجوههم من الهم والحزن ، والخوف من غضب الله ونقمته .

أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : إن في جهنم مكاناً وإقامة ومقرراً للمتكبرين ، الذين جاءتهم آيات الله ورسالاته فكذبوا بها ، واستكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكان في مكة فريق من الأغنياء والكبراء يحقرون الفقراء ، ويأنفون من الانضمام إلى دعوة الإسلام ، فهددهم القرآن بسوء المصير ، ووضع أمامهم المصير الأسود ، والإقامة المستمرة في عذاب جهنم .

٦١ - وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

أما المتقون المؤمنون المخلصون لله ، فإن الله ينجيهم بسبب فوزهم بالجنة ، وسعادتهم بالرضا . وسرورهم بالثواب العظيم .

لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ . لَا يَنَالُهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . عند الفزع الأكبر ، فقلوبهم مطمئنة ، وهم واثقون بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين ، وقد نقل القرطبي في تفسيره ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة ، وأطيب ربح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لا ترع فما أنت بالمراد به ، ولا أنت بالمعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه قال : فما أحسنك فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفني ؟ أنا عمك الصالح ، حملتني على ثقل ، فوالله لأحملنك ولأدفعنك ، فهي التي قال الله تعالى : وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثَاقَاتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ^(٨١) .

★ ★ ★

مالك الملك

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ^(٦٢) ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ^(٦٣) ۝ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ۚ أَعْبُدُونِهَا ۚ الْجَاهِلُونَ ^(٦٤) ۝ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ^(٦٥) ۝ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ^(٦٦) ۝ ﴾

المضردات :

مقاليد السماوات والأرض : مفاتيحهما ، وهو كناية عن ملكه لهما ، وتصرفه فيهما .

والذين كفروا بآيات الله : القرآن أو حجج الله وبراهينه .

لئن أشركت : على سبيل الفرض .

ليحبطن عملك : ليبطلن ويفسدن .

التفسير :

٦٢ - اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ .

هو سبحانه خالق كل شيء في هذا الكون ، فالسما والارض ، والفضاء والجبال ، والبحار والأنهار ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والإنسان والحيوان ، والنبات والجماد ، وجميع المخلوقات والموجودات ، وكل ما في الكون خلقه الخلاق العظيم ، وهو سبحانه المتصرف في هذا الكون ، الذي يمك الكون بقدرته ، ويحفظه في حالة من التوازن والصلاح للحياة .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ أَلْمَمُونَ وَالْأَرْضُ أَنْ تَزُولَا ... (فاطر : ٤١) .

قال في ظلال القرآن :

إنها الحقيقة التي ينطق بها كل شيء ، فما يملك أحد أن يدعى أنه خلق شيئاً ، وما يملك عقل أن يزعم أن هذا الوجود وجد من غير مبدع ، وكل ما فيه ينطق بالقصد والتدبير ، وليس أمر من أموره متروكاً للمصادفة . ١ هـ .

٦٣ - لَكُمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

بيد الله مفاتيح السماوات والأرض ، فهو مالكهما والمتصرف في أمورهما ، خلقاً وحفظاً وسلاماً ونفعاً وضراً ، وقيل : مفاتيح السماوات بالمطر ، ومفاتيح الأرض بإنبات النبات ، فبيد الله إنزال المطر وإنبات النبات ، وتيسير الرزق ، وتصريف الخلق وفق ما يريد ، على ما تشهد الفطرة ، وينطق الواقع ويقر العقل والضمير .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

خسروا أنفسهم ، وخسروا راحة الضمير ، وخسروا الاتساق مع الكون ، وخسروا سعادة الدنيا ، والنجاة في الآخرة ، أما المؤمنون فقد اكتسبوا بالإيمان سعادة الدنيا ، والفوز بالجنة يوم القيامة .

٦٤ - قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ .

عرض كفار مكة على النبي ﷺ أن يعبد آلهم وقالوا : هو دين آبائك ، فأمره الله أن يقول لهم : أتأمروني أيها الجهلة بعبادة غير الله ، بعد أن قامت الأدلة القطعية على تفرد بالألوهية ، فهو خالق الأشياء ومدبرها ، فلا تصلح العبادة إلا له سبحانه .

٦٥ - وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَكَ لَيْحَظَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

يتفرد الله تعالى بالألوهية ، ويتصف كل ما سواه بالعبودية ، وقد أوحى إلى النبي ﷺ ، وإلى سائر الرسل بأن الشرك إذا استمر إلى الوفاة ، يترتب عليه إحباط الأعمال السابقة ، فإذا تاب المشرك مخلصاً تاب الله عليه .

قال تعالى : وَمَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ قِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (البقرة : ٢١٧) .

والشرك لا يتوقع ولا ينتظر من رسول الله ﷺ ، ولا من إخوانه المرسلين ، فقد اصطفاهم الله واختارهم لهذه المهمة الجليلة ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ولكن إذا صدر الشرك من المرسلين على سبيل الفرض أو الاحتمال ، لكان ذلك سبباً في إحباط العمل من المرسلين ، فمن باب أولى أن الشرك محبط العمل من سائر الخلق أجمعين .

قال تعالى : وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام : ٨٨) .

روى عن ابن عباس : أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوجه ما يشاء من النساء ، ويعطوه ما يريد ، وقالوا : هذا لك يا محمد ، وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء ، قال : «حتى أنظر ما يأتيني من ربى فنزل : قُلْ يَسْأَلُهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . إلى آخر السورة . ونزل : قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ .

وعن ابن عباس أيضاً : أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، وهم يعبدون معه إلهه ، فنزلت هذه الآيات .

٦٦ - بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

أى : إن العبادة لا تكون للآلهة المدعاة ، ولا تكون للأصنام والأوثان ، بل تكون العبادة للإله الواحد الخالق الرازق ، المستحق للعبادة وحده بلا شريك .

وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

أى : اعبد الله مخلصاً فى العبادة ، مع الحب والشكر ، فقد أنعم على عباده نعماً لا تعد ولا تحصى ، واختار محمداً ﷺ ليكون خاتم المرسلين ، ورحمة للعالمين ، وصاحب الشفاعة يوم القيامة ، وأمر الرسول ﷺ بالشكر لله أمر لا مته أيضاً ، لأننا أمرنا بالافتداء به واتباعه ﷺ .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ... (الأحزاب : ٢١) .

وقال تعالى : مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (النساء : ٨٠) .

الكون خاضع لقدرته تعالى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ
 مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ
 ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ
 بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿

المفردات :

وما قدروا الله حق قدره : ما عرفوه حق معرفته حين أشركوا به غيره .

والأرض جميعًا قبضته : أى أنها ملكه وفى تصرفه وفى حوزته .

مطويّات : مجموعات .

بيمينه : بقدرته .

الصور : القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل .

صعق : مات .

ينظرون : ينتظرون ماذا يفعل بهم .

أشرفت : أضاءت ، وشرقت طلعت .

بنور ربها : بما يقيمه فى الأرض من الحق والعدل .

الكتاب : صحائف الأعمال .

بالحق : بالعدل .

مأعملت : جزاء ما عملت .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن عظمة الله وجلاله وعظيم قدرته ، فالأرض كلها فى قبضته وتصرفه ، والسموات
 فى حوزته ورهن إشارته ، وهو منزّه عن أن يكون له شريك أو مثيل ، ثم تعرض لمشاهد النفخ فى الصور
 وموت الناس مدة أربعين سنة ، ثم النفخ مرة أخرى ، حيث يقوم الناس للحساب والجزاء .

التفسير :

٦٧ - وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : ما عظموا الله حق عظمته حين عبدوا معه غيره ، مع أنه الخالق المتصرف فى شئون هذا الكون ، فى الدنيا والآخرة فالأرض كلها فى قبضته وفى تصرفه .

وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ ... مجموعات فى يمينه ، وكلتا يديه يمين ، وهو سبحانه منزّه عن النظير . والمثيل ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

قال الزمخشري :

والغرض من هذا الكلام - إذا أخذته بجملة ومجموعه - تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله لا غيره ، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز . اهـ .

وأخرج الشيخان ، والنسائى ، وابن ماجة فى جماعة آخرين ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... وهو يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فزجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن به ^(١) .

وقال ابن كثير فى تفسيره :

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... أى : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم القادر على كل شيء ، وكل شيء تحت قدره وقدرته .

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ، وقد روى الشيخان - واللفظ للبخارى - أن رسول الله ﷺ قال : « يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » ^(٢) .

٦٨ - وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ .

تعرض الآية مشاهد القيامة ، وقد ورد فى الأحاديث الصحيحة أن من علامات الساعة ظهور المسيح الدجال ، ثم ظهور المسيح عيسى ابن مريم ، فيقتل المسيح بإذن الله ، ثم يسود الوثام بين الناس سبعين

سنة، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً طيبة تنزع أرواح المؤمنين الصالحين ، ولا تقوم القيامة إلا على كعب ابن كعب ، أى : لثيم ابن لثيم .

وقد تحدث القرآن أن هناك ثلاث صيحات : الأولى صيحة الفزع ، والثانية صيحة الصعق والموت ، حيث يموت الناس جميعاً ، ويكون ملك الموت آخر من يموت ، ويمكث الناس بعد نفخة الصعق أربعين سنة ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً ، وهو الباقي آخرًا ، ويقول : لَمَنْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ... ثم يجيب نفسه فيقول : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

ثم يحى الله أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور نفخة أخرى ، وهى نفخة البعث^(١٧) ، قال تعالى : ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ .

أى : ينفخ إسرافيل بعد أن يحييه الله تعالى قبل الخلائق ، فينفخ نفخة أخرى وهى نفخة البعث والإحياء ، فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون أهوال يوم القيامة .

قال تعالى : فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

وقال سبحانه : وَمِنْ عَائِلَتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ . (الروم : ٢٥) .

وقال تعالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا . (الإسراء : ٥٢) .

٦٩ - وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالْبَشِيرِ وَالشَّهَادَةِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

أشرفت أرض المحشر بنور عدل الله تعالى ، وعظيم بهائه وسلطانه .

وَوُضِعَ الْكِتَابُ ...

أى : وضعت صحائف أعمال العباد بين يديه ، وقد سجل فيها الحسنات والسيئات ، فالسعداء يأخذون كتبهم باليمين ، والأشقياء يأخذون كتبهم بالشمال .

قال تعالى : وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزِمَتَهُ طَلْعَتُهُ ، فِى غُنْفِهِ وَنُخْرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) .

وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ...

يجمع الله الرسل أجمعين إلى موقف الحشر، فيسألهم: بماذا أجابتكم أممكم؟ قال تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ... (المائدة: ١٠٩).

وجيء أيضاً بالشهود الذين يشهدون على الأمم، من الملائكة الحفظة التي تقيد أعمال العباد.

قال تعالى: وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. (ق: ٢١).

أى: سائق يسوقها للحساب، وشاهد يشهد عليها.

وكذلك جاء بالشهداء المؤمنين الذين استشهدوا في سبيل الله، فيشهدون يوم القيامة بالبلاغ على من بلغوه فكذب بالحق، كما ذكر ذلك القرطبي في تفسيره.

لقد أفادت الآية أن الأرض تحولت إلى ساحة للقضاء، تجلّى فيها نور الجبار سبحانه وتعالى، ووزع على كل إنسان كتابه، وفيه صحائف أعماله، ثم قال تعالى: وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ... وقضى بين العباد بالعدل والصدق.

وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ.

أى: لا يبخس من ثوابهم، ولا يزداد في عقابهم، بل يكون الجزاء عادلاً، من عند الإله العادل.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا. (النساء: ٤٠).

وقال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ. (الأنبياء: ٤٧).

٧٠ - وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ.

وأعطيت كل نفس جزاء عملها، خيراً كان أو شراً، والله تعالى أعلم بفعلهم فلا يفوته شيء من أعمالهم.

قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. (الزلزلة: ٧، ٨).

وقال تعالى: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا. (الكهف: ٤٩).

جاء في صفوة التفاسير للصابوني :

وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ .

أى : هو تعالى أعلم بما عمل كل إنسان ، ولا حاجة به إلى كتاب ولا إلى شاهد ، ومع ذلك تشهد الكتب

إلزاماً للحجة .

★ ★ ★

الكفار يساقون إلى جهنم

والمتقون يساقون إلى الجنة

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

المعمرات :

السُّوقُ : الحث على السير بعنف وإزعاج علامة على الإهانة والاحتقار ، أما سوق المتقين فلإسراع

بتكريمهم فى الجنة .

زُمَرًا : جماعات متفرقة متتابعة .

الْخَزَنَةُ : واحد هم خازن ، مثل سدة وسادن .

يُنذِرُونَكُمْ : يخوفونكم .

حَقَّتْ : وجبت .

سلام عليكم : أمان عظيم عليكم .

طَبِيتُمْ : طهرتم من دنس المعاصي وطاب مثواكم .

الحمد لله : كل الثناء لله وحده .

صدقنا وعده : حققه بالبعث والجنة .

وأورثنا الأرض : ملكنا أرض الجنة .

حافيين : محيطين محدقين .

وقضى بينهم : فصل بين الخلائق .

التفسير :

٧١ - وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

فى ختام سورة الزمر، أو سورة التوحيد، نجد هذا المشهد الرهيب ، حيث يساق الذين كفروا إلى جهنم جماعات جماعات ، متتابعين بحسب موقفهم من الكفر وتعصبهم له ، حيث يبدأ بأئمة الكفر وكبار أهل الضلالة ، حتى إذا وصل الكفار إلى جهنم ، فتحت أبوابها بعد وصولهم ، كما تفتح أبواب السجون بعد وصول المسجونين ووقوفهم على الباب ، من باب الإهانة والإذلال ، ثم تفتح أبواب جهنم فيدخل الكفار ، ثم يغلق الباب خلفهم ، ثم تسأل الملائكة من خزنة جهنم وحراسها ، يسألون الكافرين سؤال توبيخ : ألم يرسل إليكم بشر من أجناسكم يحملون إليكم رسالة الله ، ويقرءون عليكم القرآن ، ويدعونكم إلى التوحيد ، واتباع ما أمر الله واجتناب ما نهى عنه ، ويحذرونكم من عذاب جهنم وتبعية الحساب يوم القيامة ؟ ويجيب الكافرون على هذه الأسئلة ، بأن الرسل قد أرسلت إلينا ، وبلغتنا رسالة ربنا ، ولكننا أعرضنا عن هدى الله ، فحققت علينا كلمة العذاب ، وهى قول الله تعالى : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود : ١١٩) .

٧٢ - قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ

أى : تجيبهم الملائكة : ادخلوا إلى أبواب جهنم وتحملوا عذابها ، ماكنين فيها أبد الأبدين ، ودهر الداهرين ، جزاء تكبركم عن اتباع الحق ، وامتناعكم عن اتباع الرسل ، ونفوركم من الهدى والإيمان .

٧٣ - وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .

سأقت الملائكة المتقين إلى الجنة جماعات جماعات، كل جماعة تدخل حسب منزلتها، فالمقربون ثم الأبرار ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أمثالهم، والشهداء مع بعضهم، والعلماء مع بعضهم، وكل صنف مع صنف يناسبه.

وسَوْقَ المتقين يراد به الإسراع بهم إلى دار الكرامة، أو المراد سَوْقَ مراكبهم ونجائبهم التى يركبونها. حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...

حتى وصلوا إلى الجنة، والحال أن أبوابها مفتحة فى انتظارهم ليدخلوها، كما نجد الضيف العظيم قد اصطف أهل الدار لاستقباله، وفتحت الأبواب فى انتظار قدومه، قال تعالى: جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتُحَةٌ لَهُمُ الْبُيُوتُ. (ص: ٥٠).

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ .

عند دخول الأتقياء الجنة تحييهن الملائكة، قال تعالى: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... (الأحزاب: ٤٤).

وهنا نجد أن الملائكة تعبر عن سرورها بالأتقياء، فتقول لهم: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ... أى: نسلم عليكم سلام تحية وتكريم.

طِبْتُمْ. طابت أرواحكم بأعمالكم الطيبة، فطاب مقامكم فى دار السلام.

فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ. فادخلوا الجنة حال كونكم خالدين فى ذلك النعيم.

٧٤ - وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقْنَا وَعَدَهُ. وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

يشكر أهل الجنة ربهم على حسن عطائه، وعظيم نعمائه، فقد استحقوا الإقامة فى الجنة، وأرضها واسعة، وكل واحد منهم قد استحق مساحة واسعة فخمة ضخمة، ينزل فى أى مكان من جنته حيث يشاء، فنعم هذا الجزاء ونعم جزاء العاملين، وهذا قول أهل الجنة، أو هو ثناء من الله عليهم.

٧٥ - وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

بعد أن دخل أهل النار جهنم ، ودخل الأتقياء الجنة ، كان ختام السورة دالاً على عظمة ذى الجلال والإكرام، فالملائكة تحف بالعرش وتحقق به ، وتحيط به من كل جانب، يسبحون بحمد الله ، ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص ، وقد حُكم بين الخلائق بالعدل والحق بلا ظلم ولا حيف .

قال الفخر الرازى :

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ...

أى : حُكم بين الملائكة بالحق ، فلكل واحد منهم فى المعرفة والطاعة حد محدود لا يتجاوزه ولا يتعداه ، ثم نطق الكون كله بحمد الله وشكره ، على حسن قضائه وعظيم نعمائه .

ونلاحظ أن الله تعالى بدأ الخلق بحمد الله ، قال تعالى فى صدر سورة الأنعام : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

كما أن الله تعالى اختتم أعمال الآخرة بالحمد ، فقال سبحانه : وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فهو سبحانه له الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه يرجع الخلق أجمعون ، وفى نهاية كل مجلس نقول الحمد لله رب العالمين، دلالة على الختام والشكر والمنة لذى الجلال والإكرام ، اللهم لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ترضى وتحب ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرضا ، اللهم لك الحمد والشكر والثناء الحسن الجميل، الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

خلاصة ما تضمنته سورة الزمر

- ١- وصف القرآن الكريم.
- ٢- الأدلة على قدرة الله تعالى.
- ٣- طبيعة المشرك فى السراء والضراء .
- ٤- ضرب الأمثال فى القرآن وفائدة ذلك .
- ٥- تهديد المشركين ووعيدهم .
- ٦- تمنى المشركين الغداء حين يرون العذاب .
- ٧- الوعد بغفران ذنوب من أسرفوا على أنفسهم .
- ٨- ذكر أحوال القيامة .
- ٩- سَوِّقَ الكفار إلى جهنم ومناقشة الملائكة لهم .
- ١٠- ذهاب المتقين إلى الجنة مع الكرامة والتعظيم .
- ١١- إعلان الحمد لله رب العالمين فى نهاية فصل القضاء .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الزمر عصر يوم الثلاثاء ٩ ذو القعدة ١٤٢٠ هـ ، الموافق ١٥ فبراير ٢٠٠٠ م

بمسجد حراء بالمقطم (مدينة القاهرة) بجمهورية مصر العربية

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ،

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة غافر

أهداف سورة غافر

سورة غافر سورة مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٨٥ آية ، نزلت بعد سورة الزمر .

ولها أربعة أسماء : تسمى سورة غافر لقوله تعالى في أولها : **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ...** (غافر: ٣)

وتسمى سورة المؤمن لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون - واسمه خربيل - في قوله تعالى : **وَقَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً** ... (غافر: ٢٨) .

وسورة الطول لقوله تعالى : **ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ** . (غافر: ٣) .

وتسمى حم الأولى لأنها أول سورة في الحواميم^(١) .

روح السورة

الروح السارية في سورة غافر هي روح الصراع الدائر بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والدعوة والتكذيب ، وأخيرا قضية العلو في الأرض ، والتجبر بغير الحق ، وبأس الله الذي يأخذ المتجبرين ، وفي ثنايا أهداف السورة الأصلية نجد أنها تلم بموقف المؤمنين المهتدين الطائعين ، ونصر الله إياهم ، واستغفار الملائكة لهم ، واستجابة لله لدعائهم ، وما ينتظرهم في الآخرة من نعيم .

وجو السورة كله - من ثم - كأنه جو معركة ، وهي المعركة بين الإيمان والطغيان ، وبين الهدى والضلال ، وبين المتكبرين المتجبرين في الأرض ، وبأس الله الذي يأخذهم بالدمار والتكليل ، وتتسم خلال هذا الجو نسيمات الرحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين .

وتتمثل روح السورة في عرض مصارع الغابرين ، كما تتمثل في عرض مشاهد القيامة ، وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتكرر بشكل ظاهر ، وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة ، ومنذ بداية السورة إلى نهايتها نجد آيات تلمس القلب ، وتهز الوجدان ، وتعصف بكيان المكذبين ، وقد ترقى آيات السورة فتتحول إلى لمسات وإيقاعات تمس القلب برفق ، وهي تعرض صفات الله غافر الذنب وقابل التوب ، ثم

تصف حملة العرش ، وهم يدعون ربهم ليكرم على عباده المؤمنين ، ثم تعرض الآيات الكونية والآيات الكامنة فى النفس البشرية .

موضوعات السورة

يمكننا أن نقسم سورة غافر بحسب موضوعاتها إلى أربعة فصول :

الفصل الأول : صفات الله

تبدأ الآيات من (٤ - ٢٠) بعرض افتتاحية السورة ، وبيان أن الكتاب منزل من عند الله ، غَافِرِ الذُّبِّ وَقَابِلِ التَّوْبِ ... للمؤمنين التائبين ، شَلِيدِ الْعِقَابِ ... للعصاة المذنبين .

ثم تقرر أن الوجود كله مسلم مستسلم لله ، وأنه لا يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فيشذون عن سائر الوجود بهذا الجدل ، ومن ثم فهم لا يستحقون أن يأبه لهم رسول الله ﷺ ، مهما تقلبوا فى الخير والمتاع ، فإنما هم صائرون إلى ما صارت إليه أحزاب المكذبين قبلهم ، وقد أخذهم الله أخذاً بعقاب يستحق العجب والإعجاب ، ومع الأخذ فى الدنيا فإن عذاب الآخرة ينتظرهم هناك ... ذلك بينما حملة العرش ومن حوله يعلنون إيمانهم بربهم ، ويتوجهون إليه بالعبادة ، ويستغفرون للذين آمنوا من أهل الأرض ، ويدعون لهم بالمغفرة والنعيم والفلاح.. وفى الوقت ذاته تعرض مشهد الكافرين وهم ينادون : لَمَقْتُ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ . (غافر : ١٠) .

وهم فى موقف المذلة والانكسار يقرون بذنبهم ، ويعترفون بربهم ، فلا ينفعهم الاعتراف والإقرار ، ومن هذا الموقف بين يدى الله فى الآخرة يعود السياق ليعرض أمام الناس مظاهر أنعم الله عليهم ، ليأخذ بأيديهم إلى طريق الإيمان بالله . فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ . (غافر : ١٤ ، ١٥) .

ويعرض السياق مشهد ذلك اليوم فى صورة حية مؤثرة ، فقد برز الجميع أمام الله ، العالم بالظواهر والبواطن ، وفى هذا المشهد تبلغ الروح الحلقوم ، وتذهب صولة الظالمين والطغاة ، فلا يجدون حميماً ولا شافعياً يطاع فى شفاعته ، لقد أصبح الملك والأمر والقضاء لله الواحد القهار .

الفصل الثانى : رجل مؤمن يجاهد بالكلمة

يستغرق الفصل الثانى الآيات من (٢١ - ٥٥) ويبدأ بلفت أنظار المشركين إلى ما أصاب المكذبين قبلهم ، ثم يعرض جانباً من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وهامان وقارون، يمثل موقف الطغاة من دعوة الحق ، ويعرض فيها حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ولا تعرض إلا فى هذه السورة وهى حلقة ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، يدافع عن موسى ، ويصدع بكلمة الحق والإيمان فى تلافى وحذر فى أول الأمر، ثم فى صراحة ووضوح فى النهاية ، ويعرض فى جدله مع فرعون حجج الحق وبراهينه قوية ناصعة، ويحذرهم يوم القيامة ، ويمثل لهم بعض مشاهدته فى أسلوب مؤثر ، ويذكرهم موقفهم وموقف الأجيال قبلهم من يوسف عليه السلام ورسالته ، ويستطرد السياق بالقصة حتى يصل طرفها بالآخرة فإذا هم هناك، وإذا هم يحتاجون فى النار ، وإذا حوار بين الضعفاء والذين استكبروا، وحوار لهم جميعاً مع خزنة جهنم يطلبون فيه الخلاص، ولات حين خلاص ، وفى ظل هذا المشهد يوضح الحق سبحانه أن العقاب للمرسلين فى الدنيا ويوم القيامة ، فقد نصر الله موسى رغم جبروت فرعون ، ثم يدعو الرسول الأمين إلى الصبر والثقة بوعده الله الحق، والتوجه إلى الله بالتسبيح والحمد والاستغفار .

الفصل الثالث : الترغيب والترهيب

يستغرق الفصل الثالث الآيات من (٦٥ - ٧٧) ويبدأ بتقرير أن الذين يجادلون فى آيات الله بغير حجة ولا برهان إنما يدفعهم إلى هذا كبر فى نفوسهم عن الحق ، وهم أصغر وأضال من هذا الكبر، ويوجه القلوب حينئذ إلى هذا الوجود الكبير الذى خلقه الله، وهو أكبر من الناس جميعاً، لعل المتكبرين يتصاغرون أمام عظمة خلق الله ، وتتفتح بصيرتهم فلا يكونون عمياً : وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ . (غافر: ٥٨) .

ويذكرهم بمجىء الساعة ، ثم يفتح الباب أمامهم إلى دعاء الله والاستجابة لأمره، فأما الذين يستكبرون فيسدلون جهنم أنلاء صاغرين ، ويعرض فى هذا الموقف بعض آيات الله الكونية التى يمرون عليها غافلين، يعرض عليهم الليل وقد جعله الله سكناً، والنهار مبصراً، والأرض قراراً ، والسماء بناءً، ويذكرهم بأنفسهم وقد صورهم ، ويوجههم إلى دعوة الله مخلصين له الدين ، ويلقن الرسول ﷺ أن يبرأ من عبادتهم ، وأن يعلن إسلامه لرب العالمين ، ثم يلمس قلوبهم بأن الله الواحد هو الذى أنشأهم من تراب ثم من نقطة .. وهو الذى يحيى ويميت . ثم يعود فيعجب رسوله ﷺ من أمر الذين يجادلون فى الله وينذرهم عذاب يوم القيامة فى مشهد عنيف ، تعلق فيه الأغلال فى أعناقهم ويسحبون فى الحميم ، ويحرقون فى النار

جزاء كفرهم وشركهم بالله ، وعلى ضوء هذا المشهد يوجه الله رسوله إلى الصبر والثقة بأن وعد الله حق ، سواء أبقاه حتى يشهد ما يعدهم ، أو توفاه قبل أن يراه فسيتم الوعد هناك .

الفصل الرابع : نهاية الظالمين

يشتمل الفصل الرابع على الآيات الأخيرة فى السورة من (٧٨ - ٨٥) ويذكر أن الله أرسل رسلا وأنبياء كثيرين لهداية الناس ، منهم من ذكر فى القرآن ومنهم من لم يذكر : وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ... وأن يقدم معجزة لقومه : إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... (غافر: ٧٨) . على أن فى الكون آيات قائمة وبين أيديهم آيات قريبة ، ولكنهم يغفلون عن تدبرها .. هذه الأنعام المسخرة لهم ، من سخرها ؟ وهذه الغلك التى تحملهم ، أليست آية يرونها؟! ومصارع الغابرين ألا تثير فى قلوبهم العظة والتقوى ؟ وتختتم السورة بإيقاع قوى على مصرع من مصارع الكاذبين وهم يرون بأس الله فيؤمنون حيث لا ينفعهم الإيمان : فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَبَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ خَلَقْنَا فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ . (غافر: ٨٥) .

عظمة الخالق، وعقاب المكذبين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ
الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ ٣ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ٤ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ٥ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ
بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِأَلْبَتِلٍ يُبْطِلُ لِيُذْخِرُوا بِهِ الْحَقَّ
فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ ٦﴾

المفردات :

حـ حروف مقطعة ، بدأ الله بها بعض السور للتنبيه ، أو للتحدي والإعجاز .

العـ عزيز ، الغالب على مراده

الـعليم ، العليم بعباده ظاهرا وباطنا حالا ومآلا .

غـافـر الذنـب ، يغفر الذنب لمن تاب إليه ورجع إلى طاعته بعد معصيته .

قـابـل التـوب ، يقبل توبة التائب النادم

شـديـد العـقـاب ، لمن عصى الله وأعرض عن هديه .

ذـى الطـوـل ، صاحب الغنى والسعة .

لـا إلهـة إلـاهـو ، لا معبود بحق إلا الله .

إـلـيـه المـصـير ، إليه مرجع الخلائق .

مـا يـجـادـل ، ما يخاصم .

فلا يغفررك، فلا يخدمك عيشهم سالمين .

تقلبهم في البلاد ، التصرف والتنقل في بلاد الشام واليمن بالتجارات الرباحة ، فإن عاقبتهم النار والهلاك .

الأحزاب ، الجماعات الذين تحزبوا على الرسل في كل أمة .

ليدحضوا به الحق ، ليبطلوه ويزيلوه .

تمهيد :

سورة غافر بداية مجموعة السور التي تسمى بالحواميم ، وقد نزلت هذه السور متتابعة ، وكلها مكية تعنى بأمور العقيدة ، وتعظيم الحق سبحانه ، وتعرض الصراع بين الحق والباطل ، ونهاية الكافرين وفلاح المؤمنين ، وهذه السور مجموعها سبع سور تبدأ كلها بحرفي «حم» ، وهي : غافر ثم السجدة ثم الشورى ثم الزخرف ثم الدخان ثم الجاثية ثم الأحقاف ، ولم يتخللها نزول غيرها ، بل نزلت متتابعة كترتيبها في المصحف .

قال ابن عباس : إن لكل شيء لبابا ، وللباب القرآن الحواميم .

وروى الحافظ أبو بكر البزار ، والترمذي ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن غُصم ذلك اليوم من كل سوء»^(١٥) .

التفسير :

٢٠١ - حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

حم : حروف للتنبية ، مثل الجرس الذي يُقرع ، فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، أو هي حروف للتحدّي والإعجاز ، كما تقدم بيان ذلك في سور سابقة .

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

هذا الكتاب ليس سحرا ولا شعرا ولا كهانة ، ولا افتراء من عند محمد ، كما يدعى الكافرون ، بل هو تنزيل من عند الله ، العزيز في انتقامه من أعدائه ، العليم بعباده ظاهرهم وباطنهم ، والمحاسب والمجازي على أفعال العباد .

٣- غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ .

من صفات الله المغفرة والستر على المذنبين ، وقبول توبة التائبين ، وهو سبحانه شديد العقاب لمن أعرض عنه ، وأصم أذنه عن سماع القرآن وألوان الهداية ، وهو سبحانه صاحب الفضل وجلال النعم ، فمن

وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، وهو سبحانه واحد أحد ، فرد صمد ، متفرد بالألوهية ، متوحد بالريوية ، فلا معبود بحق إلا الله ، وإليه سبحانه المصير والمرجع ، فيحاسب العباد ويجازيهم على أعمالهم ، بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

قال تعالى : **كَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

روى أن رجلاً من أهل الشام ذا بأس كان يقد على عمر بن الخطاب ، فاقتدعه عمر ، فسأل عنه ، فقالوا : تتابع في الشراب ، فكتب عمر إليه كتاباً قال فيه : أما بعد .. فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو : **غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ** . فجعل الرجل يقرأ الخطاب ، ثم بكى ونزع عن المعاصي وتاب إلى الله تعالى ، فقال عمر : هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم زلّ فسدوده ووقفوه ، وادعوا الله له أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

٤ - **مَا يَجْدِلُ فِيْ ءَايَاتِ اللّٰهِ اِلَّا الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقْلِيْهِمْ فِى الْبِلَدِ** .

سبب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم ، قال : نزلت هذه الآية في الحارث بن قيس السهمي .

وتفيد آيات القرآن الكريم ، والسيرة المطهرة أن الجدل نوعان :

جدال بالحق لتبيين آيات القرآن وتفهم معناها ، وهو نقاش محمود .

وجدال بالباطل ، مثل قولهم : إن القرآن سحر وشعر وكهانة ، وأساطير الأولين واقتراء من عند محمد ، محاولة من كفار مكة وأغنيائها لتقرير الباطل ، ودحض الحق ، وإبطال الإيمان ، بالاعتماد على الشبهات بعد وضوح الحق ، وسطوع حجة البيان القرآني ، والإعجاز لكتاب الله ، وقد كان كفار مكة يسخرون من المؤمنين ، ويحاولون تشكيك المسلمين في عقيدتهم ، ويوجهون التهم الكاذبة إلى الإسلام والقرآن والرسول محمد ﷺ .

ومعنى الآية :

ما يخاصم في دفع آيات الله وتكذيبها إلا الذين كفروا ، فلا يخدعك أيها الرسول الأمين تقلبهم في البلاد ، بين الشام واليمن في تجارة رابحة ، مع تمتعهم بالغنى والجاه والأمن والرفعة في الدنيا ، لأن ذلك إمهال لهم وليس إهمالاً ، فسوف يرون الهلاك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَلَعُ قَلِيلٍ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . (آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧) .

ويقول سبحانه : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

وفى الحديث الشريف أن النبي ﷺ قال : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (١٧) .

لقد كان القرآن يحاور المشركين بالحق، فيلفت أنظارهم إلى الكون وما فيه ، ويستحضر أمامهم حقائق التاريخ ، ومشاهد القيامة ، رجاء هدايتهم ، وأحياناً يدفعهم الكبر عن قبول الحق ، ويبن أن تكذيب المترفين وعناد المتكبرين أمر عرفته البشرية فى تاريخها الطويل، فليس تكذيب أهل مكة بدعاً أو غريباً عن تكذيب الكافرين لرسلم .

٥- كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ .

لقد وقف قوم نوح فى وجه دعوته زماناً طويلاً : قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْفَرْتَ جَدَلْنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (هود : ٣٢) .

وكذلك كذبت الأحزاب الذين تحزبوا على رسلم ، مثل عاد وثمود وفرعون، وحاولت كل دولة ظالمة أن تقيد الرسول أو تأسره أو تقتله ، أو تسكت صوته بأى وسيلة ، وجادلت كل أمة رسولها بالباطل ، رغبة فى إسكات صوت الحق ، والتغلب عليه ، فأهلك هؤلاء الكفار هلاكاً شديداً ، فانظر كيف كان عقابى لهم ، لقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وهلك عاد وثمود ، وغرق فرعون وهامان .

قال تعالى : وَقَرُّوْا وَفِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ لَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠) .

٦- وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

لقد وجبت كلمة الله على الكافرين ، وهى قوله سبحانه : قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ بَعَلَّكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٤ ، ٨٥) .

هؤلاء الكفار هم أصحاب النار ، وأهلها المقيمون فيها إقامة دائمة ، كما يقيم الرجل فى داره لأنه صاحبها ، فكذا هؤلاء الكفار من طول إقامتهم فى النار صاروا أصحابها المستمرين فيها .

إن هؤلاء الكفار كذبوا رسل الله قبل عهد محمد ﷺ ، وكذبوا رسل الله فى عهد نوح ومن جاء بعده من الرسل ، فكيف كان عقابهم ؟ لقد كان عذاباً أليماً أودى بحياتهم فى الدنيا ، واستحقوا عذاب الله ويقاءهم فى النار زمناً طويلاً ، حتى صاروا أصحابها المستقرين فيها استقراراً دائماً بلا انقطاع .

قال ابن جرير الطبرى :

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

أى : وكما حق على الأمم التى كذبت رسلها ، التى قصصت عليك يا محمد قصصها ، وحل بها عقابى ، كذلك وجبت كلمة ربك على الذين كفروا بالله من قومك ، الذين يجادلون فى آيات الله لأنهم أصحاب النار . اهـ .

★ ★ ★

استغفار الملائكة للمؤمنين

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ
وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ
السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

المفردات :

الذين يحملون العرش : الملائكة الكروبيون ، وحملهم العرش عند بعضهم مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له .

العرش فى اللغة بمعنى : سرير الملك ، وهنا يراد به : مركز تدبير العالم .

يسبحون بحمد ربهم : يقولون : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

ويؤمنون به : ويؤمنون بالله عن يقين وتصديق .

ويستغفرون : يطلبون المغفرة للمؤمنين .

وسعت كل شيء، يقولون: ياربنا وسعت كل شيء رحمتك وعلمك.

فاغفر للذين تابوا، سامح من تاب إليك وتجاوز عن سيئاته.

التفسير:

هذه آيات تشير إلى فضل الله وعظمته، وجليل نعمائه وتفضله على عباده.

٧ - الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ.

الذين يحملون عرش الله من الملائكة، والذين يحفون به من الملائكة تعظيما لله، هؤلاء يسبحون بحمد الله، ويذكرون آلاءه ذكراً وتسبيحا مقرونا بالحمد، فيقولون: سبحان الله ويحمده، سبحان الله العظيم، ويؤمنون بوحداية الله، وعدم الإشراك في عبادته، ويطلبون المغفرة للمؤمنين، وقبول توبة التائبين، ويقولون: ياربنا شملت رحمتك كل شيء، وأحاط بالجميع علمك، فاغفر يا ربنا لمن تاب إليك، واتبع سبيلك وهديك، وآمن بك وبرسلك، وسار على صراطك المستقيم، واحفظ اللهم هؤلاء المؤمنين من عذاب النار ومن سعي الجحيم.

٨ - رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وهذا استمرار في الدعاء للمؤمنين، بأن يدخلهم الله عز وجل جنات إقامة دائمة في نعيم مقيم، قد وعد الله بها عباده في آيات القرآن حين قال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَغَوَّنَّ عَنْهَا حَوْلًا. (الكهف: ١٠٧، ١٠٨).

فالله سبحانه لا يخلف الميعاد، وسوف يتفضل على عباده المؤمنين بالجنة، والملائكة تنزل إلى الله تعالى بفضله وبرحمته وعلمه، بأن يشمل بهذا الفضل المؤمنين، وأيضا الصالحين من آباؤهم ومن أزواجهم ومن ذرياتهم، تفضلا منه حيث يجمع شمل المؤمنين في الجنة، ويلحق المقصرين بالمتموقين، ولا ينزل السابقين إلى مرحلة المتأخرين، فهو سبحانه أهل العدل وأهل الفضل وهو، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. القوى الغالب والحكيم في تصرفه بشأن عباده فما أعظمه وما أشد حكمته.

وفي معنى هذه الآية يقول الله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ. (الطور: ٢١).

٩ - وَيَقِيمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

وفقههم يارب للبعد عن الذنوب والسيئات فى الدنيا ، أو اغفر لهم زلاتهم وذنوبهم وسيئاتهم ، ومن غفرت له ذنوبه فى يوم القيامة فقد شملته رحمته وفضلك ، وهذا هو الفوز العظيم بالنجاة من النار ويدخل الجنة .

ألا ما أعظم الصلاح والاستقامة ، والتوبة وطاعة الله ، حيث ينال هذا العبد المؤمن المستقيم محبة الله ، ودعاء الملائكة ، والهداية والفضل والرعاية ، واجتماع شمله مع الصالحاء من آبائه وأزواجه وذريته ، ومغفرة ذنوبه ، وفوزه بالجنة ونجاته من النار .

والخلاصة : أن أكمل الدعاء ما طُلب فيه ثواب الجنة والنجاة من النار .

قال خلف بن هشام البزار القارئ : كنت أقرأ على سليم بن عيسى ، فلما بلغت : وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا... بكى ثم قال : يا خلف ، ما أكرم المؤمن على الله ، نائم على فراشه ، والملائكة يستغفرون له .

وقال سعيد بن جبیر : إن المؤمن إذا دخل الجنة ، سأل عن أبيه وابنه وأخيه ، أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إننى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم قرأ سعيد بن جبیر هذه الآية : رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ .

قال أهل التفسير :

وفائدة استغفار الملائكة للمؤمنين التائبين الصالحين الموعودين بالمغفرة ، زيادة الكرامة والثواب ، وبيان فضل الصلاح ، وأن المؤمن الصالح تحبه الملائكة والكون كله ، وهو قدر الله وبركته ومشيتته ، ومحل فضله وعنايته .

اعتراف الكفار بذنوبهم

والتذكير بقدرة الله وفضله

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُدَاوَبُ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتْنَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَتْنَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

المفردات :

المقت ، أشد البغض .

الروح : الوحي .

يوم التلاق : يوم القيامة ، وسمي بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، والمخلوقين بعضهم ببعض .

بارزون : ظاهرون لا يسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوها .

تمهيد :

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة ، فيه تبيكت للكافرين على كفرهم ، بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب ،

ثم رغبة الكافر في الرجوع إلى الدنيا ، وهيهات ذلك ، ثم بيان فضل الله وعظيم نعماته .

التفسير :

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَادُونَ لَمَقَّتْ أَلَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مُقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ .

حين يرى الكفار جهنم تتلظظ غَيَظاً على من عصى الله، ويتقنون بالمهانة والعذاب الأليم ، فيمقتون أنفسهم ويبغضونها ، لأن الكفر فى الدنيا جرّ عليها عذاب الآخرة ، فتناديهم الملائكة : إن مقت الله لكم فى الدنيا حين أحجمتم عن الإيمان ، كان أكبر وأعظم من مقتكم لأنفسكم فى الآخرة ، ذكر ذلك قتادة ومجاهد والحسن وابن جرير .

١١ - قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِي فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ .

الموتة الأولى حيث كانوا فى حالة العدم .

والموتة الثانية فى نهاية الحياة الدنيا .

والحياة الأولى عند ميلاد الطفل .

والحياة الثانية عند البعث والحشر والحساب .

والكلام هنا فيه تلطف فى السؤال ، حيث نجد الكافر يشاهد أهوال القيامة ، فيتمنى الرجوع إلى الدنيا ، فلا يجاب إلى ذلك ، فإذا دخل النار ولمس عذابها وعان أهلها ، تلطف فى طلب الرجوع إلى الدنيا ، وقال : يا رب ، إن قدرتك على الإحياء والإماتة لا حد لها ، فقد أحيينا بالميلاد فى الدنيا ، وبالبعث فى الآخرة ، أى مرتين ، وأمّتنا قبل وجودنا فى الدنيا ، ثم فى نهاية الحياة الدنيا ، فهل يمكن بأى وسيلة أن نخرج من جهنم ، ونعود إلى الدنيا لنعمل صالحا ، ونتدارك ما فاتنا ؟

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، حيث نجد أن الكفار يسألون الله الرجعة إلى الدنيا عند مشاهدة العذاب ، نجد ذلك فى الآية ١٢ من سورة السجدة ، وفى الآيتين ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام ، وفى الآيتين ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة المؤمنون ، وفى الآية ٣٧ من سورة فاطر حيث يقول الله تعالى : وَهُمْ يَصْطَرِغُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ الْآلِيزُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ .

والقرآن الكريم لا يجيبهم إلى طلبهم ، بل يخبرهم عن سبب عذابهم فيقول :

١٢ - ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ، كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ .

أى : هذا العذاب الشديد وعدم خروجكم من جهنم عاندين إلى الدنيا ، ورفض العودة إليها لأنكم كنتم فى الدنيا إذا دعيتم إلى توحيد الله والإيمان به أعرضتم ، وإذا دُعى الله وحده لا شريك له كفرتم ، وأنكرتم أن تكون الألوهية له خاصة ، وإن أشرك به مشرك صدقتموه وآزرتموه .

فالحكم اليوم والأمر اليوم بيد الله العلى ، صاحب الكبرياء والعظمة ، الذى ليس كمثله شىء، ومن ثم اشتدت سطوته على من أشركوا به ، واقتضت حكمته أن يعذبوا فى جهنم ، فلا سبيل إلى خروجكم من جهنم، فقد أعطاكم فرصة ساحة فى الدنيا ، حين خلقكم ورزقكم ، وأرسل إليكم الرسل ، وأنزل إليكم الكتب، فجددتم الإيمان به ، وكفرتم برسوله ، فاستحققتم عذاب النار، ولا مناص لكم عنها .

١٣ - هُوَ الَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ .

الخطاب فى هذه الآية لجميع البشر ، فالله تعالى يظهر آيات قدرته فى العالم العلوى والعالم السفلى، من آيات ظاهرات فى الشمس والقمر، والليل والنهار، والسحاب والأمطار، وخلق الإنسان والحيوان ، وإنبات النبات وتيسير الأرزاق .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ .

لا يتعظ بآيات الله إلا من تاب إلى الله ، ورجع إليه وصرف نفسه عن الهوى ، وعن طاعة الشيطان، وعن عبادة الأوثان والأصنام .

١٤ - فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ .

فأخلصوا لله وحده العبادة ، فهو الخالق الرازق ، المعطى المانع ، السميع البصير ، الذى بيده الخلق والأمر ، والأصنام لا تملك لكم نفعا ولا ضرا ، فاعبدوه وحده لا شريك له ، ولو كره الكافرون هذا الإخلاص .

أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى أن عبد الله بن الزبير كان يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .^(١٧)

قال الإمام أحمد: وكان رسول الله ﷺ يهلُّ بهنَّ دبر كل صلاة^(١٨).

قال ابن كثير في تفسيره:

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(١٩).

١٥ - رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ .

هو سبحانه عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالی، أو هو سبحانه يرفع عباده إلى الدرجات العلی، وهو سبحانه صاحب العرش العظيم، والملك الكامل لكل شيء في الوجود، وهو الذي ينزل القرآن على من يختاره للرسالة، وقيل: الروح جبريل، وقيل: الروح الوحي، وكلها متقاربة، وإنما سمي الوحي روحاً لأن به حياة النفوس، كما تحيا الأجسام بالطعام، فإن الأرواح تحيا بالوحي، فالله تعالى يختار للرسالة من يشاء من عباده، وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ .

ليخوف الخلق من الحساب والجزاء في ذلك اليوم، الذي يتلاقى فيه الأولون والآخرون، أو آدم وآخر مخلوق في رتيته، أو أهل السماوات وأهل الأرض، أو الخالق والمخلوق، أو جميع ذلك.

١٦ - يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

في هذا اليوم - يوم التلاق - يتلاقى الخلق والخالق، فيلقى كل إنسان جزاء عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذا اليوم نجد الجميع بارزين ظاهرين بعضهم لبعض، لا يحجبهم حجاب ولا جبل، ولا سهل ولا أكمة، فقد سوّيت الأرض، وأزيل منها الجبال والهضاب، فلا ترى فيها عوجاً ولا أمّتا، وحينئذ تسأل الملائكة جميع أهل المحشر: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. فيجيب الجميع مؤمنهم وكافرهم: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ.

وفي تفسير ابن كثير:

إن إسرافيل ينفخ في الصور، فيصعق الناس جميعاً ميتين، فينادي الحق سبحانه وتعالى: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ. ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد، فيجيب الحق سبحانه: لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الإله الواحد لا شريك له، الذي قهر كل شيء وغلبه.

١٧ - الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

فى ذلك اليوم - يوم القيامة - يلقى كل إنسان جزاء عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وفى ذلك اليوم يكون القصاص والجزاء العادل من الله لعباده ، ويقتص للمظلوم من الظالم .

جاء فى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » للإمام جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ هـ ما يأتى :

أخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن جابر رضى الله عنه قال : بلغنى حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ فى القصاص ، فأتيت بعيراً فشددت عليه رحلى ، ثم سرت إليه شهراً ، حتى قدمت مصر فأتيت عبد الله بن أنيس فقلت له : حديث بلغنى عنك فى القصاص ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يحشر الله العباد حفاة غرلاً » ، قلنا : ما هما ؟ قال : « ليس معهم شئ » ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك ، أنا الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصه منها ، حتى اللطمة » ، قلنا : كيف وأن نأتى الله غرلاً بهما ؟ قال : « بالחסنات والسيئات » ، وتلا رسول الله ﷺ : الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ...

وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : الذنوب ثلاثة : فذنوب يغفر ، وذنوب لا يغفر ، وذنوب لا يترك منه شئ . فالذنوب الذى يغفر ، العبد يذنوب الذنوب فيستغفر الله فيغفر له ، وأما الذنوب الذى لا يغفر فالشرك ، وأما الذنوب الذى لا يترك منه شئ ، فمظلمة الرجل أخاه ، ثم قرأ ابن عباس رضى الله عنهما : الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . يؤخذ للشاة الجماء من ذات القرون بفضل نطحها .

وتفيد السنة المطهرة شدة الهول ، ونزاهة القضاء والعدالة فى استحقاق المظالم ، وأخذ كل ذى حق حقه ، وقصاص المقتول من القاتل ، وليس فى ذلك اليوم درهم ولا دينار ، وإنما هى الحسنات والسيئات ، فمن كانت عليه مظالم للعباد ، أخذ العباد منه من الحسنات بما يكافئ مظالمهم ، وإذا فنيت حسناته ، طُرحت عليه من سيئات المظلومين ثم ألقى به فى جهنم .

قال تعالى : الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

فهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، بل يحاسب الناس جميعاً فى وقت واحد ، كما يرزقهم فى وقت واحد .

من أوصاف القيامة

﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ۝١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٢٠ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدٌ الْعِقَابِ ۝٢٣﴾

المعطرات :

يوم الأرزاق : يوم القيامة ، سمى بالأرزاق لقربه ، يقال : أرزق الرحيل ، يأرز أرزفا ، إذا قرب ، فهو من باب تعب .
الحناجر : الحلق .

كاظمين : ممثلين غمًا ، حال كونهم كاتمين مع الضيق .

حميم : قريب أو حبيب يهتم بالأمر .

ولا شفيع : صاحب شفاعة تقبل شفاعته .

خائنة الأعين ، الأعين الخائنة التي تختلس النظر إلى المحرم ، أى : تنظر خفية إلى ما يعاب فى العلانية .
ما تخفى الصدور : ما تكنه الضمائر .

التفسير :

١٨ - وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ .

تعرض الآية مشهداً مؤثراً من مشاهد القيامة ، فقد اشتد الهول بالظالمين ، وعظم الكرب ، وخرجت القلوب من أماكنها ، وتوقفت فى الحلقوم من شدة الهول ، فلم ينتيسر لهم خروج القلوب وتمام الموت ، ولم تتيسر لهم راحة البال ، واستقرار القلوب فى أماكنها ، وقريب منه قول القرآن الكريم : وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا . (الأحزاب : ١٠) .

وهو مجاز عن شدة الكرب الذي أصاب المؤمنين في غزوة الأحزاب .

ومعنى الآية :

خَوْفُ الكافرين والظالمين من أهوال يوم أليامة ، حيث تصعد القلوب من الهول إلى الرقبة ، ويقف الكافر في حالة من الغيظ والقهر ، قد كظم غيظه في قهر وإحباط ، ويئس من النجاة ، ولا أمل من قريب أو حبيب ، أو شفيع يطاع في شفاعته ، فلا شفاعاة للمشركين في ذلك اليوم ، إذ لله الشفاعاة جميعا ، وهؤلاء لم يعملوا عملا صالحا يستحقون به الشفاعاة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ . (الملك : ٢٧) .

قال قتادة :

إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَلْظَمِينَ ...

وقفت القلوب في الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها ، وكذلك قال عكرمة والسدي وغير واحد^(٢٠) .

١٩ - يَعلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ .

الله تعالى مطلع على كل شيء ، قد أحاط علمه بجميع الأشياء جليها وحقيها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، هو عالم بالسرّ وما هو أخفى من السرّ ، وهو مطلع وشاهد على ما في النفوس ، فليراقب الإنسان خالقه .

قال تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ... (البقرة : ٢٣٥) .

قال ابن عباس في قوله تعالى : يَعلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ .

هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمرّ به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غرض ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غرضُ بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنّه ودّ لو اطلع على عورتها . رواه ابن أبي حاتم ، وأورده ابن كثير .

وقال مجاهد : هي مسارقة العين إلى ما نهى الله عنه .

أى أنّ الله سبحانه مطلع وشاهد على أفعال العبد ، وما يخفيه في صدره .

٢٠ - وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

الله تعالى حاكم عادل بيده الخلق والأمر ، والقضاء بين العباد يوم القيامة ، ومجازاة العباد بدون ظلم أو حيف ، وهو قادر فقد خلق الكون وأوجد الوجود ، وأرسل الرسل ، وأوضح لنا الطريق ، أما الآلهة المدعاة والأصنام والأوثان ، فإنها لا تملك شيئاً ولا تحكم بشيء .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

فهو سميع لأقوال خلقه ودعائهم ، بصير بهم ، مطلع عليهم فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

٢١ - أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَكْثَرُ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ .

من شأن القرآن أن ينتقل بالمشاهد من بين مشاهد الآخرة إلى مشاهد التاريخ ، فقد كان قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وأمثالهم يملكون أسباب العزة والقوة ، وتمكنوا في الأرض ، وتركوا فيها آثاراً تدل على قوتهم وتفوقهم ، ثم عتوا عن أمر الله ، وكذبوا رسلهم ، واشتد عنادهم ، فلم ينفعهم ما هم فيه من تقدم وعمران ، بل عاقبهم الله بسبب كفرهم ، وأهلكهم بسبب عنادهم ، ولم يكن لهم مانع يمنعهم من عذاب الله . قال ابن كثير :

وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ .

أي : وما دفع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق . ١ هـ .
والآية تحذير لأهل مكة ، وتهديد ووعد .

كما قال تعالى : وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّكُمْ فِيهِ ... (الأحقاف : ٢٦) .

وقال تعالى : وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ... (الروم : ٩) .

٢٢ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْيِيهِمْ رُسُلَهُمْ يَأْتِيَنَّهُمْ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

أي : ذلك العذاب الذي أصاب المكذبين قبلهم ، بسبب أن رسلهم كانوا يأتونهم بالدلائل الواضحة ، والمعجزات المؤيدة التي تؤيد صدقهم ، وتبين أنهم يبلغون عن الله ، فقابلوا ذلك بالكفر والكند والاستكبار ،

فعاقيهم الله بالهلاك المدمر، إنه سبحانه قوى غالب، وعقابه أليم لكل من عصاه، فاعتبروا واتعظوا بما أصابهم، فالسعيد من وعظ بغيره.

★ ★ ★

قصة موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾﴾

المضردات :

بآياتنا : جمع آية ، وهي المعجزات .

وسلطان : حجة وبرهان .

مُـبِين : ظاهر واضح ، والعطف بين الآيات والسلطان لتغاير الوصفين ، أى : أعطينا موسى المعجزات زائداً عليها المهابة والجلال والرعاية الإلهية .

فرعون : ملك مصر .

هامان : وزير فرعون .

قارون : كان ثريا باغيا .

ساحر كذاب : يعنون موسى عليه السلام ، وفيه مواساة لرسول الله ﷺ .

بالحق ، بالصدق .

استحيوا نساءهم ، أى : أبقوا النساء على قيد الحياة ، واقتلوا الذكور .

ضلال ، ضياع .

وليدع ربه ، فيه عدم المبالاة بدعاء موسى ربه ، ولعله تجلّد ظاهري ، بينما يرتعد فى الباطن من دعاء موسى لربه .

أن يبدل دينكم ، أن يغير عبادتكم لى بعبادتكم لغيرى .

الفساد ، القتل وإثارة الفتن والتحارب وإفساد الدنيا .

إنى عدت برهى ، استعدت واستجرت واعتصمت برئى ، يقال : استعدت بالله ، وعدت به معاذاً وعياداً : اعتصمت .

تمهيد :

تمثل هذه الآيات ألوانا من جهاد المرسلين ، فقد أرسل الله موسى مؤيداً بالمعجزات والبراهين إلى فرعون وقومه ، لكن فرعون رفض دعوته ، واتهمه بالسحر والكذب ، كما فعل كفار مكة حين اتهموا محمداً ﷺ بأنه ساحر كذاب ، وفيه مواساة لرسول الله ﷺ ، وكان فرعون قد أمر بقتل الذكور من بنى إسرائيل ، حين رأى فى منامه ناراً تأتى على عرشه فتحرقه ، وفُسّر الكهان ذلك بأن طفلاً سيولد فى بنى إسرائيل ، يكون على يديه ذهاب ملك فرعون ، ثم توقّف هذا القتل ، فلما أرسل الله موسى رسولا ، جدد فرعون الأمر بقتل أبناء المؤمنين ، حتى لا يكونوا عوناً لموسى ، وكان فرعون عاتياً متجبراً ، يأمر بالقتل لأوهن الأسباب ، وكان يحاول قتل موسى ، لكن حاشية فرعون تشير عليه بعدم قتل موسى خوفاً من عقوبة السماء ، ولعل فيهم من كان يؤمن بصدق موسى ، لكن فرعون يتظاهر بالتجلّد ، ويقول لحاشيته : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ليخلصه من القتل ، إنى أخاف أن يغير دينكم الذى أنتم عليه ، أو يفسد دنياكم ، وهنا يتحصن موسى بالله ، ويلجأ إليه مستجيراً بقوته من كل ظالم ينسى القيامة والحساب .

التفسير :

٢٣ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

من شأن القرآن أن ينوع فى أساليب دعوته إلى الحق والإيمان ، وهنا يذكر جانباً من قصة موسى عليه السلام ، حيث أرسله الله إلى فرعون رسولا ، وأعطى موسى الوحى والتوراة والمعجزات ، كما أعطاه الله المهابة والمحبة ، وحفظه من القتل ، وتعهّد سبحانه بحفظه ، وقد حكى القرآن تخوُّف موسى وهارون من فرعون فى قوله تعالى : قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ .

وقال سبحانه: **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** . (طه : ٣٩) .

ولعل السلطان المبين هو الحجة الواضحة ، كما يمكن أن يكون إشارة إلى ما منح الله موسى من المحبة والمهابة ، حتى لا يجرؤ فرعون على قتله .

٢٤ - **إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَلُمَّنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سَحِرٌ كَذَّابٌ** .

أرسلنا موسى إلى فرعون ملك مصر في تلك العهود ، ويقال إنه مفتاح بن رمسيس الثاني ، وهامان وزير فرعون ، وقاريون أغنى أهل زمانه ، فقال هؤلاء الملأ من قوم فرعون : إن موسى ساحر مخادع ، وما جاء بهذه الآيات والمعجزات إلا سحراً وتمويهاً على الناس بسحره ، كما أنه كذاب في ادعائه بأن الله أرسله إلى فرعون وقومه ، وقد خصّ هنا هؤلاء الثلاثة لأنهم رؤساء المكذبين لموسى ، وغيرهم تابع لهم .

وشأن الجبابة الطغاة عدم الإصغاء إلى الحجة والمنطق ، واللجوء إلى المكابرة والعناد .

٢٥ - **فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** .

عندما قال فرعون وملؤه عن موسى إنه ساحر كذاب ، لم يمنعه ذلك من تبليغ رسالة ربه ، فقدم إليهم حقائق الرسالة وأصولها ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ونبذ عبادة الأصنام ، وعدم تأليه فرعون .

وحين عجز فرعون وملؤه عن مجابهة الحق الذى جاء به موسى ، أمروا بأن يقتل أبناء المؤمنين بموسى ، خوفاً من أن يعضدوه وأن يساعده ، وأن تترك الإناث أحياء للخدمة والإذلال ، ولكن الله أبطل كيدهم وهزمهم ، وأغرق الله فرعون وجيشه ، ونجى موسى وقومه ، ليشاهد الناس عاقبة الصبر من المؤمنين ، وعاقبة الطغيان من الكافرين .

قال تعالى : **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ...** (الأحقاف : ٣٥) .

ومعنى قوله تعالى :

وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

إن عنت فرعون ضد موسى وقومه ذهب سدى وضاع ، حيث نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين .

٢٦ - وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ.

كان فرعون إذا همّ بقتل موسى ، قال له مستشاروه : لا تعبأ به ، ما هو إلا ساحر يبطل عمله بعض السحرة ، وقالوا له : إذا قتلته أدخلت الشبهة على الناس ، حيث يقولون : لا بد أن موسى على الحق ، وإن فرعون قد عجز عن معارضته بالحجة .

ولعل فرعون كان يحس أن موسى على الحق ، وما هو بساحر ، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك .

وهذا الفرعون الذى يرتعد من قتل موسى ، يتظاهر بالثبات وعدم الخوف ، فيقول للملأ من قومه : دعونى أقتل موسى، وليدع ربه ليخلصه منى إن كان إلها حقاً .

ثم يذكر أسباب قتله فيقول :

إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ .

ولما كان الدين أهم عند الناس من الدنيا ، فقد ألقوا ديانة معينة ، تلقنوها صفارا ، ومارسوها كباراً ، فعزف فرعون على أوتار ديانتهم فقال: إنى أخاف أن يبذل دينكم الذى أنتم عليه ، بديانة يدعو هو إليها ، أو يفسد دنياكم بالفتنه والصراع بين أتباع دينه وأتباع دينكم ، وهكذا يحتال الطغاة لأحكامهم ، بأن هدفهم الصالح العام ، والحرص على المصلحة العامة ، والأمر فى حقيقته هو الخوف من الهداة والدعاة والمصلحين والحرص على سلامة العرش والملك .

٢٧ - وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ .

سمع موسى برغبة فرعون فى قتله ، فالتجأ إلى الله وتحصن بجناحه ، واستمد منه المعونة والحفظ ، وخطب موسى قومه فى غيبة فرعون ، وقال لهم : إنى أستعين بالله ، وألجأ إليه ، وأتحصن بالرجاء فيه ، والمعونة منه ، فهو ربى وخالقى وربكم ، فضم جماعة المؤمنين إليه إذ تألف الأرواح له شأن كبير فى استجلاب الإجابة ، ومن أجل ذلك شرعت صلاة الجماعة .

مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ .

جعل استعاذته عامة ليست لشخص فرعون ، بل لكل من اتصف بصفات الكبر والتعاضم على الإيمان بالله ، فهذا كثير من أسوأ أنواع الكبر ، لأنه تكبر على المتفرد بالعظمة والكبرياء ، فإذا انضم إلى هذا الكبر عدم الإنذعان للحق ، وعدم الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ، دل ذلك على أنه قد بلغ الغاية فى الطغيان ،

فمن اجتمع فيه التكبر ، والتكذيب بالجزاء ، وقلة المبالاة بالعاقبة ، فقد استكمل القسوة والجراة على الله سبحانه .

٢٨ - وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

هذا رجل من آل فرعون قبطى أخفى إيمانه عن قومه ، وآمن بموسى سرًا ، وكان ذلك من أسباب استماع فرعون إلى نصيحته ، والكف عن قتل موسى ، قال لهم : كيف تجرؤون على قتل رجل ، وإزهاق روح إنسان كل تهمة أنه يقول : ربى الله ، أى الإله الذى خلق الناس جميعا ، وهو حر فى اعتقاده كما أنكم أحرار فى اعتقادكم ، وهذا الرجل إذا كان كاذبا فإنه يتحمل مسئولية كذبه ، ولا يضيركم فى شيء ، وإن يكن صادقا فى قوله ، وأنه رسول من عند الله ، يصيبكم بعض الذى يعدكم به من الهلاك فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ، وقد تطف فى القول معهم ، وسلك مسلك الملاينة ، وقدم احتمال كذب موسى استدراجا لهم ، واستجلابا لاستماعهم .

وقد روى البخارى أن عقبة بن أبى معيط خنق رسول الله ﷺ وهو ساجد خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فدفع عقبة بن أبى معيط عن رسول الله ﷺ وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٣) .

وقال الإمام على : أشجع الناس أبو بكر ، لقد دافع عن رسول الله مثل دافع مؤمن آل فرعون ، بيد أن مؤمن آل فرعون كان يكتُم إيمانه ، فأثنى الله عليه فى كتابه ، وأبو بكر أعلن إيمانه ، وبذل ماله ودمه فى سبيل الله .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ .

أى : لو كان موسى مسرفا كذابا ، ما هداه الله إلى إعلان رسالته ، وتأييده بالمعجزات ، وإعطائه السلطان المبين ، ولو كان كذابا لخذله الله وأهلكه فلا حاجة لكم إلى قتله .

وفى هذه الفقرة تعريض بفرعون وملئه ، فإن إسرافهم فى القتل وكذبهم على الله ، أو تكذيبهم لرسله ، يعرضهم لعدم هداية الله لهم إلى السبيل الصواب ومنهاج النجاة .

ألوان من الحجج والبراهين

﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَمْلُكٌ أَلَيْسَ لَكُمْ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ٣١ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُولُون مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَالَهُ مِنْ هَادٍ ٣٣ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَلَاءِ فَازْلَمْتُمْ فِي شَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكْتُمْ فَتُنَمَّنُ بَعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ ٣٤ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِيءَ ابْنَةِ اللَّهِ بَغْيَ سُلْطَانٍ أَتَهُمُ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾

المضردات :

ظاهرين في الأرض : غاليين عالين على بنى إسرائيل في أرض مصر .

من بأس الله : من عذاب الله .

ما أريكم إلا ما أرى : ما أشير عليكم إلا بما أشير به على نفسي ، وهو قتل موسى .

إلا سبيل الرشاد : إلا طريق الصلاح والصواب .

يا قوم : يطلق القوم على الرجال ليس فيهم امرأة ، والواحد : رجل أو امرأة من غير لفظه .

مثل يوم الأحزاب : أيام الأمم الماضية ، أي : وقائعهم .

الأحزاب : الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم .

مثل داب قوم نوح : مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر ، وإيذاء الرسل ، حيث عذبهم الله واستأصلهم .

يوم التناد : يوم القيامة ، ينادى بعضهم بعضا للاستغاثة ، ويكثر فيه نداء أصحاب الجنة ، وأصحاب النار .

مدبرين : منصرفين عن موقف الحساب إلى النار .

يوسف : هو يوسف بن يعقوب عليه السلام .

هـ : مات .

من هو مسرف مرتاب : مشرك مستكثر من المعاصي ، شك في وحدانية الله .

سلطان : حجة قوية وبرهان ظاهر .

كبير مقتا عند الله : عظم جدالهم بغضا عند الله .

كذلك يطبع الله : كما ختم الله على قلوب هؤلاء المجادلين ، فكذلك يختم على كل قلب متكبر جبار ، حتى لا يعقل الرشاد ولا يقبل الحق .

تمهيد :

ما أحرص هذا المؤمن الذي كتم إيمانه عن قومه ، وأخذ يقدم إليهم النصائح المفيدة والحجج البينة ، وتمثل في هذه الأمور :

١ - موسى يقدم دعوة فلا يجوز أن يُقتل ، بل تناقش أفكاره بالحجة ، فإن كان كاذبا فعلى نفسه وبال كذبه ، وإن كان صادقا وقتلناه أصابنا بعض عقاب الله ، [ويطلق البعض ويراد به الكل ، أو المراد على الأقل البعض] .

٢ - الملك لكم اليوم ، والغلبة والسلطان ، وذلك يحتاج إلى شكر للنعمة ، وإلا تعرضنا لبأس الله وعذابه .

٣ - أذكركم نعمة الله ، التي أصابت الأمم التي تحزبت على رسلها وكذبتهم ، فنزل الغرق بقوم نوح ، والهلاك بعباد وثمود ، والخسف بقوم لوط ، وكان العقاب عادلا غير ظالم ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٤ - أذكركم يوم القيامة حيث تساقون إلى النار ، ما لكم من الله من عاصم ولا نصير .

٥ - أذكركم تكذيب آبائكم ليوسف الصديق ، وقد أيده الله بالمعجزات الظاهرة ، حتى إذا مات قال أجدادكم : لن يجيء رسول من بعده ، عناداً وكفرا .

٦ - الجدال في آيات الله بالباطل يعرض صاحبه لمقت الله وغضبه ، كما يعرضه لمقت المؤمنين وغضبهم ، ويعرضه لأن يسلب الله عنه الهدى ، ويتركه ضالا متحيرا ، لا يهتدى إلى الإيمان ولا يجد برد اليقين .

التفسير :

٢٩ - يَنْقُومُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

يا قومي ويا عشيرتي ، أنتم اليوم تتمتعون بملك مصر ، ولكم الغلبة والدولة والعلو على بني إسرائيل ، وإنني أحذركم من قتل موسى ظلما : فنستحق حينئذ بطش الله الشديد ، الذي لا يغلبه غالب .

وتوجه إليهم بهذا الاستفهام الإنكارى قائلا: فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ؟

أى : من يمنعنا من عقوبة الله وعذابه إذا نزل بنا ؟

والجواب : لا أحد .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ .

أى : قال فرعون مقبلا على نصيحة هذا المؤمن : ما أريكم من الرأى والنصيحة إلا ما أراه لنفسى ، وما أشير عليكم إلا بالذى أراه وأستصويه لنفسى من قتل موسى ، وما أقدم لكم إلا طريق الصواب والصلاح ، فأنا لا أغشكم ، ولا أظهر لكم خلاف ما أبطن ، وقد كَذَبَ فرعون وغش أمته فى ذلك ، وسيلقى عقوبة الحاكم الغاش لأمته ، حين يملأ ركننا من أركان جهنم ، ولا يجد ريح الجنة ، لقد كان فرعون يرتعد فرقا من قتل موسى ، ويتظاهر بالتجلد .

٣٠ - وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ .

ويا قوم إنى أخاف عليكم إذا كذبتُم موسى وآذيتُموه ، أن يصيبكم من العذاب ما أصاب الأمم التى تحزبت على رسلها ، وكذبتهم فأهلكهم الله بالعذاب .

٣١ - مِثْلَ ذَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ .

أى : أخاف عليكم أن يكون حالكم وشأنكم كحال قوم نوح ، حين كذبوا نوحا فأغرقهم الله ، ومثل عاد الذين أهلكهم الله بريح صرصر عاتية ، ومثل ثمود الذين أهلكهم الله بالطاغية ، ومثل قوم لوط الذين دمر الله عليهم قريتهم ، وجعل عاليها سافلها ، هؤلاء وأشباههم كذبوا رسلهم ، فاستحقوا عذاب الله عقاباً عادلا على تجرؤهم على الرسل ، وعلى كفرهم بالله ورسله ، والله تعالى عادل منصف ، فلا يعاقب إلا بذنب ، وهو سبحانه لا يريد أن يظلم العباد ، لأنه كريم حلیم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ... (النساء : ١٤٧) .

وقال سبحانه : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ شَيْئًا وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

٣٢ - وَيَنْقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ .

إننى أشفق عليكم من عذاب يوم القيامة ، حين ينادى أهل الجنة أهل النار ، وحين ينادى أهل النار أهل الجنة ، وحين ينادى أصحاب الأعراف أهل النار ، كما ورد فى الآيات ٤٤ ، ٤٨ ، ٥٠ من سورة الأعراف ، وفى ذلك اليوم تنادى الملائكة أهل السعادة لدخول الجنة ، وعلى أهل الشقاء لدخول النار ، فلغظ التناد - بتخفيف الدال ، وحذف الياء - تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، إذا نادى بعضهم بعضا .

٣٣ - يَوْمَ تُولَدُونَ مُذِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

قال الضحاك :

إذا سمع الكفار زفير جهنم فرؤا هرباً ، باحثين عن ملجأ يقيهم ومنعهم من النار ، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا ملائكة صفوفاً ، فبينما هم يموج بعضهم فى بعض إذ سمعوا منادياً : أقبِلوا للحساب . والمعنى :

يوم تفرؤون هاربين ، ليس لكم ملجأ ولا عاصم يعصمكم ومنعكم من عذاب الله .

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .

من غضب الله عليه لسوء عمله ، فلن يجد هادياً يهديه ، بعد أن سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، فأصبح حائراً ضالاً ، مظلماً القلب معصوب العين ، حيران لا يهتدى إلى الحق والصواب .

٣٤ - وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بَالِيسَتٍ فَمَا زِلْتُمْ فِي شُكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ .

كان بين رسالة يوسف ورسالة موسى أكثر من أربعة قرون ، وكان يوسف على خزائن أرض مصر ، وأعطاه الله الرسالة والدعوة إلى توحيد الله ، ولقى من قبط مصر ما لقيه الرُّسل من الشك والارتياب ، وكان الله قد أعطى يوسف تفسير الرؤيا ، وغير ذلك من المعجزات ، والبينات المؤيدة لرسالته ، وقد قابله أهل مصر بالكنود مع شئ من المجاملة لتمتعه بالوزارة ، حتى إذا مات يوسف داعياً الله قائلاً :

رَبِّ قَدْ ءَاتَيْنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ لِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف: ١٠١) .

وهنا يذكر الرجل المؤمن معاصريه بأن أجدادكم قابلوا رسالة يوسف بالشك والارتياب ، حتى إذا مات يوسف قال الأجداد : لن يبعث الله من بعده رسولا إلينا ، وقد استرحنا منهم ، وهذا لون من الإسراف في العصيان والتمرد على التوحيد ، والارتياب في صدق الرُّسل .

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ .

أى : مثل ذلك الإضلال الشديد يضلُّ الله به من أسرف في تقليد الآباء ، وتشكك في هدى السماء ، ولم يفتح قلبه لوحى الله ، وللدعوة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

٣٥ - الَّذِينَ يُجَادِلُونَ لِيَ ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرٌ مِمَّا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْغَى اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ .

كانى بمؤمن آل فرعون وقد حرص على هداية قومه واستمالتهم ، فقدم لهم عددا من الأدلة والبراهين تحثهم على الإيمان برسول الله موسى ، فهو يخوفهم بطش الله حيناً ، ويذكرهم بما أصاب المكذبين للرسول حيناً ، ويذكرهم بأهوال القيامة حيناً ثالثاً ، ويسيرة يوسف الصديق مع أجدادهم ، وهنا يوضح أن الجدال نوعان :

١- جدال لاستيضاح الحق ، فهو نقاش يتبين منه الإنسان ما يريد أن يستوضحه ، وقد كان النبى ﷺ يسمح لأصحابه بمثل هذه المناقشة ، ويرد عليهم بما يقنعهم .

وقد أشار عليه أحد أصحابه فى غزوة بدر باتخاذ موقع أكثر قرباً من الماء ، وأكثر ملاءمة للمعركة فقبل مشورته ، وفى غزوة الخندق سمع مشورة الأنصار فى عدم إعطاء هوازن ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك . وكان ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه مع أن الوحي ينزل عليه ، ومع ذلك كان يقول : «أشيروا على أيها الناس» (٢٣) .

٢- جدال يراد به المكابرة بدون حجة صالحة لا عقلية ولا عقلية ، وهو جدال مقنوت ، يحمل عليه الكبر والتعصب والتقليد الأعمى .

ومعنى الآية :

لله تعالى رسالات سماوية ، وأدلة عقلية بثَّها فى هذا الكون ، فهناك من يستجيب لهدى السماء ، لكن من يتكبر عن قبول الحق ويتجبر بالباطل ، هؤلاء الذين يفعلون ذلك كبر وعظم بغضا جدالهم عند الله ، وعند الذين آمنوا .

قال الزجاج :

المراد بالذين يجادلون كل مسرف مرتاب ، وهم يجادلون فى الله بغير حجة صالحة للتمسك بها ، لا هى حجة عقلية أتتهم من جهته تعالى على أيدي الرسل ، ولا هى حجة عقلية استنبطوها من الكون . اهـ .

أى أن هذه الآية مرتبطة بالآية السابقة ، فهؤلاء المسرفون المرتابون فى هدى السماء ، من شأنهم الجدل فى آيات الله بغير سلطان ، وعليهم غضب الله تعالى ، وغضب الذين آمنوا .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

وهذه الصفة - وهى الجدل بالباطل بدون برهان - موجودة فى فرعون وقومه ، ويكون الرجل المؤمن قد عدل عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم ، واستجلاب قلوبهم ، وأبرز ذلك فى صورة تذكُّرهم ، فلم يخصهم بالخطاب ، وقوله : كَبُرَ مَقْتًا . ضرب من التعجب والاستفهام لجدالهم ... اهـ .

أى : ما أكبر غضب الله عليهم ، وما أعظم مقت المؤمنين لهم .

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ .

أى : مثل ذلك الطبع العجيب يطبع الله تعالى ، ويختتم بالكفر والعمى على قلب كل إنسان متكبر عن الاستماع للحق ، متناول ومتجبر على خلق الله تعالى بالعدوان والإيذاء .

استمرار الرجل المؤمن في محاوره قومه

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا عَلَيَّ أَتَبْلُغُ الْأَسْبَبَ ۚ ﴾ (٣٦) أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (٣٧) وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (٣٨) يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ وَأُنْشِىَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٤٠) وَيَقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفْرِ ﴾ (٤٢) لَاجِرُمْ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبِ الْأُسْرَفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٤٤) فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا وَحَاقَ بِشَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٤٦) ﴿

المضردات :

ابن لى صرحا، بناءً عاليا كالقصر، من صرح الشيء إذا ظهر.

أتبلغ الأسباب، الأبواب أو الطرق.

تبباب، خسران وهلاك، ومنه: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. (المسد: ١). أى: هلكت أو خسرت.

سبيل الرشاد، أدلكم على طريق الهدى وهو الجنة، أو طريق الصواب والسداد.

متاع، تمتع يسير لسرعة زوالها، يتمتع بها زمنا قليلا ثم تزول.

دار القرار : دار البقاء والدوام والخلود .

سنة : خطيئة .

بمساها : بما يعادلها .

بغير حساب : بغير تقدير وموازنة ، بل أضعافا مضاعفة .

ما ليس في به علم : ما لم يقم على ربوبيته دليل ولا برهان .

لا جـرم : حق وثبت ، أو لا محالة .

ليس له دعوة : مستجابة أو استجابة دعوة .

مرتدنا إلى الله : رجوعنا بعد الموت إليه تعالى .

المسرفين : المجاوزين الحد .

حـاق : أحاط أو نزل .

غدوا وعشيا : صباحاً ومساءً ، أو دائماً في البرزخ ، والمراد به : عذاب القبر ، حيث يشاهدون مكانهم في جهنم .

أشد العذاب : عذاب جهنم .

تمهيد :

هذه مرحلة أخيرة في عنت فرعون وتضليله لمن معه ، حيث طلب من هامان أن يبني له بناء عالياً ظاهراً مكشوفاً ، ليتلمس طريقه إلى السماء ، أو لينتقل من سماء إلى سماء حتى ينظر هناك إلى إله موسى ، لكن الله أفشل كيده ، وانتهى أمره إلى الغرق ، بينما نجد مؤمن آل فرعون ينصح قومه باتباعه ، فهو يدعوهم إلى أسباب الهدى والرشاد ، وهم يعرضون عليه الكفر المؤدى إلى النار ، ويبين لهم أن الدنيا فانية ، وأن الآخرة باقية ، وأن الله هو الإله الواحد ، وأن ما عداه من الأوثان والأصنام أو فرعون ليس له أثر أو دعوة مستجابة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية ، وسيذكرون نصيحته عند رؤية البعث والحشر والجنة والنار .

وقد حاول قوم فرعون إيذاء هذا المؤمن ؛ فتحصن بقدرة الله ، والتجأ إلى الله القوى العزيز ، فحفظه الله منهم ، أما آل فرعون فقد أهلكهم الغرق ، وهم يشاهدون منازلهم في جهنم كل يوم بالغداة والعشي ، وفي يوم القيامة يدخلون أشد ألوان العذاب جزاء كبرهم وعتوهم وظلمهم .

التفسير :

٣٦- وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَلَهُمِّنْ آتِنِ لِّى صِرْحًا لَّعَلِّى أَتُبْلَغَ الْأَسْبَابَ .

بعد أن قدّم مؤمن آل فرعون نصيحته حاول فرعون البحث عن مخرج ، وحاول إيهام الناس أنه يريد أن يبحث عن إله موسى .

فطلب من هامان أن يبني له صرحًا عاليًا مكشوفًا ليشاهده من يراه ، يحاول البحث عن الطرق والأبواب التى يتوصل بها لرؤية إله موسى .

٣٧- أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ كَذَّابًا وَكَذَلِكَ زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّ عَمَلِهِ وَضَدَ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

أى : لعلّى أصل إلى طرق السماء أو أبوابها ، فإذا وصلت إليها بحثت عن إله موسى .

«وهو لا يريد بذلك إلا التمويه والتخليط والتلبيس على قومه ، فكأنه يقول لهم : لو كان إله موسى موجودًا لكان له محلّ ، ومحلّه إمّا فى الأرض وإمّا فى السماء ، ولم نره فى الأرض فينبغى أن يكون فى السماء ، والسماء لا يتوصل إليها إلا بسلام» (٣٣) .

وما عليم هذا الفرعون أن الله تعالى لا يحده مكان ، فالإله سبحانه ليس كمّا ولا كيفًا وليس له طول أو عرض ، بل هو علة العلل ، وهو سر وجود الكون .

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

ويمثل هذه المغالطة : زَيْنُ فِرْعَوْنَ سَوَّ عَمَلِهِ وَضَدَ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

لقد زين الشيطان لفرعون عمله الردىء فى تكذيب الحق والمغالطة ، وخداع الجماهير حتى تظل تابعة له ، وقد سلبه الله الهدى : فعاش ضالا عن سبيل الحق ونور الإيمان .

وقد أحبط الله كيد فرعون ، وثلّ عرشه ، ومات غريقا فى ماء النيل ، ونجّى الله جثته لتحنّط وتظل آية وعبرة لكل الظالمين .

٣٨- وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِقَوْمِ أَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ .

قال هذا المؤمن لقومه : اتبعوا نصيحتى حتى أدلكم على طريق الرشاد والخير ، وهو اتباع دين الله الذى جاء به موسى .

٣٩- يَلْقَؤُمْ إِنَّمَا هَلِيلُهُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَلَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ .

ما أخلص هذا المؤمن لدينه ولقومه ، حيث يفتح عيون القبط المصريين على أَنَّ الدنيا فانية ، ومتعتها زائلة ، وأن الآخرة هي الحياة الباقية ، ودار الاستقرار والخلود والدوام .

٤٠- مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ .

من عدالة الله تعالى أن يكافئ على السيئة بالسيئة بدون زيادة ، أما المؤمن إذا عمل عملاً صالحاً - سواء أكان ذكراً أم أنثى - فإن الله يدخله الجنة ، ويتمتع فيها بألوان النعيم ، حين يرزقه الله فيها بغير حساب ، بل بكرم الله وفضله وعدله ومعونته الإلهية .

وهذا تفضل من الله على عباده ، أن يضاعف الحسنات إلى أضعاف مضاعفة لا يعلمها غيره ، بينما السيئات لا يجازى عليها الإنسان إلا بمثلها .

٤١- وَيَلْقَؤُكُمْ مَّا لِيَّ أَذْعُوكُمْ إِلَى الْتَجَرَّةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى الْآثَارِ .

ونجد هذا المؤمن يتحجب إلى قومه ، ويدخل عليهم من كل باب ، ويكرر كلمة : يا قوم ؛ ليذكركم بأنهم منهم ، وأنهم قومه ، أي : عزيز عليه هلاكهم ، حبيب إليه هدايتهم .

ومعنى الآية :

ما لكم يا قوم ؟ أخبروني عن حالكم معي ، فأنا أدعوكم إلى طريق النجاة من غضب الله وعذابه ، وذلك بتوحيد الله سبحانه ، وعبادته وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله المبعوث إليكم من عند ربكم ، وتدعوني إلى عمل أهل النار بعبادة الأوثان والشرك والعصيان .

٤٢- تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْغَيْرِ الْغَفَرِ .

تدعوني لأنكر وحدانية الله ، وأشرك به آلهة أخرى باطلة زائفة لم يقم دليل على ألوهيتها ، ولا علم لي من وجه صحيح على أهمية هذه الآلهة ، فهي لم تخلق هذا الكون ، ولم توجد السماء أو الأرض ، أو الليل أو النهار ، أو الشمس أو القمر .

بينما أنا أدعوكم إلى العزيز الغالب ، القاهر الخالق ، الذي يقهر المبطلين الظالمين ، وهو سبحانه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى .

٤٣- لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِيَّ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

أى : حقٌ وثبت وصحَّ عقلاً وواقعاً أن الذى تدعوننى إليه من عبادة الأوثان ليس له أى دعوة مستجابة، فلا يجب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لأنه جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر .
وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ .

وأن مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة ، حيث يكون الجزاء الحسن للطائعين العابدين المخلصين ، أما من أسرف فى المعاصى وأشرك بالله ، وتعدى حدود الله ، وانغمس فى الشرك والوثنية ؛ فإنه من أصحاب النار ، الخالدين فيها بإسرافهم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكُمْ مِثْلُ خَبِيرٍ . (فاطر : ١٤) .

وقوله سبحانه : وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ . (الأحقاف : ٥ ، ٦) .

٤- فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

فستعلمون صدق ما دعوتكم إليه ، وتذكرونه يوم القيامة ؛ فتندمون على عدم استجابتكم لى حيث لا ينفع الندم . أى : غداً يوم القيامة ، ستعلمون صدق دعوتى ، وسوء عاقبة الإعراض عن هداية الرسل .

وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ...

وسوف أتوكل على الله مفوضاً إليه أمرى ، مستعينا به ليعصمنى من كل سوء فى مقاطعتى لكم ومباعدتكم .

إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ .

مطلع على شئونهم ، ومحاسبهم على أعمالهم ، فأنا أكلُ إليه أمرى ، راجيا هدايته وتوفيقه لى فى الدنيا ، أملاً ثوابه يوم القيامة ، فله الحجة البالغة ، والحكمة التامة ، والقدرة النافذة .

قال مقاتل : هرب هذا المؤمن إلى الجبل فلم يقدرُوا عليه .

٤٥- قَوْلُهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٌ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ .

فنجى الله هذا المؤمن وحفظه من قوم فرعون ، حيث رغبوا فى قتله فحفظه الله منهم ، كما نجى موسى ومن آمن معه ، أما قوم فرعون فقد أهلكهم الله تعالى ، حيث غرقوا وهلكوا وتعرضوا لعذاب الدنيا ، وأشد عذاب الآخرة .

٤٦- آثَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

يعذب آل فرعون فى قبورهم ، فتعرض أرواحهم على جهنم فى الصباح والمساء ؛ لتزداد حسرتهم بمنالهم فى النار ، وفى يوم القيامة يدخلون أشد العذاب فى جهنم .

وتفيد الآية عذاب القبر ونعيمه ، حين تخرج الأرواح إلى البرزخ ، وتجد من ألوان السعادة والنعيم فى القبر ، حيث تعرض الروح على الجنة فى الصباح والمساء ؛ لتشاهد المنزلة التى أعدت لها يوم القيامة ، أما الكفار فإن أرواحهم تُعرض على جهنم بالغداة والعشي ؛ لترى المنزلة التى ستكون عليها الروح بعد البعث .

وقد ذكر الشيخ محمد عبده أثر عذاب القبر ونعيمه أشبه بما يراه النائم حين نومه ، فقد نجد اثنين فى سرير واحد ، يقوم أحدهما مذعوراً كثيراً وجلاً مما شاهد ، بينما نجد الثانى يقوم من نومه مستبشراً فرحاً سعيداً بما شاهده من ألوان المسرة والنعيم .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ؛ يقال له : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» ، ثم قرأ ﷺ : آثَارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ... (٢١) .

وروى ابن أبى حاتم ، والبخارى فى مسنده ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أتاه الله تعالى» ، قلنا : يا رسول الله ، ما إثابة الكافر ؟ فقال : «إن كان قد وصل رحماً ، أو تصدق بصدقة ، أو عمل حسنة أتاه الله تعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك» ، قلنا : فما إثابته فى الآخرة ؟ قال ﷺ : «عذاباً دون العذاب» وقرأ : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

قال جمهور المفسرين : هذه الآية تدل على عذاب القبر ونعيمه فى الدنيا ، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة : أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

المنظرة بين الرؤساء والأتباع

﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعِيفَتَانِ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَوْا إِلَّا كُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

المعطرات :

الحاجة : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر .

الضعفاء : الأتباع والمرءوسون .

للذين استكبروا : القادة والسادة أولو الرأي فيهم .

التابع : واحداهم تابع ، كخدم وخادم .

مغنون : حاملون أو دافعون .

نصيباً : قسطاً وجزءاً .

حكم : قضى وفصل .

خزنة جهنم : القوام على تغذيب أهلها .

بالبينات : بالمعجزات والآيات .

بلى : نعم جاءونا .

ضلال : ضياع ويطلان .

الأشهاد : جمع شاهد ، كصاحب وأصحاب ، والمراد : الأنبياء والحفظة ، ويوم يقوم الأشهاد : هو يوم القيامة .

اللعنة : الإبعاد والطرده من رحمة الله .

ولهم سوء الدار : ولهم شدة عذاب الآخرة فى جهنم .

تمهيد :

تعرض الآيات مشهداً من مشاهد القيامة : حيث يعاتب الضعفاء الكبراء ، لأن الكبراء زَيَّنُوا للضعفاء السير خلفهم ، واتباعهم فاتبعوهم كالأنعام ، بدون أن يُعْمِلُوا عقولهم . وبعد خراب البصرة ودخول جهنم ، يُقَرَّعُ الَّتَابِعُ المتبوعين ، فيقولون لهم : لقد اتبعناكم ، ودخلنا جهنم بسبب سيرنا خلفكم ، فهل تتحملون عنا جانباً من عذاب جهنم ؟

وهنا يقول الكبراء : إن العذاب لنا جميعاً فى جهنم ، نحن وأنتم فى دركات النار ، ولو نملك تخفيف العذاب لخففناه عن أنفسنا ، إن الله قد قضى بأن يعذب جميع الكفار فى النار ، وحين يئس الكفار جميعاً من تخفيف العذاب ، اتجهوا إلى حُرَّاسِ جهنم يستشفعون بهم إلى الله ، حتى يخفف عنهم يوماً واحداً من العذاب ، ليستريحوا قليلاً ، ويستعدوا لعذاب يوم مقبل ، وتوجَّهَ خزنة جهنم بسؤال توبيخ إلى الكفار : هل جاءكم الرسل بالمعجزات والأدلة الواضحة على صدقهم وصدق الوحي والبعث ؟ قالوا : بلى جاءت الرسل بهذه الأدلة لكننا لم نصدقهم وكذبناهم ، عندئذ انسحب الملائكة من الشفاعة والدعاء لهم ، وقالوا : ادعوا أنتم لأنفسكم ، ولن يسمع لكم دعاء ، لأن دعاءكم فى ضياع وخسران .

التفسير :

٤٧- وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ

النَّارِ .

واذكر يا محمد لقومك هذا الموقف ليعتبروا ويتعظوا به ، حين يقوم جدال وخصام بين الضعفاء التابعين والأقوياء المتبوعين ، يقول فيه الضعفاء للكبراء : لقد اتبعناكم وسرنا خلفكم على وعد منكم بهدایتنا وقيادتنا إلى الفلاح ، وما نحن الآن نلقى عذاب جهنم بسببكم ، فهل تتحملون عنا جانباً منه ، أو تشفعون لنا لتخفيف جزء من العذاب عنا ؟ وهو سؤال تبكي وتقرع : لأن الضعفاء يشاهدون الكبراء أمامهم يعذبون مثلهم أو أشد منهم .

٤٨- قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ .

أجاب الكبراء والقادة قائلين : لو كنَّا نملك الشفاعة أو تخفيف العذاب عنكم لأتينا بذلك لأنفسنا ، فنحن جميعاً نَعَذَّبُ فى جهنم ؛ لأن الله تعالى قد قضى وألزم بأن يلقي كل إنسان جزاء عمله ، وأن يعاقب

على اختياره وسعيه ، لقد كانت لكم عقول واختيار فألغيتم عقولكم ، وسرتم خلفنا بدون تبصر أو روية ، فتحملوا جزاء اختياريكم ، فقد قضى الله تعالى بدخول أهل الجنة الجنة ، كما قضى بدخول أهل النار النار ، وقدر لكل مثلاً ومنكم عذاباً لا يدفع عنه ، ولا يتحملة عنه غيره .

٤٩- وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ .

عندما ينس الصغار والكبار من تخفيف العذاب عنهم ، اتجهوا إلى جهة أخرى ، حيث ذهبوا إلى خزنة جهنم والقائمين على تعذيب الكفار ، وقالوا لهم : ادعوا ربكم أن يخفف عنا يوماً واحداً من العذاب ، حتى نستريح قليلاً ، ونستعد في ذلك اليوم لما يستقبل من العذاب .

٥- قَالُوا أَوَلَمْ تَكُن تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَأَدْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .

أى : قالت الملائكة للكاافرين على سبيل التقرير والتوبيخ : ألم يرسل الله إليكم رسلاً معهم معجزات وآيات ظاهرة تؤكد صدقهم ؟ قال الكفار لخزنة جهنم : بلى جاءت لنا الرسل ، ومعهم المعجزات البينات ، لكننا لم نسمع سماع تأمل ، ولم نتفهم ولم نتعقل لرسالتهم ، وأعرضنا عن اتباعهم ، عندئذ قالت الملائكة لهم : إذا كان هذا شأنكم فادعوا أنتم لأنفسكم ، ودعواكم ضائع باطل لا أمل في إجابته .

وعندئذ يصاب الكافرون بشدة الخذلان والإحباط ، فهم في جهنم لم يجدوا عوناً من القادة والرؤساء ، ولم يجدوا عوناً من خزنة جهنم ، ولم يبق أمامهم إلا صنوف العذاب ، جزاء اختياريهم الضلال وتركهم الهدى .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ يَأْتِيَكُم رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُولُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . (الزمر : ٧١) .

وقوله سبحانه : تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَا أَلَمْ يَأْتِيَكُم نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . (الملك : ٨ ، ٩) .

والآيات تفتتح عيون الناس جميعاً على هذه المواقف قبل أن يقعوا فيها ، وحتى ينقذوا أنفسهم من النار قبل ضياع الفرصة ، والندم بعد فوات الأوان .

قال تعالى : وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ

السَّعِيرِ . (الملك : ١٠ ، ١١) .

٥١- إنا لننصرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ .

هذه الآية تقرير لحقيقة عظمى ، أى : ومن سنتنا أن نصر رسلنا والذين آمنوا بهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

أما نصر الرسل فى الدنيا فيكون بتوفيقهم فى تبليغ الرسالة ، وإقامة الحجة ، واستمالة الأتباع ، ورعاية المؤمنين ، وذلك بشرح الرسالة ، وتعميق ألوان الهداية .

ونصر الرسل قد يكون حسياً ، كما نجده فى غرق فرعون ونجاة موسى ، وكما فى نجاة نوح ومن جاء بعده من المرسلين ، وكما فى انتصار محمد ﷺ فى غزوات بدر وأحد والخندق والحديبية وفى فتح مكة وفى حنين ، بعد أن خرج فى الهجرة ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فالنصر قد يكون قريباً ، وقد يتأخر النصر لحكمة .

وقد يكون النصر معنوياً ، وذلك باقتناع المؤمنين بالدعوة ، وتحملهم الموت فى سبيل الحق ، فَوَضَعَ إبراهيم فى النار انتصار له ، ونجاته من النار انتصار آخر ، وامتنال إبراهيم لذبح إسماعيل انتصار ، ونجاة إسماعيل وذبح الغداء انتصار آخر ، وقصة أصحاب الأخدود تحكى استبسالهم وانتصارهم بعقيدتهم ، وموت يحيى بن زكريا ثم الانتقام من قاتليه انتصار ، واستشهاد الحسين ، ثم تَوَجَّعَ الناس لهذه الشهادة انتصار ، حتى قال بعض المؤرخين : نصر الحسين ميتاً أكثر منه حياً ، فالنصر فى الدنيا قد يكون حسياً ، وقد يكون معنوياً .

لقد مات رسول الله ﷺ والإسلام لا يزال فى بلاد العرب ، ولم تمضِ عشر سنوات على وفاته حتى فتح المسلمون بلاد الفرس وبلاد الروم ومصر وغيرها .

أما النصر فى الآخرة فهو النصر الحقيقى ، بدخول المؤمنين الجنة ، ودخول الكافرين النار ، بعد أن يقوم الرسل بالشهادة على أمهم ، بأنهم بلغوهم الرسالة ، وتشهد أيضاً الملائكة للرسول بتبليغ الرسالة ، وللمؤمنين بأداء الأمانة ، كما تشهد على الكفرة بالتكذيب والجحود .

قال تعالى : وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُادُ .

وهم الرسل والملائكة ، عند جمع الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم .

٥٢- يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْلَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .

فى ذلك اليوم العظيم ينال الظالمون العذاب الأكبر ، ويلقون الهوان والذل ، ولا يقبل منهم اعتذارهم ، وتحلّ عليهم اللعنة والطرده من الرحمة ، ويدخلون جهنم التى يسوؤهم ويشقيهم عذابها ، وينالون المذلة فى أسوأ دار وهى جهنم ، فدارهم دار شقاء وعذاب ومهانة .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَلِرُونَ . (المرسلات : ٣٦) .

أى : ليس لهم عذر مقبول فإلتفت إليهم ، لأن أعذارهم ساقطة وجاءت فى غير وقتها ، لذلك فقد رفضت

أعذارهم .

★ ★ ★

جانب من قصة موسى

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى
وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي
ءَايَاتِ اللَّهِ يَغْيِرُ سُلْطَانُ أَتْلَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّاكِبًا ۖ مَا هُمْ بِبَلِّغِيهِ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ﴾

المضردات :

الهُدَى : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع .

الْكِتَاب : التوراة .

الْأَلْبَاب : العقول ، جمع لُب .

الْعَشِيِّ : من نصف النهار إلى آخره .

الْإِبْكَار : من أول النهار إلى نصفه .

يُحَادِثُونَ : يخاصمون فى آيات الله بالباطل .

سُلْطَان : برهان وحجة .

إِنَّ : بمعنى ما .

كـــــــبر : تكبر عن الحق .

ما هم ببالغيه : ببالغى مرادهم .

فاستعذ بالله : فالتجئ إليه من شرهم .

التفسير :

٥٣، ٥٤ - وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَى لَأُولَى الْأَلْبَابِ .

تالله لقد أعطينا موسى التوراة والنبوة ، فاشتملت التوراة على الأحكام والشرائع الهادية لقومه ، وتأيدت نبوته بالمعجزات الظاهرة ، كاليد والعصا ، ثم أبقينا التوراة بعد موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل ، يتوارثها الخلف عن السلف ، هداية لهم وتذكرة لذوى العقول الصحيحة السليمة .

قال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بَيْنَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَاهُ لِّلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولِ وَالْأَخْبَارِ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ... (المائدة : ٤٤) .

٥٥ - فَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

أى : إذا علمت أن النصر من عند الله ، وأنه تعهد بنصر المرسلين ، وينصر المؤمنين ، وقد نصر موسى وأغرق فرعون ، فقدم يا محمد على الصبر والثبات ، وتحمل أذى المشركين ، واثقا أن وعد الله بالنصر حق ثابت لا ريب فيه ، وللصبر ثمن هو تزكية النفس والتوبة النصوح ، فاستغفر الله كثيرا من ذنبك ، أو من فعل خلاف الأولى ، وهذا الاستغفار إما أن يكون لرفع درجة الرسول ﷺ ، وإما أن يكون لتعليم أمته .

وفى الحديث الشريف : «إني أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم واللييلة مائة مرة»^(١٠) .

وداوم على ذكر الله وتسبيحه وتحميده أثناء النهار ، بِالْعَشِيِّ . فى النصف الأخير من النهار ، وَالْإِبْكَارِ . فى النصف الأول من النهار .

قيل : المراد صلّ الوقتين - صلاة العصر وصلاة الصبح - أو صل الصلوات الخمس ، كما قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَىِ النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ ... (هود : ١١٤) .

وفى الآية دليل على أهمية الصبر والاستغفار ، وذكر الله تعالى والالتجاء إليه ، وكلها وسائل النصر والظفر ، وقد أشار الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير إلى وجوب البدء بالتوبة النصوح ، وتخليّة القلب مما لا ينبغى ، ثم تنزيه الله تعالى عما لا يليق به .

حيث قال تعالى : وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ...

أى : استغفر أولا ، واذكر الله ثانيا ، رفعا لدرجتك ، وتعلينا لأمتك ، وخصّ العشى والإبكار لأن القلب يكون فى المساء والصبح فى حالة تهيو واستعداد لذكر الله وتعظيمه ، وتعداد نعمه وشكره ، أو المراد : اذكر الله فى كل وقت وآن .

وكان ﷺ يسبح الله في الركوع ، ثم يقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي» ، يتأول القرآن .

٥٦ - إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

إن الذين يكابرون ويمتنعون عن قبول الحق ، ويردّون الحجج الصحيحة بالشبهة الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ، ما في صدورهم إلا كبر عن اتباع الحق ، وأنفة من هدى الرسل ، واحتقار لأنبياء الله ، وتكبر عن السير وراء هدى السماء ، وليس ما يرومونه من إخماد نور الحق ، ورفع راية الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وتكبرهم وعنادهم هو الموضوع ، فاستعذ بالله من شرورهم ، والجا إليه سبحانه وتحصّن بحماه من كيدهم ، فهو سبحانه سميع لدعائك ، بصير بمكرهم وكيدهم ، ومن سنته أن ينصر المتقين ، وأن يخذل الكافرين .

★ ★ ★

تأمل ودعاء

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ لَّارِيبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

المفردات :

الأعمى والبصير : الغافل والمستبصر .

الساعة : القيامة .

لا ريب فيها : لا شك في وقوعها وحدوثها .

داخريين : صاغرين أذلاء .

التفسير :

٥٧ - لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

كان الكفار ينكرون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويستبعدون الإحياء بعد موت الناس وتحلل أجسامهم ، مع اعترافهم بأن خالق السماوات والأرض هو الله ، فيعترفون بالأعظم ويستبعدون الأقل ، فذكرهم القرآن الكريم بأن من قدر على خلق السماء والأرض ، والجبال والبحار والأنهار وسائر الأكوان ، من قدر على خلق هذا الكون البديع المشاهد أمامك ، يكون أقدر عليه أن يعيد خلق الناس مرة أخرى يوم القيامة .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الأحقاف : ٢٣) .

وقال تعالى : أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨١ ، ٨٢) .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ولكن أكثر الناس من الكفرة والمشركين لا يعلمون ذلك ، ولا يتدبرونه ولا يتأملون ما فيه لفرط غفلتهم واتباعهم لأهوائهم .

٥٨ - وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .

كما لا يستوى الأعشى الذى لا يبصر شيئاً مع البصير الذى يرى إظلام والنور ، والنافع والضار ، كذلك لا يستوى المؤمن الصالح المستنير القلب ، والمسىء الكافر الجاحد .

قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ .

أى : ما أقل ما يتذكر الناس أنه لا يستوى رجل عاقل يستخدم عقله ويصره ولبه ، فيتأمل فى خلق الكون ، كيف رفع الله السماء ؟ وكيف زينها بالنجوم ؟ وكيف بسط الأرض ؟ وكيف أرسى الجبال ؟ وكيف أظلم الليل وأضاء النهار ؟ وكيف سخر الشمس والقمر ؟ وذل كل شيء وسخره ليستفيد به الإنسان والحيوان والنبات ، وبذلك يعمر الكون ، لا يستوى هذا مع كافر جاحد ، وهل يستوى الكافر الجاحد الذى طمس الله بصيرته ، فعمى قلبه ويصره عن رؤية أدلة الإيمان ، مع المؤمن الذى شرح الله صدره للإسلام ، فهو على

نور من ربّه، يرى أنعم الله وقدرته، فى شروق الشمس وبَسْمَةِ الوليد، وتألّق القمر وازدهار النجوم، وحركة الليل والنهار؟

قال ابن كثير :

والمراد أنه كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجّار، ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ١ هـ.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: **مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**. (هود: ٢٤).

٥٩ - **إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**.

إن القيامة لأتية حقاً لا شك فى ذلك، وعندها ينفخ إسرافيل فى الصور، فيصعق الناس جميعاً، ويموتون مدة أربعين سنة، ثم ينفخ مرة أخرى فيقوم الناس جميعاً، وهذا هو البعث، وبعده الحشر والحساب والجزاء، ودخول الجنة أو النار.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ.

أكثر الكافرين والمشركين لا يؤمنون بمجىء القيامة، ولا يصدقون بالبعث والحشر والجزاء، بسبب سيطرة الأوهام على عقولهم، ويسبب تقليدهم الأعمى لأبائهم وأجدادهم، وعدم تفتح عقولهم وقلوبهم لهدى المرسلين، ولوحى رب العالمين.

٦٠ - **وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**.

فتح الله بابه للداعين، وفتح رحمته للمسترحمين، وحث عباده على الالتجاء إليه، وذلك بعد التوبة النصوح، وأكل الحلال والبعد عن الحرام، ونظافة القلب، وخشوع الإنسان وتذللته لخالقه، والصدق فى الدعاء، عندئذ يقبل الله عبادة العابد، ودعاء الداعى، ويطلق الدعاء على العبادة، وفى الحديث: «الدعاء مخ للعبادة».

والعبادة توجه إلى الله فى إخلاص ومحبة وتوقير، والدعاء اعتراف لله بأن بيده الخلق والأمر، والنفع والضرر.

ويمكن أن نفسر الدعاء بواحد من التين :

١- الدعاء بمعنى سؤال الله .

٢- العبادة كالصلاة والصيام .

أى : اتجهوا إلى بالدعاء فإنى أستجيب لكم ، أو اعبدوني حق العبادة أحقق لكم سعادة الدنيا ، والفوز بالجنة فى الآخرة .

إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ :

إن الذين يتكبرون عن عبادة الله ، ويستعلون عن الخضوع لأوامره ، ويتبعون أهواءهم ولا يخضعون لأمرهم ، هؤلاء الذين تكبروا على عبادة الله ، ولم يتجهوا إلى دعاء الله والتضرع إليه ، سيدخلون النار أذلاء صاغرين ، فالعز الحقيقى فى طاعة الله والخضوع لأمره ، واتباع ما أمر به والبعد عما نهى عنه .

قال المفسرون :

ولا تنافى بين تفسير الدعاء هنا بالسؤال والتضرع إلى الله تعالى ، وبين تفسيره بالعبادة ، لأن الدعاء هو لون من ألوان العبادة ، بل هو مخها ، أى أهم شىء فيها ، حيث يشتمل الدعاء على التوجه إلى الله واليقين بقدرته .

قال تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ... (الأنبياء : ٧٦) .

كما أجاب الله دعاء زكريا وأيوب ودأود وسليمان ويونس وامرأة عمران ، وغيرهم من الصالحين والصالحات .

وقد أورد القرطبى وابن كثير وغيرهما طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى هذا المقام ، ومن ذلك ما ورد فى تفسير القرطبى :

حكى قتادة أن كعب الأحبار قال : أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلها إلا نبى : كان إذا أرسل نبى قيل له : أنت شاهد على أمتك ، وقال تعالى لهذه الأمة : لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... (البقرة : ١٤٣) .

وكان يقال للنبى : ليس عليك فى الدين من حرج ، وقال الله لهذه الأمة : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (الحج : ٧٨) .

وكان يقال للنبى : ادعنى أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : آذَعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...

قال القرطبي :

ومثل هذا لا يقال من جهة الرأي وقد جاء مرفوعاً ، رواه ليث ، عن شهر بن حوشب ، عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أعطيت أمتي ثلاثاً لم تُعط إلا للأنبياء : كان الله تعالى إذا بعث النبي قال : ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... وكان الله إذا بعث النبي قال : ما جعل عليك في الدين من حرج . وقال لهذه الأمة : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه ، وجعل هذه الأمة شهداء على الناس» .

ذكره الترمذي الحكيم في (نوار الأصول) (٣٦) .

★ ★ ★

أنعم الله على عباده

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَن تُوَفَّوْنَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِاللَّهِ بِحَدُّونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

المفردات :

لتسكنوا فيه : لتخلدوا فيه إلى السكون والراحة .

مبصراً : مضيئاً صالحاً للحركة والعمل .

توففون : تصرفون عن عبادة الله .

يجحدون : ينكرون ويكذبون .

قـررأ : مسكناً ومستقراً تستقرون فيه .

بنـاء : سقفا وقبة مضروبة عليكم .

وصوّركم؛ خلقكم فى تناسب واستعداد لمزاولة أعباء الحياة ، فجعل للإنسان عينين ويدين ورجلين
ولسانا وشفقتين .

الطبيبات؛ الحلائل والمستلذات من المطعم والمشرب والملبس وغيرها .

هو الحي : المتفرد بالحياة الذاتية غير المستمدة من آخر .

تمهيد :

تعدد هذه الآيات أفضال الله على عباده ، ومن هذه الأفضال ما يأتى :

(أ) جعل الليل ساكناً مظلماً هادئاً ، ليهذا الإنسان وينام ويستريح .

(ب) جعل النهار مبصراً مضيئاً لنبصر الأشياء ، ونجتهد فى العمل والسعى والحركة .

(ج) هناك أفضال من الله فى الخلق والرزق والإحياء والإماتة ، تستحق الاعتبار والشكر .

(د) الله خالق كل شيء ، فهذه المخلوقات لم يدع أحد أنه خلقها ، ويدهي أنها لم تخلق نفسها .

(هـ) كيف يُصرف الكافر عن الاعتبار ، والاعتراف لله وحده بالألوهية .

(و) لقد جعل الله الأرض قراراً يستقر عليها الإنسان ، وجعل السماء قبة أشبه بسقف المنزل ، وأبدع خلق

الإنسان على غير مثال سابق ، فوضّع العين والأذن والفكين واللسان واليدين والرجلين والمخ والقلب ،

وسائر الأجهزة ، كالجهاز الهضمى ، والعصبى ، والمفاوى وغيرها تقدير الحكيم الخبير .

(ز) رزقنا سبحانه من الطبيات ، وهو سبحانه دائم الحياة ، مستحق للحمد والثناء ، وهو رب العالمين .

التفسير :

٦١- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ .

تلقت الآيات النظر إلى بعض أنعم الله على عباده .

ومعنى الآية :

الله الذى جعل لكم الليل مظلماً ساكناً هادئاً ، حتى ينام الناس ويستردوا عافيتهم ، ويستعيدوا

طاقاتهم ، كما جعل سبحانه النهار مبصراً ، ليبصر الإنسان الأشياء فيعمل ويربح ويكسب الرزق .

وهناك أفضال متعددة من الله على عباده ، فهذا التكامل والتوافق فى خلق الكون ، وجعله صالحاً

لحياة الناس بنسب دقيقة ، أثر من آثار قدرة الله تعالى .

فوجود الكون ، ودورة الأرض حول الشمس ، ودورة الأرض حول نفسها ، تؤدي إلى وجود الفصول الأربعة ، ونسبة الأكسجين في الهواء - وهي ٢١٪ - تؤدي إلى حفظ الكون وحفظ الإنسان ، فلو زادت نسبة الأكسجين في الهواء إلى ٥٠٪ مثلاً لكثرت الحرائق ، بحيث لو حدثت شرارة واحدة في الغابة لكان ذلك كفيلاً باحتراقها ، ولو قلت نسبة الأكسجين عن المعدل وهو ٢١٪ ، فأصبحت ١٠٪ لاقترب الإنسان من الاختناق، ولقلت قدرته على التمدن والابتكار .

وكذلك تناسق العين لقرى ، والأذن لتسمي ، والفك ليأكل ويتكلم ، واليد لتعمل ، والرجل لتمشي ، والعقل ليفكر ، وسائر الأجهزة المتعددة ، التي يسفر عنها نظام هذه الآلة البديعة ، التي هي الإنسان ، ثم تناسقها مع هذا الكون ، ليكون الإنسان خليفة لله في هذه الأرض ، يعمل على عمارتها ، واستثمار خيراتها ، والاستفادة منها ، والإفادة لعباد الله من خيراتها .

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ...

أى : له أنعم متعددة على الناس أجمعين ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم .

وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ .

أى : لا يبدون حق الشكر لهذه النعم لجهلهم ، وغفلتهم عن التأمل في نعم الله عليهم .

٦٢- ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ .

هذا هو الله سبحانه ربكم وخالقكم ، وهو خالق كل شيء من هذه المخلوقات .

فالكون والسماء والأرض ، والبحار والجبال ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والإنسان والحيوان والنبات والقضاء ، وكل هذه المخلوقات التي أمامكم خلقها الله ، وسخرها لخدمة الإنسان ، ولم يدع إنسان أنه خلقها ، وهي لا تخلق نفسها ، فلا بد لكل صنعة من صانع ، فالكون كله محدث ، ولا بد لكل محدث من خالق ، وهذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى ، مُتَّصِفٌ بالقُدرة والإرادة ، والعلم والسمع والبصر وسائر الكمالات ، إن الله على كل شيء قدير ، إن الله سميع بصير .

لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ .

لا معبود بحق سواه ، فهو رب العالمين وما سواه مخلوق ، فكيف تُصَرِّفون عن عبادة الله وتوحيده .

٦٣- كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ .

يمثل هذا الإفك والضلال بعبادة غير الله ، ضلّ وأفك الجاحدون في كل زمان ومكان ، مع توافر الأدلة أمامكم ، وأمام الكافرين السابقين ، صرفكم العناد والهوى عن الإيمان الخالص بالله وحده ، كما صرف الكافرين المكذبين بإيثارهم الهوى على الحق ، والضلال على الهدى ، والجهود بآيات الله على الإيمان بها.

٦٤- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

تستمر الآيات في تعداد أنعم الله على الإنسان ، فقد خلق الأرض مستقرة لينام الإنسان عليها ، ويزرع ويتاجر ويسافر ، ويتكسب على ظهرها ، كما جعل السماء سقفا مرفوعا كالقبة المبنية ، وبارك في الأرض وقدر فيها أقواتها ، وبارك في السماء ، وزينها بالنجوم والشموس والأقمار ، وجعل الفضاء والهواء والرياح ، والأمطار والبحار والأنهار لعمارة هذا الكون .

كما امتن على الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم ، وجعله منتصب القامة ، مهياً للاستفادة بالنعم ، فخلق له النظر عينين ، والسمع أذنين ، واللبطش يدين ، وللمشي رجلين ، وخلق له لسانا وشفقتين ، وأبدع الخلقة بقدرته ، وهو على كل شيء قدير ، فبين الفكين توازن ، لو ارتفع أحدهما مقدار ورقة سيجارة ، أو تضخم ضرس أكثر مما هو عليه ، لأذى إلى عرقلة الكلام وتلكنز اللسان .

وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ...

ورزقكم من الحلال ، ومن لذائف المطعم والمشرب ، ما يستحق الشكر والثناء على الله الخالق الرازق .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ذلکم المتصف بهذه الصفات المذكورة ، خالق الكون والإنسان ، هو الله ربكم وخالقكم ، الذى لا تصلح الربوبية لغيره ، فتقدس وتزده الله ، رَبُّ الْعَالَمِينَ . خالق الإنس والجن والطير والملائكة ، فتزده الله عن صفات النقص ، وعما لا يليق به من الصاحبة والولد ، وكثرت بركاته وعطاياه ، فأنعم به من خالق حافظ منعم متفضل .

٦٥- هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

هو الحي الذى لا يموت ، والإنس والجن يموتون ، فهو سبحانه دائم الحياة ، أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء .

قال تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن: ٢٦، ٢٧) .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... لا معبود للعالمين إلا الله .

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...

أى : اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ، موحدين له مخلصين له العبادة ، معترفين له بالحمد والشكر والفضل والنعمة .

أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس قال: من قال لا إله إلا الله ، فليقل على أثرها : الحمد لله رب العالمين .

وذلك قوله تعالى : فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

★ ★ ★

النهى عن عبادة غير الله ، وسبب النهى

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكَوْنُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلَيَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٦٨)

المفردات :

البيِّنات: البراهين والآيات الواضحة التى تدل على التوحيد .

أسلم : انقاد وأخلص .

خلقكم من تراب : خلق أباكم آدم .

نطفة : منى .

علقة : دم غليظ يعلق بجدار الرحم .

أَشْهَدُكُمْ : كمال عقلكم وقوتكم ، فيما بين الثلاثين والأربعين .

أَجَلًا مَسْمُومًا : وقتا محدداً ، وهو وقت الموت .

قَضَى أَمْرًا : أراد إيجاد شيء .

كُنْ فَيَكُونُ : تمثيل لسرعة إيجاده ، وتصوير لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها ، من غير أن يكون هناك أمر أو مأمور ، والخاصة أنه إذا أراد إيجاد شيء أوجده في لمح البصر .

تمهيد :

ذكر في الآيات السابقة أدلة القدرة الإلهية في خلق الكون وما فيه ، وهنا يوضح للنبي أن يكون صريحا في قوله وإعلان أن الله نهاء عن عبادة الأوثان والأصنام، فقد جاءته الرسالة الواضحة ، وأمر بإخلاص العبادة لله تعالى ، فهو الذي خلق الجنين في بطن أمه ، ومرّ بمراحل متعددة حتى صار وليداً ، ثم مرّ بمراحل الطفولة والشباب ، والشيوخوخة ثم الموت

سبب النزول :

أخرج جوير ، عن ابن عباس ، أن الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة قالوا : يا محمد ، ارجع عما تقول بدين آبائك ، فأنزل الله : **قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .**

التفسير :

٦٦- قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، فقد بينت الآيات السابقة أن الله تعالى متصف بصفات الجلال والكمال ، وهنا تقول الآية : قل لهم يا محمد : إن الله تعالى نهاني أن أعبد الأصنام أو الأوثان أو الأحجار التي تعبدونها من دون الله ، بعد أن اختارني رسولا ، وأنزل عليّ الوحي ، وظهرت لي البينات والدلائل على قدرة الله البالغة ، فهو سبحانه خالق الأكوان وخالق الأنفس ، وهو الذي صوركم فأحسن صوركم ، وهو خالق كل شيء ، لذلك أمرنا أن نعبد وحده ، وأن نخلص له العبادة ، ولا نعبد أحداً سواه .

٦٧- هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشْدَّكُمْ ثُمَّ لَكُمْ رُتُوبًا ثُمَّ يُوَسِّخُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَكُمْ يَوْمَ تَعْلَمُونَ .

الله تعالى هو الذي يكوّن الجنين في بطن أمه^٧ ، حيث يمر بمراحل متعددة ، فقد خلق الله آدم من تراب ،

وخلق ذريته من المنى، والمنى يتكون من الدم، والدم من الأكل، والأكل من النبات، والنبات يتكون من القرب والماء.

إن الجنين يمر بمراحل متعددة، تبدأ بالتقاء البويضة من الذكر وتلقيحها لبويضة الأنثى، ثم تتحول من نطفة إلى قطعة دم جامدة، تعلق بجدار الرحم وتسمى علقة، ثم يمر بمراحل في بطن أمه حتى يصير طفلاً ينزل إلى الدنيا، وفيه وسائل النظر والسمع، والبطش والمشى، والأكل والنمو، ويمر بمراحل الطفولة ثم الشباب والقوة، ثم الشيخوخة والضعف، ومن الناس من يموت في مرحلة الشباب أو قبلها، ومنهم من يعمر حيث يمكث كل إنسان في هذه الدنيا إلى الأجل الذي حدده الله له في هذه الحياة.

وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أن هذا الإله الخالق للجنين في بطن أمه، الذي تعهده إلى أن صار طفلاً، والذي تعهد الطفل إلى أن صار شيخاً، هذا هو الإله الذي يستحق العبادة.

٦٨- هُوَ الَّذِي يُعْطِي ۖ وَيُجِيبُ ۖ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

الحياة بيد الله والموت بيده، النهار والليل، الهدى والضلال، الخلق والموت، كل ذلك بقدرته، فولادة الوليد وتطوره طفلاً ثم فتى ثم شاباً ثم شيخاً، ثم موته ودفنه وبعثه وحسابه، كل ذلك بيد القدرة الإلهية، التي تفعل ما تريد، وتنفذ ما تشاء في أقل من لمح البصر.

والآية تمثيل لكمال القدرة، وتصوير لتنفيذ مراده سبحانه، فإذا أراد الله أمراً وجد، وكان في سرعة استجابة الأمور المطيع للأمر المطاع، والله أعلم.

قال المفسرون:

والمراد من الآية التنبيه على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرّد إرادة الله تعالى الفعل.

وقال الزمخشري:

والآية تشير إلى قدرته تعالى على الإحياء والإماتة، وسائر ما ذكر من أفعاله الدالة على أن مقدوراً لا يمتنع عليه، كأنه قال: فلذلك الاقتدار، إذا قضى أمراً كان أمون شيء عليه وأيسره.

وقال الألوسي في تفسيره:

وهذا عند الخلف تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات، عند تعلق إرادته - سبحانه - بها، وتصوير لسرعة ترتيب المكونات على تكوينه، من غير أن يكون هناك أمر ومأمور.

جزاء المجادلين بالباطل هي آيات الله

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُصْرِفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذَا الْأَغْلالُ فِي أَعْنَقِهِمْ
 وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْزِلُوا
 مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا
 كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلَّسَ مَثْوَى
 الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

المفردات :

يجادلون ، كُرِّرَ ذم المجادلة لتعدد المُجادل ، أو المُجادل فيه ، أو للتأكيد .

أنسى يصرفون ، كيف يُبعدون عن الإيمان بالله ؟

الكتاب ، القرآن .

وبما أرسلنا به رسلنا ، من سائر الكتب والوحى ، والبعث والشرائع .

فسوف يعلمون ، عقوبة تكذيبهم ، وهذا وعيد لهم .

الأغلال ، القيود تجمع الأيدي إلى الأعناق .

يسحبون ، يجرون بعنف بالسلاسل .

الحميم ، الماء الذى بلغ الغاية فى الحرارة .

يسجرون ، يحرقون ، يقال : سجر التنور ، إذا ملاه بالوقود ، ومنه : وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . (الطور : ٦) . أى : المملوء .

ضلوا عنا ، غابوا عن أعيننا فلا نراهم ولا ننتفع بهم .

تفرحون ، تبطرون ، دون تفكير فى الآخرة .

تفرحون ، تتوسعون فى الفرح والبطر ، وقيل : المرح : الفخر والخيلاء .

مَثْوَى ، مأوى ومقر ، أى : قبح مقر المتكبرين جهنم .

تمهيد :

تستعرض الآيات بعض مشاهد القيامة من باب التهديد والوعيد ، وعرض أمور المستقبل أمام الكافر ليتبين مآله ، وليتعتز به غيره ، فهؤلاء الكفار يجادلون في صدق القرآن ، ويكذبون الرُّسل ، وما أُرسلوا به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وسوف يعلم هؤلاء سوء عاقبتهم ، حين يشاهدون الأغلال تريط في أعناقهم وأيديهم ، والسلاسل يسحبون بها إلى جهنم ، حيث يقذفون في النار، كما قال تعالى : **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤)** .

ويوجه إلى هؤلاء الكفار سؤال توبيخ وعتاب ومؤاخذه ، وهو : أين الآلهة التي عبدتموها من دون الله ، كالأصنام والأوثان وغيرها ؟

فيقول الكفار : غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا يروننا ، لقد تبيننا حقيقة ضلالنا ، وأن ما عبدناه ليس له حقيقة ، فلا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فكأننا ما عبدنا شيئاً ، ثم يقال لهم : هذا العذاب بسبب بطركم وتكبركم وعُتُوكم وامتناعكم عن سماع الحق ، فادخلوا أبواب جهنم السبعة ، وأقيموا فيها إقامة دائمة ، وساعت إقامة الكافرين في جهنم .

التفسير :

٦٩ - **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ .**

انظر يا محمد إلى أولئك الكفار ، الذين أغرموا بالجدال في صدق القرآن ، كيف يصرفون عن الاهتداء به ، والاستفادة مما فيه من علوم ومعارف وهدايات ، فلا تتفتح قلوبهم لمعرفة القرآن والاستجابة لهداياته ، بل يتكبرون عن الإيمان به .

٧٠ - **الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .**

الذين كذبوا بالقرآن ، وكفروا بأدلة التوحيد ، ولم يؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم حين يرون ألوان العذاب في جهنم .

٧١ ، ٧٢ - **إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ .**

أى : سوف يعلمون عاقبة كفرهم يوم القيامة ، حين تكون الأغلال والقيود في أعناقهم وأيديهم ، والسلاسل فى أرجلهم ، والزبانية يجرونهم بها إلى جهنم ، ليكونوا وقوداً لها ، كما قال تعالى : **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ... (البقرة : ٢٤)** .

فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ .

يوضعون في الحميم ، وهو الماء المتناهي في الحرارة ، فتتقطع جلودهم ، وتنسلخ لحومهم ، ثم يحرقون في النار التي توقد بهم ، وتحيط بهم .

قال تعالى : خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ . (الدخان : ٤٧ - ٥٠) .

وقال تعالى : هَلْذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ فِيهَا خَالِدِينَ * وَاللَّهُ يَخْتَارُ * (الرحمن : ٤٣ ، ٤٤) .

٧٤، ٧٣ - ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ .

تسألهم الملائكة سؤال توبيخ وتقريع ، فتقول لهم : أين الآلهة التي عبدتموها وأشركتموها بالله في عبادتكم ؟ بل إنكم جعلتموها آلهة ، واتجهتم لها بالعبادة من دون الله الذي يستحق العبادة وحده ، أين هذه الأصنام والأوثان وغيرها من الآلهة المدعاة ؟

وأجاب الكافرون : لا نراهم ولا يروننا ، لقد تبينا بعد فوات الأوان أننا لم نكن نعبد شيئاً يستحق العبادة ، تبيناً الآن أن الذين عبدناهم لا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يجيبون ولا يشفعون ، وأن عبادتنا لهم كانت باطلة ضائعة ، وهكذا يتبين بطلان جميع أعمال الكافرين ، وتنقطع العلائق والصلات بين العابدين والمعبودين .

٧٥ - ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ .

أي : هذا العذاب الذي تعرضتم له في جهنم ، وأغلالها وسلاسلها ، وحميمها وألوان عذابها ، بسبب ما كنتم تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله ، والسرور بمخالفة رسله وكتبه ، وبسبب ما كنتم تبطلون وتأشرون ، وهو جزاء المرح بغير الحق ، والتكبر بالباطل ، والشرك وعبادة الأوثان .

٧٦ - ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ .

بسبب كفركم وعنادكم وسروركم بالباطل ، وتعاليتكم على المؤمنين والمرسلين ، ادخلوا أبواب جهنم السبعة ، وأقيموا في جهنم إقامة دائمة ، يتحقق لكم فيها الذل والهوان ، وألوان العذاب الأليم ، فبيئت جهنم مآلاً ومقاماً للمتكبرين عن قبول الحق ، والممتنعين عن الإيمان بالرسل .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ . (الحجر : ٤٢ - ٤٤) .

من تفسير القرطبي :

ذَلِكَم . أى : ذلكم العذاب .

بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ . بالمعاصي ، يقال لهم ذلك توبيخا ، أى : إنما نالكم هذا بما كنتم تظهرون فى الدنيا من السرور بالمعصية ، وكثرة المال والأتباع والصحة ، وقيل : إن فرحهم بما عندهم أنهم قالوا للرسول : نحن نعلم أننا لا نبعث ولا نعذب ، وكذا قال مجاهد فى قوله جل وعزَّ : فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ... (غافر : ٨٣) .

وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ .

قال مجاهد ، وغيره : أى : تَبْطَرُونَ وتَأْشَرُونَ . وقال الضحاك : الفرح والسرور والمرح : العدوان .

وروى خالد بن ثور ، عن معاذ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبغض البذخين الفرحين ، ويحب كل قلب حزين ، ويبغض أهل بيت لحمين ، ويبغض كل حبر سمين» ، فأما أهل بيت لحمين ، فالذين يأكلون لحوم الناس بالغيبة ، وأما الحبر السمين ، فالمتحبر بعلمه ، ولا يخبر بعلمه الناس ، يعنى المستكتر من علمه ، ولا ينتفع به الناس . ذكره الماوردى .

وقد قيل فى اللحمين : إنهم الذين يكثر أكل اللحم ، ومنه قول عمر : اتقوا هذه المجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر . ذكره المهدوى ، والأول قول سفيان الثوري .

أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ... أى : يقال لهم ذلك اليوم .

وقد قال تعالى : لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ... (الحجر : ٤٤) .

فَيَسَّسَ مَقَاوِي الْمُتَكَبِّرِينَ .

أى : ادخلوا أبواب جهنم المفتوحة أمامكم ، حال كونكم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، فبنس مكان المتكبرين عن قبول الحق .

تعقيب

كيف نوفق بين قوله تعالى: ذَلِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * أَذْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ .

وبين ما ورد في صحيح البخارى من قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» .

وهل يفهم من الآيتين أن الإسلام يكره الفرح والسرور والبشر والحبور ؟

الجواب :

الإسلام يكره الإنسان بما عنده من الباطل أو الكفر أو الشرك ، كما يكره البطر والكبر والأشر ، والتعالى على عباد الله ، فالفرح الممقوت هنا هو الفرح في الأرض بغير الحق ، والمرح بارتكاب المعاصي والفسوق ، والفجور والمعصية ، والبعد عن هدى السماء ، والترفع عن الإيمان برسول الله ، والإسلام دين وسط يحث على الاعتدال واليسر والبشر .

قال تعالى: وَتُيسِّرُكَ لِلْيُسْرَى . (الأعلى: ٨) .

وقال سبحانه وتعالى: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... (البقرة: ١٨٥) .

وقال ﷺ: «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا»^(٣٧) .

وقال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ... (يونس: ٥٨) .

وقال تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (البينة: ٨) .

وتقول عائشة رضى الله عنها: كان ﷺ أفكه الناس في بيته ، ضحوكا بساما^(٣٨) .

وكان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا^(٣٩) .

وقال ﷺ: «روحوا القلوب ساعة ، فإنها إذا تعبت كلت ، وإذا كلت عميت»^(٤٠) .

وقال ﷺ: «إن لربك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لضيفك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق

حقه»^(٤١) .

وقال ﷺ: «حُبِّ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثُ: النِّسَاءِ ، وَالطَّيِّبِ ، وَجَعَلْتَ قَرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(٤٢) .

وروى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «إن أتقاكم لله أنا ، وإن أعلمكم بالله أنا ، وإن أخوفكم من الله أنا ، ومع هذا فإنى أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى»^(٣٧).

وروى البخارى أيضاً أن رسول الله ﷺ كان يستمع إلى جاريتين من الأنصار تغنيان فى يوم عيد ، فدخل أبو بكر الصديق فقال : أزممار الشيطان فى بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال ﷺ : « دعهما يا أبا بكر ، فإن اليوم يوم عيد ، دعهما يا أبا بكر ، لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة»^(٣٨).

لقد كان ﷺ أسوة حسنة فى خلقه وهديه وسمته ، ودله وسلوكه ، وكان مثلاً أعلى فى السلوك ، فهو مع أصحابه كأحدهم ، إن أخذوا فى أمر الدين أخذ معهم ، وإن أخذوا فى أمر الدنيا أخذ معهم ، لا يترفع على أصحابه ، إذا فرح ظهر السرور فى وجهه كأنه مذهبه ، أى ظهر الرضا فى وجهه كأن الذهب وبريقه يلمع فى بشرته ، وكان أسيل الخدين ، أدعج العينين ، سبط الشعر ، طويل الرقبة ، ما تعرّض من وجهه للشمس كأنه الذهب ، وما خفى من رقبته عن الشمس كأنه الفضة ، فكان كأنه إبريق فضة مطعم بالذهب ، يجرى ماء الحسن فى وجهه ، إنسان بكل معانى الإنسانية .

والخلاصة :

إن هدى القرآن الكريم وروح السنّة المطهرة فيهما إرشاد وتوجيه إلى السلوك السوى المعتدل ، فإذا فرح الإنسان ظهر الرضا فى وجهه فى اعتدال ، وإذا حزن فى موقف أظهر ذلك فى اعتدال ، والإنسان المسلم إنسان كامل الإنسانية ، جياش العواطف ، مؤمن بالقضاء والقدر ، راض بالقدر خيريه وشّره ، حلوّه ومزّه ، وهو عامل مجتهد نافع كادح ، يعتبر أن البشر والرضا والكلمة الطيبة صدقة .

وفى الحديث الصحيح : «تبسّمك فى وجه أخيك صدقة»^(٣٩).

وفى الأثر : «البرّ شئ هين ، وجه طليق ، وكلام لين» .

وفى الحديث الشريف : «إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطنون ، الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى منازل يوم القيامة الثرثارون المتشدقون ، المتفيهقون (المتكبرون)»^(٤٠).

وفى أذكار الصباح والمساء نجد لمسة الفرح والسرور ، والرضا والاستبشار ، والفرح بالجمال والنور والنعمة ، والاستعاذة بالله من الهموم والأحزان .

من أدعية الرسول ﷺ

«رضينا بالله تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً»

«يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك» (٣٧) .

«اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ ، عدلٌ فيَّ قضاؤُكَ ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، وذهب غمِّي وحزني» (٣٨) .

وهذا الدعاء علمه النبي ﷺ لرجل مهموم حزين ، فأذهب الله عنه الهموم والأحزان .

إن الإسلام يدعونا إلى الرضا والفرح والسرور بنعم الله تعالى علينا ، ويعلمنا أن نستعِذ بالله تعالى من الهم والحزن .

وعندما أنشد كعب بن زهير قصيدته بين يدي النبي ﷺ وقال فيها :

وقال كل صديق كنت آمله	لا ألفتك إني عنك مشغول
فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم	فكل ما قدر الرحبان مفعول
نبئت أن رسول الله أوعدني	والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به	مهتد من سيوف الله مسلول

فرح الرسول ﷺ بهذه القصيدة ، وعفا عن كعب بن زهير ، وخلع بردته وكسا بها هذا الشاعر ، إعلانا عن رضاه وسروره بما قال .

ونحن نأخذ الإسلام بجميع أركانه وآدابه ومشتملاته ، وسنجد أنه نظام يكفل السعادة والرضا والبشر ، ويهتم بإنسانية الإنسان ، ويشيع البسمة والرضا ، ويقاوم الخوف والحزن واليأس والإحباط .

قال تعالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . (آل عمران : ١٣٩) .

وقال سبحانه : إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ . (يوسف : ٨٧) .

صحيح أن القرآن حذّرنا من معصية الله ، ومن التجرؤ على مخالفة أوامره ، قال تعالى : وَخَافُونَ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . (آل عمران : ١٧٥) .

وفى نفس الوقت حثنا على الرجاء والأمل فى رحمة الله الواسعة ، فقال سبحانه : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف: ١٥٦) .

وعند الشباب نغلبُ الخوف على الرجاء ، وعند الشيخوخة نغلبُ الرجاء على الخوف ، ونرفع رصيد الأمل فى رحمة الله ومغفرته ، ومعونته وفضله ، وكريم عفوه ، وسابغ فضله ، وبهذا تتكامل إنسانية الإنسان واستقامة سلوكه فى جميع مراحل حياته .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ . (فصلت ٣٠ - ٣٢) .

★ ★ ★

الصبر والتصبر

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِكَيْدٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

المفردات :

حَقٌّ : كائن لا محالة .

بَعْضُ الَّذِي نَعِدُهُمْ : بعض الذى نعهد من العذاب بالقتل أو الأسر لهم فى حياتك ، وجواب الشرط تقديره : فذاك .
أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ : أى : نمتلك قبل تعذيبهم .

فَالِإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ : فالإينا وحدنا يرجعون يوم القيامة ، فنجازيهم بأعمالهم .

بِأَيَّةٍ : بمعجزة .

أَمْرُ اللَّهِ : قضاء الله ، أو يوم القيامة .

بِالْحَقِّ : بالعدل .

الْمُبْطِلُونَ : أهل الباطل .

التفسير :

٧٧- فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَرْفُثُكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ .

ناقش القرآن أهل مكة طويلاً فيما سبق ، وكانوا يتقولون على النبي ﷺ ، ويتربصون به الموت أملاً في التخلص منه ، وهنا يحث القرآن الرسول ﷺ على الصبر الجميل ، مؤكداً أن وعد الله حق ، يَنْصُرُ الرسل والمؤمنين في حياتهم أو بعد وفاتهم ، وكأن القرآن الكريم يشير إلى أن الرسول له غاية وهدف وهو البلاغ، أما الهداية أو النصر فذلك في مشيئة الله وحكمته .

ومقصود الآية كالاتي :

اصبر أيها الرسول على إيذاء المشركين واثقا بالنصر، سواء وجدت ذلك في حياتك كالنصر عليهم يوم بدر ، أي إذا أرينا النصر في حياتك فبها ونعمت ، وإذا توقيناك قبل تحقيق النصر فلا تحزن ؛ فإن مصيرهم إلينا ، وسيلقون الجزاء كاملاً بيد الإله العادل ، ولا يظلم ربك أحداً ، وهو سبحانه مالك يوم الدين ، ويبدد الجزاء العادل في ذلك اليوم ، وإلى الله وحده يرجعون .

٧٨- وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ .

إن رسالة محمد لم تكن بدعا من الرسل ، بل قد سبقه رسل وأنبياء كثيرون ، ذكر القرآن الكريم طائفة منهم ، ولم يذكر طائفة منهم ، فقد سجل القرآن الكريم قصص آدم ونوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى وأيوب وداود وسليمان ويونس وإسماعيل وإدريس ، ومجموع من ذكرهم القرآن الكريم من الرسل خمسة وعشرون رسولا ، ومن الرسل من لم يذكر القرآن الكريم أخبارهم ، وهم أكثر من ذلك بأضعاف أضعاف .

كما قال تعالى : وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... (النساء : ١٦٤) .

أخرج الإمام أحمد ، عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ، كم عدد الأنبياء ؟ قال : «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر ، جمًّا غفيرا» (٣٩) .

لقد ذكر القرآن الكريم أخبار المرسلين وكفاحهم ، وأحيا ذكراهم ، واقتصر في الذكر على نماذج محدودة ، ولم يذكر جميع الرسل لحكمة إلهية عليا ، فالقرآن ليس كتاب إحصاء ، وليس كتاب تاريخ أو معارف ، لكنه ذكر نماذج من الرسل ، وعينات من العلوم والمعارف ، وقيسات من تاريخ الأمم والملوك والرسل للعظة والاعتبار .

قال تعالى: لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ... (يوسف: ١١١).

وقد أيد الله الرسل بالمعجزات ، وأنزل عليهم الآيات والصحف والكتب وألوان الهداية .

وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ...

إن مجيء الآيات والمعجزات يتم بحكمة إلهية ، وباختيار الله لكل رسول بما يناسبه ، فقد أيد الله إبراهيم بأن جعل النار بردًا وسلاما عليه ؛ وأيد موسى باليد والعصا وتسع آيات بينات ، كما أيد عيسى بإحياء الموتى بإذن الله ، وشفاء المرضى بإذن الله ، وجعل معجزة محمد ﷺ من جنس ما برع فيه قومه ، وهو البيان والقصائد والخطب والنظم والنثر ، فجاء القرآن فى الذروة العليا من الفصاحة ، لكنه ليس شعرا وليس أساطير الأولين ، وليس كهانة ، ولكنه وحى الله إلى رسوله ، وقد اقترح كفار مكة ألوانا من المـزات تشبه ناقة صالح ، أو عصا موسى ، كما اقترحوا أن يأتى لهم الرسول بالأنهار والبساتين حتى تصبح مكة مثل قرى الشام فى الزراعة وطيب النسيم ، والقرآن يذكر أن مجيء الآيات والمعجزات أمر إلهى ، ولا دخل للرسول فى اقتراحها أو المـجىء بها ، وإن كانت طبيعة الرسول البشرية تتمنى أن يتحقق للناس ما يتطلعون إلى وقوعه من المعجزات ، ليكون ذلك باعثاً لهم على الإيمان والتصديق ، ولكن الله تعالى لا يجعل لعجلة العباد ، ويريد لعباده المؤمنين أن ينالوا قسطا من الصبر والابتلاء ، حتى يكون الإيمان عن قناعة ورغبة وجهاد وتضحية .

وَلِيُصْحَخَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . (ال عمران : ١٤١) .

فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِّى بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ .

أى : إن الله يمهل مجيء الآيات ليأخذ الناس فرصة واسعة قبل نزول العذاب ، فإذا جاء أمر الله ووعده بإهلاك الكافرين فى الدنيا ، أو عذابهم فى الآخرة ؛ جعل ذلك بالعدل والحق ، ولا مجال لاعتذار أو تراجع بل عذاب رادع فى الدنيا ، أو دخول جهنم فى الآخرة ، كما حدث فى غرق قوم نوح ، أو هلاك عاد وثمود ، أو غرق فرعون وملئه .

وعندئذ يخسر المبطلون ، ويحقيق العذاب الشديد بأهل الباطل فى الدنيا والآخرة .

وَمَا رُبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) :

منافع الأنعام

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

المفردات :

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز .

حاجة في صدوركم : أمراً ذا بال تهتمون به .

آياته : دلائل قدرته في الآفاق وفي أنفسكم .

فأي آيات الله تنكرون ، الدالة على ما ذكر من تلك الآيات ، فإنها لوضوحها وظهورها لا تقبل الإنكار .

تمهيد :

كان أهل مكة يطلبون طائفة من خوارق الآيات للدلالة على صدق الرسول الأمين ، فبينت الآيات السابقة أن مجيء المعجزات أمر خاضع لإرادة الله واختياره سبحانه ، ثم لفت أنظارهم إلى طائفة من النعم التي أنعم الله بها على عباده ، وهي شاهدة لله تعالى بكمال القدرة والوحدانية ، ولإبطال أي ادعاء بأن أحداً غير الله خلقها ، وأي ادعاء كذلك بأنها خلقت بلا خالق مدبر مريد .

التفسير :

٧٩- اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

يطلق بعض المفسرين الأنعام على الإبل وحدها ، ففيها منافع متعددة للركوب والأكل والاستفادة بأوبارها ، وحمل الأثقال عليها ، حتى قالوا : (الجمال سفينة الصحراء) ، وقد خلق الله الجمال حمولاً صبوراً ، يتحمل الجوع والعطش والمشى على الرمال في الصحراء .

وذكر بعض المفسرين أن الأنعام تطلق على الإبل والبقر والغنم والمعز ، وقد امتن الله بها علينا في الآيات من ١٤٢ - ١٤٤ من سورة الأنعام .

حيث قال تعالى : تَمْلِكُنَّ أَزْوَاجَ مِّنَ الصَّانِئَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِئَيْنِ ... (الأنعام : ١٤٣) .

وقال سبحانه : وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ... (الأنعام : ١٤٤) .

وقريب من ذلك ما ورد فى قوله تعالى : **وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ .** (النحل : ٥ - ٧) .

لقد كانت هذه الإبل هى الوسيلة الوحيدة فى ذلك الوقت للانتقال فى مفاوز الصحراء ، ولا تزال بعض الطرق الضيقة إلى الآن وكذلك المفاوز الرملية ، والمعابر الجبلية وأشباهاها ، تعتمد على بعض الحيوانات فى ارتيادها .

وقد أشار القرآن إلى استخدام الآلة فى السير وفى غيره ، وذلك فى قوله تعالى : **وَالْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَالْحُمُرَ يَتَرَبَّكُوهَا زِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .** (النحل : ٨) .

عوداً إلى التفسير :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ يَتَرَبَّكُوهَا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ .

لقد سخر الله لكم الأنعام بجميع أصنافها ، حتى تستفيدوا بركوب بعضها ، والأكل من بعضها ، فالإبل تؤكل وتركب ويشرب لبنها ، وتحمل عليها الأمتعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وينتفع بها فى الحرث والسقى ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تتناسل وتجز أصوافها وأشعارها وأوبارها ، ويستفاد بذلك فى الأثاث والثياب والأمتعة .

٨٠- وَلَكُمْ فِيهَا مَنْفَعٌ وَلِيَتَّبِعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَىٰ أَفْلَكٍ تَحْمَلُونُ .

أى : لكم فى مجموع الأنعام طائفة من المنافع ، مثل الأكل وشرب الألبان والركوب ، والانتفاع بالأصواف والأشعار والجلود .

وَلِيَتَّبِعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ...

أى : تنتقلون على الإبل ، وتنقلون بها أمتعتكم ، وتصلون بها إلى أهدافكم الكبيرة ، خصوصاً عند الكر والفز ، والبحث عن الكلاء والمرعى .

وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَفْلَكٍ تَحْمَلُونُ .

تحملون أمتعتكم فى البر على الإبل وبعض الحيوانات الأخرى ، وفى البحر تحملون أمتعتكم على السفن التى تمخر عباب البحر ، وتنقل التجارة والسياح والأمتعة والمنافع .

٨١- وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ .

الله تعالى يريكم دلائل قدرته فى البر والبحر والجو، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنور والظلام، والصيف والشتاء، والتقدم العلمى، وأدلة القدرة فى الأنفس والأفاق، فأى هذه الآيات الباهرات تنكرون دلالتها على قدرة الله، إن هذه المخلوقات البديعة لم يدع أحد أنه خلقها، ثم هى لم تخلق نفسها، فلم يبق إلا أن تكون مخلوقة لله رب العالمين .

وقد ختمت الآية بهذا الاستفهام الإنكارى، منكرة على المخاطبين الجحود والكفر، وقريب من ذلك ما ورد فى الآيتين ٦٠، ٦١ من سورة النمل، حيث يقول الله تعالى: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِلْ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (النمل: ٦٠، ٦١) .

ويقول سبحانه وتعالى: ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا . (النازعات: ٢٧، ٢٨) .

★ ★ ★

تهديد المكذابين

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

المضردات :

وَأَنَارًا فى الأرض : ما أبقوه من القصور والحصون والمصانع ونحوها .

بِالْبَيِّنَاتِ : بالمعجزات والشرائع الواضحات .

فرحوا بما عندهم من العلم، رضى الكفار عن أنفسهم وعن معارفهم، بأنه لا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء، واحتقروا شرائع الرسل ولم يتبعوها.

حَقَّ بِهِمْ، أحاط ونزل بهم ما استهزأوا به من العذاب.

بِأَسْنَانٍ، شدة عذابنا.

وكفرنا بما كنا به مشركين، كفرنا بالأصنام والأوثان، وسائر الآلهة الباطلة.

فلم يك ينفعهم إيمانهم، فلم يصح ولم يستقم، لامتناع قبول الإيمان بعد فوات الأوان.

سَنَةِ الْإِسْلَامِ، أى: سن الله ذلك سنة ماضية فى العباد، ألا ينفعهم الإيمان وقت نزول العذاب.

وخسر هنالك الكافرون، وهلك فى مكان نزول العذاب الكافرون.

التفسير:

٨٢- أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

تلقت الآية أنظار المشركين من أهل مكة إلى التأمل والتفكر فى عاقبة المكذبين لرسلهم، مثل قوم نوح، ومثل عاد وثمود، ومثل فرعون وملئه، حين أهلك الله المكذبين بصنوف الهلاك: كالغرق، والخسف، وإرسال الصواعق المهلكة، وغير ذلك، وأن هؤلاء الذين أهلكوا كانوا أكثر من أهل مكة مالا وعدداً، ولا تزال قصورهم وأبنيتهم الضخمة وآثارهم تشهد بمدى تفوقهم، لكن ذلك لم يدفع عنهم.

٨٣- فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

فلما جاءت الرسل إليهم بالبراهين والمعجزات والوحي الإلهي، أعرضوا عن هدى السماء، وفرح الكفار بما هم عليه من العلم الدنيوى الخالى من نور الهداية والوحي، وكان فرح بطر وأشر، واغترون بذلك العلم، ونزل بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات.

٨٤- فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.

فلما شاهدوا بأعينهم شدة العذاب الذى نزل بهم، وعایتوا أهواله وشدائده، قالوا: آمنا بالله الواحد الأحد، وكفرنا بالأصنام والأوثان وسائر المعبودات التى عبدناها من دون الله.

٨٥- فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ .

أعطى الله الإنسان العقل والإرادة والاختيار، وجعل ذلك مناط التكليف، ومن سنة الله تعالى الماضية في السابقين واللاحقين أنه لا يقبل الإيمان في حالة الإلجاء والاضطرار، كإيمان فرعون حين رأى الغرق أعلن إيمانه بعد أن عصى واستكبر وأعلن الفساد والعناد: فلم يقبل منه الإيمان، ونجى الله بدنه فقط ليحبط ويظل دليلاً ملموساً على عاقبة الظلم والفساد، وعلى أن الإيمان لا ينفع صاحبه عند رؤية العذاب: لأنه إيمان عن إلجاء واضطرار لا عن رؤية واختيار.

قال ابن كثير:

وَحَدَّثُوا اللَّهَ وَكَفَرُوا بِالطَّاغُوتِ، وَلَكِنْ حَيْثُ لَا تَقَالِ الْعَثَرَاتُ، وَلَا تَنْفَعُ الْمَعْذَرَةُ، وَهَذَا كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ: «آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ يَتَوَّأَسِرَ عَيْلِي وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (يونس: ٩٠)، فَلَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهُ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَجَابَ لِنَبِيِّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١٠).

وهكذا قال تعالى مهنا: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ...

أى: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل، ولهذا جاء في الحديث: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغْرغ»^(١١)، ولهذا قال تعالى: وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ. ١ هـ.

خلاصة ما تضمنته سورة غافر

- ١ - بيان صفات الله عز وجل .
- ٢ - عقوبة الجدل بالباطل فى آيات الله .
- ٣ - وصف الملائكة الذين يحملون العرش ومن حوله .
- ٤ - ذكر دعائهم للذين تابوا .
- ٥ - وصف أهوال القيامة على الكافرين .
- ٦ - طلب الكفار الرجوع إلى الدنيا ، ثم رفض هذا الطلب .
- ٧ - إقامة الأدلة على وجود الإله القادر .
- ٨ - إنذار المشركين بأهوال يوم القيامة .
- ٩ - قصص موسى مع فرعون .
- ١٠ - قصة مؤمن آل فرعون ونُصِّحَه لقومه بالإيمان .
- ١١ - نقاش الضعفاء والكبراء من أهل النار .
- ١٢ - أمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى قومه ، كما صبر أولو العزم من الرسل .
- ١٣ - تعداد نعم الله على عباده فى البر والبحر .
- ١٤ - الإيمان لا يقبل إلا عن طوعية واختيار ، ويُرفض عند الإلجاء والاضطرار .



تفسير سورة فصلت

أهداف سورة فصلت

سورة فصلت مكية ، نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها (٥٤) آية ، نزلت بعد سورة غافر .
أسمائها : تسمى سورة فصلت لقوله تعالى فى أوائلها : كَتَبَ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .
(فصلت : ٣)

وتسمى سورة حم السجدة لاشتغالها على السجدة ، وسورة المصابيح لقوله تعالى : وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت : ١٢)

روح السورة

الروح السارية بين آيات سورة فصلت هى عرض أهداف الدعوة الجديدة وأركانها وحقائقها الأساسية، وهذه الحقائق هى :

الإيمان بالله وحده ، وبالحياة الآخرة ، وبالوحي والرسالة ، ويضاف إلى ذلك طريقة الدعوة إلى الله وخلق الداعية .

وكل ما فى السورة هو شرح لهذه الحقائق ، واستدلال عليها ، وعرض لآيات الله فى الأنفس والآفاق، وتحذير من التكذيب بها ، وتذكير بمصارع المكذبين فى الأجيال السابقة ، وعرض لمشاهد المكذبين يوم القيامة ، وبيان أن المكذبين من الجن والإنس هم وحدهم الذين لا يسلمون بهذه الحقائق ، ولا يستسلمون لله وحده ، بينما السماء والأرض والشمس والقمر والملائكة ... كلهم يسجدون لله ويخضعون لأمره ويسلمون ويستسلمون له .

موضوعات السورة

تنقسم سورة فصلت إلى موضوعين اثنين :

الموضوع الأول :

يشمل نصف السورة الأول ، الآيات من (١ - ٣٦) ، ويبدأ بالآيات التى تتحدث عن تنزيل الكتاب وطبيعته ، وموقف المشركين منه ، وتليها قصة خلق السماء والأرض ، فقصة عاد وثمود ، فمشهدهم فى الآخرة حيث تشهد عليهم الأصماع والأبصار والجلود ، ومن هنا يرتد إلى الحديث عنهم فى الدنيا وكيف ضلوا هذا الضلال ، فيذكر أن الله قيض لهم قرناء سوء من الجن والإنس ، يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ومن آثار هذا قولهم : لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ . (فصلت : ٣٦) .

ثم موقفهم يوم القيامة حانقين على هؤلاء الذين خدعهم من قرناء الجن والإنس ، وفى الجهة الأخرى نجد الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، وهؤلاء تنزل عليهم الملائكة - لا قرناء سوء - يطمنونهم ويبشرونهم ويعلنون ولايتهم لهم فى الدنيا والآخرة ، ويلي هذا ما جاء عن الدعوة والداعية ، وبذلك ينتهى الموضوع الأول .

الموضوع الثانى :

تحدث الآيات من (٣٧ - ٥٤) عن آيات الله من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والملائكة العابدة ، والأرض الخاشعة ، والحياة التى تهتز فيها وتربو بعد الموت ، ويلي هذا الحديث عن الذين يلحدون فى آيات الله وفى كتابه ، وهنا يجىء ذلك الحديث عن هذا الكتاب ، ويشار إلى كتاب موسى واختلاف قومه فيه ، وأنه لولا سبق حكمه بإمهالهم لعجل بقضائه بينهم .

وهنا يرد حديث عن الساعة واختصاص علم الله بها ، وعلمه بما تكنه الأكمام من ثمرات ، وما تكنه الأرحام من أنسال ، ويعرض مشهد الكافرين وهم يسألون عن الشركاء ، يلي هذا الحديث عن النفس البشرية عارية من أستارها ، ومع حرص الإنسان على نفسه هكذا فإنه لا يحتاط لها ، فيكذب ويكفر ، غير محتاط لما يعقب هذا التكذيب من دمار وعذاب .

وتختتم السورة بوعد من الله أن يكشف للناس عن آياته فى الآفاق وفى أنفسهم .

وقد صدق الله وعده فكشف لهم عن آياته فى الآفاق خلال الأربعة عشر قرناً التى تلت هذا الوعد ، فعرفوا كثيراً عن مادة هذا الكون ، وعرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة ، وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع ، وعرفوا أن الكون كله من إشعاع .

وعرفوا الكثير عن كروية الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس ، وعرفوا الكثير عن المحيطات والأنهار والمخبوء فى جوف الأرض من الأرزاق .

وفى آفاق النفس اهتدى الإنسان إلى معرفة الكثير من خصائص الجسم البشرى وأسواره ، ووظائفه وأمراضه ، وغذائه وتمثيله ، وأسرار عمله وحركته ، ثم عن تطور المعرفة حول ذكاء الإنسان ونفسية الأفراد والجماعات وقياس السلوك ، ولا يزال الإنسان فى الطريق إلى اكتشاف نفسه ، واكتشاف الكون من حوله ، حتى يحق وعد الله بأن كلماته حق ، وآياته صدق ، وكتابه منزل ، وهو على كل شىء شهيد .

قال تعالى : سَتَرْنَاهُمْ عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِرَبِّهِمْ إِنِّي نَذَرْتُ لَكُمْ الْأَقْبَابَ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ . (فصلت : ٥٣ ، ٥٤) .

تمهيد عن صدر سورة فصلت

أخرج الإمام عبد بن حميد في مسنده ، وأبو يعلى ، والبخارى ، وغيرهم ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اجتمعت قريش يوماً ، فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذى فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب آلهتنا ، فليكلّمه ، ولننظر ماذا يردّ عليه ، فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا : اثنته يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة ، فقال : يا محمد ، إن كان إنما بك الحاجة ، جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنما بك البهانة^(١) فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله ﷺ : «فرغت» ؟ قال : نعم ، فقرأ رسول الله ﷺ صدراً من سورة فصلت ، حتى قال عتبة : حسبك ، وعاد إلى قومه ، فقالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأيت أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها لى ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم^(٢) .

★ ★ ★

كتاب فصلت آياته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ٤ وَقَالُوا أَفُلَوْنَا فِي آكْتَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا مَا عَمِلُوا ٥ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ٦ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٨ ﴿٨﴾

المفردات :

فصلت آياته ، بَيَّنَّتْ وَمَيَّزَتْ أَتَمَّ بَيَانٍ ، وَأَوْضَحَ تَفْصِيلًا لِلْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاقِفِ .

فهم لا يسمعون ، سماع تأمل وطاعة وقبول ، أى : لا يقبلون ولا يطيعون .

أَكْثَرُ : أغلبية سميكة متكاثفة ، والأكنة جمع كِنَان ، كأغلبية وغطاء وزنا ومعنى .

وَقَرَّرَ : صمم ، وأصله الثقل فى السمع .

حُجَابٌ : ساتر مانع من الإجابة ، والمراد : خلاف فى الدين .

فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ : توجهوا إليه بالإيمان والطاعة .

وَيَسْلُ : يهلك .

لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ : لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم .

غَيْرِ مَمْنُونٍ : غير مقطوع ولا يمن به عليهم ، من المَنَّ ، ومنه قول ذى الإصبع :

إِنِّى لَعَبْرَكَ مَا بَابِى بِذَى غَلَقِ عَلَى الصَّدِيقِ ، وَلَا خَيْرِى بِمَمْنُونِ

التفسير :

١ - حَم .

افتتاح قُصِدَ به لفت الأنظار ، وإثارة الانتباه إلى أن هذا القرآن مؤلف من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه من عند الله وحده ، وقيل : هى أدوات للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، وقيل : هى حروف تشير إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .
وقد مر ذكر هذه الآراء بالتفصيل فى صدر سورة البقرة .

٢ - تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

هذا القرآن منزل من عند الله الذى اتَّصَفَ بالرحمة ، فالرحمة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، وهو أيضًا رحيم تنتقل الرحمة منه إلى عباده ، وخص صفة الرحمة بالذكر لبيان أن القرآن فى تشريعه وأخباره وقصصه ، وأوامره ونواهيه وسائر ما اشتمل عليه ، رحمة من عند الله بخلقه .

٣ - كِتَابٌ قُضِلَتْ عَائِيَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

كتاب وُضِّحَت آياته ، وبُيِّنَت سورته ومقاصده ، ففيه القصص والأحكام ، والأخبار والتشريع ، وأخبار القيامة ، وصفات الله وكمالاته وقدرته ، وفيه وصف الكون وما اشتمل عليه ، وفيه بدء الخليقة ، وأخبار الرسل مع أقوامهم ، وفيه المواعظ وألوان الهداية ، كل ذلك قد وُضِّح توضيحًا ، وبُيِّن تبينًا ، وعرض فى أسلوب مؤثر يؤدى إلى خشوع القلوب وتأثر الأفئدة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ، يقَدِّم ألوان المعرفة والعلم لمن أراد أن يتعلم .

٤ - بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

هذا القرآن نزل مشتملاً على ألوان البيان ، فهو يبشر المؤمنين بالهدى والرضوان فى الدنيا ، وبالجنة ونعيمها فى الآخرة ، وهو ينذر الكافرين ببطش الله وعقوبته فى الدنيا ، وبعذاب جهنم فى الآخرة ، لكن الكفار لم يستجيبوا لدعوة القرآن لهم إلى الإيمان ، وأعرض أكثر الكافرين عن القرآن ، وانصرفوا عن هدايته والإصغاء إليه .

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

سماع تدبر وإمعان ، وإن سمعت آذانهم القرآن إلا أنهم أعرضوا عنه بقلوبهم ، فكأنهم لم يسمعه ، تقول : ذهبت إلى فلان لأعرض عليه الموضوع فلم يسمعنى ، أى لم يستجب لما رجوته منه .

قال تعالى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . (محمد : ١٦) .

وقال سبحانه : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . (الأنفال : ٢١) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ لَكَ فِي الْقُرْآنِ وَخَذَهُ ، وَلَوْ أَعْلَى آذُنِهِمْ نَفُورًا . (الإسراء : ٤٥ ، ٤٦) .

٥ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ .

جهر الكفار هنا بترك دعوة الإسلام ، وعدم الإصغاء إليها بقلوبهم ، أو الاستماع إليها بآذانهم ، أو النظر فيها بعقولهم ، مع استهزائهم بالوعيد وتحذيرهم للرسول ﷺ .

والمعنى :

إن قلوبنا فى أغشية وحجاب سميك من دعوتك ، فلا تتفتح لها ولا تفقهها ، ولما كان القلب أداة الفهم ، والسمع والبصر وسائل التأمل ، أعلنوا أنهم معرضون بقلوبهم ، كما أن آذانهم صماء لا تسمع دعوة القرآن ، ولا تستجيب له ، وهناك حجاب معنوى حاجز بين دعوة الإسلام وبينهم ، فهم فى وادٍ والإسلام فى وادٍ آخر ، فاتركنا يا محمد فى ديانتنا وعبادة أصنامنا ، واعمل أنت على منهج دينك ، إنا مستمرون وعاملون على طريقة ديننا ، فى التزام عبادة الأصنام والأوثان ، وفى قولهم هذا مبارزة بالخلاف والتحدى .

٦ - قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَرَبِّ لَلْمُشْرِكِينَ .

قل لهم يا محمد : أنا رجل منكم ، تعرفون نسبى ونسب آبائى ، فلست بملك ولا جنى ، إنما أنا بشر مثلكم ، اختصنى الله تعالى بالوحي والرسالة ودعوة الناس إلى توحيد الله تعالى ، والإخلاص له فى العبادة ، فاسلكوا إلى الله الطريق القويم ، واستقيموا فى طاعته ، واستغفروه من ذنوبكم ، ومن الشرك وعبادة الأصنام ، فإن الويل والعذاب الشديد فى جهنم للمشركين الذين عبدوا غير الله ، وأشركوا به عبادة الأوثان والأصنام .

٧ - الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ .

لقد جمعوا طائفة من الرذائل هى :

١ - الإشراف بالله .

٢ - منع الزكاة عن الفقراء والمساكين .

٣ - جحود الإيمان باليوم بالآخر .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالزكاة هنا زكاة المال ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، ونُسب لابن عباس أن المراد بالزكاة هنا طهارة النفس والقلب ، بعبادة الله وحده لا شريك له ، واستدل أصحاب هذا الرأى بأنَّ السورة مكية ، وزكاة المال لم تفرض بمكة ، لكن الراجح أن المراد بالزكاة هنا إخراج جانب من المال ، فأصل الزكاة قد فرض بمكة ، بمعنى مطلق النفقة ، لكن بيان أنواع الزكاة ومقدار الأنصبة قد شرع فى المدينة ، لقد كانت مكة على جانب كبير من الغنى والجاه والسلطان ، وكان لأهل مكة تجارة رابحة ، تسير إلى الشام وإلى اليمن ، وهذا الغنى والجاه والثروة جعلهم يترددون طويلاً تجاه الإسلام ، لأنه سحرهم من شهواتهم والاستمتاع بأموالهم ولذا انذهم ، ولأنه ينزل بهم من ارتفاع الغنى والجاه والسلطان والتميز إلى الجلوس مع الفقراء والعبيد .

وكان كفار مكة يقسّمون الناس إلى قسمين : طائفة الأغنياء والكبراء والأمراء ، وهؤلاء من حقهم الأمر والنهى والتفكير ، وطائفة الفقراء والعبيد ، وهؤلاء يجب عليهم اتباع الكبراء ، ولا يجوز لهم التفكير أو اختيار الدين الذى يرتضونه ، ثم جاء الإسلام دعوة عالمية ، تبين أن الناس جميعاً قد خلقوا من أب واحد وأم واحدة ، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، واحتاج أهل مكة إلى وقت طويل لاستيعاب هذه الأفكار الإسلامية ، ثم فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وظل فضل السبق للمؤمنين الأولين كما قال سبحانه : لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . (الحديد : ١٠) .

٨- إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وعملوا الأعمال الصالحة كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، ورحمة اليتيم والمساكين ، وإكرام الجار وصلة الرحم ، ونشر دعوة الإسلام ، والجهاد في سبيل الله وغير ذلك ، لهم أجر دائم في الجنة ، لا ينقص أجركم ، ولا أحد يمن عليهم ، بل يزيدهم الله من فضله ، ويرفعهم درجات ، ويمن عليهم بالرضا والعطاء وزيادة الإحسان .

★ ★ ★

دلائل القدرة

﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَّ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْلٌ أَوْ نَهَارٌ ١٠ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١١ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٢ ﴾

المفردات :

فى يومين : فى مقدار يومين ، أو نوبتين .

إنداد : شركاء ، جمع نِدْ وهو الكفاء والنظير .

العوالمين : جمع عالم ، وهو ما سوى الله ، وجمع لاختلاف أنواعه تغليباً للعقلاء .

رواسى : جبلاً أو ثوابت .

وبارك فيها : أكثر خيرها بأن خلق فيها جميع أنواع النبات والحيوانات والمياه .

وقدّر فيها أقواتها : قسم فيها أقواتها للناس والبهائم .

فى أربعة أيام : أى : فى تنمة أربعة أيام باليومين المتقدمين .

للساثلين : قدر فيها الأقوات للطالبيين لها .

ثم استوى إلى السماء : قصد وعمد نحوها ، أى : تعلقت إرادته بها .

وهى دخان : مادة غازية مظلمة ، تشبه الدخان فى رأى العين .

انتيا طوعا أو كرها ، اخضعوا لمرادى طائعتين أو مكرهتين .

قالتا اثنتا طائعتين ، هذه كناية عن الطاعة والإذعان والامتثال .

فَقَضَاهُنَّ : خلقهنَّ وصيَّرنَّ وأكملهنَّ وفرغَ منهنَّ .

فَمِنْ يَوْمَيْنِ : فى تمام يومين .

ولوحي فى كل سماء أمرها ، وخلق فى كل منها ما أَعَدَّ لها .

بِمَصَابِيحَ : بنجوم .

وَحَفِظْنَا : حفظناها من استراق الشياطين السمع .

تقدير العزيز العليم ، تقدير البالغ التام فى القدرة والعلم .

تهليل :

خلق الله تعالى الكون كرةً ملتبهة ، مرَّت بها بلايين السنين حتى انفصلت الأرض وهدأت قشرتها الخارجية ، وارتفعت السماء وصارت صالحة لأن تمطر ، وتكوَّن الهواء والفضاء بين الأرض والسماء ، وقد مرَّ خلق السماء والأرض والجبال والبحار والفضاء بست مراحل ، عبَّر عنها القرآن الكريم بستة أيام ، لقد كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، وبعد ٦ بلايين سنة كمل خلق الكون ، وصار صالحا لوجود الإنسان على ظهره .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .** (الأنبياء : ٣٠) .

وفى التفسير : الرتق ضد الفتق ، أى : كانتا ملتصقتين ، فرفع الله السماء ويسط الأرض ، وجعل الماء ونزوله من السماء سببا فى حياة الإنسان والحيوان والنبات ، وخلال العقد الأخير من القرن العشرين عقد فى أمريكا مؤتمر للبحث فى عُمر الكون ، ورأى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن وجود الإنسان على ظهر الكون عمره سبعة بلايين سنة ، أى أن المدة التى تم فيها خلق الكون وتهيئته لحياة الإنسان عليه هى ستة بلايين سنة ، ولعلها هى ما عبَّر عنه القرآن بستة أيام ، والله أعلم .

التفسير :

٩ - قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

ليس المراد باليومين أيام الدنيا ، فلم يكن فى ذلك الوقت شمس ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، والعرب تعبَّر باليوم عن سنين كثيرة مثل يوم البسوس ، ويوم ذى قار ، وحرب البسوس امتدت أربعين سنة .

قال تعالى : وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ . (الحج : ٤٧) .

وقال سبحانه : فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . (المعارج : ٤) .

فالمراد باليومين نوبتان عليهما نوبة الخلق ، ثم نوبة الدُّحَى والاستدارة .

أى : إنكم تشاهدون قدرته وجلاله ، وتعلمون أن هذا الكون البديع لا يخلقه إلا إله قادر ، ومع هذا فأنتم تكفرون بهذا الإله ، وتجعلون له شركاء لم تَخْلُقْ ، مثل الأصنام والأوثان والملائكة وعزير وعيسى ، وقد بدئت الآية بالاستفهام الإنكارى للتوبيخ والتعجيب .

والمعنى :

كيف تكفرون بالله وهو الإله العلى الشأن ، الكامل القدرة ، الفعال لما يريد ، الذى خلق الأرض فى يومين ؟ وكيف تلحدون فى ذاته وصفاته ، حيث جعلتم له أنداداً وشركاء عبدتموهم معه تعالى ، مع أنهم لا شأن لهم فى الخلق ، ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؟

والمراد بالأرض الأرضون السبع .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... (الطلاق : ١٢) .

وقد وردت السماوات جمعا ومفردة فى القرآن الكريم ، ووردت الأرض مفردة فقط ، وليس فى القرآن ما يشير إلى سبع أرضين إلا الآية السابقة وهى الآية ١٢ من سورة الطلاق .

ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . أى : ذلك الإله الخالق المبدع هو رب العالمين كلُّهم ، أى العالم العلوى والسفلى ، فكيف تجعلون له شريكا ؟

١٠ - وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَلَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنَبِّئَهُنَّ .

أى : جعل فى الأرض جبالا رواسى ، نراها ظاهرة فوق الأرض لتثبيت الأرض وحفظ توازنها ، وللجبال أهمية كبرى فى عمران الأرض وثباتها ، فالمياه تتجمع فى قلالها ، والثلوج تتجمع فوقها ، وهى ملجأ الهارب ، وهى وسيلة للتعبّد ، وكثيرا ما تذكر الجبال ويذكر بعدها المياه والنبات والأشجار ، ولأمر ما كانت الرسائل السماوية مرتبطة بالجبال .

فابن نوح يقول : سَأَوِّى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِيُنِي مِنَ الْمَاءِ ... (هود : ٤٣) .

وداود عليه السلام كان إذا سبح سبحت معه الجبال .

قال تعالى: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَلْجِئَالُ أُوْبَىٰ مَعَهُ، وَالتَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ . (سبأ: ١٠) .**

والنبي محمد ﷺ نزل عليه الوحى فى غار حراء فوق جبل مرتفع ، وكان غار ثور مكان الاختباء فى رحلة الهجرة ، وعندما طلب موسى رؤية ربه سبحانه وتعالى أخبره الله أنه لا يطيق هذه الرؤية ، وضرب له مثالا بالجبل ، فقد ظهر الله تعالى للجبل فاندك فى الأرض ، وصعق موسى من هول ما رأى ، وتاب إلى الله من السؤال السابق ، قال تعالى : **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ . (الأعراف: ١٤٣) .**

فالجبال وسيلة من وسائل تثبیت الأرض وحفظ توازنها وإتمام معاشها .

وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيْنِ .

أى : إن الله جعل الأرض وسيلة للنبات والزرور والثمار والضرور ، ورقى الصناعات ، ووسائل المواصلات ، وجعل التجارة وسيلة لنقل الخيرات من بلد إلى آخر ، كما أن الله تعالى هيأ الأرض لتكون وسيلة للطعام والأقوات والكساء ، وأودع همة بعض الناس فى التجارة لنقل البضائع من بلد إلى آخر ، وقد تم كل ذلك فى أربعة أيام كاملة لمن سأل عن المدة التى تم فيها خلق الأرض ، ثم خلق الجبال والبحار والأنهار والأزراق ، والمراد بـ **أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** . مجموع أربعة أيام ، لأن الخلق كان فى يومين ، ثم خلق الجبال والبحار والأنهار وتقدير الأزراق فى يومين ، فيكون مجموع أيام خلق الأرض وما فيها أربعة أيام ، ولقد أشار القرآن إلى أن خلق الأرض وما عليها وخلق السماوات كان فى ستة أيام .

قال تعالى: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . (ق: ٣٨) .**

١١ - ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

أى : قصد سبحانه وعمد إلى خلق السماء ، وهى فى حالة غازية تشبه الدخان ، فقال للسماء : أطلعى شمك وقمرك وكواكبك ، وأجبرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض : شقى أنهارك وأخرجى شجرى وثمارك .

وقد قال سبحانه وتعالى للسماء والأرض : انقادا لأمرى طائعتين أو مكرهتين ، فأطهرتا من الطاعة والامتثال والاستجابة والطوعية ما دل على أنهما طائعتان لأمره ، بحيث لو نطقتا لقالتا : أتينا طائعتين .

قال الفخر الرازي :

والمقصود من هذا القول إظهار كمال القدرة ، أى : اثبتا شئتما ذلك أو أبيتما ، كما يقول الجبار لمن تحت يده : لتفعلن هذا شئت أو لم تشأ ، ولتفعلنه طوعا أو كرها ، وانتصباهما على الحال بمعنى طائعين أو مكرهين ... اهـ .

وقد ذكر العلماء هنا إشكالا مؤداه أن مفهوم الآيات هنا فى سورة فصلت يُفيد أن الأرض خلقت أولا ، ثم خلقت السماء بعد خلق الأرض ، لكن فى سور : تنازعات يقول القرآن الكريم : **ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَسْهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَرَسْهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلُهَا .** (النازعات : ٢٧ - ٣٠) .

وقد ذكر الإمام الرازي :

أن الله تعالى خلق الأرض فى يومين أولا ، ثم خلق بعدها السماء ، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض ، أى بسطها ، وبهذا يزول التناقض .

وعند التأمل نجد أن الكون كله كان فى حالة غازية ، عُبر عنها بنظرية السديم ، أى أن الكون كان فى حالة ملتبته ، احتاج إلى بلايين السنين ليهدأ ويتم خلقه ، وأن الأيام الستة تعنى ست مراحل مر بها خلق الكون حتى اكتمل وصار صالحا للحياة .

١٢ - **فَقَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .**

فأتم خلق السماوات السبع فى مقدار يومين أو نوبتين .

وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا ...

أى : جعل فيها النظام الذى تجرى عليه الأمور فيها .

قال قتادة : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وأفلاكها .

وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

السماء القريبة من الأرض جعلنا فيها النجوم زينة للسماء كالمصابيح ، وهذه النجوم لحفظ السماء من الشياطين التى تحاول استراق السمع ، وهى أيضا هداية للسائرين فى البر والبحر ، يعرفون منها اتجاه القبلة ، ويعرفون منها الجهات الأربع الأصلية . ذلك النظام البديع هو تقدير الله القوى الغالب ، العليم بمصالح عباده وحاجاتهم .

وتفيد الآيات جلال القدرة الإلهية المبدعة التي خلقت الأرض مكاناً فسيحاً، ومائدة عامرة يأكل منها الإنسان والحيوان والطير، وخلقت السماء سقفا مرفوعاً مزيناً بالنجوم، محفوظاً بالشهب من الشياطين المتمردين، مزوداً بأسباب هداية السائرين في المحيطات وفي الصحراء، مثل النجم القطبي، ومجموعة من النجوم على شكل مغرفة، تسمى مجموعة كاثيوبيا، نعرف منها جهة الجنوب، وبالتالي نعرف جهة الشمال ثم الشرق والغرب.

وتفيد الآيات أن لهذا الكون إلهاً خالقاً رازقاً، يحفظ الكون ويمسك بزمامه، وكان من دعاء الرسول ﷺ عند النوم: «اللهم رب السماء وما أظلت، والأرضين وما أقلت، والشياطين وما أضلت، كن لى جاراً من شرار خلقك، عز جارك»^(١٤).

وقال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُعْصِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا. (فاطر: ٤١).



تهديد المشركين بأن يكون مصيرهم مثل مصير عاد وثمود

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثُمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَعَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾

المعزذات :

أعـرضـوا : ولوا وانصرفوا .

صاعقة : عذاب مهلك .

لو شاء ربنا لَأَنزَلْنا ملائكة، لو أَراد الله إرسال رسل إلينا لَأَنزَلْنا ملائكة تدعوننا إلى عبادته .

فاسـتـكـبروا، تعظـموا وتعالوا، وقالوا : من أَشَدُّ مَنًا قوَّة ؟

بـغير الحق ادعوا أَنهم أَقوياء ، قادرون على صَدِّ أى عذاب يأتِيهم مهما كان مصدره .

يـجـحـدون يـنـكـرون مع علمهم أَنه الحق .

ريـحـاصـر صـرأ: شديدة الحرارة مع صوت مزعج .

نـحـسـات، مشئومات عليهم لأنهم عذبوا فيها .

فـهـديـنـاهـم : بَيَّنَّا لهم طريق الهدى والحق بإرسال الرسل وبيان الحجج والأدلة .

فاستحبوا العمى على الهدى؛ فاختراروا الضلالة وتركوا الطريق المستقيم .

صـاعـقـة: نار تنزل من السماء فى رعد شديد ، ولا تصيب شيئاً إلا أحرقتة .

الـهـوون: المخزى المذل المهين .

تهديد :

كانت عاد تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة بين اليمن وسلطنة عمان فى منطقة صلالة ، وقد أنذرهم رسولهم عذاب الله ، فاستكبروا واستخفوا العذاب ، وأظهروا استعدادهم لصدِّ أى عذاب نظراً لقوتهم وبأسهم وقوة أجسادهم ، وإعجابهم بقدرتهم وقوتهم ، ولما جاء العذاب إليهم كانوا يحفرون لأنفسهم حفراً، ويربطون أنفسهم بالسلاسل ، ويتركون رءوسهم فى أعلى الحفرة ، فكانت الريح تأتى فتقطع رقابهم وتتركهم هلكى ، مثل عجز النخلة التى قُطعت ساقها .

وكانت ثمود تسكن فى شمال الجزيرة ، وأرسل الله إليهم صالحاً ومعه ناقة معجزة ، تحلب لهم لبناً يفكيهم أجمعين ، وطلب منهم أن يشربوا من الماء فى يوم ، ويتركوا الماء للناقة فى اليوم التالى ، لكنهم عَقَرُوا الناقة واستخفوا بالعذاب ، بل طلبوا من صالح أن يأتِيهم به ، فأرسل الله عليهم عذاباً مدمراً مهلكاً مذلاً مهيناً ، وهذا العذاب يمكن أن يصيب أهل مكة مثله إذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ .

التفسير :

١٣ - فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ .

أى : إن أعرض أهل مكة عن دعوتك يا محمد ولم يؤمنوا بها ، واستمروا فى عنادهم واستكبارهم ، فقل لهم : إني أحذركم من العذاب الماحق المهلك الذى أهلك الكافرين قبلكم ، فعاد كانت تسكن بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وقد أهلكها الله ودمرها وطمس معالمها ، وكذلك ثمود التى كانت تقطن بالججر فى شمال الجزيرة ، وتمرُّون على دورها فى طريقكم إلى الشام وفى عودتكم منها .

١٤ - إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّمَا أَوْفَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .

لقد تقدمت الرسل إليهم بالدعوة والحجة والدليل والبرهان، وأعلموا فيهم كل حيلة، وسلخوا كل سبيل، ومن ذلك أنهم قصّوا عليهم قصص الأمم السابقة وما أصاب المكذبين من الهلاك، ولفقوا أنظارهم إلى دلائل القدرة الإلهية في خلق السماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنبات والزروع والثمار، والبحار والأنهار، ومن كانت هذه آثار قدرته فينبغي أن نخصّه بالعبادة، وأن نعبد وحده لا شريك له، فهو سبحانه الخالق الرازق المتفرد بالبقاء، وهو النافع الضار، فينبغي أن نتجه إليه وحده بعبادتنا، وألا نعبد أحداً سواه .

قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ...

قال الذين كفروا لرسولهم: أنتم بشر مثلنا، ولو أراد الله أن يرسل إلينا رسولا لاختاره ملكا متميزا علينا حتى نؤمن به .

فَأِنَّمَا أَوْفَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا .

لقد كفرنا برسالتكم وكذبنا دعوتكم، ونسى هؤلاء أنهم لا يطبقون رؤية الملاك في صورته الحقيقية، وأن الله لو أرسل ملكا لأرسله في صورة بشر .

قال تعالى: وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ . (الأنعام: ٩) .

١٥ - فَأَمَّا عَادَ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

كانت عاد في نعمة وعافية، أجسامهم قوية، وأنعم الله عليهم متواليه، وجاء إليهم هود عليه السلام يقدم إليهم نصيحته، ويدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى والاستقامة على منهجه، فرفضوا الإيمان، واستهزأوا بالإنذار والوعيد، وطغوا وبغوا وتمردوا على هدى السماء، وقالوا لرسولهم: لا أحد أقوى منا حتى يقهرونا، ونحن قادرون على دفع ما ينزل بنا من عذاب .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ .

أو لم ينظروا إلى قدرة الإله القادر، الذي خلق السماء والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهو على كل شيء قدير، أمره بين الكاف والنون، وهو فعال لما يريد، لا ملجأ ولا مهرب منه إلا إليه .

قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

لقد قاسوا قوتهم إلى قوة الخالق ، وشتان بين قوة المخلوق وقوة الخالق ، قوة المخلوق محدودة وقوة الخالق لا حدود لها ، ولا شيء يعجزه سبحانه ، ومع ذلك فهو عادل فى عقابه .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْلِبُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

وقال عز شأنه : وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . (الرعد : ١١) .

لقد كانوا يعرفون صدق الرسالة ، وصدق الرسول ، وصدق المعجزات ، ولكنهم جحدوا الرسالة كما يجحد المودع إليه الوديعة .

وَكَاثُرًا بِثَائِلَاتِنَا يَجْحَدُونَ . أى : ينكرون المعجزات والأدلة الدامغة التى هى حجة عليهم ، ويعصون الرسول .

١٦ - فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ .

أرسلنا عليهم ريحا مدوية مهلكة شديدة الحرارة ، أو شديدة البرودة ، فى أيام مشثومات لأنهم عذبوا فيها ، فاليوم الواحد يوصف بالنحس والسعد بالنسبة إلى شخصه ، فيقال له يوم سعد بالنسبة لمن تناله النعماء ، ويقال له يوم نحس بالنظر لمن تصيبه الضراء .

قال السدى : ريحاً صَرْصَرًا ، منصوطة ، من صرَّ يصرُّ ، إذا صوت ، وروى أنها كانت تحمل العير بأثقالها وأحمالها فترميها بالبحر .

لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...

أردنا أن نذلهم ونخزيهم بعذاب أليم لأجسامهم ، وهوان شديد لنفوسهم ، حيث قطعت الريح رءوسهم ، وتركتهم صرعى وهلكى ، كالنخلة التى قطعت ساقها ، وترك جذرها عديم الفائدة .

قال تعالى : وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفُلْجَئِيَّةٍ يَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ

لِهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ .

وهناك عذاب فى الآخرة أشد خزيًا وهوانًا ، حيث لا يجدون أحدًا ينصرهم من دون الله ، وذلك بسبب تجبرهم وتكبرهم بالباطل ، وعتوهم وأنفتهم من سماع نصيحة رسولهم .

قال تعالى على لسان رسولهم هود عليه السلام : أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تُعْبِثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَائِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . (الشعراء : ١٢٨ - ١٣١) .

١٧- وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَلَٰفَةُ الْعَذَابِ الَّتِي هُمْ كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أعطينا قبيلة ثمود العقول والإرادة والاختيار ، وأرسلنا إليهم رسول الله صالحًا ، ومعه ناقة تسقيهم ، ومعها عدد من الآيات الدالة على صدق صالح ، فَعَقَرُوا الناقة ، واختاروا الضلال والكفر ، والبعد عن رسولهم ، وعن هدايته ، فأرسل الله عليهم قارعة صاعقة مدمرة محرقة ، هى الصيحة والرجفة والذل والهوان بسبب تكذيبهم صالحًا عليه السلام ، وعقرهم للناقة ، لقد كان العذاب مهلكًا لأجسامهم ومذلًا لنفوسهم ، بسبب عقر الناقة وتكذيب صالح وجود الحق .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمَّنَّاهُمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

١٨ - وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

لقد نجى الله صالحًا ومن آمن به ، وجعلهم فى نجوة ومكانة رفيعة لا ينالهم فيها هوان .

فى أعقاب الآيات

(أ) العبرة من رواية هذا القصص تأييد الرسول ﷺ ومن آمن به ، وتهديد المشركين فى مكة بأن يصيبهم مثل ذلك العذاب ، وقد أكرم الله رسوله محمدًا ﷺ بأن حفظ أمته من مثل ذلك العذاب المهلك المخزى ، حيث قال تعالى : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣) .

(ب) ذكر بعضهم أن الأيام النحسات التى نزل فيها العذاب على قوم عاد كانت فى أواخر شوال ، وأن أولها كان فى يوم الأربعاء ، وآخرها أيضا كان فى يوم الأربعاء ، ولذا صار بعض الناس يتشاءم من هذا اليوم ، والحق أن ما ذكره فى هذا الشأن لا دليل عليه ولا يلتفت إليه ، وأن ما أصاب قوم عاد إنما كان بشؤم كفرهم ومعاصيهم .

قال الشيخ الشنقيطي في تفسير أضواء البيان :

فهذه الروايات وأمثالها لا تدل على شؤم يوم الأربعاء على من لم يكفر بالله ولم يعصه ، لأن أغلبها ضعيف ، وما صح معناه منها فالمراد بالنحس : شؤمه على أولئك الكفرة العصاة ، الذين أهلكهم الله فيه بسبب كفرهم ومعاصيهم . اهـ .

(ج) كثيرا ما يقرن القرآن بين ذكر عاد وثمود ، كما في سور : «براءة» و«إبراهيم» و«الفرقان» و«ص» و«ق» و«الذاريات» و«النجم» و«الفجر» .

(د) ورد في مسند الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ مر بقرى ثمود وهو في طريقه إلى تبوك ، فأسرع براجلته ، وقنع رأسه ، ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكون باكين ، فإن لم نبك فلتبتاك ، خشية أن يصيبنا مثل ما أصابهم .

★ ★ ★

كيفية عقوبة الكفار في الآخرة ، وشهادة الجلود

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِذَا جُلُودُهُمْ لَمْ يَشْهَدْهُمْ عَيْنَاتُهُمْ قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَصْبِحَكُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

المضدرات :

يوزعون : يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم .

جاءواهم : جوارحهم ، أو شهادة الجلود بالمالسة للحرام ، وقيل : هو كناية عن الفروج .

تستخفون : تستخفون .

أن يشهد عليكم سمعكم ، عندما كنتم تتخفون حال المعصية لم يكن ذلك خوفاً من أن تشهد عليكم جوارحكم .

ولكن ظننتم أن الله لا يعلم ، ولكنكم تخفتم لظنكم أن الله لا يعلم كثيراً من خطاياكم ، مع أنه بكل شيء محيط .
أرداكم : أهلكم .

ثـ : إقامه دائمة .

وإن يستعتبوا ، وإن يطلبوا الرضا عنهم ، أو قبول عذرهم .

فما هم من المعتبين ، فما هم من المجابين إلى ما يسألون .

تهديد :

تحدثت الآيات السابقة عن عقوبة قوم عاد وقوم ثمود في الدنيا ، وكيف أصابهم الهلاك المدمر ، وهنا تحدثت الآيات عن عقوبتهم في الآخرة ، وتعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، حيث يختم الله على أفواه الجناة ، وتشهد عليهم جوارحهم بما اكتسبوا من سيئات ، وإنه لمشهد مخيف ، أن يكون جزء من الإنسان شاهداً عليه معترفاً بجنايته ، وهنا يقول الإنسان لأجزاء جسمه : كيف تشهدون عليّ ؟ فتتطرق الجوارح وتقول : أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، ويبد الله كل أمر من أمور الخلق والبعث ، فقد خلقكم في الدنيا عند ولادتكم ، وإليه ترجعون عند الحساب والجزاء .

التفسير :

١٩ - وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ .

أى : اذكر أيها العاقل يوم الحساب والجزاء ، حين يحشر الكافرون والظالمون الذين أعلنوا عداوتهم لربهم وخالقهم ، فلم يطيعوا أمره ولم يجتنبوا نواهيه ، وهم جماعات كثيرة من أهل جهنم ، ولذلك يحبس أولهم عن الحركة حتى يجتمع أولهم وآخرهم في عرصات القيامة قبل دخول النار .

٢٠ - حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَبِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

حتى إذا وصل الكفار إلى جهنم أنكروا معاصيهم ، وأقسموا بالله أنهم لم يكونوا مشركين ، وهنا يختم الله على أفواههم ، وتشهد عليهم جوارحهم بارتكاب المعاصي والموبقات ، فتقول العين : أننا للحرام نظرت ، وتقول الأنف : أننا لما لا يحل سمعت ، ويقول الفرج : أننا فعلت ، وتنطق الجلود بأنها لامست جلوداً لا تحل لها ، وتنطق كل جارية بما عملت .

قال تعالى : الْيَوْمَ نَخِمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (يس : ٦٥) .

٢١ - وَقَالُوا لِمَ جُلِدُوهُمْ لَمْ يَسْهَدُوا عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

عند شهود الجوارح ، ونطق الأعضاء على الإنسان ، يحس بالخجل من نفسه ويتوقع العذاب فى جهنم ، فيقول للجوارح التى شهدت عليه : كيف تشهدون علىّ ، وأنا كنت أناضل عنكم فى الدنيا وأدافع عنكم ؟ وهنا تجيب الجوارح : نحن خاضعون لقدرة الله اليوم ، فلا مهرب من عقاب ، ولا مفر من جزاء ، لقد خلقكم الله من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة ، ثم أوجدكم فى الدنيا أول مرة ، بعد أن نفخ الأرواح فى أجسامكم ، وصرتم خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم أنشأ الله الإنسان طفلا ، ثم فتى ثم يافعا ثم شابا ثم شيخا ، وخلال حياته أرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، وسرّ له أسباب الهداية ، ثم كفر الإنسان واستكبر ، ثم يرجع إلى ربه للحساب والجزاء ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وفى صحيح مسلم ، عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : «هل تدرون ممّ أضحك»؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «من مخاطبة العبد ربّه ، يقول : ألم تجزنى من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإننى لا أجزى على نفسى إلا شاهداً منى ، قال : يقول : كفى بنفسك اليوم شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهدوا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقى ، فتنتطق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعداً لكنّ وسحقاً ، فعنكنّ كنت أناضل»^(١٠) .

٢٢ - وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ .

هذه الآية من كلام الجوارح للكافرين والظالمين ، أو هى من كلام الله تعالى لهم .

ومعناها :

عندما كنتم تختفون عن الناس ما كان يخطر ببالكم أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، وما كنتم بمستطيعين أن تستتروا منها لو أردتم .

وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ .

أى : اعتقدتم أنكم إذا اختفيتم واستترتم لا يطلع الله على ذنوبكم ، أو لا يعلم الكثير منها ما دامت مختلفة .

٢٣ - وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْكَمُ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

خدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم ، فوقعتكم فى الردى والهلاك ، وقادكم هذا الظن إلى الخسران فى الدنيا والجحيم فى الآخرة .

قاله تعالى : بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وهو سبحانه مطلع على كل شيء ، ورقيب على كل شيء .

قال تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وقال عز شأنه على لسان لقمان : يُبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

وقد أخرج البخارى، ومسلم، وغيرهما ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مستقرا بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر على : ثقفيان وقرشى، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما تقولون ؟ فقال الرجلان : إذا سمعنا أصواتنا سمع ، وإلا لم يسمع ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزل : وَمَا كُنْتُمْ تَسْمَعُونَ ... إلى آخر الآيتين^(١٧) .

قيل : والظن قسمان : ظن حسن بالله تعالى ، وظن فاسد ، أما الظن الحسن فهو أن يظن به سبحانه الرحمة والفضل ، قال ﷺ حكاية عن الله عز وجل : «أنا عند ظن عبدي بي»^(١٨) ، وقال ﷺ : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى»^(١٩) .

والظن الفاسد هو أن يظن بالله أنه يعزبُ ويعيب عن علمه بعض هذه الأحوال .

٢٤ - فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعِجُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْجِزِينَ .

أى : لا أمل فى الخلاص ، فقد أوصدت عليهم جهنم ، والصبر وعدم الصبر سواء ، فإن امتنعوا عن الشكوى ، ولأدوا بالصبر والصمت فالنار مقرهم الدائم ، ودار الثواء والإقامة الأبدية ، وإن طلبوا العتبى والرجاء فى الصفح والعفو وقبول أعذارهم ، لم يجدوا من يستجيب لهم .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم على لسانهم : سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّجِيصٍ .

قال ابن جرير :

ومعنى قوله تعالى : وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا . أى : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم ، قال : وهذا كقوله تعالى إخباراً عنهم : قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَرْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ آخُسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . (المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨) .

★ ★ ★

أثوان من عناد الكافرين وسوء مصيرهم

﴿ وَفِيضْنَاهُمْ قُرْنَاءَ فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغِنَى وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ إِمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ اضْطَلَّوْا مِنَ الْغِنَى وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَانَحْتًا أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المضردات :

قِيضْنَاهُمْ : يسرنا ويعتنا وهياناً .

قُرْنَاءَ : رفقاء وأصدقاء وأصحاب ، من قرن الشيء بالشيء ، أى : وصله به ، وأصحابه إياه .

فَرَزَيْنَا لَهُمْ : فحسبنا لهم .

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ : من قبائح أعمال الدنيا .

وَمَا خَلْفَهُمْ : من أمور الآخرة ، مثل إنكار البعث والحشر ، حيث حسبنا لهم التذويب بالآخرة .

وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ : وجب عليهم الوعيد بالعذاب .

خَسِرِينَ : مضت ، أى : فى جملة أمم كافرة قد مضت من قبلهم .

خَاسِرِينَ : حيث باعوا نعيم الآخرة ، واشتروا عذابها .

الَّذِينَ كَفَرُوا : مشركو مكة .

لَا تَسْمَعُوا ، لَا تَأْخُذُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ .

وَالْقَوْمَ فِيهِ : شَوْشُوا عَلَيْهِ بِالصَّفِيرِ وَالتَّصْفِيقِ ، حَتَّى يَصِيرَ لَغْوًا ، وَلَا يَسْتَفِيدَ بِهِ أَحَدٌ .

يَجْحَدُونَ ، يَكْفُرُونَ وَيَنْكُرُونَ .

تمهيد :

يعرض القرآن جانبًا من أفعال الكافرين ، فهم لسوء جبلَّتْهم أثروا أصدقاء السوء ، الذين يزينون لهم القبائح والمعاصي ، ويَهْدُونهم في الآخرة ، ويهونون شأنها ، وبذلك يصبحون مع أمم سابقة كعاد وثمود وأشباههم ، إنهم خسروا نعيم الآخرة ، واستحقوا عذابها .

ومن رذائلهم الإعراض عن سماع القرآن ، وعدم الاستجابة لهديه ، بل والانشغال بالصَّفير والتصفيق ، حتى يصبح القرآن لغوًا غير واضح ولا مفهوم ، لقد استحقوا العذاب الشديد في جهنم ، والعقوبة على أعمالهم السيئة ، والأسوأ من السيئة أنهم يقيمون في جهنم خالدين فيها أبداً ، جزاء جحودهم وكفرهم ، وعند نهاية الدنيا ، وظهور الجزاء والحساب ، ودخول الكافرين النار ، تظهر عداوتهم لقرنائهم ، وأصدقائهم من الجن والإنس الذين زينوا لهم الكفر ، وزهدوهم في الإيمان ، ويتمنون أن يجعلوهم تحت أقدامهم ، ليكونوا من الأسفلين مكانة ومكانًا .

التفسير :

٢٥ - وَكَيْفَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ .

إذا أراد الله بعبده خيراً رزقه رفيقاً صالحاً يذكره إذا غفل ، ويأمره بالخير ويحذره من الشر ، وإذا أراد الله بعبده شراً يسر له رفيق سوء ، لا يذكره إذا غفل ، ولا يأمره بالخير ولا ينهاه عن الشر .

قال تعالى : وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيُضِلُّوهُمْ عَنْ سَبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . (الزخرف : ٣٦ ، ٣٧) .

ومعنى الآية :

من سوء أعمالهم يسرنا لهم رفقاء سوء ، يحثونهم على الشر ، ويزينون لهم المعاصي والكفر والفسوق في الدنيا ، ونكران البعث والحشر والجزاء في الآخرة ، فاستحقوا لعنة الله وعذاب النار مع أمم سابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود ، وأشقياء من الجن والإنس باعوا ضمائرهم وأثروا العاجلة ، فخسروا نعيم الآخرة واستحقوا عذابها .

وفى أمثالهم يقول القرآن الكريم: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ذَلِكَ جَزَاءُ وَهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا . (الكهف: ١٠٣ - ١٠٦).

٢٦ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ .

كان القرآن يأخذ سبيله إلى القلوب والعقول ، ونطق بعض الكفار بأن للقرآن حلاوة ، وله طلاوة ، وأعله مثمر ، وهو فوق طاقة البشر ، كل ذلك أرجف قلوب المشركين ، وجعلهم يتواصون بعدم الاستماع إلى القرآن ، وصرف الأتباع والصغار عن الاستماع إليه ، بل والانشغال بما يشوش على القرآن ، كالصفير والتصفيق ، وبذلك يتحول القرآن من أصوات مسموعة وجمل مفهومة إلى لغو غير مفهوم ، كل ذلك رغبة منهم فى غلبة القرآن وقهر الإسلام .

حتى قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول ، كل ذلك يدل على خوف قريش من القرآن ، ومن الرسول الأمين ، ولكن الله تعالى أتم دينه ، ونصر رسوله ، ويسر له الهجرة إلى المدينة ، والعودة إلى مكة فاتحاً منتصراً ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (يوسف: ٢١) .

٢٧ - فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع ، ولنجزينهم بشراً أعمالهم وسيئ فعالهم أسوأ وأقبح الجزاء .

قال الجمل فى حاشيته :

وفى هذا تعريض بمن لا يكون عند سماعه لكلام الله خاضعاً خاشعاً متفكراً متديراً ، وتهديد ووعيد شديد لمن يصدر عنه عند سماعه ما يشوش على القارئ ، ويخلط عليه القراءة ، فانظر إلى عظمة القرآن المجيد ، وتأمل فى هذا التخليط والتشديد ، واشهد لمن عظمه وأجل قدره ، وألقى إليه السمع وهو شهيد - بالفوز العظيم . ا هـ .

وفى المقابل نجد أن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بالاستماع للقرآن والإنصات له .

قال تعالى : وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . (الأعراف: ٢٠٤) .

٢٨ - ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعدَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ لَهم فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَـحْـذَرُونَ .

أى : ذلك الجزاء لأقبح أعمال الكفار - وهو دخول النار - هو جزاء أعداء الله ، الذين كذبوا رسله واستكبروا عن عبادته .

لَهم فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ... لهم فى جهنم دار الإقامة ، لا يخرجون منها أبداً ، جزاء وفاقاً على كفرهم بالقرآن، واستهزائهم بآيات الله البينات .

قال الفخر الرازى :

وسمى لغوهم بالقرآن جحوداً ، لأنهم لما علموا أن القرآن بالغ إلى حد الإعجاز ، خافوا إن سمعه الناس أن يؤمنوا به ، فاخترعوا تلك الطريقة الفاسدة ، وذلك يدل على أنهم علموا كونه معجزاً ، إلا أنهم جحدوه حسداً .

٢٩ - وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ .

رغب الكفار فى الانتقام ممن زين لهم الكفر والمعصية ، فقالوا : ربنا أَرنا مَنْ أَضَلَّنا من فريقى شياطين الجن والانس ، لكى ندوسهم بأقدامنا ، تشفياً وانتقاماً منهم ، وليكون الفريقان من الأذلين المهانين فى الدرك الأسفل من النار ، وهى أشد عذاب جهنم لأنها درك المنافقين .

وقد أفاد القرآن الكريم فى موضع آخر أن العذاب يضاعف للجميع : لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ .

(الأعراف : ٣٨)

وقال سبحانه : الَّذِي يُوسِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . (الناس : ٥ ، ٦) .

ما وعد الله به أهل الاستقامة والحكمة

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾
تُزَلَّلُ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
الَّذِي يَبْتَغِيكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

المفردات :

استقاموا : ثبتوا على الإيمان والصراط المستقيم .

تتنزل عليهم الملائكة : بالبشارة والإلهام في حياتهم ، وعند موتهم وبعثهم بما يسرهم .

أولياءكم : نصراؤكم على الخير ، وأعاونكم على الطاعة .

ولكم فيها : في الدار الآخرة .

ما تدعون : ما تطلبونه وتتمنونه ، وهو افتعال من الدعاء بمعنى الطلب .

نُزِّلَ : نُزِّلَ : ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف ، والمراد : رزق وضيافة مهيأة لكم .

ومن أحسن قولاً : لا يوجد أحسن قولاً ممن دعا إلى توحيد الله .

ولا تستوى الحسنة : في الجزاء مع السيئة .

ادفع بالتي هي أحسن : قابل السيئة بالتي هي أحسن في دفعها .

ولي حميم : صديق مشفق .

وما يلقاها : وما يتخلق بها .

وإِذَا يَنْزِعُ عَنْكَ، النِّزْعُ والنَّخَسُ والغرز بمعنى واحد، وهو إدخال الإبرة في الجلد، والمراد به هنا: وسوسة الشيطان وكيد الإنسان.

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ: فالتجئ إلى حماه، واستجبر به من كيد الشيطان.

تمهيد:

من شأن القرآن أن يوازن ويقارن بين حال الكافرين وحال المؤمنين، والآيات تعرض لوحة للمؤمنين الذين استقاموا على الإيمان والعمل الصالح، فالملائكة تنزل عليهم في الدنيا بالتوفيق والهداية والمعونة، وتنزل عليهم عند الموت تبشرهم بالجنة وتطمئنهم على أولادهم وأهلهم، وتذكر لهم أن الملائكة تتولى معונاتهم في الدنيا ويشارتهم في الآخرة، ولهم في الجنة كل ما تشتهيهم أنفسهم وكل ما يطلبونه، وهذا كرم وفضل من الله الغفور الرحيم، ثم تُبَيَّنُ فضل الدعوة إلى الله مع العمل الصالح، والانتساب بالقول والعمل لأمة الإسلام، ثم تُبَيَّنُ أن الحسنه والسيئة متفاوتتان، فعلياً ألا نقابل السيئة بالسيئة، بل نقابل الإساءة بالإحسان، فيتحول العدو إلى صديق مخلص، ولا يتحمل ذلك إلا الصابر الموفق، وإذا رغب الشيطان في إغرائك بالشر أو حملك على المعصية، فتحصن بالله والجأ إليه لحمايتك من وسوسة الشيطان، إنه سبحانه سميع لكل دعاء، عليم بجميع عبادته.

التفسير:

٣٠ - إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ.

تصف الآيات منزلة المؤمنين الذين أعلنوا إيمانهم بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، واستقاموا على ذلك فلم يروغوا وrogان الثعالب، بل ثبتوا على الإيمان وعملوا بمقتضاه.

قال رجل: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً، وأقل فيه لعلى أعيه، فقال له الرسول ﷺ: «قل آمنتم بالله ثم استقم»، فقال الرجل: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف لى؟ فأخذ الرسول ﷺ بلسان نفسه ثم قال: «هذا»، أى: أخاف عليك لسانك^(١). (رواه الإمام أحمد، ومسلم فى صحيحه، والنسائى).

فالمؤمن المستقيم على فعل الصالحات وترك المعاصى، الثابت على الخير، البعيد عن الشر، الذى وطن نفسه على الهدى، وفطمها عن الردى، تنزل عليه الملائكة فى الدنيا - وإن لم يرها - تشرح صدره، وتيسر أمره، وتمنحه المعونة والهدى والتوفيق، وتنزل عليه عند الموت تبشره برضوان الله، وتنزل عليه فى القبر تؤنس وتبشره بمنزلته فى الجنة، وتنزل عليه عند البعث حيث ينزل عليه الملكان اللذان كانا يكتبان عليه الحسنات والسيئات ليصحباه إلى عرصات القيامة، ونعيم الجنة، ولا يمر المؤمن المستقيم

بأى كرب من كربوب الآخرة إلا بشرته الملائكة بما أعد له ، ويسرت له الحفظ من كل كرب ، وبشرته بالجنة التى كان يوعدها فى الدنيا على ألسنة الرسل .

٣١ - نَحْنُ أُولَآئِكَ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ .

نحن نصراؤكم على الخير ، وأعانكم على الاستقامة فى الحياة الدنيا ، إذ نثبتكم على الطاعة ونمنحكم التوفيق والهداية ، ونحن نبشركم قرب رحيلكم إلى الآخرة بالجنة ونعيمها ، ولكم فى الجنة ، مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ ... ما تطلبه نفوسكم .

قال ﷺ : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »^(١٠٠) . انظر سنن الترمذى ، وصحيح مسلم عن أبى هريرة ، كتاب الجنة ، وصفة نعيمها ، ولكم فى الجنة ما تطلبونه ، وما تدعون ، وتقولون إنه لكم فهو لكم بحكم ربكم .

٣٢ - نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .

النُّزْل هو ما يُهَيَّأ للضيف ليأكله حين نزوله .

والمعنى : إن هذا النعيم فى الجنة جعله الله ثواباً ونعيماً لكم ، من غفور سابغ المغفرة ، رحيم واسع الرحمة .

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات متعددة فى وصف نعيم الجنة ، وحورها وولدانها ، وثمارها وأشجارها ، وفاكهتها ، وأنهارها ، وعسلها ، ولبنها ، وظلالها ، ومن أمثلة ذلك ما ورد فى سورة الواقعة :
وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَكِبِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يُطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ * لَا يُصْـَـدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ * وَلِكِهِنَّ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَلِ اللَّوْلِ الْمَكُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأَلِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ * مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِى سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلٍّ مُّمدودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَلِكِهِنَّ كَثِيرَةٌ * لَا تَقْطُوعُهُ وَلَا مَنْعَةٌ * وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً * فَجَعَلْنَاهُمْ أَزْوَاجًا * غُرُبًا أَوْثَرًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

٣٣ - وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

لا أحد أحسن قولاً وأعظم منزلة ممن دعا غيره إلى طاعة الله تعالى ، وإلى المحافظة على أداء ما كلفه به ، وهو في نفس الوقت يعلن عن إسلامه ، ويوافق ظاهره باطنه ، فلا يقول ذلك تباهياً ولا رياء ، بل يقوله تعريفاً بنفسه وبفضل الله عليه حيث هداه إلى الإسلام .

وقيل : إن الآية نزلت في المؤذنين ، والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، كما ورد في تفسير ابن كثير .

٣٤ - وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ .

الحسنة والسيئة متفاوتتان ، فحاول أن تردّ على الإساءة بالإحسان ، وعلى الغلظة بالملاينة ، وعلى الفحش بالحلم والصبر ، أو تقول له : إن كنت صادقاً غفر الله لي ، وإن كنت كاذباً غفر الله لك ، إلى غير ذلك من الحكمة في مقابلة الناس ومعاملتهم ، فإذا فعلت ذلك تحوّل العدو المشاق إلى صديق مشفق .

قال الشاعر :

إن العداوة تستحيل مودة بتدارك الهفوات بالحسنات

وقيل : إن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب ، كان عدواً مبيناً لرسول الله ﷺ ، وسقط في الأسر قبيل الفتح ، فأحسن النبي ﷺ معاملته ، وقال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» ، فتحول إلى صديق معين . وينبغي أن نبحث عن الحكمة في تصرفاتنا وأعمالنا ، فمن الناس من لا تصلح معهم الملاينة ، ولا يصلح معهم إلا المخاشنة ، وفي مثل هؤلاء قال القرآن الكريم : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... (الشورى : ٤٠) .

وقال تعالى : وَلَمَنْ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِمْ فَاتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... (الشورى : ٤١ ، ٤٢) .

٣٥ - وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِلْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

وما يستطيع التخلّق بالأخلاق الكريمة ، والصبر والمصابرة ، واستخدام الحكمة والملاينة ، إلا الذين صبروا وتمتعوا بالصبر والحلم وكظم الغيظ ، وضبط النفس ، والانتصار على الغضب ، واعتبار الدنيا قليلة بالنسبة إلى ثواب الآخرة .

وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .

وما يؤتاها إلا ذو حظ عظيم من خصال الخير ، وذو حظ عظيم من الثواب ، حيث فوّت الفرصة على خصمه واستطاع أن ينزع فتيل الشر ، وأن يقابل الإساءة بالإحسان ، حتى قيل : (عجباً لمن يشتري العبيد بماله ، لم لا يشتري الأحرار بحسن فعاله) .

وقال ﷺ : «ما تواضع أحد لله إلا رفعه ، وما نقص مال عبد من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، فاعفوا يعزكم الله»^(٣١)

٣٦ - وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

إذا حاول الشيطان استثارتك وهيجك لتنتقم لنفسك ، أو حاول تحريك الغضب والحمية فيك لتقابل الإساءة بمثلها ، ولتردّ على السيئة بالانتقام والكيد ، فالحجأ إلى الله وتحصن به ، فهو سميع لدعائك ، عليم بالنفس البشرية وخفاياها وشئونها ، وهو سبحانه يجعلك عبداً ريانياً ، ترى بنور الله وهدايته وبصيرته ومعونته ، ويجعل لك في الظلام نوراً ، وفي الشدة فرجاً .

قال تعالى : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ * إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٢ ، ٣) .

★ ★ ★

من دلائل القدرة الإلهية

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَيْلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدٌ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خُشْعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

المفردات :

ومن آياته : ومن البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته .

يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . (النمل: ٢٣ - ٢٦) .

كما تحدث القرآن عن حركة الشمس والقمر في سورة (يس) ، وأنهما يتحركان بتقدير الله ، ولكل منهما مجال لا يتعداه .

قال تعالى : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْسِفُ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (يس: ٣٨ - ٤٠) .

من أجل بيان ذلك رأينا القرآن هنا يقول : لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

وفيه رد على الصابئة الذين عبدوا الكواكب ، ورد على عبدة الشمس الذين زعموا أنهم يقصدون بالسجود للشمس أو للقمر السجود لله فذهبوا عن ذلك ؛ أي : لا تسجدوا لهذه الأسباب الظاهرة مثل الشمس والقمر ، واسجدوا لله الخالق الذي خلق الشمس والقمر والليل والنهار ، ويده وحده الخلق والأمر ، إن كنتم تريدون العبادة الحقّة فاتجهوا بها إلى الله وحده لا شريك له .

وهذه الآية موضع سجدة ، لكن بعض الفقهاء أوجب السجدة عند نهاية هذه الآية في كلمة : تَعْبُدُونَ . وبعضهم أوجب السجدة عند نهاية الآية التي تليها في قوله : وَهُمْ لَا يَسْتَمُونُ . لأن الكلام يتم عندها ، واختلف النقل عن الصحابة على هذا النحو ، وقال ابن العربي : والأمر قريب .

٣٨- فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ .

أي : إن استكبر المشركون عن عبادة الله وحده ، أو تكبر عبدة الكواكب والشمس والقمر عن طاعتك أيها الرسول ؛ فلا تأبه بهم فالله غنى عنهم ، فالملائكة المكرمون خاضعون لقدرة الله ، ملازمون لعبادته بالليل والنهار ، لا يملون ولا يسأمون من عبادة الله تعالى .

كما قال سبحانه وتعالى : فَإِنْ كَفَرُوا بِهَا هَوَاءً فَقَدْ وُكِّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ . (الأنعام : ٨٩) .

٣٩- وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَالِيَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ومن دلائل قدرة الله تعالى أنك أيها المخاطب ترى الأرض هامة خاشعة لا نبات بها ولا زرع ولا ماء ، فإذا ساق الله إليها الماء وبث الزارع فيها الزرع ، واختلط الزرع بالتراب والماء ، نبت الزرع ونما

واهتزت به الأرض وتحركت ، وزادت وربت ، ودبت فيها الحياة ، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها ، كذلك يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . فهو سبحانه قادر على البعث والنشر والحشر ، والحساب والجزاء .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقال سبحانه وتعالى : وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الروم : ٢٧) .

★ ★ ★

القرآن هدى وشفاء

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِيهِامَنَّا يَوْمَ الْفَيْصَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَرِيضٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَفَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْوهُ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

المفردات :

يلحدون هي آياتنا ، يميلون عن الحق فيها ، والإلحاد : الميل والعدول ، ومنه اللحد في القبر لأنه أميل إلى ناحية منه دون الأخرى .

آياتنا : القرآن .

لا يخضون علينا ، نحن نراهم ، ونعد لهم الجزاء المناسب .

اصموا ما شئتم ، جملة للتهديد والوعيد ، أى : اكفروا وألحدوا واتبعوا أهواءكم فأنا مطلع ومحاسب ، وسوف ترون عقوبة عملكم .

كفروا بالذكر ، كفروا بالقرآن ، والقرآن فيه ذكر الله ، وفيه ذكر للتشريع والأخبار السابقة واللاحقة ، وهو شرف ورفعة للعرب .

كتاب عزيز ، كريم على الله ، لا تتأتى معارضته .

لا يأتيه الباطل من بين يديه ، لا يأتيه الباطل من جميع جهاته .

حكيم : يضع الشيء فى موضعه .

حميد : محمود على أفضاله وأفعاله .

أعجيبا : بلغة العجم .

لولا فصلت آياته : هلا بُدِنَ بلسان نفقهه .

أعجمى وعربى : أصبح أن يأتينا كتاب أعجمى والمخاطب به عربى ، والعرب يقولون عمن يخالف لغتهم : أعجمى . فى آذانهم وقير : صمم فلا يسمعون .

وهو عليهم عمى : فلا يبصرون هداة .

أولئك ينادون من مكان بعيد ، هؤلاء كأنما ينادون من مكان بعيد فلا يسمعون لبعده ، فاختلَفَ فيه بالتصديق والتكذيب . لى شك منه مريب : لى شك يقتضى الاضطراب والقلق .

التنصير :

٤- « إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيْ ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي آثَارِ خَيْرٍ أَمْ مَنْ يَأْتِيْ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

وقف الكفار موقف المعارضة من القرآن والإسلام ، وقابلوا تلاوة القرآن بالصفير والتصفيق ، والقرآن هنا يتهددهم ويتوعددهم ، فهم تحت المجهر .

إنهم ملحدون يميلون بالقرآن عن ظاهره ، ويؤولون القرآن تأويلا يناسب عقيدتهم الفاسدة ، وهم تحت عين الله وبصره معلومون ، وستكون عاقبتهم فى جهنم ، وشتان بين كافر يلقى فى النار مثل أبى جهل ، ومسلم يدخل الجنة مع الأمن والأمان ، مثل عمار بن ياسر ، وأبيه ياسر وأمه ، ذلك الرجل الذى اشتد به العذاب ، فقال كلمة أرضى بها كفار مكة : فقال المؤمنون : صبا عمار ، فقال ﷺ : «إن عمارا ملىء إيماناً» (١٧) .

أخرج ابن المنذر ، عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر : أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ...

ثم توعد القرآن وتهدد الملحدين الطاعنين في القرآن ، فقال : اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أى : قاوموا القرآن ، أو افعلوا أى سبيل يروق لكم فى معارضة القرآن ، فأنتم تحت سمعى وبصرى ، وستلقون جزاءكم عندما تردون إلى ، وما أهول أن يكون العبد تحت سمع الله ويصره ، ثم هو يعارض القرآن ويصفق ويصفق عند تلاوته .

فكان القرآن يقول : افعلوا ما بدا لكم ، فالله مطلع على أعمالكم وسيوفكم جزاءكم .

٤١ ، ٤٢ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

ما أعجب هذا القرآن ، اشتمل على الوحي والهداية وألوان البيان ، وأخبار الأمم السابقة ، وأخبار الرسل والأنبياء ، وأخبار القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، ومع اشتماله على هذه المعانى الجميلة فقد كفر به كفار مكة ، وقابلوه بالإعراض والكنود والرفض ، وقد جاء إليهم وهم مرتاحون فى بيوتهم ، يقدم لهم أفضل الطرق وأقومها .

قال تعالى : إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . (الإسراء : ٩) .

وخبر إن محذوف تقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم خاسرون ، أو هالكون ، حيث قابلوا هداية القرآن بالكفر والتكذيب .

وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ .

مشتمل على أسباب العزة والمنعة ، لا تتأتى معارضته ، ولا يأتيه الباطل من جميع جهاته : لغة ، وعقيدة ، وتشريعاً ، وقصصاً ، وانسجماً ، وترتيلاً ، فهو فى هذا قمة لا ترام ولا تنال .

لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ...

لا يتطرق إليه الباطل ، أو ليس لأحد أن يبطله من أى جهة من جهاته ، أو جانب من جوانبه ، ولا يكذبه كتاب سابق قبله ، ولا لاحق بعده .

قال ابن كثير : أى : ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين . ا هـ .

لقد تكفل الله بحفظه من الزيادة والنقصان ، ومن كل باطل أو بهتان .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ الذَّكُورُ وَإِنَّا لَهٗ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩) .

تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

أنزله إله بالغ الحكمة فى أقواله وأفعاله ، سابغ النعم والفضل على عباده ، حيث أنزل عليهم آخر كتبه مشتملا على التشريع والهداية ، وألوان الأدب والقصص والتاريخ ، وسنن الله فى الكون ، ومشاهد القيامة وما يتصل بها من بعث وحشر ، وحساب وجنة ونار ، وثواب وعقاب ، فله الفضل والمنة ، والحمد والشكر ، فهو الحكيم حكمة مطلقة ، والمحمود على سائر نعمه ، وإنزال كتبه وهداية خلقه ، ولله تعالى الفضل والمنة .

٤٣- مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ .

تأتى هذه الآية فى مواساة الرسول ﷺ ، وتسليته ليصبر على أذى قومه ، لقد قال قومك عنك : إنك ساحر ، وقالوا : شاعر ، وقالوا : أساطير الأولين اكتبتها ، وغير ذلك ، ومن قبلك قال الكافرون للرسول : لنخرجنك من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ... (إبراهيم : ١٣) .

ووقف الكفار موقفاً مشابهاً فى تكذيب الرسل ورفض دعوتهم ، وقذفهم بالتهم المختلفة المختلفة ، فاصبر ، والله ذو مغفرة واسعة للمؤمنين ، وذو عقاب أليم للكافرين ، فبيده سبحانه وتعالى الجزاء العادل ، والفضل الواسع لمن آمن ، والعقوبة الرادعة لمن كفر .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رُّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنُونَ .

(الذاريات : ٥٢)

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية : إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ... قال رسول الله ﷺ : «لولا عفو الله وتجاوزه منا هئلاً أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» .

٤٤- وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَادَانِهِمْ وَقَرْهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

دخل القرآن على المشركين من كل باب ، وحاكمهم إلى الحس ، وقص عليهم القصص ، ولفت أنظارهم إلى الكون وجماله ، وشخص القيامة وأهوالها كأنها حاضرة أمامهم ، ومع ذلك قالوا : قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا

تَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْ عَادَاتِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ... (فصلت: ٥) . فنحن لا نفقه القرآن ولا نستمع إليه ، ولا ننظر في أدلته .

وهنا يقول لهم القرآن : لو كان القرآن بلغة العجم - أى : ليس بلغة العرب - لقلتم : هلا فُسِّرَت آياته ، ووضّحت كلماته بلغة عربية ، أيجوز أن ينزل قرآن أعجمى على رسول عربى ، والمرسل إليهم عرب ؟

والمقصود : لو كان أعجمياً لجاز أن تقولوا : قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْ عَادَاتِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ... (فصلت: ٥) ، أما والقرآن عربى مبين ، فالحجاب سببه انشغال قلوبكم بالدنيا ، وإعراضكم عن الهدى ، وانصرافكم عن الرسالة النافعة .

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ...

هو للمؤمنين مصدر هداية لأنفسهم ، وشفاء لأسقامهم ، حيث يأخذ بأيديهم إلى الإيمان ، ويزيدهم إيماناً إلى إيمانهم ، ويقيئنا بالله إلى يقينهم ، ويعلمهم ما ينفعهم ، ويزيدهم علماً ومعرفة .

وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْ عَادَاتِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ...

أما الكافر الذى أصمُّ أذنه عن سماع آيات الله ، فهو لذلك لا يسمع ، وإذا سمع لا ينصت ، وإذا أنصت ظاهراً انصرف بقلبه باطلاً ، فكأنه سمع بأذنه ولم يهتد بقلبه ، لقد عميت قلوبهم عن هداية القرآن ، لذلك لم تبصر عيونهم جمال أسلوبه ، ولا فصاحة كلماته ، ولا رونقه وبيانه وهدايته ، كأن القرآن يناديهم من مكان بعيد ، لا يسمعون ولا يفقهونه ولا يتبينون مراده .

قال القرطبى :

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ .

يقال ذلك لمن لا يفهم من التمثيل ، وحكى أهل اللغة أنه يقال للذى يفهم : أنت تسمع من قريب ، ويقال للذى لا يفهم : أنت تنادى من بعيد ، أى : كأنه ينادى من موضع بعيد منه ، فهو لا يسمع النداء ولا يفهمه .

وقال الضحاك :

ينادون يوم القيامة بأقبح أسمائهم ، من مكان بعيد ، فيكون ذلك أشدَّ لتوبيخهم وفضيحتهم . ١ هـ .

ومن يتدبَّر هذه الآية الكريمة يشاهد مصداقها فى كل زمان ومكان ، فهناك من ينتفع بهذا القرآن قراءة وسماعاً وتطبيقاً ، وهناك من يستمع إلى هذا القرآن فلا يزيده السماع إلا إغراضاً وبعداً وصمماً وتشاغلاً .

قال تعالى : وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ١٢٥) .

٤٥ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .

تأتى هذه الآية تسليّة الرسول ﷺ على تكذيب قومه له ، كما قال سبحانه : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزِّ
مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

والمعنى :

أعطينا موسى التوراة فأمن فريق بها وكذبها فريق ، كما فعل قومك مع القرآن ، ولولا أن الله جلّت حكمته قد قضى بأن يهلك الناس ويعطيهم فرصة كافية لاستخدام عقولهم ، وتسخير مواهبهم ، واستعادة تفكيرهم ، لعلّهم أن يتوبوا ويراجعوا ضمائرهم ، فيستغفروا ويتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ، وإلى الإيمان بكتبه المنزلة ، لولا ذلك لقضى بينهم في الدنيا بعذاب الاستئصال .

قال تعالى: وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْفِلًا. (الكهف: ٥٨).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً وَلاَ كَيْنٌ يُؤْخِرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ... (فاطر: ٤٥)

وَالَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ .

أى : إن قومك من كفار مكة فى شك وتوجُّس وخوف من هذا القرآن ، مَوْقع لهم فى أشد الريبة والاضطراب ، حيث كان أغنياء مكة يستمتعون بالمال والخمر والغناء والقيان ، ويرون أنهم من جنس أفضل قدرًا ، وأعلى منزلة من الفقراء والعبيد .

وكان القرآن يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويبين أن الناس جميعاً من آدم ، وهم يتفاضلون عند الله بالتقوى والأعمال الصالحة ، كم حرم القرآن الخمر والميسر والزنا والفواحش ، وحث على الصدقة والإحسان وإكرام اليتيم ومساعدة الضعفاء والمحتاجين .

من أجل ذلك توجَّس الكفار شرًّا من هذا القرآن ، وخافوا من بلاغته ووصلته ، وحاولوا أن يكتُموا صوته ، وهذا الشك أوقعهم في اتهام القرآن والخوف منه ، لذلك سمَّاه الله شكاً مريباً ، أى : شكاً مركباً بالغ الاتهام .

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي :

وَأَنَّهُمْ أَتَى شَكٌّ مِّنْهُ مُرِيبٌ . أى : وإن كفار قومك لفى شك من القرآن ، موقع فى الريبة والقلق ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكِّين فيما قالوه ، غير متحققين لشئء كانوا فيه ^(٤٣) .

٤٦- مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

من عمل عملا صالحا فى هذه الدنيا فنفع ذلك يعود على نفسه ، حيث يستوفى الجزاء فى الدنيا والآخرة ، فمن آمن بكتاب الله وأحسن تلاوته والانتفاع به : هداه ذلك إلى حسن السلوك ، وفعل الخير ، وجنى الثواب النافع فى الدنيا والآخرة .

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... ومن كفر بالله ولم يستمع لكتاب الله ، ولا لرسالات السماء ، وجحد الحق ، فقد جنى على نفسه ، وعرض نفسه لغضب الله فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة .

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ آدَمًا شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فالله تعالى عادل تمام العدل فى حكمه ، يكافئ على الحسنه بعشر أمثالها أو يزيد ، ويكافئ على السيئة بمثلها أو يغفر لصاحبها إذا تاب ، وقد ورد فى القرآن والسنة تكرير هذا المعنى ، فالله عادل وكريم .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

وقال تعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى .

(النجم : ٣٩ - ٤١)

والآية - كما ترى - ميزان عادل ، ودعوة للخير ، وتحذير من الشر ، فالجزاء من جنس العمل ، فالمحسن يحسن إلى نفسه، والمسيء يسيء إلى نفسه، ولا يُعَذَّبُ الله أحداً إلا بعد بيان الحجة له ، وإرسال الرسل لهدايته، وإنزال الكتب لشرح الرسالة وتوضيح الحقائق والبيانات ، وتوضيح ألوان الهداية وسبل الرشاد ، فمن اهتدى وعمل صالحا فسيجنى ثوابا لنفسه ، ومن ضل وغوي فسيحصد عقابا عادلا بذنبه .

وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .

فحاشاه أن يظلم أحدا .

ذكر المفسرون هنا ما يأتي :

لفظة : ظَلَامٌ صيغة مبالغة ، ومعلوم أن نفى المبالغة لا يستلزم نفى أصل الفعل ، فقوله : زيد ليس بقتال للرجال ، معناها : أنه ليس بكثير القتل للرجال ، أى أنه ربما قتل بعض الرجال ، ومعلوم أن المراد بنفى المبالغة - وهى لفظ : ظَلَامٌ - فى هذه الآية وأمثالها ، المراد به نفى الظلم من أصله ، وقد أجابوا عن هذا الإشكال بإجابات منها :

أن نفى صيغة المبالغة هنا قد جاء فى آيات كثيرة ما يدل على أن المراد به نفى الظلم من أصله ، ومن ذلك قوله تعالى : **وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ... (الكهف : ٤٩) .

وقوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** ... (يونس : ٤٤) .

وقوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ... (النساء : ٤٠) .

ومنها أن المراد بالنفى فى الآية نفى نسبة الظلم إليه : لأن صيغة (فَعَّالٌ) تستعمل مرادًا بها النسبة ، فتغنى عن ياء النسب ، مثل قولهم : (لبَّان) أى : ذولبن ، (تمَّار) أى : صاحب تمر ، ومثل (عطَّار) و(بخَّار) . وفى الحديث القدسى ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا» .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .



تم تفسير الجزء الرابع والعشرين ، وكان الانتهاء منه ضحى يوم الأحد ٢٥ من المحرم سنة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠ من أبريل سنة ٢٠٠٠ م ، بمدينة بورسعيد - جمهورية مصر العربية ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨) .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الرابع والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمّد صالح سميح فهمي

(١) تفسير النسفي الجزء الرابع ص ٥٩ .

(٢) إذا أوى أحدكم إلى فراشه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٢٠) وفى التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم فى الذكر (٢٧١٤) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذ فراشه بداخله إزاره فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم يقول : باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» .

(٣) إن الله قبض أرواحكم :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٩٥) من حديث أبى قتادة قال : سرتنا مع النبى ﷺ ليلة فقال بعض القوم : لو عرست بنا يارسول الله ، قال : «أخاف أن تناموا عن الصلاة» ، قال بلال : أنا أوقظكم ، فاضطجعوا وأسند بلال ظهره إلى راحلته فقلبت عيناها فنام ، فاستيقظ النبى ﷺ وقد طلع حاجب الشمس فقال : «يا بلال أين ما قلت؟» قال : ما ألقيت على نومة مثلها قط ، قال : «إن الله قبض أرواحكم حين شاء ، وردها عليكم حين شاء ، يا بلال قم فأذن بالناس بالصلاة» ، فتوضأ فلما ارتفعت الشمس وابتضت قام فصلى .

(٤) اللهم رب جبرائيل وميكائيل :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٧٠) وأبو داود فى الصلاة (٧٦٧) والترمذى فى الدعوات (٣٤٢٠) والنسائى فى قيام الليل (١٦٢٥) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٥٧) وأحمد (٢٤٦٩٩) من حديث عائشة ، وقال الترمذى : حسن غريب .

(٥) اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة :

رواه أحمد فى مسنده (٨٢) والترمذى فى الدعوات (٣٥٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ قال : فنظرت فإذا فيها : إن أبأ بكر الصديق رضى الله عنه قال : يارسول الله علمنى ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال : «يا أبأ بكر قل : اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شىء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٦) فيها ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٤٤) ، وفى التفسير (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفى التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة (٢٨٢٤) ، والترمذى فى التفسير (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجه فى الزهد (٤٣٢٨) ، وأحمد (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨ ، ١٠٠٥١) ، والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٧) أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا :

رواه البخارى فى التفسير (٤٨١٠) ومسلم فى الإيمان (١٢٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت : ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ ونزلت : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطروا من رحمة الله﴾ .

(٨) ما أحب أن لي الدنيا :

رواه أحمد في مسنده (٢١٨٥٧) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» (يعابدى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) ، فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك؟ ، فسكت النبي ﷺ ثم قال : «إلا من أشرك» ، ثلاث مرات .

(٩) كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا :

رواه البخارى في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) ومسلم في التوبة (٢٧٦٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله ، فقال له : هل من توبة ؟ قال : لا ، فقتله فجعل يسأل فقال له رجل : انت قرية كذا وكذا فأدركه الموت ففأ بصدرة نحوها فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأوحى الله إلى هذه أن تقرى وأوحى الله إلى هذه أن تباعدى ، وقال : قيسوا ما بينهما فوجد إلى هذه أقرب بشير فغفر له» .

(١٠) تفسير القرطبي مجلد ٦ ص ٥٨٨٧ ، دار الغد العربى ، العباسية ، القاهرة .

(١١) يأخذ الله عز وجل سمواته وأرضيه :

رواه مسلم في صفة القيامة (٢٧٨٨) من حديث عبيد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكى رسول الله ﷺ قال : يأخذ الله عز وجل سمواته وأرضيه بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ويبسطها ، أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إنى لأقول أساقط هو برسول الله ﷺ .

(١٢) يقبض الله الأرض ويطوى :

رواه البخارى في التفسير (٤٨١٢) ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٧) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقبض الله الأرض ويطوى السماوات بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض» .

(١٣) أورد ابن كثير في تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عن الحشر ، والنفخات الأولى والثانية والثالثة ، كما عنى مختصر تفسير ابن كثير للصبايونى بتخريج هذه الأحاديث .

(١٤) انظر بصائر ذوى التمييز ٣٠٩/١ .

(١٥) من قرأ حم المؤمن :

رواه الترمذى في فضائل القرآن (٢٨٧٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم المؤمن إلى (إليه المهيمن) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح» . قال أبى عيسى : هذا حديث غريب .

(١٦) إن الله ليعلمى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخارى في التفسير : باب قوله ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه فى الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبى موسى

رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». قال: ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

(١٧) في دبر كل صلاة حين يسلم :

رواه مسلم في المساجد (٥٩٤) من حديث أبي الزبير قال : كان ابن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ته النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، وقال : كان رسول الله ﷺ يهمل بهن دبر كل صلاة .

(١٨) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً .

(١٩) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني ، المجلد الثاني ص ٢٢٨ .

(٢٠) من تفسير ابن كثير ١٣٧/٧ ، تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دار طبية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض ط ١٩٩٧

(٢١) فوضع رداءه في عنقه فخنقه به :

رواه البخاري في المناقب (٣٨٥٦، ٣٦٧٨) وفي التفسير (٤٨١٥) وأحمد في مسنده (٦٨٦٩) من حديث عروة بن الزبير قال : سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ ، قال : رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه به خنقا شديدا ، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم .

(٢٢) أشيروا على أيها الناس :

ذكره البيهقي في دلائل النبوة .

(٢٣) حاشية الجمل على الجلالين .

(٢٤) إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده :

رواه البخاري في الجنائز (١٣٧٩) وفي بدء الخلق (٣٢٤٠) وفي الرقاق (٦٥١٥) ومسلم في الجنة (٢٨٦٦) والترمذي في الجنائز (١٠٧٢) وأحمد في مسنده (٤٦٤٤) ومالك في الموطأ كتاب الجنائز (٥٦٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» .

تنبيه: قوله: ثم قرأ ﷺ: ﴿النار يعرضون عليها...﴾. قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحذكم إذا مات عرض عليه مقعده...» الحديث. ثم قال: زاد ابن مردويه ﴿النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾. فَعَلِمَ من ذلك أن هذه الزيادة لم يذكرها الشيخان، فلينبته.

(٢٥) والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٠٧) والترمذى فى التفسير (٢٢٥٩) وابن ماجه فى الأدب (٣٨١٥) من حديث أبى هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول : «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» .

ورواه مسلم فى الذكر (٢٧٠٢) وأبو داود فى الصلاة (١٥١٥) من حديث الأغر المزنى وكانت له صحبة أن رسول الله ﷺ قال : «إنه ليغان على قلبي وإننى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة» .

(٢٦) تفسير القرطبي مجلد ٧ ص ٥٩٤٤ ، طبعة دار الغد العربى ، القاهرة .

(٢٧) بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك ، عن النبى ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا» . ومسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : «بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» .

(٢٨) كان من أفكاه الناس :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٦٨٦٥) من حديث أنس ، ونسبه لابن عساكر وقال : ضعيف .

قال المناوى فى «الفيض» : رواه الحسن بن سفيان فى مسنده من حديث أنس دون قوله : «مع نسائه» . ورواه البزار والطبرانى فى الصغير والأوسط فقالا : «مع صبي» . وفى إسناده ابن لهيعة .

(٢٩) عزح ولا يقول إلا حقا :

رواه الترمذى فى البر (١٩٩٠) وأحمد فى مسنده (٨٢٧٦ ، ٨٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ، إنك تداعبنا ، قال : «إني لا أقول إلا حقا» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣٠) روحوا القلوب ساعة فساعة :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٨٤) بلفظ : «روحوا القلوب ساعة فساعة» .

(٣١) وإن تزوجك عليك حقا :

رواه البخارى فى الصوم (١٩٦٨) وفى الأدب (٦١٣٩) والترمذى فى الزهد (٢٤١٣) من حديث أبى جحيفة قال : آخى النبى ﷺ بين سلمان وأبى الدرداء فزار سلمان أبى الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما ، فقال : كُلْ ، قال : فإنى صائم ، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، قال : فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ثم ذهب يقوم ، فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه فأتى النبى ﷺ فذكر ذلك له فقال النبى ﷺ : «صدق سلمان» . ورواه البخارى فى الصوم (١٩٧٤) ، وفى النكاح (٥١٩٩) وفى الأدب (٦١٣٤) ومسلم فى الصيام (١١٥٩) والنسائى فى الصيام (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : دخل على رسول الله ﷺ .. فذكر الحديث يعنى : إن لزورك

عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا فقلت : وما صوم داود قال : «نصف الدهر» . ورواه أبو داود في الصلاة (١٣٦٩) وأحمد في مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبي ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال : لا والله يا رسول الله ولكن سنتك أطلب ، قال : «فإني أنا وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر وصل ونم» .

(٣٢) حبيب إلى الطبيب والنساء :

رواه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠) وأحمد (١١٨٨٤، ١١٨٨٥، ١٢٦٤٤) من حديث أنس بن مالك . قال : قال رسول الله ﷺ : «حبيب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة» . قال العراقي : رواه النسائي والحاكم من حديث أنس بإسناد جيد ، وضعفه العقيلي . قال المناوي في «الفيض» : قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، وقال الحافظ العراقي : إسناده جيد ، وقال ابن حجر : حسن ، وأعلم أن المصنف جعل في الخطبة حم رمزا لأحمد في مسنده فاقتضى ذلك أن أحمد روى هذا في المسند وهو باطل فإنه لم يخرج فيه وإنما أخرجه في كتاب الزهد فعزوه إلى المسند سبق ذهن أو قلم . قلت : وكلام المناوي فيه نظر فإن الحديث رواه أحمد في مسنده كما تقدم من حديث أنس بن مالك وذكره في ثلاثة مواضع ، فتأمل .

(٣٣) من رغب عن سنتي فليس مني :

رواه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ومسلم في النكاح (١٤٠١) ، والنسائي في النكاح (٣٢١٧) ، وأحمد (١٣٣١٦، ١٣٣٢٢) ، ورواه ابن ماجه في النكاح (١٨٤٦) بلفظ : «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني...» الحديث . كليم من حديث أنس ، ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار . ورواه الدارمي في النكاح (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص .

(٣٤) مزار الشيطان :

رواه البخاري في الجمعة (٩٥٠، ٩٨٨) وفي الجهاد (٢٩٠٧) وفي المناقب (٣٥٣٠، ٣٩٣١) ومسلم في صلاة العيدين (٨٩٢) من حديث عائشة ، أن أبا بكر دخل عليها والنبي ﷺ عندهما يوم فطر أو أضحى ، وعندهما قينتان تغنيان بما تقاذفت الأنصار يوم بعث فقال أبو بكر : مزار الشيطان ، مرتين فقال النبي ﷺ : «دعهما يا أبا بكر إن لكل قوم عيدا وإن عيدنا هذا اليوم» .

(٣٥) تبسمك في وجه أخيك لك صدقة :

رواه الترمذي (١٩٥٦) من حديث أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ويصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة» . وقال الترمذي : وفي الباب عن ابن مسعود وجابر وحذيفة وعائشة وأبي هريرة وقال : هذا حديث حسن غريب وأبو زميل اسمه سماك بن الوليد الحنفي . وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٢٢١) ونسبه للبخاري في الأدب المفرد والترمذي وابن حبان في صحيحه . قال المناوي في «الفيض» : أوردته في الميزان في ترجمة عكرمة عن عمار العجلي من حديثه وقال : قال أبو حاتم : ثقة ربما بهم . وقال أحمد : ضعيف ، وقال البخاري : لم يكن له كتاب فاضطرب حديثه . قال الهيثمي في المجمع : وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن تبسمك في وجه أخيك يكتب لك به صدقة وإن أفراغك من دلوك في دلو أخيك

يكتب لك به صدقة وإماطتك الأذى عن الطريق يكتب لك به صدقة وإن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر يكتب لك به صدقة وإرشادك الضال يكتب لك به صدقة». رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن أبي عطاء وهو مجهول.

(٣٦) إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة :

رواه الترمذي في البر (٢٠١٨) من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال : «إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟ قال : «المتكبرون» . وقال الترمذي: حديث حسن غريب، ورواه أحمد في مسنده (١٧٢٧٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أحبكم إلى وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون» . ورواه أحمد في مسنده (٨٦٠٤) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أنبئكم بشراركم ؟ فقال : «هم الثرثارون المتشدقون ، ألا أنبئكم بخياركم ؟ أحاسنكم أخلاقا» .

(٣٧) يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك :

رواه ابن ماجه في الأدب (٣٧٩١) ، من حديث عبد الله بن عمر .

(٣٨) اللهم إني عبدك وابن عبدك :

رواه أحمد في مسنده (٤٣٠٦، ٣٧٠٤) من حديث عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا» ، قال : فقيل : يا رسول الله ألا نتعلمها ؟ فقال : «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» .

(٣٩) كم المرسلون :

رواه أحمد في مسنده (٢١٠٣٦) من حديث أبي ذر قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال : «يا أبا ذر هل صليت؟ قلت : لا ، قال : «قم فصل الحديث وفيه: قلت : يا رسول الله ، أي الأنبياء كان أول ؟ قال : «آدم» ، قلت : يا رسول الله ونبي كان ؟ قال : «نعم نبي مكرم» ، قال : قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : «ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيرا» ، وقال مرة : «خمسة عشر» قال : قلت : يا رسول الله آدم أنبئى كان ؟ قال : «نعم نبي مكرم» ، قلت : يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : «آية الكرسي ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾» .

(٤٠) عَـلَـهُ يَقْصِدُ دَعَاءَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتَ زِينَةَ وَأَمْرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَبْعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٨ ، ٨٩) .

(٤١) أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عمر .

(٤٢) الميل إلى النساء .

(٤٣) قاتن بسيرة ابن هشام ، وانظر تفسيرى القرطبى والمرافى .

(٤٤) اللهم رب السماوات السبع :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٢) من حديث بريدة قال : شكّا خالد بن الوليد المخزومى إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنام الليل من الأرق فقال النبى ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السماوات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ورب الشياطين وما أضلت كن لى جاراً من شر خلقك كلهم جميعاً أن يفرط على أحد منهم أو أن يبغى عز جارك وجل ثنائك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت» . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث ، ويروى هذا الحديث عن النبى ﷺ مرسلًا من غير هذا الوجه .

(٤٥) بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٦٩) من حديث أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : «هل تدرون مم أضحك؟» قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يارب ألم تجرنى من الظلم ، قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإننى لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : فيختم على فيه فيقال لأركانہ : انطقى ، قال : فتتلق بأعماله ، قال : ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعدا لكنّ وسحقا فعنكن كنت أناضل» .

(٤٦) تفسير ابن كثير .

(٤٧) أنا عند ظن عبدى بى :

رواه البخارى (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) والترمذى (٢٣٨٨ ، ٣٦٠٣) وابن ماجه (٣٨٢٢) وأحمد (١٠٣٠٦ ، ١٠٣٢٦ ، ١٠٤٠٣ ، ١٠٥٢٦ ، ٢٧٢٨٣ ، ٢٧٣٩٥ ، ٨٨٣٣ ، ٩٠٨٧ ، ٩٤٥٧) .

(٤٨) لا يموتن أحدكم :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٧) وابن ماجه فى الزهد (٤١٦٧) وأحمد فى مسنده (١٣٧١١) من حديث جابر قال : سمعت النبى ﷺ قبل وفاته بثلاث يقول : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن» .

(٤٩) قل آمنت بالله ثم استقم :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٨) والترمذى فى الزهد (٢٤١٠) وابن ماجه فى الفتن (٣٩٧٢) وأحمد فى مسنده (١٤٩٩١ ، ١٤٩٩٢ ، ١٤٩٩٣ ، ١٨٩٣٨) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٠ ، ٢٧١١) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٥٠) فيها ما لا عين رأت :

سبق تخريجه ، انظر هامش (٦) .

(٥١) ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا بعفو :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨) ، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩) ، وأحمد (٧١٦٥ ، ٨٧٨٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٥٢) ملئ عمار إيماناً إلى مشاشه :

رواه ابن ماجه فى المقدمة (١٤٧) من حديث على ، ورواه النسائى فى الإيمان (٥٠٠٧) من حديث رجل من أصحاب النبى ﷺ . قال المناوى فى «الفيض» : وفيه أحمد بن المقدم أوردته الذهبى فى الضعفاء ، وقال : ثقة صاحب مزاح ، ورواه عنه أيضاً أبو يعلى ، والدبلمى ، وفى الباب عن عائشة .

(٥٣) التفسير المنير فى العقيدة والشرعية والمنهج ، للأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، لبنان ، الجزء ٢٤ ص ٢٤٩



تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الرابع والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٢	﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق...﴾	٤٧٥٩
٣٣	﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون...﴾	٤٧٥٩
٣٤	﴿لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين...﴾	٤٧٥٩
٣٥	﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا...﴾	٤٧٥٩
٣٦	﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفوك بالذين من دونه...﴾	٤٧٥٩
٣٧	﴿ومن يهد الله فماله من مضل...﴾	٤٧٥٩
٣٨	﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله...﴾	٤٧٦٣
٣٩	﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون...﴾	٤٧٦٣
٤٠	﴿من يأتية عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم...﴾	٤٧٦٣
٤١	﴿إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق...﴾	٤٧٦٥
٤٢	﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها...﴾	٤٧٦٥
٤٣	﴿أم اتخذوا من دون الله شفعاء...﴾	٤٧٦٥
٤٤	﴿قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السماوات والأرض...﴾	٤٧٦٥
٤٥	﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة...﴾	٤٧٦٩
٤٦	﴿قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة...﴾	٤٧٦٩
٤٧	﴿ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه...﴾	٤٧٦٩
٤٨	﴿ويدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون...﴾	٤٧٦٩
٤٩	﴿فإذا مس الإنسان ضرراً دعانا...﴾	٤٧٧٢
٥٠	﴿قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون...﴾	٤٧٧٢
٥١	﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء...﴾	٤٧٧٢
٥٢	﴿أولم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر...﴾	٤٧٧٢
٥٣	﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله...﴾	٤٧٧٥
٥٤	﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له...﴾	٤٧٧٥
٥٥	﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم...﴾	٤٧٧٥
٥٦	﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله...﴾	٤٧٧٥
٥٧	﴿أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين...﴾	٤٧٧٥
٥٨	﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كربة فأكون من المحسنين...﴾	٤٧٧٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٩	﴿بلى قد جاءك آياتى فكذبت بها واستكبرت ...﴾	٤٧٧٥
٦٠	﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ...﴾	٤٧٨٠
٦١	﴿وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ...﴾	٤٧٨٠
٦٢	﴿الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل .﴾	٤٧٨١
٦٣	﴿له مقاليد السماوات والأرض ...﴾	٤٧٨١
٦٤	﴿قل أغفیر الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون .﴾	٤٧٨١
٦٥	﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ...﴾	٤٧٨١
٦٦	﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين .﴾	٤٧٨١
٦٧	﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ...﴾	٤٧٨٤
٦٨	﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض ...﴾	٤٧٨٤
٦٩	﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ...﴾	٤٧٨٤
٧٠	﴿وفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون .﴾	٤٧٨٤
٧١	﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ...﴾	٤٧٨٨
٧٢	﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ...﴾	٤٧٨٨
٧٣	﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ...﴾	٤٧٨٨
٧٤	﴿وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ...﴾	٤٧٨٨
٧٥	﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ...﴾	٤٧٨٨
—	خلاصة ما تضمنته سورة الزمر .	٤٧٩٢
—	تفسير سورة غافر .	٤٧٩٣
—	أهداف سورة غافر .	٤٧٩٤
١	﴿ح ————— م﴾	٤٧٩٨
٢	﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم .﴾	٤٧٩٨
٣	﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول ...﴾	٤٧٩٨
٤	﴿ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ...﴾	٤٧٩٨
٥	﴿كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ...﴾	٤٧٩٨
٦	﴿وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا ...﴾	٤٧٩٨
٧	﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ...﴾	٤٨٠٢
٨	﴿ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ...﴾	٤٨٠٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٩	﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته...﴾	٤٨٠٢
١٠	﴿إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم...﴾	٤٨٠٥
١١	﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين...﴾	٤٨٠٥
١٢	﴿ذلكم بأنه إذا دُعى الله وحده كفرتم...﴾	٤٨٠٥
١٣	﴿هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً...﴾	٤٨٠٥
١٤	﴿فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون...﴾	٤٨٠٥
١٥	﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره...﴾	٤٨٠٥
١٦	﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ...﴾	٤٨٠٥
١٧	﴿اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم...﴾	٤٨٠٥
١٨	﴿وأنذرهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين...﴾	٤٨١٠
١٩	﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور...﴾	٤٨١٠
٢٠	﴿والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ...﴾	٤٨١٠
٢١	﴿أولم يسيرا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا...﴾	٤٨١٠
٢٢	﴿ذلك بأنهم كانت تأتيتهم رسلهم بالبينات فكفروا...﴾	٤٨١٠
٢٣	﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين...﴾	٤٨١٣
٢٤	﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب...﴾	٤٨١٣
٢٥	﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه...﴾	٤٨١٣
٢٦	﴿وقال فرعون ذرونى أقتل موسى...﴾	٤٨١٣
٢٧	﴿وقال موسى إنى عذت برى وريكم من كل متكبر...﴾	٤٨١٣
٢٨	﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه...﴾	٤٨١٣
٢٩	﴿يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض...﴾	٤٨١٨
٣٠	﴿وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب...﴾	٤٨١٨
٣١	﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم...﴾	٤٨١٨
٣٢	﴿يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم التناد...﴾	٤٨١٨
٣٣	﴿يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم...﴾	٤٨١٨
٣٤	﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات...﴾	٤٨١٨
٣٥	﴿الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم...﴾	٤٨١٨
٣٦	﴿وقال فرعون يا هامان ابن لى صرْحاً...﴾	٤٨٢٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٧	﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...﴾	٤٨٢٤
٣٨	﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾	٤٨٢٤
٣٩	﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ...﴾	٤٨٢٤
٤٠	﴿مَنْ عَمِلَ سِئَةً فَلَا يَجْزِي إِلَّا مِثْلُهَا...﴾	٤٨٢٤
٤١	﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾	٤٨٢٤
٤٢	﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ...﴾	٤٨٢٤
٤٣	﴿لَا جُرْمَ أُنْمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ...﴾	٤٨٢٤
٤٤	﴿فَنَسْتَذَكِّرُكُمْ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ...﴾	٤٨٢٤
٤٥	﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾	٤٨٢٤
٤٦	﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا...﴾	٤٨٢٤
٤٧	﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا...﴾	٤٨٣٠
٤٨	﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْعِبَادِ﴾	٤٨٣٠
٤٩	﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَا...﴾	٤٨٣٠
٥٠	﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ...﴾	٤٨٣٠
٥١	﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	٤٨٣٠
٥٢	﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذَرَتُهُمْ...﴾	٤٨٣٠
٥٣	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾	٤٨٣٤
٥٤	﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾	٤٨٣٤
٥٥	﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...﴾	٤٨٣٤
٥٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ...﴾	٤٨٣٤
٥٧	﴿لَخَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ...﴾	٤٨٣٦
٥٨	﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ...﴾	٤٨٣٦
٥٩	﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا...﴾	٤٨٣٦
٦٠	﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...﴾	٤٨٣٦
٦١	﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا...﴾	٤٨٤٠
٦٢	﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَنَاقُتُكَ تَوْفُكُونَ﴾	٤٨٤٠
٦٣	﴿كَذَلِكَ يُوَفِّكُمُ اللَّهُ بِآيَاتِهِ اللَّهُ يُجْحَدُونَ﴾	٤٨٤٠
٦٤	﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً...﴾	٤٨٤٠

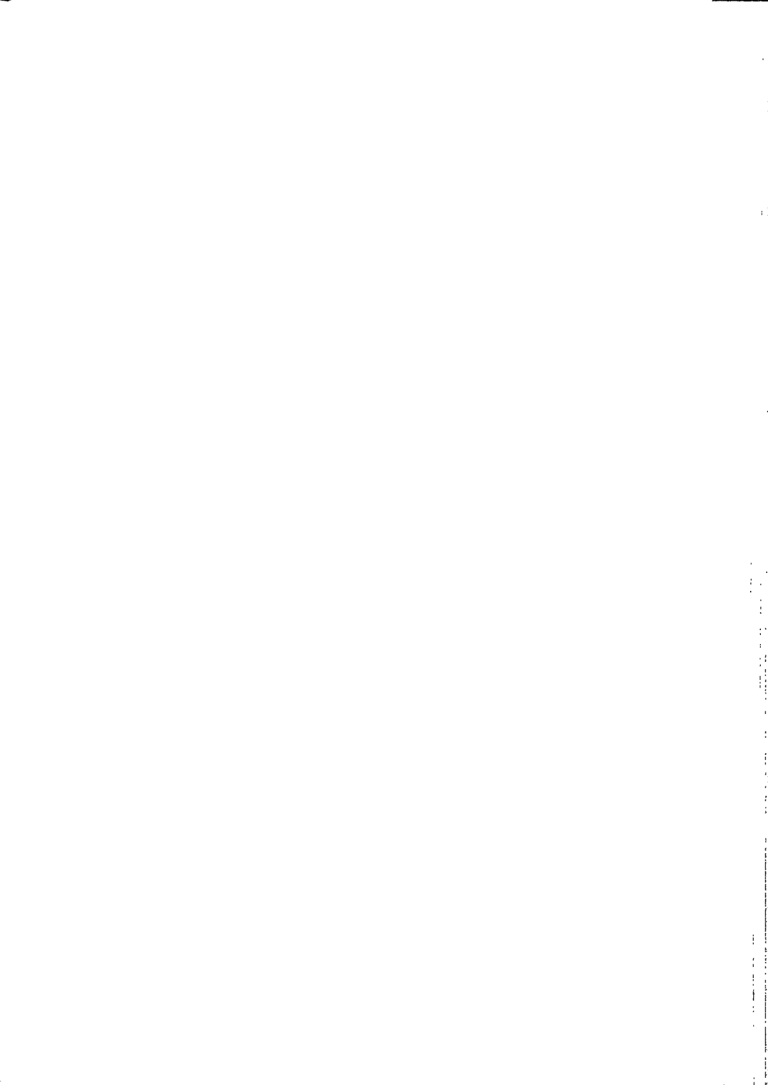
رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦٥	﴿هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين...﴾	٤٨٤٠
٦٦	﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله...﴾	٤٨٤٤
٦٧	﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة...﴾	٤٨٤٤
٦٨	﴿هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون...﴾	٤٨٤٤
٦٩	﴿ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون...﴾	٤٨٤٧
٧٠	﴿الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون...﴾	٤٨٤٧
٧١	﴿إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون...﴾	٤٨٤٧
٧٢	﴿فى الحميم ثم فى النار يسجرون...﴾	٤٨٤٧
٧٣	﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون...﴾	٤٨٤٧
٧٤	﴿من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً...﴾	٤٨٤٧
٧٥	﴿ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق...﴾	٤٨٤٧
٧٦	﴿وادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها...﴾	٤٨٤٧
٧٧	﴿فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم...﴾	٤٨٥٤
٧٨	﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك...﴾	٤٨٥٤
٧٩	﴿الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون...﴾	٤٨٥٧
٨٠	﴿ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم...﴾	٤٨٥٧
٨١	﴿ويرىكم آياته فأى آيات الله تنكرون...﴾	٤٨٥٧
٨٢	﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم...﴾	٤٨٥٩
٨٣	﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم...﴾	٤٨٥٩
٨٤	﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده...﴾	٤٨٥٩
٨٥	﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا...﴾	٤٨٥٩
—	خلاصة ما تضمنته سورة غافر	٤٨٦٢
—	تفسير سورة فصلت	٤٨٦٣
—	أهداف سورة فصلت	٤٨٦٤
١	﴿—————﴾	٤٨٦٦
٢	﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾	٤٨٦٦
٣	﴿كتاب فصلت آياته قرآنًا عربياً لقوم يعلمون﴾	٤٨٦٦
٤	﴿بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾	٤٨٦٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥	﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر...﴾	٤٨٦٦
٦	﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ...﴾	٤٨٦٦
٧	﴿الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون...﴾	٤٨٦٦
٨	﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون...﴾	٤٨٦٦
٩	﴿قل أننكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين...﴾	٤٨٧٠
١٠	﴿وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها...﴾	٤٨٧٠
١١	﴿ثم استوى إلى السماء وهى دخان...﴾	٤٨٧٠
١٢	﴿ففضاهن سبع سماوات فى يومين...﴾	٤٨٧٠
١٣	﴿فإن أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود...﴾	٤٨٧٥
١٤	﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم...﴾	٤٨٧٥
١٥	﴿فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق...﴾	٤٨٧٥
١٦	﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات...﴾	٤٨٧٥
١٧	﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى...﴾	٤٨٧٥
١٨	﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون...﴾	٤٨٧٥
١٩	﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون...﴾	٤٨٨٠
٢٠	﴿حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم...﴾	٤٨٨٠
٢١	﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله...﴾	٤٨٨٠
٢٢	﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم...﴾	٤٨٨٠
٢٣	﴿ولكنم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين...﴾	٤٨٨٠
٢٤	﴿فإن يصبروا فالتأمر مئوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين...﴾	٤٨٨٠
٢٥	﴿وقيضنا لهم قرءاء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم...﴾	٤٨٨٤
٢٦	﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن...﴾	٤٨٨٤
٢٧	﴿فلننذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً...﴾	٤٨٨٤
٢٨	﴿ذلك جزاء أعداء الله النار...﴾	٤٨٨٤
٢٩	﴿وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا...﴾	٤٨٨٤
٣٠	﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة...﴾	٤٨٨٨
٣١	﴿نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة...﴾	٤٨٨٨
٣٢	﴿ننزل من غفور رحيم...﴾	٤٨٨٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٣	﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً...﴾	٤٨٨٨
٣٤	﴿ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن...﴾	٤٨٨٨
٣٥	﴿وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم...﴾	٤٨٨٨
٣٦	﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله...﴾	٤٨٨٨
٣٧	﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر...﴾	٤٨٩٢
٣٨	﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار...﴾	٤٨٩٢
٣٩	﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة...﴾	٤٨٩٢
٤٠	﴿إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا...﴾	٤٨٩٥
٤١	﴿إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم...﴾	٤٨٩٥
٤٢	﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه...﴾	٤٨٩٥
٤٣	﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك...﴾	٤٨٩٥
٤٤	﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته...﴾	٤٨٩٥
٤٥	﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه...﴾	٤٨٩٥
٤٦	﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد...﴾	٤٨٩٥
—	تخريج أحاديث وهوامش	٤٩٠٣
—	فهرس الكتاب	٤٩١٣

تم بحمد الله الجزء (الرابع والعشرون)

ويليه الجزء (الخامس والعشرون) بإذن الله تعالى







تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار عريب

إهداء 2005

أ.م. محمد أحمد شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غيب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

سعة علم الله ، وختام سورة فصلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ
إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ إِنْ شَرَكَايَ قَالُوا لَا ذَنْبَ لَنَا مِنْ شَيْءٍ ۖ وَضَلَّ
عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَاجِبٍ ۚ ﴿٤٨﴾ لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ
الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَحْشُرْهُ قَنُوطٌ ۚ ﴿٤٩﴾ وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبَةٍ
مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا إِلَىٰ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ
الْحَسَنَىٰ ۖ فَلْيُنَبِّئْهُنَّ أَلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۚ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا
أَنفَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ حَاجَتَهُ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۚ ﴿٥١﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ ۚ ﴿٥٢﴾ سَتَرْنَاهُمْ فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۚ
أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَشَهِيدٌ ۚ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيبَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ
أَلَّا يَأْتِيَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ۚ ﴿٥٤﴾﴾

المضردات :

أَكْمَامُهَا : جمع كم - بكسر الكاف - وهو الوعاء الذي تكون الثمرة بداخله .

إِنْ شَرَكَايَ : أعلمناك وأسمعناك .

مِمَّنَّا : من شهد بأن لك شريكا .

ظَنُّوا : أيقنوا .

مَحْجِبٍ : مهرب .

لا يَسْأَلُكُمْ : لا يَمَلْ .

الخير، النعيم، كالمال والصحة والولد.

الشعر: كل ضيق ، كالفقر والمرض وعدم الإنجاب .

الـيـاس : فقد الرجاء في الظفر بالشئ .

القنوط: بأس مفرد يظهر أثره على المرء، فينكسر ويتضاعف.

الحسنى : الجنة .

عذاب غليظ ، بالغ الغاية فى الشدة والإحاطة بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

ونأى بجانبه ، تباعد عن دعاء الله وذكره ، كناية عن الانحراف والتكبر والصلف .

ذودعاء عريض : كثير مستمر ، مستعار مما له عَرْض متسع ، إشارة إلى كثرته .

شقاق بعيد: خلاف بعيد عن الحق كل البعد.

الآفاق، النواحي، عموماً من مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها.

علیٰ کل شیء شہید، ہو شاہد سبحانہ ومطلع علیٰ أعمالہم، وفي شہادتہ ما یغنیٰ عن کل شء سواہ۔

مريسة : شك وريبة من القيامة والبعث .

بكل شيء محيط، إحاطة تامة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

التفسير :

٤٧ - إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعَدْنَاكَ مَا مِنْ شَهِيدٍ .

أَخْفَى اللَّهُ عِلْمَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَنْ خَلْقِهِ ، وَقَالَ تَعَالَى : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ . (طه : ١٥) .

وقال سبحانه: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّن يَحْشَاهَا ۖ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ۚ (النازعات: ٤٢-٤٦).

والآية في مجملها تشير إلى علم الله الواسع الممتد، الذي يحيط علماً بكل شيء، فهو سبحانه العليم بوقت مجيء القيامة، وعلمه ممتد شامل لجميع الثمرات داخل أوعيتها، وعلمه ممتد شامل لكل أنثى يستقر نبي بطنها حمل، ولكل والدة تضع ولداً، إن هذا العلم الشامل المحيط الكبير الممتد الذي يحيط بالإنسان

والآخرة، والمبدأ والميعاد، والحاضر والغائب، والخفى والظاهر، والغيب والشهادة، كل ذلك خاص بالله وحده مشتمل على معرفة ما يأتى :

١ - وقت مجيء يوم القيامة .

٢ - معرفة الثمار المختبئة فى أوعيتها قبل أن تنشق عنها .

٣ - حمل كل أنثى ، ومعرفة كل جنين ومستقبله .

٤ - ولادة كل والدة .

فهو المحيط بما خفى من شئون الدنيا والآخرة ، لأنه سبحانه أحاط بكل شئ علماً ، وفى يوم القيامة يُنابى المشركين ويسألهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الشركاء الذين عبدتموهم من دونى ؟ أين صولتكم ودولتكم وملكمهم فى يوم لا مالك فيه إلا الله ؟

فيقول الكفار : أعلمناك وأخبرناك ، وشهدنا شهادة جهرية عالية الصوت ، ليس منا من أحد يشهد بأن لك شريكاً ، لقد أيقن الجميع بالحق ، وشهدوا لله بالوحدانية ، وأيقنوا بأن الملك لله وحده ، وليس بينهم من أحد يشهد بأن لله سبحانه شريكاً أو نظيراً أو مثيلاً .

قال المفسرون :

لما عاينوا القيامة تبرأوا من الأصنام ، وتبرأت الأصنام منهم ، وأعلنوا إيمانهم وتوحيدهم فى وقت لا ينفع فيه إيمان .

٤٨ - وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَهُمْ مِنْ مَّجِيسٍ .

لم يجد المشركون أذراً ولا نفعاً ولا وجوداً نافعاً للأصنام والأوثان التى عبدوها فى دنياهم ، وظنوا أنها تقربهم إلى الله ، لقد غاب عنهم نفع الأصنام ، وتيقنوا ألا نفع لها ، كما أيقنوا أنهم داخلون فى عذاب جهنم ، وليس لهم ملجأ ولا مهرب من عذاب الله ونكاله .

٤٩ - لَا يَسْتَمِعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ .

الكافر يرى أن الدنيا كل همه ، فهو حريص جداً على الخير ، بمعنى المال والجاه والسلطة ، وكل ما يمتثل بذلك من ألوان النعيم التى يحرص عليها ، ولا يمل من طلبها ، وإذا أظلمت الدنيا وقُلَّ المال أو الجاه ، أو أصابه المرض أو الشر أو العسر : أصابه اليأس والقنوط والانكسار ، وظهر ذلك فى وجهه لأنه لا يعرف معنى اليقين والأمل فى الله ، والصبر على البلاء ، والرضا بأحكام القضاء .

قال المفسرون :

نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة ، وقيل : فى عتبة بن ربيعة ، وعموما فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٥٠ - وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ عَذَابٍ مَسَّهُ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ الْبَهَاغَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْفَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا مِنَّا لَعَذَابُ غَلِيظٍ .

إذا جاءت للإنسان النعمة والمال والجاه ، وغير ذلك من آثار رحمة الله ، بأن فرج الله عنه الضر أو الفقر أو المرض ، وكساه ثوب الغنى أو العافية ؛ لم يشكر صاحب الرحمة والفضل ، بل نسب النعمة إلى نفسه ، أى أنه خير بأسباب النعمة ، جدير بأن تاتى إليه ، كما قال قارون : إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ... (القصص : ٧٨) .

فهذا الإنسان الكافر الجاحد يرى أن النعمة من كده ، ومن عمل يمينه ، ثم ينكر البعث والحشر والجزاء والعقاب فى الآخرة ، فيقول :

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ...

لا أعتقد بمجىء القيامة ، وإنما هى أرحام تدفع وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وليس هناك حساب ولا جزاء ، ولا حياة سوى الحياة الدنيا ، ولو سلمنا جدلا أن القيامة ستقوم - كما يذكر أتباع محمد - فسأكون فى الآخرة أحسن حظا ، وأفضل حالا لاستحقاقى للخير فى الدنيا وفى الآخرة ، فإذا بعثت فى الآخرة فسيكون مالى الجنة ونعيمها .

فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا ...

فوالله لنخبرنهم بحقيقة أعمالهم ، ولنخبرنهم بجهودهم وكنودهم وكفرهم ، واستحقاقهم للعذاب والعقاب .

وَلَنَذِيرَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

ولنحرقنهم بنار جهنم فى عذاب غليظ لا يمكن تركه ولا الفكاك منه ، لإحاطته بهم من كل جانب ، فهو كالوثاق الغليظ الذى لا يمكن للإنسان أن يخرج منه .

٥١ - وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَاهِهِ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فُذُو دُعَاؤِ عَرِيضٍ .

من طبيعة الإنسان أنه إذا كثرت عليه النعمة والرخاء ، والمال والجاه والسلطان ؛ استمتع بالنعمة ، وأغراه الجاه والسلطان ، واستغنى عن دعاء الله والتضرع إليه ، وأعرض عن الله مسرفا على نفسه بالمعاصى .

قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَن رَّءَاهُ اسْتَفْتَى . (العلق: ٦، ٧) .

وإذا تغير الحال واقتصر بعد الغنى ، أو مرض بعد الصحة ، أو ذل بعد الرفعة ؛ اجتهد في الدعاء ، وأكثر من الرجاء ، فلا يعرف الله في حال النعمة بالشكر والحمد ، بل يقابل النعمة بالإعراض عن الله ، والانحراف عن الجادة ، فإذا أصابه الشَّرُّ والفقر والمرض والذلُّ ؛ عرف باب الله في دعاء عريض كثير .

قال الرازي في تفسيره الكبير :

استعير العرض لكثرة الدعاء ، كما استعير الغلظ لشدة العذاب .

ملحوظة :

في الآية ٤٩ من سورة فصلت :

لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ .

وفي الآية ٥١ من نفس السورة :

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعَائِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذَلُّو دُعَاءِ غَرِيضٍ .

ولا منافاة بين قوله تعالى: فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ .

وبين قوله تعالى: ذَلُّو دُعَاءِ غَرِيضٍ .

مع أن كلا القولين عند مس الشَّرِّ ، لأن الأول في قوم ، والثاني في قوم آخرين ، أو يئوس قنوط بالقلب ، وذو دعاء عريض باللسان ، إن حالة الكافر أو العاصي تتلخص في حب المال ، واليأس والقنوط من زهاب النعمة ، ولذلك فهو يتشبث بالدعاء العريض الكثير ليردَّ عليه النعمة ، أما المؤمن فعنده يقين بالله ، إذا جاءت النعمة شكر الله وأنفق النعمة في وجوه الخير ، وإذا جاءت الشدة صبر واحتسب ثوابه عند الله .

قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابته نعماء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرراء صبر فكان خيراً له» ^(١) .

٥٢ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضِلُّ مِنْهُ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

أى . أخبرونى يا معشر كفار مكة ، إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به مع ظهور الأدلة والبراهين على صدقه ونقاؤه وبيانه ، وعجز البشر عن الإتيان بمثله ، واشتماله على أخبار السابقين ، وتشريع المؤمنين ، وججاج الكافرين ، وتقديم الأدلة المتعددة على وحدانية الله وصدق المرسلين ، أى كيف يكون حالكم إذا كفرتم بكتاب الله شقاقاً وبعداً ، وكبراً وعتواً ؟

مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .

أى : لا أحد أكثر ضلالاً منكم أيها الكافرون بسبب معاداتكم للحق ، وابتعادكم عنه ، ونفوركهم منه نفوراً شديداً ، ووصف سبحانه وتعالى شقاقهم بالبعد للإشعار بأنهم قد بلغوا فى هذا الضلال مبلغاً كبيراً ، وشوطاً بعيداً .

قال أبو السعود فى تفسيره :

وضع الموصول : مَنْ أَضَلُّ . موضع الضمير (منكم) شرحاً لحالهم ، وتعليلاً لمزيد ضلالهم .

٥٣ - سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُرْ بِبُكَاءِ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

وعد الله تعالى أن يطلع الناس على عجائب الكون فى آفاق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنبات والأشجار ، وغير ذلك من العجائب العلوية والسفلية التى اكتشفها الإنسان ، وسيستمر العلم فى هذا الكشف .

وَفِي أَنْفُسِهِمْ ...

ما فى بديع صنع الله تعالى ، من خلق الإنسان وتكوينه ، واشتمال هذا المخلوق العجيب على أجهزة متعددة ، مثل : الجهاز العصبى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز اللمفاوى .

قال القرطبى :

المراد : ما فى أنفسهم من لطيف الصنعة ، وبديع الحكمة ، حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يأكل ويشرب من مكان واحد ، ويتميز ذلك من مكانين ، ومن بديع صنعة الله وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ، ينظر بهما من الأرض إلى السماء مسيرة خمسمائة عام ، وفى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة ، من بديع حكمة الله تعالى فيه . ١ هـ .

وقيل : المراد بالآية ما أظهره الله على يد رسوله ﷺ وصحابته الكرام ، من النصر والفتح من غزوة بدر الكبرى إلى فتح مكة ، حيث نصر الله دينه وأيد رسوله ، ومكّن للإسلام من أهل مكة أنفسهم ، وجاء نصر الله والفتح ، وسيستمر تأييد الله لهذا الدين حتى لا يبقى أهل مدر أو وير ، أو أهل مدنية أو أهل بادية ، إلا ويسمعون عن هذا الدين وأن الله يعزّ به من يشاء ، ويذل به من يشاء ، فيعز المؤمنين ، ويذل الكافرين المكذبين .

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...

حتى يعرفوا جلياً أن هذا الكتاب منزل من عند الله حقاً وصدقاً ، أنزله على محمد ﷺ ، وتكفل الله بحفظ كتابه ، وحفظ رسوله ، وحفظ دينه ، والله تعالى مطلع وشاهد ، يرى من رسوله تبليغ الدعوة ، ومن الكفار الجحود والكنود .

أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

أى : أيها الرسول حسبك الله ، وكافيك أنه سبحانه لا تخفى عليه خافية ، فهو لا يغيب عنه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وفى الآية توبيخ لهؤلاء الكافرين على تأخر إيمانهم ، أى : ألم يغن هؤلاء الجاحدين عن الآيات الموعودة الدالة على صحة هذا الدين ، أن ربك أيها الرسول الكريم شهيد على كل شيء ، وعلى أنك صادق فيما تبلغه عنه ؟ بلى إن فى شهادة ربك ، وعلمه بكل شيء ما يغنى عن كل شيء سواه .

قال تعالى : لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ الْمَكِينُ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . (النساء : ١٦٦) .

٥٤ - أَلَا إِنَّهُمْ لَفِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ .

وتختتم السورة بهذا الختام القوى ، الجامع لشبهات الكافرين ، وإحاطة علم الله رب العالمين .

ومعنى الآية :

إن هؤلاء الكافرين فى شك شديد من لقاء ربهم ، حيث إنهم يستبعدون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويرون أن هذه الأجسام تنفقت وتبلى ، وبعيد أن تحيا مرة أخرى .

أَلَا إِنَّهُمْ لَفِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَأْتِيَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ .

فأله مطلع عليهم ، وسيجازيهم على أعمالهم ، والله يحيط علمه بكل ذرات الأجسام ، وهو قادر على إحيائها مرة أخرى كما أوجدها من العدم .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ

﴿يُحْيِي بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

وقال تعالى : كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . (الأعراف : ٢٩) .

رأىان لعلماء التوحيد

علماء التوحيد على رأين :

أحدهما : أن الله يحيى الموتى ، ويبعثهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية .

الثاني : أن الله تعالى يعيد الخلائق بخلق جديد ، لأن أجزاءهم دخلت بعد تحليلها فى تكوين خلائق أخرى ، جيلاً بعد جيل .

ويقولون : إن النعيم والعذاب للروح ، أما الجسد فهو وعاءها ، والكسب إنما هو بها لا بوعائها ، فلولا الروح لما استطاع الجسد أن يعمل شيئاً ، وفى منظومة فنية فى علم التوحيد يقول صاحب الجوهرة :

وقل : يعاد الجسم بالتحقيق
عن عدم ، وقيل : عن تفريق

خلاصة ما اشتملت عليه سورة فصلت

- ١ - وصف الكتاب الكريم .
- ٢ - إعراض المشركين عن تدبره .
- ٣ - عقوبة المشركين ، ومثوبة المؤمنين .
- ٤ - خلق الأرض فى يومين ، وخلق البحار والأنهار والأشجار فى مجموع أربعة أيام ، وخلق السماء فى يومين ، فالمجموع ستة أيام .
- ٥ - إقامة الأدلة على الوحدانية .
- ٦ - قصة عاد وثمود ، وتهديد المشركين بمثل ما نزل بهم .
- ٧ - شهادة الجوارح يوم القيامة على الإنسان .
- ٨ - ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله .
- ٩ - إعراض الكفار عن سماع القرآن .
- ١٠ - ألوان العذاب الذى يصيب الكافرين يوم القيامة .
- ١١ - ما يلقاه المؤمنون من الكرامة عند خروج أرواحهم .
- ١٢ - فن الدعوة إلى الله .
- ١٣ - مقابلة الإساءة بالإحسان .
- ١٤ - دلائل الإيمان فى نزول المطر ، وحياة الأرض بعد موتها ، وكذلك يحيى الله الموتى يوم القيامة .
- ١٥ - عربية القرآن ، بسبب عربية المرسل إليهم .
- ١٦ - علم الساعة عند الله .
- ١٧ - من طيع الإنسان التكبر عند الرخاء ، والتضرع عند البأساء .
- ١٨ - آيات الله فى الأفاق وفى الأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته .
- ١٩ - شك المشركين فى البعث والنشور ، ثم الرد عليهم .



تفسير سورة الشورى

أهداف سورة الشورى

سورة الشورى مكية ، نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٣ آية ، نزلت بعد سورة فصلت .
ولها اسمان : (عسق) لافتتاحها بها ، وسورة (الشورى) لقوله سبحانه : وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ... (الشورى: ٣٨).

روح السورة

هذه السورة تعالج قضية العقيدة كسائر السورة المكية ، ولكنها تركز بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة ، حتى ليصح أن يقال إن هذه الحقيقة هي المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها ، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعاً لتلك الحقيقة الرئيسية فيها .

هذا مع أن السورة تتوسع في الحديث عن حقيقة الوجدانية ، وتعرضها من جوانب متعددة ، كما أنها تتحدث عن حقيقة القيامة والإيمان بها ، ويأتي ذكر الآخرة ومشاهدها في مواضع متعددة منها ، وكذلك تتناول عرض صفات المؤمنين وأخلاقهم التي يمتازون بها ، كما تلم بقضية الرزق ، بسطه وقبضه ، وصفة الإنسان في السراء والضراء ، ولكن حقيقة الوحي والرسالة وما يتصل بهما ، تظل - مع ذلك - هي الحقيقة البارزة في محيط السورة ، والتي تطبعها وتظللها ، وكأن سائر الموضوعات الأخرى مسوقة لتقوية تلك الحقيقة الأولى وتوكيدها .

ويسير سياق السورة في عرض تلك الحقيقة ، وما يصاحبها من موضوعات أخرى بطريقة تدعو إلى مزيد من التدبر والملاحظة ، «فهى تعرض من جوانب متعددة ، يفترق بعضها عن بعض ببضع آيات تتحدث عن وحدانية الخالق ، أو وحدانية الرازق ، أو وحدانية المتصرف في القلوب ، أو وحدانية المتصرف في المصير .. ذلك بينما يتجه الحديث عن حقيقة الوحي والرسالة إلى تقرير وحدانية الموحى - سبحانه - ووحدة الوحي ، ووحدة العقيدة ، ووحدة المنهج والطريق ، وأخيراً وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة .

ومن ثم يرسم في النفس خط الوجدانية بارزاً واضحاً ، بشتى معانيه ، وشتى إحياءاته من ورثته وموضوعات السورة جميعاً»^(١) .

موضوع السورة

يمكن أن نقسم سورة الشورى إلى فصلين رئيسيين :

يتناول الفصل الأول وحدة الأهداف الرئيسية للرسالات السماوية ، ويتناول الفصل الثانى بعض صفات المؤمنين ودلائل الإيمان .

الفصل الأول : وحدة أهداف الرسالات

يتناول النصف الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٤) ، ويبدأ عن الوحى ، ثم يعالج قضية الوحى منذ النبوات الأولى ، ليقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، وليعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة محمد ﷺ ، وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة .

وتشير السورة إلى هذه الوحدة فى مطلعها : كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .
(الشورى : ٢)

لتقرر أن الله هو الموحى بجميع الرسالات لجميع الرسل ، وأن الرسالة الأخيرة هى امتداد لأمر مقرر مظهر من قديم .

وتأتى الإشارة الثانية بعد قليل : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا تُفْهِمُ أَمْ تَقْرَأُ وَمَنْ حَوَّلَهَا ...

(الشورى : ٧)

لتقرر مركز القيادة الجديدة ، فقد اختار الله بلاد العرب لتكون مقر الرسالة الأخيرة التى جاءت للبشرية جميعاً ، والتى تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى .

كانت الأرض المعمورة عند مولد الرسالة الأخيرة تكاد تنقسمها إمبراطوريات أربع ، هى : الرومانية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وفى هذا الوقت جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها ، مما انتهت إليه من انحلال وفساد واضطهاد ، وجاهلية عمياء فى كل مكان من المعمورة ، جاء ليهيمن على حياة البشرية ، ويقودها فى الطريق إلى الله . على هدى ونور .

ولم يكن هناك بد من أن يبدأ الإسلام رحلته من أرض حرة ، لا سلطان فيها لإمبراطورية من تلك الإمبراطوريات ، وكانت الجزيرة العربية وأم القرى وما حولها بالذات هى أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية .

لم تكن فى بلاد العرب حكومات منظمة ، ولا ديانة ثابتة واضحة المعالم ، وكانت خلخلة النظام السياسى للجزيرة ، إلى جانب خلخلة النظام الدينى ، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد ، ليكون متحرراً من كل سلطان عليه فى نشأته .

وهكذا جاء القرآن عربياً لينذر أم القرى ومن حولها ، فلما خرجت الجزيرة من الجاهلية إلى الإسلام ، حملت الراية وشرقت بها وغرقت ، وقدمت الرسالة للبشرية جميعها ، وكان الذين حملوها هم أصلح خلق الله لحملها ، وقد خرجوا بها من أصلح مكان فى الأرض لميلادها ، وهكذا تبدو سلسلة طويلة من الموافقات المختارة لهذه الرسالة : **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام : ١٢٤) .**

وفى آية مشهورة من سورة الشورى تطالعنا وحدة الرسالات جميعاً ، ووحدة الرسل ، ووحدة الدين ، ووحدة الهدف للجميع ، وهو توحيد الله ، وتدعيم القيم والأخلاق ، ومحاربة الرذائل والانحراف .

قال تعالى : **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .**

(الشورى : ١٣) .

وتقرر الآيات بعد ذلك أن التفرق قد وقع مخالفاً لهذه الوصية ، ولم يقع عن جهل من أتباع أولئك الرسل الكرام ولكن عن علم ، وقع بغياً وحسداً : **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ... (الشورى : ١٤) .** وتصف أتباع الأديان وحملة الكتب السماوية بأنهم فى حيرة وشك لاضطراب أحوال الديانات ، وخروجها عن الهدف الذى جاءت له : **وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ . (الشورى : ١٤) .**

وعند هذا الحد يتبين أن البشرية قد آلت إلى فوضى وارتياب ، ولم تعد لها قيادة راشدة تقوم على نهج ثابت قويم ، ومن ثم يعلن القرآن انتداب الرسالة الأخيرة وحاملها ﷺ لهذه القيادة : **فَلِلَّهِ الْفَاقِذُ وَاسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْنَا وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ عَاسَتْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلُ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . (الشورى : ١٥) .**

الفصل الثانى : صفات الجماعة المسلمة

يشتمل النصف الثانى من السورة على الآيات من (٢٥ - ٥٣) ، ويتحدث عن صفات الجماعة المسلمة ، التى انتدبها الله لحمل هذه الرسالة ، ويبدأ هذا الفصل باستعراض آيات الله فى بسط الرزق وقبضه ، وفى

تنزيل الغيث برحمته ، وفى خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وفى الفلك الجوارى فى البحر كالأعلام ، ويستطرد من هذه الآيات إلى صفة المؤمنين التى تميز جماعتهم ، ومع أن سورة الشورى مكية، نزلت قبل قيام الدولة الإسلامية فى المدينة ، إلا أنها تذكر أن الشورى من صفات المؤمنين ، فتقول : وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ... (الشورى : ٣٨) .

مما يوحى بأن وضع الشورى أعمق فى حياة المسلمين من مجرد أن يكون نظاماً سياسياً للدولة ، فهو طابع أساسى للجماعة كلها ، يقوم على أمرها كجماعة ، ثم يتسرب من الجماعة إلى الدولة ، بوصفها ممثلة للجماعة .

والتأمل فى صفات المؤمنين يوحى بأن الإسلام دين القيم ، دين يهتم بالجوهر لا بالعرض ، ويتكوين النفس البشرية لا بالقيم الزائلة .

فما هى قيم الجماعة المؤمنة ؟

إنها الإيمان والتوكل ، واجتناب كبائر الإثم والفواحش ، والمغفرة عند الغضب ، والاستجابة لله ، وإقامة الصلاة ، والشورى الشاملة ، والإنفاق مما رزق الله ، والانتصار من البغى ، والعفو ، والإصلاح ،  .

وبهذه القيم تحول العرب من أشتات مختلفين إلى أمة متماسكة مترامنة ، مؤمنة بالله ، مستقيمة على هدى الله وتعاليمه ، فوطئاً الله لهم أكتاف الأرض ، وصاروا خير أمة أخرجت للناس .

ويعد تقرير صفة المؤمنين وما ينتظرهم من عون وإنعام ، تعرض الآيات فى الصفحة المقابلة صورة الظالمين الضالين ، وما ينتظرهم من ذل وخسران فى يوم القيامة : يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ۖ وَتَوَلَّاهُمْ بِعُرْسُونٍ مِّنْهُمْ غَنَاشِينَ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِّن طَرَفٍ خَفِيِّ ... (الشورى : ٤٤ ، ٤٥) .

وفى ظل هذا المشهد نجد القرآن يدعو الناس إلى إنقاذ أنفسهم من مثل هذا الموقف قبل فوات الأوان : اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ ... (الشورى : ٤٧) .

ويمضى سياق السورة حتى ختامها ، يدور حول محور الوحي والرسالة ، وأثرهما فى صفات المؤمنين ، مع بعض الاستطراد إلى وصف الكافرين ، وبيان صفات الله الخالق الوهاب ، القابض الباسط ، قال تعالى : اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنشَاءً إِنَّهُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذِّكْرَ ۖ أَوْ الْوِثْقَ ۖ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . (الشورى : ٤٩ ، ٥٠) .

ويعود السياق فى نهاية السورة إلى الحديث عن طبيعة الوحي وطريقته ، وهناك ارتباط ظاهر بين الحديث عن الوحي فى القسم الأول من السورة ، وبين الحديث عن صفات المؤمنين ، ودلائل الإيمان فى القسم الثانى منها ، فإن الهداية والإيمان من آثار الوحي وبركات الرسالة ، أى أن القسم الثانى وهو السلوك مترتب على القسم الأول وهو العقيدة والوحي .

الوحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقَ ۝٢ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾
 لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ
 فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ آثَمَ اللَّهُ
 هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ
 عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝٦﴾

المفردات :

حَمْدٌ عَسَقَ : حروف للتنبيه ، أو للتحدى والإعجاز .

يَتَفَطَّرْنَ : يتشققن من عظمة الله وجلاله ، وقيل : من ادعاء الولد له .

يُسَبِّحُونَ : يزهون الله عما لا يليق .

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ : يسألون الله أن يغفر للمقصرين في الأرض من المؤمنين .

بِمَا أَسَاءُوا : بما عملوا ، أو بموكول إليك أمرهم ، وإنما وظيفتك البلاغ والإنذار .

تمهيد :

تحدث سورة الشورى عن الوحي ، والوحي رسالة الله إلى خلقه ، وهذه الرسالة المحمدية ضاربة في
 أصول التاريخ ، فقد أوحى الله إلى محمد وإلى الرسل السابقين ، فالقرآن وحى الله وكلامه حقاً وصدقاً ،
 وهو سبحانه له ملك ما في السماوات وما في الأرض ، وله التصرف فيهما إيجاباً وإعداماً وتكريناً وإبطالاً ،
 والسماوات على غلظها تكاد تتشقق فرقاً من هيئته وجلاله ، أو من كثرة الملائكة العابدين الذاكرين ، أو من
 ادعاء المشركين بأن لله ولداً ، والملائكة يسبحون الله وينزهونه عن صفات النقص ، ويطلبون المغفرة
 للمؤمنين أو للناس أجمعين ، أما الذين عبدوا الأوثان والأصنام فحسابهم على الله ، فالله مطلع عليهم ،
 وسيجازيهم على أعمالهم وليست مسئولوا عن حسابهم ، بل ليس عليك إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب ، فلا
 تبخع نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون .

التفسير:

١، ٢ - حم * عسق .

افتتح الله تعالى بعض السور بحروف مقطعة ، قد تكون مكونة من حرف واحد مثل : ن ، ص ، ق .

وقد تكون مكونة من حرفين مثل : حم ، طه ، يس .

وقد تكون مكونة من ثلاثة أحرف مثل : طسم ، ألم .

وقد تكون مكونة من أربعة أحرف مثل : البقر ، المص .

وقد تكون مكونة من خمسة أحرف مثل : حم عسق . وهو أكثر ما افتتحت به سورة من حروف ، ومثل:

كهيعص .

وقد قال العلماء :

هى ما استأنف الله تعالى بعلمه ، وقيل : هى أسماء للسور ، وقيل : هى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيقتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، وقيل : هى حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن القرآن مكون من حروف عربية تنطقون بها مثل : حم * عسق . وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

٣ - كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

مثلاً أوحينا إليك فى هذه السورة وغيرها ، أوحينا إلى الذين من قبلك من المرسلين ، مثل نوح وهود وصالح وموسى وعيسى ، فمحمد ليس بدعاً من الرسل ، والوحى إليه أصيل وثابت للرسل السابقين عليه ، فالوحى لغة : الإعلام ، وشريعاً : إعلام الله تعالى من يختاره من البشر ، ليبلغه بالتشريع والأحكام التى يريد الله أن يبلغها لعباده .

فالموحى هو الله ، والملاك جبريل أمين الوحى ، والوحى هو الرسالة التى ينقلها جبريل عن الله إلى الرسول محمد ﷺ ، وإخوانه السابقين عليه ، ليبلغوها للمرسل إليهم ، والوحى فيه عناية السماء بالأرض ، وتشريف للرسل ، وتشريف لنا نحن المرسل إليهم ، حيث أنزل الله علينا الوحى ، واختار لنا رسولاً مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وجعله الله تعالى خاتم النبيين الذين يوحى إليهم ، فالرسول ﷺ أعم من النبى ، لأن الرسول يوحى إليه بشرع ويكلف بالتبليغ ، والنبى يوحى إليه بشرع ولا يكلف بالتبليغ ، ومن ثم فكل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً ، فإذا ختم الله النبيين بمحمد ﷺ ، فقد ختم المرسلين أيضاً ، فمحمد ﷺ خاتم النبيين ، وهو أيضاً خاتم المرسلين .

وقد قرأ حفص (خاتم) بفتح التاء ، وقرأ الستة الباقون من القراء (خاتم) بكسر التاء .

قال تعالى : مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .
(الأحزاب : ٤٠)

فالوحي شرف للبشرية ، وهداية من السماء ، وعناية عليا من الله بعباده ، حيث يختار بعض خلقه ليحملوا هدى السماء وتشريع الله ، وآداب الوحي ، وأخبار الأمم ، ومعالم القيامة ليوصلوا كل ذلك إلى البشر ، حتى تبلغهم الحجة ، ويصل إليهم الدليل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وفى سورة النساء الآيات (١٦٣-١٦٦) يقول تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَنُوحًا وَذُرِّيَّاتِهِمْ كُلًّا قَدْ قَضَيْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْضُفْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * وَرُسُلًا مِّنْ قَبْلُ فَلاَ يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

وخلاصة ما تشير إليه الآية الثالثة من سورة الشورى أن الله تعالى ذكر معاني هذه السورة في القرآن الكريم وفى جميع الكتب السماوية ؛ لما فيها من الإرشاد إلى الحق ، وهو العزيز . الغالب فى انتقامه ، الحكيم . فى أقواله وأفعاله .

٤ - لَّهُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيْمُ .

له وحده ما فى السماوات وما فى الأرض ، خلقا وملكا وقديرا ، وهو المتفرد بعلو الشأن ، وعظم البرهان والسلطان .

قال تعالى : عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . (الرعد : ٩) .

وقال سبحانه : وَهُوَ الْعَلِىُّ الْكَبِيرُ . (سبا : ٢٣) .

فالملك الحقيقى لله وحده ، أما ما يملكه الناس فهو عارية منتقلة ، والله هو المعزُّ المتعلِّ ، المعطى المانع ، الرافع الخافض ، الباسط القابض ، ومن ثم يجب أن يتجه الناس إليه وحده بالدعاء وطلب العطاء .

• - تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

هذه السماوات السبع على عظمها ، وعظم خلقها ، وشموسها وأقمارها ونجومها ، وما فيها من أفلاك وأملاك ، تكاد تتشقق وجلاً وخوفاً من عظمة الله وجلاله ، أو تكاد تتشقق من كثرة الملائكة ، فليس في السماء موضع قدم إلا وفيه ملك راکع أو ساجد يسبح الله تعالى ، أو تكاد تتشقق من ادعاء الكفار لله ولداً ، كما ورد في الآيات (٨٨ - ٩٣) من سورة مريم وفيها يقول سبحانه : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُرْنَ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَجُرُّ أَعْيَالُ هَذَا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَالِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا .

وخلاصة معنى الآية :

تكاد السماوات - مع عظمهن وتماسكهن - يتشققن من فوقهن ، خشية من الله ، وتأثراً بعظمته وجلاله ، والملائكة ينزهنون الله عما لا يليق به ، مثنيين عليه بما هو أهله ، ويسألون الله المغفرة لأهل الأرض ، وقد ورد هذا المعنى في الآية ٧ من سورة غافر ، حيث يقول سبحانه وتعالى : الَّذِينَ يَخِيلُونَ لِقَارِهِمْ مِنْ حَوْلِهِمْ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ...

أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

الله سبحانه وحده هو صاحب المغفرة الشاملة ، والرحمة الواسعة .

٦ - وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرَكَيلٍ .

هؤلاء الذين عبدوا الأوثان والأحجار والأصنام ، أو الشمس والأقمار ، أو غيرها من سائر الأولياء والشركاء ، هؤلاء العابدون لغير الله هم جميعاً في قبضة الله ، هو سبحانه يَحْصِي أعمالهم ، وهو المتكفل بحسابهم وجزائهم ، أما أنت فما أنت إلا نذير ، ليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ .

قال ابن كثير :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ... يعنى : المشركين .

اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ...

أى : شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدّاً ، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء .

وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .

أى : إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل .

★ ★ ★

القرآن عرَبِيٌّ

﴿وَكَذَلِكَ أَوحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لِلَّذِينَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

المضردات :

قرآنًا عربيا ، أنزلناه قرآنًا عربيا بلسان قومك .

لننذر ، الإنذار : التخويف .

في القري : مكة .

يوم الجمع : يوم القيامة ، سمي بذلك لاجتماع الخلائق فيه ، كما قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعِ ... (التغابن : ٩)

لا ريب فيه ، لا شك في قدمه .

السريق : الجماعة .

السعير : النار الموقدة المستعرة .

تمهيد :

أوحى الله قرآنًا عربيا إلى نبي عرَبِيٍّ لأمة عربية ، أى أن القرآن نزل بلسانكم وأنتم تفهمونه ، وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) . وفى القرآن ذكر لكم ، وَعَلَوْا لَنَاكُمْ ، فقد بدأ الوحي في مكة ، وانتشرت الرسالة إلى المدينة ، ثم جاء نصر الله والفتح ، وبشّرت راية الإسلام وغرّبت ، وهذه الرسالة بلاغ للناس بتشريع للدين ، وتحذير من الحساب والجزاء ، حيث ينقسم الناس إلى جماعتين محييزتين : جماعة إلى الجنة ، وجماعة إلى النار ، ولقد أراد الله تعالى ألا يكره الناس على طريق واحد ، فأعطاهم العقل والإرادة والاختيار ، فمن اختار الإيمان أدخله في رحمته وهدايته ، ومن ظلم نفسه واختار الضلال فسيلقى العقاب والجزاء في الدنيا أو الآخرة ، وحينئذ لن يجد نصيرا ينصره ، ولا معاونا يأخذ بيده .

التفسير :

٧ - وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا تُلْذِرُ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ .

ومثل ذلك الوحي البديع المفهم ، أوحينا إليك قرآنًا عربياً قد بلغ الذروة فى الفصاحة والبيان ، لتبلغ رسالة الإسلام إلى مكة أم القرى ، فهى بلد البيت الحرام ، وبلد الحرم الآمن ، وبلد رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام .

وقد قال فيها النبى ﷺ : «والله إنك خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت»^(١) .

وَتُلْذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ ...

لتخبر الناس بأمر الآخرة ، واجتماع الأولين والآخرين فى سعيد واحد للحساب والجزاء ، وهذا أمر يقينى لا شك فيه ، حيث ينقسم الناس إلى قسمين : فريق أطاع وآمن وعمل صالحاً ، وكفّ عن المحرمات والمنهيات ، فهو فى رحمة الله وجنته ، وفريق آثر الكفر والظلم والبعد عن الإيمان ، فاستحق النار التى تتسعر به .

٨ - وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

لو أراد الله أن يختار الناس جميعاً للإسلام لهداهم إليه ، ولو أراد أن يختاروا جميعاً الكفر لما أرسل الرسل ، ولما أنزل الكتب ، لكنه إله عادل ، ولا يعذب الناس إلا بعد إعدار وإنذار : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا . (الإسراء : ١٥) .

قلو شاء الله أن يفسر الناس على الهدى لفعل ، ولو شاء أن يتركهم أمة واحدة لفعل ، لكنه سبحانه حكيم عادل ، خلق آدم وميزه بالعقل والإرادة ، وجعله أهلاً لتحمل المسؤولية ، واستخلف بنى آدم فى الأرض ، وأعطاهم العقول والإرادة والاختيار ، وأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وقصّ على البشرية أخبار المكذابين ، وأنعم الله على المؤمنين ، عندئذ من آمن استحق رحمة الله عن جدارة ، ومن كفر استحق العذاب والعقابه . ولن يجد أحداً ينصره أو يمنعه من عقاب الله تعالى .

فى أعقاب التفسير :

المتأمل فى حالة الكون قبل الرسالة الإسلامية يجد أن العالم كانت تسيطر عليه إمبراطوريات أربع ، هى : الرومانية ، والفارسية ، والهندية ، والصينية .

وكانت بلاد العرب أفضل مكان لقيام دين جديد ، فليس فيها ملك يوحّد البلاد ، وليس فيها دين له أسس ونظام وهيمنة ، والبلاد تخضع لحكم رؤساء القبائل ، وهناك أديان شتى ومذاهب متعددة ، ولكن بدون قناعة أو يقين .

وقد وقفت مكة موقف المعارضة للدين الإسلامى ، لا عن قناعة بالوثنية أو بعبادة الأصنام ، بل حرصاً على تمييزها وغناها ، وخوفها من ترك هذا التمييز .

قال تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتُوا اللَّهَ لِيُخْجِدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

ولحكمة أرادها الله ، اختار سبحانه بلاد العرب ، فقد كانت بها بقايا من المروءة وحماية الجار والانتصار للقبيلة ، فمكث الإسلام بمكة حيناً ، وانتقل للمدينة المنورة ، ثم تتابعت الغزوات من بدر حتى فتح مكة ، وشمل الإسلام بلاد العرب فى حياة الرسول ﷺ ، ثم امتد إلى فارس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وتقدم إلى سائر المعمورة ، قال تعالى : اللَّهُ أَغْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وكانت الجزيرة العربية بها أعداد من الشباب والرجال ، يشناقون إلى فجر جديد ونور جديد ودعوة جديدة ، فدخلوا فى الإسلام ، وحملوا رايته ، ورفعوا شأنه ، وكانوا جنوداً مخلصين مؤهلين لتقبل رسالة الإسلام ، والتحرك بها إلى جهات متعددة ، يقدمون حياتهم وأموالهم فداء لهذا الدين ، ومن طبيعة الإسلام أنه دين عالمى ينهى عن العصبية ، ويحبذ الأخوة الإسلامية ، وحين دخل الفرس وغيرهم فى الإسلام اتسع صدر الإسلام لهم ، وتعلموا اللغة العربية ، وبرزوا فى العلوم الإسلامية ، فكان منهم الفقهاء والأدباء والمحدثون والنحاة والبلغاء والشعراء والكُتّاب .

قال ﷺ : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، ولكن العربية اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى»^(١) .

فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ...

أى : إن أرادوا أولياء بحق فله الولاية جميعاً ، هو الخالق الرازق ، وهو الذى يحيى الموتى ، وهو سبحانه على كل شىء قدير ، ولا يملك شيئاً من ذلك أى صنم أو وثن ، فيجب أن تكون الولاية والعبادة والتوجه لله وحده فلا معبود بحق سواه ، ولا إله إلا هو .

١٠ - وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

ما تختلفون فيه من حكم بينكم وبين الكفار أو المشركين ، فالمرجع فيه هو كتاب الله وهدى رسوله ﷺ ، أو ما اختلفتم فيه من شىء بينكم وبين بعضكم ، فارجعوا إلى أمر الله سبحانه .

ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

هذا هو الله عليه اعتمادى وتوكلتى ، ورجوعى إليه وحده ، هو الخالق البارئ الحاكم القادر ، إليه أتجه وأتحاكم ، وله وحده طاعنى واعتمادى ، فمن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كل شىء .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ... (النساء : ٥٩) .

١١ - فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَيْفِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ .

هو سبحانه خالق السماوات والأرض ، ومبدعهما على غير مثال سابق ، وهو خالق الكون وخالق الإنسان والحيوان ، وقد خلق من كل شىء زوجين ، فخلق حواء من آدم ، وخلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، إن هذا التزاوج بين الرجل والمرأة مصدر الرحمة والمودة ، والأنس والسكن والنسل ، وهذا التزاوج بين الحيوانات مصدر التكاثر بينها ، وعمارة الكون ، وقد أراد الله لهذا الإنسان التكاثر ، وللحيوان التكاثر ، والقدرة كلها فى يده ، والملك فى يده ، وليس له مثيل أو نظير ، فهو المالك القادر ، والأوثان والأصنام لا تملك شيئاً ولا تخلق شيئاً ، وهو سبحانه مطلع وشاهد ، سميع بكل شىء ، بصير بكل شىء .

وقريب من ذلك المعنى قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

وقوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرِزْقَكُم مِّنَ الْطَّيِّبَاتِ ...

(النحل : ٧٢)

قال ابن كثير :

يَذَرُوكُمْ فِيهِ ...

يخلقكم فيه ، أى فى ذلك الخلق على هذه الصفة ، لا يزال يذروكم فيه ذكورا وإناثا ، خلقا من بعد خلق ، وجيلا من بعد جيل ، ونسلا من بعد نسل ، من الناس والأنعام .

وقال البغوى :

يَذَرُوكُمْ فِيهِ ...

أى : فى الرحم ، وقيل : فى البطن ، وقيل : فى هذا الوجه من الخلقة .

قال مجاهد :

- نسلا بعد نسل من الناس والأنعام ، وقيل : (فى) بمعنى الباء ، أى : يذروكم به .

أى : يكثركم بسبب هذا التزاوج بين الذكور والإناث .

إن الحكمة العليا جعلت التزاوج بين الذكر والأنثى وسيلة لإعمار الكون والحياة والسحاب والأمطار

قال تعالى : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال عز شأنه عن قصة نوح عليه السلام : حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

١٢ - لَهُ، مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

المقاليد جمع مقلاد ، وهو المفتاح ، أى : بيد الله مفاتيح خزائن السماوات والأرض من الرزق والهداية والمعونة .

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرِّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . (الذاريات : ٥٨) .

وهو يوسع على من يشاء ، ويضيّق على من يشاء حسب علمه وحكمته ، فيجب أن نتجه إليه وحده لا إلى الأوثان أو غيرها .

قال تعالى : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء : ٣٠) .

وقال سبحانه : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ . (الشورى : ٢٧) .

وحدة الرسالات

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۝١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
 الْعِلْمُ بِغَيَابِنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
 أُورُوا إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْسٍ ۝١٤ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ
 كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ
 لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَكُمْ لَحِجَّةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ
 اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٥﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ
 لَهُ جُنُودُهُمْ دَاحِضَةً عَنْ دَرَجَاتِهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝١٦﴾

المفردات :

شرع لكم من الدين : بين لكم من الدين ، وأظهر ، وقضى ، وأوحى لكم يا أمة محمد ﷺ .

وصلى : أمر أمراً لازماً .

أقيموا الدين : حافظوا عليه ، والمراد بالدين : دين الإسلام ، وهو توحيد الله تعالى وطاعته ، والإيمان

برسله واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً ، وقيل : أقيموا الدين ، أى : اجعلوا

الدين قائماً بالمحافظة عليه وتقويم أركانه .

ولا تتفرقوا فيه : لا تختلفوا فيه .

كبير : عظم وشق عليهم .

ينجي : يطفى .

ينيب : يرجع عن الكفر ، ويختار طريق التوحيد والهداية .

بغيا : ظالماً وحقدًا وعداوة .

كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...

عظم على المشركين بشق عليهم ، دعوتكم لهم إلى توحيد الخالق سبحانه وتعالى ، وفى معنى ذلك قوله تعالى على لسانهم : أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ . (ص : ٥) .

اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ .

من أطاع الله واختار شريعته ومنهاجه قرَّبه الحق سبحانه إليه ، وهده إلى بابه ما دام قد أناب ورجع إلى الله .

وفى معنى ذلك قوله تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . (الزمر : ٢٢) .

ملحق بتفسير الآية

تفيد هذه الآية تلاقى الديانات فى الأصول العامة ، وهى : التوحيد ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والتقرب إلى الله بصالح الأعمال ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وتحريم الكبر والأزنا ، وإيذاء الخلق ، والاعتداء على الحيوانات ، واقتحام الدنابات ، وما ينافى المروءات ، ونحو ذلك من الكلمات ، فهذا كله مشروع دينًا واحدًا ، وملة متحدة ، لم يختلف على أسنة الأنبياء فى الأصل ولا فى الصورة^(١) .

جاء فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

والذى ينبغى اعتباره - ولا مجال للشك فيه - أن رسالات الأنبياء جميعًا متفقة فى أصول العقائد ومطلق العبادات ، والأمر بإثبات الفضائل واجتناب الرذائل ، وقد تختلف فى الفروع أو فى بعضها تبعًا لتقادم الأزمان ، ولمقتضيات الأطوار وتطور أحوال الإنسان ، كما تختلف فى أسلوب الأداء فى رسالة عن رسالة أخرى^(٢) .

١٤ - وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُولَئِكَ نَبَا نَبَأِهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ لَفِي شَكٍّ مِمَّا مَرَّبَ بِهِ .

لم يتفرق المتفرقون فى الدين ولم يختلفوا فيه ، إلا من بعد ما جاءهم العلم من أنبيائهم ومن كتبهم ، بالدعوة إلى الوحدة والجماعة ، والتحذير من الفرقة والاختلاف ، ولكن الأتباع خالفوا هذه التوصيات رغبة فى المال والرئاسة ومتع الحياة الدنيا ، فأثروا البغى والحسد والتشردم والاختلاف والتفرق ، وقد وعد الله

سبحانه بإمهال الناس فترة لعلهم أن يتوبوا ويراجعوا أنفسهم ، ولولا رحمته وإمهاله لعاقبهم فى الدنيا بما يستحقون .

قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا . (فاطر : ٤٥) .

وقد امتد الخلاف من السابقين إلى اللاحقين .

وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ .

الذين ورثوا التوراة والإنجيل فى عهد محمد ﷺ فى شك شديد من كتبهم ؛ لأن فيها تغييراً وتبدلاً ، أو هم فى شك ورئب شديد من القرآن الكريم ، فعواطفهم مع هذا القرآن ، وعقولهم وحرصهم على المراكز ومنازل الدنيا تدعوهم إلى بقائهم فى مراكزهم .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّأَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

وقوله سبحانه : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

يقول الكاتب الأوروبى « ج . هـ . دنيسون » فى كتابه (العواطف كأساس للحضارة) :

«فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثَمَّ ما يعقد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى - التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة - مشرقة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام ، أمّا النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهايار ، بدلاً من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كجشعة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، وافقة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب .. ويدين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه^(١) .» . يعنى محمداً ﷺ .

١٥ - وَلِلَّهِ الْفَاذُ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْبِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبَّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

قال ابن كثير :

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة ، كل منها منفصلة عن التى قبلها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه . ١ هـ .

لقد بينت الآيات السابقة اختلاف أهل الكتاب وتفرقهم وشكهم المريب فى بقايا الكتب المنزلة .

وتأتى هذه الآية لتوضح للنبي الأمى أن الله قد اختاره على فترة من الرسل ليحمل للبشرية دعوته الجديدة مشتملة على أصول الإيمان والإصلاح واليسر والعدل والإحسان .

فَلِلَّهِ لِكُفَّادُغٍ وَأَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتُ ...

من أجل تفرق أهل الكتاب أو المشركين أمرناك أن تدعو الناس إلى الديانة الجديدة -هى الإسلام- مستقيماً على الجادة كما أمرك الله تعالى .

وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَمَسْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ...

وهذه الديانة الجديدة تستعلى على أهواء الحاسدين ، إنها تؤمن بالكتب السابقة وبالرسل السابقين ، وهذه الديانة الجديدة مهيمنة على الرسالات السابقة ، والقرآن مهيم على التوراة والإنجيل ، يوضح ما فيهما من حق ، ويرشد إلى الدخيل عليهما ، ويلاحظ أن السورة مكية ، وهذه الآية تفيد عالمية الدعوة الإسلامية ، وهيمنتها وعدالة أحكامها .

وَأَمَرْتُ لِأَعْلِيْلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ...

إذا احتكمتكم إلى فسوف أحكم بالعدل والقسط .

قال تعالى : وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . (المائدة : ٤٢) .

اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ...

الأديان كلها من عند الله ، وهى ناموس من نواميس الحياة ، وكما يخضع الكون والليل والنهار والسماء والأرض والشمس والقمر لأمر الله ، كذلك الأديان السماوية كلها من عند الله : الإبراهيمية ، واليهودية ، والمسيحية ، والإسلام : كلها وكتبها ورسلا وأحكامها نازلة من عند الله تعالى ، ولكل ملة شرعة ومنهاج ، وسيجازى كل فريق بما عمل .

لَقَدْ أَعْمَلْنَا لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ...

فنحن لا نستفيد بحسناتكم ، ولا نتضرر بسيئاتكم ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله .

لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ...

لا حاجة ولا خصومة ولا جدال بيننا وبينكم ، فقد وضح الصبح لذى عينين ، فليأخذ كل إنسان طريقه وليتحمل تبعه عمله ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح فيه سبيل الرشاد .

اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

هناك يوم آخر هو يوم الجمع ، يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويصدر الحكم لكل فريق بما يستحقه ، والمرجع والمصير إلى الله تعالى .

قال سبحانه : قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ عَلَيِّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزمر : ٤٦) .

قال فى حاشية الجمل :

والغرض أن الحق قد ظهر ، والحجج قد قامت ، فلم يبق إلا العناد ، ويعد العناد لا حجة ولا جدل ، والله يفصل بين الخلائق يوم الميعاد ، ويجازى كلأ بعمله . ا هـ .

١٦ - وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِى اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

سبب النزول :

قال ابن عباس ومجاهد :

نزلت فى طائفة من بنى إسرائيل همّت برد الناس عن الإسلام ، ومحاولة إضلالهم ، فقالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، فديننا أفضل من دينكم ، ونحن أولى بالله تعالى منكم .

ومعنى الآية :

ما زال بعض أهل الكتاب أو المشركين يدافعون عن باطلهم ، ويتهمون الإسلام تهماً باطلة ، ويخيفون انتشار الإسلام ، واستجابة الناس لدعوته ، فيتمسكون بحجج واهية ، فهم حاقدون حاسدون لما يأتى :

(أ) جادلوا فى دين الله وهو الإسلام بعد أن ظهر نوره ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، واستجابوا لداعيه الإسلام .

(ب) حجتهم داحضة وباطلة لوضوح الإسلام ، وعدالة أحكامه ، وسلامة قواعده ، وصدق رسوله .

(ج) عليهم غضب الله وسخطه ، لعدولهم عن الحق بعد أن عرفوه ، ولهم عذاب شديد فى الآخرة .

موقف الناس من القيامة

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾
يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا
الْحَقُّ ۖ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي
حَرْثِهِ ۖ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

المضردات :

الكتاب : جنس الكتاب ، ويراد به الكتب السماوية كلها ، أو القرآن .

الميزان : العدل ، ويطلق الميزان على العدل لأنه آتاه ووسيلته ، قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا مَعَهُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ ... (الحديد : ٢٥) . أى : الشرائع التى هى وسيلة العدل .

وما يدريك : وأى شئ يجعلك عالما داريا ؟

مشفقون منها : خائفون منها .

يمارون : يجادلون ويشككون .

لطيف : بليغ البر .

حـرث : الحرث : كسب المال ، والحرث : البذر يوضع فى الأرض لينبت ، ويطلق على الزرع الحاصل منه ،
وعلى ثمرة الأعمال .

التفسير :

١٧ - اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ .

إن الله تعالى هو الذى أرسل الرسل وأنزل الكتب السابقة : التوراة ، والإنجيل ، وأنزل القرآن الكريم
مستتملا على الحق والعدل والتشريع ، وأخبار الأمم السابقة ، وتفصيل أحوال القيامة .

والمراد بالميزان : العدل والإنصاف .

قال المفسرون :

وسمى العدل ميزانا ، لأن الميزان يحصل به العدل والإنصاف ، فهو من تسمية الشيء باسم السبب ، أو باسم آله : لأن الميزان آلة الإنصاف والقسط بين الناس فى معاملاتهم .

قال تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ... (الحديد : ٢٥).

وقال سبحانه وتعالى : وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ . (الرحمن : ٧ - ٩) .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ .

وما يعلمك أيها المخاطب لعل وقت الساعة قريب ، فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها ، ويستعد لها ، فالموت يأتى بغتة ، ومن مات فقد قامت قيامته .

قال الشاعر :

كل امرئ مصبح فى بيته وإلوت أدنى من شراك نعله

وقال الشاعر :

لا تغتري بشباب ناعم خضل فكم تقدم قبل الشيب شبان

١٨ - يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

كان الكفار يسألون عن الساعة سؤالا مستهزئ مكابر ، يتمنى وقوع القيامة ليعرف من هو المصيب ، الكافرون أم المؤمنون ، وكان كفار مكة يقولون : ليست القيامة تقوم حتى يظهر حال ما نحن عليه ، وما عليه محمد وأصحابه ، وكان المؤمنون يشفقون من قيام الساعة خوفا من الحساب واستصغارا لحسناتهم ، وإعظاما لمواقف القيامة من البعث والحشر والصراف والميزان والحساب ، مع يقينهم بأن القيامة حق لا ريب فيها ، ومع تمكن اليقين فى قلوبهم والثقة بفضل الله وعدله .

أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

إن الذين ينكرون وقوع القيامة ، ويستبعدون الحياة بعد الموت فى ضلال شديد ، لأن الله هو الذى أوجد الإنسان من العدم ، وهو الذى خلق السماوات والأرض .

قال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ... (الأنبياء: ١٠٤).

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ... (الروم: ٢٧).

وقال تعالى: أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نَطْفَةً مِنْ مِثْقَالِ بُعْثَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فُخْطًا * فُجِّعَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ الْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَسْدٍ عَلَيَّ أَنْ يَحْسَبَ الْمَوْتَى . (القيامة: ٣٦ - ٤٠).

١٩- اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْغَلِيظُ .

الله تعالى لطيف بعباده ، بار بهم تمام البر ، مترفق فى رعايتهم وإيصال المصالح إليهم ، حكيم فى عطائه ، كريم فى إيصال نعمائه إلى العباد ، يجرى رزقه على من يشاء بما شاء من أنواع الرزق ، فيحصل كلا من عباده بنوع من البر على ما تقتضيه حكمته ومشيتته ، وهو القوى الباهر القدرة ، العزيز المنيع الغالب الذى لا يقهر .

قال تعالى: وَمَنْ فِي دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (هود: ٦).

٢٠- مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

الهدف متعدد فى أعمال البشر ، فمنهم من يريد بعمله وجه الله ورجاء الثواب فى الدار الآخرة ، وهذا يضعف الله له ثواب عمله ويكثر نماءه ، ويجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى ما يشاء الله . وفى هذا المعنى يقول النبى ﷺ : «إن الصدقة توضع فى يد الله تعالى قبل أن توضع فى يد السائل ، فيتميمها كما ينمى أحدكم فصيله»^(١) .

أى : إن الله يبارك فى ثواب الصدقة ويزيد ثوابها وهذا أشبه بمستثمر يستثمر ماله فى رعاية الغنم والبقر والإبل ، وحين يقطع الرضيع يسمى فصيلاً لأنه فصيل عن أمه ، وصار معتمداً على رعاية صاحب المال .

فالله يبارك فى ثواب الصدقة ويزيدها أضعافاً مضاعفة ، كما يزيد ابن الماشية الذى يطعمه صاحب المال ويسقيه ، فيتحول فى المستقبل من فصيل صغير إلى حيوان قوى مكتمل القوة يسر الناظرين .

وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ .

ومن كان يعمل للدنيا وحدها وليس له هم فى الآخرة : أعطاه الله من الدنيا الرزق الذى كتبه له فى الأجل ، وليس له حظ من ثواب الآخرة ، ولك أن تتصور فضل الله ولطفه فى عطائه ورزقه ، فالحمة العليا

تكون في طلب ثواب الآخرة وجزائها الدائم الموصول ، أما الدنيا فعرض حائل يأكل منها البار والفاجر ولا يصل إلى صاحبها إلا ما قدر له .

قال تعالى : مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْمُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كَلَّا بُدْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ فَطَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (الإسراء : ١٨ - ٢١)

★ ★ ★

مناقشة المشركين

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾

المفردات :

شركاء : آلهة أو أصنام شرعوا لهم الشرك الذي لم يأذن به الله .

شرعوا : سؤلوا وزينوا .

ما لم يأذن به الله : ما لم يأمر به الله ، كالشرك ونحوه .

كلمة الفصل : حكمنا السابق بتأجيل عذابهم .

لفضى بينهم : بهلاك المشركين .

مشفقين : خائفين خوفا شديداً من العذاب .

وهو واقع بهم : والعذاب واقع بهم لا محالة .

روضات الجنات ، أطيب بقاعها وأعلى منازلها وأنزهها .

إلا المودة فى القربى ، لكننى حريص على تبليغ الرسالة لكم لأنكم أهلى وقربائى ، وآمل فى إيمانكم ، وفى أن تودونى لقربائى فىكم ، فتكفوا عنى أذاكم ، وتمنعوا عنى أذى غيركم .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى مناقشة المشركين وتبكيتهم على الشرك بأبلغ دليل ، فتبدأ بسؤالهم : هل هناك شياطين أو أصنام شرعو لكم الشرك بالله ؟ إن التشريع بيد الله وحده ، وهو لم ينزل ولم يشرع لكم الشرك ، فمن أين أنيتم به ؟ ولولا وعد الله بتأجيل العذاب إلى يوم القيامة لقضى بينكم بإنصاف المؤمنين وتعذيب المشركين ، وفى يوم القيامة ترى الظالمين مشفقين خائفين من جزاء أعمالهم وظلمهم ، وسينزل العذاب بهم خافوا أم صبروا .

بينما المؤمنون نازلون فى أعلى منازل الجنة ، ولهم كل ما يطلبونه من عند الله ، وهذا هو الفضل الكبير ، وهذه هى البشرى لهؤلاء المؤمنين ، وأنا لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة ، لكننى حريص على هدايتكم ، راجب فى تحقيق الإيمان لكم لقربائى منكم ، فامنعوا عنى أذاكم بسبب هذه القرابة ، أو أكرمونى فى عترتى وأهل بيتى ، أو تقربوا إلى الله بطاعته وعبادته ، والتقرب إليه بالدخول فى دين الإسلام ، ومن فعل حسنة ضاعف الله له الثواب فهو غفور شكور .

التفسير :

٢١- أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الآية تنهى عن الشرك بأبلغ أسلوب وأعلى بيان ، فالأصل أن الله تعالى لا يعبد إلا بما شرعه ، وقد أنزل الوحي على رسله بإقامة الدين ، لكن هؤلاء استمروا على الشرك والكفر والظلم ، فهل لهم أصنام وشياطين وأوثان شرعو لهم الشرك والظلم والسلوك المعوج الذى لم يأذن به الله ولم يأمر به ، ولكنهم اتبعوه سيرا وراء أهوائهم وشياطينهم ؟

وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لولا أن الله تعالى قضى بإمهال عذاب هذه الأمة إلى يوم القيامة ، لفصل بين المؤمنين والكافرين ، بإنصاف المؤمنين وإنزال العذاب بالمشركين ، لكن هناك فى الآخرة عذاب أليم ينتظر هؤلاء الظالمين .

٢٢- تَرَى الظَّالِمِينَ مُخْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ .

فى يوم القيامة ترى أمرين مختلفين :

(أ) الظالمون خائفون مشفقون من أعمالهم التى عملوها ، إنها غول يطاردهم يوم القيامة ، فطالما استمتعوا بالمعاصى وتلذذوا بالمواقات ، وهى الآن شىء فظيع يطاردهم وهم خائفون من عقاب خطاياهم ، وسيقع العذاب بهم خافوا أم صبروا .

(ب) المؤمنون فى أعلى منازل الجنة وروضاتها يتمتعون بالثمار والأشجار ، وعزف الأوتار ، وضيافة الجبار ، ولهم ما يشاءون عند ربهم ، حيث يكرمهم ويلبى رغباتهم ، وهذا هو الفضل الكبير الذى يكافئ الله به المؤمنين ، حيث يحلّ عليهم رضوان الله فلا يسخط عليهم أبداً ، وحيث يتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم كما ورد فى صحيح مسلم .

وروى الشيخان ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضىتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيك أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (١) (متفق عليه) .

٢٣- ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .

فى الآية السابقة قارن الله بين عقوبة الظالمين وبين الفضل الكبير للصالحين فى روضات الجنات ، وهنا يقول : ذلك الفضل الكبير هو الذى يبشر الله به عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حيث يجعل لهم البشرى والأخبار السارة بمنزلهم فى الجنة .

ثم يلحق الله تعالى رسوله بأن يتوود إلى قومه من قريش ، حيث لم تكن قبيلة من قبائل قريش إلا وبين النبى ﷺ وبينها نسب وقرابة ، فهو يقول لهم : لا أريد منكم أجراً على تبليغ الرسالة ، لكننى حريص على إيمانكم بسبب ما بينى وبينكم من قرابة ، فإذا لم تؤمنوا بى كرسول فكفوا أذاكم عنى وحافظوا علىّ حتى أؤدى رسالة الله ، بسبب ما بينى وبينكم من قرابة .

وقد أورد ابن كثير طائفة كبيرة من الأحاديث عند تفسيره لهذه الآية ، وذكر عدة آراء ، كذلك ذكر الطبرى وأبو السعود وغيرهما .

و خلاصة هذه الآراء ما يأتى :

(أ) معناها : إلا أن تؤدوا قرابتي وعترتي وتحفظوني فيهم مثل : على وفاطمة وولديهما .

(ب) لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً إلا التقرب والتودد إلى الله تعالى بالعمل الصالح .

(ج) الرأى الثالث - وهو الذى رجّحه الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن - وهو أنه ﷺ لا يطلب منهم أجراً، إنما تدفعه المودة للقربى ، وقد كانت لرسول الله ﷺ قرابة بكل بطن من بطون قريش ، ليحاول هدايتهم بما معه من الهدى ، ويحقق الخير لهم إرضاء لتلك المودة التى يحملها لهم ، وهذا أجره وكفى .

روى البخارى بسنده ، عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى : **إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى** ... فقال سعيد بن جبير : قريى آل محمد . فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من بطون قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وعند التأمل نجد أن القرآن لئن فى أساليب الدعوة إلى الهدى ، ومن بينها أصرة الأخوة الإنسانية تارة ، والرغبة فى مشاركة الناس فى الخير الذى يحمله الرسول فى دعوته تارة ، فلا يُستبعد هنا أن يطلب للرسول منهم أن يكفوا أذاهم عنه مراعاة للقرابة ، وأن يسمعوا ويلينوا لما يحمله محمد ﷺ من أسباب الهداية ، فيكون هذا هو الأجر الذى يطلبه منهم لا سواه .

وَمَنْ يَقْرِضْنا حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ...

ومن يعمل عملاً صالحاً ، ويتزود بطاعة من الطاعات نضاعف له الثواب ، ونزيد الحسنه إلى عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف ، ومن الحسنات المودة فى القربى ، وروى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه لشدة محبته لأهل البيت .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ... واسع المغفرة عظيم الستر على عيوب عباده .

شُكْرٌ . عظيم الشكر لمن أطاعه ، حيث يوفيه حقه من الجزاء العظيم ويضاعف ثوابه ، ألا ما أجل فضل الله ، إنه صاحب النعم وصاحب التوفيق والهداية ، وصاحب المغفرة والشكر ، فبالفضل الذى يعجز الإنسان عن متابعته ، فضلاً على شكره وتوقيته .

قبول التوبة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَنَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۝ ﴾

المفردات :

افتترى ، اختلق .

يختم على قلبك ، يربط عليه بالصبر ، وقيل : إن يشأ الله خذ لك يختم على قلبك ، لتجتري بالافتراء عليه ، فإنه لا يجتري على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل حالهم ، وهذه الجملة أبعد فى نفى الافتراء عنه ، لأن من افتترى ختم الله على قلبه ، ومحمد ﷺ يتفضل الله عليه بالوحي صباح مساء ، وقيل : يطمس عليه وينسيه فلا يعى .

يمحو ، يزيل .

ذات الصدور ، حقائقها وداخلها ، فالله سبحانه مطلع على الخفايا ، لا يخفى عليه شيء ، وسجازى كل إنسان بما يستحقه .

سوية : الرجوع عن المعاصى بالندم عليها ، والعزم على تركها أبداً .

التفسير :

٢٤- أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

هنا يناقش الكفار فى أقوالهم فقد ادعوا أن محمداً يفتري على الله الكذب ، حيث ينسب القرآن إلى الله مفترى ، وهنا يجيبهم القرآن بأن محمداً لو افتري على الله الكذب لختم على قلبه ، ومنعه من القدرة على التحدث بالوحي صباح مساء .

وبما أن الوحي مستمر وعناية الله به مستمرة ، فذلك أظهر دليل على أن محمداً صادق غير مفترى

قال ابن كثير :

وهذا كقوله جل وعلا : وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ • لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ • ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .

(الحاقة : ٤٤ - ٤٦)

وقال أبو السعود :

والآية استشهاد على بطلان ما قالوا ، ببيان أنه عليه السلام لو افترى على الله لمنعه من ذلك قطعاً بالختم على قلبه ، بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه ، ولم ينطق بحرف من حروفه .

وقيل : معنى : فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ ...

أى : يلهك الصبر والاحتمال واليقين والهدوء :

وَيُمْنَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ...

ومن سنة الله أن يزيل الباطل فهو يمهل ولا يهمل ، ومن سنة الله أن يثبت الحق ببراهينه وآياته .

قال تعالى : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَلْمُغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ... (الأنبياء : ١٨) .

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

إنه سبحانه مطلع على خفايا القلوب ، فهو يعلم السر وأخفى .

وقال القرطبي : والمراد أنك لو حدثت نفسك أن تفتري الكذب ، لعلمه الله وطبع على قلبك .

٢٥- وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .

فتح الله تعالى أبوابه للتائبين ، وهو وحده الذى يملك قبول التوبة ومنح المغفرة .

قال تعالى : وَمَنْ يُغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ... (آل عمران : ١٣٥) .

ومعنى الآية :

إن الله جلّت قدرته يمتن على عباده بواسع ألطفه ، فهو الذى يقبل التوبة من عباده ويغفر الذنوب لمن تاب وأناب ، وهو العليم بكل فعل نفعله ، فأحرى بنا أن نسارع إلى مرضاته والرجوع إليه ، والتوبة من المعاصي والندم عليها ، والاتجاه إلى الله .

٢٦- وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَلْكَفُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ .

ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إذا دعوا الله استجاب دعاءهم ، وزادهم من فضله وكرمه وعطفه وألطفه ، فوق ما سألوا واستحقوا : لأنه الجواد الكريم البر الرحيم .

وجعلوا من ذلك قوله ﷺ : «أفضل الدعاء الحمد» ^(١٠) .

وسئل سفيان عن قوله ﷺ في الحديث : «أكبر دعائى ودعاء الأنبياء قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير» ^(١١) . فقال : هذا قوله تعالى فى الحديث القدسى : «من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» ^(١٢) .

فهو سبحانه قابل التوب ، غافر الذنب ، صاحب الصفح والعفو ، مطلع على القليل والكثير ، محاسب على الفتيل والقطمير ، وهو سبحانه يستجيب دعاء الصالحين ، ويزيدهم فضلا ونعمة ، وهو عادل فى معاقبة الكافرين بالعذاب الأليم الموجع فى دار الجحيم .

قال تعالى : نَبِّئْ عِبَادَى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِّى عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ . (الجعر : ٤٩ ، ٥٠) .

★ ★ ★

من آثار حكمته تعالى ودلائل قدرته

﴿وَلَوْ سَـَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعبَادِهِ لَبِغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدْرِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ (٢٧) وَهُوَ الَّذِى يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ، وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِفُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مُخِصٍّ (٣٥) ﴿

المفردات :

بسط : وسع وكثر .

لبغوا : ظلموا وتكبروا وتجاوزوا الحد .

بقدر : بتقدير حكيم .

الفَيْث، المطر النافع الذى يغيث الناس بعد الجذب .

قَنَطُوا، يَتَسَوْنَ من نزوله .

رَحْمَتِهِ، هى منافع الغيث وآفاره ، التى تعمُ الإنسان والحيوان والنبات والسهل والجبل .

الْمَوْلَى، الذى يتولى عباده بالإحسان .

الْحَمِيد، المستحق للحمد على نعمه .

بَثَّ، نشر وفرَّق .

دَابَّة، كل ما يدب على الأرض من إنسان وغيره .

جَمْعُهُمْ، حشرهم بعد البعث للمحاسبة .

مَصِيبَةٌ، بليّة وشدة .

بِعَجْزَيْنِ، بجاعلين الله تعالى عاجزًا بالهرب منه .

الْجَوَارِى، السفن الجارية .

الْأَعْلَام، واحدها علم ، وهو الجبل ، قالت الخنساء :

كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِى رَأْسِهِ نَارٌ

وَأَنْ صَخْرًا لَتَأْتِمُ الْهَدَاةُ بِهِ

رواكسد ، ثوابت لا تتحرك .

يُؤَبِّتُهُنَّ، يهلكهن ، يقال للمجرم : أوبيقته ذنوبه ، أى : أهلكته .

مَالِهِمْ مِنْ مَحِيصٍ، ما لهم من مهرب ولا مخلص من العذاب .

تَقْهِيد :

فى هذه الآيات وما بعدها من سورة الشورى نجد عرضا لمظاهر حكمة الله القدير ، فهو سبحانه حكيم

فى إنزال الرزق ، ولو كان الناس جميعا أغنياء لفست الأرض ، ولحملهم الغنى على البغى والطغيان .

ومن حكمته أن يكون بعض الناس أغنياء ، معهم المال وهم فى حاجة إلى خدمات الفقراء ، وأن يكون

بعض الناس فقراء ، عندهم القدرة على العمل ، وهم فى حاجة إلى مال الأغنياء .

وبيد الله العلى القدير إنزال المطر ، وإنبات النبات ، وهو خالق السماوات والأرض ، وقد بث فى الكون

الأملاك والأفلاك ، والإنس والجن ، والطيور والنمل والحيوانات ، وأبدع الخلق ، وهو مبدع الكون فى الدنيا ،

وجامع الناس يوم القيامة ، وهو يعاقب المسيئين بعض العقوبات فى الدنيا لتكفير السيئات أو لرفع

الدرجات ، والجميع فى قبضة الله تعالى وقدرته .

وهو سبحانه مسخر الكون ، سخر الريح والهواء ، والماء والسفن الجارية مع قدرته على إيقاف الهواء فتقف السفن راكدة ، وفى قدرته أن يرسل الرياح العاصفة فتغرق السفن ، إن جميع ما فى الكون خاضع لمشيئته ، مسخر بقدرته تعالى .

التفسير :

٢٧- وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

إن يد القدرة الحكيمة وراء ما نراه فى توزيع الأرزاق ، فلو كان الناس جميعا أغنياء لاختل التوازن ، وانشغل بعضهم بالبغى والطغيان ، ولو كان الناس جميعا فقراء لتعطلت مصالح الناس ، واشتدت حاجتهم ، ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه وزع الأرزاق حسب ما تقتضيه حكمته تعالى ، فأغنى بعضا وأفقر بعضا ، وجعل طائفة وسطا .

قال ابن كثير : لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغى والطغيان ، من بعضهم على بعض أشرا وطورا .

وقال قتادة :

خير العيش ما لا يلهيك ولا يطفيك ، كما جاء فى الحديث القدسى ، عن أنس مرفوعا : «إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» .

وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ .

هو سبحانه صاحب التقدير والعطاء المناسب ، فيعطى لكل إنسان ما يراه مناسباً له ، فهو مطلع على أحوال عباده ، خبير بما يناسبهم ، وقد قص القرآن الكريم قصص عدد من المتكبرين المتبطرين من أمثال فرعون وهامان ، ومن أمثال قارون الذى حمله الغنى على الزهو والعجب والبطر والاستعلاء فى الأرض بالباطل ؛ فخسف الله به وبادره الأرض ، عقوبة له على بطره وكبره ، وقد يغنى الفقير ولكن ذلك قليل ، والبغى مع الغنى أكثر وقوعا .

٢٨- وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ .

يمتنح الله الناس بالشر والخير فتنة واختبارا ، وقد يطول المحل ويتأخر المطر حتى ييأس الناس منه ، وإذا بفضل الله تعالى يظهر فيسوق السحاب ، وينزل المطر ، ويأتى الغيث والماء بعد القنوط واليأس ، فتخضر الأرض ، وتنتشر آثار رحمة الله بعباده حيث ينبت النبات ، ويأكل الحيوان والإنسان ، ويعم الخير والفضل والرحمة ، وهو سبحانه يوالى المؤمنين بالنعم ، وهو أهل للحمد والفضل والثناء .

من أسياب النزول :

أخرج الحاكم وصححه ، عن علي قال : نزلت هذه الآية فى أصحاب الصفة : وَلَوْ سَـَٔتَ أَهْلَ الرَّزْقِ لِإِعَادِهِ
لَبَقُوا فِى الْأَرْضِ ... (الشورى : ٢٧) . وذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا والغنى .

وقال خباب بن الأرت : فىنا نزلت هذه الآية - أى فى أهل الصفة - وذلك أننا نظرنا إلى أموال بنى
قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع فتمنيناها .

عود إلى التفسير :

٢٩- وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

ومن آيات الله تعالى الدالة على كمال قدرته خلق السماوات وما فيها من أفلاك وأملاك ، وكواكب
وشمس وأقمار ، ونجوم سيارات وغير ذلك ، وخلق الأرض وما فيها من بحار وأنهار ، وأشجار وجبال ،
وما بَثَّ الله فى الأرض من إنسان وحيوان وطيور وزواحف ودواب متعددة ، منها ما يمشى على رجلين
كالإنسان ، ومنها ما يمشى على أربع كالبحر والغنم والإبل ، ومنها ما يزحف على بطنه كالثعبان والحيات ،
وهذه الأرض وهذا الفضاء وهذه السماء ، بل هذا الكون كله حافل بأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله ،
وأسراب من النحل والنمل وأحواتها لا يحصيها إلا الله ، وأسراب من الحشرات والهوام والجرانيم لا يعلم
مواطنها إلا الله ، وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله ، وقطعان من الأنعام والوحش
سائمة وشاردة فى كل مكان ، وقطعان من البشر ميثونة فى الأرض كلها ، ومعها خلائق أرى عددا وأخفى
مكانا فى السماوات من خلق الله .. كلها .. كلها .. يجمعها الله حين يشاء .

فهو سبحانه خالق الكون وما فيه ، وهو العالم بكل صغيرة وكبيرة ، ويكل ذرة ومثقال حبة فيه ،
ويأمره يجمع كل هذه المخلوقات بقدرته ، وهو على كل شىء قدير .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى
عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (النور : ٤٥) .

تنبيه :

ذهب بعض الباحثين فى آيات القرآن الفلكية والعوالم العلوية إلى احتمال معنى آخر ، وهو احتمال
أن تكون هناك حياة على سطح المريخ ، أو عالم يشبه عالم الأرض على نحو ما ، ولا يبعد أن يتخابرا
ويجتمعا فكرا ، إذا لم يجمعوا جسما^(١٧) .

قال تعالى : وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ .

وقال تعالى: يَسْأَلُهُ مَنْ لِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . (الرحمن : ٢٩) .

٣٠- وَمَا أَصْحَابُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ لِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ .

ما أصاب الإنسان في هذه الدنيا من مرض أو حزن أو فقد حبيب ، أو أى نوع من أنواع الألم أو الفقر أو الهزيمة ، فذلك بسبب إهماله لقانون الحياة وسنة الله في الكون ، وقد تكون المصيبة للابتلاء والاختبار أو لرفع الدرجات ، وكثير من الذنوب يسترها الله تعالى على العبد ويعفو عنها ، فلا يعاجل صاحبها بالعقوبة .

قال تعالى : وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَّابَّةٍ ... (فاطر : ٤٥) .

وفى الحديث الصحيح : «والذى نفسى بيده ، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها»^(١٤) .

وقد تصيب المصائب الأنبياء والصالحين لرفع درجاتهم ، أو لحكم أخرى يعلمها الله ، وفى الحديث «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأمتل فالأمتل»^(١٥) .

وقد أمرنا الدين الإسلامى باحتمال المصائب ، مع الرضا بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره ، وذكر الصبر فى القرآن الكريم فى أكثر من سبعين موضعاً ، كما حثّ الحديث الشريف المؤمن على الصبر والرضا طمعا فى ثواب الله ، ورضا بقضائه وقدره .

قال تعالى : وَلَقَبَلَّوْكُمْ بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧) .

وفى الأثر : «من علامة الإيمان : الشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضا بأسباب القضاء ، كما جاء فى الأثر أيضاً : «الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر» .

٣١- وَمَا أَشْمُ بِمُعْجِزَيْنِ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبٍ أَلَّا مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

لا يستطيع أى إنسان أن يهرب من عذاب الله ، أو يفلت من قضائه ، أو يفلت من عقوبة أرادها الله به وإذا كفر الكافر أو أشرك المشرك فلن يجد ولياً يتولاه بالمعونة ، أو نصيراً ينصره ضد مولاة وخالفه .

قال في فتح القدير للشوكاني :

وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لِي الْأَرْضِ ...

أى : بفائتين عليه هربا فى الأرض ، بل ما قضاه عليهم من المصائب واقع عليهم ، نازل بهم .

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ... يواليكم فيمنع ما قضاه الله .

وَلَا نَصِيرَ . ينصركم من عذاب الله .

٣٢- وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ .

من دلائل قدرة الله تعالى تسخير هذا الكون لخدمة الإنسان ، فالسما والارض والغضاء والماء وغيرها ، أعدت إعدادا إلهيا لتيسير حياة الإنسان ، فالبحر تفرق فيه الأجسام الثقيلة ، ثم يلهم الله الإنسان صناعة السفن لتحمل الأثقال والمتاع والتجارة من بلد إلى بلد ، فيعم العمران وتنتعش الزراعة والصناعة والتجارة .

قال ابن كثير :

ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخير البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، كَالْأَعْلَامِ . أى : كالجبال ، أى هذه فى البحر كالجبال فى البر .

٣٣- إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ .

إذا أراد الله أن يسكن الرياح لأوقفها ، وبذلك تقف السفن عن الحركة ، وتتعمل المصالح ، وربما فسدت المؤمن ، إن فى ذلك الاختبار والابتلاء لعظة وعبرة لكل صَبَّارٍ على البلايا ، شكور على النعم والعطايا ، فالإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر .

٣٤- أَوْ يُوقِنْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ .

وإن شاء الله أهلك هذه السفن بسبب ما ارتكب أهلها من معصية أو شرك أو كفر ، وهو سبحانه يعاقب على القليل ، ويصفح عن الكثير ، ويتجاوز عن كثير من الذنوب ، فينجى أهلها من الهلاك .

وقال بعض المفسرين :

إن يشأ يرسل الرياح عاتية قوية مدمرة ، فتضطرب السفن أن تحيد عن طريقها ، أبقة عن الطريق المزموم ، منحرفة ذات اليمين وذات الشمال ، منحرفة لا تسير على طريق ولا إلى جهة ، فيهلك من فيها إغراقا بسبب ما كسبوا من الذنوب .

قال ابن كثير :

وهذا القول مناسب للأول ، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت ، أو لقواها فشردت وأبقت وهلكت ، ولكن من لطفه ورحمته أن يرسل الريح بحسب الحاجة ، كما يرسل المطر بقدر الكفاية ، ولو أنزله كثيرا جداً لهدم البنيان ، أو قليلاً لما أنبت الزرع والثمار ، حتى إنه يرسل إلى مثل (بلاد مصر) سيحاً من أرض أخرى غيرها ، لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جدرانهم ^(١٧) .

٣٥- وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يَجْلِدُونَ فِيْ عَائِلَتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ .

إذا كانوا فى يد القدرة التى إن شاءت أمسكت الريح ، وإن شاءت أرسلت الريح عاتية قوية ، تجعل السفينة كالريشة فى مهب الرياح ، حتى يعلم الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ، فينكرون الألوهية ، أو يشككون فى دين الله وربوبيته أنهم مقهورون مربوون ، ما لهم من ملجأ ولا مهرب من قدرة الله القدير .

قال القرطبي :

أى : ليعلم الكفار إذا توسطوا فى البحر ، وغشيتهم الرياح من كل مكان ، أنه لا ملجأ لهم سوى الله ، ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم ، فيخلصوا له العبادة .

★ ★ ★

الشورى فى الإسلام

﴿ مَا أَوْتَيْنَا مِنْ شَيْءٍ فَفَتَحْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَمَاعِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرًا إِلَّا تُمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ۝ وَجِزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَلَمَنِ صَبَرَ وَعَفَا لَئِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝ ﴾

المضادات :

هـما أوتيتهم من شيء ، فما أعطيتهم من أثاث الدنيا وزينتها .

فمتاع الحياة الدنيا، يُمتَحَ به فيها ثم يزول .

وعلى ربهم يتوكلون، وعلى الله وحده يعتمدون .

كِبَائِرُ الْإِثْمِ، كبائر الذنوب، وقرئ: (كبير الإثم).

الْفَوَاحِشُ، ما عظم قبحه من الذنوب كالزنا .

استجابوا لربهم، أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة .

وأمرهم شورى بينهم، شأنهم التشاور ومراجعة الآراء في أمورهم .

الْبَغْيُ، الظلم والعدوان .

يَنْتَصِرُونَ، ينتقمون بمثل ما عوقبوا به .

سَيِّئَةٌ، الخطيئة والذنب .

سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا، سميت مقابلة السيئة سيئة؛ لمشابتها لها في الصورة .

صَفَا، صفح عمن أساء إليه .

فأجره على الله، فثوابه على الله .

لا يحب الظالمين، يكره ويبغض المعتدين .

وفن انتصر بعد ظلمه، انتصر لنفسه بعدما ظلم .

سَبِيلٌ، معاتبة ولوم ومؤاخظة .

صَبْرٌ، سكوت وحبس نفسه عن الانتصار لنفسه .

فن عزم الأمور، لمن الأمور المعزومة، أى: المؤكدة، والمراد: أنها من الأمور المطلوبة شرعاً .

تمهيد :

هذه آيات فى صفات المؤمنين ، وفى تفضيل الآخرة على الدنيا ، فالدنيا متاع زائل ، والآخرة نعيم مقيم للمؤمنين المتوكلين على الله ، ثم ذكر من صفاتهم ما يأتى :

١ - البعد عن الفواحش والكبائر ، مثل : القتل ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس ، والسحر ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين .

٢ - العقو والصفح عند الغضب .

٣ - الاستجابة لأمر الله ، بطاعته والبعد عن معصيته .

٤ - التمسك بالشورى فى مهام شئون الدولة ، ومهام الأسر والأفراد .

٥ - إخراج الزكاة والصدقة .

٦ - ردّ العدوان والانتصار من المعتدى .

٧ - قررت الآيات (٤٠-٤٣) من سورة الشورى مبدأ عقوبة المعتدى ، سواء أكان عامداً أم مخطئاً ، وهناك العدل وهو مقابلة السيئة بالسيئة خصوصاً مع الفساق والظلمة ، وهناك الفضل وهو الصبح والعفو ، وكررت الآيات الأمر بالصبر والعفو .

ولا تناقض بين هذه الأوامر ، لأن الأمر فى جملة يحتاج إلى الحكمة والبصيرة ، فالقصاص فى مواطنه حكمة ، والصبر فى مواطنه حكمة ، ولكل فئة ما يناسبها ، فيناسب المعتدى المخطئ التائب المستجير العفو والصفح ، ويناسب المتغطرس المستهتر القصاص أو العقوبة .

التفسير :

٣٦- فَمَّا أَوْفَيْتُم مِّن شَيْءٍ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَنبَقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .

مهما أوفيتهم من أموال أو نعيم أو أُنات أو رياس أو أى شأن من شئون الدنيا ؛ فذلك متاع زائل ، وأما ما قدمه الإنسان للأخرة من صدقة أو زكاة أو صلاة أو جهاد ، أو صلة رحم أو عمل خير ؛ فذلك أبقى وأفضل لمن آمن بالله ، واستمر فى التوكل عليه ، والتوكل هو الاعتماد على الله بعد الأخذ بالأسباب .

٣٧- وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

هذه الآية مكملة لصفات الذين آمنوا فى الآية السابقة ، أى : ومن صفات الذين آمنوا أنهم يبتعدون عن كبائر الذنوب ، مثل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، والربا ، والقتل ، والسحر وتطلق الفواحش على كل ما عظم قبحه وفحش أمره .

قال ابن عباس :

الْفَوَاحِشُ . يعنى الزنا ، أى : هم مبتعدون عن كل ما يغضب الله ، خصوصاً كبائر الذنوب .

سئل بعضهم عن التقوى فقال : (ألا يراك الله حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك) .

وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ .

ومن شأنهم ألا يستبد بهم الغضب فيخرجهم عن حد الاعتدال ، بل إذا غضبوا غفروا لمن أغضبهم تمسكاً بأداب الدين .

ذكر أبو حامد الغزالي فى كتاب (إحياء علوم الدين) أبواب المهلكات، ومنها: الحقد، والحسد، والضغينة، والكبر، والغضب، وبين أن الغضب سبب مقترس يجعل الإنسان لعبة فى يد الشيطان، لأن الإنسان إذا سكر وإذا غضب؛ ضعفت سيطرته على عقله، وأصبح فريسة لهواه، فيفعل ما يندم على فعله.

ومن علاج الغضب تذكر هوان الدنيا، وأنها لا تزن جناح بعوضة، والغضب وسيلة إلى أمراض متعددة مثل تصلب الشرايين، والضغط المرتفع، والسكر، وعلاج ذلك محاولة الهدوء والاتزان والرضا والإيمان.

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمت الله. ^(١٧)

وفى الحديث النبوى يقول رسول الله ﷺ: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما تواضع أحد لله إلا رفعه، وما زاد الله عبداً يعفو إلا عفا فاعفوا يعزكم الله» ^(١٨).

٣٨- وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ .

والذين استجابوا لأمر الله تعالى ودخلوا فى دين الإسلام .

وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ... وحافظوا على إقامة الصلاة فى أوقاتها، وخص الصلاة بالذكر لأنها أعظم أركان الإسلام، وهى صلة بين العبد وربيه، وهى عماد الدين، من أقامها كان حرياً أن يقيم أمور الدين، ومن هدمها كان حرياً أن يهدم الدين .

وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ... أى: هم ملتزمون بالشورى فى الأمور العامة كالحرب وشئون الدولة، والشئون الخاصة كنظام الأسرة وما يتصل بشئون الجماعات والأفراد، وقد حث القرآن على الشورى ومدحها، وسمى هذه السورة المكية باسم (الشورى) كما ذكر الشورى فى سورة (آل عمران) وهى سورة مدنية.

قال تعالى: لَيْسَ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَخَاوَرَهُمُ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . (آل عمران: ١٥٩).

وأخرج عبد بن حميد، والبخارى فى الأدب المفرد، وابن المنذر، عن الحسن قال: ما تشاور قوم قط إلا هُدُوا لأرشد أمرهم، ثم تلا: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ...

ولقد كان ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه، فقد استشارهم عند الخروج لغزوة بدر ولغزوة أحد، وفى غزوة الأحزاب عمل بمشورة الأنصار، وتراجع عن إعطاء هوازن ثلث ثمار المدينة عندما قالت الأنصار: لا نعطيهم إلا السيف، وكان الخلفاء الراشدون يحرصون على الشورى خصوصاً ما لا نص فيه، مثل كتابة المصحف، وحروب الردة، وعدم توزيع أرض السواد بالعراق على الفاتحين، وتضمين العمال إذا أنظفوا ما

بأيديهم لشدة حاجة الناس إليهم ، وكتابة الحديث النبوى الشريف فى عهد خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، وغير ذلك .

وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يَنْفَقُونَ .

أى : ينفقون مما أعطاهم الله من المال أو العلم أو الجاه ، بإخراج الزكاة أو الصدقة أو الإحسان إلى خلق الله .

٣٩- وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ .

كانوا ينتفرون من الظُّمِّ والذلِّ والاستكانة .

قال النخعى : كانوا يكرهون أن يُذلوا أنفسهم ، فيجتري عليهم الفساق .

وقد ورد عن عمر رضى الله عنه : من استغضب ولم يغضب فهو حمار .

والمؤمن كريم على نفسه وعلى ربه ، حيث قال تعالى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... (المنافقون : ٨) .

فالإنسان المتؤمن يعرف متى يصفح ، ومتى ينتصر وينتقم ، فهو أمام الدليل الضعيف يعفو عفوا القادر ، وأمام الباغى المعتدى ينتصر وينتقم ، كما يشير إلى ذلك قول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تركت
فوضع الندى فى موضع السيف بالهلا مضى كوضع السيف فى موضع الندى

وعند تفسير ابن كثير وغيره من المفسرين لهذه الآية قالوا : أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ، ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين ، بل يقدرين على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، والأمثلة الموضحة كثيرة ، منها : عفو يوسف عليه السلام عن إخوته ، وعفو النبى محمد ﷺ عن أهل مكة بعد فتحها ، وعفا ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصده عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام منهم ، وعفا عن غورث بن الحارث الذى أراد الفتك به ، حين أخذ سيف النبى ﷺ وهو نائم ، فاستيقظ ﷺ وهو فى يده مصلتا فانتهره ، فوقع السيف من يد غورث بن الحارث ، فأخذ النبى ﷺ السيف فى يده ودعا أصحابه ، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل ، وعفا عنه ، وغير ذلك كثير . اهـ .

قال شوقي :

وإذا عفوت فقدر ومقدر لا يستهين بعفوك الضعفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بكاء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب	هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر	وإذا غضبت فإنك النكباء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء

فائدة :

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى : **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** .

فإن قلت : أهم محمودون على الانتصار ؟ قلت : نعم ، لأن من أخذ حقه غير متعدي الله وما أمر به ، فلم يسرف في القتل إن كان ولي دم ، أو رد على سفيه محاماة عن عرضه وردعاً له ، فهو مطيع ، وكل مطيع محمود . اهـ .

٤٠ - **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** .

هذا هو الحكم الشرعى ، عقوبة المسيء بما شرعه الله من عقوبة مماثلة لجرمه ، وسُمي الجزاء سيئة لأنها تسوء من تنزل به ، أو مماثلة لما قبلها ، وهذا القصاص عدل .

قال تعالى : **وَالْجُورُ قَبَاصٌ ... (المائدة : ٤٥)** . وقال سبحانه : **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ... (البقرة : ١٧٩)** .

وقال سبحانه : **فَمَنْ آغْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَانْقَدُوا عَلَيْهِ يَمِئِلْ مَا آغْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... (البقرة : ١٩٤)** .

وقال سبحانه : **وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . (النحل : ١٢٦)** .

ومن ذلك ترى وساطية القرآن ، وحسن تشريعه ، فقد شرع العقوبة ردعاً للفساق والمتجبرين والمستهترين ، ثم شرع العفو والصفع للنادمين والبخثنيين الذين تابوا من خطئهم ، فقال سبحانه : **فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ...** أى : من عفا عمن أساء إليه وأصلح ما بينه وبين المسيء أو المعتدى فقد أحسن فى الدنيا ، وثوابه عظيم عند الله يوم القيامة ، وفى الحديث الشريف : «ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً»^(١) . رواه أحمد ، ومسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى الأثر : إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله تعالى : من كان أجره على الله قليق ، فلا يقوم إلا من عفا ، فذلك قوله تعالى : **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ...**

وقد وصف الله المتقين بقوله تعالى : **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالْعُسْرَاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** . (آل عمران : ١٣٤) .

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

أى : إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم ، ولا يحب من يتعدى فى الاقتصاص ، ويجاوز الحد فيه ، لأن المجاوزة ظلم ، والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حده ، وهذا تأكيد لمطلع الآية فى اشتراط المماثلة نوعاً ومقداراً .

٤١- وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ .

من أخذ حقه ممن ظلمه فلا لوم عليه ولا عتاب ، فقد شرع الله القصاص فى الجنايات العمدية ، والضمان فى جنايات الخطأ والتلافات ، ويجوز الشتم والسب بالمثل دون اعتداء ولا تجاوز .

٤٢- إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

إنما اللوم والعتاب والإثم على الذين يظلمون الناس بالبغي والعدوان فى الأرض بغير الحق ، ومثل ذلك للصوص والزناة والغاصبون ، وأيضاً كفار مكة الذين ظلموا المسلمين وأخرجوهم من ديارهم ، وظاهروا على إخراجهم بالبغي والعدوان .

أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أعده الله للظالمين المعتدين ، أى كانوا سابقين أو لاحقين ، كما أعده لكفار مكة حين ظلموا المسلمين واعتدوا عليهم وفرضوا الشرك على الضعفاء منهم .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ : «يقول الله عز وجل : يا عبادى ، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» (١٢) .

وجاء فى الحديث الصحيح : «المستبأن ما قالاً فعلى البادئ ، ما لم يعتد المظلوم» (١٣) .

٤٣- وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ .

تأتى هذه الآية فى ختام صفات المؤمنين ، محرصة على الصبر والعفو والتسامح ، مبينة أن الصبر والمغفرة من عزم الأمور ، أى من الأمور الأساسية فى هذا الدين ، وهذه الآية تتكامل مع ما قبلها ، فالأساس هو صبر المؤمن وعفو عن إخوانه وتواضعه ، وتفويضه الأمر لله واحتساب ثوابه عند الله ، وقوله : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . (آل عمران : ١٧٣) .

أو قوله تعالى : وَأَوْحِىْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . (غافر : ٤٤) ..

ويجوز الدعاء على الظالم بمثل هذه الآيات انتصافاً للحق ، وتقويضاً للأمر إلى الله ليأخذ للمظلوم من الظالم ، وعند اعتداء الكافرين على المسلمين أو قيام الظلمة الباغين بالظلم ؛ فقد شرع الله الانتصاف للمظلومين ، فلا لوم ولا عتاب على من انتصر بعد ظلمه .

وهكذا أحاطت الآيات بصفات المؤمنين ، متحدثة عن أخلاقهم الكريمة فى توكلهم على الله ، وبعدهم عن الكبار والفواحش ، وعفوهم عند الغضب واستجابتهم لأمر ربهم ، وتمسكهم بالشورى فى حياة الفرد وحياة الجماعة ، وإخراجهم للزكاة والصدقة .

ثم هم متوازنون معتدلون ، فبالنسبة للفساق والظلمة يقابلون السيئة بالسيئة ، وبالنسبة للمتقين والضعفاء يقابلون السيئة بالعفو والصفح ، والأمر كله فى ذلك محتاج إلى الحكمة وحسن التصرف ، واختيار الأنسب فى المعاملة ، فمن الناس من تناسبه المعاقبة ، ومنهم من تناسبه المعاقبة ، ومنهم من يأسره ويغلبه الصفع والعفو ، وفى مثل هؤلاء قال تعالى : **وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَخْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو خَطِّ عَظِيمٍ** . (فصلت : ٢٤ ، ٢٥) .

★ ★ ★

أحوال الكفار أمام النار

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَارٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤ ﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ٤٧ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِظًا إِلَّا الْبَلَاءُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَرَحَ بِهَا وَلِنُفْضِلَهُمْ سِنِينَ أَلَمْ يَفْقَهُمْ أَنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ كُفُورًا ٤٨ ﴾

المعطرات :

ومن يضل الله ، ومن يخذله الله لأنه ضل الطريق لسوء اختياره .

من ولى من بعده ، من ناصر يتولاه بعد خذلان الله إياه .

هل إلى مردٍّ ، هل إلى رجعة إلى الدنيا .

من سبيل ، من طريق .

يعرضون عليها ، على النار .

خاضعين من الذل ، خاضعين متضائلين بسبب الذل .

ينظرون من طرف غي ، ينظرون إلى النار مسارقة خوفا منها ، كما ينظر المحكوم عليه لألة التنفيذ .

الذين خسروا أنفسهم ، بالتعرض للعذاب الخالد .

وأهليهم ، وخسروا أهليهم بالتفريق بينهم .

مقيم ، سرمدى دائم .

أولياء ، نصراء أو أولياء أمره .

من سبيل ، من طريق إلى الهدى .

استجيبوا لربكم ، سارعوا إلى إجابته بالتوحيد والعبادة .

لا مرد له من الله ، لا يرده الله بعد إذ أتى به .

كبير ، إنكار لما اقترفتموه من الذنوب ، أو منكر لعذابكم .

حقيقا ، رقيقا أو محاسبا .

إن صليكم ، ما عليكم .

إلا التبليغ ، إلا التبليغ .

تمهيد :

تصف الآيات مشهد الظالمين يوم القيامة حين رأوا العذاب وشده وقوله ، وتمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ، وظلوا بلا جواب ولا تحقيق لأمنيتهن ، وتراهم - يا كل من تتأتى منه الرؤية - أذلاء خاضعين بسبب الذل والمهانة وخوف العذاب ، ينظرون إلى النار مسارقة خوفا منها ومن عذابها ، وعندئذ يقول الذين آمنوا : إن الخاسرين خسارنا حقيقيا هم الذين خسروا أنفسهم حيث أوردوها جهنم ، وخسروا أهليهم حيث تسببوا في دخولهم النار فانشغل كل واحد من أهل النار بنفسه ، وبالعذاب الذى يتلقاه ، ولم يلق أهل النار أولياء ولا نصراء ينصرونهم ويمنعونهم من عذاب الله ، ومن أضله الله فليس له طريق إلى النجاة أو الفوز يسلكه .

التفسير :

٤٤- وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ يَبْدُو وَيَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .

من يضلّه - حسب سنته فى الإضلال - فلن يجد وليا ولا نصيرا يهديه إلى الرشاد ، وترى الظالمين الذين ظلموا عباد الله فى الدنيا ، وظلموا أنفسهم بالكفر والشرك والجبروت والتكبر ، هؤلاء حين يشاهدون عذاب جهنم يتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا ينجيهم من عذاب النار .

٤٥- وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ .

وترى هؤلاء الظالمين يُعرضون على النار أذلاء مقهورين متضائلين ، خاشعين خاضعين بسبب الذل والمهانة ، لا بسبب التواضع والكرامة ، ينظرون إلى النار بعين غشضية مقلقة إلا قليلا ، بسبب الحذر والرهبة ، كما ينظر من حكمٍ عليه بالإعدام إلى آلة التنفيذ ، لقد انهار كل أمل ، وظهر الظالمون المتكبرون فى الدنيا أذلاء متضعضين ، لا تقوى عيونهم على استكمال فتحتها ، بل ينظرون بطرف غشيض ، والعرب تعبّر بالطرف الغشيض كناية عن الذل والمهانة .

قال الشاعر :

نغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

لقد انحط أمر الظالمين ، وارتفع شأن المؤمنين ، وأصبحت المنزلّة العليا لهم ، عندئذ قال المؤمنون : إن الخاسرين حقاً هم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والظلم ، فألقى بهم فى النار وفقدوا متعتهم وحرموا نعيمهم ، فخسروا بذلك أنفسهم ، وحيل بينهم وبين أزواجهم وأولادهم وأحبابهم بسبب انشغال كل واحد من هؤلاء بنفسه ، ثم يعلن ملعن من قبل الحق سبحانه : أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ . فهم خالدون فى النار خلوداً أبدياً سرمدياً ، فما أعظم شقاءهم بالخلود فى جهنم .

٤٦- وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْرِفُهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .

ليس لهم من غير الله أعوان وأنصار ينقذونهم مما هم فيه من العذاب ، وليس للأصنام التى عبدوها بقصد الشفاعة لهم عند الله أى مجال فى الشفاعة .

مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ . (غافر : ١٨) .

ومن أضله الله وخذله فلا طريق له يصل به إلى الحق فى الدنيا ، وإلى الجنة فى الآخرة ، لانسداد طريق النجاة عليه فقد غلبته شهواته ، وأعمته ضلالاته عن رؤية النور والهدى .

قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجنانية: ٢٣) .

٤٧- آسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ، مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ .

استجيبوا لأمر الله تعالى وهدى رسله ، بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، من قبل أن يأتى يوم - وهو يوم القيامة - لا يستطيع أحد أن يدفعه أو يمنع حصوله ، فإنه يأتى كلمح البصر ، ولا تستطيع قوة فى الأرض ولا فى السماء أن تمنع ما أَرَادَهُ الله ، وفى ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن يتحصن بحصن ، أو يختبئ فى مكان ، أو يتنكر ويستتر فيغيب عن بصره تعالى ، فهو سبحانه محيط بالجميع ، والكل تحت سمعه وبصره ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

قال أبو السعود :

وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ .

أى : ما لكم إنكار لما اقترفتموه لأنه مدون فى صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم . ا هـ .

وقيل : وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ .

أى : وليس لكم منكر ينكر ما ينزل بكم من العذاب .

٤٨- فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا آيَاتِنَا أَنْتَ بَشَرٌ مِثْلُ النَّاسِ وَمِنَ الْغَايِبِ مَا لَا تُبْصِرُ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

تأتى هذه الآية تسليية ومواساة للنبي ﷺ ، أى : إن أعرض أهل مكة عن دعوتك ولم يؤمنوا برسالتك فقد أنيت واجبك ، ولست حفيظاً عليهم ، ولا مسئولاً عن إيمانهم ، ما عليك إلا تبليغ الدعوة إليهم ، وتركهم أحراراً يختارون ما يشاءون .

قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ . (الغاشية: ٢١ ، ٢٢) .

وقال سبحانه : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٧٢) .

ومن طبيعة الإنسان أَنَّهُ إذا جاءت إليه النعمة فرح بها ، فهو يسعد بالنعمة كالصحة والغنى والأمن ويستبشر بها ، وإذا نزل به المرض أو الفقر أو أى مصيبة بسبب سلوكه ومعاصيه ، فإن الجزع والهلج ينزل بساحته ، وكذلك الكفر والجحود ، إلا من ألهمه الله الصواب .

قال تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ**

(المعارج: ١٩-٢٢)

إن ذلك بسبب عدم الإيمان ، وعدم صدق اليقين ، وعظم شأن الدنيا عند الإنسان ، فإذا جاءت النعمة فرح بها كثيراً ، وما علم أن الدنيا كلها عارية وكل ما فيها مردود ، وأن الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ففيها النعيم الدائم ، وإذا نزلت بساحة الإنسان المصائب بسبب سلوكه اشتد به الحزن والهلع والكفر والجحود ، بخلاف المؤمن فإنه صابر على البلاء ، شاكر لله على النعماء .

قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (٣١) .

★ ★ ★

بدائع القدرة الإلهية

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝٥١ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾

المفردات :

أو يزوجهم : أو يجعلهم زوجين ، ذكراً وأنثى .

عقيماً : لا تلد ، يقال : عقت المرأة ، تعقم عقماً ، أى : صارت عاقراً .

وحياً : إلقاء فى القلب .

أو من وراء حجاب : أو يكلمه من وراء حجاب .

أو يرسل رسولا : أو يبعث الله الملك للأنبياء ليبلغهم ما أمر الله به .

روحنا، قرآنا، لأن القلوب تحيا به .

من أمرنا، من لدنا .

جعلناه، جعلنا الروح أو الكتاب أو الإيمان .

وإنك لتهدى، وإنك لترشد وتدل .

إلى صراط مستقيم، إلى طريق معتدل موصل إلى المطلوب، لا يضل من يسلكه .

تصير الأمور، ألا إلى الله وحده - لا إلى غيره - يرجع شأن الخلق وأمورهم كلها يوم القيامة .

تهديد :

فى ختام سورة (الشورى) نجد عدداً من أنعم الله على عباده ، فهو المتفضل بحكمته فى العطاء ، فمن الناس من تكون ذريته إناثاً فقط ، مثل لوط وشعيب عليهما السلام ، ومنهم من تكون ذريته ذكوراً فقط ، مثل إبراهيم عليه السلام ، ومنهم من يرزقه ذكوراً وإناثاً ، مثل نبيينا محمد ﷺ ، ومنهم من يكون عقيماً لا ولد له مثل يحيى وعيسى عليهما السلام ، وهو سبحانه حكيم فى توزيعه ، عليم بما يناسب عباده ، قدير على كل شئ .

ومن أفضاله العظمى التفضل على عباده بالوحي ، بمعنى الإلهام ، كما فى الرؤيا المنامية ، والمعنى يقذفه فى قلب الأنبياء أو الأولياء ، أو يكلم الرسول من وراء حجاب كما حدث لموسى عليه السلام ، وكما حدث للنبي محمد ﷺ ليلة الإسراء ، أو يرسل جبريل بالوحي الجلى كما حدث فى نزول جبريل بوحي القرآن الكريم كله من أول القرآن إلى آخره ، ويسمى الوحي الجلى ، والقرآن كله نزل بهذا النوع ، والقرآن نور وروح وهداية إلى صراط الله المستقيم ، ويبد الله وحده مصائر العباد فى الدنيا والآخرة .

التفسير :

٤٩- لَلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ .

المُلكُ لله وحده ، هو سبحانه له ملك السماوات والأرض ، والخلق والعطاء ، والمال والذرية منه سبحانه ، فهو يهب لبعض الناس إناثاً فقط ، ويعطى بعض الناس ذكوراً فقط .

٥٠- أَوْ يَزُوجَهُمْ ذُرِّيًّا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ .

ويتفضل سبحانه على بعض عباده فيعطيه من الزوجين ، أى من الذكور والإناث ، فقد كان للنبي محمد ﷺ ذكور وإناث ، كان له : القاسم ، والطيب ويلقب بالطاهر ، وعبد الله ، وإبراهيم ، وكان له : فاطمة ، ورقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وكلهم من أم واحدة هى خديجة ، ما عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية التى

أهداهما إليه المقوقس عظيم القبط بمصر ، ولحكمة عليا يجعل الله بعض الرجال عقيما لا ولد له ، وبعض النساء عقيما لا ولد لها .

قال ابن كثير :

جعل الله تعالى الناس أربعة أقسام : منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين الذكور والإناث ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد ، فسبحان العليم القدير .

وقال البيضاوى :

والمعنى : يجعل أحوال العباد فى الأولاد مختلفة على مقتضى المشيئة ، فيهب لبعض إما صنفاً واحداً من ذكر أو أنثى أو الصنفين جميعاً ، ويعقم آخرين ، والمراد من الآية بيان نفاذ قدرته تعالى فى الكائنات كيف يشاء .

٥١- وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ .

سبب النزول :

ذكر غير واحد من المفسرين أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا ، كما كلمه موسى ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال ﷺ : «لم ينظر موسى إلى الله تعالى» .

الوحى نعمة من نعم الله على عباده ، وطريق إلى الهداية ، وفضل إلهى ترسله السماء إلى الأرض بواسطة ملك يختاره الله ليوحى إلى رسول مصطفى ومختار من عباد الله ، فما أجلبها من نعمة ، أن يتفضل الإله العلى الحكيم بإنزال هدايات السماء : ليهدى العباد إلى الصراط المستقيم .

الوحى

ذكر الوحى فى كتب علوم القرآن والتفسير على أنه الوسيلة التى يبلغ الله بها عباده التشريع والهداية ، بواسطة اختيار ملك كجبريل ينزل على رسول كمحمد ﷺ .

ثلاث طرق

تفيد الآية الكريمة أن ما يبلغه الله إلى عباده يتم عن طريق واحدة من ثلاث طرق :

الأولى : إلقاء المعنى فى قلب النبى ﷺ عن طريق رؤيا منامية ، كما حدث لإبراهيم عليه السلام ، حين أمره الله بذبح ولده إسماعيل ، وأحيانا يلقى المعنى فى قلب الرسول بقطة ، كما جاء فى صحيح ابن

حجاب عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا فى الطلب»^(٣٢).

الثانية: سماع الرسول كلام الله من وراء حجاب، بأن يسمعه الرسول من الله بدون واسطة، متيقناً أنه كلام الله من حيث لا يرى سبحانه وتعالى، كما كلم موسى عليه السلام، وسمى الله ذلك وحياً، فقال: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُرْسَى. (طه: ١٣)، وقال سبحانه: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا. (النساء: ١٦٤). وكان موسى قد طلب الرؤية بعد التكلم فحجب عنها.

قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. (الأعراف: ١٤٣).

الثالثة: أن يرسل الله تعالى ملكاً من الملائكة إما جبريل أو غيره، فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء الله أن يوحى إليه، كما كان جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة ينزلون على الأنبياء عليهم السلام، والقرآن الكريم جميعه نزل عن طريق الوحي الجلى فى هذه الصوة الثالثة، بواسطة جبريل عليه السلام يلتقاه عنه النبى محمد ﷺ متيقناً أن ذلك من عند الله، وهو وحى الله إلى رسوله ليبلغه إلى عباده.

قال تعالى: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ. (الشعراء: ١٩٣-١٩٥).

وقال تعالى: يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ... (المائدة: ٦٧).

وقال تعالى: وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ. (النجم: ٣-٧).

وقد أفاد النبى ﷺ أن الوحي كان يأتيه مثل صلصلة الجرس^(٣٣)، حيث يغيب النبى ﷺ عن حوله، ويتفرغ بروحه وكل شؤنه لاستقبال ذلك الوحي، فإذا انتهى الوحي عاد إلى من حوله، وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلم الرسول ﷺ، ويخبر الرسول ﷺ ما يقوله الملك.

قالت عائشة: ولقد رأيت النبى ﷺ ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليقتصد عرقاً، أى: يسيل عرقاً.

من تفسير ابن كثير :

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الرب جل وعلا ، فتارة يقذف فى روح النبى ﷺ وحيا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل .

وقوله تعالى : **أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ...** أى : كما كلم موسى عليه السلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحُجِب عنها .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضى الله عنهما : «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحا» (٣٥) ، كذا جاء فى الحديث ، وكان قد قتل يوم أحد ، ولكن هذا فى عالم البرزخ ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا .

وقوله عز وجل : **أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ...** كما ينزل جبريل عليه السلام ، وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . فهو على علم ، خبير حكيم .

من فتح القدير للشوكاني :

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...

يوحى إليه فيلهمه ويقذف ذلك فى قلبه ، كما أوحى إلى أم موسى ، وإلى إبراهيم فى ذبح ولده ، والوحي هو الإخبار بسرعة على وجه الخفية .

أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ... كما كلم موسى عليه السلام ، يريد أن كلامه يُسمع من حيث لا يرى .

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ...

أى : يرسل ملكا فيوحى ذلك الملك إلى الرسول من البشر بأمر الله وتيسيره ما يشاء أن يوحى إليه .
إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ .

أى : متعال عن صفات النقص ، حكيم فى كل أحكامه .

ثم إن هذه الأنواع من الوحي كلها قد حصلت للنبي ﷺ . ١٠ هـ .

(أ) أى أن الله قد قذف فى قلبه أن الإنسان لن يموت حتى يستوفى أجله وورقه .

(ب) وقد كلمه الله من وراء حجاب ليلة الإسراء والمعراج .

(جـ) وقد نزل جبريل على النبي ﷺ بالقرآن الكريم خلال ثلاثة وعشرين عاما من عمره الشريف ، حيث بدأ نزول الوحي عليه فى مكة وعمره أربعون عاما ، واستمر الوحي ينزل عليه ثلاثة عشر عاما فى مكة قبل الهجرة ، ثم نزل عليه الوحي عشرة أعوام بالمدينة ، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وعمره ثلاثة وستون عاما .

وما نزل من القرآن بمكة يسمى مكيا ، وما نزل بالمدينة بعد الهجرة يسمى مدنيا ، ونجد فى كتب علوم القرآن بحثا مستفيضة عن الوحي المبكى والمدنى ، المحكم والمتشابه ، فواتح السور ، كتابة القرآن فى الألواح ، وجمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق ، وكتابة القرآن الكريم على لغة قريش فى عهد عثمان ، والمصحف العثمانى نقطه وتشكيله ، وتجويد كتابته ، ووضع علامات الربع والحزب والجزء ، وعلامات الوقف والوصل والسجدة ، ووضع إطار حول كل صفحة ، واستمرار تحسين خط المصحف عبر العصور الإسلامية ، فالمصحف القرآنى أصدق وثيقة وأنقى نص عرفه التاريخ^(٢٧) ، لأن الله تعالى تعهد بحفظه فقال: **إِنَّا نَحْنُ نُحَفِّظُكَ وَالَّذِينَ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** . (الحجر: ٩) .

٥٢- **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مَنْ أَمْرًا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** .

ومثل ذلك الوحي الذى أوحى الله به إلى الرسل السابقين عليك أوحى الله إليك ، فلست بدعا من الرسل لقد أوحى الله إليك قرآنا مشتملا على روح الدين ، وعلى تشريع وعظاات وآداب وقصص وتاريخ ومشاهد للقيامه ، من شأن هذه الآداب أن تبعث الروح الصافية فى أجسام الأمة ، وأن تبث فيها اليقظة وعوامل القوة .

مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ...

ما كنت قبل الأربعين تعلم هذا الوحي القرآنى ، وما يشتمل عليه من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولقد كنت أميا فلم تقرأ كتب السابقين ، ولم تكن كاتبها حتى لا يظن مرتاب أنك نقلت هذا القرآن من الكتب السابقة ، وهذا شبيه بقوله تعالى : **وَمَا كُنْتَ تَقُولُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زُنَابَ الْمُبِطُونَ** . (العنكبوت: ٤٨) .

ومع هذا فقد حفظ الله محمدا ﷺ من دنس الجاهلية ، فلم يسجد لصنم قط ، ولم يشترك مع أهل الجاهلية فى لهوهم أو فجورهم ، وقد بغض الله إليه الأصنام ، ورياه فأحسن تربيته ، وصنعه على عينه ، وكذلك يحفظ الله أنبياءه ورسله من التلبس بأمر منهى عنه ، وفى القرآن الكريم شواهد متعددة على تركية الله تعالى لرسوله وحفظه له ، ورعايته يتيما وشابا ورسولا ومهاجرا ومجاهدا صلوات الله وسلامه عليه .

وَلَنَكِينٌ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ...

أنزلنا عليك الوحي من السماء ، وجعلناه نورًا يضيء للناس طريق الهداية ، وجعلنا القرآن وسيلة لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام وشرائعه وآدابه .

قال تعالى : وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ... (الإسراء : ٨٢) .

وقال عز وجل : يَتْلَاهَا أَنفَاسٌ قَدْ جَاءَكُم مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . (يونس : ٥٧)

فالقرآن مصدر هداية ، والرسول ﷺ مبلغ هذه الهداية ، وهو ممسك بمصباح الإسلام يدعو الناس إلى دين الله تعالى .

وَأِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

إنك يا محمد مصدر هداية ، وحامل لواء الوحي ، ومرشد لأمتك إلى هدى الإسلام ، وصراطه المستقيم ، وآدابه وأركانه وتشريعاته ، وما اشتمل عليه من قيم وأخلاق كانت مشعل نور للبشرية ، وسيلا لإخراج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

٥٣- صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

إنك أيها الرسول الكريم تهدي إلى صراط مستقيم ومنهج واضح ، وتحمل لواء النور والهدى ، هذا الصراط المستقيم الذى ترشد إليه هو طريق الله ومنهجه ، وهو سبحانه المالك الحقيقى لهذا الكون كله ، فهو مالك السماء وما فيها ، والأرض وما عليها ، وكان من دعاء النبی ﷺ عند النوم : «اللهم رب السماء وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، والشياطين وما أضلت ، كن لى جاراً من شرار خلقك عز جارك»^(٢٧) .

أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

إن أمور الخلائق جميعا ترجع إليه يوم القيامة ، وقد انتهت الوسائط والعلائق ، وقام الناس لرب العالمين ، وهو المطلع على النوايا والخفايا ، والمجازى والمكافئ ، وفى هذا وعد بحسن الجزاء للمؤمنين ، ووعيد بالعقاب للكافرين .

قال تعالى : يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلُهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٦-٨) .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الشورى

- ١ - إنزال الوحي على رسول الله ﷺ .
- ٢ - اختلاف الأديان ضرورى للبشر .
- ٣ - أصول الشرائع واحدة لدى جميع الرسل .
- ٤ - اختلاف المختلفين فى الأديان بغى وعدوان ، لأنه اختلاف بعد علم الحقيقة الناصعة .
- ٥ - إنكار نبوة محمد ﷺ بعد أن قامت الأدلة على صدقه .
- ٦ - استعجال المشركين لمجىء الساعة ، وإشفاق المؤمنين منها .
- ٧ - من يعمل للدنيا يؤت منها ، وما له حظ فى الآخرة ، ومن يعمل للآخرة يوفقه الله للخير ويضاعف له الثواب .
- ٨ - ينزل الله الرزق بحسب ما يرى من المصلحة .
- ٩ - من الأدلة على وجود الله تعالى خلق السماوات والأرض ، وجرى السفن فى البحار .
- ١٠ - ذكر لوحة هادفة وصورة ممتازة للمؤمنين ، فهم يتمتعون بصفات كريمة ، منها ما يأتى :
التوكل على الله ، البعد عن الكبائر ، ضبط النفس عند الغضب ، الاستجابة لأمر الله ، إقام الصلاة ،
الاعتماد على الشورى فى أمور الدولة وأمر الأسرة والمؤسسات .
- ١١ - جزاء السيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله .
- ١٢ - ليس على الرسول إلا البلاغ .
- ١٣ - أقسام الوحي إلى البشر .
- ١٤ - القرآن هداية ، والرسول ﷺ حامل مصباح الهداية .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الزخرف

أهداف سورة الزخرف

سورة (الزخرف) مكية ، نزلت بعد سورة (الشورى) ، وقد نزلت فى الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وقد سميت بسورة الزخرف لقوله تعالى فيها : **وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعُ الْحَيَّةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ** . (الزخرف : ٣٥) .

أفكار السورة

تعرض هذه السورة جانبًا مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب وعقبات ، ومن جدال واعتراضات ، وتعرض معها كيف كان القرآن الكريم يعالجها فى النفوس ، وكيف يقرر فى ثنايا علاجها حقائقه وقيمه فى مكان الخرافات والوثنيات والقيم الجاهلة الزائفة ، التى كانت قائمة فى النفوس إذ ذاك ، ولا يزال جانب منها قائمًا فى النفوس فى كل زمان ومكان .

قال الفيروزبَادى :

معظم مقصود سورة (الزخرف) هو : بيان إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل إبراهيم بإبقاء كلمة التوحيد فى عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة عبد الله بن الزبيرى للمؤمنين بحديث عيسى ، وادعاؤه أن الملائكة أحق بالعبادة من عيسى ، ثم بيان شرف الموحدين فى القيامة ، وعجز الكفار فى جهنم ، وإثبات ألوهية الحق سبحانه فى السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار^(١) ، فى قوله تعالى : **فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** . (الزخرف : ٨٩) .

فصول السورة

إذا تأملنا سورة (الزخرف) وجدنا أنه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ - شبهات الكافرين

يشمل الفصل الأول الآيات من (١ - ٢٥) . ويبدأ بالتنبؤ بشأن القرآن والوحى ، وبيان أن من سنة الله إرسال الرسل لهداية الناس وإرشادهم ، ولكن البشرية قابلت الرسل بالاستهزاء والسخرية ، فأهلك الله المكذابين .

والعجيب أن كفار مكة كانوا يعترفون بوجود الله ، ثم لا يرتبون على هذا الاعتراف نتائجها الطبيعية ، من توحيد الله وإخلاص التوجه إليه ، فكانوا يجعلون له شركاء يخصونهم ببعض ما خلق من الأنعام .

وفى هذه السورة تصحيح لهذه الانحرافات الاعتقادية ، ورد النفوس إلى الفطرة ، وإلى الحقائق الأولى ، فالأنعام من خلق الله ، وهى طرف من آية الحياة ، مرتبط بخلق السماوات والأرض جميعاً ، وقد خلقها الله وسخرها للبشر ليعتدوا بهم ، ويشكروها ، لا ليجعلوا له شركاء ، ويشرعوا لأنفسهم فى الأنعام ما لم يأمر به الله ، بينما هم يعترفون بأن الله هو الخالق المبدع ، ثم هم ينحرفون عن هذه الحقيقة ، ويتبعون خرافات وأساطير : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . (الزخرف : ٩) .

وكانت الوثنية الجاهلية تقول : إن الملائكة بنات الله ، ومع أنهم يكرهون مولد البنات لهم ، فإنهم كانوا يختارون لله البنات ، ويعبدونهم من دونه ، ويقولون : إننا نعبدكم بمشيئة الله ، ولو شاء ما عبدناهم !! وكانت مجرد أسطورة ناشئة عن انحراف العقيدة .

وفى هذه السورة يناقشهم بمنطقهم هم ، ويحاجهم كذلك بمنطق الفطرة الواضح ، حول هذه الأسطورة **التي لا تستند إلى شيء على الإطلاق : وَجَعَلُوا لَكَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَيِّنِ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مَنْ يَشْعُرُ فِي الْآلِحَةِ وَهُوَ فِي الْإِحْصَاءِ غَيْرٌ مُبِينٌ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّهَا آفَهُدُوا عَلَيْهِمْ فَسَوَّغُوا لَهُمْ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ . (الزخرف : ١٥ - ١٩) .**

ثم يكشف القرآن عن سندهم الوحيد فى اعتقاد هذه الأسطورة ، وهو المحاكاة والتقليد ، وهى صورة زرية تشبه صورة القطيع يمشى حيث يُساق بدون تفكير .

ثم يبين القرآن أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة ، وحجتهم مكررة بدون تدبر لما يلقى إليهم ولو كان أهدى وأجدى ، ومن ثم لا تكون عاقبتهم إلا التدمير والتنكيل ، انتقاماً منهم وعقاباً لهم : وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أَمْرٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ * قُلْ أَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ بِأَهْلِكُمْ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ . (الزخرف : ٢٣ - ٢٥) .

٢ - مناقشة ومحاكاة

تشتمل الآيات من (٢٦ - ٥٦) على القسم الثانى من السورة ، وهو استمرار لمناقشة قريش فى دعاواها ، فقد كانت قريش تقول إنها من ذرية إبراهيم - وهذا حق - وإنها على ملة إبراهيم - وهذا ادعاء باطل - فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد قوية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ومن أجلها هجر أباه وقومه بعد أن تعرض للقتل والتحريق ، وعلى التوحيد قامت شريعة إبراهيم ، ثم أوصى بها ذريته وعقبه ، فلم يكن للشرك فيها أى خيط رفيع .

وفى هذا القسم من السورة يردهم إلى هذه الحقيقة التاريخية ، ليعرضوا عليها دعاوهم التى يدعون ، ثم يحكى اعتراضهم على رسالة النبى ﷺ وقولهم : **لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ** . (الزخرف : ٢١) ، ويناقش قولتهم هذه ، وما تنطوى عليه من خطأ فى تقدير القيم الأصيلة التى أقام الله عليها الحياة ، والقيم الزائفة التى تتراءى لهم ، وتصدهم عن الحق والهدى ، وعقب تقرير الحقيقة فى هذه القضية يطلعهم على عاقبة المعرضين عن ذكر الله ، بعد أن يطلعهم على علة هذا العمى ، وهو من وسوسة الشيطان .

ويلتفت فى نهاية هذا الدرس إلى الرسول ﷺ يسليه ويواسيه عن إعراضهم وعماهم ، فما هو بهادى العمى أو مسمع الصم وسيلقون جزاءهم ، سواء شهد انتقام الله منهم ، أو أخره الله عنهم ، ويوجهه إلى الاستمساك بما أوحى إليه فإنه الحق الذى جاء به الرسل أجمعون ، فكلهم جاءوا بكلمة التوحيد .

ثم يعرض من قصة موسى عليه السلام حلقة تمثل هذا الواقع من العرب مع رسولهم ، وكأنما هى نسخة مكررة تحوى ذات الاعتراضات التى يعترضون بها ، وتحكى اعتزاز فرعون وملئه بذات القيم التى يعتز بها المشركون : المال ، الملك ، الجاه ، السلطان ، مظاهر البذخ ، وقد بين القرآن فيما سبق أنها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، ولو شاء الله لأعطى هذه الأموال للكافر فى الدنيا لهوانها على الله من جهة ، ولأن هذا الكافر لا حظ له فى نعيم الآخرة من جهة أخرى ، ولكن الله لم يفعل ذلك حتى لا يفتن الناس ، وهو العليم بضعفهم ، ولولا خوف الفتنة لجعل للكافر بيوتاً سقفها من فضة ، وسلالها من ذهب ، بيوتاً ذات أبواب كثيرة ، وقصوراً فيها سرر للالتكاء ، وفيها زخرف للزينة .. رمزاً لهوان هذه الفضة وهذا الذهب والزخرف والمتاع ، بحيث تبذل هكذا رخيصة لمن يكفر بالرحمن .

وهذا المتاع الزائل لا يتجاوز حدود الدنيا ، ولكن الله يدخر نعيم الآخرة للمتقين .

٣ - من أساطير المشركين

تشمل الآيات من (٥٧ - ٨٩) الدرس الأخير في سورة (الزخرف)، وفيها يستطرد السياق إلى حكاية أساطير المشركين حول عبادة الملائكة، ويحكى حادثاً من حوادث الجدل الذي كانوا يزاولونه، وهم يدافعون عن عقائدهم الواهية، لا بقصد الوصول إلى الحق، ولكن وراء ومحالاً.

فلما قيل: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، وكان القصد هو أصنامهم التي جعلوها تماثيل للملائكة، ثم عبدوها بذاتها، وقيل لهم: إن كل عابد وما يعبد من دون الله في النار، لما قيل لهم هذا ضرب بعضهم المثل بعيسى ابن مريم - وقد عبده المنحرفون من قومه - أهو في النار؟ وكان هذا مجرد جدل، ومجرد مراء.

ثم قالوا: إذا كان أهل الكتاب يعبدون عيسى وهو بشر، فنحن أهدى منهم إذ نعبد الملائكة وهم بنات الله، وكان هذا باطلاً يقوم على باطل.

وبهذه المناسبة يذكر السياق طرفاً من قصة عيسى ابن مريم، يكشف حقيقته وحقيقة دعوته، واختلاف قومه من قبله ومن بعده.

ثم يهده المنحرفين عن سواء العقيدة جميعاً بمجيء الساعة بغتة، وهنا يعرض مشهداً مطوّلاً من مشاهد القيامة، يتضمن صفحة من النعيم للمتقين، وصفحة من العذاب الأليم للمجرمين، ثم بين إحاطة الله بجميع ما يصدر منهم، وتسجيل ذلك عليهم: أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ. (الزخرف: ٨٠).

ثم تلتف القرآن في تنزيه الله عما يصفون، فأمر النبي ﷺ أن يذكر لهم أنه لو كان للرحمان ولد لكان النبي أول العابدين له، ولكن الله منزّه عن اتخاذ الولد، فهو سبحانه له الملكية المطلقة للسماء والأرض والدنيا والآخرة.

ثم يواجههم القرآن بمنطق فطرتهم، فهم يؤمنون بالله فكيف يصرفون عن الحق الذي تشهد به فطرتهم، ويحيّدون عن مقتضاه: وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ. (الزخرف: ٨٧).

وفي ختام السورة يعظم من أمر اتجاه الرسول ﷺ لربه، يشكو إليه كفرهم وعدم إيمانهم: وَقِيلَ لِلرَّبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ. (الزخرف: ٨٨).

ويجيب عليه في رعاية، فيدعوه إلى الصفع والإعراض، فسيلقون جزاءهم المحتوم: فَأَصْحَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ. (الزخرف: ٨٩).

القرآن عرَبِيّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣
وَلَئِنَّ فِيَ أُولَٰئِكَ لَكِتَابٍ لَّدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا
أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يُلِيهِمْ
مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ
الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

المفردات :

حـــــم : حروف للتنبيه ، أو للتحذير والإعجاز .

والكتاب المبين ، والقرآن الواضح .

تَعْقِلُونَ : تفهمون آياته وتدبرونها .

أَمْ الْكِتَابِ : اللوح المحفوظ ، فإنه أصل الكتب السماوية ، وهو كناية عن علم الله القديم .

لَدِينَا : عندنا .

لَعَلِّي : لرفيع المنزلة ، عظيم القدر .

حَكِيمٌ : محكم لا ينسخه غيره ، أو ذو حكمة بالغة .

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ : أنهلكم ونبعد عنكم .

الذِّكْرُ : القرآن الكريم ، والذكر بمعنى الشرف ، والقرآن شرف للعرب .

صَفْحًا : إعراضاً عنكم ، وصفحاً مصدر : صفح عنه يصفح ، أى : ولأه صفحة عنقه ، بمعنى أهمله وتركه .

أَنْ كُنْتُمْ : لأن كنتم .

مُسْرِفِينَ : مجاوزين الحد في الكفر والضلال .

وَكَمْ أَرْسَلْنَا : كم يراد بها هنا التكاثر ، أى : أرسلنا رسلاً كثيرين .

فى الأوليين ، فى الأمم السابقة ، كنوح وهود وصالح .

بطشاً ، شدة وعنفًا .

مضى مثل الأولين ، سبق فى القرآن أحاديث إهلاكهم ، أو سنة الله هلاك الظالمين .

تمهيد :

تحدث الآيات عن عظمة القرآن ، واشتماله على الذروة العليا فى الأخلاق والتشريع والآداب والحكمة ، وتهدد بسحب القرآن عنهم لكفرهم وعنادهم ، وتبين سنة الله فى رأفته بعباده ، ورحمته بهم ، حيث أرسل رسلاً كثيرين ، مبشرين ومنذرين ، لكن البشرية وقفت فى وجههم ، عناداً وكبراً وسخرية ، ومن سنة الله أن يمهل المكذبين ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، كما فعل مع قوم نوح وعاد وثمود وفرعون ، وقد كان هؤلاء أعظم وأقوى من أهل مكة ، وكان هلاكهم سنة من سنن الله تعالى فى إهلاك المكذبين بعد تعنتهم وصلغهم ، فأحرى بأهل مكة أن يعتبروا بذلك .

التفسير :

١ - حم .

حروف مقطعة تنطق : حاميم ، وهى أدوات للتنبيه كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة ، أو هى حروف للتحدى والإعجاز وبيان أن القرآن مكوّن من حروف عربية تنطقون بها وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد ، وفى أول سورة البقرة تفصيل وإفٍ لمعانى الحروف المقطعة فى فواتح السور .

٢ - وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ .

والواو هنا للقسم ، أى : وأقسم بالقرآن الواضح البيان .

٣ - إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

أنزلنا القرآن وجعلناه بلغة العرب ، ليفهموا أحكامه ، ويسترشدوا بهديه ، ويستضيئوا بنوره ، حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، فيسعدوا بهذا الكتاب ، ويحملوا دين الإسلام إلى من حولهم من الأمم .

٤ - وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّى حَكِيمٌ .

وإن القرآن الكريم مثبت عندنا فى اللوح المحفوظ ، فهو كلام الله القديم المحفوظ من التغيير والتبديل ، وهو كتاب عالى القدر ، مشتمل على التشريع والآداب ، وقصص الأولين ، وهدايات السماء ، وأخبار

القيامة، وهو مشتمل على الحكمة فى أسلوبه ومعناه ، فلا اختلاف فيه ولا تناقض ، أو هو مهيمن على الكتب السابقة ، يؤيد السليم منها ، ويوضح الدُّخيل عليها ، وقد تكفل الله بحفظه .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ . (الحجر : ٩) .

وقال تعالى : إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مُّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

(الواقعة : ٧٧ - ٨٠)

وقال سبحانه وتعالى : كَلِمَةٌ أَنْتَ تَذَكَّرُهَا * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * رُّفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ . (عبس : ١١ - ١٦) .

٥ - أَفَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ مُسْرِفِينَ .

كان أمراً عجباً أن ينزل قرآن عربى مبين ، على حكيمة ، ثم يقابل بالإعراض والصدود من كفار مكة ، لذلك يلوح القرآن هنا بالتهديد بأن يمسك الله عن استمرار نزول القرآن عليهم ، بسبب إصرارهم فى الكفر والتكذيب .

لكنه تعالى - تفضلاً منه - واصل إنزال القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ ، ليكون مصدر هداية للمؤمنين ، وأداة إرشاد للمستترشدين ، ولتقوم الحجة على الأشقياء الكافرين .

قال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رفع حين رُدُّته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله رُدَّده وكرره عليهم برحمته .

٦ - وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى الْأَوَّلِينَ .

أرسلنا رسلاً كثيرين فى الأمم السابقة عليكم ، رغبة فى هداية البشرية وإرشادها إلى الإيمان بالله ، والاهتداء بهدى السماء .

٧ - وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

لقد وقفت الأمم من رُسُلها موقف التكذيب والاستهزاء بالرسالة ، مع أن فيها الخير والنور والشفاء ، أى : فكذبت كل أمة رسولها واستهزأت به ، فحق عليها العذاب .

٨ - فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَنَّى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ .

فأهلكنا المكذبين للرسول ، وقد كانوا أشد قوة من أهل مكة ، وتلك سنة الله التى لا تتبدل ولا تتغير ، وهى أن يهلك المكذبين وقتاً ما ، علَّهم أن يعتبروا أو يتوبوا ، وقد أعذر من أنذر ، فإذا نزل العذاب كان قاصماً للظهور .

قال تعالى: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . (البروج: ١٢) .

وقال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . (محمد: ١٣) .

وقال سبحانه وتعالى: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبَلَدِ * فَأَكْفَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ صَادٍ . (الفجر: ٦ - ١٤) .

من تفسير القاسمي

وَمَضَى مِثْلَ الْأَوَّلِينَ .

أى: سلف فى القرآن فى غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم فى تكذيبهم وتعذيبهم ، وما مثلناه بهم ، أى: فليتوقع هؤلاء المستهزون من العقوبة مثل ما حل بسلفهم . ا هـ .

وجاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال مجاهد : وَمَضَى مِثْلَ الْأَوَّلِينَ . سنتهم .

وقال قتادة : عقوبتهم .

وقال غيرهما : عبرتهم ، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم ، كقوله تعالى: فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ . (الزخرف: ٥٦) .

وكقوله جلّت عظمتة : سُنَّتِ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ... (غافر: ٨٥) .

خلق الله

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ①
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ②
 وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشُرَنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ③
 وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمُ مِنَ الْفَلَائِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكِبُونَ ④ لِيَسْتَوُوا عَلَى
 ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا
 وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ⑤ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ⑥﴾

المفردات :

العزیز، الذي لا يقهر، أو الذي لا نظير له .

مهـداً، فراشاً، وأصله : موضع فراش الصبي .

سبـلًا، واحداً سبيل، وهي الطريق .

يقـدر، بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة .

فأنـشـرنا، أحيينا .

مـيـتاً، خالية من النبات فهي كالـميت .

تـخـرجون، تبعثون وتنشرون من قبوركم .

الـأزواج : أصناف المخلوقات .

الـفلـك، السفن .

لـيـسـتـووا، لتستقروا .

سـخـر، ذلل وطوع .

مـقـرـنين، أي : مطيقين، قال عمرو بن معدى كرب :

لقد علم القبائل ما عقيل

لنا في النائيات بمقـرـنينـا

لمنقلبون، راجعون .

تمهيد :

تذكر الآيات مظاهر القدرة الإلهية ، وتعدد ألوان النعم من الله على عباده ، وقد كان العرب على ملة إبراهيم ، فإذا سئِلوا من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، لكنهم لطول المدة ، ولعدم وجود نذير أو رسول فى مدة طويلة جهلوا صفات الله ، وصارت قضية التوحيد غائمة غير ثابتة ولا أصيلة ، وهنا يذكر القرآن لهم عددًا من صفات الله ، وجانبًا من نعمائه :

(أ) قاله هو العزيز الغالب ، وهو العليم بكل شيء .

(ب) وهو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقًا لتهتدوا بها فى سيركم .

(ج) أنزل المطر من السماء ، فأحيا به الأرض الهامدة .

(د) خلق الأزواج من الإنسان والحيوان والنبات ، وسخر السفن والأنعام للركوب ونقل المتاع وغير ذلك .

(هـ) وعند ركوب الحيوان نذكر الله وننزهه عن الشبيه والنظير ، ونقول : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا لركوبه مطيقين ولا قادرين .

(و) وإنا راجعون إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

التفسير :

٩ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ .

كان العرب على ملة إبراهيم فى توحيد الله ، فإذا سأَلهم سائل : من خلق السماوات والأرض ؟ قالوا بمتطق الفطرة : خلقهن الله .

الْعَزِيزُ . الغالب الذى لا نظير له .

الْعَلِيمُ . بكل شيء من أمور المخلوقات ، وهذه قضية لا يستطيع العقل السوى أن ينكرها ، فلم يدَّع أحد أنه خلق السماوات والأرض ، وليس من المعقول أن تكون خلقت نفسها ، فليس لها خالق إلا الله .

١٠ - أَلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا تَعْلَمُونَ .

الذى جعل الأرض ممهدة للسير ، وأرماها بالجيال حتى لا تضطرب من تحتكم ، وجعل الأرض مكانًا مريحًا لحياتكم وراحاتكم ، وطعامكم وشرايبكم ، فهى لكم كالأم الرءوم ترعى طفلها فى مهده .

وَجَعَلْ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا تَعْلَمُونَ .

وجعل لكم فى الأرض طرقاً تسلكونها بين الجبال والأودية لعلكم تهتدون بسبب هذه الطرق فى سيركم من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، أو لتتفكروا فى ذلك ، فيهديكم تفكيركم إلى توحيد الخالق وتمجيده .

١١ - وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ .

والله الذى أنزل من السماء ماءً بتقدير حكيم ، حتى لا يزيد كالطوفان فيغرق الناس ، أو يطفئ البلاد ، وكذلك حتى لا ينقص فلا يفى بالمطلوب من إنبات النبات ، وسقى الزرع والإنسان والحيوان ، بل أنزل سبحانه مطراً بتقدير حكيم ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، فالأرض الهامدة الجافة القاحلة عند نزول المطر ووضع البذور ، تخرج البذور إلى سطح الأرض كأنها أطفال صغار ، ثم تنتشر الخضرة وينمو النبات ويتفرع ، وتدب الحياة على وجه الأرض ، فالذى أحيا هذه الأرض بالماء والنبات ، قادر على البعث والحشر ، وإخراج الموتى من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية .

١٢ - وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ .

خلق الله الأزواج - أى الذكر والأنثى - فى الحيوان والنبات والإنسان ، بل والسحاب ، حتى الذرة فيها موجب وسالب ، وبذلك يعمر الكون بسبب فضل الله العلى القدير ، فالهواء فيه أكسجين وأدروجين ، وفى الأرض جاذبية تجذب الهواء ليستنشق منه الإنسان ، وعلى الأرض أسباب متعددة فى الأرزاق وسائر النعم ، كالماء والأكل والهواء والتنفس ، فضلاً عن السمع والبصر والهداية ، وسائر ما خلق الله فى هذا الكون لمتعة الإنسان حتى تتم كرامته ، كما قال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ السَّمَكِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . (الإسراء : ٧٠) .

ومن تلك النعم : تسخير السفن لتحميل التجارة والإنسان ، وتسخير الحيوانات وتذليلها لتحمل الإنسان وتحمل أمتعته ، ولتكون وسيلة للمتعة والجمال والراحة .

١٣ - لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ .

أى : إذا ركبت السفينة تأملتم فى نعمة ربكم الذى سخر البحر والسفن لنا حتى نقول : بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُسَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (هود : ٤١) .

وإذا ركبتم الدابة أو السيارة أو الطائرة أو أشباه ذلك قلتم : **سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

وروح النص تفيد أن الإنسان عندما يستقر على ظهر السفينة ، أو على ظهر الدابة يذكر الله تعالى ، ويشكر أنعمه التي لا تحصى ويقول : **سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** * **وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** .

ومثل هذا الدعاء يقوله المؤمن عند ركوب المصعد إلى الأدوار العليا ، والسيارة والطيارة ؛ لأن هذا التسخير يذكرنا بأفضال الله علينا .

١٤ - **وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** .

وإننا راجعون إلى الله ، ومصيرنا إليه .

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

جاء في حاشية شيخ زادة على تفسير البضاوى ما يأتي :

وليس المراد من ذكر النعمة تصوّرها وإخطارها في البال ، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم ، مستدعية لطاعته وشكره ، فإن من تفكّر في أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام أكثر قوة وأكبر جثة من راحته ، ومع ذلك كان مسخرًا لراحته ، يتمكن من تصريفه إلى أى جانب شاء ، وتفكّر أيضًا في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال ، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه ، وكمال قدرته وحكمته ، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله : **سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** * **وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** .

من تفسير ابن كثير

ذَكَرَ الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة :

حديث عبد الله بن عمر :

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : **إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَكِبَ رَاحِلَتَهُ كَبَّرَ هَلَاثًا ، ثُمَّ قَالَ : سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ** * **وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ** . ثم يقول : «اللهم إني أسألك في سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ ، وَاطْوِلْ لَنَا الْبَعْدَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا ، وَاخْلُقْنَا فِي أَهْلِنَا» .

وكان ﷺ إذا رجع إلى أهله قال : «آيِبُونَ تَائِبُونَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»^(٣٨) .

من تفسير فخر الدين الرازي

هناك أذكار ثلاثة ما ينبغي لعبد أن يدع قولها ، وليس بواجب ذكرها في اللسان ، وهى :

دعاء السفر فى البحر : بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَسَهَا وَمُرْسَلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . (هود : ٤١) .

ودعاء السفر فى البر . سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ .

ودعاء دخول المنازل : رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ . (المؤمنون : ٢٩) .

★ ★ ★

عبادة المشركين للملائكة

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشُرُونَ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَنْتُمْ نَسَبًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ أَثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولَٰئِكَ ثَكُلٌ فَأَعْبُدُوا عَالِيَهُمْ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَكَ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْقَسَا مِنْهُمْ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

جُزْءًا : ولذا ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وعبر عن الولد بالجزء لأنه بضعة ممن ولد له ، كما

قال شاعرهم :

إنما أولادنا أكبا

لنا تمشى على الأرض

لَكَـظُورٍ، لَشَدِيدِ الْكَفْرِ .

مَبِينٍ، ظَاهِرِ الْكَفْرِ .

أَصْنَاكُم، أَكْرَمَكُم، وَاخْتَارَ لَكُم .

بُشْرًا، أَخِيرَ .

مِثْلًا، شَبِيهَا، أَيْ : مِثَابَهَا ، بِنَسْبَةِ الْبَنَاتِ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْوَلَدَ يَشَبُهْ الْوَالِدَ .

كَظِيمٍ، مَمْتَلئٍ غَيْظًا وَغَمًّا .

يُنْشَأُ، يَرَى .

فِي الْحَالِيَةِ، فِي الزَّيْنَةِ .

الْخَصَامَ، الْجِدَالَ .

غَيْرِ مَبِينٍ، غَيْرِ قَادِرٍ عَلَى إِظْهَارِ حُجَّتِهِ .

جَعَلُوا، سَمَوْا .

أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ، أَحْضَرُوا خَلْقَ الْمَلَائِكَةِ فَشَاهَدُوهُمْ إِنَّا نَا ؟

سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ : سَتَسْجَلُ فِي دِيْوَانِ أَعْمَالِهِمْ .

يَخْرُصُونَ، يَكْذِبُونَ .

مَسْتَمْسِكُونَ، مَتَمْسِكُونَ وَمَعُولُونَ .

عَلَى أَمَةٍ، عَلَى طَرِيقَةٍ خَاصَةٍ .

مَتَرَفُوهَا، أَهْلَ التَّرَفِ وَالنِّعْمَةِ الَّذِينَ أَبْطَرَتْهُمْ الشَّهَوَاتُ .

مَقْتَتِدُونَ، سَالِكُونَ طَرِيقَهُمْ .

تَمْهِيدٌ :

اعترف الكفار بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض ، ومع هذا الاعتراف كانوا يعتقدون في

أسطورة كاذبة ، هي أن الله تعالى تزوج من سراة الجن فأنجب الملائكة ، وأن الملائكة إناث ، وهنا يناقش

القرآن هذه الأسطورة ، ويفنّدها بثلاثة أجوبة :

(أ) فهم ينفرون من الإناث ، ثم ينسبونهن لله .

(ب) ضعف الإناث .

(جـ) جهلهم بحقيقة الملائكة .

ثم هم يدعون أنهم يغيبون الملائكة بمشيئة الله ، وهذا كذب : لأن الله أعطاهم العقل والإرادة والاختيار ، ورسم لهم الطريق المستقيم ودعاهم إلى سلوكه ، إنهم لا يملكون حجة ولا دليلاً على سلوكهم ، وكل ما يملكونه أو يعتمدون عليه هو تقليد الآباء والأجداد ، وهنا يصيح فيهم : أتقلدون الآباء حتى لو جاءكم الرسل بالهداية والإيمان والطريق المستقيم ؟ وهنا يجيبون : نحن كافرون بهداية الرسل كما كفر من قبلنا ، وهنا يقول القرآن ما فحواه : لقد انتقمنا ممن كفر قبلكم ، فاحذروا وتنبهوا .

التفسير :

١٥ - وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ .

فى الآيات السابقة اعترفوا بأن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ، ومع هذا الاعتراف له بمقام الألوهية ، وهذا يقتضى تنزيه الله عن النظير وعن المثل ، وأن الخلق جميعاً عباده ، إلا أنهم نسبوا الملائكة إليه ، وقالوا : الملائكة بنات الله ، وهذا كفر واضح ، فالخلق جميعاً عبيده ، فلا يجعل جزءاً منهم بناته .

قال تعالى : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * بَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى . (النجم : ٢١ ، ٢٢) .

فهو سبحانه يناقشهم بمنطقهم ، ويفهمهم ، بأنه هو الخالق المبدع ، وعلى فرض أنه أراد أن يتخذ ولداً لاصطفى لنفسه الأفضل من الذرية ، وهم الذكور .

قال تعالى : لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ، هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . (الزمر : ٤) .

أخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال ناس من المنافقين : إن الله صاهر الجن ، فخرجت من بينهم الملائكة ، فنزل فيهم : وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ... (الزخرف : ١٩) .

والخلاصة : إن الإله سبحانه وتعالى منزّه عن الصاحبة والولد ، وهو واحد متفرد بالملك .

قال تعالى : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلَىٰ وَكَثْرَةُ تَكْبِيرِهِ . (الإسراء : ١١١) .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ .

إن جنس الكافر يعتقد اعتقادات باطلة ، وهى كفر واضح ، حيث تنسب لله تعالى ما لا يليق .

قال تعالى : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . (الإخلاص : ١ - ٤) .

١٦ - أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ .

أتجعلون لله ما تكرهون ، وتدعون أن الله جعل لنفسه الجنس الأقل ، وهو البنات ، وميزكم واختار لكم البنين مع أنكم تكرهون لأنفسكم البنات ، وتفضلون الذكور الذين يركبون الخيل ، ويدافعون عن القبيلة .

١٧ - وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ .

وإذا أخبر أحد هؤلاء بأنه قد ولدت له أنثى ، اكفهر وجهه ، واشتد به الحزن والغبط ، لمعرفته أنه قد ولدت له أنثى ، ومع ذلك ينسب لله الإناث ، أى : كيف تجعلون لله تعالى الصنف الذى تكرهونه لضعفه ، وقلة حيلته واحتياجه إلى الحيلة والزينة .

١٨ - أَوْ مَنْ يُثْبِتُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ .

أتنسبون إلى الله تعالى البنات اللاتى يحتجن إلى الزينة والذهب والثياب الجميلة ، وهن وديعات رقيقات لا يستطعن أن يبرعن فى الجدال والخصام ، ولا أن يقدمن حجة قوية بيّنة .

روى عن عمر أنه قال : اخشوشنوا فى الطعام ، واخشوشنوا فى اللباس ، وتمعددوا .

أى : تزيوا بزي معد فى تقشفهم .

ويقول الشاعر العربى :

كعب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذبول

١٩ - وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّتَا آهْلُدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

أى : اعتقدوا أن الملائكة إناث مع أنهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، فهم نسبو الملائكة - الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - للأنثى .

آهْلُدُوا خَلْقَهُمْ ...

أحضرنا وقت خلق الله لهم ، حتى عرفوا أنهم إناث ؟ وهذا تجهيل وتهكم بهم .

سَتُكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

سيسجل الكتبه من الملائكة أقوالهم واعترافاتهم التى يلقونها جزافاً ، دون أى سند من اليقين ، وسيسألون عنها يوم القيامة .

قال المفسرون : حكى القرآن عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة :

الأول : أنهم نسبوا إلى الله الولد .

الثاني : أنهم نسبوا إليه البنات دون البنين .

الثالث : أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان ، فكذبهم القرآن الكريم فى تلك الأقوال .

لطيفة

روى أن بعض العرب وضعت امرأته أنثى فجهز البيت الذى ولدت فيه ، وجلس فى بيت زوجته الأخرى ، فاحتالت زوجته لاستمالة زوجها ، وأخذت تغنى وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا	يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا	وليس لنا من أمرنا ما شينا
وانما نأخذ ما أعطينا	ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد غرسوا فينا	

٢٠ - وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

ذكرنا أن هؤلاء الكفار أخطأوا خطأ مركباً :

(أ) فقد جعلوا لله ولداً .

(ب) واختاروا له الصنف الأضعف .

(ج) وجعلوا الملائكة - وهم عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون - جعلوهم إناثاً .

(د) وادعوا كذباً أن الله أراد منهم ذلك ، ولو شاء لمنعهم من عبادتهم .

وقد كان العرب يصورون الأصنام ، التى هى على صور الملائكة ، ويدعون أنها بنات الله ، ويدعون أن الله عالم بذلك ، وهو يقرهم على هذا العمل ولو شاء لمنعهم .

فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ ، ذلك أن الله أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وأرشد البشرية إلى عبادته وحده سبحانه لا شريك له .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْ اِلَيْهِ اِنَّهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدْنِىْ . (الانبيا : ٢٥) .

وقد أعطى الله كل إنسان العقل والإرادة والاختيار ، وجعل سلوكه سبباً فى تحمله المسئولية يوم القيامة ، فلا يجوز إلقاء المسئولية على مشيئة الله تعالى .

وقريب من ذلك قوله سبحانه وتعالى : وَإِذَا قُلُّواْ فَاجْثِرُواْ قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهِآٓءِآبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ . (الأعراف : ٢٨ - ٣٠) .

وقال تعالى فى هذه الآية :

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ...

ليس لهم فى قولهم دليل ولا برهان ولا معرفة ، بما ينبغي لجلال الله وقدره ، من عبادته وحده لا شريك له .

إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

ما هم إلا كاذبون فيما قالوا ، متمطلون تمحلاً باطلاً ، متقولون على الله ما لم يقله .

القرطبى فى تفسير الآية :

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ...

وهذا منهم كلمة حق أريد بها باطل ، فكل شىء بإرادة الله ، والمشيئة غير الرضا ، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة ، فإنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام ، لعلمنا أن الله أراد منهم ذلك . ١ هـ .

وقال الشوكانى فى تفسير الآية :

وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ...

معناه أن الكفار قالوا : لو شاء الرحمن فى زعمكم أيها المؤمنون ، ما عبدنا هذه الملائكة ، وهذا كلام حق يراد به باطل ، لأنهم يريدون بذلك أن الله راضٍ عن عبادتهم للأصنام .

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ...

وزعموا أنه إذا شاء فقد رضى .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .

أى : ما هم إلا يكذبون فيما قالوا ، ويتمحلون تمحلاً باطلاً ، فإن الله خلق المؤمن والكافر ، وهو يحب المؤمن ، ويبغض الكافر ، والله يأمر بالحق والإيمان والخير ، ولا يرضى لعباده الكفر .

٢١ - أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ .

أى : أأعطيناهم كتاباً من قبل هذا القرآن ، ينطق بصحة ما يدعون ، فهم بذلك الكتاب مستمسكون وعليه معولون .

والخلاصة : إنهم لا كتاب لهم بذلك ، ولا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل .

كما قال سبحانه وتعالى : أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُمْ يَنْكُرُهُمْ كَمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ . (الروم : ٣٥) .

أى : لم يكن لهم ذلك .

٢٢ - بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ .

أى : إنهم لا يملكون كتاباً ولا حجة ، ولا دليلاً نقلياً ولا عقلياً ، وقد تركز قولهم فى أنهم نشأوا فوجدوا آباءهم الأقدمين على طريقة وملة فى الدين ، هى عبادة هذه الأصنام ، فساروا وراء هديهم ، إعظاماً لهم وإكباراً لهم .

قال أبو السعود :

والأمة : الدين والطريقة ، سميت أمة لأنها تؤم وتُقتصد .

وقال الشوكانى فى تفسير الآية :

٢٣ - وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ قَبْلِهَا إِلَّا قَالَ مُتَرَفِّهُنَّ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ...

أى : على عادة تعودها ، وطريقة ساروا عليها فى عبادتهم لهذه الأصنام .

وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ .

فاعترفوا بأنه لا مستند لهم ولا حجة بأيديهم ، ولا شبهة ولكنهم اتبعوا آباءهم فى الضلالة .

مُقْتَدُونَ . متبعون .

وفى الآيات تسليية للرسول ﷺ ببيان ما حدث للرسول من قبله ، وبيان أن تكذيب الرسل حدث من الرؤساء والمترفين ، إيثارة للعاجلة على الآجلة .

قال تعالى : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * اتَّوَاصُوا بِبَلٍ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ . (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣) .

قال المفسرون :

وتخصيص المترفين بالذكر للإشعار بأن الترف هو الذى أوجب البطر ، وصرفهم عن النظر إلى التقليد .

٢٤ - قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِئُوا لِمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ .

أى : قال كل رسول لقومه : أتتبعون ملة آبائكم ، وتتقنون بالسابقين ، ولو قدمت لكم ديناً أهدى ، وشرعاً أقوم ، وملة أفضل مما وجدتم عليه آباءكم ؟ فصرحوا له بأنهم كافرون برسالته ، مهما كان فيها من هدى وأفضلية .

٢٥ - فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب ، فتأمل أيها الرسول كيف كانت عاقبة المكذبين ، وسوف يلاقى قومك مثل جزائهم إن أصرؤا على الكفر ، فلا تحزن عليهم .

اختيار الأنبياء ، وبيان حال الدنيا

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَقًّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمَرُ يَقْسَمُونَ رَحِمْتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلٌّ ذَلِكٌ لَّمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

المقررات :

براء : برىء وبعيد ، أى : تبرأ إبراهيم من عبادة الأصنام .

فطرني : خلقني وأبدعني .

كلمة باقية : كلمة التوحيد أو البراءة .

فى عقبه : ذريته إلى يوم القيامة .

الحق : القرآن .

ورسول مبين : ورسول ظاهر الرسالة بما له من المعجزات الباهرة .

من الفريقين : من إحدى الفريقين : مكة ، والطائف ، والرجل الذى من مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومي ،

وكان يسمى ريحانة قريش ، والذي من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفي .

سُخْرِيًّا : مسخرًا فى العمل ، مستخدمًا فيه .

السُّقُف : بضمين ، واحدها سقف .

معارج ، مصاعد ، واحدها مضعد ، وهو المسمى الآن (أسانسير) ، وهذا من معجزات القرآن إذ لم يكن معروفاً في عصر التنزيل .

يظهرون ، يصعدون ويرتقون .

زخرفها ، الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب زخرف .

لما متاع ، إلا متاع ، حكى سيبويه : نشدك الله لما فعلت كذا ، أى : إلا فعلت كذا .

تمهيد :

تكلمت الآيات السابقة عن ذم تقليد الآباء ، وتقديمهم على الرسل ولو كان الرسل أهدى من آباؤهم ، وضرب لهم نموذجاً عملياً بإبراهيم عليه السلام ، الذى تبرأ من الأصنام التى يعبدها أبوه وقومه ، وتوجه إلى عبادة الله وحده .

إن الترف والنعمة والغنى فى أهل مكة أصابهم بالكبر والانصراف عن اتباع الرسول محمد ﷺ ، وقالوا : إنه ساحر وإنا كافرون بدينه ، ثم اقترحوا أن ينزل القرآن على شخص عظيم ، من عظماء مكة مثل الوليد بن المغيرة ربحانة قريش ، أو عظيم من عظماء الطائف مثل عروة بن مسعود الثقفى ، وقد جابههم القرآن وبين أن اختيار الرسل شأن إلهى بحت ، وأنهم لا يقسمون الأزواق والنبوءات ، فإذا كانت قسمة الأموال لم يكلها الله إليهم ، فما بالك بالنبوة والرسالة وهما شأن أفضل ؟

إن حكمة الله فى توزيع الأزواق الدنيوية أن يجعل بعض الناس أغنياء ، وبعضهم فقراء ، حتى يضطر الفقير أن يعمل عند الغنى ، ويحتاج الغنى إلى عمل الفقير ، فكل منهما مسخر ومضطر للاستعانة بالآخر ، ولولا كراهة أن يكون الناس أمة واحدة ، أو جماعة كلها كفار ، لأعطينا الكفار متع الدنيا وزخارفها ، فتكون سقف بيوتهم من الفضة ، وبها مصاعد يرتقون عليها ، ولبيوتهم أبواب وأسرة وكراسى يتكئون عليها فى الجلوس ، وبالبيوت نقوش وزينة ، وكل ذلك متاع الدنيا الفانية ، والآخرة فيها نعيم خالد للمتقين المؤمنين العاملين .

التفسير :

٢٦ - وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ .

وانكر أيها الرسول لقومك جدُّهم إبراهيم الخليل ، الذى تبرأ من عبادة الأصنام ، وجهر بهذه البراءة بحمام أبيه وقومه ، وكان الأولى بأهل مكة أن يتبعوه فى نبذ الأصنام وإخلاص التوحيد .

٢٧ - إِلَّا إِلَهِى فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .

لكن الله الذى خلقنى وأوجدنى من العدم ، فإنى سأتجه إليه بالعبادة والتوحيد ، رجاء أن يرشدنى إلى الدين الحق ، ويهيدنى إلى طريق السعادة .

٢٨ - وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَُرْجِعُونَ .

أى : جعل كلمة التوحيد - وهى (لا إله إلا الله) - باقية فى ذريته ، متأصلة فيهم ، حتى يرجع إلى التوحيد والإيمان من أشرك منهم .

قال مجاهد :

وَجَعَلَهَا كَلِمَةً .

يعنى : (لا إله إلا الله) لا يزال فى ذريته من يقولها إلى يوم الدين .

وقد وصى إبراهيم أبناءه وأحفاده بالتوحيد .

قال تعالى : وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَحْيَىٰ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣٢) .

وظل ميراث التوحيد فى ذرية إبراهيم خلفاً عن سلف ، وكانت فى الجاهلية قبيل الإسلام طائفة من الموحدين ، مثل زيد بن عمرو بن نفيل ، فقد دان بالتوحيد مخالفاً قومه ، وفى ذلك يقول :

أُرِيْنَا وَاحِدًا أَمْ أُلْفَ رِبَ
تَرَكْتَ السَّلاَتَ وَالْعَزَّيَّ جَمِيعًا
أُدِيسَ إِذَا تَقَسَّسَتِ الْأُمُورَ
كَذَلِكَ يَفْعَلُ الرَّجُلُ الْخَبِيرَ

ومثل أمية بن أبى الصلت الذى تنسك فى الجاهلية ، واجتنب الخمر والفواحش ، وسمع أن نبياً سيظهر ، فأراد أن يكون هو نفسه ذلك النبى ، ومن شعره :

مَجَّدُوا اللَّهَ وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلُ
وَقَالَ أَيْضًا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مَسَانَا وَمُصْبِحُنَا
بِالْخَيْرِ صَبَحْنَا رَبَّنَا وَمَسَانَا

وقال فيه النبى ﷺ : «إِنْ كَادَ أُمِيَّةٌ لَيْسَلُمَ»^(١٠) .

ولما ظهر الإسلام امتنع عن الإيمان حقداً وحسداً على النبى محمد ﷺ ، ولذلك قالوا فى أمية : آمن لسانه وكفر قلبه ، ومن شعر أمية بن أبى الصلت فى التوحيد :

إِلَهُ الْعَالَمِينَ وَكُلِّ أَرْضٍ
بِنَاهَا وَابْتَنَى سَبْعًا شَدَادًا
وَرَبِّ الرَّاسِمَاتِ مِنَ الْجِبَالِ
بِلَا عُثْدٍ يَرِيْنِ وَلَا رَجَالِ

وسواها وزينها بنور
ومن شهب تلالاً في دجائها
ويشق الأرض فانبعثت عيوناً
وبارك في نواحيها وزكى
وكل معمراً لابد يوياً
وسيق المجرمون وهم عراة
وحلّ المتقون بدار صدق
وعيش ناعم تحت الظلال
من الشمس المضيئة والهلال
مراميهما أشد من التّصال
وأنهراً من العذب الزلال
بها ما كان من حرّ وصال
وذى دنيا يصير إلى زوال
إلى ذات المقامع والنكال
وعيش ناعم تحت الظلال

٢٩ - بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ .

بل متعتُ أهل مكة وآباءهم بسعة العيش ، وتجارة رابحة يذهبون بها إلى الشام صيفاً ، وإلى اليمن شتاءً ، وتجارتهم أمانة لا يعتدى عليها أحد ، ثم أرسلت لهم رسالة هي الإسلام ، ورسولاً واضح الحجة والمعجزة ، ومعه كتاب هو القرآن .

٣٠ - وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ .

لما جاءهم الحق والإسلام والقرآن عاندوا وكفروا ، وقالوا : هذا سحر يفرّق بين المؤمن به وبين أهل الكافرين ، ونحن كافرون بهذا السحر .

فأنت ترى أن الله أنعم عليهم فلم يشكروا بل كفروا .

قال تعالى : أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ فَمَرَاتٌ كُلُّ شَيْءٍ رَّزَقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .
(القصص : ٥٧)

وقال سبحانه وتعالى : لِإِبْلِيفَ قُرَيْشٍ * إِبْلِيفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ . (قريش : ١ - ٤) .

قال أبو السعود :

سموا القرآن سحرًا وكفروا به ، واستحققوا الرسول ﷺ ، فضمّوا إلى كفرهم السابق معاندة الحق والاستهانة به .

٣١ - وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ .

تعنّت أهل مكة وقدموا طائفة من المطالب ، مثل أن يكون الرسول مَلَكًا ، أو أن يكون مالكًا لأموال كثيرة تغنيه عن العمل والحاجة ، ولما فنّد القرآن آراءهم ، قالوا : لو كان هذا قرآنًا حقًا من عند الله لما اختار لرسالته يتيمًا فقيرًا مغمورًا ، وإنما يختار عظيمًا ثريًا وجيها بين الناس ، مثل الوليد بن المغيرة في مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف ، ظلًا منهم أن العظيم من يكون له مال كثير وحشم وخدم ، وما علموا أن الرسالة تحتاج إلى نفس عظيمة ذات همة عالية ، ومطالب سامية ، ورحمة بالضعفاء ، وحرص على الهداية ، وتطلع إلى مرضاة الله ، وسمو في العبادة والتجهد والتبذل وترتيل القرآن ، وقد كان محمد ﷺ أهلاً لذلك ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد تعددت الآراء حول الأشخاص الذين عناهم كفار مكة ، بعظيم مكة أو عظيم الطائف ، فنقل ابن كثير ثلاثة آراء هي :

١ - الوليد بن المغيرة بمكة ، وعروة بن مسعود الثقفي بالطائف .

٢ - عتبة بن ربيعة بمكة ، وابن عبد باليل بالطائف .

٣ - الوليد بن المغيرة بمكة ، وكنانة بن عمر الثقفي بالطائف .

ثم قال : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أيّ البلدين كان .

٣٢ - أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

هذا استفهام إنكارى عليهم .

والمعنى :

هل تقسم النبوة والرسالة والألطف الإلهية موكل إليهم حتى يطلبوا أن تكون الرسالة إلى عظيم من عظماء مكة أو الطائف ؟

إذا كنا نحن قد قسمنا بينهم حظوظهم في الأموال والأرزاق والعقول وشئون الحياة ، وجعلنا بعضهم غنيًا وبعضهم فقيرًا ، وبعضهم متوسطًا ، وجعلنا هذا أميرًا وهذا مأمورًا ، وهذا أجيرًا وهذا دافع الأجرة ؟ ففارقنا بينهم في المعايير ، ليتمّ تسخير كل إنسان لمصلحة الآخرين ، فيسعد الجميع ويعمر الكون ، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال ، لم يخدم أحد أحدًا ، فيقضى ذلك إلى خراب العالم وفساد نظامه .

قال أبو حيان :

سُخِّرًا ، بضم السين ، من التسخير بمعنى الاستخدام ، لا من السخرية بمعنى الهزء ، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض ، ويصلوا إلى منافعهم .

وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

رحمة الله بخلقه ، وهدايته لهم خير لهم مما بأيديهم من متاع الدنيا .

أو إنعام الله عليك يا محمد بالنبوة والرسالة والهداية ، خير مما يجمع الناس من حطام الدنيا الفاني .

وفى تفسير البحر المحيط ما يأتي :

وفى قوله تعالى : نَحْنُ نَقُصُّهُمْ ... تزهيد فى الإكباب على طلب الدنيا ، وعونٌ على التوكل على الله .

وقال قتادة : تلقى ضعيف القوة ، قليل الحيلة ، عيبى اللسان ، وهو موسع عليه فى الرزق ، وتلقى شديد الحيلة ، بسيط اللسان ، وهو مقتر عليه فى الرزق .

وقال الشافعى :

ومن الدليل على القضاء وكونه بؤسُ اللبيب وطيب عيشُ الأحمق

٣٣ - وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُبْرِيهُمْ سُقًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ .

لولا أن يرغب الناس عن الإيمان إلى الكفر لأعطينا للكافر فى هذه الدنيا كل ما يتمناه إنسان ، وعجلنا له الطيبات ، وأدخرنا الآخرة للمؤمنين ، فهم وحدهم الذين يستمتعون بنعيم الآخرة ، وهى الحياة الحقيقية ، أما الدنيا فعرض زائل يأكل منه البر والفاجر .

قال رسول الله ﷺ : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا شربة ماء أبدا» (٣٤) .

ومعنى الآية :

لولا أن الناس يرغبون فى الكفر إذا رأوا الكافر فى سعة من الرزق ، ويصيرون أمة واحدة فى الكفر ، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار ، وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش ، سقفا من الفضة الخالصة ، وبها مصاعد وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون .

٣٤ - وَيَبْنِيهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ .

وجعلنا لبيوتهم أبوابًا من الفضة ، وبها أسرة ينامون عليها ، أو مقاعد من الفضة يجلسون عليها ويتكئون ، زيادة في الراحة والرفاهية .

٣٥ - وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : جعلنا فى بيوتهم نقوشًا وزينة ، ويطلق الزخرف على الذهب ، وعلى الزينة والنقش المموه بالذهب ، أى : جعلنا لبيوتهم أبوابًا وسُرُرًا ومساعد من الفضة والذهب ، أو جعلنا لهم زينة وزخرفًا من ستور ونمازق ونقوش .

والخلاصة :

جعلنا بيوت الكفار ودرجها ومساعدها وسقفها من الفضة والذهب ، وبها كثير من أنواع الزينة ، وكل ذلك النعيم متاع الحياة الدنيا الفانية . أما الآخرة وجنانها ونعيمها ، وأنهارها وحورها وولدانها فهي للمتقين خاصة .

وإذا تساءل إنسان وقال : إذا لم يوسع الله على الكافرين جميعًا خوف الفتنة ، فهلا وسّع على المؤمنين جميعًا فى الدنيا ؟

والجواب : سيدخل الناس فى الإيمان رغبة فى الدنيا ، وهذا باب واسع للمنافقين ، فكانت الحكمة فيما شرع الله واختار ، حيث جعل فى الكفار فقراء وأغنياء ، وجعل فى المؤمنين فقراء وأغنياء ؛ لتكتمل حكمة الله فى الاختيار والابتلاء ، ويظل للعبد مساحة من الاختيار والرغبة ، وتحديد السلوك والطريق الذى يختاره ، ليكون ذلك أساس الجزاء العادل من الله .

قال تعالى : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٢ ، ٣) .

من تفسير ابن كثير

وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...

أى : إنما ذلك من الدنيا الفانية ، الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، فهو سبحانه يعجل لهم حسناتهم التى يعملونها فى الدنيا ، مآكل ومشارب ، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها .

ثم قال سبحانه وتعالى : وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ .

أى : هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ ، حين رآه على رمال حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت عيناه بالبكاء ، وقال : يا رسول الله ، هذا كسرى وقيصر فيما هم فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ؟ وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس ، وقال : «أفى شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال ﷺ : «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا» وفى رواية : «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» (٣٦) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشربوا فى أنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة» . (٣٧) وإنما حوّلهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها .

★ ★ ★

غواية المشركين

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ مُرِيدٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ يَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّخِذَ الْفَرِينَ﴾ (٣٨) ﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٤٠) ﴿فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْقِمُونَ﴾ (٤١) ﴿أَوُنَزَّلْنَاكَ عَلَىٰ أَرْضٍ وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَاسْتَسْيِكَ بِالَّذِي أَوْحَىٰ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (٤٤) ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يَعْبدُونَ﴾ (٤٥) ﴿

المضردات :

من يعش : من يتعام ويعرض ويتغافل ، يقال : عشى فلان كزضى ، إذا حصلت له آفة فى بصره .
نقيض له : نيسر له ، أو نسب له ، أو نزع له .
له قرين : صاحب لا يفارقه .

المشرقين : أى : المشرق والمغرب ، وبعد المشرقين ، أى : بعد أحدهما من الآخر .

فإما نذهبين بك ، فإن قبضناك وأمتناك .

وانه لتذكر ، وإن القرآن لشرف عظيم .

تسألون ، أئى : عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكليف من أمر ونهى .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم أن قريشاً قالت : قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلاً يأخذه ، فقيضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال : ربنا ، قال : وما العزى ؟ قال : بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال طلحة لأصحابه : أجيئوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فأنزل الله هذه الآية : وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .

تمهيد :

تصور الآيات مشهداً عملياً لهؤلاء الكفار ، الذين عميت قلوبهم عن رؤية نور الإسلام ، وضعت أبصارهم وبصائرهم عن الاهتداء بهدى القرآن ، إن من سنة الله أن من يعرض عن الهدى ييسر الله له قرين سوء من شياطين الإنس أو الجن ، يغريه بالباطل ، ويزهده فى الحق ، ويوم القيامة يتبرأ الإنسان من شياطين الإنس والجن ، ويتمنى أن يبتعد عنهم بعد المشرق عن المغرب ، ثم تواسى الآيات الرسول الكريم ، حتى لا يشتد حزنه على إعراض كفار قريش عن دعوة الإسلام ، فتقول له : إن أذانهم صمًا ، وعيونهم عمياء ، وأنت لا تسمع الصم ، ولا تهدى العمى ، ولا ترشد من غرق فى الضلال الواضح ، إن هذا القرآن شرف لك يا محمد ولأمتك ، فهو حافل بالتوحيد والهداية ، والأخلاق والتشريع ، وسوف تسألون عن هذه النعمة العظمى ، التى ساقها الله لكم فأعرض كفار مكة عنها .

التفسير :

٣٦ - وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .

من يعرض عن ذكر الله ويستهين بالقرآن ، ويأنف من ذكر دين الله ، وابتعد عن شرع الله ، نيسر له قرين سوء من الجن ، يوسوس له بالشر ، ويحرضه على الفسوق والعصيان .

قال تعالى : وَكَيْفَئْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ... (فصلت : ٢٥) .

وجاء فى صحيح مسلم وغيره ، أن مع كل مسلم قريناً من الجن ، وأن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم^(٣٦) .

قال ابن كثير :

وَمَنْ يَغْشُ ...

أى : يتعمى ويتغافل ويعرض ، عن ذكر الرحمن .

والعشا فى العين ضعف بصرها ، والمراد هنا عشا البصيرة .

نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . كقوله تعالى : فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ... (الصف : ٥) . ا هـ .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا . (مريم : ٨٣) .

ومعنى : فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . أى : فهو له ملازم ومصاحب لا يتفك عن الوسوسة له والإغواء .

٣٧ - وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار عن طريق الهدى ، وبحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة من أمرهم .

وفى هذا المعنى قوله تعالى : قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا . (الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤) .

٣٨ - حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيُحْسِنُ الْقُرِينَ .

حتى إذا حُشِر هذا الكافر مقروناً بالسلاسل مع قرينه من الشياطين ، تبرم به ، وتمنى أن يكون الشيطان بعيداً عنه بُعْدَ المشرق من المغرب ، لأنه كان سبب إغوائه وإضلاله .

قال أبو سعيد الخدرى : إذا بُعث الكافر زوج بقرينه من الشياطين ، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار .

وقال الطبرى وابن كثير وغيرهما :

المراد بالمشرقين ههنا : ما بين المشرق والمغرب ، وإنما استعمل ههنا تغليباً ، كما يقال :

القمران : للشمس والقمر .

والعمران : لأبى بكر وعمر .

والأبوان : للأب والأم .

٣٩ - وَلَنْ يَفْعَلَكَ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ .

لن يخفف عنكم من العذاب ، ولا من الهوان النفسى فى النار، اشتراككم فى العذاب مع بعضكم البعض ، لأن لكل منكم نصيبه الكامل فى جهنم ، وله من البلاء نصيبه الأوفر ، ولا يجد الكافر السلوى فى جهنم بعذاب غيره ، كما كان يحدث فى الدنيا ، حيث إن المصيبة إذا عمت هانت .

جاء فى التسهيل لعلوم التنزيل :

المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم فى العذاب ، ولا يجدون راحة التأسى التى يجدها المكروب فى الدنيا ، إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه .

انظر قول الخنساء ترى أخاها صخرًا :

يذكرنى طلوع الشمس صخرًا	وأذكره بكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقنتل نفسي
ولا يكون مثل أخى ولكن	أعزى النفس عنه بالتأسى

٤٠ - أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

كان ﷺ حريصًا على هداية قومه ، راغبًا فى دعوتهم للإسلام ، وإنقاذهم من عذاب جهنم ، لكنهم تصامموا عن دعوته ، وأعرضوا عن الإسلام ، وغلبتهم رغباتهم فى متعهم ولذائهم ، وانشغالهم بالخمير والإثم عن تلبية دعوة الإسلام ، فأخبر الله رسوله بأنه لا أمل فى هدايتهم ، قطب نفسًا ، وقرع عينًا ، فأنت يا محمد لن تستطيع أن تسمع هؤلاء الكفار ، الذين هم كالصم والعمى ، ومن كان فى ضلال واضح ، والمراد بالعمى هنا عمى البصيرة ، والمراد بالصمم انغلاق القلب عن سماع الحق ، ورغبته فى اتباع الضلال الواضح ، مثل عبادة الأصنام ، وشرب الخمر ، وارتكاب الفواحش .

٤١ - فَإِنَّمَا نَذَرْنِيكَ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ .

كان أهل مكة يقولون : انتظروا حتى يموت محمد كما مات غيره من الشعراء ، فقال القرآن الكريم : إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر: ٣٠ ، ٣١) .

وهنا يقول القرآن الكريم : حتى إذا مات يا محمد ، فسوف ننتقم من كفار مكة .

٤٢ - أَوْ تَرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ .

وإذا نصرناك عليهم فى حياتك ، وتمكنت من نواصيهم ، فإننا قادرون على ذلك .

قال تعالى: وَمَا أَتُصَّرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ... (آل عمران: ١٢٦).

لقد نصر الله رسوله ومن معه من المؤمنين في غزوة بدر وغيرها ، حتى فتحت مكة ، ثم دانت شبه الجزيرة العربية للإسلام .

قال ابن كثير :

المعنى : لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، في حياتك أو بعد وفاتك ، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصبيهم .

٤٣ - فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

فَتَمَسَّكْ يا محمد بالقرآن الذى أوحى إليك ، ويجب أن تتمسك الأمة المسلمة به اقتداءً بنبيها ، فالقرآن هدى السماء إلى أهل الأرض ، وفيه الهداية والتشريع والآداب والقصص ، وأخبار السابقين ، وعرض لمشاهد القيامة ، والحساب والجزاء والجنة والنار .

إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

إنك على الحق الواضح ، والطريق الموصل إلى النجاح فى الدنيا ، والسعادة يوم القيامة .

٤٤ - وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ .

نزل القرآن بلسان عربى مبين ، وكان شرفاً للأمة العربية أن ينزل وحى السماء باللسان العربى ، على رجل عربى منهم ، وقد رباهم القرآن وطهرهم ، وعلمهم ووحدهم ، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس ، وبالقُرآن توحدت جزيرة العرب ، وفتحت بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا وبلاد ما وراء النهر ، وشرقت الدعوة الإسلامية وغربت ، واحتضن الإسلام جميع الأمم التى دخلت فى الإسلام ، وكان العلماء والأدباء ، والنحاة والفلاسفة وغيرهم من بلاد أعجمية دخلت فى الإسلام ، واعتنقت هذا الدين وقامت بخدمته .

قال ﷺ : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، ولكن العربية للسان ، من تكلم العربية فهو عربى»^(٣٤) .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء : ١٠) .

لقد حفظ القرآن اللغة العربية ، والأمة العربية ، والعرب بالإسلام كل شىء ، وبدون الإسلام لا شىء .

قال تعالى : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . (فصلت : ٣٣) .

٤٥ - وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ .

إن التوحيد والإقرار لله تعالى بالوحدانية هو رسالة جميع الرسل ، دعا إليه نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وعيسى ومحمد ﷺ ، والتوحيد فطرة تنطق بها الأرض والسماء .

كما يقول القائل :

سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، سل السماء من نجم نجومها ، وسخر شمسها وقمرها ، وأضاء نهارها وأظلم ليلها .

قال أبو حيان : والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء ، هل جاءت عبادة الأوثان في ملّة من مللهم ؟

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوعَ ...
(النحل : ٣٦)

ويصح أن يكون السؤال في الآية موجّهاً إلى كل واحد من قريش .

وكأنه قيل : وليسأل كل واحد منكم أُمّ من أرسلنا قبلك من رسلنا ، هل شرع لأى أمة عبادة الأوثان أو الأصنام أو غيرها من دون الله تعالى .

أى : إنك يا محمد لم تأت قومك حين دعوتهم إلى التوحيد بأمر ابتدعته من عند نفسك ، بل هو أمر مجمع عليه من سائر المرسلين قبلك ، وهذا يدل على وحدة الدين الحق فى أصوله ، ووحدة مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ومن المفسرين من قال : سبب هذه الآية أن اليهود والمشركين قالوا للنبي ﷺ : إن ما جئت به مخالف لمن كان قبلك ، فأمره الله بسؤال الأنبياء على جهة التوقيف والتقرير والتأكيد ، لا لأنه كان فى شك منه .
ويؤخذ من الآية ما يأتى :

دين التوحيد قديم ، ونبذ الشرك قديم ، فلذا سئلت أُمّ الرسل عليهم الصلاة والسلام :

هل أذن الله بعبادة الأوثان ؟

وهل أمر بعبادة غير الله ؟

والسبب الأقوى فى بغض الكفار للنبي ﷺ وعداوتهم له هو إنكاره لأصنامهم ، فبيّن الله أنه غير مخصوص بهذا الإنكار ، ولكنه دين كل الأنبياء .

وإذا استعرضنا سورة (هود)، فسنجد أنها ذكرت قصة نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى التوحيد، ثم نجد مثل ذلك في الآية (٥٠) من نفس السورة: وَإِلَىٰ غَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفِقُونَ أَغْبَدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...

وفي الآية (٦١): وَإِلَىٰ لُؤْمٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفِقُونَ أَغْبَدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...

ثم نجد في الآية (٨٤) من نفس السورة: وَإِلَىٰ مُذَيْنٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفِقُونَ أَغْبَدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ...

أى أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى، والتوجه إليه وحده بالعبادة والطاعة، والبعد عن ارتكاب المعاصي، كانت رسالة جميع الرسل والأنبياء.

قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٣٧).

★ ★ ★

العبرة من قصة موسى مع فرعون

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا نَرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُهُ السَّاحِرُ أَدْعُنَا رَيْكَ يَسْمَعِدْ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٧٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِقُونَ لَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٧٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٧٣﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

المضردات:

بآياتنا، الآيات هي المعجزات.

وملائه ، أشراف قومه .

أخذناهم ، أخذ قهر بالعذاب ، فأرسلنا عليهم الجراد والقمل والضفادع .

الساحر ، العالم الماهر .

بما عهد عندك ، بما أخبرتنا من عهده إليك ، أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذى نزل بنا .

ينكثرون ، ينقضون العهد .

من تحتى ، من تحت قصرى ، وبين يديّ فى جناتى .

مهيّن ، ضعيف حقير .

يسبّين ، يفصح عن كلامه ، وكانت بموسى لغة فى لسانه ، كما قال ابن عباس .

أسسورة ، واحدها سوار ، كأخمرة وخمار .

مقترنين ، مقرونين به ، يعينونه على من خالفه .

فاستخف قومه ، استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال ، فاستجابوا له .

أسقونا ، أغضبونا وأسخطونا .

سلفاً ، قدوة لمن بعدهم من الكفار .

مثلاً ، حديثاً عجيب الشأن ، يسير سير المثل ، فيقول الناس : مثلكم مثل قوم فرعون .

تمهيد :

قصة موسى من أكثر القصص دورانا فى القرآن الكريم ، والعبرة هنا غُثُ فرعون واستكباره ، وإرسال الله عليه وعلى ملئه أصنافاً من العذاب ، كالجراد والقمل والضفادع ، ثم يطلبون من موسى أن يدعو ربه ليكشف عنهم العذاب ، وعندئذ يؤمنون ويهتدون ، فلما كشف الله عنهم العذاب ، نقضوا عهودهم ، وعادوا إلى ضلالهم .

وتعرض الآيات هنا غرور فرعون بالغنى والجاه والسلطان ، وجرى الأنهار من تحت قصره ، ثم هو يملك الذهب والتاج والأساور ، وموسى فقير لا يملك أساور الذهب ولا تاج الملك ، ولا يؤيده جمع من الملائكة يرافقونه ، واستخف فرعون بعقول قومه ، فساروا خلفه لفسوقهم عن أمر الله ، ثم أغرقهم الله جزاء كفرهم وعنادهم .

التفسير:

٤٦ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

تكررت قصة موسى في القرآن الكريم تسلياً للرسول ﷺ، وتهديداً لأهل مكة، حتى يتعظوا ويعتبروا، فقد أغرق الله فرعون وجيشه في الماء، وقد كانوا أكثر مالأً وعظمة من أهل مكة، وينبغي أن يتعظ الإنسان بما أصاب الآخرين، فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من حرم الاتعاط بنفسه.

ومعنى الآية :

ولقد أرسلنا موسى عليه السلام مؤيداً بمعجزاتنا - كاليد والعصا - إلى فرعون وقومه من القبط بمصر ، وقال موسى لهم : إني رسول رب العالمين إليكم ، أي خالق الكون والإنس والجن والطير ، وعالم السماء ، وعالم الأرض ، وعالم الملائكة ، وجميع العالمين .

٤٧ - فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ .

فلما أراهم موسى المعجزات المبهرة استخفوا بها واستهزأوا ، ولم يؤمنوا بموسى عليه السلام .

٤٨ - وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

ما نرى فرعون وملأه من معجزة إلا هي أكبر من سابقتها في الحجية عليهم، والدلالة على صحة دعوته إلى التوحيد، مع كون التي قبلها عظيمة في نفسها، فإن بعض الناس يتأثر ببعض الآيات أكثر من الأخرى، وبعض الناس تأسره معجزات أخرى، والإنسان نفسه يختلف رأيه في بعض الأوقات، فتارة يفضل هذا، وتارة يفضل ذاك، مثل قولهم: رأيت رجالاً بعضهم أفضل من بعض، ومنه بيت الحماسة:

من تلق منهم تقل لا قيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أخذناهم بالعذاب المتدرج المتكرر الذي تشتمل عليه تلك الآيات، لعلهم يرجعون عن كفرهم، ويؤنبون إلى رشدهم ، والمراد بالعذاب هنا العذاب الدنيوي ، الذي أشار إليه قوله سبحانه : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ **الْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْأَلَمَ مُضِلًّا** فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ . وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا **يَسْأَلُنَا أَدْعُ كُنَّا رَبُّكَ** بِمَا عَاهَدَ عَبْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنْآ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ لَهُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَكْفُرُونَ . فَاتَّخَذْنَا مِنْهُمُ افْعَرَّ قُرْطُهُمْ فِي آيَاتِنَا بِهِمْ كَذُوبًا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ .

٤٩ - وَقَالُوا يَتْلُو آسَاسًا أَدْعَىٰ رَبُّكَ بِمَا عِهْدٌ بَيْنَنَا أَنَا لَكُمُّتُونَ .

وقال قوم فرعون لموسى : يا أيها العالم ادع لنا ربك بالعهد الذى عهده إليك ، وهو أننا إذا أمانا يكشف عنا العذاب ، ادعُ له لينفذ لنا هذه حالياً ، فإننا لمهتدون مستقبلاً بعد زوال العذاب .

وذهب ابن كثير إلى أن الساحر لقب تبجيل يطلق على العالم العظيم ، وقد كانوا يعظمون السحر والسحرة فى ذلك الوقت ، وقد كانوا فى حاجة إلى توقيف موسى واحترامه ، حتى يطلب من ربه دفع العذاب عنهم .

٥٠ - فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ .

فلما رفع الله العذاب عنهم رجاء هدايتهم ، إذا بهم ينقضون عهدهم مع موسى ، ويعودون إلى سالف عهدهم فى الكفر والإعراض عن رسالة موسى .

٥١ - وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْتَقِمُوا آلِ مِثْلُكُمْ بِمَصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ لَنْ تُهْرُجُوا تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

وجمع فرعون رؤساء قومه وأشرفهم ورفع صوته قائلاً : أليس لى ملك مصر من أولها إلى آخرها ، وهذه الأنهار المتفرعة من النيل تجرى من تحت قصرى ، أفلا تبصرون ما أنا فيه من النعمة والملك ؟ قال القرطبي :

كان للنيل أربعة أفرع تتفرع من تحت قصره ، هى نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تينس ، ونهر طولون : هو نهر قديم كان قد اندرس فجدهه أحمد بن طولون .

قال قتادة : قد كانت لفرعون جنات وأنهار ماء . ا هـ .

فافتخر بها على موسى ، واستدل بها على عظمتهم ومهانة موسى ، وكان موسى قد خلق الله عليه لمهابة والمحبة ، فأراد فرعون أن يغالط أمته ، وأن ينتزع محبة موسى من قلوبهم .

٥٢ - أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰؤُلَاءِ الَّيْلِ هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ .

أى : بل أنا خير وأفضل من موسى الذى هو فقير وضيع ، من طائفة بنى إسرائيل الذين نستعبدهم ونستذلهم .

وَلَا يَكَادُ يُبِينُ .

وكان موسى قد أمسك جمرة فى صغره فوضعها فى فمه ، فتركت أثرها فى لسانه ، فلما بشره الله برسالته سأل الله أن يحل عقدة لسانه ، فاستجاب الله له .

قال تعالى على لسانه: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي • وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي • وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي • يَقْفَهُوا قَوْلِي .
(طه : ٢٥ - ٢٨)

ثم قال تعالى بعد ذلك: قَالَ قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمُوسَى . (طه : ٣٦) .

فموسى كان معه البيان والتوراة ، والمعجزات والصبر والبلاغ ، لكن فرعون كان ينظر إلى موسى بعين كافرة شقية ، رغبت فى ترويع الكذب والافتراء على الرعية .

٥٣ - فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِينَ .

هلا ألقى الله عليه أسورة من ذهب كرامة له ودلالة على نبوته !!!

قال مجاهد :

كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم ، سوره بسوارين ، وطوقوه بطوق من ذهب ، علامة لسيادته .

أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِينَ .

هلا جاءت الملائكة مصاحبة له ، تعاونه وتصدقه ، وتحدث الناس على الإيمان به ، كعلامة على إكرام الله له ، أى : إن كان موسى صادقاً فى ادعاء أن الله أرسله رسولاً ، فهلا ملكه ربّه وسوره بأسورة من ذهب ، وجعل الملائكة أنصاره وحاشيته ؟

٥٤ - فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

استخف يعقول قومه وأحلامهم واستجبلهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة ، وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم على طاعة الله ، وعدم تمسكهم بالحق ، فلم يطيعوه عن قناعة ، بل عن رغبة فى مشايعة الهوى ، وإيثارة للعاجلة على الآجلة .

قال تعالى : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُغْلًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ . (الانمل : ١٤) .

٥٥ - فَلَمَّا عَاثُوْنَا اتَّقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

أغضبوا الله فانقم منهم ، وأغرقهم أجمعين ، أى : أسخطوا الله بسلوكهم وفسوقهم ، وبعدمهم عن الحق ، واتباعهم للهوى .

قال المفسرون :

اغترّ فرعون بالعظمة والسلطان ، والأنهار التي تجري من تحته ، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه ، وذلك بالغرق بماء البحر ، وفيه إشارة إلى أن من تعزز بشيء أهلكه الله به .

روى ابن أبي حاتم ^(٢٧) ، عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطى العبد ما يشاء ، وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له» ، ثم تلا ﷺ : فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ . ^(٢٨)

وقال عمر بن عبد العزيز : وجدت النعمة مع الغفلة .

يعنى قوله تعالى : فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ .

٥٦ - فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ .

أى : جعلنا فرعون وقومه قدوة لمن بعدهم من الكفار فى استحقاق العذاب والدمار ، ومثلا يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك .

ونقل القرطبي عن مجاهد :

سُلَفًا . لكفار قریش يتقدمونهم إلى النار ، وعظة وعبرة لمن يأتى بعدهم .

جانب من قصة عيسى عليه السلام

﴿وَلَمَّا صَرَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا آلَ هَاشِمٍ خَيْرٌ
أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِثَّةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴿٦٠﴾
وَإِنَّهُ لَوَعْلَمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ
الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ
وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ آيَةِ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

المفردات :

مثلاً : حجة وبرهاناً .

يَصِدُّونَ : يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح .

جدلاً : خصومة بالباطل .

خصمون ، شداد الخصومة بالباطل ، مجبولون على اللجاج .

مثلاً : آية وعبرة عجيبة كالمثل في غرابته ، حيث كان من غير أب .

منكم : من بعضكم ، أو لولدنا منكم .

يَخْلَفُونَ : يخلفونكم في الأرض .

علم للساعة : علامة لها يعلم قريبا بنزوله من السماء عليه السلام .

فلا تفترن ، فلا تشكَّن في قيامها .

البيِّنات ، المعجزات ، كالإنجيل وشفاء المرضى .

الحكمة ، الشرائع المحكمة التي لا يستطيع نقضها ولا إبطالها ، أو بكل ما يؤدي إلى الإحسان .

تختلفون فيه ، من الأمور الدينية .

صراط مستقيم ، طريق موصل إلى جنات النعيم .

اختلف الأحزاب ، تفرقوا فرقا متحزبة .

بغتة ، فجأة على غرة .

وهم لا يشعرون ، وهم غافلون عنها .

سبب النزول :

أخرج أحمد بسند صحيح ، والطبراني ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال لقريش : «إنه ليس أحد يُعبد من دون الله وفيه خير» ، فقالوا : ألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً ، وقد عُبد من دون الله؟ فأنزل الله تعالى : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

وروى محمد بن إسحاق في السيرة ، أن رسول الله ﷺ جلس يوماً في المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم ، وفي المسجد غير واحد من رجالات قريش ، فتكلم رسول الله ﷺ ، فعرض له النضر فكلّمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨) ، ثم قام رسول الله ﷺ ، وأقبل عبد الله بن الزبيري التميمي ، وجلس فقال : أما والله لو وجدت محمداً لخصمته ، سلوا محمداً : أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبيري ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : «كل من أحب أن يُعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته» ، وأنزل الله عز وجل : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوْنَ . (الأنبياء : ١٠٨) .

أى : عيسى وعزير ومن عُبد معهم ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه السلام ، وأنه يُعبد من دون الله : وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

التفسير :

٥٧- وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ .

ضرب عبد الله بن الزبيري المثل بعيسى ، حيث إنه يعبد من دون الله ، وعزير تعبده اليهود ، ومن العرب من عبّد الملائكة ، وقال : إنهم بنات الله .

قال ابن الزبيري : إن كانت الملائكة وعزير وعيسى ابن مريم فى النار : فقد رضيانا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، فسكت ﷺ انتظارا للوحى ، فظنوا أنه ألزم الحجة ، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم.

وأنزل الله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعَذَّوُونَ .** (الأنبياء : ١٠١) .

أى : عزير والملائكة وعيسى فى الجنة مبعدون عن النار ، ونلاحظ أن القرآن عندما أشار إلى أن من عبيد صنما أو وثنا من دون الله أدخل العابد والمعبود إلى جهنم ، قال : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ .** (الأنبياء : ٩٨) .

فالقرآن هنا يتحدث عن الأصنام ، لأن هناك قاعدة فى اللغة العربية تقول : **إن (مَنْ) اسم إشارة للعاقل ، و(ما) اسم إشارة لما لا يعقل ،** فالقرآن قال : **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ...** أى أن القرآن لم يرد المسيح ولا عزيرا ولا الملائكة ، وإن كانوا معبودين .

ثم إن الملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وعيسى عبد الله ورسوله ، أنعم الله عليه بالرسالة والمعجزات ، وعزير رجل صالح من بنى إسرائيل ، ركب حماره وسار وسط قرية قديمة متهالكة ، قبورها دارسة ، قد أدركها البلى والقدم والتآكل ، فاستبعد عليها البعث والحياة مرة أخرى ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، وأطلعه على بعث حماره ، وحفظ طعامه طوال مائة عام ؛ **فَقَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .** (البقرة : ٢٥٩) .

و خلاصة المعنى :

عندما حاول عبد الله بن الزبيري أن يضرب مثلا بعيسى ابن مريم ، قائلا : إذا كان عيسى ابن مريم فى جهنم لأنه عبد من دون الله ، فقد رضيانا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، عندئذ فرح كفار مكة بذلك ، واشتد صدودهم وإعراضهم .

قال ابن عباس :

إِذَا قَوْلُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . أى : يضحكون ، أعجبوا بذلك .

وقال قتادة : يجزعون ويضحكون ، أى : صنعوا ضجة وفرحا وضحكا لزعيمهم أنهم انتصروا على محمد فى الجدل .

وقال النخعي :

إِذَا قَوْلُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . أى : يُعرضون .

ولعل من إعجاز القرآن اشتغال الآية على المعنيين : فهم سخروا وضجوا وضحكوا من جهة ، وأعرضوا عن الإسلام من جهة أخرى .

٥٨- وَقَالُوا يَا إِلَهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ .

قالوا للنبي ﷺ : أآلهتنا خير أم عيسى ؟ والنبي ﷺ متيقن من أن عيسى خير من آلهتهم ، أى إذا كان عيسى فى النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه ، وابن الزبير يعلم أن عيسى ليس فى النار ، لأنه لم يطلب من أجبر أن يعبد ، ولم يرض بعبادة الناس له ، ولأن كل عابد وما عبده من دون الله فى النار ، إذا رضى من يعبد بهذه العبادة ، فهم لم يضرىوا المثل بعيسى والعزير والملائكة إلا على وجه الجدال والمخاصمة فهم الأداء فى الخصومة ، راغبون فى الغلبة بالحق أو بالباطل ، وعيسى عليه السلام قد تبرأ ممن عبده أو اتخذه إلهًا .

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا نَحْسَبُ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۖ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عَابِدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ... (المائدة : ١١٦ ، ١١٧) .

قال فى التسهيل لعلوم التنزيل :

مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ...

أى : ما ضربوا لك هذا المثل إلا على وجه الجدل ، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره سواء غلبه بحق أو بباطل ، لقد أراد ابن الزبير المغالطة : فوصفهم الله بأنهم قوم خصمون .

٥٩- إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ .

عيسى ابن مريم عبد كسائر العباد من عباد الرحمن ، فهو بشر أنعم الله عليه ، حيث خلقه من غير أب ، وأكرمه بالرسالة والنبوة ، وأعطاه طائفة من المعجزات : فهو يشفى المرضى بإذن الله ، ويبرئ الأكمه^(١) والأبرص بإذن الله ، وهو يحيى الموتى بإذن الله ، لقد أراد الله أن يجعل منه نموذجاً وعبرة لبني إسرائيل يستدلون بها على قدرة الله تعالى .

قال الرازى :

أى : صيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ، حيث خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم .

قال تعالى : **إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** . (آل عمران : ٥٩) .
 فعيسى إذن ليس بباليه ، وليس ابنا لإله كما زعم الزاعمون .

قال تعالى : **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَذَّابُ السَّمَوَاتِ يَنْقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَشِقُّ الْأَرْضُ ۚ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۚ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يُنْبِئُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا** . (مريم : ٨٨ - ٩٣) .

٦٠ - **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ** .

إن قدرة الله لا حدود لها فهو على كل شيء قدير ، وكما أوجد عيسى من أمه بدون أب ، فهو قادر على أن يوجد في الأرض ملائكة تتناسل ويخلق الأبناء منهم الآباء ، أو تخلف الملائكة البشر في هذه الأرض ، كما يحتمل أن يكون المعنى : لو نشاء لخلقنا من ذرياتكم ملائكة عابدة تخلفكم ، أو لأوجدنا من ذرياتكم عبادا مطيعين لله كأنهم ملائكة يخلقونكم أيها العصاة ، كما حدث أن كان من ذرية عتاة الكفر أبناء خدموا الإسلام وجاهدوا في سبيله ، والآية تشير إلى عجائب القدرة الإلهية ، وقريب منها قوله تعالى : **وَأِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ** . (محمد : ٣٨) .

قال ابن كثير :

وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ... أَى : بـلـكـم .

مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ . قال السـدى : يخلقونكم فيها ، وقال ابن عباس وقتادة : يخلف بعضهم بعضا ، كما يخلف بعضهم بعضا ، وهذا القول يستلزم الأول ، وقال مجاهد : يعمرون الأرض بـلـكـم .

٦١ - **وَأِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهِا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** .

وإن عيسى عليه السلام من علامات الساعة ، فلا تشكوا في مجيء القيامة ، واتبعوا محمدا ﷺ في هديه وشرعه ودينه فإنه على الصراط المستقيم ، والطريق الموصل إلى الله تعالى ومرضاته .

وقد أفادت كتب التفسير مثل القرطبي وابن كثير والقاسمي وغيرهم ، تواتر الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مقسطا ، كما ورد في علم التوحيد نزول المسيح الدجال رمزا للشر والفتنة ، حيث يعطيه الله إمكانات واسعة وانتصارا مؤقتا ، ثم ينزل المسيح عليه السلام فيطارد المسيح الدجال حتى يقتله ، ويؤيد المسيح عليه السلام شريعة محمد ﷺ .

أخرج الإمام مالك ، والشيخان ، وأبو داود ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده أئوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها»^(١١) .

وأخرج الإمام مسلم ، عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة»^(١٢) .

والمسيح غيب من الغيب الذى حدثنا عنه الصادق الأمين ، وأشار إليه القرآن الكريم ، ولا قول لبشر فيه إلا ما جاء من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة .

وفى قراءة أخرى : وإنه لَعَلَّمُ للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم .

وَعَلَّمَ - بفتحين - أى : أماره ودليل على مجىء القيامة ، لأن الله ينزله إلى الأرض قبل قيام القيامة . فلا تشكن فى وقوع القيامة .

وقال السدى : لا تكذبوا بها ولا تجادلوا فيها ، فإنها كائنة لا محالة .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

حيث كان كفار مكة يشكون فى البعث ، والقرآن هنا يدعوهم إلى اليقين ، وكانوا يترددون عن الهدى والقرآن يدعوهم على لسان رسول الله ﷺ إلى اتباعه ، فإنه يسير بهم فى الطريق المستقيم القاصد الواصل الذى لا يضل سالكوه . ا هـ .

٦٢- وَلَا يَصْلَحْ لَكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ .

لا يصرفنكم الشيطان عن اتباع الحق واعتناق الإسلام ، والاهتداء بهدى محمد ﷺ ، فإن الشيطان عدو ظاهر العداوة ، والمعركة بين الشيطان والإنسان معركة قديمة ومستمرة ، والإنسان مطالب بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، والتحرز من إضلاله وإغوائه ، والاستعاذة بالله من كيده .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وفى آخر سورة من سور القرآن الكريم ، نجد دعوة إلى التحصن بقوة الله ورحمته وهدايته من شر الشيطان وكيده ، سواء أكان الشيطان من الجن أم من الإنس .

قال تعالى: قُلْ أَغُوذُ بِرَبِّ آتَاسٍ * مَلِكِ آتَاسٍ * إِلَهِ آتَاسٍ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الْإِنْسَانِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . (الناس : ١-٦) .

٦٣- وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَآطِعُوا .

ولما جاء عيسى رسولا إلى قومه ومعه الإنجيل والمعجزات الواضحات ، مثل : شفاء المرضى ، وإحياء الموتى ، وإخبار قومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم وغير ذلك ، قال لقومه : قد جئتكم بالحكمة ، أى بالتشريع المناسب لكم ، وما تقتضيه الحكمة الإلهية من الأوامر والنواهي .

وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ... أى : من أمور الدين لا من أمور الدنيا ، فإن الرسل أرسلهم الله تعالى ليبيّنوا للناس شئون دينهم لا شئون دنياهم .

قال الطبري : يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية . ا هـ .

كما قال ﷺ : «أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وأنا أعلم بأمور دينكم»^(١٧) .

فقد رأى ﷺ قوماً يؤبرون النخل ، أى يلقحون طلع النخلة الأنثى . لعل النخلة الذكر ، فقال : «لو تركوه لصلح» ، فتركوه فخاص ، أى : جف ولم ينجب تمراً ، فذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : «إذا أمرتكم بشيء من أمر الدين فاتبعوه ، وإذا أمرتكم بشيء من أمر الدنيا فأنتم أعلم بشئون دنياكم»^(١٨) .

فالأنبياء لم يبعثوا لبيان طرق الفلاحة والتجارة وغيرها من شئون الدنيا ، وإنما بُعثوا لبيان شرائع الله وأحكامه ، وبيان الحلال والحرام ، والآداب والعبادات والمعاملات .

لذلك قال عيسى : وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ...

وقيل : المراد أنه يبين لهم بعض الذى اختلفوا فيه كطوائف مختلفة ، ولا يبين الكل حفاظا على حياته ، وعلى تحصيل قسط من القبول عندهم ، اتباعا للحكمة ، ورغبة فى بيان جزء مقبول عندهم لا بيان كل مرفوض ، ومن حكم الدعاة قولهم : (ليس كل ما يُعلم يُقال ، ولا كل ما يُقال نجاء وقته ، ولا كل ما جاء وقته حضر أهله) .

وقريب من هذا المعنى ما ورد فى الصحيح عن أحد الصحابة قوله : كان ﷺ يتخوننا^(١٩) بالموعظة مخافة السأمة علينا والملل^(٢٠) .

وفى آخر الآية : فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا .

أى : راقبوا ربكم وأخلصوا له ، وأطيعوا كرسول مبلّغ عن الله الهدى والتعاليم والشرائع والتكاليف .

٦٤- إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

إن الله العلى الكبير هو ربى وهو ربكم ، فاتجهوا إليه وحده بالعبادة ولا تعبدوا سواه ، فهذا هو الطريق المستقيم الواضح المعتمد على التوحيد لله ، وفى هذا ردٌ صريح على من قال : إنه ابن الله ، أو قال : إنه هو الله ، أو قال : هو ثالث ثلاثة ، وكلها أقوال باطلة ، والصواب ما قاله المسيح هنا : إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .

قال ابن كثير : أى أنا وأنتم عبيد له ، فقراء إليه ، مشتركون فى عبادته وحده .

٦٥- فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ .

قال ابن كثير :

أى : اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يدعى أنه الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . اهـ .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ إِلِيمٍ .

أى : إن عيسى عبد الله ورسوله ، فمن زعم أنه إله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة هم الأب والابن وروح القدس ، فإنه ظالم معتد ، وهاك له فى عذاب يوم القيامة .

٦٦- هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول إلا مجيء القيامة بغتة وفجأة ، حيث لم يُعدوا لها إيمانا ولا عملا صالحا ، ثم تأتيتهم القيامة فجأة وهم لا يشعرون بقدومها ، أى وهم غافلون عنها ، ثم يندمون أشد الندم على أنهم لم يعملوا لها عملا نافعا أو مفيدا .

ألوان نعيم المتقين فى الجنة

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧) يَتَعَابَدُونَ لَكُمْ
 الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا
 الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
 وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ
 الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفِيتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا
 تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

المضردات :

الأخلاء ، واحد هم خليل ، وهو الصديق الحميم الذى تغللت المحبة قلبه ، أو الأحباء فى غير ذات الله .

مسلمين ، مخلصين منقادين لربهم .

تصبرون ، تسرون سرورا ظاهرا الأثر .

صحاف ، واحدها صحيفة ، وهى إثناء كالقصعة ، قال الكسائى : أكبر أوانى الأكل الجفنة ، ثم القصعة ، ثم الصحيفة ، ثم الميكلة .

أكواب ، جمع كوب ، وهو كوب لا أذن له .

أوفيتموها ، جعلناها لكم ميراثا .

تمهيد :

فى الآيات بعض مشاهد القيامة ، فالأخلاء والأصدقاء الذين تحابوا وتأزروا على الكفر والعداء للإسلام ، سيصيرون أعداء يوم القيامة ، وكل أخوة لغير الله ستصير عداوة ، إلا المتقين الذين تحابوا على طاعة الله ، ثم تصف الآيات فضل المتقين ونعيمهم فى الجنة ، فهم فى رضوان الله لا يصيبهم خوف ولا حزن ، وهم فى الجنة مع أزواجهم فى فرح وسرور وبشر ، يعم باطنهم وظاهرهم ، وهم فى نعيم مقيم ، طعامهم يأتيهم فى قصاع من ذهب ، وأكواب من ذهب ، ولهم فى الجنة كل ما تشتهيه أنفسهم وتلذذ به أعينهم ، والجنة ميراث ثابت لهم ، يأكلون من فاكهتها الكثيرة ، ويتمتعون بنعيمها العظيم .

التفسير :

٦٧- الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ .

حكى النقاش أن هذه الآية نزلت فى أمية بن خلف الجمحى ، وعقبة بن أبى معيط ، حيث كانا خليلين وكان عقبة يجالس النبى ﷺ : فقالت قريش : قد صبا عقبة بن أبى معيط ، فقال له أمية : وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمداً ولم تتغل فى وجهه ، ففعل عقبة ذلك ، فنذر النبى ﷺ قتله ، فقتله يوم بدر ، وقُتل أمية فى المعركة ، وفيهما نزلت هذه الآية .

ومعنى الآية :

الأصدقاء الذين تحابوا على الكفر ، أو معصية الله ، أو الخمر ، أو الزنا ، أو القمار ، أو الربا ، أو الرشوة ، أو سائر المعاصى ، هؤلاء بينهم مودة ومحبة فى الدنيا ، بسبب اللذائذ الحسية أو المكاسب المادية ، وفى يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويتبرأ التابعون من المتبوعين ، وتتحول كل مودة على معصية أو كفر إلى عداوة ، لكن أخوة المتقين ومحبتهم فى الله رب العالمين ، تكون سببا فى مرضاة ربهم ، وفى تمتعهم بظل عرش الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله .

روى الحافظ ابن عساكر ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لو أن رجلين تحابا فى الله ، أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب ، لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذى أحببته فى»^(١٧).

٦٨- يَجَادِلْ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ .

هذا نداء تكريم وتفضل وبشارة وحنان من الله العلى الكبير للمؤمنين المتقين المتحابين فى الله ، حيث يبشركم الله بأنهم عباده ، لا يصيبهم خوف ولا جزع ولا حزن فى ذلك اليوم ، بل هم فى رعاية الله وبشارته وفضله ، فهم لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس .

٦٩- الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ .

لقد آمنوا بكتب الله ورسله واليوم الآخر ، والملائكة والنبیین ، وكانوا منقادين لأمر الله عن تبصر وبصيرة ، فإذا سمعوا ذلك من الله ينس أهل الأديان الباطلة ، ونكسوا رؤوسهم ، واستبشرو المؤمنون .

٧٠- ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ .

ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات ، وتمتعوا بالنعيم والفرح والسرور الذى يظهر أثره على وجوهكم نضرة وحسنا .

٧١- يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

يُتَمَتَّعُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِنَعِيمٍ مُقِيمٍ ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِالطَّعَامِ فِي أَوَانٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِالشَّرَابِ فِي أَكْوَابٍ مِنْ ذَهَبٍ ، وَفِي الْجَنَّةِ نَعِيمٌ لَا نِهَآيَةَ لَهُ وَلَا حُدُودَ ، وَخَيْرَاتُ الْجَنَّةِ تَشْتَهِيهَا النَّفُوسُ ، وَتَسْعَدُ بِهَا الْعَيْنُونَ ، وَيَنَالُ الْمُؤْمِنُ فِي الْجَنَّةِ كُلَّ مَا يَطْلُبُ ، وَكُلُّ مَا يَشْتَهَى ، وَأَهْلُهَا خَالِدُونَ بِاقُونَ فِي هَذَا النَّعِيمِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَنْقُطِعُ وَلَا يَزُولُ .

وَيَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأَكْلَ فِي أَوَانِي الذَّهَبِ وَالْقَضَىٰ مُحْرَمٌ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، رَوَى الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيْبَاجَ ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي أَنْيَةِ الذَّهَبِ وَالْقَضَىٰ ، وَلَا تَأْكُلُوا فِي صَحَافِهِمَا ، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » ^(١١٨) .

قال أبو السعود :

وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

بِاقُونَ دَائِمُونَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا أَبَدًا ، وَهَذَا مِنْ إِتْمَامِ النِّعْمَةِ ، وَإِكْمَالِ السُّرُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ نَعِيمٍ زَائِلٌ مُوجِبٌ لَخَوْفِ الزُّوَالِ . ١ هـ .

والآية جمعت من النعيم ما يأتي :

(أ) المطاعم والمشارب .

(ب) ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

(ج) الخلود في دار النعيم .

فما أعظم هذا الفضل والنعيم في مرضاة الله رب العالمين .

ونذكر بعض المفسرين في معنى : وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ... قال : النظر إلى وجه الله الكريم .

قال تعالى : وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَيْنَا رُجُوعُهَا نَاطِرَةٌ . (القيامة : ٢٣، ٢٢) .

وهي أعلى درجة في الجنة ، أَنْ يَتَمَتَّعَ الْمُتَّقُونَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : كُنْتُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَشْكُونَ فِي رُؤْيَيْهِ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلِ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » ^(١١٩)

٧٢- وَلِلَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وهذه الجنة الموصوفة بالصفات المذكورة الجليلة ، أعطيتُموها بسبب أعمالكم الصالحة التي عملتموها في الدنيا ، والناس تدخل الجنة برحمة الله وفضله ، وتتقاسم منازل الجنة بحسب أعمالها .

روى البخارى في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لن يُدْخِلَ أحدكم الجنة عمله» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ، فسدوا وقاربوا ، ولا يتمنين أحدكم الموت ، إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً فلعله أن يستعذب»^(٥١) .

قال ابن كثير :

أى : أعمالكم الصالحة كانت سبباً في شمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات يُنالُ فتفاوتها بحسب الأعمال الصالحات .

وفى الحديث : «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، الكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى : وَلِلَّكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٥٢) . وقيل : معنى : أُورِثْتُمُوهَا . ثبتت ملكيتكم لها ثبوتاً قاطعاً كثبوت الميراث لوارثه .

٧٣- لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ .

لكم في الجنة أنواع الفواكه التي تأكلونها تليذاً وتنعم ، لا عن حاجة أجسامكم إليها .

قال تعالى : فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ . (الرحمان : ٥٢) .

وقال سبحانه : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُؤْمَانٌ . (الرحمان : ٦٨) .

وقال تعالى : وَلَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . (الواقعة : ٣٣، ٣٢) .

والفاكهة في الجنة متنوعة كثيرة لا تنتهى أبداً ، والأشجار حاملة للثمار مزينة بها ، ولا ينزع رجل من أهل الجنة ثمرة من ثمار الجنة إلا ثبت مكانها مثلاًها^(٥٣) .

عذاب المجرمين في جهنم

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۖ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ۖ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۖ ﴿٧٦﴾ وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ۖ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۖ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۖ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْسِبُونَ ۖ ﴿٨٠﴾﴾

المقررات :

المجرمين : الكافرين ، لذكروهم في مقابلة المؤمنين .

لا يفتر عنهم : لا يخفف عنهم ، من : فُتِرَ عنه الحمى ، أى : سكنت قليلا .

مبسسون : آيسون من تخفيف العذاب ، من الإيلاس وهو الحزن من شدة اليأس .

ليقض علينا : ليهلكنا ويفتتنا .

إنكم ماكثون : مقيمون لا يثون .

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا : أحكموه وقرروه واعتزموه ، من الإبرام وهو الإحكام والإتقان ، يقال : أبرم الحبل ، أى : أنقذ فتلته .

سِرَّهُمْ : الحديث الذى حدّثوا به أنفسهم .

نَجْوَاهُمْ : تناجيهم وتحادثهم ، وناجاه : حادثه .

بلى : نعم .

ورسلنا : المراد بالرسل هنا : الملائكة الحفظة .

تهديد :

تصف الآيات المجرمين وهم يُعَذَّبون في جهنم بعذاب دائم مستمر لا يخفف عنهم ، وقد صاروا يائسين ساكتين ، وما ظلمهم الله ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم ، ونادى أصحاب النار قائلين : يا مالك ادع الله معنا أن يقضى علينا بالفناء حتى نستريح من هذا العذاب الدائم ، فأجابهم : إنكم باقون هنا في جهنم لقد أتيناكم بالحق فأرسلنا لكم الرسل ، وأنزلنا عليكم الكتب ، ولكن أكثركم كره ذلك ورفضه ، أَمْ أَحْكَمُوا أَمْراً فى تكذيب الحق وردّه ، فإننا مبرمون أَمْراً فى مجازاتهم ، أَمْ يحسبون أننا لا نسمع حديث أنفسهم ومناجاتهم وكلامهم بعضهم لبعض ، بلى نسمعها ، والحفظة من ملائكتنا يسجلون أقوالهم ويكتبونها .

التفسير :

٧٤- إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ .

إن المجرمين الذين تمادوا في الإجرام ، فكفروا بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعجزوا عن كبح جماح شهواتهم ، والانضواء تحت لواء الإسلام ، هم في الغالب يعرفون الحق ودلائل الرسالة ، ولكنهم عاجزون عن التفریط في نعيم الدنيا ، وعاجزون عن الاعتراف بصدق الإسلام ؛ لتفضيلهم طاعة الشيطان والهوى على طاعة العقل والهدى ، فهم خالدون في عذاب جهنم مخلوداً أبدياً سرمدياً .

٧٥- لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

لا يخفف عنهم العذاب لحظة ، وهم آيسون من كل أمل أو رجاء في رفع العذاب عنهم أو تخفيفه ، وهذه أسوأ الحالات أن يفقد الإنسان الأمل والرجاء ، فيصبح ملبساً يائساً حزينا قد دهمه الإحباط والخوف .

٧٦- وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ .

لقد اختاروا طريق الشهوات والهوى والكفر ، وآثروا العاجلة على الآجلة ، وباعوا الحق والهدى ، فلم يظلمهم الله حين أنزل بهم أشد العذاب ، ولكنهم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الضلالة على الهدى .

٧٧- وَنَادَوْا لِئَسْلَمَ لَكَ بَقْيُ عَالِيَتِنَا قُلْ إِنَّكُمْ مُسَكِّنُونَ .

أعظم من الموت تمنى الموت ، فهم في حالة من الجوع والعطش والذل والهوان ، توسلوا إلى مالك خازن النار ، داعين راجين أن ينتقلوا إلى درجة الموت والفناء والهباء ، فيتفتتوا ويهلكوا ويفقدوا الإحساس . وكان الجواب : إنكم ماسكون في جهنم لتناولوا جزاءكم من العذاب .

قال تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (النساء : ٥٦) .

وقال سبحانه : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ . (فاطر : ٣٦) .

٧٨- لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

أرسلنا إليكم الرسل ، وأنزلنا إليكم الكتب ، وكنتم تعلمون صدق محمد ﷺ ، وهو المشهور بينكم بالصادق الأمين ، لقد كان إعراضكم عن الإيمان بسبب كراهة الحق لا بسبب جهل الحق ، عدلتم عن الإنصاف

والإيمان والعدل ، وأثرت الكفر والضلال والاسترسال فى الشهوات والنزوات والخمر والزنا ، فكرهتم الحق والعدل والإنصاف .

قال ابن كثير :

لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ .

أى : بينا لكم الحق ووضحناه وفسرناه ، ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

٧٩- أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مُرْمُونَ .

أَمْ ، للإضراب الانتقالي ، حيث كان الحديث عن عذاب المجرمين فى جهنم، فانتقل إلى مجابهة أهل مكة ، أى : بل دبروا وأحكموا المكر والكيد لرسول الله ﷺ فى دار الندوة ، حيث فكروا فى حبسه أو نفيه أو قتله ، وأخيراً استقر رأيهم على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جليلاً وسطاً متيناً ، ويعطى كل شاب سيفاً صارماً بشاراً ، ثم يضربوا النبی ﷺ ضربة واحدة ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف محاربة كل هذه القبائل ، فيقنعون بالدية فى قتله وبذلك يستريح كفار مكة ، لكن الله أبرم ودبر وأحكم حفظ رسوله ، وأمره بالهجرة ، فخرج من بينهم بحفظ الله وعنايته .

قال مقاتل بن سليمان :

نزلت فى تدبير المشركين المكر بالنبي ﷺ فى دار الندوة ، حين استقر أمرهم على ما أشار به أبو جهل ، وهو أن يبرز من كل قبيلة رجل ، ليشتركوا فى قتله ﷺ فتضعف المطالبة بدمه .

وقال غيره من المفسرين :

الآية عامة ، والمعنى : كلما أحكموا أمراً فى المكر بمحمد ﷺ فإننا نحكم أمراً فى مجازاتهم ، وإننا محكمون لهم كيذاً ، أى نبئت لهم جزاء وعقاباً شديداً .

قال تعالى : وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (النمل : ٥٠) .

وقال سبحانه : أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ . (الطور : ٤٢) .

قال ابن كثير :

وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه ، فكاندهم الله تعالى ورداً وبال ذلك عليهم .

٨٠- أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ .

يخطئ الكفار حين يظنون أن الله لا يراهم ولا يشاهد عملهم ، بل الواقع أن الله تعالى مطلع على سرهم وهو حديث النفس الذي يحدثون به أنفسهم ، ومطلع على نجوئهم ، وهو التشاور والتحاور لإحكام الخطة والمكر والكيد للإسلام ولرسوله محمد ﷺ .

وإن الملائكة والحفظة تسجل عليهم صغيرها وكبيرها ، ثم يحاسبون عليها يوم القيامة .

قال تعالى : إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَائِلِ قَعِيدٌ ۚ مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، (ق: ١٧، ١٨) .

وقال يحيى بن معاذ :

من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض ، فقد جعل ربه أهون الناظرين إليه .

★ ★ ★

تنزيه الله سبحانه عن الولد والشريك

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُرُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنُودٌ قَوْمٌ لَا يَزُومُونَ ﴿٨٨﴾ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿

المضردات :

هنا أول العابدین ، المنقادین ، وهو جمع عابد .

سبحان رب السماوات ، تنزيها له عن كل نقص .

عمما يصفون ، عما يقولون كذبا بأن له ولدا .

يخوضوا، يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء .

ويلعبوا، فى دنياهم .

يومهم، يوم القيامة .

إلهه، معبود بحق لا شريك له .

الحكيم، فى تدبيره .

العليم، بمصالح عباده .

تبارك، تعالى وتعاظم .

وما بينهما، كالهواء وجميع المخلوقات .

الساعة، القيامة .

إلا من شهد بالحق، بالتوحيد عن علم وصيرة .

فأنسى يؤفكون، فكيف ينقلبون وينصرفون عن عبادته تعالى .

وقيل له، معطوف على آساعة . أى : وعنده علم الساعة، وعلم قبله : أى قول محمد ﷺ ، والقيل

والقول والمقالة والقال بمعنى واحد، وفى الخبر: «نهى عن قيل وقال» .

فاصفح عنهم، أعرض عنهم، أو أعف عنهم عفو المغرض، ولا تقف عن التبليغ .

وقل سلام، سلام متاركة وهجران، لا سلام تحية .

تمهيد :

تبدأ الآيات بأمر الرسول ﷺ أن يقول للمشركين : إن مخالفتهم لهم لم تكن بغضاً، بل لاستحالة نسب ما نسبوه إليه سبحانه، ولو سلمنا جدلاً وكان للرحمان ولد فأنا أول من يعبد، لكن الرحمان منزّه عن ذلك فلذا لا أتجه لعبادته إلا إلى الله وحده، سبحانه تنزهه عن الصاحبة والولد .

ثم يهددهم بالساعة وبالحساب والجزاء، ويفهمهم أن الله له ملك السماوات والأرض، فهو منزّه عن المخلوقين فى حاجتهم إلى الولد .

والأصنام والملائكة وعزير وعيسى وسائر المعبودات، لا تملك أى نفع كالشفاعة فى الآخرة، وأى المشركين متناقضون حين يقرّون لله وحده بالخلق، ثم يعبدون معه غيره، وأن حسابهم آت يوم القيامة

التفسير :

٨١ - قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ .

لست أخالفكم عن عناد أو كراهية لكم ، ولكن ليقينى بوحداية الله ، ولو فرضنا جدلاً أن له ولداً لكنت أول العابدین له ، المعظمین لهذا الولد ، كما يتقرب الإنسان إلى الملك العظيم بتعظيم ولده ، ولكنه جلّ وعلا منزّه عن الزوجة والولد .

قال القرطبي :

وهذا كما تقول لمن تناظره : إن ثبت ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقدّه ، وهذا مبالغة في الاستبعاد ، وترقيق في الكلام .

وقال الطبري : هو ملاطفة في الخطاب .

وقال البيضاوي : ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له ، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه ، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء ، بل لو كان لكان أولى الناس بالاعتراف به ، فإن النبی يكون أعلم بالله ، وبما يصح له وما لا يصح .

٨٢ - سُبحَنَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

أى : تنزهه وتقدس الخالق العظيم المبدع ، رب السماوات والأرض ، ورب العرش العظيم ، عما يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه .

قال ابن كثير :

أى : تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد صمد ، لا نظير له ، ولا كفاء له ، فلا ولد له .

٨٣ - فَذَرْنَهُمْ يَخُوضُوا وَيُلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ .

اترك هؤلاء المشركين يدخلون في باطلهم وضلالهم ، ويلعبون في دنياهم وغيبهم ، حتى يجيبهم يوم القيامة ، وسوف يجدون فيه من الأهوال ما يعجز عنه الاحتمال .

وقال عكرمة وجماعة : إنه يوم بدر ، وقد وعدوا الهلاك فيه .

٨٤ - وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

هو سبحانه منزه عن الولد ، وأيضاً منزه عن المكان ، والكيف والكم والطول والعرض .

قال تعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

جاء في التفسير المنير ما يأتي :

فليس له مكان يستقر فيه ، بل له الألوهية والربوبية في الكون كله ، وفي كل مكان ، ويستحيل عليه المكان ، لأنه يكون محدوداً محصوراً في جهة معينة له حجم ونهاية ، وتلك صفات الحوادث ، والله منزه عنها ، فلا يحده زمان أو مكان ، والحكمة البالغة والعلم الواسع يتنافيان مع إثبات الولد لله ^(١) .

وقال ابن كثير :

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ...

أى : هو إله من فى السماء ، وإله من فى الأرض ، يعبداه أهلها ، وكلهم خاضعون له ، أذلاء بين يديه وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

وهذه الآية كقولها سبحانه وتعالى : وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ . (الأنعام : ٣) .

أى : هو المدعو الله فى السماوات والأرض . ا هـ .

٨٥ - وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

كثرت بركات الله صاحب السلطان المطلق ، والملك التام للسماوات والأرض وما بينهما ، من الهواء والفضاء ، وأنواع الحيوان والإنسان ، وهو خالق كل شيء ، وهو المختص وحده بالساعة ، لا يجليها لوقتها إلا هو ، وإليه سبحانه مرجع العباد كلهم للحساب والجزاء ، فيجازى كل إنسان بعمله : إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٨٦ - وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

لا تملك الآلهة المذعاة شفاعه ولا نفعاً ولا ضرراً لعبادتها ضاعته ، وشفاعتها مردودة ، وهى ليست آلهة إلا بدعواهم المرفوضة ، فالأصنام والأوثان ، والعزير وعيسى والملائكة ، وكل ما عبد من دون الله ، لا يملك شفاعه ولا يقدر عليها ، لكن من شهد بالحق وأمن بالله وملائكته وكتبه ، ورسله واليوم الآخر عن يقين وبصيرة وعلم ، فإنه حرى بأن تقبل شفاعته عند الله تعالى .

٨٧ - وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَلَّى يُؤْفَكُونَ .

هناك دلائل القطرة التي توحى بأن هذا الكون البديع المنظم لأبد له من إله مبدع ، فإذا سألت هؤلاء الكفار : مَنْ خَلَقَهُمْ من عدم ، وأوجدهم في هذا الكون ؟ ليقولون : الله هو الذي خلقنا ، فكيف يصرفون عن عبادته تعالى وحده ؟ وكيف ينصرفون إلى عبادة غيره سبحانه ؟

وقيل : المعنى : ولئن سألت الملائكة وعيسى : مَنْ خَلَقَهُمْ ؟ لقالوا : الله سبحانه وتعالى خلقنا فَأَلَّى يُؤْفَكُونَ . فكيف يؤفك هؤلاء المشركون ويصرفون ، وينقلبون عن الحق في ادعائهم إياهم آلهة .

٨٨ - وَقِيلَ لِلَّهِ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

وعند الله تعالى علم الساعة ، وعنده سبحانه علم دعاء نبيه ﷺ ، وشكواه إلى ربه ، وقوله : يارب إن هؤلاء - كفار مكة - قوم لا يؤمنون بك ولا برسولك .

قال ابن كثير :

وقوله جل وعلا : وَقِيلَ لِلَّهِ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ .

أى : وقال محمد ﷺ قيله . أى : شكاه إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : يَرْبُ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . قال : يؤثر الله عز وجل قول محمد ﷺ .

وقال قتادة : هو قول نبيكم ﷺ يشكو قومه إلى ربه عز وجل . ١ هـ .

٨٩ - فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

تُخْتَمُ السُّورَةُ بهذه الآية الكريمة توجيهاً للنبي الأمين ﷺ ، أى : اتركهم وشأنهم ، ولا تقابل إساءتهم في استقبال دعوتك بإساءة مثلها ، بل هَوِّنْ على نفسك ، واصْفَحْ عنهم فعلاً وقولاً ، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وقل لهم : سلام عليكم ، سلام متاركة وإمهال ، لا سلام محبة وإقبال .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

عاقبة كفرهم وعنادهم ، بالهزيمة في القتال أمام النبي ﷺ ، من بدر إلى فتح مكة ، ثم عذابهم في جهنم ويئس المصير .

خلاصة ما تضمنته سورة الزخرف

- ١ - وصف القرآن الكريم بأنه عربى ، متميز فى اللوح المحفوظ .
- ٢ - الأمر بإنذار قومه ﷺ ، مع غفلتهم وإسرافهم فى لذات الدنيا .
- ٣ - شأن هؤلاء الكفار فى تكذيب الرسول ﷺ شأن من سبقهم من المكذبين .
- ٤ - اعترافهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض .
- ٥ - ذكر جانب آخر من نعم الله تعالى فى بسط الأرض ، وتيسير الطرق بحثاً عن الرزق ، وإنزال المطر لإحياء الأرض ، وخلق الأزواج فى الإنسان والحيوان والنبات ليتم التناسل وإعمار الكون .
- ٦ - ذكر الله عند ركوب الدابة وركوب السفينة .
- ٧ - اعتقاد كفار مكة بأن الملائكة بنات الله .
- ٨ - تمسكهم بتقليد الآباء والأجداد ، ولو جاءت إليهم ألوان الهداية والرسالة .
- ٩ - جانب من قصة إبراهيم الخليل .
- ١٠ - رغبة كفار مكة فى أن ينزل القرآن على رجل غنى عظيم من أهل مكة أو الطائف .
- ١١ - حكمة الله العليا فى توزيع الأرزاق ، واختياره واصطفاه للرسالة من يعلم أنه أصلح لها وأولى بها .
- ١٢ - جانب من قصة موسى مع فرعون .
- ١٣ - جانب من قصة عيسى عليه السلام .
- ١٤ - وصف نعيم الجنة .
- ١٥ - الأموال التى يلقاها أهل النار ، حتى يتمنوا الموت ليستريحوا مما هم فيه ، ولا مجيب لهم .
- ١٦ - متاركة أهل الباطل والصفح عنهم حتى يأتى أمر الله .

★ ★ ★

تم تفسير سورة الزخرف ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، مساء الثلاثاء ٢٦ من صفر ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٥/٣٠ م ، والحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الدخان

أهداف سورة الدخان

سورة الدخان مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٥٩ آية ، نزلت بعد سورة الزخرف ، وقد سميت سورة الدخان لقوله تعالى فيها : **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ** . (الدخان : ١٠) .

أفكار السورة

قال الفيروز بادى :

معظم مقصود سورة الدخان هو : نزول القرآن في ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكري البعث ، وذل الكفار في العقوبة ، وعن المؤمنين في الجنة ، والمنة على الرسول بتييسر القرآن على لسانه في قوله تعالى : **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** . (الدخان : ٥٨) .

فضل السورة

سورة الدخان سورة يكثر المسلمون قراءتها ، خصوصاً ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر في رمضان ، وليلة الجمعة ، وهي تبدأ ببيان أن القرآن أنزل من السماء في ليلة مباركة ، يحمل الرحمة والهدى من رب العالمين ، ثم تنذر المشركين بالعذاب ، وتذكر طرفاً من قصة موسى مع فرعون ، ثم تذكر مشاهد القيامة ، وفيها نعيم المتقين ، وعقاب المشركين .

ومن السنة قراءة سورة الدخان ليلة الجمعة لتثبيت الإيمان وتقوية اليقين بقدرة الله رب العالمين ، قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له» ^(١) .

سياق السورة

سورة الدخان سريعة الإيقاع ، قصيرة الفواصل ، لها سمات السور المكية ، إذ تشتمل على صور عنيفة متقاربة ، ونذر متكررة ، تشبه المطارق التي تقع على أوتار القلب البشري . «ويكاد سياق السورة أن يكون كله وحدة متماسكة ذات محور واحد ، تشد إليه خيوطها جميعاً ، سواء في ذلك القصة ، ومشهد القيامة ، ومصارع الغابرين ، والمشهد الكوني ، والحديث المباشر عن قضية التوحيد والبعث والرسالة ، فكلها وسائل

ومؤثرات لإيقاظ القلب البشرى ، واستجاشته لاستقبال حقيقة الإيمان حية نابضة ، كما يبثها هذا القرآن فى القلوب»^(٥٦).

تبدأ السورة بهذه الآيات القصيرة المتلاحقة ، المتعلقة بالكتاب والإنذار والرسالة والهداية : حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبَرَّكَهٖ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . (الدخان : ١ - ٥) .

ثم تعريف للناس بزيهم ، رب السماوات والأرض وما بينهما ، وإثبات الوجدانية لله المحيى المميت ، رب الأولين والآخرين .

ثم يُضرب السياق عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم : بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ . (الدخان : ٩) . ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . (الدخان : ١٠ ، ١١) .

ثم نذكر ما يكون من دعائهم لله أن يكشف عنهم العذاب ، وإعلانهم الاستعداد للإيمان فى وقت لا يقبل منهم فيه إيمان .

وتذكيرهم بأن هذا العذاب لم يأت بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة قبل أن يعودوا إلى ربهم فيكون ذلك العذاب المخيف : يَوْمَ يُطِشُ الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ . (الدخان : ١٦) .

ومن هذا الإيقاع العنيف بمشهد العذاب ، ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ، ينتقل بهم إلى مصرع فرعون وملئه ، يوم جاءهم رسول كريم يدعوهم إلى الإيمان بالله ، فأبوا أن يستجيبوا لدعوته ، وهموا بالانتقام من موسى فأغرقهم الله ، وتركوا وراءهم الجنات والزرورع ، والفاكهة والمقام الكريم ، يستمتع بها سواهم ، ويذوقون هم عذاب السعير .

وفى غمرة هذا المشهد الموحى يعود إلى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة وإنكارهم للبعث وقولهم : إِن هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأَتَوْا بِآيَاتِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . (الدخان : ٣٥ ، ٣٦) .

ليذكرهم بأنهم ليسوا أقوى من قوم تبع الذين هلكوا لإجرامهم ، ويربط السياق بين البعث وحكمة الله فى خلق السماوات والأرض ، فلم يخلقهما عبثاً وإنما لحكمة سامية ، هى أن تكون الدنيا للعمل والابتلاء ، والآخره للبعث والجزاء .

ثم يحدثهم عن يوم الفصل: **مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**. (الدخان : ٤٠). وهنا يعرض مشهداً عنيفاً لعذاب المكذبين، إنهم يأكلون من شجرة مؤلمة ، طعامها مثل الزيت المغلى - وهو المهل - يغلى فى البطون كغلى الحميم ، ويشد المجرم شداً فى جفوة وإهانة ، ويصب فوق رأسه من الحميم الذى يكوى ويشوى .

ومع الشد والجذب ، والدفع والعتل والكى ، التأنيب والإهانة ، جزاء الشك والتكذيب بالبعث والجزاء : **ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيذُ الْكَرِيمُ** . (الدخان : ٤٩) .

وفى الجانب الآخر من ساحة القيامة نجد المتقين فى مقام أمين ، يلبسون الحرير الرقيق وهو السندس ، والحرير السميك وهو الإستبرق ، ويجلسون متقابلين يسمرون ويتمتعون بالحوار العين ، وبالخلود فى دار النعيم : **فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** . (الدخان : ٥٧) .

ثم يأتى الختام يذكرهم بنعمة الله فى تيسير هذا القرآن على لسان الرسول العربى ، الذى يفهمون كلامه ويدركون معانيه ، ويخوفهم العاقبة والمصير ، فى تعبير ملفوف ولكنه مخيف . **فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ** . (الدخان : ٥٩) .

إنزال القرآن في ليلة مباركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ③
فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ④ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ⑤ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ⑥ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ⑦ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ⑧
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ⑨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ⑩﴾

المفردات :

والكتاب المبين ، والقرآن الواضح .

ليلة مباركة : كثيرة البركة ، وهي ليلة القدر على الأصح .

منذرين : مخوفين .

يفرق : يفصل ويبين .

كل أمر حكيم : كل أمر ذي حكمة ، وهو ما قضاه الله من أحوال العباد وحاجاتهم ، ومن أعظم ذلك
نزل القرآن .

موقنين : تطلبون اليقين وتريدونه ، كما يقال : فلان منجد ، أى : يريد نجداً .

فى شك يلعبون : فى تردد ولعب يعبثون ، استهزاء بالنبى ﷺ ، فدعا عليهم قائلاً : «اللهم أعنّى عليهم
بسمع كسمع يوسف» .

التفسير :

١ - حمد .

حروف مفصلة افتتح الله بها عدداً من السور ، لتكون بمثابة الجرس الذى يقرع ، فيتنبه التلاميذ

بدخول المدرسة .

ولأن الكفار كانوا يتواصلون بعدم الاستماع للقرآن ، فلما قرع أسماعهم ما لم يألفوه أنصتوا ، وقيل :
 هي حروف للتحدى والإعجاز ، ذلك أن الله تعالى طلب من المشركين أن يأتوا بمثل القرآن فعجزوا ، فطلب
 الإتيان بعشر سور منه فعجزوا ، فطلب الإتيان بسورة منه فعجزوا ، ولزمهم العجز الأبدى ، وتحداهم القرآن
 مفتتحاً بعض السور بهذه الأحرف المقطعة ، مرشداً إلى أن القرآن مكوّن من حروف عربية تنطقون بها ، وقد
 عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدلّ ذلك على أنه من عند الله ، وهو وحى إلهى وليس من صنع بشر .

٢ ، ٣ - وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ .

أقسم الله تعالى بالكتاب الواضح لمن تدبره ، على أنه أنزل القرآن الكريم فى ليلة مباركة ، حتى ينذر
 عباده ويخوفهم من الإعراض عن الوحى ، ويحذّرهم من الكفر والإلحاد .

الليلة المباركة

والليلة المباركة على الأرجح هى ليلة القدر ، وهى إحدى ليالى شهر رمضان ، وفى الصحيح أنها
 إحدى ليالى العشر الأواخر من رمضان ، وقد ابتدأ نزول القرآن الكريم فى ليلة القدر ، فسمى الشئ باسم
 أوله تيمناً به ، حيث خاطبت السماء الأرض فى هذه الليلة .

ثلاثة تنزلات

ذكر السيوطى فى (الإقان) ، والزرخشى فى (البرهان) أن القرآن الكريم له ثلاثة تنزلات :

١ - التنزل الأول : من رب العزة جلّ جلاله إلى اللوح المحفوظ فى السماء السابعة ، وإليه الإشارة بقوله
 تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

٢ - التنزل الثانى : من اللوح المحفوظ بالسماء السابعة إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، وإليه الإشارة
 بقوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . (القدر : ١) .

ويقوله تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ... (البقرة : ١٨٥)

٣ - التنزل الثالث : من بيت العزة فى السماء الدنيا إلى النبى ﷺ ، منجماً حسب الوقائع والحوادث ، خلال
 ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وعشر سنوات فى المدينة المنورة ، والحكمة فى
 تعدد نزول القرآن الكريم هو التشريف والتكريم لهذا الكتاب الكريم ، حيث أنزل الله ثلاثة تنزلات ،
 وأيضاً لإلهاب شوق النبى ﷺ ، حيث يشعر أن القرآن قريب منه بالسماء الدنيا ، على حدّ قول الشاعر :

وأعظم ما يكون الشوق يوماً
 إذا دنت الخيام من الخيام

- فالقرآن الكريم نزل جملة واحدة من عند الله العلى القدير إلى اللوح المحفوظ بالسماء السابعة .
 - ثم نزل جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى سماء الدنيا ، قال تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . (القدر : ١)** .
 - ثم نزل مفزعا ومنجما فى شهور السنة كلها ، خلال ثلاث وعشرين سنة من عمره الشريف ﷺ .
- وبهذا نجتمع بين الآثار الواردة التى تفيد أنه نزل فى ليلة القدر ، وبين الواقع المشاهد الذى يفيد أنه نزل خلال ثلاث وعشرين سنة .
- قال تعالى : **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . (الإسراء : ١٠٦)** .

عمره الشريف ﷺ

- نزل الوحي على النبي ﷺ وعمره أربعون سنة ، واستمر نزول الوحي عليه ثلاث عشرة سنة فى مكة ، وهاجر إلى المدينة وعمره الشريف ثلاث وخمسون سنة ، ومكث تسع سنوات ويضعة أشهر فى المدينة ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره اثنان وستون سنة ويضعة أشهر ﷺ ، ويمكن أن نقابل ذلك بالتاريخ الميلادى فنقول :
- ميلاد الرسول ﷺ سنة ٥٧٠ ميلادية .
 - بدء نزول الوحي عليه سنة ٦١٠ ميلادية .
 - هجرته ﷺ إلى المدينة سنة ٦٢٣ ميلادية .
 - لحاقه ﷺ بالرفيق الأعلى سنة ٦٣٣ ميلادية ؛ وهو التاريخ الموافق لسنة ١٠ هجرية .

عود إلى التفسير :

قال ابن جزى فى التسهيل لعلوم التنزيل :

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ .

وكيفية إنزاله فيها أنه أنزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئا بعد شيء .

وقيل : المعنى : ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر .

وقال القرطبي : ووصف الليلة بالبركة لما يُنزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .

وقال ابن كثير :

إِنَّا كُنَّا مُتَنَبِّئِينَ .

أى : معلمين الناس ما ينفعهم وما يضرهم شرعاً ، لتقوم حجة الله على عباده .

٤ - فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ .

فيها يفرق كل أمر ذى حكمة ، من أرزاق العباد وأجالهم وما يتعلق بهم ، من ليلة القدر إلى مثلها من العام القادم ، حتى إن الرجل ليتزوج ويولد له وقد كتب اسمه فى ديوان الموتى .

وقيل : إن الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم هى ليلة النصف من شعبان ، حيث فيها آجال العباد وأرزاقهم وما يصيبهم ، ورفض ذلك المحققون .

وقيل : تبدأ كتابة الأجل والأعمار والأرزاق وشئون الخلق من ليلة النصف من شعبان إلى ليلة القدر من رمضان ، وهذا قول يحتاج إلى دليل ، وجمهور المفسرين على أن الليلة المباركة هى ليلة القدر من شهر رمضان .

قال ابن عباس : يحكم الله أمر الدنيا إلى السنة القادمة ، ما كان من حياة أو موت أو رزق .

٥ - أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .

جميع ما نقره فى تلك الليلة ، وما نوحى به إلى الملائكة من شئون العباد ، هو أمر حاصل من جهتنا ، بعلمنا وتدبيرنا ، فسيحان من أحاط بكل شىء علماً ، ومن بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شىء قدير .

إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . نُرسل الرسل والأنبياء لهداية البشر وتبليغهم الشرائع ، ونظام العبادات والمعاملات .

٦ - رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

إن التشريع والتقدير ، وإنزال الوحي ، وإرسال الرسل ، وإرشاد العباد ، وكل ما يتم فى هذا الكون ، مشتمل على الرحمة والرفقة والفضل من الله تعالى لعباده ، فهو السميع لأقوالهم ، العليم بأفعالهم ، وما أعظم رحمته وفضله على عباده ، فهو الرحمان الرحيم .

٧ - رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُم مُّوقِنِينَ .

أى : الله تعالى أنزل القرآن الكريم فى ليلة القدر بأمره سبحانه ، رحمة بعباده ، وأرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهو سبحانه رب السماوات والأرض ، وخالقهما ومالكهما وما بينهما ، وما بينهما من الهواء والفضاء والمخلوقات .

إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . أَيُّ : متحققين في اعترافكم بأن خالق الكون هو الله سبحانه وتعالى ، أو إن كنتم من أهل الإيمان واليقين ، فاعلموا أن الذي أنزل القرآن هو رب السماوات والأرض وما بينهما .

٨ - لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ رَّبُّكُمْ الْأُولِينَ .

هو الإله الواحد الأحد ، لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، لأنه المتصف بصفات الجلال والكمال ، يحيى الأموات ، ويميت الأحياء ، هو خالقكم وخالق الخلق أجمعين من الأمم الماضية ، نعم هو واهب الحياة ، وهو الذي يحيى ويميت ، وهو الرب سبحانه المتصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، ليس معه إله آخر ، هو الباقي بعد فناء الجميع ، والمُلك له وحده يوم القيامة ، سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، ومن يتصف بهذا الجلال والكمال ، إذا أنزل كتاباً كان مشتملاً على غاية السمو والرفعة .

٩ - بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ .

إن كفار مكة قابلوا الرسالة والوحي والإسلام ورسالة محمد ﷺ بالشك فيها والارتياب ، وأخذوا هذا الأمر العظيم والرسالة العظمى والقرآن الكريم مأخذ اللعب لا مأخذ الجد ، فظلوا في غيهم ولهوهم ولعبهم .

وفى هذا المعنى قوله سبحانه : أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَلْجُودٌ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا . (النجم : ٥٩ - ٦٢) .

★ ★ ★

تهديد المشركين بالعذاب

﴿فَأَرْقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَفَنُكْفِرُكَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ نَوَلَّوْا عَنهُ وَقَالُوا مَعَهُ يَنْجُونَ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَاطِلَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝١٦﴾

لمضردات :

ارتقَب : انتظر أيها النبي .

بدخان مبين : واضح بين ، ويراد به الغبار المتصاعد بسبب الجذب .

يغشى الناس ، يشملهم ويحيط بهم .

اكشف عنا ، ارفع عنا .

أنسى : كيف يكون ، ومن أين .

معلم : يعلمه غلام رومى لبعض ثقيف .

مجنون : لا يعى ما يقول .

نبتش : نعاقب بشدة ، والبش هو الأخذ الشديد فى كل شيء ، والبأس .

تمهيد :

أرسل الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بمكة ، فاشتد تعنت المشركين ، وكذبوه وحاربوه ، وآذوه وعذبوا أصحابه ، فدعا رسول الله ﷺ عليهم .

روى البخارى أن النبى ﷺ قال : «اللهم اشد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»^(١٠) .

فأصاب أهل مكة الجذب والجوع حتى أكلوا العهن^(١١) والجلود والعظام ، وكانوا ينظرون إلى السماء فيجدون ما يشبه الدخان ، من شدة الجذب وقلة المطر وشدة الجوع ، فاستغاثوا بالنبى ﷺ ، وناشدوه الرِّحم ، فدعا الله لهم ، فأنزل عليهم المطر رجاء أن يؤمنوا ويدخلوا فى الإسلام ، ثم توعدهم بالعذاب يوم بدر ، أو يوم القيامة ، حيث ينتقم الله منهم انتقامًا شديدًا .

التفسير :

١٠ - فَأَرْقَبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ .

انتظر يا محمد وترقب نزول العذاب بأهل مكة ، جزاء كفرهم وعنادهم ، حتى يشاهدوا فى السماء كهيفة الدخان ، من شدة الجذب والجوع والجفاف وقلة المطر .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن مسعود قال : إن قريشًا لما استعصوا على النبى ﷺ ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيفة الدخان من الجهد ، فأنزل الله : فَأَرْقَبُ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ .

فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت ، فاستسقى ، فسقوا ، فنزلت .

ومن المفسرين من رأى أن الآية تشير إلى دخان سيأتى قبيل القيامة ، وهو من علامات الساعة ، يصيب الكافرين والمنافقين بمشقة شديدة ، حتى يخرج الدخان من فتحات أفواههم وأنوفهم ، ولا يصيب المؤمن منه إلا كهية الزكام .

وعند التأمل نجد أنه يمكن الجمع بين الآثار والأحاديث الصحيحة الواردة فى الموضوع ، بأن نقول إن الآية العاشرة من سورة الدخان ، وهى : **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ** . تشير إلى وعيد من الله لمشركى مكة ، بعذاب قادم فيه قحط وجوع وجذب ، حتى يشاهدوا فى السماء كهية الدخان من شدة الجوع . أما الآية السادسة عشرة من سورة الدخان ، وهى قوله تعالى : **يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ** . فهى تشير إلى عذاب المشركين فى غزوة بدر الكبرى ، أو إلى عذابهم بالنار يوم القيامة .

١١ - **يُعْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** .

يشمل العذاب جميع الكافرين ، فيجهدهم الجوع والقحط وهينة الدخان ، فيقولون : هذا عذاب مؤلم أشد الألم .

قال المفسرون : وكلما اشتد الجذب اشتد الدخان تكاثفاً ، فكان الرجل يحدث الرجل فيسمعه ولا يراه ، وذلك قوله سبحانه : **يُعْشَى النَّاسَ ...** أى : يضمهم ويحيط بهم .

هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

يُحتمل أنه قول الله لهم تهويلاً وتقريعاً ، أى : ذوقوا هذا العذاب الأليم .

ونظير ذلك قوله سبحانه للكافر يوم القيامة : **دُفِئَ إِلَيْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ** . (الدخان : ٤٩) .

ويحتمل أن الناس هم القائلون : **هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** . حينما يرون الدخان وشدة وأثره فى إيلاهم .

١٢ - **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** .

عندما اشتد القحط بأهل مكة مشى أبو سفيان ومعه نفر إلى رسول الله ﷺ ، يناشدونه الله تعالى والرَّحْمَ ، وواعده إن دعا لهم ، وزال عنهم ما بهم أن يؤمنوا ، أى : إذا كشفت عنا يا ربنا هذا العذاب ، فإننا سنؤمن بك وبرسولك ، وقد عدلوا عن قولهم : (سنؤمن) . إلى قولهم : **إِنَّا مُؤْمِنُونَ** . إظهاراً لمزيد الرغبة فى الإيمان .

١٣، ١٤- أَلَيْسَ لَهُمُ الدُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۖ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ .

كيف يتذكر هؤلاء ربههم ، ويصدقون في إيمانهم وجبلتهم وطبيعتهم الإمعان في الكفر والعناد ، فقد جاءهم رسول كريم ، مؤيد بالوحي والقرآن الذي يزلزل الجبال ، ويؤثر في الصمّ الشداد ، وتخضع له الحجارة الصماء ، ومع كل ذلك أعرضوا عن القرآن والإيمان والرسول المؤيد بالمعجزات .

وقالوا: مُعَلَّمٌ . يعلمه فتى أعجمى عند أحد بنى ثقيف .

مُجْنُونٌ . تأنيه نوبة من الجنون ، فيهرق بما لا يعرف ، لأنهم رأوا القرآن فوق طاقتهم وفوق طاقة البشر ، فنسبوه إلى الشعر وإلى الجنون ، ولو أنصفوا لقالوا : إنه وحى السماء ، وكلام الله العلى القدير .

قال الإمام فخر الدين الرازى في التفسير الكبير :

إن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على يد محمد ﷺ قولان :

منهم من كان يقول : إن محمداً يتعلم هذا الكلام من بعض الناس ، ومنهم من كان يقول : إنه مجنون ، والجن تلقى عليه هذا الكلام حال تخبطه . ا هـ .

١٥، ١٦- إِنْ كَاشَفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۗ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ .

عندما استغاث كفار مكة بالنبي ﷺ ، رجاء أن يدعو الله لهم بنزول المطر ، استجاب النبي ﷺ ودعا ربه فأنزل عليهم المطر ، وجاء الخصب وذهب القحط ، لكنهم لا وفاء لهم ، وما إن رأوا الخصب والنماء حتى عادوا إلى كفرهم وتكذيبهم للنبي ﷺ ، فتوعدهم الله تعالى بانتقام شديد وذلك يوم بدر ، حيث قتلت صناديدهم ، وذُلُّ كبريائهم ، وقتل منهم سبعون ، وأسر منهم سبعون وفرّ الباقون .

ورجح الإمام فخر الدين الرازى في تفسيره ، وابن كثير في تفسير ، أن البطشة الكبرى هي يوم القيامة .

جاء في (صفوة التفاسير) للأستاذ محمد على الصابوني ما يأتي :

قال ابن مسعود : الْبَطْشَةُ الْكُبْرَى . يوم بدر .

وقال ابن عباس : هي يوم القيامة .

وقال ابن كثير : والظاهر أن ذلك يوم القيامة ، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً .

وقال الرازي في التفسير الكبير :

القول بأن البطشة الكبرى هي يوم القيامة أصح ، لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف به هذا الوصف العظيم ، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة ، ولما وصفت البطشة بكونها : الْكُبْرَى ، وجب أن تكون أعظم أنواع البطش على الإطلاق ، وذلك إنما يكون يوم القيامة ١ هـ .

★ ★ ★

الانتقام من فرعون وقومه

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذْوَإِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ﴿١٨﴾ إِنَّ لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يُبْعِثَ مِنْكُمْ رَسُولًا لَنْ نُنْزِلُكَ فَتَحْزُنُوا ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَنَّانٌ ﴿٢١﴾ فَعَذَابُ اللَّهِ أَلَمٌ لَّا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَدِيرٌ ﴿٢٢﴾ فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرِكُوا الْبَحْرَ هَؤُلَاءِ هُمْ جُنْدُ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاهْتَدَوْا وَمَا نَزَّلْنَا بِهَذِهِ الْقُرْآنِ مِنَ الْبَرِّ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَا تَفْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ وَزُرُّوهُمْ مَقَادِيرَ كُرْهِهِمْ ﴿٢٦﴾ وَنِعْمَ كَانُوا فِيهَا فَكِكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

هَتَنَّا : اختبرنا وامتحانًا .

أن أذوا إلى عباد الله : أن أسلموا لى بنى إسرائيل ، أو أجيبوا دعوتى وصدقوا رسالتى .

وأن لا تعلوا على الله : وأن لا تتكبروا على الله ، بالاستهانة بوحية ورسوله .

بسلطان مبين : بحجة واضحة .

وإني عذت بربى : استجرت به ، والتجأت إليه ، وتوكلت عليه .

أن ترجمون : الرجم هو الضرب بالأحجار .

فاعتزلون : فخلونى واتركونى .

فأسروهم : أسر بهم ليلاً ، والإسراء : السير بالليل ، وأما السرى فهو السير بالنهار .

رَهْمًا مَوْفُوحًا ذَا فَجْوَةٍ وَاسِعَةٍ ، أَوْ سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ .

جَنَاتٍ ، بِسَاتِينَ .

وَعَيْنُونَ ، جَمْعُ عَيْنٍ ، وَالْمَرَادُ : عَيْنُ الْمَاءِ .

وَنَعِيمَةٌ : وَتَنَعَّمَ ، وَالنَّعِيمَةُ بِالْفَتْحِ : التَّنْعِيمُ ، وَالنَّعِيمَةُ بِالْكَسْرِ : مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ .

فَأَكْهَمِينَ ، مُتَنَعِّمِينَ ، يُقَالُ : فَكَّهُ يَفْكُهُ فَكْهًا : كَانَ طَيِّبَ النَّفْسِ مَرَّاحًا .

كَمَنْ ذَكَرَ ، أَيْ : مِثْلُ ذَلِكَ الْإِخْرَاجُ أَخْرَجْنَاهُمْ .

مُنْتَظَرِينَ ، مَمْهَلِينَ .

تَهْيِيدٌ :

هذه سورة مكية ، جابهت كفار مكة بما يستحقون ، ثم ذكرتهم بمن سبقهم من المكذبين ، حيث اختبر الله القبط في مصر وملوكهم فرعون ، بأن أرسل إليهم موسى رسولاً ، يحمل معجزات متعددة ومعها التوراة ، فدعاهم إلى توحيد الله والإيمان به ، وحذرهم من الكبر ومن عدم طاعة الله تعالى ، ومن عدم طاعة رسوله ، لكنهم لم يؤمنوا ، فاشتكى موسى إلى ربه جرمهم ، فأمره الله أن يسير ليلاً بمن معه ، وعند الشدة عليه أن يضرب البحر بعصاه ، فيفرك البحر بطريق يابس آمن ، فيسير موسى ومن معه إلى الشاطئ الآخر ، وعليه أن يترك البحر على حالته مفتوحاً حتى يغرق فيه فرعون ، الذي أهلكه الله في ماء البحر ، وقد ترك الجنات والعيون والزروع وألوان النعيم ، فما حزننت عليه السماء والأرض ، وما أمهله الله بل أهلكه مع جنوده الباغين .

التفسير :

١٧ - وَلَقَدْ كُنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ .

فى الآيات السابقة اختبار لأهل مكة ، حيث رفع الله عنهم العذاب قليلاً ، فعادوا إلى تكذيبهم ، فتوعدهم الله بالبطشة الكبرى يوم بدر أو يوم القيامة أو هما معاً ، وهذه الآيات تحكى قصة فرعون وملئه ، حيث اختبرهم الله بالنعمة ، وبإرسال رسول كريم ، ومعه عدد من المعجزات والآيات ، فقابلوها ذلك بالكند والعصيان ، فعاقبهم الله بالغرق فى الماء ، والهلاك والعذاب فى الدنيا والآخرة .

والمراد : أن ما فعله أهل مكة من تكذيب الرسول أمر معروف مألوف فى تاريخ البشرية .

ومعنى الآية :

ولقد اختبرنا وامتحننا قبل مشركى مكة قوم فرعون من قبط مصر ، حيث أرسلنا إليهم رسولاً كريماً فى نفسه وفى حسبه ، فالرسل تبغث فى أحساب قومها .

وفى الحديث الشريف: «يرحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(٣٩).

وأصل الفتنة: وضع الذهب فى النار، امتحاناً وبياناً لأصله وقيمه، ثم أطلقت على الاختبار والابتلاء، مثل اختبار الإنسان بالنعمة والأولاد أو الجاه والسلطان.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ... (التغابن: ١٥).

أى: إننا عاملنا قبط مصر وفرعون معاملة المختبر، فأغدقنا عليهم النعم والبساتين والعيون وألوان الخيرات، وأرسلنا إليهم رسولاً كريماً من أولى العزم من الرسل، هو موسى عليه السلام.

١٨ - أَنْ أَذُوقُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

قال ابن عباس:

أَنْ أَذُوقُوا إِلَىٰ الطاعة والإيمان يا عباد الله. اهـ.

والمعنى: ادخلوا فى دينى وآمنوا بالله ربا، وبموسى رسولاً، إني لكم رسول من عند الله، أمين على هدى السماء.

وقال مجاهد:

أَنْ ادفعوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حَتَّىٰ أَخْلَصَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَالذَّلَّةِ، وَأَخْرِجَ بِهِمْ مِنْ مِصْرَ، لِأَنَّنِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ.

وأرى أنه يمكن أن تكون الآية محتملة للوجهين معاً، والله أعلم.

١٩ - وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُّبِينٍ.

لا تتجبروا! ولا تتكبروا على الدخول فى دين الله، والإيمان برسله، فإننى أقدم لكم طائفة من المعجزات والآيات، والوحي والتشريع، والجدال بالتي هى أحسن، فتواضعوا لله وآمنوا به.

٢٠ - وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ.

التجأت إلى الله وتحصنت به واستجرت به من أن تقتلوني.

قال القرطبي:

كانهم توعده بالقتل فاستجار بالله، ويطلق الرجم على السب والشتم، والإيذاء المعنوي كما قال ابن عباس، كما يطلق على الرمي بالحجارة والقتل كما قال قتادة.

وأرى أنه يمكن أن يطلق على الإيذاء المعنوي ، والإيذاء الحسي ، أي : أستهزئ بالله أن تشيعوا عني الإشاعات المغرضة ، أو تقذفوني بالحجارة .

٢١ - وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَأَعْتَزِلُون .

إذا لم تدخلوا في ديني ولم تؤمنوا برسالتي ، وظللت على الكفر ، فإني أدعوكم إلى المسالمة والمهادنة ، وليمض كل منّا في طريقه إلى أن يقضى الله بيننا ، وفي هذا المعنى قوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (الكافرون : ٦) .

أي : تختلف في العبادة والاتجاه والدين ، ولكن توجد بيننا مسالمة وحياد مع عدم الإيذاء ، وهي أرقى خطة يدعو العالم المتحضر إليها ، ويزعم أنها من ابتكاره ، خطة حماية الأقليات ، واحترام حقوق الإنسان ، وعدم العدوان على الضعفاء والمسالمة والمدنيين ، وهي خطة رسالات السماء التي دعا إليها الإسلام فقال القرآن : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... (البقرة : ٢٥٦) .

وقد نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كانت عنده جارتان ، فقال : يا رسول الله ، عرضت عليهما الإسلام فأبتا ، أفلا أكرههما على الإسلام ؛ فأنزل الله تعالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... فامتنع الأنصارى عن إكراههما على الإسلام .

٢٢ - قَدْ عَايَنَّا أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ .

طال مكث موسى بينهم ، وقدم إليهم حجج الله تعالى عليهم ، وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، فدعا الله أن ينتقم منهم ، فاستجاب الله دعاءه فيهم .

كما قال تبارك وتعالى : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُطْغَىٰ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا طُغِيَ عَنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَبْغِيَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (يونس : ٨٨ ، ٨٩) .

وهكذا كان دعاؤه هنا ، ومعناه : إن هؤلاء قوم مجرمون ، يستحقون تعجيل العذاب .

٢٣، ٢٤ - فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ * وَأَتْرِكِ الْبَاحِرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ .

تلك معجزة إلهية كبرى ، فقد اشتكى موسى إلى ربه من إجرام فرعون وقومه ، فأمره الله أن يسير بمن آمن من بني إسرائيل ليلاً ، فالليل ستر وظلام للهارب ، وفيه يسر للمسافر ، حيث يحفظه من شدة الحر ، ويسير على الدواب الحركة ، بعيداً عن وهج الشمس ومشقة الهجير .

إِنكُمْ مُّتَّبِعُونَ :

إن فرعون وقومه سيتبعونكم رغبة في الانتقام منكم ، وقد سار موسى وقومه ليلاً ، وأحس فرعون بهربه ، فجمع جيشه وخرج وراءه ليدركهم؛ ويعاقبهم ، عندئذ قال أصحاب موسى : إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْلِكُ . (الشعراء : ٦١ ، ٦٢) .

فأمره الله أن يضرب البحر بعصاه ، فضرب موسى البحر فانفلق ، فصار كل فرق كالطود العظيم ، أي صارت كل ناحية من الماء كالجبل العظيم المرتفع ، وأمره الله أن يسير في طريق يابس مريح آمن ، ولما انتقل موسى ومن معه إلى الشاطئ الآخر ، أمره الله أن يترك البحر على حالته ، لأن فرعون وجنوده سيسيرون خلفكم ، فنغرقهم عقاباً لهم .

رَهْوَ . ساكنًا منفرجًا على هيئته بعد أن تجاوزه موسى ومن معه .

إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ .

أي : إن فرعون وقومه سيفرقون فيه .

كما قال تعالى : وَلَقَدْ أَزْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْطُرِبْ لَهُمْ مَطَرِقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخْلُفُ دُرُكًا وَلَا تَخْشَى . (طه : ٧٧) .

قال ابن كثير وابن جزى وغيرهما :

وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ .

وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر ، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم ، فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنًا ، ويُسْرَهُ بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى .

قال ابن عباس :

وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ ... كهيئته وامض .

وقال مجاهد :

رَهْوَ . طريقًا يابسًا كهيئته ، يقول : لا تأمره يرجع ، اتركه حتى يدخل فيه آخرهم .

٢٥، ٢٦، ٢٧- كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَغُوبٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَسَكِينٍ .

ما أكثر النعم التي كانوا يتمتعون بها ، لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغناء ، والأنهار والعيون الجارية ، والمزارع العديدة فيها أنواع المزروعات ، ومجالس ومنازل حسنة ، ومحافل خاصة ، ونوايا خاصة ، ومجالس شريفة ، وغير ذلك من صنوف النعم التي كانوا يتمتعون بها ، مع الحسن والنضارة والرفاهية ، وكمال السرور .

قال الإمام فخر الدين الرازي في التفسير الكبير :

بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ بَعْدَ غَرَقِهِمْ تَرَكُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْخَمْسَةَ ، وَهِيَ : الْجَنَاتُ ، وَالْعُيُونُ ، وَالزُّرُوعُ ، وَالْمَقَامُ الْكَرِيمُ - وَهُوَ الْمَجَالِسُ وَالْمَنَازِلُ الْحَسَنَةُ - وَنَعْمَةُ الْعَيْشِ - بِفَتْحِ النُّونِ - وَهِيَ حَسَنُهُ وَنَضَارَتُهُ . ا هـ .

٢٨- كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ .

أى : كذلك فعلنا بهم حيث أهلكناهم ، وأورثنا منازلهم وملكهم وديارهم قوماً آخرين ، فما مضى عليهم إلا وقت يسير ، بين أن كانوا فى نعمة وملك وزروع ، وجنات ومقام كريم ، إلى أن صاروا غرقى وقتلى وهلكى ، يتعرضون لخزى الدنيا وعذاب الآخرة ، ثم صار الملك والنعيم لآخرين ، فسبحان المعز المذل .

قُلِ اللَّهُمَّ مِلْكُ الْمَلِكِ يُؤْتَى الْمَلِكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَرْغِ الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُلُ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

آراء العلماء فيمن ورث فرعون

(أ) ذهب بعض المفسرين إلى أن القوم الآخرين الذين ورثوا ملك فرعون وقومه ، هم بنو إسرائيل .

قال ابن كثير :

والمراد بهم بنو إسرائيل ، فقد استولوا - بعد غرق فرعون وقومه - على الممالك القبطية ، والبلاد المصرية ، كما قال تعالى : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْخُسْفَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَذَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ لِرُغْوَنَ وَقَوْمِهِمْ وَمَا كَانُوا يَفْرُسُونَ . (الأعراف : ١٣٧) .

وكما قال سبحانه : كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ . (الشعراء : ٥٩) .

(ب) وقال آخرون :

المقصود من الآية أنهم ورثوا ملك فرعون في أرض الشام التي هاجروا إليها ، وكانت تابعة لمصر في عهد فرعون^(١٧) ، ولم يثبت تاريخياً أنهم عادوا إلى مصر بعد أن هاجروا إلى الشام .

(ج) وذكر الأستاذ سيد قطب في ظلال القرآن ما يأتي :

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جِثَّةٍ وَغُبُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَسَكِينٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ .

ويبدأ المشهد بصور النعيم الذي كانوا فيه يرقلون : جنات ، وعيون ، وزروع ، ومكان مرموق ينالون فيه الاحترام والتكريم ، ونعمة يلتذون بها ويطمعونها ، ويعيشون فيها مسرورين محبوبين ، ثم ينزع هذا كله منهم ، أو ينزعون منه ، ويرثه قوم آخرون .

وفي موضع آخر قال : كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ . (الشعراء : ٥٩) .

وينو إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات ، ولكنهم ورثوا ملكاً مثله في الأرض الأخرى ، فالمقصود هو نوع الملك والنعمة الذي زال عن فرعون وملئه ، وورثه بنو إسرائيل ، ثم ماذا ؟ ثم ذهب هؤلاء الطغاة الذين كانوا ملء الأعين والنفوس في هذه الأرض ، ذهبوا فلم يَأْسَ على ذهابهم أحد ، ولم تتشعر بهم سماء ولا أرض^(١٨) .

٢٩ - فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ .

لم تحزن عليهم السماء ولا الأرض ، لظلمهم وعدوانهم وتجبرهم ، حيث كانوا نغمة نشازاً في هذا الكون ، الذي يخضع لأمر الله ويطيع أمره ، أما الظالم المتحيز فهو يسير عكس الاتجاه ، حيث قال سبحانه للسماء والأرض عندما أراد خلقهما : أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (فصلت : ١١) .

فالمؤمن الصالح متوافق مع هذا الكون ، تدعو له الملائكة ، ويسلم عليه الصالحون في كل تشهد للصلاة ، ومن دعاء التشهد : «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» .

وفي الحديث النبوي الشريف : «أن العبد الصالح إذا مات بكاه من الأرض موضع سجوده ، ومن السماء مصعد عمله» ، ثم تلا رسول الله ﷺ : فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ .

من تفسير القاسمي

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ...

قال الزمخشري : إذا مات رجلٌ خطير ، قالت العرب في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، ويكنه الريح ، وأظلمت له الشمس .

قال جرير في رثاء عمر بن عبد العزيز :

نعي النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت الله واعتمروا
حُمِلَتْ أُمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبِرْتَ لَهُ وقمت فيه بأمر الله يا عمرُ
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ تبكى عليك نجوم الليل والقمرُ
وقالت ليلى بنت طريف الشيباني الخارجية ، تراثي أخاها الوليد بن طريف وقد مات قتيلًا :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل ، مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه .

وعن النخسن : فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين ، يعني فما بكى عليهم أهل السماء وأهل الأرض .

وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ .

أي : مؤخرين بالعقوبة ، بل عوجلوا بها زيادة سخط عليهم^(٣٧) .

وقال الإمام ابن كثير :

فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ .

أي : لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد إلى أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم بقاع في الأرض عبدوا الله فيها ففقدتهم ، فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا . اهـ .

نَعَمْ وَابْتِلَاء

﴿لَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أُمَمٍ ﴿٢٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيَّامٍ
السَّافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ
مَا فِيهِ بَلَاغٌ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾﴾

المضردات :

العذاب المهين : الشديد الإهانة والإذلال .

عَالِيَا، حَبَارًا مُتَكَبِّرًا.

من المسرفين ، في الشر والفساد .

اخترناهم : اصطفيناہم .

على علم، عالمين باستحقاقهم ذلك أو على معرفة بحالهم.

الآيات، المعجزات، كفلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى.

یسلاء مسین : اختیار ظاهر .

تقديم :

فى أعقاب غرق فرعون ، يتحدث القرآن عن أنعم الله على بنى إسرائيل ، فقد تجاهم الله من العذاب المخرى ، حيث كان فرعون يقتل أطفالهم الذكور خوفا منهم ، ويترك الإناث أحياء للخدمة ، وفى ذلك بلاء أى بلاء ، حيث لا تجد الإناث رجالا يتقدمون للزواج منهن ، ويترب على ذلك فساد وحرمان وإذلال ، بسبب تجبر فرعون وإسرافه فى الشر والعدوان ، وقد اخترنا بنى إسرائيل لدور فيه كرامة ، على معرفة بعنادهم ووصفهم ، وأظهرنا لهم معجزات باهرة ، مثل : فلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى .

لتفسير :

٣٠، ٣١- وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ .

أخبر الله فيما سبق أنه أهلك فرعون وجنوده ، وكان في هلاكهم نعمة كبيرة على بني إسرائيل ، فقد كان فرعون يستذلهم ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويتغنى في إيدائهم ، كما قال تعالى : **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِفُّ طَأْفَ مَنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** (القصص : ٤) .

وقال سبحانه : فَاسْتَكَبُّوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ . (المؤمنون : ٤٦) .

ومعنى الآيتين (٣٠-٣١) من سورة الدخان : ولقد أنعمنا على بنى إسرائيل ، حيث نجيناهم من العذاب الأليم المزمى بهم ، من قتل الذكور واستحياء الإناث للخدمة والاستعباد ، لقد كانت هذه النجاة من فرعون الطاغية المتكبر المتجبر المسرف فى الكفر بالله وادعاء الألوهية ، حيث قال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . (النازعات : ٢٤)

٣٢- وَلَقَدْ آخَرْتَنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْغُلَامِينَ .

أى : اخترناهم واصطفيناهم لميراث الأرض ، حيث قادمهم يوشع بن نون من بعد موسى ، ففتح بهم أريحا وأطاح بالشرك فى هذا الإقليم ، أى : اخترناهم عالمين باستحقاقهم لهذا الميراث على عالمى زمانهم .

وقيل : المعنى : اخترناهم من علمنا بأنهم ستكون لهم عيوب ورذائل فى المستقبل مثل تحريف التوراة ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، لكن كانت لهم قيادة صالحة تَقُومُ ما هم عليه من تلكؤ ومن انحراف والتواء «مما يشير إلى أن اختيار الله ونصره لهم قد يكون لأنهم أفضل أهل زمانهم ، ولو لم يكونوا قد بلغوا مستوى الإيمان العالى ، إذا كانت فيهم قيادة تتجه بهم إلى الله على هدى وعلى بصيرة واستقامة» (٣) .

٣٣- وَءَاتَيْنَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ .

أعطيناهم من المعجزات والكرامات ما فيه اختبار ظاهر ، حيث أنزل الله عليهم المن والسلوى ، واستخلفهم فى جانب من أرض الشام ، حتى إذا تم امتحانهم وانقضت فترة استخلافتهم ، أخذهم الله بانحرافهم ، وسلط عليهم من ينتقم منهم ويشردهم فى الأرض ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة وتوعدهم أن يعودوا إلى النكال والتشريد كلما بغوا فى الأرض إلى يوم الدين .

فى أعقاب التفسير

فساد بنى إسرائيل فى الأرض

نلاحظ أن اليهود يتمسكون بمثل هذه الآيات التى تفيد أن الله اصطفاهم واختارهم على علم لهم ، وفضلهم على العالمين ، وروح القرآن تفيد أن الله اختارهم واصطفاهم عندما أطاعوا موسى ، واتباعوا تعاليم التوراة فأورثهم الأرض ، وما إن تمكنوا وصلح حالهم حتى استبدوا وفسدوا ؛ فسلط الله عليهم من ينتقم منهم انتقاما بليغا ، وتوعدهم بهذه العقوبة كلما عادوا إلى الفساد .

وفي صدر سورة الإسراء أفاد القرآن الكريم ما يأتي :

(أ) لبنى إسرائيل إفساد فى الأرض متكرر ، وهناك مرتان هما أعلى هذا الإفساد .

(ب) يسلط الله عليهم فى الإفساد الأول من ينتقم منهم ويخرب ديارهم .

(ج) يستردون عافيتهم ، ويمدهم الله بالمال والرجال .

(د) كلما عادوا إلى الإساءة سلط الله عليهم من ينتقم منهم ، ومن يخرب هيكلكم ومن يهدم ممتلكاتكم .

ويفيد المؤرخون أن أفضل أيام بنى إسرائيل كانت أيام ملك داود وسليمان عليهما السلام ، ثم كان الإفساد الأول حيث سلط الله عليهم بختنصر البابلى سنة ٦٠٦ قبل الميلاد ، ثم ساعدهم قورش الفارسى الذى تزوج من يهودية ، فحسنت له مساعدة اليهود حتى استردوا ملكهم وأعادوا بناء هيكلكم سنة ٥٢٦ قبل الميلاد ، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الإفساد والظلم ، ثم سلط الله عليهم فى الإفساد الثانى الرومان بقيادة قيطس سنة ٧٠ م ، وقد كان إذلالهم فى المرة الثانية أشد وأنكى ، وقد تفرق اليهود فى البلاد بعد هزيمتهم الثانية وأصبح تاريخهم ملحقا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها ، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث .

الآيات التى تحدثت عن فساد بنى إسرائيل

قال تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتُفْسِدُنَا فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلِتَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا . فإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَاسٍ شَدِيدٍ لِّجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا . ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ رَّابِيَةٍ وَجَعَلْنٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا . إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَسْأُوا وُجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَيُخْبِرُوا مَا عُلُوًّا تَبَيَّرًا . عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء : ٤ - ٨) .

مناقشة المشركين

﴿إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا إِنَّ كُتُبَ صِدْقٍ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا تُجَرَّمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

المضردات :

هـ ————— هؤلاء ، مشركى مكة .

مَوْتُنَا الْأُولَى : الموتة التى نموتها فى الدنيا ، ثم لا نحيا ولا نبعث بعدها .

بِمُنشَرِينَ : بمبعوثين بعد الموت ، يقال : نشر الله الميث وأنشره ، أى : أحياء بعد الموت .

قَوْمٌ تُبْعَ : تُبْعَ الحميرى الأكبر ملك اليمن ، الذى جيش الجيوش وفتح المدن ، وكان مؤمنا وقومه كافرين ، وتُبْعَ لقب لملك سبأ ، كلقب كسرى لملك الفرس ، ولقب قيصر لملك الروم .

لَا مَغْنَىٰ : لا هين عابثين .

يَوْمَ الْفَصْلِ : يوم القيامة ، سمي بذلك لأن الله يفصل فيه بين الحق والباطل .

مِيقَاتِهِمْ : وقت حسابهم وجزائهم ، مشتق من الوقت .

لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا : لا يغنى الذين يتولى بعضهم بعضا فى الدنيا شيئا عن أنفسهم فى الآخرة .

تهديد :

بدأت السورة بحديث عن مشركى مكة ، ثم انتقلت للحديث عن فرعون وقومه من قوله تعالى : وَلَقَدْ

فَتَّانَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . (الدخان : ١٧) .

وبعد انتهاء قصة فرعون وغرقه ونجاة بنى إسرائيل عاد الحديث عن هؤلاء المشركين ومناقشتهم فى

أقوالهم ، فهم ينكرون البعث والحشر والحساب والجزاء ، ويطلبون إحياء من بات من آبائهم ليسألوهم : هل محمد صادق فى ادعائه أن الله أرسله ؟ ثم يبصرهم القرآن بأن الله تعالى أهلك قوم تبع والذين من قبلهم ،

كعاد وثمود ، وقد كانوا أكثر من أهل مكة عدداً وعدة ومع ذلك أهلكهم الله ، فليعتبروا بذلك حتى لا يصيبهم ما أصاب من سبقهم ، ثم يقدم القرآن الأدلة العقلية على وجوب البعث والحشر والجزاء والحساب ، حتى يكافأ المحسن ويعاقب المسيء .

التفسير :

٣٤، ٣٥- إِنْ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ • إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ .

إن مشركي مكة لينكرون البعث والحشر والجزاء ، ومن ثم يقولون : سنموت مرة واحدة في الدنيا ، وبعد الموت لا حشر ولا نشر ولا بعث ولا حساب ، وهذا كقوله تعالى : وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . (الأنعام : ٢٩)

٣٦- فَأَنذَرُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

قال كفار مكة للنبي ﷺ : إن كنت صادقاً فيما تقول ، فادع الله أن يحيي لنا رجلين من آبائنا ، منهم قصي بن كلاب فإنه كان حكيماً صادقاً ، لنشاوره في صدق رسالتك ، وفي صحة البعث والنشر والحساب والجزاء .

وتلك حجة وإهية ، فقد جعل الله الدنيا للاختبار والابتلاء ، وجعل الحشر والنشر والجزاء إنما هو يوم القيامة حيث يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يغير الناموس الإلهي من أجل رغبة المشركين ، لذلك أهمل القرآن الإجابة على طلبهم ، وقال سبحانه :

٣٧- أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

تأتى هذه الآية لفتح عيونهم على واقع مشاهد ، هو أن الله أهلك قوم تبع في بلاد اليمن المجاورة لهم ، وكانوا أكثر حضارة وقوة ومنعة ، كما أهلك كثيراً من المكذبين ، مثل عاد وثمود وفرعون ، أهلكهم الله لإجرامهم وعتوهم .

وفي هذا المعنى يقول سبحانه : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا بِعَادٍ • إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ رَصَادٍ . (النجر : ٦-١٤) .

أى : فكما أهلك الله هؤلاء المكذبين ، فهو قادر على إهلاكهم ومعاقبتهم إذا استمروا في كفرهم وعنادهم .

۳۹، ۳۸- وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

هذا الكون البديع المنظم الذي أحكم الله خلقه بنسب معينة ، وتقدير حكيم ، فسبحان الذي أتقن كل شيء خلقه ، وهذا الإتقان ظاهر فى كل ما خلق وأبدع ونظم بنسب معينة ، ونظام دقيق ، يسير هذا الكون وفق نظامه ، ثم خلق الله الإنسان وميزه بالعقل ، ومنحه الإرادة والاختيار ، والقدرة على الطاعة والمعصية ، ولما كانت الدنيا ليست دار جزاء ، بل هى عرضٌ رائل يأكل منها البُرّ والفاجر ، لذلك كان لابد من دار جزاء يتم فيها البعث والحشر والحساب والجزاء ، ومكافأة المحسنين ومعاقبة المجرمين .

ومعنى الآيتين :

لم تخلق هذا الكون عبثاً وباطلاً، بل خلقنا السماوات والأرض بالحق والعدل، ومن أجل حكمة علينا
 هي أن يستدل الناس بهما على قدرة الخالق، وأن يتأملوا فيهما، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لقلة
 نظرهم، فصاروا لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً.

وفي معنى هاتين الآيتين وردت آيات كثيرة في كتاب الله ، منها ما ورد في أواخر سورة (ال عمران)، وفيها يقول الله تعالى : **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُهُوبِهِمْ وَيتذكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا بطلا سبحانه** **فَقَدْ عَادَبَ آثَارَ . (ال عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .**

وأيضاً قوله تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ • فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ . (المؤمنون: ١١٥، ١١٦).

وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ، ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ لِنَجْعَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ لِنَجْعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص : ٢٧ ، ٢٨) .

وَيَقُولُ النَّاظِم :

وفى كل شيء له آية
تدلّ على أنه الواحد

٤٠، ٤١، ٤٢- إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ يَفْشُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

إن يوم القيامة هو يوم الفصل ، حيث يفصل الله ويحكم بين الظالمين والمظلومين ، ويفصل بين المؤمنين والكافرين ، أو يفصل بين أهل الجنة وأهل النار ، وهو الوقت الذي حدده الله للقضاء والجزاء ، ومكافأة الصالحين ومعاقبة الكافرين .

قال تعالى : إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا . (النبا : ١٧) .

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

فى ذلك اليوم لا يغنى ولى ولا حبيب ولا قريب ولا صديق عن وليه أو حبيبه أو قريبه أو صديقه شيئاً ، أى شىء .

إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يعود الناس إلى ربهم فرادى كما خلقهم أول مرة ، وقد انقطع التناصر بينهم ، ذلك الذى كان يربط بينهم فى الدنيا ، حيث موازين الآخرة مختلفة ، وكل امرئ بما كسب رهين ، فلا تناصر بين أب وابن ، ولا بين زوجة وزوجها ، ولا بين أم وولدها .

قال تعالى : يَوْمَ يُفْرَأُ الصُّرُءُ مِنْ أَجْهِهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَلْبِجَتِهِ وَيَنبِيهِ * يُكُلُّ أَمْرٍ مُنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ . (عبس : ٢٤-٢٧)

كان أهل الباطل فى الدنيا يتآزرون ويتناصرون ، لكن فى الآخرة يكون الجزاء على قدر العمل ، ويتبدأ المتبوعون من التابعين ، ولا ينفع الولى وإليه ولا ينصره .

إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ...

أى : لكن الطائعين المؤمنين الملتزمين يشملهم الله برحمته ، ويظهرهم فى ظل عرشه .

إنه هو الْعَزِيزُ . الغالب القاهر ، مالك الملك ، مَكِّك يوم الدين . الرَّحِيمُ . الذى يشمل برحمته من يشاء ممن هو أهل لتلك الرحمة ، مستحق لذلك الفضل .

عذاب الجحيم ، ونعيم الجنة

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُومِ ٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٤٥ كَغَلِي
 الْحَمِيمِ ٤٦ حُدُوهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ
 الْحَمِيمِ ٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٥٠
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٥١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٥٢ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ
 وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ٥٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٥٤ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ
 فَكَهْمَةٍ أَمِينٍ ٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ
 عَذَابُ الْجَحِيمِ ٥٦ فَضَلَا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٥٧ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَنُ يُلَسَّكَ
 لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٥٨ فَأَرْقُبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ٥٩﴾

المضردات :

شجرة الزقوم : شجرة مرّة ، شكلها بشع مخيف

الأثيم : كثير الآثام والذنوب وهو الكافر .

المهمل : دردى الزيت .

الحميم : الماء الذى تنأهى حرّه .

فامتلوه : جرّوه بعنف ومهانة ، أو ادفعوه دفعا عنيفا .

سواء الجحيم : وسط النار .

تمتّرون : تشكون .

فى مقام أمين : فى مجلس آمنوا فيه من كل همّ وحزن .

سندس : حرير رقيق .

واسستبرق : هو الديباج الغليظ شديد البريق .

حوراء : جمع حوراء ، من الحور وهو شدة سواد العين منع شدة بياضها .

عينين : جمع عيناء ، وهى واسعة العينين .

ووقاهم ، وحفظهم .

فضلاً ، تفضلاً .

ارتقّب ، انتظر .

تمهيد :

من شأن القرآن الكريم أن يقابل بين عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة ، فالكافر يأكل من شجرة الزقوم ، طعامها مر بشع ، تنبت في وسط الجحيم فيأكل من ثمرها الذي يغلى في بطنه كغلي الماء الحار ، ويؤخذ بعنف ومهانة ويرمي به في وسط النار ، ثم يُصب فوق رأسه ماء حار يغلي على الرجل ، تتأثر به أوعاءه ، ويناله الهوان والمذلة وألوان العذاب ، ويقال له : أيها المتكبر المتغترس الذي كان يقول في الدنيا: إني عزيز كريم من أعز أهل هذا الوادي ، ولن يصل إليّ العذاب ، يقال له تهكما به وعقاباً له : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . (الدخان : ٤٩) . أي : أصبحت ذليلاً مهيناً معذباً بأقسى ألوان العذاب الجسدي والنفسي .

وفي المقابل نعيم أهل الجنة ، فهم يتمتعون بالجنات والعيون ، ويلبسون أنواع الحرير ، ويزوجون الحور العين ، كل ذلك الفضل منة من الله ، وهو فوز عظيم .

التفسير :

٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦- إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقْمِ * طَعَامُ الْإِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلَى الْجَحِيمِ .

يذوق الكافر ألوان العذاب الجسدي والنفسي ، فطعامه من شجرة الزقوم ، تلك الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فطعامها مرّ وشكله مخيف كالشبرق ، وهو حار يغلي في بطن الكافر كما يغلي الماء الحار ، أو كالزيت المغلي الذي بلغ أعلى درجات الحرارة ، فيقطع أمعاء الكافر .

٤٧، ٤٨- خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ .

يقال لزيانية جهنم : جرّوه في عنف ومهانة فاخذفوا به في وسط النار ، ثم صبوا فوق رأسه ما يحرق جلده ، فيجتمع عليه عذاب الظاهر وعذاب الباطن .

قال ابن كثير :

وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزيانية : خُذُوهُ . ابتدره سبعون ألفاً منهم .

وقوله : فَاعْتِلُوهُ . أي : سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره .

إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . أي : وسطها .

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .

كقوله عز وجل : يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَمٌ مِنْ حَدِيدٍ .
(الحج : ١٩-٢١)

٤٩- ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .

أى : تذوق هذا العذاب ، فقد كنت تزعم أنك أعز أهل مكة وأكرمها ، ولن يستطيع أى عذاب أن يصل إليك ، فيقال للكافر على سبيل التقريع والتهكم : تذوق شدة العذاب أيها المهين الذليل .

ذكر الأموى فى مغازيه :

لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ، فقال ﷺ : «إن الله أمرنى أن أقول لك : أَوْلىَ لَكَ فَأَوْلىَ * ثُمَّ أَوْلىَ لَكَ فَأَوْلىَ» . (القيامة : ٣٥،٣٤) . قال : فنزع أبو جهل ثوبه من يد النبى ﷺ ، وقال : ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء ، ولقد علمت أنى أمتع أهل البطحاء ، وأنا العزيز الكريم ، قال : فقتله الله تعالى يوم بدر ، وأذله وغيره بكلمته ^(١) وأنزل : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .

أى : يقول له الملك : ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . برزعمك ، وقيل : على معنى الاستخفاف والاستهزاء والإهانة والتحقيق ، أى قال له : إنك أنت الذليل المهان .

٥٠- إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ .

إن هذا هو العذاب الذى كنتم تجادلون وترتكبون المراء والجدال فى الدنيا بشأنه ، فمنكم من كان ينكره ، ومنكم من كان يشكك فى صحته ، فها هو ذا قد أصبح حقيقة واقعة فوق رؤوسكم .

٥١، ٥٢، ٥٣- إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَنُحُورٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ .

نجد هنا مقابلة بين الحديث عن أهل النار وعذابهم ومهانتهم ، والحديث عن أهل الجنة وما يلقون من صنوف التكريم فى المكانة والمكان ، والملبس والمجلس ، والقرناء أو الزوجات ، وأنواع المأكّل والفواكه ، والأمن النفسى والحسى ، فضلا من الله ونعمة عليهم بهذا الفوز العظيم .

ومعنى الآيات :

إن المتقين الذين راقبوا الله وأخلصوا له فى أعمالهم لهم مساكن آمنة من جميع المخاوف ، طيبة المكان والنزهة ، فهم فى بساطين غناء ، وينابيع متدفقة بالماء ، ويلبسون ملابس متنوعة متفاوتة ، بعضها

من، سُندُسٍ، وهو الحرير الرقيق، وبعضها من، إِسْتَرْقٍ، وهو الحرير الغليظ الأخاذ البراق، كما يتمتعون بالجلوس على الأرائك متقابلين ينظر بعضهم إلى وجوه بعض، ولا يعرض عنه زيادة في التكريم والنعيم.

٥٥،٥٤ - كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ آمِينٍ.

أى: هذا العطاء مع تزويجهم أو قرنتهم بالزوجات الحسان الحور البيض، الواسعات الأعين مع شدة بياض العين وشدة السواد فيها، يطلبون ما شاءوا من أنواع الفواكه والثمار، ويجدون في الجنة ما يشتهون، حال كونهم آمنين من الأوجاع والأسقام، ومن الموت والتعب والشيطان، وقد تكرر وصف الجنة في القرآن الكريم، وذكر ألوان النعيم المتعدد، مثل قوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ * حُمْلُهُمْ مِنْكَ * وَلِىَ ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ. (المطففين: ٢٢-٢٦).

وقوله سبحانه: فِيهِنَّ قَلَصِرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْفِئْنَهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ * فَبَأَىءَ الْآلِئِ بِكُمْ تَكْدِبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. (الرحمان: ٥٦-٥٨).

٥٧،٥٦ - لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الِّمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَّلْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضَلًا مِّنْ رَّكَذِلٍ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.

أهل الجنة فى شباب دائم، وصحة دائمة، لا يدرهمهم النوم ولا الموت، بل هم خالدون فى الجنة بفضل الله ونعمائه، لقد ماتوا فى الدنيا عن شهواتهم وملذاتهم، وصاموا عن المحرمات، والتزموا مرضات الله، وسَمَتُ أرواحهم لأن تكون من أهل الجنة، وقد أدرهمهم الموت فى الدنيا مرة واحدة، فإذا دخلوا الجنة فهم فى نعيم دائم، وخلود بلا موت لا يخرجون من الجنة ولا يموتون، وقد حفظهم الله من عذاب الجحيم، فضلاً من الله ونعمة، إن هذا الذى يحصل عليه أهل الجنة هو الفوز العظيم، وأى فوز أعظم من نعيم الجنة والوقاية من عذاب النار.

أخرج الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تباؤوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً»^(٢٧).

وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يوتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»^(٢٨).

إن هذا النعيم فضل من الله ونعمة، وثواب ومحنة، وهو فوز عظيم لأهل الجنة، وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل أحدكم الجنة عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته»^(٢٩).

٥٩، ٥٨ - فَإِنَّمَا يَسْرُنَا لِبَلْسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ .

لقد يسرنا القرآن للذكر ، وأنزلناه بلسانك يا محمد باللغة العربية .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

ومن أسباب التقارب أن يكون الرسول بشرا مثل البشر ، وأن يتكلم بلغة قومه ولسانهم ، ليكون خبيراً بلغتهم وأفكارهم ؛ فيحاورهم ويناقشهم ، يأخذوا عنه ويستفهموا منه ، والقلوب النظيفة هي التي تستجيب للهدى ، ودواعي الإيمان .

ومعنى الآية :

إنما أنزلنا القرآن عربياً مبيناً على نبي عربى ، صاحب لسان عربى ، ولأمة عربية عليها أن تتفهم المراد، وتعى دورها ومسئوليتها فى فهم الذكر والتخلق بأخلاق القرآن وهديه .

قال تعالى : وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... (النحل : ٤٤) .

فالرسول ﷺ مهبط الوحى ، واختيار السماء ، وخاتم الرسل ، وبه خاطبت السماء الأرض ، ومن خلاله نزل وحى الله وكتابه الكريم ليكون خاتم الكتب ، ينزل على خاتم الرسل ، لعل قومه يتذكرون معانى الألوهية والتوحيد ، وشرف الإيمان بالوحى والاهتداء به وحمله إلى الناس .

قال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ .

أى : توقع ما ينزل بالمشركين من الهزيمة والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، إنهم يرتقبون موتك ، ويقولون : انتظروا حتى ينزل بمحمد ما نزل بالشعراء من قبله من الموت .

قال تعالى : إِنَّكَ مِيتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر : ٣٠، ٣١) .

وقال تعالى : وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ . (الأنبياء : ٣٤) .

أى : كل منكم يترىص ماذا سينزل بخصمه ، بيد أن الله وعدك النصر فى الدنيا والمثوبة فى الآخرة .

قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنِ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقال عز من قائل : إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ

مَغْلَبَتُهُمْ وَهُمْ الْبَلْعَةُ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ . (غافر : ٥١ ، ٥٢) .

خلاصة ما تضمنته سورة الدخان

- ١ - بيان بدء نزول القرآن .
- ٢ - وعيد الكافرين بحلول الجذب والقحط .
- ٣ - عدم إيمانهم مع توالى النكبات بهم .
- ٤ - عظة الكافرين بقصص فرعون وقومه مع موسى عليه السلام ، وقد نجى الله المؤمنين وأهلك الكافرين .
- ٥ - إنكار المشركين للبعث .
- ٦ - سوق الأدلة على أن الله تعالى خالق الكون بالحق .
- ٧ - وصف أهوال القيامة .
- ٨ - وصف ما يلاقيه المجرمون من النكال والعذاب .
- ٩ - وصف نعيم المتقين .
- ١٠ - النبى ﷺ مبلغ عن الله ، يحمل الوحي إلى الناس لعلهم يتذكرون .
- ١١ - الغد فيصل ، حيث يخزي الله الكافرين وينصر المؤمنين .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة الدخان ، صباح الجمعة ٦ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ ، الموافق ٦/٩/٢٠٠٠ م .



تفسير سورة الجاثية

أهداف سورة الجاثية

سورة الجاثية مكية ، نزلت في الفترة الأخيرة من حياة المسلمين بمكة ، بعد الإسراء وقبيل الهجرة ، وآياتها ٣٧ آية ، نزلت بعد سورة الدخان ، والسورة لها اسمان : سورة الجاثية ، لقوله تعالى : **وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ... (الجاثية : ٢٨) .**

وسورة الشريعة لقوله تعالى : **فَمُ جَعَلْنَكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .**
(الجاثية : ١٨)

الغرض من السورة

تحمل سورة الجاثية الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والرد على الدهرية الذين لا يؤمنون به ، وينكرون البعث بعد الموت ، وقد دعت السورة إلى هذا تارة بالدليل ، وتارة بالترهيب ، والترغيب ، شأنها في ذلك شأن السورة السابقة ، وشأن السورة التي ذكرت قبلها ووافقتها في هذا الغرض ، كما وافقتها في الحروف التي ابتدأت بها ، ولهذا ذكرت هذه السورة معها ، وسميت مجموعة هذه السور بالحواميم ، نسبة إلى بدايتها بقوله تعالى : **حم .**

وقال الفيروزبادي :

معظم مقصود سورة الجاثية هو : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمنكرين ، وبيان النفع والضرر والإساءة والإحسان^(٣٨) ، وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان ، وذم متابعي الهوى ، وذم الناس في المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأييد الكفار في النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ وأفصح مقال^(٣٩) في قوله : **قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الجاثية : ٣٦) .**

سمات السورة

لاحظنا أن سورة الدخان تتميز بقصر الآيات ، وعنف الإيقاع كأنه مطارق تقرر القلوب ، وسورة الجاثية بجوارها تسير في يسر وهوادة ، وإيضاح هادئ ، وبيان دقيق عميق .

والله سبحانه خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن ، يأخذ القلوب تارة بالقرع والطرق ، وتارة باللمس الناعم الرقيق ، وتارة بالبيان الهادئ الرقيق ، حسب تنوعها هي واختلافها .

فمن الناس من ينفع معه الزجر والوعيد ، ومنهم من يأسره التوجيه الهادئ الرشيد ، والقلب الواحد يقلب على حالات متعددة ، والله يختار له ما يناسبه ، وهو سبحانه اللطيف الخبير ، السميع البصير ، وقد كان من دعاء النبي ﷺ : «اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك» ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أراك تكثر من هذا الدعاء ، فقال النبي : «يا عائشة ، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

منهج السورة

سورة الجاثية تصور جانباً من استقبال المشركين للدعوة الإسلامية ، وطريقتهم في مواجهة حججها وآياتها ، وتعنتهم في مواجهة حقائقها وقضاياها ، واتباعهم للهوى اتباعاً كاملاً في غير ما تحرج من حق واضح أو برهان ظاهر ، كذلك تصور كيف كان القرآن يعالج قلوبهم الجامحة الشاردة مع الهوى ، المغلقة دون الهدى ، وهو يواجهها بآيات الله الإقاطعة ، العميقة التأثير والدلالة ، ويذكرهم بعذابه ، ويصور لهم ثوابه ، ويقرر لهم سننه ، ويعرفهم بنواميسه الماضية في هذا الوجود .

درسان في السورة

سورة الجاثية وحدة في علاج موضوعها ، وهذه الوحدة تشتمل على درسين :

الدرس الأول : يتناول أدلة الشرك بالتفنيذ ، وأدلة الإيمان بالتوضيح والتأييد .

والدرس الثاني : يعرض عناد الكافرين في الدنيا ، ثم يذكر أحوالهم في مشاهد القيامة .

١ - شبهات الكفر ، وأدلة الإيمان

تبدأ سورة الجاثية بهذين الحرفين : حم ، والملاحظ أن هذه الأحرف يتبعها عادة الحديث عن القرآن ، مما يشير إلى أنها نزلت لتنهو بهذا القرآن ، وتستلقت الأنظار إلى خصائصه المتميزة ، وتبرهن بذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو من عند الله : **تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** . (الجاثية : ٢) .

وتعرض أدلة الإيمان والتوحيد ، وتستلقت الأنظار إلى جلال الله ، ودلائل قدرته في السماء الأرض ، والخلق والدواب ، والليل والنهار ، والمطر والزرع والرياح ، حتى تأخذ على النفس أقطارها ، وتواجهها بالحجج والبراهين ساطعة واضحة ، فتقول : **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ • وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ ءَآيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ • وَأَخْلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ • وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ مَا لِلَّهِ مِنْ دُونِهَا • وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا • وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** .

ومن خلال الآيات التالية نرى فريقاً من الناس مصراً على الضلالة ، مكابراً فى الحق ، شديد العناد ، سبى الأدب فى حق الله وحق كلامه : **وَلَنْ نُّكَلِّمَ أَفَّاكَ أَيْمٍ * يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنْفَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** . (الجاثية : ٧ ، ٨) .

ونرى جماعة من الناس ، ربما كانوا من أهل الكتاب ، سبى التصوير والتقدير ، لا يقيمون وزناً لحقيقة الإيمان الخالصة ، ولا يحسون بالفارق الأصيل بينهم وهم يعملون السيئات ، وبين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والقرآن يشعرهم بأن هناك فارقاً أصيلاً فى ميزان الله بين الفريقين : **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** . (الجاثية : ٢١) .

ونرى فريقاً من الناس لا يعرف حكماً يرجع إليه إلا هواه ، فهو إلهه الذى يعبد ، ويطيع كل ما يراه ، نرى هذا الفريق مصوراً تصويراً فذاً فى هذه الآية التى تعجب من أمره ، **وَتَشْهَرُ بِغَفْلَتِهِ وَعَمَاهُ : أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاءً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** . (الجاثية : ٢٣) .

أرأيت كيف تناولت هذه السورة الهادئة أصناف المشركين وفرقهم المتفاوتة للدعوة ، ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فريقاً واحداً من الناس يصدر منه هذا وذاك ، ويصفه القرآن فى السورة هنا وهناك ، كما يجوز أن يكونوا فرقاً متعددة .

وعلى أية حال فقد واجه القرآن هؤلاء الناس بصفاتهم تلك وتصرفاتهم ، وتحدث عنهم فى هذه السورة ذلك الحديث ، كذلك واجههم الله بآياته فى الأفاق وفى أنفسهم ، وفى البر والبحر ، حيث يقول سبحانه : **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَتَقْتَبُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** . (الجاثية : ١٢ ، ١٣) .

ويستغرق الدرس الأول من السورة الآيات من (١ - ٢٣) .

٢ - صناد الكافرين وعقابهم يوم الدين

يشمل الدرس الثانى من السورة الآيات من (٢٤ - ٣٧) ، ويبدأ بعرض أقوال المشركين عن الآخرة وعن البعث والحساب ، ودعواهم بأن الأيام تمضى ، والدهر ينطوى ، فإذا هم أموات ، والدهر فى ظنهم هو الذى ينهى أجالهم ، ويلحق بأجسامهم الموت قيموتون ، وقد فند القرآن هذه الدعوى ، وبين أنها لا تستند إلى حقيقة أو يقين ، وإذا قرعتهم الآيات الدالة على ثبوت البعث لم يجدوا لهم حجة إلا أن يقولوا : **أَنشَأْنَا بَنَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** . (الجاثية : ٢٥) .

والله سبحانه له حكمة فى خلق الناس ، فقد خلقهم للاختبار والابتلاء فى الدنيا ، ثم يجازيهم فى الآخرة ، ولا يرجعهم إلى الدنيا قبل الموعد الذى قدره وفق حكمته العليا .

والله هو الذى يحيى وهو الذى يميت ، فلا عجب إذن من أن يحيى الناس ويجمعهم إلى يوم القيامة ، وهو سبحانه مالك السماوات والأرض ، وهو القادر على الإنشاء والإعادة .

مشاهد القيامة

تعرض الآيات الأخيرة من سورة الجاثية لمشاهد الآخرة ، ظاهرة ملموسة للعين ، ومن خلال الآيات نرى المشركين وقد جثوا على الركب ، متميزين أمة فى ارتقاب الحساب المرهوب .

ثم يأخذون كتابهم وقد سجل كل شئ فيه ، ونسخت فيه كل أعمالهم : وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

(الجاثية : ٢٨ ، ٢٩)

ثم تنقسم الحشود الحاشدة والأمم المختلفة على مدى الأجيال إلى فريقين اثنين : الذين آمنوا ، وهؤلاء يدخلهم ربهم فى رحمته . والذين كفروا ، وهؤلاء يلقون التشهير والتوبيخ جزاء عنادهم ، وعندئذ تظهر أمامهم سيئات ما عملوا ، ويحيق بهم المهانة والعذاب ، ويسدل الستار عليهم ، وقد أوصدت عليهم أبواب النار : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

(الجاثية : ٣٥)

وهنا ينطلق صوت التحميد يعلن وحدة الربوبية فى هذا الكون : سمائه وأرضه ، إنسه وجنه ، طيره ووحشه ، وسائر ما فيه ومن فيه ، فكلهم فى رعاية رب واحد ، له الكبرياء المطلق فى هذا الوجود ، وله العزة القادرة والحكمة المدبرة : فَلِلَّهِ الْخَلْقُ كُلُّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْقُلُوبِ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الجاثية : ٣٦ ، ٣٧) .

أدلة الألوهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّاءَ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٤﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾ ﴿

المفردات :

حرفان من حروف المعجم ، أو أداة للتنبيه ، أو للتحذير والإعجاز .

الكتاب : القرآن .

العزیز : القوی الغالب .

الحکیم : العالم المتقن للأمور ، الذي يضع الشيء في موضعه .

يُـبـثـ : ينشر ويفرق ، يقال : بث الخبر ، يبثه ، ينشره وأذاعه .

دَابَّاءٌ : كل ما دبَّ على الأرض ومنها الإنسان ، جمعها دواب .

واختلاف الليل والنهار ، تعاقبهما وتفاوت أحوالهما .

رِزْقٌ : مطر يتسبب عنه الرزق .

أَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ : أحياها بالزرع .

مَوْتِهَا : جفافها ويبسها .

تَصْرِيفِ الرِّيحِ : اختلاف أحوالها .

التفسير :

١ - حَمْدٌ .

حرفان من حروف المعجم التي افتتح الله تعالى بها بعض السور للتنبيه ، فهي بمثابة الجرس الذي

يقرعه فينتبه التلاميذ لدخول المدرسة ، أو للتحذير والإعجاز ، أو للإشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ،

أو هي لجميع هذه المعاني ، وغيرها مما سبق ذكره في أول سورة البقرة .

٢ - تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

هذا القرآن تنزيل من الله ، وحى أوحى به إلى رسوله محمد ﷺ ، فهو هبة السماء للأرض ، وهو منزل من عند الله ، الْعَزِيزِ . القوَّى فى ملكه ، الْحَكِيمِ . فى صنْعه ، الذى لا يصدر عنه إلا كل ما فيه حكمة ومصلحة للعباد .

٣ - إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ .

إن فى خلق السماوات وما فيها من أبراج وأفلاك وملائكة ، وشمس وأقمار ونجوم وغير ذلك ، وفى خلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار ونبات ، وإنسان وحيوان وطيور وطرق ، ومعالم متعددة وغير ذلك - لعلامات ودلائل وآيات ترشد الناس إلى الإيمان بأن هذه الصنعة الدقيقة لابد لها من خالق قادر حكيم متصف بالكمال ، هو الله سبحانه وتعالى .

٤ - وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

وفى خلق الإنسان وتقلبه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، ثم إلى مخلوق كامل ، ثم إلى وليد ، ثم تدرجه إلى الشباب والكهولة والشيخوخة والموت ، وما فرَّق الله فى الأرض من أجناس الحشرات والطيور والسباع والوحوش ، وما فى البحر من الأصناف المتنوعة ، إن فى هذا كله لدلائل تزيد الإيمان يقيناً وتأكيداً وصدقاً ، بأن خالق هذا الكون قدير حكيم ، فعال لما يريد .

٥ - وَأَخْلَصَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفَ الرِّيحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

وفى اختلاف الليل والنهار ، من التعاقب والطول والقصر ، والحر والقر ، والنور والظلمة ، وما يتبع ذلك من تغاير الفصول ، واختلاف المنافع ، وفيما ينزل الله من السحاب من مطر تحيا به الأرض بعد جفافها ، ويكون رزقاً للإنسان والحيوان والطيور ، وفى تصريف الرياح ، فتهب مرة جنوباً وأخرى شمالاً ، وحينئذ صبا بالرحمة وماء السحاب ، وحينئذ دبوراً تبعث العذاب ، وفيما تؤديه من تلقيح الثبات ، وتيسير سير السفن فى الأنهار والمحيطات ، إن فى ذلك كله لعلامات واضحة لقوم يستخدمون عقولهم ، ليعلموا أن لهذه الأشياء صانعاً حكيماً ، وخالقاً قادراً عظيماً .

وقد أفاد فخر الدين الرازى فى تفسيره أن هذه العلامات المتعددة بآيات الله ، إذا نظر إليها الإنسان متأملاً : قاده ذلك إلى الإيمان ، لذلك قال سبحانه فى الآية الخالفة : إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ .

وإذا تأمل في خلقه وتدرجه في بطن أمه ، وفي حياته طفلاً وياافعاً وشاباً وشيخاً ، ازداد يقيناً بهذا الإيمان ، لذلك نجد الآية الرابعة : **وَلِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ ذَّاتِهِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .**

وإذا تأمل في حركة الكرة الأرضية وحركة الشمس ، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار ، ونزول المطر ، وتصريف الرياح بأنواعها المتعددة ، كان ذلك وسيلة إلى يقين العقل والفكر بقدرة الخالق سبحانه ، لذلك جاء في الآية الخامسة : **وَإِخْلُفْهُ السَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .**

وقريب من هذا الكلام ما ذكره الجمل في حاشيته على الجلالين ، حيث أفاد أن التعقيب كان على دلائل القدرة كالآتي : **لَا يَلْتَمِسُ لِلْمُؤْمِنِينَ .** ثم : **لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ .** ثم : **لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .** لأن الإنسان إذا نظر في هذا الخلق آمن ، وإذا نظر في خلق نفسه ونموها ازداد إيماناً فأيقن ، وإذا نظر في سائر الحوادث عقل واستحكم علمه ، فاختلاف الفواصل الثلاث لاختلاف الآيات في الدقة والظهور .

★ ★ ★

عناد المشركين

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْتَظَرُهَا عَلَيْهِ بِالْحَقِّ فِئَايَ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ① وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ② يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ نَتْلِي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ عَذَابٍ أَلِيمٍ ③ وَإِذْ أَعْلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ④ مِنْ رَأْيِهِمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑤ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ⑥ ۞ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫ ⑬ ⑭ ⑮ ⑯ ⑰ ⑱ ⑲ ⑳ ㉑ ㉒ ㉓ ㉔ ㉕ ㉖ ㉗ ㉘ ㉙ ㉚ ㉛ ㉜ ㉝ ㉞ ㉟ ㊱ ㊲ ㊳ ㊴ ㊵ ㊶ ㊷ ㊸ ㊹ ㊺ ㊻ ㊼ ㊽ ㊾ ㊿ ﴾

المفردات :

ويصل ، عذاب وهلاك .

أفَّاك ، كذاب ، وأصله : أفك الشيء ، يأفكه أفكا ، أى : صرفه عن وجهه ، والكذب قول مصروف عن وجهه .

أثيم : مذنب كثير الإثم .

يُصِرُّ : يستمسك ويدوم ويثبت ، من الإصرار .

اتَّخَذَهَا : ضمير لاياتنا .

هــنـزوا ، سخرية واستهزاء .

فيشـره ، البشارة للخبر السار ، واستعمالها في الشر تهكم .

من ورائهم ، وراء : اسم الجهة التي يوارىها الشخص من خلفه وقدام .

أولـياء ، نصراء .

الرجـز ، أشد العذاب ، ويطلق أيضاً على القدر كالرجس .

تمهيد :

هذه الآيات نزلت في النضر بن الحارث ، الذي كان يشتري أحاديث الأعاجم ، ويشغل بها الناس عن استماع القرآن ، والآيات عامة في كل نموذج يُصرّ على الباطل ، ويقاوم الحق ، ويستغل الكذب في تشويه الحق ، وهو مستهزئ بآيات الله وكتابه .

التفسير :

٦ - تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تُلْوُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ .

هذه آيات الله وقرآنه المشتمل على قصص الأولين ، وعلى الوحي والتشريع والآداب ، وهدى السماء للأرض ، متحلياً بمخاطبة العقل والفكر ، فإذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الحكيم المعجز ، فبأي كتاب أو قصة أو دعوة للإيمان يؤمنون ؟ لقد جاءهم أعظم هدى فأنكروه وهو واضح هار ، ومن جحدته وأنكره لن يجد مثله في الدعوة الحكيمة إلى الإيمان .

٧ ، ٨ - وَيَلْ كُلُّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ • يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنْذِرُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

الهلاك في جهنم لكل كذاب مرتكب للإثم بمقاومة الإسلام ، والصد عن القرآن ، وإذا سمع آيات القرآن تنذري وتقرأ عليه لم يفتح قلبه لاستقبالها والإيمان بها ، بل يعرض عنها كأنه لم يسمعها ، ولم تطرق مسامعه ، فاحمل له البشارة بالعذاب الشديد في جهنم .

والبشارة تكون بالخبر السار ، لكن الله تعالى سمى ذلك بشارة تهكما بهذا الكافر ، أي : كما استهنت بأعظم كتاب فأبشر بأعظم عذاب .

٩ ، ١٠ - وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ • مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولَئِكَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

كان أبو جهل أو النضر بن الحارث أو غيرهما يستهزئ بآيات القرآن ، والمعنى : وإذا سمع من القرآن شيئاً استهزأ به واستهان ، وقاوم الإيمان به ، فسيلقى عذاباً مذللاً مهيناً في جهنم ، من خلفه ومن أمامه

جهنم يوم القيامة ، وكلمة : وراء ، اسم للجهة التي يوارىها الشخص من خلف أو من قدام ، فهي مشترك لفظي، تطلق على الشيء وضده ، أى ستلحقه النار من أمامه ومن خلفه ، ولن يجد نصيراً ينصره ، ولن ينفعه الحرام الذى اكتسبه ، واللهو الذى أثره على القرآن ، كما أن الأصنام والأوثان التى عبدها لن تنقذه ، ولن تقدم له أى منفعة ، وقد أعد له عذاب عظيم مخيف مؤلم .

١١ - هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِتَائِلَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ .

أى : القرآن الكريم مصدر هداية أو هو نفس الهداية ، والدعوة إلى الرشاد والإيمان ، أما الذين كفروا بالقرآن وكذبوا بآيات الله ، فلهم عذاب مؤلم مذل مهين .

قال الرمخشى : الرِّجْز أشدُّ العذاب .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِتَائِلَتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ .

إن حقيقة هذا القرآن أنه هدى ، هدى خالص مصفى ، هدى ممحض لا يشوبه ضلال ، فالذى يكفر بعد ذلك بالآيات - وهذه حقيقتها - يستحق ألم العذاب ، الذى يمثله توكيد معنى الشدة والإيلاء ، فالرجز هو العذاب الشديد ، والعذاب الذى يهددون به هو عذاب من رجز أليم ، تكرر بعد تكرار ، وتوكيد بعد توكيد يليق بمن يكفر بالهدى الممحض الصريح^(١٦) .

★ ★ ★

صنوف النعم

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلْيُنْغَرُ مِنْكُمْ فِجْءٌ لِّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢ ﴾
 ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٣ ﴾
 ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٤ ﴾
 ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلْيُفْسِدْهُ ۖ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ رُجْعُونَ ١٥ ﴾

المضردات :

سَخَّرَ ، ذَلَّل .

الْفُجْءُ ، السفينة .

الاستغناء : الطلب .

ينشثروا : يعفوا ويصفحوا .

لا يرجون أيام الله : لا يتوقعون وقائعه بأعدائه ونقمته عليهم .

ليجزى قسوما : ليكافئ المؤمنين الغافرين .

ومن أساء فعليها : أى : ومن أساء فعلى نفسه أساء .

تمهيد :

فى هذه الآيات ذكر لألوان النعم التى أنعم الله بها على عباده ، وفيها دعوة إلى الصفح والعفو .

التفسير :

١٢ - اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ما أجلُّ نعم الله تعالى على الإنسان ، فهذا المخلوق البسيط يسر الله له طائفة من النعم ، ومنها هذا البحر الهائج المائج المتلاطم الأمواج ، الممتد الكبير ، يسخره الله للإنسان ، ويجعل سطح الماء سائلاً أملس ، قابلاً لأن تجرى عليه السفينة المكونة من ألواح الخشب ، تحركها الرياح أو الفحم أو الكهرباء ، وفى ذلك نجد عدداً من الموافقات تتم فى الكون مثل شدة الحرارة ، وحركة الشمس ، وتسخير الهواء والماء ، وصناعة السفن ، وإلهام الإنسان الاستفادة من هذه النعم ، ولينقل البضائع والتجارة من بلد لآخر حتى يستفيد الجميع ، ولعلهم يشكرون خالقهم وصاحب الأنعم المتعددة عليهم .

١٣ - وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَّتَفَكَّرُونَ .

أى : سخر لكم أيضاً ما فى السماء من أبراج وأفلاك ، وشموس وأقمار ونجوم ، وليل ونهار ، وما فى الأرض من بحار وأنهار وأشجار ، وجبال وزروع ونبات وحيوان ، وهذا وغيره مما نشاهده صباح مساء ، قد سخره الله بفضلته وأنعمه وتيسيره ، مما يستدعى النظر والتأمل والتفكر فى أدلة القدرة العالية .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

١٤ - قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

هذه السورة مكية ، وكان عدد المسلمين فى مكة مائتى رجل وامرأة ، فأمرهم الله بالصبر والاحتساب فى فترة الضعف ، ثم لما استمر عناد المشركين ، وقوى عود المسلمين ، أمرهم الله بالجهاد والجلاد فى المدينة .

قال الزركشي في البرهان :

وليس هذا من النسخ ولكنه من باب التدرج فى التشريع ، فكلما كان المسلمون ضعافاً أمروا بالصبر والاحتمال ، وكلما كانوا أقوياء أمروا بالجهاد ، وقد تعددت أقوال العلماء فى سبب نزول هذه الآية ، فقيل : إنها نزلت فى عمر بن الخطاب ، شتمه مشرك من غفار بمكة قبل الهجرة ، فهم أن يبطش به ، فنزلت هذه الآية .

وروى الواحدى والقشيري عن ابن عباس :

أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب مع عبد الله بن أبى ، فى غزوة بنى المصطلق ، فإنهم نزلوا على بئر يقال لها : المُرَيْسِيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليسقى فأبطأ عليه ، فقال : ما حبسك ؟ قال : غلام عمر قد على فم البئر ، فما ترك أحداً يسقى حتى ملأ قرب النبى ﷺ ، وقرب أبى بكر ، وملأ لمولاه ، فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء ، إلا كما قيل : (سمن كليك يأكلك) فبلغ عمر قوله ، فاشتمل على سيفه يريد التوجه إليه ليقتله ، فأنزل الله هذه الآية ، وقيل غير ذلك فى سبب نزولها ، لكن العبرة فى الآية بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى دعوة عامة للمؤمنين أن يصفحوا ويغفروا ، ويسامحوا هؤلاء المشركين الذين لا يتوقعون وقائع الله تعالى ، ولا يخافون نقمته عليهم لكفرهم ، كما انتقم الله منهم فى بدر وأمثالها ، وكما ينتقم منهم يوم القيامة ، فيجزئهم على قبيح أفعالهم عند الحساب والجزاء ، فالجزاء عادل يوم القيامة .

١٥ - مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .

من عمل من عباد الله عملاً صالحاً فى الدنيا فيسعود ثواب ذلك على نفسه ، ومن ارتكب سوءاً أو شراً فضرره عائد عليها ، ولا يكاد يسرى جزاء عمل إلى غير عامله ، ثم تعودون إلى الله يوم القيامة ، فيجازى كل إنسان بما عمل ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

نعم الدين وإنزال الشرائع

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْهَرُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

الكتاب : المراد به التوراة ، أو الكتب التي نزلت على أنبيائهم ، مثل التوراة والزيور والإنجيل .

الحكم : القضاء بين الناس ، أو الفقه في الدين .

وفضّلناهم : فضلناهم على عالمي زمانهم الوثنيين .

بيّنات من الأمر : أدلة في أمر الدين ، ويندرج فيها المعجزات التي جاء بها موسى عليه السلام .

بغياً ، حسداً وعناداً .

شريعة : منهاج وطريقة في أمر الدين ، وأصل الشريعة : مورد الماء في الأنهار ونحوها ، وشريعة

الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه .

الأهواء : ما لا حجة عليه من آراء الجهال التابعة للشهوات .

هــذا : القرآن .

بصائر للناس : معالم للدين بمنزلة البصائر في القلوب .

تمهيد :

ذكر تعالى بعض نعمه على بني إسرائيل ، ثم نعمته على البشرية عامة برسالة محمد ﷺ ، المشتمة

على الهداية والرحمة ، وإنارة البصائر ، وهداية القلوب .

التفسير:

١٦ - وَلَقَدْ آتَيْنَا نَبِيَّ إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالتَّوْبَةَ وَزَرَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أنعم الله على بنى إسرائيل بالعديد من النعم ، ومن هذه النعم ما يأتي :

(أ) التوراة وسائر الكتب السماوية السابقة واللاحقة ، كالزبور والإنجيل والصحف ، التي أنزلها الله على رسله ، كما أعطاهم الفهم للدين ولعلوم الشريعة ، وجعل فيهم عددًا كبيرًا من الأنبياء ، ومنهم من أوتي الملك والنبوّة مثل داود وسليمان .

(ب) رزقهم الله رزقًا طيبًا كالمنّ والسلى والسّمك ، وغير ذلك من أرزاق البر والبحر .

(ج) فضلهم الله على عالمي زمانهم من المشركين ، فلما أنزل الله الرسالة الخاتمة ، وأرسل النبي الخاتم ، انتقلت الأفضلية إلى أمة محمد ﷺ .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...

(البقرة : ١٤٣)

واليهود يهتمون بذكر تفضيلهم على العالمين ، وعند استعراض آيات القرآن الكريم نجد أن هذا التفضيل كان بسبب اتباعهم لموسى ، وعملهم بتعاليم التوراة وطاعتهم لله ، فلما حرّفوا التوراة وخالفوا أمر الله ، غضب الله عليهم ولعنهم ، كما سجد في الآيات اللاحقة أن الله أعطاهم البينات والمعجزات الواضحة ، مثل فلق البحر ، والآيات التسع التي أعطيت لموسى ، لكنهم اختلفوا طمعًا في مناصب الدنيا .

١٧ - وَعَآئِنَاهُمْ يَنْتَسِبُ مِنَ الْأُمَرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ نَفْسًا نَّفِثًا يُفْقِصُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْآيَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

أعطينا بنى إسرائيل شريعة واضحة بيّنة ، فيها الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، هذا الوضوح والبيان ، والعلم بما أحل الله وبما حرّمه ، كان يقتضى منهم السير صفًا واحدًا على الطريق الواضح ، والصراط المستقيم ، بيد أنهم اختلفوا وتفرّقوا شيعًا ، بعد أن جاءهم العلم بالحق ، وسبب الاختلاف هو الحسد والبغى طمعًا في مناصب الدنيا وشهواتها ، فانظر كيف كان العلم بأحكام الله ، وتبيين شريعته سببًا في تفرّقهم ، وكان الأصل أن يكون سبب وحدتهم ، لأن العلم إذا وجد قلبًا نقيًا ، كان العلم كالماء يفيض ، الأرض الطيبة فينمى بذرتها ، أما العلم إذا وجد قلبًا غافلًا غارقًا في الشهوات ، فإن هذا العلم يكون وبالاً على صاحبه ، كالماء إذا وجد أرضًا سبخة مريضة ، فإنها لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ .

لقد اختلفوا بعد أن جاءهم العلم واليقين بصدق نبوة محمد ﷺ ، وعلموا من التوراة وغيرها صفة محمد ﷺ ، وأنه يولد فى مكة ، ويهاجر إلى يثرب ، وأنه خاتم الرسل وآخرهم ، وأنه لا يقابل السيئة بالسيدة لكن يغفر ويصفح ، وقد استوضحوا صفاته بعد هجرته إلى المدينة ، لكنهم كفروا به ظلمًا وبغيا وعدوانًا .
قال تعالى : فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ... (البقرة : ٨٩) .

وقال عز شأنه : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ . (البينة : ٤) .

وفى الآخرة نجد القضاء العادل من الإله العليم الحكيم ، المطلع على الخفايا والأسرار ، فيتم الحكم بالعدل ، وإنصاف المظلوم وعقوبة الظالم .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

إن عدالة الله ستقضى بينهم فيما اختلفوا فيه .

وفى سورة الزمر يقول الله تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزمر : ٤٦) .

وفى هذا تحذير للأمة الإسلامية من أن تسلك مسلكهم ، وأن تسير على نهجهم .

قال تعالى : وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . (الأنفال : ٤٦) .

١٨ - ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

ثم أرسل الله محمدًا ﷺ برسالة عامة للناس أجمعين ، وهى شريعة واضحة سهلة سمحة من أمر الدين ، فاتبع هذه الشريعة واثبت على أمر الله ، واصبر على تبليغ الدعوة ، ولا تتبع أهواء كفار مكة الذين قالوا له : ارجع إلى دين آبائك ، كذلك لا تتبع أهواء اليهود الذين يكتمون الحق ، أو لا تتبع أهواء أى صاحب هوى من المشركين أو اليهود أو غيرهم .

قال المفسرون : والشريعة فى كلام العرب : الموضع الذى يرد منه الناس فى الأنهار ونحوها ، فشريعة الله حيث يرد الناس منها أمر الدين ، ورحمته تعالى والتقرب إليه .

١٩ - إِنْهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلَى الْمُتَّقِينَ .

الآية تعليل لقوله سبحانه : وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : فهو لاء أصحاب الهوى والشهوات ، إن اتبعتم لن يدفعوا عنك من عذاب الله شيئاً ، ولو كان لهم نفع لرفعوا أنفسهم .

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَيُضْحَكُونَ أُولَآئِكَ بَعْضُ ...

أى : إن المتجاوزين حدود الله ، والخارجين على أوامره ، بعضهم أعوان لبعض على الباطل ، فلا توالهم باتباع أهوائهم فهم فى خسران ، ودم على طاعتك لله وتبليغ شريعته ، فإنه سبحانه ولى المتقين ، يرعاهم ويؤيدهم بنصره ، وأنت إمام للمتقين .

٢٠ - هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

هذه رسالة الإسلام ، وآيات القرآن ، علامة هداية ، ونور يضيء طريق الإيمان ، ويبصر القلوب بطاعة الرحمن ، فقد اختلف أهل الكتاب من بعد ما جاءهم العلم ، ثم أنزل الله عليك القرآن هداية ورحمة ، وتبصرة بمعالم الدين ، وأحكام الحلال والحرام ، وتشريعاً لأحكام الله ، وتبصيراً للناس بدين الله ، وفى القرآن هداية ورحمة ، لاشتماله على ألوان الهداية ، من التشريع والقصاص ، وصفات الله وكلماته ، وبيان ألوان الهداية التى يتفضل الله بها على عباده ، برحمته وفضله ، وحنانه ومغفرته ، وتوفيقه وألطافه ، وسائر معونته لعباده الذين يوقنون بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

★ ★ ★

الفارق بين المحسنين والمسيئين فى المحيا والممات

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مِّنْجِيَاهُمْ وَمِمَّا نُهُمْ سَاءٌ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ۚ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عَمْرٍۭ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ ۖ وَغَلَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ ۖ غَشًوَةً ۖ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣)

المضردات :

اجترحوا السيئات ، اكتسبوا الكفر والمعاصى .

سواء ما يحكمون : قبح ما يقضون به .

مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، مِنْ اتَّخَذَ هَوَاهُ مَعْبُودًا لَهُ ، فَخَضَعَ لَهُ وَأَطَاعَهُ .

وأضله الله على علم ، أضله الله وسلب عنه الهدى بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه .

قال ابن كثير : ويحتمل معنى آخر هو : أضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك .

وختم على سمعه وقلبه ، أغلق منافذ الهداية عنده ، فهو لا يقبل ما ينفعه مما يسمعه ، ولا يقبل حقاً لإصراره على كفره .

وجعل على بصره غشاوة ، غطاءً أو ظلمة فلا يبصر دواعي الهدى .

فمن يهديه من بعد الله ، فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه ؟ أى : لا أحد يهديه .

أفلا تذكرون ، أنتركون النظر فلا تتعظون .

سبب النزول :

روى الكلبي فى تفسيره أن عتبة وشيبة والوليد بن عتبة ، قالوا لعلى وحمة وجمع من المؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولونه حقاً ، لكان حالنا أفضل من حالكم فى الآخرة ، كما هو أفضل فى الدنيا ، فنزل قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...

التفسير :

٢١ - أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

زعم الكافرون أن القيامة إذا قامت فإن لهم منزلة سامية عند الله ، كما كانوا فى الدنيا ، فسيكونون كذلك فى الآخرة ، وقد رد الله عليهم بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد أطاعوا الله وأطاعوا رسوله ، فاستحقوا رضوان الله فى الدنيا ، وجنته فى الآخرة ، أما الكافرون فقد خالفوا أمر الله وكذبوا رسوله ، فاستحقوا غضب الله فى الدنيا ، وعذاب النار فى الآخرة .

قال الزمخشري :

المعنى : إنكار أن يستوى المحسنون والمسيئون محيا ، وأن يستووا مماتا ، لافتراق أحوالهم فى ذلك ، والآية متضمنة للرد على الكفار ، كما يعرف بأدنى تدبر ، لأن الله إذا أنكر عليهم المساواة ، فكيف بالأفضلية ؟ المؤمنين عملوا أفعالاً صالحة ، فحافظوا على الإيمان والطاعة ، وابتعدوا عن معصية الله ، والكافرون اقتصروا المعاصى والفسوق فى الدنيا ، وإذا لم يستويا فى الدنيا عملاً ، فلن يستويا فى الآخرة فى الجزاء .

وقد جاء هذا المعنى فى سورة السجدة ، قال تعالى : أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ آلَافُ نِزَالًا * بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ...

(السجدة : ١٨ - ٢٠)

وقال تعالى : لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

ومعنى الآية :

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

أى : ساء ما ظننوا ، ويُعد أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الآخرة ، وفى هذه الدار .

قال مجاهد :

المؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً ، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً ، نقله القرطبى فى تفسيره .

وقد كان الصحابة والتابعون يرددون هذه الآية هضمًا لأنفسهم ، وترغيبًا لأنفسهم فى الحسنات ، وتزهيدًا فى السيئات ، فقد أخرج الطبرانى ، عن أبى الضحى ، عن مسروق أن تميمًا الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى ، من أى الفريقين أنت ؟

٢٢- وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

بالعدل قامت السماوات والأرض ، والكون كله خاضع لأمر الله خضوع القهر والغلبة ، وهذا الكون يسبح بحمد الله ، وهو نعمة متناسقة خاشعة خاضعة ، مسبحة بحمد الله ، مستجيبة لأمره ، فالإنسان العابد الطائع متناسق مع الكون ، خاضع لأمر الله ، والكافر العاصى ، والفاجر الفاسق الخارج على أوامر الله ، هؤلاء نعمة نشاز فى هذا الكون ، من أجل ذلك كان لابد من دار جزاء ، يثاب فيها الطائع ، ويعاقب العاصى ؛ لأن خلق الكون بالعدل والحق يؤدى إلى أن تجزى كل نفس بما كسبت ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، تلك قوانين العدالة والإنصاف ، ولا يظلم ربك أحدًا .

قال تعالى : وَنُفِخُ فِي سُورٍ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

وَكَفًى بِنَا حَسِيبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

٢٣ - أَقْرَبَتْ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ بَصَرَهُ غُشُوَّةً
فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

مع أن الكون كله قد خلق بالحق والعدل ، وهو يسبِّح بحمد الله تسبيح طائع لله ، ملتزم بأوامره وقوانينه ، فإنك تعجب حين تجد الكافر الذي يشذُّ عن عبادة الله ، فيعبد الهوى والصنم والشهوة ، فهو أسير هواه وشهوته ، وقد سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، فاختر الضلالة مع علمه بأنها ضلالة ، كما قال سبحانه : وَجَعَلُوا بِهَا أَسَافَةً لِنَفْسِهِمْ ظُلْمًا وُعُوتًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابَ الْمُفْسِدِينَ . (النمل : ١٤) .

أو أضله الله عالمًا بحاله ، وأنه يؤثر الهوى على الحق ، لذلك سلب عنه الهدى والتوفيق ، وتركه ضالًّا متحيرًا ، فلا يسمع ما يقبده ، ولا يتأمل بقلبه في أسباب الهدى ، ولا يتأمل ببصره في ملكوت السماوات والأرض .

فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ .

إن الهدى هدى الله ، وإذا كان الله تعالى قد سلب عنه الهدى والتوفيق ، فمن يملك له أسباب الهداية بعد أن سلبها الله عنه ؟ إن هذا لأمر يستحق التفكير والتذكر .

قال الآلوسى : والكلام على التمثيل . ١ هـ .

أى أن الله شبه إعراض الكافر عن الحق ، وتعاميه عن الهدى ، وتصاممه عن سماع القرآن ، بمن فقد هذه الحواس .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الأعراف : ١٧٩) .

وجاء في حاشية الجمل على الجلالين ما يأتى :

وصف الله تعالى الكفار بأربعة أوصاف :

الأول : عبادة الهوى .

الثانى : ضلالهم على علم .

الثالث : الطبع على أسماعهم وقلوبهم .

الرابع : جعل الغشاوة على أبصارهم .

وكل وصف من هذه الأوصاف مقتضى للضلالة ، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجه من الوجوه .

من تفسير القرطبي

ذكر القرطبي في تفسير قوله تعالى : وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ...

قال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ، ومعه الوليد بن المغيرة ، فتحدثا في شأن النبي ﷺ فقال أبو جهل : والله إنني لأعلم أنه صادق ، فقال له : مئة ، وما ذلك على ذلك ؟ قال : يا أبا عبد شمس كنا نسمة في صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكل رشده نسمة الكذاب الخائن ، والله إنني لأعلم أنه صادق ، قال : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟ قال : تتحدث عنى بنات قريش أني اتبعت أبي طالب من أجل كسرة ، واللوات والعزى لا أتبعه أبدا ، فنزلت : وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ... (٣٧).

وقد أورد القرطبي في تفسيره لهذه الآية عشرة أبيات في ذم الهوى ، والدعوة إلى مخالفة هوى النفس ، واتباع العلم والدين ، ومن ذلك قول عبد الله بن المبارك :

ومن البلاء للبلاء علامة ألا ترى لك عن هوك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحر يشبع تارة ويجوع

وأخرج أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن شداد بن أوس ، عن النبي ﷺ : قال : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والفاجر من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمان» (٣٧).

★ ★ ★

الرد على الدهرية ، وذكر أهوال القيامة

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ ﴾ وإذا أنزلنا عليهم آياتنا يبينت ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتَّبَعُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَارِبِّ فِيهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢٦ ﴾ ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ٢٧ ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثيةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٨ ﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٩ ﴿

المضردات :

ماهى إلا حياتنا الدنيا ، ما الحياة إلا حياتنا الدنيا التى نحياها .

تموت ونحيا: يموت بعض ويولد آخرون ، ولا ميعاد ولا قيامة .

وما يهلكنا إلا الدهر: وما يهلكنا إلا مرور الزمان .

إن هم إلا يظنون: ما هم إلا قوم يتوهمون .

ماكان حجتهم: ما كان قولهم الذى ساقوه مساق الحجة ، وليس بحجة .

استوا بابائنا: أحضروا آباءنا أحياء فى هذه الدنيا بعد أن ماتوا .

قل الله يحييكم: يخرجكم إلى الوجود بعد أن كنتم نطفًا .

ثم يجمعكم إلى يوم القيامة: ثم يجمعكم أحياء فى يوم القيامة .

لا ريب فيه: لا شك فيه ، فإن من قدر على الابتداء فى الخلق قادر على الإعادة .

المبطلون: أهل الباطل وهم الكفار .

جاثية: باركة على الركب مستوفزة .

كتابها: صحيفة أعمالها .

ينطق: يشهد .

تستسبح: تستكتب الملائكة أعمالكم ، وتثبت وتحفظ .

تمهيد :

ذكر تعالى شبه الكافرين وما يرون أنه حجة فى ظنهم ، واعتقادهم أن هذه الحياة الدنيا هى كل شئ ، وما يميتهم إلا تتابع الليل والنهار ، فيموت أقوام ويولد آخرون ، ولا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، وحجتهم تتلخص فى طلب إحياء آبائهم بعد أن ماتوا ، والله تعالى جعل الدنيا للعمل دون الحساب ، والآخرة للحساب دون العمل .

وقدم القرآن أدلة على وجوب البعث ، منها أن الله قد بدأ الخلق ، والإعادة أمون من البدء ، ثم إن الله له ملك السماوات والأرض ، وهذا المالك سيبيع الأموات أحياء يوم القيامة ، وعندئذ نجد كل جماعة من الناس جاثية على ركبها ، مستوفزة من الهول ، ويتم الحساب والجزاء ، وقد سجل الملائكة والحفظة أعمال كل إنسان فى كتاب ينطق عليه بما عمل .

التفسير :

٢٤- وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ .

قال المشركون : لا بعث ولا حشر ولا حساب ولا جزاء ، وليس هناك حياة آخرة ، وإنما الموجود هو الحياة الدنيا فقط ، نعيش فيها مدة ثم نموت ثم نحيا فى أبنائنا والأجيال التى تاتى من بعدنا ، وما يهلكنا إلا

كِرَ الأَيام وتتابع الليالي ، وهي فكرة خاطئة لا تعتمد على شرع نزل بذلك ، ولا على يقين مؤكد مثل : $١ + ١ = ٢$ ، إنما هو ظن ظنة أهل الجاهلية ، والدهر أو الأَيام والليالي ليست هي التي تميت ، ولو كان ذلك كذلك لمات الناس جميعا في سن معينة ، لكن الموت يأتي على الصغير كما يأتي على الكبير ، ويأتي على القوى كما يأتي على الضعيف ، ويأتي على الشيخ كما يأتي على الشاب ، ويأتي على السليم كما يأتي على المريض ، فالأجل عند الله في كتاب في اللوح المحفوظ .

٢٥- وَإِذَا تَنَافَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِبَيِّنَاتٍ مَّا كَانَتْ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُؤْتُوا بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

إذا قرئت عليهم آيات القرآن واضحات بينات ، وفيها دلائل التوحيد وأخبار السابقين ، وتشريع المؤمنين وبيان العقائد والعبادات والمعاملات ؛ لجأوا إلى الجدال بالباطل ، فقد اقترحوا على النبي ﷺ عددا من الاقتراحات من بينها ما يأتي :

(أ) إبعاد الجبال عن مكة ، وتسخير أرضها بالينابيع والخضرة مثل أرض الشام .

(ب) إحياء رجلين ممن مات من آبائهم ، منهما قصي بن كلاب ، حتى يسأله عن البعث بعد الموت وهل هو حق ، ويسأله : هل محمد صادق في دعواه الرسالة ؟

وهنا حكى القرآن قولهم وهو شبهة ، وسماها القرآن حجة بناء على زعمهم أو تهكمًا بهم .

والمقصود من الآية :

إذا دعوتهم إلى الإيمان وقرأت عليهم آيات القرآن ؛ لم تكن لديهم وسيلة إلى الرفض إلا الجدال بالباطل ، وطلبهم أن تبعث لهم من مات من آبائهم إن كنت صادقًا في أن البعث حق .

والله تعالى قد حدد للبعث وقتا ، وجعل ذلك ناموسًا من نواميس الحياة ، حتى لا يكون الخلق عبثًا وباطلا ، فلا بد من دار يكون فيها الحساب والجزاء ، أما أن يكون البعث وسيلة للتسلية ، أو اقتراحا يقترحه أهل مكة ، فإله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يغير النواميس من أجل اقتراح الأشخاص .

٢٦- قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

إن الله تعالى هو الذي أحياكم حين كنتم نطفة في ظهور آباءكم ، ثم يميتكم عند انتهاء أجالكم ، فالحياة والموت بيد الله وحده ، لا بيد الأَيام والليالي أو الدهر كما زعمتم ، ثم يبعثكم ويجمعكم يوم القيامة لا شك في حصوله ، حتى يجازي كل إنسان بما عمل ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون قدرة الله على البعث لإعراضهم عن التفكير في الدلائل .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ**. (الملك: ٢).

وقوله سبحانه: **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ... (الأنبياء: ١٠٤).**

وقوله عز وجل: **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**. (الروم: ٢٧).

٢٧- وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُ يَوْمَئِذٍ الْمُتَبَدِّلِينَ.

الكون كله فى قبضته وطوع إرادته ، وهو سبحانه له ملك السماوات وما فيها ، وملك الأرض وما عليها، وله الملك وحده يوم القيامة ، وفى هذا اليوم يخسر المكذبون الكافرون المتعلقون بالأباطيل ، ويظهر نى ذلك اليوم خسرانهم لأنهم يصيرون إلى النار .

تعليق

يذكر المفسرون فى هذه الآية والآية السابقة عليها الرد على الدهرية ، وهم قوم من العرب كانوا يقولون : إنما يهلكننا الليل والنهار ودورة الزمان ، وينسبون الحياة والموت إلى الدهر ، وإذا أصابهم مكروه سيوا الدهر ، ووجد من غيرهم من الطوائف من يوافقهم على ذلك ، منهم جمهور الفلاسفة الدهريين والملاحدة فى كل زمان ، حيث ينسبون الحياة وتنوع أشكالها إلى التطور الذى استمر ملايين السنين ، وفى اعتقادهم أن ليس وراء ذلك قوة مدبرة مبدعة خالقة ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون صدفة ، ومنهم من ينتسب إلى الإسلام لكنه فى كتاباته العلمية يجارى هؤلاء ويخجل أن يذكر نسبة الخلق إلى خالق مبدع ، وربما قال: الطبيعة هى التى أبدعت وصنعت، ولو سئل عن الطبيعة : ألها فكر؟ لما كان لديه جواب ، وهم كما قال تعالى: **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**. (الجاثية: ٢٤).

وإلا فأين الأسلوب العلمى فى نسبة حدوث هذه المخلوقات العجيبة ، بما فيها من الأجهزة العلمية الدقيقة التى تتكامل لتؤدي وظائف معينة على أكمل ما يكون ، كيف تُنسب إلى الصدفة أو الطبيعة غير العاقلة؟ سبحانه الله ! كيف يعمى الهوى الأبصار والبصائر ^(٣١) .

من دلائل الإيمان

الإيمان فطرة فى الإنسان ، ودليل اليقين والهدوء النفسى ، وبه جاءت الرسل والكتب ، وأثبتت الإحصاءات الرسمية وغير الرسمية أن المؤمنين أقدر على الصبر والتماسك فى الشدائد ، وأقدر على الشكر والتعاون والتصدق

ومساعدة الآخرين في السراء والضراء ، والإيمان سند وعون في الملمات ، ووسيلة لاتباع مكارم الأخلاق ، والبعد عن المعاصي والقبايح ، ولو لم يكن ما أرسل به الرسل دينًا لكان في دنيا الناس شيئًا عظيمًا ، إن دلائل الإيمان شواهد في خلق السماء والأرض والنجوم والجبال والنبات والأشجار والإنسان والحيوان والشمس والقمر والهواء والماء ، وكل ما تراه العين يدل على إبداع الخالق سبحانه بديع السماوات والأرض .

قال تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

عود إلى التفسير :

٢٨- وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

تصف الآية مشهدًا من مشاهد القيامة ، يشهد فيه الهول ، وتزفر جهنم زفرة لا يبقى أحد إلا جثا على ركبتيه مستوفزًا ، لا يلمس الأرض منه إلا ركبته وأطراف أنامله .

قال الحسن : ترى كل أمة باركة على الركب ، كل مجموعة أو ملة واحدة تدعى إلى كتابها ، أى : صحيفة عملها .
وقيل : كل ملة تدعى إلى الكتاب المنزل عليها .

ولسان الحال أو لسان المقال يقول : الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا يوم الجزاء على أعمالكم : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٢٩- هَذَا كِتَابُنَا يُنْطَقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

هذا كتاب أعمالكم يشهد عليكم بالعدل والصدق ، فقد كان الحفظة يكتبون أعمالكم ويسجلون حسناتكم وسيئاتكم ، وكلمة نستنسخ بمعنى نكتب ، وحقيقة النسخ : هو النقل من أصل إلى آخر .

قال ابن عباس : تكتب الملائكة أعمال العباد ، ثم تصعد بها إلى السماء ، فيقابل الملائكة الموكّلون بديوان الأعمال ما كتبه الحفظة مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر ، مما كتبه الله في القدم على العباد قبل أن يخلقهم ، فلا يزيد حرفًا ولا ينقص حرفًا ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس يقول : ألتسم عربًا ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل^(٧٩) .

وفي فتح القدير :

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى : نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم ، أى بكتابتها وتثبيتها ، وقيل : إن الملائكة إذا رفعت أعمال العباد إلى الله سبحانه أمر عز وجل أن يثبت عنده منها ما فيه ثواب وعقاب ، ويسقط منها ما لا ثواب فيه ولا عقاب . اهـ .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالْبَشِيرِ وَالنَّذِيرِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . (الزمر: ٦٩).

وقوله عز شأنه: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُعْجِرِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَهِذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩).

وقال على رضى الله عنه: إن لله ملائكة ينزلون كل يوم بشيء يكتبون فيه أعمال بنى آدم .

وهذا يدل على أن الكتابة هنا رمز لطرق الإثبات والاستيثاق والحفظ وتسجيل الأعمال ، حتى ليفاجأ العبد بأن كل ما عمله مسجل محفوظ ، كما قال سبحانه: أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ ... (المجادلة: ٦) .

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَتَرَكَنَ ءَايَتِي سُبْحَىٰ عَلَيْكَ ءَأَسْتَكَبرُتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٢٢﴾ وَبَدَأْتُمْ سَبَاتًا مَا عَمِلُوا وَأَخَافُ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَخُكُمْ مَا نَسَخْنَا لَكُمْ هَذَا وَمَا وَكُتِبَ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصْرِينَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْنَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَوُونَ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات :

فى رحمته : فى جنته .

أفلم تكن آياتى تتلى : يقال لهم ذلك .

لا ريب فيها : لا شك فيها .

ما الساعة : أى شئ الساعة ؟ ما حقيقتها ؟

وحساق بهم ، وأحاط بهم ونزل .

ننساكم : نترككم في العذاب ترك المنسى .

كما نسيتم : كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم في هذا اليوم .

وماواكم : ومحل إقامتكم .

آيات الله : القرآن .

هــزوا : سخرىا .

وضرتكم : وخدعتكم فاطمأنتم إليها .

ولاهم يستعجبون : أى : ولا يطلب منهم أن يُعْتَبُوا ربهم ، أى أن يرضوه ، يقال : عتب عليه فأعتبه ، أى :

لامه فأرضاه بإزالة ما لاه من أجله ، والعتبى هى الرضا .

الكبرياء : العظمة ، وهى من الله مدوحة لأنه العظيم الذى لا يدرك الخيال لعظمته حدًا ، وليس

المراد بها أنه متصف بصفة المتكبرين من احتقار الناس وامتهانهم .

تمهيد :

تصف الآيات جزاء المتقين فى الجنة ، وعقوبة الكافرين فى النار ، وتعرض أهوال القيامة وما يحيق بالمرميين ، حيث يتركون فى النار يذوقون الهوان ، ويعاملون معاملة المنسيين المهملين جزاء سخريتهم بالقرآن وغرورهم بالدنيا ، فلم فى الآخرة خلود أبدى فى جهنم ، ولا يقبل منهم اعتذار ، ولا يسمح لهم بالعودة إلى الدنيا مرة أخرى للتوبة من المعاصى ، وطلب العتبى والرضا من الله .

وتختتم السورة بالحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، أى عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الطير ، وعالم الملائكة ، ورب الجميع ، وهو سبحانه المتفرد بالكبرياء ، المتوحد بالعظمة والبقاء ، وليس كبرياء التعالى على الضعفاء ، بل هو تعظيم الخالق الرازق المتصف إجمالاً بكل كمال ، والمنزه إجمالاً عن كل نقص .

التفسير :

٣٠ - فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ .

ينقسم الناس فى الآخرة إلى قسمين : المؤمنون ، والمجرمون .

أما المؤمنون الذين آمنوا بالله وأطاعوا وأوامره واجتنبوا نواهيه ، وقدموا الأعمال الصالحة ، فيدخلهم الله فى جنته ورضوانه ، وذلك الفوز أعظم فوز لأنه النجاح الذى لا يعدله نجاح ، النجاح فى الآخرة حيث الحياة الحقيقية ، وفى الحديث الصحيح : أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء^(٣) .

٣١- وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَهُمْ نَكْرٌ ءَايَنِي تُنَالِي عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

وأما الذين كفروا فينالون التوبيخ والتقريع واللوم ، حيث يقال لهم : ألم أرسل لكم الرسل تقرأ عليكم آياتي فأعرضتم عن سماعها ، واستكبرتم عن الإيمان وكنتم قوما فاسقين ، خارجين عن حد الاعتدال ، لم تستخدموا عقولكم ولا تفكيركم في هذه الهداية التي ساقها الله لكم .

٣٢- وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نُظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ .

إذا قال لكم الرسول ﷺ والمؤمنون معه : آمنوا بالله ، فإن ما وعد به من البعث والحشر ، والحساب والجزاء والجنة والنار ، حق لا شك فيه ، والساعة وهي القيامة قادمة لا شك في قدومها ، كان جوابكم : لا نعلم ما هي الساعة ، ولا نتيقن بمجيئها ، إنما نسمع عنها سماعاً ، ونعلم عنها من كلام المؤمنين ، فنظن قيام القيامة ظناً غير متحققين من قدومها ولا متيقنين ، فهو شك أو احتمال أو ظن أن تقوم القيامة ، ولكننا غير متيقنين ولا متأكدين ولا جازمين بذلك .

٣٣- وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

وظهر أمامهم واضحا جلجا عقوبة السيئات التي ارتكبوها في الدنيا ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، وأحاط بهم العذاب والنكال والخزي من كل جانب ، جزاء سخريتهم بالمؤمنين ، وتكذيبهم بالبعث والحشر والثواب والعقاب .

٣٤- وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ آثَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ أَنْصَارٍ .

لقد شاهدوا العذاب واضحا أمامهم ، ثم يقال لهم على سبيل التذكير والعتاب : لقد أنعمنا عليكم بالنعيم ، وأرسلنا لكم الرسل فاستهزأتم بالمرسلين ، وأعرضتم عن الإيمان ، وتناستيم القيامة والبعث والحشر والجزاء ، فالיום نهلكم ونعالمكم معاملة من نسي وأهمل أمره ، وترك في النار خالدا ، فمآلكم النار هي دار إقامتكم ، ولا تجدون ولدا ولا نصيرا .

قال ابن كثير في تفسيره :

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أزوجهك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟ وأدرك ترأس وتربع ؟ ، فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فالיום أنساك كما نسيتني » (٣٧) .

٣٥- ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم اتَّخَذْتُمْ عَآيِسَتِ اللَّهِ هُزُورًا وَعَرَّضْتُمْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ

ذلكم العذاب بأنكم سخرتم من القرآن وآيات الله ومعجزاته البينات ، واستهزأتم بالرسول والمؤمنين والدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، وشغلتمكم الدنيا بما فيها ، وطمعتم ألا بعث ولا جزاء ، فاليوم يوم الجزاء ، لا تخرجون من النار أبداً ، ولا تقبل منكم توبة ، ولا ترجعون إلى الدنيا أملاً فى العقبى ، أى مرضاة الله والعمل بما يرضيه ، فقد مضى أوان التوبة والرضا ، لأن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

قال صاحب الظلال :

ثم يسدل الستار عليهم بإعلان مصيرهم الأخير ، وهم متروكون فى جهنم لا يخرجون ، ولا يطلب إليهم اعتذار ولا عتاب .

قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ .

وكأننا نسمع مع إيقاع هذه الكلمات صرير الأبواب وهى توصلد إيصاها الأخير ، وقد انتهى المشهد فلم يعد فيه بعد ذلك تغيير ولا تحويل .

٣٧، ٣٦- فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَّاءُ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

بينت السورة آلاء الله وأفضاله ، واشتملت على البراهين الساطعة ، والنصوص القاطعة فى المبدأ والميعاد ، وانتهاء الأخيار إلى الجنة ، والفجار إلى النار ، وعند هذه النهاية تعلن السورة أن الحمد كله والثناء كله والمجد كله والعظمة كلها لله خالق الكون ، رب السماوات وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب العالمين ، وهو الإله الحق لكل ما عدا الله .

وَلَهُ الْكِبَرِيَّاءُ فِى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

العظمة والجلال والسلطان والكمال لله وحده الذى خضع له الكون وذلت لعظمته الجباه ، وسبح بحمده كل كائن ، وله كمال الذات وكمال الوجود ، فلا تخضع الجباه إلا له ، ولا ينبغي التسبيح إلا له ، فله الحمد وله الملك وله الكبرياء فى السماوات والأرض ، لا عن تجبر وترفع عن الفقراء ، بل هو أهل لأن يحمده ، وهو أهل لأن يطاع ويوقر ، ويعظم فلا يعصى ولا يجحد ، وهو العزيز الذى لا يقهر ، والحكيم فى كل ما قضى وقدر ، وهو بحكمته يضع الشئ فى موضعه ، وجميع أعماله صادرة عن حكمة إلهية عليا .

وقد ورد فى الحديث الصحيح : «العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته

قال مجاهد :

وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...

يعنى : السلطان ، أى هو العظيم المجد ، الذى كل شئ خاضع له ، فقير إليه .

وَهُوَ الْعَزِيزُ ... الذى لا يُغالب ولا يُمانع .

الْحَكِيمُ . فى أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس لا إله إلا هو .

ونلاحظ أن قراءة حفص : رَبُّ السَّمَوَاتِ . بخفض رب ، على أنه صفة للفظ الجلالة أو بدل منه .

وجاء فى تفسير القرطبي ما يأتى :

قرأ مجاهد وحמיד وابن محيصن : رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ . بالرفع فيها كلها على

معنى : هو رب .

وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ . أى : العظمة والجلال والبقاء والسلطان والقدرة والكمال .

خلاصة ما تضمنته سورة الجاثية

- ١ - إقامة الأدلة على وجود الخالق سبحانه .
- ٢ - وعيد من كُذِّبَ بآياته واستكبر عن سماعها .
- ٣ - طلب العفو من المؤمنين عن زلات الكافرين .
- ٤ - الامتنان على بنى إسرائيل بما آتاهم الله من النعم الروحية والمادية .
- ٥ - أمر الله رسوله ألا يطيع المشركين ولا يتبع أهواءهم .
- ٦ - لا يستوى مرتكب السيئات العاصي للرحمان ، وفاعل الحسنات المطيع لله ، فقد اختلفا سلوكًا فى الدنيا، وكذلك الجزاء يوم القيامة من جنس العمل .
- ٧ - التعجب من حال المشركين الذين أضلهم الله على علم .
- ٨ - إنكار المشركين للبعث .
- ٩ - إذا زلزلت جهنم جثت كل أمة على ركبها ، مستوفزة خاشعة خائفة من هول الموقف .
- ١٠ - الاتقياء فى الجنة ، والأشقياء فى النار .
- ١١ - أهوال القيامة ، ومشاهد الكافرين يقرعون باللوم على استهزائهم بالقرآن ، وتكذيبهم بآيات الله .
- ١٢ - فناء المولى على نفسه ، وإثبات الكبرياء والعظمة له سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة الجاثية ، ظهر السبت ٢١ من ربيع الأول ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٤ من يونيو ٢٠٠٠ ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الخامس والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح سعييد فهمي

(١) عجبا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمي (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(٢) في ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٢٤ / ٧ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٤) ألا وإن العربية ليست لكم باب ولا أم :

ذكره الهندي في كنز العمال (٣٧١٣٢) عن مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه حتى أتى به النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام رسول الله ﷺ مغضبا يجر زدهاء حتى دخل المسجد ، ثم نودي : الصلاة جامعة ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «يا أيها الناس ، إن الرب رب واحد ، وإن الأب أب واحد ، وإن الدين دين واحد ، ألا وإن العربية ليست لكم باب ولا أم إنما هي لسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي» ، فقال معاذ وهو أخذ بتلابيبه : يا رسول الله ، ما تقول في هذا المنافق ؟ فقال : «دعه إلى النار» ، قال : فكان فيمن ارتد فقتل في الردة .

(٥) انظر تفسير الألويسي .

(٦) للتفسير الوسيط : المجلد الثالث ، الخبز التاسع والأربعون ، ص ٧٣٨ .

(٧) نقلاً عن : في ظلال القرآن ، المجلد ٥ ص ٣١٤٩ .

(٨) إن الصدقة توضع في يد الله :

رواه البخاري في الزكاة (١٤١٠) وفي التوحيد (٧٤٢٩) ومسلم في الزكاة (١٠١٤) والترمذي في الزكاة (٦٦١) والنسائي في الزكاة (٢٥٢٥) وابن ماجه في الزكاة (١٨٤٢) والدارمي في الزكاة (١٦٧٥) وأحمد في مسنده (٨١٨١) ، ٨٧٣٨ ، ٩١٤٢ ، ٩٧٣٨ ، ٩٧٣٨ ، ١٠٥٦٢ من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله عز وجل إلا الطيب - إلا أخذها الرحمان عز وجل بهمينه وإن كانت ثمرة فثرو في كف الرحمان حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يرى أحدكم فلو أو فضيله» . واللفظ للنسائي . ورواه أحمد في مسنده (٢٥٦٠٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة كما يربي أحدكم فلو أو فضيله حتى يكون مثل أحد» .

(٩) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم :

رواه البخاري في الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفي التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبداً (٢٨٢٩) والترمذي في صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري . وتماظ لفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ،

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(١٠) أفضل الدعاء الحمد لله:

رواه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٣) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله». وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، وقد روى على بن المديني وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث.

(١١) غير ما قلت أنا والنبون من قبلي لا إله إلا الله.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٥) من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن النبي ﷺ قال: «خير الدعاء دعاء يوم عرفه، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وحماة بن أبي حميد هو محمد بن أبي حميد وهو أبو إبراهيم الأنصاري المديني وليس هو بالقرى عند أهل الحديث.

(١٢) من شغله القرآن وذكرى عن مسألي:

رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٢٦) من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الرب عز وجل: من شغله القرآن وذكرى عن مسألي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وأفضل كلام الله على سائر الكلام فغضل الله على خلقه». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب.

(١٣) انظر تفسير القاسمي، مجلد ٦ ص ١٧٧، دار إحياء التراث العربى، بيروت لبنان.

(١٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب:

رواه البخاري في المرضى باب: ما جاء في كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم في البر والصلوة والآداب، باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها». ورواه البخاري فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياها» ورواه الترمذي في تفسير القرآن باب: ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سِوَا يَجْزِ بِهِ﴾، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: «قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها». هذا حديث حسن غريب.

(١٥) أشد الناس بلاء الأنبياء:

بواب به البخاري في كتاب المرضى، ورواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٨٤)، ١٤٩٧، ١٥٥٨، ١٦١٠، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(١٦) مختصر تفسير ابن كثير للأستاذ محمد علي الصابوني، المجلد الثالث ص ٢٧٩.

(١٧) ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٦٠) وفى الأدب (٦١٢٦) وفى الحدود (٦٧٨٦ ، ٦٨٥٣) ومسلم فى الفضائل (٢٣٢٧) من حديث عائشة رضی الله عنها أنها قالت : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها .

(١٨) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بغو :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨) ، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩) ، وأحمد (٧١٦٥ ، ٨٧٨٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٩) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بغو :

انظر ما قبله .

(٢٠) يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى .

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤ / ٥) ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(٢١) المستبان ما قال :

رواه مسلم فى البر (٢٥٨٧) وأبو داود فى الأدب (٤٨٩٤) والترمذى فى البر (١٩٨١) وأحمد فى مسنده (٧١٦٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «المستبان ما قالاً فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» .

(٢٢) عجباً لأمر المؤمن :

سبق تخريجه ، انظر هامش (١) .

(٢٣) إن روح القدس نفث فى روعى :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٢٢٧٣) بلفظ : «إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ، وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالى لا يبال ما عنده إلا بطاعته» . للتخريج (مفصلاً) : أبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة . تصحيح السيوطى : ضعيف .

(٢٤) أحياناً يأتى مثل صلصلة الجرس :

رواه البخارى فى بدء الوعى (٢) وفى بدء الخلق (٣٢١٥) ومسلم فى الفضائل (٢٣٣٣) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٤) والنسائى فى الافتتاح (٩٤٣ ، ٩٣٣) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) ومالك فى الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة وانظر كتاب علوم الدين الإسلامى للدكتور عبد الله شحاتة ، وفى أوله موضوع (الوحي والقرآن) .

(٢٥) ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب :

رواه الترمذى فى التفسير (٣٠١٠) من حديث جابر بن عبد الله قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال لى : «يا جابر ما لى أراك منكسراً» ؟ قلت : يا رسول الله استشهد أبى قتل يوم أحد وترك عيالا ودينا ، قال : «أفلا أبشرك بما لى الله به أباك» ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : «ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وأحيا أباك فكلمه ككافحا ، فقال : يا عبدى تمن على أعطك ، قال : يا رب تحيينى فأقتل فيك ثانية ، قال الرب عز وجل : إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون» . قال : وأنزلت هذه الآية : ﴿ولا تحسن الدين قلوا فى سبيل الله أموالكم﴾ الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٢٦) من المراجع المتصرة فى علوم القرآن :

كتاب : البرهان فى علوم القرآن لجبر الدين الزركشى .

كتاب : الإبتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى .

كتاب : مناهل العرفان فى علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقانى .

كتاب : علوم القرآن للدكتور عبد الله شحاتة .

كتاب : مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح .

كتاب : مباحث فى علم القرآن لمناع القطان .

ونلاحظ أن معظم كتب التفسير الأساسية كانت تكتب مقدمة طويلة عن علوم القرآن ، مثل تفسير ابن جرير الطبرى فقد بدأ تفسيره بمقدمة عن نزول القرآن على سبعة أحرف ، وعن المكي والمدنى ، وغير ذلك من مباحث علوم القرآن ، وتجيد مثل ذلك فى تفسيرات : القرطبى ، وابن كثير ، والمنار ، وفى ظلال القرآن ، وتفسير القرآن الكريم للدكتور عبد الله شحاتة ، رزقنا الله الإخلاص والقبول والتوفيق والسداد ، اللهم آمين .

(٢٧) اللهم رب السموات السبع :

رواه الترمذى فى الدعوات (٢٥٢٣) من حديث بريدة قال : شكّا خالد بن الوليد المخزومى إلى النبی ﷺ فقال : يا رسول الله ما أنا من الليل من الأرق فقال النبی ﷺ : «إذا أويت إلى فراشك قل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ورب الأرضين وما أقلت ورب السحابين وما أضلت كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا أن يغرط على أحد منهم أو أن يبغي ، عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك لا إله إلا أنت» . قال أبو عيسى : هذا حديث ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث ويروى هذا الحديث عن النبی ﷺ مرسلا من غير هذا الوجه .

(٢٨) بصائر نوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢١ ، مع تعديل يسير .

(٢٩) أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، والإمام أحمد ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى ، ٢٨٦/٣ .

(٣٠) إن كاد ليلسم :

رواه مسلم فى الشعر (٢٢٥٥) وأحمد فى مسنده (١٨٩٦٣) من حديث عمرو بن الشريد يحدث عن أبيه قال : استنشدنى رسول الله ﷺ من شعر أمية بن أبى الصلت فأنشدته ، فكلما أنشدته بيتا قال : «هى» ، حتى أنشدته مائة قافية ، فقال : «إن كاد ليلسم» .

(٣١) لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة :

رواه الترمذى (٢٣٢٠) وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد وقال : هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه . ولفظ الترمذى : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً...» الحديث . ولفظه عند ابن ماجه : «والذى نفسى بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل...» الحديث . قال السيوطى فى زيادة الجامع فى تخريج الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث سهل بن سعد وضعفه الذهبى . قال المناوى فى الغيض : قال الترمذى صحيح غريب ، وليس كما قال ففيه عبد الحميد بن سليمان أورده فى الضعفاء ، وقال أبو داود غير ثقة ، ورواه ابن ماجه أيضاً وفيه عنده زكريا بن منظور قال الذهبى فى الضعفاء : منكر الحديث ، ورواه عنه الحاكم أيضاً وصححه فردّه الذهبى بأن زكريا بن منظور ضعفوه . وقال فى موضع آخر : ولتعدد هذه الطرق رمز المؤلف لحسنه .

(٣٢) أفى شك أت يا ابن الخطاب :

هذا اللفظ جزء من حديث الإيلاء ، رواه مسلم فى الطلاق (١٤٧٩) ، والترمذى فى التفسير (٣٣١٨) من حديث ابن عباس .

(٣٣) هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٣١) وأبو داود فى الأشربة (٢٧٢٣) والترمذى فى الأشربة (١٨٧٨) وابن ماجه فى الأشربة (٣٤١٤) (٢٢٨٤٨) من حديث حذيفة .

(٣٤) إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم :

رواه البخارى فى الاعتكاف (٢٠٣٩ ، ٢٠٣٨) وفى بدء الخلق (٣٢٨١) وفى الأحكام (٧١٧١) ومسلم فى السلام (٢١٧٥) وأبو داود فى الصوم (٢٤٧٠) وفى الأدب (٤٩٩٤) وابن ماجه فى الصيام (١٧٧٩) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٢٢) من حديث على بن الحسين ومن حديث صفية كان النبى ﷺ فى المسجد وعنده أزواجه فرحن ، فقال لصفية بنت حبي : «لا تعجلى حتى أنصرفت معك» ، وكان يبتها فى دار أسامة فخرج النبى ﷺ معها فلقىه رجلان من الأنصار فنظرا إلى النبى ﷺ ثم أجازا فقال لهما النبى ﷺ : «تعاليا إنها صفية بنت حبي» ، قالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يلقى فى أنفسكما شيئا» . ورواه مسلم فى السلام (٢١٧٤) وأبو داود فى السنة (٤٧١٩) وأحمد فى مسنده (١٢١٨٢) من حديث أنس أن النبى ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه فجاء ، فقال : «يا فلان ، هذه زوجتى فلانة» ، فقال : يا رسول الله من كنت أظن به ، فلم أكن أظن بك ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم» .

(٣٥) ألا وإن العربية ليست لكم بآب ولا أم :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٤)

(٣٦) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق :

رواه أحمد فى مسنده (٨٥٩٥) من حديث أبى هريرة .

(٣٧) وأخرجه أحمد ، والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب .

(٢٨) إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب :

رواه أحمد في مسنده (١٦٨٦٠) من حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال : «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج» ، ثم تلا رسول الله ﷺ : «فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون» . قال المناوي في فيض القدير : قال الهيثمي : رواه الطبراني عن شيخه الوليد بن العباس المصري ، وهو ضعيف . وقال العراقي : إسناده حسن ، وتبعه المؤلف فرمز لحسنه .

(٣٩) قال تعالى : ﴿أَو كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَيْفَ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

(٤٠) الأكمة : الأعمى خلقة .

(٤١) ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم :

رواه البخاري في البيوع (٢٢٢٢) ومسلم في الإيمان (١٥٥) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» .

(٤٢) لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة :

رواه البخاري تعليقاً في الاعتصام ، باب : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة ، ووصله في المناقب (٣٦٤٠) ، وفي الاعتصام (٧٣١١ ، ٧٤٥٩) ، والدارمي (٢٤٣٢) ، وأحمد (١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١) من حديث المغيرة . ورواه مسلم في الإمارة (١٩٢٠) ، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذي في الفتن (٢٢٢٩) ، وابن ماجة في المقدمة (١٠) ، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث ثوبان بن جدد . ورواه البخاري في المناقب (٣٦٤١ ، ٧٤٦٠) ، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧) ، وأحمد (١٦٤٢٩) ، والرحمن ، ورواه أحمد (٢٠٣٤٦ ، ٢٠٣٧٥) من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذي (٢١٩٢) ، وابن ماجة (٦) ، وأحمد (١٥١٧٠ ، ١٩٨٤٩) من حديث قرّة بن إياس . ورواه مسلم في الإيمان (١٥٦) ، وفي الإمارة (١٩٢٣) ، وأحمد (١٤٣١٠) ، (١٤٧٠٧) من حديث جابر . ورواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤) ، وأحمد (١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩) من حديث عمران بن حصين . ورواه أحمد (١٦٥١٧) من حديث سلمة بن نفيل . ورواه أحمد (٢١٨١٦) من حديث صدى بن عجلان . ورواه أحمد (١٨٨٠٤) من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٧) من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٩) من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : قام معاوية ... ورواه أحمد (٢٠٤٢٩) اسم ميم .

(٤٣) أتم أعلم بأمر دنياكم :

رواه مسلم في الفضائل (٢٣٦٣) وأحمد في مسنده (١٢١٣٥) من حديث أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يلحقون ، فقال : «لو لم تغفلوا لصلح» ، قال : فخرج شيعاً فمر بهم فقال : «ما لنخلكم» ؟ قالوا : قلت كذا وكذا ، قال : «أنتم أعلم بأمر دنياكم» .

(٤٤) ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم :

رواه البخارى فى كتاب الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم فى كتاب الفضائل (١٢٣٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٩) والنسائى فى المناقب (٢٦١٩) وابن ماجه فى المقدمة (٢) وأحمد (٧٢٢٠) من حديث أبى هريرة .

(٤٥) فى رواية : يتخولنا بالموعظة ، أى : يعطيها لنا بكميات قليلة ، فترة بعد فترة .

(٤٦) كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة :

رواه البخارى فى العلم (٦٨ ، ٧٠) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٢١) من حديث ابن مسعود قال : كان النبى ﷺ يتخولنا بالموعظة فى الأيام كرامة السامة علينا .

(٤٧) لو أن عبيد نحايا فى الله واحد بالمشرق :

نكره الهندى فى كنز العمال (٢٤٦٦) ونسبه لليبيهقى فى الشعب عن أبى هريرة .

(٤٨) لا تلبسوا الحرير ولا الديباج :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٣٢)

(٤٩) إنكم سترون ربكم :

رواه البخارى فى التفسير (٤٥٨١) ، وفى التوحيد (٧٤٤٠) ، ومسلم فى الإيمان (١٨٣) من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٥٠) يطلب من الله العتبي والمغفرة والتوبة .

(٥١) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحدا عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة فسدوا وقاربوا ولا يطمئنون أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً ، وإما سيئاً فلعله أن يستعذب» .

(٥٢) الحديث أخرجه ابن أبى حاتم .

(٥٣) تفسير أبى السعود .

(٥٤) التفسير المنير أ . د هبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الجزء ٢٥ ص ١٩٦ .

(٥٥) من قرأ حم الدخان :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة غفر له» ، قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، هشام أبو المقدم يضعف ولم يسمع الحسن من أبى هريرة ، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلى بن زيد . ورواه الترمذى أيضاً فى فضائل القرآن (٢٨٨٨) من حديث

أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك». قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وعمر بن أبى خثعم يضعف قال محمد : وهو منكر الحديث ، وفي حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى (١٤٨) : هذا الحديث أخرجه الترمذى وليس موضوعاً .

(٥٦) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ٢٤ / ١٠٥ .

(٥٧) اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف :

رواه البخارى فى الأدب (٦٢٠٠) وفى الدعوات (٦٣٩٣) ومسلم فى المساجد (٦٧٥) وأبو داود فى الصلاة (١٤٤٢) من حديث أبى هريرة قال : لما رفع النبى ﷺ رأسه من الركعة قال : «اللهم أنتج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش ابن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة ، اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» .

(٥٨) العهن : الصوف يصبغ بالدم ، ويشوى ويؤكل لشدة الجوع الذى أصابهم .

(٥٩) رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير :

رواه البخارى فى المغازى (٤٣٣٥) ، وفى الأدب (٦٠٥٩) ، وفى الدعوات (٦٣٣٦) من حديث عبد الله قال : لما قسم النبى ﷺ قسمة حنين قال رجل من الأنصار : ما أراد بها وجه الله ، فأثيت النبى ﷺ فأخبرته فتغير وجهه ثم قال : «رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصير» .

(٦٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٦١) فى ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ، الجزء ٢٥ ص ١١٦ ، طبعة عيسى البابى الحلبي وشركاء .

(٦٢) تفسير القاسمى ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت لبنان ، المجلد ٦ ص ٢١٢ .

(٦٣) فى ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب ، طبعة الحلبي ، جزء ٢٥ ص ١١٦ .

(٦٤) انظر تفسير القرطبي ، المجلد ٧ ص ٦١٥٦ ، وتفسير ابن كثير وغيرهما .

(٦٥) إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٣٧) والترمذى فى التفسير (٣٢٤٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٨٠٥٩) من حديث أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ينادى مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمِ الْجَنَّةَ أَوْ رُضِمُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾» .

(٦٦) يؤتى بالموت على صورة كبش :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٧٣٠) والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٥٦) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يؤتى بالموت كهية كبش أملح ، فينادى مناد : يا أهل الجنة ، فيشرّبون وينظرون

فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأه ثم ينادى : يا أهل النار فيشربون وينظرون فيقول
هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رأه فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار
خلود فلا موت ، ثم قرأ : ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.
ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٧) والدارمي في الرقاق (٢٨١١) وأحمد في مسنده (٧٤٩٣ ، ٨٦٩٨ ، ٩١٨٦) من حديث
أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «يؤتى بالموت بكيش أغبر فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال : يا أهل الجنة ، فيشربون
وينظرون ويقال : يا أهل النار ، فيشربون وينظرون ويرون أن قد جاء الفرج ، فيذبح ويقال : خلود لا موت» .

(٦٧) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٥١)

(٦٨) عله يتقصد الإشارة إلى آيات الله الكونية في نفع العباد في الدنيا ، ثم في عقوبة الكفار في الآخرة .

(٦٩) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٢٦ .

(٧٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبي :

رواه أحمد في مسنده (٢٤٠٨٣) من حديث عائشة قالت : دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها : يا مقلب القلوب
ثبت قلبي على دينك ، قالت : فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال : «إن قلب آدمي بين أصبعين من
أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاعه وإذا شاء أقامه» . ورواه الترمذى في الدعوات (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢٥٩٨٠)
من حديث شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك قالت :
كان أكثر دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالت : فقلت : يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت
قلبي على دينك ؟ قال : «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاع» ،
فتلا معاذ «ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن . ورواه الترمذى في القدر (٢١٤٠) وقال :
حسن ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٤) وأحمد في مسنده (١١٦٩٧) من حديث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن
يقول : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، فقلت : يا رسول الله أمانا بك فيما جنت به فهل تخاف علينا ؟ قال : «نعم
إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء» . قال الترمذى : وحديث أبي سفيان عن أنس أصح . ورواه أحمد
(١٧١٧٨) والحاكم في المستدرک (٢٨٨/٢) من حديث النّوّاس بن سميان الكلّابي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :
«ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمها أقامه وإن شاء أن يزيعها أزاعه» . وكان يقول :
«يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، والميزان بيد الرحمان عز وجل يخفضه ويرفعه» . ورواه الترمذى في الدعوات
(٣٥٨٧) من حديث عاصم بن كليب الجرّمي عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي ، وقد وضع يده
اليمنى على فخذه اليسرى ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه وبسط السبابة ، وهو يقول : «يا مقلب
القلوب ثبت قلبي على دينك» . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه مسلم في القدر (٢٦٥٤) وأحمد
في مسنده (٦٥٣٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول إن قلوب بني آدم كلها
بين أصبعين من أصابع الرحمان كقلب واحد يصرّفه حيث يشاء» ، ثم قال رسول الله ﷺ : «اللهم مصرف القلوب صرف
قلوبنا على طاعتك» .

(٧١) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، جزء ٢٥ ص ١٢٢ . طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(٧٢) تفسير القرطبي ، مجلد ٧ ص ٦١٧٦ ، طبعة دار الفد العربي - العباسية - القاهرة ، وقارن بتفسير مقاتل بن سليمان .
تحقيق د . عبد الله شحاتة ٣ / ٨٤٠ .

(٧٣) الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت :

رواه الترمذی فی صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه فی الزهد (٤٢٦٠) وأحمد فی مسنده (١٦٦٧٤) من حديث شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» . قال : هذا حديث حسن ومعنى قوله : «من دان نفسه» يقول : حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم القيامة ، ويرى عن عمر بن الخطاب قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وتزينوا للعرض الأكبر ، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا ، ويرى عن ميمون بن مهران قال : لا يكون العبد تقيا حتى يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه من أين مطعمه وملبسه .

(٧٤) زبدة التفسير من فتح القدير ، محمد سليمان عبد الله الأشقر ، ص ٦٤٤ طبعة أولى ، على نفقة وزارة الأوقاف - الكويت .

(٧٥) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، المجلد الثالث ص ١٨٨ .

(٧٦) أنت رحمتي أرحم بك من أشاء :

رواه البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ومسلم في الجنة (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «تحتاج الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم ، قال الله تبارك وتعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار : إنما أنت عنابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول : قط قط فهناك تمتلئ ويرى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا» .

(٧٧) أي فل ، ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله هل نرى رينا يوم القيامة ؟ قال : «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة» ؟ قالوا : لا ، قال : «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة» . قالوا : لا ، قال : «فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما» ، قال : «فيلقى العبد فيقول : أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى ، قال : فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثاني فيقول : أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأدرك ترأس وتربع ، فيقول : بلى أي رب ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول : فإنني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول : يا رب أمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت وبئني بخير ما استطاع فيقول هاهنا إذا قال ثم يقال له : الآن تبع شاهدنا عليك ويتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد على فيختم على فيه ويقال لخذ لحمه وعظامه : انطلق ، فتنتطق فخذ لحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعثر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه» .

(٧٨) وفي رواية : «فمن نازعني فيها قصمته ولا أبالي» . والحديث في صحيح مسلم .

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهامش
الجزء (الخامس والعشرين)

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان...﴾	٤٩٥٣
١٨	﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها...﴾	٤٩٥٣
١٩	﴿الله لطيف بعباده يرزق من يشاء...﴾	٤٩٥٣
٢٠	﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه...﴾	٤٩٥٣
٢١	﴿ألم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله...﴾	٤٩٥٦
٢٢	﴿ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم...﴾	٤٩٥٦
٢٣	﴿ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا...﴾	٤٩٥٦
٢٤	﴿ألم يقولون افترى على الله كذباً...﴾	٤٩٦٠
٢٥	﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده...﴾	٤٩٦٠
٢٦	﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾	٤٩٦٠
٢٧	﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض...﴾	٤٩٦٢
٢٨	﴿وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا...﴾	٤٩٦٢
٢٩	﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض...﴾	٤٩٦٢
٣٠	﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم...﴾	٤٩٦٢
٣١	﴿وما أنتم بمعجزين فى الأرض...﴾	٤٩٦٢
٣٢	﴿ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام...﴾	٤٩٦٢
٣٣	﴿إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره...﴾	٤٩٦٢
٣٤	﴿أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير...﴾	٤٩٦٢
٣٥	﴿ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص...﴾	٤٩٦٢
٣٦	﴿فما أوتيتهم من شئ فمتاع الحياة الدنيا...﴾	٤٩٦٨
٣٧	﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش...﴾	٤٩٦٨
٣٨	﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة...﴾	٤٩٦٨
٣٩	﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون...﴾	٤٩٦٨
٤٠	﴿وجزاء سيئة سيئة مثلاً لهما...﴾	٤٩٦٨
٤١	﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل...﴾	٤٩٦٨
٤٢	﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس...﴾	٤٩٦٨
٤٣	﴿ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور...﴾	٤٩٦٨
٤٤	﴿ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده...﴾	٤٩٧٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل...﴾	٩٧٥
٤٦	﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله...﴾	٩٧٥
٤٧	﴿استجبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله...﴾	٩٧٥
٤٨	﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيزاً...﴾	٩٧٥
٤٩	﴿إليه ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء...﴾	٩٧٩
٥٠	﴿أو يزوجهم نكراناً وإنثائاً...﴾	٩٧٩
٥١	﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب...﴾	٩٧٩
٥٢	﴿وكنذلك أوحيناً إليك روحاً من أمرنا...﴾	٩٧٩
٥٣	﴿صرط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض...﴾	٩٧٩
-	خلاصة ما تضمنته سورة الشورى .	٩٨٦
-	تفسير سورة الزخرف .	٩٨٧
-	أهداف سورة الزخرف .	٩٨٨
١	﴿حـــم	٩٩٢
٢	﴿والكتاب المبين	٩٩٢
٣	﴿إنما جعلناه قرآناً عريباً لعلمكم تعقلون	٩٩٢
٤	﴿وانه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم	٩٩٢
٥	﴿أنفض رب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين	٩٩٢
٦	﴿ركم أرسلنا من نبى فى الأولين	٩٩٢
٧	﴿وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون	٩٩٢
٨	﴿فما لكنا أشد منهجاً بطشاً ومضى مثل الأولين	٩٩٢
٩	﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض...﴾	٩٩٦
١٠	﴿الذى جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً...﴾	٩٩٦
١١	﴿والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا...﴾	٩٩٦
١٢	﴿والذى خلق الأزواج كلها...﴾	٩٩٦
١٣	﴿ليستويوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربيكم...﴾	٩٩٦
١٤	﴿وانا إلى ربنا لمنفليون	٩٩٦
١٥	﴿وجعلوا لله من عباده جزءاً...﴾	٥٠٠
١٦.	﴿ثم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين	٥٠٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿وَإِذَا بَشَّرْ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا...﴾	٥٠٠٠
١٨	﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ...﴾	٥٠٠٠
١٩	﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا...﴾	٥٠٠٠
٢٠	﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾	٥٠٠٠
٢١	﴿أَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ...﴾	٥٠٠٠
٢٢	﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ...﴾	٥٠٠٠
٢٣	﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ...﴾	٥٠٠٠
٢٤	﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ...﴾	٥٠٠٠
٢٥	﴿فَنَانْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ...﴾	٥٠٠٠
٢٦	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ...﴾	٥٠٠٨
٢٧	﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيُهِدِينِ...﴾	٥٠٠٨
٢٨	﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ...﴾	٥٠٠٨
٢٩	﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ...﴾	٥٠٠٨
٣٠	﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ...﴾	٥٠٠٨
٣١	﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ...﴾	٥٠٠٨
٣٢	﴿أَفَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ...﴾	٥٠٠٨
٣٣	﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾	٥٠٠٨
٣٤	﴿وَلِيُبَيِّنَ لَهُمْ آيَاتِهِمْ وَسُرَرَاءَ عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ...﴾	٥٠٠٨
٣٥	﴿وَيُخَوِّفُونَ إِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾	٥٠٠٨
٣٦	﴿وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا...﴾	٥٠١٥
٣٧	﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ...﴾	٥٠١٥
٣٨	﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ...﴾	٥٠١٥
٣٩	﴿وَأَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ...﴾	٥٠١٥
٤٠	﴿أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّعْصَاعَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى...﴾	٥٠١٥
٤١	﴿فَإِنَّمَا نَذِيرُكَ بِمَا كُنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمِينَ...﴾	٥٠١٥
٤٢	﴿أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ...﴾	٥٠١٥
٤٣	﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ...﴾	٥٠١٥
٤٤	﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ...﴾	٥٠١٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٥	﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا...﴾	٥١٥
٤٦	﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه...﴾	٥٢١
٤٧	﴿فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون...﴾	٥٢١
٤٨	﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها...﴾	٥٢١
٤٩	﴿وقالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك...﴾	٥٢١
٥٠	﴿فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكتون...﴾	٥٢١
٥١	﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر...﴾	٥٢١
٥٢	﴿أم أنا خير من هذا الذى هو مهين...﴾	٥٢١
٥٣	﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب...﴾	٥٢١
٥٤	﴿فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوم سوء فاسقين...﴾	٥٢١
٥٥	﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين...﴾	٥٢١
٥٦	﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين...﴾	٥٢١
٥٧	﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون...﴾	٥٢٧
٥٨	﴿وقالوا آللهتنا خير أم هو...﴾	٥٢٧
٥٩	﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً...﴾	٥٢٧
٦٠	﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون...﴾	٥٢٧
٦١	﴿وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون...﴾	٥٢٧
٦٢	﴿ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين...﴾	٥٢٧
٦٣	﴿ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة...﴾	٥٢٧
٦٤	﴿إن الله هورىى وربكم فاعبدوه...﴾	٥٢٧
٦٥	﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا...﴾	٥٢٧
٦٦	﴿هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة...﴾	٥٢٧
٦٧	﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين...﴾	٥٣٥
٦٨	﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون...﴾	٥٣٥
٦٩	﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين...﴾	٥٣٥
٧٠	﴿ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون...﴾	٥٣٥
٧١	﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب...﴾	٥٣٥
٧٢	﴿وتلك الجنة التى أوردتموها بما كنتم تعملون...﴾	٥٣٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٣	﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾	٥٠٣٥
٧٤	﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾	٥٠٣٩
٧٥	﴿لَا يَفْتَرِعْنَهُمْ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مِبْلَسُونَ﴾	٥٠٣٩
٧٦	﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾	٥٠٣٩
٧٧	﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكَ...﴾	٥٠٣٩
٧٨	﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾	٥٠٣٩
٧٩	﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَآلَنَّا مَبْرُمُونَ﴾	٥٠٣٩
٨٠	﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرْعَمَ وَنَجْوَاهُمْ...﴾	٥٠٣٩
٨١	﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾	٥٠٤٢
٨٢	﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	٥٠٤٢
٨٣	﴿فَذَرِهِمْ يَخْوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ...﴾	٥٠٤٢
٨٤	﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ...﴾	٥٠٤٢
٨٥	﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا...﴾	٥٠٤٢
٨٦	﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ...﴾	٥٠٤٢
٨٧	﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾	٥٠٤٢
٨٨	﴿وَقِيلَ لَهُ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٥٠٤٢
٨٩	﴿فَنَاصِفْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾	٥٠٤٢
—	خلاصة ما تضمنته سورة الزخرف	٥٠٤٧
—	تفسير سورة الدخان	٥٠٤٩
—	أهداف سورة الدخان	٥٠٥٠
١	﴿ح—﴾	٥٠٥٣
٢	﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾	٥٠٥٣
٣	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾	٥٠٥٣
٤	﴿فِيهَا يَفْزُقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾	٥٠٥٣
٥	﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾	٥٠٥٣
٦	﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	٥٠٥٣
٧	﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾	٥٠٥٣
٨	﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾	٥٠٥٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٩	﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾	٥٠٥٣
١٠	﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾	٥٠٥٧
١١	﴿يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	٥٠٥٧
١٢	﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾	٥٠٥٧
١٣	﴿إِنِّى لَهُمُ الذَّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾	٥٠٥٧
١٤	﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا مُجْنُونَ﴾	٥٠٥٧
١٥	﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾	٥٠٥٧
١٦	﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾	٥٠٥٧
١٧	﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾	٥٠٦١
١٨	﴿أَن أَدْأُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّى لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾	٥٠٦١
١٩	﴿وَأَن لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾	٥٠٦١
٢٠	﴿وَإِنِّى عَذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجِمُون﴾	٥٠٦١
٢١	﴿وَإِن لَّمْ تَؤْمِنُوا لِى فَاعْتِزِلُون﴾	٥٠٦١
٢٢	﴿فَدَعَا رَبِّهٖ أَن هُوَّلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾	٥٠٦١
٢٣	﴿فَأَسْرَبْعَبَادَى لِّىلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾	٥٠٦١
٢٤	﴿وَاتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾	٥٠٦١
٢٥	﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾	٥٠٦١
٢٦	﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾	٥٠٦١
٢٧	﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ﴾	٥٠٦١
٢٨	﴿كَذٰلِكَ وَأُورِثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾	٥٠٦١
٢٩	﴿فَمَا يَكْتُ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾	٥٠٦١
٣٠	﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنَى إِسْرَآئِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾	٥٠٦٩
٣١	﴿مَنْ فِرْعَوْنُ إِنَّهٗ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾	٥٠٦٩
٣٢	﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾	٥٠٦٩
٣٣	﴿وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهٖ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾	٥٠٦٩
٣٤	﴿إِن هُوَ إِلَّا مَوْتٌ لَّى يَنتَظِرُونَ﴾	٥٠٧٢
٣٥	﴿إِن هِىَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾	٥٠٧٢
٣٦	﴿فَنَآتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	٥٠٧٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٧	﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم...﴾	٥٠٧٢
٣٨	﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين﴾	٥٠٧٢
٣٩	﴿ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾	٥٠٧٢
٤٠	﴿إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين﴾	٥٠٧٢
٤١	﴿يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون﴾	٥٠٧٢
٤٢	﴿إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾	٥٠٧٢
٤٣	﴿إن شجرة الزقوم﴾	٥٠٧٦
٤٤	﴿طعام الأثيم﴾	٥٠٧٦
٤٥	﴿كالمهل يغلَى في البطون﴾	٥٠٧٦
٤٦	﴿كغلاى الحميم﴾	٥٠٧٦
٤٧	﴿خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم﴾	٥٠٧٦
٤٨	﴿ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم﴾	٥٠٧٦
٤٩	﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾	٥٠٧٦
٥٠	﴿إن هذا ما كنتم به تمترون﴾	٥٠٧٦
٥١	﴿إن المتقين فى مقام أمين﴾	٥٠٧٦
٥٢	﴿فى جنات وعيون﴾	٥٠٧٦
٥٣	﴿يلبسون من سندس واستبرق متقابلين﴾	٥٠٧٦
٥٤	﴿كذلك وزوجناهم بحور عين﴾	٥٠٧٦
٥٥	﴿يدعون فيها بكل فاكهة آمنين﴾	٥٠٧٦
٥٦	﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى...﴾	٥٠٧٦
٥٧	﴿فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم﴾	٥٠٧٦
٥٨	﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾	٥٠٧٦
٥٩	﴿فارتقب إنهم مرتقبون﴾	٥٠٧٦
-	خلاصة ما تضمنته سورة الدخان .	٥٠٨١
-	تفسير سورة الجاثية .	٥٠٨٣
-	أهداف سورة الجاثية .	٥٠٨٤
١	﴿—————﴾	٥٠٨٨
٢	﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾	٥٠٨٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣	﴿إِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾	٥٠٨٨
٤	﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠٨٨
٥	﴿وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ...﴾	٥٠٨٨
٦	﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ...﴾	٥٠٩٠
٧	﴿وَيَسِّرْ لَكَ كُلَّ امْرَأَةٍ أَنْ تُسَمِّيَ﴾	٥٠٩٠
٨	﴿يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَنَلِّي عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا...﴾	٥٠٩٠
٩	﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا...﴾	٥٠٩٠
١٠	﴿وَمَنْ وَرَآهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا...﴾	٥٠٩٠
١١	﴿هَذَا هَدَىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ...﴾	٥٠٩٠
١٢	﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ...﴾	٥٠٩٢
١٣	﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ...﴾	٥٠٩٢
١٤	﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ...﴾	٥٠٩٢
١٥	﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...﴾	٥٠٩٢
١٦	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾	٥٠٩٥
١٧	﴿وَأَتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ...﴾	٥٠٩٥
١٨	﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا...﴾	٥٠٩٥
١٩	﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا...﴾	٥٠٩٥
٢٠	﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾	٥٠٩٥
٢١	﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ...﴾	٥٠٩٨
٢٢	﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾	٥٠٩٨
٢٣	﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...﴾	٥٠٩٨
٢٤	﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾	٥١٠٢
٢٥	﴿وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيْنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا...﴾	٥١٠٢
٢٦	﴿قُلْ اللَّهُ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾	٥١٠٢
٢٧	﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ...﴾	٥١٠٢
٢٨	﴿وَتُرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا...﴾	٥١٠٢
٢٩	﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ...﴾	٥١٠٢
٣٠	﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ...﴾	٥١٠٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣١	﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ...﴾	٥١٠٧
٣٢	﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا...﴾	٥١٠٧
٣٣	﴿وَيَذَأْلَهُمْ سِنِينَ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾	٥١٠٧
٣٤	﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا...﴾	٥١٠٧
٣٥	﴿ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾	٥١٠٧
٣٦	﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٥١٠٧
٣٧	﴿وَلِلَّهِ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾	٥١٠٧
—	خلاصة ما تضمنته سورة الجاثية	٥١١٢
—	تخريج أحاديث وهوامش	٥١١٣
—	فهرس موضوعات	٥١٢٥

تم بحمد الله الجزء (الخامس والعشرون)

ويليه الجزء (السادس والعشرون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء السادس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



A decorative frame with a scalloped, cloud-like border surrounding the title text.

تفسير سورة الأحقاف

أهداف سورة الأحقاف

سورة الأحقاف مكية ، وآياتها ٣٥ آية ، نزلت بعد سورة الجاثية .

سورة الإيمان والتوحيد

تعرض سورة الأحقاف قضية الإيمان بوحداية الله ، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان فى الحياة الدنيا من عمل وكسب ، ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التى يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عالجه القرآن فى كل سورة المكية علاجاً أساسياً . وظل يتكئ عليها كذلك فى سورة المدنية كلما هم بتوجيهه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية ، ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحداية الله سبحانه ، وبعثة محمد ﷺ ، والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء هى المحور الذى تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ، فتبقى حية حارة تبعث من التأثر الدائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ، وتوقع فيها على كل وتر ، وتعرضها فى مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية ، كما أنها تجعلها قضية الوجود كله - لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفاً من قصة الجن مع هذا القرآن ، كما تذكر موقف بعض بنى إسرائيل منه ، وتقيم من الفطرة الصادقة شاهداً ، كما تقيم من بعض بنى إسرائيل شاهداً سواء بسواء .

ثم هى تطوف بتلك القلوب فى آفاق السماوات والأرض ، وفى مشاهد القيامة فى الآخرة ، كما تطوف بهم فى مصرع قوم هود وفى مصارع القرى حول مكة ، وتجعل من السماوات والأرض كتباً تنطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

أربعة مقاطع

تشتمل سورة الأحقاف على أربعة عناصر متماسكة كأنها عنصر واحد ذو أربعة مقاطع :

١ - نقاش المشركين :

يبدأ المقطع الأول بالحرثين (حا . ميم) . وهى بداية تكررت فى ست سور سابقة تسمى بالحواميم . وهى : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والسورة السابعة هى الأحقاف .

ونلاحظ أن هذه السور السبع تبدأ بالحرفين (حا . ميم) ، ثم تعقب بذكر الكتاب ، مما يؤيد أن هذه الأحرف نزلت على سبيل التحدى لأهل مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

وتشير سورة الأحقاف فى بدايتها إلى القرآن فنقول : تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . (الأحقاف : ٢) .
وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون وقيامه على الحق وعلى التقدير والتدبير : مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ... (الأحقاف : ٣) . فيتوافق كتاب القرآن المثلو ، وكتاب الكون المنظور ، على الحق والتقدير .

ويعد هذا الافتتاح القوى الجامع يأخذ فى عرض قضية العقيدة مبتدئاً بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذى لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ولا مأثور من العلم . ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذى جاءهم به محمد رسول الله ﷺ : وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . (الأحقاف : ٧) .

ثم يسوق إنكارهم للحق وتطاولهم على الوحي ، واتهامهم النبى بالكذب والافتراء . ويرد عليهم بأن الأمر أجل من مقولاتهم الهازلة ، وإدعاءاتهم العابثة ، إذ هو أمر الله العليم الخبير ، يشهد ويقضى ، وفى شهادته وقضائه الكفاية : أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَسُلَهُ فُلٌ إِنْ أَفَرَقْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الأحقاف : ٨) .

ثم يبين أن محمداً ليس بدعا من الرسل فقد سبقه رسل كثيرون ، فهو مبلغ عن الله وملقزم بوحي السماء ، ويسوق حجة أخرى على صدق رسالته ، تتمثل فى موقف بعض من اهتدى للحق من بنى إسرائيل ، حينما رأى فى القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى عليه السلام . ويستطرد فى عرض تعللاتهم ومعاذيرهم الواهية على هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ... (الأحقاف : ١١) .

ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهنته : وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَزِيزٍ لِّبَدِّ الْأَلْدِينَ ظَلُمُوا وُشْرُوا لِلْمُحْسِنِينَ . (الأحقاف : ١٢) .

وفى نهاية المقطع الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التى يحملها إليهم القرآن الكريم بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْزَعُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (الأحقاف : ١٣) . فقد آمنوا بالله وأعلنوا ذلك ، واستقاموا على منهج الإيمان فاستحقوا حياة كريمة فى الدنيا ، ونعيمًا خالدًا فى الأخرى .

٢ - الفطرة السليمة والفطرة السقيمة :

يحتوى المقطع الثانى على ست آيات هى الآيات (١٥ - ٢٠) ، وفيها حديث عن الفطرة فى استقامتها وفى انحرافها ، وفيما تنتهى إليه حين تستقيم وما تنتهى إليه حين تنحرف .

يبدأ بالوصية بالوالدين ، وكثيراً ما ترد الوصية بالوالدين لاحقة للكلام عن العقيدة ، لبيان أهمية الأسرة والعمل على ترابطها ، وتذكير الإنسان بأصل نعمته ورعايته .

وتذكرنا الآيات بجهود الأم وفضلها فى الحمل والولادة والرضاع .

«إن البويضة بمجرد تلقحها بالخلية المنوية ، تسعى للاتصاق بجدار الرحم وهى مزودة بخاصية أكالة ، تمرق جدار الرحم الذى تلتصق به وتأكله ، فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة دائماً فى بركة من دم الأم الغنى بكل ما فى جسمها من خلاصات ، وتمتصه لتحيا به وتنمو ، وهى دائمة الأكلان لجدار الرحم ، دائمة الامتصاص لمادة الحياة ، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دمًا نقيًا غنيًا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكل .

وفى فترة تكوين عظام الجنين يشد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير ، ذلك أنها تعطى مطول عظامها فى الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ، وهذا كله قليل من كثير .

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف فى وجه الفطرة ، ولا تنسى الأم حلاوة الثمرة ، ثمرة تلبية الفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تفيض وتمتد بينما هى تذوى وتموت .

ثم الرضاع والرعاية ، حيث تعطى الأم عصارة لحمها وعظمها فى اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها فى الرعاية ، وهى مع هذا وذاك فرحة سعيدة رحيمة ودود ، لا تمل أبداً ، ولا تراها كارهة لتعب هذا الوليد ، وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد»^(١) .

وقد تكررت وصية القرآن للأبناء ببر الآباء ، لأن الوالدين قدما كل شيء ، كالنبتة التى ينمو بها النبات فإذا هى قشة ، وكالبويضة التى ينمو منها الكتكتوت فإذا هى قشرة .

ومن الواجب رد الجميل والعرفان بالفضل لأهله ، وأن يحسن الإنسان إلى أصله وأن يدعو لهما ، وهو نوع من تكافل الأجيال ، قال تعالى : **وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ** . (الأحقاف : ١٥) .

وهذا النموذج الذى نشاهده فى الآية ، نموذج للفطرة المستقيمة التى ترعى أصلها وتتعهد ذريتها ، وهذا النموذج يقبل الله عمله ويحشره فى أصحاب الجنة .

أما النموذج الثانى فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال ، نموذج ولد عاق يجحد معروف والديه ، وينكر البعث والجزاء ويقول : مَا هَلَّا إِلَّا أَطْطِيرُ الْأَوَّيْنَ . (الأحقاف : ١٧) .

وهذا النموذج جدير بالخسران ، لقد خسر اليقين والإيمان فى الدنيا ، ثم خسر النعيم والرضوان فى الآخرة .

وينتهى هذا المقطع من السورة بعرض هذين النموذجين ومصيرهما فى النهاية ، ثم يعرض مشهداً من مشاهد القيامة حيث يُعرض المتكبرون على النار ، وفى ذلك المشهد نرى الغائب شاهداً ماثلاً يستحث النفوس على الهدى ، ويستجيش الفطر السليمة القوية لارتياك الطريق الواصل للمأمون .

٣ - قصة عاد :

يتناول المقطع الثالث من السورة قصة عاد ، وهم قوم نبي الله هود ، ويشمل الآيات (٢٠ - ٢٨) . والقصة هنا تخدم الفكرة وتؤيدها ، فقد أنكر أهل مكة رسالة النبي محمد ، وأعرضوا عن دعوته ، فجاء هذا المقطع يذكرهم بأشباهم وينذرهم أن يصيبهم ما أصاب السابقين .

وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ... (الأحقاف : ٢١) . وأخو عاد هو هود عليه السلام ، دعا قومه إلى التوحيد وحذرهم من عذاب الله .

والأحقاف جمع جحف ، وهو الكتيب المرتفع من الرمال ، وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة فى جنوب الجزيرة ، ويقال إنها كانت فى حضرموت .

وقد أنذر أخو عاد قومه ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وحذرهم بطشه وانتقامه ، ولم تؤمن عاد برسالة هود وقابلت دعوته بسوء الظن وعدم الفهم والتحدى والاستهزاء ، واستعجال العذاب الذى ينذرهم به ، فلما رأوا العذاب فى صورة سحابة ظنوه مطراً مفيداً لهم : فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا غَارِضٌ مُّطَرِّئُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَكُنُّرُ كُلِّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . (الأحقاف : ٢٤ ، ٢٥) .

وتقول الروايات إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف ، ثم ساق الله إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً ، وخرجوا يستقبلونها فى الأودية وهم

يحسبون فيها الماء: قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ... وجاءهم الرد بلسان الواقع: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِرِيحٍ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ... وهى الريح الصرصر العاتية التى ذكرت فى سورة أخرى كما جاء فى صفتها: مَا تَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ . (الذاريات: ٤٢) .

لقد اندفعت الريح تحقق أمر الله وتدمر كل شىء بأمر الله ، فهلك القوم بجميع ما يملكون من أنعام ومتاع وأشياء ، وبقيت مساكنهم خالية موحشة لا ديار فيها ولا نافع نار .

ويلتفت السياق إلى أهل مكة يلمس قلوبهم ، ويحرك وجدانهم ، ويذكرهم بأن الهالكين كانوا أكثر منهم تمكناً فى الأرض ، وأكثر مالا ومتاعاً وقوة وعلماً ، فلم تغن عنهم قدرتهم ولا قوتهم ، ولم يغن عنهم ثراؤهم ، ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم ، بل أغلقوا قلوبهم عن سماع الحق ، ولم تغن عنهم ألهتهم التى اتخذوها تقريباً إلى الله .

وكذلك يقف المشركون فى مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ، فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم ، ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل ، خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذى لا يتغير ، وخط السُّنة الإلهية التى لا تتحول ولا تتبدل ، وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ممتدة الفروع ضاربة فى أعماق الزمان ، واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

لقد أهلك الله القرى التى كذبت رسلها فى الجزيرة ، كعاد بالأحقاف فى جنوب الجزيرة ، وثمود بالبحجن فى شمالها ، وسبأ وكانت باليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم إلى الشام ، وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يَمرون بها فى رحلة الصيف إلى الشمال .

وقد نُوِّعَ الله فى آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون إلى رشدهم .

قال تعالى: وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (الأحقاف: ٢٧) .

٤ - إيمان الجن :

يتناول المقطع الرابع الحديث عن إيمان الجن ، ويشمل الآيات الأخيرة من سورة الأحقاف .

وقد تحدث القرآن عن الجن فذكر أن أصلهم من نار ، وأن منهم الصالحين ومنهم الظالمين ، وأن لهم تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر فى قبائل وأجناس ، وأن لهم قدرة على الحياة على هذا الكوكب الأرضى ، ولهم قدرة على الحياة خارج هذا الكوكب ، وللجن قدرة على التأثير فى إدراك البشر ، والإيعاز البشر ، قال تعالى: قُلْ أَغْوَدُ بِرَبِّ آتَاسٍ * مَلِكِ آتَاسٍ * إِلَهُ آتَاسٍ * مِنْ شَرِّ آتَاسٍ آتَاسٍ * الَّذِى يُوسُّسُ

فِي صُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . (الناس : ١ - ٦) . ومن خصائص الجن أن يرى الناس ولا يراه الناس ، لقوله تعالى عن إبليس وهو من الجن : إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... (الأعراف : ٢٧) .

وقد تحدثت الآيات الأخيرة من السورة عن إيمان الجن الذين استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم إلى الله ، ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال .

وهذا الأمر في ظاهره الخبر عن إيمان الجن ، ومع ذلك فهو يصور أثر هذا القرآن في القلوب ، فعندما سمعت الجن تلاوة القرآن قالوا : أنصتوا ، وعندما تأثرت قلوبهم انطلقوا إلى قومهم يتحدثون عن القرآن والإيمان ، ويعرضون دعوة الإسلام على قومهم ، ويفضل القرآن صاروا دعاة ملك القرآن عليهم نفوسهم ، فانطلقوا يحملون الهداية والرحمة لقومهم ، ثم يتحدثون عن الصلة الوثيقة بين القرآن والتوراة ، وبين محمد وموسى ، فالجميع من عند الله لهداية خلق الله : قَالُوا يُنْفِئُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . (الأحقاف : ٣٠) .

وهذا القول من الجن يفيد ما بين الرسل جميعاً من آصرة الأخوة ، فربهم واحد ، ودعوتهم واحدة ، وفكرتهم أساسها هداية الناس ومحاربة الرذائل ، والتعاون على الخير والمعروف ، والعداء بين الأديان إنما جاء من سوء الفهم أو من تحريف الإنسان للوحي .

كذلك ورد على لسان الجن إشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق السماوات والأرض ، الشاهدة لقدرته على الإحياء والبعث ، وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون .

وبمناسبة البعث يعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة يبدو فيه الكفار وهم يعترفون بالإيمان ، بعد أن كانوا ينكرونه في الدنيا ثم يقال لهم :

فَلَوْ قُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . (الأحقاف : ٣٤) .

وفى ختام السورة توجيه لرسول الله ﷺ بالصبر والمصابرة ، فإنها طريق الرسل ، وما ينبغي للدعاة إلا الصبر والاحتمال .

مقصود السورة إجمالاً

قال الفيروزبادي :

إن معظم مقصود سورة الأحقاف هو : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والإخبار عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيـد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشادة بإهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة^(١) ، واستقلال لبث الـلابـثين في قوله : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ تُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ . (الأحقاف : ٣٥) .

وحدانية الخالق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ٢ مَخْلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ٣ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ٤ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُوْنِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ٥ أَتُنْفِئُونَ كِتَابِي مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرُهُ مِنْ عِلْمِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٦ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ٧ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ٨﴾

المفردات :

حَمْدٌ ، تقرأ (حاً ميم) ، وهما حرفان من حروف المعجم للتنبية ، أو للتحدى والإعجاز ، كما سبق في أول سورة البقرة .

وَأَجَلٍ مُّسَمًّى : هو يوم القيامة .

أُنذِرُوا : خُوفُوا .

مُعْرِضُونَ : مدبرون ، لاهون .

أَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

لَهُمْ شِرْكٌ : شركة ونصيب .

أَثَارُهُ مِنْ عِلْمٍ : بقية من علم .

حُشِرَ : جمع .

كَافِرِينَ : مكذّبين .

تمهيد :

بدأ الله هذه السورة بمثل ما بدأ به سورة الجاثية ، وأتبع ذلك ببيان أنه سبحانه خلق السماوات والأرض بالحق والعدل ، ولوقت معين ينتهى فيه عمر هذا الكون : **يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** . (إبراهيم : ٤٨) .

ومن الحق أن يُكافأ المحسن ، وأن يُعاقب المسيء فى الآخرة ، بيد أن الكفار أعرضوا عن الاستماع للوحي ، أو الاهتداء به ، وهنا يسألهم الله : هل اشتركت هذه الأصنام فى خلق الأرض أو فى خلق السماوات ؟ هل عندكم كتاب - مثل التوراة أو الإنجيل - يثبت للأصنام أو الأوثان أو غيرها خلقاً للأرض ، أو مشاركة فى خلق السماء ؟

وهل لديكم بقية من علم تثبت هذا ، وإذا لم تكن لديكم وثيقة مكتوبة ، ولا أثر معقول ، فعلى أى شيء تعتمدون فى عبادة هذه الأصنام ؟

وفى يوم القيامة تتبرأ الأصنام ممن عبدها ، وتعلن العداء لمن عبدها من دون الله ، وتندد بهذه العبادة .

التفسير :

١ - حم .

حرفان من حروف المعجم ، للتنبيه أو للتحدى والإعجاز ، وبيان أن هذه الأحرف المقطعة مبنى كتاب الله العزيز ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، وإنما هو تنزيل من حكيم حميد .

٢ - تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

هذا الكتاب منزل من عند الله تعالى على محمد ﷺ ، ومن صفة الله سبحانه أنه ، **الْعَزِيزُ** . الغالب وهو القاهر فوق عباده ، وهو سبحانه ، **الْحَكِيمُ** . فى خلقه وتدبيره .

٣ - مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ .

إن هذا الكون بما فيه من سماء وأرض وفضاء ، لم يخلق عبثاً ، بل أبعدته يد القدرة الإلهية ، لحكمة عليها هى الاختبار والابتلاء ، وإعطاء الإنسان فرصة فى هذه الدنيا ، ومعه قدرة وإرادة واختيار للسلوك الذى يفضله ، فمن أطاع الله فله الجنة ، ومن عصى الله فله النار ، وحياة هذا الكون لمدى محددة هى عمر الدنيا ، فإذا انتهت الحياة على هذه الأرض ، بُدِّلَت الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرز الجميع لله الواحد القهار .

لكن الكفار لم يستمعوا لهذا الكتاب ، ولا للرسول محمد ﷺ ، وأعرضوا عن دين الإسلام ، وهو سبب سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

٤ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّخَذُوا لِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَفْرَءَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

أخبرونى أيها الكفار ، هل الأصنام أو الأوثان أو الجن أو الملائكة ، أو جميع ما تعبدون من دون الله ، هل هذه المعبودات الزائفة خلقت شيئاً من هذا الكون البديع ؟ أرونى هذا الذى خلقته من الأرض ، هل خلقت الماء أو اليابس ؟ الشرق أو الغرب ؟ السهل أو الجبل ؟ الحيوان أو الإنسان ؟ والجواب معلوم : إن أحداً لم يدع مطلقاً أنه خلق الأرض ، ولا جانباً منها ، لأن هذه المعبودات الزائفة لا تقدر على خلق شيء من ذلك ، وهذه الأرض لم تخلق نفسها ، فلم يبق إلا أن تكون خلق الله .

ثم قل لهم أيها الرسول الكريم : أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ...

أى : تدرج معهم وأسألهم : هل لهم مشاركة وإسهام فى خلق السماوات ؟

هل ساعدوا الله وأعانوه فى خلق شيء من ذلك ؟ والجواب معلوم ، ولكن القرآن يستمر فى مناقشتهم وتحديهم بأن يثبتوا بأى حجة أو دليل ، يفيد أن هذه المعبودات قد خلقت أى شيء فى الأرض أو السماء حتى تُعبد .

اتَّخَذُوا لِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا ...

أى : هل عندكم كتاب من الكتب المنزلة قبل القرآن ، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، تشهد بأن هذه المعبودات الزائفة قد خلقت شيئاً ، أو جانباً من الأرض أو السماء ؟ وإذا لم تكن عندهم وثيقة مكتوبة تثبت ذلك ، فهل عندهم بقية من علوم الأولين تنطق باستحقاق هذه المعبودات للعبادة ، أو أنهم خلقوا شيئاً من الأرض ، أو اشتروا فى خلق السماوات ؟ هل لديكم أى دليل نقلى أو عقلى يثبت لهذه الأصنام خلقاً للأرض ، أو مشاركة فى خلق السماء ؟

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

فقدما ما يثبت صدقكم ، فإن الدعوى لا تصح ما لم يقم عليها برهان عقلى أو دليل نقلى ، وحيث إنه لا دليل لكم فقد ثبت بطلان كفركم ، وأقيمت الحجة عليكم .

٥ - وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ .

لا أحد أشد ضلالاً ممن يعبد من دون الله أصناماً أو أوثاناً أو جنّاً أو ملائكة ، وهذه المعبودات لا تسمع ولا تبصر ، ولا تستجيب لمن يدعوها ، أو تدفع عنه ضرراً ، أو تملك له نفعاً ، لأنها مخلوقات فانية . ولأن الملائكة مرتبطة بطاعة الله ، والتزام أوامره ، وهى لا ترضى أن يعبد أحد من دون الله ، وهذه الأصنام وغيرها غافلة عن هذه العبادة لا تحس بها .

٦ - وَإِذَا خِبرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ .

وإذا قامت القيامة واجتمع الناس فى صعيد واحد ، ووقف الكل أمام الجبار للقضاء ، تبرأت الأصنام ممن عبدها ، كما يتبرأ عيسى عليه السلام ممن اتخذها إلهاً هو أمّه ، ورفض الجميع كل عبادة لهم .

قال تعالى : إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ مِنْ خَيْرٍ . (فاطر : ١٤) .

وقال عز شأنه : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . (مریم : ٨١ ، ٨٢) .

★ ★ ★

مناقشة المشركين

﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَجَاءٌ هُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ ﴾
 أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفَرَأَيْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كُنْ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدُعَايِنِ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُونَ وَلَا يَكُمُ الْإِنْعَامُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۖ ﴾

المضردات :

تلى ، تقرأ .

بينات ، واضحات .

افتراه : نسب كذباً إلى الله .

تفويضون ، تندفعون وتخوضون فيه .

بينما : البدع بالكسر : الشيء المبتدع .

قال الرازي : والبدع والبديع من كل شيء المبتدع ، والبدعة ما اخترع مما لم يكن موجوداً قبله بحكم السُّنة .

إن اتبع : ما أتبع .

التفسير :

٧ - وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

وإذا قرأت عليهم القرآن واضحاً جلياً مبسراً ، أنكر الكفار أن يكون هذا القرآن كلام الله سبحانه وتعالى ، وقالوا : هذا سحر مبين ، أى هذا سحر واضح ، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا .

٨ - أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ إِنِ اقْرَأْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

فى هذه الآية ردٌ على الكفار ، وبيان لعظمة الألوهية ، وإطلاع الله على كل شيء ، وأنه منتقم ممن كذب عليه ، وهو الحكم بين النبى وقومه ، وهو سبحانه غفور لمن تاب ، وقد جمعت الآية بين تعظيم الله جلّ جلاله والرد على اتهام الكفار للرسول ، وفتح الباب أمام توبة التائبين منهم .

ومعنى الآية :

بل أيقولون إن محمداً افترى هذا القرآن واختلقه من عند نفسه ، ثم نسبه زوراً إلى الله ؟

ثم يلقن الله رسوله الحجة ليقول لهم :

إِنِ اقْرَأْتَهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ...

أى : لمن أفترى ؟ لأجل أن أكسب أتباعاً يؤمنون برسالتى من البشر ؟ إن الله أقوى من كل قوى ، وهو على كل شيء قدير ، وإذا كذبت عليه فمن يعصمنى من بطشه وأخذه وقوته .

والخلاصة : أنا لا أكسب مخلوقاً وأسخط خالقاً ، لأن هذا الخالق إذا غضب على فلن يملك أحد منكم أن يعصمنى من عقوبته لى .

هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ...

لقد أحاط علم الله بكل شيء ، وبما تندفعون فيه من القول ، واتهامكم للقرآن بأنه سحر أو شعر أو أساطير الأولين ، واتهامكم لمحمد ﷺ بصنوف الغرى .

كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ...

إن الله تعالى يشهد لى بالصدق ، وبأنه أنزل القرآن من عنده على محمد ﷺ ، وكفى بشهادة الله تعالى شهادة تكفينى وتشرفنى ، وقد رضيت بحكمه بينى وبينكم ، وفى ذلك من تعظيم الله والرضا بشهادته وإطلاعه ، وتهديد الكافرين بما يستحقونه من عقوبة الله الشهيد على كل نفس بما كسبت .

وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .

من قصد بابه تائبًا غفر له وشمله برحمته وفضله ، ونعمته وقبوله ، فما أوسع فضله ، وما أوسع رحمته لمن تاب إليه ورجع إلى مرضاته .

قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف : ١٥٦) .

٩ - قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ أَرْسَلَ وَمَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

لقد أرسل الله الرسل قبلى ، وأنزل عليهم الكتب ، واتخذ الله إبراهيم خليلًا ، وكلم موسى تكليمًا ، وبشر عيسى قومه برسالة أحمد ﷺ ، فرسالتى إليكم ليست بالأمر البديع أو الغريب .

أما الغيب فعلمه عند الله ، وكان المشركون قد اقترحوا على النبی ﷺ الإتيان بمعجزات ، والأخبار عن مغيبات ، فأنزل الله عليه هذه الآية لتفديد الآتى :

- لست أول من أرسله الله رسولا .

- أنا بشريوحى إلى ، أودى واجبى فى تبليغ الرسالة والجهاد فى سبيلها ، أما الغيب فعلمه عند الله ، والمعجزات يأتى بها الله حين يشاء هو ، لا طلبية لطلب المشركين .

- أنا أتبع الوحي وأبلغه ، وأنفذ ما يدعونى إليه ربي .

- رسالتى لا تقوم على المعجزات المادية ، فالقرآن أسلوب يخاطب العقل والفرط ، ويحذر من معصية الله ، وأنا أحذركم عقاب الله تعالى ، على نحو واضح لكل عاقل .

وقد أورد ابن كثير في تفسيره طائفة من الأحاديث الصحيحة عند تفسيره لهذه الآية ، منها ما رواه أحمد ، والبخارى ، عن أم العلاء - وهى امرأة من نساء الأنصار - قالت : لما مات عثمان بن مظعون ، قلت : رحمك الله أبا السائب ، شهادتى عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : «وما يدريك أن الله أكرمك ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير ، والله ما أدرى وأنا رسول الله ، ما يفعل بى ولا بكم» ، قالت أم العلاء : فوالله لا أركى بعده أحداً^(٩) .

قال المفسرون :

وفيه دليل على أنه لا يُقطع لشخص معين بالجنة ، إلا الذين نصَّ الشارع على تعيينهم ، كالعشرة المبشرين بالجنة^(١٠) ، وعبد الله بن سَلَام ، والعميصاء ، وبلال ، وسراقة ، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة ، ومن أشبه هؤلاء رضى الله عنهم .

من تفسير القرطبي

ذكر القرطبي تعليقاً طويلاً على قوله تعالى فى هذه الآية :

وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ...

ثم قال القرطبي : والصحيح فى الآية قول الحسن ، كما قرأ على بن محمد ، عن الحسن : وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا .

قال أبو جعفر الطبرى : وهذا أصح قول وأحسنه ، لا يدرى ما يلحقه وإياهم من مرض وصحة ، ورخص وغلاء ، وغنى وفقْر .

ومثله قوله تعالى : وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرَهْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَى السُّوءُ إِنَّنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ...

(الأعراف : ١٨٨)

وقال المهايمى :

وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ...

أى : فيما لم يوحِ إى ، والوحى ببعض الأمور لا يستلزم العلم بالباقي ، ولم يكن لى أن أضم إلى الوحى كذباً من عندى^(١١) .

من تفسير ابن كثير

قال عكرمة والحسن وقناة^(٣) :

إن قوله تعالى : وَمَا أَذِرُ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ... منسوخ بقوله تعالى : لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ... (الفتح : ٢) .

ولما نزلت هذه الآية قالوا : هنيئا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ فأنزل الله تعالى : لِيَذْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَكَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا . (الفتح : ٥)

قال المفسرون :

وفى هذا دليل على أن النبي ﷺ لا يدرى ما يتول إليه أمره وأمر المشركين فى دار الدنيا ، أما فى الآخرة فهو ﷺ جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وذلك فى الجملة^(٤) . ١ هـ .

خاطرة

ورد فى الأحاديث النبوية الشريفة أن الله تعالى زوى الأرض لرسول الله ﷺ ، ثم قال ﷺ : «وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى من الأرض ، وسيلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار ، بعز عزيز أو بذل ذليل»^(٥) .

وفى البخارى ما يفيد أن رجلاً من أمة النبي ﷺ يركبون ثبج البحر غزاة فى سبيل الله ، كأنهم الملوك على الأسرة^(٦) .

وفى صحيح مسلم أن النبي ﷺ بشر أمته بفتح القطر المصرى ، وقال : «سيفتح عليكم بعدى بلد يذكر فيه القيراط ، فاستوصوا بأهله خيراً فإن لهم دمة ورحماً»^(٧) .

وروح الأحاديث النبوية تبشّر بنصر هذه الأمة ، وفى غزوة الخندق اعترضت المسلمين صخرة لم يستطيعوا كسرها ، فاستعانوا برسول الله ﷺ فتناول المعول وضرب الصخرة فصارت كتيئاً أهيل ، وقال للمسلمين : «إن الله أضاء لى منها كنوز كسرى وقيصر»^(٨) .

كما بشر النبي ﷺ سراقه بن مالك بن جشعم ، وقال له : «أسلم يا سراقه ولك سوار كسرى»^(٩) ، وكل هذا يفيد أن النبي ﷺ بشر بالنصر ، وبشّر أمته بذلك .

وخلاصة الأمر : أن القضاء والقدر فى علم الله ، ولا يعلم الغيب إلا الله ، والرسول ﷺ بشر يوحى إليه ، وهو لا يعلم الغيب ، كما قال القرآن الكريم : وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَاسْتَكْمَرْتَ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَى السُّوءُ ... (الأعراف : ١٨٨)

لكن الله تعالى بشره في الجملة بنصره على المشركين ، وبشر الرسول ﷺ أمته بنصر الإسلام على بلاد الفرس والروم والحيرة ومصر وغيرها .

وفي القرآن الكريم طائفة من هذه البشارات ، مثل قوله تعالى : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُهُمْ وَلَهُمْ كُفْرُهُمْ أَكْثَرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٨ ، ٩)

ومثل قوله سبحانه : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . (الروم : ٤ ، ٥) .

وقوله عز شأنه : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . (المجادلة : ٢١) .

وقوله عز شأنه : وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ . (الروم : ٤٧) .

★ ★ ★

شهادة عبد الله بن سلام بصدق محمد ﷺ

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَ مِنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩ ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٌ ⑪ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانِ عَرَبِيٍّ مُنذِرٍ ⑫ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَسُئِلُوا لِلْمُحْسِنِينَ ⑬ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ⑭ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑮ ﴾

المفردات :

قُلْ أَرَأَيْتُمْ : أخبروني ماذا تكون حالكم .

إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ : إن كان القرآن من عند الله .

وَشَهِدَ شَاهِدٌ : وشهد عبد الله بن سلام .

وكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة : إنه عبد الله بن سلام ^(١٦).

التفسير :

١٠ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَمَأْنٍ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ
اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

كان عبد الله بن سلام من أحبار اليهود ، ولما جاء النبي ﷺ مهاجراً إلى المدينة جاء إليه عبد الله ابن سلام ، وقال : لما نظرت إلى وجه النبي ﷺ قلت : ما هذا بوجه كذاب ، ثم سأل النبي ﷺ ثلاثة أسئلة لا يعلمها إلا نبي :

الأول : ما أول أشراف الساعة ؟

الثاني : ما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

الثالث : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

فقال النبي ﷺ : «أما أول أشراف الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإذا سبق ماء المرأة نزعتة» ، فقال : أشهد أنك رسول الله حقاً ^(١٧).

ومعنى الآية الكريمة :

أخبروني يا معشر المشركين ، إن كان هذا القرآن من عند الله في الحقيقة ، وأعلنتم كفركم به ، ثم شهد شاهد من أهل الكتاب على صدق القرآن ، وصدق محمد ﷺ ، وشهد أن القرآن منزل من عند الله ، وأن القرآن مماثل لما بشرت به التوراة ، ثم آمن هذا الشاهد بالقرآن والإسلام ، وصدق محمداً ﷺ ، واستكبرتم عن الإيمان بالله ، ألستم ظالمين خاسرين ؟

وبعبارة أخرى :

ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان القرآن الذي أنزل على من عند الله ، وقد كفرتم به وكذبتموه ، مع أن شاهداً من بنى إسرائيل قد شهد أن القرآن مماثل لما في التوراة ، وأن في التوراة بشارة بالنبي محمد ، فآمن هذا الشاهد ودخل في الإسلام ، واستكبرتم عن الدخول فيه ، ألستم ظالمين ؟

إذن فاعلموا : إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أي : لا يوفقهم إلى الهدى والإيمان .

وجمهور المفسرين على أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام ، لكن عبد الله بن سلام لم يدخل في الإسلام إلا في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إليها ، وسورة الأحقاف مكية ، لذلك قال علماء القرآن : هذه آية

مدينة نزلت بالمدينة ، أمر الله أن توضع فى سورة مكية ، وكان ﷺ إذا نزلت عليه الآية قال : «ضعوا هذه الآية فى سورة كذا» ، وعنوان السورة مكتوب فى المصحف هكذا : (سورة الأحقاف مكية ، إلا الآيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ ، فمدنية) .

وأفاد الإمام القرطبى فى تفسير الآية أن جمهور المفسرين على أنه عبد الله بن سلام ، وقد نزل فيه قوله تعالى : **قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** . (الرعد : ٤٣) .

وبعض المفسرين ذكر أن الشاهد بنى إسرائيل هو موسى عليه السلام ، فقد بشر برسالة محمد ﷺ وذكر التوراة صفة محمد ﷺ . ١ هـ .

ويمكن لنا أن نقول : إن موسى عليه السلام بشر برسالة محمد ، كما وردت صفته فى التوراة ، كما صدق برسالة محمد بعض علماء بنى إسرائيل فى المدينة ، فأراد الله أن يزلزل إصرار أهل مكة على الكفر ، فأخبرهم بأن هذا كتاب صادق ، وأن محمدًا نبى صادق ، قد أيدته موسى رسول الله ، وسيؤيده بعض علماء بنى إسرائيل ، وتكون الآية من المبشرات .

وقد أفاد القاسمى فى تفسيره (محاسن التأويل) أن الآية من باب الإخبار قبل الوقوع ، كقوله تعالى : **وَيَأْذَىٰ أَصْحَابَ الْأَعْرَافِ ...** (الأعراف : ٤٨) .

ويرشحه أن الفعل : **وَشَهِدَ** ، معطوف على الشرط الذى يصير به للماضى مستقبلاً ، فلا ضير فى شهادة الشاهد بعد نزولها ، ويكون تفسيره بها بياناً للواقع ، أى أن الآية يمكن أن تنطبق على إسلام عبد الله بن سلام فى المستقبل ^(١٨) .

١١ - **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكُتَابٌ قَدِيمٌ** .

سبب نزول هذه الآية دخول جماعة من الفقراء والضعفاء فى الإسلام بمكة ، واعتزاز الأغنياء والأقوياء بمكانتهم ، وأنفتهم من الدخول فى الإسلام ، خوفاً على وجاهتهم ، ورغبة فى الاستمرار فى الزنا وشرب الخمر ، واستغلال الفقراء والضعفاء ، من أجل ذلك نزلت هذه الآية ترد عليهم ، وتحكى قولهم ، وتناقش تعسفهم .

والمعنى :

وقال الذين كفروا من أهل مكة ، أو من يهود المدينة : لو كان دين محمد حقاً ، ما سبقنا إليه الفقراء والضعفاء والأراذل من الناس ، فنحن أغنياء وأقوياء وأمراء ، ولنا وجهة عند الناس ، وما أعطانا الله هذه

الوجهة إلا ولنا وجهة عنده ، وفى هذا المعنى قالوا : **لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ** .
(الزخرف : ٣١)

وما علموا أن شرف النفوس واستعدادها لقبول الحق فطرة فطر الله الناس عليها ، فالهداية ليست قاصرة على الأغنياء كما زعموا ، بل هى منحة إلهية ، يهبها الله للنفوس الراغبة فى الحق ، المشتاقة إلى الصدق ، التى تتبع الهدى عند ظهوره ، ولا تتكبر ولا تستنكف عن السير وراء الحق إذا ظهر نوره لها .

قال تعالى : **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ قَوِيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ...**
(الزمر : ٢٢)

لقد قاس هؤلاء أمر الدين على أمر الدنيا ، وما علموا أن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب .

وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُونُونَ هَلْآ إِفْكٌ قَدِيمٌ .

وحين لم تدخل الهداية إلى الإسلام قلوبهم ، ولم يستمعوا للقرآن استماع منصت متفهم ، ولم ينظروا للإسلام نظرة باحث راغب فى معرفة الحق ، ولم يسيروا فى طريق الهدى ، ولم يأخذوا فى أسباب النظر والتفكير فى هذا الدين ، فقد اخترعوا زيفاً وبهتاناً ، فقالوا : إن الإسلام والقرآن كذب قديم مفترى .

قيل لبعضهم : هل فى القرآن : (من جهل شيئاً عاداه) ؟ قال : نعم ، قوله تعالى : **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسْكُونُونَ هَلْآ إِفْكٌ قَدِيمٌ** . وقوله سبحانه : **بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ ...** (يونس : ٣٩) .

من تفسير ابن كثير باختصار

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ...

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، يعنون (بالأول) و(عماراً) (صهيباً) و(خبياتاً) رضى الله عنهم ، وأشباههم من المستضعفين والعبيد والإماء ، ولقد غلطوا فى ذلك غلطاً فاحشاً ، وأخطأوا خطأ بيئاً ، كما قال تبارك وتعالى : **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ...** (الأنعام : ٥٣) .

أى : يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ، ولهذا قالوا : **لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ...**

وقوله تعالى : **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ** . أى : بالقرآن .

فَسَيَقُولُونَ هَلْئَلْ إِيَّاكَ قَدِيمٌ .

أى : كذب قديم مأثور عن الناس الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى قال رسول الله ﷺ عنه : «الكبر بطر الحق وغمط الناس» .

و«بطر الحق» ، أى : دفعه وعدم قبوله ، و«غمط الناس» ، أى : احتقارهم وإنذراؤهم .

١٢ - وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَلْئَلْ كُتِبَ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ .

من قبل هذا القرآن أنزلنا التوراة على موسى ، مشتملة على حكم الله ودينه فى التشريع والقصاص والعقائد ، والعبادات والمعاملات ، فالتوراة إمام حاكم ، وتشريع عادل ، ورحمة للعباد ببيان حكم رب العباد ، وهذا القرآن مصدق للتوراة مؤيد لها ، مهيمن على ما سبقه من الكتب السماوية ، يوافقها فى الأصول التى قامت عليها ، وهى الدعوة إلى التوحيد ، وبيان مكارم الأخلاق ، والإيمان بالكتب والرسل واليوم الآخر . وقد أنزل الله القرآن باللسان العربى ، تشريعاً للعرب المرسل إليهم ، وليحذر الظالمين من ظلمهم ، ويبشر المحسنين برضوان الله فى الدنيا ، وبالجنة فى الآخرة .

١٣ - إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا فَلَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

هؤلاء الذين أعلنوا إيمانهم بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...

هو الله الجليل العلى الكبير ، المتَّصف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، هو ربنا وخالقنا وإلهنا ، به آمنا ، ويشرعه التزمنا .

ثُمَّ اسْتَقَلُّوا ...

لازموا الاستقامة ، وهى اتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات ، هى السير على طريق الإسلام ، وهدى القرآن ، وسنة محمد ﷺ ، هى الاستقامة على الصراط المستقيم الموصول إلى رضوان الله فى الدنيا ، وإلى الجنة فى الآخرة .

فَلَا يَخَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

والخوف هو التوجس والرهبة وتوقع الشر من أمر ما فى المستقبل ، والحزن هو الخوف على أولادهم أو أحفادهم أو أى أمر من أمور حياتهم .

أَيُّ أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاسْتَقَامُوا عَلَى شَرِيعَتِهِ وَهَدَاهُ ، لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ ، فَهُمْ أَهْلُ لِمَرْضَاةِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ .

على خطرٍ أو كرب ينزل بأحبائهم ، إنهم موصولون بالله ، راضون بحكمه ، شاكرون على نعمائه ، صابرون على قضائه . فكيف يخافون أو يحزنون وهم في معية الرحمان ؟

١٤ - أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورُونَ سَابِقًا هُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، مُلَازِمُونَ لَهَا مُلَازِمَةُ الْمَالِكِ لِدَارِهِ ، فَهُمْ أَصْحَابُهَا وَأَهْلُهَا ، وَالْمَنْعَمُونَ فِيهَا ، وَالْخَالِدُونَ فِيهَا خُلُودًا أَبَدِيًّا سَرْمَدِيًّا ، بِسَبَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَالْآيَةِ دَعْوَةِ لَنَا جَمِيعًا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ النَّافِعِ الْمُفِيدِ ، الَّذِي يَرْقِي بِنَا فِي الدُّنْيَا فَيَجْعَلُنَا سَادَتَهَا ، وَيَجْعَلُنَا الْأُمَّةَ الْوَسْطَى الْمُحْتَرَمَةَ فِي دِينِهَا وَشَرْعِهَا ، وَالْعَمَلُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْجَنَّةَ جَزَاءً عَادِلًا لَنَا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٣٠) .

★ ★ ★

الوصية ببر الوالدين

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ١٥ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يَعِدُونَ ﴿١٦﴾ ﴿

المفردات :

ووصينا : أرشدنا وأمرنا وألزمنا وبيننا له الطريق القويم ليسلكه ، وهو بر والديه .

إحسانا : أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن .

كـرـهـا ، فعلاً ذاكـره ومشقة وتعب فى الحمل والوضع .

وفـصـالـه ، الفصال : الفطام ، وهو مصدر (فاصل) ، فكان الولد فاصل أمه ، والأم فاصلته .

أشـمـده ، كمال عقله وقوته ورشده .

أوزعـنـى ، ألهمنى ووفقنى ورغبـنى .

نتـقـبـلـ عـنـهـم ، القبول هو الرضا بالعمل ، والإثابة عليه .

فى أصحاب الجنة ، منتظمين فى سلك أصحاب الجنة ، كما تقول : أكرمنى الأمير فى أصحابه ، أى : منتظماً فى سلكهم .

تمهيد :

تحدثت آيات سابقة عن توحيد الله سبحانه وتعالى ، وهنا وصية بـبر الوالدين ، وعادة يوصى القرآن الكريم بـبر الوالدين بعد الأمر بعبادة الله وحده .

كقوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... (الإسراء : ٢٣) .

التفسير :

١٥ - وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دَرْجَتِي إِنَّي نُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

تكررت وصايا القرآن الكريم بالوالدين ، وجعل هذه الوصية بعد عبادة الله تعالى ، وخصَّ القرآن الأم بمزيد من العناية بسبب العناية الذى تحملته فى الحمل والولادة والرضاعة والفصال والرعاية .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ...

ألزمتنا وأمرتنا وأرشدتنا الإنسان أيا كان ، بإكرام والديه ويزههما ، ورعايتهما والإحسان إليهما ، ودفع الأذى عنهما ، وعدم إيذاهما أى إيذاء .

وقد ورد أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ، حيث أسلم والداه جميعاً ، وأسلم أولاده ، ورأى أولاده النبى ﷺ فأمناً جميعاً ، ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص .

ونلاحظ مع ذلك أن الآية عامة في كل إنسان ملتزم، وأن العبرة فيها بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ثم خص القرآن الأم بمزيد عناية، فقال:

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...

ما أشق آلام الحمل والوضع والكفالة والرضاع والفصال، بمجرد أن يتم تلقيح الحيوان المنوي لبويضة الأنثى، فإنها تسعى للاتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة، تمرق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائما في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات، وتمتصه لتحيا به وتنمو، والأم تأكل وتشرب ثم تعطى محلول أكلاها وعظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير، وهذا كله قليل من كثير، فالحمل ومدته الطويلة والآلام ومشقاته، والولادة ومشقاتها، والرضاع وفيه يمتص الوليد خلاصة دم الأم، ويرضع اللبن من أمه، ويستمد منها كل عافيته وهذا معنى: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا. قاست في حمله مشقة وتعبا، من وحم وغثيان وثقل وكرب، وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا. حيث قاست آلام الطلق وشِدَّتَه، ووجع الولادة وآلامها.

وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...

أي: مدة حمله ورضاعه ورعايته ثلاثون شهرا، عامان ونصف عام، كلها عطاء حسّي ومعنوي، وعناء السهر والغذاء، والتنظيف والتربية، بمحبة وحنان، دون ضجر ولا سأم، ولذلك تأكد حق الأم، وتقدم على حق الأب، لأن الأم أكثر عطاء.

أخرج البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أبوك»^(١٩).

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً...

حتى إذا تناهى عقله ورشده وقوته في الفترة من الثلاثين إلى الأربعين، ويكمل الأشد ببلوغ الأربعين، لذلك قيل: إنه لم ينبأ نبي قبل الأربعين، إلا ابني الخالة عيسى ويحيى عليهما السلام.

قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ...

هو إنسان مؤمن مخلص ملتزم قد امتد عمره إلى كماله وقوته، فمدَّ يده لله طالبا توفيقه وعنايته وفضله، في أن يلهمه الله شكره على النعم التي أنعم بها عليه وعلى والديه، من الهداية إلى الحق والتوحيد،

وغير ذلك من نعم الدنيا ، كسلامة العقل والصحة والعافية ، وسعة العيش وحنان الأبوين حين عطائهما وتربيتهما ، ومن نعم الآخرة مثل الهداية والتوفيق .

وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ...

وفقني يا رب للعمل الصالح الذي يرضيك وتقبله ، فنعم العمل إذا كان في مرضاة الله ، وإذا حظي بالتوفيق والقبول ، ويمتد الدعاء إلى الذرية وتوفيق الله لها فيقول : وَأَصْلِحَ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ...

أى : اجعل الصلاح والتوفيق والهداية في ذريتي ، اجعلها صالحة نافعة ملتزمة تسير في الطريق المستقيم .

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

إنى رجعت إليك تائبًا منيبًا ، نادمًا على ما فرطت في جنب الله ، وإنى من المسلمين المنقادين لطاعتك ، الملتزمين بأوامرك ، الخاضعين لربوبيتك .

قال ابن كثير : وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ، ويعزم عليها .

قال شيخ زادة في حاشيته على تفسير البيضاوى :

طلب هذا الداعي من الله ثلاثة أشياء :

الأول : أن يوفقه الله للشكر على النعمة .

الثاني : أن يوفقه للإتيان بالطاعة المرضية عنده تعالى .

الثالث : أن يصلح له في ذريته ، وهذه كمال السعادة البشرية . ١ هـ .

من تفسير ابن كثير

روى الحافظ الموصلى ، عن عثمان رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه ، وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الإنابة إليه ، وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء ، وإذا بلغ ثمانين سنة بُتت له تعالى حسناته ومحا سيئاته ، وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشَفَّعه فى أهل بيته ، وكتب فى السماء أسير الله فى أرضه» (٢٠) .

أقل مدة الحمل

استدل العلماء بهذه الآية الكريمة مع قوله تعالى في سورة البقرة : **وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَ الرِّضَاعَةَ ...** (البقرة : ٢٣٣) .

على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوى صحيح كما ذكر الإمام ابن كثير وغيره من المفسرين ، واستشهد ابن كثير بما رواه محمد بن إسحاق ، عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج رجل منا امرأة من جهيينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فذكر ذلك لعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فأمر عثمان برجمها ، فبلغ ذلك عليا ، فقال لعثمان : أما تقرأ القرآن ؟ فقال : بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول : **وَحَمْلُهُمْ وَفِصْلُهُمْ ثَلَاثُونَ شَهْرًا** . وقال : **حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** . فما نجده بقى إلا ستة أشهر ، قال عثمان : والله ما فطنت لهذا .

وردى ابن كثير أن قومًا نالوا من عثمان رضى الله عنه ، ثم سألوا عليا عن عثمان ، فقال على رضى الله عنه : كان عثمان رضى الله عنه من الذين قال الله تعالى عنهم : **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلْ عَنْهُمْ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَغَدَا الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** . (الأحقاف : ١٦) .

١٦ - **أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلْ عَنْهُمْ مَا عَمِلُوا وَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَغَدَا الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ** .

هذه العينة الممتازة من هذا الإنسان البار بوالديه ، المتبتل إلى ربه ، الراغب في شكر الله على نعمائه ، الراغب في توفيقه للصالح ، والراغب في هداية ذريته وصلاحيهم ، والمتبع ذلك بالتوبة إلى الله ، والعمل بالإسلام ، والانضمام لجماعة المسلمين ، هؤلاء المذكورون نلقبهم منهم أحسن أعمالهم ، ونفضل عليهم بالتوبة والمغفرة لسيئاتهم ، حال كونهم ضمن أصحاب الجنة ، فهم من أهل الجنة وفي عداد أهلها ، وأكرم بذلك من صحبة ونعمة ، لقد أكرمناهم بالجزاء الحسن ، والقبول الحسن ، والمغفرة ، تحقيقًا لوعدها الصادق على السنة الرسل بمكافأة المتقين ، فى مثل قوله تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** . (الكهف : ٣٠) .

وقوله عز شأنه : **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** . (الزلزلة : ٨، ٧) .

وقوله سبحانه : **رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ** .

(آل عمران : ١٩٤)

نموذج ردىء

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُيَ أَفِي لَكُمْ أُنْعِدَ إِنِّي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرِ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْمُونُ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات :

أَفِي لَكُمْ : صوت يصدر عن المرء عند تضجره .

أُخْرِجَ : أبعث من القبر للحساب .

خلت القرون من قبلى : مضت الأزمان ولم يخرج منها أحد .

يستغِيثَانِ اللَّهَ : يلجآن إلى الله أن يدفع الكفر عن ولدهما .

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ : والمراد هنا الحث والتحريض على الإيمان ، لا حقيقة الدعاء بالهلاك .

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ : أباطيلهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة .

حق عليهم القول : ثبت ووجب عليهم قوله تعالى لإبليس : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ

أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٥) .

خَسِرِينَ : ضيعوا عمرهم الشبيه برؤوس الأموال ، باتباعهم همزات الشياطين .

درجات : منازل ، واحدها درجة ، وهى المنزلة .

تمهيد :

هذا نموذج آخر لوالدين مؤمنين ، يدعوان ولدهما للإسلام والإيمان ، فيأبى ويكذب بالبعث ، وهما

يستغِيثَانِ بِاللَّهِ أَنْ يَهْدِيَهُ ، لكنه يزداد كفراً وعناداً ، ويستحق ما أعد الله له من العقوبة فى جهنم .

التفسير:

١٧ - وَالَّذِي قَالَ لِلْذِّبَةِ أَفْ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَسَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِخَانِ اللَّهَ وَتِلْكَ ءَامِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ .

زعم مروان بن الحكم أن هذه الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر ، وقد ردت عليه أم المؤمنين عائشة ، والحق ما قالته رضى الله عنها ، فإن عبد الرحمن بن أبي بكر هداه الله للإسلام والإيمان ، وهذا النموذج توعدده الله بالعذاب في جهنم ، والآية عامة في كل كافر يكذب بالبعث ويسخر من الحساب .

والمعنى :

هذا الابن العاق لوالديه ولدينه ولربه ، فهو يتضجر ويتأفف ، ويتألم من دعوة والديه له إلى الإيمان ، ويقدم حججاً وأهية ، حيث يقول لهما :

أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَسَ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ...

أى : أتذكرُكُنَّ أني بالبعث والحشر والجزاء ، مع أن طبقات متعددة من البشر قد ماتت ولم تعد إلينا ، ولم يخبرنا أحد ممن ماتوا إن كان في جنة أو في نار .

والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يحيى الموتى بعد قرون معينة ، بل يترك الدنيا وأهلها إلى انتهاء أجلها ، ثم يبعث الناس جميعاً مرة واحدة ، فإذا نفخ إسرافيل في الصور صعد الناس جميعاً وماتوا ، ثم إذا نفخ مرة أخرى قاموا للبعث والحساب والجزاء .

وَهُمَا يَسْتَفِخَانِ اللَّهَ وَتِلْكَ ءَامِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ...

أى : وهما يستخفان قوله وكفره ، ويتضرعان إلى الله تعالى لهدايته ، ويحذرانه من الكفر والجحود ، ويستحثانه على الإيمان والهداية فيكون جوابه لهما .

مَا هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ .

ما هذه الأفكار التي تقولانها عن البعث والحشر والحساب والجزاء ، وضرورة الإيمان بالله وملأنته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، إلا أكاذيب السابقين ، وليس لهذه الأفكار ظل من الحقيقة .

١٨ - أَوَلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْسِرِينَ .

إن هؤلاء المكذبين بالبعث الكافرين بالله ، أهل لعذاب جهنم ، ولقوله تعالى لإيليس : قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ . (ص : ٨٥، ٨٤) .

وسيكون هذا وأمثاله فى عداد أمم وجماعات من الجن والإنس ، تركوا الهدى وأهلوا عقولهم وفكرهم ، وساروا وراء الهوى ، فكانوا خاسرين خسرانا حقيقياً ، فقد باعوا الجنة ونعيمها وطاعة الرحمان ، وآثروا جهنم وطاعة الشيطان .

١٩ - وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَيُؤْتِيهِمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ .

تحدثت آيات سابقة عن نموذج جيد لرجل مؤمن بلغ أربعين سنة ، طلب من الله التوفيق للشكر وللعمل الصالح ، وطلب منه توفيق ذريته للصلاح ، ووعد بالتوبة والدخول فى زمرة المسلمين ، ثم تحدثت الآيتان (١٨ ، ١٧) من سورة الأحقاف ، عن نموذج ردىء منكر للبعث والحشر والجزاء ، مستحق لدخول جهنم .

وهما نموذجان ظاهران :

الأول : مثل أعلى للإيمان والدعاء .

الثانى : مثل ردىء للكفر والضلال ، وشوق الحجاج الزائفة .

وفى هذه الآية رقم ١٩ بيان أن الجنة درجات بعضها فوق بعض ، ولكل عامل درجة مناسبة لعمله ، وأن النار دركات فى شدة العذاب والسعير ، ولكل كافر جزاء مناسب لكفره وجوده ، وسيملاً الله الجنة بالعدل والقسطاس ، وسيملاً الله النار بالعدل والقسطاس ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله بلا ظلم .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال عز شأنه : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

٢٠ - وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ .

من شأن القرآن أن يستعرض مشاهد القيامة ، فإذا الغائب حاضر ، وإذا بك ترى رأى العين هؤلاء الكفار الذين أسرفوا على أنفسهم فى المعاصى ، ولم يستجيبوا لداعى الإيمان ، فيقال لهم :

أَدْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ...

لقد أفنيتم حياتكم مستمتعين بالذائد والمحرمات ، معرضين عن هدى السماء ، كافرين بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر .

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ .

فى هذا اليوم ، يوم القيامة ، يوم الحساب والجزاء ، تجازون على كفركم وإسرافكم فى المعاصى ، بعذاب الهوان والمذلة فى جهنم ، بسبب استكباركم وعتوكم وظلمكم وغدم إيمانكم ، ويسبب فسوقكم وخروجكم على طاعة الله وهديه .

وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن كثير من طبيبات المأكَل والمشارب وتنزه عنها ، وقال: لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأحسنكم لباساً ، ولكنى أستبقى طبيباتى لحياتى الآخرة ، وإنى أخاف أن أكون من الذين قال الله فيهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ...

وعند التأمل نجد أن الإسلام دين وسط ، لا يحرم الطبيبات ، فالله تعالى يقول : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ... (الأعراف : ٣٢) .

والنبي ﷺ - وهو القدوة العملية - كان يأكل ما يجده ، يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله ديدناً ، ومعيشة النبي ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة رضوان الله عليهم منقولة .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر ، والاستعانة بالطبيبات على الشهوات والمحرمات .

وجاء فى السهيل لعلوم التنزيل :

هذه الآية فى الكفار ، بدليل قوله تعالى : وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا ...

وهى مع ذلك واعظة لأهل التقوى من المؤمنين ، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله - وقد رآه اشتري لحماً - : أَزْ كُلُّمَا اسْتَقْبَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ ! أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية ، ممن قال الله فيهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ...

من تفسير الفخر الرازى

وهذه الآية لا تدل على المنع من التمتع ، لأن هذه الآية وردت فى حق الكافر ، وإنما ويح الله الكافر لأنه يتمتع بالدنيا ، ولا يؤدى شكر المنعم بطاعته والإيمان به ، وأما المؤمن فإنه يؤدى بإيمانه شكر المنعم فلا يوبخ بتمتعه ، ودليله : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... (الأعراف : ٣٢) .

نعم لا ينكر أن الاحتراز عن التمتع أولى ، وعليه يحمل قول عمر : لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً ، وأحسنكم لباساً ، ولكنى أستبقى طبيباتى لحياتى الآخرة .

وأرى أن دين الله يتسع للتمتع بالطيبات ، ويتسع للزهد فيها وتغليب جانب الآخرة ، ولكل وجهة هو مولئها فاستبقوا الخيرات ، فمن استمتع بالطيبات وأدى حق الله وأطعم الجائع وساعد المحتاج ، فهو ناج إن شاء الله ، ومن زهد في الطيبات - بدون أن يحرمها على غيره - فله نيته واجتهاده وصبره ، واقتداؤه بالزاهدين من السلف الصالح .

وأخيراً .. أرى أن خير الأمور الوسط ، وشر الأمور الشطط ، والرسول ﷺ قدوتنا ، وكان ينال من طيبات الدنيا وزينتها وطيبها ، ويتزوج من نسائها ، ويستمتع بالنعمة عند وجودها .

ويقول ﷺ في حديث صحيح رواه البخاري : «إن أتقاكم لله أنا ، وإن أعلمكم بالله أنا ، وإن أخوفكم من الله أنا ، ومع ذلك فأنا أصوم وأفطر ، وأصلّي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢١) .

وكان ﷺ قدوة أيضاً في الصبر والتجلد والزهد ، ليظل المؤمن شديد المراس ، لا يلين ولا يخنع ، ولا يرغب في الطيبات إلا إذا كانت من حلال ، وفي قدرته وفي متوسط دخله ، ولا يتطلع إلى الشبهات ولا إلى الكماليات ، إذا كان دخله الحلال لا يتسع لذلك .

قال ﷺ : «استفت قلبك وإن أفطوك وأفطوك وأفطوك»^(٢٢) .

وقال ﷺ : «البر ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٢٣) .

وقال ﷺ : «الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كراخ يرمى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ..»^(٢٤) .

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد

﴿وَأَذْكُرْ أَخَاعَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۖ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا
 فَأُتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ
 وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ
 مُنْطَرِفٌ بَلْ هُوَ مَا سَتَعَجِلْتُمْ بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا
 لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتُمْ
 فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ
 وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ
 (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آلِيَاتِ لَعْنِهِمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا
 نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ
 وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٢٨)

المضردات :

أخـــــاء : هود عليه السلام ، وكانت أخوته لعاد في النسب لا في الدين .

الأحـــــاقاف : جمع حقف ، وهو ما استطل من الرمل واعوج ، ولم يبلغ أن يكون جبلاً ، من

أحقوق الشيء ، إذا اعوج .

النـــــذر : واحد نذير ، أى : منذر .

مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ : من قبله .

وَمِنْ خَلْفِهِ : ومن بعده ، أى : وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده .

لِنُفَكِّنَا : لتصرفنا وتمنعنا عن عبادة آلِهَتِنَا .

بِمَا تَعِدُنَا : أى من العذاب .

إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ، الْعِلْمُ بِوَقْتِ نَزُولِ الْعَذَابِ عِنْدَ اللَّهِ .

تَجَاهِلُونَ ، تَتَصَفَّوْنَ بِالْجَهْلِ وَعَدَمِ الْإِدْرَاكِ ، فَيُؤَلِّمُكُمُ الْعَذَابَ مِمَّنْ يُعَذِّبُ إِلَيْكُمْ مَنذَرًا .

الْمَعَارِضُ : السَّحَابُ الَّذِي يُعْرَضُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ .

مُسْتَقْبِلُ أَوْدِيَّتِهِمْ : مُتَجَهِّأُ إِلَيْهَا .

تَهْلِكُ : تَهْلِكُ .

فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ : فَاجْأَتْهُمْ الرِّيحُ فَدَمَرَتْهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ .

وَلَقَدْ مَكَّنَّا لَهُمْ سُلْطَانًا وَقُدْرَةً عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الَّذِي مَا مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَلَا سَخَرْنَاهُ لَكُمْ .

كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ، بِمِثْلِ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ يُجْزَى اللَّهُ كُلَّ مَنْ كَذَبَ رِسْلَهُ .

تمهيد :

ساق القرآن القصص للعة والاعتبار ، وتكرر ذكر قصص عاد مع نبيهم هود ، وغيرهم من الأمم التي كذبت رسلها فاستحققت العذاب ، وبهذا سجل القرآن الكريم تاريخ الأنبياء والمرسلين وأحيا ذكراهم ، وسجل كفاحهم ، كما سجل تكذيب الأمم المكذبة لرسولها ، وعقاب السماء لها ، فقد أغرق الطوفان قوم نوح ، وأهلك الرياح العاصفة قوم هود ، حيث قال تعالى : **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ...**

وقال فيما سبق : **أَلَا بُعْدًا لِّأَعَادٍ قَوْمِ هُودٍ .** (هود : ٦٠) .

وأطبق الهلاك على كثير من المكذبين ، مثل ثمود . قوم صالح ، ومثل فرعون وقومه ، ومدین قوم شعيب ، وقوم لوط وغيرهم .

وقد تكرر التنبيه بما أصاب المكذبين لتحذير أهل مكة ، ولتحذير كل مكذب بأيات الله ورسله .

قال تعالى : **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .** (العنكبوت : ٤٠) .

التفسير :

٢١ - **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْثُلُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .**

هذه القصة تسلية للرسول ﷺ بذكر قصة أخ له من المرسلين ، كُذِّبَ من قومه ، فصبر حتى نصره الله وأهلك الكافرين ، وفيها تهديد وعيد لأهل مكة ، وأشباههم من المكذبين .

والمعنى :

اذكر فى نفسك قصة هود مع قومه عاد ، واذكرها لقومك ليعتبروا بمضمونها ، فهو رسول كريم ، دعا قومه الذين كانوا يسكنون الأحقاف ، وهى رمال ملقوة لم تبلغ أن تكون جبلاً ، وكانت بالشحر يقال (شحر عُمان) أى فى مكان بين عمان واليمن على ساحل البحر ، ويقال فى حضرموت .

وحين كنت أعمل أستاذًا ورئيسًا لقسم العلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس فى المدة من (١٩٨٦م - ١٩٩٦م) بسلطنة عمان ، اكتشفت آثار قرب مدينة صلالة ، وهى مدينة تقع بين سلطنة عمان واليمن ، وذكر المكتشفون أن المرجح أنها القرى التى طمرتها الرياح وأهلكت أهلها ، ولم يبق من أهلها إلا المساكن ، أى بقايا عاد الأولى .

وقد أرسل الله الرسل إلى قومهم من قبل هود ومن بعده ، يدعون قومهم إلى الإيمان بالله تعالى ، ويحذرونهم من عبادة الأوثان والأصنام والتكذيب بالمرسلين حتى لا ينزل بهم العذاب الذى نزل بمن كذب قبلهم ، كقوم نوح .

قال تعالى : **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** . (الإسراء : ١٧) .

٢٢ - قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ .

قال قوم هود مكذبين له : « أجئنا بدعوتك الجديدة لتصرفنا عن عبادة آلِهتنا التى تعودنا على عبادتها ، ولقد ورثنا ذلك عن آبائنا فلن نترك عبادة آلِهتنا ، وإن كنت صادقًا فى رسالتك فهات العذاب الذى تهددنا به .

قال الضحّاك : تأفكنا : تصرفنا ، من الإفك بمعنى الصرف .

٢٣ - قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَنْ يَكُنِّيَ أَرْسَلُكُمْ قَوْمًا تَحْهَلُونَ .

أنا رسول من عند الله ، وظيفتى تبليغ الرسالة ، والبشارة بالجنة للأتقيين ، وبالعذاب للمكذبين ، وقد ينزل عذاب المكذبين فى الدنيا ، لكن ذلك من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، فهو الحكيم الذى يعلم متى ينزل العذاب ، وما هو الوقت المناسب لذلك .

وَلَنْ يَكُنِّيَ أَرْسَلُكُمْ قَوْمًا تَحْهَلُونَ .

حيث تقابلون رسالة رسول يدعوكم إلى الخير والإيمان ، ويحذركم عقوبة الكفر والجحود ، تقابلون ذلك باستعجال العذاب ، والاستخفاف بالرسول ، والتحدى لقدرة الله ، وهو سبحانه على كل شيء قدير .

٢٤ - فَلَمَّا رَأَوْهُ غَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

كان قوم عاد على جانب من الثروة والغنى، والبأس والقوة، قال تعالى: فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ . (فصلت: ١٥)

ومن ذلك نلمح أن القوم كذبوا واستهتروا واستخفوا بقدرة السماء، وتحذوا نبيهم، ومكثوا فترة في الجفاف وعدم المطر، ثم رأوا سحابة تعترض الأفق ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا إلى الأودية ينتظرون نزول المطر، ففاجأهم لسان الحال بتحول السحابة إلى ريح عاتية، مكلفة بتدمير عاد، وإفنائهم عن آخرهم.

٢٥ - تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

إنها جزء من هذا الكون الخاضع لأمر الله، المسيح بحمده، فهذه الريح تحولت إلى عذاب أليم، وإلى ريح صرصر عاتية، تأخذ بأنفاس المكذبين وتقطع رقابهم .

وقد ورد أنهم حفروا لأنفسهم حفراً، وربطوا أنفسهم بالسلاسل، وتركوا رقابهم فوق الأرض، فكانت الريح تقطع أعناقهم، وتترك أجسامهم، كالنخلة الهالكة التي قطع أعلاها المثمر المفيد وترك أسفلها قليل الفائدة .

وفي سورة الحاقة يقول الله تعالى: وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَرُوا نَخْلًا خَاوِيَةً * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة: ٦ - ٨) .

لقد أهلكهم الله هلاكاً مدمراً، جزاء عتوهم وكفرهم وعنادهم، وجعل مثل هذا الهلاك لكل من أجرم وكفر .

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .

أى: مثل تلك العقوبة التي نزلت بعاد قوم هود، يعاقب الله بها كل من أجرم وكذب وعتا وتكبر، وكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قال الإمام فخر الدين الرازى: والمقصود منه تخويف أهل مكة .

وفي السنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ كان إذا عصفت الريح يقول: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». فإذا تخيلت السماء تغير

لون الرسول ﷺ، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سُرَى عنه، فسألت أم المؤمنين عائشة فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم هود: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطِّرُنَا...» (الأحقاف: ٢٤).

أخرج الحديث مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن عائشة، وأورده ابن كثير في تفسير الآية مع غيره من الأحاديث النبوية.

٢٦ - وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكُنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَّةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَّتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

إن هؤلاء الذين أهلكوا كانوا أكثر قوة من أهل مكة، أعطاهم الله النعم والمنعة والقوة، ليشكروا الله عليها، ويحركوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم للتأمل والتفكير والتدبر، والانتقال من النعمة إلى المنعم، ومن الكون إلى المكوّن، ومن خلق السماوات والأرض إلى الصانع المبدع، ومن جملة النعم والقوة التي منحها الله لهم إلى العرفان والشكر، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لقد أهملوا منافذ المعرفة، وعطلوا عقولهم عن التأمل، وأبصارهم عن النظر، وأسماعهم عن سماع حجج الحق وأقوال الرسل، وآيات الله في الأنفس والآفاق، وجحدوا بآيات الله وكذبوا بما جاء به الرسل، فأحاط بهم العذاب، وأطبق عليهم عقاب الله الذي كانوا يستهزئون به، ويستعجلون وقوعه.

قال الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير:

المعنى: إنا فتحنا عليهم أبواب النعم، وأعطيناهم سمعًا فما استعملوه في سماع الدلائل، وأعطيناهم أبصارًا فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها، فلا جرم لم تغن عنهم من عذاب الله شيئًا. ا هـ.

٢٧ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ وَالْقَرْيَ وَالْقَرْيَ وَالْقَرْيَ وَالْقَرْيَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

أهلكنا عددًا من القرى المحيطة بمكة، في الجنوب والشمال، جهة اليمن وجنوبًا، والشام شمالًا، وكانت أخبار هذه القرى معروفة مألوفة لأهل مكة، فهم يمرون على هذه القرى في رحلتهم إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، ويشاهدون قرى قوم لوط التي أهلكنا، ومدائن شعيب، والمؤتفكة التي أهلكنا مع أهلها.

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسول مما حول مكة ، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ، ومدين وكانت فى طريقهم وممرهم إلى غزّة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرّون عليها أيضاً . ١ هـ .

وَصَرُّنَا آلَآيَاتٍ لَّعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

بينّا ووضعنا وكررنا ولونّا فى أنواع العظاات وألوان البيئات لأهل تلك القرى ، لكى يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصى إلى الطاعة والإيمان .

٢٨ - فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلَى ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

فى أعقاب قصة عاد وهلاكها ، تأتى هذه الآية للتأمل فى نهاية قوم كانوا يعبدون أوثاناً يتقربون بها إلى الله ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِّيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... (الزمر : ٣) .

فهل نفعتهم هذه الأصنام ؟ وهل أنقذتهم من الهلاك ؟ والجواب معلوم ، وهو أنه لم يكن لهذه الأصنام أى أثر فى نصرتهم ، بل غابوا عنهم فأصبحوا كالمعدومين .

وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

وهذا الهلاك عاقبة كذبهم وافترائهم على الله ، حيث زعموا أن الأصنام شركاء لله ، وشفعاء لهم عند الله ، وقد خابوا وخسروا فى عبادتهم لها ، واعتمادهم عليها .

إيمان الجن بالقرآن

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

المضردات :

صرفنا : وجهنا .

النـفـر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال .

فلما قضى : فرغ من تلاوته .

منـنـذريـن : مخوفين من عذاب الله ومن عواقب الضلال .

كتابتنا أنزل من بعد موسى : وهو القرآن الكريم .

مصدق لما بين يديه : مؤيداً ومؤكداً لما قبله من التوراة ، لأنهم كانوا مؤمنين بموسى .

يـجـرـكـم : ينقذك .

داعى الله : هو الرسول ﷺ .

فليس بمعجز في الأرض : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

أولئك في ضلال مبين : أولئك الذين لا يستجيبون لله في خسران واضح بين .

تمهيد :

هذه آيات تفيد أن الجن استمعت إلى القرآن من النبي ﷺ ، فانصرف نفر منهم إلى قومهم يحثونهم على الإيمان ، ويحذرونهم من الكفر ، وتفيد الأحاديث النبوية الشريفة أن حضور الجن إلى رسول الله ﷺ قد تكرر .

كما يفيد القرآن والسنة بمعلومات عن الجن ، منها ما يأتي :

١ - هناك في هذا الكون عوالم متعددة ، ومعلومات كثيرة ، ومنها عالم الملائكة ، وعالم الجن .

- ٢ - الجن عالم له تجمعات وقبائل : **إِنَّهُ يَرْسُلَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ...** (الأعراف : ٢٧) .
- أى أن الجن لهم قدرة على التشكل والتكيف والحياة فى هذه الدنيا ، وهم يرون الإنسان ولا يراهم الإنسان .
- ٣ - سخر الله الجن لسلامان عليه السلام : **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمْلِكُونَ كَافَّةً الْجَوَابِ وَقُدُورٌ رَاسِيَتٌ ...** (سبأ : ١٣) .
- ٤ - الجن فريقان : طائفة مهتر مستمع للقرآن ، مستخدم عقله فى استجلاب أسباب الهداية ، وعاصٍ ضال .
- ٥ - مكّن الله سليمان من تسخير العصاة من الجن ، وحبسهم وتقييدهم فى السلاسل .
- قال تعالى : **وَأَعْرَضْنَاهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ فَبُذِلُوا لَئِيْلٌ لَّعْنَةُ الْفَاسِقِينَ** (ص : ٣٨) .
- كما سخر الله له الجن الطائعين . قال تعالى : **وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ...** (سبأ : ١٢) .
- ٦ - الجن خلقت من النار ، والملائكة من النور ، والإنسان مخلوق من تراب ، خلط بالماء فصار طينا ، ثم ترك الطين فترة حتى صار حمأ مسنوناً كالغُخَّار .
- ٧ - الجن مدعونون إلى الإيمان ، ومحدّثون من الكفر والجور والظلم والعدوان .
- قال تعالى : **وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا** . (الجن : ١١) .
- وقال سبحانه : **وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا آلِهَتَهُنَّ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا** * **وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا** * **وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا** * **وَالْوِ الْأَوْاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا** . (الجن : ١٣ - ١٦) .
- وقال سبحانه : **يَنْمُشِرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزَكِّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ** . (الأنعام : ١٣٠) .
- ٨ - من أطاع من الجن فله الثواب ، ومن عصى فعليه العقاب .
- ٩ - الجن عالم تحت قبضة الرحمان ، يسكن هذا الكون ، وطعامه عظام الحيوانات التى ذكر اسم الله عليها ، وطعام دوابه روث الحيوانات .
- ١٠ - ينبغى أن نحارب الخرافة والأسطورة والدُّجَل الذى يرتبط بالجن فى أذهان الناس ، ويكفينا ما ورد عنهم من طريق صحيح ، ولا ينبغى التزيد فى ذلك ، فالقرآن تحدث كثيراً عن الإنس ، وتحدث عن الجن

بقدر يسيرٍ يكفيننا ، ويفيدنا أن معنا في هذا الكون عوالم أخرى ، وأن معلوماتنا محدودة ، وربما تطور العلم في المستقبل بأمر لم تكن في الحسبان ، كما قال سبحانه : **سُتَرِبَهُمْ ءَاتِيَتْهَا فِي الْأَقَاقِي وَلِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ...** (فصلت : ٥٣) .

١١ - الجن لهم قدرة على التشكّل والانطلاق إلى السماء ، وقد ورد في صحيح البخارى أن الجن كانت ترصُ بعضها فوق أكتاف بعض ، وكان آخر جيئ يستمع إلى أخبار السماء فيبلغها للكهان ، فيكذب الكاهن مع هذا الخبر مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمداً ﷺ شدّت الحراسة على السماء ، ولم يستطيعوا التقاط أخبارها ، فأخبرت الجن رئيسها ، فقال لهم : ما ذلك إلا لأمر قد حدث في الأرض ، انطلقوا في مشارقها ومغاربها حتى تعرفوا الخبر ، فانطلقوا فسمعوا رسول الله ﷺ قائماً في صلاة الفجر يقرأ القرآن ، فأمن به من استمع له ، وقد نزلت سورة الجن في هذا المعنى ، وفيها قوله تعالى : **قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** . (الجن : ١ ، ٢) .

وقوله تعالى : **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَ خَرَسًا شَدِيدًا وَهَبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَنَنُصْتَمِعُ آنَآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا** . (الجن : ٨ ، ٩) .

١٢ - يؤخذ من إيمان الجن بالقرآن أن الرسول محمداً ﷺ أرسله الله إلى الإنس والجن .

١٣ - من العلماء من يرى أن النبي ﷺ لم يذهب إلى الجن ولم يكلمهم ، وإنما استمعوا إليه في صلاة الفجر قائماً يقرأ القرآن فآمنوا ، ودعوا قومهم إلى الإيمان .

١٤ - ومن العلماء من يستأنس بأحاديث نبوية ، تفيد أن لقاء الجن بالرسول ﷺ تمّ ست مرات ، دعتهم الجن في إحداها إلى الذهاب إليهم ، فظل قائماً يدعوهم وقد تكاثروا على الاقتراب منه ، واستأنسوا لذلك بقوله تعالى **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أُمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَخَاءً** . (الجن : ١٩ - ٢١) .

١٥ - سورة الجنّ مكملة لموضوع الجن في القرآن ، وكذلك ما ورد في القرآن من معلومات عن الجن وأصلهم وعملهم ، وحياتهم ومناهجهم ، وعقلياتهم وطوائفهم .

١٦ - في موضوع الآيات التي سنفسرها إن شاء الله توبيخ لأهل مكة ، فهذا الكتاب العزيز آمن به الإنس والجن ، وعجزتم عن الإصغاء إليه ، وفيها تسليّة للرسول ﷺ ، فقد ثبت أن إيمان الجن تمّ بعد رحلته ﷺ إلى الطائف ، وكان دعاؤه في الطائف ينبع من شغاف قلبه ، حيث قال : «اللهم أشكو إليك

ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحل على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ويعد هذا الدعاء نزل ملك الجبال ، وقال : يا محمد ، إن ربك أمرنى أن أطيعك فى قومك ، بسبب ما فعلوه بك ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت ، فقال ﷺ : « لا تفعل إنى لأرجو أن يخرج من ظهورهم من يعبد الله ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » . ونلاحظ أن تكذيب أهل مكة قد اشتد قبل الهجرة ، وكذلك تكذيب أهل الطائف ، وقد كان إيمان الجن بالرسول ﷺ بعد عودته من رحلة الطائف مواساة لرسول الله ﷺ ، كما كان الإسراء والمعراج لإطلاعه على إيمان الملائكة به ، كما قال سبحانه : **فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالْأَلْبَيْنَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** . (فصلت : ٣٨) .

التفسير :

٢٩ - **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّئْتَرِينَ** .

وانذكر لقومك ولنفسك حين وجّهنا إليك مجموعة دون العشرة يستمعون القرآن الكريم ، وكان ذلك بوادى نخلة عند منصرفه ﷺ من الطائف ، يقرأ القرآن فى تهجده أو فى صلاة الفجر .

فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ...

عندما حضروا تلاوة القرآن تواصلوا بالإنصات والتفرغ التام ، وحشد الأذن لاستماع القرآن وتأمله .

فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّئْتَرِينَ .

فلما انتهى النبى ﷺ من تلاوة القرآن ، رجعوا إلى قومهم منذرين لهم من الكفر ، مرغبين لهم فى الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم .

وتفيد الروايات أن الجن استمعت للقرآن ، وانصرفت فى هذه الليلة دون مقابلة النبى ﷺ ، ثم إنهم وفدوا عليه جماعات جماعات ، وتم لقاء الجن بالنبى ﷺ ست مرات ، فى بعضها انصرفوا ، وفى بعضها دعوا النبى ﷺ إلى زيارتهم فى مكان حدوده له ، وذهب بعض المفسرين إلى أن الجن كان لهم منذرون فقط ، وقال قوم : كانت للجن رسل منهم ، وانظر تفسير هذه الآية فى الكشف للزمخشري .

٣٠ - قَالُوا يَلْقَوْنَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ.

قال النفر من الجن لقومهم : يا قومنا ، إنا سمعنا كتابًا كريمًا ، أنزله الله تعالى على نبي أرسله بعد نبيه موسى ، هذا الكتاب يصدق الكتب السابقة في أصولها ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى ، والحث على مكارم الأخلاق ، هذا الكتاب يرشد إلى الحق المبين ، وإلى دين الله القويم .

وتعتبر التوراة كتابًا كاملاً فى الأحكام ، أما الإنجيل فهو مشتمل على كثير من المواعظ ، وقليل من الأحكام ، والعهد القديم أساس للعهد الجديد ، فالتوراة كتاب أساسى عند الجميع ، ولذلك قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ...

فالعدة فى التشريع لليهود والنصارى على السواء هى التوراة .

وقال عطاء : كانوا يهودًا فأسلموا .

وقال بعضهم : لم تسمع الجن بعيسى عليه السلام ، ونلاحظ أن ذلك أمر بعيد كما قال المفسرون .

وفى صحيح البخارى أن ورقة بن نوفل حين سمع من رسول الله ﷺ خبر نزول الوحي عليه ، قال ورقة : قدّوس هذا هو الناموس (الوحي) الذى أنزله الله على موسى (٣٧) .

٣١ - يَلْقَوْنَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

تلقفت الجن فى دعوة قومها إلى الإيمان ، والتصديق بمحمد رسول الله ﷺ ، وبالقرآن الذى أنزله الله عليه .

ومعنى الآية :

استجبوا يا قومنا لداعى الإيمان بالله تعالى ، وهو القرآن الكريم أو الرسول محمد ﷺ ، وآمنوا بالله ، وأطيعوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، يَكُنْ جزاؤكم مغفرة بعض ذنوبكم ، تلك التى بينكم وبين الله ، أمّا مظالم العباد فيجب أن تردّ إلى أصحابها ، ومغفرة الذنوب وسترها يضاف إليها أن يخلصكم الله وينجيكم من عذاب شديد مؤلم .

وقد ذهب عدد من الأئمة إلى أن الجن الصالح يكافأ بالمغفرة والنجاة من العذاب ، ودخول الجنة مثل الإنسان تمامًا ، وذهب بعض الأئمة إلى أن الجن الصالح يكافأ بمغفرة الذنوب والنجاة من العذاب فى جهنم ، ولا يدخلون الجنة .

قال الحسن :

ليس لمؤمنى الجن ثواب غير نجاتهم من النار ، فيقال لهم : كونوا تراباً ؛ فيكونون تراباً ، وبه قال أبو حنيفة .

وقال القشيري معلقاً على هذا الخلاف :

والصحيح أن هذا مما لم يقطع فيه بشيء ، والعلم عند الله .

ونعم ما قال ، فلماذا الاسترسال فى بحث أمور من الأفضل السكوت عنها ، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه .

٣٢- وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

من رفض الإيمان بالله ، ورفض تلبية دعوة رسوله وكتابه المنزل ، فإنه لا يفوت الله طلباً ، ولا يعجزه هرباً ، فالله سبحانه على كل شيء قدير ، والكون كله فى قبضته ، وهو سبحانه لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه هارب ، وهذا الكافر لا يجد ولياً ينصره ، ولا سنداً يمنعه من عذاب الله ، وليس له من دونه ولي ولا نصير ، إن هذا الهارب الأبق الكافر ، قد خسر الدنيا والآخرة ، وسار فى ضلال واضح لاختياره الكفر ، وابتعاده عن الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

لقد كان هذا النفر من الجن حكيماً فى دعوته ، حيث استعمل أسلوب الترغيب والترهيب ، لذلك نجحت دعوتهم فى هداية كثير منهم ، وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً .

ختم سورة الأحقاف

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَفْدِرْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ
الْمَوْتِ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٢) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ
قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ
مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلْغَ
فَهْلٍ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

لَمْ يَعْ : لم يعجز ولم يتعب .

يُعرض الذين كفروا على النار : يوقفون عليها ، ويمررون بها .

أُولُو الْعَزْمِ : أولو العزم من الرسل خمسة : نوح ، إبراهيم ، موسى ، عيسى ، محمد ﷺ ، نظمهم
الشاعر في قوله :

أولو العزم نوح والخليل المجدد وموسى وعيسى والحبيب محمد

لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً : كأنهم حين يرون العذاب لم يمكنوا في الدنيا إلا وقتًا يسيرًا من نهار ، لشدة
العذاب وطول مدته .

بَلْغَ : أى أن ما وعظوا به كفاية في الموعظة .

تمهيد :

في ختم سورة الأحقاف نجد ثلاث آيات :

الأولى : تستعرض مشاهد الكون ، وتستلطف النظر إلى أن خالق الأكوان قادر على إحياء الموتى ، فهو
سبحانه على كل شيء قدير .

الثانية : تستعرض مشهدًا من مشاهد القيامة ، حين يكلف الكفار بمشاهدة نار جهنم عيانًا جهارًا ،
ويقال لهم : كنتم تكذبون بالبعث والحشر والجزاء والجنة والنار ، فهل هذه النار حقيقة ماثلة ؟ فيشهدون
بذلك مقسمين : بَلَى وَرَبِّنَا .

لقد كذبوا بالله وبالجزاء في الدنيا ، فكان الجزاء على كفرهم هُوَ : ذوقوا عذاب النار بسبب كفركم .

أما الآية الثالثة : فهي ختام السورة ، وهى دعوة للصبر والمصابرة ، والتجلى أمام تكذيب الكفار وتعنتهم ، كما صبر الأنبياء المرسلون الكبار ، أصحاب العزائم ، أما الكفار فلم يوم يصلون فيه العذاب ، فإذا شاهدوا عذاب النار وطول مدته استهانوا بكل أيام الدنيا ، ويكل شهواتها ولذائنها ، من شدة هول عذاب الآخرة ، وكأن الدنيا بالنسبة لهم ساعة من نهار بالنسبة لطول عذاب الآخرة ، ثم تختتم السورة بأن هذه موعظة بليغة ، لا يحرم من الاستجابة لها إلا محروم فاسق .

التفسير :

٣٣ - أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِ بِخَلْقِهِنَّ بُقْدِيرًا عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أو لم يشاهدوا مظاهر القدرة الإلهية فى خلق السماوات الطباق ، وما فيها من أبراج وأفلاك ، وشموس وأقمار ، وملائكة ومخلوقات عديدة ، وخلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار ، وإنس وجن ، وحيوانات وطيور ، وحشرات وهوام ، ودواب متعددة لا يعلمها إلا الله ، وقد خلق الله السماوات والأرض ، بدون أن يصيبه تعب ، أو إعياء أو لغوب أو كلال ، أليس هذا الخالق المبدع بقادر على أن يحيى الموتى ، بأن يعيد الروح إلى الجسد ، ويأمر الموتى بالقيام والبعث ، ثم بالحشر والنشر والجزاء ؟ بلى إنه سبحانه قادر على الخلق فى البدء ، وقادر على الإعادة ، وهو سبحانه على كل شىء قدير .

٣٤ - وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَىٰ آثَارِهِمْ هَلْ نَحْنُ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

وإذكر لهم أحداث يوم القيامة ، ومنها أخذ الكفار لمشاهدة النار وأهوالها ، وعذابها وحميمها وغسلينها ، وسائر أهوالها . وعندئذ يقال للكفار الذين كانوا يسخرون من المؤمنين ، ويستبعدون وقوع العذاب ، ويقولون : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

(المؤمنون : ٣٦ ، ٣٧) .

لكنهم يوم القيامة يؤكدون أن النار والعذاب ، والحساب والقيامة ، والجزاء والعقاب ، حق وصدق ، ويقسمون بالله مؤكدين ذلك ، لعلمهم بهذه الشهادة والحلف عليها لتأكيدها أن يفروا من العذاب ، لكن الجواب عليهم يكون مقابلاً لأعمالهم فى الدنيا .

قَالَ قَدْ وَقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أى : اصطلوا بنار جهنم ، وذوقوا ألوان العذاب فيها ، بسبب كفركم بالله ، وعدم استجابتكم لرسول الله فى الدنيا ، وتكذيبكم بقدرة الله على البعث والحشر ، والجزاء والعقاب ، فالجزاء لكم من جنس العمل ، بسبب كفركم ، ولا ظلم فى ذلك لكم ، لأن الله لا يظلم أحداً وهو عادل كل العدل .

٣٥ - فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُغُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَائٍ يَلْعَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

تأتى هذه الآية فى ختام السورة ، سورة الأحقاف المكية ، وفيها أدلة التوحيد والقصص ، وحديث عن إيمان الجن ، ومناقشة الكافرين ، ثم توجه الحديث إلى رسول الله ﷺ تدعوه إلى الصبر والمصابرة ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، وهم أصحاب العزائم والثبات ، الذين اجتهدوا فى تبليغ الشريعة ، وتأسيسها وتقريرها ، وصبروا على تحمل مشاق الدعوة ، ومعاداة الطاعنين فيها .

قال مقاتل : هم ستة :

١ - نوح صبر على أذى قومه مدة طويلة .

٢ - وإبراهيم صبر على النار .

٣ - وإسماعيل صبر على الذبح .

٤ - ويعقوب صبر على فقد الولد ونهاب البصر .

٥ - ويوسف صبر على البئر والسجن .

٦ - وأيوب صبر على الضر .

وقال ابن عباس : كل الرسل كانوا أولى عزم ، أى : اصبر كما صبر الرسل .

وقيل : هم نجباء الرسل المذكورون فى الآيات (٨٣ - ٨٧) من سورة الأنعام ، وهم ثمانية عشر :

إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ونوح ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط^(٣٧) .

وأشهر الآراء أن أولى العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

وكم صبر محمد ﷺ وصابر ، وتحمل فى مكة والطائف ، وطريق الهجرة وأعمال المدينة ، وسائر الغزوات ، حتى لقى ربه راضياً مرضياً ، فالآية تثبت لصبره ، وتأكيد ومؤازرة ، وأيضاً تهديد للكفار ، وهذا معنى :

وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ...

لا تتعجل وقوع العذاب بهم في الدنيا ، فإن لهم موعداً لن يفلتوا منه : فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ .
(الدخان : ٥٩)

وقال مقاتل : لا تدع عليهم في إحلال العذاب بهم ، فإن أبعد غاياتهم يوم القيامة .

كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ...

من العذاب في الآخرة ، لم يكتفوا في الدنيا أو في قبورهم إلا وقتاً يسيراً ، لطول مدة عذاب الآخرة ، وامتداد عذابها أبد الأبد ، ويزيد في طولها أنه لا أمل في النجاة ، ولا في الرجوع إلى الدنيا ، ولا في تخفيف العذاب .

بَلِّغْ . أى : بلغنا ، وقد أعذر من أنذر ، أو إن في هذا القرآن وما يحمل من صنوف الآيات ، وألوان الهداية ، ما يكفي في تبليغ الدعوة ، وفي فتح الأبواب لمن أراد أن يلج في طريق الهداية ، فكم فتح الله فيه من أبواب رحمته وهدايته ، وكم لوّن وصرف من طرق الهداية ، فلا يهلك على الله إلا هالك ، فما أوسع أبواب رحمته .

فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ .

أى : لا يستحق الهلاك إلا خارج على طاعة الله ، مغرض عن أسباب الهداية وما أكثرها ، فهذا الفاسق الخارج على طاعة الله ، الكافر بالله وألوان هدايته ، أهل للهلاك العادل : وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣) .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأحقاف

- ١ - إقامة الأدلة على التوحيد ، والرّد على عبدة الأصنام .
- ٢ - المعارضات التي ابتدعها المشركون للنبيّة ، والإجابة عنها ، وبيان فسادها .
- ٣ - ذكر حال أهل الإيمان والاستقامة ، وبيان أن جزاءهم الجنة .
- ٤ - ذكر وصايا للمؤمنين بإكرام الوالدين ، وبيان مشقة الأمّ في الحمل والوضع والرضاع .
- ٥ - بيان حال من انهمكوا في الدنيا وملذاتها .
- ٦ - قصص عاد ، وفيه أن الله أنعم عليهم بنعم متعددة ، فبطروا وأشروا وكفروا ، وعاندوا واستحقوا الهلاك .
- ٧ - استماع الجن إلى رسول الله ﷺ ، وتبليغهم إلى قومهم ما سمعوه .
- ٨ - عظة للنبي ﷺ وللمؤمنين من أمته .
- ٩ - الأمر بالصبر ، وبيان قصر الدنيا وقلة نعيمها بالنسبة إلى نعيم الآخرة .
- ١٠ - ما أوسع رحمة الله وفضله وفتح الأبواب لكل عاصٍ ، فلا يهلك إلا من رفض كل ألوان الهدى ، وخرج على طاعة الله ، وارتقى في أحضان الشهوات .

تفسير سورة محمد

أهداف سورة محمد ﷺ

هى سورة مدنية ، وآياتها ٣٨ آية ، نزلت بعد سورة الحديد ، ولها اسمان : سورة محمد ، وسورة القتال .
والقتال عنصر بارز فى السورة ، بل هو موضوعها الرئيسى ، فقد نزلت بعد غزوة بدر وقبل غزوة
الأحزاب ، أى فى الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة ، حيث كان المؤمنون يتعرضون لعنت
المشركين ، وكيد المنافقين ، ودسائس اليهود .

عناصر السورة

يمكن أن نقسم سورة (محمد) إلى ثلاثة أقسام :

- القسم الأول : يحرض على قتال المشركين ويحث عليه ، ويشمل الآيات (١ - ١٥) .
- القسم الثانى : يفضح المنافقين ويكشف نفاقهم ، ويشمل الآيات (١٦ - ٣٠) .
- القسم الثالث : دعوة المسلمين إلى مواصلة الجهاد بالنفس والمال ، ويشمل الآيات (٣١ - ٣٨) .

١ - التحريض على قتال المشركين :

تبدأ السورة بالهجوم على المشركين وتبين هلاكهم وضياعهم وضلالهم ، لقد سلب الله عنهم الهدى
والتوفيق ، فاتبعوا الباطل وانحرفوا إلى الضلال ، أما المؤمنون فقد آمنوا بالله ورسوله : فكفر الله ذنوبهم
ورزقهم صلاح البال وهدوء النفس ونعمة الرضا واليقين .

وشتان بين مؤمن راسخ الإيمان ، صادق اليقين ، معتمد على رب كريم حلیم ، وبين كافر ضال يبيع
الحق ويشترى الباطل ، ويفرط فى الإيمان والهدى ، ويتبع الشرك والضلال .

ثم تحت السورة المسلمين على قتال المشركين ، وقطع شوكتهم وهدم جيروتهم ، وإزالة قوتهم من طريق
المسلمين : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ ... وهذا الضرب بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له ، حَتَّىٰ إِذَا
أَخْتَضَعْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ ... والإنخاض شدة التقتيل حتى تتحطم قوة العدو وتهاوى فلا تعود به قدرة على هجوم
أو دفاع ، وعندئذ يؤسر من استأسر ويشد وثاقه : فَأِمَّا مَن بَعْدَ وَرَيْثِهَا فَأَعَادَ ... أى إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا

مقابل ، وإما أن يطلق سراحهم مقابل فدية من مال أو عمل ، أو فى نظير إطلاق سراح المسلمين البأسورين .
حَتَّى تَصْعَقَ الْحَرْبُ أَزْوَاجَهَا ... (محمد: ٤) . أى : حتى تنتهى الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له .

ولو شاء الله لانتقم من المشركين وأهلكهم كما أهلك من سبقهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم ، ولكن الله أراد أن يختبر قوة المؤمنين ، وأن يجعلهم سبيلاً لإعزاز الدين وإهلاك الكافرين ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضيع أعمالهم ، فهم شهداء عند الله يتمتعون بجنات خالدة ونعيم مقيم ، وأرواحهم فى حواصل طير خضر تسبح حول الجنة ، وتأكّل من ثمارها وتقيم فى ألوان النعيم ، وقد وعد الله الشهداء بحسن المثوبة والكرامة والهداية وصلاح البال ودخول الجنة : لأنهم نصروا دين الله فسينصرهم الله ويثبت أقدامهم ، كما توعد الكافرين بالتعاسة والضلال والهلاك جزاء كفرهم وعنادهم .

وتسوق السورة ألواناً من التهديد للمشركين ، فتأمرهم أن يسيروا فى الأرض فينظروا ماذا أصاب المكذبين من الهلاك والدمار ، ثم تمضى السورة فى ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، فتصف المؤمنين بأنهم فى ولاية الله ورعايته ، والكفار محرومون من هذه الولاية .

وتفرق السورة بين متاع المؤمنين بالطيبات ، وتمتع الكافرين بلذات الأرض كالحوانات : إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَآثَارُ مَوْتِهِمْ . (محمد: ١٢) .

إن الفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة ، فإذا فَقَدَ هذا فَقَدَ أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله .

ثم تمضى السورة فى سلسلة من الموازنات بين المؤمن المتيقن والكافر الذى اتبع هواه وشيطانه ، وُذِينَ لَهُ سِوَا الْعَمَلِ : أَلَمْ يَكُنْ كَانَ عَلَى نَسِيَةٍ مِّنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ . (محمد: ١٤) .

كما تصف الآيات متاع المؤمنين فى الجنة بشتى الأشربة الشهية ، من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمرة لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، فى وفر وفير ، فى صورة أنهار جارية ، وذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان ، ثم سؤال : أهؤلاء المتمتعون بالجنة والرضوان ، كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي آثَارٍ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ؟ .

٢ - خصال المنافقين :

تشمل الآيات (١٦ - ٣٠) المقطع الثاني من سورة محمد ، وفيها حديث عن المنافقين وصفاتهم ، وحركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود في مكة نظراً لضعف المسلمين في مكة وتفوق أعدائهم ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وبدأ شأن الإسلام في الظهور والاستعلاء ، بدأت حركة النفاق في الظهور والنمو ، وساعدها على الظهور وجود اليهود في المدينة ولهم قوة مادية وفكرية ، وكراميتهم للدين الجديد ، وسرعان ما اجتمع اليهود مع المنافقين على هدف واحد ، ودبروا أمرهم بليل ، فأخذ المنافقون في حيك المؤامرات ودس الدسائس في كل مناسبة تعرض ، فإن كان المسلمون في شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ، وإذا كانوا في رخاء ظلت الدسائس سرية والمكائد في الظلام ، وكانوا إلى منتصف العهد المدني يشكلون خطراً حقيقياً على الإسلام والمسلمين ، وقد تواتر ذكر المنافقين ووصف دسائسهم والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوبة .

والحديث عن المنافقين في سورة (محمد) يحمل فكرتها ، ويصور شدتها في مواجهة المشركين والمنافقين ، بل إن المنافقين هم فرع من الكافرين ، أظهروا الملاينة وأبطنوا الكفر والخداع ، أو هم فرع من اليهود يعمل بأمرهم ، وينفذ كيدهم ومكرهم ، فمن هؤلاء المنافقين من يستمع إلى النبي بأذنه ويغيب عنه بوعيه وقلبه ، فإذا خرج من مجلس النبي تظاهر بالحرص على الدين ، فسأل الصحابة عما قاله النبي سؤال سخرية واستهزاء ، أو سؤال تظاهر برياء .

أولئك المنافقون قد طمس الله على أفئدتهم فلا تفقه ، وقد اتبعوا أمواءهم ، فقادهم الهوى إلى الهلاك .

بينما المتقون المهتدون يزيدهم الله هدى ويمنحهم التقوى والرشاد ، ثم يتهدد القرآن المنافقين بالساعة ، فإذا جاءت فلا يملكون الهداية ولا تنفعهم الندامة .

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُنَاهُمْ . (محمد : ١٨) .

ثم تصور الآيات جبن المنافقين واهلهم وثقاتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم بالقتال ، فهم يتظاهرون بالإيمان ، فإذا أنزلت سورة لا تشابه فيها وذكر فيها الجهاد : رأيت المنافقين ينظرون إليك يا محمد نظراً كنظر من هو في النزاع الأخير ، تشخص أبصارهم ، لذلك كانوا جديرين بأن يهددهم الله بالويل والهلاك .

وتحثهم الآيات على الطاعة والصدق والثبات : فَأَوَلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلُوّ صَدْقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ . (محمد : ٢٠ ، ٢١) .

وبذلك يفتح القرآن الباب لمن يريد الطهارة الحسية والنفسية من المنافقين ومن جميع المخاطبين .

ثم يحثهم على تدبر القرآن وتأمله حتى يحرك المشاعر ويستجيش القلوب ويخلص الضمير .

وتمضى الآيات فى تصوير حال المنافقين ، وبيان سبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فتبين أنه تأمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون .

لقد كره اليهود الإسلام وتألبوا عليه ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة شنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، وانضم المنافقون لليهود يقولون لهم سرًا : سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ . (محمد : ٢٦).

ثم يتهدد القرآن المنافقين بملائكة العذاب ، لأنهم تركوا طريق الإسلام ، وانضموا إلى دسائس الحاقدين عليه .

وفى نهاية المقطع يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله ﷺ وللمسلمين الذين يعيشون بينهم متخفين ، لأن ما فيك يظهر على فيك :

ومهما تكن عند امرئ من خلية وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ • وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ . (محمد : ٢٩ ، ٣٠) .

٣ - حديث عن المشركين والمؤمنين :

المقطع الأخير من السورة يشمل الآيات (٣٢ - ٣٨) ، وقد تحدث فى بدايته عن المشركين ، وبين أنهم منعوا الناس عن الإيمان بالله ، وأعلنوا الشقاق والعداوة لرسول الله ، وهؤلاء لن يضروا الله ب كفرهم ، وسيحبط الله أعمالهم .

وتتجه الآيات إلى المؤمنين فتأمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول ، وتأمرهم بالثبات على الحق حتى يأتى نصر الله .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ . (محمد : ٣٣) .

وهذا التوجيه يوحى بأنه كان فى الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ، أو من تنقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التوضيحات التى يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التى تقف للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ، والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قرى يصعب فصلها والتخلى عنها نهائياً كما تقتضى العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين ، فارتعشت له قلوبهم وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ويذهب بحسناتهم .

وتستمر الآيات في خطاب المؤمنين ، تدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس والمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدى الظالم ، تحت أي مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة ، ودون بخل بالمال الذي لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا في حدود مستطاعة ، مراعيًا الشح الفطري في النفوس ، وإذا لم ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامتها حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قومًا غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها ، وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشي بأنه كان علاجًا لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك - من غير المنافقين - وذلك إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات، فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء.. وكان القرآن يعالج ويربي لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالي الكريم .

مقصود السورة إجمالاً

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود سورة محمد : الشكاية من الكفار في إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان ، وابتلاء الكفار في العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمة خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخل في الإنفاق ، وبيان استغناء الحق تعالى وفقر الخلق في قوله تعالى : **وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ** ... (محمد : ٣٨) (٢٨) .

بين يدي السورة

أخرج الطبراني في الأوسط ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يقرأ سورة محمد ﷺ في صلاة المغرب .

وتسمى سورة محمد لبيان تنزيل الكتاب على محمد ﷺ فيها ، في قوله تعالى : **وَأَمْنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ** ... (محمد : ٢) .

ولم يذكر محمد ﷺ باسمه في القرآن إلا أربع مرات :

في سورة آل عمران : **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ... (آل عمران : ١٤٤) .

وفي سورة الأحزاب : **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ** ... (الأحزاب : ٤٠) .

وهنا في سورة محمد ، وفي سورة الفتح : **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ** ... (الفتح : ٢٩) .

وفي غير هذه المواضع يذكر بصفته أو النبي مثل : **يَنَاءِيهَا أَتَىٰ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا** .
(الأحزاب : ٤٥)

وسميت سورة القتال لبيان أحكام القتال والدعوة إلى الجهاد فيها ، مثل قول تعالى : **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ** ... (محمد : ٤) .

بيان الفرق بين الكفار والمؤمنين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ۝﴾

المقدرات :

وصدوا عن سبيل الله ، منعوا الناس عن الدخول في الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم من الدخول فيه ، وأعرضوا عنه .

أضل أعمالهم ، أبطلها .

وهو الحق من ربهم ، الحق الثابت الذي لا مرية فيه .

كفر عنهم سيئاتهم ، أزالها ومحاهها بالإيمان والعمل الصالح .

وأصلح بآلهم ، حالهم في الدِّين والدنيا ، وأصل البال : الحال التي يكثر بها ، ولذلك يقال : ما

بأليت به ، أى : ما أكثرت به ، ومنه قوله ﷺ : «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم

الله الرحمن الرحيم فهو أجزم أو أقطع» .

اتبعوا الباطل ، الشرك أو الشيطان .

اتبعوا الحق ، التوحيد والقرآن .

يضرب الله للناس أمثالهم ، يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في ميعادهم .

تمهيد :

هذه الآيات بداية قوية لسورة القتال ، والسورة كلها دعوة للقتال ، وبيان عاقبة الكافرين ، وهى الخزي

والخذلان وعذاب الآخرة ، وعاقبة المؤمنين الذين آمنوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ ، حيث يقبل الله منهم

صالح أعمالهم ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، ويصلح بالهم .

هذا الجزء العادل لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل والأهواء ، والذين آمنوا اتبعوا الحق والهدى .

التفسير :

١ - الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ .

هذه بداية السورة ، تلقى في وجه الكافرين عقوبة كفرهم وضلالهم ، فهؤلاء أهل مكة كفروا وَمَنَعُوا الناس من الإيمان ، وخرجوا في غزوة بدر الكبرى بطراً وتظاهراً بالباطل ، وليتسامع بهم الناس ، فكان الجزء أن هزمهم الله هزيمة منكرة ، فقتل منهم سبعون ، وأسير منهم سبعون ، وفرّ الباقيون ، فجعل كيدهم ضائعاً ، وعملهم ضالاً ، ومكرهم في تباب .

وتفيد روايات أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في كفار مكة ، الذين أرادوا هزيمة المسلمين في بدر ، فهزمهم الله .

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله تعالى : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ .

قال : هم أهل مكة ، نزلت فيهم .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... قال : هم الأنصار .

وقال ابن عباس في رواية أخرى : نزلت في المطعمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلاً : أبو جهل ، والحارث ابن هشام ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبى وأمية ابنا خلف ، ومنبّه ونُبَيْه ابنا الحجاج ، وأبو البحتري بن هشام ، وزمعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحارث بن عامر بن نوفل .

ومعنى : أَضَلُّ أَعْمَلُهُمْ .

جعلها ضالة على غير هدى وتوفيق ، وذكر بعض المفسرين أن المعنى : أبطل الله ثواب الأعمال الحسنة ، التي يسمونها مكارم الأخلاق ، كصلة الرحم ، وإكرام الضيف ، وإجارة المستجير ، فقد أبطل أعمالهم فساد عقيدتهم .

قال تعالى : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مُّثَوْرًا . (الفرقان : ٢٢) .

أى أن الله يجازيهم على أعمالهم الحسنة في الدنيا ، لأنهم لا نصيب لهم في الجنة بسبب كفرهم .

وهناك من المفسرين من يرى أن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وأنه لن يضيع مكافأة أى عامل على عمل عمله ، حتى ولو كان كافراً أو كاثباً ، واستشهدوا بقوله تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

ويقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰحِبِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . (البقرة : ٦٢) .

والأولى بنا أن نقول : إن ذلك فى مشيئة الله تعالى ، وعلمه وحكمته وفضله ، فنفوض علم ذلك إليه سبحانه وتعالى .

٢ - وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ .

والذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن كتاباً منزلاً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وآمنوا بأن القرآن كتاب الله ، نزل به جبريل الأمين على محمد ﷺ ، وأن القرآن حق وعدل وصدق أنزله الله على نبيه ﷺ ، هؤلاء المؤمنون يقبل الله إيمانهم ويكفر عنهم السيئات التى ارتكبوها قبل الإسلام ، ويرزقهم الهدى والتقوى ، والسعادة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ويصلح بالهم وشأنهم وأمورهم .

٣ - ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الضَّلِيلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ .

ذلك الجزاء العادل بإكرام المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ، سببه أن الذين كفروا ساروا وراء الباطل والكفر والإعراض عن القرآن وهدايته ، والرسول محمد ﷺ وبيانه ، والعقل الإنسانى وحكمته ، بينما نجد أن الذين آمنوا اتبعوا الحق والعدل ، وهدى القرآن ، وبيان محمد ﷺ ، فاستحق الكفار النار ، واستحق المؤمنون التوفيق فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة .

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ .

مثل ذلك البيان الرائع ، يبين الله للناس أحوال الفريقين ، الجارية مجرى الأمثال فى الغرابة ، ويظهر مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى ميعادهم .

«وضرب المثل فى الآية هو أن الله جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين» (٣٩) .

أحكام القتال والأسرى والقتلى

فى سبيل الله ونصرة الإسلام

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مَتَّ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَكُمْ صِيْرًا وَيُصْلِحُ بِأَلْمَمِ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝ يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْهُمْ وَيُقِمْ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَسْفَلُ أَعْمَالُهُمْ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْطَطُوا بِأَعْمَالِهِمْ ۝﴾

المفردات :

فَضَرْبَ الرِّقَابِ : أصله : اضربوا الرقاب ضرباً ، فحذف الفعل ، وقدم المصدر .

أَتَخْتَمُوهُمْ : أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، أى : جعلتموه ثقيلاً غليظاً .

فَشُدُّوا الْوُثَاقَ : فأسروهم ، وأحكموا قيد من أسرتهم ، بعد إيثاقهم بكثرة القتل وإضعافهم

ببِالْجِرَاحِ ، والوثاق والوثاق : ما يوثق به ، أى : ما يربط به .

الْمَمَم : إطلاق الأسير بغير عرض .

وَالْمَمَم : إطلاق الأسير بعوض .

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا : آلتها وأثقالها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح ، وهو كناية عن انتهاء الحرب .

لَا تَنْتَصِرُ مِنْهُمْ : لا تنتقم منهم بغير الحرب كالزلزلة .

لِيَبْلُوَ : لِيَبْتَلَى وَيَصِيبَ .

فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ : فلن يضيعها .

عَرَّفَهَا لَهُمْ : يهدى أهل الجنة إلى مساكنهم بإلهام منه تعالى ، فلا يخطئونها .

أَحْبَبَ : أضع .

تمهيد :

عند القرآن الكريم إلى تربية المسلمين على الجهاد ، فمدح الشهادة ، وذكر فضل الشهداء ، وثوابهم ومنازلهم فى الجنة ، وحياتهم البرزخية والمعنوية ، وهنا يحث المؤمنين على الشجاعة فى الحرب ، وإحكام

القتال ، وضرب رقاب الكافرين ، وإثخان جراحاتهم وإضعافهم ، ثم أخذ الأحياء أسرى ، وللإمام حينئذ أن يمن عليهم ، أو يقبل الغداء ، أو يفعل ما يراه مناسباً لإعزاز الدين ومنفعة المسلمين ، مثل تبادل الأسرى ، أو غير ذلك ، ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بأفات سماوية أو أرضية ، لكنه أراد سبحانه اختبار المؤمنين ، وتدريبهم وتشجيعهم على قتال الكافرين ، أما الشهداء فتوابهم عظيم ، وطريقهم إلى الجنة معروف لهم ومألوف ، ثم نادى المؤمنين وبين لهم أن المؤمنين الذين ينصرون دين الله ، سينصرهم الله وسيمنحهم لهم فى الأرض ، أما الذين كفروا فلهم التعاسة ، وضياح الأمل ، لأنهم كرهوا ما أنزل الله على رسوله ، فأحبط الله أعمالهم ، وأذهبها كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، بسبب عدم إيمانهم .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم ، عن قتادة فى قوله تعالى : **وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ** .

قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ، ورسول الله ﷺ فى الشعب ، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : **اعْلُ هُبَلْ (أكبر أصنامهم)** ، ونادى المسلمون : **الله أعلى وأجل** . فقال المشركون : **إننا لنا العزى ولا عزى لكم** . فقال رسول الله ﷺ : **«قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم»** .

التفسير :

٤ - **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُواهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَأِمَّا مِتًّا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ** .

تشجع الآية المسلمين على الجهاد ، والقوة عند الحرب مع المشركين ، وأهل الكتاب المعتدين .

والمعنى :

إذا لقيتم الكافرين فى الحرب فاحصدهم حصداً ، واضربوا رقابهم ضرباً قاتلاً بالسيف ، حتى إذا تمكنتم منهم ، وأكثرتم فيهم القتل والجراح واستسلموا لكم .

فَشُدُّوا الرِّبَاقَ فَأِمَّا مِتًّا بَعْدَ إِمَّا فِدَاءٍ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...

أى : إحكام وثاق الأسرى حتى لا يفلتوا من أيديكم ولا يهربوا ، والإمام مفوض فى اتخاذ الحل الأمثل والأنسب ، فله أن يمن عليهم ويطلق سراحهم بدون فداء ، وله أن يأخذ الغداء من الأسرى ، أو يبادلهم بأسرى المسلمين ، ونلاحظ أن قتل الكافرين مقيد بفترة الحرب ، فإذا انتهت الحرب ووقع جانب منهم فى الأسر فلا يجوز أن يقتل الأسير .

أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن الحسن ، قال : أتى الحجاج بأسارى ، فدفع إلى ابن عمر رجلاً يقتله ، فقال ابن عمر : ليس بهذا أمرنا ، إنما قال الله تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ فَهَرَبُوا وَلَوْ نَاقٍ فِيمَا مَثَا بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ...**

ومن ذلك نلمح روح الإسلام فى الحرص على السلام ، فالحرب فى الإسلام ضرورة لوقف العدوان ، وإزالة طواغيت الكفر ، ثم ترك الناس أحراراً فى عقيدتهم .

قال تعالى : **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ...** (البقرة : ٢٥٦) .

وقال عز شانه : **وَأِنْ جَنَّحُوا لِلْغُلَامِ فَلَا تَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ...** (الأنفال : ٦١) .

حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ...

حتى تنتهى الحرب ، وبعد الحرب أحكام يجب احترامها ، ومعاهدات يجب المحافظة عليها .

ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ...

أى : ذلك هو الحكم فى قتال الكافرين ، والغلبة والشدة فى حربهم ، ولو أراد الله لانتصر منهم ، بإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب ، كالخسف والرجفة والغرق ، دون قتال منكم أيها المؤمنون ، لكن الله تعالى أراد امتحان المؤمنين وابتلاءهم بإيجاب القتال عليهم ، حتى يرى منهم امتثال أوامره ، والرغبة فى الشهادة ، واحتمال الجهاد والقتال والجراح والآلام .

قال تعالى : **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .** (البقرة : ٢١٦) .

فالله تعالى يريد إعداد المؤمنين ، وخلق روح الكفاح والقتال فيهم ، وفى غزوة بدر رغب بعض المؤمنين فى الاستيلاء على تجارة قريش عوضاً عن أموالهم التى اغتصبها الكفار بمكة ، وأراد الله أن يجعل من بدر ملحمة ، حتى يحق الحق وينصر الإسلام ، بسبب بطولة المسلمين وجهادهم وبلائهم .

قال تعالى : **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّرْكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُخَيِّطَ الْحَقَّ وَيُطِيلَ الْبَطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .** (الأنفال : ٧ ، ٨) .

وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ .

إن هؤلاء الشهداء الذين ضَحُّوا بأرواحهم وأنفسهم ، وجادوا بها لنصر دين الله ، هؤلاء لن يذهب عملهم سدى ، ولن يضيع عملهم ولن يحبط ، ولن يفقد ثوابه جزاءه ، وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ»^(٣٠) .

٥ - سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ .

سوف يقيمهم الله لألوان الهداية والإيمان ، وحب الله وحب دينه وحب رسوله ، ويمنحهم اللطاف والسادر والتوفيق ، ويصلح حالهم وأمرهم ، ويجعلهم سعداء فى الدنيا ، وسعداء فى الآخرة .

٦ - وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ .

ويسر لهم دخول الجنة التى وصفها لهم بأنها نعيم خالد : فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ... (محمد : ١٥) .

ومن معانى هذه الآية أن المؤمن إذا دخل الجنة ، اهتدى إلى منزله بتوفيق الله وفضله .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «والذى نفسى بيده ، إن أحدهم بمنزله فى الجنة ، أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا»^(٣١) .

وقال مجاهد : يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومسكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ، كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً .

٧ - يَسَّيِّرُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ .

يا أيها الذين اختاروا الإيمان ، إن تنصروا دين الله وشرعه والجهاد فى سبيله ، فإن الله تعالى ينصركم على أعدائكم ، ويثبت أقدامكم فى مواطن الحرب ، أو على محجة الإسلام ، ويمدكم دائماً بالتمسك بالطاعة والتوفيق .

٨ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَالْصَّلَ أَعْمَلُهُمْ .

والذين كفروا بدين الله ، ولم يصدقوا بالإسلام ، فهلاكاً لهم وشقاء وتعاسة فى الدنيا ، ولهم عذاب النار فى الآخرة .

وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ.

جعلها ضالة لا ثواب لها ؛ لأنها كانت بدون إيمان .

٩ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلُهُمْ .

ذلك الإضلال بسبب كراهيتهم للقرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ، وفيه التوحيد والعفة والاستقامة ، وتحريم الخمر والزنا والميسر ، ورغبة الكافرين في إشباع ملذاتهم ، واتباع أهوائهم .

فَأَخْبَطَ أَعْمَلُهُمْ .

أضاع ثوابها لعدم الإيمان ، أو أحبط عبادتهم للأوثان والأصنام وجعلها هالكة لا وزن لها ولا ثواب

قال الزمخشري :

أى : كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكليف والأحكام ، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان نى الشهوات والملذات ، فشقّ عليهم ذلك وتعاضمهم .

من تفسير الجصاص

قال ابن عباس فى قوله تعالى : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْعِنَ فِي الْأَرْضِ ... (الأنفال : ٦٧) .
ذلك يوم بدر ، والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم ، أنزل الله تعالى بعد هذا فى الأسارى :
يَأْمُرُ مَنْ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ... (محمد : ٤) .

فجعل الله النبىء والمؤمنين فى الأسارى بالخيار ، إن شاءوا قتلهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادوهم ، أى يفعل الإمام ما يراه مصلحة حربية .

النظر في آثار الأمم السابقة

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَلُهَا ۖ ﴾ (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَغُلُلُوا الصَّلَاحَ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكُودَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ۖ ﴿١٢﴾ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ ﴿١٣﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَيْهِ زَيْنٌ لَهُ سَوْءُ عَمَلٍ يُبْعَثُ أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴿١٤﴾

المضردات :

عاقبة : آخرة ، وعاقبة كل شيء : آخره .

دمر الله عليهم : استأصل عليهم ما اختصهم به من أنفسهم وأهلهم وأموالهم .

أمثالها : أمثال تلك العاقبة .

مولى : ناصر .

يستمعون : ينتفعون بمتاع الدنيا .

ويأكلون كما تأكل الأنعام : ليس لهم هم إلا بطونهم وفروجهم ، ولا يلتفتون إلى العاقبة أو الآخرة .

مشوى : منزل ومقام ومصير .

وكاين من قرية : وكم من أهل قرية .

من قريتك : من أهل قريتك .

أهلكناهم : بأنواع العذاب .

بينية : حجة وبرهان ، وتشمل القرآن والحجج العقلية .

سوء عمله : كالشرك والمعاصي .

وتبعوا أهواءهم : فى عبادة الأوثان ، فلا شبهة دليل لهم فى ذلك ، والجواب عن قوله : أَفَمَنْ كَانَ .

وَكَمَنْ زَيْنٌ . هو : لا مماثلة بين المؤمنين وكفار مكة .

تمهيد :

لَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي أَسَالِيْبِهِ اسْتَلْفَاتًا لِلظُّلْمِ ، وَتَحْرِيكًا لِلْعَقْلِ وَالْفِكْرِ ، وَهَذَا يَحْتَاجُ الْكَافِرِينَ عَلَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ ، وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا جَوْلَهُمْ مِنَ الْقُرَى الَّتِي أَهْلَكْتَ ، مِثْلَ عَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ، لَقَدْ دَمَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقُرَى عَلَى مَنْ فِيهَا مِنَ النَّاسِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ ، وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ الْمَمْلُوكَاتِ ، وَكَفَّارِ مَكَّةَ مَعْرُضُونَ لِمِثْلِ هَذَا الْهَلَاكِ وَالتَّدْمِيرِ ، إِنَّ اللَّهَ وَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرُهُمْ ، وَإِنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، إِنَّ مَالَ الْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَهَذِهِ الْمِيَاهُ تَنْبِتُ الْأَشْجَارَ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ وَالْزُّوَانِ الْفَاكِهَةَ ، لِذَلِكَ اكْتَفَى هُنَا بِذِكْرِ الْأَنْهَارِ ، لِأَنَّهَا تُرْشِدُ إِلَى الْخَيْرَاتِ الَّتِي تَرْتَبُطُ بِهَا ، أَمَّا الْكَفَّارُ فَإِنَّهُمْ يَتَمَتَّعُونَ بِالْمَلَأَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَيَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ، يَلَا تَدَبَّرُ وَلَا تَأْمَلُ ، وَالنَّارُ مَصِيرُهُمْ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ ، وَلِكُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَجُحُودِهِمْ ، وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرَى الظَّالِمَةِ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ مَكَّةَ ، وَهَلْ يَسْتَوِي مَنْ هُوَ عَلَى يَقِينٍ بِاللَّهِ ، وَإِيْمَانٍ ثَابِتٍ بِرَبِّهِ ، وَالْكَافِرُ الَّذِي يَرْتَكِبُ الْمُنْكَرَاتِ ، وَيَتَلَذَّذُ بِالْمَحْرَمَاتِ ، وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ وَشَيْطَانَهُ ؟ الْجَوَابُ : لَا يَسْتَوِيَانِ .

قال تعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ... (المائدة: ١٠٠).

التفسير :

١٠ - أَقْلَمُ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ قِنَطَرًا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا .

أَقْلَمُ يَتَأَمَّلُ كَفَّارِ مَكَّةَ بِالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ التَّفَكُّرِ بِالْعَقْلِ فِيمَا أَصَابَ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسْلِ فِي الْقُرَى الْمُحِيطَةِ بِهِمْ ، مِثْلَ قُرَى قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ ، وَقَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ، فَقَدْ كَذَّبَتْ هَذِهِ الْقُرَى الرُّسُلَ ، وَعَادَتِ وَاسْتَكْبَرَتْ ، وَكَفَرَتْ بِرِسْلِ اللَّهِ ، فَدَمَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقُرَى عَلَى مَنْ فِيهَا ، مِنَ النَّاسِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ ، وَالْأَمْوَالِ وَسَائِرِ الْمَمْلُوكَاتِ ، وَسَيَحِيقُ بِكُلِّ كَافِرٍ وَيَأْهُلِ مَكَّةَ أَمْثَالُ هَذَا الْعِقَابِ ، حَيْثُ أَصَابَتْهُمْ فِعْلًا الْهَزِيمَةُ الْمُنْكَرَةُ فِي غَزْوَةِ بَدْرِ الْكُبْرَى وَفِي فَتْحِ مَكَّةَ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَشَدُّ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فِي الْآخِرَةِ .

١١ - ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ .

ذَلِكَ التَّدْمِيرُ وَالِاسْتِثْصَالُ لِلْكَافِرِينَ ، وَالنَّجَاةُ وَالنَّصْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ وَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَنَاصِرُهُمْ ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ الْجَاهِدِينَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ ، وَلَا وَلِيَّ يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ؛ فَوَقَعَتِ الْعُقُوبَةُ بِهِمْ .

سبب النزول :

قال قتادة : نَزَلَتْ آيَةُ : ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . يَوْمَ أُحُدٍ .

حَيْثُ سَأَلَ أَبُو سَفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ ، فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ : أَمَّا هَؤُلَاءُ فَهَلْكَوا ، فَأَجَابَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، بَلْ أَبْقَى اللَّهُ تَعَالَى

ما يسوِّدُك ، وإن الذين عدت أحياء . فقال أبو سفيان : يوم بيوم ، والحرب سجال ، ثم قال أبو سفيان : اغلُ هُبِل - اغلُ هُبِل . فقال النبي ﷺ : «ألا تحييتونه» ، قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : «قولوا : الله أعلى وأجل» ، ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال النبي ﷺ : «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» ..

١٢ - إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَاتَّارُ مَثْوًى لَهُمْ .

إن الله الذى هو ولى الذين آمنوا ، يختصهم بعنايته ورعايته ، وهو سبحانه يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ، وفى هذه الجنات الأنهار والأشجار والثمار والحوار العين ، ورضوان الله رب العالمين ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَاتَّارُ مَثْوًى لَهُمْ .

الكافرون تشغلهم الدنيا ولذائدها ، فهم حريصون على متعتها ، والاستكثار من الطعام والشراب ، والخمر والمحرمات ، غير مفكرين فى العاقبة ، كما تأكل الأنعام فى مساربها ومعالفها ، غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، أما منازل الكفار فى الآخرة فهى النار ، وما فيها من زقوم وحميم وغسلين ، وعذاب وإهانة ، وغضب الحى القيوم .

روى البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، والترمذى ، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : «المؤمن يأكل فى معنى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»^(٣٧) .

قال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

كثيراً ما يقتصر الله على ذكر الأنهار فى وصف الجنة ، لأن الأنهار تتبعها الأشجار ، والأشجار تتبعها الثمار ، والماء سبب حياة العالم ، والنار سبب الإعدام . اهـ .

١٣ - وَكَانَ مِنْ قَرْنَيْهِ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنَيْكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

كثير من القرى الظالمة ، مثل قرى عاد وثمود ولوط ، كانوا أعتى وأقوى وأشد قدرة وقوة من أهل مكة الذين أخرجوك وعادوك ، وحاولوا قتلك أو نفيك أو حبسك ، ولقد أهلكنا كثيراً من هذه القرى الظالمة مع قوتها ، ونحن أقدر على إهلاك أهل مكة ، لأنهم أقل شأناً وقوة ممن أهلكنا من الظالمين ، وإذا كان الله قد أهمل أهل مكة إكراماً لرسول الله ﷺ ، فإن ذلك لن ينجيهم من عذاب النار يوم القيامة .

أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن الخبي عليه السلام لما خرج من مكة إلى الغار وأتاه ، التفت إلى مكة وقال : «أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك» .

قال ابن كثير فى التفسير معقباً على الأثر السابق : فأعدى للأعداء من عدا على الله تعالى فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، فأنزل الله على نبيه عليه السلام : وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنْهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ .

١٤ - أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَذَبَ كَيْدًا وَسَوَّغَ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعَهُمْ .

هذه آية تقارن بين الحق الثابت الأبلج ، والباطل وهو لجلج ، بين رسول الله عليه السلام والوحي ينزل عليه ، واليقين مستقر فى قلبه ، وأبى جهل وأمثاله ممن أغواهم الشيطان ، وزين لهم الكبر والظلم والعدوان ، والكلفر والبطر واتباع الهوى .

قال المفسرون :

يريد بمن : كَانَ عَلَىٰ يَتِيَةٍ مِّن رَّبِّهِ . رسول الله عليه السلام ، ومن : زَيْنَ لَهُمْ سَوَّغَ عَلَيْهِمْ . أبى جهل وكفار قريش ، لكن الآية عامة ، والعبرة بعموم اللفظ ، وفيه أن على المؤمن أن يكون على يقين وحجة وبينة فى دينه وإسلامه .

وفى معنى هذه الآية نجد قوله تعالى : أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ...

(الرعد : ١٩)

وقوله تعالى : لَا يَسْتَوِي أَمْحَلِبُ النَّارَ وَأَمْحَلِبُ الْجَنَّةَ أَمْحَلِبُ الْجَنَّةَ هُمْ الْفَائِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

★ ★ ★

صفة نعيم الجنة وعذاب النار

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمَرٍ لَّدَّةٍ لِلشَّرْبِ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿١٥﴾﴾

المضردات :

مثل الجنة : الوصف العجيب للجنة وصفتها .

أسمن : متغير الطعم والرائحة لطول مكنه .

لم يتغير طعمه : لم تصر فيه حموضة كالألبان الدنيا .

سنة : تأنيث لذ ، وهو اللذيذ .

مصطفى : خال من الشمع ومن جميع العلائق والمخلفات .

حميم : حاراً بالغ الحرارة .

الأمعاء : جمع معى ، وهو ما ينتهى إليه الطعام فى البطن .

التفسير :

١٥ - مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلْخَالِدِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ .

تمهيد :

يصف القرآن نعيم المتقين ، فيذكر أحياناً نعيم الجنة الحسى ، وأحياناً ما هو أعلى وأسمى ، وهو رضوان الله ومودته ومعيته سبحانه ، مثل : إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا . (مریم : ٩٦)

والله تعالى عليم بعباده ومشاريعهم وأذواقهم وطوائفهم .

وهنا يفصل القرآن نعيم الجنة ، ويشوق المتقين إلى ما فيها ، وكل ما فيها طيب طاهر نظيف ، طازج مشرق : وَفِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَلَذَّةٌ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

ومعنى الآية :

صفة الجنة التى وعد الله بها عباده المتقين ، الذين راقبوا الله وأطاعوه ، فاستحقوا أن ينالوا جزاءه فى الآخرة ، فى هذه الجنة ما يأتى :

١ - أنهار من ماء طازج لم يداخله كدر ، ولم يتغير لونه أو طعمه .

٢ - أنهار من لبن سليم طازج لم يتغير طعمه بحموضة أو رائحة كريهة كالألبان الدنيا .

٣ - أنهار من خمر لذيدة الطعم ، ليس فيها كراهية ريح ، ولا غائلة سكر ، ولا يجد شاربها إلا اللذة والمتعة .

٤ - أنهار من عسل مصفى ، قد صُفِّى من القذى ، وما يكون فى عسل الدنيا قبل التصفية ، من الشمع وفضلات النحل وغيرها .

٥ - وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ... وأنواع الفاكهة الياضعة ذات الألوان البديعة ، والروائح الذكية ، والطعوم المشهية .

كقوله تعالى : يَدْخُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ عَامِينَ . (البخار: ٥٥) .

وقال سبحانه : فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهَةٍ زَوْجَانِ . (الرحمن: ٥٢) .

٦ - وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ... أى : وقد غفر الله ذنوبهم ، وسترها عليهم ، وأمنهم يوم الفزع الأكبر ، وتجاوز عن السيئات ، وكافأهم على الحسنات بفضلته ورحمته .

وبذلك جمع لأهل الجنة بين النعيم الحسى والنعيم المعنوى فيما يأتى :

١ - الماء : ويدأ به لأنه لا يستغنى عنه فى الدنيا .

٢ - اللبن : وهو يجرى مجرى الطعوم لكثير من العرب فى غالب أوقاتهم ، فهو حاجة من حاجات الجسم .

٣ - الخمر : وهى لذة ونعيم لمن استوفى الضروريات والحاجيات ، واحتاج إلى اللذائذ والكماليات .

٤ - العسل : وفيه الشفاء والحلاوة :

٥ - المغفرة والستر والرحمة ، والتجاوز والحنان والفضل من الله .

ثم قارن بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، فقال :

كَمَنْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ .

أى : أيستوى النعيم الحسى والمعنوى لأصحاب الجنة بعذاب أهل النار ، وخلودهم فى الجحيم خلوداً أبدياً سرمدياً ، ثم يكلفون بشرب ماء الحميم الذى يغلى غلياناً شديداً ، ويشوى وجوههم وفروة رؤوسهم ، وفيه مع حرارته ما يقطع الأمعاء ويذيبها لتنزل من أدبارهم .

اللهم إنا نعوذ بك من عذاب أهل النار ، اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار ، اللهم آمين .

أوصاف المؤمنين والمنافقين

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنْفًا ۚ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ أَهْدَى اللَّهُ طَبَعَهُمْ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً طَبَعُهَا أَشْرَاطُهَا ۚ فَإِنَّمَا إِذَا جَاءَتْهُمْ ذَكَرْنَاهُمْ ۚ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَاسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ۖ﴾ (١٩)

المفردات :

الذين أوتوا العلم: الصحابة الذين وعوا حديث رسول الله ﷺ

أنفًا : سابقا .

طبع الله على قلوبهم : طمس الله على قلوبهم وختم عليها .

آهواهم : ألهمهم .

بغتة : فجأة .

أشراطها : علاماتها .

فإنى لهم : كيف لهم .

ذكرهم : تذكروهم .

متقلبكهم : تصرفكم وتقلبكم لأشغالكم فى الدنيا .

ومثواكم : إما سكوتكم ومأواكم إلى مضاجعكم فى الليل ، وإما مأواكم فى الجنة أو النار .

أى : هو عالم بجميع أحوالكم فى الدنيا والآخرة ، لا يخفى عليه شئ منها .

تمهيد :

هذه آيات تتحدث عن المنافقين ، فالعظة لا تصل إلى قلوبهم لانطماسها بما يشغلها من الدنيا ويبعدها عن الإسلام ، وقد كان النبى ﷺ يخطب الجمعة وأحيانا يتناول المنافقين بما يسوءهم ويكشفهم، ويعزى رذائلهم ، فإذا خرجوا من خطبة الجمعة قال المنافقون لعبد الله بن مسعود ولعبد الله بن عباس : ماذا قال أنفًا ؟ يقولون ذلك استهزاء واستكبارًا .

إن قلوب المنافقين قاسية ، لم تفتتح للهدى والإيمان ، وقلوب المؤمنين فيها هداية زادها الله هداية ، ومنحهم التقوى والقبول ، إن القيامة قادمة ومحمد ﷺ من أسرارها ، ثم تخاطب الآية رسول الله ﷺ مع أمته ، أن داوموا على الإيمان بالله وتصديق رسوله ، والاستغفار والتوبة ، والله تعالى عليم بحركتكم بالذهار ، وبهجوعكم بالليل ، أو هو عليم بأعمالكم فى الدنيا ، وبنهايتكم فى الآخرة ، وسيجازيكم على ذلك بما تستحقون .

التفسير :

١٦ - وَيُنْفِثُ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا غَرَجُوا مِنْ عَيْنِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِذَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ .

من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يستمع إليك وأنت تخطب الجمعة ، أو تقرأ القرآن ، وتشرح أمور الإسلام ، لكنه يسمع غافلاً لا هياً ، بدون قلب حاضر أو همة فى الاستفادة ، أو رغبة فى معرفة الإسلام والقرآن .

فإذا خرجوا من عند النبى ﷺ اتجهوا إلى أصحابه ﷺ ، الذين حرصوا على كلامه ، واهتموا بما يقول ، وعندئذ يسأل المنافقون عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأشباههما : ماذا قال محمد أنفا ؟ وربما كان المقصود السخرية ، أى : هل يستحق كلامه أن تحرصوا عليه ؟ وهل يفهم كلامه ؟

والقصد من المنافقين إشاعة البلبلة والحيرة ، إنهم قوم قست قلوبهم ، وانحرفت عن اتباع الدين ، ورغبت فى اتباع الهوى والملاذات والمنكرات .

١٧ - وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتُهُمْ قُلُوبُهُمْ .

إذا كان الكفار والمنافقون قد أعرضوا عن الهدى فطمس الله على قلوبهم ، كما قال تعالى : بَلْ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤) .

فإن المؤمنين الذين أحبوا الإسلام واهتدوا بالقرآن ، قد زادهم الله هداية وتوفيقاً ، ومنحهم التقوى ، وهى مراقبة الله ومحبهه ، والإخلاص فى طاعته ، والإيمان به ، وإيثار مرضاته ، والالتزام بتنفيذ أوامره ، والابتعاد عما نهى عنه .

قال الإمام على : التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وقيل : التقوى هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، وقيل : التقوى هى ألا يراك حيث نهاك ، وألا يفقدك حيث أمرك ، وكلها تلتقى على أن التقوى حالة من الشفافية والإيمان ، والمحبة لله وطلب القرب منه ، والتزام طاعته وابتغاء مرضاته .

١٨ - فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَلَيَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ .

متى يتحرك هؤلاء الكفار إلى التوبة والإيمان ، قبل أن يفاجئهم الموت ، إن من مات فقد قامت قيامته ، أى : هل ينتظر هؤلاء الغافلون اللاهون إلا القيامة تفاجئهم ، وتنهى حياتهم فجأة .

فقد جاءهم محمد ﷺ ورسالته من علامات الساعة ، وفى صحيح البخارى أن النبى ﷺ قال : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ، وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

وقد جاء فى أسماء الرسول ﷺ أنه نبى التوبة ، ونبى الملحمة ، والحاضر الذى يحشر الناس على قدميه ، والعاقب فلا نبى بعده .

فَأَلَيَّ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ .

من أين لهم إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم ، أن يتذكروا ويستعتبوا؟ فقد فات أوان ذلك ، وذهب وقت التذكر ، فقد عُمِرُوا ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير ، وفى هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت .

١٩ - فَأَعْلَمُ أَنْهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُؤْتِنَكُمْ .

الخطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد كل من يتأتى منه العلم ، أى : ازدد يقينا وعلمنا وإيماننا بأن الكون جميعه ليس له إلا إله واحد ، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وكُرِّر الاستغفار والتوبة والإنابة وطلب المغفرة ، وستر الذنوب ومحو السيئات ، وتثبيت الحسنات ، وادع الله أن يغفر لك وللمؤمنين والمؤمنات .

وقد أورد ابن كثير فى تفسيره طائفة من الأحاديث النبوية الصحيحة التى تدل على فضل الاستغفار ومنزلته العالية فى مغفرة الذنب ، ومن هذه الأحاديث ما يأتى :-

فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول فى آخر الصلاة : «اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت» .

وفى الصحيح أنه ﷺ قال : «يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم فإننى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمُؤْتِنَكُمْ .

والله تعالى مطلع وعالم بمقتلبكم وتصرفاتكم فى نهاركم ، ويعلم ، مؤْتِنَكُمْ . ومستقركم فى ليلكم .

كقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِأَلْسِنَتِكُمْ... (الأنعام: ٦٠).

وقوله سبحانه: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرُّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. (هود: ٦).

وعن ابن عباس قال: مُتَقَلِّبُكُمْ . في الدنيا ، وَمُتَوَفِّكُمْ . في الآخرة .

وقال السدي: مُتَقَلِّبُكُمْ . في الدنيا ، وَمُتَوَفِّكُمْ . في قبوركم .

وأرى أن الآية تتسع لتناول الوجوه المذكورة كلها ، فالله سبحانه مطلع وعالم بحركاتنا بالنهار ومثوانا بالليل ، وهو عالم في نفس الوقت بحركاتنا وعملنا في الدنيا ، ومثوانا في قبورنا ، ومآلنا في آخرتنا ، والله أعلم .

★ ★ ★

حَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عِنْدَ نَزُولِ سُورَةٍ

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا الْوَلَا يُزِيلُ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَنَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٦١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٦٣﴾ ﴾

المضردات :

_____ ولا : كلمة تفيد الحدث على حصول ما بعدها ، أي : هلا أنزلت سورة في أمر الجهاد.

_____ مُحْكَمَةٌ : بينة واضحة لا احتمال فيها لشيء آخر .

_____ مَرَضٌ : ضعف إيمان ونفاق .

_____ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ : مَنْ حضرته أعراض الموت وغشيتة .

_____ أُولَئِكَ لَهُمْ : ويل لهم ، كما قال تعالى: أُولَئِكَ لَكَ فَأُولَئِكَ . (القيامة: ٣٤) .

_____ عَزَمَ الْأَمْرَ : جد الأمر .

_____ عَسَيْتُمْ : قاربتم .

توليتهم، توليتهم أمور الناس وتأمرت عليهم ، أن تعودوا إلى أفعال الجاهلية ، من قطع الأرحام ، والإفساد فى الأرض ، أو إن توليتهم وأعرضتم عن هدى القرآن ، أن تعودوا كفاراً تقطعون الرحم وتفسدون فى الأرض .

أولئك ، المفسدون

لعنهم الله ، طردهم الله من رحمته .

فأصابتهم ، عن سماع الحق .

تمهيد :

تفيد الآيات موقف المؤمنين والمنافقين من الآيات العملية ، التى تحت على الجهاد والزكاة والصلاة ، فالمؤمنون يتشوقون لنزول سورة تحت على الجهاد والزكاة ، وتكلفهم بما يقربهم من ربهم ، أما المنافقون فإذا سمعوا الآيات التى تحت على الجهاد والزكاة فإنهم يصيبهم الهول والويل ، فلو صدقوا الله فى الجهاد لكان طريقهم إلى الجنة مفروشا بالعمل الصالح وحسن النية .

ثم تقول الآيات : جدير بكم إذا توليتهم وأعرضتم عن هدى القرآن وتكاليف الإسلام ، أن تعودوا إلى صفات الجاهلية ، وهى الفساد فى الأرض ، وتقطيع الأرحام ، ومن فعل ذلك فقد لعنه الله وطرده من رحمته ، وأعمى بصيرته عن رؤية الحق ، والأهتداء بآيات الله .

التفسير :

٢٠ - وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ

يتشوق المؤمنون إلى نزول آيات من كتاب الله ليتسابقوا إلى العمل بما فيها من تكاليف أو جهاد، ويقولون : هلا أنزلت على رسول الله ﷺ سورة جديدة ، لنستمع إلى وحى السماء، وننفذ أوامر ربنا إذا طلب منا الجهاد، فإذا أنزل الله سورة محكمة ، واضحة فى أوامرها ، لا تحتمل وجهاً آخر ، بل هى صريحة فى طلب الجهاد ، فإن المنافقين يعترتهم الخوف والخور ، والجبن والتردد ، وينظرون إلى النبي ﷺ ، نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ... وهو الذى نزل الموت بساحته، فأبلس واضطرب ، وأغمي عليه من الخوف والجبن.

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ . أى : فالويل والهلاك لهم ، كما قال سبحانه وتعالى : أُولَٰئِكَ لَكَ فَارُوقُ * ثُمَّ أُولَٰئِكَ لَكَ

فَأُولَٰئِكَ . (القيامة : ٣٤ ، ٣٥) . أى : هلاكاً وسعييراً لك .

ويجوز أن يكون المعنى كالآتي :

فَأَوْلى لَهُمْ . أى : أفضل لهم وأولى بهم أن يطيعوا الله ورسوله ، وأن يقولوا : طاعة وقول معروف .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا وَتَنَا لِمَ كَتَبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَعْرَضْنَا إِلَى آجُلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَلَبَّ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَطْلُمُونَهَا فِئَالاً . (النساء : ٧٧) .

٢١ - طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .

أى : طاعة وقول معروف خير لهم ، أو : فَأَوْلى لَهُمْ . أى : خير لهم طاعة وقول معروف ، فإيا ليهتم فى وضع أفضل مما هم عليه ، بحيث يقابلون طلب الجهاد ، بقولهم : طَاعَةٌ . لله ورسوله واستجابة لأمرهما ، ويقولون : سمعنا وأطعنا .

فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ... أى : جدَّ الجِد ، وجاءت ساعة الصُّفر ، وبدأ تنفيذ الجهاد عمليا ، فلو صدقوا الله فى الإيمان والعزيمة والجد ، وانضموا قولا وعملا وسلوكا وتنفيذا لجيش المسلمين ، لكان ذلك خيرا لهم ، حيث يحصلون على الغنيمة عند النصر ، أو الثواب على الجهاد ، والجنة فى الآخرة .

٢٢ - فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ .

جدير بكم إذا أعرضتم عن الجهاد ، وعن تنفيذ أوامر الله ، أن تعودوا كما كنتم فى الجاهلية ، تفسدون فى الأرض بالثَّهْب والغارة ، وتقطعون الرحم التى أمر الله بصلتها ، فالآية تهديد ووعد للمنافقين ، وبيان لهم بأن ترك الالتزام بأمر الله وتوجيه رسوله من شأنه أن يشيع الفرقة والتنازع بين المنافقين والأمة المسلمة ، فيعود المجتمع فى المدينة إلى حالة من الفوضى ، ينتشر فيها القتل وسفك الدماء والفساد فى الأرض ، وتقطيع الأرحام بين أفراد الأمة الواحدة ، أو بين القريب والقريب ، حيث يتقاتل المنافقون مع المؤمنين .

وجوز بعض المفسرين أن يكون المعنى فى هذه الآية كما يأتى :

فهل عسيتم إن توليتم أمور الناس وتأمروهم عليهم ، أن تفسدوا فى الأرض ، وترجعوا إلى التناهب والقتل ، وقطع الأرحام ، وواد البنات كما كنتم فى الجاهلية ، وتخصيص الأرحام بالذكر تأكيد لحقها ، وتحذير للناس من قطع الرحم .

قال تعالى: **وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ...** (النساء: ١).

٢٣ - **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ.**

هؤلاء المفسدون في الأرض، القاطعون للرحم، هم الذين لعنهم الله فطردهم من رحمته، وجعلهم حيارى لا يهتدون إلى طريق الإيمان، ولا يوفقون إلى هداية الرحمان، فأذانبهم صماء لا تسمع الهدى لأنهم تصاموا فأصمهم الله، وتعاموا عن النظر في آفاق الكون، وفي الأدلة الساطعة على وجود الله وعظمته، فأعمى الله أبصارهم ويصانئهم، وأظلم قلوبهم فصارت قاسية لا تلين لذكر الله، ولا تستجيب لدعوة الهدى.

من تفسير ابن كثير

أورد الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية طائفة من الأحاديث والآثار في الحث على صلة الرحم، وفصل صلة الرحم، وعقوبة قطيعة الرحم، وهي في جملتها تهيب بالمسلم أن يعمل الآتي:

١ - الحرص على صلة الرحم، ورعاية الأقارب، والسؤال عنهم، وزيارتهم والعطف عليهم.

٢ - مقابلة الإساءة بالإحسان، حتى لا تقطع الأرحام ولا يعم الجفاء بين الأقارب.

روى البخاري، عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله تعالى الخلق، فلما فرغ منه قامت الرحم، فأخذت بحقوى الرحمان عز وجل، فقال: مه، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال تعالى: ألا تريذين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك». قال أبو هريرة رضى الله عنه: اقرأوا إن شئتم: **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ.**

وروى الإمام أحمد، عن أبي بكرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم».

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى ذوى أرحام، أصل ويقطعون، وأعف ويظلمون، وأحسن ويسيتون، أفأكافئهم؟ قال ﷺ: «لا، إن كن تتركون جميعاً، ولكن جدد بالفضل وصلهم، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك». أخرجه أحمد.

وروى الإمام أحمد، والبخاري، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها».

وفى الحديث القدسي : «قال الله عز وجل : أنا الرحمان ، خلقت الرحم وثققت لها اسماً من اسمي ، فمن يصلها أصله ، ومن يقطعها أقطعه فأبنته» ، أخرجه أحمد .

وقال رسول الله ﷺ : «الأرواح جنود مجنده ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف» . وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : «إذا ظهر القول وخزن العمل ، وانتلفت الألسنة وتباغضت القلوب ، وقطع كل ذى رحم رحمه ، فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم» . أخرجه الإمام أحمد ، والأحاديث فى هذا كثيرة ، والله أعلم .^(٣١)

★ ★ ★

أحوال المتفاقين

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانِ أَمَرَ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ۖ ﴾ (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ۚ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَنَهُ ، فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَمْعِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴿

المفردات :

يتذكرون القرآن ، يتفهمونه ويتأملون ما فيه من وصايا ونصائح .

أقفالها : مغاليقها التى لا تفتح .

سؤل لهم : سهل لهم وزين لهم .

وأملى لهم : مد لهم فى الأمانى والآمال .

إسرارهم : قالوا ذلك سرّاً فأظهره الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى ، والإسرار : مصدر السّر .

وقرئ بفتح الهمزة : أسرارهم ، جمع سر .

فكيف إذا توفتهم الملائكة ، كيف حالهم ، أو كيف يعملون ويحثلون حينئذ .

يضربون وجوههم وأدبارهم ، تصوير للأموال والفظائع التي يشهدا المنافقون عند الموت ، حيث تضرب الملائكة وجوههم وظهورهم .

أحسب أن أطل وأذهب .

أضيق عليهم ، أحقادهم ، جمع ضيق .

نحن القول ، فحواه ومعارضه .

تمهيد :

تصور الآيات موقف المنافقين في المدينة ، بعدما عظم شأن النبي ﷺ ، وانتصر في معظم غزواته ، فأظهروا الإسلام أمام الناس ، وارتدوا على أعقابهم إلى الكفر سرًا ، وقد زين لهم الشيطان ذلك ومثأهم ومد لهم في الأمل .

وقد كانت هناك موالاة بين المنافقين واليهود ، وكان اليهود أهل كتاب ، والتوراة بين أيديهم تبشر بظهور رسولٍ قد أطل زمانه ، فلما ظهر الرسول من نسل إسماعيل - ولم يكن من نسل إسحاق - كره اليهود رسالته ، وكرهوا هجرته إلى المدينة ، وأصبح اليهود شياطين للمنافقين ، يحركونهم إلى الشر ، وتم التنسيق بين المنافقين واليهود .

فقال المنافقون لليهود سرا : سنقف معكم عند الحصار والحرب . والله سبحانه مطلع على أسرار هؤلاء المنافقين .

ثم تعرض الآيات موقف المنافقين عند الموت والغرّة ، والإنسان في أضعف حالاته ، والملائكة تضرب وجوههم ، وتضرب أدبارهم التي ارتدوا عليها ورجعوا إلى الكفر بعد الإسلام ، ذلك لأن المنافقين ساروا على طريق يغضب الله ، ولا يرضيه ، فأصاب أعمالهم بالإحباط والضياع .

وهنا يهدد الله المنافقين بأن يكشف سترهم ، وأن يُطلع الرسول ﷺ على خباياهم ، فيعرفهم بأشكالهم ، ويعرفهم بطريقة كلامهم ، والله سبحانه مطلع عليهم .

التفسير :

٢٤ - أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنَّمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَاهِهَا .

هلا تدبر هؤلاء المنافقون أو الكافرون القرآن ، وأمعنوا النظر والتأمل في هداياته وآدابه وتشريعاته وحلاله وحرامه ، وقصصه وأمثاله ، وما اشتمل عليه من عظات وعبر تفتح القلوب ، وتلين لها الأفئدة ،

وتخشع لها الجبال الراسيات ، لكن هؤلاء لم يهتدوا ، فهم بين أمرين : إما أنهم لا يتأملون القرآن ولا يتدبرون ما فيه ، وإما أنهم يتدبرون ويقراون القرآن ، لكن قلوبهم مغلفة ، كالببوت التي وضعت الأقفال على أبوابها ، فلا يستطيع الإنسان دخولها .

وظاهر الآية أنها خطاب لجميع الكفار ، خصوصا المنافقين ، والآية توبيخ لهم ، وأمر بتدبر القرآن وتفهمه ، ونهى عن الإعراض عنه ، وقد وردت محققة لمعنى الآية المتقدمة ، فإنه تعالى قال : **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ** . (محمد : ٢٣) .

لقد طردهم الله من رحمته بسبب نفاقهم ومرض قلوبهم وخيانتهم .

قال تعالى : **فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ** . (البقرة : ١٠) .

٢٥ - **إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى آذَانِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ** .

قيل : إن هذه الآية نزلت في بعض المنافقين ، الذين خالطوا المسلمين وشاهدوا هداية الله لهم ، ثم رجعوا إلى الكفر ، وقيل : نزلت في بعض اليهود ، دخلوا في الإسلام ، وشاهدوا هداية القرآن ، وتوفيق وأمانة الرسول محمد ﷺ ، ثم مرضت قلوبهم وحقدوا وحسدوا رسول الله ﷺ ، فعادوا إلى اليهودية ، وقيل : نزلت في بعض الكفار .

والأولى أن نقول : إن الآية عامة ، وتشمل كل من تنطبق عليهم .

والمعنى :

إن الذين دخلوا في الإسلام ، ثم نكصوا على أعقابهم ، ورجعوا إلى الضلال بعد أن تبين لهم الهدى ، وعادوا إلى الكفر بعد أن شاهدوا نور الإسلام ، وإعجاز القرآن وفضله وبركته وهدايته ، وآدابه وتشريعاته ، هؤلاء وقعوا أسرى لإغراء الشيطان ، وسوسته لهم بطول الأمد والاعتراف من الملذات ، والمغانم الدنيوية ، فآثروا العاجلة على الباقية ، كما قال تعالى :

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

٢٦ - **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** .

ذلك الارتداد والعمى ، والكفر بعد الإيمان ، بسبب أنهم يبتغوا السوء والكيد للمسلمين ، فقال المنافقون لليهود الذين كرهوا ما أنزل الله تعالى من القرآن الكريم على رسوله محمد ﷺ حقدًا وحسدًا ، على أن يتفضل الله بهذه النعم على رجل من نسل إسماعيل ، وليس من نسل إسحاق .

وفيه قال سبحانه : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ... (النساء : ٥٤) .

لقد قال المنافقون لليهود سرا : نحن أولياؤكم ، سنطيعكم فى بعض الأمر ، وهو عداوة محمد ﷺ ، والتكاسل عن الجهاد معه ، والانضمام إليكم إذا أخرجتم من المدينة ، ونصركم عند القتال ، والله تعالى مطلع على خفائهم وخباياهم وإسراهم ، وإسراهم بالكسر مصدر السرّ ، وقرئ بفتح الهمزة : أسرارهم ، جمع سر ، فهو عالم بالخفايا ، يحاسبهم يوم القيامة على ما تكن صدورهم من عداوة للإسلام والمسلمين .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْلِنَ الْأَذْبَرُونَ * لَا يَنْصُرُونَ . (الحشر : ١١ ، ١٢) .

٢٧ - فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ .

كيف يكون حال هؤلاء العصاة المنافقين إذا ما انتهت حياتهم ، وحضرت الملائكة لاستخراج أرواحهم ، وتعاصت الأرواح عن الخروج من الجسد ، واشتدت الحشرة ، والملائكة يضربون وجوههم من الأمام ، وأدبارهم من الخلف ، هل يستطيعون أن يتكلموا أو ينافقوا عند موتهم ، وهو آت لا شك فى ذلك ؟

وقد جاء هذا المعنى فى قوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخَرْقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ آيَاتِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلِيمٍ لِلْعَبِيدِ . (الأنفال : ٥٠ ، ٥١) .

وقال تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ . (الأنعام : ٩٣) .

قال المفسرون : وضرب الوجه والأدبار زيادة فى المهانة والإذلال ، وعن ابن عباس قال : لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه وفى دبره .

٢٨ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ .

ذلك العذاب بسبب اتباع المنافقين لما يغضب الله ، كترك الجهاد ، وممالة اليهود .

... وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ ... ورضوان الله يكون فى رضاه وطاعته ، وصدق الإيمان به ، وتوقير رسوله ، وفهم كتابه ، والمسارة إلى مرضاته ، لكن المنافقين كانوا على العكس من ذلك ، حيث ساروا فى طرق مظلمة

ملتوية، فعاهدوا اليهود وتضامنوا معهم، وخاصموا المسلمين وحقدوا عليهم، وذلك السلوك أغضب الله عليهم، فحل بهم غضب الله، وابتعد عنهم رضوان الله وفضله ورحمته، وأبطل الله ثواب أعمالهم، كالصدقة وصلة الرحم، لأنهم كانوا منافقين غير مخلصين، والله تعالى يقول :

وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... (البينة : ٥) .

٢٩ ، ٣٠ - أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْتَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاهُمْ فَلَاحِقَهُمْ بِسِمَتُهُمْ وَلَنُغْرِقَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .

كان المنافقون في المدينة طابورا خامساً، وشوكة في جنب المسلمين، يشوشون على المسلمين، ويحزنون إذا انتصروا، ويشيعون عنهم أقاويل سوء، ويضرون لهم العداوة والبغضاء .

وفي هاتين الآيتين يهددهم الله بأن يكشف أسرارهم، وأن يظهر للمسلمين حقدهم وضغنتهم، وخبائيا نفوسهم، ومكنونات قلوبهم المريضة العلية بالضغن والحقد .^١

ولو أراد الله تعالى لكشف لرسوله ﷺ عن أسمائهم وأشخاصهم وعلاماتهم، لكن الله تعالى ستراً منه على عباده، أعلم رسوله ﷺ بصفاتهم العامة، لا بأسمائهم، كما أعلمه بطريقتهم في لحن القول، وهو إسرار شيء متفق عليه لا يفهمه إلا صاحب لهم، قد بيتوا الأمر معه على طريقة في القول، يلحنون بها لحنا معيناً، يفهم منه ما يريدون، ولا يعرف ذلك الآخرون .

قال الشوكاني في تفسير الآية :

لحن القول : فحواه ومقصده ومغزاه، وهو هنا : ما يعرضون به من تهجين أمركم وأمر المسلمين، وقد قيل : كان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه .

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ .

لا تخفى عليه منها خافية، فيجازيكم بها . اهـ .

ونلاحظ أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين وكشف أمورهم، حتى سميت سورة براءة بالكاشفة والفاضة والمبصرة، لأنها كشفت المنافقين وفضحتهم وبعثرتهم، بقولها : ومنهم ... ومنهم ... ومنهم .

مثل قوله تعالى : وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخِفُّونَ .

(التوبة : ٥٨)

ومثل قوله تعالى : **وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَلَذَّنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمُ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** .

(التوبة : ٤٩)

وهكذا كشف القرآن الكريم أمر المنافقين ، وأظهر كيدهم ، وألقى عليهم الأضواء الكاشفة ليحذر المسلمون منهم .

وروى ابن كثير أن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقلبات لسانه ، وفى الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابيها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر »^(٢١) .

٣١ - **وَتَبْلُؤُنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُؤَ أَخْبَارَكُمْ** .

تقوم الحياة على الابتلاء والاختبار ، قال تعالى :

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (الملك : ٢) .

وقال عز شأنه : **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** . (الكهف : ٧) .

فأله تعالى يعطى الإنسان الإمكانات ، مثل المال أو الشباب أو العلم ، أو القدرة على الجهاد أو قول الحق ، ثم يكلفه الله تعالى أن يؤدى واجب الجهاد أو الزكاة أو قول الحق ، ليتبين المؤمنين من الكافرين والمنافقين .

جاء فى صفة التفسير للشيخ محمد على الصابوني ما يأتى :

وَتَبْلُؤُنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ...

أى : ولنختبرنكم أيها الناس بالجهاد وغيره من التكاليف الشاقة ، حتى نعلم - علم ظهور - المجاهدين فى سبيل الله ، والصابرين على مشاق الجهاد .

وَتَبْلُؤَ أَخْبَارَكُمْ . ونختبر أعمالكم ، حسناتها وقبيحها .

وجاء فى التسهيل لعلوم التنزيل ٥٠/٤ ما يأتى :

المراد بقوله : **حَتَّى نَعْلَمَ** . أى نعلمه ظاهراً فى الوجود ، تقوم به الحجة عليكم ، وقد علم الله الأشياء قبل كونها ، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده بما يصدر منهم .

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا ، فإنك إذا ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا^(٢٢) .

حال بعض كفار أهل الكتاب وبعض المؤمنين

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالُهُمْ﴾ (٣٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٣٤) ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥)

المعزجات :

شاقوا الرسول : عادوه وخالفوه ، وأصله : صاروا في شق غير شيقه .

فلا تهنوا : فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره .

وتدعوا إلى السلم : وتدعوا للكفار إلى الصلح ، خوفاً وإظهاراً للعجز .

الأعلاون : الغالبون .

والله معكم : ناصركم .

ولن يترككم أعمالكم : لن ينقصكم ثواب أعمالكم ، من وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلاً من ولد أو أخ أو حميم ،

أو سلبت ماله وذهبت به ، فشبهه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوتر ، وهو

إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال .

تمهيد :

بينت الآيات حال جماعة من الكافرين آمنوا ثم ارتدوا من بعد ما شاهدوا أنوار الإسلام ، وقيل : نزلت

الآية الثانية والثلاثون من سورة محمد ، في جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة وبنو النضير ، كفروا

بالله وصدوا الناس عن الإسلام ، وعن الإيمان بمحمد ﷺ ، بعد أن شاهدوا نعته في التوراة ، وما ظهر على

يديه من المعجزات ، فهؤلاء أصغر وأحق من أن يضروا دين الله وهو الإسلام ، وسيحبط الله عملهم ويبطل

كيدهم .

ثم ذكر ضعف بعض النفوس المسلمة ، وتخلفها عن الفداء والتضحية ، مثل بني سعد الذين أسلموا

وجاءوا إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، مثلاً بذلك عليه ، فنهاهم وأمثالهم

عن هذا التناول المحبط للعمل والمضيئ للثواب ، وهكذا يربى القرآن المسلمين ، ويهدد الكافرين الذين ماتوا

وهم كفار بأن الله لن يغفر لهم .

ثم يدعو المسلمين إلى التماسك والجهاد ، وعدم الدعوة إلى السلام خوفاً وجبنًا من الكفار ، أما إذا جنح الكفار إلى السلام ورغبوا فيه ، فلا مانع منه ، وبذلك نعمل بكل الآيات ، لتلبية السلام عند ميل الكافرين إليه ، والتماسك والقوة عند ضياع الحقوق ، أو الدفاع عن المقدسات ، ولكل حالة ما يناسبها .

التفسير :

٣٢ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ .

قيل : نزلت هذه الآية فى يهود بنى قريظة وبنى النضير ، حيث تبين لهم فى التوراة صدق محمد ﷺ ، وشاهدوا المعجزات تظهر على يديه ، فأعرضوا عن الإسلام .

وقيل : نزلت فى المنافقين ، وقيل : نزلت فى كفار قريش ، والأولى أن يقال : إن الآية عامة فى جميع هذه الأصناف وأمثالها .

والمعنى :

إن الذين كفروا بالله ورسوله ، ومنعوا الناس من الإيمان ، وزينوا لهم الكفر ، وعادوا رسول الله ، وصاروا فى شِقٍّ وجانب غير جانبه من بعد أن شاهدوا صدقه ، وأدركوا أنه صادق أمين هؤلاء : لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ... فهم أحقر وأذل من ذلك ، لأن الله غالب على أمره ، وإن يضروا دين الله وهو الإسلام ، ولا رسول الله محمدًا ﷺ ، وسيبطل الله كيدهم ، ويمحق تدبيرهم ، ويحفظ رسوله وينصر دينه ، وقد تم ذلك فى غزوة بدر ، وفى غزوة بنى قريظة ، والأحزاب وغيرها ، ونصر الله الإسلام على الكافرين والمنافقين واليهود وسائر أعداء دين الإسلام .

وفى معنى هذه الآية يقول الله تعالى فى سورة الصف : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

(الصف : ٧ - ٩)

٣٣ - يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .

امتنَّ بعض المسلمين بإيمانهم على الرسول ﷺ ، فبين القرآن أن هذا المنَّ يبطل العمل ، فالفضل لله ورسوله ﷺ ، وبهذا كان القرآن الكريم يرتفع بالمسلمين إلى مستوى الإخلاص والنقاء والصفاء فى إيمانهم .

ومعنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا ، اصدقوا في إيمانكم بطاعة الله ، والتزام أوامره ، وطاعة الرسول ، وتنفيذ توجيهاته .

وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .

بالرياء ، أو المن والأذى ، أو المعاصي .

قال تعالى : يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَفَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ... (البقرة : ٢٦٤) .

وقال سبحانه وتعالى : يُمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تُمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . (الحجرات : ١٧) .

أخرج ابن أبي حاتم ، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة ، عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع (لا إله إلا الله) ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت الآية : يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ .

فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، أي أن الكبائر الموجبات والفواحش تستوجب غضب الله وسخطه .

وعن ابن عباس قال : لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والسمة ، أو بالشك والنفاق .

وقيل : إن ناساً من بنى أسد قد أسلموا ، وقالوا لرسول الله ﷺ : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، كأنهم يمتنون ، فنزلت ، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض ، وكراهة قطع النفل من غير موجب لذلك ، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال ، فهو أمر بإصلاحها وإكمالها وإتمامها ، والإنسان بها على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً .

٣٤ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

إن الذين كفروا بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومنعوا الناس من الدخول في الإسلام ، ولم يتوبوا ولم يؤمنوا ، ثم ماتوا مَصْرُورِينَ على الكفر ، هؤلاء لن يغفر الله لهم ، ولن يستريح عيوبهم ، ولن يتجاوز عن سيئاتهم ، لأنهم لم يتوبوا في الدنيا قبل الموت ، وذلك هو وقت التوبة فقط .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا . (النساء : ١١٦) .

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْبَدْتُمْ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ . (ال عمران : ٩١) .

قال المفسرون :

ومعهم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم ، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة ولو كانوا مُفْنِينَ أعمارهم في الكفر به ، والصد عن سبيله ، والإقدام على معاصيه ، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة ولم يفلقها عن أحد ، ما دام حياً متمكناً من التوبة ، وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يعافيههم ويرزقهم كأنهم ما عصوه ، مع قدرته عليهم ^(٣٧) .

قال أبو السعود : وحكم هذه الآية يعم كل من مات على الكفر ، وإن صح نزولها في أصحاب القليب . ا هـ .

٣٥ - فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرَكُمُ أَغْمَلَكُمْ .

الخطاب هنا للمؤمنين ، يرفع الله روحهم المعنوية ، ويحثهم على الجهاد ، ويأخذ بأيديهم إلى منازل العلياء .

والمعنى :

لا تضعفوا ولا تجبنوا ، ولا تخافوا من الجهاد والقتال ، ولا تمدوا أيديكم إلى السلام في وقت يتيه فيه الأعداء المتخطفسون عليكم .

وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ...

فأنتم في معية الله ، وأنتم حراس دينه ، وأنتم حملة لواء الإيمان ، وأنتم الأمة الوسط ، وأنتم على الحق وعدوكم على الباطل .

وَاللَّهُ مَعَكُمْ ...

بنصره وتأييده وعنايته ورعايته وتوفيقيه ، قال تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ . (محمد : ١١) .

قال ابن كثير : وفي قوله تعالى : وَاللَّهُ مَعَكُمْ ... بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء .

وَلَنْ يَبْرَكُمُ أَغْمَلَكُمْ .

ولن يضيع ثواب أعمالكم ، ولن يحبطها ، ولن يسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثواب أعمالكم كاملاً غير منقوص .

والآية تحت المؤمنين على الجهاد والقتال عند القوة والقدرة ، وفى آيات أخرى أباح لهم المهادنة والسلام والمهادنة ، إذا كان ذلك لحكمة أو مناسبة :

قال ابن كثير :

... أما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صدّه كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك (٣٧) .

★ ★ ★

هوان الدنيا ، وختام سورة محمد ﷺ

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَا وَتَنَفَّقُوا بُرُكَّتْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا فَيُخَفِّفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَضْعَانُكُمْ (٣٧) هَذَا نَسْأَلُكُمْ عَنْ تَدْعَوَاتِكُمْ لَتُنَفَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ (٣٨) ﴾

المضردات :

فِي حَفِّكُمْ : فيجهدكم بطلب كل المال ، ويلحف عليكم فى المسألة ، يقال : أحفى وألحف فى طلب الشيء ، أى : بالغ فى تقاضيه وأفرط .

تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجُ أَضْعَانَكُمْ : إن يسألكم أموالكم بتشدّد تبخلوا بها ، ويبرز أحقادكم على رسوله ﷺ .

تمهيد :

فى ختام السورة تتجه الآيات إلى ترقيق القلوب ، وبيان هوان الدنيا ، وسرعة تحوّلها ، فمتاعها قليل ، وهى كاللعب واللهو ، أما الإيمان والتقوى وطاعة الله فتوابها مضمون ، والمطلوب من المؤمن نسبة الزكاة ، وهى نسبة عادلة ، فالله لا يطلب منّا جميع أموالنا ، مع أنه هو الذى خلقنا ورزقنا ، وإن سألنا إياها وألحف فى السؤال ، فيشتد البخل بها ، والحقد على الدّين والرسول الكريم ، لأن المال شقيق الروح ، وطالب جميع المال يستثير الأحقاد والأضغان ، إن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال هدف من أسمى الأهداف ، وهما أنتم تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل بماله ، ومن يبخل فضرر البخل عائد على نفسه ،

والله غنى عنكم ، لا تنفعه طاعتكم ، ولا تضره معصيتكم ، وأنتم الفقراء إلى رحمته وفضله وثوابه ، وإذا أعرضتم عن الإسلام فإن لله من المؤمنين رجالاً غيركم ، لهم عزائم الأبطال ولن يكونوا أمثالكم ، بل أطوع لله منكم ، وقد تحقق لهذا الدين أن احتضنه العرب حيناً ، ثم الفرس حيناً ، فكان الفقهاء والعلماء والمترجمون والنحاة والأدباء من بلاد الفرس وسمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، وكان للأندلس وعلماء المغرب دور نشيط في خدمة الدين ، وكان لمصر وأفريقيا والقارة الهندية دور في حفظ الحديث والتشريع ، وهكذا لم يتعصب الإسلام للعرب كجنس ، بل بين أن العربية اللسان ، وأن كل من تكلم العربية فهو عربى .

التفسير :

٣٦ - إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ .

إنما الحياة الدنيا قصيرة الأجل ، مثل اللعب واللهو ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وفى الأثر : «الدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر» .

وَإِنْ تُؤْمِنُوا ... بالله وتراقبوه حق المراقبة ، وتتقوه بأن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ؛ يعطكم الله ثواب أعمالكم ، ولا يطلب منكم إنفاق جميع أموالكم ، فلم يفرض عليكم سوى واجب الزكاة ، وهو نسبة بسيطة تدور فى الأغلب على ربع العشر ، وهو ما يوازى ٢,٥٪ فى زكاة المال وزكاة التجارة ، ونصف العشر ٥٪ فى زكاة الزراعة ، وأحياناً تكون الزكاة العشر إذا كانت الأرض تسقى سبياً بدون تعب ولا مشقة ، وأحياناً تكون الزكاة الخمس بنسبة ٢٠٪ ، وهى زكاة الركاك والبتروك والمعادن ، وما يستخرج من باطن الأرض .

قال الإمام ابن القيم : نلاحظ أن نسبة الزكاة تتراوح بين ١٪ فى زكاة الماشية مثل زكاة الغنم ، نجد أن زكاة الغنم السائمة : فى أربعمئة شاة أربع شياه ، وفى خمسمئة شاة خمس شياه ، وفى ستمئة شاة ٦ شياه ، وهكذا فى كل مئة شاة شاة ، أى النسبة ١٪ .

وزكاة المال والتجارة ٢,٥٪ ، وزكاة الزراعة تمتد من ٥٪ إلى ١٠٪ ، وزكاة الركاك والمعادن والكنوز المستخرجة من باطن الأرض ٢٠٪ .

أى أنه كلما كانت نعم الله تعالى على العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، كزكاة الكنوز والركاك ، وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل ، مثل زكاة التجارة : لأن العبد يتعرض للمخاطرة والأسفار ، وارتفاع الأسعار وانخفاضها .

فكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل .

٣٧ - **إِنْ يَسْأَلْكُمْ مَوْلَاكُمْ فِي خَيْفَتِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْرَجَ أَخْفَتَكُمْ .**

إن يسألكم الله جميع أموالكم ، ويبالغ في السؤال والإلحاح ، لتنفقوا جميع أموالكم ، فستقابلون ذلك بالبخل والشح ، والحق على الرسول الأمين ، لأنكم تكرهون إخراج أموالكم كلها ، وتحقدون على من يطلب ذلك منكم .

قال قتادة : فإن المال محبوب ، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه .

وقال سفيان بن عيينة : أي : لا يسألكم كثيراً من أموالكم ، إنما يسألكم ربع العشر فطُيَّبُوا أنفسكم .

٣٨ - **فَلَا تَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخْشَى نَفْسَهُ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ .**

ها أنتم معشر المسلمين ، يأتيتكم أمر الله ودعوته لكم بالإتفاق في سبيل الله ، بإخراج الزكاة والصدقة ، وتجهيز المقاتلين في سبيل الله ، والإتفاق على الجهاد والقتال ، وبعض المسلمين يبخل بالزكاة ، أو بالإتفاق على المجاهدين ، ومن يبخل فإنما وزر بخله يعود عليه ، وإثم منع الزكاة ومنع نفقات الجهاد يعود على المانع .

وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ... فهو سبحانه غنى بذاته ، لا تنفعه طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، ولا يحتاج إلى إنفاق أموالنا عليه .

وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ... الناس بذاتهم في أشد الفقر إلى رزق الله لهم في الدنيا ، وإلى ثواب الله ورضوانه في الآخرة .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .**

وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ .

وإن تعرضوا عن أحكام الله وشرائع دينه يذهبكم الله كما أذهب المكذبين قبلكم ، ويأت يقوم أطوع لله منكم ، يحرسون على طاعته ومرضاته ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وقد اختلف المفسرون في تعيين أولئك القوم الجدد ، فقيل : هم الملائكة ، أو الأنصار ، أو التابعون ، أو أهل اليمن ، أو كندة والنخع ، أو العجم ، أو فارس والروم ، والأولى تفويض ذلك إلى علم الله ، والخطاب لقريش أو لأهل المدينة ، والأولى جعل الخطاب متجددًا بتجدد الأجيال والأمم ، سواء كان عند نزول الوحي أم بعد ذلك .

روى مسلم ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : **وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ** . فقالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضى الله عنه ، ثم قال : «هذا وقومه ، ولو كان الدين عند الثريا لتناولوه رجال من الغرس»^(٢٨) .

موجز مقاصد سورة محمد ﷺ

اشتملت سورة محمد ﷺ على ثلاثة مقاصد :

١ - وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله سبحانه : كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ .
(محمد : ٣)

٢ - جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة ، من خذلان ونصر ، ونار وجنة ، من قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ ... (محمد : ٤) . إلى قوله تعالى : وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ . (محمد : ١٩) .

٣ - الوعيد والتهديد للمنافقين والمرتدين ، من قوله تعالى : وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ... (محمد : ٢٠) ، إلى آخر السورة .

★ ★ ★

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ تَفْسِيرُ سُورَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، ظَهَرَ يَوْمَ الْأَحَدِ ٢٨ مِنْ رَجَبِ الْآخِرِ ١٤٢٩ ، الْمَوْافِقُ ٣٠/٧/٢٠٠٠م .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الفتح

أهداف سورة الفتح

سورة (الفتح) مدنية ، نزلت في الطريق بين مكة والمدينة عند الانصراف من الحديبية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة الجمعة .

ونلمح في بداية السورة فضل الله على النبي ﷺ وصحبه ، وآثار نعمائه على المسلمين .

وقد سبقتها في ترتيب المصحف سورة (محمد) التي وصفت ظلم المشركين والمنافقين ، وحرضت المسلمين على الجهاد ، وحذرتهم من الخنوع والبعد عن طاعة الله .

وقد نزلت سورة (محمد) في الفترة الأولى من حياة المسلمين بالمدينة ، أما سورة (الفتح) فقد نزلت في العام السادس من الهجرة ، وكان عود المسلمين قد اشتد ، وقوتهم قد زادت ، وظهر أثر ذلك في بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة على التضحية والفداء .

صلح الحديبية :

رأى رسول الله ﷺ في منامه ذات ليلة أنه دخل المسجد الحرام في أصحابه ، آمنين محلقي رؤوسهم ومقصرين لا يخافون عدا ، فاستبشر ﷺ بذلك وأخبر أصحابه فاستبشروا وفرحوا واستعدوا لزيارة البيت الحرام معتمرين . «وفي ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة خرج النبي ﷺ معتمراً لا يريد حرباً ، واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت»^(١) . وتخلف كثير من الأعراب عن مرافقته ظناً بأن الحرب لابد واقعة بينه وبين قريش ، «فخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليامن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً له»^(٢) .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم ، وأخذ معه من نسائه أم سلمة ، وسار معه ألف وخمسمائة من المسلمين معتمرين وسيوفهم مغمدة في قريها ، فلما أصبحوا على مسيرة مرحلتين^(٣) من مكة لقي النبي بشر بن سفيان ، فأنبأه نبأ قريش قائلاً : يا رسول الله ، هذه قريش علمت بمسيرك ، فخرجوا عازمين على طول الإقامة ، وقد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً . فقال رسول الله ﷺ : «يا ويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس ، فإن أصابوني كان الذي

أرادوا ، وإن أظهرنى الله دخولوا فى الإسلام وإقرين ؟ والله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به ، حتى يظهره الله أو تنفرد منى هذه السالفة»^(١).

وكان النبى ﷺ حريصاً على أن يتجنب الحرب مع قريش ، لأنه خرج متسكاً معظماً للبيت لا للحرب.

وأرسلت قريش مندوبين عنها ، فأعلمهم النبى أنه لم يأت محارباً ، وإنما جاء معتمراً معظماً للبيت .

وأرسل النبى ﷺ عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليخبرهم بمقصد المسلمين ، فقال لهم : إنا لم نأت لقتل أحد ، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت ، معظمين لحرمته ولا نريد إلا العمرة ، فأبت قريش أن يدخل النبى ﷺ وصحبه مكة ، وأذنت لعثمان أن يطوف بالبيت ، فقال : لا أطوف ورسول الله ممنوع ، فاحتبست قريش عثمان فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال ﷺ حينما سمع ذلك : «لا نبرح حتى نناجزهم الحرب» .

بيعة الرضوان

دعا النبى الناس للبيعة على القتال ، فبايعوه تحت شجرة هناك سميت : (شجرة الرضوان) على الموت وقد بارك الله هذه البيعة وأعلن رضاه عن أهلها فقال سبحانه : **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... (الفتح : ١٨) .**

شروط الصلح

علمت قريش بخبر هذه البيعة فاشتد خوفها ، وقويت رغبتها فى الصلح ، وأرسلت سهيل بن عمرو ليفاوض المسلمين بشأن الصلح ، وتوصل الطرفان إلى معاهدة مشتركة سميت بصلح الحديبية ، وأهم شروط هذا الصلح ما يأتى :

- ١ - وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين .
- ٢ - من جاء إلى محمد من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده .
- ٣ - من أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل فيه .
- ٤ - أن يرجع النبى ﷺ من غير عمرة هذا العام ، ثم يأتى فى العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه ، ويقبضوا بها ثلاثة أيام ليس معهم من السلاح إلا السيوف فى القرب .

وقد كان هذا الصلح مثار اعتراض من بعض كبار المسلمين لأنهم جاءوا للطواف بالبيت فمنعوا من ذلك ، وهم فى حال قوة واستعداد لمحاربة قريش ، كما أن شروط الصلح أثارت غضب المسلمين ، فقال عمر

ابن الخطاب : يا رسول الله ، أأست برسول الله ؟ فقال : «بلى» ، قال عمر : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا إذن ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني» .

ولكن أبأ بكر كان أكثر الناس وثوقاً بما اختاره النبي ، وبأن الحكمة والخيرة في اختياره .

ثم وقّع الطرفان على الصلح ، وبعد ذلك توافدت قبيلة خزاعة فدخلت في عهد رسول الله ، وتوافدت قبيلة بكر فدخلت في حلف قريش ، وقد كان لهذا الصلح أكبر الأثر في سير الدعوة الإسلامية ، فقد اعترفت قريش بالمسلمين ، كما سمحت لهم بدخول مكة في العام القادم ، ولما دخلوا مكة شأدهم أهلها وسمعوا لقولهم ورأوا عبادتهم فتفتحت قلوبهم للإسلام ، وقد فتحت مكة بعد عمرة القضاء بسنة واحدة ، إذ كان صلح الحديبية سنة ٦ هـ ، وعمرة القضاء سنة ٧ هـ ، وفتح مكة سنة ٨ هـ ، كما أن هذا الصلح يسر للمسلمين نشر الدعوة وشرح الفكرة ، ودعوة الناس إلى الإسلام ، ومكاتبة الرسل والملوك .

الأحداث وسورة الفتح

نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية فباركت هذا الصلح ، وجعلته فتحاً مبيناً ، وبشرت النبي ﷺ بالمغفرة والنصر وإتمام النعمة ، وقد فرح النبي الكريم بهذه السورة فرحاً شديداً (انظر الآيات ١ - ٣) . واشتملت السورة على بيان فضل الله على المسلمين حين أنزل السكينة والأمان والرضا في قلوبهم ، كما اعترفت السورة للمؤمنين بزيادة الإيمان ورسوخه ، وبشرتهم بالمغفرة والثواب .

وتوعدت السورة المنافقين والكفار بالعذاب والنكال (انظر الآيات ٤ - ٦) ، ثم التنويه ببيعة الرضوان ، واعتبارها بيعة لله ، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت (الآية : ١٠) .

وبمناسبة البيعة والنكت ، التفت السياق إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، ليفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال في خاطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع سوء الرسول ومن معه ، ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل ، وذلك في أسلوب يوحي بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحي بأن هناك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين (انظر الآيات ١١ - ١٧) .

الله يبارك بيعة الرضوان

كان الربع الثاني من سورة الفتح تمجيذاً لهؤلاء الصفوة من الرجال ، وتسجيلاً لرضوان الله عليهم حين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، والله عز وجل حاضر هذه البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق

أيديهم فيها ، تلك المجموعة التي حظيت بتلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح : ١٨) .

تلك المجموعة التي سمعت رسول الله ﷺ يقول لها عند الببيعة : «أنتم اليوم خير أهل الأرض»^(١) .

تبدأ الآيات (١٨ - ٢٩) بحديث من الله سبحانه وتعالى إلى رسول الله ﷺ عن هؤلاء الصفوة الذين بايعوا تحت الشجرة ، ثم بحديث مع هؤلاء الصفوة يبشرهم بما أعد لهم من مغانم كثيرة وفتوح ، وبما أحاطهم به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة وفيما سيتلوها ، ويندد بأعدائهم الذين كفروا تنديداً شديداً ، ويكشف لهم عن حكمته فى اختيار الصلح والمهادنة فى هذا العام ، ويؤكد لهم صدق الرؤيا التى رآها رسول الله ﷺ عن دخول المسجد الحرام ، وأن المسلمين سيدخلونه آمنين لا يخافون ، وأن دينه سيظهر على الدين كله فى الأرض جميعاً .

ظهور الإسلام

لقد صدقت رؤيا رسول الله ﷺ ، وتحقق وعد الله للمسلمين بدخول المسجد الحرام آمنين ، ثم كان الفتح فى العام الذى يليه ، وظهر دين الله فى مكة ، ثم ظهر فى الجزيرة كلها بعد ذلك ، ثم تحقق وعد الله وبشره الأخيرة ، حيث يقول : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدُّنْيَا كُلِّهَا وَلَوْ كَرِهَ الْبَالِغُ شَهِيدًا . (الفتح : ٢٨) . فلقد ظهر دين الحق لا فى الجزيرة وحدها ، بل ظهر فى المعمور من الأرض كلها قبل مضى نصف قرن من الزمان ، ظهر فى إمبراطورية كسرى كلها ، وفى قسم كبير من إمبراطورية قيصر ، وظهر فى الهند وفى الصين ، ثم فى جنوب آسيا فى الملايو وغيرها ، وفى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) ، وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض فى القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادى .

ولا يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله حتى بعد انحساره السياسى عن جزء كبير من الأرض التى فتحها ، وبخاصة فى أوروبا وجزر البحر الأبيض ، وانحسار قوة أهله فى الأرض كلها بالقياس إلى القوى التى ظهرت فى الشرق والغرب فى هذا الزمان .

أجل لا يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله من حيث هو دين ، فهو الدين القوى بذاته ، القوى بطبيعته ، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله ، لما فى طبيعته من استقامة مع الفطرة ، ومع نواويس الوجود الأصلية ، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح ، وحاجات العمران والتقدم ، وحاجات البيئات المتنوعة من ساكنى الأكواخ إلى ساكنى ناطحات السحاب ، وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر فى الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى ، إلا ويقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة ، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة ، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة فى يسر واستقامة .

وصف الصحابة

فى ختام سورة الفتح نجد صورة مشرقة للنبي الكريم وصحبه الأبرار ، فهم أقوياء فى الحق ، أشداء على الكفار رحماء بينهم ، وهم فى الباطن أقوياء فى العقيدة يملأ صدورهم اليقين ، فتراهم ركيًا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .

وقد ظهر نور الإيمان عليهم فى سمتهم وسحتهم وسماتهم ، سيماهم فى وجوههم من الوضاعة والإشراق والصفاء والشفافية ، هذه الصورة الوضيئة ثابتة لهم فى لوحة القدر ، فقد وردت صفتهم فى التوراة التى أنزلها الله على موسى .

أما صفتهم فى الإنجيل فهى صورة زرع نام قوى ، يخرج فروعه بجواره ، وهذه الفروع تشد أزره وتساعده حتى يصبح الزرع ضخماً مستقيماً قوياً سوياً ، يبعث فى النفوس البهجة والإعجاب .

قال تعالى : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَمَنْ لَهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَزَزَهُ فَأَسْغَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْحِهِ يَغْجِبُ الزَّارِعُ لِيُغِيطَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الفتح : ٢٩) .

مقاصد السورة إجمالاً

قال الفيروزبَادى :

معظم مقصود سورة الفتح هو : وَعَدَ اللَّهُ الرَّسُولَ ﷺ بِالْفَتْحِ وَالْغَفْرَانِ ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإبعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعده المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بالنصر ، وصدق رؤيا سيد المرسلين ، وتمثيل حال النبي والصحابة بالزراعة والزرع فى البهجة والنضارة وحسن الشأن^(١) .

فضل السورة

روى مسلم ، عن أنس ، عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : لما نزلت سورة الفتح قال رسول الله ﷺ : «لقد أنزل على سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها»^(٢) .

فضائل صلح الحديبية ، أو فتح مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾﴾

المضردات :

الفتح : الفتح فى أصل اللغة : إزالة الأغلاق ، والفتح فى باب الجهاد هو الظفر بالبلد عنوة أو صلحاً ، بحرب أو بغير ذلك ، لأن البلد قبل ذلك منغلق ما لم نظفر به ، فإذا ظفرنا به وأصبح فى أيدينا فقد فتح . والمراد بالفتح هنا فى رأى الجمهور : صلح الحديبية ، وقال جماعة : المراد فتح مكة ، وقد بشر الله تعالى به رسوله ﷺ والمؤمنين قبل حصوله .

مبيناً : ظاهر الأمر ، مكشوف الحال .

تمهيد :

بعد صلح الحديبية عاد المسلمون من الحديبية إلى المدينة ، وفى الطريق أنزل الله على نبيه ﷺ هذه السورة الكريمة ، تسجل للرسول الأمين أنه بذل جهده فى الحرب والسلام ، والمعاهدة فى صلح الحديبية ، وكان من أثر هذه المعاهدة ما يأتى :

١ - اعتراف قريبى بقوة المسلمين ، وأنهم أمة متكاملة ، وكانوا قبل ذلك يعتبرونهم صابئين خارجين على دين العرب .

٢ - ترك الأمر بالخيار للناس ، فتوافدت الوفود على المدينة ، حتى سُمى العام التالى لصلح الحديبية بعام الوفود .

٣ - تزايد عدد المسلمين خلال عامين من ألف وخمسمائة فرد عام الحديبية سنة ٦ هـ ، إلى عشرة آلاف فى فتح مكة سنة ٨ هـ .

٤ - اختلط المسلمون بأهل مكة فى عمرة القضاء سنة ٧ هـ وجاورهم ، وسمعوا منهم ، وتمّ النقاش المباشر بين الكافرين والمسلمين ، وكان هذا سبباً عملياً فى تيسير فتح مكة .

قال الإمام الزُّهْرِي :

لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين ، وسمعوا كلامهم ؛ فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير ، كثّر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .

وقالت جماعة : المراد بالفتح هنا فتح مكة ، وقد نزلت السورة على النبي ﷺ وهو عائد من الحديبية تبشّره بفتح مكة أو بفتح خيبر .

التفسير :

١ - إِنْ أَنْفَضْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا .

يسرنا لك صلح الحديبية ، وفيه اعتراف بالمسلمين كقوة محترمة يُتعاهد معها ، وفي صلح الحديبية أوقفت الحرب بين المسلمين وأهل مكة ، فتحرّك الناس في جزيرة العرب آمنين ، ودخل في الإسلام خلق كثير ، ويسر صلح الحديبية عمرة القضاء ، وفيها اختلط المسلمون بأهل مكة عن قرب ، وشاهدوهم وناقشوهم ، وكان ذلك سبباً من أسباب تيسير فتح مكة .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالآية صلح الحديبية ، وكان اعتراض البعض أن المسلمين في صلح الحديبية قد منّوا من أداء العمرة ، ومنع الهُدْي من الوصول إلى الكعبة وذُبح عند الحديبية ، وقد بيّن الرسول ﷺ أهمية صلح الحديبية ، حين طلب أهل مكة الصلح ورغبوا فيه ، وأحسوا بقوة المسلمين بسبببيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة ، وبإيعاز المسلمين فيها رسول الله ﷺ على الموت وعلى ألا يفرّوا ، ثم عاد المسلمون وافرّين سالمين إلى المدينة ، ليتيسر لهم فتح خيبر وإزالة حصون اليهود القوية ، ثم يتيسر لهم فتح مكة بعد عامين ، وهم في جيش يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، لقد كان صلح الحديبية من أكبر وأهم نقاط الارتكاز للأمة الإسلامية الناشئة ، فما أعظم أن تطلب مكة الصلح ، على أن يعود المسلمون إلى المدينة هذا العام ، ثم يقدّموا إلى مكة في العام القادم - ومعهم السيوف في قرايبها - ليؤدوا عمرة القضاء ، وكأنّ هذا الأمر ترتيب الله ، والإعداد للفتح الأكبر .

وبعض المفسرين يرى أن السورة نزلت عند انصراف الرسول ﷺ من الحديبية لتبشّره بفتح مكة ، أو بفتح خيبر ، ولتعظّم قدر النبي ﷺ وتبيّن أنه يستحق نعم الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة .

والرأى الأوّل عليه جمهور المفسرين ، وهو أرجح عند التأمل .

٢ ، ٣ - لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا .

كان محمد ﷺ أطوع خلق الله لله ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، ونصر دين الله في السلم والحرب والمعاهدة ، فوعده الله بهذه المكافأة الجليلة المتمثلة فيما يأتي :

(أ) أن يغفر الله له ذنوبه السابقة واللاحقة ، ليرفع درجته ويعلى كعبه ، ويظهر ساحته ، ويغفر له مغفواته قبل الذنوب وبعدها .

(ب) إتمام النعمة بفتح الطريق أمام دين الإسلام ، وأمام أمة الإسلام ، لتأخذ طريقها إلى النصر والظفر ، واستيعاب أحكام الدين .

(ج) هداية الرسول إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، والحكمة التامة في تبليغ الدعوة ، وقيادة سفينة الإسلام بحكمة النبوة ، وهداية الله وتوفيقه .

(د) النصر العزیز الذي يقدمه له الله : وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ... (الأنفال: ١٠٠) .

وقد كان صلح الحديبية نصراً ، ثم تبعه فتح خيبر ، ثم تبعه فتح مكة ، وكان هناك نصر معنوي كبير في ضالة شأن المنافقين ، وانزواء أمرهم ، وتحطيم قوة اليهود ، وتلاشي قوة قريش والكافرين ، وبُحِث جزيرة العرب عن الإسلام ، وتوافدها على الرسول ﷺ في المدينة ، فكان هناك فتح في النفوس ، وهداية من الله للناس حتى دخلوا في دين الله أفواجا ، أي جماعات جماعات ، وكانوا قبل ذلك يدخلون أفراداً ، وظل شأن رسول الله ﷺ في ارتفاع ، وشأن أعدائه في انحدار ، حتى عم الإسلام بلاد العرب ، ونزل قوله تعالى : أَلَمْ يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... (المائدة: ٣) .

وقوله سبحانه : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . (النصر: ١-٣) .

إنزال السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ①﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ② وَيَعَذِّبُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ يَا اللَّهُ ظَرْبُ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ③ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ④﴾

المعقرات :

السَّكِينَةُ : الطمأنينة والثبات والسكون والرضا .

إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ : يقينا مع يقينهم .

جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : الأسباب السماوية والأرضية .

ظَرْبُ السُّوءِ : ظن الأمر الفاسد المذموم ، وهو أن الله لا ينصر نبيه .

عليهم دائرة السُّوءِ : الدائرة في الأصل : الحادثة التي تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها في المكروه ، والجملة دعاء عليهم بالهلاك والدمار الذي يترصونه بالمؤمنين .

تمهيد :

يتفضل الله على رسوله ﷺ في الآيات السابقة بما يأتي :

١ - المغفرة .

٢ - إتمام النعمة .

٣ - هداية الصراط المستقيم .

٤ - النصر العزيز .

وهنا يبين سبحانه أنه أنزل توفيقه على المؤمنين ، فازدادوا يقينًا بفضل الله عليهم ، وتفهموا أن صلح الحديبية كان نقطة ارتكاز ، سيتم بعدها الانطلاق إلى أعمال نافعة مثل :

١ - الوفود القادمة إلى المدينة في عام الوفود .

٢ - فتح خيبر ، وغُفرة القضاء ، وفتح مكة ، ولله ملائكة تحت على الخير ، وثبَّت المؤمنين .

ثم وعد الله المؤمنين الصادقين بدخول الجنة ، ومغفرة الذنوب ، وذلك فوز عظيم لهم ، كما وعد سبحانه بأن يعذب المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات .

ثم ذكر سبحانه أن بيده القدرة القادرة ، وبيده جنود السماوات والأرض ، والعزة والحكمة ، فهو سبحانه أهل لأن ينصر المسلمين ، ويوعِدَ لهم طريق العزة والغلبة وجمع الكلمة ووحدته الصف إن شاء الله .

التفسير :

٤ - هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُذْكَرُوا بَأْسَنَا مَعَ إِمْبَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

كان خروج النبي ﷺ مع المسلمين من المدينة إلى مكة لأداء مناسك العمرة ، ومعهم السيوف في قرابها ، وقد وقفت قريش في طريقهم ومنعتهم من دخول مكة ، واحتبست عثمان بن عفان ، وأشيع بين المسلمين أنه قد قتل ، فتغير الموقف ، لقد خرجوا لأداء العمرة والنسك والعبادة ، ثم تغير الموقف إلى المناجزة والحرب والقتال ، وفي هذه الحالة تمت بيعة المسلمين جميعاً لرسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان ، بايعوا على الموت وعلى ألا يفروا ، بعد أن أشيع أن عثمان بن عفان قد قتل ، عندئذ قال ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم »^(١٧) .

فقد بدأوا بالعدوان وصد المسلمين عن البيت الحرام ، وقتل عثمان كما أشيع ، عندئذ كان المؤمنون على مستوى المعركة ، تجيش قلوبهم بالإيمان ، وطاعة الرسول ﷺ ، ومعرفة أن الحكمة في فعله ﷺ ، وكانوا على قلب رجل واحد ، وحكى القرآن الكريم ذلك الموقف حين قال تعالى : لَقَدْ رَاحِيَّ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْيُوعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح : ١٨) .

لقد أطلع الله على هذه القلوب وهى تتحرك إلى البيعة والغذاء والتضحية عند بيعة الشجرة ، ثم يظهر للجميع أن عثمان لم يقتل ، ويرغب أهل مكة فى الصلح ، ويرسلون عددًا من الرسل ، ويتم الأمر بعقد صلح بين أهل مكة يمثلهم سهيل بن عمرو ، وبين المسلمين ويمثلهم رسول الله ﷺ .

وكان كبار المسلمين متحفزين مع جميع المسلمين للقتال والدفاع ، ثم عقدت معاهدة الصلح ، وإيقاف القتال عشر سنين ، على أن يعود المسلمون جميعاً هذا العام بدون أداء العمرة ، وأن يأتوا فى العام القادم لأداء عمرة القضاء ، وفى أعقاب المعاهدة أمر رسول الله ﷺ المسلمين بذبح الهدى ، فلم يبادروا إلى الذبح ، فكرر الأمر ثلاث مرات فلم يمتثلوا ، ودخل النبي ﷺ على أم سلمة وقال لها : «هلك المسلمون ،

أمرتهم بذبح الهدى فلم يفعلوا»، فقالت أم سلمة: يا رسول الله، التمس لهم بعض العذر، فهم قدموا من أجل العمرة وزيارة مكة، والطواف بالبيت، والسعى بين الصفا والمروة، ثم ذبح الهدى بمكة، وقد أحصروا ومنعوا من دخول مكة، ومن أداء العمرة، فهم في موقف صعب، ثم قالت أم سلمة: يا رسول الله، أخرج ولا تكلم أحدا، وأعد إلى هديك فاذبحه بيدك، فإن المسلمين سيتسابقون إلى الاقتداء بك، وبالفعل خرج رسول الله ﷺ ولم يكلم أحدا، وذبح الهدى علنا جهرا أمام المسلمين، فتسابقوا بسرعة وقوة إلى ذبح الهدى والاقتداء بالرسول ﷺ، وازداد يقينهم بأن الرسول الأمين مؤيد بمعونة الله، وأن الله ناصرهم، وأن طاعة الرسول واجبة.

ويكون معنى الآية ما يأتي:

إن الله تعالى الذي من على رسوله محمد ﷺ بالفتح والمغفرة والنصر، هو الذي أنزل السكينة والأمان والاطمئنان واليقين والرضا في قلوب المؤمنين عندبيعة الرضوان، استعدادا للحرب، فلما تبين أن عثمان لم يقتل، ورغب أهل مكة في الصلح، وتم صلح الحديبية بعد مناقشات متعددة، ورضى الرسول ﷺ عن المعاهدة وقبلها، ألقى الله السكينة والاطمئنان في قلوب المؤمنين، بأن ما عمله الرسول هو الأسلم والأحكم، وأن في هذا العمل أمانا للإسلام وللمسلمين، فازدادوا يقينا مع يقينهم بصدق الرسول ﷺ.

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...

فقد كان قادرا على أن ينصر المسلمين بإنزال ملائكة من السماء، وإن ملكا واحدا قادر على البطش بقريش ومن معها، ولكن الله أراد أن يبتلى المسلمين بالجهاد والقتال، ليظهر إيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين، وهزيمة الكافرين.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

أي: كان الله ولا يزال واسعًا علمه، محيطًا علمه بكل شيء، حكيما. في فعله، لطيفا في تدبيره.

وقد أخذ جمهور العلماء من هذه الآية أن الإيمان يزيد وينقص، واستدل جمهور الأشاعرة والفقهاء والمحدثين والمعتزلة على هذا بهذه الآية، ويقولون ﷺ وقد سئل هل يزيد الإيمان وينقص؟ فقال ﷺ: «نعم، يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة، وينقص حتى يدخل صاحبه النار»^(١٧).

وقد ذهب الشافعي، ومالك، والبخاري إلى أن الإيمان يزيد وينقص.

قال البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت واحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص.

وقد خالف فى ذلك أبو حنيفة ، وأورد الألوسى فى تفسيره هذا الموضوع بتوسّع ، فليرجع إليه من شاء .

وقال المفسرون :

أراد بإزالة السكنى فى قلوب المؤمنين (أهل الحديبية) حين بايعوا رسول الله ﷺ على مناجزة الحرب مع أهل مكة ، بعد أن حصل لهم ما يزعج النفوس ويزيغ القلوب ، من صدّ الكفار لهم عن دخول مكة ، ورجوع الصحابة دون بلوغ مقصودهم ، فلم يرجع منهم أحد عن الإيمان ، بعد أن هاج الناس وماجوا ، وزلزلوا حتى جاء عمر بن الخطاب إلى النبی ﷺ وقال : أأست نبي الله حقاً ؟ قال : «بلى» ، قال : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : «بلى» ، قال : فلم نعطى الدنيا فى ديننا إننا ؟ فقال ﷺ : «إني رسول الله ، ولست أعصيه وهو ناصرى»^(١٨) .

٥ - يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا .

كما أكرم الله تعالى رسوله ﷺ بالفتح المبين ، ومغفرة الذنب ، وإتمام النعمة ، وهداية الصراط المستقيم ، فقد أكرم المؤمنين فى هذه الآية إكراماً عظيماً ، جزاء ثباتهم فى بيعة الرضوان ، وطاعتهم للرسول ﷺ فى الحرب والسلام ، فوعدهم بما يأتى :

(أ) أن يدخلهم جنات ويساتين ناضرة تجرى الأنهار من تحتها ، ويتمتعون فيها بسائر أنواع المتعة ، وما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .

(ب) أن يكفر عنهم سيئاتهم ويستر خطيئاتهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويرفع درجاتهم .

(ج) أن يعطيهم الفوز العظيم برضوان الله ، وجواره وفضله .

قال تعالى : فَمَنْ زُحْرِحَ عَنْ آثَارٍ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥) .

٦ - وَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ وَوَعَدَ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَوَسَّاتُ مَصِيرًا .

كما أكرم الله المؤمنين والمؤمنات بدخول الجنة ، وتكفير السيئات ، وبالفوز العظيم ، كذلك عاقب المنافقين والمنافقات ، الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام .

وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ... الكافرين بالله ، والعابدين للأصنام .

الظَّالِّينَ يَأْتِيهِمْ مِنَ السَّوْءِ ...

ظنوا أن الله لن ينصر رسوله ، وأن الرسول والمؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم بالمدينة ، بل سينزل بهم المكروه والقتل والهزيمة أمام أهل مكة .

عَلَيْهِمْ ذَاتِرَةُ السَّوْءِ ...

دعاء عليهم بأن تدور الدائرة عليهم ، وأن يحيق بهم مكروهم السيئ ، وعملهم الخبيث ، فينزل بهم السوء والمكروه الذي يتوقعونه للمسلمين .

وَعُظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَنَعْتَهُمْ ...

وسخط الله عليهم بكفرهم ونفاقهم ، وأبعدهم من رحمته وفضله ، وعرضهم لعقوبته .

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .

وهياً لهم في الآخرة ناراً مستعرة ، يجدون فيها أنواع الآلام وصنوف العذاب ، وينس المصير مصيرهم في جحهم .

٧- وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيظًا حَكِيمًا .

جنود يرسلها للرحمة والمعونة والنصر للمؤمنين ، ولتنهيت قلوبهم ، كالريح والملائكة ، وجنود يرسلها بالعذاب على الكافرين ، من الملائكة والجن والحيوانات ، والصواعق المدمرة ، والزلازل والخسف والغرق ، جنود لا تحصى ولا تعد ، تستخدم تارة للرحمة بعباد الله وأصفيائه وأوليائه ، ونفس الجنود تستخدم لعذاب من يشاء الله .

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ . (المدثر : ٣١) .

وَكَانَ اللَّهُ غَرِيظًا حَكِيمًا .

غالباً غير مغلوب ، حكيماً لا يعمل عملاً إلا بحكمة الحكيم العليم .

جاء في حاشية الجمل على تفسير الجلالين ما يأتي :

في الآية الرابعة قال سبحانه : وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا .

وكان ذلك في معرض الخلق والتدبير ، فذيلها بقوله : عَلِيمًا حَكِيمًا .

وذكرها ثانية في معرض الانتقام - في الآية السابعة - فذيلها بقوله: عَزِيزًا حَكِيمًا .

وهو في منتهى الترتيب الحسن ، لأنه تعالى ينزل جنود الرحمة لنصرة المؤمنين ، وجنود العذاب لإهلاك الكافرين . ا هـ .

وفي معركة بدر أنزل الله المطر فثبت به أقدام المسلمين ، وكان المطر ويالاً على الكافرين ، وأنزل الله الملائكة تثبت قلوب المؤمنين ، وتلقى الرعب في قلوب الكافرين .

★ ★ ★

فضل الرسول ﷺ والمؤمنين

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾

المضردات :

شَاهِدًا : على أمتك .

وتعزروه : وتنصروه .

وتوقروه : وتعظموه .

وتسبِّحوه : وتنزهوه ، وتصلوا عليه .

بكرة وأصيلًا : غدوة وعشيا ، أي : أول النهار وآخره ، والمراد : جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشيء ، يريدون بذلك جميعه ، كما يقال : شرقًا وغربًا ، لجميع الدنيا .

يبايعونك : يعاهدونك على الجهاد والانتصار لدعوتك ، وذلك في بيعة الرضوان بالحديبية .

إنما يبايعون الله : إنما يعاهدون الله ، لأن المقصود من البيعة طاعة الله وامتنال أمره .

يد الله فوق أيديهم : قدرته وقوته فوق قدرتهم وقوتهم ، أو بركة الله ونصرته وتوقيفه فوق أيديهم .

نكث : نقض العهد والبيعة .

فإنما ينكث على نفسه : فإنما يضر نفسه ، ويوردها موارد الهلكة ، فلا يعود ويال نقضه وضرر نكثه إلا عليه .

عليه السلام ، قرأ الجمهور بكسر الهاء ، وقرأ حفص برفعها لأنها هاء (هو) مضمومة ، فاستصحب ذلك كما في : له ، وضريه .

تمهيد :

نحن أمام وظائف الرسول ﷺ ، وهي :

١ - تبليغ الرسالة للخلق أجمعين .

٢ - الشهادة على أمته بالإيمان ، وعلى المكذبين بالكفر .

٣ - هو بشير بالجنة لمن أطاع .

٤ - هو نذير بالنار لمن عصى .

وزاد في سورة الأحزاب ما يأتي : وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . (الأحزاب : ٤٦) .

ثم تحدثت الآيات عن فضائل المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة ، على الموت وعلى ألا يفروا ، وقد بارك الله هذه البيعة ، ونسبها إليه تشريعاً لها وتكريماً ، وجعل بركته وفضله وأنعمه وتوفيقه فوق أيدي المبايعين ، ووعد بالعقوبة للثاكثين ، وبالأجر العظيم لمن وفى بهذه البيعة .

وقد شهدت آيات القرآن الكريم ، وصفحات التاريخ ، والسيرة المحمدية على جهاد الرسول ﷺ ، واجتهاده في تبليغ الرسالة ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار الكافرين ، طول مدة رسالته ﷺ ، على مدار ثلاث وعشرين سنة ، حتى عمّت رسالته بلاد العرب ، ثم انطلق نور الإسلام بعد ذلك فعمّ المشارق والمغارب .

التفسير :

٨ - إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا .

هذه شهادة من الله العلي الكبير لرسوله محمد ﷺ ، يذكر فيها سبحانه أنه اختص نبيه ﷺ بما يأتي :

(أ) أرسله الله رسولا ، وجعله خاتم الرسل ، وقال له : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ ...

أي : نحن الذين اصطفييناك واخترناك ، وأرسلناك رسولا .

(ب) شَهِيدًا . على أمتك بالإجابة ، وعلى أعدائك بالتكذيب ، وعلى الرسل السابقين بأنهم بلغوا رسالات ربهم ، بدليل القرآن الذي قص قصصهم ، وأحيا ذكراهم ، وبارك كفاحهم ، وسجل نصر الله لهم ، وإهلاك أعدائهم .

(ج) وَمُبَشِّرًا . للمؤمنين والمؤمنات ، وكل من استجاب لرسالة الإسلام بالجنة .

(د) وَنَذِيرًا . لكل من خالفك بالنار .

٩ - تَوَفَّرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا وَتَوَقَّروا وَتَسَبَّحُوا بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا .

أرسلنا رسولاً من أجل أن تؤمنوا أيها المؤمنون بالله رباً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

وَتَعَزَّزُوا . بالاستجابة لدينه والإيمان برسوله ، وتقويته ونصره ، والانضمام تحت لوائه .

وَتَوَقَّروا . تعظموه .

وَتَسَبَّحُوا . تنزهوه عما لا يليق ، فالحمد سبحانه وتعالى متصف إجمالاً بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، والتسبيح ذكر الله ، مثل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

بُكْرَةً وَأَصِيلًا . أول النهار وآخره ، وقيل : البكرة والأصيل جميع النهار ، ويكنى بالتعبير عن جميع الشيء بطرفيه .

وقال ابن عباس : المراد بهما صلوات الفجر والظهر والعصر .

قال القاسمي في تفسير الآية ما يأتي :

والضمائر كلها على ما ذكرنا لله ، وجوز إعادة الأولين للرسول ، والآخر لله ، إلا أن فيه تفكيكاً . اهـ .

وقال القرطبي في تفسيره :

والهاء في قوله تعالى : وَتَعَزَّزُوا وَتَوَقَّروا ... للنبي ﷺ ، وهنا وقف تام ، ثم تبتدئ بقوله تعالى :

وَتَسَبَّحُوا . أى : تسبحوا الله بكرة وأصيلاً .

وقيل : الضمائر كلها لله تعالى ، فعلى هذا يكون تأويل : وَتَعَزَّزُوا وَتَوَقَّروا ... أى : تثبتوا له صحة الربوبية ، وتنفخوا عنه أن يكون له ولد أو شريك . اهـ .

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدَ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَوْفٍ بِهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

تحدث الآية عنبيعة الرضوان ، عندما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون لأداء العمرة ، فمنعتهم قريش ، وأرسل رسول الله ﷺ عثمان ليُعلم أهل مكة بقصد رسول الله ﷺ ، وأنه جاء معتمراً للبيت ، ولم يأت محارباً ، فاحتبست قريش عثمان ، وأشيع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال ﷺ : « لا نبرح

حتى نناجز القوم»، واجتمع المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وأخذوا به، والتفوا حوله، وبايعوه على الموت وعلى ألا يفروا، وكان عدد المسلمين ألفاً وأربعمائة مقاتل أو ألفاً وخمسمائة مقاتل، وقد بايعوا جميعاً، ولم يتخلف أحد من المسلمين عن البيعة، إلا الجذ بن قيس، فكان جابر رضى الله عنه يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصفاً بإبط ناقتة، قد صبا إليها يستتر بها من الناس.

ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل، وأن عثمان حي يرزق، لكن الله سجل أمر هذه البيعة، وظلت علامة بارزة، ووساماً غالياً، يذكر لهؤلاء الصحابة تضحياتهم وبيعتهم، ورغبتهم فى نصرة دين الله، ونصرة رسوله ﷺ، وطاعة الله، والتضحية بال دنیا فى سبيل الآخرة وما فيها.

من معانى الآية

عناية الله تعالى وإكرامه ورضاه عن هؤلاء الرجال، الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، حتى جعل بيعتهم للرسول ﷺ إنما هى بيعة لله، فبها للجلال والإكرام فى هذا المعنى.

إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ ...

لقد بايعوا رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان، على الموت وعلى ألا يفروا، وكانت هذه البيعة للرسول ﷺ، وهى أيضاً بيعة لله، على بيع النفس وشراء الجنة، كما قال سبحانه وتعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَا عَلَيْهِ حَقٌّ فِى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ... (التوبة: ١١١).

وقريب من ذلك قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ...

(الأنفال: ١٧)

وقوله سبحانه: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. (النساء: ٨٠).

ثم قال تعالى: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ...

بركة الله، وعناية الله، وتوفيق الله، وفضل الله، ورقابة الله، وقوة الله، وقدرة الله فوق أيديهم، بالنصر والرضا والتأييد.

فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ...

فمن نقض عهده مع الرسول، وخان الأمانة، وعدل عن التضحية والفداء، أو خان بأى نوع من أنواع الخيانة، فإنما ضرر ذلك يعود على نفسه، فهو الخاسر المغبون، لأنه خسر ما أعدّه الله لهؤلاء الرجال المبايعين، الذين قال لهم رسول الله ﷺ يوم البيعة: «أنتم اليوم خير أهل الأرض».

وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا .

ومن قام بحق البيعة ووفى بها، وألزم نفسه طاعة الله، وطاعة الرسول، وألزم نفسه بهدى القرآن والسنة، ولزوم الجماعة والأمة، فله الثواب العظيم، والأجر الكريم من الله تعالى، وأنعم به من أجر عظيم.

وفى معنى ذلك قال سبحانه وتعالى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ لَعَلَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح: ١٨).

★ ★ ★

أحوال المتخلفين عن الحديبية

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْنَا يَقُولُونَ بَلْ سَنَتِّهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ السَّوءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ۝١٤﴾

المضردات :

المُخَلَّفُونَ : هم الذين تخلّفوا فى أهليهم عن صحبة رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، جمع مخلف .

الأعراب : سكان البادية من العرب ، لا واحد له .

فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ : استفهام بمعنى النفى ، أى : لا أحد يملك لكم .

ضُرًّا : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما .

نفساً، ما ينفع من حفظ المال والأهل .

ينقلب، يرجع .

إلى أهلهم، إلى عشائهم وذوى قرباهم .

بـسوء، هالكين لفساد عقيدتكم .

سعييراً، ناراً موقدة ملتهبة .

تمهيد :

فى هذه الآيات بيان حال المتخلفين من الأعراب عن مشاركة الرسول ﷺ فى الخروج لأداء العمرة ، التى ترتب عليها صلح الحديبية ، وقد اعتذروا بانشغالهم بالمال والأولاد ، وهو اعتذار ظاهرى أو مخادع ، وقد كشفهم القرآن وعراًهم ، وكشف السبب الحقيقى لتخلفهم ، وهو ظنهم السوء بالمسلمين ، واعتقادهم بأن الرسول ﷺ ومن معه سيقتلون وتستأصل شأفتهم ، ولا يعودون إلى أهلهم أبداً ، وقد هددهم الله بالنار المحرقة يوم القيامة ، وبيّن لهم أن لله ملك السماوات والأرض ، وهو أهل للمغفرة لمن تاب إليه وأخلص نيته ، وهو أهل لأن يعذب الخائنين المعادين لله ورسوله .

التفسير :

١١ - سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

كان حول المدينة أعراب من جهينة ومزينة ، وغفار وأشجع ، والديل وأسلم ، وقد تخلفوا عن رسول الله ﷺ حين خرج لأداء العمرة ، وظنوا أن الرسول ﷺ لن ينتصر على قريش ، ومعها ثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة ، وهم الأحابيش .

وقالوا : كان أهل مكة يغزونه بالمدينة فى عقر داره ، فى غزواتي أحد والخندق ، فكيف يذهب إليهم بنفسه ، وما علموا أن لله ملك السماوات والأرض ، وأن بيده الخلق والأمر والنصر ، وأنه على كل شىء قدير . وفى الآية إعجاز غيبى ، حيث أخبر الله رسوله بما سيقوله الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معه .

ومعنى الآية :

سيقول لك المتخلفون عن الجهاد من الأعراب ، معتذرين عن تخلفهم : انشغلنا برعاية أموالنا وأبنائنا ونسائنا ، فاطلب من الله المغفرة لنا على هذا التقصير عن الجهاد ، وهم لم يقولوا الحقيقة ، ولم يعترفوا بالسبب الحقيقى لتخلفهم ، بل قالوا كلاماً فيه نوع من التقيّة والمداراة ، وعدم إظهار العذر الحقيقى للتخلف .

قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ كُمْ مِنَ اللَّهِ هَيْثُمَا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ...

أى : ليس الشغل بالأهل والمال والولد عذراً ، فكل المجاهدين لهم أموال وأولاد ، والحقيقة اليقينية هى أن الضرر والنفع بيد الله ، وأن الغنى والفقر بيد الله ، والصحة والمرض بيد الله ، فإذا أراد الله بكم ضراً فلا أحد يستطيع أن يدفعه ، وإذا أراد الله بكم خيراً أو نفعاً فلا أحد يستطيع أن يمنعه ، ولو استقر الإيمان فى قلوبكم لخرجتم للجهاد مع المجاهدين ، وعلمتم أن النفع وحفظ المال والأهل من عند الله ، وأن الضرر لا يدفعه إلا الله .

بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا .

بل كان الله مطلعاً على قلوبكم ونياتكم ، وسيجازيكم عليها جزاء عادلاً .

قال القرطبي :

وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضرر ، ويعجل لهم النفع .

١٢ - بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .

بل ظننتم أيها المنافقون أن رسول الله ﷺ سيهزم ، ويقتل أمام أهل مكة ، ولن يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهلهم وعشائهم أبداً ، وزين الشيطان ذلك فى قلوبكم ، وامتد ظنُّ السوء إلى صدق رسالته ﷺ ، لأن الذى يشك فى صدق رسالته ويتوقع له الهزيمة إنسان فاسد الإيمان ، هالك مع الهالكين المستوجبين لسطط الله وعقابه .

ونلاحظ هنا جملة : وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا .

أى : هالكين فاسدين ، لا تصلحون لشيء من الخير ، ولا تستحقون إلا الخزي والعقاب ، ومنه : أرضر بائرة ، أى : ليس فيها زرع .

قال الزمخشري :

والبور من بار ، كالهلك من هلك ، بناءً ومعنى ، ولذلك وُصف به الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث ويجوز أن يكون جمع بائر ، كعائذ وعؤذ ..

١٣ - وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا .

ومن لم يصدق بالله رباً ، وإلهاً واحداً أحداً ، فرداً صمداً ، بيده الخلق والأمر ، والرزق والخير ، والنفع والضرر ، ولم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، من أمثال هؤلاء المخلفين من الأعراب : فلن ينفعه مال ولا ولد ، وقد أعد الله له السعير والعذاب الشديد .

أى : فقد اختار الأذى وهو المال والولد ، وعرض نفسه للهلاك والبوار ، وعذاب السعير .

١٤ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

هو سبحانه الملك الحقيقي لهذا الكون كله ، سمائه وأرضه ، ويحاربه وأنهاره ، وليله ونهاره ، وشمسه وقمره : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْسِجُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . (الإسراء : ٤٤) .

وهو سبحانه : يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ . ممن تاب وأناب ، ودخل فى محراب الإنابة والرجوع إلى الله ، وفيه حث للمنافقين والكافرين وجميع الناس على الدخول فى رحمته الواسعة ، والإنابة والرجوع إليه ، والندم على ارتكاب النفاق والشقاق .

وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . فلا يقدر أحد على دفع العذاب عنكم إن أراد الله تعذيبكم ، وفيه تحريض لهم على عدم اللجوء إلى الرسول ﷺ ، ليعاملهم على ظواهرهم ويستغفر لهم ، لأن الله تعالى هو المطلع على السرائر ، ويبيده وحده المغفرة لمن يشاء ، والعذاب لمن يشاء .

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا .

أى : كان ولا يزال واسع المغفرة ، سبقت رحمته غضبه ، وفتح أبوابه للتائبين .

قال ابن جرير الطبرى : هذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ ، على التوبة والمراجعة إلى أمر الله ، فى طاعة رسوله ﷺ ، يقول لهم : يادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ ، فإن الله يغفر للتائبين ، لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم ومعاصيهم من عباده ، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها .

رغبة المخلفين فى القتال والغنائم

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُوعَنَا وَتَرْكَبُكُمْ فَيَرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُ النَّبَالَ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

المفردات :

ذرونا نتبعكم : اتركونا نخرج معكم إلى خيبر .

كلام الله : حكمه القاضى باختصاص أهل الحديبية بمغانم خيبر .

تمهيد :

هذه الآية أيضًا من الإخبار بالغيب ، حيث أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بما سيقع من الأعراب الذين تخلفوا عن غزوة الحديبية ، ظنًا منهم أن الرسول ﷺ وأصحابه سيقتلون هناك ، سيقولون : اتركونا نخرج معكم إلى فتح خيبر ، رغبة فى الغنائم ، وذلك يوضح كذبهم السابق ، حين قالوا : شغلتنا أموالنا وأهلونا ، ويؤكد أن النفاق والخوف هو الذى منعهم فى السابق .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالغنائم هنا غنائم خيبر ، فقد كانت عمرة الحديبية فى ذى الحجة من العام السادس للهجرة ، وكان فتح خيبر فى المحرم من السنة السابعة ، فهى أقرب غنائم بعد الحديبية .

التفسير :

١٥ - سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُوعَنَا وَتَرْكَبُكُمْ فَيَرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُ النَّبَالَ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

سيقول المخلفون الذين تخلفوا عن عمرة الحديبية ، إذا انطلقتم إلى فتح خيبر ، والحصول على غنائمها : اتركونا نخرج معكم ، بغية الحصول معكم على الغنائم ، يريدون أن يبدلوا وعد الله القاضى بأن يعجل لأهل الحديبية غنائم كثيرة يأخذونها وهدم ، وكان رسول الله ﷺ قد جعل مغانم خيبر لأهل الحديبية ، لأن الله وهدم بفتح قريب ، وبمغانم كثيرة يأخذونها ، وسيأتى تأكيد ذلك فى قوله سبحانه : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَائِمٍ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا ... (الفتح : ١٨ ، ١٩) .

قُلْ لَنْ يَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ...

قل يا محمد لهؤلاء المتخلفين عن الحديبية : لن تتبعونا عند الذهاب إلى خيبر ، فبمثل ذلك الحكم أمر الله وقضى وحكم ، بأن غنائم خيبر لمن خرج إلى الحديبية ، حيث بايع على الموت ، ثم رضى بالصلح والعودة إلى المدينة ، راضياً بحكم الله ورسوله .

فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ...

سيقول المخلفون عند سماع ذلك : ليس هذا حكم الله ، بل هو الحسد الذى منعكم من قبولنا فى الخروج معكم إلى فتح خيبر .

بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

أى : إنكم شغلتمكم الدنيا وأموالها ، فلا فقه لكم فى المعانى السامية التى يحملها المؤمنون المجاهدون الذين بايعوا تحت الشجرة ، ورضى الله عنهم ، وسجل ذلك فى كتابه ، فأنتم لا تفهمون إلا فهماً قليلاً فى شئون الدنيا ، أما أمور الدين ، ومعالم الخير والرضوان من الله ، فأهلها وفاهموها هم المؤمنون ، فالقرآن ينزه رسوله ﷺ وأصحابه هنا عن الحسد ، وهو تمنى زوال نعمته الغير ، ويصاحبه الحقد والضغينة والسوء والشر . وكلها معانٍ حفظ الله رسوله والمؤمنين منها ، والمنافقون لا يفهمون من هذه المعانى إلا القليل .

أو المعنى : قليل منهم هم الذين يفقهون ويدركون ، وقد ثبت أن بعض هؤلاء الأعراب أسلم وحسن إسلامه ، وشارك فى فتح مكة ، ثم فى غزوتى حنين والطائف .

★ ★ ★

خطاب آخر للمخلفين

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُكَ إِلَى قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ يُقْتَلُونَ عَنْهُمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ يُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾

المفردات :

أولى بأس شديد : أصحاب شدة وقوة فى الحرب .

فإن تطيعوا ، تستجيبوا وتنفروا للجهاد .

—————رج : إثم فى التخلف عن الجهاد ، وقتال الكفار .

تمهيد :

فى هذه الآية يفتح الله أبوابه للمتخلفين عن الجهاد ، ويذكرهم بأن فرصة سانحة ستأتى لقتال قوم أشداء أقوياء فى الحرب ، فمن أطاع ولبى وقاتل فله الثواب والأجر الحسن ، ومن أعرض فله العذاب الأليم ، وبمناسبة الدعوة إلى الجهاد بيّن سبحانه أصحاب الأعداء الذين يباح لهم التخلف عن الجهاد .

التفسير :

١٦ - قُلْ لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلَىٰ بِأَسْرِ شَدِيدٍ يَّقْبِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوْفِيقُنَّ مِّن قَبْلِ يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المخلفين من الأعراب : ستأتى فرصة قادمة لدخولكم تحت راية الجهاد ، حيث تدعون إلى قتال قوم أقوياء ، أصحاب خبرة وتفوق فى الحرب ، ولهم به مراس شديد ، حيث يكون الغرض من القتال دخولهم فى الإسلام أو قتالهم ، فإن تطيعوا الله ورسوله فى تلبية داعى الجهاد والإخلاص له : يؤتكم الله أجراً حسناً ، فما أعظم ثواب الجهاد ، وهو الأجر والغنيمة فى الدنيا ، أو الثواب إن لم يغنم ، ثم الجنة فى الآخرة ، كما ورد فى الحديث الصحيح .

وَإِن تَوَلَّوْا كَمَا تَوْفِيقُنَّ مِّن قَبْلِ يُعَذِّبَكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

وإن تعرضوا عن المشاركة مع المسلمين ، كما سبق أن أعرضتم عنهم فى عمرة الحديبية : تتعرضون للعذاب الأليم ، أى الهوان والذل فى الدنيا ، والسعيير والعذاب فى الآخرة .

من هم القوم أصحاب البأس الشديد ؟

تعددت أقوال المفسرين فى هؤلاء القوم ، وذكر ابن كثير عدة أقوال :

أحدها : هوازن . ثانيها : ثقيف . ثالثها : بنو حنيفة . رابعها : فارس . خامسها : فارس والروم .

ورجّح د . أحمد الكومى ، ود . محمد سيد طنطاوى ، أن يكون المقصود بالقوم أولى البأس الشديد هوازن وثقيف ، فالجيش المسلم الذى ذهب لفتح مكة كان يضمّ بين جوانحه العدد الكثير من قبائل أسلم وأشجع وجهينة وغفار ومزينة ، وقد ذهبوا لفتح مكة ، وبعد خمسة عشر يوماً ذهبوا لقتال هوازن وثقيف ، وكانوا رماة مهرة ، ولهم دراية بغنون القتال ، وقد شارك الأعراب فى قتالهم ، وكثير من هؤلاء المخلفين أسلم إسلاماً خالصاً ، وحسنت تويته .

١٧ - لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولُهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا .

هؤلاء أصحاب الأعداء الذين يباح لهم التخلف عن الجهاد ، وهم الأعمى فاقد البصر ، والأعرج صاحب العرج البين المستمر ، والمريض .

والمرض نوعان : مرض دائم فيلحق بالأعمى والأعرج ، ومرض طارئ : يطرأ أياماً ثم يزول ، فهو في حال مرضه ملحق بذوى الأعداء اللازمة ، حتى يبرأ ، فإذا برئ من المرض وأصبح سليماً معافى ، وجب أن يشترك في الجهاد .

وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا .

من أطاع الله ورسوله في كل ما ذكر ، ولبى داعى الجهاد ، وأثر الآخرة على الفانية ، فله الجنة التى تجرى الأنهار من تحتها ، وفيها النعيم الأبدى الدائم ، ومن أعرض عن طاعة الله ، وترك الجهاد وخالف أمر الله ، يعذبه عذاباً بالغا ، بالذلة والصغار فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .

★ ★ ★

رضوان الله عن أهل بيعة الشجرة

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِدَ كَثِيرَةٍ يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

المضردات :

رضى ، الرضا من الله تعالى محبة وعطف وحنان ورعاية ، وتوفيق وهداية وتقدير ، وعدم سخط على أهل الحديبية لمبايعتهم رسول الله ﷺ .

يبايعونك : يعاهدونك على السمع والطاعة .

الشجرة : شجرة سمرّة (شجرة طلع ، وهى المعروفة الآن بالسنتط) ، بايع المسلمون تحت ظلها رسول الله ﷺ .

ما فى قلوبهم : من الصدق والإخلاص فى المبايعه .

السكينة، طمأنينة القلب، وسكون النفس .

وأشابههم : جازاهم .

فتحاً قريباً : هو فتح خبير عقب انصرافهم من الحديبية .

ومغانم كثيرة : هي مغانم خبير، وكانت خبير أرضاً ذات عقار وأموال ، قسّمها رسول الله ﷺ بين المقاتلين ، فأعطى للفارس سهمين ، والراجل سهماً .

تمهيد :

يخبر الله تعالى برضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا قد بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى ألا يفروا ، وذلك عندما أرسل النبي ﷺ عثمان إلى قريش ، كمبعوث لرسول الله ﷺ ، يخبرها أنه جاء معتمراً معظماً للبيت الحرام ، لكن قريشاً احتبس عثمان ، وأشيع أنه قد قتل ، فتمت هذه البيعة ، ثم علمت قريش بخبر هذه البيعة ، فأفرجت عن عثمان ، ورغبت في الصلح مع رسول الله ﷺ .

التفسير :

١٨ - لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا .

إن الرضا والبركة ، والرحمة والفضل ، والسكينة والأمان والمغفرة ، قد نزلت من الله تعالى على هؤلاء الصحابة الأجلاء ، وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل ، قد بايعوا رسول الله ﷺ تحت شجرة الرضوان ، فسجل الله رضاه عنهم ، وقال ﷺ لهم : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» .

وقد حضر جبريل الأمين هذه البيعة ، روى ابن أبي حاتم ، عن إياس بن سلمة ، عن أبيه قال : بينما نحن قاتلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فسرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ...

قال : فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه ، بلحدي يديه على الأخرى^(١) .

فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ...

من التضحية والفداء ، والصدق والوفاء ، والسمع والطاعة .

فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ...

فأنزل عليهم الطمأنينة والهدوء ، والامتثال لأمر الله ورسوله .

وَأَنْلَيْهِمْ فَتْحًا قَرِيبًا .

عوضهم الله وكافأهم بفتح قريب ، ثم بعد شهرين من الحديبية ، وهو فتح خيبر ، وفتح مكة ، وفتح حنين والطائف ، بل وسائر ما فتحه الله عليهم من البلاد ، وما وقع لهم من العز والرفعة ، والنصر والمنعة فى الدنيا والآخرة .

١٩ - وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

جعل الله لهم المغانم الكثيرة ، التى يسرها لهم من أهل خيبر وغيرها من البلاد ، مع العز والمنعة والرفعة فى الدنيا والآخرة .

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

هو سبحانه العزيز الغالب ، الحكيم فى تصرفاته وأفعاله ، حيث يسر لهم مهادنة أهل مكة ، والصلح معهم ، ثم يسر لهم فتح خيبر ، وقد غنموا منها غنائم كثيرة ، ثم فتح مكة ، ثم فتح حنين والطائف .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

الحكمة في صلح الحديبية

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَيَأْتِي النَّاسُ عَنكُمْ
وَيَسْأَلُونَ عَنْ آيَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ
أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ٢١ وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْبَرُ
ثُمَّ لَا يَجِدُوبَ وَيَأْتُوا وَلَا نَصِيرًا ٢٢ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدِلَ سُنَّةَ
اللَّهِ تَبْدِيلًا ٢٣ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ
أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤﴾

المضردات :

المغانم الكثيرة : ما يُعد به المؤمنون إلى يوم القيامة .

فعجل لكم هذه : مغانم خبير .

وكف أيدي الناس عنكم : أيدي قريش بالصلح ، وأيدي أهل خيبر وحلفائها من بنى أسد وغطفان ، وأيدي
اليهود عن المدينة ، إذ هموا بعيالكم بعد خروج الرسول ﷺ منها إلى الحديبية ،
بأن قذف في قلوبهم الرعب .

آية : علامة وأمرة .

للمؤمنين : أمرة للمؤمنين في نصرهم ، يعرفون بها صدق الرسول ﷺ في وعدهم بفتح خيبر
وبالمغانم وغير ذلك ، ومعرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلامه تعالى
ستمنعهم أيضًا ما داموا على الجادة .

الصراط المستقيم : الثقة بفضل الله ، والتوكل عليه ، فيما تأتون وتذرون .

وأخـــــرى : ومغانم أخرى ، هي مغانم فارس والروم .

أحاط الله بها : أعدها لكم وهي تحت قبضته يُظهر عليها من أراد .

لوئوا الأدبار : لانهزموا وأعطوكم ظهورهم هربًا منكم .

الـــــوئى : الحارس الحامى .

الـــــنصير : المعين والمساعد .

سنة الله ، حكم الله وقانونه القديم فى نصره أنبيائه ، قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا
وَرُسُلِي ... (المجادلة : ٢١) .

كف أيديهم عنكم ، أبدى كفار مكة .

وأيديكم عنهم بيطن مكة ، يعنى بالحديبية .

أنظركم عليهم ، أظهركم عليهم ، وجعلكم متغلبين عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى
خمسائة إلى الحديبية ، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند فهزمهم ،
حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

تمهيد :

هذه الآيات تتحدث عن نعمة الله تعالى على أهل الحديبية ، فقد تم الصلح بعد مناوشات متعددة ،
تمسك المسلمون فيها بالصبر ، ومنحهم الله النصر ، وهنا يخبرهم القرآن أن أمامهم مغامم كثيرة فى
فتوحاتهم ، فجعل لهم غنائم خبير ، ولتكون دليلاً على صدق وعده سبحانه ، وهناك غنائم فى فارس والروم
قد أحاط الله بها ، وجعلها جاهزة لمن يتقدم لطلبها ، أو مغامم بعد فتح مكة من هوازن وغيرها ، ولو حدث
قتال يوم الحديبية لنصرهم الله عليهم ، تلك سنة الله فى نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، إن لله حكمة
فى أن كف ومنع أيديكم عن أهل مكة ، ومنع أيديهم عنكم ، بعد أن أنظركم الله عليهم بالبيعة ويمطاردتهم
إلى حيطان مكة ، والله مطلع على أعمالكم ، بصير بنياتكم ، وسيحسن ثوابكم .

التفسير :

٢٠ - وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ
وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا .

وعد الله المؤمنين إذا استمروا على الجهاد فى سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ، أن يغنموا مغامم كثيرة
إلى يوم القيامة ، ومنها ما غنموه فى حياة الرسول ﷺ ، وما غنموه فى حياة خلفائه ، وفى تاريخهم فى
ماضى حياتهم ، وفى مستقبل حياتهم إن شاء الله ، قال تعالى : إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ...

عجل لكم فتح خبير ، مكافأة عاجلة لما أظهرتم يوم الحديبية من البيعة ، ومن طاعة الرسول فى
الحرب والسلام .

وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ...

كف أيدي أهل مكة عن قتالكم ، ورغبوا في مصالحتكم ، فرجعتم وافرين سالمين ، وكفَّ أيدي اليهود بالمدينة عن نساكم وصبيانكم ، بإلقاء الرعب في قلوبهم ، وكف أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان عن قتالكم ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فنكسوا على أعقابهم ، وولوا هاربين فزعاً وخوفاً ، كل ذلك لتشكروه ، وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ... يعرفون منها صدق رسولهم ﷺ في جميع ما يعدم به ، وأن الله حافظهم وناصرهم على جميع الأعداء مع قلة العدد .

وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا .

ويلهمكم الصواب والتوفيق في سلوك الطريق الأمثل ، الواضح القويم ، الذي يوصلكم إلي ما تبتغون في عزة وأمان .

٢١ - وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

وغنائم أخرى وعدكم الله إياها ، غير غنائم خيبر ، مثل فتح مكة وحنين والطائف ، وقد غنم المسلمون منها مغائم كثيرة ، وقيل : المقصود غنائم فارس والروم ، لم تقدرُوا عليها الآن ، لكن الله العليُّ القدير قد أحاط بها ، ودير حفظها وتيسير أمرها للمسلمين ، حين يتقدمون لفتح هذه البلاد في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، الذي ارتدت منه الأكاسرة والقيصرة ، كما قال الشاعر :

يا من رأى عمرا تكسوه بردته والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسية فرقا من بطشه وملوك الروم تخشاه
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا .

حيث دبر سبحانه اقتتال الزوم مع الفرس ، وهزيمة الروم أولاً ، ثم انتصارهم ثانياً ، ثم تهيفة الغريقين للانتهزام أمام المسلمين ، بتدبير الله الذي ينصر من يشاء ، وهو على كل شيء قدير ، إذا أراد أمراً هياً له الأسباب ، ثم قال له كن فيكون ، فهو سبحانه كان ولا يزال قادراً مقتدرًا ، لا يعجزه شيء .

٢٢ - وَلَوْ فَتَحْنَاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذُنَّ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ لَنَا نَصِيرًا .

أراد الله أن يحفظ مكة من الحرب يوم الحديبية لعدة أسباب ، وهنا يقول : لو اشتبك كفار مكة معكم في قتال يوم الحديبية ، لانهمزوا مولين أديارهم للمسلمين ، كناية عن الفرار والهرب خوفاً من المسلمين ،

ثم لا يجد الكفار ولياً يساعدهم ويأخذ بأيديهم ، ولا نصيراً ينصرهم بقوة سلاحه وقوة جيشه ، لأنهم يحاربون دين الله ، والله غالب على أمره ، على حد قول القائل :

جاءت جهينة كى تحارب ربها وليُخَلَبَنَّ مغالب الغلاب

٢٣ - سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

تلك سنة الله ، أى منهجه المطرد ، وقوانينه العادلة ، أن يؤيد الحق وينصر الرسل ، ويبارك المؤمنين إذا أخذوا بالأسباب ، ثم اعتمدوا على الله رب العالمين ، ومن سنة الله هزيمة الكافرين أمام المؤمنين ، وهزيمة أهل الباطل أمام أهل الحق ، وهى سنة قديمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

أى : ولن تجد أبها العاقل لقانون الله الكونى تغييراً ، لأن الذى وضعه هو خالق هذا الكون ، ورافع السماء وباسط الأرض ، ومسخر السحاب ، ومظلم الليل ومُضِئُ النهار ، ومن قوانينه العادلة نصرة المجاهدين ، ورفع راية أهل الحق ، وهزيمة المبطلين ، فدولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والآية تبشّر المؤمنين ، وتأخذ بأيديهم إلى الثبات والكفاح والنصر ، كما قال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ . (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

٢٤ - وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرًا .

تشير روايات فى صحيح مسلم وغيره إلى أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على المسلمين من قِبل جبل التنعيم ، يريدون غرة فى المسلمين ، فأخذوا وعفا عنهم النبى ﷺ ، وعادوا إلى مكة ، وكان ذلك سبب نزول هذه الآية .

والآية مع ذلك تفسّر بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالله تعالى بحكمته وقدرته ومشيتته ، أراد أن يمرّ يوم الحديبية دون قتال ، فمنع أيدى المسلمين عن قتال أهل مكة ، ومنع أهل مكة عن قتال المسلمين ، من بعد أن غنم المسلمون ثمانين محارباً فأطلقوهم ، وطارد نخبة من جيش المسلمين فئة من أهل مكة كانوا خمسمائة مقاتل ، بقيادة عكرمة بن أبى جهل ، فهزّم المشركون وطاردهم المسلمون إلى جدران مكة ، وكان معروفًا يومئذ أن الغلبة والقوة والبيعة مع المسلمين .

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا .

كان مطلقاً ومشاهدًا لاجتهادكم فى مطاردة أعدائكم إلى جدران مكة ، ويقظتكم واستيلائكم على ثمانين محارباً دعا عليهم النبى ﷺ فكفَّ الله بصرهم ، واستولى عليهم المسلمون ، ثم أطلق النبى سراحهم ، وكل هذا يسر لمعاهدة الحديبية ، ثم يسر بعد ذلك لفتح مكة .

★ ★ ★

أيضاً من حكمة المصالحة يوم الحديبية

﴿ هُمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلُهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

المفردات :

وصدوكم : ومنعوكم من الوصول إليه .

والهدى : وصدوا الهدى ، وهو ما يقدم قرباناً لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة .

معكوفاً : محبوساً عن الوصول إلى الحرم .

محله : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى .

تطَّوَّهُمْ : تدوسهم بأقدامكم ، والمراد أن تبيدوهم وتهلكوهم .

معرة : المكروه والمشقة .

التزِيل : التفرق والتمييز .

الحمية : الكبر والأنفة ، وحمية الجاهلية هى حمية فى غير موضعها ، لا يؤيدها دليل ولا برهان .

سكينته : السكينة : الوقار والحلم .

أنزلمهم، اختار لهم، وطلب منهم .

كلمة التقوى : هي : لا إله إلا الله .

أحق بها : أولى بها من غيرهم ، ومتصفين بمزيد استحقاق لها .

وأهلها : وأصحابها المستأهلين لها .

تمهيد :

فى هذه الآيات تعبير مصور يُرى بالكافرين ، ويسجل أوسمة للمؤمنين ، فكفار مكة هم الذين كفروا برسالة محمد ﷺ ، ومنعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام معتمرين متسكين ، ومنعوا الهدى من الإبل والبقر والغنم وقد غُلقت فى صدورها قلائد من زيادات أوراق شجر الحرم ، ليعلم الناس جميعاً أنها قد أهديت إلى البيت الحرام ، لتذبح ويوزع لحمها على الفقراء ، وهذا منسك ديني موقر محترم فى سائر الأديان، لأنه يعتمد على نحر الهدى بعد أداء منسك العمرة أو الحج تقريباً إلى الله ، وإطعاماً للفقراء .

والقرآن هنا يسجل على الكافرين هذا المشهد ، الذى ينم عن الغلظة والتعدي ، والتصدى بالمنع لحجاج بيت الله ، وللهدى المتقرب به إلى الله ، لطعم الفقراء من لحمه بعد ذبحه ، وكانت لله حكمة فى تأخير النزال بين المسلمين والكافرين ، وهى وجود ثلاثة رجال وسبع نسوة من المسلمين بمكة ، وفى رواية أبى حاتم ثلاثة رجال وتسع نسوة من المسلمين المختلطين بكفار مكة ، وكان القتال بين المسلمين والمشركين سيوًدى إلى قتلهم ، بدون أن يعرفهم المسلمون ، فيندموا ويتأذوا ، لذلك منع الله الحرب ، ولو تميز المسلمون واعتزلوا وحدهم ، لعذب الله الكافرين فى الحرب ، وهزمهم فى الدنيا ، ثم عاقبهم فى الآخرة .

وتعرض الآية السادسة والعشرون موقفاً ظهر الكافرون فيه فى غاية الحق والجلالة والعدوان بدون وجه حق ، وكان المسلمون فى غاية السكينة والإيمان والتقوى وهم أهل لذلك ، وتفيد كتب السيرة والتاريخ أن قريشاً لما أرادت الصلح أرسلت سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكرب بن حفص ، ليسألوا النبى ﷺ أن يرجع فى عامه ، على أن تُلخى قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، فأجابهم ، ويدأ على بن أبى طالب يكتب معاهدة الصلح ، فقال رسول الله ﷺ : «اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم» ، فقال سهيل بن عمرو : اكتب ما نعرف ، وهو : باسمك اللهم ، فوافق رسول الله ﷺ ، ثم قال النبى ﷺ : «اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو» ، فقال سهيل : لو أقررت أنك رسول الله ما حاربتك ، اكتب اسمك واسم أبيك ، اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو^(١٠) .

وقد تمتع الرسول ﷺ بالحلم والتقوى ، وتمتع المسلمون بالطاعة والسكينة ، كما ظهر من تعبير القرآن الكريم .

التفسير :

٢٥ - هُم الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَجْلُهُ ...

هم أهل مكة الذين كفروا بالله ورسوله ، ومنعوكم من دخول المسجد الحرام معتمرين مسالمين ، ومنَعُوا الهدى من الإبل والبقر والغنم أن يتقدم إلى منى ليذبح ، فلمَّا أُخْصِرَ المسلمون عند الحديبية ذبحوا الهدى فى الحديبية ، وكان المسلمون قد ساقوا بين أيديهم سبعين بدنة ، وذبحوا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة - كما ورد فى صحيح مسلم - وتحلل النبى ﷺ من إحرامه وذبح بدنة .

روى البخارى ، عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله ﷺ بدنة وحلق رأسه .

وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ نَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمُ فَتَضْرِبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةً بِغَيْرِ عِلْمٍ ...

كان هناك فى مكة ثلاثة رجال وتسع نسوة يُخَفُونَ إيمانهم خوفاً من أهل مكة ، ولو حدث قتال لوطنهم المسلمون ، أى قتلوهم خطأ بدون عمد .

ومعنى الآية :

لولا وجود هؤلاء الذين يكتُمون إيمانهم خيفة على أنفسهم - وهم بين أهل مكة - لسلطناكم عليهم فقتلناهم ، ولو قاتلتم أهل مكة وانتصرتم عليهم ، لقتل قوم من ضعفاء المؤمنين والمؤمنات ، أنتم لا تعرفونهم حين تقتلونهم ، ثم تتألمون وتحزنون بعد قتلهم ، وتصيبكم معرة وألم ، وربما تجرأ الكفار وقالوا لكم : قتلتم إخوانكم المسلمين بأيديكم ، لهذه الاعترافات يسر الله أمر الصلح مع أهل مكة .

لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ...

ليحفظ هؤلاء الضعفاء من المؤمنين بفضلهم ورحمته ، أو ليدخل فى دين الإسلام من أراد الله هدايته قبل فتح مكة .

لَوْ تَرَىٰ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

لو تميَّز الكفار من المؤمنين المقيمين بين أظهرهم ، لنصرناكم على الكافرين من أهل مكة ، وقهرناهم بالسبى والقتل ، وغير ذلك من ضروب التنكيل الشديد ، والإيلام العظيم .

٢٦ - إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ اتَّقَوا وَاذْكُرُوا أَتَقُونَ بِهَا وَأَهْلُهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

تضع هذه الآية الحقيقة الكاملة لموقف الكافرين والمؤمنين يوم الحديبية ، فالكفار في قلوبهم الأنفة والعزة بالإثم ، المنسوبة إلى الجاهلية ، لذلك صدوا المسلمين عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدى ومنعوه أن يصل إلى محل ذبحه في منى ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فأبوا أن يكتبوا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وكتبوا : باسمك اللهم ، كما أبوا أن يكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ، وكتبوا : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، فنسب الله إليهم الحمية ، وهى مذمومة ، وتزداد مذماً إذا نسبت إلى الجاهلية ، أى التهور والغلظ بدون وجه حق .

وفى المقابل أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، فجعلها محفوظة عنده حتى أنزلها عليهم ، والسكينة كلمة طيبة ، ثم نسبها الله إليه ، فجعلها سكينته ، أى الهدوء والإيمان والوقار والرضا ، وعدم العناية بالشكليات .

وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ اتَّقَوْا وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا ...

أى : مكثهم الله من كلمة التوحيد ، والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أهلاً لها وأولى بها ، وهى لا إله إلا الله .

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .

هو المطلع على أحوال كل من المؤمنين والكافرين ، فيجازى كل فريق بما يستحق .

وتفيد الآيات ما يأتى :

(أ) أن حرمة المسلم عند الله عظيمة (ولقتل نفس مؤمنة أعظم عند الله من زوال الدنيا) فقد أحرَّ الله فتح مكة من أجل ثلاثة رجال ، وسبع أو تسع نسوة .

(ب) دلَّ قوله تعالى : يَغْيِرْ عِلْمُ . على عدالة الصحابة وعصمتهم من التعدي ، حتى لو أنهم أصابوا أحداً من المسلمين لكان ذلك من غير قصد ، وهذا مشابه لقول النملة تصف جند سليمان : يَتْلِيْهَا أَتَمُّلُ أَذْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِئُكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . (النمل : ١٨) .

(ج) لم يكن منع أهل مكة للمسلمين من أداء العمرة لسبب معقول ، وإنما كان تعصباً لألئهم وأصنامهم ، وكرامية لدين لم يفحصوه ، ولم يحاولوا أن يتفهموه ، أما المؤمنون فقد ألزمهم الله السكينة والتقوى ، ويُعد النظر ، وعوضهم بفتح خير ثم بفتح مكة .

★ ★ ★

تصديق رؤيا الرسول ﷺ عام الفتح

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

المفردات :

الرؤيا : هي رؤيا منامية رآها ﷺ في منامه أنه دخل المسجد الحرام معتمراً ، وصَدَّقَ الله رسوله الرؤيا ، أى : صدقه في رؤياه ولم يكذبه .

لتَدْخُلَنَّ : جواب لقسم محذوف ، أى : والله لتَدْخُلَنَّ أيها المؤمنون المسجد الحرام فى عامكم المقبل .

آمِنِينَ : حال كونكم آمنين من كل فزع .

مُخْلِقِينَ : حال كون بعضكم يُلْقِ شعر رأسه كله .

ومُقَصِّرِينَ : وبعضكم يكتفى بقص جزء منه .

ليُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ : ليعليه على سائر الأديان ، حقها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشيء باديًا ظاهرًا للرائي ، ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

تمهيد :

كان ﷺ قد رأى فى المدينة رؤيا ، مؤداها : أنه دخل مع أصحابه المسجد الحرام معتمراً متنسكاً ، فأخبر أصحابه بذلك ، فخرجوا فى ألف وأربعمائة رجل يريدون العمرة ، فمنعهم كفار مكة ، فتحلوا عند الحديبية ، ونبحوا الهدى فى الحديبية ، وعادوا من دون أن يعتمروا .

قال قتادة : لما صالح رسول الله ﷺ أهل مكة بالحديبية ، ارتاب المنافقون أو بعض ضعاف الإيمان ، حتى قالوا : أين رؤياك يا رسول الله ؟ أى : نحن لم ندخل مكة ، ولم نؤد العمرة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ...**

فأكد صدق رسوله ، وبين الله أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين ، أى : مؤدين للنسك حال كونهم آمنين يؤدون العمرة ، ويتحللون من الإحرام حال كون بعضهم حالقين رؤوسهم كاملة ، وحال كون بعضهم مقصّرين فقط .

ولله سبحانه حكمة فى أن يؤجل فتح مكة ، حتى تفتح خيبر أو حتى يتم صلح الحديبية ، وقد كان أعظم فتح فى الإسلام ، حيث أمن الناس ، وزاد عدد المسلمين ، وتمّ التمهيد لفتح مكة وفتح حنين والطائف ، ثم ذكر الله تعالى أنه هو الذى أرسل رسوله بدين الإسلام ، ليكون الدين العالمى المشتغل على سعادة الدنيا والآخرة .

التفسير :

٢٧ - **لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَأَمِينٍ مُّخْلِفينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا .**

هذه الآية تأكيد لصدق الرسول ﷺ فى رؤياه ، وبيان لحكمة العلى القدير فى تأخير فتح مكة ، وفى إنجاز صلح الحديبية .

فائدة

جزيرة العرب عبارة عن صحراء واسعة ، تعتمد هذه الصحراء على المدن القريبة منها فى بيع منتجاتها ، من الألبان واللحوم والزراعة والخضر والفاكهة ، ويشترى الأعراب من هذه المدن ما يلزمهم من الكساء والفراس وغير ذلك ، وقد كانت فتوحات الرسول ﷺ وغزواته أفعالا منظّمة مرتبة لحكم عالية ، وضعت فى حساباتها أن تتم السيطرة على المدينة وما حولها ، وأن يتم قطع الطريق على تجارة مكة ، حتى تضطر إلى التسليم بالإسلام ، أو مهادنته رهبة أو رغبة ، والمتأمل فى تاريخ السرايا والغزوات يرى أنها حققت ذلك .

وفى أول حياة المسلمين بالمدينة أرسل النبى ﷺ سرايا استطلاعية لتعرف أحوال مكة وأخبار تجارتها ، خصوصاً المتحركة إلى الشام ، حيث تمرّ بطريق المدينة ، فمكة فى جنوب الجزيرة ، والشام فى شمالها ، والمدينة فى الوسط ، وكانت بدر الصغرى وبدر الكبرى دروساً موجهة إلى أهل مكة ، وتمت غزوة

أحد وغزوة الخندق ، وفى أعقاب غزوة الخندق قال ﷺ : «سنغزو مكة ولا تغزونا بعد ذلك» ، ثم تم صلح الحديبية ، وبحكمة الرسول ﷺ تم فتح خيبر بعد شهرين من صلح الحديبية ، ومن يسيطر على خيبر يمكنه التحكم فى الأعراب المحيطة بها ، وكان من حكمة الرسول ﷺ أن يحرم مكة من حلفائها ، أو ممن يستقون معها فى حرب المسلمين ، وأخذ ﷺ يعقد معاهدات ومصالحات ، ويستقبل وفوداً من العرب ، حتى سمي العام السابع الهجرى بعام الوفود ، من كثرة الوفود التى قدمت من حول مكة ، أمانة على نفسها إلى رسول الله ﷺ ، وفى عمرة القضاء شاهد الصبيان والنساء بمكة المسلمين فى نسكهم وعبادتهم ، وناقشهم فى مبادئ الإسلام ، وتهيأت مكة لاستقبال الإسلام رغبة أو رهبة ، لقد حرم الرسول ﷺ مكة من عدد من الحلفاء ، وعقد معاهدات ومصالحات مع عدد من العرب فى أنحاء الجزيرة ، ورأى أهل مكة أن الإسلام هو دين الغد ، وأن مكة ستسقط فى يد المسلمين عاجلاً أو آجلاً ، وقد كان صلح الحديبية أعظم فتح فى تاريخ المسلمين ، فقد تضاعف به عدد المسلمين ، ويسر الطريق لفتح خيبر ، ثم لعمرة القضاء ، ثم لفتح مكة بقليل من الجهد ، مع الحفاظ على حرمة البيت الحرام وحزمة مكة ، قال ﷺ : «إنما أباحها الله لى ساعة من نهار» .

ومن ذلك نعلم أن الغزوات لم تكن ردود أفعال كما يتوهم بعض كتاب السيرة ، وإنما كانت خطة محكمة ، اعتمدت على تدريب الرجال ، وإرسال السرايا ، وإعداد المخابرات والعيون ، وتوقيع المعاهدات ، والاستيلاء على الأماكن المؤثرة ، والالتفاف حول مكة ، والتأثير على تجارتها ، وإفهامها أن مصلحتها فى مهادنة الإسلام ، ثم التمهيد لفتح مكة بأقل التضحيات ، ثم فتح الطائف ، ثم توجيه المسلمين إلى تبوك ، وتهيئة الصحابة لمقودوا معارك فى بلاد الفرس وبلاد الروم فى مستقبل أمرهم ، حتى أنه لم تض على وفاة الرسول ﷺ عشر سنوات حتى ورث المسلمون ممالك الفرس والروم .

مع يقيننا بأن قدرة الله القادرة وتوفيقه العظيم ، وهدايته لرسوله ، وبشارته بالنصر ، ومعونة الله له بالملائكة والهداية والتوفيق ، كانت من أهم أسباب النصر .

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

وقال تعالى : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذَمَّى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ . (الأنفال : ١٧ ، ١٨) .

عود إلى التفسير

معنى الآية :

والله لقد صدق الله رسوله وما كذبه ، فالله هو الذى أراه الرؤيا بالحق ، وكانت الرؤيا سبباً فى صلح الحديبية ، وقال بعض الناس أو بعض المنافقين : لم ندخل المسجد الحرام ، فنزلت هذه الآية : لَتَدْخُلُنَّ

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ... أى فى عمرة القضاء ، إِنَّ شَاءَ اللَّهُ ... تأكيد من الله العليم بكل شىء ، وتعليم لنا ونحن لا علم لنا ، أى : ستدخلن المسجد الحرام بمشيئة الله وتوفيقه ، لا بسبب قوتكم أو أسلحتكم .
 عَائِيْنِ مُحَلِّقِيْنَ رُءُوسِكُمْ وَمُقَصِّرِيْنَ ...

حال كونكم آمنين من عدوان أهل مكة ، تتمتعون بالأمن وأداء العمرة ، بعضكم يتحلل من إحرامه بالحلل لرأسه كاملاً ، وبعضكم يتحلل من إحرامه بتقصير شعر رأسه ، والحلل أفضل بالنسبة للرجل ، أما المرأة فليس لها إلا التقصير .

لَا تَخَافُونْ ...

تأكيد للأمن ، ولتكفل الله بإلقاء الرعب فى قلوب أهل مكة ، ولتطمئن المسلمين بأنهم سيؤدون عمرة القضاء آمنين لا يخافون ، وهو تأكيد مقصود فى أعقاب غزوات متعددة ، وتعتت من أهل مكة فى معاهدة الحديبية .

فَعَلِمَ مَا لَمْ يَغْلُمُوا فَبَجَّلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا .

إن حكمة الله أن تيسر الأمور فى أسبابها ، وسقوط خيبر فى يد المسلمين حرم كفار مكة من حلفاء أشداء ، وحرّم اليهود فى خيبر من حرية الحركة ، وألقى الرعب فى قلوب أهل مكة ، ويسر فتح مكة على المسلمين فى الوقت المناسب ، والله تعالى عالم الغيب لذلك جعل فتح خيبر قبل فتح مكة ، أو جعل صلح الحديبية قبل فتح مكة .

٢٨ - هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

الله تعالى هو الذى أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهداية والإصلاح والإرشاد والتعاليم النافعة ، والآداب السامية ، ودين الإسلام ، وهو الدين الحق المشتمل على توحيد الله تعالى ، والإيمان برسالة محمد ﷺ ، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، والعبادات والمعاملات ، ومكارم الأخلاق ، هذا الدين هو خاتم الأديان ، وقد جمع محاسنها ، وتخلص من شوائبها ، هذا الدين هو الدين الوسط ، المشتمل على الأحكام والتشريع ، وفى نفس الوقت مشتمل على إحياء الضمير ، وإيقاظ الهمة للخير ، دين جمع بين الأحكام والهداية ، بين التشريع وإصلاح القلب ، وأمتة هى الأمة الوسط ، التى وجدت المنهج والطريق فى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ ، ووجدت فيهما ما يدعو إلى الهداية والاستقامة ، والعفة وإيثار الفخيلة ومراقبة الله تعالى .

وقد أظهر الله الإسلام في حياة رسوله ، حين فتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وحين فتحت بلاد كثيرة في حياة الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم .

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

على صدق رسوله ، وأنه نبي الله حقًا ، ورسوله صدقًا ، وفي ذلك ردُّ على سهيل بن عمرو حين قال للنبي ﷺ : لو علمت أنك رسول الله ما حاربتك ، أي أن الله يشهد بأنه ، هو الذي أرسل رسوله محمدًا ﷺ ، بالهداية ودين الحق وهو دين الإسلام ، لينصر هذا الدين على كل دين سماوي أو أرضي ، لأن الإسلام لا يتعارض مع الأديان السماوية السابقة ، بل هو مشتمل عليها ، ومتمم لما جاء فيها ، لأنه دين الفطرة والواقع والإنسانية الراشدة ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . على صدق هذا الدين ، وعلى صدق الرسول الأمين محمد ﷺ .

★ ★ ★

أوصاف الرسول ﷺ وأصحابه

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ سَطْرَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِي غِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٢١ ﴾

المفردات :

أَشِدَّاءُ : واحدٌ شديد ، والمراد : أقوياء غلاظ قساة على الكفار .

رُحَمَاءُ : جمع رحيم ، أي : متعاطفون متوافقون ، في قلوبهم رحمة ، كالوالد مع الولد ، كقولهِ

تعالى : أَدْلِلْ عَلَيَّ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ... (المائدة : ٥٤) .

يَبْتَغُونَ : يطلبون في جد واجتهاد .

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ : ثوابًا ورضا .

سِيمَاهُمْ : علامتهم وأمارتهم التي تميزهم .

مثـلـهـم ، وصفهم العجيب ، الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة .

شـطـاه ، فراخه ، أو فروعه التى تنبت حول الأصل .

فـأـزـره ، فأعانه وقواه .

فـاسـتـغـلـظ ، فصار من الدقة إلى الغلظ .

فـاسـتـوى على سوقه : استقام على قصبه وأصوله ، والسوق : واحد ساق .

تمهيد :

صفات جامعة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فهم رحماء متعاطفون مع إخوانهم المسلمين ، وهم أشداء أقوياء فى الحرب والجهاد فى سبيل الله ، وهم راكعون ساجدون عابدون ، متبتلون بذكر الله ، وابتغاء فضله ورضوانه ، وقد انعكس الطهر والفضل والإيمان والعبادة من قلوبهم على صفحة وجوههم ، فترى أثر الصلاح والتقوى فى وجوههم ، وترى النور والبهاء والرضوان على وجوههم من أثر السجود والطاعة لله ، ذلك مظهر فى التوراة ، أما صفتهم فى الإنجيل فهى كزرع زرعه رسول الله ﷺ ، فأخرج فراخه أو فروعه فأزرت الأصل وقوته ، فاستغلظ الزرع واشتد قوى ، واعتدل قائماً على الساق القوية المعتدلة ، وكان ﷺ يفرح بأصحابه وقوتهم وبأسهم وطهارتهم ، ويمدحهم ويقول : «اللَّهُ اللهُ فى أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، من عاداهم فقد عادانى ، ومن عادانى فقد عادى الله ، ومن عادى الله يوشك أن يأخذه»^(١) .

وقد وعد الله المؤمنين منهم بالمغفرة ومحى الذنوب ، وبالأجر العظيم وبجنة عرضها السماوات والأرض .

التفسير :

٢٩ - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَمَنْثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لَيْغَظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

أى : هو محمد ﷺ الذى وصف بالرسالة فى الآيتين السابقتين ، وهنا يذكر الله تعالى اسمه :

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ...

مبتدا وخبر ، ما أعذبه وما أطهره وما أحلاه .

وَالَّذِينَ مَعَهُ أَجْدَاءٌ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...

صحابته الأطهار الأبرار كانوا مثلاً أعلى في النزاهة والعطاء والطهر، ولم لا، ومعلمهم ﷺ هو معلم الإنسانية كلها، هو النور المبين الذي أضاء جبين الدنيا، فعلم العرب ووحدهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن التفرق إلى الجماعة، ومن العصبية الجاهلية إلى السكينة والإيمان والوقار، وهؤلاء الصحابة تربية محمد ﷺ، هم أشداء أقوياء على الكفار في قتالهم وحريهم، كانوا قلة ينتصرون على الكثرة.

قال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ. (آل عمران: ١٢٣).

وكانوا يهتدون بقوله تعالى: يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِذُوا بِكُمْ عُقَلَةً ... (التوبة: ١٢٣)

رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...

متعاطفون متعاونون، كما قال سبحانه: أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ... (المائدة: ٥٤)

تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَتَّخُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ...

من صفاتهم العبادة والصلاة والركوع والسجود، والتبتل وصلاة الفرائض والنوافل وقيام الليل، وهم في صلاتهم خاشعون خاضعون، ابتغاء ثواب الله وفضله ورضوانه، ومحبة ومودته، وهم لذلك ذاكرون شاكرون حامدون، لربهم ساجدون.

سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَمْرِ السَّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي الْقُرْآنِ ...

وقد ظهر نور العبادة والطهر، وعلامة التقوى والإيمان على وجوههم، نوراً وحياً وفضلاً، من أثر السجود والاقتراب من الله تعالى، تلك صفتهم في كتاب موسى التوراة (وهي العهد القديم) ..

أما صفتهم في الإنجيل (وهي العهد الجديد)، فهي كزرع ونبات نام قوى، أخرج فرعاً صغيراً بجواره، فأزهره وقواه وأعانه، أى أن الزرع قوى الشطء لأنه تغذى منه، واحتمى به، وتحول من الدقة إلى الغلظ والقوة، واستقام الفرع الجديد على أعواده وسيقانه، يعجب الزراع لقوته وحسن منظره، وكان ﷺ محباً لأصحابه، حريصاً على تقويتهم وتطهيرهم وتعليمهم ليكونوا أساتذة الدنيا، وليغيظ بهم الكفار، فقد فتحوا الفتوح، وقادوا الغزوات، أو كانوا لحمتها وسداها، حتى جاء نصر الله والفتح.

روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : «أرحم أمّتي أبو بكر ، وأشدّهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأفرضهم زيد ، وأقروهم أبى ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» (١٧) .

ويجوز أن يكون معنى هذه الفقرة ما يأتي :

وَمَعْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزْرَعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...

بدأ الصحابة قلة ضعيفة ثم اشدت أمرهم وتوّقت جماعتهم برسول الله ﷺ ، كزرع أخرج فسيله حوله ، مثل نبات القمح والشعير وغيرهما ، فيقوى الأصل بما حوله ويشد ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ؛ فيعجب به الزراع لقوته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة : إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيته في الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ...

أى : إن الله تعالى قوّاهم وسد خطاهم ليكونوا غصّة في حلق الكافرين ، إذ يعتقدون أن الله متمّ بهم نوره ولو كره الجاحدون .

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

لقد وعد الله تعالى الذين آمنوا من أصحاب رسول الله ﷺ بالمغفرة لذنوبهم ، وستر عيوبهم ، ووعدهم بالجزاء العظيم في الدنيا والآخرة .

في أعقاب تفسير الآية

ذكر ابن جرير ، عن قتادة أنه قال : مكتوب في الإنجيل : (سيخرج قوم يشبهون نبات الزرع ، يخرج منهم قوم يأمرّون بالمعروف ، وينهون عن المنكر) .

وقال الزمخشري في تفسير الكشاف :

هو مثل ضربه الله تعالى لبدء الإسلام ، وترقيته في الزيادة ، إلى أن قوى واستحكم ، لأن النبي ﷺ قام وحده ، ثم قواه الله تعالى بمن معه ، كما يقوى الطاقة الأولى ما يحتف بها مما يتولد منها .

وظاهر قول الزمخشري أن الزرع هو رسول الله ﷺ ، والشطاء هو الصحابة .

والخلاصة أن من المفسرين من رأى الآتى :

الزراع أمد الشطء ، فقوى الشطء واشتد واستوى على سوقه ، وهم الصحابة .

ومن المفسرين من رأى الآتى :

الزراع أخرج الشطء أو الفسيلة المجاورة له ، فأزرت الفسيلة الزرع ، فاستغلظ الزرع وقوى واشتد واستوى على سوقه .

والمراد أن الصحابة آزرُوا رسول الله ﷺ فقوى بهم ، ولكل وجهة ، لكن سياق الآية فى وصف الصحابة ، والمضمون والفحوى يؤيد أن الزرع أزر الشطء ، فاستغلظ الشطء وقوى واستوى على سوقه ، أى أننا نرجح أن الذى استغلظ هم الصحابة ، بدليل قوله تعالى فى آخر الآية :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .

ومن عظمة المعلم العظيم أن يمد تلاميذه ويقوهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس .

روى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه (نصفه) »^(٢٦) . رضى الله عنهم وأرضاهم .

قال ابن عباس : إن للمعصية ظلمة فى القلب ، وسواداً فى الوجه ، وتقصاً فى الرزق ، ويغضاً فى قلوب الخلق .

وقال بعضهم : إن للحسنة نوراً فى القلب ، وضياءً فى الوجه ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الناس .

وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : من أصلح سريرته ، أصلح الله تعالى علانيته .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس ، كائنًا ما كان »^(٢٧) .

وروى أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « إن الهدى الصالح ، والسُّمت الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة »^(٢٨) .

وذكر بعض المفسرين أن معنى : سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...

أنها علامة سوداء تظهر في الجبهة من كثرة السجود ، وكلام شيوخنا يفيد الآتي : إننا ينبغي ألا نتمادى إظهار هذه العلامة ، ولا نحرض على ذلك ، ومن تعمد فإنه يتشبه بالمنافقين ، فإذا ظهرت بدون تعمد فلا حرج ولا بأس .

ونضرب مثلاً بأننا نهينا عن طلب الشهرة ، ونشر الأخبار الصالحة عن أنفسنا ، فإذا قال قائل : إن الصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم شهرة ، فأخبار أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد وغيرهم ، تملأ الكتب ومجالس العلم ، فيقول أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) رداً على ذلك ما يأتي : هؤلاء ما تعمدوا الشهرة ، وإنما جاءت الشهرة عفواً بدون قصد منهم ، فاقصد بعملك وجه الله تعالى وحده ، ولا تقصد الشهرة ولا الرياء ولا حسن السيرة بين الناس ، فإن جاءت هذه الأمور لك بدون قصد منك فلا حرج عليك ، وفي الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(١٧) .



خلاصة مقاصد سورة الفتح

- ١ - بشارة النبي ﷺ بالفتح وإعزاز دين الله .
- ٢ - وعد المؤمنين ، ووعد الكافرين والمنافقين .
- ٣ - ذم المتخلفين عن الجهاد من أعراب أسلم وجهينة ومزينة وغفار .
- ٤ - رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، ووعدهم بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة .
- ٥ - البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله ﷺ ، وأنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين ، وقد تم لهم ذلك بالفعل في العام المقبل .
- ٦ - وصف النبي ﷺ والذين آمنوا معه بالرحمة والشدة .
- ٧ - وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة ، وبالأجر العظيم .

★ ★ ★

خاتمة

هذه السورة (الفتح) آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسورة (الحجرات) أو سورة (ق) أول القسم الثاني ، وهو المفصل .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وكان الفراغ من تفسير سورة (الفتح) ظهر الأحد ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٤٢١ هـ ، الموافق ١٣ من أغسطس سنة ٢٠٠٠ م ، بفندق القوات المسلحة المصرية بالأبيض ، بمدينة مرسى مطروح ، بجمهورية مصر العربية .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الحجرات

أهداف سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنية ، وآياتها ١٨ آية ، نزلت بعد سورة المجادلة

الآداب العامة :

هذه سورة الآداب العامة ومكارم الأخلاق والتهديب والتأديب ، سورة هذبت وجدان المسلمين وحركت فيهم دوافع الخير والمعروف ، وحاربت نوازع السخرية والاستهزاء بالآخرين ، وحثت على إزالة أسباب الخصام والبغضاء ، وحرصت على تأليف القلوب وإشاعة المحبة والمودة بين الناس ، ولذلك نهت عن ظن السوء بالمسلم المخلص ، وعن تتبع العورات المستورة ، وعن الغيبة واللمز والتنايز بالألقاب ، وبيّنت أن الناس جميعاً عند الله سواء ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، فهم يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

منهج حياة

سورة الحجرات يمكن أن تكون دائرة معارف شاملة لتربية الفرد وتهذيب الجماعة، فهي تقدم منهجاً للحياة السليمة ، ونظاماً تربوياً ناجحاً لخلق مواطن صالح مؤمن بربه ، يحترم دينه ويؤدى شعائره .
جاء في ظلال القرآن ما يأتى :

هذه سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية ، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية ، وأماداً بعيدة ، وتثير فى النفس والذهن خواطر عميقة ومعانى كبيرة ، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهديب ، ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات .

وهى تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبير والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تستقل بوضع معالم كاملة لعالم رفيع كريم نظيف سليم ، متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التى يقرم عليها هذا العالم ، والتى تكفل قيامه أولاً وصيانته أخيراً ، عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق بأن ينتسب إلى الله ، عالم نقى القلب نظيف المشاعر ، عف اللسان ، وقبل ذلك عف السرية ، عالم له أدب مع الله وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب مع غيره ، أدب فى هواجس ضميره ، وفى حركات جوارحه ، وفى الوقت ذاته له شرائع المنظمة

لأرضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانتها، وهى شرائع يُنظم تقوم على ذلك الأدب، وتنبثق منه، وتنساق معه، فيتوافق باطن هذا العالم وظاهره، وتتلاقى شرائعه ومشاعره، وتتوازن دوافعه وزواجره، وتتناسق أحاسيسه وخطاه وهو يتجه ويتحرك إلى الله. ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم التنظيف السليم وصيانتها، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور، ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم، بل يلتقى هذا بذاك فى انسجام وتناسق، كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها، بل يلتقى فيه الأفراد بالدولة، والدولة بالأفراد، وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما فى تعاون واتساق^(١٧).

معانى السورة

اشتملت السورة على طائفة كريمة من المعانى الإسلامية والآداب الدينية، فقد أمرت المسلمين ألا يصدروا فى أحكامهم إلا عن طاعة الله والتزام أوامره، ويجب ألا يسبقوا أحكام الله وأن يجعلوا اختيارهم وذوقهم الدينى تابعا لهدى الله. (الآية: ١).

وهى تأمرهم بالتزام الأدب أمام النبى الكريم، وتحسن المعاملة وخفض الصوت عند خطاب الرسول الأمين ﷺ، لأنه هو خاتم المرسلين، وهو الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، ورى المسلمين تربية إلهية حتى صاروا خير أمة أخرجت للناس. (الآيات ٢ - ٥).

وتأمر السورة المسلمين أن يتثبتوا فى أحكامهم، وألا يصدقوا أخبار الفاسقين وإشاعات المغرضين وأراجيف المرجفين، فالرسول ﷺ معهم، وهدى القرآن والسنة بين أيديهم، وحقائق الإيمان وأحكامه واضحة أمامهم، وقد حبيب الله إليهم الإيمان وحجب عنهم الكفر والعصيان، فله الفضل والمنة، وهو العليم بعباده، الحكيم فى أفعاله. (الآيات: ٦ - ٨).

والمؤمنون أمة واحدة، ربهم واحد، وقبلتهم واحدة، وكتابهم واحد، ودينهم يقوم على التسامح والتعاون والتناصح، فإذا حدث خلاف بين طائفتين، أو قتال ونزاع، فمن الواجب أن نحاول الصلح بينهما، وإذا أصرت إحدى الطائفتين على البغى والعدوان فمن الواجب أن نقف فى وجه المعتدى حتى يقىء إلى الحق، وعلينا أن نؤكد مفاهيم الحق والعدل، وأن نحث على الإصلاح ورأب الصدع حفاظاً على وحدة الأمة وجمع شمل المسلمين. (الآيتان: ٩، ١٠).

وتأمر الآيات بالبعد عن السخرية والاستهزاء بالآخرين، فالإنسان إنسان بمخبره وإنسانيته لا بمظهره وتعاليه، وهناك قيم حقيقية لمقادير الناس هى حسن صلتهم بالله ورضا الله عنهم، فقد يسخر الغنى من الفقير، والقوى من الضعيف، وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والشابة من العجوز، والمعتدلة من المشوهة. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه

الموازنين ، ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره . وتحرم الآيات كذلك اللمز والسخرية بالآخرين ، والتناوب بالأنقاب التي يكرهها أصحابها ويحسون فيها مهانة وعيباً . فشتان بين آداب الإيمان ، وبين الفسوق والعصيان وظلم الآخرين . (الآية : ١١) .

وتستمر الآيات فتنتهى عن ظنّ السوء ، وعن تتبع عورات الناس حتى يعيش الناس آمنين على بيوتهم وأسرارهم ، وحتى تصان حقوقهم وحرياتهم ، وتنتهى عن الغيبة وتحذر منها ، وتبين أن الناس جميعاً خلقوا من أصل واحد ثم تفرغت بهم الشعوب والقبائل ، والعلاقة بين الناس أساسها التعارف على الخير ، وأكرم الناس عند الله أكثرهم تقوى وطاعة لأمره والتزاماً بهديه . (الآيتان ١٢ ، ١٣) .

الإيمان قول وعمل

وفى ختام السورة نجد لوحة هادفة ترسم معالم الإيمان ، فالؤمن الحق من آمن بالله ورسوله ولم يتطرق الشك إلى قلبه ، وأتبع ذلك بالجهاد والعمل على نصرة الإسلام ، وسار في طريق العقيدة السليمة والتزم بأدابها وهديها .

ونجد صورة نابية للأعراب الذين افتخروا بالإيمان ، وتظاهروا به رياء وسمعة ، وجاءوا فى تيه وخيلاء يمتوّن على النّبى لأنهم دخلوا فى الإسلام ، وهى صورة كريمة فيها الرياء والسمعة والمنة ، مع أن الله هو العليم بنفوسهم والبصير بخباياهم ، وهو صاحب الفضل والمنة عليهم إن كانوا صادقين .

إن المؤمنين الصادقين هم الذين آمنوا بالله رياء ، واختاروا الإسلام ديناً ، وصدقوا بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وجمعوا بين صدق اليقين وأدب السلوك . (الآيات : ١٤ - ١٨) .

وفى الحديث الشريف: «ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقته العمل» .

الهدف الإجمالى للسورة

قال الفيروزى :

معظم مقصود سورة الحجرات ما يأتى : المحافظة على أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة الأكابر ، والتؤدة فى الأمور ، واجتناب التهور ، والنجدة فى إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحد من التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأحساب والأنساب ، والتعاضد على المنة على الله بالطاعة .

وقد تكرر خطاب المؤمنين فى السورة خمس مرات بقوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ... والمخاطبون هم المؤمنون فى الآيات : ١ و ٢ و ٦ و ١١ و ١٢ ، والمخاطب به أمر ونهى ، وفى الآية ١٣ : يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ... والمخاطب به المؤمنون والكافرون ، حيث قال سبحانه : إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى . والناس كلهم فى ذلك سواء . (٨٨) .

التأديب في خطاب النبي ﷺ

وطاعة الله ورسوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ ۚ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن مَحْبُطٌ ۚ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

المضردات :

لا تَقْدُمُوا : لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش ، لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام ، وبين يدي الأب ، أي : لا تعجل بالأمر بدونه ، وقيل : المراد : لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة .

لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم ، فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته . يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ : يخفضونها ، ويلينونها .

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ : طهرها ونقاها ، كما يمتحن الذهب بالإذابة والتنقية من كل غش .

مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ : من خارجها ، سواء كان من خلفها ، أو من قدامها ، ويرى بعض أهل اللغة أن كلمة : وراء من الأضداد ، فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) أحدها حُجْرَةٌ ، وهي القطعة من الأرض المحجورة ، أي الممنوعة من الدخول فيها بحائط ونحوه ، والمراد بها : حجرات نساؤه ﷺ ، وكانت تسعاً ، لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها

المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت في عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله ﷺ ، فبكى الناس لذلك ، وكانت الحجرات فى غاية الهساسة .

تمهيد :

اشتملت سورة الحجرات على الآداب العامة ، وبدأت بالأمر بحسن الأدب مع الرسول ﷺ ، وعدم التقدم عليه ، بل الخضوع لأمره ، وخفض الصوت عند محادثته ، وتوقيره واحترامه ، وعدم نذائه من وراء الحجرات ، بل الانتظار حتى يخرج إلى الصلاة ثم مقابلته .

التفسير :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

طلب الله تعالى من المسلمين توقير الرسول ﷺ ، واحترامه وإتباعه ، وعدم التقدم عليه .

والمعنى :

لا تسبقوا بأحكامكم أحكام الله ، وأحكام رسوله ، وراقبوا الله إن الله ، سميعٌ . لأقوالكم ، عليمٌ . بأحوالكم فنحن فى حياتنا نقتدى بالكتاب والسنة وعمل الصحابة ، ونجعل أحكام الإسلام سابقة غير مسبوقة ، مقدّمة غير متأخرة .

والأصل أن العبد لا يجوز أن يتقدم على سيده ، والخادم لا يجوز أن يتقدم على مخدومه ، فإن ذلك عيب مذموم ، فضرب الله ذلك مثلاً لمن يقدم رأيه وحكمه ، على رأى الله وحكمه تعالى ، أى لا تسبقوا بأحكامكم أحكام الله وأحكام رسوله ، واتقوا الله وراقبوه ، إن الله سميع لكل شىء ، عليم بكل شىء ، وفى معنى هذه الآية - أى تقديم حكم الله وحكم رسوله على اجتتهاد الإنسان - ورد الحديث الذى رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أرسله إلى اليمن ، وقال له : « به تحكم » ؟ ، قال : بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ : « فإن لم تجد » ؟ ، قال : بسنة رسوله ، قال ﷺ : « فإن لم تجد » ؟ ، قال : أجتهد رأى ، فضرب رسول الله ﷺ فى صدر معاذ وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسوله ، لما يرضى رسول الله »^(١) .

وهذا يعنى أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان تقدماً بين يدي الله ورسوله .

سبب النزول :

اختلف الرواة فى سبب نزول هذه الآية ، فقال بعضهم : سببها أنه قدم ركب من بنى تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر : يا رسول الله أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : أمر الأقرع بن حابس ، فقال

أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافاك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا عَلَى الْوَيْدِيِّ رَسُولِهِ...** إلى قوله تعالى: **وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**. (الحجرات: ٥)، رواه البخاري، عن محمد بن الصباح، وقيل في سبب النزول أسباب أخرى، ويمكن الجمع بينها، بأنها نزلت بعد وقوع هذه الأسباب جميعها، فتكون من باب تعدد الأسباب والمنزل واحد.

ويقول بعض العلماء: لعلها نزلت من غير سبب، لتكون دستوراً للمسلمين في أعمالهم وأقوالهم، فيلتزموا بهدى القرآن، ويتوجيه النبي ﷺ، ويتخذوه القدوة والمثل الأعلى.

قال تعالى: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**.

(الأحزاب: ٢١)

٢ - **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**.

أُتِبَ الله المسلمين وأُتِبَ العرب والأعراب، وأُتِبَ الدنيا كلها في لزوم الأدب وخفض الصوت، عند مخاطبة الكبراء والعلماء، والأنبياء والمرسلين، وإذا تكلم إنسان في حضرة النبي ﷺ في حياته، أو عند قبره في مماته، أو عند قراءة الحديث الشريف، أو القرآن الكريم، فيجب ألا يرفع صوته فوق صوت النبي، بل يكون صوت النبي أعلى صوتا، وأوقع أثرا من صوت المتكلم بحضرته، وجهر النبي أعلى من جهر المتحدث أو المستفهم بحضرته، حتى تكون مزية النبي واضحة، وسابقته ظاهرة، وامتيازته بيّنا.

وإذا خاطبنا رسول الله ﷺ، وجب أن نقول له: يا رسول الله، أو يا نبي الله، ولا نخاطبه باسمه مجردا، مثل يا محمد أو يا أحمد، أي ينبغي أن يشتمل الخطاب على التعظيم والتوقير والاحترام.

أمر الله بذلك خشية إزعاج النبي وإيلامه، برفع أصواتنا عليه، أو عدم اللياقة أو الجلالة في خطابنا، وعندئذ يحبط عمل المتكلم، ويضيع ثوابه، ويخسر حسناته، من حيث لا يعلم ذلك في الدنيا، بل يعلمه يوم القيامة.

وإذا وصل الجهر بالصوت إلى حد الاستخفاف والاستهانة فذلك كفر، والعياذ بالله، فالغرض من الآية أن يكون صوت المؤمن عند خطابه لرسول الله ﷺ، خفيضا مناسبا لمقامه وهيبته، لكن بحيث يسمعه.

ونلاحظ أن الله نهانا عن جهر معين فقال: **كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ...** أي: ولا تجهروا له بالقول جهرا مثل جهر بعضهم لبعض.

قال القرطبي :

وفى هذا دليل على أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفته ، أعنى الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه فيما بينهم ، وهو الخلط من مراعاة آبهة النبوة ، وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن ربيتها . هـ .

وقد لاحظنا أن القرآن الكريم حث على توقير الرسول وتعظيمه ، قال تعالى : لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... (النور : ٦٣) .

وقد دلت آيات من كتاب الله تعالى على أن الله العليّ القدير ، لم يخاطب النبي في القرآن باسمه ، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم كقوله سبحانه :

يَتْلُوهَا الَّذِينَ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . (الأحزاب : ٤٥) .

يَتْلُوهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... (المائدة : ٦٧) .

يَتْلُوهَا الْمُؤْمِنُونَ . (المدثر : ١) .

مع أنه سبحانه نادى غيره من الأنبياء بأسمائهم ، مثل :

وَقُلْنَا يَتَكَادِمُ أَسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... (البقرة : ٣٥) .

ومثل : يَتُوحَّ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ... (هود : ٤٨) .

ومثل : وَلَنَذْفِئَنَّهُ أَنْ يَلْبِثَ بِرَأْسِهِمْ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ... (الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥) .

أما النبي ﷺ فلم يذكر اسمه مجرداً في القرآن في خطاب ، وقد سبق أن ذكرنا أن اسم محمد ﷺ تكرر أربع مرات في القرآن الكريم هي :

١ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ... (ال عمران : ١٤٤) .

٢ - مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ... (الأحزاب : ٤٠) .

٣ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ . (محمد : ٢) .

٤ - مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (الفتح: ٢٩).

وكلها ليست خطاباً للرسول ﷺ ، بل هي حديث عنه ﷺ .

ملاحظات

(أ) قال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي ﷺ ميتاً كحرمة حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يُعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى :

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ... (الأعراف: ٢٠٤).

وكلام النبي ﷺ من الوحي ، وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة ، بيانها في كتب الفقه ^(١٠).

(ب) النهي المذكور عن رفع الصوت ، هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ، ويوقر الكبراء ، أما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند ، أو إرهاب عدو ، ونحو ذلك فليس منهياً عنه ، لأنه لمصلحة ، ففي الحديث أنه ﷺ قال للعباس بن عبد المطلب لما انهزم الناس يوم حنين : «اصرخ بالناس» ، وكان العباس أجهر الناس صوتاً ، يروى أن غارة أنتهم يوماً ، فصاح العباس : يا صباحاه ! فأسقطت الحوامل لشدة صوته .

(ج) لقد تأدب المسلمون بهذا الأدب الرفيع ، فقال أبو بكر الصديق : والله يا رسول الله لا أكلمك إلا سراراً أو كأخي السرار . وسلك عمر مثله في خفض صوته ، فكان إذا تكلم عند النبي ﷺ لم يسمع كلامه حتى يستفهمه .

وفعل مثل ذلك ثابت بن قيس ، لما نزل قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ... فقد دخل بيته ، وأغلق عليه بابيه ، ففقد النبي ﷺ ، فأرسل إليه يسأل ما خبره ؟ فقال : أنا رجل شديد الصوت ، وأنا أخاف أن يكون حبط عملي . فقال ﷺ : «لست منهم ، بل تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة» ^(١١).

* فثبت ثباتاً حميداً يوم اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب ، حتى مات شهيداً ، وترك ذكراً حميداً.

٣ - إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

إن الذين يخفصون أصواتهم عند محادثة رسول الله ﷺ، أو محادثة أحد بجواره، هؤلاء قوم نقي الله قلوبهم، وأخلص سريرتهم بالتقوى، وهى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

هؤلاء الذين تأدبوا بأدب الإسلام، واستجابوا لدعوة القرآن، فراعوا الإجلال والتوقير، والتعظيم لرسول الله ﷺ، وخفضوا أصواتهم عند مجلسه، أو أثناء محادثته هؤلاء، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ.

لهم مغفرة لذنوبهم، وستر لعيوبهم، ومحو لخطيئاتهم، وتثبيت لحسناتهم، وثواب عظيم على خفضهم لأصواتهم عند نبيهم.

ملاحظة

الامتحان هو الاختبار، وأصله من اختبار الذهب وإذابته، ليخلص جيده من خبيثه، والمراد أن الله أخلص هذه القلوب لمراقبته سبحانه.

قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ... من قولك: امتحن فلان الأمر كذا وجرب له، ودُرب للنهوض به، فهو مضطلع به، غير وإن عنه، والمعنى: أنهم صبروا على التقوى، أقوىاء على احتمال مشاقها. ١ هـ.

وقد التزم المسلمون بهذا الأدب فى حياة النبى ﷺ وبعد مماته، فقد سمع عمر بن الخطاب رجلاً يرفع صوته فى المسجد النبوى، فقال له: من أين أنت أيها الرجل؟ فقال: من الطائف، فقال له عمر: لو كنت من أهل المدينة لأوجعتك ضرباً.

٤ - إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

كان من عادة رسول الله ﷺ أن ينام القائلة - منتصف النهار - فجاء وفد من أعراب بنى تميم فنزلوا فى المسجد، وأخذوا ينادونه من خلف حجرات نسائه، ويقولون: اخرج إلينا يا محمد، فإن متحنا زين، وندمنا شين.

والحجرات جمع حجرة، وهى الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحيط بها.

وفى رواية عن زيد بن أرقم قال: أتى أناس النبى ﷺ، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يك ملكا نعش فى جنبه، فأتوا النبى ﷺ فجعلوا ينادونه: يا محمد، يا محمد.

وهناك روايات أخرى فى سبب النزول ، وتلتقى الروايات على أن جماعة من جفاة الأعراب ، نادوا رسول الله ﷺ وقت راحته فى حجرته ، ولم يصبروا إلى وقت خروجه للصلاة ، حتى يوفروا له الراحة.

وقد وصفهم القرآن بهذه الآية ومعناها : إن الذين نادوا عليك من وراء حجرات نساءك بأسلوب فيه جلافة الأعراب ، أَكْثَرُهُمْ لَا يَتَّقُلُونَ ، أى : لا يفهمون أصول الأدب واللباقة .

ولعل طائفة منهم لم ترض عن هذا الفعل ، فاستثنوا القرآن ، لبيان أن أقلهم أصحاب عقل وحكمة ، وأحياناً يعبر بالأكثر عن الكل .

٥- وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

هذا أدب الإسلام ، فى الحث على إكرام الكبراء والعلماء ، وعدم إزعاجهم ، والانتظار حتى يخرج العظيم من بيته ، ثم يتفرغ لهم ، بمعنى أنه لو خرج وشغل بأمر آخر ، وجب الانتظار حتى يكون خروجه إليهم ، ويتوجه بوجهه لهم ، أو يتفرغ لشأنهم.

يحكى عن أبى عبيد - العالم الزاهد الثقة - أنه قال : ما دقت باب عالم قط ، حتى يخرج فى وقت خروجه .

ومعنى الآية :

ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات ، صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم ، لكان ذلك أفضل لهم ، وأنسب وأزكى وأطهر .

ثم فتح الله لهم باب التوبة فقال :

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لمن تاب منهم عن معصيته ، وندم على ندائه ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، فالله غفور رحيم به ، أن يعاقبه على ذنبه ذلك بعد أن تاب عنه .

والخلاصة :

إن الله سبحانه وتعالى استهجن الصباح برسول الله ﷺ ، فى حال خلوته من وراء الجدران ، كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبئ به إلى فظاعة ما جسروا عليه ، وليرشد إلى أدب الإسلام فى تخير الوقت المناسب للزيارة ، وأدب الطرق الخفيف على باب المنزل ، أو استعمال الجرس استعمالاً خفيفاً ، لا يزعج أهل المنزل ، وعدم الوقوف أمام الباب بل على جانب منه ، وعدم النظر إلى المنزل عند فتح الباب ، ثم السلام على صاحب المنزل عند ظهوره .

قال تعالى: يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ تَرْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . (النور: ٢٧ ، ٢٨) .

★ ★ ★

التثبت من الأخبار

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّآ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

المفردات :

الفساق : هو الخارج عن حدود الدين ، من قولهم : فسق الرطب ، إذا خرج من قشره .

بنبأ : بخبر .

فتبينوا : التبين هو طلب البيان ، والمراد : التثبت من صدق الخبر أو كذبه ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة ، وبه يحصل علم أو غلبة ظن .

أن تصيبوا قوما : لئلا تعتدوا على قوم .

بجهالة : جاهلين حالهم .

فتصبحوا : فتصيروا .

نادمين : مغتمين غمًا لازمًا ، متمنين أنه لم يقع ، فإن الندم هو الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه .

لَعَنِتُمْ : لأصابكم العنت ، وهو المشقة والإثم .

الكَفْر : تغطية نعم الله تعالى بالجهود لها .

الفسوق : الخروج عن الحد كما سبق .

العصيان، عدم الانقياد .

الراشدون، الرشد : إصابة الحق ، وإتباع الطريق السوي مع تصلب فيه ، من الرشادة وهي الصخرة .

تمهيد :

السورة كلها مشتملة على آداب اجتماعية نافعة ، حيث بينت فيما سبق التزام خفض الصوت بحضرة الأكابر ، والتزام الطاعة لله ولرسوله ، وعدم التقدم على أحكام الإسلام ، وهنا إرشاد إلى أدب عظيم وهو التثبت من الأخبار عند سماعها ، وعدم المسارعة إلى تصديقها ، خشية إساءة الظن بالآخرين .

سبب النزول :

ذكر أكثر المفسرين أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

أخرج ابن جرير ، وأحمد ، وابن مردويه بسند جيد ، عن ابن عباس ، أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ، بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مُصَدِّقًا (أي : جامعًا للصدقات ، والمراد بها الزكوات) وكانت بينهما إحن في الجاهلية ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم خافهم ، فرجع فقال : إن القوم هموا بقتلي ، ومنعوا صدقاتهم ، فبعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد إليهم ، وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، فوجدهم منادين بالصلاة متجهدين ، فسلموا إليه الصدقات ، وعاد إلى النبي ﷺ فأخبره فنزلت الآية .

والآية وإن نزلت بسبب حادث معين ، إلا أنها عامة في وجوب التثبت من الأخبار .

قال الحسن البصري : فوالله لئن كانت نزلت في هؤلاء القوم خاصة ، فإنها لمرسلة إلى يوم القيامة ، ما نسخها شيء .

وأكد الرازي ذلك ، بأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بن عقبة بن أبي معيط شيء بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا ، كيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج عن ريقه الإيمان .

قال تعالى : **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ...** (السجدة : ٢٠) .

«لكن أكثر المفسرين على أن الوليد كان ثقة عند رسول الله ﷺ ، فصار فاسقًا بكذبه ، والظاهر أنه سمى فاسقًا تنفيرًا وجزًا عن الاستعجال في الأمر من غير تثبت ، فهو متأول ومجتهد ، وليس فاسقًا على الحقيقة»^(٦٧) .

وقال القرطبي :

وفي الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلًا ، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق ، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها . اهـ .

التفسير :

٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ .

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم من يحتمل فسقه بخبر عظيم من الأخبار ، فتثبتوا من صدق ذلك الخبر ، ولا تتسرعوا في الحكم على الآخرين خشية أن تعتدوا على قوم آمنين مستقيمين ، جاهلين إيمانهم واستقامتهم ، فتصيروا بعد العدوان عليهم نادمين مغتمين ، تتمنون لو أنكم ما فعلتم هذا العدوان على قوم لا يستحقونه .

* فالآية الكريمة ترشد المسلمين في كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما ، وإلى كيفية التصرف فيها تصرفا حكيما ، فتأمر بالتثبت والتحقق من صحة الأخبار ، حتى يعيش المجتمع الإسلامي في أمان واطمئنان ، وفي بُعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام .

٧ - وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

واعلموا أيها الصحابة الكرام ، أن فيكم رسول الله محمدا ﷺ ، الذي ختم الله به الرسالات ، وأوجب عليكم اتباعه ، وأوجب توقيره واحترامه ، وعدم التقدم عليه وعدم سبق حكميه .

وربما كان هناك من الصحابة من زين للرسول ﷺ الهجوم على بني المصطلق وقتالهم ، بعد سماع كلام الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فكان مضمون الآية مفيذا الرد عليهم ، منبها إلى وجوب التثبت وعدم التسرع ، ووجوب التأني في اقتراح ما ينبغي عمله ، والانتظار لما يشير به الرسول الحكيم ﷺ .

لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ...

والعنوت الوقوع في الشدة والمهالك ، لو أن الرسول سارع بإطاعة من حب إليه قتال بني المصطلق ، ونفذ الأمر ، ثم تبينتم الحقيقة لوقعتم في الحرج والشدة والضيق ، بسبب وجود قتلى وجرحى أبرياء .

والنحاة هنا يسمون (لو) حرف امتناع ، أي : بسبب عدم طاعة الرسول للمتسرعين ، لم تقعوا في الحرج والهلاك ، وكان هناك عدد من الصحابة لا يميلون إلى التسرع ، ويرون التثبت ، وهم الذين عناهم الله بقوله :

وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ .

تأتى (لكن) للاستدراك ، أى مغايرة ما بعدها لما قبلها ، أى مع وجود بعض المتسرّعين بينكم ، لكنّ الله تعالى حبيب الإيمان إلى أكثركم ، وزين الإيمان فى قلوبكم ، أى جعله محبوباً محترماً معشوقاً ، صالحاً للفداء والتضحية ، كذلك كره إلى جملة الصحابة ، الكُفْرَ . وهو جحود نعمة الله ، وَالتَّفْسُوقَ . وهو الخروج على أمر الله ، وَالعَصِيَانَ . وهو مخالفة أمر الله أو أمر رسوله .

أُولَئِكَ هُمُ الرَّاغِبُونَ .

هؤلاء الأكثرية المهندون المطيعون ، هم الذين منحهم الله الرشاد والهداية ، والتوفيق والتمسك بالإيمان ، وطاعة الله وطاعة رسوله .

٨ - فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِغْمَةً وَأَلَلَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ .

لقد تفضل الله على صحابة رسول الله ﷺ بهذه الصفات الحكيمة ، وأنعم عليهم بهذه النعم ، وهو ، عَلَيْهِمْ . مطلع على النفوس ، حَكِيمٌ . جليل الحكمة فى أفعاله .

والآية وسام على صدر هؤلاء الصحابة ، فهى وما سبقها تبين أن معظم الصحابة كانوا نموذجاً ومثلاً أعلى فى محبة الإيمان والصدق فيه ، والتضحية والفداء ، وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، وأن هذا الهدى والطاعة ، كان فضلاً من الله ونعمة ، لا تعادلها أى نعمة ، وقد امتن الله على رسوله بأنه هو الذى هدى ووفق ، وأخرج من أصلاب الكافرين هؤلاء المؤمنين .

قال تعالى : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال: ٦٣) .

فى أعقاب التفسير

ذكر الأستاذ وهبة الزحيلي فى التفسير المنير (جزء ٢٦ ص ٢٣٢) أنه يستبطن من الآيات السابقة ما يأتى :

١ - إن وجود الرسول ﷺ فى أصحابه ركن تثبيت وأناة وتأن فيمنع التسرع فى إصدار الأحكام ، فإنه لو قتل القوم الذين سعى بهم الوليد بن عقبة إليه ، لكان خطأ ، ووقع فى العنت (الإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم ، لعداوة كانت بينه وبينهم ، ويكون المراد من قوله تعالى : وَأَعْلَمُوا أَن يَكُفِّرَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ... ألا تكذبوا فإن الله تعالى يُعَلِّمُ رسوله ﷺ أنباءكم فتفتضحون .

٢ - استدلت الأشاعرة بقوله: حَبِّبْ، وَكَرِّهْ. على مسألة خلق الأفعال، أى أن الله تعالى خلق أفعال العباد وذواتهم وصفاتهم وألستهم وألوانهم، لا شريك له، لقوله تعالى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ. (الصفات: ٩٦). وهذا ردُّ على القدريّة^(١٣)، والإمامية، والمعتزلة الذين يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه، ويقولون آية: حَبِّبْ، وَكَرِّهْ. على اللطف والتوفيق.

٣ - إن الله تعالى عليم بكل شيء، يعلم من يتحرى الخير ومن لا يتحراه، ومن يريد الرسول ﷺ على ما لا تقتضى به الحكمة ومن لا يريده، وهو فوق هذا يعلم الأشياء ويعلم الرسول ﷺ بها، ويأمره بما تقتضى به الحكمة، فيجب الوقوف عند أمر الرسول ﷺ، واجتناب الاقتراح عليه.

٤ - كان الرسول ﷺ يدعو بمضمون الآيات السابقة، فقد أخرج الإمام أحمد، والنسائي، عن أبى رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وإنكفاً المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربي عز وجل»، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادئ لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قرئت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك، وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول، اللهم أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق»^(١٤).

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ...

(النساء: ٥٨)

إن بين المسلمين رحماً عامة يجب أن توصل ، فربهم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد ، وأمتهم واحدة ، وقبلتهم واحدة ، والإسلام أخوة شاملة لهم جميعاً ، فيجب الصلح بينهم ، والتقوى وسيلة إلى رحمة الله ، ومغفرته وفضله .

التفسير :

٩ - وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلَا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَغُلَّوْا آلِي بَغِيٍّ حَتَّىٰ تَبْغِيَ إِلَىٰ آلِهِ فَإِنْ فَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

الإسلام رباط متين بين المسلمين ، وقد حث القرآن الكريم على صلة الرحم ، ورأب الصدع ، والإصلاح بين الناس .

قال تعالى: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ١١٤) .

وقال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تحاقدوا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى»^(٩١).

والآية التاسعة من سورة الحجرات أصل في دعوة المسلمين إلى لزوم الوحدة والجماعة ، وقتال البغاة ، والصلح بين المتخاصمين بالعدل والقسط .

ومعنى الآية الكريمة :

إن تخاصمت جماعتان أو فئتان من المسلمين ، فينبغي أن تسارع إلى الصلح بينهما بالحسنى والإرشاد ، والكلمة الطيبة والتوجيه ، وذكر محاسن الفئة الأخرى ومحامدها ، ورغبتها في الصلح والحب والمودة .

قال ﷺ: «ليس الكذاب الذى يصلح بين اثنين فينمى خيراً أو يقول خيراً»^(٩٢).

فمن أراد الصلح بين فئتين ، وسمع كلمة طيبة من إحداهما فنماها وزادها ، أو اخترعها رغبة في التوصل والصلح بين المتخاصمين ، فلا يسمى كذاباً بل مصلحاً .

فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقُلُوبُهُمَا إِلَىٰ تَوْبَتِي حَتَّىٰ تَقِيَّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ...

فإن لم تستجب إحدى الفتنتين إلى الصلح ، ولم تخضع للحكم بالعدل ، واحتمت بالعدوان والبغى على الفتنة الأخرى ، وجب رد المعتدى وتحذيره وإنذاره أولاً ، ومحاولة استدراجه إلى الصلح ، فإن رفض وبغى تعين قتاله إلى أن يرجع إلى حكم الله ، وهو الصلح بين المتنازعين .

فَإِنْ قَاتَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

إن رجعت الفتنة المعتدية عن بغياها ، وقبلت الصلح والتعاون مع الوسطاء ، وجب على الأمة أن تصلح بين المتنازعين بالعدل والحق والقسط (بكسر القاف) .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إن الله يحب العادلين فى الحكم ، حتى تقطع دابر النزاع من أساسه ، وتعود الأمور هادئة آمنة نافعة راشدة .

قال ﷺ : «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ ، بين يدى الرحمان عز وجل بما أقسطوا فى الدنيا» . أخرجه ابن أبى حاتم ، والنسائى ، وإسناده جيد قوى ، ورجاله على شرط الصحيح .

وأخرج مسلم ، والنسائى أن رسول الله ﷺ قال : «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور ، على يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولّوا»^(٧٧) .

١٠ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

المؤمنون إخوة فى الدين والإسلام ، وبينهم وشائج الأخوة الكاملة ، فإن وقع نزاع بين الإخوة ، وجب أن نسارع إلى الصلح بينهم ، ونبذل فى ذلك الجهد والحكمة ، وحسن الدعوة ، ومحاولة التوفيق ، مع مراقبة الله رجاء رحمته وفضله وإكرامه .

أخرج الشيخان بسنديهما أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»^(٧٨) .

سبب النزول

تعددت الروايات فى سبب نزول الآيتين (٩ ، ١٠) من سورة الحجرات ، وكلها تلتقى على أن نزاعاً ما حدث بين الأوس والخزرج ، أو بين قبيلتين من الأنصار ، أو رجلين من الأنصار ، أو حيين من أهل المدينة ، ويمكن الجمع بينها بأن ذلك من تعدد الأسباب والمنزل واحد .

أخرج ابن جرير ، عن الحسن قال : كانت تكون الخصومة بين الحيين ، فيُدْعَوْنَ إلى الحكم ، فيأبُونَ أن يجيبوا ، فَأَنْزَلَ الله : وَإِنْ طَائِفَتَانِ ... إلى آخر الآيتين .

وقيل : كان النبي ﷺ متوجها لزيارة سعد بن عبادَة في مرضه ، فمرَّ على عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وكان ﷺ راكبًا حمارًا ، فبال الحمار ، فقال عبد الله بن أبيّ - وهو من الأوس - للنبي ﷺ : إليك عني ، فولله لعد أذاني نتن حمارك ، فقال عبد الله بن رواحة - وهو من الخزرج - : والله إن بول حماره أطيب ريحًا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، فوقعت بينهم حرب بالجريد والأيدي والنعال ، فَأَنْزَلَ الله فيهم : وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ...

وقد ورد مثل ذلك في مسند أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وابن جرير وغيرهم ، ويُجمع بين الروايات بأن خصومة ما وقعت بين الأوس والخزرج ، أو بين امرأة وكانت من قبيلة وزوجها من قبيلة أخرى ، وأن الرجل حبس امرأته في عليّة له ، فبعثت المرأة إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، واستعان الرجل بقومه فجاءوا ليحولوا بين المرأة وأهلها ، فتدافعوا وكانت بينهما معركة ، فنزلت فيهم الآية ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم ، وفاءوا إلى أمر الله تعالى ، ونزلت الآيتان .

في أعقاب تفسير الآيتين

فقال علي ومعاوية :

١ - كان القتال لشبهة قامت بينهما ، فالإمام عليّ طلب البيعة من أهل الشام وعلى رأسهم معاوية ، ومعاوية طلب الأخذ بثأر عثمان ، ممن يوجد من قتلته في معسكر علي ، فكان عليّ يقول : ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه ، وكان معاوية ومن معه يقولون : لا تستحق البيعة وقتله عثمان معك تراهم صاحبًا ومساءً ، وحدثت معارك وأموال بين الفريقين .

٢ - قال ابن العربي في أحكام القرآن : هذه الآية أصل في قتال المسلمين ، والعمدة في حرب المتأولين ، وعليها عول الصحابة ، وإياها عني النبي ﷺ بقوله : «تقتل عمارًا الفئة الباغية»^(١) ، أي عمار بن ياسر .

٣ - لا خلاف بين الأمة في أنه يجوز للإمام تأخير القصاص ، إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة ، أو تشييت الكلمة .

٤ - الأمر يقتال البغاة فرض على الكفاية ، إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقيين ، ولذلك تخلف قوم من الصحابة ، رضى الله عنهم ، عن هذا الأمر ، كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمرو ، ومحمد بن مسلمة وغيرهم ، وصوب علمهم على بن أبي طالب رضى الله عنه ، واعتذر إليه كل واحد منهم بغير قبله منه .

ه - قوله تعالى: فَإِنْ قَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ...

يدلّ على أنّ من العدل في صلحهم ألا يطالبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال ، فإنه تلف على تأويل ، وفي مطالبتهم بذلك تنفير لهم عن الصلح ، واستمرار في البغى .

٦ - ما استهلكه البغاة : إن ما استهلك أثناء تجمع البغاة والخوارج للقتال ، والتفرق عند انتهاء الحرب من دم أو مال ، لا ضمان فيه بالإجماع .

من تفسير فتح القدير للشوكاني

إذا قاتل فريقان من المسلمين ، فعلى المسلمين أن يسعوا بالصلح بينهم ، ويدعوهم إلى حكم الله ، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى ، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه ، كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه ، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيتها ، وأجابات الدعوة إلى كتاب الله وحكمه ، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ، ويحترروا الصواب المطابق لحكم الله ، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم ، وتؤدي ما يجب عليها نحو الأخرى .

من تفسير القرطبي

(أ) لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوع به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله عز وجل ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا الله بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر لحرمه الصحبة ، ونهى النبي ﷺ عن سبهم ، وذكر أن الله قد غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

قال تعالى في سورة التوبة: وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (التوبة: ١٠٠) .

وقال تعالى في سورة الفتح: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ... (الفتح: ١٨) .

هذا مع ما ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ أنه قال : «إن طلحة شهيد يمشي على الأرض» ، فلو كان ما خرج له معصية لم يكن بالقتل فيه شهيداً .

(ب) سئل بعضهم عن الدماء التي أريققت فيما بينهم ، فقال : تلك دماء طهر الله منها يدي ، فلا أخضب بها لساني . يريد التحرز من الحكم على بعضهم ، بما لا يكون مصيباً فيه .

(ج) قال الحسن البصري : قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغنبا ، وعلموا وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا .

وقال المحاسبي : فنحن نقول كما قال الحسن ، ونعلم أن القوم كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا ، ونتبع ما اجتمعوا عليه ، ونقف عما اختلفوا فيه ، ولا نبترع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عز وجل ، إذ كانوا غير متهمين في الدين .

(د) سئل الإمام على رضي الله عنه عن قائله : أمشركون هم ؟ قال : لا ، من الشرك فُروا ، فقل له : أمنافقون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، فقل له : فما حالهم ؟ قال : هم إخواننا بفؤا علينا .

★ ★ ★

تحريم السخرية والغيبة ، والأمر بالتقوى

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَوْا أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَنْزِلُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَتَمُّ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ١٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾

المفردات :

السخرية ، الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، يقال : سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ، والاسم : السخرية ، وقد تكون بالحاكاة بالقول أو بالفعل . أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه ، أو على صناعته ، أو على قبح صورته .

قوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء ، كما قال زهير :

وما أدري ولست إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم ، لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة ، باليد أو العين أو نحوهما .

التنابز : التعابر والمناداة للشخص بما يكرهه من الألقاب .

الاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

الظن : المراد به فى الآية : الاتهام .

الإثم : الذنب .

التجسس : البحث عن العورات والمعائب ، والكشف عما ستره الناس .

الغيبية : ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته .

من ذكر وأنثى : من آدم وحواء ، قال إسحاق الموصلى :

الناس فى عالم التمثيل أكفاء

أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم فى أصلهم شرف

يُفْخِخُون به فالطين والماء

شعوباً وقبائل ، الشعوب : رؤوس القبائل ، كربيعة ومضر ، والقبائل فروعها .

قال فى تفسير المراعى :

والشعوب واحدكم شُعْب (بفتح الشين وسكون العين) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى

أصل واحد ، كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه ك بكر من ربيعة ، وتميم من مضر ، وحكى

أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع :

الشُعْبُ ، ثم القبيلة ، ثم العمارة ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، ثم العشيرة ، وكل

واحد منها يدخل فيما قبله .

فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطنون تحت العمائر ، والأنخاذ

تحت البطنون ، والفصائل تحت الأنخاذ ، والعشائر تحت الفصائل .

فخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصى بطن ، وعبد

مناف فخذ ، وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعباً لتشعب القبائل منه

كتشعب أغصان الشجرة .

تمهيد :

السورة من أولها حافلة بالدعوة إلى الآداب العامة ، والالتزام بأحكام الشريعة ، وعدم رفع الصوت

على الكبراء والأنبياء ، ثم التثبت عند سماع الأخبار ، وعدم الاعتداء على الآخرين ، ثم الدعوة إلى الإصلاح

بين المتخاصمين ، وهنا نجد دعوة إلى الامتناع عن السخرية والهمز واللمز ، والتنابز بالألقاب وإساءة

الظن، وتتبع عورات الناس ومعاييبهم، والغيبة والنميمة، ووجوب المساواة بين الناس، واعتقاد أن معيار التفاضل والتميز هو التقوى والصلاح وكمال الأخلاق.

ونلاحظ أن السورة دائرة محكمة، وآياتها متتابعة في الترقى بالإنسان في حسن السلوك، والابتعاد عن أسباب الخصام، إلى البعد عن إيذاء الآخرين، إلى الاعتقاد بأن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون عند الله بالتقوى والعمل الصالح.

التفسير:

١١ - يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ...

هذه الآية وما بعدها تكاد تكون دائرة معارف إنسانية، تركّز على أهم العيوب التي تشيع بين الناس، ومنها ما يأتي:

السخرية والاستهزاء بالآخرين، وهذا تناول على عباد الله متضمن معنى الأنانية، كأن الساهر كامل، والمسخور منه ناقص، ولتأصل هذه العادة في الناس تكرر النهي عنها مرتين، فقال سبحانه:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ...

أي: لا يسخر ولا يستهزئ رجال من آخرين، عسى أن يكون المسخور منه أفضل حالاً أو أعلى قدراً عند الله من الساهر، وربما انحط قدر الساهر، وارتفع شأن المسخور منه، كما قال بعضهم:

ولا تهن الفقير عـلـك أن تركـع يوماً والدهر قد رفعه

وبالرغم من أن النساء يدخلن في هذا النهي عادة في الخطاب التشريعي، إلا أن القرآن الكريم أفردهن بالنهي لأهمية الموضوع، وتأكيد به بالنسبة لهن، فقال:

وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ...

ولا تسخر امرأة جميلة من دمية، أو طويلة من قصيرة، أو بيضاء من سوداء، أو كاملة الأطراف من ناقصتها، أو السليم من المريض، أو الصحيح من المعاق - كالأعمى والأعرج والأبرص والأقرع والكسيح والمريض - فكل هؤلاء ضُعفاء في حاجة إلى المساعدة والمعانة والتشجيع والحنان، وربما كانت المسخور منها أفضل وأعلى قدراً عند الله من الساهرة.

قال ﷺ: «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبؤ عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبره»^(٧١). رواه الحاكم.
(الطَّمَر: الثوب الخلق البالي).

ورواه أحمد، ومسلم بلفظ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٧٢).

وإنما خص مجامع الرجال والنساء، لأن أغلب السخرية تكون في مجامع الناس.

ولكن علة النهي عامة، فتفيد عموم الحكم لعموم العلة، فلا يجوز أن يسخر فرد من فرد، ولا رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، فالتمايز عند الله تعالى بالأعمال، ونظافة القلوب والتقوى، لا بالمظاهر والثروات، ولا بالألوان والصور، ولا بالأعراق والأجناس.

أخرج مسلم، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٧٣).

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ...

واللزم هو التنبيه على عيوب الآخرين، قال تعالى:

وَيَلْ لَّكُلِّ هُمَزَةٌ لُّمَةٌ. (الهمزة: ١).

والعياب اللماز إنما يعيب نفسه أو يرشد إلى حقارة شأنه، فمن كان رفيع القدر انشغل بعيوب نفسه عن عيوب أخيه.

وَلأنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه، لذلك قال تعالى:

وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ...

أى: لا تعيبوا الآخرين، ولا تشغلوا بعيوبهم وثقائنهم، فإنكم بذلك إنما تعيبون أنفسكم، وترشدون إلى تدنى قدركم، ورحم الله امرأ انشغل بعيوب نفسه عن عيوب أخيه.

والفرق بين السخرية واللزم، أن السخرية احتقار الشخص مطلقاً على وجه مضحك بحضرته، واللزم هو التنبيه على معاييبه باللفظ أو الإشارة.

وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ...

ولا يخاطب أحدكم غيره بالألفاظ التي يكرهها، بأن يقول له: يا أحمق، أو يا أعرج، أو يابن السوداء، أى: لا يعير شخص أخاه بما يسوؤه، سواء أكان هذا اللقب المكروه للشخص، أم لأمه، أم لأبيه، أم لغيرهم،

ويستثنى من ذلك أن يشتهر الشخص بلقب لا يسوؤه ، فيجوز إطلاقه عليه ، كالأعمش والأعرج من رواية الحديث ، وكان ﷺ ينادى أصحابه بأحب الأسماء لديهم .

مثل : عتيق لأبي بكر ، والفاروق لعمر ، وذو النورين لعثمان ، وأبو تراب لعلي (ؓ) ، وسيف الله لخالد ، وأمين الأمة لأبي عبيدة .

بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...

بِسْمِ الذِّكْرِ والشُّهُرَةِ لِإِنْسَانٍ بِالْفُسُوقِ والخُرُوجِ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ ، بَعْدَ دُخُولِهِ فِي الْإِيمَانِ ، فَمَنْ تَعَوَّدَ عَلَى السَّخَرِيَّةِ أَوْ اللَّمَزِ ، أَوْ النَّقْصِ لِلآخَرِينَ يَصْبِحُ فَاسِقًا بَعْدَ إِيْمَانِهِ ، وَيُتَسَّ هَذَا التَّحْوِيلُ .

من تفسير الطبري

قال الطبري : بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...

يقول تعالى : ومن فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد إيمانه ، ففسر من المؤمنين ، ولمز أخاه المؤمن ، ونبزه بالألقاب ، فهو فاسق ، بسْمِ الاسم الفسوق بعد الإيمان ، يقول : فلا تفعلوا فتستحقوا إن فعلتموه أن تسموا فاسقا بعد أن وصفتم بصفة الإيمان ...

وقال الفخر الرازي في تفسيره :

قوله تعالى : بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...

من تمام الزجر ، كأنه تعالى يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ - وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ - وَلَا تَنَابَزُوا ، فَإِنْ مِنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ يَفْسُقْ بَعْدَ إِيْمَانِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ يَقْبَحُ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَ إِيْمَانِهِ بِفُسُوقٍ ، وَيَصِيرُ التَّقْدِيرُ : بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ...

وهذه بعض المفسرين إلى أن معنى : بِسْمِ الْإِسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ... بسْمِ أن يسمى الرجل كافراً أو فاسقاً بعد إسلامه وتوبته ، أي : لا يجوز أن تقول للمسلم : يا فاسق ، بعد أن هداه الله للإسلام ، أو بعد أن تاب إلى الله .

وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

ومن لم يرجع عن الانشغال بعيوب الناس ، والتنقيب عن خطاياهم ، وعييبهم ولمزمهم واتهامهم ، فقد ظلم نفسه وظلم إخوانه ، والله لا يحب الظالمين .

١٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ .

يا من آمنتم بالله رباً ، ومحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، اجتنبوا ظن السوء بالمسلمين الذين ظاهريهم الصلاح ، أمّا من عرض نفسه للتهم ، فدخل حانات الخمر ، أو جالس النساء الفاسدات ، فهو الذى عرض نفسه للشبهات ، ومن حقنا أن نظن به السوء .

إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ...

أى : إن ظن السوء بأهل الخير ، أو ظن الشر بالمؤمن ذنب مؤثم ، موقع فى الإثم لنهى الله عنه ، كما قال تعالى : وَظَنُّهُمْ ظَنُّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُرًّا . (الفتح : ١٢) . أى : هلكى .

روى مالك ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٧١) .

وَلَا تَجَسَّسُوا ...

أى : لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعاييبهم ، وتستكشفوا ما ستروه ، وتستطلعوا أسرارهم .

أخرج أبو داود وغيره ، عن أبى برزة الأسلمى قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله فى قعر بيته»^(٧٢) .

وأخرج الطبرانى ، عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاث لازمات لأمتى : الطيرة^(٧٣) ، والحسد ، وسوء الظن » ، فقال رجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : «إذا حسدت فاستغفر ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض» .

وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ...

الغيبية هى ذكر الإنسان فى غيبته بالسوء ، فى نفسه أو أسرته أو من يتصل بهم ، وفيها تقطيع لأواصر المودة الإنسانية ، وعدوان على الآخرين .

وقد ثبت في الصحيح من غير وجه أنه ﷺ قال حين خطب في حجة الوداع : «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» . رواه الشيخان عن أبي بكر .

وقد نَفَرَ القرآن الكريم من الغيبة، حيث بيّن أن المغتاب يفترس لحوم الآخرين ، فقال تعالى :

أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ...

أى : هل يقبل أحدكم أن يأكل لحم أخيه حال كونه ميتا ، فهذه صورة كريهة ، أن تنهش لحم أخيك وهو غائب عنك ، وإذا كرِهت هذه الصورة المزرية المهيئة، فابتعد عن الغيبة ، وتبّ إلى الله ميّثها وكفّر عنها، بأن تذكر الناس بالخير ، وأن تردّ غيبة المغتاب في غيبته .

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ .

أى : راقبوا ربكم ، واعملوا بأوامره ، واجتنبوا نواهيه ، وتوبوا إليه ، واستقيموا على طاعته ، فإن الله تواب لمن تاب ، رحيم بعباده .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَوْفٌ رَحِيمٌ . (البقرة : ١٤٣) .

قال الحسن :

الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان :

١ - فأما الغيبة : فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه .

٢ - وأما الإفك : فأن تقول فيه ما بلغك عنه .

٣ - وأما البهتان : فأن تقول فيه ما ليس فيه .

وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «تذكر أخاك بما يكره» ، قيل : يا رسول الله ، أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فقد بهته» (٣٧) .

والمقصود من هذا صيانة أعراض الناس ، وتركهم إلى الله فيما بينهم وبينه .

قال العلماء والغزالي في الإحياء :

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ، ويندم على ما فرط منه، ويعزم عزمًا مؤكدًا على ألا يعود إلى مثل ما صدر منه ، ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً، لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك في ستة أمور :

- ١ - التظلم : فمن ظلم فله أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .
- ٢ - الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لئلا يظن قدرته على إزالته .
- ٣ - الاستفتاء : فيجوز للمستفتي أن يقول للمفتي : ظلمني فلان بكذا ، فهل يجوز له ذلك ؟
- ٤ - تحذير المسلمين : كجرح الشهود والرواة المتصدين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكأن يشير - وإن لم يستشر - على مرید التزوج أو مخالطة غيره في أمر ديني أو دنيوي ، ويقتصر على ما يكفي ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .
- ٥ - أن يجاهروا بالفسق ، كالمدمنين على شرب الخمر ، وارتياح محال الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .
- ٦ - التعريف بلقب أو نحوه ، كالأعور والأعمش ونحو ذلك ، إذا لم تمكن المعرفة بغيره ، والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها ، مع ولوع الناس بها حتى أن بعضهم يقول : هي صابون القلوب ، وإن لها حلوة كحلوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .
- ١٣ - يَتْلَاهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

تأتى هذه الآية في أعقاب الآداب الإسلامية السابقة ، والنهي عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ، وظن السوء ، والتجسس والغيبة .

والمعنى :

يا كل الناس ، لماذا التعالى على عباد الله ، أو السخرية منهم ، أو غيبتهم ، أو ظن السوء بهم ، إنكم جميعا من أصل واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم بيده وزوجه حواء ، ومن نسل آدم وحواء خلق جميع البشر ، فلماذا التعالى والتفاخر والترفع والتكبر على الآخرين إذا كنتم جميعا من أصل واحد ، ومن إنشاء واحد ؟

قال ﷺ : «يا أيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : «ليبلغن الشاهد منكم الغائب»^(١٧) .

وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ...

الشعوب : الجمهور الكبير من الناس ، والقبايل : العائلات الكبيرة ، ومنها تتفرع الفروع الصغيرة ، تقول : أنا من شعب مصر ، ومن محافظة كذا ، ومن بلدة كذا ، ومن قبيلة كذا ، أو من عائلة كذا ، وبذلك يعرف الناس أنسابهم وأصولهم ، ويحافظون على أنسابهم بالزواج الشرعى ، والبعد عن الزنا والسفاح .

قال ﷺ : «وُلِدَتْ مِنْ نِكَاحٍ ، وَلَمْ أُولَدْ مِنْ سَفَاحٍ» ^(٨٧) .

وقد كان الناس - عربيا أو عجميا - عند نزول الآية قبائل متميزة ، ضمن شعوب تعظمهم ، ولكنهم الآن فى معظم الأمم قد اختلط بعضهم ببعض ، وأصبح التعارف بينهم بالانتماء إلى الأمم ، وبيان البلدان التى يعيشون فيها ، والمساكن التى يأوون إليها .

إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ ...

أى : لقد جعلت النسب للتعارف وصلة الرحم ، وليس للتعالي والتفاخر بالأنساب والأحساب ، فإن السمو الحقيقى ورفعة المنزلة إنما تكون بتقوى الله ومراقبته ، والعمل بما يرضيه ، والبعد عما نهى الله عنه .

أخرج ابن أبى حاتم ، والترمذى ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة فقال : «يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية - أى : تكبرها - وتعظمها بأبائها ، فالناس رجلان : رجل يرتقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : يَتْلُوهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَرُّكُمْ إِنْ أَلَلَّ عَلَيْهِمْ خَيْرٌ . ثم قال ﷺ : «أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم» .

وروى مسلم ، وابن ماجه ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ^(٨٨) .

وعند الطبرانى ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم» ^(٨٩) .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

هو سبحانه مطلع على القلوب ، عليم بأحوال عباده ، خبير بأفعالهم ، فيثبت من تخلق بهذه الأخلاق ، ويعاقب من أعرض عنها .

فى أعقاب التفسير

١ - احتج مالك بقوله تعالى: **إِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثٰى** ... على عدم اشتراط النسب فى الكفاءة فى الزواج ، إلا الدين ، فيجوز زواج المولى بالعربية ، وقد تزوج سالم مولى امرأة ^(٨٧) من الأنصار امرأة عربية حرة ، حيث تبناه أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وأنكحه هند بنت أخيه الوليد بن عتبة ، وتزوج بلال بن رباح أخت عبد الرحمان بن عوف ، وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ، فالكفاءة إنما تراعى فى الدين فقط .

روى أحمد ، وأصحاب الكتب الستة أن رسول الله ﷺ قال : «تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ^(٨٨) .

وقال الجمهور : يراعى الحسب والمال عملاً بالأعراف ، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية ، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والاستقرار .

وأرى أن هذه الأمور متشابكة ، ولا نستطيع الفصل بينها بسهولة .

والحل :

١ - أن نعطي للدين والتقوى درجات كبيرة للزوجة والزوج ، مع مراعاة الأمور الأخرى بنسبة ما ، وبذلك نجمع بين ما رآه مالك وما رآه غيره .

٢ - أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية التى تنهى عن التفاخر ، وتحض على التقوى ، ثم قال : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى طاعة الله ورسوله .

روى البخارى بسنده ، عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرمهم ؟ قال : «أكرمهم أتقاهم» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن يعقوب نبي الله ، ابن إبراهيم خليل الله» ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : «فعن معادن العرب تسألون» ؟ قالوا : نعم ، قال : «خيرهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا» ^(٨٩) .

٣ - وردت أحاديث نبوية كريمة فى معنى الآية ، منها ما رواه أبو بكر البزار فى مسنده ، عن حذيفة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أمون على الله تعالى من الجعلان» ^(٩٠) .

وعن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأبيتكم إلا أن تقولوا : فلان ابن فلان ، وأنا اليوم أرفع نسبي لأضع أنسابكم، أين المتقون ؟

وفى صحيح مسلم ، من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول جهاراً : «إن أولياء أبي ليسوا لي بأولياء ، إن وليي الله وصالحو المؤمنين» ^(٨٧) .

★ ★ ★

أصول الإيمان الصحيح

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤ ﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦ ﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧ ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ ١٨ ﴾

المفردات :

الأعراب : هم سكان البادية بخاصة ، والأعراب اسم جنس وليس جمعا ، والنسبة إليه أعرابي ، والمراد بهم هنا جماعة منهم لا كلهم ، أما العرب فهم أهل الأمصار ، وهو اسم جنس ، أيضا ، والنسبة إليه عريي .

آمَنَّا : صدقنا بألسنتنا وقلوبنا .

أسلمنا : صدقنا بألسنتنا دون قلوبنا .

لا يَلِتْكُمْ : لا ينقصكم ، يقال : لاته يَلِتُه إذا نقصه ، حكى الأصمعي عن أم هشام السلولية : (الحمد لله الذي لا يُفَات ولا يُلَات ولا تُصْمُه الأصوات).

يَمُنُونَ عَلَيْكَ : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعا وأسدى إليك نعمة .

تمهيد :

حث القرآن على التقوى وإخلاص العمل لله سبحانه وتعالى ، وإلى جوار ذلك ذكر نموذجا سيئا من الأعراب ، يتظاهر بالإيمان ويدعيه ، وهو لا يتصف إلا بالإسلام والانقياد الظاهري .

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى أسباب النزول أن هذه الآيات نزلت فى بنى أسد بن خزيمه ، قدموا المدينة فى سنة مجدية ، وأظهروا الشهادات ولم يكونوا مؤمنين فى السر ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمتنون عليه ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيات .

من تفسير القرطبي

ذكر القرطبي ، عن السدي أن الآيات نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح ، أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا . اهـ .
وقيل فى سبب النزول غير ذلك .

التفسير :

٤-١- قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلْعَنَكُمُ مَنْ أَعْمَلَكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

قال ابن كثير :

وقد استفيد من هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان .. فترقى من الأعم إلى الأخص .

كما دلّ هنا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية إنما هم مسلمون ، لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه : فأدبوا بذلك . اهـ .

ومعنى الآية :

ادعت فئة من الأعراب أنهم آمنوا ، أى صدّقوا بالله تعالى ربا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبالإسلام ديننا ، بينما واقعهم غير ذلك ، فهم أظهروا الإسلام طمعا فى المغاين ، فالأموال عندهم أهم من ثواب الآخرة .

قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...

أعلم الله رسوله بحقيقة حالهم . وأن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم .

أى : قل لهم : لم تؤمنوا حين قدمتم إلى ، ولكن ، قُولُوا أَسْلَمْنَا ...

أى : سالمناك ولن ننضم إلى قوم يحاربونك ، ولا نقف فى حرب ضدك .

وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...

تفيد لما فى النحو قرب وقوع ما بعدها ، تقول : قاربت الوصول إلى بلدتى ولما أدخلها ، أى : أتوقع قريباً دخولها ، والقرآن يشوقهم إلى قرب دخول الإيمان إلى قلوبهم ، والانضمام إلى جماعة المسلمين المخلصين .

وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ...

إذا أطعتم الله ورسوله بالدخول الحقيقى فى دين الإسلام ، فإن الله لا ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فهو واسع المغفرة ، رحيم بعباده ، يأخذ بأيديهم إلى طاعته ، ويتقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

وفى الآية أدب جميل من أدب الخطاب ، وفيها استمالة إلى الإيمان وتحريض عليه ، وفتح أبواب التوبة والمغفرة لهم متى أخلصوا .

١٥ - إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهْدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .

تلك صفات المؤمنين الصادقين ، وهى :

(أ) الإيمان الصادق ، واليقين الجازم بالله تعالى رباً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

(ب) عدم الشك والارتياب فى صدق الرسول ﷺ ، وصحة هذا الدين .

(ج) المشاركة العملية مع المسلمين فى جهادهم ، والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله .

ونلاحظ أنه قدّم المال على النفس ، لأن هؤلاء قدموا راغبين فى المال ، أو لأن كثيراً من الناس يكون المال أكثر همهم .

فمن جمع هذه الصفات من الإيمان واليقين والسلوك العملى فى الجهاد بالمال والنفس ، فهؤلاء هم الصادقون فى إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم ، وإنه لوسام عظيم لهؤلاء المؤمنين الصادقين ، وفى الآية تعريض بالأعراب وأنهم لم يصدقوا فى إيمانهم .

١٦ - قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

قل لهم : أتخبرون الله بدخولكم فى دين الإسلام ، والله سبحانه وتعالى تنكشف أمامه جميع الموجودات، انكشافاً تاماً دون سبق خفاء وهو سبحانه مطلع على الخفايا ، عليم بالنوايا ، فأخلصوا له نواياكم ، فإنه يعلم ما فى السماوات من أملاك وأفلاك وشموس وأقمار وأزراق ، وما فى الأرض من إنسان وحيوان وطيور وحشرات وزواحف ، وهو سبحانه بكل شىء عليم ، أى هو عليم بالماضى والحاضر والمستقبل ، وعليم بكل ما فى الوجود ، على حد قول القائل :

يا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار

١٧ - يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

يؤمنون عليك أيها الرسول بإيمانهم ، ويتفضلون ويظهرون المنّ والنعمة عليك بإيمانهم ، حيث قالوا: جئناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتك كما قاتلك بنو فلان ، فقل لهم أيها الرسول الكريم : لَا تَمُتُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ ... فهو إيمان مدخول ، واستسلام ظاهر رغبة فى غنائم الدنيا .

أما الإيمان الحقيقى فهو نور من الله ، وهداية وبصيرة صادقة ، ويقين حقيقى بالله الخالق الرازق ، المعطى المانع ، والهداية الحقيقية لهذا الإيمان منحة من الله ، فمنه الهداية والمشيئة والتوفيق والرعاية ، وله سبحانه وتعالى الفضل والمنة لأنه هداكم للإيمان ، ووفقكم للدخول فيه ، إن كنتم صادقين فى دعواكم .

والآية نموذج رشيق لطيف فى دحض حجة الخصم ، وتقويم سلوكه ، وإرشاده إلى الحقائق ، وفتح باب الأمل لإرشاده إلى السلوك الأمثل ، والطريق القويم ، وتذكرنا هذه الآية بموقف النبى ﷺ بعد فتح مكة ، وانتصاره فى معركة حنين والطائف ، فقد وزع الغنائم بين أهل مكة ، ولم يعط الأنصار شيئاً منها إلا رجلين فقيرين من الأنصار ، فقالت الأنصار : لقد وجد رسول الله ﷺ أهل ، فجمع الرسول ﷺ الأنصار ، وقال لهم : «يا معشر الأنصار ، ما مقالة بلغتنى عنكم؟ فقالوا : قلنا : لقد وجد رسول الله ﷺ أهل ، فقال ﷺ : «يا معشر الأنصار ، ألم أجِدكم ضلالاً فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ وكنتم عائلة فأغناكم الله بى؟ فقالوا : بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل ، أو : لله ورسوله الفضل والمنة ، فقال ﷺ : «أما والله إن

شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذِّبًا فصدقناك ، وطريدًا فأويناك ، ووحيدًا فجمعناك ، يا معشر الأنصار ، أنذا أعطيت بعض الناس لعاعة من الدنيا أتألفهم بها ، وتركتكم إلى إيمانكم تغضبون ؟ أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ إلى رجالكم ؟ فوالذي نفسى بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس فجًّا ، وسلك الأنصار فجًّا ، لسلك طريق الأنصار ، اللهم اغفر للأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار . فبكى الأنصار حتى اخضلت لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ .

وموضع الشاهد هنا قول الأنصار :

(الله ورسوله أمّن وأفضل) .

أو : (لله ورسوله الفضل والمِنَّة) .

١٨ - إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

الله سبحانه وتعالى عليم بما ظهر وما غاب ، فى جميع أنحاء السماوات والأرض ، ومن جملة ذلك ما يستره كل إنسان فى نفسه ، والآية تأكيد وتكرير لسعة علم الله ، سعة ترتجف أمامها قلوب المؤمنين ، ليقينهم بأنه سبحانه مطلع على كل حركة أو سكون ، فأولى بهم أن يطلعوه على خير فى قلوبهم .

قال تعالى : وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ... (البقرة : ١٩٧) .

خلاصة ما تضمنته سورة الحجرات

- آداب سورة الحجرات يمكن تقسيمها إلى قسمين :
- قسم منها أدب بين المسلمين ونبههم الكريم محمد ﷺ ، وهو :
- ١ - ألا يقضى المؤمنون في أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه ، وألا يسبقوا برأيهم أو اجتهداهم ما فرضه الله ، أو ما أمر به رسول الله ﷺ .
- ٢ - الهيبة والإجلال لرسول الله ﷺ ، وألا تتجاوز أصواتهم صوته .
- ٣ - ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضاً ، بل عليهم أن يخاطبوه بالنبي والرسول .
- ٤ - الذين يُخفَضون أصواتهم عند رسول الله هم المتقون الذين أخلصهم الله لتقواه وطاعته .
- ٥ - الذين نادوه من وراء الحجرات وقت القيلولة فيهم جلافة وسوء أدب ، ولو صبروا إلى وقت خروجه لصلاة العصر لكان خيراً لهم .
- ٦ - ذمّ المنّ على رسول الله ﷺ بالإيمان .
- والقسم الثاني يخص الأمة الإسلامية ، وهو إما ترك للردائل ، وإما تحلية بالفضائل ، ويمثل فيما يأتي :
- ١ - ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبت منه وتظهر الحقيقة .
- ٢ - إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية ، حتى تفيء إلى أمر الله .
- ٣ - حبيب الله الصالح بين المؤمنين .
- ٤ - النهي عن السخرية واللمز والتنايز بالألقاب .
- ٥ - النهي عن ظن السوء بالمسلم ، وعن تتبع العورات المستورة ، وعن الغيبة والنميمة .
- ٦ - الناس جميعاً سواسية ، مخلوقون من ذكر وأنثى ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ^(٨٧) .

تفسير سورة ق

أهداف سورة ق

سورة (ق) مكية ، وآياتها ٥٥ آية ، نزلت بعد سورة المرسلات

سورة الخطبة

كان ﷺ يخطب خطبة الجمعة بسورة (ق) ، حتى قالت النساء : ما حفظنا سورة (ق) إلا من خطبة النبي ﷺ بها ، وهى سورة تحمل أصول التوحيد ، وتلفت النظر إلى دلائل القدرة فى خلق السماء والأرض ، وآثار الله الملموسة فى إنزال المطر وإنبات النبات ، وترشد إلى سنن الله فى إهلاك الظالمين ، واستحقاق الوعيد للمكذبين ، وتجول بالإنسان داخل نفسه ، وتستعرض مشاهد القيامة ، وجزاء المتقين فى الجنة وجزاء العصاة فى النار .

وقد سلكت السورة فى عرض معانيها أسلوباً رائعاً أخاذاً ، له سيطرته على النفس والحس ، وطريقته الغذة فى هز أوتار القلوب .
جاء فى طلال القرآن :

سورة (ق) سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري ، وصورها وظلالها وجرس فواصلها ، تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها فى خطراتها وحركاتها ، وتتعبها فى سرها وجهرها ، وفى باطنها وظاهرها ، تتعقبها برقابة الله التى لا تدعها لحظة واحدة من المولد إلى الممات ، إلى البعث إلى الحشر إلى الحساب ، وهى رقابة شديدة دقيقة رهيبة ، تطبق على هذا المخلوق الإنسانى الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً ، فهو فى القبضة التى لا تغفل عنه أبداً ، ولا تُغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً ، كل نفس معدود ، وكل هاجسة معلومة ، وكل لفظ مكتوب ، وكل حركة محسوبة ، والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة فى وسواس القلب ، كما هى مضروبة على حركة الجوارح ، ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، فى كل وقت وفى كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة ، ولكنها تعرض فى الأسلوب الذى يبيديها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ، وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعباً الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر الموهول الرهيب .

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر ، وإلى إرهاب الساعة فى النفس ، وتوقعها فى الحس ، وإلى الحقائق الكونية المتجلية فى السماء والأرض ، وفى الماء والنبات ، وفى التمر والطلع^(٨٨) .

تَبْصِرَةٌ وَذِكْرًا لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّسِيبٍ . (ق : ٨) .

فواتح السور

تبدأ سورة (ق) بهذا الحرف المفرد : ق .

وقد بدأت بعض سور القرآن بهذه الأحرف المقطعة ، فمنها ما بدأ بحرف واحد مثل : ض وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . ومثل : ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . ومثل : ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ .

ومنها ما بدأ بحرفين مثل : طه . ومثل : يش . ومثل : حم .

ومنها ما بدأ بثلاثة أحرف مثل : الر . الم . طسم .

ومنها ما بدأ بأربعة أحرف مثل : المص . المر .

ومنها ما بدأ بخمسة أحرف مثل : كهيعص . ومثل : حم و عسق .

معانى هذه الفواتح :

هناك رأيان فى معنى هذه الفواتح :

الرأى الأول : إنها مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولذلك نجد فى تفسير الجاللين ، وهو تفسير مختصر : ق : الله أعلم بمراده به .

الرأى الثانى : أن لها معنى ، وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى :

١ - فمنهم من قال : هى أسماء للسور التى بُدئت بها .

٢ - ومنهم من قال : هى إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته ، وروى عن الضحاك فى معنى (الر) : أنا الله أرفع .

٣ - ومنهم من قال : هى قسم .

٤ - ومنهم من قال : هى حروف للتنبيه ، كالجرس الذى يقرع فينبه التلاميذ لدخول المدرسة .

٥ - ومنهم من قال : هى حروف للتحدى وبيان إعجاز القرآن .

٦ - وقيل : إن هذه الأحرف قد اشتملت على جميع المعانى التى ذكرها العلماء فى تفسيرها ، فهى أسماء للسور ، وهى إشارة إلى أسماء الله تعالى وصفاته ، وهى للقسم ، وهى أدوات للتنبيه ، وهى حروف للتحدى والإعجاز ، وهى أيضاً مما أستأثر الله بعلمه .

معانى سورة ق

هذه سورة مكية عنيت بسوق الحجج والأدلة على قدرة الله وعلى تأكيد البعث والجزاء .

وقد بدأت السورة بمواجهة المشركين ، وعرض أفكارهم وعجيبهم أن يكون الرسول بشراً مثلهم ، كما أنهم أنكروا البعث والحشر بعد الموت ، واستدلوا بدليل ساذج هو تفسخ الأجسام وصيرورتها تراباً .

والقرآن يوضح قدرة الله وعلمه الشامل بما تأكله الأرض من أجسامهم ، فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً ، أما إعادة الحياة إلى هذا التراب فقد حدثت من قبل ، وهى تحدث من حولهم فى عمليات الإحياء المتجددة التى لا تنتهى . (الآيات : ١ - ٥) .

ويلفت القرآن نظر الناس إلى آثار قدرة الله ، فالسمااء سقف مرفوع ، والأرض بساط تحفظه الجبال ، وتجرى فيه الأنهار ، وتنمو فيه صنوف النبات ، والمطر ينزل فيبعث البركة والنماء ، وينبت الحبّ والنخيل والأعشاب ، ويبعث الحياة فى الزرع والأرض ، ويمثل هذه القدرة العالية يحيى الله الموتى ويبعثهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية . (الآيات : ٦ - ١١) .

ويلفت القرآن النظر إلى عبرة التاريخ ويذكر الناس بما أصاب قوم نوح من الغرق ، وما أصاب المكذبين من الوعيد والهلاك ، ومنهم أصحاب الرس (والرس هى البئر) وأصحاب الرس بقية من ثمود ، كانت لهم بئر فكذبوا نبيهم ودسوه فى البئر . وأصحاب الأيكة : وهم قوم شعيب ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملفت الكثيف . وقوم تبع ، وتبع لقب لملوك حمير باليمن .

إن هؤلاء الأقوام أنكروا الرسالة الإلهية ، وكذبوا رسل الله إليهم ، فاستحقوا عذاب السماء ، وهذا العذاب يصيب كل مكذب بالله وأنبيائه . (الآيات : ١٢ - ١٥) .

رقابة الله

خلق الله الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وصانع الآلة أدرك بتركيبها وأسرارها ، فهو سبحانه عليم بخفايا الصدور ، مطلع على هواجس النفوس ، قريب من عباده لا يغيب عنهم أينما كانوا ، ثم يذبئهم بما عملوا يوم القيامة ، وهناك ملائكة تسجل أعمال العباد ، تؤمن بها ونفوض حقيقة المراد منها إلى الله

تعالى ، ولقد عرفنا نحن البشر وسائل للتسجيل ، تسجل الحركة والنبرة ، كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما والتلفزيون ، فليس ببعيد على الله أن يجعل من ملائكته شهود عيان يحصون على الإنسان أقواله وأفعاله بالحق والعدل . (الآيات : ١٦ - ١٨)

قال تعالى : كِرَامًا كَثِيرِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . (الانفطار : ١١ ، ١٢) .

مشاهد القيامة

تحدثت السورة عن البعث والحشر ، ولفتت الأنظار إلى آثار الله في الأفاق ، وإلى سننه في التاريخ ، وإلى عجيب صنعه في حنايا البشرية . ومن إعجاز القرآن أنه ينتقل بالمشاهد من الماضي إلى الحاضر ، ويلون في أسلوب العرض ، ويعرض النفس الإنسانية لساثر المؤثرات ، رغبة في الهداية والإصلاح . قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

وقد عرضت سورة (ق) لمشاهد القيامة ، وفي مقدمتها حضور سكرة الموت فجأة بلا مقدمات ، والموت طالب لا يملّ الطلب ، ولا يبطئ الخطأ ولا يخلف الميعاد ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ . (ق : ١٩) . أى : تهرب وتفزع ، والآن تعلم أنه حق لا مهرب منه ولا مفر ، وتنقل الآيات من سكرة الموت إلى وهلة الحشر وهول الحساب ، وهى مشاهد تزلزل الكبرياء الجامع ، وتحارب الغرور والطغيان ، وتدعو للتقى والإيمان ، فملك الموت ينفخ فى الصور ، فيقوم الناس من القبور ويهرع الجميع إلى الحساب ، وتأتى كل نفس ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، وقد يكونان الملكين الكاتبين الحافظين لها فى الدنيا ، وقد يكونان غيرهما ، والأول أرجح ، عندئذ يتيقن الميكر ، ويرى البعث والحشر والجزاء مشاهدًا أمامه ، ينظر إليه ببصر حديد نافذ لا يحجبه حجاب من الغفلة أو التهاون . (الآيات : ١٩ - ٢٢) .

ويشتد غضب الجبار على العصاة المعاندين ، فيأمر الله الملكين - السائق والشهيد - أن يلقيا فى النار كل كفور عنيد ، مناع للخير متجاوز للحدود شاك فى الدين ، الذى جعل مع الله إلها آخر ، فاستحق العذاب الشديد .

ويشتد الخصام بين الشيطان وأتباعه من العصاة ، يحاول كل أن يتنصل من تبعة جرائمه ، وينتهى الحوار بين المجرمين بظهور جهنم تتلمظ غيظًا على من عصا الله ، ويلقى فيها العصاة ، ولكنها تزداد نهمًا وشوقًا لعقاب المخالفين ، وتقول فى كظة الأكلول النهم : هَلْ مِنْ مَّرْئِي . (الآيات : ٢٤ - ٣٠) .

وعلى الضفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف رضى جميل ، إنه مشهد الجنة تقرب من المتقين حتى تتراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم . (الآيات : ٣١ - ٣٥) .

ختم السورة

فى الآيات الأخيرة من السورة (الآيات : ٣٨ - ٤٥) نجد ختاماً مؤكداً للمعاني السابقة ، كأنه الإيفاع الأخير فى اللحن ، يعيد أقوى نغماته فى لمس سريع ، فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين ، وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المبين ، وفيه لمسة البعث والحشر فى مشهد جديد ، ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى للمشاعر والقلوب : **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ** . (ق : ٣٩) . وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذى يعقب الغروب كلها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض ، والقرآن يربط إليها التسبيح والحمد والسجود ، ويضم إليها الصبر والأمل فى الله القوى القادر ، فعليك يا محمد أن تبلغ القرآن للناس عليهم يتعظون أو يخافون : **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعْلَمُ** . (ق : ٤٥) . وفى هذا تسلية للرسول ﷺ ، وتثبيت لفتاوه ، وتهديد ووعيد للعصاة والكافرين .

أهداف السورة إجمالاً

قال الفيروزباده :

مقصود سورة (ق) : إثبات النبوة للرسول ﷺ ، وبيان حجة التوحيد ، والإخبار عن إهلاك القرون الماضية ، وعلم الحق تعالى بضمائر الخلق وأسرارهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العصاة يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم ، وتغيظ الجحيم على أهلها ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخلق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخه فى الصور ، وتكليف الرسول ﷺ أن يعظ الخلق بالقرآن المجيد^(٨٩) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَوِ ادَّعَيْنَا وَكَانَ آيَاتُ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْحٍ ⑤﴾

المضردات :

ق : حروف افتتح الله بها بعض السور للتحدى والإعجاز ، وجذب الانتباه ،
كالجرس الذى يقرع فيتنبه التلاميذ إلى دخول المدرسة .

والقرآن المجيد : المجيد : ذى المجد والشرف على سائر الكتب ، لكثرة ما فيه من الخير الدنيوى والأخروى .

بل عجبوا أن جاءهم منذر : استعجبوا مما ليس بعجيب ، أن يختار الله بشراً رسلاً يثبثاً فقيراً .

شئ عـجـيـب : يقتضى التعجب والإنكار كما زعموا .

ذلك رجـع بـعـيـد : ذلك البعث رجـع بعيد عن الوقوع ، أو عن الإمكان .

ما تـنـقـص الأرض منهم : ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم .

حـفـيـظ : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها .

بـالـحـق : بالنبوة النابتة بالمعجزات .

فهم فى أمر مـرـيـح : فهم فى أمر مضطرب ، من مزج الخاتم فى أصبعه ، إذا تحرك واضطرب من الهزال .

تمهيد :

كان النبى ﷺ يقرأ سورة (ق) فى خطبة الجمعة والعديد من المجامع الكبيرة ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور ، والميعاد والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ، والترغيب والترهيب .

أخرج أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عن أبي واقد الليثي أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بسورتى ق، ماقترت^(١).

وفى الآيات الأولى من السورة مناقشة الكافرين والرد عليهم، ودعوة للتأمل فى خلق السماوات والأرض وما فيهما من بدائع وعجائب.

التفسير:

١ - ق ...

حروف بدأ الله بها بعض السور للتحدى والإعجاز، وبيان أن القرآن مكون من حروف عربية تنطقون بها، وكثيراً ما يأتى ذكر القرآن بلفظه أو بمحتواه بعد هذه الأحرف، مما يدل على أن من أهدافها التحدى بهذا الكتاب، والتنبيه إلى أهميته وفضله، وهذه الأحرف:

- ١ - منها ما هو مكون من حرف واحد، مثل: ق. ن. ص.
- ٢ - منها ما هو مكون من حرفين، مثل: حم. طه. يس.
- ٣ - منها ما هو مكون من ثلاثة أحرف، مثل: طسم. الر. الم.
- ٤ - منها ما هو مكون من أربعة أحرف، مثل: القص. التمر.
- ٥ - منها ما هو مكون من خمسة أحرف، مثل: كهيعص. حم. عسق.

وقد أقسم الله تعالى بأمور كثيرة لبيان فضلها، أو لفت الأنظار إليها، أو ببيان العظمة الإلهية فى خلقها وتسخيرها، ومما أقسم الله به ما يأتى مفرداً أى مرة واحدة، وأحياناً يقسم بأمرين، وأحياناً بثلاثة أمور، وأحياناً بأربعة أمور، وبخمس أمور، ومثال ذلك ما يأتى:

- ١ - القسم بأمر واحد مثل: وَالْعَصْرِ (العصر: ١)، ومثل: وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ. (النجم: ١)
- ٢ - القسم بأمرين مثل: وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. (الضحى: ١، ٢)، ومثل: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. (الطارق: ١)
- ٣ - القسم بثلاثة أمور، مثل: وَالصُّفَّاتِ صَفَا * فَالْأَجْرَاتِ أَجْرًا * فَالتَّحْلِيلِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ. (الصفافات: ١ - ٤)
- ٤ - القسم بأربعة أمور، مثل: وَاللَّارِئِثِ ذَرْوًا * فَالْحَمْلِثِ قِرْوًا * فَالْجَنَّتِ يُسْرًا * فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الْبَلَدِينَ لَوَاقِعٌ. (الذاريات: ١ - ٦).

ومثل : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . (البروج : ١ - ٣) .

ومثل : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ * وَهُمْ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَثْرَتُ ثَمَرِهِمْ وَلَا أَهْلُ بَيْتِهِمْ * وَلَا يَكُونُ لَهُمْ مَالٌ فَخْرًا * وَلَهُمْ أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ * وَهُمْ فِيهَا مُنْقَبِحُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .

(التين : ١ - ٤)

٥ - القسم بخمسة أمور مثل : وَالطُّورِ * وَكَتَابٍ مُسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْأَنْبَاءِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّعْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ . (الطور : ١ - ٦) .

وفى (والمرسلات ...) ، وفى (والنازعات) ، وفى (والفجر ...) .

ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا فى سورة واحدة ، وهى : وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا حَنَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . (الشمس : ١ - ١٠) .

عود إلى التفسير

وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ .

وأقسم بالقرآن صاحب المجد والشرف ، والكرم والسعة ، الذى يجد فيه كل طالب حاجته ، والذى هيمن على الكتب السماوية السابقة ، ووضع صوابها ، وما فيها من تحريف أو تبديل ، والذى ختم الله به الكتب ، وجعله مشتملاً على أصول التشريع والآداب ، والقصص والتاريخ ، وسنن الكون ، ونواميس الوجود ، وأخبار القيامة والبعث والحشر ، والجزاء والعقاب ، والجنة والنار ، مع سلامة اللفظ ورساق المعنى ، وقوة السبك ، وجزالة الأداء ، مع الإشتغال على صنوف الإعجاز ، وعجز العلوم مع تقدمها عن أن تنقض أى حكم من أحكامه ، واشتماله على الإعجاز الغيبي ، والإعجاز التشريعى ، والإعجاز البلاغى ، والإعجاز اللفظى ، والإعجاز العلمى ، وموافقته لكل زمان ومكان ، وهو ناسخ لما سبقه ، غير منسوخ إلى يوم الدين .

قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ . (الحجر : ٩) .

ومعنى الآية : أقسم بقى ، وأقسم بالقرآن المجيد ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده ، وتقديره : إنك أيها الرسول لصادق فيما تبليغه عن ربك من أن البعث حق ، والحساب حق ، والجزاء حق ، ولكن الجاحدين لم يؤمنوا بذلك .

٢ - بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ .

بل عجب كفار قريش من أن جاءهم رسول منهم ينذرهم القيامة والبعث والحشر والجزاء والعقاب ، فأنكروا الرسالة والرسول ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (النمل : ١٤) .

فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ .

لم يكتفوا بالإنكار بل انتقلوا إلى التعجب ، فاستكثروا أن يكون الرسول بشراً ، وقالوا : لو أراد الله أن يرسل رسولاً لاختار ملكاً من الملائكة ، واستكثروا أن يكون فقيراً يتيماً : وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) . واستكثروا البعث والحياة بعد الموت والبلوى .

٣ - أَوَلَمْ يَتَفَكَّرْ مَا تَوَسَّوْا وَأَنَّهُمْ كَانُوا بِآيَاتِهِ يَكْفُرُونَ .

إذا متنا ونفينا في الأرض ، وتفسخت أجسامنا ، وأدركنا الفناء والبلوى ، فإن عودة الحياة إلينا بعيدة ، فما أبعد الفرق بين الموت والغياب في الأرض ، وتمزق الجسد وهن العظام وتفتتها ، ثم الحياة والحركة والبعث .

وكثيراً ما استعرض القرآن شبهات الكافرين وناقشها وفندها ، فنذكر ما يأتي :

(أ) الذي بدأ الخلق أول مرة قادر على الإعادة مرة أخرى .

(ب) قدرة الله لا حدود لها ، فهو على كل شيء قدير .

(ج) علم الله محيط بكل شيء ، فهو يعلم كل ذرة في أجسامهم ، وعنده كتاب قد سجل فيه كل شيء عنهم .

قال تعالى : وَصَرَّفْنَا لَكُنَّا عَمَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ * عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٢) .

٤ - قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ .

إن يعثهم لا صعوبة فيه على الله ، فقد علم ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم ، وعنده كتاب حافظ لكل شيء ، وقد سجل فيه كل شيء ، والله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، ومع ذلك سجل أمور الناس

فى كتاب ، تصويرًا لشدة الضبط والإحاطة ، فإن من شأن الناس إذا أرادوا حفظ شيء وضبطه أن يسجلوه فى سجل خاص به ، ومن ذلك دفاتر الحسابات والمبيعات والمشتريات ، والله غنى عن كل ذلك ، لكنه أراد تقريب هذا الضبط إلى أنهان البشر ، ولا يبعد على الله استعمال ذلك ، فهو سبحانه قد أحاط بكل شيء علمًا ، وهو سبحانه سجل أعمال العباد وما يتصل بهم فى سجلات يشاهدونها يوم القيامة ، ليزداد يقينهم وتأكدهم ، ولأن هذا أبلغ فى العدالة والضبط ، فهذه الكتب بمثابة الشاهد الملموس المحسوس .

قال تعالى : وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُتَفِيقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ إِنَّمَا هَذَا إِلْكِتَابٌ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَنَجَّوْهُمَا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَنْظُرُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

٥ - بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ .

بل للإضراب والانتقال إلى ما هو أعظم من استبعادهم للبعث والحشر، فهم قد كذبوا بالوحي الإلهي، وهو القرآن الكريم، وكتبوا بالنبي محمد ﷺ ورسالته لما جاءهم، وقالوا عن القرآن: أساطير الأولين، وقالوا: أضغاث أحلام، وقالوا: إنما يعلمه بشر، وقالوا عن النبي ﷺ: ساحر، وشاعر، وكاهن، وكاذب، وفقير، وقالوا: إنه بشر، هلا كان مَلَكًا، وقالوا غير ذلك مما يدل على اضطرابهم واختلالهم، فهم لم يثبتوا على حال واحدة من القول، والقرآن يصوّر اضطرابهم بحال إنسان يريد أن يوجهَ تهمةً متعددةً لآخر، فينتقل من رأى إلى آخر، ولا يستقرّ على حال.

قَالَ تَعَالَى: بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلْ افْتَرَسَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ. (الأنبياء: ٥).

ونلاحظ أن القرآن هنا قد استعمل كلمة مناسبة في الرد عليهم حين قال :

فَهُمْ فِي أَمْرٍ مُرِيجٍ .

أى : مضطرب مختلط ، بحيث لا يستقرون على حال ، يقال : مَرَج الأمر - بزنة هَلَب - إذا اختلط وتزعزع وفقد الثبات والاستقرار والصلاح ، ومنه قولهم : مرجت أمانات الناس ، إذا فسدت وعمت بهم الخيانة ، ومرج الخاتم فى أصبع فلان ، إذا تخلخل واضطرب لشدة هزال صاحبه .

أدلة القدرة الإلهية

﴿ أَفَلَا نَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ
مُنِيبٍ ۖ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۖ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ
بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۖ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ۖ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

بَنَيْنَاهَا : أحكمنا ببناءها ، فجعلناها بغير عمد .

وَزَيَّنَّاهَا : بالكواكب على أبداع نظام ، وأكمل إحكام .

فُرُوج : شقوق .

مَدَدْنَاهَا : بسطناها .

رِوَاسِيَ : جبلاً ثوابت تمنعها من الاضطراب .

زَوْج : صنف .

بَهِيج : ذى بهجة وحسن .

تَبْصِرَةً وَذِكْرًا : تبصيراً وتذكيراً .

مُنِيب : من أناب ، إذا رجع وخضع .

حَبَّ الْحَصِيد : حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد ، كالبر والشعير .

بَاسِقَاتٍ : طويلات .

طَلْع : ما ينمو ويصير بلحا ثم رطباً ثم تمراً .

نَضِيد : متضود بعضه فوق بعض .

كَذَلِكَ الْخُرُوج : مثل ذلك خروجكم للبعث من قبوركم .

تمهيد :

يقدم القرآن هنا الدليل العلى المشاهد على قدرة الله العلى القدير فى هذه الصور المتتابعة ، وهى :

(أ) السماء العالية البناء فى زينتها وعدم تشققها .

(ب) الأرض المبسوطة ، وفوقها الجبال الراسية ، وقد خرجت منها صنوف النباتات والأزهار ، والزرع وغير ذلك .

(ج) نزول الأمطار التي تنبت الجئات والبساتين ، وحبّ الذرة والشعير والقمح الذي يحصده الفلاح ، فيقتات به الإنسان والحيوان وغيرهما .

(د) والنخل الباسقة الطويلة ، تحيط بها قلادة البلح المنظم النضير .

(هـ) هذه النعم رزق للعباد ، وقد أحيينا الأرض الميتة بالماء ، وكذلك نبعث الموتى بقدرتنا ، فهو سبحانه على كل شيء قدير .

التفسير :

٦ - أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ .

أفلم ينظر هؤلاء الكفار بأب أعينهم إلى السماء فوقهم ، وهى قبة مترامية الأطراف ، لا تعتمد على أعمدة ليتأملوا فى هذه القبة الزرقاء ، كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ .

كيف أحكمنا بناءها ، ورفعنا بُنيانها بدون عمد يرونها ، وزينناها بالنجوم ، كالثرى التى تزين المنازل ، ولم نجعل فى السماء شقوقاً ولا عيوباً ولا تصدعاً .

فُرُوجٍ . جمع فرج ، وهو الشق بين الشيئين ، والمراد : سلامتها من كل عيب وخلل .

كما قال سبحانه وتعالى : الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُتُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ . (الملك : ٣ ، ٤) .

أى : لن تجد فى السماء عيباً ولا تشققاً ولا تصدعاً ولا خللاً ، ومهما بحثت عن عيب وكررت النظر مراراً ، فسينقلب البصر كليلاً متعباً ، بعد لأى وجهه لأنه لم يجد أى عيب فى السماء ، وقد جعل الله النجوم فى السماء لثلاثة أهداف :

الأول : أنها زينة للسماء .

الثانى : أنها هداية للسائرين فى الصحراء والبحار ، ليعرفوا بها الجهات الأربع الأصلية ، ومن ثم يهتدون إلى الطريق الذى يسلكونه .

الثالث : أنها رجوم وشهب تصيب الشياطين ، الذين يحاولون استراق السمع من السماء .

قال تعالى: **إِنَّا رَزَقْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةَ الْكَوَاكِبِ * وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ**.
(الصافات: ٦-١٠)

وقال سبحانه وتعالى: **وَعَلَّمْنَا تَرْجُمَهمْ وَيَقْتُلُونَ**. (النحل: ١٦).

٧- **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**.

والأرض بسطناها في نظر العين، ونسّطها لا ينافي كرويتها وحركتها أمام الشمس، ويترتب على ذلك الليل والنهار، فالجزء المتعرض للشمس يكون نهاراً، والمختبئ عن الشمس يكون ليلاً.

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ...

وخلقنا فيها جبلاً رواسي، تحفظها من أن تميد أو تضطرب، والجبال من أنعم الله تعالى، ففي قممها تتجمع الثلوج في الشتاء، ثم تنزل في الصيف فتسقي الزرع، وتفيض على المرتفعات، والجبال ملجأ للهارب، وأمان للعابد، وبيت لراغب الخلوة، ولأمر ما سبّحت الجبال مع داود، وخرّ الجبل أمام موسى عندما تجلّى الله تعالى للجبل، وكانت خلوة النبي ﷺ في غار حراء حين نزل الوحي أول مرة، وابتدأت الهجرة من غار ثور، ويجوار جبل أحد كانت غزوة أحد، وهناك دفن شهداء الصحابة، وقال ﷺ: «أحد جبل يحبنا ونحبه»^(٩١).

وشعائر الحج تتم عند جبل عرفات، وعند السعي بين الصفا والمروة وهما جبلان، وفي الأثر: (الحج وقفة وطواف)، أي: وقفة بجبل عرفات، وطواف الإفاضة حول الكعبة.

والجبال أوتاد تحفظ الأرض وتحفظ توازنها.

قال تعالى: **وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا**. (النازعات: ٣٢).

وقال تعالى: **وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**... (الأنبياء: ٣١).

ولأمر ما كانت الرسائل السماوية ونزول الوحي يتم عند الجبال، حيث يتفرغ الإنسان لمقابلة مولاه، متخلصاً من الدنيا وزحامها ومشاغليها، فقد نادى الله تعالى موسى عند جبل الطور، ونزل وحى السماء أول مرة: **اقْرَأْ**. في غار حراء، وهو خلوة في أعلى جبل.

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .

أنبتنا في الأرض صنوف النباتات ، والأزهار والثمار ، والحب والقمح ، والحدائق والبساتين ، والورود والنبات اليناع النضير .

٨ - تَبْمِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ .

إن هذه الصنعة البديعة ، والخضرة الناضرة ، وألوان الزروع والنباتات ، والثمار والكروم والفواكه ، وألوان النبات المتعددة تأخذ بالألباب ، وتبصر القلب والنفس ، وتذكر القواد والحس بأن من أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الإنسان بعد الموت ، وقادر على البعث والنش والحساب والجزاء .

والعبد المنيب : الذي أناب إلى الله ، ورجع إلى مولاه ، وتأمل في بديع مخلوقاته ، وانتقل من جمال الصنعة إلى جلال الصانع .

٩ - وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتٍ وَحَبِّ الْحَبِيدِ .

ولينظروا إلى آثار قدرتنا ، حيث يسرنا نزول المطر من السماء ، وهذا الماء كثير البركة ، حيث ينبت البساتين الناضرة ، والزروع المثمرة ، والحب الذي يحصد مثل الشعير والقمح .

١٠ - وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نُّفِيدٌ .

وأنبتنا بهذا الماء النخل الطويلات ، بها يلح منظم منضد متراكم بعضه على بعض ، مما يدل على كثرته ، وتخصيص النخل بالذكر مع اندراجه في الجنات لبيان فضل النخلة على سائر الأشجار .

وفي الحديث الشريف : «إنها أمكم الذئبة» .

وفي الحديث أيضاً : «ألا أدلكم على شجرة كقلب المؤمن لا تجف صيفاً ولا شتاءً» ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : «إنها النخلة» ^(١٧) .

وقد ورد في الحديث أن من الصدقات الجارية زراعة النخيل ، ووقف المصحف ، ودعاء الابن لوالده .

قال القائل :

وغيرس النخل ، والصدقات تجري

ورأيت مصحف ، ودعاء نجعل

١١ - رَزَقْنَا الْعِبَادَ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مِثْلًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ .

أنبتنا كل ذلك رزقاً للعباد ، ونفعاً لهم وتيسيراً لحياتهم ، وأحيينا بهذا الماء أرضاً ميتة ، جعلناها تهتز وترتفع بالنبات ، وتثمر من كل زوج بهيج ، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها بالماء فإنه سبحانه بقدرته يبعث الإنسان ويحييه بعد الموت .

والآيات لوحة هادفة في منظرها ونظامها وإبداعها ، وقد ذكر الإمام الرازي أن الله تعالى ذكر في كل آية ثلاثة أمور متناسبة :

ففي آية السماء ذكر البناء والتزيين وسد الفروج ، وفي آية الأرض ذكر المد واللقاء الرواسي والإنبات فيها ، وكل واحد هنا في مقابلة واحد مما سبق ، فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع ، والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة ، والكواكب مركوزة مزينة للسماء ، والإنبات في الأرض شقها ، في مقابل أن السماء سقف ليس به شقوق ، وفي آية المطر إنبات الجنت والحب والنخل ، وهذه الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة ، وهي ما له أصل ثابت يستمر مكته في الأرض سنين وهو النخل ، وما ليس له أصل ثابت مما لا يطول مكته في الأرض وهو الحب الذي يتجدد كل سنة ، وما يجتمع فيه الأمران وهو البساتين ، وهذه الأنواع تشمل مختلف الثمار والزرع .

★ ★ ★

التذكير بحال المكذبين الأولين

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَشُعُوبٌ ۚ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَلِخُودٌ لُوطٌ ۚ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُسُوعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ۚ ﴾ ١٤ ﴿ أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ ﴾ ١٥ ﴿

المفردات :

كذبت ، أنث الفعل لأن : قَوْمٌ . اسم جنس ، بمعنى الجماعة ، فإذا ذكر فعلى معنى الجمع ، وإذا أنث فعلى معنى الجماعة .

المرس ، البئر التي لم تطو ، أى : لم تبين .

فرعون ، المراد به : هو وقومه ، كما تسمى القبيلة باسم أبيها .

الأيكة ، الغيضة الملتفة الشجر .

وقوم تسبع : هو تبع الحميري ملك اليمن ، أسلم ودعا قومه للإسلام فكذبوه : فأهلكهم الله .

كـ : من المذكورين ، أى : كل واحد أو قوم منهم أو جميعهم .

فحق وعيد : وجب نزول العذاب على الجميع ، وحل عليهم وعيدى .

أفعميتنا : أفعميتنا عن الإبداء حتى نعجز عن الإعادة ، والعى بالأمر العجز عنه ، والهزمة للاستفهام الإنكارى .

تيس : شك شديد ، وحيرة واختلاط .

تمهيد :

يقدم الحق سبحانه وتعالى طائفة من الأدلة على صدق الرسالات والبعث ، فذكر فيما سبق أصناف المخلوقات فى السماء والأرض ، وهنا يستعين بحقائق التاريخ ، حيث أرسل الله طائفة من المرسلين ، مثل نوح عليه السلام ومن بعده من الرسل ، فكذبهم المكذبون فأهلك الله المكذبين ، ونجى المرسلين ، وقد تكررت هذه الأفكار فى عدد من السور المكية ، تهديداً للمشركين حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين من قبلهم ، وفيها تسلية للرسول الأمين ، كما قال سبحانه : قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ...

(الأحقاف : ٣٥)

التفسير :

١٢ - كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرُّسُلِ وَتَمُودُ .

لم تكن أنت بدعا من الرسل ، ولم يكن تكذيب قومك بدعاً من تكذيب أقوام الرسل ، فقد كذب قوم نوح نوحاً فأهلكهم الله بالطوفان ، وأصحاب الرس - وهى البثر التى لم تبين ، وقد قيل : إنهم من بقايا قبيلة ثمود - بعث الله إليهم واحداً من أنبيائه ، فكذبوه ورسوه فى تلك البثر ، أى ألقوا به فيها ، فأهلكهم الله سبحانه بسبب ذلك .

وقيل : هم الذين قتلوا حبيباً النجار ، عندما جاءهم يدعوهم إلى الدين الحق ، وكانت تلك البثر بأنطاكية ، وبعد قتلهم له ألقوه فيها .

وقيل : هم قوم شعيب عليه السلام ، واختار ابن جرير الطبرى أن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين جاء الحديث عنهم فى سورة البروج .

والمراد بتمود : قوم صالح عليه السلام ، وكانوا يسكنون فى شمال جزيرة العرب ، وقد مر عليهم النبی ﷺ فى طريقه إلى غزوة تبوك ، فحنى رأسه واستحث راحلته ، وأسرع بالجيش ، وقال لمن معه : « لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم ، إلا وأنتم مشفقون أن يصيبكم ما أصابهم »^(١٣) .

١٣ - وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ .

وَعَادُ . هم قوم عاد الذين كانوا يسكنون بالأحقاف ، وهى كئبان الرمل المعوجة ، فى جنوب جزيرة العرب ، بين اليمن وسلطنة عمان عند مدينة صلالة ، كذبوا نبيهم واغترتوا بقوتهم ، وعثرت الحفريات على مدائن مغمورة قرب صلالة بسلطنة عمان ، يرجح أنها لقبيلة عاد .

وَفِرْعَوْنُ . هو الذى أرسل الله إليه موسى ، فكذبه وقال : أنا ربكم الأعلى ، وتكررت قصته فى القرآن الكريم ، كتمنودج واضح لجبار متكبر ، لقى حتفه غرقاً فى الماء جزاء كفره وتكذيبه .

وَإِخْوَانُ لُوطٍ .

قوم لوط الذين شاع بينهم الشذوذ الجنسى ، واستغناء الرجال بالرجال ، ولم يكن لوط منهم ، بل تزوج منهم ، فكانوا إخوانه بالمصاهرة لا بالنسب ، وقد أمطرهم الله بالحصباء ، وجعل على الأرض التى يقطنونها أسفلها ، لأنهم انتكسوا بالفطرة ، وجامعوا الرجال وتركوا النساء ، فخسف الله بهم الأرض .

١٤ - وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ .

وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام .

قال تعالى : كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ . (الشعراء : ١٧٦ ، ١٧٧) .

والأيكة اسم لمنطقة كانت مليئة بالأشجار ، ومكانها فى الغالب بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة ، ولعلها المنطقة التى تسمى معان .

وَقَوْمُ تُبَّعٍ ...

وهو تبع الأكبر الحميرى ، واسمه أسعد وكنيته أبو كزب ، وكان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً ، ففسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند ، فرجع فأخذ طريق الشام ، ثم مر بالبيت الحرام فدخله محرماً ، ففضى نسكه ، ثم انصرف نحو اليمن راجعاً ، حتى إذا قدم على قومه طلب منهم أن يؤمنوا كما آمن فامتنعوا ، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم^(٩١) .

قال تعالى : أَلَمْ يَخَيْرْكُمْ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ . (الدخان : ٣٧) .

كُلُّ كَذِبٍ أُرْسِلَ فَحَقٌّ وَعِيدٌ.

كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم ، فحق عليهم وعيدى ، وثبتت عليهم كلمة العذاب على التكذيب ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء الأقوام .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة غافر فى الآية الخامسة ، والآية الحادية والعشرين وما بعدها ، وفى عدد من السور المكية ، وفى الآية الثالثة عشرة من سورة فصلت وما بعدها .

وفى سورة الفجر فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبَلَدِ * وَنُوحًا الَّذِى جَاءَهُ الصَّخْرُ بَأْتُوَادٍ * وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبَلَدِ * فَأَكْثَرُوا فِىهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَالٍ عَزِيزٌ . (الفجر : ٦ - ١٤) .

١٥ - أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ .

استفهام إنكارى مؤداه : هل عجزنا عن خلق الإنسان من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة إلى أن صار خلقاً آخر ، تبارك الله أحسن الخالقين الذى خلقه ؟ هل عجزنا عن خلق هذا الكون ، بكل ما فيه من سماء وأرض وفضاء ، وأنهار وأشجار وبحار ، وليل ونهار ، وشمس وقمر وكواكب ؟ هل عجزنا عن حفظ هذا الكون وتماسكه بلايين السنين ؟

وإذا كان ذلك لم يعجزنا ، فإن إعادة أهون من البدء ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِى يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم : ٢٧) .

قاله سبحانه على كل شئ قدير ، ولا يعجزه شئ فى السماوات ولا فى الأرض ، وهم يسلمون بأن الخالق للكون ولأدم وذريته هو الله ، ثم يعمون بعد ذلك فى الحيرة والشك والاضطراب والاختلاط ، حين يتعلق الأمر بالنشأة الآخرة والبعث بعد الموت .

جاء فى الحديث القدسى الصحيح ، يقول النبى ﷺ : «يقول الله تعالى : يؤذنى ابن آدم ، يقول : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»^(٩٤) .

والخلاصة :

إننا لم نعجز عن خلق هذا الكون ، وخلق الإنسان أول مرة ، وإذا لم نعجز عن البدء ، فإن إعادة أهون من البدء ، لكن الكفار فى حيرة واضطراب ، منهم من يؤمن بالبعث ، ومنهم من ينكره ، وما تكذيب المكذابين إلا من باب تقليد السابقين ، أو المكابرة والعناد ، أو الشك واللبس وعدم الاهتمام .

تقرير خلق الإنسان وعلم الله بأحواله

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمُ آتُوسُوا بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَنْفَلِقُ
الْمَتَلَقَّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ
فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

المضردات :

الوسوسة : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلى ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر
بالبال من شتى الشئون .

حبل الوريد : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق .

المتلقيان : هما ملكان جعلهما الله لكل إنسان ، ليكتبنا أعماله من خير وشر ، عن اليمين وعن
الشمال .

قعيد : بمعنى مقاعد ، كالجلوس بمعنى المجالس .

الرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيراً كتبه ملك اليمين ، وإن كان شراً كتبه ملك
الشمال .

عتيد : مهياً لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر .

وجاءت سكرة الموت : وأحضرت شدة الموت حقيقة ما كتبه الله على عباده من الموت .

تعيد : تميل وتعدل .

ونفخ فى الصور : ونفخ فى البوق .

يوم الوعيد : يوم إنجاز الوعيد .

السائق والشهيد : ملكان ، أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر يشهد عليها بعملها .

الغطاء : الحجاب الذى سببته الغفلة والانهماك فى اللذات .

حديسد ، حاد ونافذ ، لزوال المانع للأعذار .

تمهيد :

بعد أن أثبت الحق سبحانه وتعالى قدرته على البعث والحشر ، بيّن هنا علمه الواسع وقدرته البالغة ، فهو خالق الإنسان ، وهو العليم بكل ما فيه ، ومع علمه بكل شيء جعل لكل إنسان ملكين يكتبان عليه الحسنات والسيئات ، فإذا جاء الموت - وهو الحقيقة التي ستزول بكل إنسان - تبعه النفع في الصور ، وصنع الناس ، ثم بُعثوا من قبورهم ، وجاء كل إنسان ومعه ملكان ، أحدهما يسوقه ، والآخر يشهد عليه .

لقد حبيته الغفلة والذات الدنيا عن حقيقة الآخرة ، أما الآن فيصره حديد نافذ ، يرى الحقيقة كاملة ، لانعدام الغفلة وظهور الآخرة حقيقة مشاهدة .

التفسير :

١٦ - وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .

تالله لقد خلقنا جنس الإنسان ، أي كل إنسان في هذا الوجود ، من آدم إلى قيام الساعة ، وعلمنا ممتد إلى خارجه وداخله ، فنحن نعلم العلانية ، ونعلم وسوسة النفس وحديثها ، وصوتها الخفى الذى لا يسمعه أحد ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو وتين العنق إذا انقطع مات الإنسان ، أى لا تخفى علينا خافية ومن أمره ، ونحن أقرب إليه من دمه الذى يجرى فى عروقه .

وتصور الآية سعة اطلاع علم الله على ما فى داخل الإنسان ، وعظيم قربه وإطلاعه ، ففى جناب الله رهبة وخوف وعظمة ، وقرب مشاهدة وعظيم إحاطة ، وفيه فى نفس الوقت محبة ومودة وحنان وعطف ، ومن رحمة الله وفضله أنه لا يعاقب الإنسان على حديث نفسه حتى يتكلم به أو يعمل به .

أخرج أصحاب الكتب الستة (البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه) أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم به أو تعمل به»^(٩١) .

١٧ - إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ .

أذكر حين يتلقى الملكان الحفيظان ما يفعله الإنسان فيسجلان عليه أفعاله .

وقد ورد فى تفاسير الزمخشري ، والقرطبي ، والبيضاوى ، وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : «كاتب الحسنات على يمين الرجل ، وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرًا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات ، لعله يسبح أو يستغفر» .

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

والقعيد من يقعد معك ، فَمَلَكَ الحسنات قعيد على اليمين ، وملك السيئات قعيد على الشمال ، والأصل أن يقال: عن اليمين قعيد ، وعن الشمال قعيد ، فحذفت من الأولى لدلالة الثانية عليها ، فالملائكة تسجل على الإنسان الحسنات والسيئات ، والله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً ، لكنّه سبحانه أراد أن يعلم الإنسان ، أن كلّ شيء مسجل ومكتوب ، وفي إحصاء دقيق لا ينسى .

كما قال سبحانه : أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وقال عز شأنه : وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمَوْلُودَاتُ فَمَنْ مَوْلَانَا هَذَا كَتَبَ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

يقول أحد الصالحين :

لِمَ لَا أُنْسِدُ	وجميع جسمي مذهب
نَفْسِي لِقَبْحِ فَعَالِهَا	بين الوري تتأذب
مَلِكِ الْيَمِينِ أَرْحَتِهِ	لم يلق شيئاً يكتب
مَلِكِ الشِّمَالِ بَعْكِهِ	ليلاً نهائراً يتعب

١٨ - مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ .

ما يتكلم الإنسان كلمة إلا وهناك ملك مستعد متهيئ لتسجيل هذه الكلمة ، فإن كانت خيراً سجلها ملك اليمين ، وإن كانت شراً سجلها ملك الشمال .

والرقيب : المتتبع للأمور الحافظ لها .

والعتيد : الحاضر الذي لا يغيب ، والمهيأ للحفظ والشهادة ، وإذا كان القول يسجل على الإنسان ، فإن العمل يسجل من باب أولى .

قال تعالى : وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كُنُتُمْ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . (الانفطار : ١٠ - ١٢) .

قال الحسن البصري :

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ .

يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقل أو أكثر ، حتى إذا ميت طويت صحيفتك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى : **وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ** ، **فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا** * **أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** . (الإسراء : ١٣ ، ١٤) . ثم يقول : **عَدَلُ وَاللَّهِ فِيكَ** ، من جعلك حسيب نفسك .

١٩ - **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** .

حضرت لك أيها الإنسان شدة الموت بالحق الذي وعدك به الرسل ، ذلك الحق هو ما كنت عنه تميل وتنصرف عن التفكير فيه ، إنها الحقيقة الكاملة التي تنزل بكل إنسان مهما عظم أمره أو صغر ، مهما طار في الهواء أو غاص في الماء ، أو وصل إلى القمر أو المريخ ، فهناك لحظة يسكن فيها هذا الإنسان ، وتخرج روحه ، ويصبح جثة هامدة ، لا حياة ولا حركة ، لقد نزل به قوله تعالى : **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** . نزلت شدة الموت .

وفي الحديث الصحيح ، عن عائشة أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت ، جعل يمسح العرق عن وجهه ، ويقول : «سبحان الله ، إن للموت لسكرات»^(٩٧) .

ولما ثقل أبو بكر ، جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعمرك ما يُغْنِي النِّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشِرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فكشف أبو بكر رضي الله عنه عن وجهه ، وقال : ليس كذلك ، ولكن قولي : **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ** .

٢٠ - **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعْدِ** .

الصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وإسرافيل نفختان في الصور ، إحداهما تموت عندها الخلائق ، والثانية يبعث عندها الموتى وهي المرادة هنا .

قال تعالى : **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِّقُ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ** . (الزمر : ٦٨) .

ويكون معنى الآية :

ونفخ فى الصور النفخة الأخيرة ذلك الوقت ، وهو الوقت الذى توعد الله فيه كل كافر بسوء المصير ، كما وعد كل مؤمن بحسن الجزاء ، وخص الوعيد بالذكر لتهويل اليوم ، وتحذير العصاة مما سيكون فيه .

٢١ - وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ .

جاءت كل نفس خلقها الله تعالى ، من آدم إلى قيام الساعة ، جاءت إلى أرض المحشر للحساب والجزاء ، ومعها سائق يسوقها ، وشاهد يشهد عليها ، وقد جاء فى الحديث الشريف : «أن أحدهما ملك الحسنات ، وثانيهما ملك السيئات ، اللذان كانا يكتبان أعمال العباد فى الدنيا» ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية مرفوعاً عن جابر .

٢٢ - لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ .

أى : يقال للكافر أو لكل إنسان من بر وفاجر : لقد كنت فى الدنيا غافلاً عن هذا اللقاء ، شغلتك عنه زخارف الدنيا وشئونها ، وأكبرت الدنيا ، ونسيت الآخرة ، والآن كشف الغطاء ، وظهرت الحقيقة ، ورأيت القيامة رأى العين فبصرك اليوم ، حَدِيدٌ . أى : قوى شديد نافذ .

قال الحجاج يتوعد بعض الرجال المخالفين له : لأحملنك على الأدهم ، فقال الرجل : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب ، فقال الحجاج : ويحك إنه من حديد ، فقال الرجل : لأن يكون حديدًا خير من أن يكون بليدًا .

قال المفسرون :

فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ .

أى : فبصرك ونظرك فى هذا اليوم نافذ قوى ، تستطيع أن تبصر به ما كنت تنكره فى الدنيا ، من البعث والحساب والثواب والعقاب ، والآيات فى قوتها وجرسها وتصويرها لوحة هادفة ، تأخذ بيد الإنسان إلى الصراط المستقيم ، وتزيح عنه الغفلة فى الدنيا ، وترسم له طريق النجاة فى الآخرة .

من مواقف الحساب

﴿وَقَالَ فِرْعُونُ هَذَا أُمِّ الدِّينِ عِيسَى ٱلْقِيَاسِ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٢ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٣ أَلَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٤﴾ قَالَ فِرْعُونُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَأَن فِي ضُلَالٍ بَعِيدٍ ۝٢٥ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدُنِّي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٦ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدِي وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٧ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٢٨﴾

المضردات :

القـريـن : الملك الموكل بالمرء .

عـتـيد : معدٌ محضّر .

عـتـيد : مبالغ في العناد وترك الانقياد للحق .

مـنـاع للـخـير : كثير المنع للمال عن الحقوق المفروضة عليه .

مـعـتـد : متجاوز للحق ظالم .

مـرـيب : شاك في الله وفي دينه .

القـريـن : المراد هنا : الشيطان المقيض له .

بـعـيد : عن الحق ، مغرق في الباطل .

لا تختصموا لـدي : لا يجادل بعضكم بعضاً عندي .

بـالـوـصـيد : على الطغيان في دار الدنيا ، في كتيبى ، وعلى أسنة رسلى .

ما يبدل القول لـدي : لا يقع فيه الخلف والتغيير ، فلا تطمعوا أن أبذل وعيدى .

مـزـيد : زيادة .

تمهيد :

من شأن القرآن الكريم أن يعرض الآخرة أمام الإنسان كأنما يراها رأى العين ، وهنا يعرض صورة للملاك يقدم ما سجله على الكافر ، حيث يؤمر بالكافر أن يوضع في جهنم ، جزاء كفره وعناده وبخله ، وكأن الكافر يعتذر بأن الشيطان أغواه ، فيعترف الشيطان بأنه وسوس له ، وزين له فقط ، أما الاستجابة للشر والضلال ، والاستعداد للغواية والكفران فقد كانت منه ، فالتبعة عليه .

ثم يقول الحق سبحانه : لا فائدة من الخصام عندي ، فقد جعلت ناموساً وقانوناً أنزلته إلى الدنيا فى كتبي ، وعلى أسنة رسلي ، ولن يتغير هذا الناموس ، فلئلا أهلهما ، ولجنة أهلها ، بدون ظلم كبير ولا قليل ، بل بالعدل والقسطاس المستقيم .

التفسير :

٢٣ - وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْدٍ

أى : قال الملك الموكل به - أى بابن آدم - : هذا ما عندي من كتاب عملك معد محضراً بلا زيادة ولا نقصان .

قال مجاهد : هذا كلام الملك السائق يقول : هذا ابن آدم الذى وكلتني به قد أحضرته ، واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد .

وفسر الزمخشري وغيره القرين هنا بأنه الشيطان الذى أضل الإنسان ، يقول : هذا أعدده لجهم وأغويته وأضللته ، أى : أن ملكا يسوقه ، وآخر يشهد عليه ، وشيطاننا مقروننا به يقول : هذا قد أعدده لجهم ، واستشهد الزمخشري بقول الله تعالى :

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . (الزخرف : ٣٦) .

وأنا أرجح أن القرين فى هذه الآية للملاك ، السائق والشهيد .

ونلاحظ أن اللفظة فى القرآن الكريم قد تكون واحدة ، ويكون لها أكثر من تفسير بحسب السياق الذى ترد فيه ، فلفظ (الهدى) فى القرآن يأتى بمعنى الهداية إلى الخير ، ويمعنى الإسلام ، إلى ستة عشر معنى ، والسياق هو الذى يحدد اختيار معنى على آخر .

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ - أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْدٍ * مُتَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

سبب النزول :

قيل : نزلت هذه الآيات فى الوليد بن المغيرة ، لما منع بنى أخيه عن الخير ، وهو الإسلام .

أى : يقول الله تعالى للسائق والشهيد .

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ غَابٍ .

أطرحا في جهنم كل من كفر بالله ، وأشرك به ، وعاند الحق والرسول ، ومنع الخير ، ومنع أبناء أخيه عن الدخول في الإسلام ، والعبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآيات شاملة لكل كافر منع نفسه أو غيره عن الإيمان ، واعتدى على أهل الحق ، ووقع في الريب والشك وعدم الإيمان .

الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ .

الاسم الموصول مبتدأ مفيد معنى الشرط ، ولذلك دخلت الفاء في الجواب .

والمعنى : الذي عبد مع الله الأصنام والأوثان ، والمال والجاه والسلطان ، فألقياه أيها الملكان في أشد العذاب في جهنم .

والآيات عبرة ظاهرة لكل كَفَّار أو طاغية يغره أي سلطان ، أو يبعده عن الحق والإيمان والهداية أي شيء ، مهما كان قدره ، فالباطل ساعة ، والحق دائم إلى قيام الساعة ، قال تعالى :

قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِرُ بِالْحَقِّ عِلْمُ الْغُيُوبِ * قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُدْرِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ . (سبأ : ٤٨ ، ٤٩) .

٢٧ - قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ .

كان الكافر في مواقف القيامة يريد الاعتذار بأن الشيطان أظفاه وزين له الشر ، فوقع صريعا لإغواء الشيطان ، فاللوم والعقاب ينبغي أن يكون على السبب في ذلك وهو الشيطان .

فيجيب قرين الكافر أو العاصي وشيطانه ، ويقول : ربنا ما أخذت بناصيته إلى الطغيان والضلال ، وكل ما فعلته أنتنى زينته له الشر ، وحسنت له الكفر ، فوجدت عنده الاستعداد كاملا للضلال البعيد عن الحق المغرق في الطغيان .

إن كلاً منهما يريد أن يهون من مسؤوليته عن أنواع الشر والكفر ويروي أن الشيطان يخطب في أهل جهنم خطبة بترأ ، يعلن فيها تنصله من المسؤولية ، ويلقى التبعية على من أعطاه الله العقل والإرادة والاختيار ، وقد كان في استطاعته في الدنيا الرشاد ، فاختار الضلال بمحض إرادته ، فلا ينبغي أن يلوم الشيطان ، بل ينبغي أن يلوم نفسه ، فالشيطان لم يقسره ولم يكرهه ، وكل ما فعله هو أنه دعا إلى الشر ، فاستجاب طائعا مختاراً ، ويقول الشيطان : لن أنقذكم من جهنم ، وأنتم كذلك لن تنقذوني ، فمالنا واحد وهو العذاب .

قال تعالى: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِيَّاهُ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (إبراهيم: ٢٢) .

٢٨ - قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَلَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ .

قال الله تعالى للكافر وقرينه: لا تتخاصموا ولا تتجادلوا عندي وأمامي، فكل واحد منكما يريد أن يلقي بالبتعة على الآخر، لقد قدمت إليكم بالوعيد والإنذار بالعذاب للمخالفين على السنة رسل، وفي ثانيا كتبي ورسالاتي، وقامت عليكم الحجج والبراهين، والمراد: إن اعتذاركم الآن غير نافع .

٢٩ - مَا يَنْدِلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ .

لا يقع عندي تغيير ولا تبديل لما أنزلته في كتبي، وما أُوحيته به على السنة رسل، بأنني أعددت الجنة لمن أطاعني، والنار لمن عصاني، ولا أعذب أحدا ظلما بغير ذنب اقترفه، بل كل إنسان يحصل جزاء ما قدم، ويجزي عاقبة عمله، كما قال سبحانه: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة: ٧، ٨)

٣٠ - يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ .

تأتي جهنم يوم القيامة تتلظظ غيظا وغضباً على من عصى الله تعالى، ويوضع فيها الكفار والعصاة، وكلما وضع فيها اتسعت وطلبت الزيادة من العصاة، غيظا عليهم، وتضييقا للمكان عليهم، حتى يضع الله عليها رحمته، فتقول: كفاني كفاني، فقد امتلأت .

وعلى هذا يكون الاستفهام الأول للتعريض، فالله يقررها بأنها امتلأت، أي يجعلها تقر بذلك، واستفهام جهنم: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ . للنفي، بمعنى: هل بقي في مزيد؟ أي لا أسع غير ذلك، وهو جواب الاستفهام الأول . وتحتمل الآية معنى ثانياً وهو أنها تطلب الزيادة على من قد صار فيها، وأنها لا تشبع من الكفار .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف:

قال أهل المعاني:

سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل والتصوير، الذي يقصد به تقرير وتصوير المعنى في النفس وتثبيتته، وفيه معنيان:

أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها ، حتى لا يزداد عليها شيء.

الثاني : أنها من السعة حيث يدخلها من يدخلها ، وفيها موضع للمزيد . اهـ .

وقال الشوكاني : وهذا الكلام على طريقة التخييل والتمثيل ، ولا سؤال ولا جواب ، كذا قيل . والأولى أنه على طريقة التحقيق ، ولا يمنع من ذلك عقل ولا شرع . اهـ .

وقال الواحدي : أراها الله تصديق قوله تعالى :

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . (هود : ١١٩) .

فلما امتلأت ، قال لها : هل امتلأت ؟ وتقول هي : هل من مزيد ؟

أى : قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ .

أحاديث البخارى ومسلم

أخرج البخارى ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «يلقى فى النار ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط ، أى : كفى كفى» .

وفى رواية : قطنى قطنى ، أى : كفانى كفانى^(٩٨) .

وأخرج مسلم فى صحيحه ، عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «احتجت الجنة والنار ، فقال النار : فى الجبارون والمتكبرون ، وقالت الجنة : فى ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى بينهما ، فقال للجنة : إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ملؤها»^(٩٩) .

★ ★ ★

جنة المتقين

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ الْيَمِينِ غَيْرِ مُبْعِدٍ ۖ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْهَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

المضردات ،

أزليت ، أدنيت وقربت .

غير بعيد ، فى مكان غير بعيد منهم ، بل هو بمرأى منهم .

هذا ما توعدون ، هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل .

أواب : رجّاع إلى الله ، أو رجّاع عن المعصية إلى الطاعة .

حفيظ : حافظ لحدود الله وشرائعه .

بالغيب : خاف عقاب ربّه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ، أو حال كونه غائبا عن الناس .

متّيب : مخلص مقبل على طاعة الله .

بسلام : سالمين من العذاب وزوال النعيم .

الخلود : فى الجنة إذ لا موت فيها .

مزيّد : مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

تمهيد :

ذكر القرآن حال أهل النار - حفظنا الله منها - ثم ذكر هنا مقابل النار وهى الجنة ، وذكر ألوان النعيم فيها ، وتكريم الله لأهلها ، وتفضّله عليهم بالمزيد من كرمه ونعمائه .

التفسير :

٣١- وَأُزِلَّتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ .

أُذِنَتِ الجنة من المتقين ، الذين جعلوا بينهم وبين المعاصى وقاية ، وحافظوا على حدود الله وأوامره ، فقرب الله إليهم الجنة ، يرونها بأعينهم غير بعيدة عنهم .

٣٢- هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ .

تقول لهم الملائكة : هذا ما وعدكم الله به فى كتبه وعلى ألسنة المرسلين ، بأن الجنة لكل رجّاع إلى ربه ، يتوب إليه من الذنب ، ويرجع إلى مولاه ، عابداً تائباً مناجياً متقرباً .

حفيظ : كثير الحفظ لحدود الله وشرائعه ، أو يحفظ العهد فلا ينقضه ولا يتركه ولا يهمل منه شيئاً .

٣٣- مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ .

هذا الجزء الموفور ، والنعيم المذكور ، لمن خاف مقام الله ، حال كونه لا يشاهده بعينه ، أو حال كونه غائبا عن الناس ، خاليا منفرداً لا يراه أحد ، لكنه يراقب الله .

وفى الحديث الصحيح : «سبعة يظلمهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ...» ، ومنهم :

«رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١٠٠).

وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ .

أى : جاء إلى ربّه يوم القيامة بقلب عاش مقبلا على طاعته ، طامعاً فى رحمته ، كثير الإنابة والتوبة والرجوع إلى الله ، ومناجاته فى الأسحار ، وفى أعقاب الصلوات ، مع الخضوع لأوامره ، والبعد عن محارمه.

٣٤- أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ .

أى : يقال لأهل الجنة : ادخلوها حال كونكم سالمين من كل آفة .

وسلام من الله لكم : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ... (الأحزاب : ٤٤).

وسلام من الملائكة : وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .

(الرعد : ٢٣ ، ٢٤)

ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ .

ذلك يوم الإقامة الدائمة فى الجنة ، فلا ينقطع نعيمها ، ولا يفنى أهلها ، بل هم فى سرور متصل .

قال تعالى : أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا يَوْمَئِذٍ أَكْفَوْا وَغُفِّى الْكَافِرِينَ النَّارُ . (الرعد : ٣٥) .

٣٥- لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .

لهم فى الجنة كل ما يطلبون ، ولهم ذبح لا ينفد ، وأنهار من ماء نظيف صالح ، وأنهار من لبن طازج ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ، ولهم فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وعند الله المزيد من الرضوان والفضل ، ورؤية المتقين لله تعالى ، كما يرى القمر ليلة البدر ، وهذا أعلى نعيم فى الجنة .

قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

وقد جاء فى صحيح مسلم ، عن صهيب بن سنان الرومى أن هذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله الكريم . اللهم اجعلنا منهم يارب العالمين .

ختم رابع لسورة ق

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣١﴾
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٣﴾ فَأَصْبَرَ عَلَى
 مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٤﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
 وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ﴿٣٥﴾ وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٣٦﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
 بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٣٧﴾ إِنَّنَا نَحْنُ الْمُخْبِتُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِنَّا الْمَصِيرُ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ تَشَقَقُّ الْأَرْضُ
 عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْهِمْ أُسْهِرٌ ﴿٤٠﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ
 بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤١﴾﴾

المفردات :

الْقَرْنُ : الجيل من الناس .

بَطْشًا : قوة وشدة ومنعة .

فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ : ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طَوَّفَ فِي الْأَرْضِ : نَقَّبَ فِيهَا ، قال
 امرؤ القيس :

فَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمةِ بِالْإِيَابِ

مَحِيصٍ : مهرب وملجأ يلجأون إليه .

لَذِكْرٍ : لعبرة .

قَلْبٌ : لبُّ يعي به .

أَلْقَى السَّمْعَ : أصفى لما يُتَلَى عليه من الوحي .

شَهِيدٌ : فطن غير متغافل ، وهو من الشهود بمعنى الحضور ، والمراد به : الْفَطْنُ ، إذ غيره
 كأنه غائب .

لُغُوبٍ : تعب وإعياء .

سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ : نزهه عن كل نقص ، وأكثر من حمده وشكره .

اندهار السجود، أعقاب الصلوات، واحداها: دُبُر (بضم فسكون، أو بضميتين).

واستمع: لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة.

يوم ينادى المنادى: أى: يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى.

من مكان قريب: بحيث لا يخفى الصوت على أحد، والمنادى هو جبريل عليه السلام، على ما ورد

فى الآثار يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم الممزقة،

والشعور المتفرقة، إن الله يأمرُكُن أن تجتمعن لفصل القضاء.

الصيحة: المرة من الصوت الشديد، والمراد بها نفخة البعث.

بالحق: بالبعث والجزاء.

يوم الخروج: يوم الخروج من القبور للبعث، وهو من أسماء يوم القيامة.

المصير: المرجع للجزاء فى الآخرة.

تشقق: تتصدع.

سراعا: مسرعين.

حشـر: جمع بعد البعث.

يسير: سهل هين.

بجبار: بمسيطر ومُسلط، إنما أنت داع ومنذر.

فذكر: فخوف وحذر.

تمهيد:

هذا ختام سورة (ق) يتناول تهديد المشركين، وقدرة الخالق فى خلق الكون بدون أن ينزل به تعب أو مشقة، ثم أمر الحبيب المصطفى ﷺ بالصبر على عنادهم، والاستعانة بذكر الله وتسبيحه بالليل والنهار، ثم عرض صورة رائعة للبعث والحشر والنَّفخ فى الصور، وأمر الموتى بأن تجتمع أجزاءهم ليقوموا لرب العالمين.

وأخر آية تؤكد علم الله بأحوال المكذبين، وأن النبى ﷺ مبلغ فقط، وليس مسيطرا عليهم، فليذكر بالقرآن من يخاف القيامة، حتى يعمل لذلك اليوم.

التفسير :

٣٦ - وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ .

أى : كثيراً ما أهلكنا قبل مشركى مكة ، من أُمم كانت أشد منهم قوة ومنعة ، وقد انتقلوا فى البلاد وأكثروا السير فيها ، بالتجارة والسياحة والتغلب ، فما عصمهم ذلك من الهلاك ، حين أراد الله أن ينزلهم بساحتهم .

أى : لم يستطيعوا هرباً ولا مناصاً من الهلاك ، وأجدر بأهل مكة أن يعتبروا بهم .

٣٧ - إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

فى هذا القرآن ، وفى هذه السورة ، وفى الآية السابقة المتضمنة هلاك المكذبين ، مثل قوم نوح وعاد وثمود وقوم تبع ، فى كل ذلك عظة لمن كان له قلب حاضر ، أو لمن كان له استماع متأمل ، وهو شاهد بجسمه وقلبه ، فيجتمع له من سلامة القلب ، وإلقاء السمع ، وحضور الذهن ، ما يحقق له النفع ، والوقوف على جليلة الأمر ، وهو شهيد وحاضر بالجسم والفؤاد المتيقظ ، كأن من لم يتأمل غائب غير شهيد .

٣٨ - وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ .

تالله لقد خلقنا السماوات والأرض ، وما بينهما من فضاء وهواء ، فى ستة أيام ... أى : فى ست مراحل ، مرحلة بعد أخرى ، وما أصابنا من تعب أو مشقة فى ذلك الخلق العظيم .

قال الحسن وقادة :

قالت اليهود : إن الله خلق الخلق فى ستة أيام ، واستراح يوم السابع ، وهو يوم السبت ، يسمونه يوم الراحة ، فأنزل الله هذه الآية .

روح القرآن

روح القرآن تفيد أن الكون قد خلقه الله من العدم ، وتفيد النصوص الدينية أن الحق سبحانه ألقى الكرة وكانت ملتصقة ، فارتفعت السماء وهدأت قشرتها الخارجية ، وانيسطت الأرض وهدأت قشرتها الخارجية ، وأرسى الله الجبال والبحار والأنهار ، والفضاء والهواء ، ثم تشققت السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وجعل الله الماء أساس الحياة .

وفى حوالى سنة ١٩٩٤ م انعقد فى الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر علمى للبحث فى أصول الكون ، وبالتحديد فى عمر الكون .

وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، منها ٦ بلايين سنة كان الكون كرة ملتهبة غير صالحة للحياة ، وبعد ستة بلايين سنة من خلق الكون هدأت قشرته الخارجية ، وصار صالحا لحياة الإنسان عليه ، وحياة الإنسان على هذا الكون مدتها سبعة بلايين سنة .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ .** (الأنبياء : ٣٠) .

وفى التفسير أن الرتق ضد الفتق ، أى كانت السماء ضمء لا تمطر ، والأرض ضمء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وقد مر الكون كله بست مراحل ، حيث كانت السماء رخوة أشبه بالدخان ، ثم مرت بمراحل ست ، وكذلك الأرض ، حتى صار الكون صالحا للحياة .

وذكر الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير :

أن المراد بقوله تعالى : **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...** ستة أطوار ، لا الأيام المعروفة فى وضع اللغة ، لأن اليوم عبارة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض ، من الطلوع إلى الغروب ، وقبل خلق السماوات لم يكن شمس ولا قمر ، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت والحين . اهـ .

ويمكن أن نقول إن اليوم يطلق فى كلام العرب على سنين متعددة ، فيوم بعث ، ويوم البسوس ، ويوم نى قار ، هى كلها حروب امتدت عشرات السنين ، وفى القرآن الكريم : **وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .** (الحج : ٤٧)

ويقول سبحانه : **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .** (المعارج : ٤) .

والخلاصة :

أن الله تعالى هو الذى خلق هذا الكون ، بما فيه من سماء وأرض وفضاء ، فى مراحل متعددة ، ليعلمنا الصبر والأخذ بالأسباب ، وهو سبحانه على كل شيء قدير ، ولا يصيبه تعب أو إعياء ، والآية تقرير للميعاد ، لأن من بدأ الخلق قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى .

قال تعالى : **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ...** (غافر : ٥٧) .

وقال عز شأنه : **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ يَخْلُقْهُنَّ يَغْلِبُهُنَّ بِقَلْبٍ عَلَى أَنْ يُخْزِيَ الْمَوْتَى بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .** (الأحقاف : ٣٣) .

٣٩ ، ٤٠ - فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ .

فأصبر على ما يقول المشركون من الكفر ، أو إنكار البعث ، وانشغل عنهم بمناجاة الله ، والتسبيح بحمد الله ، خصوصا في أوقات تظهر فيها عظمته وجلاله ، قبل طلوع الشمس حين ينتهي الليل ، ويأتي نور النهار رويدا رويدا ، وكذلك قبل الغروب حين تكون الشمس على سعف النخل ، حين يتغير لونها إلى الصفرة والحمرة ، وترسل خيوطها الذهبية ، تودع هذه الدنيا ، وتظهر جلال القدرة التي خلقت هذا الكون ، وتطلب من صاحب الفطرة السليمة أن يقول : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، فما أجل الروعة قبل الشروق وقبل الغروب .

وقد كان أهل سبأ يسجدون للشمس من دون الله ، وعلى لسان الهدهد يقول القرآن الكريم :

وَجَدْتُهُمْ زَكَّوْمًا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَمْتَدُّونَ * أَلا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . (النمل: ٢٤ - ٢٦) .

ويقول سبحانه وتعالى : وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَلْقَمُوا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلسُّجُودِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . (فصلت: ٣٧) .

وكذلك أمرنا الله أن نسجد له سبحانه في أوقات متعددة من الليل ، عندما نرى الظلام الدامس والنجوم توضح من بعيد ، ولسان الحال يرشد أن لله ما سكن وما تحرك في الليل والنهار .

والمراد : اذكر الله في أوقات متعددة بالنهار والليل ، حين يتحرك القلب وتهتز النفس بروية مظاهر القدرة والعظمة في الصباح والمساء ، وأثناء الليل أو في وقت السحر والهزيع الأخير من الليل .

قال تعالى : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . (ال عمران: ١٧) .

وقال سبحانه : فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ . (الروم: ١٧ ، ١٨) .

وقال ابن عباس :

المراد بالتسبيح والتحميد قبل طلوع الشمس : صلاة الفجر ، وقبل الغروب : الظهر والعصر ، ومن الليل : المغرب والعشاء ، وأدبار السجود : التوافل بعد الغرائض ، أو التسبيح بعد الصلاة .

وروى البخارى ، عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يُسَبِّحَ في أدبار الصلوات كلها ^(١٠١) ، يعنى قوله : **وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** .

وروى البخارى ، ومسلم ، عن أبى هريرة أنه قال : جاء فقراء المهاجرين فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدُّور بالدرجات العلى والتعيم المقيم ، فقال : «وما ذاك ؟» قالوا : يَصَلُّونَ كما نَصَلَّى ، ويصومون كما نَصُوم ، ويتصدقون ولا تنصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال ﷺ : «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبِّحون وتحمدون وتكبرون الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» . ففعلوا ذلك ، ثم عمل الأغنياء مثل عملهم ، فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» . ^(١٠٢) .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** . (طه : ١٣٠) .

ومن العلماء من رأى أن المراد من الآيتين : صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، وصلاة السُّحُر ، حيث ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، أقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : **وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**» . ^(١٠٣) . (الإسراء : ٧٨) .

ورأى بعضهم أن المراد من الصلاة الوسطى صلاة العصر حيث أقسم الله بالعصر فقال : **وَالْعَصْرِ** . (العصر : ١)

وقال تعالى : **حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** . (البقرة : ٢٣٨) .

وفى مصحف ابن مسعود زيادة تفسيرية هكذا : (والصلاة الوسطى - صلاة العصر) .

والمتتبع لطريقة القرآن الكريم فى تثبيت العقيدة ، يلحظ أنه كثيراً ما يلفت الأنظار إلى مظاهر الكون فى خلق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، وأقسم الله بهذه المظاهر الكونية ليرشدنا إلى ما فيها من دلالة على عظمة الله .

قال سبحانه: كَلَّا وَالْقَمَرَ * وَاللَّيْلَ إِذَا أَذْبَرَ * وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * تَلْبِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ . (المدر: ٣٢ - ٣٧) .

وقال عز شأنه :

فَلَا أَقْسِمُ بِمَرْفَعِ الْجُومِ * إِنَّهُ لَنَقَسَمُ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . (الواقعة: ٧٥، ٧٦) .

وانظر إلى قسمة سبحانه وتعالى بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض والنفس، ولم يجتمع أكثر من القسم بخمسة أشياء إلا فى صدر سورة الشمس حيث يقول سبحانه وتعالى: وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا * وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا * وَاللَّيْلُ إِذَا بَغَشَّهَا * وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَّهَا * وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا . (الشمس: ١ - ١٠) .

وقال تعالى: فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ * لَتَرْكُنَّ بِطَبَقٍ عَنْ طَبِقٍ .

(الانشقاق: ١٦ - ١٩)

ومن وراء ما نراه ونبصره عوالم كثيرة، ومخلوقات متعددة، علمها عند علام الغيوب .

قال تعالى: فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . (الحاقة: ٣٨ - ٤٠) .

٤١ - وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ .

ترقب يا كل من يتأتى منه الاستماع، أو واستمع يا محمد أنت ومن آمن بك، يوم ينادى المنادى فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

قيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادى بالحر، والأمر كما نرى فيه تهويل وتفخيم يهز الألباب، ويسرعى الأسماع، ويأخذ على النفوس إعراضها، وكأنه يقول: توقعوا هول هذا اليوم الذى يأتى وتستمعون فيه نداء المنادى بالبعث، من مكان قريب يسمعه الخلائق كلهم، على حالة واحدة، فلا يخفى على أحد قريب أو بعيد، فكانهم نودوا جميعاً من مكان قريب .

٤٢ - يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ .

فى ذلك اليوم يسمعون صوت النفخة الثانية سماعاً متلبساً بالحق، ويقال لهم: ذلك يوم الخروج من القبور للعرض على الله سبحانه وتعالى، وفى الآية تفخيم وتهويل لذلك اليوم، الذى يسمّى يوم الخروج.

قال تعالى: يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ. (القم: ٧).

والأجداث هي القبور، ومنظر الجراد عند انتشاره منظر رهيب، حيث يسير في مجموعات متعددة، وتغير اتجاهها بسرعة، ويمكن أن تهلك الزروع هلاكاً مروعاً.

وقال سبحانه وتعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۚ قَالُوا إِنَّا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُذُنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. (يس: ٥١، ٥٢).

٣٤ - إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْغُلَّةَ الْكُبْرَىٰ.

الحياة بيدنا، والموت بيدنا، والمرجع إلينا وحدها، فإله تعالى هو الذي خلق آدم من تراب، ثم نفخ فيه الروح، ثم روجه حواء، ثم بث من آدم وحواء الخلائق إلى يوم الدين، فالروح من أمر الله، ولا يقدر أحد على خلق الروح إلا الله، كما أن الموت بيد الله.

قال تعالى: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمْيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (الحج: ٢٦).

فإله خلقنا وأحيانا، ونفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه.

قال تعالى: ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ. (المؤمنون: ١٤).

وعند نهاية الحياة تقبض الروح بأمر الله، ويبدد ملك الموت ومعه مساعدون من الملائكة.

قال تعالى: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَآيِهَا ... (الزمر: ٤٢).

وقال عز شأنه: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ. (السجدة: ١١).

وقال تعالى: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ. (الأنعام: ٦١).

وإِلَيْنَا الْمَصِيرُ. وإلينا المرجع والمآب والحساب والجزاء.

٤٤ - يَوْمَ نَسْفُكُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ.

يوم تتصدع الأرض، وتتسحق عن أجسادهم، فيقومون لفصل القضاء، ويسيرون مسرعين، ذلك الحشر والجمع حين يسير علينا، فلا يعجزنا شيء، فَقَدَرْنَا لا حدود لها.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٠) .

أى : مع شدة التفريق ، وتناثر الأشياء ، وتمزق بعض الناس ، وتحلل البعض إلى تراب ، كل ذلك جمعه ويعثه وحسابه وجزاؤه حين يسير على الله .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَغَدَاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

وانشقاق الأرض وللقاء ما فيها ورد فى القرآن الكريم مرارا على أنه من مظاهر القيامة وأحوالها .

قال تعالى : وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . (الانشقاق : ٣ ، ٤) .

وقال عز شأنه :

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرِجَتْ الْأَرْضُ أَقْطَارَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُخَدِّتُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَّبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْجَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ١ - ٨) .

وقراءة حفص : تَشَقَّقُ . أى : تنشق الأرض ، ويخرج الموتى من بطونها ، وتعود الحياة إليهم ، ثم يذهبون مسرعين لفصل القضاء فى شئونهم ، وفى قراءة أخرى بتشديد الشين : تَشَقَّقُ ، أى : يشتد تشققها واضطرابها وزلزالها ، ومن مظاهر القيامة تبدل الأرض غير الأرض والسموات وانشقاق السماء على غلظها ، وتعلق الملائكة بأرجائها . وسير الجبال ، واستواء أرض المحشر فتصبح أرضا مستوية ، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

قال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

وقال سبحانه : يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

وقال عز شأنه : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

وكل ذلك يدل على نهاية هذا الكون ، وتبدل ما فيه ، وانتهاء حياته ، وتغيير نواميس الكون بنواميس جديدة وضعها الله لهذه الحياة الآخرة ، فتنتفضي جذوة الشمس ، ويصيب القمر الخسوف ، وتتكدر النجوم ،

وتسجّر البحار فتصبح نار الله الكبرى ، ويمسك الله تعالى الأرض بشماله ، والسموات بيمينه - وكلتا يديه يمين - ويقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟

فذلك قوله تعالى : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . (الزمر : ٦٧) .

ختم السورة

٤٥ - نَحْنُ أَغْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدُ .

فالعلم الكامل لله تعالى ، فهو عالم بأقوال الكافرين ، حيث ينكرون البعث ، ولا يصدقون بالقرآن ، ويتهمون محمدا ﷺ بأنه شاعر أو كاهن أو مجنون أو مفتر ، فالآية تسرى عن الرسول ﷺ ، وتخبره بأن عليه البلاغ ، وليس عليه الهداية .

قال تعالى : فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَعَذَابُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ . (الغاشية : ٢١ - ٢٦) .

فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدُ .

اقرأ هذا الكتاب ، وأرشد به الناس ، وخوف هؤلاء المنكرين رجاء أن تلين قناتهم ، وأن ترتدع نفوسهم .

لقد لُؤن الله تعالى في أسلوب هذا الكتاب ، فتراه أحيانا يكون رقيقا هادئا في قصصه وتشريعه ، ويبيان رحمة الله ومغفرته ، وأحيانا تراه قويا عاصفا في حديثه عن القيامة وأحوالها ، والبعث والحشر والحساب والجزاء ، لأن من النفوس من يؤنسها الوعد ، ويرضيها الهدوء واليسر ، ومن النفوس الجامحة من تحتاج معه إلى الشدة والوعيد ، لترى القيامة وأحوالها حتى تغيق من سباتها .

وقد اشتمل القرآن الكريم على الوعد بالجنة ونعيمها للمتقين ، ووصف الجنة ، وأنهارها وأشجارها ، وثمارها وجورها وولدانها ، ورضوان الله فيها ، ترغيبا للناس في نعيمها .

كما وصف القرآن النار ولهبها ، ويحومها وغسلينها ، وعذاب أهلها ، وغضب الجبار على الكافرين والمنافقين ، حتى يهدد كبرياء المبطلين ، ويضع الحقيقة كاملة أمام الإنسان في هذه الدنيا ، فلا يحتج

يوم القيامة بأن الرُّسل لم تبلّغهُ ، وأن الكتب السماوية لم تصف له عذاب الآخرة حتى يأخذ حذره ويفيق من غفلته .

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُثَبِّتُنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ أَنْ نَقُولَ وَنُخَرِّجُنَّ . (طه : ١٣٤) .

والأصل أن القرآن تذكرة للراغب في الجنة ، وتحذير للكافر بالنار ، لكنه هنا ذكر التذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد الله ، في مجابهة المشركين والكافرين .

قال تعالى : يَشِيرُوا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . (فصلت : ٤) .

وقال عز شأنه : يَتَّبِعَهَا أَتَقْبَلُ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا .
(الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦)

وقال تعالى : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا .
(طه : ١١٣)

وكان قتادة يقول :

اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .

ونحن نقول معه ذلك إلى الأبد .

اللهم ارزقنا الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، اللهم ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ، اللهم اجعل عملنا خالصا لوجهك ، اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة ق

- ١ - إنكار المشركين للنبوة والبعث.
- ٢ - الحث على النظر فى السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفى الأرض وجبالها وزروعها وأمطارها.
- ٣ - الاعتبار بالدول الهالكة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، وما استحقوا من وعيد وعذاب .
- ٤ - الله خالق الإنسان ، وهو العليم به وأعماله ، وبيان أنه محوط بالكرام الكاتبين يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله ، وسيأتيه الموت حتما ، وسيحاسب على كل ما قدم .
- ٥ - ما خلق الله السماوات والأرض باطلا .
- ٦ - القرآن عظة وعبرة لمن كان له قلب واع يستمع ما يلقي إليه سماع متأمل يقط .
- ٧ - تسلية الرسول ﷺ على ما يقوله المشركون من إنكار البعث ، وتهديدهم على ذلك .
- ٨ - أمر الرسول ﷺ بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .
- ٩ - أمر الرسول ﷺ أن يُذكر بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير سورة (ق) عشية يوم الاثنين ١٤٢١/٥/٢٨ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٨/٢٨ م بمدينة مرسى مطروح (فندق الأبيض للقوات المسلحة المصرية) ، جمهورية مصر العربية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الذاريات

أهداف سورة الذاريات

سورة مكية ، وآياتها ٦٠ آية ، نزلت بعد سورة الأحقاف

معاني السورة

بدأت السورة بهذا القسم :

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ دَٰرًا . فَالْحَمْلِ يَدْعُونَ . فَالْجَنَّةِ يَدْعُونَ . فَالْمَقَسَمَةِ أَمْرًا . إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَصَادِقٍ . وَإِنَّ
الَّذِينَ كُفِّرُوا . (الذاريات : ١ - ٦) .

وهي كلمات غير مطروقة وغير متداولة ، وقد سئل الإمام على رضى الله عنه ، عن معنى قوله تعالى :
وَالَّذِينَ يَدْعُونَ دَٰرًا . فقال رضى الله عنه : هي الريح ، فسئل عن : فَالْحَمْلِ يَدْعُونَ . فقال : هي السحاب ، فسئل
عن : فَالْجَنَّةِ يَدْعُونَ . فقال : هي السفن ، فسئل عن : فَالْمَقَسَمَةِ أَمْرًا . فقال : هي الملائكة .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ دَٰرًا . هي الريح التي تذر التراب وغيره ، فَالْحَمْلِ يَدْعُونَ . أى : السحب الحاملة للمطر ،
والوقر : الحمل الثقيل ، فَالْجَنَّةِ يَدْعُونَ . أى : السفن الجارية فى البحر جرياً سهلاً ، فَالْمَقَسَمَةِ أَمْرًا . أى :
الملائكة التي تقسم وتوزع أمور الله من الأمطار والأرزاق وغيرها .

لقد أقسم الله بالريح وبالسحب وبالسفن وبالملائكة ، وفى هذا القسم ما يوحى بأن الرزق بيد الله ،
فهو الذى يسوق السحاب ، وهو الذى يسخر الريح للسفن ، وهو الذى جعل الملائكة أصنافاً تقسم الأمور ،
فالخلق البديع المنظم وراءه قوة عليا مبدعة ، وهو سبحانه قد وعد الناس أن يجازيهم بالإحسان إحساناً ،
وبالسوء سوءاً ، ووعدوه واقع لا محالة .

وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْحُبْلِ . (الذاريات : ٧) . الحبك بضمهين : جمع حبيكة ، وهي الطريق ومدار الكواكب ،
والمراد الطرائق التي هي مسير الأجرام السماوية من نجوم وكواكب ، يقسم الله بالسماء المتسقة المحكمة
الترتيب ، بما فيها من نجوم وكواكب تسلك طريقها مسرعة فى مجراتها العظيمة بنظام دقيق وإبداع شامل ،
على أن المشركين يخوضون فى حديث باطل وقول متناقض مضطرب ، فصنع الله محكم ، وعمل الكافرين

باطل مضطرب فتراهم حيناً يقولون عن النبي : إنه شاعر ، وتارة يقولون : ساحر ، ومرة ثالثة يقولون : مجنون ، وهذا دليل على التخبط وفساد الرأي .

وقد رسمت السورة صورة الكافرين يذوقون عذاب جهنم ، ويقال لهم : ذُوقُوا فَنَسَّكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ . (الذاريات : ١٤) .

أى : تعرضوا لعذاب النار ، وقد كنتم تستعجلون مجيئه استهزاء بأمره واستبعاداً لوقوعه .

وعلى الضفة الأخرى ، وفى الصفحة المقابلة ، يرتسم مشهد آخر لفريق آخر ، فريق مستيقظ بالآخرة ، مستيقظ للعمل الصالح ، فريق المتقين الذين أدوا حقوق الله بالصلاة وقيام الليل ، وأدوا حقوق الناس بالزكاة والصدقة .

آيات الله فى الأرض والسماء

تشير الآية العشرون إلى آثار قدرة الله فى خلق الأرض ، فيقول سبحانه : وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ . (الذاريات : ٢٠) . وإذا تأملنا مضمون هذه الآية وجدنا أن هذا الكوكب الذى نعيش عليه مَعْرِضٌ هائل لآيات الله وعجائب صنعته ، هذه الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضائنه ، ولو احتلت خسيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها .. ولو تغير حجمها صغراً أو كبراً ، لو تغير وضعها من الشمس قريباً أو بعيداً ، لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها ، لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا ، لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطئاً ، لو تغير حجم القمر أو بعده عنها ، لو تغيرت نسبة الماء إلى اليابس فيها زيادة أو نقصاً .. لو .. لو .. إلى آلاف الموافقات العجيبة المعروفة والمجهولة التى تتحكم فى صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضائنه ، أليست هذه آية أو آيات معروضة فى هذا المَعْرِضِ الإلهى ؟ .

«وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم ، وعجائب هذه المشاهد التى لا تتفد : من وار وجبل ، وهواد ويطاح ، وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران ، وقطع متجاورات ، وجنات وأعناب ، وزرع ونخل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التى لا تفتر عن الإبداع والتغيير»^(١٠) .

وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَآلَا تُبْصِرُونَ . (الذاريات : ٢١) .

خلق الله الإنسان ببده ، ونفخ فيه من روحه ، وشق له السمع والبصر ، وزوده بالحواس المتعددة ووسائل الإدراك المختلفة .

«وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف، عملية الهضم والامتصاص، عملية التنفس والاحتراق، دورة الدم في القلب والعروق، الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم، الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق، وكل عجيبة من هذه تنطوى تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب»^(١٠٠).

وَلِيَّ السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ . (الذاريات: ٢٢).

فبيد الله الخلق والرزق والهدى والضلال، وأرزاق السماء تشمل الأرزاق المادية والمعنوية.

«وفي السماء أسباب أقواتكم، فالظواهر الفلكية، وجريان الشمس والكواكب وتوابعها، واختلاف الليل والنهار، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، كل هذه الظواهر دللها الله لخدمة الإنسان، فليس الرزق موقوفاً على شيء يتعلق بالأرض وحدها، بل الأمر كله لله تعالى، يقبض ويبسط، وإليه المآب»^(١٠١).

ثم يعقب الله بالقسم: بحق رب الأرض والسماء إن هذا الأمر لحق مثل نطقكم، فهل تشكون في أنكم تنطقون؟

قصة إبراهيم

يشتمل القطاع الثاني من سورة (الذاريات) على الإشارة إلى قصص إبراهيم ولوط وموسى، وعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، ثم آية واحدة عن قوم نوح، وهذا القصص مرتبط بما قبله، ومرتبط بما بعده في سياق السورة.

وإبراهيم أبو البشر اتخذ الله خليلاً، وأرسل إليه ملائكة مكرمين، فأكرم الخليل وفادتهم، وقرب لهم عجلًا سمينًا ودعاهم للأكل منه، ولكنهم أمسكوا عن الطعام، فخاف منهم إبراهيم فلما شاهدوا خوفه أخبروه بأنهم ملائكة من السماء أرسلهم الله إليه، ثم بشروه بغلام حليم.

وأقبلت زوجته، وقد استولى عليها هول المفاجأة، فضربت وجهها بأطراف أصابعها، وصاحت متعجبة من الحمل وهى عجوز عقيم، فأخبرتها الملائكة بأنه لا وجه للعجب فذلك أمر الله، وهو الحكيم في أعماله، العليم بعباده.

قصة لوط

واتجهت الملائكة بعد ذلك إلى لوط عليه السلام ، فلما رآهم لوط أنكرهم وضاق بهم ذرعاً ، فقالت له الملائكة : يا لوط ، إنا رسل ربك ، جئنا لإنقاذك ومن معك من المؤمنين ، فأسر بأهلك في ظلام الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فقد حقت عليها كلمة العذاب مثل هؤلاء الظالمين .

ولم تجد الملائكة في قرى قوم لوط غير أهل بيت واحد من المسلمين هو لوط وابنتاه .

ولما خرج لوط وابنتاه ، جعل الله ديارهم عاليها سافلها ، وساق إليهم عاصفة رعدية أمطرتهم بحجارة مسمومة ، استأصلت شأفتهم وتركهم أثراً بعد عين ، وجعلهم الله عظة وعبرة للمعتبرين .

إشارات إلى قصص الأنبياء

أشارت الآيات (٣٨ - ٤٦) إلى العبرة والعظة من قصة موسى ، ومن قصص غيره من الأنبياء في لمحة عاجلة .

لقد أرسل الله موسى - ومعه سلطان الهيبة وجلال النبوة - إلى فرعون وملئه ، فأعرض فرعون عن موسى وإتهمه بالسحر والجنون ، فأغرق الله فرعون وجنوده في البحر ، وألبسه ثوب الخزي والندم .

وآية أخرى في عاد قوم نبي الله هود ، حين كذبوا نبيهم فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية تحمل العذاب والدمار .

وآية ثالثة في ثمود ، أمهلهم الله ثلاثة أيام ، ثم أرسل عليهم صاعقة فأصبحوا هالكين .

والحجارة التي أرسلت على قوم لوط ، والريح التي أرسلت على عاد ، والصاعقة التي أرسلت على ثمود ، كلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته ونواميسه ، يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس ، فتؤدي دورها الذي يكلفها الله كأي جند من جند الله .

آية رابعة في قوم نوح ، فقد أهلكوا وأغرقوا لفسوقهم وكفرهم وخروجهم على طاعة الله .

وللتنبيه إلى بدائع صنعه إيقاظاً للعاطفة الدينية ، عاد فذكر أنه رفع السماء ووسعها ، وخلق الأرض ومهداها ، وأعد لها عليها من الكائنات ، ومن كل شيء في هذه الأرض خلقنا ذكراً وأنثى ليكون ذلك وسيلة للعظة والاعتبار .

ثم يحث القرآن الناس على أن يتخلصوا من آثار المادة والهوى والشيطان ، فرارا بدينهم ، وطمعا في رحمة خالقهم ، ورغبة في حماه وفضله : **فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ لَنَبِيرٌ مُّبِينٌ** . (الذاريات : ٥٠) .

وتكشف الآيات عن طبيعة المعاندين في جميع العصور ، فقد كذبوا الرسل واتهموهم بالجنون أو بالسحر كأنما وصَّى السابق منهم اللاحق ، وكأن الكفر في طبيعته ملة واحدة ، والرسالات كلها فكرة واحدة ، فمن كذب برسول واحد فكأنما كذب برسول الله أجمعين .

كَذَٰلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رُّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُّجْنُونٌ * أَنزَلْنَاهُ بِإِذْنِ رَبِّكَ هُم قَوْمٌ طَٰغُونَ .

(الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

ختم السورة

هذه السورة تربط القلب البشري بالله ، وترشده إلى عظيم صنعه ، وفي ختام السورة يؤكد الله هذا المعنى فيبين أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعرفوه ويوحده ويؤمنوا به ، فهو سبحانه وتعالى غنى بذاته ، وهم في حاجة وافتقار إليه .

إن معنى العبادة هي الخلافة في الأرض ، وهي غاية الوجود الإنساني ، وهي أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ، وتتمثل حقيقة العبادة في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس ، أى استقرار الشعور بأنه ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ، وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة .

بهذا وذاك يتحقق معنى العبادة ، ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضا بقدر الله ، كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ، وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

والمؤمن الحق هو الحريص على أداء واجباته ومرضاته ربه ، وهو لا يعنى نفسه بأداء الواجبات تحقيقاً لمعنى العبادة في الأداء ، أما الغايات فموكولة لله يأتي بها وفق قدره الذي يريده .

إن الله تعالى لم يخلق الجن والإنس ليستعين بهم لجلب منفعة لذاته أو لدفع مضره ، وما يريد الله منهم أن يرزقوا أحداً من خلقه أو يطعموه ، إن الله سبحانه وتعالى هو الكفيل برزقهم ، والمتفضل عليهم بما يقوم بمعيشتهم ، وهو سبحانه ذو القدرة والقوة ، وهو الغالب على أمره فلا يعجزه شيء .

وفى ضوء هذه الحقيقة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا بأن لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب من سبقهم من الظالمين ، فالله يمهّل ولا يهمل ، وتختتم السورة بهذا الإنذار الأخير : فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ * قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ . (الذاريات : ٥٩ ، ٦٠) .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزباده :

معظم مقصود سورة الذاريات ما يأتى : القسم بأن البعث والقيامة حق ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ، وثواب أرباب الهداية ، وحجة الوجدانية ، وكرامة إبراهيم فى باب الضيافة ، وهلاك قوم لوط وفرعون وقومه لمخالفتهم أمر الله ، وتدمير عاد وثمود وقوم نوح وخسرانهم ، وخلق السماوات والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات للدلالة على قدرة الخالق ، وتخليق الخلق لأجل العبادة ، واستحقاق المنكرين للعذاب والعقوبة^(١٠٧) .

قسم ووعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وُقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْفِعَ ۝٦ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَافِكُ ۝٩ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الَّذِينَ ۝١٢ يَوْمَهُمْ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِءَ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

المضردات :

الذاريات : الرياح تذرر التراب وغيره ، أى : تفرقه .

الحاملات وقرا : السحب المثقلة بمياه الأمطار .

اليسر : السهولة ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا . هى الرياح الجارية فى مهامها بسهولة ، أو السفن التى تجرى فى البحار والأنهار فى يسر وسهولة .

فالمقسمات أمرا : الملائكة التى تنفذ أوامر الله وقضائه ، أو الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب .
إنما توعدون : هو البعث والحشر والحساب والجزاء .

وإن الذين لواقع : وإن الجزاء لحاصل .

الْحُبُكِ : طرائق النجوم ، واحداها حبيكة .

مختلف : متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينما تقولون : إنه خالق السماوات ، تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول ﷺ ، فتارة تقولون : إنه مجنون ، وتارة تقولون : إنه ساحر .

يؤفك عنه : يحصر عنه - أى بسبه - من صرف عن الإيمان .

الخرصاصون : الكذابين من أصحاب القول المختلف .

فى غمرة : فى لجة تغمرهم ، وجهل يشملهم شمول الماء الغامر .

سَاهُونَ : غافلون عما أمرُوا به .

أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ : متى يوم الجزاء ، من : يَنْتَه ، أى : جازيته .

يَقْتَتِنُونَ : يحرقون ، وأصل الفتنة : عرض المعدن على النار لتظهر جودته ، فاستعمل فى الإحراق والتعذيب .

فَتَنَّاكُمْ : عذابكم المعد لكم .

تمهيد :

كانت العرب تحتريز عن اليمين الكاذبة ، وترى أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبي ﷺ على نهجهم فحلف بكل شريف ، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقاً .

وقد جاء القسم فى صدر بعض السور لإثبات أحد الأصول الثلاثة :

(أ) الوجدانية .

(ب) رسالة محمد ﷺ .

(ج) البعث والحشر والجزاء .

ففى سورة الصافات كان القسم لإثبات وحدانية الله ، حيث قال سبحانه : إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ .

(الصافات : ٤)

وفى سورتي النجم والضحي لإثبات صدق رسالة محمد ﷺ .

حيث قال سبحانه : وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم : ١ - ٤) .

وقال تعالى : وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . (الضحى : ١ - ٣) .

وأقسم فى سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء ، مثل : الذاريات ، والطور ، والمرسلات ، والنازعات ، والعاديات .

التفسير :

٦،٥،٤،٣،٢،١ - وَالْذَّارِيَاتُ ذُرْوًا * فَأَلْحَمِلْنَ وَفَرًا * فَأَلْجَرِيْنَ يُسْرًا * فَأَلْمَسْنَ أَمْرًا * إِنَّا تَوْعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الَّذِينَ كُفَرُوا .

هذا القسم يأخذ بالألبياب ، فى رشاقة ويسر وتناسق ، وقد ثبت من غير وجه عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب ، أنه صعد منبر الكوفة ، فقال : لا تسألونى عن آية فى كتاب الله ، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى :

وَالَّذِي نَزَّلَ دُرُّوًّا . قَالَ عَلَى الْريح .

قال : فَأَلْجَمِلَنْتِ وَقُرَّا . قال : السحاب .

قال : فَأَلْجَمِرَيْتِ يُسْرًا . قال : السفن .

قال : فَأَلْمَقَّسَمْتِ أَمْرًا . قال الملائكة .

فأله تعالى بدأ السورة بالقسم بالريح ، التي تذر الرياح ، وتثير السحاب ، وتهز البحار والأمواج ، وتلقح النبات ، كما أقسم بالسحاب المثلل بالأمطار ، الذي يوزعه الله على عباده .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَقْرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . (الروم : ٤٨) .

وأقسم سبحانه بالسفن الجاريات في البحر كالأعلام ، التي تنقل البضائع والتجارة والأشخاص من بلد لآخر ، في سهولة ويسر .

وأقسم عز شأنه بصنوف الملائكة ، ومنهم الموكلون بالأرزاق ، وتوزيع الأمطار والخيرات بأمر الله تعالى ومشيئته .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يُبْدِلُ الْخَيْرِ إِلَکْ عَلَى كُلِّ هَيِّءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ال عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

وكان من دعاء الرسول ﷺ عند تلاوة هذه الآية : «اللهم ارزقنا وأنت خير الرازقين ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» .

رأى آخر في تفسير الذاريات

من المفسرين من ذهب إلى أن القسم في صدر السورة للرياح وذروها للتراب ، وحملها السحاب وجريها في الهواء بيسر وسهولة ، وتقسيمها الأمطار .

جواب القسم

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعُ .

أى : إن ما توعدون من أمر البعث والحشر والجزاء والجنة والنار لصادق ثابت ، لا مجال للريب فيه .

وَيَوْمَ الَّذِينَ لَوْفَعُ .

الَّذِينَ هُوَ الْجِزَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ دُنْهُ ، أَيْ : جَارِيَتِهِ ، وَفِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ : سَلِّكَ يَوْمَ الَّذِينَ . وَفِي قِرَاءَةٍ : مَلِكِ يَوْمَ الَّذِينَ .

فَهُوَ سَبْحَانَهُ الْمَالِكُ وَحْدَهُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيُنَادِي سَبْحَانَهُ : لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦).

فَلَا يَدُ مِنْ يَوْمٍ تَدِينُ فِيهِ النَّاسَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَيُنَالُونَ مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ جَزَاءٍ عَادِلٍ ، قَالَ ﷺ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَتَمُوتَنَّ كَمَا تَنَامُونَ ، وَلَتَبْعَنَّ كَمَا تَسْتَقِظُونَ ، وَلَتَحَاسِبَنَّ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ، وَلَتَجْزُونَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا ، وَبِالسُّوءِ سُوءًا ، وَإِنَّا لَجَنَّةٌ أَبَدًا ، أَوْ لَنَارٌ أَبَدًا» .

٨٠٧، ٩ - وَالسَّمَاءُ ذَاتَ الْحُبُكِ • إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ • يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ .

الْحُبُكُ : طَرَائِقُ النُّجُومِ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : ذَاتُ الْخَلْقِ الْمُسْتَوَى الْجَيِّدِ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : حَبِكَتِ الشَّيْءُ ، أَيْ : أَحْكَمْتَهُ وَأَحْسَنْتَ عَمَلَهُ .

وَالْمَعْنَى :

وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الطَّرِيقِ الْمُخْتَلِفَةِ لِمَسِيرَةِ النُّجُومِ ، فِي خَلْقٍ مُسْتَوٍ ، وَزِينَةٍ مُنْتَشِرَةٍ فِي نَوَاحِيهَا ، أَوْ وَالسَّمَاءُ ذَاتُ الْبَهَاءِ وَالْجَمَالِ ، وَالْحَسَنِ وَالْإِسْتَوَاءِ .

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ فِي هَذَا الْقِسْمِ وَجَدْتَ أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ اجْتِمَاعِ التَّفْسِيرِينَ ، فَالْهَذَا يَقْسَمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الطَّرِيقِ الْمُتَعَدِّدَةِ لِلنُّجُومِ ، وَالسَّمَاءُ أَيْضًا ذَاتُ جَمَالٍ وَبَهَاءٍ وَزِينَةٍ ، وَامْتِدَادٍ يَمَلَأُ الْأَفَقَ .

قَالَ تَعَالَى : ءَأَشْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بُنِيَهَا • رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا • وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا .

(النازعات : ٢٧ - ٢٩)

إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ .

إِنْكُمْ مَعْشَرَ الْمُشْرِكِينَ فِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ مُضْطَرِبٍ ، لَا يَلْتَمِمْ وَلَا يَجْتَمِعُ ، حِينَئِذٍ يَقُولُونَ : مُحَمَّدٌ شَاعِرٌ ، وَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ : هُوَ كَاهِنٌ ، وَحِينَئِذٍ ثَالِثًا يَقُولُونَ : هُوَ مَجْنُونٌ ، وَحِينَئِذٍ رَابِعًا يَقُولُونَ : هُوَ كَذَّابٌ ، وَحِينَئِذٍ خَامِسًا يَقُولُونَ : مُتَقَوِّلٌ يَنْقُلُ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ ، وَيُنَسِّبُهَا إِلَى اللَّهِ ادِّعَاءً ، وَيَقُولُونَ عَنِ الْقُرْآنِ : إِنَّهُ سِحْرٌ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هُوَ شِعْرٌ ، ثُمَّ يَقُولُونَ : هُوَ كِهَانَةٌ ، وَهُوَ دَلِيلُ حَيْرَتِكُمْ وَاضْطِرَابِكُمْ وَانْتِقَالِكُمْ مِنْ رَأْيٍ إِلَى آخَرَ بِدُونِ تَثْبِثٍ وَاسْتِقْرَارٍ .

انظر إلى قوله تعالى : بَلْ قَالُوا أَطُغِيَْتُ أَهْلُكُمْ بَلْ أَفْتَرِسَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .
(الأنبياء : ٥)

فهم حيارى يبحثون عن أى عيب ليلصقوه بالقرآن ، أو برسول الله ﷺ .
يُؤْثِرُكَ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ .

يصرف عنه - أى : عن القرآن ، أو عن الرسول ﷺ - من صرفه الله عن الخير ، فصار محروماً من هداية القرآن ، أو من التصديق بمحمد ﷺ ، أى من حرم من هداية القرآن ، ونور الإسلام ، وإرشاد محمد ﷺ ، فهو المحروم حقاً ، المصروف عن الخير .

١٠ - قِيلَ الْخَرُّ صَوْنٌ .

لُعِنَ هؤلاء الكاذبون الذين افتروا على القرآن الكذب ، وعلى الرسول التُّهم الكاذبة .
جاء فى القاموس :

قِيلَ الْإِسْنُ مَا أَكْفَرُهُ . (عيس : ١٧) . أى : لعن ، قَتَلَهُمُ اللَّهُ ... (التوبة : ٣٠) . أى : لعنهم :

فالأية دعاء عليهم ، جزاء تخَرَّصهم الكذب ، والافتراء على القرآن وعلى النبى ﷺ .

١١ - الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ .

الذين هم فى غمرة وشدة وجهل عميق ، وغفلة عظيمة عما أمروا به ، لقد جاءهم نبأ عظيم من رسالة ورسول ، فتهاونوا بهما ، واختلقوا الأقاويل فى تكذيبهما ، وأصابتهما غفلة غمرتهم ، كما يغمر الماء ما تحته ، فغفلوا عن هذا الدين مع أهميته وفضله .

١٢ - يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ .

يسألون سؤال استبعاد واستنكار واستهزاء : متى يجيء يوم القيامة الذى تخوفوننا به ؟

ثم فاجأهم القرآن بالجواب المُخْزِى ، فقال :

١٣ - يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ .

أى : سيكون هذا اليوم - يوم الدين - يوم يوضعون فى النار فتحرقهم وتفتنهم ، كما يوضع الذهب فى النار لفتنته واختبار الصحيح من المغشوش ، نعاملهم معاملة المختبر .

قال عكرمة : ألم تر أن الذهب إذا أدخل النار قيل فُتِنَ ، فهو لاء يفتنون بالإحراق ، كما يفتن الذهب لإظهار حقيقته ، ويقول لهم خزنة جهنم امتهاناً وتبكيता :

١٤ - ذُوقُوا فَسُكَّكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

أى : ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء ، وتظنون أنه بعيد الوقوع ، فقد حاق بكم ما كنتم به تستهزنون .

★ ★ ★

صفات المتقين

﴿ إِنَّا الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ (١٥) ءَأَخْذِينَ مَاءً نُّهَمُّهُمْ مِنْهُمُ ثُمَّ كَانُوا فِي ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَشْعَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) قُورِبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) ﴾

المضردات :

فى جنات وعيون : فى بساتين تجرى من تحتها الأنهار .

أخذين ما آتاهم ربهم : قابلين ما أعطاهم ربهم ، راضين به .

محسنين : مجودين لأعمالهم .

يهجعون : ينامون ، والهجوع : النوم ليلاً .

الأسحار : واحدها سحر ، وهو السدس الأخير من الليل .

حق : نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقريباً إلى ربهم ، وإشفاقاً على عباده .

السائل : المستجدى الطالب العطاء .

المحروم : هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً ، فيحرم الصدقة من أكثر الناس .

آيات : دلائل واضحات من وجود المعادن والنبات والحيوان والماء ...

الموقنين : المتقين بوجود الله .

وما توعدون : الذى توعده من خير وشر .

تمهيد :

فى مطلع السورة قسم بمظاهر القدرة الإلهية على وحدانية الله ، وبيان تعنت المشركين واضطرابهم . وتشككهم فى البعث ، وعقابهم فى جهنم ، وهنا يذكر المتقين وصفاتهم الكريمة ، من اليقين والالتزام بما أمر به الله تعالى ، وقيامهم الليل راكعين ساجدين ، واستغفارهم بالأسحار ، وإخراجهم زكاة أموالهم ، ورعايتهم للفقراء والمتعففين عن السؤال ، وتفكرهم فى آيات الله فى الأرض والبحار والأنهار ، وارتفاع اليابسة عن الماء ، وفى خلق الإنسان وعجائب تكوينه ، وفى السماء وما فيها من الأمطار والأرزاق ، ثم يقسم الحق بنفسه ، إن ذلك حق واقع ، مثل نطقكم وكلامكم .

التفسير :

١٥ ، ١٦ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ لَفِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ءَاجِلِينَ مَا ءَانَتْ لَهُمْ رُبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ .

يأتى الحديث عن المتقين بعد الحديث عن المكذبين ، وفى الحديث عن المتقين تجد نعمة الرضا والتكريم ، فهم فى جنات ناضرة ، فيها الزروع والثمار ، والبساتين وألوان النعيم ، وفيها عيون تجرى بالماء زيادة فى التكريم .

ءَاجِلِينَ مَا ءَانَتْ لَهُمْ رُبُّهُمْ ...

لقد أعطاهم الله نعيم الجنة ، ورضوانها وهناءها ، مع الخلود والحسنى وزيادة ، ثم إن هذا العطاء من الله ، من ربهم الذى يرعاهم ويكرمهم ، ويعطف عليهم ويزيدهم من فضله ، وعطاء الكريم العظيم لا يكون إلا كريماً وعظيماً .

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ .

أى : لقد أحسنّا إليهم فى الآخرة لإحسانهم العمل فى الدنيا .

قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ . (الرحمن : ٦٠) .

وقال سبحانه وتعالى : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . (الحاقة : ٢٤) .

١٧ ، ١٨ - كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

تركوا النوم بالليل ، وقاموا مطهرين يناجون ربهم فى فك رقابهم ، واقفين على أقدامهم ، عابدين لربهم ، قارئين لكتاب الله ، إذا جاء ذكر الجنة طارت نفوسهم شوقاً إليها ، وإذا جاء ذكر النار اشتد خوفهم من عذابها .

وعن أنس قال : كانوا يصلّون ما بين المغرب والعشاء .

وقد وصفهم القرآن الكريم بالنشاط فى الصلاة والزكاة .

قال سبحانه وتعالى : تَتَجَالَّى جُؤُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٦ ، ١٧) .

وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

فى السدس الأخير من الليل ينشغلون بالاستغفار .

قال تعالى : وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ . (ال عمران : ١٧) .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فاتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر»^(١٠٨) .

وقال ﷺ : «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، وورقه من حيث لا يحتسب»^(١٠٩) .

وقد بين القرآن الكريم أن الاستغفار سبب فى سعة الرزق ، والإمداد بالمال والبنين ، وتيسير المطر والبركة ، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام : فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا . (نوح : ١٠ - ١٢) .

وفى وقت السحر ينام الآخرون ، ويجتهد المتقون ، ولذلك مدحهم القرآن بقوله : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجِعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .

قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا ، إلا يصلّون فيها شيئًا ، إمّا من أولها أو من وسطها .

وقال الحسن البصرى :

كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجذبوا إلى السحر ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى إيلهم الجرائم ، فهم متواضعون ، مشفقون من عذاب الله ، راغبون فى مغفرته ورضاه .

١٩ - وَلَقَدْ آمَرُوا لَهُمْ هَٰؤُلَاءِ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .

وقد أوجبوا على أنفسهم حقاً واجباً للفقير السائل ، وللمحروم المتعفف الذى لا يسأل الناس ، ويحسبه الجاهل بحاله غنياً من تعففه ، فهم مهتمون بسائر أنواع المحتاجين .

أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرثان ، والأكلة والأكلتان » ، قيل : فمن المسكين ؟ قال : « الذى ليس له ما يغنيه ، ولا يعلم مكانه فيصدق عليه ، فذلك المحروم »^(١١١) .

٢٠ - وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ .

كلما مد الإنسان بصره فى هذه الأرض وجد أمامه دلائل القدرة الإلهية ، أكتب الآن وأمامى بحر ممتد ، مياه عميقة زرقاء ، وأمواجه متتابعة ، ونهايته لا تحيط بها العين ، ثم ترسل الشمس أشعتها على المحيطات والبحار ، فيتصاعد البحر إلى السماء ، ويتكثف السحاب ، وتسوقه الرياح ، ويسقط المطر الذى يروى الإنسان والحيوان والنبات ، وترى ما على الأرض من شمس وقمر ، وليل ونهار ، ويرد وحراً ، وفصول متتابعة ، فالشتاء والربيع ، والصيف والخريف ، وفى الأرض الجبال والأنهار ، والأشجار والإنسان والحيوان ، وفى الأرض معادن ودواب وحشرات وطيور ووحوش ، ونافع ومؤذي ، وغير دلائل لأصحاب الأنفهام والإيمان ، بل فى حركة الشمس والقمر والنجوم ، والهواء والغضاء والرياح والأمطار ما ينبت عن هذه القدرة العالية ، ويرشد إلى آيات تعمق الإيمان .

قال تعالى : وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُرَوْنَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . (يوسف : ١٠٥) .

٢١ - وَلَقَدْ أَنفُسَكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .

فى تعدد الألوان والأشكال والألسنة والطباع ، وفى تركيب الأعضاء والفقرات ، وتعدد الأجهزة فى هذا الجسم الإنسانى العجيب ، فالجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، والجهاز اللمفاوى ، وإذا تعطل جهاز من هذه الأجهزة ، أو مفصل من المفاصل ، أو عضو من الأعضاء ، جاء العجز والذلل ، وإذا شفى المريض زال الكرب وجاء الفرج .

قال تعالى : سَتَرْنَاهُمْ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَلَقَدْ أَنفُسُهُمْ هَٰؤُلَاءِ لَبَّيْن لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

وقد تقدم العلم ، ورأينا وسمعنا العجب العجيب عن عوالم متعددة فى هذا الكون ، ونحن لم نطلع على عشر ما هو موجود فى هذا الكون .

قال تعالى: فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . (الحاقة: ٣٨ - ٤٠) .

والعجيب أنه كلما تقدم العلم لم يصطدم بأى آية من كتاب الله ، بل إن تقدم العلوم يؤكد ما جاء فى القرآن، ويبين أنه ليس من صنع بشر ، بل هو تنزيل من حكيم حميد ، فتقدم العلوم اصطدم بأخبار ومعارف كانت مسلمة فأسقطها ، وتقدم العلوم وحقائق التاريخ ووثائقه اصطدمت بمعارف فى التوراة والإنجيل ، لكن تقدم العلوم لم يصطدم بأى حقيقة علمية أو تاريخية ، أو نفسية أو أدبية ، أو غير ذلك وزدت فى القرآن الكريم .

وقد ذكر المستشرق موريس بوكائى ، فى كتابه الذى ترجمته دار المعارف فى مصر ولبنان ، بعنوان (التوراة والإنجيل والقرآن فى ضوء العلم) ، ذكر أن القرآن يتميز بمعلومات عن الكون ونشأته ، وعن الإنسان، وعن الشمس والقمر والنجوم ، والليل والنهار ، والدنيا والآخرة ، لم تصطدم بأى حقيقة علمية ، بل كأن العلم ينزع إلى تأييد القرآن ، كما قال سبحانه وتعالى: سُبْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَلِىْ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت: ٥٣) .

٢٢ - وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ .

فى السماء السحاب ، وأسباب المطر من الشمس والقمر والفضاء ، وتتابع الفصول ، وحركة الأرض وتناسق الكون ، كل ذلك يؤدى إلى تكامل الكون ، ونزول المطر وأسباب الرزق ، وإنبات النّبات .
أو أن المعنى : بيد الله الأقدار والأرزاق ، وهو مسبب الأسباب ، ومقدر الأقدار ، وميسر الأرزاق .

٢٣ - قَرَّبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ .

أقسم الحق سبحانه وتعالى بنفسه ، على أن الرزق والغيب والقدر بيده ، وذكر المفسرون أن القسم شامل لكل ما تقدم فى هذه السورة من أولها .

والمعنى : فربب السماء والأرض ، إن كل ما تقدم فى هذه السورة من أخبار وأحوال ، وأوصاف وتذكير ، حق واقع ، وأمر ثابت لا يرقى إليه شك ، ولا يختلف فى أحقيته أحد ، وكما أنك لا تشكون فى أنك تنطقون ، ينبغى ألا تشكوا فى حقيقته ، فهو كما نقول : إن هذا حق مثل ما أنك تبصر وتسمع .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : «قاتل الله قوماً أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا» .

قصة الخليل إبراهيم

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَهُه فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

الضيوف : النازل على محلة قوم وليس منهم ، ويقال للواحد والجمع ، ويجمع على ضيوف
وضيفان وأضياف ، واختلف في عددهم فقليل : ثلاثة ، وقيل : تسعة ، وقيل : اثنا عشر
المكرمين : أى : عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه ، وعجل لهم القرى ، وأجلسهم فى أكرم موضع
منكرون : مجهولون ، لا عهد لنا بكم من قبل ، يريد أن يتعرف بهم ، كما تقول لمن تلقاه : أنا
لا أعرفك ، تريد : عرّف نفسك وصفها لى .

فراغ إلى أهله : ذهب إليهم خفية من ضيفه .

سامين : ممتلئ بالشحم واللحم .

فقرّبه إليهم : قدّمه إليهم .

هاوجس منهم خيفة : أضمر فى نفسه الخوف منهم .

امرأته : هى سارة ، لما سمعت بشارتهم له .

صبرة : صيحة وضجة .

فصكت وجهها : ضربت يدها على جبهتها ، أو ضحكت ، وقالت : يا ويلتاه .

عجوز عقيم : أنا كبيرة السن لا ألد .

تمهيد :

ذلك جانب من قصة الخليل إبراهيم ، صرّها الله بالاستفهام ، تشويقاً للنبي ﷺ ، وتفخيماً لشأن
الحديث ، كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيهها لأنظاره حتى يُصغى

إليه ، ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخير لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبيهها إلى أن الرسول ﷺ لم يعلم به إلا عن طريق الوحي .

التفسير :

٢٤ - هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ .

هل بلغك يا محمد نبأ ضيوف إبراهيم المكرمين عند الله ، والمكرمين عند إبراهيم ، حيث أحسن استقبالهم ، وعجل ضيافتهم بعجل حنيد مكتنز لحماً وشحمًا فتياً ، وهو أشهى فى الأكل وأفضل .

٢٥ - إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ .

أى : هل أتاك حديث الضيف ، وقت أن دخلوا على إبراهيم بيته ، فبادروه بقولهم : نؤمئك أماناً ، ونسلم عليك سلاماً ، حتى لا يروعك ولا يخيفك دخولنا ، فقال ردًا عليهم : عليكم سلام دائم ، أو أمرى معكم سلام .

قَوْمٌ مُنْكَرُونَ . مجهولون عندى لا أعرفهم ، ولا عهد لى بهم ، ولعل هذا كان تمهيداً ليتعرف بهم مستقبلاً .

٢٦ - قَرَأَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ .

أى : مال إلى أهله فور دخولهم عليه ، وقدم لضيوفه عجلًا سمينًا ، أنضجه شيئًا .

كما جاء فى آية أخرى : فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ . (هود : ٦٩) .

أى : شوى على الرضف .

٢٧ - فَقرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ .

أى : فقدم الطعام إلى ضيوفه ، وعرض عليهم أن يأكلوا ، كما تقدم الطعام إلى الضيف ونقول له : تفضل لتناولها ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ، إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله ، وهو عجل فتى مشوى ، ووضع بين أيديهم ، وتلطف فى العرض فقال : ألا تأكلون ؟

٢٨ - فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ...

أى : فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا ، فأضمر فى نفسه الخوف منهم ظنًا منه أن امتناعهم إنما كان

لشر يريدونه به (فإن من لم يأكل طعامك لم يحفظ زمامك) وللطعام حرمة ، وفى الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن ، وقد جاء فى سورة هود : فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ...

(هود : ٧٠)

لكن الملائكة طمأنته :

قَالُوا لَا تَخَفْ ...

نحن ملائكة الله جنبنا لك بالأمان والبشارة ، وفى آية أخرى : قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لَّوِطٍ .

(هود : ٧٠)

وَيُخَوِّدُهُمْ بِغُلَامٍ عَلَيْهِم .

فكانت البشارة متضمنة عدة بشارات : فهو غلام ذكر ، يجمع صفات العلم ، ويبلغ مبلغ الرجال ، وينجب ولداً آخر من صلبه يكون حفيداً لإبراهيم ، كما جاء فى سورة هود : فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَآءِهِ إِسْحَاقُ يُعْقِبُ . (هود : ٧١) .

٢٩ - فَأَقْبَلَتْ أَمْرًا، فِي صَوْرَةِ فَصَكْتٍ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ .

كانت سارة فى ناحية من البيت ، فسمعت بشارة الملائكة بغلام عليم ، فأقبلت وهى تصرخ صرخة عظيمة ، وضربت بيديها على جبهتها - على عادة النساء إذا سمعن أمراً عجبياً - وقالت : أنا عجوز عاقر ، فكيف ألد ؟

وجاء فى آية أخرى : قَالَتْ يَتُولىَّ آءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلَى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ • قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ . (هود : ٧٢ ، ٧٣) .

٣٠ - قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

استكثر الزوج أن تلد فى هذه السن الكبيرة ، وكانت قد تجاوزت ثمانين عاماً ، ولم تكن تلد فى صباهما وشبابها ، وقالت : أنا عجوز طاعنة فى السن ، وعقيم لم ألد فى شبابى ، فكيف ألد فى هذه السن ؟ فكأنها قالت : ليتكم دعوتكم دعاء قريباً من الإجابة ، ظناً منها أن ذلك صدر منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات ، كما يقول الداعى : أعطاك الله مالاً ، ووزقك ولداً .

فردُّوا عليها بأن هذا ليس دعاءً ، ولا خبراً من عند أنفسهم ، بل هو أمر الله الذى بيده الخلق والأمر ، وليس هناك من أمر عجيب على قدرته ، فقد خلق آدم من تراب ، وخلق حواء من آدم ، وهو سبحانه الذى رفع السماء بلا عمد ، ويسط الأرض على الماء فجعد ، وقسَّم الأرزاق فلم ينس أحداً ، وهو سبحانه إذا أراد أمراً هياً له الأسباب ، ثم قال له كن فيكون ، وهو سبحانه قادر على كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣) .

★ ★ ★

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السادس والعشرون)

خرج أحاديث

الأستاذ

إسماعيل سعيد فهمي

(١) في ظلال القرآن ٢٦ / ٢١ .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبائي، المتوفى سنة ٨١٧ هـ، تحقيق الأستاذ محمد علي التجار (١ / ٢٤٨). طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ.

(٣) وما يدريك أن الله أكرمته:

رواه البخاري في الجناز باب: الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفنه (١١٨٦).

(٤) العشرة المبشرون بالجنة:

هم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، ومطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، رضى الله عنهم.

(٥) تفسير القاسمي مجلد ٦، ص ٢٣٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.

(٦) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، مجلد ٣، صفحة ٣١٧، وأقرأ الحاشية بهذه الصفحة.

(٧) التفسير المنير: أ. د. هبة الزحيلي جزء ٢٦، ص ١٨ .

(٨) إن الله زوى لى الأرض:

مسلم في الفتن (٢٨٨٩)، والترمذي في الفتن (٢١٧٦)، وأبو داود في الفتن (٢١٧٦)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد (٥ / ٢٧٨)، (٢٨٤)، من حديث ثوبان، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٩) يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة:

رواه البخاري في الجهاد والسير، باب: الدعاء بالجهاد والشهادة للرجال والنساء (٢١٣٦)، ومسلم في الإمارة، باب: فضل الفوز في البحر (١٩١٢) من حديث أنس مرفوعاً: «ناس من أمتي، عرضوا على غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة، أو: مثل الملوك على الأسرة».

(١٠) إنكم ستقتحون أرضاً يذكر فيها القيراط:

رواه مسلم في باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر (٢٥٤٣) من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستقتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً، فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فآخراجهما».

(١١) أضاء لى في الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى:

قال السهول في الدر المنثور: وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده، قال: «خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب، فخرجت لنا من الخندق صخرة بيضاء مدورة، فكسرت حديدنا وشقت علينا، فشكونا إلى رسول الله ﷺ، فآخذ المولى من سلمان، فضرب الصخرة ضربة صدعها، ويرقت منها برقة أضاء ما بين لابتي المدينة حتى لكان مصباحاً في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون، ثم ضربها الثانية، فصدعها ويرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر رسول الله ﷺ، وكبر المسلمون، ثم ضربها الثالثة، فصدعها ويرقت منها برقة أضاء ما بين لابتيها، فكبر وكبر المسلمون، فسلنا، فقال: «أضاء لى في الأولى قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فآخراجهما».

جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا بالنصرة، فاستبشرو المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صادق بأن وعدنا النصر بعد الحصر، فطلعت الأحزاب، فقال المسلمون: ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾، وقال المنافقون: ألا تعجبون، يمدكم ويمنيكم الباطل، ويخبر أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنكم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا، وأنزل القرآن فى ذلك: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾.

(١٢) كيف بك إذا لست سوارى كسرى:

ذكره التناوى فى الفيض استشهاداً (٤١١٠) فقال: قال له المصطفى ﷺ: «كيف بك إذا لست سوارى كسرى» فليهما زمن عمر، وفيه أيوب بن سويد بن مسعود الحميرى ضغفه ابن معين وغيره. وذكر الهندي فى كنز العمال (٢٥٧٢) عن الحسن أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى ابن هرمز فوضعت بين يديه، وفى القوم سراقفة بن مالك فأخذ عمر سواريه فرمى بهما إلى سراقفة، فأخذهما فجعلهما فى يديه فبلىا منكبيه، فقال: الحمد لله، سوارا كسرى ابن هرمز فى يدى سراقفة بن مالك بن جشعم أعرابى من بنى مدليج، ثم قال: اللهم إنى قد علمت أن رسولك قد كان حريصاً على أن يصيب مالا ينقذه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك نظراً منك وخياراً، اللهم إنى قد علمت أن أبا بكر كان يحب مالا ينقذه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك، اللهم إنى أعوذ بك أن يكون مكر منك بعمر، ثم تلا: ﴿ياحييون أنما نعدكم به من مال﴾ الآية. ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

(١٣) وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله:

رواه البخارى فى باب: مناقب عبد الله بن سلام (٢٦٠١) ومسلم فى فضائل الصحابة، باب: من فضائل عبد الله بن سلام (٢٤٨٣) من حديث عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه قال: ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض: إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام، قال: نزلت هذه الآية: ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾ الآية، قال: لا أدري، قال: مالك الآية، أو فى الحديث.

(١٤) ما معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلاً منكم:

رواه الطبرانى من حديث عوف بن مالك الأشجعى. قال: انطلق النبى ﷺ يوماً وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكرموا دخولهم عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود أرونى اثنى عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذى عليه، فاستكثروا ما أجابه أحد ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثم قلت فلم يجبه أحد، فقال: «أبيتم فوالله لأنا الحاشر، وأنا العاقب، وأنا المقضى، أمنتكم أو كنيتهم، ثم انصرف وأنا معه حتى أننا كنا أن نخرج نادى رجل من خلفه، فقال: كما أنت يا محمد، فأقبل فقال ذلك الرجل: أى رجل تلمون فيكم يا معشر اليهود، قالوا: والله ما نعلم فبينما رجلان أعلم بكتاب الله ولا أفضه منك ولا من أبيك قبلك ولا من جدك قبل أبيك، قال: فإنى أشهد له بالله أنه نبي الله الذى تجدون فى التوراة، قالوا: كذبت، ثم ردوا عليه، وقالوا فيه شراً، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت لى تقبل قولكم»، قال: فخرجنا ونحن ثلاثة: رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام وأنزل الله عز وجل: ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾. وقال الهيثمى فى المجمع (رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح).

(١٥) تقدم تخريجه.

(١٦) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر، ٢٥ ش يوسف عباس، مدينة نصر - القاهرة.

(١٧) انظر تفسير الكشاف، وفيه أن النبي ﷺ سأل اليهود عن عبد الله بن سلام فمدحوه بالعلم والخير والسيادة، فلما أخبرهم أنه أسلم ذمّوه وانتقصوه.

(١٨) تفسير القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، صححه هشام البخاري، المجلد ٦، ص ٢٣٤، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان.

(١٩) من أحق الناس بحسن صحابتي:

رواه البخاري في الأدب (٥٩٧١)، ومسلم في البر (٢٥٤٨)، وأحمد في مسنده (٨١٤٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك».

(٢٠) أخرجه الحافظ الموصلي، وروى من غير هذا الوجه في مسند أحمد، وانظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني ٣ / ٣١٩.

(٢١) من رغب عن سنتي فليس مني:

رواه البخاري في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم في النكاح (١٤٠١)، والتسائي في النكاح (٢٢١٧)، وأحمد (١٣١٢٢، ١٣١٦٦، ١٣٦٣١)، ورواه ابن ماجه في النكاح (١٨٤٦) بلفظ: «النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني...» الحديث، كلهم من حديث أنس، ورواه أحمد (٢٢٩٣٦) عن مجاهد عن رجل من الأنصار. ورواه الدارمي في النكاح (٢١٦٩) من حديث سعد بن أبي وقاص..

(٢٢) استغث قلبك وإن أفوتك وأفوتك وأفوتك:

قال المناوي في الفيض: وروى المصنف لحسنه، ورواه أحمد والدارمي في مسنديهما، قال النووي في رياضته: إسناده حسن، وتبعه المؤلف فكان ينبغي له الابتداء بمزوه كعادته، ورواه أيضا الطبراني، قال الحافظ العراقي: وفيه عنده العلامة بن ثعلبة مجهول.

(٢٣) البر ما أطاعت إليه النفس:

رواه مسلم في البر (٢٥٥٣) والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، والدارمي في الرقاق (٢٧٨٩)، وأحمد في مسنده (١٧١٧٩) عن الثوري بن سميان الأنصاري، قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم، فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(٢٤) الحلال بين:

رواه البخاري في باب: فضل من استبهر لدينه من حديث النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبهر لدينه وعرضه، ومن وقع في المشبهات كراع يرمى حول الحمى أوشك أن يواقعها، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». ورواه مسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

(٢٥) اللهم إني أسألك خيرها:

رواه مسلم في باب التعود عند رؤية الريح والقيم، والفرح بالمطر (٨٩٩)، من حديث عائشة، قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح، قال: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تخيلت السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه. قالت عائشة: فسألته. فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا﴾، ورواه البخاري في باب: ما جاء في قوله: ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ (٢٠٣٤) من حديث عائشة، قالت: كان النبي ﷺ إذا رأى مغيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي ﷺ: «ما أدري لعله كما قال قوم عاد: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾. الآية، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب: التعود عند رؤية الريح والقيم (٨٩٩).

(٢٦) هذا هو الناموس الذي أنزله الله على موسى:

هذا اللفظ جزء من حديث طويل رواه البخاري (٤٩٥٦، ٤٩٥٥، ٤٩٥٤)، ومسلم في كتاب الإيمان (٢٢١، ٢٢٢)، والترمذي في كتاب المناقب (٢٥٦٥)، وأحمد في مسنده (١٤٥٠٢، ٢٤٠٤٦، ٢٤٦٨١، ٢٤٦٨٢).

(٢٧) فَوَيْلٌكَ حَتَّى تَأْتِيَهَا إِبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم • وهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المجسمين • وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين • وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين • ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم • (الأنعام: ٨٣ - ٨٧).

(٢٨) بصائر نوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١ / ٤٣٠ تحقيق النجار. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ١٩٦٤.

(٢٩) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، الجزء ٢٦، ص ٨٢.

(٣٠) يغفر للشهيد كل ذنب:

رواه مسلم في الإمارة باب: من قتل في سبيل الله كثرت خطاياهم إلا الدين (١٨٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين».

(٣١) لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة:

رواه البخاري في باب القصص يوم القيامة (٦١٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُتِبا وتَوَقَّأ اذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا».

(٣٢) المؤمن يأكل في ميء واحد:

رواه البخاري في الألطمة، باب: المؤمن يأكل في ميء واحد (٥٠٧٨، ٥٠٨٠)، ومسلم في الأشربة، باب: المؤمن يأكل في ميء واحد (٢٠٦٢، ٢٠٦٣)، من حديث نافع، قال: كان ابن عمر لا يأكل حتى يوتى بمسكين يأكل معه، فأدخلت رجلاً يأكل معه فأكل كثيراً، فقال: يا نافع، لا تدخل هذا علي، سمعت النبي ﷺ يقول: «المؤمن يأكل في ميء واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء».

- (٣٣) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، المجلد الثالث، ص ٣٣٥.
- (٣٤) ما أسر عبد سريرة:
- ذكره الهيئى فى المجمع (١٠ / ٢٨٧) عن جندب بن سليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا أيسه الله رداعا إن خيراً فخير وإن شراً فشر». وقال: رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وفيه حامد بن آدم وهو كذاب.
- (٣٥) صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني، المجلد الثالث، ص ٢١٣، نقلا عن التسهيل لعلوم التنزيل.
- (٣٦) تفسير الكريم الرحمان فى تفسير كلام المنان، للعلامة الشيخ عبد الرحمان بن ناصر السعدى ١٣٠٧ - ١٣٧٦ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- (٣٧) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية، ألمانيا الغربية ١٣٩٦ منقحة، (دار القرآن الكريم) دمشق، بيروت.
- (٣٨) لو كان الدين عند الثريا:
- رواه مسلم فى باب فضئل فارس (٢٥٤٦) من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس - أو قال: من أبناء فارس - حتى يتناوله».
- (٣٩) ابن اسحاق.
- (٤٠) ابن اسحاق.
- (٤١) المرحلة: مسيرة يوم بالإنل، وهى نحو ٣٠ كيلو مترا، أو ٢٠ ميلا.
- (٤٢) السالفة: صفحة العلق، وانفرادها كناية عن الموت.
- (٤٣) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى، وباب غزوة الحديبية.
- (٤٤) بصائر نوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزباده، تحقيق الأستاذ النجار، ١ / ٤٣٢ (بتصرف).
- (٤٥) انظر: كنز العمال (١ / ١٤٥).
- (٤٦) لا نبرح حتى نناجز القوم:
- رواه الطبرى فى تسميره (٢٤٢٩٢) من حديث عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل، قال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، فكان جابر بن عبد الله، يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكنه بايعنا على ألا نفر، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أخو بنى سلمة، كان جابر بن عبد الله، يقول: لكانى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقتة، قد اختبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى ذكر من أمر عثمان باطل.

(٤٧) الإيمان يزيد وينقص:

ذكره العراقي في تخريج الإحياء، كتاب قواعد العقائد، حديث «الإيمان يزيد وينقص»، وقال: أخرجه ابن عدى في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة، وقال ابن عدى: باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب الملحي يعتمد الكتب، وهو عند ابن ماجه موقوف على أبي هريرة وابن عباس وأبي الدرداء.

(٤٨) انظر تفصيل القصص في صحيح البخارى، وفي سيرة ابن هشام، وفي ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، وفي تفسير القاسمي تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، مجلد ٦، ص ٢٦٧ - ٢٧٢، طبعة دار إحياء التراث العربي. بيروت، لبنان.

(٤٩) أيها الناس البيعة البيعة:

ذكره السيوطي في «الدر المنثور» قال: أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمه بن الأكوع رضى الله عنه، قال: بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس فخرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾، فبايع لعثمان رضى الله عنه إحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنئنا لابن عفان رضى الله عنه يطوف بالبيت ونحن هنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أموف».

(٥٠) اكتب باسمك اللهم:

رواه البخارى في الشروط باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتاب الشروط (٢٥٨١، ٢٥٨٢) من حديث المسور بن مخرمة، ومروان، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قال: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية.. الحديث، وفيه عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو، قال النبي ﷺ: «لقد سهل لكم من أمركم»، قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم»، ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتوني، اكتب: محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «لا يسألونني خطة يعظمون بها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها»، فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فتطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام القبل، فكتب ... الحديث.

(٥١) لا تسبوا أصحابي:

رواه البخارى في باب: قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً»، (٣٤٧٠) من حديث أبي سعيد الخدري، قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أتق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

(٥٢) أرحم أمتي بأمتي أبو بكر:

رواه ابن ماجه في فضائل أصحاب رسول الله، باب فضائل خباب (١٥٤) من حديث أنس مرفوعاً: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام مُمّاز بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

(٥٣) لا تسبوا أصحابي:

تقدم تخريجه، انظر هامش (٥١).

(٥٤) لو أن رجلا عمل في صخرة صماء:

ذكره السيوطي في «الدر المنثور» قال: وأخرج أحمد والحاكم وصححه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلا عمل في صخرة صماء لا باب فيها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كأنما ما كان».

(٥٥) إن الهدى الصالح والسمت الصالح:

رواه أبو داود في باب في الوقار (٤٧٢٦) من حديث عبد الله بن عباس أن نبي الله ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة».

(٥٦) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ:

رواه البخاري (١، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣)، ومسلم في كتاب الإمارة (٣٥٣٠)، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد (١٥٧١) والنسائي في كتاب الطهارة (٧٤)، وفي الطلاق (٣٢٨٣) وفي الأيمان والنذور (٣٧٢٤)، وأبو داود في كتاب الطلاق (١٨٨٢)، وابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢١٧)، وأحمد في مسنده (١٦٣، ٧٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه على التبر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٥٧) في ظلال القرآن، للأستاذ سيد قطب (٣٦ / ١٢٥).

(٥٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزبادي ١ / ٤٣٦.

(٥٩) الحمد لله الذي وفق:

رواه أبو داود في الأحذية (٣٥٩٢)، والترمذي في الأحكام (١٣٧٢)، والدارمي في المقدمة (١٦٨)، وأحمد في مسنده (٢١٥٠٢، ٢١٥٥٦، ٢١٥٩٥)، عن أناس من أهل خمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن، قال: «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضى بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فيسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ، ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا ألو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله»، قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل. وقال الزيلعي في نصب الرتبة: وأخرجاه أيضاً عن أناس من أصحاب معاذ أن رسول الله ﷺ، مرسلاً، قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بمتصل، انتهى. وقال البخاري في «تاريخه الكبير»: الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفي عن أصحاب معاذ عن معاذ، روى عنه أبو عون، ولا يصح، ولا يعرف إلا بهذا، مرسل، انتهى. وفيه كتاب، ورواه النسائي في أداب القضاء (٥٣٩٩)، والدارمي في المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما في كتاب الله فإن لم يكن في كتاب الله فيسنة رسول الله ﷺ فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ﷺ ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ولا أرى التأخر إلا خيراً لك والسلام عليكم.

(٦١) أما ترضى أن تعيش حميداً:

رواه مالك في الموطأ أبواب السير، باب فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٩٤٥) من حديث ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، قال: يا رسول الله، لقد خشيت أن أكون قد هلك، قال: «لم؟» قال: نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأنا أمرؤ أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأنا أمرؤ أحب الجمال، ونهانا الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك، وأنا رجل جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثابت، أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة».

(٦٢) التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، الجزء ٣٦، صفحة ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦٣) الجبرية والتقدرية: فرقتان شاذتان في العقيدة، خرجتا عما عليه جمهور العلماء، تقول الجبرية: إن الله تعالى مُجَبِّرٌ للعبد على فعله، وليس لإرادة الإنسان واختياره دخل حقيقي فيه، وتقول التقديرية: إن العبد خالق لأفعاله نفسه، نون أن يكون لله عليه سلطان فيها، ويقولون: لا قدر والأمر أنف، أي مستأنف.

(٦٤) التفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، الجزء ٣٦، ص ٢٢٢ وما بعدها، بتلخيص واختصار.

(٦٥) لا تحاسدوا ولا تتاجشوا ولا تباغضوا:

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر (٢٥٨٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، وأحمد في مسنده (٥٣٣٤، ٥٦١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخيره أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». ورواه مسلم في البر (٢٥٦٤)، والترمذي في البر (١٩٢٧)، وأحمد في مسنده (٧٦٧٠، ٨٠٤٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تتاجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». ورواه أحمد في مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

(٦٦) ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس:

رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٢)، ومسلم في البر (٢٦٠٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٠، ٤٩٢١)، وأحمد في مسنده (٢٦٧٢٨) من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينسى خيراً أو يقول خيراً».

(٦٧) إن المقسطين على منابر من نور:

رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) والنسائي في آداب القضاة (٥٢٧٩) وأحمد في مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبد الله ابن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

(٦٨) المسلم أخو المسلم لا يظلمه:

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر (٢٥٨٠)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣)، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، وأحمد في مسنده (٥٣٣٤، ٥٦١٤) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما

أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». رواه مسلم في البر (٢٥٦٤)، والترمذي في البر (١٩٢٧)، وأحمد في مسنده (٧٦٧٠، ٨٠٤٢) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تتاجسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». رواه أحمد في مسنده (١٢٩٤١) من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

(٦٩) ويح عمار، تقتله الفتنة الباغية:

رواه البخاري في باب: التعاون في بناء المسجد (٤٣٦) من حديث عكرمة قال: قال لي ابن عباس ولائنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد، فاسمعا من حديثه، فانطلقنا، فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا، حتى أتى ذكر بناء المسجد، فقال: كنا نعمل لبنة لبنة، وعمار لينتين لبنتين، فرأه النبي ﷺ فينفذ التراب عنه، ويقول: ويح عمار، تقتله الفتنة الباغية، يدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار». قال: يقول عمار: أعوذ بالله من الفتنة.

(٧٠) رب أشعث أغبر:

رواه الترمذي في المناقب (٢٨٥٤)، وأحمد في مسنده (١٣٦٧) من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك». وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه في الزهد (٤١١٥) من حديث معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن ملوك الجنة»، قلت: بلى، قال: «رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم في البر (٦٦٢٢)، وفي الجنة (٢٨٥٤) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»، رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨)، وفي الأدب (٦٠٧٢) ومسلم في الجنة (٢٨٥٢)، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٦) وأحمد في مسنده (١٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب الخزاعي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة، كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر».

(٧١) رب أشعث أغبر:

انظر السابق.

(٧٢) إن الله لا ينظر إلى صوركم:

رواه مسلم في البر (٢٥٦٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) وأحمد في مسنده (٧٦٧٨) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

(٧٣) لما عليه من التراب عندما أيقظه ﷺ من نومه تحت نخيل في أرض بني مدلج.

(٧٤) (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث:

رواه البخاري في النكاح باب: لا يخطب من خطب أخيه حتى ينكح أو يدع (٤٨٤٩)، ومسلم في البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتفافس (٢٥٦٣)، قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا إخوانا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك».

(٧٥) يا معشر من آمن بلسانه:

رواه أبو داود في الأدب باب الغيبة (٤٨٧٢) من حديث أبي هريرة الأسلمي، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تقتاتوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه ممن اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته».

(٧٦) الطيرة: ما يتشام به من الفأل الرديء، وكان ﷺ يحب الفأل الحسن، ويكره الطيرة، فإذا رأى ما يكره، قال: «اللهم لا يأتني بالخير إلا أنت، ولا يذهب السوء إلا أنت، اللهم اكفني السوء بما شئت، وكيف شئت، إنك على ما تشاء قدير». ثم يمضي متوكلاً على الله.

(٧٧) أذكرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم:

رواه مسلم في البر (٢٥٨٩)، وأبو داود في الأدب (٤٨٤٧)، والترمذي في البر (١٩٢٤)، والدارمي في الرقاق (٢٧١٤)، وأحمد في مسنده (٧١٠٦) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أذكرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخى ما أقول، قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

(٧٨) رواه الطبري بسنده عن أبي نضرة في كتاب (آداب النفوس).

(٧٩) خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح:

أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١١٨/١) من حديث أنس، بلفظ: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب... الحديث، وفيه: «فأخرجت من بين أبوي فلم يصبنى شيء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم حتى انتهت إلى أبي وأمي هاتنا خيركم نسبا، وخيركم آباء». وذكره السيوطي في الجامع الصغير أيضا (٢٩٠١) بلفظ: «خرجت من نكاح غير سفاح»، ونسبه لابن سعد عن عائشة، وقال: حسن. قال المناوي في فيض القدير: قال الذهبي: فيه الواقدي هالك، وذكره السيوطي في الجامع الصغير أيضا (٣٩٠٢) بلفظ: «خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح»، ونسبه لابن سعد عن ابن عباس، وقال: حسن، قال الهيثمي في المجمع: رواه الطبراني عن المدني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المدني ولا شيخه، وبقية رجاله ثقات، قال الهيثمي في المجمع: وعن علي أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي». وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحاكم في المستدرک وقد تكلم فيه، وبقية رجاله ثقات، قال الزيلعي في نصب الراية: أخرجه البيهقي في «سنته»، والطبراني في «معجمه»، عن هشيم حدثني المدني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولدني شيء من سفاح الجاهلية، وما ولدني إلا نكاح ككناح الإسلام». انتهى. وروى ابن الجوزي في «التحقيق» من طريق الواقدي حدثني محمد بن أخى الزهري عن عمه عن عروة عن عائشة مرفوعاً: «خرجت من نكاح غير سفاح»، قال في «التتبع»: الواقدي متكلم فيه، وفي الأول المدني، وهو إن كان والد علي فهو ضعيف، وكذا إن كان إبراهيم بن أبي يحيى، وقال الطبراني: هو عند علي بن سليمان، وأبو الحويرث اسمه عبد الرحمن بن معاوية، وهو متكلم فيه، انتهى. قال العجلوني في كشف الخفاء (١٢٠٦): رواه البخاري في الأدب والطبراني في الأوسط عن علي رفعه بزيادة: من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شيء، وفي لفظ، من رواية ابن سعد عن ابن عباس: خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح.

(٨٠) إن الله لا ينظر إلى صوركم:

تقدم تخريجه، انظر هامش (٧٢).

(٨١) إن الله عز وجل لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أعضائكم:

ذكره الهيثمي في المجمع (١٧٧١٧) فقال: وعن أبي مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أعضائكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بدو آدم وأحبكم إلى أئمتكم»، وقال: رواه الطبراني، وفيه يحيى بن عبد الحميد الحماني وهو ضعيف.

(٨٢) أي: عتيقها.

(٨٣) تتكح المرأة لأربع:

رواه البخاري في النكاح باب: الأكفاء في الدين (٤٨٠٢) ومسلم في الرضاع، باب: استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «تتكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

(٨٤) تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام:

رواه البخاري في المناقب باب: قول الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً... الآية» (٢٣٠٥، ٢٣٠٤) وفي الأدب باب: ما قيل في ذي الوجهين (٥٧١١) وفي الأحكام، باب: ما يكره من شاء السلطان، وإذا خرج قال غير ذلك (٢٧٥٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: ثم ذى الوجهين وتحريم فعله (٢٥٢٦) والترمذي في البر والصلة باب: ما جاء في ذي الوجهين (٢٠٩٤) وأبو داود في الأدب باب في ذي الوجهين (٤٨٧٢) ومالك في الموطأ أبواب السير، باب ما يكره من الكذب وسوء الظن، والتجسس والنميمة (٨٩٦) من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». واللفظ للبخاري في إحدى رواياته وكذا مسلم، وروى مختصراً بوجه متعددة.

(٨٥) كلكم لآدم وآدم من تراب:

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٢٢٧٠) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم فتح مكة، فقال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاضلها بآياتها فالناس رجلان بر تقى كريم على الله وفاجر شقى حين على الله والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب قال الله: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير». قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيى بن معين وغيره وعبد الله بن جعفر هو والد علي بن المديني، قال: وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس. ورواه الترمذي في المناقب (٣٩٥٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجمل الذي يهدده الخراء بأنفه إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقى وفاجر شقى الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب». قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن غريب. ورواه أبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦)، وأحمد في مسنده (٨٥١٩، ١٠٤٠٢) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قد أذهب الله عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى وفاجر شقى، والناس بنو آدم وآدم من تراب». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن وهذا أصح عنه من الحديث الأول وسعيد المقبري قد سمع أبا هريرة ويروى عن أبيه أشياء كثيرة عن أبي هريرة.

(٨٦) إن آل أبي ليسوا بأوليائي:

رواه البخارى فى باب: تيل الرحم ببلالها (٥٦٤٤)، ومسلم فى الإيمان، باب: موالة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم، (٢١٥) من حديث عمرو بن العاص، قال: سمعت النبى ﷺ جهازا غير سر، يقول: «إن آل أبى ليسوا بأوليائي، إنما وليى الله وصالح المؤمنين» زاد عنيسة بن عبد الواحد عن بيان، عن قيس، عن عمرو بن العاص، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ولكن لهم رحم أبلاها ببلالها»، يعنى أصلها يصلتها.

(٨٧) مقتبس من تفسير المراضى لسورة الحجرات يتصرف.

(٨٨) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٣٦ / ١٥٤ .

(٨٩) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزباده، تحقيق الأستاذ محمد علي التجار ١ / ٤٣٧، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة.

(٩٠) كان يقرأ فى العيد بـ ق واقتربت:

رواه مسلم فى صلاة العيدين (٨٩١)، وأبو داود فى الصلاة (١١٥٤) والترمذى فى الجمعة (٥٢٤) والنسائى فى صلاة العيدين (١٥٦٧) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٢٨٢) من حديث عمر بن الخطاب سأل أبا وأقد الليثى: ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ وسلم فى الأضحية والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ ق والقرآن المجيد، واقتربت الساعة وأنشق القمر.

(٩١) هذا جبل يحبنا ونحبه:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٨٩) من حديث أنس بن مالك، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبى ﷺ راجعا ويدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»، ثم أشار بيده إلى المدينة، وقال: «اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا».

(٩٢) إنها النخلة:

رواه البخارى فى العلم (٦١) ومسلم فى سنة القيامة (٢٨١١) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فعدوثنى ما هى؟» فوقع الناس فى شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع فى نفسى أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: «هى النخلة».

(٩٣) لا تمروا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة (٤١٥)، وفى أحاديث الأنبياء (٣١٢، ٣١٣)، وفى المغازى (٤٠٧٦، ٤٠٨٦)، وفى تفسير القرآن (٤٢٣٣)، ومسلم فى الزهد (٥٢٩٢، ٥٢٩٣)، وأحمد (٤٢٣٣، ٤٢٧٤، ٥٠٩٠)، من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا بأكين ... الحديث.

(٩٤) انظر التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث بائزهر، وتفسير الألوسى لقوله تعالى: «أهم خير أم قوم تبع».

(الدخان: ٣٧)

(٩٥) يشتمنى ويكذبى وما ينبغي له:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٣)، وأحمد فى مسنده (٨٨٧٠) من حديث أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: أراء قال الله تعالى: «يشتمنى ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمنى، ويكذبى وما ينبغي له، أما شتمه فقله إن لى ولدا، وأما تكذيبه فقله ليس يعينى كما بدانى».

(٩٦) إن الله تجاوز لأمتى:

رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) وابن ماجه فى الطلاق (٢٠٤٠، ٢٠٤٤)، (٧٤٢١) من حديث أبى هريرة يرفعه قال: «إن الله تجاوز لأمتى عما وسوست أو حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم».

(٩٧) لا إله إلا الله إن للموت سكرات:

رواه البخارى فى المغازى (٤٤٤٩) من حديث عائشة أنها كانت تقول: إن من نعم الله على أن رسول ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى وأن الله جمع بين ريقى وريقه عند موته دخل على عبد الرحمن ويده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيت أنه ينظر إليه وعرفت أنه يحب السواك فقلت: أخذه لك فأشار برأسه أن نعم فتناولته فاشتد عليه وقلت: أليته لك، فأشار برأسه أن نعم، فليته فأمره وبين يده ركوة أو علبه - يشك عمر - فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات»، ثم نصب يده فجعل يقول: «فى الرفيق الأعلى» حتى قبض ومالت يده.

(٩٨) يلقى فى النار (وتقول هل من مزيد):

رواه البخارى فى التفسير (٤٨٤٨) من حديث أنس عن النبى ﷺ، قال: «يلقى فى النار» وتقول هل من مزيد» حتى يضع قدمه فتقول: قط، قط».

(٩٩) تحاجت الجنة والنار، فقالت النار:

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٤٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمكبرين والمكبرين وقالت: الجنة فما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرهم، قال الله للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة مؤلفها، فأما النار فلا تملئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله فتقول: قط، قط، فهناك تملئ ويروى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا»، وحديثا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار...» فذكر نحو حديث أبى هريرة إلى قوله: «ولكلكما على مؤلفها». ولم يذكر ما بعدها من الزيادة.

(١٠٠) أخرجه البخارى فى صحيحه، والحديث كاملا هو:

قال ﷺ: «سبعة يظلمهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى طاعة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال: فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بمصدق فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما انتفقت يمينه».

(١٠١) أمره أن يسبح فى أديار الصلوات:

رواه البخارى فى التفسير (٤٨٥٢) من حديث أبى عباس: أمره أن يسبح فى أديار الصلوات كلها، يعنى قوله: «وأديار السجود».

(١٠٢) ذهب أهل الدثور بالأجور:

رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبي ذر أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر صدقة»، وفي بضع أحلكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، آياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر».

(١٠٣) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل:

رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، وفي التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، والنسائي في الصلاة (٤٨٥)، وأحمد (٢٧٣٦٦، ٩٩٣٦)، ومالك في النداء للصلاة (٤١٢)، من حديث أبي هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»، الحديث، ورواه البخاري في الأذان (٦٤٩)، وفي تفسير القرآن (٤٧١٧)، ومسلم في المساجد (٦٤٩)، والترمذي في التفسير (٣١٢٥)، والنسائي في الصلاة (٤٨٦)، وابن ماجه في الصلاة (٦٧٠)، وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٢) من حديث أبي هريرة أيضا بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح»، يقول أبو هريرة: أقرأوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾.

(١٠٤) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، ٣٦ / ١٦ .

(١٠٥) (المرجع السابق).

(١٠٦) التفسير اللغوي للقرآن المجيد، د. محمد عبد المنعم الجمال، ص ٢٩٤٤ .

(١٠٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ١ / ٤٣٩ (بتصرف).

(١٠٨) ينزل الله إلى سماء الدنيا:

رواه البخاري في الجمعة (١١٤٥)، وفي الدعوات (٦٢٢١)، وفي التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك في الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود في الصلاة (١٢١٥)، وفي السنة (٤٧٣٢)، والترمذي في الصلاة (٤٤٦)، وفي الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمي في الصلاة (١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٢٨، ٧٥٦٧، ٣٧٣٢، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٧٦٢٠) من حديث أبي هريرة، ورواه الدارمي في الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٣، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم، ورواه أحمد (١٥٧٨٣، ١٥٧٨٢) من حديث رفاعة الجهني، ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٣٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود، ورواه الدارمي في الصلاة (١٤٨٣) من حديث علي.

(١٠٩) من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا:

رواه أبو داود في الصلاة (١٥١٨)، وابن ماجه في الأدب (٢٨١٩)، وأحمد في مسنده (٢٢٣٤) من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا ومن كل هم فرجا وورقه من حيث لا يحتسب»، قال المناوي في الفيض: قال الحاكم: صحيح ورده الذهبي بأن فيه الحكم بن مصعب فيه جهالة. أ. ه. وقال في المذهب: مجهول وظاهر صنيع المصنف أن هذا لم يخرج أحد من السنة وليس كذلك بل خرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليالي، قال الحافظ العراقي: وضعفه أبو حاتم وقال الصدر المناوي: فيه الحكم بن مصعب لا

يحتج به . قال المراقى فى تخريج الإحياء: أخرج أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان.

(١١٠) ليس المسكين الذى ترده اللقمة:

البخارى فى الزكاة (١٤٧٦) ومسلم فيها (١٠٣٩) والنسائى فيها (٢٥٧١) والدارمى فيها (١ / ٢٧٩) والمؤمل فى صفة النبى ﷺ (٩٢٢/٢)، وأحمد (٢١٦/٢) عن أبى هريرة.

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (السادس والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الأحقاف .	٥١٣٥
—	أهداف سورة الأحقاف .	٥١٣٦
١	﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ...﴾	٥١٤٣
٢	﴿وَنَنْزِيلُ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾	٥١٤٣
٣	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾	٥١٤٣
٤	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي...﴾	٥١٤٣
٥	﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ...﴾	٥١٤٣
٦	﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ...﴾	٥١٤٣
٧	﴿وَإِذَا تَقَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيَّنَّا قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾	٥١٤٦
٨	﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ...﴾	٥١٤٦
٩	﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرِّسَالِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ...﴾	٥١٤٦
١٠	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ...﴾	٥١٥١
١١	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا...﴾	٥١٥١
١٢	﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً...﴾	٥١٥١
١٣	﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ...﴾	٥١٥١
١٤	﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا...﴾	٥١٥١
١٥	﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا...﴾	٥١٥٧
١٦	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا...﴾	٥١٥٧
١٧	﴿وَالَّذِي قَالَ لِلْوَالِدَيْهِ افْكَمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ...﴾	٥١٦٢
١٨	﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ...﴾	٥١٦٢
١٩	﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ...﴾	٥١٦٢
٢٠	﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ...﴾	٥١٦٢
٢١	﴿وَإِذْ كَرَأْنَا عَادًا إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ...﴾	٥١٦٧
٢٢	﴿قَالُوا اجْعَلْنَا لَنَا فُكْنًا عَنْ آلِهَتِنَا...﴾	٥١٦٧
٢٣	﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ...﴾	٥١٦٧
٢٤	﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ...﴾	٥١٦٧
٢٥	﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى...﴾	٥١٦٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٦	﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه...﴾	٥١٦٧
٢٧	﴿ولقد أمكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات...﴾	٥١٦٧
٢٨	﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا...﴾	٥١٦٧
٢٩	﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن...﴾	٥١٧٣
٣٠	﴿قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى...﴾	٥١٧٣
٣١	﴿يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به...﴾	٥١٧٣
٣٢	﴿ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض...﴾	٥١٧٣
٣٣	﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض...﴾	٥١٧٩
٣٤	﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار...﴾	٥١٧٩
٣٥	﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل...﴾	٥١٧٩
-	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأحقاف	٥١٨٣
-	تفسير سورة محمد	٥١٨٥
-	أهداف سورة محمد	٥١٨٦
١	﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم...﴾	٥١٩٢
٢	﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا...﴾	٥١٩٢
٣	﴿ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل...﴾	٥١٩٢
٤	﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب...﴾	٥١٩٥
٥	﴿سيهديهم ويصلح بالهم...﴾	٥١٩٥
٦	﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم...﴾	٥١٩٥
٧	﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم...﴾	٥١٩٥
٨	﴿والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم...﴾	٥١٩٥
٩	﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله...﴾	٥١٩٥
١٠	﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا...﴾	٥٢٠٠
١١	﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا...﴾	٥٢٠٠
١٢	﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات...﴾	٥٢٠٠
١٣	﴿وكان من قرية هي أشد قوة من قريته...﴾	٥٢٠٠
١٤	﴿أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله...﴾	٥٢٠٠
١٥	﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار...﴾	٥٢٠٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦	﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك ...﴾	٥٢٠٦
١٧	﴿والذين اعتدوا زناهم هذى وآثامهم تقواهم ...﴾	٥٢٠٦
١٨	﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ...﴾	٥٢٠٦
١٩	﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ...﴾	٥٢٠٦
٢٠	﴿ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ...﴾	٥٢٠٩
٢١	﴿طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر ...﴾	٥٢٠٩
٢٢	﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ...﴾	٥٢٠٩
٢٣	﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ...﴾	٥٢٠٩
٢٤	﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ...﴾	٥٢١٣
٢٥	﴿إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ...﴾	٥٢١٣
٢٦	﴿ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله ...﴾	٥٢١٣
٢٧	﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون ...﴾	٥٢١٣
٢٨	﴿ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ...﴾	٥٢١٣
٢٩	﴿أم حسب الذين فى قلوبهم مرض ...﴾	٥٢١٣
٣٠	﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ...﴾	٥٢١٣
٣١	﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ...﴾	٥٢١٣
٣٢	﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا ...﴾	٥٢١٩
٣٣	﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...﴾	٥٢١٩
٣٤	﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا ...﴾	٥٢١٩
٣٥	﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ...﴾	٥٢١٩
٣٦	﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ...﴾	٥٢٢٣
٣٧	﴿إن يسألكموها فيحلفكتم تبيخوا ويخرج أفغانكم ...﴾	٥٢٢٣
٣٨	﴿ها أنتم هؤلاء تدمعون لتنفقوا فى سبيل الله ...﴾	٥٢٢٣
—	موجز مقاصد سورة محمد .	٥٢٢٧
—	تفسير سورة الفتح .	٥٢٢٩
—	أهداف سورة الفتح .	٥٢٣٠
١	﴿إننا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾	٥٢٣٥
٢	﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ...﴾	٥٢٣٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣	﴿وَيَنْصُرْكُمُ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾	٥٢٣٥
٤	﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾	٥٢٣٨
٥	﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ...﴾	٥٢٣٨
٦	﴿وَيَعِزُّبِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ...﴾	٥٢٣٨
٧	﴿وَاللَّهُ جَنَّاتُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٥٢٣٨
٨	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾	٥٢٤٣
٩	﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ...﴾	٥٢٤٣
١٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ...﴾	٥٢٤٣
١١	﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا...﴾	٥٢٤٧
١٢	﴿وَلَنُتَنَزِعُكَ مِنْ أَلْفٍ مِنَ الْوَسْوَاسَاتِ...﴾	٥٢٤٧
١٣	﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾	٥٢٤٧
١٤	﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ...﴾	٥٢٤٧
١٥	﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَاتٍ لَتَأْخُذُوهُمَا...﴾	٥٢٥١
١٦	﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى يَوْمِ الْأُولَى...﴾	٥٢٥٢
١٧	﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ...﴾	٥٢٥٢
١٨	﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ...﴾	٥٢٥٤
١٩	﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	٥٢٥٤
٢٠	﴿وَعِبَادُكُمْ الَّذِينَ تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلْ لَكُمْ هَذِهِ...﴾	٥٢٥٧
٢١	﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا...﴾	٥٢٥٧
٢٢	﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ...﴾	٥٢٥٧
٢٣	﴿سَنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ...﴾	٥٢٥٧
٢٤	﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ...﴾	٥٢٥٧
٢٥	﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾	٥٢٦١
٢٦	﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ...﴾	٥٢٦١
٢٧	﴿لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ بِالرُّؤْيَا بِالْحَقِّ...﴾	٥٢٦٥
٢٨	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾	٥٢٦٥
٢٩	﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرَاءِ...﴾	٥٢٦٩
-	خلاصة مقاصد سورة الفتح .	٥٢٧٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦	﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا...﴾	٥٣٢٦
٧	﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ...﴾	٥٣٢٦
٨	﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عِيدٍ مُنِيبٍ﴾	٥٣٢٦
٩	﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكًا...﴾	٥٣٢٦
١٠	﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾	٥٣٢٦
١١	﴿رَزَقْنَا الْعِبَادَ وَأَحْيَيْنَاهُ بِه بِلْدَةِ مِثَا...﴾	٥٣٢٦
١٢	﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرِّسِّ وَثَمُودُ﴾	٥٣٣٠
١٣	﴿وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانَ لُوطٍ﴾	٥٣٣٠
١٤	﴿وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ وَقَوْمَ تُبَيْعٍ...﴾	٥٣٣٠
١٥	﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ...﴾	٥٣٣٠
١٦	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ...﴾	٥٣٣٤
١٧	﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾	٥٣٣٤
١٨	﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾	٥٣٣٤
١٩	﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ...﴾	٥٣٣٤
٢٠	﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾	٥٣٣٤
٢١	﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾	٥٣٣٤
٢٢	﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا...﴾	٥٣٣٤
٢٣	﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾	٥٣٣٩
٢٤	﴿أَلْقِيَانِي فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾	٥٣٣٩
٢٥	﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ﴾	٥٣٣٩
٢٦	﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾	٥٣٣٩
٢٧	﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ...﴾	٥٣٣٩
٢٨	﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدِمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾	٥٣٣٩
٢٩	﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾	٥٣٣٩
٣٠	﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾	٥٣٣٩
٣١	﴿وَأَنزَلْنَا الْجَنَّةَ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾	٥٣٤٣
٣٢	﴿هَذَا مَا تَوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾	٥٣٤٣
٣٣	﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾	٥٣٤٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الحجرات .	٥٢٧٧
—	أهداف سورة الحجرات .	٥٢٧٨
١	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...﴾	٥٢٨١
٢	﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبی...﴾	٥٢٨١
٣	﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله...﴾	٥٢٨١
٤	﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون...﴾	٥٢٨١
٥	﴿ولوأنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم...﴾	٥٢٨١
٦	﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا...﴾	٥٢٨٨
٧	﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر...﴾	٥٢٨٨
٨	﴿فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم...﴾	٥٢٨٨
٩	﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما...﴾	٥٢٩٣
١٠	﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم...﴾	٥٢٩٣
١١	﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم...﴾	٥٢٩٨
١٢	﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن...﴾	٥٢٩٨
١٣	﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى...﴾	٥٢٩٨
١٤	﴿قالت الأعراب آمنوا قل لم تؤمنوا...﴾	٥٣٠٨
١٥	﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله...﴾	٥٣٠٨
١٦	﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات...﴾	٥٣٠٨
١٧	﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم...﴾	٥٣٠٨
١٨	﴿إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون...﴾	٥٣٠٨
—	خلاصة ما تضمنته سورة الحجرات .	٥٣١٣
—	تفسير سورة ق .	٥٣١٥
—	أهداف سورة ق .	٥٣١٦
١	﴿وق بالقرآن الممجيد...﴾	٥٣٢١
٢	﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم...﴾	٥٣٢١
٣	﴿أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد...﴾	٥٣٢١
٤	﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم...﴾	٥٣٢١
٥	﴿بل كذبوا بالحق لما جاءهم...﴾	٥٣٢١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٤	﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾	٥٣٤٣
٣٥	﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾	٥٣٤٣
٣٦	﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً...﴾	٥٣٤٦
٣٧	﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب...﴾	٥٣٤٦
٣٨	﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما...﴾	٥٣٤٦
٣٩	﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمديك...﴾	٥٣٤٦
٤٠	﴿ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾	٥٣٤٦
٤١	﴿واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب﴾	٥٣٤٦
٤٢	﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق...﴾	٥٣٤٦
٤٣	﴿إننا نحن نحى ونميت وإلينا المصير﴾	٥٣٤٦
٤٤	﴿يوم تشقق الأرض عنهم سراعا...﴾	٥٣٤٦
٤٥	﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار...﴾	٥٣٤٦
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة ق	٥٣٥٧
—	تفسير سورة الذاريات	٥٣٥٩
—	أهداف سورة الذاريات	٥٣٦٠
١	﴿والذاريات ذروا﴾	٥٣٦٦
٢	﴿فوالجبال كدالات وقرا﴾	٥٣٦٦
٣	﴿فوالججاريات يسرا﴾	٥٣٦٦
٤	﴿فوالمقسمات أمرا﴾	٥٣٦٦
٥	﴿إن مما توعدون لصادق﴾	٥٣٦٦
٦	﴿وإن الئدين لواقع﴾	٥٣٦٦
٧	﴿والسماء ذات الجحيم﴾	٥٣٦٦
٨	﴿وإنكم لفي قول مختلف﴾	٥٣٦٦
٩	﴿بئذك علمت أنه من أفك﴾	٥٣٦٦
١٠	﴿فتل الخراصون﴾	٥٣٦٦
١١	﴿الذين هم في غمرة سامون﴾	٥٣٦٦
١٢	﴿يسألون أيان يوم الدين﴾	٥٣٦٦
١٣	﴿يوم هم على النار يفتنون﴾	٥٣٦٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤	﴿ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون﴾	٥٣٦٦
١٥	﴿إن المتقين فى جنات وعيون﴾	٥٣٧١
١٦	﴿أخزيين ما أتاهم ربهم...﴾	٥٣٧١
١٧	﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾	٥٣٧١
١٨	﴿وبالأسحار هم يستففرون﴾	٥٣٧١
١٩	﴿وفى أموالهم حق للسائل والمحروم﴾	٥٣٧١
٢٠	﴿وفى الأرض آيات للموقنين﴾	٥٣٧١
٢١	﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾	٥٣٧١
٢٢	﴿وفى السماء رزقكم وماتوعدون﴾	٥٣٧١
٢٣	﴿فورب السماء والأرض إنه لحق...﴾	٥٣٧١
٢٤	﴿هل أتاك حديث إبراهيم المكرمين﴾	٥٣٧٦
٢٥	﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾	٥٣٧٦
٢٦	﴿فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين﴾	٥٣٧٦
٢٧	﴿فقربه إليهم قال ألا تأكلون﴾	٥٣٧٦
٢٨	﴿فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف...﴾	٥٣٧٦
٢٩	﴿فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها﴾	٥٣٧٦
٣٠	﴿قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم﴾	٥٣٧٦
—	تخريج أحاديث وهوامش .	٥٣٨١
—	فهرس الكتاب .	٥٣٩٧





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار عريب

إهداء 2005

أ.د. محمد الله خديجة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء السابع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته


دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

إبراهيم والملائكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ ﴿٢٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رِئِكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٢٤﴾ فَآخَرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَتَرَكْنَاهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾﴾

المفردات :

الخطيب : الشأن الخطير الذى جنتم من أجله ، سوى البشارة .

قوم مجرمين : هم قوم لوط .

من طين : من طين متحجر وهو السجيل .

مسوّمة : معلّمة ، من السّومة وهى العلامة .

للمسرفين : المجاوزين الحدّ فى الفجور .

من المؤمنين : ممن آمن بلوط .

غير بيت : غير أهل بيت ، والمراد بهم لوط وابنتاه ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر .

آية : علامة دالة على ما أصابهم من العذاب .

تمهيد :

هذه الآيات بقية قصة إبراهيم عليه السلام ، والذين قسموا القرآن إلى ثلاثين جزءاً راعوا الكمّ ولم يراعوا المعنى ، ولذلك نجد أن قصة إبراهيم الخليل عليه السلام بدايتها فى نهاية الجزء السادس والعشرين، ونهايتها فى بداية الجزء السابع والعشرين .

وهنا يسأل إبراهيم الملائكة عن الأمر الخطير الذى أرسلوا من أجله ، فأخبروه أن الله أرسلهم ليهلكوا قوم لوط بحجارة من سجيل ، بها علامة تدل على أنها أعدت لإهلاكهم جزاء شذوذهم ، ونكاح الذكور دون الإناث ، حيث يستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهذا أمر مخالف للفطرة ، لذلك أهلكهم الله، تحذيراً وتخويفاً لكل من يفعل ذلك العمل الأثيم .

التفسير :

٣١ - قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ .

أى : قال إبراهيم للملائكة : ما هو الأمر الجلل الذى أرسلتم بشأنه ، غير البشارة بالغلام ؟

وجاء فى سورة هود : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ • إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّئَبِّبٌ • يَتَّبِعُ إِبْرَاهِيمَ أَعْرَضَ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ . (هود . ٧٤ - ٧٦) .

٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ - قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ • لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّنَ طِينٍ • مَّسْئُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُؤْسِفِينَ .

قالت الملائكة : إن الله أرسلنا لعذاب قوم بالغوا فى الإجرام ، وهم قوم لوط ، لنخصبهم بعذاب من السماء فى صورة حجارة من طين مطبوع كالآجر ، وهى فى الصلابة كالحجارة ، معلمة بعلامة ومجهّزة لمن أسرف فى المعاصى وانشغل بالشهوات واستلذّ المخالفة ، كما قال لهم لوط :

أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ إِنَّا مِنَ الْغَالِبِينَ • وَلَذَرُونَا خَلَقَ لَكُمْ رُبُّكُمْ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ .

(الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦)

٣٥ ، ٣٦ - فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ • فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ .

ذهبت الملائكة إلى قوم لوط فى صورة شبّان فى ريعان الشباب ، ولما علم لوط بأن عنده ضيوفاً من الشباب المعتدل قامته وصحة ، وكانوا يفعلون الفعلة الشنعاء ، وهى اشتهاؤ الرجال دون النساء ، وقضاء الوطر فى جماع الرجال ، لقد انتكسوا بالفطرة وخرجوا على سنن الله ، فقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى ، وزوّد صدر الرجل وصدر المرأة بما يكمل المتعة بين سالب وموجب ، وذكر وأنثى ، وتكامل وتعاطف ومودة ورحمة ، وذرية من الذكور والإناث ، واستمرار إعمار الأرض وتتابع الأجيال .

لكن هؤلاء انحرفوا بالفطرة كما قال لهم لوط : إِنِّكُمْ تَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ... (الأعراف : ٨١) .

ورغبوا فى جماع ضيوف لوط ، فتمنى لوط لو أن لديه قوة من الرجال ، ليمنعهم بالقوة عن ضيوفه ، أو يجد مجموعة من الناس يستنجد بهم لينقذوه ، وقد بذل جهده فى نصيحهم وردعهم ، حيث قال لهم :

هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ • قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِن حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ • قَالَ لَوْ أَن لِّى بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ • قَالُوا يَلْبُوسُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن

يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّمَا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ
أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَاجٍ مُّطْبُودٍ * مُّسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٧٨ - ٨٣) .

وقد اكتفى القرآن بعرض هذا النقاش بين لوط وقومه ، وبين لوط والملائكة ، فى مواضع أخرى من القرآن الكريم .

وقد أفادت الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة الذاريات أن عناية الله بالمؤمنين وإرادته فى سلامتهم ، قضت بأن يخرجوا من بيوتهم فى ظلام الليل ، ولا يلتفتوا خلفهم ، غير زوجة لوط التى كانت تنضم إلى قومها وتعاونهم فى أعمالهم الشاذة ، وتفشى لهم أسرار لوط ، فقضى الله أن يصيبها ما يصيب قومها .
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

أى : فأخرجنا من كان فى قرى قوم لوط ، ممن آمن بلوط عليه السلام ، فما وجدنا فى هذه القرى غير أهل بيت من المسلمين ، والمراد بهم لوط وابنتاه .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبیر أنه قال : كانوا ثلاثة عشر .

أى : لم نجد أحداً من المسلمين غير ما يوازى تعداد أهل بيت واحد .

فى أعقاب التفسير

ذهب المعتزلة وبعض أهل السنة إلى عدم التفريق بين الإسلام والإيمان ، لأن القرآن فى الآيتين السابقتين أطلق عليهما المؤمنين والمسلمين .

فالمعنى :

أخرجنا من كان فى قرى قوم لوط من المؤمنين لنحفظهم من الهلاك ، فلم نجد فى هذه القرى إلا أهل بيت واحد من المسلمين ، فيكون الإيمان مرادفاً للإسلام ، وبهذا قال الإمام البخارى من أهل السنة .

والمتمأس فى القرآن الكريم يجد أن مدلول اللفظ الواحد يتغير بحسب السياق ، وقد ألف مقاتل بن سليمان البلخى كتابا سماه (الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم) ، وقد بدأ الكتاب بمادة الهدى فى القرآن الكريم ، فقال: الهدى فى القرآن يأتى على ستة عشر وجها ، واستمر فى عرض الألفاظ التى جاءت فى القرآن الكريم على أكثر من وجه ومعنى .

فكلمة العين تطلق على العين التي تبصر ، وتطلق على عين الماء ، وتطلق على الجاسوس ... وهكذا.
وعلماء الكلام يذكرون أن الإسلام هو الانقياد الظاهري والامتثال لأوامر الله . أما الإيمان فهو التصديق الباطني ، ويستشهدون بقوله تعالى :

قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُلْتُ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (الحجرات : ١٤) .

ويما رواه البخاري في صحيحه ، أن النبي ﷺ سئل عن الإسلام ، فقال : «أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً» .
وسئل عن الإيمان فقال : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه وممره»^(١) .

ونلاحظ أن الإسلام والإيمان قد يجتمعان وقد يفترقان ، فأكثر الناس يظهرون الإسلام ويبطنون الإيمان ، فهؤلاء مسلمون لإسلامهم واستسلامهم لأمر الله ، وانقيادهم لحكمه ، ومعظمهم يبطن الإيمان والتصديق واليقين بالله تعالى وباليوم الآخر . ومن هذا الصنف من آمن بلوط حيث كانوا مؤمنين ، وأيضاً كانوا مسلمين ، وقد يفترق الإيمان والإسلام ، مثل إسلام المنافقين ، فهو إسلام ظاهري لم يطاوعه ولم يتابعه إيمان الباطن .

قال تعالى : إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتُنَفِّقِينَ لَكَاذِبُونَ . (المنافقون : ١٠) .

وقريب من ذلك بعض العصاة من الأعراب ، الذين أعلنوا إسلامهم ولم تتجاوب قلوبهم بالالتزام الكامل ، والطاعة والتضحية والفداء .

فقال بعض العلماء : هم منافقون ، وقال آخرون : هم مسلمون عصاة لم يصلوا للدرجة المطلوبة الرُاقية من المؤمن الحق ، ويأمل القرآن توبتهم وتصحيح إيمانهم .

قال تعالى : قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَإِذَا قُلْتُ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...

(الحجرات : ١٤)

٣٧ - وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .

تركنا في هذه القرية المهلكة دلالة واضحة ، وعبرة ظاهرة ، وعظة وتذكير لأصحاب العقول الراجحة والقلوب المؤمنة ، حيث يرون عاقبة الشذوذ والخروج على أمر الله .

وبهذه الآية الكريمة نستطيع أن نستنبط أن الحضارة الغربية حضارة عرجاء ، حيث تستبج الشذوذ ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وتدافع عن حق المراهقات فى الحمل والولادة والرعاية ، ولو كان ذلك من سفاح حرام ، وليس من نكاح حلال .

إن هذا وغيره سيعصف بمستقبل هذه الحضارة ، وكما اهتز الاتحاد السوفيتى وتمايل للسقوط ، ستبته دول أخرى ، لا تزال فى عنقوان قوة أئمة ، شأنها شأن الشاب المنحرف ، لا يظهر عليه الأثر الكامل للمعصية ، فإذا انتقل الشاب إلى مرحلة الكهولة والشيخوخة ظهر عليه أثر ذلك الانحراف .

قال الشهاب : كأن هذه الآية تشير إلى بحيرة طبرية .

★ ★ ★

الاعتبار بما أصاب المكذبين

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَيْهَ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذَتْهُ وَجُودُهُ فَنَبَذَتْهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا أَصْبَحُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مِنْصَرِفِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

المضردات :

بسلطان مبين : بدليل واضح له سلطان على القلوب ، يتمثل فى معجزاته الظاهرة كاليد والعصا .
السركن : ما يركن إليه الشيء ويتقوى به ، والمراد هنا : جنوده وأعدائه ووزرائه ، كما جاء فى سورة هود : أَوْ عَاوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ . (هود : ٨٠) .

فأخذناه : أخذ غضب وانتقام .

نبذناهم : طرحناهم فى البحر .

مليهم : واقع فى اللوم لكفره وتكبره .

الريح العقيم : التى لا خير فيها لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم .

الرميم ، الهالك البالى المتفتت من عظم ونبات وغير ذلك .

فأخذتهم الصاعقة ، فأهلكتهم الصيحة ، أو نار تنزل بالاحتكاكات الكهربائية .

منتصرين ، ممتعين من عذاب الله بغيرهم ممن أهلكهم .

فاسقيين ، خارجين على طاعة الله ، متجاوزين حدوده .

تمهيد :

ذكر القرآن قصة لوط وشذوذهم وهلاكهم ، ثم أتبع ذلك بذكر العظة والعبرة من قصص أقوام من الهالكين هم :

فرعون الذى أفرقه الله فى البحر .

وعاد الذين أهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية .

وثمود الذين أهلكهم الله بالصاعقة المهلكة .

وقوم نوح الذين أهلكهم الله بالطوفان .

وفى هذا القصص تسلية وتسرية للرسول الأمين ، وتهديد للمشركين .

التفسير :

٣٨ ، ٣٩ - زُلِيَ مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ۖ فَتَوَلَّىٰ وَكُفًى ۖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

وفى قصة موسى عظة وعبرة ، حين أرسلناه رسولا إلى فرعون ، وزودنا موسى بالمهابة والجلال ، وأعطيناه المعجزات الواضحة ، مثل اليد والعصا ، فى مجموع تسع آيات ظاهرات تؤكد رسالته وصدقه ، لكن فرعون اغترّ بجنوده وقوته ، وغرّه ما يملك من القوة والأتباع ، وألصق التهم بموسى حتى يصرف قومه عن الاستماع إليه .

فقال : هذه المعجزات التى جاء بها موسى ، تدل على أن أمره لا يخلو من أن يكون ساحرا أو مجنونا ، فإذا كانت هذه المعجزات حدثت باختيار موسى فتكون سحرا ، وإذا كانت بغير اختياره فيكون ذلك نوعا من الجنون أو كان الجن تساعد .

ويجوز أن تكون (أو) بمعنى الواو ، كما قال ابو عبيدة ، لأن القرآن حكى عن فرعون أنه اتهم موسى بالسحر تارة ، وبالجنون أخرى .

فقال عن موسى مرة : إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ . (الشعراء : ٣٤) .

وقال مرة أخرى : إِنَّ زُوسُوكُمْ إِلٰهٌ الَّذِى أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . (الشعراء : ٢٧) .

ونلاحظ أن هذه التهم دبرها كفار كل أمة ، كأنما وصى السابق منهم اللاحق ، أو أن السبب هو الطغيان وكراهة الحق ، والغلو في الظلم والعناد .

قال تعالى : كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رُّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنُونَ . أَتَوَاصُوا بِدِينِ بَنِي هَٰؤُلَاءِ قَوْمِ طَاغُوتٍ . (الذاريات : ٥٢ ، ٥٣) .

وهكذا نجد ملة الكفر واحدة ، وطريقة الكافرين واحدة ، حيث جعلوا المعجزات سحراً ، وجعلوا ما أتى به الرسل من تشريع وتوحيد وأخبار وتذكير ، جنوناً وترهات لا تخضع لعقل بشر ، لأنها فوق طاقته أو فوق قدرته ، ولو أنصفوا لقالوا : إن هذا وحى من السماء ، لا يستطيع البشر أن يأتي بمثله .

قال تعالى : قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء : ٨٨) .

٤ - فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ .

أخذه الله ومعه جنوده وأتباعه وأعدائه ، فقذف بهم جميعاً فى البحر فهلكوا غير مأسوف عليهم ، مع وقوع فرعون فى اللوم والشكر والملامة جزاء عناده وعدم استجابته للحق ، والآية مع إيجازها برهان للقدرة الغالبة التى أدلّت الجبابرة ، وأغرقت هذا الطاغية مع قومه ، وسجل له التاريخ ظلمه وعناده ، وتقتيل الأطفال الأبرياء من بنى إسرائيل ، واستحياء الإناث للخدمة والمذلة .

قال تعالى : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِّلًّا مِّنَ السَّمَاءِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الْأَرْضِ بِحَقٍّ وَهُمْ فِيهَا كَاذِبُونَ . (القصص : ٥ ، ٦) .

٤١ ، ٤٢ - وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَلَّوْا مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَٰءَتْهُ كَالْغَائِمِ .

وفى عاد آية حين استكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ فأرسل الله عليهم ريحاً عقيماً ، وهى الدُّبور تعصف بكل شئ أراد الله إهلاكه ، وتتركه رميمًا بالياً مفتقناً هالكا ، لا يستطيع ترميمه .

روى أن الرِّيح كانت تمرّ بالناس فيهم الرجل من عاد ، فتنزعه من بينهم وتهلكه .

وقد روى عن ابن عباس ، وصححه الحاكم : أن الرِّيح العقيم ريح لا بركة فيها ولا منفعة ، ولا ينزل منها غيث ، ولا يلقح بها شجر .

وهذه كانت الدُّبور لما صَحَّ من قوله ﷻ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادَ بِالْبُورِ»^(٢٧).

وفى سورة الحاقة نجد لوحة مصوّرة تستعرض هلاك عاد بريح عاتية مهلكة، وكانوا يحفرون الحفرة فى الأرض فينزلون فيها، ويتركون رؤوسهم على السطح لاستنشاق الهواء، فتأتى الريح فتقطع رؤوسهم، وتتركهم هلكى كالنخلة التى قطع رأسها، وترك عجزها ولم يبق فيها منفعة أو ثمرة.

قال تعالى: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفُتِحَتْ يَوْمَ الْقَوْمِ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَمَنْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ». (الحاقة: ٦ - ٨).

٤٣، ٤٤ - وفى ثمود إذ قيل لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ * فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

وفى قصة ثمود آية، وكانت عاد تسكن فى جنوب الجزيرة العربية، وثمود تسكن فى شمالها، وكانوا يمرّون على مساكن ثمود فى طريق تجارتهم إلى الشام، وقد مرّ النبى ﷺ بمساكن ثمود فى طريقه إلى تبوك، فلما رآها نظر إليها واستحث راحلته، وانحنى على ظهرها، وقال لأصحابه: «لا تمرّوا على قرى القوم الذين ظلموا أنفسهم، إلا وأنتم مشفقون، خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(٢٨).

وقد تكررت قصة ثمود فى عدد من سور القرآن الكريم، وعادة تذكر بعد قصة عاد، وقد ذكرت مستقلة فى سورة الشمس، حيث أرسل الله إليهم نبيه صالحاً، ومعه معجزة هى الناقة، تشرب الماء فى يوم، وتحلب لهم لبناً يكفيهم أجمعين فى يوم ثان، لكنهم عتّوا عن أمر ربهم، وأنذره صالِح بأن العذاب سيأتيهم بعد ثلاثة أيام، وقال لهم: تَمَتَّعُوا فى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ. (هود: ٦٥).

وهذا معنى قوله: وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ جِئَ.

أى: قال لهم نبيهم: هناك مهلة ثلاثة أيام ثم يأتى عذاب مدمر، لكنهم كذبوا نبيهم واستكبروا.

فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ.

عتوا: تكبروا، أى تعالوا عن الاستجابة لما دعاهم إليه نبيهم صالح فأرسل الله عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم جميعاً، وهم ينظرون إليها.

وقال مجاهد:

وَهُمْ يَنْظُرُونَ. بمعنى: ينتظرون، أى وهم ينتظرون الأخذ والعذاب، وانتظار العذاب أشد من العذاب.

٤٥ - فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُتَعَصِّرِينَ .

نزلت الصاعقة ماحقة مهلكة ، لم يستطيعوا هرباً منها ، ولا فراراً من إهلاكها ، ولم يجدوا نصيراً ينصرهم بعد أن عجزوا بأنفسهم .

وفى سورة الشمس يقول الله تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَفْقَهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَغُورُوا فَذَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

٤٦ - وَقَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ .

وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء بالطوفان ، لأنهم كانوا خارجين على أمر الله ، حيث أرسل الله إليهم نوحاً فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وقد فصل الله قصتهم مع نوح في سورة هود وغيرها ، وذكرت قصة نوح في سورة نوح في جزء تبارك ، كما ذكر القرآن هؤلاء الهالكين بعد نوح ، بسبب عدوانهم وكفرهم وتكذيبهم لرسولهم ، مع إحاطة الله بأعمالهم ، وقدرته سبحانه على عقوبتهم في الدنيا ، ومحاسبتهم في الآخرة .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

★ ★ ★

أدلة القدرة

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَتَوَرَّأَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

المفردات :

بأيدي ، بقوة .

لموسعون ، لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة ، أى : لقادرون .

فرشناها ، بسطناها ومهدناها ، من مهدت الفراش : إذا بسطته ووطأته .

تمهيد الأمور ، تسويتها وإصلاحها .

زوجهين ، صنفين مزدوجين ، ونوعين مختلفين .

هضروا إلى الله ، الجأوا إلى الله ، وسارعوا إلى طاعته ، واعتصموا بحبله .

نستدير ، منذر مخوف .

تمهيد :

يرشد القرآن الكريم إلى آثار القدرة الإلهية في خلق هذا الكون البديع ، فقد رفع الله السماء بلا عمد ، والأرض بسطها ويسر إعمارها وطرقها ، وأرسى جبالها ، وخلق من كل شيء زوجين ذكرًا وأنثى ، ليتم التناسل وإعمار الأرض ، تجد ذلك في الإنسان والحيوان والنبات ، بل والسحاب والجماد ، كل ذلك يتطلب الإيمان بالله ، واليقين بقدرته وفضله .

التفسير :

٤٧ - وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ .

لقد وسعت قدرة الله كل شيء ، فأبدع الكون على غير مثال سابق ، وبهذه القوة القادرة المبدعة ، رفع السماء سقفًا مرفوعًا ، ممتدًا بلايين السنين ، دون أن يصيبه خلل أو تشقق .

«والآية الكريمة تشير إلى أن التوسعة مستمرة على الزمن ، وهو ما أثبتته العلم الحديث ، وعرف بنظرية التمدد ، التي أصبحت حقيقة علمية في أوائل هذا القرن ، أشار إليها القرآن الذي أنزل على النبي الأمي محمد ﷺ ، منذ أربعة عشر قرنًا»^(١) .

٤٨ - وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْدُوءُ .

جعل الله السماء سقفًا مرفوعًا ، وجعل الأرض فراشًا ممددًا للإنسان ، يحيا عليها الإنسان والحيوان والنبات ، والطيور والزواحف والحشرات وغيرها ، وفي هذه الأرض أرزاق وأقوات ومنافع متعددة ، فمن طينة الأرض يتخذ الإنسان المساكن والحصون ، ومن معادن الأرض الظاهرة والباطنة يصنع الحلي والسلاح ، وآلات الحرب والسفن والطائرات .

وفي القرآن الكريم ما يفيد أن الأرض خلقت أولًا ، ثم خلقت السماء ثانيًا كما نجد ذلك في سورة فصلت .

قال تعالى : قُلْ أَنتَكُم لَكَفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْجِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيَالٍ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ

فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آثِيًّا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا مَلَآئِكِينَ * فَفَصَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأُوحِيَ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرُهَا وَرَبَّنَا أَسْمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (فصلت : ٩ - ١٢) .

وفى سورة النازعات نجد ما يفيد أن السماء خلقت أولاً ، ثم دحيت الأرض .

قال تعالى : «أَنَّمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءَ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَخَلَهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا * مَتَلِّيًا لَكُمْ وَلَأَنْعَلِيكُمْ . (النازعات : ٢٧ - ٣٣) .

ويمكن الجمع بين الآيات على النحو التالي :

(أ) خلق الله الأرض أولاً غير مدحوة .

(ب) خلق السماء ثانياً بعد خلق الأرض .

(ج) دحا الأرض بعد خلق السماء ، أى خلق فيها البحار والأنهار والجبال ، وجعلها أقرب إلى شكل البيضة ، فهي منبعدة ومتسعة عند خط الاستواء ، وهى مفرطة عند القطبين ، أى غير كاملة الاستدارة .

قال تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ... (البرد : ٤١) .

هذا ما ذكره المفسرون القدامى فى الجمع بين الآيات المختلفة .

أما المفسرون المحدثون ، والعلماء المعاصرون فيرون الآتى :

١ - الكون كله كان كرة ملتتهبة غير صالحة لحياة الإنسان عليها .

٢ - مرت ستة بلايين سنة ، هدأت فيها هذه الكرة ، وانفصلت السماء وارتفعت ، وانفصلت الأرض وانبسجت ورسث عليها الجبال والبحار والأنهار .

٣ - مرَّ خلق الكون بست مراحل ، كانت السماء رخوة هلامية أشبه بالدخان ، ثم تماسكت وهدأت قشرتها وتفتت بالمطر ، وهدأت قشرة الأرض وتماسكت ، وتفتتت بالنبات ، ووجد خلق وسيط بين السماء والأرض هو الهواء ، ووجد الحجاب الحاجز بين الأرض والسماء ، الذى يحمى الأرض من ملايين الشهب والنيازك ، ويحفظ الأرض فى درجة معينة من الحرارة والرطوبة .

٤ - تم إعمار الكون وتنسيقه بحيث تكون الأرض مائدة عامرة بالأرزاق والماء والخيرات .

٥ - تدخلت يد القدرة الإلهية فى كل مرحلة من مراحل تكامل الخلق وتوازنه ، ومن أمثلة ذلك ما يأتى :

(أ) الإنسان يستنشق الأكسجين ، ويخرج ثانى أكسيد الكربون ، والنبات يستنشق ثانى أكسيد الكربون ويخرج الأكسجين ، ولو وجد النبات وحده لذبل ، ولو وجد الإنسان وحده لاضمحل ومات .

(ب) نسبة الأكسجين فى الهواء ٢١٪ ولو زاد عن هذه النسبة لكثرت الحرائق ، بحيث تكون شرارة واحدة فى الغابة كافية لإحراق الغابة كلها ، ولو نقصت هذه النسبة فى الهواء لاقترب الإنسان من الاختناق ، ولضعف التمدن الإنسانى والاختراع والابتكار .

(ج) لو اقتربت الشمس منا أكثر مما هى عليه لذاب الجليد فى المحيطات ، وغرقت الأرض بمياه البحار ، ولو ابتعدت الشمس عنا أكثر مما هى عليه لتجمدت مياه المحيطات ، وتعطلت الملاحة ، واشتد البرد ، وفقدت الحياة توازنها ، كل ذلك يدل على أن وراء الكون يد القدرة الإلهية التى تحفظ توازنه ، وتمسكه من الانهيار والهلاك ، إلى الوقت المعلوم الذى ينتهى فيه عمر هذا الكون ، فتتساقط السماء ، وتزلزل الأرض ، وتتكسر النجوم ، وتصبح الشمس من النجوم القزمة التى فقدت توهجها ، وينتهى عمر الدنيا وتبدأ مراحل الآخرة .

٦ - أشار القرآن الكريم إلى أن السماء كانت رتقاء صماء لا تمطر ، وأن الأرض كانت رتقاء صماء لا تنبت النباتات ، ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وجعل الماء من أسباب الحياة ، ويدونه يكون التصحر .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .**
(الأنبياء : ٣٠ - ٣٣)

٧ - الكون كله مرّ فى خلقه بست مراحل ، عبر عنها القرآن بستة أيام ، وفى حوالى شهر أبريل سنة ١٩٩٤ م ، انعقد مؤتمر علمى فى الولايات المتحدة الأمريكية للبحث فى عمر الكون ، وذكر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان على هذه الأرض ٧ بلايين سنة ، وأن الكون مكث ٦ بلايين سنة كرة ملتببة غير صالحة لحياة الإنسان ، ثم وجد الإنسان فى هذا الكون من ٧ بلايين سنة .

هذا مجرد اجتهد بشرى ، والمجتهد إن أخطأ له أجر واحد هو أجر الاجتهاد ، وإن أصاب فله أجران ، أجر الاجتهاد وأجر موافقة الصواب ، أما كتاب الله تعالى فقد تكفل الله بحفظه ، وهو معجز للبشر ، وإعجازه أنه لم يصطدم بأى حقيقة علمية ، بل كأن العلم ينزع إلى تأييد القرآن وإثبات أنه من عند الله .

ونحن نذكر هذه المعلومات بجوار تفسير الآيات للاستئناس بها ، لا لتكون حكماً على الآية ، فكتاب الله إمام للبشرية كلها ، والله ولى التوفيق .

٤٩ - وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

إثراء الحياة مترتب على العلاقة بين الذكر والأنثى ، نجد ذلك فى الإنسان والحيوان والنبات وغيرها ، وقد امتن الله على عباده بهذه القدرة التى تثرى الحياة ، فالمطر يترتب على علاقة بين سحابة موجبة ، وأخرى سالبة .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ قَانُتًا مِنْ أَلْسَمَاءٍ مَاءً فَأَنْفَقَتِ كُفُوهُمَا وَمَا أَنْتُمْ لَهُمْ بِخَافِرِينَ . (الحجر : ٢٢).

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الرياح تلعق النبات ، لكن إذا تأملنا فى الآية وجدنا أن الرياح تلعق السحاب لينزل المطر ، والرياح فعلاً تلعق النبات ، ولها آثار أخرى ، وقد امتن الله على عباده بأنه خلق الذكر والأنثى .

قال تعالى : وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ . (الليل : ٣ ، ٤) .

وقال عز شأنه : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً ... (النحل : ٧٢) .

وحين كان نوح عليه السلام يصنع سفينته للنجاة من الطوفان ، أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، لتبدأ الحياة مرة أخرى بين الذكر والأنثى .

قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... (هود : ٤٠) .

وبالنسبة للإنسان نجد أن الله خلق الرجل والمرأة ، وحين خلق آدم خلق من ضلعه حواء ، ومن نسلهما كانت البشرية .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ... (النساء : ١) .

ونجد مثل ذلك فى الحيوان والطيور والزواحف والحشرات ، وأنواع النباتات والأزهار وغيرها .

قال الأستاذ أحمد مصطفى المراغى فى تفسير قوله تعالى :

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ .

أى : إنا خلقنا لكل ما خلقنا من الأرض ثانياً له ، مخالفاً له فى مبناه والمراد منه ، وكل منهما زوج للآخر ، فخلقنا السعادة والشقاوة ، والهدى والضلال ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والسواد والبياض ؛ لتذكروا وتعتبروا فتعلموا أن ربكم الذى ينبغى لكم أن تعبدوه وحده لا شريك له هو الذى يقدر على خلق الشئ وخلافه ، وابتداع زوجين من كل شئ ، لا ما لا يقدر على ذلك ^(١) .

٥٠ - فَيَقْرَأْ إِلَى اللَّهِ إِنَّى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : الجأوا إلى الله الخالق المبدع ، الذى رفع السماء وبسط الأرض ، وأنتم إغمار الكون ، هذا الإله الخالق العظيم الرازق الكريم ينبغى أن نعبدوه وحده لا شريك له ، وألا نعبد معه صنماً ولا وثناً ولا جنّاً ، ولا ملائكة ولا أى شريك .

إِنى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

إنى مخوف لكم بآيات الله وبالمعجزات ، ومبين وموضح لكم بالابتعاد عن المعاصى ، والاقتراب من الله وطاعته ، والبعد عن معصيته .

٥١ - وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنى لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

ولا تعبدوا مع الله معبوداً آخر ، لأن العبادة لا تكون إلا للخالق ، والله وحده خالق كل شئ ، قاله هو الذى خلق كل شئ فى هذا الكون ، وهو الذى خلقنا ورزقنا ، وأمدنا بسائر النعم ، وهو واهب الحياة ، ومسخر الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والظلام والنور ، وبهedy الهدى والضلال ، والجنة والنار ، والخير والشر ، فهو يخلق ولا يخلق ، وهو يجبر ولا يجار عليه ، فينبغى ألا تكون العبادة إلا لله ، ومن أشرك بالله وعبد إلهاً آخر ، فإنه يستحق العذاب خالدًا مخلدًا فى النار أبداً .

فالأية ٥٠ : دعوة إلى الإيمان بالله ، والالتجاء إليه ، ومحبة وعبادته ، والتبذل إليه والغفران إلى طاعته ، والاستغناء به عن كل ما عداه ، فمن وجد الله وجد كل شئ ، ومن فقد الله فقد كل شئ .

أما الآية ٥١ : فهى للنهى عن عبادة غيره معه ، وعن السجود للصنم أو الوثن ، أو الجن أو الملائكة ، أو الشمس أو القمر ، أو المال أو الجنس أو الهوى أو نحو ذلك ، وقد كان التعقيب واحداً على الآيتين ، أى إنى

لكم نذير مبين أخوفكم من البعد عن الله ، وإنى لكم نذير مبين أخوفكم من الشرك بالله ، ونحو الآية قوله تعالى : **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** . (الكهف : ١١٠) .

★ ★ ★

ختام سورة الذاريات

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْنَهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

هتول عنهم ، أعرض عن جدالهم .

بملوم ، بفعل ما يلام عليه .

وذكر - ثم على التذكير والموعظة .

ليعبدون ، ليخضعوا لى ويتذللوا ، أو ليعرفونى .

المتين ، الشديد القوة .

ذُنُوبًا ، نصيبًا من العذاب ، وأصل الذنوب : الدلو العظيمة الممتلئة ماء ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً .

أصحابهم ، نظرائهم .

ويهل ، هلاك أو حسارة ، أو شدة عذاب .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات فى ختام سورة الذاريات ، وفيها تسلية للرسول ﷺ بأن أهل مكة لم يكونوا بدعاً من الأمم ، فقد كذبت الرسل وأوذيت ، واستمر التكذيب من عهد نوح إلى محمد ﷺ ، فهل وصى السابق منهم اللاحق ؟ كلاً .. إنهم لم يتقابلوا ، وإنما جمعهم الطغيان والعناد ، والخروج على أمر الله ، وقد خلق الله الجن والإنس لمعرفته وطاعته ، وهو سبحانه غير محتاج إليهم ، لأنه سبحانه هو الرزاق القوى المقدر ، وغداً سيجد هؤلاء الكفار العذاب الذى ينتظرهم ، وقد تقدمت الجن فى الذكر على الإنسان لأنها خلقت أولاً ، والإنس ثانياً .

التفسير :

٥٢ - كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ .

إذا كان أهل مكة فى تكذيب لك يا محمد ، وعداء للإسلام ، فإن جميع المرسلين قبلك قد لقوا من أقوامهم العناد والتكذيب ، وكان الاتهام يتوجه من الكافرين للرسول ، بقولهم : إن معجزاتهم سحر وذكاء ، وليست خارقة من الله ، أو يقولون عن الرسول : هو مجنون مختل ، وربما جمعوا للرسول الصفتين فقالوا: هو ساحر ومجنون ، والمراد جموع المكذبين ، أمّا القليل منهم فقد آمنوا .

قال تعالى عن نوح عليه السلام : وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ . (هود : ٤٠) .

وقريب من ذلك ما ورد فى سورة إبراهيم من ألوان تكذيب المكذبين للرسول مثل : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْخَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . (إبراهيم : ١٣) .

٥٣ - أَوَلَوْاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

هل وصى السابق منهم اللاحق بتكذيب الرسل ، وهم لم يلتقوا فى زمن من الأزمان ، وإنما الذى جمع بينهم هو الطغيان والعناد ، وعدم الاستجابة لدعوة رسل الله .

والطُغيان : هو تجاوز حدود الدين والعقل ، فقال متأخريهم مثل مقالة متقدمهم فى تكذيب الرسل .

٥٤ - قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ .

لقد أدت الرسالة ، وبلغت الأمانة ، فلا لوم عليك ، ولا جناح فى إعراضك عنهم ، ولا لوم عليك فى عدم استجابتهم لك ، فإنما عليك البلاغ ، وإنما أنت منذر ، وقد فعلت .

٥٥ - وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ .

وَدُمَّ عَلَى الْعِظَةِ وَالنَّصْحِ والدعوة إلى الهداية والرشاد ، فإن التذكرة تنفع من كانت فى قلبه رغبة فى الإيمان ، وهداية من الرحمان .

أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى ، وجماعة ، من طريق مجاهد ، عن على رضى الله عنه قال : لما نزلت : قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ . لم يبق منا أحد إلا يقن بالهلكة ، إذ أمر النبى ﷺ أن يتولى عنا . فنزلت : وَذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ . فطابت أنفسنا .

٥٦ - وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .

لم أخلق الناس لأستكثر بهم من قلة ، ولا لأستأنس بهم من وحشة ، وإنما خلقتهم ليذكروني كثيراً ، ويعبدوني طويلاً ، وعبادة الجن والإنس لله لا تنفعه سبحانه ، ومعصيتهم لا تضره ، لكن العباد في حاجة إلى طاعتهم لتهدأ نفوسهم ، وتطمئن قلوبهم ، وتقوى ثقتهم بأنفسهم ، فالعبادة والطاعة وسيلة إلى مرضاة الله ، واستجلاب فضله ومعونته وبركته ، والعبادة حق لله على عباده ، والعبادة تحمي الإنسان من الإحباط والتردد والخوف ، وتمنحه زادا من التقوى والهدوء ، والأمان ونقاء الروح ، وسلامة السريرة .

وفى الحديث الشريف : «إن النور إذا دخل القلب اتسع له الصدر وانشرح» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة ؟ قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت» ، ثم تلا النبي ﷺ قوله تعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ^(١) ... (الزمر : ٢٢) .

ويقول الله سبحانه وتعالى : يَتَّبِعَهَا آثَاسٌ أُنْصِتُمْ الْقُرْءَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَبِيرُ . (فاطر : ١٥) .

وقال ابن جريج ومجاهد : إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . إلا ليعرفوني . ا هـ .

فإن المؤمن إذا دارم على عبادة ربه ، والتذلل إليه ، وتلاوة القرآن ، وذكر الرحمان والتهجد ، والاستغفار بالأسحار ، والمواظبة على صلاة الفجر ، وتلاوة دعاء الرسول ﷺ في الصباح والمساء ، فإن ذلك يزيده توفيقاً وفضلاً وقرباً من الله ، ومعرفة به وحباً له ، وهذا إشارة إلى ما صحَّحه عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه : «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف خلقت الخلق لأعرف»^(٢) .

٥٧ - مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رَّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا .

ما أريد أن أستعين بالجن والإنس لجلب منفعة ، ولا لدفع مضرة ، فلا أصرفهم في تحصيل الأرزاق والمطاعم ، كما يفعل الموالى مع عبيدهم .

أى : إنه سبحانه لا يطلب من العباد تحصيل أرزاق يستعين بها أو يملأ بها خزائنه ، وهو سبحانه غنى عن أن يقدم العباد له طعاماً أو خدمة ، كما يحتاج مَلَاك العبيد إلى خدماتهم ، أو تقديم الطعام لهم ، فالله سبحانه غنى غنى مطلقاً ، وخزائنه ملاءى ، وهو يُطْعَم ولا يُطْعَم ، وهو يجير ولا يُجار عليه .

٥٨ - إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .

وكيف يحتاج سبحانه وهو الغنى القوى ، وهو المعطى والمانع ، وهو الرزاق ذو القوة التى لا حدود لها ، وهو القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره .

وهذه الآية كأنها تحليل للآية السابقة عليها ، فكأنه قيل : لا أريد منهم من رزق لأنى أنا الرزاق ، وما أريد منهم من عمل كالإطعام لأنى قوى متين .

روى أحمد ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي مملأاً صدرك غنى ، وأسد فقرك ، ولا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك»^(٨) .

ويقول النبي ﷺ : «يقول الله تعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك ، يمين الله ملأى لا تغيض بها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماذا أنفق منذ أن خلق السماوات والأرض ، فإن ذلك لم يغيض ما فى يمينه»^(٩) .

٥٩ - فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ .

لقد خلقت الجن والإنس لعبادتي ومعرفتي ، فمن خرج عن طاعتي وكفر برسلى ، وظلم نفسه فحرمها من معرفة الله وعبادته ، وشق عصا الطاعة على المرسلين ، وكفر بالله رب العالمين ، هذا الظالم له نصيب من العذاب هو وإخوانه ، مثل نصيب أصحابهم الظالمين السابقين عليهم ، الذين أهلكهم الله بذنوبهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وفرعون وملئه .

قال قتادة :

سَجَلًا من العذاب مثل سَجَلِ أصحابهم ، فلا يطلبوا منى أن أعجل فى الإتيان بالعذاب قبل أوانه ، فهو لاحق بهم لا محالة . ا هـ .

والسَّجَل : الدلو المليئة ، فاستعيرت للنصيب مطلقاً ، شراً كان النصيب أو خيراً .

وقال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

هذا تمثيل ، أصله : السقاء يقتسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب . ا هـ .

والخلاصة :

سيقتسم كفار مكة نصيبهم من العذاب مثل أصحابهم المكذبين ، فلا يتعجلون هذا العذاب ، فإنه قادم لا محالة ، وإن الله لا يعجل لعجلة العباد ، ولا يدركه العجز عن تنفيذ ما أراد .

وهذا جواب عن قولهم : فَأَيَُّا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (هود : ٣٢) .

ونحو الآية قوله تعالى : آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (النحل : ١) .

٦٠ - قَوْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ .

تختم السورة بذكر الهول والويل الذى ينتظر هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وكذبوا نبيهم ، والويل واد فى جهنم ، بعيد غوره ، شديد عذابه ، وسيدركهم العذاب فى اليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، وقال بعضهم : اليوم الموعود يوم بدر ، حيث قتل رؤوس الكفر ، وأسر صناديد مكة ، وفرّ الباقون ، وأصاب الذلّ والعار أهل مكة ، وانتصر الإسلام انتصاراً عظيماً ، وأرى أنه لا مانع أن يراد بالآية عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، والله أعلم .

★ ★ ★

خلاصة ما تضمنته سورة الذاريات

- ١ - دلائل البعث من العجائب الطبيعية والعلوم النفسية .
- ٢ - جزاء المتقين بما يلقونه من النعيم يوم القيامة .
- ٣ - أخبار الأمم السابقة التي كذبت رسلها .
- ٤ - تسلية الرسول ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه .
- ٥ - الفرار إلى الله من هذه الدنيا المحفوفة بالمخاطر .
- ٦ - النهي عن الإشراك بالله .
- ٧ - إخبار الرسول الأمين بأن قومه ليسوا ببدع في الكفر والتكذيب ، فقد كُذبت الرسل من قبله .
- ٨ - أمره ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين
- ٩ - ما خلق الله الجن والإنس إلا لعبادته ومعرفته .
- ١٠ - وعيد الكافرين بأن العذاب سيحلّ بهم يوم بدر ، أو يوم القيامة ، أو فيهما معاً .
- ١١ - إن المشركين سينالهم نصيب من العذاب مثل نصيب نظرائهم المكذبين^(١٠) .

* * *

وكان الفراغ من تفسير سورة (الذاريات) ظهر يوم الإثنين ٦ من جمادى الأولى سنة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٠٠٠/٩/٤ م ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

* * *



تفسير سورة الطور

أهداف سورة الطور

سورة الطور مكية، وآياتها ٤٩ آية، نزلت بعد سورة السجدة، وهي سورة ترجّ القلب البشري رجاءً، بإيقاعها القويّ وفواصلها القصيرة، وتأثيرها في النفس والحس، واستغلالها مشاهد التاريخ ومظاهر الكون للتدليل على الوهية الخالق، وعظيم قدرته.

القسم في صدر السورة

وَالطُّورِ: الجبل فيه شجر، والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن، وهو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام، وتلقى عنده تعاليم السماء، قال تعالى: **وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا .** (مريم: ٥١، ٥٢).

وَكِتَابٍ مُسْتُطَوِّرٍ: الأقرب أن يكون كتاب موسى الذي كتب له في الألواح للمناسبة بينه وبين الطور.

وقيل: هو اللوح المحفوظ تمشيا مع ما بعده، وهو البيت المعمور والسقف المرفوع، ولا يمتنع أن يكون هذا هو المقصود.

وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ: قد يكون هو الكعبة فهي عامرة بالطواف حولها في جميع الأوقات.

وقيل: هو بيت في السماء حبال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه، بل يدخل غيرهم في اليوم التالي^(١١).

وذلك يرمز إلى كثرة الملائكة وهم خلق مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ: هو السماء.

وقد نسب ذلك إلى سفيان الثوري، عن الإمام عليّ رضي الله عنه، وقال تعالى: **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ .** (الأنبياء: ٢٢).

وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ: المملوء، وهو أنسب شيء يذكر مع السماء في مشهد، في انفساحه وامتلائه وامتداده.

وقد يكون معنى، الْمَسْجُورُ: المتقد، كما قال تعالى في سورة أخرى: وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . (التكوير: ٦)، أى: توقدت نيرانا عند نهاية الحياة، وذلك يمهّد لجواب القسم، وهو: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ . (الطور: ٨)

وقد سمع عمر رضى الله عنه هذه الآية ذات ليلة فتأثر بها واشتد خوفه، وعاد إلى بيته مريضا، ومكث شهرا يعود الناس لا يدرون مرضه.

وعمر رضى الله عنه سمع السورة قبل ذلك وقرأها وصلى بها، فقد كان رسول الله ﷺ يصلى بها المغرب، ولكنها فى تلك الليلة صادفت من عمر قلبا مكشوقا، وحسا مفتوحا، فنغذت إليه.

يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا . (الطور: ٩، ١٠).

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهى تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج فى البحر من هنا إلى هناك بلا قوام، ومشهد الجبال الراسية الصلبة تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار أمر مذهل مزلزل، من شأنه أن يذهل الإنسان.

وفى آيات أخرى ذكر القرآن أن السماء تنشق على غلظها، وتتعلق الملائكة بأطرافها، كما ذكر اضطراب الكون وسائر الموجودات فى يوم القيامة.

إن قلوب أهل مكة التى جددت الآخرة، وأنكرت البعث والجزاء تحتاج إلى حملة عنيفة يُقَسَمُ الله فيها بمقدسات فى الأرض والسماء - بعضها مكشوف معلوم، وبعضها مغيب مجهول - على وقوع العذاب يوم القيامة وسط مشهد هائل ترتج له الأرض والسماء: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبُرُوزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ .

(إبراهيم: ٤٨)

وفى وسط هذا المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب من ويل وهول وتقريع وتقزيع.

إن المجرمين يساقون سوقا إلى جهنم، ويدفعون فى ظهورهم دفعا حتى إذا وصل بهم الدفع إلى حافة النار قيل لهم: هذه هى النار، فهل هى سحر كما زعمتم أن القرآن سحر وأن محمداً ساحر، أم أنها الحق الهائل الرهيب؟ أم أنكم لا تبصرون النار كما كنتم لا تبصرون الحق فى القرآن؟

نعيم الجنة

من شأن القرآن أن يقابل بين عذاب الكافرين ونعيم المتقين، وفى الآيات (١٧ - ٢٨) نجد حديثا عن الوان التكريم التى يتمتع بها المقنون، فهم فى الجنات يتمتعون بالوان اللذائذ الحسية والمعنوية، وقد الحق الله الذرية بالآباء إذ اشتركوا معهم فى الإيمان وقصروا عنهم فى العبادة والطاعة.

أدلة القدرة

وفى الجزء الأخير من السورة نجد الآيات لها وقع خاص، ورنين يأخذ على النفس البشرية كل أنعائها، ويجه المنكرين بالعديد من الحجج، ويستفهم منهم بطريقة لاذعة ساخرة لا يملك أى منصف معها غير التسليم.

والآيات تبدأ بتوجيه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يبلغ الدعوة، فهو أمين على وحى السماء، بعيد عن الاتهام بالكذب والجنون. وتسرد الآيات اتهام الكفار له بأنه شاعر أو متقول، ادعى القرآن من عند نفسه ونسبه إلى الله، فتطلب منهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فى دعواهم.

وتعرض أمامهم أدلة القدرة، فهل خلّقوا من غير خالق، أم خلّفوا أنفسهم؟ وإذا انتفى ذلك لم يبق إلا احتمال ثالث وهو أنهم خلّق الله.

ويتوالى هذا الاستفهام الإنكارى يقرعهم بالحجة بعد الحجة، وبالدليل تلو الدليل:

فهذه السماء العالية من خلقها؟ هل هم خلقوها ؟

وهل تطلب منهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة ؟

وهل يملكون أمر الغيب، وأمر الغيب لا يطلع عليه إلا الله؟

وهل لهم إله آخر غير الله يتولاهم؟ تتزده الله عن شركهم.

وعندما وصل جحودهم وعنادهم إلى هذا الحد من الغلو فى الباطل أمر الله رسوله أن يعرض عنهم ويتركهم حتى يلاقوا مصيرهم، وفى هذا اليوم لا ينفعهم كيدهم، ولا تنجيهم مؤامراتهم التى بيتوها بليل، إن لهم عذاباً شديداً فى الدنيا فضلاً عن عذاب الآخرة.

وفى ختام السورة إناس رخصى رضى للنبى الكريم ﷺ، فهو فى عناية الله، وتحت عينه ورعايته، ومن وجد الله وجد كل شيء.

وإذا العنابة لاحظتك عيونها نـرُ بالخاف كَلهن أمان

قال تعالى: وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... (الطور: ٤٨).

أى: فى رعايتنا وجميل عنايتنا.

ملامح السورة

من الملامح الرئيسية لسورة الطور ما يأتي:

- ١ - أقسم الله بمخلوقاتٍ لبيان شرفها وفضلها، وأكد بهذا القسم مجيء القيامة ووقوع العذاب.
- ٢ - وصفت السورة حال المتقين وما ينالهم من نعيم حسي ومعنوي.
- ٣ - ساقط حشداً من الأدلة على وجود الله وعظيم قدرته.
- ٤ - فندت حجج المشركين، ودحضت مزاعمهم بأقوى الأدلة، حيث إن الكون العظيم لا بد له من خالق عظيم، أما هم وآلهتهم العاجزة عن نفعهم وضرهم فلم يخلقوا شيئاً.
- ٥ - في ختام السورة أمرت الرسول ﷺ بالصبر، وبينت أنه في رعاية الله وعنايته.



القسم في صدر السورة، والتحدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْطُّورِ ١﴾ وَكُتِبَ مُسْطُورًا ٢ ﴿فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ٣﴾ وَأَلْبَيْتَ الْمَعْمُورِ ٤ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ ٥ وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ ٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ١٠ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ١٢ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ١٦﴾

المفردات:

الطُّور هو طور سينين، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام.

كتاب مسطور ما كُتِبَ من الكتب السماوية على وجه الانتظام، كالنوراة والإنجيل والقرآن.

الرق جلد رقيق يكتب فيه، أو كل ما يكتب فيه.

منشور مبسوط ظاهر.

والبيت المعمور هو بيت في السماء السابعة حيال الكعبة اسمه الضُّرَّاح، وقيل: الكعبة.

والسقف السماء.

والبحر المسجور البحر المملوء، وقيل في البحر المسجور: الموقد المحمى، من سجر النار، أى: أوقدها، وعنى به باطن الأرض، فالأرض كرة كالبطيخة، قشرتها هادئة محكمة الإغلاق على ما تحتها، وتحت القشرة نار عظيمة، ومن حين إلى آخر تظهر الزلازل والبراكين التي تبتلع البلاد، أو تمطرها بالحمم والنيران، وقيل: هو المملوء نارًا يوم القيامة.

سواقيع النازل وكائن على شدة.

تضطرب تضطرب، أو تدور كالرُّحى.

فى خـوض، فى اندفاع عجيـب فى الأباطيل والأكاذيب، وأصل الخوض: المشى فى الماء، ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء، وغلب على الخوض فى الباطل، قال تعالى: وَخُضُّمُ كَالَّذِي خَاضُوا... (التوبة: ٦٩).

يُـدْفَعُونَ، يدفعون دفعا عنيفا شديداً، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها.

اصـلـوها، ادخلوها وقاسوا حرّها وشدائدها.

تمهيد:

أقسم الله تعالى فى بداية سورة الطور بثلاثة أشياء، كل واحد منها إشارة إلى رسول من رسل ثلاثة، هم: موسى، ومحمد، ويونس.

فالطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، وأعطاه التوراة.

والبيت المعمور إشارة إلى الكعبة، أو إلى بيت فى السماء السابعة حيال الكعبة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك للطواف والصلاة، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ويجوار البيت الحرام ولد محمد ﷺ، وقد أقسم الله بالبيت المعمور، وبالسقف المرفوع وهو السماء تعظيماً لقدر محمد ﷺ.

كما أقسم بالبحر المسجور، المحبوس عن إغراق الأرض، أو البحر الذى هو قشرة باردة، وتحت نار مستعرة، والبحر إشارة إلى يونس عليه السلام الذى هرب من قومه وركب سفينة، ثم أوشكت على الغرق فعمدوا إلى قرعة ليلقوا فى البحر رجلاً من أهل السفينة، فخرجت القرعة على يونس، وفى ظلام البحر، وظلام النفس، وظلام الحوت، نادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

وقد أقسم الله على أن القيامة قادمة، وأن العذاب للكافرين واقع ما له من دافع.

وفى ذلك اليوم يختل نظام الكون، فتمور السماء وتدور كما تدور الرحي، وتسير الجبال وتصبح رماداً مبثراً، وفى ذلك اليوم يشتد العذاب بالكافرين، ويقرّعون باللوم والعتاب.

التفسير:

١ - وَالطُّورُ .

أقسم الله فى صدر السورة بعدة أشياء، وجواب القسم: إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ . (الطور: ٨، ٧).

والطور هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى، مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ...

(القصص: ٢٠)

وقال عز شأنه: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ... (القصص: ٤٦)

٢ - وَكِتَابٌ مُنْطَوِّرٌ .

أقسام بجنس الكتاب السماوي الذي أنزله من السماء، وأمر بكتابه بالقلم في سطور متتابعة منتظمة، لتكون دستوراً للعباد، ونظاماً ينفعهم في حياتهم وآخرتهم، ويشمل ذلك التوراة والإنجيل والقرآن.

٣ - فِي رَقٍّ مُنْشُورٍ .

الرق ما يكتب فيه، جلدًا أو غيره، ونشره بسطه وظهوره للناس، يرجعون إليه ويهتدون بهديه، ويقرأونه بسهولة ويسر، ويطلعون على ما فيه من حكم وأحكام، وآداب وأخلاق.

٤ - وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ .

هو الكعبة المشرفة، يفد إليها الحجاج والمعتمر، للطواف والصلاة والاعتكاف، كما يعمرها المجاورون لها، تبركاً بالعبادة فيها، وطلباً للقبول عند الله.

واختار بعض المفسرين أن البيت المعمور هو بيت في السماء حيال الكعبة، عامر بطواف الملائكة.

قال ابن كثير:

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ، قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته للسماء السابعة: «ثم رُفِعَ بِي إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَمُودُونَ إِلَيْهِ» (١٢).

فهو في السماء يتعبد فيه الملائكة ويطوفون به، كما يطوف أهل الأرض بكميبتهم.

٥ - وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ .

وهو السماء، رفعها الله ممتدة عالية زرقاء، مزينة بالنجوم، ليس فيها خلل أو اضطراب.

قال تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ . (الأنبياء: ٢٢)

٦ - وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ .

والبحر المحبوس من أن يفيض، فيفرق جميع ما على الأرض، ولا يبقى ولا يذر، من حيوان ونبات فيفسد نظام العالم.

ويجوز أن يكون المعنى: والبحر الذي هو كالقشرة الظاهرة، وتحتة نار تتأجج.

وفي يوم القيامة تسجّر البحار، فتصبح نار الله الكبرى، قال تعالى: وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ . (التكوير: ٦)

٧ ، ٨ - إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ .

هذا هو جواب القسم، فقد أقسم الله بالطور وما بعده على أن عذاب الله يوم القيامة واقع ونازل بالمكذبين، ولا يجدون وسيلة لدفع هذا العذاب، ولا يجدون منه مهريا، وفي ذلك اليوم يختل نظام الكون، فتتشق السماء على غلظها، وتتعلق الملائكة بأطرافها.

قال تعالى: وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيلًا * الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان: ٢٥، ٢٦)

٩ ، ١٠ - يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَرًّا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا .

عند نهاية الحياة يختل نظام الكون، ويفقد تماسكه، فتتشق السماء، وتضطرب اضطرابا شديدا، وتدور كالرحى، ويموج بعضها في بعض.

وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا .

تسير الجبال من أماكنها كسير السحاب، وتقتت كالرمل، ثم تصير كالعهن (الصوف المندوف)، ثم تطيرها الرياح فتكون هباء منثورا.

قال تعالى: وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبا: ٢٠)

وقال عز شانه: وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ إِلَهِ الْقَيْنُ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ . (النمل: ٨٨)

١١ ، ١٢ - قَوْلِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ .

في ذلك اليوم الذي تضطرب فيه السماء، وتسير الجبال، هلاك وعذاب شديد يومئذ للمكذبين بالرسول، والمكذبين بالكتب السماوية، الذين يغضضون في الباطل، ويتشاعلون بكفرهم عن الحساب والجزاء.

١٣ ، ١٤ - يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ .

يوم يدفعون إلى جهنم دفعا عنيفا، بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم، فيدفعون إلى النار دفعا على وجوههم.

هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ .

أي: تقول لهم خزانة جهنم تقريبا وتوبيخا لهم على كفرهم وإنكارهم عذاب جهنم: هذه النار التي تشاهدونها هي التي كنتم تكذبون بها في الدنيا، وتكذبكم بها للرسل وللوحى الناطق بها .

١٥ - أَلْفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ .

استفهام قصد به التقرع والتوبيخ والنهك، وذلك لأن الكفار كانوا يقولون عن الرسول ﷺ: إنه ساحر مبين، ف قيل لهم أمام جهنم: هل هذه النار سحر وخيال لا حقيقة لها كما كنتم تقولون عن محمد إنه ساحر؟ أم عميت عيونكم عن مشاهدة جهنم، كما عميت قلوبكم في الدنيا عن مشاهدة الوحى والإيمان به ؟

والخلاصة: هل في المرئى شك، أم في أبصاركم عِلل ؟ لا واحد منهما موجود، فالذى ترونه حق .

١٦ - اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَاءَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

ادخلوا جهنم واصطلوا بنارها، وتعدُّوا بعذابها، والصبر وعدمه سواء، كما قال سبحانه حكاية عنهم: سَاءَ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ . (إبراهيم: ٢١)

فلا مهرب لكم من النار، ولا مخرج لكم من العذاب، وهذا العذاب جزاء أعمالكم في الدنيا، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) ، بل يجازى كلُّ أحد بعمله .

ونلاحظ أن الصبر في الدنيا له ثواب في الآخرة، وهو محمود عند الناس، فيقال للصابر: ما أشجع، أو ما أقوى إيمانه، أو ما أثبت يقينه، ويقال لمن أصابه الجزع والهلع: إنه يجزع كالنسوان والصبيان .

وقد ذكر الصبر في القرآن في أكثر من سبعين موضعا، وحث عليه القرآن، وبيّن فضله وثوابه، أما في الآخرة، فإن صبر الكافر على عذاب جهنم، أو عدم صبره لن ينقذه من العذاب .

قال الزمخشري:

وقوله: إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . تعليل للإستواء، لأن الصبر يكون مزية على الجزع، لتفعله في العاقبة، بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير، فأما الصبر على العذاب - الذى هو الجزاء - ولا عاقبة له، ولا منفعة فيه، فلا مزية له على الجزع. أ. هـ .

والخلاصة:

إن الجزاء محتم الوقوع، لِمَنْ بَقِيَ الوعيد به في الدنيا على ألسنة الرسل، ولقضاء الله به بمقتضى عدله، فالصبر وعدمه سيان حينئذ .

نعيم أهل الجنة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَاءٍ أَنهَرُهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

المفردات:

فأكهين: طيبة نفوسهم، مثللذين ناعمين.

ووقاهم: وحفظهم.

هنياً: الطعام الهنيء: ما لا يلحق المرء فيه مشقة، ولا يعقبه تخمة ولا سقم.

زوجناهم: قرناهم.

الحور: واحدتهن حوراء، من الحور، وهو شدة بياض العين، في شدة سوادها.

العين: جمع عيناء، أى: واسعة العين.

تمهيد:

يصف القرآن الجنة ونعيمها المعنوي والحسي، فالمثقون في جنات ونعيم ملحوظ يتمتعون بالنعيم الحسي، وبالرضا والبعد عن النار، ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً، بلا تعب ولا ألم، مستريحين على الأسرة المنظمة، متزوجين من الحور العين الجميلات وإساعات العيون، السعيدات بأزواجهن، لا ينظرن إلى غير أزواجهن.

التفسير:

١٧ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ .

من شأن القرآن أن يتحدث عن عذاب الكافرين، ثم يعقب بنعيم المؤمنين، وفي هذا شدة عذاب للكافرين وشدة نعيم للمؤمنين، حيث يشاهد الكافرون أن المتقين في نعيم متعدد الأنواع والأجناس، وحيث يشاهد المتقون أن الله قد عافاهم من عذاب الجحيم، وبضدّها تتميز الأشياء.

ومعنى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ .

إن الذين اتقوا الله وراقبوه، وأطاعوا أمره، واجتنبوا معاصيه، يدخلهم الله جنات عظيمة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، يتمتعون فيها بنعيم عظيم دائم، وراحة بال، ويجدون فيها ما تشتهيhe الأنفس، وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون.

١٨ - فَأَكْبِهِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُنَّ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ .

فَأَكْبِهِينَ . أى: حال كونهم مسرورين راضين، متمتعين بما أعطاهم الله من فضله، فهم يتمتعون بالجنة والنعيم، ويتمتعون بالسعادة الداخلية، والرضا بعبادة ربهم، كما قال سبحانه وتعالى:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة: ٨)

ونعمة أخرى تضاف إلى النعيم وإلى الرضا، تلك هى نعمة حفظ الله لهم من النار وعذابها وجحيمها، وغضب الجبار على أهلها.

كما قال سبحانه: فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ . (الطور: ٢٧)

ومن دعاء عباد الرحمان: وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . (الفرقان: ٦٥، ٦٦)

١٩ - كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى: يقال لأهل الجنة تكريماً وتعظيماً وتعويضاً لهم: كلوا أكلاً هنيئاً، واشربوا شرباً هنيئاً، تكون فيهما هناءة الجسم، وسعادة النفس، بلا مرض ولا تعب ولا وخم، ولا عاقبة سيئة، ولا خوف ولا حزن، بل هناءة وسعادة وفرح وحبور، ونضارة وأمن جزاء ما قدمتم فى الدنيا من العبادة والصالح، والاستقامة على الجادة، والبعد عن الشبهات، واجتناب المحرمات.

قال الشيخ أحمد مصطفى المراعى فى تفسير المراعى:

وفى قوله: هَنِيئًا . إشارة إلى خلو المأكَل والمشارب مما ينقصهما، فإن الأكل قد يخاف المرض فلا يهنا له الطعام، أو يخاف النفاد فيحرص عليه، أو يتعب فى تحصيله وتهيئته بالطبخ والإنضاج، ولا يكون شئ من هذا فى الآخرة. ١ . هـ .

٢٠ - مُكَيِّنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ .

فى حالة استرخاء وخلو بال، وتمتع بنعيم الجنة، ويزوجات جميلات واسعات العيون، كل واحدة منهن سوداء المقلة، متمعة لزوجها، عاشقة له، قاصرة الطرف عليه.

قال المفسرون:

فالأمرأة التى يجلسون عليها قد اصطفت بجوار بعضها، وهم يجلسون عليها جلسة المتكئ الذى لا كلفة عليه، ولا تكلف لديه، فإن من يكون عنده من يتكلف له يجلس ولا يتكئ، فمن يكون فى مهم لا يتفرغ للاتكاء، فعلى أهل الجنة حال اطمئنان، ورفع كلفة وخلو بال، ونحو الآية قوله تعالى: عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ . (الصافات: ٤٤)

إكرام الذرية وجمعهم مع آبائهم

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۖ﴾ ﴿١١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٢﴾ يَنْتَزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَوْفُهَا وَلَا تَأْنِي ۖ ﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾

المفردات:

وما ألتناهم: وما أنقصنا الآباء بسبب إلحاق الأبناء بهم.

رهين: مرهون عند الله بعمله، والعمل الصالح يفكه، والعمل الطالح يوبقه.

وأمددناهم: زدناهم.

مما يشتهون: من صنوف النعماء، وضروب الآلاء.

ينتازعون: يتجاذبون تجاذب ملاعبة وسرور.

كأساء: إناء به خمر، والكأس مؤنث سماعي كالخمر.

لا لوف فيها: أى فى شرايها، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب بلغو الحديث وسقط الكلام.

ولا تأنيهم: ولا يفحشون فى القول، كما هو ديدن الندامى فى الدنيا، فإنهم كثيرو اللغو، فعالون للأظام.

تمهيد:

هذه ألوان من نعيم الجنة، ومنها نعيم الأنس بالذرية الصالحة، إذا اشتركت مع الآباء فى الإيمان، فإن الله يلحق الأبناء بالآباء فى الجنة، لتقر أعينهم بهم، ويانسوا بأولادهم، ولا ينقص الآباء عن درجاتهم.

ويمدُّ الله أهل الجنة بالفاكهة واللحم مما يشتهون، ويتجاذبون كلوس الخمر تجاذب طرفة ومحبة، بلا ساقط من الكلام، ولا ارتكاب إثم، كشأن ندامى الخمر فى الدنيا.

التفسير:

٢١ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ .

نوع من أنواع الفضل الإلهي على أهل الجنة، فإذا كان الآباء فى الدرجات العليا من الجنة، والأبناء اشتركوا معهم فى الإيمان، وقصروا عن الآباء فى الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى يتفضل على الآباء بأن يرفع درجات الأبناء فى الجنة، ويلحقهم بآبائهم، لتقر عيونهم بهذا الاجتماع الأسرى، وجمع الشمل بين الإنسان وآبائه وأبنائه، ولا ينقص الآباء من درجاتهم شيئاً، لأن الآباء قد عملوا أعمالاً أهلتهم للدرجات العليا.

كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ .

أي: كل إنسان مرتبط بعمله، فهو الذي يرفعه وهو الذي يخفضه، وليس من العدل أن ينقص الأب درجة من أجل ابنه.

فأله تعالى عامل الأبناء بالفضل ورفع درجاتهم، وعامل الآباء بالعدل وأبقاهم في المنزلة العليا في الجنة، حكمة منه وعدلا وفضلا وإحسانا.

قال ابن عباس:

إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في المنزلة، لتقرُّ بهم عينه، وقرأ الآية.

(رواه الحاكم، والبيهقي في سننه)

وفي رواية الطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس أنه قال: إن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة، سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال له: إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول: يا رب، قد عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به». وقرأ ابن عباس الآية: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ .

والآية على ما ذهب إليه كثير من المفسرين في الكبار من الذرية دون الصغار.

وروى عن ابن عباس والضحاك وغيرهم أنهم قالوا: إن الله يلحق الأبناء الصغار، وإن لم يبلغوا زمن الإيمان بأبائهم المؤمنين، كما يلحق الكبار المكلفين المؤمنين الذين لم يبلغوا درجة آبائهم في العمل الصالح والبعد عن المعاصي، يلحقهم بأبائهم في درجاتهم في الجنة، إكراماً لهم ولتكميل بهم مسرتهم. أ. هـ .

ورحمة الله واسعة، وفضله كبير، وكان بالمؤمنين رحيمًا.

٢٢ - وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ .

زودناهم بفاكهة كثيرة، ولحم كثير مما يشتهونه، ويستطيبونه ويستحسنونه، وإن لم يقترحوا ولم يطلبوا، وذكر التفاكهة واللحم دون أنواع الطعام الأخرى، لأنهما طعام المترفين في الدنيا.

٢٣ - يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا نَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ .

يتجاذبون في الجنة كأس الخمر تجاذب ملاطفة وفرح وخبور، فيما بينهم لشدة سرورهم.

كما قال الأختل:

تازعته طيب الراح الشَّمْلُ وقد صاح الدجاج وحانت رقة السَّأرى

وليس في شراب الجنة ما في الدنيا من اللغو والباطل والإثم، عند زوال العقل بسبب الخمر، وإنما ينطقون بالحكم وأحسن الكلام، ويفعلون ما يفعل الكرام، وقد مدح الله خمر الجنة بأنها لذة، وأنها لا تقتال عقول شاربها، وأنها لا تنفد، وأن شكلها أبيض جميل، وأنها لذیذة الطعم.

قال تعالى: يُبْضِئُ لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ . (الصافات: ٤٦، ٤٧)

وقال تعالى: لَا يَصْذَعُونَ عَلَيْهَا وَلَا يَنْزَفُونَ . (الواقعة: ١٩)

★ ★ ★

ألوان أخرى من نعيم أهل الجنة

﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكُونٌ﴾ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا وَوَقَعْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

المفردات:

غُلَمَانٌ، مماليك مختصون بهم.

مَكُونُونَ، مصون في أصدافه، لم تله الأيدي، فهو يكون أبيض صافى اللون.

مُشْفِقِينَ، أرقاء القلوب من خشية الله..

فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا، فتفضل علينا كرمًا منه.

السَّمُوم، النار الشديدة الحرارة، وسميت سموما لأنها تخترق مسام الجلد.

الْبَرُّ الواسع الإحسان.

تمهيد:

هذه ألوان أخرى من نعيم الجنة، وتقصيلاً ألوان هذا النعيم، ومن ذلك ما يأتي:

(أ) يقوم على خدمتهم غلمان دون البلوغ، في صفاء اللؤلؤ المحفوظ الذي لم تلمسه الأيدي، وإذا كان هذا جمال الخادم، فما بالك بجمال المخدم.

(ب) التفكّه والتلذذ بالحديث مع بعضهم البعض، عما كان منهم في الدنيا.

(ج) كانوا بين أهلهم سعداء باجتماع الشمل، لكنهم كانوا مشفقين من عذاب الله، فلم يقرّفوا المعاصي، ولم يتجاسروا على اقتراف الكبائر، خوفاً من الله.

(د) تفضل الله عليهم بمنه، وأدخلهم الجنة برحمته وفضله، فإنه هو الذى وفقهم للاستقامة والعمل الصالح، وهو الذى يضاعف لهم الجزاء فى الجنة.

(هـ) حفظهم الله من عذاب النار، الذى يدخل فى مسام الجسم، لذلك سُمى بالسموم.

(و) لقد كانوا محافظين على دعاء الله، والتبتل إليه وعبادته، إنه رحيم متفضل على عباده.

التفسير:

٢٤ - وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَرُونَ .

ومن نعيم أهل الجنة أن يقوم على خدمتهم غلمان دون البلوغ، مختصون بخدمتهم، هؤلاء الغلمان فى صفاء اللؤلؤ المحفوظ المصون فى صدفه، صفاءً وبياضاً ونقاءً ونفاسةً.

وإذا كان الخادم فى هذه الدرجة العالية من الجمال والنقاء، فما بالك بالمخدوم، والدرجة العليا التى تمتع الله بها.

أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة، قال: بلغنى أنه قيل: يا رسول الله، هذا الخادم مثل اللؤلؤ، فكيف بالمخدوم؟ فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».

ونحو الآية قوله تعالى: يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانِ مَخْلُودُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . (الواقعة: ١٧، ١٨)

٢٥ - وَأَقْبَلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ .

يشاقق أهل الجنة إلى الإخوان، والحديث معهم، فيتحرك السرير بأحدهم ليكون فى مواجهة أخيه، فيتذاكرون ما كان فى الدنيا، ويتساءلون عن أحوالهم السابقة فى دنياهم، تسأول تلهذ وسرور بتوفيق الله لهم، وتجاحهم فى رحلة الآخرة.

٢٦ - قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ .

قالوا: لقد كنا فى حالة مبهجة باجتماع الشمل، ووجودنا بين أهلينا وعشيرتنا، لكننا لم نجترئ على معصية الله، ولم نجروا على اقتراف الكبائر، خوفاً من مقام الله، وإشفاقاً من غضبه.

٢٧ - فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ .

فتفضل الله علينا بمنه ورحمته، لقد وفقنا للطاعات فى الدنيا، ثم تفضل علينا بدخول الجنة، وحفظنا من عذاب السموم، وهو عذاب النار الذى يتسلل إلى مسام الجسم.

وهذا اعتراف لله بالفضل والمنة، حيث وفقهم للعمل الصالح في الدنيا، وتفضل عليهم بدخول الجنة، وإبعادهم عن عذاب السعير.

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لن يدخل الجنة أحدٌ منكم بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته، فسدوا وقاربوا، ولا يمتنن أحدكم الموت، إما محسناً قلله أن يزداد في إحسانه، وإما مسيئاً قلله أن يستعقب» (١٣). أي: يتوب إلى الله تعالى، ويطلب العتق والمغفرة.

وقد ورد أن عبادة الإنسان كلها في حياته لا تكافئ نعمة واحدة، كنعمة البصر، فضلاً عن سائر النعم، وهذا يجعل المسلم يشكر ربه، ويعترف لله تعالى بفضلته ومنته، وواسع رحمته، وعميم إحسانه ونعمائه.

٢٨ - إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم .

إنا كنا من قبل في الدنيا نعبده سبحانه، ونبتل إليه، ونلتذ بالتقرب إليه، وطاعته ودعائه وعبادته، وهو سبحانه (بر) عظيم الفضل والمنة والنعمة، (رحيم) واسع الرحمة.

قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ... (الأعراف: ١٥٦)

وفي الحديث الشريف: «قسم الله الرحمة مائة جزء، أنزل جزءاً واحداً في الدنيا يتراحم به الناس، وأدخر تسعة وتسعين جزءاً يرحم الله بها عباده يوم القيامة» (١٤).

فما أعظم رحمته وفضله، قال تعالى: كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... (الأنعام: ٥٤)

وفي الحديث القدسي: «... إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

★ ★ ★

محاكاة المشركين

﴿فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّ أَلَمْ نَكْرِ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَصِبِينَ ۝٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَعُهُمْ هَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ۝٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۝٣٤﴾

المفردات:

فَذَكِّرْ - فأنبئ، فأنبه، فأنبه على ما أنت عليه من التنكير.

الكاهن: من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن.

والعمراف: من يخبر بالأخبار المستقبلية.

نتـريـس: تنتظر.

رب المنون: حوادث الدهر ومصائبه، والمنون هو الدهر، وقيل: هو الموت.

قال أبو ذؤيب:

أمن المنون وربها تنزع والأهر ليس بمعتب من يجزع

وقال آخر:

تريـس بها رب المنون لعلها تطلـق يوماً أو يموت حليها

الأحلام: العقول.

طـاغـوـن: مجاوزون الحد في المكابرة والعناد.

تقـوـلـه: اختلقه من لقاء نفسه، إذ التقول لا يستعمل غالباً إلا في الكذب.

تمهيد:

هنا يناقش القرآن المشركين، ويشدُّ أزر الرسول الأمين ﷺ فيقول:

(أ) استمر في أداء رسالتك ودعوتك، فلست بكاهن يخبر عن الأمور الخفية الماضية، ولست بفاقد للعقل، فأنت عرفت برجاحة العقل، وبالحكمة شأناً وناشأً، ومن باب أولى بعد بلوغ الأربعين.

(ب) إن الكفار مضطربون في فهمهم، ولا يثبتون على حال، فقد اجتمعوا في دار الندوة، وقال أحدهم: إن محمداً شاعر، فانتظروا أن يموت كما مات من سبقه من الشعراء، والموت كأس على رؤوس الجميع، فإن انتظروا موتك، فإنك أيضاً تنتظر موتهم، أو ما يصيبهم من الموت المُنَوَّى يوم بدر وغيره.

(ج) هل عقولهم تأمرهم برفض الإسلام دون مناقشة فكرته، أم هو الطفيان والعديان ومجاوزة الحد في العناد.

(د) وقالوا: محمد افترى هذا القرآن من عند نفسه، والحقيقة أنهم رفضوا الإيمان بالله ورسوله، فإن كانوا صادقين في هذه التهمة بأن محمداً اخلق القرآن ونسبه إلى الله فليأتوا بقرآن مثله، فهم أهل الشعر والخطب والفصاحة.

التفسير:

٢٩ - قَدْ ذَكَرْنَا قَدْ أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ .

كان كفار مكة يختلقون التهم لإلصاقها بالرسول ﷺ، رغبة في الحط من شأنه، وصرف الناس عنه، والقرآن هنا يقول له: دُمَّ على تبليغ الرسالة، وسِرِّ في طريقك، ولا تكثرِث بالتهم التي يحاولون أن يلصقوها بك.

وكان ﷺ قد عُرف بالصدق والأمانة، ورجاحة العقل في نشأته وشبابه، وقد كانوا يحكمونه في المهمات، فلما نزلت عليه الرسالة، قال شيبه بن ربيعة: إنه كاهن يدعى معرفة الأخبار الخفية، والقرآن أشبه بسجع الكهان.

وقد غلب على الكهان السجع مثل قولهم: والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، لقد سبق هاشمٌ أمية إلى المآثر، والكهانة اجتهد إنسان، وهو أحياناً يصيب، وأحياناً كثيرة يخطئ، أما القرآن فقد اهتم باللفظ والمعنى، والقيم والآداب، والتشريع والتاريخ وإحياء الضمير.

وقال عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ: إن محمداً مجنون، والقرآن نتيجة إصابته بنوبة الجنون.

وعند التأمل نجد الاضطراب واضحا في كلام المشركين، فالكاهن يجب أن يكون في غاية الذكاء، واستبطا المجهول من المعلوم، والمجنون هو فاقد العقل، ولا يجتمعان في شخص واحد، مما يدل على شدة اضطرابهم وتعتنهم، وما زال القرآن أثرا خالداً من أصدق الكتب وأعدلها في الإخبار عن الماضي، والتشريع للحاضر، والإرشاد للمستقبل.

وخلاصة معنى الآية:

دُمَّ عَلَى تذكير المشركين، ولا ترجع عن تبليغهم بسبب قولهم إنك كاهن مجنون، لأن الله أنعم عليك بأجل النعم، وهي الرسالة الخاتمة.

٣٠ - أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ .

بل هم يقولون: هو شاعر، نترصد به أحداث الدهر، من موت أو حادثة متلفة، وكان كفار قريش قد اجتمعوا في دار الندوة وكثرت آراؤهم فيما يقولونه فيه ﷺ، حتى قال قائل من بني عبد الدار: تریصوا به ريب المنون فإنه شاعر وسيهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى، ثم افترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية.

والخلاصة: اجتنبوا مقابله حتى لا يغلبنا بشعره، وانتظروا موته كما مات الشعراء من قبله.

٣١ - قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرَبِّصِينَ .

قل لهم يا محمد: انتظروا موتي كما شئتم، فإنني أيضا أنتظر موتكم وهلاككم، أو هزيمتكم عند اللقاء، وهو نوع من الموت المعنوي، والآية تتضمن وعد الله له بالنصر، ووعده لأعدائه بالهزيمة.

قال تعالى: وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . (الشعراء: ٢٢٧)

٣٢ - أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

هل عقولهم الراجحة تأمرهم بالوقوع في هذا الاضطراب، فيقولون: هو شاعر أو كاهن، ثم يقولون: هو مجنون، ومعنى شاعر: له عبقرية متميزة، تقرض الشعر المتميز، ومعنى كاهن: له ذكاء خارق يستطيع التنبؤ بالحكم الخفى في الأحداث السابقة، أما المجنون فهو من ذهب عقله واختفى، فكيف يوصف محمد بغاية الذكاء مرة، وبغيبية العقل مرة أخرى ١٩

أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

بل إن السبب الحقيقي هو الطغيان، ومجاوزة الحد في الخروج عن الجادة والعناد، وبذلك انصرفوا عن الاستماع للقرآن، إذ ما فائدة العقول الراجحة، التي كان لها فضل على العرب في إنشاء أسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز، لعرض الرائع من القول، والمتميز من الشعر، والفاق من الخطب، ثم يأتي القرآن عريياً مبيهاً، لكنهم وعلى طريق حوارهم، فيمنعهم الطغيان والعناد من النظرة المتصفة للقرآن الكريم.

قيل لعمرو بن العاص: ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله تعالى بالعقل؟ فقال: تلك عقول كادها الله عز وجل، أى لم يصحبها التوفيق، فلذلك لم يؤمنوا وكفروا، وإذا تأملنا فى الموضوع وجدنا أن قريشا كانت لها الصدارة فى الجزيرة العربية، ويتمتع بمنزلة سامية فى المجتمع المجاور لها، وقد خالطت أهل الشام فى رحلة الصيف، وأهل اليمن فى رحلة الشتاء، وكان الأولى بها أن تعتبر بما شاهده.

وعقول أهل مكة كانت أسمى من أن تعتقد الألوهية للأصنام والتماثيل، وخصوصاً بعد نزول القرآن، وتوضيح الرسول الأمين، لكنها المصالح الدنيوية، والآثرة والحرص على الغنى والجاه، والحرص على ممارسة الربا والزنا وشرب الخمر، وعدم إقامة الصلاة وعدم إيتاء الزكاة، كل هذا هو الذي حملهم على اتخاذ موقف الطغيان والعدا من الإسلام ورسوله محمد ﷺ.

أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

(القصص: ٥٧)

وقال عز شانه: لإِيلَافٍ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ . (قریش: ١ - ٤)

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. (الأنعام: ٢٣)

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. (النمل: ١٤)

۳۳ - أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلُهُ بَلْ لَأَيُّمُونُونَ .

والقرآن هنا يكيل لهم المناقشة والتحدى، ويسرد تقولاتهم، ويعرض كل ما قالوه، ويوضح الأسباب الخفية وراء عنادهم وافترائهم، فما قالوه إن محمداً حاد الذكاء، قوى التخيل، فالقرآن نَحَّجَّ التخيل النفسى، والاستبصار الذكى، والقدرة الفائقة التى تتخيل بالليل افضل ما يقال للناس، ثم يصوغ ذلك للناس بأنهار.

بَلْ لَأُؤْمِنُونَ .

يل عدم الإيمان، وعدم الهدى، وعدم التوفيق، هو الذى جعلهم يتهمون محمداً بتهمة هو منها برى.

٣٤ - فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلَهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ.

والقرآن منطلق معهم، فخلاصة معنى الآية السابقة: إن محمداً عبقرى، قد تقول القرآن من عند نفسه، ونسبه إلى الله تعالى كذبا وزورا.

وهنا يمسك القرآن بتلابيبهم فيقول: محمد نشأ بينكم، وما قرأ كتابا، ولا اشترك في مناقشة شاعر أو كاهن، أو خطيب أو فصيح من فصحاءكم، فإذا ادعيتهم أنه تقول القرآن، أى نسبه كذبا إلى الله تعالى، كان المعنى: إن في استطاعة الأذكاء منكم أن يأتوا بمثله فافعلوا، واثبوا بقرآن مثل هذا إن كنتم صادقين، أو اثبوا بعشر سور مثله مفتريات، أو اثبوا بسورة مما نزلنا على عبدنا، ثم تحدّاهم وتحدى أمثالهم من الملحدّين المحدثين، الذين يدّعون أن القرآن نتاج عبقرية محمد، وقوة تخيّل أو هو نوع من أحلام اليقظة، أو منظومة إصلاحية عالية.

هذه التهم التى يذكرها بعض المستشرقين، وبعض من يسيرون خلفهم، فنّدها القرآن سابقا بهذا التحدى:

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلَهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ.

هؤلاء هم الفلاسفة، وعلماء النفس والاجتماع، والأدباء والشعراء، والكتّاب والقصاص، هل فى استطاعتهم أفراداً أو مجتمعين، أن يأتوا بمثل هذا الكتاب ؟

إن كان الملحدون صادقين، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ...

قال تعالى: قُلْ لِّئِنْ جُمِعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً . (الإسراء: ٨٨)

إن إعجاز القرآن تنوع فى عصور تاريخية، فكان كتاب كل العصور، فعند نزوله كان العرب أرباب الفصاحة والبيان، فتحدّى القرآن العرب، وطالت مدة التحدى، وقد حارب العرب محمداً، وقاتلوه وقاتلهم، وهزموه فى معارك قليلة، وهزمهم فى معارك كثيرة.

وكان الباعث لهم على اختراع مثل القرآن موجوداً، ومحاولة انتصاف المشركين لأنفسهم موجودة، ولقد حاول المشركون الإتيان بمثل القرآن، وجاءوا بكلام دون القرآن بكثير، وكانت محاولاتهم أدل على إعجاز القرآن وتوقّفه عن المماثلة.

قال بعضهم: إنا أعطيناك الجواهر، فصل لريك وجاهر...

وقال مسيلة الكذاب: والزراعات زرعاً، فالحاصدات حصداً، فالعاجنات عجنأ، فالخابزات خبزأ، فالأكلاات لقماً ... ، فقال له أحد المسلمين: وماذا بعد ذلك ؟

وعندما تقدمت العلوم والفنون، طُنَّ الملحدون أن أهمية الأديان ستقل أمام التقدم العلمي، والإحصاءات العلمية في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها تؤيد حاجة الأفراد والمجتمعات إلى الدين، فهو شفاء للنفس، وسعادة للإنسان الحقيقية، وقد أشار إحصاء لطبيب أمريكي أجراه على آلاف المرضى المترددين على عيادات الأطباء في أمريكا، وظهر من الإحصاء أن ٥٠ ٪ (خمسعين في المائة) من المترددين على عيادات الأطباء، ليست بهم أمراض إكلينيكية أو عضوية، وإنما هو الإحباط والخوف والحيرة والتردد، وأن الدين هو أفضل علاج لمثل هذه الأمراض، التي يعجز الطب البشري عن علاجها.

إن القرآن شفاء ماضٍ ومعنوي للمجتمعات والأفراد.

قال تعالى: وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا . (الإسراء: ٨٢)

★ ★ ★

استقها مات متتابعة للمشركين

﴿أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ (٣٦) ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾ (٣٧) ﴿أَمْ لَهُمْ سُمٌّ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (٣٨) ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ (٣٩) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ (٤٠) ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (٤١) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ (٤٢) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣)

المفردات:

من غير شيء: من غير خالق.

خزائن ريك: خزائن رزقه ونعمائه

المسيطرون: القاهرون والمسلطون عليها، من قولهم: سيطر على كذا، إذا راقبه وأقام عليه.

سُئِلُمْ: مرتقى ومصعد إلى السماء.

بسُلْطَانٍ مُّبِينٍ: بعبارة واضحة تصدق استماعه.

مَغْرَمٍ: التزام غرامة طلبها منهم.

مُثْقَلُونَ: محملون ما يتلهم ويجهدهم.

الغيب: علم الغيب.

كـيـدأ، مكرأ وشرأ.

المكـيـدون، الذين يحيق بهم الشر، ويعود إليهم وباله.

تمهيد:

فى هذه الآيات يتابع القرآن حملته على المشركين، ليسفّه آراءهم، ويؤكد وحدانية الخالق، ويتابع التحدى السابق بأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثل القرآن، وهذا دليل على أنه من عند الله، والآيات (٣٥ - ٤٣) هى استنفهامات متلاحقة تأخذ بتلابيب المشركين وتسألهم: هل خلّقوا من غير خالق؟ هل خلّقوا أنفسهم؟ وكل ذلك محال، فلم يبق إلا أن يكون الله هو الذى خلقهم.

ثم تقول: هل خلّقوا السماوات والأرض؟ إن هذا الخلق العظيم لا يقدر عليه إلا الله.

هل عندهم خزائن رزق الله؟ أم هل هم المسيطرون على أفضاله ونعمائه؟

وهل عندهم علم الغيب؟ وهل يملكون دليلا على ذلك؟ وهل يليق بهم أن يجعلوا الملائكة بنات الله، فيكون لله البنات ولهم البنون؟

وهل تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة، فهم فى دين عظيم لا يستطيعون سداده؟

وهل عندهم علم الغيب؟ حاشا وكلا، فكل ذلك من خصائص الألوهية.

وهل يريدون إيقاع المكر والشر بالمسلمين؟ لا، لن يستطيعوا، وسيقعون هم فى هزيمة بدر وما بعدها، حتى تفتح مكة، ويهزم الشرك وينصر الحق.

وهل لهم إله غير الله؟ تنزه الله عن الشريك والمثيل.

بهذه الاستنفهامات المتلاحقة التى تشبه السياط التى تلهب ظهور المشركين، يفنّد القرآن آراءهم، ويوضح حقائق القدرة الإلهية التى بيدها الخلق والأمر، تنزه الله عن كل شريك ومثيل.

التفسير:

٣٥ - أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ .

إنهم مَوْجُودُونَ فى صورة بديعة جميلة، بها حواس متعددة: بصر، وسمع، وقوام، وعقل، وأيد، وأرجل.

فهل هذا الخلق البديع المتكامل وجد من غير مُوجد؟ هذا باطل.

هل هم الذين خلّقوا أنفسهم؟ هذا مستحيل، فلم يبق إلا أن يكون الله تعالى هو الذى خلقهم.

روى البخارى، عن جبير بن مطعم، أنه لما قدم على رسول الله ﷺ بعد وقعة بدر فى شأن فداء الأسرى، سمع النبى ﷺ يقرأ فى صلاة المغرب بسورة الطور، قال: فلما بلغ فى القراءة هذه الآية: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . كاد قلبى يطير^(١٥).

لقد اهتز قلب الكافر من أجل آية، ولو فتح القوم قلوبهم للقرآن لآمنوا، لكنهم أعرضوا وكفروا.

٣٦ - أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ .

هل خلقوا السماوات ؟ هذا الخلق العظيم البديع، هذه القبة الزرقاء الممتدة، بما فيها من أفلاك وأملاك، ومَجَرَّاتٍ، وشموس وكواكب، هل خلقوا هذا الخلق البديع؟

هل خلقوا الأرض، وما فيها من بحار وأنهار، وطرق وجبال، وزروع وثمار، وإنس وجن، وطير ووحش، وليل ونهار ؟

إن هذا الخلق القائم أمامهم، من خلقه؟ لا يستطيع عاقل أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض، ولا يستطيع أن يقول إنهما خلقتا أنفسهما، ولا إنهما خلقتا من غير خالق، فلم يبق إلا أن يكون الله هو الذى خلقهما.

وكان القوم إذا سئلوا عن خلق السماوات والأرض، قالوا: الله .. ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح فى إدراكهم إلى درجة اليقين الكامل، والاعتقاد الواضح الدقيق.

بَلْ لَا يُوقِنُونَ .

فليس إيمانهم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض إيماناً كاملاً، أو يقيناً جازماً، ولو كان كذلك لما عبدوا الأصنام والأوثان، ولما كذبوا برسالة محمد ﷺ، فهم فى تردد وحيرة، ليس فيها يقين جازم.

٣٧ - أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكَ أَمْ هُمُ الْمُسْتَطِرُونَ .

هل يملكون خزائن رحمة الله وفضله، واختيار الأنبياء والأغنياء، والأرزاق والألطاف؟ كلا، فذلك كله فضل الله.

وهل لهم سيطرة على هذه الأرزاق والألطاف ليتحكموا فيها، فيطلبوا أن تكون الرسالة الخاتمة لرجل من القريتين عظيم ؟

وقريب من ذلك قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... (الزخرف: ٢١، ٢٢)

٣٨ - أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ فَلَيَاتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ .

إن محمداً ﷺ يتلقى وحى السماء، وينزل جبريل عليه بالوحي غصاً طرياً، والقرآن له سلطان على النفوس وهيمنة وعجاز، وسرٌ يشعر به صاحب القطرة السليمة.

فهل هؤلاء الكفار يملكون مثل ذلك؟ هل لهم سُلْمٌ منصوب إلى السماء، أو مرقاة يطلعون بها إلى الملأ الأعلى، ويستمعون إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم، ويطلعون على علم الغيب؟

إن كانوا يملكون ذلك فليأتوا بدليل واضح، وحجة بيّنة، كما أتى محمد ﷺ بالوحي الذى عجزوا عن محاكاته، ولزمتهم الحجة.

٣٩ - أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ .

كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن الله أصهر إلى سراة الجن فأنجب منهم الملائكة.

قال تعالى: وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكَبُّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ .

(الزخرف: ١٩)

وهنا يوبخهم على زعمهم، فهم ينسبون الإناث إلى الله، وفى القرآن الكريم: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . (الزمر: ٤)

وقد هاجمهم القرآن، ووبخهم على هذه الفرية الساذجة فى مثل قوله تعالى: أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ * تِلْكَ إِذَا قُسِمَةُ ضَيْبَىٰ . (النجم: ٢١، ٢٢).

أى: جاثرة، حيث تجعلون له الأقل، ولكم الأعلى فى زعمكم.

وقال سبحانه: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (الزخرف: ١٧)

وهنا يستفهم هذا الاستفهام الإنكارى، فيقول: أتجعلون لله الأقل فى زعمكم ولكم الأعلى، لقد كان أحدهم يسود وجهه إذا بُشِّرَ بالأنثى، ومع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله، فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ليُخجلهم من هذا الادعاء المتهاافت: أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ .

٤٠ - أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرُومٍ مُّقْتَلُونَ .

لقد أدّى جميع الرُّسل رسالات السماء تطوعاً دون أجر، أو تقاضى أموال من المرسل إليهم.

وكان محمد ﷺ مشهوراً بأنه الصادق الأمين، وكان حريصاً على هدايتهم، ومع هذا أعرضوا عن الهداية التي قدمها الرسول ﷺ لهم.

وهنا يتساءل القرآن: هل أنت يا محمد تطلب منهم أجراً وأموالاً كثيرة على تبليغ الرسالة، أو دخولهم في الإسلام، فهم مشفقون من التزام غرامة ثقيلة تطلبها منهم على الهداية؟

الواقع أنك لا تطلب منهم أجراً كبيراً ولا قليلاً، فلماذا يفرون من الهدى، وفيه صلاحهم وهو بين أيديهم؟

وقريب من هذه الآية قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ... (هود: ٢٩)

٤١ - أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ .

هم عبيد مريويون، لا يعلمون من أمر الغيب شيئاً، والله وحده هو علام الغيوب، وهنا يتساءل:

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ .

أعندهم علم الغيب فهم منهمكون في كتابته، والجواب معلوم، وهو: لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا ينزل الوحي إلا الله ، ولا يكتب القرآن إلا كتبه الوحي لرسول الله ﷺ، وإذا كنتم لا تعلمون الغيب، ولا تكتبونه في اللوح المحفوظ، فآمنوا بأن الذي يملك الغيب والقدر واللوح المحفوظ هو الله القادر، المختص وحده بعلم الغيب وكتابته.

قال تعالى: قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . (الزمر: ٤٦)

٤٢ - أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ .

هل يريدون تدبير أذى للرسول ﷺ ؟ لا يستطيعون ذلك، فإله يعصمه من الناس، وسيقع جزاء كيدهم وشراً بهم.

وهذه الآية من إعجاز القرآن وإخباره بالغيب، فقد نزلت قبل الهجرة، حيث اجتمع الكفار في دار الندوة، يدبّرون الكيد لرسول الله ﷺ.

فمنهم من يري حبسه، ومنهم من يري نفيه خارج مكة، ومنهم من يرى أن يُختار من كل قبيلة شاب، ويعطى كل شاب سيفاً صارماً بئازاً، ويضرب الجميع محمداً ضربة رجل واحد، وبذلك يقرّض دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم، فيقبلون الدية في دمه، ثم استقرّوا واتفقوا على هذا الرأي، لكن الله تعالى

أبطل كيدهم، وحفظ رسوله ﷺ، وأخرجه من بينهم، وقد أعمى الله أبصارهم عنه، ويسر طريق الهجرة لرسوله ﷺ، ثم هزمهم الله في بدر، وظل شأنهم في انحدار، وشأن الرسول ﷺ في ارتقاء، حتى فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا.

من حاشية الجمل

أريد أن أنقل لك نبذة وصورة من حاشية الجمل على تفسير الجلالين، لتحيط بأسلوب التأليف للشيخ سليمان بن عمر المعجلى الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ، حيث يقول (٤ / ٢٢٠):

أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا ...

أى: مكرًا وتحيلًا فى هلاكك.

وفى المصباح: كاده كيدا، من باب باع، خدعه ومكر به، والاسم: المكيدة، أ. هـ.

والاستفهام إنكارى، على معنى نفى اللياقة والانبعاث، أى: لا ينبغي ولا يليق منهم هذه الإرادة، أى التشاور والاجتماع على كيدك، كما ذكر فى قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . (الأنفال: ٣٠)

وكان هذا المكر فى دار الندوة، وهى دار من دور أهل مكة.

والظاهر أنه من الإخبار بالغيب، فإن السورة مكية، وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة.

فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ .

هذا من وقوع الظاهر موقع الضمير، تنبيها على اتصافهم بهذه الصفة القبيحة، والأصل: أم يريدون كيدا فهم المكيدون. أو حكم على جنسهم نوع منه، فيندرجون فيه اندراجاً أولياً، لتوغلهم فى هذه الصفة.

ثم أهلك الله الكافرين فى غزوة بدر وما بعدها من غزوات (١٦) .

٤٣ - أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والاستفهام فى هذه الجملة كلها للتوبيخ والتفريع والإنكار.

والمعنى :

هل هؤلاء الكفار إله آخر غير الله خلقهم وسواهم، وأحياءهم ويميتهم، فهم لذلك يعبدونه، ويشركون عبادته مع عبادة الله؟ تنزه الله عن أن يكون له شريك أو مثيل أو ند أو نظير.

قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى: ١١)

هو وحده الذى يملك خلق السماء، وخلق الأرض، وخلق الإنسان متدرجا فى مراحل حياته، من نقطة إلى علقه إلى مضغة، إلى أن تتفج فيه الروح، ويخرج للحياة وليداً، فيجعل له للنظر عينين، وللسمع أذنين، وللبلش يدين، وللمشى رجلين، ثم يمر هذا الوليد بمراحل الطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة، ثم الموت، ثم البعث والحشر والحساب، والثواب أو العقاب، فאלله وحده الذى يخلقهم ثم يرزقهم.

قال تعالى: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(الجنابة: ٣٦)

★ ★ ★

ختام سورة الطور

﴿وَأَنزَلْنَاكَ مِن سَمَاءٍ مِّن لَّدُنِّيكَ سَابِقًا يُفَتَنُونَ فِيهِ كَثِيرًا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ۚ وَلَئِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٤٧ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ٤٩﴾

المفردات:

كِسْفًا : قطعة من السماء تسقط عليهم.

سحاب مَرْكُوم: هذا سحاب تراكم بعضه على بعض، نرتوى به، ثم لا يؤمنون.

فَصَعَقُونَهُمْ: اتركهم وأعرض عنهم.

يُصْعَقُونَ: يموتون أو يُقتلون.

لَا يُغْنِي عَنْهُمْ: لا يفيد شيئاً فى ردّ العذاب عنهم.

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ: ينعون من عذاب الله تعالى فى الآخرة.

عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ: عذابا فى الدنيا قبل عذاب الآخرة، مثل الجوع والقحط سبع سنين، أو القتل يوم بدر، أو عذاب القبر.

وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ: أن العذاب نازل بهم فى الدنيا قبل الآخرة.

وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ: بإمهاهم، ولا يضق صدرك بكفرهم وعنادهم، وعدم تعجيل العذاب لهم.

بأَمِينَنَا، بحفظنا ورعايتنا.

وسبح بحمديك، واستعن على الصبر بالتسبيح والتحميد، أي قل: سبحان الله وحمده.

تمهيد:

ناقشت آيات سابقة المشركين، وتكررت فيها لفظة: (أم) للاستفهام الإنكاري، خمس عشرة مرة، حتى قال بعض المفسرين: إن غزوة بدر وقعت في السنة الخامسة عشرة بعد البعثة المحمدية. فقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما في مكة بعد الرسالة، ثم مكث عامين في المدينة قبل غزوة بدر، ورأوا أن الآية (٤٤) من سورة الطور تشير إلى وقوع العذاب بأهل مكة في غزوة بدر، وأن هذا من الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم.

وعموما فإن السورة الكريمة - وقد ناقشت المشركين طويلا- فإنها في نهايتها تصف عنادهم، وتوعدهم بعذاب يوم القيامة، ويعذاب قبل يوم القيامة، مثل عذاب يوم بدر، وما تبع ذلك من ارتضاع شأن المسلمين، وإنحدار شأن المشركين.

ثم توصى الرسول ﷺ بالصبر والاحتمال، والاطمئنان إلى أنه في محلّ عناية الله ورعايته ولطفه، وتحثه على ذكر الله وتسبيحه وتحميده عند القيام من النوم، أو في المجلس، وعند غياب النجوم.

التفسير:

٤٤ - وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ .

إنهم أهل كِبَرٍ وعناد، سبق أن قالوا للنبي ﷺ مثل ما قاله قوم شعيب: فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . (الشعراء: ١٨٧).

وقد حكى القرآن عن أهل مكة: وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ... (الأنفال: ٢٢)

وهنا يقول القرآن: إن أنزلنا عليهم قطعة من النيران لتقتلهم أو تهددهم لما اعتبروا، وظنوا أنها سحب تراكم بعضه فوق بعض، ثم نزل بهم ليتحول إلى مياه، تسقى زروعهم وثمارهم.

وقد حدث مثل ذلك لقبيلة عاد، قوم نبي الله هود، حينما رأوا سحابة في السماء تتجه إليهم، ففرحوا وتوقعوا المطر، ثم اكتشفوا أنها ريح الديور، سلطها الله عليهم لإهلاكهم، وتدمير منازلهم، وإنزال العذاب بهم.

قال تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . (الحقاف: ٢٤، ٢٥).

٤٥ - قَدَرَهُمْ حَتَّى يَلْقَا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ .

اتركهم وأخل بالكم منهم، ولا تكثر بعراضهم وتكذيبهم، ولا يضيق صدرك بعنادهم، وأهمهم فإن لهم في الآخرة حساباً وجزاء، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض.

أى: إن جزاءهم سيأتى يوم القيامة، أو يوم بدر أو غير ذلك، فقد ترك الأمر مبهماً لتذهب النفس فيه كل مذهب.

٤٦ - يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

وفى ذلك اليوم لا ينفعهم مكر، ولا تدبير أمر، ولا الانحياز إلى قوة أخرى ينتصرون بها، فإنه يوم الدين، والملك فيه كله لله رب العالمين، أى إذا كانوا فى الدنيا يكيدون للنبي ﷺ وللمسلمين، فإنهم فى يوم القيامة لا ينفعهم كيد ولا مكر، ولا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً.

٤٧ - وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

وإن لكل الظالمين عذاباً قبل يوم القيامة، ومنهم كفار مكة، فلهم عذاب فى القبر أو عذاب يوم بدر، أو ما أنزل الله بهم من مجاعة وحاجة، أو ما أصابهم من هزائم وخزى وهوان، حتى ذلّ الشرك وأهله، وانتصر الإسلام وأهله، ففتحت مكة والطائف، وعمّ الإسلام بلاد العرب، وأخذ طريقه إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب.

وهكذا نجد أن العذاب ينتظرهم يوم القيامة، وقبل يوم القيامة، ولكنهم لا همون غافلون، لا يعلمون هول ما ينتظرهم، وبعضهم يعلم غير أنه يُصر على الكفر والضلال عناداً وجحوداً.

والمراد بالأكثر الكل، على عادة العرب حيث تمبّر عن الكل بالأكثر، أو هم فى أكثر أحوالهم لم يعلموا.

ونظير الآية قوله تعالى: وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . (السجدة: ٢١).

والمراد أن الكفار لا يعتبرون ولا يتعظون، ولو كشف عنهم البلاء لعادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

قال تعالى: وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (الأنعام: ٢٨)

٤٨ - وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ .

تأتى آخر السورة برذاً وسلاماً على قلب الرسول ﷺ، بعد مناقشة طويلة للمشركين، وتهديد شديد لهم. يتجه القرآن فى آخر سورة الطور لمواساة الرسول ﷺ، على ما لاقاه من قومه فى مكة، وفى الهجرة، وفى المدينة،

فيقول: وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ... اصبر على قضاء الله، وعلى ما كلفك به من أمر الرسالة، وتبعاتها من التبليغ والصبر والاحتمال.

فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ...

فإنك في رعايتنا ومعيتنا وتوفيقنا، والطافنا وحناننا، وفضلنا ورؤيتنا، لما أصابك من أذى المشركين، وتديرننا لحفظك ورعايتك، وإعلاء شأنك، وحفظ الكتاب الخالد، والدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية لتكون خير أمة أخرجت للناس.

جاء في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب:

وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ...

ويا له من تعبير، ويا له من تصوير، ويا له من تقدير، إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان، هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله، حتى بين التعبيرات المشابهة.

لقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام: وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ . (طه: ١٣)

وقال له: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه: ٣٩)

وقال له: وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي . (طه: ٤١)

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة، ولكنه قال لمحمد ﷺ: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ...

وهو تعبير فيه إعزاز خاص، وأنس خاص، وهو يلقي ظلاً فريداً أرق وأشف من كل ظل، ولا يملك التعبير البشرى أن يترجم هذا التعبير الخاص، فحسبنا أن نشير إلى ظلاله، وأن نعيش في هذه الظلال. ١٠ هـ.

وقد عقد الإمام الألوسي في تفسيره مقارنة بين قول الله تعالى لموسى: وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي . بالإفراد، وقوله تعالى لمحمد ﷺ: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . بصيغة الجمع للدلالة على المبالغة في الحفظ، كان معه من الله تعالى حفاظاً يكوّنه بأعينهم، أي: أنت بمرأى منا، وتحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ .

أي: عندما تقوم من مجلسك، أو عندما تقوم من نومك في ظلام الليل، أو عند الفجر.

وقد ورد ما يؤيد ذلك في السنّة المطهرة، فقد أخرج أبو داود، والنسائي، والحاكم، وابن مردويه، وابن أبي شيبه، عن أبي برزة الأسلمي، قال: كان رسول الله ﷺ بآخر عمره إذا قام من المجلس يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك،

أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيمَا مضى، قال: «كفارة لما يكون في المجلس»^(١٧).

وروى أن جبريل علّم النبي ﷺ إذا قام من مجلسه أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

وقيل: المراد سبّح بحمد ربك إذا قمت من منامك، لتكون متفتحة لعملك بذكر الله.

روى البخاري، ومسلم، عن ابن عباس رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض وما فيهن، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ربّ السماوات والأرض ومن فيهن، وأنت الحق، وعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبؤ حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك أمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفرلى ما قدّمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك»^(١٨).

وعن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه، ثم قرأ العشر آيات الأواخر من سورة آل عمران^(١٩).

٤٩ - وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ .

أى: اذكره أثناء الليل، وخصّ الليل بالذات لأن القيام فيه أشق على النفس.

وقيل: المراد بقوله تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ... أى: صل لله صلاة الليل، وكان قيام الليل فريضة على

النبي ﷺ. قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . (الزمل: ٢، ١)

وقال سبحانه وتعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء: ٧٩)

وقد مدح الله المؤمنين والمتقين بقيام الليل، فقال سبحانه وتعالى: تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة: ١٦، ١٧)

وقال عز شأنه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَلِئِنْ أَمَّا إِلَهُمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات: ١٥ - ١٩)

وقيل: المراد بتسبيح الله بالليل صلاتا المغرب والعشاء.

والمراد بقوله تعالى: وَإِدْبَارَ النُّجُومِ . أى: سبّح الله وصلّى له عند غياب النجوم، وذهاب ضوئها، إذا طلع الفجر الثانى، وهو البياض المتشقق من سواد الليل، والمراد به صلاة ركعتين قبل الفجر.

وهذا مروى عن كثير من الصحابة، كما أنه مأثور عن كثير من التابعين.

وعن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال له: «يا بن عباس، ركعتان قبل الفجر، إديار النجوم، وركعتان بعد المغرب، أدبار السجود» (٢٠).

وفى صحيح مسلم، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من التوافل، أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح. (٢١).

وعن عائشة أيضاً أن النبى ﷺ قال: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» (٢٢).

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الطور) ظهر يوم الخميس ٣٠ من جمادى الآخرة ١٤٢١هـ، الموافق ٢٨ / ٩ / ٢٠٠٠ .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة النجم

أهداف سورة النجم

سورة النجم مكية ، وآياتها ٦٢ آية ، نزلت بعد سورة الإخلاص

وتتميز سورة النجم بقصر الفواصل ، والتنغيم الموسيقي بين فقراتها وكلماتها ، فهي منظومة علوية إلهية ، وتشتمل سورة النجم على الآتي :

١ - تكريم الرسول ﷺ :

في مطلع السورة نعيش لحظات مع قلب النبي محمد ﷺ ، مكشوفة عنه الحجب مزاحة عنه الأستار ، يتلقى من الملائكة الأعلى ، يسمع ويرى ويحفظ ما وعى ، وهى لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ، حين عرج به فى رحاب الملائكة الأعلى .

أقسم الله بالثريا إذا سقطت عند الفجر أن محمداً راشداً غير ضال ، مهتدي غير غاي ، مخلص غير مغرض ، مُبلِّغ عن الحق بالحق غير واهم ولا مفتري ولا مبتدع ، ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة ، إن هو إلا وحى يوحى ، وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقاً أميناً .

وقد رأى النبي ﷺ جبريل مرتين على صورته التى خُلِقَ عليها :

الأولى : عند غار حراء ، وكان ذلك فى مبدأ الوحي حين رآه النبي يسد الأفق بخلق الهائل ، ثم دنا منه فتدلى نازلاً مقترباً إليه ، فكان أقرب ما يكون منه على بعد ما بين القوسين أو أدنى ، وهو تعبير عن منتهى القرب ، فأوحى إلى عبد الله ما أوحى ، بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

والثانية : كانت ليلة الإسراء والمعراج ، فقد دنا منه جبريل وهو على هيئته التى خلقه الله بها مرة أخرى ، عند سُرَّةِ الْمُتَّهَى . أى : شجرة ينتهى إليها علم الخلائق ، أو انتهت إليها صحبة جبريل لرسول الله ﷺ حيث وقف جبريل وصعد محمد ﷺ درجةً أخرى أقرب إلى عرش ربه .

٢ - أوهام المشركين :

تحدث الآيات (١٩ - ٢٨) عن آلهة المشركين المدعاة ، اللات والعزى ومناة ، وعن أوهامهم عن الملائكة وأساطيرهم حول نبوتها لله ، واعتمادهم فى هذا كله على الظن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً ، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم عن تثبت وروية ويقين .

أما المقطع الثالث من السورة فيشمل الآيات (٢٩ - ٣٢) ، ويوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ أن يعرض عنهم ، وأن يهمل شأنهم ، وأن يدع أمرهم لله الذي يَكَلِّمُ الْمَسِيءَ والمحسن ويجزئ المهدي والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحدا ، ويتجاوز عن الذنوب التي لا يصرُ عليها فاعلوها ، وهو الخبير بالنوايا والطوايا لأنه خالقُ البشر ، المطلع على حقيقة أطوار حياتهم جميعا .

الصغائر من الذنوب

والصغائر هي ما دون الفاحشة ، وهي القُبلة واللمسة والمباشرة والنظرة وغيرها ، فإذا التقى الختانان وتوارت الجشقة فقد وجب الغسل ، وهذه هي الفاحشة .

روى البخارى ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» .^(٣٢)

وروى ابن جرير أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانبا وإلا فهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبي .

ويرى فريق من العلماء أن اللمم هو الإلمام بالذنوب ثم التوبة منها ، فصاحب اللمم يقع فى الكبائر أو يرتكب الأثام غير مُصْرٍ عليها ثم يندم ويتوب من قريب .

قال ابن جرير : عن أبى هريرة رضى الله عنه - أراه رفعه - فى : **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ... (النجم : ٣٢)** . قال : اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود ، واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود ، قال : فذلك الإلمام .

وروى ذلك موقوفا على الحسن .

وهذا التفسير يفتح باب التوبة أما الجميع حتى مرتكب الكبيرة لا يأس ، فإذا صدق فى توبته وأخلص فى نيته ، وأكد عزمه على التوبة النصوح فإن أمامه رحمة الله الواسعة التى يشمل بها التائبين ، ويستأنس لذلك بما فى الآية من المغفرة :

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رُبَّكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى . (النجم : ٣٢) .

والآية كما نرى تفتح باب الرجاء، وتدلل الناس على عظيم فضل الله، فهو خلقهم وهو أعلم بهم، وحين يذنبون لا يغلق باب الرحمة في وجوههم بل يفتح أبواب القبول للتائبين، ويغفر للمستغفرين، قال تعالى
**قُلْ يُعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ . (الزمر: ٥٢) .**

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فينادي : يا عبادي ، هل من داع فاستجيبي له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فاتوب عليه، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر». (٢٤) .

٤ - حقائق العقيدة :

وفى الآيات الأخيرة من السورة (٣٣ - ٦٢) تعود الفواصل القصيرة والتنغيم الكامل في أسلوب بسيط، وإيقاع يسير، وتقرر الآيات الحقائق الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفة الأولى، وتعرف البشر بخالقهم، فآثاره واضحة أمام الناس فهو الخالق الرازق صاحب الطول والإنعام، ومنه المبدأ وإليه المنتهى، وهو الذي أهلك المكذابين من عاد وثمود وقوم نوح، ولكنكم يا أهل مكة تضحكون وتسخرون، وتسترسلون في غيكم وعنادكم، وأولى بكم أن تسجدوا لله وأن تعبدوه، وأن تقبلوا على دينه مقربين لله بالعبودية، ولمحمد بالرسالة .

فى فضل سورة النجم

أخرج البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى، عن ابن مسعود قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة: **وَأَنسُجِرْ**، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً، وهو أمية بن خلف. (٢٥) .

فَتَدْنِي ، امتد من أعلى إلى أسفل فزاد قربه ، من قولهم : تدلت الثمرة .

قَاب قَوْسَيْنِ ، القاب : ما بين المقبض وطرف القوس ، والقوس آلة على هيئة الهلال ترمى بها السهام ، أى : مقدار قوسين عريبتين ، والعرب تقدّر الأطوال بالقوس والرمح وبالأذراع والباع ، وبالخطوة والشبر والإصبع .

أَوْ أَدْنَى ، أو أقرب من ذلك .

السَّمِىءُ ، فؤاد محمد ﷺ .

مَرَّ رَأَى ، ما رآه ببصره .

أَفْتَمَارُونَهُ ، من المراء ، وهو الملاحة والمجادلة ، أى أفتجادلونه .

نَزَلَتْ أُخْرَى ، مرة أخرى من النزول .

سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، شجرة نيق فى السماء ، إليها ينتهى علم الملائكة .

جَنَّةُ الْمَأْوَى ، الجنة التى يأوى إليها المتقون .

مَازَاغَ الْبَصَرِ ، ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ، وتمكّن منها ، وما مال يمينا ولا شمالا .

وَمَاطَفَى ، ما جاوز ما أمر به .

آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ، عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

تمهيد :

هذه آيات بينات يقسم فيها الحق سبحانه وتعالى بالنجم عندما يهوى وينزل مسرعا ، من جهة السماء إلى جهة الأرض ، والغالب أنه هو نجم الشعرى الذى قال القرآن عنه : وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى . (النجم : ٤٩) . وقيل : هو نجم الثريا ، وقيل : هو أى نجم يهوى ، كما يهوى جبريل من السماء على محمد ﷺ بالوحى ، وجواب القسم : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . فمحمد ﷺ راشدٌ غير ضال ، عاقل ويعبد عن الغواية ، وهو ينطق بالوحى والصدق ، ولا ينطق بالشعر ولا بالهوى ، والذى ينطق به هو الوحى الإلهى تلقاه عن ملكٍ شديد القوى حساً ومعنى ، وهو جبريل عليه السلام صاحب العقل الذكى ، والروح القوية ، والبدية الحاضرة .

ولقد رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية مرتين :

الأولى : فى بدء الرسالة عند غار حراء ، والثانية : فى ليلة الإسراء والمعراج .

التفسير:

١، ٢، ٣، ٤ - وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

يقسم الله تعالى بالنَّجْم الذي يُهْتَدَى به في ظلمات البر والبحر .

وللنجوم فوائد ثلاث :

(أ) زينة للسماء .

(ب) رجوم للشياطين .

(ج) هداية للسانتين .

والنجوم عالم كبير متحرك ، له مسارات منتظمة لا تصطدم ببعضها ، بل تسير بحكمة الله وقدرته

الذي يمسك بنظام هذا الكون .

قال تعالى : فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . (الواقعة : ٧٥ - ٨٠) .

يقسم الله بالنجوم عند إدبارها آخر الليل ، أو بالنجم الذي يهوى شهابا ثاقبا فيقتل الشياطين

أو يخبئها .

وكانت الشياطين ترمص بعضها فوق بعض ، حتى يكون آخر شيطان يستطيع أن يستمع إلى كلام

الملائكة ، فيسترق السمع ، ويخبر به الكهَّان ، فيكذب الكاهن مع هذا الأمر مائة كذبة ، فلما أرسل الله محمداً

ﷺ شَدَّتْ الحراسة على السماء ، فمن حاول استماع الغيب أصابه شهاب ثاقب (نجم يهوى) فيقتله أو يخبئها ،

فلما أخبرت الجن رئيسها بذلك ، قال لهم : انطلقوا في الأرض فانظروا ما حدث فيها ، فانطلقت طائفة إلى

مكة ، فسمعت رسول الله ﷺ قائما بطن نخلة يقرأ القرآن ، وقد وردت هذه المعاني في صدر سورة الجن ،

وفي حديث نبوي شريف بالجامع الصحيح للإمام البخاري .

وفي أول سورة الجن يقول تعالى : قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا *

يُهْدَىٰ إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . (الجن : ٢ ، ١) .

وفي الآيتين (٨ ، ٩) من سورة الجن يقول الله تعالى : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاهَا مُلْتَطخةً حرَّسًا شديدًا

وَشُهَبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمِيعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَانِ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا . (الجن : ٨ ، ٩) .

عود إلى التفسير

أقسم الله تعالى بالنجم الذى يهوى شهابا ثاقبا ، وسهما مصيبا يقتل الجنى أو يخبله ، أو أقسم بالنجوم عند إظهارها فى آخر الليل ، أو أقسم بنجم الشعرى ، وكان بعض العرب يعبده ، وكان قدماء المصريين يوقنون فيضان النيل ، بعبور الشعرى بالفلك الأعلى ، ويرصدونه من أجل ذلك ، ويرقبون حركاته ، والشعرى شأن فى أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء .

وقيل : أقسم الله بالثرىا ، وقيل : أقسم بجنس النجم الذى له هذه الصفات الجلية ، والحركة المنتظمة.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . ما يَعدُّ محمد ﷺ عن الحق ، وما غاب عن الهدى .

وَمَا غَوَى . وما خاب ولا انخرط فى سلك الجهال الضالين، بل هو راشد مهتد ، يحمل النور والهدى ، كما يحمل النجم الضوء للشارين ، وإن جبريل لينزل عليه فى سرعة النجم إذا هوى .

وَمَا يَطَّقُ عَنْ آلِهَآءٍ . إن كلامه وحديثه وأقواله لا تصدر عن هوى وغرض .

إِنَّهُ هُوَ الْوَحَىُّ يُوحَى .

إن ما ينطق به محمد ﷺ هو وحى السماء ، هو القرآن الكريم الذى ينقله جبريل عن الله عز وجل ، ثم يتلقاه النبى ﷺ عن جبريل بواسطة الوحى .

وقد قال ﷺ لأحد أصحابه ، حيث كان يرغب فى كتابة أحاديث النبى ﷺ : «اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منى إلا الحق» .

٥ ، ٧ - عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى .

جبريل أمين السماء يأتى إلى النبى ﷺ فى مثل صلصلة الجرس ، وأحيانا يأتيه الوحى مثل دوى النحل، وهى حالة غيبية علوية ، يغيب فيها النبى ﷺ عن حوله ، ويتحول بكل حواسه وثقله الروحى إلى تلقى الوحى من جبريل ، وجبريل ملاك أمين ، فيفصم جبريل عن النبى ﷺ وقد وعى ما يقوله من أمر الوحى.

قالت عائشة : ولقد رأيت النبى ﷺ ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .^(١٧)

ومعنى الآيات :

علم محمداً ملكٌ شديد القوى هو جبريل عليه السلام ، شديد القوى العلمية والعملية ، وهو ذو قوة وشدة فى الخلق .

ومعنى ذو مرة : ذو حصافة فى العقل ، ومتانة فى الرأى ، وهو أمين أى أمين ، ذو جدارة وهمة بالغة ، فى تنفيذ المهام المكلف بها .

وقد رآه النبى ﷺ على صورته الحقيقية ، فى الأفق الأعلى ، أى فى الجهة العليا من السماء ، وهى أفق الشمس ، فسد الأفق عندما جاء بالوحى إلى النبى ﷺ أول ما جاء .

قال الله تعالى : **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَتَلَقَّوْهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ** . (التكوير : ١٩ - ٢٣) .

وقال تعالى : **وَأَنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** . (الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥) .

٨ ، ٩ - **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى** .

ثم اقترب جبريل من النبى ﷺ ، وجعل يدنو منه ويتدلى ، أى : يزيد فى القرب والنزول ، حتى كان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ من المسافة مقدار قوسين ، أو أقل من قوسين وأقرب من ذلك ، على تقديركم ومعاييركم ، وهذا كناية عن القرب .

ويصح أن يكون المعنى : بل هو أدنى .

وكل ذلك يعبر عن القرب الحسى والمعنوى ، والشوق والتقارب بين جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ .

١٠ - **فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِ عَبْدُهُ مَا أَوْحَىٰ** .

فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ الذى أوحاه إليه من عند الله سبحانه وتعالى ، ولم يبين سبحانه وتعالى الموحى به وذلك لتفخيمه وتعظيمه ، أى أوحى إليه أمراً عظيماً .

وقيل : المعنى : فأوحى الله تعالى إلى جبريل ما أوحى إلى نبيه محمد ﷺ .

١١ - **مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ** .

أى : ما كذب قلب محمد ﷺ وفؤاده ويقينه ما رآه بعينه ، من رؤية جبريل على صورته الحقيقية ، لقد تثبت واستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحى ، ورسول ربه إليه ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم .

١٢ - أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ .

أفتجادولونه وتكذبونه وتتهمونه مرة بالسحر ومرة بالشعر ومرة بالكهانة ، ومرة بكتابة أساطير الأولين ، ومرة بالتخيل والجنون .

وهو قد رأى جبريل واقترب منه ، وتيقن أنه جبريل حامل الوحي إلى محمد ﷺ رسول الله ، فما كان ينبغي لكم تكذيبه ولا مجادلته ، إنه نبي الله حقاً ، أوحى إليه ملك حقيقي ، وأنزل الله عليه الوحي حقاً .

قال تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُجُرِ الْأَوَّلِينَ . (الشعراء : ١٩٣ - ١٩٦) .

١٣ - وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ .

ولقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج .

١٤ - عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ .

وسدرة المنتهى : شجرة نبق عن يمين العرش ، في السماء السابعة ، ينتهي إليها علم كل عالم ، وما وراءها لا يعلمه إلا الله .

أو أن رحلة جبريل قد انتهت عندها ، ثم تقدم النبي ﷺ خطوات أخرى خاصة به .

أو أن رحلة الإسراء والمعراج قد انتهت عندها .

وكل ذلك غيب لا يعلمه إلا عالم الغيب ، ونحن نكتفي بما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة ، ونفوض حقيقة المراد إلى الله عز وجل .

وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذي ، عن ابن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج بها من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض ...^(٢٧) منها ...

وروى مسلم ، عن أنس أن النبي ﷺ قال : «لما رُفِعْتُ إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة ، نبقها مثل قلال هجر ، وورقها مثل أذان الفيلة...»^(٢٨) .

١٥ - عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ .

أي : الجنة التي تأوي إليها الملائكة ، وأرواح الشهداء والمؤمنين .

١٦ - إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى .

أى : تلك السدرة التى يحيط بها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ما يحيط ، مما لا يحصره وصف ولا عد ، وهذا فى رأى الأكثرين يشعر بالتعظيم والتكثير .

وقيل : غشيتها الملائكة لتنظر إلى النبى محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، وقيل : تغشاها أنوار الله ، فما تستطيع العين أن تنظر إليها ، أو تمنعها من حسنها .

١٧ - مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى .

زَاغَ : نظر يميننا وشمالاً ، وَطَغَى : جاوز الحد ، أى : ما مال بصر النبى ﷺ يميناً ولا شمالاً ، وما تجاوز الحد ، وما تطلع إلى رؤية شيء لم يؤذن له برويته ، بل كان فى سمع المتقين ، وأدب المرسلين ، ويقين الصديقين ، ورضا المحبين ، فانطلق فى طريقه قانعاً بما أذن له به ربه من التكريم والتعظيم والفضل العميم .

حيث رأى جبريل على صورته الحقيقية ، وسائر عجائب الملكوت ، وهذا كقوله تعالى : لِرَبِّهِ، مِنْ ءَايَاتٍ ... (الإسراء : ١) .

وقد رأى ما تتحير العقول فى إدراكه ، كما قال القائل :

رأى جنة البأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لهاها

١٨ - لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .

رأى من آيات الله تعالى الكبرى ما يجل عنه الحصر والاستقصاء ، كان الإسراء رحلة أرضية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث أراه الله آيات بينات .

وقد روى البخارى أن النبى ﷺ صلى فى بيت المقدس إماماً بالأنبياء ، وأخذت له البيعة ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَقُومُنَّ بِهِ وَنَحْنُ نَصْرُهُ قَالَ أَتَقْرَرُونَ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ . (آل عمران : ٨١) .

كما أثبت البخارى أن النبى ﷺ صعد به إلى السماوات العلى ، واستقبله من كل سماء مقرّبوها : فى السماء الأولى : آدم .

وفى السماء الثانية : يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة .

وفى السماء الثالثة : يوسف ، وقد أعطى شطر الحسن .

وفى السماء الرابعة : إدريس ، وقد رفعه الله مكانا عليا .

وفى السماء الخامسة : هارون .

وفى السماء السادسة : موسى .

وفى السماء السابعة : إبراهيم أبو الأنبياء ، على كرسى من نور ، مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، فقال : يا محمد ، بلغ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة قيعان ، وأنها طيبة التربة ، وغراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان كل رسول يقول للنبي ﷺ مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ، وعند السماء السابعة تخلف جبريل وقال : وما منّا إلا له مقام معلوم .

ثم رأى النبي ﷺ من آيات ربه الكبرى ، رأى سدرة المنتهى ، ورأى الجنة عند سدرة المنتهى ، ورأى جبريل على صورته الحقيقية ، ورأى ما رأى مما لا يحيط به الوصف أو الحصر ، حيث أراد الله تكميمه ، فأراه الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين ، كلهم يؤمنون به ويصدقونه ، وكان الإسراء والمعراج فى أعقاب رحلة النبي ﷺ إلى الطائف ، حيث قابله أهلها مقابلة سيئة ، وأذوه ورموه بالحجارة ، واشتكى النبي ﷺ إلى ربه تكذيب أهل مكة ، ثم تكذيب أهل الطائف ، ورفع يديه إلى السماء قائلاً : «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهوانى على الناس يارب العالمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلنى ؟ إلى عدو يتجهمنى ، أو بعيد ملكته أمرى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى سخطك ، أو يحلّ على غضبك ، لك العتبى حتى ترضى ، عافيتك هى أوسع لى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» . (٣٧) .

وفى أعقاب رحلة الطائف عاد النبي ﷺ إلى مكة ، ولم يستطع دخولها إلا فى جوار المطعم بن عدي ، وبينما هو نائم فى الحجر أو فى بيت أم هانئ تم الإسراء والمعراج ، عجيبتان ريانيتان .

قال تعالى : **سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ عَيْنِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** . (الإسراء : ١) .

أى أن الله تعالى أسرى برسوله ﷺ ليلاً من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالشام ، وحوله الثمار والأشجار ، والحرم ومقابر المرسلين ، وآثار الأنبياء ، ليطلع النبي ﷺ على هذه الآيات ، تكريماً له

ومؤازرة له ، بعد وفاة عمه أبى طالب ، ووفاة زوجه خديجة بنت خويلد ، وتكالب الكافرين على حربه وإيذائه ، ثم تمّ له المعراج إلى السماوات العلى ، حيث رأى من آيات ربّه الكبرى .

ويرى جمهور العلماء :

أن الإسراء كان بالروح والجسد ، يقظة لا مناما .

والراجع أيضا أن المعراج كان بالروح والجسد معا ، لأن الرؤيا المنامية تكون لكثير من الناس ، أما الإسراء فقد ذكره الله مشيرا إلى قدرته تعالى وتنزيهه عن مشابهة الحوادث ، حيث جعل رسوله محمدا ﷺ ساريا بالليل مخترقا الحجب ، كما ذكر القرآن المعراج فى صدر سورة النجم ، والراجع أن المعراج كان بالروح والجسد معا .

ويرى بعض المفسرين أن الإسراء كان بالروح والجسد ، وأن المعراج كان بالروح فقط .

وقد رجح الإمام الطبرى شيخ المفسرين ، وغيره من المفسرين أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد ، يقظة لا مناما .

فلو كان بالروح ما كذبتة قريش ، ولا تعجبوا من أمره ، ولما ارتدّ بعض ضعاف الإيمان .

ولأن قوله تعالى : **سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ...** يفيد أن العبد مجموع الجسد والروح .

وكذلك قوله تعالى فى المعراج : **لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى .**

يفيد أنه رأى رؤية حقيقية عالم الملكوت ، عالم السماء والأنبياء والمرسلين والملائكة ، والتكريم الإلهى ، وسدرة المنتهى ، وجنة المأوى ، وآيات ربّه الكبرى .

قال شوقي :

يا أيها المُسرى به شرًّا إلى	ما لا تنالُ الشمس والجوزاة
يتساءلون وأنت أظهر هيكل	بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما	نور وروحانية وبهاء
فضل عليك لذى الجلال ومنه	والله يفعل ما يرى ويشاء
تغشى الغيوب من العوالم كلما	طويت سماء قلدتك سماء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
والحسن من كرم الوجوه وخيرة	ما أوتى القوّك والزعماء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم وأب	هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا خطبت فللمنابرهزة	تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا مشيت إلى العدا فغضنفر	وإذا جريت فإنك النكباء
يا أيها الأمي حسبك رتبة	في العلم أن ذانت لك العلماء
يا من له عز الشفاعة وحده	وهو المنزلة ما له شفاعة
عرش القيامة أنت تحت لوائه	والحوض أنت حياله السقاء
تروى وتسقى الصالحين ثوابهم	والصالحات ذخائر وجزاء

آراء في الموضوع

رأى بعض المفسرين : أن الآيات التي وردت في صدر سورة النجم ، تشير إلى رؤية محمد ﷺ لله سبحانه وتعالى .

وقال بعضهم : الضمائر في (دنا) و (تدلى) و (كان) و (أوحى) وكذا في (رأه) لله عز وجل .

ويشهد لهذا ما أخرجه البخاري ، عن أنس قال : ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة ، فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة . (٣٠) .

والزاجع أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين ، الأولى عند البعثة ، والثانية ليلة الإسراء والمعراج .

بدليل ما أخرجه مسلم ، عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ فقال : « رأيت نوراً » (٣١) . وانظر تفسير الألوسي والطبري لصدر سورة النجم .

الملك لله وحده

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ (١٩) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۚ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذْ أَسْمَتُهُمْ ضَبْرَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥) ۖ وَكَرُمَ مَلَائِكُ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾

المضردات :

اللات ، صنم لثقيف ، وأصل ذلك أن رجلا كان يلبث السوق للحاج ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه ، ويُظَنُّ أن (اللات) مؤنث لفظ الجلالة (الله) سبحانه وتعالى .

الضبرى ، شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ، وهى بين مكة والطائف ، وكانت قريش تعظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أُحُد : (لنا العزى ولا عزى لكم) ، فقال رسول الله ﷺ : (الله مولانا ولا مولى لكم) ، ويظنُّ أن العزى مؤنث العزيز .

منى ، صخرة بالمثل ، عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة ، وكانت دماء النساء تمنى عندها ، أى : تراق .

الآخرى ، المتأخرة الوضيعة القدر .

ضبرى ، جائرة غير عادلة ، ناقصة غير تامة .

إن هـى إلا أسماء ، ما اللات والعزى ومناة إلا أسماء لا حقيقة لها ، وليست آلهة .

ما أنزل الله بها من سلطان ، لم ينزل الله تعالى وحياً يأذن فى عبادتها .

إن يتبعون إلا الظن ، ما يتبع المشركون فى عبادة أصنامهم إلا الظن والخرص والكذب .

وما تهوى الأنفس ، وما تهواه أنفسهم ، وتميل إليه شهواتهم .

الهدى ، هو هداية القرآن ، ورسالة محمد ﷺ .

ما تمنى ، ما تشهى لنفسه من أن الأصنام تشفع له ، أى ليس له كل ما يتمناه ، والمراد نفى

طمعهم فى شفاعة الآلهة المزعومة .

وَكُفِّرْ مِّن مَّالِكٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ .

لَا تَغْنِي شَفَاعَتُهُمْ ؛ لَا تَنْفَعُ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا .

لَمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ، لِمَنْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ ، وَيَرَاهُ أَهْلًا لِلشَّفَاعَةِ ، فَالشَّفَاعَةُ تَحْتَاجُ إِلَى أَمْرَيْنِ : الإِذْنُ مِنَ اللَّهِ ، وَالرِّضَا عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ .

تمهيد :

فى بداية السورة حديث عن رسالة محمد ﷺ ، وبيان صدقه وصدق جبريل الروح الأمين ، وهنا يناقش القرآنُ المشركين فى عبادتهم أصنامًا لا تضر ولا تنفع ، ولا تشفع لمن عبدها ، ولعل هذه الآلهة المدعاة كانت رموزًا للملائكة ، أو لعباد صالحين ، وبعد فترة عبدوا هذه الرموز ، ونسى أصل الأسطورة ، فلم يعد يذكرها إلا المثقفون .

لقد جعلوا الملائكة إناثًا ، وزعموا أن لها شفاعاة ، وقد فندَ القرآنُ زعمهم الباطل ، فكيف يجعلون لأنفسهم الذكور ، ويجعلون لله ما يكرهون من الإناث ، إنها لقسمة جائرة ، ضيّعَ . غير عادلة ، ولم ينزل وحى من السماء أو شريعة تثبت أن اللات أو العزى أو مناة ، أو غيرها من الأصنام ، لها قدرة الآلهة أو أنها تستحق العبادة ، لكنهم يعتمدون فى ذلك على الظنِّ وهوى النفس ، والعقيدة الصادقة تعتمد على اليقين الجازم ، وقد جاءهم محمد ﷺ بهذه العقيدة وفيها الهدى .

إن الشَّفَاعَةَ بيد الله ، وكثير من الملائكة فى السماوات لا يملكون الشَّفَاعَةَ إِلَّا لِمَنْ أذنَ الله له بالشَّفَاعَةِ ، ورضى له بها ، والمراد أن عبادتهم للأصنام أو للملائكة باثرة ضائعة .

التفسير :

١٩ ، ٢٠ - أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى .

هذه أصنام كانت تعظمها العرب فى الجاهلية ، وهنا يقرعهم القرآن ويوبخهم على عبادتهم لها ، وهى لا تملك أن تخلق مثل هذا الكون ، ولا تملك أن تختار رسولاً مثل محمد ، ولا أن تختار ملاكاً مثل جبريل ينزل بالوحى ، فلماذا يتركون الله العظيم القادر الخالق الرازق ، ويتجهون بعبادتهم إلى هذه الأصنام ، ومن هذه الأصنام :

(١) اللَّاتُ : وكانت صخرة بيضاء منقوشاً عليها نقوش ، وهى داخل بيت بالطائف ، له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف ، وقيل : إن اللات رمز لرجل كان يلبث السوق للحاج على حجر ، فلما مات عبدوا ذلك الحجر إجلالاً له ، وسموه بذلك ، وقيمت اللات إلى أن أسلمت ثقيف ، فبعت رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فهدمها وحرقها بالنار .

(ب) الْغَزَى : وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخله ، بين مكة والطائف لغطفان ، وكانت قريش تعظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ «قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم» (٣٢) .

وقد ذهب خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها ، وهو يقول :

يا عَزَّكَفَرانك لا سبْحانك إنى رأيت الله قد أهانك

(ج) مَثَرَة : وكانت بالمثل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة ، وتذبح عندها القرابين ، وسميت (مناة) لأن الدماء كانت تمنى عندها ، أى : تراق .

وقد بعث رسول ﷺ على بن أبى طالب فهدمها عام الفتح .

«وكانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخرى ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة التى نمت عليها الآية ، وإنما أفردت هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها» . (٣٣) .

قال ابن اسحاق :

كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت ، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة ، لها سدة وحجاب . تطوف بها كطوافها بها وتنحر عندها .

وعلاصة المعنى :

أخبرونى يا معشر الكفار عن هذه الآلهة التى تعبدونها - اللات والعزى ومناة - هل لها من القدرة والعظمة والخلق والإبداع مثل الله حتى عبدتموها ، وطفتم حولها ، وزعمتم أنها آلهة ؟

٢١ - أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى .

أى : أتجعلون لله ولداً وهو منزّه عن الصاحبة والولد ؟ وتختارون أن يكون ولده أنثى وأنتم تكرهون الأنثى ؟

٢٢ - بَلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى .

إنها قسمة جائرة ظالمة ، أن يكون لكم معشر المشركين النوع المحبوب من الأولاد وهو الذكر ، وله تعالى النوع المذموم بزعمكم وهو الأنثى .

قال الإمام فخر الدين الرازي :

إنهم ما قالوا : لنا البنون وله البنات ، وإنما نسبوا إلى الله البنات ، وكانوا يكرهونهن ، كما قال تعالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ... (النحل : ٦٢) .
فلما نسبوا إلى الله البنات حصل من تلك النسبة قسمة جائزة .

٢٣ - إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَتَمَّ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى .

ما هذه الأوثان والأصنام إلا أسماء مجردة عن المعاني ، ليس فيها من الألوهية إلا الاسم المجرد ، فهي لا تخلق ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تجيب ، ولكن آباءكم عبدوها فسرتم خلفهم بدون عقل أو فكر أو تأمل ، ولم ينزل وحى أو دليل من السماء يؤيد صحة عبادتكم لها ، وإنما أنتم تسيرون خلف الظنون والأوهام وهوى نفوسكم في عبادة هذه الجمادات الصماء ، مع أن الهدى والرشاد قد جاء إليكم من الله تعالى على لسان رسوله محمد ﷺ .

قال ابن الجوزي : وفيه تعجيب من حالهم إذ لم يتركوا عبادتها بعد وضوح البيان .

وقال ابن كثير : ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، ولا حظ نفوسهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ، ولقد أرسل إليهم الرسول بالحق المنير والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم به رسولهم ولا انقادوا له .

٢٤ - أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى .

أى : ليس للإنسان كل ما يشتهي ، حتى يطمع في شفاعة الأوثان والأصنام ، فهناك حقائق ثابتة ، ركزها الله في هذا الكون توضح أن لهذا الكون البديع المنظم إلهاً واحداً خالقاً ، بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، هذا الإله هو الذى يستحق العبادة ، وهذا معنى (لا إله إلا الله) أى ليس هناك معبود بحق إلا الله ، أما عبادة الأصنام فهي خضوع للهوى والباطل والأمانى الكاذبة ، وليس للإنسان ما تمناه بالباطل .

قال تعالى : لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَبِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا .

(النساء : ١٢٣ ، ١٢٤)

لقد كان الكفار يتمنون أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم ، والنبوة منحة إلهية ، يختار الله لها أهل الكفاءة والسمو الروحي والنفسي .

وفى سورة الكهف قصة رجلين ، كان أحدهما مؤمناً منصفاً ، وكان الآخر كافراً شقيماً ومع هذا تمنى أن تكون الجنة له فى الآخرة ، وقال : وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا . (الكهف : ٣٦) .

وقد أرسل الله على بستانه صاعقة أهلكته ، فأخذ يتحسر على ما أصابه ويقول :

يَلَيْتَنِى لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّىَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

٢٥ - فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ .

له سبحانه وحده ملك الآخرة ، حين ينادى جل جلاله : لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

وله ملك الدنيا ، فهو خالق الأكوان ، ومسخر الليل والنهار ، وهو المعز المذل ، الرافع الخافض الباسط ، المعطى المانع .

إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَنَ الَّذِى يَبْدُو مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٨٢ ، ٨٣)

٢٦ - وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِىٰ عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن يَّأْذَنُ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ .

كثير من الملائكة المقربين لا تنفع شفاعتهم شيئاً من النفع لأحد من عباده المذنبين ، إلا من بعد أن يأذن الله تعالى فى الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه ، كما قال سبحانه : مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... (البقرة : ٢٥٥) .

وقال عز شأنه : وَلَا تَفْعَلُوا لَلْفَلْعَةِ عِندَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ ، ... (سبا : ٢٣) .

فإذا كان ذلك فى حق الملائكة المقربين ، فكيف ترجون أيها المشركون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ، وهو سبحانه وتعالى لم يشرع عبادتها ، ولا أذن فيها ؟

لقد حاكمهم القرآن إلى العقل ، ودخل عليهم من كل باب ، وقدم إليهم الحجج والأدلة على أن هذه الأصنام لا تسمع ولا تجيب ولا تعقل ، ولا تنفع ولا تضر ، ولا يوجد دليل نقلى ولا عقلى على ألوهيتها ولا شفاعتها ، فالشفاعة لله وحده ، ولا يستطيع ملك مقرب أن يشفع فى أحد من المذنبين إلا بإذن الله ، وبعد أن يرضى عن المشقوق له .

وأجاز بعض المفسرين أن يكون معنى الآية ما يأتي :

وكثير من الملائكة لا تنفع شفاعتهم إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاؤه منهم بالشفاعة ، ويراها أهلاً لها .

★ ★ ★

توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ۚ وَمَأْتَهُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ ۚ إِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ
إِلَّا الظَّنَّ ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا ۚ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
اهْتَدَىٰ ﴿٢٨﴾

المضردات :

تسمية الأنثى ، بأن يقولوا : إنها بنات الله . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

إن يتبعون إلا الظن ، ما يتبعون إلا مجرد التوهم الباطل .

لا يغنى من الحق شيئاً ، إن الظن لا يفيد فى مجال الحق ، الذى هو حقيقة الشيء ، فإن الحق لا يدرك إلا
بالعلم ، أى اليقين ، والظن لا اعتباره له فى المعارف الحقيقية أو اليقينية .

فأعرض عن تولى ، ترك ، ولا تهتم بمن أعرض عن القرآن وعن تذكيرنا .

ذلك مبلغهم من العلم ، طلب الدنيا وأمرها نهاية علمهم ، فلا يتجاوزه علمهم لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة .

تمهيد :

بعد أن ويح الله المشركين على عبادة الأوثان فيما سبق ، ويخبرهم هنا على تسمية الملائكة تسمية
الإناث ، ولعل هذا سر تسمية الأصنام التى ترمز للملائكة بالمؤنث ، مثل : اللات والعزى ومناة .

ثم بين أنهم فى توهم باطل ، لا حقيقة له ، وأمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، وعدم الاهتمام بهم ،
ولا ضير عليه فى ذلك بعد أن بلغ رسالة ربه .

التفسير :

٢٧ - إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَهُنَّ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ .

إن هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالقيامة ، والبعث والحشر والجزاء ، يزعمون أن الملائكة إناث ،
وأنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

والمراد أنهم يسمون كل واحد من الملائكة أنثى ، لأنهم إذا جعلوا الكل بنات فقد جعلوا كل واحد بنتا . كما جاء فى قوله تعالى : وَجَعَلُوا أَمَلَّتِيكَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنُكُمْ سَكَنُكُمْ وَيُسْكَلُونَ . (الزخرف : ١٩) .

٢٨ - وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا .

ليس لديهم خبر صحيح أو علم يقينى بذلك ، فهذه من أمور الغيب ، وهى لا تعلم إلا بنقل صحيح ، أو يقين صادق ، وهؤلاء لا يملكون دليلاً نقلياً ، ولا دليلاً عقلياً على ذلك ، وإنما هو التوهم الباطل ، بما ورثوه عن آبائهم بدون بحث أو فكر أو يقين ، ومثل هذا الظن الباطل والتوهم الخاطىء لا يغنى شيئاً عن الحق ، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم الصحيح .

وهؤلاء لم يشهدوا خلق الملائكة ليعرفوا أنهم إناث ، وليس لديهم وحى منزل بذلك ، ولا علم يقينى به ، والظن لا يغنى عن الحق ، ولا يقوم مقامه .

وقد جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث» .

٢٩ - فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .

لا تأس على كفرهم وعنادهم ، وحسبك أنك بلغت رسالة الله إليهم ، ثم اتركهم وشأنهم ، لأنهم أعرضوا عن القرآن ، وصارت الدنيا أكبر همهم .

٣٠ - ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى .

أى : طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه من الإدراك والفهم ، والحرص على الدنيا الفانية والتعيم الزائل .

قال أبو السعود :

والمراد : النهى عن دعوة المُعْرِضِ عن كلام الله ، وعدم الاعتناء بشأنه ، فإن من أعرض عما ذكر وإنهم فى الدنيا ، بحيث صارت منتهى همته ، وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلا عناداً أو إصراراً على الباطل .

روى الشيخان ، والإمام أحمد ، عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» .

وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا».

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى .

إن الله تعالى عالم بالضالين ، الذين آثروا الدنيا على الآخرة ، وأهملوا وحى السماء ، وأعرضوا عن القرآن الحكيم ورسالة النبي الأمين ، وهو سبحانه عالم بالمهتدين الذين اختاروا الإسلام ديناً ، ومحمداً ﷺ نبياً ورسولاً ، والقرآن هادياً وإماماً ، وسوف يجازى كل فريق منهما بالجزاء الذى يستحقه ، فالمراد بالعلم هنا المعرفة والإحاطة ، والجزاء العادل ممن أحاط بكل شئ علماً .

★ ★ ★

سعة رحمته تعالى

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِيْنَ اَسْتَوٰ بِمَا عَمِلُوْا وَيَجْزِيَ الَّذِيْنَ اَحْسَنُوْا بِالْحَسَنٰى ۝٣١ الَّذِيْنَ يَجْتَنِبُوْنَ كَثِيْرَ الْاِثْمِ وَالْفَوْحِشِ اِلَّا اللَّمَمَ ۚ اِنَّ رَبَّكَ وَسِعُ الْمَعْفِرَةِ ۚ هُوَ اَعْلَمُ بِكُمْ اِذَا اَنْشَأْتُمْ كُرُمًا ۖ وَاِذَا اَنْتَرَجْتُمْ فِيْ بُطُوْنِ اَمْهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوْا اَنْفُسَكُمْ هُوَ اَعْلَمُ بِمَنْ اَتَقٰى ۝٣٢﴾

المضردات :

الحسنى : المثوبة الحسنى ، والحسنى مؤنث الأحسن .

الذين يجتنبون ، (الذين) خبر لمبتدأ محذوف ، أى : هم الذين يجتنبون ... ، والجملة بيان لمن اهتدى .

كباثر الإثم : ما عظم من الذنوب ، وما كبر عقابه .

الفسواحش : جمع فاحشة ، وهى ما فحش من الكبائر ، يقال : فحش يفحش فحشا ، أى : قبح أشد القبح ، مثل : الزنا والسرقة والقتل .

إلا اللمم : إلا ما قلَّ وصغر من الذنوب ، وأصله : ما قل قدره ، ومنه : لمة الشعر ، لأنها دون الوفرة .

فلا تزكوا أنفسكم : فلا تصفوها بالطهارة .

أجنَّة : جمع جنين ، وهو الولد ما دام فى بطن أمه

تمهيد :

الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وهو عادل في حكمه وجزائه، وسيجازي المسيء بمثل إساءته، وسيجازي المحسنين بالحسنى .

والمحسنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، ويتعدون عن الكبائر، مثل: السحر، واليمين الغموس، وعقوق الوالدين، والتولى يوم الزحف، والزنا، والربا، وشرب الخمر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

أما من ارتكب الصغائر، مثل: النظرة والقبلة واللمسة، ثم تاب منها، أو ارتكب الكبيرة ثم تاب منها توبة حقيقية، فإن الله يغفر له، وهو أعلم بالإنسان وضعفه .

التفسير :

٣١ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى .

لله وحده ملك هذا الكون، وله سبحانه كل ما في السماوات والأرض، خلقا وملكا وتصرفا، ليس لأحد من ذلك شيء، والمالك المتصرف العزيز المقتدر سيجازي المسيء بإساءته وعمله «وسيجازي الذين أحسنوا بالجنة جزاء إحسانهم، ثم ذكر سبحانه وتعالى صفات المتقين المحسنين :

٣٢ - الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

من سعة رحمة الله وفضله أن يمدح عباده المتقين، وأن يصفهم باجتناب كبائر الذنوب، مثل: السحر واليمين الغموس، والتولى يوم الزحف، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، وهم يبتعدون عن الفواحش - جمع فاحشة - وهي ما تنهاى قبحها عقلا وشرعاً، كالزنا والسرقة والقتل .
إلا ما قل وصغر من الذنوب .

قال القرطبي :

وهي الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله، كالقبلة والغمزة والنظرة .

وقال ابن كثير : اللمم : صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

وعن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ : «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتي، والفرج يصدق ذلك أو يكذب»^(٣١) . رواه الشيخان، وأحمد .

وقال عبد الرحمن بن نافع : سألت أبا هريرة عن قول الله : **إِلَّا اللَّئِمَّ** . فقال : القبله والغمزه والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان ، فقد وجب الغسل ، وهو الزنا .

وروى ابن جرير ، عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : **إِلَّا اللَّئِمَّ** . قال : الذى يلم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إن تغفر اللههم تغفر جناً وأنى عبد لك ما ألبها ؟

وعن الحسن فى قول الله تعالى : **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّئِمَّ ...**

قال : اللئيم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود ^(٣٥) . اهـ .

لقد فتح الله تعالى أبواب التوبة أمام التائبين ، وحث عباده على ذلك ، ودعاهم إلى التوبة فى كل وقت ، وبذلك يتخلص الإنسان من الإحباط والإثم ، والشعور بالدونية ، حين يتطهر ويصلى ركعتين بنية التوبة ، ويسأل الله تعالى أن يغفر له ، وأن يتوب عليه ، فيجيبه الغفور الرحيم .

قال تعالى : **قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** . (الزمر : ٥٣) .

وقال سبحانه وتعالى : **وَأِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَاثِمٌ وَعَمِلٌ صَلِحٌ ثُمَّ أَهْتَدَى** . (طه : ٨٢) .

وهذه الآية الكريمة تتحدث عن فضل الله ورحمته ، فتقول : **إِنَّ رَّبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ ...** فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شئ ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها .

قال البيضاوى : ولعله عَظَّ به وعيد المسيئين ووعد المحسنين ، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته ، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى .

هُوَ أَغْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ...

حيث خلق أبانا آدم من الأرض ، فقد خلقه من التراب ، واختلط التراب بالماء فصار طينا ، وترك الطين فترة حتى تغير فأصبح حمأ مسنونا ، وبعد فترة أصبح كالغُخَّار ، فهى مراحل مرَّ بها الإنسان .

وقال بعض المفسرين :

الإنسان مكون من النطفة ، وهى خلاصة الدم ، والدم خلاصة الغذاء ، والغذاء يأتى من الأرض .

وَإِذْ أَنشَمَ أَجَنَّتُهُ فِى بُطُونِ أُمَهَانِكُمْ ...

أى : وهو أعلم بكم وقت كونكم فى بطون أمهاتكم على أطوار مختلفة بعضها يلى بعضها ، وهو سبحانه عليم بما فى الأرحام ، وما ينتظر الجنين من رزق ، وسعادة أو شقاوة .

والإله العليم ينبغى أن نعتد عليه ، وأن نتذكر نعماءه ، وأنه سبحانه يرى ويطلع ، ويحاسب ويجازى .

فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .

لا تمدحوا أنفسكم على سبيل الإعجاب ، ولا تشهدوا لها بالكمال والتقوى ، فإن النفس خسيصة ، إذا مدحت اغترت وتكبرت .

أو الزموا الإخلاص وصدق المراقبة لله ، والخوف من غضب الجبار ، ومن سوء الخاتمة ، فإن الله مطلع على عبيده ، وهو عليم بمن أخلص العمل واتقى ربه فى السر والعلن .

والآية دعوة إلى القوية ، والمسارة إلى رحمة الله وفضله ، وفيها دعوة إلى الإخلاص ، مع الخوف من الله ، والرجاء فى رحمته ، واليقين بسعة علمه ومراقبته ، وإطلاعه على الظاهر والباطن سبحانه وتعالى .

قال المفسرون :

نهى القرآن عن تزكية المرء نفسه وعن مدحها والثناء عليها ، أو ادعاء العصمة من الصغائر ، أو الطهارة من المعاصى ، لأن العقابية مجهولة ، وعلينا أن نحمد الله على الطاعة ، وأن نحذر المعصية ، فالله هو العليم بمن اتقى المعاصى ، وعلينا ألا نمدح الآخرين فى وجوههم .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الرحمن بن أبى بكرة ، عن أبيه ، قال : مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «ويلك ، قطعت عنق صاحبك - مرارا - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل : أحسب فلانا والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك .» (٣٧) .

توبيخ من اعترف بالحق ثم أعرض عنه

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۖ (٣٢) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ۚ (٣٣) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يُرِىُّ (٣٤) أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَىٰ (٣٥) وَإِذْ رَهِمَهُ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٦) أَلَا تَنزِيلُ وَارِدَةٌ وَزَّرَ أُخْرَىٰ (٣٧) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٨) وَأَن سَعِيهِ سَوْفَ يُرَىٰ (٣٩) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلَىٰ (٤٠) وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ (٤١) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٣) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٤) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تَأَنَّىٰ (٤٥) وَأَن عَلَيْهِ النَّشَأُ الْأُخْرَىٰ (٤٦) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٤٩) وَتَمُودًا آخِرَىٰ (٥٠) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥١) وَالْمُؤَنَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٢) فَفَتَشْنَاهَا غَشَىٰ (٥٣) فَإِنِّي آتٍ بِلِقَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٤) ﴾

المضردات :

تَوَلَّى : أعرض عن اتباع الإسلام ، وعن الثبات على الحق .

وَأَكْدَى : قطع العطاء ، من قولهم : حفر فأكدى ، أى : بلغ إلى كدية ، أى صخرة تمنعه من إتمام العمل .

يُنَبِّئُ : يُعَلِّمُ ، يُخْبِرُ .

صُحُفٍ مُّوسَى : التوراة .

صَحَفَ إِبْرَاهِيمَ : ما نزل عليه من الحكم والشرائع .

وَقَفَّى : أتم ما أمر به على أبلغ وجه فى الوفاء .

أَلَا تَنزِيلُ وَارِدَةٌ وَزَّرَ أُخْرَى : لا تحمل نفس حمل نفس أخرى

يُتَمَارَى : يراه أهل القيامة تشريقاً للمحسن ، وتوبيخاً للمسيء .

يُجْزَاهُ : يجزى سعيه ، يقال: جزاه الله بعمله ، وجزاه على عمله ، وجزاه عمله ، لا فرق بينهم .

الْمُنْتَهَى : انتهاء الخلق ورجوعهم إلى الله تعالى .

تَتَمَارَى : تدفع فى الرِّحْم ، من قولهم : أمنى الرجل ومنى ، أى : صب المني .

الإنشأة الأخرى ، إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث .

أغنى وأقنى ، أغنى من شاء ، وأفقر من شاء ، وأعطاه القنية ، وهى ما يبقى من المال .

الشعرى ، هى ذلك النجم الوضاء ، الذى يقال له : مِرْزَمُ الجوزاء ، وقد عبده طائفة من العرب .

صَادَاوَالْأُولَى ، أولى القوم هلاكًا بعد قوم نوح ، وعادًا الأخرى من ولد عاد الأولى .

المؤتفكة ، هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها انفتكت بأهلها ، أى : انقلبت بهم ، ومنه :

الإفك ، لأن فيه قلبًا للحق .

أموى ، أسقط فى الأرض .

غشاهها ، غطاها .

فبأى آلاء ربك تتماهى ، فبأى نعم ربك تمتري وتثك ، والخطاب للإنسان .

سبب النزول :

روى أن الوليد بن المغيرة جلس عند النبى ﷺ ، وسمع وعظه ، فتأثر قلبه بما سمع وكاد يسلم ، وذهب إلى قومه فقال عن القرآن كلامًا جميلًا ، حيث قال : لقد سمعت من محمد أنفًا كلامًا ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر ، فعيره رجل من المشركين ، وقال : تركت دين آبائك ، فقال الوليد : إني خشيتُ عذاب الله ، فُضِّمَ له الرجل إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شركه ، أن يتحمل عنه عذاب الله عز وجل ، فأعطاه بعض الذى ضمن له ، ثم بخل ومنعه الباقي ، فأنزل الله الآيات .

وقال مقاتل : كان الوليد قد مدح القرآن ، ثم أمسك ، فنزل : وَأَعْطَى قَلِيلًا . أى : من الخير بلسانه ، ثم قطع ذلك وأمسك عنه ، وقيل غير ذلك .

تمهيد :

تناقش الآيات أفكار المشركين ، وتدخل عليهم من كل باب ، وتعرض ما ورد فى التوراة على لسان موسى ، وما ورد فى صحف إبراهيم الذى وفى ، من هذه القاعدة التى تقول : (لا تحمل نفس مذنبه ذنب نفس أخرى) .

فالإنسان يحاسب عن عمله ، ويكافأ عليه أو يجازى ، فالمسئولية فردية ، وكل فرد سيحاسب على عمله ، وسيحضر العمل يوم القيامة ، ويراه أهل المحشر ، ليزداد المؤمن سرورًا وفرحًا ، ويزداد الفاجر ذلًا ومهانة .

التفسير :

٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ - أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى • وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى • أَعْبَدَهُ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى .

هل شاهدت هذا النموذج من الناس ، الذى رَقَّ قلبه للإسلام ، وعَظُمَ القرآن ومدحه ، ثم تولى عن الإسلام وأعرض عنه ، وأعطى بلسانه مدحاً للقرآن ، ثم منع ذلك المدح لكتاب الله ورفض الإسلام ، استجابة لتحريض صديق له من المشركين ، حَرَضَهُ على الكفر ، ووعده بأن يتحمل عنه العذاب يوم القيامة ، وأمر القيامة وشئونها غيب لا يعلمه إلا الله ، ولا يُعرف إلا بطريق الوحي ، فهل نزل عليه وحى يؤيد أن صاحبه سيتحمل عنه العذاب ؟ وهل عنده غيب من عند الله يفيد أن الله سيقبل أن يتحمل إنسان العذاب عن إنسان آخر ؟

٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ - أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى • وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى • أَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى .

أى : ألم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وَفَّى بما عاهد الله عليه ، وأنتم ما أمر به .

أَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى .

أى : لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى ، فكل نفس اكتسبت إثماً بكفر أو معصية فعليها وزرها ، لا يحملها عنها أحد ، كما قال تعالى : وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِيهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ... (فاطر : ١٨) .

قال ابن عباس :

كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنوب غيره ، يأخذون الولي بالولي ، أى القريب بالقريب ، فى القتل والجراحة ، فيَقْتُلُ الرجل بذنوب أبيه وابنه ، وأخيه وعمه ، وخاله وابن عمه ، والزوجة بزوجها ، وزوجها بها ، ويعبده ، فيُلْغَمُ إبراهيم عن الله تعالى : أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى .

أى : لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى .

قال تعالى : كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ . (الطور : ٢١) .

أى : الإنسان مرتتهن بعمله ، إن كان شراً عوقب عليه ، وإن كان خيراً كوفئ عليه .

وفاء إبراهيم عليه السلام

ظهر ذلك جلياً فى التزامه بتنفيذ جميع ما أمره به الله ، وترك ما نهاه الله عنه ، قال تعالى : وَإِذْ

أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ... (البقرة : ١٢٤) .

وإبراهيم عليه السلام قد وفى عندما أمره الله بذبح ولده إسماعيل ، وقد مدحه الله بقوله : فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ • وَلَدَيْتَهُ أَنْ يَأْتِيَنَّاهُمْ • قَدْ صدَّقَتِ الرَّعْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ • وَلَدَيْتَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ • وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ • سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ • (الصفافات : ١٠٣ - ١٠٩) .

وروى ابن أبى حاتم ، وابن جرير ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ألا أخبركم لم سُمي الله تعالى إبراهيم خليله الذي وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى : فُسُبِّحَنَّ اللَّهُ جِبْنَ تُمْسُونَ وَجِبْنَ تَضْبَحُونَ • وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَجِبْنَ تَنْظَهُرُونَ • يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرِجُونَ . (الروم : ١٧ - ١٩) .

وقال تعالى : ثُمَّ أَزْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ تَبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ . (النحل : ١٢٣) .

وإنما خص القرآن ما جاء فى صحف إبراهيم وموسى ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وكانت لا تزال بقية مما جاء به إبراهيم معروفة بينهم ، كما أن أهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما فى التوراة ، وصحفها قريبة العهد منهم .

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ - وَأَنْ تَبْتَغُوا مَا سَخَى • وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى • ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَى .

أى : وجاء فى صحف إبراهيم وموسى ، عليهما السلام ، أن الإنسان لا يجنى إلا ثمرة ما عمل ، فهو لا يعاقب على ذنب ارتكبه غيره ، ولا يكافأ إلا على عمل قد قام به ، وسعى قد سعا .

وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى .

أى : سيُشاهد عمله يوم القيامة فى المحشر أمام الخلائق ، وفى ذلك سعادة للمؤمن وبشارة له ، وتعاسة للكافر وحزن بأعماله الفاسدة .

كقوله تعالى : وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة : ١٠٥) .

أى : فيجزيكم عليه أتم الجزاء .

ثُمَّ يُجْزَلُهُ الْجَزَاءُ الْآوْفَى .

جاء فى هذه الصحف أيضاً : أن عمل الإنسان سيراه حاضراً أمام عينيه يوم القيامة ، وسيجازى عليه الجزاء الأوفى ، أى يجزى على عمله الجزاء الأتم الأكمل ، فيلقى أَوْفَى الجزاء وأكمله ، حيث يضاعف الله له الحسنة ، ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسينة مثلها أو يعفو عنها .

٤٢ - وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ .

إليه سبحانه نهاية كل مخلوق ، حيث يكون حسابه مع عالم الغيب والشهادة ، وتلك فكرة الإسلام : إن الإنسان من أول حياته إلى آخرها يعلم أن النهاية والحساب والجزاء والثواب والعقاب سيكون أمام الله ، الحكم العدل ، سريع الحساب ، الذى لا يظلم مثقال ذرة .

قال تعالى : وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وقيل : معنى : وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ .

أى : إننا نتفكر فى خلق الله ، ولا نتفكر فى ذات الله ، فالله منزّه عن الكم والكيف والطول والعرض ، لا يحده مكان ، ولا يحويه زمان ، بل هو فوق المكان والزمان ، هو أول بلا ابتداء ، حيث كان الله ولا شيء معه ، وهو آخر بلا انتهاء ، فالخلايق تغنى كلها ، والله باق لا يموت .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال سبحانه وتعالى : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

فالله تعالى ليس جسماً ولا حالاً فى جسم ، ولا يشبه الحوادث ، وهو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وهو علة العلل ، يخلق ولا يخلق ، يجبر ولا يجار عليه ، لا معقب لأمره ، ولا راد لقضائه .

قال تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ٣) .

وفى الحديث الذى رواه أصحاب السنن : «تفكروا فى مخلوقات الله ، ولا تتفكروا فى ذات الله ...» (٣٧) .

وفى الصحيح : «يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته» (٣٨) .

٤٣ - وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى .

أى : خلق سبب الضحك والبكاء ، وهما مختلفان ، فهو سبحانه أضحك بعض عباده بما يبعث على فرحهم وسرورهم ، وأبكى بعض عباده بما يبعث على حزنهم ويكأنهم .

أو المعنى :

أنه سبحانه أضحك وأبكى من الأمر الواحد ، صاحبه نفسه يضحك اليوم من الأمر ، ثم تواجهه عاقبته غداً أو جرائره فإذا هو باكٍ ، يتمنى أن لم يكن فعل ، وأن لم يكن ضحك ، وكمن ضاحك في الدنيا باكٍ في الآخرة ، حيث لا ينفع البكاء ، وكمن فقير أعطاه الله الغفران والسرور والغبطة والحبور ، وكمن غنى مئى بالخوف والحسرة ، والتردد والأحزان والبكاء ، فالسعادة والشقاء ، أو الضحك والبكاء ، وغيرها من المشاعر ، مئج موزعة لا تخضع لمقاييس البشر ، فكم من عاقل رزقه قليل ، وكمن من جاهل رزقه كثير ، كما يقول الشاعر :

ومن الدليل على القضاء وحكمه يؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

٤٤ - وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا .

هو سبحانه خالق الموت والحياة ، هو باعث الروح فى الأحياء ، وهو سبحانه قابض الأرواح ، وهو سبحانه خالق الكفر الذى يشبه الموت ، وخالق الإيمان الذى يشبه الحياة ، وهو باعث الحياة فى الأمم بإيقاظ الهمم والعزائم ، وهو مميت الأمم بكفرها وعنادها وترفها وفسوقها ، الذى يجرها إلى الهلاك والموت ، تلك سنة الله ، وإن تجد لسنة الله تبديلاً .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعْيِيكُمْ ثُمَّ يُخَيِّكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ مِّن شَيْءٍ ... (الروم : ٤٠) .

وقال عز شأنه : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَنِ كُم أَحْسَنُ عَمَلًا ... (المالك : ٢) .

٤٥ ، ٤٦ - وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ .

إنه لأمر عجيب يتكرر كل يوم ، حين تنتقل النطفة من المنى الذى يمنى ، وتنتقل ملايين الحيوانات المنوية ، ويسبق أحدها لإخصاب البويضة ، ويتم الخلق لجنين الإنسان أو الحيوان ، وبعضه يصبح ذكراً وبعضه يصبح أنثى ، ليتم إعمار الكون وتكامله .

قال تعالى : أَلَمْ يَكُنْ نُفُثَةً مِّنْ مِّثْيٍ يُمْتَنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ فَخْلَقٍ فَنَسَوَىٰ * فَبَجَلَّ مِنْهُ الْزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ . (القيامة : ٣٧ - ٤٠) .

وقال عز شأنه : يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . (الشورى : ٤٩ ، ٥٠) .

وإذا تأملت فى عالم الإنسان والحيوان ، والنبات والسحاب وغير ذلك ، وجدت العجب العجائب الذى يدير الرؤوس من أثر القدرة الإلهية ، التى عنيت بحفظ هذا الكون ورعايته ، ومن ذلك خلق الذكر والأنثى من المني الذى يمتنى من الذكر ، ويصب فى الأرحام ، ويتكوّن الجنين فى بطن الأم فى مراحل متعددة ، ثم يولد الجنين وله حواس متعددة ، وبعضه ذكر وبعضه أنثى .

قال تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَةً ... (النحل : ٧٢) .

٤٧ - وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْآخَرَىٰ .

هو سبحانه الذى خلق ، وهو الذى رزق ، وهو الذى يميت ، وهو الذى يحيى العباد فى الميعاد ، ليكافأ المطيعون ، ويعاقب الكافرون ، والنشأة الأخرى حق عليه ، تكريماً للإنسان ، حتى يتحقق الجزاء العادل فى الدار الآخرة .

قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ...

(المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦)

٤٨ - وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ .

هو سبحانه يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء ، بحسب ما يراه سبحانه بحكمته .

قال تعالى : وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ . (الشورى : ٢٧)

٤٩ - وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَىٰ .

والشَّعْرَى : هذا الكوكب الواهاج الذى يطلع خلف الجوزاء فى شدة الحر ، وإنما خصها بالذكر من بين الأجرام السماوية ، وفيها ما هو أكبر منها جرماً ، وأكثر ضوءاً ، لأنها عُبِدَت من دُون الله فى الجاهلية ، فقد عبدها حمير وخزاعة .

٥٠ - وَاللَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى .

وعاد هم قوم هود ، وهم أول قبيلة أهلك بعد طوفان نوح عليه السلام ، وكانوا أقوىاء أشداء ، نصحبهم نبي الله هود ودعاهم للإيمان فامتنعوا ، وظنوا أن قوتهم تقف في وجه من يعذبهم ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية قضت عليهم ، وأهلكهم الله جزاء عدوانهم .

قال ابن كثير : وهم قوم هود ، ويقال لهم : عاد بن إرم .

كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلْنَا رِيحًا بَعَادٍ * إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ يَنْفُهَا فِي الْبَلَدِ . (الفجر : ٦ - ٨) .
فكانوا من أشد الناس وأقواهم ، وأعتاهم على الله تعالى ، وعلى رسوله ، فأهلكهم الله : بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .
(الحاقة : ٦)

٥١ - وَكُودًا فَمَا أَتَى .

وأهلك ثمود قوم صالح ، حين عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، فما أبقي منهم أحداً ، كما قال تعالى : فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٨) .

٥٢ - وَقَوْمَ نُوحٍ مَنِ بَقِيَ لَهُمْ كَانُوا هُمْ أَهْلَهُمْ وَأَطْعَى .

وأهلك الله بقدرته قوم نوح بالطوفان الذي أتى عليهم أجمعين ، وقد كانوا أشد ظلماً ، وأعظم طغياناً ممن جاء بعدهم ، فقد مكث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما آمن معه إلا قليل منهم ، وهم الذين ركبوا السفينة مع نوح عليه السلام .

٥٣ - وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى .

وأسقط الله مدائن قوم لوط ، فجعل عاليها سافلها ، حيث رفعها جبريل إلى السماء ، ثم جعلها تهوى إلى الأرض ، ثم أمطر الله عليها الحجارة .

٥٤ - فَفَعَلْنَاهَا مَا غَشَى .

حيث أنزل الله بها صوراً مرعبة من الدمار والهلاك ، والخسف والتنكيل الذي يشمل كل شيء ، ويغشاها فلا يبين .

قال تعالى : فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مُنْقُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ . (هود : ٨٢ ، ٨٣) .

٥٥ - فَبَأَىٰ آثَامُكَ تَمَازَىٰ .

بأى نعم الله أيها الإنسان تجادل أو تكابر ؟ ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعى ؟

إن هذا الكون فى قبضة الله ، وإن للظالمين والباغين يوماً عاجلاً أو أجلاً ، فإله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، لقد تمتع الظالمون بنعم الله ، ثم كذبوا رسله وأرغى الله لهم العنان وأمدهم بالخيرات ، وناقشهم الرسل وحذرتهم من عذاب الله ، فاستخفوا بوعيد الله ، وكان فى هلاكهم إنصاف للحق والعدل ، وبيان لسنة الله التى لا تتبدل .

قال تعالى : الَّذِينَ طَفَوْا فِي آلِئِلْدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلٌ مُّصَادٍ . (الفجر : ١١ - ١٤) .

★ ★ ★

السجود فى آخر سورة النجم

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴾ ﴿٥٦﴾ أَرَأَيْتَ الْآزِفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَرَأَيْتَ هَذَا الْخَلْقِ يَعْجِبُونَ ﴿٥٩﴾ وَنَضْحَكُونَ وَلَا تَكُونُ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

المضردات :

هذا نذير من النذر الأولى : إن محمداً ﷺ بعض من أنذر من المنذرين الأولين ، فهو كالرسل قبله أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم ، أو هذا القرآن منذر لكم ، من نوع الكتب الأولى التى أنذر بها الأنبياء .

أزفة : اقتراب ، قربت .

الآزفة : الساعة الموصوفة فى القرآن بقربها .

من دون الله : من غيره .

كاشفة : نفس تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات .

الاسجدوا : القرآن .

تَعَجَّبُونَ، إنكارًا وتكذيبًا .

تَضَحَّكُونَ، استهزاء .

وَلَا تَبْكُونَ، حزنًا على ما فرطتم ، وعند سماع وعد الله ووعيده .

وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ، لاهون وغافلون ، ومعرضون عما يطلب منكم .

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ، الذى خلقكم .

وَاصْبِرُوا، اعبدوه دون الآلهة المزعومة كالأصنام ، وأقيموا وظائف العبادة .

تمهيد :

بعد هذا العرض الرائع لمظاهر القدرة الإلهية ، وبعد أن بيَّن أن بيد الله الإحياء والإماتة ، وأنه أهلك السابقين من المكذبين ، وأن نعمًا واضحة للعيان لا يتشكك فيها منصف تحدث لجميع الناس ، مبيِّناً أن محمداً رسول مثل الرسل قبله الذين سبقوه ، كإبراهيم وموسى وعيسى ونوح عليهم السلام ، والقرآن مثل الصحف السابقة عليه ، كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى ، وأن القيامة قد اقتربت ، ومن الواجب العمل لها ، لقد قابلتم القرآن الكريم بالإعراض والاستهزاء ، ولم تقابلوه بالخشية والبكاء من خشية الله ، وخوف عذاب الآخرة ، حال كنتم معرضين عن رسالة الإسلام ، فتداركوا الموقف ، واسجدوا لله ، عابدين له حق العبادة ، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان .

التفسير :

٥٦ - هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأَوَّلَى .

هذا الرسول الذى تتمارون فى رسالته وتتشككون ، نذير ضمن المنذرين الأولين الذين حذروا أقوامهم، من الكفر والتكذيب ، ثم نزل الهلاك بالمكذبين ، فقد غرق قوم نوح ، وأهلك الله عادًا وثمود .

أو أن القرآن رسالة السماء ، تنذر المكذبين ، مثل التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وموسى .

٥٧ ، ٥٨ - أَزِفَتْ الْأَرْفَةُ ۖ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ .

اقترب العذاب الذى يأخذ بزمam الكافرين ، ولا يستطيع أحد أن يدفع هوله ورعبه ، ولا يقدر على ذلك إلا الله .

وقال كثير من المفسرين :

المراد : اقتربت القيامة ، كما قال سبحانه وتعالى : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ... (القدر: ١) .

وقال تعالى: وَمَا يُذِيرُكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ . (الشورى : ١٧) .

وقد روى الشيخان ، وأحمد أن رسول الله ﷺ قال : «بعثت أنا والساعة هكذا» ، وأشار بأصبعيه : السبابة والوسطى^(٣٩) .

لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ .

ليس هناك على الإطلاق نفس قادرة على كشفها وإظهارها ، والإعلام بها إلا الله تعالى ، فهي من أخفى الغيبات ، فاستعدوا لها قبل مجيئها بغتة وأنتم لا تشعرون .

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... (لقمان : ٣٤) .

وقال عز شأنه: لَا يُجَلِّيهَا لِزَقْفِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ ... (الأعراف: ١٨٧) .

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ - أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَلِيمُونَ * فَاسْجُدُوا

لِلَّهِ وَاعْبُدُوا .

أتعجبون من هذا القرآن وتميزه وعظمته ، ثم لا تخضعون له ولا تؤمنون به ، ولا تستجيبون للمنزّل عليه ، بل تسخرون من آياته ، وتضحكون منه مع كونه غير محل للضحك ، ولا تبكون على تفريطكم في أمر الله ، أو لا تبكون خوفاً من القيامة وأهوالها .

وَأَنْتُمْ سَلِيمُونَ .

وأنتم لاهون غافلون ، أو متكبرون متغترسون ، رافعون رؤوسكم كبراً وتبها وعجباً .

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا .

إنها لصيحة مدوية مزلزلة ، لكل مغرٍ ضلّاه متكبر ، أى اسجدوا لله وحده ، واعبدوه مخلصين له الدين ، فهو سبحانه أهل للعبادة والطاعة ، والسجود والخضوع لأمره ، ولا تسجدوا للأصنام ولا للأوثان ، فالكون كله خاضع لأمره .

وقد ورد في الصحيح : أن النبي ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون والجن والإنس ، لقد سجد المسلمون امتثالاً لأمر الله واقتداء برسول الله ، وسجد الباقون تعظيماً لهذا الكتاب ، وتأثراً به ، وخضوعاً لعظمته ، واهتزازاً لعاطفة حركها القرآن في هذه الآيات المتلاحقة ، القصيرة المتواليّة ، التي لا يملك قلب حى ، أو عاطفة سليمة ، أو وجدان يقظ إلا أن ينحنى ويسجد ، مأخوذاً مبهوراً بكتاب الله تعالى .

فى أعقاب تفسير سورة النجم

ضميمتان

الضميمة الأولى : قصة الغرائق .

الضميمة الثانية : فى معنى قوله تعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم : ٣٩) .

الضميمة الأولى : قصة الغرائق

ذكر بعض المفسرين قصة الغرائق ، وملخصها : أن النبى ﷺ قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله تعالى : أَرَأَيْتُمْ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنْزَةَ الْغَالِيَةِ الْأُخْرَىٰ . (النجم : ١٩ ، ٢٠) . ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى .

وقد قال الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : إنها من روايات وطرق كلها مرسله ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح .

تأمل

القرآن من عند الله ، وقد تكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه ، وقال سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر : ٩)

كما تكفل الله بحفظ رسوله ﷺ ، فقال تعالى : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (المائدة : ٦٧) .

وقال عن الوحى : وَمَا نَنْزَلْتَنَاهُ الشَّيْطَانُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ . (الشعراء : ٢١٠ ، ٢١١) .

وقال سبحانه فى مطلع سورة النجم : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم : ٣ ، ٤) .

والسورة كلها فى تأكيد معنى الألوهية ، ووحدانية الخالق الواحد ، قال تعالى : وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّجُجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ . (النجم : ٤٢ - ٤٧) .

كل ذلك يؤكد أن روح القرآن دعوة إلى التوحيد ، والتنديد بالأصنام ، وسورة النجم كلها فى تأكيد

الوحدانية ، ونفى الشفاعة ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَىٰ . (النجم : ٢٦) .

والقرآن كله ليس فيه أى تعظيم للأصنام ، بل هو حملة شعواء على عبادة الأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تجيب ، وقد استحث القرآن العقل والفكر واللّب والفؤاد ، على التأمل فى أن الكون البديع لا بدّ له من خالق ، وأن هذه الأصنام لم تخلق شيئاً فلا يصح أن تُعبد .

رواية ابن أبى حاتم

ورواية ابن أبى حاتم أكثر الروايات فى الموضوع تفصيلاً ، وأقلها إغراقاً فى الخرافة والافتراء على رسول الله ﷺ ، وموضع الشاهد فيها أن الكفار قد اشتدت عليهم حملة القرآن على أصنامهم ، ورغبوا فى أن يذكر القرآن آلهتهم بخير ، فلما أنزل الله سورة النجم قال : **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْزَلَ الْمَائِدَةِ الْأُخْرَىٰ ۚ أَلْقَى الشَّيْطَانُ عِنْدَهَا كَلِمَاتٍ فَقَالَ : (وَأِنْهُمْ لَهِنَ الْغُرَانِقُ الْعُلَىٰ ، وَإِنْ شَفَاعَتُهُنَّ لَهَىٰ الَّتِي تَرْتَجَىٰ) ،** وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته ، فوقعت هاتان الكلمتان فى قالب كل مشرك بمكة ، وزلّت بها ألسنتهم ، وتباشروا بها ، فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر سورة النجم سجد ، وسجد معه كل من حضره ، من مسلم أو مشرك ، المسلمون سجدوا طاعة لربهم ، والمشركون سجدوا لما ألقى الشيطان فى أمنية رسول الله ﷺ ، وحدثهم به الشيطان ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظها من الغربة .

قال تعالى : **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .** (الحج : ٥٢) .

من المنتخب فى تفسير القرآن

ومعنى هذه الآية : لا تحزن أبها النبى من محاولات هؤلاء الكفار ، فقد جرت الحوادث من قبلك ، مع كل رسول من رسلنا ، ونبى من أنبيائنا ، أنه كلما قرأ عليهم شيئاً يدعوهم به إلى الحق ، تصدّى له شياطين الإنس المتمردون لإبطال دعوته ، وتشكيك الناس فيما يتلوهم عليهم ، لكى يحولوا بين النبى وبين أمنيته فى إجابة دعوته ، فيزيل الله ما يدبرون ، ثم تكون الغلبة فى النهاية للحق ، حيث يذبت الله شريعته وينصر رسوله ، وهو عليم بأحوال الناس ومكائدهم ، حكيم فى أفعاله ، يضع كل شىء فى موضعه .

وقال تعالى : **لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ .** (الحج : ٥٣)

وجاء فى المنتخب فى تفسيرها ما يأتى :

وإنما مكن الله المتمردين على الحق من إلقاء الشبه والعراقيل فى سبيل الدعوة ، ليكون فى ذلك امتحان واختبار للناس ، فالكفار الذين تحجرت قلوبهم ، والمنافقون ومرضى القلوب يزدادون ضلالاً بترويج هذه الشبه ومناصرتها ، ولا عجب فى أن يقف هؤلاء الظالمون هذا الموقف ، فإنهم لجؤا فى الضلال ، وأوغلوا فى العناد والشقاق .

وقال سبحانه : وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ عَآمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (الحج : ٥٤) .

وجاء فى المنتخب فى تفسير القرآن ما يأتى :

وليزداد الذين أوتوا علم الشرع والإيمان به إيماناً ، وعلماً بأن ما يقوله الرسل والأنبياء إنما هو الحق المنزل من عند الله ، وأن الله ليتولى المؤمنين دائماً بعنايته فى المشاكل التى تمر بهم ، فيهديهم إلى معرفة الطريق المستقيم فيتبعونه . ١ هـ .

وقد مر تفسير هذه الآيات تفصيلاً فى سورة الحج ، ورغبت أن أضع موجزاً لمعناها هنا لما يأتى :

١ - الآيات التى استشهدوا بها فى سورة الحج لا تؤيد ما ذهب إليه هذه الروايات العليقة ، التى لم ترد مسندة من وجه صحيح .

٢ - أن من شرط قبول الحديث أو الأثر ، ألا يعارض ما ورد فى القرآن الكريم أو السنة الصحيحة .

٣ - أن دين الله الحق يرفض أى رواية فيها مدح للأصنام أو الأوثان ، فهذا يعارض ما علم من الدين بالضرورة ، وهو أن الكون كله لله ، والكمال كله لله ، وأن الأصنام عبادتها ضلال ، وشفاعتها مرفوضة لا ترتجى أبداً .

٤ - لكل هذا نرفض جميع الروايات التى تفيد أن المشركين سجدوا عندما مدح القرآن آلهتهم ، أو عندما سمعوا مدحها على لسان الشيطان .

٥ - السورة كلها - سورة النجم - نسيج واحد ، رائع فى التوحيد الخالص ، لا يحتمل التضارب أو مدح الأصنام .

٦ - سجد المشركين تم للروعة الفائقة والقوة الباهرة للآيات الكريمة ، وللرهبة التى تشمل كل القلوب ، فسجد المؤمنون ، وسجد المشركون ، وسجد الإنس والجن ، كما ورد فى صحيح البخارى .

أخرج البخارى ، عن ابن عباس قال : سجد النبی ﷺ بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس ^(١٠) .

معنى الغرائيق

لم يرد مدح آلهة المشركين بهذا الاسم فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم يكن هذا الوصف جارياً على أسنتهم ، وإنما ورد الغرنوق والغرائيق على أنه اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، والشاب الأبيض الجميل ، ولا شىء من ذلك يلائم معنى الآلهة أو وصفها عند العرب ، كما ذكر ذلك الأستاذ الشيخ محمد عبده فى رده على موضوع الغرائيق .

كتاب (حياة محمد ﷺ) لمحمد حسين هيكل

ذكر الأستاذ محمد حسين هيكل قصة الغرائيق فى كتابه (حياة محمد) ، وبين أنها قصة مكذوبة ، لا أصل لها على الإطلاق ، لما يأتى :

(أ) النبى ﷺ منذ طفولته وشبابه لم يُجرب عليه الكذب ، حتى سُمى الأمين ولمّا يبلغ خمسة وعشرين عاماً من عمره ، وهذا الصادق الأمين مستحيل أن يقول على الله ما لم يقله «فما كان ليطرك الكذب على الناس ويكذب على الله» .

(ب) قصة الغرائيق وردت بروايات متعددة فى بعض كتب الحديث ، وبعض كتب التفسير ، وهذا التعدد فى الروايات يدل على أن الحديث موضوع ، وأنه من وضع الزنادقة كما قال ابن إسحاق ، وأن الغرض منه التشكيك فى صدق تبليغ محمد ﷺ رسالات ربه .

(ج) استند بعض المستشرقين - ومنهم سير وليم موير - إلى الروايات العليلة التى وردت فى بعض كتب السيرة ، وكتب التفسير ، وجعلها حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرائيق ، وقد قال ابن إسحاق حين سئل عنه : إنه من وضع الزنادقة ، وهو حديث ظاهر التهافت ينقضه قليل من التمحيص ، لأنه ينقض ما لكل نبى من العصمة فى تبليغ رسالات ربه . ١ هـ .

وقد قال تعالى : يَكْفِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . (المائدة : ٦٧) .

الضميمة الثانية

فى معنى قوله تعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم : ٣٩) .

قال ابن كثير فى تفسيرها ما يأتى :

أى : كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى رحمه الله ، أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، فأما الدعاء والصدقة فمجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به»^(١١) ، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه» .

والصدقة الجارية كالوقف ونحوه ، هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ... (يس : ١٢) . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتردى به الناس بعده ، هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء»^(١٢) .

من التفسير المنير

والمعتمد فى المذاهب الأربعة أن ثواب القراءة يصل إلى الأموات ، لأنه هبة ودعاء بالقرآن الذى تتنزل الرحمات عند تلاوته ، وقد ثبت فى السنة النبوية وصول الدعاء والصدقة للميت ، وذلك مجمع عليه^(١٣) .

من تفسير ابن جرير الطبرى

وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم : ٣٩) .

يقول جل ثناؤه : أو لم ينبأ أنه لا يجازى عامل إلا بعمله ، خيراً كان ذلك أو شراً .

قال ابن زيد فى قوله تعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وقرأ : إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى . (الليل : ٤) .

قال : أعمالكم .

وذكر عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية منسوخة ، نسخها قوله تعالى : **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ** ... (الطور: ٢١) .

فأدخل الله الأبناء الجنة بصلاح الآباء ^(١) . اهـ .

خلاصة الآراء

فى قوله تعالى : **وَأَنْ تَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى** .

استنبط الشافعى رحمه الله أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم .

ونزهت طائفة من الأئمة إلى انتفاع الإنسان بعمله ، وبما سعى له به غيره ، تفضلاً من الله ورحمة .
بهذه الأمة ، وأن الآية الكريمة : **وَأَنْ تَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى** . قد تكون من قبيل العام الذى قد خصص بأمور كثيرة ، وقد تكون مخصوصة بقوم إبراهيم وقوم موسى لأنها حكاية عما فى صنفهما .

من تفسير القرطبى

رؤى عن عائشة رضى الله عنها ، أنها اعتكفت عن أخيها عبد الرحمن ، وأعتقت عنه .

ورؤى أن سعد بن عبادة قال للنبى ﷺ : إن أمى توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : «نعم» ، قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : «سقى الماء» .

وقيل : إن الله عز وجل إنما قال : **وَأَنْ تَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى** . ولam الخفض معناها فى العربية الملك والإيجاب ، فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدق عنه غيره فليس يجب له شيء ، إلا أن الله يتفضل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل .

وقال الربيع بن أنس :

وَأَنْ تَيْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَى . يعنى : الكافر ، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره .

قلتُ : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول ، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره ^(٢) .

من تفسير الفتوحات الإلهية

قال الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي ، الشهير بالجمال ، المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ^(١٧) :

من تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ، ما لا يكاد يحصى ، فلا يجوز أن تؤول الآية على خلاف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، فالظاهر أن الآية عامة قد خُصصت بأمور كثيرة . انتهى نقلا عن الكرخي .

وقيل : إن قوله تعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . هو من باب العدل ، وأما من باب الفضل فجائز أن يزيده الله ما يشاء من فضله وكرمه . ا هـ .

وقال عكرمة : إن ذلك لقومى موسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وأما هذه الأمة فلهم ما سعوا وما سعى لهم غيرهم ، لما روى أن امرأة رفعت صبيّاً لها ، وقالت : يا رسول الله ، ألهذا حج ؟ فقال : «نعم، ولك أجر» .

وقال رجل للنبي ﷺ : «إن أمتي افطلتت نفسها ، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : «نعم»^(١٨) .

٢١ دليلا لابن تيمية

نقل صاحب الفتوحات الإلهية ، الشهير بالجمال ، عن ابن تيمية ٢١ دليلا مؤيدا ، حيث قال :

قال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :

أحدها : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

ثانيها : أن النبي ﷺ يشفع لأهل الموقف فى الحساب ، ثم لأهل الجنة فى دخولها .

ثالثها : أنه ﷺ يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا انتفاع بسعى الغير .

رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الله تعالى يُخرج من النار من لم يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا انتفاع بغير عملهم .

سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك انتفاع بمحض عمل الغير .

سابها: قال الله تعالى فى قصة الغلامين اليتيمين : وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ... (الكهف: ٨٢) . فانتقعا بصلاح أبيهما ، وليس ذلك من سعيهما .

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعنق ، بنص السنة والإجماع ، وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت بحج وليه ، بنص السنة ، وهو انتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المنذور أو الصوم المنذور يسقط عن الميت بعمل غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

حادى عشرها : المدين قد امتنع ﷺ من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وانتفع بصلاة النبى ﷺ ، وهو من عمل الغير .

ثانى عشرها : أن النبى ﷺ قال لمن صلى وحده : «ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه» ، فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير .

ثالث عشرها : أن الإنسان تبرأ ذمته من ديون الغير إذا قضاها عنه قاض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

خامس عشرها : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات ، كما جاء فى الأثر ، وهذا انتفاع بعمل الغير .

سادس عشرها : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد انتفع بعمل غيره .

سابع عشرها : الصلاة على الميت والدعاء له فى الصلاة ، انتفاع للميت بصلاة الحى عليه ، وهو عمل غيره .

ثامن عشرها : أن الجمعة تحصل باجتماع العدد ، وكذا الجماعة بكثرة العدد ، وهو انتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشرها : أن الله تعالى قال لنبيه : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ... (الأنفال: ٢٣) . وقال تعالى : وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ... (الفتح: ٢٥) . فقد رفع الله تعالى العذاب عن بعض الناس بسبب بعض ، وذلك انتفاع بعمل الغير .

العشرون : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره ممن يموته الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يخرج عنه ، ولا سعى له فيها .

الحادى والعشرون : أن الزكاة تجب فى مال الصبى والمجنون ، ويثاب على ذلك ولا سعى له .

ومن تأمل العلم وجد من انتفاع الإنسان بما لا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن نتأول الآية الكريمة على خلاف صريح الكتاب والسنة وإجماع الأمة^(١٤) .

كلمة ختامية

هناك أمور تتعلق بفضل الله تعالى وسعة رحمته ، وعظيم تفضله على عباده ، ومنها شفاعة الرسول ﷺ لأمته ، ومنها مضاعفة الحسنه إلى ألفي ضعف ، ومنها التوبة النصوح ، ومنها التوفيق وحسن الختام ، ومنها أن الله تعالى يصلح بين العبيد يوم القيامة ، ويرضى الخصماء مع بعض خصمائهم .

وفى القرآن الكريم : **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَتَّ سَبْعَ مِائَاتٍ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** . (البقرة : ٢٦١) .

فلا يجوز أن نحكم عقلنا القاصر في شئون الآخرة ، أو في نص صحيح مقبول شرعاً ونقلاً ، بل نخني رؤوسنا ونفوض الأمور إلى الله ، فهو يرزق من يشاء بغير حساب ، وليست هناك آلة حاسبة آلية لتوزيع الناس وحساباتهم يوم القيامة ، فله أفضال على من يشاء ، وللرسول ﷺ شفاعة يوم القيامة ، بحساب ونظام كما ذكر في الصحيح ، لكن ذلك لا ينفي أن الجزء من جنس العمل ، وهذا هو العدل ، وفوق ذلك هناك فضل يستحقه من يشاء الله له ذلك ، بمقياس ربنا الحكيم ، العليم بذات الصدور ، ومن ذلك زيادة الأضعاف ، وزيادة الحسنه الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة^(١٥) .

قال القرطبي في تفسيره :

ويحتمل أن يكون قوله تعالى : **وَأَنْ يُسَّ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى** . خاصاً في السيئة ، بدليل ما في صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : **«قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة»**^(١٦) .

والله أعلم ، وهو سبحانه ولى التوفيق .

خلاصة ما تضمنته سورة النجم

- ١ - إنزال الوحي من الله على رسوله ﷺ .
- ٢ - إن الذي علمه إياه هو جبريل شديد القوى .
- ٣ - قرب الرسول ﷺ من ربه .
- ٤ - إن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الحقيقية مرتين .
- ٥ - تقريع المشركين على عبادتهم الأصنام .
- ٦ - توبيخهم على جعل الملائكة إناثاً ، وتسميتهم إياهم بنات الله .
- ٧ - مجازاة كل من المحسن والمسيء بعمله .
- ٨ - إحاطة علمه تعالى بما فى السماوات والأرض .
- ٩ - النهى عن تزكية المرء نفسه .
- ١٠ - الوصايا التى جاءت فى صحف إبراهيم وموسى .
- ١١ - التعجب من استهزاء المشركين بالقرآن حين سماعه ، وغفلتهم عن مواعظه .
- ١٢ - أمر الناس بالخضوع لله ، والإخلاص له فى العمل^(١)

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير سورة (النجم) مساء الثلاثاء، ١٩ من رجب ١٤١١ هـ، الموافق ١٧/١٠/٢٠٠٠ م،
والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

تفسير سورة القمر

أهداف سورة القمر

سورة القمر مكية ، وآياتها (٥٥) آية ، نزلت بعد سورة الطارق

وهي سورة تمثل سياتلا لاذعة للمكذبين المنكرين ، وتعرض مشاهد خايفة لما أصاب المكذبين السابقين ، وتستعرض مواقف القيامة وأحوال الحشر ، وأحوال المجرمين ، وما يصيبهم من العذاب والنكال في الآخرة .

انشقاق القمر

يصف مطلع السورة حادثا فذا ، هو انشقاق القمر بقدرة الله تعالى معجزة لرسول الله ﷺ .

وقد وردت روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع انشقاق القمر في مكة قبل الهجرة ، حيث جاءت هذه الروايات في البخارى ، ومسلم ، ومسنند الإمام أحمد ، وغيرها من كتب السنة .

فقد روى الشيخان ، عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة ^(١) ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السُّفَّار ^(٢) فإن محمدا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم ، قال : فجاء السُّفَّار فقالوا ذلك .

وهذه الروايات مع غيرها تتفق على انشقاق القمر بمكة .

كما ثبت أن أهل مكة قابلوا هذه الآية بالعناد ، وادعوا أن محمدا سحر أهل مكة حتى يشاهدوا القمر منشقا ، ثم اتفقوا على أن يسألوا عن الحادث المسافرين القادمين إلى مكة ، وقد شهد المسافرون بأنهم شاهدوا القمر نصفين في ذلك اليوم ، فادعى أهل مكة أن محمدا سحر الناس جميعا .

قال تعالى : أَفَرَبَّتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ . (القمر : ١ ، ٢) .

ويرى بعض المفسرين أن الآية تخبر عن الأحداث الكونية المستقبلية ، فعند قيام الساعة ستنشق الأرض والسموات ، كما قال سبحانه : إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ . (الانشقاق : ١) . كما ينشق القمر وينفصل بعضه عن بعض ، وتتناثر النجوم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات .

سياق السورة وأفكارها

فى الآيات (١-٨) وصف لاجود الكافرين ، وعدم إيمانهم بالقرآن ، وانصرافهم عنه إلى الهوى والبهتان . وفى الآيات تهديد ووعيد لهؤلاء المشركين بيوم الجزاء ، فهم يخرجون من قبورهم خاشعين من الذل . فى حالة سيئة من الرعب والهول ، فيسرعون الخطى ليوم الحشر كأنهم جراد منتشر ، وقد أسقط فى أيديهم فيقول الكافرون : هذا يوم صعب عسر .

خمس حلقات من مصارع المكذبين

الآيات من (٩ - ٤٢) تشتمل على عرض لمصارع قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ، وفرعون وملئه ، وكلها موضوعات سبقت فى سور مكية ، ولكنها تعرض فى هذه السورة عرضا خاصا ، يحيلها جديدة كل الجدة ، فهى تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ويظللها الدمار والفرع .

وأخص ما يميزها فى سياق السورة ، أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبية سريعة لاهثة مكروية ، يشهدها المكذبون وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها ، فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروية عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً ، حتى تنتهى الحلقات الخمس فى هذا الجو المفزع الخانق .

١ - قوم نوح (الآيات ٩ - ١٧) :

وتلمح فى الآيات مشهد المكذبين يتهمون نوحاً بالجنون ، ونوح يظهر لله ضعفه ويدعوه أن ينتصر له ، وتستجيب السماء فينهزم المطر وتنفجر عيون الأرض ، ويلتقى ماء السماء بماء الأرض ، ثم يفرق الكافرون ، وينجى الله نوحاً ومن آمن معه ، ويسأل القرآن سؤالاً لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير ، فيقول : فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي . (القمر: ١٦) .

والقرآن كتاب إلهي سهل التناول ميسر الإدراك ، فيه جاذبية الصدق والبساطة وموافقة الفطرة ، لا تفنى عجائبه ، ولا يَخْلُق على كثرة الرد ، وكلما تدبره القلب عاد منه بزاد جديد ، وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنسا : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . (القمر: ١٧) .

هذا هو التعقيب الذى يتكرر بعد كل مصرع من مصارع السابقين .

٢ - عاد قوم هود (الآيات ١٨ - ٢٢) :

أرسل الله عليهم ريحا عاتية تدمر كل شيء بإذن ربها ، وقد سلسلوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا تعصف بهم الرياح ، وشقوا لأجسامهم شقوقا داخل الأرض ، وتركوا رؤوسهم خارجا ، فكانت الرياح تكسر رؤوسهم وتتركهم كالنخيل التى قُطعت رؤوسها وتُركت أعجازها وجذورها .

٣ - ثمود قوم صالح (الآيات ٢٣ - ٣٢) :

وقد أرسل الله إليهم نبيه صالحا ومعها الناقة ، فأخبرهم بأن الماء قسمة بينهم وبينها ، فللناقة يوم ولهم يوم ، لها يشرب ولهم يشرب يوم معلوم .

وكان اليوم الذى ترد فيه ثمود البئر لا تأتى الناقة إليه ولا تشرب منه ، ولكنها تسقيهم لبنا ، وفى اليوم التالى تحضر شربها وحدها . ومع وضوح هذه الآية ، فإن ثمود ملّت هذه القسمة ، وحزّضوا شقيا من الأشقياء على قتل الناقة ، فلما قتلها استحقوا عقاب الله ، وأرسل الله عليهم صيحة واحدة فكانوا كفتات الحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لغنمه .

٤ - قوم لوط (الآيات ٣٣ - ٤٠) :

اشتهر قوم لوط بالشذوذ الجنسى ، حيث استغنى الرجال بالرجال ، وهو انتكاس للفطرة وشروء فى الرذيلة ، ولقد حذرهم لوط مغبة فعلتهم ، فكذبوه وجادلوا بالباطل ، وجاءت الملائكة إلى نبي الله لوط فى صورة رجال عليهم مسحة الجمال والجلال ، فرغب قوم لوط فى أن يفعلوا فعلتهم الشنعاء فى الملائكة ، وراودوه عن صيفه ليفعلوا بهم اللواط ، فاستحقوا عقوبة السماء ، وأرسل الله عليهم حاصبا ، أى ريحا تحمل الحجارة ليذوقوا العذاب .

٥ - ثم تعرض السورة حلقة قصيرة عن فرعون وجحوده ، وعقاب الله له حيث أخذه أخذ عزيز مقتدر .

وفى الآيات الأخيرة من السورة (٤٣ - ٥٥) تعقيب على هلاك السابقين ، وتوجيه لأهل مكة بأنهم لن يكونوا أحسن حالا ممن سبقهم ، ثم إن الساعة تنتظرهم وهى أدهى وأمر من كل عذاب شاهده فىما سبق ، أو سمعوا وصفه فىما مرّ ، من الطوفان الذى أصاب قوم نوح ، إلى الصرصر مع عاد ، إلى الصاعقة مع ثمود ، إلى الحاصب مع قوم لوط ، إلى إغراق فرعون .

حكمة الخالق

وتشير الآيات إلى حكمة الله العالية ، فتقول : **إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** . (القمر: ٤٩) .

وهذه الحكمة تظهر في خلق الكون ، وفي خلق السماء والأرض ، وفي خلق الإنسان ، وفي خلق الطيور

والحيوانات ، وفي سائر خلق الله : **يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** . (النور: ٤٥) .

إن قدرة الله وراء طرف الخيط البعيد لكل حادث ، ولكل نشأة ، ولكل مصير ، ووراء كل نقطة وكل خطوة وكل تعديل أو تغيير ، إنه قَدَرُ الله النافذ الشامل الدقيق العميق .

وأحيانا تخفى الحكمة علي العباد فيستعجلون أمرا ، والله لا يعجل لعجلة العباد ، فالواجب أن يرضى المؤمن بالقضاء والقدر ، وأن يحنى رأسه أمام حكمة الله ومشيئته .

ثم يعرض الختام مشهد المجرمين يسحبون في النار على وجوههم ليزوقوا العذاب ، كما يعرض مشهد المتقين في نعيم الجنة ورضوان الله العلى القدير .

انشقاق القمر وعناد المشركين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ③ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ ⑥ خُشِعَا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ⑦ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَرَسٌ ⑧ ﴾

المفردات :

أقربت : دنت وقربت .

الساعة : القيامة .

انشق القمر : انفصل بعضه عن بعض وصار فرقنتين .

آية : دليلا على نبوتك .

سحر مستمر : مُطرد دائم .

أهواءهم : ما زينته لهم الشيطان من الوسوس والأوهام .

وكل أمر مستقر : وكل أمر لا بد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى إلى نهاية يستقر عليها .

مزدجر : ازدجار وانتهاز وردع عما هم فيه من الكفر والضلال .

بالغة : واصله غاية الإحكام والإبداء .

تفنى : تفيد وتنفذ .

النذر : الرُّسل أو الأمور المخوفة لهم .

شيء نكر : منكر فظيع ، والمراد : هول القيامة .

خشعا أنصارهم ، ذليلة خاضعة من شدة الهول.

الأجساد : القبور .

مضطعين : مسرعين متقادين .

يَوْمَ عَسِيرٍ ، صعب شديد لعظم أهواله .

سبب النزول :

روى البخارى ، عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما .^(٤٤)

وروى مسلم ، والترمذى ، عن عبد الله بن عمر فى قوله تعالى : اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ ، انشق القمر فلقتين ، فلقة من دون الجبل ، وفلقة خلف الجبل ، فقال النبى ﷺ : «اللهم اشهد»^(٤٥) .

وقد وردت روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع حادث انشقاق القمر بمكة فى عهد النبى ﷺ ، قبل الهجرة ، إكراما من الله لرسوله وتصديقا له .

التفسير :

١ - اقْرَبْتِ السَّاعَةَ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

اقتربت القيامة ، فالباقي من عمر الدنيا أقل بكثير مما سبق منها ، وقد قال ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين»^(٤٦) . وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة ، (متفق عليه) .

وقد مرَّ بعد الرسالة المحمدية أكثر من أربعة عشر قرنا ، لكنها قليلة بالنسبة إلى عمر الدنيا وهو قرابة ١٣ بليون سنة .

وفى عام ١٩٩٤ م انعقد مؤتمر علمى فى الولايات المتحدة الأمريكية بشأن معرفة عمر الكون وعمر الإنسان على هذه الأرض ، وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان على هذه الأرض ٧ بلايين سنة .

وقد انشق القمر معجزة لرسول الله ﷺ ، حتى رُئى جبل حراء بين الشقيين ، فقال أهل مكة : انتظروا حتى يأتى السفار ، أى المسافرين خارج مكة ، فلما قدم المسافرون قالوا : شاهدنا القمر قد انشق نصفين ، فقال الكفار : إن محمداً سحر الناس جميعاً .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى :

سينشق القمر عند قيام الساعة ، حيث يكون من علامات الساعة تكوير الشمس وذهاب ضوئها ، وانكدار النجوم ، وانشقاق القمر .

ونحن أمام الأحاديث الصحيحة الواردة في الموضوع ، وإشارة القرآن الكريم إلى ذلك ، نصدق ونؤيد وقوع انشقاق القمر ، معجزة لرسول الله ﷺ وتصديقا له .

قال ابن كثير :

وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقد أيد هذا المعنى الآلوسی في تفسيره ، فقال : والأحاديث الصحيحة في الانشقاق كثيرة ، واختلف في تواترها ، فقليل : هي غير متواترة ، وفي شرح المواقف أنها متواترة ، وهو الذي اختاره العلامة السبكي ، فقد قال : الصحيح عندي أن انشقاق القمر متواتر ، منصوص عليه في القرآن ، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، لا يمتري في تواتره .

وقد جاءت أحاديثه في روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة ، منهم : علي بن أبي طالب ، وأنس ، وابن مسعود . اهـ .

والساعة لا يعلم وقت مجيئها إلا الله ، واقتراب الساعة يمكن أن يراد به أن الباقي من عمر الدنيا قليل ، بالنسبة لما مضى منها .

روى الحافظ أبو بكر البزار ، عن أنس ، أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب ، فلم يبق منها إلا سف يسير ، فقال : «والذي نفسي بيده ، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه» ، وما نرى من الشمس إلا يسيرا . والمقصود حث الناس على التوبة والإنابة والإيمان قبل فوات الأوان .

وقريب من ذلك قوله تعالى : آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (النحل : ١) .

وقوله سبحانه : اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . (الأنبياء : ١) .

وقوله تعالى : يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا .

(الأحزاب : ٦٣)

والخلاصة :

إن جمهور المحدثين والمفسرين على أن الانشقاق حقيقة ، فقد قال القرطبي : ثبت ذلك فى صحيح البخارى وغيره ، وقيل : معناه : وضح الأمر وظهر ، والعرب تضرب بالقمر مثلاً فيما وضح ، ثم علّق القرطبي قائلاً : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فى رؤيته ، لأنها كانت آية ليلية ، وأنها كانت باستدعاء النبى ﷺ من الله عند التحدى

٢ - وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ .

إذا رأى كفار مكة آية معجزة تؤيد النبى ﷺ وصدقه ، مثل انشقاق القمر ، أعرضوا عن الإيمان ، وأحجموا عن الدخول فى الإسلام ، وقالوا : هذا سحر متتابع ، أو مُسْتَمِرٌّ . بمعنى : باطل مضمحل زائل ، لا دوام له ، أو مُسْتَمِرٌّ . بمعنى : مريع على ألسنتنا لا تطيقه لهواتنا ، أو مُسْتَمِرٌّ . بمعنى : محكم قوى ، من المِرّة بمعنى القوة .

٣ - وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ .

كذب المشركون رسول الله ﷺ ، ولم يصدقوا القرآن ، ولم يعترفوا بإعجازه ، أو بمعجزة انشقاق القمر ، واتبعوا ما زين لهم الشيطان من الباطل ، وكل أمر من الأمور ينتهى إلى غاية يستقر عليها لا محالة ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال قتادة :

إن الخير يستقر بأهل الخير ، والشر يستقر بأهل الشر ، وكل أمر مستقر بأهله .

وقال مجاهد :

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَمِرٌّ أى يوم القيامة . ا هـ .

حيث يستقر الأخيار فى الجنة ، والأشرار فى النار .

٤ - وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ .

ولقد جاء هؤلاء الكفار من أخبار الأمم السابقة ، وما نزل بها من الهلاك والدمار ، عندما كذبت رسلها ، أو جاءهم من أخبار القرآن وتشريعاته وهداياته ، ما فيه زجر لهم عن اتباع الهوى والكفر والضلال .

٥ - حِكْمَةُ بَلِيغَةٍ فَمَا تَعْنِ التَّنْذِرُ .

إن هذا القرآن حكمة بالغة ، بلغت الغاية والنهاية فى الهداية والبيان ، حيث تكلم عن بدء الخليقة ، ولغت الأنظار إلى الكون وجماله وإبداع خلقه ، لكن الكفار أصمُّوا أذانهم وأغلقوا عقولهم ، وساروا وراء أهوائهم ، فلم ينتفعوا بهدى القرآن .

قال تعالى : وَمَا تَعْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ . (يونس : ١٠١) .

أى : ماذا تنفع الآيات الواضحة ، والنذر جمع نذير ، بمعنى منذر ، أى : ماذا تغيد وسائل الهدى لقوم سدوا منافذ الهداية ، ورفضوا وسائل الإيمان ؟

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة : ٦) .

وقال تعالى : لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ... (الأعراف : ١٧٩) .

وقال سبحانه وتعالى : أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ أُوْكَتِفَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . (الرَّؤْي : ٢٢) .

٦ - قَوْلُ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكُرٍ .

أى : عليك البلاغ ، وليس عليك الهداية ، فإذا أدببت واجبك فلا تهتم بهم ، وأعرض عنهم ، وانتظرهم حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، فيقومون من قبورهم فى شدة الهول ، حيث يدعون إلى الحساب والجزاء وما فى ذلك اليوم من الأحوال ، التى لم تألفها النفوس ، ولم تر لها مثيلا فى الشدة .

وليس المراد أن يترك الرسول ﷺ البلاغ والدعوة للمشركين ، بل المراد : بلِّغ ما أنزل إليك من ربك ، فى تودة وحكمه ، ثم اتركهم ، فإن جزاءهم سيأتى حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، وينادى المنادى من قبل الله عز وجل : أيتها الأرواح الباقية ، والأجساد البالية ، والعظام النخرة ، قومى لفصل القضاء ، وحينئذ يقوم الناس لرب العالمين ، حيث يشاهدون أهوال القبامة .

٧ - خَشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ .

هم يخرجون من القبور فى حالة من الذلة والخشوع والخوف ، لأن أفر العز والذل يتبين فى نظر الإنسان .

قال تعالى : أَبْصَرُهَا خُلَيْفَتُهُ . (النازعات : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خُلَيْفِينَ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ... (الشورى : ٤٥) .

قال القرطبي :

ويقال : خضع واختضع ، إذا نذلّ ، وخضع ببصره ، إذا غصّه ، وقرأ حمزة والكسائي : خاشعا أبصرهم .

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ .

يخرجون من القبور مسرعين مطيعين ، كأنهم جراد منتشر منبثّ في الآفاق ، وإذا نظرنا إلى الجراد في كثرته وتتابعه كأنه حملة قوية ، وكثيرا ما يكون وبالا على الزراعة ، أو ناشرا للآفات ، أدركنا عمق التعبير في الآية .

وقد قال تعالى في آية أخرى : يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . (القارعة : ٤) .

قال القرطبي :

فهما صفتان في وقتين مختلفين :

إحدهما : عند الخروج من القبور يخرجون فزعين ، لا يهتدون أين يتوجهون ، فيدخل بعضهم في بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبعوث بعضه في بعض ، لاجهة يقصدها .

الثانية : فإذا سمعوا المنادى قصده ، فصاروا كالجراد المنتشر ، لأن الجراد له جهة يقصدها .

قال ابن كثير :

كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب جراد منتشر في الآفاق .

٨ - مُهْطِلِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ .

مسرعين مجيبين إلى الداعي ، وهو إسرائيل عليه السلام ، لا يخالفون ولا يتأخرون ، ويقولون : هذا يوم شديد الهول سبى المنقلب .

قال تعالى : قَدْ لَكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ . (المدثر : ٩ ، ١٠) .

أى : هو عبوس قمطرير ، شديد الهول على الكافرين ، وفي هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر

فيه ولا مشقة ، بل فيه نضرة وسرور ونعيم للمتقين .

خلاصة تلخيص بعض الأنبياء مع أمهم

١ - قصة قوم نوح

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ① فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ② فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ③ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ فُتِّرَ ④ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِّرَ ⑤ تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِمَن كَانَ كُفِرَ ⑥ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑦ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ⑧ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ⑨ ﴾

المفردات :

ازدجسر : زجر عن تبليغ رسالته بالسب وغيره .

مغلوب فانتصر : مغلوب فانتقم لى منهم .

بماء منهمر : منصب بشدة وغزارة .

فججنا الأرض : شققناها .

امر قد قُدر : قُدرناه أزلا ، وهو ملاكهم بالطوفان .

دُسِّر : مسامير تشد بها الألواح .

تجرى باعيننا : بحفظنا أو برأى منا أو بأمرنا .

كُفِر : أى : جحد به ، وهو نوح عليه السلام .

تركناها آية : أبقينا ذكرها عبرة وعظة .

مدككر : متذكر ومعتبر ومتعظ .

نذير : واحدها نذير ، بمعنى إنذار .

يسرنا : سهلنا .

لذكر : للعة والاعتبار .

تمهيد :

تذكر سورة القمر موجزا لقصص بعض الأنبياء ، فتذكر قصة أربعة من الرسل مع أقوامهم : قصة نوح مع قومه ، وهود مع قومه عاد ، وصالح مع قومه ثمود ، وقصة لوط مع قومه ؛ ليشاهد القارئ ما أصاب المكذبين للرسل من الهلاك ، وما حظى به الرسل من النصر والمعونة الإلهية .

التفسير :

٩ - كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرُوا .

كذب قبل قومك قريش ، قوم نوح عليه السلام ، وهو أول رسول أرسل إلى قومه .

فكذبوا عبدنا نوحا ، حيث مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمن معه إلا قليل ، وزادوا على تكذيب نوح اتهامه بالجنون ، وزجروه ونهوه عن تبليغ الرسالة ، قائلين له : لئن لم تستر بشئح لتكولن من المرجومين . (الشعراء : ١١٦) .

١٠ - فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ .

بعد عناد طويل ، وتكذيب وإصرار من قوم نوح ، وبعد أن صبر هذا الرسول صبرا طويلا ، واشتكى إلى الله ما حكاه القرآن ، حيث قال تعالى :

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا • وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا • وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا • وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا . (نوح : ٢١-٢٤)

دعا نوح ربه قائلاً : إني مغلوب مقهور فانتصر لي يا الله ، وقد استجاب الله دعاء نوح عليه السلام .

١١ - فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَجِرٍ .

لقد انصب عليهم ماء السحاب صباً وابلا منهمراً ، بشدة وغزارة ، وقد كانوا في شوق إلى المطر لمدة طويلة ، فكان المطر الشديد الواابل المتتابع ، سببا في عذابهم فقد نزل بكثرة فائقة من السماء ، كما يقال في المطر الواابل : جرت ميازيب السماء ، وفتحت أبواب القرب ، كناية عن كثرة انصباب الماء من السماء .

١٢ - وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ .

وجعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة ، وينابيع متدفقة ، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضى عليهم ، وقد قدره الله في الأزل ، أن يهلكهم بالطوفان جزاء كفرهم وطفغيانهم .

قال قتادة :

قضى عليهم فى أم الكتاب إذا كفروا أن يُغرقوا .

١٣ - وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَلْوَاحِ وَدُسِّرَ .

حملنا نوحا ومن آمن معه على سفينة ذات ألواح من خشب ومسامير تشد الخشب بعضه إلى بعض ، وهذا من جميل الكلام وبديعه ، أن تحذف الموصوف وتعبّر عنه بصفة مبهنة له.

وقال الليث :

الدّسار : خيط من ليف تشدّ به ألواح السفينة ، ولعله بعض الحشو الذى يوضع بين الألواح ، ثم يطلى بالقار ليمنع دخول الماء .

١٤ - تُجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفْرًا .

تجرى السفينة فوق مياه الطوفان ، بحكمتنا وقدرتنا ، وحفظنا وعنايتنا ، وتحت رعايتنا.

لقد استجبنا لعبدنا نوح ، الذى قدّم دعوته دائبا مستمرا ، خلال ألف سنة إلا خمسين عاما ، فقول بال كفران والنكران ، والإيذاء والحدود ، فأنقذناه بالسفينة تجرى برعايتنا ، جزاء وإكراما لنبي كذب وجحد فضله ، لقد كان نعمة على قومه فكفروها ، وكل نبي نعمة من الله على أمته .

١٥ - وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ .

لقد تركنا تلك الحادثة - وهى الطوفان - عبرة وبيانا للقدرة الإلهية التى تمحق المكذبين ، وتنصر المؤمنين ، فهل من معتبر ومتعظ .

وقيل : المعنى : تركنا السفينة مدّة طويلة ليعتبر بها من يعتبر ، وأمثالها صار رمادا ونخر فيه السوس.

١٦ - فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرٍ .

استفهام تهويل وتعظيم وتعجب ، بمعنى . ألم يكن العذاب شديدا ، والغرق مهلكا ؟

وإنذارى لهم على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، وذلك لتكذيبهم رسلى وإنكارهم آياتى .

١٧ - وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ .

أنزلناه كتاباً عربياً مبيناً ، مشتملاً على ألوان المعارف والقصص ، والأمثال والحكم والتشريع ، وبيان عجائب الكون ، وأخبار القيامة والبعث والحشر والنشر ، ويسرنا تلاوته وقراءته ، وحفظه وفهمه والاعتنا به .
فهل من معتبر بهذا الكتاب متأمل فيه ، متعظ بما فيه من المواعظ والأخبار ، مسارع إلى التأمل في فهمه ، والاستعانة بالله على حفظه .

قال الخازن في تفسيره :

وفيه الحث على تعليم القرآن والاشتغال به ، لأنه قد يسره الله ، وسهله على من يشاء من عباده ، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير ، والعربي والعجمي .
قال سعيد بن جبير :

يسرناه للحفظ والقراءة ، وليس شيء من كتب الله تعالى يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن . انتهى من تفسير الخازن .

أمل ورجاء

ألا ليت أمتنا تتواصى بتعليم أبنائها وبناتها ورجالها ونسائها ، وشبابها وفتياتها هذا الكتاب ، دراسة وحفظاً ، وتجويداً وتلاوة ، لمعرفة أحكامه وآدابه ، والاهتداء بهديه ومواعظه ، وتنفيذ أوامره ونواهيه ، ليكون حياة لأرواحنا ، وقوة لأفئدتنا ، ونوراً لنفوسنا ، وبعثاً لأمتنا ، حتى نعتصم به ونعمل به كما عمل السابقون ، فعزوا وسادوا ، وقد أصاب أمتنا التدهور والاضمحلال بسبب بعدها عن كتاب الله ، وهو مصدر عزها ، بل هو الروح والحياة الكريمة لها .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِلَيْكَ تَهْتَدُونَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

٢ - قصة عاد قوم هود

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْفِرَاءَ أَنْ لِّلذِّكْرِ فَهْلٌ مِنْ مَّذْكُرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

المضردات :

ريحاً صَرْصَرًا : باردة أشد البرد ، يقال : ريح صُرٌّ وصرصر ، أى : شديدة الصوت ، أو الباردة .

النَّحْس : الشؤم على عاد حتى أهلكتهم .

مستمر : دائم شؤمه حتى أهلكتهم .

تنزع الناس : تقلعهم من أماكنهم ، وتصرعهم على رؤوسهم ، فتدق رقابهم .

منقعر : مقتلع من أصوله ، يقال : قعرت النخلة ، أى : قلعتها من أصلها ، فانقعرت .

فكيف كان عذابي ونذر ، كرهه للتحويل .

مذكور ، متعظ ، أو راغب فى الحفظ ، روى أنه لم يكن شيء من كتب الله محفوظاً عن ظهر القلب سوى القرآن .

تمهيد :

تلك قصة قوم آخرين بعد قوم نوح ، كانوا أشداء أقوياء ، أرسل الله إليهم هوداً ، فدعا قومه عاداً إلى الإيمان فكذبوا واستكبروا : فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

التفسير :

١٨ - كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .

هذه قصة أخرى ، أو خلاصة لقصة لم تذكر تفاصيلها هنا رغبة فى الإيجاز ، فالسورة كلها آياتها قصار ، وتعرض موجزاً للمكذبين .

ومعنى الآية :

كذبت قبيلة عاد بنبيهم هوداً ، فهل شاهدتم أو سمعتم أو عرفتم كيف كان عذابي لهم ، وإنذارى لهم بالعذاب ؟ ثم شرع فى تفصيل ذلك وبيانه .

١٩ - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ .

أرسلنا عليهم ريحا باردة شديدة الصوت .

قال ابن كثير :

قيل : باردة ، وقيل : شديدة الصوت ، والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فقد كانت ريحاً شديدة قوية ، وكانت باردة شديدة البرد ، وكانت ذات صوت مزعج . اهـ .

أى : جمعت الهلاك والإبادة والتدمير ، فى يوم شؤم على هؤلاء المعتدين مستمر ، حيث اتصل عذابهم فى الدنيا بعذابهم فى الآخرة ، وقد نهينا فى السنة المطهرة عن التشاؤم من أمر بعينه ، أو يوم بعينه ، وإنما الأيام والليالى كلها سواء ، لذا كان التشاؤم بالعدد (١٣) غير صحيح شرعا ودينا .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من المجذوم فرارك من الأسد »^(١٧) .

أى أن العدوى لا تقع إلا بإذن الله ، ولا يجوز التطير أو التشاؤم من شيء ، فإذا رأى الإنسان شيئاً يتشاؤم منه ، يقول : « اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت ، ولا يذهب السوء إلا أنت ، اللهم اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت ، إنك على ما تشاء قدير »^(١٨) . ثم يمضى فى عمله ولا يتراجع عنه .

(ولا هامة) كانت العرب تعتقد أن روح القتل تنقمص طائرا يسمى الصدى ، وتصيح بالليل تقول : (اسقونى من دم قاتلى) ، فإذا أخذ بثأره هداً القتل واستقرت روحه ، وهذه خرافة لا أصل لها ، وكانت تدفعهم للأخذ بالثأر ، فقال ﷺ : « لا هامة » .

(ولا صفر) قد حرم الله القتال فى شهر المحرم ، وكان العرب إذا احتاجوا إلى الحرب فى المحرم ، قام كبيرهم ، فقال : إنى أحللت لكم القتال فى المحرم ، ونقلت تحريمه إلى شهر صفر ، فقال ﷺ : « ولا صفر » ، أى : لا يجوز تحريم القتال فى شهر صفر ، بل يجب الإبقاء على جعل المحرم هو الشهر الحرام بنفسه دون غيره .

وفى آخر الحديث نجد الرسول ﷺ يدعونا إلى الابتعاد عن الاختلاط بأصحاب الأمراض المعدية ، فكما تفر من الأسد المفترس ، ينبغى أن تفر من المريض بالجذام ، ويقاس عليه كل مرض مُعْتَرٍ .

٢٠ - نَزِعَ النَّاسُ عَنْهُمْ أَغْجَارُ نِخْلٍ مُّنْعَرٍ .

تقتلع الناس من الأرض اقتلاع النخلة من أصلها ، وترمى بهم على رؤوسهم فتدق أعناقهم ، وتفصل رؤوسهم عن أعناقهم .

لقد كانوا طوال الأجسام ، أشداء أقوياء ، فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . (فصلت : ١٥) .

وقد استحقوا عقوبة السماء ، فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية اقتلعتهم من الأرض ، وكسرت رؤوسهم وأعناقهم ، وتركهم أجساداً بلا رؤوس ، كالنخلة الساقطة على الأرض ، جذعا خاليا من الرأس أو الثمر .

وفى ذلك المعنى يقول القرآن الكريم : وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَلَينَةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِصَزُ نُخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . (الحاقة : ٦ - ٨) .

ومعنى : مُتَقَرِّبٍ . أى : كأذنبهم أصول نخل قد انقلعت من مغارسها وسقطت على الأرض ، وقد شَبَّهُوا بالنخل لطولهم وضخامة أجسامهم .

قال ابن كثير :

وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فيسقط إلى الأرض ، فتتلخ رأسه فيبقى جثة بلا رأس .

٢١ - كَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .

فانظروا كيفية بطشى وعقابي وإنذارى .

٢٢ - وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ .

سهلناه للتذكر والاعتاظ ، أو يسرناه للتلاوة والقراءة والتجويد والحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه ؟

٣ - قصة ثمود قوم صالح

﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ٢٢﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ٢٣﴾ أَمْ لَفِيَ
الذِّكْرُ عَلَيْهِمْ مِنْ يَبِينٍ بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ٢٤﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآيِشِرِ ٢٥﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا
الْثَّاقَةَ فَنُنْذِرُهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ٢٦﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْضَرٌ ٢٧﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرَّ ٢٨﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ٢٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
كَهَشِيمٍ الْمُحْتَظِرِ ٣٠﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ٣١﴾ ﴿

المضردات :

كذبت ثمود بالنذر : بما سمعوه من نبيهم من الإنذارات والمواظ.

واحد انتبعه : واحداً من آحادهم لا من أشرافهم .

لضى ضلال وسعر : فى بعد بين عن الحق . وسعر : جمع سعي ، وهى النار المشتعلة أو الجنون .

أشمر : متكبر بطر ، حمله بطره على الترفع علينا بادعائه .

من الكذاب الأشمر : هو أم هم ، أى : من الذى حمله أشره على الاستكبار عن الحق وطلب الباطل ؟

إنما مرسلو الثاقة : مخرجوها وبعثوها .

فتنة لهم : اختباراً وامتحاناً لهم .

فارتقبهم : فانتظروهم يا صالح ، وتبصر ما يصنعون ، وما يؤول إليه أمرهم .

واصطبر : اصبر على أذاهم .

كل شرب محضر : كل نصيب من الماء يحضره صاحبه فى نوبته .

فنادوا صاحبهم : هو عاقر الثاقة ، واسمه : قُدان بن سالف .

فتعاطى فعقر : فتناول السيف فعقر الثاقة ، حيث ضرب قوائمها بالسيف ، فقتلها موافقة لهم .

صيحة واحدة : هى صيحة جبريل بهم .

كهشيم المحظر : الهشيم : الشجر اليابس المتكسر ، أو الحشيش اليابس ، الذى يجمعه صاحب الحظيرة

لماشيته فى الشتاء .

تمهيد :

هذه قصة ثمود ، أرسل الله إليهم رسوله صالحاً فكذبوه واتهموه بالكذب والبطر ، وأرسل إليهم الناقة آية ، تحلب يوماً فيشربون لبناً في ذلك اليوم ، ثم يشربون ماء النهر في اليوم التالي ، وتشرب هي ماء النهر في اليوم الذي يليه ، بينما هم يشربون لبنها ، فلهم في كل يوم شرب ، إمّا ماء النهر وإمّا لبن الناقة ، فكفروا بالنعمة وقتلوا الناقة ، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم ، وأصبحوا عبرة وعظة لكل مكذب .

التفسير :

٢٣ - كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِاتَّخَذِ .

كذبت ثمود بالمواعظ والنذرات التي سمعوها من صالح ، أو كذبوا رسالات السماء ونذرها ، لأنهم إذا كذبوا رسولهم فقد كذبوا برسالات السماء جميعها .

٢٤ - فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا تَتَّبِعُهُ؟ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ .

أنتبع فرداً واحداً ممّا لا يتميز علينا بشيء ؟ إذا فعلنا هذا ، وهو فرد واحد ، ونحن أمة مجتمعة ، نكون في بعد واضح عن الصواب ، وجنون بين لأن ذلك بعد عن الصواب ، وروى أن صالحاً كان يقول لهم : إذا لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ، وعرضتم أنفسكم لعذاب النار ، فعكسوا عليه قوله ، وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول في بُعد عن الحق وجنون دائم .

٢٥ - أَءَأْتَيْنَاكَ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشِيرٌ .

كيف خصّ بالوحي من بيننا ، وفيما من هو أفضل منه وأحق منه بالنبوة ، بل هو متجاوز في حدّ الكذب ، فيما يدّعيه من نزول الوحي عليه ، ومتكبر بطر يريد العلو علينا .

٢٦ - سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِيرِ .

سيعلمون غداً - يوم القيامة - من هو الكذاب المتعالي عن الحق ، صالح أم هم المكذبون المجرمون .

قال الألوسي :

المراد : سيعلمون أنهم هم الكذّابون الأشرون ، لكنّ الله أورد ذلك مورد الإيهام للإشارة إلى أنه مما لا يكاد يخفى .

٢٧ - إِنْ أُرْسِلُوا إِلَى النَّاقَةِ فَمِنَ الْهُمِّ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَحْطِرْ .

يفيد القرطبي وغيره من كتب التفسير أنهم طلبوا آية من صالح عليه السلام ، وفى بعض الروايات أنهم طلبوا آية بعينها ، وهى أن تخرج ناقه عسراء من صخرة الجبل ، فقام صالح يصرخ ويدعو ، وما زال يصرخ ويدعو حتى انصدعت الصخرة التى عينوها عن سنامها ، فخرجت ناقه عسراء جعلها الله امتحانا واختبارا ، ليشاهدوا بأمر أعينهم المعجزة الواضحة ، وطلب الله من صالح أن يراقبهم عن بعد ، وأن يصبر على أذاهم .

٢٨ - وَبَيَّنَّهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌّ .

أخبرهم يا صالح أن ماء قريتهم من البئر ، أو من النُّهير الذى يشربون منه ، قسمة بينهم وبين الناقة .
كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌّ .

كل نصيب خاص بصاحبه يحضره دون غيره ، وما تشربه الناقة من الماء تحيله إلى لبن خالص ، وتقف عند كل باب من أبواب المدينة ليلطبوها من لبنها ، وطالت المدة ، وملأ اللبن والسعادة ، فنادوا صاحبهم قدار بن سالف عاقر الناقة .

٢٩ ، ٣٠ - فَتَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .

اجتمعوا وغرَّتْهم النعمة التى ينعمون بها ، وهى شرب اللبن خالصا بدون مشقة ، ويطروا النعمة ، وكلّفوا شقيا مع رهط من الأشقياء ، فبيتوا أمرهم على ذبح هذه الناقة ، واختبأ قدار بن سالف فى شجرة فى طريق الناقة ، فضرب رجلها بالسيف ثم ذبحها .

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي .

وهذا استفهام للتوبيخ والتعجب والتفخيم ، أى : كيف كان العذاب الشديد ، والإنذار الواقعى لهم ؟

٣١ - إِنْ أُرْسِلْنَا عَلَيْهِمْ صَبِيحَةٌ وَاحِدَةٌ فَكَانُوا كَهَاشِمِ الْمَحْطَرِّ .

لقد صاح بهم جبريل صبيحة واحدة ، كانت صاعقة مهلكة لهم أجمعين ، حيث صاروا فئاتا متهشما أشبه شئ بالشجر اليابس ، أو القمح الناشف الذى تحوّل إلى تبن ، يقدمه صاحب الحظيرة (الزريبة) إلى ماشيته .

الْمُحْتَظِرِ .

قال ابن عباس :

هو الرجل الذى يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم .
والحظيرة (الزريبة) التى يقيمها العرب وأهل البوادر للسكنى ، ولمنع البرد والسباع عن الغنم والإبل ،
من الحظر وهو المنع .

وجاء فى التفسير المنير :

والهشيم : الشجر اليابس المتهشم ، أى : المتكسر .
والمحتظر : الذى يعمل الحظيرة ليحفظ الغنم من الذئاب .

ووجه الشبه أن ما يحتظر به يبيس بطول الزمان ، وتطؤه البهائم فيتكسر ، وأنهم صاروا موتى
جائمين ، ملقى بعضهم فوق بعض ، كالحطب الذى يكسر فى الطرق والشارع^(٢١) .

٣٢ - وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ .

لقد يسرنا القرآن للذكر والاعتاظ بالأحداث والوقائع ، فهل من متعظ ومعتبر ؟

«وهذا العذاب الذى أصاب ثمود ، عبر عنه فى سورة هود بالصيحة ، قال تعالى :

وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَلِيَيْنَ . (هود : ٦٧) .

وعبر عنه فى سورة الأعراف بالرجفة ، قال تعالى :

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَلِيَيْنَ . (الأعراف : ٧٨) .

وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة ، قال تعالى :

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

(فصلت : ١٧)

وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، قال تعالى :

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ . (الحاقة : ٥) .

ولا تعارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها ، ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على
شدة ما أصابهم من عذاب^(٢٢) .

وعند التأمل نجد أن القرآن الكريم سَمَّى عذابهم بالصيحة والرجفة والصاعقة والطاغية ، وكلها أمور تلازم حادثة الهلاك المدمر التي نزلت بهم ، عندما يصيح الملاك بهم صيحة شديدة ترتجف الأرض بهم ، ثم تأخذهم صاعقة مهلكة ، وقد تكون الصيحة صاعقة ، أو تكون الصاعقة أثرا من آثار الصيحة ، وتسمى طاغية لأنها تعبر عن التدمير المهلك ، الذي طغى على الهدوء والنعمة والرخاء الذي كانوا يتمتعون به .

إن هناك ناموساً إلهياً أوجده الله ، نراه في هدوء الكون وامتناله ، ومع هذا فإن هناك ناموس الانتقام العادل من الطغاة البغاة ، بصيحة صاعقة واجفة طاغية ، وكلها تعبر عن الهلاك المدمر الذي أصاب هؤلاء الباغين .

★ ★ ★

٤ - قصة قوم لوط

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالْأَنْذَرِ ﴿٣٦﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ حَيْثُ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٧﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ يَجْرَى مِنْ شَكْرٍ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالْأَنْذَرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَبَحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٤١﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٌ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٣﴾﴾

المضردات :

حاصباً : ريحا ترميهم بالحصباء وهي الحصى ، قال في الصحاح : الحاصب : الريح الشديدة التي تثير الحصباء .

نجيناهم بسحر : السدس الأخير من الليل ، حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

أنذرهم بطشتنا : أخذتنا الشديدة بالعذاب .

فتماروا بالأنذر : شكوا في الإنذارات ولم يصدقوها .

راودوه عن ضيفه : طلبوا منه تمكينهم منهم ليفجروا بهم .

فطمسنا أعينهم : حجبناها عن الإبصار ، فلم تر شيئاً .

بكـرة : أول النهار .

مستقر : دائب بهم إلى أن يهلكوا .

تمهيد :

هذه قصة رابعة ، سبقتها قصص قوم نوح ثم عاد ثم ثمود ، وهنا قصة قوم لوط ، وقد كانوا يرتكبون فاحشة اللواط بالذكور ، وهى المثلية الجنسية ، حيث يستغنى الرجال بالرجال ، والنساء يساحقن النساء ، وهو شذوذ مذموم ، وخروج على الفطرة الإلهية ، فقد خلق الله الذكر والأنثى ليكونا سكنا ، وليكونا أسرة ونرية ، ولتعمر الحياة بهما .

وقد أُنذر لوط قومه بالعذاب ، فكذبوه وتشككوا فى صدقه ، فأنزل الله بهم العذاب ، وأمطرتهم السماء بحجارة مهلكة ، حتى أهلك المكذبين عن آخرهم .

التفسير :

٣٣ - كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ .

أى : هذا حال قوم آخرين ، وهم قوم لوط الذين كذبوا رسولهم وخالفوه ، وكذبوا بالآيات التى أنذرهم الله بها ، واقتربوا الفاحشة .

٣٤ - إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ .

أرسلنا على قوم لوط حجارة ترميهم بالحصباء ، وهى الحصى والحجارة ، فأهلكتهم ودمرتهم ، إلا آل لوط وهم ابنتاه ، أو ابتناه ومن آمن معه ، نجيناهم فى الهزيع الأخير من الليل ، حيث يختلط سواد الليل ببياض النهار .

٣٥ - نِعْمَةٌ مِّنْ عِبْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ .

كانت نجاتنا للوط ومن آمن معه نعمة وفضلا منا ، حيث حفظناهم من العذاب المهلك المدمر ، ونحن دائماً نجزي الشاكرين بالحفظ والنجاة والفوز ، ونعاقب الكافرين بالهلاك .

٣٦ - وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِينَ .

ولقد خوفهم لوط من عقاب الله المدمر ، فتشككوا فى قوله ولم يصدقوه بل أعرضوا عنه وكذبوه .

٣٧ - وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسَتْ أَعْْيُنُهُمْ فُؤُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرٍ .

جاءت الملائكة إلى لوط فى صورة شبان مرد حسان ، وبعثت امرأته العجوز الخائنة لأمانة زوجها إلى قومها تخبرهم بوجود شباب حسان عند لوط ، فأقبلوا مسرعين راغبين فى الفجور واللواط بهؤلاء

الشباب ، ولم يفتح لهم لوط الباب ، وعرض عليهم الزواج من ابنتيه فرفضوا ، وقالوا : ليست لنا رغبة فى النساء ، إنما نريد اللواط بمن عندك من الشباب ، وهجموا على باب منزله يريدون كسر الباب ، وهنا نزل جبريل من السماء فمسح عيونهم فلم يروا شيئاً ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً بالانتقام منه فى الصباح .

ثم حكى القرآن ما قيل لهم على ألسنة الملائكة : **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ .**

أى : ذوقوا ألم عذاب الله ، وعاقبة تكذيب إنذاراته .

٣٨ - **وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ .**

ولقد أتاهم صباحاً عذابٌ لازم مهلك مدمر ، والعذاب المستقر : الثابت الذى لا محيد عنه ، أو الذى استقر عليهم إلى الاستئصال الكلى .

٣٩ - **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ .**

أى : ذوقوا جزاء أفعالكم ، وارتكاب اللواط فى ناديكم ، وذوقوا ما لازم من إنذاركم السابق بعذاب عاجل فى الدنيا ، وإنذار بعذاب أجل فى الآخرة .

٤٠ - **وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ هَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ .**

ولقد سهلنا القرآن للتذكر والاعتبار والتأمل ، كما يسرنا حفظه وتلاوته وترديده للراغبين فيه ، فهل من راغب فى فضل القرآن وتلاوته ؟

وقد تكررت هذه الجملة وما سبقها عقب القصص الأربع للتأكيد والتنبيه ، والاتعاظ والزجر .

قال الزمخشري فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله تعالى : **فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ** ، **وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ هَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ** ؟

قلت : فائدة ذلك أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أدكاراً واتعاضوا ، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك ، والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرأت ، ويقعقع لهم الشن تارات ، لتلا يغلبهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله تعالى : **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** . (الرحمن : ١٣) . عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن .

وكتوبه تعالى : **وَلَيْلٌ يُؤْمِلُ لِلْمُكَلِّبِينَ** . (المرسلات : ١٩) . عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات ، وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . ا هـ .

★ ★ ★

بيان جزاء المجرمين والمتقين

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ٤١ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْدِرٌ ٤٢ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ٤٤ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذَّبْرُ ٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ٤٦ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ٤٩ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ ٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ الْثَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ٥٤ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ ٥٥ ﴾

المفردات :

النَّذْرُ : واحدها نذير بمعنى إنذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى .

عَزِيزٌ : لا يُغَالَب ولا يُغْلَب .

مُسْتَطَرٌ : لا يعجزه شئ .

خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ : من الكفار السابقين ، مثل قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وآل فرعون .

بَرَاءَةٌ : صك مكتوب بالنجاة من العذاب .

الزُّبُرُ : الكتب السماوية ، واحدها زبور .

يُسْحَبُونَ : ينصرفون ويرجعون .

الذين هربوا من هزيمتهم، قد أعطوا أدبارهم وظهورهم لمن هزمهم، وهو كناية عن الهزيمة والفرار. وقد هُزموا يوم بدر، ونصر الله رسوله ﷺ عليهم، وهو من دلائل النبوة.

الساعة أدهى، القيامة أعظم داهية وأفظع.

أَمَرٌ : أشد مرارة من عذاب الدنيا .

إن المجرمين : إن الكفار والمشركين .

سُـ نيران مسعرة ، أوجنون ، واحدها سعيـر .

يسحبون : يجرون .

ذوقوا من سقر: ذوقوا حرَّ النارِ وألمها، فإن مسَّها - أى إصابتها - سبب للتألم بها.

خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ: بِتَقْدِيرٍ سَابِقٍ، أَوْ خَلَقْنَاهُ مَقْدَرًا مُحْكَمًا.

الأواحدة: كلمة واحدة، هي كن.

أَشْيَاعَكُمْ، أَشْبَاهَكُمْ فِي الْكُفْرِ.

فهل من مدكر: متعظ، والاستفهام بمعنى الأمر، أي: اذكروا واتعظوا.

ففي الزبير : مكتوب في سجل ، أو كتب الحفظه .

مستطور : مسطور مكتوب في اللوح المحفوظ .

ففي جنات: بساتين .

وَأَنهَارٍ، والمراد به الجنس، وقرئ بضم النون وسكون الهاء، مثل: أَسَدٌ وَأَسْدٌ.

مدة صدق: مكان مرضي، أو في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، والمراد به أيضا

الجنس ، وقرئ : مقاعد ، أى : مجالس من الجنات سالمة من اللغو والتأثيم ،

بـخلاف مجالس الدنيا فإنها قلَّ أن تسلم من ذلك .

مملوك، صيغة مبالغة ، أى : عزيز الملك واسم السلطان .

ممة تدبر: قادر لا يعجزه شيء وهو الله تعالى، والعندية ليست عندية مكان، وإنما

إشارة إلى الرتبة والقرب من فضل الله تعالى .

تمهيد :

يختتم هنا أربع قصص متتابعة هي خلاصة قصص نوح وهود وصالح ولوط مع أقوامهم ، بقصة فرعون وهلاكه بالغرق ، ثم يخاطب الله أهل مكة موبخاً لهم ، مبيناً أنهم معرضون لمثل هذا الهلاك ، وسيهزمون يوم بدر ويولون الأدبار ، ثم يلقون عذاباً أشد في الآخرة ، ثم يعرض مظاهر العذاب للمجرمين والمشركين ، ومظاهر النعيم للمتقين .

وتختتم السورة هذا الختام القوي الأسر ، ولذلك كان النبي ﷺ يقرأ بسورة «ق» وسورة «القمر» ، في المحافل الكبار كالجمع والعيد ، لاشتمالهما على التوحيد ، وبده الخلق وإعادته ، وإثبات النبوات ، وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

وفي فضل سورتي القمر وقّ يروي الإمام أحمد ، ومسلم ، وأصحاب السنن الأربعة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ق . وَاقْرَبِ السَّاعَةَ أَنْشَقَ الْقَمَرُ . في الأضحى والفطر .^(١) .

التفسير :

٤١ - وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ آلَتْلُورُ .

والله لقد أرسلنا موسى رسولا إلى فرعون وآله من القبط ، وأخبره موسى أنه رسول من الله ، وقدم له طائفة من الأدلة على الألوهية الكاملة لله ، وأن القدرة الكاملة له وحده ، وأطلعه على الآيات المتعددة وجاءتهم الآية تلو الآية ، وتوالت عليهم الإنذارات فكذبوا بها .

٤٢ - كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ .

لقد كذبوا بمعجزات موسى عليه السلام ، وهي الآيات التسع البينات الواضحات ، وهي : العصا ، واليد ، والسنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وكان جزاؤهم على التكذيب والعناد أننا عاقبناهم عقاباً أليماً بالغرق ، وأخذناهم أخذ عَزِيزٍ . لا يُغَالِبُ ولا يُدَافِعُ . مُقْتَدِرٌ . على الانتقام منهم ، فعَال لما يريد .

٤٣ - أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ .

أي : تلك مصارع الكفار من أقوام نوح وهود وصالح ولوط ، وغرق فرعون وقومه في الماء ، فما يمنعكم أيها الكفار والمشركون من مثل هذا المصير ؟ وهل معكم وثيقة وكتاب منزل وبراءة من العذاب ، تمنحكم صكاً موثقاً بأنكم لا تعذبون ؟

والاستغفام إنكارى ، معناه التقرير والإثبات ، أى لستم أفضل من هؤلاء الكفار الهالكين ، وليس
سلك براءة من العذاب .

٤٤ - أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ .

أى : بل أيقول هؤلاء الكفار : نحن أولو حزم وعزم ، وأمرنا مجتمع متحد ، لا يضام ولا يرام ،
وسينتصر جمعنا على محمد وأصحابه .

رُوى أن أبا جهل ضرب فرسه يوم بدر فتقدم الصف ، وقال : نحن ننصر اليوم من محمد ، أى نغلبه
وننتقم منه ، وهكذا سد القرآن عليهم كل منفذ ، ووضّح إفلاسهم ، فهم ليسوا أفضل ممن سبقهم من الكفار
الهالكين ، وليس معهم صك أو وثيقة أو براءة تثبت نجاتهم فى الدنيا من العذاب ، وسلامتهم فى الآخرة
من النار ، ثم واجه غرورهم بقوتهم وطمعهم فى النصر على جند الله وقدره ، ثم أجابهم بقوله تعالى :

٤٥ - سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ .

سيغلبون ويهزمون فى بدر ، ويولّون منهزمين أمام جيش المسلمين .

وهذه الآية مكيّة ، نزلت قبل معركة بدر بسبع سنين ، وهى من دلائل النبوة ، وقد تحققت يوم بدر ،
حيث قُتل سبعون كافرا ، وأسر سبعون كافرا ، وفرّ الباقون .

أخرج البخارى ، والنسائى ، عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال وهو فى قبّة له يوم بدر : «أنشدك عهدك
ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً» . فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده ، وقال : حسبك
يا رسول الله ، ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع ، وهو يقول : «سيهزم الجمع ويولّون الدُّبُرَ ، بل
الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» .^(٧)

قال ابن عباس :

كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين ، فالآية مكية .

وقال ابن الجوزى : وهذا مما أخبر الله به نبيه من علم الغيب ، فكانت الهزيمة يوم بدر .

٤٦ - بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ .

ليس هذا تمام عقابهم ، بل هناك عقاب أشدّ وهو عقابهم يوم القيامة ، والقيامة أعظم داهية ، وأشدّ
مرارة من القتل والأسر .

وَأَذْهَىٰ. مبالغة من الدَاهِيَةِ ، وهى الأمر الفظيع الذى لا يُهْتَدَى إلى الخلاص منه .

وَأَمْسَرُ . مبالغة فى شدة المرارة عند الذوق ، على سبيل الاستعارة ، لصعوبتها على النفس.

٤٧ - إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ .

إن المجرمين فى حيرة وضلال ويُبعد عن الحق فى الدنيا ، وفى نيران مسعرة فى الآخرة ، أو المراد بالسُّعُر الجنون

قال ابن عباس : هم فى خسران و جنون . ا هـ .

لقد انطمست بصائرهم فى الدنيا ، فعميت عن الحق ، وأثرت الضلال على الرشد ، واشتدّ تعلقهم بالدنيا وترفها وملذاتها ، كأنما أصابهم مَسٌّ من الجنون فأصبحوا كالحوانات المسعورة .

٤٨ - يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ .

يوم يُجرّون فى النار على وجوههم نكاية لهم وإذلالاً لتجبرهم ، والوجه أكرم شيء فى الإنسان ، فإذا رأى الإنسان أذى يتجه إلى وجهه حاول إبعاده عن وجهه بيديه ، لكنه يوم القيامة يرغم على لقاء العذاب بوجهه ، كما قال سبحانه وتعالى :

أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَاجِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ... (الزمر : ٢٤) .

قال ابن كثير :

أى : كما كانوا فى سَعُرٍ وشك وتردد ، أورثهم ذلك النار ، ويقال لهم تقرعيا وتوبيخا : ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ . ا هـ .

أى : يقال لهم : ذوقوا مس جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وقاسوا آلامها وعذابها .

قال أبو السعود : وسقر علم لجهنم ، ولذلك لم يُصرف . ا هـ .

أى : هو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

٤٩ - إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ .

كل شيء فى هذا الكون أبدع الله صنعه ، وأحكم تقديره على مقتضى الحكمة البالغة ، والنظام الشامل وبحسب السنن التى وضعها فى الخليفة .

قال تعالى : وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَلْزَةً ، تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) .

وقال عز شأنه : سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى . (الأعلى : ١-٣) .

وقد استدل أهل السنة بهذه الآية الكريمة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابتها - أى تسجيله - لها قبل حدوثها .

أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «كل شيء بقدر ، حتى العجز والكسل»^(١٣) .

وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد ومسلم أيضا ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «استعن بالله ولا تعجز ، فإن أصابك أمر فقل : قدر الله وما شاء فعل ، ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١٤) .

وأخرج أحمد ، والترمذى ، والحاكم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : «يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف»^(١٥) .

إذا تأملنا فى هذا الكون البديع المنظم أدركنا أن يد القدرة البالغة وراء التناسق والتكامل بين أجزاء الكون وما فيه .

فالسما والنجوم والكواكب والمجرات ، والشمس والقمر والليل والنهار ، والأرض والبحار والأنهار ، والجبال والهواء والفضاء ، كل هذه المخلوقات على آية من الإبداع والتناسق والتكامل ، بحيث تصيح وهى صامتة : إن يد القدرة هى التى أبدعت كل شيء ، وخلقت النجوم بقدر فى مجراتها ومسيراتها ، إلى حد أن افتراض أى اختلال فى أية نسبة من نسبها يودى بهذه الحياة كلها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها ، فحجم الأرض وكتلتها وبعدها عن الشمس ، وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها ، وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها فى دورانها حول نفسها وحول الشمس ، وبُعد القمر عن الأرض ، وحجمه وكتلته ، وتوزيع الماء واليابس فى هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديراً ، لو وقع الاختلال فى أى منها لتبدل كل شيء ، ولكانت هى النهاية المقدرة لعمر الحياة على هذه الأرض .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُنْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . (فاطر : ٤١) .

سبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض ، وسبحان من بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوُتَ آيَةِ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبِتُّعُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَةٌ تَفْصِيلًا . (الإسراء : ١٢) .

وستجد فى أعقاب تفسير سورة (القمر) إن شاء الله ضميمية فى بيان النظام البديع فى هذا الكون .
قال تعالى : ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْغَزِيرُ الرَّحِيمُ * الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ . (السجدة : ٦، ٧)

٥٠ - وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ .

إنه سبحانه فعَّال لما يريد ، وإذا أراد تحقيق أمرٍ به مرة واحدة ، لا تكرير فيها ، ولا تأخير لتحقيق ما يريد ، بل يتحقق كل مراده فى سرعة مطلقة كلمح البصر، ولله در القائل :

إذا أراد الله أمراً فإنيما يقول له كُنَّ قوله فيكون

ولمح البصر : إغماض البصر ثم فتحه ، وهذا تمثيل وتقريب لسرعة نفاذ المشيئة فى إيجاد الأشياء، فهو كلمح البصر أو أقرب ، كما قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فالكون فى قبضته سبحانه ، واحدة . تنشئ هذا الوجود الهائل ، واحدة . تبدل فيه وتغير ، واحدة . تذهب به كما يشاء الله ، وكل ذلك يبحث فى نفوس المؤمنين الأمل والرجاء ، والثقة بوعده الله ونصره للمعتقين ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

٥١ - وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ .

تالله لقد أهلكنا أمثالكم فى الكفر ، كعاد وثمود ، وفرعون وملئته ، وقوم لوط ، فهل من متعظ يتذكر أن وعد الله حق ، فيسارع إلى التوبة والإيمان قبل قوات الأوان .

٥٢ ، ٥٣ - وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ لِيُذَكِّرَ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ لِيُذَكِّرَ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ لِيُذَكِّرَ .

كل صغيرة وكبيرة ، كل ذنب أو معصية ارتكبتها المجرمون سُجِّلَتْ فى الكتب التى بأيدي الملائكة عليهم السلام ، وكل صغير من الأمور أو كبير منها ، قد سُطِرَ تسطيراً وسُجِّلَ تسجيلًا ، ودُوِّنَ فى صحائف الأعمال .

قال سبحانه وتعالى : وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمَالِكُونَ هَٰذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّهُمْ رَبُّكَ أَخَذًا . (الكهف : ٤٩) .

وقال سبحانه وتعالى: مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ . (ق: ١٨) .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا	إن الصغير غداً يعود كبيراً
إن الصغير وإن تقدم عهداً	عند الإله مسطر سطيحاً
فاسأل هدايتك الإله فتتد	فكفى برّك هادياً ونصيراً

وفى معنى الآيتين الكريمتين قوله تعالى: وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (يونس: ٦١) .

٥٥، ٥٤ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ .

فى ختام سورة (القمر) التى حفلت بحديث متواصل عن هلاك المكذبين ، يأتى فى نهايته حديث هادئ ، فيه تكريم المتقين تكريماً حسياً ومعنوياً ، أما التكريم الحسى فهو التمتع بالجنات وما فيها من أشجار وثمار ، وحوار عين ، وأنهار واسعة متعددة الأشكال والألوان .

قال تعالى: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ... (محمد: ١٥) .

أما التكريم المعنوى : فهم فى مقعد كريم ، ومجلس فاضل رائق ، لا يتكلم فيه إلا بالصدق والفضل والخير ، مع البعد عن الإثم والكذب ، والزور والخطيئة ، وهذا المقعد الذى يحظى به الصادقون ، عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ . عند رب عظيم الملك ، واسع القدرة ، يكرم عباده المتقين الذين جاهدوا فى الدنيا ، وحرصوا على مرضاة الله فى دنياهم ، فالله تعالى يقربهم منه ، ويكرمهم عنده ، وهى عِندِيَّةٌ منزلة وقربى وزلفى ، ومكانة رفيعة .

أخرج أحمد، ومسلم، والنسائى، عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبى ﷺ قال : «المقسطون عند الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا» .^(٣٧)

فى أعقاب تفسير سورة القمر

ضميمة عن الإبداع والنظام فى الكون ، وعن التوازن فى علاقة بعض الأحياء ببعض ، بمناسبة تفسير قوله تعالى : **إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** . (القمر : ٤٩) . من كتاب (فى ظلال القرآن) للأستاذ سيد قطب رحمه الله وطيب ثراه .

«إن الجوارح التى تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلا على أنها لا تعيش إلا فى مواطن خاصة محدودة ، وهى فى مقابل هذا طويلة الأعمار ، ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطعية الحياة فى كل موطن ، لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها ، أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بنى الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة فى هذه الأرض .

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلاتٌ نَزور

وذلك للحكمة التى قدرها الله كما رأينا ، كى تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبهائم .

والذبابه تبيض ملايين البويضات ، ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين ، ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ، ولغدت حياة كثير من الأجناس - وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه الأرض . ولكن عجلة التوازن التى لا تختل فى يد القدرة التى تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذى نراه .

والميكروبات - وهى أكثر الأحياء عددا ، وأسرعها تكاثرا ، وأشدها فتكا - هى كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا ، تموت بملايين الملايين من البرد ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعادن ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة ، ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان ، ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !.

وكل حى من الأحياء مزود بسلاح يتقى به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء ، وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع ، فكثرة العدد سلاح ، وقوة البطش سلاح ، وبينهما ألوان وأنواع ..

الحيات الصغيرة مزودة بالسسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها ، والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم يندر فيها السام !

والخنفساء - وهى قليلة الحيلة - مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من لمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجرى والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والافتراس !

وهكذا كل حى من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حى مزود كذلك بالخصائص والوسائل التى يحصل بها على طعامه ، التى ينتفع معها بهذا اللون من الطعام .. الإنسان والحيوان والطير وأدناً أنواع الأحياء سواء .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوى تلصق بالرحم ، وهى مزودة بخاصية أكالة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتصاصها ونموها ! والحبل السرى الذى يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روى فى تكوينه الغرض الذى تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدى إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه»^(١٧) .

«والثدى يفرز فى نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار ، ومن عجب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيميائية نائية تقى الطفل من عدوى الأمراض ، وفى اليوم التالى للميلاد يبدأ اللبن فى التكوين ، ومن تدبير المديبر الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذى يفرزه الثدى يوماً بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالى لتر ونصف فى اليوم بعد سنة ، بينما لا تزيد كميته فى الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التى تزيد على حسب زيادة الطفل ، بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات فى أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم ، بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو»^(١٨) .

وتتبع الأجهزة المختلفة فى تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها فى المحافظة على حياته وصحته .. يكشف عن العجب العجائب فى دقة التقدير وكمال التدبير ، ويرينا يد الله وهى تدبر أمر كل فرد ، بل كل عضو ، بل كل خلية من خلاياه ، وعين الله عليه تكلؤه وترعاه ، ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنكتفى بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق فى جهاز واحد من هذه الأجهزة ، جهاز الغدد الصم «تلك المعامل الكيميائية الصغيرة التى تمد الجسم بالتركيبات الكيميائية الضرورية ، والتى يبلغ من قوتها أن جزءاً من ألف بليون جزء منها تحدث آثاراً خطيرة فى جسم الإنسان ، وهى مرتبة بحيث إن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى ، وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيداً مدهشاً ، وأن أى اختلال فى إفرازها يسبب تلفاً عاماً فى الجسم ، يبلغ حد الخطورة إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً» .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابس حياته ..

«زودت أفواه الآساد والنمور والذئاب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التى تعيش فى الغلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفتقره من كائنات لابد من مهاجمتها والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت فى هجومها لابد أن تستعمل عضلاتها ، فلأرجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوث معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام » .^(٣٦)

أما الحيوانات المجتررة المستأنسة التى تعيش على المراعى ، فهى تختلف فيما زودت به ..

«وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواهها واسعة نسبيا ، وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة ، وبدلا منها توجد الأسنان التى تتميز بأنها قاضمة قاطعة ، فهى تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدى للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات ، وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذى تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومى وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى «القلنسوة» ، ثم يرجع إلى الغم ، فيمضغ ثانية مضغا جيدا ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى «أم التلايف» ، ثم إلى رابع يسمى «الإنفحة» وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيرا ما يكون هدفا لهجوم حيوانات كاسرة فى المراعى ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفى .

ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ إن العشب من النباتات العسرة الهضم ، لما يحتويه من السليلوز الذى يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جدا ، فلو لم يكن مجترا ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل فى الرعى ، يكاد يكون يوما بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات فى عمليات التناول والمضغ ، إنما سرعة الأكل، ثم تخزينه وإعادته بعد أن يصيب شيئا من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر »^(٣٧) .

«والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم .

بينما للإوز والبط مناقير عريضة منبسطة مقلطة كالمغرفة ، توائم البحث عن الغذاء فى الطين والماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض ، بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصيد ، إذ إن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدد وأبو قردان طويل مدبب، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديبان، التى غالباً ما تكون تحت سطح الأرض. ويقول العلم: إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره.

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب، فَلَمَّا لَمْ يعط أسناناً فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام^(٣٧).

ويطول بنا الاستعراض، ونخرج على منهج هذه الظلال، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا النحو، فنسرع الخطى إلى «الإمبيا» وهى ذات الخلية الواحدة، لنرى يد الله معها، وعينه عليها، وهو يقدر لها أمرها تقديراً.

«والإمبيا كائن حى دقيق الحجم، يعيش فى البرك والمستنقعات، أو على الأحجار الراسبة فى القاع. ولا ترى بالعين إطلاقاً وهى ترى بالمجاهر كتلة هلامية، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات، فعندما تتحرك تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد، تستعملها كالأقدام، للسير بها إلى المكان المرغوب، ولذا تسمى هذه الزوائد بالأقدام الكاذبة. وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين، وتغرز عليه عصارة هاضمة، فتتغذى بالمفيد منه، أما الباقي فتطرده من جسمها! وهى تتنفس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء.. فتصور هذا الكائن الذى لا يرى إطلاقاً بالعين، يعيش ويتحرك، ويتغذى ويتنفس، ويخرج فضلاته! فإذا ما تم نموه انقسم إلى قسمين، ليكون كل قسم حيواناً جديداً.

وعجائب الحياة فى النباتات لا تقل فى إثارة العجب والدهشة عن عجائبها فى الإنسان والحيوان والطير، والتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروراً عنه فى تلك الأحياء»^(٣٨). وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا. (الفرقان: ٢).

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل فى التقدير والتدبير، إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها وتياراتها مقدرة مدبرة، صغيرها وكبيرها، كل حركة فى التاريخ ككل انفعال فى نفس فرد، ككل نفس يخرج من صدر! إن هذا النفس مقدر فى وقته، مقدر فى مكانه، مقدر فى ظروفه كلها، مرتبط بنظام الوجود وحركة الكون، محسوب حسابه فى التناسق الكونى، كالأحداث العظام الضخام!

وهذا العود البرى النبات وحده هناك فى الصحراء.. إنه هو الآخر قائم هناك بقدر، وهو يؤدى وظيفة ترتبط بالوجود كله منذ كان! وهذه النملة السارية، وهذه الهبأة الطائرة، وهذه الخلية السابحة فى الماء، كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء!

تقدير فى الزمان، وتقدير فى المكان، وتقدير فى المقدار، وتقدير فى الصورة، وتناسق مطلق بين جميع الملابس والأحوال.

من ذا الذى يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هى أم يوسف وبينامين أخيه ، لم يكن حادثاً شخصياً فردياً .. إنما كان قدراً مقدوراً ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه فى الحب – ولا يقتلوه – لتلقطه السيارة ، لتبيعه فى مصر لينشأ فى قصر العزيز ، لتراوده امرأة العزيز عن نفسه ، ليستعلى على الإغراء ، ليلقى فى السجن .. لماذا؟ ليتلاقى فى السجن مع خادى الملك ، ليفسر لهما الرؤيا.. لماذا؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يارب يتعذب يوسف ؟ لماذا يارب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبى بصره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكى كل هذا الألم المنوع الأشكال ؟ لماذا ؟ .. ولأول مرة تجىء أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن فى العذاب ، لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة فى سنى القحط السبع ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته ليكون من نسلهم شعب بنى إسرائيل ، ليضطهدهم فرعون ، لينشأ من بينهم موسى – وما صاحب حياته من تقدير وتدبير – لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكلية؛ وتؤثر فى مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذى يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً شخصياً فردياً، إنما كان وما سبقه فى حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه فى العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل ، ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم ، لينشأ محمد ﷺ من نسل إبراهيم – عليه السلام – فى هذه الجزيرة ، أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام .. ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر فى تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد .. لكل حادث ، ولكل نشأة ، ولكل مصير ، ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تبديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد ، وأحياناً يتناول الزمن بين المبدأ والمصير فى عمرهم القصير ، فتخفى عليهم حكمة التدبير ، فيستعجلون ويقترحون ، وقد يسخطون أو يتناولون !

والله يعلمهم فى هذا القرآن أن كل شىء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله فى توافق وفى تناسق ، وفى أنس بصحبة القدر فى خطوة المطمئن الثابت الوثيق .^(٧١)

خلاصة موضوعات سورة القمر

- ١ - الإخبار بقرب مجيء القيامة .
- ٢ - تكذيب المشركين للرسول ﷺ ، وقولهم فى معجزاته إنها سحر .
- ٣ - غفلتهم عما فى القرآن من الزواجر .
- ٤ - أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم ، حتى يأتى قضاء الله فيهم .
- ٥ - إنذارهم بأنهم سيحشرون أدلاء ناكسى الرؤوس ، مسرعين كأنهم جراد منتشر .
- ٦ - طرف من قصص المكذبين قبل أهل مكة ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وقومه ، وما لاقوه من الجزاء على تكذيبهم .
- ٧ - توبيخ المشركين على ما هم فيه من الغفلة عن الاعتبار بهذه النذر .
- ٨ - جزاء المجرمين فى جهنم ، وألوان العذاب ، والحريق بالنار التى يتعرضون لها .
- ٩ - كل ما فى الوجود خاضع للقدرة الإلهية الحكيمة ، وكل شئ قد قدر ونظم بإحكام وتقدير حكيم .
- ١٠ - جزاء المتقين الجنة ، فى قرب الإله الحكيم المقتدر .
- ١١ - الدعاء مستجاب عند قراءة آخر سورة القمر ، ثم يقول المؤمن : اللهم يا ملك يا مقتدر ، أسألك خير الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

انتهى بحمد الله تفسير سورة (القمر) ظهر الإثنين ٣ من شعبان ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠ من أكتوبر

٢٠٠٠ م .

★ ★ ★

تفسير سورة الرحمن

أهداف سورة الرحمن

سورة الرحمن مدنية ، وآياتها ٧٨ آية ، نزلت بعد سورة الرعد

وتتميز سورة الرحمن بجرسها وقصر آياتها وتعاقب الآيات : **الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ .** فنسمع هذا الرنين الأخاذ ، والإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، والنعم المتعددة بتعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليم البيان .. وكل هذه النعم مصدرها رحمة الرحيم الرحمن ، صاحب الفضل والإنعام ، فإذا استرسلنا فى قراءة السورة رأينا حشداً من مظاهر النعم ، وآلاء الله الباهرة الظاهرة فى جميل صنعه ، وإبداع خلقه ، وفى فيض نعمائه ، وفى تدبيره للوجود وما فيه ، وتوجيهه الخلاق كلها إلى وجهه الكريم .

وسورة الرحمن إشهاد عام للوجود كله على الثقليين : الإنسان والجن ، إشهاد فى ساحة الوجود ، على مشهده كل موجود ، مع تحدُّ للجن والإنس إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التى يعددها ويفصلها ، ويجعل الكون كله معرضاً لها ، وساحة الآخرة كذلك .

فبأى آلاء ربكما تكذبان

تكررت هذه الآية فى السورة إحدى وثلاثين مرة ، لتذكر الإنسان والجن بنعم الله الجزيلة عليهم ، بأسلوب معجز يتحدى بلغاء العرب ، ولا شك أن هذه النعم الضافية التى أسبغها ربه عليهم ، تستحق من العباد الشكر والإيمان ، لا الكفر والطغيان .

والآلاء جمع إلى وهى النعمة ، أى نعم الله عليكم وافرة ، ترونها أمامكم وخلفكم وفوقكم وتحتكم ، فبأى هذه النعم تكذبان ؟ والخطاب هنا للجن والإنس لتذكيرهما بالأفضال المتلاحقة من الله ، ولا يستطيعان أن يكذبا أو يجحدا أى نعمة من هذه النعم .

روى أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال النبي ﷺ : «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : **فَبِأَىِّ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** . قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» .

كما روى أن قيس بن عاصم المنقرى جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا محمد ، اتل على شيئاً مما أنزل عليك ، فتلا عليه سورة الرحمن ، فقال : أعدها ، فأعادها ﷺ ، فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأسفله مغدق ، وأعلىه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأتتك رسول الله .

المعنى الإجمالى للسورة

المنة على الخلق بتعليم القرآن وتلقيه البيان ، ولفت أنظارهم إلى صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله.. الشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة ، والميزان الموضوع ، والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس ، والمشرقين والمغربيين ، والبحرين بينهما برزخ لا يبغيان وما يخرج منهما وما يجرى فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار ، عرض مشهد فنائها جميعاً ، مشهد الغناء المطلق للخلائق ، فى ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي ، الذى إليه تتوجه الخلائق جميعاً ليتصرف فى أمرها بما يشاء ، قال تعالى : **كُلٌّ مِّنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ** . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وفى ظل الغناء المطلق للإنسان ، والبقاء المطلق للرحمن ، يجيء التهديد المروع والتحدى الكونى للجن والإنس ، ومن ثم يعرض مشهد النهاية ، مشهد القيامة يعرض فى صورة كونية ، يرسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، ثم يعرض ألوان الثواب للمتقين ، ويصف الجنة وما فيها من نعيم مقيم أعده الله للمتقين ، ويبين أن منازل الجنات مختلفة ، ونعيمها متفاوت ، والجزاء على قدر العمل .

كل يوم هو فى شأن

قال المفسرون : شئون يديرها لا شئون يبتديها^(٧) ، فهو سبحانه صاحب التدبير الذى لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خافر ، والخلق كلهم يسألونه ، فهو مناط السؤال ، وغيره لا يسأل ، وهو معقد الرجاء ومظنة الجواب .

وهذا الوجود الذى لا نعرف له حدوداً كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو سبحانه قائم بتدبيره .

هذا التدبير الذى يتبع ما نبت ، وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة فى ظلمات الأرض ، وكل رطب وكل يابس ، يتبع الأسماك فى بحارها ، والديدان فى مساربيها ، والوحوش فى أوكارها ، والطيور فى أعشاشها ، وكل بيضة وكل فرخ ، وكل خلية فى جسم حى .

تفسير النسخي للآية :

فى تفسير قوله تعالى : **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** . (الرحمن : ٢٩) ، قال النسخي : **يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ...** كل من فى السماوات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم .

كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ : كل وقت وحين يحدث أموراً ويجدد أحوالاً ، كما روى أنه ﷺ تلاها ، فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : «من شأنه أن يغفر ذنباً ويغفر كرياً ، ويرفع قومًا ويضع آخرين» .

وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان ، أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع . واليوم الآخر هو يوم القيامة فشأنه فيه الجزاء والحساب .

وقيل : نزلت فى اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضى يوم السبت شأنًا .

وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية ، فاستمعه إلى الغد ، وذهب كئيبًا ففكر فيها ، فقال غلام له أسود: يا مولاي ، أخبرنى ما أصابك ، فأخبره ، فقال الغلام : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك ، شأن الله أنه يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويشقى سقيمًا ويسقم سليمًا ، ويبتلى معافى ويعافى مبتلى ، ويعزّز ذليلًا ويذل عزيزًا ، ويغنى فقيرًا . فقال الملك : أحسنت ، وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة ، فقال : يا مولاي ، هذا من شأن الله .

وقيل : سوق المقادير إلى المواقيت .

وقيل : إن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت على آيات دعوتك لتكشفها لى ، قوله تعالى : **كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** . وقد صح أن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال الحسين : كل يوم هو فى شأن ، فإنها شئون يبدئها لا شئون يبتدئها^(٣٧) ، أى يظهرها لعباده فى واقع الناس على وفق ما قدره فى الأزل من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال ، وإغناء وإعدام ، وإجابة داع وإعطاء سائل ، وغير ذلك^(٣٨) .

فالناس يسألونه سبحانه بصفة مستمرة ، وهو سبحانه مجيب الدعاء ، بيده الخلق والأمر ، يغير ولا يتغير ، يجبر ولا يجار عليه ، يقبض ويبسط ، يخفض ويرفع ، وهو بكل شىء عليم .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ
إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

أنعم الله المتعددة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝ فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝﴾

المقررات :

الرحمن ، هو الله تعالى ، المنعم بجلال النعم الدنيوية والأخروية ، وهو اسم من أسماء الله الحسنى .
علم القرآن ، قدم ذلك ، لأن أصل النعم الدينية وأجلها هو إنعامه بالقرآن ، وتنزيله وتعليمه ، فإنه أساس الدين .

علمه البيان ، علمه النطق المعرب عما في الضمير .

بحسبان ، بحساب وتدبير .

يسجدان ، يخضعان لتدبيره تعالى .

وضع الميزان ، ووضع العدل .

ألا تطفوا ، لئلا تتجاوزوا فيه الحق .

بالقسط ، بالعدل .

ولا تخسروا الميزان ، ولا تنقصوه .

والأرض وضعها ، خلقها موضوعة مخفوضة .

للأنعام ، للخلق .

الأكمام ، أوعية الثمر .

العصف ، ورق النبات اليابس كالتبن .

الريحان ، المشموم ، أو الرزق .

آلاء : جمع إلى ، وهى النعمة ، مثل : معنى وأمعاء .

تمهيد :

تبدأ السورة باسم الله : الرَّحْمَنُ ، ثم تعدد نعم الله تعالى التى لا تعد ولا تحصى ، ومن هذه النعم ما يأتى :

١ - تعليم القرآن للبشر ، وهو كلى الشريعة وأصل أصولها .

٢ - خلق الإنسان ليكون خليفة لله فى الأرض .

٣ - تعليمه البيان والنطق ، والإعراب عما فى نفسه .

٤ - إبداع نظام الكون ، وتسخير الشمس والقمر بحساب دقيق ، يترقب عليه نظام الحياة ، والزراعة وسائر الأعمال .

٥ - النجم المرتفع فى السماء ، والشجر النابت فى الأرض يسجدان لله ويخضعان لأمره .

٦ - وقد رفع الله السماء ، وأنزل الميزان ، وهو الحق والعدل .

٧ - أمرنا الله أن نحافظ على الحق والعدل .

٨ - وضع الله الأرض مبسطة لمصلحة الأنام ، حيث أرساها وثبتتها بالجبال .

٩ - جعل الله فى الأرض العديد من النعم ، مثل الفاكهة وأشجار النخل التى تحمل البلح ، كما جعل من الثمار ما يؤكل ، مثل حبّ الذرة والشعير والقمح ، ومنه ما يشمّ مثل الريحان .

١٠ - بأى نعمة من أنعم الله العديدة ، يا معشر الجن والإنسان تكذبان ؟

التفسير :

١ ، ٢ - الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ .

اسم الله الرَّحْمَنُ ، معناه أن الرحمة صفة وجودية قديمة ، قائمة بذاته سبحانه وتعالى ، فهو الرحمن ، ورحمته تنتقل إلى عباداه فهو رحيم بهم ، وفى سورة الفاتحة : الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . (الفاتحة : ٣) . فما أكثر رحمته بعباده ، ومن أجلّ هذه النعم إنزال القرآن على محمد ﷺ ، بواسطة جبريل الروح الأمين .

قال تعالى : عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . (النجم : ٥) .

وقال سبحانه : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

ومن أجل النعم إنزال هذا الكتاب على الرسول الأمين محمد ﷺ ، وقد علمه الله إياه ، وتكفل بحفظه في قلبه ، وقراءته على لسانه .

قال تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ . (القيامة : ١٦ - ١٩) .

وقد أدعت قریش أن النبی يتعلم القرآن من حداد رومی كان یجلس عنده ، فردَّ الله عليهم ، وبین أن الله هو الذى علم محمدًا هذا الكتاب ، حيث قال سبحانه : الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ .

وقال عز شأنه : وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . (النمل : ٦) .

وقال عز شأنه : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم : ٣ ، ٤) .

فضل القرآن

جعل الله الثواب العظيم فى تلاوة القرآن وحفظه ، وتعليمه وتعلمه ، وقد اشتمل القرآن الكريم على التشريع والعبادات والمعاملات ، والآداب ، وأخبار السابقين ، وقصص المرسلين ، وأخبار القيامة ، وكل ما ينفع الناس فى دينهم ودنياهم ، ولذلك كان أعظم المهن : عِلْمُ الْقُرْآنِ .

وللمفسرين هنا رأيان :

الأول : أن الله علم القرآن للبشر وللناس حتى يهتدوا بهدى الله ، ومكَّن الإنسان من استيعاب هذا الكتاب ، وتلاوته وحفظه وفهم معانيه .

قال تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . (القمر : ١٧) .

أى سهَّلنا تلاوة القرآن وقراءته وفهمه لمن رغب فى ذلك ، فهل من متعذر راغب فى هذا الخير ؟

الثانى : أن الله علم القرآن لمحمد ﷺ ، ثم تعلم منه الصحابة ، وتناقل الناس تعليم القرآن عن الصحابة .

٣ ، ٤ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ .

خلق الله آدم ، ومنحه القدرة على التعليم والتعلم ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وبهذه القوى الظاهرة والباطنة التي منحها الله للإنسان ، استطاع أن يبين عما في نفسه ، وأن يفهم كلام غيره ، وأن يستفيد من تجارب غيره ، وبذلك وصل الإنسان إلى القمر ، بينما لا تزال القردة على الشجر .
وقيل : المراد بتعليمه البيان تعليمه التكلم بلغات مختلفة .

٥ - الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُحْسِبَانِ .

تتابع سير الشمس في منازلها ، وسير القمر في منازلها ، يترتب عليه مجيء الليل والنهار ، وتتابع الفصول الأربعة ، وحساب أوقات الزراعة ، وطلوع الأهلّة ، ومعرفة الشهور ، وأوقات الصيام والحج ، وقضاء الدين ، وانقضاء العدة ، وغير ذلك من المصالح المتعددة .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ حَمَدَنَا ءَايَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئَاتِ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا . (الإسراء : ١٢) .

وقال تعالى : فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (الأنعام : ٩٦) .
٦ - وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ .

النجم المرتفع في السماء يدور في مداره ، ويخضع لنظام القدرة الإلهية التي تمسك بزمام السماء ، والشجر خاضع لقدرة الله الذي يسر للشجر الماء والهواء والفضاء ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، أي أن السماء العالية ونجومها الزاهرة ، والأرض المنبسطة وأشجارها الخضراء ، يسجدان لله خاضعين لقدرته .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ... (الحج : ١٨) .

وقيل : المراد بالنجم : النباتات التي لا ساق له ، والشجر : الذي له ساق ، ينقادان لقدرة الله ، فإن ظهورهما بشكل معين لوقت معين ولأجل معين ، وجعلهما غذاء للإنسان ، ومتعة له شكلاً ولوناً ، ومقداراً وطعمًا ورائحة ، انقياداً لقدرة الله تعالى .

٧ - وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .

جعل الله السماء سقفا مرفوعا ، وزينها بالنجوم ، وجعل فيها الملائكة واللوح المحفوظ ، وفيها أبراج وأفلاك ونجوم ، وملائكة وحي ، وأنزل الميزان في الأرض ليقوم الناس بالعدل والقسط ، قال ﷺ : «بالعدل قامت السماوات والأرض» أى : بقيتا على اتقن نظام وأحسنه .

وفى الحديث القدسي : «يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»^(٧٨).

ويقول سبحانه وتعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْلَ ذَرَّةٍ ... (النساء : ٤٠) .

ويقول تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فالله تعالى عادل ، وبهذا العدل قامت السماوات والأرض ، وأنزل الله الميزان بمعنى أنه أمر بالعدل والقسط فى شريعته وفى أحكامه ، وفى تعامل الناس بعضهم مع بعض .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (النساء : ٥٨)

٨ ، ٩ - أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .

أى : أنزل الله الميزان إلى الأرض ، وقال ابن عباس : المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا الاسم ، أى أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم .

أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ .

الطغيان : تجاوز الحد والنصفة ، وهذه الآية كالتعليل لما سبقها .

أى : أنزل الميزان حتى لا يطفى إنسان على أخيه ، فيظلمه ولا ينصفه ، كما يجب الوزن بالعدل ، والبيع والشراء بالقسط ، وعدم تجاوز الحدود ، وعدم تطفيف الكيل والميزان .

وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ .

أى : قوموا وزنكم بالعدل ، ولا تنقصوه ولا تبخسوه شيئا ، بل زنوا بالحق والقسط ، كما قال تعالى :

وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ . (الشعراء : ١٨٢) .

وقد تكرر الأمر بالعدل والتوصية به والحث عليه لأهميته ، وللتنبية على شدة عناية الله تعالى بإقامة العدل بين الناس فى معاملاتهم وفى سائر شئونهم ، إذ بدونها لا يستقيم لهم حال ، ولا يستقر لهم قرار ، فقد أمر سبحانه بالتسوية والعدل ، ثم نهى عن الطغيان الذى هو مجاوزة الحد ، ثم نهى عن الخسران الذى هو النقص والبخس .

وقال فتادة فى الآية : اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يُعدل لك ، وأوفِر كما تحب أن يوفى لك ، فإن فى العدل صلاح الناس .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ... (الحديد : ٢٥) .

١٠ - وَأَلَّا تَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ .

يسط الله الأرض ، وذلل طرقها ، وأرسى جبالها ، وسخر بها الماء والبحار والأنهار والأشجار ، ليستفيد بها الأنام ، أى الناس جميعاً ، أو المخلوقات من الإنس والجن ، والحيوان والأسماك ، والطيور وسائر المخلوقات ، وكل ما على وجه الأرض .

١١ - فِيهَا فَتَكُفَّهَ تَوَخَّلْ ذَاتَ الْأَكْمَامِ .

فى الأرض ما يتفكه الناس بأكله ، من صنوف الفواكه التى تؤكل على سبيل التفكه والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، وفيها النخيل ذات الأوعية التى يكون فيها الثمر ، وأفرد النخيل بالذكر لكثرتها فى بلاد العرب ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزناجيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جمارها ويلحها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

١٢ - وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ .

وضع الله الأرض للأنام ، ويسر بها إنبات الفاكهة والنخيل ، والحبوب المتعددة كالذرة والشعير والقمح ، الذى له أوراق تتحول إلى تبن تستفيد به الحيوانات ، وفى الأرض الريحان الذى نستفيد بحسن منظره ، وطيب ريحه ، وكذلك الورود وكل مشموم من النبات ذى الورق الذى تطيب رائحته .

قال المفسرون :

الريحان : كل مشموم طيب الريح من النبات ، منعش للنفس ، كالورد والياسمين والريحان ، كل ذلك وغيره أعده الله لمنفعة الأنام ، فما أعظم نعم الله على خلقه .

١٣ - فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أى : بأى نعمة من هذه النعم المذكورة سابقاً ، يا معشر الجن والإنس تكذبان ؟

لقد ذكر الله فى بداية السورة عدداً من النعم ، منها ما يأتى : تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وتعليمه البيان ، وتنسيق الشمس والقمر بحسبان ، ورفع السماء ووضع الميزان ، ووضع الأرض للأنام ، وما فيها من فاكهة ونخل وحَبّ وريحان ، عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان فى مواجهة الكون وأهل الكون : فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أخرج ابن جرير بسند صحيح ، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا ، فقال : «ما لى أسمع الجنّ أجواباً لربها منكم ؟ ما أتيت على قوله تعالى : فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ، إلا قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد» .

قال المفسرون : يستحب أن نقول : لا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد ، عند سماع هذه الآية : فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

وقد تكررت : فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فى سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة بعد كل خصلة من النعم ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين لتأكيد التذكير بالنعم ، ولتقريبهم بها ، وللتنبية على أهميتها ، والنعم محصورة فى دفع المكروه وتحصيل المقصود .

★ ★ ★

توضيح أحوال بعض النعم

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ ٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجِبْنَ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْحٌ ٱلْيَتَقِيَانِ ۝٢٠ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمَرْجَاتُ ۝٢٢ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُشَنَآتُ ۝٢٤ فَيَأْتِي ٱلْآءِ رَبُّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ ﴾

المضردات :

صلصال : طين جاف له صلصلة وصوت إذا نقر .

السَّخَّارَ ، الخَرْفَ ، وهو ما أُحرق من الطين حتى تحجّرَ .

وخلق الجنّ ، أصل الجنّ هو إبليس .

المسارج : اللهب الخالص الذى لا دخان فيه .

رب المشرقين : مشرقى الشتاء والصيف للشمس ، والمغربين : مغربى الشمس شتاءً وصيفاً ، وقيل :

المشرقان : مشرقى الشمس والقمر ، والمغربان : مغرب الشمس والقمر .

مرج البحرين ، أرسل البحرين العذب والملح .

يلتقيان ، يتجاوران وتتماس سطوحهما ، لا فصل بينهما فى رأى العين .

بـرزخ : حاجز .

لا يفتنيان ، لا يبغي أحدهما على الآخر ، بالممازجة وإبطال خاصته .

اللولؤ : الدرّ المخلوق فى الأصداف .

المرجان : الخزّ الأحمر .

الجوارى : السفن الكبار .

المنشآت : المصنوعات .

الأعـلام : الجبال ، واحدها علم ، وهو الجبل العالى .

تمهيد :

هذه الآيات استمرار لتعداد نعم الله تعالى فيما يأتى :

١ - خلق الإنسان من طين تحوّل إلى صلصال كالفخار .

٢ - خلق الجنّ من نار ، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الملائكة خلقت من نور ، كما ورد فى صحيح مسلم .

٣ - لله تعالى مشرقى الشمس والقمر ، ومغرب الشمس والقمر .

٤ - خلط الله البحر المالح والنّهر العذب ، يلتقيان عند مجمع البحرين ، كما فى دمياط ورشيد ، ولا يبغي أحدهما على الآخر ، ولا يفقده خاصته ، ومن أحدهما - وهو البحر المالح - نستخرج اللؤلؤ والمرجان .

٥ - لله سبحانه السفن السابحة فى البحر كالجبال .

٦ - يجب على الإنس والجن شكر الرحمن على أنعمه .

١٤ - خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ .

خلق الله الإنسان من (التراب) ، ثم اختلط التراب بالماء فصار (طيناً) ، ثم ترك مدة فتحول الطين إلى (حمأ مسنون) أى طين يابس منتن ، ثم تحول إلى (طين لازب) أى لاصق باليد ، ثم تحول إلى (صلصال) أى طين يابس له صلصلة ، أى صوت إذا نقر ، (كالفخار) وهو ما أحرق من الطين حتى تحجر ويسمى الخزف ، وكل هذه الآيات تعبر عن المراحل التى مرّ بها خلق الإنسان ، فقد عبر القرآن عن أن الله خلق آدم من تراب فى بعض الآيات ، وفى آيات أخرى أنه خلق آدم من طين ، وفى آيات أخرى أنه خلقه من حمأ مسنون ، وفى آيات أخرى أنه خلقه من طين لازب ، وهنا عبر بأنه سبحانه خلق الإنسان من : صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ . وكلها تشير إلى المراحل التى مرّ بها خلق الإنسان ، وكل آية تشير إلى طور من أطوار هذا الخلق ، وكلها تدل على إعجاز القدرة التى خلقت آدم من جنس الأرض ، ثم نفخت فيه الروح ، فصار بشراً سوياً ، يجمع بين الجسم ومتطلباته ، والروح ومتطلباتها ، ومن سماحة الإسلام دعوته الخلق إلى إعمار الكون بالزراعة والتجارة والصناعة ، وإثراء الحياة وفاءً لحق الجسم ، ثم دعوته إلى الإيمان وأداء العبادات وإحسان المعاملات ، رغبة فى إسعاد الروح فى الدنيا ، وتمتعها بنعيم الجنة فى الآخرة ، فالإسلام دعا إلى التوازن بين أداء حق الجسم ، وأداء حق الروح .

وفى الحديث الصحيح : «إنّ لربك عليك حقاً ، وإنّ لبدنك عليك حقاً ، وإنّ لزوجك عليك حقاً ، وإنّ لضيفك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه»^(١٧) .

١٥ - وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ .

المارج : المشتعل المتحرك ، كألسنه النار مع الرياح .

قال الجوهري فى الصحاح : المارج : نارٌ لا دخان لها ، خُلِقَ منها الجان .

ونقل القرطبي عن ابن عباس ومجاهد :

المارج : اللهب الذى يعلو النار ، يختلط بعضه ببعض : أحمر ، وأصفر ، وأخضر .

وقد أخرج الإمام أحمد ، ومسلم ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وخُلِقَ الجان من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وُصف لكم»^(١٨) .

والمقصود من الآيتين تذكير الإنس والجنّ بفضل الخلق ، وقدرة القدير الذى خلق من الطين بشراً سوياً ، ومن النار خلق الجن بقدرته .

وتذكير الإنسان بفضل الله عليه ، فقد خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكة ، وفضلته على كثير من خلقه ، حيث أمر الله إبليس المخلوق من النار بالسجود لأبينا آدم المخلوق من الطين ، فعلينا أن ندرك عظمة الخالق ، وأن نشكره على نعمة الخلق ، وأن نحذر إبليس العدو اللعين .

قال تعالى : **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ الشَّعِيرِ .**

(فاطر : ٦)

١٦ - **فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .**

بأى نعمة من نعم الله عليكم - يا معشر الثقلين ، الإنس والجن - تكذبان أو تنكران ما هو واقع ملموس ؟

١٧ ، ١٨ - **رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .**

للشمس مشرق فى الصيف ، ومشرق فى الشتاء ، ولها مغرب فى الصيف ، ومغرب فى الشتاء .

وقيل : المشرقان : مشرق الشمس والقمر ، والمغربان : مغرب الشمس والقمر .

والمعنى :

الذى أبدع الخلق وسواه ، وجعل للشمس مشارق متعددة تصل إلى ٣٦٠ مشرقاً ، و ٣٦٠ مغرباً بعد أيام السنة ، ويترتب على اختلاف مشارقها تعدد فصول العام ، واختلاف الطقس ، ووجود الشتاء والربيع ، والصيف والخريف .

قال تعالى : **فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... (المعارج : ٤٠) .**

أى : مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم إلى مطلع ، وبروزها منه إلى الناس .

وقال عز شأنه : **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا . (المزمل : ٩) .**

والمراد منه : جهة المشرق وجهة المغرب ، أى أنه سبحانه يملك المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو سبحانه يملك سائر الجهات ، ويملك الكون كله ، وقد أبدع بنظام بديع يحافظ على مصالح الناس وحياتهم .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أى : أنكذبان بخلق المشرق والمغرب وما بينهما من الكائنات ، واختلاف الفصول وما يترتب عليه من المنافع والمصالح ، أم تكذبان بغير ذلك ؟

اللهم لا بشيء من آلائك تكذب ، سبحانه فلك الحمد .

١٩، ٢٠، ٢١ - مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ : أرسلهما .

والمعنى : أرسل الله تعالى البحرين - الملح والعذب - وجعلهما يلتقيان في أطرافهما ، كما يلتقى ماء النيل بالبحر الأبيض المتوسط عند دمياط ورشيد ، وهذا الالتقاء والتمازج في الأطراف لم يجعل أحدهما يبغي على الآخر ، فيفقدته خاصته ، لأنه تعالى جعل بينهما حاجزًا يمنع التمازج الكلى بينهما .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا . (الفرقان : ٥٣) .

قال المفسرون :

أما التقاؤهما فيكون عند مصاب الأنهار في البحار ، وأمَّا البرزخ الذى بينهما فهو القدرة الإلهية التى منعت أن يبغي الماء الملح على العذب فيحوله إلى ملح ، أو أن يبغي العذب على الملح فيحوله إلى عذب ، فبقى كلاهما يؤدى وظيفته التى خلق لها .

قال ابن كثير :

والمراد بالبحرين : الملح والحلو ، فالملح هذه البحار ، والحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، وجعل الله بينهما برزخًا ، وهو الحاجز من الأرض ، لئلا يبغي هذا على هذا ، فيفسد كل واحد منهما الآخر .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بِأَيِّ نعم الله تعالى المذكورة فى تيسير الماء العذب من الأنهار ، وتيسير الماء الملح من البحار ، ولكل منهما منافع متعددة لكم ، بِأَيُّهَا تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ ونقول نحن : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٢٢، ٢٣ - يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

من الماء المالح يخرج اللؤلؤ والمرجان ، ومعنى يخرج منهما ، أى من الماء : اللؤلؤ والمرجان .

قال القرطبي :

إن العرب تجمع الجنسین ثم تخبر عن أحدهما ، كقوله تعالى : يُلْمَعُشْرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ... (الأنعام : ١٣٠) . وإنما الرُّسل من الإنس دون الجن .

وقال الزجاج :

قد ذكرهما الله ، فإذا أخرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما ، وهو كقوله تعالى : أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ
 اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ وَجَعَلَ اللَّيْلُ لِبَاسًا لِّلْأَرْضِ وَالنُّجُومَ لِلَّيْلِ زِينَةً وَالْأَرْضَ نَارًا ۚ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا . (نوح : ١٥ ، ١٦) . ولكن أجمل ذكر السبع ،
 فكان باقى إحداهما فيهن .

والله تعالى يقول : وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَاكُلُونَ
 لَحْمًا طَرِيًّا وَتُسَخَّرُ جَوْثٌ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِّتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (فاطر : ١٢) .

• وجاء فى تفسيرها فى المنتخب من تفسير القرآن الكريم ما يأتى :

وما يستوى البحرين فى علمنا وتقديرنا ، وإن اشتركا فى بعض منافعهما ، هذا ماؤه عذب يقطع
 العطش لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله ، وهذا مالح شديد الملوحة ، ومن كل تاكلون لحمًا طريًا مما
 تصيدون من الأسماك ، وتستخرجون من الماء المالح ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان . وترى - أيها
 المُشَاهِد - السفن تجرى فيه ، شاقّة الماء بسرعتها لتطلبوا شيئًا من فضل الله بالتجارة ، ولعلكم تشكرون
 لربكم هذه النعم .

وفى التعليق بالهامش نستخلص الآتى :

العلم والواقع أثبتنا أن الحلى تستخرج من صدفيات الأنهار أيضًا ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى
 إنجلترا واسكتلندا وويلز ، وتشيكوسلوفاكيا واليابان .. إلخ ، بالإضافة إلى مصائد اللؤلؤ البحرية الشهيرة ،
 ويوجد الياقوت فى الرواسب النهرية فى بورما العليا ، أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبًا فى
 الرواسب النهرية^(٨١) .

فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم الله عليكم تكذبان ؟ فقد جعل الله الأرض مصدرًا للحبّ والزروع والأشجار والفاواكه ، وجعل
 البحر والنهر مصدرًا للسلم والحلى ، فكلٌّ من البرّ والبحر أساس حياتنا وزينتنا ، وكل هذه آلاء الله ونعمائه ،
 التى لا يجدها إلا منكر كفار ، اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٢٤ ، ٢٥ - وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُسْتَنَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۖ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ .

ولله تعالى الفضل والمِنَّة فى تسخير الماء والهواء ، لتجرى السفن الكبيرة التى تشبه الجبال فى
 عظمتها فاردة قلاعها ، تسبح جارية فوق سطح الماء ، تنقل التجارة والأفراد من بلد إلى آخر ، للسياحة
 والتجارة ، والتأمل فى خلق الله .

وأصول الأشياء أربعة: التراب والماء والهواء والنار، فمن التراب خلق الإنسان، ومن النار خلق الجان، ومن الماء نأكل السمك ونستخرج الحلي، وبالهواء تسير السفن بفضل الله، تجرى على الماء وتيسر التجارة والسياحة والانتقال، فبأي هذه النعم المتعددة، يا معشر الجن والإنس، تكذبان؟ لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد.

★ ★ ★

فناء الكون وبقاء الله

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٩﴾ وَسَبَقَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٠﴾ فَإِنِ الْآلَاءِ رَبِّكَ أَنْكَدَ بَانَ ﴿٧١﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٧٢﴾ فَإِنِ الْآلَاءِ رَبِّكَ أَنْكَدَ بَانَ ﴿٧٣﴾﴾

المضردات :

فـ_____ان، هـالك .

وَجِئْهُ رَبِّكَ ذَاتَهُ .

ذو الجلال والإكرام، ذو العظمة والكبرياء، والتفضل بأنعمه على العباد.

يسأله من في السماوات والأرض، أهل السماوات يسألونه المغفرة والرحمة، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة.

كُلَّ يَوْمٍ، المراد باليوم الزمان مطلقاً، فيصدق على كلِّ وقت ولحظة.

هو فـى شـان : أى فى أمر من الأمور ، من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال ، وإغناء وإعدام ، وإجابة داع ، وإعطاء سائل ، وغير ذلك.

تمهيد :

فناء الخلق من نعم الله ، حيث يتركُون دار الفناء ، ثم يموتون ، ثم يبعثون إلى دار البقاء .

وأهل السماء وملائكة السماء يسألون الله المغفرة ، وأهل الأرض يسألون الله الرزق والمغفرة ، والله تعالى يحيى ويميت ، ويشفي ويمرّض ، ويعز ويذل ، ويضع ويرفع ، وهو على كل شيء قدير .

التفسير :

٢٦، ٢٧، ٢٨ - كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ * وَيَقْفَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلْسَل وَالْإِكْرَام * فَبَأَىٰ آءِآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

جميع ما على وجه الأرض يفنى ، فالفناء يعم كل من في الكون ، .

قال تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٨٨) .

أى أن ملائكة السماء تَفْنَى ، وكذلك الإنسان والجن يموتون ، وذات الله باقية خالدة بلا فناء ، لا أول لبدائها ، ولا آخر لنهايتها ، وهو صاحب الفضل والإنعام على عباده ، فبعد الفناء يكون البعث ، ويكون البقاء فى نعيم الجنة للمتقين ، وفى عذاب النار للكافرين .

وفى الموت أنعم متعددة ، منها الراحة من المرض وأرذل العمر ، وبعد الموت تتجدد الأجيال ، وتحيا الذرية وتكبر ، ثم تهرم وتموت ، ولو استمرت الحياة لضاعت الأرض بأهلها ، وصار فوق كل قدم أكثر من مائة قدم .

قال الشاعر :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

ويقول الآخر :

فلو أننا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حى
ولكنّا إذا متنا بعننا ونسأل بعد ذا عن كل شى

والآية بعد ذلك تنطق بالرهبة والحقيقة الصامته ، فكل ما تراه على وجه الأرض معرض للفناء والموت : الإنسان والجن ، والطير والوحوش ، والزواحف والحشرات ، والزرع والأنهار والأشجار ، بل وكل من فى السماوات من الملائكة ، والشموس والأقمار ، والنجوم والأبراج والأفلام ، كل ذلك يشملته الفناء والهلاك .

قال تعالى: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٨٨) .

وذلك يدعونا إلى التأمل والنظر ، والاعتبار والعمل ، وإذا كانت الدنيا فانية فإن الآخرة باقية ، ومن الواجب إثارة ما يبقى على ما يفنى ، أى : يجب إثارة العمل الصالح ، وطاعة الله تعالى ، واجتناب نواهيه .

قال تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثْبَرُ * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى . (الأعلى: ١٦ - ١٩) .

ذو الجلال والإكرام

صفتان من صفات الله ، وهما الجلال والإكرام ، أى العظمة والكبرياء ، وفى الحديث الذى رواه الترمذى ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «أَلْغُوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٨٧) . أى : الزموا ذلك فى الدعاء .

ومن دعاء الرسول ﷺ : «يا حى يا قيوم ، يا بديع السماوات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أحد من خلقك »

وفى معنى الآية قوله تعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص : ٨٨) .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

هو سبحانه الخالق ، القابض الباسط ، المحيي المميت ، المعز المذل ، فالناس جميعا تتساوى فى الفناء ثم تبعث على نياتها ، فيكافئ الله المطيع بالثواب ، ويعاقب العاصى بعذل الجزاء ، وفى ذلك نعمة أى نعمة .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

ولله الفضل فى بدء الخلق ، ثم فى نعمة الرزق ، ثم فى نعمة الموت والبعث ، فبأى نعمة من هذه النعم تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

وصدق الله العظيم إذ يقول : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ... (الروم : ٤٠) .

قال القرطبي :

وجه النعمة فى فناء الخلق التسوية بينهم فى الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام ، والموت سبب النقلة من دار الفناء إلى دار الثواب والجزاء .

٢٩ ، ٣٠ - يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

هو سبحانه وتعالى غنى عن خلقه ، والخلق كلهم محتاجون إليه .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَسْمُوا الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْخَمِيدُ . (فاطر : ١٥) .

أهل السماوات يطلبون منه المغفرة ، ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونه الرزق والمغفرة ، وغير ذلك ، وهو سبحانه كل يوم فى شأن ، يحيى ويميت ، ويغنى ويفقر ، ويضع ويرفع ، ويعز ويذل ، ويعطي ويمنع ، والخلق جميعا متعلقون ببابه ، سائلون أفضاله ، طالبون القرب من فضله ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

قال مجاهد :

كل يوم هو يجب داعيا ، ويكشف كربا ، ويجيب مضطراً ، ويغفر ذنباً .

وقال قتادة :

لا يستغنى عنه أهل السماوات والأرض ، يحيى حياً ، ويميت ميتاً ، ويربى صغيراً ، ويفك أسيراً ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ، ومنتهى شكواهم .

روى ابن جرير أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . فقالوا : يا رسول الله ، وما ذلك الشأن ؟ قال : « أن يغفر ذنباً ، ويغفر كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين » أخرجه ابن جرير مرفوعاً ، ورواه البخاري موقوفاً من كلام أبي الدرداء .

والخلاصة :

أن أهل السماوات وأهل الأرض يتعلقون بهم ، يسألونه حاجاتهم ، وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، ولا تدركه سنة ولا نوم ، ولا يغفل عن عباده لحظة ولا يوماً ، وليس كما ادعت اليهود أن الله لا يقضى شيئاً يوم السبت ، فقال سبحانه : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ .

فهو تعالى يرفع من يشاء ، يضع من يشاء ، ويشفي سقيماً ، ويمرض سليماً ، ويعزّ ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغني فقيراً .

وفى معنى الآية قوله تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (ال عمران : ٢٦) .

سئل الحسين بن الفضل عن قوله تعالى : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . وقد صح أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال : إنها شئون يبدئها ولا يبتدئها .

أى : شئون مما كتبه الله تعالى ، يظهرها فى الحين الذى قدر ظهورها فيه ، ولا يبتدئ إرادتها والعلم بها .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعمة من أنعمه يا معشر الجن والإنس تكذبان ، وهو سبحانه يجيب المضطرين ، ويلبى دعاء الداعين ، وبيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ؟

اللهم لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

تهديد ووعيد

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣٦﴾ فَيَأْيُءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ يَمْعَشَرِ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٨﴾ فَيَأْيُءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٩﴾ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِلَ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٤٠﴾ فَيَأْيُءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾ ﴾

المضردات :

سنفرغ لكم أيها الثقلان ، سنأخذ في جزائكم فقط أيها الإنس والجان .

أقــــــــطــــــــار ، جمع قُطر ، وهى الناحية والجانب ، أى : إن استطعتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فاحرجوا ، ولكنكم لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة وقهر ، ومن أين لكم ذلك ؟

إلا بسلــــــــطان ، إلا بقوة وقهر .

شواطــــــــط من نار ، لهب من نار .

ونــــــــحــــــــاس ، ونحاس مذاب يصب فوق رؤوسكم .

فلا تنــــــــصــــــــران ، فلا تمتنعان من العقوبة بهما .

تمهيد :

تحدث الآيات عن مشهد من مشاهد القيامة ، حيث يتفرغ الجبار سبحانه وتعالى لحساب الجن والإنس ، والله لا يشغله شأن عن شأن ، لكن السياق يوحي بأن الخطاب للتهديد ، كما يقول الرجل لآخر : سأنفذ لك وأريك عقوبتى .

التفسير :

٣١ ، ٣٢ - سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَيَأْيُءُ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

تحدثت الآيات السابقة عن الحق سبحانه : كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ . أى : كل وقت هو فى شئون ملكوته التى لا تحصى ولا تعد .

فإذا انتهت الدنيا وقامت القيامة قصد سبحانه إلى حساب الثقلين ، الجن والإنس ، والله سبحانه وتعالى لا يشغله شأن عن شأن .

والمقصود : سنريك أحوال القيامة ، والحشر والسؤال ، والميزان والصراف . كما تقول لمن هو دونك سأترغ لك ، أى سأوجه همى لمحاسبتك ومعاقبتك .

قال البيضاوى :

أى : سنجرّد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة ، وفيه تهديد مستعار من قولك لمن تهدده : سأفرغ لك ، فإن المتجرّد للشئ يكون أقوى عليه وأجدّ فيه .

والفعلان : الجن والإنس ، سُميا بذلك لثقلهما على الأرض .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعمة من نعم الله تكذبان ، ومن هذه النعم التنبيه على ما ستلقونه يوم القيامة ، لعلمكم تتقونه بإيمانكم ، فبأى نعمة من نعمه تعالى تكذبان ؟

٣٣ ، ٣٤ - يَنْمُشِرَ الْجَنَّ وَالْإِنْسَ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُتُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُتُوا لَا تَنْفُتُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

يا جماعة الإنس والجن ، أنتم راجعون إلينا ، خاضعون لأمرنا ، وتحت قدرتنا وحسابنا وجزائنا ، ولا مفركم ولا مهرب من الحساب والجزاء ، والثواب للطائعين ، والعقاب للعاصين ، فإن قدرتم أيها العصاة على الخروج من جوانب السماوات والأرض فاخرجوا ، والأمر هنا للتهديد ، ومعناه : لن تستطيعوا ذلك ، فالكون كله فى قبضة الله ، والملائكة تحيط بأهل الموقف فى صفوف تشبه الدائرة ، أى سبع دوائر من ملائكة السماء تحيط بأهل الأرض ، الدائرة الأولى مكونة من ملائكة السماء الدنيا ، والدائرة الثانية من ملائكة السماء الثانية ... وهكذا إلى الدائرة السابعة من ملائكة السماء السابعة .

لَا تَنْفُتُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ .

أى : لا تستطيعون الخروج إلا بقوة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ؟

جاء فى حاشية المنتخب من تفسير القرآن لوزارة الأوقاف المصرية :

ثبت حتى الآن ضخامة المجهودات والطاقات المطلوبة للنفاذ من نطاق جاذبية الأرض ، وحيث اقتضى النجاح الجزئى فى زيارة الفضاء لمدة محدودة جداً بالنسبة لِعِظَم الكون - بَدَل الكثير من المجهودات العلمية الضخمة فى شتى الميادين الهندسية والرياضية والفنية والجيولوجية فضلا عن

التكاليف الخيالية المادية التي أنفقت في ذلك ، وما زالت تنفق ، ويدل ذلك دلالة قاطعة على أن النفاذ المطلق من أقطار السماوات والأرض - التي تبلغ ملايين السنين الضوئية - لإنس أو جنّ مستحيل .

فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ .

بأي نعمة من نعم ربكما تكذبان ؟ ومن هذه النعم تحذيركم من العقاب لتتقوه .

٣٥ - يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَصْغِيرَانِ .

أي : لو ذهبتُم هارين في أرجاء السماوات والأرض لأرسل الله عليكم أيها الثقلان لهباً شديداً من نار ، كما يرسل عليكماً نحاساً مذاباً ، يصب فوق رؤوس الكافرين منكم ، فلا تمتنعان من العذاب ، ولا تستطيعان الهرب منه لو أردتموه .

وجاء في حاشية المنتخب في تفسير القرآن الكريم :

النحاس هو فلزٌ يعتبر من أوّل العناصر الفلزيّة التي عرفها الإنسان منذ قديم الزمن ، ويتميز بأن درجة انصهاره مرتفعة جداً ، حوالي ١٠٨٣ درجة مئوية ، فإذا ما صبّ هذا السائل الملتهب على جسد مثّل ذلك صنفاً من أقسى أنواع العذاب ألماً ، وأشدّها أثراً . ا هـ .

وقال ابن كثير في تفسير الآية :

قال مجاهد : النحاس الصُّفَر يذاب فيصبّ على رؤوسهم .

والمعنى : لو ذهبتُم هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا .

٣٦ - فَبِأَيِّ ءَالٍ رَّبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ .

بأي نعم ربكما تكذبان ؟ ومنها تنبيهكم إلى أنكم لا تستطيعون الفرار من العذاب إن بقيتم على كفركم .

تصدع السماء وأحوال المجرمين يوم القيامة

﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رِّبْكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُشْعَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٣٩﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رِّبْكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٠﴾ يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رِّبْكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَالِئٌ رِّبْكُمْ تَكْذِبَانَ ﴿٤٥﴾﴾

المشردات :

انشققت : تصدعت .

وردة : كالوردة في الحمرة .

كالدهان : مذابة كالدهن أو كالأديم (الجلد) الأحمر ، على خلاف ما هي عليه الآن .

وجواب (فإذا) محذوف تقديره : فما أعظم الهول .

السيما : العلامة .

النواصي : واحداها ناصية ، وهي مقدم الرأس .

والأقدام : واحداها قدم ، وهي قدم الرجل المعروفة .

الحميم : الماء الحار .

أن : متناو في الحرارة ، لا يُستطاع شربه من شدة حرارته .

تمهيد :

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، حيث تنشق السماء على غلظها ، ويصبح لونها أحمر قانيا كالوردة ، متغيرا كتغير الأصباغ التي يدهن بها ، وتذوب السماء كالدهن ، أو درى الزيت .

ويتميز المجرمون عن غيرهم بعلامات خاصة ، هي سواد وجوههم وزرقة عيونهم ، ثم يزع بهم في جهنم في صورة زرية مهيبة ، حيث تجمع أرجلهم إلى نواصيهم ، ويقال لهم تحقيرا وتكديرا : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا ، فيصلون حرارة النار ، ويشربون من ماء حار قد اشتدت حرارته .

التفسير :

٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢ - فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
 فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسَمِيِّهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالْأَوَّلَى
 وَالْآخِرَةِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

يعرض القرآن مشاهد القيامة ماثلة أمام العين كأنك تشاهدها ، وترى السماء العالية المتماسكة ،
 وقد انشقت على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأرجائها ، وتغير لون السماء ، فصار أحمر قانيا بلون الورد ، كما
 أن جرمها قد انماح ، فصار دهننا متلوناً بين الأصفر والأحمر والأخضر ، بلون الأصباغ التي يدهن بها ، أو
 درى الزيت .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى هذه النعم تكذبان ؟ حيث يكافأ المتقون ، ويعاقب المجرمون ، وحيث يخبرنا الله بذلك لنحذر
 عقاب هذا اليوم .

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ .

يوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواقف متعددة ، فى بعضها يُسأل الإنسان .

قال تعالى : وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مُسْئِلُونَ . (الصفات : ٢٤) .

وفى بعض المواقف ينتهى الأمر كما ينتهى التحقيق فى بعض القضايا ، وتحجز للنطق بالحكم .

وفى مواقف الآخرة هناك وثائق تغنى عن السؤال ، منها شهادة الجوارح ، وما سُجِّلَ فى الكتب ،
 وشهادة الملائكة ، وأطلاع الجبار سبحانه وتعالى .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم : يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَتْهُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(النور : ٢٤)

ويقول سبحانه وتعالى : هَلَّا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجنات : ٢٩) .

وقال تعالى : وَقَالُوا لِمَ لَجُّوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَالَّذِي تَرْجَعُونَ . (فصلت : ٢١) .

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن المؤمنين تبيض وجوههم ، وتكون عليها نضرة النعيم ، ويسعى النور بين أيديهم وبأيمانهم ، وأن الكفار تسود وجوههم ، وتعلوها الغبرة والقترة ، والقناتم والخوف والذل .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

أَيُّ : مِنْ نَعْمِهِ أَنْ أَحَقَّ الْحَقُّ ، وَأَبْطَلَ الْبَاطِلُ ، وَكُرِّمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَعَذَّبَ الْكَافِرِينَ ، فَبِأَيِّ نَعْمَةٍ تَكْذِبَانِ؟

يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ .

يُعرف المجرمون بعلامات ، منها سواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وظهور القناتم والذل والمهانة عليهم ، فتمسك الملائكة بشعر رؤوسهم ، وتجمعه مع أقدامهم ، ويرمى بهم إلى جهنم ، فما أشق ذلك وما أصعبه .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

ومن نعم الله تحذير الناس من ذلك المصير ، نعوذ بالله من حال أهل النار ، ونقول:

لا يَشِئُ مِنْ نَعْمِكَ رَبَّنَا نَكَذَّبُ ، فَلَكَ الْحَمْدُ .

٣ - هَلْ يَدْرِي جَهَنَّمَ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ .

يقال لهم تبيكيتاً وتوبيخاً : هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها في الدنيا وتستبعدون دخولها ، ادخلوها والمسا عذابها .

٤ - يَطُوفُونَ فِيهَا فِي حَرٍّ حَرِيمٍ .

يترددون بين العذاب في جهنم ، وشرب ماء شديد الحرارة يشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء .

قال قتادة :

يطوفون مرة بين الحميم ، ومرة بين الجحيم ، والجحيم : النار ، والحميم : الشراب الذي انتهى حره .

وقال ابن كثير :

الحميم : هو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب ، يقطع الأمعاء والأحشاء ، وهذا كقوله تعالى :

إِذْ الْأَغْلُلُ فِيهِ أَعْتَقَتْهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَرِّ هُمْ فِي آثَارٍ يُسَجَّرُونَ . (غافر : ٧١ ، ٧٢) .

وقوله تعالى : هَالِكٌ . أَيُّ : حار قد بلغ الغاية في الحرارة .

قال ابن عباس :

قد انتهى غلبه ، واشتد حره ، وقوله : حَويِمُ ءَانٍ . أى : حميم حار جدًا .

٤٥ - فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ربكما تكذبان ؟ حيث دعاكم إلى الإيمان لتتقوا هذا العذاب .

★ ★ ★

وصف نعيم الجنة

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۖ وَحَىٰ الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْفُرُشِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنَسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِىَ ءَالَآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

المضردات :

مقام ربه : قيامه بين يدى ربه للحساب ، أى أن مقام اسم مكان ، والمراد به مكان وقوف الخلق ، وقيامهم عند ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء ، قال تعالى : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . (المطففين : ٦) .

أفنان : غصون ، جمع فذن ، وهو ما دق ولان من الأغصان .

زوجان : صنفان : معروف وغريب ، أو طيب ويايس .

إستبرق : حرير ثخين .

جنى الجنتين : ما يجنى ويؤخذ من ثمار أشجارهما .

دان : قريب ، يناله القاعد والقائم ، والمضطجع والمتكى .

آلاء : نعم ، جمع إلى .

قاصرات الطرف ، نساء قصيرن طرفهن - أى عينهن - على أزواجهن .

لم يطمئنهن ، لم يفضض بكارتهن .

المرجان ، صغار الدر ، وقيل : خرز أحمر .

تمهيد :

تصف الآيات نعيم الجنان ، كما وصفت الآيات السابقة عذاب أهل النار ، وكان أهل النار يترددون بين جهنم وماء حار يشوى الوجوه ، أما أهل الجنة فيترددون بين نعيم الجنة وضيافة الجبار ورؤيته سبحانه وتعالى .

التفسير :

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ - وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فِيهَا أَلَاءٌ رَّكَبُوا تَكْذِبَانَ ۖ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ فِيهَا أَلَاءٌ رَّكَبُوا تَكْذِبَانَ .

قيل : إن الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، خاف الوقوف للحساب ، فتمنى أن لو كان نباتا أخضر تأكله دابة ، والحق أن الآية عامة فى كل من خاف مقام ربه ، أى القيام بين يدى ربه للحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، أى يقفون للحساب والجزاء .

فلكل من خاف الموقف فى ذلك اليوم ، وعمل الطاعات ، وتجنب المعاصى ، جنتان : جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المحرمات ، وقيل : جنة لسكنه ، وجنة لأزواجه وخدمه ، كما هى حال ملوك الدنيا ، حيث يكون له قصر ولأزواجه قصر .

قال القرطبي : وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة .

أخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا لربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن»^(٨١) .

قال مجاهد :

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ . هو الرجل يريد الذنب فيذكر الله تعالى فيدع الذنب .

وقال حماد :

ولا أعلمه إلا قد رفعه فى قوله تعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ . جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق (فضة) لأصحاب اليمين .

فَبَأَىءَآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فَبَأَى نعم ربكما تكذبان ؟

ذَوَاتَا أَفْنَانٍ .

صاحبتا أنواع من الأشجار والثمار .

وقيل : ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . صاحبتا أغصان.

وخص الأغصان بالذكر ، مع أنهما ذواتا جذوع وأوراق وثمار أيضا ، لأن الأغصان هى التى تورق وتثمر ، فمنها تمتد الظلال ، ومنها تجنى الثمار .

فكأنه قيل : ذواتا ثمار وظلال ، فالأغصان كناية عن ذلك .

فَبَأَىءَآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَبَأَى نعم ربكما تكذبان ، وهى نعم كثيرة عديدة ؟

٥٠ - فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ .

أى : فى كل واحدة من الجنتين عين جارية تجرى بالماء الزلال ، كقوله تعالى : فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ .

(الغاشية : ١٢)

والماء نعمة كبرى ، والماء الجارى فى الجنة يسقى ثمارها ، فتثمر من جميع الألوان ، وقد ورد فى وصف الجنة : أن فيها أنهارا من ماء غير آسن ، وأنهارا من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهارا من خمر لذة للشاربين ، وأنهارا من عسل مصفى .

قال الحسن البصرى :

إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى : السلسيل .

٥١ - فَبَأَىءَآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بَأَى نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟ اللهم لا بشىء من نعمك تكذب ، فلك الحمد .

٥٢ ، ٥٣ - فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبَأَىءَآلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى الجنتين من جميع أنواع الثمار صنفان : صنف معروف لهم فى الدنيا ، وصنف آخر غريب لم يعرفوه ، أو صنف يابس وآخر رطب ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فَبَأَىٰ ءَالِآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فَبَأَىٰ نعم ربكما تكذبان وهى لا تحصى ولا تعد ؟

قال ابن عباس :

ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة ، وليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الأسماء .
يعنى أن بين فاكهة الدنيا والآخرة بونا عظيما ، وفرقا بينا فى التفاضل .

٥٤ ، ٥٥ — مُتَكِبِّينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ؕ فَبَأَىٰ ءَالِآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

الجنة كل ما فيها جميل طيب ، وفيها تكريم أهلها ، مع نعيم حسى وآخر معنوى .

والمعنى :

مُعْتَمِدِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَانَتِهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ . حرير ثخين ، وقد دلّ على شرف الأعلى وهو الظهارة بالنص على فضل البطانة .

قيل لابن عباس : بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ . فما الظواهر ؟ قال : ذلك مما قال تعالى :

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ... (السجدة : ١٧) .

وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .

وثمر الجنتين قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع ، بخلاف ثمار الدنيا فإنها لا تنال إلا بكدّ وتعب.

قال ابن عباس :

تدنو الشجرة حتى يجتنبها وَلِيَّ الله إن شاء قائما ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء مضطجعا . ا هـ .

فَبَأَىٰ ءَالِآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ربكما تكذبان يا معشر الثقلين ؟

للهم لا بشئ من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٥٦ ، ٥٧ — فِيهِنَّ قَلِيلٌ مِّنَ الْعُفْرِ أَلَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ؕ فَبَأَىٰ ءَالِآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

تحدث القرآن فى الآيات السابقة عن الفُرُش ، وذكر أن بطاننها من إستبرق ، وذكر هنا أن فى هذه الفُرُش أو فى الجنات نساء قاصرات أبصار هنّ على أزواجهنّ ، فلا ينظرن لسواهم ، ولا يرين فى الجنة شيئا أحسن من أزواجهن .

قال ابن كثير :

ورد أن الواحدة منهن تقول لبعيها : والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ، ولا فى الجنة شيئا أحب إلى منك ، فالحمد لله الذى جعلك لى ، وجعلنى لك .

لَمْ يَطْمِئِنُّوا إِنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَنَّ .

أى : لم يفضض بكارتهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، بل هن أبكار عذارى .

قال الألوسى :

وأصل الطمث خروج الدم ، ولذلك يقال للحيض : طمث ، ثم أطلق على جماع الأبكار لما فيه من خروج الدم ، ثم على كل جماع .

فَبَأَىءَ الْآلَاءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟

٥٨ - كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ .

كانهن فى صفائهن الياقوت ، وفى حمريتهن المرجان .

قال قتادة :

كانهن فى صفائهن الياقوت ، وحمرة المرجان ، لو أدخلت فى الياقوت سلكا ثم نظرت إليه لرأيت من ورائه .

أخرج الترمذى ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير ، حتى يرى مُخُها» . (٨٥)

٥٩ - فَبَأَىءَ الْآلَاءِ رَبُّكُمْ تَكْذِبَانِ .

فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

٦٠ - هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ .

هل يكافأ المتقون الذين فعلوا الطاعات والقربات ، وتركوا المحرمات والمعاصى ، إلا بفسيح الجنات .

قال أبو السعود :

ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى الثواب ، أى أن من قدم المعروف والإحسان استحق الإنعام والإكرام .

٦١ - فَيَأْتِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فيما ذكره الله نعمٌ عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، لذلك عقب بهذا الاستفهام: بأى نعم ربكما تكذبان ، أو تجدان فضل حماية المتقين من النار ، وإدخالهم الجنة والإنعام عليهم بالرحمة والإحسان ؟

اللهم لا يشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

★ ★ ★

وصف آخر للجنة

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ۖ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿١٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ۚ ﴿١٤﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿١٥﴾ فِيْهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ۚ ﴿١٦﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿١٧﴾ فِيْهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۚ ﴿١٨﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿١٩﴾ فِيْهِ خَيْرٌ حَسَانٌ ۚ ﴿٢٠﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿٢١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۚ ﴿٢٢﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿٢٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْفُسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۚ ﴿٢٤﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿٢٥﴾ مُتَكِبِينَ عَلَى رَقَرٍ خَضِرٍ ۚ وَعَبَقَرِي حَسَانٍ ۚ ﴿٢٦﴾ فِيْهَا يَفِيءُ الْآءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ ﴿٢٧﴾ نَبْرًا أَسْمَى ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۚ ﴿٢٨﴾ ۝﴾

المقدرات :

ومن دونهما : ومن رثتهما وأقل منهما .

مدھامتان : خضراوان يسود ، لأن الخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد ، من كثرة الرى بالماء ونحوه .

نضّاختان : فوارتان بالماء ، والنضخ : فوران الماء .

حور : واحدته حوراء ، أى : بيضاء ، قال ابن الأثير : الحوراء هى الشديدة بياض العين ، والشديدة سوادها .

عَبَقَرَات ، بالتشديد ، فخفت كما جاء فى الحديث : «هَيِّنُونَ لَيْثُونَ» .

مقصورات فى الخيام : مخدرات ، يقال : امرأة قصيرة ومقصورة ، أى : مخدرة ملازمة بيتها ، لا تطوف فى الطرق .

قال قيس بن الأسلت :

وتعسل عن جاريتها فيزورها
وتعتل عن إتيانهن فتُغَدِّر

الخيام ، واحدها خيمة ، وهى أربعة أعواد تنصب بشيء من نبات الأرض ، وما يتخذ من شعر أو وير فهو خباء ، وخيام الجنة شبيهة بالخدور ، مصنوعة من الدرّ .

رفـــــرف ، وسائد أو فرش مرتفعة .

عـــــبة ترى ، العجيب النادر الموشى من البسط .

تبارك اسم ربك ، تعالى ، أو كثر خيره وإحسانه ، وتنزه ربنا .

ذى الجلال ، العظمة والاستغناء المطلق .

الإكـــــرام ، الفضل التام والإحسان .

تمهيد :

هذا وصف آخر للجنات ، يشوق الراغبين ويحفّزهم إلى العمل ، لينالوا هذا الفضل العظيم ، وقد بينت الآيات السابقة أن ثواب الخائفين جنتان ، وهنا ذكر أن لهم ثوابا آخر مثله ، وهو جنتان أخريان .

التفسير :

٦٢،٦٣،٦٤،٦٥- وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۖ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۚ مُدْهَمَمَتَانِ ۖ فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

تحكى الآيات نعيماً آخر لصنف آخر أقل درجة من السابقين ، فهاتان الجنتان لأصحاب اليمين ، والجنتان السابقتان للسابقين .

والمعنى :

وهناك جنتان أخريان دون السابقتين فى المرتبة والفضيلة .

وفى الحديث : «جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة أنيتهما وما فيهما » ، فالأوليان للمقربين ، والأخريان لأصحاب اليمين .

فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فبأى نعم ربكما تكذبان ؟

مُدْهَمَمَتَانِ .

خضراوان خضرة شديدة تضرب إلى السواد من شدة خضرتها ، لجودة الأرض وكثرة الرى ، حتى أن لون النهار يتحول إلى سواد يشبه لون الليل المقمر .

قال الشاعر :

يا صاحبيّ تقصّيا نظريكما تريا وجولا الأرض كيف تصوّر
تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الريا فكأنها هو مقمر
فَبَأَىٰ ءَالًاو رُبُكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ريكما تكذبان يا معشر الجن والإنس ؟

٦٦ ، ٦٧ - فِيهِمَا عِتَانِ نَضَاجَتَانِ * فَبَأَىٰ ءَالًاو رُبُكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى هاتين الجنتين عيتان تفوران بالماء ، والنضج كالرش فهو دون الجرى .

قال البراء : العيتان اللتان تجريان خير من النضاجتين .

وقال مجاهد : نضاجتان بالخير والبركة .

فَبَأَىٰ ءَالًاو رُبُكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ريكما تكذبان ؟

٦٨ ، ٦٩ - فِيهِمَا فَلَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُؤْمَانٌ * فَبَأَىٰ ءَالًاو رُبُكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى الجنتين . فَلَكِهَةٌ . وهى ما يتفكّه به ، ويشمل جميع الفواكه ، كالبلح والرمان ، لكنه ذكرهما
للتنبيه على مزيد فضل لهما ، أو أن البلح طعام وفاكهة ، والرمان قاكهة ودواء .

كما قال تعالى : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ... (البقرة : ٢٣٨) .

فنبه على الصلاة الوسطى لمزيد فضلها ، بعد أن ذكر الصلوات الخمس ، والصلاة الوسطى واحدة من
الصلوات الخمس .

فَبَأَىٰ ءَالًاو رُبُكُمَا تُكَذِّبَانِ .

بأى نعم ريكما تكذبان ؟

ونقول : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣- فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَيْتِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه .

روى الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن قوله تعالى : خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ . قال : «خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ ، حَسَانُ الْوُجُوهِ» .

وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن ، وروى أن الحور العين يُغْنَيْنِ : نحن الخيرات الحسان ، خلقنا لأزواج كرام .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ريكما تكذبان ؟

حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْبَيْتِ .

الحور شدة بياض العين مع شدة سوادها ، أى فى هذه الجنات نساء جميلات ، قصرن أنفسهن على أزواجهن ، ملازمات لبيوتهن لا يطفن بالطرق .

روى البخارى ، عن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلا ، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين ، يطوف عليهم المؤمنون» ^(٨٧) .

ورواه مسلم بلفظ : «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهل ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» ^(٨٧) .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ريكما تكذبان ؟

٧٤، ٧٥- أَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَنَّةٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

لم يطمأن إنس ولا جان قبل أزواجهن ، فهن محفوظات لم يختلط بهن أحد قبل أزواجهن .

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعم ريكما تكذبان ، يا معشر الجن والإنس ؟

٧٦- مُتَكِينٌ عَلَى رُقُوفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيُّ حَسَانٍ .

الرُفُوفُ : الوسائد ، أى مستندين على وسائد خضر من وسائد الجنة .

وَعَبَقَرِيُّ حَسَانٍ .

. وطنافس ثخينة مزخرفة ، محلاة بأنواع الصور والزينة .

قال في حاشية الجمل على الجلالين :

وهى نسبة إلى (عبري) قرية بناحية اليمن ، تنسج فيها بسط منقوشة بلغت النهاية فى الحسن ، فقُرِبَ

الله لنا فرش الجنتين بتلك البسط المنقوشة .

وقال ابن كثير :

مُتَكِينٌ عَلَى رُقُوفٍ خُضِرَ ... يعنى : الوسائد ، وقال سعيد بن جبير : الرُفُوفُ : رياض الجنة .

وقوله تعالى : وَعَبَقَرِيُّ حَسَانٍ . هى بسط الجنة .

وقال القيسى : كل ثوب موشى عند العرب عبقرى .

٧٧ - فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .

فبأى نعمة من نعم الله تعالى تكذبان يا معشر الإنس والجن ؟

٧٨ - تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ .

تنزهه وتقدس الله العظيم ، وكثرت خبراته ، وفاضت بركاته .

ذِى الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ .

صاحب العظمة والكبرياء ، والفضل والإنعام .

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «أَلْظُوا بِهَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٨٩) .

أى : الزموا ذكره ، والإلحاح عليه .

وفى صحيح مسلم ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سَلَّمَ لا يَقْعُدُ - تعنى بعد الصلاة - إلا

بقدر ما يقول : «اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٩٠) .

في ختام سورة الرحمن

قال في التسهيل لعلوم التنزيل ما يأتي :

الجنة المذكورتان أولاً للسابقين ، والجنة المذكورتان ثانياً لأصحاب اليمين .

وانظر كيف جعل أوصاف الجنة الأوليين أعلى من أوصاف الجنة اللتين بعدهما ، فقال هناك :

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ .

وقال هنا : فِيهِمَا عَيْنَانِ لَمْ يَخْشَايَا . والجرى أشد من النسخ .

وقال هناك : فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فُلْكِهَةٍ زَوْجَانِ .

وقال هنا : فِيهِمَا فُلْكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . والأول أعم وأشمل .

وقال في وصف الحور هناك : كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ .

وقال هنا : فِيْهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . وليس كل حسن كحسن الياقوت والمرجان ، فالوصف هناك أبلغ

إلخ .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الرحمن

الله تعالى صاحب المنن العظام ، وكل ما نراه في الكون من آثار رحمته ، فهو قد خلق السماء والأرض ، والجنة والنار ، وعذب العاصين ، وأثاب المطيعين ، وآتاهم من فضله ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

دعاء

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم احفظ علينا سمعنا وبصرنا وسائر جوارحنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا .

اللهم أكرمنا بالقرآن العظيم ، وارزقنا تلاوته على النحو الذي يرضيك عنا ، اللهم اجعله لنا دليلاً وإماماً ، وفي القبر مؤنساً ، وعلى الصراط نورا ، وإلى الجنة هادياً ورفيقاً ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام ، وصل اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي ، وعلى آله وصحبه وسلم .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الواقعة

أهداف سورة الواقعة

سورة الواقعة مكية ، وآياتها ٩٦ آية ، نزلت بعد سورة طه

وهي سورة تصف أهوال القيامة ومشاهد الآخرة ، وتؤكد وقوع العذاب للمكذبين ، ووقوع النعيم للمؤمنين .

وفى هذا اليوم تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، فى ظل الهول الذى يبذل القيم غير القيم .

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . (الواقعة : ١ - ٣) .

ثلاثة أصناف

عند وقوع القيامة يرتفع شأن المؤمنين ، وينخفض قدر المكذبين ، وينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف :

السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

السابقون المقربون

وقد فصلت الآيات (١٠ - ٢٦) ما أعد للسابقين فى جنات النعيم ، فهم : عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . (الواقعة : ١٥) . مشبكة بالمعادن الثمينة ، مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ . (الواقعة : ١٦) . فى راحة وخلو بال من الهموم والمشاكل ، ولهم فى الجنة ما يشتهون من المتعة والنعيم والحدود العيون ، وحياتهم كلها سلام : تسلم عليهم الملائكة ، ويسلم بعضهم على بعض ، ويبلغهم السلام من الرحمن .

أصحاب اليمين

تصف الآيات (٢٧ - ٤٠) ما أعد لأصحاب اليمين ، فهم : فى سُبُلٍ مُّخْضَوْدٍ . (الواقعة : ٢٨) . والسدر شجر النبق الشائك ، ولكنه هنا مخضود شوكه ومنزوع ، وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ . (الواقعة : ٢٩) . والطلح شجر الموز ، منضود معد للتداول بلا كد ولا مشقة .

يتمتع أصحاب اليمين بألوان البهجة وصنوف التكريم ، فهم فى حدائق من شجر نبق لا شوك فيه ، وشجر موز منتظم الثمر ، وفى ظل منبسط ، وماء يجرى بين أيديهم كما يشاءون ، ولديهم فاكهة كثيرة الكم والأنواع ، لا تنقطع عنهم ولا يمنعون من تناولها ، وقد أعدت لهم فى الجنة أسرة عالية ظاهرة ، عليها

زوجات طاهرات قد خلقن خلقاً جديداً يتسم بالكمال والجمال ، وأنشئن إنشاءً جديداً من غير ولادة ، وقد خلقن أنبكَارًا . لم يُمسن . عُربًا . متحبيبات إلى أزواجهن . أنثَرَابًا . كلهن فى سن واحدة ، فى ريعان الشباب وطراوة الصبا .

أصحاب الشمال

تصف الآيات (٤١ - ٥٧) ما أعد لأصحاب الشمال ، فهم فى : سُمُورٍ . وهو هواء ساخن ينفذ إلى المسام ويشوى الأجسام . وَحِيمٍ . ماء متناوٍ فى الحرارة ، وَظِلٌّ مِّنْ يَحْمُومٍ . (الواقعة : ٤٣) . ظل من دخان أسود ساخن ، لا بارد كسائر الظلال ، ولا كريم ينتفع به لأنهم كفروا بالله وانغمسوا فى الشهوات ، وأنكروا البعث والجزاء .

آيات القدرة الإلهية

تعرض الآيات (٥٨ - ٧٤) آثار القدرة الإلهية المبدعة ، وتحرك قلوب المشاهدين لينظروا فى أصل خلقتهم ، وفى زرعهم الذى تزاوله أيديهم ، وفى الماء الذى يشربون ، وفى النار التى يوقدون .

وهى طريقة فذة للقرآن حين يلفت نظر الإنسان إلى أبسط مظاهر الحياة ومشاهدها : ليبينى له أضخم عقيدة دينية ، وأوسع تصور كونى . هذه المشاهدات التى تدخل فى تجارب كل إنسان : النسل والزرع والماء والنار ، فأى إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات فى تجاربه ؟

من هذه المشاهدات البسيطة السانجة ، ينشئ القرآن العقيدة لأنه يخاطب كل إنسان فى بيئته .

وهذه المشاهدات البسيطة هى بذاتها أضخم الحقائق الكونية وأعظم الأسرار الربانية .

نشأة الحياة الإنسانية .. وهى سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. معجزة كذلك ، الماء أصل الحياة ، النار المعجزة التى صنعت الحضارة

الإنسانية .

أَفَرَأَيْتُمْ مَا يُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ . (الواقعة : ٥٨ ، ٥٩) .

«إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يُودع الرجل ما يمنى رحم المرأة ثم ينقطع عملها وعملها ، وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها فى هذا الماء المهيّن ، تعمل وحدها فى خلقه وتنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، ومنذ اللحظة الأولى وفى كل لحظة تالية تتم المعجزة وتقع الخارقة التى لا يصنعها إلا الله ، والتى لا يدرك البشر كنهها وطبيعتها ، كما لا يعرفون كيف تقع ، بله أن يشاركوا فيها»^(٩٠) .

الزراعة والماء والنار

يتابع القرآن طرقاته على القلب البشرى ليتأمل ، ويخاطب النفوس الإنسانية ليرشدها إلى مواطن القدرة فيما بين يديها .

فهذا الزرع الذى ينبت ويؤتى ثماره .. ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرقون ويلقون الحب والبذور التى صنعها الله .. ثم تصير الحبة فى طريقها للنمو سير العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق ، الذى لا يخطئ ولا يضل .

إن يد القدرة التى تتولى خطاها على طول الطريق ، فإذا الحبة عود أخضر ناضر ، وإذا النواة نخلة كاملة سامقة مثمرة .

ويتابع القرآن لمساقته لاستثارة التفكير والتأمل ، فيناقش المخاطبين :

أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . (الواقعة : ٦٨ ، ٦٩) .

أى : أخبرونى أيها المنكرون الجاحدون عن الماء العذب الذى تشربونه ، هل فكرتم وتدبرتم من الذى صعدته من البحار والمحيطات ، وجعله بخاراً ثم سحباً متراكماً ، ثم صيره ماء عذباً فارتأ ؟

ولو شاء الله لجعل ذلك الماء ملحاً مرّاً لا يُحىي الزرع ولا الضرع . ولا يُستساغ لمرارته ، فهلا تشكرون ربكم على إنزال المطر عذباً زلالاً سائغاً لشرابكم أنتم وأنعامكم وزرعكم .

ثم يذكرهم بنعمة النار التى يوقدونها ، من الذى أنبت شجرتها الخضراء من الأرض ، وأودع فى الشجرة العناصر الأولية القابلة للاشتعال ، لقد جعل الله النار فى الدنيا تذكرة للناس بنار الآخرة ، وَمَتَلَعَا لِلْمُفْرِقِينَ . (الواقعة : ٧٣) . أى : للمسافرين . فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) . أى : زده الله وانسب إليه العظمة والقدرة والخلق والإبداع ، فهو الإله العلى القدير .

مواقع النجوم

وفى الآيات (٧٥ - ٨٠) تلمس سمو القرآن وطهارته وعلو شأنه ومنزلته .

وقد مهدت الآيات ببيان آثار القدرة فى خلق النجوم وتحديد أماكنها وتنظيم سيرها ، بحيث لا يصطدم نجم بآخر .

قال تعالى : فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . (الواقعة : ٧٥ - ٧٧) .

«ويقول الفلكيون : إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه ، هذه كلها تسبح فى الفلك الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم من مجال نجم آخر أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب فى البحر الأبيض المتوسط بآخر فى المحيط الهادى يسيران فى اتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد وبعيد جداً ، إن لم يكن مستحيلاً»^(٨١) .

إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ .

وليس كما تدعون قول كاهن ولا قول مجنون ولا مفتري على الله من أساطير الأولين ، ولا تنزلت به الشياطين .. إلى آخر هذه الأقاويل ، إنما هو قرآن كريم ، كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته ، كريم على الله ، كريم على الملائكة ، كريم على المؤمنين .

لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . (الواقعة : ٧٩) . من دنس الشرك والنفاق ، ودنس الفواحش ، أى : لا تصل أنوار القرآن وبركاته وهدايته إلا إلى القلوب الطاهرة .

وروى عن على رضى الله عنه ، وابن مسعود ، ومالك ، والشافعى ، أن المعنى : لا يمسه من كان على جنابة أو حدث أو حيض .

وروى عن ابن عباس ، والشعبى ، وجماعة منهم أبو حنيفة : أن المصحف أو بعضه يجوز للمحدث مسه ، وبخاصة للدرس والتعليم^(٨٢) .

نهاية الحياة

فى الآيات (٨١ - ٩٦) نجد الإيقاع الأخير فى السورة .. لحظة الموت ، اللمسة التى ترتجف لها الأوصال ، واللحظة التى تنهى كل جدال ، واللحظة التى يقف فيها الحى بين نهاية طريق وبداية طريق ، حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص : فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ وَأَنْتُمْ حَبِيْبٌ تَنْظُرُونَ . (الواقعة : ٨٣ ، ٨٤) .

وإننا لنكاد نسمع صوت الحشرجة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله تعالى : فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ، كما نكاد نبصر نظرة العجز وذهول اليأس فى ملامح الحاضرين من خلال قوله تعالى : وَأَنْتُمْ حَبِيْبٌ تَنْظُرُونَ . هنا فى هذه اللحظة وقد فرغت الروح من أمر الدنيا ، وخلفت وراءها الأرض وما فيها ، وهى تستقبل عالماً لا عهد لها به ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما ادخرت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر .

فإن كان الميت المحتضر من السابقين في الإيمان فروحه ترى علائم النعيم الذي ينتظرها : فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . (الواقعة : ٨٩) .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ . (الواقعة : ٩٠) . وهم دون المقربين السابقين في المنزل والدرجة ، فإن الملائكة تبليغه السلام من الله ومن الملائكة ومن أقرانه أصحاب اليمين .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . (الواقعة : ٩٢) . فنزله عندنا ذلك الحميم الساخن والماء الحار وعذاب الجحيم .

ثم تختم السورة في إيقاع عميق رزين ، يفيد أن ما قصه الله في هذه السورة حق ثابت ، ويقين صادق لا شك فيه .

إِنْ هَذَا إِلَّا نَهْوٌ حَقٌّ لِلْيَقِينِ . (الواقعة : ٩٥) . فاتجه لله بالتسبيح والتعظيم . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الواقعة : ٩٦) .

الأفكار العامة للسورة

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود السورة هو : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالإضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرقى في بحر الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار وما في ضمنهما من النعمة والمنة ، ومس المصحف وقراءته في حالة 'لطهارة' ، وحال المتوفى في ساعة السكره ، وذكر قوم بالبشارة وقوم بالخسارة ، والشهادة للحق سبحانه بالكبرياء والعظمة^(٩٦) بقوله : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) وقوله : أَقْرَعْتُمْ مَا تُمْنُونَ . (الواقعة : ٥٨) وقوله : أَقْرَعْتُمْ مَا تُحْرُوتُونَ . (الواقعة : ٦٣) .

بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه وهو الحب الذي منه قوته وقوته ، ثم الماء الذي منه سوغه وعجنه ، ثم النار التي بها نضجه وصلاحه^(٩٧)

فضل السورة

عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا»^(٩٨) .

قيام القيامة ، وأصناف الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعِهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ⑧ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ⑨ وَالسَّيِّئُونَ ⑩ وَالسَّيِّئُونَ ⑪ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ⑫ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ⑬ ﴾

المضردات :

وقعت الواقعة ، حدثت وقامت القيامة .

ليس لوقعها كاذبة ، لا تكون نفس مكذبة لوقعها يوم القيامة .

خافضة رافعة ، خافضة لأقوام ، رافعة لآخرين .

رُجَّتْ ، زُلزِلت ، وحُرِّكت تحريكاً شديداً ، بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل .

بُسَّتْ ، فُتَّتْ فتفتتاً شديداً ، وصارت كالسويق الملتوت ، من قولهم : بس فلان السويق ، أى : لثته .
هَبَاءً مُنْبَثًا ، غباراً متفرقاً .

أَزْوَاجًا ، أصنافاً وأنواعاً ، أو فرقاً .

الْمَيْمَنَةِ ، ناحية اليمين ، والمراد : أصحاب المرتبة السنية رفيعة القدر .

الْمَشْأَمَةِ ، ناحية الشمال ، والمراد : أصحاب النار .

السَّابِقُونَ ، هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا .

الْمُقَرَّبُونَ ، أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم .

تمهيد :

تحدث سورة الواقعة عن القيامة وأهلها ، وتصف ذلك اليوم الرهيب الذى تُرْجى فيه الأرض وتزلزل ،

وتُبْسُ الجبال وتصبح تراباً منتوراً ، هباءً منبثاً ، وينقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

أهل اليمين : وهؤلاء أصحاب الجنة ، وأهل الشمال : وهؤلاء أصحاب النار ، والسابقون : وهم السابقون من كل أمة إلى الصلاة والجهاد وسائر الخيرات ، ومن السابقين الأنبياء والصالحون والمجاهدون .
وتبين السورة عجائب قدرة الله في خلق الإنسان ، وإنبات النبات ، وتيسير السحاب ونزول المطر ، وتيسير النار للاستفادة بها في الإقامة والأسفار .

وفي آخر السورة نجد قسمًا بمواقع النجوم ، على أن القرآن كلام الله ، واستحضار مشاهد الاحتضار ، وبلوغ الروح الخلقوم ، ثم جزاء أصحاب اليمين بالجنة ، وأصحاب الشمال بالنار ، والسابقين المقربين بالمنازل العالية في الجنة .

التفسير :

١، ٢- إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْفِئِهَا كَاذِبَةٌ .

تفتتح السورة هذا الافتتاح الرهيب الذي يعبر عن هول القيامة ، وتسمى الواقعة لتحقق وقوعها لا محالة ، كما قال سبحانه وتعالى : **فَيُؤْمِلُ وَوَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ** . (الحاقة : ١٥) .

ومن أسماء القيامة : القارعة ، والحاقة ، والآفة ، والصاخة ، والساعة ، وكلها تتلاقى على أن في هذا اليوم هولاً عظيماً .

فهى تسمى (القيامة) لأن الناس تقوم من القبور للحساب : **يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** . (المطففين : ٦) .
وتسمى (الحاقة) لأن مجيئها حق مؤكد .

وتسمى (الآفة) لأن مجيئها قريب آرف .

قال تعالى : **وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا** . (الإسراء : ٥١) .

وقال تعالى : **أَزَلَّتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ** . (النجم : ٥٧ ، ٥٨) .

وتسمى (الصاخة) لأنها تصخ الأذان بأموالها ، والصاخة نوع من العذاب ، أو مقدمة للعذاب ، وكذلك القيامة بالنسبة للكافرين .

وفي القيامة أصناف تظل في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، وهناك الآمنون المطمئنون يوم الفرع الأكبر ، لا يخافون إذا خاف الناس ، بل هم آمنون مطمئنون لفضل الله الكريم ، وجزائه العظيم .

وقد حذف الجواب لتذهب النفس في تصوّره كل مذهب ، أو أن الجواب معروف مما ذكر بعد ذلك ، من قوله تعالى : **خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ** .

والمعنى :

إذا قامت القيامة وقعت الواقعة الكبرى ، فذلك حق لا شك فيه ولا مراء ، ولا توجد نفس كاذبة منكرة لها ، كما كان ذلك فى الدنيا ، بل هو اليقين بأن وعد الله قد تحقق وتأيّد .

٣ - خَالِصَةُ الرَّافِعَةِ .

تخفف أقواماً وترفع آخرين ، فالكافرون والمجرمون ، والعصاة والظالمون ، وأهل الباطل والعلوفى الأرض بغير الحق ، وأمتالهم ، يخفف الله أقدارهم ، حيث يدخلهم جهنم ، فيجدون فيها المذلة والمهانة ، وألوان العذاب .

أما المؤمنون والسابقون ، والمجاهدون والصالحون ، فيرفع الله أقدارهم ، ويدخلهم الجنة .

وقيل : خَالِصَةُ الرَّافِعَةِ . أى : تزلزل الأشياء ، وتزيلها من أماكنها ، فتنشق السماء ، وتتناثر الكواكب ، وتسير الجبال فتمتر فى الجو موال السحاب ، كما قال سبحانه فى شأن قوم لوط : جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا ... (هود : ٨٢) .
والخلاصة : أن الرفع والخفض إما معنوياً وإما حسيّاً .

٤ - إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا .

وهذا أيضاً يمثل أهوال القيامة ، حيث تضطرب الأرض وتتحرك حركة شديدة .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . (الزلزلة : ١ - ٣) .
ففى يوم القيامة تنشق الأرض ، وتخرج ما فى جوفها .

٥ - وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا .

تفتقت الجبال وصارت قطعاً متكسرة ، ومنه قولهم : بسّ فلان السوق ، إذا فثته ولثته وهياه للأكل .

٦ - فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا .

أى : صارت غباراً منتشرة فى الجو ، كالهباء الذى يطير من النار ، أو الذى ذرّته الريح ويثته .

وقد ورد فى القرآن أن الجبال تُقتلع من أماكنها ، وتُسَير وتُصير كالعهن المنفوش ، أى الصوف الهش الخفيف الذى هو أقرب إلى الهباء المتناثر .

قال تعالى : يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِلًا . (المزمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : **وَسَيَرَتِ الْجِبَالُ كَكَانَتْ سَرَابًا** . (النبا : ٢٠) .

قال ابن كثير :

وهذه الآية كأخواتها ، دالة على زوال الجبال من أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، أى قلعها . ا هـ .

وكل هذه الآيات تصف أهوال القيامة ، وتطرق القلوب حتى تلين وتخضع ، وتسارع إلى العمل الصالح الذى يرفع أقدار المتقين ، وتتجنب العمل الطالح الذى يخفض أقدار العاصين لرب العالمين .

٧ - **وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً** .

ينقسم الأولون والآخرين إلى ثلاث فرق ، أو أصناف أو أزواج متشابهة :

الفرقة الأولى : أهل اليمين : وهم أغلب أهل الجنة ، وهم عن يمين عرش الرحمن .

الفرقة الثانية : أهل الشمال : وهم أهل النار .

الفرقة الثالثة : أهل السبق والمسارة إلى امتثال أمر الله : وهم أهل الدرجات العلى فى الجنة .

قال ميمون بن مهران : اثنان فى الجنة ، وواحد فى النار .

ثم فصلهم القرآن فقال :

٨ - **فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** .

أصحاب اليمين ، هل علمت شأنهم وسرورهم وفوزهم ؟ فالاستفهام فى قوله : **مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ** يراد به التفضيم والتعظيم والتعجب من حالهم ، فهم عن يمين العرش ، أو هم من أخذوا كتابهم باليمين أو هم أهل اليُسْرِ والفوز لأنهم أدوا حق الله عليهم ، ففازوا بالجنة والرضوان يوم الفزع الأكبر .

٩ - **وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** .

وأصحاب الشمال الذين أخذوا كتابهم بالشمال ، ما أهول عذابهم ، وما أقبح مصيرهم ، وما أقطع مآلهم .
وجملة : **مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ** . استفهام يراد به التهويل والتعجب من ألوان العذاب التى وضعا أنفسهم فيها .

وقريب من ذلك قوله تعالى : **الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ** . (الحاقة : ١ ، ٢) . وقوله تعالى : **الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ** . (القارعة : ١ ، ٢) .

قال الآلوسی :

والمقصود التفضيم في الأول ، والتفطيع في الثاني ، وتعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفضاعة ، كأنه قيل : فأصحاب الميمنة في غاية حسن الحال ، وأصحاب المشأمة في غاية سوء الحال .

١٠ - وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ .

هذا هو الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة ، ولعل تأخيرهم في الذكر - مع أنهم أسبق في الفضل - ليتبع ذكرهم بالحديث عن جزائهم .

(أ) قيل : هم أتباع الرسل الذين سبقوا إلى الإيمان بالله وطاعة رسله بدون تلثم .

(ب) وقيل : هم السابقون إلى الهجرة والصلوات والجهاد ، أو هم أهل القرآن .

(ج) وقيل : هم «الذين إذا أعطوا الحق قبلوه ، وإذا سُئِلُوهُ بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» ، كما ورد ذلك في وصفهم عن النبي ﷺ .

(د) وقيل : هم المسارعون إلى كل ما دعا الله إليه .

قال ابن كثير :

وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين : هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا ، كما

قال تعالى : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ ... (آل عمران : ١٣٣) .

وقال تعالى : سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... (الحديد : ٢١) .

فمن سابق في هذه الدنيا وسبق إلى الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تदान . ١ هـ (١٣٦) .

١١ - أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ .

هؤلاء السابقون هم المقربون إلى الله تعالى ، وهم في قربه ومعيته ، ورضوانه وفضله ورعايته ، أو الذين قُرِبَتْ إلى العرش العظيم درجاتهم .

١٢ - فِي جَنَّاتٍ الْيُسْبَىٰ .

أي : هم في جنات الخلد يتنعمون فيها ، أي أن لهم فضلاً ونعيماً معنوياً يقربهم من الله ، وهذه منزلة سامية عليا ، ولهم نعيم حسّي بتمتعهم بجنات النعيم .

من تفسير ابن كثير

قال ابن أبي حاتم : قالت الملائكة : يا رب جعلت لبنى آدم الدنيا ، فهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ، فاجعل لنا الآخرة ، فقال : لا أفعل ، فراجعوا ثلاثاً ، فقال : لا أجعل من خلقت بيدي كمن قلت له كُن فكان ، ثم قرأ عبد الله : **وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۗ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ** .

رواه ابن أبي حاتم ، عن عبد الله بن عمرو موقوفاً .

من التفسير المنير

يكون الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف :

أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، والسابقون .

أصحاب اليمين : هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، ويعطون كتبهم بأيمانهم .

وأصحاب المشأمة : هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، ويعطون كتبهم بشمائلهم .

والسابقون : وهم الأنبياء والمرسلون ، والمجاهدون والحكام العدول ، الذين سبقوا إلى الإيمان

والطاعة ، والجهاد والتوبة ، والقضاء بالحق ، وهم المقربون بين يدي الله تعالى ^(٨٧) .

وهذه القسمة كقوله تعالى : **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ...** (فاطر : ٣٢) .

★ ★ ★

صفة نعيم السابقين

﴿ **ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۚ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۚ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۖ** ^(١٥) **مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ** ^(١٦) **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۚ** ^(١٧) **يَا كُوفٍ وَابَارِيقٍ وَكَأْسٌ مِنْ مَّعِينٍ ۚ** ^(١٨) **لَّا يَصْطَعُونَ فِيهَا لَأَبَظُفُونَ ۚ** ^(١٩) **وَفَكَهَةٌ مِّمَّا يَخَيْرُوهُ ۚ** ^(٢٠) **وَلَحْوَ طَيِّبٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۚ** ^(٢١) **وَحُورٌ عِينٌ ۚ** ^(٢٢) **كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الَّتِي كُنْتُمْ ۚ** ^(٢٣) **جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ** ^(٢٤) **لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۚ** ^(٢٥) **إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ۚ** ^(٢٦) ﴿

المضردات :

————— : الثلاثة الجماعة قلت أو كثرت ، وقال الزمخشري : هم أمة من الناس كثيرة .

الأوليين : الأمم الماضية قبل الرسول ﷺ ، أو الأولين من صدر أمة محمد ﷺ .

الآخرين : أمة محمد ﷺ ، أو المتأخرين منهم .

موضونة : من الوضن وهو النسج ، أى : منسوجة بالذهب بإحكام .

يخطوف عليهم : يدور عليهم للخدمة .

الولدان : الصبيان ، جمع ولد .

مخاضون : باقون على صفتهم ، لا يهرمون كأولاد الدنيا .

أكــــــــــــــــواب : آنية لا عرى لها ولا خراطيم .

أبــــــــــــــــاريق : واحدها إبريق ، وهو إناء له عروة (مقبض يمسك منه) وخرطوم .

قال عدى بن الرقاع :

وَدَعَوْا بالصُّبُوحَ يَوْمًا فَجَاءَتْ بِهِ قَيْنَةٌ فِى يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

كأس من معين ، خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا .

لا يصدعون عنها : لا يحصل لهم صداغ بسببها ، كما يحدث ذلك من خمر الدنيا .

ولا ينزفون : لا تذهب عقولهم بسببها .

وحور عين : ونساء بيض ، واسعات الأعين حسانها .

اللولؤ المكنون : اللؤلؤ المستور المصون فى صدفه .

لففوا : فاحشاً أو ساقطاً من القول .

تأثيما : حديثاً قبيحاً يائثم قائله .

تمهيد :

تحدث الآيات عن النعيم الذى يتمتع به السابقون ، وأهم نعيم هو القرب من الله جل جلاله ، وتفضيل ذلك فيما أعده لهم فى الجنة من الأسرة والولدان والطعام والشراب والنساء ، والأحاديث الخالية من اللغو والفحش والإثم ، مع إفشاء السلام بينهم .

التفسير :

١٣ ، ١٤ - ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَكَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

إن السابقين المقربين إلى الله هم جماعة كثيرة من السابقين من الأمم ، من عهد آدم إلى محمد ﷺ ، الذين اتبعوا أنبياءهم واقتربوا منهم ، وجاهدوا فى سبيل تبليغ دعوتهم ، أو الأنبياء ومن سارع إلى تصديقهم والجهاد معهم .

وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ .

أى : المؤمنون السابقون من أمة محمد ﷺ قليل بالنسبة لمن سبق من الأمم ، وذلك لكثرة الأمم التى سبقت أمة الإسلام .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ... (الإسراء : ١٧) .

لقد أرسلنا عدداً كبيراً من الرسل من بعد نوح ، منهم من قصصنا عليك يا محمد ، ومنهم من لم نقصص عليك .

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبرى هذا رأى ، ولكن الإمام ابن كثير رأى أن هذا رأى ضعيف .

ثم قال ابن كثير :

لأن هذه الأمة الإسلامية هى خير الأمم بنص القرآن ، فالقول الراجح أن يكون المراد بقوله تعالى ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . أى : من صدر الأمة الإسلامية ، والمراد بقوله تعالى : وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . أى : من هذه الأمة .

روى عن الحسن أنه قرأ هذه الآية : وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ .

فقال : أمّا السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين .

وعن محمد بن سيرين أنه قال فى هذه الآية : ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ . قال : كانوا يقولون أو يرجون أن يكونوا كلهم من هذه الأمة ، فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة ^(٩٨) .

وقد ثبت فى الصحاح أن رسول الله ﷺ قال : «خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» ^(٩٩) (الخرجه الشيخان) .

وقال ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة» . وفى لفظ : «حتى يأتى أمر الله تعالى وهم كذلك» ^(١٠٠) .

ورأى بعض المفسرين أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها .

وجاء فى حاشية الجمل :

وعبارة الخازن : وذلك لأن الذين عاينوا جميع الأنبياء وصدّقوهم من الأمم الماضية ، أكثر من الذين عاينوا النبى ﷺ وآمنوا به . اهـ .

١٥، ١٦ - عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَكِينِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ .

من نعيم السابقين أنهم يستقرون فى الجنة ، حال كونهم على أسرة منسوجة بخيوط الذهب ، مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد ، مستقرين على السرر متكئين عليها ، متقابلين مواجهة لا يرى بعضهم قفا بعض ، فهم فى نعيم وسرور ، وصفاء وجور ، لا يملون ولا يكسلون ، ولا يتخاصمون ولا يتشاحنون .

١٧، ١٨، ١٩ - يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخْلَدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ .

يطوف على السابقين المقربين من أهل الجنة ولدان يخدمونهم فى غضاضة الصبا ، لا يشيبون ولا يهرمون ، بل هم باقون على طراوة الصبابة ، لا يتحولون عن ذلك ، وإلا فكل أهل الجنة مخلد لا يموت ، تحمل هذه الصبابة فى يديها أقداحاً مستديرة الأفواه ، لا أذان لها ، ولا عرى ولا خراطيم ، وأباريق ذات عرى وخراطيم ، ويحملون كؤوساً مترعة من خمر الجنة الجارية من الينابيع والعيون ، ولا تعصر عصراً كخمر الدنيا ، فهى صافية نقيّة ، لا تتصدع رؤوسهم من شربها ، ولا يسكرون منها فتذهب عقولهم .

قال ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر ، والصداق ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهاها عن هذه الخصال . ١ هـ .

فخمر الجنة لذة بلا ألم ولا سكر ، بخلاف شراب الدنيا .

وقوله تعالى : لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ... لبيان نفى الضرر عن الأجسام .

وقوله تعالى : وَلَا يُنْزَفُونَ . لبيان نفى الضرر عن العقول .

٢٠، ٢١ - وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَهُونَ .

يجدون فى الجنة طائفة من الفواكه ، يتخيرون منها ما يعجبهم أو ما يفضلونه عن غيره ، فهم يختارون ويتخيرون أحسن الفواكه .

قال ابن كثير :

وفيه دليل على جواز تخير الفاكهة فى الدنيا وانتقاء الأنسب .

وَلَكُمْ فِيهَا مِمَّا يَشْتَهُونَ . يجدون فى الجنة لحوم الطير التى يشتهونها ، وهذا التقديم من الولدان المخلدين لمزيد التكريم للسابقين المقربين ، وإلا فقد جاء فى الأحاديث والآثار أن فاكهة الجنة ينالها القائم

والقاعد والنائم ، وأن الغصون تقترب من أهل الجنة ليقطفوا منها ما يشاءون ، قال تعالى : **فُطِرُهَا ذَاتِيَّةٌ** .
(الحاقة : ٢٢) . والرجل من أهل الجنة إذا اشتهى الطير وقع الطير أمامه مشوياً ، والتقديم لمزيد من التكريم .

وتقديم الفاكهة على اللحم لأن أكلهم للتفكّك والتلذذ ، لا للجوع كحال أهل الدنيا ، فإن حاجة الجائع في الدنيا إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة .

قال في التفسير المنير : والحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم أنها اللطيف ، وأسرع اندحاراً ، وأيسر هضمًا ، وأصح طبياً ، وأكثر تحريكاً لشهوة الأكل ، وتهيئة النفس للطعام . ا هـ .

٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ - **وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَلِ الثَّوَالِيهِ الْمَكُونُونَ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** .

ولهم في الجنة حُورٌ بيض . عِينٌ . مع شدة سواد العين وشدة بياضها ، وواسعات الأعين حسانها ، مثل أنواع الآلاتي المكنونة المحفوظة في صدفاتها للمحافظة على صفاء لونها ، وبهجتها وبياضها .

قال تعالى في آية أخرى : **كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مُكْنُونٌ** . (الصفات : ٤٩) .

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إن هذا النعيم المعنوي الذي يتحقق بقرّبهم من ربهم ، والنعيم الحسيّ الذي يتحقق بالنعيم في الجنة والأسرة والولدان ، والأكواب والأباريق والخمر ، والفاكهة ولحم الطير ، والحدود العين المحفوظة لهم ، هذا النعيم المتنوع في التكريم هو الجزاء الحسن على أعمال صالحة قدّموها في الدنيا ، كما قال تعالى : **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ** . (الرحمن : ٦٠) .

٢٥ ، ٢٦ - **لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْلِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا** .

إنهم يعيشون في وسط اجتماعي نظيف ، فليس في أحاديث أهل الجنة ، لغو . باطل . ولا تأليم . ولا أحاديث تؤدى إلى ارتكاب الإثم والكذب ، هم ذاكرون لله تمتعاً وأنساً به ، ليس في أحاديثهم ما لا فائدة فيه من اللغو ، وليس في أحاديثهم الكذب أو الغيبة أو النميمة أو أى باطل من الكلام .

إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا .

أى : إلا أنهم يسمعون على بعض ، أو يرددون السلام على الآخرين ، فالملائكة تسلم عليهم ، والله تعالى يحييهم بالسلام ، وهم يحيون بعضهم بالسلام ، فأنعم بها من حياة ، فيها السلام والأمان ، والتحية والإكرام .

قال تعالى: تَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا . (الأحزاب : ٤٤) .

وقال سبحانه وتعالى : وَالْمَلَكُ يُدْخِلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّي الدَّارِ .

(الرعد : ٢٣ ، ٢٤)

اللهم اجعلنا مع السابقين المقربين ، واجعلنا معهم في عليين ، اللهم الطف بنا واهدنا وأرضنا وأغننا ووفقنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، اللهم عافنا وعاف عنا ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، اللهم ارزقنا الفردوس الأعلى في الجنة ، تفضلاً منك ونعمة ، وعطفاً منك وفضلاً ، فإنك أنت الغفور الرحيم ، المليك المقدر ، آمين .

★ ★ ★

أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفُكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنِشَاءً ﴿٣٥﴾ جَعَلْنَاهُمْ أَتْبَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

المضردات :

السـدـر : شجر الذبق .

مـخـضـود : خضد شوكه ، أى قطع .

الطـالـح : شجر الموز .

مـنـضـود : مرصوص بعضه فوق بعض ، فليست له سوق بارزة .

وظـل مـمـدود : وظل ممتد دائم ، لا يتقلص ولا يتفاوت .

مـسـكـوب : يسكب لهم كما يشاءون ، بلا نصب ولا تعب .

فـُرْش : واحدها فراش ، كسرج وسراج .

مـرفـوعـة : عالية منضدة .

عـرـبـيـا : واحدها عرب كصبور ، وهى حسنة التودد لزوجها .

أعرابيا ، متساويات في السن .

ثلاثة من الأولين ، جماعة كثيرة من سابقى هذه الأمة .

وثلاثة من الآخرين ، وجماعة كثيرة من متأخريها .

تمهيد :

لما بين الله حال السابقين المقربين ، وأنواع نعيمهم ، شرع في بيان أصحاب اليمين ، وعدّد أوصاف نعيمهم ، من فواكه وظلال ومياه وفُرش ، ونساء حسان عذارى في سن واحدة .

التفسير :

٢٧ - وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ .

يبدأ الحديث هنا عن أصحاب اليمين ، وهم من أهل الجنة ممن يأخذون كتابهم باليمين ، ومع ذلك فما أعظم حالهم ، وما أكرم مآلهم ، والاستفهام للتحويل والتفخيم .

والمعنى : وأصحاب اليمين لا يعلم أحد جزاءهم ولا ثوابهم ، إنه شيء عظيم .

٢٨ - فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ .

وهو النَّبَقُ الذي لا شوك فيه .

رَوَى أَنَّ أعرابياً قال للنبي ﷺ : يا رسول الله ، لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، قال : « وما هي » ؟ ، قال : السَّدر ، فإن له شوكا . قال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة » .

٢٩ - وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ .

وشجر موز قد نُضدَّ حملُه من أسفله إلى أعلاه ، أى متراكب ، قد رُصَّ بعضُه فوق بعض ، ليست له ساق بارزة .

قال تعالى : وَأَلْتَخِلُّهَا بِأَسْفَلِهَا فَلَهُنَّ طَلْعٌ نَّضِيدٌ . (ق : ١٠) .

أى : منظم مرصوص بعضه فوق بعض .

٣٠ - وَظِلٍّ مُّمْدُودٍ .

أهل الجنة في ظل دائم ممتد ، لا يتقلص ولا يتفاوت ولا يذهب ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وظاهر الآثار أنَّه ظل أشجار الجنة الممتد مسافات بعيدة .

أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، وذلك الظل الممدود» .

قال ابن مسعود : الجنة سجاج ، (أى : لا حر ولا برد) ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقال فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

ومعنى مَنُود . أى : لا زوال له ، فهو دائم .

قال تعالى : أَكُلُوا ذَاتَهُمْ وَظِلُّهَا ... (الرعد : ٣٥) . أى : وظلها دائم ، والظل ليس ظل الأشجار ، بل ظل يخلقه الله تعالى . اهـ .

قال تعالى : وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (النساء : ٥٧) .

وقال تعالى : فَبِى ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ . (المرسلات : ٤١) . إلى غير ذلك من الآيات .

٣١ - وَمَاءٌ مَّسْكُوبٌ .

ماء يجرى حيث شاءوا ، لا يحتاج إلى نهر يجرى فيه ، ولا أخدود يمنعها ، بل هو يجرى بالقدرة الإلهية حتى تقر به عيون أهل الجنة .

قال القرطبى :

كانت العرب أصحاب بادية ، والأنهار فى بلادهم عزيزة ، لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء ، فوعدوا فى الجنة بأسباب النزهة ، وهى الأشجار وظلالها ، والمياه والأنهار وجريانها . اهـ .

٣٢ ، ٣٣ - وَلَكِنَّهَا كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

فاكهة كثيرة متنوعة ، لا تنقطع عنهم أبداً ، كما تنقطع فاكهة الصيف فى الشتاء .

وَلَا مَمْنُوعَةٍ . لا يحتاج المؤمن إلى دفع ثمن لها ، أو لا يُمنع منها بشوك ولا بُعد ولا حائط ، بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها .

قال تعالى : وَذَلَّلْتُ فَطُوفُهَا تَبْلِيلًا . (الإنسان : ١٤) .

قال ابن كثير فى تفسير الآيتين ما يأتى :

وَلَكِنَّهَا كَثِيرَةٌ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِه مُتَشَبِهًا ...**

(البقرة : ٢٥)

أى : يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم .

وفى الصحيحين فى ذكر سدره المنتهى : «فإذا ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها مثل قلال حجر» .

لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ .

أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفا ، بل أكلها دائم مستمر أبدا ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدره الله شىء .

وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بُد ، وفى الحديث : «إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى» (أخرجه الطبرانى) . ١ هـ .

٣٤ - وَفُرُشٌ مَرْفُوعَةٍ .

أى : فراش ناعم مرفوع فوق أسرة ، أو فرش رفيعة القدر ، على أن رفعها معنوى بمعنى شرقها .

وقال أبو عبيدة : المراد بالفُرُش النساء ، لأن المرأة يكنى عنها بالفراش ، كما يكنى عنها باللباس ، ورفعهن فى الأقدار والمنزلة ، وقيل على الأرائك .

وأخرج النسائى ، والترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام»^(١٠١) .

قال الآلوسى : ولا تستبعد هذا من حيث العروج والنزول ، فالعالم عالم آخر ، فوق طور عقلك . ١ هـ .

«تتخفّض للمؤمن إذا أراد الجلوس عليها ، ثم ترتفع به ، والله على كل شىء قدير»^(١٠٢) .

٣٥ - إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنِشَاءً .

أعدنا إنشاءهن من غير ولادة ، وفى الحديث الشريف : «إن المنشآت اللاتى كنّ فى الدنيا عجائز عمشاً ونحساً ، خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى غريباً ، متعشقات محببات ، أتراباً على ميلاد واحد» (رواه الطبرانى) .

قال فى التسهيل : ومعنى إنشاء النساء ، أن الله تعالى يخلقهن فى الجنة خلقاً آخر فى غاية الحسن ، بخلاف الدنيا ، فالعجوز ترجع شابة ، والقبiche ترجع جميلة . ١ هـ .

وقال ابن عباس : يعنى آدميات العجائز الشمط ، خلقهن الله بعد الكبر والهزم خلقاً آخر .

وقال أبو حيان : الظاهر أن الإنشاء هو الاختراع الذى لم يُسبق بخلق ، ويكون ذلك مخصوصاً بالحوور العين .

فالمعنى : إنا ابتدأناهن ابتداءً جديداً من غير ولادة ولا خلق أول .

والخلاصة : أن لعلماء التفسير رأيين فى معنى : **إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِّشَاءً** .

الأول : هن نساء الدنيا ، يُعيد الله إليهن الشباب والجمال والنضارة .

الثانى : هن اللاتى ابتدئ إنشاءهن ، وهن الحور العين .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة كثيرة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير قوله تعالى : **إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِّشَاءً** .

٣٦ - **فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا** .

فجعلناهن عذارى ، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً .

٣٧ - **عُرُبًا أَتْرَابًا** .

عُرُبًا . جمع عروب وهى المتحبة لزوجها ، العاشقة له .

قال مجاهد : هن العاشقات لأزواجهن ، المتحبيات لهم ، اللواتى يشتهين أزواجهن .

أَتْرَابًا . أى : مستويات فى السن مع أزواجهن ، فى سن ثلاث وثلاثين سنة .

أخرج الترمذى ، عن معاذ مرفوعاً : «يدخل أهل الجنة الجنة جرّداً مرّداً ، مُحْكَلِينَ ، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين» . والمراد بذلك تمام الشباب وكماله .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سألت النبى ﷺ عن قوله تعالى : **إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِّشَاءً * فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا** . فقال : «يا أم سلمة ، هن اللواتى قبضن فى الدنيا عجائز ، شمطاً ، عُمساً ، رُمصاً ، جعلهن الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد فى الاستواء» . أخرجه الترمذى عن أنس مرفوعاً .

وأخرج الترمذى فى الشمائل أن امرأة عجوزاً جاءت إلى النبى ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلنى الجنة ، فقال : «يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز» ، فولّت تبكى ، فقال : «أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز ، فإن الله تعالى يقول : **إِنَّا أَنْشَأْنَهُنَّ إِنِّشَاءً * فَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا** .

وقيل: أنزلنا. أى: مستويات فى حُسْن الخُلُق ، وكريم الطباع ، لا تباغض بينهم ولا تحاسد ، يألفن ويؤلفن .

٣٨ - لَا غَلَبَ لِلْيَمِينِ .

أى: أنشأنا هؤلاء النساء الأبيكار لأصحاب اليمين ، ليستمتعوا بهن فى الجنة .

٣٩ ، ٤٠ - ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .

أى: أصحاب اليمين جماعة كبيرة من الأمم السابقة ، وجماعة كبيرة من المتأخرين ، من أمة محمد ﷺ .

وقيل: المراد أمة محمد ﷺ ، والمعنى: جماعة من الأولين من أمة محمد ﷺ ، وجماعة من الآخرين من أمة محمد ﷺ .

أخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «هم جميعا من أمتى» .

★ ★ ★

عذاب أصحاب الشمال

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا الْمُبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَا بَابُنَا أَلَا وَكُنَّا قُلُوبًا ﴿٤٨﴾ أَوَّلَئِكَ الْآخِرِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَاهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كُفْلَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْإِبْطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنْ لَعِيمٍ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزُّهُم يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

المفردات :

السموم : حر نارٍ ينفذ فى المسام .

الحميم : الماء الشديد الحرارة .

يحموم : دخان حارٌ شديد السواد .

لا بارد ، لا هو بارد كسائر الظلال .

ولا كريم ، ولا دافع أذى الحرّ لمن يأوى إليه ، بل هو حارّ ضارّ .

مترفهين ، منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على شيء مما جاء به الرّسل .
يصـروـن ، يقيمون ولا يقلعون .

الحنث العظيم ، الذنب الكبير ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله .
الميعـات ، ما وُقت به الشيء ، والمراد به يوم القيامة ، وسَمِيَ به لأنه وُقت به الدنيا .
شجر الزقوم ، شجر ينبت في أصل الجحيم ، كربه المنظر والرائحة .

الهـيم ، الإيل العطاش التي لا تُروى لداء يصيبها ، فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً .
النـُـزل ، ما يقدّم للضيف إذا نزل تكريماً له .

تمهيد :

قسّمت السورة الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أقسام ، وتحدّثت عن السابقين ، وعن أصحاب اليمين ،
وهنا تتحدّث عن الصنف الثالث وهم أصحاب الشمال ، وتذكر أنواع العذاب الذي يلقونه .

التفسير :

٤١ - وَأَصْحَابُ الشَّامِلِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ .

أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم .

مَا أَصْحَابُ الشَّامِلِ .

وهذا الاستفهام للتهويل ، أى : هم فى حال لا يستطيع وصفها ، ولا يقدّر قدرها ، من نكال ووبال
وسوء منقلب .

٤٢ - فِى سُمُورٍ وَحِيمٍ .

السُموم : ريح حارة تدخل فى المسام ، فتمرض أو تقتل .

قال الرازى :

والأولى أن يقال : هى هواء متعفن يتحرك من جانب إلى جانب ، فإذا استنشق الإنسان منه ، يفسد
قلبه بسبب العفونة ويقتله .

وَحِيمٍ . ماء متناهم فى الحرارة ، قال تعالى : وَسُقُورًا مَّاءٌ حَمِيمًا فَفُتِحَ أَمْعَاءُهُمْ . (محمد : ١٥) .

٤٣ - وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ .

ظل حار خانق من ، يَحْمُومٍ . دخان شديد السواد .

قال تعالى : أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ النَّارِ *
إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جُمُلَتِ صُفُرٌ . (المرسلات : ٢٩ - ٣٣) .

لقد كان أصحاب اليمين فى ، ظل ممدود .

أما أصحاب الشمال فإنهم فى ظل خانق لافح حار، وهو ظل على سبيل المجاز .

٤٤ - لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٍ .

فالهواء شواط ساخن ينفذ إلى المسام .

وَلَا كَرِيمٍ . لا خير فيه .

قال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة (الكريم) فى النفى ، فيقولون : هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بواسعة ولا كريمة .

والخلاصة :

إن السموم تضربهم فيعطشون ، وتلتهم تارة أحشاءهم فيشربون الماء فيقطع أمعاءهم ، ويريدون الاستغلال بظل فيكون ظل اليعموم .

أى أنهم فى معاناة دائمة ، فإذا كان الهواء والماء والظل - وهى أبعد الأشياء وألطفها - حارة لافحة مفعزة لهم ، فما بالك بحالهم مع حرارة النار ولهبها .

اللهم إنا نعوذ بك من النار ، ومن عذاب النار ، ونسألك أن تدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

ثم ذكر القرآن سبب معاناتهم فقال :

٤٥ - إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ .

متنعمين فى الدنيا بألوان النعيم ، حتى بَشِمُوا من الشهوات ، وأنهبوا طبائعتهم فى حياتهم الدنيا ، واستمتعوا بما يحل وما لا يحل ، ولم يَفْقَهُوا عند حد ، ثم إنهم لم يشكروا نعمة ربهم عليهم ، ولم يفكروا فيما

جاءت به الرُّسل ، بل رفضوه أول وهلة ، خشية أن يفرض عليهم ترك الخمر والزنا ، ويوجب عليهم الصلاة والزكاة .

٤٦ - وَكَانُوا يَمْرُقُونَ عَلَى الْحِثِّ الْعَظِيمِ .

أى : القسم بأنه لا بعث ولا حشر ، ولا قيامة ولا حساب ولا جزاء ، أو يُصرون على الكفر بالله وتكذيب الرسل ، وهو مخالف لعهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

قال تعالى : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ... (النحل : ٣٨) .

وهم حائنون كاذبون فى ذلك القسم ، الذى ينكرون فيه البعث والحساب .

٤٧ - وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ .

إنهم يستبعدون البعث بعد الموت ، ويذكرون أنهم سيصيرون رفاتا وعظاما وترابا ، وما أبعد هذه الأشياء عن الحياة .

٤٨ - أَوْءَابَاؤُنَا الْأُولُونَ .

عطف على الآية السابقة .

والمعنى :

أو يبعث أيضا آبائنا الأقدمون الذين طال عليهم العهد ، وأصبحوا رميما باليا أبعد شئ عن الحياة ، أيبعثون مرة أخرى ؟ يقولون ذلك زيادة فى استبعاد البعث ، خاصة الآباء الذين طال عهدهم بالموت والبلى .

٤٩ ، ٥٠ - قُلْ إِنْ إِلَّاؤِينَ وَالْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِقْسَرٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ .

أى : ردّ عليهم يا محمد وقل لهم مؤكداً : إن الأولين السابقين من آباءكم ، والآخرين وهم أنتم ومن معكم ، ستبعثون جميعا ، وتجمعون جميعا يوم القيامة الذى وقّت الله أجله ، وعلم وقته .

قال تعالى : فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ . (النازعات : ١٣ ، ١٤) .

٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ - ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ لَمَكْذِبُونَ * لَا كَلِمَونَ مِنْ شَجَرٍ مَنْ رَقُومٍ * فَمَا لِيُثُونَ مِنْهَا الْبَطُولَ .

ثم إنكم أيها الضَّالُّونَ عن الهداية والإيمان بالله ورسله ، المكذبون بالبعث والجزاء ، لداخلون فى جهنم ، فإذا اشتد جوعكم فيجب أن تأكلوا من شجر بشع مؤلم ، لأنه كريحه المنظر كريحه الطعم ، ويجب أن تملأوا بطونكم منه زيادة فى عذابكم .

٥٤ ، ٥٥ - فَتَشْرَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَتَشْرَبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ .

قال الزمخشري :

والمعنى : إنه يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل الزقوم ، فإذا أكلوا وملأوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم ، فيشربونه شرب الهيم . ا هـ .

والهيم : الإبل العطاش ، أو المريضة التي لا تروى بشرب الماء ، أى : فلا يكون شريككم شرباً معقداً ، بل شرب الهيم .

قال ابن عباس : الهيم . الإبل العطاش الظماء .

وقال السدي : الهيم . داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً .

٥٦ - هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

هذا الذى ذكرنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم القيامة ، فإذا كان هذا نزلهم - وهو ما يقدم للنازل مما حضر - فما ظنك بما ينالهم بعد دخولهم النار ، وجعل ألوان العذاب الشديد نزلاً - أى : ما يُكرّم به النازل - فيه من التهكم ما لا يخفى .

ونظير ذلك قول الشاعر :

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافِنَا جَعَلْنَا الْقَتَاَ وَالْمَرْهَفَاتِ لَهُ نُزُلَا

وجاء فى مختصر تفسير ابن كثير ما يأتى :

هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ .

أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال تعالى فى حق المؤمنين :

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا . (الكهف : ١٠٧) .

أى : ضيافة وكرامة .

قدرة الله

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تَصَدَّقُونَ ۝٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۝٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ
 الْخَالِقُونَ ۝٥٩﴾ نَحْنُ قَدْ زَيَّنَّا لَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ
 وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾

المضردات :

أَفَرَأَيْتُمْ : أخبروني .

تَمْنُونَ : أمني أى أراق ، والمراد هنا : وضع النطفة فى الرحم .

قَدْ زَيَّنَّا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ : قضينا به بينكم ، وكتبناه عليكم .

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ : وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

عَلَىٰ أَنْ يُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ : نأتى بخلق مذكلم (فتح القدير) .

وَنُنَشِّئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ : وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجعل المؤمن بياض وجهه ،
 وَيُجَبِّحُ الْكَافِر بِسَوَادٍ وَجْهَهُ .

النَّشْأَةُ الْأُولَى : خلقكم من نطفة ، ثم جعلكم علقة ثم مضغة ثم عظاماً ، ثم كسا العظام لحماً ، ثم
 أنشأه الله خلقاً آخر ، أو خلق آدم ونشأته من تراب .

التفسير :

٥٧ - نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدَّقُونَ .

نحن خلقناكم أيها الناس من العدم ، فهلا تصدقون بالبعث ، فإن من قدر على البدء قادر على الإعادة .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا الْأَنْطَقَةَ عِلْقَةً
 فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝
 ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ١٢ - ١٦) .

أو خلقنا آدم من تراب ثم جعلناه بشراً سوياً ، فهلا صدقتم أن من أوجدكم من العدم قادر على
 إعادةكم .

قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (الروم : ٢٧) .

٥٨ ، ٥٩ - أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ • أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ .

أى : أخبرونى عن المنى الذى تضعونه فى أرحام النساء ، هل أنتم تخلقونه وتنقلونه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، وتكسون العظام لحما وتنفخون فيه الروح ، أم نحن الذين أبدعنا خلق الإنسان ، بعد مراحل يمر فيها الجنين فى بطن أمه ؟

وإذا لم تخلقوا ولم توجدوا فاعترفوا بقدرتنا على البدء والإعادة .

«إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمنى رحم المرأة ، ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة فى العمل وحدها ، فى هذا الماء المهيمن ، تعمل وحدها فى خلقه وتنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه»^(١٠٠) .

٦٠ ، ٦١ - نَحْنُ قَدْ زَوَّجْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ • عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ .

حكمنا بالموت على كل إنسان من أهل السماوات والأرض ، وقد ساءى الله بين أهل السماوات والأرض ، سواء فى ذلك الشريف والوضيع ، والأمير والصلعوك .

قال تعالى : كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... (ال عمران : ١٨٥) .

وقال عز شأنه : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . وما نحن بعاجزين ولا مغلوبين .

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ . فنذهب بكم ، ونأتى بخلق جديد أطوع لله منكهم .

قال تعالى : يَتْلَاهَا النَّاسُ أَنْشُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ • إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ • وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ - ١٧) .

قال الزجاج : إن أردنا أن نخلق خلقا غيركم ، لم يسبقنا سابق ولا يفتونا .

وَنُنشِئُكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ .

ولسنا بعاجزين أيضا أن نعيدكم يوم القيامة فى خلقة لا تعلمونها ، ولا تصل إليها عقولكم ، والغرض أن الله قادر على أن يهلكهم ، وأن يعيدهم ، وأن يعيظهم يوم القيامة ، ففى الآية تهديد واحتجاج على البعث .

قال الزمخشري :

المعنى : إنا لقادرون على الأمرين معا ، على خلق ما يماثلكم ، وما لا يماثلكم ، فكيف نعجز عن إعادتكم .

وقال القرطبي :

المعنى : وننشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا ، فيحشر المؤمن أبيض الوجه ، ويحشر الكافر أسود الوجه .

٦٢ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ .

أى : ولقد أيقنتم أن الله سبحانه وتعالى أنشأكم النشأة الأولى ، حيث خلقكم من نقطة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، ثم من عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فصار خلقا سويا .

فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ . فهلا تعتبرون وتفكرون بأن القادر على البدء قادر على الإعادة .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ... (الأنبياء : ١٠٤) .

قال قتادة : النشأة الأولى هي خلق آدم من تراب ، فهلا تتذكرون أن من قدر عليها فهو على النشأة الأخرى أقوى وأقدر .

وفى الخبر : «عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة ، وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة ، وهو لا يسعى لدار القرار» .

وقد ساق القرآن عددا من الأدلة على وجوب البعث .

قال تعالى : وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ • قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ • الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ • أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ يَلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ • إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ • فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدُوهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨-٨٣) .

وقال سبحانه وتعالى : أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا . (مريم : ٦٧) .

وقال عز شأنه : أَلَمْ يَكُ نَطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنِي • ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى • فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى •

أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَحْيِيَ الْمَوْتَى . (القيامة : ٣٧ - ٤٠) .

★ ★ ★

الزرع والماء والنار

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٢) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ءَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٤﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٧﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٨﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَمْجَافًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٦٩﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٠﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧١﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾ ﴿٧٤﴾

المضردات :

ما تحرسون ، ما تبتزون حبه وتعملون فى أرضه .

تزرعونوه ، تنبتونه فى الأرض .

حطامًا ، فتاتا ، من حطم الشئ يحطمه حطما .

فظلتم ، ظللتم ، أى : فبقيتم ودمتم .

تفكّهون ، تفكّهون ، بمعنى تعجبون من سوء حاله وتندمون ، وأصل التفكه : التثقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتثقل بالحديث .

إننا لمغرمون ، لملزمون غرامة ما أنفقنا .

بل نحن محرومون ، لا حظ لنا ، أو محرومون الرزق بالكلية .

تمهيد :

يقدم القرآن الكريم الدليل تلو الدليل على قدرة الله تعالى ، فيسألهم : أنتم تحرثون الأرض وتضعون البذرة ، لكن من ينبت الزرع ؟ إنه الله تعالى .

والماء الذى تشربونه ، هل أنتم أنزلتموه من السحاب ، أم الله هو الذى أنزله ؟

والجواب : نعم ، أنت يارب الذى تنزل المطر ، وتسوق السحاب ، وتنزل الماء .

وكذلك النار ، هل أنتم أوجدتم شجرتها ، أم نحن المنشئون لها ؟ لقد جعلها الله تذكيرًا بنار الآخرة ، وجعلها لأهل الدنيا متاعا للنازل فى قلب الصحراء ، حيث يستدفئ بها ، ويسوى عليها طعامه وغذاه .

التفسير :

٦٣ ، ٦٤ - أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُٗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ .

يستفهم القرآن هذا الاستفهام الذى يحرك العقول والقلوب ، فيقول : أرايتم الفلاح حين يحرت الأرض ويسقيها ، ويضع فيها البذرة ويتركها ، من الذى ينبت زرعاً أخضر نضيراً ؟ من الذى يسوق الهواء والماء وتفاعل التربة مع النبات حتى تتحول البذرة نباتاً ينمو ويخرج على سطح الأرض ، كما تنمو الأطفال ؟

هل أنتم الذين تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحب ، أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم بأن الله هو الذى يُخرج الحب وينبت الزرع ، فكيف تنكرون قدرته على بعث الموتى وإخراجهم من قبورهم بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ؟

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ - لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَطَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمَغْرُمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

لو أردنا لجعلنا هذا النبات شبيهاً متكسراً ، قبل استوائه وبلوغه مرحلة الحصاد .

فمكنتم تتعجبون أو تندمون على ما أنفقتم على الزرع من الحرث والبذر من غير حصول نفع أو نضوج ثمره .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَفْقَرُ لَهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرْوَتِهَا وَيَقُولُ بَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٢) .

وأصل التفكّه : التنقل بصنوف الفاكهة ، واستعير للتنقل بألوان الحديث ، وهو هذا ما يكون بعد هلاك الزرع ، وقد كُنِيَ فى الآية عن التعجب ، أو الندم ، أو التلاوم .

إِنَّا لَمَغْرُمُونَ .

يقولون : إنا لمغرمون ، أى : إنا لمحمّلون الغرم فى إنفاقنا ، حيث ذهب زرعنا ، وغرّمنا الحب الذى بذرناه .
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

يقولون تارة أخرى : بل نحن محرومون الرزق ، غرّمنا قيمة البذر ، وحرّمنا خروج الزرع .

٦٨ - أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ .

أخبروني عن الماء الذى تشربون ، وهو نعمة كبرى لا يستغنى عنه إنسان .

قال تعالى: لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. (النحل: ١٠).

ومن الماء يشرب الإنسان والحيوان والزرع.

قال تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ... (الأنبياء: ٣٠).

روى ابن أبي حاتم، عن جابر، عن أبي جعفر، عن النبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا».

٦٩ - أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ.

ألأنتم أنزلتم المطر من السحاب، أم نحن المنزلون؟

والجواب هو: ما أنزل المطر إلا الله سبحانه وتعالى، والقرآن بهذا يُعَدُّ نعم الله الظاهرة أمام أعينهم، فنزول المطر يحتاج إلى موافقات متعددة لا يقدر عليها إلا الله، وهو سبحانه سائق السحاب، ينزله على من يشاء، ويصرفه عن من يشاء. فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. (الروم: ٤٨).

٧٠ - لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَابًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ.

لو نشاء جعلنا الماء العذب الغرات السائغ للشرب، ملحاً أجاباً تعافه النفس، ولا يصلح لغرض من أغراض المعيشة، كالطبخ أو سقى الزرع أو الرى.

فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ.

فهلا شكرتم ربكم، واعترفتم بفضل الله في حياتكم، وتسخير الحرث والزرع، وتسخير الماء العذب الغرات لكم. وهلا اعترفتم له بالقدرة على إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم للبيع والحساب والجزاء.

٧١ - أَفَرَأَيْتُمْ أَتَارَ الْفَيْ تُورُونَ.

أى: أخبروني عن النار التي تقدحونها، وتستخرجونها من الشجر الرطب.

٧٢ - أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ.

هل أنتم الذين زرعتم وأنشأتم وأوجدتم الشجرة التي تحرقونها بالنار فتستدفئون؟

قال ابن كثير :

وللعرب شجرتان : إحداهما المَرْحُ ، والأخرى العَفَارُ ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحُكَّ أحدهما بالآخر تنأثر من بينهما شر النار .

٧٣ - نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَلَعًا لِلْمُقْوِينَ .

أى : جعلنا نار الدنيا تذكرة ، تذكّر الناس بشدة الحرارة وشدة الحريق، حتى يتذكروا نار الآخرة ، «ونار الدنيا جزءٌ من سبعين جزءاً من نار الآخرة» . (رواه الشيخان) .

وَمَتَلَعًا لِلْمُقْوِينَ . يعنى بالمقوين : المسافرين .

وعن مجاهد : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار ، وقيل : المستمتعين من الناس أجمعين .

قال ابن كثير :

وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى ، من غنى وفقير ، الجميع محتاجون إلى النار للطبخ والاصطلاء والإضاءة ، وغير ذلك من المنافع .

وفى الحديث : «المسلمون شركاء فى ثلاثة : الماء ، والكلا ، والنار»^(١٠٤) (أخرجه أحمد ، وأبو داود) .

٧٤ - فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

أى : دُم يا محمد على تنزيه الله تعالى الذى خلق الأشياء بقدرته ، فهو الذى خلق الإنسان من منىً يعنى ، وهو الذى أنبت الزرع ، وهو الذى أنزل الماء من السحاب ، وهو الذى يسر ظهور النار للتذكّر بها والاستفادة منها .

فما أعظمه ، وما أكرمه ، وما أحلمه ، وما أكثر فضله ونعمائه .

إثبات النبوة وصدق القرآن

﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ ﴾ (٧٥) إِنَّهُ لَقَرَأَنُ
 كَرِيمٌ ۖ ﴿ ٧٧ ﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ۖ ﴿ ٧٨ ﴾ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۖ ﴿ ٧٩ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿ ٨٠ ﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ۖ ﴿ ٨١ ﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ۖ ﴿ ٨٢ ﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ
 الْحُلُقُومَ ﴿ ٨٣ ﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ۖ ﴿ ٨٤ ﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿ ٨٥ ﴾
 فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۖ ﴿ ٨٦ ﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۖ ﴿ ٨٧ ﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُفْرِيقِينَ
 ﴿ ٨٨ ﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَرَحْنَةٌ وَبَعِيرٌ ۖ ﴿ ٨٩ ﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ﴿ ٩٠ ﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ
 أَصْحَابِ الْيَمِينِ ۖ ﴿ ٩١ ﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكِيدِينَ الصَّالِينَ ۖ ﴿ ٩٢ ﴾ فَزُلْ مِنْ حَمِيمٍ ۖ ﴿ ٩٣ ﴾ وَتَصْلِيَةٌ
 جَمِيمٍ ۖ ﴿ ٩٤ ﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۖ ﴿ ٩٥ ﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۖ ﴿ ٩٦ ﴾

المفردات :

فَلَا أَقْسَمُ : هذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ، ولأ : مزيدة للتأكيد .

مَوَاقِعِ النُّجُومِ ، مغاريها أو منازلها .

مُكُونُونَ : مستور مصون عند الله فى اللوح المحفوظ من سوء .

لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ : المنزهون عن دنس الحطوط النفسية .

مُدْهِنُونَ ، متهاونون ، أو مكذبون .

لَسَلَوَا : حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب .

الْحُلُقُومُ : تجويف خلف تجويف الفم ، وفيه ست فتحات : فتحة الفم الخلفية ، وفتحتا المنخرين ،

وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ، وهى مجرى الطعام والشراب والنفس .

غَيْرَ مَدِينِينَ ، غير مربوبين مقهورين .

فَرُوحٌ : فله استراحة أو رحمة .

وَرِيحَانٌ : رزق حسن .

فَنُزُلٌ : فجزاؤه نُزُلٌ .

حَمِيم ، ماء تَنَاهَتْ حرارته .

تَصْلِيَةُ جَحِيم ، مَقَاسَةُ لَحْرِ النَّارِ ، أَوْ إِدْخَالُ فِيهَا .

حَقَّ الْيَقِينِ ، حَقُّ الْخَبَرِ الْيَقِينِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ، فَتَنَزَّهُ رَبُّكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ .

تمهيد :

فى ختام السورة يُقسَمُ الحق سبحانه بمواقع النجوم ، أى : بمنازلها ومغاريبها وحركتها وسيرها وأبعادها ، وهو أمر عظيم أى عظيم ، فهذه النجوم لها مجراتها ولها جاذبيتها ، ولا يصطدم نجم بآخر إلا بحكمة مقصودة .

يقسم الجبار سبحانه وتعالى بمواقع النجوم ، على صدق القرآن الكريم ، وأنه كتاب الله محفوظ من الشياطين ، لا يقترب منه إلا الملائكة المقربون ، مثل جبريل الأمين الذى ينزل بالوحي على رسول الله ﷺ . ثم ذكرت الآيات أقسام الناس عند خروج الروح ، وأنهم ثلاثة أقسام : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، ولكل منهم جزاء مناسب له .

التفسير :

٧٥ - فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ .

جمهور المفسرين على أن المعنى : أقسم بمواقع النجوم .

قال القرطبي :

لا : صلة فى قول أكثر المفسرين ، والمعنى : فأقسم ، بدليل قوله بعده :

٧٦ - وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .

والمعنى :

أقسم بمنازل النجوم ، وأماكن دورانها فى أفلاكها ويروجها .

وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ .

وإن هذا القسم العظيم جليل ، لو عرفتم قدره لآمنت به ، وانتفعت به ، وذلك لما فى حركة النجوم وسيرها وأبعادها من كمال الحكمة ، وفرط الرحمة ، ومن مقتضيات رحمته تعالى أن يلفت أنظارنا إلى هذا الكون الواسع الرحيب ، وأن يقسم ببعض مخلوقاته ليلفت الأنظار إلى عظمة التدبير ، وقدرة القدير .

يقول الفلكيون :

«إن مجموعة واحدة من المجموعات التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا ، مجموعة واحدة هي (المجرة) التي تنتسب إليها أورتنا الشمسية ، تبلغ ألف مليون نجم ، وإن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، منها ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، ومنها ما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض .

ولا يوجد أي احتمال أن يقترب نجم من مجال نجم آخر ، أو أن يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض بأخر في المحيط الهادئ ، يسيران باتجاه واحد وبسرعة واحدة ، وهو احتمال بعيد جدا ، إن لم يكن مستحيلا»^(١٠٠) .

وقال جماعة منهم ابن عباس :

النجوم نجوم القرآن ، ومواقعها أوقات نزولها ، فإن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم نزل منجما مفرقا في مدة الرسالة المحمدية وهي ثلاثة وعشرون عامًا .

٧٧ - إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ .

إن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ كريم ، مرضي عنه ، رفيع القدر بين الكتب المنزلّة من عند الله ، كثير المنافع ، كريم على الله ، كريم على المؤمنين .

كريم لاشتماله على كريم الأخلاق ومعالي الأمور ، كريم لأنه يكرم حامله ويعظم قارئه ، وهو قرآن كريم ، تحضر الملائكة عند قراءته ، ويذكر الله القارئين له في الملأ الأعلى .

وفي الحديث الشريف : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم الرحمة ، وغشيتهم السكينة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١٠١) .

٧٨ - فِي كِتَابٍ مُّكُونٍ .

في كتاب مصون عند الله تعالى ، قال ابن عباس : هو اللوح المحفوظ .

٧٩ - لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ .

لا يمس ذلك الكتاب المكنون إلا الملائكة الأبرار الأطهار ، الذين طُهِرت نفوسهم ، فهو بعيد كل البعد عن الشياطين .

قال تعالى : لِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ . (عبس : ١٣ - ١٦)

وحين قالت قريش : تنزلت به الشياطين ، أخبر الله تعالى عنه قائلا :

وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ . (الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢).

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به .

وذهب آخرون إلى أن معنى :

لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ .

لا يمس هذا القرآن إلا المطهرون من الحدث الأصغر والحدث الأكبر ، «قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها

الطلب»^(١٠٧).

أي : لا ينبغي أن يمس القرآن إلا من هو على طهارة .

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن المنذر ، والحاكم ، عن عبد الرحمن بن زيد قال : كنا مع سلمان الفارسي ، فانطلق إلى حاجة ، فتواري عثا ، ثم خرج إلينا ، فقلنا : لو توضأت ، فسألناه عن أشياء من القرآن ، فقال : سلوني فإنني لست أمسّه ، إنما يمسّه المطهرون ، ثم تلا : لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . ثم قرأ علينا من القرآن ما شئنا .

قال المراغي في تفسيره :

وقد ذهب جمهور العلماء إلى منع المحدث عن مس المصحف ، وبذلك قال علي وابن مسعود وسعد ابن أبي وقاص ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعي .

وروي عن ابن عباس ، والشعبي ، وجماعة منهم أبو حنيفة ، أنه يجوز للمُحَرِّثِ مَسَّهُ . (يُراجع شرح المنتقى للشوكاني) .

وقال الحسين بن الفضل : المراد أنه لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهره الله من الشرك والنفاق.^(١٠٨)

٨٠ - تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

أي : هذا القرآن الكريم منزل من الله رب العالمين ، فما أعظم من أنزله ، وما أكرم للكتاب الذي اشتمل على الهدى والتشريع ، والآداب ومكارم الأخلاق ، وأبواب السعادة في الدنيا والآخرة .

فليس القرآن الكريم - كما يزعم الكافرون - من عند غير الله ، وليس شعراً ، ولا سحراً ، ولا كهانة ، ولا أساطير الأولين ، بل هو قرآن كريم فى كتاب مكنون ، تنزيل من رب العالمين .

٨١ - أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ .

أفبهذا القرآن ، يا معشر الكفار ، أنتم مدهنون ، أى متهاونون .

وأصل (الأنهان) جعل الجلد مدهوناً بشئ من الدهن حتى يلين .

أى : لا تقرّون فيه برأى واضح صريح جاد ، وتقولون هو كلام رب العالمين .

وعن ابن عباس والزجاج : مُذْهِبُونَ . مكذبون .

٨٢ - وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ .

وتجعلون جزاء رزقكم من الله أنكم تكذبون بمن منحكم هذا الرزق ، فتنسبون المطر إلى الرياح والأنواء ، رغم أن الرياح وسيلة وسبب ظاهرى ، أما المسبب الحقيقى فهو الله تعالى .

وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : من آمن بى وحمدنى على سقايى فذلك الذى آمن بى وكفر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك الذى آمن بالكواكب وكفر بى» . (١٠٩) .

قال القرطبى :

وفى هذا بيان ، لأن ما يصيب العباد من خير ، فلا ينبغي أن يروه من قبل الرسائط التى جرت العادة بأن تكون أسبابا ، بل ينبغي أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلوه بالشكر إن كان نعمة ، وبالصبر إن كان مكروها ، تعبداً له وتذللاً . اهـ .

٨٣ ، ٨٤ - فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ .

فى آيتين سابقتين استفهم منهم استفهاماً إنكارياً على تكذيبهم بالقرآن ، وكفرهم بنعمة الله وعدم شكره ، حين قال سبحانه : أَفِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ . (الواقعة : ٨١ ، ٨٢) .

وهنا يتحدّاهم ، ويذكر عجزهم وضعفهم أمام ظاهرة معلومة ، حين تبلغ روح القريب لهم الحلقوم ، ويقرب الموت ، ويظهر العجز والضعف ، ويلتفت حول الميت أقاربه وأحبابه ينظرون إليه وهو يعالج سكرات الموت ، ولا يستطيعون دفعه عنه ، مما يدل على عجز الإنسان ، وأنه مقهور مريبوب للقدرة العليا التى تخلق وتوجد ، وتنفع الروح ، وتميت الميت ، وتدعو الإنسان إلى الاعتبار .

قال تعالى : كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْقُرَاقِيَّ • وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ • وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ • وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ • إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ . (القيامة : ٢٦ - ٣٠) .

جاء فى التفسير الوسيط للأزهر بتصرف ما يأتى :

والروح : جسم لطيف سار فى البدن سريان الماء فى العود الأخضر ، وفى حياة الإنسان يتحرك ويدخل ويخرج ، ويقوم ويقعد ، ويأمر وينهى ، ويبيع ويشترى ، فإذا بلغت الروح الحلقوم حان الحين ، وظهر العجز ودنا الأجل ، والميت يجد بنفسه ، وأقاربه حوله يشاهدون ما يقاسيه من سكرات الموت وغمراته . ١ هـ .

٨٥ - وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ .

الله أقرب إلينا فى كل لحظة ، أقرب إلينا بعلمه وملائكته ، قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق : ١٦) .

لكن فى هذه الحالة ، حين يحضر الأقارب والأحباب حول الميت ، ويشاهدون حشرة الروح وخروجها إلى بارئها ، والملائكة أقرب إلى الميت من المشاهدين له ، حيث تقبض روحه بأمر الله تعالى .

وقد نسب الله تعالى قبض الروح إليه سبحانه فى قوله : اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... (الزمر : ٤٢) .

كما نسب قبض الروح إلى ملك الموت فى قوله سبحانه : قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . (السجدة : ١١) .

كما نسب قبض الروح إلى الملائكة فقال سبحانه : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . (الأنعام : ٦١) .

قال العلماء : الحياة والموت والكون كله بيد الله ، فنسب الله الموت إليه ، وملك الموت هو الذى يباشر نزع الروح من الجسد فنسبت الوفاة إليه ، وملك الموت أعوان من الملائكة فنسبت الوفاة إليهم ، ولا تعارض بين الآيات ، فالمرجع كله إليه سبحانه وتعالى .

٨٦ ، ٨٧ - فَلَوْلَا إِن كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ • تُرْجَعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

تقديم الآيات الأدلة على عجز المخلوق ، وقدرة الخالق ، أى : إذا أنكرتم ألوهية الله وقدرته على البعث والحشر ، والحساب والجزاء : فأمامكم دليل على : حين تبلغ الروح الحلقوم ، وأنتم تشاهدون أقرب الناس إليكم يعالج سكرات الموت ، وأنتم عاجزون تماماً عن إعادته إلى الدنيا .

هَلَّا إِيْقَنْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ إِلَهُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْقَائِلُ فِي كِتَابِهِ : تَبَرَّكْتَ الَّذِي يَدِيهِ الْمَلَكُوتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ . (الملك : ١ ، ٢) .

و خلاصة المعنى :

هَلَّا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ خَاضِعِينَ لِقُدْرَتِنَا تَرْجِعُونَ رُوحَ الْمَيِّتِ إِلَى جَسَدِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي اعْتِقَادِكُمْ بِأَنَّهُ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ، أَوْ فِي تَوَهُّمِكُمْ بِأَنَّ هُنَاكَ قُوَّةَ أُخْرَى غَيْرَ اللَّهِ ، يُمْكِنُهَا أَنْ تَسَاعِدَكُمْ فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَحَنِ .

وهكذا نجد الآيات تتحدّى الكافرين ، بل البشر أجمعين أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون حوله وقفة الحائر المستسلم العاجز عن فعل أى شيء من شأنه أن يدفع الموت ، أو يؤخر خروج الرُّوح ولو لزمّن قليل .

٨٨ ، ٨٩ - فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجِئَتْ نَعِيمٌ .

في آيات سابقة أظهر القرآن عجز الإنسان أمام ظاهرة الموت .

قال الخازن في تفسيره : وإذا لم يمكنكم إرجاع روح الميت إلى جسده ، فاعلموا أن الأمر إلى غيركم ، وهو الله تعالى فأمنوا به .

وهنا يذكر الله تعالى حال الناس بعد الوفاة ، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام ، قد ذكروا تفصيلاً في صدر السورة ، وهم : المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

والمقربون هم السابقون ، المقربون إلى الله تعالى ، قد سبقوا إلى الإيمان وطاعة الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، واتباع المأمورات ، والتأدّب بأدب الإسلام ، والتسابق إلى مرضاة الرحمن ، هؤلاء عند الموت يحسّون بمنزلتهم في الجنة ، وتبشّرهم الملائكة بالجنة وريحانها وتمارها ونعيمها .

قال تعالى : يُبَشِّرُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ... (إبراهيم : ٢٧) .

وعن مجاهد : فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ : جنة وريحاء .

وقال قتادة : فروح ورحمة .

وقال غيرهم : فَرَوْحٌ . راحة من الدنيا ، وَرَيْحَانٌ . فرح بنعيم الآخرة .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، كما يقول ابن كثير فى تفسيره ، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور ، والرزق الحسن . اهـ .
وَجُتَّتْ نَعِيمٌ . والجنة الواسعة التى يتنعم فيها المقربون بألوان النعيم .

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير هذه الآية .

منها ما رواه البخارى ، ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : «أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى رياض الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش»^(١١٠) .

وتفيد جملة من الأحاديث أن روح المؤمن تسبح فى الجنة ، حتى يُرجع الله الروح إلى الجسد عند البعث .

٩٠ ، ٩١ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ .

والمعنى : وأما إن كان المحضر من السعداء أهل الجنة ، الذين يأخذون كتابهم بيمينهم ، فإن الملائكة تتلقاهم بالسلام والأمان ، وتبشرهم بالجنة ، وتطمئنهم على حسن مستقبلهم ، وعلى رعاية الله لذريعتهم بعد وفاتهم .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا سَتَزُلْ عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . (نمل : ٣٠ - ٣٢) .

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ - وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الْمُنَافِقِينَ * فَزُلْ مِنْ حَبِيمٍ * وَصَلَّىٰ جَحِيمٍ .

وأما إن كان المحضر من المُكذِّبين . بالقيامة والبعث والحساب ، الْمُنَافِقِينَ . عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأول ما يقدم له الحميم الذى يغلى غلياناً شديداً فيشوى وجهه ، ويقطع أمعاءه ، ثم يصطلى بنار الجحيم التى تغمره من جميع جهاته ، فيذوق سعيها ، ويقاسى ألوان عذابها .

٩٥ ، ٩٦ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

إن هذا الذى أخبرناك به يا محمد ، من جزاء السابقين بالدرجات العلى فى الجنة ، ومن جزاء أصحاب اليمين بالسلام والأمان فى الجنة ، ومن جزاء المكذبين الضالين بعذاب جهنم والاصطلاء بنار الجحيم ،

هذه الحقائق المذكورة في هذه السورة هي الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب ، وهي عين اليقين الذي لا يمكن إنكاره .

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

نُزِّهَ الله تعالى عن العيب والنقص ، ونُزِّهه عن أن يترك الناس سدى ، فإنه منزّه عن الكذب ، ومنزّه عن النقصان ، ومنزّه عما يصفه به الظالمون .

أخرج أبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها في ركوعكم»^(١١١)

ولما نزلت : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . (الأعلى : ١) .

قال ﷺ : «اجعلوها في سجودكم»^(١١٢) .

أى أن نقول في الركوع : «سبحان ربى العظيم» .

ونقول في السجود : «سبحان ربى الأعلى» .

وروى البخارى في آخر صحيحه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله ويحمده ، سبحان الله العظيم»^(١١٣) .

خلاصة موضوعات سورة الواقعة

١ - اضطراب الأرض ، وتفتت الجبال حين قيام الساعة .

٢ - الناس عند الحساب أزواج ثلاثة ، ويَكْرُ مَال كل زوج منهم .

٣ - اجتماع الأولين والآخرين فى هذا اليوم .

٤ - إقامة الأدلة على وجود الخالق .

٥ - إقامة البراهين على البعث والنشور والحساب .

٦ - إثبات أن هذه الأخبار حق لا شك فيه .

٧ - تبكيث المكذبين على إنكار الخالق .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الواقعة) مساء الثلاثاء ٢ من رمضان ١٤٢١ هـ الموافق ٢٨/١١/٢٠٠٠م،
بمدينة المقطم بالقاهرة ، جمهورية مصر العربية ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على
سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

تفسير سورة الحديد

أهداف سورة الحديد

سورة الحديد مدنية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة الزلزلة .

وهي سورة تعالج التقوى والصدق والإيمان ، وتحث على الصدقة والبذل ، والإخلاص في التضحية ، وتحذر من غرور الدنيا وفتنها .

جاء في ظلال القرآن:

هذه السورة بجملتها دعوة للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها ، هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ، فلا تضن عليها بشيء ، ولا تحتجز دونها شيئاً .. لا الأرواح ولا الأموال ، ولا خلجات القلوب ، ولا ذوات الصدور .. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربابية بينما تعيش على الأرض ، موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تعزز بها وتسابق إليها هي القيم التي تثقل في هذه الموازين ، كما أنها هي الحقيقة التي تشعّر القلوب بحقيقة الله ! فتخشع لذكره وترتجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الغرار إليه .^(١١١)

مطلع السورة

بدأت السورة ببيان قدرة الله العلى القدير ، فهو الخالق الرازق ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام ، وهو سبحانه أول بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ، وظاهر في كل ما تراه العين من سماء وأرض وجبال وبحار ، وباطن فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو خالق الكون كله ، وهو القائم على حفظه ، والمهيمن على جميع أمره ، والمطلع على خفايا النفوس ، والمحاسب على القليل والكثير ، والمجازي على الفتيل والقطيم.

ولما كان مدار السورة على تحقيق الإيمان في القلب ، وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية ، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر .

«وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ، تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه ، فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ،

وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها فى نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب ونوات الصدور^(١١٩).

أدلة التوحيد

الآيات الأولى من السورة (١-٦) يمكن أن تكون عناصر لأدلة التوحيد وصفات الله العلى القدير . فكل شيء فى الكون يتجه إليه بالعبادة ، ويعلن خضوعه وانقياده لقدرة الله : فالسمااء مرفوعة ، والأرض مبسوطة ، والبحار جارية ، والهواء مسخر ، والشمس مسيرة ، والقمر باهر ، والكوكب زاهر ، وكل شيء فى مداره يسير معلنا قدرة القدير ، مسبحا بلسان الحال ، مظهرا لله العبادة والخضوع .

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الحديد : ١ - ٣) .

والقلب يهتز عند قراءة هذه الآيات وما بعدها ، يهتز من جلال القدرة الإلهية المؤثرة ، المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، المهيمنة على كل شيء ، العليمة بكل شيء .

يهتز إجلالا للخالق القادر العليم الخبير ، المطلع على خفايا الصدور ، يهتز القلب حين يجول فى الوجود كله فلا يجد إلا الله ، ولا يرى إلا الله ، ولا يحس بغير الله ، ولا يعلم له مهربا من قدرته ، ولا مخبا من علمه ، ولا مرجعا إلا إليه ، ولا متوجها إلا لوجهه الكريم .

تثبيت الإيمان

الآيات (٧-١١) دعوة إلى صدق الإيمان وتأكيد ، وحث على الإنفاق فى سبيل الله . وظاهر من سياق السورة أنها كانت تعالج حالة فى المجتمع المدنى فى فترة تمتد من العام الرابع الهجرى إلى ما بعد فتح مكة ، فإلى جانب المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع الأمثال فى تحقيق الإيمان ، وفى البذل والتضحية بأرواحهم وأموالهم فى إخلاص نادر وتجرد كامل ، إلى جانب هذه الفئة الممتازة كانت هناك فى الجماعة الإسلامية فئة أخرى يصعب عليها البذل فى سبيل الله ، وتشق عليها تكاليف العقيدة فى النفس والمال ، وتزدهيها قيم الحياة الدنيا وزينتها ، فلا تستطيع الخلاص من دعوتها وإغرائها .

وهؤلاء بصفة خاصة نجد هذه الآيات تدعوهم إلى الإيمان وتحثهم عليه ، وتهتف بهم تلك الهتافات الموحية ، لتخلص أرواحهم من الإغراء ، والخلود إلى الأرض ، وترفعها إلى مستوى الإيمان الحق فيخاطبهم القرآن بقوله :

ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ وَاَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِيْنَ فِيْهِ فَاَلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا مِنْكُمْ وَاَنْفَقُوْا لَهُمْ اَجْرٌ كَبِيْرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالرَّسُوْلِ يَدْعُوْكُمْ لِتُؤْمِنُوْا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيْثَاقَكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ . (الحديد : ٧ ، ٨) .

مشاهد الآخرة

تعرض الآيات (١٢ - ١٥) صورةً وضيئةً للمؤمنين والمؤمنات يوم القيامة :

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ... (الحديد : ١٧) .

والمشهد هنا جديد بين المشاهد القرآنية ، إنه مشهدٌ عجيب : هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراه ، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيامانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً ، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم ، وهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت ، وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها ، إذ انور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات ، والذي أشرق في أرواحها فَعَلَّتْ طينتها ، أو لعله نور الأنمال الصالحة التي عملتها في الدنيا ، ثم تبشرهم ملائكة الرحمن بجنتات تجري من تحتها الأنهار ينعمون فيها بالخلود والفوز العظيم .

ولكن المشهد لا ينتهى عند هذا المنظر اللطيف اللطيف .. إن هناك المنافقين والمنافقات في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال ، وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات ، ويقولون لهم : انظروا إلينا لنقتبس من نوركم ، فيجيب المؤمنون بأن النور هنا هو نور العمل الصالح الذي عمل في الدنيا ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل ، والجزاء الحق هنا من جنس العمل ، ولذلك يحال بين المؤمنين والكافرين ، ويذهب المؤمنون إلى الرحمة والرضوان ، ويذهب المنافقون إلى عذاب النار ويئس المصير .

القلوب الخاشعة

الربيع الثانى من سورة الحديد يشتمل على الآيات (١٦ - ٢٩) وفيها دعوة المؤمنين إلى أن تكون قلوبهم خاشعةً قانتة ، تهتز لآيات الله وما نزل من الحق ، وتستجيب لنداء السماء ، وتؤثر الآخرة على الدنيا والباقية على الفانية .

ومضمون الآيات - كما ترى - امتداد لموضوع السورة الرئيسى : تحقيق حقيقة الإيمان فى النفس حتى ينبثق عنها البذل الخالص فى سبيل الله .

ويستهل الربيع برنة عتاب من الله سبحانه للمؤمنين الذين لم يصلوا إلى المرتبة السامية فى الإيمان ، وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة فى القلوب وفسق فى الأعمال ، وتحذير من هذا المآل الذى

انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم ، مع إطماعهم فى عون الله الذى يحيى القلوب كما يحيى الأرض بعد موتها ، قال تعالى : **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ...** (الحديد : ١٦) .

وتتبع هذه الدعوة إلى الخشوع والتقوى ، دعوة تالية إلى إقراض الله قرضاً حسناً ، مع بيان ما أعده الله لمن يقرضونه فى الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم . (انظر الآيتين : ١٨ ، ١٩) .

والآية (٢٠) رسم رائع ، وميزان عادل يضع قيم الدنيا كلها فى كفة ، وقيم الآخرة فى كفة .. حيث تبدو قيم الأرض لعباً خفيفة الوزن ، وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجد الذى يستحق الاهتمام .

ومن ثم تهتف الآية (٢١) بهم ليسابقوا إلى قيم الأخرى .. فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للمتقين .

والآيتان (٢٢ ، ٢٣) درس مفيد فى الإيمان بالقضاء والقدر ، وبيان أن الأجل بيد الله الذى خلق النفوس وكتب أجلها ورزقها ، حتى لا نكثر الأسى على ما فاتنا ، ولا نكثر الفرح بما جاءنا فالقلب الموصول بالله ثابت فى المحن ، راضٍ فى المنح .

وتعرض الآيات (٢٥-٢٧) طرفاً من تاريخ دعوة الله فى الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج واستقامة الطريق ، وأن الذى يحيد عنه فى كل عهد هم الفاسقون .

وفى الآية قبل الأخيرة من السورة هتاف ودعوة للمؤمنين لتقوى الله ، وصدق الإيمان برسوله ، وبذلك يعطيهم الله نصيبين من رحمته ، ويجعل لهم نورا يمشون به ، ويفغر لهم ، ففضل الله ليس وقفاً على أهل الكتاب كما يزعمون ، إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء ، **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** .

وهكذا تبدو السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، فى خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ، متنوعة ومتشابهة ، فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع فى القلب وطرقه وهو سائح ، وتلون هذه المؤثرات أمام المخاطبين .

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . (طه : ١١٣) .

«وبعد .. فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة فى خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير ، وهى فى بدئها وسياقها وختامها ، وفى طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة هى فى هذا درس بديع للدعاة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب» .^(١١٧)

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود السورة : الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات ، في الأرض والسموات ، وتنزيه الحق في الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين والمنافقات في ساحة القيامة ، وبيان خسة الدنيا وعز الجنات ، وتسلية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات»^(١١٧) في قوله تعالى :

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُرَآهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٢، ٢٣) .

دلائل القدرة الإلهية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ② هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ③ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ④ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ⑤ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑥﴾

المفردات :

سَبَّحَ : نَزَّهَ اللهَ وَمَجَّدَهُ وَقَدَّسَهُ .

العَزِيزُ : الْقَوِيُّ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

الحَكِيمُ : الَّذِي يَفْعَلُ أَعْمَالَهُ وَفَقَ الْحِكْمَةَ وَالصَّوَابَ .

يُحْيِي : يُحْيِي النَّطْفَ ، فَيَجْعَلُهَا أَشْخَاصًا عُقُلَاءَ فَاهْمِينَ نَاطِقِينَ .

وَيُمِيتُ : يُمِيتُ الْأَحْيَاءَ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ مِنَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ قَدِيرٌ .

الْأَوَّلُ : السَّابِقُ عَلَى سَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ .

الْآخِرُ : الْبَاقِي بَعْدَ فَنَائِهَا .

الظَّاهِرُ : الَّذِي ظَهَرَتْ دَلَائِلُ وُجُودِهِ وَتَكَاثَرَتْ .

الْبَاطِنُ : الَّذِي خَفِيَ عَنْ ذَاتِهِ فَلَمْ تَرَهَا الْعَيْنُ ، فَهُوَ ظَاهِرٌ بِأَثَارِهِ وَأَعْمَالِهِ ، وَمَشْرُقٌ بِجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ ، وَظَاهِرٌ بِغَلْبَتِهِ عَلَى مَخْلُوقَاتِهِ ، وَتَسْخِيرِهَا لِإِرَادَتِهِ ، وَبَاطِنٌ بِعِلْمِهِ بِمَا خَفِيَ مِنْهَا ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَائِنَةٌ .

سِتَّةَ أَيَّامٍ : سِتَّةَ أَطْوَارٍ ، أَوْ سِتَ مَرَاكِلَ ، وَرُبَّمَا سِتَّةَ بِلَايِينَ سَنَةٍ .

اسْتَوَى : جَلَسَ ، وَالِاسْتَوَاءُ هُنَا بِمَعْنَى اسْتَوَى .

الْعَرْشُ : أَصْلُهُ : سَرِيرُ الْمَلِكِ ، وَفِي الْإِصْطِلَاحِ الدِّينِيِّ : خَلْقٌ عَظِيمٌ مُحِيطٌ بِالْعَالَمِ ، مِنْهُ تَنْزِلُ التَّدْبِيرَاتُ الْإِلَهِيَّةُ .

يُلَاحِظُ : يَدْخُلُ .

يَعْرِجُ : يَصْعَدُ .

يُؤَلِّحُ : يُدْخِلُ .

ذَاتُ الصُّدُورِ : مَكْنُونَاتُ النَفْسِ ، وَخَفِيَّاتُ السَّرَائِرِ .

تمهيد :

سورة الحديد سورة غنية بتثبيت العقيدة ، وحشد الدلائل على قدرة الله تعالى ، فهو سبحانه المنزه عن النظير والمثيل ، وهو المالك للسموات والأرض ، وبيده الحياة والموت ، وهو ظاهر في كل ما تراه العيون ، وهو باطن فلا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، وهو خالق الكون في ست مراحل ، حيث كان الكون كرة ملتفة ، مرَّتْ بها ستَّة بلايين سنة حتى صارت صالحة للحياة ، وكانت السماء صماء لا تمطر ، والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، والأرض بالنبات ، وأجرى الهواء ، وسخر الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وجعل الكون صالحاً لحياة الإنسان عليه ، وهو عالم بما ينزل في الأرض من كنوز ومعادن ويثور ، وما يخرج منها كالزروع والمعادن والبتترول لمصلحة الناس ، ويجب إخراج زكاته ، وهو عالم بما ينزل من السماء كالأمطر والملائكة ، وبما يصعد إليها من الدعاء .

وهو سبحانه يطيل الليل في الشتاء ، بحيث يمتد إلى ١٤ ساعة ، وينقص النهار حتى يصل إلى ١٠ ساعات ، ثم يحدث العكس في الصيف ، حيث يقصر الليل ويطول النهار ، وهو مطلع على خفايا النفوس ، ومحاسب على خفيات السرائر .

التفسير :

١- سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ثَرَّهَ اللَّهُ وَمَجَّدَهُ وَعَظَّمَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَبْرَاجِ وَالْأَفْلَاقِ ، وَالْصَّحَابِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَالْفَضَاءِ وَالْهَوَاءِ ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ وَالْأَشْجَارِ ، وَالرَّمَالِ وَالْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانَ ، وَالطُّيُورِ وَالْوَحُوشِ وَالزَّوْاحِفِ وَالْهَوَامِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَالِبُ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ ، الْحَكِيمُ فِي تَصْرِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ .

والتسبيح يكون بلسان المقال مثل تسبيح الإنسان والجآن والملائكة وسائر العقلاء .

وقد يكون التسبيح بلسان الحال ، بمعنى أن دلالة المخلوقات التي في الكون ، فيها إشارة إلى يد القدرة العليا التي تمسك بزمام هذا الكون ، وتحفظ نظامه ، وتدل بما فيه من نظام وإحكام على قدرة القديس ، وحكمة العزيز ، ومن التسبيح بلسان الحال : ارتفاع السماء ، وحركة الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنجوم والأبراج والأفلاك ، وجميع ذرات الأرضين ، وما فيها من جبال وبحار ، وشجر ودواب وغير ذلك ، كلها مسبحة خاشعة خاضعة لذاته .

قال تعالى : **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّعْيُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...** (الإسراء : ٤٤) .

قال المفسرون : قد جاء في بعض فواتح السور (سُبْحَ لِلَّهِ) بلفظ الماضي ، وفي بعضها (يُسَبِّحُ لَهُ) بلفظ المضارع ، وفيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحة لله أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة في المستقبل .

قال تعالى : **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ...** (الحج : ١٨) .

٢ - **لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .**

لله تعالى وحده ملك السماء وما فيها ، وملك الأرض وما عليها وما فيها ، فهو المالك الحقيقي لهذا الكون ، ومُلك غير الله ملك عارض ، أمّا ملك الله لهذا الكون ، وحفظه وعنايته بهذا الكون ، فذلك ملك دائم ، وهو سبحانه ذو قدرة بالغة ، لا يتعذر عليه شيء أراده من إحياء وإماتة ، وإعزاز وإذلال .

وقريب من ذلك ما ورد في آية الكرسي :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... (البقرة : ٢٥٥) .

٣ - **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .**

أورد ابن كثير طائفة من الأحاديث عند تفسير هذه الآية ، منها ما يأتي :

عن العرياض بن سارية ، أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال : «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»^(١١٨) .

والآية المشار إليها فى الحديث هى - والله أعلم - قوله تعالى : هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

وقد أخرج الحافظ أبو يعلى الموصلى ، عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يأمر بفراشه ، فيفرش له مستقبل القبلة ، فإذا أوى إليه توسد كفه اليمنى ثم همس ، ما أدرى ما يقول ، فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال : «اللهم رب السماوات السبع ، ورب العرش العظيم ، إله كل شىء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شئ كل شىء أنت آخذ بذناصيته ، اللهم أنت الأول الذى ليس قبلك شىء ، وأنت الآخر الذى ليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»^(١١٤) . وأخرجه مسلم ، وأحمد .

فأله تعالى أول ليس لوجوده بداية ، ولا لبقائه نهاية .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ • وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ • (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وهو سبحانه ظاهر للعقول بالأدلة والبراهين ، وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد .

وهو سبحانه باطن فلا تدركه الأبصار ، ولا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته .

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

قد أحاط الله بكل شىء علما ، أحاط علمه بكل ذرة فى الكون ، لا يعزب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو بكل شىء عليم .

٤ - هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

تسابق المسلمون إلى العمل بالقرآن الكريم ، وقد آمنوا بالمحكم ، وفوضوا إلى الله تعالى المتشابه ، واندفعوا إلى تحقيق مطالب الإيمان ، ففتحو البلاد ، ونشروا دين الله فى الأرض ، وبعد الفتوح والهدوء وجدنا البحث فى الصفات وفى المتشابه .

فالسلف يقولون : نؤمن بها كما وردت ، ونفوض المراد إلى الله تعالى .

مثل قوله تعالى : ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .

قال الإمام مالك :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

أى أننا نؤمن بآيات الصفات كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل ، نؤمن بأن الله على العرش ، كيف شاء وكما شاء ، بلا حد ولا صفة يبلغها واصف .

أما مذهب الخلف فيقولون : حاشا وكلأ أن يُنزل الله قرآنا ، ويطلب منا تدبره وفهمه والاستنباط منه ، ثم نمنع أنفسنا من تأويله بمعانٍ تليق بذاته تعالى ، مثل :

يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... (الفتح : ١٠) . وَلِصَّنْعَ عَلَىٰ عَيْنِي . (طه : ٣٩) . ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ . (الحديد : ٤) .

فيؤولون ذلك بقولهم : قدرة الله فوق قدرتهم ، ولتربى بعنايتى وتوفيقى ، ثم استولى وغلب وقهر وملك العرش ، وهو خلق عظيم محيط بالعالم ، منه تنزل التدبيرات الإلهية .

جاء فى تفسير المنار :

والمعنى الكلى المفهوم من العرش أنه مركز نظام الملك ، ومصدر التدبير له ، وأن المتبادر فى الاستعمال اللغوى استعمالهم : استوى على عرشه ، بمعنى ملك أو استقام أمر الملك له ، وثُلَّ عرشه ، بمعنى هلك وزال ملكه ، ونحن نعلم أن عروش ملوك البشر تختلف مادة وشكلا ، وهى من عالم الشهادة ، وصنع أيدى البشر ، أما عرش الرحمن فهو من عالم الغيب الذى لا ندركه بحواسنا ، ولا نستطيع تصويره بأفكارنا ، وحسبنا أن نفهم الجملة ، ونستفيد العبرة .

خلق السماوات والأرض

المتأمل فى الآيات التى تحدثت عن خلق السماوات والأرض وعن خلق الكون ، يخلص إلى النقاط الآتية :

- ١ - وجود مراحل ست للخلق عموماً .
- ٢ - تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض .
- ٣ - خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة ، كانت تشكّل كتلة متماسكة ، انفصلت أجزاؤها بعد ذلك .
- ٤ - تعدد السماوات ، وتعدد الكواكب التى تشبه الأرض .
- ٥ - وجود خلق وسيط بين السماوات والأرض .

٦ - إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولى فى العلم الحديث ، والدخان على حسب إشارة القرآن للدلالة على الحالة الغازية للمادة التى كونت الكون فى هذه المرحلة الأولى .

وآيات القرآن الكريم يفسر بعضها بعضا ، ويكمل بعضها بعضا ، وقد أفاد القرآن أن الكون كان كرة ملتهبة ملتصقة ببعضها ، وكانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض صماء لا تنبت ، ففتق الله السماء بالمطر ، وفتق الأرض بالنبات ، وسخر الهواء والقضاء ، والشمس والقمر ، والأنهار والبحار والنبات ، ليعمر الكون بإرادة الله .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مُّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .** (الأنبياء : ٣٠ - ٣٣) .
معنى الآية :

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ...

أى : خلق الكون فى مقدار ستة أيام من أيام الله تعالى ، ولو شاء لخلق السماوات والأرض فى لمح البصر ، لكنه أراد أن يعلم عباده الحكمة والصبر ، والأخذ بالأسباب ، واتباع السنن الإلهية فى الجد والعمل والدأب ، وانتظار الوقت المناسب لإنضا - الثمرة ، أو اكتمال العمل .

وقد انعقد فى الولايات المتحدة الأمريكية مؤتمر للبحث فى عمر الدنيا ، وعمر الإنسان على هذا الكوكب ، وذلك فى أبريل سنة ١٩٩٣ م ، وعين نتائج المؤتمر أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، وأن عمر الإنسان فى هذا الكون ٧ بلايين سنة ، أى أن خلق الكون قد استمر ٦ بلايين سنة ، حتى هدأت القشرة الملتهبة ، وأصبح الكون صالحا لحياة الإنسان ، ثم استخلف الله آدم لعمارة الأرض واستغلال طاقاتها ، وقدر الله فى الأرض أرزاقها وأقواتها ، وحث الإنسان على أداء الصلاة ، ثم السعى على كسب الأرزاق .

قال تعالى : **فَإِذَا فُجِّعَتِ الْمُضَلَّةُ فَاَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .**

(الجمعة : ١٠)

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ...

ثم استولى على الملك ، يدبره ويوصل كل شىء فيه إلى كماله .

يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ...

يعلم ما بداخل الأرض من مطر وأموات ويزور وحشرات ، وهوام وكنوز وغيرها ، علما تفصيليا ، ويعلم الله ، مَا يَخْرُجُ مِنْهَا . من نبات ونفائس ، ومعادن ونحوها ، كما قال تعالى :

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ... من الأرزاق والملائكة والرحمة والعذاب .

وَمَا يَخْرُجُ فِيهَا . وما يصعد إليها من كلم طيب ودعوات وعبادات ، أو ذرات البخار ، أو جن يسترق السمع ، أو أزواج تصعد إلى بارئها .

قال تعالى : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ... (فاطر : ١٠) .

وقال تعالى : أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ... (الملك : ١٤) .

وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ...

هو سبحانه مع خلقه جميعا بعلمه وقدرته ، وتدبيره وإحاطته بإحاطة تامة بجميع الموجودات .

قال تعالى : وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . (يونس : ٦١) .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

هو سبحانه مطلع وشاهد ، ورقيب وحسيب ، تنكشف أمامه جميع الموجودات انكشافاً تاماً دون سبب خفاء فهو سبحانه سميع بصير .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . (١٣٠) .

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنّ ما يخفى عليه يغيب

٥ - لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

هو المالك لأمرهما ، والمدير لشئونهما ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه .

إنه هو سبحانه المعزّ المذلّ، القابض الباسط ، المعطي المانع ، الكون في قبضته ، والسموات والأرض في ملكوته وحفظه ، وإليه مرجع الخلائق جميعا ، فيحاسبهم على أعمالهم ، ويجازيهم على الإحسان إحسانا ، وعلى السوء سوءا .

قال تعالى : وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (القصص: ٧٠).

٦ - يُورِثُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُورِثُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، فهو سبحانه يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته ومشيتته ، فتارة يطول الليل إلى ١٤ ساعة ، ويقصر النهار إلى ١٠ ساعات ، وتارة يحدث العكس ، يقصر الليل ويطول النهار ، وتارة يتركهما متعادلين ، وحينما يجعل الفصل شتاء أو ربيعا ، وحينما يكون صيفا أو خريفا ، ويقلب الطقس فتراه بردا ممطرا عاصفا ، وتراه تارة أخرى مشمسا هادئا ، ومرة حارّا لافحا ، ومرة معتدلا ، وهو سبحانه العليم بالسرائر والضمائر ، والمطلع على النوايا والخفايا ، وفي ذلك حث على الإخلاص ، والشكر لله على ما أولى وأنعم :

الحث على الصدقة

﴿عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بِنِسْبَتِ يُخْرِجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝٩ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَرْثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَاءِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا ۚ وَكَلا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٠ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ۖ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾

المضردات :

مستخلفين فيه : جعلكم سبحانه خلفاء عنه في التصرف من غير أن تملكوه .

وقد أخذ ميثاقكم ، قيل : هو الميثاق الأول وهم في ظهر آدم ، بأن الله ربكم لا إله لكم سواه ، وقيل : الميثاق هو أنه منحكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر فيها .

الآيات البينات ، القرآن .

الْفَتْح : فتح مكة .

الحسنَى : المثوبة الحسنَى ، وهي النصر والغنيمة في الدنيا ، والجنة في الآخرة .

يقترض الله ، ينفق ماله في سبيله رجاء ثوابه .

التفسير :

٧ - ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

سبق أن بينت الآيات السابقة أن الملك بيد الله ، فهو سبحانه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو

مطلع على النوايا والخفايا ، وهنا نجد تربية إلهية للمؤمنين :

عَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...

اصدقوا فى إيمانكم بالله ، وأنه وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، واصدقوا فى إيمانكم بمحمد رسول الله ، وقد يُطلب من المؤمن الإيمان ، بمعنى : زيدوا فى إيمانكم وبالقوا فى تضحياتكم ، والتزموا بطاعة أوامر الله ورسوله ، وأخلصوا النية .

قال تعالى : يٰۤاَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ... (النساء : ١٣٦) .

وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ...

فى النظم الشيوعية نجد العناية متجهة لتفخيم أمر المجتمع وحقوقه ، وفى النظم الرأسمالية تتجه العناية إلى حرية الفرد فى تجميع ماله ، أما النظام الإسلامى فقد اهتم بحق الفرد فى التملك ، وحرّم العدوان على مال الآخرين ، فحرم السرقة والغصب والرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، ثم أوجب للمجتمع حقاً فى الزكاة والصدقة والنفذ والكفارات ، فأوجد التعاون بين الفرد والمجتمع ، بحيث إنه جعل الغنى موظفاً اجتماعياً فى ماله ، فالمال مال الله ، والغنى مُستخلف عن الله فى رعاية المال وتثمينه ، وإخراج الزكاة والصدقة منه .

أخرج الإمام مسلم ، والإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشخير قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : «ألهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ؟ أو لبست فأبليت ؟ أو تصدقت فأمضيت ؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» (١٧١) .

فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ .

فالذين صدّقوا وآمنوا بربهم ورسوله ، وأنفقوا مما منحهم الله ، ومما جعلهم مستخلفين فيه ، لهم ثواب عظيم ، وأجر كبير وهو الجنة ، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون .

٨ - وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

أى شىء يمنعكم من الإيمان بالله ، والرسول محمد ﷺ قائم بينكم بالدعوة والتوضيح ، والحث على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ؟

وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ...

ركَّبَ الله فيكم العقول والأفكار ، وأودع فيكم التأمل والنظر ، وحثكم على استخدام الفكر والرأى ، واللبّ والغوّاد ، وبذلك ينتقل الإنسان إلى شاهد على أن هذا الكون لم يُخلق سدى ، ولن يترك عبثاً ، وأن وراء الكون البديع يد الله المبدع الخالق .

قال الشاعر :

وفى كل شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

وقيل : معنى : وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ...

إشارة إلى عهد الله على بنى آدم ، حين أخذ الذرية من ظهر آدم عليه السلام ، وأخذ عليها العهد والميثاق أن تؤمن بالله وملأكنه وكتبه ورسله واليوم الآخر .

والى ذلك أشار القرآن الكريم بقوله : وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ... (الأعراف : ١٧٢) .

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

إن كنتم مؤمنين فى وقت من الأوقات ، فالآن أحرى الأوقات ، لقيام الحجج والبراهين عليكم .

أخرج البخارى فى كتاب الإيمان ، أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا : الملائكة . قال : «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا : فالأنبياء . قال : «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟» قالوا : فنحن . قال : «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهرهم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم ، يحدون صحفاً يؤمنون بما فيها»^(١٣٣) .

قال ابن كثير :

وقوله تعالى : وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ .

كما قال تعالى : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الّذِى وَاقَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... (المائدة : ٧) .

ويعنى بذلك بيعة الرسول ﷺ .

٩ - هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبَيِّنُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

الوحي ينزل على رسول الله ﷺ حاملاً الهدى والبيان ، حاملاً دلائل الإيمان ، حاملاً أخبار البشرية ، وخلق الكون ، وخلق آدم ، واستخلافه فى الأرض ، وتاريخ البشرية ، وأخبار الرسل مع أقوامهم ، ومشاهد القيامة ، والبعث والحشر ، والجزاء والحساب ، والجنة والنار ، وكل هذه الآيات البينات من شأنها أن تُخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان ورسالة الإسلام .

وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

فى تشريعاته وتيسيراته ، ومن رحمته الهداية وإرسال محمد ﷺ ، ومن رحمته رفع الحرج ، فأباح التيمم للمريض عند عدم قدرته على استخدام الماء ، وأباح الفطر للمريض والمسافر فى رمضان ، ثم القضاء أو الغدبة .

قال تعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ... (المائدة : ٦) .

وقال سبحانه : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... (البقرة : ١٨٥) .

ومن رحمته قبول التوبة من عباده .

قال تعالى : وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف : ١٥٦) .

فما أعظم رأفته ، وما أعظم رحمته ، فقد قسم الرحمة مائة جزء ، أنزل جزءاً واحداً فى الدنيا يترحم به الناس ، وأدخر تسعة وتسعين جزءاً ، يرحم بها عباده يوم القيامة .

١٠ - وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُفْقَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَنَآ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

أى شىء يمنعكم من الإنفاق فى مرضاة الله ، ونصر دينه ، وتأييد رسوله ، وتبليغ دعوته ، ودعم الجهاد فى تأييد الإسلام ، ومرضاة الرحمن ؟

والحياة الدنيا محدودة ، فستنتهى أعماركم ، ويؤول المال إلى وارثكم ، وفى ذلك الوقت لا تستطيعون الإنفاق ، وفى الآخر : (إن مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما أخرت) .

أرأى أن الناس جميعاً ستفنى ، والله هو الباقي وحده ، وسيؤول إليه سبحانه ملك السماوات والأرض ، فملك البشر عارية محدودة ، وملك الله باق خالد .

قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . (الرحمن : ٢٦ ، ٢٧) .

وقال تعالى : وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

فالمال مال الله ، والإنسان مستخلف عليه لتثميده ووضعه في حقه ، وكان الرجل من الصالحين يقول : هذا مال الله عندي ، ويقول : لله عندي سبعة أولاد ، وسبعون ألفاً من الدراهم .

والخلاصة :

أنفقوا من أموالكم في سبيل الله قبل أن تموتوا ، ليكون ذلك ذخراً لكم عند ربكم ، فبعد الموت لا تقدرون على ذلك ، إذ تصير الأموال ميراثاً لمن له السماوات والأرض .

لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ ...

كان الإسلام غريباً في مكة ، مكث فيها النبي ﷺ ثلاثة عشر عاماً ، وكلُّ من آمن به مائتاً رجل وامرأة ، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة بدأ الجهاد والقتال ، وخاض النبي ﷺ مع أصحابه اثنتين وخمسين غزوةً وسريةً ، مع أن مدة المدينة كلها كانت عشر سنوات ، أي أنه كان لا يمضي شهران في المتوسط إلا والمسلمون يخوضون غمار غزوة مع رسول الله ﷺ ، أو سرية مع أمير من الصحابة ، وكان الوقت فيه عسرة ومشقة ، وقلة في المال ، فمن تطوَّع بماله ونفسه في تلك الفترة ، وفي وقت الجهد والمشقة والكفاح ، كان أصدق قصداً ، وأرغب فيما عند الله ، ثم فتحت مكة سنة ٨ هـ ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وجاء المال وجاءت المغانم ، وغنم المسلمون مغانم كثيرة في فتح حنين والطائف ، فقارن القرآن بين من أنفق قبل الفتح وحسبى بنفسه وماله ، مثل أبي بكر الصديق الذي قدَّم ماله كله ابتغاء مرضاة الله ، ومن قدم ماله وجاهد بنفسه بعد الفتح .

قال تعالى : أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقْتِنَا ...

من أنفق المال وقاتل في سبيل الله قبل فتح مكة ، أو قبل صلح الحديبية ، أعظم أجراً وثواباً ورضواناً من الله ، من الذين أنفقوا أموالهم ويزلوا أنفسهم بعد فتح مكة ، أو بعد صلح الحديبية .

وجمهور العلماء على أن المراد بالفتح فتح مكة ، وقيل : الفتح : صلح الحديبية .

قال قتادة : كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ...

أى: كلا من الذين أنفقوا وجاهدوا قبل الفتح ، والذين أنفقوا وجاهدوا بعد الفتح ، وعدهم الله الثواب العظيم والجنة ، أو عز الدنيا وشرف الآخرة ، وإن كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء .

كما قال تعالى : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٩٥) .

وفى الحديث الصحيح : «المؤمن القوى خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» .

لقد استوى الاثنان فى الخير ، وفى الجزاء بالحسنى والجنة ، لكن الله فاوت بين الاثنين فى الفضل ، وفضل من أنفق وجاهد فى وقت المشقة ، وقلة العدد وقلة المال ، حيث كان الإخلاص أظهر ، والرغبة فيما عند الله أوضح ، ومع ذلك جعل سبحانه جزاء حسناً لمن أنفق بعد الفتح وقاتل .

قال تعالى فى ختام الآية : وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

هو سبحانه مطلع على القلوب والنفوس ، عالم بالنوايا ، يعلم السر وأخفى ، وهو المجازى على أعمالكم ، فأخلصوا له النية .

١١ - مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ نَهْدًا وَكَهْرًا الْجَبْرُ كَرِيمٌ .

هذا استفهام للحث والتحفيز على الإنفاق فى سبيل الله ، وفى سائر وجوه الخير ، فالآية عامة فى كل خير ، أى : من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يعوضه الله أضعافاً كثيرة إلى سبعمائة ضعف ، مع الكرامة والبشرى بالجنة .

وقد كان للسابقين إلى الإسلام النصيب الأوفى من هذا القرض ، وذلك الجزاء الكريم .

أخرج البخارى ، ومسلم ، وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفس محمد بيده ، لو أن أحداكم أنفق مثل أحد ذهباً ، ما أدرك مئة أحدهم ولا نصيفه » (١٣٧) .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ نَهْدًا ... قال أبو الدحاح الأنصارى : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا

أبا الدحداح» قال : أرني يدك يا رسول الله ، فناولته يده . قال : إني أقرضت ربِّي حاطي (بستانى) ، وكان له حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح ، فناداها : يا أم الدحداح ، قالت لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربِّي عزَّ وجل .

وفى رواية أنها قالت له : ربح ببيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها .

وأن رسول الله ﷺ قال : «كم من عَذَقٍ رداح ، فى الجنة لأبى الدحداح» .

وجاء فى مختصر تفسير ابن كثير :

(العِزَقُ) : القنن من النخل ، والعنقود من العنب .

(ورداح) : ضخم مخصب .

★ ★ ★

من مشاهد القيامة

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَتُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنِفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يناديُهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَرْتَضُونَ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ قَالِیَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

المعزذات :

يسعى : يمشى مسرعاً .

نورهم : نور العمل الصالح الذى يوجب نجاتهم وهذايتهم إلى الجنة .

بشراكم : ما تبشرون به .

انظرونا : انتظرونا ، أو أمهلونا .

نَقْتَبِسْ ، أصل الاقتباس : طلب القبس ، أى : الجذوة من النار ، والمراد نستضيء ونهتدى بنوركم .

السُّور : الحاجز .

مِنْ قَبْلِهِ : من جهته .

بَلَى : حرف جواب ، يأتى جواباً لاستفهام منفى ، كما فى الآية ، أو رداً لنفى نحو : إنك لم تكن معنى أمس ، فتقول : بلى قد كنت معك .

فَتَنْتَمِ أَنْفُسُكُمْ : الفتن : إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته ، واستعمل فى إدخال الإنسان النار ، أى : أهلكم أنفسكم بالمعاصى والشهوات .

تَرِيصْتُمْ : انتظرتم بالمؤمنين مصائب الزمان .

وَارْتَبِيتُمْ : شككتم فى أمر البعث وفى أمر الدين .

الْأَمَانِيُّ : الأباطيل من طول الآمال ، والطمع فى انتكاس الإسلام .

السُّرُور : الشيطان .

فَسَدِيَّة : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك .

مَأْوَاكُمُ النَّارُ : مقامكم ومنزلكم الذى تأوون إليه .

مَوْلَاكُمْ : أولى بكم .

الْمَصِير : المآل والعاقبة .

تمهيد :

تصف الآيات مشهداً من مشاهد القيامة ، فالمؤمنون يجدون أمامهم نور الأعمال الصالحة ، ووجوههم مشرقة كالقمر ، ويتحرك النور أمامهم ، ومن جهة إيمانهم ، وتبشّرهم الملائكة بالجنة وأنهارها ونعيمها ، والخلود فيها ، والفوز برضوان الله تعالى .

أما المنافقون فلا يجدون نوراً ، وهم فى ظلام دامس مطبق عليهم ، وهم فى ظلمات بعضها فوق بعض ، ثم يمر المؤمنون عليهم والنور يسير أمامهم ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انظروا إلينا حتى نهتدى بنوركم ونسير فيه إلى الجنة ، فيقول المؤمنون للمنافقين : ارجعوا إلى الدنيا ، فإن العمل الصالح فى الدنيا هو سبب النور اليوم ، وهو تهكم بهم ، فإنهم لا يستطيعون الرجوع إلى الدنيا ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع .

ثم يوضع حائط بين أهل الجنة وأهل النار ، من جهة أهل الجنة رحمة ونعمة ، ومن جهة المنافقين عذاب وشدة ، وهنا يبدأ حوار بين المنافقين والمؤمنين ، فيقول المنافقون للمؤمنين : ألم نكن معكم فى

الدنيا ، فى الصلاة والجهاد وغير ذلك ؟ فيقول المؤمنون : كنتم معنا بأجسامكم ، ولم تكونوا معنا بقلوبكم ، حيث غرتكم المظاهر والشهوات ، وغرّم الشيطان ، وزين لكم الكفر والنفاق ، والشك فى دين الإسلام ، حتى جاءكم الموت وأنتم على النفاق والكفر ، فالיום لا يقبل منكم فدية كما كان فى الدنيا ، ولا مأوى لكم إلا النار وينس المصير .

التفسير :

١٢ - يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَمِيعًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

هذا مشهد عظيم ، حين ترى المؤمنين والمؤمنات يتلألأ النور من أمامهم وعن أيماهم ، إنه نور العمل الصالح ، يسير أمامهم ليستضيئوا به على الصراط ، وتكون وجوههم مضيئة كإضاءة القمر فى سواد الليل ، وتبشّرهم الملائكة بالبساتين والنعيم المقيم ، والأنهار التى تجرى من تحتهم : أنهار من لبن ، وأنهار من خمر ، وأنهار من عسل ، وأنهار من ماء نقى نظيف ، وتبشّرهم الملائكة بالخلود الأبدى السرمدي ، وبالغوز بالجنة ونعيمها ، وبالرضوان الإلهى ، والكرامة والنعمة ، فهم أهل للنعيم الحسى فى الجنة ، مع النعيم المعنوى فى الكرامة والرضا الإلهى ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (التوبة : ٧٢) .

لقد فاز المتقون فوزاً عظيماً .

أخرج ابن أبى شيبة وغيره ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود أنه قال : يوتون نورهم على قدر أعمالهم ، يمرّون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره على إبهامه يطفأ مرة ويقد أخرى .

١٣ - يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ لِيَهُمُ اسْمُ اللَّهِ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ .

ما أشدّ هول هذا اليوم ، إنه يوم الجزاء ، فالدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

والمعنى :

انظر يا كل من يتأتى منه النظر ، الجزاء الحسن للمؤمنين ، نورهم يسعى أمامهم وعن يمينهم ، وتبشّرهم الملائكة بالجنة ، ويحبس المنافقون فى ظلام دامس : ظَلُمْتُ بِغَضِّهَا فَرَقَ بَعْضُ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ . (النور : ٤٠) .

عندئذ يمر المؤمنون في موكب التكريم والتعظيم ، والنور المبين ، فيقول المنافقون للمؤمنين : انتظرونا حتى نستضيء بجزء من نوركم ، ونسير فيه إلى الجنة ، فيقول المؤمنون لهم : ارجعوا إلى الدنيا ، فاعملوا العمل الصالح الذي يكسبكم النور يوم القيامة ، وهو تهكم بهم لأنه لا رجعة إلى الدنيا أبداً بعد القيامة ، كما أن اللب لا يعود إلى الضرع بعد أن يُحلب منه ، ولله در القائل :

صاح هل ريتَ أوسعت براع
ردّ في الضرع ما قرى في الحلاب

لقد كان المنافقون يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا ، فردّ الله لهم جزاءً وفاقاً ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** . (البقرة : ١٥) .

فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ سُورًا لَّهُ بِابٍ ...

أى : ضُرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب يحجز بين أهل الجنة وأهل النار .

بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ...

يفصل الله تعالى بين أهل الجنة وأهل النار بهذا السور الذي يحجز بين الفريقين ، جانب السور الذي يلى المؤمنين فيه الجنة والرحمة والثواب والنعيم ، وظاهر هذا السور وجانبه الذي يلى المنافقين والكفار يكون من جهته العذاب الأليم .

قال ابن كثير : هو سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب ، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وشك وحيرة .

١٤ - **يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ** .

ينادى المنافقون على المؤمنين قائلين لهم : ألم تكن معكم في الدنيا نصلّى معكم الجمع والجماعات ، ونقف معكم على جبل عرفات ، ونقاتل معكم في الغزوات ، ونصلّى كما تصلّون ، ونصوم كما تصومون ، ونسير معكم فيما تفعلون ؟

قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ...

أى : قال لهم المسلمون : نعم كنتم معنا في الظاهر ، ولكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق والخداع ، والاستكثار من متعة الدنيا وزينتها ، فعرضتم أنفسكم للنار .

وَتَرْبُصُمْ . انتظرتهم بالمؤمنين الدوائر ، وظننتم أن أمر الإسلام إلى زوال .

وَأَرَبْتُمْ . شككتهم في أمر الدين ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبكم .

وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيَّ . خدعتكم الأباطيل والأمانى الكاذبة ، بسعة رحمة الله لأمثالكم .

حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ . حتى فاجأكم الموت وأنتم على باطلكم .

وَعَزَّيْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . خدعكم الشيطان عن أنفسكم ، وزين لكم التمرد والمعاصي والابتعاد عن الإسلام وبتبعاته .

قال المفسرون : الغرور (يفتح الغين) الشيطان ، لأنه يغر ويخدع الإنسان .

قال تعالى : فَلَا تَغُرُّكُمْ الْحَيَزةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ...

(فاطر : ٦٠ ، ٥)

١٥ - فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَتْكُمْ آثَارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَيُسْ أَلْمَصِيرُ .

فَالْيَوْمَ . وهو يوم القيامة ، ويوم الجزاء ، يتمنى الكافر أن يفقد نفسه من العذاب بالدنيا وما فيها لو كان يملكها ، وهو يوم لا محسوبة فيه ولا شفاعاة ، ولا تقبل فيه فدية : وهى ما يبذل لحفظ النفس عند النأبة والمصيبة ، أى : لن يقبل من المنافقين ملء الأرض ذهباً ، ولا من الذين كفروا بالدين ، ليفقدوا أنفسهم من العذاب .

مَأْوَتْكُمْ آثَارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَيُسْ أَلْمَصِيرُ .

مقامكم ومنزلكم وإقامتكم الدائمة في نار جهنم .

هِيَ مَوْلَاكُمْ . هى أولى بكم ، ولا ولى لكم سواها ، ويس المرجع والمنقلب في نار جهنم ، نعوذ بالله من حال أهل النار .

وفى الحديث الصحيح : «إن الله تعالى يقول للكافر : أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا ، أكننت تفقدى بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تبارك وتعالى : قد سألتك ما هو أيسر من ذلك ، وأنت فى ظهر أبيك آدم ، ألا تشرك بى ، فأبيت إلا الشك»^(١٧١) .

وجاء فى تفسير القرطبي : السعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل .

خشوع القلوب

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ
 الْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ
 ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدَةُ عِنْدَهُمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ
 وَتُؤْتَاهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

أَلَمْ يَأْنِ : ألم يجئ ويحن الوقت ؟ الآن الآن قبل ألا يكون أن .

الخشوع : الخشية والخوف .

ذكر الله : مواعظه .

الحق : القرآن .

الذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

الأمم : الزمن الممتد .

قست قلوبهم : صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة .

فاسقون : خارجون على حدود دينهم ، رافضون لما جاء فيه من أوامر ونواهي .

يحيي الأرض : يجعلها خصبة بالنبات والزرع .

موتها : جدها وفقرها .

الآيات : البينات والحجج .

تعقلون : تدبرون .

المتصدقين : المتصدقين بأموالهم على البائسين وذوي الحاجة .

القرض الحسن : الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله .

الصَّـدِّيقُ ، من كثر منه الصدق وصار سجية له .

الشَّهـِداءُ : من قُتِلُوا في سبيل الله ، واحدهم شهيد .

تمهيد :

تستنهض الآيات همم المسلمين وتحثهم على العناية بالقرآن ، وتنفيذ أوامر الإسلام ، وتنهاهم عن الفتور والكسل ، وعن التواني في تنفيذ أحكام الإسلام ، وألا يفعلوا كما فعل اليهود والنصارى حين طال عليهم العهد بينهم وبين أنبيائهم فقسفت قلوبهم ، وأعرضوا عن أوامر الدين ونواهيهِ .

ثم تفيد الآيات أنه لا يأس ولا قنوط من رحمة الله ، فكما أن الله يحيى الأرض الميتة بالماء ، فتَهْتَرُ وتنبت نباتاً رابياً ، كذلك عندما يدخل الهدى إلى القلب ، يتحول من الجفاء إلى الإيمان ، ومن الكنود إلى الطاعة ، ومن اتباع الهوى إلى طاعة الله تعالى ، ثم ذكرت التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

التفسير :

١٦ - أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ .

القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، وتحتاج إلى التذكير والموعظة لتقلع عن الغرور بالدنيا والارتكان إليها ، ولتذكر الآخرة ومواقفها والعمل لها .

ومعنى الآية :

ألم يأن الأوان ، ألم يحن الوقت ليجدد المؤمنون التوبة إلى الله تعالى ، والرجوع إليه ، والاعتصام بحبله ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيهِ ؟

أما حان الوقت لتخشع قلوب المؤمنين لمواعظ الله وآياته ، التي ترقق القلوب ، وتدمع العيون ، وتذكر الآخرة ؟

أما حان الوقت للنظر في كتاب الله نظر تأمل وعبادة ، ورقّة وطاعة ؟

أما حان الوقت للتمسك بالقرآن ، وبغرى الإسلام ، والابتعاد عن اتباع اليهود والنصارى الذين طال عليهم العهد ، وتعدت المدة الزمنية بينهم وبين أنبيائهم ، فقسفت قلوبهم وتحجرت ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، لا ترق ولا تلين لسماع التوراة والإنجيل ؟

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

وكثير من أهل الكتاب خارجون على تعاليم السماء ، ضعفت صلتهم بكتب الله ، واتخذوا كتاب الله وراءهم ظهرًا .

قال ابن كثير :

نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم ، من اليهود والنصارى ، لما تناول عليهم الزمن بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، ونذوه وراء ظهورهم ، واتخذوا أحبارهم ورجالهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد^(١٢٤) .

وقال ابن عباس : استبطأ الله قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن ، فقال : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ...^(١٢٥) الآية

١٧ - اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

القلوب إذا أهملت صدأت وخمدت ، ولكن لن يأس المؤمن من فضل الله وهدايته ، ولن يمل من التوبة والرجوع إليه سبحانه ، فكما أن الأرض الجافة الصلبة إذا نزل عليها الماء اخضرت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، فكذلك يحيى الله القلوب بعد قسوتها ، ويهذى الحيارى بعد ضلالهم ببراهين القرآن ودلائله ، ونور الهداية وإشراق التوجيه ، وفضل العناية الإلهية .

قد أروضنا لكم الآيات والحجج كي تتدبروها ، وتعقلوا ما فيها من المواعظ ، وتعملوا بموجب ذلك .

١٨ - إِنْ أَنْتُمْ تُحِبُّونَ وَالْمُصَّدِّقِينَ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُمْسِكْهُمْ لَهُمْ وَأَجْرٌ كَرِيمٌ .

يحث القرآن على الصدقة والتصدق ابتغاء وجه الله ، وتذكر الآية هنا أن المتصدقين والمتصدقات الذين تصدقوا بأموالهم رغبة خالصة فيما عند الله ، فكأنهم أقرضوا أموالهم لله فى الدنيا ، لينالوا ثواب ذلك فى الآخرة ، فأى شرف وأى فضل أعظم من ذلك .

إن المتصدق يضع المال فى يد الله قبل أن يضعه فى يد الفقير ، فيمنه ويباركه ، ويضاعفه أضعافاً كثيرة ، ويعطى على الحسنة عشرًا إلى سبعمائة ضعف ، وفوق ذلك أجر كريم ، وجزاء عظيم ، وكرامة عظمى لهؤلاء الذين صدقوا فى إيمانهم ، وقدموا أموالهم رخيصة فى مرضاة الله تعالى ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى والليث بن سعد وأمثالهم .

والمُصَدِّق هو المتصدق، أدغمت التاء في الصاد، ويمكن أن يراد بالمصدقين الذين تكرر صدقهم مع الله في عباداتهم ومعاملاتهم وسلوكهم، فاستحقُّوا لقب المُصَدِّقِينَ، أى أهل الصدق مع الله تعالى، فهي من التصديق لا من الصدقة، ويمكن أن ينطبق الوصفان على شخص واحد، فهو يتصدق كثيراً ابتغاء وجه الله، وهو صادق مع الله، كثير التصديق لكلام الله، ومن أصدق من الله حديثاً.

١٩ - وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّجِيمِ .

إذا صدق المؤمن في إيمانه وتصديقه بالله ورسله، فتح الله أمامه أبواب الرقي إلى الدرجات العلى، فالإيمان لمن صدق لا لمن سبق، ليس في الإسلام كهنوت أو خصوصية تقصر الرقي إلى الدرجات العلى على أسير معينة أو فئة معينة.

فسلمان الفارسي صدق في إيمانه، فقال ﷺ: «سلمان منا آل البيت»^(١٦٧). ومثل ذلك صهيب الرومي، وبلال الحبشي، وتخلف عن ركب الرسالة أبو لهب القرشي.

وهنا يسجل القرآن وساماً للمؤمنين الصادقين في إيمانهم، فيجعلهم في درجة الصديقين، وفي درجة الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيل الله، فأدخلهم الله الجنة، وجعل أرواحهم في حواصل طير خضر تسبح حول الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من رحيقها المختوم، كما ورد في الحديث الصحيح.

والمفسرون لهم رأيان في تفسير هذه الآية:

الرأى الأول:

أن لها موضوعين فقط هما: المؤمنون، والكافرون.

والمعنى:

والذين آمنوا بالله رباً وخالفاً وإلهاً واحداً أحداً، وآمنوا بالرسول أجمعين ولم يفرقوا بين أحد منهم: هؤلاء هم الصديقون الذين صدقوا في إيمانهم فحازوا درجة الصديقية، ودرجة الشهادة في سبيل الله.

قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله فهو صديق وشهيد. (عن تفسير الفخر الرازي).

الرأى الثانى :

معنى الآية كالآتى :

والذين آمنوا بالله ورسله هم فى منزلة الصديقين ، والذين استشهدوا فى سبيل الله هم فى منزلة عليا عند الله تعالى ، لهم أجر الشهادة فى سبيل الله ، ولهم النور الموعود الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

أى أن الآية أشارت إلى ثلاثة أصناف :

١ - الذين آمنوا بالله ورسله لهم درجة الصديقين .

٢ - الشهداء عند الله تعالى فى أعلى الجنان لهم ثوابهم ونورهم .

٣ - الذين كفروا بآيات الله أولئك أصحاب الجحيم .

وقد أورد الحافظ ابن كثير الرأىين فى تفسيره ، واستشهد للرأى الثانى بقوله :

قال أبو الضحى : **أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** . ثم استأنف الكلام فقال : **وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ** .

وعن ابن مسعود قال : هم ثلاثة أصناف : المصدقون ، والصديقون ، والشهداء ، كما قال تعالى : **وَمَنْ يَطْعُرْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رُفِيقًا** . **ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** . (النساء : ٦٩ ، ٧٠) .

وفى الآية نجد أربعة أصناف : الأنبياء ، الصديقين ، الشهداء ، الصالحين .

والأمر فى حقيقته راجع إلى فضل الله ونعمته وألطافه وكرمه .

وقد وردت الأحاديث الصحيحة ترفع من شأن من صدق بالله ورسله ، وتبين أنه فى الغرف العليا فى الجنة ، التى يتطلع أهل الجنة إليها ، كما نتطلع إلى نجوم السماء .

روى الشيخان ، ومالك فى الموطأ أن رسول الله ﷺ قال : «إن أهل الجنة ليقراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تقرأون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم» . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : «بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (١٢٨) .

الشهداء :

أما منزلة الشهداء فقد تكرر ذكرها في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، لقد جادوا بأرواحهم وأنفسهم في سبيل الله ، ولإعلاء كلمة الله ، فجعلهم الله عنده أحياء ، كما قال تعالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ . (آل عمران : ١٦٩ - ١٧١) .

وأخرج الشيخان وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال : «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة» (١٣٧) .

من المنتخب في تفسير القرآن

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحدهم ، أولئك هم الصديقون والشهداء ، منزلةً وعلوً مرتبة ، لهم ثواب ونور يوم القيامة ، مثل ثواب الصديقين والشهداء ونورهم ، والذين كفروا وكذبوا بآيات الله أولئك هم أصحاب النار لا يفارقونها أبداً .

مقارنة

بينما نجد المؤمنين الصادقين في إيمانهم ترتفع أقدارهم ودرجاتهم في معية الله وكرامته ، مع الثواب الجزيل ، والنور المبين ، نجد جزاء الكافرين الذين كذبوا بآيات الله ، وجدوا حقائق الإيمان ، وكفروا بالله ورسوله ، نجد أنهم يلازمون الجحيم كأنهم أصحابها ، لا يفارقونها أبداً : أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ .

اللهم إنا نعوذ بك من النار ومن عذاب النار ، ومن كل عمل يقربنا إلى النار ، اللهم أدخلنا الجنة مع الأبرار ، بغضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

صفة الدنيا

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَرَنَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا
وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ الْغُرُورِ
(٢٠) سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
(٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن
نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا
بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ
الَّتِي بَالِبُهَا وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤)﴾

المفردات :

اللعِبُ : ما لا ثمرة له كلعب الصبيان .

الزِينَةُ : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

زِينَةٌ : كالملايس الفاخرة يتزين بها أهلها .

تَفَاخُرٌ : بالأنساب والأموال ، أو تكبر وتعال .

تَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ : مباحاة بكثرة العدد والغدَد .

الْمَغْفِرَةُ : المطر .

الْكَفَّارُ : الزَّرَّاع .

يَهِيْجُ : يبتدئ في اليبس والجفاف بعد خضرته ونضارته .

حُطَامًا : هشيما متكسرا من يَبْسِه .

الْغُرُورُ : الخديعة .

فى الأرض ، كالجذب والفاقة .

فى أنفسكم ، كالمرض وموت الأحياب .

فى كتاب ، هو اللوح المحفوظ .

نبرأها ، نخلقها .

تأسسوا ، تحزنوا .

ما فاتكم ، من نعيم الدنيا .

ما آتاكم ، ما أعطاكم .

المبختال ، المتكبر بسبب فضيلة تراءت له فى نفسه .

فمن خبهر ، كثير الفخر بالأشياء العارضة كالمال والجاه .

تمهيد :

القرآن الكريم كتاب هداية ، وهو تنزيل الحكيم الحميد ، وهو سبحانه يتخول^(١٢٢) عبادته بالموعظة ، فتتحول القلوب إلى الإيمان واليقين بأن الدنيا متاع ، وهى عرض عابر ، يأكل منها البر والفاجر ، والآخرة حياة مستمرة ، تستحق التضحية والجهاد ، وقد رسم القرآن صورة للدنيا فى سرعة زوالها ، وعاجل تحولها ، بزرع أخضر نام ، يعجب به الزراع ، ثم يتحول الزرع إلى الشيوخة والكبر ، حين يحين موسم الحصاد ، وتنتهى حياة الزرع ، كما تنتهى حياة الإنسان .

هذه هى الدنيا ، أشبه بلعب الأطفال ، ولهو اللاهين ، وزينة عابرة فى الملبس والمظهر ، ثم تنتهى الدنيا ، وتبقى الآخرة وجها لوجه ، وفيها العذاب الشديد للكافرين ، والمغفرة والرحمة للمؤمنين .

ثم حث القرآن على التسابق فى عمل الخير فى الدنيا ، للوصول إلى جنة واسعة أعدها الله للمتقين ، تفضلاً منه ونعمة ، ثم تستمر الآيات فى الدعوة إلى تكامل الشخصية ، والشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضا بأسباب القضاء ، فقد كتب الله فى الأزل على كل نفس عمرها ووزنها ومستقبلها ، حتى لا تحزن حزناً مفرطاً على مفقود ، ولا تفرح فرحاً مطغياً على موجود .

التفسير :

٢٠ - اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَغْرَبَ الْكُفَّارَ نِبَاتَهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْآخِرَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ .

الدنيا إلى فناء ، وهي مزرعة للأخرة ، وينبغي أن يعرف المؤمنون حقيقة الدنيا ، هي مظاهر كلب الأطفال ، ولهو الشباب ، وزينة النساء ، وتفاخر بين أهل الدنيا بالملبس والمظهر ، أو التفاخر بالأموال والأولاد ، أو التباهي بما ملك الإنسان أو حازه ، فالدُّنيا ليست مذمومة في ذاتها ، لأنها يمكن أن تكون وسيلة لمرضاة الله ، وللصدقة وعمل الخير ، ولكن المذموم هو الغرور بالدنيا وحبها ، والرغبة المفسدة في المظهر والمنصب ، والجاه والسلطان ، بدون نية صالحة .

روى عن سعيد بن جبير أنه قال : الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة . فأما إذا دعيت إلى طلب رضوان الله تعالى ، وطلب الآخرة ، فنعم المتاع ونعم الوسيلة .

مثال الدنيا

الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، فهي تحلى لتمرّ ، وتعطى لتأخذ ، وقد حدّرنا القرآن من الغرور بالدنيا والتشجيع بها ، فالغرور من غرته الدنيا عن الآخرة ، ومن اعتبر الدنيا غايته فأخذ يركض وراء ما فيها من مال وجه وسلطان مع أنه زائل ، والمتعلق بالدنيا كالطفل المتعلق باللعب واللهو ، والزينة والمظهر ، فإذا بلغ مرحلة الرجولة العقلية رأى بعين قلبه أن الدنيا إلى فناء ، وأن الآخرة إلى بقاء ، وإذا غرّت الدنيا الكفار والفجّان والسلطحيين في إيمانهم ، فينبغي ألا تغرّ المؤمنين الصادقين .

كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَاتِهِ، ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَدُّ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطْلَمًا ...

أى : ما مثل الدنيا في سزعة تحولها وفنائها وانقضائها ، إلا كمثال زرع أصابه غيث من المطر النافع ، فاخضر ونما ، وصار بهجة للناظرين ، يُعجب الزُّرَّاع ويجعلهم في غبطة وجور ، وبهجة وسرور ، لكن خضرة الزرع وجماله وشبابه لا تدوم ، فبعد فترة محدودة يقترب موسم الحصاد ، فيصفّر الزرع ، ويدنو قطف الثمرة ، وتحول الأوراق إلى وقش متكسّر يابس ، ثم تكون هشيما تذروه الرياح .

ملحوظة :

الكفار : الزُّرَّاع ، وسمّى الزارع كافرا ، لأنه يكفر النبات ، فيستره بالأرض ، ويسقيه حتى ينبت ، وسمى الكافر بالله كافرا ، لأنه ستر نعمة الله عليه وجدها ، فلم يؤمن بالله .

ثم ذكر القرآن هنا عاقبة المنهمكين في الدنيا ، المغترّين بلهوها وعبثها وزينتها ، المثشغلين بها عن الإيمان والجهاد وطلب ما عند الله ، وذكر عاقبة المتقين المعرضين عن الغرور بالدنيا ، الطالبين لرضوان ربّهم ، فقال :

وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ...

أي : هذه هى الدنيا الغانية ، ثم يفتح القرآن العيون على الآخرة ، والناس فيها صنفان : صنف فى عذاب شديد دائم لمن كفر بالله وأهمل تعاليمه ، وصنف فى مغفرة من الله تعالى ، وبحبوحة من رضوانه ، لأنه أطاع ربه وعمل بأوامره ، وجعل دنياه مزرعة لآخرته .

روى ابن جرير ، وجاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «موضع سوط فى الجنة ، خير من الدنيا وما فيها ، اقرأوا : وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ .^(١٣١)»

وأخرج البخارى ، وأحمد ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «لَلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شَرَاكِ نَحْلِهِ ، وَالنَّارِ مِثْلُ ذَلِكَ»^(١٣٢) .

قال ابن كثير فى تفسير الآية :

هكذا الدنيا ، تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان يكون كذلك فى أول عمره وعنفوان شبابه ، غشياً طرياً ، لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى . اهـ .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ . (الروم : ٥٤) .

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ .

ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع فان زائل ، خادع لمن ركن إليها واغتر بها ، وظن أنها غاية ونهاية ، فمن ألهمته الدنيا عن الآخرة فهو المغبون ، ومن نظر إلى الدنيا نظرة فاحصة ، فاعتبرها وسيلة وتزود منها بالصالحات فهو الناجح .

طلقوا الدنيا وعافوا الفتنا
لحيى سكننا
صالح الأعمال فيها سُئِنَا

إن لله عبادةً قُطِنَا
لما رأوها ليست
حسبوها لُجَّةً وانخدوا

ويقول الآخر :

سجته العنكبوت
عن قريب سيموت
أيها الراغب قوت

إنها الدنيا كبيت
كل ما فيها لعمرى
إنما يكفيك منها

ونحن إذا نظرنا إلى روح الإسلام ، نجد أنه لا يدعو إلى الانعزالية ، ولا إلى رفض الدنيا ، وإنما يريد الإسلام مسلماً متوازناً ، يعمر الدنيا بالعلم والزراعة والصناعة ، والتفوق الطبى والعلمى والأخلاقى ليكون نموذجاً رائعاً يعمر الدنيا بالقيم والعمل والأمل ، ولذلك قال الله تعالى : **وَلَا تَسْ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا...** (القصاص : ٧٧) .

وفى الحديث الصحيح : «إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه»^(١٣٣) .

وفى القرون الوسطى الإسلامية وردت مواعظ كثيرة ، وأشعارٌ متعددة ، تزهّد الناس فى الدنيا ، والغنى والتفوّق والتقدم ، وأصيب الناس بالتواكل والكسل ، والزهد والانحطاط ، فلا أقول التواضع ، بينما نهض الغرب وقويت جيوشه وأساطيله ، فاستعمر بلاد الإسلام ، ورأينا مصر والسودان والعراق تحت حكم إنجلترا ، ورأينا الجزائر والمغرب والشام تحت حكم فرنسا ، ثم جاءت الصحوة الإسلامية الحديثة ، فاخترت نغمة الزهد الأبله ، والمسكنة والانحطاط ، ورأينا دعوة للأمة الإسلامية إلى استرداد مكانها ومكانتها ، لتكون بحق كما قال الله تعالى : **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...** (آل عمران : ١١٠) .

وكما قال سبحانه : **وَكَلَّا لِكَ جَعَلْنٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...** (البقرة : ١٤٣) .

ومن هذه الوسطية ألا نترك الدنيا للأخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، بل نعمل للدنيا لتكون فيها سادة وقادة ، وأعزاء أقوياء ، ونجعل من الدنيا وسيلة لإعزاز ديننا وأنفسنا .

وفى الحديث الشريف : «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» .

وقد تكرّر فى القرآن الكريم وصف الدنيا ، وسرعة تحوّلها ، وغرور أهلها بها ، ثم تغلّتها من بين أيديهم ، مثل قوله تعالى : **وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِن السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ه** **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ** **عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** . (الكهف : ٤٥ ، ٤٦) .

والى جوار ذلك دعوة رائدة إلى العمل والتفوق .

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا** . (الكهف : ٣٠) .

والخلاصة :

علينا أن نملك الدنيا ثم نزهد فيها ، ونجعلها وسيلة لعزّ الدنيا وسعادة الآخرة ، وأن يكون المسلم صاحب شخصية متوازنة ، تعمل للدنيا بدون طمع أو جشع ، وتعمل للآخرة بكل قصد سليم ونية صالحة ، ودعاء خالص لله : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة : ٢٠١) .

٢١ - سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

بادروا وسارعوا مسارعة المتسابقين إلى أسباب مغفرة الله لكم ، وذلك بالتوبة النصوح ، والعمل الصالح ، وإخلاص النية ، وبادروا وسارعوا إلى عمل صالح يكون وسيلة لجَنَّة واسعة ، عرضها كعرض السماء والأرض معاً ، وإذا كان هذا قدر عرضها ، فما ظنك بطولها ؟

هذه الجنة أعدّها الله ، وجعلها كاملة الأوصاف ، فيها ألوان النعيم ، والحدود العنبر ، والأنهار والأشجار ، والظلال والأرائك ، وألوان الطعام والشراب والفاكهة ، وما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها الخلود الأبدى السرمدي ، وقد أعدّها الله للذين آمنوا بالله ورسله ، وصدّقوا بذلك عن يقين ، وعملوا بما أمر الله ، واجتنبوا نواهيه .

ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ...

هو تفضّل منه ورحمة ، وحنان وعناية ، وعطف وبر بالصالحين ، فهو الذي هداهم ووفقهم ، ثم أعدّ لهم الجنة ، فضلاً منه ونعمة .

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

والله تعالى صاحب الفضل العظيم الواسع ، فما أجل أنعمه ، وما أعظم فضله ، وما أجل هدايته وتوفيقه ، وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ... (إبراهيم : ٣٤) .

يقول أحد السلف الصالح : أنفس هو خالقها ، وأموال هو رازقها ، يطلبها منا ثم يعطينا عليها الجنة ، إن هذا الفضل عظيم .

يشير إلى قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ... (التوبة : ١١١) .

فيا سعادة من أدرك السباق ، ومن حظى بالإيمان واليقين ، ومن فاز بجنة عرضها كعرض السموات السبع والأرضين ، ويا سعادة من أنعم الله عليه بفضلِهِ ، وهو سبحانه صاحب الفضل العظيم .

جاء في الحديث الصحيح : أنَّ فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور ، وبالدراجات العلى والنعيم المقيم ، قال : «وما ذاك» ؟ قالوا : يصلُّون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتهم من بعدهم ، ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلما صنعتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون ذُبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين» ، قال : فرجعوا ، فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(٢٢١) .

فالسعيد حقاً من تعرض لفضل الله وعنايته ، وحبه ورعايته ، فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان
ويقول الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاد
وإذا كان من الله عون للفتى تهياً له في كل أمر مراد

إن ثمن ذلك دوام الإخلاص ، واليقين بالله ، والحرص على رضا ، والبعد عن معصيته ، وإظهار العجز والضعف أمام قدرته ، والحرص على أن ينظر منك إلى قلب طاهر ، ونفس مطمئنة ، وزهد في الدنيا ، وحرص على الآخرة ، واتباع لهدى القرآن ، واقتداء بالنبي ﷺ ، وتعظيم للصحابة والتابعين ، وغيره على الإسلام والمسلمين ، حتى تحظى بحبه ورضاه .

قال تعالى : يُجِيبُهُمْ وَيُجِيبُهُمْ... (المائدة : ٥٤) .

وفي الحديث الصحيح : «ما تقرب عبدي إلى بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويد التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن دعاني لأجيبه ، ولئن سألتني لأعطينه»^(٢٢٢) .

٢٢ - مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

الكون كله في قبضة الله ، وفي تقديره وفي علمه ، فالله تعالى هو خالق الكون ، وهو خالق الإنسان ، وهو المدبّر والمنظم لهذا الكون ، بما فيه من سماء وأرض ، وإنس وجن ، وحيوان وطيور ، وزواحف ووحوش ،

وأَنْهَارٌ وَبِحَارٌ، وَفَلَاةٌ وَأَشْجَارٌ، وَسَائِرُ الْمَوْجُودَاتِ، وَمَا يَقَعُ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ مِنْ فُسَادِ زُرَاعَةٍ أَوْ عَاهَةٍ فِي الزَّرْعِ، أَوْ غَرَقٍ أَوْ حَرِيقٍ، أَوْ فِي الْأَنْفُسِ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ عَاهَةٍ، إِلَّا وَهُوَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَزْلِ، فَقَدْ قُدِّرَ لِلَّهِ مَقَادِيرُ الْأَشْيَاءِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وَأَحْكَمَ كُلَّ شَيْءٍ وَفَصَّلَهُ تَفْصِيلاً، وَكُلَّ شَيْءٍ كَائِنٍ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى وَتَقْدِيرِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَحْدُثَ، وَذَلِكَ أَمْرٌ هَيِّنٌ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ ضَعِيفاً عَلَى الْبَشَرِ.

٢٣ - لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ .

لقد أبدع الله القضاء والقدر، وكتب على كل نفس عمرها وأجلها وحظها، وفقرها أو غناها، وشقاءها أو سعادتها، حتى لا يحزن إنسان على مفقود حزناً يخرج به عن الاعتدال والتماسك، لأنَّ أجلها قد حُطَّ في الأزَل، فإذا انتقلت نفس إلى الموت أو الهلاك فإنما تُحَقَّقُ ما كتب عليها في الأزَل.

وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ...

أي: لا تفرحوا فرحاً مطغياً يخرجكم عن حدِّ الاعتدال، ويخرجكم عن الشكر لله صاحب النعمة، إلى البطر والاختيال والتباهي بما حدث، كأنه من صنع الإنسان.

ونلاحظ أنَّ الحزن على المفقود فطرة إنسانية، والفرح بالنعمة فطرة إنسانية، فكيف ينهى الله عن الحزن على المفقود، أو الفرح بالموجود؟

والجواب: إنما نهى الله عن الحزن الذي يجرُّ إلى الجزع والقنوط والهلع، وينسى الإنسان القضاء والقدر، وأنَّ كل نفس قد كتب عليها ما يصيبها، وهي لا تزال حملاً في بطن أمِّها، وقد حُطَّ في القدر كلُّ شيء يصيبها، وكذلك الفرح فطرة في النفس، تحتاج إلى اليقين بأنَّ الله هو المعطي والمتفضل والمانع لهذه النعمة، لكنَّ بعض الناس يختال ويفتخر، ويتناول على عباد الله بأنعم الله، ويجره ذلك إلى الطغيان ويُلْهِيه عن الشكر.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً.

ولا يصح النهي عن شيء من طبائع البشر، كالفرح والحزن والغضب، وإنما النهي وارد على مقدمات الغضب، وتعاطى أسبابه، وقد أمر الإنسان عند الغضب أن يتذكر هوان الدنيا، وأن متاعها قليل، وأنها إلى فناء حتى يهدأ غضبه، وكذلك عند الحزن يتذكر القضاء والقدر، وثواب الصبر على المصيبة، وأجر الصابرين الراضين المؤمنين، الذين يفوضون إلى الله الأمور، وكذلك عند الفرح والسرور يذكر المؤمن فضل الله عليه، فيزداد شكراً وعرفاناً وتواضعاً، ويقيناً بأنَّ مصدر النعمة هو الله تعالى.

وفى الحديث الصحيح: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وإن أصابته نعماء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (١٣).

فالمؤمن الحق هو نور الله في الأرض، والمؤمن متجانس مع هذا الكون، والمؤمن خليفة الله حقا في أرضه، وهو قَدَرٌ من أقدار الله، وهو راضٍ عن الله، وهو شاكر على النعماء، صابر على البأساء، راضٍ بالقضاء والقدر، خيره وشره، حلوه ومره.

وغير المؤمن تخرجه المصيبة عن اتزانه وتماسكه، وربما جره ذلك إلى المرض أو الانتحار أو الانكسار، وغير المؤمن ينظر إلى النعمة على أنها من كده وعلمه وخصوصيته، وربما نسي الشكر، وربما نسي أن الفضل لله، وهو صاحب الفضل الكبير.

٢٤ - الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

الله تعالى لا يحب كل مختال فخور، أى لا يحب كل متكبر متباه بماله أو ولده أو جاهه أو جماله، لأنه لا يرى لغيره حقا عليه، ثم بين صفات هذا المختال الفخور ومن على شاكلته، بأنهم هم الذين يخلون على عباد الله بزكاة أموالهم، ويضئون بالصدقة والعطاء والمساعدة، والمساهمة في رعاية الفقراء والمساكين، ثم يحثون غيرهم على هذا البخل، حتى يشيع البخل بين الناس.

وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

ومن يعرض عن الله وعن شكره، وعن إعطاء حق الله في ماله وجاهه، فإن الله وحده هو الغنى عن عباده، المحمود على حسنفعاله، لا يضره بخل البخل، ولا تنفعه طاعة الطائع.

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: إِنَّ تَكْفُرُوا أَنتُمْ فِي الْأَرْضِ جَبِيئًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌ حَمِيدٌ.

(إبراهيم: ٨)

وقال عز شأنه: يَكَايَهَا النَّاسُ أَنتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. (فاطر: ١٥).

الغاية من بعثة الرسل

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢٥)

المفردات :

أرسلنا رسلنا : أرسلنا الأنبياء إلى الأمم .

البيّنات : المعجزات والحجج .

الكتاب : أريد به الجنس ، أى : كتب الشرائع كالطّورة ، والإنجيل ، والقرآن ، والصف .

الميزان : العدل .

القسط : الحق .

وأنزلنا الحديد : خلقناه ، وأخرجناه من المعادن .

بأس شديد : قوة نافعة متعددة ، تتخذ منه آلات الحرب والصناعات الثقيلة ، والمباني الضخمة ونحو ذلك .

منافع للناس : يدخل فى صناعات كثيرة مفيدة للناس .

وليعلم الله : علم مشاهدة وجود فى الخارج .

من ينصره ورسله : من ينصر دينه وينصر رسله ، باستخدام الأسلحة وآلات الحرب من الحديد فى مجاهدة الكفار .

بالغيب : ينصرونه ولا يبصرونه بعيونهم .

تمهيد :

أرسل الله الرسل ، وأنزل معهم كتب السماء ، وهى فى جملتها كتاب واحد يحت على الفضائل ، وينهى عن الرذائل ، ويوضح العقيدة فى الإلهيات والذّبوات ، ويوضح الشريعة فى العبادات والمعاملات ، وأمر الله بالعدل فى القضاء ، وأنزل الحديد لتأديب الخارجين على دين الله أو شريعته ، وهذا إشارة إلى أن الكتاب يمثل سلطة التشريع ، والعدل يمثل سلطة القضاء ، وإنزال الحديد يمثل السلطة التنفيذية .

التفسير:

٢٥ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصْرِهِ وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

تالله لقد أرسلنا رسلنا لهداية الناس وإرشادهم إلى توحيد الله تعالى ، واتباع مكارم الأخلاق ، واجتناب الرذائل والمنكرات ، وأعطينا الرسل المعجزات التي تؤيدهم وتصدقهم ، فهي بمثابة قول الله تعالى لعباده : صدق عبيدى فى كل ما يبلغ عنى ، وقد أعطى الله كل نبي معجزة مناسبة له ، مثل ناقة صالح ، وعصا موسى مع تسع آيات بينات ، كاليد والجراد والطوفان ، والضفادع والدم والسنين ، وغرق فرعون وملئه ، وأعطى عيسى إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله ، وأعطى محمداً ﷺ القرآن المعجز المتحدى به ، المهيم على الكتب السابقة ، ومعه معجزات أخرى ، كما أمر الله الرسل بالعدل فى الأحكام ، ليجتنب الناس ما أمروا به من الحق والعدل والإنصاف ، وتقوم حياتهم على ذلك ، فيتعاملون مع بعضهم البعض بالعدل والإنصاف والقسط ، فى جميع أمورهم الدنيوية والدنيوية ، فهم الحراس على تنفيذ الأحكام ، واحترام الشرائع ، واتباع الرسل .

وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ...

أراد الله لعباده أن يكونوا حماة لدينه ، مدافعين عنه بكل سلاح وكل قوة ، والسورة تسمى بأهم شيء فيها ، أو أغرب شيء فيها ، لذلك سُميت هذه السورة بسورة الحديد ، وكان الله تعالى يرشد عباده إلى تسخير الحديد فى صناعاتهم الثقيلة والخفيفة ، وأدوات الطعام ومرافق المنازل ، وأساس المباني والعمارات ، ومرافق الحياة الاقتصادية ، وآلات الزراعة ، والأسلحة المتعددة ، والقطارات والبواخر ، والطائرات والسيارات ، فالحديد معدن متفاوت الثمن ، متفاوت المنافع ، ما بين حديد التسليح ، وتروس الساعة ، وهو وسيلة الدفاع عن الدولة ضد المعتدين ، ومن الإعجاز أنك تجد الحديد مستخدماً فى البندقية والرشاش والرادار والدبابات والغواصة والطائرة ، وأدوات كشف الألغام ، وما يكتشف فى المستقبل عن مزايا هذا المعدن ، والنواحي المتعددة التي لم تكن تخطر على بال القارئ لهذه الآية وقت نزول القرآن ، مما يدل على اشتمالها على الإعجاز الغيبي ، لأن الذى أنزلها هو العليم بعباده .

وفى الآية دعوة للمؤمنين إلى التحصن بالقوة لحماية دينهم ولإرهاب أعدائهم .

كما قال تعالى : وَأَعْلُوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُفْقَرُونَ مِنْ شَيْءٍ فَبِئْسَ لِقَابِ اللَّهِ يُوفِّي إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . (الأنفال : ٦٠) .

وَيَعْلَمُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

ليشاهد الله ، ويعلم علم مشاهدة ووجود ، من ينصر الله باتباع أمره ، والمصارعة إلى الجهاد في سبيل الله ، وينصر رسله بإخلاص ونية صالحة ، تقصد وجه الله بعملها ، متيقنة بوجود ربها ورقابته ، وإن لم تبصره بعينها ، ولكنها تراقبه بقلوبها ويقينها .

إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

فهو سبحانه قوى قادر ، عزيز قاهر غالب ، يستطيع دفع عدوان الظالمين ، ولكنه يخطئ عباده على الجهاد والتضحية والغداء ، ويذل النفس والنفيس في مرضاة الله ونصرة الرسل ، وإحقاق الحق والعدل ، لينالوا شرف الدنيا وسعادة الآخرة .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «يُعْتَذَرُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رَمْحِي ، وَجُعِلَتِ الذَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» (١٢٧) .

ما أحوج المسلمين إلى قراءة كتاب ربهم ، قراءة تفهم ووعي ، ليتخذوا منه زادًا نافعا مفيدا ، يأخذ بأيديهم إلى العزة والمنعة ، والتفوق الديني والدنيوي .

وحدة الشرائع فى أصولها ، وصلة الإسلام بما قبله

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً
ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَأَتَيْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَءَامِنُوا بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّأَيُّهَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

المفردات :

جعلنا فى ذريتهم النبوة ، جعلنا فى ذرية نوح وإبراهيم النبوة .

والكتب : الكتب الأربعة : التوراة ، والإنجيل ، والزيور ، والقرآن .

فمنهم مهتد : من الذرية ، أو من المرسل إليهم .

فاسقون : خارجون عن الطريق المستقيم .

قفينا : أتبعنا .

الإنجيل : الكتاب الذى أنزله الله على عيسى وفيه شريعته .

وأفنى : دفع الشر باللفظ واللين .

ورحممة : جلب الخير والمودة والحسنى .

رهبابية : هى الانقطاع عن الناس للعبادة ، واتخاذ الصوامع فى الجبال وغيرها ، والامتناع

عن لذيذ الطعام والشراب ، واعتزال النساء ، والتعبد فى الغيران والكهوف .

ابتدعوها : استحدثوها ولم تكن فى دينهم .

إلا ابتغاء رضوان الله ، استثناء منقطع ، أى : لكنهم ابتدعوها بقصد مرضاة الله .

فَمَا رَعَوْهَا ، لم يراعها الجميع ، ولم يحافظوا عليها .

فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا : آتينا الذين آمنوا بعبسى الإيمان الصحيح .

مَنْهُمْ : من أتباعه .

فَاسْتَوَوْا ، خارجون عن حال الاتباع .

بِرَسُولِهِ ، محمد ﷺ .

كَتَابَيْنِ ، نصيبين ، والكفل : الحظ والتصيب .

ثَلَاثًا ، لى يعلم .

أَلَا يَتَذَكَّرُونَ ، أى : لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضل الله وهو النبوة ، ولا يستطيعون التصرف فيه .

تمهيد :

بعد بيان أن الله أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأمر الخلق بنصرتهم ، أبان تعالى وحدة النبوة سلايةً ، ومعنى فى ذرية نوح وإبراهيم ، ووحدة التشريع ، ووحدة الكتاب ، أى الكتب السماوية الأربعة : التوراة والإنجيل والزيور والقرآن ، ثم ذكر أن من آمن بعبسى ثم آمن بمحمد ﷺ فإن له نصيبين من رحمة الله ، لإيمانه برسوله ثم إيمانه بمحمد ﷺ .

ثم ذكر أن النبوة فضل من الله ، لا يختص بها قوما دون قوم ، وفى ذلك رد على اليهود الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة لا تخرج منهم إلى غيرهم ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

التفسير :

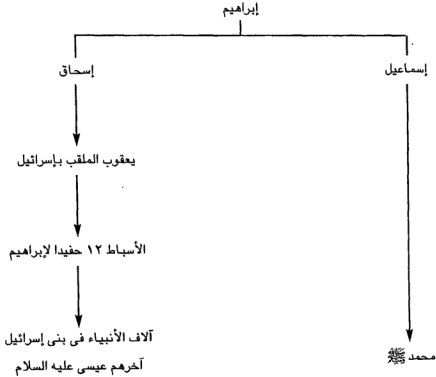
٢٦ - وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

أى : أرسلنا نوحا إلى قومه ، وأرسلنا إبراهيم إلى قوم آخرين ، ولم يرسل الله رسولا بعد نوح إلا من ذريته ، ولم يرسل الله رسولا بعد إبراهيم إلا من ذريته وسلالته ، كما قال سبحانه فى الآية الأخرى :

وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ... (العنكبوت : ٢٧) .

والآية تشير إلى وحدة الرسالات والنبوات ، ووحدة الكتب السماوية فى مضمونها وتشريعاتها وصاياها ، فهى كتب الله لهداية عباد الله ، لكن البشر انقسموا إلى فريقين : فريق مهتد بهدى السماء فله أجره وثوابه ، وفريق خرج عن الطريق المستقيم وعليه وزره وعقابه .

وقد تميز عهد نوح بالطوفان الذى يعتبر طوراَ جديداً فى مسيرة الإنسانية ، ولذلك قيل عنه إنه آدم الثانى ، أما إبراهيم فهو أبو الملّة ، فله موقف مع أبيه ، وموقف مع ابنه حيث ارتحل به إلى مكة ، ثم نبع زمزم ، وقصة السعى بين الصفا والمروة ، وذبح الأضحى فى شريعة محمد ﷺ لإحياء ذكرى عزيمة إبراهيم على ذبح ولده ، ويمكن التأمل فى شجرة الأنبياء فى التوضيح التالى :



٢٧ - ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آبَائِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

بعد نوح وإبراهيم أرسلنا رسلنا تترى ، رسولا بعد رسول ، كما ذكر القرآن الكريم جهاد الرسل ونجاحهم فى دعوة أقوامهم إلى الإيمان ، وتحمل الرسل الإيذاء ، وصبروا وصابروا حتى نصرهم الله .

وكان عيسى ابن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وقد بشر برسالة محمد ﷺ ، وأعطاه الله الإنجيل مشتملا على صِيحَات روحانية، وسكب الله فى قلوب أتباع عيسى (الرافقة) وهى الشفقة واللين ، (والرحمة) وهى التعاطف فيما بينهم ، كما قال سبحانه عن أتباع محمد ﷺ : رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ . (الفتح : ٢٩) .

وتعرض أتباع عيسى للقتل والتعذيب ، فاختاروا طائعين (الرهبانية) وهى ترك الشهوات والنساء ، ولذاذن الطعام ، وهاجروا إلى الصوامع والأديرة فى الصحراء ، متعبدين لله تعالى ، وما طلب الله منهم ذلك ، وما فرضه عليهم ، لكنهم نذروه والتزموا به أمام الله ، رغبة فى رضوانه ومرضاته .

ثم تحولت الرهبانية بعد فترة إلى طقوس خالية من الروح ، والله لا ينظر إلى الصورة والشكل ، وإنما ينظر إلى القلب ، وما يسكن فى الروح والفؤاد .

وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوها مَا كَتَبَنا عَلَيْها إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ...

والاستثناء هنا منقطع ، والمعنى : ما كتبنا عليهم الرهبانية ، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، ونلاحظ إنصاف القرآن الكريم لأتباع عيسى ، حيث وصفهم بالرافة والرحمة والرهبانية والتقشف رغبة فى مرضاة الله .

ونجد مثل ذلك فى آيات القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، كما حفظ التاريخ صوراً يرويها بها الرواة عن النجاشى ، وعن وفد نجران ، وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين فى الإسلام بحكم ما استقر فى قلوبهم من الحق مذكأنوا أتباع عيسى ابن مريم بحق .

فَمَا رَعَوْها حَقَّ رِعائِها ..

فما حافظوا على هذه الرهبانية التى ألزموا أنفسهم بها ، ولم يستمروا فى إخلاصهم وتجردهم ، ورغبتهم فى مرضاتهم لربهم ، «بل أصبحت الرهبانية فى الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح ، واتخذها الكثيرون مظهرًا عارياً من الحقيقة ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم» (١٢٨) .

فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .

فأعطينا المؤمنين إيماناً صحيحاً ثوابهم الذى يستحقونه بالإيمان ، وكثير من هؤلاء المترهبين ، فاسقون . خارجون عن حدود الله وطاعته ، بأكلهم أموال الناس بالباطل ، ويسلوهم المتحرف .

روى الحافظ أبويلى ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا تشددوا على أنفسكم ، فيشدد عليكم ، فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فترك بقاياهم فى الصوامع والديارات» . وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوها مَا كَتَبَنا عَلَيْها ...

وروى الإمام أحمد ، عن إياس بن مالك ، أن النبى ﷺ قال : «لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل» . (١٢٩)

وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى تفسير هذه الآية ، وكذلك ابن جرير الطبرى والقرطبى ، وهى تفيد أن بنى إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وأن ثلاث فرق من أتباع عيسى عليه السلام التزموا بالحق واتباع الدين الحق .

الفرقة الأولى : قاتلت الجبابرة ، فقتلت وصبرت ونجّت.

الفرقة الثانية : لم تكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالمناشير ، وحرقت بالنيران ، فصيرت ونجّت .

الفرقة الثالثة : لم تكن لها قوة ، ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكر الله تعالى : **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا ...**

أخرج ابن أبى حاتم ، ورواه ابن جرير بطريق أخرى ولفظ آخر .

وأخرج الإمام أحمد أن أبا سعيد الخدرى قال : يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ﷺ : «أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روح فى السماء وذكرك فى الأرض» (١٤٠) .

٢٨ - **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .**

نلاحظ أن سورة الحديد تطرق القلوب طرقاً متتابعاً مفيداً ، وتدعو إلى الإيمان ، وتحث على الخشوع لذكر الله ، وتحث على اتباع الرُّسل ، والجهاد فى سبيل الله .

وفى الآيتين الأخيرتين من السورة - أى فى هذه الآية والتى تليها - نجد دعوة راشدة تقول :

يا أيها الذين آمنوا بالله ، الزموا التقوى ومراقبة الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ يؤتكم الله نصيبين من رحمته الواسعة ، ونصيب واحد نعمة كبيرة ، لكن الله جعل للمؤمنين برسول الله ﷺ نصيبين وافرين من رحمته .

وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...

إنه فضل وراء فضل ، والمعنى : يهبكم الله نوراً لهدايتكم إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم ، والإنسان مهما أوتى من العقل محتاج إلى هداية الله ونوره وفضله .

قال المفسرون :

يجعل لكم نوراً تمشون به على الصراط تهتدون به فى الآخرة ، وهدى تبصرون به العمى والجهالة فى الدنيا .

وقال فى ظلال القرآن :

وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...

هى هبة لدنيّة يودعها الله القلوب التى تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الايمان برسوله ، هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ، ولا تلتوى بها الطريق .. نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...

وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، فالإنسان مهما وهب من النور إنسان يدركه التقصير ، فيحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله . ا هـ .

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

عظيم المغفرة ، واسع الرحمة .

٢٩ - ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

كان أهل الكتاب يقولون : إن سلسلة الرسل كلها فى نسل يعقوب - الملقب بإسرائيل - والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله خصّنا بهذه المنزلة من بين جميع العالمين .

سبب النزول

أخرج ابن جرير ، عن قتادة قال : بلغنا أنه لما نزلت : يُؤْتِيَكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِي ... حسد أهل الكتاب المسلمين عليها ، فأنزل الله : ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ...

وأخرج ابن المنذر ، عن مجاهد ، قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا ، فأنزل الله : ثَلَا يَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ ... يعنى بالفضل : النبوة ، وتفيد آيات القرآن الكريم أن أهل الكتاب كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه :

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ... (البقرة: ١٣٥).

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ... (البقرة: ١١١).

فبين القرآن أن النبوة والرسالة والفضل الإلهي منحة من الله يمنحها لمن يشاء ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وقد ضاعف الله الأجر والثواب ، والنور والمغفرة للمؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم بالله ، وصدقوا رسوله محمداً ﷺ ، فجعل لهم أجران ، حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على رد أي شيء من فضل الله ، وأن النبوة والرسالة ، والفضل الإلهي بيد الله ، يعطيه من يشاء من عباده ، وقد اختار الله محمداً ﷺ لرسالته . يجعله الرسول الخاتم ، وأنزل عليه آخر كتبه ، وأعطى لأمته ثواباً مضاعفاً ، فضلاً منه ونعمة ، والله تعالى ، ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . العطاء الواسع والجزاء الأوفى .

أخرج البخاري ، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ، وآمن بهي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ورجل أدب أمة فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران»^(١١١).

وقد ذكر بعض المفسرين أن الله تعالى لما أنزل الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤) من سورة القصص ، وفيها ما يفيد أن أهل الكتاب لهم أجران ، حيث قال تعالى : أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... (القصص : ٥٤). قالوا : يا معشر المسلمين ، أما من آمن منا بكتابكم فله أجران ، ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم .

فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَعَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . رداً على قولهم : ومن لم يؤمن بكتابكم فله أجر كأجوركم .

وأفاد الزمخشري في تفسير الكشاف :

أن الله أعطى المسلمين أجرين لأنهم آمنوا بالرسول السابقين جميعاً. فلهم أجر ، وآمنوا برسالة محمد ﷺ فلهم أجر ثانٍ .

وكذلك أهل الكتاب : إذا آمنوا بأنبيائهم وآمنوا بمحمد ﷺ فلهم أجران ، فإذا لم يؤمنوا بمحمد ﷺ فقد حرموا من كل أجر ، لأن رسلكم بشرت بمحمد ﷺ .

وقد ذكر القرآن ذلك على لسان عيسى: **وَاِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِيْ اِسْرَءِيْلَ اِنِّىْ رَسُوْلُ اللّٰهِ اِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُوْلِ يَّاتِيْ مِنْ بَعْدِي اَسْمُهُ اَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوْا هٰذَا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ .**
(الصف: ٦)

فإذا لم يؤمن الكتابي بمحمد ﷺ فإنه يحرم كل أجر ، حيث خالف وصية نبيه ، ثم لكفره بمحمد رسول الله وخاتم النبيين .

ونتذكر هنا كلام أصحاب علوم القرآن : (العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ، فنجد أن الآية عامة تشمل المسلمين وتشمل أهل الكتاب الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، فلهم جميعا كفلان ونصيبان من رحمة الله وفضله ، والله ذو الفضل العظيم .

من تفسير ابن كثير

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ . أى : ضعفين . من رَحْمَتِهِ . وزادهم : **وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ** ... يعنى : هدى يتبصر به من العمى والجهالة ، **وَيَغْفِرْ لَكُمْ** . فضللهم بالنور والمغفرة .

وهذه الآية كقوله تعالى : **يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** . (الأنفال : ٢٩) .

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عملاً ، فقال : من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت اليهود ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعلت النصارى ، ثم قال : من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين علمتم ، فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل عطاء ، قال : هل ظلمكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : فإنما هو فضلى أوتيته من أشاء» ^(١١٧) .

وروى البخارى ، عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ ، قال : «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استعمل قوماً يعملون له عملاً ، يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار ، فقالوا : لا حاجة

لنا في أجرِك الذي شرطت لنا ، وما عملنا باطل ، فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم ، فقال : أكملوا يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر ، قالوا : ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه ، فقال : أكملوا بقية عملكم ، فإنما بقي من النهار شيء يسير ، فأبوا ، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا أجرة الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور»^(١١٧).

ولهذا قال تعالى : **قُلْ لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ** . أى : ليتحققوا أنهم لا يقدرُونَ على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله .

وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

قال ابن جرير : **قُلْ لَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ...** أى : ليعلم ، وعن ابن مسعود أنه قرأها : (لكى يعلم) لأن العرب تجعل (لا) صلة فى كل كلام دخل فى أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : **مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ ...** (الأعراف: ١٢) .

وكقوله تعالى : **وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** (الأنعام: ١٠٩) ^(١١٨) .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحديد

- ١ - صفات الله وأسمائه الحسنى، وظهور آثاره في بدائع خلقه .
- ٢ - الحُضُّ على الإنفاق في سبيل الله .
- ٣ - بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة .
- ٤ - ثواب المتصدقين الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً .
- ٥ - ذم الدنيا وبيان أنها لهو ولعب وزينة .
- ٦ - الترغيب في الآخرة والاجتهاد في العمل لها .
- ٧ - اليقين بالقدر، والصبر في المصائب، والشكر على النعماء .
- ٨ - ذم الاختيال والفخر والبخل .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير الجزء (السابع والعشرين) ظهر يوم الثلاثاء ٧ من شوال ١٤٢١ هـ، الموافق ٢٠٠١/١/٢ م، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ونسأله العون والتوفيق، إنه نعم المولى ونعم النصير.

★ ★ ★

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء السابع والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
إسماعيل سعيد فهمي

(١) أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا:

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٩ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» . قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أسرارها: إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أسرارها وإذا كان الحفاة العراة رموس الناس فذاك من أسرارها فى خمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ فإن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام...» ثم انصرف الرجل فقال : «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئا ، فقال : «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» . ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٢) نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور:

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٣٥) وفى بدء الخلق (٣٢٠٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤) وفى المغازى (٤١٠٥) ومسلم فى صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد فى مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ قال : «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» .

(٣) لا تمروا على قري القوم الذين ظلموا أنفسهم:

رواه البخارى فى الصلاة (٤١٥) وفى أحاديث الأنبياء (٣١٢ ، ٣١٣٠) ، وفى المغازى (٤٠٧٦ ، ٤٠٨٦) ، وفى تفسير القرآن (٤٣٣٣) ، ومسلم فى الزهد (٥٢٩٢ ، ٥٢٩٣) ، وأحمد (٤٣٣٣ ، ٤٩٧٤ ، ٥٠٩٠) . من حديث عبد الله بن عمر بلفظ: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين...» الحديث .

(٤) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، نقلا عن المنتخب فى تفسير القرآن بإشراف وزارة الأوقاف المصرية .

(٥) تفسير المراغى ، تأليف أحمد مصطفى المراغى ، جزء ٢٧ صفحة ١٠ .

(٦) إن النور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح:

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : «ثلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أنعم شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله ، فما علامة ذلك ؟ قال : «الإجابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرک من حديث ابن مسعود .

(٧) تفسير المراغي ، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(٨) تفرغ لعبادتي أملاً قلبك غنى:

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٤٦٦) وابن ماجه فى الزهد (٤١٠٧) وأحمد فى مسنده (٨٤٨١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن الله تعالى يقول : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى وأسد ففرك ، وإلا تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد ففرك» . قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب وأبو خالد الوالى اسمه هرمز . قال السيوطى فى الدر : وأخرج الحاكم وصححه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً قلبك غنى ، وأملاً يديك رزقا ، يا ابن آدم ، لا تباعد مني فأملأ قلبك فقرا ، وأملاً يديك شغلا» . قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى ، وفيه سلام الطويل وهو مترك . وقال السيوطى فى الدر أيضاً : وأخرج أحمد وأبو نعيم عن خيثمة قال : مكتوب فى التوراة : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً قلبك غنى وأسد ففرك ، وإلا تفعل أملاً قلبك شغلا ولا أسد ففرك . وقال فى موضع آخر : وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ﴾ الآية . ثم قال : «يقول الله : ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى ، وأسد ففرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد ففرك» .

قال المناوى فى الفيض : قال الحاكم : صحيح ، وأقره الذهبى فى التلخيص لكنه فى كتاب الزهد نقله عن التوراة بهذا اللفظ ، ثم قال : يروى مرفوعاً ولا يصح . انتهى . وفيه عند الترمذى أبو خالد الوالى عن أبيه ، وأبوه لا يعرف كما فى المنار وزائد بن شريط لا يعرف أيضاً .

(٩) يمين الله ملائى:

رواه البخارى فى التوحيد (٧٤٩١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٣) وابن ماجه فى المقدمة (١٩٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٥٦) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «إن يمين الله ملائى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص ما فى يمينه ، وعرشه على الماء ويده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض» .

(١٠) انظر تفسير المراغى ، للأستاذ أحمد مصطفى المراغى .

(١١) ورد فى الصحيحين فى حديث الإسراء : «ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم» ، يعنى : يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكنبته .

(١٢) ثم رفع بى إلى البيت المعمور:

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس .

(١٣) لن يدخل أحدا عمله الجنة قالوا ولا أنت:

رواه البخارى فى المرضى (٥٦٧٣) ومسلم فى صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لن يدخل أحدا عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «لا ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بغسل ورحمة ، فسودوا وقاربوا ولا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً قلعله أن يزداد خيراً ، وإما مسيئاً قلعله أن يستعذب» .

(١٤) جعل الله الرحمة مائة جزء:

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٠٠) ومسلم فى التوبة (٢٧٥٢) من حديث أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا ، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» .

(١٥) سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٥٤) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (٨٣٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور فلما بلغ : ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمَسْطُورُونَ﴾ . قال : كاد قلبى أن يطير .

(١٦) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشافعى ، الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي بمصر .

(١٧) سبحانك اللهم وبحمدك:

رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٥٨) والدارمى فى الاستئذان (٢٦٥٨) وأحمد (١٩٢٧٠) من حديث أبى برزة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس : «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» . فقال رجل : يا رسول الله ، إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فيما مضى ، فقال : «كفارة لما يكون فى المجلس» .

(١٨) اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض :

رواه البخارى فى التهجد (١١٢٠) ومسلم فى صلاة المسافرين (١٢٨٨) ، والترمذى فى الدعوات (٣٣٤٠) ، والنسائى فى قيام الليل (١٦٠١) ، وأبو داود فى الصلاة (٥٦٦) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٤٥) ، وأحمد (٢٥٧٥) ، ومالك فى النداء للصلاة (٥٤١) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٤٨) .

(١٩) فجلس فمسح النوم عن وجهه:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٩٨) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه بات عند ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها وهى خالته قال : فاضطجعت على عرض الوسادة واضطجع رسول الله ﷺ وأهله فى طولها فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ثم استيقظ رسول الله ﷺ فجلس فمسح النوم عن وجهه بيده ثم قرأ العشر آيات خواتم سورة آل عمران ، ثم قام إلى شئ معلقة فنترضا منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلى قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما : فقامت فصنعت مثل ما صنع ثم ذهبت فقامت إلى جنبه فوضع رسول الله ﷺ يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى اليمنى يفتلها بيده فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم أوتر ثم اضطجع حتى جاءه المؤمن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح .

(٢٠) إِدْبَار النُّجُوم الرُّكْعَان قَبْلَ الْفَجْرِ :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٧٥) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « إِدْبَار النُّجُوم الرُّكْعَتَان قَبْلَ الْفَجْرِ ، وإِدْبَار السُّجُود الرُّكْعَتَان بَعْدَ الْمَغْرَبِ ».

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه ، من حديث محمد بن فضيل عن رَشْدِينَ بن كُرَيْبٍ وسألت محمد بن إسماعيل عن محمد ورشدين بن كريب أيهما أوثق قال : ما أقربهما ، ومحمد عندي أرجح ، قال : وسألت عبد الله بن عبد الرحمن عن هذا فقال : ما أقربهما ، ورشدين بن كريب أرجحهما عندي ، قال : والقول عندي ما قال أبو محمد ورشدين أرجح من محمد وأقدم ، وقد أدرك رشدين ابن عباس ورآه .

(٢١) لم يكن على شيء من النوافل أشد :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٤) وأبو داود فى الصلاة (١٢٥٤) وأحمد (٢٣٦٤٧) من حديث عائشة أن النبى ﷺ لم يكن على شيء من النوافل أشد معاهدة منه على ركعتين قبل الصبح .

(٢٢) ركعتا الفجر خير من الدنيا :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٢٥) من حديث عائشة عن النبى ﷺ قال : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .

(٢٣) إن الله كتب على ابن آدم حفظه :

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٣) ، وفى القدر (٦٦١٢) ، ومسلم فى القدر (٢٦٥٧) ، وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢) ، وأحمد (٧٦٦٢ ، ٢٧٤٣٧ ، ٢٧٠٢٣) ، من حديث أبى هريرة .

(٢٤) ينزل الله إلى سماء الدنيا :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥) ، وفى الدعوات (٦٣٢١) ، وفى التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦) ، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣) ، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦) ، وفى الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٤٥٧ ، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٢٧٣٣ ، ٨٧٥١ ، ٩٩٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٣ ، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى . ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على .

(٢٥) قرأ والنجم فسجد بها وسجد من معه :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٧٢) من حديث عبدالله رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قرأ والنجم فسجد بها وسجد من معه غير أن شيخاً أخذ كفاً من تراب فرقه إلى جبهته فقال : يكفينى هذا ، قال عبدالله : فلقد رأيته بعد قتل كافرا .

(٢٦) ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد :

رواه البخارى فى بدء الوحي (٢) عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول» ، قالت عائشة رضى الله عنها : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

(٢٧) لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدة المنتهى :

رواه مسلم فى الإيمان (١٧٣) من حديث عبدالله قال : لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدة المنتهى وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يرجع به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها فيقبض منها قال : ﴿ إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ قال : فرائض من ذهب ، قال : فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً : أعطى الصلوات ، وأعطى خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً .

(٢٨) ورفعت لى سدة المنتهى :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٧) ومسلم فى الإيمان (١٦٢) من حديث أنس بن مالك وفيه : «.. ورفعت لى سدة المنتهى فإذا نبقتها كأنه فلال مجر وورقها كأنه أذان القيول ، فى أصلها أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فسألت جبريل ، فقال : أما للباطنان ففى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات ..» الحديث .

(٢٩) اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتى :

ذكره الهيثمى فى المجمع (٣٨/٦) وقال : رواه الطبرانى ، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة ، وبقية رجاله ثقات .

(٣٠) ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥١٧) من حديث أنس بن مالك أنه ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام .. الحديث . وفيه : ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله ، حتى جاء سدة المنتهى ودنا للجار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .. الحديث .

(٣١) رأيت نورا :

رواه مسلم فى الإيمان (١٧٨) من حديث عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته ، فقال : عن أى شىء كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأيت ربك ؟ قال أبو ذر : قد سألت : فقال : «رأيت نورا» .

(٣٢) الله مولانا ولا مولى لىكم :

رواه البخارى فى المغازى (٤٠٤٣) من حديث البراء رضى الله عنه قال : لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرماة وأمر عليهم عبد الله ، وقال : «لا تبرحوا» إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله : عهد إلى النبي ﷺ ألا تبرحوا فأبوا فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا

وأشرف أبو سفيان فقال: أنفى القوم محمد؟ فقال: «لا تجيبوه» فقال: أنفى القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه» فقال: أنفى القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: اعل هبل. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم أمر بها ولم تسؤنى.

(٣٣) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني، المجلد الثالث ص ٤٠١.

(٣٤) إن الله كتب على ابن آدم حظه:

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٤٤)، وفى القدر (٦٦١٢)، ومسلم فى القدر (٢٦٥٧)، وأبو داود فى النكاح (٢١٥٢)، وأحمد (٧٦٦٢، ٢٧٤٣٧، ٢٧٠٢٣)، من حديث أبى هريرة.

(٣٥) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصابوني، المجلد الثالث ص ٤٠٣.

(٣٦) ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك:

رواه البخارى فى الشهادات (٢٦٦٢) وفى الأدب (٦٠٦١، ٦١٦٢) ومسلم فى الزهد (٣٠٠٠) وأبو داود فى الأدب (٤٨٠٥) وابن ماجه فى الأدب (٣٧٤٤) وأحمد فى مسنده (١٩٩٠٩، ٢٧٥٣٩) من حديث عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال: أنفى رجل على رجل عند النبي ﷺ وسلم فقال: «ويلك قطعت عنق صاحبك، قطعت عنق صاحبك» مرارا، ثم قال: «من كان منكم مباحا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانا والله حسيبه، ولا أزكى على الله أحدا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه».

(٣٧) تفكروا فى مخلوقات الله، ولا تفكروا فى ذات الله:

هكذا ذكره ابن كثير فى تفسيره ونسبه لأصحاب السنن، إلا أنه لم يرد فى أى من كتب السنن، ولعله وهم منه رحمه الله.

(٣٨) إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلقتك:

رواه أحمد (٢٥٦٧١) من حديث عائشة. وذكره السيوطى فى «الصغير» (٢٠٣٠) ونسبه لابن أبى الدنيا فى مكاييد الشيطان عن عائشة. وقال: حسن. وقال العراقى فى تخريج الإحياء: أخرجه أحمد والبخارى وأبو يعلى فى مسانيدهم ورجاله ثقات وهو متفق عليه من حديث أبى هريرة. أما الذى أشار إليه العراقى فرواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٧٦)، ومسلم فى الإيمان (١٣٤)، وأبو داود فى السنن (٤٧٢١) ورواه مسلم فى الإيمان (١٣٦) عن مختار بن فلفل عن أنس ابن مالك مرفوعاً: «قال الله عز وجل: إن أمتك لا يزالون يقولون: ما كذا ما كذا، حتى يقولوا: هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله».

(٣٩) بعثت أنا والساعة كهاتين:

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٤) ومسلم فى الغتن (٢٩٥١) من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، قال: وضم السبابة والوسطى.

(٤٠) سجدة بالنجم وسجدة معه المسلمون :

رواه البخارى فى الجمعة (١٠٧١) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ سجدة بالنجم ، وسجدة معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

(٤١) إذا مات ابن آدم انقطع عمله :

رواه مسلم فى الوصية (٣٠٨٤) ، والترمذى فى الأحكام (١٢٩٧) ، والنسائى فى الوصايا (٣٥٩١) ، وابن ماجه فى المقدمة (٢٣٨) ، وأحمد (٨٤٨٩) ، والدارمى فى المقدمة (٥٥٨) . وهو بلفظ : «إذا مات الإنسان» الحديث . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٤٢) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٤٠٤ .

(٤٣) التفسير المنير لأ. هبة الزحلى ١٢٩/٢٧ دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان .

(٤٤) جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية ، الجزء ٢٧ ص ٤٤ .

(٤٥) تفسير القرطبى ، المجلد ٧ ص ٦٤٧١ ، دار الـغد العربى ، العباسية - القاهرة .

(٤٦) حاشية الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، الشهير بتفسير الجمل ، الجزء الرابع ص ٢٣٦ وما بعدها ، باختصار وانتقاء .

(٤٧) إن أمى افلتت نفسها :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رجلاً قال للنبى ﷺ : إن أمى افلتت نفسها وأظننها لو تكلمت تصدقت فهل لها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : «نعم» .

(٤٨) إفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ، الشهير بتفسير الجمل ، الجزء الرابع ص ٢٣٧ ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر ، وانظر التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر ، المجلد ١٤ ص ١٠٦ .

(٤٩) تفسير القرطبى ، مجلد ٧ ص ٦٤٧١ .

(٥٠) إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٠١) ومسلم فى الإيمان (١٢٨ ، ١٣٠) وأحمد فى مسنده (٧١٥٥) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله : إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكذبوها بمثلها ، وإن تركها من أجل فاكذبوها له حسنة ، وإذا أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكذبوها له حسنة فإن عملها فاكذبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» .

(٥١) انظر تفسير المراعى بتعديل واختصار .

(٥٢) هو زوج حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ ، وكان أهل مكة إذا أرادوا تحقيق النبي نسبوه إلى زوج أمه من الرضاع .

(٥٣) السفار: هم المسافرون .

(٥٤) أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية :

رواه البخارى فى المنائب (٣٨٦٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه : أن أهل مكة سألوا رسول الله أن يريهم آية فأراهم القمر شقيين حتى رأوا حراء بينهما .

(٥٥) انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقين :

رواه مسلم فى صفة القيامة (٢٨٠١) من حديث عبدالله بن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقين فستر الجبل فلقة ، وكانت فلقة فوق الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اشهد» .

(٥٦) بحث أنا والساعة كهاتين :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٣٩) .

(٥٧) لا عدوى ولا طيرة :

ذكره البخارى تعليقاً فى الطب باب الجنام من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ، وفر من الجنوم كما تفر من الأسد» . ورواه البخارى فى الطب (٥٧١٧ ، ٥٧٥٧ ، ٥٧٧١ ، ٥٧٧٥) ومسلم فى السلام (٢٢٢٠) وأبو داود فى الطب (٣٩١١ ، ٣٩١٢) وأحمد فى مسنده (٨١٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» ، فقال أعرابى : يا رسول الله ، فما بال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجريها ؟ فقال : «فمن أعدى الأول» .

رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٣ ، ٥٧٧٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٥) وابن ماجه فى المقدمة (٨٦) وفى الطب (٣٥٤٠) وأحمد فى مسنده (٦٣٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة والشؤم فى ثلاث : فى المرأة والدار والداية» . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٦ ، ٥٧٧٦) ومسلم فى السلام (٢٢٢٤) وأبو داود فى الطب (٣٩١٦) والترمذى فى السير (١٦١٥) وابن ماجه فى الطب (٣٥٣٧) وأحمد فى مسنده (١١٩١٤) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لا عدوى ولا طيرة ، ويحببني الغأل الصالح الكلمة الحسنه» . رواه مسلم فى السلام (٢٢٢٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧٠٣) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا غول» . ورواه أبو داود فى الطب (٣٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٥٠٥) من حديث سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول : «لا هامة ولا عدوى ولا طيرة وإن تكن الطيرة فى شىء ففى الفرس والمرأة والدار» . ورواه ابن ماجه فى الطب (٣٥٣٩) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» . ورواه أحمد فى مسنده (٤١٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : «لا يعدى شىء شيئاً» . فقام أعرابى فقال : يا رسول الله ، النقة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله ﷺ : «فما أجرب الأول ، لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومضياتها ورزقها» . ورواه أحمد فى مسنده (٧٠٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد ، والعين حق» .

(٥٨) اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود في الطب (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر قال : أحمد القرشي قال : ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ فقال : «أحسنها الغال ولا ترد مسلماً فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك» .

(٥٩) التفسير المنير أد. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ١٦٩/٢٧ .

(٦٠) انظر التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ، المجلد ١٤ ص ١٤٢ ، مطبعة السعادة - القاهرة ، وفي ظلال القرآن (الجزء ٢٧ ص ٩٢) .

(٦١) كان يقرأ فيهما بـ (ق والقرآن المجيد) و(اقتربت) :

رواه مسلم في صلاة العيدين (٨٩١) من حديث عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي : ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحية والغفر؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ (ق والقرآن المجيد) و(اقتربت الساعة وانشق الغمر) .

(٦٢) اللهم إني أشدك عهدك ووعدك :

رواه البخاري في الجهاد (٢٩١٥) وفي المغازي (٣٩٥٣) وفي التفسير (٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) وأحمد في مسنده (٣٠٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ وهو في قبة : «اللهم إني أشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم» ، فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ، وهو في الدرع فخرج وهو يقول : «سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر» .

(٦٣) كل شيء بقدر :

رواه مسلم في القدر (٢٦٥٥) من حديث طاوس أنه قال : أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدر ، قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز» .

(٦٤) استعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل :

رواه مسلم في القدر (٢٦٦٤) وابن ماجه في المقدمة (٧٩) وفي الزهد (٤١٦٨) وأحمد في مسنده (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان» .

(٦٥) انظر تفسير المراغي ، المجلد ٩ الجزء ٢٧ صفحة ١٠١ ، والتفسير المنير ، الجزء ٢٧ ص ١٨٦ .

(٦٦) إن المقسطين على منابر من نور :

رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٧) والنسائي في آداب القضاة (٥٣٧٩) وأحمد في مسنده (٦٤٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» .

(٦٧) من كتاب (الله والعلم الحديث) للأستاذ عبد الرزاق نوفل (ص ٤٦ ، ٤٧) .

(٦٨) المصدر السابق ص (٤٧ ، ٤٨) .

(٦٩) المصدر السابق ص (٥١ ، ٥٢) .

(٧٠) المصدر السابق ص (٧١ ، ٧٢) .

(٧١) المصدر السابق ص (٧٢ ، ٧٣) .

(٧٢) المصدر السابق ص (٧٣ ، ٧٤) .

(٧٣) المصدر السابق ص (١٠١ ، ١٠٢) .

(٧٤) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، تفسير الجزء ٢٧ ص ٩٩ - ١٠٤ .

(٧٥) تفسير النسفي ١٥٩/٤ ، والمعنى : يظهرها أمام أعين الناس ولا يبتكرها اليوم بل يقضى بوقوعها ، ومن أصول الإيمان أن تؤمن بالقضاء والقدر ، والقضاء : ما وقع أمام الناس ، والقدر : ما قدر الله وقوعه في الأزل .

(٧٦) تفسير النسفي ١٥٩/٤ .

(٧٧) تفسير الجلالين ص ٤٩٤ .

(٧٨) يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي :

رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤/٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧) وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبي ثر .

(٧٩) إن لربك عليك حقا :

رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨) وفي الأدب (٦١٣٩) والترمذي في الزهد (٢٤١٣) من حديث أبي جحيفة قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل ، قال : فإنني صائم قال : ما أنا بأكل حتى تأكل فأكل فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم ، فنم ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي ﷺ : «صدق سلمان» . ورواه البخاري في الصوم (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) وفي النكاح (٥١٩٩) وفي الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١١٥٩) والنسائي في الصيام (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال : دخل على رسول الله ﷺ فذكر الحديث ، يعني : «إن لزورك عليك حقا وإن لزورك عليك حقا» ، فقلت : وما صوم داود ؟ قال : «نصف الدهر» . ورواه أبو داود في الصلاة (١٣٦٩) وأحمد في مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبي ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «يا عثمان ، أرغبت عن سنتي» ؟ قال : لا والله ولكن سنك أطيب ، قال : «فإنني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان ، فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لنفسك عليك حقا ، فصم وأفطر ، وصل وتم» .

(٨٠) خلقت الملائكة من نور وخلق الجان :

رواه مسلم فى الترمذ (٢٩٩٦) وعبد بن حميد فى مسنده (١٤٧٧) وأحمد فى مسنده (١٥٣/٦ ، ١٦٨) .

(٨١) انظر المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة العاشرة ، مطابع الأهرام التجارية ص ٦٤٥ .

(٨٢) ألقوا يا ذا الجلال والإكرام :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٢٥) من حديث أنس ، أن النبى ﷺ قال : «ألقوا بيا ذا الجلال والإكرام» . وقال : هذا حديث غريب وليس بمحفوظ .

(٨٣) يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث :

ذكره الهيثمى فى المجمع (١٨٣/١٠) وعزاه للطبرانى فى الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبى مدرك ، عن أنس ، وسلمة بن حرب مجهول كشيخه أبى مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبى مدرك قال الدارقطنى : متروك فلا أدري هو أبى مدرك هذا أو غيره ، ويقية رجاله ثقات . وانظر : ابن حبان فى الثقات (٢٩٨/٦) . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٣٥٨) ، من حديث أبى هريرة قال : «.. وإذا اجتهد فى الدعاء قال يا حى يا قيوم» . اهـ . وقال : حديث غريب ، وذكره فى نفس الباب برقم (٣٤٤٦) ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا ذكره أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» . اهـ .

(٨٤) جنتان من فضة آتيهما :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٧٨ ، ٤٨٨٠) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠) وفى الجنة (٢٨٣٨) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٧) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩١٨٣) من حديث عبد الله بن قيس (أبى موسى الأشعرى) أن رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا ، من كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين ، يطوف عليهم المؤمنون ، جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما ، وجنتان من كذا آتيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن» .

(٨٥) إن المرأة من نساء أهل الجنة :

رواه الترمذى فى صفة الجنة (٢٥٣٢) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها وذلك بأن الله يقول : ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيت لآريقته من ورائه» .

(٨٦) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤٢٥ ، تحقيق محمد على الصابونى .

(٨٧) إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٣٨) من حديث عبد الله بن قيس عن النبى ﷺ قال : «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا» .

(٨٨) ألفوا يا ذا الجلال :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٨٢) .

(٨٩) اللهم أنت السلام ومنك السلام :

رواه مسلم في المساجد (٥٩٢) من حديث عائشة قالت : كان النبي ﷺ إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول : «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» .

(٩٠) في ظلال القرآن ١٣٩/٢٧ .

(٩١) عبد الرازق نوفل ، (الله والعلم الحديث) ، ص ٣٣ .

(٩٢) انظر المنتقى للشوكاني .

(٩٣) بصائر ذوى التمييز للغيرزيادى ٤٥١/١ .

(٩٤) بصائر ذوى التمييز ٤٥٢/١ .

(٩٥) فى شهاب البيضاوى : «هذا ليس بموضوع ، وقد رواه البيهقي وغيره» .

(٩٦) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني ، المجلد الثالث ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٩٧) التفسير المنير أد. وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الجزء ٢٧ صفحة ٢٤٤ .

(٩٨) مختصر تفسير ابن كثير ، بتحقيق محمد على الصابوني ، المجلد ٣ ص ٤٢٩ .

(٩٩) خير القرون قرنى :

رواه البخارى فى الشهادات (٢٤٥٨) ، ومسلم فى فضائل الصحابة (٤٦٠١) ، وأحمد فى مسنده (٣٤١٣ ، ٣٧٦٧) ، والترمذى فى المناقب (٣٧٩٤) ، وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٥٣) من حديث عبد الله بن مسعود . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٠٠) لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين :

رواه البخارى تعليقاً فى الاعتصام باب : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ووصله فى المناقب (٣٦٤٠) ، وفى الاعتصام (٧٣١١ ، ٧٤٥٩) ، والدارمى (٢٤٣٢) ، وأحمد (١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١) من حديث المغيرة . ورواه مسلم فى الإمارة (١٩٢٠) ، وأبو داود فى الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذى فى الفتن (٢٢٢٩) ، وابن ماجه فى المقدمة (١٠) ، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث ثوبان بن جدد . ورواه البخارى فى المناقب (٣٦٤١ ، ٧٤٦٠) ، ومسلم فى الإمارة (١٠٣٧) ، وأحمد (١٦٤٨٥ ، ١٦٤٣٩) من حديث معاوية . ورواه الدارمى (٢٤٣٣) من حديث عمر بن الخطاب . ورواه أحمد (٨٠٧٥) من حديث عبد الرحمن ، ورواه أحمد (٢٠٣٤٦ ، ٢٠٣٧٥) من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذى (٢١٩٢) ، وابن ماجه (٦) ، وأحمد (١٥١٧٠) ، (١٩٨٤٩) من حديث قرة بن إياس . ورواه مسلم فى الإيمان (١٥٦) ، وفى الإمارة (١٩٢٣) ، وأحمد (١٤٣١٠ ، ١٤٧٠٧)

من حديث جابر . ورواه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٤) ، وأحمد (١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩) من حديث عمران بن حصين . ورواه أحمد (١٦٥١٧) من حديث سلمة بن نجيل . ورواه أحمد (٢١٨١٦) من حديث صدى بن عجلان . ورواه أحمد (١٨٨٠٤) من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٧) من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجة في المقدمة (٩) من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : قام معاوية . ورواه أحمد (٢٠٤٢٦) اسم مبهم .

(١٠١) ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة :

رواه الترمذى في صفة الجنة (٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَفُرش مرفوعة ﴾ قال : «ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة» . وقال : هذا حديث غريب لا تعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، وقال بعض أهل العلم في تفسير هذا الحديث : إن معناه : الفرض في الدرجات وبين الدرجات كما بين السماء والأرض .

(١٠٢) صفوة التفاسير محمد على الصابوني ، المجلد الثالث ص ٣٠٩ .

(١٠٣) في ظلال القرآن الجزء ٢٧ .

(١٠٤) المسلمون شركاء في ثلاث :

رواه أبو داود في البيوع (٣٤٧٧) وأحمد في مسنده (٢٢٥٧٣) من حديث رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ قال : غزوت مع النبي ﷺ ثلاثا ، أسعته يقول : «المسلمون شركاء في ثلاث ، في الكلا والماء والنار» . ورواه ابن ماجة في الأحكام (٢٤٧٢) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «المسلمون شركاء في ثلاث ، في الماء والكلا والنار ، وثمنه حرام» . قال أبو سعيد : يعنى : الماء الجارى .

(١٠٥) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ، نقلا عن كتاب (الله والعلم الحديث) ص ٣٣ .

(١٠٦) ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى :

رواه أبو داود في الصلاة (١٤٥٥) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» .

ورواه مسلم في الذكر (٣٦٩٩) والترمذى في القراءات (٣٩٤٥) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(١٠٧) مختصر تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ص ٤٣٩ ، تحقيق محمد على الصابوني .

(١٠٨) تفسير المراغى ، الجزء السابع والعشرون ص ١٥١ .

(١٠٩) من آمن بي وحملني على سقاي :

بهذا اللفظ رواه النسائي في الاستسقاء (١٥٢٥) من حديث زيد بن خالد الجهني قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال : «ألم تسمعوا ماذا قال ربكم الليلة ؟ قال : ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا فأما من آمن بي وحملني على سقاي فذاك الذي آمن بي وكفر بالكوكب ، ومن قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك الذي كفر بي وأمن بالكوكب» .

ورواه البخاري في الأذان (٨٤٦) ومسلم في الإيمان (٧١) من حديث زيد بن خالد الجهني أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب» .

(١١٠) أرواح الشهداء تجعل في حواصل طير خضر :

رواه مسلم في الإمارة (٣٥٠٠) والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٣٧) والدارمي في الجهاد (٢٣٠٣) وابن ماجة في الجهاد (٢٧١٩) من حديث عبد الله بن مسعود . ورواه أحمد (٢٥٩١٣) والترمذي في فضائل الجهاد (١٥٦٥) من حديث كعب ابن مالك . وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود في الجهاد (٢١٥٨) وأحمد (٢٢٦٧) من حديث ابن عباس . ورواه ابن ماجة (١٤٩٣) من حديث أم بشر بنت البراء بن معرور .

(١١١) اجعلوها في ركوعكم :

رواه أبو داود في الصلاة (٨٦٩) وابن ماجة في إقامة الصلاة (٨٨٧) والدارمي في الصلاة (١٣٠٥) وأحمد في مسنده (١٦٩٦١) من حديث عقبة بن عامر قال : لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها في ركوعكم» ، فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال «اجعلوها في سجودكم» .

(١١٢) اجعلوها في سجودكم :

انظر ما قبله .

(١١٣) كلمتان خفيفتان على اللسان :

رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٦) وفي الإيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجة في الأدب (٣٨٠٦) وأحمد في مسنده (٧١٢٧) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله العظيم ، سبحان الله ويحمده .

(١١٤) في ظلال القرآن ١٤٩/٢٧ .

... (١١٥) في ظلال القرآن ١٥١/٢٧ .

(١١٦) في ظلال القرآن ١٨٠/٢٧ .

(١١٧) بصائر ذوى التمييز للغيريزادى ٤٥٣/٨ .

(١١٨) فيهن آية أفضل من ألف آية :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٠٥٧) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٦٧٠٩) من حديث العرياض ابن سارية أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقى ، وقال : «إن فيهن آية أفضل من ألف آية» .

(١١٩) اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧١٣) من حديث سهيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا رب كل شيء ، فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصته ، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر . وكان يروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .

(١٢٠) أن تعبد الله كأنك تراه :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشى فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر» ، قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان» ، قال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» ، قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها ، إذا ولدت المرأة ربتها فذاك من أشراطها وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس فذاك من أشراطها فى خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ...﴾ ثم انصرف الرجل فقال : «ردوا على» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئاً فقال : «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٢١) يقول ابن آدم مالى مالى :

رواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٨) ، فى الزهد (٢٣٤٢) وفى التفسير (٣٣٥٤) والنسائى فى الوصايا (٣٦١٣) وأحمد فى مسنده (١٥٨٧٠) حديث عبد الله بن الشخير قال : أنبت النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿الهاكم التكاثر﴾ قال : يقول ابن آدم : مالى مالى قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنتى أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت . ورواه مسلم فى الزهد (٢٩٥٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «يقول العبد مالى مالى ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنتى أو لبس فأبليت أو أعطى فافقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس» .

(١٢٢) أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً :

نسبه ابن كثير للبخارى فى الإيمان ، فقال : وقد رويها فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه : «أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا : الملائكة ، قال : «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا : فالأنبياء ، قال : «وما لهم لا

يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟» قالوا: فنحن، قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها» (أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان) . اهـ .
ولم أره فيه ، ولم يعزه غيره للبخارى !! فليحذر .

(١٢٣) لا تسبوا أصحابي :

رواه البخارى فى المناقب (٣٦٧٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

ورواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٤٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » .

(١٢٤) لقد سألتك ما هو أهون من هذا :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٣٨ ، ٦٥٥٧) ومسلم فى صفة القيامة (٧٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١٩٩٠٣) من حديث أنس يرفعه : «إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً : لو أن لك ما فى الأرض من شيء كنت تقتدى به ؟ قال : نعم قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ألا تشرك بى فأبيت إلا الشرك » .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير .

(١٢٦) رواه ابن أبى حاتم .

(١٢٧) سلمان منا أهل البيت :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٦٩٦) بلفظ : «سلمان منا أهل البيت» . ونسبه للطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرک عن عمرو بن عوف وقال : صحيح .

قال المناوى فى فيض القدير : جزم الحافظ الذهبى بضعف سنده ، وقال الهيثمى : فيه عند الطبرانى كثير بن عبد الله المزنى ضعفه الجمهور وبقيّة رجاله ثقات .

(١٢٨) إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٥٦) ومسلم فى الجنة (٢٨٣١) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» ، قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : «بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» .

(١٢٩) ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا :

رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٨١٧) ومسلم فى الإمارة (١٨٧٧) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد ، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» .

(١٢٠) يعطيها لهم على فترة بعد فترة ، وفي صحيح البخارى : كان ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا والممل
وفي رواية : يتخولنا ، أى : يعطينا على فترات متباعدة ، أو يقدم الموعظة عند المناسبة .

(١٣١) وموضع سوط أحدكم من الجنة :

رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٨٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة
يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها» .

(١٣٢) الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك نعله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٨٨) من حديث عبد الله رضى الله عنه ، قال : قال النبى ﷺ : «الجنة أقرب إلى أحدكم من
شرك نعله والنار مثل ذلك» .

(١٣٣) لربك عليك حق :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٧٩)

(١٣٤) ذهب أهل الدثور بالأجور :

رواه مسلم فى الزكاة (١٠٠٦) من حديث أبى ذر أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ قالوا للنبى ﷺ : يا رسول الله ، ذهب
أهل الدثور بالأجور ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : «أوليس قد جعل الله
لكم ما تصدقون ، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهى عن منكر
صدقة وفى بضع أحدكم صدقة» . قالوا : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : «أرأيتم لو وضعها
فى حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر» .

(١٣٥) ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله قال : من عادى لى وليا فقد
أذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ،
فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى
لأعطينه ولئن استعانى لأعطينه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره
مساغته» . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبه الصحيح لعدوه من منكرات
خالد بن مخلد .

(١٣٦) عجبا لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤٠٦ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث
صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته
سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» .

(١٣٧) بعث بالسيف حتى يعبد الله :

رواه أحمد في مسنده (٥٠٩٣) من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعلت بئذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم» .

(١٣٨) فى ظلال القرآن ، الجزء ٢٧ ص ١٧٩ ، مطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه .

(١٣٩) لكل نبى رهبانية :

رواه أحمد في مسنده (١٣٣٩٦) من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : «لكل نبى رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله عز وجل» .

(١٤٠) وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام :

رواه أحمد في مسنده (١١٣٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري أن رجلا جاءه فقال : أوصنى ، فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض..

(١٤١) ثلاثة لهم أجران :

رواه البخارى فى العلم (٩٧) من حديث أبي بردة عن أبيه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بنيه وآمن بمحمد ﷺ ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» . ثم قال عامر : أعطيناها بغير شيء ، قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة .

(١٤٢) أخرجه الإمام أحمد .

(١٤٣) رواه البخارى فى صحيحه .

(١٤٤) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ، المجلد الثالث .



تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

(الجزء السابع والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣١	﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾	٥٤٠٥
٣٢	﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مَجْرُمِينَ﴾	٥٤٠٥
٣٣	﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن طِينٍ﴾	٥٤٠٥
٣٤	﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾	٥٤٠٥
٣٥	﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٥٤٠٥
٣٦	﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾	٥٤٠٥
٣٧	﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾	٥٤٠٥
٣٨	﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾	٥٤٠٩
٣٩	﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكَتَهُ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾	٥٤٠٩
٤٠	﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجَنُّوهُ فَتَبْدَأْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾	٥٤٠٩
٤١	﴿وَفِي عَادَ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾	٥٤٠٩
٤٢	﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾	٥٤٠٩
٤٣	﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُم تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾	٥٤٠٩
٤٤	﴿فَنَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ...﴾	٥٤٠٩
٤٥	﴿فَا اسْتَطَاعُوا مَن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾	٥٤٠٩
٤٦	﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلِ إِذْ هُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾	٥٤٠٩
٤٧	﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾	٥٤١٣
٤٨	﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾	٥٤١٣
٤٩	﴿وَمَن كُل شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾	٥٤١٣
٥٠	﴿فَقُرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾	٥٤١٣
٥١	﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾	٥٤١٣
٥٢	﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا...﴾	٥٤١٩
٥٣	﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلِّغْهُمْ قَوْمِ طَاغُوتٍ﴾	٥٤١٩
٥٤	﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ أَنْتَ بِلَالُومٌ﴾	٥٤١٩
٥٥	﴿وَيَذَكِّرُ الْإِنسَانَ الَّذِي نَفَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾	٥٤١٩
٥٦	﴿وَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾	٥٤١٩
٥٧	﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعَمُونَ﴾	٥٤١٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٨	﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾	٥٤١٩
٥٩	﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ...﴾	٥٤١٩
٦٠	﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾	٥٤١٩
-	خلاصة ما تضمنته سورة الذاريات	٥٤٢٤
-	تفسير سورة الطور	٥٤٢٥
-	أهداف سورة الطور	٥٤٢٦
١	﴿وَالطُّورُ﴾	٥٤٣٠
٢	﴿وَكُنُوزٌ فَكَانَ مِثْلَ نَارٍ كَاشِرَةٍ﴾	٥٤٣٠
٣	﴿فَنَسِيَ رَقًى أَمْ أَفْلَحَ﴾	٥٤٣٠
٤	﴿وَاللَّيْلِ بِمَا رَمَمَهُ﴾	٥٤٣٠
٥	﴿وَالسَّاقِفِ الْمَمَرِ﴾	٥٤٣٠
٦	﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾	٥٤٣٠
٧	﴿إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَشَوَاقِعٌ﴾	٥٤٣٠
٨	﴿مِنَ النَّارِ مِمَّنْ دَاخِلُهَا﴾	٥٤٣٠
٩	﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مِثْرًا﴾	٥٤٣٠
١٠	﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾	٥٤٣٠
١١	﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾	٥٤٣٠
١٢	﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾	٥٤٣٠
١٣	﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾	٥٤٣٠
١٤	﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾	٥٤٣٠
١٥	﴿أَنفُسُكُمْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾	٥٤٣٠
١٦	﴿أَمْ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الْفِرْعَوْنِ إِذْ يَقُولُ لِصُفْيَانَ أَتِيَّبْتُكَ فَأَمْلِكْ لِي مِثْلَ مَا أَتَىكَ﴾	٥٤٣٠
١٧	﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾	٥٤٣٥
١٨	﴿فَالَّذِينَ يَمُنُّونَ بِهِمْ وَوَدَّعَاهُمْ اللَّهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾	٥٤٣٥
١٩	﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَنَسُوا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٥٤٣٥
٢٠	﴿مُتَكَنِّتِينَ عَلَى سُرُرٍ مُصْقُوفَةٍ﴾	٥٤٣٥
٢١	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾	٥٤٣٧
٢٢	﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِغُلَامَاتٍ وَأَصْلَحَ الْكُفْرَ﴾	٥٤٣٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٣	﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ﴾	٥٤٣٧
٢٤	﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ...﴾	٥٤٣٩
٢٥	﴿وَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾	٥٤٣٩
٢٦	﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾	٥٤٣٩
٢٧	﴿فَمَنْ لِلَّهِ عَلَيْنَا وَقَانَا عَذَابِ السَّمُومِ﴾	٥٤٣٩
٢٨	﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾	٥٤٣٩
٢٩	﴿فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾	٥٤٤١
٣٠	﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرِيسُ بِهِ رِبِّ الْمُنُونِ﴾	٥٤٤١
٣١	﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾	٥٤٤١
٣٢	﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾	٥٤٤١
٣٣	﴿أَمْ يَقُولُونَ تَتَّقُوهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٥٤٤١
٣٤	﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾	٥٤٤١
٣٥	﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾	٥٤٤٦
٣٦	﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يَوْقِنُونَ﴾	٥٤٤٦
٣٧	﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ﴾	٥٤٤٦
٣٨	﴿أَمْ لَهُمْ سُلُمٌ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ...﴾	٥٤٤٦
٣٩	﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾	٥٤٤٦
٤٠	﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾	٥٤٤٦
٤١	﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾	٥٤٤٦
٤٢	﴿أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾	٥٤٤٦
٤٣	﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾	٥٤٤٦
٤٤	﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا...﴾	٥٤٥٢
٤٥	﴿فَنَذَرُهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾	٥٤٥٢
٤٦	﴿يَوْمَ لَا يَغْنَى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾	٥٤٥٢
٤٧	﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ...﴾	٥٤٥٢
٤٨	﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا...﴾	٥٤٥٢
٤٩	﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾	٥٤٥٢
-	تفسير سورة النجم .	٥٤٥٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
-	أهداف سورة التجم	٥٤٦٠
١	﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾	٥٤٦٣
٢	﴿مَاضِلٍ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾	٥٤٦٣
٣	﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾	٥٤٦٣
٤	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾	٥٤٦٣
٥	﴿عَالِمِهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾	٥٤٦٣
٦	﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾	٥٤٦٣
٧	﴿وَنُوبٍ بِالْأَفْئِقِ الْأَعْلَىٰ﴾	٥٤٦٣
٨	﴿لَسْمٍ دَنُفًا فَنُتْدَلَىٰ﴾	٥٤٦٣
٩	﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٠	﴿فَنُوحِىَ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾	٥٤٦٣
١١	﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٢	﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٣	﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٤	﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٥	﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٦	﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٧	﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٨	﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾	٥٤٦٣
١٩	﴿أَفَنُرَايْتُمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ﴾	٥٤٧٣
٢٠	﴿وَمِنَ الْجِبَالِ الْإِثْمَةَ الْأُخْرَىٰ﴾	٥٤٧٣
٢١	﴿أَلَكُمُ الْيَزْجَرُ وَلَهُ الْأَنْثَىٰ﴾	٥٤٧٣
٢٢	﴿تَاللَّهِ إِذَا قُسِمْتَ هُنَّ حَبْزَىٰ﴾	٥٤٧٣
٢٣	﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْ بِهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ...﴾	٥٤٧٣
٢٤	﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَىٰ﴾	٥٤٧٣
٢٥	﴿فَاللَّهُ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾	٥٤٧٣
٢٦	﴿وَكُم مِّنْ مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَعْنَىٰ شَفَاعَتُهُمْ...﴾	٥٤٧٣
٢٧	﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ﴾	٥٤٧٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٨	﴿وَمَالِهِمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ...﴾	٥٤٧٨
٢٩	﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا...﴾	٥٤٧٨
٣٠	﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ...﴾	٥٤٧٨
٣١	﴿وَلِلَّهِ مِاقَى السَّمَاوَاتِ وَمِاقَى الْأَرْضِ...﴾	٥٤٨٠
٣٢	﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعَمَ...﴾	٥٤٨٠
٣٣	﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَتَّبِعُ...﴾	٥٤٨٤
٣٤	﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى...﴾	٥٤٨٤
٣٥	﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَرِيصٌ...﴾	٥٤٨٤
٣٦	﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمِاقَى صَحْفِ مُوسَى...﴾	٥٤٨٤
٣٧	﴿وَأِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى...﴾	٥٤٨٤
٣٨	﴿أَلَا تَرَى زُرَّةً وَزُرَّةً وَزُرَّةً...﴾	٥٤٨٤
٣٩	﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى...﴾	٥٤٨٤
٤٠	﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَصْرَى...﴾	٥٤٨٤
٤١	﴿ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى...﴾	٥٤٨٤
٤٢	﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى...﴾	٥٤٨٤
٤٣	﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى...﴾	٥٤٨٤
٤٤	﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا...﴾	٥٤٨٤
٤٥	﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى...﴾	٥٤٨٤
٤٦	﴿مَنْ نَظَّفْتَهُ إِذَا تَمَنَّيَ...﴾	٥٤٨٤
٤٧	﴿وَأَنْ عَلِيَّهِ النِّشَاطُ الْآخِرَى...﴾	٥٤٨٤
٤٨	﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى...﴾	٥٤٨٤
٤٩	﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى...﴾	٥٤٨٤
٥٠	﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى...﴾	٥٤٨٤
٥١	﴿وَأَنَّهُ مَجِدٌ غَالِبٌ...﴾	٥٤٨٤
٥٢	﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِنْهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْلَغَى...﴾	٥٤٨٤
٥٣	﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى...﴾	٥٤٨٤
٥٤	﴿فَغَشَاها مَاسِجًا...﴾	٥٤٨٤
٥٥	﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى...﴾	٥٤٨٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٥٦	﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾	٥٤٩٢
٥٧	﴿ أنزلت الأذن ﴾	٥٤٩٢
٥٨	﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾	٥٤٩٢
٥٩	﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾	٥٤٩٢
٦٠	﴿ وتضحكون ولا تبكون ﴾	٥٤٩٢
٦١	﴿ وأنتم تتم سامدون ﴾	٥٤٩٢
٦٢	﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾	٥٤٩٢
-	في أعقاب تفسير سورة النجم	٥٤٩٥
-	خلاصة ما تضمنته سورة النجم	٥٥٠٤
-	تفسير سورة القمر	٥٥٠٥
-	أهداف سورة القمر	٥٥٠٦
١	﴿ اقتربت الساعة وإنشق القمر ﴾	٥٥١٠
٢	﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾	٥٥١٠
٣	﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾	٥٥١٠
٤	﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾	٥٥١٠
٥	﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾	٥٥١٠
٦	﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾	٥٥١٠
٧	﴿ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث ... ﴾	٥٥١٠
٨	﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون ... ﴾	٥٥١٠
٩	﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا ... ﴾	٥٥١٦
١٠	﴿ فدعاهم أنى مغلوب فانتصر ﴾	٥٥١٦
١١	﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾	٥٥١٦
١٢	﴿ وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء ... ﴾	٥٥١٦
١٣	﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾	٥٥١٦
١٤	﴿ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾	٥٥١٦
١٥	﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾	٥٥١٦
١٦	﴿ فكيف كان عذابى ونذر ﴾	٥٥١٦
١٧	﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾	٥٥١٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٨	﴿ كَذِبْتَ عَادَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَرْتُ ﴾	٥٥٢٠
١٩	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾	٥٥٢٠
٢٠	﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعَرٍ ﴾	٥٥٢٠
٢١	﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَرْتُ ﴾	٥٥٢٠
٢٢	﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾	٥٥٢٠
٢٣	﴿ كَذِبْتَ ثُمَّ مَوَدَّ النَّبِيَّ نَذَرْتُ ﴾	٥٥٢٣
٢٤	﴿ فَقَالُوا أَبَشِّرْهُم بِمَا وَادَّاءَ نَتَّبِعُهُ... ﴾	٥٥٢٣
٢٥	﴿ أَوَّلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا... ﴾	٥٥٢٣
٢٦	﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرَ... ﴾	٥٥٢٣
٢٧	﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَتَنَّا لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾	٥٥٢٣
٢٨	﴿ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ... ﴾	٥٥٢٣
٢٩	﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾	٥٥٢٣
٣٠	﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذَرْتُ ﴾	٥٥٢٣
٣١	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً... ﴾	٥٥٢٣
٣٢	﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾	٥٥٢٣
٣٣	﴿ كَذِبْتَ قَوْمٍ لَوْطَ بِالْأَنْذَرِ ﴾	٥٥٢٧
٣٤	﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطَ... ﴾	٥٥٢٧
٣٥	﴿ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْزِي مِنْ شُكْرِ ﴾	٥٥٢٧
٣٦	﴿ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتْنَا فَتَمَارَوْا بِالْأَنْذَرِ ﴾	٥٥٢٧
٣٧	﴿ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ... ﴾	٥٥٢٧
٣٨	﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بِكُورَةٍ عَذَابٍ مُسْتَقَرٍّ ﴾	٥٥٢٧
٣٩	﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذَرْتُ ﴾	٥٥٢٧
٤٠	﴿ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾	٥٥٢٧
٤١	﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذَرُ ﴾	٥٥٣٠
٤٢	﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴾	٥٥٣٠
٤٣	﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَانِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّيْرِ ﴾	٥٥٣٠
٤٤	﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَقِصِرٌ ﴾	٥٥٣٠
٤٥	﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدَّبِيرَ ﴾	٥٥٣٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٦	﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾	٥٥٣٠
٤٧	﴿إن المجرمين فى ضلال وسعر﴾	٥٥٣٠
٤٨	﴿يوم يحبون فى النار على وجوههم﴾	٥٥٣٠
٤٩	﴿إنّا كل شئء خالقناه بقدر﴾	٥٥٣٠
٥٠	﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾	٥٥٣٠
٥١	﴿ولقد أهلكنا أشياءكم فهل من مدكر﴾	٥٥٣٠
٥٢	﴿وكل شئء فعلاؤه فى الزير﴾	٥٥٣٠
٥٣	﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾	٥٥٣٠
٥٤	﴿إن المتقين فى جنات ونهر﴾	٥٥٣٠
٥٥	﴿فى مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾	٥٥٣٠
—	فى أعقاب تفسير سورة القمر	٥٥٣٨
—	خلاصة موضوعات سورة القمر	٥٥٤٣
—	تفسير سورة الرحمن	٥٥٤٥
—	أهداف سورة الرحمن	٥٥٤٦
١	﴿الرحمن الرحيم﴾	٥٥٤٩
٢	﴿عالم الغيوب﴾	٥٥٤٩
٣	﴿خالق الإنسان﴾	٥٥٤٩
٤	﴿عالم الغيب﴾	٥٥٤٩
٥	﴿الشمس والقمر بحسبان﴾	٥٥٤٩
٦	﴿والنجم والشجر يسجدان﴾	٥٥٤٩
٧	﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾	٥٥٤٩
٨	﴿ألا تطغوا فى الميزان﴾	٥٥٤٩
٩	﴿وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾	٥٥٤٩
١٠	﴿والأرض وضعها للأنعام﴾	٥٥٤٩
١١	﴿فبها فاكهة والنخل ذات الأكمام﴾	٥٥٤٩
١٢	﴿والحب ذو العصف والبرىحان﴾	٥٥٤٩
١٣	﴿فبأى آلاء ربكمات كنذبان﴾	٥٥٤٩
١٤	﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾	٥٥٥٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٥	﴿وخلق الجان من مارج من نار﴾	٥٥٥٥
١٦	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٥٥
١٧	﴿رب المشرقين ورب المغربين﴾	٥٥٥٥
١٨	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٥٥
١٩	﴿مرج البحرين يلتقيان﴾	٥٥٥٥
٢٠	﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾	٥٥٥٥
٢١	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٥٥
٢٢	﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾	٥٥٥٥
٢٣	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٥٥
٢٤	﴿وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام﴾	٥٥٥٥
٢٥	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٥٥
٢٦	﴿كل من علىه ان فان﴾	٥٥٦١
٢٧	﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾	٥٥٦١
٢٨	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦١
٢٩	﴿يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن﴾	٥٥٦١
٣٠	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦١
٣١	﴿سنفرغ لكم أيتها الثقلاء﴾	٥٥٦٥
٣٢	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٥
٣٣	﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا...﴾	٥٥٦٥
٣٤	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٥
٣٥	﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنقصران﴾	٥٥٦٥
٣٦	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٥
٣٧	﴿فلإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان﴾	٥٥٦٨
٣٨	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٨
٣٩	﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾	٥٥٦٨
٤٠	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٨
٤١	﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾	٥٥٦٨
٤٢	﴿فبأى آلاء ربكم اتكذبان﴾	٥٥٦٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٣	﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾	٥٥٦٨
٤٤	﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾	٥٥٦٨
٤٥	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٦٨
٤٦	﴿ وللمن خاف مقام ربه جنتان ﴾	٥٥٧١
٤٧	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٤٨	﴿ نواتنا أفنان ﴾	٥٥٧١
٤٩	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٥٠	﴿ فيهما عينان تجريان ﴾	٥٥٧١
٥١	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٥٢	﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾	٥٥٧١
٥٣	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٥٤	﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾	٥٥٧١
٥٥	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٥٦	﴿ فيهن قاضرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾	٥٥٧١
٥٧	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٥٨	﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾	٥٥٧١
٥٩	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٦٠	﴿ مثل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾	٥٥٧١
٦١	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧١
٦٢	﴿ ومن دونهم مارجنتان ﴾	٥٥٧٦
٦٣	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٦٤	﴿ مدهامتان ﴾	٥٥٧٦
٦٥	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٦٦	﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾	٥٥٧٦
٦٧	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٦٨	﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾	٥٥٧٦
٦٩	﴿ فبأى آلاء ربكم ماتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٧٠	﴿ فيهن خيرات حسبان ﴾	٥٥٧٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧١	﴿ فبأى آلاء ربكم اتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٧٢	﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾	٥٥٧٦
٧٣	﴿ فبأى آلاء ربكم اتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٧٤	﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾	٥٥٧٦
٧٥	﴿ فبأى آلاء ربكم اتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٧٦	﴿ متكئين على رفرف خضر وعبرى حسان ﴾	٥٥٧٦
٧٧	﴿ فبأى آلاء ربكم اتكذبان ﴾	٥٥٧٦
٧٨	﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾	٥٥٧٦
-	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الرحمن	٥٥٨٢
-	تفسير سورة الواقعة .	٥٥٨٣
-	أهداف سورة الواقعة .	٥٥٨٤
١	﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾	٥٥٨٩
٢	﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾	٥٥٨٩
٣	﴿ خافضة رافعة ﴾	٥٥٨٩
٤	﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾	٥٥٨٩
٥	﴿ ويست السجال بسّاً ﴾	٥٥٨٩
٦	﴿ فكانت هباء منقّاة ﴾	٥٥٨٩
٧	﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثاً ﴾	٥٥٨٩
٨	﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾	٥٥٨٩
٩	﴿ وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ﴾	٥٥٨٩
١٠	﴿ والسابقون السابقون ﴾	٥٥٨٩
١١	﴿ أولئك هم القريون ﴾	٥٥٨٩
١٢	﴿ فى جنات النعيم ﴾	٥٥٨٩
١٣	﴿ ثلثة من الأوليين ﴾	٥٥٩٤
١٤	﴿ وقليل من الآخرين ﴾	٥٥٩٤
١٥	﴿ على سرر موضونة ﴾	٥٥٩٤
١٦	﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾	٥٥٩٤
١٧	﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾	٥٥٩٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٨	﴿بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾	٥٥٩٤
١٩	﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون﴾	٥٥٩٤
٢٠	﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾	٥٥٩٤
٢١	﴿ولحم طير مما يشتهون﴾	٥٥٩٤
٢٢	﴿وجنود عرين﴾	٥٥٩٤
٢٣	﴿كأمثال النواكس المكنون﴾	٥٥٩٤
٢٤	﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾	٥٥٩٤
٢٥	﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً﴾	٥٥٩٤
٢٦	﴿إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾	٥٥٩٤
٢٧	﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾	٥٥٩٩
٢٨	﴿نفسي سدر مخضود﴾	٥٥٩٩
٢٩	﴿وطلس مخضود﴾	٥٥٩٩
٣٠	﴿وظلل منمّود﴾	٥٥٩٩
٣١	﴿ومساء مسكوب﴾	٥٥٩٩
٣٢	﴿وفاكهة كثيرة﴾	٥٥٩٩
٣٣	﴿لا مقطورة ولا ممنوعة﴾	٥٥٩٩
٣٤	﴿وفرش مرفوعة﴾	٥٥٩٩
٣٥	﴿إننا أنشأناهم من إنشَاء﴾	٥٥٩٩
٣٦	﴿نجعلناهم من أبكاراً﴾	٥٥٩٩
٣٧	﴿عزرياً أنثراً﴾	٥٥٩٩
٣٨	﴿وأصحاب اليمين﴾	٥٥٩٩
٣٩	﴿ثلاثة من الأوليين﴾	٥٥٩٩
٤٠	﴿وثلاثة من الآخرين﴾	٥٥٩٩
٤١	﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال﴾	٥٦٠٤
٤٢	﴿نفسي سموم وحميم﴾	٥٦٠٤
٤٣	﴿وظلل من يحميم﴾	٥٦٠٤
٤٤	﴿لا يبارد ولا يكرّم﴾	٥٦٠٤
٤٥	﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾	٥٦٠٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٦	﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾	٥٦٠٤
٤٧	﴿وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً...﴾	٥٦٠٤
٤٨	﴿أو آباءنا أو أولادنا الأولون﴾	٥٦٠٤
٤٩	﴿قل إن الأوليين والآخرين﴾	٥٦٠٤
٥٠	﴿لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾	٥٦٠٤
٥١	﴿ثم إنكم أيها الضالون المكدبون﴾	٥٦٠٤
٥٢	﴿لاكلون من شجر من زقوم﴾	٥٦٠٤
٥٣	﴿فمالئون منها التبطون﴾	٥٦٠٤
٥٤	﴿فشاربون عليه من الحميم﴾	٥٦٠٤
٥٥	﴿فشاربون شرب الهيم﴾	٥٦٠٤
٥٦	﴿هذان زلهم يوم الدين﴾	٥٦٠٤
٥٧	﴿نحن خلقناكم فلولا تصدقون﴾	٥٦٠٩
٥٨	﴿أفرأيتم ما تمننون﴾	٥٦٠٩
٥٩	﴿أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾	٥٦٠٩
٦٠	﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين﴾	٥٦٠٩
٦١	﴿على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون﴾	٥٦٠٩
٦٢	﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾	٥٦٠٩
٦٣	﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾	٥٦١٢
٦٤	﴿أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾	٥٦١٢
٦٥	﴿لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت فكمهون﴾	٥٦١٢
٦٦	﴿إننا الممرون﴾	٥٦١٢
٦٧	﴿بل نحن محرومون﴾	٥٦١٢
٦٨	﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾	٥٦١٢
٦٩	﴿أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون﴾	٥٦١٢
٧٠	﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾	٥٦١٢
٧١	﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾	٥٦١٢
٧٢	﴿أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون﴾	٥٦١٢
٧٣	﴿نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين﴾	٥٦١٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧٤	﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾	٥٦١٢
٧٥	﴿فلا أقسم بمما واقع النجوم﴾	٥٦١٦
٧٦	﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾	٥٦١٦
٧٧	﴿إنه لقدر أن كريم﴾	٥٦١٦
٧٨	﴿فلى كتاب مكنون﴾	٥٦١٦
٧٩	﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾	٥٦١٦
٨٠	﴿تنزيل من رب العالمين﴾	٥٦١٦
٨١	﴿أفبهذا الحديث أنتم مدمنون﴾	٥٦١٦
٨٢	﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾	٥٦١٦
٨٣	﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم﴾	٥٦١٦
٨٤	﴿وأنتم حينئذ تنظرون﴾	٥٦١٦
٨٥	﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾	٥٦١٦
٨٦	﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾	٥٦١٦
٨٧	﴿ترجعونها إن كنتم صادقين﴾	٥٦١٦
٨٨	﴿فأما إن كان من المقربين﴾	٥٦١٦
٨٩	﴿فروح وريحان وجنة نعيم﴾	٥٦١٦
٩٠	﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾	٥٦١٦
٩١	﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾	٥٦١٦
٩٢	﴿وأما إن كان من المكذبين الضالين﴾	٥٦١٦
٩٣	﴿فننزل من حميم﴾	٥٦١٦
٩٤	﴿وتصلية جحيم﴾	٥٦١٦
٩٥	﴿إن هذا هو حق اليقين﴾	٥٦١٦
٩٦	﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾	٥٦١٦
—	خلاصة موضوعات سورة الواقعة	٥٦٢٥
—	تفسير سورة الحديد	٥٦٢٧
—	أهداف سورة الحديد	٥٦٢٨
١	﴿سبح لله ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾	٥٦٣٣
٢	﴿له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت﴾	٥٦٣٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣	﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾	٥٦٣٣
٤	﴿ هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ... ﴾	٥٦٣٣
٥	﴿ له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. ﴾	٥٦٣٣
٦	﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ... ﴾	٥٦٣٣
٧	﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ... ﴾	٥٦٤١
٨	﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ... ﴾	٥٦٤١
٩	﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ... ﴾	٥٦٤١
١٠	﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض. ﴾	٥٦٤١
١١	﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ... ﴾	٥٦٤١
١٢	﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ... ﴾	٥٦٤٧
١٣	﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ... ﴾	٥٦٤٧
١٤	﴿ ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ... ﴾	٥٦٤٧
١٥	﴿ فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ... ﴾	٥٦٤٧
١٦	﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ... ﴾	٥٦٥٢
١٧	﴿ اعلّموا أن الله يحىى الأرض بعد موتها ... ﴾	٥٦٥٢
١٨	﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ... ﴾	٥٦٥٢
١٩	﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ... ﴾	٥٦٥٢
٢٠	﴿ اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ... ﴾	٥٦٥٨
٢١	﴿ سابققوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ... ﴾	٥٦٥٨
٢٢	﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب ... ﴾	٥٦٥٨
٢٣	﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ... ﴾	٥٦٥٨
٢٤	﴿ الذين يبخلون ويأمرؤن الناس بالبخل ... ﴾	٥٦٥٨
٢٥	﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب ... ﴾	٥٦٦٧
٢٦	﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة ... ﴾	٥٦٧٠
٢٧	﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم ... ﴾	٥٦٧٠
٢٨	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ... ﴾	٥٦٧٠
٢٩	﴿ لنلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ... ﴾	٥٦٧٠
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الحديد .	٥٦٧٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تخريج أحاديث وهوامش .	٥٦٨١
—	فهرس الكتاب .	٥٧٠١

تم بحمد الله الجزء (السابع والعشرون)

ويليه الجزء (الثامن والعشرون)

بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثامن والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة



تفسير سورة المجادلة

أهداف سورة المجادلة

(سورة المجادلة مدنية ، وآياتها ٢٢ آية ، نزلت بعد سورة المنافقون)

تربية إلهية

سورة المجادلة حافلة بآداب التربية وتهذيب السلوك ، وتحذير المسلمين من مكاييد المنافقين .

لقد نزلت هذه السورة بعد سورة المنافقون ، وكانت الجماعة الإسلامية في المدينة لا تزال في طور الإعداد والتكوين ، وكان المسلمون يتألفون من المهاجرين والأنصار ، وقد انضم إليهم من لم يتلق من التربية الإسلامية القدر الكافي ، ومن لم يتنفس في الجور الإسلامي فترة طويلة ، كما يدخل في الإسلام جماعة من المنافقين ، حرصوا على الاستفادة المادية وأخذوا يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويعرضون ولاءهم على المعسكرات المناوئة للمسلمين ، وهي معسكرات المشركين واليهود .

وقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكبير المقدر لها في الأرض جهودًا ضخمة وصبرًا طويلًا ، وعلاجًا بطيئًا في صغار الأمور وكبارها .

ونحن نشهد في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله - طرفًا من تلك الجهود الضخمة ، وطرفًا من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس ، وفي علاج الأحداث والعادات والنزوات ، كما نشهد جانبًا من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

«ونشهد في سورة المجادلة بصفة خاصة صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ، وهو يصنعها على عينه ، ويربيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده سبحانه معها في أخص خصائصها ، وأصغر شئونها ، وأخفى طواياها ، وحراسته لها من كيد أعدائها خفيٍّ وظاهره ، وأخذها في حماه وكفنه ، وضمها إلى لوائه وظله ، وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله ، وتنتسب إليه ، وترفع لواءه في الأرض»^(١) .

قصة المجادلة

سميت سورة المجادلة بهذا الاسم لاشتغالها على قصة المرأة المجادلة ، وقد افتتح الله بها السورة حيث قال سبحانه : **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** . (المجادلة : ١) .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود في كتاب الطلاق من سننه ، عن خولة بنت ثعلبة قالت : **فِيَّ وَاللَّهِ وَفِي أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرَ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ** ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، قالت : فدخل عليَّ يوما فراجعتني بشيء فغضب ، فقال : أنت عليَّ كظهر أمي .

وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، وكان ذلك أول ظهار في الإسلام ، فندم أوس لساعته ، ثم دعاها لنفسه - أي : طلب ملامستها - فأبَتْ وقالت : والذي نفسي بيده لا تصل إليَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأنت رسول الله ﷺ . فقالت : يا رسول الله ، إن أوسا تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال ، حتى إذا أكل مالي ، وأفنى شبابي ، وتفرق أهلي ، وكبرت سني ، ظاهر مني ، وقد ندم ، فهل من شيء تجمعني به وإياه فلتيتي به ؟ فقال ﷺ : «حرمت عليه ، أو ما أراك إلا قد حرمت عليه» .

فأعادت الكرة والرسول ﷺ يعيد عليها نفس الجواب ، حتى قالت : أشكو إلى الله فاقتي ووجدتي ، قد طالت له صحبتي ، ونثرت له بطني ، وإن له صبية صغارا ، إن ضممتهم إليَّ جاءوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتتضرع ، وتشكو إلى الله ، فزلت الآيات الأربع من صدر سورة المجادلة : فقال رسول الله ﷺ : «يا خولة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنا» ، ثم تلا عليها الآيات ، وقال لها : «مريه فليعتق رقية» ، قالت : يا رسول الله ، ليس عنده ما يعتق ، قال : «فليصم شهرين متتابعين» ، قالت : والله إنه لشيخ ما له من صيام ، قال : «فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر» ، قالت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده ، فقال رسول الله ﷺ : «فإننا سنعيثه يعرق من تمر» ، قالت : يا رسول الله ، وأنا سأعيثه بعرق آخر ، قال الرسول : «قد أصبحت وأحسن ، فانهبي فتصدقني به عنه ، ثم استوصي بآبن عمك خيرا» ، قالت : ففعلت .

تلك قصة الظهار ، وهي تشير إلى رعاية السماء لهذه الجماعة المؤمنة ، ونزول الوحي يجب على أئمتها ويحل مشاكلها ، ويربي نفوسها ويهذب أخلاقها ، ويأخذ بيدها إلى الصراط القويم .

وقد تضمنت الآيات إحاطة السميع البصير بكل صغيرة وكبيرة ، وإطلاعه على جميع الأعمال ، وبينت أن المسارعة إلى ألفاظ الظهار والطلاق منكر وزور ، وأن الزوجة غير الأم ، فالأم حملت وأرضعت وقد حرم الله على الإنسان الزواج بأمه ، والزوجة أحل الله زواجها .

ثم رسم القرآن طريق الحل لمن بدرت منه بادرة بالظهار فقال لامرأته: أنت على كظهر أمي، ثم أراد أن يرجع عن ذلك وأن يراجع زوجته، فعليه أن يكفر عن هذا الذنب بتحريز رقبة، فإن لم يجد فإنه يصوم ستين يوما، فإن لم يستطع فعليه إطعام ستين مسكينا، وفي ذلك نوع من التهذيب والتأديب حتى يضبط الناس أعصابهم، ويحفظوا ألسنتهم في ساعة الغضب والتهور.

أهداف السورة

تبدأ السورة بهذه البداية الكريمة، وهي سماع الله العلي القدير لشكوى امرأة فقيرة مغمورة، وقد استمع إليها الله من فوق سبع سموات، وكان صوتها ضعيفا لا يكاد يُسمع من يجلس بجوارها.

وفي البخارى، والنسائي، عن عائشة رضى الله عنها قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُحَدِّثُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ ... (المجادلة: ١). إلى آخر الآيات الأربع من صدر السورة.

وفي الآيتين (٥، ٦) تأكيد على أن الذين يحادون الله ورسوله - وهم أعداء الجماعة المسلمة التى تعيش فى كنف الله - مكتوب عليهم الكبّ والقهرُ فى الأرض، والعذاب المهيّن فى الآخرة، مأخوذون بما عملوا، أحصاه الله عليهم، ونسوه هم، وهم فاعلوه، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. (المجادلة: ٦).

والآية ٧ من سورة المجادلة تؤكد سعة علم الله وإحاطته بما فى السماوات والأرض، واطلاعه على السر والنجوى، ورقابته لكل صغير وكبير، ثم محاسبة الجميع بما قدموا يوم القيامة، والآية تخرج هذه المعانى فى صورة عميقة التأثير، تترك القلوب وجلة ترتعش مرة وتأنس مرة، وهى مأخوذة بمحضر الله الجليل: هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. (المجادلة: ٧).

وفي الآيات (٨ - ١٠) يشوّر القرآن بموقف المنافقين الذين يبيتون الكيد والدس للمؤمنين، ويهددهم بأن أمرهم مكشوف، وأن عين الله مطلعةٌ عليهم، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلةٌ، وسحاسبون عليها ويلقون جزاءهم فى جهنم ويثس المصير.

ثم تستطرد الآيات إلى تربية المسلمين وتهذيب نفوسهم بهذا الخصوص، فتنهاهم عن الحديث الخافت المحتوى على الإثم والعدوان ومعصية الرسول. وذلك يؤكد أنه كان بين جماعة المسلمين قوم لم يترسخ الإيمان فى قلوبهم، وكانوا يقلدون المنافقين فى التناجى بالهزم واللمز والإثم والمعصية، وكان القرآن يواكب هؤلاء جميعا، فيكشفُ المنافقين، ويرشدُ المسلمين، ويُنزلُ الهدى والرحمة للناس أجمعين.

والآيات (١١ - ١٣) ، استطراد في تربية المسلمين ، وتعليمهم أدب السماحة والطاعة في مجلس الرسول ﷺ ، ومجالس العلم والذكر ، وهو أدب رفيع قدمه القرآن من عشرات القرون ليحث الناس على التعاون والتكافل والسلوك المذهب : **إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا** ... (المجادلة: ١١) . كما تحث الآيات على توقير العلم ، وترسم أدب السؤال والحديث مع رسول الله ﷺ ، وتحث على الجد والتوقير في هذا الأمر.

ويبدأ الربع الثاني في السورة بالآية ١٤ ، وقد تحدثت مع ما بعدها عن المنافقين الذين يتولون اليهود ويتآمرون معهم ، ويدارون تأمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين .

وهم في الآخرة كذلك حلافون كذابون ، يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ، مع تأكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأدلين ، وأنهم هم الأخسرون ، وإن الله يرسله هم الغالبون .

وفي ختام السورة نجد صورة كريمة للمؤمن الذي يستعلى بإيمانه ، ويجعل الإيمان هو النسب وهو الحياة ، وهو العقيدة الغالية التي تصله بالمؤمنين والمسلمين ، وتحجب مودته عن أعداء الله ، ولو كانوا أقرب الناس إليه .

وكذلك كان المهاجرون والأنصار الذين ضحوا بكل شيء في سبيل العقيدة ، فكتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وجعلهم مثلاً أعلى لكل فئة مخلصه ولكل مسلم مخلص ، فمودته للمسلم وحيه وإخلاصه وتعاونه لا تكون إلا للمسلمين الصادقين ، ثم هو في نفس الوقت يحجب مودته عن الخائنين وإن كانوا أقاربه أو أصحابه أو عشيرته .

ومن سمات هذا الدين أن تحب لله وأن تكره لله : أن تحب المتقين ، وتصل المؤمنين ، وتتعاون مع الهداة الصالحين ، وأن تحجب مودتك عن الفاسقين لأنك بهذا تنفذ أمر الله وتهجر من عصي الله . (ومن أحب من أحب الله ، فكأنما يحب الله) .

المقصد الإجمالي للسورة

قال الفيروزيادي:

معظم مقصود سورة المجادلة هو : «بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع في المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان»^(١) . والحكم على الأول بالفلاح ، وعلى الثاني بالخسران .

قال تعالى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ غَالِيَيْنَ فِيهَا زَوْجَى اللَّهِ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (المجادلة: ٢٢).

★ ★ ★

أحكام الظهار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ١ ﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ٢ ﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ ذَلِكَ لَهُمْ ثَوْغُلُوتٌ بِهِ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينَ ذَلِكَ لِيُؤْمُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤ ﴾

المضردات :

سَمِعَ : أجاب وقيل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده .

الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا : هي خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية .

تَجَادَلَا : تراجعك الكلام في أمره ، وفيما صدر منه في شأنها .

وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ : تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم ، وتضرع إليه أن يزيل كربها .

وَزَوْجِهَا : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت .

السَّمْعُ : صفة تدرك بها الأصوات ، أثبتها الله تعالى لنفسه .

تَحَاوَرَكُمَا : تراجعكما في الكلام ، من حار إذا رجع .

الظَّهَارُ : هو أن يقول الرجل لامراته : أنت على كظهر أمي ، أي محرمة ، وقد كان هذا أشد

طلاق في الجاهلية .

إِنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ، بِأُمَّهَاتِهِمْ .

مَنْكَرًا ، المنكر ما ينكره العقل والشرع والطبع .

زورًا ، كذبًا منحرفًا عن الحق .

يَعْمِدُونَ لِمَا قَالُوا ، يرجعون عما قالوا ، ويريدون وطءً نسائهم ، بعد أن حرّموه على أنفسهم .

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فعليه إعتاق عبد أو جارية .

مَنْ قَبْلُ أَنْ يَتِمَّاسًا ، من قبل أن يجامعها ، وهذا من كنايات القرآن عن المخالطة الخاصة بين الزوج وزوجته .

ذلك تتؤمنوا بالله ورسوله ، ذلك التغليظ في الكفارة لكي تعملوا بشرائع الله التي شرعها ، فلا تعودوا إلى

الظهار الذي هو من شرائع الجاهلية .

حُدُودَ اللَّهِ ، أحكام شريعته التي لا يحل تركها .

لِلْكَافِرِينَ ، الذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

تمهيد :

هذا الجزء في معظمه توجيهات إلهية للأمة المسلمة ، وهذه السورة مشتملة على هذه التوجيهات ، مبنية لرقابة الله العليّ القدير ، وسمعه ومشاهدته ومحاسبته ، وتبليته لدعاء امرأة من عوام النّاس كانت تشكو إلى الله تعالى حالها ، بعد أن ظاهر زوجها منها ، وحرّمها على نفسه ، كما حرّمت عليه أمّه ، وقد لأمه القرآن على هذا العمل ، ويبيّن أنه منكر وزور ، فالزوجة أحلّ الله لزوجها جماعها والاستمتاع بها كزوجة ، والأمّ حرّم الله زواجها .

ثم ترسم الآيات طريق الحلّ لمن وقع في هذا المنكر ، ويمثّل ذلك فيما يأتي على الترتيب :

١ - عتق رقبة ، أي إعتاق عبد أو أمة .

٢ - صيام ستين يومًا متتابعة ، قبل أن يخالط زوجته مخالطة الأزواج .

٣ - إطعام ستين مسكينًا .

وهذه الأمور الثلاثة على الترتيب ، فإذا كان لا يستطيع إعتاق عبد لعدم وجود الرّق ، فإنه مكلف بصيام ستين يومًا متتابعة ، فإذا كان لا يستطيع ذلك ، فإن عليه أن يطعم ستين مسكينًا . وهذه العقوبة ليرتدع الناس عن الحلف بالظهار ، ويتوبوا عن إيقاع الظهار على زوجاتهم ، ويلتزموا بهدى الله وتنفيذ ما أمر به .

سبب النزول

جاء في مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، ما يأتي :

روى الإمام أحمد ، عن خولة بنت ثعلبة ، قالت : فَمِىَّ وَاللَّهِ وَفِى أَوْسِ بْنِ الصَّامِتِ أَنْزَلَ اللَّهُ صَدْرُ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ ، قَالَتْ : كُنْتُ عِنْدَهُ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خَلْقُهُ ، قَالَتْ : فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاغَعْتَهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ ، فَقَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّى ، قَالَتْ : ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِى نَادَى قَوْمِهِ سَاعَةً ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ ، فَإِذَا هُوَ يَرِيدُنِي عَنْ نَفْسِي ، قَالَتْ : قُلْتُ : كَلَّا وَالَّذِى نَفْسُ خَوْلَةَ بِيَدِهِ لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتُ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ ، قَالَتْ : فَوَاتِبْنِي فَاثْمَنْتُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ ، فَأَلْفَيْتُهُ عَنِي ، قَالَتْ : ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا قِيَابًا ، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ وَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خَلْقِهِ ، قَالَتْ : فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «يَا خَوْلَةُ ، ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِ اللَّهَ فِيهِ» ، قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا بُرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِىَّ قُرْآنٌ ، فَتَغَشَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَاهُ ، ثُمَّ سَرَى عَنْهُ فَقَالَ لِي : «يَا خَوْلَةُ ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِى صَاحِبِكَ قُرْآنًا» ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ : «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» . قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَرِيهْ فَلْيَعْتِقْ رَقَبَةً» ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عِنْدَهُ مَا يَعْتِقُ ، قَالَ : «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَشَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ ، قَالَ : «فَلْيَطْعَمْ سَتِينَ مَسْكِينًا وَسَقَا مِنْ تَمْرٍ» ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ ، قَالَتْ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «فَإِنَّا نَسْعِيْنَهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ» ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَنَا سَاعِيْنَهُ بِعَرَقٍ آخَرَ ، قَالَ : «قَدْ أَصْبَحْتُ وَأَحْسَنْتُ ، فَانْهَبِي فَتَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكَ خَيْرًا» . قَالَتْ : فَفَعَلْتُ ^(١) .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول هذه السورة .

قال ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته (أوس بن الصامت) أخو عبادة بن الصامت وأمرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك ، فلما ظاهر منها خشيت أن يكون ذلك طلاقاً ، فأنتت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً طاهر منى ، وإننا إن افترقنا هلكتنا ، وقد نثرت بطنى منه وقدمت صحبته ، وهى تشكو ذلك وتبكي ، ولم يكن جاء فى ذلك شىء ، فأنزل الله تعالى : «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...» إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : «وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» . فدعاه رسول الله ﷺ فقال : «أتقدر على رقية نعتقها ؟ قال : لا والله يا رسول الله ما أقدر عليها ، قال : فجمع له رسول الله ﷺ حتى أعتق عتقه ، ثم راجع أمه ^(٢) .

التفسير:

١ - قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

بهذه البداية الرائعة تبدأ سورة المجادلة ، وتسمى المجادلة بفتح الدال ، والمجادلة بكسرهما جائز .

والمجادلة بكسر الدال هي خولة بنت ثعلبة ، وزوجها هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت الصحابي الجليل .

وكان أوس بن الصامت قد كبرت سنُّه وساءت خلقه ، فدخل على زوجته يوماً فراجعتها في شيء ، فغضب ، وقال لها : أنت على كظهر أمي ، وكان هذا أول ظهار في الإسلام ، وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامراته حرمت عليه ، فندم أوس من ساعته ، وجاءت زوجته خولة بنت ثعلبة للنبي ﷺ تشكو حالها وتقول : يا رسول الله ، إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، لي مال وجمال وعشيرة ، فانتظر حتى ذهب مالي ، وولي جمالتي وتفرق أهلي فظاهر مني ، وقال لي : أنت على كظهر أمي ، فإن كنت تجد لي رخصة يارسول الله ، تجمعني بها وإياه فحذثني بها ، فقال ﷺ : « ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن ، ما أراك إلا قد حرمت عليه » .

قالت : يا رسول الله ، إنني أنجبت منه أولاداً ، كان يطنى لهم وعاء ، وكان ثديي لهم سقاء ، وكان حجرى لهم كفاء ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ، وإن ضمهم إليهم ضاعوا .

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إني أشكو إليك خراب بيتي وتشرد أولادي وضياح زوجي ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى ظلل على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن فيها ، فقال ﷺ : « يا خولة ، أبشري » ، قالت : خيرا ، فقرأ عليها هذه الآيات الأربع من أول سورة المجادلة .

ونلاحظ استجابة السماء ، واستجابة الله العلي القدير ، مالك الملك والملوك ، ذي العزة والجبروت ، لامرأة من عوام الناس ، ونزول القرآن بشأنها ، واستماع الله لشكواها ، وحوارها مع رسول الله ﷺ .

ومعنى الآية :

لقد استجاب الله أو سمع قول المجادلة خولة بنت ثعلبة التي جاءت إليك تجادل في شأن زوجها الذي ظاهر منها ، وقال لها : حرمت على كما حرمت على أمي ، وجعلت تجادل ، وترد عليك ، وتقول إن زوجها لم يذكر طلاقاً ، وإنما ذكر الظهار فقط ، ثم اتجهت بشكواها إلى الله وهو سبحانه يسمع تحاورها مع أيها الرسول ، وترديدها للشكوى ، إن الله سميعٌ . لكل شيء ، مهما كان خفياً أو هامساً ، بصيرٌ . بكل شيء مهما كان دقيقاً ، فسبحانه وتعالى من سميع بصير .

أخرج البخاري، والنسائي، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ فى جانب البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل:

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ .

والآية بعد ذلك وقبله، رسالة موجهة إلى كل قلب: ما أقرب الله إليك وأنت لا تشعر قربه، وما أحبك إليه وأنت لا تشعر حبه، إنه يسمعك ويراك، ويعلم متقلبك ومثواك، ألا تستحي منه حق الحياء، بأن تحفظ السمع وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى.

والآية موجهة إلى كل زوج وزوجة: حافظوا على بيوتكم، وعلى أولادكم، وعلى استقراركم، وعلى عش الزوجية هادئاً هانئاً بالمودة والرحمة، والألفة والتضحية، والصبر والوفاء، فبهذه الصفات ترى الأسر، وتنشأ الذرية الصغيرة فى كنف العطف والرعاية، ونجد شباباً صالحاً وفتيات صالحات، يساهمون جميعاً فى مجتمع سليم وأمة كريمة، لتكون بحق: خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... (آل عمران: ١١٠).

٢ - الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نَسَاهُمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ غَفُورٌ .

تبين هذه الآية حكم الظهار، وأنه حرام وعدوان، بل قال بعضهم إنه من الكبائر، لأنه إقدام على تبديل حكم الله بغير إذنه، ولهذا أوجب فيه الكفارة العظمى تأديباً للمسلم، وتحذيراً لغيره من هذا السلوك والمعنى:

الذين يحرّمون زوجاتهم على أنفسهم، ويقول الواحد منهم لزوجته: أنت على كظهر أمي، هم خاطئون مزبورون، قائلون للمنكر والكذب، فالزوجة ليست أمّاً، ولا تأخذ حكم الأم.

الأم هي التي ولدتك وأرضعتك، وأوجب الله لها الخضوع والطاعة، وحسن المعاملة والتلطف، والبر وعدم العقوق، والزوجة أحل الله لك الاستمتاع بها، وأمرك بحسن عشرتها، وعند نشوزها أمرك بوعظها وهجرها، وضربها ضرباً غير مبرح، رغبة فى استدامة العشرة، وأوجب عليك الصبر عليها، والنفقة والمودة والرحمة.

أما أن تقول لها: أنت على كظهر أمي، فهذا منكّر ينكره الشرع والطبع، وهو زور وكذب وباطل، فأقلعوا عنه، وتوبوا إلى الله منه، فإن الله عظيم العقوب، والتائبين، وهو واسع المغفرة وعظيم الرحمة لكلّ توّاب مهتدٍ، نادم على ذنبه، رجّاح إلى ربه.

٣ - وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

الذين يظاهرون من نساءهم ويحرمون زوجاتهم عليهم كما حرمت أمهاتهم ، ثم يعدلون عن رغبتهم في التحريم ، ويرجعون عن قولهم : أنت على كظهر أمي ، أو يرغبون في جماع زوجاتهم ومعاشرتهن ، والعدول عن التحريم والعودة مرة أخرى إلى الحياة الزوجية ، هؤلاء يلزمهم تحرير رقبة . أي : عتق عبد أو أمة من قبل أن يجامع زوجته .

هذا وعظ وتأديب وتربية من الله تعالى لهؤلاء المظاهرين ، والله مطلع على أعمالكم ، خبير بكل ما تفعلونه ، فراقبوه سبحانه حتى يطالع منكم على قلب سليم وسلوك مستقيم .

٤ - لَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِأَنَّكَ خَلَقْتَهُ خُلُقًا وَبِأَنَّكَ خَلَقْتَهُ خُلُقًا وَلِئَلَّكَ تُعَذِّبَهُ أَلِيمٌ .

تفيد الآيات ما يأتي :

من قال لامراته : أنت على كظهر أمي ، ثم ندم ورغب في الرجوع إلى الحياة الزوجية مع زوجته ، فعليه كفارة بفعل واحدة من ثلاث على الترتيب :

أولاً : عتق رقبة ، فإن عجز عن ذلك - كما في هذه الأيام لعدم وجود أرقاء أصلاً - انتقل إلى الكفارات الأخرى .

ثانياً : صيام ستين يوماً متتابعة من قبل أن يجامع زوجته .

ثالثاً : إذا عجز عن الصيام ، فإنه يطعم ستين مسكيناً طعاماً مشبعاً كافياً .

وهذه الأمور على الترتيب ، فلا يلجأ إلى الصيام إلا عند العجز عن عتق رقبة ، ولا يلجأ إلى الإطعام إلا عند العجز عن صيام ستين يوماً متتابعة ، فإذا عجز عن الصيام أطعم ستين مسكيناً طعاماً مشبعاً .

ونهب الشافعي وغيره إلى أنه يكفي إعطاء مد واحد لكل مسكين ، ورأى أبو حنيفة جواز إعطاء القيمة ، بل هي أفضل إذا كانت أنفع للفقير .

ويمكن تقدير قيمة إطعام الفقراء بركاة الفطر التي قدرها العلماء بخمسة جنيهات عن كل فرد في شهر رمضان سنة ١٤٢١ هـ ، فنقول : يعطى لستين مسكيناً ، كل مسكين منهم خمسة جنيهات ، أو ما

يعادلها ، فمن تطوع خيراً فهو خير له ، بأن يضاعف القيمة إذا كان من أهل اليسر ، فيعطى لكل مسكين ١٠ جنيهات $60 \times 60 = ٦٠٠$ جنيه (ستمائة جنيه) ، مقدار الكفارة للمظاهر من زوجته .

ذَٰلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لقد شددنا العقوبة حتى يرتدع المتلاعبون بحرمات الله ، وتكون هذه العقوبة رادعا للمعتدين ، ليعودوا إلى طريق الإيمان بالله ورسوله ، واحترام أوامر الشرع ، والالتزام بأداب الدين ، وهذه حدود الله وأحكامه الفاصلة بين الحق والباطل ، فالزموها وقفوا عندها ، ومن استهان بحدود الله ، وصدّ عن شرائعه ، وكفر بهديه ، فله عذاب أليم موجه في الآخرة .

وإطلاق لفظ الكافرين على المعتدّى على حدود الله للزجر والردع .

كما قال سبحانه وتعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . (آل عمران : ٩٧) .

فى أعقاب الآيات

فى هذه الآيات الكريمة تكريم للمرأة ، ورفع لغبين الجاهلية عنها ، حيث نهى القرآن عن الظهار واعتبره منكراً وزوراً ، ثم سجل عقوبة كبيرة على قائله ، ليربّه إلى حظيرة الإيمان ، ولم تكن الآيات أحكاماً شرعية فحسب ، وإنما ضمت إلى ذلك تكريم المرأة وإنصافها ، واستجابة السماء لها ، ولا عجب إذا رأينا الخلفاء يكرمون المرأة ، ويستمعون لشئونها ويلبّون طلبها ، ويكرمون خولة بنت ثعلبة ، ويقولون : قد سمع الله تعالى لها .

من التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وتفسير ابن كثير :

روى ابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الأسماء والصفات : أن خولة بنت ثعلبة رأت عمر رضى الله عنه وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته ، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، حبست رجال قريش على هذه العجوز ، قال : ويحك ، أأندرى منّ هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله لشكواها من فوق سبع سماوات ، هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها .^(١)

وفى رواية أخرى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه والناس معه على حمار ، فاستوقفته طويلاً ووعظته ، وقالت : يا عمر ، قد كنت تدعى عميراً ، ثم قيل لك : عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فأتق الله

يا عمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب - وهو واقف يسمع كلامها - فقيل له : يا أمير المؤمنين ، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لآلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سماوات ، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟^(١)

★ ★ ★

الرقابة الإلهية

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُنْتُمُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايَهُمْ وَلَا حِصَّةٌ إِلَّا هُوَ سَادِئُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧﴾

المفردات :

يُحَادُّونَ : يشاقون ويعادون ، وأصل المحادّة : الممانعة ، ومنه قيل للبواب : حدّاد .

كُبِيتُوا : خُدلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلانا ، إذا أذله ، والمردود بالذل مكبوت .

مُهِينٌ : يلحق بهم الهوان والذلّ .

فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا : يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريعاً لهم .

أَحْصَاهُ اللَّهُ : أحاط به عدّاً ، ولم يغب عنه شيء منه .

شَهِيدٌ : مشاهد لا يخفى عليه شيء .

أَلَمْ تَرَ : ألم تعلم .

مَا يَكُونُ : ما يوجد .

الْبَنَجَوَى : التناجي والمسارة ، وقد تُستعمل في المتناجين ، كما قال تعالى : وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ٢ ... (الإسراء : ٤٧) .

أي : أصحاب نجوى .

تمهيد :

تحدثت آيات سابقة عن رعاية الله للمؤمنين ، واستجابته لشكوى المجادلة ، وهنا يتهدد المخالفين الذين يعادون حدود الله وأحكامه ، ويُغفرون من أوامره وشرائعه ، بأن الله سيذلهم كما أذل من كفر بالربل بالفرق وألوان الهلاك ، أو كما أذل قتل بدر وأذل قريشاً ومن شايعها ، ثم يلفت نظرهم إلى يوم القيامة ، حيث يخبرهم بأعمالهم كاملة ، ويجازيهم عليها جزاءً وفاً .

وتصوّر الآيات علمه تعالى الشامل ، وإحاطته بكل ما فى السماوات والأرض ، فهو يعلم السرّ والنجوى ، لا يتناجى ثلاثة إلا كان رابعهم ، ولا يتناجى خمسة إلا كان سادسهم ، ولا يتناجى أقل من ذلك ولا أكثر إلا كان معهم بعلمه وإحاطته ، ثم يخبرهم بما عملوه يوم القيامة ، إنه سبحانه بكل شيء عليم ، إن هذه الرقابة الإلهية هى التى أيقظت الضمائر والقلوب ، وجعلت الإنسان مراقباً لله ، خائفاً من معصيته ، راغباً فى طاعته .

التفسير :

٥ - إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَثُرُوا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتِنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ .

المحاددة : المعادة والمخالفة فى الحد ، أى : الذين يختارون لأنفسهم حدوداً غير ما حده الله ورسوله ، فهم ينفرون من حدود الله وأحكامه ، ويرضون أحكاماً تخالفها وتضادها ، هؤلاء أخزاهم الله وأذلهم كما أذل أعداء الرسل ، من عهد نوح ومن بعده من المرسلين .

لقد شرع الله الشرائع ، وفصل الآيات ، وحدد الحدود ، ونظم الموارث والآداب ، وأمر بغض البصر وحفظ الفروج ، والبعد عن الزنا والربا ، وأمر بصلة الأرحام وبر الوالدين وإكرام الجار ، ورعاية اليتامى والمساكين ، والضعفاء والفقراء ، ونهى عن الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكمل الله دينه .

قال سبحانه وتعالى : أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...

(المائدة: ٣)

فهنالك وعيد عظيم لمن وضعوا أموراً خلاف ما حدده الشرع ، وسموها قانوناً .

قال الألوسى والمراعى فى تفسير الآية :

نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية ، إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد ، على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لا تخالف فى أحكامها روح التشريع الدينى ، كتعيين مراتب

التأديب للزجر على المعاصي والجنابات التي لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوّض الأمر فيها للإمام ، وليس في ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

وفى كتاب (الخراج) للإمام أبي يوسف إشارة إلى ذلك ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين إذا قال بشيء لم يكن منصوباً عليه بخصوصه ، ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه^(٧) .

ودليل الاجتهاد فيما لم تنص عليه الشريعة أن النبي ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي إلى اليمن قاضياً ومفتحاً وأميراً وجامعاً للزكاة ، قال له : «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء» ؟ قال : أقضى بما في كتاب الله ، قال : «فإن لم يكن في كتاب الله» ؟ قال : فسنة رسول الله ﷺ ، قال : «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ» ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو - أي لا أقصر - قال : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»^(٨) . (رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة) .

٦ - يَوْمَ يَخْلُفُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

في الآية السابقة ذكر سبحانه هؤلاء المحادين لله ورسوله بالخزي والهوان في الدنيا ، وبالعذاب الشديد في الآخرة .

وهنا يقول : اذكر لهم أيها الرسول الأمين يوم يبعثهم الله جميعاً للحساب والجزاء ، فيخبرهم بأعمالهم ، وبما كسبت أيديهم من ظلم وعسف ، لقد أحصاه الله وضبطه وحفظه ، وهم قد نسوه وأمهلوه ولم يتذكروه ، وظنوا أنهم لن يحاسبوا عليه .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

هو مطلع وشاهد ، وعالم وناظر لا تخفى عليه خافية ، وهو سبحانه بكل شيء عليم ، فيأ ونيح من بارزه بالمعاصي ، وبما هلك من استهان بحدود الله ، وزينت له نفسه أن تشريع البشر أحسن أو أحكم من تشريع الله ، وهو سبحانه الخالق الرازق العليم بما يصلح عباده .

٧ - أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خُمْسَهُ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

تشير الآية إلى علم الله الواسع ، ورقابته وشهادته وحضوره بالرؤية والمعنية المعنوية ، فهو سبحانه منزّه عن الكم والكيف ، ومنزه عن أن يكون جسماً أو حالاً في جسم ، فمعية الله للبشر معية رقابة ومشاهدة ،

وعلم وإطلاع ، وهو سبحانه لا يحلّ في مكان ، ولا يمرّ عليه زمان ، وكل من المكان والزمان من خلقه تعالى ، فلا يجتمع ثلاثة إلا كان رابعهم ، ولا خمسة إلا كان سادسهم ، ولا أقل من ذلك العدد ولا أكثر منه ، إلا هو معهم بعلمه وشهادته ، ثم يخبرهم بأعمالهم التي عملوها يوم القيامة ، فهو سبحانه محيط بكل كلام ، عليم بكل شيء .

أما لماذا خص العدد بذكر ثلاثة أو خمسة ، أو أقل أو أكثر ، فهو مجرد مثال ، والعدد غير مقصود ، لأنه تعالى يعلم ما فوق ذلك وما دون ذلك ، لكنه على طريقة القرآن في إبراز المعنى المجرد ماثلاً في صورة ملموسة محسوسة ، صورة أشخاص يتناجون ، اثنان كل منهما يقاوم الآخر ، وثالث يكون بمنزلة الحكم ، فالله تعالى مطلع ومشاهد لهذه المجموعة ، أو لمجموعة أكثر منها أو أقل منها ، إنه محيط بالأفراد وبالجماعات ، وبالعائلات والأسر والبلاد ، وهو سبحانه بكل شيء عليم ، وبهذا العلم المحيط يحاسب عباده يوم القيامة .

قال تعالى : أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سُرَّهُمْ وَيَجُوسُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ . (التوبة : ٧٨) .

ولعلنا نلمح من الآية أن المنافقين واليهود كانوا يتناجون في جماعات قليلة العدد ، ثلاثة أو خمسة ، فكشف الله سترهم ، وأخبرهم أنه عليم بهم ، مطلع على مناجاتهم ، وسحاسبهم ويجازيهم على ذلك يوم القيامة .

قال تعالى : أَلَمْ يَحْسُبُوا أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرَّهُمْ وَيَجُوسُهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَنَذِيرُهُمْ يَكْفُرُونَ . (الزخرف : ٨٠) .

من تفسير ابن كثير

حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بقوله تعالى : وَلَا أَذْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ... معية علمه تعالى ، ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، ويصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى : ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

النَجْوَى

﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نُهَوَ عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعْوِدُونَ لِمَا نُهَوَ عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِنَّمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حِيَّوكَ بِمَا تَرِيكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِنَّمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

المفردات :

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون .

الإثم : المعصية والذنب .

العدوان : الاعتداء على غيرهم ، كمعصية الرسول ومخالفته .

لولا يعذبنا الله : هلا يعذبنا بسبب ذلك .

حسبهم جهنم : عذاب جهنم كافٍ لهم في الآخرة .

يصلونها : يقاسون حرها .

تمهيد :

كان اليهود والمنافقون يُبَيِّنُونَ السوء للمسلمين ، ويتهايمسون ويتخافتون في أقوالهم ، فإذا مر بهم أحد المسلمين أوهموه أن شراً قد أصاب أقاربه ، فاشتكى المسلمون ذلك لرسول الله ﷺ ، فنهى اليهود عن ذلك ، ونصح المنافقين بالابتعاد عما يسىء إلى مسلم ، لكنهم عادوا إلى الإثم والعدوان ، فنزلت الآيات تفضحهم وتكشف سوء أديهم ، فقد كانوا يقولون للنبي ﷺ : (السَّامُ عَلَيْكُمْ) وهو الموت ، ثم يقولون في أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للاستخفاف به ، فتوعدهم الله بعذاب جهنم ، وفيه كفاية وجزاء لأعمالهم .

ثم نصح الله المؤمنين بأن يكون تناجيهم بالبر والتقوى ، والصالح العام ، ولا يكون بالإثم والعدوان كما يفعل اليهود والمنافقون ، ثم بيّن القرآن أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ووسوسته

لل يهود والمنافقين ، حتى يحزن المؤمنون بهذه النجوى ، مع أن المؤمنين فى حرز من الشيطان بالإيمان بالله وقدره ، والتوكل عليه .

التفسير :

٨ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوُا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَيَتَنَحَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْوَةٌ بِمَا لَمْ يُحْيِكْ بِهِ اللَّهُ يَقُولُونَ فِيْ أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ .

تفيد هذه الآيات أن فريقاً من اليهود والمنافقين كانوا يكيدون للإسلام والمسلمين ، ويتناجون بما يسوء بعض المسلمين ، وقد اشتكى المسلمون إلى رسول الله ﷺ ، فنهى اليهود عن ذلك ، ونصح المنافقين بالبعد عنه ، لكنهم عاودوا هذه المناجاة فيما بينهم .

قال القرطبي :

نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فَشَكَّوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا : فنزلت .

وفى الآية تعجيب من حالهم ، أى : ألم تشاهد يا كل من يتأتى منه المشاهدة ، الذين نهاهم الرسول ﷺ عن النجوى بالإثم والكيد ، ثم هم يعودون لما نهوا عنه ، ويكررون العودة إليه ، لأن الفعل المضارع يفيد الحال والاستقبال والتجدد ، فقد كان اليهود والمنافقون شوكة فى جنب المسلمين ، وكانوا يتناجون فى صوت خافت بالكيد والفساد والفتنة والأذى للمسلمين ، ومخالفة أمر الرسول ﷺ ، ومن سوء أدبهم أنهم كانوا إذا دخلوا على النبى ﷺ قالوا له : (السَّامُ عليكم) ، وهى كلمة عبرية معناها : الموت عليكم ، مع أن الله حيا رسوله فى التشهد بقوله : «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا . (الأحزاب : ٥٦) .

وقال تعالى : وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . (المنافات : ١٨١) .

وقال سبحانه وتعالى : وَسَلِّمْ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ... (النمل : ٥٩) .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن أناساً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السَّامُ عليك يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : «وعليكم» . قالت عائشة : قلت : عليكم السام ، ولعنكم الله وغضب عليكم . وفى رواية : عليكم السام والذام واللعة .

فقال ﷺ: «يا عائشة، إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش»، فقلت: ألا تسمعون يقولون: السام، فقال: «يا عائشة، أو ما سمعت أقول وعليكم؟» فأنزل الله تعالى: وَإِذَا جَاءُوكَ... الآية^(٩).

وهذا يدل على الدور السيئ لليهود، وإيذائهم للإسلام ولرسول الله ﷺ.

وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ...

ويقولون فيما بينهم: هلاً يعذبنا الله بهذا القول لو كان محمد نبياً، فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله على هذا الكلام.

قال في ظلال القرآن:

وظاهر من سياق السورة، من مطلعها، أن الله قد أخبر الرسول ﷺ بما كانوا يقولونه في أنفسهم، وبمجالسهم ومؤامراتهم. اهـ.

حَسْبُ لَهُمْ جَهَنَّمُ يَصُلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ.

إن الله مطلع وشاهد على مؤامراتهم وخيانتهم ونجواهم، واجتماعاتهم المشتملة على الكيد والدس وتبويب السوء للمسلمين، وقد كشف أمرهم في الدنيا، وأجل العقوبة الكبرى إلى الآخرة، حيث يصطلون بنار جهنم، ويقاسون حرها ولهيبها، والهوان والخزي والذل في عذابها.

قال ابن العربي:

كانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسببه والاستخفاف به، وجعلوا أن البارئ حلیم لا يعاجل بالعقوبة.

وقد ثبت في الصحيح: «لا أحد أصبر على الأذى من الله، يدعون له صاحبة والولد، وهو يعافهم ويرزقهم»، فأنزل الله تعالى هذا كشفاً لسرائرهم، وفضحاً لبواطنهم، وتكريماً لرسوله ﷺ^(١٠).

٩ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنفِ وَالْعَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالتَّخْفِيفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

يؤدب الله المسلمين بذلك الأدب الإلهي الذي يجعل المسلم مراقباً لله في السر والنجوى، فينادي الله المؤمنين بأن يكون تنابيحهم الخافت وحديثهم الخاص مخالفاً لمناجاة اليهود والمنافقين.

فَلَا تَتَّبِعُوا بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ...

وفيه تربية وتعريض لليهود والمنافقين .

وَتَتَّبِعُوا بِالْإِيمِ وَالْتَّقْوَى ...

أى : لا تتناجوا بالشّرّ والعدوان على الغير ، أو السوء والكيد ، أو مخالفة أمر الرسول ﷺ ، بل عليكم بالتناجى بالخير والعفاف ، والطاعة والتقوى ، والبعد عما نهى الله عنه .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

وراقبوا الله الذى يراكم ، ويطلع على مناجاتكم ، ولا تخفى عليه خافية من شئونكم ، ثم يحاسبكم عند الحشر والجزاء يوم تحشرون وترجعون إليه .

١٠ - إِنَّمَا آتَى الْجَوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَرَارِهِمْ شَيْءٌ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

أى : إن الشيطان هو الذى يحرض المنافقين واليهود على التناجى بالسوء والعدوان ، وإيذاء المسلمين وإيهامهم أن سوءاً قد أصاب أقاربهم ، هذه حيل الشيطان فى تحريض أتباعه ، ليفعلوا أشياء تصيب أحد المسلمين بالحنن ، أو الرعب أو الخوف ، مع أن عقيدتنا فى القضاء والقدر تفيد أن أحداً لا يضر أو ينفع إلا بإذن الله ومشيئته وإرادته ، وعلى الله وحده فليتوكل وليعتمد وليثق المؤمنون ، ولا يبالوا بنجوى المنافقين ، فإن الله يعصمهم من شرهم ويكيدهم .

أخرج البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه»^(١١) .

النجوى يوم القيامة

أخرج البخارى ، ومسلم ، وأحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أن قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون ، فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين»^(١٢) .

أدب المجالس

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (١١)

المضردات :

تفصحوا في المجالس : توسعوا في أماكن الجلوس .

فافسحوا : فتوسعوا .

انشـُرُوا : انهضوا للتوسعة على المقبلين .

فـانـشـُرُوا : فانهضوا ولا تتباطأوا .

يرفع الله الذين ءامنوا : يرفع منزلتهم يوم القيامة .

والذين أوتوا العلم درجات : ويرفع العالمين منهم خاصة ، درجات في الكرامة وعلو المنزلة .

تمهيد :

حذر القرآن من أسباب البغض والفرقة فيما سبق ، حيث نهى عن التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وهنا يحث على أسباب المحبة والمودة والصفاء ، وذلك بالتوسعة في مجالس العلم والذكر والقتال وسائر المجالس ، وإذا طلب القائد من شخص ترك مكانه لآخر فينبغي أن يستجيب ، فإن في ذلك سبباً لرفعة شأنه ، وعلو أجره ، والله تعالى مطلع على القلوب والنفوس ، وخبير بما فيها .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبري ، عن قتادة قال : كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً ، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ ، فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل أنها نزلت يوم الجمعة ، وقد جاء ناس من أهل بدر ، وفي المكان ضيق ، فلم يفسح لهم ، فقاموا على أرجلهم ، فأقام ﷺ نغراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم ، فكَرِهَ أولئك النفر ذلك ، فنزلت .

التفسير :

١١ - يَلْبِغُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

تضع هذه الآية نظاماً جميلاً عند اجتماع المسلمين في الجمعة والأعياد، والعزاء والأفراح، وأماكن القتال وسائر ألوان الاجتماع، فترشدكم إلى عدم الالتصاق بالمكان، وترشدكم إلى عدم التضييق على القادمين، بل ينبغي أن يتفصحوا ويوسعوا للقادمين، ويتعاونوا معهم، وهو أدب ينبغي اتباعه في كل مناحي الحياة، ومبدأ يجب أن يطبق في الرغبة في مساعدة الآخرين، وتسهيل أمورهم، لمن يملك ذلك، فإن الله تعالى يعاون من فعل ذلك، كما قال ﷺ: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». (١٣).

وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

إذا طُلبَ منكم التضحية بمجلسكم القريب من الرسول ﷺ أو من ولى الأمر، أو صاحب السلطان، أو صاحب المنزل، فاسمعوا وأطيعوا، ولا تظنوا أن في ذلك غبناً لكم، أو نقصاً لمنزلتكم، فقد وعد الله سبحانه وتعالى برفع درجة المؤمنين جزاء صدقهم في إيمانهم.

كما وعد الله برفع منزلة العلماء والفقهاء درجات إلى أعلى، وفي ذلك بيان لفضل العلم، وحث على التعلم والتعليم، ودعوة إلى معرفة كتاب الله وسنة رسوله، وآراء الفقهاء والعلماء، فإن ذلك من أسباب العز في الدنيا، والارتقاء في درجات الجنة في الآخرة.

كما نحث الآية على الإخلاص، ونظافة القلب، والتعاون مع أفراد الأمة، والتواضع، والاستجابة لما يُطلب من المسلم في سبيل الصالح العام.

وفي الحديث الشريف: «ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما تواضع أحد لله إلا رفعه، وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله» (١٤).

وقد ختم الله الآية بقوله: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فهو سبحانه مطلع على أعمالكم ومجازيكم عليها، ومنها أعمال القلوب التي لا تجد غضاضة ولا كراهية عند التوسعة لإنسان قادم، ولا تكبره أن تقوم من المجلس إذا طُلب منها ذلك من أجل المصلحة.

فى أعقاب التفسير

١ - أخرج الشيخان ، وأحمد ، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .^(١٩)

٢ - قال ابن كثير فى تفسيره :

اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال :

فمنهم من رخص فى ذلك محتجا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » ، ومنهم من منع ذلك محتجا بحديث : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » .^(٢٠)

ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دلت عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبى ﷺ حاكماً فى بنى قريظة فرأه مقبلاً ، قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » .^(٢١) وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم ، فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم ، وقد جاء فى السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك .

وفى الحديث المروى فى السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صبر ذلك المجلس ، فكان الصحابة رضى الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق رضى الله عنه يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهما بذلك ، كما روى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقول : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .^(٢٢)

٣ - قال الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره :

وقوله تعالى : يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ . مطلق فى كل ما يطلب الناس الفسحة فيه ، فى المكان ، والرزق ، والصدور والقبر ، والجنة ، وأعلم أن الآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « لا يزال الله فى عون العبد ما زال العبد فى عون أخيه » .^(٢٣)

٤ - قال ابن مسعود :

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ...

مدح الله العلماء فى هذه الآية ، ثم قال ابن مسعود : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ، ولترغبكم فى العلم ، فإن الله يرفع المؤمن العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات .

٥ - قال القرطبي في تفسيره :

يَبْنِي فِي هَذِهِ آيَةِ أَنْ الرَّفْعَةَ عِنْدَ اللَّهِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ ، لَا بِالسَّبْقِ إِلَى صُدُورِ الْمَجَالِسِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «يُشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ : الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ» . فَأَعْظَمُ بِمَنْزِلَةِ هِيَ وَاسْطَةُ بَيْنِ النَّبُوَّةِ وَالشَّهَادَةِ بِشَهَادَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

٦ - جاء في مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ما يأتي :

روى مسلم ، وأحمد ، عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمرُ استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادي ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبرد ، رجلاً من موالينا ، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاضٍ ، فقال عمر رضى الله عنه : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيُضَعُّ بِهِ الْآخَرِينَ» ^(١٢) . (حديث حسن رواه ابن ماجه ، عن عثمان رضى الله عنه) .

ثم قال ابن كثير : وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد في ذلك من الأحاديث مستقصاة في «شرح كتاب العلم» من صحيح البخارى ، ولله الحمد والمنة ^(١٣) .

وعن ابن عباس : خُيِّرَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالْمَلِكِ ، فَاخْتَارَ الْعِلْمَ ، فَأَعطَى الْمَالَ وَالْمَلِكَ مَعَهُ .

★ ★ ★

الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُودِكُمْ صَدَقَةً فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

المضردات :

ناجيتكم الرسول ، أردتم مناجاته والتحدث معه .

فقدّموا بين يدي نجاكم صدقة ، قدّموا قبل مناجاة الرسول ﷺ صدقة تضعونها بين يديه ليدفعها للفقراء ، وفي ذلك نفع للفقراء ، وتعظيم لقدر الرسول ﷺ ، وحث على عدم الإفراط

فى الأسئلة ، وفيه تمييز بين المنافقين والمؤمنين ، فالمنافق محبٌ للعالم
ضنين بالمال ، وإخراج صدقة .

غير لكم وأطهر ، أزكى للنفوس ، وأبعد عن الريبة وحب المال .

أشفقتم ، أخفتم ، أو شق عليكم .

تاب الله عليكم ، قبل توبتكم ، أو رخص لكم فى المناجاة من غير تقديم صدقة .

تمهيد :

كان بعض الناس يكثر السؤال لرسول الله ﷺ من غير حاجة شديدة لذلك ، والرسول بشر له حاجات خاصة ، ويحتاج إلى وقت لمناجاة ربه ، ووقت لتبليغ الرسالة ، ووقت لتنظيم أمور الدعوة ، وكان بعض الأغنياء يقضى وقتاً أطول فى مناجاة رسول الله ﷺ حتى شق ذلك عليه ﷺ : فأنزل الله تعالى آية تأمر بتقديم صدقة للفقراء بين يدي أسألتهم لرسول الله ﷺ .

ولم يستمر العمل بهذه الآية إلا وقتاً قليلاً ، ثم أنزل الله تعالى الآية التالية لها ، التى ترفع هذا التكليف ، وتطلب عوضاً عنه المحافظة على الصلاة ، وإخراج الزكاة ، وطاعة الله ورسوله .

سبب النزول :

١ - أخرج ابن جرير ، عن ابن عباس قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ ، حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل : إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةٌ ... فلما نزلت صبر كثير من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد ذلك : عَاشَفَقْتُمْ ... الآية .

٢ - وأخرج الترمذى وحسنه ، وغيره عن على قال : لما نزلت : يَكَلِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقَةٌ ... قال لى النبى ﷺ : «ما ترى ، دينار ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «نصف دينار ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فكم ؟ قلت : شعيرة ، قال : إنك لزهيد ، فنزلت : عَاشَفَقْتُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَيْكُمْ صَدَقْتُمْ ... الآية ، فبى خفف الله عن هذه الأمة .^(٣)

٣ - وقال مقاتل بن حيان : نزلت الآية فى الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرئون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك ، من طول جلوسهم ومناجاتهم ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل الميسرة فبخلوا ، واشتد ذلك على أصحاب النبى ﷺ ، فنزلت الرخصة .

التفسير:

١٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يا أيها الذين آمنوا ، إذا رغبتُم في مناجاة الرسول ﷺ ، والخلو به للإجابة على أسئلتكم ، فقدّموا صدقة قبل المناجاة ، يأخذها الرسول ﷺ ويتصدق بها على الفقراء ، فقد قال ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا تحلّ لنا صدقة» .

وكان من صفاته ﷺ في الكتب السابقة أنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة ، وتقديم الصدقة بين يدي المناجاة فيه منفعة للفقراء ، وتعويد للأغنياء على الصدقة ، وتطهير للنفس من الشح ، وفيه استجماع قوى السائل ، فإذا كان السائل فقيراً لا يجد صدقة يقدمها فقد أسقط الله عنه ذلك التكليف ، وغفر له ورحمه ، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة ، لقوله تعالى : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

وظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجبا ، لأن الأمر للوجوب ، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فإن ذلك لا يقال إلا لترك الوجوب ، وقال بعضهم : إن الأمر هنا للندب والاستحباب .

والأول أظهر ، حيث نسخ الله وجوب تقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ بالآية التي تليها .

وأنكر أبو مسلم الأصفهاني وقوع النسخ ، وقرر أن الأمر بتقديم الصدقة على النجوى لتمييز المؤمن المخلص من المنافق ، فلما تحقق الغرض انتهى الحكم ، أي أن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة فوجب انتهائه بانتهاؤه تلك الغاية ، فلا يكون هذا نسخاً .

قال الإمام فخر الدين الرازي : وهذا الكلام حسن ما به بأس . اهـ .

أي أنه كان أمراً مرحلياً مؤقتاً ، مقصوداً منه تخفيف الضغط على الرسول ﷺ بكثرة الأسئلة والمناجاة ، ومعرفة المؤمن الذي يهون عليه المال في سبيل المناجاة من المنافق الذي يُعَظِّمُ المال ، فلما تحقق ذلك أسقط الله ذلك التكليف .

والمشهور عند الجمهور أن الأمر بتقديم الصدقة قبل المناجاة منسوخ بقوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ ... الآية .

١٣ - وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَتِكُمْ صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : أبخلتم وخفتم الفقر خشية أن تقدموا عددا من الصدقات ، كلما أردتم مناجاة رسول الله ﷺ ؟ وفى هذا الاستفهام عتاب رفيع رقيق ، وتوجيه للمسلمين إلى أهمية المحافظة على وقت الرسول ﷺ ، وبيان قيمة الوقت الذى يقضيه السائل فى مناجاته وحده ، وخلوته به وحده ، والنبى ﷺ على عاتقه شئون أمة بأسرها .

قيل : كان العمل بالآية السابقة عشرة أيام ، وقيل : كان يوماً واحداً .

لقد كان الحق سبحانه وتعالى يرى هذه الأمة ويهذبها ، ويرشدها إلى الأمثل والأفضل ، ويظهرها ويزكيها بأداب الوحي الإلهي ، وما إن تحقق المراد حتى خفف الله عن الأمة وجوب تقديم الصدقة قبل المناجاة .

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فحين لم تقوموا بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول ﷺ فقد عذركم الله وقيل توبتكم ، أو تاب عليكم بمعنى غفر لكم وخفف عنكم ، فافعلوا ما فرض عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله ورسوله فى جميع ما تؤمرون به .

وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فهو محيط بنواياهم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير وشر .

قال تعالى فى هذا المعنى : لَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

(الزلزلة: ٧، ٨)

وقال سبحانه وتعالى : وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ يُرَى . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى .

(النجم: ٣٩ - ٤١)

وجاء فى التفسير المنير للأستاذ وهبة الزحيلي :

وليس فى الآية إشارة إلى وقوع تقصير من الصحابة فى تقديم الصدقة ، فقد يكون عدم الفعل لأنهم لم ينجوا ، ولا يدل أيضا قوله : وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . على أنهم قصرُوا ، لأن المعنى : أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفاً ، ومثل هذا يجوز أن يُعبر عنه بالتوبة^(٣) .

حال المنافقين الذين يوالون غير المؤمنين

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا مَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

المضردات :

أَنسَم تـ : تنظر ، أو أخبرني ، وهو أسلوب يراد به التعجب للمخاطب من حال هؤلاء المنافقين .

الذين توأموا ، والوا ووادوا وأجبوا ، وهم المنافقون .

قوما غضب الله عليهم ، هم اليهود .

ويحلفون على الكذب ، وهو قولهم : والله إنا لمسلمون .

اتخذوا أيمانهم جنة ، أعدوها سترا ووقاية ليخلصوا من المواجهة .

فصدوا عن سبيل الله ، صدوا بأيمانهم الناس عن دين الله ، بالتحريش والتثبيط .

من الله شيئا ، من عذاب الله شيئا ، من الإغناء .

يوم يبعثهم ، انكر لهم ذلك اليوم .

فيحلفون له ، أنهم مؤمنون .

استحوذ ، استولى عليهم ، وأحاط بهم ، وغلب على عقولهم .

حزب الشيطان ، أعوانه وأتباعه وأنصاره .

تمهيد :

كان المنافقون شوكة في جنب المسلمين ، وكانوا يوالون اليهود ويمدوونهم بالمعلومات عن المسلمين ،

والقرآن هنا يتعجب من حالهم ، فهم يتولون اليهود بالمودة والمؤازرة ، واليهود قوم غضب الله عليهم ،

ولعنهم وجعل منهم القردة ، والمنافقون كالشاة الحائرة بين قطيعين من الغنم ، فهي مترددة فى اتباع أيهما ، فهم يوالون اليهود ، ويتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين ، فليسوا من المسلمين حقاً ، وليسوا يهوداً .

قال تعالى : مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ... (النساء : ١٤٣) .

وقد أُنذِرهم الله بالعذاب ، وأبان بواعث أفعالهم وكذبهم وحلفهم بالله كذبا ، مع علمهم بأنها يمين غموس ، فهم أتباع الشيطان وأنصاره .

من أسباب النزول :

أخرج أحمد ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ فى ظل حجرة وقد كاد الظل يتقلص ، فقال : «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعينى شيطان ، فإذا جاءكم لا تكلموه» ، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فقال له حين رآه : «عَلَامَ تَشْتَمْنِي أَنْتِ وَأَصْحَابُكَ ؟ فقال : ذرني أتك بهم ، فانطلق ، فدعاهم ، فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا ، فأنزل الله : يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ... (المجادلة : ١٨) .

التفسير :

١٤ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

ألم تنظر يا محمد إلى هؤلاء المنافقين ، يتظاهرون بالإسلام ، ثم يقدمون العون والدعم والمودة والمؤازرة لليهود الذين غضب الله عليهم ، وجعل منهم القردة .

والمنافقون مذنبون مترددون حائرون ، كالشاة الحائرة بين قطيعين من الغنم ، تتردد فى الانحياز إلى أى القطيعين ، وكذلك المنافقون ليسوا من المسلمين ، فهم يدعون الإسلام كذبا ، وليسوا من اليهود بل من عملائهم .

قال تعالى : مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا .

(النساء : ١٤٣)

وإذا انكشف أمرهم وواجههم النبى ﷺ بسوء طويتهم ، أقسموا أنهم مسلمون ، أو أنهم لا يضرمون للنبي ﷺ أى سوء ، وهم يعلمون أنها يمين غموس فاجرة كاذبة ، فهم يقسمون كاذبين مع علمهم أنهم كاذبون .

قال تعالى : إِذَا جَاءَكَ الْمُتْلِفُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتْلِفِينَ لَكَاذِبُونَ . (المنافقون : ١) .

١٥ - أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هياً الله لهم يوم القيامة عذاباً ألماً ، حيث قال تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

وذلك بسبب سوء فعالهم وغشهم للمسلمين ومعاداتهم ، ونصحهم للكافرين وموالاتهم ، ألا ساء ما فعلوا من الأعمال القبيحة ، والتلون والخداع ، والكذب ، وإن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله .

١٦ - اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

جعلوا من أيمانهم الكاذبة وقاية وستراً لحفظ دمانهم ، وتستروا تحت إظهار الإسلام وإبطان الكفر ، وبذلك تبطئوا الناس عن الدخول في الإسلام ، ويثبوا الفتنة بين ضعاف الإيمان ، فصدوهم عن سبيل الله ودينه .

لذلك أعد الله لهم عذاباً مؤلماً ، يلازمه الذل والهوان في نار جهنم ، فهو عذاب شديد مؤلم ، وهو في نفس الوقت مشتمل على الذل والمهانة لهم ، جزاء خداعهم وكذبهم .

١٧ - لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَيْمَانُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ آثَارٍ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

كان المنافقون يحرصون على جمع المال ، ويرون الأولاد عُدَّة لهم في تنفيذ مهامهم ، وأدعوا أنهم سينتصرون يوم القيامة بأنفسهم وأموالهم وأولادهم ؛ فنزلت الآية .

وتفيد الآية أنه لن ينفعهم أي شيء يوم القيامة ، وإنما ذكر المال والولد لعناية المنافقين بهما .

قال تعالى : فَلَا تَعْبُدْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَزْوَاجُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

لقد حرموا نعيم الجنة ، واستبدلوا ذلك بالإقامة الدائمة في جهنم ، حتى كأنهم أهلها المخلدون فيها .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعْدِنِ يَعْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ه يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٦ ، ٣٧) .

١٨ - يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ .

أي : حين يبعثهم الله جميعاً من قبورهم ، ويساقون للوقوف بين يدي علام الغيوب ، فيخلفون بالله ويقولون : وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام : ٢٣) .

فإن من شبَّ على شيء شاب عليه ، ومن شاب على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بُعث عليه ، فهؤلاء تعودوا على اليمين الغموس ، حتى بين يدي علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية ، يحلفون أمامه في الآخرة كما كانوا يفعلون في الدنيا ، طائنين أن هذه اليمين ستجعلهم يفلتون من عذاب الله في الآخرة . قال أبو حيان :

والعجب منهم كيف يعتقدون أن كفرهم يخفى على علام الغيوب ، ويجرونه مجرى المؤمنين في عدم اطلاعهم على كفرهم ونفاقهم ؟ والمقصود : أنهم تعودوا الكذب حتى كان على ألسنتهم في الآخرة كما كان في الدنيا . ا هـ .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ .

إنهم حقاً أهل كذب ونفاق وخداع ، لذلك أكد الله كذبهم بأداة الاستفتاح ، وبحرف (إن) ، وبإسمية الجملة .

ونحو الآية قوله تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَسُبُّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَآلِلَهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . (الأنعام : ٢٣ ، ٢٤) .

١٩ - اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَانْصَبْهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ إِلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

لقد استولى الشيطان على عقولهم وأفكارهم ، فأنساهم ذكر الله وطاعته ، فذكروا الدنيا وأموالها وأولادها ومغانمها ، ونسوا ذكر الله ، أولئك المنافقون هم حزب الشيطان وأتباعه ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ، فقد باعوا آخرتهم ، واشتروا دنياهم ، وباعوا جنة عرضها السماوات والأرض ، واشتروا الدرك الأسفل من النار .

قال الكرمانى :

علامة استحواد الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره ، من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر في آلاء الله ونعمائه ، والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ، ويشغل عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها^(٣١) .

ولاء المؤمنين لله وحده

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ۚ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُ
 أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَأَتَّخِذَ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
 أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيَدْخُلُهُمُ
 جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ
 حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المضردات :

يُحَادُّونَ : يعادون ويشاقون ويخالفون ، فهم فى حدٍّ ، والشرع والهدى فى حدٍّ .

الْأَذَلِّينَ : المغلوبين ، أذلَّ خلق الله .

كَتَبَ اللَّهُ : قضى وحكم .

لَأَعْلَبُ : بالحجة والقوة .

يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ : يصادقون .

وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ : ولو كان المحادُّون أقرب الناس إليهم .

أَوْ عَشِيرَتَهُمْ : العشيرة هى القبيلة ، والجمع عشيرات وعشائر .

كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ : أثبت الإيمان فى قلوبهم .

أَيَّدَهُم : قوَّاهم .

بِرُوحٍ مِّنْهُ : بنور من عند الله يقذفه فى القلوب ، فتطمئن وتسكن .

حِزْبُ اللَّهِ : جنده وأنصار دينه ، يتبعون أمره ويجتنبون نهيه .

هُمُ الْمُفْلِحُونَ : الفائزون بخير الدارين .

تمهيد :

فى ختام سورة المجادلة يذكر القرآن خسارة المنافقين ، وسبب خسارتهم وهو مشاقة الله تعالى ورسوله ﷺ ، ومخالفة أمرهما ، ثم أخبر سبحانه وتعالى عن قضائه المبرم بنصر الرُّسل وهزيمة أعدائهم ، ثم ذكر أن الإيمان لا يجتمع فى القلب مع موذة أعداء الله ، لأن من أحب أحداً امتنع أن يحب مع ذلك عدوه .

أسباب نزول الآية ٢٢

لَا تَجِدُ قَوْمًا ...

أخرج ابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى سننه ، عن ابن عباس عن عبد الله بن شذوب ، قال : نزلت هذه الآية فى عبدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ، فنزل قوله تعالى : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ... الآية .

وقال الرازى : إن الأكثرين اتفقوا على أن قوله تعالى : لَا تَجِدُ قَوْمًا ... نزل فى حاطب بن أبى بلتعنة ، وإخباره أهل مكة بمسير النبى ﷺ إليهم لما أراد فتح مكة .

التفسير :

٢٠ - إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ .

إن الذين يعادون الله ورسوله ، فيكفرون دين الله ، ويعادون رسول الله ، ويبغضون شرع الله ، هؤلاء الكفار الملحدين ، أو المنافقون المارقون ، أو اليهود المعاندون ، أو كل قوة تشتمل على بغض دين الله ومعادة هذا الدين ، هؤلاء يذلهم الله فى الدنيا أشد الذلِّ ، ويكتب عليهم القهر والمهانة والخيبة والهوان ، فإن أصابوا خيراً فى الدنيا أو علواً فى الأرض ، فلن يفلتوا من عذاب الآخرة ومهانتها ، ليتحقق وَعْدُ اللَّهِ بأنهم فى الأذلين ، أى مجموعة من هو أشد ذلاً وأكثر مهانة وهواناً .

وقد جاءت هذه الآية فى أعقاب الحديث عن المنافقين ومُؤايتهم لليهود ، يبتغون عندهم الأمان والرفعة وحسن المستقبل ، فبين الله أن هناك حزبين أو طريقتين : حزب الله أو طريق الله ، ومآله النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة ، وحزب الشيطان أو طريق الشيطان ، وهو حزب أعداء الإسلام ، أو اتباع الشيطان ، وكيد هؤلاء ضعيف ، ومآلهم الذلُّ والهوان .

٢١ - كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

قضى الله وأثبت ذلك ، وأيده وأكده ، وهو أن تكون الغلبة والنصر لرسول الله وأوليائه وأحبابه ، وأتباع دينه وشرعه ورسله ، فالله غالب على أمره وهو سبحانه ، قَوِيٌّ . لا يغلبه غالب ، عَزِيزٌ . لا يغلبه على مراده

كائن مهما كان ، وقد حدث ذلك في تاريخ البشرية ، حيث نصر الله المرسلين وهزم المكذبين ، فقد نصر الله نوحًا وأغرق الكافرين به ، وكذلك نصر هودًا وصالحًا وشعيبًا وموسى ، وأهلك المكذبين بهم .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَعِيرًا . (الإسراء : ١٧) .

وقيل : إن المراد بغلبة الله ورسله ، الغلبة بالحجة لأطرافها ، وهو خلاف الظاهر ، فالعاملون المخلصون ينصرهم الله في النهاية ، وقد يتأخر النصر لحكمة إلهية ، هي امتحان المؤمنين واستثارة إخلاصهم واستعدادهم ورغبتهم .

قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ... (يوسف : ١١٠) .

وقال تعالى : ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْدِئَ لَكُم بَعْضَ الَّذِيْنَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . (محمد : ٤) .

وفي هذا المعنى قال تعالى : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْفَرَسِيِّينَ * إِنَّهُمْ لَكُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَكُمُ الْغَالِبُونَ . (الصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

وقال مقاتل في سبب نزول هذه الآية :

لما فتح الله تعالى مكة والمنايف وخيبر وما حولها للمؤمنين ، قالوا : نرجو أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبي : أنظنن الروم وفارس كيعض القرى التي غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددًا وأشد بطشًا من أن تظهروا عليهم ، فنزلت الآية : كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .

٢٢ - لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرُسُلَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

لا ينبغي ولا يجوز لمن آمن بالله ربًا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا ، أن يجمع في قلبه بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وبين حب الكافرين الفاسقين ؛ لأن من أحب الله ورسوله كره عدوهما من الكفار والفساق والمنافقين ، ولو كان هذا الكافر الفاجر أقرب الناس إليه ، كالأب والابن والأخ والقريب من العشيرة ، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين أخلصوا إيمانهم لله ، واستعملوا بإيمانهم على موالاة أعداء الله مهما كانت قرابتهم .

أولئك ثبتَّ الله الإيمانَ في قلوبهم ، كما يثبت القول والعهد بكتابتِهِ ، ومنحهم الرضا والتوفيق ، والهدى والروح الطاهرة المتصلة بالله ، وأعدَّ لهم في الآخرة جنات تجري من تحتها الأنهار ، فيها نعيم مقيم ، وخلود أبدي سمردي ، مع قريبهم من الله تعالى ورضوانه عنهم ، فقد فقدوا مودة آبائهم وأقاربهم من أجل مرضاة الله ، فعوضهم الله رضوانه عليهم ، فلا يسخط عليهم أبداً ، ومنحهم الرضا بالجنة ونعيمها ، والرضا لقريبهم من ربهم ومحبتِهِ ، فبها لها من نعمة ، نعمة الرضا المتبادل بينهم وبين ربهم وخالقهم ، الرضا بين العبد الغاني والإله الباقي ، الرضا بين المخلوق الضعيف والخالق القوي المتين ، الرضا بين مؤمن أرضى ربه في الدنيا فأرضاه الله في الآخرة .

أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

هؤلاء أحباب الله وأوليائِهِ ، وأهل رضاه ومحبتِهِ ، ومن كان في طريق الله ومرضاته فإنه أهل للفلاح والنجاح ، والفوز في الدنيا ، والسعادة في الآخرة .

في أعقاب تفسير الآية

قال ابن كثير في تفسيره :

نزلت هذه الآية في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وفي أبي بكر الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، وفي مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ، وفي عمر بن الخطاب قتل قريباً له يومئذ ، وفي حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ . هـ .

أي أن منهم من قتل أباه ، ومنهم من قتل ابنه ، ومنهم من قتل أخاه ، ومنهم من قتل قريباً له ، ومنهم من قتل بعض أفراد عشيرته وأسرته ؛ فأنزل الله تعالى : **وَلَوْ كَانُوا إِبْنَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...**

ومعنى هذا أن الله أنزل هذه الآية فيهم ، أي أنها مما ينطبق معناها عليهم ، ومما يشرح بعض مدلول الآية ، فقد قال علماء علوم القرآن : (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ، أي أن الآية عامة في كل مؤمن يجعل مودته وطاعته وإخلاصه لله ، ولا يوالى أى قريب أو حبيب إذا كان من أعداء الله ، والآية مع ذلك تنطبق على أفراد من الصحابة قتلوا بعض أقاربهم مرضاة لله تعالى في غزوة بدر ، أو في غيرها من المواقع .

من تفسير القاسمي يتصرف

تنبيهات

الأول :

من أشباه هذه الآية قوله تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ... (ال عمران : ٢٨) .

وقوله تعالى : قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . (التوبة : ٢٤) .

قال ابن كثير :

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين في أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يَعتَقُوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله تعالى أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى يا رسول الله ، هل تمكنني من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتُمكن علياً من عقيل ، وتُمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا موادة للمشركين ؟ .

الغاي :

قال ابن كثير : في قوله تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... سر بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى ، عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفرح العظيم ، والفضل العميم .

الثالث :

يفهم من قوله تعالى : حَادَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ... وقوله في آية أخرى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... (المتحنة : ١) . أن المراد بهم المحاربون لله ولرسوله ، الصادقون عن سبيله ، المجاهرون بالعداوة واليغضاه ، وهم الذين أخبر عنهم قبل بأنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، فتشمل الآية المشركين وأهل الكتاب المحاربين المحاديين لنا ، أي الذين على حدٍ منا ومجانبة لشئوننا ، تحقيقاً لمخالفتنا ، وترصداً للإيقاع بنا . وأما أهل الذمة الذين بين أظهرنا ، ممن رضى بأداء الجزية لنا وسالمنا ، واستكان لأحكامنا وقضائنا ، فأولئك لا تشملهم الآية ، لأنهم ليسوا بمحادين لنا بالمعنى الذي ذكرناه ،

ولذا كان لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، وجزاؤ الزوج منهم ، ومشاركتهم ، والاتجار معهم ، وعبادة مرضاهم ، فقد عاد النبي ﷺ يهودياً ، وعرض عليه الإسلام فأسلم - كما رواه البخاري^(٢٤) .

وعلى الإمام حفظهم والمنع من أذاهم ، واستنقاذ أسراهم ، لأنه جرت عليهم أحكام الإسلام ، وتأبد عهدهم ، فلزمه ذلك كما لزم المسلمين - كما فى (الإقناع) و(شرحه) .

وقال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) فى الرد على المتنطعين الذين لا تطيب نفوسهم بكثير من الرخص المشروعة : ومن ذلك أن النبى ﷺ كان يجيب من دعاه فىأكل طعامه ، وأضافه يهودى بخبز شعير وإهالة سنفرة ، وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب ، وشرط عمر رضى الله عنه ضيافة من مر بهم من المسلمين وقال : أطعموهم مما تأكلون . وقد أحل الله عز وجل ذاك فى كتابه ، ولما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاماً فدعوه فقال : أين هو ؟ قالوا : فى الكنيسة ، فكره دخولها ، وقال لعلى رضى الله عنه : اذهب بالناس . فذهب على بالمسلمين ، فدخلوا وأكلوا ، وجعل على رضى الله عنه ينظر إلى الصورة ، وقال : ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل . انتهى ..

والأصل فى هذا قوله تعالى : **لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** * **إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** . (الممتحنة : ٨ ، ٩) .

قال السيد ابن المرتضى اليماني فى (إيثار الحق) : عن الإمام المهدي محمد بن المطهر أن الموالاة المحرمة بالإجماع هى أن تحب الكافر لكفره ، والعاصى لمعصيته ، لا لسبب آخر ، من جلب نفع أو دفع ضرر ، أو خصلة خير فيه . وسيأتى فى أول سورة الممتحنة زيادة على هذا إن شاء الله تعالى ، وبالله التوفيق^(٢٥) .

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الحشر

أهداف سورة الحشر

(سورة الحشر مدنية، وآياتها ٢٤ آية ، نزلت بعد سورة البينة)

وقد نزلت في بداية السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب ، وهي تحكى قصة غزوة بنى النضير ، ولكنها على طريقة القرآن تحكى أحداث الغزوة وما صاحب هذه الأحداث ، وترى النفوس تؤكد على معالم الإيمان ، وبذلك يكون القصص هادفاً ، ورواية الأحداث وسيلة عملية لتقويمها ، ومعرفة حكم الله فيها واستنباط العظة والعبرة منها .

والقرآن الكريم فيه القصة ، وفيه أحداث التاريخ ، وفيه العظة والعبرة ، وفيه الحكم والتشريع ، وفيه التهذيب والتربية ، وقد استطاع أن يمزج ذلك كله بطريقته الخاصة ، ليصل به إلى قلب المؤمن ، وليسهم في بناء الفرد الصالح والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح والأمة الصالحة .

قال تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...

(آل عمران : ١١٠)

غزوة بنى النضير^(٢٧)

قدم رسول الله ﷺ المدينة ومعه رسالته الهادية، وقد آمن به جمع من المهاجرين والأنصار، ثم عقد معاهدات مع يهود المدينة على حرية الأديان ، وعلى المعاشية السلمية فى المدينة ، وعلى ألا يكون اليهود عليه ولا له .

«وكان يهود بنى النضير حلفاء الخزرج ، وبينهم وبين المسلمين عهد خاصة يأمن بها كل منهم الآخر»^(٢٨) ، لكن بنى النضير لم يوفوا بهذه العهد حسداً وبغيّاً ، فقد ذهب رسول الله ﷺ فى عشرة من أصحابه إلى محلة بنى النضير ، يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين ، بحكم ما بينه وبينهم من عهد ، فاستقبله زعماء اليهود بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم بينما كانوا يدبرون أمراً لاغتيال رسول الله ﷺ ومن معه . وكان ﷺ جالساً إلى جدار من بيوتهم فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فهل من رجل منكم يعلو هذا البيت فيلقى صخرة عليه فيريحنا منه ؟ فقال عمرو بن

جحاش بن كعب : أنا لذلك ، فصعد ليلقى صخرة على رسول الله ، فاطلع ﷺ على قصدهم ، فقام كأنما ليقتضى أمراً ، فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه فعلموا أنه دخل المدينة .

وأمر رسول الله ﷺ بالتهيو لحرب بنى النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذى بينه وبينهم ، وكان قد سبق هذا إقناع كعب بن الأشرف - من بنى النضير - فى هجاء رسول الله ﷺ ، وما قيل من أن كعباً ورهطاً من بنى النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تأمر وتحالف وكيد ، مما جعل رسول الله ﷺ يأذن لمحمد بن مسلمة فى قتل كعب بن الأشرف فقتله . ولما كان التبييت للغدر برسول الله ﷺ فى محلة بنى النضير ، فلم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم .

ثم أرسل النبى إليهم محمد بن مسلمة ليقول لهم : اخرجوا من بلادى لقاء ما همتم به من الغدر .

وتجهز الرسول لقتال بنى النضير وحاصر محلثهم ، وأمهلهم ثلاثة أيام - وقيل عشرة - ليفارقوا المدينة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم .

وتهبأ بنو النضير للرحيل ، ولكن المنافقين فى المدينة أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم : لا تخرجوا من دياركم ، وتمنعوا فى حصونكم ونحن معكم ، إن قوتلتهم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم ، وقد حكى القرآن عمل المنافقين وشهر بنفاقهم وكذبهم .

قال تعالى : أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَتَخْرُجُنَّ مَعَهُمْ وَلَا تَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتُوا الْأَذْنُرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . (الحشر : ١١ - ١٣) .

وقد طمع اليهود فى معونة المنافقين ومؤازرتهم ، فتحصنوا فى حصونهم وتأخروا عن الجلاء ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فحاصرهم ﷺ وضيق عليهم الخناق ، ثم أمر بقطع نخيلهم ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم ، ثم قذف الله الرعب فى قلوب اليهود ، ولم يجدوا معونة من المنافقين ، ويتسوا من صدق وعودهم فسألوا رسول الله ﷺ أن يجلبهم ويكف عن دمايتهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا آلة الحرب ، فأجابهم النبى إلى طلبهم ، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم كيلا يسكنها المسلمون .

ولما سار اليهود نزل بعضهم بخير ، ومن أكابره حبي بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق .

ومنهم من سار إلى أذرعات بالشام ، وقد أسلم منهم اثنان يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب .

وكانت أموال بنى النضير فينًا خالصًا لله والرسول ، ولم يوجف^(٣) المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فقسما رسول الله ﷺ بين المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف ، وأبو دجاجة سماك بن خرشة ، وكان المهاجرون قد تركوا بلادهم وأموالهم وهاجروا فرارًا بدينهم إلى المدينة ، وقد استقبلهم الأنصار بالبشر والترحاب والمعونة الصادقة والإيثار الكريم ، فلما واثت الفرصة وزع النبي الفء على المهاجرين خاصة لتحسين أحوالهم المادية ، لكيلا يكون المال متداولًا بين الأغنياء وحدهم .

قال تعالى : وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الحشر : ٦) .

تسلسل أفكار السورة

١ - وصفت سورة الحشر حصار بنى النضير ، وعناية السماء بالمؤمنين ، وانتهاء الحصار بجلاء اليهود وانتصار المؤمنين . (الآيات : ١ - ٤) .

٢ - تحدثت عن قطع المسلمين للنخيل وبينت أن ذلك كان بأمر الله ليذل به اليهود ويخزي الفاسقين . (الآية : ٥) .

٣ - ذكرت حكم الفء والغنائم التي غنمها المسلمون من بنى النضير ، وبينت أنها توزع على المهاجرين لسد حاجتهم ، ولا يعطى منها شيء للأنصار لأنها ليست غنيمة حرب استخدم فيها الكرّ والغرّ وركوب الإبل والخيل ، ولكنها غنيمة حصار محدود انتهى بتسليم اليهود بعد أن ألقى الله الرعب في قلوبهم . (الآيتان : ٦ ، ٧) .

٤ - باركت السورة كفاح المهاجرين وخرجهم من مكة إلى المدينة حفاظًا على الدين وفداء للعقيدة ، كما باركت كرم الأنصار وأريحيّتهم ، ووصفتهم بالسماحة والإيثار ، والمحبة للبذل والعطاء .

كما باركت الأجيال اللاحقة التي وُلدت في محاضن الدعوة ، وكانت ثمرة كريمة لترايط المهاجرين والأنصار . (الآيات : ٨ - ١٠) .

٥ - حملت السورة على المنافقين ، وكشفت نفاقهم وكيدهم ، واتهمتهم بالجبن والصغار . (الآيات : ١١ - ١٣) .

٦ - بينت أن اللقاء بين المنافقين وأهل الكتاب لقاء في الظاهر فقط ، وبينهم من العداوة والإحن ما يظهر في الشدائد : بِأَسْهُمٍ يَتَّبِعُهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ... (الحشر : ١٤) .

٧ - أشارت إلى قصة الشيطان مع عابد يسمى برصيصا ، حيث أغراه الشيطان بارتكاب الفاحشة ثم استدرجه إلى الكفر ثم تولى عنه وخذه ، ومثله كمثّل المنافقين ، زينوا لليهود المقاومة والتحصن ضد المسلمين ثم خذلوه . (الآية : ١٦) .

٨ - فى الجزء الأخير من السورة تلتفت الآيات إلى المؤمنين فتأمرهم بالتقوى والعمل الصالح ، وتبين فضل القرآن وأثره فى هداية القلوب . (الآيات : ١٨ - ٢١) .

٩ - تختتم السورة بذكر أسماء الله الحسنى فهو سبحانه مالك الملك (القدوس) تقدست أسماؤه وتنزهت عن النقص، (السلام) الذى يشمل عبادته بالأمان والطمأنينة ويمنحهم السلامة والراحة، (المؤمن) واهب الأمن وواهب الإيمان ، (المهيمن) الرقيب على كل شئ ، (العزیز) الغالب ، (الجبار) القاهر ، (المكبر) البليغ الكبرياء والعظمة ، (البارئ) الموجد ، (المصور) خالق الصور للكائنات ، ومن معناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شئ شخصيته الخاصة ، (له الأسماء الحسنى) الدالة على الصفات العالية والكمال المطلق ، فهو سبحانه متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص .

المقصد الإجمالى للسورة

قال الفيروزباده :

معظم مقصود سورة الحشر هو : الخبر عن جلاء بنى النضير ، وقسم الغنائم ، وتفصيل حال المهاجرين والأنصار ، والشكاية من المنافقين فى واقعة بنى قريظة ، وذكر برصيصا (٢٠) ، والنظر إلى العواقب ، وتأثير نزول القرآن ، وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته ، وبيان أن جميع المخلوقات تدل على عظمته وكماله وتنزيهه ، فى قوله سبحانه : هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (الحشر : ٢٤) .

النظام الاقتصادى فى الإسلام

أشارت الآية السابعة من سورة الحشر إلى الحكمة من توزيع الفء على المهاجرين وحدهم دون الأغنياء من أهل المدينة فقال تعالى : كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... (الحشر : ٧) . أى : كيلا يكون الفء فى - أى الغنيمة - متداولاً بين الأغنياء دون الفقراء ، وهذه قاعدة هامة من قواعد النظام الاقتصادى فى الإسلام .

وقد احترم الإسلام الملكية الفردية لأنها حافز طبيعي للعمل والإنتاج ، ولكنه قلم أظفار هذه الملكية ، وحارب جبروت المال وطمعانه بما يأتي :

١ - فرض الإسلام الزكاة وجعلها نسبة متفاوتة حسب التعب في كسب المال : فزكاة المال نسبتها ٢,٥٪ وكذلك زكاة التجارة ٢,٥٪ من رأس المال ، وزكاة الزراعة ٥٪ أو ١٠٪ ، وقريب منها زكاة الماشية ، وزكاة الركاظ وهو المال أو البترول أو المعادن والكنوز التي توجد في باطن الأرض نسبتها ٢٠٪ .

وهكذا كلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر ، لأن الفضل لله في ظهور الكنز أو البترول فكانت النسبة ٢٠٪ ، والجهد ظاهر من العبد في التجارة والعمل في الحياة فنسبة الزكاة فيها ٢,٥٪ .

٢ - حرّم الإسلام الربا والاحتكار ، وهما الوسيطتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء ، أي يتداوله الأغنياء ولا يصل إليه الفقراء .

٣ - جعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء ، وأن يفرض الضرائب في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال .

٤ - جعل هناك صدقات موسمية مثل : صدقة الفطر ، والأضحية ، والهدى في الحج ، والكفارات مثل : كفارة اليمين ، والظهار ، والفطر في رمضان ، وكلها تنتهي إلى إطعام المساكين أو كسوتهم والتوسعة عليهم .

٥ - حث الإسلام على الصدقة والتراحم والتكافل والمودة والتعاطف بين الناس ، وبذلك نجد أن النظام الاقتصادي في الإسلام نظام متميز ليس فيه مساوئ الرأسمالية أو الشيوعية ، بل فيه محاسنها مع التجرد من عيوبهما ، وذلك نظام العليم الخبير ، البصير بالنفوس الذي أعطى للإنسان حق التملك ثم جعله موظفاً في ماله يجب عليه أن ينفق وأن يتصدق عن طوعية ورغبة في الثواب العاجل والآجل .

قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقال سبحانه : مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُلْقِيَتْ سَبْعَ سَبَاقِلَ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مَائَةِ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

ويقول المرحوم أحمد شوقي في الهمزية النبوية التي مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء	وفم الزمان تبسم وثناء
وإذا سخوت بلغت بالجوهر المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء ^(٣٧)
وإذا عفوت فتقدرا ومقدرا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأتت أم أو أب	هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا خطبت فللمنابرهزة	تعرو الندى ^(٣٨) وللقلوب بكاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
بك يا ابن عبد الله قامت سمحة ^(٣٩)	بالحق من ملل الهدى غراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق قضاء
الاستراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء ^(٤٠)
داويت متلدا ^(٤١) وداووا طفرة ^(٤٢)	وأخف من بعض الدواء الداء

تمهيد :

سورة الحشر تسمى : سورة بنى النضير .

روى البخارى^(٣٧) عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : سورة بنى النضير ، وهم قوم من اليهود ، وهى مدنية ، وآياتها أربع وعشرون بلا خلاف^(٣٨) .

وجاء فى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ما يأتى :

بدأت السورة بأن الله سبحانه له ونزهه عما لا يليق به كل شئ فى السماوات والأرض ، وأنه العزيز الذى لا يُغلب ، الحكيم فى تصرفاته وتشريعه ، ومن آثار عزته وحكمته ما تحدثت عنه السورة من عاقبة بنى النضير - وهم من اليهود بالمدينة - وكانوا قد صالحوا النبى ﷺ بعد الهجرة على ألا يكونوا عليه ولا له ، فلما كانت هزيمة المسلمين فى يوم أحد نكثوا عهدهم ، وحالفوا قريشاً عليه ﷺ ، فحاصروهم فى حصونهم التى ظنوا أنها تمنعهم ثم أجلاهم عن المدينة ، ثم بينت حكم الفىء ، وهو ما كان من الغنائم بلا حرب ولا إسراع بركوب الخيل ونحوها ، فذكرت أنه لله والمرسل ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم تحدثت عن الأنصار وفضلهم^(٣٩) .

وفى حديث الآيات عن الأنصار تطرقت إلى إيثارهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كان بهم حاجة إلي ما آثروهم به ، ولفتت النظر إلى ما كان من وعود المنافقين لبئى النصير ، فى قولهم لهم : لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ... وقولهم : وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ... (الحشر: ١١) . وفصحت كذبهم وتغيريرهم فى ذلك .

ثم خلصت السورة إلى تذكير المؤمنين بما ينبغى أن يكونوا عليه من تقوى الله ، والتزود للمستقبل القريب والبعيد ، وألا يكونوا كالذين أعرضوا عن الله فأنساهم أنفسهم ، وختمت ببيان شأن القرآن وعظيم تأثيره ، ذلك لأن الذى أنزله هو الله الذى لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ^(١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يحْسَبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ يَؤْتِيهِمْ بِأَيِّدِهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ② وَلَوْ لَا أَنْ كُنَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُلَاءَ لَعَذَبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ③ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ④﴾

المضردات :

سبّح - لله ، نزهه ومجده وعظمه ، بدلالته على قدرة خالقه وعلمه وإتقان مخلوقاته .

العزيز - القادر الغالب ، الذي لا ينازعه أحد .

الحكيم - الذي يفعل أفعال الحكمة والصواب ، أو الذي يُتقن خلق الأشياء ويحكمها .

الذين كفروا من أهل الكتاب ، هم يهود بنى النضير وكانت منازلهم قرب المدينة .

أول الحشر - كانوا أول من أجلّاهم الرسول ﷺ عن ديارهم فى جزيرة العرب ، والحشر :

الإجلاء والإخراج ، ثم أجلي سائر اليهود والنصارى فى أيام عمر بن

الخطاب ، وهو الحشر الثانى .

ما ظننتم أن يخرجوا ، لأنهم كانوا أهل حصون مانعة ، وأهل عدد وعدة .

أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، ظنوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله .

من حيث لم يحتسبوا ، أناهم أمر الله من حيث لم يخطر ببالهم أنه يأتيهم من تلك الجهة ، وذلك غزو

لهم ، لإخراجهم من بلاد العرب .

التفسير :

١ - سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

كل شيء فى الأرض أوفى السماوات يسبح الله وينزهه ويعظمه ، إما بلسان الحال وإما بلسان المقال .
أما لسان الحال فإن السماء العالية والجبال الراسية والبحار الجارية والليل المظلم والنهار المضى والقمر الباهر والكوكب الزاهر والنبات والفضاء والهواء ، وما فى الكون من تكامل وإبداع يدل دلالة واضحة على أن وراء هذا الكون البديع يدا حانية تمسك نظامه وتحفظ توازنه وتدبر شئونه ، وكل ما نراه فى الكون من جمال وإبداع وتناسق ، هو من أثر هذه القدرة العليا .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وهذه الآثار المتعددة تشهد بتقنيزه الله عن الشريك والنظير ، وتقول بلسان الحال : سبحان الله العزيز الحكيم ، القوى القدير الذى يحكم الصنعة ويدبر الأمر ، وهو على كل شىء قدير .

وأما لسان المقال ، فكما تسبح الإنس ، والملائكة والجن ، يقول الله تعالى : سُبْحَ لَه السَّمَوَاتِ السَّبْحُ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

٢ - هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ .

هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب - وهم يهود بنى النضير - من ديارهم عند أول إخراج لهم من جزيرة العرب ، وما كنتم تظنون أن يخرجوا ، لأنهم كانوا أهل عدد وعدة ، وقد ظنوا فى أنفسهم أن حصونهم المنيعه تصد عنهم بأس الله إذا نزل بهم ، فأخذهم الله من حيث لم يظنوا أن يؤخذوا من جهته ، وألقى فى قلوبهم الفزع الشديد ، وصار اليهود يخربون بيوتهم بأيديهم ليتركوها خاوية ، وأيدى المؤمنين ليقضوا على تحصنهم ، فاتعظوا بما نزل بهم يا أصحاب العقول .

٣ - وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وهؤلاء اليهود الأغار لو لم يكتب عليهم الجلاء إلى الشام ويقوا فى ديارهم لعذبهم الله فى الدنيا بالقتل والأسر ، كما فعل بالمشركين فى غزوة بدر الكبرى ، هذا إلى ما أعده الله لهم من العذاب والنكال يوم القيامة .

٤ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ. وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

وإنما استحق يهود المدينة ما فعله بهم الرسول ﷺ وأصحابه من الحشر والإخراج عن ديارهم ، بما كانوا يشاقون الله ورسوله ، من نقض عهودهم للرسول بعد وقعة بدر ، ثم كذبوا ما أنزله الله على رسله المتقدمين من البشارة. بمحمد ﷺ ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ .

أى : ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد العقاب ، وينزل به الخزي والهوان فى الدنيا ، والنكال

السرمدى فى الآخرة .

★ ★ ★

توزيع الضياء والغنائم

﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَزَعْتُمْهَا فَأَيْمَةٌ عَلَىٰ أَصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ٥ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسِطِّرُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٧﴾

المفردات :

مَنْ لَيْسَةٍ : هى النخلة تحمل البلح أيًا كان لونه ، وقيل : هى نخلة العجوة ، وهى من كرائم النخل عندهم . وجمعها : لين .

فَبِإِذْنِ اللَّهِ : قاله أنن لكم فيه ، فلا لوم عليكم .

وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ : ليغيظ أصحاب النخل من اليهود ويذلهم .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ : من أموال بنى النضير ، أى : رده على رسول الله .

فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ : يقال : وجف الفرس والبعير يجف وجفا : أسرع فى سيره ، وأوجفه

صاحبه إيجافاً : إذا حمله على السير السريع

من خيـل ولا ركـاب ، من : زائدة . والركاب : ما يركب من الإبل ، واحده : ناقة .

يسلط رساله على من يشاء ، من أعدائه ، أى : يبعثه عليهم لتأديبهم والانتقام منهم .

كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، حتى لا يكون الفئء مقصوراً على الأغنياء ، يتداولونه بينهم ، يأخذة هذا مرة ، ويأخذة هذا أخرى ، ولا يأخذ الفقراء منه شيئاً .

وما آتاكم الرسول فخذوه؛ وما أعطاكم الرسول مما أفاء الله عليه من أهل القرى فخذوا

التفسير :

٥ - مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ .

كانت غزوة بنى النضير في السنة الرابعة ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ، وكان نخيلهم ومنازلهم في ناحية المدينة على ميلين منها ، فحاصروهم رسول الله ﷺ حتى رضوا بالجملاء ، وفي أثناء الحصار هجم بعض المهاجرين على نخيلهم ، يستأصلونه أو يحرقونه إغاضة لهم ، فنهاهم بعض المهاجرين عن ذلك ، وقالوا : إنما النخل من غنائم المسلمين ، فصاح اليهود منكبين على العرب قطع نخيلهم وإحراقه ، ولم يكن العرب قطعوا من النخيل إلا شيئاً قليلاً لا يجاوز نخلة أو ست نخلات على الأكثر ، وعلم النبي بما كان ، وشق ذلك عليه وعلى بقية المسلمين ، ولكن الله سبحانه أنزل في ذلك قوله : **مَا قَطَعْتُمْ** **مِّنْ نَّيْةٍ** ... ورفع اللوم عن قاطعي النخل ، لأن كل فريق مجتهد فيما ذهب إليه .

٦- وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وأما أموال بني النضير فقد جعلها الله تعالى لرسوله خاصة ، لأن المسلمين لم يبدلوا فيها جهداً ولا مئونة ، ولم يحركوا إليها خيلاً ولا إبلأ ، لأن الجلاء قد اتفق عليه صلحاً بينهم وبين الرسول ﷺ فلم يكن للمسلمين حق في تلك الأموال التي آلت إلى رسول الله ﷺ دون حرب ، والله تعالى يسلط بعض رسله لإزالة بعض أعدائه ، كما أذل بني النضير إذ غدروا بالنبي ، وحالفوا عليه مشركي مكة .

٧- مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ
كَذَلِكَ يَكُونُ دَوْلَةً بَيْنَ الْأَغْبِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا عَنْكُمُ الرُّسُلُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَأْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ .

أما الأموال والغنائم التي استولى عليها المسلمون في جرب بنى قريظة، فإنها قسمت بين المحاربين لأن بنى قريظة لم يُحشروا ولم يخرجوا عن أوطانهم وإنما قتلهم المسلمون بسيوغهم. وقرى اليهود: أشهرها

قرية بنى النضير ، وقرية ، وفدك ، وخيبر . وقد تبين الحكم فى أموال بنى النضير فى الآية السابقة ، ومثلها ما فتح صلحاً مثل فدك ، وأما غنائم سائر القرى مما فتح عنوة ، فإن خمسها لله والرسول ، وأربعة أخماسه تقسم بين المقاتلين .

قال تعالى : **وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ... (الأنفال : ٤١) .**

وقد بين الله فى الآية الحكمة فى إعطاء الفقراء والمساكين نصيباً من أموال الغنائم ولولم يحاربوا ، إن ذلك لمنع كثرة الأموال فى أيدي الأغنياء الذين يشهدون المعارك ، وحرمان الفقراء الذين لا يقوون على أن يشهدوا الحرب .

★ ★ ★

فضائل المهاجرين والأنصار

﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (٨) **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٩) **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (١٠)

المشردات :

المُهَاجِرِينَ : الذين هاجروا إلى رسول الله ﷺ رغبة فى الدين ونصرة له ، وتركوا ديارهم وأهلهم وأموالهم .

تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ : المراد بالدار : دار الهجرة ، وهى المدينة ، أى : تمكنوا منها تمكنًا شديداً ، ولازموا .

يحبون من هاجر إليهم ، فقد آمنوا بالله ورسوله ، وأحسنوا إلى المهاجرين وأشركوهم معهم في أموالهم ومساكنهم .

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، لا يجد الأنصار في نفوسهم حسداً ولا غيظاً مما أوتي المهاجرون من الفء ، وإشراكهم في أموالهم .

ويؤثرون على أنفسهم ، الإيثار : تقديم غيرك على نفسك في حظ من حظوظ الدنيا ، رغبة في حظوظ الآخرة .

ولو كان بهم خصاصة ، أى : حاجة إلى المال الذى آتوه المهاجرين .

ومن يوق شح نفسه ، الشح : البخل مع حرص ، ويوق : يحفظه الله من شح نفسه .

والذين جاءوا من بعدهم ، الذين هاجروا بعدما قوى الإسلام ، ويشمل جميع المؤيدين لدعوة الإسلام حتى آخر الزمان .

غُلًّا ، غُلًّا : غشاً ويغشاً وحسداً .

تمهيد :

لم يكن لرسول الله ﷺ رغبة فى اختزان الأموال لنفسه وأسرته وأهله ، ومال الفء الذى أفاءه الله عليه من بنى النصير وخيبر وفدك وغيرها ، لم يكن يأخذ منه إلا نفقة عياله لسنة ، ثم يرد ما يبقى بعد ذلك على فقراء المهاجرين والأنصار ، ومن لا مال له من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين عن أموالهم ويلاذهم وأهليهم ، وقد بينت الآيات الثلاث (٨ - ١٠) ثلاثة أصناف من الذين كان يعطيهم من فيئه ، أو من الخمس الذى كان لله ورسوله من غنائم الحروب .

التفسير :

٨ - لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ .

الصف الأول : فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من مكة إلى المدينة ، وتركوا أموالهم بها مؤثرين الهجرة مع رسول الله ﷺ نصرة لدين الله ، وهم صادقوا النية فى ذلك .

٩ - وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مِمَّنْ هَاجَرُوا إِلَيْهِمْ وَلَا يُجَدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

والصنف الثاني : أهل المدينة الذين سكنوها ، وبادروا إلى الإيمان بالله ورسوله ، وأحبوا من هاجر إليهم مع النبي من المهاجرين ، وقاسموهم أموالهم ومسكنهم ، وكانوا لا يجدون في نفوسهم حسداً على ما أوتوا من الفىء أو من أموالهم الخاصة ، وكانوا يؤثرون المهاجرين بما فى أيديهم ولو كانوا محتاجين إليه .

١٠ - وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ .

والصنف الثالث : فقراء المهاجرين إلى المدينة فى أزمنة متلاحقة بعد هجرة النبي ﷺ إليها .

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أولى الناس بأن يرضى النبي مصالحهم ويعطيهم من فيئته الخاص ، ومن الخمس الذى جعله الله لله وللرسول ولذئ القرئى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وعلى هذا التصرف نشأ المجتمع الإسلامى فى المدينة نشأة مثالية ، جعلت كل فرد فيه يبحث عن مصلحة إخوانه فى هذا المجتمع قبل أن يفكر فى مصلحة نفسه ، وفى مصلحة الدين الجديد قبل أن يبحث عن مصالح أهله وعياله ، وبهذه الروح العالية أقدموا على الحروب والفتوح فى خلافة الراشدين ، فدان لهم العالم ، ونشروا رسالة الإسلام ومحاسنه فى دنيا المادة والظلم والغش ، وحرمان الفقراء ، وأثرة الأقوياء ، فطهروا العالم القديم من أبشع جرائمه ، وأنشأوا روحاً من الأخوة الإسلامية بين الأجناس والأقوام الذين كانوا على طول الدهر متعادين متخاصمين ، وبهذا تسنى لهم أن يجمعوا تراث العالم القديم من المعرفة ، وعصارة حضاراته المتعاقبة ومزجوا كل ذلك بتراث الإسلام ، فأخرجوا لأنفسهم حضارة جديدة قوامها العلم والدين ، وقد نعم بها العالم عدة قرون ، ولا يزال كثير من أمم الشرق يعيشون فى ضوء هذه الحضارة ، حتى يوم الناس هذا . فأين ذلك كله من حال المجتمع المكى فى بدء عصر الرسالة المحمدية ، وقد وبخهم الله بقوله : كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْشُرُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ الْقُرْآنَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الظَّالِمَ حُبًّا جَمًّا . (الفجر: ١٧ - ٢٠) .

المناقضون واليهود

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَفْئِدَةُ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنِطُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَذَلِكِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَذَلِكِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عِقَبَتُهُمَا أُنْهَمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

المضردات :

نافقوا : أظهروا غير ما أضمروا ، وبالفوا في إخفاء عقائدهم .
 الإخوان : الأصدقاء ، واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة .
 أشد رهبة : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم من الله .
 لا يعقلون : لا يعلمون عظمتة تعالى حتى يخشوه حق خشيتة .
 جميعا : أى : مجتمعين .

محصنة : أى : بالدروب والخنادق وغيرها .

جند : حيطان ، واحدها جدار .

بأسهم : أى : الخلاف بينهم دائم .

شَتَّى، متفرقة، واحدها شتيت .

وبال أمرهم ، سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلاً وبيل ، أى : وخيم سبى العاقبة .

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبني النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الغنى التى تقدمت - أردفه بذكر ما حصل من مناصحة المنافقين - عبد الله بن أبى بن سلول ورفقته - لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ، ومحاربتهم رسول الله ﷺ ، بما قصه الله علينا وفصله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويغفونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وأبو نعيم ، عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

التفسير :

١١ - أَلَمْ رَأَى الَّذِينَ نَفَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

أَلَمْ تَرَ . أسلوب يراد به التعجب من حال المتحدث عنه ، وبيان أن أمره غاية فى الغرابة ، وموضع للدهشة والحيرة .

فهؤلاء قوم من منافقى المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون ، منهم عبد الله بن أبى وشيعته ، رأوا رسول الله ﷺ شرع يحاصر بنى النضير ويقاثلهم ، فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا ولا نسلمكم لمحمد أبداً ، فجدوا فى قتالهم ، ولا تهنوا فى الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد الحصار ، وأوغل المسلمون فى الدخول فى ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم ، رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسرأب بقية يحسب الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وأنهم بين أمرين :

١ - الاستسلام وقبول حكم محمد ﷺ فيهم .

٢ - إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله الرعب فى قلوبهم ، فاختراروا الدنية ، وقبلوا الجلاء عن الديار ، واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لا عهد لهم ولا وعود ، كما هو دأبهم فى كل زمان ومكان .

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلاً ليزيد تعجب المخاطب من حالهم ، وليبين له مبلغ خبث طويبتهم ، وشدة جبنتهم وفزعهم من القتال ، وأن هذه الوعود أقوال كاذبة لاكتها ألسنتهم ، وقلوبهم منها براء ، فقال :

١٢ - لَئِنْ أَخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُكْفِّرْنَ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ .

أى : لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلوا عنها : لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولئن قاتلهم محمد ﷺ لا ينصرونهم ، ولئن نصرهم ليولن الأديار منهزمين عن محمد وأصحابه ، وهاربين منهم خاذلين لهم ، ثم لا ينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة : أن بنى النضير أخرجوا فلم يخرج معهم المنافقون ، وقوتلوا فما نصرهم ، ولو كانوا قد نصرهم لتركوا النصرة وانهمزوا وتركوا أولئك اليهود فى أيدي الأعداء .

ثم ذكر السبب فى عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين فى قتال ، فقال :

١٣ - لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

أى : إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثم لم يجرؤوا على الدخول معكم فى قتال ، وتركوا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله ، فقال :

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .

أى : وكانت هذه الرهبة لكم فى صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لا يفقهون قدر عظمتة تعالى ، فهم لذلك يستخفون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله تعالى : إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ آلَآءَ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ... (النساء : ٧٧) .

١٤ - لَا يَقْتُلُوا نَفْسًا جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بِيَتَّهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

أى : إن هؤلاء اليهود والمنافقين قد ألقى الرب فى قلوبهم ، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين ، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ ، بل يقاتلونكم فى قري محصنة بالدروب والخنادق ونحوها ، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون .

ثم بيّن أن من أسباب هذا الجبن والخوف التخالذ وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب ، فقال :

بَأْسُهُمْ بِيَتَّهُمْ شَدِيدٌ ...

أى : بعضهم عدو لبعض ، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوًا لهم وهم فى تخالذ وانحلال ، ومن ثم استكانوا وذلوا .

وفى هذا عبرة للمسلمين فى كل زمان ومكان ، فإن الدول الإسلامية ما هذ كيائها ، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخالذها أفرادًا وجماعات .

تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ...

أى : إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خلّتهم متفقين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف لما بينهم من إحن وعداوات ، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة .

وفى هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم ، وحث للعزائم الصادقة على حربهم ، فإن المقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطًا ، وازدادت حميته ، وكان ذلك من أسباب نصرته عليه .

ثم بيّن أسباب التفرق وانحلال الوحدة ، فقال :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ .

أى : ذلك التفرق من جراء أن أفئدتهم هواء ، فهم قوم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ، ومن ثم تخالذوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت عليهم الدائرة .

١٥ - كَمَلَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أى : مثل بنى النضير مثل اليهود من بنى قينقاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبى ﷺ يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة ، وأجلاهم إلى أذرعات بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت سنة أربع للهجرة .

والخلاصة : إنهم قد كانت لهم أسوة ببنى قينقاع ، فجروحهم لا تزال دامية ، وآثار خذلانهم لا تزال بادية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة لهم ، ولكنهم قوم لا يفقهون ولا يعتبرون بالمثلات التى يرونها رأى العين ، وكانت لهم عبرة فى معركة بدر حيث دهم الكافرون .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

١٦ - كَمَلَّ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ .

أى : مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير بالنصرة إن قتلوا ، أو الخروج معهم إن أخرجوا ، ومثل بنى النضير فى غرورهم وبوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم - كمثل الشيطان الذى غرَّ إنساناً ووعده بالنصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ، فلما احتاج إلى نصرتهم أسلمه وتبرأ منه ، وقال : إني أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة :

أن مآل اليهود فى انتزاعهم بمن وعدوهم بالنصرة من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جد الجد واشتد الحصار والتخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة - كمثل الشيطان إذ سول للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتمصل ، وقال : إني أخاف الله رب العالمين .

ولا تجد مثلاً أشد وقعاً على النفوس ، ولا أنكى جرحاً فى القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر واذكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

١٧ - فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ .

أى : فكان عاقبة الأمر بالكفر والداخل فيه الخلود فى النار أبداً ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر. كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

تقوى الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

المضردات :

ما قدمت ، أى شىء قدمت .

غـــــد : هو يوم القيامة ، سُمى بذلك لقربه ، فكل آت قريب ، كما قيل : وإن غداً لناظره قريب .

نسوا الله : أى : نسوا حقه ، فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيهِ .

فانساهم أنفسهم : أى : أنساهم حظوظ أنفسهم ، فلم يقدموا لها خيراً ينفعها .

التفسير :

١٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .

وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ...

أى : ولتتنظروا ماذا قدمت لآخرتكم مما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما

أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حياتاً .

وَاتَّقُوا اللَّهَ ...

تكرير للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى الميعاد .

ثم وعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، فقال :

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى أنه تعالى عليم بأحوالكم لا يخفى عليه شىء من شئونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيقتها ،

واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقيير والقطمير ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شىء من ذلك .

١٩ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

أى : ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فَرَن على قلوبهم وأنساهم العمل الصالح الذى ينجيهم من عقابه ، فضلوا ضلالاً بعيداً فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جزاءً وفاً لما دسوا به أنفسهم وأوقعوها فى المعاصى والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك قائلاً :

أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

أى : أولئك هم الذين خرجوا على طاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . (المناقرن : ٩) .

خطب أبو بكر فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل ، وإن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ، فقال : وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ... أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال تعالى : إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ . (الأنبياء : ٩٠) . لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فىمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فىمن يخاف فى الله لومة لائم .

٢٠ - لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .

أى : لا يستوى الذين أنسوا الله فاستحقوا الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجانة : ٢١) .

وقوله تعالى : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ .

(ص : ٢٨)

ثم بيّن عدم استوائهما ، فقال :

أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ .

أى : أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكيرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إبطار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابها ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نبهوا له ، كما تقول لمن عق أباه : هو أبوك ، تجعله كأنه لا يعرف ذلك فتنبهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والعطف .

★ ★ ★

لله الأسماء الحسنى

﴿لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُصْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

المضردات :

تَشَاعُصًا : متذللًا .

مُتَصَدِّعًا : متشققًا .

خَشْيَةُ اللَّهِ : خوفه وتشييد عقابه .

الْفَتَايَا : ما غاب عن الحس من العوالم التى لا نراها .

وَالشَّهَادَةُ : ما حضر من الأجرام المادية التى نشاهدها .

الْقُدُّوسُ : المنزه عن النقص .

السموم : الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نظم كفيلة برفقيهم .

المؤمن : أى : واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ، فالطائر فى جوه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يحرسون قراهم ولا هلكوا .

العزيز : الغالب على أمره .

الجبار : الذى جبر خلقه على ما أراد وقسره عليه .

المتكبر : البليغ الكبرياء والعظمة .

سبحان الله عما يشركون : أى : تنزه ربنا عما يصفه به المشركون .

الخالق : المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة .

البارئ : أى : المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التى وضعها ، والغرض الذى خلقت له .

المصور : أى : الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد .

الأسماء الحسنى : أى : الأسماء الدالة على محاسن المعانى التى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة ويدائع ما فيها دليل على كمال صفاته ، وكمال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

تمهيد :

بعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم ، وأمر عباده المؤمنين بالتقوى استعداداً ليوم القيامة - ذكر هنا أن لهم مرشداً عظيماً ، وإماماً هادياً هو القرآن ، الذى يجب أن تخضع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعد ، وبشارة وإنذار ، وحكم وأحكام ؛ فلو أننا ألهمنا الجبل عقلاً ، وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ولا تخشع ، ولا تتصدع من خشيته ، وقد فهمتم من الله أمره ، وتدبرتم كتابه ؟

ويعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف المُنزل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السماوات والأرض ، وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

التفسير :

٢١ - لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم أيها البشر ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تشععه حين قراءة القرآن ، وتدبر ما فيه من القوارع التى تذلل لها الجبال الراسيات .

وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : وهذه الأمثال التى أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التى ضربت لأجلها ، واقتضاهما الحال من نحو قوله تعالى : وَإِنَّ مِنَ الْحِجَابَةِ لَمَا يَتَخَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ... (البقرة : ٧٤) . وقوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَكْثَدُ قَسْوَةً ... (البقرة : ٧٤) . وقوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سِيرَتِ بِهِ الْحِبَّالُ أَوْ قَطَعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ بِهٍ آتُونِي ... (الزمر : ٢١) . هذه الأمثال جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن الناس من وفقه الله واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وقاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها ونأى فأخذته الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر .

٢٢ - هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمُ الْغُيُوبِ وَالْمُهَلِّدُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ .

فى هذه الآيات إلى آخر السورة ذكر القرآن طائفة من أسماء الله الحسنى تتضمن صفاته العلى ، التى جلت أن يشاركه فيها المخلوقون .

منها : اللَّهُ . وهو علم على رب الأرباب ، المتفرد باستحقاق العبادة دون غيره من كل من سُمى إليها أو رباً ، وعُبد من غير أن يكون مستحقاً لأن يعبد .

وقد أحاط علم الله بجميع الأشياء ، فهو يعلم ما غاب عنا ، وما حضر وشوهد وتحققت معرفته .

هُوَ الرَّحْمَنُ . المبالغ فى رحمة عباده ، وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . صفتا مبالغة من الرحمة ، وهى الإنعام والتفضل على المحتاج .

٢٣ - هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وكرر قوله : هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ . تثبيثاً لمعنى الجملة ، وتقريراً له فى النفوس .

هو الْمَلِكُ : الحاكم بأمره فى الدنيا والآخرة ، لا يشاركه فى ملكه شيء .

وهو الْقُدُّوسُ : أى الطاهر ، أو المنزه عن كل نقص .

وهو السَّلَامُ : الذى يمنح عباده الأمن من عذابه .

الْمُهَيَّمِنُ : الشهيد على عباده ، يرقب أعمالهم ، ويجازيهم عليها .

الْعَزِيزُ : القوى الغالب ، الذى لا يغلبيه ولا يقهره شيء .

الْجَبَّارُ : صاحب الجبروت والقدرة العالية .

الْمُتَكَبِّرُ : الذى تَرَفَّعَ عن كل نقص ، وتعظم عما لا يليق به .

سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ : أسبح الله وأنزهه عما يشركون معه من الأوثان .

٢٤ - هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هو المعبود الخالق ، المبدع للأشياء على غير مثال سابق ، والذى يصور المخلوقات فى أحسن الصور . وهذه بعض أسمائه الحسنى التى سمى بها نفسه ، وكل شيء فى السماوات والأرض يسبح له وينزهه ، مفسحاً بلسان مقاله أو مشيراً بلسان حاله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

أهم ما ترشد إليه سورة الحشر

١ - إن تجربة إجلاء النبي ﷺ يهود بنى النضير عن المدينة إلى خيبر ، ثم إلى الشام ، فى السنة الرابعة من الهجرة ، كانت تجربة ضرورية ، إبعاداً للدسائس والمكايد والفتن عن معقل الإسلام الحديث ، وقد كان بنو النضير بعد غزوة بدر قد عاهدوا النبي ﷺ أن يلزموا الحياذ بينه وبين قريش ، ثم نقضوا ذلك العهد ، وخالفوا ما عاهدوا عليه فى غزوة أحد ، ثم حاولوا قتل النبي ﷺ بإلقاء رعى عليه من سطح منزل لهم ، حين ذهب إليهم يفاضهم فى تحمل بعض ديال القتل من بنى عامر ، فأطلعه الله على سوء نيتهم ، وعاد إلى المدينة ، فأذن الله له فى إجلائهم عن ديارهم ، فأمرهم بالجلاء ، وهو الحشر الأول ، فتمنعوا منه فى حصن البويرة ، فحاصروهم فيه ست ليال ، ثم صالحوه على الجلاء ، على أن له أموالهم وبيوتهم ، ولهم ما تحمل الإبل فكانوا يخبون البيوت قبل أن يخرجوا منها ، ويأخذون معهم ما تستطيع الإبل حمله .

وقد كانت مخالفة بنى النضير قريشاً ونصرتهم على النبي ﷺ فى غزوة أحد ، عملاً سياسياً يدل على قصر نظر اليهود وغياوتهم ، فقد حسبوا أن فى ذلك قضاء على الإسلام وهو لا يزال فى مهده ، ولم يحسبوا أن المدينة كانت مركز القوة الإسلامية المتحمسة ، وفيها الرسول وكبار أصحابه من المهاجرين والأنصار ، وهى أقرب إلى قرى اليهود من مكة ، التى فيها كفار قريش حلفاء اليهود ، فهم إذن لا يأمنون صولة أهل المدينة بهم إذا هم أحدثوا حدثاً يؤذى جماعة المسلمين . أما ما كان بينهم وبين منافقى أهل المدينة من حلف ومودة ، فقد تبين لهم بعد الجلاء أنه لم يكن إلا أحاديث سمر ، لا موعول عليها إذا جد الجد ، ودنا منهم الخطر ، أو كأته كما قال تعالى : كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُحْسِبُ الظَّطَمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ فَيْثًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (النور : ٢٩) .

والعبرة المستفادة من قصة جلاء بنى النضير عن ديارهم إلى خيبر ثم إجلائهم جميعاً إلى أرض المحشر بالشام ، أن هذا الجلاء قد تم على حين غفلة ، وبسرعة لم يكن المسلمون ولا اليهود يحسبون أنه يتم بمثلها ، لأن اليهود كانوا أهل حلقة (سلاح) وأهل حصون يتمتعون فيها عند الخطر ، أشهرها : البويرة والوطيح والسلام ونطاة والكثبية . فلذلك يقول الله تعالى : مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَبْعُوثُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . (الحشر : ٢) .

ولكن عناية الله بأمر دينه وكتابه ورسوله ﷺ وصحابته الصادق الإسلام ، ملأت قلوب اليهود رعباً وفزعاً ، فأذعنوا للجلاء ، ورضوا بالخروج ، وفى ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر .

أما الحشر الثاني فهو ما كان في خلافة عمر بن الخطاب الذي أجلي جميع اليهود والنصارى عن جزيرة العرب ، وقال في ذلك كلمته الحكيمة الرائعة : (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان) .

٢ - في صدر الإسلام ، وفي دولة الراشدين ، والدولتين الأموية والعباسية ، صورة رائعة من رعاية الطبقات الفقيرة من المهاجرين والأنصار ، وذوى قرى النبي ﷺ ، واليتامى الذين لا مال ولا عائل لهم ، والمساكين وابن السبيل .

فقد جعل الإسلام لهذه الأصناف من الضعفاء حقوقاً ثابتة في الفء ، وفي غنائم الفتح والانتصار على الأعداء .

فأما الفء فهو ما عاد إلى المسلمين من الأموال والخيول والسلاح والرقيق ، بدون أن يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير ، وحكمه أن يتول كله إلى الرسول ﷺ يعطى منه من يشاء ، ويحفظ منه القليل لنفقة أهله وعياله مدة عام . وقد ردّ النبي ﷺ أكثر أموال بنى النضير على فقراء المهاجرين الذين أخرجوا من مكة دارهم ، ونهبت أموالهم وثرواتهم بأيدى أعداء الإسلام فكانوا يأكلون مال من ليس له بمكة أسرة قوية تدافع عن أهله ، وتحافظ على ماله . وإلى ما فعل النبي ﷺ من الاستيلاء على فء بنى النضير ، وتصرفه فيه على ما يراه من مصلحة المسلمين ، تشير الآية الكريمة من هذه السورة : وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الحشر: ٦) . ومثل ذلك كل فء أفاءه الله على رسوله كأموال خيبر وفدك من قرى اليهود .

أما الغنائم التي يغنمها المسلمون من أعدائهم بإيجاف الخيل والركاب ، وبالقنل والقنال ، فإنها كانت تُقسم خمسة أخماس :

خمس منها : لله والرسول وذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس الباقية تُقسم على المقاتلين .

والذى يُقسم بينهم هو كل شيء يمكن نقله من مكان إلى مكان مثل : الدراهم والدنانير ، والخيول والإبل ، والسلاح ، دون الرقيق والأرض ، فإن لهما حكماً خاصاً .

والخمس الذى جعل لله ورسوله ومن ساهم الله في قوله تعالى : وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ، وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... (الأنفال: ٤١) .

فالذى لله يُنْفَق على إنشاء أو إصلاح المرافق العامة كالمساجد :

والذى للرسول يُجمل فى نفقته ونفقة عياله وأزواجه ، وما يطرأ عليه من ضيف أو غرم فى دية أو نحو ذلك .

وأما سهم ذوى القربى ، فيُصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، لأنهم منعوا أن يأكلوا من مال الصدقات (الزكاة) .

وأما سهم اليتامى فيُصرف لمن لا مال له منهم ، أو لمن له مال ولا يمكنه الوصى منه .

وأما سهم المساكين فيُصرف للفقير الذى ليس عنده قوت يومه ، وللعاجز الذى أقعدته الزمانة والسِّن عن مزاولة العمل لكسب قوته .

وأما سهم ابن السبيل ، فيُعان منه المسافر الغريب الذى نفد ماله وزاده ، وهو لا يجد مالا يستطيع به العودة إلى بلاده وأهله الذين انقطع عنهم .

هذه صورة من أعمال البر التى كفلها الإسلام للفقراء فى غنائم الحروب ، لتحقيق العدل الاجتماعى الذى عبّر عنه القرآن بقوله : كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ... (الحشر: ٧) . أى : حتى لا يكون المال مقادولا بين أغنيائكم وذوى القدرة على شهود المعارك والحروب ، على حين يحرم منه الضعفاء والعجزة الذين لا يستطيعون إلى شهود الحروب والمعارك سبيلا .

فأين هذه الصورة المشرفة من رعاية حقوق الفقراء فى الدولة الإسلامية الناشئة ، من تلك الصورة القائمة التى كانت للفقراء فى المجتمع المكى القديم البالى ، الذى أنكر المتكبرون فيه حقوق الضعفاء والفقراء والعجزة واليتامى والمساكين ، فويخهم الله على ذلك وذمهم بقوله تعالى : كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ • وَلَا تَحْضُونَهُ عَلَى طَعَامِ الْيَسِيرِينَ • وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا • وَتُجْبُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا . (الفجر: ١٧ - ٢٠) .

ويقوله تعالى : فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ • فَكَّ رَقَبَةٍ • أَوْ إِطْعَمْتُ فِى يَوْمٍ ذِى سَعَةٍ • يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ • أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ • ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ • أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . (البقرة: ١٧٦ - ١٨) .

ومن الأموال العامة التى تقسم بين الناس أموال الخراج والصدقات ، وهى الزكاة ، فإن إمام المسلمين يتولى جمعها وتقسيمها على أصناف مخصوصين بينتهم الآية الكريمة فى سورة التوبة : إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَلِيلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَافَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغُلَامِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . (التوبة: ٦٠) .

ولن تبرا علل المجتمعات أو تتحسن صورتها ، إلا إذا اشتدت الرعاية بشئون الفقراء ، واهتم الأغنياء بصرف حقوق الفقراء فى الزكاة والصدقات ، ومضاعفة ضروب البر والتبرعات ، حتى نمنح آثار الفقر والمسكنة ، ونقوى أواصر الترابط والتعاون بين طبقات الأمة ، لتصبح يداً واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

قال تعالى : وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ ... (الحديد : ٧) .

وقال سبحانه وتعالى : وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات : ١٩) .



فى أعقاب سورة الحشر

أسماء الله الحسنى

أورد الإمام ابن كثير أسماء الله الحسنى فى تفسيره ، وكذلك أ.د محمد سيد طنطاوى نقلا عنه ، وكذلك أ.د وهبة الزحيلى فى التفسير المنير فقال ما يأتى :

ويحسن ذكر الحديث المروى فى الصحيحين ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر» .

ورواه أيضاً الترمذى وابن ماجة بالزيادة التالية ، وأذكر هنا لفظ الترمذى :

«هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المغيث ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المبسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المعطى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور» .^(١٩)

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (الحشر) سنة ١٩٨٥ م ، وأضيفت إلى التفسير سنة ١٤٢١ هـ الموافق ٢٠٠١ م .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الممتحنة

أهداف سورة الممتحنة

(سورة الممتحنة مدنية ، وآياتها ١٣ آية ، نزلت بعد سورة الأحزاب)

- ولها ثلاثة أسماء : سورة الممتحنة ، وسورة الامتحان ، كلاهما لقوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ قَامَتَجُنُوهُنَّ ...** (الممتحنة : ١٠) .
- والاسم الثالث : سورة المودة ، لقوله تعالى : **تَلَقُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ...** (الممتحنة : ١) .
- وقوله : **تُبَيِّرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ...** (الممتحنة : ١) .
- وقوله : **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ ءَعَادْتُمْ مَتَّةً مَوْدَّةً ...** (الممتحنة : ٧) .

قصة نزول السورة

هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، واستطاع أن يؤلف بين المهاجرين والأنصار ، وأن يضع أسس الدعوة الإسلامية ، وأن يصنع أمة تميزت بالأخلاق الكريمة ، والصفات الحميدة ، وقد وقف كفار مكة في وجه الدعوة الإسلامية ، وتمت عدة معارك بين المسلمين والمشركين منها غزوات بدر وأحد والخندق والأحزاب والحديبية ، ثم توقفت هذه المعارك بعد صلح الحديبية ، وكان أهم نصوص الصلح : وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين ، وأن من أراد أن يدخل في حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل فيه .

وعلى إثر ذلك دخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله ﷺ ، ودخلت قبيلة بكر في حلف قريش .

ثم إن قريشا نقضت العهد بمساعدتها قبيلة بكر حليفها على قتال خزاعة حليفة النبي ﷺ حتى قتلوا منهم عشرين رجلا ، وقد لجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمي به ، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها ، فاستنصرت خزاعة برسول الله ﷺ ، وذهب رجال منهم إلى المدينة فأخبروا رسول الله بما كان من غدر بكر بهم ومعاونة قريش عليهم ، وأنشد عمرو بن سالم بين يديه :

يارب إنى ناشد محمدا	حلف أبينا وأبيه الأنداء ^(١٧)
إن قريشا أخلفوك الموعدا	ونقضوا ميثاقك البوعدا
هم بيتونا بالوتير ^(١٨) هجدا	وقتلونا ركعا وسجدا
فانصر هداك الله نصرأ أيذا ^(١٩)	وادع عباد الله يأنوا مددا

فقال له رسول الله ﷺ : «نُصرت يا عمرو بن سالم» .

وأخذ رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة ، وطوى الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول الأمين لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بهم ، فدعا الله قائلا : «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» .

حاطب يُفشى السر

كان حاطب بن أبى بلتعة من كبار المسلمين ، وقد شهد مع النبي ﷺ غزوة بدر مخلصا في جهادها ، ولكن في النفس الإنسانية جوانب ضعف تغطي في بعض الأحيان عليها ، وتهوى بها من المنازل العالية إلى الحضيض . لقد كتب حاطب كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بعزم المسلمين على فتح مكة ، واستأجر امرأة من مزينة تسمى سارة ، وجعل لها عشرة دنانير مكافأة ، وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى توصل كتابه إلى قريش ، فأخذت المرأة الكتاب فأخفته ، وسلكت طريقها إلى مكة ، ثم أخبر الله رسوله بما صنع حاطب ، فأرسل النبي ﷺ على بن أبى طالب والزيبر بن العوام في إثر المرأة ، فأدركاها في الطريق ، واستخرجا منها الكتاب فأحضراه إلى رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبا فأطلعه على الكتاب ، ثم قال له : «ما حملك على هذا» ؟ . فقال حاطب : يا رسول الله ، لا تعجل على ، فوالله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم^(٢٠) عليهم ، ولم أفعل ذلك ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإيمان .

ورأى النبي صدق لهجة حاطب وحسن نيته فيما أقدم عليه من ذلك الذنب ، فقال لمن حوله : «أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به» . ونظر النبي إلى ماضى الرجل فى الجهاد ، وحسن بلائه فى الذود عن حرمان الإسلام فرغب فى العفو عنه .

أما عمر بن الخطاب فقد كبر عليه أمر هذه الخيانة ، فنظر إلى حاطب وقال له : قتلتك الله ، ترى رسول الله يُعفى الأمر وتكتب أنت إلى قريش ؟ يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فتبسم رسول الله من حماسة عمر وقال : «وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» . فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم .^(٢١)

وفى هذه الحادثة أنزل الله صدر سورة الممتحنة يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم ، أو يطلعوه على بعض أسرارهم مهما كان السبب الذى يدفع إلى ذلك ، فإن العدو عدو حيثما كان ، وموادة العدو خيانة ليس بعدها خيانة .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْلُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ ... (الممتحنة : ١) .

فكرة السورة

تسير السورة مع النفس الإنسانية تحاول جاهدة أن تربي المسلمين تربية خاصة ، عمادها الولاء للدعوة وحدها ، والمودة لله ، والمحبة والتجمع على دعوة الله .

على هذا المعنى قامت الدعوة الإسلامية ، وظهر الإيثار والأخوة بين المهاجرين والأنصار .

ومن شعائر هذا الدين بغض ألسافيين والملحدين فى دين الله ، وقد انتهزت السورة فرصة ضعف حاطب ، فجعلت ذلك وسيلة لعملية لتهذيب النفوس ، ورسم المثل الأعلى للمسلم .

وقد عالجت السورة مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ، ليخرج المسلم من الضيق المحلى إلى الأفق العالمى الإنسانى .

«لقد كان القرآن بهذا الأسلوب فى التربية ينشئ فى هذه النفوس صورة جديدة ، وقيما جديدة ، وموازين جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين فى الأرض ، وغاية الوجود الإنسانى .

وكان كأنما يجمع هذه النباتات الأصغيرة الجديدة فى كنف الله ، ليعلمهم الله ، ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمرا ويحقق بهم قدرا ، ومن ثم فهم يؤسمون بسمته ، ويحملون شارته ، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأتوام جميعا فى الدنيا والاخرة ، وإنز فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته فى عالم الشعور وعالم السلوك» .^(١٧)

تسلسل أفكار السورة

سورة الممتحنة من أولها إلى آخرها تنظم علاقة المسلمين بالمشرىكين ، وتدعو إلى تقوية أواصر المودة بين المسلمين ، وحفظ هذه الوشائج قوية متينة بين المؤمنين ، وتبين أن عداوة الكافرىين للمسلمين أصيلة قديمة ، فقد أخرجهم كفار مكة من ديارهم وأهلهم وأموالهم . (الآية : ١) ، وإذا انتصر المشركون عليهم عاملوهم معاملة الأعداء ، رجاء أن يعودوا بهم من الإيمان إلى الكفر ، وحينئذ لا تنفعكم ، أَرْحَانُكُمْ وَلَا أَوْلَدُكُمْ ... (الممتحنة : ٣) . ولا تنجيكم من عقاب الله . (الآيتان : ١ ، ٢) .

ثم ترسم السورة مثلاً أعلى وقدره حسنة بإبراهيم الخليل ومن معه من المؤمنين ، حين آمنوا بالله وأخلصوا له النية ، وتجردوا من كل عاطفة نحو قومهم المشركين ، وأعلنوا براءتهم من الشرك وأهله ، وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، فلما تأكد لإبراهيم إصرار أبيه على الشرك تبرأ منه .

ذلك ركب الإيمان ، وطريق المؤمنين في تاريخ البشرية يتسم بالتضحية والغذاء ، والاستعلاء على رغبات النفس في صلة الأقارب من المشركين ، فالمودة لله وللمؤمنين . (الآيات : ٤ - ٦) .

ولعل الله أن يهدي هؤلاء المشركين فيدخلوا في دين الله ، وذلك تتحول العداوة إلى مودة ، وقد فتحت مكة بعد ذلك وعاد الجميع إخوة متحابين . (الآية : ٧) .

وقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، فهو نبي الهدى والسلام ، والإسلام في طبيعته دين سلام ، فاسمه مشتق من السلام ، والله اسمه السلام ، والإسلام لا يمنع من موالاة الكفار والبر بهم وتحري العدل في معاملتهم ، ما داموا لم يقاتلونا في الدين .

ولكن الإسلام ينهى أشد النهى عن موالاة الكفار المقاتلين أو الذين يستعدون لقتال المسلمين ، ويرى كشف خطط المسلمين لهم خيانة للعقيدة وللأمة الإسلامية .

«وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون ، فمن وقف معهم تحتها فهو منهم ، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم ، ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه» .^(١٨) . (الآيتان : ٨ ، ٩) .

وكان صلح الحديبية ينص على أن من جاء مسلماً يدون إذن وليه يرده المسلمون إلى أهل مكة ، ومن جاء إلى مكة مشركاً لا يردونه .

ثم أسلمت نساء من أهل مكة جاء أزواجهن يطلبونهن ، فنزلت هذه الآيات تؤيد أن المرأة لا يصح أن ترد إلى زوجها الكافر ؛ لأنها لا تحل له بعد أن أمنت بالله وبقي الزوج على الشرك ، وكانت المرأة تمتحن ، أي : تحلف بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، فإذا حلفت كان لنا الظاهر والله أعلم بالسرائر ، عندئذ تعيش في المجتمع المسلم ، فإن تزوجت أعاد زوجها المسلم إلى الزوج المشرك ما أنفق عليها ، وكذلك إذا ذهبت زوجة مسلمة إلى المشركين مرتدة ، فإذا تزوجت يرد المشركون للمسلم المهر الذي دفعه لها . (الآيتان : ١٠ ، ١١) .

ثم بيّن الله لرسوله ﷺ كيف يبائع النساء على الإيمان وقواعده الأساسية ، وهى التوحيد ، وعدم الشرك بالله إطلاقاً ، وعدم اقتراف المحرمات وهى السرقة والزنا .. ثم طاعة الرسول ﷺ فى كل ما يأمر به ، أى امتثال المأمورات واجتناب المحرمات . (الآية : ١٢) .

وفى ختام السورة نجد آية تجمع الهدف الكبير ، فتتنهى عن موالاة من غضب الله عليهم من اليهود والمشركين . (الآية : ١٣) .

مقصود السورة إجمالاً

قال الفيروزبَادى :

معظم مقصود السورة هو : النهى عن موالاة الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتراف بالسلف الصالح فى طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول ﷺ بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيف والضلالة ، فى قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ . (الممتحنة : ١٣) .

النهى عن موالاة الكفار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِنْ يَشْفَوْكُمْ يُكَفِّرُوا أَلْسِنَةً أَعْدَاءُ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا ② لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③﴾

المضردات :

عدو الله : من كفر به أو أشرك به ، ولم يؤمن بما أنزل في كتبه .

عدو المؤمنين : من خانهم ، أو أضرب بمصالحهم ، أو قاتلهم ، أو أعان على قتالهم .

أولياء : جمع ولي ، أى : صديق توليه بالسرى .

المودة : المحبة والإخلاص ، والمراد هنا : النصيحة وإرسال أخبار الرسول ﷺ .

الحق : دين الإسلام ، والقرآن .

بما أخفيتم : بالذى أخفيتموه ، أنا أعلم به منكم .

ضلل : أخطأ طريق الهدى .

سواء السبيل : السواء فى الأصل : الوسط ، والمراد هنا : الطريق المستوى ، وهو طريق الحق .

إن يثقتوكم : يظفروا بكم ويتمكنوا منكم .

يبسطوا إليكم أيديهم : بالقتل والضرب والمساءة .

بِالسَّوْءِ ، بِمَا يَسُوءُكُمْ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ .

وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ، تَمَنَّا كُفْرَكُمْ .

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ، لَنْ تَفِيدَكُمْ قَرَابَاتُكُمْ .

وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، الَّذِينَ تَوَالَوْنَ الْمُشْرِكِينَ لِأَجْلِهِمْ .

يُفَصِّلُ ، يَقْضِي وَيَحْكُم ، وَفَرَّقَ (يُفَصِّلُ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ مَعَ التَّشْدِيدِ أَوْ التَّخْفِيفِ .

تمهيد :

هذه السورة تتلاقى مع ما سبقها من سور على تربية المسلمين ، وتأكيد وحدتهم ، وبعث عوامل القوة والصمود في نفوسهم ، ومقاومة لحظات الضعف في نفوسهم .

والسورة علاج للجماعة كلها وإن نزلت بسبب ضعف شخصٍ منها ، ففي رواية الشيخين البخاري ومسلم وغيرهما ، ما يفيد أن النبي ﷺ كان يتجهز لفتح مكة سرّاً ، وقال : «اللهم خذ العيون والأبصار عن قريش حتى نُنَبِّئَهَا فِي بِلَادِهَا» ، ثم أرسل حاطب بن أبى بلتعة رسالة سرية مع امرأة من مزينة ، وفيها : (اعلموا أن محمداً رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم) .

وأعلم الله رسوله بخبر هذا الخطاب ، فأرسل النبي ﷺ جماعة من أصحابه ، فأحضرُوا الخطاب من المرأة ، واستقدم النبي ﷺ حاطباً واستمع إليه وإلى اعتذاره وعفا عنه ، فنزلت سورة المتحنة تحت المسلمين على عدم موالاته الأعداء الذين كفروا بالإسلام ، وأخرجوا المسلمين والرسول الكريم من ديارهم ، فلا يليق بمن خرج مجاهداً ومجاهداً أن يوالى أعداء الله ، والله مطلع على الخفايا والنوايا ، ومن يُفْشِ سُرَّ رسول الله ، أو يفعل ما يؤذي المسلمين ، فقد انحرف عن الجادة وترك الطريق المستقيم .

ثم أخذ القرآن يحرّض المؤمنين على التماسك ، فيبين أن هؤلاء الأعداء إذا انتصروا عليكم سلطوا عليكم الأذى باليد واللسان ، وتمنوا أن تكفروا كما كفروا ، وإذا اتبعتموهم أسلوكم ، وفي يوم القيامة لن تنفعكم أولادكم ولا أقاريكم ، والله هو الذي يحكم بينكم بنفسه ، وهو عليم وخبير بأعمالكم .

التفسير :

١ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ جَهَنَّمَ فِي سَبِيلِي وَإِنِّي أَخَفِيْتُمْ وَمَا أَعْلَمُ بِمَا أَخَفَيْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

نداء علوي إلهي لجماعة المؤمنين ، بالآخذوا أعداء ربهم ودينهم ، وهم أعداء لهم في نفس الوقت ، ألا يتخذوهم أولياء وأحباباً ، يلقون إليهم بالمحبة والمودة ، وأسرار النبي ﷺ والمؤمنين .

والحال أن هؤلاء الكفار قد كفروا بالإسلام والقرآن ورسالة محمد ﷺ، وحاولوا قتل الرسول ﷺ، أو حبسه أو نفيه، فأذن الله له بالهجرة .

قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِيرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

كما أحكموا الحصار على المسلمين حتى هاجروا فراراً بدينهم من مكة إلى المدينة، وكلُّ جريمة النبي ﷺ والمهاجرين أنهم آمنوا بالله تعالى ربّاً واحداً صمداً .

كما قال سبحانه وتعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْأَحْمَدِ . (البروج : ٨) .

إن كان خروجكم من مكة جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فلا تتخذوا أعدائكم وأعداءكم أولياء ، تفضون إليهم بالمحبة ، وتهمسون لهم بأسراركم ، وخطط النبي ﷺ ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ، والأعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون ، ومن يوال الأعداء ويلق إليهم الأسرار ، فقد حاد عن طريق الحق والصواب ، وحاد عن قصد السبيل التي توصل إلى الجنة والرضوان الإلهي .

٢ - إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْنتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا .

إن يظهروا عليكم، أو ينتصروا عليكم ، أو يلقوكم قادرين عليكم ، متمكنين من أذاكم ، تظهر لكم عداوتهم ، ويحاولوا النيل منكم والاعتداء عليكم بأيديهم مقاتلين لكم ، وبأسنتهم بالسب والشتم ، والسوء والأذى ، ويتمنوا أن تعودوا كفاراً مثلهم .

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى : وَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً .. (النساء : ٨٩) .

٣ - لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمَ الْفِصْمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

لن تنفعكم قرابتكم ولا أولادكم يوم القيامة ، إذا خنتم المسلمين وأفشيتم أسرارهم من أجل أقرنائكم وأولادكم . فمن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، وكان حاطب بن أبى بلتعنة قد أفشى سر رسول الله ﷺ من أجل أسرته وأهله ولده ، فقال الله له : إذا أغضبت ريك ونبيك ، وضعت من أجل أولادك ، فإن هؤلاء لن ينفعوك يوم القيامة ، بل الذى ينفعكم هو ما أمركم به ، فاستقيموا على هدايتى وتوجيهى ، فإنى بصير بأعمالكم ، خبير بأسراركم ، وسأجازيكم على أعمالكم ، بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

وقريب من معنى الآية قوله تعالى: **يَوْمَ يَقْرَأُ الْمُرُءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِيهِ وَنَبِيِّهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** . (عبس: ٣٤-٣٧) .

★ ★ ★

التأسى بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه .

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۖ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَفِيزَن لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ رَبَّنَا عَلَيْنَاكَ نَوَكُنَا وَإِلَيْكَ آتِبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّا نَكَانَ أَلْعَزِيزُ الْخَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّى فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾

المضردات :

أُسْوَةٌ : الؤسوة (بضم الهمزة وكسرهما وبهما قرئ) من يؤتسى به ، كالقدوة لمن يقتدى به ، والجمع : أَسَى .

بِمِمَّا تَعْبُدُونَ : واحدكم برىء ، كظرفاء وظريف ، والمراد : متبرئون ومنكرون لما تعملون .

وَمِمَّا تَعْبُدُونَ : أى : الأصنام والكواكب وغيرها .

الْبَغْضَاءُ : البغض والكراهية .

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا : لا تسلطهم علينا ، فيفتنونا بعذاب لا نحتمله ، من قولهم : فتن الفضة ، أى : أذابها .

يَرْجُوا اللَّهَ : يؤمل ثوابه .

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ : مجيئه ، والجزاء فيه .

وَمَن يَتَوَلَّى : يعرض عن النصيحة .

تمهيد :

فى صدر السورة نهام القرآن عن موالاة الكافرين ، وعن كشف أسرار المسلمين ، وهنا يقول لهم : هلا اقتديتم بإبراهيم والذين معه ، إذ تبرأوا من قومهم وعادوهم ، وقالوا لهم : إنا برآء منكم .

قال الفراء :

يقول : أفلا تأسيت يا حاطب ، بإبراهيم حين تبرأ من أهله ، لتعلم أن الحب فى الله ، والبغض فى الله ، من أوثق عرى الإيمان .

التفسير :

٤ - قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۚ إِنَّا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبْنَيْهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

حث الله المؤمنين فى صدر السورة على عدم موالاة الأعداء الذين أخرجوهم من ديارهم ، وحذرهم من تمرير الأخبار السرية إليهم ، فإله مطلع على السر والعلن .

وهنا يضرب مثلاً عملياً ، وقُدوة فعلية تمت على يد إبراهيم خليل الله والذين معه من المؤمنين ، مثل سارة زوجته ، ولوط ابن أخيه ، فإنهم اعتصموا بإيمانهم ، وأعلنوا براءتهم وبغضهم ونفورهم من الكفار ، ومما يعبدون من دون الله من الأصنام والأوثان .

وكانوا واضحين تماماً ، فلم يكتفوا باعتماد الإيمان بالله تعالى ، بل أعلنوا للمشركين أن الحق والباطل لا يجتمعان ، لذلك قال المؤمنون أتباع الخليل إبراهيم لأعدائهم الكافرين :

كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ...

نحن على إيماننا بالله ، كَفَرْنَا بِكُمْ ، وَجَحَدْنَا معبوداتكم ، فلا نُؤْمِنُ بالأصنام والأوثان ، بل نُؤْمِنُ بالله وحده ، ونظهر العداوة والبغضاء للكافرين والمشركين ، حتى يؤمنوا بالله وحده ، فإذا فعلوا ذلك صاروا إخواننا فى الدين ، فالحب لكم كل الحب عند إيمانكم بالله ، والبغض لكم كل البغض عند كفركم وعبادتكم للأصنام والأوثان .

إِلَّا أَقُولُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرُكَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ...

عليكم بالاقتداء بإبراهيم والذين معه ، فى إعلان البراءة والعداوة للمشركين وللأصنام التى يعبدونها، لكن لا تقتدوا بإبراهيم فى استغفاره لأبيه ، فإنه إنما استغفر له بسبب موعده وعدها إياه ، حين قال له: سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا . (مريم: ٤٧) .

فلما تبين لإبراهيم أن والده أزر مصمم على الشرك تبرأ منه ، كما قال سبحانه وتعالى : وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّتْهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ . (التوبة: ١١٤) .

ونجد إبراهيم الخليل هنا يصرح صادقاً بأن أمر الهدى والتوفيق والقبول والإيمان بيد الله تعالى ، فهو يعدُّ أباه بالاستغفار ، ويخبره فى نفس الوقت أنه لا يملك له من أمر الله شيئاً ، فهو سبحانه وحده المعين على الهدى ، والموفق له ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (الإنسان: ٣٠) .

وذلك فى معنى قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (القصص: ٥٦) .

ثم اتجه إبراهيم والذين معه بالدعاء إلى الله قائلين :

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

إن اعتمادنا وثقتنا ورجاءنا على الله وحده ، وبالله وحده ، إليه أنبنا ورجعنا ، وإليه وحده المصير والرجع يوم القيامة .

لقد كان إبراهيم والذين آمنوا معه قلةً معدودة ، لكن إيمانهم بالله وتوكلهم عليه جعلهم مضرب الأمثال فى التجرد والإيمان ، وإظهار البراءة من أعداء الله .

وقال بعض المفسرين :

إن هذا الدعاء يحتمل أن يكون توجيهها وتعلينا من الله لعباده المؤمنين ، فمن وجد الله وجد كل شيء ومن فقد الله فقد كل شيء ، وكأن القرآن هنا يوجه المؤمنين إلى الاعتماد على الله والإنابة إليه ، مهما كانوا قلة ، فإن الله يجبر ضعفهم ، ويلبى دعاءهم ، وعليهم أن يقولوا :

رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .

٥ - رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ .

أى : لا تظهرهم علينا بالغلبة والتفوق ، فيغريهم ذلك بففتنتنا وإيذاننا .

قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا .

وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا بذلك .

وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه . واختاره ابن جرير ^(١٩) .

ولبعض العلماء رأى آخر فى فهم الآية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا : اضطراب حال المسلمين وفساده ، وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم فى وجوه الخير ، فيكون المعنى : يا ربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة ، فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا بحجة أنه لو كان ديننا سليماً لظهر أثره على أتباعه ، ولكأنوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر ^(٢٠) .

ويجوز أن يكون المعنى :

لا تجعلنا مفتونين بسبب محبة الذين كفروا والتقرب إليهم ، ومتابعهم فى سلوكهم ، وتقليدهم فى ملابسهم وأفعالهم .

أى : لا تجعلنا مفتونين بهم ، مسخرين لهم ^(٢١) .

وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ .

اغفر لنا ما فرط منا من الذنوب ، واجعلنا واثقين بفضلك ، إنك أنت ، الْغَفِيرُ . الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، الْحَكِيمُ . الذى لا يفعل إلا ما فيه الخير والمصلحة .

وتكرار النداء للمبالغة فى التضرع والجوار .

٦ - لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

أقسم لقد كان لكم - أيها المؤمنون - فى إبراهيم ومن معه أسوة وقدوة حسنة ، ونموذج يُتَّبَع ، لمن كان يرجو فضل الله وثوابه ، ويخاف عقابه فى اليوم الآخر .

ومن يُعرض عن الإيمان بالله واتباع أمره ، فإن الله غنى عنه وعن أمثاله ، وعن الخلق أجمعين ، وهو المحمود فى ذاته وصفاته .

قال تعالى : **إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ .** (إبراهيم : ٨) .

★ ★ ★

سماحة الإسلام

﴿ **عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٧)
لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) **إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَلَهُمْ وَاعْلَوْا بِإِحْسَانِكُمْ أَنْ تُولَّوهُمْ وَمَنْ يُولَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (٩)

المفردات :

عَسَى : كلمة تفيد رجاء ما بعدها ، فإذا صدرت من الله عز وجل فما بعدها مُحقق الوقوع .

أَنْ تَبَرُّوهُمْ : أى : تفعلوا البر والخير لهم .

وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ : وتعدلوا فيهم بالبر والإحسان .

الْمُقْسِطِينَ : العادلين .

وَعْلَوْا : وساعدوا .

أَنْ تُولَّوهُمْ : أَنْ تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

تمهيد :

يبشر الله المسلمين بمستقبل أفضل ، يجمع شملهم مع أعدائهم ، ويهديهم للدخول فى الإسلام ، وتعود المودة والرحمة والمغفرة من الله لجموع المسلمين ، فهو سبحانه قدير وغفور رحيم ، وقد أنجز الله تعالى وعده ، وفتح لهم مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وجمع الإسلام شمل هذه العائلات ، ورأينا أعداء الأُمس أصدقاء اليوم .

قال تعالى : **وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ نُو أَفْكَتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ** غَفِيرٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣) .

وقد رخص الله تعالى للمسلمين في صلة الذين لم يقاتلوهم في الدين من الكفار، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، لكنه يحرم عليهم موالاة الأعداء الذين أخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم، فمن يتول هؤلاء الظالمين المعتدين فإنه يكون ظالماً لنفسه، ولجماعة المسلمين، فما أعظم سماحة الإسلام، حيث قال: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... (البقرة: ٢٥٦).

وحيث أباح لنا موالاة المُسلمين المودعين من أهل الذمة، وعبادة مرضاهم، وأكل ذبائحهم، والتعاون معهم في شئون الحياة.

وإنما حرم موالاة المحاربين والمعتدين، وحرّم كشف خبايانا للأعداء، ورأينا النبي ﷺ يزور جارا له يهوديا عندما مرض، وكان ذلك سببا في إسلام اليهودي كما ورد في الصحيحين، وقد أخرجه البخاري في: ٧٥ - باب عبادة المرضى، و: ١١ - باب عبادة المشرك حديث رقم ٧١٤، عن أنس.

وعلى الحاكم المسلم أن يشمل المودعين من أهل الذمة بالحفظ والرعاية، وإنقاذ أسرارهم، وتحقيق معنى (لهم ما لنا، وعليهم ما علينا)، لذلك عاش أهل الكتاب في كنف الحكم الإسلامي آمنين مطمئنين، وكان منهم الوزراء والعلماء، والباحثون والمؤرخون والاقتصاديون.

والأقطاب في مصر نموذج لهذه المعاملة، فمنهم الوزراء والسفراء وقادة الجيوش، والشعب المصري نسيج متكامل، تتزاور فيه الأسر المسلمة مع الأسر المسيحية، وتتبادل معها التهاني بالأعياد، والتعاون في الرحلات والمشروعات، ورؤساء الدين الإسلامي والمسيحي يتبادلون التهاني بالأعياد، والتعاون في الأنشطة المتعددة، فالأديان السماوية كلها من عند الله، والله تعالى أمرنا بالتسامح والتعاون على البر والتقوى.

قال تعالى: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... (المائدة: ٢).

التفسير:

٧ - عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْبَيْنِ عَاقِبَتَهُمْ مَّوَدَّةً وَآلَهُ قَلِيلٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

كانت هناك عداوة بين المسلمين وأهل مكة، وقد حذر القرآن من موالاة الأعداء، وحذر من نقل أسرار المسلمين إليهم، وقد استجاب المسلمون لتوجيه القرآن، فبشرهم الله بهداية أهل مكة، ودخولهم في الإسلام، وجمّع شمل الأسر في المستقبل، وقد حقق الله وعده، ففتحت مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتحول أعداء الأمس إلى مسلمين مؤمنين، منضمين تحت لواء الإسلام، وألف الله بين قلوب الجميع، فصاروا إخوانا متحابين.

قال تعالى: «وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ... (ال عمران: ١٠٣)».

٨ - لَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .

لا ينهاكم الله عن البرِّ والعدل مع الكفار الذين لم يقاتلوكم بسبب دينكم ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولم يعاونوا على إخراجكم ، أن تحسنوا إليهم في معاملاتهم ، وتكرمهم وتمنحوهم صلتكم ، وتعزلوا بينهم ، إن الله يحب أهل البرِّ والقواصل والحق والعدل .

جاء في التفسير الكبير للرازي ما يأتي :

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في خزاعة ، وذلك أنهم صالحوا رسول الله ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحداً ، فرخص الله في برِّهم والإحسان إليهم .

وأخرج الشيخان ، وأحمد ، عن أسماء بنت أبي بكر ، أنها قالت : قدمت أمي - وهي مشركة - في عهد قريش حين عاهدوا رسول الله ﷺ - تعني في صلح الحديبية - فأتيت رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : «نعم ، صلي أهلك» ، فأنزل الله تعالى : لَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .^(١٧)

وجاء في الحديث الصحيح : «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا» . والعبرة هنا أيضا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٩ - إِنَّمَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَلَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

إنما ينهى الله تعالى عن موالاة المقاتلين ، أو التقرب إليهم ، أو كشف الأسرار لهم ، مثل أهل مكة الذين قاتلوا المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وعاونوا وساعدوا في إخراجهم ، هؤلاء وأشباههم من المقاتلين ، أمثال اليهود في إسرائيل الذين يقتلون إخواننا الفلسطينيين ، ويخرجونهم من ديارهم ، ويتعاونون على إخراجهم ، هؤلاء وأمثالهم من الفئات والدول المعتدية على المسلمين ، لا تجوز مودتهم ولا نقل أخبار المسلمين إليهم .

وقد ذكر ابن زيد وقتادة أن موادة المسلمين وترك قتالهم ، كان في صدر الإسلام ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : **فَاتَّقُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ... (التوبة : ٥) .** (انظر تفسير القرطبي) .

والذي عليه جمهور العلماء أنه لا نسخ ، لأن الآيات تقرر حكما يتفق مع شريعة الإسلام في كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذي إلا من آذانا ، ولا نقاتل إلا من أظهر العداوة لنا بأية صورة من الصور ، والنبي ﷺ كان يستقبل الوفود التي تأتيه لمناقشته في بعض الأمور ، مقابلة كريمة ، ويتجلى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وغيرهما .

والإمام ابن جرير الطبري عند تفسير هذه الآيات ذكر آراء من قال إن فيها نسخا ، وآراء من قال إنها محكمة لا نسخ فيها ، ثم عقب على ذلك بقوله الآتي : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى بقوله تعالى :

لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...

جميع أصناف الملل والأديان ، أن تدبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ... ويشمل كل من كانت صفته كذلك ، دون تخصيص لبعض دون بعض .

ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ، ممن بينه وبينهم قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرّم ، ولا منتهى عنه ، إذا لم يكن في ذلك دلالة له ، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح .^(٥٦)

وفى آخر الآية نجد هذا التعقيب :

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

أي : لا تتخذوا من عاداكم وقاتلكم وأخرجكم من دياركم ، أحبابا وأصفياء وأنصارا

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .

ومن يتخذ هؤلاء المعتدين أولياء وأحبابا ، فإنه يكون ظالما لدينه ولأتمته ولنفسه ، حيث وإلى أعداء دينه وأعداء أمته .

امتحان المهاجرات

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَ كُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهَبَرَاتٍ فَأَمَحَّوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ جُلُّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يُحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكْحُوهُنَّ إِذَا ءَانِئْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسَلُُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكِحُوا الَّذِينَ ذَهَبَ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَانْفِقُوا اللَّهُ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

المفردات :

فَامَحَّوهُنَّ : فاختبروهن بما يغلب به على ظنكم ، موافقة قلوبهن لألسنتهن في الإيمان .

عَلِمْتُمُوهُنَّ : ظننتموهن .

إِلَى الْكُفَّارِ : إلى أزواجهن الكفار .

أَجُورَهُنَّ : مهرهن .

عِصَمَ : واحدها عصمة ، وهى ما يُعتصم به من عقد وسبب .

الْكَوَافِرِ : واحدتهن كافرة .

فَعَاقِبْتُمْ : فكانت العُقْبَى لكم ، أى : الغلبة والنصر لكم حتى غنمتم منهم .

تمهيد :

تم صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وأهل مكة على شروط ، من بينها ما يأتى :

١ - وضع الحرب بين الفريقين عشر سنوات .

٢ - من أراد أن يدخل فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى حلف قريش دخل فيه .

٣ - من جاء إلى محمد ﷺ مسلماً بدون إذن وليه يردّه للمشركين ، ومن جاء مرتدّاً إلى المشركين

لا يردونه ، وكذلك من جاءت مرتدة عن الإسلام لا يردّها المشركون للمسلمين .

ويعد إتمام صلح الحديبية جاء رجال مسلمون من أهل مكة ، فردّهم النبي ﷺ وفاء بالعهد ، وقال لهم : «لعل الله أن يجعل لكم فرجا» .

ثم جاءت نساء مهاجرات من مكة إلى المدينة فأمر الله بامتحانهن ، فإذا كن مؤمنات فلا يحل أن يرجعن إلى الكفار .

التفسير :

١٠ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَشَقُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

قال المفسرون :

إن صلح الحديبية كان قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لا يرد إليهم ، ومن أتى المسلمين من أهل مكة - يعنى المشركين - رد إليهم ، فجاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ ، فخرج فى إثرها أخوها عمارة والوليد فقالا للنبي ﷺ : ردّها علينا بالشرط ، فقال النبي ﷺ : «كان الشرط فى الرجال لا فى النساء» ، فأنزل الله الآية ^(١٠) .

وأخرج الشيخان ، وأحمد ، عن ابن عباس : كانت المرأة تستحلف أنها ما هاجرت بغضا لزوجها ، ولا طمعا فى الدنيا ، وأنها ما خرجت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبة فى دين الإسلام .

ضوء على الآية

فى بداية الإسلام كان يحل للمسلم زواج الكافرة وإبقاء عقد زواجها ، وكل يحل للمرأة المسلمة زواج المشرك .

قال ابن كثير :

ولهذا كان حال أبى العاص بن الربيع ، زوج ابنة النبي ﷺ ، زينب رضى الله عنها ، وقد كانت مسلمة ، وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر ، بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلاده لها ، وكانت لأمرها خديجة ، فلما رآها الرسول ﷺ رقق لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا» . ففعلوا فأطلقه رسول الله ﷺ ، على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك ، وصدّقه فيما

وعده ، ويعتبرها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان ، فردّها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ١٠ هـ .

معنى الآية

يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءت إليكم نسوة مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان ، لا ثنات بجماعة المسلمين ، فامتحنوهن واختبروهن للتأكد من صدقهن ، فتقسم المهاجرة أنها ما هاجرت من بغض زوج ، ولا ابتغاء دنيا ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، وأنها ما هاجرت إلا حباً لله ورسوله ، ورغبة في دين الإسلام .

وهذا الاختبار ، مع استكشاف ما يحيط به ، يجعلنا نرجح النتيجة منه ، ونحكم بما يغلب على ظننا لأن الله تعالى وحده هو العليم بإيمان المؤمنين .

فإذا تيقنا من صدق إيمانهن ، فلا يجوز أن نرجع المرأة المهاجرة إلى دار الكفر ، خشية الفتنة عليها ، ولأنها لا تحل لزوجها الكافر ، ولا تحل لزوجها الكافر معاشرتها ، حيث إنها مؤمنة وهو كافر ، فلا يجوز أن يعطى الرجل الكافر فوق المرأة المؤمنة ، وكان هذا أول قرار في تحريم زواج المؤمنة من كافر .

قال الألوسي :

والتركيز للتأكيد والمبالغة في الحرمة ، وقطع العلاقة بين المؤمنة والمشرک ، حيث قال تعالى : لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ . فأفاد حرمة عودة المؤمنة إلى الكافر ، ثم كرر وأكد فقال : وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهَا . أي : ولا الأزواج الكفار يحلون للمؤمنات طالما بقوا على كفرهم .

ومن عدالة القرآن هنا أنه أمر بإعطاء الزوج الكافر ما أنفق على زوجته من صداق وغيره ، فلا يجمع عليه خسران الزوجة وخسران المال ، ثم أباح للمسلمين زواج المهاجرات بشرط أن يدفعوا لهن الصداق .

قال الخازن :

أباح الله للمسلمين نكاح المهاجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وإن كان لهن أزواج كفار ، لأن الإسلام فرق بينهن وبين أزواجهن الكفار ، وتقع الفرقة بانقضاء عدتها . اهـ .

وَلَا تُمَسِّكُوا بَعْضَ الْكُفَّارِ ...

فمن كانت له زوجة كافرة في مكة ، أو دار الكفر ، فقد انقطعت العلاقة الزوجية بإسلامه وكفرها ، فلا تعتبر زوجة له .

قال القرطبي :

المراد بالعصمة هنا : النكاح ، يقول : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتد بها فليست امرأته ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين . :

قال إبراهيم النخعي :

نزل قوله تعالى : **وَلَا تُنْسِكُوا بِهِنَّ الْكُفَّارِ** ... في المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين ، فلا يمسك زوجها بعصمتها .

وَسْتَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْتَلُوا مَا أَنْفَقُوا ...

إذا ذهبت امرأة مسلمة إلى الكفار مرتدة ، فمن حق زوجها أن يطلب من الكفار الصداق ، وهو المهر الذي دفعه لها ، ويقول لأهلها : هاتوا مهرها .

وكذلك من حق من جاءت زوجته مسلمة مهاجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أن يقول للمسلمين : هاتوا مهر زوجتي ، وكان هذا إنصافاً وعدلاً بين الحالتين .

ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ...

هذه الأحكام هي من تشريع الله الحكم العدل ، الذي يقضى بالحق بينكم وبين أعدائكم ، وتأتي هذه الفقرة ببثابة التأكيد والترسيخ لما سبق من أحكام وتشريع ، خاصة أن الآية تشرع لأول مرة تحريم زواج الكافر من المؤمنة ، وتحريم زواج المؤمن من المشركة ، والمعروف أن القرآن كله تشريع الله وحكمه ، لكنه كان يعقب على بعض الأحكام بما يؤكد وجوب تنفيذها ، وفي صدر سورة النساء تحدثت آيات عن توزيع الميراث ، ثم عقيبت بقوله تعالى : **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ، **وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ** . (النساء : ١٣ ، ١٤) .

وفي آخر الآية يقول الله سبحانه وتعالى :

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

فهو سبحانه وتعالى عليم بمصالح عباده ، حكيم في تشريعاته ، وقد التزم المؤمنون بهذه الأحكام ، فدفعوا ما أمروا به من مهر المهاجرات إلى أزواجهن ، وأبى المشركون أن يردوا شيئاً من مهر الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين .

١١ - وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَرْزَاقِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَلَيْكُمْ فَتَأْتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْزَاقُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

إذا لحقت امرأة أحد المسلمين بدار الكفار ، ثم يسّر الله للمسلمين النصر على الكفار والغلبة عليهم ، والحصول على الغنائم ، فإن المسلم الذي ذهب زوجته إلى دار الكفار ، يعوّض بما يوازي مهرها من الغنيمة قبل أن تقسم .

ومن معنى الآية : أن تكون هناك مقاصّة ومعاوضة ، فالزوجة المرتدة يعوّض زوجها بمهرها من أسرتها ، أو من زوجها المشرك ، كما يعطى لزوج المسلمة المهاجرة مهر زوجته ، حتى لا يجتمع عليه خسران زوجته ، وخسران المال الذي دفعه لها .

روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعطى المهر للذي ذهب زوجته إلى الكفار من الغنيمة قبل أن تقسم ، ولا ينقص من حقه شيئاً .

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

إن من لوازم الإيمان تقوى الرحمن ، فراقبوا الله تعالى الذي آمنتم به ، والتزموا بتنفيذ أحكامه ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وراقبوه والتزموا بطاعته وتقواه .

والتقوى هي : الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

بيعة النساء

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْنِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْؤُمِنَ الْآخِرَةَ كَمَا يَسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ (١٣)

المضردات :

يُـبَايـعـنـك : يعاهدك بالتزام الطاعة .

وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ : ولا يلدن البنات .

بِهـتـان : بؤر وكذب بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

يـفـتـرـيـنـه : يخلقنه كذباً .

فـي مـعـرـوف : في أمر بر وتقوى .

فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ : فالتزم لهن ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : طردهم من رحمته .

مِنَ الْآخِرَةِ : من ثوابها ونعيمها .

مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ : من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون ببعث ولا نشور .

تمهيد :

تكررت البيعة من رسول الله ﷺ ، ووقعت غير مرة ، ووقعت في مكة بعد الفتح وفي المدينة .

روى البخارى ، عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله ﷺ كان يمتحن

من هاجر إليه بهذه الآية : ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ...﴾ إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ . فمن أقرت بهذا

الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : «قد بايعتك» ، كلاماً ، ولا والله ما مسّت يده يد امرأة في

المبايعة قط ، ما بايعهن إلا بقوله : «قد بايعتك على ذلك»^(١٥) .

وروى أحمد، عن أميمة بنت رقية التيمية، قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأجذ علينا ما في القرآن، ألا نشرك بالله شيئاً - حتى بلغ - ولا يعصينك في معروف، فقال: «فيما استطعتن وأطقتن»، قلنا: الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأة واحدة قولي لمائة امرأة»^(١٢).

التفسير:

١٢ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَهُ، بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

تشتمل الآية على مكارم الأخلاق التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء.

والمعنى:

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك، ومعاهدات على هذه الأمور، وهى:

أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا . من صنم أو حجر .

وَلَا يَسْرِقَنَّ . من مال الناس شيئاً .

وَلَا يَزْنِيَنَّ . وقد حذر القرآن من الزنا، ويبيّن أنه فاحشة وساء سبيلاً .

وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ . ولا يئدن البنات، كما كن يفعلن فى الجاهلية، أو لا يقتلن الأجنة فى بطونهن، فإن ذلك عدوان وقتل للنفس بغير حق .

وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَهُ، بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ...

ولا يلحقن الأطفال الأجانب بأزواجهن كذباً وزوراً، أو: ولا يأتين بكذب وزور من قبل أنفسهن، واليد والرجل كناية عن الذات، لأن معظم الأفعال بهما .

قال المفسرون: كانت المرأة إذا خافت مفارقة زوجها لها لعدم الحمل، التقطت ولدًا ونسبته له ليلقيها عنده، فالمراد بالآية اللقيط .

وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ...

ولا يخالفن أمرك فيما أمرتهن به من معروف ، أو نهيتهن عنه من منكر ، بل يسمعن ويطعن .

فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْغِفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ .

فبايعهن يا رسول الله على ذلك ، واطلب لهن من الله الصفح والغفران ، لما سلف منهن من الذنوب .

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

أى : واسع المغفرة عظيم الرحمة .

ملحق بتفسير الآية

١ - قال أبو حيان :

كانت بيعة النساء فى ثانى يوم الفتح ، على جبل الصفا ، بعدما فرغ من بيعة الرجال ، وكان رسول الله ﷺ على الصفا ، وعمر أسفل منه ، يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، وما مست يده ﷺ يد امرأة أجنبية قط .

وكانت هند بنت عتبة - وهى التى شقت بطن حمزة يوم أحد - متنكرة فى النساء ، فلما قرأ النبى ﷺ عليهن الآية ، قال : عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا ... قالت هند : وكيف نطمع أن يُعْبَلَ مِنَّا ما لم يقبل من الرجال ؟ تعنى أن هذا بين لزومه ، فلما قال : وَلَا يَشْرِقَنَّ . قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان - أى القليل وبعض الشيء من ماله - لأنه رجل شحيح ، ولا أدرى أيجل لى ذلك أم لا ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال لها : «ولئك لهند بنت عتبة» ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبى الله ، عفا الله عنك . فلما قرأ : وَلَا يَزِينَنَّ . قالت : أو زنى الحرة ؟ فلما قرأ : وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ . قالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ، فأنت وهم أعلم وكان ابنها حظلة قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ﷺ . فلما قرأ : وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِنَّ يَفْتَرِيَهُنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ . قالت هند : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا بأمر الله إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . فلما قرأ : وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ . قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا ، وفى أنفسنا أن نعصيك فى شيء^(١٧) .

٢ - بايع رسول الله ﷺ الرجال أيضاً على بنود بيعة النساء .

روى البخارى ، عن عباد بن الصامت قال : كنّا عند النّبى ﷺ فقال : «أتبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا» ، قرأ آية النساء (أى : آية بيعة النساء) ، ثم قال : «فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله ، فهو إلى الله ، إن شاء عذّبّه وإن شاء غفر له» (١٨٨) .

بيعة العقبة

فى مرحلة الإعداد للهجرة ، وتعرض النّبى ﷺ للوفود ، قابل وفود المدينة المنورة ، وتمت بيعتا العقبة الأولى والثانية ، وكان لهما أبعد الأثر فى تهية المدينة المنورة لاستقبال الإسلام ، واحتضان الدعوة الإسلامية ، وكانت المدينة مرتكزاً للإسلام ودعوته ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا .

روى محمد بن إسحاق ، وابن أبى حاتم ، عن عباد بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكُنّا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفرض الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، وقال : «فإن وفيتم فلكم الجنة» .

بيعة الرضوان

بيعة الرضوان تمت عند الحديبية ، عندما أرسل النّبى ﷺ إلى أهل مكة عثمان بن عفان ، فاحتبسه أهل مكة وأشيع أنه قد قتل ، فقال ﷺ : «لا نبرح حتى نناجز القوم» ، وبايع ﷺ المسلمين على الموت وعلى ألا يفرّوا ، وقد بارك الله هذه البيعة وزكى أهلها فى كتابه العزيز ، حيث قال تعالى : لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا . (الفتح : ١٨) .

ما يستنبط من الآية :

دلت الآية على تحريم الشُّرك بالله ، والسرقه ، والزنا ، وقتل الأولاد ، أى وأد البنات الذى كان فى الجاهلية ، ويلحق به الإجهاض ، وإسقاط المرأة نفسها بدون عذر شرعى ، كما دلت الآية على تحريم إلحاق الأولاد اللقطاء بغير آبائهم ، وعصيان شرع الله فيما أمر ونهى .

ولم تقتصر المنهيات على هذه الأمور الستة ، فقد ورد فى الحديث النهى عن التولّى يوم الزحف ، وعن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وعن عقوق الوالدين ، وعن الزنا والربا والسحر واليمين الغموس ، وغير ذلك .

روى أحمد ، والشيخان ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال :
«ليس منّا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية»^(١٩).

ويفيد الحديث الدعوة إلى الصبر والتصبر ، واحتساب الثواب عند الله ، والنهي عن الهلع والجزع ، وعدم الرضا بالقضاء والقدر .

وسبق أن ذكرنا أن النبي ﷺ بايع الرجال على ما بايع عليه النساء ، فصارت الآية عامة للرجال والنساء .

وقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره جملة من الأحاديث التي تدل على أن هذه البيعة قد تمت في أوقات متعددة ، وفي أماكن مختلفة ، وأنها شملت الرجال والنساء .

١٣ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ .

هذه الآية ختام سورة الممتحنة ، وقد ذكر في صدرها النهي عن موالاة الكافرين الأعداء ، أو إرشادهم إلى أسرار المسلمين ، ويأتى الختام مؤكداً للصدر ، يأتى ختام السورة هتافاً بالمؤمنين ، ألاّ يقدّموا مودتهم لليهود أو المشركين الذين يئسوا من نعيم الآخرة لإقبالهم على الدنيا ، واهتمامهم بها ، والعمل لها ، كأنه لا أمل في نعيم الآخرة ، كما يئس كفار مكة وأشباهم من لقاء الموتى أصحاب القبور ، لأنهم لا يؤمنون بالبعث والحشر والثواب والعقاب .

قال قتادة :

قد يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا .

وقيل في هذه الآية معنى آخر ، قال ابن كثير :

كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كل خير ، قال ابن مسعود : قوله تعالى : كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ . معناه : كما يئس هذا الكافر إذا مات ، وعاین ثوابه واطلع عليه .

وقال الزمخشري : روى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم ، فنزل قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... الآية .

تفسير سورة الصف

أهداف سورة الصف

(سورة الصف مدنية ، وآياتها ١٤ آية ، نزلت بعد سورة التغابن)

وهي سورة تدعو إلى وحدة الصف ، وتماسك الأمة ، وتحث على الجهاد ، وتنفر من الرياء ، وتبين أن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى الأرض ، وأن رسالات السماء كانت دعوة هادفة لبناء الإنسان والدعوة إلى الخير والعدل ، وقد أرسل الله موسى بالتوراة ، فلما انحرف اليهود عن تعاليم السماء أرسل الله عيسى عليه السلام مجدداً لناموس التوراة ، ومبشراً برسالة محمد ﷺ .

وقد كانت رسالة محمد ﷺ بالهدى ودين الحق ، متممة للرسالات السابقة ، مشتملة على مبادئ الحق واليسر والعدل والمساواة ، وقد كره المشركون انتصار النور والخير فحاولوا مقاومة هذه الدعوة وإطفاء نورها ، ولكن الله أيد الإسلام حتى طوى ممالك الفرس والروم ، وعمّ المشارق والمغارب .

وقد حاولت الصليبية الحاكمة اجتياح بلاد الإسلام في فترات متعددة ، من بينها الحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة المعتدين وانتصار المسلمين ، ووجهت الصليبية ضرباتها للمسلمين في الأندلس ، وحاولت تصفية الإسلام أيام الدولة العثمانية ، وأطلقت على تركيا لقب : الرجل المريض ، وعلى البلاد التي تحت يدها : تركة الرجل المريض ، فلما قام كمال أتاتورك بإعلان إلغاء الخلافة الإسلامية كبر له الغرب وهلل ، وتراجعت جيوشه من أمام تركيا ، وجعلوا من أتاتورك بطلاً عملاقاً لقضائه على الخلافة الإسلامية .

وفى هذه الأيام تقوى الحركة الإسلامية في تركيا ، وتمتلى المساجد والمدارس الإسلامية بالباحثين وتشهد سواعد الحزب الإسلامي هناك ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون .

سبب نزول السورة

جمهور المفسرين على أن صدر هذه السورة نزل حين اشتاق المسلمون إلى معرفة أحب الأعمال إلى الله ، فأَنزَلَ الله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ يُتَنَصَّرُونَ** (الصف : ٤) . فلما أخبرهم الله بأن أفضل الأعمال بعد الإيمان هو الجهاد في سبيل الله ، كره قوم الجهاد ، وشق عليهم

أمره ؛ فقال الله سبحانه وتعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** . (الصف : ٢ ، ٣) .

هدفا السورة

لسورة الصف هدفان رئيسيان :

الهدف الأول : الدعوة إلى الجهاد والحث عليه ، والتحذير من كراهيته والفرار منه ، وبيان ثوابه وفضله ، وأنه تجارة رابحة . وتبع ذلك ترسيخ العقيدة ، ووجوب اتفاق الظاهر مع الباطن ، ووجوب الطاعة للقائد ، وتماسك الأمة ، وترباط بنيانها حتى تصبح صفًا واحدًا ، محكم الأساس ، قوى الوشيجة والرباط ، كأنه بنيان مرصوص .

فالآيات الأربع الأولى دعوة إلى الجهاد ، وتحذير من الخوف والجبن ، وبيان أن العقيدة السليمة تستتبع التضحية والفداء ، حتى يصبح جيش الإسلام قوى البناء متلاحم الصفوف .

والآيات (١٠ - ١٢) صورة رائعة لفضل الجهاد وثوابه فهو أربح تجارة ، وأفضل سبيل للمغفرة ودخول الجنة ، وهو باب النصر والفتح ، والبشرى للمؤمنين بالسيادة والعزة .

والهدف الثاني : بيان وحدة الرسالات ، فالرسالات الإلهية كلها دعوة إلى التوحيد ، وثورة على الباطل ، وإصلاح للضمير ، وإرساء لمعالم الفضيلة ، ومحاربة للرذيلة .

وقد دعا الرسل جميعًا إلى توحيد الله ، وتكفل كل رسول بإرشاد قومه وهدايتهم ونصحهم إلى ما فيه الخير ، وتحذيرهم من الانحراف والشر .

وفى سورة الصف نجد الآية الخامسة تبين رسالة موسى لقومه ، وتذكر عنت اليهود ، وإيذاءهم لموسى وتجريحهم له ، واصرافهم عن روحانية الدعوة إلى مادية المال .

وفى الآية السادسة نجد عيسى عليه السلام يجدد أمر الناموس ، ويوضح باليهود صيحات ضارعة ، ويعظهم ويدعوهم للإيمان ، ويحثهم على الصدقة ، والعناية بالروح ، وتقديم الخير لوجه الله .

والمسيح يبشر برسالة أجمع خاتم المرسلين ، فالرسالات كلها حلقات متتابعة فى تاريخ الهداية والإصلاح ، والإسلام كان ختام هذه الرسالات وآخرها ، والمهيمن عليها ، فقد حفظ تاريخها فى القرآن ، ودعا إلى الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل .

قال تعالى : **ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** . (البقرة : ٢٨٥) .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «إنما مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يقولون : لو وُضعت هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم الرسل»^(١٠) .

وقال تعالى : قُلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . (البقرة : ١٣٦) .

وفى آخر آية فى السورة دعوة للمسلمين أن ينصروا دين الله ، كما نصر الحواريون دين عيسى ، أيام كان دينه توحيداً خالصاً ، والعاقبة دائماً للمتقين .

والعبرة المستفادة من هذه الدعوة هى استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمناء على منهج الله فى الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى .

استنهاض همتهم لنصرة الله ، ونصرة دينه ورسالته وشريعته : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ ... (الصف : ١٤) .

المقصد الإجمالى للسورة

قال الفيروزباده :

معظم مقصود سورة الصف هو : عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها ، وتشريف صفوف الغزاة والمصلين ، والتنبيه على جفاء بنى إسرائيل ، وإظهار دين المصطفى ﷺ على سائر الأديان ، وبيان التجارة الرباحة مع الرحمن الرحيم ، والبشارة بنصر أهل الإيمان على الكفر والخذلان .

وحدة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ
۝٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا ۝٤﴾

المفردات :

سَبِّحَ لِلَّهِ : نزهه عما لا يليق ومجده ، ودلّ عليه .

لَمْ : لأى شىء تقولون : قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ، والمراد بذلك : التأنيب
والتوبيخ ، لمن صدر منهم الكذب .

كَبُرَ : عَظُمَ .

الْمَرْصُوصَات : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت ، إذا كان يبغضه كل أحد .

صَفًّا : صَافِينَ أَنْفُسَهُمْ ، أو مصفوفين .

بَنِينَ مَرْصُوصِينَ : بنيان متلاصق محكم لا فرجة فيه ، قال المبرد : تقول : رصصت البناء ، إذا لاءمت
بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

سبب النزول :

تلتقى كتب الحديث والتفسير على أن سبب نزول الآيات الأولى من سورة الصف ، أنه كان ناس من
المؤمنين يقولون : لوددنا أن الله دلّنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فلما نزل الجهاد كرهوه ، فأنزل
الله الآيات تحثهم على الوفاء بالعهد ، وتناسق الأقوال مع الأفعال .

التفسير :

١ - سَخَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

جميع ما فى السماوات ، من ملائكة وأجرام وكواكب ، وشموس وأقمار ، وجميع ما فى الأرض من الحيوانات والنباتات وغيرهما ، يَسَخُّ لله بلسان الحال ، فوجود هذا النظام البديع ، من سماء مرفوعة ، وأرض مبسولة ، وجبال راسية ، وبحار جارية ، وهواء وفضاء ونبات ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وظلام ونور ، كل ذلك يدل على وجود قدرة عالية تمسك بنظام هذا الكون وتحفظ توازنه .

وقد يكون التسبيح بلسان المقال ، بمعنى أن يخلق الله فى هذه الكائنات وسائل للتسبيح والتعظيم لله ، كما قال تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَعِنَّا بِهِ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (الإسراء : ٤٤) .

٢ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ .

يا أيها الذين صدقوا وآمنوا بالله رباً ، لم تقولون قولاً ولا تلتزمون أنفسكم بالوفاء بهذا القول ، وتخرجونه من حيز القول إلى حيز العمل ؟

حيث قال بعضهم : لوددنا معرفة أحب الأعمال إلى الله حتى نفعلها ، فلما بين الله أن أحب الأعمال إليه هو الجهاد فى سبيله ، كرهوا ذلك ، أو تخاذلوا فى غزوة أحد ، والآية وسيلة ربانية للسمو ، والالتزام بتنفيذ الأفعال والأعمال .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» ^(١)

وفى رواية : «إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

وقد ذهب الجمهور إلى أن الآية نزلت حين تمنوا فَرَضَ الجهاد عليهم ، فلما فُرِضَ عليهم نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَكْثَ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَلَغُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمونَ قَلِيلًا ؕ أَيْتِمَا تَكُونُوا يَذَرِكُمْ أَلْمُوتَ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ... (النساء : ٧٧ ، ٧٨) .

قال ابن كثير : وهذه الآية إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً ثم لا يفي به .

٣ - كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ.

عَظُمَ جرماً عند الله أن تقولوا قولا ولا تعملون به ، مثل أن تأمروا الناس بالمعروف ولا تفعلونه ، أو تنهوا الناس عن المنكر وتفعلونه .

قال تعالى : أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ... (البقرة : ٤٤) .

ويمكن أن تنطبق الآية على خلف الوعد ، فإن خلف الوعد مذمة ومفسدة ، وفيه إخلال بالثقة بين الأفراد والجماعات ، وما أسوأ خلف الوعد ، وأقبح بصاحبه ، لذا كان مبيغوضاً عند الله أشد البغض ، ومعاقباً عليه ، كما هو مبيغوض مستنكر عند الناس جميعاً .

وفى مقابل ذلك مدح الله صدق الوعد ، فقال تعالى : وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا . (مريم : ٥٤) .

٤ - إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِهِ صُفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ .

إن الله تعالى يحب المقاتلين في سبيله أفراداً وجماعات في حالة ائتلاف واتحاد وتوافق ، متراصين متحدين ، هدف واحد ، وصف واحد ، كأنهم بناء واحد أحكم وضع حلقاته ، حتى كأن البناء قطعة واحدة مترابطة ، وهذه الوحدة تبعث الهمة في النفوس ، والشجاعة في الأفراد والجماعة .

ونلمح عناية الإسلام بتكوين الأفراد ليكونوا لبنة صالحة في مجتمع صالح ، وتكريم القرآن الكريم للجهاد والشهادة والتضحية في سبيل الله ، وكذلك السنة المطهرة ، مع الحث على لزوم الجماعة ووحدة الصف .

روى الإمام أحمد ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يضحك الله إليهم : رجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صُفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صُفُّوا للقتال» .^(٣٧)

والبنيان المرصوص : هو البنيان المحكم المتماسك .

قال الفراء : المعقود بالرصاص .

وقال المبرد : رصمت البناء : لاممت بين أجزائه وقاربت حتى يصير قطعة واحدة ، ومنه : الرصيص ، وهو انضمام الأسنان .

وحدة الرسالات

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلَمْ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ٦ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٨ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ٩﴾

المضردات :

تؤذونننى : تخالفون أمرى بترك القتال .

زأغوا : مالوا عن الحق ، وأصبروا على الزيف والانحراف عن الحق ، الذى جاء به موسى عليه السلام .

أزأغ الله قلوبهم : صرفها عن قبول الهداية .

الفساسقين : الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق ، المصيرين على الغواية .

مصدق لما بين يدي من التوراة : مصدقا لما تقدمنى وجاء قبلى من التوراة .

ومن أظلم : لا أحد أشد ظلما .

افتترى : اختلق بادعاء الشركاء له .

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل .

نور الله : الحق الذى جاء به الرسول ، من مثل قولهم : هذا سحر مفترى .

تمت نوره : تمت الحق ، ومبلغه غايته .

بالقرآن : بالقرآن .

دين الحق ، الملة السمحة : (الإسلام) .

ليحفظ هـره ، ليعليه ويرفعه .

على الدين كله ، على سائر الأديان .

سبب نزول الآية (٨) :

جاء في تفسير القرطبي : حكى الماوردي ، عن عطاء ، عن ابن عباس أن النبي ﷺ أبطأ عليه الوحي أربعين يوما ، فقال كعب بن الأشرف : يا معشر اليهود أبشروا ، فقد أطفأ الله نور محمد ، فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم أمره ، فحزن رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، واتصل الوحي بعدها .

التفسير :

٥ - وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تَوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

تسجل الآية جهاد موسى كلم الله مع قومه ، فقد صبر وصابر ، واحتمل أذاهم ، فقد اتهموه بأنه آدر كبير الخصية ، فبرأه الله مما قالوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً . (الأحزاب : ٦٩) . وأغروا امرأة زانية أن تتهم موسى بأنه والد طفلها ، فأنطق الله الصبي ببراءة موسى .

ونجى الله موسى وقومه من فرعون ، وعبر بهم موسى البحر ، فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَلْمُوسَى أَلْجَعَلْنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَبْطُلُونَ . (الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩) .

وما كاد موسى يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامري : فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُكُمْ مُوسَى قَتَلَهُ . (طه : ٨٨) .

وطلبوا من موسى أن يحكم بينهم في قتل وجد بين قريتين ، وكل قرية تتهم الأخرى ، فطلب موسى من قومه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ، فأخذوا يتشددون على أنفسهم ، ويسألون عن صفة البقرة ، ثم عن لون البقرة ، ثم عن عمر البقرة ، وبعد لأي ذبحوها ، وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ . (البقرة : ٧١) .

وطلبوا يوم عطلة يكون مقدسا ، فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه ، ووقفوا أمام الأرض المقدسة متخاذلين ، يقولون : يَلْمُوسَى إِنْ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ... (المائدة : ٢٢) .

فلما كرر عليهم التحضيض والتشجيع ، تبحّجوا وكفروا وقالوا :

يَلْمُؤُسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَلِيلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . (المائدة : ٢٤) .

لهذا وغيره توجه إليهم موسى معاتباً فى مودة ، يقول :

يَقُولُوا لِمَ يُؤْذِنُنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ...

فلما أعرضوا عن هدى التوراة ، وروح الدين ، واستجابة المؤمنين ، طَمَسَ الله على قلوبهم .

فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

إن من خرج على دين الله ، وتكبر وتجبّر على هدى السماء ، يسلب الله عنه الهدى والتوفيق ، لأنهم

لا يصلحون لخلافة السماء وهم على هذا الزيغ والفسوق والخروج عن أمر الله .

٦ - وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ .

واذكر حين قال عيسى ابن مريم لبني إسرائيل : إني رسول الله إليكم ، فهذه سلسلة الرسالات ، كلها

من عند الله ، وعيسى يؤيد الشرع والناموس الذى سبقه ، ويبشر بأحمد الذى يأتى بعده .

وقد بنُشرت التوراة بمحمد ﷺ ، وكذلك الإنجيل .

قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ...

(الأعراف : ١٥٧) .

وأقرّ بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا بهذه الحقيقة ، وأن اليهود كانوا يتواصون بكتمتهم .

وأناجيل النصارى تذكر هذه البشارة ، وكذلك التوراة ، حيث جاء فى الفصل العشرين من السفر

الخامس من التوراة :

(أقبل الله من سيناء ، وتجلّى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربوات الأطهار عن يمينه) .

وسيناء مهبط الوحى على موسى ، وساعير مهبط الوحى على عيسى ، وفاران جبال مكة ، مهبط

الوحى على محمد ﷺ .

وجاء فى إنجيل يوحنا ، فى الفصل الخامس عشر :

(قال يسوع المسيح : إِنَّ الْفَارَقْلِيْطَ رُوحَ الْحَقِّ ، الَّذِى يَرْسِلُهُ أَبِى ، يَعْلَمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ) .

وَالْفَارَقْلِيْطُ : لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَى الْحَمْدِ ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى أَحْمَدَ وَمُحَمَّدَ ، اسْمِى النَّبِىِّ ﷺ .

وفى الصحيحين ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنْ لَى أَسْمَاءُ : أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِى الَّذِى يَمْحُو اللَّهُ بَى الْكُفْرِ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَى - أَى بَعْدَى - وَأَنَا الْعَاقِبُ» .^(١٧) ، أَى : الْآخِرُ الْآتِى بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ .

وفى صحيح مسلم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَالْحَاشِرُ ، وَالْمَقْفَى ، وَنَبِى الرَّحْمَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْمَلْحَمَةِ» .^(١٨) .

تلك بشارات الرسل بمحمد ﷺ ، لكن حين ظهر أنكره المنكرون ، وادعوا أن رسالته سحر وكذب .

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

فلما جاء محمد ﷺ بالمعجزات الواضحات وبالقرآن المبين ، قال اليهود قوم موسى ، والنصارى قوم عيسى : هذا سحر واضح لا شك فيه .

وقيل : معنى الآية : فلما جاء عيسى قومه بالبينات والمعجزات قال المكذبون له : هذا الذى جاءنا به سحر واضح ظاهر .

بشارة الرسل بمحمد ﷺ

كانت دعوة إبراهيم عليه السلام أن يرسل فى العرب رسولا منهم ، يقرأ عليهم آيات الله ، ويظهرهم ويعلمهم القرآن والسنة المطهرة ، وعلى لسان إبراهيم الخليل يأتى هذا الدعاء : رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (البقرة : ١٢٩) .

من تفسير ابن كثير

وقال محمد بن إسحاق ، عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ، قال : «دعوة أبى إبراهيم ، ويُسَمَّى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام» .^(١٩) .

وقال رسول الله ﷺ: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين»^(١٧).

وروى أحمد، عن أبى أمامة قال: قلت: يا رسول الله، ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»^(١٨).

وقال عبد الله بن مسعود: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً، منهم: عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن مظعون وأبو موسى، فأتوا النجاشى، ويعت قريش عمرو بن العاص وعمار بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشى سجداً له، ثم ابترعاه عن يمينه وعن شماله، ثم قال له: إن نغراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأيهم؟ قالوا: هم فى أرضك، فابعث إليهم، فبعث إليهم، فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم، قال: ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه أنقاهما إلى العذراء البتول التى لم يمسهما بشر، ولم يعترضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض، ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا، مرحباً بكم ويمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى نجده فى الإنجيل، وأنه الذى بُشِّر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه، وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما^(١٩).

والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها عن أممها، وتأمروهم باتباعه ونصره ومؤازرته إذا بُعث، وكان أول ما اشتهر الأمر فى الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمى التى رأت». أى ظهر فى أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص، فذكره صلوات الله عليه.

وقوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ.

قال ابن جريج: فَلَمَّا جَاءَهُمْ. أحمد، أى: المبشر به فى الأعصار المتقادمة، المنوه بذكره فى القرون السالفة، لما ظهر أمره وجاء بالبينات؛ قال الكفرة والمخالفون. هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ^(٢٠).

٧ - وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

الإسلام دين الله إلى البشرية كلها ، فالإسلام بمعنى الانقياد لحكم الله تعالى ، يطلق على ملة إبراهيم ، وديانة موسى ، ورسالة عيسى ، ورسالة محمد ﷺ .

فمن يكذب برسالة عيسى فقد أعظم على الله الفرية ، حين يدعو رسولاً إلى الإيمان بالله تعالى ، ويقدم له معجزات بينات ، فيدعى أن هذا سحر ظاهر بين .

هذا هو الرأي الأول فى تفسير الآية ، وخلاصته : لا أحد أشد ظلماً للحقيقة ، من هذا الذى يفتري الكذب على الله ، فيكذب عيسى فى رسالته ، ويتهمه بأنه ساحر ظاهر السحر .

أما الرأي الثانى فتقريره كالآتى :

إن رسالة محمد ﷺ ثابتة فى أعماق الكون ، وقد لبى الله برسالة محمد ﷺ دعوة إبراهيم ، و بشارة موسى وعيسى ، فلما ظهر محمد ﷺ كذبه بنو إسرائيل ، والحال أن محمداً ﷺ كان يدعوهم إلى الإسلام : الدين الحق ، والرسالة الأخيرة إلى البشرية ، فكذب بنو إسرائيل برسالة محمد ﷺ رغم أنهم ، يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ ... (البقرة : ١٤٦) .

من تفسير الطبرى

يقول تعالى ذكره :

ومن أشد ظلماً وعدواناً ممن اختلق على الله الكذب ، وهو قول قائلهم عن النبى ﷺ : هو ساحر ، وما جاء به سحر ، فذلك افتراءه على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ، يقول : إذا دُعِىَ إلى الدخول فى الإسلام ، قال على الله الكذب ، وافتري عليه الباطل ^(٣١) .

وقال المفسرون :

بشّر كل نبى قومه بنبينا محمد ﷺ ، وإنما أفرد تعالى ذكر عيسى بالبيشارة فى هذا الموضع لأنه آخر نبى قبل نبينا محمد ﷺ ، فبين تعالى أن البيشارة به عمّت جميع الأنبياء ، واحداً بعد واحد ، حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام ، آخر أنبياء بنى إسرائيل .

فلا يكون أحد أظلم ممن يدعو ربه للإسلام على لسان نبيه ، فيجعل مكان إيجابته افتراء الكذب على الله ، بتسمية نبيه ساحراً ، وتسمية آيات الله المنزلة سحراً ^(٣٢) .

٨ - يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلُوكِرَةُ الْكُفْرُوتِ .

يريد المشركون بمكة واليهود بالمدينة أن يطفئوا نور دين الله ، وهو الإسلام ، وأن يوقفوا دعوة محمد ﷺ ، وأننى لهم ذلك ، فهم كمن يحاول أن يطفى نور الشمس بنفخة من فمه ، أو من يريد أن يضرم النار فى الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء ، وهو مثل يضرب لمن يريد عمل المستحيل .

قال الشاعر :

أرى العنقاء تكبر أن تُصادا فعاند من تطيق له عنادا

وَاللَّهُ مُنِمْ نُورِهِ وَلُوكِرَةُ الْكُفْرُوتِ .

تكفل الله تعالى بنصرة هذا الدين ، وحفظ القرآن الكريم ، ما دام أهله قائمين بأمر الله ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وقد انتصر الإسلام فى مكة والمدينة والجزيرة العربية ، وامتد إلى بلاد الفرس والروم ، ومصر وشمال أفريقيا وآسيا ، ودانت له معظم الرقعة المعمورة فى الأرض فى مدى قرن من الزمان .

« ثم زحف زحفا سلميا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقيا ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا فى إبان الحركات الجهادية الأولى »^(٧٣) .

لقد أكمل الله للمسلمين دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضى لهم الإسلام ديناً ، يحبونه ويجاهدون فى سبيله ، لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فنشره الله فى الآفاق ، وأعلاه على الأديان .

روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتى سيبلى ما زوى لى منها»^(٧٤) .

ومعنى : «زوى لى الأرض» ، أى : جمعها حتى رآها النبى ﷺ ، والمعنى : أن هذا الدين سينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها .

وقد كان سبب نزول الآية أن الوحى تأخر على رسول الله ﷺ أربعين يوماً ، ففرح كعب بن الأشرف ، وبشر اليهود بانتهاى أمر محمد ، فأنزل الله هذه الآية ، واتصل الوحى بعدها ، وانتصر الإسلام على اليهودية الحاقدة فى غزوات بنى قينقاع وبنى قريظة وبنى النضير ، ثم فتحت خيبر .

وحاولت اليهودية الحاقدة بأصابعها وكيدها النيل من دولة الخلافة ، وزيّغت بطلا هو كمال أتاتورك ، وتحاول الآن ابتلاع أجزاء كبيرة من فلسطين ، لكن انتفاضة الشعب الفلسطينى مستمرة ، وأكتب

الآن هذه السطور فى شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١ والانتفاضة الفلسطينية مستمرة ، تقدم الشهداء كل يوم أمام عنت الصهيونية وتجبرها ، واستخدامها الأسلحة المحرمة دوليا .

والأمل فى الله أن يجمع شمل العرب والمسلمين ، وأن يُعَبِّت أقدامهم ، وأن ينزل عليهم نصره وفضله ومعونته ، إنه سبحانه : نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ . (الأنفال : ٤٠) .

٩ - هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .

فالله هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ ، حاملا دين الهداية ، ودين الحق والعدل ، ليكون هذا الدين الإسلامى كلمة الله الأخيرة إلى خلقه .

فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب والصحف ، وأنزل التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، وجعل الإسلام هو الرسالة الكاملة الأخيرة التى تتوافق مع العقل والنقل ، وتناسب كل زمان ومكان ، لاتتفارق الإسلام مع الفطرة .

قال أبو السعود : لقد أنجز الله وعده بإعزاز دين الإسلام ، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام ، وقد ذكر القرطبي ذلك فى تفسيره ، وأفاض (فى ظلال القرآن) فى شرح الآيات .

★ ★ ★

التجارة الرابعة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَخْرَجٍ تُخْرِجُونَ عَنْكُمْ مِنَ عَذَابِ الْهِمِّ ۚ تَوَكَّلُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَبِجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ (١٢) وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَثَامَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ۝ (١٤)﴾

المعشرات :

أدلكم : أرشدكم .

تجارة: التجارة هنا: العمل الصالح، وهي في الأصل: تداول البيع والشراء لأجل الكسب.

طيبة: طاهرة مستلذة.

جنات عدن: بساتين إقامة وخلود.

وفتح قريب: وفتح عاجل، وهو فتح مكة.

أنصار الله: الناصرون لدينه.

الحواريون: أصفياء عيسى وخواصه.

أيدينا: قوتنا وساعدنا.

على عدوهم: الكفار.

ظاهريين: غالبين.

تمهيد:

لَوْنُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي أُسَالِيبِ دَعْوَتِهِ، وَنَوْعِ فِيهَا، وَصَرَفِ فِي أَلْوَانِ الْقَوْلِ، وَعَدَاً بِالْجَنَّةِ أَوْ تَخْوِيفاً مِنَ النَّارِ.

وهنا يعرض سلعة رابحة، هي الجنة، في أسلوب من التشويق، فيبين أن مدة الدنيا محدودة، ومن يبيع ماله لله، ويقدم نفسه للجهاد في سبيل الله، فإنه يقدم رأس المال لصفقة متميزة.

يدفع العبد ماله ويقدم نفسه للجهاد في سبيل الله، ويشتري مغفرة من الله، وجنة متميزة بكل المتع وفوق ذلك يجد نصراً من الله وفتحاً قريباً، وبشارة بالعزة والسيادة.

التفسير:

١٠ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

نزلت هذه السورة تُشَوِّقُ المسلمين إلى الجهاد، ونزلت هذه الآيات أيضاً على أسلوب التشويق، فهي تُشَوِّقُ المسلمين إلى تجارة رابحة، وتقول: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ رَبًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، هل أخبركم وأرشدكم إلى تجارة رابحة، تنقذكم من عذاب جهنم، وتقربكم إلى الجنة.

١١ - تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

وكان سائلاً فقال: وما هي تلك التجارة؟ فكان الجواب هو: الإيمان بالله ورسوله، أي شدة

اليقين والتصديق، وتأكيد الإيمان وتعميقه، كما قال تعالى: يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُونَ... (النساء: ١٣٦).

ثم قال تعالى: **وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...**

وقدّم الجهاد بالمال هنا على الجهاد بالنفس ، لأن الموضوع موضوع تجارة رابحة ، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، فالمال عصبُ الجهاد ، وبه تشتري الأسلحة والأطعمة للمجاهدين ، وينفق به عليهم ، وعلى الاستخبارات عن العدو ، وعلى الاستحكامات الحربية .

ويعدّ الجهاد بالمال يأتي الجهاد بالنفس ، ويشمل ذلك القتال والتطوع للفداء ، وتفجير المجاهد نفسه في ممتلكات العدو وأفراده ، وسائر أدوات نصر المسلمين ، والنيل من أعدائهم .

ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

أي : هذا الأمر - وهو الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس - خير لكم على الإطلاق من أموالكم وأنفسكم .

وفي معنى الآية قوله تعالى : **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ...** (التوبة: ١١١) .

لكنه قدّم النفس على المال في سورة التوبة ، حيث الموضوع موضوع شراء فقدم النفس على المال ، أما هنا في سورة الصف فقد كان الموضوع موضوع تجارة ، والتجارة يقدم فيها المال على النفس هكذا يقول بعض المفسرين ، ويمكن أن نضيف إلى ذلك أن الموضوع موضوع تنويع وتشويق من القرآن الكريم ، وأن القرآن لَوْن في أساليب البيان ، فأحياناً يقدم النفس على المال ، وأحياناً يقدم المال على النفس ، من باب التنويع والتغيير ، والله أعلم .

١٢ - يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ.

تأتى هذه الآية في موقع الجزاء لما سبقها ، أي : إن تؤمنوا وتجاهدوا كان جزاؤكم عند الله تعالى أن : **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** . أي : يمحو عنكم سيئاتكم ، ويسترحم عليكم ، ولا يحاسبكم عليها .

وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...

والفعل : **يُدْخِلْكُمْ** . مجزوم لأنه واقع في جزاء الشرط ، أي : إن تؤمنوا وتجاهدوا : **يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**

وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...

فنعم الجزء مغفرة الذنوب ، وسقر العيوب ، ومحو السيئات ، ودخول جنات ويساتين مخضرة مثمرة ناضرة ، تجري المياه من تحتها ، ثم يصف سبحانه مساكن المؤمنين المجاهدين والمؤمنات المجاهدات حيث يقول : **وَمَسْكِنٌ كَثِيرٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** .

وهنا نجد الجزء رابحا مفيدا مضاعفا ، فنعم الجزء الجنة ، ونعم الجزء مساكن المجاهدين الذين ضحوا بمساكنهم في الدنيا ابتغاء أن يعوضهم الله في الآخرة مساكن طيبة الريح ، عظيمة النفع ، في جنات عدن . أى : إقامة خالدة لا يخرجون منها ، ذلك هو الفوز العظيم ، والريح الباهر ، فقد باعوا دنياهم واشتروا آخرتهم ، باعوا أنفسهم لله في الدنيا واشتروا خلودا أبديا سرمديا .

١٣ - وَأُخْرَىٰ تُجْوِنُهَا نُصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

ونعمة أخرى ، وفائدة أخرى تحبونها وتشتاقون إليها ، لأنها عاجلة في الدنيا .

نُصْرٌ مِّنَ اللَّهِ . نصر للإسلام وأهله على أعدائه .

وَفَتْحٌ قَرِيبٌ .

أى : فتح مكة ، والأولى أن يقال : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية عامة ، خالدة باقية إلى يوم القيامة .

فكلما تعمق إيمان المؤمنين ، وأخلصوا في الجهاد لله بالمال والنفس ، كان جزاؤهم مغفرة الذنوب ، ودخول الجنة والمساكن الطيبة ، وكانت لهم فائدة أخرى في الدنيا ، هى معونة الله لهم بالنصر منه سبحانه ، وفتح البلاد والغلبة على العباد ، أى كلما وفى المؤمنون بوعدهم وأخلصوا ، وفى الله لهم بوعده فى المثوبة فى الآخرة ، والنصر فى الدنيا .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ .

أى : وبشر أيها الرسول المؤمنين بالنصر فى الدنيا ، وعجل لهم البشرى بالنصر والفتح ، وقد وفى المؤمنين لربهم ، وصدقوا فى جهادهم بالمال والنفس ، فأنجز الله لهم ما وعدهم ، وأمر رسوله ﷺ أن يبشرهم بما وعدهم تعجيلا للمسرة .

١٤ - يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنُوزًا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

نداء إلهي علوي للمؤمنين المجاهدين ، بأن يكونوا أنصاراً لدين الله ، وضرب لهم مثلاً بعيسى ابن مريم ، مع أتباعه المخلصين ، حين قال عيسى : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ...

وهو استفهام يراد به الحثُّ والحضُّ على الانضمام إلى قافلة التبشير بالدين ، والجهاد في سبيل نشر هذا الدين .

قال المفسرون :

الحواريون هم أتباع عيسى وأصغياؤه ، وأول من آمن به ، وكانوا اثني عشر رجلاً ، فرَّقهم في البلاد ، ويعتُهم دعاة إلى الناس في البقاع المختلفة ، واشتقاق الحواريين من الحَوَر وهو البياض ، لأنه كان ملبسهم ^(٣٤) . وقيل : لتقاء ظاهرهم وباطنهم ، وقيل : الحواريون هم المجاهدون .

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ...

أي : قال الرجال المخلصون من أتباع عيسى له : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ...

انتدبنا أنفسنا لتلبية الدعوة ، والجهاد في سبيل توصيلها وتبليغها .

قال فخر الدين الرازي في التفسير الكبير :

والتشبيه في الآية محمول على المعنى ، أي : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار الله . اهـ .

فَتَأَمَّنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ...

أي : فانقسم بنو إسرائيل إلى جماعتين :

جماعة أمنت بعيسى وصدّقت بأنه عبد الله ورسوله ، وجماعة كفرت وكذبت برسالة عيسى ، وقالت على مريم بهتاناً عظيماً .

فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ...

أي : قوّيناهم وأمددناهم بالهدى والتوفيق ، والدليل والبرهان والحجة الظاهرة .

فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ . فَأَصْبَحُوا عَالِينَ غَالِبِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : إِنَّا كُنْصَرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

قال ابن كثير :

لما بَلَغَ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربِّه إلى قومه ، وأزَّره من آزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلَّت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجدَّوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلَّت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة (الآب والابن وروح القدس) ، ومن قائل : إنه الله . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فَأَيُّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى غَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ .

فنصر الله المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى ، وقد أيدَّ الله المؤمنين برسالة محمد ﷺ .

جاء في ظلال القرآن ما يأتي :

وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين :

إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً ، من استقام ، ومن دخلت في عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ .

وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصرُّوا على التوحيد في وجه المؤلَّهين لعيسى ، والمثلثين ، وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد ، ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أى بالحجة والبرهان .

أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره بهذا الدين الأخير ، وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ ، وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء ، هي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمانة على منهج الله في الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية ، المختارين لهذه المهمة الكبرى ... استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه : كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ...

والنَّصْرُ في النهاية لأنصار الله المؤمنين .^(٧٩)

أهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة الصف

- ١ - اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .
- ٢ - البشارة بمحمد ﷺ على لسان عيسى .
- ٣ - محمد ﷺ أرسل بالهدى والدين الحق .
- ٤ - التجارة الرباحة عند الله هي الإيمان والجهاد في سبيله .
- ٥ - الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الصف) عشية يوم الأحد ، ٢٦ من شوال ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢١ من يناير ٢٠٠١ م .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الجمعة

أهداف سورة الجمعة

(سورة الجمعة مدنية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة يوسف)

وقد عُنيَت السورة بتربية المسلمين وجمعهم على الحق والإيمان ، ودعوتهم إلى المحافظة على صلاة الجمعة ، والامتناع عن الانشغال بغيرها من اللهو أو البيع ، وقد مهدت لذلك ببيان أن كل شيء يسبح بحمد الله . وقد مَنَّ الله على العرب بإرسال نبي الهدى والرحمة ليرشدهم إلى الخير ، ويأخذ بأيديهم إلى الطهارة والفضيلة ، وقارنت السورة بين المسلمين واليهود ، وعَيَّرَت اليهود بإهمالهم تعاليم التوراة وإعراضهم عنها ، وشبههم القرآن بالحمار يحمل كتب العلم ولا يستفيد بها ، وهو تشبيه رائع يفيد أن التوراة بشرت بنبي الله محمد ﷺ ، ودعت أهلها إلى الإيمان به ، لكنهم لم يستفيدوا بهداية التوراة ، فحرموا أنفسهم من الانتفاع بأبلغ نافع مع قرب هذا الانتفاع منهم .

تسلسل أفكار السورة

بدأت السورة بمطلع رائع ، يقرر حقيقة التسبيح المستمر من كل ما فى الوجود . (الآية : ١) .
وجاء فى تفسير النسفى : التسبيح إما أن يكون تسبيح خلقه ، يعنى إذا نظرت إلى كل شيء دلتك خلقتة على وحدانية الله وتنزيهه عن الأشباه ، أو تسبيح معرفة بأن يجعل الله بلطفه فى كل شيء ما يعرف به الله تعالى وينزهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَقْهَوْنَ تَسْبِيحَهُمْ ...**
(الإسراء : ٤٤)

أو تسبيح ضرورة بأن يجرى الله التسبيح على كل جوهر من غير معرفته بذلك . (٧٧) .

وبينت السورة أن الله قد اختار العرب ليرسل فيهم نبي آخر الزمان ، ليطهرهم ويعلمهم القرآن والأحكام الشرعية ، وحسن تقدير الأمور بعد أن كانوا فى الجاهلية فى ضلال وكفر وانحلال . (آية : ٢) .

وقد وصف جعفر بن أبي طالب (٧٧) ضلال الجاهلية للنجاشى ملك الحبشة ، فقال : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسئى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ،

فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

لقد اختار الله الجزيرة العربية لتحمل رسالة الإصلاح ، وليمتد هذا النور الهادي إلى ممالك الفرس والروم ، حيث كانت هذه البلاد العريقة قد انغمست في الترف والانحلال ..

ويبين مظاهر الفساد الشامل وُلد الرجل الذي وحد العالم جميعه ^(٧٨) . وقد كان اليهود يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس ، فبينت الآيات أنهم لم يعودوا صالحين لحمل رسالة السماء ، فقد أخذوا إلى الدنيا ، وكرهوا الموت لأنهم لم يقدموا عملا صالحا ، بل قدموا الدس والخداع والوقية : **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** . (الجمعة : ٧) . مطلع عليهم وسيجزئهم على عملهم . (الآيات : ٥ - ٨) .

والمقطع الأخير من السورة يتحدث عن صلاة الجمعة ، وهي فريضة أسبوعية يتلاقى المسلمون فيها لتعلم أمور دينهم ، وتنظيم حياتهم ، وتفقد شئونهم ، وهي وسيلة للعبادة والطاعة ، وصفاء النفس ، وطهارة الروح .

والإسلام دين ودينا ، وعقيدة وسلوك ، وشرائع وآداب ، وعلم وعمل ، وعبادة وسيادة .

فإذا انتهت صلاة الجمعة خرج المسلم باحثا عن رزقه ، نشيطا في عمله ، فعبادة الله تكون في المسجد بالصلاة ، وتكون خارج المسجد بالتجارة والزراعة وطلب القوت من حلال .

وفي الحديث الصحيح : «إن لربك عليك حقا ، وإن لبدنك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه » . ^(٧٩) .

وكان عيرائه بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم إني أجتب دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارتزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . ^(٨٠) .

النبي الأُمِّي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ① هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ② وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ③ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ④ ﴿

المفردات :

يُسَبِّحُ - يَذْكُرُهُ ويمجِّدُهُ ويدلُّ عليه .

الْمَلِكُ - مالك الأشياء كلها .

الْقُدُّوسُ - البليغ في النزاهة عن النقائص ، البالغ غاية الطهر .

الْعَزِيزُ - القادر ، الغالب ، القاهر .

الْأُمِّيِّينَ - العرب المعاصرين له ﷺ ، أو الذين لا يقرأون ولا يكتبون

رَسُولًا مِنْهُمْ - رسولاً أمياً مثلهم .

يُزَكِّيهِمْ - يطهرهم من أدناس الجاهلية .

الْكِتَابَ - القرآن .

الْحَكِيمَ - السَّعَّةَ ، وتطلق الحكمة أيضا على حسن التصرف في الأمور .

لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - بُعد واضح عن الحق والحكمة ، لجاهليتهم التي كانوا عليها .

وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ - وآخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وهم كل من دخل في الإسلام إلى يوم

القيامة ، وإذا أسلموا صاروا منهم (من العرب) مهما اختلفت أجناسهم ،

فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، «وكل من تكلم العربية فهو عربي» .

ذُو الْفَضْلِ - إحسانه وعطاؤه .

تمهيد:

كان العرب فى جاهلية جهلاء ، يثدون البنات ، وينتهكون الحرمات ، ويسجدون للأصنام ، ويدعون أنهم على دين إبراهيم ، والواقع أنهم بدّلوه وغيروه ، واستبدلوا باليقين شكًا ، وبالتوحيد شركًا .

فأرسل الله إليهم رسولاً منهم ، يعلمهم القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويزكيهم بأداب الإسلام وقواعده ونظمه ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لقد كان الإسلام نوراً وحياة وطهارة ، أحيا أمة ، وكوّن دولة ، وعلم الناس ديناً ، وقواعد وآداباً ، وشريعة سمحة ، وقوانين عالية ، وهداية وعلماً ومجداً ، وكلما التصق المسلمون بدينهم وعادوا إلى نظامه ، نصرهم الله وأيدهم : **إِنْ تَتُصَرُّوا إِلَى اللَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** .
(محمد : ٧)

التفسير :

١ - **سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** .

تأتى مادة التسبيح بالفعل الماضى ، كما سبق قريباً فى سورة الحديد ، وتأتى بالفعل المضارع للدلالة على الحدوث والتجدد ، والاستمرار فى التسبيح فى الحال والاستقبال .

وتأتى بصيغة الأمر ، مثل قوله تعالى : **سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى** . (الأعلى : ١) .

وفى ذلك دلالة على أن هذا الكون العظيم ناطق بالتسبيح والتنزيه والحمد لله ، سواء أكان ذلك بلسان الحال أم بلسان المقال .

قال تعالى : **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ... (الإسراء : ٤٤) .

أى : يسبح وينزه الله ويقدّسه ما فى السماوات : من الملائكة والنجوم والأفلام ، والشموس والأقمار ، وما فى الأرض : من نبات وحيوان ، وإنسان وجماد ، وبحار وأنهار ، وطيور ووحوش وحشرات ، وليل ونهار ، وغير ذلك .

وهو سبحانه :

الْمَلِكِ : مالك الأشياء كلها .

الْقُدُّوسِ : المنزّه عن النقائص ، البالغ غاية الطهر .

الْعَزِيزِ : القادر الغالب القاهر .

الْحَكِيم: المتقن الأمور، بديع السماوات والأرض، فى غاية الإتقان والحكمة، والتقدير الحسن لجميع ما خلق، وخلق كل شىء فقدره تقديراً .

٢ - هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمَمِينَ رُسُلًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

إنها لمة عظيمة أن يختار الله الزمان، والمكان، والأمة، والرسول :

فَالزَّمَانُ : القرن السادس الميلادى .

وَالْمَكَانُ : بلاد العرب .

والأمة : أمة أمية لا تعرف الحساب، أناجيلهم فى صدورهم، ومع ذلك فهم أهل بلاغة وفصاحة، وَلَسَنَ بِالْفُطْرَةِ، نبخ فيهم الشعراء والبلغاء والخطباء مع أميتهم .

والرسول : هو محمد ﷺ، حيث أرسل الله فيهم رسولا منهم، أمياً مثلهم، وأنزل عليه كتابا سماوياً خالدا معجزاً .

فكان الرسول الأمى يقرأ عليهم القرآن من الذاكرة، ويعلمهم الْكِتَابَ : وهو القرآن، وأحكامه وآدابه .
وَالْحِكْمَةَ : وهى السنة المطهرة، وفيها هدى السماء وتوجيه النبوة .
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ .

كانوا فى بَعْدَ ظَاهِرٍ عَنِ الْحَقِّ، حيث عبدوا الأوثان والأصنام، وقتلوا البنات صغيرات، أو أمسكوهن على الذل كبيرات، وكانوا فى عدوان دائم على بعضهم البعض، وفى حروب مستمرة، فحسبك بهذا النبى الأمى الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور، وعلمهم آيات القرآن وآدابه وأحكامه وحكمه، فصاروا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس، والحكمة من ذلك ظاهرة، هى ألا يظن أحد أن محمداً تعلم القرآن من دراسة كتب السابقين .

قال تعالى : وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَازَمْتُمُ الْمُظْلِمُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ يُبَيِّنُ فِى صُورٍ الْبَلِيغِ أَوْتَوْا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ . (العنكبوت : ٤٨، ٤٩) .

ومن الحكمة أيضاً : أن يكون فى الأمة الأمية رسول أمى مثلهم، هو أعلم بحالهم، وأخبر بما يناسبهم، فكان صبوراً عليهم، يبطئ فى إلقاء الكلام حتى يستطيع السامع أن يعده عدداً، وربما كرر الجملة ثلاثاً حتى تفهم عنه.

فكان الإعجاز والإبهار ظاهراً ، أن تجد كتاباً معجزاً مشتملاً على أخبار السابقين ، وعلوم اللاحقين ، وأحكام الشريعة والدين ، وقوانين علمية لم يدرك الكون إعجازها إلا في القرون المتأخرة ، مما يدل على أن محمداً النبي الأمي لم يكن يدرك بشخصه هذه المعلومات ، وإنما هي تنزيل رب العالمين .

ومن هذا الإعجاز الإخبار عن أمم بائدة ، كعاد وثمود ، وعن أمور مستقبلية في عالم الغيب ، كهزيمة الروم أمام الفرس ، ثم الانتصار عليهم في بضع سنين ، ومثل تكوين الجنين في بطن أمه ، نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم هيكلًا عظميًا ، ثم كسو العظام لحما ، ولم يدرك العلم ذلك إلا من عشرات السنين ، فأني لمحمد ﷺ الذي ولد في القرن السادس من ميلاد المسيح ، النبي الأمي ، أني له - لو كان بشراً عادياً - أن يتكلم عن خلق الكون ، وخلق السماء والأرض ، وقصة آدم وقصص الرسل ، وأن يصوب أخطاء وقعت في التوراة والإنجيل ، وأني له - لو كان بشراً عادياً - أن يتكلم عن موضوعات علمية دقيقة متعددة في القرآن الكريم .

مثل حركة الأرض حول نفسها ، وحركتها أمام الشمس ، وحركة الشمس ، وحركة القمر ، والفضاء والهواء ، وأخبار عن الماء والمحيطات ، والأنهار والنبات ، وبداية الخليقة ، ونهاية الكون وما يحدث فيه ، بأسلوب علمي رائع ، وكلما تقدم العلم فإنه يؤيد ما في هذا الكتاب .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

سُبْحَنَ رَبِّهِمْ ءَإِذَا دُخِلَ فِي الْأَفَاقِ وَبَيَّ أَنفُسُهُمْ سَئِئًا لِّمَا يَتَّبِعُنَّ لَهُمُ اللَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُرْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (نصبت : ٥٣) .

ويقول البوصيري :

كفالك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في الينم

لقد شاء الله أن يكون يتيماً أمياً لتظهر المعجزة ، وليدرك الناس أن الذي علم الأمي ملك هو جبريل عليه السلام .

قال تعالى : عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . (النجم : ٥) .

وقال سبحانه وتعالى : وَالتَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . (النجم : ١-٤) .

ولقد زكى القرآن الأمة العربية وطهرها ، وأمدّها بمقومات القوة والطهارة ، فحملت دين الله من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وامتدت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الفرس والروم ، وأفريقيا وآسيا وسائر المعمورة ، وكل ذلك بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بجهد هذا النبي

الأمي ، الذي أرسله الله إلى العرب وجعله رحمة للعالمين ، فدخل في هذا الدين العجم ، وهم كل من آمن بالرسول من غير العرب ، وكان الإسلام رسالة عالمية ، يحمل الفكرة إلى كل أمة ، ويتقبل من أهلها من يصبحون قدوة وأعلاما ، فرأينا في عصر الرسول ﷺ بلالاً الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيباً الرومي .

واتسع صدر الإسلام لكل ثقافة أصيلة ، في الفقه والحديث والتشريع واللغة والأدب ، وكان علماء فارس والروم يقدمون خبرتهم ، وينالون كل تكريم من الشعوب التي تحيط بهم ، ومن الأمراء والخلفاء .

وفي الحديث الشريف : «ليست العربية لأحدكم بأب ولا أم ، ولكن العربية اللسان ، من تكلم العربية فهو عربي» .

وقال تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ... (التوبة : ٣٣) .

وقال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... (سبا : ٢٨) .

وقال ﷺ : «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأُحلت لي الغنائم ، وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأُعطيت الشفاعة ، وأُرسل كل نبي إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» (٨١) .

٣ - وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وأرسله الله إلى آخرين من غير العرب ، لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ في حياته ، وإن لحقوا بهم بعد ذلك ، كالفرس والروم ، وكل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة .

وذلك بفضل الله ، الْعَزِيزُ . الغالب ، الْحَكِيمُ . وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

فهذا النبي الأمي أرسله الله إلى العرب ، لينطلق بهذا الدين إلى العالم من حوله .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا تَتْلُوهُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُذَلِّرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ...

(الشورى : ٧)

وقال تعالى : وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ . (الزخرف : ٤٤) .

وقد بشر القرآن هذه الأمة بالنصر والفتح ، وورد ذلك في أحاديث النبي ﷺ .

قال تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٩) .

وروى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ نزلت سورة الجمعة ، فلما قرأ : **وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ...** قال رجل : مَنْ هؤلاء يا رسول الله؟ فلم يراجعه النبى ﷺ حتى سأله مرة أو مرتين أو ثلاثاً ، قال : وفيها سلمان الفارسى ، قال : فوضع النبى ﷺ يده على سلمان ، ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء» ^(١٨٧) .

وتعتبر الآية والحديث من المبشرات بالنصر ، ودخول الأعاجم فى دين الإسلام ، وقد انتفع تدوين العلوم والفنون بعلماء الفرس وغيرهم .

٤ - ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

ذلك الفضل العظيم بأن جعل الإسلام آخر الرسالات ، وأنزل الوحي على نبى أمى ، ولأمة أمية ، وجعل الوحي شرفاً للنبى وأُمَّته ، وامتداد نور الوحي إلى فارس والروم ومصر وسائر المعمورة إلى يوم الدين .

فضل من الله ، ومِنَّةٌ مِنْهُ على عباده ، ليظهرهم ويزكّيهم بهذا الوحي ، ويكون هذا الشرف منسوباً لهذه الأمة العربية ، ولهذا النبى الأمى الذى بشرت به التوراة والإنجيل ، وعرفه اليهود ثم حقدوا عليه وحسدوه أن يكون من ولد إسماعيل ، ولم يكن من نسل إسحاق ، فردّ عليهم القرآن الكريم بأن الرسالة والنبوة فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو الذى اختار الزمان والمكان ، والرسول والأمة التى سيرسل إليها ، وامتدّن على هذا الرسول بأن جعل رسالته عامة خالدة باقية ، والله ذو الفضل العظيم على سائر عباده ، وعلى جميع خلقه فى الدنيا والآخرة .

تحذى القرآن لليهود

﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَائِبُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَيْتُمْ أَنْكُمْ أُولَئَاءَ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَسْتَمْنُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

المضردات :

مثل الذين حملوا التوراة : صفة اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة .

ثم لم يحملوها : ثم لم يعملوا بها .

يحمل أسفاراً : كتباً عظماً ، ولا ينتفع بها .

الذين هادوا : الذين تدينوا باليهودية .

ملقىكم : موافقكم ومقابل لكم حيثما كنتم .

تمهيد :

فى هذه الآيات مناقشة لليهود الذين زعموا أن الرُسلات والنبوات وقف عليهم ، ففى لمن كان من نسل إسحاق ، ولا يجوز أن تكون لمن كان من نسل إسماعيل ، وقد امتنعوا عن الإيمان برسول الله محمد ﷺ حقداً وحسداً ، مع أن التوراة بشرت به ، فهم كالحمار يحمل كتب العلم النافعة ولا يستفيد بها ، واليهود يحملون التوراة ولا يعملون بأحكامها ، ووجه الشبه : حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل المشاق فى حمله .

وقد ادعى اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه ، فتحذاهم القرآن أن يتمنوا الموت ، لينتقلوا من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، حيث يزعمون أن الجنة لهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، فقال القرآن : إن كنتم أبناء الله وأحباؤه فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ثم أوضح أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، بسبب ما قدموا

من تكذيب رسول الله ﷺ ، ومن تحريفهم التوراة ، والموت آتٍ لا مفر منه ، وعند الله وحده الجزاء ، وسوف يخبركم بأعمالكم ، ويجازيكم عليها جزاءً عادلاً .

التفسير :

٥ - مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

إن شبه اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة بعد أن أنزلها الله عليهم ، وأمرهم بالعمل بها وتنفيذ أحكامها ، كشبه الحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة المشتملة على صنوف العلوم والمعارف ، ولا يفهم شيئاً منها ، ولا تفرقه عنده بين حمل كتب العلم أو حمل الأحجار .

ووجه الشبه هو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع قربه من الإنسان ، فما أقبح العالم الذي يحوى العلوم ولا يحاول تطبيقها وتنفيذها .

بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

بشّرت التوراة بأحمد ، وذكرت أنه نبي أمي يُبعث في أمة أمية ، وأمرت بالإيمان به وتصديقه ، فلما أرسله الله ، وكان اليهود يستفتحون بهذا النبي ، كفروا به وقالوا : إنه مرسل إلى العرب خاصة ، وكذبوا بآيات الله التي دعتهم إلى الإيمان به ، وادعوا أن محمداً ليس هو النبي الذي بشّرت به التوراة ، وإنما هو رسول سيأتي بعد ، وكما كذبوا بعيسى كذبوا بمحمد ﷺ ، فبئس عملهم ، وما أقبح ما يمثل به للمكذبين ، وما أشنع عملهم وسلوكهم .

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

الذين ظلموا الحق والعدل ، وحملهم الحقد والحسد على إنكار نبوة أحمد ، الله تعالى لا يهديهم إلى الإيمان ، ولا يفتح صدورهم لهداية الرحمن .

قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ... (الأعراف : ١٥٧) .

٦ - قُلْ يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

قل يا محمد لهؤلاء اليهود : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضالّ من الغفوتين ، إن كنتم صادقين فى هذا الزعم ، وأنكم أولياء الله وأحابه حقاً ، فاطلبوا لأنفسكم الموت ، لتتمتعوا بالجزاء فى الجنة ، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحبّ الخلوص من هذه الدار .

٧ - وَلَا يَتَمَتَّعُونَ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ .

إن اليهود لا يتمتّعون الموت أبداً ، بسبب ما اكتسبت أيديهم من المعاصى والتحريف والتبديل ، والله تعالى عليم بأفعالهم ، رقيب على ما ارتكبهوه ، وسيجازيهم عليه بما يستحقون .

٨ - قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكُكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

قل لهم يا محمد : إن الموت الذى تفرون منه ، وتخافون من مجرد تمنّيه حتى بلسانكم ، أتياكم لا محالة ، ولا ينفعكم الفرار منه ، ولن تغفلوا من قبضته .

وهذا كقوله تعالى : أَلَيْسَ تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ... (النساء : ٧٨) . فهو قدر محتوم ، ولا يغنى حذر عن قدر .

ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...

ثم ترجعون إلى الله تعالى ، العالم بالظاهر والباطن ، المطلع على النوايا والخفايا ، وعلى ما غاب عن الحسّ وما شهدته الحس .

فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .

فيخبركم بأعمالكم ، ويجازيكم عليها .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى سورة البقرة : قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَتَّعَ أَبَدًا بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . (البقرة : ٩٤ ، ٩٥) .

وهذا من إعجاز القرآن والسنة النبوية ، فإنهم كانوا يستطيعون أن يقولوا تحدياً للقرآن : نتمنى الموت ، ولو تمتّوه لماتوا ، كما ثبت في السنة الصحيحة ، ولو ثبت المطالبون بالمباهلة من النصارى - أى الدعاء بنزول لعنة الله على الكاذب من الفريقين - لنزل الهلاك بهم .

وقد جاء فى سورة آل عمران : **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَتَهَلَّ فَنَجْعَلْ لُغْتَنَا عَلَى الْكَلْبِيِّينَ** . (آل عمران : ٦١) .

أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لأتيه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا» . (٨٧) .

★ ★ ★

صلاة الجمعة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا دُعِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ الْبَحْرُفُوَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿١١﴾

المضردات :

نـــــــــــــــــــــودي ، دُعى للصلاة بالأذان يوم الجمعة لصلاة الجمعة .

فاسعوا إلى ذكر الله ، فامضوا إلى صلاة الجمعة ، التى يذكر فيها اسم الله .

ذروا البيع ، اتركوه وتفرغوا لذكر الله .

فانتشروا ، تفرقوا للتصرف فى حوائجكم .

وابتغوا ، واطلبوا .

انفضوا إليها ، تفرقوا عنك قاصدين إليها .

تمهيد :

تحت الآيات المسلمين على العناية بصلاة الجمعة والاستعداد لها ، وترك البيع والشراء عند صلاة الجمعة ، والمراد ترك الانشغال بسائر الأعمال الدنيوية ، والتفرغ لأداء فرض صلاة الجمعة ، فإذا انتهت الصلاة أباح الله لكم التفرق في الأرض للبيع والتجارة ، وطلب الرزق وسائر الأعمال ، والمراد : تفرغوا لصلاة الجمعة ، وأمامكم متسع بعدها لشئون دنياكم .

التفسير :

٩ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

يا معشر المؤمنين الصادقين ، إذا سمعتم الأذان لصلاة الجمعة ، فتوجهوا بقلوبكم وأجسامكم إلى الصلاة ، ومعلوم أن الطهارة والوضوء والاستعداد للجمعة ، والتبكير إليها من الآداب المطلوبة ، وكذلك قراءة سورة الكهف وما يتيسر من القرآن ، وإخراج صدقة ، والدعاء رجاء موافقة ساعة الإجابة .

فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ...

والسعى هنا مقصود منه المشي ، والتوجه في هدوء وسمت صالح ، والجلوس في المسجد ، واستماع الخطبة ، ومحاولة النظر إلى الخطيب ، من غير أن يتخطى الرقاب أو يؤذى المصلين .

ويعد استماع الخطبة يؤدى صلاة الجمعة ، وهى ركعتان ، ويسن أن يقرأ فى الركعة الأولى الفاتحة وسورة الأعلى ، وأن يقرأ فى الركعة الثانية الفاتحة وسورة الغاشية .

والمراد بذكر الله فى الآية سماع الخطبة ، وأداء صلاة الجمعة .

وَذَرُوا الْبَيْعَ .

اتركوا البيع والشراء وكل مشاغل الحياة ، وتفرغوا لعبادة الله وأداء الغريضة ، وفى ذلك تدريب عملى على الانقطاع عن شئون الدنيا ، والتوجه بالقلب والفكر والبدن إلى عبادة الله ، واستماع الموعظة وأداء الصلاة .

ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

أى : هذا الامتنال لأمر الله ، والاستعداد لصلاة الجمعة بالطهارة ولبس ثياب نظيفة حسنة ، والبكور إلى الجمعة ، وأداء الصلاة على النحو المطلوب ، أفضل وأحسن وأطعم فى الحصول على الثواب ، وعلى مرضاة الله ، إن كنتم من أهل العلم السليم والفهم القويم .

١٠ - فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

إذا أُتِمَّت صلاة الجمعة ، وقمتم بأداء هذه الفريضة الأسبوعية ، من سماع الخطبة وصلاة الجمعة ، فامامكم متسع من الوقت للسعى فى الأرض بالتجارة أو الزراعة ، أو تلقى العلم ، أو سائر صنوف المعاش ، وخلال عملكم بعد صلاة الجمعة اذكروا الله ذكرا كثيرا ، فإن ذلك سبيل الفلاح والسعادة فى الدارين ، ونص هنا على ذكر الله ذكرا كثيرا ، حتى لا تستولى الدنيا بمشاغلها على القلب ، فعلى العبد أن يعتمد ذكر الله وهو فى قلب عمله ، راغباً فى طاعة الله تعالى وذكركه وشكره .

قال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الأحزاب : ٤١ ، ٤٢) .

وجاء فى تفسير القرطبى ، وتفسير ابن كثير وغيرهما ، أن عراك بن مالك كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم إني قد أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارتزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

١١ - وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَعَتُوا إِلَيْهَا وَزَكَاةً قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

سبب النزول :

جاء فى صحيح مسلم : عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام ، فانفتل الناس إليها ، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، فأنزلت هذه الآية .^(٨٤) .

معنى الآية :

الآية تعيب على من خرج وترك المسجد ، عندما سمع الطبل أو اللهو والغناء ، وتبين أن ما عند الله من فضل ورزق ، وبهضا وثواب ، خير من اللهو الدنيوى والتجارة الدنيوية ، والرزق بيد الله ، فمن أدنى فريضة الجمعة ، وخرج ساعيا على معاشه ، فإن الله يرزقه ، وهو خير الرازقين .

وقد ورد في تفسير ابن كثير :

وفى سنن أبي داود أن صلاة الجمعة كانت قبل خطبة الجمعة ، مثل صلاة العيدين ، فلما أدوا صلاة الجمعة ، وجلسوا لاستماع الخطبة إذ بهم يسمعون صوت الطبل واللهم الذى يُضرب عند قدوم التجارة ، ليخبر الناس يقودوها فيذهبوا إليها ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطلبل والصياح ، سروراً بها ، فلما دخلت العير كذلك ، انفض أهل المسجد إليها ، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر ، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً ، فنزلت الآية .

والآية تعيب على الناس ترك المسجد ، والإسراع إلى صوت اللهم والتجارة ، وترك النبي ﷺ قائماً يخطب وليس أمامه إلا اثنا عشر رجلاً .

متفرقات :

١ - اختلف الفقهاء فى العدد الذى تنعقد به الجمعة على أقوال كثيرة ، بلغت ثلاثة عشر قولاً :

فقال الحنفية : ثلاثة رجال سوى الإمام .

واشترط المالكية حضور اثني عشر رجلاً للصلاة والخطبة .

وقال الشافعية والحنابلة : تقام الجمعة بحضور أربعين فأكثر بالإمام .

٢ - يباح عقب الفراغ من صلاة الجمعة الانتشار فى الأرض للسعى على الرزق ، وسائر الأعمال الدنيوية والدينية .

٣ - القيام فى الخطبة شرط لا تصح إلا به عند الشافعية والحنابلة اتباعاً للسنة ، فالنبي ﷺ ما خطب إلا قائماً .

والقيام واجب غير شرط عند المالكية ، فإن جلس أتم خطبته وصحت .

والقيام فى الخطبة سنة عند الحنفية ، فلو خطب الإمام قاعداً جاز لحصول المقصود ، إلا أنه يكره لمخالفته الموروث .

٤ - الخطبة شرط فى انعقاد الجمعة ، لا تصح إلا بها عند جمهور العلماء ، وقال سعيد بن جبير : الخطبة بمنزلة ركعتين من صلاة الظهر ، وصلاة الجمعة ركعتان .

٥ - الطهارة من الحدثين شرط فى صحة الخطبة عند الشافعى فى الجديد ، وليست شرطاً عند الجمهور .

ملحق بتفسير الآيات

من كتاب (فقه العبادات) للدكتور عبد الله شحاتة

صلاة الجمعة

صلاة الجمعة فريضة محكمة ، ثبتت فرضيتها بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ... (الجمعة : ٩) .

وقال رسول الله ﷺ : «من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه » . (رواه الخمسة).

وفى الحديث : «إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصُرفوا عنه ، وهادنا الله تعالى له ، وأخره لهذه الأمة وجعله عيداً لهم ، فهم أولى الناس به سبقاً ، وأهل الكتابين لهم تبع » . (متفق عليه) ^(٨٩) .

وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة ^(٩٠) .

آداب الجمعة :

من آداب الجمعة ما يأتي :

- ١ - الاستعداد لها من يوم الخميس بالذكر والاستغفار والدعاء والصلاة على النبي ﷺ .
- ٢ - الاغتسال والنظافة والزينة والسواك ، حتى يظهر المسلم بالمظهر الجميل اللائق بالمجمعات ، وحتى تسود المودة والمحبة بين الناس .
- ٣ - الابتعاد عن أكل الثوم والبصل ، وكل ما يسبب الروائح الكريهة المؤذية التي تنفر الناس .
- ٤ - التنكير إلى صلاة الجمعة ، والجلوس فى الصف الأول ، وعدم مزاحمة الناس ، وعدم تخطى الرقاب ، والاشتغال بقراءة القرآن وصلاة التطوع .
- ٥ - قراءة سورة الكهف ، وسور الدهر والملك والسجدة ، أو ما تيسر للإنسان من القرآن .
- ٦ - الاشتغال بالعبادة ، من صدقة التطوع ، وصلاة النافلة ، وذكر الله ودعائه ، فإن فى يوم الجمعة ساعة إجابة يـ ... ، ما لا

٧ - قص الأظافر والشعر ، والتطيب ، والسعى إلى المسجد فى سَكينة ووقار ، قال ﷺ : « من غسل واغتسل ، وبكرَ وابتكر ، ودنا من الإمام واستمع ، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى » .^(٨٧)

وعن سلمان الفارسي رضى الله عنه قال : قال النبی ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر بما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يروح إلى المسجد لا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت للإمام إذا تكلم إلا غفر له من الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .^(٨٨) (رواه أحمد والبخارى) .

خطبة الجمعة :

من مظاهر الوحدة الإسلامية توافد المسلمين أفراداً وجماعات إلى المسجد يوم الجمعة ، وعلى وجوههم الخضوع والإنابة ، وفى قلوبهم تقوى الله والإيمان به ، والاستجابة لنداء الله القائل :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ... (الجمعة : ٩) .

وذكر الأستاذ عباس العقاد^(٨٩) : أن مجاورة اليهود للمسلمين عادت باليهود إلى إحياء السنن التي تركوها ، كشعائر الوضوء والغسل ، ونظام الصلاة الجامعة ، ورعاية آداب المسجد ، والصمت والأدب فى صلاة الجمعة .

ثم نقل اعترافنا لرجل منهم دخل فى الإسلام ، قال فيه : إن سبب إسلامه هو رؤية المصلين يوم الجمعة خاشعين خاضعين ، حيث صعد الخطيب المنبر فى جبة سوداء ، وألقى عظة مناسبة تأثر بها من فى المسجد ، وكان هذا من أسباب هدايته إلى الإسلام .

آداب الخطبة :

إن خطبة الجمعة هى الغذاء الروحى لجماهير المصلين ، وهى النبأ الأسبوعى والرباط الروحى والمنبر التعليمى للتوجيه الدينى ، وينبغى أن تكون خطبة المسلمين فى أخص أحوال المسلمين .

ومما يساعد على نجاح الخطبة مراعاة الأمور الآتية :

١ - وحدة الموضوع ، فإن التنقل فى الخطبة الواحدة بين موضوعات شتى يقلل من روعتها ، ويضعف من قوة وقعها فى النفوس وأثرها فى القلوب .

٢ - تجنب التكرار ، فإن التكرار يبعث على الضجر والسآمة والملل .

٣ - جدية الموضوع ، وعرض أسرار الشريعة الإسلامية ومواطن القوة والحياة فى القرآن والإسلام ، وربط ذلك بالحياة المعاصرة لإحياء الشعور الروحانى فى ضمير الرجل العصري .

٤ - تنسيق الخطبة بأن يفتتح الموضوع بمقدمة قصيرة ملائمة له ، ثم يعرض الموضوع مرتباً ترتيباً منطقياً متدرجاً تدريجاً يصل منه إلى الغاية فى يسر ووضوح وملاءمة لعقول السامعين .

٥ - يُسنُّ للخطيب أن يُسلم على المصلين عند ارتقائه المنبر ، وأن يتحاشى الإطالة حتى لا يمل الناس فتضيع بذلك ثمرة الوعظ ، وأن يرفع صوته حتى يُسمع الحاضرين بقدر الإمكان ، وأن يتفاعل مع ما يقول بحيث يظهر عليه البشّر فى مواطن التبشير والترغيب ، والغضب فى مواطن الإنذار والترهيب .

٦ - هناك فرق بين الخطبة والدرس والمحاضرة ، فتتميز الخطبة بإثارة الانفعال ، وقصر العبارة ، ومخاطبة العاطفة ، وتحريك نوازع الخير ، وتسلسل الموضوع ، وتنويع الصوت بتنوع الأسلوب ، فيكون خفضه ورفع به حسب ما يقتضيه المقام من تعجب ، واستفهام ، ودعاء ، ورجاء .

٧ - على الخطيب أن يبدأ الخطبة بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على النبي ﷺ ، وأن يورد آية من القرآن أو سورة خفيفة ، وأن يزين خطبته بالحديث النبوى والنصوص الدينية ، ثم يجلس فى نهاية الخطبة الأولى جلسة خفيفة يتمكن المصلون خلالها من الدعاء ، ثم يبدأ الخطبة الثانية بالحمد والثناء ، ويجعل الخطبة الثانية مختصرة مركزة ، وربما أورد فيها خاتمة للخطبة الأولى تكون صدق لموضوعه وتتمه لعرضه ، ومن الجائز أن تكون مستقلة عن الخطبة الأولى أو مشتملة على توجيه جديد ، ثم يعقبها بالدعاء للمسلمين والمسلمات .

٨ - يستحب أن يكون الخطيب بليغاً ، مواظباً على الصلاة ، ملتزماً بما يقوله ، فإن القدوة العملية لها أكبر الأثر فى تقبل الموعظة ، وخطيب المسجد رائد دينى وموجه للحى ، فلو نهض إمام المسجد بواجبه لكان لذلك أثره فى النهوض الدينى والاجتماعى والرقى الفكرى والإنسانى .

الخطبة ثم الصلاة :

بعد استماع الخطبة فى إنصات وأدب ، وصمت وخشوع ، ينزل الخطيب من على المنبر فيضلى بالناس صلاة الجمعة ، وهى ركعتان ، يقرأ فى كل ركعة الفاتحة وسورة .

روى سمرة بن جندب : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . وَ: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَلَشِيِّ .^(١٠) (رواه أبو داود والنسائى) .

من تجب عليه الجمعة :

تجب الجمعة على : المسلم ، الحر ، العاقل ، البالغ ، المقيم ، القادر على السعى إليها ، الخالى من الأعذار المبيحة للتخلف عنها .

من لا تجب عليه الجمعة :

لا تجب الجمعة على الأصناف الآتية :

١ - المرأة .

٢ - الصبى .

٣ - المريض .

٤ - المسافر .

٥ - المختفى من الحاكم الظالم .

٦ - كل معذور مرخص له فى ترك الجماعة ، كعذر المطر والوحل والبرد ونحو ذلك .

وكل هؤلاء لا الجمعة عليهم ، وإنما يجب عليهم أن يصلوا الظهر ، ومن صلى منهم الجمعة صحت منه ، وسقطت عنه فريضة الظهر ، وكانت النساء يحضرن إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ ويصلين معه الجمعة .

وقت الجمعة :

ذهب الجمهور من الصحابة والتابعين إلى أن وقت الجمعة هو وقت الظهر ، وذهب الحنابلة إلى أن وقت الجمعة من أول وقت صلاة العيد ^(٩١) إلى آخر وقت الظهر .

العدد الذى تنعقد به الجمعة :

لا خلاف بين العلماء فى أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، للحديث الشريف : «الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة» ^(٩٢) .

واختلفوا فى العدد الذى تنعقد به الجمعة ، فقال الحنفية : أقله خمسة ، وقال المالكية : أقله اثنا عشر ، وقال الشافعية والحنابلة : أقله أربعون .

وجاء فى فقه السنة : والرأى الراجح أنها تصح باثنين فأكثر ، للحديث الشريف : «الاثنان فما فوقهما جماعة» ^(٩٣) .

مكان الجمعة :

الجمعة يصح أداؤها فى المصر والقرية والمسجد وأبنية البلد والفضاء التابع لها ، كما يصح أداؤها فى العزب والكفور ، ويصح أن تتعدد الجمعة بعدد المساجد .

وقال الحنفية : لا تقام الجمعة إلا فى المصر الجامع ، ولا بد فيها من السلطان أو نائبه .

ورأى الجمهور أقوى وأولى من رأى الحنفية .

قال صاحب الروضة الندية : هى كسائر الصلوات لا تخالفها ، لكونه لم يأت ما يدل على أنها تخالفها ، وفى هذا الكلام إشارة إلى رد ما قيل من أنه يشترط فى وجوبها الإمام الأعظم والمصر الجامع والعدد المنصوص ، فإن هذه الشروط لم يدل عليها دليل يفيد استحبابها فضلا عن وجوبها ^(٩٤) .

حكمة الجمعة :

الجمعة لقاء أسبوعى منظم ، يلتقى فيه المسلمون لتدارس شئونهم وتدبر أمورهم ، والتفقه فى شئون دينهم . ولقد كان الأسبوع من قديم الزمان وحدة زمنية معترفا بها بين العرب والعجم جميعا ، وكان لأهل كل دين فيه يوم مفضل ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، ثم كان للمسلمين يوم الجمعة ، وقد ميزه الله باستجابة الدعاء ، ومضاعفة الثواب ، وجعله موسما لقراءة القرآن وإكثار الصدقة وشهود الجماعة والجمعة .

قال ﷺ : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء الله له من النور ما بين الجمعتين» . ^(٩٥) .

خطيب الجمعة :

خطيب الجمعة هو لسان المسلمين وداعيتهم إلى الله ، ومن الواجب أن يكون الداعية إلى الله محيطا بالقرآن ، عارفا بالسنة ، دارسا لمجموعة من العلوم والمعارف ، خبيرا بحاجة المجتمع ، بصيرا بمواطن الداء وتحديد الدواء .

لقد مرت على الناس أزمان كان الخطيب يكرر على المصلين خطبا مسموعة معدة من ديوان أو كتاب ، لا روح فيها ولا حياة ، والآن تتطور المجتمعات وتفتح الأنذان ، ويتنبه الناس إلى أن الدين الحق هو روح المجتمع وسعادته ، وقد سعد المسلمون الألوان بقريرهم من الإسلام وحبه للقرآن ، فالتزموا أوامر الله وأخلصوا لدينه فنصرهم الله على العباد وفتح لهم البلاد ، وحين ابتعد المسلمون عن الإسلام أصابهم التأخر والجمود .

والعلماء والخطباء هم دعاة الحق ومصابيح الهدى ، فعليهم أن يعملوا على النهوض برسالتهم ، وأن يعدوا خطبهم ، وأن يوسعوا دائرة ثقافتهم ، وأن يتعرفوا على خصائص الجمهور الذى يتحدثون إليه ، فالفلاح والعامل والصانع والتاجر وغيرهم ، لكل فئة من هذه الفئات حديث يؤثر فيها ويثير اهتمامها ، ويحرك بواعت الخير ، ودوافع الإيمان فى قلوبهم ، وقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأن نحدثهم بنفس حديثهم .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

وحماسة الخطيب لموضوعه واقتناعه به له أكبر الأثر فى قبول الخطبة وعظم تأثيرها .

روى مسلم ، وابن ماجه ، عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش ، يقول صبحكم ومساكم . (٩٧) .

اقتصاد الخطيب فى التخويف والتحذير :

درج بعض الخطباء على تحذير الناس من الشر وتذكيرهم بالموت ، وتكرير نغمة رتيبة عن فساد المجتمع ، وما أصاب النساء من الخلاعة ، وما منى به الشباب من الاستهتار ، وهذا كلام للاستهلاك المطلق ، لا يفيد إلا اليأس والأسف ، ولا نمانع من التعرض له تعرضا يسيرا بقصد التوجيه والإفادة ، ولكننا نمانع تكرير الخطب فى أمور سلبية ، كالأسف على فساد الزمان ، أو التخويف من الموت والبلى ، وفناء الدنيا وهجوم الموت على الإنسان ، نريد أن تكون الخطبة أسلوبا للبناء وطريقا لإحياء العادات السليمة ، والمنهج القرآنى الحكيم الذى أعد الرجال ومنحهم العزيمة والثقة والإيمان والثبات ، ورسم الطريق للأسرة المؤمنة وانتكاف المجتمع ، وتواصى الناس بالخير والصبر ، ودفع المؤمنين إلى الجهاد والنضال وبناء صرح الإسلام عاليا حتى يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس .

قال النورى :

يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة ، مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تغيير ، ولا تكون ألفاظا مبتذلة ملفقة لأنها لا تقع فى النفوس موقعا كاملا ، ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مقصودها ، بل يختار ألفاظا جزلة مفهومة .

وقال ابن القيم :

وكذلك كانت خطبة ﷺ إنما هى تقرير لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيمال القلوب من خطبه إيماننا وتوحيدنا ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التى تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق وهى النور على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل فى القلب إيمانا بالله ولا توحيدا له ، ولا معرفة خاصة ولا تذكيرا بأيامه ، ولا بعثا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبنى التراب أجسامهم ، فياليت شعرى أى إيمان حصل بهذا ؟ وأى توحيد وعلم نافع يحصل به ؟ ومن تأمل خطب النبى ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه تعالى التى تحببها .

خلقه ، وأيامه التي تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره ونكره ما يحببهم إليه فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم ، ثم طال العهد وخفى نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوما تقوم من غير مراعاة حقائنها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سننا لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرسعوا الخطب بالتسجيع وعلم البديع ، فنقص - بل عدم - حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

حرمة الكلام أثناء الخطبة :

ذهب الجمهور إلى وجوب الإنصات وحرمة الكلام أثناء الخطبة ، ولو كان أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر ، سواء أكان يسمع الخطبة أم لا .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كالحصار يحمل أسفارا ، والذي يقول له : أنصت ، لا جمعة له»^(١٧) .

حكم المسبوق في صلاة الجمعة :

من أدرك ركعة من الجمعة مع الإمام فقد أدرك الجمعة ، وعليه أن يضيف إليها أخرى .

قال ﷺ : «من أدرك من الصلاة ركعة فقد أدرك الصلاة كلها» . (رواه الجماعة) .

وأما من أدرك أقل من ركعة فإنه لا يكون مدركا للجمعة ويصلي ظهرها أربعاً^(١٨) .

قال ابن مسعود : من أدرك من الجمعة ركعة فليضيف إليها أخرى ، ومن فاتته الركعتان فليصل أربعاً . (رواه الطبراني بسند حسن) .

الصلاة في الزحام :

يجوز في الزحام أن يسجد المصلي على ظهر الذي أمامه أو على رجليه .

روى أحمد ، والبيهقي ، عن سيار ، قال : سمعت عمر وهو يخطب يقول : إن رسول الله ﷺ بنى هذا المسجد ونحن معه - المهاجرون والأنصار - فإذا اشتد الزحام فليسجد الرجل على ظهر أخيه . ورأى قوما يصلون في الطريق فقال : صلوا في المسجد .^(١٩) .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الجمعة) عصر يوم الخميس ٣٠ من شوال ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٥ من يناير ٢٠٠١ . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

★ ★ ★

تفسير سورة المنافقون

أهداف سورة المنافقون

(سورة المنافقون مدنية، وآياتها ١١ آية، نزلت بعد سورة الحج)

والنفاق هو إظهار الإسلام أمام المسلمين، وإضمارُ غير الإسلام، والنفاق بفتحتي سرب في الأرض يكون له مخرج من موضع آخر، ونفاق اليربوع إذا أتى النافق، أى دخل من مكان وخرج من مكان، ومنه قيل: نفاق الرجل، إذا دخل في الإسلام أمام المسلمين، ودخل في عداوة الإسلام أمام غير المسلمين.

والنفاق قسمان :

القسم الأول : نفاق العقيدة، وهو إظهار الإيمان وإخفاء الكفر.

والقسم الثانى : نفاق العمل، وهو الرياء والسمعة والتظاهر، وإبراز الأمور على غير حقيقتها.

النفاق فى المدينة

لم يظهر النفاق بمكة لأن المسلمين كانوا مستضعفين، وكان أهل مكة يعلنون لهم العداة، ويجابهونهم بالإيذاء، ثم هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، والتف حوله الأنصار والمهاجرون، وقويت شوكته بوحدة المسلمين وتماسكهم، وظل الإسلام يتفوق يوما بعد يوم، ويدخل فيه وجوه أهل المدينة من رجال الأوس والخزرج، وأهل العصبية فيهم، عندئذ رأى بعض المنافقين أن يدخلوا فى الإسلام مجاملة لأهله، وأن يبيتوا الكيد والخداع للمسلمين.

وقد قبل النبى ﷺ من الناس ظواهرهم، وترك بواطنهم إلى الله، ولكن الأحداث كانت تُعرف المسلمين بهؤلاء المنافقين، فإذا وقع المسلمون فى شدة أو انهزموا فى معركة تجرأ هؤلاء المنافقون على تجريحهم والتشهير بهم جهارا نهارا. وإذا أنعم الله على المؤمنين بالنصر اختبأ المنافقون فى جحورهم، وغيروا طريقته، وانتقلوا من باب المواجهة إلى الكيد والدس فى الخفاء.

وكان اليهود فى المدينة يَكُونُونَ جبهة قوية، وقد ساندوا المنافقين وشجعوهم، وكَوَّن الطرفان جبهة متحدة لمناوأة الإسلام والمسلمين.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول زعيمَ المنافقين بالمدينة ، وكان من وجهاء الأنصار ، وكان قومه ينظّمون له الخبز ليتوجوه ملكا عليهم ، فلما جاء الإسلام للمدينة ، وتعاظمت قوة المسلمين يوما بعد آخر ، وأصبح النبي الأمين صاحبَ الكلمة النافذة ، والأمر المطاع ، اشتد حقد عبد الله بن أبي لضياع الملك من بين يديه ، وكونَ جبهة للنفاق تشيع السوء والفتنة ، وتدبر الكيد والأذى للمسلمين .

وشاء الله أن يمتحن المسلمين بوجود اليهود في المدينة ، وبوجود المنافقين فترة طويلة صاحبت نشوء الدعوة بالمدينة ، ولم يشأ الله أن يُعرف النبي ﷺ بأسمائهم إلا في آخر حياته ، وقد أخفى النبي أسماءهم عن الناس ، وأعلم واحدا فقط من الصحابة بهم هو النعمان بن مقرن ليظل أمرهم مستورا .

وكان بعضهم ينكشف أمره من سلوكه وفعله وقوله وقسمات وجهه وتعبيراته .

قال تعالى : **وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَلْعَقَنَّهُمْ بِسِمْيَنَهُمْ وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ** . (محمد : ٣٠) .

قصة نزول السورة

في كثير من كتب التفسير^(١٠٠) والسيره^(١٠١) : أن هذه السورة نزلت في أعقاب غزوة بني المصطلق ، وقد انتصر فيها المسلمون ، وغنموا غنائم كثيرة ، وقد وقعت في شعبان من السنة الخامسة للهجرة (ديسمبر ٦٢٦ م) . وبعد المعركة ازدحم على الماء رجلا ، أحدهما أجير لعمر بن الخطاب وهو جهجاه بن سعيد ، والثاني حليف بني عون بن الخزرج وهو سنان الجهني ، وتضاريا فقال جهجاه : يا للمهاجرين ، وقال سنان : يا للأنصار ، فاجتمع عليهما المتسرعون من المهاجرين والأنصار حتى كادوا يقتتلون ، وأوشكت أن تقوم الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، فلما سمع رسول الله ﷺ الصراخ خرج مسرعا يقول : «ما بال دعوى الجاهلية ؟ فأخبروه الخبر ، فصاح غاضبا : «دعوا هذه الكلمة فإنها منتنة»^(١٠٢) . وأدرك الفريقين فهذا من ثورتها ، وكلم المضروب حتى أسقط حقه ، وبذلك سكنت الفتنة وتصافى الفريقان .

ولكن عبد الله بن أبي عزّ عليه أن تنطفئ هذه الشرارة قبل أن تحدث حريقا بين المسلمين ، وأن نموت هذه الفتنة قبل أن تذهب بما في صفوف المسلمين من وحدة وانتلاف ، فأخذ يُهيج من معه من الأنصار ويثير ضغينتهم ضد المهاجرين ، وجعل يقول في أصحابه :

(والله ما رأيت كالיום مذلة ، لقد نافرونا وكاثرونا في بلدنا ، وأنكروا مِنّا ، والله ما عدنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل : سَمَنَ كلبك يأكلك .. لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) . يقصد بالأعز نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ .

ثم أقبل ابن أبي على من حضره من قومه يلومهم ويعنفهم فقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وأنزلتموهم منازلكم ، وأسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا .. أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم .. ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا ، فقتلتهم دونهم ، فأيتمتم أولادكم ، وقللتهم وكثروا .. فلا تنفقوا على من حوله حتى ينفضوا .

وكان فى القوم زيد بن أرقم - وهو يومئذ غلام لم يبلغ الحلم ، أو قد بلغ حديثا - فنقل كلام ابن أبى إلى الرسول ﷺ ، فتغير وجه رسول الله ﷺ ، وتأثر من معه من المهاجرين والأنصار ، وشاع فى الجيش ما قاله ابن أبى حتى ما كان للناس حديث غيره ، وقال عمر للنبي : يا رسول الله ، مَرَّ بلالا فليقلته ، وهنا ظهر النبي كدأبه بمظهر القائد المحنك والحكيم البعيد النظر ، إذ التفث إلى عمر وقال : « فكيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ » ولكنه قدر فى نفس الوقت أنه إذا لم يتخذ خطوة حازمة فقد يستفحل الأمر . لذلك أمر أن يؤذن فى الناس بالرحيل ، فى ساعة لم يكن يرتحل فيها المسلمون .

وترامى إلى ابن أبى ما بلغ النبي عنه ، فأسرع إلى حضرته ينفى ما نُسب إليه ويحلف بالله ما قاله ولا تكلم به ، ولم يغير ذلك من قرار النبي ﷺ بالرحيل .

قال ابن إسحاق : فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير^(١٢) ، فحيّاه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها . فقال رسول الله ﷺ : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟ قال : « عبد الله بن أبى » . قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . قال أسيد : فأنت يا رسول الله - والله - تخرجه منها إن شئت ، هو - والله - الذليل وأنت العزيز ، فى عز من الرحمن ومنعة المسلمين . ثم قال أسيد : يا رسول الله ، أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذاك حتى أدتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما .. وإنما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليشغل الناس عن كلام عبد الله بن أبى .

ونزلت سورة المنافقون فى ابن أبى ومن كان على مثل أمره ، ولما نزلت السورة قال رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إن الله قد صدقك وكذب المنافقين » .

ولما ظهر كذب عبد الله بن أبى قيل له : قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك ، فلو رآه وقال : أمرتموني أن أؤمن فأمنت ، وأمرتموني أن أركى مالى فركيت ، وما بقى إلا أن أسجد

لمحمد، فنزل فيه قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوُاْ زَعْوَسَهُمْ وَرَأَيْتُمُ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ. (المنافقون: ٥).

ويلج عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لابد فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإنني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: «بل نترقق به ونحسن صحبتته ما بقي معنا».

مع السورة

وصفت الآيات الأربع الأولى من السورة رياء المنافقين، وكشفت خداعهم، إنهم يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويسارعون بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، وهم كاذبون في هذه الشهادة، لأنها لا تطابق عقيدتهم، ولا توافق ما يضمرونه في قلوبهم. (آية: ١).

وكانوا يحلفون بالله كذبا، ويتحصنون بهذه الأيمان، وينتس أفعال الرجال، الكذب والأيمان الفاجرة. (آية: ٢).

لقد تكرر نفاقهم، وطبع الله على قلوبهم، فلا ينفذ إليهم الهدى والإيمان. (آية: ٣).

وكان فيهم أقوام صباح الوجوه، أشداء البنية، فصحاء الألسنة، فإذا تكلموا أعجبوا السامع بكلامهم المعسول، ولكن واقعهم لا يوافق ظاهريهم، وإن عداوتهم ضاربة، فأحذرهم، واتق جانبهم في حياتك، فإنهم سيلقون مصيرهم المحتوم بالهلاك والنكال. (آية: ٤).

وتشير الآيات (٤ - ٨) إلى ما حدث من عبد الله بن أبي بن سلول في أعقاب غزوة بني المصطلق، وقد مرت قصتها.

ولما انكشف أمره، دعاه الناس ليستغفر له الرسول الأمين، فأعرض ولوى وجهه، خوفا من مواجهة الرسول بالحقيقة. (آية: ٥).

وكان ابن أبي قد طلب من بعض الأنصار أن يُسكوا نفقتهم ومساعدتهم عن المهاجرين، حتى ينفذوا عن النبي الكريم ﷺ، فذكر القرآن أن خزانة الله عامرة، وخيره لا ينفد، وهو الرزاق ذو القوة المتين. (آية: ٧).

كان ابن أبي ببيت كيدا مع أتباعه ويتوعد بأن يخرج النبي من المدينة ذليلا ، فبين الله أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، بالإيمان وبمساعدة الرحمن ويعون الله القوى المتين ، ولكن المنافقين لا يفقهون هذه المعاني الكريمة . (آية : ٨) .

أما المقطع الأخير في السورة ويشمل الآيات (٩ - ١١) فإنه يتوجه إلى المؤمنين بالنداء ألا تشغلهم أموالهم ولا أولادهم عن تذكر ربهم ، والقيام بحقه ومرضاته ، وتأميرهم بالصدقة والزكاة وعمل الخير ، فالله مصدر الرزق ، وله الحمد في الأولى والآخرة . فأنفق وأنت صحيح شحيح ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم تمنيت العودة للدنيا لإخراج الصدقة وعمل الصالحات ، ولكن الأجل إذا جاء لا يتأخر لحظة ، بل يساق الإنسان إلى الخبير العليم فيلقى جزاء ما قدم .

وهكذا تختتم السورة بهذه الدعوة إلى الإخلاص لله ، وامتنال أوامره ، فهو مطلع وشاهد ، وهو الحكيم العادل .

المعنى الإجمالي للسورة

قال الفيروزبادي :

معظم مقصود السورة : تزيح المنافقين وتبكيتهم ، وبيان ذلهم وكذبهم ، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم ، وبيان عزهم وشرفهم ، والنهي عن نسيان ذكر الحق تعالى ، والغفلة عنه ، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت ، وبيان أنه لا تأخير ولا إمهال بعد حلول الأجل ، في قوله تعالى : وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١١) .

صفات المنافقين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾
 وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعَاجِبَكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ
 يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ إِنَّهُمْ لَيُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

المنافقون : الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويخفون الكفر .

جُنَّةٌ : وقاية وستراً لدمائهم وأموالهم .

آمَنُوا : أى : بالسنن .

ثم كفروا : أى : بقولهم .

فطبع على قلوبهم : ختم عليها بالكفر .

لا يفقهون : لا يدركون حقيقة الإيمان ، ولا يعرفون صحته .

تعجبك أجسامهم : لسلامتها وصباحتها وتناسق أعضائها .

تسمع لقولهم : لفصاحتهم وحسن حديثهم .

خُشُبٌ : جمع خشب ، وهى الخشب المنخور جوفها .

يحسبون كل صيحة عليهم : يظنون أن كل صوت واقع بهم ، لجبنهم ولعلمهم .

قاتلهم الله : لعنهم وطردهم من رحمته وأهلكهم .

أَنَّى يَصُفُّكَوْنَ ، كيف يُصِفُونَ عن الحق والإيمان بعد قيام البرهان .

تمهيد :

يستتر المنافقون فى الظلام ، لكنَّ القرآن يكشفهم ويحدد معالمهم فيما يأتى :

١ - فَهُمْ كَذَّابُونَ يَقُولُونَ غَيْرَ مَا يَعْتَقِدُونَ .

٢ - إِنَّهُمْ لَا يَبَالُونَ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ كَذِباً ، سَتَرْنَا لِنَفَاقِهِمْ .

٣ - إِنَّهُمْ جِبْنَاءُ ، فهم على ضخامة أجسامهم فى غاية الهلع ، يظنون أن كل منادٍ ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

التفسير :

١ - إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ.

كان المنافقون يحلفون كذبا لرسول الله ﷺ ، ويشهدون مؤكدين شهادتهم ، بأن محمداً رسول الله .

والله تعالى يعلم أن محمداً رسول الله حقاً وصدقاً ، والله تعالى يشهد إن المنافقين لكاذبون فى دعوامهم الإيمان ، وإنما هم منافقون ، يُظهرون هذه الشهادة نفاقاً ورياءً ، ويبطنون الكفر والكيد للإسلام ولسوله .

جاء فى التسهيل :

وقوله : وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ... ليس من كلام المنافقين ، وإنما هو من كلام الله تعالى ، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله : وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . إبطال للرسالة ، فوسطه بين حكاية المنافقين ، وبين تكذيبهم ، ليزيل هذا الوهم وليحقق الرسالة .

٢ - اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

لقد أعدوا أيمانهم الكاذبة وقاية لهم من القتل ، وحفظاً لأموالهم وأولادهم .

فهم شوكة فى جنب المسلمين ، لأنهم يتظاهرون بالإيمان والإسلام ، ويبطنون الكيد والدس للإسلام والمسلمين ، وقد اغتر بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم ، فامتنع عن الإسلام ، أو امتنع عن الفداء والتضحية للإسلام بسبب وسوسهم ، وتبسيطهم للناس عن الدخول فى الإسلام ، أو عن الإخلاص لله ورسوله ، فما أقبح عملهم ، وما أسوأ فعلهم ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

وسيلقون جزاءهم فى الدنيا والآخرة :

أما فى الدنيا فيسفّضهم الله على رؤوس الأشهاد .

قال تعالى : وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَٰلِسِقُونَ . (التوبة : ٨٤) .

وأما فى الآخرة فإنهم فى أسوأ درجات النار .

قال تعالى : إِنَّ الْمُنَٰفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ خَصِيرًا . (النساء : ١٤٥) .

٣ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

لقد آمنوا بالستهم ، وكفروا بقلوبهم ، واستحبوا العمى على الهدى ، واستعدبوا الخيانة والغدر ، وتبييت الكيد والدس للمسلمين ، فحتم الله على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمان ولا ينفذ إليها نور أو هداية ، فأصبحوا لا يفهمون ما فيه رشدهم وصلاحهم ، ولا يهتدون إلى الأدلة الملموسة الواضحة ، الدالة على صدق الرسول ﷺ وصدق الرسالة .

٤ - وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْتَنْدَةٌ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَٰحِبَةٍ عَلَيْهِمْ هُمْ الْعُدُوّ فَاحْذَرُهُمْ فَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفَّكُونَ .

كان عبد الله بن أبى زعيم المنافقين جسيما وسيما ضخما ، زلق اللسان ، حسن الصوت ، وكانت معه مجموعة على شكله ، يجلسون فيحسبهم الناظر إليهم أنهم شيء جميل ، والواقع أن داخلهم معطوب بالنفاق .

والمعنى :

إذا رأيت شكلهم أعجبك ظاهريهم ، وإذا تكلموا أعجبك حديثهم ، وتصرفهم فى القول وحسن صوتهم ، لكن داخلهم سيئ ، وباطنهم نفاق وحقد وخسد وضغينة ، كأنهم خشب مأخوذ قلبها ، فهى حسنة فى الظاهر رديئة فى الباطن ، ومع ضخامة أجسادهم فإنهم فى غاية الهلع والخوف ، إذا سمعوا صوتا عاليا ، أو أنشدت دابة ، أو صاح صائح بصوت مرتفع ، تملكهم الهلع والخوف ، خشية أن يفتضح أمرهم ، وأن يكشف سترهم ، وأن يظهر للناس نفاقهم .

ولقد قالوا : (يكاد المريب يقول خذونى) ، ويكاد السارق يقول - إذا رأى القيد - ضعوه فى يدي ، من الرهبة والخوف من سوء أعمالهم .

ونحو الآية قوله تعالى: أَشِجَّةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَسَبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُواكُمْ بِالسَّبَةِ حَذَادُ أَشِجَّةٍ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا . (الأحزاب: ١٩) .

وقد نظر المتنبي إلى الآية في قوله :

وضافت الأرض حتى ظن هارهم إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

هُمُ الْعَدُوُّ فَأَحْذَرُهُمْ ...

هم العدو الحقيقي لك . فَأَحْذَرُهُمْ . ولا تكشف لهم أسرارك، لأنهم عيون لأعدائك من الكفار ، واحذر مؤامراتهم ودسائسهم .

فَقَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ .

لعنهم الله وطردهم من رحمته وأهلكهم ، كيف يصرفون عن الحق والنور والهدى والرسالة ، ويميلون إلى الباطل والكفر، والدس والخداع ، وصد الناس عن سبيل الله ، مع وجود النبي الخاتم والوحي الصادق ، ونور الإسلام وبرهانه ، ومع هذا اختاروا الضلالة وتركوا الهدى .

ولله در أبي نواس :

لا تخدعك اللحى ولا الصُّور تسعة أعشار من نرى بقر
تراهم كالسراب منتشراً وليس فيه لطالب قطر
فى شجر السُّروِ منهم مثل له رِواءٌ وماله قَسَرٌ

صفات أخرى للمنافقين

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُءٌ وَسَهُمٌ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ⑤ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ⑥ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ⑦ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ⑧﴾

المقررات :

لَوَّارُءٌ وَسَهُمٌ : حَلُولُهَا اسْتِهْزَاءٌ .

يَصُدُّونَ : يُعْرَضُونَ عَنِ الْقَائِلِ .

الْفَاسِقِينَ : الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ الرَّسُولِ ، الْمُنْهَكِينَ فِي أَنْوَاعِ الشُّرُورِ وَالْآثَامِ .

حَتَّى يَنْفَضُوا : حَتَّى يَتَفَرَّقُوا .

خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : خَزَائِنُ الْأَرْزَاقِ فِيهِمَا .

لَا يَفْقَهُونَ : لَا يَعْلَمُونَ عِلْمًا صَادِرًا عَنْ إدْرَاكِ جَلَالِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ .

الْأَعَزُّ : الْمُنَافِقُونَ فِي زَعْمِهِمْ .

الْأَذَلُّ : فِي زَعْمِهِمْ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

الْعِزَّةُ : الْغَلْبَةُ وَالنَّصْرُ .

لَا يَعْلَمُونَ : ذَلِكَ مِنْ فِرَاطِ جَهْلِهِمْ وَغُرُورِهِمْ .

سبب النزول :

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَالتِّرْمِذِيُّ بِمَعْنَاهُ فِي بَيَانِ سَبَبِ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَزَا بَنِي الْمُصَلِّقِ عَلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ : (الْمَرْيَسِيْع) مِنْ نَاحِيَةِ (قُنْدِيد) إِلَى السَّاحِلِ ، فَازْدَحَمَ أَجِيرٌ لِعَمْرِ يُقَالُ لَهُ : جَهْجَاهُ مَعَ حَكِيفٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يُقَالُ لَهُ : سَيْنَانٌ عَلَى مَاءٍ (بِالْمَثَلِ) فَصَرَخَ جَهْجَاهُ بِالْمُهَاجِرِينَ ، وَصَرَخَ سَيْنَانٌ

بالأنصار ، فَلَمْ يَهْجَاهُ سَنَانًا ، فقال عبد الله بن أبي : أَرُ قَدْ فعلوها ، والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سَمَنَ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ - يعنى محمداً ﷺ - ثم قال لقومه : كَفُّوا طَعَامَكُمْ عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، وَلَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَهُ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَتْرَكُوهُ ، فقال زيد بن أرقم - وهو من رِهْطِ عَبْدِ اللَّهِ - : أَنْتَ وَاللَّهِ الذَّلِيلُ الْمُتَنَقِّصُ فِي قَوْمِكَ ، وَمَحَمَّدٌ ﷺ فِي عِزٍّ مِنَ الرَّحْمَنِ وَمَوْدَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَاللَّهُ لَا أَحْبَبَ بَعْدَ كَلَامِكَ هَذَا أَبَدًا ، فقال عبد الله : اسْكُتْ إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ . فَأَخْبَرَ زَيْدَ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ ، فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ مَا فَعَلَ وَلَا قَالَ ، فَعَزَّزَهُ النَّبِيُّ ﷺ . قال زيد : فَوُجِدْتُ فِي نَفْسِي وَلَا مَنَى النَّاسُ ، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي تَصْدِيقِ زَيْدٍ وَتَكْذِيبِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ : قَدْ نَزَلَتْ فِيكَ آيَاتٌ شَدِيدَةٌ ، فَاهْذَبْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَسْتَغْفَرَ لَكَ ، فَأَلْوَى بِرَأْسِهِ ، فَنَزَلَتْ الْآيَاتُ .

نَزُولُ الْآيَةِ (٦) :

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ ، عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ : أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... (التوبة : ٨٠) . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «لَا زَيْدٌ عَلَى السَّبْعِينَ» ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ . (المنافقون : ٦) .

نَزُولُ الْآيَتَيْنِ (٧ ، ٨) :

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَأَحْمَدُ وَغَيْرُهُمَا ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ، فَلَنَنْ رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَى ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَى لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ ، فَحَدَّثْتُهُ ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا ، فَكَذَّبْنِي وَصَدَّقَهُ ، فَأَصَابَنِي شَيْءٌ لَمْ يَصِبْنِي مِثْلُهُ ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ ، فَقَالَ عُمَى : مَا أُرِيدُ إِلَى أَنْ كَذَبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَّتَكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِّقُونَ ... فَبِعَثْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَهَا ، ثُمَّ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ» . (١٠٩) .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ : أَنَّ أَعْرَابِيًّا نَازَعَ أَنْصَارِيًّا فِي بَعْضِ الْغَزَوَاتِ عَلَى مَاءٍ ، فَضَرَبَ الْأَعْرَابِيُّ رَأْسَهُ بِخَشَبَةٍ فَشَجَّهُ ، فَشَكَا إِلَى ابْنِ أَبِي ، فَقَالَ : لَا تَنْفَقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ، وَإِذَا رَجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيُخْرِجِ الْأَعَزَّ الْأَذْلَ . عَنِ الْأَعَزِّ نَفْسَهُ وَبِالْأَذْلِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .

التفسير :

٥ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَتْهُمُ بِصُلُوبٍ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

كَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ أَبِي بْنِ سُلُولٍ كَبِيرًا لِلْمُنَافِقِينَ ، حَرِيصًا عَلَى الْإِسَاءَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، وَلَمَّا تَكَلَّمَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلَامًا سِيئًا ، وَوَصَّى ابْنَ سُلُولٍ أَتْبَاعَهُ أَلَّا يَنْفَقُوا عَلَى فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ، حَتَّى

ينصرفوا عن محمد ﷺ ، بلغ هذا الكلام رسول الله ﷺ ، فاستدعى عبد الله بن أبي ، فأقسم كذبا أنه ما قال ذلك .

ثم فضح الله المنافقين بنزول وحى السماء ، فى صدر سورة المنافقين ، وكان للمنافقين أقارب وأهل من المؤمنين ، فقالوا لهم : لقد فضحك الوحى ، فانهبوا إلى رسول الله ﷺ يستغفر لكم ، وتوبوا إلى الله ، وعودوا إلى صفوف الإيمان ، فتكبر المنافقون ، وأمالوا رؤوسهم كبرا واستنكفا أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ ، وأعرضوا عن الهداية استكباراً وانصرافاً عن الهدى .

رَوَى أَنَّ الْأَنْصَارَ قَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنْ سُلُولٍ : لَقَدْ نَزَلَتْ فِيكَ آيَةُ شَدَادٍ ، فَانْهَبْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْتَغْفِرُ لَكَ ، فَلَوَّى رَأْسَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمْرَتُونِي أَنْ أُوْثِنَ فَأَمَنْتُ ، وَأَمْرَتُونِي أَنْ أَرْكَبُ فَرَسِي ، فَمَا بَقِيَ إِلَّا أَنْ أَسْجُدَ لِمُحَمَّدٍ ، فَنَزَلَتْ : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ...

معنى الآية :

وإذا قيل للمنافقين مثل عبد الله بن أبي ، والجذ بن قيس ، ومعتب بن قشير : تعالوا إلى رسول الله ﷺ يطلب من الله المغفرة لكم ، والتوبة عليكم ، وهدايتكم إلى نور الإيمان والإخلاص له ، أمالوا رؤوسهم كبراً وتيهاً ، وشاهدتهم يعرضون عن السير إلى رسول الله ﷺ ، حال كونهم مستكبرين عن الاستهداء يهدى الإسلام .

٦ - سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

كان النبی ﷺ حريصاً على الاستغفار لهم ، حتى أعلمه الله تعالى أنه سبحانه قد غضب على المنافقين وختم على قلوبهم ، فهو لن يوفقهم ، ولن يمنحهم الهدى ، ليسيروا فى طريق الإيمان ، لقد عصوا الله ونافقوا ، واستكبروا عن الذهاب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم .

وهداية السماء غالبية ، والله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . (الليل : ٥ - ١٠) .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ شَيْئاً وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس : ٤٤) .

فهؤلاء المنافقون أعرضوا عن دين الله ، وأمامهم النبی الخاتم ، والرسول الهادى ، لكنهم ناوأوه وأذروه وتكلموا عليه كلاماً قبيحاً ، فغضب الله عليهم ، وقال لنبيه ﷺ : الاستغفار لهم وعدمه سواء بالنسبة

لهم ، فمهما استغفرت لهم فإن الله تعالى لن يغفر لهم ، لأنهم فسقوا وخرجوا عن أمر الله ، وصدّوا عن سبيله ، وشككوا ضعاف الإيمان في إيمانهم بالله .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

لقد أغلقت قلوبهم على النفاق والبعد عن الهداية ، وعميت بصائرهم عن نور الإيمان ، فسلب الله هدايته عنهم لفسقهم وضلالهم .

٧ - هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ غَزَاوُنَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

كان عبد الله بن أبي قد جلس مع قومه بعد نزاع على الماء بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، حيث قال المهاجري : يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري : يا للأنصار ، واجتمع الناس .

ويلغ ذلك النبي ﷺ فخرج جزعا يجرّ رداءه . وقال : «نروها فإنها منتنة ، ليس منا من دعا إلى عصبية» .

فكفّ الناس عن الشجار ، وعادوا نادمين ، لكن عبد الله بن سلول ، قال : أوقد فعلوها ، ما مثلنا ومثل أصحاب محمد إلا كما قال القائل : سمنّ كليك يأكلك ، لا تنفقوا على فقراء المهاجرين حتى ينفضوا عن محمد ويتركوه . فأنزل الله تعالى هذه الآية توضح ما فعله عبد الله بن أبي وأمثاله .

والمعنى :

يقول هؤلاء المنافقون : لا تنفقوا على هؤلاء المهاجرين الذين جلبوا من مكة إلينا ، حتى يتفرقوا عن محمد ، وتواصوا بتضييق الأرزاق وفرض العمل ، وإغلاق أبواب الكسب في وجوههم .

لكن الله تعالى رد عليهم قائلًا : وَلِلَّهِ غَزَاوُنَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

إن الأرزاق بيد الله ، وبيده العزّ والذل ، وهو سبحانه بيده مفاتيح خزائن السماوات والأرض ، وبيده أرزاق العباد .

قال تعالى : وَلِلَّهِ السَّمَاءُ وَرِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۖ فَزَرَبَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَبْطِئُونَ .

(الذاريات : ٢٢ ، ٢٣)

فأله تعالى هو المسبب للأرزاق ، والعبيد سبب ظاهري .

وفى الحديث النبوى الشريف : «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفت الأقلام وطويت الصحف» (١٠٠) .

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ .

لا يدركون أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وهو الرازق لهؤلاء المهاجرين ، فقد أكرمهم الله وسجل جهودهم .

قال تعالى : لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْرُهُمْ يُتَبَوَّنُ فَضَّلْنَا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . (الحشر : ٨) .

٨ - يَقُولُونَ لَيْنَ رُجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

يقول عبد الله بن أبى بن سلول رئيس المنافقين لمن حوله من المنافقين : إذا رجعنا إلى المدينة فنحن الأعزاء ومعنا المال والأرض ، وهؤلاء المهاجرون مجلوبون عليها ، فقراء أذلاء ، فيجب أن يُخرج الأعزُّ الأذل . يقصد بالأعزُّ نفسه ، وبالأذل رسول الله ﷺ ومن معه .

ولكن الله تعالى ردَّ على المنافقين فقال :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

لله تعالى وحده العزة .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ال عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

والله يمنح عزته لرسوله ﷺ وللمؤمنين المخلصين ، وما أجمل وما أجل أن نجد فى سطر واحد ومضمون واحد عزة الله يمنحها لرسوله وللمؤمنين ، فيفيض عليهم من عزته وقدرته ، وجلاله وفضله . وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...

وقد أعز الله المؤمنين بعد ذلك فعلا ، فنصرهم على العباد وفتح لهم البلاد ، ودانت لهم الدنيا ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

قال تعالى : كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَا أَنَا وَرُسُلِي ... (المجادلة : ٢١) .

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

وذلك لخلو قلوبهم من الإيمان بالله ، واليقين به .

قال الفخر الرازي :

في الآية السابقة قال : وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْفَهُونَ . لقلة كياستهم وفهمهم .

وفي الآية التالية قال : وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ . لكثرة حماقتهم وجهلهم .

روى أن عبد الله بن عبد الله بن أبي - وكان مؤمنا مخلصا - سل سيقه على أبيه عندما أشرف على المدينة ، وقال : لله على ألا أعمدته حتى تقول : مجمد الأعز وأنا الأذل ، فلما رأى الأب الجد في وجه ابنه ، قال ذلك .

تعليق على الآيات

نلمح ما فعله الإسلام بالمهاجرين والأنصار ، لقد منحهم الهدى والإيمان ، والعزة والتماسك والقوة ، حتى رأينا ابناً مؤمناً يتألم لنفاق أبيه ، ويقول له : أنت الذليل ، ورسول الله ﷺ في عز من الرحمن ، ومنعة من المسلمين ، ويقف الابن على باب المدينة لا يسمح لأبيه بدخولها حتى يأذن له رسول الله ﷺ ، فيذهب عبد الله بن أبي بن سلول كبير المنافقين إلى رسول الله ﷺ شاكيا ابنه ، فيأذن الرسول ﷺ لكبير المنافقين بدخول المدينة ، ويقول الرسول ﷺ لابنه : «جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا» .

الإجابة إلى الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

المقررات :

لا تلهيكم ، لا يشغلكم الاهتمام بها ، والانصراف إليها .

عن ذكر الله ، عن عبادته وطاعته ومراقبته

ـــــــــــــــــ ، هلاً ، والمراد هنا : التمنى .

أخترتني ، أمهلتنى وأخرت أجلى .

تمهيد :

فى آخر سورة المنافقين يحذر الله المؤمنين من التخلق بأخلاق المنافقين :

(أ) فناداهم ونهاهم عن الانشغال بالمال والولد عن ذكر الله وطاعته ، وأداء الصلاة وإخراج الزكاة والتصدق على المحتاجين .

(ب) حثهم على فعل الطاعات ، وأداء الواجبات ، فى حال الحياة والصحة والغنى ، من قبل أن يقترب الموت ، أو يمرض السليم ، أو يفتقر الغنى ، أو تقترب الوفاة ، فيقول الإنسان : يارب ، هلاً أمهلتنى وفاتى بعض الوقت ، حتى أخرج الزكاة والصدقة ، وأقيم الصلاة ، وأفعل أفعال الصالحين .

(جـ) والحال والشأن أن الموت إذا حضر لا يتأخر من حضر أجله لحظة ، ولا يتقدم لحظة ، بل ينتقل إلى عالم الموت ، والله تعالى مطلع على جميع الأعمال ، ومحاسب على القليل والكثير .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

التفسير :

٩ - يَتْلِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .

المال نعمة ، والولد نعمة ، والإسلام يرغب في إنسان متوازن ، يستفيد بالمال في وجوه الحياة ، وما بعد الممات ، ويستفيد بالولد ، وينعم به في توازن واعتدال ، وقد أُمِرْنَا بالتوسط في حياتنا ، والتوازن والعمل للدنيا والآخرة .

قال تعالى : وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . (القصص : ٧٧) .

ومعنى الآية التاسعة من سورة المنافقون ما يأتي :

يا أيها الذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لا تشغلكم الأموال أو الأولاد أو غيرهما من عرض الدنيا عن ذكر الله وطاعته ، وامتنثال أمره بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل المأمورات وترك المنهيات .

ومن تشغله نعم الله عن طاعة الله ، والمبادرة إلى طاعته فقد خسر آخرته ، وباع جنة عرضها السماوات والأرض بعرض قليل .

قال تعالى : قُلْ مَتَّعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء : ٧٧) .

١٠ - وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَا تُؤَخِّرْنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ .

أنفقوا وأخرجوا زكاة أموالكم وصدقاتكم ، وتصدقوا من سائر ما رزقكم الله ، من المال والجاه والعلم ، وسائر أنواع المعروف ، حتى قالوا : (حاجة الناس إليكم ، من نعم الله عليكم) .

وفى الحديث الشريف : «مما من يوم إلا وينزل ملكان ، يقول الأول : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الثاني : اللهم أعط ممسكا تلغا» .

والخلاصة :

أعطوا الزكاة والصدقات ، وأنفقوا مما أعطاكم الله ورزقكم ، من قبل أن ينزل الموت بساحتكم ، ويرى الواحد منكم الموت رأى العين ، فيتمنى لو تأجل موته حتى يأخذ فرصة أخرى فى دار الدنيا ، ليتصدق من المال ، ويتعبد بالصلاة والصيام ، ويفعل الأفعال الصالحة ، ويتزود من سائر ضروب الخير والطاعة .

قال ابن عباس : تصدقوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموت ، فلا تقبل توبة ولا ينفع عمل .

١١ - وَكَانَ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

لقد جعل الله الدنيا دار اختبار وابتلاء وامتحان ، والآخرة دار جزاء على الأعمال ، وقضى سبحانه وتعالى ألا يؤخر أجل إنسان إذا حضر ، فلا يتقدم الأجل عن أوانه ولا يتأخر .

وفى السنة المطهرة : «إن أحكمكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم أربعين يوما علقة ، ثم أربعين يوما مضغة ، ثم ينفع فيه الروح ، ثم يكتب أجله ورزقه ، وشقى أو سعيد » (١٠٠) .

وقال تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتَوْبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كَفَارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧ ، ١٨) .

وقال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ... (الأنعام : ٢٨) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . (المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠) .

وقال سبحانه وتعالى : فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يُسْتَأْخَرُونَ سَاعَةً وَلَا يُسْتَقْدَمُونَ . (الأعراف : ٣٤) .

وخلاصة المعنى :

لن يمهل الله نفس إنسان إذا حان أجلها وحضر وقت موتها ، وهو سبحانه وتعالى : خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . أى : مطلع وشاهد على أعمالكم ، وسيجازيكم عليها بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا .

ونلمح أن الآية الأولى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْرُكُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ...

تنبيهه على الذكر قبل الموت ، وتحذير من الغفلة والغرور بالدنيا .

أما الآية الثانية :

وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ...

فهى تنبيهه على الشكر العملى ، بالإنفاق من المال والجاه والعلم ، وسائر ما رزق الرزاق سبحانه وتعالى .

والآية الثالثة :

تأكيد حقيقة هى : أن الدنيا عمل ولا حساب ، والآخرة حساب ولا عمل .

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .

أى : لورد إلى الدنيا ما زكى ولا حج ، ويكون ذلك كقوله تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ...

(الأنعام : ٢٨) .

★ ★ ★

تضمنت سورة المنافقون شيئين

(١) وصف المنافقين وبيان سئى خصالهم ، من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .

(٢) حث المؤمنين على الطاعة ، وإنفاق المال قبل انقضاء الأجل .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة التغابن

أهداف سورة التغابن

(سورة التغابن مدنية ، وآياتها ١٨ آية ، نزلت بعد سورة التحريم)

والتغابن بمعنى الغبن ، لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، ويأخذون أماكنهم فى الجنة ^(١٠٧) . أى ينتصر أهل الجنة فى ذلك اليوم ، لأنهم أخذوا حقهم مضاعفا .

وقال جابر الله : التغابن مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، كما ورد فى الحديث : ^(١٠٨) .

«ما من عبد يدخل الجنة إلا يرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا يرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة» . ^(١٠٩) .

قال النيسابورى : يجوز أن يُفسر التغابن بأخذ المظلوم حسنات الظالم ، وحمل الظالم خطايا المظلوم ، وإن صح مجيء التغابن بمعنى الغبن فذلك واضح فى حق كل مقصر صرف شيئا من استعداده الفطرى فى غير ما أعطى لأجله .

وقال الشيخ مخلوف : يوم التغابن يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان ، وغبن المؤمن بتقصيره فى الإحسان . ^(١١٠) .

مع السورة

فى الآيات (١-٤) نجد آيات تذكر جلال الخالق المبدع ، وتصور قدرة الله القدير :

١ - فهو سبحانه مالك الملك وصاحب الفضل والنعم ، وهو القادر القاهر المتصف بصفات الجلال والكمال ، وقدرة الله لا حدود لها فهى محيططة بكل شىء ، مهيمنة على كل شىء ، مدبرة لكل شىء ، حافظة لكل شىء ، لا يفتر عنها شىء ، سواء فى ذلك الكبير والصغير ، والليل والحقير .

والمؤمن يدرك آثار هذه القدرة ويشعر بجلال الله وعظمته ، وعلمه ووقايته ، وقهره وجبروته ، ورحمته وفضله ، وقربه منه فى كل حال .

٢ - وقد خلق الله الإنسان ومنحه الإرادة والاختيار ، وميَّزَه بذلك على جميع الموجودات ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل إليه الكتب ليساعده على الإيمان ، ومن الناس من يهديه الله للإيمان ، ومنهم من يختار الكفر والجحود .

٣ - وقد أبدع الله خلق السماء فرفعها ، وزينها بالنجوم ، وخلق الأرض وأودع فيها الأقوات ، والجبال والبحار والأنهار ، وخلق الإنسان فى أبداع صورة وأحسن تركيبه ، حيث يجتمع فيه الجمال إلى الكمال ، ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل ، ولكن الله متع الجميع بكل ما يحتاجون إليه من الآلات الجسدية ، ومن المواهب المعنوية ، ومن الخصائص التى يتفوق بها الإنسان على سائر الأحياء .

٤ - وقد أحاط علم الله بالسماء والأرض ، والسر والعلن ، والمؤمن يحس بإحاطة علم الله به ، ويشعر أنه مكشوف كله لعين الله ، فليس له سر يخفى عليه ، وليست له نية غائبة فى الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

ويهذه المعانى يستقر الإيمان فى القلب ، ويستقر تعظيم الله والشعور بجلاله ورقابته .

أما الآيتان (٥ ، ٦) فتذكران بما أصاب المكذبين للرسل من الهلاك والدمار ، لقد جاءتهم الرسل بالآيات الواضحة ، فاستكبروا أن يكون النبى إنسانا من البشر ، وأعرضوا عن الهدى فأعرض الله عنهم ، وهو سبحانه غنى عن عبادته ، محمود على نعمائه .

والآيات (٧ - ١٣) تستعرض شبهة الكافرين فى البعث وإنكارهم له ، وترد عليهم بأن البعث حقيقة مؤكدة ، ويتبع البعث الحساب والجزاء ، والإيمان بالله ورسوله هو سبيل النجاة والهداية ، فسيجمع الله المؤمنين والكفار فى يوم التغابن .

والتغابن مفاعلة من الغبن ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ، ثم صيورتهم إلى الجحيم ، فهما نصيبان متباعدان ، وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ، وليغبن كل فريق مسابقه ، ففاز فيه المؤمنون وهُزم فيه الكافرون .

إن من آمن وعمل صالحا له جزاؤه فى جنة الخلد والفوز العظيم ، ومن كفر بالله وكذب بآياته له عقابه وخلوده فى النار ويئس المصير .

وإن من أصول الإيمان أن تؤمن بالقضاء والقدر ، وأن ترى الله مصدر كل شيء ، وأن تغوض إليه الأمر ، وأن تحنى رأسك لإجلاله لعظمته وتسليما لقضائه وقدره .

وطاعة الله وطاعة الرسول طريق الفلاح ، والإعراض عن طاعتها نذير بالعقاب ، وليس هناك فى الكون إلا إله واحد ، يتوكل عليه المؤمن ويتيقن بوجوده ، ويوحده ويعظمه ، وذلك أساس العقيدة الإسلامية .

قال تعالى : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** . (التغابن : ١٣) .

روابط الأسرة

تتجه الآيات الأخيرة من السورة لبناء المجتمع ، وتهذيب العاطفة ، وتوجيه العلاقات الأسرية الوجهة السليمة ، لذلك يقول الفيروزى : سورة التغابن مكية إلا آخرها : **إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ...** إلى آخر السورة ^(١١١) .

فالآيات الأولى من السورة شبيهة بالآيات المكية فى بناء العقيدة ، وتأكيد معنى الألوهية ، وبيان صفات الله وكلماته ، أما الآيات الأخيرة من السورة فتتجه لبناء مجتمع سليم .

وفى تفسير مقاتل وابن جرير الطبرى أن الآية نزلت فى قوم كانوا أرادوا الإسلام والهجرة ، فثبطهم عن ذلك أزواجهم وأولادهم .

وروى ابن جرير عن عكرمة أن رجلا سأل ابن عباس عن قوله تعالى : **يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ مِنْكُمْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ عَنْذُوا لَكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ** ... (التغابن : ١٤) . قال : هؤلاء رجال أسلموا ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ بالمدينة ، فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، هموا أن يعاقبهم ^(١١٢) ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وفيها : **وَإِنْ تَغُفُّوا تَصْغُفُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** .

فينبغى ألا تشغل المكلف زوجته ولا أولاده عن طاعة الله ، وأن تكون أسرته وسيلة لمرضاة ربه ، ومعينة له على الصلاح والإصلاح ، إن الله يمتحن الإنسان بالمال والولد ، فالؤمن يتخذ ماله وسيلة لمرضاة ربه ، ويجعل من ولده أثرا صالحا ، وعند الله الأجر الأكبر لمن أحسن استخدام ماله وولده فى طريق الخير والإحسان .

روى الإمام أحمد : أن رسول الله ﷺ كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ، ووضعهما بين يديه ، ثم قال : «صدق الله رسوله : **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران حتى قطعت حديثى ورفعتهما» . ^(١١٣) .

وفى الأثر: الولد مجبنة مبجلة ، أى : يجعل والده جباناً وبخيلاً ، رغبة من الأب فى توفير الحماية والمال لولده .

والإسلام يهذب الغرائز ، ويمنى الفطرة ويوجِّهها إلى الوجهة السليمة ، فيأمر بالاعتدال فى حب المال والولد ، ويحذّر من الافتتان بهما ، وإذا طلبت الزوجة أو الأولاد ما يغضب الله فحذار من طاعتهما ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وكل ما قد ترى تفنى بشأسته يبقى الإله ويفنى الأهل والولد

وفى آخر السورة دعوة إلى تقوى الله قدر الطاقة والاستطاعة ، وحث على الصدقة والإحسان ، وتحذير من البخل والشح : **إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (التغابن : ١٧)** . وتقدموا صدقة للفقراء ، وعملاً صالحاً فى مرضاة الله ، فإن الله يضاعف الثواب لكم إلى سبعمائة ضعف ، ويصفح عن عقوبتكم ، ويشكر لكم أعمالكم ، وهو سبحانه شكور حلیم ، فالله صاحب الفضل والنعم ، يطلب من عبده فضل ما أعطاه ، ثم يشكر لعبده ويعامله بالحلم والعفو عن التقصير ، فما أجمل الله وما أعظم حلمه ، وما أوسع رحمته وفضله .

وفى الآية الأخيرة تظهر صفات الجلال والكمال ، فهو سبحانه ، **عَلِيمُ الْغَيْبِ** . أى : ما لا يراه العباد ويغيب عن أبصارهم ، **وَالشَّهَادَةِ** . أى : ما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم ^(١١٤) . فكل شيء مكتشف لعلمه خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته ، وهو العزيز الغالب ، الحكيم فى تدبير خلقه وصرفه إياهم فيما يصلحهم .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزباده :

معظم مقصود سورة التغابن : بيان تسبيح المخلوقات ، والحكمة فى تخليق الخلق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإنكار الكفار البعث والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد ، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتقين ، والخبر عن اطلاع الحق على علم الغيب فى قوله سبحانه : **عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** . (التغابن : ١٨) .

مظاهر قدرة الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَسْبِغُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

المضردات :

يُسْبِغُ : يَنْزِعُهُ وَيُقَدِّسُ وَيَمَجِّدُ .

ما في السماوات وما في الأرض : جميع المخلوقات في السماوات والأرض ، بدلالاتها على كماله واستغنائها .

فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، قال الشوكاني : خلق الكافر وكفره فعل له وكسب ، وخلق المؤمن وإيمانه فعل له
وكسب . والكافر يكفر ويختار الكفر ، والمؤمن يؤمن ويختار الإيمان ، والكل بإذن
الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

بِالْحَقِّ : بالغرض الصحيح ، والحكمة البالغة ، وهو أن جعل الأرض مقرّ المكلفين ، ليعملوا
فيجازيهم ، وسخر السماوات لهم .

وَصَوَّرَكُمْ : التصوير : تخطيط وتشكيل وتمييز وتخصيص ، أي : خلقكم ويراكم على صور
وهيئات شتى ، يتميز بها كل واحد عن سواه .

فأحسن صُورَكُمْ : أتقنها وأحكمها ، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات ، كمال قال تعالى : فِيَّ أَحْسَنُ
تَقْوِيمٍ . (التين : ٤) .

الْمَصِيرُ : المرجع والمآل .

والله عليم بذات الصدور : عليم بحديث النفس ، وخطرات القلب والسرّ ، فلا يخفى عليه شيء كلياً أو جزئياً ،
وعلمه بجميع الأشياء على سواء .

تمهيد :

تدل الآيات الأولى من سورة التغابن على كمال قدرة الله ، وواسع علمه ، وأطلاعه على كل شيء ، فجميع المخلوقات تسبح بحمده ، إمّا بلسان الحال ، بمعنى أن الكون البديع المنظّم المتكامل يدلّ على كمال القدرة لخالقه سبحانه وتعالى .

وإما بلسان المقال ، كما قال سبحانه وتعالى : **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...** (الإسراء: ٤٤) .

وهو سبحانه صاحب الملك وحده ، والمستحق للحمد دون سواه ، وإذا شكرنا العباد فلأنهم سبب ظاهر ، والمسبب الحقيقي هو الله تعالى .

وهو سبحانه القادر على كل شيء قدرة مطلقة ، فلا يعجزه شيء وهو سبحانه فعال لما يريد .

وهو سبحانه خلق الخلق ، ومنهم الإرادة والاختيار ، والكسب والقدرة على التصرف ، فمنهم من اختار الكفر ، ومنهم من اختار الإيمان ، والله تعالى مطلع على كل شيء ، وسيجزي كل إنسان حسب عمله .

الله خالق السماوات والأرض بالحق والعدل ، فوضع الأرض للأنام ، وجعل فيها معاش للإنسان ، وسخر للإنسان السماء وسائر ما في الكون ، كما خلقه في أحسن تقويم وأفضل صورة ، وإليه سبحانه وتعالى المرجع والمصير .

والله تعالى عالم بكل مخلوقاته في السماوات والأرض ، وعليم بكل السر والعلن ، وهو سبحانه عليم بالخفايا والنوايا ، وعلمه شامل للظاهر والباطن ، وخلجات النفس ، وخفايا الصدور ، وتكشف أمامه جميع الموجودات انكشافاً تاماً دون سبق خفاء .

التفسير:

١ - يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

كل شيء في الكون خاضع لقدرة الله ، مؤمن بوجود الله ، مسبح ومعظم ومنزه لله عن كل نقص ، ومعترف له بكل كمال ، فالملك لله وحده ، والحمد لله وحده ، وملك الناس أمر عارض ومنتقل ، وشكرنا للناس هو شكر لمن أجرى الله النعمة على يديه ، فالمخلوق سبب ظاهر ، والمسبب الحقيقي هو الله تعالى .

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

والقدرة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، فهو خالق الأكوان ، ورازق الأكوان ، ومدير الملك والخلق ، وهو فعال لما يريد ، لا حدود لقدرته ، ولا راد لأمره .

قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فإذا أراد إيجاد شيء امتثل ووجد في سرعة قول القائل كُنْ ، وامتثال الشيء ووجوده في الحال ، فكل شيء في الكون خاضع لقدرته ومشيئته وإرادته .

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ٢٠) .

٢ - هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

الله تعالى خالق كل شيء ، وقد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وسخر له كل شيء في الكون ، وكرم الله الإنسان فخلقه بيده ، ونفع فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار وجعل الإنسان مكونا من جسم وروح ، جامعا بين القوى البدنية والقوى العلوية .

فمن الناس من اختار الكفر والضلال والإلحاد بكسبه وإرادته ، ومن الناس من اختار الإيمان والطاعة والهداية ، والسير على الصراط المستقيم ، فسار مع الفطرة الإلهية ، واتسق مع الكون ، لأن الكون كله خاضع لأمر الله ، مسبوح بحمده ، والإنسان مؤمن بالفطرة .

قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، كما تولد البهيمة هل تحسون فيها من جدعاء ؟ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» .^(١١٤) (رواه البخاري) .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

هو تعالى مطلع على أعمالكم ، وسيجازيكم عليها بالعدل ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

قال الطبري :

فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ...

أي : منكم كافر بخالقه ، وأنه هو الذي خلقه ، ومنكم مصدق به مؤمن أنه خالقه وبارئه .

٣ - خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ .

خلق السماوات والأرض بالحكمة البالغة ، وجعل الأرض مستقرا للإنسان ، وألهمه أداء مهمته ، ولم يخلق السماوات والأرض عبثا بدون هدف ، بل خلقهما بالحق والعدل ، ومن الحق أن يكافئ الطائع ، وأن يحاسب ويعاقب العاصي .

وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ...

خلق الإنسان في أبدع صورة ، وأكمل هيئة ، ومنحه العقل والقوى الظاهرة والباطنة ، وأعطاه العقل والقدرة على الإبداع ، واستنباط المجهول من المعلوم ، وخلقه قائما منتصبا في أجمل شكل ، وشق له في وجهه للنظر عينين ، وللمسمع أذنين ، ولسانا وشفتين ، وهده النجدين ، وبيّن له الطريقين ، والجمال متفاوت ، والحسن متفاوت ، وكل إنسان قد أوتى نصيبا من الجمال ، بيد أن هناك الحسن والأحسن ، كما أن هناك العالم والأعلم : وَقَرِّقْ كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . (يوسف : ٧٦) .

جاء في تفسير الألوسي :

قالت الحكماء : شيان لا غاية لهما : الجمال والبيان .

وقال القرطبي :

فإن قيل : كيف أحسن صورهم ؟

قيل له : جعلهم أحسن الحيوان كله ، وأبهاء صورة ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب . اهـ .

إن روح الإنسان مؤهلة للسمو الروحي ، والتألق في عالم الروحانيات ، بمحبة الله وعبادته وتسبيحه وتقديسه ، وتكبيره والالتجاء إليه ، والتفكير في خلقه ، والتملئ بجمال مخلوقاته .

ويدن الإنسان من عالم الأشباح ، وهذا التركيب من خصائص الإنسان ، ففيه جزء طينى أرضى هو الجسم ، وفيه فيض نفخة روح الله تعالى .

قال تعالى : إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ .

(ص : ٧١ ، ٧٢)

وقال الشاعر :

وزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وَالَيْهِ الْمَصِيرُ . المرجع والمآل ، والحساب والجزاء .

٤ - يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

هو العليم بكل شيء .

قال تعالى : وَمَا تَنْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَبْءٌ وَلَا نَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

هو العليم بالخبر بسائر الموجودات فى السماوات والأرض .

إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وهو العليم بالغيب والشهادة ، أى بما غاب عن الحسّ وما ظهر أمام الحسّ ، وهو مطلع على السرّ

والعلن ، فلا تخفى عليه خافية .

قال تعالى : مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ

إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (المجادلة : ٧) .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

هو عليم بما تكنه الصدور وما تخفيه ، فهو مطلع على الأسرار وخفايا الضمائر .

يا عالم الأسرار حسبى محنة علمى بأنك عالم الأسرار

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق : ١٦) .

تأنيب المكذابين للرسل

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ
كَانَتْ تَأْنِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ۝﴾

المضردات :

وبال أمرهم : سوء عاقبة كفرهم في الدنيا .

تولّوا ، أعرضوا عن الإيمان بالرسل .

تمهيد :

حفل القرآن الكريم بكثير من قصص السّابقين المكذّبين للرسل ، الذين أهلكهم الله ، كقوم نوح ، وعاد
وهمود ، وفرعون وملئه ، وقوم لوط ، وهذه القصص كانت متداولة بين المشركين ، فقد وردت في التوراة
والإنجيل ، وإذا ترجع لدينا أن سورة التغابن مدنية ، يكون القرآن المكي قد حفل بقصص المكذّبين للرسل ،
وانتقام الله منهم .

وهنا يذكر المشركين ، ويقول لهم : ألم يصل إلى أسماعكم أخبار المكذّبين للرسل من الأمم السابقة ،
الذين استحقوا الهلاك ، وذاقوا عاقبة كفرهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب أليم ، وهذا الهلاك بسبب أن
رسلهم جاءت إليهم بالبينات والمعجزات ، وأساليب الهداية والإيمان ، فكابروا وقالوا : أنؤمن لبشر مثلنا لا
يتميز علينا بشيء ، وأعرضوا عن الإيمان ، واستغنى الله عن إيمانهم ، فأهلكهم الله ، والله غنى عن عباده ،
محمود على حسن فعاله .

التفسير :

٥ - أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

ألم يصل إلى أسماعكم - لتعتبروا وتتعضّوا - خبر الذين كفروا بالله وكذبوا رسل الله إليهم ، كقوم نوح
وعاد وthemود ، وقوم لوط ، لقد أغرقهم الله أو أهلكهم بأنواع مهلكة مدمرة ، كالصاعقة والخسف والمطر بحجارة
مهلكة ، فقالوا عاقبة كفرهم ، وذاقوا عاقبة عصيانهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب أليم في نار جهنم .

٦ - ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَانُوا أَبْشَرُ يُهْجَرُونَ فَكْفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

ذلك الذى أصابهم من عذاب الدنيا وسعير جهنم فى الآخرة بسبب أن الرسل جاءت إليهم بالآيات البينات وألوان الهداية والمعجزات ، فقالوا : لا نتبع بشراً مثلنا .

والله تعالى حكيم عليم ، حيث أرسل الرسل إلى البشر من جنسهم ، ليكون الرسول قدوة عملية ، ونموذجاً عملياً ، ولو كانت أقوام الرسل ملائكة تمشى مطمئنة فى الأرض لأنزل الله عليهم ملكاً رسولاً ، لكن حكمته قد اقتضت أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، يتكلم بلغتهم ، ويحس بإحساسهم ، ويتحاور معهم باللغة التى يفهمونها .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ يُبَيِّنُ لَهُمْ ... (إبراهيم : ٤) .

ومن فضل الله أن يمن على بعض البشر بالرسالة ، فيصطفاهم ويختارهم : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ... (الأنعام : ١٢٤) . ثم يرسل أمين الوحي إليهم بالرسالة والنبوّة ، وبذلك يتم فضل الله .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِّقَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَرِيظًا حَكِيمًا . (النساء : ١٦٥) .

والخلاصة :

إن عذاب المكذبين وهلاكهم بسبب أنهم قابلوا رسلهم بالكذب والإعراض ، والله غنى عنهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضره كفرهم ، وهو سبحانه غنى عن خلقه ، محمود على حسن فعله .

قال تعالى : يَتْلَاهَا النَّاسُ أَثْمَ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ • إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ • وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر : ١٥ - ١٧) .

يوم التغابن

﴿ زَمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبِّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ الْيَوْمَ الْجَمْعُ ذَٰلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾

المضردات :

زعم الذين كفروا ، الرّعم : ادعاء العلم ، أى : ادعوا كذباً أنهم لن يُبعثوا أحياء من قبورهم .

قل بلى وربى لتبعثن ، قل لهم يا رسولنا : بلى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما علمتم .

يوم التغابن ، هو يوم القيامة ، وسمي يوم التغابن لأن الكافر غبن نفسه وظلمها بترك الإيمان ، أما المؤمن فيغبن نفسه لتقصيره فى الطاعات والإيمان .

تمهيد :

يستعرض القرآن شبه الكافرين ، حيث أنكروا البعث والحشر والحساب ، فأقسم الحق أن البعث حق ، ويتبعه الجزاء العادل ، وأن البعث هين يسير على الله ، فمن خلق الخلق فى الابتداء قادر على إعادتهم يوم القيامة .

ثم دعاهم الله إلى الإيمان بالله رباً ، ويمحمد رسلاً ، وبالقرآن الكريم نوراً وهداية ، والله خبير ومطلع على الظاهر والباطن .

سيجمع الله الخلق فى يوم الجمع ، حيث يجتمع فيه الأولون والآخرون ، وهو يوم التغابن ، فقد غبن الكافرون ، وريح المؤمنون ، فالمؤمنون باعوا دنياهم واشتروا جنة عرضها السماوات والأرض ، أما الكفار فقد باعوا نصيبهم فى الجنة بعرض قليل من الدنيا وزهرتها ، ثم بين الله أن للمؤمن بالله - الذى عمل صالحاً - جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم المصير مصير المتقين ، أما الكافر فمآله جهنم وبئس المصير .

التفسير :

٧ - زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .

ادعى الكفار كذبا أنه لا بعث ولا حشر ولا جزاء ، ولا ثواب ولا عقاب .

قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ...

قل لهم يا محمد : أقسم بالله غير حانت أن البعث حق وأن القيامة حق . لَتُبْعَثُنَّ . بالتأكيد ، ثم ستخبرون بأعمالكم ، وتحاسبون عليها ، وهذا البعث هين يسير على الله ، كما بدأ الخلق أول مرة ، يعيدهم مرة أخرى .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، وَغَدَاً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤) .

وهذه الآية ورد فيها القسم بذات الله تعالى .

قال ابن كثير :

وهذه الآية هي الثالثة التي أمر الله رسوله أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده .

فالأولى في يونس : وَيَسْتَبْشِرُونَكَ أَتَقُولُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ... (يونس : ٥٣) .

والثانية في سبأ : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (سبأ : ٣) .

والثالثة : هذه الآية ^(١١٧) .

٨ - فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْثَوْرَ الَّتِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

في الآية السابقة تأكيد لشأن البعث والحشر والحساب ، وهذه الآية كالنتيجة لما سبقها .

أى : إذا كان البعث حقيقة ، والحساب والجزاء مؤكدا ، فآمنوا بالله ربا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، وبالقرآن كتابا سماويا ، وهو نور أنزله من السماء يضيء للناس حياتهم ، ويرشدهم إلى الإيمان ، ويوضح لهم أسلوب التعامل ، وبيان الحلال والحرام .

ويرشدهم إلى أخبار السابقين ، وآداب التعامل في الحياة ، ومشاهد القيامة وأخبارها وأحوالها ، فالقرآن نور منزل من عند الله نور السماوات والأرض ، والقرآن هداية من عند الله تعالى .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

هو مطلع وشاهد ، ورقيب وحسب ، وسحاسبكم يوم القيامة ، ويجازيكم على أعمالكم .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا إِنَّكَ تُنْهَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

٩ - يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ التَّجْمَعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

فى يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين ، ولذلك سُمى يوم الجمع ، حيث يُحْشَرُ الناس من عهد آدم إلى قيام الساعة ، فى وقت واحد ، ومكان واحد ، يراهم المبصر ، ويسمعهم السامع ، وهذا اليوم له أسماء متعددة : فهو يوم القيامة ، والحاقة ، والزلزلة ، والساعة ، والقارعة ، والجائية ، وكلها أسماء تدل على الهول الكبير الذى يصيب الناس .

ومن أسماء يوم القيامة : التَّغَابُنِ . وأساس الغبن النقص فى التجارة ، والمغبون من باع صفقته بأقل من ثمنها .

وكانما كانت الدنيا سباقاً بين المؤمنين والكافرين ، فاز فى هذا السباق المؤمنون ، وكان جزاؤهم الجنة ، وخسر فى هذا السباق الكافرون ، وكان جزاؤهم النار ، فالكافر مغبون لأنه باع نصيبه فى الجنة بعرض فإن من أعراض الدنيا ، والمؤمن غبن الكافر ، وأخذ مكانه فى الجنة ، فهو غبن معنوى ، وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة»^(١١٧) . (أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد) .

قال القرطبى :

يَوْمُ التَّغَابُنِ . أى : يوم القيامة ، ... وسمى يوم القيامة بيوم التغابن لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار ، أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأهل النار أخذوا النار ، على طريق المبادلة ، فوقع الغبن على الكافرين ، لأجل مبادلتهم الشر بالخير ، والعذاب بالنعيم .

ثم فسر القرآن التغابن ببيان الجزاء العظيم ، والنعيم المقيم لأهل الجنة ، والغذاب الأليم لأهل النار .

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

فهذا هو الفريق الفائز فى سباق التغابن ، فريق من آمن بالله رباً ، وعمل عملاً صالحاً ، فجزأؤه محو السيئات ، ومغفرة الذنوب ، ودخول جنات تجرى الأنهار من تحتها ، والخلود الأبدى السرمدى فى الجنة .

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

هؤلاء السابقون المتفوقون ، الفائزون بذلك الفوز العظيم ، والجائزة الكبرى ، والنعمة العظمى ، ورضوان الله وكرامته ، وجائزته فى القيامة .

١٠ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

وهذا هو نصيب الذين كفروا بالله ، وجحدوا وجوده ، وكذبوا بالكتب وبالآيات البينات والمعجزات الواضحات ، فاستحقوا النار كماكتبن فيها ، كأنهم أصحابها الملامزون لها ، وساءت مصيرها ، وبئس المآل نهاية أهل النار ، فهم فى عذاب مقيم ، وخسران مبين .

تلك نهاية السباق ، وخاتمة التغابن ، حيث فاز المؤمنون بالجنة ونعيمها ، ونال الكافرون النار وعذابها ، فنعم جزاء المتقين الجنة ، وبئس عاقبة الكافرين النار وبئس المصير .

اللهم إنا نسألك الجنة ، ونعوذ بك من النار ، ومن عذاب النار ، إنك أنت العزيز الغفار ، اللهم آمين .

★ ★ ★

الإيمان بالقضاء هداية

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ ١١ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

﴿ ١٢ ﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَىٰ اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ١٣ ﴾

المضردات :

ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ما أصابت أحداً من الناس مصيبة إلا بقضاء الله تعالى وتقديره ذلك عليه .

ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، ومن صدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذنه تعالى ، يهد قلبه للتسليم ، والرضا بقضائه ، فيسترجع ويصبر .

فإن توليتم ، فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله ، فلا ضرر ولا بأس على رسولنا من إعراضكم ، إذ عليه إيلாகم لا هدايتكم .

تمهيد :

هذه آيات تغرس اليقين في القلب ، وتؤدي بالمؤمن إلى اليقين الجازم بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره ، وقد يتعرض المؤمن للأذى أو الفقر ، أو المرض أو الآلام أو المصائب ، والمؤمن يلقي ذلك بالصبر واليقين بأن بيد الله كل شيء ، فيصبر على البأساء ، ويشكر على النعماء ، ويرضى بأسباب القضاء .

وفي الآيات دعوة إلى طاعة الله ، وطاعة الرسول ﷺ ، فإن أعرضتم عن الإيمان أيها المشركون ، فضرر ذلك واقع عليكم وحكم ، وليس على رسولنا محمد ﷺ إلا البلاغ إليكم ، وليس من واجباته هدايتكم . والله وحده هو الإله المعبود بحق ، وعلى الله فليتكمل المؤمنون ، فهم يؤثرون ما يجب عليهم ، ثم يعتمدون على الله وحده في نجاح سعيهم ، والتوكل غير التواكل .

سبب النزول :

قيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ما عليه المسلمون حقاً لصانهم الله عن المصائب في الدنيا ، فبين الله تعالى أن ما أصاب من مصيبة في نفس أو مال ، أو قول أو فعل ، يقتضى همّاً أو يوجب عقاباً عاجلاً أو آجلاً ، فبعلم الله وقضائه . (١١٨) .

التفسير :

١١ - مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

من شأن المؤمن أن يؤمن بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره ، فإذا نزلت بساحته المصائب صبر وتصبر وتماسك ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقال أيضاً : اللهم أوثرني في مصيبتى وعوضنى خيراً منها .

أى : ارزقنى ثواب ذلك المصائب ، وعوضنى خيراً منه بفضلك .

أخرج البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضرأ صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . (١١٩)

وقال ابن عباس : يَأْذَنُ اللَّهُ . يعنى عن قدره ومشيتته . اهـ .

وهذا الرضا بالقضاء والقدر يجعل المؤمن راضياً محتسباً ، ثابت الجنان ، هادئ النفس .

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ...

إن الإيمان بالله تعالى ، والوفوق بأنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الفعال لما يريد ، يجعل القلب فى هداية وصبر ، واحتمال وتماسك .

وقرأ السلمي وقتادة: يُهْدُ قَلْبَهُ . بضمُ الياء وفتح الدال ، ورفع الباء على البناء للمجهول .

وقرأ عكرمة: يُهْدُ قَلْبَهُ . بهمزة ساكنة ، ورفع الباء ، أى : يسكن ويطمئن .

وقد وردت عدة قراءات فى تفسير القرطبي ، وتلتقى جميعها على أن هداية القلب أو هدوء القلب منحة إلهية ، أو هبة ربّانية وعطاء من الله للمؤمن الذى اطمأن إلى قضاء الله وقدره ، فرضى واحتسب وصبر ، وتيقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

قال علقمة : وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ...

هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أى : هو سبحانه مطلع على خفايا النفوس ، عليم بمن صبر وبمن جزع ، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، فليثق المؤمن ربه ، وليصبر على البأساء ، وليشكر على النعماء ، وليكن راضياً بالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومرّه .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . (الحديد : ٢٢ ، ٢٣) .

١٢ - وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ .

التمزوا طاعة الله فيما أمر به ، وطاعة الرسول فيما يبلغكم به من أوامر وأحكام ، فإن طاعة الرسول طاعة لله .

قال تعالى: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (النساء: ٨٠).

فإن أعرضتم أيها المشركون عن الإيمان بالله ورسوله ، وعن طاعة الله وطاعة رسوله ، فإنما إنتم ذلك واقع عليكم وحكمكم ، وليس على الرسول إلا البلاغ ، أمّا أمر الهداية والتوفيق للإيمان فبيد الله وحده ، ومستولية الإعراض تقع على عاتقكم وحكمكم .

قال تعالى: مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلْغُ ... (المائدة: ٩٩).

وقال سبحانه: إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلْغُ ... (الشورى: ٤٨).

وقال عز شأنه: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ... (القصص: ٥٦).

وقال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ... (البقرة: ٢٧٢).

١٣ - اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

الله عز وجل هو خالق الأكوان ، وهو الإله الحق ، لا معبود بحق سواه ، ولا إله إلا الله ، وكل ما خلاه باطل ، فالأصنام والأوثان ، وعزير والمسيح والملائكة ، والبقر والشجر ، والشمس والقمر والنجوم ، كلها مخلوقات لله ، مربية له ، فهو الإله الواحد ، وكل ما سواه مخلوق مربوب عبد لله .

قال تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . (الأعراف: ٥٤).

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

التوكل هو الاعتماد على الله والالتجاء إليه ، والثقة بقدرته ، والركون والاعتماد عليه ، بعد الأخذ بالأسباب .

والتوكل غير التواكل ، فالمتوكل هو من يبذر البذرة ، ويعتمد على الله فى إنضاج الثمرة .

فالمؤمن مطالب بالأخذ بالأسباب ، وفى نفس الوقت مطالب باليقين الكامل بأن مسبب الأسباب هو الله تعالى ، وبذلك يكون التوكل على الله طاقة إيجابية تحتاج أمرين رئيسيين فى وقت واحد :

الأول : العمل اللازم مع إتقانه والرقى به .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف: ٣٠).

الثاني : التوكل على الله ، والثقة به ، واليقين بنصره ، والتضرع إليه والاعتماد عليه .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

وقريب من هذه الآية قوله تعالى في سورة إبراهيم :

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا تَلَا لَا تَكُونَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . (إبراهيم : ١١ ، ١٢) .

★ ★ ★

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَأَنْفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَن يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضْعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلَيْهِمُ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

المضردات :

فاحذروهم : فكونوا منهم على حذر ، ولا تطيعوهم .

تعمشوا : تتركوا العقوبة .

وتصفحوا : تعرضوا عن التَّعْيِيرِ والتَّأْنِيبِ .

تغفروا : تستروا ذنوبهم وإساءاتهم .

فتنة : ابتلاء واختبار وامتحان .

ومن يوق : ومن يحفظ نفسه .

الشيء : البخل مع الحرص .

القرض الحسن : التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس .

شكور : عظيم الفضل والإحسان ، بإعطاء الجزيل على القليل .

عالم الغيب : ما غاب عن الأنظار ، ويشمل السر .

والشهادة : ما يشاهد بالحوس ، ويشمل العلانية ، فلا يخفى عليه شيء .

العزیز : القوي في ملكه .

الحكيم : المتقن في صنعه وتدبيره .

تمهيد:

هذه آيات تربية وتعليم من الله تعالى لعباده ، تحذّرهم من أن يكون حبّهم لأزواجهم وأولادهم حاملاً لهم على ارتكاب الحرام، كالزواج الذي تحمله زوجته على هجر ضررتها ، وكالولد الذي يغري أباه بالسرقه أو المذلة .

سأل رجل عبد الله بن عباس عن قوله تعالى : يَكْفِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ بالمدينة ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهاوا في الدين ، فهموا أن يعاقبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وفيها : وَإِنْ تَغَفَرُوا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (١٢٠)

والمال نعمة ، والولد نعمة ، وقد أمرنا الله أن نشكره سبحانه على النعمة ، بإخراج زكاة المال ، وإخراج الصدقات والكفارات وصلة الرحم ، والمساهمة في الخيرات والواجبات ، كما أمرنا الإسلام بتربية الأولاد والبنات ، وتعليمهم مكارم الأخلاق وآداب الإسلام والمحافظة على الصلاة ، والتوازن في التربية ، فلا تكن رطباً فتعصر ، ولا صلباً فتكسر ، بل ينبغي أن تكون متوسطاً متوازناً ، تأمر وتنصح ، وتكافئ وتعاقب .

وتأمر الآيات بتقوى الله في رفق وتوسط واعتدال ، وبإنفاق المال وإتقاء الشح والبخل والحرص والجشع ، ثم تحثنا على الصدقة ومساعدة المحتاجين ، فذلك قرض لله ، والله تعالى يضاعف للمؤمن الذواب والجزاء .

التفسير:

١٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَذْوًا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

نداء إلهي علوي إلى جميع المؤمنين ، محذرا ومبيناً أن بعض الأزواج وبعض الأولاد يحملون أزواجهم وآباءهم على بيع ثوابهم وآخرتهم ، وجنات ربهم ، وشراء عرض الحياة الدنيا .

فقد تُزَيِّن الزوجة لزوجها ترك الجهاد ، أو ترك الزكاة أو الصدقة ، أو المساهمة في عمل خير ، أو ترك حقوق ضررتها ، وعدم إعطائها حقها ، فيطيع الزوج زوجته ، والطاعة لا تكون إلا في المعروف ، وقد يطلب الابن طلبا غير متمسر لأبيه من طرق الحلال، فريما ارتكب السرقة أو الرشوة ، أو أخذ المال الحرام أو الشبهات في سبيل مرضاة الابن .

لذلك حذرنا القرآن من طاعة الزوجة التي تأمر بالمنكر ، ومن طاعة الولد الذي يُحرض أباه على الحرام ، قال تعالى : فَاحْذَرُوهُمْ . أى : كونوا على حذر من طلبات لا تتفق مع مرضاة الله ، وأوامر رسوله وتشريع دينه .

وَإِنْ تَعَفَّوْا . عن ذنوبهم ، وتتجاوزوا عن سيئاتهم التي تقبل العفو ، أو الأخطاء التي أعقبتها توبة من الزوجة أو الأولاد .

وَتَصَفَّحُوا . تعرضوا عن التعبير والتأنيب واللوم .

وَتَغْفِرُوا . تسامحهم ، وتأخذوا بأيديهم وتساعدوهم على معذرتهم وتوبيتهم ، واستقامتهم وسلوكهم المستقيم .

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

فإن من صفات الله المغفرة ، وستر الذنوب ، وقبول التوبة ، ومحو السيئات ، فتخلقوا بأخلاق الإسلام ، وسامحوا أزواجكم وأولادكم ، حتى يسامحكم الله ويغفر لكم .

١٥ - إِنَّمَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

المال والولد فتنة ، بمعنى اختبار وإبتلاء ، لينظر الله إلى سلوك العبد تجاه هذه النعمة ، هل يؤدي زكاة المال ؟ هل يتصدق على المحتاجين ؟ هل يساعد الضعفاء والمساكين ؟

وهل يتقى الله فى الأولاد ، فيحسن تربيتهم وتعليمهم وتهذيبهم ؟ وهل يماسك أمام الزوجة والأولاد ، فلا يشغل بهم عن حقوق الله عليه ؟

كما قال سبحانه وتعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .** (المنافقون : ٩) .

والمراد بذكر الله : تذكره وطاعته ، والتمزام بأوامره ، واجتناب نواهيه .

وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

وعند الله ثواب عظيم ، وجزاء كريم فى الدنيا والآخرة ، لمن آثر الحلال من الأموال ، وابتعد عن الحرام والشبهات ، وآثر الالتزام بأوامر الله فى تربية أولاده وبناته ، فصانهم عن الحرام ، وحثهم على أداء الفرائض ، واجتناب المحرمات ، فهذا أهل للجزاء العظيم عند الله ، حيث يجعله من أهل القربى والزلفى والرضوان والنعيم المقيم .

أخرج البخارى ومسلم ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يارب ، وأى شئ أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبداً» . (١٣٧) .

١٦ - **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا وَأَطِيعُوا خَيْرًا لَّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .**

ذكر ابن كثير أن هذه الآية ناسخة للتي فى آل عمران ، وهى قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ...** (آل عمران : ١٠٢) .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبیر قال : لما نزلت : **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ** . اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى رمت عراقيبهم ، وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفا على المسلمين : **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ..** فنسخت الآية الأولى .

قال المفسرون :

فى المأمورات وفضائل الأعمال يأتى الإنسان منها بقدر طاقته ، لتفاوت الهمم والرغبة فى الثواب ، فيأتى كل إنسان منها حسب استطاعته ، وأما فى المحظورات فلا بد من اجتنابها بالكلية ، ويدل على ذلك ما رواه الشيخان أن النبى ﷺ قال : «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (١٣٧) .

وَأَسْمَعُوا . فما تؤمرون به . وَأَطِيعُوا . أوامر الله تعالى ورسوله . وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ . أى : أنفقوا فى سبيل الله ، وفى مصالح الأمة ، فإن هذه النفقة يكون ثوابها خيرا لأنفسكم مما تكتزونونه لورثتكم .

وفى الحديث الشريف : «إن مالك ما قدمت ، ومال وارثك ما أخرت» .

وَمَنْ يُوَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ومن وقاه الله من داء الشح والبخل ، والجشع والطمع ، فقد فاز بالفلاح فى الدنيا والآخرة ، حيث يحبه أهله وجيرانه وأقاربه وأهل وطنه فى الدنيا ، ويتمتع بجنة واسعة ورضوان من الله أكبر فى الآخرة .

قال تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسَّعٌ عَلِيمٌ . (البقرة : ٢٦١) .

١٧ - إِنْ تَقَرَّضُوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ .

إن تنفقوا أموالكم فى مرضاة الله ، والعطف على الفقراء والمساكين ، يضاعف الله لكم الثواب ، ويستر ذنوبكم ويسامحكم ، ويتفضل عليكم بالمغفرة والجزاء المضاعف فى الدنيا والآخرة ، فهو شاكر للمحسن إحسانه ، حليمٌ . بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ويقبل توبة التائبين ، ويضاعف الثواب للمحسنين .

١٨ - عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

هو سبحانه وتعالى عالم بما غاب وبما حضر ، مطلع على ما غاب وأخفته القلوب فى أنفائها ، كعلمه بما هو حاضر وظاهر للعيان .

وهو ، الْعَزِيزُ . الغالب الذى لا يُغلب ولا يُقهر ؛ وهو القاهر فوق عباده . الْحَكِيمُ . الذى يجرى كل أمر على مقتضى حكمته وتدبيره وإرادته سبحانه وتعالى .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة التغابن

- ١ - صفات الله الحسنى .
- ٢ - إنذار المشركين بذكر ما حلَّ بمن قبلهم من الأمم ، مع بيان السبب فيما نالهم من ذلك .
- ٣ - إنكار المشركين للبعث ، والردَّ عليهم .
- ٤ - بيان أن ما يحدث فى الكون هو بأمر الله وتقديره .
- ٥ - تسلية الرسول ﷺ بأنه لا يضريره إصرارهم على الكفر .
- ٦ - إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .
- ٧ - الأموال والأولاد فتنة وابتلاء .
- ٨ - الحث على التقوى والإنفاق فى سبيل الله .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (التغابن) مساء الثلاثاء ٥ من ذى القعدة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٣٠ من يناير ٢٠٠١ م . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الطلاق

أهداف سورة الطلاق

(سورة الطلاق مدنية، وآياتها ١٢ آية، نزلت بعد سورة الإنسان)

المنهاية بالأسرة،

عنى الإسلام بنظام الأسرة، ودعا إلى تدعيم روابط المحبة والمودة بين الزوجين، وجعل الألفة بينهما آية من آيات الله.

قال تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ...

(الروم: ٢١).

وقد حفل القرآن الكريم بشأن العلاقات الزوجية والعائلية، فحرص على سلامة الأسرة وتأكيد مودة الأبناء للآباء، ورعاية الآباء للأبناء، ثم حث الزوج على إحسان معاملة زوجته، والتسامح معها والصفح عن بعض هفواتها، وعدم التسرع فى طلاقها، فلعل البغيض يصبح حبيباً، ولعل الله أن يرزق الزوجين ثمرة تقوى الروابط المشتركة بينهما.

قال تعالى: وَغَايِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيجعلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا.

(النساء: ١٩).

«إن الإسلام لا يحارب دوافع الغطرة ولا يستقذرها، إنما ينظمها ويطهرها، ويرفعها عن المستوى الحيوانى، ويرقيها حتى تصبح هى المحور الذى يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية، ويقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التى تجعل من التقاء جسدين التقاء نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة، ومستقبل مشترك، يلتقى فى الذرية المرتقبة، ويتقابل فى الجيل الجديد الذى ينشأ فى العش المشترك، الذى يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان»^(١٣٣).

وقد حظيت تشريعات الأسرة بعناية القرآن والسنة، والفقه الإسلامى والأدراست الإسلامية.

ونذكر من روح الدين الإسلامى ومن تشريعاته رغبته فى استقرار الأسرة، واستمرار الرابطة الزوجية.

«وقد أحاط الإسلام بأبواب رابطة الزوجية بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها ، وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفننة كي تستقر العواطف ، ولا تلتفت القلوب إلى هتاف المتبرجة ، ويفرض حدُّ الزنا وحدُّ القذف ، ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها ، والاستئذان بين أهلها في داخلها»^(١٢١).

وفي كتب السنة الصحاح حشد رائع من الأحاديث النبوية الشريفة تتضمن التوصية بالنساء ، وإحسان معاملتهن ، وتطبيب خواطرهن ، وتجعل طاعة المرأة لزوجها فريضة ، ومحافظة على بيته وسره وأولاده حقاً واجباً ، ورعايتهما لما تحت يدها أمانة ، وتحث الزوجين علي تقوية الروابط بينهما ، والتعاون من أجل وحدة الهدف واستبقاء الحياة الزوجية ، وتربية الأبناء والذرية .. فيقول النبي ﷺ : «استوصوا بالنساء خيراً»^(١٢٢) . ويقول ﷺ : «كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الرجل راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راع وهي مسئولة عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»^(١٢٣).

الطلاق

نزل القرآن الكريم من عند العظيم الخبير ، البصير بالنفوس وطبائعها ، والعواطف وجموحها ، والغرائز وتكوينها ، فقد تصاب سقينة الحياة الزوجية ببعض الصدمات والاضطرابات ، وعندئذ يوصي القرآن الرجل بالترقيح والترقب ، وعدم اتباع الهوى ونزوات الغضب .

فإذا اشتد الخلاف بين الزوجين ، وكثر النزاع بينهما ، فلا مانع من التفاهم بالمعروف على نقاط الخلاف ، ودراسة أسباب النزاع ، ليتعرف كل طرف على ما يؤلمه من الطرف الآخر ، وهذه المعرفة يمكن أن تكون وسيلة عملية إلى أن يتجنب كل طرف ما يؤلم شريك حياته ، أو يخفف من هذه الآلام ، وهذا نوع من استدامة العشرة أو تحمل المسيرة .

فإذا لم يجزِ التفاهم الشخصي بين الزوجين ، وتفاقمت الأمور وتحولت إلى النفور والنشوز ، والرغبة في الإعراض والفرار ، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام ، بل لابد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله أهل الخبرة والتجربة ، أو أهل العلم والمعرفة بشئون الحياة الزوجية ، أو بعض الأقارب المحنكين .

قال تعالى : وَإِنْ عَفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَنْبَهُوهُمَا بِكَلِمَاتٍ مِنْ أَهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا . (النساء : ٣٥) .

وقال تعالى : وَإِنْ امْرَأَةٌ خَالَتْ مِنْ بَعْلِهَا نَشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ... (النساء : ١٢٨) .

وفى نصوص القرآن والسنة والآثار ما يحض على استبقاء الحياة الزوجية ، والقناعة والرضا ، وعدم التطلع إلى الآخرين .

قال تعالى : لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ... (الحجر : ٨٨) .

ويقول النبي ﷺ : «إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات ، فإذا تزوجتم فلا تطلقوا» .

وجاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يريد أن يطلق زوجته ، فسأله عمر عن السبب ، فقال الرجل : إني لا أحبها ، فقال له عمر : أو كل البيوت تبني على الحب ؟ فأين التذم وأين الوفاء ؟

أى أنك أعطيت زوجتك أملا وعهدا صادقا ، وذمة بأن تكون لك ، فاتق الله فى هذا العهد وهذه الذمة ، وهذا الأمل ، فلا تهدم بيتك بيدك ، ولا تخيب أمالا تعلقت بك .

وقد سمي الله الزواج ميثاقا غليظا ، ثم حث على حسن العشرة ، أو على الفراق بالمعروف ، والإحسان إلى الزوجة ومكارمتها ، وترك بعض الأموال والمهر تطيبيا لخاطرها ، وتعريضا لها عما أصابها من أضرار .

قال تعالى : وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَاطَ زُوجِ مُكَانَ زَوْجِ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِبْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مِيثَاقُكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا . (النساء : ٢٠ ، ٢١) .

مع السورة

مما شرعه الله للحد من الطلاق أنه لم يبح الطلاق فى كل وقت ، بل أمر بالصبر والتريث والانتظار ، فقد يكون الرجل واقعا تحت تأثير جامع أو نزوة عارضة .

كما أن المرأة إنسان مرهف الإحساس فى حاجة إلى اللطف وحسن المعاملة ، ويتمثل ذلك فيما يأتي :

١ - ينبغى أن يكون الطلاق فى طهر لم تجامع فيه المرأة ، حتى تستقبل عدتها بدون تطويل عليها (١٣٧)

٢ - ينبغى أن تقيم المرأة فى بيت الزوجية ، فهو بيتها ما دامت على ذمة الزوج ، ولا يجوز خروجها منه إلا فى حالة الضرورة ، بأن يترتب على بقائها فى البيت نزاع لا يطاق ، أو إساءة لأهل الزوج ، أو ارتكاب لذنوب كبيرة .

٣ - أباح الله للزوج مراجعة زوجته في فترة العدة ، ولعل في بقائها في بيت زوجها ما يجعله يعدل عن الطلاق ، ثم إن القلوب بيد الله وهو سبحانه مقلب القلوب .

قال تعالى : لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا . (الطلاق : ١) .

٤ - إذا أتمت المرأة عدتها فيجب أن يمسكها الزوج بالمعروف أو يفارقها بالمعروف ، ولابد من الإشهاد على الطلاق أو الرجعة ، حتى تكون الحياة بين الزوجين ناصعة نزيهة .

٥ - حث القرآن على التقوى ومراقبة الله ، وإدراك أن الرزق بيد الله ، والمال رزق ، والتوفيق رزق ، وينبغي أن يكون المؤمن متوكلا على الله في كل حال ، فهو مقدر الأمور : قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) . فكل حياة وكل أمر قدر ، وكل شيء مقدر بمقداره ، ويزمانه ويمكانه ويملاساته ، وينتائج وأسبابه ، وليس شيء مصادفة ، وليس شيء جزافا في هذا الكون كله ، وفي نفس الإنسان وحياته .

٦ - لقد بين القرآن في سورة البقرة عدة المطلقة بأنها ثلاث حيضات ، فإذا حاضت المرأة ثلاث مرات تأكدت من خلو رحمها من الحمل ، ويباح لها الزواج بعد مدة العدة .

قال تعالى : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ... (البقرة : ٢٢٨) .

وفي الآية الرابعة من سورة الطلاق بيان عدة المرأة التي لا تحيض ، إما لصغر سنها أو لكبر سنها ، فالمرأة قبل البلوغ لا تحيض ، وبعد سن ٥٠ سنة لا ينزل عليها الحيض .^(١٢٨)

ومثل هذه المرأة عدتها ثلاثة أشهر ، أما المرأة الحامل فعدتها وضع الحمل .

وتتخلل آيات الطلاق دعوة إلى تقوى الله ، وبيان أن هذه الأحكام من عند الله ، ومن يتق الله ويطيع أوامره ويحسن معاملة الطرف الآخر ، فله أجر عظيم ، وثواب كبير .

٧ - وتفيد الآيتان (٦ ، ٧) أن الزوجة في فترة العدة لا تزال على ذمة الزوج ، ولذلك يجب أن تسكن في سكن مناسب لحالة الزوج ، ولا يصح أن يحتال الزوج لينزل ضررا بزوجته ، ومهما طال فترة الحمل فيجب على الزوج أن يساهم في نفقة الحامل حتى تضع حملها ، وفي فترة الرضاعة يجب على الزوج أن يساهم في نفقة الرضاعة ، وذفع أجرتها للأم ، وهذه النفقة تقدر بحال الزوج ويساره أو إعساره .

وبذلك وضع القرآن أصولاً يلتزمها كل إنسان ، فالفقير ينفق حسب حالته ، والغنى ينفق مما أعطاه الله ، والأرزاق بيد الله ، فهو سبحانه الميسر ، وهو الرزاق ذو القوة المتين .

قال تعالى : **يُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعِيهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكُلْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيِّئًا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** . (الطلاق : ٧) .

٨ - وقد عالجت السورة كل أنواع الكيد والحيل في إصابة الشريك بالأذى عند إنهاء الحياة الزوجية ، فتقول : **وَلَا تَحْزَنْهُنَّ** . وهى تشمل كل أنواع العنت التى لا يحصرها نص قانونى مهما اتسع ، وفى الحديث الشريف : « لا ضرر ولا ضرار » ، وهو أصل عام ينهى المؤمن عن ضرر الناس ، فضلاً عن إضراره بمن كانت زوجة له .

وتفيد السورة أن الرزق بيد الله ، وأن الأمل فى وجه الله ، وبذلك تنتهى الحياة الزوجية بالأدب الجميل الرفيع ، وبالأمل فى استئناف حياة أفضل وأيسر : **سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا** . (الطلاق : ٧) .

٩ - وفى ختام سورة الطلاق تعرض السورة عدداً من المؤثرات العاطفية ، تظهر فيها قدرة الله وجلاله ، فإن تغلب شريك على شريكه الآخر ، أو استطاع أن يظلمه ، فليتذكر قدرة الله وعقابه للظالمين :

لا تظلمن إذا ما كنت مقسداً / الظلم شيمته يفضى إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه / يدعو عليك وعين الله لم تنم

فالأيات (٨-١٢) وإن كانت فى غير موضوع الطلاق ، إلا أنها تعزف على نغمة مؤثرة ، وتهتف بالقلوب حتى ترقى ، وبالأفئدة حتى ترعى جلال الله ، فإله تعالى أخذ القرى واحدة بعد أخرى ، عندما كذبت برسُلها ، وقد ساق القرآن هذه العبرة فى مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله فلم يسمعوا ولم يستجيبوا ، وعلق على هذه العبرة على الرؤوس ، لتذكر الناس بالمصير البائس الذى ينتظر من لا يتقى ولا يطيع ، كما تذكركم بنعمة الله على الناس فى إرسال الرسل ، وإنزال التشريع لهداية البشر ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

١٠ - والآية الأخيرة فى السورة تشير إلى قدرة الله العالمة الذى خلق السماوات السبع والأرضين السبع ، وهو العليم بما يناسب كل المخلوقات والموجودات فى السماء والأرض ، ثم إن هذه الأحكام موكولة إلى الضمائر ، واليقين الجازم بسعة علم الله وإطلاعه على جميع أفعال العباد .

وهكذا تفتتت السورة بما يدعو القلوب إلى الإخبات والإنابة ، فسبحان الحكيم العليم ، الذى أحسن كل شئ خلقه ، وهو الخبير بما يناسب عبادَه ، والمطلع على خفايا القلوب ، وهو عليم بذات الصدور .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزبَادِي :

معظم مقصود سورة الطلاق هو : بيان طلاق السُّنة ، وأحكام العدة ، والتوكّل على الله في الأمور كلها ، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاعة ، وبيان عقوبة المعتدين وعذابهم ، وأن التّكليف على قدر الطاقة ، وللصالحين الثواب والكرامة ، وبيان إحاطة العلم والقدرة في قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا** . (الطلاق : ١٢) .

أحكام الطلاق والعدة ، وثمره التقوى والتوكل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُنْتُمْ تُوعَظُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

المعزلات ،

طلقتن النساء : أردتم طلاقهن .

لعديتهن : مستغلات عدتهن ، بأن تطلقوهن في طهر لاجماع فيه .

وأحصوا العدة : اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .

الفاحشة المبينة : هي ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج .

حدود الله : شرائعه التي أمر بها ونهى عن تركها .

ظلم نفسه : أضر بها .

أمر : هو الندم على طلاقها ، والميل إلى رجعتها .

بلغن أجلهن : قاربن انتهاء العدة .

فَامَسْكُوهُنَّ : فَرَا جَعَوْهُنَّ .

بِمَعْرُوفٍ : مع حسن عشرة .

فَارَقَوْهُنَّ بِمَعْرُوفٍ : مع إعطاء الحق ، واتقاء المضاربة .

بِالْبَيْعِ أَمْرُهُ : منفذ حكمه وقضائه فى خلقه ، يفعل ما يشاء .

قَسَدًا : تقديرًا وتوقيفًا .

تمهيد :

أمر الله المؤمنين أن يُطْلَقُوا نساءهم فى الطهر الذى يحسب لهن من عدتهن ، ويجب إحصاء العدة وضبطها ، وهى ثلاثة قروء ، ويجب أن تقيم المعتدة فى بيت الزوج ، خصوصاً إذا لم يكن لها بيت أو أسرة تقيم معها ، ولا تخرج إلا إذا كانت مرتكبة للمنكرات ، أو بذينة اللسان على الأحماء ، هذه أحكام الله وتشريعاته ، ومن يتعد أحكام الله فقد ظلم نفسه وعرضها للمهالك فى الدنيا والآخرة ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة - والحكمة فى بقاء الزوجة فى بيت الزوج سهولة مراجعتها .

ثم خير القرآن الرجل عند نهاية العدة بين أمرين ، هما :

١ - الإمساك بمعروف .

٢ - الطلاق بإحسان ، وإعطاء الزوجة كامل حقوقها ، ويجب الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة .

وهذه الأحكام إنما شرعت لمصلحة الطرفين ، وعلى الجميع التمسك بتقوى الله والتوكل عليه ، وأمور الحياة كلها بتقدير الله وقضائه وقدره .

التفسير :

١- يَأْتِيهَا أَتْيَاهُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلَحٍ مُمِيتَةٍ وَبَلَدٌ خُلِدَ اللَّهُ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا .

يا أيها النبى ، قل لأمتك : إذا أردتم طلاق النساء فالزموا طريق السنة فى تطليقهن .

وطلاق السنة : أن تطلق الزوجة فى طهر لم تجامع فيه .

وطلاق البعدة : أن تطلق فى الحيض ، أو فى طهر جامعها زوجها فيه ، إذ ربما يظهر أنها حامل

فيندم زوجها على الطلاق .

عوداً إلى تفسير الآية

إذا عزمتم على طلاق الزوجة ، فأحسنوا هذا الطلاق ، ولا تطيلوا عليها العدة ، فلا يجوز أن تطلق في حالة حيضها ، وإنما تطلق في طهر لم تجامع فيه ، وبذلك تطلق المرأة في قُبَلِ عدتها ، فتستقبل عدتها بثلاثة أطهار بعد ثلاث حيضات ، ويجب إحصاء العدة وضبطها ، ومعرفة بدايتها ونهايتها ، لما يترتب عليها من النفقة والإمسك بالمعروف أو التفريق بإحسان ، ومراعاة الله وتقواه بعدم الضرار بالزوجة ، فالطلاق ضرورة تلجأ إليها عند الاضطرار ، وينبغي أن يكون الطلاق مع المكارمة والإحسان ، والإنفاق على الزوجة ، في فترة العدة ، وعدم إخراجها من المسكن الذي كانت تسكن فيه ، ولا تخرج منه إلا إذا ارتكبت فاحشة يجب فيها الحد ، أو كانت سليطة اللسان على زوجها أو أحمائها ، وهذه أوامر الله وتشريعاته ، ومن يخالف أمر الله فيطلق في الحيض ، أو ينزع إلى إيذاء المطلقة وضررها فقد ظلم نفسه ، حيث خالف أمر الله ، وتعرض للمسئولية يوم القيامة .

والحكمة في إقامة الزوجة في منزل الزوجية أن الزوج ربما ندم على الطلاق ، ورغب في استدامة العشرة ، وإعادة زوجته إلى عصمته في فترة العدة ، أو ربما ندمت الزوجة وتحرك قلبها إلى الصلح واستعادة الحياة معا .

لَا تَذَرِي لَعْلَ اللَّهِ يُخْلِفَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا .

بأن يقدف المحبة في القلوب ، فتدبر في الرجعة واستدامة الحياة الزوجية .

والمرأة إذا كانت في مدة العدة ، وهي ثلاثة أشهر أو ثلاث حيضات ، فزوجها يملك مراجعتها بدون إذننها ، أما إذا تمت العدة ومكثت بعد الطلاق ثلاثة أشهر ، يتحول الطلاق من طلاق رجعي إلى طلاق بائن ، فلا يستطيع الزوج إرجاعها إلا بعقد جديد ومهر جديد ، وموافقتها على الرجعة ، إذ يصبح من حقها أن تعود لزوجها أو ترفض العودة ، وتختار لنفسها الموافقة على زوج آخر ، أو المكث بدون زوج ، أو ما تختاره لنفسها .

٢ - فَإِذَا بَلَغَ أَجَلَھُنَّ فَأَمْسِكُوھُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوھُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّھَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا .

إذا قاربت الزوجة إتمام العدة ، فإن لزوجها اختيار واحد من اثنين :

(أ) أن يراجعها ويعاشرها بالمعروف .

(ب) أن يفارقها بالمعروف فيعطيها مؤخر الصَّدَاق، ويعطيها المتعة والنفقة والمكارمة والإحسان، لأنها كانت تعلق آمالها على الحياة مع زوجها، فينبغي أن يترفق بها، وييسر لها الإقامة والنفقة، حسب يساره وإعسازه.

والرجعة أو الطلاق أو الزواج كلها تحتاج إلى شهود، وأقل الشهود رجلان مشهود لهما بالعدالة، وينبغي أن نقيم الشهادة لوجه الله ومراضاته، فلا نؤدى الشهادة لمصلحة الزوج، ولا لمصلحة الزوجة، بل نؤدى الشهادة بالحق والعدل.

وهذه الأوامر كلها من أول السورة إلى هنا، كالطلاق في طهر لم يجامعها فيه، وإحصاء العدة، وعدم إخراج المطلقة من بيتها، والإمسك بالمعروف أو الفراق بالمعروف، والإشهاد فى النكاح والطلاق والرجعة، والإقسط فى الشهادة، كل ذلك يوصى به الله، ويأمر به المؤمن، ويعظنا به فينبغي أن ينفذه المؤمن.

وَمَنْ يَقْرَأَ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا .

من يراقب أوامر الله، وينفذ ما شرعه الله وأمر به، ويتجنب ما نهى عنه الله، يجعل الله له مخرجاً من كل ضيق، ويجعل له بعد العسر يسراً، ويعد الشدة فرجاً، ويفرج عنه الغم والهَم الذى يصيبه، بسبب الحزن على فراق الزوج أو الزوجة.

٣ - وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا .

أفادت كتب الحديث وأسباب النزول أن عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنه سالماً، فأتى رسول الله ﷺ فقال: أسر ابني، وشكا إليه الغاقة، فقال ﷺ: «أتق الله، وأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم». ففعل، فبينما هو فى بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل، غفل عنها العدو فاستاقها، فنزلت: وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ. (١٧٧).

والتوكل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب.

والمعنى:

ومن يثق بالله تعالى ويعتمد عليه، كفاه الله ما أهمه، وكان الله له معيناً وكافياً فى الدنيا والآخرة.

روى الحاكم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب».

إِنَّ اللَّهَ بَلِّغْ أَمْرِهِ ...

مفند قضاياه وأحكامه فى خلقه ، بما يريد ويشاؤه ، وهو سبحانه فعّال لما يريد .

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا .

أى : جعل الله لكل أمر من الأمور مقداراً معلوماً ، ووقتاً محدوداً ، حسب الحكمة الأزلية .

قال تعالى : وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ . (الرعد : ٨) . جَلَّتْ حُكْمَتُهُ تَعَالَى ، وَتَعَاظَمَ تَدْبِيرُهُ ، فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَّقَى فِى حُكْمَتِهِ وَقَدْرَتِهِ ، وَأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ .

قال القرطبي :! أى جعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهى إليه .

وقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره طائفة من الآيات والأحاديث والآثار المفيدة ، ننقل منها ما يأتى :

روى أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، ولا يردُّ القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر» . (١٢٠) .

وروى ابن أبى حاتم ، عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها» .

وروى أحمد ، والترمذى ، عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : «يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف» (١٢١) (قال الترمذى : حسن صحيح) .

وقد أورد الشيخ الفاضل ابن عاشور فى تفسير التحرير والتنوير حكمة وضع جملة : قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . بعد بيان أحكام الطلاق والرجعة والإشهاد ، وعدة ذوات الأقراء وغيرها ، وكيفية العدة ، فهذه الجملة بمثابة التعليل لمدة العدة ، وللأمر بالتقوى والتوكل ، فإذا تساءل إنسان : وأين منى هذا الفرع ؟

جاء الجواب : قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . ولهذه الجملة موقع التدبيل لما سبقها من الأحكام أيضاً ، بأن كل شيء عنده بمقدار ونظام وإبداع .

عدة اليائسة والصغيرة

﴿وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نُسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۚ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ۝﴾

المضردات :

واللأولى ينسن ، أى : انقطع عنهن الحيض لكبر سنهن ، وقدر بستين أو خمس وخمسين سنة .

إن ارتببتم : إن شككتكم كيف تكون عدة اليائسة .

يكفر عنه سيئاته : يغفرها له .

ويعظم له أجرا : بالمضاعفة .

تمهيد :

فى أول سورة الطلاق أمر الله بتطليق النساء لعِدَّتِهِنَّ ، ويُنْ أَمْر الطلاق والرجعة ...

ثم بيّن هنا مقدار العدة للآيسة والصغيرة ، وأنها ثلاثة أشهر ، وعدة الحامل وكونها بوضع الحمل تنميما لما ذكره الله فى سورة البقرة من عدة ذوات الأقرء ، والمتوفى عنها زوجها .

سبب النزول :

أخرج مقاتل فى تفسيره ، أنه لما ذكر قوله تعالى : وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ... (البقرة : ٢٢٨) . قال خلاد بن النعمان : يا رسول الله ، فما عدة التى لم تحض ، وعدة التى انقطع حملها ، وعدة الحبلى ؟ فنزلت : وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نُسَائِكُمْ ...

التفسير :

٤ - وَالَّتِي يَسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نُسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

نجد عناية القرآن بالبيان الكامل لحالات العدة ، فقد سبق فى سورة البقرة عدة المطلقة ذات الأقرء ، وهى التى ينزل عليها الحيض ، فتعتمد بنزول ثلاث حيضات عليها ، أو ثلاثة أطهار ، حسب آراء الفقهاء .

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...» (البقرة: ٢٢٨).

وقد بين الله عدة المتوفى عنها زوجها في سورة البقرة ، حيث قال تعالى : «وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...» (البقرة: ٢٣٤).

وقد بين هنا عدة المرأة التي يثبت من نزول الدَّم عليها لبلوغها سنَّ الخامسة والخمسين أو الستين ، أو انقطاع الدم عنها لأي سبب قبل ذلك أو بعده ، فعدتها ثلاثة أشهر ، وعدة الصغيرة التي لم ينزل عليها دم الحيض ثلاثة أشهر ، إذا طلق الرجل امرأة صغيرة قبل أن ينزل عليها دم الحيض ، وكذلك كل امرأة لم ينزل عليها دم الحيض لأي سبب فعدتها ثلاثة أشهر ، وأما المرأة الحامل المطلقة فإن عدتها وضع الحمل ، سواء كانت العدة من الطلاق أو من وفاة الزوج ، لأن المقصود من العدة معرفة براءة الرحم من الحمل ، ووضع الحمل أكبر دليل على تعرف ذلك .

معنى الآية :

والنساء الكبيرات في السن اللاتي بلغن سنَّ اليأس من الحيض ، إذا شككتم وتساءلتم كيف تعدت في حالة انقطاع دم الحيض ، فالجواب أن عدتهن ثلاثة أشهر ، وكذلك النساء الصغيرات إذا طُلِّقن قبل نزول الحيض عليهن فعدتهن ثلاثة أشهر ، أما النساء الحوامل فعدة الحامل هي وضع الحمل ، سواء أكانت العدة من الطلاق أم من الوفاة ، وهذا رأى الجمهور .

ورأى الإمام على أن الآية في المطلقات ، أمَّا المتوفى عنها زوجها فعدتها آخر الأجلين : الأشهر ، أو وضع الحمل ، وهو مذهب الإمامية .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا .

ومن يراقب الله تعالى في تنفيذ أحكام الطلاق ، ييسر الله تعالى له أموره ، ويعوّضه ويجعل له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

٥ - ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا .

هذه أوامر الله وتشريعاته ، أنزلها إليكم في حكم المطلقات والمعتدات ، فراقبوا الله مراقبة عامة ، وراقبوه في تنفيذ أحكام المطلقات مراقبة خاصة ، ومن يتق الله ويراقبه ، ويتحصن بتقوى الله وخشيته ، يغفر له ذنوبه ، ويضاعف له الثواب والأجر .

. وقد أورد في ظلال القرآن كلاماً طويلاً جَمِلاً ، خلاصته عناية الإسلام بالأسرة وبالزواج ، وبتزويج الفقراء والتعاون معهم ، واعتبار الزواج ميثاقاً غليظاً ، وحثه على المحافظة على الزواج ، وعدم التسرع في فسخ العلاقة الزوجية ، حيث قال تعالى : **وَعَاشِرُوهُمْ بِالْغَيْرِ الْمَعْرُوفِ** فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَتَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . (النساء : ١٩) .

ثم أمرنا عند النشوز أو الإعراض من أحد الزوجين بدراسة الحالة ، واستماع وجهة النظر الأخرى ، ومحاولة الصلح بالجهود الذاتية ، فإذا تعسر ذلك على الزوجين ، وخيف اتساع النزاع ، وجب أن نختار حكمين من أهل العقل والحكمة لدراسة الحالة ومحاولة الصلح .

فإذا تعسرت كل الطرق لم يبق أمامنا إلا الطلاق بشروطه وآدابه المذكورة في صدر سورة الطلاق ، وكلها شروط تقصد إلى هدوء النفس ، والتريث والانتظار رجاء الرجوع والعدول عن الطلاق ، والعودة إلى نظام الأسرة وتعاون الزوجين .

ونلاحظ أن سورة الطلاق حافلة بمؤثرات متعددة تحث على تقوى الله والتوكل عليه ، وتحذر من الظلم والعدوان ، ذلك لأن المطلِّق والمطلَّقة ربما حملهما الطلاق على كيد أحدهما للآخر أو ظلمه ، فحذر الله من الظلم والعدوان ، وحث على التقوى ومراقبة الله ، والعشرة بالمعروف أو الفُرقة بالمعروف .

وهي آداب سامية تعزز بها أمة الإسلام ، ويعتز بها المسلم الذي يجد في كتاب ربه أبواب السعادة والتوفيق في الدنيا والآخرة .

قال الضحاك : من يتق الله في طلاق السنَّة ، يجعل له من أمره يسراً في الرجعة .

السكنى والنفقة للمعتدة، وأجر الرضاع

﴿أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارِزُوهُنَّ لِنُضِيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتُّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فُسْرُضِعْ لَهَا أُخْرَى ۖ ﴿٦﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۖ﴾ (٧)

المضدرات :

من وجدكم : من وسعكم ، وقال الفراء : على قدر طاقتكم .

ولا تضارزوهن : فى النفقة والسكنى .

لنضيّقوا عليهن : لتجنّوهن إلى الخروج بشغل المكان ، أو بإسكان من لا يردن السكنى معه .

اتمروا بينكم بمعروف : تشاوروا ، وأن يأمر بعضكم بعضا باليسر والتسامح فى الأجرة والإرضاع ، فلا

يكن من الأب مماسكة ، ولا من الأم معاسرة .

وإن تعاسرتم : بأن كان من الأب مضايقة ، أو من الأم ممانعة .

قدر عليه رزقه : ضيق .

آتاه الله : أعطاه .

إلا ما آتاهها : إلا بقدر ما أعطاهما من الأرزاق ، قل أو كثير .

تمهيد :

بعد بيان عدة الأيسة والصغيرة والحامل ، ذكر الله تعالى ما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى ، بقدر

الطاقة ، سواء أكانت مطلقة أم حاملا ، فإذا ولدت الحامل ، فلها الأجر على إرضاع المولود ، فإن لم يتفقا

كان على الأب أن يأتى بمريض أخرى ، يدفع الأب نفقتها ، والأم أحق بالإرضاع ، إذا هى رضية بمثل

أجرتها ، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يستطيع ، فالله لا يكلف الإنسان إلا بما يطيق .

التفسير:

٦ - أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا رِيَّتَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ نَعَسْتُمْ تَسْرِعَ لَهُ أُخْرَى .

أسكنوا هؤلاء المطلقات في بعض مساكنكم التي تسكنونها ، على قدر طاقتكم ومقدرتكم ، فإن كان موسراً وسع عليها في المسكن والنفقة ، وإن كان فقيراً فعلى قدر طاقتة.

قال قتادة : ولتسكن إذا لم يكن إلا بيت واحد ، في بعض نواحيه .

وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ...

ولا تستعملوا معهنّ الضرار في السكنى بشغل المكان ، أو بإسكان غيرهن معهن ممن لا يحببنّ السكنى معه ، لتجتنوهن إلى الخروج من مساكنهن .

وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلَ فَاَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ...

إذا كانت المطلقة حاملاً ، فيجب الإنفاق عليها وعلى حملها حتى تضع الحمل .

وهذا حكم المطلقة طلاقاً بائنة ، أما المطلقة طلاقاً رجعية ، فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملاً .

وقال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكنى لكل مطلقة ، وإن لم تكن ذات حمل ، لما روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في المبتوتة : «لها النفقة والسكنى» ، لأن ذلك جزء الاحتباس ، وهو مشترك بين الحامل وغيرها .

وأرى أن ذلك من محاسن الدين الإسلامي ، ومن التكافل الاجتماعي ، ومن رعاية المطلقة والإنفاق عليها في فترة العدة ترضية لها ، وقياماً بحقها ، فقد قدمت لزوجها ما قدمت في فترة الزواج ، فيجب أن يرعاهما ويتكفل بها بعد الطلاق في فترة العدة ، لأنها محبوسة وممنوعة من الزواج بسبب أن كل زواج تعقبه عدة لتعزف براءة الرحم ، فنفقة العدة تكون على الزوج ، لأن من حقوق الزوجة على زوجها النفقة .

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ...

إذا طُلقَت المرأة وقامت بإرضاع الولد ، فإن نفقة الرضاع على الزوج ، فلها أجر المثل .

وفى هذا إشارة إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج ، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات .

وَأَتِمُّوْا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ...

أى : تشاوروا وتعاونوا ، وتدارسوا موقف الأبناء بعد الطلاق ، لعمل اللازم لهم ، ولا تجعلوا المال عائقا عن مواصلة الرعاية النفسية والاجتماعية والنفقة على الأولاد ، فالوالد مطالب بالسخاء على أولاده ، والأم مطالبة بالحضانة والكفالة ، ولها أجر المثل .

وهذه الفقرة فيها مناشدة للأزواج والزوجات المطلقات تدارس الموقف ، واللجوء إلى المعروف ، والتفاهم والتيسير بشأن الذرية ورعايتها بعد انفصال الزوجين ، وما أحرى المسلمين فى هذه الأيام بالتخلق بأخلاق القرآن ، وترك الكيد من أحد الزوجين للآخر بعد الطلاق .

ف نجد رجلا ترك أولاده لزوجته ، تقوم هى بتعليمهم والإنفاق عليهم ، وقد أحل هو بما يجب عليه ، ونقول له : أين قوله تعالى : وَأَتِمُّوْا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ...

وَإِنْ تَعَاَسَ رُءُوسُكُمُ فَسَرُّهُنَّ لَهُنَّ آخَرَى .

إذا شح الأب بالمال ، أو تمسكت الأم فى طلب أجره أكثر من أجره المثل ، فليحضر الأب مرضعا أخرى ترضع الرضيع بالأجر ، فإذا قبلت الأم بأجر المثل فهى أحق بابنها ، لما تشتمل عليه الأم من الحنان والحب .

فإذا لم يقبل الرضيع ثدى مرضع أخرى غير أمه ، وجب على أمه الرضاع ولها أجر المثل .

ويرى بعض المفسرين أن هذه الفقرة فيها لوم للأم ومعاتبه لها ، كقولك لمن تستقضيه حاجة فيتوانى عن قضائها : سيقضيها غيرك ، بمعنى ستقضى وأنت ملوم .

فالألم أكثر حنواً وشفقة ، وينبغي تعاون الطرفين ، الأب والأم ، من أجل مصلحة الصغير .

٧ - يُلَاقِ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ غُسْرٍ يُسْرًا .

لينفق الغنى من ماله ، فإذا كان موسراً يسر على المطلقة وعلى أولادها ، وسع عليهم مما أعطاه الله له ، فالجود من الموجود ، وأولى الناس بالمشاركة فى المال والتوسعة فى العطاء زوجته السابقة وأولاده منها ، أما إذا كان الزوج فقيراً ، فلينفق مما آتاه الله من الأرزاق ، قلت أو كثرت ، فلا يكلف الفقير نفقة مثل نفقة الغنى .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِسَهَا ...

أى: بقدر ما أعطاهما من الطاقة والقوة .

وقريب منه قوله تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (البقرة: ٢٨٦) .

أى: إلا ما فى إمكانياتها وسعتها .

وقد قاوت الله بين الناس فى العطاء ، وجعلهم درجات ، وطلب الله من كل إنسان أن ينفق على أسرته حسب حالته ، وحسب يساره أو إعساره ، فإذا كان الزوج فقيراً ثم وسَّع الله عليه ، وجب أن يزيد فى نفقة أسرته ، وإذا كان غنياً ثم افتقر ، خفَّض ميزانية النفقة ، وعلى الأسرة أن تصبر وتحمل وتتعاون ، وتتقبل ما ينفقه الزوج حسب حالته ، فلا ينبغي لزوج الفقير أن تتطلع إلى نفقة واسعة مثل زوجة الغنى ، بل تصبر حتى يوسَّع الله على زوجها فيوسع عليها .

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

سيجعل الله بعد الشدة فرجا ، وبعد الضيق سعة ، وفيه وعد من الله تعالى بمساعدة الفقراء إذا قنعوا ورضوا .

قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . (الشرح: ٦، ٥) .

وما أجمل هذا التشريع الإلهي الذي يربط النفقة بحالة الزوج .

جاء فى تفسير الآلوسى أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن أخذ عن الله أدبا حسنا ، إذا هو سبحانه وسَّع عليه وسَّع ، وإذا هو عَزَّ وُجِلَ قَتَّرَ عليه قَتْرًا» .

تكرير للوعيد ليضعه أمام الأنفس ، تحذيراً لمن يرتكب الظلم والعناد ، والانتقام الآسر ، فى أمور الطلاق والعدة والنفقة والسكنى ، وما يتصل بذلك من أمور .

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَتْلِبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا .

سارعوا أيها المؤمنون أصحاب العقول والألباب إلى تقوى الله ، والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتنفيذ ما شرعه الله لكم في أحكام الطلاق مهما كانت رغبتكم في الانتقام من خصمكم ، فاطفئوا هذا الغيظ بتقوى الله ، يا أيها المؤمنون قد أنزل الله إليكم كتاباً مشتملاً على الذكر والتذكير ، وتبصير المسلمين بأحكام الله ووجوب طاعتها ، وقد كان النبي ﷺ قرآناً متحركاً ، سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن . (١٣) .

١١ - وَرُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِّخُرُجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا .

هذا الذكر هو القرآن العظيم ، ومعه رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فهو المبين للقرآن الكريم ، والموضح لأحكامه ، والقارئ لنصوصه من أجل هداية المؤمنين ، وإخراجهم من ظلمات الجهالة والكفر إلى نور الهداية والإيمان .

وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا .

ومن يؤمن بالله ربا ، ويعمل أعمالاً صالحة ، يدخله الله جنات وناساتين ناضرة ، تجرى الأنهار تحتها ، وفيها ألوان متعددة من البهجة والنعيم ، مع خلود أبدي سرمدي ، فما أعجب هذا الرزق وما أحسنه ، إنه الجنة ورضوان من الله أكبر .

وفيه تعجيب من هذا الرزق العظيم ، والتوفيق الكريم .

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا . .

لقد أكرمهم ونجاه من النار ، وأوجب له الجنة ، وأعطاه من الخير والنعيم ما يشرح صدره ، ويدخل السرور على نفسه ويصلح به .

١٢ - اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

ما أعظم الخالق ، وما أبدع الصانع ، وما أقوى القدير ، وما أعظم علمه وإحاطته بكل شيء في هذا الكون .

ومعنى الآية :

الله تعالى هو الذى خلق سبع سماوات طباقا .

قال تعالى : أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا .

(نوح : ١٥ ، ١٦) .

وخلق سبحانه سبع أرضين ، ينزل وحى الله وأمره ، وقضاؤه وقدره ، وحكمه ومشيتته ، بين السماوات السبع والأرضين السبع .

فهو سبحانه حافظ الكون ومدبره ، وممسك بزمامه ، وهو كامل القدرة والعلم ، فاعلموا ذلك وراقبوه فى سائر أموركم ، وفى شئون الطلاق ، وما يتصل به من العدة والسكنى والتفقة والإمساك بالمعروف أو المفارقة بالمعروف .

ملاحظة

ذُكر لفظ السماوات فى القرآن جَمْعًا ، ولفظ الأرض مفردًا فى سائر القرآن الكريم ، وهذه هى الآية الوحيدة التى تشعر أن الأرض ربما تكون سبع أرضين .

ومن العلماء من ذهب إلى أن السماء سبع سماوات ، واستدل على ذلك بما ورد فى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة من أن النبى ﷺ صعد إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، حيث رأى :

فى السماء الأولى : آدم

وفى السماء الثانية : يحيى وعيسى ، وهما ابنا الخالة .

وفى السماء الثالثة : يوسف ، وقد أعطى شطر الحسن .

وفى السماء الرابعة : إدريس ، وقد رفعه الله مكانًا عليًا .

وفى السماء الخامسة : هارون .

وفى السماء السادسة : موسى .

وفى السماء السابعة : إبراهيم ، عليهم جميعًا السلام .

وأما الأرض فهى أرض مفردة ، وأما قوله تعالى : وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ... أى فى الإحكام والإبداع

وحسن التقدير .

واللفظ صالح لأن يراد به سبع سماوات وسبع أرضين ، وهو الأرجح والأقوى ، وصالح لأن يراد به سبع سماوات ، ومن الأرض الواحدة مثلهن في الإبداع والتكامل ، وعناية الله بالخلق ورعايته .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُفَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...**
(فاطر : ٤١) .

وأنا أرى أنه لا بد أن تكون هناك حكمة إلهية لا نعرفها نحن الآن ، وقد نعرفها في المستقبل ، من ذكر السماوات جمعاً وسبعاً في القرآن ، وذكر لفظة الأرض مفردة في جميع القرآن ، ما عدا هذه الآية الأخيرة في سورة الطلاق .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

وقد ذهب الإمام ابن كثير إلى أن الأرض سبع ، حيث قال :

وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ. أى : سبعاً أيضاً ، كما ثبت في الصحيحين : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة» (١٣٣) .

وفى صحيح البخارى : «خُصِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرْضِينَ» .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الطلاق

للطلاق آداب ينبغي أن تراعى ، ومن ذلك ما يأتي :

- ١ - ينبغي أن يكون فى طهر لم تجامع فيه الزوجة .
- ٢ - ينبغي إحصاء ومعرفة مدة العدة ، وبدايتها ونهايتها .
- ٣ - ينبغي أن تسكن الزوجة فى بيت الزوج فترة العدة .
- ٤ - الإمساك بالمعروف ، أو الطلاق مع الإحسان ، وهو إعطاء المطلقة مؤخر الصداق والسكنى والنفقة .
- ٥ - وجوب الإشهاد على الزوج والطلاق والرجعة .
- ٦ - تقوى الله والتوكل عليه والالتزام بأحكامه ، طريق للسعادة فى الدارين .
- ٧ - للمطلقة السكنى والنفقة حسب يسار الزوج وإعساره .
- ٨ - أهلك الله كثيرا من قرى الظالمين جزاء عنادهم وعتوهم وكبرهم عن الخضوع لأحكام الله ، فاستحقوا عذاب الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .
- ٩ - ليقب الله كل مؤمن ومؤمنة فى مراعاة أحكام الله .

ضميمة في أنواع العدة

- (أ) عدة ذوات الأقدام : ٣ قروء .
- (ب) عدة الحامل : وضع الحمل .
- (ج) عدة المتوفى عنها زوجها : ٤ أشهر وعشرة أيام .
- (د) عدة الآيسة من الحيض ، وعمرها عادة خمس وخمسون سنة : ٣ أشهر .
- (هـ) وكذلك الصغيرة التي لم ينزل عليها دم الحيض عدتها : ٣ أشهر .
- (و) المطلقة قبل الدخول : لها نصف المهر ولا عدة عليها .
- (ز) هناك طلاق رجعى يستطيع الزوج مراجعة زوجته فيه ما دامت فى العدة ، فإذا أتمت العدة فهو طلاق بائن بينونة صغرى ، فإذا كان الطلاق مكتملاً للثلاث بائت المطلقة بينونة كبرى.



تفسير سورة التحريم

أهداف سورة التحريم

(سورة التحريم مدنية ، وآياتها ١٢ آية ، نزلت بعد سورة الحجرات)

شاء الله أن يكون الرسول بشرا ، فيه قوة الإنسان ، وتجارب الإنسان ، ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان ، لتكون سيرة هذا الرسول الإنسان نموذجا عمليا للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التي لا تعيش فى هالات ولا فى خيالات .

وهذه السورة فيها عتاب للرسول الأمين ﷺ على تحريمه ما أحل الله له ، ولو كتم النبي من أمر القرآن شيئا لكتم هذا العتاب .

إن هذا القرآن كتاب الحياة بكل ما فيها ، وقد شاء الله أن يواكب الوحي حياة الرسول الأمين ﷺ ، فيبارك الخطوات الناجحة ، ويُعَوِّم ما يحتاج إلى تقويم ، وبذلك تكون القدوة فى متناول الناس .

قال تعالى : لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا . (الأحزاب: ٢١) .

لقد عاتب القرآن رسول الله ﷺ فى قبوله الفداء من أسرى بدر ، وفى إذنته للمخلفين بالقعود عن الجهاد ، وفى إعراضه عن الأعمى الذى ألح فى السؤال ، وفى تحريمه ما أحل الله له .

كما عرض القرآن جوانب القوة والجهاد والتربية والسلوك للنبي الأمين ، وجعل حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمتة ولل البشرية كلها ، تقرأ فيه صورة العقيدة ، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية ، ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا ولا سترا مطويا ، بل يعرض جوانب كثيرة منها فى القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس فى حياة الإنسان العادى ، حتى مواضع الضعف البشرى الذى لا حيلة فيه لبشر ، بل إن الإنسان ليكاد يلحم القصد فى كشف هذه المواضع فى حياة الرسول ﷺ للناس .

إن حياة الرسول ملك للدعوة ، وهى الصورة المنظورة الممكنة للتطبيق من العقيدة ، وقد جاء ليعرضها للناس فى شخصه وفى حياته ، كما يعرضها بقوله وفعله ، ولهذا خُلِقَ ، ولهذا جاء ، لتكون السنة

هى ما أثر عن الرسول ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وليكون هو النموذج العملى الملموس فى دنيا الناس ، يتعرض للأحزان ، ويموت ابنه ، ويصاب فى غزوة أحد ، وتنتشر الشائعات عن زوجته عائشة ، ويعيب المنافقون عليه بعض الأمور ، لتكون الصورة كاملة للإنسان بكل ما فيه ، وليكون الوحي بعد ذلك فيصلا ، ودليلاً هادياً فيما ينبغى سلوكه فى هذه الحياة .

قصة التحريم

تزوج النبی ﷺ تسع نساء لحكم إلهية ، ولتكون هذه الزوجات مبلغات لشئون الوحي فيما يخص النساء ، وقد قضى النبی ﷺ صدر حياته مع خديجة وكان عمره خمساً وعشرين سنة وعمرها أربعين ، وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج عليها فى حياتها ، وكان وفيها لذكرها ، وقد ماتت خديجة وعمره خمسون عاماً .

ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم سلمة ، وقد مات زوجها شهيداً فضم النبی ﷺ إليه عيالها من أبى سلمة وتزوجها ، وزينب بنت جحش زوج مولاه ومتبناه زيد ، ليكون ذلك تشريعاً للناس فى إباحة زواج الإنسان من زوجة ابنه المتبنى .

قال تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِيَكِيَ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا . (الأحزاب : ٣٧) .

وتزوج النبی ﷺ جويرة بنت الحارث سيد بنى المصطلق ، فلما تزوجها النبی ﷺ أعتق الصحابة أقاربها وأسلم أهلها ، وكانت أئمن امرأة على قومها . ثم تزوج أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت مهاجرة إلى الحبشة ، ثم ارتد زوجها وتنصر فخطبها النبی ﷺ ، وجاءت من الحبشة إلى المدينة ، ثم تزوج إثر فتح خيبر صفية بنت حبي بن أخطب زعيم بنى النضير ، وكانت آخر زوجاته ميمونة بنت الحارث بن حزن ، وهى خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس .

وكانت لكل زوجة من أزواجه ﷺ قصة وسبب فى زواجه منها ، ولم يكن معظمهن شواب ، ولا ممن يرغب فيهن الرجال لجمال ، وكل نساؤه قد سبق لهن الزواج ما عدا عائشة ، فقد كانت البكر الوحيدة بين نساؤه .

وقد أنجب النبی ﷺ جميع أبنائه من خديجة ، فقد رزق منها ولدين وأربع بنات ، وقد مات الولدان فى صدر حياته ﷺ وبقيت البنات إلى ما بعد الرسالة ، ثم ماتت ثلاث من بناته وهن : رقية ، وزينب ، وأم كلثوم ، وعاشت فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر بعد وفاة أبيها ، ولم ينجب ﷺ من زوجة أخرى غير خديجة .

وكان المقوقس ملك مصر قد أهدى إليه جارتين هما مارية وسيرين، فتسرى بمارية، وأهدى سيرين إلى حسان بن ثابت، ولما كانت مارية جارية لم يكن لها بيت بجوار المسجد، فكان بيتها في عوالي المدينة، في المحل الذي يقال له الآن: (مشربة أم إبراهيم)، وقد رزق النبي منها بمولود ذكر سماه إبراهيم تيمنا بإبراهيم الخليل.

وقد ماتت خديجة والنبي ﷺ في الخمسين، ولم يرزق بمولود من نسائه جميعا طوال عشر سنوات، ثم رزق إبراهيم وقد تخطى الستين، ففاضت نفسه بالمسرة، وامتلا قلبه الإنسانى الكبير أنسا وغبطة، وارتفعت مارية بهذا الميلاد في عينيه إلى مكانة سمت بها عن مقام مواليه إلى مقام أزواجه، وزادت عنده حظوة وقربا.

كان طبيعيا أن يدس ذلك في نفوس سائر زوجاته غير، تزايدت أضعافا بأنها أم إبراهيم، وبأنهن جميعا لا ولد لهن، وكان النبي ﷺ يتردد كل يوم على إبراهيم ويحمله بين يديه، ويفرح بالتسامته البريئة، ويسر بنموه وجماله.

وكانت المرأة في الجاهلية تسام الخسف صغيرة، وتمسك على الذل كبيرة، فلما جاء الإسلام حرّم وأد البنات، وسما بالمرأة إلى منزلة سامية، وصلى النبي بالنساء خيرا، وعامل نساءه معاملة حسنة، وجعل لنسائه من المكانة ما لم يكن معروفا قبل: عند العرب.

قالت عائشة رضى الله عنها: كان النبي ﷺ إذا خلا بنسائه ألين الناس، وأكرم الناس، ضاحكا بساما.

تحريم مارية:

حدث أن جاءت مارية القبطية من عوالي المدينة إلى رسول الله، وكانت حفصة في زيارة لبيت أبيها، فدخلت مارية في حجرة حفصة، وأقامت بها وقتا مع النبي ﷺ، وعادت حفصة فوجدت مارية في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وهي أشد ما تكون غيرة، وجعلت كلما طال بها الانتظار تزداد الغيرة بها شدة، فلما خرجت مارية ودخلت حفصة قالت: يا نبي الله، لقد جئتُ إلى شيئا ما جئتُ إلى أحد من أزواجك بمثله، في يومى وفي دورى وعلى فراشى. قال ﷺ: «ألا ترضين أن أحرمها فلا أقرّبها»، قالت: بلى، فحرمها، وقال: «لا تذكرى ذلك لأحد»، فذكرته لعائشة، فأظهره الله عز وجل عليه، فأنزل: **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَ أَرْوَاجُكَ ...** فبلغنا أن نبي الله ﷺ كفر عن يمينه وأصاب جاريته^(٢٤١).

تحريم العسل :

روى البخارى ، عن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلنقل له : أكلت مغافير^(١٣٦) ، إني أجد منك ريح مغافير ، قال : « لا ، ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحدا » .^(١٣٧) فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له ، وقد نزل بشأنه : لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...

ويبدو أن التى حدثها رسول الله ﷺ هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتأمرة معها ، ثم أطلع الله رسوله على حديثهما .

قال ابن جرير الطبرى :

والصواب من القول فى ذلك أن يقال : كان الذى حرمه النبى ﷺ على نفسه شيئا كان الله قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون كان شرابا من الأشربة ، وجائز أن يكون كان غير ذلك ، غير أنه أى ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالا ، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه .^(١٣٨)

النبى يهجر نساءه :

كان من جراء هذا الحادث ، وهو تحريم مارية أو تحريم العسل ، وما كشف عنه من تأمر ومكايدات فى بيت الرسول ﷺ ، أن غضب النبى فألقى من نساته لا يقر بهن شهرا ، وهن يتطليقهن ، ثم نزلت هذه السورة وقد هدأ غضبه ﷺ فعاد إلى نساته .

روى الإمام أحمد فى مسنده ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، أن ابن عباس سأل عمر عن المرأتين اللتين قال الله تعالى لهما : إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ... (التحريم : ٤) . فقال عمر : هما عائشة وحفصة ، ثم قال عمر : كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغليبهم نساؤهم ، فطلق نساؤنا يتعلمن من نساتهم ، قال عمر : فبينما أنا فى أمر أتمرره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لها : وما لك أنت ولما هاهنا ، وما تكلفك فى أمر أريد ؟ فقالت لى : عجب لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، وإن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه ، وتهجر إحداهن اليوم إلى الليل ، قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ . فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه ، فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية لا يغررك هذه التى قد أعجبها حسننها وحب رسول الله ﷺ إياها .

واعترزل رسول الله ﷺ نساءه شهرا ، منقطعا عنهن في مشربة منعزلة ، واستأذن عمر على رسول الله ﷺ ثلاث مرات حتى أذن له . قال عمر : فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أتر في جنبه ، فقلت : أطلعت يارسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : «لا» ، فقلت : الله أكبر ، ولو رأيتمنا يا رسول الله ﷺ وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطلق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على امرأتى يوما ، فإذا هي تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبی ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتامن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك ، فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟ قال : «نعم» ، فجلست ، فرفعت رأسى في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا هيبة مقامه ، فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالسا ، وقال : «أفنى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» . فقلت : استغفر لى يا رسول الله وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرا من شدة موجده عليهن حتى عاتبه الله عز وجل^(١٢٨) .

اصطفاء الرسول :

يقول الله تعالى : **اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** . (الحج : ٧٥) .

لقد اصطفى الله محمدا ليبيلج الرسالة الأخيرة للناس ، واختاره إنساناً تتمثل فيه العقيدة الإسلامية بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها «ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها ، إنسانا قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها ، ضليح التكوين الجسدى ، قوى البنية ، سليم البناء ، صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقا كاملا سليما ، وهو في ذات الوقت ضخم العاطفة ، حى الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقى والاستجابة ، وهو في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوى الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه ، ثم هو بعد ذلك كله النبى الذى تشرق روحه بالنور الكلى ، والذى تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذى ينادى من السماء ، والذى يرى نور ربه ، والذى تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء فى الوجود من وراء الأشكال والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به جبل أحد ، ثم تتوازن فى شخصيته هذه الطاقات كلها فإذا هي التوازن المقابل لتوازن العقيدة التى اختير لها » .^(١٢٩)

مع السورة

١ - حَرَّمَ النَّبِيُّ ﷺ مَارِيَةَ الْقُبَيْطِيَّةَ عَلَى نَفْسِهِ ، أَوْ حَرَّمَ الْعَسَلَ عَلَى نَفْسِهِ ، مَرْضَاةً لَزَوَاجَاتِهِ ، وَتَنَزَّلَ وَحَى السَّمَاءَ يَقِيدُ أَنْ مَا أَحْلَهُ اللَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِمَهُ الْإِنْسَانُ .

٢ - أَبَاحَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ أَقْسَمَ عَلَى يَمِينٍ وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا أَنْ يَأْتِيَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ثُمَّ يَكْفُرُ عَنْ يَمِينِهِ .

٣ - أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ حَفْصَةَ بِتَحْرِيمِ مَارِيَةَ ، وَأَنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يُلَيِّانُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَمْرَهَا أَنْ تَكْتُمَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكْتُمِهِ ، وَأَخْبَرَتْ بِهِ عَائِشَةُ ، وَعَلِمَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ فَلَاَمَ حَفْصَةَ عَلَى إِفْشَاءِ سِرِّهِ ، وَأَخْبَرَهَا أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ هَذَا السِّرَّ مِنْ عَائِشَةَ وَلَكِنْ مِنَ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ .

٤ - أُدْبِتِ السُّورَةُ عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ ، وَبَيَّنَتْ أَنَّ التَّأَمَّرَ وَإِفْشَاءَ السِّرِّ مَوْْلَمٌ لِلنَّبِيِّ ، وَمَقْلَقٌ لِهَذَا الْقَلْبِ الْكَبِيرِ وَهَذَا أَمْرٌ يَسْتَحِقُّ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ ، ثُمَّ بَيَّنَتْ أَنَّ إِيْلَامَ النَّبِيِّ ﷺ أَمْرٌ كَرِيهٌ وَسِيرَتُهُ الْكَيْدُ عَلَى صَاحِبِهِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعَهُ قُوَّةٌ غَالِبَةٌ ، يَكْفِي أَنْ مَعَهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ .

٥ - هَدَدَ اللَّهُ نِسَاءَ النَّبِيِّ بِالطَّلَاقِ ، وَبِأَنْ يَعُوْضَهُ اللَّهُ مِنْهُنَّ بِنِسَاءِ هُنَّ الْمَثَلُ الْعَلِيَّاءُ فِي الْقُنُوتِ وَالْعِبَادَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالْجَمَالِ ، وَقَدْ أَثْمَرَ هَذَا التَّهْدِيدُ ثَمَرَتَهُ ، فَعَادَتْ نِسَاؤُهُ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ ، وَاسْتَأْنَفَ النَّبِيُّ ﷺ حَيَاتِهِ مَتَفَرِّغًا لِرِسَالَتِهِ ، وَتَبْلِيغِ دَعْوَتِهِ وَمَرْضَاةِ رَبِّهِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أُسْرَتِهِ .

وَالْآيَاتُ تَرْسُمُ صُورَةَ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَيْتِيَّةِ لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَنْهَضُ بِإِنْشَاءِ أُمَمِهِ ، وَإِقَامَةِ دَوْلَةٍ ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ مَعْرُوفٍ ، وَعَلَى غَيْرِ نَسْقٍ مَسْبُوقٍ ، أُمَّةً تَنْهَضُ بِحِمْلِ أَمَانَةِ الْعَقِيدَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي صُورَتِهَا الْأَخِيرَةِ ، وَتَنْشِئُ فِي الْأَرْضِ مَجْتَمَعًا رِبَانِيًّا فِي صُورَةٍ وَاقِعِيَّةٍ يَتَأَسَّى بِهَا النَّاسُ .

وَفِي ظِلَالِ هَذَا الْحَادِثِ تَهْيِيبُ الْآيَاتِ (٦-٩) بِالَّذِينَ آمَنُوا لِيُؤَدُّوا وَاجِبَهُمْ فِي بَيُوتِهِمْ ، مِنْ التَّرْبِيَةِ وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّذْكِيرِ ، فَيَقُودُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمُ النَّارَ ، وَتَرْسُمُ لَهُمْ مَشْهَدًا مِنْ مَشَاهِدِهَا وَحَالَ الْكُفَّارِ عِنْدَهَا .

ثُمَّ تَجَدَّدُ الدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْبَةِ النَّصُوحُ ، وَتَصَوَّرُ لَهُمُ الْجَنَّةُ الَّتِي تَنْتَظِرُ التَّائِبِينَ ، ثُمَّ تَدْعُو النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَحِمَايَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الدَّخَالِ وَالْخَارِجِ .

فَالْآيَاتُ الْأُولَى (١-٥) دَعْوَةُ لَتَوْبَةِ نِسَاءِ النَّبِيِّ وَحِمَايَةِ بَيْتِهِ وَنَفْسِهِ .

وَالْآيَاتُ الثَّالِثَةُ (٦-٩) دَعْوَةُ لَتَوْبَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَحَافَظَتِهِمْ عَلَى تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ لِأَنَّ الْأُسْرَةَ هِيَ قَوَامُ الْمَجْتَمَعِ .

ثم تجيء الجولة الثالثة والأخيرة ، وكأنها التكملة المباشرة لتهديد عائشة وحفصة ، فقد تحدثت الآيات (١٠- ١٢) عن امرأة نوح وامرأة لوط ، كمثال للكفر فى بيت مؤمن ، وهو تهديد مستتر لكل زوجة تخون زوجها وتخون رسالته ودعوته ، فلن ينجيها من العذاب أن أقرب الناس إليها نبي رسول أو داعية كريم .

ولا يضر المرأة المؤمنة أن يكون أقرب الناس إليها طاغية جباراً أو ملكاً متسلطاً معتدياً ، وقد ذكرت امرأة فرعون كمثال للإيمان فى بيت كافر ، وجعلت السورة فى ختامها نموذجاً رفيعاً للمرأة المؤمنة يتمثل فى آسية امرأة فرعون التى استعلت على المال والملك والجاه والسلطان ورغبت فيما عند الله .

ويتمثل فى مريم ابنة عمران ، المتطهرة المؤمنة القانئة المصدقة بكلمات ربها وكتبه .

وبذلك نجد المرأة تسير فى ركب الإيمان ، ويتحدث القرآن عنها كنموذج للخير يتمثل فى أم موسى ، وفى أم عيسى ، وفى بلقيس التى أسلمت لله رب العالمين ، وفى امرأة فرعون التى زهدت فى ملك فرعون ورغبت فى ثواب الله رب العالمين .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزباده :

معظم مقصود سورة التحريم ما يأتى : عتاب الرسول ﷺ فى التحريم والتحليل قبل ورود وحى سماوى ، وتعيير الأزواج الطاهرات على إيذائه وإظهار سره ، والأمر بالتحرز والتجنب من جهنم ، والأمر بالتوبة النصوح ، والوعد بإتمام النور فى القيامة ، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة ، ومع المنافقين بالبرهان والحجة ، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصدق والإخلاص ، والخبر عن صدق إيمان امرأة فرعون ، وتصديق مريم بقوله : وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْضَنْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَلِيلِينَ . (التحريم : ١٢) .

بعض أحوال نساء النبي ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَحْرَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَأْتِنِي إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأْتَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَيَبَّتٍ عَلَيَاتٍ سَيَحِبَّنَّ تَيَبَّتٍ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾﴾

المضردات :

تَحْرِمُ : تمتنع .

مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ : العسل ، أو مارية الغبطية .

تَبْنِي : تطلب .

فَرَضَ : شرع وبَيَّن .

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ : تحليلها بالكفارة ، أو بالاستثناء متصلا حتى لا يحنث .

مَوْلَاكُمْ : وليكم وناصركم .

بَعْضُ أَزْوَاجِهِ : هي حفصة على المشهور .

نُبَّاتٌ بِهِ : أخبرت به عائشة .

أظـهـره ، أطلعه وأعلمه قول حفصة لعائشة .

عـرفـ : أعلمها ببعض الحديث الذي أفشته .

وأعرض عن بعض : لم يخبرها به .

إن تـوبـيا : حفصة وعائشة .

صفت قلبوكما : مالت قلبكما عن الحق ، وعدلت عما يجب للرسول ﷺ من تعظيم وإجلال .

وإن تظاهرا عليه : تتظاهرا وتتعاوننا على إيذاء الرسول ﷺ

مـولاه : وليه وناصره .

ظـهـير : ظهراء معاونون ، وأنصار مساعدون .

مـسـلمات : خاضعات له بالطاعة .

مؤمنات : مصدقات بتوحيد الله مخلصات .

قانتات : مواظبات على الطاعة .

تائبات : مقلعات عن الذنوب .

صابـدات : متعبدات متذللآت لأمر الرسول ﷺ .

سائحات : صائحات ، سمى الصائم سائحا : لأنه يسبح في النهار بلا زاد ، أو مهاجرات .

شيبات وأبكارا : مشتملات على الصنفين ، فالثيب من تزوجت سابقا ، والبكر من لم يسبق لها الزواج .

ملاحظة :

يلاحظ في وصف النساء اللاتي سيعرضُ الرسول ﷺ بهنَ إذا طُلّق نساءه ، أنه بدأ في وصفهنَ بالإسلام وهو الانقياد ، ثم بالإيمان وهو التصديق ، ثم بالقنوت وهو الطوعية ، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب ، ثم بالعبادة وهي التلذذ بالمناجاة لله ، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم أو الهجرة ، وأما الثبوية والبكارة فلا يجتمعان في امرأة واحدة ، لذا عطف أحدهما على الآخر ، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى ، وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تزوجها بكرًا كعائشة ، وفيهن الثيبات وهن بقية نسائه ﷺ .

تمهيد :

كان ﷺ إذا انصرف من صلاة العصر دخل على نسائه ، يمكث عند زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت عائشة وحفصة ، إذا دخل ﷺ على إحداهما أن تقول له : أشم منك رائحة المغافير ، فهل أكلت مغافير ؟ (وهو نبت صمغ حلو ، له رائحة كريهة من شجر العُرْفُط في الحجاز).

فقال ﷺ: «لا، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود إليه، وقد حلفت».

وقال لحفصة: «لا تخبرى بذلك أحدا»، فأخبرت به عائشة رضى الله عنهما. وقد روى ذلك البخارى ومسلم.

وقيل. حرم النبى ﷺ مارية القبطية على نفسه، وهذا القول، وإن قرب من حيث المعنى، إلا أنه لم يدون فى صحيح ولا نقله عدل، كما ورد ذلك فى أحكام القرآن.

وقد ذكر البخارى، عن عمر أنه وعظ نساء النبى ﷺ واحدة واحدة، ينهاهن عن إيذاء الرسول ﷺ، ويهددن أن يبده الله خيرا منهن، فقالت له زينب: يا ابن الخطاب، أما فى رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظن أنت، فأمسك عمر، فأنزل الله: عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَفَكَ أُنثَىٰ تَرْجُو ۚ فَذُنَّ خَيْرًا مِّمَّا تُكِنُّ ... (التحريم: ٥).

التفسير:

١ - يَتْلَاهَا آلِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بَنِيَّ مَرْضَاتٍ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.

هناك روايتان فى سبب نزول هذه الآية:

الرواية الأولى:

أن النبى ﷺ قال لحفصة بنت عمر: لقد حرمت مارية على نفسى. استرضاء لها، لأن حفصة كانت فى زيارة أبيها، وجاءت مارية القبطية من عوالى المدينة، فدخلت فى بيت حفصة، فلما جاءت حفصة أخبروها بأن مارية فى حجرتها، فتغيظت من ذلك، وقالت للنبى ﷺ: ما أراك إلا أعرست بها على سريرى، وما كنت تفعلها لولا هوانى عليك، فقال ﷺ لحفصة: «إنى حرمت مارية على نفسى فاكتمى على». لكن حفصة أخبرت عائشة بذلك، وكانتا متصادقتين، فعاتبهما الله تعالى.

الرواية الثانية:

أن النبى ﷺ دخل على زينب فشرب عندها عسلا، فاتفقت عائشة وحفصة إذا دخل على واحدة منهما أن تقول له: نشم منك رائحة مغاير - وهو طعام حلوكريه الريح - فلما قالتا له ذلك، قال ﷺ: «شربت عسلا عند زينب، ولن أعود إليه»، وحلف فنزلت: يَتْلَاهَا آلِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ...

وذكر العلماء: أن النبى ﷺ ربما وقع منه الأمران: تحريم مارية، وبعد فترة قريبة حرم العسل على نفسه، فنزلت الآية عقب الأمرين جميعا.

والإمام الطبري يذكر أن المستفاد من الآية أن النبي ﷺ قد حرم على نفسه شيئاً ما قد أحله الله له ، فحرمه على نفسه تطبيقاً لخواطر نساائه ، لكن الله تعالى لأمه على ذلك ، وأحل له العدول عن اليمين ، والاستمتاع بهذا الحلال .

وقد يكون ما حرمه على نفسه هو مارية القبطية ، وقد يكون العسل ، وقد يكون غير ذلك . اهـ .

فعاتبه الله تعالى على ما بدر منه ، رفقا به ، وتنويعاً بقدره ، وإجلالاً لمنصبه ﷺ ، أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، مع أنه أَلِفَ لطف الله به .

ومعنى الآية :

يا أيها النبي الموحى إليه ، الذى فضله الله ، وختم به الرسل ، لم تحرم على نفسك ما أحله الله لك ، مثل العسل ، أو مارية القبطية ، تبتغى بذلك مرضاة عائشة وحفصة ، والله غفور رحيم ، يغفر لك ويرحمك برحمته الواسعة .

ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية ، بمعنى التحريم الشرعى ، وإنما كان قد قرر حرمان نفسه من العسل أو من مارية ، فجاء هذا العتاب بأن ما جعله الله حلالاً ، لا يجوز حرمان النفس منه عمدًا وقصدًا ، إرضاءً لأحد .

٢ - قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَجِلَّةً أَيْمَنِيكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

قد شرع الله لكم يا معشر المؤمنين ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة .

وفى الحديث الشريف : «من حلف على يمين ورأى غيرها خيرًا منها فليأت الذى هو خير ، وليكفر عن يمينه» (١١٠) .

وقال تعالى : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ كَذَلِكَ بَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (المائدة : ٨٩) .

وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ... فهو سبحانه وليكم وناصركم .

وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

يشعر لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاعتكم ، وما يصلح لكم ، فلا تحرموا إلا ما حرم ، ولا تحلوا غير ما أحل .

٣ - وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ .

كانت حفصة رضى الله عنها فى زيارة أبيها ، ولما جاءت مارية القبطية من عوالى المدينة ، خلا بها النبى ﷺ فى غرفة حفصة ، وانتظرت حفصة حتى خرجت مارية ، وتألّمت من دخول مارية غرفتها ، فحرّم النبى ﷺ مارية على نفسه ، وأخبر حفصة بذلك ، فلما خرج النبى ﷺ من عندها ، أخبرت عائشة بذلك ، ولم تستطع من شدة سرورها بتحريم مارية أن تكتم الخبر فأخبرت به عائشة ، وطلبت منها أن تكتم الأمر ، أو كان الأمر هو تحريم العسل .

ومعنى الآية :

وإذ قال النبى ﷺ لحفصة : إنى حرّمت العسل على نفسى ، أو حرمت مارية على نفسى، واكتفى هذا الخبر ، لكن حفصة أخبرت به عائشة ، وأعلم الله رسوله ﷺ بما حدّث .

فلما عاتب النبى ﷺ حفصة ، وأخبرها بما فعلت ، قالت له : من أين علمت بذلك ؟ فأفادها أن الذى أخبره بذلك هو، الْعَلِيمُ . بسائر أحوال الناس ، الْخَبِيرُ . بكلّ شيء فى الوجود .

وفى ذلك دعوة للناس جميعا إلى مراقبة الله تعالى ، ودعوة لزوجات الرسول ﷺ إلى ترك التأمّر والمكائدات المحبوبة وراء الأستار ، والتفرّع بالقلوب إلى مراقبة الله تعالى ، وذكره وشكره والالتجاء إليه .

٤ - إِنْ تَوَبَّأَ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَحُ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ .

تأتى هذه الآية لتوجيه عائشة وحفصة رضى الله عنهما ، إلى التوبة النصوح والتفرغ لذكر الله وطاعته .

وقد جرت العادة بأنّ الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيّع زمناً من تفكيرهم فيها.

وتبين الآية أن قلبى عائشة وحفصة قد انشغلا بتدبير مؤامرة ، يترتب عليهما أن يزهّد النبى ﷺ فى بعض نسائه ، والنبي الكريم يرى أمة ، ويوجّه دعوة ، وينزل عليه الوحى ، ويبليّ الوحى للناس ، ويقود الجيوش ، ويرسل السرايا ، وينظم شئون الأمة الإسلامية صباح مساء ، فينبغى أن يتوفّر له القدر الكافى من الهدوء النفسى والمعنوى .

لذلك حمل القرآن حملة قوية على عائشة وحفصة ، وذكرهما أن قلوبهما قد مالت عن الانشغال بطاعة الله إلى عمل مؤامرة لتزهيد النبي ﷺ في بعض نساته .

ومعنى الآية :

إن تتوبا إلى الله تعالى مما بدر منكما ، فذلك حق واجب ، وخير كبير ، لأن قلوبكما قد انصرفت عن الإخلاص والحب لرسول الله ﷺ ، وحب ما يحبه ، وكراهة ما يكرهه ، إلى تدبير مؤامرة منكما ليكره بعض نساته .

وإن تتعاوننا على النبي ﷺ بما يسوءه ، من الوقوعة بينه وبين بعض نساته ، فإن تعاونكما وتظاهركما عليه فاشل ضائع ، لأن هناك قوةً عليا ، وجيوشاً متعانة ، تؤازر رسول الله ﷺ ، وتشد أزره .

فَإِنَّ اللَّهَ . مَوْلَاهُ وَنَاصِرُهُ ، وَكَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَصِيرًا .

وَجِبْرِيلُ . كَذَلِكَ وَلِيهِ وَنَاصِرُهُ .

وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَالصَّالِحُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ نَصْرَاءَ لَهُ .

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ . والملائكة وهم أعظم المخلوقات ، بمثابة جيش جرار ، يملأ القفار ، نصرة للنبي المختار ، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ النبي ﷺ بعد ذلك ، والآية مسوقة لتعظيم قدر النبي ﷺ ، وبيان منزلته العالية ، وأن الدنيا كلها تسانده ، وأيضا للتأثير العاطفي على نساته ، حتى يكفّن عن التآمر عليه ، وحتى يتفرغ كلياً لأمر دعوة الإسلام .

وقد كان يكفي أن يقال : فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ . ومن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن الكون كله معه ، فخالق الكون معه ، والكون كله معه .

وقد ثبت في الصحيح ما يفيد أن هذا الأمر شغل رسول الله ﷺ ، واعتزل نساءه شهراً ، وأن ذلك شق على المسلمين ، وحزنوا لغضب النبي ﷺ من نساته .

ودخل عمر على رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ، ما يشق عليك من شأن النساء ؟ فإن كنت طَلَّقْتَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مَعَكَ وَمَلَائِكَتُهُ وَجِبْرِيلُ ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مَعَكَ ، فنزلت هذه الآية موافقة لقول عمر رضي الله عنه .

والخلاصة : إذا تظاهرتما عليه فلن يضره ذلك ، لأن الله هو مولاة وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير .

٥ - عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَةً مَّؤْمِنَةً قَلِيلَتْ تَلَيَّاتٌ عَلَيْهِاتٍ سَتِغْلَبَنَّكَ الْيَتَامَىٰ وَالْبَكَارُ .

أي: إن تحقق طلاق الرسول ﷺ لَكُنْ، فإن الله سيبدله أزواجًا خيرا منك، يتمتعن بأخلاق فاضلة، هي قدوة لَكُنْ وللجميع .

مُسْلِمَةً . خاضعات مستسلمات لأمر الله ورسوله .

مُؤْمِنَةً . مصدقات مخلصات .

قَلِيلَتْ تَلَيَّاتٌ . متعمقات في العبادة والقنوت، والتبذل والإخلاص، مواظبات على الطاعة .

تَلَيَّاتٌ . ناديات على وقوع المعصية، متجهات إلى الطاعة .

عَلِيَّاتٌ . متذلللات في طاعة الله ومحبه والإخلاص له .

سَتِغْلَبَنَّكَ . متأملات بعيونهن وقلوبهن في ملكوت السماوات والأرض، صائحات عن كل سوء، مهاجرات عن السوء مجتنبات له .

يَتَامَىٰ . جمع يَتِيم وهي التي زالت عذرتها، وسميت بذلك لأنها ترجع إلى الزوج بعد زوال عذرتها .

وَالْبَكَارُ . جمع بكر، وهي التي تفتض بكارتها .

وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تزوجها ثيبا، وفيهن من تزوجها بكرا، وجاء أنه لم يتزوج بكرا إلا السيدة عائشة رضي الله عنها .

وقد رضيتم نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته، وأطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إليه هدوءه بتوجيه الله سبحانه وتعالى .

توجيهات للمؤمنين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَانفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ
 غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً
 نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
 وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا رِسَالًا تَنْصُرُنَا وَبَارِكْ لَنَا فِيهَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيْسُ
 الْمَصِيرِ ﴿٩﴾﴾

المقررات :

قُوا أَنْفُسَكُمْ : اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصي .

وَأَهْلِيكُمْ : بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب .

الوَقُودُ : (يفتح الواو) ما توقد به النار .

الْحِجَارَةُ : الأصنام التي تعبد ، قال تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ...

(الأنبياء : ٩٨) .

مَلَائِكَةٌ : هم خزنة جهنم التسعة عشر .

غِلَاطٌ : غلاظ القلوب ، لا يرحمون إذا استرحموا .

شِدَادٌ : أقوىاء الأبدان ، شداد الأفعال .

تَوْبَةً نَصُوحًا : بالغة الغاية في النصح ، وقوامها ثلاثة أمور : الندم على ما فات ، والإقلاع في
 الحال ، والعزم على عدم العودة إلى المعاصي أبدًا ، كما لا يعود اللين إلى الضُّرْع .

يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ : لا يصيبهم بالخزي أو الانكسار أو الفضيحة .

بين أنبيائهم ، أمامهم ، يسعى نور الإيمان بهم على الصراط .

جاهد الكفار ، بمختلف أنواع الأسلحة .

والمنافقين ، باللسان والحجة .

واغلب عليهم ، اشتد عليهم بالانتهاز والمقت والقتل بحق .

تمهيد :

فى الآيات السابقة توجيه وتحذير لأمهات المؤمنين ، بأن النبى إذا غضب عليهن وطلقهن ، فسيحرمن من هذا الفضل ، وسيعوضه الله نساء أخريات ، متصفات بصفات سامية ، هى المثل الأعلى .

وهنا يوجه النصح للمؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار بترك المعاصى وفعل الطاعات ، وأخبر عن الكفار أنهم يلقون جزاءهم فى النار ، وأمر المسلمين بالتوبة بالنصوص ، والندم على ما فات ، والعزم على الاستقامة فيما هوأت ، فإن ذلك وسيلة إلى مغفرة الذنوب ، ودخول الجنات فى يوم القيامة ، حيث لا يهين الله النبى ولا يخذله ، بل يكرمه ويكرم المؤمنين ، حيث نرى نور أعمالهم يسعى أمامهم وعن يمينهم .

ثم توج ذلك كله بالأمر بجهاد الكافرين المعتدين ، والمنافقين المستترين ، والمجاهدة قد تكون بالقتال ، وقد تكون بالحجة والبرهان .

التفسير :

٦ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْلًا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْلُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

بعد أن حذرت الآيات السابقة زوجات الرسول ﷺ من إيذائه ، توجهت هذه الآيات إلى نصح المؤمنين بالتوبة والاستقامة والعمل الصالح ، وأن يجعلوا بين أنفسهم وبين النار وقاية وحماية ، وذلك بعمل المأمورات ، وترك المنهيات ، واجتناب الشبهات .

أما وقايتهم لأهليهم من النار ، فذلك بحملهم على الطاعات ، وأمرهم بالصلوات ، وإلزامهم بآداب الإسلام ، ورعايتهم وتأديبهم .

قال تعالى : وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَلَقَةُ الْفَرَى . (طه : ١٣٢) .

قال قتادة : تأمر أهلك بطاعة الله ، وتنهاهم عن معصية الله ، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به ، وتساعدهم عليه ، فإذا رأيت معصية قدعتهم عنها ، وزجرتهم عنها . اهـ .

وروى أحمد، وأبو داود، والحاكم، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «مروا أبناءكم بالصلاة سبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع». (١٤١).

وروى الترمذی، والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن» (١٤٢).

صفة النار أعادنا الله منها

وَقُودَهَا آتَاسُ وَالتَّجَارَةُ...

إن أمر هذه النار يدعو إلى العجب، لأن نار الدنيا تنقد بالحطب، أما نار الآخرة فإنها تنقد بأجسام الكفار والمشركين، وبالأصنام التي عُبِدَت من دون الله، وقد ورد في وصف جهنم وأهلها وعذابها آيات وأحاديث كثيرة، لتحذير الناس منها، وكثيرا ما قارن القرآن بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

قال تعالى: كَمْ هُوَ خَلِيلٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ. (محمد: ١٥).

عَلَيْهَا مَلَكُوتٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ...

يحيط بالنار زبانية.

قال تعالى: نِوَاحٍ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا سَعَةٌ عَشْرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا... (المدثر: ٢٩ - ٣١).

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم، وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة.

وعلى المؤمن أن يبقى نفسه، وأن يبقى أهله هذه النار، قبل أن تضيق الفرصة ولا ينفع الاعتذار.

٧ - يَتْلَاهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَخْتَلِرُوا إِلَٰهِيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ.

لا تعذبوا اليوم، لأن اليوم عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

والجزاء هنا على قدر العمل، ومن أجل كفركم وعتوكم وظلمكم تدخلون النار جزاء عملكم: وَلَا يَظْلِمُ

رَبُّكَ أَحَدًا. (الكهف: ٤٩).

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** .
(غافر : ١٧)

٨ - **يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** .

دعوة من الله تعالى للذين آمنوا أن يتوبوا إليه سبحانه وتعالى توبة بالغة الغاية فى النصح ، كأنها تنصح صاحبها وتدعوه إلى ثلاثة أشياء :

١ - الندم الشديد على المعصية .

٢ - الإقلاع فى الحال عن كل معصية .

٣ - العزم الأكيد على الطاعة والبعد عن كل معصية فى المستقبل ، والتصميم على ألا يعود إلى المعاصى أبداً ، كما لا يعود اللبى إلى الضرع .

من فعل ذلك وتاب إلى الله توبة صادقة ، كان جديرا بوعده الله له بأن يغفر له ذنوبه ، وأن يدخله جنات ويساتين تجرى الأنهار من تحتها ، مع الكرامة والرعاية ، والبعد عن المهانة والذرية ، والعذاب الأليم الذى يلقاه المشركون ، ومن تكريم المؤمنين أن يضمهم الله إلى النبى الكريم فى قوله سبحانه : **يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ...** وفيه تعريض بخزى الكافرين ومهانتهم فى النار .

نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ...

وهذه جملة مستأنفة لبيان حال المؤمنين عند مرورهم على الصراط ، حيث يجدون نور إيمانهم يسعى أمامهم وعن يمينهم .

كما جاء فى سورة الحديد : **وَيَجْعَلُ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ...** (الحديد : ٢٨) .

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

يقول المؤمنون راغبين راجبين بعد أن يلهى هم الله الدعاء :

ربنا أتمم لنا نورنا حتى نسير فيه إلى الجنة ، واغفر لنا وسامحنا ، وامح عنا ذنوبنا ، إن كل شئ بيدك ، وأنت على كل شئ قدير ، من المغفرة والتوبة والرضوان .

قال ابن عباس :

هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين ، في ذلك اليوم يُشاهد المؤمنون غراً محجّكين من آثار الوضوء ، تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور ، فيعرفهم رسول الله ﷺ يوم القيامة .

٩ - يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوُسُهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ .

يا أيها النبي جاهد الكفار بالسيف والقوة ، وَالْمُنَافِقِينَ . بالحجة والبرهان ، وقضح سلوكهم وكشف نفاقهم ، واغلظ عليهم في الجهاد ، والجدال بالحجة والبرهان ، ومصير الكافرين والمنافقين جهنم ، ويس هذا المصير مصيرنا ، إنه مصير إلى النار وعذابها ، ويس ما يلقونه فيها .
اللهم عافنا من النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

★ ★ ★

أمثلة من النساء الكافرات والمؤمنات

﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا مِنَ الْقَنِينَ ﴿١٢﴾﴾

نمقردات :

ضرب الله مثلا ، ضرب المثل : ذكر حال غريبة ، لتعرف منها حال أخرى تشاكلها في الغرابة .

تحت صبيدين ، في عصمتها .

فخانتاهما ، أى : نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه

مجنون ، وامرأة لوط تدل قومه على نزول أضيافه عليه ، وقد حفظ الله زوجات

الأنبياء من الزنا .

فلم يغنيا عنهما ، فلم يفيداهما ، ولم يجزيا عنهما شيئا من عذاب الله .

امرأة فرعون ، هي آسية بنت مزاحم .

نَجَّى من فرعون وعمله ، خَلَّصَنِي منه ، فإني أبرأ إليك منه ومن عمله .

القوم الظالمين ، هم الوثنيون أقباط مصر - في ذلك الوقت - وحاشية فرعون .

أحصنت فرجها ، حفظته وصانته .

الفرج ، شق جيب الدرع (القميص) إذ الفرج لغة : كل فرجة بين الشئين ، ويراد بذلك عفتها .

كلمات ربهما ، شرائعه وكتبه التي أنزلها على رسله .

القانتين ، الطائعتين المخبتين إلى الله ، المتمثلين بأوامره .

تمهيد :

نجد في ختام السورة مثلا لزوجتين كافرتين في بيتي نبيين كريمين ، ومع شدة القرب بين الزوجة وزوجها ، فإن هذا القرب لم يغن عنهما من عذاب الله شيئا .

فما وزن الله عادلة ، ولكل عامل جزاء عمله ، وإن ينفع المسيء قرب أفضل الرسل منه ، وإن يضُر الصالح قرب أظلم الناس منه .

لذلك ضرب الله مثلا للذين آمنوا بزوجة فرعون ، فهذا المَلِكُ كان يملك الملك والجاه والسلطان والقصر ، وزوجته في الذروة العليا من مظاهر الدنيا ، لكنها تعالت على كل ذلك ، وطلبت النجاة من فرعون وعمله ، ومن الظالمين من حاشيته وملئه ، ورغبت في جنة الله ، وفي بيت من بيوت هذه الجنة ، إنها نموذج حي لعائشة وحفصة ولسائر المؤمنات ، وفي الآية الأخيرة نموذج ثان لامرأة مؤمنة ، آمنت بالله وتحصنت بالعبادة ، فنفع جبريل بأمر الله في جيب قميصها ، فوصلت النفخة . إلى فرجها ، فحملت بعبسى وصدقت بكتب الله وكلماته ، وكانت من القانتين العابدين ، فجعلها الله نموذجا يحتذى لأهل الإيمان ، وجعلها ضمن أربع كاملات فضليات سيدات نساء أهل الجنة :

١ - آسية امرأة فرعون .

٢ - مريم ابنة عمران .

٣ - خديجة الكبرى .

٤ - فاطمة بنت محمد ﷺ .

التفسير:

١٠ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغَيِّزْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاعِيَيْنِ .

ضرب الله الأمثال فى القرآن ، والمثل قصة عجيبة فيها تشبيه أمر معنوى بأمر حسى ، تجسماً للمعنى ، وإبرازاً للمعقول فى صورة المحسوس ، فهذا نموذج للكفر والعصيان والطرده من رحمة الله ، يتمثل فى زوجة نوح وزوجة لوط ، كل واحدة منهما كانت زوجة لنبي كريم ، وعبد صالح من عباد الله الصالحين ، والعبودية لله منزلة عليا يتفاضل بها الناس ، وفى صدر سورة الإسراء : سُبْحَنَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ ... (الإسراء : ١٠)

ومع قرب الزوجة من زوجها ومعاشته فى النهار والليل ، ورؤيتها لسلوكه ، وفضل الله عليه ، فإن الإيمان لم يخالط بشاشة قلبها ، فكانت زوجة نوح تسخر منه مع الساعرين ، أو تنهمه بالجنون مع قومها ، أو ترشد قومها إلى كل أمر جديد ، أو دعوة جديدة عند نوح ، لقد كانت خيانتها لنوح خيانة للدعوة التى يحملها ، ولم تكن خيانتها ارتكاب فاحشة الزنا ، لأن الله حفظ نساء الأنبياء من ارتكاب فاحشة الزنا .

وكانت امرأة لوط ترشد قومه إلى الأضياف الذين ينزلون عنده ، فغضب الله عليهما ، ولم يغن نوح أو لوط عنهما من عذاب الله شيئاً ، وقيل لهما : ادخلا النار مع الداخلين من أمة نوح ولوط .

وهو تهديد لعائشة وحفصة ، وزوجات الرسول عامة ، ولكل إنسان ، مؤداه : إن الله أعد الجنة لمن أطاعه وإن كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لمن عصاه وإن كان حراً قرشياً ، أو منسباً أو قريباً للنبي ﷺ ، أو زوجة من زوجاته ، فالخلق جميعاً عباد الله تعالى ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

قال تعالى : يَتْلَاهَا آثَاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

١١ - وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

ونموذج آخر حى للإيمان والمثل الأعلى الصالح ، امرأة فرعون ، كانت تحت أعظم ملك ، ومعها القصور والجاه ، لكنها لما آمنت بموسى زهدت فى كل شيء ، وعذبها فرعون بأربعة أوتاد ، من يديها

ورجلها ، لكنها رفضت كل إغراء ، وطلبت النجاة من فرعون وعمله ، والنجاة من حاشيته وأتباعه ، وأن يكون بيتها عند الله في الجنة ، في معية الله ورحمته ، وفضله ورعايته .

قال بعض العلماء :

ما أحسن هذا الكلام ، فقد اختارت الجار قبل الدار حيث قالت : **أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا لِي الْجَنَّةِ** . فهي تطمع في جوار الله قبل طمعها في القصور ، وفي الآية دليل على إيمانها بالبعث والدار الآخرة .

قال قتادة :

كان فرعون أعطى أهل الأرض وأكفرهم ، فوالله ما ضرَّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربَّها ، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل ، لا يواخذ أحدًا إلا بذنبه .

١٢ - **وَمَرْيَمُ ابْنْتُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَلِيلِينَ** .

ونموذج آخر للمثل الأعلى للمرأة المؤمنة ، هو مريم ابنة عمران البتول الطاهرة المتعبدة الصالحة **الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا** . أي : حفظته من كل فاحشة ، كالحصن الذي يتحصن به الجنود فلا يصل إليهم الأعداء ، والمرأة المحصنة هي الفاضلة المستقيمة البعيدة عن الريبة ، فقد وصفها الله بالطهارة والاستقامة ، وبُعدها عن الفاحشة ، حيث أحصنت فرجها وحفظته عن الحرام .

وحينما ظهر لها جبريل في صورة بشر ، قالت : **إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَذِيرًا** . **قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا** . **قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا** . **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا** . **فَحَمَلَتْهُ فَاتَّبَعَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا** . (مريم : ١٨ - ٢٢) .

هذه المرأة رفعا إيمانها الكامل ، وطاعتها لربها ، وعفتها وإحصانها لفرجها ، وبُعدها عن الزنا والفاحشة ، فنفع جبريل في جيب قميصها ، فوصلت النفخة إلى فرجها ، فحملت بيسى عليه السلام ، كما هو مفصّل في سورة مريم وغيرها من السور .

وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَلِيلِينَ .

وآمنت بشرائع الله وكتبه وصحفه ، كصحف إدريس وصحف إبراهيم وموسى ، وصدقت ببشارة الله لها ، أنها ستحمل ولداً بدون أب ، ليكون آية بينة للبشرية كلّها على قدرة الله الخارقة ، وأنه سبحانه هو المسبب للأسباب ، وأن أمره بين الكاف والنون .

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ. (يس: ٨٢).

وقال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ، مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ. (آل عمران: ٥٩).

وثبت في الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «كَمُلْ من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». (١١٣).

خلاصة ما تضمنته سورة التحريم

اشتملت سورة التحريم على ثلاثة أمور :

١ - أخبار نساء النبي ﷺ ، وحلفه ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهن ، أو حلفه ألا يقرب مارية القبطية ، وأمره حفصة أن تكتم الموضوع فأفشته ، وأعلمه الله بذلك ، ثم أدب القرآن زوجات الرسول ﷺ أدبا مناسبا .

٢ - ضرب الله مثلا للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط .

٣ - ضرب المثل للذين آمنوا بأسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (التحريم) ، وبه تمّ تفسير الجزء (الثامن والعشرين) ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وكان الفراغ منه عصر يوم السبت ١٦ من ذى القعدة ١٤٢١ هـ ، ١٠/٢/٢٠٠١ م ، ونسأله تعالى المعونة والتوفيق والسداد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثامن والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) في ظلال القرآن ، بقلم سيد قطب ٨/٢٨.

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ٤٥٦/١ .

(٣) أخرجه أحمد وأبو داود .

(٤) رواه ابن جرير ، قال ابن كثير : وإلى ما ذكرناه ذهب ابن عباس والأكثر . وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني المجلد الثالث ص ٤٥٩ .

(٥) حكاية الآلوسى .

(٦) حكاية القرطى .

(٧) انظر تفسيرى المراغى والآلوسى ، والتفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية .

(٨) الحمد لله الذى وفق :

رواه أبو داود فى الأقضية (٣٥٩٢) والترمذى فى الأحكام (١٣٧٢) والدارمى فى المقدمة (١٦٨) وأحمد فى مسنده (٢١٥٠٢ ، ٢١٥٥٦ ، ٢١٥٩٥) عن أناس من أهل حمص من أصحاب معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال : «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء»؟ قال : أقضى بكتاب الله ، قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله»؟ قال : فبسنة رسول الله ، قال : «فإن لم تجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله»؟ قال : أجتهد رأيى ولا ألو ، فضرب رسول الله صدره وقال : «الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله» . قال أبو عيسى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده عندي بمتصل . وقال الزيلعى فى نصب الراية : وأخرجاه أيضاً عن أناس من أصحاب معاذ أن رسول الله ... مرسلاً ، قال الترمذى : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وليس إسناده بمتصل ، انتهى . وقال البخارى فى «تاريخه الكبير» : الحارث بن عمرو بن أخى المغيرة بن شعبة الثقفى عن أصحاب معاذ عن معاذ ، روى عنه أبو عون ، ولا يصح ، ولا يعرف إلا بهذا ، مرسل ، انتهى . وفيه كتاب . ورواه النسائى فى آداب القضاء (٥٣٩٩) والدارمى فى المقدمة (١٦٧) عن شريح أنه كتب إلى عمر يسأله فكتب إليه أن اقض بما فى كتاب الله فإن لم يكن فى كتاب الله فبسنة رسول الله ، فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ، فاقض بما قضى به الصالحون فإن لم يكن فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ولم يقض به الصالحون فإن شئت فتقدم وإن شئت فتأخر ، ولا أرى التأخر إلا خيراً لك ، والسلام عليكم .

(٩) مهلاً يا عائشة إن الله يحب الرفق :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٢٤) ومسلم فى السلام (٢١٦٥) من حديث عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ قالت : دخل رهب من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السام عليكم ، قالت عائشة : فهمتها فقلت : وعليكم السام واللغة ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : «مهلاً يا عائشة ، إن الله يحب الرفق فى الأمر كله» فقلت : يا رسول الله ، أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله ﷺ : «قد قلت : وعليكم» .

(١٠) نقلنا عن تفسير القرطى ، وصفة التفسير للصابونى ٣/٣٣٩ .

(١١) إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان:

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٩٠) ومسلم فى السلام (٢١٨٤) من حديث عبد الله رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه» .

(١٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق الصابوني ٤٦٣/٣ .

(١٣) والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه:

رواه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فىمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(١٤) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨٨) ، والترمذى فى البر والصلة (٢٠٢٩) ، وأحمد (٧١٦٥ ، ٨٧٨٢) ، والدارمى فى الزكاة (١٦٧٦) من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٥) لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه :

رواه البخارى فى الاستئذان (٦٢٦٩) ومسلم فى السلام (٢١٧٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه» .

(١٦) من أحب أن يمثل له الرجال قياما :

رواه أبو داود فى الأدب (٥٢٢٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٥٥) من حديث أبى مجلز قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير ، فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار» .

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(١٧) قوموا إلى سيدكم :

رواه البخارى فى الجهاد (٣٠٤٣) ومسلم فى الجهاد (١٧٦٨) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد - هو ابن معاذ - بعث إليه رسول الله ﷺ وكان قريبا منه فجاء على حمار فلما دنا قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى سيدكم» ، فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له : «إن هؤلاء نزلوا على حكمك» ، قال : فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى الذرية ، قال : «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» .

(١٨) ليليني منكم أولو الأحلام والنهي :

رواه الترمذى فى الصلاة (٢٢٨) وأحمد فى مسنده (٤٣٦٠) من حديث عبد الله عن النبى ﷺ قال : «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق» .
وقال الترمذى : حسن صحيح غريب .

والنسائى فى الإمامة (٨٠٧) وابن ماجّة فى إقامة الصلاة (٩٧٦) من حديث أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافًا .

(١٩) والله فى عون العبد :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٣) .

(٢٠) إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما :

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٧) وابن ماجّة فى المقدمة (٢١٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٣) من حديث عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من استعملت على أهل الوادى ؟ فقال : ابن أبزى ، قال : ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا ، قال : فاستخلفت عليهم مولى ، قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض ، قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين» .

(٢١) مختصر تفسير ابن كثير، المجلد الثالث ص ٤٦٥ .

(٢٢) ما ترى ديناراً :

رواه الترمذى فى تفسير القرآن (٣٣٠٠) من حديث على بن أبى طالب قال : لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقات﴾ قال لى النبى ﷺ : «ما ترى ، ديناراً» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فنصف دينار» ؟ قلت : لا يطيقونه ، قال : «فكم» ؟ قلت : شعيرة ، قال : «إنك لزهيد» ، قال : فنزلت ﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات...﴾ الآية . قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة .

وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٢٣) التفسير المنير ، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، الجزء ٢٨ ص ٤٨ .

(٢٤) صفوة التفسير .

(٢٥) أخرجه فى : ٧٥ - كتاب المرضى ، ١١ - باب عبادة المشرک ، حديث رقم ٧١٤ ، عن أنس .

(٢٦) تفسير القاسمى، المجلد السابع، دار إحياء التراث العربى . بيروت لبنان ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢٧) انظر تفسير السفى : ٤ - ١٧٩ ، وكتب التفسير والسيرة .

(٢٨) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ص ١٢٧ .

(٢٩) الوجيف: سرعة السير . والركاب: ما يركب من الإبل .

(٣٠) حمل بعضهم عليه الآية (١٦) من سورة الحشر ، حيث استدرجه الشيطان إلى المعصية ثم إلى الشرك ثم تخلى عنه ، وذلك أن الشيطان ذهب إلى بنت فاختها حتى مرضت ، ثم أفهم أهلها أن شفاؤها عند ذلك العابد ، فتركها أهلها عنده في صومعته ليرقيها ، فلما شفيت وسوس له الشيطان حتى ارتكب معها الفحشاء ، فلما انكشف أمره أخذ يُصَلَّب فطلب منه الشيطان أن يسجد له حتى ينجو من الصلب ، فسجد للشيطان ثم مات كافراً .

(٣١) الأنواء : الأمطار ، والنوء: المطر .

(٣٢) الندى : النادى .

(٣٣) سمحة : الملة الميسرة . قال ﷺ : «بعت بالحنيفية السمحة» .

(٣٤) الغلو .

(٣٥) مأتيا .

(٣٦) ظفر : وثب .

(٣٧) أخرجه في: ٦٥ كتاب التفسير ، ٥٩ سورة الحشر ، ١ - باب الجلاء من أرض إلى أرض ، حديث رقم ١٨٦٩ .

(٣٨) تفسير القاسمي ١٦ - ٥٧٣٣ .

(٣٩) تفسير سورة الحشر ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤٠) تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٤١) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى في الشروط (٢٧٣٦) وفى التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦) ، (٣٥٠٨) وابن ماجة فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجة فى الدعاء (٢٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار ... الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث ، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ، ولا نعلم فى كبير شيء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء ، وليس له إسناد صحيح .

(٤٢) الطيد : القديم العهد .

(٤٣) غدروا بنا ونحن عاكفون على صلاتنا بالليل .

(٤٤) نصرا عزيزا .

(٤٥) المصانعة : المجاملة والسبق المعروف .

(٤٦) لعل الله اطلع إلى أهل بدر :

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٨٣) من حديث على رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوى والزبير ابن العوام وكلنا فارس ، قال : «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين» ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب ، فقالت : ما معنا كتاب ، فأتخنأنا فالتسنا فلم نر كتابا فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجربنك ، فلما رأنا الجذأ موت إلى حوزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته ، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلاضرب عنقه ، فقال النبی ﷺ : «ما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب : والله ما بى أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله ، فقال النبی ﷺ : «صدق» ، ولا تقولوا له إلا خيرا» ، فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلاضرب عنقه ، فقال : «أليس من أهل بدر؟» فقال : «لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة» — أو — فقد غفرت لكم» . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

(٤٧) فى ظلال القرآن ٥٨/٢٨ .

(٤٨) فى ظلال القرآن ٦٦/٢٨ .

(٤٩) انظر تفسيرى الطبرى وابن كثير .

(٥٠) د. محمد سيد طنطاوى، التفسير الوسيط، الجزء ٢٨ ص ٤٢٨ .

(٥١) تفسير التحرير والتنوير، ج ٢٨ ص ١٣٩ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، قال : واللام فى اللذين كفروا للمليك ، ويجوز أن يكون المعنى : لا تجعلنا فالتين اللذين كفروا بضعفنا وتفرقتنا .

(٥٢) نعم هبلى أمك :

رواه البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) وفى الجزية (٢١٨٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣) وأبو داود (١٦٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٧٥) من حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قال : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت : وهى راغبة فأفصل أمى ؟ قال : «نعم هبلى أمك» .

(٥٣) تفسير الطبرى مجلد ١٢ ص ٦٩ ، سورة الممتحنة الآيات (٩ ، ١٠) دار الفد العربى، العباسية، القاهرة .

(٥٤) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(٥٥) والله ما مست يده يد امرأة قط في المباينة :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩١) من حديث عروة أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنين بهذه الآية بقول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَابِغُكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : «قد يابغتك» كلاما . ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المباينة ما يبايعهن إلا بقوله : «قد يابغتك على ذلك» .

(٥٦) إلى لا أضاف النساء :

رواه النسائي فى البيعة (٤١٨١) وابن ماجه فى الجهاد (٢٨٧٤) وأحمد فى مسنده (٢٦٤٦٦) من حديث أميمة بنت رقيقة أنها قالت : أتيت النبي ﷺ فى نسوة من الأنصار نبايعه فقلنا : يا رسول الله ، نبايعك على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك فى معروف ، قال : «فيما استطعتن وأطقتن» . قالت : قلنا : الله ورسوله أرحم بنا ، هلم نبايعك يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : «إني لا أضاف النساء إنما قبولى لمائة امرأة كقبولى لامرأة واحدة أو مثل قبولى لامرأة واحدة» .

(٥٧) صفوة التفاسير للأستاذ محمد على الصابوني ، ناقلا عن تفسير البحر المحيط ٢٥٨/٨ والتفسير الكبير للرازي ٣٠٧/٢٩ .

(٥٨) أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩) من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : كنا عند النبي ﷺ فقال : «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنا ولا تسرقوا» ، وقرأ آية النساء وأكثر لفظ سفيان قرأ الآية . «فمن وفى منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله فهو إلى الله إن شاء عذبه إن شاء غفر له» . تابعه عبد الرزاق عن معمر فى الآية .

(٥٩) ليس منا من لطم الخدود :

رواه البخارى فى الجائز (١٢٩٤) وأحمد فى مسنده (٤١٠٠) من حديث عبد الله رضى الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية» .

(٦٠) إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا :

رواه البخارى فى المناقب (٣٥٣٤ ، ٣٥٣٥) ومسلم فى الفضائل (٢٢٨٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فنجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» .

(٦١) آية المنافق ثلاث :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٣) ، وفى الشهادات (٢٦٢٨) ، وفى الوصايا (٢٧٤٩) ، وفى الأدب (٦٠٩٥) ، ومسلم فى الإيمان (٥٩ ، ٧٤) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦٣١) . وقال : حسن صحيح .

(٦٢) ثلاثة يضحك الله إليهم :

رواه أحمد في مسنده (١١٣٥٢) من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال» .

(٦٣) إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤) والترمذي في الأدب (٢٨٤٠) وأحمد في مسنده (١٦٢٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لي أسماء ، أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» .

(٦٤) أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة :

رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٥) من حديث أبي موسى الأشعري قال : كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال : «أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة» .

(٦٥) رواه ابن إسحاق ، قال ابن كثير : إسناده جيد وله شواهد من وجوه آخر .

(٦٦) أخرجه الإمام أحمد عن العرياض بن سارية مرفوعاً .

(٦٧) أخرجه الإمام أحمد .

(٦٨) رواه أحمد وأصحاب السير .

(٦٩) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد علي الصابوني ، المجلد الثالث ص ٤٩٣ .

(٧٠) تفسير الطبري ، المجلد ١٢ ، سورة الصف الآيتان (١٠ ، ١١) دار الغد العربي ، العباسية ، القاهرة .

(٧١) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، المجلد الثالث ص ٣٧٢ .

(٧٢) في ظلال القرآن ، الجزء ٢٨ ص ٨٦ ، الطبعة السادسة مزيّدة ومنقحة ومفهرسة (دون ذكر المطبعة) .

(٧٣) إن الله زوى لي الأرض :

رواه مسلم في الفتن (٢٨٨٩) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٦) ، وأبو داود في الفتن (٢١٧٦) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٢) وأحمد (٢٨٤ ، ٢٧٨/٥) ، من حديث ثوبان . وقال للترمذي : حسن صحيح .

(٧٤) انظر تفسير البيضاوي .

(٧٥) في ظلال القرآن ، الجزء ٢٨ ص ٨٩ (بدون ذكر اسم المطبعة) الطبعة السادسة .

(٧٦) تفسير النسفي ١/٤٩١ .

(٧٧) هاجر جعفر مع السابقين الأولين، فأرسلت قريش وراء المهاجرين عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليرد هؤلاء المهاجرين إلى قريش لأنهم سفهاء قد فارقوا دينهم، فأصر النجاشي على أن يستمع إلي وجهه نظر المسلمين المهاجرين .

(٧٨) للكاتب ج. هـ. ديسون في كتاب: العواطف كأساس للحضارة .

(٧٩) إن لربك عليك حقا :

رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨) وفي الأدب (٦١٣٩) والترمذي في الزهد (٢٤١٣) من حديث أبي جحيفة قال : آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما فقال : كل ، قال : فإني صائم ، قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، قال : فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال : نم ، فنم ، ثم ذهب يقوم فقال : نم ، فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأثنى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال النبي ﷺ : «صدق سلمان» .

ورواه البخاري في الصوم (١٩٧٤ ، ١٩٧٥) وفي النكاح (٥١٩٩) وفي الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١١٥٩) والنسائي في الصيام (٢٣٩١) وأحمد في مسنده (٦٨٢٨) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : دخل على رسول الله ﷺ فذكر الحديث ، يعني : «إن لزورك عليك حقا وإن لزوجهك عليك حقا» . فقلت : وما صوم داود ؟ قال : «نصف الدهر» .

ورواه أبو داود في الصلاة (١٣٦٩) وأحمد في مسنده (٢٥٧٧٦) من حديث عائشة أن النبي ﷺ بعث إلى عثمان بن مظعون فجاءه فقال : «يا عثمان أرغبت عن سنتي ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ولكن سنتك أطلب ، قال : «فإني أنام وأصلي ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء فاتق الله يا عثمان فإن لأهلك عليك حقا وإن لنفيسك عليك حقا ، فاصم وأفطر وصل وتم» .

(٨٠) رواه ابن أبي حاتم.

(٨١) أعطيت خمسا لم يعطهن نبي :

رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١ ، ٥٢٢) والنسائي في الغسل (٤٣٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٣) والترمذي في السير (١٥٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٢٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٨٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبي موسى .

(٨٢) لو كان الإيمان عند الثريا لئاله رجال :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٩٨) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال : قلت : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجع حتى سأل ثلاثا وفيثا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : «لو كان الإيمان عند الثريا لئاله رجال أو رجل من هؤلاء» . حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا عبد العزيز أخبرني ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «لئاله رجال من هؤلاء» .

(٨٣) لو فعل لأخذته الملائكة عيانا :

رواه أحمد في مسنده (٢٢٣٦) من حديث ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأتيه حتى أطأ على عنقه قال : فقال : «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم في النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» .

(٨٤) كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت غير من الشام :

رواه مسلم في الجمعة (٨٦٣) من حديث جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائما يوم الجمعة فجاءت غير من الشام فانقتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا ، فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ .

(٨٥) إحياء علوم الدين ١/١٦٠ ربه فصول عدة عن فضل الجمعة وآدابها وشروطها ، فمن أراد التوسع فليرجع إليه .

(٨٦) محمد جواد مغنیه : الفقه على المذاهب الخمسة ، ص ١٤٩ .

(٨٧) من اغتسل يوم الجمعة وغسل ويكر وابتكر ودنا :

رواه الترمذي في الجمعة (٤٩٦) والنسائي في الجمعة (١٣٨١) وأحمد في مسنده (٦٩١٥) من حديث أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «من اغتسل يوم الجمعة وغسل ويكر وابتكر ودنا واستمع وأنصت كان له بكل خطوة يخطوها أجر سنة صيامها وقيامها» .

قال أبو عيسى : حديث أوس بن أوس حديث حسن .

(٨٨) لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع :

رواه البخاري في الجمعة (٨٨٣) من حديث سلمان الفارسي قال : قال النبي ﷺ : «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى» .

(٨٩) انظر كتاب : ما يقال عن الإسلام ، ص ١٤٥ تحت عنوان : أثر الإسلام في العبادة اليهودية .

(٩٠) كان يقرأ في صلاة الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى :

رواه أبو داود في الصلاة (١١٢٥) والنسائي في الجمعة (١٤٢٢) من حديث سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية .

(٩١) وقت صلاة العيد بعد ارتفاع الشمس قدر رمح أو رمحين ، أو بعد طلوعها بثلاث ساعة ، فوقت الجمعة عند الحنبلة ممتد من الضحى إلى أذان العصر .

(٩٢) انظر فقه السنة ٢/٢٦٠ .

(٩٣) المرجع السابق .

(٩٤) نقلا عن فقه السنة ٢/٢٦٢.

(٩٥) من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة :

رواه الدارمي في فضائل القرآن (٣٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري قال : من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق .

(٩٦) صحيحكم ومساكم : أى تأكلم العدو وقت الصباح أو وقت المساء .

(٩٧) رواه أحمد وابن أبي شيبه والبخاري ، قال الحافظ في بلوغ المرام : إسناده لا بأس به ، ومعنى لا جمعة له : أى لا جمعة كاملة .

(٩٨) ينوى الجمعة ويصليها ظهرا ، ويتندر الفقهاء عنه بقولهم : رجل صلى ولا نوى ، ونوى ولا صلى ، أى : صلى الظهر ولم ينو ، ونوى الجمعة ولم يصلها .

(٩٩) فقه العبادات د. عبد الله شحاته ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٠٠) انظر تفاسير الطبري والسيابري والكشاف والنسفي وغيرها .

(١٠١) انظر سيرة ابن هشام ، وابن إسحاق ، وصور من حياة الرسول لأمين دريدار ، مطابع دار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٤٠٥ .

(١٠٢) ما بال دعوى الجاهلية :

رواه البخاري في التفسير (٤٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كنا فى غزاة - قال سفيان مرة : فى جيش - فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : «ما بال دعوى الجاهلية» . قالوا : يا رسول الله ، كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال : «دعوا فإنها منتنة» . فسمع بذلك عبد الله بن أبى فقال : فعلوها ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبى ﷺ فقام عمر فقال : يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبى ﷺ : «دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» . وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة ثم إن المهاجرين كثروا بعد .

(١٠٣) كان سيدها من سادات قومه ، وعندما أسلم دخل قومه فى الإسلام تبعوا له ، إذ قال لقومه : إن كلام رجالكم ونساءكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ؛ فأمنوا جميعا .

(١٠٤) وأخبره الترمذى أيضا وقال : هذا حديث حسن صحيح ، فقلنا عن التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، الجزء ٢٨ ص ٢٢٣ .

(١٠٥) وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال : «يا غلام ، إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا

استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلوني فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال : «يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك . تعرف إلى الله ...» الحديث ، وفيه : «قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه» . وفيه : «واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا» ، وأورده الضياء وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ : «يا ابن عباس احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» . وذكره مطولا بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد : وقد بسملت الكلام عليه فى تخريج الأربعين .

(١٠٦) إن أحدكم يجمع خلقه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٧٠٨) من حديث عبد الله قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : «إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له : اكتب عمله ورجه وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منك لم يعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة» .

(١٠٧) تفسير الطبرى ٧٩/٢٨ .

(١٠٨) انظر تفسير النيسابورى ٨٠/٢٨ ، والمعنى أن السعداء أخذوا أماكن الأشقياء فى الجنة ، والأشقياء أخذوا أماكن السعداء فى النار .

(١٠٩) لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٦٩) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ . «لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، ولا يدخل النار أحد إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة» .

(١١٠) كلمات القرآن تفسير ريان ، للأستاذ حسين محمد مخلوف ، مطابع دار المعارف ١٩٧٦ م .

(١١١) انظر ذلك فى تفسير الطبرى أيضا ، حيث نقل أن صدر سورة التباين مكى وآخرها مدنى .

(١١٢) رواه الترمذى بإسناد آخر ، وقال : حسن صحيح .

(١١٣) انظر تفسير الطبرى ٨١/٢٨ ، والنيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٨١/٢٨ .

(١١٤) تفسير الطبرى ٨٣/٢٨ .

(١١٥) كل مولود يولد على الفطرة :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥) وفى التفسير (٤٧٧٥) وفى القدر (٦٥٩٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨) ومالك فى الموطأ كتاب الجنائز (٥٦٩) وأبو داود فى السنة (٤٧١٤) والترمذى فى القدر (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء» .

(١١٦) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني (هامش) ، دار الصابوني ٢٥ شارع عباس يوسف ، مدينة نصر القاهرة ت : ٦١٨٢٤٠ .

(١١٧) لا يدخل أحد الجنة إلا أرى مقعده من النار :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠٩) .

(١١٨) تفسير القرطبي ، مطبعة دار الفد العربي ، ص ٦٨٠٦ ، الطبعة الثانية ١٩٩٦ م .

(١١٩) عجباً لأمر المؤمن :

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ ، ١٨٤٦٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٤١٢) ، والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : «عجباً لأمر المؤمن إن سره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له» .

(١٢٠) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابوني ، وفى هامشه : أخرجه ابن أبى حاتم ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

(١٢١) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم :

رواه البخارى فى الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفى التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم فى الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب : إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبداً (٢٨٢٩) والترمذى فى صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسديك والخير فى يدك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(١٢٢) ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم :

رواه البخارى فى كتاب الاعتصام (٧٢٢٨) ، ومسلم فى كتاب الفضائل (١٣٣٧) ، والترمذى فى العلم (٢٦٧٩) والنسائى فى المناسك (٢٦١٩) وابن ماجه فى المقدمة (٢) وأحمد (٧٣٢٠) من حديث أبى هريرة .

(١٢٣) فى ظلال القرآن ١٨/٦٠ .

(١٢٤) فى ظلال القرآن ٢٨/١٣٨ .

(١٢٥) استوصوا بالنساء خيرا :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣١) ، وفى النكاح (٥١٨٦) ، ومسلم فى الرضاخ (١٤٦٨) ، وأحمد (١٠٠٧١) ، والدارمى فى النكاح (٢٢٢١) من حديث أبى هريرة .

(١٢٦) كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته:

رواه البخارى فى الجمعة (٨٩٣) وفى الاستقراض (٢٤٠٩) وفى العتق (٢٥٥٤ ، ٢٥٥٨) وفى الوصايا (٢٧٥١) وفى النكاح (٥١٨٨ ، ٥٢٠٠) وفى الأحكام (٧١٣٨) ومسلم فى الإمارة (١٨٢٩) وأبو داود فى الخراج (٢٩٢٨) والترمذى فى الجهاد (١٧٠٥) وأحمد فى مسنده (٤٤٨١ ، ٥١٤٥ ، ٥٨٦٧ ، ٥٩٩٠) من حديث عبد الله بن عمر .

(١٢٧) روى البخارى فى صحيحه أن عبد الله بن عمر طلق امرأة له وهى حائض ، فذكر عمر ذلك لرسول الله ﷺ ، فتعظ رسول الله ثم قال : «ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها ، ففك العدة التى أمر بها الله عز وجل» .

ورواه مسلم بلفظ : «.. ففك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء» . أى: ذلك معنى قوله تعالى : ﴿فلطفوهن لعنتهن﴾ (الطلاق:١) ، أى: طلقوهن مستقبليات لعنتهن ، ولا يكون ذلك إلا بعد أن تحيض المرأة ثم تطهر ، وهى حالة أرغب ما يكون فيها الرجل ، فإذا طلقها فى هذه الحالة دل على عدم رغبته فيها .

(١٢٨) تصف النساء يكونن يأسهن من الحمل بين ٤٥ - ٥٠ سنة .

ربع النساء يكونن يأسهن بين ٤٠ - ٤٥ سنة .

ثلث النساء يكونن يأسهن بين ٣٥ - ٤٠ سنة .

ثلث النساء يكونن يأسهن بين ٥٠ - ٥٥ سنة .

(١٢٩) انظر السيوطى فى الدر المنثور ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحلى ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، جزء ٢٨ ص ٢٦٦ ، والتفسير الوسيط بإشراف الأزهر بمصر ، ومختصر تفسير ابن كثير بتحقيق الصابونى ٥١٤/٣ ، والحديث أخرجه الحاكم عن جابر ، وأخرجه ابن مردويه والخطيب عن ابن عباس .

(١٣٠) إن العبد ليحرم الرزق بالذنب :

رواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٨٢ ، ٢٨٠/٥) .

(١٣١) احفظ الله يحفظك :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠٥) .

(١٣٢) كان خلقه القرآن :

رواه مسلم فى أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المسافرين ، باب جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض (٢٤٦) عن زبارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو فى سبيل الله ، فقدم المدينة ، فأراد أن يبيع عقارا له بها . فبيعه فى السلاح والكراع ، ويجاهد الروم حتى يموت ، فلما قدم المدينة ، لقي أناسا من أهل المدينة ، فأنهروه عن ذلك ، وأخبروه .

أن رها ستة أراودا ذلك في حياة نبي الله ﷺ فنهاهم نبي الله ﷺ . وقال : «أليس لكم في أسوة» ؟ فلما حدثوه بذلك راجع امرأتهم . وقد كان طلقتها . وأشهد على رجعتها . فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول ﷺ ؟ فقال ابن عباس : ألا أنك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ، قال : من ؟ قال : عائشة . فأتتها فاسألها ، ثم اتتني فأخبرني بردها علي ، فانطلقت إليها ، فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها . فقال : ما أنا بقاريها لأنني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فأبت فيهما إلا مضيا ، قال : فأقسمت عليه ، فجاء ، فانطلقنا إلى عائشة ، فاستأذنا عليها فأذنت لنا ، فدخلنا عليها . فقالت : أحكي ؟ (فعرفته) فقال : نعم . فقالت : من معك ؟ قال : سعد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . فترجمت عليه . وقالت خيرا . (قال قتادة : وكان أصيب يوم أحد) فقلت : يا أُم المؤمنين ، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ . قالت : أأنت تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن . قال : فهممت أن أقوم .. الحديث .

ورواه أحمد مختصرا (٢٣٤٦٠ ، ٢٤١٣٩ ، ٢٤٦٢٩) .

(١٣٣) من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه :

رواه مسلم في المساقاة (١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن رسول الله ﷺ قال : «من اقتطع شبرا من الأرض ظلما طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين» .

(١٣٤) تفسير الطبري ١٠٢/٢٨ ، وقد ورد ذلك في سنن النسائي من حديث أنس .

(١٣٥) المغاير : صمغ حلو الطعم كريه الرائحة .

(١٣٦) لا ولكني كنت أشرب عسلا :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٢) من حديث عائشة رضی الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ويمكث عندها ، فواطيت أنا وحفصة على أيتنا نخل عليها فلتقل له : أكلت مغاير ، إني أجد منك ريح مغاير ، قال : «لا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحدا» .

(١٣٧) تفسير الطبري ١٠٢/٢٨ .

(١٣٨) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(١٣٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٥٦/٢٨ .

(١٤٠) من حلف على يمين :

رواه مسلم في الإيمان (١٣/١٦٥٠) ، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٠) وقال : حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح ، والنسائي في الكبرى في الإيمان والكفارات (٢/٤٧٢٢) ، كلهم عن أبي هريرة رضی الله عنه ، وأبو داود في الإيمان والنذور (٣٢٧٧) ، والنسائي في الكبرى في الإيمان والنذور (٤/٤٧٢٤) ، كلاهما عن عبد الرحمن بن سمره رضی الله عنه .

(١٤١) مروا أولادكم بالصلاة لسبع :

رواه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) وأحمد في مسنده (٦٦٥٠) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : «مرو أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع» .

(١٤٢) ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن :

رواه الترمذي في البر (١٩٥٢) وأحمد في مسنده (١٦٢٦٩) من حديث أيوب بن موسى عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : «ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن» .

قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عامر بن أبي عامر الخزاعي ، وهو عامر بن صالح بن رستم الخزاعي ، وأيوب بن موسى هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهذا عندي حديث مرسل .

(١٤٣) كمل من الرجال كثير :

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٣١) والترمذي في الأطعمة (١٨٣٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (الثامن والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة المجادلة .	٥٧١٧
—	أهداف سورة المجادلة .	٥٧١٨
١	﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها...﴾	٥٧٢٣
٢	﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم...﴾	٥٧٢٣
٣	﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا...﴾	٥٧٢٣
٤	﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا...﴾	٥٧٢٣
٥	﴿إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا كما كتب الذين من قبلهم...﴾	٥٧٣٠
٦	﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا...﴾	٥٧٣٠
٧	﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض...﴾	٥٧٣٠
٨	﴿ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه...﴾	٥٧٣٤
٩	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم...﴾	٥٧٣٤
١٠	﴿إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا...﴾	٥٧٣٤
١١	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا...﴾	٥٧٣٨
١٢	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا...﴾	٥٧٤١
١٣	﴿أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات...﴾	٥٧٤١
١٤	﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم...﴾	٥٧٤٥
١٥	﴿وأعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون...﴾	٥٧٤٥
١٦	﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله...﴾	٥٧٤٥
١٧	﴿ولن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً...﴾	٥٧٤٥
١٨	﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فيطوفون له كما يحطفون لكم...﴾	٥٧٤٥
١٩	﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله...﴾	٥٧٤٥
٢٠	﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأسفلين...﴾	٥٧٤٩
٢١	﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز...﴾	٥٧٤٩
٢٢	﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله...﴾	٥٧٤٩
—	تفسير سورة الحشر .	٥٧٥٥
—	أهداف سورة الحشر .	٥٧٥٦
١	﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم...﴾	٥٧٦٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ...﴾	٥٧٦٣
٣	﴿ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ...﴾	٥٧٦٣
٤	﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ...﴾	٥٧٦٣
٥	﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ...﴾	٥٧٦٥
٦	﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ...﴾	٥٧٦٥
٧	﴿وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ...﴾	٥٧٦٥
٨	﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ...﴾	٥٧٦٧
٩	﴿والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ...﴾	٥٧٦٧
١٠	﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ...﴾	٥٧٦٧
١١	﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا ...﴾	٥٧٧٠
١٢	﴿لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ...﴾	٥٧٧٠
١٣	﴿لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ...﴾	٥٧٧٠
١٤	﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ...﴾	٥٧٧٠
١٥	﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبأل أمرهم ...﴾	٥٧٧٠
١٦	﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ...﴾	٥٧٧٠
١٧	﴿فكان عاقبتهم أنهما فى النار خالدين فيها ...﴾	٥٧٧٠
١٨	﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد ...﴾	٥٧٧٥
١٩	﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ...﴾	٥٧٧٥
٢٠	﴿لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ...﴾	٥٧٧٥
٢١	﴿ولو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً ...﴾	٥٧٧٧
٢٢	﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ...﴾	٥٧٧٧
٢٣	﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ...﴾	٥٧٧٧
٢٤	﴿هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ...﴾	٥٧٧٧
-	أهم ما ترشد إليه سورة الحشر .	٥٧٨١
-	فى أعقاب سورة الحشر .	٥٧٨٥
-	تفسير سورة الممتحنة .	٥٧٨٧
-	أهداف سورة الممتحنة .	٥٧٨٨
١	﴿يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ...﴾	٥٧٩٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ...﴾	٥٧٩٣
٣	﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾	٥٧٩٣
٤	﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...﴾	٥٧٩٦
٥	﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَافْغِرْ لَنَا رَبَّنَا...﴾	٥٧٩٦
٦	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ...﴾	٥٧٩٦
٧	﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً...﴾	٥٨٠٠
٨	﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾	٥٨٠٠
٩	﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾	٥٨٠٠
١٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ...﴾	٥٨٠٤
١١	﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ...﴾	٥٨٠٤
١٢	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَلَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ...﴾	٥٨٠٩
١٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...﴾	٥٨٠٩
—	تفسير سورة الصف .	٥٨١٥
—	أهداف سورة الصف .	٥٨١٦
١	﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...﴾	٥٨١٩
٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾	٥٨١٩
٣	﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ...﴾	٥٨١٩
٤	﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا...﴾	٥٨١٩
٥	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ لِمَ تَقُولُونَ...﴾	٥٨٢٢
٦	﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾	٥٨٢٢
٧	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ...﴾	٥٨٢٢
٨	﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفَئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ...﴾	٥٨٢٢
٩	﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ...﴾	٥٨٢٢
١٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ...﴾	٥٨٢٩
١١	﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾	٥٨٢٩
١٢	﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾	٥٨٢٩
١٣	﴿وَأُخْرَى تَحْبُونَهَا تَنْصُرُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُشْرُ الْمُؤْمِنِينَ...﴾	٥٨٢٩
١٤	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ...﴾	٥٨٢٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	أهم الموضوعات التي اشتملت عليها سورة الصف .	٥٨٣٥
—	تفسير سورة الجمعة .	٥٨٣٧
—	أهداف سورة الجمعة .	٥٨٣٨
١	﴿يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾	٥٨٤٠
٢	﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته...﴾	٥٨٤٠
٣	﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾	٥٨٤٠
٤	﴿ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾	٥٨٤٠
٥	﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا...﴾	٥٨٤٦
٦	﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله...﴾	٥٨٤٦
٧	﴿ولا يمتنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾	٥٨٤٦
٨	﴿قل إن السموت الذى تغرون منه فىإنه ملائكم...﴾	٥٨٤٦
٩	﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا...﴾	٥٨٤٩
١٠	﴿وإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله...﴾	٥٨٤٩
١١	﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما...﴾	٥٨٤٩
—	ملحق بتفسير الآيات .	٥٨٥٣
—	تفسير سورة المنافقون .	٥٨٦١
—	أهداف سورة المنافقون .	٥٨٦٢
١	﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله...﴾	٥٨٦٧
٢	﴿اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله...﴾	٥٨٦٧
٣	﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم...﴾	٥٨٦٧
٤	﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم...﴾	٥٨٦٧
٥	﴿وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأ رؤوسهم...﴾	٥٨٧١
٦	﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم...﴾	٥٨٧١
٧	﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله...﴾	٥٨٧١
٨	﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل...﴾	٥٨٧١
٩	﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله...﴾	٥٨٧٧
١٠	﴿وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت...﴾	٥٨٧٧
١١	﴿وإن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾	٥٨٧٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة التغابن .	٥٨٨١
—	أهداف سورة التغابن .	٥٨٨٢
١	﴿يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض...﴾	٥٨٨٦
٢	﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن...﴾	٥٨٨٦
٣	﴿خلق السماوات والأرض بالحق...﴾	٥٨٨٦
٤	﴿يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلم ما تسرون...﴾	٥٨٨٦
٥	﴿الم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم...﴾	٥٨٩١
٦	﴿ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا...﴾	٥٨٩١
٧	﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى ورى لتبعثن...﴾	٥٨٩٣
٨	﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا...﴾	٥٨٩٣
٩	﴿يوم يجمعكم لיום الجمع ذلك يوم التغابن...﴾	٥٨٩٣
١٠	﴿والذين كفروا يكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار...﴾	٥٨٩٣
١١	﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله...﴾	٥٨٩٦
١٢	﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول...﴾	٥٨٩٦
١٣	﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون...﴾	٥٨٩٦
١٤	﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم...﴾	٥٩٠٠
١٥	﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم...﴾	٥٩٠٠
١٦	﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا...﴾	٥٩٠٠
١٧	﴿إن تقرضوا الله قرضًا حسنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم...﴾	٥٩٠٠
١٨	﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم...﴾	٥٩٠٠
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة التغابن .	٥٩٠٥
—	تفسير سورة الطلاق .	٥٩٠٧
—	أهداف سورة الطلاق .	٥٩٠٨
١	﴿يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن...﴾	٥٩١٤
٢	﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكنهن بمعروف أو فارقهن بمعروف...﴾	٥٩١٤
٣	﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾	٥٩١٤
٤	﴿واللأنى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم...﴾	٥٩١٩
٥	﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه...﴾	٥٩١٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦	﴿أَسْكَنْهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ...﴾	٥٩٢٢
٧	﴿لِيَنْفَقَ نَوْسَةً مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ...﴾	٥٩٢٢
٨	﴿وَيَكُونُ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَخَاسِنَاهَا...﴾	٥٩٢٦
٩	﴿فَنَذَقْنَاهُ مِنْ ثَمَرِهَا وَيَالِ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَسْرًا...﴾	٥٩٢٦
١٠	﴿أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ...﴾	٥٩٢٦
١١	﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ...﴾	٥٩٢٦
١٢	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾	٥٩٢٦
-	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الطلاق .	٥٩٣١
-	ضميمة في أنواع العدة .	٥٩٣٢
-	تفسير سورة التحريم .	٥٩٣٣
-	أهداف سورة التحريم .	٥٩٣٤
١	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾	٥٩٤١
٢	﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ...﴾	٥٩٤١
٣	﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا...﴾	٥٩٤١
٤	﴿إِنْ تَوَيْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾	٥٩٤١
٥	﴿عَسَىٰ رَبُّهُ أَنْ يَبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُمْ...﴾	٥٩٤١
٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا...﴾	٥٩٤٨
٧	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ...﴾	٥٩٤٨
٨	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَيْبًا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا...﴾	٥٩٤٨
٩	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ...﴾	٥٩٤٨
١٠	﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ...﴾	٥٩٥٢
١١	﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...﴾	٥٩٥٢
١٢	﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا...﴾	٥٩٥٢
-	خلاصة ما تضمنته سورة التحريم	٥٩٥٧
-	تخريج أحاديث وهوامش	٥٩٥٩
-	فهرس الكتاب	٥٩٧٥

تم بحمد الله الجزء (الثامن والعشرون)

ويليه الجزء (التاسع والعشرون) بإذن الله تعالى





تفسير القرآن الكريم

د عبد الله شحاته

دار غريب

إهداء ٢٠٠٥

الحمد لله رب العالمين

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الملك

أهداف سورة الملك

(سورة الملك مكية ، وآياتها ٣٠ آية ، نزلت بعد سورة الطور) .

وسورة الملك لها من اسمها أكبر نصيب ، إنها سورة تعرض بركات الله في هذه الدنيا ، وقدرته العالية ، وحكمته السامية ، فهو الخالق الرازق المهيمن ، المدبر الحكيم المبدع ، الذي أبدع كل شيء خلقه . وتستلقت السورة نذر الإنسان إلى خلق الأرض ، وخلق السماء والطيور والرزق ، والسمع والأبصار ، والموت والحياة ، والزرع والثمار ، والماء والهواء والفضاء .

وتحث القلب على التفكير والتأمل ، والنظر في ملكوت السماوات والأرض ، وتهيج فيه البحث والاستنباط ليصل بنفسه إلى التعرف على قدرة الله وجلاله ، وسابغ فضله على الناس أجمعين .

مطلع السورة :

مطلع السورة مطلع جامع يهز القلب هزا ، وينبه إلى بركات الله ونعمه وقدرته :

بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (الملك : ١) .

وعن حقيقة الملك والقدرة ، تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة ، والتي نبهت القلوب إليها .

«فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما ، وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين ، وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها ، وكان العلم بالسر والجهر ، وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر ، وكان الخسف والحاصب والذكير على المكذبين ، وكان إمساك الطير في السماء ، وكان القهر والاستعلاء ، وكان الرزق كما يشاء ، وكان الإنشاء ، وهبة السمع والأبصار والأفئدة ، وكان الخلق في الأرض والحشر ، وكان الاختصاص بعلم الآخرة ، وكان عذاب الكافرين ، وكان الماء الذي به الحياة ، فكل حقائق السورة وموضوعاتها مستمدة من ذلك المطلع ومدلوله أشمل الكبير»^(١) .

مع آيات السورة

١ - تبدأ السورة بتمجيد الله سبحانه بقوله: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ... (الملك: ١). فهو كثير البركة تفيض بركته على عباده، وهو المالك المهيمن على الخلق، وهو القادر قدرة مطلقة بلا حدود ولا قيود، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، وهو على كل شيء قدير.

٢ - ومن آثار قدرته أنه خلق الموت السابق على الحياة واللاحق بها، وخلق الحياة وهي تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة، ليمتحن الإنسان بالوجود والاختيار والعقل والكسب، حتى يعمل في الحياة الأولى ليرى جزاء عمله في الحياة الآخرة.

٣ - يوجه القرآن النظر إلى خلق السموات السبع، ويذكر أنها طبقات على أبعاد متفاوتة، وليس في خلقها خلل ولا اضطراب، وانظر إليها بعينيك فهل تستطيع أن تجد بها نقصاً أو عيباً؟

٤ - تأمل كثيراً في هذا الكون وشاهد عجائبه، فلن تجد فيه إلا الإبداع والتنسيق، والضيظ والإحكام.

٥ - لقد رفع الله السماء الدنيا، وخلق فيها الكواكب والنجوم زينة للسماء، وهداية للمسافرين، وهذه النجوم منها الباهر الزاهر والخافت، والمنفرد والمجتمع، ولكل نجم مكان ومسار وطريق خاص، وهذه النجوم منها شُب تنزل على الشياطين الذين يحاولون استراق السمع، والتتصت على كلام الملائكة، فيرجمون بالشهب التي تقتلهم أو تخبلهم.

٦ - ومن كفر بالله فإنه يستحق عذاب جهنم، ويئس هذا المصير.

٧ - إن جهنم تتميز غيظاً على من عصى الله، وتغلي وتغور حنقا على الكفار.

٨ - كلما ألقى جماعة من الكفار في النار، سألهم خزنة جهنم: ألم يأتكم رسول ينذركم هول هذا اليوم؟

٩ - ويوجب الكفار بأن الرسول قد جاءنا، ولكن العمى أضلنا فكذبنا بالرسول، وقلنا: ما أنزل الله من وحى ولا رسالة، واتهمنا الرسول بالضلال والكذب.

١٠ - ولو حكمنا عقلنا وسمعنا لاهتدينا إلى الحق وآمنّا، وحفظنا أنفسنا من هذا الهلاك ومن هذا العذاب.

١١ - لقد جاء هذا الاعتراف بالذنب متأخراً في غير وقته، فسحقاً وعذاباً لأصحاب جهنم، حيث لا يؤمنون إلا بعد فوات الأوان.

١٢ - إن المؤمن يحس برقابة الله عليه، ويخشى عقابه وإن لم يره بعينه، أو يخشى ربه وهو في خفية عن الأعين، غائب عن أعين الناس. وله مغفرة لذنبه وأجر كبير جزاء عمله.

١٣ - ما يفعله العبد مكشوف ظاهر أمام الله ، وسيان أجهزتم بأقوالكم أم أسررتم بها فالله مطلع عليها .

١٤ - ألا يعلم الخالق الأشياء التي خلقها ؟ وهو سبحانه عالم بخفيات الأمور ودقائقها ، وهو اللطيف الخبير .

١٥ - ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم إلى الأرض التي خلقها الله لهم وذلّلها وأودعها أسباب الحياة .

فهذه الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة ، ومع هذه السرعة يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً .

وقد جعل الله الهواء المحيط بالأرض محتوياً للعناصر التي تحتاج إليها الحياة بالنسب الدقيقة اللازمة ، فنسبة الأكسجين ٢١٪ ونسبة الأزوت أو النتروجين ٧٨٪ والبقية من ثاني أكسيد الكربون وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة لقيام الحياة على الأرض .

وحجم الأرض وحجم الشمس وحجم القمر ، ويُعد الأرض عن الشمس والقمر ، كل ذلك بنسب لازمة لاستمرار الحياة على ظهر الأرض .

إن الحيوان يستنشق الهواء فيمتص الأكسجين ويخرج ثاني أكسيد الكربون ، والنباتات تمتص ثاني أكسيد الكربون ، ويكيميا سحرية يغذى النبات نفسه ، ويخرج الأكسجين الذي نتنفسه وبدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق ، ولو كانت هذه المقايضة غير موجودة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً ، ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان .

والأبواق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائل كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لا يستها ، والله يتفضل على الإنسان بتسخير الأرض والنبات والغذاء والهواء له : **فَأَمْسُوا فِي مَنَاطِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ... (الملك : ١٥)** . وإلى الله النشور والرجوع في يوم الحساب .

١٦ ، ١٧ - هذه الأرض الذلول التي يأمن الإنسان عليها ويهدأ ويستريح تتحول - إذا أراد الله - إلى دابة جامحة فيها الزلازل والبراكين ، كما يمكن أن يُنزل الله الصواعق والعواصف الجامحة التي تعصف بالإنسان وتدمره : **وَيُرْسِلُ الْمَوَاعِنَ فِيْجِيبِهَا مَن يَشَاءُ ... (الرعد : ١٣)** .

١٨ - ولقد كذب الكفار السابقون رسلهم ، فعاقبهم الله أشد العقوبة ، لقد غرق قوم نوح ، وأهلك ثمود بصاعقة ، وأهلك عاد بريح عاتية ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .

إن الإنسان قوى بالقدر الذى وهبه الله من القوة ، ولكن هذا الكون الهائل زمامه فى يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وما يصيب الإنسان منها مقدر مرسوم : **إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** . (القدر: ٤٩) .

١٩ - فلي تأمل الإنسان أسراب الطير ترتفع وتنخفض ، وتيسط أجنحتها وتقبضها ، فى حركة ممتعة تدعو إلى التأمل والتدبر ، فقدرة الله ممسكة بهذا الطائر ، فى قبضه ويسطه ، والله سبحانه ييسر له أمره ، ويهيئ وينسق ويعطى القدرة ، ويرعى كل شئ فى كل لحظة ، رعاية الخبير البصير .

٢٠ - من هذا الذى يحميكم من بطش الله وغضبه ؟ من هذا الذى يدفع عنكم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ إن الكافر فى غرور ، يظن أنه آمن بعيد عن بطش الله به ، وما هو ببعيد .

٢١ - من يريزق البشر إن أمسك الله الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك الحياة عنهم ؟ إن بعض النفوس تعرض عن الله فى طغيان وتبجح ونفور ، مع أنها تعيش عائلة على الله فى حياتها ورزقها .

٢٢ - ترسم الآية مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق ، ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات مستقيمة الخطوات فى طريق مستقيم لهدف مرسوم ، ثم تستفهم أيهما أهدى ؟ .

٢٣ - لقد خلق الله الناس ، وجعل لهم السمع ليسمعوا ، والأبصار ليروا ، والأفئدة ليتفكروا فى جليل قدرة الله ، ولكن الإنسان قلماً يفكر فى شكر نعمة الله عليه ، وامتنال أمره واجتناب نواهيهِ ، والاعتراف له بالفضل والمنة .

«ويذكر العلم أن حاسة السمع تبدأ بالأذن الخارجية ، والصوت ينتقل منها إلى طبلة الأذن ثم ينتقل إلى التيه داخل الأذن ، والتيه يشتمل على أربعة آلاف قوس صغيرة ، متصلة بعصب السمع فى الرأس ، وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية ، وتنتهى الأعصاب بأهداب دقيقة ، دقة وعظمة تحير الألباب .

ومركز حاسة الإبصار العين ، التى تحتوى على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف أعصاب الإبصار ، وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية»^(١) .

أما الأئمة فهى هذه الخاصية التى صار بها الإنسان إنساناً ، وهى قوة الإدراك والتميز ،
والمعرفة التى استخلف الله بها الإنسان فى هذا الملك العريض .

٢٤ - إن ريكم هو الذى يراكم فى الأرض ، ويعتكم فى أرجائها على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وأشكالكم
وصوركم ، وكما بدأكم يعيدكم ، وإليه تحشرون وترجعون .

٢٥ - ويسألون سؤال الشاك المستريب عن يوم الجزاء والحساب .

٢٦ - قل علم هذا اليوم عند الله ، وما على إلا البلاغ والبيان ، أما العلم فعند صاحب العلم ، الواحد بلا
شريك .

٢٧ - ولو أن الله لراى البشر يوم الحساب واقعاً لا محالة ، وعند هذه المفاجأة ورؤية الحساب والجزاء ،
سيظهر الحزن والاستياء عليهم ، وتؤنبهم الملائكة ، وتقول لهم : هذا هو اليوم الذى كنتم تستعجلون
وقوعه . والآية جرت على طريقة القرآن فى عرض ما سيكون حاضراً مشاهداً ، بمفاجأة شعورية
تصويرية ، تَقَفْ المكذِبَ والشاك وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

٢٨ - رَوَى أَنْ كَفَّار مَكَّةَ كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَهْلِكَ فَيَسْتَرِيحُوا مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ ، فَقَالَ لَهُمُ الْقُرْآنُ :
سِوَاهُ أَهْلِكَ النَّبِيُّ حَسَبَ أَمَانَتِهِمْ ، أَوْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَنْ مَعَهُ ، فَلَنْ يَغْيِرَ ذَلِكَ مِنْ وَضْعِهِمْ ، لِأَنَّ عَذَابًا أَلِيمًا
يَنْتَظِرُهُمْ ، وَلَنْ تَجِيرَهُمُ الْأَصْنَامُ ، وَلَنْ يَجِيرَهُمُ مِنَ الرَّحْمَنِ إِلَّا الْإِيمَانُ .

٢٩ - إِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي قُرْبَى مِنَ الرَّحْمَنِ ، فَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ ، وَهُمْ مُوصُولُونَ بِاللَّهِ ، مُنْتَبِهُونَ
إِلَيْهِ . وَسَيُتَبِّحِينَ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الضَّالِّاتِ وَمِنَ الْمُهْتَدَى ، وَلَمَنْ تَكُنِ الْعَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

٣٠ - أَخْبَرُونِي أَنْ نُهَبَ مَاؤُكُمْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ الدَّلَاءُ ، مِنْ يَأْتِيَكُمْ بِمَاءٍ جَارٍ نَابِعٍ فَانْضُبْ مَتَدَفِّقٌ ،
تَشْرِبُونَهُ عَذْبًا زَلَالًا .

وهكذا تختم السورة بهذه اللمسة القريبة من القلب ، تذكره بفضل الله الذى أجرى الماء ، ولو شاء لحرم
الإنسان مصدر الحياة ، ولا ينفذ الإنسان من الله إلا الله ، قال تعالى : **فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ...** (الذاريات ٥٠) .

المعنى الإجمالى للسورة

قال الفيروزى :

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة والاختبار ، والنظر
إلى السماوات للعبارة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أعد للمنكرين من العذاب والعقوبة ، وما أعد

به المتقون من الثواب والكرامة ، وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور في الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة والهداية ، وتعجل الكفار بمجيء يوم القيامة ، وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله : **فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ** . (الملك : ٣٠) .

أسماء السورة

لسورة تبارك في القرآن والسنة سبعة أسماء :

«سورة الملك لمفتتحها . والمنجية لأنها تنجي قارئها من العذاب . والمانعة لأنها تمنع قارئها من عذاب القبر . والدافعة لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة عن قارئها . والشافعة لأنها تشفع في القيامة لقارئها . والمجادلة لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلاً يؤذي قارئها . والمخلصة لأنها تخلص قارئها من زبانية جهنم ، لنلا يكون لهم يد على قارئها»^(١) .

وفي شأن السورة قال رسول الله ﷺ : «إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شغعت لرجل فأخرجته من النار وأدخلته الجنة ، وهي سورة تبارك»^(٢) .

من دلائل القدرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَإِنْ رَجَعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُتُورٍ ③ ثُمَّ انْزِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ ﴾

المضردات :

تبارك : تعالي وتمجد ، أو تكاثرت خيره .

الذي بيده الملك : له الأمر والنهي والسلطان .

خلق الموت : أوجده ، أو قدره أزلًا .

ليباليوكم : ليختبركم فيما بين الحياة والموت .

أحسن عملًا : أصوبه وأخلصه ، أو أسرع طاعة .

طباقا : بعضها فوق بعض ، جمع طبق أو طبقة .

فطور : شقوق وخرق ، أو خلل .

كرتتين : رجعتين ، رجعة بعد رجعة ، والمراد التكرار بكثرة .

خاسئنا : صاغرا لعدم وجدان الفطور .

وهو حسير : كليل متعب من كثرة المراجعة .

السماء الدنيا : السماء القريبى منكم ، وهى الأولى .

بمصائبهم ، بكواكب عظيمة مضيئة .

رجوما للشياطين ، بانقضاض الشهب منها عليهم .

وأعدتنا لهم مذاب السعير ، وأعددنا للشياطين أشد الحريق ، يقال : سرعت النار فهي مسعورة وسعيرة ، أى : أوقدتها فهي موقدة .

تمهيد :

هذا الجزء التاسع والعشرون كله من السور المكية ، كما كان الجزء الذى سبقه كله من السور المدنية .

وقد عنى القرآن فى مكة بما يأتى :

(أ) غرس عقيدة التوحيد ، والإيمان بالله تعالى ، وبيان قدرته وعظمته وصفاته وأسمائه .

(ب) مهاجمة عبادة الأوثان والأصنام ، وبيان أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمن ولا تغنى من جوع .

(ج) عرض مظاهر القدرة الإلهية فى خلق الكون ، والسماء والأرض ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسائر المخلوقات ، كالإنسان والحيوان والطيور والوحوش والزواحف .

(د) الحديث عن القيامة والبعث والحشر ، والجزاء والحساب ، والجنة والنار .

(هـ) عرض قصص الأنبياء وجهادهم وكفاحهم ، وتسجيل ذكراهم وأمجادهم ، وبيان هلاك أعدائهم .

وسورة الملك نموذج عملى للسورة المكية ، فهي تبدأ ببيان ملك الله تعالى ، وسيطرته وإحاطة علمه ، بكل شيء فى هذا الكون ، وهو سبحانه على كل شيء قدير .

ومن هذه القدرة خلق الموت والحياة للاختبار والابتلاء ، حتى يتبين الصالح من الطالح .

ومن هذه القدرة خلق السماوات سبع طبقات ، بعضها فوق بعض فى غاية الكمال والإبداع ، مهما بحثت عن عيب أو خلل أو تشقق ، فلن تجد أى فطور أو تشقق ، لأنها أثار الكامل كمالاً مطلقاً .

التفسير :

١ - تَبَرُّكَ الَّذِي يَبْدِئُ الْمُلْكَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تعاملت بركة الله تعالى ، فهو سبحانه مالك الملك ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، بيده الخلق والأمر ، كل يوم هو فى شأن ، يضع رفيقاً ويرفع وضيعاً ، يُفقر غنياً ويغنى فقيراً ، يبتلى معافى ويُعافى مبتلى ، يخفض أقواماً ويرفع آخرين .

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هو سبحانه القادر على كل شيء ، له القدرة التامة ، والتصرف الكامل فى كل الأمور ، من غير منازع ولا مدافع .

٢ - الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ .

قدّر سبحانه الموت لكل ميت ، والحياة لكل حي ، وقدم الموت على الحياة لأنه أبلغ فى الرهبة والقدرة ، فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس حين موتها ، ويتوفى أنفس النائمى عند نومها ، وهو سبحانه واهب الحياة ، وخالق الروح فى الجسم .

قال العلماء :

ليس الموت فناء وانقطاعاً بالكلية عن الحياة ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ولهذا ثبت فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن أحدكم إذا وُضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع تعاليم ، يأتيه ملكان فيجلسانه ويسألانه ...»^(١) . الحديث .

وقال ﷺ عن قتلى المشركين يوم بدر : «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يجيبون»^(٢) .

فالموت هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ، ومفارقة الجسم .

يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ...

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسكنه فسيح الجنة ، وأسجد له الملائكة ، وأنزله إلى الأرض واستعمره فيها ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، ومنح الإنسان العقل والإرادة والاختيار ، ليظهر التفاضل بين الناس ، ويرى سبحانه المحسن من المسىء ، ومن يستحق الثواب ومن يستحق العقاب .

فهو سبحانه عادل عدلاً مطلقاً ، ومن هذه العدالة إعطاء الإنسان الفرصة كاملة الحياة فى دته الدنيا ، ومعه إمكانيات الطاعة والمعصية ، فمن اختار الطاعة كان أهلاً للجنة ، ومن اختار المعصية كان أهلاً للنار ، فمن دخل النار فلا يلومن إلا نفسه ، لأنه هو الذى أثر الهوى واتباع الشيطان على الاستفاده واتباع هدى الرحمن .

قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ ظَفَى * وَاتَّخَذَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَبَى * النَّفْسَ مِنَ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات : ٢٧ - ٤١) .

وهو سبحانه العزيز . الغالب في انتقامه ممن عصاه . الغفور . لمن تاب إليه .

٣... الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .

لقد خلق الله سبع سماوات متطابقة ، كل طبقة فوقها أخرى ، وخلق ذلك في غاية الكمال والإبداع ، وليس في خلق الرحمن خلل أو اضطراب أو عيب أو تصادم ، بل قدرة الله هي التي منحت هذا الكون الإبداع والتكامل والجمال .

قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ... (الرعد : ٢) .

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ .

رُدِّدْ بصرك في عالم السماء ، وقلبه في أرجائها ، هل ترى في خلق الرحمن من عيوب ؟

ونسب خلق السماء إلى الرحمن ليبين أنه من رحمة الله بنا أن جعل السماء سقفا مرفوعا ، معتداً بلايين السنين ، لا يوجد فيها عيب أو خلل أو تشقق ، والناس تبني بنايات محدودة ، وتحتاج إلى صيانة مستمرة ، وتدارك لما فيها من خلل أو فطور ، لكن خلق الرحمن كبير قديم ممتد ، وافر وكافٍ وشافٍ ، يتمتع بالكمال والإبداع وانعدام النظير .

قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ... (غافر : ٥٧) .

٤... ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ .

كرّر النظر وردد الطرف ، وارجع مرة أخرى ، بل مرة إثر مرة ، فمهما نظرت إلى السماء باحثاً عن عيب أو خلل أو فطور أو تشقق فلن تجد عيباً ، وسيرتد إليك البصر كليلاً متعباً ، فقد عانَ بذون طائل .

إن الكون كتاب مفتوح ، ينظر فيه الأعمى والبصير ، وساكن القصور وساكن الأكواخ ، ينظر إلى السماء ، البدوي في الصحراء ، وراكب البحار ، والفلكي بالمنظار ، وكل واحد من هؤلاء يرى الجمال والإبداع ، لأن هذا الخلق خلق الله وتقديره وإبداعه ، فسبحانه الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ... (السجدة : ٧) .

٥ - وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

زَيَّنَ الله السماء الدنيا وهي القريبة منا ، أى السماء الأولى ، وفى صحيح البخارى أن السماوات سبع وأن النبى ﷺ صعد إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج ، ورأى فى السماء الأولى آدم ، وفى الثانية يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة ، وفى الثالثة يوسف وقد أعطى شطر الحسن ، وفى الرابعة إدريس ، وفى الخامسة هارون ، وفى السادسة موسى ، وفى السابعة إبراهيم عليه السلام .

وقد خلق الله النجوم فى السماء لقوائد ثلاث :

الأولى : أن النجوم تُزَيَّنُ السماء ، كما نُزَيَّنُ بيوتنا بالكهرياء .

الثانية : أنها رجوم للشياطين الذين يحاولون استراق السمع ، فيصيبهم الله بالشهب التى تحرقهم أو تخبلهم
الثالثة : أن النجوم هداية للسائرين فى الصحراء ، وللسائرين فى البحار ، ولراغبي معرفة القبلة أو الجهات الأربع الأصلية .

والقرآن الكريم يلفت أنظارنا إلى السماء ونجومها المتألثة ، حيث نجد نجومًا لامعة ، وأخرى خافتة وقمرًا منيرًا ، وللسماء مناظر وجمال له مذاق خاص ، فى أول الليل ووسطه وآخره ، والإنسان الذى يريد أن يخلو بنفسه للتأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، سيجد مجالاً للتدبر ، والانتقال من الصنعة البديعة إلى الصانع المبدع .

قال تعالى : إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخِلَتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ • الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُوَّةً وَعَلَىٰ جُوهِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا تُسَبِّحُكَ فَقَبْلًا عَذَابَ آثَارٍ • (آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١) .

ومع كون النجوم زينة للسماء ، فإنه ينفصل منها بعض الشهب لتصيب الجنى الذى يحاول استراق السمع ، واختطاف أخبار السماء ، ونقلها إلى الكهان فى الأرض .

قال تعالى : وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ...

وسياتى إن شاء الله تعالى فى سورة الجن ، ما يفيد أن الجن كانت ترمض بعضها ، ويصعد الجنى فوق كتف أخيه ، حتى يكون الأخير فى السماء متمكنًا من استراق السمع ، فسُلِّطَ الله عليهم الشُّهُبُ ، فلم يقدروا على استراق السمع .

قال تعالى : **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَهَا مُلْتَكَتَ حرَسًا شَدِيدًا وَهَبْنَا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلْمَسْعِ فَمَن يَسْمَعُ آلَآنَ يَجِدُ لَهُ إِلَهًا ۖ وَصَدَّ ۖ (الجن : ٨ ، ٩) .**
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ .

أعدنا وميأنا للشياطين في الآخرة عذاب النار المستعرة التي تحرقهم وتهلكهم بعد إحراقهم بالشهب في الدنيا .

لطيفة

إن قيل : إن الشياطين خلقوا من النار فكيف يعذبون بها ؟ قلنا : إن النار هي مادة خلقهم ، ولكنهم تحولوا إلى أجسام أخرى قابلة للاحتراق بها ، كما تحول بنو آدم من الطين إلى أجسام خالية من الطين .

★ ★ ★

ألوان العذاب في جهنم

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ۖ ① إِذَا النُّفُوسُ سِمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۖ ② تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۖ ③ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۖ ④ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ ⑤ فَأَعْرِضُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۖ ⑥** ﴾

المعزادات :

ألقوا فيها ، طُرحوا فيها كما يُطرح الحطب في النار .

شهيق ، تنفس كتنفس المتغيظ .

تفور ، تغلى بهم كغلى المرجل .

تميز ، ينفصل بعضها من بعض .

الغيظ ، شدة الغضب .

فوج ، جماعة .

خزنتها ، واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه .

نذير : رسول يذكركم بأس الله وشديد عقابه .

إن أنتم ، ما أنتم .

ضلال كبير ، ضلال بعيد عن الحق والصواب .

فسحقا ، فبعذا لهم من رحمة ربهم .

تمهيد :

فى هذه الآيات بيان لعذاب الذين كفروا بنار جهنم ، وفيها وصف لجهنم بالصفات الآتية :

(أ) هى تتميز غضبًا وغيظًا على من عصى الله .

(ب) هى كائن حتى له شهيق ، أى رغبة فى الانتقام ممن عصى الله ، كغربة البغلة فى الشحير حين يقدم لها .

(جـ) لها فوران وغلليان وتموج كتموج الحبّ القليل فى الماء الكثير .

(د) تسألهم الملائكة من خزنة جهنم : ألم يرسل إليكم رسول ؟ ويجيبون : لقد جاءت لنا الرسل فكذبنا بهم ، وينزل الوحي عليهم ، وسخرنا منهم .

(هـ) يندم الكافرون أشد الندم بعد فوات الأوان ، فيقولون : لو استخدمنا سمعنا وتأملنا وتفكرنا ، أو استخدمنا عقولنا بالترؤى والتأمل ما كنّا فى أهل جهنم .

(و) لقد اعترفوا بخطئهم ، وأنهم يستحقون النار ، فسحقا وهلاكًا لهم .

التفسير :

٦ - وَلِّلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَثَسَّ الْمُنِيرُ .

من جحد وجود الله ، وأنكر وحدانية الخالق سبحانه وتعالى ، وصمم على هذا الكفر تصميمًا أبدىً ، فسيعذبه الله فى نار جهنم ، وبئس المصير والمآل والمرجع أن يقيم إنسان فى جهنم خالدًا مخلصًا فيها أبدًا .

٧ - إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وهى تفرز .

عندما يلقى الكفار فى جهنم ، يسمع لها صوت المتلهف المشتاق إلى الانتقام ممن عصى الله ، وهى تغلى بهم كما يغلى الماء الكثير بالحبّ القليل ، والتعبير يجعل جهنم فيها صفات العقلاء ، الذين يخبسون

لا انتهاك حرمان الله ، ويجعل جهنم غاضبة ، تشقق شقيق البغلة حين ترى الشخير سيقدم لها ، ثم تغلى بهم جهنم وتغور فوراً شديداً .

٨ - نَكَادُ تَمَيُّزٌ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ .

تكاد جهنم تنقطع من الغيظ والغضب والرغبة في الانتقام ممن كفر بالله ، وجدد رسالات السماء ، وكلما ألقى في جهنم جماعة لينالوا العذاب توجهت إليهم الزبانية بالسؤال الآتي :

ألم يأتكم رسول يذكركم مثل هذا العذاب ؟ وهو سؤال توبيخ وتحقير وإيلاء ، وفي نفس الوقت إلزام الكافر بالحجة ، واعتراؤه بأنه يستحق النار عدلاً من الله تعالى .

٩ - قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَشْمُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ .

قال الكفار لزبانية جهنم : لقد أرسل الله إلينا رسولا ، يذرننا هذا العذاب إن كفرنا ، لكننا كذبنا هذا الرسول ، واتهمناه بأنه كاذب في دعوى الرسالة ، وأن الله لم يرسله رسولا ، أو لم ينزل وحيا ، ولم يرسل رسلا ، فما أنت أيها المدعى للرسالة إلا ضال ، مجانف للحق ، بعيد عن الصواب ، مختلق تعيش في وهم كبير وكذبة عريضة .

١٠ - وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ .

لو كنا نسمع سماع تامك وتفكر ، أو نقدبر بعقولنا ونأمل في كلام الرسول لنا ، ما صرنا إلى النار ، وبئس المصير جهنم .

١١ - فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ .

لقد اعترفوا بذنوبهم وكفرهم وجحودهم ، وأن قلوبهم كانت قد تحجرت ، وصمموا على الكفر ، ولم يتركوا لعقولهم سبيلا إلى التفكير والتأمل ، ثم اعترفوا بذلك بعد فوات الأوان ، فهلاكاً وعذاباً لهم .

روى الإمام أحمد من حديث أبي البخترى الطائي : «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم» .^(٣)

وفي حديث آخر : «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة» .^(٤)

مدح المتقين

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (١٥) ﴿

المضردات :

يخشون ربهم بالغيب : يخافونه وهم غائبون عن أعين الناس فلا يعصونه .

لهم مغفرة وأجر كبير ، لذنوبهم ، وأجر كبير هو الجنة .

ألا يعلم من خلق : كيف لا يعلم سرّكم كما يعلم جهركم ، وهو الخالق لكم ، فالخالق يعرف مخلوقه .

وهو اللطيف : العالم بالخفيات .

الخبير : بعباده وبأعمالهم .

الأرض ذلولا : مذلة لينة سهلة تستقرون عليها .

مناكبها : جوانبها ، أو طرقها وفجاجها .

النشور : إليه وحده مهمة نشركم ، أى إحيائكم من قبوركم للحساب والجزاء .

التفسير :

١٢ - إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .

إن الذين يخافون غضب الله ، ولا يجترئون على معصيته حال كونهم غائبين عن أعين الناس ، لهم غفران من الله لذنوبهم ، وجزاء عظيم فى الجنة .

وفى معنى الآية ما رواه البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «سبعة يظلمهم الله تعالى فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» ، وعدّ منهم : «رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»^(٩) .

١٣ - وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

من أسباب نزول هذه الآية :

أن المشركين كانوا ينالون من النبي ﷺ ، فلما أطلع الله تعالى على أمرهم : قال بعضهم لبعض :
أُسْرُوا قَوْلَكُمْ كيلا يسمعه رب محمد ، فقال الله تعالى لهم :

إذا أسرتم قَوْلَكُمْ أو جهرتم به ، فإن علم الله تعالى شامل للغيب والشهادة ، فهو سبحانه يعلم السر وأخفى ، ويمتد علمه إلى حديث النفس وخواطرها ، ومكنون الصدور ودخائلها .

قال تعالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ . (ق : ١٦) .

١٤ - أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

ألا يعلم الله الخفايا ويواطن الأمور للإنسان الذي خلقه ، وشق سمعه ويصره ، وهو الدقيق فى علمه ،
الخبير بكل كائن قبل أن يكون ، إنه سبحانه خالقنا ورازقنا ، وهو العليم بخبايا نفوسنا .

قال الشاعر :

يا عالم الأسرار حسبي محنة علمنى بأنك عالم الأسرار

١٥ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ .

أرسى الله الأرض بالجبال ، وحفظ سبحانه توازنها ، وأودع فيها الجاذبية ، وذل الطرق ويسر
الرزق ، وأودع فى الأرض أقواتها وأرزاقها ، ويسر للإنسان طرق الكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ،
والعلوم والفنون وغيرها .

وأودع الله فى الأرض المعادن والمياه ، والحديد والبتروى ، وذل الأرض لاستفادة الإنسان ، وفى
ذلك دعوة من الله لنا ، لاستخدام طاقات الأرض وإعمارها ، فلا يكفى أن نستخرج البترول ، بل ينبغى
تصنيع البترول والاستفادة بمشتقاته ، والناس لطول إلفهم بالأرض ينسون فضل الله عليهم فى تسخير
الأرض لهم .

ومعنى الآية :

لقد أنعم الله عليكم بأرض مثقلة مهيأة للاستفادة بها فى الزراعة والسير ، واستخراج ما فى باطنها ،
والبناء عليها ، فسيروا فى الأرض ، وتمكنوا من نواحيها ومناكبها ، وسيطروا على أرض الإسلام وبلادها ،

ويستبطن، ويضممنها تارة أخرى .

تمهيد :

تكلمت السورة عن عذاب جهنم ، وهددت بعذاب فى الدنيا مثل خسف الأرض كما حدث لقارون ، أو الانتقام بمثل ما أصاب عادًا و ثمود وقوم نوح ، ولفتت الأنظار إلى دلائل القدرة فى تيسير الطيران للطير فى الجو ، صافآت أجنحتها تارة ، وقابضة أجنحتها تارة أخرى ، بإلهام الله وبديع قدرته .

التفسير :

١٦ - آمَنْتُمْ مِّنْ فِى السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ .

هذه الآيات تهديد ووعيد لكفار مكة الذين أنكروا الوحي والرسالة ، وفيها تهديد لكل كفار عنيد .

ومعنى الآية :

هل تأمنون بطش الله وعقوبته ، بأن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون فظال يهوى فيها ؟ وهو سبحانه فى السماء عرشه ، أو ملكه وملكوته ، أو أمره وقضاؤه ، وبيده الخلق والأمر ، وهو القادر على أن يعذبكم بعذاب من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم .

ونحو الآية قوله تعالى : قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ...

(الأنعام : ٦٥)

١٧ - أَمْ آمَنْتُمْ مِّنْ فِى السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ .

أى : بل هل أمنت من فى السماء ملكه وسلطانه وأمره وقضاؤه ، أن يرسل عليكم ريحًا مصحوبة بحجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط ، وأصحاب الفيل بمكة ؟ وعند نزول العذاب بكم فسترون كيف تكون شدة غضبى وقوة انتقامى .

١٨ - وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَجِيرِ .

كذب قوم نوح نوحًا ، فأدركهم الغرق ، واستمر تكذيب الرسل من قوم هود ومن قوم صالح ومن قوم لوط كما كذب موسى ، وكما كان عقاب السماء قويًا مدمرًا ، أى كيف كان إنكارى وعقابى لمن كذبوا رسلى وحاربوا أنبيائى ، ألم أنكر عليهم ؟ ألم أعاقبهم ؟

١٩ - أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتَاتٍ يَقِفْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ .

أولم ينظر الإنسان ببصره إلى أسراب الطير في الفضاء ، وكأنها وسيلة لاستعراض البراعة والجمال ، والطير يرتفع وينخفض ، ويستدير ، ويفرد جناحيه في أحيان كثيرة ، ويقبض جناحيه في أحيان قليلة ، أو يقبض جناحاً ويبسط جناحاً ، لقد ألهم الله الطير حياته وحركته وطيرانه ، وألهم كل كائن عوامل وجوده وطوائق حياته ، ما يمسك الطير في السماء في حالات البسط والقبض إلا الرحمن الذي أبدع نظام هذا الكون ، وألهم كل كائن وسيلة حياته في هذه الدنيا .

إنه سبحانه بصير بكل شيء ، مطلع على كل شيء ، مُمَنِّكٌ بنظام هذا الكون ، بديع السماوات والأرض .

★ ★ ★

استفهام وأجوبته

﴿ أَمِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جَدُّ لَكُمْ يَصْطَرُّ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ ﴾ أَمِنْ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَسَّكَ رَبُّكَ ، بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَثُورٍ ٢١ ﴾ أَمِنْ يَمْشِي مِكْبَاحًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمِنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٢٢ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣ ﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٤ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْوَعْدُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢٦ ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّغَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِرَبِّكُمْ تَدْعُونَ ٢٧ ﴾

المضردات :

أَمِنْ هَذَا : بل من هذا ؟

جَهَنَّا لَكُمْ ، أعوان لكم ومنعة .

غُرُور : غرهم الشيطان بأن لا عذاب ينزل بهم .

إِنْ آمَسَّكَ رَبُّكَ ، إِنْ آمَسَّكَ الرحمن رزقه ، لا أحد غير الله يرسله .

لَجُوا فِي عُتُوٍّ ، تمادوا في استكبارهم ،

نَسْتُورُ : تباعد عن الحق وشراد منه .

مَكِبًا عَلَى وَجْهِهِ : ساقطًا عليه لا يأمن العثور .

يَمْشَى سَوِيًّا : مستويًا منتصبًا سالمًا من العثور . (مثل للمشرك والموحد) .

مَتَى هَذَا الْوَعْدِ : فى أى وقت يتحقق الوعد بالحشر .

نَذِيرٌ مُبِينٌ : منذر واضح الإنذار .

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً : فلما رأوا العذاب قريبًا منهم .

سَيِّئَتِ : أصابتها الكآبة والمذلّة ، واسودت غمًا .

تَسْأَلُونَ : تطلبونه فى الدنيا ، وتستعجلون أن يأتىكم استهزاء .

تمهيد :

تَوْيُخُ الْآيَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ ، مع أنهم يعيشون فى نعم الله وخبراته وأرزاقه ، ولذلك يسألهم : من هذا الذى ينصركم إذا أراد عذابكم ؟ إن الشيطان قد جعل الغرور يتملككم بأن الأصنام تنصركم من هذا الذى يرزقكم إذا أمسك الله عنكم رزقه ؟ والجواب : لا أحد ينصركم من عذاب الله ولا أحد يرزقكم غير الله ، وضرب الله مثلاً للمؤمن الذى وضع طريقه ، فهو يسير فيه فى الدنيا ، معتدلاً فى سيره إلى المساجد وأداء الفرائض ، ويمشى على الصراط معتدلاً إلى الجنة يوم القيامة ، أما الكافر فإنه يتنكب الجادة ، فهو يمشى مكبًا على وجهه ، لا يتبين طريقه ، وهو يمشى على غير هدى بعبادة الأصنام ، وكذلك يُسحب على وجهه ، ويلقى به فى جهنم يوم القيامة .

ثم عدد نعم الله بإعطاء السمع والبصر والفكر واللب والخلق ، وبين أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وحين يرى الكفار عذاب القيامة تعلق وجوههم الكآبة والمساءة .

التفسير :

٢٠ ... أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ .

يلمس القرآنُ القلوب ، ويوجه إليها هذا التساؤل ، وكان الشيطان يزين للكفار أنهم يُنصرون بالأصنام ، فقال الله لهم :

من هذا الذى ينصركم ويحميكم من عذاب الله غير الله ؟ من هذا الذى يدفع عنكم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ إنهم فى غرور ، غرهم به الشيطان ، حيث زين لهم أن أصنامهم تحميهم ، مع أنهم يقيمون فى غضب من الله ، فهو سبحانه يخلقهم ، وهم يعبدون غيره .

٢١ - أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ، بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ .

إن الكون حافل بالأرزاق ، فالسما والأرض والفضاء ، والليل والنهار ، والهواء والنبات والماء ، وسائر الموجودات كلها أرزاق من الله ، بل والقوى العقلية المبدعة فى الإنسان ، كلها من إبداع الخالق الرازق ، ولو حبس الله عنايته عن الإنسان لضلّ وزلّ .

ومعنى الآية :

من هذا الذى يرزقكم من فوقكم ومن تحتكم ومن خلجات أنفسكم ، إذا أمسك الله عنكم رزقه ؟
والجواب : لا أحد يرزق غير الله ، لكن الكفار يسرون فى عتو واستكبار ، وشراد عن الحق ، ونفور وامتناع من دعوة الرسل .

٢٢ - أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .

على طريقة القرآن الكريم فى التخييل الحسى والتجسيم ، نجد صورة رائعة لإنسان كافر يتنكب الجادة ، ويكفر بالرسول ، ويغضب مولاة ، وينصرف إلى المعاصى ، حال كونه أعمى البصيرة ، مكباً على وجهه أشبه بمن وضع وجهه فى الأرض وسار معتمداً على يديه فهو لا يبصر الطريق المعتدل ، وإنما يهيم على وجهه ، تأسره الشهوات ، وتستنزفه المعاصى ، حتى يحشر يوم القيامة ، ويتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة .

أما المؤمن فهو يمشى معتدلاً ، مرتفع القامة ، يعرف أين يضع قدميه ، لذلك يمشى فى مرضاة ربه ، ويسير إلى الطاعات وما أمر به الله ، ويبتعد عن المحرمات وما نهى عنه الله ، ثم يتساءل الرحمن سبحانه وتعالى : أيهما أهدى سبيلاً وأقوم قِيلاً ، من يمشون فى الظلمات ، ويتنكبون الجادة ، وتستهوهم المعاصى والذنوب ؟ أمن يمشون على الصراط المستقيم فى طاعة الرحمن فى الدنيا ، ثم تتقدمهم أنوارهم وتحف بهم عن أيمانهم ، ويهديهم ربه إلى الصراط المستقيم فى الطريق إلى الجنة ، ورضوان الله رب العالمين فى الآخرة ؟ والجواب : لا شك أن المستقيم أهدى وأفضل .

٢٣ - قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .

الله تعالى هو الذى خلقكم ، خلق الخلق أجمعين ، هو الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وخلق له السمع لسمع ويتأمل ويهتدى ، وخلق الأبصار ، والعين فيها أعداد كثيرة من مكونات الإبصار ، وهو سبحانه خلق القلوب والعقول للتفكر والتأمل والاعتبار ، والإنسان مطالب بشكر هذه النعم ، وشكر النعمة هو حسن استخدامها فيما خلقت لأجله ، ولكن الإنسان قليلاً ما يشكر هذه النعم ، مع أن شكر النعمة واجب على

الإنسان نحو خالقه ، بأن يحسن الاستماع إلى ما يفيد ، ويحسن النظر إلى ما ينفع ، ويحسن التأمل والتدبر فيما يفيد وينفعه في دينه ودنياه وآخرته .

٢٤ - قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

قل لهم أيضًا يا محمد : إن الله تعالى هو الذى خلقكم ويثكم ووزعكم فى الأرض ، مع اختلاف ألوانكم وألوانكم ، ثم تحشرون وتجمعون إلى الله تعالى يوم القيامة للحساب والجزاء .

٢٥ - وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

كان الكفار يسألون عن الساعة سؤل المستبعد لها ، المكذب بوقوعها ، المتشكك فى أمورها . فيقولون للمؤمنين : متى يكون هذا البعث الذى توعدوننا به ؟

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

فى أن الحشر كائن لا محالة .

٢٦ - قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ .

أى : علم وقت القيامة عند الله وحده ، لا يعلم بها أحد سواه ، وأنا رسول من عند الله ، أنذركم إنذارًا واضحًا مبينًا بالقيامة والساعة ، لتعملوا لها قبل حلولها .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا • فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرْلِهَا • إِلَى رَبِّكَ مُتَنَهِّلًا • إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَهَا • كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى • (النازعات : ٤٢ - ٤٦) .

ويقول الله تعالى : إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى • فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى • (طه : ١٥ ، ١٦) .

٢٧ - فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ .

وينتقل القرآن إلى الحديث عن مشاهد اليوم الآخر ، حين يشاهد الكفار العذاب قريبًا منهم ، أو حين يرونه بعد وقت قريب (وكل أثر قريب) فإذا شاهد الكافر أهوال جهنم ، ظهرت الكآبة والقتام على وجهه .

قال تعالى : **وَجُودَ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ • ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ • وَجُودَ يَوْمَئِذٍ غَبَرَةٌ • تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ • أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ** . (عبس : ٣٨ - ٤٢) .

لقد اسودّت وجوه الكفار من هول العذاب الذى سيصلونه قريبًا ، ثم عَنَقَتْهم الملائكة ووبختهم على كفرهم وعلى تكذيبهم بالعذاب .

وقالت لهم زبانية جهنم : هذا هو العذاب الذى كنتم تدعون عدم وقوعه ، أو كنتم تطلبونه وتستعجلون وقوعه استهزاء به وتكذيبًا له .

★ ★ ★

ختام سورة تبارك

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَلَهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِرِ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ۝ (٣٠) ﴾

المضردات :

أرأيتهم : أخبرونى أو أرونى .

يجير الكافرين : يمنعهم أو ينجيهم أو يؤمنهم .

غـــــورًا ، غائرًا ، ذاهبًا فى الأرض لا يُنال .

بماء معين : جارى ، أو ظاهر سهل التناول ، أو تراه العين لجريانه على الأرض .

تمهيد :

تختم سورة تبارك بثلاث آيات ، تؤكد حقيقة إيمان المؤمنين بالله ، وتوكلهم عليه ، ويقينهم بنصره ، وهى تهز إصرار الكافر على كفره ، وترشده إلى الضلال الذى يسير فيه ، فتقول للكافرين ما يأتى :

(أ) سواء مات محمد ومن معه من المؤمنين أو نصرهم الله ، فمن ينقذ الكفار من الهزيمة المنكرة فى الدنيا أو من عذاب جهنم يوم القيامة ؟

(ب) لقد اعتمد المؤمنون على ربهم وتوكلوا عليه ، أى عرفوا طريقهم وقربهم من خالقهم ، ودخلهم فى جنته ، أما الكفار الجاحدون المكذبون للرسل فسيعلمون غداً من هو الواقع فى الضلال الظاهر .

(ج) هذا الماء الذى تشربونه إذا غار فى الأرض فأصبح بعيداً لا تناله الدلاء ، من الذى يأتىكم بماء ظاهر تراه العين يجرى أمامكم ، يسقى زراعتكم وحيواناتكم وأشخاصكم ؟

التفسير :

٢٨ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِى اللَّهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

أنتم مصرون على الكفر ، ولا يُجير الكافرين من عذاب الله سوى التوبة والإسلام والإيمان ، وكان الكفار يتمنون وقوع الهلاك لمحمد وأصحابه .

قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ • قُلْ تَرَبَّصُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ .

(الطور : ٣٠ ، ٣١)

وخلاصة معنى الآية :

سواء ميئنا أو قتلنا فإننا سننتقل إلى الجنة ، وإذا رحمننا الله بالنصر عليكم فسيكون لنا عز الدنيا وشرف الآخرة . أما الكفار فمن ينقذهم من الهزيمة فى الدنيا ، أو عذاب جهنم يوم القيامة ؟

والآية تضع الظاهر مكان المضمّر ، كأنها تستدرجهم للتفكير فى الإيمان ، فهى لم تقل : فمن يجيركم من عذاب أليم . وكأنها تفتح الباب للمخاطبين للتراجع عن الكفر ، أو لا تجبههم بأنهم كفار ، لعلهم أن يتركوا العناد إلى التفكير فى الإيمان .

٢٩ - قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَامِتًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

قل لهم يا محمد : الله ربنا ، وهو الرحمن يشملنا برحمته وعنايته وفضله ، وقد تولكنا عليه واعتمدنا ، أما أنتم فستعلمون غداً من الواقع فى الضلال المبين .

والآية أيضاً لا تصرّح لهم بأنهم ضالون كافرون ، آمنون بعبادة الأصنام وترك عبادة الرحمن ، بل ترك لهم مجالاً للتفكير وعدم العناد .

٣٠ - قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ .

هنا تصريح بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، والآية تلمس قلوبهم فتقول : أخبروني ، إن ذهب ماؤكم بعيداً في الأرض ، لا تستطيع الدلاء أن تنقله إليكم ، هل هناك أحد غير الله يستطيع أن يأتيكم بماء ظاهر تراه العين ؟ فمن فضل الله أن أجرى الماء للناس ، يستفيدون به في الزراعة والشرب ونواحي الحياة المتعددة .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

وقال سبحانه وتعالى : أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ • ؕ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ • لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ . (الواقعة : ٦٨ - ٧٠) .

وبذلك تختم سورة الملك ، سورة أرسى دعائم الإيمان بالله الخالق ، وحقيقة الابتلاء والرزق ، والعلم المطلق ، والسر والنجوى ، سورة تبين أن الكون كله في قبضة الله ، وفيها منهج حياة المؤمن مع ربه ومع نفسه ومع الناس .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الملك

- ١ - وصف السماوات .
- ٢ - بيان أن نظام العالم لا عوج فيه ولا اختلاف .
- ٣ - وصف عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة .
- ٤ - التذكير بخلق الإنسان ورزقه وأشباه ذلك .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة القلم

أهداف سورة القلم

(سورة القلم مكية ، وآياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة العلق)

وتشير الروايات إلى أنها من أوائل السور التي نزلت من القرآن ، ونلمح من سياق السورة أنها نزلت بعد الجهر بالدعوة الإسلامية في مكة ، حيث تعرض النبي الأمين ﷺ للاتهام بالجنون ، فنزلت السورة تنفي عنه هذه التهمة ، وتصف مكارم أخلاقه ، وتهتد المكذبين ، وتذكر قصة أصحاب الجنة الذين منعوا زكاة الثمار والفاكهة ، فأهلك الله جنتهم ، وكذلك يهلك كل كافر معاند ، وتوجهت السورة إلى أهل مكة بهذا الاستفهام الإنكاري : أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . (القلم : ٢٥) . هل يستوى المستقيم والفاجر ؟ أم تسألهم أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُقْلُونَ . (القلم : ٤٦) . هل تطلب منهم أجراً كبيراً على تبليغ الرسالة ، فلا يستطيعون أداءه ولذلك يتناقلون عن اتباعك ؟

ثم تذكر السورة طرفاً من قصة يونس عليه السلام من باب التسلية والاعتبار ، وتختتم السورة ببيان حقد الكافرين وحسدهم ، حتى أن عيونهم ينبعث منها شرار الحسد والغيط ، ويتهمون النبي ﷺ بالجنون ، وما يحمل إلا الذكر والهداية للعالمين .

مع آيات السورة

١ - أقسم الله بالقلم والدواة والكتابة ، ليدل على عظيم شأنها في نشر الرسالات والدعوات والعلم والمعرفة ، وكانت أول آية من القرآن : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . (العلق : ١) .

٢ ، ٣ - نفى القرآن عن النبي ﷺ الاتهام الكاذب بالجنون ، ثم أثبت أن له أجراً كاملاً غير منقوص على تبليغ الرسالة .

٤ - ومدحه الله بحسن الخلق ، فقال سبحانه : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . (القلم : ٤) . لقد كان خلقه القرآن ، وكان جامعاً للصفات الكريمة ، والقنوة الحسنة ، فقد اتصف بالفصاحة والشجاعة والكرم والحلم ، والأدب والعفة والنزاهة والأمانة ، والصدق والرحمة والتسامح واللين وحسن المعاملة .

وكان ﷺ حسن الصورة، معتدل البناء، جياش العواطف، قويًا في دين الله، حريصًا على تبليغ الرسالة، قائمًا ومعلمًا ومربيًا وموجهًا، أمينًا على وحي السماء.

وكانت عظمة أخلاقه في أنه تمثل القرآن سلوكًا وهديًا وتطبيقًا، فكان قرآنًا متحركًا، يجد فيه الصحابة القدوة العملية، والتطبيق الأمين للوحي، فيقتدون بخلقه وعمله وهديه وسلوكه.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا. (الأحزاب: ٢١).

٥، ٦ - فسكشف الغد عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه، وثبت أيهم الممتحن بما هو فيه، وأيهم الضالّ فيما يدعيه، وستبصر ويبصرون غلبة الإسلام، واستيلاءك عليهم بالقتل والأسر، وهيبتك في أعين الناس أجمعين، وصيرورتهم أذلاء صاغرين.

٧ - إن ربك هو الذي أوحى إليك، فهو يعلم أنك المهتدى، والمكذب بك ضال عن طريق الهدى، وسيجازي كل إنسان بحسب ما يستحق.

٨، ٩ - وقد ساوم الكفار النبي ﷺ، وعرضوا عليه أن يعبدوا إلهه يومًا وأن يعبد آلهم يومًا، فيصيب كل واحد بحظه من إله الآخر؛ فنزل قوله تعالى: قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. (الكافرون: ١، ٢).

وفي كتب السيرة: أن الكفار حرّضوا أبا طالب على أن يكف عنهم محمدًا، وأن ينهاء عن عيب آلهم، فقال النبي ﷺ لعمه: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وقد نزل الوحي ينهاء عن طاعة المكذبين، وينهاء عن قبول المساومة أو الحل الوسط، فإما إيمانًا أو لا إيمان: زُودُوا أَوْ تَذَهَّبُوا فَذَهُنَّ. (القلم: ٩). والإدهان هو اللين والمصانة، أي: ودّ المشركون لو تلين لهم في دينك بالركون إلى آلهم، وتتخلى عن مهاجمتها، حتى يتركوا خصامك وجدالك.

١٠ - ١٣ - نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة، وقيل: في الأخنس بن شريق، وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله ﷺ ولجؤا في حربه، والآيات تصف هذا الكافر بتسع صفات كلها ذميمة:

١ - فهو حَلَّاف، كثير الحلف.

٢ - مهين، لا يحترم نفسه ولا يحترم الناس قوله.

٣ - هَمَّاز، يهزم الناس ويعيبهم بالقول والإشارة.

- ٤ - منشاء بنميم ، يمشى بين الناس بالنعمة والفتنة والفساد .
- ٥ - مناع للخير ، يخيّل ممسك ، وكان يمنع الناس من الإيمان ، ويهدد من يحس منه الاستعداد للإيمان .
- ٦ - معتبر ، متجاوز للحق والعدل ، ثم هو معتبر على النبي ﷺ وعلى المسلمين .
- ٧ - أنيم ، كثير الآثام ، لا يبالي بما ارتكب ولا بما اجترح .
- ٨ - غُتْل بعد ذلك ، جامع للصفات المذمومة ، وهو فظ غليظ جاف .
- ٩ - زَنِيم ، أى لصيق فى قومه متهم فى نسبه ، أو معروف بالشور والاثام .
- ١٤ - ١٦ - تذكر هذه الآيات موقفه من دين الله ، وجوده بنعمة الله عليه ، فلأنه صاحب مال وولد ، إذا تلى عليه القرآن استهزأ بآياته ، وسخر من الرسول ، وهذه وحدها تعدل كل ما مرّ من وصف ذميم ، سَتَسِمُهُ عَلَى الثُّرُطُومِ . (القلم: ١٦) . أى : سنجعل له سمة وعلامة على أنفه ، والمراد أنا سنبين أمره بياناً واضحاً حتى لا يخفى على أحد ، أو سنذله فى الدنيا غاية الإذلال ، ونجعله معقوتاً مذموماً مشهوراً بالشر .

قصة أصحاب الجنة

تتناول الآيات (١٧ - ٣٣) قصة أصحاب الجنة ، وهم قوم ورثوا عن أبيهم بستاناً جميلاً ثمراً يانعاً ، وكان أبوه يخرج زكاة البستان ، ويوزع مقداراً منه على الفقراء والمساكين ، ولكنهم خالفوا أباهم ومنعوا حق الفقراء والمساكين ، فعاقبهم الله بهلاك البستان ، وكذلك يعاقب الكافرين يوم القيامة ، وقد عرضتها الآيات عرضاً رائعاً يمثل خطوات القصة ، وضعف تدبير الإنسان أمام تدبير الله الواحد الديان ، فلنسر مع الآيات :

١٨ - لقد استقر رأى أصحاب الجنة أن يقطعوا ثمرها عند الصباح ، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين ، وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه .

١٩ - ٢٠ - فطرق تلك الجنة طارق من أمر الله ليلاً وهم نيام : فَأَصْبَحَتْ كَالضَّرِيمِ . (القلم: ٢٠) . أى كالبيستان الذى صرمت ثماره أى قطعت ، كأنها مقطوعة الثمار ، فقد ذهب الطائف الذى طاف عليها بكل ثمرها .

٢١ - ٢٤ - فنأى بعضهم بعضاً فى الصباح ، وانطلقوا يتحدثون فى خفوت ، زيادة فى إحكام التدبير ، ويوصى بعضهم بعضاً بأن يحتجزوا الثمر كله ، ويحرموا منه المساكين .

٢٥ - وغدوا مصممين على حرد^(١) المساكين ومنعهم وحرمانهم ، قادرين عند أنفسهم على المنع وحجب منفعتها عن المساكين .

٢٦ ، ٢٧ - فلما شاهدوا بستانهم ورأوه محترقاً أنكروه ، وشكوا فيه وقالوا : أبستأننا هذا أم نحن ضالون طريقه ؟ ثم تيقنوا أنه بستانهم وقد حاق بهم الحرمان والندم .

٢٨ - ٣٢ - وبعد أن حدث ما حدث ألقى كل منهم تبعه ما وقع على غيره ، وتشاحنوا ، ثم تركوا التلاوم ، واعترفوا بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم عن الجنة الضائعة .

٣٣ - هكذا عذاب من خالف أمر الله ، ويخل بما آتاه ، وأنعم به عليه ، ومنع حق البائس الفقير ، وفي الآخرة عذاب أكبر من هذا العذاب ، لكل جاحد بنعمة الله ، ولكل مكذب بالدين والإيمان ، فليعلم ذلك المشركون وأهل مكة ، وليحذروا عاقبة كفرهم وعنادهم .

والقصة مسوقة لغاية معينة هي بيان عاقبة الجود ومنع حق الله ، إنها عاقبة سيئة في الدنيا وفي الآخرة ، وفي القصة تهديد للكافرين ، وعظة للمؤمنين .

٣٤ - وفي مقابل ما أعد للكافرين ، بيان بالنعيم الذي أعد للمعتقين .

٣٥ - ٤٧ - وعند هاتين الخاتمتين يدخل القرآن معهم في جدل لا تعقيد فيه ولا تركيب ، ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال ، عن أمور ليس لها إلا جواب واحد تصعب فيه المغالطة ، ويهددهم في الآخرة بمشهد رهيب ، وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوى الشديد .

٤٨ - ٥٠ - توجه الآيات النبي الكريم ﷺ إلى الصبر على تكاليف الرسالة ، والصبر على الأذى والتكذيب ، وتذكر له تجربة أخ له من قبل ضاق صدره بتكذيب قومه ، وهو يونس عليه السلام .

قصة يونس

أرسل الله يونس بن متى عليه السلام ، إلى أهل قرية نينوى بجوار مدينة الموصل بالعراق ، فاستبطأ إيمانهم وشق عليه تلكهم ، وضاق صدره بتكذيبهم ، فهجرهم مغاضباً لهم ، وقاده الغضب إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينة مع آخرين ، فلما كانوا في وسط اللجة ثقلت السفينة وتعرضت للغرق ، فأقروا بين الركاب للتخفف من واحد منهم ، لتخف السفينة ، فكانت القرعة على يونس ، فألقوه في اليم ، فابتلعه الحوت ، عندئذ نادى يونس ، وَهُوَ مَكْنُومٌ . (القلم : ٤٨) . مملوء غيظاً ، لوقوعه في كرب شديد ، في ظلمات البحر ، وفي بطن الحوت ، وفي وسط اللجة ، نادى ربه : أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ

الظَّالِمِينَ. (الأنبياء: ٨٧). فتداركته نعمة من ربه ، فنبهه الحوت على الشاطئ مريضاً سقيماً ، ثم يسر الله له الأمور ، واصطفاه وأوحى إليه ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون فأمنوا به ، وجعله الله من الصالحين ، حيث ردَّ إليه الوحي ، وشفعه في نفسه وقومه .

٥٠ - ٥٢ - وفي ختام السورة نجد مشهداً للكافرين ، وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم في غيظ عنيف ، وحسد عميق ، ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه .

قال جابر الله الزمخشري :

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُزِيلُوا نَفْسَ نَبِيِّهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . (القلم: ٥١) . يعنى أنهم من شدة تخوفهم ، ونظرهم إليك سراً بعيون العداوة والبغضاء ، يكادون يزلون قدمك ، أو يهلكوك ، من قولهم : نظر إلى نظراً يكاد يصرعنى ، أو يكاد يأكلنى ، أى لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله .

وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية ، وقد كان الكفار يريدون إصابة النبي ﷺ بعيونهم وحسدهم ، فعصمه الله تعالى وأنزل عليه الآية .

وقد صح في الحديث من عدة طرق : «إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر»^(١) .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى ذر مرفوعاً : «إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه»^(٢) .

ومما يحفظ المؤمن من الحسد خمسة أشياء ، هى :

١ - قراءة : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس .

٢ - إخراج صدقة .

٣ - قراءة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير) عشر مرات بعد صلاة المغرب ، وعشر مرات بعد صلاة الصبح .

٤ - قراءة قوله تعالى : وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يُزِيلُوا نَفْسَ نَبِيِّهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . (القلم ٥١) .

٥ - وأهم شىء فى الوقاية من الحسد ، الثقة الكاملة والاعتقاد اليقيني بأن الله هو النافع الضار ، وأن أحداً لن ينفعك إلا بإذن الله ، ولن يضرك إلا بمشيئة الله .

المعنى الإجمالى للسورة

بيان محاسن الأخلاق النبوية ، وسوء أخلاق بعض الكفار ، وعذاب مانعى الزكاة ، وضرب المثل بقصة أصحاب الجنة ، وتقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجة عليهم ، وتهديد المشركين المكذبين بالقرآن ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس عليه السلام فى قلة الصبر على قومه ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين فى قوله : وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . (القلم: ٥١) .

أسماء السورة :

للسورة اسمان : سورة (ن) ، وسورة القلم .

والاسم الثانى أشهر من الأول .

تمهيد

تفيد كتب علوم القرآن الكريم أن سورة القلم من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، فأول سورة من القرآن الكريم نزلت هي سورة العلق ، وفي صدر السورة حثٌ على القراءة والعلم ، وكذلك سورة القلم فيها مدح للكتابة والتعليم ، وفيها قَسَمٌ بالقلم والكتابة والتسطير ، لبيان أهمية ذلك في تبليغ الدعوة الإسلامية ، وارتفاع شأن الأمة .

وقد اختار الله رسوله أُمِّيًّا لحكمة عليا : حتى لا يرتاب المبطلون ، ولا يظن الظانون أنه نقل القرآن من الكتب السابقة ، وهذا النبي الأمي علّم الناس الوحى ، وارتقى بأُمَّته من الجهل والتدابر إلى العلم والتواصل .

وإذا كان صدر سورة القلم قد نزل مبكراً ، فإن بقية السورة نزلت بعد ذلك ، ويرجع الأستاذ سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) أن السورة نزلت تهاجم الكافرين وتهدهم ، وذلك يوضّح أن تاريخ نزولها كان بعد الجهر بالدعوة ، أى بعد ثلاث سنوات من مرحلة الإسرار بالدعوة .

الخلق العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿رَبِّ الْقَائِمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ۝ (٤) فَسَبِّحْهُ وَابْصُرْ ۝ (٥) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ۝ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝ (٧)﴾

المفردات :

ن حروف أقسم الله بها ، أو استفتح بها السور ، أو هي للتحدى والإعجاز ، أو هي كالجرس الذي يقرع فيتنبه التلاميذ لدخول المدرسة ، أو هي إشارة إلى أسماء الله تعالى أو صفاته .

يسطرون : يكتبون

ممنون ، منقوص ، أو مقطوع ، يقال : منه السير ، إذا أضعفه ، والمنين الضعيف .

المفتون ، المجنون لأنه فتن ، أى ابتلى بالجنون .

تمهيد :

أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم والكتابة فتحا لباب التعليم ، ولا يقسم الله تعالى إلا بالأمور العظام فقد أقسم بالشمس والقمر ، والسماء والليل والفجر ، وذلك لعظمة الخلق وجمال الصنع ، كما أقسم بالقلم والكتابة لبيان أثر العلم فى رفع شأن الأمة ، ورفق شئونها الاجتماعية والعمرانية ، حتى تكون كما وصف الله تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران : ١١٠) .

ثم مدح رسوله الأمين ﷺ بقوله : وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ .

التفسير :

١ - نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ .

أقسم الله تعالى ببعض الحروف التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم ، مثل : نَ ص ، حَم ، طسم المر ، المص ، حم عسق ، كهيعص .

وهي حروف يقصد بها التحدي والإعجاز ، وبيان أن القرآن مَكُونٌ من حروف عربية تنطقون بها ، وقد عجزتم عن الإتيان بمثله ، فدل ذلك على أنه ليس من صنع بشر ، ولكنه تنزيل من عليم حكيم .

وقيل : هي أدوات للتنبيه ، كالجرس الذي يُقرع فيتنبيه التلاميذ لدخول المدرسة .

وَالْقَلَمِ .

أقسم الله بالقلم ، وهو وسيلة الكتابة وأداة التعليم ، تحريراً لنا من الأمية ، وتوجيها لنا إلى فضل العلم وأهمية الكتابة ، حتى قال القائل :

تَحْزُ فَخَارِ النَّبِیَّةِ	سَعِلَ الْعِلْمُ وَاقْرَأْ
خَذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ	فَاللَّهُ قَالَ لِيُحْيِي

ويمكن أن يراد بالقلم أيضاً ، القلم الذي يكتب به الملائكة ما فى اللوح المحفوظ ، ويسجلون به فى صحائفهم أعمال الناس .

إن ديننا دين العلم والكتابة ، والتسابق العلمى والفكرى ، ومن واجب الأمة الإسلامية أن تتسابق فى ميادين العلم النظرى والعملى والدينى ، ليعود لها مجدها وعزها .

قال تعالى : قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... (الزمر : ٩) .

وقال سبحانه وتعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ... (ال عمران : ١٨) .

وقال سبحانه وتعالى : وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . (العنكبوت : ٤٣) .

وَمَا يَسْطُرُونَ .

وما يكتب بالقلم ، وما يسطر به من الكتب .

٢ - مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ .

كان الحقد والحسد على محمد ﷺ قد بلغ أشده من الكافرين ، فادعوا أن محمداً مجنون ، وأن هذا القرآن أثر من آثار هذيانه وجنونه ، ومحمد ﷺ في الذروة العليا من العقل والحكمة والرشد ، قد أرسله الله لهداية الناس ورحمتهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

لذلك أقسم الله على أن محمداً بسبب نعمة الله ورحمته به ، منتفِر عنه الجنون ، مؤهلاً للرسالة ، موصول القلب بالله ، متلقٍ لنعم الله وفيوضاته .

٣ - وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ .

وإن لك من الله تعالى أجراً دائماً ، وثواباً متصلاً لاميّة فيه ولا نقصان ، بل هو فيض رحمة الله بك وحنانه عليك ، وتكريمه لك ، بسبب ما تلقاه من عنت المشركين وتكذيبهم لك .

٤ - وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .

هذه شهادة من الله لمحمد ﷺ ، الذي اختاره رسولا أميناً ، وأنزل عليه آخر رسالات السماء ، الرسالة التي اشتملت على صلاح البشرية ، وهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

وأنزل الله القرآن الكريم نوراً وهداية وصلاحاً ، وكانت أخلاقه ﷺ قرآناً متحركاً .

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خُلُقُهُ القرآن. ^(١٤) رواه مسلم في صحيحه .

وفى الصحيحين عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا قال لشيء لم أفعله ألا فعلته ، وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً. ^(١٥)

لقد تحمل الأذى في مكة قبل الهجرة ، ثم نصره الله عليهم ، ودخل مكة فاتحاً منتصراً ، فعفا عن أهلها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

قال تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَبْتَ هُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ... (آل عمران : ١٥٩) .

٥ ، ٦ - فَسَبِّحْهُ وَابْحِرْهُ * بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونُ .

فسترى أيها الرسول الكريم ويرون من منكم المفتون المجنون ، من الذى سينهزم فى بدر ، وفى فتح مكة ، ومن الذى سينتصر .

وأغلب الظن أن أهل مكة حين اتهموه ﷺ بالجنون ، لم يكونوا يقصدون ذهاب العقل ، بل كانوا يذهبون إلى أن الجن تزين له ما يقول وتقدمه له ، فيخلط كلام الجن بكلامه ، كما ادعى العرب أن لكل شاعر شيطاناً من الجن يعينه ويمدّه بالشعر .

قال تعالى : وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ * إِنْهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ .

(الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢) .

وقال تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

٧ - إِنْ رُبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْهَكِينَ .

استئناف لبيان ما قبله ، وتأکید لما تضمنته من الوعد والوعيد .

إن الله أعلم من المجنون فيكما ، فالمجنون هو الذى ضلَّ عن سبيل الهدى ، وتنكب الجادة ، واختار طريق الكفر والضلال ، وهو سبحانه أعلم بالمهتدى الذى بلغ رسالة السماء ، وتمتع بالخلق العظيم ، وجعله الله خاتماً للنبيين ، ومتعة بأسمى صفات البشر .

قال تعالى : إِنْ أَلَّهَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

(الأحزاب : ٥٦) .

وقد جعل الله طاعة الرسول من طاعة الله ، وجعله مبيئاً وموضحاً للوحى ، وقائداً لأُمَّته ، ومُدِّيه الله بالشفاعة يوم القيامة ، ويسر له النصر ويسر لأُمَّته فتحاً مبيئاً ، ونصرة عظيماً .

قال تعالى : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ يُظَاهِرُهُ ، عَلَى الَّذِينَ كُتِبَ لَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا .

(الصف : ٩) .

وقال تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (النساء : ٨٠) .

وقال عز شأنه : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... (النحل : ٤٤) .

لا التقاء بين الإيمان والكفر

﴿فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ٨ ﴿وَدُّوا لَوْ يُدْهَنُ فَيْدُهُنُوتٌ﴾ ٩ ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ١٠
 هُمَا زَمْشَاءُ بْنُ مَيْمٍ ١١ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٌ ١٢ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنْيِمٌ ١٣ أَنْ كَانَ
 ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ إِسْنَانُ قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُ عَلَى
 الْخُرْطُومِ ١٦ ﴿

المفردات :

ودوا لو تدهن ، تمنوا لو تدين لهم بعض الشيء ، وتصانعمهم فى الدين . قال الليث : الإدهان : اللين
 والمصانعة والمقاربة .

حـلـلـاف : كثير الحلف فى الحق والباطل .

مـهـيـن : محتقر فى الرأى والتميز .

هـمـا ز : عيَاب طعان ، أو مغتاب .

مـشـاء بـنـمـيـم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم .

مـنـاع لـلـخـيـر : بخيل .

مـعـتـد : يتجاوز الحق ، ويسير فى الباطل .

أـثـيـم : كثير الأثام والذنوب .

عـتـل : غليظ القلب ، جاف الطبع .

زـنـيـم : دعى ، معروف بالشر واللؤم .

سـنـسـمـه : نجعل له سمة وعلامة .

الـخـرـطـوم : الأنف ، والمراد : سنلحق به عاراً لا يفارقه ، كالوسم على الأنف .

التفسير :

٨ - فَلَا تُطْعِ الْمُكَذِّبِينَ .

أى : كما أنعمنا عليك بالرسالة والوحى والقرب ، وأعطيناك الشرع المستقيم ، فلا تطع المكذبين .

وذلك أن رؤساء مكة دعوه إلى دين آبائهم ، فنهاه الله أن يطيعهم .

٩ - وَذُؤُوا لَوْ تَذَهِنُ فَيَذَهِنُونَ .

طلب كفار مكة من النبي ﷺ أن يعبد آلهم وقتاً ما ، وأن يعبدوا إلهه وقتاً ما ، فإن كان في إلهه خير أصابوا منه ، وإن كان في آلهم خير أصاب منه رسول الله ﷺ ، وتمنوا أن يلين معهم ، وأن يتقرب من آلهم ، وأن يصل معهم إلى منتصف الطريق ، فلا يهاجم آلهم ، وأن يتقرب إليها أي تقرب ، وأن يفعلوا مثل ذلك مع إلهه ، لكن الله تعالى نهاه عن ذلك ، ويبين أن الحق والباطل لا يلتقيان .

قال الحسن :

وَذُؤُوا لَوْ تَذَهِنُ فَيَذَهِنُونَ .

أي : لو تصانعهم في دينك ، فيصانعون في دينهم .

وقال ابن السائب : لو تلين فيلبنون لك .

وقال ابن جرير الطبري :

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : ود هؤلاء المشركون يا محمد لو تلين لهم في دينك ، بإيجابتك إياهم إلى الركون إلى آلهم ، فيلبنون لك في عبادتك إلهك .

كما قال جل ثناؤه : وَلَوْ لَا أَنْ بُعِثْتُ لَقَدْ كِدْتُ تَرَكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً . (الإسراء : ٧٤) .

قال : وإنما هو مأخوذ من الذهن ، شبه التلبيين في القول بتلبيين الذهن .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآيات على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه الوليد بن المغيرة .

الثاني : الأخنس بن شريق .

الثالث : الأسود بن عبد يغوث .

١٠ - وَلَا تَطْعُ كُلَّ خَلَفٍ مَّهِينٍ .

وهو كثير الحلف بالباطل . مهين . دنىء كذاب ، فهو حين يكذب يغطي كذبه بالإيمان الباطلة ، وكفى بذلك مهانة وذلك له عند نفسه وعند الآخرين ، وكفى الكذب عيباً أن الله بدأ به تسع صفات مذمومة .

١١ - هَمَّازٍ مُشْتَاعٍ بِنَجِيمٍ .

هو كثير الهمز واللمز، بحث عن عيوب الناس، مما يدل على عيب في ذاته، وقد ذم الله هذا الخلق، ونهى عن التماس عيوب الآخرين.

قال تعالى: **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** . (الهمزة: ١).

وقال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْسِنِ...** (الحجرات: ١١).

مُشْتَاعٍ بِنَجِيمٍ .

إنسان وصولى، حاقد على تواصل الناس وترباطهم، فهو يمشى بالنميمة، ويقطع أواصر الأخوة، ويحول أصدقاء الأمتى إلى متباغضين، وفى الأثر: «من ذم لك نذم عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك».

وقد أخرج أبو داود، والترمذى من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ كان ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه، وكان يقول: «لا يبلغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئاً، فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»^(١٧).

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير: أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة»^(١٨).

وروى الإمام أحمد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة قتات»^(١٩).

وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة عند تفسير هذه الآية، وكذلك صاحب (فى ظلال القرآن).

ونقل لك هذا الحديث:

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل»، ثم قال: «ألا أنبئكم بشاركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب»^(٢٠).

١٢ - مَنَعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ إِلَيْهِ .

هو نموذج من نماذج الشر، فقد كان يمنع أولاده وأهله من الدخول في الإسلام ، ويهددهم بمنع ماله ومعروفه ومساعدته عمن دخل في دين محمد.

ولا يوجد خير أعظم من الإسلام ، فقد كان يمنع الناس منه ، كان ظالما معتديا ، وقد حارب القرآن الظلم والعدوان بجميع طرقه وأصنافه ، حتى في الطعام والشراب .

قال تعالى : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ... (طه : ٨١) .

وهو أثم يرتكب المعاصي والإثم بدون تحديد ، وهو يدل على تنوع المعاصي والآثام التي يرتكبها .

وقيل : إن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي ، كان موسرا وكان له عشرة من البنين ، وكان يقول لهم ولأقربائه : من أسلم منكم منعته رِفْدَى وعطائي ، وقيل : نزلت في أبي جهل ، وقيل : في غيرهما .

وقد ذكر العلماء أن العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فالآيات تحذر من اتباع كل إنسان متصف بهذه الصفات التسع :

١ - وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلْفٍ .

٢ - مُهِينٌ .

٣ - هَمَّازٍ .

٤ - مُشَاءٍ بِنَمِيمٍ .

٥ - مَنَعَ لِلْخَيْرِ .

٦ - مُعْتَدٍ

٧ - أَثِيمٌ .

٨ - عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ .

٩ - زَلِيمٌ .

وهذه الصفات ترسم نمونجا بلغ الغايات في الشرور والآثام .

١٣ - عُثْلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْمِ .

عُثْلِمَ . غليظ جاف ، يعامل الناس بالغلظة والفظاظة .

زَيْمِ . معروف بالشور والأتام ، كما تعرف الشاة بالزئمة وهى ما يتدلى من رقبته .

قال سعيد بن جبير : الزئيم الذى يعرف بالشّر ، كما تعرف الشاة بزئمتها .

وروى عن ابن عباس أنه قال : هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون : رجل سوء .

وكلمة عُثْلِمَ . تعبر بحرسها وظلّها عن مجموعة من الصفات ، فقد يقال : إن العُثْلُ هو الغليظ الجاف ، وإنه الأكل الشروب ، وإنه الشره المتأخّر للخير ، وإنه الغُظّ فى طبعه ، اللئيم فى نفسه ، السيئ فى معاملته .

زَيْمِ .

وهذه خاتمة الصفات الكريهة المذمومة .

والزئيم من معانيها : اللصيق فى القوم ولا نسب له فيهم ، ومن معانى الزئيم : الذى اشتهر بين الناس بلؤمه وخبثه ، وكثرة شروره .

١٤ - أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَيْنَ .

لقد أعطاه الله المال والبين ومنّ عليه بالنعمة ، وكانت تستحق منه شكر النعمة ، وتصديق رسالة الرسول ، لكنّه قابل نعمة الله بالكذب والاختلاق .

١٥ - إِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسْطِيطُ الْأُولِينَ .

إذا قرئ عليه القرآن رفض الإيمان والتصديق به ، وقال : إنه أكاذيب السابقين التى دُونت فى الكتب ، وليس من كلام الله .

وفى هذا المعنى قوله تعالى : ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا • وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْلُودًا • وَبَيْنَ شُهُودًا • وَمَهْدَتْ لَهُ نَمِيمًا • ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ • كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لَا يَلْمِزُنَا غِيثًا • سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا • إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ • فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ • ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ • ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ • فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ يُؤْتِرُ • إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ .

(المدر : ١١ - ٢٥)

والخلاصة :

لقد أعطاه الله المال والبنين ، فجعل الكفر مكان الشكر ، وكذب بأبيات الله ، وقال : إنها أكاذيب السابقين .

١٦ - سَنَسِيمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ .

سنقيض له وسائل الإذلال والمهانة ، فقد ذمه الخالق الكريم ، وسجل ذلك فى كتابه الخالد .

والمعنى الحرفى للآية : سنجعل وسماً وعلامة على أنفه ، ليتذكر كل من رآه تاريخه ومذلتة .

والأنف رمز العلو والرفعة . يقال : أنف أشم ، للعزیز . وأنف فى الرغام ، للذليل ، أى فى التراب ، ويقال : ورم أنفه ، وحمى أنفه ، إذا غضب معتزاً ، ومنه الأنفة .

وقد أنذله الله يوم بدر ، وسينتظره ذل أعظم يوم القيامة .

جاء فى تفسير المراعى :

وفى التعبير بلفظ : الْخُرْطُومِ . استخفاف به ، لأنه لا يستعمل إلا فى الغيل والخنزير ، وفى استعمال أعضاء الحيوان للإنسان ، كالمشفر للشفة والظلف للقدم ، دلالة على التحقير كما لا يخفى .

والخلاصة :

سنذله فى الدنيا غاية الإذلال ، ونجعله ممقوتاً مذموماً ، مشهوراً بالشر ، ونسمه يوم القيامة على أنفه ، ليُعرف بذلك كفره وانحطاط قدره .

قصة أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْتُهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتِ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَغْدُوا عَلَيَّ حَرْبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنطَلَقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوَا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ لَحْنٌ مَخْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوَّمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَنْتَلِنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَبْدِلَ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المضردات :

بَلَوْنَاهُمْ : امتحناهم بألوان من البلاء والآفات .

الْجَنَّةُ : البستان .

لَيَصْرِمُنَّهَا : ليقطعن ثمارها بعد نضجها .

مَصْبِحِينَ : وقت الصباح المبكر .

وَلَا يَسْتَنْوُونَ : ولا يَنْتُونُ عَمَّا هُمُوا به من منع المساكين .

طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ : طارق من عذاب ربك ، نار محرقة ، أو صاعقة أحرقت البستان .

كَالصَّرِيمِ : كالليل البهيم في السواد ، بعد أن احترقت .

فَتَنَادُوا : نادى بعضهم بعضا .

أَغْدُوا : اخرجوا غدوة مبكرين .

مَصَارِمِينَ : قاصدين للصرم وقطع الثمار .

يَتَخَافَتُونَ : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافة والمناجاة ، حتى لا يسمعون أحد .

عَلَى حَرْدٍ : على منع ، أو انفراد عن المساكين .

لضاللون، قد ضللنا طريق جنتنا، وما هذه هي.

محرومون، حرمتنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا.

أوسطهم، أحسنهم رأيا.

لولا تسبحون، هلا تذكرون الله، وتتوبون إليه من خيب نيتكم.

يتلأولون، يلوم بعضهم بعضا على عزمهم منع المساكين.

طافين، متجاوزين حدود الله.

راغبون، راجون العفو، طالبون الخير.

تمهيد:

يضرِبُ الله مثلا وقصة، قيل كانت بأرض اليمن، قريبا من صنعاء، لرجل صالح كان يؤدي حق الله في ماله، ويترك للمساكين جانباً من ثمار بستانه، فلما مات أصر أولاده على منع حق المساكين، وحلفوا ليقطعن ثمار البستان في الصباح الباكر خفية عن المساكين، فجازاهم الله بما يستحقون، وأرسل على بستانهم صاعقة أحرقت، وجعلته أسود فاحماً خالياً من الثمار، فحرمهم الله من بستانهم عقوبة لهم.

التفسير:

١٧ - إِنْ أَنْزَلْنَاهُمْ كَمَا بَلَّوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ .

اختبرنا أهل مكة بالمال والغنى والبلد الأمين، لكنهم لم يشكروا هذه النعمة، وكذبوا محمداً ﷺ، وشأنهم في ذلك شأن أصحاب الجنة، وقصتهم مشهورة باليمن، فقد كان البستان لرجل صالح يخرج زكاة بستانه، ويجعل للمساكين بعد ذلك ما أخطأه الحاصد، وما تبقى تحت النخلة من ثمر، فلما مات الأب أصر أبناءه أن يقطعوا ثمار البستان في الصباح الباكر.

١٨ - وَلَا يَسْتَشْفُونَ .

ولا يتركون شيئاً في بستانهم للفقراء والمساكين، أو لم يقولوا إن شاء الله.

١٩ - فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ .

دبروا كيذاً بليل، وناموا غافلين عن أمر السماء، فأرسل الله على البستان ليلاً صاعقة أحرقت، وصار أسود فاحماً، لا أثر فيه للثمار، وأصحابه في غفلة عما جرت به المقادير.

٢٠ - فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ .

أصبحت جنتهم كالبيستان الذي صرمت ثماره ، وقطعت بحيث لم يبق فيها شيء ، أو أصبحت كالليل البهيم الحالكة السواد من آثار الحريق ، جزاء رغبتهم في حرمان المساكين من أى شيء من ثمار جنتهم .

أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إياكم والمعصية ، فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له» ، ثم تلا : قَطَافٌ عَلَيْهَا طَائِفٌ ... الآية ، «قد حرموا خير جنتهم بذنبيهم» .

٢١ ، ٢٢ - فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ .

يَصُورُ الْقُرْآنُ حَالَهُ هَؤُلَاءِ النَّاسِ ، غَافِلِينَ عَمَّا دَبَّرَهُ الْقَدَرُ لَيْلًا بِإِحْرَاقِ بَسْتَانِهِمْ ، فَانْطَلَقُوا فِي الصَّبَاحِ يَنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا : هَلُمُوا نَذْهَبْ إِلَى الْبَيْسْتَانِ لِنَجْمَعَ ثِمَارَهُ وَنَقْطَعَهَا .

٢٣ ، ٢٤ - فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَلَّفُونَ * أَنْ لَا يُدْخِلَئِنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينًا .

وَانْطَلَقُوا إِلَى عَمَلِهِمْ ، يَتَشَاوِرُونَ فِي سِرِّيَّةِ وَصُوتٍ مُنْخَفِضٍ ، وَيُوصِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَنْ الْبَيْسْتَانِ لَنَا وَحَدْنَا ، وَلَمْ يَعْزَمْ فِيهِ حَقٌّ لِمَسْكِينٍ أَوْ فَقِيرٍ ، فَأَغْلَقُوا أَبْوَابَهُ ، مَعَ تَوْصِيَةِ الْحَرَّاسِ أَلَّا يُدْخِلُوا أَيْ مَسْكِينٍ إِلَى الْجَنَّةِ .

٢٥ - وَعَدُّوا عَلَىٰ حَرْثِ قَادِرِينَ .

أَيُّ : وَسَارُوا أَوَّلَ النَّهَارِ قَادِرِينَ عَلَى مَنَعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ دُخُولِ الْبَيْسْتَانِ ، أَوْ مَنَعَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ إِصْلَاحِ الثَّوَابِ إِلَيْهِمْ .

وَلِكَلِمَةِ حَرْثٍ . مَعَانٍ كَثِيرَةٌ ذَكَرَهَا الْمُفَسِّرُونَ ، وَالْمُسْتَفَادُ مِنْ سِيَاقِ الْقِصَّةِ أَنَّهُمْ سَارُوا يَمْنُونُ أَنْفُسَهُمْ بِتَنْفِيزِ خَطِّئِهِمْ ، وَمَنَعَ الْمَسَاكِينِ مِنَ الْإِسْتِفَادَةِ بِجُزْءٍ مِنْ ثَمَارِ الْبَيْسْتَانِ ، وَمَنَعَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ التَّخَلُّى عَنْ هَذِهِ الرِّغْبَةِ ، أَيْ أَنَّهُمْ مَضُوا لِتَنْفِيزِ مَا عَزَمُوا عَلَيْهِ ، حَالِ كَوْنِهِمْ عَلَى تَنْفِيزِهِ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِمْ قَادِرِينَ .

٢٦ ، ٢٧ - فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ .

فَلَمَّا شَاهَدُوا جَنَّتَهُمْ مُحْتَرَقَةً ، قَالُوا : لَقَدْ ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ فَلَيْسَتْ هَذِهِ جَنَّتُنَا ، ثُمَّ تَبَيَّنُوا مِنْهَا ، فَقَالُوا :

بَلْ نَحْنُ مَعْرُومُونَ .

إنه يستأننا بعينه ، لكننا حرمانا خيره بسبب عزمنا المؤكد على حرمان المساكين ، وأظهروا الندم والتلاوم بعد فوات الأوان وضياع البستان .

٢٨ - قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ .

قال أعقلهم وأحسنهم رأياً : ألم أقول لكم اتقوا الله ، وتذكروا نعماءه ، واشكروه وعظموه بإخراج الزكاة والصدقة : وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ... (الأنعام : ١٤١) .

٢٩ - قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ .

قالوا : تنزه الله عن الظلم ، إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، معتدين على حق المساكين . لقد اعترفوا بذنبهم بعد فوات الأوان .

٣٠ - فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوُمُونَ .

أى : يلوم بعضهم بعضاً على منع المساكين حقوقهم ، يقول هذا لهذا : أنت أشرت علينا ، ويقول الآخر : أنت فعلت ، فإن منهم من أشار بذلك ، ومنهم من استحسنه ، ومنهم من سكت راضياً ، ومنهم من أنكره .

٣١ - قَالُوا يَتَوَلَّوْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ .

أخذوا يلومون أنفسهم ، وينادون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، حيث تكبروا وطغوا ، ومنعوا حق المساكين ، ولم يشكروا نعم الله عليهم كما شكرها أبوهـم ، حتى أصابهم ما أصابهم .

وفى القصة عظة وعبرة ، وتحذير للإنسان من الطغيان وعدم شكر النعمة ، فالنعمة مجانية ، وتحسينها بالشكر ، واستخدامها فيما خلقت له .

٣٢ - عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنْ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ .

نرجو أن يعوّضنا الله خيراً من جنتنا ، إنا تائبون نادمون على فعلنا ، راغبون في فضل الله وعظيم ثوابه .

وعن مجاهد : إنهم تابوا فأبدلوا خيراً منها .

٣٣ - كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

جاء في الدر المنثور للسيوطي :

أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة في قوله تعالى : كَذَلِكَ الْعَذَابُ . قال : عقوبة الدنيا ،
وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ . قال : عقوبة الآخرة .

ومعنى الآية :

ما فعلنا بأصحاب الجنة نفعله بكل من تعدى حدودنا ، وعصى رسلنا ، كما فعلنا بعباد وثمود
وفرعون ، وعذاب الآخرة أكبر وأشد وأخزى ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . أى : لو كان الكفار من أهل العلم لأفاقوا من
غفلتهم ، وأخذوا من العذاب حذرهم ، ولما وقعوا فيما وقعوا فيه .

وجاء في ظلال القرآن ما يأتي :

وقيل أن يسدل الستار على المشهد الأخير نسع التعقيب :

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وكذلك الابتلاء بالنعمة ، فليعلم المشركون أهل مكة :

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ...

ولينظروا ماذا وراء الابتلاء ، ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

مناقشة المشركين

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٦﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا خَيْرٌ مِنْ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَنُ عَلَيْنَا بَلِغَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٣٩﴾ إِنَّ لَكُمْ لِمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣١﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ ﴿٤٣﴾ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

تمهيد :

تفيد الآيات أن للمتقين عند الله جنات النعيم ، ولما سمع الكفار ذلك قالوا : نحن في الدنيا أحسن من المؤمنين ، وفي الآخرة سنكون أيضاً أحسن من المؤمنين ، أو على الأقل سنكون مثلهم ، فناقشهم القرآن نقاشاً متتابعاً ، حاكمهم فيه إلى المنطق والعقل ، فقال :

أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ .

هل يستوى من أطاع الله ومن عصاه ؟ هل يحكم بذلك عاقل ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

ثم سألهم : هل عندكم دليل نقلى ، أو كتاب من السماء تدرسه وتقرأونه بذلك ؟

ثم سألهم : هل لديكم وعد من الله بأن لكم الجنة مثل المؤمنين ، أو بأن لكم ما تحكمون به وما

تختارونه ؟

وأمر الرسول أن يسألهم : من هو الزعيم فيكم بذلك ؟ وهل معكم شركاء يوافقونكم على ما تذهبون إليه ؛ فلتحضروا هؤلاء الشركاء في يوم يكشف فيه عن ساق من شدة الهول ، ويدعون إلى السجود لله ، فلا يستطيعون السجود لتصلب ظهورهم ، وقد كانوا يدعون إلى السجود في الدنيا حال سلامة ظهورهم فلا يستجيبون ولا يسجدون .

التفسير :

٣٤ - إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ .

فى آيات سابقة تحدث القرآن الكريم عن قصة أصحاب الجنة ، التى انتهت بهلاك مروع لبستانهم ، ثم قال تعالى : كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وفى مقابل عذاب الكفار فى الآخرة تحدث القرآن عن نعيم أهل الجنة ، فقال :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ .

والمعنى :

إن للآبرار المؤمنين الذين اتقوا ربهم وراقبوه ، خشية لمقامه ، وطاعة لأوامره ، واجتناباً لمحرماته ، وامتنالاً لكتابه ، وامتداء بسنة نبيه ﷺ ، هؤلاء المتقون لهم منزلة عالية عند الله فى رضاه ونعيمه وقربه وحماه وفضله ، حيث يتمتعون بجنت فى النعيم الكامل : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ... (الزخرف : ٧١) .

وفى الحديث الشريف : «ففيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» (٢٠) .

قال مقاتل بن سليمان البلخى :

لما نزلت هذه الآية قال كفار مكة للمسلمين : إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد أن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأكد فوز المتقين بقوله :

٣٥ - أَلَنَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْمُجْرِمِينَ .

أنحيف فى الحكم ، ونظلم المسلمين المتقين ونسوى بينهم وبين المجرمين الذين أجرموا بالشرك والكفر بالله ورسله ؟

٣٦ - مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ .

ماذا حدث لكم من فساد الرأى ، وخبل العقل ، حتى حكمتم بالمساواة بين الأخيار والأشرار .

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص : ٢٨) .

٣٧ ، ٣٨ - أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ؟ إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخَيَّرُونَ .

أفسدت عقولكم حتى حكمتم بذلك ، أم نزل عليكم كتاب يتدارسه الخلف عن السلف بأن الحكم بأيديكم تختارون ما يناسبكم منه ، وما تشتهون من نعيم الجنة ؟
قال صاحب الظلال :

فهو الاتهام والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذى يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذى لا يقبله عقل ولا عدل ، وهو الذى يقول لهم إن المسلمين كالمجرمين ، إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ، ويتملق رغباتهم ، فلمهم فيه ما يختارون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

٣٩ - أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ .

فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فهل معكم عهود موثقة على الله ، مستمرة مؤكدة إلى يوم القيامة بأن لكم ما تحكمون به ؟ أى ما تطلبونه ينفذ ، كما ينفذ حكم الحاكم أو قضاء القاضى .

٤٠ - سَأَلَهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ .

وجه إليهم السؤال ، وقل لهم : من منكم الزعيم الضامن بأن لكم على الله ما تشتهون وما تحكمون ؟ وهو تهكم ساخر عميق بليغ ، يذيب الوجوه من الحرج والتحدى السافر المكشوف .

٤١ - أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ .

هل هناك من يشاركونهم فى ذلك الرأى ، وهو التسوية بين المسلمين والمجرمين ؟ وإن كان كذلك فليأتوا بهم إن كانوا صادقين .

والمقصود : إن أحدا لا يسلم لهم بهذا ولا يساعدهم عليه ، كما أنهم لا كتاب لهم ينطق به ، ولا عهد لهم به عند الله ، ولا زعيم لهم يقوم به ويتصدى لإنفاذه .

وربما احتملت الآية وجهاً آخر أو معنى آخر هو ما يأتى : لقد كان لكفار مكة شركاء لله فى العبادة ، هى الأصنام والأوثان مثل : اللات والعزى ومناة ، والقرآن هنا ينسب الشركاء إليهم لا إلى الله ، ويتحداهم أن يأتوا بهؤلاء الشركاء فى يوم شديد الهول هو يوم القيامة ، يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ...

٤٢ - يَوْمُ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ .

أى : فليأتوا بهؤلاء الشركاء ليعاونوهم إذا اشتد الهول وعظم الأمر يوم القيامة ، والكشف عن الساق فى تعبيرات اللغة العربية كناية عن الشدة والكره ، فهو يوم القيامة الذى يَشْمَرُ فيه عن الساعد ، ويكشف فيه عن الساق ، ويشد الكره والضيق ، ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأن الهول قد شد أجسامهم وأعصابهم ، فتوقفت ظهورهم فلا تستطيع الانحناء من العجز والكره المخيف .

وفى الآية دليل على أنهم يحاولون السجود فى الآخرة فلا يستطيعون ذلك ، بينما يوفق المؤمنون للسجود لله تعالى فى ذلك اليوم .

٤٣ - غُلِبَتِ أُنُوسُ بْنُ مَرْثَدَةَ إِذْ كَانَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ .

يحشر هؤلاء المشركون فى حالة من الذلة والمهانة ، منكسرة أبصارهم ، تغشاهم المهانة والندامة والمذلة والحسرة ، وقد كانوا يدعون إلى طاعة الله وشرعه فى الدنيا ، وهم سالمون أصحاء معافون متمكنون من السجود فلا يستجيبون كثيراً وإعراضاً وأنفة من الاستجابة للحق ، لذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة .

روى أنه كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه على عكس السجود ، بخلاف ما عليه المؤمن .

أخرج البخارى ، ومسلم وغيرهما ، عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يُكْشَفُ رِئَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِئَاءَ وَاسْمَةٍ ، فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا»^(١) .

وقد أورد الحافظ السيوطى فى كتابه (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) طائفة من روايات هذا الحديث فى الصحيحين وفى كتب السنن .

وأنكر ذلك سعيد بن جبير ، فقد سئل عن الآية : يَوْمُ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ... فغضب غضباً شديداً ، وقال : إن أقواماً يزعمون أن الله سبحانه يكشف عن سائه ، وإنما يكشف عن الأمر الشديد ، وعليه يحمل ما فى الحديث ، وقد أورد ذلك الألوسى فى تفسيره ، (جزء ٢٩ ، ص ٣٥) .

وأرى أن الحديث صحيح ، وارد فى الصحيحين وفى كتب السنن ، والسلف يقولون فى المتشابه من الآيات والأحاديث : نؤمن بها كما وردت ، ونفوض المراد منها إلى الله تعالى .

والخلف يقولون : يجب تأويلها على معانٍ تليق بذات الله تعالى .

وكان الإمام الشافعي رضى الله عنه يقول : (إذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولى عرض الحائط) .

ومن إعجاز القرآن الكريم أن الآية قد يكون لها معنى ، وتشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

والآية الكريمة : **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ...** تحتل المعنى المجازى ، ويمكن فهمها على المعنى

الحقيقى ، ولنا أن نأخذ برأى السلف فنقول : نؤمن بها كما وردت ونفوض المراد منها إلى الله تعالى ، ولنا

أن نأخذ برأى الخلف فى أن كشف الساق كناية عن الشدة والهول ، والله أعلم .

★ ★ ★

ختم سورة القلم

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ٤٤ ﴾ وَأَمَلِي لَهُمْ أَنْ يَكِيدَ
مَتِينٌ ٤٥ أَمْ تَسْتَلْهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ٤٦ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ٤٧ فَاصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْأُتُوذِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ٤٨ تَوَلَّى أَنْ تَدْرِكَهُ نِعْمَةُ رَبِّهِ لَنُبْذِلَ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ٤٩ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ٥٠ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ
بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٥٢ ﴾

المضردات :

فذرني ومن يكذب ، أى كُنْه إلى فإنى أكفيكه .

سنستدرجهم ، يقال : استدرجه إلى كذا ، إذا استنزله إليه درجة درجة حتى يورطه فيه .

وأملى لهم ، أمهلهم وأطيل لهم المدة ، يقال : أملى الله له ، أى : أطال له الملاوة ، وهى المدة من الزمن .

كيدى متين ، تدبىرى قوى ، لا يفلت منه أحد .

مغرم ، غرامة مالية .

مثقلون ، مكلّفون أحمالاً ثقلاً ، فهم بسببها يعرضون عنك .

الغيب ، ما كتب فى اللوح ، واستأثر الله بعلمه .

يَكْتَبُونَ ، يحكمون على الله بما شاءوا وأرادوا .

حَكَمَ رَبِّكَ ، هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم .

صاحب الحوت ، يونس عليه السلام .

مَكْظُومٌ ، مملوء غيظًا وغَمًّا ، من قولهم : كظم السقاء ، إذا ملأه .

السَّعْرَاءُ ، الأرض الخالية .

فَاجْتَبَاهُ ، اصطفاه بقبول توبته .

يَزْلِقُونَكَ ، ينظرون إليك نظرًا شديدًا يكاد يصرك ويسقطك من مكانك لبغضهم لك .

الذِّكْرُ ، القرآن .

التفسير :

٤٤ - فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِلَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

يأتي أسلوب التهديد والوعيد لهؤلاء المشركين المكذبين .

أى : خلنى وإياه ، وكله إلى لأجازه بعمله ، وقيل : ذرنى ، أى لا تشغل قلبك به ، ودعنى وإياه فإنى مجازيه ومكافئه ، وهو بمعنى الأول ، والعرب تقول مثل هذا القول ، وإن لم يكن هناك أحد يمنع منه .

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

الاستدراج فى كلام العرب هو الأخذ قليلاً قليلاً ، ومنه : درج الصبى ، إذا مشى قليلاً قليلاً .

وقال سفيان الثوري : الاستدراج هو إسباغ النعم ، ومنع الشكر .

وقيل : هو أنه كلما جدد ذنبًا ، جدد الله له نعمة .

وعن عقبة بن مسلم قال : إذا كان العبد على معصية الله ، ثم أعطاه الله ما يحب ، فليعلم أنه فى

استدراج .

وعن الحسن البصرى قال : كم من مُسْتَدْرَجٍ بِحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، ومغرور يستر الله عليه .

وقيل : سَنَسْتَدْرِجُهُمْ . أى : نمكر بهم من حيث لا يعلمون^(١٧)

وجاء في تفسير البغوي ما يأتي :

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِلَذَا الْحَدِيثِ ...

أى : فدعنى والمكذبين بالقرآن ، وخل بينى وبينهم .

قال الزجاج : لا تشغل قلبك بهم ، كلهم إلى فإنى أكفيكمهم ، ومثله : ذرني ومن خلقت رجلاً . (المدثر : ١١) .

ومعناه فى اللغة : لا تشغل قلبك به ، وكله إلى فإنى أجازيه ، ومثله قول الرجل : ذرنى وإياه ، ليس أنه منعه منه ، ولكن تأويله : كلّه إلى فإنى أكفيك أمره . (٣٧) .

٤٥ - وَأُمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ .

أى : أمهلهم ولا أباغتهم جهراً ، بتأخير العذاب عنهم ، وأمنحهم كثيراً من النعم ليزدادوا إثماً ، وهم يحسبون أن ذلك لإرادة الخير بهم .

إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ .

إن تدبيري وعذابي لقوى شديد ، لا يدفع بشيء ، فلا يفوتنى أحد ولا يعجزنى .

وأفاد صاحب الظلال ما يأتي :

إن المعركة بين الله وبين هؤلاء الظالمين المعتدين ، والرسل والهداة سبب ظاهري ، أمّا المسبب الحقيقي فهو الله ، ولا يغلب الله غالب ، وهذا إنذار رهيب للإنسان المسكين الذى يمثل نملة صغيرة أمام قدرة الله القادرة ، إن هذه القدرة كانت وراء الرسول ﷺ وصحبه فى مكة ، وكانت أيضاً وراءهم فى المدينة حين أصبحت لهم دولة وقوة ، فقال تعالى لهم : فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ... (الأنفال : ١٧) .

من كلام المفسرين

ورد هذا المعنى فى كتاب الله تعالى فى نحو قوله سبحانه : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا لُمُواهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ

نَسَارِهِ لَهُمْ لِمَى آلِ عَصْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ . (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وقوله تعالى : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ هَمٍّ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا

هُم مُبْئِسُونَ . (الأنعام : ٤٤) .

وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ .

أى : أُوخِرهم وأنسى في آجالهم ملاوة من الزمان على كفرهم وتمردهم على ، لتتكمال حججى عليهم ، وإن كيدى لأهل الكفر لقوى شديد^(٣١) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ : وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَلِيمٌ^(٣٢) . (هود : ١٠٢) .

٤٦ - أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ .

ماذا أصاب هؤلاء القوم حتى أعرضوا عن رسالتك ؟

هل تطلب منهم جعلاً وماً إذا دخلوا فى الإسلام ، فهم يعرضون عنك بسبب الغرم العظيم والدَّين الثقيل الذى ينوء به كاهلهم ؟

وخلاصة ذلك : إن أمرهم لعجيب ، فإنك تدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكتفونك ، ويكفرون بك جهلاً وعناداً .

٤٧ - أَمْ عَنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ .

هل عندهم علم اللوح المحفوظ ، بما هو كائن وما يكون ، فهم يكتبون منه ما يشاءون ، ويسطرون ما يحتجون به عليك .

وقيل : المعنى أينزل عليهم الوحي بهذا الذى يحكمون به ، من أنهم على الحق ، ومحمد على الباطل .

والجواب : ليس عندهم شئ من ذلك .

٤٨ - فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْاُخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ .

اصبر يا محمد لحكم ربك فى إمهال النصر ، وفى شدة البلاء عليك وعلى أصحابك ، لحكمة إلهية عليا ، هى تدريب المؤمنين على الصبر والمصابرة ، وتحمل تبعات الجهاد ، وضرب الحق سبحانه نموذجاً عملياً بنبى الله يونس حين كذبه قومه ، وقد أرسله الله إلى قرية تينوى بالموصل ، فأبطلوا فى الاستجابة لدعوته ، فهجرت القرية غضبان منهم ، وركب سفينة تنقله إلى جهة أخرى ، وفى منتصف البحر أوشكت السفينة على الغرق ، وأجريت قرعة لإلقاء أحد الركاب فى البحر ، فخرجت القرعة على نبى الله يونس ،

فَأَلْقَى فِي الْبَحْرِ ، وَفِي شِدَّةِ الظُّلُمَاتِ وَالْغَمِّ وَالْأَلَمِ نَادَى رَبَّهُ : أَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . (الأنبياء : ٨٧) .

فاستجاب الله دعاءه ، وألهم الحوت أن يقذفه على الشاطئ ، وأنبأ الله عليه شجرة القرع فأطلته ، ويسر له طريق النجاة ، وطريق العودة إلى الرسالة والهداية ، وأرسله الله إلى قرية بها مائة ألف أو يزيد فآمنوا به .

رَوَى أَنَّهُ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَدْعُو عَلَى ثَقِيفٍ ، لَمَّا أَذَوْهُ حِينَ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ بِمَكَّةَ ، فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ .

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد التقمه الحوت ، ونادى ربه وهو فى ظلمات البحر ، والغم والكرب والضيق ، فاستجاب الله له .

قال تعالى : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ . (الأنبياء : ٨٨) .

وقد أراد الله تعالى أن يجعل الرُّسل نموذجاً عملياً فى الصبر والمصابرة ، ليكونوا قدوة للمؤمنين ولأصحاب الدعوات .

قال تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وقال عز شأنه : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ... (يوسف : ١١٠) .

٤٩ - لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ .

لولا أن وفقه الله للتوبة والمناداة والمناجاة ، والاستجابة له ، لنُبذَ الحوت بالأرض الفضاء الخالية من الأشجار ، حال كونه واقعاً فى المذمة والعلامة لهروبه من قومه الذين أرسل إليهم ثم ضاق بهم وتركهم .

وقيل : المعنى : لولا أن تداركته نعمة الله وفضله لبقى فى بطن الحوت إلى يوم القيامة ، ثم نُبذَ بعراء القيامة مذموماً ، يدل عليه قوله تعالى : فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .

(الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤)

وقرئ : رحمة من ربه ، وقرأ عبد الله وابن عباس : تداركته . بتاء التأنيث .

٥٠ - فَاجْتَنِبْهُ يُرِيدُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .

فأختاره الله لفضله ونعمته ، بأن ردَّ عليه الوحي ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون ، وجعله من الكاملين في الصلاح بأن عصمه من أن يفعل فعلاً تركه أولى .

٥١ - وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ .

من شدة عداوة الكافرين وتأثير البغضاء والحقد في نفوسهم ، ينظرون إليك نظر الحقد والحسد أن من الله عليك بالنبوة والرسالة ، ويتهمونك بالجنون والهذيان .

جاء في تفسير أبي السعود ما يأتي :

والمعنى : إنهم من شدة عداوتهم لك ينظرون إليك شزراً ، بحيث يكادون يصيبونك بالعين ، إذ قد روى أنه كان في بنى أسد عيَّانون ، فأراد بعضهم أن يؤذي رسول الله ﷺ بنظر عينه إليه ، فنزلت .

وفي الحديث : «إن العين لتُدخل القبر والجمل القدس»^(٢٦) . ولعله من خصائص بعض النفوس^(٢٧)

وعن الحسن : دواء الإصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية : وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

من كتاب

(روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)

للعامة الألوسى البغدادي

أى : يكادون يصيبونك بالعين ، إذ روى أنه كان في بنى أسد عيَّانون ، فأراد بعضهم أن يعين رسول الله ﷺ : فنزلت .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فتسقط طائفة منها وتهلك ، فاقترح الكفار عليه أن يصيب رسول الله ﷺ ، فأجابهم وأنشد :

قد كان قومك يحسبونك سيداً وإخبال أنك سيد معيون

فصمم الله تعالى نبيه ﷺ، وأنزل عليه هذه الآية، وقد قيل: إن قراءتها تدفع ضرر العين^(٣٨).

وعلق الألوسي قائلا: وأنا لا أزيد على القول بأنه من تأثيرات النفوس، ولا أكيف ذلك، فالنفوس الإنسانية من أعجب مخلوقات الله عز وجل، وكم طوى فيها أسراراً وعجائب تتحير فيها العقول، ولا ينكرها إلا مجنون أو جهول. ولا يسعني أن أنكر العين لكثرة الأحاديث الواردة فيها، ومشاهدة أثارها على اختلاف الأعضاء^(٣٩).

أما صاحب الظلال فيقول:

وَإِنْ يَكْذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَزَلْفَتِكَ بِأَبْصَرِهِمْ...

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول ﷺ، فتجعلها تزل وتزلق، وتفقد توازنها على الأرض وثباتها، وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحنق، وشروع وحسد، ونقمة وضغن، وحمى وسم، مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح، والشتم البذيء، والافتراء الذميمة.

وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ.

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة، وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة، فهو لا يكون إلا في حلقة عامة، بين كبار المعاندين المجرمين، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميمة المحموم.

٥٢- وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.

ما القرآن إلا تذكير للعالمين، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، فكيف يحكم على من أنزل عليه القرآن بالجنون، والقرآن مشتمل على الذروة العليا من الفصاحة والبيان والتشريع والآداب وأخبار السابقين، وحكم ما بين اللاحقين، وأخبار القيامة والبعث، وكلما تكرر حلا، ولا تنقضي عجائبه، وهو معجز بما فيه من علوم وفنون وأخبار وأحكام يصدقها العلم، ولا تصادم مع العقل، فهو حقاً تذكير للعالمين، وسبيل من سبيل الهداية لأهل المشارق والمغارب.

وقيل: معنى الذكر: الشرف والفضل، لقوله تعالى: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ. (الزخرف: ٤٤).

وإذا تأملنا السياق أدركنا أن المراد هو: الوحي والرسالة ودعوة الإسلام تذكير للعالمين.

كما قال سبحانه وتعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

وقد ادعى المستشرقون أن القرآن في مكة كان محلياً للعرب ، فلما انتقل المسلمون إلى المدينة وأصبحت لهم دولة ، بدأ النبي ﷺ يكتاب الملوك ويدعوهم للإسلام ، واتجه القرآن إلى العالمية ، وإذا علمنا أن سورة القلم من أوائل ما نزل بمكة أدركنا أن عالمية الدعوة كانت وهي في بدايات أمرها ، فهي دعوة الله إلى الناس كافة .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (سبا : ٢٨) .



خلاصة ما اشتملت عليه سورة القلم

- ١ - محاسن الأخلاق النبوية إلى قوله تعالى : وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ .
- ٢ - سوء أخلاق بعض الكفار وجزائهم من قوله تعالى : فَسْتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . إلى قوله تعالى : سنسمعُ على الْخَرُطُومِ .
- ٣ - ضرب المثل لهم بأصحاب الجنة من قوله تعالى : إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... إلى قوله تعالى : كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .
- ٤ - تقريع المجرمين وتوبيخهم وإقامة الحجج عليهم .
- ٥ - تهديد المشركين المكذبين بالقرآن في قوله تعالى : فَلَنَرَى وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثَ ...
- ٦ - أمره ﷺ بالصبر على أذى المشركين حتى لا يكون كصاحب الحوت .



تفسير سورة الحاقة

أهداف سورة الحاقة

(سورة الحاقة مكية ، وآياتها ٥٢ آية ، نزلت بعد سورة الملك)

وهي نموذج للسورة المكية التي تستولى على القلوب بأهوالها ومشاهدها وأفكارها المتتابعة ، وفواصلها القصيرة .

في بداية السورة نلاحظ هذه الرهبة من اسمها ، الحاقة ، لأن وقوعها حق يقيني ، ثم تصف مصارع المكذبين ، من ثمود إلى عاد إلى فرعون ، ثم تنتقل إلى مشاهد القيامة وأهوالها وصورها ، وتنوع الناس إلى فريقين : فريق يأخذ كتابه باليمين ، وفريق يأخذ كتابه بالشمال ، ويلقى كل فريق ما يستحق .

وفي المقطع الأخير من السورة تؤكد الآيات صدق رسول الله ﷺ ، وتنفي عنه تهم المشركين ، وتثبت أن القرآن حق يقين ، من عند رب العالمين .

مع آيات السورة

١ - ٣ - الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ .

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة ، ومن ثم تبدأ السورة باسم من أسماء القيامة : الْحَاقَّةُ ، أي : الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجيء ، وهي آتية لا ريب فيها ، من : حق يحق بالكسر ، أي : وجب .

وهذا المطلع يوحى بقدرة القدير ، وضعف الإنسان ، فهو لن يترك سدى ، بل أمامه يوم كله حق وعدل .

والألفاظ في السورة توحى بهذا المعنى وتؤكد :

الْحَاقَّةُ ، ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام ، مَا الْحَاقَّةُ . ما هي ؟ أي شيء هي ؟ أي حقا أن يستفهم عنها لعظمها ، وهذا أسلوب من الكلام يفيد التفخيم والمبالغة في الغرض الذي يساق له .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ . أي شيء أعلمك ما هي ؟ فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقات لعظم شأنها ، ومدى هولها وشدتها ، ثم يسكت الأسلوب فلا يجيب على هذا السؤال ، لتذهب النفس في هوله وشدته كل مذهب .

ومن أسماء القيامة الحاقة ، والقارعة لأنها تقرر القلوب بأهوالها .

٤ ، ٥ - تصف الآيات ما أصاب ثمود من العذاب ، وثمود كانت تسكن الحجر في شمال الحجاز ، بين الحجاز والشام ، وقد كذبوا نبيهم ، فأرسل الله عليهم صيحة أهلكتهم ، وسميت الصيحة هنا طاغية لأنها تجاوزت الحد في الشدة ، وسميت في سور أخرى بالصاعقة وبالرجفة وبالزلزلة ، وهى صفات للصيحة تبين أثرها فيمن نزلت بهم .

٦ - ٨ - تصف الآيات قصة هلاك عاد ، وقد كذبوا رسولهم ، فأرسل الله عليهم ريحاً باردة عاتية ، استمرت سبع ليال وثمانية أيام ، حُسُومًا : متتابعة ، حتى هلك القوم أجمعون ، وقد كانوا يسكنون بالأحقاف ، في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت ، وكانوا أشداء بطّاشين جبّارين ، وكان الجزء من جنس العمل .

٩ ، ١٠ - تصف مجيء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والقرى التى انتفكت بأهلها ، أى انقلبت بهم ، وهى قرى قوم لوط ، فقد عصى هؤلاء رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

١١ ، ١٢ - ترسم الأيتان مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، تشير بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا ، وتمتن على البشر بنجاة أصولهم التى انبثقوا منها ، والمشهور أن الناس كلهم من سلائل نوح وذريته .

١٣ - ١٨ - تصف الآيات أهوال القيامة وأحداثها ، فإسرافيل ينفخ فى الصور ، وتسوى الأرض والجبال ، وتلك كالكرة فيستوى عاليها بأسفلها ، عندئذ نزلت النازلة ، وجاءت القيامة . وقد انفرط عقد الكون المنظور ، واختلت روابطه وضوابطه التى تمسك به ، فترى السماء مشققة واهية مسترخية ، ساقطة القوة بعدما كانت محكمة ، والسماء مسكن الملائكة ، فإذا انشقت تعلق الملائكة بجوانبها وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية : ثمانية أملاك ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية أصناف ، أو طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله ولا ندرى نحن من هم ولا ما هم .

يُؤْمَلُ تَفَرُّضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ . (الحاقة : ١٨) . فالكل مكشوف : مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف المصير .

ألا إنه لأمر عصيب ، وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ، ما ظهر منه وما استتر ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

١٩ - ٢٤ - تصف الآيات مشهد المؤمن الناجي ، وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه فيهتف : اقرأوا كتابي فأنا من الناجين ، لقد أيقنت بالجزاء والحساب : فيعيش حياة ناعمة ، في جنة عالية ، ثمارها قريبة التناول ، ويقول لهم ربهم جل ثناؤه : كلوا وتمتعوا جزاء عملكم السابق وطاعتكم لربكم .

٢٥ - ٢٩ - تصف الآيات حسرة المشرك ، وبؤسه ويأسه ، فهو يتمنى أنه لم يأت للموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ، كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهى وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً .

ثم يتحسر أن لا شيء نفعه مما كان يعتز به أو يجمعه ، فلا المال أغنى أو نفع ، ولا السلطان بقي أو دفع ، والرنه الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة ، وفي ياء العلة بعد المد بالألف ، في تحزن وتحسر تشعر بالحسرة والأسى والحزن العميق .

٣٠ - ٣٢ - ثم يقال لملائكة العذاب : خذوه إلى جهنم ، فيبتدره سبعون ألف ملك ، كلهم يبادر إلى جعل الغل في عنقه ، ويتقدم ليصلطي نار الجحيم ويشوى بها ، ويدخل في سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه ، ونزار واحدة من سلاسل النار تكفيه ، ولكن الآية تكشف عن شدة العذاب وهوله ، حفظنا الله من عذاب النار .

٣٣ ، ٣٤ - تذكر الآيتان أسباب العذاب والسعير ، فقد خلا قلب هذا الكافر من الإيمان بالله ، كما خلا قلبه من الرحمة بالعباد ، ومن العطف على المساكين ، ومن الحث على إطعامهم والبر بهم .

٣٥ - ٣٧ - ولهذا لا يجد له صديقاً ولا حميماً يؤنس ، ولا يأكل إلا غسالة أهل جهنم من القيح والصدید ، وهو طعام لا يأكله إلا المذنبون ، المتصفون بالخطيئة ، فليثق الله كل غنى في ماله ، وليعلم أن للمساكين والأرامل والشيوخ والأطفال حقاً في هذا المال ، وسيترك المال لورثته ويسأل هو عن زكاته .

٣٨ - ٤٣ - إن الوجود أضخم بكثير مما يرى البشر ، والكون مملوء بعقول فعالة غير عقولنا .

«إن الإنسان قد يكون جهازاً ، ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز ؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه ، والعلم لا يعمل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادي ، لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره»^(٣٠) .

والآيات تقسم بما تشاهدون من المخلوقات وبما غاب عنكم . وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

إن القرآن كلام الله ومنهج الله وشريعة الله ، وليس قول شاعر ولا قول كاهن ، إنما هو قول رسول أرسل به من عند الله ، فحملة إلى عباد الله بأمانة وإخلاص في تبليغ الرسالة .

٤٤ - ٤٦ - إن قدرة الله بالغة ، ولو كذب محمد علينا ، أو افترى بعضه ونسبه إلينا ، لعاجلناه بالعقوبة ، وأزهقنا روحه ، فكان كمن قطع وتينه . وهذا تصوير للهلاك بأفطع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، إذ يأخذ السيف بيمينه ، ويكفحه بالسيف ويضرب عنقه .

٤٧ - لا يمنعنا أحد من عقوبة محمد والتنكيل به إذا افترى علينا .

٤٨ - ٥٢ - إن القرآن يذكر القلوب التقية فتتذكر ، أن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها فهو يثيرها ويذكرها فتتذكر ، أما المطموسة قلوبهم فهم يكذبون بهذا القرآن ، والقرآن حجة على الكافرين في الدنيا ، وحسرة عليهم إذا رأوا عذاب الآخرة .

وهذا القرآن عميق في الحق ، عميق في اليقين ، تنزيل من رب العالمين ، فعلينا أن نعظم الله وأن ننزهه ونجّله ، ونعترف له بالقدرة والعظمة : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الحاقة : ٥٢) .

المعنى الإجمالى للسورة

الخبر عن صعوبة القيامة ، وهلاك الأمم المكذبة لرسولها ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السماوات ، وحال السعداء والأشقياء في وقت قراءة الكتب ، وذل الكفار مقهورين في أيدي الزبانية ، وإثبات أن القرآن العظيم وحى من عند الله ، وليس بقول شاعر ولا كاهن ، والأمر بالتسبيح ^(٣١) في قوله : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الحاقة : ٥٢) .

أهوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ③ كَذَبَتْ ثُمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ④ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ⑤ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ⑥ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْنَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ⑦ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ⑧ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ⑨ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ⑩ إِنَّا لَمَاطِعَا الْمَاءِ حَمَلْنَا كُوفِيَ الْمَارِئَةَ ⑪ لَنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أذنٌ وَعِصَةٌ ⑫ ﴾

المعقدرات :

الحاقة ، القيامة ، من حقّ الشيء إذا ثبت ووجب ، أى : الساعة الثابتة المجىء ، الواجبة الوقوع .

القارعة ، القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرر القلوب بأهوالها .

الطاغية ، الواقعة التى جاوزت الحدّ فى الشدة والقوة .

الصرصر ، الشديدة الصوت التى لها صرصرة .

حسوما ، متتابعة ، واحدها حاسم ، والحسم القطع والاستئصال .

صرعى ، هلكى لا حراك بهم ، واحدهم صريع ، أى مَيّت .

أعجاز نخل ، أصول نخل قد تأكلت ، وختل أجوافها .

الباقية ، البقاء .

المؤتفكات ، المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .

الخاطئة ، الخطأ .

رابسية ، زائدة في الشدة ، من ربا الشيء إذا زاد .

طغى الماء ، تجاوز حدّه وارتفع .

حملناكم ، حملنا آباءكم وأنتم في أصلابهم .

الجارية ، السفينة التي تجرى في الماء .

تمهيتها ، تحفظها أذن من شأنها أن تحفظ ما سمعته .

تمهيد :

تشتمل الآيات على بيان أن يوم القيامة حق لا شك فيه ، وتذكر طائفة من أخبار الأمم التي كُذِّبَتْ رسلها ، فأصابها هلاك الاستئصال ، فثمود أهلك بالصاعقة ، وعاد أهلك بريح صرصر عاتية ، وأهلك فرعون وقومه بالغرق ، وأهلك قوم لوط بالزلازل الشديد الذي دمر قراهم ، وجعل عاليها سافلها ، وأهلك قوم نوح بالطوفان .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ - الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ .

افتتاح يهول النفس والقلب ، افتتاح معجز رهيب ، يتحدث عن القيامة ، فهي حاقة بمعنى أن عذابها حق للكافرين ، ونعيمها حق للمؤمنين ، وحسابها حق ليتميز الخبيث من الطيب .

مَا الْحَاقَّةُ . استفهام للتعظيم والاستهوال ، أى من حقها أن يُستفهم عنها لعظم أهوالها .

وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ .

أى شئ أعلمكم بها أيها الرسول ؟ فهي خارجة عن دائرة علم المخلوقين لعظم شأنها وشدة هولها .

إنها سورة تستولى على النفس بجرسها وفواصلها ، وتتابع معانيها ، فى قصم الجبارين ، ووصف القيامة ، وما فيها من عذاب للمجرمين ونعيم للمؤمنين .

وقد ذهب عمر إلى النبى ﷺ فوجده فى الصلاة قد بدأ سورة الحاقة ، فاستولت السورة على نفسه ، وأخذ بجلال القرآن وعظمته وبلاغته وبيانه وتتابع معانيه ، وأعلن إسلامه .

٤ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالقَارِعَةِ .

تحدث صدر السورة عن القيامة وهى الحاقة ، ثم انتقل إلى الحديث عن كذب بها ، وهم :

ثمود قوم صالح ، وكانوا يسكنون بالحجر فى شمال الحجاز ، بين الحجاز والشام ، وقد سُلط الله عليهم الصيحة الطاغية ، تطويعهم طيًّا ، وتغمرهم غمرًا ، وتعصف بهم عصفاً ، وتطغى عليهم فلا تبقى لهم ظلاً .

وأما عاد فكانوا يسكنون فى جنوب الجزيرة بين اليمن وسلطنة عمان ، وكانوا أشداء بطاشين جبَّارين ، وقد كذبوا بالقارعة التى تقرر القلوب بأموالها .

أى كذبت ثمود وكذبت عاد بالقارعة التى تقرر الناس بأموالها ، وتقرر السماء فتتشق على غلظها ، وتقرر الأرض والجبال بالدك والنسف ، وتقرر النجوم بالطمس والسقوط .

٥ - فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ .

أهلك الله ثمود بالصيحة التى تجاوزت الحد فى الشدة والقوة ، وصاحبها الرجفة والزلازل المدمر ، وقد سمحت ثمود لقدار بن سالف أن يطعن الناقة طاغيًا معتديًا ، وقد أهلكهم الله جميعًا لأنهم رضوا بفعله .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا • إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَى • فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا • فَكَذَّبُوهَا فَفَعَلُوها فَمَذْمُومٌ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا • وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس . ١١ - ١٥) .

٦ - وَأَمَّا عادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

كانت عاد قوية البنيان ، شديدة المراس : فَاسْتَكْبَرُوا فى الأرضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ...

(فصلت : ١٥)

فأرسل الله عليهم ريحًا مزمجرة ، ذات صوت مخيف ، وبرد قارس ، وقوة قاهرة ، تقتل المعتدين ، فهى عَاتِيَةٌ . قاهرة للمعتدين ، نَقَبَتْ عن قلوبهم وأهلكتهم .

٧ - سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَیْزَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقُرُومَ فِيهَا سُورًا كَانَهُمْ أَعْيُنُ نَحْلٍ خَازِنَةٌ .

استمرت الريح العاتية المزمجرة العاصفة المدمرة ، سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، دون فتور أو انقطاع .

قال ﷻ: «نُصِرْتُ بالصبا ، وأهلك عاد بالدبور»^(٣٧) (رواه الشيخان) .

لقد قطعت رقابهم ، وتركتهم هلكى لا فائدة فيهم .

حُسُومًا . قاطعة كحد الحسام ، أو متتابعات ، أو نحسات ، كقوله تعالى : لِيَأْتِيَنَّ نُجُاسَاتٌ ... (فصلت: ١٦) .

قال ابن كثير : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض ، فيخَرُّ ميتًا على أُمِّ رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة ، كأنها قائمة النخلة إذا خَرَّتْ بلا أغصان ، إنه لمنظر رهيب ، وصورة معبرة عن الدمار الشامل والهلاك الكامل .

فَرَى الْقَوْمُ لِبُيْهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

ترى قبيلة عاد هلكى ، مصروعين متناثرين ، كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ . بأصولها وجذوعها . خَاوِيَةٍ . فارغة تأكلت أجوافها فارتمت ساقطة على الأرض هامة .

٨ - فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ .

أى : بادوا جميعًا ، وأهلكوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفًا .

قال تعالى : فَاصْبِرْ حَتَّىٰ لَا يُرَىٰ إِلَا مَسَاجِدُهُمْ ... (الأحقاف: ٢٥) .

٩ - وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ .

وجاء فرعون موسى ، ومن قبله من الأمم التى كفرت بآيات الله ، كقوم نوح وعاد وثمود ، والقرى التى انقلبت بأهلها ، وصار عاليها سافلها ، بسبب الفعل الخاطئة التى ارتكبتها هذه القرى ، وهى قرى قوم لوط التى اقتلعتها جبريل ، ورفعها على جناحه قرب السماء ثم قلبها ، وكانت خمس قرى .

بِالْخَاطِئَةِ . بالفعل الخاطئة المنكرة ، وهى الكفر والعصيان .

١٠ - لَعَنُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً .

أى : عصت كل أمة رسولها ، فعصى قوم نوح نوحًا ، وعصى قوم لوط رسولهم لوطًا ، فأخذهم الله تعالى أخذة شديدة زادت فى الشدة على هلاك من سبقهم من الأمم ، لأن جرائمهم زادت فى القبح والشناعة على سائر الكفار .

١١ - إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ .

يَمُنُّنَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ جَمِيعًا بِإِغْرَاقِ الْمَكْذِبِينَ ، وَنَجَاةِ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَيْثُ كَانَ النَّاسُ جَمِيعًا مِنْ نَسْلِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَمَرَّ عَلَى إِيمَانِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ آثَرَ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ ، وَالْأَصْلُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِمِقْدَارٍ ، فَمَا نَزَلَتْ قَطْرَةٌ مَاءٍ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا بِأَمْرِ مَلِكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَحِينَ دَعَا نُوحٌ رَبَّهُ :
:عَا وَزَيْلُهُ أُنِي مُغْلُوبٌ فَانصُرْ . (القمر : ١٠) .

استجاب الله سبحانه له ، كما قال تعالى : فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُثْهِرٍ • وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ مِنْ غَيْرِنَا فَاتَّقَى الْمَاءُ عَلَى أُنْثَرٍ فَلَذُ قُبُرٍ • وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْحِ وَدُسُرٍ • تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ • وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . (القمر : ١١ - ١٥) .

والآية هنا في سورة الحاقة تعرض صورة الماء طامغياً زائداً مرتفعاً ، متجاوزاً للحدود المألوفة ، طامغياً ومرتفعاً فوق الجبال ، يُغْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ بِإِذْنِ اللَّهِ ، ثُمَّ سَخَّرَ اللَّهُ الْسَفِينَةَ الْجَارِيَةَ ، تَحْمِلُ نُوحًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُتَجَاوِةٍ مَعَ الْكَوْنِ كُلِّهِ فِي الْخُضُوعِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَمَشِيتِهِ .

قال تعالى : وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرُسَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ • وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ... (هود : ٤١ ، ٤٢) .

١٢ - لَنَجْعَلَنَّ لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ .

جعلنا الطوفان الذي أصاب المنطقة كلها بالغرق ، وأغرق جميع الكافرين المكذبين ، وجعلنا السفينة التي تجرى على سطح الماء وتسير فوق أمواج كالجبال ، تحركها مشيئة الله ، وتوقعها إرادته في تكريم المؤمنين ، جعلنا ذلك تذكرة لكل مؤمن ، بل لكل من يأتى منه التذكير والنظر ، ولتحرص على عبرتها وتعيها أذن تعي الكلام ، وتحفظه وتستفيد منه .

قال تعالى : إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . (الإسراء : ٣٦) .

من تفسير ابن كثير

روى ابن أبي حاتم ، عن علي بن أبي طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيلى على يدي ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخُرَّان ، فطغى الماء على الخُرَّان ، فخرج ، فذلك قوله تعالى : إِنَّا لَمَّا

طَغَا الْمَاءُ ... أَيْ : زَادَ عَلَى الْحَدِّ بِإِذْنِ اللَّهِ . حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . وَلَمْ يَنْزِلْ شَيْءٌ مِنَ الرِّيحِ إِلَّا بِكَيْلٍ عَلَى يَدِي مَلَكٍ ، إِلَّا يَوْمَ عَادَ فَإِنَّهُ أَذُنٌ لَهَا دُونَ الْخُرْزَانِ ، فَخَرَجْتَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

ولهذا قال تعالى ممتنا على الناس : حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . وهى السفينة الجارية على وجه الماء .
لِتَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ...

أَيْ : وَأَبْقَيْنَا لَكُمْ مِنْ جَنْسِهَا مَا تَرْكَبُونَ عَلَى تِيَارِ الْمَاءِ فِي الْبَحَارِ (٣٣) .

كما قال : وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . (الزخرف : ١٢) .

وقال تعالى : وَعَايَةً لَهُمْ أَنَّا خَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ .

(يس : ٤١ ، ٤٢) .

★ ★ ★

بعض أهوال القيامة

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ﴾ (١٥) ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۖ﴾ (١٦) ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَلَاثِيَةٌ ۖ﴾ (١٧) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ﴾ (١٨) ﴿

المضردات :

نفخة واحدة : النفخة الأولى لخراب العالم .

حمِلَتِ الأرض : رُفِعَتْ مِنْ أَمَاكِنِهَا بِأَمْرِنَا .

فدكستا : فدقنا وكسرتا ، أو فسويتا .

وانشقت السماء : تفتطرت وتصدعت من الهول .

واهية : ضعيفة متداعية بعد الإحكام .

على أرجائها : جوانبها وأطرافها .

يومئذ تعرضون : بعد النفخة الثانية للحساب والجزاء .

تمهيد :

شرح القرآن الكريم فى بيان تفاصيل أحوال القيامة وأموالها ، وابتدأ بمقدماتها .

التفسير :

١٣ - فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ .

فإذا نفخ إسرافيل فى الصور - وهو القرن أو النفير - نفخة واحدة ، هى النفخة الأولى التى يصعق عندها من فى السماوات ومن فى الأرض ، وتموت الخلائق كلها إلا من شاء الله .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ لَى السَّمَوَاتِ وَمَنْ لَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر: ٦٨) .

١٤ - وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً .

رفعت الأرض والجبال من أماكنها ، وضرب بعضها ببعض ، حتى تندق وتفتت ، وتصير كتيباً مهيباً .
وقيل : المراد : فبسطتا بسطة واحدة ، وسويتا فصارتا أرضاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً ، أى لا تبصر انخفاضاً ولا ارتفاعاً .

١٥ - فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ .

ففى ذلك الحين قامت القيامة الكبرى ، وحدثت الداهية العظمى .

١٦ - وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ .

تشققت السماء على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأرجائها ، وتفتطرت السماء ، فهى فى ذلك اليوم مسترخية ساقطة القوة ، ليس فيها تماسك ولا صلابة .

أى : لقد كانت السماء مستوية ، لا فطور فيها ولا تشقق ، تبحث العين فيها عن عيب أو خلل فلا تجد ، أما الآن فالسما والاهية ضعيفة مزقة .

١٧ - وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ .

عند انشقاق السماء يوم القيامة تتعلق الملائكة بأطرافها من هول الموقف ، ومن خوف الجبار ، وهناك ثمانية من الملائكة ، أو ثمانية أصناف أو صفوف ، يحملون عرش الله تعالى .

روى الطبري ، عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى : وَيُحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ . قال : ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عدّتهم إلا الله ، وهي صفوف من وراء الصفوف .

قال ابن كثير : يحتمل أن يكون المراد بهذا العرش : العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم . اهـ .

وجاء في تفسير القاسمي :

ومثله مثل الغيوب التي يؤمن بها ، ولا يجب اكتناهاها ، وذهب بعضهم إلى أن المراد بالعرش : ملكه تعالى للسموات والأرض ، ويد ثَمَنِيَّةٌ . السماوات السبع والأرض ، وعبرة وَيُحْمِلُ . بالجنب . عَرْشُ رَبِّكَ . أى : ملك ربك للأرض والسموات . فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ . أى : فوق الملائكة الذين هم على أرجائها يوم القيامة . ثَمَنِيَّةٌ . أى السماوات السبع والأرض ^(٣١) .

١٨ -- يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

أى : فى ذلك اليوم يعرض الناس للحساب ، والله سبحانه وتعالى مطلع على سرائرهم وبواطنهم ، وقد ظهر كل شئ علناً أمام الناس .

أما المؤمنون فتنظر للناس أعمالهم ، وصدقة السر ، وكل ما عملوه ابتغاء وجه الله ، فيزداد سرورهم . وأما الكافرون والمنافقون ، فيظهر للناس سوء أعمالهم ، فيزدادون حسرة .

والعرض هنا عبارة عن المسائلة والمحاسبة .

رؤى عن عمر بن الخطاب أنه قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخفّ عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر : يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

وروى الإمام أحمد ، والترمذى ، وابن جرير أن رسول الله ﷺ قال : « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عَرْضَاتٍ ، فأما عرضتان فجدال ومعادير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدي ، فتأخذ بيمينه ، وتأخذ بشماله » . ^(٣٢) .

قال المفسرون : وكل من الحمل والعرض لا يعنى التجسيم والتشبيه بال مخلوقات ، وإنما للتصوير والرمز والتقريب إلى الأذهان .

وقال صاحب الظلال ما يأتي :

وَأَلَمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ فَمَلِيَّةٌ .

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية : ثمانية أملاك ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله ، لا ندري نحن من هم ولا ما هم ، كما لا ندري نحن ما العرش ، ولا كيف يحمل . ونخلص من كل هذه الغيبيات التي لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا ، نخلص من مفردات هذه الغيبيات إلى الظلّ الجليل الذي تخلعه على الموقف ، وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا ، وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ، ليشعر القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع في ذلك اليوم العظيم ، وفي ذلك الموقف الجليل .

يَوْمَئِذٍ تَعْرِضُونَ لَا تُخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ .

«فالكل مكشوف : مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير ، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار ، وتتعري النفوس ، وتعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود ...» (٣٦) .

«ألا إنه لأمر عصيب ، أعصب من ذلك الأرض والجال ، وأشدّ من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر ، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع» (٣٧) .

★ ★ ★

سعادة من يأخذ كتابه بيمينه

﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِسَيِّئِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَوْفَىٰ بِكِتَابِي ۖ أَفَإِنِّي لَمَلِكٌ ﴿١٩﴾ إِنِّي طَلَنْتُ أَنْفَ مَلَكٍ حَسَاسٍ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴿٢٤﴾ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات :

هــ هـؤلـاء : خذوا .

ظَنَنْتُ ، علمت .

مِـلَاقٌ ، معاين .

راضِيَّةٌ ، يرضى بها صاحبها .

عَالِيَّةٌ ، مرتفعة المكان .

قَطُوفُهَا ، جمع قُطْفٍ ، وهو ما يجتنى من الثمر .

دَانِيَّةٌ ، قريبة التناول .

هَنِيئًا ، بلا تنغيص ولا كدر .

بِمَا أَسْلَفْتُمْ ، بما قدمتم من الأعمال الصالحة في الدنيا .

الْخَالِيَّةُ ، الماضية

تَهْيِيدٌ :

بعد أن ذكر أن الناس جميعاً يُعرضون على الله تعالى للحساب ، ولا يخفى عليه شئ من أعمالهم ، فصل أحكام هذا العرض .

فذكر أنَّ من أوتى كتابه بيمينه يشدد فرحه ، فيقول لكل من يقابله : هذا كتابى خذوه فاقروه ، لقد كنت متيقناً من لقاء ربى ، ومن الحساب والجزاء ، فينال نصيبه من السعادة فى عيشة هنيئة ، وجنة عالية المكان والمكانة ، ثمارها قريبة التناول ، ويقال لهؤلاء المؤمنين : كلوا هنيئاً ، واشربوا مريئاً ، بما قدمتم من الأعمال الصالحة فى الدنيا .

التفسير :

١٩ - فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَّةَ .

يأخذ السعداء يوم القيامة كتبهم بأيمانهم ، فينقون بالنجاة والفوز ، ويقولون لإخوانهم : تلك كُتُبُ النجاة والسعادة ، هذه كتبنا ، اقرأوها لتسعدوا بها كما سعدنا .

٢٠ - إِنْى ظَنَنْتُ أَنى مُلْكِي حِسَابِيَّةَ .

لقد كنت متيقناً بيوم الحساب والجزاء ، مراقباً لربى فى حياتى ، مخلصاً له فى العمل .

٢١ - فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .

هذا المؤمن يأخذ كتابه بيمينه ، ويدخل الجنة راضيا مرضيا ، فهو في عيشة هنيئة سعيدة ، راضٍ صاحبها بالجنة والتعيم والحبور ، أو هو في عيشة مرضية ، يرضى بها صاحبها ولا يبغضها ، فهي فاعل بمعنى مفعول ، على حد قولهم : ماء دافق بمعنى مدفوق ، أى أن المعيشة لو كان لها عقل ارضيت لنفسها بحالتها ، ولفرحت بها فرحاً عظيماً .

وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ : «إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحبون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبّون فلا يهرمون أبداً» (٢٨)

٢٢ - فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ .

في جنة رفيعة المنزلة ، عالية المكان والمكانة ، وقد ثبت في الصحيح : «إن الجنة مائة درجة ، ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض» (٢٩) .

قال ابن كثير :

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حيورها . اهـ .

والجنة نعيم متصل ، بها أنهار من لبن ، وأنهار من عسل ، وأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من خمر لذّة للشاربين ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . وَلِهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَلَذَّةُ الْأَعْيُنِ ...

(الزخرف ٧١)

الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

٢٣ - قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ .

ثمّارها قريبة التناول ، ينالها القائم والقاعد ، والمضطجع والمتمكن .

٢٤ - كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ .

أى : يقال لهم على سبيل التكريم والتقدير : كلوا أكلاً هنيئاً شهياً مفيذاً ، واشربوا شرباً مريئاً ، بصحة وعافية ، ونعيم دائم . بسبب ما قدمتم في الأيام الماضية من أيام الدنيا ، من عمل صالح ، وسلوك محمود ، والتزام بالطاعات ، واجتناب للمعاصي ، وطاعة لله وتقرب إليه ، وبعد عن كل ما يُغضبه ، فأنتم في الجنة تستمتعون بنعيمها ، وفي قريى ورضوان وتكريم من الله رب العالمين .

شقاء أهل الشمال

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابَهُ ۖ وَلَوْ أَدْرِمَ حَسَايَةَ ۖ يَلَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ﴾ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ۖ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعِلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ ﴿٣٦﴾ لَأَيَّا كُلَّهُ إِلَّا الْأَلْطَفُوتُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿

المفردات :

يا ليتها : يا ليت المودة التي ميتها في الدنيا .

كانت القاضية : القاطعة لأمرى وحياتى ، فلم أبعث بعدها .

ماليه : ما لى من المال .

سلطانيه : حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، أو ملكى وسلطانى .

فعلوه : اجعلوا الغل فى يديه وعنقه .

الجحيم صلوه : أدخلوه ، أو أخرجوه فيها .

فاسلكوه : فأدخلوه فيها .

لا يحضر : لا يحث ولا يحرض .

حميم : قريب مشفق يحميه ، أو صديق ينتفع به .

غسلين : صديد أهل النار ، وما يسيل منهم من قيح ودم .

الخطاؤون ، الأثمون أصحاب الخطايا ، من خطئ الرجل : إذا تعدد الذنب ، لا من الخطأ المضاد للصواب .

تمهيد :

تصف الآيات حال الأشقياء الذين يأخذون كتابهم بشمالهم ، فيرون العذاب رأى العين ، فيتمنى ذلك

الكافر أن لو كانت حياته قد انتهت إلى غير صحوة ولا حساب .

حيث يجد نفسه تلقاء النار ، وجها لوجه ، ولا مال بيده ، ولا سلطان ينفعه ، ثم يسمع قول الجبار سبحانه وتعالى : خُذُوهُ فَضْمَعُوهُ فِي الْأَغْلَالِ وَالسَّلَاسِلِ ، وَأَلْقُوهُ فِي جَهَنَّمَ يَصْطَلِي بِحَرْمِهَا وَسَلْسَلِهَا ، لِأَن قَلْبَهُ كَانَ قَلْبًا نَكْدًا ، خَالِيًا مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، خَالِيًا مِنَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ بِالْمَسَاكِينِ وَالْمَحْتَاجِينَ ، فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا صَدِيقٌ يَنْفَعُهُ ، أَوْ قَرِيبٌ يِعَاوَنُهُ ، وَلَيْسَ لَهُ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ إِلَّا عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ مِنَ الْفَيْحِ وَالصَّدِيدِ الَّذِي لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا أَصْحَابُ الْخَطَايَا وَالْكَفَرِ ، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَمِنْ عَذَابِهَا ، آمِينَ .

التفسير :

٢٥ - وَأَمَّا مَنْ أُوْبِيَ كَيْبُهُ ، بِشِمَالِهِ يَقُولُ يُدَلِّتُنِي لَمْ أَوْتِ كَيْبِيَّة .

يلقى السعداء الجنة والتكريم ، ويلقى الأشقياء العذاب والإهانة .

والمعنى :

وأما الأشقياء فإنهم يأخذون كتابهم بشمالهم ، وهو علامة الذل والمهانة ، لما يرون في كتابهم من الخطايا والذنوب ، وما ينتظرون من العذاب والهوان ، فيتمنى أنه لم يؤت كتابه مطلقا ، لما يحمل كتابه من الأعمال القبيحة .

قال سبحانه وتعالى : وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُعْجِرِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَمْ يَنْزِلْ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٢٦ ، ٢٧ - وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَّةٌ * يُدَلِّتُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَّةُ .

ليتنى لم أعرف حسابي ، ولم أشاهده ، لأن الكتاب الذي استلمته حافل بالخطايا والذنوب ، ثم يندب حظه طويلاً ويصبح متفجعاً : يا ليت الموت الذي تم في الدنيا كان النهاية ، ولم أبعث ولم أحاسب .

قال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شئ في الدنيا أكره إليه منه .

٢٨ ، ٢٩ - مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي * هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ .

لم ينفعني ما كان لي في الدنيا من ذهب وفضة ، وحرث وزرع ، ودور وقصور ، وحشم وخدم ، فقد وفدت على ربي وحيداً فريداً .

قال تعالى : وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ...

(الأنعام : ٩٤) .

هلك عنى سلطانى وحجتى وبطلت وضاعت ، أو ذهب ملكى وتسلى وجبروتى ، وبقيت ذليلاً مهيناً .

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ - خُذُوا فَعَلُوا * ثُمَّ تَجِجِمْ صَلُّوْهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ دَرُغَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَأَسْكُرُوْهُ .

يأمر الله تعالى الملائكة أن يأخذوه للعذاب ، وأن يشدوا بالأغلال والقيود يده إلى عنقه ، ثم يأمرهم الله ألا يجعلوا جسمه إلا فى الجحيم ، حتى يصطفى بنارها ويحترق بعذابها ، ثم يوضع فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً ، يلفُ بها جسمه من أوله إلى آخره ، وذراع واحدة تكفى لتعذيبه ، لكن الله جعل سلسلة العذاب سبعين ذراعاً لإرادة الوصف بالطول ، لأنها إذا طالت كان الإرهاق أشد ، والعذاب أقسى وأعنف .

٣٣ ، ٣٤ - إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ .

إن السبب فى هذا العذاب المؤلم هو أنه كان لا يؤمن بالله العلى العظيم ، فقد كذبَ بالله تعالى ، وكفر بالجزاء والحساب ، وخلا قلبه من الرحمة ، فلم يعطف على المساكين ، ولم يحضْ غيره على إطعام المساكين ، وكأن الآية نداءٌ جهير فى الدعوة إلى الإيمان ، وإلى الحث على التراحم والتعاطف والتعاون ، فى رعاية المساكين .

وعن أبى الدرداء أنه كان يحض امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين ، وكان يقول : خلعنا نصف السلسلة بالإيمان ، أفلا نخلع نصفها الآخر ؟

٣٥ ، ٣٦ - فَلَيْسَ لَهُ آتِيَوْمٌ هَلْهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشِيلِينَ .

فليس له يوم القيامة قريب يدافع عنه ، أو صديق وفى يكفيه شر العذاب ، ولا يجد طعاماً يأكله إلا الغشيلين ، وهو غسالة أهل النار ، وما يسيل من أبدانهم من القيح والصدید والدّم .

٣٧ - لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ .

لا يقبل على هذا النوع من الطعام إلا من ارتكاب الأخطاء فى الدنيا ، أى تعود على الإجرام والأثام .

قال المفسرون :

لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ .

أى : لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المرتكبون للخطايا والأثام .

وَالْخَلِيطُونَ . جمع خاطئ وهو الذى يتعمد الذنب ، والمخطئ الذى يفعل الشئ خطأ دون قصد ، ولهذا قال : الْخَلِيطُونَ . ولم يقل : المخطئون .

وفى آية أخرى يقول القرآن الكريم : لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ . (الغاشية : ٦) .
والضريع شئ فى النار كالشوك مرّ متتن .

وقال قتادة :

الغسلين هو شر طعام أهل النار .

وقد تحدث القرآن عن وصف طعام أهل النار بأنه طعام بشع ملهب للجوف ، حارق للأعضاء ، فيحتاج أكله إلى الشرب ، فيشرب ماءً شديد الحرارة يشوى الوجوه ، ويزيد العطش ويلهبه .

قال تعالى : إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

وقال تعالى : أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقُومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه ، زعوس الظالمين . فإنهم لا يكون منها فماليون منها البظون . ثم إن لهم عليها لشرباً من حميم . ثم إن مرجعهم لى الجحيم . (الصافات : ٦٢ - ٦٨) .

وقال تعالى : إِن شَجَرَتِ الزَّاقُومِ * طَعَامُ الْآلِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلَى الْحَمِيمِ * شُدُوهُ فَاقْبَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمِ . إن هذا ما كنتم به تمترنون .

(الدخان ٤٣ - ٥٠)

القرآن ليس شعرا ولا كهانة ، بل هو وحي الله

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ ۖ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ۖ ﴿٤٢﴾ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ۖ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۖ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَنَذْكُرُ لِلْمُتَّقِينَ ۖ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ۖ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۖ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۖ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

فلا أقسم : أقسم و «لا» مزيدة .

بما تبصرون : بالمشاهدات المرئية .

وما لا تبصرون : المغيبات المستورات ، أو أقسم بالكون وخالق الكون .

إنه لقول رسول : يبلغ عن الله ما أوحى إليه .

تقول علينا : افتري واختلق وأدعى علينا .

بالييمين : بيمينه ، أو بالقوة والقدرة .

الوتين : نياط القلب ، أو نخاع الظهر .

عنه حاجزين : مانعين الهلاك عنه .

لحسرة : ندامة عظيمة .

فسبح باسم ربك : نزهه عما لا يليق به تعالى .

تمهيد :

في ختام السورة أقسم الله تعالى بما يفيد تعظيم القرآن ، وأنه منزل من عند الله على قلب محمد ﷺ ، وليس القرآن شعرا ولا سحرا ولا كهانة ، بل هو تنزيل من رب العالمين .

سبب النزول:

قال مقاتل:

سبب ذلك أن الوليد بن المغيرة قال: إن محمداً ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال عقبة: كاهن، فقال الله تعالى: فَلَا أَقْسِمُ . أى: أقسم.

التفسير:

٣٨، ٣٩ - فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ .

أى: أقسم بما تشاهدونه بأعينكم فى هذا الكون، مثل السماء والفضاء والهواء، والأرض والجبال والبحار، والأشجار والأنهار، والنبات والإنسان، والحيوان والجماد، وسائر ما ترونه بأعينكم فى هذا الكون الفسيح.

وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . مثل الملائكة والجنّ والجاذبية، والقيامة والبعث والحشر والصراط، والجنة والنار، وسائر ما غاب عن عيونكم فى هذا الكون الفسيح الأرجاء، وفى اليوم الآخر وما فيه.

٤٠ - إِنَّهُ، قَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ .

إن هذا القرآن ليس سحراً ولا شعراً ولا كهانة، بل هو رسالة الله إلى رسوله محمد ﷺ، يقوله ويقرؤه ويبليّغه عن الله تعالى.

٤١ - وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ .

وليس القرآن كلام شاعر، فقد اشتمل على بدء الخليقة، وأمر التشريع، وبيان الحلال والحرام، ووصف اليوم الآخر.

أما الشعر فله أوزان وقافية، ويدخل فى التشريع وغير التشريع، ويكون صادقا وغير صادق، ويحدث الشعراء عن أمور لا يفعلونها، ولا يترجمونها إلى واقع.

قال تعالى: وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .

(الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٦).

قَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ .

أى أنكم لا تؤمنون أصلا ، أو تؤمنون إيمانا قليلا ، بمعنى أنهم يعترفون بأن الله هو الذى خلقهم ، ومع ذلك يعبدون معه الأصنام والأوثان .

٤٢ - وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ .

فالقرآن منهج متكامل للحياة ، يتفق مع الفطرة ويقنع العقل ، أما الكهانة فهى كلمات متناسقة ، لا تُكوّن منهجا محيطا بالكون والحياة كما نجده فى القرآن .

فمن الكهانة قول بعض الكهّان :

(والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، وما فى الأرض من سائر ، من منجد وعائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر) .

أما آيات القرآن فتفيد أن الكون كله فى رعاية الرحمن مثل :

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهٗ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا . (فاطر : ٤١) .

ومثل قوله سبحانه : إِنَّ اللَّهَ فَائِزُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَائِزٌ يُؤَلَّفُكُمْ * فَائِزُ الْإِضْيَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكُمْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ .

(الأنعام : ٩٥ ، ٩٦)

ومثل قوله عز وجل : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ نُورِي الْمُلْكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (ال عمران : ٢٦ ، ٢٧) .

والكاهن يعتمد على الشياطين فى نقل بعض الأخبار عن السماء ، والقرآن ورد بسبب الشياطين ، فلا يعقل أن يكون بإلهامهم ، والقرآن الكريم فيه لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، مثل التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ، فى قوله تعالى : وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِى ظُلْمَةٍ أَرْضٍ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ . (الأنعام : ٥٩) .

٤٣ - تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

أى أن القرآن تنزيل من عند الله تعالى ، وهو وحى السماء .
قال تعالى : بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * لِّىَ لَوْحٌ مَّحْفُوظٌ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .

وقد انتقل القرآن الكريم من رب العزة جلّ جلاله إلى اللوح المحفوظ ، ونزل به جبريل الأمين على النبى ﷺ ، وتلقاه النبى ﷺ عن جبريل الأمين ، وتلقته الأمة عن النبى ﷺ ، وقد أضيف القرآن الكريم إلى جبريل على أنه المبلّغ به عن الله ، مثل قوله تعالى : وَإِنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤) .

ومثل قوله تعالى : إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . حيث أضاف القرآن إلى النبى ﷺ على أنه المتلقى عن جبريل ، وقال بعض المفسرين : المراد بالرسول الكريم هو جبريل عليه السلام .

فالقرآن الكريم ليس شعراً وليس كهانة ، وليس من عمل البشر وصنعمهم ، والعرب كانت تعرف ذلك ، وتعرف أن القرآن فوق مستوى طاقة البشر ، وليس قولهم : شاعر أو كاهن ، إلا مشاغبة من المشركين للفت الأنظار عن القرآن الكريم ، لذلك أجاب الله تعالى بقوله :

تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .

أى : هو وحى السماء ، أنزله الله رب العالمين على رسوله محمد ﷺ .

قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقنى إلى المسجد ، فقمّت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقّة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، فقراً : إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُولِيْعُونَ . فقلت : كاهن ، فقراً : وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ . إلى آخر السورة ، فوقع الإسلام فى قلبى كلّ موقع ، فهذا من جملة الأسباب التى جعلها الله مؤثرة فى هداية عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١) .

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ - وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * لَمَّا قَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * لَمَّا مَنَعَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُمْ حَاجِرِينَ .

ولو أتى محمد علينا بعض الادعاء ، أو نسب إلينا شيئاً لم نقله ، لعاقبناه عقوبة عاجلة ، شبيهة

بغضب بعض الملوك على من يكذب عليه ، حيث يمسك السيف بيمين الجاني ثم يكفحه بالسيف ، ويضرب عنقه فيقطع منه الوتين ، وهو عزق متصل بالقلب إذا قطع قضى على صاحبه ومات .

فَمَا مِنْكُمْ مَّنْ أَخَذَ عَنْهُ حَبِيرِينَ .

فما يستطيع أحد من الناس أن يحجزنا ، أو يحول بيننا وبينه في إهلاكه وقتله وقطع وتينه ، إن ليس ذلك في قدرة أحد أو إمكانه .

ولمّا لم يحدث شيء من ذلك ، كان محمد رسولاً من عند الله ، صادقاً في أن وحى السماء ينزل عليه ، وفي أن القرآن تنزيل من رب العالمين .

٤٨ - وَإِلَهُ، تَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .

وإن القرآن الكريم لوسيلة لتذكير المؤمنين ، وإرشاد المتقين ، وإلهام الذاكرين ، وخص المتقين بالذكر لأنهم هم المستفيدون بالقرآن ، والمنفعون بتوجيهاته ، والخاصون عند سماعه .

قال تعالى : اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَابِي تَنفَعُ مَن يُجْلُوهُ أَلَّيْنِ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ يَلِيْنِ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِن هَادٍ . (الزمر: ٢٣) .

٤٩ - وَإِنَّا نَتَعَلَّمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ .

نحن نعلم أن منكم من يكذب بالقرآن ، ويدّعي أنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين ، ولا يصدق بأنه كلام رب العالمين ، أي نحن نعرف المكذبين ، ونعلم المصدقين ، وسنجازي ونعاقب المكذبين كفراً وعناداً وجحوداً .

كما قال تعالى : وَجَعَلُوا بِهَا وَأَسْتَفْتَتْهَا الْفُسْهُمُ ظُلُمًا وَعُغُلًا ... (النمل : ١٤) .

وقال عز شأنه : فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

٥٠ - وَإِنَّهُ، لَحُشْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ .

وإن هذا القرآن العظيم لحسرة على الكافرين ، أي هو مصدر حسرة وندامة ، وأسف وحزن ، لأنهم يعرفون صدقه ، وقوته وبلاغته ، وتأثيره فيمن سمعه ، ويمنعهم الكبير أو التعاطف ، أو سوء الطوية من الاستجابة للقرآن والإيمان به .

وفى كتب السيرة: أن ثلاثة من كبار كفار قريش كانوا يتسللون بالليل لاستماع القرآن، وفى الصباح يتواصلون بعدم العودة لمثل ذلك، ويعترفون بقوة القرآن، وصدق محمد ﷺ، ثم يمنعهم الحسد من الإيمان.

أو المعنى: القرآن حسرة على الكافرين فى الدنيا، حين يرون كتيبة الإسلام كل يوم فى ازدياد وانتصار وتقدم، حتى فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا، والقرآن حسرة على الكافرين فى الآخرة، حين يرون منازل المتقين فى الجنة، ومنازل الكافرين فى جهنم وبئس المصير.

٥١ - وَإِلَهُ، لَمْ يَحَقِّ الْيَقِينُ .

وإن القرآن لهو اليقين الصادق، والحق البين الواضح وضوح الشمس، لظهور آياته وتشريعاته وأدابه ونظام أسلوبيه، وإضافة الحق إلى اليقين من إضافة الصفة إلى الموصوف، أى لهو اليقين الحق. أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع اختلاف اللفظين، كما فى قوله تعالى: خَبِلَ آلُ يُرَيْدٍ. (ق ١٦). إذ الحبل هو الوريد.

قال المفسرون:

إن مراتب العلم ثلاثة: أعلاها حق اليقين، يليها عين اليقين، ثم يليها علم اليقين.

فحق اليقين كعلم العاقل بالموت إذا ذاقه، وعين اليقين كعلم العاقل بالموت عند معاينة ملائكته، وعلم اليقين كعلم العاقل بالموت فى حياته، ومعرفته بأن كل نفس ذائقة الموت.

٥٢ - فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

نزه ربهك تنزيها مصحوبا بكل ما يليق به من طاعة وإخلاص، ومواظبة على مراقبته وتقواه.

وتنزيه الاسم الكريم، تنزيه للذات العلية، فهو سبحانه وتعالى منزّه عن كل نقص، متصف بكل كمال، مستحق للحمد والذكر والشكر على أنعمه، وعلى إنزاله القرآن العظيم مشتملا على صنوف الهداية. وفى الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن:

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». (١).

وفى الأثر: «الباقيات الصالحات هى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة المعارج

أهداف سورة المعارج

(سورة المعارج مكية ، وآياتها ٤٤ آية ، نزلت بعد سورة الحاقة)

تبدأ السورة بهذا المطلع المتميز ، وهو سؤال سألَه أحد الكافرين عن يوم القيامة ، سؤال تهكم أو استعجال لهذا اليوم .

وفى الإجابة على هذا السؤال وصفت السورة يوم القيامة وألوان الهوان النفسى والحسى الذى يصيب الكافرين فيه ، ثم وصفت هلع الإنسان وجزعه ، واستثنت المؤمنين الموصولين بالله ، فهم فى يقين ثابت وأدب كريم .

تنوع أساليب القرآن :

سورة المعارج جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التى خاضها القرآن فى داخل النفس البشرية ، وخلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها ، وهى أضخم وأشق من المعارك الحربية .

لقد سلك القرآن كل سبيل ليصل إلى نفوس المشركين ويقنع الجاحدين ، ويثبت المؤمنين ، ولون القرآن فى طرق الهداية والدعوة ، ومواجهة النفوس الجامحة .

«فتارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر ، من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة ، وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة ، وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة ، والمسارة الودود التى تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ، وتارة يواجهها بالهول المرعب والصرخة المفزعنة التى تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ، وتارة يواجهها بالحقيقة فى بساطة ونصاعة ، وتارة يواجهها بالأمل والرجاء الذى يهتف لها ويناجيها ، وتارة يتخيل مساربها ودروبها ومنحنياتها ، فيلقى عليها الأضواء الكاشفة ... ومئات اللمسات والمؤثرات ، يطلع عليها قارئ القرآن الكريم»^(١) وهو يتابع تلك المعركة الطويلة التى قادها القرآن على عادات الجاهلية وركامها حتى انتصر عليها .

وسورة المعارج لون من ألوان البيان القرآنى ، فى تقرير حقيقة الآخرة ، وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء ، وإقرار هذه الحقيقة فى النفوس . وتكاد تكون لونا من ألوان السياط اللاذعة ، والأضواء الكاشفة التى ساقها القرآن لتفتتح عيون المشركين على ما هم فيه من ضلال ، وما ينتظرهم من حساب وعقاب .

مع آيات السورة

١ - ٥ - يسأل المشركون ^(١) رسول الله ﷺ سؤال استهزاء عن العذاب الذى يخوفهم به ، ويجب الله سبحانه بأنه واقع لا شك فى وقوعه ، ولا يستطيع أحد دفعه ، وهذا العذاب من الله ذى الدرجات العلى ، ويأمر الله نبيه بالصبر الجميل الهادئ .

٦ - ١٤ - كان الكفار ينكرون حقيقة الآخرة ، ويرونها بعيدة الوقوع ، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهشة والاستغراب .

وقد بينت الآيات أن ذلك اليوم قريب الوقوع ، وكل أثر قريب ، ثم رسمت مشاهد هذا اليوم فى مجال الكون وأغوار النفس ، وهى مشاهد توحى بالهول الشديد فى الكون وفى النفس . وفى يوم القيامة تكون السماء كَالْمُهْلِ . والمهل : ذوب المعادن الكدر ، أى كدرى الزيت . وتكون الجبال كَالْهَيْئِ . أى كالصوف الواهن المنتفش ، ويتمنى الكافر فى ذلك اليوم لو يفتدى من العذاب ببنيه ، وزوجته وأخيه ، وقبيلته وجميع من فى الأرض وهى صورة للهول الشديد الذى يصيب الكافر فيتمنى النجاة ولو قدم أعز الناس إليه ، ومن كان يفتديهم بنفسه فى الحياة .

١٥ - ١٨ - تردع الآيات هذا الكافر عن تلك الأمنى المستحيلة ، فى الافتداء بالبنيين والعشيرة . وتبين للكافران ما أمامه هو النار ، تلتظى وتتحرق ، وتنزع الجلود عن الوجوه والردوس نزعاً ، وهى غول مفزعة تنادى من أعرض عن الحق ، وحرص على المال وبخل به ، ليدخل فيها .

١٩ - ٢١ - جُبل الإنسان على الهلع فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، يجزع إذا نزل به الضر والألم ، فلا يتصور أن هناك فرجاً ، ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع ، كما يغلبه الحرص والبخل عند وجود المال والعافية .

٢٢ - ٣٥ - تستثنى الآيات المصلين ، فإنهم يحافظون على صلاتهم ، فتمنحهم الصلاة الثبات والاستقرار ، وتراهم صابرين فى البأساء ، شاكرين فى النعماء ، يخرجون زكاة أموالهم ، ويتصدقون على الفقراء ، ويصدقون بيوم الجزاء ، ويخافون غضب الله وعقابه ، ويتسمون بالاستقامة والعفة ، وحفظ الفروج

عن الحرام ، والتمتع بالحلل من الزوجة وملك اليمين ، وأداء الشهادة بالحق والعدل ، والمحافظة على الصلاة فى أوقاتها ، وأداء سننها وآدابها وخشوعها ، تلك الصفات هى صفات هذا الفريق المؤمن الذى يستحق الجنة والتكريم ، ويتمتع بالنعيم الحسى والنعيم الروحى : **أُولَئِكَ لِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ .**

(المعارج : ٣٥).

٣٦ ، ٣٧ - تعرض الآيتان مشهدا من مشاهد الدعوة فى مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذى يكون فيه الرسول يتلو القرآن ، ثم يتفرقون حواليه جماعات وفئات ، لا يسمعون ويهتدوا ، ولكن ليستطلعوا ثم يتفرقوا يدبرون الكيد والرد على ما سمعوا .

٣٨ - أبطعون فى دخول الجنة وهم على هذا الحال من الإعراض والتكذيب ؟ .

٣٩ ، ٤١ - لقد خلّقوا من ماء مهين ، وهم يعلمون أصل خلقتهم ، إن الله قادر على أن يخلق خيرا منهم ، وهم لا يسبقونه ولا يفتوتونه ، ولا يهربون من مصيرهم المحتوم .

٤٢ ، ٤٣ - ثم تتجه الآيات فى الختام إلى وعيدهم وتهديدهم بيوم الجزاء ، يوم يخرجون من القبور مسرعين ، كأنما هم ناهبون إلى نصب يعبدونه ، وهم ، **يُؤْفَضُونَ .** أى يسرعون .

٤٤ - وترسم الآية الأخيرة سماتهم ، وتلمح صورة ذليلة عانية ، فى ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون به ، فيستريبون فيه ويشكون .

المعنى الإجمالى للسورة

«بيان جزاء الكافر فى استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق فى ذلك اليوم المهيّب ، وتصوير النفس البشرية فى السراء والضراء ، وبيان محافظة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار فى غير مطعم ، وذل الكافرين يوم القيامة»^(١) فى قوله تعالى : **خُلِيعَةُ أَبْصَرُهمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .** (المعارج : ٤٤).

أسماء السورة :

من أسماء السورة : سأل سائل لافتتاحها بذلك ، والمعارج لقوله تعالى فيها : **مَنْ أَلَّهْ ذِي الْمَعَارِجِ .**

أهوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ آلِهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبْصَرُونَ مِنْهُمُ نُورٌ أَلْمَعُجِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيٍّ ﴿١١﴾ وَصَنْجَبَةٍ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْلَى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِلنَّشْوَى ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ قَوْلَى ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

سائل سائل ، دعا داع .

ليس له دافع ، إنه واقع لا محالة ، ونازل وحاصل ، لا مانع يردّه .

المعارج ، واحدتها معرج وهو المصعد (أسانسير) ، أى صاحب المصاعد والدرجات التى تصعد فيها الملائكة من سماء إلى سماء .

الصبور ، جبريل عليه السلام .

فأصبر صبرا جميلا ، الصبر الجميل : هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله .

المهمل ، دردى الزيت ، وهو ما يكون فى قعر الإناء منه ، أى كعكر الزيت .

العهن ، الصوف المصبوغ ألوانا .

الحميم ، القريب .

يُصَبِّرُونَهُمْ ، يَبْصِرُ الْأَحْمَاءُ الْأَحْمَاءُ وَيَرْوْنَهُمْ .

يَبْصِرُونَهُ ، يَبْصِرُونَ ، يَبْصِرُونَ .

الْمَجْرَمُ ، الْمَذْنِبُ .

صَاحِبَتُهُ ، زَوْجَتُهُ .

فَصِيلَاتُهُ ، عَشِيرَتُهُ .

تَوَوَّيْتُهُ ، تَضَمَّنْتُهُ وَيَأْوِي إِلَيْهَا .

كَلَامٌ ، هِيَ كَلِمَةٌ تَفِيدُ الزَّجْرَ عَمَّا يُطْلَبُ .

لَقَطْنِي ، هِيَ النَّارُ .

الشَّعْشَعُ ، وَاحِدُهَا شَوَاةٌ ، وَهِيَ جِلْدَةُ الرَّأْسِ تَنْتَزِعُهَا النَّارُ انْتِزَاعًا ، فَتَفَرِّقُهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

تَسْدَعُو ، تَجْذِبُ وَتَحْضِرُ مِنْ أَعْطَى ظَهْرِهِ لِلْحَقِّ وَأَعْرَضَ عَنِ الطَّاعَةِ ، لِلدَّخُولِ فِيهَا .

وَجَمْعُ فَلَاوَعِي ، جَمْعُ الْمَالِ فَجَعَلَهُ فِي وَعَاءٍ ، وَكَذَلِكَ وَلَمْ يُوَدِّ حَقَّهُ .

تمهيد :

كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ يَسْخَرُونَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ ، أَوْ يَسْتَبْطِنُونَهُ وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ مُحَمَّدًا يَخُوفُنَا بِالْعَذَابِ ، فَمَا هَذَا الْعَذَابُ ، وَلِمَنْ هُوَ ؟ وَكَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَمِنْ لَفِّ لَفٍّ ، يَقُولُونَ إِنكَارًا وَاسْتَهْزَاءً :

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عَذَابِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ .

وسورة المعارج تأتي بعد سورة الحاقة التي تحدثت عن القيامة ، وعن تبدل الكون ونهاية الحياة . وسورة المعارج تتحدث عن هذا الأمر لكن من منظور نفسي ، فالكافر يتمنى أن يفقد نفسه من العذاب بأولاده وزوجته ، وإخوته وعشيرته ، ومن في الأرض جميعًا ، لينجو من هول العذاب ، لكن لا أمل في ذلك ، فجَهَنَّمَ تَنْزَعُ فُرُودَ رَأْسِهِ ، وَتَتَحَوَّلُ جَهَنَّمَ إِلَى عُنُقٍ طَوِيلٍ يَبْحَثُ عَنِ الْكَفَّارِ الْمَعْرُضِينَ عَنِ الْحَقِّ ، وَتَمْسُكُ بِهِمْ لِيَصْطَلُوا بِنَارِهَا : كَلَّا إِلَيْهَا لُطْفٌ • نَزَاعَةٌ لِلشَّوْئِ • نَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى • وَجَمْعٌ فَلَاوَعِي . (المعارج : ١٥ - ١٨) .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

دعا داع ، وطلب كافر من كفار مكة لنفسه ولقومه نزول عذاب واقع لا محالة ، والسائل هو النضر ابن الحارث ، من صناديد قريش وطواغيتها ، لما خوفهم رسول الله ﷺ بالعذاب قال استهزاء : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . (الأنفال : ٣٢) .

فأهلكه الله يوم بدر ، ومات شهيداً ، ونزلت الآية بذمه ، وهذا العذاب نازل بالكافرين لا محالة ، لا يستطيع أحد أن يدفعه أو يمنع ، لأنه من الله الغالب ، ولا يغلب الله غالب .

مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ .

هذا العذاب نازل وصادر من الله تعالى ، صاحب المصاعد التي تصعد منها الملائكة وتنزل بأمره ووحيه .

تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ...

تصعد الملائكة وجبريل الأمين من سماء إلى سماء ، إلى عرش الرحمن ، حيث تهبط أوامره سبحانه وتعالى ، ويد القدرة تمسك بزمام هذا الكون ، وترفع السماء ، وتبسط الأرض ، وتسخر السحاب والفضاء ، وتيسر مصاعد الملائكة إليه ومعها أعمال العباد .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وفى صلاة الفجر ، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَطْهُورًا . (الإسراء : ٧٨) . فيصعد الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا ، تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين» (١٤) .

والملائكة عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

أى : ذلك العذاب واقع لهؤلاء الكفار فى يوم طويل ، يمتد طوله إلى خمسين ألف سنة .

قال ابن عباس : هو يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار .

والجمع بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى : **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** . (السجدة : ٥) .

أن القيامة مواقف ومواطن ، فيها خمسون موطناً ، كل موطن ألف سنة «وأن هذه المدة الطويلة تخفُّ على المؤمن حتى تكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا»^(١٦) .

٥ - **فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا** .

اصبر أيها الرسول على أذى قومك ، وتحمل ذلك موقناً بوعد الله تعالى ، مع اليقين الكامل بأن الله معك ، ولن يتخلّى عنك ، وقد أمر جميع الأنبياء بالصبر واليقين بالنصر ، والصبر الجميل هو ما كان صاحبه متيقناً بثواب الله ، راضياً بقضائه وقدره ، موقناً بأن يد الله وراء الأحداث ، وقد قضت أن يقاوم الكفار برسالات السماء ، ويستبعدوا خضوعهم لها ، وأن يتحمل الرسل أعباء الرسالة في ثقة ويقين .

قال تعالى : **فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُؤْنَ مَا يَوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغْ ...** (الأحقاف : ٣٥) .

وقال تعالى : **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ...** (يوسف : ١١٠) .

٦ ، ٧ - **إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا • وَرَأَيْنَاهُ قَرِيبًا •**

إن هؤلاء الكفار يستبعدون العذاب ، ويرونه بعيداً ، أو غير نازل بهم ، ويتشككون في وقوعه ، ونراه نحن قريباً ، فهو في قبضتنا وتحت تصرفنا ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، وكل أثر قريب .

٨ ، ٩ - **يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ •**

تفقد السماء تماسكها ، وتنشَقُّ وتنشَقُّ يوم القيامة ، وربما رجعت إلى حالتها الغازية الأولى .

قال تعالى : **وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ • وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا • الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ • وَكَانَ يَوْمَ مَا عَلِمَ الْكَافِرِينَ غَيْبًا •** (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

والمهل دردى الزيت، أو الزيت العكر، ولون السماء الآن يميل إلى الخضرة، فيتغير لونها ويشبه ما أذيب من النحاس والرصاص والفضة، ويتحول لونها من الخضرة إلى الحمرة.

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ.

تكون الجبال متناثرة متطايرة في الجو، تشبه الصوف المنفوش.

وعن الحسن: تسير الجبال مع الرياح، ثم تنهد، ثم تصير كالعهن، ثم تنسف فتصير هباء.

وقال الرمخشري في تفسير الكشف:

المراد بالعهن المنفوش: الصوف المصبوغ ألواناً، لأن الجبال جدّ بيض وحممر مختلف ألوانها، وعرايب سود، فإذا بسّط وطيرت في الجو أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح.

١٠- وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا.

لا يسأل صديق صديقه، ولا قريب قريبه عن شأنه، لشغل كل إنسان بنفسه، وذلك لشدة ما يحيط بهم من الهول والغزع.

١١، ١٢، ١٣، ١٤- يَصْرُوْنَهُمْ يَوْمَذُ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ * وَصَلَاتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصْلَاتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ.

أى: يبصر الحميم حميمه، والصديق صديقه، والقريب قريبه، لا يخفى منهم أحد عن أحد، ولا يتساءلون، ولا يكلم بعضهم بعضاً من شدة الهول، وانشغال كل إنسان بنفسه.

قال ابن عباس:

يُصْرَوْنَهُمْ. أى: يعرف بعضهم بعضاً، ويتعارفون بينهم، ثم يفرّ بعضهم من بعض.

يود الكافر أن يقدى نفسه من العذاب بأعز ما يملك، ويتمنى أن يقدم أبناءه وزوجته وأخاه وعشيرته التي تؤويه وتضمه إليها إذا أُلتمت به ملءة، ويتمنى أن يقدم أيضاً جميع من فى الأرض، ليفتدى نفسه من العذاب، فيقدم أعز الناس عليه، بل كل من فى الأرض رغبة فى النجاة من العذاب فى ذلك اليوم.

١٥، ١٦ - كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر ، أى : ليرتدع المجرم عن هذه الأمانى ، فلا فداء ولا شفاعة ، فليرتدع الكافر الأثيم عن ذلك ، فليس ينجيهِ من عذاب الله فداء ، بل أمامه جهنم تتلظى نيرانها وتلتهب ، وتلمظ غضباً على من عصى الله ، وتلتهم الكافر فتنزِع وتقتلع أطرافه ، وتلتهم جلدة رأسه فتبتكها وتقطعها ثم تعاد .

قال المفسرون :

نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ . والشَّوَاةُ جلدة الرأس ، تنزعها بشدة من الإنسان ، كلما قلعت عادت كما كانت ، زيادة فى التكنيل والعذاب ، وخصها بالذكر لأنها أشد أجزاء الجسم حساسية وتأثراً بالنار .

١٧، ١٨ - تَدْعُوا مَنَ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ .

تدعو جهنم يوم القيامة إليها كل أصحابها ، وكل من استحق العذاب فيها ، تلتقط الكافرين من أرض المحشر ، كما يلتقط الطيرُ الحبَّ ، وتناديهم بلسان فصيح مبين ، تقول بلسان حالها ، أو بلسان يخلقه الله فيها : تعالوا إلّى ، وتعذبوا فى داخلى ، واحتلّوا أماكنكم فى جهنم ، يا كل من أدبر وولّى دبره لدعوة الإسلام ، وأعرض عن سماع القرآن ، وانشغل بجمع المال الحرام ، وكَنَزْه فى وعاء ، وربط عليه فلم يؤدّ زكاته .

قال ابن كثير :

وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ . أى : جمع المال بعضه على بعض ، فأوعاه أى أوكاه (أى ربط عليه ، وحبس حق الله فيه) ومنع الواجب عليه فى النفقات وإخراج الزكاة .

وقد ورد فى الحديث : «ولا توعى فيوعى الله عليك»^(١٧) . أى : لا تحبس حق الفقير والمسكين ، فيضيّق الله عليك ، وكان عبد الله بن حكيم لا يربط له كيس ، يقول : سمعت الله يقول : زَجَمْعَ فَأَوْعَىٰ .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

وقال قتادة : وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ . كان جموعاً قوموا للخبيث .

وقال المفسرون : جمع المال ولم يؤدّ زكاته ، وتشاغل به عن دينه ، وزها باقتنائه ، وتكبر وتجبر فكان جموعاً ممنوعاً .

الخصال العشر التي تعالج طبع الإنسان

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ (٢٤) لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ۝ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الَّذِينَ ۝ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ (٣٠) فَمَنْ أَتَىٰ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝ (٣٢) وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۝ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ۝ (٣٥)﴾

المضردات :

هــاـوـعـا ، كثير الجزع ، شديد الحرص .

جـزـوعـا ، كثير الجزع والأسى .

مـنـوعـا ، كثير المنع والإمساك .

على صلاتهم دائمون ، مواظبون عليها ، لا يشغلهم عنها شاغل .

والذين في أموالهم حق معلوم ، قدر معين يستوجبونه على أنفسهم ، تقريبا إلى الله ، وهو الزكاة .

المـشـفـقـون ، من العطاء لتعففه عن السؤال .

مـشـفـقـون ، خائفون استعظاما لله تعالى .

الـعـادـون ، المجاوزون للحلال إلى الحرام .

أماناتهم وعهدهم راعون ، لا يُخلون بشيء مما أؤتمنوا عليه ، ولا مما أعطوا عليه العهد للوفاء به .

تمهيد :

بعد الحديث عن أوصاف يوم القيامة ، تحدثت السورة عن طبائع البشر ، وأتصافهم بالجزع والهلع والمنع التي تجمع أصول الأخلاق الذميمة ، ثم استثنى المؤمنين الذين يعملون صالح الأعمال ، ويتصفون بعشر صفات كريمة ، وهي جماع المثل الأعلى لمن يكون قدوة يقتدى به في خلقه وسلوكه .

التفسير :

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا .

تلك صفات جبليّة فطرية فى الإنسان ، أى الكافر أو أى إنسان لم يأس قلبه بنور الإيمان ، من شأنه أن يتصف بالهلع ، وهو شدة الحرص وقلة الصبر ، فلا يصبر على بلاء ، ولا يشكر على نعماء .

إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا .

أى : إذا أصابه الفقر أو المرض ، أو المصيبة فى ماله أو زرع ، أو أسرته أو منزله ، اشتدّ جزعه وحزنه وشكواه .

وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا .

وإذا جاء إليه المال أو الجاه ، أو السلطان أو العافية ، منع خيره عن الفقير واليتيم ، والأرملة والمصاب ، وبخل على غيره .

روى الإمام أحمد ، وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «شَرُّ مَا فى رَجُلٍ شَحُّ هَالِعٍ ، وَجِبْنُ خَالِعٍ»^(١) .

وقال ﷺ : «عَجِبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنْ أَمْرَهُ كُلُّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(٢) .

٢٢ ، ٢٣ - إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ .

استثنى الله ممن اتصف بالهلع والجزع والمنع فئة المصلين ، فإن الصلاة تربط المؤمن بالله ، وتجعله يحنّ إلى الوقوف بين يديه وطاعته ، وامتنال أمره واجتناب نواهيه ، فتزیده الصلاة بقيئنا وهوده بالـ ، وانشرح صدر وجميل عطاء .

الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ .

فهم مستمرون فى المحافظة عليها ، لا يتركون صلاة مفروضة ، بل يزدون جميع الفرائض ، ويحفونها بالزوافل .

وقيل : معنى : الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ .

أى : خاشعون فى الصلاة ، يتدبرون معانى ما يقرأون ، وما يُسبحون ويحمدون ويكبرون ، فهم فى الصلاة جسمًا وروحًا ، مداومون على الخشوع داخل الصلاة ، مداومون على إتمام ركوعها وسجودها وخشوعها ، وذلك بمعنى قوله تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ** . (المؤمنون : ١ ، ٢) .
ومن معانى المداومة على الصلاة الاستمرار فى الصلاة وإكمالها ، بإسباغ الوضوء لها وأدائها فى أول الوقت ، وصلاة النوافل معها ، والبعد عن المعصية واللغو وكل ما يضاد الطاعة .

قال تعالى : **إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...** (العنكبوت : ٤٥) .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(١) .

٢٤ ، ٢٥ - **وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلنَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** .

لقد أوجبوا على أنفسهم حقًا معلومًا فى أموالهم ، فهم أوجبوا على أنفسهم فريضة الزكاة فى أموالهم أو تجارتهم أو زراعتهم ، أو أموال الرُّكاز وما يستخرج من باطن الأرض ، يخرجون زكاته ، وينفقونها فى مصارفها الشرعية ، ويقدمون الزكاة والصدقة للسائل الذى يسأل ، وللمحروم المتعفف الذى لا يسأل .

قال تعالى : **يُخَبِّسُهُمُ الْجَاهِلُ أُغْيَاءً مِّنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تَفْقَهُوا مِن خَيْرٍ** **فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** . (البقرة : ٢٧٣) .

٢٦ - **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ يَوْمَ الْاٰلْذِيْنَ** .

والذين يوقنون بيوم الجزاء يقينًا صادقًا لا شك فيه ، كأنهم يرون القيامة ، ويشاهدون الحساب والجزاء ، وهذا يدفعهم إلى العمل الصالح والسلوك الحميد ، لأن الكثيرين يصدقون بيوم الدين لكن من ترجم التصديق إلى سلوك وعمل هو الفائز ، بتجنبه الحرام ، وإقباله على الطاعات ، وبعبء عن المنهيات ، وتجنبه للشبهات ، وانشغاله بمَرْضَاة ربه .

٢٧ ، ٢٨ - **وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ خَيْرٌ مِّمَّا يُؤْمِنُونَ** .

إنهم يخافون غضب الله وعقابه ، فلا يأمنون مكره ، ولا يجترئون على معاصيه ، وفى كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام أبى حامد الغزالي ، (باب فى فضل الرجاء والأمل فى رحمة الله) ثم (باب فى فضل الخوف والإشفاق من غضب الله) ، ثم ذكر أن الخوف والرجاء جناحان يطير بهما المؤمن فى سماء

الطاعات ، وإذا زاد الرجاء عن حدّه صار طمعاً بدون عمل ، وإذا زاد الخوف عن حده صار يأساً من رحمة الله ، والمؤمن مطالب بالجمع بين الخوف والرجاء ، فإذا كان الإنسان في مرحلة الشباب والقوّة ، وجب أن يغلب الخوف على الرجاء حتى يعصمه ذلك من المعصية ، وإذا كان في مرحلة الشيخوخة والضعف ، وجب أن يغلب الرجاء على الخوف حتى يلقي الله وهو متمتع بالأمل في رحمته وقبول توبته .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ .

إن عذاب الله واقع حتماً بكل من يستحقّه .

قال تعالى : الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... (الأنفال : ٢) .

وقال عزّ شأنه : وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . (المؤمنون : ٦٠) .

وقال تعالى : فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ . (الأعراف : ٩٩) .

٢٩ ، ٣٠ - وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْمَارِهِمْ خِلَافُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

أباح الإسلام الاتصال الجنسي بين الزوج والزوجة ، ورسم لذلك نظاماً وأدباً ، مثل عقد الزواج الصحيح ، والنفقة والعشرة بالمعروف ، وطاعة الزوجة لزوجها ، وقيام الزوج بواجباته ، والزوجة بواجباتها .

وفى هذه الآية ما يفيد أن المؤمنين من صفاتهم حفظ فروجهم عن الزنا واللواط ، وبعدهم عن الفاحشة ، لكن الله أباح لهم إشباع رغبتهم وجماع زوجاتهم اللاتي أحلهن الله لهم .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ . وهن الأسيرات من الجهاد في سبيل الله ، يباح لمن ملكها أن يستدبر رحمة ليتأكد من خلوها من الحمل ، وله جماعها بعد العدة ، فإذا حملت صارت أم ولد ، أعتقها وادها ، ونهى الإسلام عن بيع أمهات الأولاد ، وهذه العلاقة الصريحة النظيفة من محاسن الإسلام . حيث أباح الزواج الشرعي والتسرّي بملك اليمين ، وقد نظر الإسلام إلى الرّق نظرتة إلى نهر جبرى . فضيق المنابع ووسع المصبات ، وكان ذلك حرباً بأن يصف نهر الرّق ، والآن .. انتهى الرّق بحمد الله مدنيّاً ودينيّاً .

لكن التقارير تشير إلى أن هناك تجارة رائجة كبيرة ، هي ثالث نجارة في العالم ، بعد تجارتي السّلاح والمخدرات ، تلك التجارة هي تجارة الرقيق الأبيض ، تباع فيها ملايين النساء والأطفال والإبنات . بقصد الاتجار في الجنس ، وهناك عصابات دولية تحدد ثمن كل فتاة وكل ولد وكل امرأة .

والقرآن نزل والزنا منتشر، فحرّم الرّنا واللواط والمثلية الجنسية، وشجّع الزّواج الحلال، والعلاقات النّظيفة الواضحة.

قال تعالى: **وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرُوهُمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ.**

فهم لديهم شهوة ورغبة وقوة، لكنهم يحفظون فروجهم عن الحرام، ولا يبيحون لأنفسهم الجماع إلا مع زوجاتهم الشرعيات، أو جواريههم اللاتي يملكونهن بملك اليمين الذي كان معاملة بالمثل لمن يحاربهم الإسلام في بلاد الفرس والروم وغيرهما، وكان الإسلام مضطراً أن يعامل أسيرات الحرب بمثل ما تعامل به الأسيرات المسلمات في تلك البلاد، ومع ذلك وصّى القرآن بالرفق، وحث على العتق، وجعل عتق الرقيق كفارة لأخطاء يتكرر وقوعها في المجتمع، مثل كفارة الظهار، والحنث في اليمين، والقتل الخطأ، وغير ذلك.

إن غيرنا يبيح تعدد العشيقات والعشاق، أما الإسلام فلا يبيح إلا علاقة شرعية نظيفة آمنة واضحة.

٣١ - **فَمَنْ أَتَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ.**

فمن أنشأ علاقة أئمة مع غير زوجته، أو مع غير ما ملكت يمينه، فإنه معتز أثم، حيث ترك زوجته الحلال، وأنشأ علاقة أئمة مع من لا تحلّ له.

قال ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى رجلاً بين يديه طعام هنئ نضيج، وطعام خبيث نقي، فجعل الرجل يترك الطعام الهنيء النضيج، ويأكل من الطعام الخبيث النقي، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمّك تكون عنده زوجته حلالاً طيباً، فيتركها ويبيت بامرأة خبيثة، والمرأة من أمّك تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً طاهراً، فتتركه وتبيت برجل خبيث».

قال الطبري:

من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه، ففاعلو ذلك هم العادون الذين تعدوا حدود ما أحلّ الله لهم إلى ما حرمه عليهم، فهم المعلومون. ١ هـ.

٣٢ - **وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ زَاغُونَ.**

هم يحافظون على الأمانة ويوفون بالعهد، وقد تكررت توصية القرآن الكريم والسنة المطهرة بالمحافظة على الأمانة والوفاء بالعهد.

قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ...**

(النساء: ٥٨)

والأمانة الكبرى هي طاعة الله وعدم الشرك به ، والالتزام بنواميس الإسلام وفرائضه ، وأركانه وآدابه ، فالصلاة أمانة ، والكيل أمانة ، والوزن أمانة ، وكذلك الزكاة والصيام والحج ، وسائر شعائر الإسلام .

قال تعالى: **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ... (الأحزاب: ٧٢).**

وقال تعالى: **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . (الإسراء: ٣٤).**

وقال تعالى: **وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ... (البقرة: ١٧٧).**

وقال ﷺ: «يا معشر الناس ، اضمنوا لى ستاً أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا عاهدتم ، وأدوا الأمانة إذا أودعتمتم ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم»^(١).

٣٣ - وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ .

يؤدون الشهادة احتساباً لوجه الله ، ويؤدونها على وجهها الصحيح ، لما يرتبط بها من أداء الحقوق ، وصيانة الأمانة ، بل الشهادة نفسها أمانة من الأمانات ، وقد أفردنا بالذكر لأهميتها .

قال تعالى: **وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ... (الطلاق: ٢).**

وقال تعالى: **وَلَا تَكْفُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُمْهَا فَإِنَّهُ عَاثِمٌ قَلْبِهِ ... (البقرة: ٢٨٣).**

وقد أمرنا أن نؤدى الشهادة على وجهها الصحيح ، بدون ميل إلى قريب أو شريف ، أو غنى أو فقير ، أو قريب أو حبيب ، إظهاراً للصلاية فى الدين ، ورغبة فى إحياء حقوق المسلمين .

قال تعالى: **يَتْلَاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَرَامِينَ بِالْقَسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْنَهَا أَوْ تَعْرِضُوهَا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بما تعملون خَبِيرًا . (النساء: ١٣٥).**

٣٤ - وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .

يحافظون على إقامة الصلاة بتفريغ القلب لها ، وتدبر التلاوة ، واستحضار الخشوع والخضوع في القراءة والقيام والركوع والسجود ، مع طهارة البدن والثوب والمكان والقلب .

قال المفسرون :

والدوام غير المحافظة ، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها ، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقيتها ، وقياموا أركانها ، ويكملوها بسننها وأدائها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات ، والمحافظة ترجع إلى أحوالها^(١٧) .

وإذا نظرنا إلى الصفات العشر وجدنا أنها بُدئت بالصلاة ، وختمت بالصلاة ، مما يدل على العناية بها ، والتنويه بشرفها ، فهي صلة بين المخلوق والخالق ، وهي عماد الدين ، وهي وسيلة القربى والزلفى إلى الله رب العالمين .

وخلاصة الصفات التي اتصف بها المؤمنون ، عشر صفات هي :

١ - الصلاة .

٢ - مداومة عليها في أوقاتها .

٣ - إقامتها على الوجه الأكمل بحضور القلب ، والخشوع للرب ، ومراعاة سننها وأدائها .

٤ - التصديق بيوم الجزاء يقيناً واعتقاداً وسلوكاً .

٥ - إخراج الزكاة وإعطاء الصدقات من أموالهم للفقراء والمحرومين .

٦ - مراعاة العهود والمواثيق .

٧ - أداء الأمانات إلى أهلها .

٨ - حفظ فروجهم عن الحرام .

٩ - أداء الشهادة على وجهها .

١٠ - الخوف من عذاب الله .

النصب : كل شيء منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، والأنصاب جمع جمع .

يسرعون : يسرعون .

خاشعة : ذليلة .

ترهقهم : تغشاهم .

تمهيد :

تستعرض الآيات أعمال الكافرين ، واستماعهم للرسول ﷺ ثم نفاذهم من دعوته ، وادعاءهم أنهم أولى بالجنة ونعيمها من الفقراء البسطاء أصحاب محمد ﷺ ، ثم رد عليهم القرآن بأن الله خلق الناس جميعاً من نطفة مزرية ، ثم سوى الله الإنسان بشراً سوياً ، وكرمه بالعقل والإرادة والاختيار ، وحكم بأن من سما بنفسه وزكاهما بالطاعة والامتثال لأمر الله فله الجنة ، وبأن من دس نفسه وأثر الكفر والمعصية فله العذاب يوم القيامة ، ثم أقسم الحق سبحانه بنفسه أنه قادر على أن يهلكهم ، وينشئ خلقاً أطوع لله منهم ، ثم أمر نبيه ﷺ أن يتركهم وشأنهم ولا يبالي بهم ، فسيلقون الجزاء يوم القيامة ، حين يخرجون من قبورهم مسرعين ، كأنهم ذاهبون إلى أصنام منصوبة لعبادتها ، فهم يسرعون إليهم يستلم الصنم أولاً ، وسيحشرون أذلاء ، ناكسة رؤوسهم ، ذليلة عيونهم ، حيث يقال لهم : هذا هو اليوم الذى وعدتم به فى الدنيا فأنكرتم واستكبرتم .

سبب النزول :

ذكر الواحدى فى سبب نزول قوله تعالى : **أُطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ** أن **يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ** .

قال : كان المشركون يجتمعون حول النبى ﷺ ، يستمعون كلامه ، ولا ينتفعون به ، بل يكذبون به ويستهزئون ، ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة ، لندخلنّها قبلهم ، وليكون لنا فيها أكثر مما لهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

التفسير :

٣٦ ، ٣٧ - **فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِيلَ لَهُمْ نِعَمَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ** .

كان كفار مكة يسرعون الخطى إلى الكعبة ، ويلتفون جماعات جماعات حول النبى ﷺ ، يسمعون ما يقوله ثم يحرفونه ، ويستهزئون بكلام النبى ﷺ ، ويسخرون من فقراء المؤمنين ، ويقولون : إن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّها قبلهم ، فأنزل الله هذه الآيات .

والمعنى :

أَيُّ شَيْءٍ حَمَلَهُمْ عَلَى الإسْرَاعِ تَجَاهَ الْمَكَانِ الَّذِي تَجَلَّسَ فِيهِ يَا مُحَمَّد ، حَالِ كَوْنِهِمْ مُتَحَلِّقِينَ عَنْ يَمِينِكَ وَشِمَالِكَ ، فَرَقًا مُتَعَدِّدَةً ، كُلُّ فَرَقَةٍ تَعْتَزِي وَتَنْتَسِبُ إِلَى غَيْرِ مَا تَنْتَسِبُ إِلَيْهِ الْفَرَقَةُ الْأُخْرَى . لَقَدْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ ، وَأَمَامَهُمْ رَسُولُ كَرِيمٍ يَحْمِلُ وَحْيَ السَّمَاءِ ، فَلَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، وَأَصْرُوا عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ، وَمَحَاوَلَةِ الاسْتِمَاعِ لِلْقُرْآنِ اسْتِمَاعَ الْبَاحِثِ عَنْ عَيْبِ ، الْكَارِهِ لِلْهَدَايَةِ ، فَمَا أَظْلَمَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ ، حَيْثُ بَاعُوا الْهَدْيَ وَاشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ ، مَعَ قَرَبِ الْوَسِيلَةِ مِنْهُمْ ، فَقَدْ حَرَمُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ أَبْلَغِ نَافِعٍ ، مَعَ وَجُودِهِ قَرِيبًا مِنْهُمْ .

٣٨ ، ٣٩ - أَيْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ • كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ .

تجاوز الكفار حدودهم حين قالوا : لئن دخل أتباع محمد الجنة ، وهم فقراء بسطاء ، لندخلنَّها قبلهم ، فنحن أفضل منهم في الدنيا ، وسنكون أفضل منهم في الآخرة .

وكان جواب القرآن لهم :

كَلَّا • حَرَفَ رَدَعٍ وَزَجَرَ .

لَقَدْ خَلَقْنَا النَّاسَ جَمِيعًا مِنْ مَنَى يَمْنَى ، أَيْ أَنَّ اللَّهَ سَوَّى بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا فِي الْخَلْقِ ، وَتَرَكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ الْعَقْلَ وَالْإِرَادَةَ وَالِاخْتِيَارَ لِيَسْلُكَ طَرِيقَهُ فِي الدُّنْيَا عَنْ قَصْدٍ وَإِرَادَةٍ وَاخْتِيَارٍ : فَأَمَّا مَنْ طَغَى • وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى • وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى • فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى .

(النازعات : ٣٧ - ٤١)

وفى الحديث الشريف : «الخلق كلهم عيال الله ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح» .

وقال تعالى : يُتَذَكَّرُ أَنَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (الحجرات : ١٣) .

وخلاصة المعنى :

أَيْطَمَعُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ - وَحَالَتُهُمْ وَاضِحَةٌ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ لِرَسُولِي - أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ؟ كَلَّا ، إِنْ أَعْمَالُهُمْ تَقْوَدُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ ، لَقَدْ خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ، مِنْ نَظْفَةِ مَزْرَةٍ ، لِيَعْمَلُوا وَيُطِيعُوا ، فَتَكْتَبُوا وَأَعْرَضُوا ، فَصَارُوا أَهْلًا لِلنَّارِ لَا لِلْجَنَّةِ .

أخرج أحمد ، وابن ماجه ، عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : ابن آدم ، أنى تعجزنى وقد خلقتك من نطفة مزره ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللاأرض منك وئيد ، فجعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي أتى أوان الصدقه» (٥٦) .

٤ ، ٤١ - فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ .

أى أقسم بالله الخالق ، رب المشارق والمغارب ، أى مشارق الشمس والقمر والنجوم ومغاريها ، فللشمس فى كل يوم من أيام السنة منزلة لشرورها ومنزلة لغروبها ، وكذلك القمر والنجوم ، أو المراد مشارق الشمس وهى فى كل لحظة تشرق فى مكان وتغرب عن مكان ، وكذلك القمر والنجوم ، وكل ذلك يوحى بالعظمة والجلال ، والقدرة والإبداع للخالق المبدع الذى أحسن كل شئ خلقه .

قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧) .

وقد أقسم القرآن بجهتي الشرق والغرب ، والمراد بهما الجنس ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس ، وعلى كل مغرب من مغاريها ، وبذلك يتبين أنه لا تعارض بين مجيء لفظتى الشرق والغرب تارة بصيغة المفرد ، وتارة بصيغة المثنى ، وتارة بصيغة الجمع .

فقال تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا . (المزمل: ٩) .

وقال تعالى : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمن: ١٧) .

أى : مشرق ومغرب الشتاء والصيف ، أو الشمس والقمر .

وقال تعالى : فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ .

والمقصود بيان عظمته تعالى وقدرته ، وبديع خلقه ، والتهوين من أمر الكافرين .

عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ .

أى : أقسم برب المشارق والمغارب إننا لقادرون على أن نذهب بهؤلاء الكافرين كما أهلكتنا من سبقهم من المكذبين ، وأن نأتى بقوم أطوع لله منهم ، وأفضل استقامة ، وأكثر اعترافاً بفضل الله ، وما نحن بمغلوبين على أمرنا ، ولا توجد قوة تمنعنا عن تنفيذ ما نريد ، سوى أن حكمتنا البالغة اقتضت تأخير عقوبتهم .

قال تعالى: يَتْلُوهَا أَنْثَى أَنْتُمْ الْفَقْرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ • إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ • وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ . (فاطر: ١٥ - ١٧) .

٤٢ - قَدْزَهُمْ يُخَوِّضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ .

وما دام الأمر كذلك فاترك هؤلاء الكفار يخوضوا فى باطلهم ، ويلعبوا فى لهوهم وأنامهم ، واستخفافهم بوعيد الله وقدرته ، حتى يجدوا أمامهم يوم القيامة وجهًا لوجه ، ذلك اليوم الذى وعدهم القرآن به ، وحذرهم من عذابه وعقابه ، والمراد من الآية التهديد والوعيد بذلك اليوم ، الذى سيحدثونه أمامهم وفيه جميع أعمالهم .

قال تعالى: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

٤٣ ، ٤٤ - يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُرَافَضُونَ • غَشِيَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَخُّهُمْ ذِلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .

انذكر يوم يقومون من قبورهم مسرعين لتلبية النداء ، والوقوف فى عرصات القيامة لفصل القضاء ، كأنهم فى إسراعهم إلى ساحة القيامة ، كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى شىء منصوب : علم أو راية أو صنم من الأصنام .

قال المفسرون :

كان الإسراع إلى المعبودات الباطلة وسائر الطواغيت من عادات المشركين ، وكانوا إذا أبصروا أصنامهم أسرعوا إليها ، يحاول كل منهم أن يستلم الصنم أولاً ، وفى هذا التشبيه تذكير بسخافة عقولهم ، وتهكم بإسراعهم إلى الباطل ، وفرارهم من الحق .

غَشِيَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَخُّهُمْ ذِلَّةً ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ .

إنهم يحشرون يوم القيامة أذلاء ، منكسرة عيونهم ، تغشاهم المذلة والمهانة والعذاب والهوان فى ذلك اليوم ، يوم القيامة ، الذى توعددهم القرآن به وحذرهم من عذابه ، لقد كانوا فى أعيادهم يسرعون إلى أصنامهم ، فرحين لاهين عابثين فى باطلهم ، لكن الصورة اختلفت عند قيامهم من قبورهم ، فإنهم يحشرون أذلاء مرهقين ، قد بدا الانكسار فى عيونهم ، وإرهاق المذلة على أبدانهم ، بسبب استهتارهم بذلك اليوم ، واستبعادهم لوقوعه .

وبذلك تتوافق بداية السورة ونهايتها ، فقد كانت البداية سؤال سائل من الكافرين عن يوم القيامة ، سؤال استبعاد واستنكار ، وكانت نهاية السورة رؤية اليوم عياناً ، والإسراع لتلبية الداعي إلى المحشر في حالة من العذاب والهوان والانكسار ، وقد شاهدوا القيامة مشاهدة فعلية واقعية .

قال تعالى : **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُخَذُّكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ** . (آل عمران : ٣٠) .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة المعارج

- ١ - وصف يوم القيامة وأهواله .
- ٢ - وصف النار وعذابها .
- ٣ - صفات الإنسان التي أوجب له الجحيم ، وصفات المصلين الفائزين .
- ٤ - وعيد الكافرين ، وظهور المذلة والانكسار عليهم يوم القيامة .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة نوح

أهداف سورة نوح

(سورة نوح مكية ، وآياتها ٢٨ آية ، نزلت بعد سورة النحل)

فكرة السورة :

السورة قصة نبي كريم من أولى العزم من الرسل ، أرسله الله إلى قومه ليدعوهم إلى الإيمان فقاوموا دعوته وأنكروا رسالته ، فلغت نوح نظرهم إلى التأمل في خلق السماء والشمس والقمر ، والأرض والنبات وسائر المخلوقات ، ولكنهم صموا أذانهم عن سماع الحق ، وحجبوا عيونهم عن النظر في الأدلة الواضحة والحجة الدامغة ، فاستحقوا عقاب الله وأغرقوا بالطوفان في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب شديد .

أهداف الرسالات :

السورة نموذج حي لمعاناة الرسل مع أقوامهم ، وجهادهم في سبيل الدعوة ، لقد مكث نوح مع قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما آمن معه إلا قليل ، ولقد كان عناد قومه سببا في هلاكهم ، وكان الله أراد أن يحذر أهل مكة من العناد ، وأن يذكرهم بمن أهلك من الكافرين .

قال تعالى : **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا** . (الأنبياء : ١٧) .

يعنى لقد أهلك الله قوم نوح ، وأهلك من بعده عددا كبيرا كعاد وثمود وفرعون ، وكان هلاكهم جزاء عادلا وعقابا مناسبا لقوم يعلم الله إصرارهم على الكفر ويعدمهم عن قبول الحق .

لقد صبر الرسل وصابروا من أجل إبلاغ الدعوة إلى أقوامهم ، وحملوا كلمة الله ناصعة نقيه واضحة سليمة ، وعرضوها أمام العيون والقلوب لتبصر وترى آثار قدرة الله وعظيم خلقه ، وليكون إيماننا عن بينة ويقين ، ولئلا يحتج إنسان يوم القيامة بأن الرسالة لم تبلغه .

قال تعالى : **رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ... (النساء : ١٦٥) .**

ومن هؤلاء الرسل خمسة كانوا أكثر معاناة مع أقوامهم ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

وقد كان جهادهم مع أقوامهم آية فى تحمل البلاء ، والصبر على الإيذاء والعناد .

قال تعالى : فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحزاب : ٣٥) .

لقد صبر نوح دهرًا طويلاً على قومه ، وألقى إبراهيم فى النار ، وأوذى موسى أبليغ الأذى فصبر ، وحاول اليهود الإيقاع بالمسيح ، والإغراء بقتله فرفضه الله إليه ، وكان خاتم الرسل محمد ﷺ يتحمل صنوف الأذى وألوان الاضطهاد بمكة ، ويتحمل نفاق المنافقين وكيد اليهود بالمدينة .

ولكن العاقبة كانت للمتقين ، لقد أدى الرسل واجبهم ، وبلغوا رسالتهم ، ونجاهم الله مع المؤمنين ، ثم عاقب الجاحدين .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ .

(المصافات : ١٧١ - ١٧٣) .

مع آيات السورة

١ - ٤ - أرسل الله نوحاً عليه السلام ليدعو قومه إلى عبادة الله وطاعته ، وقد بلغ نوح دعوة ربه إلى قومه ، ولخص دعوته فى ثلاث كلمات : اعبدوا الله وحده ، واتقوه وآمنوا به عن يقين ، وأطيعوا رسولكم فيما يأمركم به وينهاكم عنه .

وبهذا الإيمان تستحقون مغفرة الله لكم ، والبركة فى أعماركم ، ولا شك أن للطاعات مدخلا فى راحة البال ، واستقرار العيش ، وهدوء النفس ، وهذا بلا ريب يطيل العمر ويجعله مباركا حافلا بالأعمال النافعة .

٥ - ٩ - تعبر الآيات عن جهود نبي كريم فى دعوة قومه إلى الإيمان ، فهو يؤدى رسالته ، وينهض بدعوة قومه ، ويناجى ربه قائلاً :

لقد دعوت قومى إلى عبادتك والإيمان بك فى الليل والنهار ، وانتهزت كل فرصة مناسبة لدعوتهم وإرشادهم ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوة الله ، وقابلوها بالجود والعناد ، وأغلقوا فى وجه الدعوة قلوبهم ، وسدوا منافذ العلم إلى نفوسهم ، فجعلوا أصابعهم فى آذانهم ليمنعوها من السمع ، وغطوا عيونهم بغيابهم ليمنعوها من الإبصار ، واستمروا فى عنادهم وكفرهم .

وقد لَوْن نوح فى أساليب الدعوة ، فدعاهم علناً فى أماكن التجمع فلم يستجيبوا ، فدعا كل فرد على حدة وحاول استمالة الأشخاص وإقناعهم فلم يلق قبولا .

١٠ - ١٢ - وقد دعاهم إلى التوبة والإنابة وطلب المغفرة من الله ، فإذا صدقوا فى توبتهم غفرهم الله بالنعم ، وأنزل عليهم المطر ، ورزقهم الأموال والذرية ، والبساتين النضرة والمياه الجارية .

١٣ - ٢٠ - لِمَ لَا تَعْلَمُونَ الله وهو خالق الأولين والآخرين فى أطوار وجودهم ؟ وجميع ما فى الكون يدل على الله ، فالسموات السبع المتطابقة بعضها فوق بعض ، والشمس والقمر ، وخلق الإنسان ونموه كما ينمو النبات ، ثم عودته إلى الأرض بعد الموت ، والأرض الممهدة المهياة للانتفاع بما فى باطنها من كنوز ومعادن ، وما فى ظاهرها من زراعة وصناعة وتجارة ، كل هذه المخلوقات تدل على الإله الخالق .

٢١ - ٢٥ - فى هذا المقطع نسمع آلام نبي كريم ، قدم لقومه سائر الحجج والبراهين ، ولكن قومه قابلوا دعوته بالكذب والعصيان ، واتبعوا الخاسرين الهالكين ، والزعماء المضللين ، وبيتوا أمرهم بالكيد لنوح ودعوته ، وتواصوا بالبقاء على كفرهم ومألوفهم وعبادة أصنامهم ، وخصوا بالذكر الأصنام الخمسة الكبار وهى : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، وهى أصنام كان قوم نوح يعبدونها ثم عبدتها العرب . وهنا ضاق نوح بقومه وضلالهم البعيد ، فدعا الله أن يزيدهم ضلالاً جزاء عنادهم ، لقد ارتكبوا كثيراً من الأخطاء ولذلك أغرقهم الله بالطوفان ، ثم أدخلوا فى عذاب القبر وعذاب النار ، ولم يجدوا أحدا ينصرهم وينقذهم من عذاب الله ، وهكذا جزاء كل كافر معاند ، أن يحل به بطش الله القوى الغالب .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِذْ مَاتَ الْعِمَامُ • أَلَيْسَ لِمُخْلَقٍ بِنُحْلٍ إِلَى الْبَلَدِ • ثُمَّودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ
بِأَزْوَاجٍ • وَلِزَعُونَ ذِي الْأَوْتَادِ • الَّذِينَ طَغَوْا إِلَى الْبَلَدِ • فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ • فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ • إِنَّ رَبَّكَ
لِبَاقِعِ الْمُرَادِ . (الفجر: ٦-١٤) .

٢٦ ، ٢٧ - وفى آخر السورة زفرات نبي مكلوم ، مكث ألف سنة ثم قوبل بالجدود ، فقال : يارب أهلك جميع الكافرين ، ولا تترك منهم أحدا ، وليس ذلك حبا فى الانتقام ، ولكن رغبة فى نظافة الأرض منهم ، لأن بقاءهم كفارا يعضى منه أن يفتنوا المؤمنين ويضلّوهم بالرغبة أو الرهبة ، ولا يخرج من أصلاب هؤلاء الكافرين إلا فاجر كافر ، فالإناء ينضج بما فيه .

٢٨ - وفى آخر آية تبطل نبي كريم بدعاء ندى رضى ، يطلب فيه مغفرة الله له ولوالديه ، ولمن دخل فى دعوته وآمن به ، ولسائر المؤمنين والمؤمنات ، أما الظالمون فلا يستحقون الهداية التى أعرضوا عنها ، بل يستحقون أن يزيدهم الله ضلالا إلى ضلالهم ، فمن أعرض عن الله سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، وتركه يتخبط فى دياجير الظلام : نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ... (التوبة : ٦٧) .

المعنى الإجمالي للسورة

الهدف الرئيسى للسورة بيان دعوة نوح ، وحرصه على إيمان قومه ، وقد حوت هذه الدعوة ما يأتى :

(أ) طلب تركهم للذنوب ، وأنهم إذا فعلوا ذلك أكثر الله لهم المال والبنيين .

(ب) النظر فى خلق السماوات والأرض والأنهار والبحار .

(جـ) النظر فى خلق الإنسان ، وأنه يخلق فى الأرض كما يخلق النبات ، وأن الأرض مسخرة له
يتصرف فيها كما يشاء .

وبينت السورة كفر قوم نوح وعنادهم ، وعقابهم فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

إرسال نوح عليه السلام إلى قومه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَنْقُورُ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخْزِكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ ﴾

المعزذات :

إلى قومه : هم سكان جزيرة العرب ومن قرب منهم .

أن أنذر : بأن أنذر ، أو بإنذار .

عذاب أليم : مؤلم في الدنيا بالطوفان ، ومؤلم في الآخرة بنار جهنم .

نذير مبين : منذر موضح ، بين الإنذار .

يغفر لكم من ذنوبكم : يغفر لكم ذنوبكم التي سبقت في الجاهلية .

ويؤخركم إلى أجل مسمى : يمد في أعماركم إلى الأمد الأقصى الذي قدره الله لكم .

إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر : ما قدره الله لكم ، إذا جاء على الوجه المقدر به ألا لا يؤخر ، فبادروا في أوقات

الإمهال .

التفسير :

١ - إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

رسالة الرسل

كان آدم عليه السلام الأب الأول للبشرية ، ولعل رسالته اقتصرت على أبنائه وأحفاده ، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون ، انحرفت فيها البشرية ، وعبدت أوثانا من دون الله تعالى ، فأرسل الله نوحًا إلى قومه .

وهو أول رسول أرسل إلى قومه ، وأطول الرسل عمراً ، وربما كان أطول البشر عمراً ، لقد جاءت إليه الرسالة وعمره أربعون عاماً ، ثم مكث في قومه رسولا ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم جاء الطوفان فأغرق الكافرين ، ونجى الله المؤمنين ، ثم مكث نوح في قومه ستين عاماً بعد الطوفان .

لقد طالمت رسالة نوح ، وطال تكذيب قومه له ، مع تذرع نوح بالصبر والحلم ، والجدال الواضح المبين ، حتى تحداه قومه قائلين : يَنُوحُ قَدْ جَلَدُنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَا لَنَا فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ .

(هود: ٣٢)

الحكمة من إرسال الرسل

خلق الله الإنسان من تراب ، ثم نفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة ، ومنحه العقل والحرية والاختيار ، وجعله أهلاً للطاعة وأهلاً للمعصية ، ثم أرسل الله له الرسل ، وأنزل له الكتب ، لإرشاده إلى الحق والخير والإيمان ، وتحذيره من الكفر والطغيان ، وقد جاهد الرسل جهاداً مستمراً من عهد نوح الأب الثاني للبشرية إلى عهد محمد ﷺ خاتم المرسلين ، جاهد الرسل ، وتحملوا التكذيب والتعذيب والقتل من أجل الدعوة إلى الإيمان ، وبيان حجة الله تعالى على عباده ، وحتى يكون للجنة أهلها عن عدالة وبيّنة ، وللنار أهلها عن عدالة وبيّنة .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(النساء: ١٦٥) .

أرسل الله الرسل دعاء إلى الإيمان ، وهداة للبشرية ، ومعلمين للحق والخير ، ولا يتقاضون أجراً على تبليغ الرسالة ، وإنما يتغذون تعاليم السماء ، ويبلغون الوحي ، وينصحون الناس ، ويذكرون الخلق بقدرة الخالق وفضله ، ونعمائه وعدالته ، ويبينون للناس أن هناك بئناً ونشراً وحساباً جزاء وجنة وناراً ، فمن أطاع فله الجنة ، ومن عصى الله وكذب رسله فله النار .

قصة نوح في سورة نوح

وسورة نوح تحمل قصته ، ودعوته ، وأدلته على هذا الإيمان ، وجهاده الطويل ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ثم تكذيب قومه له ، وغرق الكافرين منهم ، ونجاة المؤمنين ، وظل هذا ديدن البشرية وعقوبة تكذيبها ، مثل قوم عاد ، وقوم ثمود ، وفرعون وملئه ، وغيرهم .

قال تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . (الإسراء: ١٧) .

لقد استمرت رسالة الرسل فى تاريخ البشرية الطويل ، وهى من رحمة الله وأفضاله ، أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الكتب ، وأن يدعو الناس إلى الإيمان ، وأن يحذّرهم من الكفر والعصيان ، وأن يَهْلِ العصاة لهم أن يتوبوا ، فإذا تابوا قَبِلَ توبتهم .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ يُجِيبُ الْمُتَّوِّبِينَ وَيُجِيبُ الْمُتَّعِظِينَ** . (البقرة : ٢٢٢) .

عود إلى التفسير

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

الله تعالى هو الذى يتحدث عن فضله بعباده ، فيقول : **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا** رسولا من عند الله إلى قومه فى جزيرة العرب وما حولها ، ليقول لقومه : **إِنِّي أَحذَرُكُمْ** من عبادة الأوثان ، موضح لكم أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد الأحد ، الخالق الرازق ، المتّصف بكل كمال ، المنزّه عن كل نقص .

٢ - قَالَ يَلْقَؤُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

قال نوح لقومه : يا عشيرتى ويا قومى ، **إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ** واضح الإنذار ، صاحب رسالة ودعوة إلى عبادة الله ، وترك عبادة الأصنام .

٣ - أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا .

تتلخص رسالة نوح فى هذه الأمور الثلاثة :

(أ) عبادة الله وحده ، والخضوع لأمره ، وامتنال أحكامه ، واجتناب نواياه .

(ب) تقوى الله ، ومراقبته وخشيته ، فهو الرقيب الحسيب المطلع على كل شيء .

(ج) طاعة الرسول ، فهو مبطل عن الله تعالى ، قال سبحانه : **مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...**

(النساء : ٨٠)

٤ - يَغْفِرْ لَكُمْ مَنْ ذُنُوبَكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

إن عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله ، تؤدى بصاحبها إلى مغفرة الله ومرضاته ، والبركة فى العمر ، والنجاة من العذاب فى الدنيا ، ودخول الجنة فى الآخرة .

استغشوا ثيابهم ، بالغوا فى التغطى بها كراهة لى .

أصـ _____ روا ، تشددوا وإنهمكوا فى الكفر .

يرسل السماء : المطر الذى فى السحاب .

مـ _____ دوارًا ، غزيرًا متتابعًا .

لا ترجون لله وقارًا ، لا تخافون عظمة الله .

خـ _____ كم أطوارًا ، مُدرجًا لكم فى حالات مختلفة .

سماوات طباقًا ، متطابقة بعضها فوق بعض ، كالقباب من غير مماسة .

نـ _____ وزًا ، مؤثرًا لوجه الأرض فى الظلام .

الشمس سراجًا ، مصباحًا مضيئًا يحو الظلام .

أنبتكم من الأرض ، أنشأكم من طينتها .

الأرض بساطًا ، فراشًا مبسوطًا للاستقرار عليها .

سبلا فجاجًا ، طرقا وإساعات .

تمهيد :

تصور الآيات الكريمة اجتهد نوح عليه السلام فى دعوة قومه إلى الهداية والإيمان ، وكأنما يناجى ربه ويشرح مهمته فيما يأتى :

لقد دعا قومه ليلاً ونهارًا ، أى بذل جهدًا متتابعًا كبيرًا ، لكنهم أعرضوا عنه ، ولم يهتدوا بل عاندوا ، وقد قاوموا دعوته ، حتى وضعوا أنامل أصابعهم فى آذانهم حتى لا يسمعوه ، وغطوا وجوههم حتى لا يشاهدوه ، وقاوموا الإيمان بإصرار واستكبار .

وقد لَوَّن نوح فى دعوته ، حيث دعاهم سرًا ، ثم علنًا ، ثم جمع بين الجهر والسر .

أنعم الله

عرض نوح لبيان نعم الله وأفضاله على عباده ، ومن هذه النعم ما يأتى :

(أ) قبول الاستغفار والتوبة لمن تاب وأناب ، ثم التفضل بالنعم .

(ب) إنزال الأمطار ، واتباعها إنبات النبات .

(ج) توسعة الرزق بالمال والبنين .

(د) الإمداد بالبساتين والأنهار الجارية .

ثم التفت إليهم نوح متسائلاً عن سبب عدم تعظيمهم لله وعدم طاعتهم له سبحانه ، فقد منّ الله على الخليقة بما يأتي :

١ - تطوّر مراحل تخليق الجنين فى بطن أمّه ، وتطوّر حياة الإنسان من الطفولة إلى الشباب ، ثم الرجولة والكهولة والشيخوخة .

٢ - خلق سبع سماوات متطابقة .

٣ - جعل الشمس سراجاً مضيئاً بذاته ، والقمر منيراً يستمدّ ضوءه من غيره .

٤ - خلق آدم من تراب ، وخلق ذريته من المنى الذى يتكون من الغذاء ، وهو ينبت من الأرض .

٥ - خلّق الإنسان من الأرض ، ثم عودته إليها عند الموت .

٦ - جعل الله الأرض مسطّحة أمام العين كالبساط ، ويسّر بها الطرق الواسعة الممهدة ، التى تيسّر الانتفاع بالأرض ، والانتقال بين أرجائها .

التفسير :

٥ ، ٦ - قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۖ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا .

شكا نوح إلى ربّه قائلاً : لقد دعوت قومى إلى الإيمان دعاءً مستمراً ، لم أقصُر عنه ، ولم أنقطع عن تقديمه بالليل أو بالنهار ، فمن الناس من ينقطع لعمله بالنهار ، ومنهم من يعمل بالليل ، فكان نوح ينتهز الفرصة المناسبة لمن يدعوهم ، لكنهم قابلوا دعوته بالكند والجحود ، والرفض والفرار منه ، بل كان الرجل يوصى أولاده بعدم الإيمان بنوح عليه السلام .

٧ - وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْلَابَهُمْ فِىٰ آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَمُوا بِآيَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا أَتَكْبَرُ ۚ

إنها صورة معبرة عن فرار هؤلاء القوم من دعوته ، وخوفهم من مقابلته ، وإصرارهم على العناد والمكابرة ، فكلمّا دعاهم نوح إلى الله ليغفر لهم ذنوبهم ، أعرضوا عنه إعراضاً شديداً ، ووضعوا أنامل أصابعهم فى آذانهم لئلا يسمعوا صوته .

والتعبير هنا يوحي بأنهم حاولوا وضع أصابعهم كلها في أذانهم ، ليتأكدوا من أن صوت نوح لن يصل إليهم ، لذلك قال : جَعَلُوا أَصَبِعَهُمْ فِيْ آذَانِهِمْ ... ولم يقل : جعلوا أناملهم في أذانهم .

كما أنهم جعلوا ثيابهم فوق وجوههم ، حتى لا يشاهدوا نوحًا ، رغبة في الإصرار على الكفر والعناد ، وقد أصبروا على كفرهم ، واستكبروا استكبارًا شديدًا في عناد وتكبر ، وعدم استجابة لدعوة نوح عليه السلام .

وقد أخبر القرآن الكريم عن كفار قريش بما يثبت عنادهم وتكبرهم ، فقال : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

٨ ، ٩ - ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَرًا * ثُمَّ إِنِّي أَغْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا .

قدم نوح دعوته إليهم في كل وقت ، سواء كان ذلك ليلاً أو نهارًا ، وسلك كل سبيل إلى دعوتهم . فدعاهم سرًا في البداية ، ثم دعاهم جهراً مرة ثانية ، ثم قرن بين العلانية والسرية حسب الحالة الأنسب لكل منهم .

ثم وضَّح ما وعظهم به ، فقال :

١٠ - فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا .

أى : قلت : آمنوا بالله تعالى ووحده ، وتوبوا إليه من الكفر وعبادة الأصنام ، فإن الله يغفر لكم ويقبل توبتكم ، ويحسن مثوبتكم .

١١ - يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا .

إن التوبة والاستغفار واللجوء إلى الله من أسباب نزول المطر المتتابع الذى يتسبب في حياة الأرض بالزراعة ، وخروج الحَبِّ والخير .

قال قتادة : كانوا أهل حُبِّ للدنيا ، فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التى يحبونها ١ هـ .

وكانوا قد أصيبوا بالقحط وقلة الذرية وعقم النساء ، فوعدهم إن آمنوا أن يرفع الله عنهم القحط ، وييسر لهم الرزق .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث ربط القرآن بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله وبين تيسير الأرزاق وعموم الرخاء .

قال تعالى : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

وقال عز شأنه : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكَثِيبِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأُكْلُوا مِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... (المائدة : ٦٥ ، ٦٦) .
وهذه القاعدة التى وضعها القرآن قاعدة صحيحة ، تقوم على أسبابها من وعد الله ومن سنة الحياة .

قال تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا إِلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ . (الأنبياء : ١٠٥) .

لقد كان الاتحاد السوفيتى من أعظم الدول ، وسادت فيه الجاسوسية وإهدار قيمة الإنسان ، وتفككت دوله وانهار كيانه .

«ونجد فى أمريكا وفرة فى الأرزاق ، وتمكيننا فى الأرض ، ومع ذلك نجد هبوطاً فى المستوى الأخلاقى ، وهبوطاً فى تصوّر الحياة إلى الدرك الأسفل ، فيقوم كلّه على الدولار » ^(١٤) .

لقد بينَ القرآن أن الله يختبرنا بالخير والشر فتنة ، قال تعالى : وَنَبِّئُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ...

(الأنبياء : ٢٥)

إن الأمة الإسلامية مدعوة إلى الرجوع إلى هدى القرآن الكريم والسنة المطهرة ، والارتفاع إلى مستوى الأحداث ، والتقدم العلمى والعملى ، والرقى فى السلوك والأخلاق ، لتعود بحق : خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... (آل عمران : ١١٠) .

ولن نجد باباً مفتوحاً لعز الدنيا وسعادة الآخرة أوسع من باب الله ، والفهم الصحيح لكتابه ، والقُدوة الذكية لسنّة نبينا ، والتبصّر بأحداث أيامنا ، وقلقه الواقع الذى نعيش فيه ، حتى يغيّر الله ما بنا من تخلف وهوان .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (الرعد : ١١) .

وكما قال سبحانه وتعالى : إِنْ تَنَصَرُوا لِلَّهِ نَتَنَصِّرْكُمْ وَنُقِمْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧) .

١٢ - وَيُؤْمِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا .

إن إيمانكم بالله والتوبة والاستغفار ، يكون مصدراً للرزق والمطر وتيسير الأموال والأولاد ، أى يكثر أموالكم وأبناءكم ويجعل لكم الحدائق الظليلة ، والبساتين الفسيحة ذات الأشجار المظللة المثمرة ، ويجعل لكم الأنهار تجري خلالها .

لقد حرك نوح فيهم الرغبة فى الغنى والمال والأولاد ، والزروع والبساتين والأنهار ، ويبين أن كفرهم بالله وعبادة الأوثان مصدر القحط والبلاء ، وأن الطاعة والإيمان مصدر الخيرات والبركات .

ثم عاد نوح فهُزَّ نفوسهم هزاً ، وحرك قلوبهم نحو الإيمان ، فقال :

١٣ - مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا .

ما لكم لا تعظمون الله حق تعظيبيه ، ولا تخافون بأسه ولا انتقامه ، ولا تتقربون إليه بالمعاشاة ، ولا تخشون عقوبته بترك المعاصى .

١٤ - وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا .

وقد خلقكم فى أطوار مختلفة ، ومراحل متعددة تدل على كمال قدرته .

فقد خلقنا الله من النطفة ، ثم جعل النطفة (وهى الحيوان المنوى الذى يتم به إخصاب بويضة الأنثى) تتحول إلى علقه (أى قطعة دم تعلق بجدار الرحم وتمسك به لتكون فى قرار مكين) ، ثم مضغة (أى قطعة لحم قدر ما يمرضح الإنسان فى فمه) ، ثم تتحول المضغة إلى هيكل عظمى أولاً ، ثم تكسى العظام لحماً ثانياً ، ثم ينبغ الله فيه الروح فيصبح خلقاً آخر وإنساناً سوياً .

قال تعالى : **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ • ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ • ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ • ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ .** (المؤمنون : ١٢ - ١٦) .

ونلاحظ أن الإنسان فى حياته يبدأ طفلاً ، ثم يافعا ، ثم فتى ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، فهى أطوار متعددة .

قال تعالى: **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَكَيْفَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** . (الروم: ٥٤) .

١٥ ، ١٦ - **أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا** .

ألم تشاهدوا بأعينكم نعم الله تعالى فوقكم : هذه السماوات الممتدة امتدادًا بعيدا ، وهي محكمة البناء ، وأيضا متطابقة ، كل سماء فوق الأخرى ، وكل سماء طبق الأخرى أيضا من غير مماسة ، وهي فى غاية الإحكام والإتقان .

قال تعالى : **مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ... (الملك : ٣)** .

وقد جعل الله القمر نورا يضىء ظلام الليل ، ويمكن الناس من أداء مهامهم فى البر والبحر والجو . وجعله متدرجا ، فيبدأ هلالا صغيرا ، ثم يكبر إلى أن يصير بدرا كامل الاستدارة ، ثم يقتاقص حتى يعود هلالا صغيرا ، ثم يستتر ليلة أو ليلتين ، وذلك لتعرف عدد السنين والحساب .

قال تعالى : **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ كُلِّ هِيَ مَرْقِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ... (البقرة : ١٨٩)** .

وجعل الله الشمس سراجا مضيئا يستضىء به أهل الدنيا ، والسراج ما كان ضوءه من ذاته كالشمس ، والمنير ما استمد نوره من غيره كالقمر ، وهذا من إعجاز القرآن ، أنه عبر عن الشمس بالسراج ، وعن القمر بالنور .

وقد تقرر فى علم الفلك أن نور الشمس ذاتى فيها ، ونور القمر عرضى مكتسب من نور الشمس ، فسبحان الذى أحاط بكل شىء علما ، وقد أنزل هذا القرآن على نبي أمي ، وأنزله بهذه الدقة التى تبين أنه ليس من تأليف بشر ، ولكنه تنزيل من حكيم عليم .

ونحو الآية قوله تعالى : **هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** . (يونس : ٥) .

١٧ ، ١٨ - **وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** .

كما يخرج النبات من الأرض ويتغذى بتربتها ، خلق الله آدم من تراب الأرض ، وخلق ذريته من النطفة ، وهى مكونة من الدم ، والدم خلاصة النُّبَات ، والنبات من الأرض ، وهناك صلة بيننا وبين الأرض ، فهى أُمنا نعيش عليها ، ونتمتع بخيراتها ، وندفن فى ترابها .

قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . (طه : ٥٥) .

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا .

ثم يعيدنا الله إلى الأرض عند الموت ، حيث ندفن في ترابها ، ثم يخرجنا الله إخراجا محققا لا ريب فيه ، عند البعث والحشر والحساب والجزاء .

١٩ ، ٢٠ - وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا * تَسْلُكُونَ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا .

من نعم الله أنه جعل الأرض لنا بساطا ممتدًا ، نزرعها ونحصد خيراتها ، وننتفع بثمراتها ، وجعل لنا فيها طرقا واسعة للتنقل فيها ، أو مسالك ومعابر بين الجبال لنتنقل من مكان إلى مكان .

أى أن نوحا لفت أنظارهم إلى بديع صنع الله فى خلق السماء والأرض ، والشمس والقمر ، وأفاق الكون ، وأفاق النفس .

قال تعالى : سَرَّيْهِمْ أَئِتَيْنَا إِلَى الْأَفَاقِ وَلِىَ أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... (فصلت : ٥٣) .

★ ★ ★

شكوى نوح إلى ربه سبحانه وتعالى

﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ ائْتِمِّمْ عَصَوْنِى وَأَتَّبِعُوا مَآلِىْ ، وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝ ﴾ (١١) وَمَكْرُؤًا مَكَرًا

كُبَارًا ۝ ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا الْهَتَكُمْ وَلَا تَنْذِرُنَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ ﴾ (١٢)

وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۝ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ۝ ﴾ (١٣)

المعطرات :

الخسار ، الخسران .

مكرا كبيرا ، كبيرًا عظيمًا .

لا تذرنا آلهتكم ، التزموا عبادتها ولا تتركوها على الإطلاق .

وَذَوَسُوا أَسْمَاءَ أَصْنَامٍ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا .

تمهيد:

يعرض نوح شكواه على ربه القدير ، فقد قَدَمَ نوح النصيح والإرشاد ، سرّاً وجهرًا ، ليلاً ونهارًا ، ومع كل ما فعل هرب القوم منه ، وخالفوا أمره ، وتركوا دعوته ، وساروا وراء دعاة آثمين ، غرهم المال والجاه ، والأولاد والسلطان ، فازدادوا خُسْرَانًا وكفَرَانًا ، وابتغوا الاحتيال على البسطاء والعامّة ، والحوّا عليهم بالكفر والبعد عن نوح ، والالتزام بعبادة الأصنام ، خصوصاً أكبر الأصنام وهي خمسة : ودّ ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر ، ولقد ضل هؤلاء الكفار وأضلوا كثيراً من العامة ، وهنا دعا نوح ربه بأن يزيد هؤلاء الظالمين الطغاة ، دعاة السوء والكفر ، ضلالاً ويبعدا عن الهداية ، عقوبة عاجلة في الدنيا ، وسبيلاً إلى النار في الآخرة .

التفسير :

٢١ ، ٢٢ - قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خُسْرًا ۖ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا .

كَرَّرَ نوح شكواه إلى الله الخبير العليم ، فقال :

رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي . أى : خالفوا أمرى ، وأعرضوا عن رسالتي ، واتبعوا عمالقة الكفر الذين غرهم المال والولد والجاه ، فتركوا الرشاد والإيمان ، وسلكوا طريق الكفر والبخران .
وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا .

دَبَّرُوا الكيد لإغراء البسطاء والدُهْمَاء من العامة ، بالكيد واستمرار التوصية لهم بالابتعاد عن نوح ، والاستمرار على عبادة الأصنام .

كما يقول الضعفاء لهؤلاء الكبراء المضللين يوم القيامة : بَلْ مَكَرَ الْبَلِيلِ وَالْأَشْهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ: أَنْدَادًا ... (سبا: ٣٣) .

٢٣ - وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا .

قال هؤلاء القادة المضللون لأتباعهم : لا تتبعوا نوحاً ولا تعبدوا رب نوح ، ولا تتركوا عبادة آلِهَتكم ، أى التى عبدتموها سابقاً فصارت آلِهَتكم ، لإثارة النخوة فيهم حتى يتعصبوا لها ، ولا تتركوا عبادة الأصنام والأوثان كلها ، وخصوصاً عبادة الخمسة للكبار .

وَلَا تَدْرُونَ وَاذًا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يُغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا .

وهى أصنام انتقلت إلى العرب فيما بعد ، وهى أسماء لأشخاص صالحين ، زَيْن الشيطان لبعض أتباعهم أن يتخذوا لهم صوراً ورموزاً ، ليكون هذا أنشط لهم فى العبادة والاقتداء ، فسُورَوهُم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبَّ إليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم ، وبهم يُسقون المطر ، فعبدوهم .^(١)

وقد أخرج البخارى ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : صارت هذه الأوثان فى العرب بعد ، فكان :

وَدَّ : لكلب .

سُوع : لهذيل .

يُغُوث : لغُطيف بالجَرْف عند سبأ .

يَعُوق : لهمدان .

نسر : لِحُمَيْر آل ذى الكَلَاع . اهـ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين ، مثل :

اللات : لتقيف بالطائف .

العُزَّى : لسليم وطفان وجُشم .

مناة : لخزاعة بقديد .

أساف : لأهل مكة .

نائلة : لأهل مكة .

هُبَل : لأهل مكة ، وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ، ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة^(٢) .

وليس المراد أن أعيان هذه الأصنام صارت إليهم ، بل المراد أنهم أخذوا هذه الأسماء ، وسمَّوا بها أصنامهم .

٢٤ - وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا .

أى : أضلّ القادة المبتطلون خلقا كثيرا بهذه الأصنام ، أو أضلت الأصنام خلقا كثيرا ، حيث توهّموا أنها آلهة حقا ، وأنها تنفع أو تضرّ ، وهو وهم خاطئ ، وقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة ، فقلدهم الناس بدون أدلة عقلية أو عقلية ، أو برهان أو حجة .

كما قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه لله : وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ... (إبراهيم : ٣٥ ، ٣٦) .

وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا .

توجه نوح إلى ربه بعد أن يش من هداية هؤلاء الطغاة المضللين ، قائلا : لا تزد هؤلاء الظالمين المشجعين للناس على عبادة الأصنام إلا ضلالا وبعدا عن الهداية .

كما قال موسى عليه السلام حين دعا على فرعون وملئه : رَبَّنَا آتِنَا عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . (يونس : ٨٨) .

وقد استجاب الله لنوح فأغرق قومه المكذبين ، واستجاب الله لموسى فأغرق فرعون وماله .

★ ★ ★

ختم سورة نوح

﴿مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذِلُّوْنَا إِنَّا فَاعِلٌ بِمَا يُحَدِّثُوا هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

المضردات :

مما خطيئتهم : من أجل ذنوبهم وأثامهم .

أغرقوا : بالطوفان .

فادخلوا ناراً، عذاباً فى القبر .

ديــــــــــــاراً، أى أحداً ، يقال : ما بالدار ديار ، أى : ما بها أحد .

إلا فاجرا كفاراً، من سيفجر ويكفر ، فوصفهم بما يصيرون إليه لو وثقه بذلك ، نتيجة لتجربته الطويلة .

تــــــــــــــــــــاراً ، هلاكاً ، ويدعى بالتضعيف فيقال : تبره الله ، إذا أهلكه .

تمهيد:

ذكر القرآن شكوى نوح إلى ربه فبين هنا استجابة الله له ، وإغراق الكافرين من قوم نوح ، وأنهم لم يجدوا من يدفع عنهم ، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله .

ثم أخبر بدعاء نوح على قومه ، وعلل نوح ذلك بأنهم ضالون ، ولا يلدون إلا كفاراً ضالاً ، ثم ختم السورة بدعاء نوح لنفسه ولوالديه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة .

التفسير:

٢٥ - مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَذِلُّوْا نَارًا فَلَمَّ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا .

بسبب ذنوبهم ، وإعراضهم عن الإيمان ، وإصرارهم على الكفر ، أغرقهم الله بالطوفان ، ثم أدخلهم النار فى عذاب القبر ، أو أدخلهم نار جهنم ، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ، ولم تنفعهم الأصنام التى عبدوها من دون الله ، لقد حاق بهم سوء عملهم ، فأهلكهم الغرق فى الدنيا ، ولهم عذاب السعير يوم القيامة .

وقريب من ذلك قوله تعالى : فَذَعَارَبَهُمْ أَنْى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ • فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ .

(القمر: ١٠، ١١)

٢٦ - وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا .

توضح الآية أن غرقهم المذكور فى الآية السابقة كان بسبب ذنوبهم ، وبسبب دعاء نوح عليهم ، فقد طال مكثه فيهم ، وما آمن منهم إلا قليل ، وأخبره الله : أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . (هود: ٣٦) .

فدعا الله أن يهلك جميع الكافرين ، وألا يترك منهم أحداً يسكن داراً .

لقد مكث نوح فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وسلك كل سبيل إلى دعوتهم ، لكنهم صموا أذانهم ، وتحجرت قلوبهم ، وكانوا طغاة بغاة ظالمين ، فدعا نوح ربه أن يطهر الأرض من الظالمين ، وأن يغسلها بالطوفان ، حتى لا يكون هؤلاء الطغاة عقبة فى وجه إيمان الجيل الجديد .

٢٧ - إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .

إنك يا ربنا إذا تركت هؤلاء الكافرين الطغاة فسيحملون الناس على الشرك بدعوتهم لعبادة الأصنام .
وهم في نفس الوقت يحذرون ذريتهم من اتباع نوح ، فكان الرجل يأتي بابنه إلى نوح ، ويقول له :
احذر من هذا الرجل فلا تتبعه ، فقد حذرنى أبى من اتباعه ، وأنا أحذرك من اتباعه .

وتبين لنوح أن الضلال أصيل فيهم ، فهم أباطرة في الضلال والإضلال ، لذلك قال نوح :

إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .

إنك إن تتركهم أحياء يتسببوا في إضلال المؤمنين من عبادك بحيلهم وكيدهم ، وأبنائهم سيتبعونهم
ويكونون مثلهم في الفجور والكفران .

٢٨ - رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِلَٰهِي وَلِلَّذِينَ دَخَلُ يَتَى مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا .

تختتم السورة بهذه الآية الكريمة ، وهى ترنيمة دعاء من نبي صالح .

رَبِّ اغْفِرْ لِي .

فالرسول بشر ، فى حاجة إلى مغفرة الله وستره وتوفيقه ، ثم دعاء لوالديه ، وير المؤمن بوالديه
أصول الأديان .

ثم دعاء لكل من دخل بيته مؤمنا ، مشتركاً معه فى حقيقة الإيمان . فَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ أُخُوَّةٌ عَامَةٌ ،
ورحم يجب أن توصل ، لذلك ختم دعاءه بقوله :

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .

أى : واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يدل على سر عجب ، وأصرة قوية تربط بين المؤمنين
والمؤمنات ، مهما تباعد الزمان أو المكان ، فإن أخوة الإيمان بالله أصرة قوية ، ورياط وثيق بين المؤمنين
من عهد آدم إلى قيام الساعة .

وَلَا تَرِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا .

أى : أهلك هؤلاء الظالمين لأنهم عقبة فى سبيل دعوة الإيمان والخير .

وقد استجاب الله دعاءه فأغرق الظالمين ، ونجى المؤمنين .

وسجّلت السورة كفاح هذا النبي الكريم ، والرسول الصابر الذي لَوْن في أسلوب دعوته ، وصبر وصابر ، ليكون قدوة وأسوة للدعاة والهداة . والله ولى التوفيق .

★ ★ ★

وكان ختام تفسير سورة (نوح) مساء الجمعة ٢٨ من ذى الحجة ١٤٢١ هـ ، الموافق ٢٣ من مارس ٢٠٠١ م .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

تفسير سورة الجن

أهداف سورة الجن

(سورة الجن مكية ، وآياتها ٢٨ آية ، نزلت بعد سورة الأعراف)

وهي سورة تصحح كثيراً من المعلومات الخاطئة لأهل الجاهلية عن الجن ، حيث كانوا يزعمون أن محمداً ﷺ يتلقى ما يقوله لهم من الجن ، فتجىء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها ، ويتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئاً .

والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد ﷺ ، فهاهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، فانطلقوا يحدثون عن هذا الحدث العظيم الذي شغل السماء والأرض ، والإنس والجن والملائكة والكواكب ، وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ، وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حتماً .

أوهام عن الجن

كان العرب يبالغون في أهمية الجن ، ويعتقدون أن لهم سلطاناً في الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواو أو قفر لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه .. ثم يبيت آمناً .

كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب ، وتخبر به الكهان فينبئون بما يتنبأون ، وفيهم من عبد الجن ، وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم أن له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة . وهكذا نجد كثيراً من الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم ، وتصوراتهم عن الجن في القديم ، ولا تزال هذه الأوهام تسود بعض البيئات إلى يومنا هذا .

ونجد في الصف الآخر منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيب بأنه حديث خرافة .

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم .

الجن في القرآن

تحدث القرآن الكريم عن الجن في عدد من السور ، وقد عالج القرآن الأخطاء الشائعة عن الجن ، وأثبت الحقيقة فيما يتصل بهم ، وأعطى للإنسان صورة واضحة دقيقة متحررة من الوهم والخرافة ، ومن التعسف في الإنكار الجامح ، فالجن عالم نؤمن به وبخصائصه كما وردت في القرآن الكريم ، والجن لا يظهر للعين ولا يراه الإنسان بحاسة البصر .

قال تعالى : إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... (الأعراف : ٢٧) .

والجن منهم الضالون المضلون ، ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون ، ومنهم المستقيمون على الطريق القويم والمنهج السليم ، وليس للجن معرفة بالغيب ، وليس لهم قوة ولا حيلة مع قوة الله ، وليس بينهم وبين الله صهر ولا نسب ، وقد كان إبليس من الجن ثم فسق عن أمر ربه وتمحض للشر والفساد والإغواء ، وقد خلق الجن من النار ، كما خلق الإنسان من الطين .

وقد سخرت الجن لسليمان عليه السلام ، فمنهم من كان يبني له المساجد والمنازل والأبنية المختلفة ، ومنهم من كان يغوص في البحر يستخرج له اللؤلؤ والياقوت والأحجار الكريمة ، وسلطه الله على المردة والخارجين على القانون ، فكان يقيدهم في السلاسل والأغلال ، ويسخرهم في الأعمال ، ويرهقهم بألوان العذاب ، وقد جعل الله السيطرة على الجن منحة خاصة لسليمان عليه السلام ، فقد سأل ربه ملكاً لا يتheyأ لأحد من بعده ، فأعطاه الله ملك الريح والجن والشياطين والمردة :

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْصِبُنِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ • فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ • وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ • وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ • هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ • وَإِنْ لَمْ عِنْدَنَا لُزْلُقَىٰ وَحُسْنُ مَثَابٍ . (ص : ٣٥ - ٤٠) .

«إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى ، وهذه السورة من القرآن - كغيرها - تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقى صحيح للوجود ، وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا ، وهذا التصور هو الذى يميز المسلم ، ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول ، ومصدره هو القرآن والسنة ، وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر ، وكل قول ، وكل تفسير»^(١٧) .

استماع الجن للقرآن

فى كتب السنة ما يفيد أن الجن قد استمعت للقرآن عرضاً دون قصد ، فأسلمت وأمنت ، وانطلقت تدعو قومها إلى الإسلام .

وفى روايات أخرى أن النبى ﷺ انطلق متعمداً ليبلغ دعوته إلى الجن ، وقد افتقده أصحابه ذات ليلة فاشتد بهم القلق ، ويأتوا بشرُّ ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحوا جاءهم النبى ﷺ من قبل حراء ، فقال : «أتأتى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن» . والروايتان السابقتان واردتان فى الصحيح ، إحداهما عن ابن عباس تقول إن النبى ﷺ لم يعرف بحضور النفر من الجن ، والرواية الثانية عن ابن مسعود تقول إنهم استدعوه ، ويوفق البيهقى بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وفى رواية ثالثة لابن إسحاق أن الجن استمعت إلى النبى ﷺ ليلة عودته من الطائف قبل الهجرة .

ولعل الجن قد استمعت للنبى ﷺ أكثر من مرة ، وكان فى استماع الجن للنبى بمكة قبل الهجرة تطييب لخواطره ، وتصديق لدعوته ، وتحقيق للحق بشأن الجن ، وتصحيح لمفاهيم الجاهلية عن الجن ، وإرشاد للمسلمين ليكون إيمانهم عن بينة ، وقد ساقى سورة الجن كثيراً من الحقائق عن الألوهية والعقيدة والوحدانية ، وإخلاص العبادة لله سبحانه ، فهى سورة الجن ولكنها توجيه وإرشاد وتعليم للخلق أجمعين .

أسماء السورة

نلاحظ أن السورة فى القرآن تسمى بأغرب شئ فيها أو أهم شئ فيها ، فسورة البقرة اشتملت على قصة قتيل ضُرب بقطعة من البقرة فردت إليه الحياة ، وسورة آل عمران اشتملت على قصة مريم ابنة عمران ، وسورة النساء اشتملت على ذكر أحكام النساء ، وسورة المائدة اشتملت على قصة المائدة التى نزلت من السماء استجابة لدعاء عيسى عليه السلام .

كما سُمى الله سبحانه سور كتابه بأسماء تبعث على النظر والاعتبار ، وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام ، وبالحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هو ألطف من ذلك كالنور ، كما سُمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وبعض الأخلاق كالنوبة ، وبعض الكواكب العلوية كالشمس والقمر والنجم ، وبعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وبعض المعادن كالحديد ، وبعض الأماكن كالبلد ، وبعض النبات كالنبتين ، وكل ذلك مما نراه .

وهنا سُمي هذه السورة بعالم لا نراه وهو عالم الجن ، وهو عالم لم يعرف في الإسلام إلا من طريق الوحي ، وليس للعقل دليل عليه ، فالمؤمن يؤمن بالغيب ، ويؤمن بالملائكة والجن على نحو ما ورد في القرآن .

وسميت السورة سورة الجن لأنها تحدثت عنهم وبدأت بذكرهم ، فقالت : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا . (الجن : ١) .

مع آيات السورة

١ ، ٢ - تطالعنا السورة بأن الجن فوجئت باستماع القرآن الكريم ، فقالوا لقومهم : إنا سمعنا كتاباً بديعاً يهدى إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ، فصدقنا به ، ولن نعود إلى ما كنا عليه من الإشراك بالله .

٣ - ثم نزهوا ربهم عن الزوجة والولد ، فقالوا : علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه ، الذين تضطربهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة ، أو ملامسة يكون منها الولد ، وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءت من صهر مع الجن ، فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة الأسطورية ، في تسبيح لله وتنزيه له .

٤ - وأن الجهال من الجن كانوا يقولون قولاً شططاً بعيداً عن الصواب ، بنسبة الولد والصاحبة إليه تعالى .

٥ - وأنهم كانوا يستعظمون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله ، فلما قال لهم سفهاؤهم : إن لله صاحبة وولداً ، صدقوهم لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله .

٦ - وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعينون في القفر برجال من الجن فزادوا الجن بذلك طغياناً وغياً ، إنهم لما استعانوا بالجن خوفاً منهم ولم يستعينوا بالله ، استذلّوهم واجترأوا عليهم .

٧ - ظنّت الطائفة الظالمة من الجن أن الله لن يبعث رسولاً إلى خلقه يدعوهم إلى توحيدهِ والإيمان برسله واليوم الآخر . أو ظنّوا أن لن يبعث الله أحداً بعد الموت ، وهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله . وهؤلاء النفر من الجن المؤمن يصححون لقومهم ظنّهم ، والقرآن في حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهامهم .

٨ ، ٩ - كان الجن يحاولون الاتصال بالمأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه بين الملائكة ، عن شئون الخلائق في الأرض ، ثم يوحون ما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، الذين يستغلون الكثير من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس .

ويعد رسالة النبي محمد ﷺ ، حاولت الجن استراق السمع من السماء فلم يتمكنوا ، لأن الحراسة شددت على السماء ، ومن حاول استراق السمع ومعرفة الغيب رجم بالشهب فتقتله أو تخبله .

١٠ - إن الجن لا تعلم شيئاً عن الغيب المقدر للبشر ، ولا يدرون الحكمة من حراسة السماء بالشهب ، ولا ماذا قدر الله لعباده فى الأرض ، أعذاباً أراد الله أن ينزله بهم ، أم أراد بهم ربهم الهدى ، بأن يبعث فيهم رسولاً مرشداً يهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

١١ - من الجن الصالح والطالح ، ومنهم المسلم والجان ، فهم مثلهم مثل الإنسان فى طبيعته ، لديهم استعداد للخير والشر ، إلا من تمحض منهم للشر وهو إبليس وقبيله .

١٢ - إن الله قادر علينا حيث كنا فلا نفوته هرباً ، فهم يقررون ضعف المخلوق أمام الخالق ، ويشعرون بسلطان الله القاهر الغالب .

١٣ - لما سمعنا القرآن صدقنا به وأقرنا بأنه من عند الله ، ومن يصدق بالله وبما أنزله على رسله فلا يخاف نقصاً من حسناته ، ولا هواناً ولا جوراً ، لأن المؤمن فى حماية الله وعونه ورعايته ، وسينال جزاءه وافراً كاملاً .

١٤ - من الجن فريق مؤمن أطاع الله واستقام على الهدى ، وفريق قاسط جائر مائل عن الصواب ، وقد وصل الفريق المؤمن إلى الصواب ، حين اختار الإسلام وحرص على الرشد والاعتدال .

١٥ - أما الجائرون عن سنن الإسلام فشأنهم أن يكونوا خطباً لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالخطب .

١٦ - تلتفت القرآن فى الخطاب ، ويتنقل من الحديث على لسان الجن إلى مخاطبة الرسول والخلق أجمعين فيقول : لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام لوسعنا عليهم أرزاقهم ، ولبسنا لهم خيرات الحياة .

١٧ - وهذه النعم للاختبار والابتلاء ، فمن شكر النعمة وأحسن التصرف فيها استحق بقاءها ، ومن أعرض عن منهج الله دخل فى العذاب الشاق الذى يعلوه ويغلبه ولا يطيق له حملاً .

١٨ - إن السجود أو مواضع السجود - وهى المساجد - لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار ، وينفرد الجو للعبودية الخالصة لله .

١٩ - لما قام محمد ﷺ يعبد الله ، كاد الجن يكونون جماعات بعضها فوق بعض تعجباً مما شاهدوا من عبادته ، وسمعوا من قراءته ، واقتداء أصحابه به قياماً وركوعاً وسجوداً ، وأخذوا وذهبوا من جلال

ما سمعوا ، وروعة ما شاهدوا ، وهو دليل على انشغال السماء والأرض والملائكة والجن بهذا الوحي ، وعلى الجِدِّ الذى يتضمنه : إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ * وَمَا هُوَ بِلَهْزَلٍ . (الطارق : ١٣ ، ١٤) .

٢٠ - قل يا محمد للناس : إنما أعبد الله وحده ، ولا أشرك بعبادته صنماً ولا وثناً ولا مخلوقاً .

٢١ - قل : إني لا أملك لكم نفعاً ولا ضرراً ، فالله وحده هو الذى يملك الضرَّ ويملك الخير .

٢٢ ، ٢٣ - إني لا أجد ملجأً أو حماية من دون الله ، إلا أن أبلغ هذا الأمر ، وأؤدى هذه الأمانة ، فهذا الأمر ليس أمرى ، وليس لى فيه شئ إلا التبليغ ، ولا مقرلى من هذا التبليغ ، والرسالة ليست تطوعاً ، وإنما هى تكليف صارم جازم لا مفر من أدائه ، فالله من ورائه .

يقول الله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ... (المائدة : ٦٧) .

ومن يكذب برسالات الله فإن له ناراً يصلها ، خالداً فيها إلى غير نهاية .

٢٤ - وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون ، أى الفريقين هو الضعيف المخذول ، القليل المهزول .

٢٥ - ويتجرّد الرسول وينفض يده من أمر الغيب ، فالعذاب الذى يتوعد به الكافرين ليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعداً ، ولا يدرى أقرب هو أم بعيد يجعل الله له أمداً ممتداً ، سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فكله غيب فى علم الله .

٢٦ - والله سبحانه هو المختص بالغيب دون العالمين .

٢٧ - والرسال الذين يرتضيههم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحي : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه فى اللوح المحفوظ ... إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم ، مما كان فى ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفى الوقت ذاته يحيط بهؤلاء الرسل الأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللوقاية ، بحمومهم من وسوسة النفس وتمنياتها ، ومن الضعف البشرى فى أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف ومن سائر ما يعترى البشر من النقص والضعف .

والخلاصة : إنه يدخل حفظة من الملائكة يحفظون قوى الرسول الظاهرة والباطنة من الشياطين ويعصمونه من وساوسهم .

٢٨ - وهذه الحراسة الشديدة ليظهر الله للناس أجمعين أن الملائكة قد أبلغوا رسالات ربهم ، غير مشوية بتخليط من الجن أو من الجنون ، وهو سبحانه محيط علمًا بجميع أحوال أولئك الوسائط ، وهو سبحانه أحصى كل شيء عددًا ، فلا تقتصر إحاطته على ما لدى الرسل ، بل يحيط بكل شيء إحصاء وعدًا ، وهو أدق أنواع الإحاطة والعلم . وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة التي بدئت بروعة الجن من سماع القرآن ، وخُتمت بإحاطة الله الشاملة لمن يؤدون رسالته ، وحمايته لمن يبلغون دعوته ، وقد وسع علمه السماوات والأرض وكل ما فى الوجود .

المقصد الإجمالى للسورة

اشتملت سورة الجن على مقصدين :

- ١ - حكاية أقوال صدرت عن الجن حين سمعوا القرآن ، كوصفهم له بأنه كتاب يهdy إلى الرشd ، وأن الرب سبحانه تنزه عن الصاحبة والولد ، وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله ، وأن رجالاً من الإنس كانوا يستعيزون فى القفر برجال من الجن ، وأن الجن طلبوا خبر العالم العلوى فمَنعوا ، وأن الجن لا يدرون ماذا يحل بالأرض من هذا المنع ، وأن الجن منهم الأبرار ومنهم الفجَّار ، ومنهم مسلمون وجائرون عادلون عن الحق .
- ٢ - ما أمر النبى ﷺ بتبليغه إلى الخلق ، ككونه لا يُشرك بربه أحداً ، وأنه لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، وأنه لا يمنع أحد من الله إن عصاه ، وأنه ﷺ لا يدرى متى يكون وقت تعذيبهم فالعلم لله وحده ، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله ، ثم من اصطفى من الرُّسل .

استماع الجن للقرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۝٧ ﴾

المضردات :

أوحى إلى : الوحي شرعاً : إعلام الله تعالى أنبياءه ما يريد إبلاغهم به من الشرائع والأخبار بطريق خفى .
النفسر : ما بين الثلاثة والعشرة .

الجن : واحد هم جنى ، كروم ورومى .

عجبا ، بديعاً مبايناً لكلام الناس ، فى حسن النظم ودفقة المعنى .

جدُّ ربنا ، عظمتة وسلطانه وجلاله ، يقال : جدُّ فلان فى عينى ، أى : عظم ، قال أنس : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدُّ فينا ، أى : جل قدره وعظم .

السفيه : الجاهل أو الأحمق .

شططاً ، غلواً مجاوزاً الحد ، فى نسبة الصاحبة والولد إلى الله .

يعوذون ، يلتجئون ، وكان الرجل إذا أمسى يقفر قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من سقهاء قومه .

رهقاً ، تكبراً ، وأصل الرهق : الإثم وغشيان المحارم .

التفسير :

١ - قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا .

قل يا محمد لقومك : إن جبريل أخبرني بأن جماعة من الجن ، قد استمعت القرآن من النبي ﷺ وهو قائم في صلاة الفجر بعد عودته من الطائف ، فقال الجن لإخوانهم ولقومهم :

إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا .

أى : باهرًا عجيبًا بديعًا فى حسن نظمه ، ودقة معانيه ، فهو عجيب باهر فى أسلوبه ونظامه ووصف معانيه ، وهو عجيب باهر فى رشاقة ألفاظه ، وتسلسل أفكاره ، وهو عجيب باهر فيما اشتمل عليه من أحكام وتشريع وآداب ، وأخبار عن الأمم الماضية ، ومشاهد للقيامة والحساب والجزاء ، والصراط والميزان ، والجنة والنار .

٢ - يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا .

هذا القرآن يهذى إلى الرشد ، وإلى العقل والحكمة والهداية ومرضاة الله ، وإلى البعد عن الذرق والطيش والفساد والانحراف ، لذلك آمنا بهذا الكتاب المتميز ، الهادى للرشاد والحكمة ، ولن نشرك بعبادة الله أحدًا ، بل نعبد الله وحده لا شريك له .

٣ - وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا .

الجد : العظمة والسمو .

وفى الأثر : كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدّ فينا . أى : جل قدره .

والمعنى :

تنزه الله ، وجل قدرينا ، فهو إله منزّه عن كل نقص ، متّصف بكل كمال ، ليس فى حاجة إلى صاحبة ، وليس فى حاجة إلى ولد ، إنما يحتاج إلى ذلك الإنسان ليأنس بالزوجة ، ويفتخر بالولد ، ويحتمى به عند الكبر ، أما الله جلّ جلاله ، وتقَدّست أسماؤه ، فلا يحتاج إلى زوجة أو ولد ، وإنما هو سبحانه منزّه عن ذلك ، فهو الإله الحقّ ، المنزه عن الاحتياج إلى أى شيء ، المستغنى عن كل شيء .

والخلاصة : تنزه الله العظيم الجليل عن أن يتخذ زوجة أو ولدًا .

٤ - وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا .

إن الجاهل فينا والأحمق ، أو ضعيف العقل ، أو إبليس كان يقول على الله قولاً بعيداً عن الصواب ، بعيداً عن الحق والاعتدال ، حيث كان يدعى أن لله صاحبة أو ولداً ، أو كان إبليس يدعوهم إلى عبادة غير الله .

٥ - وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لِنَ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .

ظننا أن أحداً من الإنس أو الجن لا يجروا على أن يكذب على الله الجليل العظيم ، فلما سمعنا القرآن يُنزه الله الواحد الأحد عن الشريك وعن الصاحبة والولد ، تيقننا بصدق القرآن ، وبافتراء وكذب من ادعى أن لله صاحبة أو ولداً أو شريكاً ، حيث كان السفهاء يروجون أن الله تزوج من سارة الجن ، فأنجبت له الملائكة ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وأن لله زوجة من الجن ، وكل هذه المفتريات أدركوا كذبها بعد سماع القرآن ، ووصول الإيمان إلى قلوبهم ، فأدركوا على الفور كذب هذا السفه ، وهكذا الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وكأن هذه الآية نداء جهير لأهل مكة ، يقول لهم : أما تشاهدون أن الجن سمع القرآن مرة واحدة ، فاهتمت وأمن وصدق بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وبالقرآن كتاباً سماوياً منزلاً من عند الله على رسوله ، هادياً إلى الرشd والحق ، وأنتم تسمعون القرآن منذ الجهر بالدعوة ، وتعرضون عن هدايته ، فما أقسى قلوبكم ، وما أبعدكم عن الهدى .

٦ - وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا .

كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا أمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادي ، أو بعزير هذا المكان ، من شر سفهاء قومه ، يريد الجن وكبيرهم فيبيت في جواره حتى يصبح .

وهذه الاستعاذة من الإنس بعزير الجن وكبيرهم ، زادت الجن تيهاً وكبراً ، وصلفاً وعتوراً ، حيث قالت الجن : سُدْنَا الْإِنسَ وَالْجِنِّ ، أو أن الجن زادوا الإنس خوفاً وفرقاً ، بل زادوهم كُفْراً ، إذ الاستعاذة لا تكون إلا بالله ، وأن تعظيم الجن والخوف منهم ، واعتقاد أن لهم ضرراً أو نفعاً بدون إذن الله ، يؤدي إلى فساد العقيدة .

وخلاصة المعنى :

كان بعض رجال الإنس يتحصنون ويتعوذون بسادة الجن ، فعبت الجن بهؤلاء الناس ، وزادتهم خوفاً وقلقاً واضطراباً ، ويؤخذ من ذلك أن المؤمن يتحصن بالقرآن الكريم والسنة الصحيحة ، كما ورد في المأثورات .

ومما يتعوذ به المؤمن من الحسد والعين والسحر والجن ما يأتي :

١ - قراءة الفاتحة .

٢ - آية الكرسي .

٣ - خواتيم سورة البقرة .

٤ - بسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله .

٥ - قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

٦ - قَالَهُ خَيْرٌ حَلِيفًا وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّاجِمِينَ . (يوسف : ٦٤) .

٧ - إخراج صدقة .

٨ - (لنبيذك بكلمات ربنا التامَّات المباركات ، ما علمت منها وما لم أعلم ، من شرِّ ما ينزل في الأرض وما يخرج منها ، وما يصعد إلى السماء وما ينزل منها ، ومن طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن) .

٩ - اليقين الجازم بأن بيد الله الخلق والأمر ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ما نفَعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء ما ضرُّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، فهذا اليقين هو الصخرة الصماء التي تتكسر عليها سهام الحاسدين والمؤذنين .

إن العقيدة الصادقة بأن بيد الله كلَّ شيء ، وأن الجن لا تستطيع نفعاً أو ضرراً إلا بإذن الله ، ذلك هو الذي يبديد الخوف والقلق ، ويبعث على الرضا وراحة البال وسعادة النفس .

٧ - وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا .

ظنَّ بعض الإنس كما ظنَّ الجن أن الله لن يبعث رسولاً لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وإرشادهم إلى العقيدة الصحيحة ، والتفكير الأمثل السوي .

أو تُفهَم الآية على النحو الآتي :

ظنَّ كفار قريش كما ظنَّت الجن أنه لا بعث ولا حشر ، ولا حساب ولا جزاء ، وكلاهما فهم خاطئ .
فأله يرسل الرسل لهداية الناس ، والله أكد أن البعث حق : قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ... (التغابن : ٧) .

حتى يجازى كل إنسان بما عمل ، بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً .

معلومات عن الجن

﴿وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْثَ حَرِّ سَائِدٍ أَوْ شَهَابٍ ۝٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ اللَّسْمِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا ۝٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ۝١٠﴾ وَأَنَا مِمَّا الصِّلَاحُونَ وَنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَا ۝١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۝١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدْيَ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ وَأَنَا مِمَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشْدًا ۝١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ وَالْوَلَوِ اسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ۚ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ لِنَفْنِيَهُمْ فِيهِ ۖ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾﴾

المضردات :

وَأَنَا لِمَسْنَا السَّمَاءَ : طلبنا خبرها كما جرت بذلك عادتنا .

حَرِّ سَائِدٍ : الحرس والحراس واحدهم حارس ، وهو الرقيب .

شَدِيدًا : قويًا .

الاستماع : الاستماع .

الشَهَاب : واحدها شهاب ، وهو الشعلة المقتبسة من نار الكواكب .

رَصْدًا : أرصد له ليرمى به .

طَرِيقًا قَدَا : جماعات متفرقة ، وفرقًا شتى ، أو مذاهب مختلفة .

قَدَا : جمع قَدَا ، وهي القطعة من الشيء .

نُعْجِزُ اللَّهَ : نفوته ونتقلت منه .

هَرَبًا : هاربين إلى السماء .

الْبَحْسُ : النقص على سبيل الظلم .

رهقنا، ظلمًا ومشقة عليه، بالزيادة في آثامه وسيئاته.

السقاسطون، الجائرون والمائلون عن طريق الحق.

تحرروا رشدا، قصدوا طريق الحق والصواب.

حطبا، وقودًا للنار.

الطريقة، هي طريق الإسلام.

غدقا، كثيرًا.

لنفتنهم فيه، لنختبرهم، أيكفرون أم يشكرون.

يسلكه، يدخله.

صعدا، شاقًا، يعلوه ويغلبه فلا يطيقه، ومنه قول عمر: (ما تصعدني شيء كما تصعدني في خطبة النكاح)، أي: ما شق عليّ.

التفسير:

٨ - وَأَنَا لَمُسَا السَّمَاءِ فَوَجَدْنَهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا .

أي: طلينا بلوغ السماء، والتنصت على أخبارها كما كنّا نغفل في الجاهلية، فرجدنا السماء قد ملئت بالحراس الأشداء من الملائكة، التي تمنع الجنّ من استراق السمع والتقاط أخبار السماء ونقلها إلى الكهان فيزيد الكاهن على الكلمة الواحدة تسعًا، فيصدق في كلمة ويكذب في الباقي، فإذا عيروه بالكذب وعدم تحقق ما قاله، أجب الكاهن: ألم أخبركم بشأن كذا يوم كذا، وقد صدق؟

وإذا حمل الجنى خبر السماء، وأقلت من حراسة الملائكة تبعه شهاب من نيران الكواكب، يقتله أو يخبئه، ويمنعه من نقل أسرار السماء.

وفي الأحاديث النبوية الصحيحة ما يفيد أن الجنّ كانت ترصّ بعضها فوق بعض، فيضع الجنى أقدامه فوق كتف الأول، ويضع الثالث أقدامه فوق كتف الثاني وهكذا، حتى يستطيع آخر جنى أن يسمع خبر السماء، وأن يقتنصت على كلام الملائكة، تقول لبعضها مثلاً: قضى الليلة بموت فلان، أو نصر فلان، فينقل الجنى الخبر إلى الكهان، فيكذب الكاهن مع الكلمة تسعًا، فلما أرسل الله محمدًا ﷺ شددت الحراسة على السماء، فمن أراد أن يقعد في مكان قريب من السماء لاستراق السمع، منعه الحراس وأحرقته الشهب بئيرانها لا تخططاه، والفرض من ذلك حفظ الوحي والقرآن الكريم من استراق الشياطين.

٩ - وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَةً لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَجِدُ لَهَا شَيْهَابًا رُّصْدًا .

أى : كنا فى الجاهلية نجد أماكن خالية نجلس فيها ، ونقعد لاستماع حديث الملائكة مع بعضها ، لكن الأمر تغير ، فمن حاول الجلوس لاستماع أخبار السماء وجد شهاباً محرقةً من النار ، مترصداً له ليقتله أو ليخبله .

١٠ - وَأَنَا لَا نَدْرِي أَخَرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَكْعَةً .

لقد تغير الحال عما ألقناه ، فقد كنا نسترق السمع ، ونجلس فى مقاعد قرب السماء نسمع أخبار الغيب فى الجاهلية ، والآن شُددت الحراسة على السماء ، ومُنعتنا من استراق السمع ، لا ندري ، هل هذا العمل بسبب عذاب أرادَه الله بأهل الأرض المكذبين لرسله ، أم أراد الله بهم خيراً وفضلاً حين يرسل رسولاً ، فيؤمنون به ويهتدون برسالته .

١١ - وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا .

تخبر الجن عن نفسها بأنها نوعان : المؤمنون الصالحون المستقيمون على أمر الله ، والكافرون الرافضون للإيمان .

كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا .

كُنَّا مذاهب مختلفة ، وجماعات متعددة ، بعضها بالغ الحسن فى الصلاح ، وبعضها دون ذلك فى الدرجة والاستقامة ، أو بعضها كافر فاجر ، فكُنَّا فرقاً شتى ، وأدياناً مختلفة .

قال سعيد بن المسيب : كُنَّا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوساً .

١٢ - وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا .

تيقناً وتأكدنا أننا فى قبضة الله وسلطانه أينما كنَّا ، فأين المهرب من قضاء الله وقدره ، وبيده سبحانه الخلق والأمر ؟

قال القرطبي : أى علمنا بالاستدلال والتفكر فى آيات الله أننا فى قبضته وسلطانه ، لن نفوته بهرب

ولا غيره . اهـ .

وقال غيره : لن نعجز الله فى الأرض مع بسطها وسعتها وكثرة فجاجها ، وتشعب طرقها ، فلا نفوته إذا أراد بنا أمراً أينما كنّا فيها ، ولن نستطيع أن نفلت منه - عز وجل - هرباً إلى السماء ، وإن هربنا فلن نخلص منه ، وذلك لشدة قدرته وعظيم سلطانه .

هذه هى الجن تعترف بعجزها وانكسارها أمام القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

١٣ - وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا النَّهْدَىٰ أَمَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِهِ فَلَإِ يَخَافُ بِهِ خَسَافًا وَلَا رَهَقًا .

يعود الجن إلى سعادتهم بالإيمان والقرآن ، فيقولون : وأنا لما سمعنا القرآن يتلى -- وهداية ورشد -- آمنا به ، وصدقنا بالإسلام ، وبرسالة محمد ﷺ ، فالمؤمن فى رعاية الله وعدالته ، وحاشا لله أن يظلم أحداً .

قال تعالى : مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ... (النساء : ١٤٧) .

فمن يؤمن بالله فلا يخاف بخساً ولا نقصاً من حسناته ، ولا يخاف رهقاً ، أى : إرهاقه بالسينات أو بالهوان والمذلة .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكْ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠) .

وقال عز شأنه : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

١٤ ، ١٥ - وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا • وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا .

الجن طائفة منها المسلم المؤمن المستقيم الذى رجح جانب الخير على جانب الشر ، شأن مسلم الإنس ، ومنهم الجائر الظالم .

فأما المسلم فقد اختار الرشد ، وبحث وتحرى عن عقيدته التى يدين بها ، فاختر الإسلام ، وأما الكافرون الظالمون فقد أثروا الضلال والعناد ، فمآلهم جهنم ، وسوف يكونون وقود النار وحطبها .

روى عن سعيد بن جبير رحمه الله ، أن الحجاج بن يوسف الثقفى قال له حين أراد قتله : ما تقول فى ؟ فقال سعيد : قاسط عادل ، فقال القوم : ما أحسن ما قال ، فقال الدجاج . يا جهلة ، إنه سمأنى ظالمًا مشركًا ، وتلا لهم قوله تعالى : وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . وقوله عز وجل : ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يُعَذِّبُونَ . (الأنعام : ١) .

١٦، ١٧ - وَأَلَوْ اسْتَقْنُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۖ لَتَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُنَا عَذَابًا صَعَدًا .

يلتفت الخطاب ويتغير من الحديث على لسان الجن إلى خطاب موجّه من الله تعالى لنبيه وللبرية كلها ، يدعوها إلى الهداية والإيمان بالله ، ويبين أن سعادة الدنيا والآخرة في طاعة الله ورسوله ، والتمسك بأهداف التشريع الإلهي .

والمعنى :

لو أن الجن والإنس استقاموا على طريقة الإسلام لأغدق الله عليهم النعم ، وحفّتهم بركات السماء ، فحيث يكون الماء يكون المال ، وحيث يكون المال تكون الفتنة والاختبار .

لَتَفْتِنَهُمْ فِيهِ ...

لنعاملهم معاملة المختبر ، حيث نعطيهم النعمة ونرى تصرفهم حيالها .

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكُنَا عَذَابًا صَعَدًا .

ومن أعرض عن هدى الله ، واختار العاجلة على الآجلة ، ترك الله قلبه للشقاء والعذاب المتصاعد الأليم ، الذي يعلوه ويغلبه ولا يطيق له حملا .

وآياتان تشيران إلى سنة من سنن الله ، وهى إسعاد من يختار طريق الهدى ، لأنه متناسق مع الكون ، خاضع لأمر الله ، متوافق مع سنن الله ، ومع نواميس الكون والحياة ، وأن من يعرض عن هداية الله وشرعه يَصْبُ بالتعاسة والعذاب الداخلى الذى لا يطيق حمله ، ولا التغلب عليه .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .

(الأنبياء : ١٠٥)

وقوله عز شأنه : وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (الأعراف : ٩٦) .

وفى صحيح البخارى : «إن هذا المال خَصْبَةٌ حلوة ، فمن أخذه بحقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه من غير حقه كان كالذى يأكل ولا يشبع ، وإن مما يذنب الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم ، إلا أكلة الخضراء ، أكلت حتى إذا امتلأت خامرتاًها (جنبها) استقبلت عين الشمس فظلمت وبالت»^(٩٤) .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج لكم من زهرة الدنيا» ، قالوا : وما زهرة الدنيا ؟ قال : «بركات الأرض»^(٢١) .

وجاء فى تفسير القرطبي : أن رسول الله ﷺ قال : «والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم»^(٢٢) .

★ ★ ★

صدق العقيدة

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَازِجَهُنَّ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ ﴿

المعطرات :

المساجد : واحدها مسجد ، وهو موضع السجود للصلاة والعبادة ، ويدخل فيها الكنائس والبيع ومساجد المسلمين .

فلا تدعوا : فلا تعبدوا .

يعدده : يعبده .

لبدا : جماعات ، شُبهت بالشىء المتلبد ، المتراكم بعضه فوق بعض ، من ازدحامهم عليه .

ولاشدا : ولا نفعا .

ملتحددا : ملجأ يركن إليه ، قال الشاعر :

يا لهف نفسى ونفسى غير مُجَدِّية عتّى وما من قضاء الله مُلْتَحِدٌ
بلاغاً من الله ، تبليغاً لرسالاته ، أى : لا أملك لكم إلا البلاغ ، أى : تبليغ الرسالات .

حتى إذا رأوا ما يوصدون ، ما يوعدون به من العذاب فى الدنيا كوقعة بدر ، أو فى الآخرة بعذاب النار .

فسيعلمون : عند حلول العذاب بهم يوم بدر ، أو يوم القيامة .

من أضعف ناصرا وأقل عددا ، من أضعف أعوانا ، وأقل عددا ، هو أم هم .

سبب النزول :

سبب نزول الآية (١٨) :

وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ ... الآية .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا ، فنشهد معك الصلوات فى مسجدك ، فأنزل الله : وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . وروى ذلك أيضا عن الأعمش .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جببر قال : قالت الجن للنبي ﷺ : كيف لنا نأتى المسجد ونحن نأوون عنك ، أى : بعيدون عنك ، أو كيف نشهد الصلاة ونحن نأوون عنك ، فنزلت : وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ ... الآية .

سبب نزول الآية (٢٠) :

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي ... سبب نزولها كما ذكر الشوكانى : أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجيرك .

سبب نزول الآية (٢٢) :

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي ... أخرج ابن جرير ، عن حضرمي أنه ذكر أن جنيا من الجن من أشرافهم ذا تبع قال : إنما يريد محمد أن يجيره الله ، وأنا أجيره ، فأنزل الله : قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ... الآية .^(٣١)

التفسير :

١٨ - وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا .

كان المشركون يضعون الأصنام حول الكعبة ، ويدعونها ويتقربون إليها مع عبادتهم لله تعالى ، فأنزل الله تعالى هذا التوجيه الإلهي ، يفيد أن المساجد لله وحده ، فلا يجوز أن يُعبد صنم أو وثن أو شخص مع الله عز وجل ، أى أخلصوا المساجد لتوحيد الله وعبادته عبادة خالصة له ، ولا تدعوا معه أى أحد من المخلوقين .

وقال سعيد بن جببر : نزلت فى أعضاء السجود ، أى هى لله فلا تسجدوا بها لغير الله .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين ، والركبتين ، وأطراف القدمين»^(٣١) . فلا يجوز السجود بها لغير الله .

وقيل : المعنى : أفردوا المساجد لذكر الله ، ولا تتخذوها مَزْوَاً ومتجراً ومجلساً وطرقاً ، ولا تجعلوا لغير الله فيها نصيباً .

وفى الحديث : «من نشد ضالة فى المسجد فقولوا : لا رُدّها الله عليك ، فإن المساجد لم تبَن لذلك»^(٣٢) .

وروى ابن عباس أن النبی ﷺ كان إذا دخل المسجد قَدَمَ رجله اليمنى وقال : وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا . «اللهم أنا عبدك وذاثرك ، وعلى كلِّ مَزْور حقّ ، وأنت خير مَزْور ، فأسألك برحمتك أن تفلّح رقبتي من النار» ، فإذا خرج من المسجد قَدَمَ رجله اليسرى وقال : «اللهم صُبْ على الخير صَباً ، ولا تنزع عني صالح ما أعطيتني أبداً ، ولا تجعل معيشتي كُذّاً ، واجعل لى فى الأرض جُداً» . أى غنى .

١٩ - وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا .

وأنه لما قام رسول الله ﷺ يعبد ربه فى صلاة الفجر فى بطن نخلة ، ويوم أصحابه خلفه فى نظام وعبادة ، ومتابعة فى الركوع والسجود ، تجمّع الجنّ وتراكموا متزاحمين ، متعجبين مما رأوه من عبادته ، ومما تلاه من القرآن العظيم .

واللبد : الشئ الذى تلبّد بعضه فوق بعض ، ولفظ : لبداً . جمع لبدة ، وهى الجماعة المتزاحمة ، ومنه لبدة الأسد للشعر المتزاحم فى رقبته .

وقد وصف الله نبيه محمداً ﷺ بأنه عبد الله ، تكريماً وتشريعاً له ﷺ .

وقيل :

معنى الآية : لما قام عبد الله (محمّد) ﷺ يدعوه وحده ، مخالفاً المشركين فى عبادتهم ، كاد المشركون يزدحمون عليه ، متراكمين ، لا يسمعون ويطيعون ، وإنما ليجدوا ثغرة أو وسيلة ينفذون منها ، لتنفيذ الناس من القرآن الكريم .

والرأى الأول أرجح ، لأن الآثار قد وردت ، فى أن الجنّ قد التفوا حول النبی ﷺ ، حين سمعوه يقرأ القرآن ، وهو الموافق للآية الأولى من سورة الجنّ .

قال الزبير بن العوام : هم الجنّ ، حين استمعوا القرآن من النبی ﷺ ، كادوا يركب بعضهم بعضاً ، ازدحاماً عليه .

٢٠ - قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا .

قل يا محمد لأهل مكة ، وللأنس والجن وسائر من تدعوهم للإسلام : إن دعوتي خالصة مجردة لعبادة الله وحده ، ولا أعبد مع الله صنمًا ولا وثناً .

سبب النزول :

قال كفار قريش للرسول ﷺ : إنك جئت بأمر عظيم ، وقد عادت الناس كلهم ، فارجع عن هذا فنحن نجبرك ؛ فنزلت الآية تأمر الرسول ﷺ أن يخبرهم بأنه يعبد ربه وحده لا شريك له ، ولا يشرك بعبادته أحدًا ، وأنه لا مجبر له من عذاب الله ، ولن يجد ملجأ أو ملتحذًا يحميه من عذاب الله إن أراد به .

٢١ - قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَحْمَةً .

إنه التجرد الكامل ، وبيان وظيفته ﷺ ، وهي الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة ، أمّا الهداية أو الغواية ، فذلك بيد الله وحده ، الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وييسر الهداية للمتقين ، ويسلب الهدى عن الضالين .

وفى الحديث الشريف : « أفلا نتكل يا رسول الله » ؟

أى : أفلا نعتمد على أن كل إنسان قد حُدد مصيره إلى الجنة أو إلى النار ؟

فقال ﷺ : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، إن الله عن وجل يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى .^(١) (الليل : ٥ - ١٠) .

قال ابن كثير :

وقوله تعالى : قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَحْمَةً .

أى : إنما أنا عبد من عباد الله ، ليس لى من الأمر شيء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل . ١ هـ .

٢٢ ، ٢٣ - قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَذًا * إِلَّا نَلْبِغُا مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ يُنْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا .

قل يا محمد : إننى رسول الله ، أبلغ رسالته ، ولا أتأخر عما أمرنى به ربي ، ولا يملك أحد أن يجيرنى من عذاب الله ، ولا تملكون أنتم ذلك ، بل ولا تملك الدنيا كلها أن تحمينى من عذاب الله إن أرادنى بسوء ،

فلا رادّ لما يريد ، وإن أجد من دون الله ملجأ أو مهرباً أو ملتحداً أركن إليه ، فما من قضاء الله مهرب ، وليس من أمر الله مغرّ .

وفى هذا المعنى يقول الله عز وجل : وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .

(الرعد : ١١)

إِلَّا بَلَّغْنَا مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِنَاهُ ...

إن المخلص والنجاة لى من عذاب الله لا يكمن إلا فى أن أبلغ رسالة ربى إليكم ، فليس على إلا البلاغ ، وأنا لا أملك هدايتكم ، فالله وحده هو الذى يملك ذلك ، فأنا متجرد لتبليغ الرسالة ، ولا يحمينى من عذاب الله إلا تبليغ ما أرسلت به إليكم ، وحمل الرسالة والقرآن إلى مسامعكم .

كما قال تعالى : يَكَلِّمُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ لَمَّا يَبْلُغْ رِسَالَتَهُ ... (المائدة : ٦٧) .

قال ابن كثير : أى لا يجبرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب الله على أدامها .

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا .

أى : أنا أبلغكم رسالة الله ودعوته إلى التوحيد ، والإيمان بالله ربنا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، ومن يعص الله ورسوله فجزاؤه نار جهنم خالدين فيها ، أى ماكثين فيها أبداً على الدوام ، ولا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، فقد كانوا عازمين على الشرك بالله أبداً مدة حياتهم ، فعاقبهم الله بالخلود فى النار أبداً مدة آخرتهم .

وقوله : أَبَدًا . دليل على أن العصيان هنا هو الشرك ، وإنما جمع خالدين . حملا على معنى من . لأن لفظها مفرد ومعناها جمع .

٢٤ - حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا .

حتى إذا رأى المشركون المعاندون ما يوعدون من الهزيمة فى بدر ، أو عذاب جهنم يوم القيامة ، فسيعلمون من هو الضعيف المخذول ، المهزوم أمام خصمه ، هم أم المؤمنون فى الدنيا ، ومن هو الضعيف المهزوم أمام الآخر ، هم أم الله عز وجل وملأنته وجنده يوم القيامة ، وقد نصر المؤمنون يوم بدر وهزم المشركون ، وفى القيامة سيدخل المؤمنون الجنة ، ويدخل الكافرون النار .

قال صاحب الظلال :

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، ويقيسون قوتهم إلى قوة محمد ﷺ والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون - إما في الدنيا وإما في الآخرة - مَنْ أضعفُ ناصراً وَأَقْلُ عَدُوًّا . وأيّ الفريقين هو الضعيف المخذول ، القليل الهزيل . اهـ .

★ ★ ★

ختم سورة الجن

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

أَمَدًا ، زماناً بعيداً أو قريباً .

الغَيب : ما خفى واستتر .

ارْتَضَى : اختار واصطفى .

رَصَدًا ، حَفْظَةً .

أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ : علمه علماً تاماً .

وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ، ضبط كل شيء معدوداً محصوراً .

تمهيد :

أمر سبحانه وتعالى رسوله أَنْ يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أَقْرَبُ وقتها أم بعيد ، وأنه لا يعلم شيئاً من الغيب إلا إذا أعلمه الله به ، وهو سبحانه يعلم أن الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويعلم الأشياء إجمالاً وتفصيلاً ، وكان الكفار يتساءلون : متى يكون هذا اليوم الذي توعدنا به ؟ فأنزل الله هذه الآيات .

التفسير :

٢٥ - قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبَ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَكَ رَبِّي أَمَدًا .

كان النبي ﷺ كلما خُوف المشركين أهوال الساعة ، وأهوال الحساب والجزاء ، وأهوال يوم القيامة ، قال المشركون : متى يكون هذا اليوم الذي تُخَوِّفنا به ؟ سؤال استبعاد وتشكك ، فأنزل الله ردًا عليهم أن القيامة ستقوم قطعًا ، ولا علم لى كرسول مبلِّغ عن الله بوقتها ، هل قريب أم بعيد ، فذلك لا يعلمه إلا الله .

قال تعالى : يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا • فِيهِمُ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا • إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰهَا • إِنَّمَا أَنْتَ مُنْبِئُ مَنْ يَخْشَىٰهَا . (النازعات : ٤٢ - ٤٥) .

وفى الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن الساعة فقال : «ما المسئول عنها بأعام من السائل ، وسأنبئك عن أسرارها (علاماتها) : أن تلد الأمة ربُّتها ، وأن يتناول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، وأن يصبح الحفاة العالة سادة الأمم»^(٣١) .

والمعنى :

من علامات الساعة كثرة العقوق حتى أن الابن يستخدم أمه كخادمة ، والبدو الرُّحْل يتناولون فى بناء العمارات العالية ، ويوسد الحكم إلى الحفاة الحثالة ، أو أن من لا أصل له ولا تاريخ يزيّنه يصبح سيد الموقف .

ونادى أعرابى على النبي ﷺ بصوت جهورى ، فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : «ويحك إنها كائنة ، فما أعددت لها» ؟ قال : أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، قال ﷺ : «فأنت مع من أحببت» ، قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث^(٣٢) .

٢٦ - عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا .

الله تعالى وحده هو عالم الغيب ، فلا يطلع على هذا الغيب أحد سواه ، ومن هذا الغيب علم الساعة .

قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىٰ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٤) .

٢٧ - إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رُسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا .

اختص الله وحده بعلم الغيب ، لكن من ارتضاه سبحانه واختاره لرسالته ، سواء أكان من الملائكة كجبريل ، أم من البشر كمحمد ﷺ ، فإن الله تعالى يعلمه بشيء من الغيب ، بالطريقة التي يختارها الله ، وفي الوقت الذي يشاؤه الله ، وعندما ينتقل الوحي أو الغيب إلى الرسول من الملائكة أو إلى الرسول من البشر فإن الله تعالى ييسر له حراسة مترصدة تحفظه من جميع الجهات ، ليظل الوحي في مكان أمين حتى يصل إلى البشر غير مختلط بمعرفة الشياطين له .

وعن الضحاك : ما بُعث نبي إلا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين ، الذين يتشبهون بصورة الملك ، فإذا جاء شيطان في صورة الملك ، قالوا : هذا شيطان فاحذره ، وإن جاء الملك قالوا : هذا رسول ربك .
والخلاصة : إن الله تعالى يسخر حفظه من الملائكة ، يحفظون قواه الظاهرة والباطنة من الشياطين ، ويعصمونه من وساوسهم .

وفي الآيتين (٢٦ ، ٢٧) من سورة الجن دليل على أن الرسل - عليهم السلام - مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات .

قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ لِي يُبَوِّغَكُمْ ... (آل عمران : ٤٩) .

وفي قوله تعالى : إِلَّا مَنْ أَرْزَقْنِي مِنْ رُسُولٍ ...

إشارة إلى إبطال الكهانة والسحر والتنجيم ؛ لأن أصحابها أبعد شيء عن ارتضاء الله ، وأدخل ما يكون في سخطه وغضبه .

وقد أفاد القرطبي في تفسير الآيتين أن الغيب لله وحده لا يطلع عليه إلا من ارتضى من رسله ، وليس المنجم ومن ضاهاه ، ممن يضرب بالحصى ، وينظر في الكتب ، ويذجر بالطير ممن ارتضاه من رسول ، فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، بل هو كافر بالله ، مُفْتَرٍ عليه بحُده وتخمينه وكذبه ، وليت شعري ما يقول المنجم في سفينة ركب فيها ألف إنسان ، على اختلاف أحوالهم وطوالهم ، وتباين مواليدهم ، ودرجات نجومهم ، فعمهم حكم الغرق في ساعة واحدة ، فلا فائدة أبداً في عمل المواليد ، ولا دلالة على شقي ولا سعيد ، ولم يبق إلا معاندة القرآن العظيم ، وفيه استحلال دمه على هذا التنجيم .

قل للمنجم صَبْحَةُ الطوفان هل وُلِدَ الجسيمُ بِكوكبِ الغَرْقِ

«وقيل لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه لما أراد لقاء الخوارج : أتلقاهم والقمر فى العقب ؟ فقال رضى الله عنه : فأين قمرهم ؟ وكان ذلك فى آخر الشهر .

فانظر إلى هذه الكلمة التى أجاب بها ، وما فيها من المبالغة فى الرد على من يقول بالتنجيم ، والإفحام لكل جاهل يحقق أحكام النجوم .

وقال له مسافر بن عوف : يا أمير المؤمنين ، لا تسر فى هذه الساعة ، وسر فى ثلاث ساعات يمضين من النهار . فقال له على رضى الله عنه : ولم ؟ قال : إنك إن سرت فى هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك بلاء وضرٌ شديد ، وإن سرت فى الساعة التى أمرتك بها ظفرت بها ظفرت وظهرت وأصبحت ما طلبت . فقال على رضى الله عنه : ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده - فى كلام طويل يحتج فيه بأيات من التنزيل - فمن صدقك فى هذا القول لم آمن عليه أن يكون كمن اتخذ من دون الله نداً أو ضدًا ، اللهم لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك . ثم قال للمتكلم : نكذبك ونخالفك ونسير فى الساعة التى تنهانا عنها . ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إياكم وتعلم النجوم إلا ما تهتدون به فى ظلمات البر والبحر ، وإنما المنجم كالساحر ، والساحر كالكاfer ، والكاfer فى النار ، والله لئن بلغنى أنك تنظر فى النجوم وتعمل بها لأخلدك فى الحبس ما بقيت ويقيت ، ولأحرمنك العطاء ما كان لى سلطان . ثم سافر فى الساعة التى نهاها عنها ، ولقى القوم فقتلهم وهى وقعة النهروان الثابتة فى الصحيح لمسلم .

ثم قال : لو سرنّا فى الساعة التى أمرنا بها وظفرنا وظهورنا لقال قائل : سار فى الساعة التى أمر بها المنجم . ما كان لمحمد ﷺ منجم ولا لنا من بعده ، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان ، ثم قال : يا أيها الناس ، توكّلوا على الله وثقّوا به ، فإنه يكفى ممن سواه» (١٧١) .

٢٨ - يُعَلِّمُ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَذْدًا .

ليعلم الله سبحانه وتعالى علم مشاهدة وواقع ، كما علمه غيباً وأزلاً فى علمه القديم ، أن الرسل عليهم السلام قد أبْلَغُوا رسالات ربهم كما طلب منهم ، وألزَمُوا العباد الحجة بهذا البلاغ ، وقد أخاط سبحانه وتعالى بما عند الرسل من الملائكة ، وبما عند الرسل من البشر ، ظاهراً وباطناً من الأحكام والشرائع ، وبما يسره لهم من الحفظ وتأمين وصول الرسالات سالمة من كل تغيير أو تبديل ، وأخاط علمه سبحانه وتعالى بكل شىء فى الوجود ، فهو عالم علمًا كاملاً بكل شىء فى الكون ، وذلك مثل القطر والمطر والرمال وورق الأشجار وماء البحار ، وبالأفراد والجماعات والأمم وسائر المخلوقات .

وأورد القرطبي عدة آراء في تفسير هذه الآية ، من بينها ما يأتي :

لقد أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بحفظ الوحى ، ليعلم أن الرُّسل قبله كانوا على مثل حالته من التبليغ بالحق والصدق ، أو ليعلم أن جبريل ومن معه قد أبلغوا إليه رسالة ربه .

وقال الزجاج : ليعلم الله أن رسله قد أبلغوا رسالاته ، كقوله تعالى : وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

أى : ليعلم الله ذلك علم مشاهدة كما علمه غيباً .

وقال مجاهد : ليعلم من كذب الرُّسل أن المرسلين قد بلغوا رسالات ربهم .

وقرأ الجماعة : يُعْلَمَ . بفتح الياء ، وتأويله ما ذكرناه ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وحמיד ويعقوب بضم الياء ، أى لِيُعْلَمَ الناس أن الرسل قد أبلغوا^(٩٨) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة المزمل

أهداف سورة المزمل

(سورة المزمل مكية، وآياتها ٢٠ آية، نزلت بعد سورة القلم)

وهي سورة تحمل النداء الإلهي للنبي الكريم بقيام الليل، وقد جعله الله فريضة في حقه، نافذة في حق أمته.

قال تعالى: وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ غَسَىٰ أَنْ يُعَيْتَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩).

وفي كتب السنة ما يفيد أن هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، فقد كان النبي ﷺ يعيش بين قومه في الجاهلية، ثم حبيب الله إليه الخلوة ليتأمل في ملكوت السماوات والأرض، وليعده الله لتحمل أعباء الرسالة، ثم فجأه الوحي وهو في غار حراء، حيث قال له جبريل: اقرأ، قال النبي: «ما أنا بقارئ» ثلاث مرات، فقال جبريل: أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (العلق : ١ - ٥).

وقد عاد النبي ﷺ إلى خديجة وأخبرها الخبر، فقالت له: أبشر يا ابن عمّ واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم فتر الوحي مدة عن النبي ﷺ إلى أن كان بالجبل مرة أخرى، فنظر فإذا جبريل، فأدركته منه رجفة، حتى جثا وهوى إلى الأرض، وانطلق إلى أهله يرجف يقول: «زملوني، دثروني»، ففعلوا، وظل يرتجف مما به من الروح، وإذا جبريل يناديه: يا أيها المزمل، يا أيها المدثر.

وسورة المزمل تعرض صفحة من تاريخ الدعوة الإسلامية، إنها تنادي النبي الكريم، وتأمره بقيام الليل، والصلاة وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل، والاتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذبين، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار.

وتنتهي السورة بلمسة الرفق والرحمة، والتخفيف والتيسير، والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويع برحمة الله ومغفرته: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . (المزمل : ٢٠).

والسورة تمثل صفحة من جهاد النبي الكريم ، وصحبه الأبرار فى سبيل الدعوة إلى الله ، وحشد جميع الطاقات من أجل هذه الدعوة ، فقد قام النبي ﷺ فى مكة والمدينة داعيا إلى الله ، صابرا محتسبا ، مهاجرا ومجاهدا ومربيا ، وناشرا لدعوة الله بكل ما يملك ، منذ قال له القرآن : قُمْ لِلَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا . (المزمل : ٢) .

وكان قيام الليل هو الزاد الروحي ، والتعبئة الإلهية لهذا القلب الكريم ، حتى يصدر بالدعوة ، ويتحمل فى سبيلها كل بلاء ، وليصبر ويصابر ، وليحتسب كل جهد فى سبيل الله : وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَأْتِيكَ وَأَنْفِرْهُمْ هَاجِرًا جَبِيلًا . (المزمل : ١٠) .

مع آيات السورة

١ - ٤ - أمر الله رسوله أن يقوم من الليل ثلثة أو نصفه أو ثلثيه ، فهو مخير فى ذلك ، وأن يقرأ القرآن الكريم على مهل وتؤدة ، مع حضور القلب لتدبر معانيه وفهم مقاصده .

٥ - القرآن يسره الله للقراءة ، ولكنه ثقيل فى ميزان الحق ، ثقيل فى أثره فى القلوب ، ثقيل فى قيمته الراجعة ، ومعانيه الراقية ، وما فيه من تكاليف وأعباء .

٦ - إن قيام الليل هو أكبر موافقة بين القلب واللسان ، وأعدل قولاً .

٧ - وفى النهار متسع لشئون المعاش ، ولك فيه تصرف فى مهام أمورك ، واشتغال بمشاغلك .

٨ ، ٩ - واتجه إلى الله بالعبادة وحضور القلب ، واذكره وتضرع إليه ، فى إنابة وطاعة وإخلاص ، فهو رب الكون كله ، والنوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة فى هذا الوجود .

١٠ - واصبر على ما يقولون فى حقك وحق ربك ، واهجرهم هجرا جميلا ، بأن تجانبهم وتغضى عن زلاتهم ولا تعاتبهم .

١١ - ثم توعد المشركين وتهدهم ، وقال لنبيه ﷺ : اترك عقابهم لى وحدى ، فأنا كفيل بهم ، هؤلاء الذين تنعموا فى نعمائى ، أمهلهم وقتا قليلا من الزمن ، وسترى ما يحل بهم .

١٢ ، ١٣ - إِنَّ لَدُنَّا أَنْكَالًا . أى : قيودا ثقيلة توضع فى أرجلهم ، كلما أرادوا أن يرتفعوا جذبتهم إلى أسفل ، ثم هناك الجحيم ، والطعام ذو الغصة ، الذى يمزق الحلق ، والعذاب الأليم ، وكلها جزاء مناسب لمن كفر بنعمة الله .

١٤ - ويمتد الهول فى يوم القيامة إلى الأرض فتضطرب وتهتز ، وإلى الجبال فتتمزق أجزاؤها ، وتصير كالصوف المنفوش أو كومة الرمل المهيلة ، بعد أن كانت حجارة صماء متماسكة .

١٦، ١٥ - وبلغت القرآن إلى أهل مكة فيخاطبهم ، ويهزّ قلوبهم هزّاً ، ويخلعها خلعا ، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترتجف وتنهار ، فيحذرهم مما أصاب فرعون الجبار ، وقد أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، ومضمون القول : لقد أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصاه : فأخذناه أخذاً وببلا ، وأرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم ، فاحذروا أن تعصوه فيصيبكم مثل ما أصابه .

١٧، ١٨ - وهبوا أنكم لا تؤخذون في الدنيا كما أخذ فرعون ، فكيف تنتقون عذاب يوم القيامة ، وهو هول يُشيب الولدان ، وتنشق السماء من شدته ، وكان وعد الله ثابتاً مؤكداً لا خلف فيه ، وهو سبحانه فعال لما يريد .

١٩ - وأمام هول الآخرة يقول لهم : إن هذه الآيات تذكرة وعبرة ، فمن شاء اعتبر بها ، واتخذ طريقا إلى الله وهو آمن سالم ، قبل مجيء هذا الهول العصيب .

٢٠ - وفي الآية الأخيرة من السورة نجد لمسة التخفيف الندية ، ودعوة التيسير الإلهي . فقد لبى النبي ﷺ الدعوة إلى قيام الليل ، ولبى المسلمون الدعوة ، وتجاافت جنوبهم عن المضاجع ، وقاموا الليل حتى تورمت أقدامهم من طول القيام ، فقال القرآن : إن ريك يعلم أنك تقوم الليل ، ويرى تقلبك في الساجدين ، والله يعلم أنكم لن تحصوا ساعات الليل إحصاء تاما ، فإذا زدتم على المفروض ثقل ذلك عليكم وكلفتم ما ليس بغرض ، وإن نقصتم شق هذا عليكم ، فتأب عليكم ورجع بكم من تثقيل إلى تخفيف ، ومن عسر إلى يسر ، وطلب إليكم أن تصلوا ما تيسر من الليل على قدر طاقتكم .

وإن لهذا التخفيف حكمة أخرى ، وهي أنه علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يسبحون في الأرض يطلبون من فضل الله بالتجارة أو العلم ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار ممن ظلمكم بالقتال ، فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل بدون تقييد بقدر محدد ، وأقيموا الصلاة المفروضة ، وآتوا الزكاة الواجبة ، وتصدقوا بعد ذلك قرضا لله ، يبق لكم خيره ، ويرده الله إليكم أضعافا مضاعفة ، وما تقدموا لأنفسكم من صدقة أو عمل صالح في الدنيا ، تجدوا ثوابه عند الله يوم القيامة ، خيرا مما أوتيتم في دار الدنيا ، وأعظم منه أجرا ، واتجهوا إلى الله مستغفرين ، إن الله غفور رحيم .

إنها لمسة الرحمة والتخفيف بعد عام من الدعوة إلى القيام ، وقد خفف الله عن المسلمين فجعل قيام الليل لهم تطوعا لا فريضة .

أما رسول الله ﷺ فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجي ربه ويستمد منه العون والتوفيق في أداء رسالته . وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ . (هود : ٨٨) .

خلاصة أحكام السورة

- أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بما يأتي :
- ١ - قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه .
 - ٢ - قراءة القرآن بتؤدة وتمهل .
 - ٣ - ذكر ربه ليلا ونهارا بالتحميد والتسبيح والصلاة .
 - ٤ - التوكل على الله والاعتماد عليه .
 - ٥ - الصبر على ما يقول الكفار عنه من أنه ساحر أو شاعر ، وأن يهجرهم هجرا جميلا بمجانبتهم ومداراتهم ، وأن يكل أمرهم إلى ربهم فهو الذي يجازيهم ، وسيرى عاقبة أمرهم .
 - ٦ - التخفيف من صلاة الليل ، بعد أن شق ذلك عليهم لأعذار كثيرة ، والاكتفاء بما تيسر من صلاة الليل ، ففي الصلاة المفروضة غنية للأمة ، مع إيتاء الزكاة ودوام الاستغفار .

نداء إلهي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فِرَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ
 تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّكَ
 فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَسِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾

المضردات :

المزمّل : المتلفف بثيابه (النبي ﷺ) .

الليّل : من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

نصفه أو انقص منه قليلا : انقص من النصف قليلا إلى الثلث .

أوزد عليه : إلى الثلثين ، والمراد به التخيير بين قيام النصف ، والناقص منه ، والزائد عليه ،
 فهو ﷺ مخير بين قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه .

رتل القرآن : اقرأه بتمهل وتبيين حروف .

قولاً ثقيلاً : شاقاً على المكلفين ، أو له وزن واعتبار حيث يكون سببا في هداية أمة .

ناشئة الليل : العبادة التي تنشأ به وتحدث ، أو إحياء ما بين المغرب والعشاء ، أو إحياء
 الساعات التالية لصلاة العشاء .

أشدُّ وطْئا : ثباتا للقدم ، ورسوخاً في العبادة ، وقيل : أكثر مواطأة وتوافقاً بين القلب واللسان .

أقوم قِيلاً : أثبت قراءة لحضور القلب فيها .

سبحاً : تصرفاً وتقلباً في شواغلك .

تبتّل إليه تبتيلاً ، انقطع إلى عبادته تعالى ، واستغرق في مراقبته .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا .

أول ما بُدئ به ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو في غار حراء ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يعود إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، حيث ضمّه الملك ضمّاً شديداً حتى بلغ منه ﷺ الجهد ، وأرسله فقال : أَقْرَأْ . قال ﷺ : ما أنا بقارئ ، أى لا يعرف القراءة ، وتكرر ذلك ثلاث مرات .

ثم قال له : أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . (العلق : ١) .

وعاد ﷺ إلى مكة فدخل على خديجة ، وأخبرها الخبر ، ثم قال : «زملوني ، دثروني» . أى : غطوني ولغّوني في ثياب ، ليهذأ روعي ﷺ^(١) .

وسورة المزمّل هي السورة الرابعة في النزول ، سبقتها سورة العلق ، ثم ن ، ثم المدثر ، ثم نزلت المزمّل .

يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ .

يا أيها المتلطف بثيابه .

وقيل : كان ذلك تذكيراً له باللحظة التي كان فيها بعد نزول الوحي أول مرة ، وناداه الله بذلك تأنيساً لقلبه ، وملاطفة له .

وقيل : يا أيها المزمّل بالنبوة ، والملتزم بالرسالة .

قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .

شَمَّرَ عن ساعد الجدّ ، واهجر المنام ، واستعدّ للقيام بين يدي الملك العلام ، إنها فترة الإعداد لتلقى الوحي ، والجهاد في سبيل تبليغ الرسالة ، وهذه المهمة تحتاج إلى تعبئة روحية ، وشدة اتصال بين المخلوق والخالق . أى : استعدّ لقيام الليل ، إلا القليل منه تقضيه في النوم والراحة ، للاستعانة بذلك على تبليغ الرسالة .

نُصْفَهُ أَوْ أَتَقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا

أى : قُم نصف الليل ، أو أقل من النصف قليلا ، وهو الثلث .

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْجِيلًا .

أو زد على النصف إلى الثلثين ، فخُير رسول الله ﷺ بين قيام نصف الليل ، أو أقل منه قليلا وهو الثلث، أو أزيد من النصف وهو الثلثان .

وقيل : خُير بين قيام نصف الليل ، أو ريعه ، أو ثلاثة أرباعه ، والرأى الأول أولى .

وَرَزَّلَ الْقُرْآنَ تَرْجِيلًا .

اقرأ القرآن فى عناية وترتيل وتبيين ، وتجميل للصوت ، وأداء حسن ، فإن ذلك أعون على تبين المعانى ، وانشغال القلب مع اللسان .

روى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال : «زينوا القرآن بأصواتكم» .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» (١) .

أى : يُحسن صوته ويجمله ، ويهذبه ويجوده ، ليُعظم تأثير القرآن فى قلوب سامعيه .

وروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال لأبى موسى الأشعرى: «لقد أعطيت مزمارًا من مزامير آل داود» (٢) . فقال أبو موسى الأشعرى : يا رسول الله ، لو كنت أعلم أنك تسمع لحبرته لك تحبيرًا .

٥ - إِنْ سَأَلْتَنِى عَنْكَ قَوْلًا فَقِيلًا .

أى : تهبأ روحيا بقيام الليل ، واستعد للمناجاة والصلاة والتهدج ، وشفافية الروح والعبادة والمناداة ، لأن وحيا ثقيلا من عالم الغيب ، سيصل إليك مع جبريل الروح الأمين .

أولاً لأن هذا القرآن كلام الله ، مشتمل على الأمر والنهى والحلال والحرام ، والتشريع والقصص ، وهو كلام له وزن وقيمة وثقل ، وليس كلاماً سفاسفا لا ثقل له .

أو هو ثقل فى ميزان العبد يوم القيامة .

أو هو يحرك القلب والنفس والفؤاد إلى معرفة الخالق ، والتجاوب مع هذا الكون الخاضع لأمر الله تعالى .

قال تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (الحشر : ٢١) .

وفى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت : ولقد رأيت النبی ﷺ ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد وإن جبينه ليتفصد عرقا .^(٣٧)

وقال الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير :

والمراد من كونه ثقیلاً هو عظم قدره وجلالة خطره ، وكل شئ عظم خطره فهو ثقیل ، وهذا معنى قول ابن عباس : قَوْلًا ثَقِيلًا . يعنى كلاماً عظيماً .

٦ - إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً .

نَاشِئَةُ اللَّيْلِ . ساعات الليل ، وقيل : الصلاة بين المغرب والعشاء ، وقيل : ناشئة الليل هى الساعات التى تلى صلاة العشاء ، وقيل : هى الثلث الأخير من الليل .

وفى الصحيح : «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : يا عبادى ، هل من داع فاستجب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من طالب حاجة فأقضيها له ، حتى يطلع الفجر» .^(٣٨)

وقيل : ناشئة الليل هى جميع ساعات الليل وأوقاته ، حيث جعل الله ليلاً سباتاً ، ونوماً وراحة ، فقيام المؤمن يصلّى فى ظلام الليل ، وقد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وبقي الله الحى القيوم ، يجعل لهذه الصلاة مذاقاً خاصاً ، حيث يترك المؤمن فراشه ويتجافى عنه ، ويدعو ربّه .

كما قال تعالى : تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٦ ، ١٧) .

وقال تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الذاريات : ١٧ ، ١٨) .

وفى الحديث الشريف : «عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومطرده للداء عن الجسد» .^(٣٩)

وقيام الليل يكون سبباً في نور القبور على أصحابها ، وفي قيام الليل صفاء وهدوء وراحة وسعادة ، وموافقة القلب للسان ، وتغلب على الخلود إلى النوم .

ومعنى الآية :

إِنْ نَاشِئَةُ اللَّيْلِ . ما ينشأ في ساعات الليل بعد العشاء .

هِيَ أَشَدُّ وَطْناً . أجهد للبدن ، أو أشد مواطأة وموافقة بين القلب واللسان .

وَأَقْرَبُ قِيلاً . أثبت وأبين قولاً لهدوء الأصوات ، وانقطاع الحركات ، وذلك أعون للنفس على التدبر والتأمل في أسرار القرآن ومقاصده .

٧ - إِنْ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا .

السّبح هنا هو التصرف في الأعمال والأشغال .

لقد جعل الله النهار معاشاً ، وفيه تصرف وتقلب واشتغال طويلاً يشغون الإنسان ، فليكن الليل وهدوءه مبعث العبادة والمناجاة وذكر الله ، أي : يكفيك النهار للتصرف في أشغالك ، وتفرغ بالليل لعبادة ربك .

٨ - وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَغِ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

اذكر ربك بالتسبيح والتهليل ، والتحميد والاستغفار ، وتلاوة القران والتهجد .

وَتَبْتَغِ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا .

انقطع إليه انقطاعاً ، أي : حين تذكر الله اجمع مع ذكر اللسان موافقة القلب ، والتفرغ لعبادته ومناجاته ، والصفاء والنقاء في ذكره .

والتبّيل . هو الاشتغال الدائم بعبادته ، والانقطاع لطاعة الله تعالى .

ومنه قولهم : امرأة بتول ، أي : منقطعة عن الزواج ، ومتفرغة لعبادة الله .

وهذا الانقطاع والتفرغ مقصود به : انشغال الجوارح والذهن والفكر في وقت الذكر بالله .

وفى الحديث الشريف : «أوصانى ربى بتسع : الإخلاص لله فى السر والعلن ، والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا ، ونظرى عبدا» .

وقد أمرنا الله تعالى بذكره وشكره وحسن عبادته ، ومن الدُّعاء : «اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» .

وقال تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ يَخْرُجُكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا . (الأحزاب : ٤١ - ٤٣) .

ولعل ذلك أعون على تلقى الوحي والنهوض بشئون الرسالة .

٩ - رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا .

هو سبحانه وتعالى رب المشرق الذى تشرق منه الشمس ، والمغرب الذى تغرب منه الشمس ، والمراد أن الجهات كلها لله وتحت تصرفه .

لذلك ورد فى القرآن الكريم :

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ . (الرحمن : ١٧) .

أى : مشرقى الشمس والقمر ومغربيهما ، أو مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما .

وورد فى القرآن الكريم أيضا قوله تعالى : فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ . (المعارج : ٤٠) .

أى : مشارق الشمس التى هى ٣٦٠ مشرقا ، بعدد أيام السنة ، ومغاريها التى هى ٣٦٠ مغربا ، بعدد أيام السنة . وكذلك مشارق القمر والكواكب ومغاريها .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا . فاعتمد عليه ، وفوض أمرك إليه ، وتوكل عليه حق التوكل .

قال تعالى : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ؛ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا . (الطلاق : ٣) .

ونحو الآية قوله تعالى : فَأَعْبُدُوا وَاصْطَبِرُوا لِعِلَّةٍ تَهْتَدُوا هَلْ تَعْلَمُونَ سَمِيًّا . (مريم : ٦٥) .

وقوله سبحانه وتعالى : إِنَّا لَنَعْبُدُكَ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . (الفتح : ٥) .

★ ★ ★

تهديد الكفار وتوعدّهم

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحَجِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلًا (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مَنفُطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿﴾ (١٩)

المفردات :

هَجْرًا جَمِيلًا : اعتزلا حسنا لا جزع فيه .

ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ : دعنى وإياهم فساكفيكمهم .

أُولَى النَّعْمَةِ : أصحاب النعم والترفه ، وبكسر النون الإنعام .

مَهْلَهُمْ قَلِيلًا : أمهلهم زمانا قليلا ، بعده النكال .

أَنكَالًا : جمع نكل ، وهو القيد الثقيل أو الشديد .

ذَا غُصَّةٍ : يغص به فلا يستساغ فى الحلق ، كالضرب والزقوم ، والغسلين والشوك من نار ، فلا يخرج ولا ينزل .

يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَتَتَزَلْزَلُ (يوم القيامة) .

كَثِيبًا مَّهِيلًا : رملا مجتمعًا ، سائلا مُنْهَالًا .

أَخَذًا وَبِيلًا : شديدًا ثقيلًا ، وخيم الغُفَى .

السماء منتظربه ، شئء مُنشَق في ذلك اليوم لِيَهْوِلَه .

كان وعده مقعولا ، إن وعده تعالى بمجىء ذلك اليوم كائن لا محالة .

تمهيد :

ذكر الله تعالى إرشاداته لنبيه ﷺ بالصبر والهجر الجميل ، ثم ذكر سبحانه وتعالى أهوال يوم القيامة وشدائده التي يشيب الولدان من هولها ، وتتشقّق السماء منها .

التفسير :

١٠ - وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا .

اصبر يا محمد على ما يقولون في حقك وحق ربك ، فقد قالوا : شاعر وكاهن ومجنون ، ويختلف أساطير الأولين ، كما قالوا عن الله : إن له صاحبة ، وإن له ولدا . أى تذرع بالصبر ، فالداعية محتاج إليه ليبلغ دعوته ، ومحتاج إلى الصبر فى تحمل الأذى .

قال تعالى : قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أَوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (الأحقاف : ٣٥) .

وَأَهْجِرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا .

أى : بلغ دعوتك إليهم ، وليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ ، ثم تنح عنهم ، ولا ترد على أذاهم ، ولا تقابل الإساءة بمثلها ، والهجر الجميل هو الذى لا عتاب معه .

قال الإمام الرازى :

والمعنى : إنك لما اتخذتني وكليلا ، فاصبر على ما يقولون ، وفوض أمرهم إلى ، واعلم أن مهمات العباد محصورة فى أمرين : فى كيفية معاملتهم مع الله ، وقد ذكر سبحانه ذلك فى الآيات السابقة ، وفى كيفية معاملتهم مع الخلق ، وقد جمع سبحانه وتعالى كل ما يُحتاج إليه فى هذا الباب فى هاتين الكلمتين .

وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مخالطا للناس ، أو مجانبيا لهم ، فإن كان مخالطا لهم فعليه أن يصبر على إيذائهم ... وإن كان مجانبيا لهم فعليه أن يهجرهم هجرا جميلا ... بأن يجانبهم بقلبه وهواه ، ويخالفهم فى أفعالهم ، مع المداواة والإغضاء . ١ هـ .

وقال أبو الدرداء : إنا لنبتئ فى وجوه أقوام ونضحك إليهم ، وإن قلوبنا لتبغضهم أو لتلعتهم .

والمؤمن محتاج إلى الحكمة وإلى حسن التصرف ، وفعل الأمر المناسب فى الوقت المناسب .

قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْاَلْبَابِ .

(البقرة: ٢٦٩)

١١ - وَذُرِّيِّ الْمُكذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلُهمْ قَلِيلًا .

رُوى أَنَّ هذه الآية نزلت فى صنديد قريش ، ورؤساء مكة من المستهزئين .

والمعنى :

استرح أنت يا محمد ، وارك هؤلاء المكذبين المترفين بالنعمة ، المغرمين باللذائذ والشهوات ، وأمهلهم بعض الوقت ، فإنه يوشك أن ينزل بهم عذابى وانتقامى ، والآية واردة مورد الوعيد والتهديد ، فقد كانوا على جانب من الغنى والجاه والنعمة ، لكنهم لم يشكروا الله على نعمته ، ولم يصدقوا رسوله ، فاستحقوا العقاب والهزيمة يوم بدر ، ولهم عقاب آخر فى الآخرة .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (انعام : ٢٤) .

قالت عائشة رضى الله عنها : لما نزلت هذه الآية لم يكن إلا يسيرا حتى وقعت وقعة بدر .

١٢ ، ١٣ - إِنْ لَدَيْنَا أَلْكَالٌ وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا .

إن عندنا لهؤلاء الكفار المكذبين بهدى السماء ، قيونا وأغلاأ ، ونارا متقدة موججة مضطربة . جَحِيمًا . وطعاما ذا شوك يأخذ بالذات ، فلا يدخل ولا يخرج ، كالضرب والرقوم والغسلين . وألوانا أخرى من العذاب المؤلم ، من بينها الهوان والمذلة والقتام ، وتوقع ألوان العذاب .

قال تعالى : وَوَجْهُهُ يُومَلُّ بِأَسْرَةٍ * تَتْلُو أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقْرَأ . (القيامة : ٢٤ ، ٢٥) .

١٤ - يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا .

إن ألوان العذاب والجحيم ، وأحوال القيامة وآلامها التى تدين ، بالكافرين تكون يوم يمتد الهول إلى الكون كله ، فترجف الأرض وتهتز ، وتميد بأهلها ، وتزلزل زلزالا شديدا .

ويحدث مثل ذلك للجبال ، فتتحول إلى رمال مجتمعة ، رخوة لينة متحركة ، لا تثبت عليها الأقدام .

قال تعالى : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . (الزلزلة : ١ ، ٢) .

وقال سبحانه : وَسَيَرَتِ الْجِبَالُ كَوَافًا . (النبا : ٢٠) .

وقال تعالى : وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ . (المرسلات : ١٠) .

والمراد : ما أعظم هول هذا اليوم ، وما أشد زلزاله .

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ • وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ • وَسُرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرٍ أَنْ تَتَغَشَّى وُجُوهَهُمُ النَّارُ • لَيَجْزِيَنَّ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

(إبراهيم : ٤٨ - ٥١)

١٥ ، ١٦ - إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا • فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا .

من شأن القرآن أن يُلَوِّنَ القول ويصرفه ، وقد كانت آيات سابقة تتحدث عن ألوان العذاب في الآخرة ، وعن أهوال القيامة ، وهنا جابه القرآن أهل مكة وكل من كَذَّبَ الرُّسُلَ .

والمعنى : لقد أرسلنا إليكم رسولا كريما ، هو خاتم المرسلين ، وإمام المتقين ، وصاحب الخلق العظيم ، وسيشهد عليكم يوم القيامة بأنه بلغكم الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقَدَّمَ النصيحة ، وقد قابلتموه بالتكذيب والإيذاء ، مع أنه ولد بينكم ، وعرفتكم صدقه وأمانته ، ثم اسكثرتُم عليه الرسالة والنبوّة ، لأنه يتيم فقير .

وقد أرسلنا رسولا سابقا إلى فرعون ملك مصر ، فعصى فرعون الرسول ، وكَذَّبَ موسى واستكبر ، فأغرقه الله في الماء ، وانتقم منه انتقاما مريعا ، وعذبه عذابا ثقيلا غليظا وبِيعًا .

وستكون عاقبتكم أشد وأنكى من فرعون . ورسولكم سيشهد عليكم بأفعالكم ، ولو أنتمم لشهد لكم بهذا الإيمان .

١٧ - فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا .

لقد حذرهم القرآن وأنذره ، ووضع أمام أبصارهم مشاهد القيامة التي يشيب منها الوليد ، من طول ذلك اليوم وشدة هوله ، فالآلام والأحزان تشيب الإنسان قبل أوان شبّه .

قال أبو الطيب المتنبي :

والهمُّ يخترمُ الجسيمَ نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصبى ويهرمُ

وفى وصايا قدماء المصريين ، يقول أب لابنه : (يا بُنى ، تخير امرأة بسيطة ، صغيرة فى آمالها وتطلعاتها ، فالمرأة التى لا تقنع تشييك قبل المشيب) .

١٨ - السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .

إن أهوال ذلك اليوم تصيب البشر ، فيشيب الصبى من هول هذا اليوم ، فكيف بالكافر الفاجر ؟

والسماة القوية المتماسكة تنشق على غلظها ، وتنفطر وتتشقق بسبب القيامة .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّحَابِ وَيُرْسِلُ فِيهَا السَّحَابُ مَاءً كَالزَّيْتِ . أَلَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا .

كان وعد الله واقعا لا خلف فيه ، فما شاء الله فعل ، وما أَرَادَهُ كَانَ مَفْعُولًا وواقعا لا محالة .

قال المفسرون : أى كان وعد ربك نافذاً ومفعولاً ، لأنه سبحانه لا يخلف موعوده .

«وبينما تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول ﷺ والقللة المؤمنة المستضعفة بردًا وسلامًا . إذ يحسون أن ربهم معهم ، وأن الله لا يدع أوليائه لأعدائه ، ولو أمهل أعداءه إلى حين»^(١٧) .

١٩ - إِنَّ هَلِيلَهُ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .

إن هذه الآيات التى سبقت ، والمواعظ التى اشتملت عليها ، ومشاهد القيامة فيها تذكرة للناس ، وتنبيه للأفئدة ، وإيقاظ للضمائر ، وتوجيه للقلوب حتى تتجه إلى ربها ، وتذكّر آخرتها ، وتفيق من غفلتها ، فمن شاء الهداية فباب الله مفتوح ، والطريق إليه واسع ، فمن تحرك فى قلبه الايمان فليطرق باب الله تعالى .

قال تعالى : وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا . (النساء : ١١٠) .

ختم سورة المزمّل

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ إِلَيَّالٍ وَيَصِفُّهُ نُفْلُهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ
 إِلَيْهِ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْهُ وَامَّا نَتَسَّرُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ
 مَّرْضًىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَنْتَعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَاقْرَأْهُ وَامَّا نَتَسَّرُ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تَقْدِمُوا لِنَفْسِكُمْ
 مِنْ خَيْرٍ يَّجِدْهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ فِي الْأَقْدَامِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

المضردات :

أدنى : أقل .

والله يقدر الليل والنهار : يعلم مقادير ساعاتهما .

أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ : لا يمكننا الإحصاء ، وضبط الساعات .

فَنَابَ عَلَيْكُمْ : بالترخيص في ترك القيام المقدّر ، ورفع التبعة عنكم .

فأقرأوا ما تيسر من القرآن : فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل .

يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ : يسافرون فيها للتجارة ونحوها .

وَأَقْرِضُوا اللَّهَ : أنفقوا في سبيل الخير عن طيب نفس .

تمهيد :

بدأت السورة بالأمر بقيام الليل ، واستمر هذا الأمر مدة سنة ، يقرم فيها النبي ﷺ وأصحابه ، وبعد مرور سنة نزلت الآية الأخيرة من سورة المزمّل ، ترخّص لهم في ترك القيام لمدة واجبة كالثلث أو النصف أو ثلثي الليل ، وتترك لهم قيام الليل ندباً واستحساناً ، أو تلاوة شيء من القرآن ليلاً بدل صلاة الليل ، وظلت صلاة الليل فرضية على النبي ﷺ ، في أرجح الأقوال ، ونُسخت فرضية قيام جزء من الليل على أصحابه ، وأمروا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصدقة .

التفسير :

٢٠ - إِنْ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُعَذِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ
عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي
الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْدِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ .

تمثّل هذه الآية الحنان واللطف والفضل الإلهي ، والرحمة والتربية المثلى ، فقد شاء الله أن يأمر
الأمة بقيام الليل في أول الإسلام ، ليغرس في قلوبها الإيمان والصفاء والمناجاة والجهد ، والاستعداد
لتحمل تبعات الدعوة .

ويعد عام من قيام ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه ، نسخ الله ذلك عنهم والتمس لهم العذر ، لأنهم لا يسهل
عليهم إحصاء الثلث أو النصف أو الثلثين ، فربما زادوا وأقاموا الليل كله أو جلّه ، كنوع من الاحتياط ،
والله تعالى هو الذي يحصى ساعات الليل والنهار .

وقد علم الله وشاهد ورأى النبي ﷺ وطائفة من أصحابه يقومون جانباً من الليل ، لا يقل عن الثلث
وربما زاد إلى النصف ، أو قريباً من الثلثين ، وسجّل الله لهم هذه العبادة ، والاعتماد لأمر الله العلي الكريم
كما سجل لهم صعوبة إحصاء ساعات الليل ، فقبل عملهم وتاب عليهم ، وأسقط عنهم وجوب قيام جزء من
الليل ، وندب لهم قراءة ما تيسر من القرآن ، أو صلاة ما تيسر من الصلاة ، أيأ كانت الصلاة ، فيمكن أن تكون
صلاتي المغرب والعشاء ، أو صلاة ناشئة الليل بعد صلاة المغرب ، أو صلاة ركعتين فقط ، أي افعلوا أي
عبادة متيسرة من الصلاة .

ويُنّ حيّيات الحكم فيما يأتي :

(أ) وجود بعض المرضى الذين يشق عليهم قيام الليل .

(ب) وجود بعض التجار الذين يشغلون نهارهم بالبيع والشراء والسفر ، وتحضير ما يلزم للتجارة وشئونها .

(ج) وجود بعض المجاهدين الذين يقاتلون أعداء الإسلام ، رغبة في ثواب الله ، ولإزاحة طواغيت الكفر من
وجه الإسلام .

من أجل هؤلاء ، الذين يشقّ عليهم قيام الليل ، مع وجود المَرَض أو التجارة أو الجهاد ، يسر الله عليهم بقراءة ما تيسر من القرآن ، وإقام الصلاة المكتوبة في أوقاتها ، بشروطها وخشوعها ونوافلها ، وأداء الزكاة المفروضة ، وإخراج الصدقة والتطوع بمساعدة الفقراء والمساكين وأصحاب الحاجات ، وكل ما يفعله الإنسان من خير أو معروف ، أو عبادة أو صلح بين اثنين ، أو صلة رحم ، أو أيّ عمل يؤدي إلى رفع شأن الإسلام ، أو نفع المسلمين ، يلقى ثواب هذا الخير عند الله يوم القيامة ، أعظم أجراً وأوفى ثواباً ، وعليكم أن تستغفروا الله وتتوبوا إليه ، لتكفير ذنوبكم ، وارتفاع درجاتكم ، فإن الله غفور للمستغفرين ، رحيم بالمؤمنين .

قال القرطبي :

غُفُورٌ . لما كان قبل التوبة رُحِيمٌ . بكم بعدها .

وفي ختام السورة دعوة للمتعبدين والمنفقين ومقدمي الخير أن يستغفروا الله ، وأن يطلبوا منه الصفح والعفو ، إذ ربما كانوا لم يخلصوا النية في الإنفاق ، أو لم يحسنوا العمل في الإقراض ، وربما تدخلت شهوة خفية من حبّ المحمّدة ، أو التظاهر بالخير بين الناس ، فالاستغفار لمحو السيئات وإخلاص النيات ولذكر الله وتصحيح العبادات .

نسأل الله أن يرزقنا إصلاح النية ، وإخلاص العبادة ، وأن يغفر لنا ويرحمنا ، كما قال سبحانه وتعالى : وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . (البقرة : ٢٨٦) .

وصل اللهم على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . آمين .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (المزمّل) بعد منتصف ليلة الجمعة ٥ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٣٠ من مارس ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

تفسير سورة المدثر

أهداف سورة المدثر

(سورة المدثر مكية ، وآياتها ٥٦ آية ، نزلت بعد سورة المزمل)

وينطبق على سورة المدثر - من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها - ما ينطبق على سورة المزمل .
فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وإيذاء
المشركين للنبي ﷺ .

ويمكن للتوفيق بين هذه الروايات ، بأن صدر سورة المدثر أول ما نزل من القرآن بعد سورة العلق ،
وهو من أول السورة إلى قوله تعالى : وَلَئِنَّكَ فَاثْبِتُ . (المدثر : ٧) .

وأن الآيات التالية قد نزلت بعد الجهر بالدعوة ، وربما كانت تعنى شخصاً معيناً هو الوليد بن
المغيرة^(٣٧) .

وأياً ما كان السبب والمناسبة ، فقد تضمنت السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي ، بانتداب
النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل ، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والمشقة . (انظر الآيات
من ١ - ٧) .

ثم تضمنت بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة
المزمل سواء يسواء . (انظر الآيات من ٨ - ١٧) .

وتُعَيِّن سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهداً من مشاهد كيده ، على نحو ما ورد في
سورة القلم ، وربما كان الشخص المعنى هنا وهناك واحداً ، وقد قيل إنه الوليد بن المغيرة . (انظر الآيات
من ١٨ - ٣٠) .

ثم تتحدث السورة عن عالم الغيب ، ووصف سقر ، والملائكة القائمين عليها ، وعددهم وامتحان الله
لعباده بذلك العدد ، وذلك في آية واحدة طويلة هي الآية (٣١) .

ثم تتحدث عن مشاهد الكون ، وأدلتها على وجود الله . (انظر الآيات من ٣٢ - ٣٧) .

كما تعرض مقام المجرمين ، ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافاً طويلاً ، بأسباب استحقاقهم للارتهان والعقيد في يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم ، الذي لا تنفعهم فيه شفاعة شافع . (انظر الآيات من ٣٨ - ٤٨) .

وفي ظل هذا المشهد المخزى ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكراً موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهداً ساخراً يثير الضحك والزراية ، من نفارهم الحيوانى الشموس . (انظر الآيات من ٤٩ - ٥١) .

ويكشف السياق عن حقيقة الغرور الذى يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المُذكر الناصح ، ويبين أنه الحسد للنبي ﷺ ، والرغبة فى أن يؤتى كل منهم الرسالة ، والسبب الآخر هو قلة التقوى . (انظر الآيتين ٥٢ ، ٥٣) .

وفي الختام يجيء التقرير الجازم الذى لا مجاله فيه ، وردّ الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره . (انظر الآيات من ٥٤ - ٥٦) .

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسى ، الذى كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها فى قلوب قريش ، كما كافح العناد والكيد ، والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب .. والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة ، واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعاً نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة .

وسورة المدثر قصيرة الآيات ، سريعة الجريان ، منوعة الفواصل ، يتند إيقاعها أحياناً ، ويجرى لهاثاً أحياناً ، وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب ، وهو يفكر ويقدر ويعبس ويبسر .. وتصوير مشهد سقر لا تبقى ولا تذر لواح للبهش .

مع آيات السورة

١ - ٧ - بدأت السورة بثناء النبى الكريم ﷺ ليقوم بأمر جليل هو إنذار البشرية ، وتخليصها من الشر فى الدنيا ، ومن النار فى الآخرة .

ثم يوجه الله رسوله ﷺ فى خاصة نفسه ، بأن يكبر ربه وحده ، فهو سبحانه الكبير المتعال ، وهو القوى المتين ، وهو على كل شئ قدير . ويوجهه إلى التطهر بأنواعه ، ويشمل طهارة الثوب ، وطهارة البدن ، وطهارة القلب ، ليكون أملاً للتلقى عن الملائكة الأعلی ، ويوجهه إلى هجران الشرك ، وموجبات العذاب ، والحرص والتطهر من مس هذا الدنس .

ويوجهه إلى إنكار ذاته ، وعدم المنّ بما يقدمه من الجهد أو استكثاره أو استعظامه ، فكل ما يقدمه الإنسان من خير هو بتوفيق الله وعونه ، وذلك يستحق الشكر لله لا المنّ والاستكثار .

ويوجهه أخيراً إلى الصبر على الطاعة ، والصبر على الأذى والتكذيب ، وعدم الجزع من أذى المخالفين .

٨ - ٣٠ - حين ينفخ إسرافيل في الصور ، يجد الكافرون أمامهم يوماً عسيراً ، لا يسر فيه ولا هودة ، بل يجدون الحساب السريع ، والجزاء العادل ، والعقاب الرادع .

وقد روى ابن جرير الطبري أن الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة ، حين فكر في تهمة يلصقها بالنبي ﷺ ، ثم ادعى أن النبي ساحر ، وقد كان الوليد يسمى الوحيد لأنه وحيد في قومه ، فماله كثير ، فيه الزرع والضرع والتجارة ، وله عشرة أبناء يشهدون المحافل والمجامع ، أسلم منهم ثلاثة : خالد ومشام والوليد ، وقد بسط الله له الرزق ، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة في قومه ، وكان يسمى ريحانة قریش .

ويتجه السياق إلى تهديد هذا المشرك فيقول : خلّ بيني وبين هذا المشرك ، الذي أخرجته من بطن أمه وحيداً ، لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

لقد أعطيته المال الكثير ، ورزقته بنين من حوله حاضرين شهوداً ، فهو منهم في أنس وعزوة ، ومهدت له الحياة ، ويسرتها له تيسيراً ، ثم هو يطمع في مزيد من الثراء والجاه .. كلا ، لن نزيده من نعمنا ، بل سنذهب عنه كل ما أنعمنا به عليه ، لأنه كان معانداً ومعارضاً لآيات القرآن الكريم ، سأكلفه ما لا يطيق من كربة وضيق ، كأنما يصعد في السماء ، أو يصعد الجبال الوعرة الشاقة .

إنه فكر وتروى ماذا يقول في القرآن ، وبماذا يصفه حين ستل عن ذلك ، ثم لعن كيف قدر ، ثم نظر إلى قومه في جد مصطنع ، وقطب وجهه عابساً ، وقبض ملامح وجهه بأسراً ليستجمع فكره ، فقال : ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن السحرة ، كمسيلة وأهل بابل ، وليس هذا من كلام الله ، وإنما هو من كلام البشر .

سأدخله سقر ، وما أعلمك بشأنها ، إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ، فهي : لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ . (المذثر: ٢٨) .
فهي تكنس كنساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء ، وهي : لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . (المذثر: ٢٩) . تلوح الجلد فتحرقه وتغير لونه .

وعلى النار تسعة عشر ، لا ندري أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف ، أم أنواع من الملائكة وصنوف .

٣١ - ولم نجعل المدبرين لأمر النار إلا ملائكة ، فمن يطبق الملائكة ومن يغلبهم ؟

وما جعلنا عددهم تسعة عشر إلا امتحاناً للذين كفروا ، وليستيقن الذين أوتوا الكتاب بصحة القرآن ، لأنهم يرون أن ما يجيء فيه موافق لما فى كتبهم ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، وذلك بتصديق أهل الكتاب له ، وتستشعر قلوب المؤمنين حكمة الله فى هذا العدد ، وتقديره الدقيق فى الخلق ، وتثبت هذه الحقيقة فى قلوب أهل الكتاب ، وقلوب المؤمنين ، فلا يرتابون بعدها فيما يأتهم من عند الله .

وليقول الذين فى قلوبهم مرض النفاق والكافرون : ماذا أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ؟

كذلك يضل الله من يشاء من المنافقين والمشركين ، لسوء استعدادهم ، ويهدى من يشاء من المؤمنين ، لتزكية نفوسهم ، وتوجيه استعدادهم للخير ، وما يعلم جموع خلق الله إلا هو ، وإن خزنة النار وإن كانوا تسعة عشر ، فإن لهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلمه إلا الله سبحانه ، وما هذه السورة إلا تذكرة للبشر .

٣٢ - ٣٧ - كلا وحق القمر ، والليل إذا تولى ، والصبح إذا تجلى ، إن الآخرة وما فيها ، أو سقر والجنود التى عليها ، هى إحدى الأمور الكبيرة العجيبة ، الممنرة للبشر ، بما وراءهم من الخطر ، ولكل نفس أن تختار طريقها ، وأن تتقدم فى سبيل الخير أو تتخلف عنه .

٣٨ - ٤٨ - تعرض الآيات مقام أصحاب اليمين ، فهم فى جنات يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين .

ويقال لهم : أيها المجرمون ما الذى أدخلكم فى جهنم ؟ فيعترفون اعترافاً طويلاً مفصلاً ، يتناول الجرائر الكثيرة التى انتهت بالمجرمين إلى سقر .

قالوا : دخلنا جهنم لأننا لم نك من المؤمنين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض فى الباطل مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الجزاء والحساب ، حتى جاءنا الموت الذى يقطع كل شك ، وينهى كل ريب ، فما تنفعهم بعد ذلك شفاعة الشافعين ، لأنه يكون قد انقضى وقت الإمهال .

٤٩ - ٥٦ - فما لهم عن التذكرة معرضين ، إذا كان الحال فى الآخرة سيكون كما وصفنا فى الآيات السابقة ، فما بالهم معرضين عن القرآن ، كأنهم - فى هربهم من سماع كلام الله ونفورههم منه - حمير نافرة ، فرت من أسد تطلب النجاة من بطشه ، تلك هيئتهم الظاهرة .

ثم يرسم القرآن نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر ، فيبين أن الحسد هو الذى منعهم من الإيمان ، بل يرغب كل منهم أن يكون فى منزلة الرسول ، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن ،

وإنما حملهم على ذلك أنهم لا يصدقون بالآخرة ، ولا يخافون أموالها ، إن هذا القرآن تذكرة تنبه وتذكر ، فمن أراد الانتفاع بالقرآن قرأه وانتفع به .

وما يهتدون إلا بمشيئة الله ، وهو سبحانه أهل بأن يتقى عذابه ، وترجى مغفرته ، وهو سبحانه صاحب المغفرة يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

مقاصد السورة إجمالاً

أمر النبي ﷺ بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على أهل الكفر والعصيان ، وتهديد الوليد بن المغيرة الذي منح الله مالاً وفيراً ، وعشرة من البنين ، وبسط له في العيش لكنه قابل هذه النعم بالجود والعناد .

وذكر جل شأنه كيف استهزأ الوليد برسول الله ﷺ ، وكيف اتهمه بالسحر ، فأنذره الله تعالى بسقر ، ثم وصفها ووصف زانية الجحيم ، وعذاب أهل النار ، ثم ذكر تعالى الأبرار ونعيمهم ، والمجرمين وصفاتهم ، وهي البعد عن الصلاة والإيمان ، والبخل بالمال ، والخوض في إيذاء المؤمنين ، لقد سلبوا هداية السماء ، ففروا من سماع القرآن فرار حمر الوحش إذا رأت أسداً ، وحرمت قلوبهم بركة التقوى ، والله تعالى هو الجدير بأن يتقيه العباد ، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة .

إرشادات للنبي ﷺ في بدء الدعوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمَذْثَرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ ② وَرَبِّكَ فَكْثِرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلَا تَمْنُنْ ⑥ تَسْتَكْثِرُ ⑦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑧ فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ⑨ فَذَلِكَ يَوْمٌ مَمِيدٌ يَوْمٌ عَسِيرٌ ⑩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ سِيرٍ ⑪﴾

المفردات :

المذْثَر : المتلف بثيابه عند نزول الوحي عليه ، وهو النبي ﷺ .

قُمْ : من مضجعك ، أو قم قيام عزم وتصميم .

فانْذِر : فحذر الناس ، وخوفهم من عذاب الله .

وربك فكثير : اخصص ربك بالتكبير والتعظيم ، أو بقول : الله أكبر .

وثيابك فطهر : طهر ثيابك من النجاسات ، فإن التطهير واجب في الصلاة ، أو هو كناية عن تطهير

النفس من المذام ، والتخلُّق بالأخلاق الحسنة .

والرُّجْزَ فاهجر : الرُّجْز (بضم الراء وكسرهما) العذاب ، أى : اهجِر المآثم الموجبة للعذاب .

ولا تمنن تستكثر ، ولا تعط مستكثرًا ، أى : رائيًا ما تعطيه كثيرًا ، أو لا تمنن على الله بعبادتك مستكثرًا إياها .

ولربك فاصبر : لوجه ربك وابتغاء مرضاته ، فتخلق بالصبر .

فإذا نُفِرَ في الناقور : فإذا نُفِخ في الصور للبعث والنشور .

التفسير :

١ ، ٢ - يَتَّيْهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت ، فنوديْتُ ، فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، فرجعت فقلت : دثروني ، فأنزل الله : يَتَّيْهَا الْمُدَّثِّرُ • قُمْ فَأَنْذِرْ» .

والمعنى :

يا أيها المتكلف بتيابه ، أو المدثر بالنبوة والكمالات النفسية ، أو المتغشى بثوبه رعباً من رؤية الملك ، قُمْ من مضجعتك ، أو قم قيام عزم وتصميم ، وشمر عن ساعد الجد ، فقد جاء الأمر الإلهي باصطفائك رسولاً ، وجاء الأوان لتباش مهمتك ، لتدعو الناس إلى توحيد الله والإيمان به ، وتحذروهم من عذاب الآخرة . قال ابن كثير : قُمْ فَأَنْذِرْ . أى : شمر عن ساق العزم وأنذر الناس .

٣ - وَرَبِّكَ فَكْبِرْ .

اخصص ربك بالتكبير والتعظيم ، فنواصى الخلائق بيده ، ولا يصدّنك شيء عن الإنذار .

وقيل : المعنى : قل الله أكبر في بداية الصلاة .

٤ - وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ .

طهر ثيابك من النجاسات ، واجعلها طاهرة لتصح بها الصلاة ، وطهر نفسك من المعاصي والذنوب ، يقال : فلان طاهر الإزار ، كناية عن طهارة النفس والبعد عن الفحشاء .

٥ - وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ .

الرجز هو العذاب ، والمراد : اهجرج المعاصي والذنوب ، وابتعد عن عبادة الأوثان والأصنام التي يعبدونها قومك ، واهجرها ولا تقر بها ، والمراد : ابتعد عن أسباب العذاب ، وقد يكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من يتأتى منه الخطاب .

٦ - وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ .

ولا تعط مستكثراً ، أى رائيًا ما تعطيه كثيراً ، أو لا تمنن على أصحابك وغيرهم بتبليغ الوحي ، مستكثراً ذلك عليهم ، أو إذا أعطيت أحداً عطية فأعطها لوجه الله ، ولا تمنن بعطيتك على الناس .

٧ - وَلَئِكَ فَاصْبِرْ .

ولريك وحده ، ومن أجل مرضاته سبحانه وتعالى ، فاصبر على تبليغ الدعوة والرسالة ، وتحمل في سبيل ذلك ما تتحمله .

قال تعالى : إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (الزمر : ١٠) .

وقال الرسول ﷺ : «يقول الله تعالى : إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل ، استحبيبت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً ، أو أنشر له ديواناً» .

٨ - فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ .

فإذا نفخ إسرافيل في الصور - الذي هو القرن أو النغير - النفخة الثانية ، قامت الناس من قبورها ، تستعد لأمر الحساب والجزاء ، وتجد الكثير من هول هذا اليوم ، الذي تشيب فيه الولدان ، وتضع فيه كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

قال تعالى : وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٩ ، ١٠ - فَلَا إِلَهَ إِلَّا يَوْمَ عَسِيرٍ • عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ .

والمراد : اصبر يا محمد على أذاهم ، فأمامهم موقف رهيب ، حين ينفخ في الصور ، فيخرج الناس من قبورهم ، وقد شاهدوا يومئذ يوماً عسيراً شديداً ، على الكفار غير سهل .

والمراد أن عُسْره كامل ، ليس عسيراً من وجه ويسيراً من وجه آخر ، بل هو عسير من جميع الوجوه . غَيْرُ يَسِيرٍ . أي : غير سهل ولا ميسر على الكفار ، بل هو يسير على المؤمنين ، حتى يكون كما بين الظهر والعصر ، عسير على الكافرين .

أخرج ابن سعد ، والحاكم ، عن بَهْز بن حكيم قال : أمنا زرارَةَ بن أوفى فقرأ المدثر ، فلما بلغ قوله تعالى : فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ . خر ميتاً فكنث فيمن حمله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن أبي شيبة ، والإمام أحمد ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْصَرِ . قال رسول الله ﷺ : «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحتى جبهته يستمتع متى يؤمر» ؟ قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى الله توكلنا» .

عناد الوليد بن المغيرة

﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝ سَأَرْهُقُهُ صَعُودًا ۝ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۝ لَا بُقْيَ وَلَا نَذْرٌ ۝ لَوْ آخِذٌ لِلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهِمْ تِسْعَةُ عَشَرَ ۝ ﴾

المشردات :

ذرنى ومن خلقت وحيداً ، دعنى وإياه ، فإنى أكفيكه .

مـــــمدوداً ، كثيراً .

شـــــهوداً ، حضوراً معه بمكة يتمتع بمشاهدتهم .

ومهدت له تمهيداً ، بسطت له الرياسة والجاه العريض .

سأرهقه ، سأكلفه .

منـــــوداً ، عقبة شاقة لا تطاق .

إنه فكـــــر ، إنه فكر ماذا يقول فى شأن القرآن والرسول من الاختلاق .

وقـــــدر ، ورتب وهياً فى نفسه قولاً كاذباً فى القرآن والنبى .

فقتـــــل ، لعن وكذب وقهر وغلب .

كـــــيف قـــــدر ، كيف هياً هذا الطعن ، وذلك تعجيب من تقديره ، وإصابتها الغرض الذى يرجوه قومه .

عـــــبس ، قطب ما بين عينيه .

بـــــسر ، كلع وجهه .

لـــــوآخـــــة ، من لؤحته الشمس ، إذا سؤدت ظاهره وأطرافه .

الـــــبشـــــر ، واحداً بشرة ، وهى ظاهر الجلد .

عليها تسعة عشر، يتولى أمر الدار، ويلى تعذيب أهلها تسعة عشر ملكاً، أو صفًا، أو صفًا .

تمهيد :

تفيد كتب الحديث والسيرة أن هذه الآيات نزلت فى شخص مُعِين هو الوليد بن المغيرة ، وقد سمع القرآن الكريم فتأثر به ، وذهب إلى قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمُتَمِير ، وإن أسفله لمُعْدِق ، وإنه يعلو وما يُعلَى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صَبًا والله الوليد ، ولتصوبن قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينًا ، فقال الوليد : ما لى أراك حزينًا يابن أخى ؟ فقال : وما يمنعنى أن أحزن ، وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كِبَر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنت تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم أتى مجلس قومه مع أبى جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخفق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جريتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا (وكان رسول الله ﷺ يسمى الأمين قبل النبوة لصدقه) ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر ، وما يقوله سحر يأتريه عن مسيئمة وأهل بابل ، فارتج النادى فرحًا ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه : فنزلت هذه الآيات .

وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد فى قومه ، فماله كثير ، فيه الزرع والضرع والتجارة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم ، وعبيد وجوار ، وله عشرة أبناء يشهدون المحافل والمجامع ، أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، والوليد ، وقد بسط الله له الرزق ، وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان يسمى ريحانة قريش .

التفسير :

١١ - ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتَ وَحِيدًا .

أى : دعنى وحيدى ومن خلقتك ، فأنا أكفيك أمره ، وأغنيك فى الانتقام منه عن كل منتقم .

قال ابن عباس وغيره : نزلت هذه الآية وما بعدها فى الوليد بن المغيرة ، بل قيل إن هذا القول متفق عليه .

قال مقاتل :

المعنى : خلّ بيني وبينه فأنا أنفرد بهلكته ، وفى هذا وعيد شديد على تمرده ، وعظيم عنايه واستكباره ، لما أوتيّه من بسطة المال والجاه ، وكان يقول : أنا الوحيد ابن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير ، ولا لأبى نظير ، وقد تهكم الله به ويلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه ، من مدحه والثناء عليه إلى ذمّه وعيبه ، فجعله وحيداً فى الشر والخبث .

ولك أن تتصور مخلوقاً ضعيفاً أمام قدرة الخالق المدبّر ، الذى يقول للشيء كن فيكون ، وذكر المفسرون أن هذا الشقى - الوليد بن المغيرة - ما زال بعد نزول هذه الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

١٢ - وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مُمْلُودًا .

بسطت له فى المال والزراعة والنماء والتجارة .

قال ابن عباس : كان ماله ممدوداً بين مكة والطائف .

وقال مقاتل : كان له بستان بالطائف لا تنقطع ثماره صيفاً ولا شتاءً .

١٣ - وَبَيْنَ شُهُودًا .

أى : وأولاداً مقيمين معه فى بلده ، يحضرون معه المحافل والمجامع ، لا يحتاجون إلى السفر من أجل التجارة والمال بسبب غنى والدهم ، حيث كان مستأنساً بهم ، وله بهم عزٌ ومنعة .

قال المفسرون : كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضراً ، أسلم منهم ثلاثة : خالد ، وهشام ، والوليد .^(٧٨)

١٤ - وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا .

يسّرت له أسباب الجاه والسلطان ، والعزّ والسيادة ، فكان فى قريش عزيزاً منيعاً ، وسيداً مطاعاً .

١٥ - ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ .

أى : لم يقنع ولم يشبع ، بل كان يتطلع إلى المزيد من حطام الدنيا ، لشدة حرصه وجشعه .

قال فى ظلال القرآن : لعله كان يطمع فى أن ينزل عليه الوحي ، وأن يعطى كتاباً . ا هـ .

ولعله كان أحد العظماء الذين عنثهم قريش حين قالت : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣٦) .

١٦ - كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِكْتِسَابِ غَيْثًا .

كلا : حرف ردع وزجر .

أى : كلا لن أزيدة فقد وقف معانداً ساخراً من القرآن ومن الرسول ، حيث ادعى أن محمداً ساحرٌ يفرّق بين المرء وزوجه ، والمرء وعشيرته ، ويعد أن مدح القرآن استغفّره أبو جهل وحرّضه على أن يقول فى النبى محمد ﷺ وفى القرآن كلاماً سيئاً ، فكان كما قال القرآن الكريم : أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى ۖ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَرًا . (النجم : ٣٣ ، ٣٤) .

ومعنى أكسى : منع ، أى أعطى مدحاً للقرآن قليلاً ، ثم منع ذلك العطاء ونكص على عقبيه .

١٧ - سَأُرْهِقُهُ صُعُودًا .

سأكلّفه مشقة من العذاب الذى لا راحة له فيه ، ولعل ذلك يشير إلى عذابه النفسى فى الدنيا ، حيث يسير فى طريق وعبر شاق ، ويقطع الحياة فى قلق وشدة وكربة وضيق ، فإذا كان يوم القيامة كُلف بالصعود إلى أعلى جبل فى جهنم ، ثم يقذف به من شاهق ، ثم يتكرر ذلك العذاب مع التصعيد فى الطريق ، وهو أشقّ السير وأشدّه إرهاقاً ، فإذا كان دفعاً من غير إرادةٍ من الشخص ، كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً .

١٨ - إِنَّهُ فُكِّرَ وَقَدَّرَ .

تأتى هذه الآيات كالتعليل لما سبقها ، أى أنه قد استحق العذاب بسبب مواقفه المعادية للإسلام .

فقد ثبت أنه قد مدح القرآن الكريم حين سمعه من رسول الله ﷺ ، وحين سمعه من أبى بكر الصديق ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ، ولئن صبا الوليد لتصبأن قريش كلها ، فذهب إليه أبو جهل ، وحرّضه على أن يقف موقفاً معادياً لمحمد ﷺ وللقرآن الكريم ، فذهب إلى قومه وقال : تزعمون أن محمداً مجنون أو ساحر أو كذاب أو شاعر ، فهل جريتم عليه الجنون أو السحر أو الكذب أو الشعر ، قالوا : لا ، ثم قال قومه له : فماذا تقول أنت يا أبا الوليد ؟ فأخذ يعمل عقله ، ويعيد التفكير والتقدير مراراً ، حتى يقول قولاً يخالف ضميره ، ويخالف مدحه السابق للقرآن ، ويتناسب مع إغراضه عن الحق بعد ظهوره له ، واستكباره عن الهدى بعد أن لاحظ بوادره ، فاتهم محمداً بالسحر ، وأنه يفرّق بين المرء وقومه ، والمرء وزوجته ، والمرء وأخيه ، واتهم القرآن بأنه كلام البشر ، فاستحق الوليد عذاب الضمير فى الدنيا ، وعذاب جهنم فى الآخرة ..

والمعنى :

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ .

إنه فكر في أمر القرآن ومحمد ﷺ ، وقدر وزور كلاماً في نفسه ، قد حضره ليقوله عن القرآن ، عناداً ومكابرة .

١٩ - فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ .

أى : لعنة الله وأخزاه ، كيف زور هذا الكلام الذى فرحت به قريش ، وعظم ألم النبى ﷺ منه .

٢٠ - ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ .

تكرير للتأكيد ، وتعجب من إبداعه فى الشر ، أو ثناء عليه تهكمًا ، أو حكاية لما كرروه عند سماع كلامه .

فالعرب تقول : قتله الله ما أشجع ، وأخزاه الله ما أشعره ، يريدون أنه قد بلغ المبلغ الذى هو حقيق بأن يحسد ، ويدعو عليه حاسده بذلك .

والآيات صورة باهرة لهذا الشيطان الذى عرف الحق ، ثم نكص عن اتباعه ، ثم دبر كلاماً معادياً للقرآن وللرسول الأمين ، يستحق أن يدعى عليه بأن يُقتل ، وأن يتكرر قتله لقاء ما قال من الزور والبهتان ، واتهام القرآن بأنه سحر يؤثر .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ - ثُمَّ نَظَرَ • ثُمَّ غَيْسَ وَيَسَّرَ • ثُمَّ أَذْنَبَ وَأَسْتَكْبَرَ • فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ •

إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ .

ثم أعاد النظر والتروى ، والتأمل فى الطعن فى القرآن ، ثم قطب وجهه لما لم يجد مطعناً يطعن به القرآن ، وكلح وجهه ، وتغير وكفهز ، وأظهر الكراهة ، ثم أعرض عن الإيمان ، واستكبر عن الانقياد ، والإصغاء للقرآن ، وجاء بقول يخالف ضميره فقال :

إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ .

ما هذا إلا سحر ينقل ويروى ويحكى ، نقله محمد عن غيره ممن قبله ، وحكاه ورواه عنهم ، فليس بكلام الله .

إِنْ هَلَدًا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ .

اختلقه محمد من عند نفسه ، ونسبه لله زورًا .

وقد رأيت أن القرآن الكريم جاء بكلمة ثُمَّ . بعد الآيات (١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) ، ليبين أنه كان يتروى ويتأنى بعض الوقت فى تفكيره ، لكن الآية (٢٥) جاءت بدون حرف العطف للإفادة بأنه قال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، وأتبع بعده بدون فاصل : إِنْ هَلَدًا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ .

أى : أسرع فى اتهام القرآن بأنه سحر ، وبأنه قول البشر ، بدون تأنُّ أو تفكير ، كما يقول الإمام الزمخشري فى تفسير الكشاف .

ويعد أن عرض القرآن تهمة الباطلة ، وتفكيره المستكبر عن الحق ، أتبع ذلك بمآله الذى ينتظره .

٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ - سَأُضِلُّهُ سَقَرٌ . وَمَا أَذْرُكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . كُذِّبَتْ لِّلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ .

أى : سأدخله جهنم ، وسأغمره فيها من جميع جهاته .

وسقر من أسماء النار ، وإنما سميت جهنم سقر من : سقرته الشمس ، إذا أذابته ولوحت ، وأحرقت جلد وجهه .

وَمَا أَذْرُكَ مَا سَقَرٌ .

أى شئ أعلمك ما سقر ، والمراد : تعظيم هولها وآلامها ، وما يصيب الكافرين من ألوان عذابها .

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ .

لا تترك فى الكافرين عظمًا ولا لحمًا ، ولا دماً ولا شيئًا إلا أهلكته ، فهى تبلع بلعًا ، وتمحو محوًا ، ولا يقف لها شئ ، ولا يبقى وراءها شئ ، ولا يفضل منها شئ ، ثم يعاد أهلها خلقًا جديدًا ، فلا تتركهم بل تعاود إحراقهم بأشد مما كانت .

قال تعالى : كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (النساء : ٥٦) .

وتبرز جهنم لأهلها لترهبهم بعذابها ، قال تعالى : وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . (الشعراء : ٩١) .

لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ .

تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وتنزل الآلام بالجلود ، ويبدل الله الجلود ليزوق أهلها العذاب .

عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ .

يحرس جهنم زيانية أشداء أقوياء ، عددهم تسعة عشر ملكاً ، أو صفاً أو صنفاً ، والجمهور على أن المراد بهم النقباء ، فمعنى كونهم عليها : أنهم يقولون أمرها وتعذيب أهلها ، وإليهم رئاسة زيانيتها ، وأما جملةهم فالعبارة تعجز عنها ، كما قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ . (المذكر : ٢١) .

وفى الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها» (٣٧) .

★ ★ ★

خزنة جهنم

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَسٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ كَلَّا وَالْقَبَرِ ﴿٣٧﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٨﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكَبِيرِ ﴿٤٠﴾ نَذِيرٌ لِلْبَشَرِ ﴿٤١﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات :

أصحاب النار ، خزنة جهنم .

ملائكة ، أى : ليسوا بشرًا مثلكم يطاقون .

فتنة ، سبب فتنة واختبار وامتحان ، أو ضلال للذين كفروا .

ليستيقن ، ليستبين ، أو ليقن .

أوتوا الكتاب، اليهود والنصارى .

مــــرض، نفاق وشك .

مــــثلاً، حديثاً، أو ماذا أراد الله بهذا العدد المستغرب استغراب المثل .

كــــذلك، مثل إضلال المُنْكَر لهذا العدد، كآبى جهل وأحزابه، وهداية مُصَدِّقه .

جــــنود ربك، خلقه من الملائكة وغيرهم .

ذكــــرى، تذكرة وموعظة للناس .

كــــلاً، حقاً .

أدبــــر، ولّى وذهب .

أســــفـر، أضاء وانكشف وأشرق .

إنها لإحدى الكبر، إن سقر لإحدى الدواهي العظيمة .

أن يــــتقدم، إلى الخير والإيمان والجنة .

يــــتأخـر، يتخلف عن الإيمان إلى الكفر .

تمهيد :

وردت روايات فى كتب التفسير والحديث تفيد أن أبا جهل بن هشام ، لما سمع قوله تعالى : عَلَيْهَا تِسْعَةُ

عَشْرَ . قال لقريش : نكلتكم أمهاتكم ، أخبركم محمد أن خزنة النار تسعة عشر ، وأنتم الدُّهُم (الشجعان) ،

أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم نخرج من جهنم ؟ فقال له أبو الأشد بن كلدة الجمحى -

وكان شديد البطش - : أنا أكفيكم سبعة عشر ، ولكفونى أنتم اثنين ، فنزل قوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ

النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً . أى : لم نجعلهم رجالاً فيستطيع الكفار مغالبتهم .

التفسير :

٣١ - وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَنْهُمْ إِلَّا فَتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

وَيُرَدِّدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا

أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

لم نجعل زبانية جهنم أفراداً من البشر حتى يزعم كفار مكة أنهم يستطيعون التغلب عليهم ، بل هم

ملائكة لا حدود لطاقاتهم ، فقد استطاع جبريل وحده أن يقتل قرى قوم لوط ، وأن يرفعها إلى السماء ، ثم

يهوى بها حيث جعل الله عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ، فالملائكة قوة خارقة للعادة ، ولا تأخذهم الرحمة أو الرأفة بأهل النار .

قال تعالى : عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحریم : ٦) .

ولأن الملائكة أشد خلق الله بأساً ، وأقواهم بطشاً ، فلا يقدر أهل النار عليهم ، ولا يستطيعون مغالبتهم .

وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ...

أى : امتحاناً للكفار ، واختباراً لهم ، حيث استبعدوا أن يكون العدد القليل كافياً لتعذيب أهل جهنم ، وما علموا أن أحوال القيامة لا تقاس بأحوال الدنيا ، وليس للعقل فيها مجال ، ولأنهم قالوا : لم هذا العدد بالذات ، ولم يكملوا عشرين ؟ وما علموا أن أفعال الله تعالى لا تطل ، فقد ذكر الله ذلك العدد لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، كما أفاد بذلك الفخر الرازى فى تفسيره الكبير .

يَسْتَقِينُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَرَدَّادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا ...

ليتيقن الذين أوتوا الكتاب - وهم اليهود والنصارى - بأن محمداً صادق ، وأن القرآن حق ، حيث إن العدد الذى ذكره القرآن الكريم ، هو نفس العدد الذى ذكرته الكتب السماوية التى بين أيديهم .

ويزداد الذين آمنوا إيماناً بصدق نبيهم ، وكتاب ربهم ، حين ينضم إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل .

قال الألوسى : أخرج الترمذى ، وابن مردويه ، عن جابر قال : قال ناس من اليهود لأناس من المسلمين : هل يعلم نبكم عدد خزنة جهنم ؟ فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : «هكذا وهكذا» فى مرة عشرة ، وفى مرة تسعة .

وبذلك ترى أن ازدياد الذين آمنوا إيماناً ، حيث يزيدون تصديقاً لنبيهم وكتاب ربهم ، وحيث يجدون ذلك مؤيداً بما فى الكتب السابقة .

وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ...

أى : فعلنا ذلك ليكتسب أهل الكتاب اليقين من نبوته ﷺ ، وليزداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم ، ولتنزول كل شبهة قد تطرأ على قلوب الذين أوتوا الكتاب ، وعلى قلوب المؤمنين ، وهذا الكلام تأكيد لما قبله ،

من الاستيقان وزيادة الإيمان ، ونفى لما قد يعتري المستيقن من شبهة وشك ، فإذا جمع لهم إثبات اليقين ونفى الشك ، كان أكد وأبلغ .

وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ ...

أى : ليقول المنافقون والكافرون بمكة ، المصرون على التكذيب .

مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ...

ما الذى أراد الله بهذا العدد (١٩) المستغرب استغراب المثل ؟ وأى حكمة قصدها الله من جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين ؟ ومرادهم إنكار الأمر من أصله ، وأنه ليس من عند الله ، وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص ، كما يقول الزمخشري .

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ...

كذلك يضل الله من يشاء من الكافرين ، ويهدي من يشاء من المؤمنين ، ولله الحجة البالغة والحكمة العالية .

ولا يضل إلا من أضر الهوى ، وكره الهدى ، وأضر الحياة الدنيا ، فالحجيم هى مأواه ، ولا يهدي إلا من تأمل فى دلائل الإيمان ، وأثر الآخرة على الدنيا ، وخاف مقام ربه واستهدى بهديته .

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ...

أى : لا يعلم عددهم وكثرتهم وقدرتهم وقوتهم إلا الله تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، وقد ثبت فى حديث الإسراء الذى أخرجه الشيخان ، فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : «فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم» .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إنى أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطأت السماء وحق لها أن تثنى ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى»^(٨٦) .

أخرجه أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب .

وأخرج الحافظ الطبرانى ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «ما فى السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف ، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راکع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، إلا أننا لم نشرك بك شيئاً» .

وقد أورد الحافظ ابن كثير فى تفسيره - وغيره من المفسرين - طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تبين كثرة جنود الله تعالى ، وامتلاء السماء بملائكة ساجدين راكعين .

كما قال تعالى : **وَأَنَا لَنَحْنُ الصَّافُونَ • وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ** . (الصافات : ١٦٥ ، ١٦٦) .

وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ .

ليست سقر التى ذكرنا لكم أن عليها تسعة عشر ملكاً ، إلا تذكرة للبشر ، ليتعظوا ويتجنبوا حرها ولهيبها ، ويذكروا قدرة الله الواسعة التى لا تحتاج إلى ملك ولا إلى تسعة عشر ، ويعلموا كمال قدرة الله وأنه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار .

٣٢ - كَلَّا وَالْقَمَرِ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر ، لمن أنذر بسقر ولم يخف ، وأقسم بالقمر .

٣٣ - وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ .

وأقسم بالليل إذا ولّى وذهب .

٣٤ - وَالصُّبْحِ إِذَا أَشْفَرُ .

وأقسم بالصبح إذا أضاء وانكشف فيه ضوء النهار ، حيث يتبدد ظلام الليل ، ويبدأ نور النهار بصورة مبهرة تُظهر للعين آثار القدرة .

٣٥ - إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ .

إن سقر لإحدى الكبر العظائم ، والخطوب الجسام ، أى أن سقر التى تهكم بها وبخزنتها الكافرون ، لهى إحدى الأمور العظام ، والدوامى الكبار التى قل أن يوجد لها نظير أو مثيل فى عظمها ، وفى شدة عذاب من يصطلى بنارها .

٣٦ - نَذِيرًا لِلْبَشَرِ .

لقد ذكرها الله إنذاراً للبشر ، ورسالة لهم عن التمداد فى الكفر والضلال ، فالنذر هنا بمعنى الإنذار .
قال الحسن : والله ما أنذر الخلائق بشئ أدمى من جهنم .

٣٧ - لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ .

لقد ذكرنا ما ذكرنا في هذه السورة ، أو في وصف جهنم ، تحذيرًا للبشر من جهنم وأموالها ، وهذا التحذير لمن شاء أن يتقدم نحو الإيمان والإسلام والهداية والرضوان ، أو يتأخر إلى الكفر والغسوق والعصيان ، فإنه يمهد نفسه للنيران .

قال ابن عباس : من شاء اتبع طاعة الله ، ومن شاء تأخر عنها بمعصيته .

وقال الحسن : هذا وعيد وتهديد وإن خرج مخرج الخبر، كقوله تعالى : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ... (الكهف: ٢٩) .

في ظلال القرآن الكريم

الله تعالى إذا كُلفَ مَلَكًا بشيءٍ وهبه القدرة التي ينفذُ بها ما كُلفَ به ، فانشغال الكفار بعدد الملائكة من حُرّاس جهنم في غير موضعه ، لأن الأمر متعلق بقدرة الله وإرادته ، وهو إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ، والملائكة : لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحریم: ٦) . وإذا كانت الملائكة قد كُلفت بالقيام على سقر ، فهم مزودون من قبله تعالى بالقُوّة المطلوبة لهذه المهمة ، ولا طاقة للبشر في مغالبة قدرة الله ، وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (يوسف: ٢١) .

والقسم بالقمر يلفت النظر إلى التأمل في هذا الكوكب ، وتنقله من هلال إلى بدر ثم تناقصه ، ثم التملّى بجلاله وجماله ، كأنه يغسل النفس والقلب .

وقلْ أن يستيقظ قلبٌ لمشهد الليل عند إدباره ، في تلك الهدأة التي تسبق الشروق ، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق ، ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد ، وتدب في أعماقه خطرات رُفافة شَفَافَة .

وقلْ أن يستيقظ قلبٌ لمشهد الصباح عند إسفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح ، وانتقال شعوري من حال إلى حال ، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر ، مع النور الذي يشرق في النواظر .

والله تعالى الذي خلق القلب البشري ، ويعلم ما ينبعث فيه ، من استقبال ما في القمر ، وما في الليل ، وما في الصباح ، من عجائب الدقة المبدعة ، والحكمة المدبّرة ، والتنسيق الإلهي لهذا الكون ، لذلك يلفت القرآن النظر إلى جمال الكون ونظامه ، بتلك الدقة البالغة التي يحيرُ تصورهما العقول ^(٨١) .

وجاء في التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ما يأتي :

أقسم الله تعالى بالقمر والليل والصبح تشريعاً لها ، وتنبيهاً على ما يظهر بها وفيها من عجائب الله وقدرته ، وقوام الوجود بإيجادها ، والمقسم عليه أن سقر (جهنم) إحدى الدواهي ، وأنها نذير للبشر أو ذات إنذار . اهـ .

★ ★ ★

الحوار بين أصحاب اليمين وبين المجرمين

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَسْحَبٌ لَّيِّينٌ ۚ ﴿٣٨﴾ فِي جَنَّةٍ يَنْسَاهُ لَوْنٌ ۚ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۚ ﴿٤١﴾ مَا سَأَلَكَ رَفِي سَقَرٍ ۖ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِقِينَ ۖ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْمِلُ خَطَايَاهُمْ ۖ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ۖ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَيْنَا الْيَقِينَ ۚ ﴿٤٧﴾ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۚ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ۚ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ۖ ﴿٥٠﴾ فَزَتْ مِنْ قُسُورِهِمْ ۖ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشُورَةً ۖ ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ۖ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۖ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ ۚ وَأَهْلُ الْعُفُورَةِ ۖ ﴿٥٦﴾ ۝ ﴾

المضردات :

بما كسبت رهينة : مرهونة عند الله تعالى بعملها .

يتساءلون عن المجرمين : يسأل بعضهم بعضاً عن الكافرين .

ما سألكم في سقر : أي شيء أدخلكم النار ؟

كننا نخوض : نشترع في الباطل ولا نبالي به .

مع الخائضين : مع الشارعين من أهل الباطل في باطلهم .

بيوم الدين : بيوم البعث والجزاء .

اليقين : الموت ومقدماته .

فما لهم عن التذكرة معرضين ، فما لأهل مكة عن العظة بالقرآن منصرفين .

حمر مستنشرة ، حمر وحشية ، شديدة النفاذ .

من قسورة ، من أسر ، أو من الرماة القنص .

صحفا منشورة ، قراطيس واضحة مكشوفة .

كلا إنه تذكرة ، حقاً إن القرآن عظة .

أهل التقوى ، الله تعالى حقيق بأن يتقى عذابه ، أو أن يتقيه عباده .

وأهل المغفرة ، حقيق بأن يغفر لمن آمن به وأطاعه .

تمهيد :

كان أهل مكة في نفاق وإعراض عن القرآن الكريم ، وهو هداية ونور ، لكنهم أعرضوا عنه ، وأسرعوا في البعد عنه إسرار الحمر الوحشية حين تحس بالأسد يطاردها ، أو مجموعة من الصيادين المقتنصين ، وقد قال أبو جهل للنبي ﷺ : لن نؤمن لك حتى تأتى كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه : من رب العالمين إلى فلان ابن فلان ، ونؤمن فيه باتباعك . وقد استعرضت الآيات جانباً من مشاهد الآخرة .

التفسير :

٣٨ - كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .

كل إنسان مرتهن بعمله يوم القيامة ، فمن أطاع الله وأدى واجبه في الدنيا فقد أعنت نفسه من نار جهنم ، ومن عصى الله ولم يلتزم بأوامره ، ولم يجتنب نواهيه ، كان مرتهنًا في جهنم ، ليصطلى بنارها جزاءً وفاقاً لعمله .

وفى الحديث الشريف : «... كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

٣٩ - إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ .

وهم المسلمون المخلصون ، أى : لكن أصحاب اليمين غير مرتهين ، فقد فكوا رقابهم بصالح أعمالهم ، وتفضل الله عليهم فضاعف حسناتهم ، وضاعف ثوابهم .

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ .

يقيم أصحاب اليمين في جنات عالية ، يتنعمون فيها نعيمًا أبدياً سرمدياً ، ثم يسأل بعضهم بعضاً عن عصاة أهل النار ، الذين كانوا يجاورونهم في الدنيا ، أو يتناولون عليهم ، ويسخرون منهم ، فيقول :

المؤمن للكفار فى جهنم : أى شئ أدخلكم جهنم وجعلكم تسلكون عذابها ، وتصلون لهيبها ، وتذوقون أهوالها ؟

٤٣ ، ٤٤ - قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ .

أجاب الكفار عن سبب دخولهم جهنم ، بأنهم كانوا لا يؤدون الصلاة ، ولم يخضعوا لربهم ، ولم يعبدوه حق عبادته .

وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ .

وكنا لا نؤدى الزكاة ، ولا نعطف على الفقراء والمساكين ، ولا نتعاون مع الضعفاء والمحتاجين ، أى أنهم لم يؤدوا حق الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولم يؤدوا حق الفقراء والمساكين بإخراج الزكاة ، مع التصديق والإحسان والعطف على المساكين والمحتاجين .

٤٥ - وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَاطِئِينَ .

وكنا نلعب مع اللاعبين ، ونستهزئ بالمؤمنين ، ونقول عن محمد : هو شاعر أو كاهن أو كذاب ، أو لا نبالى بالخوض فى الباطل ، ولا نتحرز عن مشاركة المكذبين بالإسلام والمُتهمين للقرآن بالزور والبهتان .

٤٦ ، ٤٧ - وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ .

وكنا ننكر البعث والحساب والجزاء ، والقيامة والجنة والنار ، وقد استمرت حياتهم على ارتكاب هذه الكبائر الأربعة ، وهى :

١ - ترك الصلاة وترك عبادة الله .

٢ - ترك الزكاة وترك العطف على المساكين .

٣ - الخوض مع الخاطئين فى الباطل والزور والبهتان .

٤ - التكذيب بيوم القيامة .

ومجموع هذه الأربعة يؤدى إلى تصور خاطئ عن الكون والحياة ، والدنيا والآخرة .

وتفيد الآيات أنهم استمروا على كفرهم وسوء أعمالهم ، حتى جاءهم الموت . وهذا عند جمهور المفسرين .

وقال ابن عطية : اليقين عندي : صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة .

٤٨ - فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ .

هناك شفاعاة للمؤمنين من العلماء والملائكة والأنبياء والصالحين ، وهم لا يشفعون إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً ، أى أن الشفاعاة مئة إلهية لمن يستحقها من أهل التوحيد ، أما الكفار فإن لهم جهنم خالدين فيها أبداً ، وعلى فرض وجود شافعين لهم من الأنبياء والصالحين والعلماء والمرسلين ، فإن ذلك لن ينفعهم ، ولن ينقذهم من عذاب النار ، فما تنفعهم شفاعاة الشافعين .

٤٩ - فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ .

ما الذى حمل كفار مكة على الإعراض والابتعاد عن القرآن ، وعن هدى محمد ﷺ ، والانصراف عن الإسلام ؟

قال مقاتل :

الإعراض عن القرآن من وجهين :

١ - الجحود والإنكار .

٢ - والوجه الآخر ترك العمل به .

ونلاحظ أن القرآن الكريم يسمي تذكرة ، لاشتماله على التذكرة الكبرى والموعظة العظمى .

٥٠ ، ٥١ - كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَفِِرَّةٌ ۖ قَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ .

إن القرآن الكريم سبب للهداية واطمئنان النفس ، والإيمان وسعادة الدارين ، لكن هؤلاء الكفار نفروا من تذكير القرآن لهم نفوراً شديداً ، أشبه بنفور الحمر الوحشية إذا شاهدت أسداً يحاول اقتناصها ، أو مجموعة مدربة على الاقتناص والصيد من الصيادين المهرة ، وهو تشبيه يزرى بهم ، ويجعلهم يخرجون من دائرة الآدميين الذين يتفهمون القرآن والتذكرة إلى دائرة الحمر التي تركض ركضاً شديداً عندما تجد ما يدعوها إلى النفار والغرار .

وقريب من ذلك قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ

الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَآلِهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْظَالِمِينَ . (الجمعة : ٥) .

والقسورة : إمّا جماعة الرماة الذين يتصيدون الحمر الوحشية ، أو الأسد ، وسمى قسورة لأنه يقهز السباع ويقصرها ويستولى عليها قسراً .

قال ابن عباس :

الحمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت ، كذلك هؤلاء المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه ، كما يهرب الحمار الوحشى من الأسد .

٥٢ - بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُفْتِي صُحُفًا مُّتَفَرِّقَةً .

كان الحقد والحسد يحمل كبراء مكة وعظماؤها على عدم الإيمان جحوداً وكبراً ، بل كل واحد من هؤلاء الكبراء كان يطمع أن ينزل عليه وحى السماء ، مكتوباً فى صحف مفتوحة كما كان يكتب القرآن الكريم ، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، فهو لا يختار الرُّسل لمنزلتهم المادية ، أو عظم موقعهم المالى ، ولكن لاعتبارات يعلمها الله ، منها الخلق والطهارة والسمو والأمانة ، ورجاحة العقل والاستعداد للنهوض بأمر الرسالة ، وقد أشار القرآن إلى هذه المعانى .

قال تعالى : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (الأنعام : ١٢٤) .

وقال تعالى : اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

وقال سبحانه : وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ . (الزخرف : ٣١) .

وقد بلغ من حنق أبى جهل وجماعة من قريش على النبى ﷺ أن قالوا : يا محمد ، اثنتا بكتّبر من رب العالمين مكتوب فيها : إنى قد أرسلت لكم محمداً .

ونظيره ما حكاه القرآن من قولهم : أَوْ يَكُونُ لَكَ نَبِيٌّ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِرَبِّكَ حَتَّىٰ نُنْزِلَ عَلَيْكَ كِتَابًا فَتَقْرَأَهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . (الإسراء : ٩٣) .

وقال مجاهد :

أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب من السماء ، فيه : من رب العالمين إلى فلان ابن فلان ، إن محمداً رسول الله فاتبعه .

٥٣ - كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر .

أي : لا أفعل ما يطلبون ، فإن الله يعطى للناس العقل والإرادة والاختيار والكسب ، ويرسل للناس الرُّسل ، وينزل الكتب السماوية ، ويترك للبشر حرية الاختيار ، فمن آثر الهدى والإيمان فله الجنة ، ومن آثر الدنيا وشهواتها فله النار ، وهؤلاء كفَّارٌ مَكَّة لا يخافون الآخرة ، ولا يؤمنون بالثواب والعقاب ، بل آثروا الدنيا وباعوا الآخرة ، فلذلك يُعرضون عن التذكُّر ، ويقترحون على النبي ﷺ اقتراحات متعددة تتعلق بمتع الدنيا ومظاهرها .

٥٤ ، ٥٥ - كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ .

يُردِّعهم القرآن مرة أخرى ، ويخبرهم أن هذا القرآن تذكرة وتنبيه ، حيث يلفت النظر إلى الخلق والكون ، والصباح والمساء ، والزرع الناضرة ، والمطر الهاطل ، والسحاب المُسير ، والأرض والسماء ، والجبال والبحار ، والليل والنهار ، ويبين أن هذا الكون البديع المُنظَّم لابد له من خالق رازق ، مبدع قادر ، فعال لما يريد .

فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ .

فمن أراد القرآن قرأه واعتذ به ، وتذكر ما فيه ، وامتدَّى بهدياته ، وجعل له الله حسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة ، ومن شاء أعرض عن هذه التذكُّرة ، وكذَّب بها وكفر ، فاستحق المهانة في سقر .

٥٦ - وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ .

تُختم سورة المدثر ببيان طلاقة المشيئة الإلهية ، فهو سبحانه خالق الإنسان ، وهو العليم بما توسوس به نفسه ، فمن رأى منه - سبحانه - الاستجابة للحق ، والرغبة في الهدى ، يسر له اليسرى ، ووقفه وأعانه ، ومنحه الهداية والمعونة ، واللفظ والخير ، ومن دسَّى نفسه ، وآثر الهوى والشهوات ، وأعرض عن هدايات السماء ، سلب الله عنه الهدى والتوفيق ، والاستماع للتذكُّرة ، والاستفادة بهدى القرآن الكريم .

قال المفسرون :

وما يتعتلون به إلا أن يشاء الله لهم الهدى ، فيتذكروا ويتعظوا ، وفيه تسلية للنبي ﷺ ، وترويح عن قلبه الشريف ، مما كان يخامرهم من إعراضهم وتكذيبهم له .

هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ .

الله عز وجل أهلٌ لأن يُتَّقَى ، وأن يطاع فلا يُعصى ، وأن يُذكر فلا يُنسى ، وأن يخاف الإنسانُ مقامَ ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، والله تعالى أهلٌ للمغفرة والرحمة ، لمن اتقاه وأطاعه .

روى الإمام أحمد ، والترمذى وحسنه ، عن أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ . ثم قال : «قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقاني فلم يجعل معي إلهاً ، فأنا أهل أن أغفر له» (٨٧) .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير سورة (المدثر) مساء الثلاثاء ٩ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٣ من أبريل ٢٠٠١م بمدينة المقطم بالقاهرة .

نسأل الله تعالى القبول والتوفيق ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

اللهم اجعلنا جميعاً من أهل التقوى ، ومن أهل المغفرة . اللهم آمين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة القيامة

أهداف سورة القيامة

(سورة القيامة مكية ، وآياتها ٤٠ آية ، نزلت بعد سورة القارعة)

وهي سورة تتحدث عن القيامة ، وعن النفس اللوامة ، وتحشد على القلب البشرى من الحقائق والمؤثرات ، والصور والمشاهد ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التغلّت منه .

ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تحشد السورة في مواجهة القلب البشرى ، حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي ، وتكرر كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً ، هو الاستسلام والخضوع لقدرة العلى القدير : **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسَاقُ . (القيامة : ٣٠) .**

ومن تلك الحقائق التي تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، وأن من خلق الإنسان من نطفة ، قادر على أن يعيده مرة أخرى : **أَيُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُخْنَىٰ . (القيامة : ٣٦ - ٣٧) .**

ومن المشاهد المؤثرة في السورة ، مشهد القيامة ، وقد وقف الجميع للحساب ، وزاغت الأبصار ، واشتد الهول ، ولقى كل إنسان جزاءه : **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ * فَإِذَا تَرَفَّقَ الْبَصَرُ . (القيامة : ٦ ، ٧) .**

ومن هذه المشاهد ، مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم ، ومشهد الآخرين المقطوعى الصلة بالله : **وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ * وَجُودَ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . (القيامة : ٢٢ - ٢٤) .**

وهكذا يشعر القلب وهو يواجه هذه السورة ، بأنه محاصر لا يهرب ، مأخوذ بعمله لا يفلت ، لا ملجأ له من الله ولا عاصم ، وهكذا تعالج السورة عناد المشركين وإصرارهم ، وتشعر الإنسان بالجد الصارم الجازم في شأن القيامة ، وشأن النفس ، وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق .

وقد لونت السورة وزاوجت بين حقائق الآخرة ، وحقائق الخلق والإبداع ، ومشاهد الموت والحساب ، وتكفل الله بشأن القرآن وحفظه ، وتلك خصيصة من خصائص الأسلوب القرآنى ، حيث يخاطب القلب البشرى بشتى الأساليب والمؤثرات والحقائق والمشاهد ، مما يأخذ عليه كل طريق ، ويقوده إلى الإنعان والتسليم .

مع آيات السورة

١ ، ٢ - يقسم الله تعالى بيوم القيامة وعظم هوله ، وبالنفس التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات ، يُقسم أن البعث حق .

٣ ، ٤ - يرد سبحانه على بعض المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ، وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هى صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة فى التراب ، المتفرقة فى الثرى ، وإعادة بعث الإنسان حيا .

والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرقى من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه فى موضعه كما كان ، وهى كناية عن إعادة التكوين الإنسانى بأدق ما فيه ، حتى يتمثل الإنسان بشرا سويا ، لا ينقصه حتى تسوية أصابعه ، وما حملت من خاصيات مميزة .

٥ ، ٦ - لا يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظمه ، ولكنه يريد أن يداوم على فجوره فيما يستأنف من الزمان ، ولا يتخلى عنه ، ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجيء القيامة .

٧ - ٩ - ذكر سبحانه من علامات يوم القيامة أمورا ثلاثة :

(أ) فالبصر يخطف ويتقلب سريعا سريعا ، تقاب البرق وخطفه .

(ب) والقمر يخسف ويطمس نوره .

(ج) والشمس تقترب بالقمر بعد افتراق ، ويختل نظامها الفلكى المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكونى الدقيق .

١٠ - ١٢ - يتساءل الإنسان المرعوب : أين المفر من جهنم ؟ وهل من ملجأ منها ؟

ولا ملجأ ولا وقاية ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه والمستقر عنده ، لا مستقر عند غيره .

قال السدى : كانوا إذا فزعوا فى الدنيا تحصنوا بالجبال ، فقال الله لهم : لا وزر يعصمكم منى .

١٣ - يُخبر الإنسان حين الغرض والحساب بجميع أعماله : قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها .

وفى الحديث : «سبع يجزى أجرها للعبد بعد موته وهو فى قبره : من علم علما ، أو أجرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس ظلا ، أو بنى مسجدا ، أو ورق مصحفا ، أو ترك وليا يستغفر له بعد موته» .

١٤ ، ١٥ - بل الإنسان على نفسه بصيرة ، بل الإنسان حجة بينة على نفسه ، وفى ذلك اليوم تنطق جوارحه بما فعل ، فسمعه ويصره ويداه ورجلاه وجميع أعضائه تشهد عليه ، ويتضح الحق ، ولو جاء بكل الأعداء .

١٦ - تكفل الله بشأن القرآن ، وحيا وحفظا وجمعا وبيانا ، وليس للرسول ﷺ من أمره إلا حمله وتبليغه .

وقد كان الرسول الأمين ﷺ شديد اللهفة والحرص على استيعاب القرآن وحفظه ، مما كان يدعو إلى متابعة جبريل عليه السلام فى التلاوة آية آية ، وكلمة كلمة .

فلما نزلت هذه الآية ، كان رسول الله ﷺ إذا أتاه جبريل أطرق وسكت ، فإذا ذهب قرأه كما أمره الله .

١٧ - ١٩ - إن علينا جمعه فى صدرك الشريف ، وقراءته على لسانك ، فلن تنساه أبدا ، بل نحن سنجمعه فى صدور المؤمنين ، ونحفظ قراءته ، فإذا تلاه عليك المَلَك فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ثم إننا بعد حفظه وتلاوته ، نبينه لك ونلهمك معناه .

٢٠ ، ٢١ - إنكم يا بنى آدم خلقتم من عجل ، وطبعتم عليه ، فتعجلون فى كل شىء ، ومن ثم تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة .

٢٢ ، ٢٣ - فى ذلك اليوم - يوم القيامة - ستكون هناك وجوه حسنة ناعمة ، تنظر إلى جلال الله ، وتتمتع برضوانه ، وهى متعة دونها كل متعة .

إن روح الإنسان لتستمتع أحيانا بلحمة من جمال الإبداع الإلهى فى الكون أو النفس ، تراها فى الليلة القمر ، أو الليل الساجى ، أو الفجر الوليد ، أو الظل المديد ، أو البحر العباب ، أو الصحراء المنسابة ، أو الروض البهيج ، أو الطلعة البهية ، أو القلب النبيل ، أو الإيمان الواثق ، أو الصبر الجميل ، إلى آخر مطالع الجمال فى هذا الوجود .. فتغمرها النشوة ، وتفيض بها السعادة ، فكيف بها وهى تنظر إلى جمال ذات الله ؟ وتستمتع بهذه السعادة الغامرة التى لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك ؟

٢٤ ، ٢٥ - ووجوه الفجار تكون يوم القيامة عابسة كالحة ، مستيقنة أنها ستصاب بداهية عظيمة تقسم ظهرها وتهلكها .

٢٦ - ٣٠ - تعرض الآيات مشهد الاحتضار ، حين تبلغ الروح أعالى الصدر ، وتشرف النفس على الموت ، ويقول أهل المحتضر : من يرقبه للشقاء مما نزل به ؟ والمسوا له الأطباء فلم يُغنُوا عنه من قضاء الله شيئا ، وأيقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وبطلت كل

حيلة، وعجزت كل وسيلة، والتوت ساقه بساقه، فلا يقدر على تحريكهما، وتبين الطريق الواحد الذى يساق إليه كل حى فى نهاية المطاف: **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ**.

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق، وكل آية ترسم حركة، إنه مشهد الموت الذى ينتهى إليه كل حى، الموت الذى يصصر الجبابرة، بنفس السهولة التى يصصر بها الأقزام، ويقهقر المتسلطين كما يقهر المستضعفين سواء، الموت الذى لا حيلة للبشر فيه، وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التى تجربهم.

٣١ - ٣٣ - ورد أن هذه الآيات تعنى شخصا معيناً بالذات، قيل: هو أبو جهل (عمرو بن هشام)، وكان يحىء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما فعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئاً يذكر، **وَيَتَمَطَّى**. أى: يطم فى ظهره ويتعاجب وتعاجباً ثقيلًا كريهاً.

وكم من أبى جهل فى تاريخ الدعوة إلى الله، يسمع ويعرض، ويتفطن فى الصد عن سبيل الله، والأذى للدعاة.

٣٤، ٣٥ - ويل لك مرة بعد أخرى، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك، وهو تعبير اصطلاحى يتضمن التهديد والوعيد، أو معناها: أجمل بك وأحرى. **ثُمَّ أُولَٰئِكَ فَأُولَٰئِكَ**. أى: يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى.

روى قتادة أن النبى ﷺ أخذ بيد أبى جهل فقال: «أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى». فقال عدو الله: أتوعدنى يا محمد، والله لا تستطيع أنت وريك شيئاً، وإنى لأعز من مشى بين جبليها. فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين.

٣٦ - أحسب الكافر أن يترك مهملاً، لا يؤمر ولا يُنهى ولا يُبعث ولا يُجازى؟ لقد كانت الحياة فى نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية.. أرحام تدفع، وقبور تبلع، وبين هاتين لهو ولعب، وزينة وتفاح، فلغت الآية نظر الإنسان إلى التقدير والتدبير فى حياته، وأنه لابد من البعث والجزاء، لتمييز الصالح من الطالح، والمؤمن من الكافر، ثم يأتى ما بعدها بالذات الواقعية على هذا القول.

٣٧ - ٣٩ - فما هذا الإنسان؟ مم خلق؟ وكيف كان؟

ألم يك نقطة صغيرة من الماء من منى يراق؟ ألم تتحول هذه النطفة إلى علقة ذات وضع خاص فى الرحم، تعلق بجدرانها لتعيش وتستمد الغذاء؟ فمن ذا الذى ألهمها هذه الحركة؟ ومن ذا الذى وجهها هذا الاتجاه؟

ثم من ذا الذى خلقها بعد ذلك جنينا معتدلا منسق الأعضاء ، مؤلفا جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو فى الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟

ومن ذا الذى قاد هذه الخلية ، وهى خلية صغيرة ضعيفة لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب؟

ثم فى النهاية .. من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة ، التى قادت النطفة المراقبة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير: **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى** .

٤٠ - وفى ختام السورة يجيء هذا الاستفهام القوى الحاسم : **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى** . أى : أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة المراقبة ، بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟

أليس الفعال للتدبير والتقدير والنشأة الأولى بقادر على البعث والإحياء مرة أخرى ؟

قال تعالى : **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ... (الروم : ٢٧) .

وإذا سمع المؤمن هذه الآية الأخيرة من سورة القيامة فليقل : بلى قادر .

أخرج الإمام أحمد ، وأبو داود ، والحاكم وصححه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ منكم : **وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ** . وانتهى إلى آخرها : **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ** . فليقل : بلى ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . ومن قرأ : **لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ** . فانتهى إلى آخرها : **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى** . فليقل : بلى ، ومن قرأ المرسلات فبلغ : **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ** . فليقل : آمنا بالله» .

مقصود السورة

بيان هول القيامة ومهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أعيان العالم ، حيث يزور البصر ويظلم القمر ، وتتكدر الشمس ، ويفزع الإنسان ويقول : أين المفر ؟

وفى ذلك اليوم سينال كل إنسان جزاء عمله .

وبيئت السورة آداب سماع الوحي ، والوعد باللقاء والرؤية ، وبيئت هول الاحتضار ، وقدرة الله على البعد والإعادة ، وبعث الموتى وحسابهم وجزائهم ، فى قوله سبحانه : **أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى** .

إثبات البعث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۚ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ۚ﴾
 ﴿بَلَىٰ فَنَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۚ﴾
 ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۚ﴾
 ﴿يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۚ﴾
 ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۚ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ﴾
 ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۚ﴾
 ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۚ﴾
 ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۚ﴾
 ﴿يَبْنَوْنَ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ مِمَّا قَدَّمْ وَأَخَّرَ ۚ﴾
 ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۚ﴾
 ﴿وَلَوْ لَفَىٰ مَعَاذِيرُهُ ۚ﴾

المفردات :

لَا أَقْسِمُ : أقسم ، و «لا» مزيدة .

بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ : كثيرة اللوم والندم على ما فات .

أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ : أيعظن الكافر .

أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ : أن لن تقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة .

بَلَىٰ : نعمها بعد التفرق والبلوى .

نُسَوِّيَ بَنَانَهُ : البنان : الأصابع أو أطرافها ، فنردّ عظامها كما كانت على صغرها بقدرتنا ، فكيف بكبارها .

لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ : ليدوم على فجوره مدة عمره .

بَرِقَ الْبَصَرُ : دهش وتحير فزعا مما رأى من أهوال يوم القيامة .

خَسَفَ الْقَمَرُ : ذهب ضوءه .

وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ : في الطلوع من المغرب مُظْلَمَيْنِ .

أَيْنَ الْمَفْرَ: المهرب من العذاب أو الهول .

لَا وَزَّر : لا ملجأ ولا منجى له من الله .

بَصِيرَةٌ : حُجَّةٌ بينة ، أو عين بصيرة .

وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ : ولو جاء بكلُّ عُذرٍ لم ينفعه .

التفسير :

١ - لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ .

أقسم بيوم القيامة ، وهو اليوم الذى يقوم النَّاسُ فيه من قبورهم ، حفاة عراة غرلا ^(٨٢) كما ولدتهم أمهاتهم ، وهو اليوم الذى تبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات ، وهو اليوم الذى يشيب فيه الوليد ، ويحشر الناس فى أرض المحشر ، ويتم القضاء .

٢ - وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ .

وأقسم بالنفس اللوامة التى تلوم صاحبها على التقصير فى الطاعات ، وتلوم صاحبها على فعل السيئات .

قال مجاهد : هى النفس الخيرة التى تلوم صاحبها على الشرِّ ، لمْ فعله ؟ وعلى الخير ، لمْ يستكثر منه ؟

٣ - أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ .

جواب القسم فى الآيتين الأولى والثانية محذوف وتقديره : لتبعثن ، وسَوْغَ حذف الجواب دلالة هذه الآية عليه .

سبب النزول :

روى أن عدى بن ربيعة قال لرسول ﷺ : يا محمد ، حدثنى عن يوم القيامة ، متى يكون أمره ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك ، ولم أؤمن بك ، أو يجمع الله هذه العظام بعد يلاها ؟ فنزلت الآية .

وقد عنى القرآن الكريم بتأكيد أمر البعث والجزاء ، وبيان حكمته ، وهى أن يكافأ الطائع ، وأن يعاقب العاصي ، وحتى لا تكون الحياة عبثاً .

وقد استبعد الكفار أن تدب الحياة فى العظام البالية ، وقد بين القرآن أن إعادة الخلق سهل هين على الله ، قال تعالى : **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ** ... (الأنبياء : ١٠٤) .

ويروى أن أُمَيَّةَ بن خلف جاء بعظم قد رمّ وبلّى وصار ترابا ، ففرك العظم بين يديه ونفخ فيه ، وقال : يا محمد ، أترى أن ربك يبعث هذا بعدما رمّ وبلّى وصار ترابا ؟ قال : «نعم ، ويبعثك ويخلقك الناس» .
وأُنزل الله تعالى الآيات الأخيرة من سورة (يس) للردّ على منكرى البعث .

قال تعالى : **وَضَرَبْنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** . (يس : ٧٨ ، ٧٩) .

٤ - **بَلَىٰ قَلِيلٍ عَلَىٰ أَنْ نَسْأَلَ بَنَانَهُ** .

أى : نجمع عظام الإنسان بعد تفرّقها ، وصيرورتها رميما ورفاتا ، حال كوننا قادرين على تأليف جمعها ، وإعادتها إلى التركيب الأوّل ، وعلى أن نسأى أصابعه .

أو نسأى سلامياته على صغرها ، ونضم بعضها إلى بعض ، كما كانت من غير زيادة أو نقصان .
وخصّ الأصابع بالذات ، لما فيها من دقة التركيب ، وظهور آثار القدرة ، وإبداع الصانع جلّ جلاله فى خلقها ، حتى تؤخّذ بصمات الإنسان عند الحاجة إلى ذلك ، لأنه يكاد يكون لكل إنسان بصمة خاصة به ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم حيث لم يكتشف هذا الأمر إلا من وقت قريب .

٥ - **بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ يُفْجَرُ أَمَامَهُ** .

بل إن الحامل للإنسان على إنكار يوم القيامة شىء آخر ، هو استمرار فجوره واستيفاء لثأذه ، وعدم خضوعه لأوامر الوحي ، وهذا هو الذى جعله ينكر البعث والحشر والحساب ، حتى يدوم على فجوره فى مستقبل أيامه ، فيقدّم الذنب ، ويؤخر التوبة .

قال سعيد بن جبیر : يقدم الذنب ويؤخر التوبة ، حتى يأتية الموت على شر أحواله .

٦ - **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** .

يسأل سؤال استبعاد واستنكار : متى يجىء يوم القيامة ؟

قال تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِيبُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ . (سبا: ٢٩ ، ٣٠) .

قال الآلوسی فی تفسیره :

وفیه أن من أنکر البعث یرتکب أشد الفجور لا محالة .

٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ - فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ .

إذا فوجئ الإنسان بأحوال القيامة، وقف البصر وانبهر، وتخشع وتحار من شدة الأحوال، ومن عظم ما نشاهده يوم القيامة من أمور، ومنه قول ذي الرمة :

ولو أن لقمان الحكيم تعرضت
لعينيهِ مئ سافراً كاك يبرق

وَخَسَفَ الْقَمَرُ .

ذهب ضوءه وانطمس نوره .

وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .

حيث تطلع الشمس من مغربها، وكذلك القمر، ولا ضوء للشمس ولا للقمر في ذلك الحين .

يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ .

عندما يشاهد الإنسان هذه العلامات الكبرى، التي تزلزل الوجدان والفؤاد، يبحث عن مهرب خوفاً من الله تعالى، أو خوفاً من جهنم .

١١ - كَلَّا لَا وَزَرَ .

ردع وزجر لكل كافر، أي لا حماية ولا ملجأ، ولا وقاية ولا مهرب من عذاب الله .

١٢ - إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ .

إلى الله وحده، لا إلى غيره، يكون مستقر العباد وحسابهم وجزائهم، وخلودهم في الجنة أو في

النار .

١٣ - يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ .

يُخبر الإنسان يوم القيامة بجميع أعماله التي قَدَّمَهَا ، وآثاره التي أَقْرَهَا .

وعن مجاهد : بأول عمره وآخره .

١٤ - بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ .

بل الإنسان حجة واضحة على نفسه، وجوارح الإنسان تشهد عليه ، وهو مستبصر بما فعل في دنياه .

قال تعالى : يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (النور: ٢٤) .

١٥ - وَلَوْ أَتَقَىٰ مَعَاذِيرُهُ .

أى : الإنسان شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ، فهو حجة بينة على أعماله ، ولو اعتذر أو أنكر لما قُبِلَ منه .

وقال ابن عباس وغيره : إن المراد سمعه وبصره ، ويداه ورجلاه وجوارحه ، وكلها تشهد عليه بالحق .

وَلَوْ أَتَقَىٰ مَعَاذِيرُهُ . ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه .

وقال مجاهد : معاذيره حجة .

قال ابن كثير : والصحيح قول مجاهد وأصحابه .

كقوله تعالى : ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . (الأنعام: ٢٣) .

وكقوله تعالى : يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَجْلُفُونَ لَهُ ، كَمَا يَجْلُفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ . (المجادلة: ١٨) .

فإذا حاول الإنسان الإنكار شهدت عليه جوارحه ، ويقال له : كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا .

(الإسراء: ١٤) .

أى : لا مجال للإنكار في ذلك اليوم ، لأنه اليوم الحق ، وهناك الحفظة والكرام الكاتبين ، لأنه يوم يحق فيه الحق ، ويمحق الباطل .

التفرغ التام لسماع الوحي

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ﴾ (١٦) **إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْءَانُهُ** (١٧) **فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَعِزْ** (١٨) **بِرَبِّكَ إِنَّ عَلَيْنَا يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ** (١٩) **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ** (٢٠) **وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ** (٢١) **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ** (٢٢) **إِلَىٰ رَبِّهَا نَازِرَةٌ** (٢٣) **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ** (٢٤) **تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ** (٢٥) ﴿

المضردات :

لتتجمل به : لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلسف منك .

إن علينا جمعه : إن علينا جمعه في صدرك لئلا يتفلسف منك .

وقرآنه : أي : قراءته ، أي إثباتها في لسانك

قراناه : قرأه جبريل عليك .

فاتبع قرآنه : فاستمع قراءته ، وكررها حتى ترسخ في نفسك .

بيانه : تفسير ما فيه من الحلال والحرام ، وبيان ما أشكل من معانيه .

العاجلة : دار الدنيا .

ناصرة : متهلة بشرًا بما ترى من النعيم .

ناظرة : أي تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب .

باسرة : شديدة العبوس ، كالحلة متغيرة مسودة .

تظنون : تستيقن .

فاقرة : أي : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

تمهيد :

أخرج البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل الوحي يُحرّك به لسانه ، يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَمَجَّلَ بِهِ ...** (١٦)

وَيُبَيِّنُ الْآيَاتِ فَضْلَ اللَّهِ عَلَىٰ نَبِيِّهِ ، فَقَدْ تَكْفَّلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ بثلاثة أمور :

١ - جمع القرآن في قلبه .

٢ - قراءة القرآن على لسانه .

٣ - توضيح معانيه وإرشاده إلى بيان القرآن وتفسيره .

ثم تفيد الآيات ما يأتي :

الناس تؤثر العاجلة وتهمل الآخرة .

والناس في الآخرة فريقان :

مؤمنون ناظرون إلى ربهم ، وهى السعادة الكبرى ، والمئة العظمى على المقربين من أهل الجنة .

وكافرون محجوبون عن رؤية الله عز وجل ، وجوههم يعلوها القمام والشحوب والالام ، ونفوسهم تتوقع العظائم والدواهي التى تكسر فقرات الظهر .

اللهم احفظنا ، وقنا عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

التفسير :

١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ - لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَازِلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا نِازَهُ .

لا تتعجل بقراءة القرآن خلف جبريل ، خشية أن يضيع منك شيء من القرآن ، بل اصمت فترة قراءة جبريل ، وتفرغ تماماً للاستماع والإنصات ، فقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن فى قلبك ، كما تكفل الله بأن تقرأ القرآن بلسانك مرتلاً ، كما أنزل عليك .

فتمهل والزم السماع ، فإذا قرأه جبريل عليك وانتهى من الوحي ، فأتابع ذلك بقراءتك القرآن ، كما سمعته من جبريل عليه السلام .

وتفيد الآيات ما يأتي :

النهى عن تحريك الرسول ﷺ لسانه بالقرآن أثناء قراءة جبريل ، وقد تكفل الله تعالى لرسوله ﷺ بثلاثة أمور :

١ - حفظ القرآن فى قلبه .

٢ - ضمان صيانة لسان الرسول ﷺ من الزلل عند تلاوته للقرآن .

٣ - شرح القرآن وتفسيره للرسول ﷺ .

وبذلك يكون الرسول ﷺ أعلم الناس بالقرآن الكريم : حفظا وتلاوة وتفسيرًا .

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .

أى : تكفلنا ببيان معانى القرآن لك ، وما فيه من الحلال والحرام والآداب والأحكام ، حتى تكون معانى القرآن واضحة فى فؤادك .

قال الزمخشري :

كأنه كان يعجل فى الحفظ والسؤال عن المعنى جميعا ، كما ترى بعض الحرّاص على العلم .

ونحو الآية قوله تعالى : وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا .

(طه : ١١٤)

٢٠ ، ٢١ - كَلَّا بَلْ تُجِوُّنَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ .

أنتم يا بنى آدم تحبون الدنيا ، وما فيها من شهوات ولذائذ ، وتتركون الآخرة وما تجوب عليكم من صلاة وصيام ، وزكاة وحج ، وأكل الحلال ، والبعد عن الحرام والشبهات ، واتباع الأمور ، واجتناب المنهيات .

٢٢ ، ٢٣ - وَجُودَ يُؤْمِلُ نَاصِرَةً * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةً .

وَجُودَ يُؤْمِلُ . أى فى الآخرة والقيامة . نَاصِرَةً . مستبشرة ناعمة ، فرحة راضية .

قال تعالى : تَعْرِفُ لِي وَجُوهَهُمْ نَفْسَرَةً النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْمُومٍ * خِتَمُهُمْ مِنْ ذَلِكِ فَلْيَسْتَأْثَسِ

الْمُتَلَفِّسُونَ . (المطففين : ٢٤ - ٢٦) .

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةً .

وهذه الوجوه الناضرة تنال النعيم القريبى ، والسعادة والسرور بنظرها إلى ربها ، ويكون ذلك أسعد شيء لأهل الجنة .

قال تعالى : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

فالحسنى هى الجنة، والزيادة هى تفضل الله عليهم بالرُّضا فلا يسخط عليهم أبداً ، وبرؤية ربهم سبحانه وتعالى ، رؤيةً منزهة عن الكم والكيف ، والطول والعرض ، فنحن فى الدنيا عيوننا فانية والله باقر ، والفانى لا يرى الباقي ، فإذا كان يوم القيامة منحنا الله أبصاراً باقية .

وقد طلب موسى رؤية الله فى الدنيا ، فلم يجب إلى ذلك ^(٨٧) . أمّا فى الآخرة فإن الثابت عند أهل السنة والجماعة أن أهل الدرجات العالية فى الجنة يرون ربهم ، رؤية تؤمن بها ونفوض حقيقة المراد منها إلى الله تعالى .

وفى منظومة الجوهرة ، وهى منظومة فنية فى علم التوحيد :

ومنه أن يدرك بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار

أى : من عقيدة أهل السنة والجماعة أن السعداء فى الجنة يرون ربهم ، بدون تحديد بصفة أو جهة أو مسافة ، وهذه الرؤية هى أعلى نعم ، وأسمى غاية لأهل الفضل والدرجات العلى فى الجنة .

وقد ثبتت هذه الرؤية فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، وقد أورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث الصحيحة فى تأييد رؤية المؤمنين لربهم فى الدار الآخرة ، نسوق منها ما يأتى :

فى الصحيحين ، عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر ، فقال : «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا» ^(٨٨) .

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : «جنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» ^(٨٩) .

وفى صحيح مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة» ، ثم تلا هذه الآية : لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ... (يونس : ٢٦) . ^(٩٠)

ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل فى العرصات وفى رياضات الجنات .

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه ، وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين»^(٨٩) .

قال الحسن : وَجْهٌ يُؤْمَلُ نَاضِرَةٌ . قال : حسنة . إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ . قال : تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق^(٩٠) .

٢٤ - وَجْهٌ يُؤْمَلُ بِاسِرَةٍ .

وفريق آخر من الكفار ترى وجوههم يوم القيامة كالحة ، شديدة السواد ، يعلوها القتام والذلة والعبوس .

٢٥ - تُظَنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .

تتوقع أن ينزل بها عذاب أدهى وأعظم مما تلقاه في جهنم .

فَاقِرَةٌ . أى : داهية تقصم فقار الظهر ، لشدة سوء حالها ووبالها .

وشتان ما بين المرتبتين :

فالمُتَّقُونَ في جنات النعيم ، ورضوان رب العالمين ، وروية الله تعالى تكريماً لهم .

والكافرون وجوههم كالحة ذليلة ، مسودة يعروها القتام ، وتتوقع أن تنزل بها ألوان العذاب التي تقصم الظهور .

وقريب من هذا المعنى قوله تعالى : يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... (ال عمران : ١٠٦) .

وقوله سبحانه وتعالى : وَجُوهٌ يُؤْمَلُ مُسْفِرَةٌ * صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَجُوهٌ يُؤْمَلُ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تُرْهَقُهَا قَهْرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٢٨ - ٤٢) .

تفريط الكافر في الدنيا ، وإثبات البعث

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ النَّوَافِلُ ۖ وَقِيلَ مِنْ رَأْفٍ ۗ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ وَالْقَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۖ إِلَى رَيْكٍ ۖ يَوْمِذِ الْمَسَاكِ ۖ فَلَاصِقٌ وَلَا صِلَى ۖ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ۖ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَسْتَطِي ۖ أَوَّلَى لَكَ فَأُولَى ۖ ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأُولَى ۖ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَنُ أَنْ يَتْرَكَ سُكَى ۖ أَلَتَوَيْكَ طُعْمَةٌ مِنْ مَمْنَى ۖ يَتَعْنَى ۖ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ خَلْقٍ فَسْوَى ۖ فَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۖ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلِيٍّ أَنْ يُخَيَّرَ أَلْوَنَى ۖ ﴾

المضردات :

كـ لا ردع عن إثثار العاجلة على الآجلة .

ببلغت التراقي، وصلت الروح لأعلى الصدر.

مَن راق، من يداويه أو يرقيه ليشفى مما نزل به .

وظائفنا وتيقن المحتضر.

أَنَّهُ الْفِرَاقُ ، أَن هَذَا الَّذِي نَزَلَ بِهِ هُوَ فِرَاقُ الدُّنْيَا .

والتفت الساق بالساق، التصقت ساقه بساقه، والتوت عليها عند رعدة الموت، وقيل: الساق كناية عن الشدة، ومنه: قامت الدنيا على ساق، وقامت الحرب على ساق.

المساق : سَوَّق العباد إلى الجزاء .

يَتَمَطَّى: يَتَبَخَّرُ فِي مَشِيَّتِهِ اخْتِيَالًا.

نُولِيَ لَكَ فَاُولَى: هَلَاكَ لَكَ أَيُّهَا الْمَكْذِبُ، أَوْ قَارِبِكَ مَا يُهْلَاكَ.

مُنْدِي، مَهْمَلًا، فَلَا يُكَلِّفُ بِالْشَّرَائِعِ وَلَا يُجَازِي.

نطفة من متي يمئى ، ماء المنى يصب ويراق من الأصلاب فى الأرحام .

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَفْعَدَّهُ وَكَمَلَهُ وَنَفِخَ فِيهِ الرُّوحَ .

الزواجين : النوعين .

تمهيد :

تُصِفُ الآيات حالة الاحتضار ونزول الموت بالإنسان ، وتَفَلَّت الدنيا من بين يديه ، وإقبال الآخرة عليه .

وقيل : نزلت الآيات في أبي جهل حين مشى إلى أهله مختالاً مفتخراً ، فقال له النبي ﷺ : «أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى» .

ثم أقامت الآيات الدليل على صحة البعث من وجهين :

١ - أن يتأب الطائع ويعاقب العاصي .

٢ - كما قدر سبحانه على الخلق الأول ، وأوجد الإنسان من منى يمنى ، فإنه قادر على الإعادة والبعث .

التفسير :

٢٦ - كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ .

كَلَّا . ردع وزجر عن إثارة العاجلة ، أي : ارتدعوا يا معشر المشركين عن ذلك ، وتنبهوا لما بين أيديكم من الأهوال والمخاطر ، فالموت يدرك كل حي ، ومن مظاهره بلوغ الروح التراقي ، وهي عظام الصدر ، ويكنى بذلك عن القرب من الموت ، ومنه قول ابن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها وقد بلغت نفوسهم التراقي

٢٧ - وَفِيلٌ مِّنْ رَّاقٍ .

أي : قال أهل الميت وأقاربه : من راق يرقيه ، رغبة في شفائه ، أو طبيب يداويه ، ويطب ويشفى هذا المريض .

٢٨ - وَظَنَّ أَنَّهُ التَّرَاقِيُّ .

أيقن المحتضر بنهاية الحياة ، وبداية الممات .

قال الإمام الرازي : ولعله إنما سمى اليقين هنا بالظن ، لأن الإنسان ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع في الحياة لشدة حبه لهذه الحياة العاجلة ، ولا يتقطع رجاءه عنها ، فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

٢٩ ، ٣٠ - وَتَلَقَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ .

انتهت الحياة ، والتصقت ساق بساق والتوت عليها عند هلع الموت ، فالساق هنا ساق حقيقية .

ويصح أن يراد بالساق الشدة ، ومنه : وقفت الحرب على ساق .

وقال ابن عباس : التفت شدة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة .

ونحوه قول عطاء : اجتمع عليه شدة مفارقة المألوف من الوطن والأهل والولد والصديق ، وشدة القدوم على ربه عز وجل .

إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ .

أى : إلى الله عز وجل مساق العباد ، ورجوعهم من الدنيا إلى الآخرة .

قال تعالى : إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى . (العلق : ٨) .

وفى الآخرة يجازى كل إنسان بعمله ، ويدخل الأختيار الجنة ، ويساق الفجار إلى النار .

٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ - فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمْتَقِي .

فلا صدق بالقرآن ، ولا صلى للرحمن .

أو : لا صدق بالله ووجدانيته ، بل اتخذ الشركاء والأنداد ، وجدد كتبه التى أنزلها على أنبيائه .

وَلَا صَلَّى . أى : لم يخضع لله راكمًا وساجدًا ، متبتلا ملتزمًا بالفرائض والأوامر ، مجتنبًا للمحرمات والنواهي .

قال أبو حيان فى البحر المحيط :

والجمهور على أن هذه الآيات نزلت فى أبى جهل ، وكادت تُصرَّح به فى قوله : يَمْتَقِي . فإنها كانت مشيته ، ومشية قومه بنى مخزوم ، وكان يكثر منها .

وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

كذب بالقرآن ، وأعرض عن النبى محمد ﷺ ، وكان أبو جهل يأتى إلى النبى ﷺ فيسمع القرآن ، ثم يخرج معرضًا فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله ﷺ بالقول ، ويصد عنه الناس ويحذروهم منه .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُطِّي^٢.

ثم يذهب أبو جهل إلى قومه مختللاً متكبراً ، متباهياً بما فعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر .
والتعبير القرآني يتهم به ويسخر منه ، ويصور حركة احتياله بأنه : يَمُطِّي^٢ . يَمْطُ في ظهره ،
ويتعاجب تعاجباً ثقيلاً كريهاً .

وكم من أبى جهل في تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويُعرض ، ويتفطن في الصد عن سبيل الله ،
ويفتخر بما مكر وبما أفسد في الأرض .

٣٤ ، ٣٥ - أَوْزَىٰ لَكَ فَأَوْزَىٰ * ثُمَّ أَوْزَىٰ لَكَ فَأَوْزَىٰ .

ويلّ لك أيها الشقيء ، ثم ويلّ لك .

قال المفسرون :

هذه العبارة في لغة العرب ذهبت مذهب المثل في التخويف والتحذير والتهديد ، وأصلها أنها أفعل
تفضيل من : وليه الشيء ، إذا قاربه ودنا منه ، أي : وليك الشر وأوبشك أن يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك . اهـ .
ونلاحظ أن القرآن الكريم كان يقود معركة ثقافية ضد هؤلاء المكذبين ، فقد عرض القرآن أربعة أعمال
لأبى جهل ، هي :

فلا صدق ، ولا صلى ، ولكن كذب وتولى ، ثم ردّ عليه بوعيد مكون من أربعة هي :

أَوْزَىٰ لَكَ فَأَوْزَىٰ * ثُمَّ أَوْزَىٰ لَكَ فَأَوْزَىٰ .

وفى الصحيح أن النبي ﷺ حذر أباه جهل وتوعده ، فاستكبر أبو جهل ، وأبى وأعرض ، فقتله الله يوم
بدر .

ثم عرض القرآن أدلة عقلية على وجوب البعث ، وسهولة وقوعه على الله تعالى .

٣٦ - أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى .

سُدًى . مهملًا في الدنيا لا يكلف بشرعٍ ، مهملًا في القبر لا يُبعث ولا يُحاسَب .

أَيُظَنُّ الإنسان أن يتركه الله في الدنيا مهملًا ، بدون أن يرسل إليه الرسل ، وينزل إليه الكتب ، ويبين
له الحلال والحرام ، والتشريع وأخبار الأولين ، ومشاهد القيامة والبعث والحشر ، والصراط والميزان .

أو أن يهمله في قبره فلا يبعثه ليكافئ الصالحين ، ويعاقب الظالمين .

قال تعالى : **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ** . (طه : ١٥) .

وقال عز شأنه : **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ** .

(ص : ٢٨)

إذن لابد من دارٍ للثواب والعقاب ، والبعث والقيامة .

٣٧ - **أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِّنْ مَّيٍّ يُمْتَنَىٰ** .

استدلَّ القرآن في هذه الآية وما بعدها على طلاقة القدرة التي قادت خلق هذا الإنسان ، وقد كان نطفة من منى بمعنى ، يُقذف المنى من صلب الرجل إلى رحم المرأة ، فيتم تلقيح البويضة ، وتحمل خصائص الأبوين مخصبة ملقحة .

٣٨ ، ٣٩ - **ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فِخْلًا فَخَسَوْاْ ۖ فَجَعَلْ مِنْهُ زُرُوجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ** .

ثم تحولت النطفة الملقحة إلى مراحل معينة يمر بها الجنين ، في بطن أمه ترعاها يد القدرة الإلهية ، من نطفة إلى علقة ، (قطعة دم تعلق بجدار الرحم ، وتمسك به تماما ليكون قراراً مكيناً لها) ، ثم تتحول إلى مضغة (قطعة لحم قدر ما يعضغه الإنسان) ، ثم تتحول إلى عظام ، ثم يكسى العظام لحماً ، ثم يصبح خلقاً آخر متكاملًا ، فيه كل وسائل الحياة .

مَنْ الذى خلق هذا الخلق منسق الأعضاء ، مؤلفاً جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ؟ من الذى قاد هذه الرحلة المديدة للجنين ، وهو خليقة صغيرة ضعيفة لا عقل له ولا مدارك ولا تجارب ؟ ثم فى النهاية .. من ذا الذى جعل من الخلية الواحدة الذكر والأنثى ؟

إنها اليد اللطيفة المدبرة التى قادت للنطفة المراقبة فى طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير .

فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّرُوجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ .

أى : فجعل من هذا الإنسان صنفين ونوعين : ذكراً وأنثى ، بقدرته تعالى .

هذا هو أصل الإنسان وتركيبه ، تقوده يد القدرة الإلهية ، من منى يمنى إلى بشر متكامل ، هذا الخالق المبدئ اللطيف الخبير الذى أوجد الإنسان فى بداية حياته ، أليس قادرا على أن يعيده مرة أخرى ، وأن يحييه بعد مماته .

وفى هذا المعنى يقول الله تعالى فى أوائل سورة المؤمنون :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْيَعْلَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُعْجُونَ . (المؤمنون : ١٢ - ١٦) .

٤٠ - أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَلْبِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ .

أليس هذا الإله الخالق المبدع ، المنشئ للإنسان وللكون بقادر على أن يعيد الحياة مرة أخرى ، ويحيى الموتى ، ويعيدهم من قبورهم ، بعد جمع ما تفرق من أجزائهم الأصلية ؟
بلى ، إنه قادر .

وكان ﷺ إذا وصل إلى قراءة هذه الآية قال : «سبحانك بلى» وأحيانا يقول : «سبحانك اللهم فبلى» .
وفى حديث صححه الحاكم قال ﷺ : «من قرأ : لَا أَقْسِمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ . فانتهى إلى : أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَلْبِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ . فليقل : بلى» : أى : بلى قادر .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (القيامة) بحمد الله تعالى عصر يوم السبت ١٣ من المحرم ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٤/٧ ، بمدينة المقطم بالقاهرة ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الإنسان

أهداف سورة الإنسان

(سورة الإنسان مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها ٣١ آية ، نزلت بعد سورة الرحمن)

وقد اختلف فى مكيتها ومدنيتها ، وفى المصحف المتداول أنها مدنية ، ولكن آيات السورة وسياقها وموضوعاتها تحمل الطابع المكي ، وهى أقرب إلى أن تكون مكية .

والمكى من القرآن هو ما نزل بمكة قبل الهجرة ، والمدنى هو ما نزل بالمدينة بعد الهجرة .

وهناك سور متفق على مكيتها ، وسور متفق على مدنيتها ، وسور مختلف فيها ، من العلماء من يرى أنها مدنية ، ومنهم من يرى أنها مكية ، ومن هذه السور سورة الإنسان .

وقد غلب على السور المكية الحديث عن الألوهية ، والتحذير من عبادة الأصنام ، والتذكير بالبعث والجزاء ، ولفت الأنظار إلى مشاهد الكون ونواميسه ، وآيات الله فى الأفاق ، ودلائل القدرة الإلهية فى الخلق والنفس .

وغلب على السور المدنية وصف غزوات الرسول ﷺ ، وحالات المجتمع المدنى ، والحديث عن المنافقين واليهود ، والعناية بتشريع الأحكام ، ونظام المجتمع ودعائم الحكم السليم .

والقرآن فى مجموعه كتاب هداية ، ودعوة إلى القيم ومكارم الأخلاق ، وحث على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ودعوة إلى تهذيب النفس ، وحث على الفضيلة والاستقامة ، وتقوى الله ومراقبته .

وهذه المعانى نجدها فى السور المكية والمدنية ، وفى السور المختلف فى مكيتها ومدنيتها ، كسورة الإنسان .

ولا نملك نحن إلا أن نقول : سورة الإنسان سورة من القرآن الكريم يختلف الترجيح فى مكيتها ومدنيتها ، ونرى أن أسلوبها أقرب إلى أسلوب القرآن المكى ، وبذلك تكون جميع سور جزء (تبارك الذى بيده الملك) مكية .

تسلسل أفكار السورة

سورة الإنسان نداء رخيٌّ ندَى للإنسان أن يتذكر أصله الذي خلق منه ، ويتذكر فضل الله عليه ، حيث خلقه بشراً سوياً ، ويسر له طريق الخير والشر ، ليختار بإرادته وكسبه ، وعقله وطاقاته ومداركه .

وبذلك تذكر السورة أصل الخلق ، والمدارك والطاقات التي منحها الله للإنسان ، وميزه بهذا على جميع المخلوقات ، حيث منحه الإرادة والاختيار ، والسمع والبصر ، ليسمع ويرى ويفكر ويتدبر ، ثم يختار بإرادته وكسبه ، وهذه ميزة خاصة بالإنسان وحده في هذا الكون .

فالملاك مطيع طاعة مطلقة ، والحيوان مزود بالإدراك دون الاختيار ، والكون كله مسخر بمشيئة الله ، وخاضع لنواميسه خضوع القهر والغلبة .

والإنسان زود بالعقل ليختار الطاعة لله أو المعصية ، وهذا هو أساس الابتلاء والاختبار ، فإن أطاع صار أهلاً لرضوان الله وجنته ، وإن عصى صار أهلاً لغضبه وناره .

وقد ذكرت السورة عذاب أهل النار في آية واحدة ، وهي الآية الرابعة ، واسترسلت في وصف نعيم أهل الجنة وثوابهم في الآيات من (٥ - ٢٢) ، أي في جزء كبير من السورة .

ثم يتجه الخطاب إلى الرسول الأمين ﷺ ، لتبليته على الدعوة ، وتوجيهه إلى الصبر ، وانتظار حكم الله في الأمر ، والاتصال بربه ، والاستمداد منه كلما طال الطريق ، وذلك في الآيات من (٢٣ - ٢٦) .

وفي الجزء الأخير من السورة تذكير للكافرين باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ، والذي يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله الذي خلقهم ، ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ، لولا تفضله عليهم بالبقاء لتمضى مشيئته في الابتلاء ، ويلوح في ختام السورة بعاقبة الابتلاء ، وذلك في الآيات من (٢٧ - ٣١) .

مع آيات السورة

١ - قد أتى على هذا النوع - نوع الإنسان - زمن لم يكن موجوداً ، حتى يعرف ويذكر .

والحين : طائفة من الزمان غير محدودة ، وعن ابن عباس وابن مسعود : أن الإنسان ههنا آدم ، والحين محدود ، وذلك أنه مكث أربعين سنة طيناً ، إلى أن نفخ فيه الروح فصار شيئاً مذكوراً بعد كونه كالمنسى^(١) .

٢ - إنا خلقنا الإنسان من نطفة ، اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة ، مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد ، إذا شَبَّ وبلغ الحلم ، فجعلناه سميعا بصيرا ليتمكن من استماع الآيات ، ومشاهدة الدلائل ، والتعقل والتفكير .

ومقصود الآية : نحن نعامل الإنسان معاملة المختبر له ، أيميل إلى أصله الأرضي فيكون حيوانا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والفكر ؟

٣ - بيّن الله للإنسان الطريق السوي ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو بالخيار ، إما أن يكون شاكرا لنعماء الله ، فيسير في الطريق الواضح المرسوم ، وإما أن يكون كافرا فيعرض ويكفر ، ويختار الضلال على الهدى .

٤ - إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا سلاسل للأقدام ، وأغلالاً تشدُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ، كما يفعل بالمجرمين في الدنيا ، ونارا تتسع يلقى فيها بالمسلسلين المغلولين .

ثم تصف الآيات بعد ذلك نعيم المتقين ، وصفا طويلا لم نجد مثله في سورة سابقة ، ويستمر هذا الوصف من الآية (٥) إلى الآية (٢٢) ، أي (١٨) آية من مجموع آيات السورة وهي (٣١) آية ، أي أن أكثر من نصف السورة يصف نعيم المتقين وحليهم وملابسهم وخدمهم ، وما هم فيه من نعمة ورضوان وملك كبير . ولنسر مع هذه الآيات التي تصف نعيم المتقين :

٥ ، ٦ - إن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه في كأس تُغترف من عين تُفجر لهم تفجيرا في كثرة ووفرة ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان ، يحبون وصولها إليه .

قال مجاهد : يقدونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا^(١٧) .

٧ - كانوا يوفون بالنذر فيفعلون ما اعتزموا من الطاعات وما التزموا من الواجبات ، أي أنهم يؤدون ما أوجبه الله عليهم بأصل الشرع ، وما أوجبه على أنفسهم بالنذر .

وهم يستشعرون الخشية من يوم القيامة ، ذلك يوم شديد عذابه ، عظيم خطره ، كالنار يتطاير شررها فيعم شُرَّها .

٨ - وكانوا يطعمون الطعام ، ويقدمون المعونة النافعة لكل مسكين عاجز عن الاكتساب ، ولكل يتيم مات كاسبه ، ولكل أسير لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

٩ - وحين يقدمون الطعام والمعونة النافعة لكل مسكين عاجز عن الاكتساب ، ولكل يقيم مات كاسبه لا يترفعون على عباد الله ولا يشعرون بالاستعلاء والعظمة ، إنما يقدمون المعونة فى إخلاص وتجرد لوجه الله ، ولا ينتظرون شكرا ولا إعلانا .

قال مجاهد وسعيد بن جبیر : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب فى ذلك راغب^(٩٣) .

١٠ - لقد أخرجوا الصدقة لوجه الله ، ولسان حالهم يقول : إنا نفعل ذلك ليرحمنا ربنا ، ويتلقانا بلطفه فى يوم عبوس ، تعبس فيه الوجوه ، قمطيرير شديد العبوس .

قال السفي : وصف اليوم بصفة أهله من الأشقياء ، نحو : نهارك صائم ، والقمطيرير شديد العبوس ، الذى يجمع ما بين عينيه^(٩٤) .

١١ - فحفظهم الله من شر ذلك اليوم ، وكسا وجوههم نضرة ونضارة ، وتنعما وفرحا وسرورا .

١٢ - وجازهم بصبرهم على الإيثار والتزامهم بأمر الله جنة يسكنونها ، وحريرا يلبسونه .

ثم تصف الآيات مساكن أهل الجنة ، وشرابهم وأوانيهم وسقاة ، وما تفضل به عليهم ربهم ، من فاخر اللباس والحلى ، وأصناف النعيم فتقول :

١٣ - هم فى جلسة مريحة مطمئنة ، الجو حولهم رخاء ناعم ، دافئ فى غير حر ، ندى فى غير برد ، فلا شمس تلهب النساء ، ولا زمهرير وهو البرد القارس .

١٤ - ظلال الجنة قريبة من الأبرار ، مظلة عليهم ، وقطوفها وثمارها قريبة دائية فى متناول أيديهم ، ينالها القائم والقاعد والمتمكئ .

١٥ - ١٩ - يُطاف عليهم بأنية من فضة بيضاء ، فى صفاء الزجاج ، فيُرى ما فى باطنها من ظاهرها ، مما لم تعهده الأرض فى أنية الفضة ، وهى بأحجام مقدرة تقديرا ، يحقق المتاع والجمال ، ثم هى تمزج بالزنجبيل كما مرّجت مرة بالكافور ، وهى كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسبيلا ، لشدة عذويتها واستساغتها للشاربين ، وزيادة فى المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ، فهم مخلدون فى سن الصباحة والصبا والوضاء ، وهم هنا وهناك كاللؤلؤ المنتور .

٢٠ - تجمل هذه الآية خطوط هذا النعيم ، وتلقى عليه نظرة كاملة فاحصة ، تلخص وقعه فى القلب والنظر ، فإذا نظرت فى الجنة رأيت نعيما عظيما ، وملكا كبيرا لا يحيط به الوصف .

٢١ - ثم تخصص هذه الآية مظهرًا من مظاهر النعيم ، والملك الكبير ، فتقول : إن لباس أهل الجنة السندس ، وهو الحرير الرقيق ، والإستبرق وهو الحرير السميك المبطن ، وقد حُلوا أساور من فضة ، وتدرج نعيمهم فى الارتقاء إلى مدارج الكمال ، حتى وصل إلى : وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ . وأضاف السقى إلى ذاته للتشريف والتخصيص . شَرَابًا طَهُورًا . مبالغة فى طهارته ونظافته بخلاف خمر الدنيا ، فهو عطاء كريم من معط كريم ، وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعيم .

٢٢ - ثم ختم وعدهم بالود والتكريم ، فقال : إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا .

أى : يُقال لهؤلاء الأبرار هذا القول ، زيادة فى سرورهم : إن هذا الذى أعطيناكم من الكرامة ، كان ثوابا على أعمالكم الصالحة ، وكان عملكم فى الدنيا مشكورا ، حمدكم عليه ربيكم ورضيه لكم ، فأنا بكم به من الكرامة .

وهذا النطق من الملأ الأعلى يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها ، لأنها جزء على عمل ، وثواب لإنسان اختار الهدى والطريق المستقيم والعمل الصالح ، فاستحق النعيم والتكريم .

٢٣ - ويعد أن بين الله سبحانه ما فى الجنة من نعيم ، ذكر نبيه ﷺ بنعمة الرسالة تسلية لفؤاده ، وحثا له على الصبر والثبات ، فقال : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا .

إن القرآن من عند الله تعالى ، أنزله منجما مفصلا فى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تجدد فى الكون ، فتكون تنبيها لإيمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين .

٢٤ - اصبر على أمر الله واثبت على الحق ، ولا تتبع أحدا من الآثمين إذا دعاك إلى الإثم ، ولا من الكافرين إذا دعاك إلى الكفر ، إن الأمور مرهونة بقدر الله ، وهو يمهل الباطل ويملى للشر ، كل أولئك لحكمة يعلمها يجرى بها قدره ، وينفذ بها حكمه : فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ ءَالِيًا أَوْ كُفْرًا .

ونهيهِ ﷺ عن طاعة الآثم والكفور - وهو لا يطيع واحدا منهما - إشارة إلى أن الناس محتاجون إلى مواصلة الإرشاد ، لما رُكِبَ فى طباعهم من الشهوة الداعية إلى اجتراح السيئات ، وأن أحدا لو استغنى عن توفيق الله وإرشاده لكان أحق الناس بذلك هو الرسول المعصوم ﷺ .

٢٥ ، ٢٦ - ودُم على ذكره فى الصباح والمساء ، والخلوة والجلوة ، وصل بعض الليل كصلاتي المغرب والعشاء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلا ، لأنه مصدر القوة والعناية ، وينبوع العون والهداية ،

ومن وجد الله وجد كل شئ ، فالصلة به هى السعادة الكبرى ، والعناية العظمى ، والزاد الحقيقى الصالح لهذه الرحلة المضنية فى طريق الحياة .

٢٧ - إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا ، وتعجبهم زينتها ، وينهمكون فى لذتها الغانية ، ويتركون اليوم الثقيل الذى ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير .

والآية تثبيت للنبي ﷺ والمؤمنين فى مواجهة المشركين ، إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

٢٨ - يتلو ذلك التهديد التهوين من أمرهم عند الله ، الذى أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الزهاب بهم ، فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو الذى خلقهم وأعطاهم إياها ، وهو قادر على أن يخلق أمثالهم فى مكانهم ، فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته ، وهو قضاؤه وحكمته .

٢٩ - إن هذه السورة بما فيها من ترتيب بديع ، ونسق عجيب ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب هى تذكرة وتبصرة لكل ذى عقل وبصيرة ، فمن شاء الخير والنجاة لنفسه فى الدنيا والآخرة فليقترب إلى ربه بالطاعة ، وليصدق بالقرآن والرسول الكريم ﷺ فذلك هو الطريق إلى الله .

٣٠ - ويعقب على ذلك بإطلاق المشينة ، ورد كل شئ إليها ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها : وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ...

أى : وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ، ولا تقدرون على تحصيلها ، إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها . ذلك كى تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا . بما يصلح العباد . حَكِيمًا . وضع كل إنسان فى موضعه من الهداية والضلال ، فهو يعين المتقين على القيام بواجبهم ، ويسلب عونهم عن المشركين ، فيذهبون فى بيداء الضلال .

٣١ - يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ... فيهديه ويوفقه للطاعة بحسب استعداده . وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . وقد أملى لهم وأمهلهم ، لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم .

وهذا الختام يلتزم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء الذى خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج ، ووهبه السمع والإبصار ، وهاده السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار .

مجمل ما تضمنته السورة

اشتملت سورة الإنسان على خمسة مقاصد :

- ١ - خلق الإنسان .
- ٢ - جزاء الشاكرين والجاحدين .
- ٣ - وصف النار وصفا قصيرا في آية واحدة ، ووصف الجنة وصفا مسهبا في قرابة (١٨) آية .
- ٤ - ذكر المنة على رسول الله ﷺ ، وأمره بالصبر وقيام الليل .
- ٥ - المنة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله تعالى .

أسماء السورة :

لهذه السورة ثلاثة أسماء :

- ١ - سورة : هَلْ أَتَىٰ . لمفتتحها .
- ٢ - سورة الإنسان لقوله تعالى : هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ .
- ٣ - سورة الدهر لقوله تعالى : جِئْنَا مِنَ الدَّهْرِ .

خلق الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَقْنَىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ مِثْلَ مَدْكُورٍ ۚ ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۚ ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۚ ﴿٣﴾ ﴾

المفردات :

هل أتى : قد أتى .

الإنسان : آدم عليه السلام .

حين : وقت وزمان ، وقيل : طائفة محدودة من الزمان ، شاملة الكثير والقليل .

الأمشاج : الزمان الممتد غير المحدود ، ويقع على مدة العالم جميعها ، وعلى كل زمان طويل غير معين .

من نطفة : من ماء يقطر وهو المنى . وكل ماء قليل فى وعاء فهو نطفة .

أمشاج : أخلط ، جمع مَسْج (بفتحين) ، كسبب وأسباب ، يقال : مشجت الشئ ، إذا خلطته ، أى : من اختلاط ماء الرجل وماء المرأة وامتزاجهما .

نبتليه : نختبره بالتكليف ، أى : مريدين اختباره عند التكليف والتأمل .

فجعلناه : بسبب ذلك .

سميعاً بصيراً : ليتمكن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات .

هديناه السبيل : بيّنا له طريق الهداية وطريق الضلال ، بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، ومنحه العقل والفكر والإرادة والاختيار .

تمهيد :

تفيد التوراة أن الله تعالى ألقى الكرة الملتهبة ، فانفصلت منها السماء والأرض ، وفيد القرآن الكريم أن الكون ظل مدة طويلة من الزمان غير صالح لحياة الإنسان عليه ، حيث كانت السماء صماء لا تمطر ، والأرض صماء لا تنبت ، وذلك بسبب شدة الحرارة في كل منهما ، ثم هدأت الحرارة في الأرض والسماء ، وفتح الله السماء بالمطر ، وفتح الأرض بالنبات ، وتكون الهواء والغضاء ، والغشاء الحاجز الواقى للأرض ، من مجموعات الشهب والنيازك .

وقد عقد مؤتمر علمي في الولايات المتحدة الأمريكية في أبريل ١٩٩٣ م تقريبا ، للبحث في عمر الكون، وانتهى المؤتمر إلى أن عمر الكون ١٣ بليون سنة ، منها ٦ بلايين سنة كان الكون ملتهبا لا يصلح لحياة الإنسان عليه ، وعمر الإنسان على ظهر الأرض قرابة ٧ بلايين سنة .

وقد أفاد القرآن الكريم أن الله خلق الكون في ستة أيام ، منها يومان لخلق الأرض ، ويومان لخلق البحار والأنهار والنبات والجبال ووسائل إعمار الأرض ، ومنها يومان لخلق السماء وما فيها من نجوم وأبراج وأفلاك ، وقد استجاب السماء والأرض لأمر الله وأظهرتا الخضوع والانحناء والانقياد لأمر الله ، وقالتا : **أَتَيْنَا طَائِعِينَ** . (فصلت : ١١) . فالكون كله خاضع لأمر الله وتقديره وحسن رعايته .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الْبَلِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ** . (الأنبياء : ٣٠) .

وقال تعالى : **قُلْ أَنتُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكْنَا فِيهَا وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا فِيهَا أَنْبَاءَ آبَادٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَرَعًا أَوْ كَرِهَا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** . (فصلت : ٩-١٢) .

التفسير :

١ - هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا .

قد أتى على الإنسان زمن طويل ، لم يكن موجودا في هذا الكون ، فقد كان في عالم العدم ، ثم خلق الله آدم بعد خلق الكون بستة بلايين سنة ، وكان الحق سبحانه وتعالى خلق الكون في ستة أيام ، وقضى بأن يترك الكون هذه المدة في الخلق والوجود ، حتى يكون بعد هذه المدة صالحا لوجود الإنسان عليه ،

حيث كانت السماء رتقاء لا تمطر ، والأرض بالتالي لا تنبت ، وعندما وُجد الإنسان على ظهر الأرض ، وُجد الماء ، وجعله الله سبب الحياة ، والنبات والرزق ، واستمرار الأحياء على ظهر الأرض .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .**

أى أن الله تعالى هياً للإنسان البيت الذى سيسكنه وهو الكون ، فجعل السماء الصماء تتفتق بالمطر ، وجعل الأرض الصماء تتفتق بالنبات ، وجعل الماء أساس الحياة بقدرة الله .

ثم إن الذى أوجد الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد الموت للبعث والحشر والحساب والجزاء .

قال تعالى : **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ... (الروم : ٢٧) .**

قال ابن كثير : يخبر تعالى عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه . اهـ . وقال المفسرون : **هَلْ آتَى .** بمعنى قد آتى .

والغرض من الآية :

تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان شيئاً منسياً ، لا يظن له ، وكان فى العدم ذرة فى صلب أبيه ، وماء مهيناً ، لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومز عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله وأبدع تكوينه وإنشأه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد .

٢ - **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا .**

لقد خلقنا الإنسان من ماء مهين هو المئى الذى ينطف من صلب الرجل ، ويختلط بماء المرأة فيتم تلقيح البويضة ، ويتكون منهما هذا المخلوق العجيب وهو الإنسان .

أَمْشَاجٍ . أى : أخلط ، وهو ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، أو يشير إلى اختلاط الصفات الوراثية فى الرجل بالصفات الوراثية فى المرأة ، ومع الصفات المتعددة لكل منهما يخلق الله بشراً سوياً يحمل خصائص وراثية ، لها خريطة بديعة ، صنع الله الذى أتقن كل شئ .

وقال ابن عباس : **أَمْشَاجٍ .** أى : أطوار مختلفة ، فإن النطفة تصير علقة ثم مضغة ، وهكذا إلى تمام الخلق ونفخ الروح .

نُتِيلِهِ . نجعله صالحا للاختبار والابتلاء والتكليف فيما بعد .

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا .

أعطيناه السمع ليسمع أدلة الحق والهدى ، والبصر ليميز النور من الظلام ، والنافع من الضار ، والإيمان من الكفر .

ويُطلقُ السمع والبصر ويراد بهما أدلة التعقل والتمييز والاختيار .

وقد يراد بهما الحاستان المعروفتان ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها .

٣ - إِنْ هَدَيْتَنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

بيئنا له الطريق ، ووضّحنا له الفكرة ، من خلق الإنسان عاقلا سميعا بصيرا ، متمتعا بالعقل والإرادة والاختيار ، والفهم والتبصر ، حتى يختار بنفسه طريق الهدى والإيمان والشكر لله تعالى ، أو يختار طريق الكفر والطغيان وإيثار الهوى على الهدى ، والكفر على الإيمان .

وكان الآية نداءً جهيد لهذا الإنسان ، تؤكد أن الله أوضح لك سبل المعرفة ، وأعطاك العقل والإرادة والسمع والبصر ، وأدوات الفكر والتبصر .

قال تعالى : وَهَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ (البقرة : ١٠) . أى : بيئنا له طريق الخير وطريق الشر ، وهو الذى يؤثر أحدهما على الآخر .

قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَبَى * النَفْسَ غِنَى الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات : ٣٧ - ٤١) .

جزاء الكفار والأبرار يوم القيامة

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ
 كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ
 بِالَّذِ رِ وَيَخْفُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ كَيْتًا وَبَيْتًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾
 إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرِجْوَةِ اللَّهِ أَنْ تَرِيدُوا مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾
 فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴿

المفردات :

سلاسل ، قيودًا بها يقادون ، وبها فى النار يسحبون .

اغلالا ، جمع غل ، تجمع بها أيديهم إلى أعناقهم ويقيدون .

كأس ، خمر ، أو زجاجة فيها خمر .

مزا بها ، ما تمزج الكأس به وتحفظ .

كافورا ، ماء الكافور فى حسن أوصافه .

عينًا ، ماء عين ، أو خمر عين .

يشرب بها ، يشرب منها أو يرتوى بها .

يفجرونها ، يجرؤونها حيث شاءوا من منازلهم .

يوفون بالذير ، إذا نذروا طاعة فعلوها .

شـرّه ، عذابه وأهواله .

مستطيرا ، فاشيا منتشرا غاية الانتشار .

يوماعبوسنا ، تكلج فيه الوجوه لهوله .

قمطيرا ، شديدا صعبا ، كأنه التف شرّه بعضه ببعض .

تمهيد :

تحدثت السورة عن جزاء الكافرين وعذابهم فى النار بالسلاسل والأغلال والقيود والنار المستعرة ،

وذلك فى آية واحدة .

ثم تحدثت في (١٧) آية عن ألوان نعيم المتقين في الجنة ، لتبين أن رحمة الله واسعة ، وأن رحمته سبقت غضبه ، فقد تكلم عن عذاب الكفار في آية واحدة ، وأعقب ذلك بالحديث عن المتقين ونعيمهم في الجنة في (١٧) آية . وهذا أطول حديث عن المتقين ونعيمهم في الجنة ، لا يزيد عليه إلا الحديث عن السابقين وأصحاب اليمين في سورة الواقعة .

التفسير :

٤ - إِنَّا أَعَدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا .

إننا أعددنا للكافرين بالله سلاسل يقادون بها في جهنم ، كل سلسلة ذراعها سبعون ذراعاً ، وأغلالاً وقيوداً تقيد بها أيديهم إلى أعناقهم ، لمزيد من الهوان والإذلال .

قال الحسن : تجعل الأغلال في أعناق أهل النار ، لأنهم أعجزوا الله ، ولكن إذلالاً لهم .

كما أعد لهم ناراً تتأجج ، وهي النار الموقدة المسعرة التي يحرقون بها ويدوقون ما فيها من عذاب وهوان .

ونظير الآية قوله تعالى : إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ .

(غافر : ٧١ ، ٧٢)

٥ ، ٦ - إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجَّرُونَ نَهَا تَفْجِيرًا .

يبدأ الحديث عن النعيم الذي يلقيه الأبرار في الجنة :

إنهم يشربون خمراً حلالاً طيبة ، مزاجها الكافور ، وخمر الجنة كلها لذة ومتعة ، ومع ذلك تمزج بكافور بارد أبيض طيب الرائحة ، ليكمل ريح الخمر وطعمها ويطيّب ، ويمزج بماء عين يشرب منها عباد الله الصالحون ، يجرونها إلى حيث يريدون من منازلهم وقصورهم ، وينفثون بها كما يشاءون ، ويشقونها شقاً كما يشق النهر ويتفجر الينبوع ، فهم يشربون إلى الماء فيسير حيث أرادوا ، ويجري حيث شاءوا من مجالسهم ومحالهم .

يُفَجَّرُونَ نَهَا تَفْجِيرًا .

والتفجير : الإنباع ، فهي تنبع من المكان الذي يرغبون أن تنبع منه ، وتسير حسب رغباتهم ، زيادة في إكرامهم وإسعادهم .

قال ابن كثير :

يُفْجَرُ وَنَهَا تَفْجِيرًا .

أى : يتصرفون فيها حيث شاءوا ، وأين شاءوا من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

وقال مجاهد :

يُفْجَرُ وَنَهَا تَفْجِيرًا . يقودونها حيث شاءوا ، ويصرفونها حيث شاءوا .

٧ - يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا .

إذا نذروا نذراً لله من صلاة أو صيام ، أو صدقة أو حج أو غيرها ، وفراً بالنذر ، ومن وفى بما أوجبه على نفسه ، كان بما أوجبه الله عليه أشد وفاء .

أى : إنهم يؤدّون الواجبات التى فرضها الله عليهم ، ويؤدّون الواجبات التى فرضوها على أنفسهم ، مخافة يوم القيامة الذى تتشقق فيه السماء ، وتتناثر الكواكب ، وتُسْفُ الجبال ، وتفجّر البحار ، ويشيب الولدان ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وفيه غير ذلك من الأهوال ، ممتدة منتشرة فاشية .

قال قتادة : استطار والله شر ذلك اليوم ، حتى بلغ السماوات والأرض .

٨ - وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا .

ويطعمون الطعام للمحتاجين إليه ، ويقدمون الطعام للجياع والفقراء والمحتاجين والأسارى .

قال المفسرون : والمراد من إطعام الطعام : الإحسان إلى المحتاجين ومواساتهم بأى وجه كان ، وإنما خصّ الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان ، فلا جرم أن عبّر به عن جميع وجوه المنافع .

والمسكين : هو العاجز عن الاكتساب ، واليتيم : هو الذى مات أبوه وهو صغير ، فعُبرم الناصر والكفيل ، والأسير : هو من أُسر فى الحرب من المشركين .

وقد كان النبى ﷺ يوصى المسلمين بإكرام الأسرى ، فكان المسلمون يكرمونه ويؤثرونهم على أنفسهم ، وكلمة (الأسير) تشمل من كان من المسلمين ومن كان من غير المسلمين .

فمن صنيع هؤلاء الأبرار الإحسان إلى الفقراء والمحتاجين واليتامى ، وإكرام الأسرى ، وسائر الفئات المحتاجة للعطف والصدقة ، حبسبة لوجه الله تعالى ، لا يفعلون ذلك تظاهراً أو رياءً ، أو رغبة فى الثناء والحمد .

٩ - إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ بِرُوحِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا .

إنما نحسن إليكم ابتغاء مرضاة الله وثوابه ، والدار الآخرة ، لا نطلب منكم على الإحسان شكرا ولا محمدا ولا ثناء ، ولا أن تشكرونا لدى الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ، ليرغب في ذلك راغب .

١٠ - إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا غَاسًا قَمَطِرًا .

إنما نفعل ذلك الإطعام لوجه الله ولأننا نخاف الآخرة والحساب والجزاء ، ونخشى موقف الخلائق في يوم يشتد عبوس أهلهم ، فسمى اليوم عبوساً لشدة عبوس أهلهم ، وكلوح وجه من فيه ، وتقطيب وجوههم وجباههم .

قال الطبري : يقال : يوم قمطير ، أى : شديد عصيب .

فهم يخافون هول يوم القيامة ، وشدة قسوته وصعوبته وطوله .

١١ - قَرَفْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا .

حماهم الله وحفظهم من شر ذلك اليوم وشدته وهوله ، وأعطاهم نضرة في وجوههم ، وسرورا في قلوبهم ، لقد عمت السعادة قلوبهم ، وظهر ذلك في نضرة وجوههم .

قال تعالى : نَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النِّعَمِ . (المطففين : ٢٤) .

قال ابن كثير :

وهذا كقوله تعالى : وَجُودَ يَوْمٍ مُسْفَرَةٍ • ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةٍ . (عبس : ٣٨ ، ٣٩) .

وذلك أن القلب إذا سُر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل : وكان رسول الله ﷺ إذا

سُر استنار وجهه كأنه فلقه قمر . وقالت عائشة رضی الله عنها : دخل على رسول الله ﷺ مسرورا تبرق أسارير وجهه ... الحديث .

١٢ - وَجَزَلْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا .

يسبب صبرهم على الطاعات يفعلونها . كالصلاة والصيام والزكاة ، ويسبب صبرهم عن المعاصي يبعدون عنها ، ويسبب صبرهم على المصائب ، أدخلهم الله الجنة ، يتمتعون فيها بألوان النعيم ، ويجدون فيها ما لذ وطاب : منزلاً رحباً ، وعيشاً رغداً ، ولباساً حسناً ، ومن لبس الحرير من الرجال في الدنيا لا يلبسه في الآخرة . نعم .. لقد كافأهم الله بسبب صبرهم بالجنة ونعيمها ، وبالحرير يتمتعون به .

★ ★ ★

مساكن أهل الجنة وأشربتهم وخدمهم

﴿فَتُحَكِّمْنَ فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۖ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا ۝١٤﴾ وَطَافَ عَلَيْهِمُ ثَانِيَةٌ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ۝١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ رِزْقُهَا زَنْجَبِيلًا ۝١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ۝١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ شِمًّا رَأَيْتَ نِيعًا وَمَكَاكِبَ ۝٢٠﴾ عَلَيْهِمْ شِبَابٌ سَنَدِسٌ خُضْرٌ وَآسْتَبَقُ ۖ وَحُلُوا أَسَاوِيرَ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝٢٢﴾

المفردات :

الأرائك: جمع أريكة، وهى سرير منجد مُزِين، فى بيت يزين بالقباب والأسرة والستور.

زمهریرا، بردا شدیدًا، أو قمرا.

دانية عليهم ظلالها ، قريبة منهم ظلال أشجارها .

ذلت قطوفها، قربت ثمارها لمتناولها.

أَنْبِيَاءُ: صحاف أو أواني الطعام ، جمع إناء .

أكــــواب : جمع كوب ، وهو قدح لا عروة له ولا خرطوم .

قوارير: جمع قارورة ، وهي إناء رقيق من الزجاج ، توضع فيه الأشربة .

قَدَرُوا شَرَابَهَا عَلَى قَدَرِ الزَّيِّ .

كَأَسْمَا ، خَمْرًا ، أَوْ زَجَاجَةً فِيهَا خَمْرٌ .

زَنْجَبِيلًا ، مَاءً كَالزَّجْبِيلِ فِي أَحْسَنِ أَوْصَافِهِ .

تَسْمَى سَلْسَبِيلًا ، سَهْلَ الدَّخُولِ فِي الْحَلْقِ لِعَذْوِيَّتِهِ وَصَفَائِهِ .

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ ، يَخْدُمُهُمْ بِرَفَقٍ وَعَنَافَةٍ .

وَلِـــــــدَانِ ، جَمْعُ وَلِيدٍ ، وَهُوَ الصَّبِيُّ وَالْعَبْدُ .

مَخْلُوعُونَ ، بِأَقْوَنَ دَائِمُونَ لَا يَهْرَمُونَ .

لَوْلَوْا مَنْشُورًا ، كَاللَّوْلُؤِ الْمَفْرَقِ فِي الْحَسَنِ وَالصَّفَاءِ .

ثَمٌّ ، هُنَاكَ فِي الْجَنَّةِ .

ثِيَابَ سُنْدُسٍ ، ثِيَابَ مِنْ دِيبَاجٍ رَقِيقٍ .

إِسْتَبْرَقَ ، حَرِيرَ غَلِيزٍ .

تمهيد :

هذه الآيات استمرار في وصف نعيم أهل الجنة ، فيها أوصاف مساكنهم ، وكيفية جلوسهم فيها ، وأشربتهم وأوانيتهم ، وخدمتهم واعتدال هوائهم ، ثم أشارت الآيات إلى تجميلهم بمحاسن الثياب والحلي ، وذكرت في النهاية أن هذه النعم جزاء عملهم .

التفسير :

١٣ - مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا .

يصف القرآن نعيم أهل الجنة ، في جلوسهم هادئين هادئين مستمتعين ، متكئين فيها على الأسيجة المظلة بالحجال والكلال (الناموسية) ، داخل بيت يزين بالقباب والستور (أشبه بالبيت الذي أعده أحد الأغنياء لعروسته عند زفافها) .

وهواء الجنة معتدل ، لا فيه حرارة شديدة ، ولا برودة قوية .

جاء في الحديث : «هواء الجنة سَجْسَجٌ ، لَا حَرٌّ وَلَا قَرٌّ» والسجسج : الظل الممتد كما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

١٤ - وَكَأَيَّةٍ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا .

ظلال الجنة قريبة من أصحابها تدنو لهم وتقرب منهم ، وثمار الجنة وقطوفها فى متناول أيديهم ، إذا كان أحدهم قائماً تناول الثمر دون كلفة أو مشقة ، وإذا كان قاعداً أو مضجعاً فكن ذلك ، فهذا تذليلها ، لا يرد اليد عنها بعد ولا شوك ، ولا يخفى أن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، ولا حجر ولا برد ، فيكون معنى دنو الظلال وقربها من أهل الجنة ، أن الظلال وضعت بحيث لو كانت هناك شمس لكانت الظلال واقية لهم من حرها وهجيرها ، أى : النعيم مضاعف فى الجنة ، وكل ما يطلبونه يجدونه تحت أيديهم وتصرفهم .
جاء فى غرائب القرآن :

وَذُلَّتْ . أى : لا تمتنع على قطافها كيف شاءوا .

١٥ ، ١٦ - وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَنَاتٍ مِّنْ فَضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا • قَوَارِيرًا مِّنْ فَضَّةٍ قَلَرُوهَا تَقْدِيرًا .

هذه ألوان من النعيم ، وألطف من الرب الكريم ، فيطوف الخدم عليهم بأوانٍ من فضة ، وأكوابٍ لا عرى لها ولا خراطيم ، ولا مثل لها فى الدنيا ، لأن الأكواب فى الدنيا إما أن تكون من فضة ، وإما أن تكون من زجاج ، أما الأكواب فى الجنة فمادتها من الفضة ، ومع ذلك فهى فى شفافية (القوارير) أى الزجاج ، بحيث يرى باطنها من ظاهرها ، وظاهرها من باطنها ، وقد قدر الشراب والكوب على قدر حاجتهم ، لا يزيد عنها ولا ينقص ، وهذا ألدُّ لهم ، أو قدر الخدم الطائفون عليهم الأكواب والشراب على قدر حاجة أهل الجنة ، بدون زيادة أو نقصان ، أو قدر الله تعالى لهم ذلك بتقديره ، فهو الذى يقول للشيء كن فيكون .

قال ابن عباس :

قَلَرُوهَا تَقْدِيرًا . أتوا بها على قدر الحاجة ، لا يفضلون شيئاً ، ولا يشتهون بعدها شيئاً .

١٧ - وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا .

يسقى أهل الجنة كأساً من الخمر مزوجة بالزنجبيل ، فتارة يمزج الشراب للأبرار بالكافور وهو بارد ، وتارة يمزج بالزنجبيل وهو حار ليعتدل ، أما المقرَّبون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً .

١٨ - عَنَّا فِيهَا قُتُبٌ مِّنْ سُلَيْسِيلٍ .

ويسقون من عين فى الجنة تُسمى السلسيل ، سُميت بذلك لسلاسة ماؤها ، وسهولة جريها وانجدارها واستساغتها فى حلوقهم ، والفائدة فى تسمية العين بالسلسيل بعد أن ذكر أن الخمر تمزج بالزنجبيل ، أن

العرب تستلذ الزنجبيل وتستطيبه لطيب رائحته ، ولأنه يُحدث لذعةً في اللسان ، ويهضم المأكول ، ولهذا يذكرون الزنجبيل في وصف رشاب النساء ، فذكر القرآن أن الخمر رغم أنها تمزج بالزنجبيل إلا أنها في طعم الزنجبيل وليس فيها اللذع ، بل فيها السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق ، وسهولة المساغ كالسبيل .

١٩ - وَيُظَفُّ عَلَيْهِمْ وَلِئَلَّا مُخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمُ لُؤْلُؤًا مَنثورًا .

يخدم الأبرار في الجنة غلمان وفتيان في سن البلوغ وحادثة الصبا ، ولعل الحكمة في ذلك أنهم في سنهم هذه يكونون أخف في الخدمة ، وأسرع في الاستجابة لمخدومهم ، وهم مع ذلك باقون على هذه السن ، لا يشيبون ولا يهرمون ولا يتغيرون ، وهم في جمالهم ووضاءة وجوههم كاللؤلؤ المنثور المُفرَّق ، لأنهم مُتفرَّقون في المجالس ، في جنباتها وباحاتها وساحاتها ، والدر المنثور يكون أكثر صفاء منه منظوماً في سلك .

قال الرازي في التفسير الكبير :

هذا من التشبيه العجيب ، لأن اللؤلؤ إذا كان متفرقاً يكون أحسن في المنظر ، لوقوع شعاع بعضه على بعض ، فيكون أروع وأبدع .

٢٠ - وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا .

وإذا نظرت إلى الجنة هناك ، رأيت نعيماً دائماً ، وملكاً كبيراً واسعاً ، ورأيت نعيماً مقيماً ، وفضلاً عظيماً ، لا حدود له ولا غاية ، وأقل أهل الجنة منزلة من له قدر الدنيا وعشرة أمثالها ، كما ثبت في الصحيح .

٢١ - عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعٌ أَصَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنُهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا .

ما أجمل نعيم الجنة ، وما أكمل هذا النعيم ، إن الثمار تقترب منهم ، والظلال قريبة منهم ، ووطاف عليهم بأواني الفضة وأكواب من فضة في صفاء الزجاج ، ويسقون الخمر ممزوجة بالزنجبيل في هواء السبيل ، ويطوف عليهم الغلمان الحسان كأنهم اللؤلؤ المنثور ، وأمامهم النعيم الكبير ، وفوق كل ما سبق تعلوهم ثياب من أنواع الحرير الرقيق وهو السندس ، والغليظ وهو الإستبرق ، في ألوان خضراء متميزة تتناسق مع النعيم والكريم ، ويلبسون أساور من فضة يتحلون بها ، وقد سبق أنهم يتحلون بأساور الذهب واللؤلؤ ، أي أنهم يلبسون أساور الفضة حيناً ، والذهب حيناً ، واللؤلؤ حيناً ، على التعاقب ، وأحياناً يجمعون بينها في وقت واحد .

وفى سورة الكهف قال تعالى: يُخَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ... (الكهف: ٣١).

وفى سورة فاطر قال تعالى: يُخَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. (فاطر: ٣٢).

والمقصود أن الله جعلهم بأحسن الثياب، وأنواع الحرير الرقيق والغليظ، وجعلهم بأساور متعددة من الفضة والذهب واللؤلؤ، وهناك تكريم معنوى أسمى وأعلى، إنه تكريم إلهى، حيث تأتيتهم الأكواب بدون واسطة.

وَسَقَلُّهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. أى: طاهرًا لم تَدَنَسْه الأيدي، وليس بنجس كخمر الدنيا.

قال الطبرى:

سقى هؤلاء الأبرار شرابًا طهورًا، ومن طهره أنه لا يصير بولاً نجسًا، بل رشحًا من أبدانهم كرشح المسك، روى أن الرجل من أهل الجنة يقسم له شهوة مائة رجل من أهل الدنيا، فإذا أكل سقى شرابًا طهورًا، فيصير رشحًا يخرج من جاده أطيب ريحًا من المسك الأنخر^(٩٨).

من تفسير ابن كثير

وَسَقَلُّهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا.

أى: طهر بواطنهم من الحسد والحقد، والغل والأذى، وسائر الأخلاق الرديئة.

روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، أنه قال: إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وجدوا هناك عينين، فكانما ألهموا ذلك، فشريوا من إحداهما، فأذهب الله ما فى بطونهم من أذى، ثم اغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فأخبر سبحانه وتعالى بحالهم الظاهر وجمالهم الباطن^(٩٩).

٢٢ - إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا.

يقال لأهل الجنة تكريمًا لهم، وتقديرًا لطاعتهم لرَبِّهم: إن هذا الجزاء الكبير، والنعيم والرضا والمثوبة، والفضل الإلهى عليكم، جزاء عادل لأعمالكم، وقد كان عملكم وسعيكم فى الدنيا مشكورًا من الله لكم، فما أعظم الفضل الإلهى الجليل، إنه يوفِّق للطاعة، ويهdy المؤمنين إلى طريق الخير، ثم يعطيهم المنازل العالية فى الجنة، ثم يتفضل عليهم بالتكريم والرضوان.

كما قال تعالى : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . (الحاقة : ٢٤) .

وكما قال تعالى : وَنُودُوا أَنْ يُلَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ رُفِعُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . (الأعراف : ٤٣) .

قال في صفوة التفسير :

وَكَانَ سَعْيُكُمْ مُشْكُورًا .

أى : وكان عملكم مقبولاً مرضياً ، جُوزِيتُمْ عليه أحسن الجزاء مع الشكر والثناء .

★ ★ ★

تنزيل القرآن ، وذكر الله ، والصلاة له

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ٢٢ ﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمْ إِثْمًا أَوْ كُفُورًا ٢٣
وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٤ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٥
إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْحَدُونَ بِالْعَاجِلَةِ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا ٢٦ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا
أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْنَهُمْ تَبْدِيلًا ٢٧ إِنَّ هَؤُلَاءِ تَذَكَّرُ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا ٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٩ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ
فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٠ ﴾

المعطردات :

إِثْمًا ، هو الفاجر المجاهر بالمعاصي .

الْكُفُور ، هو المشرك المجاهر بكفره .

بُكْرَةً ، أول النهار .

أَصِيلًا ، هو الوقت من العصر إلى المغرب ، أى أول النهار وآخره ، والمراد بذلك جميع الأوقات .

اسْجُدْ ، صل .

سَبِّحْهُ ، تهجد .

وراءهم ، أمامهم .

شددنا أسرهم ، أحكمتنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .

بدلتنا أمثالهم ، أهلكتناهم ، وبدلنا أمثالهم فى شدة الخلق .

تمهيد :

هذه هى الآيات الأخيرة فى سورة الإنسان ، نزلت ومكة تعرض على الرسول ﷺ المال والثروة ، وعتبة ابن ربيعة يقول للنبي ﷺ : ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتى ، فإنى من أجمل قريش بنات .

والقرآن ينزل يثبت الرسول الكريم ﷺ ، ويوضح أن القرآن الكريم قد أنزله الله منجماً لحكمة إلهية عليا ، فعليك أيها الرسول بالصبر وذكر الله والتهدج بالليل ، وهذه كلها زائد للدعاة ، حيث يصلون أنفسهم بالخالق عابدين متبتلين ، ثم تتحدث الآيات عن كفار مكة الذين يحبون العاجلة ، أى المال والنساء والخمر والملذات ، وينسون الآخرة ، والله وحده هو الذى خلقهم ، وإننا شاء أتى بخلق جديد أطوع لله منهم ، ثم تسند المشيئة إليه سبحانه ، فهو سبحانه فعال لما يريد ، وهو على كل شىء قدير .

التفسير :

٢٣ - إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا .

إنا نحن الإله الحق الذى بيده الخلق والأمر ، قد : نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا . فهذا القرآن من عندنا ومن أمرنا : نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

وهذا القرآن ليس سحراً ولا شِعْراً ولا كهانة ، ولا أساطير الأولين كما يدعى الكافرون ، وقد أنزلناه منجماً مقسماً فى ثلاثة وعشرين عاماً ، ولم ننزله دفعة واحدة ، بل أنزلناه مفرقاً ليجيب على أسئلة السائلين ، ويثبت المؤمنين ، ويشرح أحكام الدين ، ويقدم الأدلة على الوجدانية ، وصدق رسالة محمد ﷺ ، وأخبار الأمم السابقة ، ومشاهد القيامة والبعث والحشر والجزاء والعقاب .

فالقرآن كتاب ربنا ، أنزله الله على محمد ﷺ مفرقاً لتثبيت فؤاده ، ولرد على أسئلة المشركين ، وليحمل الدليل على إعجاز القرآن ، فقد تحداهم أن يأتوا بمثله ، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ، وقد عجزوا فى كل هذه المراحل مع طول مدة التحدى ، ومع الحروب المتتالية التى حصّدت رجالهم ، ويثمت أطفالهم ، ورمّلت نساءهم ، واستمرار التحدى ، واستمرار الحاجة إلى الرد على القرآن والرسول ، مع وجود الشعراء والبلغاء والفصحاء ، والخطباء والأدباء ، وأسواق الأدب التى

يتبارون فيها بالقصيدة المتميزة والشعر الجيد، والخطبة الفصيحة، والقول المتميز، ثم لم يجروا واحد منهم أن يقدم مثل القرآن، ولا مثل عشر سور منه، ولا مثل سورة واحدة، ولزمهم العجز إلى يوم الدين.

كما قال تعالى: قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا . (الإسراء: ٨٨).

٢٤ - فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كُفُورًا .

اصبر يا محمد لأمر الله وحكمه وقضائه وقدره، واصبر على تكاليف الوحي والرسالة والدعوة، ولا تستجب لما يعرضه عليك المشركون من المال أو الزواج من بناتهم، ولا تتكبر ولا تحزن بوعيدهم وتهديدهم لك، فتلك سنة الدعوات.

أخرج عبد الرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن عنقه؛ فأنزل الله: وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كُفُورًا .

ومن أمثلة الآثم: أبو جهل الذي وقف في سبيل الدعوة، وأذى رسول الله ﷺ، ونهاه عن الصلاة عند الكعبة، ومن أمثلة الكفور: الوليد بن المغيرة الذي سمع القرآن الكريم فتأثر به، وقال عنه كلامًا حسنًا، ومدحه مدحًا جميلًا، ثم استجاب لاستثارة قومه له، وعدل عن الإيمان، وانضم إلى حلف الكفر والبطغيان.

٢٥ - وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأُمِّيًا .

البكرة أول النهار، والأصيل من العصر إلى المغرب، وذكر الله يحتاج إلى استحضار القلب في مناجاته والتعبد بذكره، والمؤمن يذكر الله أول النهار متحدثًا بفضله، طالبًا منه المعونة والبركة والتوفيق، ويذكر الله في آخر النهار التماسًا لفضله ومغفرته وبركته وهدايته.

ويراد بالبكرة والأصيل أيضًا طول النهار.

قال المفسرون: صلّ لربك وأكثر من عبادته وطاعته في أول النهار وآخره، في الصباح والمساء.

٢٦ - وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا .

انتبهن مجيء الليل لتسجد لله وتصلّى صلاة التهجد، وتسبّح بحمد الله تعالى.

وقيل : الزاد من الذكر بُكْرَةً . صلاة الصبح . وأصيلًا . صلاتا الظهر والعصر . وَمِنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ .
صلاتا المغرب والعشاء .

وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا .

اغتنم فرصة الليل ، أو الثلث الأخير من الليل للتسبيح والتحميد والاستغفار .

والآيتان تشيران إلى اللجوء إلى الله وعبادته وذكره ، كما تشيران إلى صلاة الليل ، وهى مندوبة للمسلمين ، فريضة على النبي ﷺ .

قال تعالى : وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ اللَّهِ الْغَنِيِّ . (الإسراء : ٧٩) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَرُفُلًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُكَ لِلذَّاكِرِينَ * وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . (هود : ١١٤ ، ١١٥) .

وقوله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ .

(الحجر : ٩٧ ، ٩٨)

٢٧ - إِنَّ هَذِهِ لَآيَاتٍ يُحْيُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا .

إن هؤلاء أهل مكة ، وبالأخص الأغنياء والسادة والكبراء ، يُحبون أمور الدنيا العاجلة مثل المال والنساء والخمر ومتع الدنيا العاجلة ، ويهملون ما أمامهم من يوم ثقیل شديد ، يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وقيل : إنها نزلت فى يهود ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى تنطبق على كل من يؤثر شهوات الدنيا ، ويهمل الآخرة والحساب والجزاء ، والعمل الصالح لذلك اليوم .

٢٨ - نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا .

أى : نحن لا غيرنا ، خلقنا الناس جميعًا من العدم ، ومنحناهم الحياة والقوة والسمع والبصر ، وأحكمنا خلقهم .

وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ...

أحكمنا خلقهم وربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق ، حتى كانوا أقوياء أشداء ، فكم فى خلق الإنسان من عجائب ، أضف إلى ذلك جمال الخلق ، والتركيب والإبداع ، وتيسير الحركة ، واستخدام آلاته ، كاليدين والرجلين والأذنين ، والعينين والفم والأنف ، والأعضاء التناسلية ، وسائر القوى الموجودة بالإنسان فضلاً عن العقل والمخ والأعصاب ، والفهم والذكاء والاستنباط .

قال تعالى : **وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ .** (الذاريات : ٢١) .

وقال تعالى : **يُنَادِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ .** (الانفطار : ٦- ٨) .

وَإِذَا هِنَّا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْيَلًا .

ولو أردنا لأهلكتناهم وأوجدنا بدلهم خلقاً آخر يكون أطوع وأعبد لله منهم ، وقد وردت الآية مورد التهديد والوعيد .

وقريب من ذلك قوله تعالى : **يُنَادِيهَا آتَاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .** (فاطر : ١٥ - ١٧) .

٢٩ - إِنْ هَلِدْهُ تَذْكِرَةً فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا .

إن هذه الآيات الكريمة ، والسورة العظيمة ، بما فيها من الترتيب العجيب ، والتأنيق البديع ، والوعيد ، والترغيب والترهيب - تذكرة للمتأملين ، وعظة للعقلاء والمفكرين ، فمن أراد الخير لنفسه ، والسعادة والنجاة ، فليتخذ طريقاً إلى طاعة ربه ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والخضوع لأمره والتقرب إلى الله بما يحبه ويرضاه .

٣٠ - وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

لا يستطيع أحد أن يهدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ، ولا يجرّ لنفسه نفعاً ، أو يدفع عنها ضرراً ، إلا بتوفيق الله ومشيئته .

وهذه الآيات فى القرآن الكريم تُفهم من خلال ما ورد من آيات كثيرة حول ذلك الموضوع : ذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار ، وهده النجدين ، وبيّن له الطريقتين ، طريق الهدى وطريق الضلال ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، فإذا تدبر الإنسان وتأمّل ، وسار خطوات فى استخدام العقل والرأى ، والتدبر والتأمّل ، منحه الله الرضا والتوفيق ، ويسّر له الهدى والرشاد ، وإذا أحجم الإنسان عن استخدام عقله ، وصمم على السير فى طريق الغواية والسير وراء شهواته ونزواته ، وأطاع الشيطان ، وأعرض عن ذكر الرحمن ، سلب الله عنه الهدى والتوفيق .

قال الإمام محمد عبده :

للعبد إرادة واختيار ، والله تعالى إرادة عليا وحكمة وتدبير ، والجمع بين إرادة العبد وإرادة الله تعالى تحتاج إلى شىء من الانحناء والتسليم .

وقال المراغى فى تفسيره ما يأتى :

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ...

أى : وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ، ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها ، إذ لا دخل لمشئة العبد إلا فى الكسب ، أما التأخير والخلق فلمشيئة الله عز وجل ، فمشئة العبد وحدها لا تأتى بخير ولا تدفع شرا ، وإن كان يثاب على المشئة الصالحة ، ويؤجر على قصد الخير ، كما فى الحديث : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٣٧) .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

أى : إن الله عليم بمن يستحق الهداية فيبصرها له ، ويقضى له أسبابها ، ومن هو أهل للغواية ، فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامعة . ١ هـ .

٣١ - يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

فهو سبحانه حكيم منزّه عن الظلم ، فمن رأى فى قلبه الرغبة فى الهدى والإيمان ، والطمع فى المغفرة ، والرجاء فى الرحمة ، يسّر له ذلك وأعانه عليه ، ومن ظلم نفسه بالمعاصى ، وأعرض عن طاعة الله سلب الله عنه الهدى ، وأعدّ له عذاباً أليماً فى الآخرة .

وفى الحديث الشريف أن النبى ﷺ قال لأصحابه ذات يوم : «هؤلاء أسماء أصحاب الجنة ، بأسمائهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم ، لا يزيدون ولا ينقصون ، وهؤلاء أسماء أصحاب النار ، بأسمائهم وأسماء آبائهم

وأمهاتهم ، لا يزيدون ولا ينقصون» . قال الصحابة : أفلا نتكل على ذلك يا رسول الله ؟ قال : « لا ، اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له . إن الله عز وجل يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ^(٩٨) . (الليل : ٥ - ١٠) .

قال ابن كثير :

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

أى : عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقبض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ولهذا قال : إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا .

ثم قال : يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ^(٩٩) .



تفسير سورة المرسلات

أهداف سورة المرسلات

(سورة المرسلات مكية ، وآياتها ٥٠ آية ، نزلت بعد سورة الهزعة)

سورة المرسلات قصيرة الآيات ، عاصفة الملامح ، شديدة الإيقاع ، كأنها سياط لاذعة تلهب صدور المتكرين ، وهى توقف القلب البشرى وقفة المحاكمة الرهيبة ، حيث تواجهه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهام المسنونة .

«وتعرض السورة عددا من المشاهد المتنوعة ، عن الكون وخلق الإنسان ، واليوم الآخر ، وعذاب المجرمين ونعيم المتقين ، وعقب كل مشهد تلفح القلب المذنب لفحة من التهديد والوعيد ، حين تقول : وَيَلْزَمُ لِلْكَذِبِينَ . ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات فى السورة ، وهو لازمة الإيقاع فيها ، وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة الرحمن ، عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : قَبَائِرُ إِلَّا رَيْبَكُمْ تَكْلِبَانِ .

كما تذكرنا باللازمة المكررة فى سورة القمر ، عقب كل حلقة من حلقات العذاب : فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ . وتكرارها هنا على هذا النحو يعطى السورة سمة خاصة ، وطعما مميزا حاداً» (١٠٠) .

تسلسل أفكار السورة

تبدأ السورة بقسم عاصف ثائر ، بمشهد الرياح أو الملائكة ، يتبعه عشر جولات متتابعة ، تثير فى النفس طائفة من التأملات والمشاعر والخواطر ، والتأثرات والاستجابات .

١ - فالآيات من (٨ - ١٥) تصف مشاهد القيامة ، وتصور الانقلابات الكونية الهائلة فى السماء والأرض ، وفى هذا اليوم تنتهى حسابات الرسل مع البشر ، ويتبين الصادق من الكاذب .

٢ - والآيات من (١٦ - ١٩) تصف مصارع الغابرين ، وتشير إلى سنن الله فى المكذبين ، فكما أهلك قوم نوح بالغرق ، وأهلك أمم عاد وثمود وفرعون ، فهو يفعل ذلك بكل مكذب برسالات السماء ، وهدى الأنبياء .

- ٣ - والآيات من (٢٠ - ٢٤) تصف النشأة الأولى ، وما تشير إليه من تقدير وتدبير .
- ٤ - والآيات من (٢٥ - ٢٨) تصف الأرض التي تضم أبناءها إليها ، أحياء وأمواتا ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والجبال والمياه .
- ٥ - والآيات من (٢٩ - ٣٤) تصف حال المكذبين يوم القيامة ، وما يلقونه من تقرير وتأنيب .
- ٦ - والآيات من (٣٥ - ٣٧) استطراد مع موقف المكذبين ، وبيان ألوان العذاب والهوان الذي يتعرضون له .
- ٧ - والآيات من (٣٨ - ٤٠) تصف ضعف الإنسان ، وفقدان حيلته أمام الجمع والحشر والحساب والجزاء .
- ٨ - والآيات من (٤١ - ٤٥) تصف نعيم المتقين ، وطعامهم وشرابهم وتكريمهم .
- ٩ - والآيتان (٤٦ ، ٤٧) خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب .
- ١٠ - والآيات من (٤٨ - ٥٠) وصف لحال المكذبين ، وامتناعهم عن الإيمان وعن الاستجابة لآيات القرآن .

وبعض هذه المشاهد قد سبق ذكرها ، وتكرر ورودها في القرآن الكريم ، وفي السور المكية بوجه خاص ، ولكنها تعرض هنا سريعة أخاذة ، لها رنين وجدة في مشاهد جهنم ، وفي مواجهة المكذبين بهذه المشاهد ، وفي أسلوب العرض والخطاب كله ، ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة : حادة الملامح ، متنوعة في أساليب الخطاب ، متنقلة من قسم إلى خبر إلى استفهام إلى أمر ، فذلك كلام الله ، ومن أحسن من الله حديثا؟

مع آيات السورة

٧ - ١ - يقسم الله بطوائف الملائكة ، يرسلها بالمعروف والإحسان ، وأوامره الكريمة ، فتعصف عصف الرياح مسرعة ، وتنشر شرائعه في الأرض ، وتفرق بها بين الحق والباطل ، ويلقى الملائكة إلى أنبياء الله نكرا يريد الله تبليغهم إياه ، عذرا للمحقين ، ونذرا للمبطلين ، يقسم الله بهؤلاء الملائكة على أن ما توعدون من مجيء القيامة واقع لا محالة .

وقيل : إن القسم في هذه الآيات بالرياح وأثارها في الكون ، ونشرها السحاب في الأفق .

وقيل إن القسم في الآيات الثلاث الأولى بالرياح متتابعة كعريف الفرس، فَالْعَصْفُ فَلْتِ غَصْفًا. الشديدة المهلكة، وَالتَّشْيِيرَاتِ نَشْرًا. التي تنشر المطر، فأقسم سبحانه بالرياح النافعة والضارة.

والقسم في الآيات (٤ - ٦) بالملائكة، فلإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعدار إلى الخلق وإنذار.

ولعل من إعجاز القرآن أن الآية تشير إلى معنى وتحتمل معنى، وتستتبع معنى آخر، ولعل هذا التجهيل والخلاف في مفهوم الآية مقصود لله، ليكون أثرها أقوى في النفس.

وقد ذكر ابن جرير الطبري تفسير هذه الآيات، وعند تفسير: وَالتَّشْيِيرَاتِ نَشْرًا. بين أن بعض المفسرين قال: هي الرياح، وبعضهم قال: هي المطر، وبعضهم قال: هي الملائكة.

ثم عقب الطبري بقوله: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال: إن الله تعالى أقسم بالناشرات نشرا، ولم يخصص شيئا من ذلك دون شيء، فالرياح تنشر السحاب، والمطر ينشر الأرض، والملائكة تنشر الكتب، ولا دلالة من وجه يجب التسليم له على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فدل ذلك على أن المراد بالآية كل ما كان ناشرا. (١٠١).

٨ - ١٥ - يوم تطمس النجوم فيذهب نورها، وتفرج السماء، أي تنشق، وتنسف الجبال فهي هباء، وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون، تعرض السورة أمرا مؤجلا، هو موعد الرسل لعارض حميلة الدعوة والشهادة على الأمم، والقضاء والفصل بين كل رسول وقومه: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَآذًا أَجِيتُمْ... (المائدة: ١٠٩). وفي هذا اليوم عذاب وخزي لمن كذب بالله ورسله وكتبه، وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به.

١٦ - ١٩ - تجول هذه الآيات في مصارع الأولين والآخرين، وفي ضربة واحدة تكشف مصارع الأولين، من قوم نوح ومن بعدهم، وتكشف مصارع الآخرين، ومن لف لفهم، وعلى مد البصر تتبدى المصارع والأشلاء، فهي سنة الله التي لا تتبدل، من سيادة الصالحين، وهلاك المجرمين، وفي الآخرة هلاك وعذاب شديد للمكذبين.

٢٠ - ٢٤ - هذه الآيات جولة في الإنشاء والإحياء، مع التقدير والتدبير، فهي تصف خلق الإنسان من نطفة مراقبة، تستقر في حزن مكين وهو الرحم، حيث تصوير جنينا مكتملا، فَقَدَرْنَا. وقت ولادته فَنِعْمَ الْفَالِقُونَ. نحن على التدبير وإحكام الصنعة، وفي الآخرة عذاب شديد للمكذبين بآيات الله وقدرته وحكمته.

٢٥ - ٢٨ - وهذه الآيات جولة في خصائص الأرض ، وتقدير الله فيها لحياة البشر ، وإبداعها للخصائص المبسرة لهذه الحياة : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا .^(١٠١) تحتضن بنيتها وتجمعهم . أَحْيَاءُ وَأَمْوَاتُ • وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ ... ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب ، أف يكون هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ؟ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

٢٩ - ٣٤ - تنتقل الآيات إلى وصف مشهد من مشاهد القيامة ، والكفار ينطلقون بعد طول احتباس إلى العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا .

إنه انطلاق خير منه الارتهان والاحتباس : أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ . وهو دخان جهنم يتشعب لعظمه ثلاث شعب ، وتمتد أسنته إلى أقسام ثلاثة كلها أشد من بعض ، ولكنه ظل خير منه الوهج : لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ . إنه ظل خائف حار لافح ، وتسميته بالظل من باب التهكم والسخرية ، فهو لا يظل من حر ذلك اليوم ، ولا يقي من لهب جهنم .^(١٠٢)

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَاسٍ قَلْفَاصٍ • كَأَنَّهُ جُمُلَتِ صُفُرٌ . أي أن هذه النار يتطاير منها شر متفرق في جهات كثيرة ، كأنه القصر عظماء وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصفر لونا وكثرة وتتابعا وسرعة حركة ، وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجيء التعقيب المعهود : وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

٣٥ - ٣٧ - هذا يوم لا يتكلمون فيه بحجة نافعة تنقذهم مما هم فيه ، ولو كانت لهم حجة لما عذبوا هذا العذاب ، ولا يؤذن لهم بالاعتذار ولا يقبل منهم ، فإلهلاك لمن كذب بعذاب يوم القيامة .

وقد سئل ابن عباس رضى الله عنه عن هذه الآية وعن قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ . (الزمر : ٣١) . فقال : في ذلك اليوم مواقف ، في بعضها يختصمون ، وفي بعضها لا ينطقون ، أو لا ينطقون بما ينفعهم فجعل نطقهم كلا نطق .^(١٠٣) والعرب تقول لمن ذكر ما لا يفيد : ما قلت شيئا .

٣٨ - ٤٠ - هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار ، وقد جمعناكم والأولين أجمعين ، فإن كان لكم تدبير فديروه ، وإن كانت لكم حيلة في دفع العذاب عنكم فاحتالوا لتخليص أنفسكم من العذاب ، وفي هذا تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ ، فهم في صمت كظيم ، وتأنيب أليم . والويل الشديد في ذلك اليوم للمكذبين بالبعث والجزاء .

٤١ - ٤٥ - إن المتقين في ظلال الأشجار على شواطئ الأنهار ، فلا يصيبهم حر ولا قر ، ويتمتعون بما تشتهيهم أنفسهم من الفواكه والمأكول الطيبة ، ومع التكريم الحسى يلقون ألوان التكريم المعنوى ، فيقال لهم على مرأى ومسمع من الجموع : كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . جزاء بما عملتم فى الدنيا من طاعة ربكم ، واجتهدتم فيما يقربكم من رضوانه ، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان فى الجنة ؟ ويمثل هذا الجزاء نجزى كل الذين يحسنون فى أعمالهم وأقوالهم ، وشأنهم الإحسان ، ويقابل هذا النعيم الويل للمكذبين .

٤٦ - ٤٧ - كلوا وتمتعوا قليلا فى هذه الدار بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى بالنسبة للآخرة ، وهناك ستحرمون وتعذبون طويلا : وَلَيْلٌ يُؤْمِلُ لِّلْمُكْذِبِينَ .

٤٨ - ٥٠ - وإذا قيل لهؤلاء المكذبين : اعبدا الله وأطيعوه ، لا يستجيبون ولا يمتثلون ، وَلَيْلٌ يُؤْمِلُ لِّلْمُكْذِبِينَ . بأوامر الله ونواهيه . فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . أى إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل على تجليها ووضوحها ، فَبِأَيِّ كَلَامٍ بَعْدَ هَذَا يَصْدُقُونَ ؟ والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذى يهز الرواسى ، وبهذه الهزات التى تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده أبدا ، إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقى المتعوس .

إن هذه السورة ببناؤها التعبيرى ، وإيقاعها الموسيقى ، ومشاهدها العنيفة ، ولذعها الحاد ، حملة لا يثبت لها كيان ، ولا يتماسك أمامها إنسان ، فسبحان الذى نزل القرآن وأودعه ذلك السلطان .

مقاصد السورة

من مقاصد سورة المرسلات ما يأتى :

- ١ - القسم بالملائكة على أن البعث حق ، وأن القيامة آتية .
- ٢ - الإخبار عن هلاك القرون الماضية ، ووعيد المكذبين بنفس المصير .
- ٣ - المنة على الخلاق بنعمة الخلق والتكوين ، وسائر النعم فى الأنفس والآفاق .
- ٤ - وصف عذاب المكذبين بما تشيب من هوله الولدان .
- ٥ - وصف نعيم المتقين وما يلقونه من الكرامة فى جنات النعيم ، وبيان عظمة الخالق وكمال قدرته .

القسم ومشاهد القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ① فَأَلْصَقْنَ عَصْفًا ② وَالنَّشْرَتِ شَرًّا ③ فَأَلْقَرْنَ فَرًّا ④
فَالْمَلَقَيْنِ ذِكْرًا ⑤ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑥ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَفِّعُ ⑦ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑧ وَإِذَا
السَّمَاءُ فُزِّجَتْ ⑨ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِّتْ ⑩ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتْ ⑪ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑫ لِيَوْمِ
الْفَصْلِ ⑬ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑭ وَلِلَّهِ يَوْمَئِذٍ الْكَوْثَرُ ⑮﴾

المضردات :

المرسلات : الملائكة الذين أرسلهم الله لإيصال النعمة إلى قوم ، والنقمة إلى آخرين ، وقيل : الريح .

عُرْفًا : متتابعة بعضها في إثر بعض كعرف الديك ، وقيل : عُرْفًا للمعروف والإحسان .

فَالْعَصْفَاتُ : الريح الشديدة ، أو المبعدات للباطل .

النَّاشِرَاتُ نَشْرًا : الملائكة الناشرات لأجنتها ، عند نزولها إلى الأرض .

فَالْفَارِقَاتُ فَرَقًا : الملائكة تفرق بين الحق والباطل .

فَالْمَلَقَاتُ ذِكْرًا : الملائكة تلقى الوحي من عند الله ، وتنزل به على أنبيائه .

عَذْرًا أَوْ نَذْرًا : للإعذار أو الإنذار ، من قولهم : عذره ، إذا أزال الإساءة ، وأنذر إذا خُوف .

طُمِسَتْ : محقت وذهب نورها .

فُزِّجَتْ : فتحت وشُقَّت .

سُفِّتْ : اقتلعت من أماكنها بسرعة ، من قولهم : انتسفت الشيء ، إذا اختطفته .

أَقْنَتْ : عَيَّن لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على أممها .

اجلست ، أخرت وأمهلت .

الفصل : القضاء بين الخلائق بأعمالهم : إمّا إلى الجنة ، وإمّا إلى النار .

ويصل : عذاب وخزى .

تمهيد :

أقسم سبحانه وتعالى بطوائف من الملائكة ، منهم المرسلون إلى الأنبياء بالإحسان والمعروف ليبلغوه للناس ، ومنهم الذين يعصفون ما سوى الحق ويبعدونه ، كما تبعد العواصف التراب وغيره ، ومنهم الذين ينشرون آثار رحمته في النفوس الحية ، ومنهم الذين يفرقون بين الحق والباطل ، ومنهم الملقون العلم والحكمة للإعذار والإنذار من الله ، ومن مشاهد القيامة ذهاب ضوء النجوم ، وانشقاق السماء ، واقتلاع الجبال وسيرها ، وشهادة الرسل على أممها في يوم الفصل والقضاء بين الناس ، وهو يوم عظيم الهول .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ - وَالْمُرْسَلَاتِ غُرَفًا ۚ فَاتَّخِذْنَ عُصْفًا ۚ وَالنَّشِيرَاتِ تَشْرًا ۚ

تعددت الآراء في المراد بالقسم في صدر سورة المرسلات ، وأهم الآراء أربعة :

الأول : الرياح .

الثاني : الملائكة .

الثالث : طوائف الأنبياء الذين أرسلوا بالوحي المحقق لكل خير .

الرابع : أقسم في الآيات الثلاث الأولى بالرياح ، وفي الآيات التالية بالملائكة .

والمعنى على أن المقصود بالآيات الثلاث الأولى الرياح كالآتي :

أقسم بالرياح المرسلة متتابعة كعرف الفرس ، إذا ذهب شيئا فشيئا ، وبالرياح التي ترسل عاصفة لما أمرت به من نعمة ونقمة .

قال تعالى : وَلَسَلَيَمُنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١) .

كما ترسل الريح للعذاب ، قال تعالى : فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنُلْذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... (فصلت : ١٦) .

وَالنَّجْمَاتِ نَشْرًا .

وأقسم بالرياح التي تنشر السحاب ، وتفركه في آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

٤ ، ٥ ، ٦ - قَالَتْ قُلْتُ قُرْآنًا * قَالَتْ قُلْتُ ذِكْرًا * عَلَّمَهَا أَنْ تُدْرَأَ .

الأظهر أن المراد هنا الملائكة الكرام ، الذين ينزلون بأمر الله على الرُّسل ، بما يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وهذه الملائكة تلقى إلى الرسل وحياً مشتملاً على ذكر الله وتوحيده ، وبيان عظمته وقدرته ، ويدائع خلقه ، ونظام تشريعاته ، ومشاهد القيامة والحساب .

عَلَّمَهَا أَنْ تُدْرَأَ .

وهذه الملائكة تلقى هذا الذكر ليكون إنذاراً إلى الخلق ، وإنذاراً لهم وتخويفاً من عقاب الله للمكذبين .

٧ - إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ .

إن ما توعدون به من القيامة والحساب والجزاء ، والجنة والنار - واقع وحاصل ومؤكد ، وكائن لا محالة ، ولا يستبعد بعض المفسرين أن تكون الآيات القرآنية تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

فآيات صالحة لأن تكون قسمًا بالرياح المرسلة ، وأن تكون بالملائكة المرسلة ، وبأن تكون الآيات الثلاث الأولى قسمًا بالرياح ، والآيات (٤ - ٦) قسمًا بالملائكة ، أو بها وبغيرها ، مثل الكتب السماوية التي تفرق بين الحق والباطل ، وتشتمل على ذكر الله ، عذرا للمؤمنين ونذرا للكافرين .

كما يمكن أن تكون فيها إشارة إلى رسل الله تعالى ، التي تفرق بين الحق والباطل ، والكفر والإيمان ، والحلال والحرام ، وتلقى آيات الله على عباده ذكرا لهم ، وتذكيراً برههم ، حتى يعذر الله إلى عباده ، وينذر الكافرين .

قال تعالى : رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(النساء : ١٦٥)

٨ ، ٩ ، ١٠ - فَإِذَا التَّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتْ .

إذا ذهب ضوء النجوم ، وصارت من النجوم القزمية ، وإذا انشقت السماء على غلظها ، وصارت واهية ضعيفة بعد أن كانت قوية متماسكة لا خلل فيها ولا تشقق ، وإذا قلعت الجبال من أماكنها وذهب بها ، وطارَت في الجو فلا يبقى لها عين ولا أثر ، واستوى مكانها بالأرض .

وبهذا المعنى وردت آيات القرآن الكريم تشير إلى أنه عند نهاية الدنيا يختل نظام الكون .

قال تعالى : وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ، (التكوير : ٢) .

وقال سبحانه : وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ . (الانفطار : ٢) .

وقال عن شأنه : وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً . (الحاقة : ١٦) .

وقال تعالى : يَوْمَ نَشْفُقُ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

وقال تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . (طه : ١٠٥) .

١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ - وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَضْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمِ الْفَضْلِ .

وإذا جمع الله الرسل ، وجعل لهم وقتاً محدداً للفصل والقضاء بين كل رسول وقومه ، لتعذيب من كذب الرسل ، وإثابة من نصرهم وناصرهم .

قال تعالى : يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ فَأُولَئِكَ لَا يَعْلَمُونَ لَكُمُ الْعَذَابُ * (المائدة : ١٠٩)

ثم تساءل القرآن : لماذا لم يفصل الله بين الرسل وأقوامهم في الدنيا ؟ ولأى وقت أجل هذا الفصل ؟ والاستفهام هنا للتحويل والتعظيم ليوم القيامة .

لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ . لأى وقت أجل الفصل بين الرسل وأقوامهم ؟

يَوْمِ الْفَضْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمِ الْفَضْلِ .

أى : أجلت عقوبة المكذبين بالرسل ، ومثوبة المصدقين ، ليوم الفصل بين الناس ، وما أعلمك بالهول فى يوم الفصل ؟ فالاستفهام للتحويل والتفخيم .

١٥ - وَيُلَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

الويل : أكبر واد فى جهنم ، تجتمع فيه عصاة أهل النار من القويح والصديد .

يَوْمَئِذٍ . الويل يوم القيامة والعذاب الشديد للمكذبين ، وللكافرين بالله واليوم الآخر .

الاعتبار والاتعاظ ، والتحذير من الكفر

﴿ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُنْعِمُهُمْ الْآخِرِينَ ۝ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُخْلِقُونَ مَاءً مَّهِينًا ۝ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ الْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسًا شَهِخَتْ وَأُسْقِنَتْ مَاءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾

المضردات :

ألم تهلك الأولين ، كقوم نوح وعاد وثمود .

ثم نتبعهم الآخرين ، نحن نتبعهم نظراءهم ، ككفار مكة .

ماء مهين ، منى ضعيف ذليل ، وهو النطفة .

قرار مكين ، مكان حصين حريز ، وهو الرحم .

إلى قدر معلوم ، إلى وقت الولادة .

فقدَرنا ، قدرنا ذلك وأحكمناه .

الأرض كفاتا ، وعاء ، تضم الأحياء على ظهرها ، والأموات في بطنها .

رؤس شامخات ، جبالاً ثوابت مرتفعات .

ماء فراتا ، حلوا عذبا .

التفسير :

١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ - أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُنْعِمُهُمْ الْآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ .

لِلْمُكَذِّبِينَ .

لقد أهلكنا المكذبين بالرسول من عهد نوح ، نزل بهم عذابنا المدمر ، والاستفهام هنا للتقرير والتأكيد ، بمعنى : قد أهلكنا هلاكاً مروعاً كل من كذب الرسل ، مثل عاد وثمود وقارون وفرعون ، وسنهلك كفار مكة ومن ألقا فيهم وسار على شاكلتهم ، وتلك سنتنا نطبقها مع كل مجرم ظالم ، يتعدى حدود الله ، ولا يطيع أوامره ، ولا يجتنب المحرمات .

وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

تتكرر هذه الآية عشر مرات في هذه السورة ، كالجرس الذي يرن في أعقاب كل فقرة ، أى عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بالرسل ، المخالفين لأوامر الله وسننه ، ومن سنن الله إهلاك الظالمين .

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ - أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مُهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَدِيرُونَ * وَيَلِّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

يخاطب القرآن الخلق ، ويلوّن في أسلوب الخطاب ، ويدعو الإنسان إلى التفكير في أصله فيقول : ألم نخلقكم أيها الخلق من ماء ضعيف ، نطفة مزرة ؟

وكلمة : مُهِينٍ . بزنة فعيل ، ومادته : مَهَنَ ، أى ضعف ، والميم فيها أصلية .

وأكثر المفسرين ذهب إلى أن معنى : مُهِينٍ . وضع حقير ، أما الطبرى شيخ المفسرين فقال : المهين هو الضعيف . اهـ .

وإذا تأملنا أن الله تعالى كرم بنى آدم ، رجحنا أن يكون معنى مهين : ضعيف ، أبعد ما يكون عن الحياة والقوة والحركة ، لولا أن تلقفته يد القدرة الإلهية .

وأتمنى أن نبتعد عن تسمية المنى بأنه مهين بمعنى حقير أو ذليل ، بل معناه اللغوي من مادة مَهَنَ لا هَانُ ، وَمَهَنَ معناه ضعف ، ومهين معناه ضعيف ، وليس المعنى أنه حقير ، وليس معناها هان بمعنى ذلّ والمنى مهين بمعنى ضعيف ، أى لولا وضعه في الرحم فى قرار مكين ، لما كان له وجود ولا حياة ولا شموخ وتعالٍ فلماذا تتكبر أيها الإنسان على خالقك ، ولولا يد القدرة ما كنت شيئاً مذكوراً ؟

قال تعالى : هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً . (الإنسان : ١) .

عود إلى التفسير

ألم تخلقكم يد القدرة الإلهية من ماء مهين ، هو المنى الذى يخرج من صلب الرجل فيصب في رحم المرأة ؟

فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُكِينٍ .

فجعلنا هذا الماء المهين فى مكان حريز حصين ، هو رحم المرأة ، المؤهل للمحافظة على هذه النطفة ، حيث تمسك بجدار الرحم ، وتتعلق به وتنشبت به ، فلا تفلت منه ، ثم تتحول إلى مراحل متعددة .

إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ . زمنٌ مَقْدَّرٌ ، وهو وقت الولادة .

فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ .

فقدَرنا على خلقه بشراً سوياً في أحسن تقويم ، معه العقل والإرادة والسمع والبصر ، ومزود بالأجهزة البديعة ، مثل : الجهاز الهضمي ، والجهاز العصبي ، والجهاز التناسلي ، والجهاز اللمفاوي .

فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ .

أنعم وأكرم بقدرة الله وحده ، الذي خلق الإنسان من منىٍ يمنى ، ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين .

وَلَيْلٌ يُؤْتِيهِ لِلْمُكَذِّبِينَ .

أى : في يوم القيامة الويل والعذاب الأليم للمكذبين بقدرة الله ، فهو الذى خلق الإنسان من منى يمنى ، ومنْ بدأ الخلق قادر على إعادته ، بل الإعادة أهون من البدء ، فمن كَذَّبَ بالبعث والجزاء فله الويل والعذاب يومئذٍ ، أى يوم القيامة .

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ - أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّ سَلِيمَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا * وَلَيْلٌ يُؤْتِيهِ لِلْمُكَذِّبِينَ .

كِفَاتًا : وعاءٌ .

جعلنا الأرض وعاءً لكم منها تأكلون وتشربون ، وعلى طرقها تسيرون ، وتسكنون دورها ومنازلها ، وجعل الأرض جامعة لأمر معاشكم وتجارتكم وتنقلاتكم ، فهي ضامة وجامعة للأحياء على ظهرها ، وللأموات فى بطنها ، حيث يدفنون فى بطنها ، وتستقر الأموات من رؤوسهم إلى أقدامهم .

قال تعالى : ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرُہُ . (عبس : ٢١) .

أى : أسكنه القبر ، وهى نعمة أى نعمة .

قال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم .

وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

قال المفسرون :

الكتف : الجمع والضمّ ، فالأرض تجمع وتضم إليها جميع البشر ، فهي كالأمّ لهم ، الأحياء يسكنون فوق ظهرها في المنازل والدور ، والأموات يسكنون في بطنها في القبور . اهـ .
وجاء التنكير للتفخيم كأنه قيل : تكفت أحياء لا يعدّون على ظهرها ، وتكفت أمواتا لا يحصرون في بطنها .

وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شُعْبَةً ...

جعلنا فيها ثوابت مرتفعات ، فالجبال تثبت الأرض ، وتمسكها من الفوران بسبب الزلازل والبراكين والحمم التي بداخلها .

قال تعالى : وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ... (النحل : ١٥) .

وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً مُّزَاتًا .

وأسقيناكم ماءً عذبا سائغا لذيذا ، والقرآن يمتن علينا بالماء والبساتين والزرورع والثمار عقب ذكر الجبال .

قال تعالى : وَالْجِبَالِ أَرْسَلْنَا مِنْهَا لَكُمْ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ . (النازعات : ٣٢ ، ٣٣) .

فالجبال تُثَبِّت الأرض وتحفظ توازنها ، وإليها يلجأ العباد والزهاد ، والراغبون في الخلوة ، والهاربون من الحياة .

وفي قللها ورؤوسها نجد الثلوج والمياه ، مثل جبل الشيخ في سوريا الذي تعلوه طبقة بيضاء من الثلج ، تذوب في الصيف وتنزل على الوديان فتسقى الزرع ، وتفيد الإنسان والحيوان .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (الأنبياء : ٣٠) .

فالماء في البحار وفي الأنهار ، وفي العيون والآبار ، مصدر حياة ونعمة للإنسان والحيوان والزرورع وسائر الأحياء .

وَلَيْلَ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ .

هلاك في يوم القيامة للمكذبين برسلى الله ، والكافرين بنعم الله رب العالمين .

ألوان عذاب الكافرين

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٢٩) أَنْطَلِقُوا إِلَى ظُلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْلَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتُ صُفْرٍ ﴿٣٣﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُم كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ ﴿

المعردات :

ظــــل ، هو دخان جهنم .

ثلاث شعـب ، فرق ثلاث كالذوائب .

لا ظـلـيل ، غير مظل من الحر .

لا يغنى من اللهب ، لا يدفع شيئاً من لهب جهنم .

ترمى بشـرر ، هو ما تطاير من النار متفرقاً .

كالقصر ، كل شرة كالبناء المشيد في العظم والارتفاع .

كانه جمالة صفر ، كأن الشرر إبل سود (وتسميها العرب صُفْراً) في الكثرة والتتابع وسرعة الحركة واللون .

لكم كيد ، حيلة لا تقاء العذاب .

التفسير :

٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ - أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَنْطَلِقُوا إِلَى ظُلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ

الْلَّهَبِ .

أى : سيروا إلى عذاب جهنم التى كنتم تكذبون بها ، وتستبعدون أن تنالكم ، وتدعون أنكم قادرون على أن تهزموا حراس جهنم التسعة عشر وتخرجوا منها ، فأخبركم الله أنهم ملائكة ، وإذا كلفهم الله بأمر أعطاهم القدرة على تنفيذه .

أَنْطَلِقُوا إِلَى ظُلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ .

هناك فى يوم القيامة مواقف متعددة ، ومن هذه المواقف العذاب تحت ظلّ فى جهنم ، هذا الظل ليس

بارداً مريحاً ، ولا واقياً من حر الشمس ، وليس له حيطان وستور تحمى من لهب النار .

كما قال تعالى: لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ. (الواقعة: ٤٤).

فقسميته بالظل من باب التهكم أو المقابلة، حيث يتمتع المؤمنون بظل ظليل.

قال تعالى: وَذَائِبَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا ... (الإنسان: ١٤).

أما الكفار فقال الله عنهم: وَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ * لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ. (الواقعة: ٤٣، ٤٤).

إن الظل ألوان من العذاب، فأحياناً يكون الظل تحتهم وفوقهم، قال تعالى: لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِّنْ آثَارِ
وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ... (الزمر: ١٦).

والظل في جهنم من كثرت وطوله وقوته يتشعب إلى ثلاث شعب، ربما كانت واحدة فوقهم، وأخرى
تحت أرجلهم، وثالثة عن يسارهم، كفانا الله شر النار وعذاب النار.

قال تعالى: يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... (العنكبوت: ٥٥).

لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ.

إنه ظل خائق يأخذ بالأنفاس، ويتسبب في شدة العطش، ولا يحمي من لهب جهنم، والشمس تلمح
الكافرين وتسفعهم، وتأخذ بأنفاسهم، أما المؤمنون فيظلون في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله.

وذهب بعض المفسرين إلى أن ظل جهنم ينقسم إلى ثلاث شعب: شعبة للمنافقين، وشعبة للكافرين،
وشعبة لعصاة المؤمنين، وكل شعبة تناسب أصحابها، وتناسب حجم العذاب الذي يستحقونه منها.

٣٢ - إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَاسٍ كَالْقَصْرِ.

الضمير في: إِنَّهَا، لجهنم، وصح عود الضمير عليها مع عدم ذكرها صراحة لأنها تفهم من السياق،
فالمكذبون لا يطلقون إلا إلى النار، أو إلى ألوان من عذابها، وجهنم يطلق منها شر كبير في حجم القصر،
وهو البناء العالى العظيم، أو الحصن المنيع.

٣٣ - كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ.

شبه الشر في كبره وضخامته بالقصر، وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر،
وليس من الضروري أن يكون في ضخامة ما نعهد الآن من قصور.

وإذا تتابع الشرر أشبه الجمالة الصُفر في سرعتها وتتابعها وكثرة حركتها .

ومن المفسرين من قال : إن المراد الإبل السود التي تضرب إلى الصفرة .

ورجَّح الفخر الرازي أن المراد : الإبل الصفراء ، لأن الشرر إنما يسمى شرراً ما دام يكون ناراً ، ومتى كان ناراً كان أصفر ، وإنما يصير أسود إذا انطفأ ، وعندئذ لا يسمى شرراً ، ولعل هذا الرأي أقرب إلى الصواب .

والجمالة : جمع جمل ، لحقت بها التاء لتأنيث الجمع .

والمقصود بتشبيه الشرر بالقرص : بيان أن النار عظيمة جداً .

والمقصود بالتشبيه الثانى : شدة اشتعالها وسرعة أفعالها .

وقانا الله جميعاً شر النار ، وعذاب النار ، آمين .

٣٤ - وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين يرسل الله وآياته .

٣٥ - هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرِضُونَ .

فى يوم القيامة ساعات متعددة ، فى ساعات يُسمع لهم بالكلام ، أو اعتذار عما فعلوه فى الدنيا ، وفى ساعات يعم الصمت الرهيب ولا يُسمع لهم بالكلام ، أو هم من تلقاء أنفسهم قد اشتدت رهبتهم ، وأهوالهم من شدة ما رأوا ، فلانوا بالصمت .

قال تعالى : وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ . (النمل : ٨٥) .

قال ابن كثير :

وعرضت القيامة حالات ، والربُّ تعالى يُخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ، ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ .

وقال القاسمى :

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ .

أى : بحجة ، أو فى وقت من أوقاته ، لأنه يوم طويل ، ذو مواقف ومواقيت ، أو جعل نطقهم كلاً نطق ، لأنه لا ينفع لا يسمع . اهـ .

وقال الحسن : لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، والعرب تقول : أنت لم تقل شيئاً ، لمن تكلم بكلام غير مفيد .

فلا ينافي ذلك قوله تعالى على لسان المشركين : **وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** . (الأنعام : ٢٣) .

وقوله تعالى : **وَلَا يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ حَدِيثًا** . (النساء : ٤٢) .

وقوله سبحانه : **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** . (الزمر : ٣١) .

وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ .

لا يُسمح لهم بإبداء العذر عما ارتكبهوه في الدنيا ، لأنها أَعذار مرفوضة ، أو هي كاذبة ، أو أَعذار غير موضوعية ، بعد أن قامت الحجة عليهم وثبتت عليهم التهمة .

قال تعالى : **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ... (التوبة : ٦٦) .

وقال سبحانه : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** . (التحريم : ٧) .

والمراد أنهم ليس لهم عذر ولا حجة فيما ارتكبوا من المفاسد والمنكرات ، وأنه لا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم .

٣٧ - **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ** .

عذاب شديد للمكذبين بالوحي والرسل والبعث والقيامة .

٣٨ - **هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ** .

يجمع الله الأولين والآخرين في عرصات القيامة ، في وقت واحد ، ومشهد واحد ، جمعهم الحق سبحانه بقدرته .

قال تعالى : **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ... (الأنعام : ٩٤) .

ويسمى يوم القيامة يوم الفصل لأن الله يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل .

جَمَعْتَكُمْ وَالْأُولَيْنِ .

أى : جمعناكم بقدرتنا يا كفار قريش ، وأمثالكم من المتأخرين على مر الدهور فى يوم الفصل ، مع الكفار الأولين ، وهم كفار الأمم الماضية ، فى صعيد واحد ، ولجزاء واحد .

٣٩ - فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ .

أى : افعلوا ما بدا لكم ، أو إن استطعتم أن تتخلصوا من قبضتى وتنجوا من حكمى فافعلوا ، أو إن قدرتم على المكر والتليس والحيل فافعلوا ، وأنى لكم ذلك وقد انقطعت الحيل فى الدنيا ، وأصبحتم أمام أعين الله الباصرة ، وهو سبحانه لا يخفى عليه شئ ، ولا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، وفى ذلك تهديد شديد ، ووعد أكيد .

٤٠ - وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ .

هلاك شديد فى ذلك اليوم للمكذبين بأيات الله ووعدده ووعيده .

جاء فى مختصر تفسير ابن كثير للصابونى ما يأتى :

أخرج ابن أبى حاتم ، عن عبادة بن الصامت أنه قال : إذا كان يوم القيامة ، جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ينقذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، ويقول الله : هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتَكُمْ وَالْأُولَيْنِ . فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ولا شيطان مرید .

نعيم المتقين ، وتهديد المجرمين

﴿إِنَّ الْأَمْتَقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ۖ وَفُورَةٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ۖ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۖ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَبْنَاكَ بِحُجْرِ الْحَسَنِينَ ۖ ﴿٤٤﴾ وَيَلُومُنَازِلَ الْمَكْذِبِينَ ۖ ﴿٤٥﴾ كَلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا ۖ إِنَّكُمْ تَجْرِمُونَ ۖ ﴿٤٦﴾ وَيَلُومُنَازِلَ الْمَكْذِبِينَ ۖ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۖ ﴿٤٨﴾ وَيَلُومُنَازِلَ الْمَكْذِبِينَ ۖ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۖ ﴿٥٠﴾﴾

المضردات :

ظلال ، واحدها ظل ، وهو أعم من الغي ، فإنه يقال : ظل الليل ، وظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فيء إلا لما زالت عنه الشمس ، ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة .

عيون ، أنهار .

مما يشتهون ، مما يتمنون .

هنيئا ، لا يشويه سقم ولا تنغيص .

اركعوا ، صلوا .

حديث ، كلام .

تمهيد :

في ختام السورة التي هدت الكافرين ، وقدمت عدة فقرات تحدثت عن أهوال القيامة وهلاك الظالمين ، وخلق الإنسان ، ومشاهد الكون ، وألوان العذاب في جهنم للكافرين ، تستعرض هنا نعيم المتقين ، وما يتمتعون به من الظلال والعيون والفواكه ، وألوان التكريم والنعيم .

ثم نعت على الكفار استكبارهم وعنادهم ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن مع نصوع حجته ، ووضوح بيانه ، فبأي كلام بعده يصدقون ؟

التفسير:

٤١ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّهِ وَعُيُونِ .

يتمتع المتقون بظلال الأشجار وظلال القصور، فلا يصيبهم حرّ ولا قرّ، ويتمتعون بالعيون والأنهار، ويتمتعون في دار الخلد والكرامة، بعكس الكافرين الذين هم في ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من اللهب.

وفى سورة يس يقول الله تعالى: إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فُكَّهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ * لَهُمْ فِيهَا فُكْهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ . (يس: ٥٥ - ٥٧).

٤٢ - وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ .

وفواكه كثيرة متنوعة، مما يستطيعون ويستلذون.

٤٣ - كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

أى: يقال للمتقين: كلوا أكلا هنيئًا، واشربوا من هذه العيون كلما شئتم، شربًا هنيئًا خالص اللذة، لا يشويه سقم ولا يكدره تنغيص، وهو دائم لكم، لا يزول ولا يورثكم أذى فى أبدانكم، وكل ذلك بسبب أعمالكم الصالحة فى الدنيا، وطاعتكم لله واجتهادكم فى مرضاته.

٤٤ - إِنَّا كَلَّاكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .

إنّا مثل ذلك الجزاء العظيم نجزي كل من أحسن عمله، واتقى ربه.

قال تعالى: إِنَّ الْبَلَاءَ ءَامَتُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف: ٣٠).

٤٥ - وَيَلَّيْلُ يُؤْمِنُ لِلْمُكَذِّبِينَ .

عذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بالقرآن، وبما وعد الله المتقين من تكريم مآدى ومعنوى.

٤٦ - كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ .

أى: كلوا أيها الكفار ملء بطونكم، وتمتعوا بشهواتكم فى أيام الدنيا، وهى قليلة بالنسبة للأخرة.

إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ .

لا تستحقون التكريم فى الآخرة ، فقد بعتم آخرتكم واشترىتم دنياكم وحظوظكم العاجلة ، فكنتم أشبه بالأنعام التى لا يههما إلا ملء بطونها وإشباع شهواتها .

قال تعالى : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (الأنفال : ٥٥) .

وقال عز شأنه : قُلْ مَتَلَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا . (النساء : ٧٧) .

٤٧ - وَيُلْ يُؤْمِدُ لِّلْمُكذِّبِينَ .

عذاب شديد للمكذبين بأوامر الله ، قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (القمان : ٢٤) .

٤٨ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ .

وإذا قيل لهؤلاء الكفار : صلوا مع المصلين ، واخضعوا لأوامر الله ، وادخلوا فى دين الإسلام : أبوا وامتنعوا .

روى أن هذه الآية نزلت فى ثقيف حين أمرهم النبى ﷺ بالصلاة ، فقالوا : لا نحبو (لا نركع) فإنها سبة علينا ، فقال ﷺ : «لا خير فى دين ليس فيه ركوع ولا سجود» .

وردى ابن جرير ، عن ابن عباس أنه قال : إنما يقال هذا فى الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، من جرأ أنهم لم يكونوا يسجدون فى الدنيا .

٤٩ - وَيُلْ يُؤْمِدُ لِّلْمُكذِّبِينَ .

أى : بأوامر الله ونواهيه .

٥٠ - فَبِأَيِّ حَالٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم مع وضوح حجته واكتمال فصاحته وبلاغته ، فبأى كلام يؤمنون ؟

وذلك كقوله تعالى : فَبِأَيِّ حَالٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَالِهَتِهِ يُؤْمِنُونَ . (الجانة : ٦) .

جاء في تفسير ابن كثير :

رَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : إِذَا قَرَأَ : وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا . فَقَرَأَ : فَبَأَى حَلِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ . فَلْيَقُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ
وَيَمَا أُنْزِلَ . أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

فضل سورة المرسلات

عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ : وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا . فقالت : يا بُنَيَّ ، ذكرتني بقراءة تلك هذه
السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في المغرب^(١٠٠) .

وقد أخرجه الشيخان من طريق مالك عن الزهري .

★ ★ ★

وكان الفراغ من تفسير الجزء (التاسع والعشرين) من القرآن الكريم عصر يوم الإثنين ٢٩ من المحرم
١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٣ / ٤ / ٢٠٠١ م ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء التاسع والعشرون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمّد صالح سميح فهمي

(١) فى ظلال القرآن ٢٩ / ١٨٤ .

(٢) الله والعلم الحديث، للأستاذ عبدالرازق نوئل، ص ٥٧.

(٣) بصائر نوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزباده (٤٧٣/١).

(٤) رواء أبو داود والترمذى وحسنه وغيرهما، وانظر الترغيب والترهيب.

(٥) إن العبد إذا وضع فى القبر وتولى عنه أصحابه إنه يسمع قرع:

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٢٨ ، ١٣٧٤) ومسلم فى الجنة (٢٨٧٠) وأبو داود فى الجنائز (٢٣٢١) وفى السنة (٤٧٥١) والنسائى فى الجنائز (٢٠٤٩) وأحمد فى مسنده (١٨٦٢) من حديث أنس رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «العبد إذا وضع فى قبره وتولى وذبح أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعاليهم أثناء مكان فاقعدها فيقولان له: ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ﷺ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار أبداك الله به مقعدا من الجنة». قال النبى ﷺ: «فيراها جميعا، وأما الكافر أو المنافق فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصبح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين». وأحمد فى مسنده (٨٢٥٨) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه يسمع خفق نعاليهم إذا ولوا». ورواه أبو داود فى السنة (٤٧٥٣) من حديث البراء.

(٦) والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم:

رواه البخارى فى المغازى (٢٩٧٦) من حديث أبى طلحة أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقتلوهما فى طوى من أملاء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال فلما كان بيدر اليوم الثالث أمر بأرحلته فشد عليها رحلها ثم مشى وابعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي يجعل يديهما بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، أيسركم أنكم أطلعتم الله ورسوله، فلنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا ونقيمة وحسرة وندماء. ورواه البخارى فى الجنائز (١٢٧٠) وفى المغازى (٤٠٢٦) من حديث ابن عمر قال: أطلع النبى ﷺ على أهل القليب فقال: «وجدتم ما وعد ربكم حقا؟» فقبل له: «تدعو أمواتا؟» فقال: «ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون». ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٣) من حديث أنس كنت مع عمر (ح) وحديثا شيبان بن فروخ واللفظ له حديثا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة ففزعنا إلى الهلال وكنت رجلا حديد البصر فرأيت أنه ليس أحد يزعم أنه رآه غيرى قال: فجعلت أقول لعمر أما تراه، فجعل لا يراه، قال: يقول عمر: ساراه وأنا مستلق على فراشى ثم أنشأ يحدثنا عن أهل بدر فقال: إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول: «هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله». قال: فقال عمر: فوالذى بعته بالحق ما أخطأوا الحدود التى حد رسول الله ﷺ قال: فجعلوا فى بئر بعضهم على بعض فانطلق رسول الله ﷺ حتى انتهى إليهم فقال: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعدكم الله ورسوله حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى الله حقا؟» قال عمر: يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها؟ قال: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا على شئنا». ورواه مسلم فى الجنة (٢٨٧٥) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثا ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شبة بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا فإنى قد وجدت ما وعدنى ربي حقا؟» فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا، قال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»، ثم أمر بهم فسحبوا فأنقروا فى قليب بدر.

(٧) لن يهلك الناس حتى يعذبوا:

رواه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٧) وأحمد في مسنده (١٧٨٣٥) من حديث أبي البخترى قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول - وقال سليمان: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ - أن النبي ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى يعذبوا أو يعذبوا من أنفسهم».

(٨) مختصر تفسير ابن كثير، بتحقيق محمد علي الصابوني، المجلد ٣، ص ٥٢٨.

(٩) تنمة الحديث: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في طاعة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه».

(١٠) مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم:

رواه البخاري في الأدب (٦٠١١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٦)، وأحمد (١٧٦٣٢، ١٧٦٤٨) من حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى».

(١١) العرد: المنع.

(١٢) العين تدخل الرجل القبر:

قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر أن النبي ﷺ قال: «العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر».

(١٣) إن العين لتولع بالرجل:

رواه أحمد في مسنده (٢٠٧٩٥) من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العين لتولع بالرجل بإذن الله حتى يصعد حائقا ثم يتردى منه».

(١٤) كان خلقه القرآن:

رواه مسلم في أثناء حديث طويل من كتاب صلاة المساهرين، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض (٧٤٦) عن زبارة أن سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله، فقدم المدينة فأراد أن يبيع عقارا له بها، فيجعله في السلاح والكراع، ويجهز الروم حتى يموت، فلما قدم المدينة لقي أناسا من أهل المدينة فتهموه عن ذلك، وأخبروه أن رهطا ستة أرادوا ذلك في حياة نبي الله ﷺ، فنهاهم نبي الله ﷺ، وقال: «أليس لكم في أسوة؟» فلما حدثوه بذلك راجع امرأته، وقد كان ملحقا، وأشهد على رجعتها، فأتى ابن عباس فسأله عن وتر رسول الله ﷺ؟ فقال ابن عباس: ألا أدلك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ؟ قال: من؟ قال: عائشة، فأتها فاسألها، ثم أتني فأخبرني بردها عليك، فانطلقت إليها فأتيت على حكيم بن أفلح، فاستلحقته إليها، فقال: ما أنا بقاريها لأنني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئا فابت فيها إلا مضيا. قال: فأقسمت عليه فجاء، فانطلقنا إلى عائشة فاستأذنا عليها، فأذنت لنا، فدخلنا عليها. فقالت: أحكيم؟ (فعرفته) فقال: نعم. فقالت: من مملك؟ قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟ قال: ابن عامر. فترجمت عليه. وقالت خيرا. (قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد) فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: أئمت تقرا القرآن؟ قلت: بلى. قالت: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن. قال: فهممت أن أقوم... الحديث. وأحمد مختصرا (٢٣٤٦٠، ٢٤١٣٩، ٢٤٦٢٩).

(١٥) خدمت النبي ﷺ عشر سنين:

رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٨) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩) والترمذي في البر والصلة (٢٠١٥) واللفظ له. من حديث أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته، ولا لشيء تركته: لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ولا ممسكت خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شملت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ. قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة والبراء، وهذا حديث حسن صحيح.

(١٦) لا ييلقى أحد من أصحابي عن أحد شيئا:

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٦٠) والترمذي في المناقب (٢٨٩٦، ٢٨٩٧) وأحمد في مسنده (٢٧٥٠) من حديث عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ييلقى أحد من أصحابي عن أحد شيئا، فإنني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر». وقال الترمذي: حديث غريب.

(١٧) إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير:

رواه البخاري في الوضوء (٢١٨) وفي الجنائز (١٣٦١، ١٣٧٨) وفي الأدب (٦٠٥٢) ومسلم في الطهارة (٢٩٢) والنسائي في الجنائز (٢٠٦٩) وابن ماجه في الطهارة (٣٤٧) وأحمد في مسنده (١٩٨١) من حديث ابن عباس قال: مرّ النبي ﷺ بقرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة، قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». وقال محمد بن المنثري: وحديثا وكيع قال: حدثنا الأعمش قال: سمعت مجاهدا مثله: يستتر من بوله. ورواه ابن ماجه في الطهارة (٢٤٩) وأحمد في مسنده (١٩٨٦٠) من حديث أبي بكره قال: مرّ النبي ﷺ بقرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في النغية».

(١٨) لا يدخل الجنة قتات:

رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ومسلم في الإيمان (١٠٥) من حديث همام قال: كنا مع حذيفة، فقيل له: إن رجلا يرفع الحديث إلى عثمان، فقال له حذيفة: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات».

(١٩) ألا أخبركم بخياركم:

رواه أحمد في مسنده (٢٧٠٥٢) من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الذين إذا رويوا ذكر الله تعالى» ثم قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ المشايون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبراء العنت».

(٢٠) فيها ما لا عين رأت:

رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) وفي التفسير (٤٧٧٩، ٤٧٨٠)، وفي التوحيد (٧٤٩٨) ومسلم في الجنة (٢٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٩٧، ٣٢٩٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢٨)، وأحمد (٩٣٦٥، ٩٦٨٨، ١٠٠٥١)، والدارمي في الرقاق (٢٨٢٨) من حديث أبي هريرة.

(٢١) يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة:

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٩) وفي التوحيد (٧٤٤٠)، ومسلم في الإيمان (١٨٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب فيسجد فيعود ظهره طبقا واحدا».

ورواه الدارمي في الرقاق (٢٨٠٣) من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله العباد في صعيد واحد نادى مناد: ليحلح كل قوم بما كانوا يعبدون، فيلحق كل قوم بما كانوا يعبدون ويبقى الناس على حالهم فيأتيهم فيقول: ما بال الناس ذهبوا وأنتم ها هنا؟ فيقولون: ننتظر إلهنا، فيقول: هل تعرفونه؟ فيقولون: إذا تعرف إلهنا عرفناه، فيكشف لهم عن ساقه فيقعون سجوداً فذلك قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَمِيعُونَ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يتوجههم إلى الجنة».

(٢٢) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤٣٦ - ٤٨٩ هـ) المجلد السادس من الملوك إلى الناس، ص ٣٠، دار الوطن للنشر، الرياض.

(٢٣) تفسير البغوي «معالم التنزيل» للحسين بن مسعود البغوي المتوفى (٥١٦ هـ) المجلد ٨، ص ٢٠١ دار طيبة للنشر والتوزيع بالرياض سنة ١٤١٢ هـ.

(٢٤) تفسير المراغي، الجزء ٢٩ ص (٤٥، ٤٦).

(٢٥) إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذ لم يقلته:

رواه البخاري في التفسير باب: قوله: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذ لم يقلته». قال: ثم قرأ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

(٢٦) العين تدخل الرجل القبر:

تقدم تخريجه، انظر هامش (١٢)

(٢٧) تفسير أبي السعود، لقاضي القضاة الإمام أبي السعود محمد بن محمد العماد، المتوفى سنة (٩٥١ هـ).

(٢٨) روح المعاني، للعلامة الآلوسي البغدادي، تفسير الجزءين ٢٩ - ٣٠، ص ٣٨.

(٢٩) المرجع السابق، وقد استشهد بهذه الفقرة التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ص ١٥٤٦.

(٣٠) أ. كريش موريسون، رئيس أكاديمية العلوم ببنويورك. في كتابه المترجم بعنوان «العلم يدعو إلى الإيمان».

(٣١) انظر بسانر نوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزبادي، ٤٧٨/١.

(٣٢) نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدهور:

«البخاري في الجمعة (١٠٣٥) وفي بدء الخلق (٢٢٠٥) وفي أحاديث الأنبياء (٣٢٤٤) وفي المغازي (٤١٠٥) ومسلم في صلاة الاستسقاء (٩٠٠) وأحمد في مسنده (١٩٥٦) من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالدهور».

(٣٣) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار الصابوني القاهرة، ص ٥٤٢ مجلد ٣.

(٣٤) تفسير القاسمي، تحقيق أ. محمد فؤاد عبدالباقى، المجلد ٧ ص ١٧٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.

(٣٥) يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات:

رواه الترمذي في صفة القيامة (٧٤٢٥) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ يمينه وأخذ بشماله». قال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وقد رواه بعضهم عن علي الرضا عن الحسن عن أبي موسى عن النبي ﷺ.

ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٧٧) وأحمد في مسنده (١٩٢١٦) من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فأخذ يمينه وأخذ بشماله». قال الترمذي: ولا يصح هذا الحديث من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي موسى.

(٣٦) في ظلال القرآن الجزء ٢٨ ص ٢٥٤.

(٣٧) في ظلال القرآن، الجزء ٢٩ ص ٢٥٥، الطبعة السادسة، بدون ذكر اسم المطبعة أو تاريخ الطبع.

(٣٨) أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا:

ذكره القرطبي في تفسيره فقال: وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «أنهم يعيشون فلا يموتون أبدا، ويصحبون فلا يمرضون أبدا، وينعمون فلا يرون بؤسا أبدا، ويشبون فلا يهرمون أبدا». فنسبه للصحيح ولم أره بهذا اللفظ في الصحيحين ولا السنن، فليحذر.

(٣٩) إن في الجنة مائة درجة:

جزء من حديث، رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، وفي التوحيد (٧٤٣٢)، وأحمد (٧٨٦٣، ٨٢١٤، ٨٢٦٩)، من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «من آمن بالله وبرسوله...» الحديث. ورواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٩)، وأحمد (٢١٥٨٢)، من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً: «من صام رمضان صلى الصلوات...» الحديث. ورواه الترمذي أيضاً في صفة الجنة (٥٢٠)، وأحمد (٢٢١٨٧، ٢٢٢٣٢)، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: «في الجنة مائة درجة...» الحديث. وأشار الترمذي إلى أن حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما.

(٤٠) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد على الصاوي، المجلد الثالث ص ٥٤٦.

(٤١) كلمتان خفيفتان على اللسان:

رواه البخاري في الدعوات (٦٠٠٦) وفي الأيمان والنذور (٦١٨٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤) والترمذي في الدعوات (٢٤٦٧) وابن ماجه في الأدب (٢٨٠٦) وأحمد في مسنده (٧١٢٧) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده».

(٤٢) في ظلال القرآن ٩٦/٢٩، بتصرف.

(٤٣) في رواية عن ابن عباس أن الذي سأل هو التضرع بن الحارث، وفي رواية أخرى عنه قال: ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم.

(٤٤) بصائر نوى التمييز للقيروزي ٤٨٠/١، بتصرف.

(٤٥) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار:

رواه البخارى في مواقيت الصلاة (٥٥٥)، وفي التوحيد (٧٤٢٩، ٧٤٨٦)، ومسلم في المساجد (٦٣٢)، والنسائى في الصلاة (٤٨٥)، وأحمد (٧٣٣٦، ٩٩٣٦)، ومالك في النداء للصلاة (٤١٣)، من حديث أبى هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»، ورواه البخارى في الأذان (٦٤٩)، وفي تفسير القرآن (٤٧١٧)، ومسلم في المساجد (٦٤٩)، والترمذى في التفسير (٣١٣٥)، والنسائى في الصلاة (٤٨٦)، وابن ماجه في الصلاة (٦٧٠)، وأحمد (٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضاً بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح». يقول أبو هريرة: «قرأوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾».

(٤٦) أخرجه الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى.

(٤٧) لا توعى فيوعى الله عليك:

رواه أحمد في مسنده (٢٤٥٥٨، ٢٤٧٣٩) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال: «لا توعى فيوعى الله عليك». ورواه البخارى في الزكاة (١٤٢٤) وفي الهبة (٢٥٩٠، ٢٥٩١) ومسلم في الزكاة (١٠٢٩) وأحمد في مسنده (٢١٣٨٢، ٢١٣٩٤) حديثاً بمبيدالله بن سعيد حديثاً عبدالله بن نعيم حديثاً هشام بن عروة عن فاطمة عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال: «أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك، ولا توعى فيوعى الله عليك».

(٤٨) شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع:

رواه أحمد في مسنده (٧٥٠) وأبو داود فى الجهاد (٢٥١١) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع».

(٤٩) عجباً لأمر المؤمن:

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له، وأحمد (١٨٤٥٥، ١٨٤٦٠، ٢٣٤٠٦، ٢٣٤١٢)، والدارمى (٢٧٧٧)، من حديث صهيب ابن سنان، قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

(٥٠) أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل:

رواه البخارى فى الرقاق (٦١٦٤) من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل».

(٥١) اضنوا لى ستا من أنفاسكم:

رواه أحمد (٢٢٢٥١)، من حديث عبادة بن الصامت.

(٥٢) صلوة التفاسير، محمد على الصابونى، المجلد الثالث ص ٤٤٦.

(٥٣) ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه:

رواه أحمد في مسنده (١٧٣٨٧) وابن ماجه فى الوصايا (٢٧٠٧) من حديث بسر بن جعاش القرشى أن النبى ﷺ يصف يوماً فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قال الله: ابن آدم، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويك وعدلتك مشيت بين بردين والأرض منك وثيد، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت اتصدق، وإنى أوان الصدقة».

(٥٤) في ظلال القرآن، الجزء ٢٩ ص ٣٠١.

(٥٥) انظر تفسير ابن جرير، وتفسير ابن كثير.

(٥٦) تفسير المرافى، الجزء ٢٩ ص (٨٧، ٨٨).

(٥٧) في ظلال القرآن ١٥١/٢٩.

(٥٨) إن هذا المال خضرة حلوة:

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٤٢) وابن ماجه فى الفتن (٢٩٩٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قام على المنبر فقال: «إنما أخشى عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض»، ثم ذكر زهرة الدنيا فبدأ بإحداهما وثنى بالآخرى، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أو يأتى الخير بالشر؟ فسكت عنه النبي ﷺ قلنا: يوحى إليه، وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرخضاء فقال: «أبين السائل أنفا أو خير هو؟ ثلاثاً» إن الخير لا يأتى إلا بالخير وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا أكلة الخضر كلما أكلت حتى إذا امتلأت خاضرتها استقبلت الشمس فتططت وبالت ثم رتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المال لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل، ومن لم يأخذه بحقه فهو كالأكمل الذى لا يشيع ويكون عليه شهيدا يوم القيامة».

(٥٩) أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا:

رواه مسلم فى الزكاة (١٠٥٢) من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا»، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض». قالوا: يا رسول الله وهل يأتى الخير بالشر؟ قال: «لا يأتى الخير إلا بالخير، لا يأتى الخير إلا بالخير، لا يأتى الخير إلا بالخير، إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يلم إلا أكلة الخضر فإنها تاكل حتى إذا امتدت خاضرتها استقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وتطلمت ثم عادت فأكلت، إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعها فى حقه فتنم المعونة هو، ومن أخذه بغير حقه كان كالذى ياكل ولا يشيع».

(٦٠) ما الفخر أخشى عليكم:

رواه البخارى (٢١٥٨، ٤٠١٥) ومسلم (٢٦٦١) وأحمد (١٨٤٣٦) والترمذى (٢٤٦٢) من حديث عمرو بن عوف.

(٦١) التفسير المنير، أ. د. وهبة الزحيلي، الجزء ٢٩ ص ١٧٥.

(٦٢) أمرت أن أسجد على سبعة أعظم:

رواه البخارى فى الأذان (٨١٢) ومسلم فى الصلاة (٤٩٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «أمرت أن أسجد على سبعة أعظم: على الجبهة - وأشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين ولا تكفت الثياب والشعر».

(٦٣) من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد:

رواه مسلم فى المساجد (٥٦٠) وأبو داود فى الصلاة (٤٧٣) وابن ماجه فى المساجد (٧٦٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سمع رجلا ينشد ضالة فى المسجد فليقل: لا ردها الله عليك، فإن المساجد لم تن لهذا». ورواه النسائى فى المساجد (٧١٧) من حديث جابر قال: جاء رجل ينشد ضالة فى المسجد فقال له رسول الله ﷺ: «لا رجعت».

(٦٤) اعملوا لكل ميسر لما خلق له:

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٩)، في التوحيد (٧٥٥١)، ومسلم في القدر (٣٦٤٧، ٣٦٤٩)، والترمذي في القدر (٢١٢٦)، وفي التفسير (٣١١١)، وأبو داود في السنة (٤٧٠٩)، وابن ماجه في المقدمة (٧٨، ٩١)، وفي التجارات (٢١٤٣)، وأحمد (٢٠، ٦٢٢، ١٣٥٢)، من حديث علي، وعمر، وعمران بن الحصين، وأبي حميد، وسراق، وأبي بكر الصديق.

(٦٥) ما المسئول عنها بأعلم من السائل:

رواه البخاري في الإيمان (٥٠) وفي التفسير (٤٧٧٧) ومسلم في الإيمان (٩، ١٠) والنسائي في الإيمان (٤٩٩١) وابن ماجه في المقدمة (٦٣) وفي الفتن (٤٠٤٤) من حديث أبي هريرة قال: كان النبي ﷺ بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث»، قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان»، قال: ما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: متى الساعة؟ قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ريها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآية، ثم أدبر فقال: «ردوه»، فلم يروا شيئا فقال: «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم»، قال أبو عبدالله: جعل ذلك كله من الإيمان. ورواه مسلم في الإيمان (٨) وأحمد في مسنده (١٨٥) وأبو داود في السنة (٤٦٩٥) والترمذي في الإيمان (٣٦١٠) وابن ماجه في المقدمة (٦٣) من حديث عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»، قال: صدقت، قال: فمجبنا له يسأله ويصدق، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: فأخبرني عن أماراتها قال: «أن تلد الأمة ريها وأن ترى الحفاة العراة المالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

(٦٦) أنت مع من أحببت:

رواه البخاري في المناقب (٣٦٨٨) ومسلم في البر والصلة (٢٣٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: «وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع من أحببت»، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ، «أنت مع من أحببت»، قال أنس: فأتانا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم يعبى إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

(٦٧) تفسير القرطبي، المجلد الثامن، ص ٧٠٠٨.

(٦٨) تفسير القرطبي، المجلد الثامن، ص (٧٠٠٩، ٧٠١٠) دار الفد العربي، النجاسية القاهرة.

(٦٩) ورد ذلك المعنى في الصحيحين.

(٧٠) ليس منا من لم يتغن بالقرآن:

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن». وزاد غيره: «يجهر به». ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٩، ١٤٧١) والدارمى فى الصلاة (١٤٩٠) وفى فضائل القرآن (٢٤٨٨) وأحمد فى مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن».

(٧١) لقد أوتيت مزاراً من مزامير آل داود:

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٤٨) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٢) والترمذى فى المناقب (٢٨٥٥) من حديث أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال له: «يا أبا موسى، لقد أوتيت مزاراً من مزامير آل داود».

(٧٢) ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد:

رواه البخارى فى بدء الوحى (٢) والترمذى فى المناقب (٣٦٣٤) من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ياتيك الوحى؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتينى مثل مصلصلة الجرس وهو أشده على فيقصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول». قالت عائشة رضى الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيقصم عنه وإن جبينه ليقتصد عرقاً.

(٧٣) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة:

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥)، وفى الدعوات (٦٢٢١)، وفى التوحيد (٧٤٩٤)، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨)، ومالك فى الموطأ، كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٢١٥) وفى السنة (٤٧٢٢)، والترمذى فى الصلاة (٤٦٦) وفى الدعوات (٣٤٩٨)، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦)، وأحمد (٧٤٥٧، ٧٥٣٨، ٧٥٦٧، ٢٣٧٢، ٨٧٥١، ٩٩٤٠، ١٠١٦٦، ١٠٣٧٧، ١٠٩٠٢، ١١٤٨٢، ٢٦٦٢٠) من حديث أبى هريرة. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠)، وأحمد (١٦٣٠٢، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم. ورواه أحمد (١٥٧٨٢، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى. ورواه أحمد (٣٦٦٤، ٢٨١١، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود. ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٢) من حديث على.

(٧٤) عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم:

رواه الترمذى فى الدعوات (٢٥٤٩) من حديث بلال أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى الله ومنهابة عن الإثم، وتكثير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد».

قال الترمذى: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه ولا يصح من قبل إسناده، قال: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد القرشى هو محمد بن سعيد الشامى وهو أبى قيس وهو محمد بن حسان وقد ترك حديثه، وقد روى هذا الحديث معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربكم، ومكثرة للسيئات، ومنهابة للإثم». قال أبو عيسى: وهذا أصح من حديث أبى إدريس عن بلال.

(٧٥) فى ظلال القرآن، يتصرف واختصار.

(٧٦) انظر تفسير الخطيب، الجزء الرابع، تفسير سورة المزمل. وفى ظلال القرآن ١٨٠/٢٩.

(٧٧) جاورت بحراء فلما قضيت جوارى:

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٢٢) ومسلم فى الإيمان (١٦١) من حديث يعين بن أبى كثير قال: سألت أبا سلمة ابن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال: ﴿ يا أيها المدثر ﴾ قلت: يقولون: ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله رضى الله عنه عن ذلك وقلت له مثل الذى قلت ! فقال جابر: لا أحذلك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا، فأتيت خديجة فقلت: دثروني وصبوا على ماء باردا قال: فدثروني وصبوا على ماء باردا، قال: فنزلت ﴿ يا أيها المدثر. قم فانذر. وربك فكبر ﴾.

(٧٨) ذكر بعض المفسرين تبعاً للزمخشري أن الذين أسلموا: (خالد، وعمار، وهشام)، والصحيح أنه الوليد، أما عماره فإنه مات كافراً. انظر صفوة التفسير للصاوي نقلًا عن حاشية الشهاب ٢٧٤/٨.

(٧٩) يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام:

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٤٢) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها».

(٨٠) إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون:

رواه الترمذى فى الزهد (٣٢١٢) وابن ماجه فى الزهد (٤١٩٠) وأحمد فى مسنده (٢١٠٠٥) من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أملت وحق لها أن تثط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما لتلدنتم بالنساء على الفراشات، وأخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله، والله لوددت أنى كنت شجرة تمضد». وقال الترمذى: حسن غريب.

(٨١) فى ظلال القرآن الجزء ٢٩ ، ص (١٩٢ ، ١٩٣) بتلخيص وتصرف، الطبعة السادسة، بدون ذكر اسم المطبعة. والمغالب أنها طبعة مصورة فى بيروت ثم لم تذكر اسمها.

(٨٢) أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني:

رواه أحمد فى مسنده (١٢٠٢٤) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٢٨) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٩٩) والدارمى فى الرقاق (٢٢٢٤) من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال فى هذه الآية ﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ قال: «قال الله عز وجل: أنا أهل أن أتقى فمن اتقاني فلم يجعل معي إلها فأننا أهل أن أغفر له». قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وسهيل ليس بالقوى فى الحديث، وقد تفرد بهذا الحديث عن ثابت.

(٨٣) لم تزل قلقتهم (بدون ختان).

(٨٤) إذا أنزل عليه القرآن يحرك به لسانه:

رواه البخارى فى بدء الوحي (٥) وفى التفسير (٤٩٢٧، ٤٩٢٨، ٤٩٢٩) وفى فضائل القرآن (٥٠٤٤) ومسلم فى الصلاة (٤٤٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٢٢٩) من حديث ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه القرآن يحرك به لسانه يريد أن يحفظه فأُنزل الله: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ قال: فكان يحرك به شفتيه، وحرك سفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

(٨٥) قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ ارْنِي بِكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنْظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَالَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُجَّدًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثَبَّتَ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٣).

(٨٦) أخرجه في الصحيحين.

(٨٧) رواه البخاري ومسلم.

(٨٨) رواه مسلم.

(٨٩) أخرجه أحمد والترمذي.

(٩٠) مختصر تفسير ابن كثير، بتحقيق محمد علي الصابوني، المجلد الثالث ص ٥٧٧.

(٩١) تفسير التيساري بهامش تفسير الطبري ١٠٩/٢٩.

(٩٢) تفسير المراغي، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ١٦٤/٢٩، وانظر تفسير النسفي ٢٣٨/٤.

(٩٣) تفسير المراغي ١٦٦/٢٩.

(٩٤) تفسير النسفي ٢٣٨/٤.

(٩٥) تفسير الطبري ١٣٧/٢٩.

(٩٦) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، المجلد الثالث ص ٥٨٤.

(٩٧) إنما الأعمال بالنيات:

رواه البخاري (١، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣) ومسلم في كتاب الإمامة (٢٥٢٠)، والترمذي في كتاب فضائل الجهاد (١٥٧١) والنسائي في كتاب الطهارة (٧٤) وفي الطلاق (٢٢٨٣) وفي الإيمان والندور (٢٢٣٤)، وأبو داود في كتاب الطلاق (١٨٨٢)، وابن ماجه في كتاب الزهد (٤٢١٧) وأحمد في مسنده (١٦٢، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(٩٨) اعملوا فكل ميسر لما خلق له:

تقدم تخريجه، انظر هامش (٦٤)

(٩٩) مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، المجلد الثالث ص ٥٨٥.

(١٠٠) في ظلال القرآن ٢٣١/٢٩، بتصرف.

(١٠١) تفسير الطبري ١٤٢/٢٩ مطبعة بولاق، الطبعة الأولى، ١٣٢٩هـ..

(١٠٢) الكفات: ما يكفت، أى يضم ويجمع.

(١٠٣) فى الشعر العربى:

والمستجير بمَمرٍ عند كريتِه كالمستجير من الرمضاء بالنار

والرمضاء هى الرمل الساخن من شدة الحر، أى من قصد مَمرًا وهو فى كرية فلن يجد ما يخفف عنه، بل سيجد ما يزيده ألمًا، وينقله الى ما هو أشد، كمن ينتقل من حرارة الرمال إلى حرارة النار. وكذلك الكفار ينتقلون من حرارة المحشر إلى ظل خائق لا يحمى من الحر ولا يقي من النار، وهو ظل مؤلم لا مريح.

(١٠٤) تفسير النسفى ٢٤٢/٤، ٢٤٣.

(١٠٥) يا بنى والله لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة:

رواه البخارى فى الأذان (٧٦٢) ومسلم فى الصلاة (٤٦٢) وأبو داود فى الصلاة (٨١٠) وأحمد فى مسنده (٢٦٢٤٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: إن أم الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿ والمرسلات عرفنا ﴾ فقالت: يا بنى والله لقد ذكرتنى بقراءتك هذه السورة إنها لآخر ما سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها فى المغرب.

★ ★ ★

تم بحمد الله تخريج أحاديث وهوامش

الجزء (التاسع والعشرين)

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الملك	٥٩٨١
—	أهداف سورة الملك	٥٩٨٢
١	﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير﴾	٥٩٨٨
٢	﴿الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً...﴾	٥٩٨٨
٣	﴿الذى خلق سبع سموات طباقاً...﴾	٥٩٨٨
٤	﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر...﴾	٥٩٨٨
٥	﴿ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً...﴾	٥٩٨٨
٦	﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ويئس المصير﴾	٥٩٩٣
٧	﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفرور﴾	٥٩٩٣
٨	﴿تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج...﴾	٥٩٩٣
٩	﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا...﴾	٥٩٩٣
١٠	﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير﴾	٥٩٩٣
١١	﴿ناعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾	٥٩٩٣
١٢	﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة...﴾	٥٩٩٦
١٣	﴿وأسروا قلوبكم أو اجهروا به...﴾	٥٩٩٦
١٤	﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾	٥٩٩٦
١٥	﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذللاً فامشوا فى مناكبها...﴾	٥٩٩٦
١٦	﴿وآمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض...﴾	٥٩٩٨
١٧	﴿أم آمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً...﴾	٥٩٩٨
١٨	﴿ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير﴾	٥٩٩٨
١٩	﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن...﴾	٥٩٩٨
٢٠	﴿أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن...﴾	٦٠٠٠
٢١	﴿أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه...﴾	٦٠٠٠
٢٢	﴿أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سوياً...﴾	٦٠٠٠
٢٣	﴿قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار...﴾	٦٠٠٠
٢٤	﴿قل هو الذى نزلكم فى الأرض وإليه تحشرون﴾	٦٠٠٠
٢٥	﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾	٦٠٠٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٦	﴿ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾	٦٠٠٠
٢٧	﴿ فلما رآوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ... ﴾	٦٠٠٠
٢٨	﴿ قل أرايتم إن أهلكنى الله ومن معى أرحمنا ... ﴾	٦٠٠٤
٢٩	﴿ قل هو الرحمن أمانا به وعليه توكلنا ... ﴾	٦٠٠٤
٣٠	﴿ قل أرايتم إن أصبح ماؤكم غورا ... ﴾	٦٠٠٤
-	خلاصة ما اشتملت عليه سورة الملك	٦٠٠٧
-	تفسير سورة القلم	٦٠٠٩
-	أهداف سورة القلم	٦٠١٠
-	تمهيد	٦٠١٦
١	﴿ ون والقلم وما يسطرون ﴾	٦٠١٧
٢	﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾	٦٠١٧
٣	﴿ وإن لك لأجرًا غير ممدون ﴾	٦٠١٧
٤	﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾	٦٠١٧
٥	﴿ فاستبصر وبصروا ﴾	٦٠١٧
٦	﴿ بأيكم الممفنون ﴾	٦٠١٧
٧	﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾	٦٠١٧
٨	﴿ فلا تطع المكذبين ﴾	٦٠٢١
٩	﴿ ودوالو تدهن فيدهنون ﴾	٦٠٢١
١٠	﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾	٦٠٢١
١١	﴿ همماز مشاء بنميم ﴾	٦٠٢١
١٢	﴿ مناع لآخر معتد أثيم ﴾	٦٠٢١
١٣	﴿ عتيل بعتد ذلك زنييم ﴾	٦٠٢١
١٤	﴿ أن كان ذا مال وبنين ﴾	٦٠٢١
١٥	﴿ إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾	٦٠٢١
١٦	﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾	٦٠٢١
١٧	﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ... ﴾	٦٠٢٧
١٨	﴿ ولا يستتئوننون ﴾	٦٠٢٧
١٩	﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾	٦٠٢٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿فأصبح كالمصريم﴾	٦٠٢٧
٢١	﴿فتنادوا مصبحين﴾	٦٠٢٧
٢٢	﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾	٦٠٢٧
٢٣	﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾	٦٠٢٧
٢٤	﴿ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾	٦٠٢٧
٢٥	﴿وغدوا على حردقاديبن﴾	٦٠٢٧
٢٦	﴿فلما رأوها قالوا إنا لضالون﴾	٦٠٢٧
٢٧	﴿بل نحن محرومون﴾	٦٠٢٧
٢٨	﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾	٦٠٢٧
٢٩	﴿قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾	٦٠٢٧
٣٠	﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون﴾	٦٠٢٧
٣١	﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾	٦٠٢٧
٣٢	﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها...﴾	٦٠٢٧
٣٣	﴿كذلك العذاب وللعذاب الآخرة أكبر...﴾	٦٠٢٧
٣٤	﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾	٦٠٣٢
٣٥	﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾	٦٠٣٢
٣٦	﴿ما لكم كيف تحكمون﴾	٦٠٣٢
٣٧	﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾	٦٠٣٢
٣٨	﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾	٦٠٣٢
٣٩	﴿أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة...﴾	٦٠٣٢
٤٠	﴿سألهم أيهم بذلك زعيم﴾	٦٠٣٢
٤١	﴿أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾	٦٠٣٢
٤٢	﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون﴾	٦٠٣٢
٤٣	﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة...﴾	٦٠٣٢
٤٤	﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث...﴾	٦٠٣٦
٤٥	﴿وأملي لهم إن كيدي متين﴾	٦٠٣٦
٤٦	﴿أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون﴾	٦٠٣٦
٤٧	﴿أم عندهم الغيب فهم يكتبون﴾	٦٠٣٦

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٨	﴿فصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت...﴾	٦٠٣٦
٤٩	﴿ولولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء...﴾	٦٠٣٦
٥٠	﴿فاجتبه ربه فجعله من الصالحين...﴾	٦٠٣٦
٥١	﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم...﴾	٦٠٣٦
٥٢	﴿وما هو إلا نكر لالعالمين...﴾	٦٠٣٦
—	خلاصة ما اشتملت عليه سورة القلم	٦٠٤٤
—	تفسير سورة الحاقة	٦٠٤٥
—	أهداف سورة الحاقة	٦٠٤٦
١	﴿الْحَاقَّةُ﴾	٦٠٥٠
٢	﴿مَّا الْحَاقَّةُ﴾	٦٠٥٠
٣	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾	٦٠٥٠
٤	﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارَعَةِ﴾	٦٠٥٠
٥	﴿فَنَامُودُ فَاهْلَكُوا بِالْقَارَعَةِ﴾	٦٠٥٠
٦	﴿وَأَمْعَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾	٦٠٥٠
٧	﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾	٦٠٥٠
٨	﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾	٦٠٥٠
٩	﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾	٦٠٥٠
١٠	﴿فَنَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةٍ﴾	٦٠٥٠
١١	﴿إِنَّا لَمَطِغْنَا الْمَاءَ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾	٦٠٥٠
١٢	﴿لَنَجْجِلَهَا لَكُم تَذْكَرَةً وَنُعِيهَا أُذُنَ رَاعِيَةٍ﴾	٦٠٥٠
١٣	﴿فَإِذَا نَفَخْنَا فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾	٦٠٥٥
١٤	﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾	٦٠٥٥
١٥	﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾	٦٠٥٥
١٦	﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾	٦٠٥٥
١٧	﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ...﴾	٦٠٥٥
١٨	﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرِضُونَ لَا تُخْفِي مَنكُم خَافِيَةٌ﴾	٦٠٥٥
١٩	﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ...﴾	٦٠٥٨
٢٠	﴿إِنِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مَلَاقُ حَسَابِيَةٍ﴾	٦٠٥٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢١	﴿فهو نفسى عيشة راضية﴾	٦٠٥٨
٢٢	﴿فى جننة عافية﴾	٦٠٥٨
٢٣	﴿طوفوها دانية﴾	٦٠٥٨
٢٤	﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية﴾	٦٠٥٨
٢٥	﴿وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول...﴾	٦٠٦١
٢٦	﴿ولم أدر ما حسابه﴾	٦٠٦١
٢٧	﴿يأليتها كانت القضاءية﴾	٦٠٦١
٢٨	﴿ما أغنى عنى ماله﴾	٦٠٦١
٢٩	﴿مالك عنى ساطانية﴾	٦٠٦١
٣٠	﴿خذوه ففسدواوه﴾	٦٠٦١
٣١	﴿ثم الجحيم صلوه﴾	٦٠٦١
٣٢	﴿ثم فى سلسلة نزعها سبعون ذراعاً فأسلكوه﴾	٦٠٦١
٣٣	﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾	٦٠٦١
٣٤	﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾	٦٠٦١
٣٥	﴿فليس له اليوم هاهنا حميم﴾	٦٠٦١
٣٦	﴿ولا طعام إلا من غسايين﴾	٦٠٦١
٣٧	﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾	٦٠٦١
٣٨	﴿فلا أقسم بمات بصرون﴾	٦٠٦٥
٣٩	﴿ومبالات بصرون﴾	٦٠٦٥
٤٠	﴿إنه ليقول رسول كريم﴾	٦٠٦٥
٤١	﴿وما هو بقول شاعر قليل ما تؤمنون﴾	٦٠٦٥
٤٢	﴿ولا يقول كاهن قليل ما تذكرون﴾	٦٠٦٥
٤٣	﴿تنزيل من رب العالمين﴾	٦٠٦٥
٤٤	﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل﴾	٦٠٦٥
٤٥	﴿لأخذنا منه باليمين﴾	٦٠٦٥
٤٦	﴿ثم لقطعنا منه الوتين﴾	٦٠٦٥
٤٧	﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾	٦٠٦٥
٤٨	﴿وإنه لتذكرة لامتقين﴾	٦٠٦٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤٩	﴿وإنا لنعلم أن منكم مكنزين﴾	٦٠٦٥
٥٠	﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾	٦٠٦٥
٥١	﴿وإنه لحق اليقين﴾	٦٠٦٥
٥٢	﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾	٦٠٦٥
—	تفسير سورة المعارج	٦٠٧١
—	أهداف سورة المعارج	٦٠٧٢
١	﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾	٦٠٧٥
٢	﴿لكافرين ليس له دافع﴾	٦٠٧٥
٣	﴿من الله ذي المعارج﴾	٦٠٧٥
٤	﴿تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره ...﴾	٦٠٧٥
٥	﴿فاصبر صبراً جميلاً﴾	٦٠٧٥
٦	﴿إنهم يرونه بعيداً﴾	٦٠٧٥
٧	﴿ونراه قريباً﴾	٦٠٧٥
٨	﴿يوم تكون السماء كالمهل﴾	٦٠٧٥
٩	﴿وتكون الجبال كالعهن﴾	٦٠٧٥
١٠	﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾	٦٠٧٥
١١	﴿يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى ...﴾	٦٠٧٥
١٢	﴿وصاحبته وأخيه﴾	٦٠٧٥
١٣	﴿وفصيلته التي تؤويه﴾	٦٠٧٥
١٤	﴿ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾	٦٠٧٥
١٥	﴿كلا إنهما لفظى﴾	٦٠٧٥
١٦	﴿نزاعة لانشوى﴾	٦٠٧٥
١٧	﴿تدعو من أدبر وتولى﴾	٦٠٧٥
١٨	﴿وجمع فأوعى﴾	٦٠٧٥
١٩	﴿إن الإنسان خالق هالوع﴾	٦٠٨١
٢٠	﴿إذا مسه الشر جزعوعاً﴾	٦٠٨١
٢١	﴿وإن مسه الخير منوعاً﴾	٦٠٨١
٢٢	﴿إلا المصارعين﴾	٦٠٨١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٣	﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾	٦٠٨١
٢٤	﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾	٦٠٨١
٢٥	﴿لا سائل والمسحرون﴾	٦٠٨١
٢٦	﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾	٦٠٨١
٢٧	﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾	٦٠٨١
٢٨	﴿إن عذاب ربهم غير مبأمون﴾	٦٠٨١
٢٩	﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾	٦٠٨١
٣٠	﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين﴾	٦٠٨١
٣١	﴿فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون﴾	٦٠٨١
٣٢	﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾	٦٠٨١
٣٣	﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾	٦٠٨١
٣٤	﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾	٦٠٨١
٣٥	﴿أولئك في جنات مكرمون﴾	٦٠٨١
٣٦	﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين﴾	٦٠٨٨
٣٧	﴿عن اليمين وعن الشمال عزين﴾	٦٠٨٨
٣٨	﴿أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم﴾	٦٠٨٨
٣٩	﴿كلا إنما خلقناهم مما يعلمون﴾	٦٠٨٨
٤٠	﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾	٦٠٨٨
٤١	﴿على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾	٦٠٨٨
٤٢	﴿فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون﴾	٦٠٨٨
٤٣	﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً﴾	٦٠٨٨
٤٤	﴿خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة﴾	٦٠٨٨
-	خلاصة ما اشتملت عليه سورة المعارج	٦٠٩٤
-	تفسير سورة نوح	٦٠٩٥
-	أهداف سورة نوح	٦٠٩٦
١	﴿إننا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومه﴾	٦١٠٠
٢	﴿قال يا قوم إنني لكم نذير مبين﴾	٦١٠٠
٣	﴿أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾	٦١٠٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤	﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...﴾	٦١٠٠
٥	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا...﴾	٦١٠٣
٦	﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا...﴾	٦١٠٣
٧	﴿وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا...﴾	٦١٠٣
٨	﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا...﴾	٦١٠٣
٩	﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا...﴾	٦١٠٣
١٠	﴿فَنَقَلْتُ أَسْتَغْفِرُوا مِنْكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا...﴾	٦١٠٣
١١	﴿يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا...﴾	٦١٠٣
١٢	﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْزِلُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ...﴾	٦١٠٣
١٣	﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا...﴾	٦١٠٣
١٤	﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا...﴾	٦١٠٣
١٥	﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا...﴾	٦١٠٣
١٦	﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا...﴾	٦١٠٣
١٧	﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا...﴾	٦١٠٣
١٨	﴿ثُمَّ يَعِيدُكُمْ فِيهِ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا...﴾	٦١٠٣
١٩	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا...﴾	٦١٠٣
٢٠	﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فُجَاجًا...﴾	٦١٠٣
٢١	﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ...﴾	٦١١٠
٢٢	﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا...﴾	٦١١٠
٢٣	﴿وَقَالُوا لَا تَنْزِلْ آلَهِكُمْ وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا...﴾	٦١١٠
٢٤	﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا...﴾	٦١١٠
٢٥	﴿مِمَّا خَطِيئَاتُهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا...﴾	٦١١٣
٢٦	﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا...﴾	٦١١٣
٢٧	﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَّارًا...﴾	٦١١٣
٢٨	﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا...﴾	٦١١٣
—	تفسير سورة الجن	٦١١٧
—	أهداف سورة الجن	٦١١٨
١	﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا...﴾	٦١٢٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿ يهدي إلى الرشد فأمنابه ولن نشرك ببرينا أحداً ﴾	٦١٢٥
٣	﴿ وأنه تعالى جذ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾	٦١٢٥
٤	﴿ وأنه كان يقول سفيهننا على الله شططا ﴾	٦١٢٥
٥	﴿ وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذبا ﴾	٦١٢٥
٦	﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ... ﴾	٦١٢٥
٧	﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن بيعث الله أحداً ﴾	٦١٢٥
٨	﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾	٦١٢٩
٩	﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن ... ﴾	٦١٢٩
١٠	﴿ وأنا لا ندرى أشراً أريد بمن في الأرض ... ﴾	٦١٢٩
١١	﴿ وأنا مننا الصالحون ومننا دون ذلك ... ﴾	٦١٢٩
١٢	﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾	٦١٢٩
١٣	﴿ وأنا لما سمعنا الهدى أمنا به ... ﴾	٦١٢٩
١٤	﴿ وأنا مننا المسلمون ومننا القاسطون ... ﴾	٦١٢٩
١٥	﴿ وأنا القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾	٦١٢٩
١٦	﴿ وألواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾	٦١٢٩
١٧	﴿ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾	٦١٢٩
١٨	﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾	٦١٣٤
١٩	﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾	٦١٣٤
٢٠	﴿ قل إنما أدعوريى ولا أشرك به أحداً ﴾	٦١٣٤
٢١	﴿ قل إنى لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً ﴾	٦١٣٤
٢٢	﴿ قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾	٦١٣٤
٢٣	﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله ... ﴾	٦١٣٤
٢٤	﴿ حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً ... ﴾	٦١٣٤
٢٥	﴿ قل إن أنرى أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾	٦١٣٩
٢٦	﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾	٦١٣٩
٢٧	﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ... ﴾	٦١٣٩
٢٨	﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم ... ﴾	٦١٣٩
-	تفسير سورة المزمل	٦١٤٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	أهداف سورة المزمل	٦١٤٦
١	﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾	٦١٥٠
٢	﴿قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا﴾	٦١٥٠
٣	﴿نصفه أو انقص منه قليلاً﴾	٦١٥٠
٤	﴿أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً﴾	٦١٥٠
٥	﴿إنسان سئل على قولاً ثقیلاً﴾	٦١٥٠
٦	﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قبلاً﴾	٦١٥٠
٧	﴿إن لك في النهار سبْحاً طويلاً﴾	٦١٥٠
٨	﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾	٦١٥٠
٩	﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾	٦١٥٠
١٠	﴿واصبر على ما يقولون وامنهم هجراً جميلاً﴾	٦١٥٦
١١	﴿وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً﴾	٦١٥٦
١٢	﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾	٦١٥٦
١٣	﴿وطعاً ما إذا عصية وعداباً أليماً﴾	٦١٥٦
١٤	﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾	٦١٥٦
١٥	﴿إننا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ...﴾	٦١٥٦
١٦	﴿فعضى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً﴾	٦١٥٦
١٧	﴿فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً﴾	٦١٥٦
١٨	﴿السماء منفطربة كان وعده مفعولاً﴾	٦١٥٦
١٩	﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾	٦١٥٦
٢٠	﴿إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ...﴾	٦١٦١
—	تفسير سورة المدثر	٦١٦٥
—	أهداف سورة المدثر	٦١٦٦
١	﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾	٦١٧١
٢	﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾	٦١٧١
٣	﴿وَرَبِّكَ فَسَبِّحْ﴾	٦١٧١
٤	﴿وَبُشِّرْكَ بِفُطُوحٍ﴾	٦١٧١
٥	﴿وَالرَّجْزِ فَاصْجُرْ﴾	٦١٧١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٦	﴿ولا تمنن تستكثر﴾	٦١٧١
٧	﴿وليريك فاصبر﴾	٦١٧١
٨	﴿فإذا نقرفى الناقور﴾	٦١٧١
٩	﴿فذلك يومئذ يوم عسير﴾	٦١٧١
١٠	﴿على الكافرين غير يسير﴾	٦١٧١
١١	﴿ذرنى ومن خاقت وجيئاً﴾	٦١٧٤
١٢	﴿وجعلت له مالا ممدوداً﴾	٦١٧٤
١٣	﴿ويمنين شهوداً﴾	٦١٧٤
١٤	﴿ومهدت له تمهيداً﴾	٦١٧٤
١٥	﴿ثم يطمع أن أزيد﴾	٦١٧٤
١٦	﴿كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾	٦١٧٤
١٧	﴿سأرهقه صعوباً﴾	٦١٧٤
١٨	﴿إنه فكروك﴾	٦١٧٤
١٩	﴿فقتل كيف قدر﴾	٦١٧٤
٢٠	﴿ثم قتل كيف قدر﴾	٦١٧٤
٢١	﴿ثم نسط﴾	٦١٧٤
٢٢	﴿ثم عسس ويس﴾	٦١٧٤
٢٣	﴿ثم أدبر واستكبر﴾	٦١٧٤
٢٤	﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾	٦١٧٤
٢٥	﴿إن هذا إلا قول البشر﴾	٦١٧٤
٢٦	﴿سأصليه سقر﴾	٦١٧٤
٢٧	﴿وما أدراك ما سقر﴾	٦١٧٤
٢٨	﴿لا تبقي ولا تذر﴾	٦١٧٤
٢٩	﴿واحدة للبشر﴾	٦١٧٤
٣٠	﴿عائيهاتسعة عشر﴾	٦١٧٤
٣١	﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة﴾	٦١٨٠
٣٢	﴿كلا واللقمة﴾	٦١٨٠
٣٣	﴿والأيل إن أدبر﴾	٦١٨٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٤	﴿والصبيح إذا أسفّر﴾	٦١٨٠
٣٥	﴿إنها لإحدى الكبر﴾	٦١٨٠
٣٦	﴿نذيراً للبشر﴾	٦١٨٠
٣٧	﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾	٦١٨٠
٣٨	﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾	٦١٨٦
٣٩	﴿إلا أصحاب اليمين﴾	٦١٨٦
٤٠	﴿فى جنات يتساءلون﴾	٦١٨٦
٤١	﴿عن الهمجرمين﴾	٦١٨٦
٤٢	﴿ماساككم فى سقر﴾	٦١٨٦
٤٣	﴿قالوا لم نك من المصالحين﴾	٦١٨٦
٤٤	﴿ولم نك نطعم المسكين﴾	٦١٨٦
٤٥	﴿وكننا نخوض مع الخائضين﴾	٦١٨٦
٤٦	﴿وكننا نكذب بئوم الدين﴾	٦١٨٦
٤٧	﴿حتى أتانا اليقين﴾	٦١٨٦
٤٨	﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾	٦١٨٦
٤٩	﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾	٦١٨٦
٥٠	﴿كانهم حمير مستنقرة﴾	٦١٨٦
٥١	﴿فترت من قسوة﴾	٦١٨٦
٥٢	﴿بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة﴾	٦١٨٦
٥٣	﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾	٦١٨٦
٥٤	﴿كلا إنه تذكرة﴾	٦١٨٦
٥٥	﴿فمن شاء ذكـره﴾	٦١٨٦
٥٦	﴿وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾	٦١٨٦
—	تفسير سورة القيامة	٦١٩٣
—	أهداف سورة القيامة	٦١٩٤
١	﴿ولا أقسم بيوم القيامة﴾	٦١٩٩
٢	﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾	٦١٩٩
٣	﴿أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه﴾	٦١٩٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤	﴿إلى قاديين على أن نسوى بنانه﴾	٦١٩٩
٥	﴿بل يريد الإنسان ليفجر أمامه﴾	٦١٩٩
٦	﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾	٦١٩٩
٧	﴿فإذا برق الـبـصـر﴾	٦١٩٩
٨	﴿وخسف الـسـفـر﴾	٦١٩٩
٩	﴿وجمع الشمس والقمر﴾	٦١٩٩
١٠	﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾	٦١٩٩
١١	﴿كـلا لا وزد﴾	٦١٩٩
١٢	﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾	٦١٩٩
١٣	﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾	٦١٩٩
١٤	﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾	٦١٩٩
١٥	﴿ولو ألقى معاذيره﴾	٦١٩٩
١٦	﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾	٦٢٠٤
١٧	﴿إن علينا جمعه وقرءائه﴾	٦٢٠٤
١٨	﴿فإذا قرأنناه فاتبع قرءائه﴾	٦٢٠٤
١٩	﴿ثم إن علينا بيانه﴾	٦٢٠٤
٢٠	﴿كـلا بل تحبون العاجلة﴾	٦٢٠٤
٢١	﴿وتـذرون الآخرة﴾	٦٢٠٤
٢٢	﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾	٦٢٠٤
٢٣	﴿إلى ربهم انظـرة﴾	٦٢٠٤
٢٤	﴿وجـوه يومئذ باسرة﴾	٦٢٠٤
٢٥	﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾	٦٢٠٤
٢٦	﴿كـلا إذا بلغت القراقى﴾	٦٢٠٩
٢٧	﴿وقـل من راق﴾	٦٢٠٩
٢٨	﴿وظن أنه الفـراق﴾	٦٢٠٩
٢٩	﴿والـتـفت الساق بالساق﴾	٦٢٠٩
٣٠	﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾	٦٢٠٩
٣١	﴿فـلا صدق ولا صـاـلى﴾	٦٢٠٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٢	﴿وَالْكَافِرِينَ كَذِبًا وَأُولَىٰ﴾	٦٢٠٩
٣٣	﴿ثُمَّ نَهَىٰ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾	٦٢٠٩
٣٤	﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾	٦٢٠٩
٣٥	﴿ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾	٦٢٠٩
٣٦	﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾	٦٢٠٩
٣٧	﴿أَلَمْ يَكْ نَظْفِئْهُ مِنْ مَنًى يَمْنَىٰ﴾	٦٢٠٩
٣٨	﴿ثُمَّ كَانَ عِلَاقَةً أَخَاقٍ فَسُوءِ﴾	٦٢٠٩
٣٩	﴿فَجَعَلَ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾	٦٢٠٩
٤٠	﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾	٦٢٠٩
—	تفسير سورة الإنسان	٦٢١٥
—	أهداف سورة الإنسان	٦٢١٦
١	﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ...﴾	٦٢٢٣
٢	﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ...﴾	٦٢٢٣
٣	﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾	٦٢٢٣
٤	﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾	٦٢٢٧
٥	﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾	٦٢٢٧
٦	﴿عَمِنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾	٦٢٢٧
٧	﴿يُوقُونَ بِالْأُنْذُرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾	٦٢٢٧
٨	﴿وَيُطْعَمُونَ فِيهَا مِنْ طَعَامٍ حَبِيبٍ مُسَكَّنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾	٦٢٢٧
٩	﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾	٦٢٢٧
١٠	﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾	٦٢٢٧
١١	﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾	٦٢٢٧
١٢	﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾	٦٢٢٧
١٣	﴿مُتَكَثِّفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرْثِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا...﴾	٦٢٣١
١٤	﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾	٦٢٣١
١٥	﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ...﴾	٦٢٣١
١٦	﴿قُورَافِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا﴾	٦٢٣١
١٧	﴿وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾	٦٢٣١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٨	﴿عِينَا فِيهَا تسمى سلسبيلاً﴾	٦٢٣١
١٩	﴿ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم ...﴾	٦٢٣١
٢٠	﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيراً﴾	٦٢٣١
٢١	﴿وعاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ...﴾	٦٢٣١
٢٢	﴿إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً﴾	٦٢٣١
٢٣	﴿إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً﴾	٦٢٣٦
٢٤	﴿فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم أتمًا أو كفرًا﴾	٦٢٣٦
٢٥	﴿واذكر اسم ربك بكرة وأصيلًا﴾	٦٢٣٦
٢٦	﴿ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً﴾	٦٢٣٦
٢٧	﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً﴾	٦٢٣٦
٢٨	﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ...﴾	٦٢٣٦
٢٩	﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾	٦٢٣٦
٣٠	﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيمًا﴾	٦٢٣٦
٣١	﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾	٦٢٣٦
-	تفسير سورة المرسلات	٦٢٤٣
-	أهداف سورة المرسلات	٦٢٤٤
١	﴿والمرسلات عرفاً﴾	٦٢٤٩
٢	﴿والعاصفات عصفاً﴾	٦٢٤٩
٣	﴿والناشرات نشراً﴾	٦٢٤٩
٤	﴿والنفاثات نفثاً﴾	٦٢٤٩
٥	﴿والماقيات ذكراً﴾	٦٢٤٩
٦	﴿عذراً أو نذراً﴾	٦٢٤٩
٧	﴿إنما اتوعدون لواقع﴾	٦٢٤٩
٨	﴿فإذا انزعج يوم طمست﴾	٦٢٤٩
٩	﴿وإذا السماماء فرجت﴾	٦٢٤٩
١٠	﴿وإذا الارجاس نفثت﴾	٦٢٤٩
١١	﴿وإذا الارسات لقت﴾	٦٢٤٩
١٢	﴿لأى يوم أجت﴾	٦٢٤٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٣	﴿لَيْسَ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾	٦٢٤٩
١٤	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾	٦٢٤٩
١٥	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٤٩
١٦	﴿أَلَمْ نَهَبْ لَهُمُ الْأُولَئِينَ﴾	٦٢٥٣
١٧	﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخَرِينَ﴾	٦٢٥٣
١٨	﴿كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾	٦٢٥٣
١٩	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٣
٢٠	﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾	٦٢٥٣
٢١	﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾	٦٢٥٣
٢٢	﴿إِلَى قَدَرٍ مَعَالٍ﴾	٦٢٥٣
٢٣	﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾	٦٢٥٣
٢٤	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٣
٢٥	﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾	٦٢٥٣
٢٦	﴿أَحْمِيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾	٦٢٥٣
٢٧	﴿فَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾	٦٢٥٣
٢٨	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٣
٢٩	﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾	٦٢٥٧
٣٠	﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾	٦٢٥٧
٣١	﴿لَا ظُلِيلَ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ﴾	٦٢٥٧
٣٢	﴿وَأَنهَآ تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾	٦٢٥٧
٣٣	﴿كَأَنهَآ جِوَالِقَةٌ صَفْرٌ﴾	٦٢٥٧
٣٤	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٧
٣٥	﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَقُونَ﴾	٦٢٥٧
٣٦	﴿وَلَا يُوْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾	٦٢٥٧
٣٧	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٧
٣٨	﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُنَاكُمْ وَالْأُولَى﴾	٦٢٥٧
٣٩	﴿فَبِإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُون﴾	٦٢٥٧
٤٠	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لَمَكُ كَذِبِينَ﴾	٦٢٥٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٤١	﴿إِنَّ الْمَتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِیُونَ﴾	٦٢٦٢
٤٢	﴿وَفَوَاحِشُهُمْ مَّأْشُتُهُونَ﴾	٦٢٦٢
٤٣	﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	٦٢٦٢
٤٤	﴿إِنَّا كُنَّا نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾	٦٢٦٢
٤٥	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ﴾	٦٢٦٢
٤٦	﴿كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ﴾	٦٢٦٢
٤٧	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ﴾	٦٢٦٢
٤٨	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾	٦٢٦٢
٤٩	﴿وَيَلْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ﴾	٦٢٦٢
٥٠	﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾	٦٢٦٢
-	تخريج أحاديث وهوامش	٦٢٦٧
-	فهرس الكتاب	٦٢٨١

تم بحمد الله تعالى الجزء (التاسع والعشرون)

ويليه الجزء (الثلاثون) بإذن الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثلاثون من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته

دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

جزء عم

تمهيد عام :

هذا هو الجزء الأخير من القرآن الكريم ، ويتميز بقصر الآيات ، وقصر السور ، وروعة الأسلوب ، وجمال القافية ، ليستلقت الأنظار إلى قدره الخالق ، وأثار الله في الأفاق .

وكان هذا الجزء دعوة متكررة لقوم نيام ، أو صيحة عارمة لسكارى غارقين في اللهو ، يفيقون حيناً ثم يهيمنون في ضلالهم حيناً آخر ، والسور توالى تنبيههم ، وتناديهم : أن أفيقوا وتنبهوا قبل فوات الأوان .

«وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان ، والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان ، وعلى مشاهد هذا الكون ، وآيات الله في كتابه المفتوح ، وعلى مشاهد القيامة العنيفة ، الطامة الصاخة القارعة الغاشية ، ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب ، في صور تفرع وتذهل وتزلزل ، كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها ، واتخاذها جميعاً دلائل على الخلق والتدبير ، والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة ، مع التقريع بها والتخويف والتحذير ، وأحياناً تصاحبها صور من مصارع الغابرين»^(١).

والأمثلة على هذا هي الجزء كله ، ومنه هذه السورة (سورة النبأ) ، وهي نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد ، ومثلها سورة النازعات ، وسورة الانشقاق التي تعرض مشاهد الانقلاب الكوني ، ومشاهد النعيم والعذاب ، وسورة الطارق ، وسورة الغاشية .

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة النبأ

أهداف سورة النبأ

(سورة النبأ مكية ، وآياتها ٤٠ آية ، نزلت بعد سورة المعارج).

سورة النبأ نموذج لاتجاه هذا الجزء ، بموضوعاته وحقائقه ، وصوره ومشاهده .

وهي تبدأ بسؤال موحٍ مثير للاستهوال والاستعظام ، وتضخيم الحقيقة التي يختلفون عليها ، وهي أمر عظيم لا خفاء فيه ولا شبهة ، ويعقب على ذلك بتهديدهم بيوم يعلمون حقيقته . (الآيات ١ - ٥) .

ثم يلفت السياق الأنظار إلى عدد من المشاهد والحقائق ، تتمثل في خلق الأرض ، وإرساء الجبال ، وخلق الذكر والأنثى للأناسل والتكاثر وإشباع الرغبة والحاجة في كل طرف إلى الآخر ، وخلق الليل سكناً ، والنوم راحة وأمناً ، والنهار سعيًا ومعاشًا ، وخلق السماء والشمس ، وإنزال المطر ، وإنبات النبات والبساتين . (الآيات ٦ - ١٦) .

ثم يعود إلى مشهد القيامة والبعث (الآيات ١٧ - ٢٠) ويصف جهنم وأهوالها وعذابها ، وجود أهلها وتكذيبهم بآيات الله . (الآيات ٢١ - ٣٠) .

ثم يصف نعيم المتقين في الجنة وصنوف التكريم الحسى والمعنوى . (الآيات ٣١ - ٣٦) .

وتختم السورة بمشهد جليل في يوم القيامة ، يوم تصف الملائكة صفاً ، ويشد الهول ، ويلقى كل إنسان جزاء عمله . (الآيات ٣٧ - ٤٠) .

مع آيات السورة

كان المشركون كلما اجتمعوا في نازٍ من أُنديتهم أخذوا يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً ، ويسألون غيرهم فيقولون : أساحر هو أم شاعر ، أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتنا بسوء ؟ ويتحدثون في شأن القرآن : أهو سحر أم شعر أم كهانة ؟ ويقول كل واحد ما شاء له هواه ، والرسول سائر قدماً في تبليغ رسالته ، وأمامه مصباحه المنير الذي يضئ للناس سبيل الرشاد وهو الكتاب الكريم ، كما كانوا يتحدثون في شأن البعث ، ويأخذ الجدل بينهم كل مأخذ ، فمنهم من ينكره البتة ويزعم أنه إذا مات انتهى أمره ، وما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلى : وَمَا يُهْلِكُكَ إِلَّا الْمَذْهَبُ ... (الجانبة : ٢٤) .

ومنهم من كان يزعم أن البعث للأرواح دون الأجساد ، لأن الأجساد تأكلها الأرض وتبعث بها يد البلى ، وربما لقي أحدهم بعض من آمن بالنبي ﷺ فيسأله عن ذلك استهزاءً وسخريةً .

وفي هؤلاء وأشباههم نزلت هذه السورة ، ردًا عليهم ، وإقامة للحجة على أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم ، وإن صاروا ترابًا أو أكلتهم السباع أو أحرقتهم النيران ، لأن الله أحصى كل شيء عدداً وأحاط بكل شيء علماً .

معنى الآيات

١ - ٣ - عن أي شيء يتساءل مشركو مكة ؟ يتساءلون عن الخبر العظيم الشأن ، وهو البعث أو نزول الوحي على النبي الأمين ﷺ ، الخبر الذي اختلفوا فيه ، فمن قائل إنه مستحيل ، ومن شك فيه متردد يقول : مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ . (الجاثية: ٣٢) .

٤ - ٥ - ترد الآيتان على تساؤلهم وشكهم بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر وأعمق في التأثير ، وتقول : فليزدجروا عما هم فيه ، فإنهم سيعلمون عما قليل حقيقة الحال ، إذا حل بهم العذاب والنكال ، وأن ما يتساءلون عنه ويضحكون منه حق لا شك فيه ، ولا ريب في وقوعه .

٦ - ١٦ - تنتقل الآيات من موضوع النبا العظيم ، لتعرض أمام الأبصار والبصائر مظاهر القدرة الإلهية في خلق هذا الكون ، فتذكر تسعة مشاهد ، يشاهدونها بأعينهم ، ولا يخفى عليهم شيء منها :

١ - انبساط الأرض وتمهيدها لتحصيل المعاش ، وإثراء الحياة .

٢ - سمو الجبال لتثبيت الأرض وحفظ التوازن .

٣ - خلق الناس ذكورا وإناثا ، ليتم الانتناس والتعاون ويعم النفع .

٤ - جعل النوم راحة للأجسام ، وسكناً للأرواح ، وانقطاعاً عن الإدراك والنشاط .

٥ - جعل الليل لباساً ساذجاً ، يتم فيه السبات والانزواء .

٦ - جعل النهار معاشاً ، تتم فيه الحركة والنشاط .

٧ - ارتفاع السماوات فوقنا ، مع إحكام الوضع ودقة الصنع ، وقوة البناء وشدته وتماسكه .

٨ - وجود الشمس المنيرة المتوهجة ، تسكب الأشعة والضوء والحرارة .

٩ - نزول المطر وما ينشأ عنه من الحبّ والنبات ، والجنات الألفاف ، الكثيفة ، الكثيرة الأشجار .
الملتفة الأغصان .

وتوالى هذه الحقائق والمشاهد على هذا النظام البديع ، والتقدير المحكم ، يوحى بأن وراء هذا الكون قوة تدبره ، وحكمة تنظمه ، وتُشعر بالخالق الحكيم القدير ؛ الذى أبدع كل شئ خلقه ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

١٧ - ٢٠ - إن الناس لم يخلقوا عبثاً ، وإن يتركوا سدى ، والذى قدر حياتهم ذلك التقدير المحكم ، الذى يشى به المقطع الماضى فى السياق قد جعل لهم يوماً مؤقتاً للفصل والقضاء بينهم ، فى ذلك اليوم ينفخ إسرافيل فى البوق ، فيأتى الناس جميعاً مسرعين ، جماعات جماعات ، والسماء المبنية المتينة فتحت ، وانشقت وتصدعت على هيئة لا عهد لنا بها ، فكانت طرقاً وأبواباً ، والجبال الراسية الثابتة تصبح هباءً مثاراً فى الهواء ، ومن ثم فلا وجود لها ، كالسراب الذى ليس له حقيقة .

٢١ - ٣٠ - تمضى الآيات خطوة وراء النفخ والحشر ، فتصور مصير الطغاة وتذكر ما يأتى :

إن جهنم خلقت ووجدت مكاناً مترصداً للطاغين ، ينتظر حضورهم ، ويتربقب وصولهم ، إن جهنم مرجع الطغاة ومكان إيابهم وعودتهم .

روى ابن جرير ، عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جوازٌ نجاً ، وإلا احتبس .

وسيمكث الطغاة فى النار دهوراً متلاحقة ، يتبع بعضها بعضاً ، فكلما انقضى زمن تجدد لهم زمن آخر ، إنهم لن يذوقوا فى جهنم طعاماً إلا الحميم وهو الماء المغلى ، والغساق وهو الصديد الذى يسيل من جراح أهل النار ، جزاءً وفاقاً . (النبأ : ٢٦) .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

إنهم كانوا لا يتوقعون الحساب ، وكذبوا بجميع البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد ، وبجميع ما جاء فى القرآن ، بينما كان الله يحصى عليهم كل شئ ، إحصاء دقيقاً لا يفلت منه شئ ، وسجل أعمالهم فى اللوح المحفوظ ، أو كتبها فى صحف أعمالهم : أَخَصَّهُ اللَّهُ وَتَسَوَّاهُ ... (المجادلة : ٦) ويقال لهم على ألسنة خزنة جهنم من باب التأنيب المئس من كل رجاء : ذوقوا أشد العذاب بما كسبت أيديكم ، ولن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه .

٣٦ - ٣٦ - تعرض الآيات المشهد المقابل ، مشهد الأتقياء فى النعيم ، بعد مشهد الطغاة فى الجحيم . إن الأتقياء يفوزون بالنعيم والثواب ، ومن بعض مظاهره تلك الحقائق الكثيرة والبساتين والأعنان

وَكَوَّاعِبٍ . وهن الفتيات الناهيات اللواتى استدارت أقدأهن ، أَتْرَابًا . متوافقات السن والجمال ، وَكَأْسًا وَخَافًا . مترعة بالشراب ، ولا يجرى بينهم حين يشربون لغو الكلام ، ولا يكذب بعضهم بعضًا ، وهذه النعم جزء من الله على أعمالهم ، وهى عطاء وتفضل من الله على حسب أعمالهم ، وفى الحديث الشريف : «إنكم تدخلون الجنة بفضل الله ، وتقتسمونها بحسب أعمالكم» .

٣٧ - ٤٠ - هذا الجزء السابق للطغاة وللقاة ، من مالك السماوات والأرض ، والمدير لشئونهما ، والمالك لما بينهما من عوالم ، وهو الرحمن ، ومن رحمته يكون الجزء العادل المناسب للأشرار وللأخيار ، ومع الرحمة الجلال ، فلا يملك أحد مخاطبته فى ذلك اليوم المهيب .

يوم يقف جبريل والملائكة جميعًا مصطفين لا يتكلمون ، إجلالاً لربهم ، ووقوفًا عند أقدأرهم ، إلا إذا أذن لهم ربهم وقالوا قولاً صدقًا وصوابًا .

ذلك اليوم هو الحق الموعد به ، فلا مجال للتساؤل والاختلاف فى شأنه ، والفرصة لا تزال سائحة ، فمن شاء عمل صالحًا يقره من ربه ، ويدينه من ثوابه ، إنا نحذركم عذاب يوم القيامة ، وهو قريب ليس بالبعيد ، فجهم تنظركم ، وتترصد لكم على النحو الذى سمعتم ، والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وكل أثر قريب .

وفى ذلك اليوم يجد الإنسان جزاء عمله ، ولقاء ما صنعه فى الدنيا من الأعمال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزألة: ٨٠٧) . فى ذلك اليوم يشعر الكافر بالندم والحسرة ، فيقول : يا ليتنى كنت ترابًا أو حجرًا لا يجرى عليه تكليف حتى لا يعاقب هذا العقاب .

موضوعات السورة

اشتملت سورة النبأ على الموضوعات الآتية :

١ - سؤال المشركين عن البعث ، ورسالة محمد ﷺ .

٢ - تهديد المشركين على إنكارهم إياه .

٣ - إقامة الأدلة على إمكان حصوله .

٤ - أحداث يوم القيامة .

٥ - ما يلاقه المكذبون من العذاب .

٦ - فوز المتقين بجنات النعيم .

٧ - إن هذا اليوم حق لا ريب فيه .

٨ - ندم الكافر بعد فوات الأوان .

الإخبار عن البعث وأدلة إنباته

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ② الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلِفُونَ ③﴾ ④ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ⑤
تُؤَكِّدُ سَيَعْلَمُونَ ⑥ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ⑦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ⑧ وَخَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا ⑨
وَجَعَلْنَا قَوْمَكُمُ سِبْغًا ⑩ وَجَعَلْنَا أَيْلَ لِبَاسًا ⑪ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ⑫ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ⑬ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ⑭ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ⑮ لِنُخْرِجَ بِهِ
حَبًّا وَنَبَاتًا ⑯ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ⑰﴾

المفردات :

عَمَّ : عن أى شىء عظيم الشأن .

عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ : عن القرآن أو البعث .

كَلَّا : ردع وزجر عن الاختلاف فيه .

الْأَرْضَ مِهْدًا : فراشاً موطئاً للاستقرار عليها .

الْجِبَالَ أَوْتَادًا : كالأوتاد للأرض لتلا تميد .

خَلَقْتُمْ أَزْوَاجًا : أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً للتأناسل .

قَوْمَكُمْ سِبْغًا : قطعاً لأعمالكم ، وراحة لأبدانكم .

الليل لباساً : ساتراً لكم بظلمته كاللباس .

النهار معاشاً : تُحصلون فيه ما تعيشون به .

سَبْعًا شِدَادًا : سبع سموات قوية الخلق بديعة الصنع .

سراجاً وهاجاً ، مصباحاً منيراً وقاداً ، والمراد به : الشمس .

المعصرات : السحاب قاربت أن تعصرها الرياح فتمطر .

ماء شجاجاً ، منصّباً بكثرة مع التتابع .

حباً ونباتاً ، الحبّ ما يقتات به كالقمح والشعير ، والنبات ما يؤكل خَضِرًا مثل الحشيش والبرسيم .

جنات النضافا ، بساتين ملتفة الأشجار .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن البصري قال : لما بُعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم ، فنزلت : **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ** .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ - **عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ** .

عن أي شيء يتساءل هؤلاء الناس ؟ إنهم يتساءلون عن الأمر العظيم الذي جاءهم ، وهو رسالة محمد ﷺ ، فمنهم من يصدّقه ، ومنهم من يقول : هو شاعر ، ومنهم من يقول : هو كاهن ، ومنهم من يقول : هو مفتّر متقول على الله وليس برسول ، أو هم يتساءلون عن القرآن سؤال متعجب من سمو لفظه ، وبراعة تعبيره ، وقوة معانيه ، ومنهم من يصفه بالسحر أو الشعر أو الكهانة ، أو هم يتساءلون عن البعث والحشر والحساب والجزاء والقيامة وما يتصل بها ، فمنهم من يظن ظناً ، ومنهم من ينكر ، ومنهم من يستبعد وقوع البعث ، ومنهم من يقول : البعث للأرواح فقط أمّا الأجساد فتبلى وتصير رماداً ، ومن العسير بعث الحياة في الأجساد بعد تفنتها وبلها .

وتفديد الآيات أن دويّاً عظيماً ونبأً جسيماً وفكرًا هاماً ، قد شغل مكة كلّها ، فهذا القرآن الكريم ، أو هذا النبي محمد ﷺ ودعوته إلى الإسلام ، أو أمر البعث وما بعده ، إنّه أمر عظيم شغل هؤلاء الناس ، واختلفوا بشأنه .

ويجوز أن يكون المراد بالنبأ العظيم كلّ ما ذكر ، أي : القرآن ، والإسلام ، ومحمد ﷺ ، والبعث ، فكُلّها مما حملته رسالة محمد ﷺ ، واختلف أهل مكة بشأن هذه الرسالة اختلافاً بَيِّنًا ، فقد كان منهم من يرفض الإيمان بالبعث ، ويقول : ما هي إلا أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر .

وقد حكى القرآن قول المكذبين برسولهم فى قوله تعالى : **أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَمًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ * هَٰهُنَا حَيَّاتٌ لِّمَا تُوْعَدُونَ * إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .**

(المؤمنون : ٢٥ - ٢٧)

وكان من الكفار من يشك أو يظن صدق البعث بدون تيقن أو تأكد .

قال تعالى : **وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنْظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِئِينَ .** (الجنائىة : ٣٢) .

٤ ، ٥ - **كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .**

ليردع هؤلاء الكفار عما هم فيه من إنكار البعث والجزاء ، أو من إنكار القرآن ورسالة الإسلام ، سيعلمون صدق ذلك عند نزول الموت بساحتهم .

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ .

تأكيد لما سبق ، وتهديد ووعيد ، وزيادة معنى ، أى : سيعلمون عند قيام القيامة ، ووجود الجنة والنار أنهم كانوا مخطئين فى إنكار البعث ، أو فى التشكك فى القيامة ، وفى وقوع الثواب والعقاب ، ثم أخذ القرآن يقدم لهم أدلة واقعية يلمسونها بأيديهم ، ويشاهدونها بأعينهم ، وتؤكد أن وراء هذا الكون البديع يدًا قادرة خالقة مبدعة ، هى يد الله ، وهو على كل شىء قدير .

٦ - **أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْلًا .**

ألم نجعل الأرض التى تسكنونها ممهدة كالفراش ، تنامون عليها ، وتسيرون فوق طرقها ، وتنتفعون بنباتها وخيراتها ، وتقاملون البساتين والرياحين والبحار والأنهار فيها .

٧ - **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا .**

وجعلنا الجبال بمثابة الأوتاد التى تشد خيمة الشعر فتثبتها ، وكذلك الجبال تمتد فى باطن الأرض لحفظ توازنها ، ولئلا تميد تحت الإنسان الساكن عليها ، فالأرض ملتبهة من باطنها ، وتقذف بالحمم عند البراكين والزلازل . وقد جعل الله الجبال لمنافع عدّة ، منها تثبيت الأرض ، ومنها أنها مأوى للبهائم واللاجئين ، وفوق رؤوس الجبال تتجمع الثلوج صيفا وشتاء ، ثم تذوب الثلوج صيفا فتسقى المياه الوديان ، ويستفيد الزرع والإنسان والحيوان ، والجبال بها مغارات للعباد والمتأملين ، وقد نزلت رسالات

السماء على عدد من الجبال ، منها جبل الطور حيث كلم الله موسى ، ومنها غار حراء فوق جبل النور حيث كلم الله محمدًا ﷺ ، وتمت الهجرة من غار ثور ، وكانت الجبال ترجع صوت داود عليه السلام .

قال تعالى : يٰجِبَالُ اُبَيِّعِيْ مَعِيَ وَالطَّيْرُ وَٱلْأَنْعَامُ لَهُ ٱلْحَدِيْدُ . (سبا : ١٠) .

٨ - وَخَلَقْنٰكُمْ اَزْوَاجًا :

من حكمة الله القدير أنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، ليتم إفرار الحياة وإحسانها ، وتكامل سرورها ولذتها وسعادتها ، فالنبات والحيوان والإنسان أزواج .

قال تعالى : وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ . (الذاريات : ٤٩) .

وقال الله تعالى لنوح عليه السلام : آخِمْ فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ... (هود : ٤٠) .

بل إن الزواج يمتد إلى غير ذلك ، فالسحاب لا يمطر إلا إذا تم تلقيح سحابة موجبة لسحابة سالبة .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيْحَ لَوَافِقٍ فَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنٰكُمُوْهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخٰلِرِينَ . (الحجر : ٢٢) .

وقد خلق الله حواء لتكون سكنًا لآدم ، وبث منهما الخلق ، وامتن علينا بنعمة الأُنس والمودة والرحمة بين الزوجين .

قال تعالى : وَمِنْ عَآلَمِيْهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوْا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (الروم : ٢١) .

وقال عز شأنه : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفَظَةً ... (النحل : ٧٢) .

٩ ، ١٠ ، ١١ - وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَآشًا .

النوم آية من آيات الله تعالى ، حيث ينقطع الإنسان عن العمل والكدح ، ويستغفر في نوم هادئ ، حيث تهدأ نفسه ويستريح جسمه ، ويتكامل هدوءه ، ويتجدد بعد النوم نشاطه ، فالنوم نعمة إلهية ، وهو آية ، وفي غزوتي بدر وأحد غشي النوم المجاهدين فأنسهم وجدد نشاطهم وأراح أعصابهم .

قال تعالى : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ ... (الأنفال : ١١) .

وقال سبحانه وتعالى : ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا يُغَشِّى طَآئِفَةً مِنْكُمْ ... (آل عمران : ١٥٤) .

وأحياناً ينام الإنسان المجهد دقائق معدودة ، أو يغفى إغفاءة بسيطة ، ثم يستيقظ وقد استراحت أعصابه وتجدد نشاطه ، ذلك أن الله العلى القدير هو الخالق للإنسان ، وخالق الآلة أدرى بما تحتاج إليه ، ولو استمر الإنسان مستيقظاً بدون نوم لخارت قواه وضعفت .

قال تعالى : **وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ... (الروم : ٢٣) .**

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا .

الليل يقطع العمل المسترسل ، وفيه الظلام الممتد الذى يغمر الكون ، ويغشاه ويستره كما يستر الثوب صاحبه حين يلبسه ، والليل فرصة للهارب ، وفيه يختفى الكامن للوثوب على عدوه ، للتخلص منه والنجاة من شره ، ويتقى به كل من أراد ألا يطلع الناس على كثير من أموره .

وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا .

جعلنا النهار فرصة للسعى على المعاش والكّد والعمل ، حيث جعله الله مشرقاً منيراً ، ليتمكن الناس من السعى فيه ، والعمل والتكسب والتجارة وغير ذلك .

١٢ - وَيَتَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا .

خلقنا فوقكم سبع سماوات متينة البناء ، شديدة الصنع ، لا يصيبها تشقق ولا تصدع ، وقد مرت عليها بلايين السنين ، وهى سليمة قوية مبهرة : **صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ ... (النمل : ٨٨) .**

١٣ - وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا .

جعلنا الشمس متوهجة بالضوء ، والسراج ما كان ضوءه من ذاته كالشمس ، والشمس ترسل أشعتها على المحيطات فيتصاعد البحر إلى السماء ، وتتكاثر السحب من هذا البحر ، ثم يرسل الله الرياح فتسوق السحاب وينزل المطر .

١٤ - وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا .

أنزلنا من السحاب التى أوشكت أن تعصرها الرياح مطراً متتابعاً ، تكون به حياة الزرع والضرع ، مما يوحى بأن التكامل مقصود فى هذا الكون ، حيث أبدع الله خلق الكون ، وسخر الليل والنهار ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، وأنزل المطر وأبدع الخلق ليعيش الناس فى كنف هذه القدرة العليا ، وينبغى أن يشكروا ربهم شكراً عملياً باستخدام النعمة فيما خلقت له .

١٥ - تُخْرِجُ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا .

لنخرج بهذا الماء أنواع الحبوب والنباتات ، فالحبوب يقتات بها الناس كالقمح والشعير والذرة ، والنبات يقتات به الدواب ، وقدم الحب لأنه غذاء الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات لأنه غذاء الحيوان .

١٦ - وَجِئْتُ أَلْفَافًا .

ونخرج بالماء بسنتين خضراء ، تقاربت أشجارها ، والتفت أغصانها وأوراقها ، إن هذه النعم المتعددة في الكون والنفس ، والخلق والإبداع ، والنوم واليقظة ، والليل والنهار ، والأرض والسماء - دليل على قدرة الله الواحد ، وهو سبحانه على كل شيء قدير ، فمن أوجد هذا قادر على البعث والحساب والجزاء .

قال تعالى : لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧) .

★ ★ ★

البعث والجزاء

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ ﴿١٩﴾ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٢٠﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢١﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٢﴾ لِلطَّغْيِينِ ﴿٢٣﴾ مَتَابًا ﴿٢٤﴾ لَيْتَنِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا حِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٧﴾ جَزَاءً وَفَقًا ﴿٢٨﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٩﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٣٠﴾ وَكُلَّ سُوءٍ آخَصَيْنَاهُ فِي كِتَابٍ ﴿٣١﴾ فَذُوقُوا فَلَانْ نَزِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٢﴾﴾

المعشدرات :

يوم الفصل ، هو يوم القيامة ، لأن الله يفصل فيه بين خلقه .

فتاتون أفواجا ، أمما أو جماعات مختلفة الأحوال .

فكانت أبوابا ، صارت ذات أبواب وطرق ، ومن قبل كانت محكمة .

فكانت سرايا ، مثل سراب ، وهو ما تراه نصف النهار كأنه ماء ، فإذا جتته لم تجده شيئا .

كانت مرصدا ، موضع ترصد وترقب للكافرين .

لِلطَّافِينَ مَائًا ، مَرَجًا وَمَأْوًى لَهُمْ .

أَحْقَابًا ، دَهْرًا مُتَتَابِعَةً لَا نِهَآيَةَ لَهَا .

بِـرَّهَا ، نَوْمًا أَوْ رَوْحًا مِنْ حَرِّ النَّارِ .

حَمِيمًا ، مَاءً بَالِغًا نِهَآيَةَ الْحَرَارَةِ .

غُسَاقًا ، صَدِيدًا يَسِيلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ بَارِدًا مُنْتَنًا .

جِزَاءً وَهَاقًا ، جِزْيَاهُمْ جِزَاءً مُوَافِقًا لِأَعْمَالِهِمْ .

كَذِبًا ، تَكْذِيبًا شَدِيدًا .

أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ، حَفْظْنَاهُ وَضَبَطْنَاهُ مَكْتُوبًا .

تمهيد :

تتحدث الآيات عن أهوال يوم القيامة ، من النفخ فى الصور والحشر وانشقاق السماء ، وتسيير الجبال ، ثم وصف جهنم وأهوالها .

التفسير :

١٧ - إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا .

فى يوم الفصل ، حيث يفصل الله بين الخلائق ، وهو يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون لميقات يوم معلوم ، حيث ينفذهم البصر ويسمعهم الداعى .

قال تعالى : وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . (هود : ١٠٤) .

١٨ - يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْرَاجًا .

فى هذا اليوم ينفخ إسرافيل فى الصور نفخة أولى ، فيصعق الخلائق ويموتون ، ثم ينفخ النفخة الثانية ، فيقوم الناس من قبورهم ويأتون إلى المحشر جماعات جماعات .

قال تعالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ ... (الإسراء : ٧١) .

والمراد بالنفخ فى الصور هنا : النفخة الثانية ، حيث يحشر الناس فوراً بدون مهلة ، حال كونهم زمراً وجماعات مختلفة الأحوال ، متباينة الأوصاف ، حسب اختلاف أعمالهم فى الدنيا .

١٩ - وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا .

تشققت السماء على غلظها ، وتعلقت الملائكة بأطرافها ، وبعد أن كانت محكمة لا تشقق فيها ولا اضطراب ولا خلل ، تغير ذلك في يوم القيامة عند نهاية الكون .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالسَّعْمِ وَنُزُلِ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا . (الفرقان : ٢٥) .

وقال عز شأنه : إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . (الانشقاق : ١) .

وقال عز شأنه : إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ . (الانفطار : ١) .

وهكذا يدل على تبدل حال الكون عند انتهاء الحياة في هذه الدنيا .

قال تعالى : يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (إبراهيم : ٤٨) .

٢٠ - وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا .

الجبال الراسية تندك دكا ، وتقلع قلعا ، وتمور مورا ، وتمر بمراحل في طريقها إلى التلاشي .

قال تعالى : وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . (الحاقة : ١٤) .

فتصبح الأرض مستوية ، وتحول الجبال إلى هلام كالصوف المنفوش ، وهو رخو لين ، بعكس صلابة الجبال في الدنيا .

قال تعالى : وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ . (القارعة : ٥) .

ثم ذكر القرآن أن الجبال تصير هباء ، كما قال تعالى : وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا .

(الواقعة : ٦٠ ، ٥)

ثم ذكر هنا أن الجبال تنسف وتخلع من أماكنها ، حتى يخيل للرائي أنها شيء وليست بشيء ، كالسراب يظنه الرائي ماء وهو في الحقيقة هباء .

قال الطبري : صارت الجبال بعد نسفها هباء منبثا لعين الناظر ، كالسراب يظنه من يراه ماء وهو في الحقيقة هباء .

قال عز شأنه : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا . (طه : ١٠٥ - ١٠٨) .

إنه الانقلاب الكوني ، ونهاية الكون ، وتبدل الأرض غير الأرض ، وتسوية الجبال بالأرض ، حتى تصبح أرضاً مستوية مكشوفة مشاهدة للجميع ، هذه هى أرض المحشر ، مع الخشوع التام ، والصمت الرهيب : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . (المطففين : ٦) .

٢١ - إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا .

إن جهنم تترصد للكافرين وتترقبهم ، وقد وجدت لانتظارهم ، كأنما كانوا فى الدنيا فى رحلة عابرة ثم أبوا إلى مكان ماثوهم وإقامتهم ، حيث يجدون زبانية جهنم فى انتظارهم ، ويجدون جهنم تتلمظ غيظًا وغضبًا على من كفر بالله ، كما قال سبحانه : تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ... (الملك : ٨) .

وقد ورد فى الأثر أن جهنم يخرج منها عُقْ يبحث عن الكافرين الطاغين ، فيلتقطهم من أرض المحشر إلى مكان إقامتهم فى جهنم^(٣) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِنُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

٢٢ - لِلطَّاغِينَ مَنَآبَا .

للطغاة الذين طغوا وبغوا وتجاوزوا الحد ، وكفروا بالله وكذبوا رسله ، وخالفوا أوامره ، وارتكبوا ما نهى عنه ، هى لهؤلاء الطغاة ، مَنَآبَا . مرجعًا وإقامة مستمرة دائمة .

٢٣ - لِّلْبَاقِينَ فِيهَا أَحْقَابَا .

ماكلين فيها دهورًا متتابعة ، كلما مضى منها حقب - أى آلاف السنين - تبعه حقب آخر إلى ما لا نهاية ، فلا يخرجون منها أبدًا .

قال الحسن : الحقب : زمان غير محدود .

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر : ٣٦) .

٢٤ ، ٢٥ - لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ، إِلَّا خَمِيمًا وَعَسَاقًا .

لا يذوقون في جهنم برذاً ينفعهم من حرها ، ولا شراباً ينفعهم من عطشها .

إِلَّا خَمِيمًا . وهو ماء حار شديد الغليان يشوى الوجوه .

وَعَسَاقًا . والغساق صديد أهل النار .

إن النار تتلظى ، لا يصطلى بنارها إلا الأشقى ، ولا يجدون فيها ما يريحهم ، أو يخفف من الآلام الحسية أو المعنوية .

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى : لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ...

أى : لا يذوقون فيها نوماً ، باعتبار أن النوم يبرد العطش ويهدئه ، واستشهدوا بكلام العرب الذى يفيد أن البرد يطلق على النوم .

وعند التأمل نجد أن القرآن ينبغى أن يفهم على الشائع المطرد ، المعروف من كلام العرب ، لا على المعنى الغريب أو المهجور .

قال الطبرى :

لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا .

لا يطعمون فيها برذاً يبرد حر السعير عنهم إلا الغساق ، ولا شراباً يرويههم من شدة العطش الذى بهم إلا الحميم ، وقد زعم بعض أهل العلم بكلام العرب أن البرد فى هذا الموضع النوم ، وأن معنى الكلام : لا يذوقون فيها نوماً ولا شراباً ، واستشهد لقيه ذلك بقول الكندى :

بَرَدَتْ مَرَاشِقُهَا عَلَى قَصْدَتْنِي . عَثَا عَنْ قُبْلَانِهَا الْبَرْدُ .

يعنى بالبرد : التماس ، والنوم يبرد غليل العطش ، فقليل له من أجل ذلك البرد ، فليس هو باسمه المعروف ، وتأويل كتاب الله على الأغلب من معروف كلام العرب دون غيره^(٣) .

٢٦ - جَزَاءً وَفَاقًا .

جزاءً موافقاً لأعمالهم ، لقد كان الجزاء المولم على قدر الكفر والشرك والظلم ، كما قال سبحانه :

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ... (الشورى : ٤٠) .

قال مقاتل : وافق العذاب الذنب ، فلا ذنب أعظم من الشرك ، ولا عذاب أعظم من النار .

وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله ما يسوءهم ، ثم فصل القرآن أنواع الجرائم التي ارتكبوها ، فقال :

٢٧ - **إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا .**

إنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث ، ولا يتوقعون القيامة والحساب والجزاء ، ولذلك أهملوا العمل للأخرة .

٢٨ - **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذْبًا .**

وكذبوا برسالات السماء وبالبعث والقيامة والحساب ، تكذيبًا شديدًا منكراً ، تضمن سلوكهم المعيب مع الرسل ، وتكذيبهم بالقرآن وبالنبي محمد ﷺ .

٢٩ - **وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا .**

كل شيء في الكون أحصيناه وأحطنا به إحاطة دقيقة ، وسجلناه وكتبناه ، ومن ذلك أعمالهم . وكفرهم .

قال تعالى : **أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .**

وقال سبحانه وتعالى : **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .**

أو أثبتنا كل شيء في اللوح المحفوظ ، كما قال سبحانه : **وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا .**

(الجن : ٢٨)

٣٠ - **فَلْيُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .**

فذوقوا آلام العذاب وتجرعوا غصته ، مع اليأس من الرحمة ، وفقدان الأمل في تخفيف العذاب عنكم .

فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا .

أي : لن نزيدكم على استغاثتكم من العذاب إلا عذابًا جديدًا ، كما قال سبحانه : **وَعَاثِرُ مِنْ سُكُلِهِ آزْوَاجٌ .**

(ص : ٥٨)

قال المفسرون : ليس فى القرآن على أهل النار آية هى أشد من هذه الآية ، كلما استغاثوا من نوع من العذاب ، أغيثوا بأشد منه .

قال تعالى : وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يَقَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِشَرِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

وقال تعالى : وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِنَفْسٍ عَلَيْنَا رُبَّمَا قَالَ إِنَّكُمْ تُكِيدُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

★ ★ ★

نعيم الجنة

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٨﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٤٠﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٤١﴾﴾

المعقدرات :

مفازا ، فوزا بالنعيم والثواب .

حدائق ، بساتين فيها أنواع الثمر والشجر .

أعنابا ، جمع عنب .

كواعب ، جمع كاعب ، وهى التى نهض ثدياها وتكعبا .

أترابا ، متساويات فى العمر .

الكأس ، إناء من بلور للشراب .

دهاقا ، ممتلئة ، قال خداس بن زهير :

أنا عابري بغي قرانا فأتزعنا له كأسا دهاقا

اللفظ ، الباطل من الكلام .

الكذاب ، للتكذيب .

عطاء ، تفضلاً منه وإحساناً .

حسابا ، كافياً لهم .

التفسير :

٣١ - إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا .

إن الله تعالى أعد للمتقين أسباب الفوز من النار والنجاة من جهنم ، والفوز بالجنة والتمتع بنعيمها ، ورضوان الله عليهم .

٣٢ - حَدَائِقَ وَأَعْنَابَ .

من ألوان فوزهم التمتع بالبساتين الناضرة ، الممتدة الظلال ، المشرفة على الأنهار ، والتمتع بكروم العنب ، والجمع أعناب ، وخصه بالذكر لأهميته والعناية به .

٣٣ - وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا .

فتيات قد استدارت أئداؤهن ، مع ارتفاع يسير .

أَتْرَابًا . متساويات في العمر ، مع التماثل في صفات الجمال .

والخلاصة : أنه تمتع فائق اللذة والسعادة ، على وفق ما يناسب العالم الأخرى .

حيث قال سبحانه : **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** . (الزخرف : ٧١) .

٣٤ - وَكَأْسًا دِهَاقًا .

وكأساً من الخمر مترعة ملأى ، صافية متتابعة ، قد عُصِرَتْ وصِفَتْ .

٣٥ - لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا .

لا يسمعون في الجنة لغوا ولا باطلاً من الكلام ، ولا فاحشاً من القول .

وَلَا كِذَّابًا . ولا يسمعون الكذب من القول ، فقد صان الله أسماعهم عن اللغو والباطل والكذب ، وصفى

أسماعهم ونقاها لتسمع الحق والصدق ، والنقى البهى من الكلام ، وإنها لنعمة عظيمة .

٣٦ - جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا .

جزاهم الله هذا الجزاء العظيم ، تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم .

من مشاهد القيامة

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مِثَابًا﴾ (٣٨) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

المقررات :

الخطاب : المخاطبة والمكالمة ، أى : لا يقدر أحد أن يخاطبه سبحانه فى رفع بلاء أو دفع عذاب .

الروح : جبريل عليه السلام .

مآباً : مرجعاً .

الإنذار : الإخبار بالمكروه قبل وقوعه .

المعبر : الإنسان ، ذكرًا كان أو أنثى .

ما قدمت يدها : ما صنعه فى حياته الأولى .

يا ليتنى كنت تراباً : أى لم أصب حظاً من الحياة .

التفسير :

٣٧ - رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا .

هذا الجزاء صادر من الرحمن الذى وسعت رحمته كل شيء ، وفى يوم القيامة لا يستطيع أحد أن يخاطبه فى رفع عذاب ، أو دفع بلاء ، هيبته وإجلاله له سبحانه وتعالى .

٣٨ - يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا .

فى ذلك اليوم يقوم الروح جبريل والملائكة مصطفىين صامتين .

قال تعالى : وَجَاءَ رُكُودُكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . (الفجر : ٢٢) .

حيث تصطف ملائكة السماء الأولى حول الخلائق ، وحولهم ملائكة السماء الثانية ، وحول ملائكة السماء الثانية ملائكة السماء الثالثة ، وهكذا إلى السماء السابعة ، ولا يستطيع أحد أن يتكلم أو يتشفع إلا

من أذن له الله فى الكلام ، وقال قولاً صواباً حقاً ، من الشفاعة لمن ارتضى الله سبحانه وتعالى عنه ، والمراد عظمة الحق سبحانه وجلاله ، وقيام جبريل والملائكة مصطفين صامتين ، والكلام تكرمة لمن يتكلم ، لكنه لا يتكلم إلا بالحق والعدل ، ومع أن الملائكة مقربون إلى الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، إلا أنهم يحشرون مصطفين صامتين ، قد حشرهم هول الموقف ، وإذا كان هذا حال الملائكة فما هو حال بقية البشر .

اللهم نجنا من هول يوم القيامة ، واحشرنا آمنين مطمئنين ، واجعلنا ممن قلت فيهم : لَا يَحْزَنُهُمُ الْقَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَكْلِفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ . (الأنبياء : ١٠٣) .

٣٩ - ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا .

أى : ذلك اليوم الذى تقف فيه الملائكة صفًا خاشعين صامتين ، هو اليوم الحق ، الكائن لا محالة ، الذى يُحق الله فيه الحق ، وينال فيه كل إنسان جزاءه العادل .

فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَنَابًا .

فمن أراد النجاة فى ذلك اليوم فليعمل عملاً صالحاً فى مرضاة ربه ، ليجد مرجعاً كريماً عند الله .

٤٠ - إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا .

الخطاب لكفار مكة ولمنكرى البعث ، ولكل من يتأتى منه الخطاب ، أى : خوفاًكم عذاب يوم القيامة ، وهو واقع لا محالة ، وكل آخر قريب ، وفى ذلك اليوم يجد الإنسان أعماله حاضرة أمامه ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

قال تعالى : وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

وفى ذلك اليوم يتمنى الكافر أنه لم يخلق ولم يبعث ولم يحاسب ، ويتمنى أن لو كان تراباً أو حجراً ، لما يرى من أهوال القيامة ، وشدة عقوبة الكافرين فى جهنم .

قال المفسرون : وذلك حين يحشر الله الحيوانات يوم القيامة ، فيقتصص للجماة من القرناء ، ويعد ذلك يصيرها تراباً ، فيتمنى الكافر أن لو كان تراباً حتى لا يعذب .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (النبا) ، مساء يوم السبت ٤ من صفر ١٤٢٢ ، الموافق ٢٨/٤/٢٠٠١ .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة النازعات

أهداف سورة النازعات

(سورة النازعات مكية ، وآياتها ٤٦ آية ، نزلت بعد سورة النبا)

وهي نموذج من نماذج هذا الجزء ، لإشعار القلب البشري حقيقة الآخرة بهولها وضخامتها ، وفي الطريق إلى ذلك يمهّد السياق بمطلع غامض مثير ، يسوقه في إيقاع موسيقى راجف لاهث .
(الآيات ١ - ٥) .

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف ، يجيء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم .
(الآيات ٦ - ١٤) .

ثم يأخذ السياق في عرض حلقة من قصة موسى مع فرعون ، فيهدأ الإيقاع ويسترخى شيئاً ما ، ليناسب جو الحكاية والعرض . (الآيات ١٥ - ٢٦) .

ثم ينتقل السياق من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصانره في الدنيا والآخرة ، في تعبيرات قوية الأثر تأخذ بالألباب . (الآيات ٢٧ - ٣٣) .

ثم يجيء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الحياة الدنيا . (الآيات ٣٤ - ٤١) .
ثم يرتد السياق إلى المكذّبين بهذه الساعة ، الذين يسألون الرسول ﷺ عن مواعدها ، يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها وضخامتها . (الآيات ٤٢ - ٤٦) .

مع آيات السورة

١ - ٥ - أقسم الله تعالى بالملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار إغراقاً ، أى مبالغة في النزع ، وبالملائكة الذين يخرجون أرواح المؤمنين برفق ، فيسبحون في إخراجها سبح الغواص الذي يخرج الشيء من أعماق البحر ، فيسبقون بأرواح الكفار إلى النار ، وبأرواح المؤمنين إلى الجنة ، أو يسبقون للإيمان أو للطاعة لأمر الله ، فيدبرون ما يوكل إليهم من الأمور .

وقيل : أقسم الله تعالى بالنجوم ، تنزع في مداراتها وتحرك ، وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل ، وتسبح سبحاً في فضاء الله وهي معلقة به ، وتسبق سبقاً في جريانها ودورانها ، وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها ، مما يؤثر في حياة الأرض ومن عليها .

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هي النجوم ، والمديرات هي الملائكة ، وجملة القول : فهذه أوصاف لموصوفات أقسم الله بها لعظم شأنها ، وكل ما يصدق عليه الوصف يصح أن يكون تفسيراً للآيات ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

٦ - ٩ - انكسر يا محمد يوم تضطرب الأرض ويرتجف كل من عليها ، وتنشق السماء ، ويصعق كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، وهذه هي الراجفة أو النفخة الأولى في الصور ، يتبع ذلك النفخة الثانية ، التي يصحون عليها ويحشرون ، وهذه هي الراجفة ^(٤) .

قلوب الكافرين تكون يوم القيامة شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانكسار ، والرجفة والانهيار .

١٠ - ١٤ - يقول الكافرون المنكرون للبعث : أصبح أننا إذا متنا راجعون إلى الأرض أحياء كما كنا ؟ أنعود للحياة بعد تحلل أجسادنا في التراب ؟ إن صح هذا فهو الخسران الخالص والرجعة الخاسرة التي لم نحسب حسابها .

لا تستبعدوا ذلك أيها الكافرون ، فإنما هي صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور ، فإذا الناس جميعاً أحياء على سطح أرض القيامة .

١٥ - ٢٦ - تحكى الآيات قصة موسى عليه السلام ، وهي قصة تكررت في القرآن ، لما لقيه موسى من شدة المعاناة مع قومه ، فأصبح نموذجاً للصبر والثبات ، وفي الحديث الصحيح يقول النبي ﷺ : «يرحم الله أحمى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» . ^(٥)

تقول الآيات :

وهل جاءك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة ؟ حيث تفضل الله عليه فناداه ، وكلمه من وراء حجاب بالوادي المبارك من طور سيناء (طوى) ^(٦) ، فقال له : انهب إلى فرعون فإنه طغى وتجاوز الحد ، فتلطف معه في القول وقل له : هل ترغب في أن تطهر نفسك من الآثام التي أنغمست فيها ؟ وهل لك في الإيمان بالله ، واستشعار الجلالة والجبروت وخشية عقاب الله وحسابه ؟

بيد أن هذا القول لم يفلح فى هداية قلب الطاغية الجبار ، فأظهر له موسى المعجزة الكبرى ، وهى انقلاب العصا حية وإخراج يده بيضاء بياضاً ساطعاً يغلب ضوء الشمس ؛ فأنكر فرعون رسالة موسى ، وعصى أمر ربه ، ثم أعرض عن موسى ، وسعى فى إيدائه ، وحث الناس على مقاومة دعوته ، ثم جمع السحرة الذين هم تحت إمرته وسلطانه ، فقام فيهم يقول : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى . الذى لا يدانيه أحد فى القوة والعظمة ، وما زال فى عتوه وتطاوله حتى تبع موسى وقومه إلى البحر الأحمر (بحر القلزم) عند خروجهم من مصر ، فأغرق فيه هو وجنوده ، تنكيلاً به على ما صنع ، وله فى الآخرة عذاب السعير ، وسيكون مثلاً للأولين والآخرين . وفى قصة فرعون عبرة لمن له عقل يتدبر به فى عواقب الأمور ، فيثوب إلى رشده ويتقى ربه .

٢٧ - ٣٢ - يخاطب الله منكراً البعث ويرشدهم إلى أن يعثهم هين على الله ، بدليل ما يشاهدون من آثار قدرته فى هذا الكون ، فيقول لهم : هل أنتم أشد خلقاً أم خلق السماء أصعب وأشق ؟ إنكم لا تنازعون فى أنها أشد منكم خلقاً ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فما الذى تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ والذى بنى السماء وأبدعها قادر على إعادتكم .

قال تعالى : يَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . (غافر: ٥٧) .

لقد رفع الله سمك السماء ، أى : بناءها ، وسمك كل شئ قامته وارتفاعه ، والسماء مرفوعة فى تناسق كامل ، وتنسيق بين حركاتها وأنوارها وتأثيراتها ، وقد جعل ليلاً مظلماً بمغيب كوكبها ، وأنار نهارها بظهور الضحى .

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا . ودحو الأرض تمهيداً ويسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات .

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا : أى : فجر منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات ، وثبت الجبال فى أماكنها وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

مَتَلِّئًا لَكُمْ وَلِأَعْنَمِكُمْ . أى : إنما جعلنا ذلك كله ليتمتع به الناس والأنعام ، وليتنبه الإنسان إلى عظمة التدبير والتقدير ، فإن بناء السماء على هذا النحو ، وإظلام الليل ، وإضاءة النهار ، وتمهيد الأرض ، وإخراج النبات والماء ، وإرساء الجبال ، لم يكن كل ذلك سدى ، وإنما كان متاعاً لكم ولأنعامكم .

وهذا المدبر الحكيم وفّر لكم هذا الخير الكثير لتتمتعوا به ، ومن الحكمة والتدبير أن يكون هناك بعث وجزاء ، لإثابة الطائع ومعاقبة الطغاة والعصاة .

٤١ - ٣٤ - فإذا جاءت الداهية العظمى التي تعلو على سائر الدواهي ، وتشغل الإنسان عن ولده ونفسه ، غطت على كل شيء ، وطمعت على كل شيء ، عندئذ يتذكر الإنسان سعيه ويستحضره أمامه ، حين يرى أعماله مدونة في كتابه ، وظهرت النار في مكان بارز ، حتى يراها كل ذي نظر ، عندئذ تختلف المصائر والعواقب ، فأما من تكبر وعصى ربه وتجاوز حده ، وأثر شهوات الحياة الدنيا على ثواب الآخرة ، فالنار مثواه ومستقره .

وأما من استحضر في قلبه دائما عظمة الله تعالى ، ونهى النفس عما تهواه وتميل إليه بحسب طبيعتها ، فإن الجنة ستكون له مستقرا ومقاما .

٤٢ - ٤٦ - يسألك كفار قريش والمتعنتون من المشركين عن القيامة : أَيَّانَ مُرْسِنُهَا . متى قيامها وظهورها ؟ وأين موعدها ؟

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا . إنها لأعظم من أن تسأل أو تسأل عن موعدها ، فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه وليست من شأنك ، إلى ربك ينتهي علم الساعة ، فلا يعلم وقت قيامها غيره ، ولم يعط علمها لملك مكرم ، ولا لنبي مرسل ، إنما أنت رسول مبعوث لتنذر من ينفعه الإنذار ، وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ، ويعمل لها ويتوقعها .

وإذا جاءت الساعة ، ورأوا أهوالها وحسابها وجزاءها ، استهانوا بالدنيا ومتاعها وأعمارها ، ورأوا الدنيا بالنسبة للآخرة قصيرة عاجلة ، هزيلة زاهية ، زهيدة تافهة ، وتنطوى الدنيا في نفوس أصحابها ، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها ، فكأنما : الدنيا ساعة من نهار ، أفمن أجل ساعة من نهار يضع الإنسان الجنة والخلود في رضوانها ؟

قال تعالى : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ... (الروم : ٥٥) .

أي أن الدنيا أو الحياة الفانية ليست إلا وقتا قصيرا بالنسبة للآخرة .

قال تعالى : بَلْ تُؤْخِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَثْقَىٰ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

موضوعات سورة التازعات

- ١ - إثبات البعث .
- ٢ - مقالة المشركين فى إنكاره والرد عليهم .
- ٣ - قصة موسى مع فرعون ، وفيها عاقبة الطغاة .
- ٤ - آيات الله فى الآفاق .
- ٥ - أهوال يوم القيامة .
- ٦ - الناس فى هذا اليوم فريقان : سعداء وأشقياء .
- ٧ - تساؤل المشركين عن الساعة وميقاتها .
- ٨ - نهى الرسول ﷺ عن البحث عنها .
- ٩ - زهول المشركين من شدة الهول ، والاستهانة بالدنيا حين يرون الآخرة .



الحلف على وقوع البعث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ١ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ٢ ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ ٣ ﴿وَالسَّائِقَاتِ سَيْقًا﴾ ٤ ﴿وَالْمُدْرِيَاتِ آمْرًا﴾ ٥ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ٦ ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّاdَةُ﴾ ٧ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ٨ ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ٩ ﴿يَقُولُونَ أَيْنَا لِمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ١٠ ﴿أَيْنَا ذَاكُنَا عِظْمًا تَحْرَهُ﴾ ١١ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ١٢ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ١٣ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ١٤ ﴿

المفردات :

والننازعات : أقسم الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أفاضى أجسامهم .

غرقًا : نزعًا شديدًا مؤلما بالغ الغاية .

والناشطات نشطا : الملائكة تسأل أرواح المؤمنين برفق .

والسابحات سبحا : الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .

فالسابحات سيقا : الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها ، النار أو الجنة .

فالمديرات أمرا : الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به ، وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده ، وتقديره : لتبعثن .

يوم ترجف الراجفة : يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة ، وهى النفخة الأولى التى تصعق الخلائق عندها وتموت .

تتبعها الرادفة : نفخة البعث التى يقوم فيها الناس للحساب والجزاء ، وهى تردف الأولى وتأتى بعدها .

واجفة : شديدة الاضطراب من الخوف والغزع .

أبصارها خاشعة : ذليلة منكسرة من الغزع .

فى الجاهرة ، إلى الحالة الأولى (الحياة) .

نخرة ، بالية مفتتة ، من نخر العظم ، إذا بلى وتفتت .

خاسرة ، رجعة غابنة غير رابحة .

فإذا هم بالساهرة ، فإذا هم أحياء على وجه الأرض .

التفسير :

١ - وَأَنْتِ زَعْتِ غُرُقًا .

أقسم الله تعالى بطوائف الملائكة التى تنزع أرواح الكفار بقسوة وبشدة من أقاصى أجسامهم ، نزعاً بالغ الصعوبة والعسر ، حيث تنزع روح الكافر من أقاصى جسده ، من تحت كل شعرة ، ومن تحت الأظافر وأصول القدمين .

وفى الحديث الشريف ما يفيد أن روح الكافر تنزع بشدة ، حيث يكابد الكافر أشد الآلام فى خروج روحه ، وأن روح المؤمن تنزع برفق ويسر ، وتخرج بسهولة ولطف ، كما تنزل القطرة من فم السقاء .

٢ - وَأَنْتِ حِطَلْتِ نَشْطًا .

أقسم الله بملائكة الرحمة ، تنشط فى أخذ أرواح المؤمنين بسهولة ويسر ، كما ينشط العقال من يد البعير .

٣ - وَأَلْسِنَتِ سَبْحًا .

الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين إلى الملاء الأعلى ، أو تسبح بالوحى وتنزل به على الرسل كالذى يسبح ، حال كون الملائكة مسرعة منفذة للأوامر .

٤ - فَالْمُنْقَلَتِ سَبْقًا .

الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، أو الملائكة تسبق إلى الإيمان والتصديق ، أو الملائكة تسبق لتبليغ وحى السماء .

٥ - فَالْمُدَبَّرَاتِ أَمْرًا .

الملائكة تدبّر أمر الكون من السماء إلى الأرض بأمره تعالى ، من الرياح والأمطار والأرزاق والأعمار ، وغير ذلك من شئون الدنيا .

وتنكير، أمراً . للتفخيم والتهويل .

وفى الحديث الشريف : «إن أحدمك يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم أربعين يوماً علقه ، ثم أربعين يوماً مضغه ، ثم يأمر الله الملك ، فيقول : اكتب ، فيقول : يارب ، وما أكتب ؟ فيقول : اكتب أجله وعمره ووزقه ، وشقى أو سعيد » (٩) .

وقيل : إن تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة : جبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وإسرافيل .

فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

وقال الحسن البصرى :

المراد بالآيات الخمس : النجوم والكواكب فى جريها وتنقلها بين الأبراج ، وسيرها فى أفلاكها هادئة أو مسرعة ، أو مدبرة أمراً بأمر الله تعالى ، كاختلاف الفصول وتقدير الأزمنة ، وظهور مواقيت العبادات والمعاملات .

«فالقمر له أثر فى حساب الشهور ، وله من الأثر فى السحاب والمطر ، وفى البحر من المد والجزر ، وللشمس دورة سنوية ، تعرف بها حساب السنين من جهة ، وفصول السنة من جهة أخرى ، وللفصول الأربعة أثرها فى أسباب حياة النبات والحيوان ، ونسبة التدبير إليها لأنها أسباب ما نستفيدة منها ، والمدبر الحكيم هو الله جل شأنه» (١٠) .

٦ ، ٧ - يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّجِفَةُ * تَتَنَبَّهْا الرَّاْدَةُ .

جواب القسم محذوف دلّت عليه هاتان الآيتان ، والتقدير : لتبعثن يوم القيامة .

و الرَّاْدَةُ . هى النفخة الأولى ، حين ينفخ إسرافيل فى الصور ، فيصعق من فى السماوات والأرض ، حيث تضطرب الجبال ، وتقلع من أماكنها ، وتسير وتصير هباء منبثاً ، ويضطرب نظام الكون ، ويهتز اهتزازاً شديداً ، ويرتجف عند النفخة الأولى وهى الراجفة ، حيث تموت الخلائق ، ويصعق من فى السماوات والأرض صعقاً شديداً ، ويستمررون أربعين سنة ، ويتبع ذلك ، الرَّاْدَةُ . التى تردف الراجفة ، وتأتى بعدها ، وهى نفخة البعث والقيام للحساب .

قال تعالى : وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فيهٗ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . (الزمر : ٦٨) .

٨ ، ٩ - قُلُوبُ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَرُهَا خُلُوعَةٌ .

قلوب الكفار في ذلك اليوم واجفة راجفة مضطربة من هول الموقف والقيام للحساب .

أَبْصَرُهَا خُلُوعَةٌ . أبصارها ذليلة منكسرة حيث يغشاهم الذل والقتام بسبب سوء أعمالهم ، وفي صدر سورة الغاشية تأكيد خشوعهم وذللهم وعذابهم .

قال تعالى : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَآيَةٍ . (الغاشية: ١- ٥) .

١٠ - يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ .

يقول هؤلاء الكفار استبعادًا للحياة بعد الموت : أنرجع مرة أخرى أحياء بعد موتنا ؟

يقال لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه : رجع في حافرتة ، أى في طريقه التي جاء منها فحفرها ، بمعنى أُنْزِلَ فيها بمشيئه .

١١ - أَعِزَّادًا كُنَّا عِظْمًا نَجْرَةً .

أنذا بليت أجسامنا ، وأكلنا التراب ، وتهشمت عظامنا ، وصارت : نُجْرَةً . بالية شديدة البلى .

والاستفهام للاستبعاد والاستنكار .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَعِزَّادًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَاكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَقِيقٌ . (ق: ٣ ، ٤) .

١٢ - قَالُوا يَلَيْكَ إِذَا كُرَّةُ خَاسِرَةٌ .

أى : إذا كان البعث حقًا ، وعُدْنَا إلى الحياة بعد الموت ، فتلك رجعة خاسرة لأننا سنكون من أهل النار ، ولم نعمل عملاً لذلك اليوم .

قال المفسرون : وهذا منهم استهزاء وتهكم ، اعتقادًا منهم أن ذلك لن يكون .

١٣ ، ١٤ - فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

فإنما هى صيحة واحدة ، هى نفخة إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، فتقوم الخلائق لرب العالمين .

فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ .

فإذا هم جميعا فى أرض المحشر ، وهى أرض بيضاء مكشوفة ، وإنما قيل لها (ساهرة) لأنهم لا ينامون عليها حينئذ .

أى : لا تستبعدوا البعث ، فإنما هو نفع إسرائيل فى الصور النسخة الثانية ، فإذا الخلائق جميعا على سطح الأرض أحياء ، بعد أن كانوا فى بطنها أموات .

ونحو الآية قوله تعالى : وَمَا يَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صِخْرَةٌ مَّا لَهُا مِنْ فَوَاقٍ . (ص : ١٥) .

★ ★ ★

التهديد بما أصاب فرعون

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ۖ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رِيكِ فَنُخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ وَكَذَّبَ وَصَدَّىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ سَعًى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَارِكُمْ لِأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ ۖ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنِ يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ۝ ﴾

المفردات :

المقدس : المبارك المطهر ، والوادي المقدس : هو واد بأسفل جبل طور سيناء ، من برية الشام .
طوى : اسم الوادي المقدس .

طغى : تجاوز الحد ، فغتا وتجبر وكفر بالله تعالى .

هل لك إلى كذا ، هل ترغب فيه ؟

تتركى ، تتركى وتطهر من الكفر والطغيان .

وأهديك ، أدلك .

فنخشى ، فتخاف وتخشع .

الآية الكبرى : العلامة الدالة على صدقه فى دعواه النبوة ، وهى اليد والعصا .

أدبر : ترك موسى .

يسوعى، فى مكابדתه، ويجد فى الإفساد والمعارضة .

فحشر، جمع السحرة الذين فى بلاده .

التكامل، العذاب .

الأخيرة، يوم القيامة .

الأولى، الدنيا .

التفسير :

١٥ - هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى .

استفهام يقصد به التشويق إلى معرفة قصة تهوّن عليه ما يلاقيه من قومه المكذبين، وكأنه قيل : هل أتاك خبر موسى ؟ إن لم يكن قد جاءك فأنا أخبرك به .

١٦ - إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى .

حين نادى الله تعالى موسى فى ظلام الليل ، فى ليلة مباركة ، باركها نداء الحق سبحانه ، وتفضله وتلطفه ببناء موسى بالوادي المبارك المطهر ، وهو وادٍ فى أسفل جبل طور سيناء من برية الشام ، المسمى طُوًى .

١٧ - أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ .

اذهب إلى فرعون رسولا من عند الله ، ميلغا له رسالات السماء ، فقد طغى فرعون وتجاوز الحد فى استعباد بنى إسرائيل ، وتقتيل أنبيائهم الذكور ، واستحياء الإناث ، وادعاء الألوهية ، وقوله : أنا ريكم الأعلى ، وقوله : ما علمت لكم من إله غيرى .

١٨ - فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّىٰ .

إرشاد وتوجيه إلى حسن القول واللين فى المخاطبة ، والمعنى : هل لك يا فرعون فى تطهير نفسك وتزكية روحك .

١٩ - وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخَسَّىٰ .

وأرشدك إلى الإيمان بالله تعالى ، وهو ربك وخالقك ، وصاحب كل فضل ونعمة ، وهذا الإيمان بالله والمعرفة به تجعلك فى خشية له ، وتوقير وتعظيم .

قال تعالى : إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (فاطر : ٢٨) .

فمن عرف الله أطاع أوامره ، واجتنب نواهيه ، والتزم بهدى السماء ، وابتعد عن الكفر والطغيان .

روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال : «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل»^(٩) .

وعن بعض الحكماء : اعرف الله ، فمن عرف الله لم يقدر أن يعصيه طريقة عين .

٢٠ - فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكُرَى .

فقدم موسى لفرعون دليلا عمليا ناصعا ، هو العصا تنقلب حية ، فتبتلع كل ما أمامها ، واليد يدخلها فى جيبه ، فتخرج بيضاء بياضا شديدا ، يغلّب نورها ضوء الشمس ، أى قدّم موسى معجزات واضحات كدليل على أنه رسول من عند الله ، فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد مدعى الرسالة ، تصديقا له فى دعواه ، فهى بمثابة قول الحق سبحانه : صدق عبيدى فى كل ما يبلغ عنى .

٢١ - فَكَذَّبَ وَعَصَى .

أى : كذب فرعون موسى عليه السلام ولم يصدقه ، وعصى ربه سبحانه ، أو عصى داعية الإيمان ، وفكرة التصديق .

٢٢ - ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى .

ولّى دُبره لدعوة موسى معرضا عنه ، ساعيا فى جمع السحرة ، أو جنوده وأعوانه .

٢٣ - فَحَشَرَ فَنَادَى .

أرسل فرعون لدعوة السحرة من الصعيد الأعلى ، أو دعا جنوده ، أو جميع الناس فى مملكته ، فوقف فيهم خطيبا .

٢٤ - فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى .

أى : لا ربّ فوقى ، وكانت لهم أصنام يعبدونها .

٢٥ - فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَغْصَةِ الْأُولَى .

فأهلكه الله بالغرق فى الدنيا ، وبالحرق بالنار فى الآخرة ، ونكّل به تنكيلا شديدا ، حيث لم يقبل منه الإيمان . وترك جثته تطفو على الساحل ليكون عظة وعبرة لكل ظالم .

٢٦ - إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَن يَخْشَى :

فيما نذكر من قصة فرعون ، وعدوانه وظلمه ، ثم هلاكه وغرقه ، لعبرة وموعظة لمن شأنه أن يخشى عاقبة الأمور ، ويعتبر بأخبار السابقين ، فيبتعد عن الظلم والعدوان ، ويخشى عاقبة الكفر والطغيان .

★ ★ ★

دلائل القدرة

﴿عَٰلَمُكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ٢٨ ﴿وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ٢٩﴾
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ٣٠ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ٣٢ ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ
وَلَا تَغْلِبَكُمُ ٣٣﴾

المقررات :

- رفع سمكها ، جعل ثخنها مرتفعا نحو العلو .
- فسوّاها ، فجعلها مستوية الخلق بلا عيب .
- أغطش ليلها ، أظلمه .
- أخرج ضحاها ، أبرز نهارها المضيء بالشمس .
- دحاهها ، بسطها وأوسعها لسكنى أهلها .
- مرعاهها ، أقوات الناس والدواب .
- الجبال أرساها ، أثبتها في الأرض كالأوتاد .

التفسير :

٢٧ ، ٢٨ - عَٰلَمُكُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا .

كانوا يستكثرون البيعت بعد الموت والبلى ، وهنا يواجه القرآن الخلق أجمعين بأدلة القدرة والإحكام ، فالله تعالى خلق هذا الكون منذ بلايين السنين ، وتركه فترة مناسبة ليكون صالحا لحياة الإنسان عليه .

وهنا يوجه هذا السؤال ، والمقصود به التحدى : هل خَلَقَ الإنسان البسيط أكبر وأعقد أم خلق السماء العالية التى أوجدها الله القادر مرفوعة البناء ، بعيدة الغناء ، مستوية الأجزاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء ؟

فَسَوَّلَهَا . بوضع كل جرم فى موضعه حسبما اقتضته الحكمة ، وجعل السماء ملساء مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

٢٩ - وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا .

أظلم الله الليل ، وزينته بالنجوم ، وجعل الظلام حالكا لينام الناس ، ويهدأ المتعب ، ويهرب راغب الهرب .

كما أظهر الضحى بالشمس الساطعة المنيرة ليعمل الناس ، ويكسبوا ويسافروا ، وينتقلوا وينتفعوا ، ويطلق الضحى على النهار كله ، وإضافة الضحى إلى السماء لأنه يحدث بسبب طلوع الشمس .

٣٠ - وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا .

خلق الله الأرض فى يومين ، وخلق الجبال والبحار والأنهار فى يومين ، ثم خلق السماء فى يومين ، واستمر التحسين والإبداع والتكامل فى خلق الكون ، فمرّ الخلق بعدة مراحل :

- منها مرحلة الإيجاد .

- ثم مرحلة تكامل الخلق وصلاحيته للوجود ، فالسماء شماء عالية ، ملساء مستوية ، بها النجوم والشمس والأقمار والملائكة والإبداع ، والأرض بها البحار والأنهار والنبات ، والجبال والإنسان والحيوان ، والحشرات والهوام ، ومن إبداع الخلق دحو الأرض ، وجعلها مستديرة منبعجة عند خط الاستواء ، مفرطة عند القطبين .

وقد استجاب الكون لقدرة التقدير ، فخلق الله السماء والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، والكون كله دائر بين الخلق والجعل .

قال تعالى : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... (الأنعام : ١) .

قال تعالى : قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِأَلَدَى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رِزْقًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَةً فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَانَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَيْتُهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَاسِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (نمل: ٩ - ١٢) .

٣١ - أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا .

أخرج من الأرض الماء بتفجير الينابيع والعيون ، وعلمية التبخر التي يتم فيها إرسال الشمس أشعتها على البحار الواسعة ، فيتصاعد البحر إلى السماء ، ويسخر الله الرياح فتسوق السحاب ، ثم ينزل المطر لينتفع الإنسان والحيوان والنبات ، ولتتكون العيون ، وليحفظ جانب من الماء تحت الأرض ، فيستخرجه الإنسان وينتفع به ، فالماء فعلا من الأرض ، والمطر أساسه بحر مرتفع من المحيطات الكائنة بالأرض .

وبالمطر تنبت المرعى وتخضر الأرض وتهتز ، وتبتهج الحياة ، ويستفيد الإنسان والحيوان ، والحشرات والهوام .

٣٢ - وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا .

وأرسل الله الجبال ، وجعلها راسية تمسك بتوازن الأرض ، ليتم إعمار الأرض ، ولتكون مأدبة الله في الأرض .

٣٣ - مَتَّعْنَاكُمْ وَلِيَنصَلِحْكُمْ .

أي : جعل الله كل ذلك ليتمتع به الناس والأنعام .

قال تعالى : فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَا صَبَّيْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَيْنًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَلَاحَهُ وَآبًا . مَتَّعْنَاكُمْ وَلِيَنصَلِحْكُمْ . (عبس : ٢٤ - ٣٢) .

والمعنى : أفلا يكون خالقكم ، وخالق السماء ، وخالق الأرض ، وخالق الفضاء والهواء والكون قادرا على بعثكم ؟

جزاء السعداء والأشقياء عند قيام الساعة

﴿فَإِذَا جَاءَ نَاطَمَةُ الْكَبْرَىٰ (٢٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ (٢٥) وَبُزِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٢٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ (٢٧) وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٢٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٣٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٣٢) قِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا (٣٣) إِلَّا رِيكَ مِنْهُمْهَا (٣٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِنْ نَحْشِهَا (٣٥) كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُوزِهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوَّحَّهَا (٣٦)﴾

المفردات :

الطامة الكبرى ، الداهية العظمى ، لأنها تطم وتغلب وتفوق ما عرفوه من دواهي الدنيا .

بُزِزَتِ الجحيم ، أظهرت إظهاراً بيئاً .

فأما من طغى ، جاوز الحد في العصيان والكفر .

هي السماوى ، هي المرجع والمقام له ، لا غيرها .

أيان مرساها ، متى يقيمها الله ويثبتها .

قيم أنت من ذكرها ، ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق .

التفسير :

٣٤ - فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى .

إذا ظهرت القيامة التى تغطى أحداثها على كل شئ سواها ، وسميت طامة لأنها تطم على أمر مفضل ، من طم الشئ يطمه طمًا ، إذا غمره ، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم ، وسميت بالكبرى لأنها أعظم الدواهي مطلقاً .

٣٥ - يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى .

فى ذلك اليوم يتذكر الإنسان ما عمله من خير أو شر ، بأن يشاهده مدونا فى صحيفة أعماله .

قال تعالى : أَخْضَلَ اللَّهُ نَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

٣٦ - وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى .

ظهرت جهنم تنلظى ، وتتلطمظ غيظا على من عصى الله تعالى ، فيراها المؤمن فيحمد الله على نجاتها منها ، ويراهم الكافر غمًا إلى غمه ، وحسرة إلى حسرته .

٣٧ ، ٣٨ - فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَءَاثَرَ الْحَيْزَةَ الدُّنْيَا .

فأما من تجاوز الحد في الطغيان والخروج على أوامر الله ، وإيثار اللذائذ والشهوات ، ولم يستعد للأخرة بأعمالها .

٣٩ - فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى .

فإن مأواه ومآله هو نار الجحيم ، يصطلى بنارها ، ويذوق حميمها وغسلينها ، ويسام الذل والهوان فيها .

قال تعالى : كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدُحْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يُلْدُوهُوا الْعَذَابُ ... (النساء : ٥٦) .

٤٠ ، ٤١ - وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى .

من راقب الله ، واتبع أوامره ، واجتنب نواهيه ، وتذكر الوقوف أمامه للحساب والجزاء ، فأثر الآخرة على الدنيا ، ونهى نفسه عن هواها ، ومشتهياتها من الزنا أو السرقة أو الخمر أو أى معصية ، فإن مآله الجنة ، هي مأواه ومستقره ، يقيم فيها خالدًا مخلدًا أبدًا ، يتمتع فيها بالنعيم المقيم ، ورضوان الله رب العالمين .

٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ - يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا * إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَلِّئًا .

كان الكفار يكتثرون السؤال عن الساعة ، بعد أن تحدث القرآن الكريم عن القيامة ، والحاقة ، والطامة الكبرى ، والصاخة ، والواقعة ، فكانوا يتساءلون : متى تأتى ؟ ومتى يكون وقتها ؟

وكانوا يسألون عنها سؤال المنكر لمجيئها ، المستهزئ بوقوعها ، المتشكك فى حصولها أو حصول أهوالها ، فكانوا يقولون للنبي ﷺ : متى تكون الساعة ؟^(١٠)

وعلم الساعة غيب لا يعلمه إلا الله .

قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** . (لقمان : ٣٤) .

وفى صحيح البخارى أن جبريل جاء للنبي ﷺ فى صورة أعرابى ، فسأله عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، ثم عن الساعة ، فقال ﷺ : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» .^(١١١) .

فيم أنت من ذكر لها .

لقد أرسلناك لتدعو الناس إلى العمل للأخرة ، وأنت بشر لا علم لك بأمر الغيب ، ولا تستطيع أن تذكر لهم موعد الساعة ، ولا وقت مجيئها .

قال تعالى: **قُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** * **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْبَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** . (الأعراف : ١٨٧ ، ١٨٨) .

وقال تعالى: **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِشِجْزَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى** . (طه : ١٥) .

إِلَى رَبِّكَ مُتَهَلِّجًا .

إلى الله تعالى وحده منتهى علم الساعة ، ومعرفة وقتها ، وليس ذلك لأحد من البشر كائنًا من كان .

٤٥ - **إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَها** .

إنما أرسلك الله لتخوف الناس من عذاب يوم القيامة ، ولترشدهم للعمل والاستعداد لذلك اليوم .

قال ﷺ : «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» . وقرن بين أصبعيه الوسطى والسبابة .^(١١٢) .

وقد سئل النبي ﷺ عن الساعة ، فقال للسائل : «وماذا أعددت لها؟ فقال الرجل : ما أعددت لها كثير صلاة ، ولا كثير صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، فقال ﷺ : «يُحْشَرُ الْمَرْءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» .^(١١٣) .

٤٦ - **كَانَ لَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا غَشِيَةً أَوْ ضَحِيَةً** .

أى : إن الساعة قادمة ، وقدموها مؤكد ، وكل آت قريب ، وحين يشاهدونها ويرون أهوالها ، يتيقنون أن المدة التى مكثوها فى قبورهم لم تكن إلا غشية يوم أو ضحاه .

والعشية : من الزوال إلى الغروب .

والضحى : من طلوع الشمس إلى الزوال .

والمراد أنهم يستقصرون مدة المكث في الدنيا ، حتى كأنها كانت عشية من يوم أو ضحاه .

قال تعالى : كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ... (الأحقاف: ٣٥) .

وتنتهى الحياة الدنيا قصيرة جداً ، حتى كأنها عشية يوم أو ضحاه ، أفقرن أجل وقت قصير يُضحي الناس بالقيامة ، أى بالآخرة وما فيها من نعيم أبدى في الجنة ، أو جحيم أبدى في النار؟

★ ★ ★

تفسير سورة عبس

أهداف سورة عبس

(سورة عبس مكية ، وآياتها ٤٢ آية ، نزلت بعد سورة النجم)

وهي سورة تصحح القيم الإنسانية ، وتضع الأسس الإسلامية لأقدار الناس وأوزانهم ، وتؤكد أن قيمة الإنسان بعمله وسلوكه ، ومقدار اتباعه لهدى السماء ، قال تعالى : **إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ ...** (الحجرات : ١٣)

وقد نزلت سورة عبس في عبد الله بن أم مكتوم ، وأم مكتوم أم أبيه ، وأبوه شريح بن مالك بن ربيعة الزهري .

«وذلك أنه أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم ، فقال : يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر ذلك وهو لا يعلم شغله بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه ، وعبس وأعرض عنه ، فنزلت ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، ويقول إذا رآه : «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي» ، ويقول له : «هل لك من حاجة ؟ واستخلفه على المدينة مرتين .^(١)»

فقرات السورة

تعاتب الآيات الأولى النبي ﷺ على إعراضه عن عبد الله بن أم مكتوم ، وقد جاء يطلب الهدى ، ويكحف في طلب العلم . (الآيات ١ - ١٦) .

ويعالج المقطع الثاني جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده وأصل نشأته ، وتيسير حياته وتولى ربه له في موته ونشره ، ثم تقصير الإنسان بعد ذلك في أمر ربه . (الآيات ١٧ - ٢٣) .

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به ، وهو طعامه وطعام حيوانه ، وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له . (الآيات ٢٤ - ٣٢) .

والمقطع الأخير يعرض الصائغة التي يشتد هولها ، ويذهل الإنسان بها عما عداها ، وتنقسم الوجوه إلى ضاحكة مستبشرة ، وعابسة مغبرة . (الآيات ٣٣ - ٤٢) .

وتسكب السورة الإحساس بقدرة هذا الكتاب الخارقة على تغيير موازين الجاهلية ، وتصحيح القيم ، وتغيير المثل الأعلى ، فبعد أن كان احترام الإنسان لجاهه وماله ، أو منصبه ومركزه ، أو مظاهر سطوته وجبروته وقوته ، أصبح المثل الأعلى فى الإسلام هو طلب الحق والهدى ، والتزام هدى السماء ، ومراقبة الله والتزام أوامره ، والعمل بأحكامه ، وصدق الله العظيم : **إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ ...** (الحجرات: ١٣) .

وتبين آية أخرى أن الله يأمرنا بمكارم الأخلاق وينهانا عن المنكرات ، فيقول سبحانه : **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** .

(النحل: ٩٠)

مع آيات السورة

١ - ٢ - قطب الرسول ﷺ وجهه وأعرض ، لأن جاءه الأعمى وقطع كلامه . وفى العدول عن الخطاب للغبية إلفات بلاغى ، سره عدم توجيه اللوم والعتاب إلى الرسول ﷺ ، ثم التفت إلى الخطاب بعد هاتين الآيتين ، عندما هدأت ثورة العتاب وبدأ التلطف .

٣ - ٤ - وما يعلمك أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير ، وأن يتحقق منه خير كبير ، وأن يشرق قلبه بنور الإيمان ، فتنتفحه الموعظة : **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِ اللَّوْطِيَّةِ قُلُوهُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْ لَتَأْتِيَنَّ فِي ضَلَلٍ مُّبِينٍ** . (الزمر: ٢٢) .

٥ - ٧ - أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك ، وعما عندك من الخير والإيمان ، أما هذا فأنت تتصدى له ، وتحفل بأمره ، وأنت مبلّغ عن الله ، عليك البلاغ وليس عليك هداهم ، ولا يضيرك إعراضهم .

٨ - ١٠ - وأما عبد الله بن أم مكتوم الذى جاءك طائعاً مختاراً ساعياً يخشى ويتوقى ، فأنت تتشغل عنه بهؤلاء الأشراف من قريش ، ثم تتصاعد نبرة العتاب لتبلغ حد الردع والزجر .

١١ - ١٦ - كَلَّا . لا يحدث ذلك أبداً ، إن هداية القرآن غالبية عالية ، فمن شاء اهتدى بها وتذكر أحكامها ، واتعظ بها وعمل بموجبها ، وهذا الوحي كريم على الله ، كريم فى كل اعتبار ، منزّه عن النقص والضلالة ، قد دون فى صحف مكرمة ذات شرف ورفعة ، مطهرة من النقائص والضلالات ، تنزل بواسطة الملائكة على الأنبياء ، وهم يبلغونها للناس .

والملك سفير لتبليغ وحى السماء ، والرسول سفير لتبليغ الدعوة إلى الناس ، وهم كرام أبرار أطهار ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

وقد بلغ النبى الكريم وحى السماء ، وغَيَّر كثيراً من المفاهيم السائدة ، ومن اعتزاز الناس بمقاييس الجاهلية ، وجعل أسامة بن زيد أميراً على جيش به أجلاء الصحابة ، ووضع فى نفوس أصحابه تقدير الناس بأعمالهم فقط لا بأحسابهم وأنسابهم ، يقول عمر بن الخطاب : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته . ويقول عمر أيضاً : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا . أى : إن أبى بكر أعتق بلالا مؤذن الرسول ﷺ .

١٧ - ٢٣ - قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ . دعاء على الكافر ، فإنه ليستحق القتل على شدة كفره وجوده ، ونكرانه لنعم الله عليه ، لماذا يتكبر وهو مخلوق من أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمة من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره ؟ لقد خلقه الله من نطفة فمرت النطفة بأطوار كثيرة فى بطن الأم ، ومَرَّ هو بأطوار عدة خارج بطنها ، رضيعاً فطفلاً فشاباً فكهلاً فشيوخاً ، ثم يسر الله له سبيل الهداية ، ومنحه العقل والإرادة ، ومكنه من القدرة على الاختيار ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته .

قال تعالى : إِنَّا هَبْنَاهُ آلْسَبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِنَّمَا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

أى : ببئس له الطريق ومنحناه القدرة على الاختيار ، وبئساً له سبيل الهدى والضلال ، فيما أن يشكر ربه ويمتثل لأمره ، وإما أن يكفر بنعمه ويخالف أمره ، حتى إذا انتهت حياة الإنسان سلب الله روحه ، ومنَّ عليه بالموت وهو نعمة كبرى ، ولولا الموت لأكل الناس بعضهم بعضاً ، ولضاعت الأرض بمن عليها ، ومن نعم الله أن شرع دفن الميت ، وحفظه فى باطن الأرض ، حتى لا يترك على ظهرها للجوارح والكواسر .

ومن نعم الله أيضاً أن يبعث الموتى ، وينشرهم ويخرجهم من قبورهم ، لمكافأة الطائع ومعاقبة العاصى .

عجبا للإنسان الجاحد فإنه بالرغم من النعم الظاهرة والباطنة التى أحاطه الله تعالى بها لم يمتثل ما أمره الله به .

٢٤ - ٣٢ - فليتأمل الإنسان تدبير الله ، لإمداده بأسباب الحياة والنمو ، ولينظر إلى ألصق شئء إليه ، وألزم شئء له وهو الطعام ، كيف يسر الله الحصول عليه ، فقد أنزل الله سبحانه المطر من السماء ، فانتفعت به الأرض ، وانشقت عنه ثمانية أنواع من النبات ، هى :

- ١ - الحب ، كالحنطة والشعير والأرز .
 - ٢ - العنب والفاكهة .
 - ٣ - القصب ، وهو ما يؤكل من النبات رطباً وُغضاً طريا .
 - ٤ ، ٥ - الزيتون والنخل ، وفيهما من القيمة الغذائية الشيء الكثير ، والبلح طعام الفقير وحلوى الغنى ، وزاد المسافرين والمقيم .
 - ٦ - بساتين ذات أشجار ضخمة مثمرة ، وذات حوائط تحيط بها ، غُلُبا . جمع غلباء ، أى ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار .
 - ٧ - وفاكهة يتمتع الإنسان بأكلها ، كالتين والتفاح والخوخ وغيرها .
 - ٨ - والأب ، أى مرعى الحيوان خاصة .
- تلك قصة الطعام الذى أنبئته يد القدرة ، ويسرت لذلك المطر والرياح والشمس والهواء ، وعديدا من انعمال والأسرار الخفية ، فيمتنع بأكله الإنسان والحيوان .
- ٣٣ - ٤٢ - فإذا جاءت القيامة التى تصخ الأذان بسماع أهوالها ، فى ذلك اليوم يشتد الهول ، وينشغل الإنسان بنفسه عن أقرب الناس إليه ، ويفر من أخيه ، وأمه وأبيه ، وزوجته وبنيه ، لقد اشتد الفزع للنفسى ، ففر الإنسان ممن يفديهم بنفسه فى الدار الدنيا ، وقد شغله خوف الحساب ، ومشاهد القيامة ، ومظهر البعث والحشر والجزاء عن كل شيء .
- فى ذلك اليوم ترى وجوهاً مستنيرة مشرقة ترجو ثواب ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . وترى وجوهاً أخرى تغشاها غيرة الحزن والحسرة ، ويعلوها سواد الذل والانقباض ، هؤلاء هم الذين جحدوا آيات ربهم ، ولم يؤمنوا بالله ورسله ، وانتهكوا الحرمات وتعدوا حدود الله ، فاستحقوا كلمة العذاب .

مقاصد السورة

- ١ - عتاب الرسول ﷺ على ما حدث منه مع ابن أم مكتوم الأعمى .
- ٢ - ذكر شرف القرآن ، وبيان أنه موعظة لمن عقل وتدبر .
- ٣ - إقامة الأدلة على وحدانية الله بخلق الإنسان والنظر فى طعامه وشرايه .
- ٤ - أهوال يوم القيامة .
- ٥ - انقسام الناس فى الآخرة إلى سعداء وأشقياء .

المساواة في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۝٣ أَوْ يَذْكُرُ فَنُفَعَهُ الْذِكْرَى ۝٤
أَمَّا مَنْ اسْتَعْجَلَ ۝٥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۝٨ وَهُوَ يَخْشَى ۝٩
فَأَنْتَ عَنْهُ تُلَهَّى ۝١٠ كَلَّا إِنَّهَا لَذِكْرَةٌ ۝١١ لِمَنْ شَاءَ ذِكْرُهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٤
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾

المضردات :

عبس : قطب وجهه الشريف ﷺ .

تولى : أعرض بوجهه الشريف ﷺ .

لعله يزكى : يتطهر بتعليمك من دنس الجهل .

أو يذكرك : يتعظ بنصائحك .

تصددى : تتعرض له بالإقبال عليه .

جاءك يسعى : وصل إليك مسرعاً يبتغى ما عندك من العلم .

تلهى : تعرض وتشتاغل .

كلا : حقاً ، أو إرشاد بليغ لترك المعادة .

إنها تذكرة : إن آيات القرآن موعظة وتذكير .

في صحف : منتسخة من اللوح المحفوظ .

مكرمة : شريفة عند الله .

مرفوعة : رفيعة القدر والمنزلة عنده تعالى .

مطهرة ، منزهة عن أيدي الشياطين ، وعن النقص .

بأيدي سفرة ، كتبة من الملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ .

كــــرام ، أعزاء على الله تعالى .

بــــررة ، أتقياء مطيعين لله تعالى ، وهم الملائكة .

تمهيد :

تشتمل السورة على أدب السماء ، وتوجيه الله تعالى عباده إلى طريقة التعامل ، واحترام قيمة الإنسان ، فالإنسان إنسان بفضل عقله وأدبه وزكاه نفسه ، لا بماله وحشمه وخدمه ، والخلق كلهم عيال الله ، يتفاضلون عنده بالتقوى ، ويدركون ثوابه بالعمل الصالح .

قال تعالى : **إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَلُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** . (الحجرات : ١٣) .

سبب النزول :

أخرج الترمذى ، والحاكم ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : أنزل : **عَبَسَ وَتَوَلَّى** . فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا رسول الله ، أرشدنى . وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، فيقول له : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : «لا» ، فنزلت : **عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى *** ^(١) .

وأخرج أبو يعلى مثله عن أنس .

التفسير :

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ - **عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّه يُزَيِّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى** .

يجىء رجل فقير ضريب ، هو عبد الله بن أم مكتوم ، وأم مكتوم كنية أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله المخزومية ، وقد أسلم بمكة قديماً ، وكان أعمى ، وقد عمى بعد إبطار ، وقيل : ولد أعمى .

أتى رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش وأشرافها ، والرسول ﷺ يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم خلق كثير ، فقال ابن أم مكتوم : يا رسول الله ، أقرئنى وعلمنى مما علمك الله ، وكرر ذلك ، وهو لا يعلم انشغاله ﷺ بالقوم ، فكَرِهَ ﷺ قطعه لكلامه ، وظهرت الكراهية فى وجهه ، فعبس وأعرض عنه ، فنزلت هذه الآيات عتاباً لرسول الله ﷺ .

عَبَسَ وَتَوَلَّى * أُنْجَاءَ الْأَعْمَى .

بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ، وفي هذا الأسلوب إحياء بأن الأمر موضوع الحديث من الكرامة عند الله بحيث لا يحب سبحانه أن يواجه به نبيه وحبيبه ، عطفًا عليه ورحمة به ، وإكرامًا له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه .

والمعنى :

قطب النبي ﷺ وجهه وأعرض لأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى جاء إليه ساعيًا ، طالبًا من الرسول ﷺ أن يعلمه ، والأعمى لم يكن مشاهدًا للأشخاص الذين انشغل النبي ﷺ بمحاورتهم ومحاولة إقناعهم بالإسلام والقرآن والإيمان .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً أَلَذْكُرَى .

وما يعلمك يا محمد ، لعل هذا الأعمى الفقير يصير زاكياً متطهرًا من الذنوب بسبب ما يتعلمه منك ، أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ فتتفعه الموعظة ..

وكان هذا التصرف من رسول الله ﷺ بمثابة ترك الاحتياط وترك الأفضل ، وأراد الحق سبحانه أن يوجه الأمة كلها في شخص رسولها ﷺ ، أن تكون العناية بالمخبر لا بالمظهر ، فهذا الأعمى الفقير له رغبة في معرفة الحق وتعلم أمور الدين ، فالاتجاه إليه وتعليمه أولى من الانشغال بالأغنياء الأقوياء ، المعرضين عن الحق وعن الإسلام .

قال الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم ما يأتي :

فكأنه يقول : يا أيها النبي ، إن أقبلت فأقبل على العقل الذكي ، والقلب النقي ، وإياك أن تنصرف عنه إلى ذى الجاه القوى ، والمكان العلى ، فذلك إنسان بنفسه ، حتى بطبعه ، وهذا غائب عن حسه ، معدوم بذاته ، موجود بجمعه ، وفي ذلك من تأديب الله لأمة محمد ﷺ ما لو تأدبوا به لكانوا اليوم أرشد الأمم - هدامهم الله .

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً أَلَذْكُرَى .

بتجه التعبير إلى الخطاب ، فيقول للرسول ﷺ : وما يعلمك يا محمد ، لعل هذا الأعمى الفقير - إذا علمته - أن يتطهر ، وأن تشرق نفسه ، وأن يسمو قلبه ، أو أن تتسلل الذكرى إلى نفسه ، والموعظة إلى فؤاده ، فتتفعه هذه الذكرى ، وتوجهه إلى الخير والنفع ..

٥ ، ٦ ، ٧ - أَمَا مَنْ أَسْغَنِي * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي .

أما من استغنى عنك ، بثروته وماله وجاهاه ، وأعرض عن الإسلام والقرآن وداعية الإيمان ، فأنت تتعرض له ، متشاعلاً بالتصدي له ودعوته للإسلام ، وليس عليك هدايته ، ولا يضيرك عدم إيمانه ، ولا شيء عليك في ألا يتطهر من الكفر ، لأنك رسول مبلغ عن الله ، ليس عليك هداهم ، إن عليك إلا البلاغ .

ويقول الآلوسی فی تفسیره : والممنوع عنه فی الحقيقة الإعراض عن أسلم ، لا الإقبال على غيره ، والاهتمام بأمره حرصاً على إسلامه .

٨ ، ٩ ، ١٠ - وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى .

وأما من أتى إليك مسرعاً في طلب الهداية ، راغباً في الإرشاد والتوجيه والعظة بمواعظ الله ، وهو يخاف الله تعالى ، فأنت تتشاغل وتعرض عنه ، وتلهي عنه بالآخرين ، لذا أمره الله تعالى ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والغنى والفقر ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم يهدي الله تعالى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال تعالى : وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْشِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ... (الأنعام : ٥٢) .

وقال تعالى : وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْرِ وَالْعَيْشِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا . (الكهف : ٢٨) .

١١ ، ١٢ - كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ .

كَلَّا . أى : لا تفعل مثل هذا مرة أخرى ، إن هذه الصحف السماوية - ومنها القرآن الكريم - تذكرة للإنسان بريء ، وهذه التذكرة مودعة في الفطرة ، وترك للإنسان العقل والإرادة والاختيار ليتذكر ربه .

فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ .

من شاء ذكر ربه وآمن به ، أو من شاء ذكر القرآن واتعظ به ، أو من شاء ذكر الرسالة السماوية ، وآمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

١٣، ١٤، ١٥، ١٦ - فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مُّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

إن آيات القرآن مثبتة في صحف منتسخة من اللوح المحفوظ ، مكرمة عند الله جل وعلا ، لما فيها من العلم والحكمة ، ولنزولها من اللوح المحفوظ .

مُرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . رفيعة القدر عند الله لاشتغالها على أصول العقائد والآداب والأخلاق ، مُّطَهَّرَةٍ . منزهة عن النقص والضلالة ، محفوظة من عبث الشياطين والكفار لا يخالونها .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . محمولة بأيدي سفرة ، أى : وسائط من الملائكة يسفرون بين الله ورسله ، لتبليغ الوحي الإلهي للرسل الكرام .

قال تعالى : اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ... (الحج : ٧٥) .

وقال تعالى : نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ * عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤) .

كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

مكرمين عند ربهم ، مطيعين له ، كرام على الله ، فيهم بر بالمؤمنين وعطف عليهم ، حيث إنهم يدعون الله أن يغفر للتائبين ، وأن يحفظهم من السيئات ، وأن يشملهم برحمته .

قال تعالى : بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . (الأنبياء : ٢٦) .

وقال سبحانه : لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (التحريم : ٦) .

وقال عز شانه : الَّذِينَ يَخِمْلُونَ الْأَرْضَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (غافر : ٧ - ٩) .

وتطلق السفارة على الملائكة لأنها تسفر بين الله وبين الرسل ، وكذلك تطلق على الرسل لأنها تحمل رسالة الله إلى الناس ، كلاهما يطلق عليه سفرة .

وقال ابن جرير الطبري :

والصحيح أن السفرة : الملائكة ، وهم السفرة بين الله تعالى وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير ، أي : الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير .

أخرج الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) أن رسول الله ﷺ قال : «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه وهو عليه شاقٌّ ، له أجران»^(١٧) .

في ظلال القرآن

علّق صاحب الظلال بضع صفحات على صدر سورة عبس ، ذكر فيها أن الحق جل جلاله جعل هداية السماء عالية سامقة ، لا يخالها إلا من رغب فيها ، وقد استجابت نفس الرسول ﷺ وانفعلت بهذا التوجيه ، واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلّها ، وفي حياة الجماعة المسلمة ، لقد كان الإسلام ميلاناً جديداً للبشرية ، كميلاد الإنسان الأول .

وقد كان رسول الله ﷺ بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ، ويقول له كلما لقيه : «أهلاً بمن عاتبني فيه ربّي» ، وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة .

وقد أخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وجعل عمه حمزة ، ومولاه زيد بن حارثة أخوين ، وقد جعل زيداً أميراً في غزوة مؤتة ، وكان آخر أعمال رسول الله ﷺ أن أمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم ، يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وزياراه وصاحباه ، وقال ﷺ : «سلمان منّا أهل البيت»^(١٨) .

وأخرج الشيخان ، والترمذي ، عن أبي موسى قوله : قدمت أنا وأخي من اليمن فمكتنا حيناً ، وما نرى عبد الله بن مسعود وأمّه إلا من أهل بيت رسول الله ﷺ ، من كثرة دخولهما على رسول الله ﷺ ، ولزومهما له^(١٩) .

واستمر الخلفاء على هذا الهدى ، فمشى أبو بكر الصديق - وهو خليفة - يودّع بنفسه أسامة بن زيد ، ويقول : وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة . ثم يقول لأسامة : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل .

ثم تضي عجلة الزمن ، فنرى عمر بن الخطاب يولّي عمار بن ياسر على الكوفة .

ويقول عمر : أبو بكر سيّدنا وأعقّق سيّدنا . يعني بلالاً ، الذي كان مملوكاً لأمية بن خلف ، واشتراه أبو بكر وأعتقه .

وقد كان عبد الله بن عباس يُذكر ويُذكر معه مولاة عكرمة ، وكان عبد الله بن عمر يُذكر ويُذكر معه مولاة نافع .

وتمتّع كثير من الموالى بتولى الفتيا مثل : الحسن البصري بالبصرة ، ومجاهد بن جبر ، وعطاء بن رباح وغيرهم .

وظل ميزان السماء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها ، فى اعتبار أنفسهم ، وفى اعتبار الناس من حولهم .

★ ★ ★

نعم الله على الإنسان

﴿ قُلْ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ۖ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۖ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۖ (٢٠) ثُمَّ أَمَّأَهُ ۖ فَأَقْبَرَهُ ۖ (٢١) ثُمَّ إِذَا نَسَاءَ أَنْشَرَهُ ۖ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۖ (٢٣) ﴾

المضردات :

قتل الإنسان ، لُعن الكافر أو عذّب .

ما أكفـرـه : ما أشد كـفره ، وهو تعجيب من إفراطه فى الكفران .

فـتـسـره : أطواراً ، أو هيأه لما يصلح له .

ثم السبيل يسره : سهل له طريق الخير وطريق الشر ، وأقـدره على اختيار أيهما .

فـاقـبـره : أمر بدفنه تـكرمة له .

أنشـره : أحيـاه بعد موته للحساب والجزاء .

كـلا : زجر للإنسان عن ترفعه وتكبره .

لما يقض ما أمره : لم يفعل ما أمره الله به ، بل قصّر .

التفسير :

١٧ - قُلْ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ .

دعاء على الإنسان الكافر بالموت ، فما أشد كـفره ، حيث يرى نعم الله عليه فى نفسه وفى خلقه ، ثم يكفر بالله ولا يؤمن برسـله .

١٨ ، ١٩ ، ٢٠ - مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ • مِنْ تُطْفَةِ خَلْقِهِ فَقَدَرَهُ • ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ .

من أى شئ عقيق مهين خلقه ، من نطفة خلقه الله ، فَقَدَرَهُ . لما يصلح له فى الحياة ، فوهب له أطواراً فى بطن أمه ، وأطواراً فى حياته ، من مراحل الضعف إلى القوة ثم إلى الضعف والشيبة مرة أخرى ، تمهيداً للموت وهو نعمة أى نعمة ، وأمد الله الإنسان بالأطراف والأجزاء ، والأعضاء والأجهزة التى تساعد فى أداء رسالته فى الحياة .

ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ .

ألهمه الخروج من بطن أمه بأن فتح له رحمها ، وألهمه أن ينتكس فتكون رأسه إلى أسفل ، وأحاطه بكل أنواع الرعاية ، أو يسر له سبيل الخير والشر ، وأعطاه العقل والإرادة والاختيار .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ - ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ • ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ • كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ .

حين انتهت حياة الإنسان أمر الله أن يدفن فى الأرض تكرامة له ، ولم يتركه جزراً للسباع .

قال تعالى : مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . (طه : ٥٥) .

فالأرض أمتنا نأكل من خيراتها ، ونعيش على ظهرها ، وبعد الموت تدفن فى باطنها .

قال تعالى : أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا • أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا . (المرسلات : ٢٥ ، ٢٦) .

ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ .

إذا أراد الله وَقَدَّرَ البعث والنشور ، أمر إسرافيل فينفخ فى الصور النفخة الثانية ، فيقوم الناس لرب العالمين ، حيث يتم الحساب والجزاء ، فيساق المثلثون إلى الجنة ، ويساق المجرمون إلى النار .

كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ .

كَلَّا . حرف ردع وزجر لهذا الإنسان الكافر ، أو المقصّر فى القيام بحق الله عليه ، أى رغم هذه النعم فى الخلق والتكوين والنشأة ، وإمداد الإنسان بما يعاونه فى حياته مثل الأيدى والأرجل ، والسمع والبصر

والعقل ، لكن الإنسان لم يشكر الله حق شكره ، فمن الناس من كفر بالله وبالكُتب والرسل ، ومنهم من صدَّق وقصَّر في أداء الغرائض .

رُوى عن مجاهد وقتادة أن المراد أنه لم يقض جميع ما أمره الله به ، من أول زمان تكليفه إلى زمان إمامته وإقباله .

★ ★ ★

تيسير الطعام والفاكهة

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهَةً وَأَبَّا ﴿٣١﴾ مَنَّاعِلُكُمْ مَتَاعًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَعْلَمُكُمْ ۚ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا : أنزلناه من السماء إنزالًا عجيبيًا ، كأنه مراق من إناء .

شَقَقْنَا الْأَرْضَ : بالنبات ، أو بالحِث .

قَضْبًا : علفًا رطبًا للدواب كالبرسيم ، وسُمي قَضْبًا لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى .

غُلْبًا : واحدها غلباء ، أى ضخمة عظيمة .

الْأَبَّ : المرعى ، لأنه يؤب ، أى يؤم وينتجع .

مَنَّاعِلُكُمْ وَلَانِعَامِكُمْ : أنبتناه لكم لتتمتعوا به ، وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

تمهيد :

بعد ذكر الدلائل على قدرته تعالى ، وهى كامنة فى نفس الإنسان ، أردف ذلك بذكر الآيات المنبئة فى الأنفاق ، الناطقة ببديع صنعه تعالى وباهر حكمته .

التفسير :

٢٤ ، ٢٥ - فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا .

ليأمل الإنسان فى عجائب القدرة الإلهية التى خلقته ، ويسرت له طريقه إلى الحياة ، ثم يسرت له الطعام ليأكل ، والماء ليشرب ، والنبات والحَبُّ والبساتين ليتمتع هو وأنعامه .

وخلاصة معنى الآيتين :

تأمل أيها الإنسان فى طعامك ورزقك وأسبابه ، إن الله تعالى أنزل المطر من السماء متتابعًا .

٢٦ - ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا .

أى : يسرنا للإنسان حرث الأرض وتقليبها ، ليتسرب إليها الضوء والهواء ، أو شققنا الأرض بصنوف النباتات والحبوب التى يلقبها الإنسان فى الأرض ، فتشق طريقها إلى أعلى .

٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ - فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلَبًا * وَفَلَكَهًا * وَأَبْشًا * مَتْنًا لَكُمْ وَلِأَعْلَمِيكُمْ .

هذه ألوان النعم التى أنبتها الله من الأرض :

الحب : كالشعير والقمح والذرة ، والفول والتمرسم .

العنب : وهو معروف .

القضب : وهو الزرع الذى يقضب مرة بعد مرة ، وهو رطب مثل : البرسيم ، والجث وهو القث .

الزيتون : منه الأخضر والأسود ، ويعصر منه الزيت فيكون طعامًا وشفاء .

النخل : يستفيد الإنسان بالشجرة وبالرطب والبلح ، والسعف والخوص ، وكل شيء فى النخلة نافع .

حدائق غلب : بساتين ذات أشجار ضخمة ، ومتكاثفة كثيرة .

الفاكهة : وهى كل ما يتفكه به من الثمار ، أى يستمتع به ، كالتفاح والكمثرى والموز والخوخ والتين ونحوها .

الأب : والأب كل ما أنبتت الأرض ، مما لا يأكله الناس ولا يزرعونه ، من الكلال وسائر أنواع المرعى للحيوان ، مثل العشب والحشيش الذى ترعاه الدواب .

مَتْنًا لَكُمْ وَلِأَعْلَمِيكُمْ .

جعلنا ذلك متعة وتمتعيا لكم ولأنعامكم ، فاشكروه على آلائه وجزيل عطائه ، فقد ضمن لكم ولأنعامكم الحياة والمتاع ، فسبحانه سخر الأرض وهياها لاستقبال الإنسان ، وخلق الإنسان فى بطن أمه وجعله يمر بمراحل متعددة إلى الولادة ، ويمر فى حياته بمراحل أخرى ، من الطفولة والمراهقة والشباب ،

والرجولة والكهولة والشيخوخة، ويسرُّ له المطر والنبات والطعام، والفاكهة والمناخ له ولأنعامه، فسبحان من كَرَّمَ الإنسان، وسخر له الكون، وأرسل له الرسل، وأنزل الكتب، فسبحانه، سبحان الله العلي العظيم.

★ ★ ★

أهوال القيامة

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ ۖ﴾ ^(٣٦) **يَوْمَ يُقَالُ لِمَنْ أَخْبَىٰ** ^(٣٧) **وَأَمَدَهُ وَأَيُّهُ** ^(٣٨) **وَصَحْبِيهِ وَيَنْبِيَّهِ** ^(٣٩) **لِكُلِّ**
أَسْرَىٰ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ بَيْنِيهِ ^(٤٠) **وَجُودُهُ مُسْفِرَةٌ** ^(٤١) **ضَاحِكَةٌ مُنْتَبِشَةٌ** ^(٤٢) **وَوُجُوهُ** ^(٤٣) **يَوْمَئِذٍ**
عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ^(٤٤) **تَرْتَفُحُهُمْ** ^(٤٥) **أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْعَجُوزُ** ^(٤٦)

المضردات :

جاءت الصاخة، الصيحة تصمّ الأذان لشدّتها، والصخّ الضرب بالحديد على الحديد، فيُسمع إذ ذاك صوت شديد يحدث من تخريب الكون، ووقوع بعض أجرامه على بعض، ومن ثمّ سُميت صاخّة، وقارعة.

شبان : شغل .

یٰفَنّٰیہ : یصرفہ ویصدہ عن مساعدۃ ذوی قرابتہ .

مسفرة : مضيئة مشرقة ، يقال : أسفر الصبح ، إذا أضاء .

مستبشرة : فرحة بما نالت .

غُبيرة: غبار وكدورة تغشى وجوه الكافرين.

قَتْرَة : سواد كالِدُخَان .

الفجرة: واحدهم فاجر، وهو الخارج عن حدود الله، المنتهك لحرماته.

التفسير :

٣٣ - فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ .

من أسماء القيامة : القارعة . لأنها تقرر القلوب بأهوالها .

وَالصَّاعَةِ. لِأَنَّهُا تَصْخُ الْأَسْمَاعُ لَشِدَّةِ وَقْعِهَا، وَقَدْ وَصَفَتْ بِهَا الْنَفْخَةُ الثَّانِيَّةُ، لِأَنَّ النَّاسَ يَصِيخُونَ لَهَا، أَيْ يَسْتَمْعُونَ، تَدْفِعُهُمْ شِدَّتُهَا إِلَى أَنْ يَسْرِعُوا قِيَامًا يَنْظُرُونَ.

٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧ - يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَلْبِجَتِهِ وَيَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ .

أى: إذا جاءت الساعة وهي القيامة، فى ذلك اليوم يفرُّ المرء من أقرب الناس إليه، بداية من الأخ ومروراً بالأُم والأبّ، ووصولاً إلى الزوجة والأبناء، مع أنه كان فى الدنيا يفتديهم ويدفع عنهم السوء، ويحاول أن يحل مشاكلهم، ويشارك فى سرّائهم وضررائهم.

قال فى التسهيل: ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبائه، وربّتهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل، وختم بالأكبر، وذلك بذكر الأخ والأبوين لأنهما أقرب منه، ثم بالصاحبة والبنين لأنهما أحب.

وجاء فى غرائب القرآن: إن الفرار المعنى هو قلة الاهتمام بشأن هؤلاء، بدليل قوله تعالى: لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. أى: يصرفه ويصدّه عن قرابته.

وروى ابن أبى حاتم، والنسائى، والترمذى، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تُحْشَرُونَ حفاة عراة مشاة غرلاً» أى: غير مختونين. فقالت امرأة: أليظن بعضنا بعضاً، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ فقال ﷺ: «يا فلانة، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.»^(١٩) (قال الترمذى: حديث حسن صحيح).

وفى الحديث الصحيح: «إن الناس فى هول القيامة يلهمون أن الشفاعة للأنبياء، فيذهبون إلى آدم، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، فيقول كل نبى: نفسى نفسى، إن الجبار غضب اليوم غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله، فيذهبون إلى النبى ﷺ فيقول: «أنا لها، أنا لها»، ثم يؤتية الله الشفاعة.»^(٢٠)

فى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى فريقين: أهل الإيمان والتقوى، ويقابلهم أهل الكفر والعصيان.

٣٨، ٣٩ - وَجُودَ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَّةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ .

هؤلاء السعداء الذين أخلصوا لله فى الدنيا، وقاموا بالليل، وطهروا أطرافهم بالوضوء، وقلوبهم بحبّ الله وطاقته والتبتل إليه، ترى وجوههم مُسْفَرَّةٌ. مُسْفَرَّةٌ. مضئئة متהלلة من البهجة والسرور.

ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. بما تشاهد من نعيمها فى الجنة، ورضوان الله وفضله، ونيعمه ورويته، هذه السعادة فى قلوبهم يعنكس أثرها على وجوههم، فترى الضحك والسعادة والاستبشار بما سينالونه من النعيم.

قال تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَزَقَهُمْ مِنْ غَنَى رَبِّهِ. (البينة: ٨).

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ - وَجُودُهُ يُؤَمِّدُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ * تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ .

هؤلاء هم الذين آثروا حظوظهم العاجلة ، وأثرفوا بالشهوات ، وآثروا الحياة الدنيا ، وأتسموا بالطغيان والكفران .

وَجُودُهُ يُؤَمِّدُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ .

يعلوها الغبار والسود ، والمذلة والهوان من هول ما شاهدوا .

تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ .

يعلوها سود وظلمة على الحقيقة ، أو غم وحزن على المجاز .

وقيل : لا ترى أقبح من اجتماع الغبار والسود فى الوجه ، بمعنى أن على وجوههم غباراً وكدورة ، فوق غبار وكدورة .

أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ .

هؤلاء هم الذين كفروا بالله ، وجمعوا بين الكفر والفجور ، وهوارتكاب المعاصى واقتراف الموبقات ، فاستحقوا أن يتجللوا بالسود والقمام ، وأن يغشاهم الذل والمهانة ، نظراً لكفرهم وسوء أعمالهم وفجورهم .

اللهم أجربنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار ، اللهم آمين .

★ ★ ★

تم بفضل الله تفسير سورة (عبس) عشية يوم الجمعة ١٠ من صفر ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٤ من مايو ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة التكويد

أهداف سورة التكوير

(سورة التكوير مكية ، وآياتها ٢٩ آية ، نزلت بعد سورة المسد)

وتشتمل سورة التكوير على ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة فى هذا الكون ، حين تنتهى الحياة ، ويختل نظامها ، وينفطر عقد الكون وتتناثر أجزائه ، ويذهب عنه التماسك الموزون والحركة المضبوطة ، والصنعة المتينة .

والسورة تشتمل على مقطعين اثنين ، تعالج فى كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :

الأولى : حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كونى هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بنى الإنسان .

والثانية : حقيقة الوحى ، وما يتعلق بها من صفة المَلَك الذى يحمله ، وصفة النبى الذى يتلقاه ، ثم شأن المخاطبين بهذا الوحى معه ، ومع المشيئة الكبرى التى فطرتهم وأنزلت لهم الوحى .

مع آيات السورة

بدأ سبحانه هذه السورة الكريمة بذكر يوم القيامة ، وما يكون فيه من أحداث هائلة ، وحين تقع هذه الأحداث تعلم كل نفس ما قدمت من عمل خيراً كان أو شراً .

١ - إذا كورت الشمس وسقطت وتدهورت ، وانطفأت شعلتها ، وانكمشت ألسنحتها الملهبة ، وذهب ضوءها ، واختل نظام الكون .

٢ - وإذا تناثرت النجوم ، وأظلم نورها ، وذهب لألوها .

٣ - وإذا انفصلت الجبال عن الأرض ، وسارت فى الجو كما يسير السحاب ، وتبع ذلك نسفها ويسفها وتذريتها فى الهواء ، كما جاء فى سورة طه : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . (طه : ١٠٥) .

٤ - وإذا تُركت العشار وأمملت، والْعِشَارُ: هى النوق الحبالى فى شهرها العاشر، وهى أجود وأنتمن ما يملكه العربى، فإذا انشغل الناس عنها بأموال القيامة عطلت وأمملت.

٥ - وإذا اجتمعت الوحوش الكاسرة ذليلة هادئة قد نسيت غريزتها، مضت هائمة على وجوها لا تأوى إلى جحورها، ولا تنطلق وراء فرائسها، وقد حشرها هول الموقف ذاهلة متغيرة الطباع، فكيف بالناس فى ذلك اليوم العصيب؟

٦ - وإذا التهابت البحار وامتلأت نارا، أو فجرت الزلازل ما بينها حتى اختلطت وعادت بحرا واحدا.

٧ - وإذا اقترنت الأرواح بأبدانها، أو إذا قرن كل شبيه بشبيهه، وضمت كل جماعة من الأرواح المتجانسة فى مجموعة.

٨، ٩ - وإذا سئلت الموءودة بين يدي قاتلها عن السبب الذى لأجله قتلت، ليكون جوابها أشد وقعا على الولائد، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته.

وقد افتتن العرب فى الوأد، وكان الوأد يتم فى صورة قاسية، إذ كانت تدفن البنت حية، أو تجلس المرأة عند المخاض فوق بئر محفورة، فإذا كان المولود بنتا رمت بها فيها ودمتها، وإن كان ذكرا قامت به معها، وبعضهم كان إذا عزم على استبقاء بنته فإنه يمسكها إلى أن تقدر على الرعى، ثم يلبسها جبة من صوف أو شعر، ويرسلها إلى البادية ترعى له إبله، فلما جاء الإسلام سما بالمرأة وكرمها، وليدة وناشئة وزوجة وأما، وحرم وأد البنات وشفع ذلك بالتشنيع على من يفعله.

قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ يُؤْتِيكَهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (النحل: ٥٨، ٥٩).

١٠ - وإذا نشرت صحف الأعمال، وكشفت وعرفت فلم تعد مستورة بل صارت منشورة مشهورة.

١١ - وإذا السماء كشطت وأزيلت، فلم يبق غطاء ولا سماء.

١٢، ١٣ - وإذا أوقدت النار واشتد لهيبها ووهجها وحرارتها، وإذا أدنيت الجنة من المتقين تكريما وإيناسا لهم.

١٤ - عندما تقع هذه الأحداث الهائلة فى كيان الكون، وفى أحوال الأحياء والأشياء، علمت كل نفس ما قدمت من خير أو شر، وما تزودت به لهذا اليوم، وما حملت معها للعرض، وما أحضرت للحساب، وهى لا تستطيع أن تغير فيه ولا أن تبذل، فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

وهنا ينتهى المقطع الأول من السورة ، وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذى يتم فيه هذا .

الانقلاب .

المقطع الثانى

بعد أن ذكرت السورة من أحوال القيامة وأهوالها ما ذكرت ، أتبع ذلك ببيان أن ما يحدثهم به الرسول ﷺ هو القرآن الكريم الذى أنزل عليه ، وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتموه به من المعايير كقولكم : إنه ساحر أو مجنون أو كذاب أو شاعر ، ما هو إلا محض افتراء .

١٥ ، ١٦ - يقسم الله تعالى قسما مؤكدا بالكواكب الخمس : التى تخفى ، أى ترجع فى دورتها الفلكية ، الجوار الكس : التى تجرى وتعود إلى أماكنها .

١٧ - واللئيل إذا أدبر ولى وزالت ظلمته ، وإذا أقبل ظلامه .

١٨ - والصبح إذا أسفر وظهر نوره ، وفى ذلك بشرى للأنفس بحياة جديدة فى نهار جديد ، ومن الجمال فى هذا التعبير إضفاء الحياة على النهار الوليد ، فإذا الصبح حى يتنفس .

«وأكد أجم أن اللغة العربية لا تحتوى نظيرا لهذا التعبير عن الصبح ، رؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ، ثم يجىء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التى يشعر بها»^(١) .

١٩ - ٢٢ - وجواب القسم : إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر لقول رسول كريم ، وهو جبريل الذى حمل هذا القول وأبلغه ، فصار قوله باعتبار تليغه .

وينكر صفة هذا الرسول الذى اختير لحمل هذا القول وإبلاغه ، فينعتة بخمسة أوصاف ، هى :

١ - (كريم) أى : عزيز على ربه .

٢ - (ذى قوة) فى الحفظ والبعد عن النسيان والخطأ .

٣ - (عند ذى العرش مكين) أى : ذى جاه ومنزلة عند ربه .

٤ - (مطاع ثم) أى : هناك فى الملأ الأعلى عند الله فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرن عن أمره ويرجعن إليه .

٥ - (أمين) على وحى ربه ورسالاته ، قد عصمه من الخيانة فيما يأمره به ، وجنبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

هذه صفة الرسول المبلغ وهو جبريل عليه السلام ، أما الرسول الذي حملته إليكم وخاطبكم بالقرآن فهو صاحبكم الذي عرفتموه حق المعرفة عمرا طويلا ، وعرفتم عنه الصدق والأمانة ، وليس مجنوننا كما تدعون .

٢٣ - ولقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام ، وهو بالأفق الأعلى عند سدرة المنتهى بالأفق المبين ، أى رآه رؤية واضحة عند الأفق الواضح .

٢٤ - وليس محمد ﷺ بالمتهم على القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام ، بل هو ثقة أمين لا يأتي به من عند نفسه ، ولا يبدل منه حرفا بحرف ، ولا معنى بمعنى ، إذ لم يُعرف عنه الكذب فى ماضى حياته ، فهو غير متهم فيما يحكيه عن رؤية جبريل وسماع الشرائع منه .

٢٥ - وليس القرآن قول شيطان ألقاه على لسان محمد حين خالط عقله كما تزعمون ، فالشياطين لا توحى بهذا النهج القويم .

٢٦ - ثم يسألهم مستنكرا : فَأَيُّ تَلْهُبُونُ . أى : فأى سبيل تسلكونها وقد سُدت عليكم السبل ، وأحاط بكم الحق من جميع جوانبكم ، ويطلت مفترياتكم ، فلم تبق لكم سبيل تستطيعون الهرب منها .

٢٧ - ثم بين حقيقة القرآن فقال : إِنَّهُ هُوَ الْإِذْكَرُ لِلْعَالَمِينَ . أى : ليس القرآن إلا عظة للمخلوق كافة ، يتذكرون بها ما غرز فى طباعهم من حب الخير ، وهو ذكر يذكرهم بحقيقة نشأتهم ، وحقيقة وجودهم ، وحقيقة الكون من حولهم ، وهو أعظم عظة للعالمين جميعا .

٢٨ ، ٢٩ - وإن على مشيئة المكلف تتوقف الهداية ، فمن أراد الحق واتجه بقلبه إلى الطريق القويم ، هداه الله إليه ، ويسر له أمره ، وأمدّه بالعون والتوفيق ، وبذلك يستقر فى قلب كل إنسان أن مشيئته طرف وخط راجع فى أصله إلى مشيئة الله الكبرى وإرادته المطلقة ، فليجأ كل إنسان إلى ساحة مولاه ، وإلى عناية خالقه ، فعنده سبحانه العون والتوفيق ، والهدى والسداد : وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

موضوعات السورة

- ١ - وصف أهوال القيامة .
- ٢ - القسم بالنجوم وبالليل وبالصبح على أن القرآن منزل من عند الله بواسطة ملائكته .
- ٣ - إثبات نبوة محمد ﷺ .
- ٤ - بيان أن القرآن عظة وذكر لمن أراد الهداية .
- ٥ - مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب ، وليس لها استقلال بالعمل .

أحوال القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّمَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⑭ ﴾

المفردات :

الشمس كورت : أزيل ضياؤها ، أو لُفَّت وطويت .

انكدرت : تساقطت وتهاوت وتناثرت .

الجبال سيّرت : أزيلت من أماكنها .

العشار صطلت : النوق الحوامل أهملت بلا راع لا يشغال الناس بأنفسهم ، وكانت موضع اهتمامهم لأنها أنفس أموالهم .

الوحوش حشرت : جمعت من كل صوب .

النفوس زوّجت : قرنت كل نفس بشكلها .

الموءودة : البنت التي تدفن حية .

كشطت : نزعَت وقُلعت .

سُعِرَت : أوقدت إيقادًا شديدًا .

أزلفت : قرّبت وأدْنيت من المتقين .

التفسير:

١ - إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ .

هذه الآية وما بعدها من علامات اضمحلال هذا الكون ونهايته ، حيث تتغير المعالم ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويختل نظام الكون ، وقد تكرر لفظ : إِذَا . في الآيات الأولى من سورة التكوير اثنتى عشرة مرة ، وجواب الشرط قوله تعالى : عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيََتْ .

وتكرير لفظ : إِذَا . اثنتى عشرة مرة من مقاصده التشويق للجواب ، لأن السامع عندما يجد هذا الظرف قد تكرر ، يكون فى ترقب وشوق لمعرفة الجواب .

والمعنى :

إذا شاخت الشمس ، وانطفأ نورها ، وأصبحت من النجوم القزمة التى أدت دورها ، ووجب أن تلف وتطوى ، فتكوّر تمهيداً لذلك .

٢ - وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ .

ذهب نورها ، وانطفأ لألوانها ، وتساقطت من أماكنها ، كقوله تعالى : وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْفَضَّتْ . (الانفطار: ٢)

٣ - وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .

تمرّ الجبال بمراحل يوم القيامة ، فهى أوتاد تمسك بالأرض وتحفظ توازنها ، فإذا انتهت الحياة الدنيا اقلعت الجبال من أماكنها ، وتفتتت وصارت هُلاماً أشبه بالصوف المنفوش ، ثم سُيِّرَتْ من أماكنها ، ومَرَّتْ مِنَ السَّحَابِ ، ثم صارت سرايا ، وهو ما يراه الظمآن وقت الظهيرة كأنه ماء ، فإذا جاء إليه لم يجده شيئاً .

قال تعالى : وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبا: ٢٠) .

٤ - وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ .

وهى النِّياق التى مرّ على حملها عشرة أشهر ، وهى أجود الأموال عند العرب ، حيث يهتم بها صاحبها قبيل ولادتها ، فإذا قامت القيامة أهملها صاحبها لانشغاله بأمور نفسه .

وقال القرطبي :

إن تعطيل العشار تمثيل لشدة الكرب ، وإلا فلا عشار ولا تعطيل ، كأنه قال بعد ذكر ما سبق من تكوير الشمس ، وانكدار النجوم ، وتسجير الجبال : وكان من هول هذه الحوادث ، ما يصرف حاضرها عن أكرم الأشياء عليه ، حتى لو كان عنده عشار لَعَطَلَهَا وأَهْمَلَهَا .

٥ - وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ .

تُحْشَرُ الوحوش ذليلة كسيرة ، لا لجرم ارتكبت ، ولكن حشرها هول الموقف ، لقد فقدت خاصيتها وهي الافتراس أو الفرار من البشر ، لكنها حُشِرَتْ من هول الموقف ، ومن تصدّع الكون ، ومن الانفجار العظيم الذي تتزلزل معه الأرض ، وتنشق السماوات ، وتُسَيرُ الجبال ، وتكور الشمس ، وتتكدر النجوم ، وتبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، ويرزّ الجميع لله الواحد القهار ، تحشر الحيوانات حتى يُقَادَ للشاة الجماء من الشاة القرناء ، كما ورد في صحيح مسلم .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد اشتداد الهول ، وأنه لا حشر ولا حساب إلا للثقلين الإنس والجن ، حيث أودع الله فيهما العقول والإرادة والاختيار والتكليف .

قال تعالى : وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . (الذاريات : ٥٦) .

ويقول حجة الإسلام وجماعة : الحديث المروى عن مسلم والترمذى ، وإن كان صحيحا ، إلا أنه لم يخرج مخرج التفسير للآية ، ويجوز أن يكون كناية عن العدل التام .

ويقول فريق آخر من المفسرين : نؤمن بالآية وبالقرآن كما ورد ، ونصدق أن الوحوش ستُحْشَرُ كما ذكر القرآن صراحة ، ولا نوافق على التأويل .

٦ - وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ .

سجر التنور : أوقده نارا .

وقد ورد في مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : «إن تحت البحر نارا ، وتحت النار ماء» .

فإذا اختل نظام الكون وتقطعت أوصاله ، وسُيِّرَتِ الجبال ، حدثت الزلازل التي تجعل النيران تغلب على البحار .

وقد قال القرآن الكريم في موضع آخر : وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . (الانفطار : ٣) .

قال صاحب الظلال :

تفجير عناصر المياه ، وانفصال الهيدروجين عن الأكسجين فيها ، أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع فى تفجير الذرة ، وهو أشدّ هولاً ، أو على أى نحو آخر ، وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار ، فإن تفجير قدر محدود من الذرات فى القنبلة الذرية أو الهيدروجينية ، يحدث هذا الهول الذى عرفته الدنيا ، فإذا تفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشرى يعجز عن تصوّر هذا الهول ، وتصور جهنم الهائلة التى تنطلق من هذه البحار الواسعة .^(٣٧)

ومن المفسرين من ذهب إلى أن تسجيل البحار ، هو أن تقطع الزلازل والبراكين ما بينها من حواجز ، حتى تصبح بحراً واحداً يختلط فيه الماء العذب بالماء الملح ، ورجح الشيخ محمد عبده هذا الرأى^(٣٨) ، كما رجحه الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن ، ولم يقبل الرأى الأول ، وهو تحوّل الماء إلى نار .

أما الأستاذ الدكتور زغلول النجار^(٣٩) فقد رجّح أن تسجيل البحار هو تحوّلها إلى نار بسبب انفصال الأكسجين عن الهيدروجين .

واعتبر ذلك من إعجاز القرآن الكريم ، حيث أشار إلى معانٍ علمية أكدها العلم بعد زمن طويل من نزول القرآن الكريم ، وقد نزلت على نبيٍّ أمّى ، لا علم له بذلك إلا عن طريق الوحي .

وقد أيد العلم وجود طبقات من النار تحت البحار ، ويؤيد ذلك ما نراه فى الزلازل والبراكين التى تقذف بالحمم والنيران الملتهبة ، والصخور المذابة التى تتحول إلى صهارة سائلة من أفر البراكين .

قال الشيخ محمد عبده :

وقد يكون تسجيل البحار إضرامها نارا ، فإن ما فى باطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا ، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ، ولا يبقى فى البحار إلا النار ، أما كون باطن الأرض يحترق على نار فقد ورد به بعض الأخبار ، حيث ورد أن البحر غطاء جهنم ، وإن لم يعرف فى صحيحها ، ولكن البحث العلمى أثبت ذلك .^(٤٠)

وفى ختام هذه الآية أذكر القارئ بأن التفسير العلمى للقرآن الكريم له ثلاثة اتجاهات :

- ١ - الاتجاه الأول : رفض التفسير العلمى للقرآن جملة وتفصيلاً ، ومن رواد هذا الاتجاه الإمام الشاطبى فى كتابه (الموافقات) ، الذى ذهب إلى أن القرآن الكريم ينبغى أن يفهم كما فهمه العربى أوّل مرّة ، ورفض الإمام الشاطبى التأويل العلمى للقرآن ، وحذا حذوه جانب من العلماء .

٢ - الاتجاه الثاني : يرى أن القرآن الكريم كتاب علم ، وقد اشتمل على ألوان من الإعجاز ، منها : الإعجاز الغيبي ، والإعجاز العلمي ، والإعجاز اللفظي ، والإعجاز البياني ، وفي العصور القديمة ساد التحدى بالإعجاز اللفظي والأسلوبى والبلاغى ، أما فى العصور اللاحقة فقد ساد التحدى بالإعجاز العلمى ، ومن أساطين المفسرين فى ذلك الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير ، والشيخ طنطاوى جوهري فى العصر الحديث .

٣ - الاتجاه الثالث : وهو اتجاه وسط بين الاتجاهين ، يرى أن القرآن الكريم كتاب هداية بالدرجة الأولى ، وأن الله أنزل القرآن هدى ونورا ليتدبر الناس آياته ، ويتفهموا معانيه ، ويعملوا بأوامره ، ويتجنبوا نواهيه ، والأساس عندهم أن ينكبُّ الناس على فهم روح القرآن ومقاصده ، وأهدافه العليا ، وآفاقه السامقة كما هو ، وإذا حدث أن تأكد لدينا دليل علمى فلا بأس من ذكره بجوار تفسير القرآن ، للاستئناس به وبيان صدق القرآن الكريم الذى تأكد بالعلم ، وتأييد بالدليل والبرهان ، ومن أئمة الاتجاه الثالث الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراعى شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، فهو يقول :

لا ينبغي أن نجر الآية إلى العلم عند تفسيرها ، ولا أن نجر العلم إلى الآية ، ولكن إن كانت هناك حقيقة علمية مقررّة فلا بأس من ذكرها عند تفسير الآية .

وهذا الاتجاه اتجاه وسط ، ينصب ويتجه إلى القرآن بالدرجة الأولى ، ويستشهد من حقائق العلم بتصوير ما ، بحيث لا يهبط للمشاهد أن القرآن الكريم كتاب طبيعة أو كيمياء أو جغرافيا أو طبوغرافيا أو فلك أو طبقات الأرض ، أو غير ذلك من العلوم المدنية أو العسكرية أو غيرها .

فنحن أمام كتاب معجز بذاته ، وهدايته وصدقه ، وأخباره وأسلوبه ، وفصاحته وبلاغته ، ومع ذلك فإن العلوم والفنون لم تصطدم بأى حقيقة علمية قررها القرآن ، بل إن العلم ينزع إلى تأكيد صدقه .

كما قال سبحانه : سَتَرْنَاهُمْ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . (فصلت : ٥٣) .

والخلاصة : القرآن غالب غير مغلوب ، فاطمئنوا على حفظه وإعجازه ، وسيروا فى بيان إعجازه العلمى على مهل وهدهد ، وركّزوا على بيان هدايته حين أنزل ، وحين بعث أمة كانت خير أمة أخرجت للناس ، ولا مانع من بيان الإعجاز العلمى بالقدر المناسب الميسر ، والله ولى التوفيق .

٧- وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ .

أى : اختلطت الأرواح بالأجساد بعد إعادة نشأتها .

قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ، ... (الأنبياء : ١٠٤) .

وقيل : المعنى : اقتران الأخيار بالأخيار ، والفجار بالفجار .

وقيل : اقتران السابقين الممتازين بالسابقين الممتازين ، والمتوسطين أصحاب اليمين بالمتوسطين أصحاب اليمين ، والكفار الفجار بالكفار الفجار .

كما قال تعالى فى سورة الواقعة : وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً . (الواقعة : ٧) .

أى : كنتم أصنافا ثلاثة ، هم : السابقون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال .

وقيل : تفتقرن كل نفس بكتابها وعملها ، وقيل : يُقرن الأزواج بزوجاتهم .

قال تعالى : إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِيهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ .

(يس : ٥٥ ، ٥٦)

٨ ، ٩- وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ . .

الموءودة : هى المقتولة ظلما ، وقد كان العرب يندون البنات مخافة الفقر أو العار ، حتى لا تسبى فى الحرب .

وكان منهم من إذا أراد قتل ابنته ، تركها حتى تكمل ست سنوات ، ثم يقول لأمها : زَيْنِيهَا وَطَيِّبِيهَا حتى تلحق بأحمائها (أقاربها) ، ثم يأخذها إلى الصحراء ، وقد حفر لها بئرا ، فيقول لها : انظرى فى هذه البئر ، ثم يدفعها من خلفها ، ثم يسوى عليها تراب البئر .

ومنهم من كان يمسك البنت إلى أن تكبر ، ثم يلبسها جبة من صوف ، ويتركها ترعى الإبل ويمسكها على الذل ، وقد شنع القرآن على هذه العادات ، ونهى عن فعلها ، وكان النبى ﷺ قدوة حسنة فى إكرام البنات وتعليمهن وإحسان معاملتهن .

وأكرم الإسلام المرأة وليدة وناشئة وزوجة وأمًا ، وشنع القرآن على إهانة البنت أو قتلها .

قال سبحانه وتعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْكُنُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (النحل : ٥٨ ، ٥٩) .

وفى هذه الآية الكريمة : وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . نجد القرآن الكريم يصور مشهداً مؤثراً ، مشهد القاتل الذى أزهق روح المقتولة بلا ذنب ولا جريمة ، يؤتى به موثقاً ثم توقف المقتولة فتُسأل : ما هو الذنب الذى ارتكبه حتى قُتلت ؟ وتجب الموءودة : لم أرتكب ذنباً ، وإنما ظلمت ظُلماً ، وعندئذ يحسن الظالم بما فعل ، حتى يوشك ألا يستطيع النطق من هول ما فعل ، وسؤال الموءودة فيه إهمال للوائد ، كأنه فقد الإنسانية حتى قتل ابنته ، وهى تستغيث به فلا يغيثها ، فليس أهلاً للسؤال .

قال فى البحر المحيط :

وهذا السؤال للموءودة لتوبيخ للفاعلين للوائد ، لأن سؤالها يؤول إلى سؤال الفاعلين .

قال المفسرون : بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ .

وسؤال الموءودة عن سبب القتل هو سؤال تَلَطَّف ، لتقول : قُتلت بلا ذنب ، أو لتدل على قاتلها ، أو لتوبيخ ذلك القاتل ، بصرف الخطاب عنه تهديداً له ، فإذا سُئل المظلوم فما بال الظالم ؟

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير الآية :

فانظر إلى هذه القسوة ، وغلظ القلب ، وقتل البنات البريئات بغير ذنب ، سوى خوف الفقر أو العار — كيف استبدلت بالرحمة والرافة بعد أن خالط الإسلام قلوب العرب ، فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها ، بمحوه هذه العادة القبيحة. (٣٧) .

١٠ - وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

هى كتب الأعمال التى عملها الإنسان فى الدنيا، وسُجِّلت فى صحيفته ، تُنشر الصحف يوم القيامة ، ويأخذ المؤمن كتابه بيمينه ، فإذا قرأه ابيضَّ وجهه . ويأخذ الكافر كتابه بشماله ، فإذا قرأه اسودَّ وجهه من الغم والذل ، حيث يجد كلُّ ما عمل من الكفر والظلم مسجلاً .

قال تعالى : وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

١١ - وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ .

تشققت وأزيلت ، ونزعت وقُلعت ، فلم يبق لها وجود .

قال تعالى : يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَتَرَوُنَّ إِلَهًا وَاحِدًا قَهَّارًا . (إبراهيم : ٤٨) .

وكشط السماء : إزالتها ، كما يكشط الجلد عن الذبيحة ، والغطاء عن الشيء المستور به ، ولن يبقى في ذلك اليوم غطاء ولا سماء .

١٢ - وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ .

أوقدت جهنم ، واستعدت لعذاب الكافرين وإيلائهم .

قال قتادة : سَعَرُهَا غَضِبَ اللَّهُ ، وخطايا بني آدم ، وقد ورد أن جهنم تتلمظ غيظا وغضبا على من عصى الله .

قال تعالى : نَكَادُ نَمِيزُ مِنَ الْغَيْظِ ... (الملك : ٨) .

وقال سبحانه : وَبُرِّرَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . (الشعراء : ٩١) .

١٣ - وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ .

وإذا الجنة قُرِبت من أهلها ، وفتحت لهم أبوابها ، وتزيّنت لاستقبالهم ، فرحة بهم ، مسرورة بإسعادهم .

قال تعالى : وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . (ق : ٣١) .

وقال عز شانه : وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . (الزمر : ٧٣) .

١٤ - عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ .

وهذه الجملة جواب لكل ما تقدم من أول السورة ، أى : إذا انتهى ضوء الشمس والنجوم ، وسُيرت الجبال من أماكنها ، وغُطلت العشار ، وحشرت الوحوش ، وصارت البحار نار الله الكبرى ، وافتقرن الأخيار بالأخيار والفجار بالفجار ، وسُئلت المقتولة ظلماً بأى ذنب قُتلت ، وإذا تطايرت صحف الأعمال ، وإذا أزيل الغطاء الذى فوقنا فلم تبق فوقنا سماء ، بل لم يبق فوق ولا تحت ، وإذا توقدت النار واشتد لهيبها ، وإذا

قُرِيت الجنة من أهلها ، عند حدوث هذه الأشياء السابقة ستجد كل نفس عملها حاضرًا مشاهدًا ، وستجد الثواب والعقاب موضحًا لهذا العمل .

والمراد : اعملوا وأخلصوا في دنياكم ، فستجدون ذلك أمامكم يوم القيامة .

قال تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَاللَّهُ زَعُوفٌ بِالْعِبَادِ . (ال عمران : ٣٠) .

★ ★ ★

القرآن وحى الله نزل به جبريل الأمين

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَنَاسِ ١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْيُنِينِ ٢٣﴾ وَمَاهُو عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤﴾ وَمَاهُو يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾

المضردات :

فلا أقسم : أقسم ، و (لا) مزيدة .

بالخَنَاسِ : بالكواكب السيارة تخنس نهارًا وتختفى عن البصر ، وهى فوق الأفق .

الجواري الكُنَّس : الكواكب السيارة التى تجرى مع الشمس والقمر ، وترجع حتى تختفى مع ضوء الشمس .

الْكُنَّس : التى تكنس فى أبراجها ، أى تستتر ، فهى تختفى تحت ضوء الشمس ، من كنس الظبى أو الوحش : إذا دخل كِنَاسَه ، وهو بيته المُتَّخَذ من أغصان الشجر .

عَسْعَس : أقبل ظلامه أو أدبر ، فهو من أَلْغَاظ الأضداد .

تَنَشَّس : أضواء وظهر نوره .

إنه لقول رسول جبريل عن الله ، وهو جواب القسم .

مَكِين : ذى مكانة رفيعة وشرف .

مَطَاع : تطيعه ملائكة السماء .

ثُمَّ : هناك .

أَمِين : على الوحي والرسالة .

رَأه : رأى الرسول محمد ﷺ جبريلَ بصورته الحقيقية .

الغُيُوب : الوحي وخبر السماء

بُضْنَيْن : لا يبخل بالوحي ، ولا يقصر فى التبليغ .

تمهيد:

يقسم سبحانه وتعالى على صدق القرآن ، وأن جبريل تلقاه عن الله ، وبلغه للرسول الأمين ﷺ ، وأن جبريل ليس بمتهم ولا مقصر فى تبليغ الرسالة ، فأين تسيرون ؟ القرآن يُكر للعالمين ، لمن رغب منكم فى الهداية .

التفسير:

١٥ ، ١٦ - فَلَا أُقْسِمُ بِالنُّجُومِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ .

أى : أقسم بالنجوم التى تخنس بالنهار ، أى ترجع ويختفى ضوءها عن الأبصار ، مع طلوعها وكونها فوق الأفق . وتكنس بعد ظهورها فى الليل ، أى تستتر فى مغيبها وتختفى فيه ، فتكون تحت الأفق بعد أن كانت فوقه ، كما تستتر الظباء فى كُنُسها .

قال القرطبي :

النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، وتكنس وقت غروبها أى تستتر .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

والنُّجُومُ الجوار الكُنُوسُ : هى الكواكب التى تخنس ، أى ترجع فى دورتها الفلكية ، وتجرى وتختفى ، والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء ، وهى تجرى وتختبئ فى كناسها ، وترجع من ناحية أخرى فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيقة الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إحياء شعورى بالجمال فى حركتها ، فى اختفائها وفى ظهورها ، فى توارىها وفى سفورها ، فى جريها وفى عودتها ، يقابله إحياء بالجمال فى شكل اللفظ وجرسه .

وجاء في التفسير القرآني للقرآن ما يأتي :

والخنس : هي الكواكب إذا طلع عليها النهار وَخَسَتْ ، أي غابت واختفت معالمها عن الأنظار .

والجوار الكُنُس : هي هذه الكواكب في حال ظهورها بالليل ، ثم تغيبها في الأفق الغربي بفعل حركة الأرض ودورانها اليومي من الغرب إلى الشرق ، والكناس مأوى الظباء ، ويبيتها الذي تسكن فيه ، والخنس جمع خنساء ، وهي الظبية تدخل في كناسها ، ومن هذا سمى العرب به بعض بناتهم ، ومنهن الخنساء الشاعرة المعروفة ، تشبها بالظبية في جمالها وتحركها الرتيب الهادئ على مسرح مرعاها ، حتى إذا غرت الشمس عادت إلى كناسها واختفت فيه . (١٩) .

وقال ابن كثير :

فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُسِ ۖ الْجَوَارِ الْكُنُسِ .

هي النجوم تخنس بالنهار ، وتظهر بالليل ، وتجري من مكان إلى آخر بقدرته تعالى ، ثم تكنس أي تستتر وقت غروبها ، كما تتوارى الظباء في كنسها .

١٧ - وَآلِيلٌ إِذَا عَسَّسَ .

عسس : من أَلْفَاظِ الْأَضْدَادِ .

فيكون المعنى : والليل إذا أقبل وستر الكون بظلامه .

كما قال تعالى : وَآلِيلٌ إِذَا يَغْشَى ۖ وَآلْهَارٌ إِذَا تَجَلَّى . (الليل : ١ ، ٢) .

واختار ابن كثير هذا المعنى فقال :

وعندي أن المراد بقوله : إِذَا عَسَّسَ . إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله في الإدبار أيضا ، لكن الإقبال هنا أنسب ، كأنه أقسم بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضائه إذا أشرق .

ومن المفسرين من اختار أن المراد من هذه الآية ومن التي تليها وهي :

١٨ - وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ .

أن الحق سبحانه وتعالى يقسم بالليل إذا تبدد ظلامه وضعف ، وبالنهار إذا بدأ يتنفس بعد الفجر ، كأنه حيٌ يتمطى ، ويزيح الظلام ، ويتنفس بالحياة والحركة ، فكلما تنفس الصباح هرب الليل وأدبر بين يديه (٢٠) .

وفى ذلك المعنى يقول الله تعالى : **كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَصْفَرَ** . (المدر: ٢٢ - ٢٤) .

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ - إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ .

إن القرآن الكريم كلام الله ، نقله جبريل عليه السلام ، وبلغه إلى محمد ﷺ ، فنسب القول إلى جبريل باعتبار البلاغ الذى قام به ، أى بلاغ رسول كريم هو جبريل عليه السلام ، أرسله الله بالوحي ليبلغه إلى محمد ﷺ .

كريم . فى ذاته ، كريم على ربه سبحانه وتعالى .

ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .

جبريل صاحب قوة على حمل هذه الأمانة وحمل الوحي ، أو إذا كُلف بشيء قام به ، فقد حمل قري قوم لوط إلى أعلى ، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها .

ومكانة جبريل عند ذى العرش سبحانه وتعالى ، أى عند العظيم القدير .

مَكِينٍ . هو صاحب مكانة ومنزلة سامية عند الله سبحانه وتعالى .

مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ . مطاع فى ملائكة السماء ، يصدر عنه ، وهو أمين على الوحي حتى يبلغه .

ومن هذه الصفات السامية التى اختص الله بها جبريل أمين الوحي ، تتضح أهمية هذا الوحي ، وأيضا مكانة الإنسان عند الله ، حيث أرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، واختار جبريل عليه السلام وسيطا بين الحق سبحانه ورسوله محمد ﷺ ، ليبلغ الوحي إلى عباد الله ، وذلك من كرامة العبد على ربه .

وصدق الله العظيم : **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ... (الإسراء: ٧٠)** .

٢٢ - وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ .

محمد ﷺ نشأ بينهم صغيرا ، وشهدوا له بالصدق والأمانة ، وشاهدوا رجاحة عقله ، وكمال فهمه ، وصائب رأيه ، فلما نزل عليه الوحي ، قالوا : إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ ، لأن هذا الوحي الرفيع المستوى لا يقوله عاقل ، وهو فوق طاقة البشر ، ولو أنصفوا لقالوا إنه كلام الله .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِجَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** . (الأعراف: ١٨٤) .

وقال تعالى: **أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ .**

(الدخان: ١٣، ١٤)

٢٣ - وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ .

رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية بين السماء والأرض ، بالأفق الأعلى الواضح المظهر لما يرى فيه من جهة المشرق ، وهى الرؤية الأولى بمكة ، الواقعة عند غار حراء .

ثم رأى محمد ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى عند سدة المنتهى ، وذكر ذلك فى صدر سورة النجم .

قال تعالى : **وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ خَلِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمْسِرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ .** (النجم : ١ - ١٤) .

٢٤ - وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ .

ليس محمد ﷺ بمتهم حين يخبر أنه يرى جبريل على صورته الحقيقية ، وأنه يتلقى عنه الوحي ، وأنتم عرفتموه وخبرتموه شابا وناشئا صادقا أميناً ، ومحمد ﷺ كان لا يضمن بالوحي ، ولا يحتفظ به لنفسه ، بل يبلغه فور وصوله إليه .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ .** (المائدة : ٦٧) .

٢٥ - وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيسٍ .

اختارت قريش فى هذا الوحي ولم يتبثروا على قول ، فقالوا : إن الذى يتكلم به محمد قول لقاء الشيطان على لسانه حين خالط عقله ، فنفى الله تعالى عنه الجنون ، ونفى أن يكون القرآن من كلام الشياطين ، فالشيطان يأمر بالفحشاء والبخل ، والقرآن يأمر بالإحسان وإيتاء الزكاة وإخراج الصدقات .

وقد حكى القرآن أن الأمم جميعاً رموا أنبياءهم بالجنون .

قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَوٍ. (الذاريات: ٥٢).

٢٦ - فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ .

أتى طريق تسيرون فيه ، وقد قامت عليكم الحجة ، وسُدت عليكم المنافذ ، ودخل القرآن عليكم من كل باب ، وعرض عليكم أدلته واضحة ناصعة ، فأى طريق تسيرون فيه ، أما يكفي أنكم تركتم النور والهداية ، والإسلام والإيمان ، وأبيتم إلا السير فى طريق الكفر والغواية ، والهوى والظلام ، فأين تذهبون فى هذا الظلام الدامس ؟ إنه لا يوصل إلا إلى المهالك ، فأقصروا عن طريقكم ، وتبصروا عاقبة كفركم وظلمكم .

٢٧ - إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .

القرآن وحى الله لرسوله ﷺ ، يبلغه إليكم ، وهو ذكر وتذكرة للناس أجسيين ، ليذكروا ربهم وخالقهم ، ويعرفوا طريق الحق والهدى والإيمان ، ويتركوا طريق الكفر والغواية وطاعة الشيطان .

٢٨ - لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ .

لمن أراد منكم أن يستقيم على الجادة والصواب ، فقد حمل القرآن مفاتيح الهداية ، ولغت الأنظار إلى دلائل الإيمان ، ودخل على الناس من كل باب ، وسد عليهم كل منفذ للشرك أو الكفر ، أو اتباع الهوى والشيطان .

فمن أراد الاستقامة على الطريق الحق ، وعلى جادة الصواب ، فالقرآن فيه الذكر والتذكرة لمن أراد أن يدخل الإسلام من بابه ، وأن يستقيم على منهج الله ، وعلى الصراط المستقيم .

٢٩ - وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .

إن الهدى بيد الله ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو سبحانه صاحب الخلق والأمر ، فالعبد له إرادة وكسب واختيار ، والله تعالى مسبب الأسباب ، والمشيئة بيده ، والجمع بين إرادة العبد وإرادة الله تعالى يحتاج إلى شيء من الانحناء والتسليم .

والخلاصة : من أراد الاستقامة فالقرآن أمامه ، وباب الله مفتوح للجميع ، لكن الأمر يحتاج إلى اجتهاد العبد ورغبته فى الخير والاستقامة ، ويحتاج إلى هداية الله وتوفيقه ، فعلينا جميعاً أن نلجأ إليه سبحانه ، داعين مستغفرين ، تائبين طالبين منه سبحانه المعونة والتوفيق .

قال تعالى: وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ. (هود: ٨٨).

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الانفطار

أهداف سورة الانفطار

(سورة الانفطار مكية ، وآياتها ١٩ آية ، نزلت بعد سورة النازعات)

وقد بدأت سورة الانفطار مثل سورة التكوين بالحديث عن أهوال القيامة ، لكنها تحدثت عنها في أسلوب مختصر ، وإيقاع هادئ عميق ، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاث فقرات :

الفقرة الأولى : من بداية السورة إلى الآية الخامسة ، وتحدث عن انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت في ذلك اليوم الخطير .

الفقرة الثانية : من الآية (٦) إلى الآية (٨) ، وتبدأ بلمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة .

الفقرة الثالثة : من الآية (٩) إلى الآية (١٩) ، تقرر علة هذا الجحود والنكران ، فهي التكذيب بالدين - أي بالحساب - وعن هذا التكذيب ينشأ كل سوء وكل جحود ، ومن ثم تؤكد هذا الحساب توكيدا ، وتؤكد عاقبته وجزائه المحقوق ، وتصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل .

مع آيات السورة

تبدأ السورة بتصوير نهاية العالم واختلال نظامه ، وانفراط عقده ، ويتمثل ذلك في أمرين علويين وأمرين سفليين : أما الأمران العلويان فهما انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأما الأمران السفليان فهما تفجير البحار وبعثرة القبور .

١ - إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، وهذا عند خراب العالم بأسره .

قال تعالى : وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزُلِ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا ۖ أَلَمَلِكٌ يَوْمَئِذٍ ۗ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان : ٢٥ ، ٢٦) .

٢ - وفى هذا اليوم تتساقط الكواكب وتنفرد : وَإِذَا الْكَوَاكِبُ ائْتَرَتْ . أى : تساقطت متفرقة ، والكواكب تجرى الآن فى أفلاكها بسرعات هائلة ، وهى ممسكة فى داخل مداراتها لا تتعداها ، فإذا انشقت السماء تبع ذلك سقوط الكواكب وانتشارها ، ونهابها فى الفضاء بدءاً ، كما تذهب الذرة التى تنفلت من عقاليها .

٣ - وفى هذا اليوم تزول الحواجز بين البحار ، فيختلط العذب بالملح ، وتغمر البحار اليابسة ، وتطفى على الأنهار ، كما يحتمل أن يكون تفجيرها هو تحويل مائها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين .

٤ - وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ . أى : أثيرت وقلب أعلاها أسفلها ، وباطنها ظاهرها ، ليخرج من فيها من الموتى أحياء للحساب والجزاء .

٥ - عند حدوث كل هذه الظواهر تعلم كل نفس ما قدمت من الطاعات وما أخرت من الميراث .

٦-٨ - يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غُرُّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّبَكَ قَعْدَكَ . أى شىء خدعك حتى ضيعت ما أوجب عليك ربك ، وصرت تقصر فى حقه ، وتتهاون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ، وهو ربك الكريم الذى أئدق عليك من كرمه وفضله ويزه ، فخلقه سوياً ، معتدل القامة ، متناسب الخلق ، من غير تفاوت فيه «فلم يجعل إحدى اليدين أطول ، ولا إحدى العينين أوسع ، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود»^(٢٩) .

فى أى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ . أى : ركبك فى صورة هى من أعجب الصور وأتقنها وأحكمها ، وقد كان قادراً أن يركبك فى أية صورة أخرى يشاؤها ، فاختار لك هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله ، وإن الجمال والاعتدال ليظهر فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء .

وهناك مؤلفات كاملة فى وصف كمال التكوين الإنسانى العضوى ، ودقته وإحكامه ، وتؤكد جلال القدرة المبدعة التى أبدعت خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ويسرت خلقه من نقطة ثم من علقه ثم من مضغة . ثم سوته خلقاً كاملاً ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

«وهذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدى : الجهاز العظمى ، والجهاز العضلى ، والجهاز الجلدى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز الدموى ، والجهاز التنفسى ، والجهاز التناسلى ، والجهاز الليمفاوى ،

والجهاز العصبى ، والجهاز البولى ، وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر ، كلٌ منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التى يقف الإنسان مذهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته ، وهى أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس» .^(٢٠)

وتقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان فى مقدمة العجائب الغذة ، وإنه من الصعب جدا - بل من المستحيل - أن يبتكر آلة تضارع اليد البشرية ، من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف ، فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة ، وهذه اليد هى التى تصصح وضعه تلقائياً ، وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة ، واليد تمسك القلم وتكتب به ، وتستعمل كافة الآلات التى تلزم الإنسان من ملعقة إلى سكين ، إلى آلة الكتابة ، وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان ، واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة ، وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما»^(٢١) .

«وإن جزءاً من أذن الإنسان (الأذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ فى الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية ، ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعد إلى خفيف الشجر ، فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية فى الأوركسترا ووحدها المنسجمة»^(٢٢) .

«ومركز حاسة الإبصار فى العين ، التى تحتوى على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهى أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذى يقيها ليلاً ونهاراً ، والذي تعتبر حركته لا إرادية ليمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس . بما تلقى الأهداب على العين من ظلال ، وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع ، فهو أقوى مطهر»^(٢٣) .

«وجهاز الذوق فى الإنسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة فى حلقات غشائه المخاطى ...» .

«ويتكون الجهاز العصبى - الذى يسيطر على الجسم سيطرة تامة - من شعيرات دقيقة ، تمر فى جميع أنحاء الجسم ، وتتصل بغيرها أكبر منها ، وهذه بالجهاز المركزى العصبى ، فإذا ما تأثر أى جزء فى الجسم ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المخ ، حيث يمكنه أن يتصرف» .

«ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية فى معمل كيمائى ، وإلى الطعام الذى نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك تَوّاً أنه عملية عجيبة ، إذ نهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها»^(٢٤) .

وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشيء الكثير، فالإدراك العقلى، واختزان المعلومات، والإدراك الروحى لجلال الله، كلها تدل على سعة عطاء الله وحكمته، وكرمه وفضله على الإنسان.

٩ - ١٢ - كَلَّا . ارتدعوا عن الاغترار بكم ربكم لكم ، بل تكذبون بالحساب والمواخذة والجزاء ، وهذه هى علة الغرور وعلة التقصير ، وإنه لموكل بكم ملائكة يحفظونكم ويسجلون أقوالكم وأعمالكم ، ويحسونها عليكم ، وهؤلاء الملائكة كرام ، فلا تؤذوهم بما ينفرهم من المعاصى ، وإن الإنسان ليحتشم ويستحيى وهو بمحضر الكرام ، من أن يسف أو يتبذل فى لفظ أو كلمة أو حركة أو تصرف ، فكيف به حين يشعر أنه فى كل لحظاته فى حضرة حفظة من الملائكة كَرَامٍ ، لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال أو الفعال؟

وهؤلاء الملائكة يكتبون كل شيء ، ولا تخفى عليهم خافية من أعمالكم ، فإنهم يعلمون ما تفعلون سرا أو علنا ، والملائكة قوى من قوى الخير ، منهم الحفظة والكتبة ، ومنهم من ينزل بالوحى على الرسل ، وقد أمدهم الله بقوة خاصة يستطيعون بها إنجاز ما يوكل إليهم من مهام .

وليس علينا أن نبحث عن كنه هؤلاء الحفظة ، ولا عن كيفية كتابتهم لأعمالنا ، ويكفى أن يشعر القلب البشرى أنه غير متروك سدى ، وأن عليه حفظة كَرَامًا كَلِيمِينَ . يعلمون ما يفعله ، ليرتعش ويستيقظ ويتأدب ، وهذا هو المقصود .

١٣ - إن الأبرار صدقوا فى إيمانهم بأداء ما فرض عليهم ، واجتناب ما نهوا عنه ، وسيكونون ممتعين فى نعيم الجنة .

وليس البر مقصوراً على الصلاة والصيام ، ولكن البر عقيدة صادقة ، وسلوك مستقيم ، ويتمثل ذلك فى القيام بالواجب ، ومعاونة المحتاج ، والاهتمام بأمر المسلمين ، والحرص على نفع العباد ، وكف الأذى وصلة الرحم ، وزيارة المريض ، ومواساة البائس ، وتعزية المحزون ، والتخلق بأداب الدين .

قال تعالى: لَنْ تَأْكُلُوا أَرْضَ آبَرٍ حَتَّى تُفْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُفْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . (ال عمران : ٩٢).

١٤ - ١٦ - إن الفجرة العصاة لفى نيران متأججة ، يدخلونها يوم القيامة ، بعد أن يحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة ، وما هم عن جهنم بغائبين قط لخلودهم فيها .

١٧ - ١٩ - ولما كان يوم الدين هو موضوع التكذيب ، فإن السياق يعود لتعظيمه وتضخيمه فيقول : وَمَا أَزْنَرْكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ . فهو فوق كل تصور ، وفوق كل توقع ، وفوق كل مألوف ، وتكرار السؤال يزيد فى

وصف الهول: ثُمَّ مَا أَفْزَلُكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ. أى: ثم عجب منك أن تتهاون بنبأ هذا اليوم وهوله الشديد، وهو يوم لا تستطيع فيه نفس أن تنفع نفسها أخرى، فكل نفس مشغولة بهمها وحملها عن كل من تعرف من النفوس، والأمر كله فى ذلك اليوم لله وحده، فهو القاضى المتصرف فيه دون غيره.

مقاصد السورة

- ١ - وصف أهوال يوم القيامة.
- ٢ - تقصير الإنسان فى مقابلة الإحسان بالشكران.
- ٣ - بيان أن أعمال الإنسان موكل بها كرام كاتبون.
- ٤ - بيان أن الناس فى هذا اليوم: إما بررة منعمون، وإما فجرة معذبون.

مشاهد القيامة ، ونعم الله على الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوْنَكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ⑧ ﴾

المفردات :

إذا السماء انفطرت : تشققت وتصدعت .

انشَرت : تساقطت متفرقة .

وإذا البحار فجرت : تشققت جوانبها فصارت بحراً وحداً .

وإذا القبور بعثرت : قلب ترابها ، وأخرج موتها .

ما قدمت وأخبرت : ما قدمت من الأعمال ، وما أخبرت منها بسبب الكسل .

ما غررك بربك : ما خدعك وجرأك على عصيانه .

فَسَوَّاهُ : جعل أعضاءك سوية سليمة .

فَسَوَّاهُ : جعلك معتدلاً ، متناسب الخلق والأعضاء ، فليست يد أو رجل أطول من الأخرى .

في أي صورة ما شاء ركبك : ركبك وكونك في أي صورة ، أي : هي من أعجب الصور وأحكمها .

التفسير :

١ - إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ .

تشققت وتصدعت وتهدم بناؤها ، ونهب تماسكها ، وصارت هلاماً غير متماسك ، كزبد الزيت .

قال تعالى : فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ . (الرحمن : ٣٧) .

وقال عز شأنه: وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزُلِ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا * أَلَمَلِكٌ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا . (الفرقان: ٢٥، ٢٦) .

وهذا المعنى ورد في السورة السابقة - سورة التكويد - وفي سور أخرى ، وتفيد مشاهد القيامة في القرآن أنه عند نهاية عمر الدنيا ينفرط عقد الكون ، ويختل توازنه ، ويذهب تماسكه وتكامله .

وقد ذكر هنا أمران علويان ، هما : انفطار السماء ، وتناثر الكواكب ، وأمران في الأرض ، هما : انفجار البحار ، وتبعثر القبور .

والمقصود : العظة والاعتبار واستيلاء الهول على قلب الإنسان حتى يعمل الصالحات ، ويتجنب الموبقات .

٢- وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ .

تناثرت وتساقطت ، وانقطعت الجاذبية بينها ، فانفرط عقدها ، كعقد الجواهر حين يقطع الحبل الذي يربط بين حياتها فتراه متناثرا .

وقد أقسم الله بمواقع النجوم ، وبين أنه قسم عظيم ، لأن مواقع النجوم في السماء ، وسيرها وظهورها بالليل ، واختفاءها بالنهار ، هذه الحركة البديعة الرشيدة ، المتماسكة المنتظمة ، تراها عند نهاية الدنيا وقد انفرط عقد النجوم ، وتناثرت وفقدت ما بينها من ترابط .

٣- وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ .

وإذا تشققت البحار ، وفُتحت جوانبها ، وزال ما بينها من الحواجز ، واختلط ماؤها العذب بالماء المالح ، حتى صارت بحرا واحداً ، ويحتمل السياق تفجير ماؤها إلى عنصريه : الأكسجين والهيدروجين ، كذلك يجتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين ، كما يقع في تفجير القنابل الذرية والتهيدروجينية اليوم ، أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر ، على كل حال .. إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال .

٤- وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ .

أي : انقلب وضعها ، وصار أعلاها أسفلها ، وأسفلها أعلاها ، وألقت الأرض أنقالها ، وخرج الناس من القبور مسرعين للحساب والجزاء .

٥ - عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدِمْتُ وَأَخَّرْتُ .

هذه الآية جواب القسم من أول السورة ، أى : إذا انشقت السماء ، وتناثرت الكواكب ، واشتعلت البحار .
نارًا ، وبعث الأموات من القبور .

عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدِمْتُ وَأَخَّرْتُ .

أى : علمت كل نفس ما قدمت فى الدنيا من الأعمال ، وما أخرت من المال للورثة .

أو ما استمتعت به فى الدنيا وحدها ، وما أخرته للأخرة بعدها .

والمقصود : سبرى الإنسان عمله كاملا وما فعله طول حياته ، وسبرى عاقبة الإخلاص أو الرياء ،
والآية تعرض فى مشهد حى مشاهد كأنها تقول للإنسان : سبرى عملك فى يوم القيامة ، فحاول أن يكون
عملك مفيدا لك ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

٦ - يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ .

ينادى الإنسان ويذكّره بتكريم الله تعالى له ، فقد خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد
له الملائكة ، وكرّم الإنسان ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وفتح أمامه أبواب السموات الروحية والعقلية ،
وسخر الله له الكون ، وأمدّه بسائر النعم ..

قال تعالى : وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

(إبراهيم : ٣٤)

ومن كرم الله أنه لا يعجل بالعقوبة على العصاة ، بل يؤجل عقوبتهم ، ويقبل توبة التائبين ، ويغفر
للمستغفرين ، ويتوب على العصاة والمذنبين إذا أنابوا إليه ، ورجعوا إلى حماه .

ومع هذا الكرم العظيم نجد الإنسان يستمتع بنعم الله ، ولا يؤدى حق الله ، وأحيانا يبارز مولاه ،
كما قال القائل :

وَلَمْ لَا أَنُوحْ عَلَى الْمَعَاصَى وَقَدْ بَارَزْتُ جِبَارَ السَّمَاءِ

رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ : يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ .

فقال : «غرّه الجهل» .

وقال مثل ذلك عمر رضى الله عنه ، وقرأ : إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا . (الأحزاب : ٧٢) .

وقيل : غره عفو الله إذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة ، وقيل : غره عدوه المسلط عليه ، وهو الشيطان .

وقد أخرج ابن أبى حاتم ، عن عكرمة فى قوله تعالى : يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . قال : نزلت فى أبى بن خلف ، وقيل : نزلت فى أبى الأشد بن كلدة الجمحى ، وقال ابن عباس : الإنسان هنا هو الوليد ابن المغيرة .

والأصح أن الآية تتناول جميع العصاة ، لأن خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذى نزلت الآية من أجله .

٧ - الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ فَعَدَلَكَ .

الله الذى خلقك من نطفة مهينة ، فيسر لها التلقيح ، وأن تصير علقة ثم مضغة ، إلى أن صارت بشراً سوياً ، وتدرج بك من الطفولة إلى اليقظة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الشيخوخة .

وجعلك قائماً غير منتصب ، مستوى الجوارح ، فلم يجعل يداً أطول من يد ، ولا رجلاً أطول من رجل ، ولم يجعل بعضك أبيض وبعضك أسود ، بل خلقك فى أحسن تقويم .

٨ - فَبِئْسَ أَهْلَ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ .

اختار الله لك الصورة التى شاءها ، فجعلك ذكراً أو أنثى ، طويلاً أو قصيراً ، وغير ذلك من الصفات التى يتفاوت فيها الناس حسب حكمة الحكيم العليم ، وإن اختلاف الناس فى الحسن مما يدل على كمال اقتدار الله تعالى ، وعظيم إبداعه .

قال تعالى : لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فَبِئْسَ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . (التين : ٤) .

الكرام الكاتبون

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنُيِينَ ﴿١١﴾ يَعْمَلُونَ مَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

المضردات :

كـ _____ لا ردع وزجر.

تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ، بِالْبَعْثِ أَوْ بِالْجَزَاءِ أَوْ بِالْإِسْلَامِ .

وإن عليكم لحافظين، وإن عليكم من الملائكة لمحصين، رقباء لأعمالكم، لا يفتوهم منها شيء.

كراما، ذوى أفعال طاهرة محمودة، ومحاسن كبيرة.

الأبــــــــــــرار: الذين برُّوا وصدقوا في إيمانهم .

لَفِي نَعِيمٍ: لفي نعمة كبيرة، والمراد بها الجنة.

الفجر: جمع فجر، وهو مَنْ سَقَّ ستر الدين وجاهر بالعصيان. من الفجر وهو شق الشيء شقاً واسعاً.

لفى جحيم: لفي النار في الآخرة.

يصلونها: يدخلونها أو يقاسون حرّها.

التفسير :

٩ - كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ .

ارتدعوا وانزجروا عن الغرور، وعن الكفر بنعمة المنعم سبحانه وتعالى.

إِنَّ عِلَّةَ غُرُوبِكُمْ وَإِهْمَالِكُمْ أَمْرَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَانْصِرَافِكُمْ إِلَى الشَّهَوَاتِ ، وَفِرَارِكُمْ مِنْ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَأَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ ، وَحِينَ يَكْذِبُ الْإِنْسَانُ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا تَنْتَبِعُ فِيهِ هِمَّةٌ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ ، بَلْ يَرَى الدُّنْيَا كُلَّهَا هُمَةً ، فَيُؤْثِرُ شَهَوَاتِهَا وَإِذْعَاتِهَا .

أما حين يؤمن المؤمن بربه ، ولقائه وحسابه وجزائه ، فعندئذ تنبعث الهمة من قلبه لأداء الفرائض ، والبعد عن المحرمات ، وقد يزداد حب المؤمن لربه ، فيحب كل ما يرضيه ، فتراه غارقاً في مرضاة الله ، بعيداً عن معصية الله .

روى البخارى أن الرسول ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» (٢٩) .

١٠ - وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ .

لله حفظة من الملائكة ، يحفظون العبد بحفظ الله ، ويسجلون عليه الأعمال التي يعملها ، وكل ما يصدر عنه .

قال صاحب الجوهرة :

بكلّ عبد حافظون وگلو وگاتبون خيرة لن يهملوا
من أمره شيئاً فعل ولو ذهل حتى الأنين في المرض كما نقل

١١ - كِرَامًا كَثِيرِينَ .

هم كرام على الله ، أصحاب منزلة رفيعة ، ومكانة عظيمة ، ومحاسن جمّة ، وهم يكتبون كل ما يصدر عنكم ، ويسجلونه في صحائف أعمالكم ..

والإنسان يستحي من الرجل الكريم ، أن يعمل أمامه عملاً شائناً ، فما باله بملك كريم ، يسجل عليك ما تفعل ، ويكتب حسناتك وسيئاتك ، وملك الحسنات على العاتق الأيمن ، وملك السيئات على العاتق الأيسر ، والأول أمين على الثاني ، فلا يمكنه من كتابة السيئة إلا بعد مضي ست ساعات من غير مكفر لها .

ويكتبان كل شيء ، حتى الاعتقاد والعزم ، وحتى الأنين في المرض ، ويفارقان المكلف عند الجماع ، وعند الاغتسال ، وعند دخول الخلاء .

أخرج البزار ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ينهاكم عن التعرّي ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل» .

١٢ - يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ .

يعلمون أعمالكم ، ويسجلونها عليكم ، للجزاء العادل يوم القيامة ، فاستحيوا من الله حق الحياء ، واحفظوا أنفسكم عن معصية الله .

ولله در القائل :

لَمْ لَا أَنْسُوح وَأَنْسَدِب وَجَمِيع جَسْمِي مَذْنِبٌ
نَفْسِي لَقُبْحُ فَعَالِهَا بَيْنَ الْوَرَى تَنَادِبٌ
مَلَكُ الْيَمِينِ أَرْحَمُهُ لَمْ يَلْقَ شَيْئًا يَكْتِبُ
مَلَكُ الشِّمَالِ بَعْسَهُ لَيْلًا نَهَارًا يَتَعَبُ

وقد ورد في الأثر : أن كل فرد له عشرة من الملائكة ، منهم الحفظة .

قال تعالى : لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ يَمِينٍ وَيُدْخِلُهُنَّ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... (الرعد : ١١) .

ومن الملائكة : الكتبة الذين يسجلون على العبد أعماله ، بدون زيادة أو نقصان ، وقد سماهم الله : كِرَامًا كَاتِبِينَ . فهم عدول أمناء ، يفرحون بالعبد الطائع ، ويتألمون لمعصية العاصي ، لكنهم أمناء في كتابتهم وشهادتهم .

قال تعالى : هَلْئَلَا كُنْتُمْ يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجنابة : ٢٩) .

وفي صحيح البخارى يقول النبى ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر وفي صلاة الفجر ، أقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا . (الإسراء : ٧٨) . فيصعد الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : يا ربنا تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون ، فاغفر لهم يوم الدين» (٣٧) .

والإيمان بالملائكة عقيدة من عقائد المسلم ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهم قوى روحية ، منهم من ينزل بالوحي كجبريل عليه السلام ، ومنهم حملة العرش ، وهم الكروبيون الذين يدعون الله أن يرفع الكرب عن أمة محمد ﷺ ، ومنهم المكلف بالرياح والأمطار والخصب والنماء ، ومنهم المكلف بالخسف والزلازل ، ومنهم من ينفع فى الصور وهو إسرافيل عليه السلام .

وللملائكة قوة فوق قوة البشر ، وقدرة على تنفيذ ما وُكِّلوا به من الأعمال ، فمنهم المبشرون بالجنة الذين يحملون السلام والبشرى للمؤمن عند خروج روحه ، وعند دخوله الجنة .

ومنهم ملائكة العذاب الذين يتكفلون بالعصاة ، وحراسة جهنم ، وقد أفاد القرآن أن خزنة جهنم تسعة عشر ملكا ، فادَّعى أهل مكة أنهم قادرون على الإحاطة بهم ، فأفاد القرآن أن قدرتهم فوق طاقة البشر ، وربما كانوا تسعة عشر رئيسا أو فريقا أو صنفا ، وقد جعل الله عددهم اختبارا لإيمان المؤمن ، وإعلاما لأهل الكتاب بصدق القرآن وصدق محمد ﷺ .

قال تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ • لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ • لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ • عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ • وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا ... (المدر: ٢٦ - ٣١) .

١٣ - إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ .

إن الأبرار الذين توسَّعوا فى عمل البرِّ ، فأطاعوا ربَّهم ، وبرُّوا والديهم ، ونفَّذوا أحكام الإسلام ، وعطفوا على الفقراء والمساكين ، على نحو ما ورد فى سورة البقرة ، فى قوله تعالى :

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفَى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ . (البقرة: ١٧٧) .

وقد ورد أن البرَّ شئ هين ، وجه طليق وكلام لين ، وقيل : البرُّ هو الذى لا يؤذى الذرَّ ، أى : لا يؤذى عباد الله مطلقا .

هؤلاء الأبرار الطائعون المتقون الأخيار ، يشملهم الله برحمته ويدخلهم جنته ، وفيها صنوف النعيم والتكريم .

١٤ - وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِّىَ جَحِيمٍ .

وإن الفجرة الذين شقوا وهتكوا ستر الدين ، وجاهروا بالمعاصى ، ولم يستجيبوا لأمر الله سبحانه وتعالى ، هؤلاء يدخلون الجحيم ، وهى النار المستعرة التى اشتد لهيبها وعظم تأججها .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار .

١٥ - يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ .

يصلطون بنار الجحيم يوم القيامة ، يوم يدين الناس لرب العالمين ، فهو الملك وحده ، ولا يدعى الملك يومئذ ملك ولا جبار ، بل ينطق الكون كله حين يتجه إليه السؤال : لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر: ١٦)

١٦ - وَمَا هُمْ بِغَائِبِينَ .

لن يفلتوا من عذاب جهنم ، ولن يغيبوا عنها ، ولن ينقطع عنهم العذاب ، لأنه عذاب أبدي سرمدي ، كقوله تعالى : وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ... (المائدة: ٣٧) .

أو أن المعنى : إن العذاب مستمر عليهم ، فى القبر ، وفى عرصات القيامة ، كما قال ﷺ : «القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما حفرة من حفر النار» .

١٧ - وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ .

وهو استفهام للتحويل والتفخيم .

أى : ما أعلمك ما خطر هذا اليوم ، وما عظيم أمره ؟

١٨ - ثُمَّ مَا أَذْرَبَكُمْ مَا يَوْمَ الدِّينِ .

والترار لزيادة التفخيم والتعظيم ، مثل قوله تعالى : الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ .

(الحاقة : ١-٣)

١٩ - يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ .

فى الآيتين السابقتين ورد استفهام عن يوم الدين ، ثم كرر الاستفهام لتفخيم أمر هذا اليوم ، فهو يوم الجزاء ، والعدالة المطلقة ، وانتقام الله من الظالمين الجبارين ، ومكافأة الطائعين .

وفى ختام السورة بيان واضح بأن يوم القيامة لا يُغنى فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئاً ، مثل ما كان فى الدنيا ، حيث إذا غَضِبَ الْمَلِكُ من شخص فريماً توسط له الشفعاء والوزراء أو أشباههم ، فتحوّل الغضب إلى رضا .

أما فى الآخرة فلا شفاعة ولا بيع ولا شراء ولا وساطة ، بل كل إنسان مسئولٌ عن عمله ، ولا ينفعه أقرب الناس إليه ، حيث يَفِرُّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

فى ذلك اليوم لا يملك أحد لأحد شيئاً ، فالملك كله والأمر كله لله ، وهو كذلك فى الدنيا ، هو المسبب الحقيقى ، والناس سبب ظاهرى ، وقد يظن بعض الناس فى الدنيا أنه يملك شيئاً ، لكن فى الآخرة يظهر الأمر بوضوح تام .

قال ابن كثير :

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا . أى : لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وفى الحديث قال ﷺ : «يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئاً» (٣٧)

ولهذا قال : وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ . كقوله تعالى : لَمَنْ أَلَمَلْنَا الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

قال قتادة :

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ .

والأمر - والله - اليوم لله ، لكنّه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

سيد الاستغفار

«اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» (٣٨)

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة المطففين

أهداف سورة المطففين

(سورة المطففين مكية ، وآياتها ٣٦ آية ، وهي آخر سورة نزلت بمكة)

وهي سورة تعالج طغيان الغنى ، واستغلال الفقراء ، وتحارب تطغيف الكيل والميزان ، وتبين أن صفح أعمال الفجار في أسفل سافلين ، وأن كتاب أعمال الأبرار في أعلى عليين ، كما وصفت السورة النعيم المقيم الذي يتمتع به الأبرار في الجنة ، وبينت أن المجرمين كانوا يسخرون من المؤمنين في الدنيا ، وفي يوم القيامة يتغير الحال ، فيسخر المؤمن من الكافر ، ويتمتع المؤمن بألوان النعيم .

مقاطع السورة

تألف سورة المطففين من أربعة مقاطع :

المقطع الأول : يبدأ بإعلان الحرب على المطففين ، وتهديدهم بالجزاء العادل عند البعث والحساب .
(الآيات ١ - ٦) .

المقطع الثاني : يتحدث عن الفجار في شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودمغ بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى ، وعلّة هذا الانطماس ، وتصوير لجزائهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجب الآثام في الأرض قلوبهم . (الآيات ٧ - ١٧) .

المقطع الثالث : يعرض الصفحة المقابلة ، صفحة الأبرار ، ورفعة مقامهم ، والنعيم المقرر لهم ونضرتة التي تفيض على وجوههم ، والرحيق الذي يشربونه وهم على الأرائك ينظرون ، وهي صفحة ناعمة وضيئة . (الآيات ١٨ - ٢٨) .

المقطع الرابع : يصف ما كان الأبرار يلقونه من استهزاء الفجار وسخريتهم وسوء أدبهم في دار الغرور ، ثم يقابل ذلك بما لقيه المؤمنون من التكريم ، وما لقيه المجرمون من عذاب الجحيم في يوم الدين .
(الآيات ٢٩ - ٣٦) .

من أسباب نزول السورة

كان تطفيف الكيل منتشرًا في مكة والمدينة ، وهو يعبر عن جشع التجار وطمعهم ، ورغبتهم في بخس حق المشتري .

روى أنه كان بالمدينة رجل يقال له (أبو جهينة) ، له كيلان أحدهما كبير والآخر صغير ، فكان إذا أراد أن يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار اشترى بالكيل الكبير ، وإذا باع للناس كال للمشتري بالكيل الصغير . هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع ، واستولى عليهم الجشع والذهم ، هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد ، وهم الذين توعدهم النبي ﷺ وتهدهم بقوله : «خمس بخمس» ، قيل : يا رسول الله ، وما خمس بخمس ؟ قال : «ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة في قوم يُعامل بها علانية إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن فيمن قبلهم ، ولا طفف قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المثونة وجور الحكام ، وما منع قوة الزكاة إلا حُبس عنهم المطر» .

مع آيات السورة

١ - هلاك وعذاب عظيم لهؤلاء الذين يبخسون الكيل والميزان .

والتطفيف لغة : التقليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن ، وإنما قيل له مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

٢ - إذا كان لهم عند الناس حق في شيء يكال أو يوزن ، وأرادوا أخذه منهم لا يأخذونه إلا تاماً كاملاً .

٣ - وإذا كان للناس حق عندهم في مكيل أو موزون أعطوهم ذلك الحق مع النقص والخسارة .

ويلحق بالمطففين كل عامل لا يؤدي عمله ، وإنما يحرص على الأجر كاملاً ، ويلحق بهم من يستلم العمل كاملاً ويبخس حق العامل أو ينقص أجره ، وكذلك كل من يقصر في أداء واجبه .

وعن ابن عباس : الكيل أمانة ، والوزن أمانة ، والصلاة أمانة ، والزكاة أمانة ، فمن وَفَّى وَفَى له ، ومن طغف فقد علمتم ما قاله الله في المطففين .

٤ - ٦ - ألا يخطر ببال هؤلاء أن هناك يوماً للبعث ، تظهر فيه هذه الأعمال التي يخفونها على الناس ، وأنهم سيبعثون في هذا اليوم الشديد الأهوال ، الذي يقوم فيه الناس من قبورهم للعرض على رب العالمين الذي خلقهم ويعلم سرهم وعلايتهم .

٧ - ٩ - إن للشجر سجلاً دونت فيه أعمال الفجار ، وهو كتاب مسطور بين الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ، كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى .

والفجار هم المتجاوزون للحد فى المعصية والإثم ، ولكل فاجر من هؤلاء الفجار صحيفة ، وهذه الصحائف فى السجل العظيم المسمى بسجين ، وهو عظيم الشأن له أهمية كبرى ، وهو كُتُبٌ مُرْقُومٌ . أى : قد أثبتت فيه العلامات الدالة على الأعمال .

١٠ - ١٣ - هلاك وعذاب عظيم لهؤلاء المكذبين الذين يكذبون الرسول ﷺ ، ولا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، الذى أخبرهم به عن رب العالمين .

وما يكذب بهذا اليوم إلا من اعتدى على الحق ، وعمى عن الإنصاف ، واعتاد ارتكاب الآثام ، والإعراض عن الحق والهدى ، ولذلك إذا تليت عليه آيات القرآن ، أو أخبار البعث والجزاء أنكرها ، وقال : هذه أباطيل السابقين .

١٤ - كَلَّا . ليس كما يقولون ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . أى : غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبون من الإثم والمعصية ، والقلب الذى يتعود على المعصية ينطمس ويظلم ، ويرين عليه غطاء كثيف ، يفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبلد ويموت .

روى الترمذى^(٣٤) والنسائى وابن ماجه : إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صفق قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تملو ، فهو الران الذى قال الله تعالى : كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب يعمى القلب فيموت .

ثم يذكر شيئاً عن مصيرهم يوم القيامة ، فيقول :

١٥ - ١٧ - كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ • ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ • ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

فهم فى يوم القيامة مطرودون من رحمة الله ، محرومون من رؤيته فى الآخرة ، ثم إنهم يصلون عذاب جهنم ، مع التأنيب والتقرع على تكذيبهم الحق ، وإنكارهم البعث والجزاء ، فيقال لهم : هَٰذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ .

١٨ - ٢١ - إن كتاب الأبرار محفوظ في سجل ممتاز في أعلى مكان في الجنة ، وما أعلمك ما هذا المكان ، فهو أمر فوق العلم والإدراك ، كتاب مسطورة فيه أعمالهم ، وهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة ، ومتعتهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات .

٢٢ - ٢٨ - إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . إن الأبرار المتقين الذين يؤمنون بالله ، ويعملون أنواع البر من القربات والطاعات ، هؤلاء ينعمون بنعيم الجنة ، وهم على الأسيرة في الحجال ينظرون إلى ما أعد لهم من النعيم ، وأقرب ما يمثل الأرائك عندنا ما نسميه «الناموسية أو الكلة» .

وترى على وجوههم آثار النعمة وبهجتها ، يسقون خمراً مختومة بالمسك ، وفي ذلك النعيم فليتسابق المتسابقون ، وليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم ، باتباع أوامره واجتناب نواهيهِ . وهذا الشراب المعد لهم ممزوج بشراب آخر ينصب عليهم من عين عالية ، يشرب منها المقربون إلى رضوان ربهم . وقد سئل ابن عباس عن هذا فقال : هذا مما قال الله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (السجدة : ١٧) .

«وقصارى ما سلف : أنه سبحانه وصف النعيم الذى أعد للأبرار في دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس ، وبما يشوقها إليه ، ليكون حُضًّا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من العمل والاستدامة عليه ، وحثاً لهم المقصرين ، واستنهاضاً لعزائمهم أن يحرصوا على التزود من العمل الصالح ، ليكون لهم مثل ما لأولئك»^(١) .

٢٩ - ٣٣ - إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . كانوا يضحكون منهم استهزاء بهم وسخرية منهم ، إما لفقرهم ورثاة حالهم ، وإما لضعفهم عن رد الأذى ، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء ، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا ، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم المرذولة .

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أو يشير بيده ، أو يأتي بحركة متعارف عليها بينهم للسخرية من المؤمنين ، وإذا انقلب هؤلاء الضالون إلى أهلهم ، ورجعوا إلى بيوتهم ، رجعوا إليها فكهين ملتذين بحكاية ما يعيرون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل .

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ . أى : وإذا رأوا المؤمنين نسبهم إلى الضلال ، لأنهم نبذوا العقائد الفاسدة ، وتركوا عبادة الأصنام . ولم يرسل الله الكفار رقباء على المؤمنين ، ولا فكهم بحسابتهم على أفعالهم ، فما لهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير .

رُؤى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه جاء فى نفر من المسلمين ، فرآه بعض هؤلاء الكفار ، فسخرُوا منه ومن معه ، وضحكوا منهم ، وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا به وبأصحابه .

والآيات ترسم مشهداً لسخرية المجرمين من المؤمنين ، وقد يكون لنزولها سبب خاص ، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ففى الآيات تعبير واقعى عن سخرية القوى الفاجر من المؤمن الصابر ، مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة فى موقفها من الأبرار فى جميع البيئات والعصور .

يقول الإمام محمد عبده : ومن شأن القوى المستعز بكثرة أتباعه وقدرته ، أن يضحك ممن يخالفه فى المنزع ، ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً ، كذلك كان شأن جماعة من قریش - كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل وأتباعهم - وهكذا يكون شأن أمثالهم فى كل زمان متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وخفى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجُهل معنى الدين ، وأزهقت روحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن^(١١) .

٣٤ - ٣٦ - قَالِيزَمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . أى : فى يوم القيامة - والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب - يضحك المؤمنون ، ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسُرَّ به ، وينكشف للمؤمنين ما كانوا يرجون من إكرام الله لهم ، وخذلان أعدائهم ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . وهم على سررهم فى الجنة ينظرون إلى صنع الله بأعدائهم ، وإذلاله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاء وفاقاً .

هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ . أى أنهم ينظرون ليتحققوا : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلون بهم فى الدنيا ، وإنما سُمى الجزاء على العمل ثواباً لأنه يرجع إلى صاحبه نظير ما عمل من خير أو شر .

وَتُؤِيبُ . مثل أثاب ، بمعنى جازى ، يقع فى الخير وفى الشر ، وإن كان قد غلب على الثواب فى الخير . أى : هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلون ؟

مقاصد السورة

- ١ - وعيد المطففين .
- ٢ - بيان أن صحائف أعمال الفجار فى أسفل سافلين .
- ٣ - بيان أن صحائف أعمال الأبرار فى أعلى عليين .
- ٤ - وصف نعيم الأبرار فى مآكلهم ومشاربهم ومسآكنهم .
- ٥ - استهزاء المجرمين بالمؤمنين فى الدنيا :
- ٦ - تضاحك المؤمنين منهم يوم القيامة .
- ٧ - نظر المؤمنين إلى المجرمين وهم يلقون جزاءهم ، وما أُعدَّ لهم من النكال .

وعيد المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾

المفردات :

ويــــــــــــل ، هلاك ووبار وعذاب ، أو مقرر في جهنم .

للمطففين ، المنقصين في الكيل أو الوزن ، وأصله من الطفيف ، وهو الشيء اليسير ، لأنه لا يكاد يأخذ إلا الشيء اليسير .

اكتــــــــالوا ، اشتروا بالكيل ، ومثله الوزن .

يستوفون ، يأخذون الكيل وافياً كاملاً ، والوزن وسائر الحقوق كذلك .

كــــــــالوهم ، أعطوا غيرهم بالكيل . .

وزــــــــنوهم ، أعطوا غيرهم بالوزن .

يُخْسِرُونَ ، يُنْقِصُونَ الكيل والوزن ، ويظلمون غيرهم .

ألا يــــــــظنُّ ، يتيقن ، وهو استفهام توبيخ وإنكار وتعجب من حالهم ، وعبر بالظن لأن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح ، فكيف بمن تيقنه .

يوم يقوم الناس ، من قبورهم .

لرب العالمين ، لأمره وحكمه وحسابه وجزائه ، والتعبير برب العالمين وقيام الناس للحساب ، مبالغات في المنع عن التطفيف وتعظيم إثمه .

سبب النزول :

أخرج النسائي ، وابن ماجه ، بسند صحيح ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أبخس الناس كيلا : فأنزل الله : **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** . فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

التفسير :

١ - **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** .

الويل واو فى جهنم ، بعيد قراره ، شديد عذابه ، ويطلق الويل على الهلاك والعذاب ، أى عذاب شديد للمطففين الذين يظلمون الناس فى المعاملة ، حيث يستوفون حقهم كاملاً وربما زائداً ، ولا يوفون حقوق الناس بل يظلمونهم .

والسورة مكية ، وقيل مدنية ، وربما كانت من أواخر ما نزل بمكة ، أو أرسلها النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليرتدع الناس عن تطفيف الكيل والميزان .

التطفيف فى مكة

كانت فى مكة طائفة من الأغنياء الأقوياء يحتكرون التجار . ويستوفون حقهم كاملاً ، ويبيعون الناس كيلاً ناقصاً أو وزنًا ناقصاً ، وقد جاء الإسلام عقيدة وشريعة ، أى ينظم علاقة الناس بالله ، وينظم علاقة الناس بالناس ، فحارب تطفيف الكيل والميزان ، وتوعد هؤلاء القساء الظالمين بعذاب شديد .

التطفيف فى المدينة

كان التطفيف موجوداً فى المدينة ، فلما أنزل الله سورة المطففين ارتدع أهل المدينة ، وتركوا التطفيف .

وروح القرآن توضح أن التطفيف محرّم ، وكذلك كل ظلم وغبن محرّم ، فمن يأخذ حقه كاملاً ولا يؤدى عمله سليماً منضبطاً فهو مطفف ، ومن يؤجر عاملاً فيستوفى عمله ، ولا يعطيه أجره كاملاً فهو مطفف ، وكذلك الصلاة أمانة ، والصوم أمانة ، والزكاة أمانة ، والكيل أمانة ، والوزن أمانة ، فمن وفى وفى له ، ومن طغف فقد رأينا ما قاله الله فى المطففين .

٢ ، ٣ - الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ • وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .

أى : إذا أخذوا الكيل من الناس أخذوه كاملاً لأنفسهم ، وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، يُنقصون الكيل والوزن .

قال المفسرون :

نزلت في رجل يعرف بـ (أبي جهينة) كان له صاعان ، يشتري بأحدهما ، ويبيع بالآخر .

وقد حارب القرآن هذا النموذج الأناني الذي يهتم بنفسه ولا يهتم بالآخرين ، كما شنع القرآن على قوم شعيب ، وقد أهلكهم الله لكفرهم ، ولتطيف المكيال والميزان ، وقد نصحهم نبي الله شعيب وكرر لهم النصح ، وعلى لسان شعيب قال القرآن الكريم : وَيَلْقَوُا أَوْقُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . (هود : ٨٥) .

وتكررت قصة شعيب في سورة الشعراء وغيرها من السور ، حيث يقول شعيب لقومه : أَوْقُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُبْخِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَأَتَقُوا لِلَّهِ خَلْقَكُمْ وَالْجِيلَ الْأَوَّلِينَ . (الشعراء : ١٨١ - ١٨٤) .

وقد تكررت وصايا القرآن بضبط الميزان ، وعدم تطيف الكيل والميزان .

قال تعالى : وَأَوْقُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . (الإسراء : ٣٥) .

وقال سبحانه : وَأَوْقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (الأنعام : ١٥٢) .

وقال عز وجل : وَأَلِيمُوا الزُّنْ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ . (الرحمن : ٩) .

ثم توعد الله المطففين بقوله :

٤ ، ٥ ، ٦ - أَلَا يَنْظُرُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

هؤلاء المعتدون ألا يخطر ببالهم أنهم مبعوثون ، ومستولون عما يفعلون ، في يوم عظيم أمره ، شديد خطره ، حين يقوم الناس من قبورهم للحشر والحساب والجزاء ، وتنفيذ أمر الله ، فمن وقى وقى له ، ومن طلف وظلم أدخل نارًا حامية ، أما يخاف هؤلاء يوم القيامة ، حيث يقف الجميع على أرض بيضاء عفراء ، وتقرب الشمس من الرؤوس ، ويشد العرق حتى يصل إلى رقاب الناس ، أو يفرغ أفواههم ، أما يخافون هول هذا اليوم ، وما فيه من حساب وجزاء .

قال تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٨ ، ٧) .

إن مجرد الظن بالقيامة والبعث والحساب والجزاء ، جدير بأن يردع الإنسان عن تطفيف الكيل والميزان ، وظلم الآخرين والإساءة إليهم ، فما بالك إذا كان ذلك عين اليقين .

وقيل : الظن هنا بمعنى اليقين ، أى : ألا يوقن أولئك بالبعث فى ذلك اليوم العظيم ، ولو أيقنوا ما نقصوا فى الكيل والميزان ، وهذا دليل على أن التطفيف من الكبائر .

قال الإمام فخر الدين الرازى :

جمع الله سبحانه فى هذه الآيات أنواعاً من التهديد :

فقال أولاً : وَيُلْ لِّلْمُطَّقِّينَ . وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء .

ثم قال ثانياً : أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . وهو استفهام بمعنى الإنكار .

ثم قال ثالثاً : يَوْمَ عَظِيمٍ . والشئ الذى يستعظمه الله لا شك أنه فى غاية العظمة .

ثم قال رابعاً : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وفيه نوعان من التهديد :

أحدهما : كونهم قائمين مع غاية الخشوع ، ونهاية الذل والانكسار .

والثانى : أنه وصف نفسه بكونه رباً للعالمين .

فائدة : بمناسبة تفسير قوله تعالى : يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ .

تكلم المفسرون عن قيام الناس بعضهم لبعض ، وفيه خلاف ، فمنهم من أجازته ، ومنهم من منعه .

وقد روى أن النبى ﷺ قام إلى جعفر بن أبى طالب ، واعتنقه ، وقام طلحة لكعب بن مالك يوم تاب الله عليه ، وقال النبى ﷺ للأَنْصَار : «قوموا إلى سيدكم»^(١٦) . إشارة إلى سعد بن معاذ .

وقال أيضاً ﷺ : «من سره أن يمثّل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار»^(١٧) .

وقد روى القرطبى هذه الآثار ، ثم قال : وذلك يرجع إلى حال الرجل ونيّته ، فإن انتظر ذلك واعتقده لنفسه فهو ممنوع ، وإن كان على طريق البشاشة والصلة فإنه جائز وبخاصة عند الأسباب ، كالحقود من السفر ونحوه .

ديوان الشر

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ
ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
لَمَّحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعَالِ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

المفردات :

كــــــــــــلا : ردع وزجر وانتهاز لهم .

كتاب الفجار : ما يكتب من أعمالهم .

لفى سجين : لمثبت فى ديوان الشر .

كتاب مرقوم : بين الكتابة أو معلّم بعلامة .

معتد : فاجر ، متجاوز نهج الحق .

اثيم : كثير الإثم ، منهمك فى الشهوات .

أساطير الأولين : أكاذيب وأباطيل الأوائل ، سطرورها وزخرفوها فى كتبهم .

كــــــــــــلا : ردع وزجر عن قولهم الباطل .

ران على قلوبهم : غلب وغطى قلوبهم ما اقتترفوه من الذنوب ، فلم يهتدوا إلى الحق .

لمحجورون : ممنوعون عن رؤية الله فى الآخرة .

لصالو الجحيم : لداخلوها أو لمقاسو حرّها .

التفسير :

٧ - كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِينٍ .

كَلَّا . ردع وزجر لهم عن تطفيف الكيل والميزان ، أو عن التكذيب بالآخرة ، إن كتاب أعمال الفجار

الذين شقوا عصا الطاعة واقترفوا الموبقات ، لفى مكان ضيق فى أسفل سافلين .

٨ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ .

استفهام للتفهيل والتعظيم ، أى : هل تعلم ما هو سجين ؟ إن البشر لا علم لهم بذلك ، وإنما يعلمه الخالق سبحانه .

٩ - كَتَبَ مَرْقُومٌ .

هو كتاب مكتوب كالرقم فى الثوب ، لا يُنسى ولا يمحو ، أثبتت فيه أعمالهم الشريفة .

قال المراعى فى تفسيره :

وقصارى القول : إن للشجر سجلاً دونت فيه أعمال الفجار ، وهو كتاب مسطور بين الكتابة ، وهذا السجل يشتمل عليه السجل الكبير المسمى بسجين ، كما تقول : إن كتاب حساب قرية كذا ، فى السجل الفلانى المشتمل على حسابها وحساب غيرها من القرى ، فلكل فاجر من الفجار صحيفة ، وهذه الصحف فى السجل العظيم المسمى بسجين^(١٤) .

١٠ - وَلَيْلٌ يُؤْمِلُ الْمَكْذِبِينَ .

هلاك شديد ويوار لهؤلاء المكذبين الجاحدين .

١١ - الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ .

الذين يجحدون القيامة والبعث والجزاء والحساب ، فى ذلك اليوم : يَوْمَ الدِّينِ . الذى تدين فيه الناس لرب العالمين .

١٢ - وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ .

وما ينكر مجيء هذا اليوم إلا كل متجاوز الحد فى الكفر والضلال ، مبالغ فى العصيان والطغيان ، كثير الآثام .

١٣ - إِذَا تَنَافَسَ عَلَيْهِ أَئِنتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .

إذا قرنت عليه آيات القرآن الكريم المشتمل على الدعوة للإيمان ، والتأمل فى صفحات الكون ، والتذكير باليوم الآخر ، وذكر قصص السابقين ، والأنبياء والمرسلين ، وعقاب المكذبين ، يقول عن هذا النور المبين : إن هذه أساطير وخرافات الأوائل ، سطروها وزخرفوها فى كتبهم ، ثم نقلها محمد ﷺ عنهم ، ونسبها زوراً وبهتاناً إلى الله تعالى فهى ليست منزلة من عند الله .

١٤ - كَلَّا بَلْ زَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

أى : ليرتدع هؤلاء الحمقى الذين لم يتذوقوا كتاب الله ، ولم يعرفوا فضله ، فقالوا عنه : أساطير الأولين ، وليس العيب فى القرآن الكريم ، إنما العيب فى قلوبهم التى اقترفت المعاصى ، وتشبعت بالآثام ، ولما كثرت اقترافهم للذنوب ترك كل ذنب نكتة سوداء فى قلوبهم ، ولما تكاثرت الذنوب غطى سواد المعاصى قلوبهم ، فلم يفقهوا القرآن ، ولم يتسرب نوره إليهم .

١٥ - كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ .

ليرتدع هؤلاء الفجار ، المطففون للكيل والميزان ، المكذبون بالقيامة ، إنهم سيصلون العذاب ، وسيُحجبون عن رؤية الله عز وجل .

وفى هذه الآية دليل على أن المؤمنين الصالحين يرون ربهم يوم القيامة ، تكريماً لهم ، ورفعاً لمنزلتهم .

قال تعالى : **وَجُودُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** . (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) .

وقال مالك : لما حجب أعداءه فلم يروه ، تجلّى لأوليائه حتى رأوه^(١٥) .

١٦ - ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ .

ثم إنهم مع الحرمان من رؤية ربهم ، فإنهم سيصلون بنار جهنم ، ويحترقون بالعذاب فى نار الجحيم .

١٧ - ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهٖ تُكَذَّبُونَ .

أى : سيجرمون من رؤية الله تعالى ، سيدخلون جهنم يصلون ويحرقون بنارها ، ثم تقول لهم خزنة جهنم : هذا هو العذاب الذى كنتم به تكذبون فى الدنيا ، وتقولون : لا بعث ولا حشر ولا حساب ، وإنما نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، فتقول لهم الملائكة ، **أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** . (الطور : ١٥) .

أى : هل جهنم هذه سحر كما ادعيتم أن القرآن سحر ، أم أنتم لا تشاهدونها بأعينكم ، ولا ترونها رأى العين ؟ لقد كان محمد ﷺ يحذركم من هذا العذاب وينذركم به ، فكنتم تستكبرون وتستهنئون وتكذبون ، وما هو ذا قد لحقكم ، فلا تستطيعون له دفعاً ، ولا منه فكاًكاً .

كتاب الأبرار في أعلى الجنة

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمَهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِمَّا أَجَاهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

المضردات :

كتاب الأبرار ، ما يكتب من أعمالهم .

لفي عليين ، لمتبت في ديوان الخير أو مكان عال في الجنة .

مرقوم ، رقم وكتب فيه بالنجاة من الحساب يوم القيامة .

يشهده المقربون ، يحضره ويحفظه المقربون من الملائكة .

نعيم ، نعم كثيرة .

الأرائك ، الأسرة في الحال ، والحجال واحدها : حَجَلَة (محركة) ، وهى بيت يُرَيْن بالقياب والأسرة والستور .

نضرة النعيم ، بهجته ورونقه وبهاؤه .

رحيق ، أجود الخمر وأصفاه .

مخخوم ، ختمت أوانيه وسدّت حتى يفكها الأبرار .

ختامه مسك ، ختام إنائه المسك بدل الطين .

فليتنافس ، فليستبق المتسابقون ، وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين .

مزاجه ، ما يمزج به ويخلط ، والمزج خلط أحد الشئتين بالآخر .

التسنييم ، عين من ماء تجرى من أعلى إلى أسفل ، وهو أشرف شراب في الجنة ، ويكون صيرفًا للمقربين ، ممزوجًا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة .

يشرب بها ، يشرب منها .

المقربون ، الأبرار السابق ذكرهم .

التفسير:

١٨ - كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيْنَ .

كَلَّا . ردع وزجر للمطففين والمكذبين بيوم الدين .

إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ . أى : صحيفة عمل المتقين فى مكان مرتفع فى الجنة ، تكريماً لهذا الكتاب وتعظيماً لأهله ، فى مقابل وضع كتاب الفجار فى مكان مظلم ضيق كأنه سجن أو سجين ، إهانة لأهله وتذكيراً بعقابهم .

١٩ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلْيُونَ .

وما أعلمك يا محمد أى شئ عليون ؟ إنه من أمر الغيب ، وهو فى الدرجة الرفيعة ، والمنزلة السامية .

٢٠ - كِتَابٌ مُرْقُومٌ .

كتاب قد رُفِّعَ فيه وسطر ما أعد لهم من الثواب ، مما يوجب سرورهم وبهجتهم .

٢١ - يَشْهَدُهُ الْمُرْقُومُونَ .

تشهده الملائكة الكرام المقربون ، وترى هذا الكتاب ، وما أعد فيه من الأعمال الصالحة والجزاء الحسن ، أو يشهدون بما فيه لصاحبه يوم القيامة ، أو يشهدون نقل كتاب كل فرد فى الكتاب العام الذى يجمع مآثر الأبرار ، وإنه لفضل عظيم أن تحظى الملائكة الكرام بمشاهدة أعمال الأبرار ، أو تسجيلها فى سجل عام .

وقد وُضع كتاب الفجار فى سجين ، فى قاع مظلم ضيق فى جهنم ، تحقيراً للظالمين والمطففين ، وكذلك وضع كتاب الأبرار فى عليين ، أى فى مكان عال مرتفع ، فسيح منير فى أعلى الجنة ، تكريماً للأبرار وتعظيماً لشأنهم .

٢٢ - إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ .

لَمَّا عَظَّمَ اللهُ كتاب الأبرار فى الآيات المتقدمة ، عَظَّمَ هنا منزلتهم ومثوبتهم ، فذكر أنهم فى نعيم الجنة يتمتعون بما أعد الله لهم فيها من النعيم المادى والمعنوى .

٢٣ - عَلَى الْأَرْكَانِ يَنْظُرُونَ .

على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ، ينظرون إلى ما أعد الله لهم من الكرامة والإحسان ، والإكرام وألوان النعيم .

٢٤ - تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ .

تشاهد في وجوههم الفرح والسرور ، والرضا والنعمة والبهجة ، وسائر ألوان الخير والبر والنعيم .
ويذكر الفخر الرازي أن نضرة النعيم بسبب رؤية الله تعالى ، فيظهر أثر النور والفضل على وجوههم .

كما قال تعالى : **وُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِنَاصِرَةٍ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** . (القيامة : ٢٢ ، ٢٣) .

فتنتقل البهجة والسرور والاستبشار إلى نفوسهم ووجوههم .

قال تعالى : **وُجُوهٌ يُؤْمِنُ بِمُسْفِرَةٍ * مِّنْجَنَّةٍ مُّسْفِرَةٍ** . (عبس : ٣٨ ، ٣٩) .

٢٥ - يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مُّخْتَوٍ .

والرحيق : الشراب الخالص المصفى ، الذي لا غش فيه ولا كدرة ، ووصفه بأنه مختوم يفيد أنه معد في أوانيه ، وأن هذه الأواني مغلقة مختومة ، تفضّ عند الشراب ، وهذا يلقي ظل الصيانة والعناية .

ويطلق الرحيق على الخمر المعتقة ، وكونها مختومة يفيد أنها أشرف قدرًا ، وأعلى منزلة من الأنهار الجارية التي تجري في الجنة ، وقد ورد أن في الجنة أنهارًا من خمر لذة للشاربين ، كما في الآية الخامسة عشرة من سورة محمد ﷺ .

٢٦ - خِتَمُهُمْ بِسِلْكِ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .

قد ختم على زجاجة الخمر بالمسك ، أي أن الذي يُختم به ويُسد به رأس قواريره وأوانيه هو المسك ، أو أن المراد : أن الشارب إذا رفع فمه من آخر شرابه ، وجد ريحه كريح المسك ، لذادة ونكاه رائحة مع طيب الطعم ، ومنه : الأعمال بخواتيمها ، وختمت القرآن الكريم .

وَلِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .

وفى ذلك النعيم ، وتلك السعادة ، وهذا الخير المتميز ، والثواب الجزيل ، والرضوان الإلهي ، فليتسابق المتسابقون وليشمر العاملون ، فالباب مفتوح لكل من أراد الولوج بشرط أن يدفع الثمن ، وليس الثمن إلا الأعمال الصالحة ، والتسابق في الخيرات مرضاة لله ، وإخلاصاً في طاعته .

٢٧ - وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ .

ويمزج هذا الشراب المختوم بشراب ينصب وينهل عليهم من علو .
والتسليم : المكان المرتفع ، ومنه : سنام الجمل ، أعلى شئ فيه ، وسنام القبر أعلاه .

٢٨ - عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ .

هذا التسنيم أعلى شراب في الجنة ، وهو في عين يشرب منها أهل جنة عدن ، وهم أفاضل أهل الجنة ، يشربون منها صرفاً خالصاً لا يخالطها شئ ، ويمزج منها كأس أصحاب اليمين فتطيب .

ومما سبق يتبين أن المراد بالأبرار هنا هم أصحاب اليمين ، أما المقربون فإنهم يشربون من التسنيم صرفاً خالصاً .

وفي سورة الواقعة قسم الله أهل القيامة إلى ثلاثة أقسام :

١ - السابقون .

٢ - أصحاب اليمين .

٣ - أصحاب الشمال .

فما أعظم هذا النعيم ، إنه نعيم يستحق أن نتسابق إليه ، وأن نعمل من أجله ، بعكس المطففين الذين يتسابقون إلى الظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، فما أحقر متاع الدنيا ، وما أنضر نعيم الآخرة .

سوء معاملة الكفار للمؤمنين في الدنيا ، وعاقبة ذلك في الآخرة

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

المضردات :

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا : هم رؤساء قريش : أبو جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأمثالهما .

يَضْحَكُونَ ، استهزاءً من عمار وبلال وصهيب ، وغيرهم من فقراء المسلمين .

يَتَغَامَزُونَ ، الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب ، استهزاءً وسخريةً ، وقد يراد به العيب ، فيقال : غمز فلان فلاناً ، إذا عابه ونكره بسوء ، ويقال : فلان لا مغمز فيه ، أى : ليس فيه ما يُعَاب .

فَكِهِينَ ، معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان .

حَافِظِينَ ، رقباء ، يتفقدونهم ويهيئون على أعمالهم .

هَلْ تُؤِيبُ ، التثويب والإثابة : المجازاة ، يقال : ثوبه وأثابه ، إذا جازاه ، أى : هل جُوزى الكفار وأثيبوا على فعلهم ؟

تمهيد :

كان كفار مكة يسخرون من الفقراء الضعفاء ، كعمار وبلال وصهيب ، ويفتخرون بالعدوان عليهم ، وربما تناول المشركون على رسول الله ﷺ وأصحابه ، يستهزئون بهم ، ويحزرون عليهم سفهاءهم وغلماهم ، وهم الذين قال الله فيهم : **إِنَّا كَفَّيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** . (الحجر : ٩٥) .

وَرَوَى أَن عَلَى بن أبى طالب جاء فى نفرٍ من المسلمين ، قرأه بعض هؤلاء الكفار فسخروا منه ومن معه ، وضحكوا منه ، وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم بما صنعوا وقالوا : رأينا اليوم الأصل ، فضحكوا منه ، فنزلت هذه الآيات قبل أن يصل على رسول الله ﷺ .

والآيات تحكى بعض قبائح المجرمين ، وتروى نموذجاً متكرراً فى الحياة الدنيا ، حيث يسخر الفجار من الأخيار ، ولا يرد الأخيار فى الدنيا ، لكن هناك فى الآخرة نجد المؤمنين فى منازل رفيعة ، يضحكون من الكافرين جزاء ما فعلوا بهم فى الدنيا ، والمقصود من الآيات : تسلية المؤمنين وتقوية قلوبهم .

التفسير:

٢٩ - إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ .

إن كفار قريش ومن وافقهم على الكفر كانوا فى الدنيا يستهزئون من المؤمنين المصلين ، أو الفقراء المتأدبين بأداب الإسلام والقرآن ، ويسخرون من انقطاعهم للصلاة والصيام ، وإخلاصهم فى العبادة والتمسك بأداب الإسلام .

قال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ...

هم : الوليد بن المغيرة ، وعقبة بن أبى معيط ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث ، والعاص ابن هشام ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأولئك الذين آمنوا من أصحاب محمد ﷺ ، مثل : عمار ، وخبّاب وصهيب ، وبلال .

٣٠ - وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ .

أى : إذا مرّ بهم هؤلاء الذين آمنوا يشيرون إليهم بحواجبهم وأيديهم ، هامزين لامزين مستهزئين ، مُعْنِين فى السخرية والتكلم بهم ، ويقولون : انظروا إلى هؤلاء يُتَعَبُونَ أنفسهم ، ويحرمونها لذاتها ، ويخاطرون بأنفسهم فى طلب ثواب لا يتيقنونه .

٣١ - وَإِذَا أَتَقَبَّرُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَتَقَبَّرُوا فَكَيْهِنَ .

أى : إذا رجع هؤلاء الكفار أو المستهزئون إلى بيوتهم وأهلهم رجعوا مسرورين بما فعلوه بالمؤمنين من سخرية واستهزاء ، متعجبين من اختيار هؤلاء المؤمنين للإسلام ، وتركهم عبادة الأصنام .

٣٢ - وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَطَّالُونَ .

والعجب هنا هو أن أهل الضلال والكفر ، وعبادة الأوثان ، وشرب الخمر ، والتعامل بالربا ، واقتراء الزنا ، هم الذين يتهمون المؤمنين الصابرين المتبتلين بعبادة الله ، المبتعدين عن المعاصى - يتهمونهم بالضلال ، وفى أمثال العرب : (رمتنى بدائها وانسلت) يضرب لمن يكون فيه داء فيتّهم غيره به ، فهؤلاء الكفار يتهمون المؤمنين بالضلال لعدم استمتاعهم بالشهوات العاجلة ، ولتعذيب أنفسهم بالصلاة والصيام ، طمعاً فى نعيم أجل غير مضمون ، أى أن حكمهم على المؤمنين بالضلال يدلّ على نهاية الغرور والجهل .

٣٣ - وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ .

أى : إن الكفار لم يكلّفوا بمراقبة المؤمنين ، أو الوصاية عليهم ، أو تسجيل أعمالهم ، وهؤلاء الكفار بدل أن يراقبوا أنفسهم ، ويتفقدوا عيوب أنفسهم ، تركوا عيوب أنفسهم وانشغلوا بالبحث عن عيوب غيرهم .

٣٤ - قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ .

أى : اليوم يوم القيامة ، والكفار مجبوبيون عن ربهم ، وهم يقاسون ألوان العذاب فى جهنم ، فإن المؤمنين يضحكون منهم ، ومن ألوان العذاب الذى ينالهم ، جزاء عادلاً على سخرية الكفار بالمؤمنين فى الدنيا .

٣٥ - عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ .

بينما المؤمنون يتمتعون بنعيم الجنة ، جالسين على الأرائك فى نعيم مقيم ، يفتح لهم باب فيرون أهل جهنم فى بلاد شديد ، فيشكرون الله على ما أولاهم به من النعيم .

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم :

قَالِیَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ .

لا ضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن بالسورور ... ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسر به ، انكشف لهم بالعيان ما كانوا يرجونه من إكرام الله لهم ، وخذلانه لأعدائهم ، فسروا بذلك وفرحوا ، وضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة الذين تجلّت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم وفساد أقوالهم ، فنكّست أعناقهم لخرزيم ونلهم ، فما أعظم مجد المؤمنين فى ذلك اليوم .

عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ .

إلى صنع الله بأعدائهم ، وإذلاله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم ، جزاء وفاً^(١٧) .

٣٦ - هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

هل جُوزى الكفار على ما كانوا يفعلونه بالمؤمنين فى الدنيا ؟ والجواب : نعم ، لقد جُوزى الكفار بالجزاء المناسب ، لتهمكهم بالمؤمنين فى الدنيا ، فقد نزل بهم ما يستحقونه من عقاب أليم ، جزاء وفاً .

ويظل هذا الاستفهام التقريرى هو آخر ما يرنُ فى الأذن ، كأنه يقول : إن عدالة الله تقتص من المعتدين مهما طالت بهم الحياة .

وَتُوبَ مثل أثناب - بمعنى جازى - يقع فى الخير وفى الشر ، وإن كان قد غلب عليه الثواب فى الخير ، لكنه ورد هنا من باب التهكم بالمعتدين ، مثل قوله تعالى : فَيَسْرُهُمْ عَذَابُ الْعَذَابِ (التوبة : ٣٤) .

قال ابن كثير :

وقوله تعالى : هَلْ تُؤْبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

أى : هل جُوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والسخرية أم لا ؟

يعنى : قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله^(١٩) .

وفى معنى الآيات ورد قوله تعالى : إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا نَدَّعَىٰ وَآرَحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ • فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضَحِكُونَ • إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ . (المؤمنون : ١٠٩ - ١١١) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الانشقاق

أهداف سورة الانشقاق

(سورة الانشقاق مكية ، وآياتها ٢٥ آية ، نزلت بعد سورة الانفطار)

وهي سورة هادئة الإيقاع ، يغلب عليها هذا الطابع ، حتى في وصف مشاهد القيامة ، تلك المشاهد التي عرضتها سورة التكوين في جو عاصف .

«وتطوف سورة الانشقاق بالقلب البشرى في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقباً مقصوداً ، فمن مشهد الاستسلام الكونى ، إلى لمسة لقلب الإنسان ، إلى مشهد الحساب والجزاء ، إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية ، إلى لمسة أخرى للقلب البشرى ، إلى التعجب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله ، إلى التهديد بالعذاب الأليم ، واستثناء المؤمنين من العذاب»^(١٨) .

مقاطع السورة

يمكن أن تقسم سورة الانشقاق إلى أربعة مقاطع :

المقطع الأول : وفيه مطلع السورة ، ذلك المطلع الخاشع الجليل ، الذى يفيد نهاية الكون واستجابة السماء والأرض لأمر الله فى خشوع وطواعية . (الآيات ١ - ٥) .

المقطع الثانى : يبين أن الإنسان محاسب على عمله ، وسيجازى عليه ، فالؤمن يأخذ كتابه باليمين ، ويلقى السرور وحسن الجزاء ، والكافر يأخذ كتابه من وراء ظهره ، ويلقى الهلاك والسعير . (الآيات ٦ - ١٥) .

المقطع الثالث : يعرض مشاهد الكون ، فى صورة تأخذ بالألباب . (الآيات ١٦ - ١٩) .

المقطع الرابع : يتعجب من حال هؤلاء الذين يعرضون عن الإيمان ، ويهددهم بالجزاء العادل . (الآيات ٢٠ - ٢٥) .

وهذه اللمسات المتعددة تطوف بالقلب البشرى ، وتنتقل بالنفس خلال مشاهد الآخرة والدنيا ، والحساب والجزاء ، فى آيات قصيرة وحيز محدود ، مما لا يمكن لبشر أن يفعله ، ولكنه القرآن الذى يسره الله للذكر ، وأنزله لهداية العالمين .

مع آيات السورة

١ - ٥ - يصف الله سبحانه وتعالى ما يحدث من الأحوال يوم القيامة عند خراب الدنيا ، فيذكر أن السماء تنشق وتصبح ذات فروج وفتحات ، وتنقاد هذه السماوات لأمر ربها ، وتخضع لتأثير قدرته ، حين يريد انشقاقها ، فهي أشبه بالمطبخ الذي يذعن لأمر سيده ، والأرض تسوى وتبسط باندكاك جباله ، وتخرج ما فيها من الموتى حتى لا يبقى بداخلها شيء ، وتنقاد كذلك لأمر ربها ، وتخضع لتأثير قدرته ، ووجب عليها أن تنقاد لأنها في قبضة القدرة الإلهية ، تصرفها في الغناء ، كما صرفتها في الابتداء .

وجواب إذا . التي صدرت بها السورة محذوف ، وتقدير الكلام : إذا السماء انشقت ... ترون جزاء ما عملتم من خير أو شر .

وقصارى ذلك : وصف أحوال يوم القيامة ، وفيه تبدل الأرض غير الأرض ، والسماوات غير السماوات ، ويبرز الناس للحساب على ما قدموا في حياتهم من عمل ، وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، ونكل علم حقيقته ومعرفة كنهه إلى الله تعالى .

٦ - ١٥ - يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض كادحًا ، تحمل عبأك ، وتجهد جهك ، وتشق طريقك لتصل في النهاية إلى ربك ، فالإيه المرجع والإيه المآب ، بعد الكد والكاح والجهاد ، وفي يوم البعث ينكشف الالتباس ، ويعرف كل عامل ما جرَّ إليه عمله ، والناس حينئذ صنفان :

الأول : الذي يعرض عليه سجل أعماله ، ويتناول كتابه بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيُعَرَفُ بطاعته ويمعاصيه ، ثم يُدَاب على ما كان من طاعة ، ويُتَجَاوَز له عما كان من معصية .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته : «اللهم حاسبني حسابًا يسيرًا» ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، وما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك»^(١٩) .

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ، ثم ينجر ، وَيَقْلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا . وأهله هم الناجون الذين سبقوه إلى الجنة .

الثاني : وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ . والذي أُلْغِنَاهُ في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال ، فهذه صورة جديدة : صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر ، وليس يتمتع أن يكون

الذى يعطى كتابه بشماله ، يعطاه كذلك من وراء ظهره ، فهى هيئة الكاره المكروه ، الخزيان من المواجهة .

والذى نخلص إليه ، أن إيتاء الكتاب باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر ، تصوير لحال المطالع على أعماله فى ذلك اليوم ، فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر ، وتناول كتابه بيمينه ، ومنهم من إذا انكشفت له سوابق أعماله عبس ويسر ، وأعرض عنها وأدبر ، وتمنى لو لم تُكشف له ، وتناولها بالشمال أو من وراء الظهر ، وحينئذ يدعو : واثيراه ، أى : يا هلاكى أقبل ، فإنى لا أريد أن أبقى حياً . ولا يفعل الإنسان ذلك إلا إذا كان فى شدة التعاسة والشقاء .

وتناول الكافر كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، علامة على سخط الله عليه ، وهو يدعو على نفسه بالهلاك والويل ، ويدخل نار جهنم التى سعرت وأوقدت ليحترق بنارها ، لأنه كان فى الدنيا بين عشيرته من الكافرين لاهيا فى شهواته ، متقادا لأهوائه ، لا يخطر الموت على باله ، ولا البعث : إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ . إلى ربه ، ولن يرجع إلى باريه ، ولو ظن الرجعة فى نهاية المطاف لقدم بعض العمل ، وادخر شيئاً للحساب .

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا . أى : بلى ليحورن وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فهو سبحانه كان مطلعاً على أمره ، محيطاً بحقيقته ، عالماً بحركاته وخطواته .

وتصور الآيات هذا التعيس ، وهو مسرور بين أهله فى الحياة الدنيا القصيرة ، ولكنه فى الآخرة حزين يتمنى الموت والهلاك ، تقابلها صورة ذلك السعيد المؤمن ، وهو يتقلب إلى أهله مسروراً ، فى الحياة الآخرة المديدة ، لقاء ما قدم من سعى حميد وعمل صالح .

وتعود الآيات إلى لمحات من الكون ، تجمع بين الخشوع الساكن والجلال المرهوب :

١٦ - ١٩ - فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ . والشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب ، وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة ، ويحس القلب بمعنى الوداع ، وما فيه من أسى صامت ، وشجى عميق ، كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف ، ويلفه فى النهاية خشوع وخوف خفى وسكون .

وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ . هو الليل وما جمع ، وما حمل من الظلام والنجوم ، أو ما عمل فيه من التهجد ، أو ما جمع من مخلوقات كانت منتشرة بالنهار ، فإذا جنها الليل أوت إلى مأواها .

وَالْقَمَرِ إِذَا تَسَقَّ . أى اكتمل واستدان وصار بدرًا ، وهو مشهد رائع للقرم فى ليالى اكتماله ، يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع ، الموحى بالصمت الجليل .

يقسم القرآن بهذه الأشياء ، التي إذا تدبر الإنسان أمرها استدلت بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها .

تَرْكِبُنْ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ . أى : لتلاقن أيها الناس أموراً بعد أمور ، وأحوالاً بعد أحوال ، من الموت والبعث والحشر ، إلى أن تصيروا إلى ربكم ، وهناك تلقون جزاء أعمالكم .

٢٠ - ٢٥ - فلماذا لا يؤمنون بالبعث والنشور ، وهم يرون آثار قدرة الله ويدائع صنعه ، وما لهم لا يخضعون لآيات القرآن ، وفيها من اللامعات والموحيات ما يصل القلب البشرى بالوجود الجميل ، وببائى الوجود الجليل ، وإذا قرأ المؤمن هذه الآية سجد لله سجود التلاوة ، عند قوله : فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ .

ولكن الكافرين قوم معاندون ، فالتكذيب طابعهم ، والله أعلم بما يكنون فى صدورهم ، ويضمون عليه جوانحهم ، من بغى وحسد ، وإشراك بالله ، وحقد على الرسول ﷺ ، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يبشرهم جميعاً بالعذاب المؤلم الموجه يوم القيامة .. وبآلها من بشرى لا تسر .

أما الذين آمنوا بالله ورسوله ، وامتثلوا أوامر الله فعملوا الأعمال الصالحة ، فلهم الأجر الحسن والثواب الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول .

مقاصد السورة

- ١ - وصف مشاهد القيامة .
- ٢ - الإنسان كإدح عامل فى الدنيا ، وسيلقى الجزاء فى الآخرة .
- ٣ - المؤمن يأخذ كتابه باليمين ، فيجد السعادة والسرور .
- ٤ - الكافر يأخذ كتابه من وراء ظهره ، فيجد الشقاء والسعير .
- ٥ - القسم بالشفق والليل والقمر ، تنبيهاً لجلالها ويديع صنعها .
- ٦ - الناس ينتقلون من الحياة إلى الموت ، ثم إلى البعث والحساب والجزاء ، فهم ينتقلون فى أحوالهم طبقة بعد طبقة ليستقروا فى نعيم مقيم أو فى عذاب أليم .

مظاهر القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⑤ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمَلَقِيهِ ⑥ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑨ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَى كِتَابَهُ، وَرَاءَ ظَهْرِهِ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَى سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑬ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ⑭ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ⑮ ﴾

المفردات :

السَّمَاءُ انشَقَّتْ : انصدعت عند قيام الساعة .

أَذْنَتْ لِرَبِّهَا : استمعت وانقادت له .

حُقَّتْ : حق عليها الاستماع والانقياد .

الْأَرْضُ مُدَّتْ : بسطت وسُوِّت كمد الأديم .

أَلْقَتْ مَا فِيهَا : أفلقت ما فى جوفها من الموتى ، من عهد آدم إلى قيام الساعة .

تَخَلَّتْ : خلت عنه غاية الخلق .

كَادِحٌ : جاهد فى عملك إلى لقاء ربك ، والكدح : جهد النفس فى العمل والكد فيه .

فَمَلَقِيهِ : فملاقى جزء عملك لا محالة .

وَرَاءَ ظَهْرِهِ : بشماله من وراء ظهره ، وهو الكافر .

يَدْعُوا ثُبُورًا : ينادى ويقول : يا ثُبُوراه ، والثُبُور : الهلاك .

يصلى سعيها، يدخلها ويقاسى حرها.

لن يحور: لن يرجع إلى ربه تكذيباً بالبعث، يقال: لا يحور ولا يحول، أى: لا يرجع ولا يتغير.
وعن ابن عباس: ما كنت أدرى معنى: يَحُورُ. حتى سمعت أعرابية تقول لبنية لها:
حورى، أى ارجعى.

التفسير:

١، ٢- إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ * وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ.

إذا تشققت السماء وتصدعت وانفطرد عقدها، وتناثرت كواكبها، ولم تعد متماسكة لا فطور فيها، وهذا معنى إذا السماء انفطرت، ومعنى قوله تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ * وَنُزُلُ الْمَلَائِكَةِ تَنْزِيلًا * الْمَلَكُ يُؤْتِيهِ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا. (الفرقان: ٢٥، ٢٦).

٣، ٤- وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ.

وإذا الأرض بسطت وسويت، فلا جبال ولا بحار فوقها، ولا موتى ولا كنوز فى أحشائها، وصارت الأرض مستوية مئسعة لأرض المحشر، لا يحجب العين فيها شيء، بل يكشف الناظر أهل المحشر، ويسمعهم الداعي، وألقت الأرض ما فى أحشائها من الموتى، من عهد آدم إلى قيام الساعة، ولقظت ما فيها من الكنوز.

وَتَخَلَّتْ. خلت خلواً تاماً مما فى أحشائها، وتخلت إلى الله وتبرأت من كل من فيها ومن أعمالهم.

قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا. (طه: ١٠٥-١٠٧)

٥- وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ.

استمعت لأمر ربها وأطاعت، وحق لها أن تستمع وأن تطيع.

كما ورد فى قوله سبحانه: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. (فصلت: ١١).

فالسما مطيعة وحق لها أن تطيع، والأرض مطيعة وحق لها أن تطيع، فالكل فى قبضة القدرة الإلهية.

قال صاحب الظلال :

رَحَقْتُ . أى : وقع عليها الحق ، واعترفت بأنها محقوقة لربها ، وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هذا حق عليها ، مسلم به منها .

وعلماء الكون يذكرون أن الكون فى اتساع مستمر ، ويستأنسون بقوله تعالى : وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . أى : اتسعت ، حيث يقف على أرض المحشر جميع البشر من عهد آدم إلى قيام الساعة ، على أرض مستوية مكشوفة ، ينفذهم البصر ، ويسمعهم الداعى .

وجواب إذا . محذوف دل عليه ما بعده ، وهو قوله تعالى : يَتْلِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ .

أى : إذا انشقت السماء واستجابت لأمر الله ، وإذا مدت الأرض وتخلت عما فى أحشائها ، واستجابت لأمر ربها ، رأيتم جزاء أعمالكم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

٦ - يَتْلِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِهِ .

يا أيها الإنسان ، أى الإنسان مؤمناً كان أم كافراً ، إنك كادح . أى : عامل فى الحياة ، ومجاهد ومجد فى عملك ، وستلقى جزاء عملك عند لقاء ربك ، والآية إيجاز مبهر لمسيرة الإنسان فى هذه الحياة ، فأنت مستخلف عن الله فى الأرض ، وأمامك فرصة لن تعوض من أجل كدح وعمل ، ستلقى جزاءه عند لقاء ربك ، أو عند ميزان عملك .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

لقد أوجدك الله فى الدنيا ، وأعطاك العقل والإرادة والاختيار ، ومعك الشهوة والرغبة ، والقدرة على الطاعة أو المعصية ، وأن تكون شاكراً أو كفوراً ، وستلقى جزاء ما قدمت يدك .

والكدح : جهد النفس فى العمل حتى تتأثر .

روى أبو داود الطيالسى أن رسول الله ﷺ قال : «قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملائقيه» .

قال المفسرون :

فَمُلْئِقِهِ . يعود الضمير إلى العمل من خير أو شر ، وقيل : يعود الضمير إلى قوله : رَبُّكَ . أى : فملاقى ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ، ويكافئك على سعيك .

وقيل : المراد بهذه الآية أبى بن خلف ، كان يكذب فى طلب الدنيا وإيذاء الرسول ﷺ ، والإصرار على الكفر .

وعلماء القرآن يقولون : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والآية عامة تشمل كل إنسان ، وسيلقى كل عامل جزاء عمله ، فالיום عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل .

٧ ، ٨ - فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا .

ينقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين : المؤمنون الطائعون ، والمكذَّبون الكافرون .

فالمؤمنون الطائعون يأخذون كتبهم باليمين ، ويُعرضون على ربهم فينظر فى كتاب أعمالهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم .

أخرج الشيخان ، والترمذى ، وأبو داود ، عن عائشة أن النبى ﷺ قال : «ليس أحد يُحاسب إلا هلك» ، قلت : يا رسول الله ، جعلنى الله فداءك ، أليس الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . قال : «ذلك العرض ، يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك»^(١٠) .

وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والحاكم وصححه ، عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته : «اللهم حاسبنى حساباً يسيراً» ، فلما انصرف ﷺ قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : «أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه»^(١١) .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يدنى العبد يوم القيامة ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول له : فعلت كذا وكذا ، ويعدد عليه ذنوبه ، ثم يقول له : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١٢) .

فهذا هو المراد من الحساب اليسير .

٩ - وَيَتَقَلَّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا .

ويرجع إلى عشيرته المؤمنین فرحاً مبهجاً بالنجاة فى هذا اليوم ، وقيل : يرجع إلى فريق المؤمنین مطلقاً وإن لم يكونوا عشيرته ، إذ كل المؤمنین أهل للمؤمن من جهة الاشتراك فى الإيمان .

وفى معنى هذه الآيات قال تعالى : فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا مِنِّي * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حَسْبَاءُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطْرُفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ . (الحاقة : ١٩ - ٢٤) .

١٠، ١١، ١٢ - وَأَمَّا مَنْ أَوْبَىٰ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ • فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا • وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا .

أما الكافر المكذب وهو من أخذ كتابه بشماله من وراء ظهره ، حيث تغلّ يمينه إلى عنقه ، وهو موقف الهالكين .

فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا .

والثُبُور: الهلاك ، فيقول : يا ثبوره ، أى : يا هلاك أقبل ، ويا موت احضر ، لتتقذنى مما أنا فيه ، لذلك قيل : أصعب من الموت تمنى الموت .

فليسوا ميتين فيستريحوا وكلّهم بحرّ النار صال

قال تعالى : وَنَادَوْا يُنْمِلْكَ لِقَاضِي عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مُّكْثِرُونَ . (الزخرف : ٧٧) .

فهذا الشقى الذى أطاع هواه ، وآثر الشهوات ، وسار وراء الم لذات ، ولم يستمع لداعى العقل ، ولم يقم شيئاً لأخرفته ، حين يرى موقف الحساب والجزاء ، وأعماله القبيحة قد أحصيت ، يتمنى الموت والفرار من مواقف العذاب ، ولن يجاب إلى طلبه .

قال أبو الطيب المصنّى :

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وإنما هو الشقاء الذى ليس بعده شقاء ، والتعاسة التى ليست بعدها تعاسة .

وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا .

ويدخل جهنم يصطلى بنارها ، ويقاسى حرّها وسعيرها ، ويتعذب بعذابها أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وما كان أيسر عليه ألا يطيع هواه ، وأن يؤمن بالله ، ولا يشرك به أحداً .

وفى ذلك يقول الله تعالى : وَأَمَّا مَنْ أَوْبَىٰ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبِثْ لِي أَمْرٌ كَثِيرٌ • وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابُهُ • يُنْزِلُهَا كَأَنَّهُ آتَايَةٌ • مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالُهُ • هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ • خُلِدْتُ فَعَلُوهُ • ثُمَّ الْجَحِيمُ صَلْوُهُ • (الحاقة : ٢٥ - ٣١) .

١٣ - إِنَّهُ كَانَ فِي أَفْئِدِهِمْ مَسْرُورًا .

إنه كان فى الدنيا لا يفكر فى العواقب ، ولا يتورّع عن المنكرات ، وإنما يهجم على المعاصى فريحاً بطراً أنفراً ، والإسلام لا يحارب السرور ، بل يدعو إلى الرضا والفرح بالنعمة ، بشرط ألا يصبح الفرح اختيالاً وتعالىاً .

قال تعالى: قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فَيْدًا لَكَ فَتَقَرُّ حَوًّا ... (يونس: ٥٨).

جاء في تفسير القرطبي:

قال ابن زيد: وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحرز والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل.

١٤ - إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْوَِرَ .

يحور معناها يرجع، أى: إن هذا الكافر تيقن أنه لن يرجع إلى ربه للحساب، فأثر الدنيا وأهمل الآخرة، وعمل طالحاً ولم يعمل صالحاً.

١٥ - بَلَىٰ إِنْ رَّبُّهُ كَانَ بِـِٔيْصِيرًا .

إنه ظن أن لن يحور، ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعاً على أمره، محيطاً بحقيقته، عالماً بحركاته وخطواته، عارفاً أنه سائر إليه، وأنه يجازيه بما كان منه.

قال الشيخ محمد عبده:

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحْوَِرَ .

أى: رجح في حكمه أنه لن يرجع إلى ربه، فيحاسبه على ما يقترب من ذنبه، أو يثيبه على الأفضل من كسبه.

بَلَىٰ .

إيجاب لما بعد النفي في: لَنْ يَحْوَِرَ .

أى: بلى ليحورن وليرجعن إلى ربه، وليحاسبن على عمله فيجزى عليه: الخير بالخير، والشر بالشر.

إِنْ رَّبُّهُ كَانَ بِـِٔيْصِيرًا .

بل تقضى حكمتنا في هذا الخلق العظيم، أن نجعل له حياة بعد هذه الحياة، يستثمر فيها أعماله، ويوافي فيها كماله.

تأكيد وقوع القيامة وما يتبعها من الأحوال

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۖ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ ﴾ (١٦) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿١٧﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿١٩﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢١﴾

المفردات :

فلا أقسم : أقسم ، و (لا) مزيدة .

الشفق : الحمرة في الأفق بعد الغروب .

وما وسق : وما جمعه الليل وستره إليه من الدُّباب ، وجميع ما انتشر بالنهار .

اتسق : اجتمع وتكامل وتم نوره .

لتركبن : لتلاقن أيها الناس (جواب القسم) .

طباقاً عن طبق : أحوالاً بعد أحوال ، متطابقة في الشدة .

يوعون : يضمرونه أو يجمعونه من السيئات .

غير ممنون : غير مقطوع عنهم ولا منقوص .

تمهيد :

أقسم سبحانه وتعالى بآيات له في الكائنات ظاهرات باهرات ، أن البعث كائن لا محالة ، وأنهم يلقون الأحوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

التفسير :

١٦ - فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ .

والشفق : هو الحمرة التي تظهر في الأفق الغربي بعد غروب الشمس ، وهو ضياءٌ من شعاعها ، وسمى شفقاً لرقته ، ومنه : الشفعة ، لركة القلب .

و(لا) هنا زائدة ، والمعنى : أقسم بالشفق ، ويمتد الشفق من المغرب إلى العشاء .

وقد أخرج الإمام مسلم ، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «وقت المغرب ما لم يغيب الشفق» .

ولكن صحَّ عن مجاهد أنه قال في هذه الآية : فَلَا أَقْسِمُ بِالْشَّفَقِ . هو النهار كله ، وإنما حمّله على ذلك قرنه بقوله تعالى : وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ . أى : جمّع ، كأنه أقسم بالضياء والظلام .

قال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مديراً وبالليل مقبلاً^(١٧) .

١٧ - وَاللَّيْلُ وَمَا وَسَقَ .

والليل وما ضمَّ وجمع ، ففى الليل يهدأ النَّاسُ ، ويستريح الأنعام ، بل إن يديك تعملان بالنهار ، وتنضمهما إلى جناحك بالليل ، والأُمُّ تضم أولادها ، والحيوانات تعود إلى منازلها ، والبشر يأوون إلى بيوتهم ، والعُباد يتهجّدون ويعبدون ، والنجوم تظهر ، والعيون تنام ، والليل يجمع كل شاردة ، ويضمُّ كل هائمة ، ولا يخفى عليك أن ما انتشر بالنهار يجتمع بالليل ، فكل ما نشره النهار بالحركة ، يضمه الليل ويجمعه بالسكون .

قال تعالى : وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ... (الأنعام : ٩٦) .

١٨ - وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ .

والقمر إذا اكتمل نوره واستدارته فى الليالى البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، وفيها يأنس الإنسان بالقمر المكتمل ، ويتأمل جماله ، ويناجى ذلك الكوكب الهادئ الساكن ، المنير المضىء النافع .

أقسم الله بالشفق ، وبالليل وما حوى وضَمَّ ، وبالقمر إذا صار يدراً مكتملاً ، على أن الحياة الآخرة حاصلة واقعة .

١٩ - تَرَكَّيْنِ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ .

لتنزلن من القيامة حالاً بعد حال ، منها : الموت والقبر ، والحشر والسؤال ، والميزان والصراف والجنة والنار ، ولتردُنْ أحوال الآخرة ومنازلها بعد أحوال الدنيا .

وقيل : معنى : تَرَكَّيْنِ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ .

لتنزلن حالة بعد حالة ، وكل حالة تسلم للأخرى ، مثل مراحل الطفولة والشباب والرجولة ، والكهولة والموت والحياة الآخرة ، وفي الدنيا تعانَوْنَ اليسر والعسر ، والسلام والحرب ، وكلها أمور متعاقبة ، فمع العسر يسر ، ومع الشدة فرج ، ومع الدنيا ومنازلها نجد الآخرة ومنازلها ، فلا بد من الآخرة بعد الدنيا .

وقال الحسن البصري :

طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ .

يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقر بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقمًا بعد صحة .

ورجَّح ابن جرير الطبري أن المراد : لتركبن من شدائد يوم القيامة وأحواله أهوالاً .

٢٠ - فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

فأى شيء يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله ، واعتناق الإسلام ، وهو دين الفطرة .

٢١ - وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ .

وإذا قرئ عليهم القرآن لا يخضعون لأوامره ، ولا يستجيبون لتوجيهاته ، وفيه ما يأخذ بالألباب ، وما يقنع العقل والنفس ، وما يذكر الناس بربهم وبالكون من حولهم ، وبالقيامة وبالآخرة التى تنتظرهم ، إن هذا الكون جميل ، وقد عرض القرآن جوانب منه ، وإن هذا القرآن رائع يأخذ بالألباب ، ويرشد إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعند هذه الآية سجد النبى ﷺ وسجد المؤمنون ، فهى آية سجدة .

وفى القرآن أربع عشرة آية نسجد عندها امتثالاً لأمر الله تعالى ، وعند سجدة التلاوة نسبح الله كما نسبحه فى السجود ، سيجان ربى الأعلى ثلاث مرات أو خمس مرات ، ثم نقول : سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم اكتب لى بها أجراً ، وامح بها عني وزراً ، وادخرها لى عندك ذخراً ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود .

٢٢ - بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ .

بل طبيعة هؤلاء الكفار التكذيب والعناد والجحود ، ولذلك لا يخضعون للقرآن عند تلاوته .

٢٣ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ .

والله أعلم بما تكن صدورهم ، وما تضم جوانحهم ، فبعضهم كان يعلم صدق القرآن وصدق محمد ﷺ ، ويُعرض عن الإسلام حسداً وحقداً .

قال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايِسَةِ اللَّهِ يَكْخَدُونَ . (الأنعام : ٣٣) .

٢٤ - فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

بشر يا محمد هؤلاء الكافرين بعذاب أليم موجه ينتظرهم ، جزاء تكذيبهم بالقرآن ورسالتك .

والبشرى تكون بالخبر السار ، لكنه استعمل البشرى هنا تهكماً بهؤلاء الكافرين .

٢٥ - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ .

أى : لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم ثواب دائم غير منقوص ، فى دار البقاء والخلود .

قال تعالى : وَفِيهَا مَا تُشْتَهَى الْأَنْفُسُ وَلَلَّذِينَ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزحرف : ٧١) .

قال صاحب الظلال :

وبهذا الإيقاع الحاسم القصير تنتهى السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد فى مجالات الكون والضمير .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة البروج

أهداف سورة البروج

(سورة البروج مكية ، وآياتها ٢٢ آية ، نزلت بعد سورة الشمس)

هذه السورة القصيرة تعرض حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيماني ، وتمجد الثبات على الحق ، وتبشّر المؤمنين بنصر الدنيا ونعيم الآخرة ، وتهدد الجبارين المعتدين بنقمة الله ولعنته في الدنيا والآخرة .

أصحاب الأخدود

الأخدود : الشق في الأرض يحفر مستطيلاً ، وجمعه أخاديد ، وأصحاب الأخدود قوم كافرون نور بأس وقوة ، رأوا قوما من المؤمنين فغاضهم إيمانهم ، فحملوهم على الكفر فأبوا ، فشقوا لهم شقاً في الأرض وحشوه بالنار ، وألقوهم فيه ، وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق .

فقرات السورة

١ - تبدأ الفقرة الأولى بالقسم ، وتربط بين السماء ويوم القيامة وبين حادث الأخدود ، ونقمة الله على أصحابه . (الآيات ١-٤) .

٢ - ثم تعرض الفقرة الثانية المشهد المفجع في لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث ، بدون تفصيل ولا تطويل ، مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها . (الآيات ٥ - ١٠) .

٣ - ثم يجيء التعقيب بعد ذلك بفوز المؤمنين ، ويشدة بطش الله بالمجرمين ، وبقدرة رهيمنته على الكون ، ثم إشارة سريعة إلى سوابق ممن أخذ من الطغاة كفرعون وثمود . (الآيات ١١ - ٢٢) .

مع آيات السورة

١- ٣ - يقسم الله سبحانه بالسماء ذات الكواكب ، والنجوم الكثيرة التي تنتشر في أرجائها ، ويقسم بيوم القيامة ، ويقسم بالشاهد والمشهود ، والشاهد هم الملائكة تشهد على الناس يوم القيامة ، والمشهود عليه هم الخلائق ، أو الأنبياء تشهد على أممهم يوم القيامة ، أو بجميع ما خلق الله في هذا الكون مما يشهده الناس ، ويرونه رأى العين .

وقصارى ذلك أنه سبحانه أقسم بالعالم كلها ، ليلفت الناظرين إلى ما فيها من العظم والفقامة .

٤ - قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . أى : أخذوا بذنوبهم ، ونزل بهم نكال الدنيا وعذاب الآخرة .

وقصة ذلك أنه قد وقع إلى نجران من أرض اليمن ، رجل ممن كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فدعا أهلها إلى دينه ، وكانوا على اليهودية ، وأعلمهم أن الله بعث عيسى بشريعة ناسخة لشرعتهم ، فآمن به قوم منهم ، وبلغ ذلك ذا نواس ملكهم ، وكان يتمسك باليهودية ، فصار إليهم بجنود من حمير ، فلما أخذهم خيبرهم بين اليهودية والإحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى بالرجل منهم فيخيره فمن جزع من النار ، وخاف العذاب ، ورجع عن دينه ، ورضى اليهودية تركه ، ومن استمسك بدينه ولم يبال بالعذاب اللدنوي لثقتة بأن الله يجزيه أحسن الجزاء ، ألقاه فى النار .

ثم بين من هم أصحاب الأخدود ، فقال :

٥ - آثَارَ ذَاتِ الْوُفُودِ . أى أن أصحاب الأخدود هم أصحاب النار ، التى لها من الحطب الكثير ما يشتد به لهيبها ، فلا جرم يكون حريقها عظيما ، ولهيبها متطائرا .

٦ - إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . أى : قتلوا ولعنوا حين أحرقوا المؤمنين بالنار ، وهم قاعدون حولها يشرفون عليهم ، وهم يُعَذَّبُونَ وَيُحْرَقُونَ فيها .

٧ - وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وهو تعبير يصور قسوة قلوبهم ، وتمكّن الكفر منهم ، فإن التعذيب كان يتم بأمرهم ، وكانوا يقعدون على مقربة من النار ، ويشاهدون أطوار التعذيب وفعل النار فى الأجسام فى أذى وسعار ، كأنما يثبتون فى حسم هذا المشهد البشع المشنع .

٨ ، ٩ - وما أنكر أصحاب الأخدود على هؤلاء الذين أحرقوهم بالنار إلا أنهم آمنوا بربهم ، الموصوف بالغلبة والقهر ، والمحمود على نعمه وأفضاله ، الذى له ملك السماوات والأرض وما بينهما ، وهو رقيب على الجميع شاهد على أعمالهم وأحوالهم .

١٠ - إن هناك جزاء عادلاً فى الآخرة ، وهؤلاء الذين عذبوا المؤمنين وحرقوهم فى الدنيا ، ولم يندموا على ما فعلوا ، سيلقون عقابهم فى جهنم ، وفى حريق شديد ، لقد أحرقوا المؤمنين بنار الدنيا ، وهى جزء يسير من نار الآخرة ، إذ نارها شديدة ومعها غضب الله على العصاة .

١١ - وهؤلاء المؤمنون الصادقون يلقون جزاءهم فى جنات تجري من تحتها الأنهار ، مع رضوان الله ، وذلك هو الفوز الكبير .

وبهذا يتم الأمر، وينال كل طرف جزاءه العادل، فالظالمون الطغاة يلقون عذاب الحريق، والمؤمنون الصادقون يلقون الجنة ورضواناً من الله أكبر، ذلك هو الفوز الكبير.

١٢ - ١٦ - إن انتقام الله من الظالمين لشديد، فهو يمهلهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده يوم القيامة.

ثم ذكر سبحانه خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال، فقال:

١ - وَهُوَ الْغَفُورُ . لمن يرجع إليه بالتوبة.

٢ - الْوَدُودُ . كثير الود والعطاء والمحبة لمن أخلصوا له .

٣ - ذُو الْعَرْشِ . ذو السلطان الكبير والقدرة الكاملة .

٤ - الْمَجِيدُ . العظيم الكرم والفضل .

٥ - فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ . سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار .

وهو صاحب الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث، ووراء الحياة ووراء كل شيء في الوجود.

١٧ - ١٨ - هَلْ أَسْلَكَ حَبِيبُ الْجُنُودِ . الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق تارة أخرى على الأعداء ، والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم ، هل أتاك حديثهم؟ وكيف فعل ريك بهم ما يريد ؟

فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ . لقد أهلك الله فرعون وجنده ، ونجى موسى ومن آمن معه ، وقصة ثمود مع صالح معروفة ، فقد عقرت ثمود الناقة التي جعلها الله لهم آية ، وقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم ، ونجى صالحا ومن معه من المؤمنين .

وخلاصة ذلك : أن الكفار في كل عصر متشابهون ، وأن حالهم مع أنبيائهم لا تتغير ولا تتبدل ، فهم في عنادهم سواء ، ولكن العاقبة دائماً للمتقين ، وبطش الله شديد بالطغاة الظالمين .

١٩ - ٢٢ - وفي الختام تقرر السورة أن الكفار في كل عصر يكذبون الرسالات ، وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وقدرته ، وهو سبحانه محيط بهم وعالم بجميع أحوالهم ، وسوف يؤخذهم على عملهم ، وهذا الذي كذب به قومك كتاب شريف ، متفرد في النظم والمعنى ، محفوظ من التحريف ، مصون من التغيير والتبديل .

مقاصد السورة

- ١ - إظهار عظمة الله وجليل صفاته .
- ٢ - قصة أصحاب الأخدود .
- ٣ - عاقبة المتقين الجنة والرضوان ، ونهاية المعتدين الهلاك والحريق .
- ٤ - يبيد الله الأمم الطاغية فى كل حين ، ولاسيما الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات .
- ٥ - القرآن مجيد شريف ، وكفى شرفاً أنه كلام الله .



القسم بأشياء عظام على لعنة أصحاب الأخدود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ مُّشْهُودٍ ③ قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④
 ⑤ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ⑥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑧
 وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑨ الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ
 عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْأَحْرِيقِ ⑪ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑫﴾

المفردات :

والسَّمَاءُ : أقسم الله بها وبما بعدها .

ذات البروج : ذات المنازل المعروفة للكواكب .

اليوم الموعود : يوم القيامة .

شاهد : من يشهد على غيره .

مشهود : من يشهد عليه غيره .

قَتْل : لعن أشد اللعن (جواب القسم) .

الأخدود : الشقّ المستطيل في الأرض ، ويجمع على أخاديد .

إذ هم عليها قعود : إذ هم على حافة النار وحولها قعود .

وما نقموا منهم : وما عابوا عليهم ، وما أنكروا منهم ، وما كرهوا منهم .

فَتَنَنُوا، ابْتَلَوْا وَامْتَحَنُوا .

مذابح الحريق ، هو عذاب جهنم ، ذُكر تفسيراً وبياناً له .

الفوز الكبير ، أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لا تفتنى .

التفسير :

١ - وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .

أى : أقسم بالسماء البديعة ذات البروج .

والبروج جمع برج ، وهو القصر العظيم ، أو الحصن .

قال تعالى : أَلَيْسَ تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ... (النساء : ٧٨) .

وتطلق البروج على النجوم والشمس والقمر ، فهى مخلوقات ضخمة ، وكأنها بروج السماء الضخمة ،

أى قصورها المبنية ، كما قال سبحانه : وَالسَّمَاءِ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . (الذاريات : ٤٧) .

ولما أن تكون البروج هى المنازل التى تنتقل فيها تلك الأجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء .

قال القرطبي :

قوله : وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ .

قسم أقسم الله عز وجل به ، وفى البروج أربعة أقوال :

أحدها : ذات النجوم ، الثانى : ذات القصور ، الثالث : ذات الخلق الحسن ، الرابع : ذات المنازل الخاصة بالكواكب السيارة ومداراتها الفلكية الهائلة ، وهى اثنا عشر منزلاً :

الحمل ، الثور ، الجوزاء ، السرطان ، الأسد ، السنبلة ، الميزان ، العقرب ، القوس ، الجدى ، الدلو ، الحوت . اهـ .

وخلاصة المعنى :

أقسم بالسماء البديعة ذات المنازل الرفيعة التى تنزلها الكواكب أثناء سيرها .

قال المفسرون : سُميت هذه المنازل بروجاً لظهورها ، وشُبِّهت بالقصور لعلوها وارتفاعها ، لأنها منازل الكواكب السيارة .

٠ - وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ .

وأقسم باليوم الموعود ، وهو يوم القيامة ، الذى وعد الله أن يجمع فيه الخلائق للحساب والجزاء .

قال تعالى : اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُجَمِّعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ... (النساء : ٨٧) .

٣ - وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ .

والشاهد هم الملائكة الحفظة والكتابة ، الذين يشهدون على الإنسان ، والمشهود عليه هو الإنسان ، وقيل : الشاهد محمد ﷺ وأُمته ، والمشهود عليه سائر الأمم .

وقيل : الشاهد كل رسول يشهد على أمته أنه بلغها رسالة السماء ، ومحمد ﷺ يشهد أنه بلغ أمته ، والمشهود عليه هم أمم الرسل .

قال تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا . (النساء : ٤١) .

وروى عن الحسن فى تفسير قوله تعالى : وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . أنه قال : ما من يوم إلا وينادى : أنا يوم جديد ، وإنى على ما يعمل فى شهيد ، فاعتقنى فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم الوعيد .

وقيل : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة .

وقيل : الشاهد هو جوارح الإنسان ، والمشهود عليه هو ابن آدم .

وقيل : الشاهد هو الإنسان المشاهد ليوم القيامة وأهواله وعجائبه . والمشهود هو أحوال القيامة التى يشيب لها الولدان .

قال الصاوى فى حاشيته على الجلالين :

والأحسن أن يراد ما هو أعم ، ولذلك نكرهما ليعم كل شاهد ومشهود .

٤ - قِيلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ .

أى : لُعُن أصحاب الأخدود ، وأصابهم القتل جزاء ما فعلوا بالمؤمنين من تقتيل وتعذيب .

٥ - النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ .

تشرح هذه الآية أفعالهم ، حين سَقُوا أُخْدُودًا فى الأرض ، وأضرَمُوا فيه النَّارَ مشتعلة مرتفعة .

٦ - إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ .

لقد أضرّموا النار ، وجلسوا حولها ينظرون إلى القتلى والمعذبين .

٧ - وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ .

جلسوا يشاهدون ألوان العذاب بالمؤمنين : صبياح القتلى ، وآلام الحريق بالمؤمنين ، بدون أن ترقى قلوبهم ، بل كانوا يتلذذون بآلامهم .

وقيل : كان يشهد كل فريق على صاحبه أمام الملك أنهم لم يقصروا فى تحريق المؤمنين .

٨ - وَمَا تَقَمُّوْا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَرِيبِ الْغَيْبِ .

ما كان لهؤلاء المؤمنين ذنب أو عيب ، أو جريمة تستحق العقاب ، سوى إيمانهم بالله القوى الغالب ، المحمود على جميع أفعاله .

فالمؤاخذه أو العقاب سببه الإيمان بالله الذى يستحق الإيمان والحمد ، وهذا من باب تأكيد المنح بما يشبه الذم ، مثل قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائب

وتنتهى قصة أصحاب الأخدود عند هذا الحد من الآيات ، لكن المعانى التى ترشد إليها لا تنتهى إلى قيام الساعة ، ذلك أنها تغيد أن هناك صراعا بين الباطل والحق ، فالباطل هنا يملك القوة والأخدود والنار والمشاهدة والاستعلاء والجبروت . أما المؤمنون فكانوا يملكون الثبات واليقين ورجاء ما عند الله ، وقد صمّروا وصبروا وقُتلوا ، وثبتوا على إيمانهم .

لكنّ الدنيا لها نهاية ، والآخرة دار الجزاء العادل ، وسيلقى أهل الباطل والكفر جزاءهم ، وسيلقى أهل الإيمان والثبات على الحق جزاءهم ، والأعمال بالخواتيم .

قال تعالى : **بَلْ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .**

٩ - الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

إن إيمان هؤلاء المؤمنين كان لله المتّصف بالعزة والحمد ، وهذا الإله له ملك السماوات والأرض ، خلقاً ورعاية وحفظاً ، وهو سبحانه بيده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وهو سبحانه مطلع وشاهد على ما فعله أصحاب الأخدود بالمؤمنين من القتل والتحريق ، وهو أيضا الحكم العدل الذى يمهّل ولا يهمل .

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَيْ : والله تعالى على كل شيء مطلع وشاهد ، وهذه أكبر شهادة .

قال تعالى : قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ^(١١) وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ... (الأنعام : ١٩) .

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا يَسُئَرُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

الفتنه والفتن : الاختبار والامتحان ، تقول : فتنت الذهب بالنار ، أَيْ : اختبرته لأعلم جوده من رديئه .

والمراد هنا : عذبوا المؤمنين والمؤمنات بألوان العذاب ، والآية تشمل أصحاب الأخدود شمولاً أولياً ، وتشمل أهل مكة الذين فتنوا المؤمنين بمكة ، وتشمل كل من فتن مؤمناً وعذبته ولم يتب إلى الله تعالى إلى يوم القيامة . وأنا أكتب هذه السطور تطالعنا الصحف بأن أحد جنرالات فرنسا كتب في مذكراته عن حرب الجزائر أنه تلقى تعليمات بتعذيب فدائيين جزائريين في زنزانات منفردة حتى يعترفوا على زملائهم ، وأن أبطال الجزائر كانوا يموتون تحت العذاب دون أن يعترفوا على زملائهم ، ونُشرت هذه الاعترافات في فرنسا وفيها أن آلافاً من المحاربين الجزائريين ماتوا في الزنزانات تحت العذاب .

وخلاصة معنى الآية :

إن الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات وفتنهم في دينهم ، طالبين رجوعهم عن الحق إلى الكفر ، ثم لم يتوبوا إلى الله بالندم والإقلاع والرجوع إلى الله ، فلهم عذاب جهنم وما فيه من حميم وغساق ، ونار مستعرة أوقدها الجبار سبحانه ، ونار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة .

ولما كان أصحاب الأخدود قد أحرقوا المؤمنين في نار الأخدود ، نصّ على أن هؤلاء القساة الغلاظ المعتدين ينتظرهم عذاب جهنم .

وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . أَيْ : كما حرقوا المؤمنين بنار الدنيا ، فسيحترقون هم بنار الآخرة ، لكن شتان بين الثَّأرين ، نار الدنيا أوقدها العبيد ، ونار الآخرة أوقدها الخالق المجيد ، فالجزء من جنس العمل .

قال الحسن البصري :

انظروا إلى هذا الكرم والجد ، قتلوا أوليائه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

وهذا يدل على أن الآية توجيه لأهل مكة ، ولكل كافر ظالم أن ألقوا عن كفرهم وظلمهم ، وتوبوا إلى ربكم قبل فوات الأوان .

١١ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ .

هذا هو التعقيب على عذاب المؤمنين ، أى : بينما الذين فتنوا المؤمنين وعذبوهم يسطرون بعذاب جهنم وعذاب الحريق ، نجد الذين آمنوا بالله رباً ، وعملوا أعمالاً صالحة ، وامتثلوا أوامر ربهم ، وهدى نبيهم ، ونفذوا أحكام دينهم ، يتمتعون بجنات تجري من تحتها الأنهار ، فيها ألوان النعيم ورضوان من الله أكبر .

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . ذلك هو الفوز الأكبر ، والنجاح الأعظم ، والخاتمة الناجحة للمؤمنين .

لقد كانت هناك معركة بين الكفار المعتدين والمؤمنين الذين آمنوا بالله الذى له ملك السماوات والأرض ، وقد حرق المؤمنون فى الأخدود أمام أعين الظالمين ، لكن المعركة لم تنته بعد ، لقد أدخل الكفار عذاب جهنم وعذاب الحريق ، وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ .

قال صاحب الظلال :

والفوز : النجاة والنجاح ، والنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار ، بهذه الخاتمة يستقر الأمر فى نصابه ، وهى الخاتمة الحقيقية للموقف ، فلم يكن ما وقع فى الأرض إلا طرفاً من أطرافه ، لا يتم به تمامه ... وهذه هى الحقيقة التى يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث ، لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة ، تتعرض للفتنة على مدار القرون .^(١١)

★ ★ ★

بطش الله شديد

﴿إِنْ بَطَّشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَنَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي كَذِبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي نَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴿

المفردات :

بطش ربك ، أخذه الجبابة والظلمة بالعذاب .

هو يبدئ، يخلق ابتداءً بقدرته .

يعيد، يبعث الموتى يوم القيامة بقدرته .

الودود، المتودد إلى أوليائه بالكرامة .

ذو العرش، صاحب العرش وخالقه ومالكة .

المجيد، العظيم الجليل المتعالى .

محيط، عالم بأحوالهم، وقادر عليهم، وهم لا يعجزونه .

تمهيد :

في أعقاب قصة أصحاب الأخدود، ونهاية الظالمين إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق، وفوز المؤمنين بالجنة ورضوان الله، تأتي هذه الآيات تبين قدرة الله على الظالمين، فكما أهلك الأولين فهو قادر على إهلاك كفار مكة، وكل ظالم يأتي إلى يوم الدين .

وفي الآيات تهديد للظالمين، وتثبيت للمؤمنين، فمن وجد الله وجد كل شيء، ومن فقد الله فقد كل شيء .

التفسير :

١٢ - إِنْ يَطْشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ .

والخطاب لرسول الله ﷺ، وفيه إيناس له ﷺ وبيان لعظيم قدرة الله .

والبطش هو الأخذ بقوة وعنف، فإذا أضيف إلى الشدة كما هنا، كان المعنى: إن أخذ ربك للظالمين الكافرين أخذ بالغ في الشدة وفي العنف، لأنه بطش القادر على كل شيء .

١٣ - إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ .

فهو سبحانه الذي بدأ الخلق، وهو الذي يعيد البعث والحشر والنشر .

قال تعالى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، ... (الأنبياء: ١٠٤) .

وفي كل لحظة من لحظات هذه الحياة الدنيا نجد البدء والإعادة، والخلق والأمر، والفقر والغنى، والارتفاع والانحدار، والعز والذل، والكون كله والخلق كله بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقب ذلك كيف يشاء .

قال تعالى: كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ. (الرحمن: ٢٩).

وهي شئون يبديها ولا يبتديها ، يشفى مريضاً ويمرض سليماً ، يعافى مبتلىً ويبتلى معافى ، يغنى فقيراً ويفقر غنياً ، يرفع وضيعاً ويضع رفيعاً .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُوكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (آل عمران : ٢٦) .

١٤ - وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ .

وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب ، هو خالق الخلق وهو أعلم بهم ، لذلك فتح باب التوبة للتائبين ، وغفر للمستغفرين ، ورحم المسترحمين ، ولم يغلق بابيه في وجه قاصد ، ومهما عظم الذنب وكبرت الخطيئة ، إذا صح الندم ، وعظم الألم ، وصدقت نية العبد في التوبة ، فإن الله لا يرد من قصد بابيه .

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... (النساء: ١١٦) .

وقال عز شأنه: قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَيُّوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ... (الزمر: ٥٣ ، ٥٤) .

لقد سبقت رحمة الله غضبه ، قال تعالى: وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... (الأعراف: ١٥٦) .

وقال سبحانه وتعالى: إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكَلِمَةُ الْكَافِرُونَ . (يوسف: ٨٧) .

وفي السنة الصحيحة أن رجلاً قتل مائة نفس ، ثم ندم ورغب في التوبة ، فتطهر وانتقل من أرض المعصية إلى أرض فيها عبادة لله ، ليعبد الله معهم ، وفي الطريق أدركته منيته فمات ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فأوحى الله إليهم: انظروا هذا الذي مات ، إن كان قريباً من أرض الطاعة فلتقبض روحه ملائكة الرحمة ، وإن كان قريباً من أرض المعصية فلتقبض روحه ملائكة العذاب ، فوجدوه قريباً من أرض الطاعة شبراً أو ذراعاً ، فقبضته ملائكة الطاعة .

قال علماء الحديث :

فلو أن الرجل طاف الأرض كلها دون ندم أو توبة أو رغبة صادقة في التوبة ما نفعه ذلك ، لكن لما صدقت النية والرغبة في التوبة والندم قبله الله ، ويسر له باب التوبة وحسن الخاتمة .

واسم الله **الْوَدُودُ** . يفتح أبوابا من هذه الرحمة والمودة والرضا والمحبة ، **الْوَدُودُ** . الذي يبشّر اللطاعين ، ويهشّر للمتبتلين ، ويرحم عباده ، ويكرم أوليائه ، ويرضى عن المؤمنين .

قال ابن عباس : **الْوَدُودُ** . يؤدّ أوليائه كما يؤدّ أحكم أخاه بالبشرى والمحبة .

فيا للفضل الإلهي ، ويا للجلال والكمال والرضا والمودة من الله العليّ القدير للعبد المخلوق الفاني ، إذا صحت نيّته ، وصدقت عقيدته ، وعظمت رغبته فيما عند الله ، حيث يجد مودة الله .

قال تعالى : **يُجِيبُهُمْ وَيُجِيبُونَهُ** ... (المائدة : ٥٤) .

وقال سبحانه : **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ... (البينة : ٨) .

وقال عز شأنه : **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَسَعَةً** . (مريم : ٩٦) .

وفى سورة الكهف نجد عناية الله تمتد لأصحاب الكهف ، ونجد فى قصة موسى والخضر جانبا من هذه المودة ، حين رأينا الخضر يخرق السفينة ، ويقتل الغلام ، ويبنى الجدار تحقيقا لجانب من رحمة الله ومودته بالصالحين ، وامتداد المودة إلى ذرية الصالحين ، حيث يقول الخضر - كما حكى القرآن الكريم :

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ... (الكهف : ٨٢) .

١٥ - **ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ** .

ذُو الْعَرْشِ . ذو الملك والسلطان .

الْمَجِيدُ . العظيم فى ذاته وصفاته ، تام القدرة ، كامل الحكمة .

وفى الحديث الصحيح : «العرش لا يقدر قدره إلا الله» .

قال ابن كثير :

ذُو الْعَرْشِ . أى : صاحب العرش ، العظيم العالى على جميع الخلائق .

الْمَجِيدُ . المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها . اهـ .

وقال ابن القيم: المجّد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد.

كما قالت الملائكة: رَحِمْتَ اللَّهُ وَبَرَكْتَ، عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ. (هود: ٧٣).

وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثنى على الله تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع لنا في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد».

فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد، المستحق لجميع صفات الكمال. الْمَجِيدُ. العظيم الواسع، القادر الغني، ذو الجلال والإكرام.

١٦ - قَالُوا لَمَّا يَرِيذُ.

كثير الفعل لما يريد، لا راداً لمشيئته، ولا معقّب لأمره، إذا أراد شيئاً فعله، لا يعجزه شيء، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته.

كما روى عن أبي بكر الصديق أنه قيل له، وهو في مرض الموت: هل نظر إليك الطبيب؟ قال: نعم، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: إني فعال لما أريد.

يريد أن الطبيب في الحقيقة هو الله، وهو سبحانه فعال لما يريد، إذا أراد أمراً فعله طبق إرادته.

قال الإمام الطحاوي:

وكل شيء يجري بتقديره ومشئته، ومشئته تُنفَّذ لا مشيئة العباد.

؟

وقال ابن القيم:

اشتملت هذه السورة على اختصارها، من التوحيد على وصفه سبحانه بصفات الكمال والجلال، فهو الْوَفُودُ. لكونه حبيباً إلى عباده ومحباً لهم.

وكونه فعالاً لما يريد، المتضمن لحياته وعلمه وقدرته، ومشئته وحكمته، وغير ذلك من أوصاف كماله. اهـ.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً.

١٧ - هَلْ أَتَسْلَكَ حَدِيثَ الْجَنُودِ .

المراد بالجنود : القوم والجماعات الذين تجنّدوا على أنبياء الله ، واجتمعوا على أذاهم .

والمعنى :

هل بلغك يا محمد ، خبر الأمم والجماعات التي كذّبت رُسُلها ، واستحقت عقاب السماء ، وفي هذا الاستفهام تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد للكفار والمتجبرين في كل مكان وزمان .

عن عمر بن ميمون قال : مرَّ النبي ﷺ على امرأة تقرأ : هَلْ أَتَسْلَكَ حَدِيثَ الْجَنُودِ . فقال : «نعم قد جاءني» .

١٨ - فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ .

وخصَّ فرعون وثمود من بين المكذّبين لوضوح الطغيان والظلم فيهما .

وقصة فرعون مع موسى مشهورة معلومة ، وكان أهل مكة على علم بها ، وقد أغرق الله فرعون ، ونجّى بني إسرائيل من قبضته ، لحكمة إلهية تنفّذ فيها مشيئته .

وثمود هم قوم صالح الذين عقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، واستحقوا ما نزل بهم من هلاك .

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَطْقُهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَفَقَرُوا هَذَا فَمَدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا . (الشمس : ١١ - ١٥) .

١٩ - بَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْلِيلٍ .

لقد كان أولى بقومك أن يتعظوا بما أصاب الجنود ، مثل فرعون وجنده الذي أغرقوا في مياه البحر ، ومثل ثمود قوم صالح الذين حاق بهم سوء أعمالهم ، لكن قومك بدل أن يفكروا في دعوتك وشريعتك ، ويتأملوا في القرآن وأحكامه وهدايته ، استغرقهم التكذيب بالإسلام ورسالته ، وأصبحوا وأمسوا ولا هم لهم إلا تكذيب الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ .

٢٠ - وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ .

والله تعالى عالم بهم ، مطلع على أفعالهم ، لا يفوته ولا يعجزونه ، ويأس الله لا يردُّ عن القوم الظالمين .

٢١ - بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ .

هذا القرآن مجيد شريف ، على القدر ، رفيع المنزلة ، مصدق للكتب السماوية السابقة عليه ، ومهيم عليها ، فيه قصص الأنبياء والمرسلين ، وأخبار السابقين ، وفيه حكم وتشريع ، وبيان وآداب ، ومواعظ وهداية ، وفيه أخبار القيامة ، وأنباء اليوم الآخر ، وفيه صفات الله وكمالاته ، فهو سبحانه متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وهذا القرآن ليس شعرا ولا كهانة ولا أساطير الأولين ، ولكنه تنزيل من رب العالمين .

٢٢ - فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ .

هو في اللوح المحفوظ الذي في السماء ، محفوظ من الزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، ونحن نؤمن بأن القرآن كلام الله ، أودعه الله في اللوح المحفوظ .

وقد حفظ الله كتابه على مرّ القرون ، وتكفل الله بحفظه ، وبأن يظل دائما أصل أصول الدين ، وأساس الإسلام وكلّ الشريعة .

«فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الجدل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، لم تسمعنه الجن حتى قالت : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشد فأمتأ به ، ولن نشرك بربنا أحدا» .

وقال الحسن البصري :

إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

أما بالله وحده لا شريك له ، وبأن محمدا ﷺ عبده ورسوله ، وبأن القرآن كلام الله تعالى ، منزه عن النظير والمثيل ، محفوظ من التغيير والتبديل .

كما قال سبحانه وتعالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفِظُهُ . (الحجر : ٩) .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

ملحق بتفسير سورة البروج

من كتاب التفسير المثير للدكتور وهبة الزحيلي

فضل سورة البروج

أخرج الإمام أحمد، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة ب: **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الْبُرُوجِ، وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ.** ^(٩٦)

وأخرج أحمد، عن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسماوات في العشاء ^(٩٧).

سبب نزولها والحكمة منها :

المقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار ، ببيان أن سائر الأمم السابقة كانوا كأهل مكة ، مثل أصحاب الأخدود في نجران اليمن ، ومثل فرعون وثمود .

وكان كل الكفار سواء في التكذيب ، فانتقم الله منهم ، لأنهم جميعاً في قبضة القدرة الإلهية : **وَاللَّهُ
مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ** . وهذا شيء مثبت في اللوح المحفوظ ممتنع التغيير ، لقوله تعالى : **بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ
فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** . .

وسبب نزول هذه السورة التي تدور على قصة أصحاب الأخدود ما رواه مسلم في صحيحه ، وأحمد ،
والنسائي ، وموجزها : أن أحد ملوك الكفر وهو ذو نواس اليهودي وأسمه زُرْعَة بن ثَبَّان أسعد الحميري ، بلغه
أن بعض رعيته آمن بدين النصرانية ^(٩٨) ، فسار إليهم بجنود من جَمَيْرٍ ، فلما أخذوهم خيرَهم بين اليهودية
والإحراق بالنار ، فاختراروا القتل ، فشقوا لهم الأخدود ، وأضرموا فيه النار ، ثم قالوا للمؤمنين : من رجع
منكم عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في النار ، فصبروا ، فألقوهم في النار ، فاحترقوا ، والملك
وأصحابه ينظرون .

قيل : قُتِلَ مِنْهُمْ عَشْرِينَ أَلْفًا ، وقيل : اثني عشر أَلْفًا .

وقال الكلي: كان أصحاب الأخدود سبعين ألفاً.

والخلاصة: أن ذا نواس آخر ملوك حمير - وكان مشركاً - قتل أصحاب الأخدود الذين كانوا نصارى، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً^(١٧).

تفصيل القصة - قصة الساحر والراهب والغلام:

المعتمد من قصص أصحاب الأخدود ما جاء في الصحاح عن النبي ﷺ: «أنه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضمَّ إليه غلاماً ليعلمه السحر، وكان في طريق الغلام راهب يتكلم بالمواعظ لأجل الناس، فمال قلب الغلام إلى حديثه، فرأى في طريقه ذات يوم دابة أو حية قد حبست الناس، فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فاقتلها بهذا الحجر، فقتلها.

وكان ذلك الغلام بعدئذ يتعلم من الراهب إلى أن صار بحيث يبرئ الأكمه والأبرص، ويشفي من الداء.

وعصى جليس الملك فأبرأه، فأبصره الملك فسأله: من رد عليك بصرك؟ فقال: ربى، فغضب، فعذبه، فذل على الغلام، فعذب الغلام حتى دلَّ على الراهب، فلم يرجع الراهب عن دينه، فقدَّ باليمنشار، وأتى الغلام، فذهب به إلى جبل ليُطرح من زُبوته، فدعا فرَجَف بالقوم فطاحوا ونجا، فذهبوا به إلى قرقر (سفينة صغيرة)، فلجَّجُوا به ليُغرَّقوه، فدعا، فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا ونجا، وقال للملك: لست بقاتلى حتى تجمع الناس في صعيد، وتصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كِنَانَتِي وتقول: بسم الله رب الغلام، ثم ترميني به.

فرماه فوق في صُدْغِه، فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، ف قيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخاديد في أفواه السُّكَّ وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منها طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي، فتقاعست أن تقع فيها، فقال الصبي: يا أمَّاه، اصبرى فإنك على الحق، وما هي إلا غُمَّيْضَةٌ، فصبرت واقتحمت^(١٨).

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الطارق

أهداف سورة الطارق

(سورة الطارق مكية ، وآياتها ١٧ آية ، نزلت بعد سورة البلد)

وهي سورة تشترك في خصائص سور هذا الجزء ، التي تمثل طرقات متوالية على الحسن ، طرقات عنيفة قوية عالية ، وصيحات بقوم غارقين في النوم .. تتوالى على حسهم تلك الطرقات تناديهم : تيقظوا ، تنبهوا ، انظروا ، تفكروا ، تدبروا ، إِنَّ هَناك إِلَهاً ، وحساباً وجزاء ، وعذاباً شديداً ، ونعيماً كبيراً .
وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق ، دقيق ملحوظ ، يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل .

مع آيات السورة

١ - ٤ - وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ . إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

أى : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذى يستر الأشياء .

وقد كثر فى القرآن الحلف بالسماء وبالشمس ، وبالقمر وبالليل ، لأن فى أحوالها وأشكالها ومسيرها ومطالعها ومغاريبها ، سمات القدرة وآيات الإبداع والحكمة .

وَالطَّارِقِ . الذى يطرق ليلاً ، وَ النَّجْمُ الثَّاقِبُ . هو النجم المضىء الذى يثقب الظلام ، ونهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، وهو الثريا عند جمهرة العلماء ، أو جنس الشهب التى يرجم بها الشياطين ، ويرى الحسن أن المراد كل كوكب ، لأن له ضوءاً ثاقباً لا محالة .

يُقَسَمُ الله تعالى بالسماء ونجمها الثاقب ، إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ . وفى هذا التعبير بهذه الصيغة معنى التوكيد ، ما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . وقد خصَّ النفس هنا لأنها مستودع الأسرار والأفكار ، وهى التى يتناط بها العمل والجزاء .

٥ - ٧ - فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ .

فلينظر الإنسان من أى شئ خُلق ، وإلى أى شئ صار ، إنه خُلق من ماء ذافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، خُلق من هذا الماء الذى يجتمع من صلب الرجل ، وهو عظام ظهره الفقارية ، ومن ترائب المرأة وهى عظام صدرها العلوية .. ولقد كان هذا سرًا مكنونًا فى علم الله لا يعلمه البشر ، حتى جاء القرن العشرون ، حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ، وعرف أنه فى عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفى عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة ، حيث يلتقيان فى قرار ، فينشأ منهما الإنسان .

«وقد ثبت فى علم الأجنة أن البويضة ذات الخلية الواحدة تصير علفة ذات خلايا عدة ، ثم تصير العلفة مضغة ذات خلايا أكثر عددًا ، ثم تصير المضغة جنينًا صغيرًا وزعت خلاياه إلى طبقات ثلاث يخرج من كل طبقة منها مجموعة من الأنسجة المتشابهة فى أول الأمر ، فإذا تم نموها كَوْنَت جسم الإنسان»^(١١) .

«وما وراء هذه اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق ، حشود لا تحصى من العجائب والغرائب ، فى خصائص الأجهزة والأعضاء ، تشهد كلها بالتقدير والتدبير ، وتشى باليد الحافظة الهادية المعينة ، وتؤكد الحقيقة الأولى التى أقسم عليها بالسماء والطارق ، كما تمهد للحقيقة التالية - حقيقة النشأة الآخرة - التى لا يصدقها المشركون المخاطبون أول مرة بهذه السورة»^(١٢) .

٨ - ١٠ - إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ . إِنَّ الَّذِى قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَأَنْشَأَهُ وَرَعَاهُ ، لِقَادِرٌ عَلَى رَجْعِهِ إِلَى الْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَإِلَى التَّجَدُّدِ بَعْدَ الْبُلَى ، فَالنَّشْأَةُ الْأُولَى تَشْهَدُ بِقُدْرَتِهِ وَحُكْمَتِهِ ، هَذِهِ النَّشْأَةُ الْبَالِغَةُ الدَّقَّةُ وَالْحَكْمَةُ ذَهَبَ كُلُّهَا عَيْنًا إِذَا لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ رَجْعَةً لَتَحْتَبِرَ السَّرَائِرُ ، وَتَجْزَى جَزَاءَهَا الْعَادِلُ .

يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ . تبلى أى تختبر وتمتحن ، والمراد تظهر . السَّرَائِرُ . ما يسرّ فى القلوب من العقائد والنيات ، وما خفى من الأعمال ، واحدها سريرة .

قال الأخوص :

سببى لها فى مضمر القلب والحشا سريرةٌ وقد تبلى السرائر

إن الله قادر على إعادة الإنسان للحياة يوم تتكشف السرائر ، وتظهر الخفايا ، ويتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل عون .

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ . فلا تكون للإنسان قوة ذاتية أو منعة من نفسه يتمتع بها ، وما له من ناصر خارج ذاته ينصره ويحميه مما حتم أن يقع عليه .

والخلاصة : إن القوة التي بها يدافع الإنسان عن نفسه ، إما من ذاته وقد نفاها بقوله : فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ . وإما من غيره وقد نفاها بقوله : وَلَا نَاصِرٍ . وبذلك يُحْشَرُ الإنسان منفرداً ، مكشوف السرائر ، متجرداً من القوة والناصر .

١١ - ١٤ - يُقَسِّمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْمَطَرِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنْهَا ، وَقَدْ كَانَ أَوَّلُهُ مَاءَ الْأَرْضِ فَتَبَخَّرَ وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، ثُمَّ رَجَعَ مِنْهَا مَطَرًا إِلَى الْأَرْضِ ، لِيَحْيِيَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَيُقَسِّمَ بِالْأَرْضِ الَّتِي تَتَشَقَّقُ عَنِ النَّبَاتِ وَالْعَيُونِ ، يُقَسِّمُ بِذَلِكَ عَلَى أَنْ الْقُرْآنَ تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَهُوَ الْقَوْلُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ وَلَا بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ .

أخرج الترمذی ، والدارمی ، عن علی رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنها ستكون فتن» قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : «كتاب الله ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشيع منه العلماء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يُخْلَقُ على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن لما سمعته أن قالوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ... (الجن : ١ ، ٢) . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم»^(١٧) .

١٥ - ١٧ - إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤُودًا .

إنهم هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق ، يمكنون مكرًا شديدًا ، ويتآمرون على إطفاء نور القرآن ، والله سبحانه يقابل كيدهم وتآمرهم بما يحبطه ويبطله ، وشتان بين عمل الإنسان وعمل الواحد الديان ، فالمعركة ذات طرف واحد ، وإن صورت ذات طرفين لمجرد المشكلة ، إنهم يكيدون .. وأنا الله أكيد كيدًا . أنا المنشئ المبدئ الهادي ، الحافظ المعيد ، المبتلى القادر القاهر ، خالق السماء ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع ، أنا الله أكيد كيدًا ، وفي هذا تهديد وعيد للكافرين ، وبشارة للمؤمنين بأن الله معهم يدير أمرهم ، ومن وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء ، وإذا كان الله معنا فمن علينا ؟

فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُؤُودًا . لا تستعجل نزول العذاب بهم ، ولا تستبطئ نهايتهم ، بل أمهلهم قليلًا ، وسترى ما يحل بهم من العذاب والنكال .

وفى الآيات إيناس للنبي ﷺ وللمؤمنين ، وبعث للطمأنينة فى قلوبهم ، وتأكيد لهم بأن عناية الله ترعاهم ، وأن كيد الكافرين ضعيف ، وأن العقوبة للمتقين .

قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

مقاصد السورة

- ١ - إثبات حفظ الله للإنسان ورعايته له .
- ٢ - إقامة الأدلة على أن الله قادر على بعث الخلق مرة أخرى .
- ٣ - إن القرآن منزل من عند الله ، وإن محمداً ﷺ رسول الله .
- ٤ - تهديد الكافرين بالعذاب والنكال .

القسم على أن لكل نفس حافظاً من الملائكة يراقبها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءَ وَالطَّارِقَ ۚ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۚ﴾ ١ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۚ﴾ ٢ ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۚ﴾ ٣ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۚ﴾ ٤ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۚ﴾ ٥ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ﴾ ٦ ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۚ﴾ ٧ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۚ﴾ ٨ ﴿فَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرَ ۚ﴾ ٩ ﴿

المضردات :

الطارق : كل أت ليلاً ، ومنه النجوم لطلوعها ليلاً ، والطارق في الأصل : اسم فاعل من الطرق ، بمعنى الضرب بوقع وشدة يُسمع لها صوت .

النجم الثاقب : المضيء المتوهج ، أو المرتفع العالى ، كأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، والمراد به كل نجم ، أو الثريا .

إن كل نفس : ما كل نفس ، وهذه الجملة جواب القسم .

لما عليها : إلا عليها .

حافظ : رقيب ، وهو الله أو الملائكة تحفظ عملها من خير وشر .

دافق : مدفوق ومصبوب بدفع وسرعة .

يخرج من بين الصلب ، الظهر ، أو فقرات الظهر (النخاع الشوكي في ظهر الرجل ثم ينصب إلى عروق في البيضتين) .

والترائب : عظام صدر المرأة .

رجعه : إعادة خلقه بعد فناءه وموته .

تبلى : تختبر وتكشف ، والمراد : تظهر المكونات .

السراير: ضمائر القلوب ، وما يستر فيها من العقائد والذنيات ، جمع سريرة .

فماله : ما لمنكر البعث وهو الإنسان الكافر .

من قوة : يتمتع بها من العذاب .

ولاناصر : ينصره ويدفع عنه السوء .

التفسير :

١- وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ .

أقسم بالسماء وأقسم بالطارق الذى يطرق ليلاً ، وهو النجوم والكواكب تظهر بالليل وتخفى بالنهار ، وقد أقسم الله بالشمس والقمر والفجر ، والليل والضحى ، والنجوم والرياح ، وكلها مظاهر تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى .

٢- وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ .

ما أعلمك وما أخبرك ما الطارق ؟ وهو استفهام يراد به التفتيح والتعظيم ، والإشارة إلى أن رفعة قدره ، وعلو منزلته ، لا تصل إلى معرفتها عقول الخلق ، فلا بد من تلقاها من العليم الخبير .

٣- النُّجُومُ اللَّائِبُ .

النجم الذى يثقب الظلام بضوئه ، ونهتدى به فى ظلمات البر والبحر ، وتُعرف به أوقات الأمطار ، وهو الثريا عند الجمهور ، والظاهر أن المراد به جنس النجم الذى يُهتدى به فى ظلمات البر والبحر .

ويؤيد ذلك ما جاء فى صحيح البخارى : نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله طروقاً^(١) . أى : أن يأتيهم ليلاً فجأة يتخونهم ، أى يكتشف خيانتهم أو استقامتهم .

وفى حديث آخر مشتمل على الدعاء : «أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن»^(٢) .

٤- إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ .

ما كل نفس إلا عليها حافظ ، أى مهيمن ورفيق وهو الله تعالى ، كما فى قوله سبحانه : وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَاقِبًا . (الأحزاب : ٥٢) .

وقيل : معنى حَافِظٌ . الملائكة الكرام الذين يحفظون الإنسان من النوائب والمصائب ، ويسجلون عليه أعماله ، خيرها وشرها .

كما في قوله تعالى : وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ . (الانفطار : ١٠ ، ١١) .

قال ابن كثير :

أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات . ا هـ .

قال تعالى : لَمْ نَعْشَقْ مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ... (الرعد : ١١) .

٥ ، ٦ - فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ نِمْ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَاقِقٍ .

فليتأمل الإنسان الكامل العقل ، الذى خلقه الله بشراً سوياً ، له للنظر عينان ، وللبطش يدان ، وللمشى رجлан ، وله لسان وشفتان ، وله عقل وفهم وفكر ، وإرادة واختيار ، من أى شىء خلق هذا الإنسان ؟
خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَاقِقٍ .

خُلِقَ من ملى الرجل والمرأة ، من ماء متدفق بشدة وشهوة ، ينتقل من الرجل إلى المرأة ، فيتم تلقيح البويضة ، وتتحول النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى عظام ثم تكسى العظام لحماً ثم ينشئه الله خلقاً آخر ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

٧ - يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ .

يخرج المني من ظهر الرجل فى النخاع الشوكى الآتى من الدماغ ، ومن بين ترائب المرأة ، أى عظام صدرها ، أو موضع القلادة من الصدر ، والولد يتكون من اجتماع ماء الرجل وماء المرأة ، ثم يستقر الماء المختلط فى الرحم ، فيتكون الجنين بإرادة الله تعالى .

قال تعالى : وَنُفِّرُ بِنِ الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ... (الحج : ٥) .

٨ - إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ .

إن الله الخالق الذى خلق الإنسان من ماء مهين ضعيف ، فجعل من الماء بشراً وصهراً ، وسواه إنساناً كاملاً ، هو سبحانه قادر على إعادته للحياة بعد الموت ، والإعادة أهون من البدء .

٩ - يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ .

السَّرَائِرُ . جمع سريرة ، وفى يوم القيامة يصير المختبئ ظاهراً ، والنيئات والخفايا ظاهرات مكشوفة ، ويحشر الناس حفاة عراة غُرلاً ، كما ولدتهم أمهاتهم ، ويجتمع الأولون والآخرون .

كما قال سبحانه وتعالى : وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا . (الكهف : ٤٧) .

وقد جاء كل إنسان مجرداً من حشمه وخدمه وحاشيته .

قال تعالى : إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِسْمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٩٣ - ٩٥) .

قال الرازى فى تفسيره الكبير :

وكيفية دلالة المبدأ على المَعَاد : أن حدوث الإنسان إنما كان بسبب اجتماع أجزاء كانت متفرقة فى بدن الوالدين ، فلما قدر الصانع على جمع تلك الأجزاء المتفرقة حتى خاق منها إنساناً سوياً ، فإنه بعد موته وتفرق أجزائه لابد وأن يقدر على جمع تلك الأجزاء ، وجعلها خلقاً سوياً .

١٠ - فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

فما للإنسان حين بعثه للحساب والجزاء من قوة ذاتية فى نفسه يمتنع بها من عذاب الله ، ولا ناصر ينصره فينقذه مما نزل به ، ولا ينقذه حينئذ إلا عمله الصالح الذى عمله فى الدنيا .

وتظهر فى السورة يد العلم الخبير ، تحرك الإنسان من نقطة إلى مخلوق سوى . وتذكره بالمرجع والمآب يوم القيامة ، وأنه لا مخرج له ولا مهرب ، ولا قوة عنده ولا ناصر ينصره ، فالملك يومئذ لله الواحد القهار .

القسم على صدق القرآن ورسالة الإسلام

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۚ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۚ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ۚ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ۚ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۚ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۚ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوبًا ۚ﴾

المفردات :

ذات الرجوع : المطر لرجوعه إلى الأرض .

ذات الصدع : النبات الذى تنشق عنه الأرض .

لَقَوْلُ فَصْلٍ : فاصل بين الحق والباطل .

أكيد كيدا : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج .

مَهْلُ الْكَافِرِينَ : فلا تستعجل بالانتقام منهم .

أَمَهُلُهُمْ رُوبًا : إمهالاً قريباً أو قليلاً حتى يأتيهم العذاب .

تمهيد :

فيما سبق لفت القرآن نظر الإنسان إلى خلقه وإعادته ، وهنا أعاد القسم بالسماء التى تحمل السحاب ، وينزل منها المطر الذى ينزل إلى الأرض ذات النبات ، الذى يصدع الأرض ويشققها ، إن القرآن جد لا هزل فيه ، إنه يحمل دعوة ومنهجاً وسلوكاً ، وتكوين أمة ، وإحياء دين ، ثم توعد الكافرين بأنهم فى قبضة القدرة الإلهية ، وسيلقون الجزاء العادل من الله فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما معاً .

التفسير :

١١ - وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ .

الرَّجْعُ : المطر ، فالشمس ترسل أشعتها على المحيطات والبحار ، فيصعد البخار إلى السماء ، ويتكون السحاب الذى يتساقط مطراً ، ويرجع إلى الأرض بين الغينة والغينة ، ولولا المطر لهلك الجميع .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . (الأنبياء : ٣٠) .

١٢ - وَأَلْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ .

وأقسم بالأرض ذات الصدع ، وهو الانشقاق عن النبات الذي يخرج منها ، والقرآن يلفت النظر إلى آثار القدرة الإلهية في تيسير المطر ، وتيسير النبات لاستمرار الحياة .

وقبل قليل لغت الآيات نظرنا إلى خلق الإنسان من الماء الدافق ، وقدره الله على إحيائه في الدنيا ، ويعتبه يوم القيامة ، ونجد هناك تقابلا وتلاقيا بين حياة الإنسان من مَنَى يُمْنَى وإعاداته يوم القيامة ، وبين إنزال المطر من السماء وإحياء الأرض بالنبات .

١٣ - إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ .

إن القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ لقول فصل ، فصل بين الحق والباطل ، وهو فرقان يفرق بين الكفر والإيمان ، والضلال والهدى ، وظلام الجاهلية ونور الإسلام .

١٤ - وَمَا هُوَ بِأَلْهَزَلٍ .

ليس في القرآن شائبة لعب ولا باطل ، إنه كتاب أحكمت آياته ، إنه دستور الحياة ، إنه منهج عادل ، إنه طريق واضح ، ودليل كاشف للإيمان والهداية ، وبيان إلهي لنا عن الكون والحياة ، والمبدأ والمعاد ، ونور الإسلام وطريق الهدى ، وتشريعات الله وأدابه لعباده ، وما تشتمل عليه الدنيا والآخرة ، وقصص السابقين ، والحكم بين الحاضرين ، والحساب يوم الدين ، وهو حكم عربي ، وبيان إلهي ، كله صدق وجَدٌ ، ليس هزلاً أو عبثاً .

قال تعالى : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ . (الشورى : ٥٢ ، ٥٣) .

١٥ - إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا .

إن أعداء هذا الدين يتريصون به ، ويببئون المكر والكيد له ولرسوله ، وهذا جهد الإنسان الضعيف .

١٦ - وَأَكِيدُ كَيْدًا .

وأنا أدبر أمراً لحفظ هذا الدين وحفظ هذا القرآن ، وشأن بين تدبير المخلوق الضعيف ، المحدود النظر ، وبين تدبير الخالق الرازق القادر ، الفَعَّال لما يريد ، وفعله تعالى حكيم ، لكثته سَاءَهُ كَيْدًا من باب المقابلة لأمرهم وكيدهم .

كما قال تعالى : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (الشورى : ٤٠) .

ومثل قوله تعالى : وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ . (الأنفال : ٣٠) .

أى : هم يدبّرون أمراً لصّدّ الناس عن دين الله ، وأنا أدبّر أمراً لإزاحتهم ودحض كيدهم ، إمّا بعقوبتهم وقتلهم يوم بدر ، واستمرار هزائمهم حتى فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وإمّا بعقوبتهم فى الآخرة ، ودخلهم نار جهنم خالدين فيها أبداً .

١٧ --- فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُوَيْدًا .

فاتركهم قليلاً أو كثيراً ولا تهتم بهم ، وانصرف لدعوتك ورسالتك ، فهم فى قبضتنا وتحت تصرفنا ، لكنّ الحكمة الإلهية تمهل ولا تهمل .

وتلمح فى الآية إيناس الرسول ﷺ وتطمينه ، وفيها تهديد ووعيد بأن افعلوا ما بدا لكم ، فأنتم تحت بصر الله وسمعه ، فلکم عقوبة حاسمة فى الدنيا أو فى الآخرة ، وكل آثر قريب .

كما قال تعالى : نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ . (لقمان : ٢٤) .

وقد صدق الله وعده فنصر رسوله ﷺ ، وتوعد بنصر الحق إلى يوم الدين .

قال تعالى : إِنَّا نَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ . (غافر : ٥١) .

دعاء النصر

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي الأُمى وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلم ، اللهم احفظ علينا سمعنا وبصرنا وسائر جوارحنا ، واجعله الوارث مِنَّا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همًّا ولا مبلغ علمنا ، يا جبار المستجيرين ، يا أمان الخائفين ، يا ملاذ المضطرين ، اللهم رب الأرياب ، مسبب الأسباب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم يا رب العالمين ، اللهم ارفع راية الإسلام ، اللهم انصر المسلمين في كل مكان ، اللهم انصر إخواننا في فلسطين ، اللهم ارفع رايتهم ، اللهم ثبت أقدامهم ، اللهم أصلح ذات بينهم ، اللهم ألّف بين قلوبهم ، اللهم أنزل عليهم نصرك الغالب ، وتوفيقك العظيم ، اللهم ردّ المسلمين إليك ردًّا جميلًا ، اللهم اجعلنا أهلًا لنصرك ومعونتك ، اللهم انصرنا على من ظلمنا ، اللهم اجعلنا من جنود الإسلام ، ومن خُدّام القرآن ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آلِهِ وصحبهِ وسلم .

★ ★ ★

وكان الفراغ منه صباح يوم الجمعة ٢٤ من صفر ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٨/٥/٢٠٠١ ، والحمد لله ربّ العالمين .

★ ★ ★

تفسير سورة الأعلى

أهداف سورة الأعلى

(سورة الأعلى مكية، وآياتها ١٩ آية، نزلت بعد سورة التكويد)

وهي أنشودة سماوية فيها تسبيح بحمد الله ، وبيان دلائل قدرته ، وإثبات الوحي الإلهي، وتقرير الجزاء في الآخرة . وبيان الوحدة بين الرسالات السماوية ، واشتمال الرسالة المحمدية على اليسر والسماحة ، وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ووراءها مجالات بعيدة المدى .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما^(١) .

وفى رواية للإمام أحمد، عن الإمام على رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يحب هذه السورة :
سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى^(٢) .

مع آيات السورة

١ - ٥ - سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ قَسْوَى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى * وَالَّذِي أخرجَ الْمَرْعى * فَجَعَلَهُ غنَاءً
أَحْوَى .

التسبيح هو التمجيد والتتزيه ، واستحضار معانى الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها ، وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور .

يقول الإمام محمد عبده : واسم الله هو ما يمكن لأذهاننا أن تتوجه إليه به ، والله يأمرنا بتسبيح هذا الاسم ، أى تنزيهه عن أن يكون فيه ما لا يليق به من سلب المخلوقات أو ظهوره فى واحد منها بعينه ، أو اتخاذه شريكاً أو ولداً أو ما ينحو هذا النحو ، فلا نوجه عقولنا إليه إلا بأنه خالق كل شئ ، المحيط علمه بدقائق الموجودات^(٣) .

والخطاب فى السورة موجه إلى رسول الله ﷺ ، وفيه من التلطف والإيناس ما يجلب عن التعبير ، وقد كان ﷺ ينفذ هذا الأمر فور صدوره .

وحيثما نزل قوله تعالى : فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ . (الواقعة : ٧٤) . قال ﷺ : «اجعلوها فى ركوعكم» ، أى قولوا فى الركوع : سبحان ربى العظيم ، ولما نزل قوله تعالى : سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . قال النبى ﷺ : «اجعلوها فى سجودكم»^(٣٩) ، أى قولوا فى السجود : سبحان ربى الأعلى .

الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى . الذى خلق كل شىء فسواه وأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذى يناسبه بلا تفاوت ولا اضطراب ، كما تراه يظهر لك فى خلق السماوات والأرض .

وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى . أى : قدر لكل حى ما يصلحه مدة بقاءه ، وهدها إليه وعرفه وجه الانتفاع بما فيه منفعة له ، ووجه الهرب مما يخشى غائلته .

«وكل شىء فى الوجود سوى فى صنعته ، كامل فى خلقته ، معد لأداء وظيفته ، مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طريق ، وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التنسيق ، ميسرة لكى تؤدى فى تجمعها دورها الجماعى ، مثلما هى ميسرة فرادى لكى تؤدى دورها الفردى»^(٤٠) .

جاء فى كتاب (العلم يدعو إلى الإيمان) ما يأتى :

إن الطيور لها غريزة العودة إلى الوطن ، فحصفور الهزار الذى عشش ببابك يهاجر جنوباً فى الخريف ، ولكنه يعود إلى عشه فى الربيع التالى ، وفى شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم الطيور إلى الجنوب ، وقد تقطع فى الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ، ولكنها لاتضل طريقها ، والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح فى هبوبها على الأعشاب والأشجار كل دليل يرى ، وأنت إذا تركت حصانك العجوز وحده فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل ، وهو يقدر أن يرى ولو فى غير وضوح ، واليومة تستطيع أن ترى الفأر الدافئ اللطيف وهو يجرى على العشب البارد مهما كانت ظلمة الليل ، ونحن نقلب الليل نهارة بإحداث إشعاع فى تلك المجموعة التى نسميها الضوء .

«والكلب بما أوتى من أنف فضولى ، يستطيع أن يحس الحيوان الذى من»^(٤١) .

وسمك (السلمون) يضى سنوات فى البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به ، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذى يصب عنده النهر الذى ولد فيه .. فما الذى يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟!

إِنَّهُ اللَّهُ : الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى .

وقد سجل البشر كثيرًا من إبداع الخلق ، فى عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان ، فى هذا الوجود المشهود الذى لا تعرف عنه إلا أقل القليل ، ووراءه عالم الغيب بما فيه من كمال وجلال ، فسبحان الله الخلاق العظيم .

وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى . والمرعى كل نبات ، وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله ، فهو هذا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا ، فالله خلق هذم الأرض ، وقدر فيها أقواتها لكل حى يدب فوق ظهرها أو يختبئ فى جوفها ، أو يطير فى جوها ، والنبات يتحایل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده ، دون رغبة من جانبهم ، كالحشرات التى تحمل اللقاح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شئ يطير أو يمشى ، ليوزع بدوره .

فَيَجْعَلُ غَنَاءَ أَحْوَى . والغناء: الهشيم ، أو الهالك البالى ، والأحوى : الذى يميل لونه إلى السواد ، فهو سبحانه قد أحكم كل شئ خلقه ، ما يبقى وما يفنى .

«فنحن مأمورون أن نعرف الله جل شأنه ، بأنه القادر العالم الحكيم ، الذى شهد بصفاته هذه آثاره فى خلقه ، التى ذكرها فى وصف نفسه فى قوله : الَّذِى خَلَقَ فَسُوِّى ... إلخ . وألا ندخل فى هذه الصفات معنى مما لا يليق به ، كما أدخل الملحدون الذين اتخذوا من دونه شركاء أو عرفوه بما يشبه خلقه ، وإنما توجه إلينا الأمر بتسبيح الاسم دون تسبيح الذات ، ليرشدنا إلى أن مبلغ جهننا ، ومنتهى ما تصل إليه عقولنا ، أن نعرف الصفات بما يدل عليها ، أما الذات فهى أعلى وأرفع من أن نتوجه عقولنا إليها إلا بما نلاحظ من هذه الصفات التى تقوم عليها الدلائل ، وترشد إليها الآيات ، لهذا أمرنا بتسبيح اسمه تكليفًا لنا بما يسعه طوقنا ، والله أعلم»^(٣٧) .

٦ ، ٧ - سَتَقَرُّكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ...

سننزل عليك كتابًا تقرأه ، ولا تنسى منه شيئًا بعد نزوله عليك .

وهى بشرى للنبي ﷺ ، تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه ، الذى كان يندفع بعاطفة الحب له ، ويشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه ، إلى تربيده آية آية وراء جبريل ، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفًا منه ، حتى جاءت هذه البشائر المطمئنة بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه .

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... أن تنساه بنسخ تلاوته وحكمه ، أما ما لا ينسخ فإنه محفوظ فى قلبك .

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وكأن هذا تعليل لما مرّ في هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء ، فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ، ويطلع على الأمر من جوانبه جميعاً ، فيقرر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة على علمه بأطراف الأمر جميعاً .

٨ - وَيُسْرِلْ لِلْيُسْرَى . أى نوفقك للشرعية السمحة التى يسهل على النفوس قبولها ، ولا يصعب على العقول فهمها .

يُسِرُ الشريعة الإسلامية

يُسِرُ الله القرآن للقراءة وللعمل بأحكامه ، ويسر الشريعة ، ويسر الأحكام وجعلها فى طاقة الناس ، ولا حرج فيها ولا عنت ، قال تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ . (القم: ٢٢) .

وقال سبحانه : وَمَا جُعِلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... (الحج: ٧٨) .

وقال تعالى : مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ... (المائدة: ٦) .

وقال تعالى : لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... (البقرة: ٢٨٦) .

وكان النبى ﷺ سهلاً سمحاً مؤلفاً محبباً ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فكان أبعد الناس عنه ، وكان سلوك النبى ﷺ وهديه يعبر عن اختيار اليسر ، وقلة التكلف فى اللباس والطعام والفراش وكل أمور الحياة ، فكان يلبس لكل موطن ما يناسبه ، فلبس العمامة والقطنسوة فى السلم ، ولبس المغفر وغطى رأسه ووجهه بحلقات الحديد فى الحرب .

جاء فى (زاد المعاد) لشمس الدين أبى عبد الله محمد بن قيم الجوزية عن هديه ﷺ فى ملابسه والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله ﷺ ، التى سنّها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها ، وهى أن هديه فى اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس من الصوف تارة ، والقطن تارة ، والكتان تارة ، ولبس البرود اليمانية والبرد الأخضر ، ولبس الجبة والقباء ، والقميص والسرراويل ، والإزار والرداء ، والخف والنعل ، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة ...

وقال عن هديه فى نومه وانتباهه : كان ينام على فراشه تارة ، وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود .

وقال فى هديه فى الطعام: وكذلك كان هديه ﷺ وسيرته فى الطعام ، لا يردُّ موجودًا ، ولا يتكلف مفقودًا ، فما قرب إليه شئ من الطيبات إلا أكله ، وما عاب طعامًا قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

فقد أكل الحلوى والعسل – وكان يحبهما – وأكل الرطب والتمر ، وأكل الثريد بالسمن، وأكل الجبن ، وأكل الخبز بالزيت ، وأكل البطيخ بالرطب ، وأكل التمر بالزبد – وكان يحبه – ولم يكن يرد طيبًا ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر ...

والأحاديث النبوية التى تحض على اليسر والسماحة ، والرفق فى تناول الأمور كثيرة جدًا يصعب تقصيصها ، منها قوله ﷺ : «إن هذا الدين يسر ، وإن يشاء الدين أحد إلا غلبه»^(٣٧) . أخرجه البخارى .

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد عليهم»^(٣٨) . أخرجه أبو داود .

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فإن المنيب^(٣٩) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»^(٤٠) . أخرجه البخارى .

وفى التعامل يقول ﷺ : «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع ، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(٤١) . أخرجه البخارى .
«المؤمن يألف ويؤلف»^(٤٢) . أخرجه الدارقطنى .

«إن أبغض الرجال إلى الله الألد^(٤٣) الخصم»^(٤٤) . أخرجه الشيخان .

وسيرة الرسول ﷺ كلها صفحات من السماحة واليسر ، والهواة واللين ، والتوفيق إلى اليسر فى تناول الأمور جميعًا .

اختلف معه أعرابى ، فأخذ النبى ﷺ الأعرابى إلى بيته وزاده فى العطاء حتى رضى ، وأعلن عن رضاه أمام الصحابة أجمعين .

ولقد كان النبى ﷺ كريم النفس ، ميسراً لحمل الرسالة فى أمانة ويسر ، ومودة ورحمة ، وعطف على الناس وحكمة .

قال تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ . (الأنبياء : ١٠٧) .

وقال سبحانه : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (التوبة : ١٢٨)

وكان ﷺ رحمة مهداة ، فقد حارب لصد العدوان ، وتبليغ الدعوة ، ومنع الاضطهاد والفتنة عن الضعفاء والمستضعفين ، ومع ذلك كان آية فى الإنسانية فكان ينهى عن قتل النساء والأطفال ، وينهى عن

الغدر والخيانة ، ويحث على الوفاء بالعهد فى السلم والحرب ، ولا عجب فقد جمع المكارم والمحامد ، وصدق الله العظيم : **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** . (القلم : ٤) .

٩ - **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ** . لقد يسره الله لليسرى ، لينهض بالأمانة الكبرى ، وليذكر الناس ، فلهذا أعد ، ولهذا بئس ، فذكرٌ حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذاً للقلوب ، ووسيلةً للبلاغ .

قال النيسابورى فى تفسير الآية :

إن تذكير العالم واجب فى أول الأمر ، وأما التكرير فالضابط فيه هو العرف ، فلعله إنما يجب عند رجاء حصول المقصود ، فلهذا أردفه بالشرط حيث قال : **فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ** .^(٨١)

وقال الإمام محمد عبده : وليس الشرط قيداً فى الأمر ، فقد أجمع أهل الدين - سلفهم وخلفهم - على أن الأمر بالتذكير عام ، نفعت الذكرى أم لم تنفع ، وعمله ﷺ شاهد على ذلك^(٨٢) .

١٠ - **سَيَذَكَّرُنَّ مَنْ يُخْشَىٰ** . ذلك الذى يستشعر قلبه التقوى فيخشى غضب الله وعذابه ، فإذا ذُكر ذُكر ، وإذا بُصر أبصر ، وإذا وعظ اعتبر .

١١ - ١٣ - **وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُضِلِّي الْأَنَارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** .

أى : ويبتعد عن هذه التذكرة المعاند المصّر على الجحود عناداً واستكباراً ، حتى مات قلبه وشقيت روحه ، فسيلقى النار الكبرى ، وهى نار جهنم ، وهى كبرى بالنسبة إلى نار الدنيا ، أى هى كبرى لشدها ومدتها وضخامتها ، حيث يمتد بقاؤه فيها ، فلا هو ميت يجد طعم الراحة ، ولا هو حى فيحيا حياة السعادة ، تقول العرب لمن ابتلى بمرض أقعده : (لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فيُنعى) .

١٤ ، ١٥ - **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** . قد أدرك الفلاح من كل رجس ودنس ، وأيقن بالحق وسعد بالإيمان ، فهو فى فلاح وسعادة بذكره اسم الله ، ووصلاته وخشوعه لله ، واعتماده عليه ، فهو فى فلاح فى الدنيا لأنه عاش موصولاً بالله ، مؤدياً للصلاة ، مراقباً مولاه ، وهو فى فلاح فى الآخرة بنجاته من النار الكبرى ، وفوزه بالنعيم والرضا .

١٦ ، ١٧ - **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** . بل أنتم - لقصر أنظاركم - تؤثرون الفانية على الباقية ، والحال أن الآخرة أفضل من الدنيا فى نوعها ، وأبقى فى أمدها ، ولو كانت الدنيا من ذهب .

يفنى ، والآخرة من خرف يبقى ، لوجب إثبات ما يبقى على ما يفنى ، فكيف الحال والدنيا من خرف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى ؟!

١٨ ، ١٩ - إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى . أصول هذه الشريعة العادلة ، وقواعد المواخظة والحساب ، وما ورد فى هذه السورة من أصول العقيدة الكبرى ، هو الذى فى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ، قدين الله واحد ، وإنما تتعدد صوره ومظاهره .

وقصارى ذلك أن الرسول ﷺ ما جاء إلا مذكراً بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعياً إلى وجهها الصحيح ، الذى أفسده كمر الغداة ومر العشى ، كما طمس معالمه اتباع الأهواء ، واقتفاء سنن الآباء والأجداد .

مقاصد سورة الأعلى

- ١ - تسبيح الله وتنزيهه وبيان قدرته .
 - ٢ - وعد الرسول ﷺ بحفظ القرآن وعدم نسيانه .
 - ٣ - وعده ﷺ بالتوفيق إلى الطريقة السهلة الميسرة فى الدعوة .
 - ٤ - تكليفه ﷺ أن يذكر الناس .
 - ٥ - الناس صنفان أمام الدعوة :
- (أ) مستجيب ناج (ب) معرض هالك
- ٦ - قواعد العدل وأصول الشريعة متشابهة فى القرآن وفى الكتب السماوية السابقة .

تنزيه الله تعالى وقدرته وفضله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤ سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى ⑥ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَيُخَيِّرُكَ لَيْسَرَى ⑧﴾

المفردات :

سبح اسم ربك : نزهه ومجده تعالى عما لا يليق به .

خالق : أوجد كل شيء بقدرته .

فسوَّى : بين خلقه في الأحكام والإتقان .

قـدر : جعل الأشياء على مقادير مخصوصة .

فهـدى : فوجه كل واحد منها إلى ما ينبغي له .

أخرج المرعى : أنبت العشب رطباً غشاً .

فجعله غثاء : يابساً هشياً من بعد كالغناء ، والغناء ما يحمله السيل من البالي من ورق الشجر مخالطاً رُبده .

سنـقـرـك : ما نوحى إليك بواسطة جبريل عليه السلام .

فلا تنسى : أبداً من قوة الحفظ والإتقان .

نيسرك ليسرى : نوفقك للطريقة اليسرى في كل أمر .

التفسير :

١ - سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى .

نَزَّهَ رَبُّكَ الْأَعْلَى عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنَ الْأَوْصَافِ ، فِي ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى مُتَّصِفٌ بِكُلِّ كَمَالٍ ، مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، مُنَزَّهٌ عَنِ الشَّرِيكِ وَالْمُثِيلِ وَالنَّظِيرِ : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

هُوَ سَبْحَانَهُ أَوَّلُ بَلَا بِدَايَةٍ ، وَآخِرُ بَلَا نِهَايَةٍ ، وَظَاهِرٌ فِي آثَارِ قُدْرَتِهِ ، وَخَلَقَ الْكَوْنَ ، وَتَسْخِيرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهُوَ بَاطِنٌ فَلَا تَدْرِكُهُ الْعْيُونُ ، وَلَا تَحْوِيهِ الظُّنُونُ .

قَالَ تَعَالَى : لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . (الأنعام : ١٠٣) .

إِنَّمَا نِعْمَةٌ كَبْرَى أَنْ يَسْمَعَ الْإِلَهِ الْأَعْلَى لِلْعَبْدِ الْفَانِي بِالصَّلَاةِ وَيَذْكُرُ اللَّهَ ، حَيْثُ يَذْكُرُ اللَّهُ مَنْ ذَكَرَهُ ، وَيُفَضِّلُ اللَّهُ عَلَى الْعَابِدِينَ وَالذَّاكِرِينَ وَالْمُتَبَتِّلِينَ ، بِفَضْلِهِ وَحَنَانِهِ وَبِرَّهِ وَإِنْعَامِهِ وَمَوَدَّتِهِ : إِنَّ الْإِلَهَ عَاطِرُا وَغَمِيلُا الصَّلَاحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا . (مريم : ٩٦) .

٢ - الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى .

الَّذِي أَحْسَنَ خَلْقَ الْخَلْقَانِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ ، وَجَعَلَهَا مُتَسَاوِيَةً فِي الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ ، حَسْبَمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ ، وَمَنْحَ كُلِّ مَخْلُوقٍ مَا يَنْسَابُ طَبِيعَتَهُ وَوُضُفَتُهُ ، صُنْعَةُ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ : الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . (السجدة : ٧) .

وَقَالَ تَعَالَى : وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا . (الفرقان : ٢) . وَنَظَّمَ وَأَبْدَعَ وَأَكْمَلَ .

وَقَالَ تَعَالَى : مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ... (الملك : ٣) .

٣ - وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى .

جَعَلَ الْأَشْيَاءَ مُقَدَّرَةً عَلَى مَقَادِيرٍ مَخْصُوصَةٍ ، فِي أَجْنَاسِهَا وَأَفْرَادِهَا وَأَفْعَالِهَا وَأَجَالِهَا ، وَهَدَى كُلَّاهَا مِنْهَا إِلَى مَا يَصْدُرُ عَنْهُ ، وَيَنْبَغِي لَهُ طَبِيعًا أَوْ اخْتِيَارًا ، وَلَوْ تَأَمَّلْتَ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَدَرَّجِهِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ، وَتَدَرُّجِهِ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الطُّفُولَةِ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ ، وَسُلُوكِهِ وَعَقْلِهِ وَجَهْدِهِ وَعَمَلِهِ ، لَأَدْرَكَتَ مَعْنَى : قَدَّرَ فَهَدَى ، وَكَذَلِكَ النَّبَاتُ وَنَمُوهُ وَجَذْبُ الْحَشَرَاتِ إِلَيْهِ ، لِتَكُونَ مِنْ عَوَامِلِ التَّلْقِيحِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ مِنْهَا ، وَتَطَوُّرِ النَّبَاتِ

والحيوان والطيور، والشموس والأقمار والكواكب، وقد يسر لكل مخلوق وظيفته، وأودع فيه بالإلهام حركته، وصدق الله العظيم: **قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَقُولُ إِنَّ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**. (طه: ٥٩، ٥٠).

فهو الخالق، وهو الملهم، وهو الميسر لكل مخلوق أداء وظيفته ورسالته في هذه الحياة.

٤، ٥ - **وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۖ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ**.

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ.

هو الذي أخرج النباتات والبرسيم، والحب والزيتون والنخل، وكل هذه مرعى للحيوان أو الإنسان أو الطيور أو الزواحف أو غير ذلك، فالذرة إذا كانت صغيرة فهي مرعى للحيوان، وإذا كانت حبة فهي مرعى للإنسان، وقد أودع الله في الأرض أرزاقها ليتم إعمار هذا الكون ورعايته وحفظه.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ.

فجعله يابساً جافاً، وأحوى. أسود يضرب إلى الخضرة.

إن حركة النبات عند بروزه صغيراً كأنه أطفال صفار، ثم نموه واخضراره وازدهاره، ثم اصفراره ونهايته، كل هذا يذكر الإنسان بحياته التي تمر بالطفولة إلى الشباب، ثم إلى الكهولة والموت، فكل بداية نهاية، وكذلك الدنيا.

قال تعالى: **وَأَخْرَجَ لَهُمْ قُلُوبَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا**. (الكهف: ٤٥).

والمقصود من الآيات بيان دلائل القدرة، وأنواع النعم التي يغمرنا الله بها، وتستحق النظر والتأمل وتسبيح العلى القدير.

قال ابن كثير:

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ. أى: من جميع صنوف النباتات والزرع.

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ. قال ابن عباس: هشيمًا متغيرًا. اهـ.

٦، ٧ - سَتَقْرِيكَ فَلَا تَنْسَى • إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى .

سنجعلك قارئاً للقرآن الكريم خلف جبريل فلا تنساه أبداً ، وهذه هداية خاصة بالنبي ﷺ ، وإحدى معجزاته ﷺ أن يكون أمياً ، لم يقرأ كتاباً ، ولم يكتب كتاباً ، ثم يحفظ القرآن الكريم بعد تبليغ جبريل ، ويظل القرآن في قلبه ولسانه كما أنزل ، هذه معجزة إلهية للنبي ﷺ .

وفى معنى الآية قوله تعالى : لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجَازِلَ بِهِ • إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ • فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ . (القيامة : ١٦ - ١٩) .

لقد تكفل الله بجمع القرآن الكريم في قلب النبي ﷺ ، كما تكفل بقراءة القرآن سليماً تام الضبط على لسانه ليكون قدوة عملية للصحابة والمسلمين جيلاً بعد جيل ، كما تكفل الله ببيان المعنى للرسول ﷺ ، فيلهمه إلهاماً بالمراد من الآيات حتى يقوم النبي ﷺ بنقل ذلك للأمة .

قال تعالى : وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (النحل : ٤٤) .

وخلاصة المعنى :

سَتَقْرِيكَ فَلَا تَنْسَى . سنقرئك يا محمد هذا القرآن العظيم ، فتحفظه في صدرك ولا تنساه ، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... لكن ما أراد الله نسخه فإنك تنساه .

وقال الإمام الشوكاني :

سَتَقْرِيكَ فَلَا تَنْسَى .

سنجعلك قارئاً ، بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرؤه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته ﷺ الخاصة ، بعد بيان الهداية العامة ، وهى هدايته ﷺ لحفظ القرآن .

وقوله تعالى : إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ... استثناء مفرغ من أعم المفاعيل ، أى : لا تنسى مما تقرؤه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى النبي ﷺ شيئاً .

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى .

هو سبحانه عليم بما يجهر به العباد ويعلمونه ، وهو عليم بما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء .

٨ - وَيُسْرُكَ لِلْيُسْرَى .

نسهل عليك أفعال الخير ، ونُشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... (البقرة : ١٨٥) .

وقال سبحانه وتعالى : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... (المائدة : ٦) .

وقد كان ﷺ نموذجاً للتيسير ، قال ﷺ : «يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا»^(٨٧) .

ونلمح أن في الآيات تلميحاً وتكريماً وإيناساً للرسول ﷺ ، حيث بشره ببشارتين :

الأولى : أن يكون حافظاً للقرآن الكريم فلا ينساه .

الثانية : توفيقه ﷺ إلى الشريعة اليسرى ، وإلى الأخلاق الكريمة ، وإلى الأخذ بما هو أرفق وأيسر في

كل أحواله .

★ ★ ★

التذكير وتركيب النفس والعمل للأخرة

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سِيذَرُكُم مِّنْ يَّخْشَى ۝١٠ وَيَنْجِنَهَا مِنَ الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩ ﴾

المشردات :

التذكير : أن يُنبّه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه .

من يَخْشَى : من يخشى الله ، وهم صنفان : مدعن معترف بالله وبيعهته للعباد للثواب والعقاب ، ومتردد في ذلك .

الاشقى : المعاند المصّر على الجحود والإنكار ، الذي تمكن الكفر من نفسه .

يصلى النار الكبرى، يدخل جهنم، أو يقاسى حرّها، والنار الكبرى هي نار الآخرة، لأن نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة، وقيل: المراد بالنار الكبرى: أسفل دركات الجحيم.

لا يموت، أى فيستريح.

ولا يحيا، أى حياة طيبة. قال الشاعر:

ألا ما لنفس لا تموت فينقضى عنها ولا تحيا حياة لها طعم

افرح، فاز ونجا.

تذكرنى، تظهر من الكفر والمعاصي

ذكر اسم ربه، ذكر فى قلبه صفات ربه من الكبرياء والجلال.

فصلى، فخشع، وخضعت نفسه لأوامر بارئته.

إن هذا، المذكور فى الآيات الأربع السابقة.

التفسير:

٩ - فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى .

ذَكَرَ مَنْ تَنَفَّعَ الذِّكْرَى مَعَهُ ، وَأَدَّ رِسَالَتَكَ حَيْثُ وَجَدْتَ أَرْضًا طَيِّبَةً تَصْلُحُ لِلغُرَاسِ ، وَسَرَّ فِي دَعْوَتِكَ وَرِسَالَتِكَ ، أَقْرَأَ الْقُرْآنَ وَبَلَغَ عَنِ الرَّحْمَنِ ، وَإِنْ يَخْلُقُ جِيلٌ وَإِنْ تَخْلُقُ أَرْضٌ مِمَّنْ يَسْتَمِعُ وَيَنْتَفِعُ .

لقد أرسله الله رحمة للعالمين وختم به الرسالات، وجعله صاحب الشريعة الخاتمة، وأنزل عليه القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه، فإذا أدَّى واجبه فى الدعوة فقد بلغ الرسالة وأدَّى الأمانة.

وليس عليه أن يحزن على أهل مكة، ولا أن يبغضه الهم والحزن بسبب المكذبين، أى فاتركهم وشأنهم وانشغل بمن ينتفع بهذا الكتاب، ويكون التذكير وسيلة لإيمانه وهدايته.

قال تعالى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِبِيدُ . (ق: ٤٥).

أما من طُبع على قلبه فلم تنفذ إليه الهداية فاتركه وشأنه.

قال تعالى: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مَنِ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى . (النجم ٢٩، ٣٠).

وقيل: إن المعنى: ذكر إن نفعت الذكرى أو إن لم تنفع.

والمقصود استبعاد النفع بالنسبة لهؤلاء المذكورين، رؤوس الكفر والضلال بمكة.

والمطلوب تذكير الجميع سواء انتفعوا بالذكرى أو لم ينتفعوا، كأنه قيل: افعَل ما أمرت به لتؤجر وإن لم ينتفعوا به، وفيه تسلية له ﷺ.

ومنه قوله تعالى: وَلَا تُكْرِهُوا قِيَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحَصُّنًا ... (النور: ٣٣).

أى: لا تكرهوا قياتكم على البغاء مطلقاً، وإن أردن تحصنًا من باب أولى، حيث إن الآية نزلت فى عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين، وكان يُكره جواريه على البغاء ليستفيد من أموالهن، وكان كارهات لذلك راغبات فى التطهر.

وعند التأمل نجد أن الأصل تبليغ الدعوة لأول مرة، أما تكرير الدعوة فيترك ذلك لفقه الداعية وتوقعه للقبول.

قال ابن كثير:

ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله.

أخرج مسلم، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»^(٨١).

وروى الديلمى فى مسند الفردوس، عن على، كما روى البخارى موقوفاً: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»^(٨٢).

وقال عيسى عليه السلام: لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، وكن كالطبيب يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع.

١٠ - سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى.

أى: إنما ينتفع بتذكيرك من يخشى الله ويخاف عقابه، لأنه هو الذى يتأمل فى كل ما تذكره له، فيتبين له وجه الصواب، ويظهر له سبيل الحق الذى يجب التعويل عليه.

قال الإمام فخر الدين الرازى:

إن الناس فى أمر المَعَاد ثلاثة أقسام: القاطع بصحته، والمتردد فيه، والجاحد له.

والفريقان الأولان ينتفعان بالتذكير والتخويف ، وكثير من المعاندين إنما يجحدون باللسان فقط ، فتبين أن أكثر الخلق ينتفعون بالوعظ ، والمعرض نادر ، وترك الخير الكثير لأجل الشر القليل شر كثير ، فلهذا وجب تعميم التذكير ، وإن كان لا ينتفع بالتذكير إلا البعض الذين علم الله انتفاعهم به ، ونحن لا نعلمهم ، فبعد أن أمر الله نبيه ﷺ بالتذكير ، بين في قوله : سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى . الذى تنفعه الذكرى من هو . اهـ .

١١ ، ١٢ - وَيَجْتَنِبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى .

يبتعد عن الذكرى فلا يرق لها ولا يستفيد بها ، الْأَشْقَى . أى : الأشقى مطلقا ، الذى غلبت عليه الشقوة ، فلا يتفتح قلبه لخير ، ولا يرغب فى معرفة الهدى أو الطريق السليم .

فهو الْأَشْقَى . فى الدنيا ، حيث يعيش قلقا متكالبا على ما فى الأرض ، وهو الْأَشْقَى . فى الآخرة لدخوله جهنم .

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى .

الذى يصطلى بنار جهنم ، وفيها ألوان العذاب ، وألوان المهانة ، وألوان الآلام ، وهم خالدون فيها خلوداً أبديا سرمديا ، لا يخفف عنهم العذاب ، وليس لهم شفيع ولا نصير .

١٣ - ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى .

فهو لا يموت فيجد طعم الراحة ، ولا يحيا حياة كريمة ، ولا يخفف عنه العذاب ، ولا يُجَاب رجاؤه ، ونحو الآية قوله تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . (فاطر: ٣٦) .

والعرب تقول لمن أصيب بمرض أقعده : (لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فيُنعى) .

١٤ - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى .

قد فاز من طهر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن .

١٥ - وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى .

أى : كبر تكبيرة الإحرام ، وأدى الصلوات الخمس ، وحافظ على الفرائض ، وحققها بالنوافل .

وعن علي رضي الله عنه :

تَرَكْنِي . تَصَدَّقَ صَدَقَةُ الْفَطْرِ . (أى : أخرج زكاة الفطر فى آخر رمضان) .

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . كَبَّرَ يَوْمَ الْعِيدِ ، فَصَلَّى الْعِيدِ . ١ هـ .

وتنظر الآيات عامة ، تشهد بالفلاح لكل من طهر نفسه من عوامل السوء ، مثل الأثرة والحقد ، والحسد والأنانية ، وسما بنفسه إلى طاعة الله وذكره . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . أى : أدّى الصلاة المكتوبة مع النوافل وقيام الليل ، وحرص على ذكر الله والدعاء والتبتل ، وحسن الصلة بالله ، فهذا قلبه حى مُسْتَنِير .

قال تعالى : أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ قُلُوبُهُمْ مَّنْ ذَكَرَ اللَّهَ ...

(الزمر : ٢٢)

وقال ﷺ : «إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ الْقَلْبَ اتَّسَعَ لَهُ الصَّدْرُ وَانْشَرَحَ» ، قيل : يا رسول الله ، هل لذلك من علامة قال : «نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإتابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت ، ثم تلا قوله تعالى : أَقْمَنَ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ» (٨٧) ...

١٦ ، ١٧ - بَلْ يُؤْمِرُونَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا • وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

بل أنتم معشر البشر تؤثرون الدنيا العاجلة ، حيث شاهدتم أموالها ونساءها ، وقصورها ودورها ، وسائر أمورها ، وهى دنيا محدودة الأجل ، فهى دنيا وليست عليا .

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى .

والآخرة خير نواباً وخير مَرَدّاً ، وهى دار الجزاء العادل ، فى جناتها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فالآخرة أفضل من الدنيا ، لأن نعيمها دائم باقر لا يفنى ، ولأن جزاء الآخرة عطاء من الله ، وعطاء الله أفضل وأكثر .

روى الإمام أحمد ، عن أبى موسى الأشعرى ، أن رسول الله ﷺ قال : «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضْرَبَ بِأَخْرَتِهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَخْرَتَهُ أَضْرَبَ بِدُنْيَاهُ ، فَأَثَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» (٨٧) .

١٨ ، ١٩ - إِنْ هَٰذَا إِلَّا الصُّحُفُ الْأُولَى • صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى .

إن ما ورد فى هذه السورة من أصول العقيدة ، والدعوة إلى الخير ، والحق الأصيل العريق ، هو الذى ورد مثله فى الصحف الأولى التى أنزلها الله على الأنبياء والمرسلين ، وكانت صحف إبراهيم عشرين ،

وصحف موسى عشراً ، أنزلت عليه قبل التوراة . وكانت صفح موسى عبراً كلها ، وصفح إبراهيم أمثالاً كلها .

وبذلك تلتقى الرسالات والنبوءات على الحق الأصيل ، وهو توحيد الله تعالى ، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، والبر والخير والتقوى ، والطهر والعفاف والاستقامة ، والبعد عن الشر والآثام والموبقات ، مثل : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها ، والتولى يوم الزحف ، والربا والزنا واليمين الغموس ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل مال اليتيم ، وعقوق الوالدين ، وأشباه ذلك .

اللهم تقبل منا ، واهدنا وأرضنا ، واختم لنا بالإيمان والإسلام ، آمين .

حديث شريف

عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن صفح موسى ما كانت ؟ قال : «كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم ينصب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل» .

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة الأعلى .



تفسير سورة الغاشية

أهداف سورة الغاشية

(سورة الغاشية مكية ، وآياتها ٢٦ آية ، نزلت بعد سورة الداريات)

وهى سورة قصيرة الآيات ، متناسقة الفواصل ، تطوّف بالقلب البشرى أمام الآخرة وأحوالها ، فأصحاب الجحيم يلقون أشد ألوان الألم والعذاب ، وأهل الجنة يتمتعون بألوان النعيم وصنوف التكريم ، ثم تعرض أمام الناظرين مشاهد الكون ، وآيات الله المبهوثة فى خلأته ، المعروضة للجميع .

ثم تذكرُ الناس بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه فى نهاية المطاف ، كل ذلك فى أسلوب عميق الإيقاع ، هادئ ولكنه نافذ ، رصين ولكنه رهيب .

مع آيات السورة

١ - الغاشية هى الداهية التى تغشى الناس بشدائدها ، وتغمرهم بأحوالها ، والمراد بها هنا يوم القيامة ، وقد سبق فى هذا الجزء وصف القيامة بالطامة والصاخة ، وسيأتى وصفها بالقارعة ، بما يناسب طبيعة التذكير والتهديد للمعاندِين . والاستفهام هنا لتعظيم الأمر وتقديره ، أى : هل سمعت قصة يوم القيامة وما يقع فيه ؟

وعن عمر بن ميمون ، قال : مرَّ النبى ﷺ على امرأة تقرأ : هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ . فقام يستمع ويقول : «نعم قد جاءنى» .

والخطاب مع ذلك عام لكل من يسمع القرآن .

٢ - ٧ - إن وجوه الكفار فى هذا اليوم تكون ذليلة ، لما يظهر عليها من الحزن والكآبة ، وسوف يلقون تعباً وإرهاقاً فى النار بسبب أعمالهم السيئة ، سيدخلون النار المتأججة التى تلتهمهم ، وإذا عطشوا من شدة حرها ، وطلبوا ما يطفئ ظمأهم ، سقوا ، مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ أى : من ينبوع شديد الحرارة ، وَإِنْ يَسْتَوِيحُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ يَسْ أَلْشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) . وليس لهم طعام فى النار إلا من ضريع ، والضريع : شجر ذو شوك لائم بالأرض ، فإذا كان رطباً سُمى بالشبرق ، وإذا جنى صار اسمه

الضريع ، ولم تستطع الإبل مذاقه فهر عندئذ سام ، والأكل منه لون من ألوان العذاب الشديد ، يضاف إلى ذلك الغسلين والغساق وباقى الألوان التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

٨-١١ - وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمٌ * لَسَعِيهَا زَانِجَةٌ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِلْغِيَةِ .

هنا وجوه يبدو عليها النعيم ، ويفيض منها الرضا ، وجوه تنعم بما تجد ، وتشعر بالرضا عن عملها حين ترى رضا الله عنها ، وهذا النعيم فى جنة عالية المقام ، مرتفعة على غيرها من الأماكن ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض ، كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض .

لا يسمع أهل الجنة لغوا ولا باطلا ، وإنما يعيشون فى جو من السكون والهدوء والسلام والطمئنان ، والودّ والرضا ، والنجاء والسمر بين الأحياء والأوداء ، والتنزه والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية ، وهذه وحدها نعيم وسعادة ، وتوحى الجملة بأن المؤمنين فى الأرض حين يتأون عن اللغو والباطل إنما ينعمون بطرف من حياة الجنة ، ويتشبهون بأهلها .

١٢ - فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . والعين الجارية : ينبوع المتدفق ، والمياه الجارية متعة للنفس وللنظر ، وقد افتخر بمثلها فرعون فقال : أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذَا الْأَنْهَارُ تُجْرَى مِنْ تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ . (الزخرف : ٥١) .

١٣ - فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وفيها سرر عالية المكان والمقدار ، ليرى المؤمن وهو عليها ما خوله الله من النعم .

١٤ - وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . مصفوفة مهيأة للشرب ، لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد .

١٥ - وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . والنمارق الوسائد والحشايا ، قد صفت بعضها إلى بعض للاتكاء فى ارتياح .

١٦ - زُرَّازِيٌّ مَثْوًى . والزرايى هى البسط (أى : السجاجيد) . مَثْوًى . أى : مبسوطة أو مفرقة هنا وهناك ، كما تراه فى بيوت أهل النعمة . كل ذلك لتصوير النعمة والرفاهية واللذة ، وتقريبها لتصوير الناس فى الدنيا ، وإلا فنعيم تلك الدار نعيم لا يشبهه فى هذه الدار نعيم ، فمتاع الدنيا قليل ، ومتاع الآخرة لا شبه له ولا مثيل ، وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . (الزخرف : ٧١) .

ففيها النعيم والرضا ، فيها السرور بالنجاة ، والأنس برضوان الله ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

١٧ - أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .

يلفت القرآن الأنظار إلى دلائل قدرة الله ، ويديع صنعته ، فلينظر الإنسان إلى الجمال كيف خلقت؟ وليتدبر كيف وجدت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعا ، إن الناس لم يخلقوها ، وهى لم تخلق نفسها ، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المتفرد بصنعه ، التى تدل عليه وتقطع بوجوده ، كما تشى بتدبيره وتقديره .

١٨ - وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا كَيْفَ رَفَعَتْ؟ وَمِنْ ذَا رَفَعَهَا بِلَا عَمَدٍ؟ وَنَثَرُ فِيهَا النُّجُومَ بِلَا عَدَدٍ؟ وَجَعَلَ فِيهَا هَذِهِ الْبَهْجَةَ وَهَذَا الْجَمَالَ .

١٩ - وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . والجبل ملجأ وملاذ ، وأنيس وصاحب ، ومشهد يوحى إلى النفس الإنسانية جلالا واستهوالا ، حيث يتضام الإنسان إلى جواره ويستكين ، ويخضع للجلال السامق الرزين ، «وَنَصَبَ الْجِبَالِ إِقَامَتَهَا عِلْمًا لِلْسَّائِرِ ، وملجأ من الجائر ، وهى فى الأغلب نزهة للناظر»^(٨٨) ، وأمان وحفظ لتوازن الأرض .

قال تعالى : وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ... (الأنبياء : ٣١) .

وقال سبحانه : وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا . (النبا : ٧) أى : وسيلة لحفظ نظام الأرض من الزلازل والبراكين وغيرها .

٢٠ - وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . والأرض مسطوحة أمام النظر ، مهيأة للحياة والسير والعمل ، والناس لم يسطحوها كذلك ، فقد سطحت قبل أن يكونوا هم ، أفلا ينظرون إليها ، ويتدبرون ما وراءها ، ويسألون من سطحتها ومهدا هكذا للحياة تمهيدا ؟

«وقد أيقظ القرآن الحس ، ولغت النظر إلى مشهد كلئ يضم منظر السماء المرفوعة ، والأرض المبسوطة وفى هذا المدى المتطاوول تبرز الجبال منصوبة السنان ، لا رأسية ولا ملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام خطان أفقيان ، وخطان رأسيان ، فى المشهد الهائل ، فى المساحة الشاسعة ، وهى لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات ، على طريقة القرآن فى عرض المشاهد ، وفى التعبير بالتصوير على وجه الإجمال»^(٨٩) .

والآن بعد الجولة الأولى فى عالم الآخرة ، والجولة الثانية فى مشاهد الكون المعروضة ، يخاطب النبى الكريم فيقول :

٢١ - ٢٤ - فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * يُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ .

فعظهم يا محمد بآيات القرآن ، وذكرهم بالدعوة إلى الإله الواحد القهار ، فالإنسان بفطرته ميسر للإذعان بقدرة الله وبيدع صنعته ، وإنما قد تتحكم الغفلات ، فتحتاج النفوس إلى مذكر يريدها إلى الحق والصواب .

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . أى : إنما بعثت للتذكير فحسب ، وليس عليك هدامهم ، إن عليك إلا البلاغ ، وتبليغ الدعوة وترك الناس أحراراً في اعتقادهم ، فلا إكراه في الدين .

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ . والمصيطر : المتسلط ، فأنت لا تجبرهم على الإيمان .

قال تعالى : وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ . (ق : ٤٥) .

فمن تولى عن الحق ، وكفر بآيات الله ، وأنكر الدعوة ، فإن حسابه إلى الله المطلع على القلوب ، وصاحب السلطان على السرائر ، وسوف يعذبه الله العذاب الأكبر في الآخرة ، وقد يضم إلى عذاب الآخرة عذاب الدنيا .

٢٥ - ٢٦ - إِنْ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ * ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا حِسَابُهُمْ . وتختتم السورة بهذا الإيقاع المناسب ، لتؤكد دور الرسول في البلاغ ، أما الجزء والحساب فسيكون في يوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، إن إلينا إيابهم ورجوعهم ، ثم إن علينا وحننا حسابهم وجزاءهم .

قال تعالى : وَلَنُصَعِّرَ أَلْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِسْمَةِ فَلَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

مقاصد السورة

- ١ - وصف أهل النار وأهل الجنة .
- ٢ - وصف مشاهد الكون وبيدائع الصنعة الإلهية .
- ٣ - تحديد مهمة الرسول ﷺ بالبلاغ والدعوة إلى الهداية .

هول القيامة ، وأحوال أهل النار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا
حَامِيَةً ۝٤ تَشْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنِيجَ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝٦ لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ
۝٧ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝٨ لِسْعِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۝١١
فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَارٍ
مَبْنُوتَةٌ ۝١٦ ﴾

المعزذات :

الغاشية : القيامة تغشى الناس بأهلها .

خاشعة : ذليلة خاضعة من الخزي .

عاملة : تجر السلاسل والأغلال في النار .

ناصبية : تعب مما تلاقيه فيها من العذاب .

تصلى نارا حامية : تدخل أو تقاسى نارا تنهاى حرها .

عين أنية : بلغت أنهاها (غايتها) في الحرارة .

ضريع : شئ في النار ، كالشوك مؤمنن .

لا يغنى من جوع : لا يدفع عنهم جوعا .

ناعمة : ذات بهجة وحسن ونضارة .

لاغية : الغوا وباطلا .

سرر مرفوعة ، مرتفعة السمك أو رقيقة القدر .

أكواب موضوعة ، أقذاح بين أيديهم للشرب منها .

نمارق مصقوفة ، وسائد ومرافق يتكأ عليها ، موضوع بعضها إلى جنب بعض .

زرابى مبثوثة ، بسط فاخرة مفرقة فى المجالس .

التفسير :

١ - هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ .

هل بلغك يا محمد خبر الغاشية التى تغشى الناس بأهوالها ؟ إذا لم يكن بلغك فأنا أحدثك عنه .

٢ ، ٣ - وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ • غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ .

وجوه الكفار فى ذلك اليوم العظيم خاشعة ذليلة مهينة ، وليس هذا خشوع العبادة والتبتل والتفرغ التام لمناجاة الله ، بل خشوع المهانة والمذلة والحزن والألم .

قال تعالى : وَتَرَىٰ لَهُمُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غِلَظِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ... (الشورى : ٤٥) .

غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ .

مستمرة فى العمل والنصب ، وهو التعب الأليم ، حيث يجرون السلاسل ، ويرسفون فى الأغلال

والقيود ، ويذوقون الآلام والعذاب والمهانة ، بلا فتور ولا استراحة بل يضاعف لهم العذاب : يَوْمَ يَغْشَاهُمْ

الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ... (المنكوت : ٥٥) .

وقيل : عملت فى الدنيا أعمال السوء والتذت بها وتنعمت ، فهى فى نصب منها فى الآخرة ، وقيل :

عملت فى الدنيا على غير هدى ، أو على غير إخلاص ، فلا ثمرة لها إلا النصب ، وخاتمها النار .

٤ ، ٥ - تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً • تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ عَالِيَةٍ .

تصلى وتحرق بنار قد أحميت لمدة طويلة ، حتى تضاعف حرها ولهيبها ، وإذا اشتاقت إلى التبريد

وشرب الماء يلطف الحرارة ، فإنها تشرب من عين قد اشتد حرها .

قال تعالى : وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوْا يَغَاثُوا يَمَنًا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . (الكهف : ٢٩) .

٦ ، ٧ - تَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

يُسلط على أهل النار الجوع ، فيحتاجون إلى الطعام فيقدم لهم الضريع ، وهو طعام خبيث به شوك ، ويجبرون على أكل الطعام حتى تمتلئ بطونهم به ، ومع هذا الألم فإن الطعام لا يقدم لهم الفائدة المرجوة ، فلا يقدم لهم الشحم أو اللحم الذي يسمّن جسامهم ، ولا الغذاء الذي يسدّ جوعهم ، وقد تعددت آراء المفسرين وأهل اللغة في بيان الضريع .

« والرأى - والله أعلم - أنه من طعام أهل النار ، لا يعرف له شبيه في الحياة الدنيا ، ولهذا وصفه الله سبحانه بأنه : لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ . أى : إنه لا تتقبله الأجسام ، ولا تتفاعل معه ، كما أنه لا يشبع جوع الجياع ... »^(٩٠) .

وقد ذكر في القرآن الكريم ألوان العذاب ، وألوان الطعام ، وذكر في سورة الحاقة قوله تعالى :

وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسِيلِينَ . (الحاقة : ٣٦) .

وهذا يفيد أن المعدّين من الكفار طبقات ، فمنهم من طعامه في النار الضريع ، ومنهم من طعامه الغسيلين ، ومنهم من طعامه الزقوم .

قال تعالى : إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقْمِ * طَعَامُ الْأَيْمِ * كَأَمْهَلِ يُغْلَى فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَوِيمِ . (الدخان : ٤٣ - ٤٦) .

وهي ألوان من العذاب في الطعام وفي الشراب وفي سمة الوجه ، وفي ألوان العذاب للأبدان ، وفي ألوان الهوان للنفوس ، وكأن الحق سبحانه يقول :

أيها الناس ، أنقذوا أنفسكم من هذا العذاب ، والوسيلة يسيرة ، وهي أن تؤمنوا بالله تعالى وحده ، وألا تشركوا به شيئاً ، وأن تؤمنوا بملأكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تؤمنوا بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومرّه .

٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ - وَجُودٌ يُؤْمِلُ نَاعِمَةً * لُسْغِيهَا رَاضِيَةً * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِلْغِيَةِ .

بعد أن ذكر حال أهل النار وما هم فيه من شقاء ، ثنى بذكر أهل الجنة وما هم فيه من نعيم .
وَجُودٌ يُؤْمِلُ نَاعِمَةً .

في يوم القيامة نجد أهل الجنة ووجوههم يعلوها البشر والسرور ، والنعيم والفرح والحبور .

قال تعالى : تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . (المطففين : ٢٤) .

وقال عن شأنه : وَجْهٌ يُؤَمِّلُ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ . (عبس : ٢٨ ، ٢٩) .

لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ .

أى : لجزاء سعيها وعملها فى الدنيا راضية مرضية ، قد رضيت عن ربها ، ورضى ربها عنها .

قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

فهى فى نعيم الجنة ، وفى زيادة على ذلك من رضوان الله تعالى .

حيث قال سبحانه : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (يونس : ٢٦) .

فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ .

فى بساتين مرتفعة حسياً ومعنوياً ، والبساتين العالية تتعرض لضوء الشمس ، ويتميز نباتها بالخضرة الداكنة ، وأى علو أفضل من علو الجنة ؟

إنهم يتمتعون بالثمار والأنهار والأشجار ، والحدود العين ، وضيافة الجبار .

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لُغِيَّةٌ .

لا تسمع فى الجنة لغواً : وهو الباطل أو كل قبيح من الكلام ، أو ما لا يعتد به من الأقوال والأفعال ، فإن كلام أهل الجنة ذكر الله وتسبيحه ، وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

قال تعالى : وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ

لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . (فاطر : ٣٤ ، ٣٥) .

وفى الآية توجية لأهل النعمة والغنى ، أن يكون حديثهم ونعيمهم ، نعيم أهل الفضل والجدة ، لا نعيم أهل الجهل والحق .

١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦ - فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ *
وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ .

والعين هنا اسم جنس ، يراد بها عيون كثيرة متدفقة ، جارية بالماء العذب الزلال الذى يقر العين ،
ويبهج النفس .

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ .

أسرّة مرتفعة عن الأرض ، عالية المكان والمكانة ، فإذا رغب المؤمن فى الجلوس عليها ، انخفضت
من أجله .

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ .

أوانى الشرب معدة مرصودة لمن أرادها .

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ .

والنمارق جمع نمرقة ، بضم النون وكسرهما ، وهى الوسائد جمع وسادة ، (المسماة فى عرف العامة:
مسند أو مخدة) . وسواء كانت هذه النمارق مصفوفة فوق الأسرة ، أو فى جوانب المساكن .

وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ .

الزرايب : البسط ، وقيل : البسط التى فيها خمل رقيق ، أى : هذب ، والزرايب جمع زريبة ، مثلثة الزاى .

قال المفسرون : هى بُسط عراض فاخرة ، مبسوطة هنا وهناك لمن أراد الجلوس عليها . مَبْثُوثَةٌ . أى :
مفرقة فى المجالس .

مظاهر الكون ، وختام السورة

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ
 كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ
 عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا
 إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

المضردات :

ينظرون ، يتأملون ، فيدركون .

الإبل ، الجمال ، والإبل اسم جمع لا واحد له من لفظه ، يصدق على القليل والكثير .

سطحت ، بسطت ومهدت للإقامة عليها .

بمصيطر ، بمتسلط عليهم ، قاهر لهم .

إيابهم ، رجوعهم بعد الموت بالبعث .

التفسير :

يستعرض القرآن أدلة القدرة ، ويلفت النظر إلى مشاهد موحية للإنسان ، بأن هذا الجمال في هذا

الكون دليل على وجود الخالق سبحانه وتعالى :

١٧ - أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ .

أفلا يتأملون في هذا الحيوان العجيب ، طويل القامة ، طويل الرقبة ، إنه ذو قدرة على حمل الأثقال ،

يجلس فيحمل الأحمال الثقيلة ، ثم يقوم بنفسه ، وله صبر على عدم شرب الماء يصل إلى سبعة أو ثمانية

أيام ، ويخضع للطفل الصغير .

قال العباس بن مرداس :

نرى الرجل النحيل فتزدريه وتحت ثيابه أسد مزير

ويعجبك الطرير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطرير

فما عَظُم الرجال لهم بفخر ولكن فخرهم كرم وخير
لقد عظم البعير بغير لب فلم يستغن بالعظم البعير
وتضرره الوليدة بالهراوى فلا غيرٌ لديه ولا نكير

ويكتفى الجمل فى المرعى بما تيسر له من الشوك والشجر ، وترى الجمل أعجب ما عند العرب ، فهو عدتهم فى السفر والحضر ، حتى سُمى الجمل سفينة الصحراء ، كما أنهم ينتفعون بلحوم الجمال وألبانها وأوبارها.

والعربى يقع نظره على البعير ، ثم ينظر إلى السماء فوقه ، وإلى الأرض تحته ، وإلى الجبال بجواره ، فكانت المراجعة فى جميع هذه الأشياء للدلالة على قدرة الله المبدعة التى أبدعت نظام هذا الكون .

١٨ - وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ .

هذه السماء العالية ، مَنْ رفعها بلا عمد ؟ من أظلم ليلاً ؟ من أضاء نهارها ؟ من زينها بالنجوم ؟ من سخر لها الشمس والقمر والليل والنهار ؟

١٩ - وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ .

والتأمل فى الجبال يُظهر عظمتها ورسوخها وشموخها ، ثم إن الجبال تمتد فى الأرض بحجم أكبر من الحجم البارز منها ، بحيث تصبح ممسكة بالأرض حتى لا تميد ولا تضطرب ، وفى أعلى الجبال تتكون الثلوج وتنزل المياه لتروى السفوح والوديان ، ولأمر ما كانت رسالات السماء تنزل على الرسل وهم عند الجبال ، حيث الصفاء والنقاء ، فقد كَلَّمَ الله موسى من جانب جبل الطور ، ونزل الوحي على محمد ﷺ وكان فى غار حراء فوق جبل مرتفع ، وكانت الجبال تردّد أناشيد داود .

قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا لِيَجْعَلَ أُوَيْيَ مَعَهُ ... (سبأ : ١٠) .

٢٠ - وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ .

أفلا ينظر الإنسان إلى الأرض كيف سطحت ؟ فتنظر العين أو فى مساحة كبيرة أمامنا نجد الأرض ممتدة ، لتصلح للزراعة والصناعة واتخاذ الطرق ، والاستفادة منها .

قال الآلوسى : ولا ينافى هذا القول بأنها كرة أو قريبة من الكرة .

وأما كونها مسطحة أو مبسوطة فإنما هو بالنسبة لعظمها ، أو بالنسبة للناظرين إليها .

٢١ - فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ .

ذَكَّرَهُم بِالْآخِرَةِ يَا مُحَمَّد ، ذَكَّرَهُم بِالْكَوْنِ حَوْلَهُمْ ، ذَكَّرَهُم بِالْخَلْقِ وَالنَّشْأَةِ ، ذَكَّرَهُم بِالْجَحِيمِ وَالنَّعِيمِ ، ذَكَّرَهُم بِالْفُطْرَةِ الَّتِي تَرُشِدُ وَتُلْهِمُ أَنَّ الْكَوْنَ الْبَدِيعَ الْمُنْظَمَ ، بِمَا فِيهِ مِنْ سَمَاءٍ وَأَرْضٍ وَجِبَالٍ وَبَحَارٍ ، وَهَوَاءٍ وَفُضَاءٍ ، وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ ، وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ ، لَا يَدُّ لَهُ مِنْ إِلَهٍ خَالِقٍ قَادِرٍ ، فَعَالٍ لِمَا يَرِيدُ وَهُوَ سَبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . أَرْسَلْنَاكَ رَسُولًا لِتَذَكِّرَ النَّاسَ وَارْشَادَهُمْ ، وَإِحْيَاءَ فُطْرَتِهِمْ ، وَلَفَتْ أَنْظَارَهُمْ إِلَى آثَارِ اللَّهِ فِي النَّفْسِ وَالْآفَاقِ .

٢٢ - لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ .

أَنْتَ لَا تَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ قُلُوبِهِمْ شَيْئًا حَتَّى تَقْهَرَهَا وَتَقْسِرَهَا عَلَى الْهَدَايَةِ ، لِأَنَّ قُلُوبَ الْعِبَادِ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ .

قال تعالى : إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ... (الشورى : ٤٨) .

وقال تعالى : أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . (يونس : ٩٩) .

٢٣ ، ٢٤ - إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ • فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ .

لَكِنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ دَعْوَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَكَفَرَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَلَهُ عَذَابٌ أَكْبَرُ فِي جَهَنَّمَ ، أَوْ لَهُ فِي الدُّنْيَا عَذَابٌ مِثْلُ قَتْلِ الْكَافَرِ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهَزِيمَتِهِمْ فِي عِدَّةٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ ، حَتَّى فَتَحَتْ مَكَّةَ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .

وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّهُ عَذَابٌ أَبَدِيٌّ سَرْمَدِيٌّ لَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ ، بَلْ يَضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، ثُمَّ أَكَّدَ الْقُرْآنُ وَقُورَ الْبَعْثِ وَالْمَعَادِ وَالْحِسَابِ ، فَقَالَ :

٢٥ ، ٢٦ - إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ .

أى : إلينا وحدنا عودة الناس جميعا ، عند البعث والحشر والحساب ، ثم إن علينا وحدنا حسابهم . ومُجازاتهم على الإحسان وإحسانا ، وعلى السوء سوءا ، فليتوقع ذلك الكافر وليعمل حسابه ، فقد أعطيت كل إنسان العقل والإرادة والاختيار ، والحرية الكاملة فى اختيار الطريق الذى يسلكه ، والخطأ الذى يرتضيها ، والدنيا عمل ولا حساب والآخرة حساب ولا عمل ، والملك يوم القيامة لله الواحد القهار .

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الغاشية .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الفجر

أهداف سورة الفجر

(سورة الفجر مكية، وآياتها ٣٠ آية، نزلت بعد سورة الليل)

وتبدأ السورة بالقسم فتقسم بالفجر، وباليالى العشر، وبالشفع والوتر، على أن الإسلام حق، وأن البعث والحساب حق، وقد ضربت أمثلة بمن أهلكه الله من المعاندين كعاد وثمود، وذكرت تصورات الإنسان غير الإيمانية، وسوء فهمه لاختبار الله له بهذه النعم، ثم ردت على هذه التصورات ببيان الحقيقة التى تتبع منها هذه التصورات الخاطئة، وهى الجحود والأثرة وحب المال والمتعة.

ثم وصفت مشهداً عنيقاً مخيفاً من مشاهد الآخرة، وفيه يظهر جلال الله، وتظهر الملائكة للحساب، وتظهر جهنم أمام العصاة، وفى الختام نداء ندى رضى للنفس المطمئنة بأن تعود إلى رضوان الله وجنته.

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة فى مشاهد السورة، كما يبدو تعدد نظام الفواصل، وتغير حروف القوافى، بحسب تنوع المعانى والمشاهد:

فالأيات من (١ - ٥) تنتهى بحرف الراء مثل: وَالْفَجْرِ * وَلِيَالٍ عَشْرٍ .

والآيات من (٦ - ١٤) تنتهى بحرف الدال مثل: أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ .

والآيتان (١٥، ١٦) تنتهيان بحرف النون، والآيات الباقية متنوعة فيها الميم والتاء والهاء.

ومجموع فواصل آياتها (هاروت ندم).

والقسم الأول من السورة فيه نداوة الفجر وجماله، وفضل الليالى العشر، وثواب الشفع والوتر من الصلاة.

والقسم الثانى ينتهى بالدال، وفيه بيان القوة فى الانتقام من الظالمين.

وقد ذكر الفيروزى أن معظم مقصود السورة ما يأتى:

تشريف العبد وعرفة، وعشر المحرم، والإشارة إلى هلاك عاد وثمود وأضرابهما، وتفاوت حال الإنسان فى النعمة، وحرصه على جمع الدنيا والمال الكثير، وبيان حال الأرض فى القيامة، ومجىء الملائكة، وتأسف الإنسان يومئذ على التقصير والعصيان، وأن مرجع العبد المؤمن عند الموت إلى الرحمن والرضوان ونعيم الجنان.

مع آيات السورة

١ - أقسم الله سبحانه وتعالى بالفجر، وهو الوقت الذى يدبر فيه الليل، ويتنفس الصباح فى يسر وفرح وابتسام، وإيناس ودود ندى، ويستيقظ الوجود رويدا رويدا.

٢ - وَلَّيَالٍ عَشْرٍ . قيل: هى العشر الأوائل من المحرم، وقيل: العشر الأواخر من رمضان وفيها ليلة القدر، وقيل: هى العشر الأوائل من ذى الحجة وفيها يوم عرفة وعيد الأضحية.

٣ - وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ . أى: الزوج والفرد من الأعداد، والشفع والوتر من الصلاة، أو أيام التشريق وفيها رمى الجمار بهنى، فمن شاء رمى فى يومين ومن شاء مكث ثلاثة أيام.

واليومان شفع، والثلاثة وتر، قال تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ... (البقرة: ٢٠٣).

٤ - وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ . أى: يسرى فيه، كما يقال: ليل نائم، أى ينام فيه، وقيل: معنى وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرَ . أى: ينصرم وينقضى مسافرا بعيدا، ويسرى راحلا، وأصله: يسرى، فحذفت الياء لدلالة الكسرة عليها فى الوصل، وحذفت الياء مع الكسرة فى الوقف.

٥ - هَلْ لِي فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَى جِبْرِ . أى: هل فيما أقسمت به من جمال الفجر، وجلال الأيام العشر، وثواب الشفع والوتر، ولطف الليل إذا يسر، مقنع لذى لب وعقل، وسمى العقل جبيرا لأنه يمنع صاحبه عن الشر، ويحججه عما لا يليق.

٦ - ٨ - ألم تعلم يا محمد، أو ألم تعلم أيها المخاطب، كيف فعل ربك بعاد، وهم الذين أرسل إليهم هود عليه السلام فكذبوه، ومن قبيلة عاد (إرم) وكانوا طوال الأجسام، أقوياء الشكيمة، يقيمون ما بين عمان وحضرموت واليمن، وكانوا بدوا ذوى خيام تقوم على عمد، وقد وُصفوا فى القرآن بالقوة والبطش، فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها: أَلَيْسَ لِمَنْ يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ . فى ذلك الأوان.

٩ - وَتُوءِدُ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وكانت ثمود تسكن بالحجر، فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام، وقد قطعت الصخر وشيخته قصورا، كما نحتت فى الجبال ملاجئ ومغارات.

١٠ - وَفِرْعَوْنَ . وهو حاكم مصر فى عهد موسى عليه السلام، وهو صاحب المباني العظيمة والهيكل الضخمة، التى تعطى شكل الأوتاد المقلوبة. وقيل: الأوتاد تعنى القوة والملك الثابت، لأن الوتد هو ما تشد إليه الخيام لتثبيتها، واستعمل هنا مجازا إشارة إلى بطشه وحكمه الوطيد الأركان.

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ.

١١ - ١٤ - الَّذِينَ طَفَرُوا فِي الْبَلَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . أى: هؤلاء الذين سلف ذكرهم، من عاد وثمود وفرعون وجنده، جميعا تجاوزوا الحد وكفروا بنعمة الله عليهم، وأكثروا في البلاد الفساد وارتكاب المعاصي، فكفروا وقتلوا وظلموا، فأنزل الله عليهم العذاب بشدة مع توالى ضرياته.

وقد شبه الله تعالى ما يصيبه عليهم من ضروب العذاب بالسوط، من قبَل أن السوط يضرب به في العقوبات، وما وقع بهم من ألوان العذاب كان عقوبة لأنواع الظلم والفساد. إن الله سبحانه وتعالى يرى ويحسب ويحاسب، ويجازى وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم، وقد سجل الله عليهم أعمالهم كما يسجل الراصد الذى يرقب فلا يفوته شئ.

١٥ - ١٦ - إِنْ الْإِنْسَانُ إِذَا اخْتَبَرَهُ اللَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْسَعَ عَلَيْهِ فِي الرِّزْقِ، ويسط له في النعمة، ظن غرورا أن الله راض عنه، وتخيل أنه لن يحاسبه على ظلمه وأفعاله.

وإذا امتحنه بالفقر فضيق عليه رزقه وقتَّره، فلم يوسع عليه، فيقول: إن ربي أذلنى بالفقر، ولم يشكر الله على ما وهبه له من سلامة الجوارح، وما رزقه من الصحة والعافية.

قال الإمام محمد عبده:

وأنت ترى أن أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله في هذه الآية الكريمة، فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم في أمن من عقاب الله، ولا يعرفون شيئا من شرعه يمنهم من عمل ما تسوق إليه شهواتهم، وإنما يذكر الله بالسنتهم، ولا تتأثر قلوبهم بهذا الذكر.

وقريب من هذه المعانى قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَى الْمُصَلِّينَ . (المارج: ١٩ - ٢٢)

تعلم أن المخاطبين بهذه الآيات كانوا يزعمون أنهم على شئ من دين إبراهيم، أو أنهم كانوا يدعون أن لهم ديناً يأمرهم وينهاهم، ويقرهم إلى الله زلفى، فإذا سمعوا هذا التهديد وذلك الوعيد، وسئست لهم نفوسهم بأن هذا الكلام إنما ينطبق على أناس ممن سواهم، أما هم فلم يزالوا من الشاكركين الذاكرين غير الفاضلين^(١١)، فآله يرد عليهم زعمهم ويقيم لهم دليلاً واضحاً على كذب ما تحدثهم به نفوسهم، ويقول:

١٧ - كَلَّا بَلْ لَأَكْثَرُكُمْ لَئِيمٌ . أى: لو كان غنيكم لم يُقِّمه الطغيان، وقتيركم لم يطمس بصيرته الهوان، لأحسستم بالليتم الذى فقد آباء، فواسيتموه وعطفتكم عليه حتى ينشأ كريم النفس.

١٨ - وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وقد كان مجتمع مكة مجتمع التكالب على جمع المال بجميع الطرق، فورثت القلوب القسوة والبخل، وأنصرفت عن رحمة اليتيم، وعن التعاون على رحمة المسكين.

١٩ - وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . والثرث هو الميراث الذي يتركه من يتوفى، أى أنكم تشتدون فى أكل الميراث حتى تحرموا صاحب الحق من حقه.

٢٠ - وَتُجِبُونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًّا . وتميلون إلى جمع المال ميلا شديدا، يضل إلى حد الشراهة.

وخلاصة ذلك:

أنتم تؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، إذ لو كنتم ممن غلب عليهم حب الآخرة لانصرفتم عما يترك الموتى وراءاً لأيتامهم، ولكنكم تشاركونهم فيه، وتأخذون شيئا لا كسب لكم فيه، ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه، ولو كنتم ممن أرادوا الآخرة لما ضريت نفوسكم على المال، تأخذونه من حيث وجدتموه من حلال أو من حرام، فهذه أدلة ترشد إلى أنكم لستم على ما ادعيت من صلاح وإصلاح، وأنكم على ملة إبراهيم خليل الرحمن^(١٢).

٢١ - ٢٤ - كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . ودكُّ الأرض تحطيم معالمها وتسويتها، وهو أحد الانقلابات الكونية التى تقع فى يوم القيامة.

يَرَوْنَهُمْ الله سبحانه وتعالى عن مقاتلهم وفعلهم، وينذرهم أهوال القيامة إذا دكت الأرض وأصبحت هباء منبثا، وزلزلت زلزلا شديدا، وتجلت عظمة الله سبحانه، ونزلت ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف، بحسب منازلهم ومراتبهم، وكشفت جهنم للناظرين، بعد أن كانت غائبة عنهم.

قال تعالى: وَيُرْزَقُ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى . (النازعات: ٣٦).

حينئذ تذهب الغفلة، ويندم الإنسان على ما فرط فى حياته الدنيا، ويتذكر معاصيه، ويتمنى أن يكون قد عمل صالحا فى دنياه لينفعه فى حياته الآخرة التى هى الحياة الحقيقية.

«وترى من خلال هذه الآيات مشهدا ترتجف له القلوب وتخضع له الأبصار، والأرض تدك دكا، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل، وتتقف الملائكة صفا صفا، ثم يجاء بجهنم تتقف متاهبة هى الأخرى»^(١٣).

وتتبع الحسرة والذكرى الأليمة من فرط فى حقوق الله، فيتذكر بعد فوات الأوان، ويتمنى أن يكون قد عمل الصالحات.

٢٥ ، ٢٦ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ. الوثاق: الشد بالأغلال.

فى هذا اليوم العصيب ترى لونا متفردا من ألوان العذاب، لقد كان الجبارون يملكون أن يمتدوا من خالفهم فى الدنيا، لكن العذاب اليوم فى الآخرة لا يملكه إلا الله، وهو سبحانه القهار الجبار الذى يعذب يومئذ عذابه الفذ الذى لا يملك مثله أحد، والذى يوثق وِثاقه الفذ، ويشد المجرمين بالأغلال شدا لا يملك مثله أحد.

وعذاب الله ووثاقه يُفصلهما القرآن فى مواضع أخرى، وفى مشاهد كثيرة، ولكنه يجمعهما هنا، حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب الخلق جميعا ووثاقهم، وكان الآية تشير إلى ظلم عاد وثمود وفرعون ذى الأوتاد، وتنبه إلى أن عذاب الطغاة ووثاقهم للناس مهما اشتد فى الدنيا، فسوف يعذب الطغاة ويوثقون عذابا ووثاقا وراء التصورات والظنون.

وفى وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق الذى يتجاوز كل تصوّر، تُنادى النفس المؤمنة من الملاء الأعلى:

٢٧ - ٣٠ - يَنَادِيهِمُ النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي. ينادى الله سبحانه النفس الثابتة على الحق، أن تعود إلى جوار الله، راضية عن سعيها، مرضيا عنها، فتدخل مع العباد الصالحين، ومع الرفقة المؤمنين، حيث يدخلون جميعا جنة الله فى تكريم ورضوان.

وفى هذا النداء الرضى ما يسمح آلام هذه النفس، وما يشعرها بالنغطة مع عباد الله، وجنة الله ورضوانه، فتم الجزاء، ونعم الثواب وحسنت مرتقفا.

خلاصة أهداف السورة

تشتمل سورة الفجر على الأهداف والمقاصد الآتية:

- ١ - القسم على أن عذاب الكافرين واقع لا محالة.
- ٢ - ضرب المثل بالأمم البائدة كعاد وثمود.
- ٣ - كثرة النعم على إنسان ليست دليلاً على إكرام الله له، والبلاء ليس دليلاً على إهانته وخذلانه.
- ٤ - وصف يوم القيامة وما فيه من أهوال.
- ٥ - تمنى الأشقياء العودة إلى الدنيا.
- ٦ - كرامة النفوس الراضية المرضية وما تلقاه من التعميم بجوار ربها.

التذكير بهلاك الظالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤﴾ ﴿

المفردات:

والفجر: أقسم الله تعالى بوقت الفجر أو بصلاة الفجر.

وليل عَشْر: العشر الأوائل من ذي الحجة.

والشفع والوتر: الزوج والفرد من كل شيء، أو يوم النحر ويوم عرفة.

الليل إذا يسر: إذا يمضى ويذهب، أو يُسار فيه.

هل هي ذلك: المذكور الذي أقسمنا به.

قسم لذي حجر: مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء.

بعِمَاد: قوم هود، سمّوا باسم أبيهم.

إرم: هو اسم جدّهم، وبه سميت القبيلة.

ذات العِمَاد: الشدة، أو الأبنية الرفيعة المحكّمة بالمُعَد.

جأبوا الصخر: قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم.

ذى الأوتاد: الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه.

سوط صذاب، عذاباً شديداً مؤلماً دائماً.

بن ريك لبالمصاد: يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها.

تمهيد:

أقسم الله تعالى هنا بالفجر الذى يشرق فيذهب الظلام ويأتى النور، وأقسم بالليالى العشر الأوائل من ذى الحجة، وأقسم بكل شمع ووتر، كما أقسم بالليل الذى يتحرك ويتحرك معه الظلام، ثم قال: هل فى ذلك الذى أقسمنا به ما هو حقيق بالتعظيم لدى العقلاء ؟

التفسير:

١، ٢، ٣، ٤، ٥ - وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشُّعْ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ * هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرِ .

أقسم الله تعالى بالفجر ، وهو ذلك الوقت الندى الذى تنتهى عنده شدة الظلام، ويظهر الفجر الصادق، وهو النور المعترض فى الأفق.

قال تعالى: وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . (المدثر: ٣٢ - ٣٥)

وقيل: أقسم الله بصلاة الفجر، وفيها تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار.

قال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الفجر وفى صلاة العصر، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً . (٩٤) (الإسراء: ٧٨).

ولَيَالٍ عَشْرٍ .

اختار الشيخ محمد عبده أن المراد بها الليالى العشر الأوائل من كل شهر، حيث يظهر القمر صغيراً ثم يكبر رويداً رويداً حتى يغالب الظلام فيغلبه.

ونكر المفسرون أن المراد بها ما يأتى:

العشر الأوائل من ذى الحجة، وفيها يوم عرفة وفضله عظيم، وفيها العيد الأكبر.

أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من أيام عشر ذى الحجة»، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء» (٩٥).

وقيل: المراد بالليالي العشر: العشر الأوائل من المحرم وفيها يوم عاشوراء، وقيل: المراد بها العشر الأواخر من رمضان وفيها ليلة القدر.

واختار ابن كثير أن أرجح الآراء هو أن المراد بالليالي العشر: العشر الأوائل من ذي الحجة.

وَالشَّعْ وَالْوَتْرَ .

أى: سائر المخلوقات شفع، والله تعالى وتر يحب الوتر.

فالسما والارض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبحر والنهر، والنور والظلام، والذكر والأنثى.

قال تعالى: وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . (الذاريات: ٤٩).

وقيل: الشفع والوتر، أى: صلاة الشفع وصلاة الوتر.

وقيل: الشفع: الصلاة الرباعية مثل الظهر، والعصر، والعشاء، والثانية مثل الصبح.

والوتر: الصلاة الفردية مثل المغرب وهو وتر النهار، وصلاة الوتر وهى ختام صلاة الليل.

وَالْيَلَّ إِذَا يَسِرَ .

أقسم الله بالليل إذا تحرّك من أوله إلى وسطه إلى آخره، أى أجزاء الليل المتتابعة، حيث نشاهد النجوم وأماكنها وحركتها.

وفى أشعار العرب نجد أن المحبين منهم يسهرون الليل، ويستبطون تحركه، كأن النجوم حيوانات مصابة بداء الحفاء فى أرجلها، فتتمشى بطيئة، وكأن الظلام يصدّها عن التحرك، ومن طول الليل يهتأ للعاشق أن الجزء الذى يمضى من الليل يرجع مرة أخرى.

يقول النيسكوى:

يسحب الليل نجومًا ظُلْعًا	فتربلها بطينات التبع
ويزجها على إبطائها مغرب الد	ون إذا اللون انشع
وإذا ما قلت ليل قد مضى	عطف الأزل منه فـرجع

وكان ﷺ إذا أراد النوم قال: «اللهم غارت النجوم، ونامت العيون، وبقيت أنت يا حي يا قيوم، اهْدِ ليلي وأنتَ عيني»^(١٦).

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدَىٰ حِجْرٍ .

والحجر: هو العقل، لأنه يحجر صاحبه ويمنعه من التصرف المشين، وعما لا يليق به من الأقوال والأفعال.
أى: هل فى ذلك القسم بأوقات العبادة والطاعة، أو بنفس العبادات والطاعات مقنع لمن له إدراك وفكر.

وجواب القسم محذوف دل عليه ما بعده، وتقديره: إن ناصية المكذبين لبيدى، ولئن أهملتهم فلن أهملهم ولاخذنهم كما أخذت الأمم قبلهم.

٦، ٧، ٨ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * آلِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ .

الم تشاهد بعقلك - مشاهدة كأنها رؤية العين - ما فعله الله بقبيلة عاد، وهم عاد الأولى، وتسمى عاد إرم.
وإرم جد القبيلة، وقد اشتهرت قبيلة عاد بالبأس والقوة، وطول القامة التى تشبه عماد الخيمة.

وقال المفسرون:

كانوا بدوًا يسكنون الخيام، وتعتمد الخيام على أعمدة، فقال القرآن : إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ .

وكانوا أقوىاء أشداء فأخذهم الغرور.

قال تعالى: فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مِنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِنَائِيتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِّنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ . (فصلت: ١٥، ١٦).

وكانت عاد تقطن جنوب الجزيرة العربية، فى منطقة تسمى الأحقاف بين عمان وحضرموت واليمن.

آلِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ .

تلك القبيلة التى لم يخلق الله مثلم فى قوتهم وشدهم وضخامة أجسامهم، وقرب عام ١٩٩٥ م ظهرت كشوف أثرية فى سلطنة عمان قرب مدينة صلالة، عبارة عن قرية مطمورة بها أبنية لم يكن لها نظير أو مثيل، ويظن أنها مدينة عاد.

وكان قوم عاد يسكنون بالأحقاف، والأحقاف جمع حقف، وهو الرمل المعوج.

قال تعالى: **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ...** (الأحقاف: ٢١)

ونبي عاد هو هود عليه السلام، وقد ذكرت قصتهم في سورة هود وعدد من السور، وكثيرا ما تذكر قصة عاد ثم يأتي بعدها قصة ثمود.

٩ - **وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالسَّحَرِ بِالْوَادِ .**

وقبيلة ثمود قبيلة عربية من العرب العاربة، وهم من أبناء عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانوا يسكنون بالحجر بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام، وهم أول من نحت الجبال والصخور والرخام، واتخذوا أبيئتهم وحصونهم في قلب الجبال.

قال تعالى: **وَتَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَّهِنَ .** (الشعراء: ١٤٩).

وأرسل الله إليهم رسوله صالحا عليه السلام، قدماهم إلى توحيد الله، وكانت معجزته ظاهرة ملموسة، هي نافذة تخرج من بين جبلين، وتشرب ماء النهر في يوم، وتحلب لهم لبنا يكفيهم من أولهم إلى آخرهم، لكنهم عقروا الناقة، ونقضوا العهد، فهاهلكهم الله جزاء عدوانهم، وذكرت قصتهم في كثير من سور القرآن الكريم .

قال تعالى: **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَرُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .** (فصلت: ١٧)

أى: أرسلنا إليهم رسولا بأسباب الهداية، فاختاروا الضلالة وتركوا الهداية؛ فاستحقوا العذاب.

١٠ - **وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ .**

وفرعون ذى الجنود الكثيرة، والجيوش القوية التى كانت تثبت ملكه كما تثبت الأوتاد الخيمة، وقيل: إنه كان يدق للمعبد أربعة أوتاد، ويشده بالحبال من يديه ومن رجليه، ويعذب به بأوان العذاب.

١١، ١٢ - **الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبَلَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ .**

هؤلاء الثلاثة: عاد، وثمود، وفرعون، نماذج للطغيان، وقد اشتد طغيانهم وعدوانهم على عباد الله، وظلموا المباد، وتجاوزوا الحد في الظلم والطغيان.

وعندما يوجد الظلم من الطغاة، يوجد التهور والنفاق، وطمس معالم الحق، وهضم كرامة الإنسان، الفساد يجزّ إلى الفساد، حيث يكثر الكفر بالله، واقتراف سائر المعاصي.

١٣ - فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ .

انزل الله عليهم ألوان العذاب الذي يُصبّ عليهم صبا، كضرب السياط اللاذعة.

وتفيد الآية أنه كان عذابا قاصما، فقد أهلك الله عادا، بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَحَابَ لِيلٍ وَثُمَّ نَزَّلْنَا آيَاتٍ حُسُومًا ... (الحاقة: ٦، ٧).

وأهلك الله ثمود بالصاعقة التي أهلكتهم، وأهلك فرعون بالفرق.

والخلاصة:

إن الله تعالى أهلكهم بألوان العذاب المهلكة المدمرة، فصاروا أذرا بعد عين، والقصة موجهة إلى أهل مكة، وإلى كل ظالم عاتٍ باغٍ «إن الله يُعَلِّمُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتِهِ» (٩٧).

قال تعالى: وَقُرُونٌ وَفُرُوعٌ وَهُمْ نَحْنُ الْمُنْتَصِرُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (الأنبياء: ٢٩، ٤٠).

١٤ - إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ .

إن الله تعالى يرصد أعمال الظالمين ويسجّلها عليهم، ويحصي أعمالهم إحصاء دقيقا، ثم يُنزل بهم العقاب الذي يستحقونه.

«إن الله يعلم للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (٩٨).

إن عدالة الله لا تنيب، وهو سبحانه مطلع وراقب، فليثق المؤمن بذلك، أما الظالم فإن الله له بالمرصاد، يرى ويحسب ويحاسب، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم، ولا يأخذ بظواهر الأمور، لكن بحقائق الأشياء.

قال في التسهيل لعلوم التنزيل :

المرصاد: المكان الذي يرتقب فيه الرصد .

والمراد: أنه تعالى رقيب على كل إنسان، وأنه لا يفوته أحد من الجبابة والكفار، وفي ذلك تهديد لكفار قريش.

★ ★ ★

امتحان الله للإنسان

﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

المفردات:

ابتلاه ربه: امتحنه واختبره بالنعم أو النقم.

فقدار عليه رزقه: ضيقه عليه.

كــــلا: ردع للإنسان عما قاله في الحالين، فليس الفنى إكراماً من الله للفنى، وليس الفقر إهانة للفقير، فאלله يعطى الدنيا لمن يحب ولن لا يحب، ويفقر من يحب ومن لا يحب، ولكن الفنى ليشكر الفنى، والفقر ليصبر ويحتسب الفقير.

لا تحاضون: لا يحث بعضكم بعضاً.

الثرثـرات: ميراث النساء والصغار.

أكلًا لـمًّا: جمعاً بين الحلال والحرام.

حبا جمًّا: كثيراً مع حرص وشدة.

التفسير:

١٥ - فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ .

ذكر القرآن فيما سبق أن الله تعالى رقيب على العباد، شهيد على أعمالهم.

وهنا يقول: إن الإنسان - أى الكافر والعاصى - إذا اختبره الله بالنعمة والمال، أى عامله معاملة المختبر، بأن أغدق عليه النعم، ويسر له وسائل الكرامة، وصنوف النعم والمال، فيظن أن ذلك لأنه صاحب حظوة عند ربه، وصاحب كرامة ومنزلة فيقول: ربى أكرمنى، أى: أكرمنى بذلك لمزيد استحقاق.

كما قال تعالى: أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ * نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .

(المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦)

١٦ - وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ .

أى: إذا اختبر الله الإنسان، فضيق عليه فى الرزق، وجعله فقيرا قليل المال، فيقول: إنَّ الله أهاننى بالفقر، فليست لى كرامة عنده، لذلك أصابنى بالفقر والهوان.

وما علم هذا الإنسان أن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولن لا يحب، فيغنى الكافر والعاصى والمؤمن، امتحانا لهم بهذا الخير، أى يعاملهم معاملة المختبر، هل يشكر الله فى الغنى، ويطيعه فيما فرضه عليه، ويؤدى حق المال كما طلب الله، أم لا يفعل ذلك ؟

والله تعالى يختبر بالفقر الكافر والمؤمن، لا لهوانهما عليه ولكن لهوان الدنيا، ويعامل الفقير معاملة المختبر الممتحن، هل يشكر الله على ما أعطاه من نعم أخرى مثل العقل وسلامة الجوارح، والإيمان وطاعة الرحمن ؟ وهل يصبر على الفقر أو المرض أو الكوارث، أم يجزع ؟

قال تعالى: وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . (الأنبياء: ٢٥)

فله تعالى حكمة خفية فى اختبار بعض الناس بالنعمة، والمال والغنى، والصحة والعافية، والأولاد والأحفاد، وصنوف النعم.

وله سبحانه حكمة خفية فى اختبار بعض الناس بالفقر أو الكوارث، أو نقص الأموال والأولاد، أو غير ذلك، وهذا امتحان، فقد ينجح الإنسان فى الفقر، فيصبر ويحتسب، ويصاول الأعداء فى الجهاد والكفاح، ثم يفشل فى الاختبار بالغنى والمال والجاه والسلطان، والمؤمن الصادق يشكر على النعماء، ويصبر على البأساء، ويرضى بأسباب القضاء .

١٧ - كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ .

ردع وزجر عن ظن صاحب النعمة أن ذلك لكرامته عند ربه، وردع وزجر لمن اختبر بالفقر أو الكوارث أن ذلك لمهانتة، بل ذلك لمحض القضاء والقدر، ولحكمة إلهية عليا .

ومعنى كَلَّا : ارتدعوا عن هذا الفهم، فله حكمة عليا فوق فهمكم.

قال الشاعر:

ومن الدليل على القضاء وحكمه
يوس اللبيب وطيب عيش الأحسن

بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .

بل أنتم لسوء تصرفكم تهبون مال اليتيم، وتذلونوه وهو جدير بالبر والإحسان، لأنه فقد الأب الذي يرباه ويكرمه، فصار الوصيّ مطالباً بإكرامه.

روى البخارى، ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الإبهام^(٩٩).

وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرُّ بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه»^(١٠٠).

١٨ - وَلَا تَحْضُوا عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ .

والتحاض: تفاعل من الحضّ، وهو الحث والترغيب، كأننا مطالبون بإكرام الفقراء واليتامى والمساكين، ومطالبون أيضاً بأن يحضّ بعضنا بعضاً على التكافل والتراحم، حتى يُحس الفقير والمساكين أنه غير ضائع ولا جائع، وأن المجتمع يكفله ويرعاه، وأن هناك أسرة الأخوة الإنسانية والدّينية بين أعضاء المجتمع، ولذلك أكثر القرآن من الحث على رعاية اليتيم، والمحافظة على ماله، وأمر القرآن بإكرام الأرمال والفقراء والجيران والمساكين، وبأن تكون الأموال وسيلة إلى الاستثمار، وإخراج الزكاة، ورعاية الضعفاء والمحتاجين، وتلك وسيلة الإسلام إلى ترابط المجتمع وتآزره وتعاونه.

قال تعالى: وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... (المائدة: ٢)

ومن وسائل هذا التعاون الحث على تنظيم الإحسان، وحضّ الأغنياء على رعاية الفقراء بوسيلة من الوسائل المناسبة.

قال تعالى: وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات: ١٩)

١٩ - وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا .

أى: وتأكلون الميراث، أى ميراث اليتامى والنساء، وكانت العرب لا تعطى لا الميراث إلا من يركب الفرس ويدافع عن القبيلة، فيحرمون الأنثى والصغار، ويأكلون ميراث اليتيم عند الوصاية عليه.

ومعنى أَكْلًا لَّمًّا . أى: شديداً.

والقرآن يحذّرهم من ذلك، ويدعوهم إلى عدم الشراة في حب المال، بل يكتفون بالمال الحلال، ويتعدون عن المال الحرام، وعمّا لا حق لهم فيه.

٢٠ - وَتُجِبُونَ الْمَالَ حُبًا جَمًّا .

تُجِبُونَ المال حُبًا كثيرًا، زاد بعضهم فاحشا، أى: إنكم تُحِبُّون جمع المال مع الحرص والشره في جمعه، والمال ينبغي أن يؤخذ من حقه، وأن يصرف في حقه، وبذلك يصبح نعم المعونة، وفي الأثر: «نعم المال الصالح للرجل الصالح».

أما إذا جُمع المال من حرام أو أنفق في حرام، أو دخلت فيه الشبهات، أو لم تخرج منه الزكاة والصدقة، أو لم يستغل في التكافل والتراحم والتعاون، فإنه يصبح دُولة بين الأغنياء، ويكون وسيلة إلى الأثرة والأنانية، والمساءلة بين يدى الله عز وجل يوم القيامة.

★ ★ ★

مشاهد القيامة

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۖ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنسَٰنَ وَأَنَّهُ ٱلَّذِى كَرَىٰ ۖ يَقُولُ يٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۖ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۖ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ۖ يَتَأَيَّنُّهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۖ أَرَجَيْىَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ۖ فَأَدْخِلْنِي عَنَّا ۖ ۝٢٠﴾

المفردات:

دكّت الأرض: دقت وكُسّرت بالزلازل.

دكّا دكّا: دكّا متتابعًا، حتى صارت هباءً منثورًا، فلا جبال ولا مرتفعات، بل تصبح أرضًا مستوية لا ترى فيها ارتفاعًا ولا انخفاضًا.

وجاء ربك: أمره وقضاؤه.

والمملك: ملائكة كل سماء.

وأنى له الذكرى: من أين له منفعتها؟ هيئات فقد جاءت بعد فوات الأوان.

تمهيد:

يستعرض الحق سبحانه وتعالى مشاهد الآخرة، وقد ذكرت في سور سابقة بتفصيل مناسب، وذكرت هنا بإجمال مناسب، والحق سبحانه يعطينا هنا العبرة لكل ظالم باغ أن تذكر ما أصاب الظالمين، أمثال عاد وثمود وفرعون، ولكل راغب في المال الحرام، أو ممتنع عن إخراج حقوق اليتامى والمساكين، أن تذكر مشاهد القيامة وأحوالها وحسابها.

التفسير:

٢١ - كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .

كَلَّا : ردع وزجر لهم عن الأعمال القبيحة، وقد يكون معناها: حقًا .

إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا .

عند نهاية الحياة الدنيا يضطرب الكون، وتشتق السماء، وتلك الأرض دكا متتابعًا، مرة إثر أخرى، وعندئذ لا يوجد فوقها جبال، ولا في أسفلها وديان، بل تتحول إلى أرض مستوية تمامًا، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، بل تتحول إلى أرض بيضاء مستوية، يقف الخلائق جميعًا من عهد آدم إلى قيام الساعة في مكان مكشوف مستوٍ، تراه العين وتسمعهم الأذن.

٢٢ - وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا .

جاء عدل ربك، وجاء جلال ربك، جاء الملك القهار، في ذلك اليوم ينادي: لمن الملك اليوم؟ والجواب: لله الواحد القهار.

جاء ربك وكفى به حكما وعدلا، وجاءت ملائكة السماء الأولى فأحاطت بالخلائق، وجاءت ملائكة السماء الثانية فأحاطت بملائكة السماء الأولى، وهكذا كُوِّنت الملائكة سبع طبقات أو سبعة صفوف.

وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكيف ولا تمثيل، أي أنه مجرى تؤمن به ونفوس حقيقة المراد منه إلى الله تعالى.

قال ابن كثير:

قام الخلائق من قبورهم لرَبِّهم، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا.

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.
(البقرة: ٢١٠)

٢٣ - وَجَاءَ يَوْمٌ يُؤْتِيهِمْ يَوْمَئِذٍ بَهِيمٌ يُؤْمِلُ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى .

تأتي جهنم تتلطم، غيظا على من عصى الله تعالى، ويراهم الناس رأى العين.

قال تعالى: وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (النازعات: ٣٦).

لقد كُشِفَتْ جهنم للناظرين بعد أن كانت غائبة عنهم، فكانها كانت بعيدة وجاءت إليهم، عندئذ تذهب الغفلة وتجيء الفطنة، ويتذكر الإنسان الغافل أيام غفلته، ولكن بعد فوات الأوان.

إنه الآن يتعظ، ويرق قلبه ووجدانه، ويتحسر على الحياة التي أضاعها بغفلته، ولكن لا تفيد هذه الذكرى، فالدنيا عمل ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

٢٤ - يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي .

يقول هذا الإنسان الغافل: يا ليتني قدّمت في حياتي عملاً صالحاً، والتزمت بفرائض الله، وسرت على الصراط المستقيم، وأطعت الله وأطعت الرسول ﷺ.

٢٥، ٢٦ - فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وِقَاةٌ أَحَدٌ .

ليس أحد أشدّ عذاباً من تعذيب الله من عصاه.

وَلَا يُوثِقُ وِقَاةٌ أَحَدٌ .

وليس أحد أشدّ قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين.

٢٧، ٢٨ - يَأْتِيَنَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً .

عند سكرات الموت يرسل الله الملائكة تُطمئن المؤمنين وتبشّرهم بالجنة.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . (فصلت: ٣٠)

وقيل: إن النداء على النفس المطمئنة عند تمام الحساب، وقيل: عند البعث، وقيل: عند دخول الجنة، وعموما فإن مراحل الآخرة تبدأ من سكرات الموت، والنفس المطمئنة هي التي رضى بالقضاء والقدر، وشكرت الله على النعماء، وصبرت على البأساء، واطمأنت لعدالة أحكام الله، واطمأنت إلى ربها ودينها، واطلعت ربه في رضا وإيمان، وبتيقن وسعادة، فينادى عليها عند خروج الروح، وفي مراحل الآخرة التالية:

يَسَائِبُهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَةُ .

والاطمئنان في الدنيا سعادة ما بعدها سعادة، فهي موقنة بقضاء الله وقدره، وقد وقفت عند حدود الشرع، فتجىء يوم القيامة مطمئنة بذكر الله، ثابتة لا تتزعزع، آمنة مؤمنة غير خائفة، حيث يُنادى عليها:

ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً .

عودى عند البعث أو عند الموت إلى ثواب ربك، راضية عن العطاء الإلهي، مرضيا عنك كل الرضا .

قال تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (البينة: ٨)

٢٩، ٣٠ - فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي .

فادخلي في عبادي الصالحين، وكوني في جملتهم، وما أعد لهم من الكرامة والرضوان، وادخلي معهم الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي ختام السورة نلمح أن الكافر يتعطل ويتوب عن كفره، وعن حرصه على الدنيا دون الآخرة، ولكن لا ينفعه ذلك، فليت راغب التوبة يعجل بها، الآن الآن، قبل فوات الأوان.

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الفجر)، مساء الأربعاء ٢٩ من صفر ١٤٢٢ هـ، الموافق ٢٢ / ٥ / ٢٠٠١ م.

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the central text.

تفسير سورة البلد

أهداف سورة البلد

(سورة البلد مكية، وآياتها ٢٠ آية، نزلت بعد سورة ق)

وقد اشتملت السورة على تعظيم البلد الحرام، والرسول الأمين ﷺ، وتكريم آدم وذريته، وبيان أن الإنسان خُلِقَ في معاناة ومشقة، في حمله وولادته ورسالته في الحياة وحسابه في الآخرة.

وجابهت السورة أحد المشركين، وكشفت سوء أفعاله، ورسمت الطريق الأمثل للوصول إلى رضوان الله.

مع آيات السورة

١ - لَا أَقْسَمُ بِهِذَا الْقَلْبِ . أقسم الله عز وجل بمكة، وفيها البيت الحرام والكعبة، وعندها قبلة المسلمين، وفيها زمزم والمقام، والأمن والأمان.

قال تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ... (المائدة: ٩٧). ومعنى قياما: قواما، أى يقوم عندها أمر الدين، حيث يُقَدَّمُ الحجيج فيطوفون ويسمعون، ويؤدون المناسك، ويشاهدون مهبط الوحي، ويصير الرجل آمنا يَدْخُلُهُ الْحَرَمَ، قال تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا... (آل عمران: ٩٧).

وقد ذكر القرآن تكريم مكة في آيات كثيرة، فقد ولد بها النبي ﷺ، وبدأ بها نزول الوحي، ومنها انبثق فجر الإسلام، وإليها يحج الناس.

قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ . (الشورى: ٧).

٢ - وَأَنْتَ حَلِيلٌ بِهَذَا الْقَلْبِ . وأنت مقيم بهذا البلد، يكرم الله نبيه محمدا ﷺ، الذى جعله خاتم المرسلين، وأرسله هداية للعالمين، وجعل مولده بمكة، وهذا الميلاد يزيد مكة شرفا وتعظيما حيث إن أفضل خلق الله يقيم بها ويحل بين شعابها، ويتقل بين أماكنها داعيا إلى دين الله، حاملا وحى السماء، وهداية الناس.

٣ - وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . أَقْسَمَ الله بآدم وذريته لكرامتهم عليه سبحانه، قال تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ... (الإسراء: ٧٠). وقيل: كل والد ومولود، «والأكثر من على أن الوالد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والولد محمد ﷺ، كانه أقسم ببلده ثم بوالده ثم به»^(١٠١).

٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ . الكبد: المشقة والتعب، أي: أوجدت الإنسان في تعب ومعاناة في هذه الحياة، فهو في مشقة متتابعة «من وقت احتياسه في الرحم إلى انفصاله، ثم إلى زمان رضاعه ثم إلى بلوغه، ثم ورود طوارق المساء، ووبوارق الضراء، وعلائق التكاليف، وعوائق التمدن والتعيش عليه إلى الموت ثم إلى البعث، من المساءلة وظلمة القبر ووحشته، ثم إلى الاستقرار في الجنة أو النار، من الحساب والعقاب والحيرة والحسرة»^(١٠٢).

ونظير الآية قوله تعالى: يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَنِّيهِ . (الانشقاق: ٦).

وقوله سبحانه: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (الملك: ٢).

٥ - ١٠ - أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْبَرَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبًّا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . لهذا، كثيرا، النجدين: الطريقين، وهما طريقا الخير والشر.

روى أن هذه الآيات نزلت في بعض صناديد قريش، الذين كان رسول الله ﷺ يكابد منهم ما يكابد، وهو أبو الأشد أسيد بن كلفة الجمحي، وكان مفترا بقوته البدنية، وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة^(١٠٣)، وسواء أكانت هذه الآيات نزلت في أحدهما أم في غيرهما فإن معناها عام.

والمعنى:

أيظن ذلك الصنديد في قومه، المفتون بما أنعمنا عليه، أن لن يقدر أحد على الانتقام منه، وأن لن يكون هناك حساب وجزاء، فتراه يجعل القيامة، ويتصرف تصرف القوى القادر، فيطغى ويبغى، ويبطش ويظلم، ويفسق ويفجر، دون أن يتحرج، وهذه هي صفات الإنسان الذي يتعرى قلبه من الإيمان.

ثم إنه إذا دُعي للخير والبذل يقول: أَهْلَكْتُ مَالًا لُبًّا . وانفقت شيئا كثيرا، فحسبى ما انفقت وما بذلت، أيحسب أن عين الله لا تراه، وتعلم أن ما أعطاه الله له أكثر مما أنفق، وتعلم أنه إنما أنفق رياء وسمعة، وطلباً للمحبة بين الناس ؟

ثم بين الله جلائل نعمه على هذا الإنسان، وعلى كل إنسان فقال: أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . يبصر بهما المراثي، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . ليعبر عما في نفسه، وليتمكن من الأكل والشراب، والنفع والتطق، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . ليختار أيهما شاء، ففي طبيعته الاستعداد لسلوك طريق الخير أو طريق الشر، لأن الله منحه العقل والتفكير،

والإرادة والاختيار، ويميزه على جميع المخلوقات، فالكون كله خاضع لله خضوع القهر والغلبة، والإنسان هو المتميز بالاختيار والحرية، ليكون سلوكه متمسكاً بالمسئولية.

١١ - ١٣ - فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ فَكُ رَقَبَةً . بعد أن بين الله جليل نعمه على الإنسان، وبخاصة الأغنياء، أخذ يحث أغنياء مكة على صلة الرحم، والعطف على المساكين، والمشاركة في عتق الرقاب، والتخفيف عن العبيد والإماء.

وقد بدأت الآيات بالحث والتحريض على اقتحام العقبة، ثم استفهم عنها في أسلوب يراد به التخفيف والتحويل، ثم أجاب بأنها فك رقبة، وهي عتق العبد أو الإعانة على عتقه، والمشاركة في نقله من عالم الأرقاء إلى عالم الأحرار.

١٤ - أَوْ أُطْعِمَ فِي يَوْمٍ ذِي سَعَةٍ . أو إطعام جائع في أيام عوز ومجاعة.

١٥ - يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . إطعام يتيم في يوم المجاعة وبخاصة إذا كان قريباً.

١٦ - أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أو إطعام مسكين عاجز عن الكسب، لصقت بطنه بالتراب من شدة فقره.

١٧ - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصَّوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أى: جمع إلى الصفات المتقدمة الإيمان الصادق والصبر الجميل، وحث الناس عليه والوصية به، والتواصى بالرحمة والعطف.

ولنحظ أن التواصى بالصبر أمر زائد على الصبر، ومعناه إشاعة الثبات واليقين والطمأنينة بين المؤمنين. وكذلك التواصى بالمرحمة، فهو أمر زائد على الرحمة، ويتمثل في إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة، عن طريق التواصى به، والتعاض عليه، واتخاذ واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته، يتعارف عليه الجميع، ويتعاون عليه الجميع. فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه، لأن الإسلام دين جماعة، ومنهج أمة، مع وضوح التبعة الفردية والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً.

١٨ - أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . أولئك الذين يقتحمون العقبة، كما وصفها القرآن وحددها، هم أصحاب الميمنة، وأهل الحظ والسعادة، وهم أصحاب اليمين الفائزون.

١٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا . وجعدوا دلائل قدرتنا، وأنكروا آيات الله العظام، من بعث وحساب، ونشور وجزاء، وكذبوا بآيات القرآن. هُم أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . هم أصحاب الشمال، أو هم أصحاب الشؤم والنحس والخسران.

٢٠ - عليهم نار مؤصدة . يصلون نارا مطبقة عليهم، ومغلقة أبوابها لا يستطيعون الفرار منها، وسيخلدون فيها.

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني، وفي التصور الإيماني، تعرض في هذه السورة القصيرة، بهذه القوة وبهذا الوضوح، وهذه هي خاصية التعبير القرآني الفريد.

★ ★ ★

مقاصد السورة

- ١ - القسم بمكة وبالنبي الكريم ﷺ بياناً لفضله.
- ٢ - بيان ما ابتلى به الإنسان في الدنيا من النصب والتعب.
- ٣ - اغترار الإنسان بقوته.
- ٤ - تعداد أنعم الله على الإنسان، كالعين واللسان والعقل والفكر.
- ٥ - بيان سبيل النجاة الموصلة إلى السعادة.
- ٦ - الكفران بالآيات سبيل الشقاء.

★ ★ ★

ابتلاء الإنسان بالتعب، واغتراره بقوته وماله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ١ ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ٢ ﴿وَالدَّيْرُ وَمَا لَكَ﴾ ٣ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي﴾ ٤ ﴿كَبَدٍ﴾ ٥ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَغْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ٦ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾ ٧ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ﴾ ٨ ﴿أَحَدٌ﴾ ٩ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ١٠ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ١١ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ١٢ ﴿

المفردات:

لا أقسم: أقسم، و (لا) مزيدة.

بِهَذَا الْبَلَدِ بِمَكَّةِ الْمُكَرَّمَةِ.

حل بهـذا البلد، حلال لك ما تصنع به يومئذ.

والد ومسا ولد: آدم وجميع ذريته، أو الصالحين منهم، أو إبراهيم وإسماعيل الوالد، والولد محمد ﷺ.

لقد خلقنا الإنسان في كبد، جواب القسم. والكبد: النصب والمشقة ومكابدة الشدائد.

أَهْلَكَ مَالًا لِبَدَاءِ كَثِيرٍ فِي الْمَكْرَمَاتِ مِبَاهَاةٌ وَتَعَاظُمًا.

النجددين: طريقى الخير والشر.

التفسير:

١ - لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ .

لَا مَزِيدَ، والمعنى: اقسام بهذا البلد، وهى مكة أم القرى، وبها البيت الحرام والكعبة المشرفة، وهى قبله المسلمين.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...

(البقرة: ١٥٠)

وقد أمر الله بالحج والطواف بالبيت العتيق، وهو أول بيت وضع للناس، بناه إبراهيم وساعده إسماعيل، ودعا إبراهيم ربه أن يبعث فيهم رسولا منهم.

قال تعالى: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (البقرة: ١٢٩).

٢ - وَأَنْتَ حَلُّ بَهَذَا الْبَلَدِ .

وأنت يا محمد يا خاتم الرسل، مقيم بهذا البلد، مما يزيد من قيمته وأهميته، فهو من أحب البلاد إلى الله، وبه الكعبة والقبلة، وبه أيضا محمد ﷺ، صاحب الرسالة الأخيرة للبشرية.

وقيل: المعنى: وأنت حلال بهذا البلد الأمين الذى جعل الله فيه البيت الحرام، مثابة للناس وأمانا، ومن دخله كان آمنا، وحرم الله فيه صيد البر، وحرم فيه العدوان على شجر الحرم، وجعله منطقة سلام وأمان، ومع هذا فإن أهل مكة يستحلون العدوان عليك، ويتهمونك بالسحر والكذب والجنون، ويؤذونك أنت وأصحابك، حتى يضطروهم للهجرة إلى الحبشة مرتين، وإلى المدينة المنورة بعد ذلك.

وقيل: المعنى: إن الله سيفتح لك مكة ويجعلك حرا فى التصرف فى أهلها، ويحل لك اقتحامها ساعة من نهار، ويحل لك التصرف فى أهلها بعد الفتح.

٣ - وَالِدٌ وَمَا وَلَدَ .

أقسم بكل والد وبما ولد، حيث يتم توالد الحياة وإبداعها بين الأصول والفروع، من الشجر والحيوان والإنسان.

وقيل: القسم بأدم وذريته.

وقيل: القسم بإبراهيم وإسماعيل وهما الجدان البعيدان لمحمد ﷺ، وبالولد وهو محمد ﷺ، حيث تولد رسالته التى هى خاتمة الرسالات، وفيها خلاص البشرية.

٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ .

وهذا هو جواب القسم .

أى: لقد خلقنا الإنسان فى مشقة ومعاناة طويلة، حيث يمر بمراحل فى بطن أمه، ويمرراحل متعددة فى انتقاله من الطفولة إلى الفتوة، إلى الشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة، ثم المرض والموت وحياة القبر والبعث والحساب، والميزان والصراط، والجنة أو النار .

والكبد: المشقة والجهد والمعاونة التي يمر بها الإنسان في حياة الدنيا، وحياة الآخرة.

وإذا سأل سائل وقال: لماذا أقسم الله بمكة وبحياة النبي ﷺ بها، وبكل والد وما ولد، على أنه خلق الإنسان في كبد ومشقة ومعاونة؟

كان الجواب: نزلت هذه الآيات والمؤمنون بمكة يتعرضون للأذى والاضطهاد، ويقاسون صنوف التعذيب والآلام، فكان القرآن يقول:

تلك ضريبة الحياة، وهي الكبد والمشقة، ولأن تكون المشقة في أمر عظيم، هو نشر رسالة وإحياء دعوة أفضل من أن تكون في سبيل عرض من أعراض الدنيا.

وطعم المرث في شيء حنير كطعم المرث في شيء عظيم

٥ - أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

كثيراً ما يأخذ الإنسان الغرور بقوته أو ماله، أو حسبه أو نسبه، مع أن الإنسان خلق ضعيفاً، وإن بعوضة تلسه فربما أصيب بالحمى، وإن جرثومة تتدسس إلى كيانه لتهدّ بنيانه وتقوض أركانه، لقد أراح الله الحيوانات من الفكر وحساب المستقبل، أما الإنسان فإنه يعيش في المستقبل أكثر مما يعيش في الواقع، وهو في مسيرته بين الضعف والقوة.

قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ... (الروم: ٥٤)

وقال تعالى: وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا . (النساء: ٢٨)

وقد ذكر في أسباب النزول أن الآية نزلت في أحد كفار قريش الأشداء، فقد افتخر بقوته وادعى أنه قادر على الانتصار على عدد من زبانية جهنم. والآية مع ذلك عامة في كل مفروق بعافيته أو ماله أو جاهه، حين يظن أن الله تعالى لن يقدر عليه.

٦ - يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا .

لقد أنفق أموالاً كثيرة في نزواته وشهوته وملذاته، فإذا دُعي إلى خير أو مساعدة في معروف، يقول: لقد أنفقت أموالاً كثيرة.

٧ - أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ .

أيظن أن عين الله لا تراه، وتعلم سرّه ونجواه، وتطلع على السرّ وما هو أخفى من السرّ، فالله خبير بالإنسان وما في داخله، وهو عليم بما توسوس به نفسه، وهو خبير بالبواغث التي حملته على إتفاق هذا المال، وهو سبحانه سيحاسبه يوم القيامة على الرياء والتفاق، وعدم إخلاص النية للخالق الرقيب الحسيب.

وهناك آراء للمفسرين في تفسير الآيتين السابقتين من بينها ما يأتي:

١ - يقول هذا المفسر بقوة، وهو أبو الأشد أسيد بن كلدة الجُمحى، أو الوليد بن المغيرة، أو أضرايها: لقد أنفقت مالا كثيرا في عداوة محمد وفي إيذاء أتباعه، وفي غير ذلك من الوجوه التي كان أهل الجاهلية يظنونها خيرا، وما هي إلا شر محض.

والمال التُّبْد: هو المال الكثير الذي تلبّد، والتصق بعضه ببعض لكثرتة، وهو جمع بُدّة، وهي ما تلبّد أي تجمع والتصق بعضه ببعض.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ .

أي: أيظن هذا الجاهل المفسر حين أنفق المال الكثير في المعاصي والسيئات، أن الله تعالى لم يطلع عليه، إنه سبحانه مطلع على كل شيء، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا.

٢ - وقيل: المراد بالآيتين الأغنياء البُخلاء المراءون الذين يكتزون أموالهم ولا ينفقونها إلا على شهواتهم، وفي توفير لذاتهم، وإذا حُمِلوا على عمل من أعمال الخير قالوا: إننا تنفق أموالا كثيرة في أعمال أخرى. أفيحسب هؤلاء أن عين الله لا تراهم، وأن سرائرهم وضمايرهم ليست مكشوفة أمام الله سبحانه وتعالى (١٠٤).

ثم ذكر الله تعالى أنواع نعمه على الإنسان ليتعظ ويعتبر، فقال:

٨ - أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ .

ألم يتأمل في خلق الله له حيث جعل له عينين يقرأ بهما، ويرى بهما، ويتأمل بهما في ملكوت السماوات والأرض، ويرى بهما النور والظلام، وبياض النهار وظلام الليل، وحركة الشمس والقمر، واللوان الخلّاق وأوصافها، وأحاط العينين بغطاء به رموش تقفل عند النوم، وعند الرغبة في غض البصر.

٩ - وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ .

أي: جعل الله للإنسان لسانا يتكلم به، ويقرأ القرآن، ويعبّر عن نفسه، ويقدم النصيحة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وجعل اللسان داخل شفتين لضبط الكلام وللتنطق بما هو نافع، وحَبَسَ اللسان عن اللغو والباطل.

١٠ - وَهَدَيْتُهُ التَّجْدِيدَ .

بيننا له طريق الخير والشر، والهدى والضلال، ليختار الخير والهدى، ويتجنب الشر والضلال.

والتَّجْدِيدُ: الطريق المرتفع، فكلاهما طريق وعر صعب، الخير والشر، يحتاج الإنسان إلى همة وعزيمة وإرادة ليختار الطريق ويثابر عليه.

«وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك طريق الخير، بل الغالب أن يكون طريق الشر أشق وأصعب وأحوج إلى الجهد» (١٠٥).

فطريق الخير متفق مع الفطرة، مع الهداية، مع طاعة الرحمن، مع الانسجام مع هذا الكون الذي خلقه الله وسجد له وسبح بحمده، وكذلك المؤمن يسبح بحمد الله، وهناك العصاة والمردة والخارجون على طاعة الله، حيث يستحقون غضب الله في الدنيا، ويستحقون العقاب في الآخرة.

قَالَ تَعَالَى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ كَذِبُوا عَلَىٰ الْعَذَابِ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

(الحج: ١٨)

تلك مَنْ أَلَّه علينا، ومن هذه المتن أن جعل الهداية والإيمان، والاستقامة والعفة والنزاهة، وفعل المأمورات واجتناب المنهيات، عن إرادة الإنسان واختياره، وربط الثواب والعقاب بالطاعة أو المعصية، فكل عامل يجزي ثمرة ما زرع في دنياه، ومن جدّ وجد، ومن زرع حصد.

جهات الخير والبر

﴿فَلَا اقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ﴾ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ اطَّعِمْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغِيَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِمَّ ذَا مَقْرِبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا بِنَاهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

المفردات:

اقتحم الشيء: دخل فيه بشدة.

العقبة: الطريق الوعرة في الجبل يصعب سلوكها، والمراد بها مجاهدة الإنسان نفسه وهواه، ومن يسؤل له فعل الشر من شياطين الإنس والجن.

فك رقبة: عتقها، أو المعاونة عليه، أو عمل الخير ليعتق رقبته من النار.

مسغبة: مجاعة.

مقربة: قرابة في النسب، تقول: فلان من ذوى قرابتي، ومن أهل مقربتي، إذا كان قريبك نسبا.

المتربة: الفقر، تقول: ترب الرجل، إذا افتقر، وأترب، إذا كثر ماله حتى صار كالثراب.

تواصوا بالصبر: نصح بعضهم بعضا به.

اليمننة: طريق النجاة والسعادة.

المشأمة: طريق الشقاء.

مؤصدة: مغلقة ومطبقة.

التفسير:

١١ - فَلَا اقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ .

هألا عمل الإنسان - الذى أنعم الله عليه بالنظر والسمع واللسان والعقل - على اقتحام عقبة الآخرة،

والانتقال إلى دائرة الناجين الداخلين الجنة.

١٢ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ .

وما أخبركم ما شأنها وعظيم أمرها، والمراد أنها شيء عظيم يستحق أن يسعى الإنسان إلى فعله، والمشاركة في أعمال الخير وهي تفسير لاقتحام العقبة.

١٣ - فَكُ رُقِيَّةٌ .

أى: إن العقبة التي يجتازها الإنسان لينتقل من أهل النار إلى أهل الجنة، تتمثل في فعل الأمور الآتية: فك رقبة، أى إعتاق الرقيق، أو المساعدة في تحريره لينتقل من العبودية إلى الحرية، وقد حث القرآن على تحرير الأرقاء، وكذلك السنة المطهرة، كما حث الإسلام على الإحسان إلى الأرقاء، وإكرامهم وحسن معاملتهم، فهم مثلنا من بنى آدم.

قال ﷺ: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يضرب الوجه ولا يُقَبِّح» (١٠٦).

١٤ - أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ مَسْجِيَةٍ .

أو تقديم الطعام للجائع المكروب المجهد، وفي الحديث الشريف يقول ﷺ: «من أطعم جائعاً أطعمه الله من ثمار الجنة». ويقول ﷺ: «من موجبات الرحمة إطعام المسلم السفبان» أى: الجائع المجهد. رواه الحاكم وصححه.

والمراد تقديم الطعام والمعونة للفقراء والمحتاجين عند المجاعة والبؤس والحاجة.

١٥ - يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ .

أى: أطعم في أيام جوع وقحط يتيمًا فقد أباه، وله صلة قرابة، فإطعمه له ثوابان أو أجران: أجر الإطعام، وأجر صلة الرحم وإكرام اليتيم.

وقد وصَّى القرآن الكريم باليتيم، وأمر بالمحافظة على ماله، وأمر برعايته وتثمين أمواله، ومخالطته بالمعروف، وحذَّر القرآن من أكل مال اليتيم.

كما جاء في السنة المطهرة الحث على إكرام اليتيم والعطف عليه، حتى ينشأ كريماً عالى الهمة، نافعا لأسرته ولأمته.

١٦ - أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ .

أو أطلعهم بماله ومعونته مسكينا تصقت بطنه بالتراب من شدة حاجته، فعاونه وساعده، ويسر له أسباب المعونة والمساعدة، حتى يقف على قدميه ويتكسب بيديه، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

والخلاصة:

إن الله أنعم على الإنسان بالنعم، فهلاً شكر الله، واقتحم عقبة الآخرة وأهوالها بالمساهمة في عتق الرقيق، أو إطعام اليتيم القريب، أو إطعام المسكين المجهد، إن هذه الأعمال ثوابها جليل في الآخرة، تبعد صاحبها من النار، وتيسر له دخول الجنة.

١٧ - ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ .

إن الأعمال السابقة لابد لقبولها من أن يكون فاعلها من المؤمنين بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، ومن الذين تواصوا بالصبر، وحث بعضهم بعضاً على الصبر، وتواصوا بالرحمة والعطف، ومد يد المساعدة للمحتاجين، وتلمح أن المؤمن مطالب بالصبر، ومطالب بالحث عليه، وتوصية الآخرين به.

قال تعالى: وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفَرٌ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ . (العصر: ١-٣)

إن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

ومن سمة الأمة المؤمنة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن المعروف: التواصي بالصبر، وطول النفس في الجهاد والكفاح، والصبر على الحلال، والبعد عن الحرام، ومن التواصي بالرحمة إنشاء الجمعيات الخيرية لإعانة المحتاجين، وكفالة اليتامى وتشغيلهم وتعليمهم، وحث الناس على التراحم.

قال ﷺ: «تري المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» (١٠٧).

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن أظلم جائئاً أظلمه الله من ثمار الجنة، ومن كسا عريانا كساه الله من اللينس الأخرى يوم القيامة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه» (١٠٨).

١٨ - أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ .

أولئك الذين آمنوا واعتصموا الرقاب، أو أطعموا اليتامى الأقارب لهم، أو أطعموا المساكين المحتاجين، هؤلاء أصحاب الميمنة، أى أصحاب اليمين فى الجنة، كما مرَّ فى سورة الواقعة أن الناس يوم القيامة ثلاثة فرق:

١ - السابقون.

٢ - أصحاب اليمين.

٣ - أصحاب الشمال.

قال تعالى: وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وظلٌّ مُمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَنَكْهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفَرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَهُمْ أُنْكَارًا * عَرَبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . (الواقعة: ٢٧-٣٨).

١٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَنَبَّهْنَ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ .

الذين كفروا بآيات الله الكونية، فى خلق الكون والسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، وكفروا بآيات الله التشريعية التى أنزلها على رسله، لدعوة الناس إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر، هؤلاء هم أصحاب الشمال الذين يدخلون جهنم، ويعذبون فيها بأشد ألوان العذاب.

قال تعالى: وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وظلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصْرُفُونَ عَلَى الْغَنِيِّ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَبْنَاءُ لِّمَبْعُوثِينَ * أَوْ بَابِأُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ . (الواقعة: ٤١-٥٠).

٢٠ - عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ .

أى: عليهم نار مغلقة، لا يستطيعون الفكاك عنها، ولا الخروج منها، وهم خالدون فى النار خلودًا أبديةً سرمديًا.

وجاء في تفسير ابن كثير:

عليهم نار مُؤَصَّدَةٌ .

أى: مطبقة عليهم، فلا محيد لهم عنها، ولا مخرج لهم منها.

قال ابن عباس: مُؤَصَّدَةٌ . مغلقة الأبواب.

وقال مجاهد: أوصد الباب: أغلقه.

وقال الضحاك: مُؤَصَّدَةٌ . حيط لا باب له.

وقال قتادة: مُؤَصَّدَةٌ . مطبقة، فلا ضوء فيها ولا فُرج، ولا خروج منها آخر الأبد.

اللهم أجرنا من النار ومن عذاب النار، آمين.

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الشمس

أهداف سورة الشمس

(سورة الشمس مكية ، وآياتها ١٥ آية ، نزلت بعد سورة القدر)

وهى سورة قصيرة ذات قافية واحدة ، وإيقاع موسيقى واحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التى تبدأ بها السورة ، والتى تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التى تتضمنها السورة ، حقيقة النفس الإنسانية واستعدادها الفطرى ، ودور الإنسان فى شأن نفسه ، وتبعته فى مصيرها .. هذه الحقيقة التى يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

«كذلك تتضمن قصة ثمود وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهى نموذج من الخيبة التى تصيب من لا يزكى نفسه ، فيدعها للفجور»^(١٠٠) ، ولا يلزمها تقواها ، كما جاء فى الفقرة الأولى من السورة : **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** . (الشمس : ٩ ، ١٠) .

مع آيات السورة

لله تعالى كتابان : كتاب مقروء وهو القرآن الكريم ، وكتاب مفتوح وهذا هو الكون العظيم ، ومشاهد الكون تأسر القلب ، وتبهج النفس ، وتوقظ الحس ، وتنبيه المشاعر .

«ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب فى شتى المواضع ، تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية ، كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطاراً لما يليها من الحقائق»^(١٠١) .

١ - أقسم الله بالشمس ، وينورها الساطع فى وقت الضحى ، وهو الوقت الذى يظهر فيه ضوء النهار ، ويتجلى نور الشمس ، ويعم الدفء فى الشتاء ، والضياء فى الصيف ، قبل حر الظهيرة وقيلظها .

٢ - وأقسم الله بالقمر إذا جاء بعد الشمس ، بنوره اللطيف الهادئ الذى يغمر الكون بالضياء والأنس والجمال .

٣ - وأقسم بالنهار إذا أظهر الشمس وأتم وضوحها ، ولنهار فى حياة الإنسان آثار جليلة ، ففيه السعى والحركة والنشاط .

٤ - وأقسم الله بالليل إذا غشى الكون ، فغطى ظلامه الكائنات ، وحجب نور الشمس وأخفاه .

٥ - وأقسم الله بالسماء ومن قدر خلقها ، وأحكم صنعها على النحو الذى نشاهده .

٦ - وأقسم الله بالأرض ، والذى بسطها ومهدا للسكنى .

لقد جمع القسم بين ضياء الشمس ونور القمر ، وضوء النهار وظلام الليل ، وارتفاع السماء ويسط الأرض ، وتلاحظ فى هذا القسم المقابلة بين النور والظلام ، وبين السماء والأرض ، مما يلفت النظر إلى بديع صنع الله ، وجليل وحيه وإعجاز كتابه .

٧ - ١٠ - وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ نَفْسٍ وَهْوَ سَوْدِيٌّ * فَأَلْهَمَهَا فُجُوزَهَا تَقْوًى * وَأَنَّا نَفُتِّحُهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

خلق الله الإنسان مزودا باستعدادات متساوية للخير والشر والهدى والضلال ، فهو قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر .

لقد خلق الله الإنسان بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وزوده بالعقل والإرادة ، والحرية والاختيار . وقد بين الله للإنسان طريق الهدى وطريق الضلال ، وأودع فى النفس البشرية أصول المعرفة ، والتمييز بين الحق والباطل ، فمن حمل نفسه على الاستقامة وصانها عن الشر فقد رزق الفلاح والساد ، ومن أهمل نفسه واتبع شهواته ، وأرعى العنان لنزواته فقد خاب ، لأنه هوى بنفسه من سمو الطاعة إلى حضيض المعصية .

١١ - ١٥ - كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَغُتْرُوا * فَذَمْنَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا .

ذُكرت قصة ثمود فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وقد ذكر هنا طغيانها وعتوها على أمر الله ، وقد أعطى الله نبيهم صالحاً الناقة آية مبصرة ، فكانت تشرب وحدها من الماء فى يوم ، وتحلب لهم لبناً يكفيهم جميعاً فى ذلك اليوم ، ثم يشربون من الماء فى اليوم التالى ، وقد حذرهم رسول الله صالح من الإساءة إلى الناقة ، ولكنهم خالفوا أمره ، وذهب شقى منهم فعقر الناقة ، ولما سكتوا عنه صاروا كأنهم قد اشتروا معه ، لأنهم أهملوا التناصح ، ولم يأخذوا على يد الظالم : فَذَمْنَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . فأتى الله القبيلة بالأرض ، أى دمر مساكنها على ساكنيها .

وَلَا يَخَافُ عُقْبَتَهَا . أى أن الله أهلك القبيلة دون أن يخشى عاقبة ما فعل ، لأنه عادل لا يخاف عاقبة ما يفعل ، قوى لا يخاف أن يناله مكروه من أحد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

مقاصد السورة

- ١ - القسم بالشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض والنفس ، على أن من طهر نفسه بالأخلاق الفاضلة فقد أفلح وفاز ، ومن سلك طريق الهوى والغواية فقد خاب وشقى .
- ٢ - ذكر ثمود مثلاً لمن دسى نفسه فاستحق عقاب الله .



جزاء إصلاح النفس وإهمالها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَرَاهَا ⑥ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ⑩﴾

المفردات :

ضحاها : ضحى الشمس ضوءها .

تلاها : جاء بعدها .

جلاها : أظهرها .

يغشاه : يغطيها ويحجب نورها .

طراها : وطأها وجعلها فراشا .

دساها : التدسية : النقص والإخفاء .

التفسير :

١ - وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا .

أقسم بالشمس التى تملأ الكون بالنور والضياء والدفء ، وتمد الكون بأشعتها ، وتساعد فى نمو الإنسان والحيوان والنبات والمخلوقات ، وأقسم بالضحى حيث تكون الشمس مشرقة دافئة فى الشتاء ، متوسطة الحرارة فى الصيف ، فهما قَسَمَان :

الأول : قَسَمُ الشمس .

الثاني : قَسَمَ بالضحى .

وقد شرعت صلاة الضحى كشكر لله على نعمه ، فى إمداد الكون بالنور والضوء ليعمل الناس ويبحثوا عن أسباب الرزق .

٢ - وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا .

وأقسم بالقمر إذا جاء بعد الشمس ، خصوصاً عندما يكون بدرًا كاملاً ، فى الليالى البيض التى يشهد نور القمر فيها ، حتى يصبح الليل نوراً أبيض ، وهى لىالى الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر من الشهر العربى ، ومن السنَّة صيام الأيام البيض كشكر لله على هذه النعمة ، نعمة اكتمال القمر ، واتساع نوره ، وقوة ضيائه ، وجمال لونه ، وقوة إضاءته ، وعظيم مناجاته ، كأنما القمر دليل لعشاق الكون وعشاق الطبيعة ، حيث يتأملون فى هذا الجمال الذى لا نهاية له ، فسبحان الخلاق العظيم .

قال تعالى : وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ . (الانشقاق : ١٧ ، ١٨) .

أى : وأقسم بالقمر إذا تكامل نوره وصار بدرًا كاملاً .

٣ - وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىهَا .

وأقسم بالنهار إذا طلع ، وملاً النور الكون ، وجلَّى الشمس وأظهرها كالعروس فى السماء ، حيث تظهر الشمس ما فى هذا الكون من نبات وحيوان وإنسان ، وبحر ونهر وظل ، لتكون عوناً للإنسان فى التعرف على ما فى هذا الكون العظيم .

٤ - وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا .

وأقسم بالليل الذى يُغْطِى الكون ، ويغشى ظلامه الكائنات فيسترها ويغطيها ، ويغشاها فيمتد الظلام ، ويهيج الناس ، وتسكن الجوارح ، وتنام العيون ، ويكون الليل فرصة للهدوء والسكن ، والنوم وراحة الأعصاب ، ولو استمر النهار لتعب الناس وكُلَّت الجوارح ، وصعب النوم المريح المستقر ، ولو استمر الليل لتعطلت المصالح وملَّ الناس من الظلام .

قال تعالى : وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْتُ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (القصص : ٧٣) .

ومن رحمة الله أنه لم يجعل الليل دائماً ، ولم يجعل النهار دائماً ، بل جعل الليل ليسكن فيه الناس ، وجعل النهار ليعمل الناس ويبحثوا عن أسباب الرزق ، ولعلَّ الناس أن تدرک فضل الله عليها فى تعاقب الليل

والنهار ، والشمس والقمر ، والظلام والنور ، فيشكروا الله على تسخير هذا الكون بهذا الجمال وذلك الإبداع .

٥ - وَالسَّمَاءُ وَمَا بَيْنَهَا .

أى : وأقسم بالسماء وبالله الذى رفعها وأحكم بناءها ، وجعلها سقفا محفوظا ، مرتفعا ممتدا ، ليس به خلل ولا اضطراب ، بل به الإحكام وقوة البناء والتماسك ، فى نظام الشمس والقمر والكواكب والبروج ، وحركة النجوم ومواقعها ، بحيث لا يحدث اضطراب أو خلل ، بل كل فى فلكه يسبحون ، كل ذرة ومجرة ، كل موجود قد أخذ طريقه ، فالشمس والقمر والفضاء والهواء ، والملائكة والنجوم والكواكب والمجرات والبروج ، وكل كائن قد عرف طريقه ، وأحكم الله خلقه ، وقدره تقديرا وأبدعه إبداعا ، مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ... (الملك : ٣) .

٦ - وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَنَهَا .

وأقسم بالأرض وبالله الذى طحاها ، أى بسطها وذللها ، ويسر فيها أرزاقها ، سواء كان ذلك بالزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياحة ، وغير ذلك مما فيه استغلال ظاهر الأرض ، أو باستخراج المياه الجوفية والبترويل والكنوز والحديد ، وسائر ما يستفاد به من باطن الأرض ، فإله يقسم بالأرض ، وبالله الذى خلقها وذللها ، وقدر فيها أقواتها وأرزاقها ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

٧ - وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا .

وأقسم بالنفس البشرية ، وهى نفس آدم عليه السلام ، وبالله تعالى الذى خلقه وسواه ، أو أقسم بكل نفس مخلوقة ، وبالله الخالق الذى أبدع النفس البشرية على غير مثال سابق ، فزود الإنسان بالعقل والإرادة والاختيار ، والقدرة على اختيار طريق الخير أو طريق الشر .

كما قال سبحانه : وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . (البلد : ١٠) .

وقال عز شأنه : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

٨ - فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا .

فأودع فيها أسباب الفجور وأسباب التقوى ، بأن خلق الإنسان مزوداً بالقوة والطاقة ، والقدرة على اختيار الفجور ، أو اختيار التقوى ومراقبة الله ، وطاعة أمره واجتناب نواهيه .

٩ ، ١٠ - قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا .

هناك رأيان في تفسير هذه الآية :

الرأى الأول : إنها جواب القسم ، أى : أقسم بالشمس والقمر ، والنهار والليل ، والسماء والأرض والنفس ، لقد أفلح من زكَّى نفسه وطهرها ، وسما بها إلى الخير ، وحبسها عن الشر ، فأطاع الله والتمزم بالصيام والصلاة وسائر الطاعات ، وابتعد عن الخمر والربا والزنا وسائر المحرمات ، ولقد خاب من غس نفسه فى الشهوات والملذات وسائر المعاصي ، فهبط بنفسه إلى الحضيض .

ومعنى : دَسَّاهَا . تقصها وغمسها وأخفاها بالفجور ، لقد أذل نفسه وغمسها بالفجور ، وسترها بالمعاصي ، فعجزت عن التطلع إلى المألى الأعلى ، وارتكست فى أنواع الشهوة والشور ، أى أن بيد الإنسان أن يسمو بنفسه إلى الخير ، وأن يهبط بها فى مستنقع الرذيلة ، والله تعالى يَقْسِمُ بمخلوقاته ويمن خلقها وهو الله عز وجل ، على أن الفلاح لمن زكَّى نفسه وطهرها ، وأن الخيبة لمن دسَّى نفسه ، وحجبها عن الطهر والنور والتعلق بجلال الله العلى الكبير .

الرأى الثانى : هذه الآية ليست جواب القسم ، وإنما ذكرت استطراداً للقسم بالنفس ويمن سواها ، وجواب القسم محذوف ، دل عليه ما بعده وهو : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إلى آخر السورة .

وتقدير الجواب : لتبغثن ، أو لتكافون على الإحسان إحساناً ، وعلى السوء سوءاً ، أو ليؤمذن الله على الظالمين فى الدنيا ، وليعاقبهم يوم القيامة ، كما فعل بثمود حين عقرت الناقة وعتت عن أمر ربها .

قال المفسرون :

وفى القسم بهذه الكائنات حث للإنسان على التأمل فى هذا الكون ، والتطلع إلى بديع صنع الله فى خلق الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض والنفس .

قصة ثمود

﴿كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَحَسَّوْنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

المعردات :

ثمود : قوم من العرب البائدة ، بعث الله إليهم نبيه صالحاً عليه السلام .

بطغواها : بطغيانها .

أنبئت : قام بعقر الناقة .

أشقاها : أشقى رجل في قوم ثمود ، وهو قدار بن سالف .

سقاها : شربها الذي اختصها به في يومها .

فعقروها : فذبحوها ، والعاقرة واحد ونُسب إليهم جميعهم لرضاهم به .

دمدم عليهم : أطبق عليهم بالعذاب .

سواها : فسوى القبيلة في العقوبة ، فلم يفلت منها أحد .

عقباها : عاقبة الدمدمة وتبعتها .

تمهيد :

ثمود هم قوم نبي الله صالح عليه السلام ، من العرب البائدة ، أعطاهم الله الناقة آية مبصرة ، تشرب في يوم وحدها ، فترويههم جميعاً باللين ، ويشربون هم ماء التهور في يوم آخر ، وقد حذرهم نبي الله صالح من العدوان على الناقة ، أو على الماء الذي خُصص لها في يوم معين ، وحذرهم أن العذاب سينزل بهم إذا خالفوا أمر الله .

التفسير :

١١ - كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا .

هذا ملخص لقصة ثمود ، ذكرها القرآن بمناسبة أن الله ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأن ثمود قد اختارت الفجور فأهلكها الله ، وفي هذا تحذير لأهل مكة ولكل باغٍ إلى يوم الدين .

ومعنى الآية :

كذبت ثمود نبيها ، وعصت ربها بسبب طغيانها وعتوها ، وأنهم تجاوزوا الحد في الطغيان والكفر ، فطغيانهم حملهم على تكذيب رسولهم ، وتفضيل الكفر على الإيمان ، والضلال على الهداية ، وقد يسر الله لهم أسباب الهداية على لسان نبيهم ، وأكد ذلك بمعجزة الناقة ، حيث تحلب لبناً سائغاً للشاربين ، يكتفى قبيلة ثمود من أولها إلى آخرها ، لكنهم بدل أن يشكروا هذه النعمة ، حملهم الطغيان على الكفر وقتل الناقة .

١٢ - إِذْ أَنْجَبْتَ أَشْقَلَهَا .

سار رجل من ثمود ، عزيز فيهم منيع ، متفوق في منزلته الاجتماعية ، وفي قدرته على الشر والإثم ، فحرّضوه على الشر .

قال تعالى : فَأَذَوُا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ . (القمr : ٢٩) .

١٣ - فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا .

أى : قال لهم رسول الله صالح : هذه ناقة الله ، أى معجزة من الله لكم ، فحافظوا عليها وعلى نصيبها من الماء ، فلها يوم تشرب فيه وحدها ماء النهر ، ولكم يوم ثانٍ تشربون فيه ماء النهر وحدكم ، واليوم الذى تشرب فيه الناقة تعطيك جميعاً لبناً يكفيكم من أولكم إلى آخركم ، ونصحهم النبی صالح بالمحافظة على الناقة ، وعلى حقها فى شرب ماء النهر فى يوم ، ونصحهم بألا يتعرضوا للناقة بأى أذى حتى لا يصيبهم العذاب الأليم .

قال تعالى : وَيَقْرَأْهُمْ هَلْ يَدْرِى نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَلَزَوْهَا تَأْكُلُ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ . (مود : ٦٤) .

وقال عز شأنه : قَالَ هَلْ يَدْرِى نَاقَةُ لَهَا هِرْبٌ وَلَكُمْ هِرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ . (الشعراء : ١٥٥ ، ١٥٦) .

١٤ - فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَذَمَّتْهُمْ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا .

لقد كذبوا نبيهم ، وعقروا الناقة بدون أن يحسبوا بأى ندم أو تأنيب ضمير ، فعاقبهم الله وسوى عليهم الأرض ، وكلمة ذَمَّتْهُمْ كلمة معبرة حيث سوى الله بهم الأرض ، ورفع عليهم الهدم والتراب ، حين صاح بهم المَلَكُ صيحة أهلكتهم ، فماتوا تحت التراب والهدم ، وسويت بهم الأرض .

١٥ - وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا .

إنه إله قادر عادل ، قوى متين ، فعّال لما يريد ، فحين يعاقب ظالمًا ويسوى به الأرض ، ويجعله مالكًا تحت التراب ، فإن الله تعالى لا يخاف عاقبة ذلك .

أولاً : لأنه عادل غير ظالم ، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . (فصلت : ٤٦) .

ثانياً : لأنه قوى غالب لا يغلبه غالب ، وهو عزيز ذو انتقام .

قال تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . (البروج : ١٢) .

تفسير سورة الليل

أهداف سورة الليل

(سورة الليل مكية ، وآياتها ٢١ آية ، نزلت بعد سورة الأعلى)

وتصف السورة مشاهد الكون ، ومظاهر القدرة ، وتقرر حقيقة العمل والجزاء ، وتبين أن الجزاء الحق من جنس العمل .

ونلاحظ في السورة التقابل بين الليل والنهار ، والذكر والأنثى ، ومن أعطى واتقى ومن بخل واستغنى ، وبين الأشقى الذى كذب وتولى والأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى ، وهذا من بدائع التناسق فى التعبير القرآنى .

مع آيات السورة

١ - ٤ - وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ .

يقسم الله سبحانه وتعالى بالليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها ، وبالنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر فى تجليه كل شئ ويسفر .

ويقسم بالقادر العظيم الذى خلق الذكر والأنثى ، ويميز بين الجنسين مع أن المادة التى تكوّننا منها واحدة ، والمحل الذى تكونا فيه واحد .

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة فى الكون وفى الناس ، على أن سعى الناس مختلف ، وعلمهم متباعد ومتفرق ، فمنه السيئ ومنه الحسن ، ومنه التقوى ومنه الفجور ، ومنه ما يجازى عليه بالنعيم المقيم ، ومنه ما يعاقب عليه بالعذاب الأليم .

١١ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ .

فأما من أعطى الفقراء ، وأنفق المال فى وجوه الخير ، وراقب الله وابتعد عن المحرمات ، وأيقن أن الله سيُخلف عليه ما أنفق ، مصداقاً بالفضيلة ، ومميزاً بينها وبين الرذيلة ، وابتعد عن طريق

الغواية ، فَمَسِيرُهُ لِلْيَسْرِ . فسنجعل اليسر يفيض من نفسه على كل ما حوله ، وعلى كل من حوله ، اليسر فى خطوه ، واليسر فى طريقه ، واليسر فى تناوله للأمور كلها ، والتوفيق الهادئ المطمئن فى كلياتها وجزئياتها .

وأما من يخل بماله ، واستغنى عن ربه وهواه ، وكذب بالدين الحق ، ولم يصدق بأن الله سيُخلف على المنفقين ، وسيجزى المحسنين ، فَمَسِيرُهُ لِلْعُسْرِ . فيسلب الله منه الهدى واليسر ، ويحرمه كل تيسير ، ويجعل فى كل خطوة من خطاه مشقة وحرَجًا ، ينحرف به عن طريق الرشاد ، فإذا تردى وسقط فى نهاية العثرات والانحرافات لم يقن عنه ماله الذى يخل به ، والذى استغنى به كذلك عن الهدى والسداد .

١٢ - إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . أى : إنا خلقنا الإنسان وألهناه التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، ثم أرسلنا له الرسل ، وأنزلنا له الكتب لترشده إلى الهداية والإيمان .

١٣ - وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى . وإنا المالكون لكل ما فى الآخرة ولكل ما فى الأولى ، فأين يذهب من يريد أن يذهب بعيداً عن الله ؟

١٤ ، ١٥ - فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْقَى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . وإن من هداية الله للبشر ، أن خوفنا رسوله الكريم محمد ﷺ نارا تلقى : تتسع وتشتد ألسنة لهبها ، هذه النار لا يقاسى حرها إلا أشد الناس شقاوة ، وهو الكافر .

١٦ - الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . الذى كذب بالدعوة ، وكذب الرسول ﷺ فيما جاء به عن ربه من الآيات ، وأعرض أيضاً عن اتباع شرائعه ، وانصرف عن الحق دون دليل يستند إليه ، حتى صار التكذيب والإعراض أبرز أوصافه .

١٧ - ٢١ - وَسُجِّنَهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ... وسيبعد عن النار من اتقى الله ، وابتعد عن الموبقات ، والذى ينفق أمواله فى وجوه البر ، طالباً بذلك طهارة نفسه وقربها من ربه ، ولا يريد بذلك رياء على معروف ، وإنما يقدم الخير ابتغاء مرضاة الله ، وحباً فى ذاته سبحانه ، وسوف يرضى من فعل ذلك بأحسن ثواب ، فى أفضل مكان وفى أحسن جوار .

رَوَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ يَبْلُلَ بِنَ رِيحٍ - وَكَانَ مَوْلَى لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ - دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَكَانَ سَيِّدُهُ يَعْذِيبُهُ ، وَيُخْرِجُهُ إِلَى الرِّمَاءِ

فى حر الظهيرة ، ويضع الحجر على بطنه ، ويقول له : لا تزال كذلك حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فلا يزيد بلال على أن يقول : أحد أحد ، وكان رسول الله ﷺ يمر به وهو يُعَذِّب فيقول له : «ينجيك أحد أحد» ، ثم أخبر رسول الله ﷺ أبا بكر رضى الله عنه بما يلقي بلال فى الله ، فاستتره أبو بكر وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله تعالى : وَسُجِّنَهَا الْأَتَقَى... إلى آخر السورة .

مقاصد السورة

١ - بيان أن الناس فى الدنيا فريقان :

(أ) فريق يهيئه الله للخصلة اليسرى ، وهم الذين أعطوا الأموال لمن يستحقها ، وصدقوا بما وعد الله من الإخلاق على من أنفق .

(ب) وفريق يهيئه الله للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة ، وهم الذين بخلوا بالأموال ، واستغنوا بالشهوات ، وأنكروا ما وعد الله به من ثواب الجنة .

٢ - الجزء فى الآخرة من جنس العمل ، فالأشقى له النار ، والأتقى له الجنة والرضوان .

اختلاف معنى الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَلِيلٌ إِذَا يَفْشَى ① وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ فَأَمَّا مَنْ ⑤
 أُعْطِيَ الْإِنْفَى ⑥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑦ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ⑧ وَأَمَّا مَنْ يُخِلُّ ⑨ وَاسْتَفْتَى ⑩ وَكَذَّبَ ⑪
 بِالْحُسْنَى ⑫ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑬ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑭﴾

المفردات :

يفشى : يغطي كل شيء فيؤاريه بظلامه .

تجلى : ظهر وانكشف بظهوره كل شيء .

وما خلق : والذي خلق .

شَتَّى : واحدا شتيت ، وهو المتباعد بعضه عن بعض .

أعطى : بذل ماله .

اتقى : خاف عذاب الرحمن واجتنب المحارم .

الحسنى : بالكلمة الحسنى ، وهى مؤنث الأحسن .

سنييره : فسنيته .

ليسرى : ليسر والسهولة .

للعسرى : للعسر والعنت والمشقة .

تردى : هلك ، وهو تفعل من الردى .

التفسير:

١، ٢، ٣ - وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى .

أقسم بالليل حين يغطي بظلامه كل ما كان مضيئاً ، حيث يأوى كل حيوان إلى مأواه ، ويسكن الخلق عن الاضطراب والضرب في الأرض ، ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم .

وأقسم بالنهار إذا تجلّى وظهر وانكشف ووضح لزوال ظلمة الليل ، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وتتحرك الطير من أوكارها ، والهوام من مكانها .

وأقسم بالله الذي خلق الذكر والأنثى من كل نوع وجنس ، وجعل استمرار الحياة متوقفاً على ذلك ، فالإنسان والحيوان والنبات والسحاب وغير ذلك ، يتوقف استمرار الحياة في جنسه على التلقيح بين الذكر والأنثى .

قال تعالى : وَخَلَقْنَكُمْ أَزْوَاجًا . (النبا: ٨) .

وهدى الله الرجل والمرأة للتلاقى والتواصل والإنجاب ف سبحانه الذي ، أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَى . (طه: ٥٠) . ومثل ذلك بين الحيوان ، وفي النبات نجد الرياح والحشرات يتم عن طريقها التلقيح بين الذكر والأنثى ، وكذلك السحاب تقوم الرياح بتلقيح السحابة السالبة بسحابة موجبة ، فيتم الإخصاب وينزل المطر .

قال تعالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَنُزِّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ . (الحجر: ٢٢) .

٤ - إِنْ سَأَلْتَهُمْ لَشَيْءٍ .

هذا هو جواب القسم ، أى : إن أعمال العباد مختلفة متباعدة ، فمن فاعل خيراً ، ومن فاعل شراً ، وبعض الأعمال ضلال ، وبعضها هدى ، وبعضها يوجب الجنة ، وبعضها يوجب النار ، كما أن أعمال الناس مختلفة ومتعددة في الدنيا ، فمنهم الصانع ومنهم الزارع ، ومنهم الطبيب المداوى ، والمعلم والمهندس ، والباحث والمحارب ، والعاملون في شئون الحياة المختلفة ، حتى يشعروا جميعاً أن كل واحد منهم في حاجة إلى الآخر ، ليتم التعاون ، ويتخذ بعضهم بعضاً سخرى .

قال القرطبي :

السعى : العمل ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها ، يدل عليه قوله ﷺ : «الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فمويقها»^(١١٩) .

ونحو الآية قوله تعالى : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . (الجاثية : ٢١) .

وقوله تعالى : لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ . (الحشر : ٢٠) .

ثم وضع الله تعالى عاقبة المتقين وعاقبة الكافرين ، فقال :

٥ - فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى .

أي : أعطى ماله في جهة الخير والبر والزكاة والصدقة ، واتقى الله فابتعد عن المحرمات والشبهات ، وفعل المأمورات .

قال ابن كثير : أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله في أموره .

٦ - وَصَلَّقَ بِالْحُسْنَى .

وصدق بالجنة التي أعدّها الله للأبرار ، وأيقن بكلمة التوحيد وهي : (لا إله إلا الله) أو بعملة الإسلام ، أو صدق بالجزاء الأوفى من الله على كل خير ، وكلمة الحسنى تقسم لتشمل كل خصلة حسنة ، إذ كلها ترجع إلى ثواب الله الذي هو الجنة .

٧ - فَسَيَسَّرُهُ لِّلْيَسْرَى .

فسنوفقه للأمور الميسرة ، ونهيئّه لعمل الخير ، وفعل الطاعات وترك المحرمات .

والخلاصة : أن من التزم بأوامر الله وطاعته ، فإن الله ييسر له الخير والفلاح ، ويمنحه الرضا والتوفيق ، فتراه يسير في طريق العمل الصالح ، بعيداً عن المعاصي ، ميسراً لطريق الجنة .

قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة : ٨) .

٨ - وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى .

وأما من بخل بإنفاق المال ، واستغنى عن عبادة ذي الجلال .

قال الأستاذ أحمد المراغى فى تفسيره :

وأما من أمسك ماله ، أو أنفقه فى شهواته ، ولم ينفقه فيما يقرب من ربه ، وخدعته ثروته وجاهه ، فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد . اهـ .

٩ - وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى .

وكذب بالدين الحق ، ويأن الله يخلق على المنفقين ، ويعاقب الأشقاء الباخلين .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : «ما من يوم يصبح العباد فيه ، إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (١١٦) .

١٠ - فَسْتَيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى .

أى : نمنعه من التوفيق والهدى والرغبة فى الخير ، فتكون الطاعات أعسر شئ عليه ، ويكون طريق الشر ميسوراً بين يديه .

كما قال تعالى : وَلَقَدْ أَفْضَيْتُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ ... (الأنعام : ١١٠) .

قال ابن كثير :

والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل يجازى من قصد الخير بالتوفيق ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدّر .

والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة ، منها ما رواه البخارى ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار» ، فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ، ثم قرأ : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى (١١٧) .

١١ - وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .

ماذا ينفعه المال إذا وقع فى الهلاك والردى ، وعوقب على بخله وكفره بالنار ، سترك المال لورثته ، وينتهى بالموت بخيلاً كافراً إلى النار ويئس المصير .

قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وِرَاءَ ظُهُورِكُمْ ... (الأنعام: ٩٤).

لقد خلق الله الإنسان ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وأرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب ، فمن صدّق بالآخرة وعمل لها ، يسر الله له طريق الخير ، ومن كذب بالآخرة ولم يعمل لها ، واستغنى عن الإيمان وكفر بالله ، يسر له طريق الشر ، ولن ينجيه المال الذي تركه في الدنيا إذا سقط في جهنم .

قال تعالى: وَتَرْتَهُمْ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا . (مريم: ٨٠) .

إنما الذي ينفع الإنسان هو ما يقدمه في الدنيا من الإيمان وإخراج الزكاة والصدقة ، وفعل الطاعات وترك المحرمات .

قال ﷺ: «أَيْكُمْ مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قلنا: يا رسول الله ، كل واحد منّا ماله أحب إليه من مال وارثه . فقال ﷺ: «فإن مالك ما قُدِّمَتْ ، ومال وارثك ما أُخِّرَتْ»^(١١) .

★ ★ ★

الاشقى والأتقى

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۖ وَإِنَّ لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۚ﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴿

المضردات :

تَلَظَّى ، أصله تَلَظَّى ، أى : تتوقد وتلتهب .

لا يَصْلَاهَا ، لا يحترق بها .

الْآتِقَى ، من هو أشد شقاء من غيره .

كَذَّبَ ، كَذَّبَ الرسولَ فيما جاء به عن ربه .

تَوَلَّى ، أعرض عن طاعة ربه .

يَتَزَكَّى ، يتطهر .

تجزى، تجازى وتكافأ.

التفسير:

١٢ - إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ .

إن علينا - بمقتضى حكمتنا ورحمتنا بعبادنا - أن نبين لهم طريق الحق وطريق الباطل ، بواسطة رسلنا وكتبنا ، وما أودعناه فى فطرة كل إنسان من أسباب الهداية .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . (الإنسان : ٣) .

وقال تعالى : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ... (الكهف : ٢٩) .

فمن أراد الهدى وسلك سبيل الرشd ، أعانه الله بتوفيقه وسداده وأمدّه بمعونته ، ومن أراد الضلال والشهوات والمحرمات ، سلب الله عنه الهدى وتركه ضالاً .

ويكون معنى الآية :

إن من مقتضى حكمتنا أن نيسر أسباب الهدى للبشر ، فمن اختار طريق الهدى أعناه عليه ، ويسرنا له اليسرى ، ومن أقر الضلالة سلطنا عنه أسباب الهدى ، ويسرناه للعسرى ، أى للنار ويثس المصير .

وهذا معنى الحديث : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، إن الله تعالى يقول : فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ .

١٣ - وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ .

أى : لنا فى الدنيا والآخرة ، فمن طلبهما من غير الله فقد أخطأ الطريق ، حقاً ... مسكين من ضل طريقه وعصى ربّه ، وأطاع هواه واتبع شيطانه ، وهو نفسه ملك لربّه ، إذ الخلق والأمر بيده ، والعتاء والمنع لا يملكه أحد سواه ، وهذا الكون كله تحت تصرفه وقدرته .

وفى يوم القيامة ينادى المنادى : لَمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ؟ فيكون الجواب : لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . (غافر : ١٦) .

قال تعالى : مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ . (الغاشية : ٤) .

١٤ - فَأَنْذَرْنَكُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ .

فحذرتكم نار الآخرة التي تنوهج وتتوقد ، ويأكل بعضها بعضا ، وهي تتلمظ شوقاً إلى العصاة الكافرين .

١٥ - لَا يَصْلَحُهَا إِلَّا الْأَشْقَى .

لا يُعَذَّبُ بين طبقاتها إلا الكافر الذي باع الهدى ، واشترى الضلال والإعراض عن طريق الله .

١٦ - الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى .

الذي كَذَّبَ رسالة الأنبياء ، وكفر بالله ، وأعرض وأدبر عن طاعة الله وتجنّبها ، هؤلاء الكفار يصطلون بنار جهنم ، ويعذبون بين طبقاتها ، وتغشاهم النار من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

قال تعالى : لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... (الزمر: ١٦) .

أما المؤمنون العصاة فلا يُعَذَّبُونَ بين طبقات جهنم ، بل يُعَذَّبُونَ على وجهها في الطبقة الأولى عذاباً دون عذاب الأشقياء من الكافرين .

١٧ - وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى .

وسيتبعد الأتقياء عن جهنم ، فيمرون عليها ولا يدخلون فيها ، بل يشاهدونها فقط ، ليزدادوا شكراً لله على نجاتهم .

كما قال تعالى : فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . (ال عمران: ١٨٥) .

وقال تعالى : وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا . (مريم : ٧١ ، ٧٢) .

١٨ - الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى .

الذي يعطي ماله للفقراء والمساكين ، ويصرفه في جهات الخير والبر ، وعق الرقاب ومساعدة المحتاجين ، رغبة في التطهر من الذنوب والتقرب إلى علام الغيوب ، فهو يعمل القربات مع الإخلاص والبعد عن الرياء والنفاق .

١٩ - وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى .

ليس لأحد عنده من يرأو معروف فيجازيه عليه ، بل عمل وجوه الخيرات تقريباً إلى الله تعالى .

قال المفسرون :

نزلت الآيات في حق أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، حين اشترى بلالاً وأعتقه في سبيل الله ، فقال المشركون : إنما فعل ذلك ليلر كانت لبلال عنده ، فنزلت .

٢٠ - إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى .

أى : إنه فعل ما فعل من القربات ابتغاء مرضاة الله تعالى والدار الآخرة .

وفى معنى الآية قوله تعالى : إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . (الإنسان : ٩) .

٢١ - وَلَسَوْفَ يَرْضَى .

ولسوف يرضى عنه الله جزاء إخلاصه وتطوعه بعمل الخير من أجل مرضاة الله ، فقد وعده الله بأن يرضى عنه .

وقيل : إن المعنى : ولسوف يعطيه الله فى الآخرة ما يرضيه ، وهو وعد كريم من رب رحيم ، والمؤمن الصادق راضٍ عن الله تعالى ، والله تعالى راضٍ عنه .

قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ... (البينة : ٨) .

وقال عز شأنه : يَتَابَعْتَهَا أَنْفُسُ الْمُطْمَئِنَّةِ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِلْدِي * وَادْخُلِي

جَنَّتِي . (الزجر : ٢٧ - ٣٠) .

(تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الليل) .

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الضحى

أهداف سورة الضحى

(سورة الضحى مكية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة الفجر)

وسورة الضحى بموضوعها وتعبيرها ومشاهدها ، لمسة من حنان ، ويد حانية تسمح على الآلام والمواجع ، وتسكب الرضا والأمل ، إنها كلها خالصة للنبي ﷺ ، كلها نجاة له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين .

ورد فى روايات كثيرة أن الوحى فَنَزَّ عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريل عليه السلام ، فقال المشركون : إن إله محمد ودَّعه وقلاده . عندئذ نزلت هذه السورة ، نزل هذا الفيض من الود والحب ، والرحمة والإناس والقربى ، والطمأنينة واليقين .

وَالضُّحَى . أى : وحقَّ الضحى ، وهو وقت ارتفاع الشمس ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . أى : سكن ، والمراد سكن الناس والأصوات فيه . أقسم الله بالضحى الرائق الذى ينتشر فيه الضوء والنور وتخف فيه حدة الشمس ، وأقسم بالليل الساكن الهادئ ليربط بين القسم وجوابه وهو : مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . ما تركك ربك ولا جفاك كما زعم المشركون ، وهو ربك وراعيك وكافلك . وللدار الآخرة خير لك من هذه الدنيا ، وسوف يعطيك ربك من الكمالات ، وظهور الأمر ، وبقاء الذكر ، ما يجعلك ترضى .

وضمَّ الإله اسم النبى إلى اسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه لِيُحْيِيَهُ فذو العرش محمود وهذا محمد

ويمضى سياق السورة يذكّر الرسول ﷺ بنعم الله عليه : أَلَمْ يَجْعَلْ لَّيْسَ مَا قَرَأَ . أى : فأواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبى طالب ، وهو على غير دينك .

ولقد كنت ضالاً غير عالم بمعالم النبوة وأحكام الشريعة ، متحيراً لا تجد طريقاً واضحاً مطمئناً ، لا فيما عند أهل الجاهلية ، ولا فيما عند أتباع الأنبياء حيث إن هؤلاء الأتباع حرقوا وبدلوا ، ثم هداك الله بالأمر الذى أوحى به إليك ، وعلمك أحكام الشريعة والرسالة ، ولقد كنت فقيراً فأغناك الله بكسبك ، وبمال خديجة ، وبما أنعم عليك من الريح فى التجارة .

وبمناسبة ما ذكره الله من النعم ، يوجه الرسول ﷺ ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعم الله التى لا تحصى ، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . أى : فلا تغلبه على ماله لضغفه فتسلبه إياه ، وأما السائل فلا تزجره . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ . وحَدَّثَ الناس بما عندك من علم ، بسبب إنعام الله عليك بالنبوة ، وَكَنْ هَادِيًا دَانِمًا إلى طريق الفوز والغلاح .

والتحدث بالنعمة صورة من صور الشكر للمنعم ، يكملها البر بالعباد ، وهو المظهر العملى للشكر ، ولذلك يقول أبو حامد الغزالى : شكر النعمة هو استغلالها فيما خلقت له .

فشكر نعمة البصر : التأمل فى ملكوت السماوات والأرض ، وغض البصر عن المحرمات .

وشكر نعمة السمع : سماع الحق والعلم والقرآن ، والامتناع عن سماع الزور والإثم .

وشكر نعمة اليد : أن تكتب بها العلم والحق ، وأن تساعد بها ، وأن تضرب بها فى سبيل الله ، وأن تجاهد أعداء الدين ، وألا تؤذى بها أحداً من المستضعفين .

ونلاحظ أن البيئة العربية فى الجاهلية كانت تجحد حقَّ الضعيف ، وتهمل اليتيم والمسكين ، وترى أن السيف هو القوة القادرة ، وهو الحكومة المنفذة ، حتى جاء الإسلام بأحكامه العادلة ، وشريعته السمحة ، فدعا إلى الحق والعدل ، والتحرّج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله الذى يحرس حدوده ويغار عليها ، ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفاً يذودون به عن هذه الحقوق .

مقاصد سورة الضحى

- ١ - القسم بالضحى والليل على أن الله ما قلبى رسوله وما تركه .
- ٢ - وعد الرسول ﷺ بأنه سيكون فى مستقبل أمره خيراً من ماضيه .
- ٣ - تذكيره ﷺ بنعمة الله عليه فيما مضى ، وأنه سبحانه سيؤايلها عليه .
- ٤ - طلب الشكر منه على هذه النعم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَىٰ ۝٣﴾ وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

المفردات :

والضحى : أقسم بوقت ارتفاع الشمس .

سجى : سكن أو اشتد ظلامه .

ما ودعك ربك : ما تركك منذ اختارك ، وهذه الجملة جواب القسم .

وما قللى : وما أبغضك منذ أحبك .

ألم يجدك : ألم يعلمك ربك ، أى قد علمك .

يتيما : طفلاً مات أبوك وأنت جنين .

فـآوى : فضمك إلى من يكفلك ويرعاك .

ضالاً : غافلاً عن أحكام الشرائع ، أو متحيراً فيما تراه من أحوال قومك .

فهـدى : فهداك إلى أسباب الهداية بما أوحى إليك .

عائلاً : فقيراً عديماً .

فـاغنى : فرضاك بما أعطاك ومنحك .

فلا تقهر : فلا تغلبه على ماله ولا تستذلّه .

فلا تنهر : فلا تزجره ، وترفق به .

التفسير :

١ ، ٢ - وَالضُّحَىٰ ۖ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ .

أقسم بالضحى ، وهو وقت ارتفاع الشمس وانتشار الضوء ، وخروج الناس إلى أعمالهم ، وامتلاء الكون بنور الشمس قبل أن يشتد حرها ، وقد شرعت صلاة الضحى شكراً لله على هذه النعمة .

وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ .

وأقسم بالليل إذا سكن ، أو غطى بظلمته النهار ، وستر كل شيء تحت ظلامه ، مثلما يسجى الرجل بالثوب ، ويغطى ويسجى الميت بالكفن .

٣ - مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ .

لم يتركك ربك ، ولم يقطعك قطع المودع ، ولم يقطع عنك الوحي ، وما أبغضك وما كرهك وما قلاك كما يزعم بعضهم ، وقد ادَّعت أم جميل زوجة أبى لهب أن شيطان محمد قد تأخر عنه ، وأن إله محمد قد أبغضه وتركه ، وقد روى البخارى ومسلم أن هذا كان سبب نزول سورة الضحى .

والسورة كلها حنان وعطف وتقدير لرسول الله ﷺ ، ورد على مزاعم الكافرين حين تأخر الوحي عن رسول الله ﷺ ، فقد سأله أهل مكة ثلاثة أسئلة :

الأول : عن الروح .

الثاني : عن أصحاب الكهف .

الثالث : عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وهو (ذو القرنين) .

فقال ﷺ : «غداً أجيئكم» ، ونسى أن يقول : إن شاء الله ، فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، فلما نزل جبريل قال النبي ﷺ : «يا جبريل ، ما جئت حتى اشتقت إليك» ، فقال جبريل : «لأنا أشد شوقاً إليك منك إلیّ» . فقال ﷺ : «وما يمنعك أن تنزل ، وأن تجيء أكثر مما تجيء» ؟ فقرأ جبريل الآية : وَمَا نُنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . (مريم : ٦٤) .

وكانت هذه الفترة للوحي لإلهاب شوق النبي ﷺ إلى الوحي ، وإنها لنعمة كبرى أن يختار الله للبشر أجمعين رسولاً ، ويرسل إليه جبريل عليه السلام يحمل وحى السماء ، ليكون رسالة الله للبشر أجمعين .

٤ - وَلَآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ .

في هذه الآية تفسيران :

التفسير الأول : أعطاك الله الرضا والمحبة ، وسيتوالى فضل الله عليك في الدنيا ، فتزداد كل يوم عزاً ونصراً ، حتى تفتح مكة ويدخل الناس في دين الله أفواجا ، وقد صدق الله وعده ، فنصر رسوله في غزوة بدر ، واستمر نصر الله له حتى خضعت أم القرى ، وعم الإسلام بلاد العرب ، وانتقل الإسلام في حياة الخلفاء إلى بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا ، وغير ذلك .

وخلاصة معنى الآية : الفترة الآخرة من حياتك ستكون خيراً لك من الفترة الأولى .

التفسير الثاني : ستكون منزلتك في الحياة الآخرة خيراً وأفضل من الحياة الأولى ، حيث يعطيك الله الشفاعة والمنزلة السامية ، ويكرمك في أمته .

والخلاصة : منزلتك يوم القيامة وعطاء الله لك في الآخرة خير لك من الحياة الدنيا .

٥ - وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ .

سيستمر عطاء الله لك ، وهو ربك وحبيبك ، فأعطاه الله الوحي ، وأراه مكان أمته ، وأن ملك أمته سيبلغ ما بلغ النهار ، فاستبشر ورضى ، وأعطاه الله في الآخرة الحوض والشفاعة والمنزلة الرفيعة ، والآيسوه في أمته ، وغير ذلك مما يرضيه ﷺ .

٦ - أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ .

توفى والده ﷺ وهو جنين في بطن أمه ، فكفله جدّه عبد المطلب ، وماتت أمه وعمره ست سنوات ، ثم مات جدّه عبد المطلب وله من العمر ثمانين سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وكان به حفيّا ، وكان يحوطه ويرعاه وينصره بعد نزول الرسالة عليه - وهو على رأس الأربعين - وكان أبو طالب على دين قومه لكنّه نصر محمداً حتى مات ، وعمر الرسول ﷺ يقارب سبعاً وأربعين سنة ، وقد قبض الله له من يكرمه ويأويه ، فنشأ كريماً عزيزاً بفضل الله تعالى .

وقيل : معنى : أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ .

ألم أجدك يتيمًا لم ترغب فيك المراضع ، فأودتك إلى مرضعة تحنو عليك ، ورزقتها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك .

٧- وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ .

ووجدك غافلاً عن الشرائع ، فأنزل عليك الوحي والتشريع .

قال تعالى : وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِيزَانِكِ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ • بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي ضُبُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ... (العنكبوت: ٤٨ ، ٤٩) .

وقيل : المعنى : وجدك فى حيرة مما عليه قومك ، فاليهودية قد عبث بها الرؤساء ورجال الدين ، والمسيحية كذلك ، عبث بها القساوسة والشمامسة والبطارقة ، وكان العرب يدعون أنهم على دين إبراهيم ، ومع ذلك كانوا يتدون البنات ، ويشربون الخمر ، ويرتكبون الزنا ، ويعبدون الأوثان ، ويبطش القوى بالضعيف ، ويستمسك الأغنياء والأقوياء بالهم وجاههم ، فلا ينفقون منه على الفقراء والمحتاجين ، وكان الله قد منح محمداً ﷺ فطرة سليمة ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب الخمر ، ولم يرتكب الفواحش ، وكان يخلو بنفسه فى غار حراء ، عابداً لله متأملاً فى هذا الكون ، متحيراً مما عليه الناس ، حتى اجتباه الله وأنزل عليه الوحي ، وهده إلى طريق الرسالة ولحياء دين الإسلام .

وجمهور العلماء على أنه ﷺ قد فطر على الإيمان بالله ، وما كان ﷺ على دين قومه لحظة واحدة ، بدليل قوله تعالى : مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ . (النجم : ٢) .

وقد كان هناك متحذثون من العرب ، زهدوا فيما عليه القوم ، وانصرفوا إلى التحدث وتوحيد الله ، أى ترك الحث والإثم ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى السموات الروحية ، وكان قس بن ساعدة الإيادى يخطب فى الناس ، ويقول : البعرة تدل على البعير ، وخط السير يدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وبحار ذات أمواج ، وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك كله على اللطيف الخبير ، يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه ، إن لله ديننا هو أرضى من دينكم هذا .

وكان النبى ﷺ قد استمع إليه ، ثم قال ﷺ لمن حوله : «أيكم يحفظ شعره» ؟ فقال أبو بكر الصديق : أنا أحفظ شعره ، وهو :

من القرون بوائر	فى المذهبين الأولين
ليس لها مصادر	لما رأيت موارد الموت
بعضى الأكابر والأصاغر	ورأيت قوسى نحوها
حيث صار القوم صائر	أيقنت أنى لا محالة

وقد ذكر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس في كتابه (دراسات في السيرة النبوية) أن محمداً ﷺ كان قبل أن يدخل في مراحل النبوة قد اتجه بقلبه ونفسه إلى البحث عن الحق، أنفة من الأوثان، وبصيرة منه بأنها عبث لا طائل وراءها، أي أنه سار في طريق من عرفنا من الحنيفية، دون أن يكون في جملتهم، إنما هو كان يبحث وحده عن ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا بدوره مرتبط بأشد الارتباط بما كان محمد ﷺ عليه طوال ما مضى من حياته كلها، فقد وجهه الله سبحانه في طريق الفضائل والكمالات، لما سبق في تقديره سبحانه من أنه مصطفىه للرسالة الكبرى، فكان مثلاً في الفضل والخير والعصمة من الزلل، حتى تستقيم معه الرسالة.

وقد كانت في بلاد العرب يهودية لكنها كانت سلبية لا تدعو الناس إليها، وكانت تؤمن بالله، وكانت في بلاد العرب مسيحية لكنها كانت محدودة جداً في بعض الصوامع أو الأديرة، وكانت تؤمن بالله. وفكرة الله خالق الكون ظلت في أذهان العرب، لكنهم أشركوا معه لعبوداتهم الوثنية، وقالوا إنهم يتقربون بعبادتها إلى الله زلفى.

قال تعالى على لسانهم: مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... (الزمر: ٣).

وكان من الحنفيين ورقة بن نوفل، وهو عم خديجة بنت خويلد (١١٠) هـ.

كان ﷺ في حيرة من أمر نفسه، ومن أمر قومه، فهداه الله بالرسالة الخاتمة، وجعله هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

وقيل: إن معنى الآية: أن النبي ضلَّ عن جده في شعاب مكة، فرآه أبوجهل منصرفاً عن أغنامه، فردّه إلى جده وهو متعلق بأستار الكعبة، يضرع إلى الله تعالى ويقول:

يا ربّ ربّ ولدى محمداً ارددلا ربّي واصطنع عندى يدّاً

٨ - وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى.

وجدك فقيراً فأغناك من ربح التجارة في مال خديجة، وبما وهبته له ﷺ، أو أغناك بالقناعة، فجعلك راضياً مؤمناً، راعياً في الآخرة، عازفاً عن زينة الدنيا، أو أغناك باستقبال الأنصار لك في المدينة، وما أفاء الله عليك من الغنائم والفيء في الفتوح والغزوات والسرايا.

٩ - فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ .

تأتى هذه الآيات تعليماً للرسول ﷺ ولأُمَّته بإكرام اليتيم ، وعدم التناول إلى أخذ ماله أو قهره أو إذلاله ، وقد حث القرآن على إكرام اليتيم في السور المكية والمدنية ، وفى صدر سورة النساء وصايا متعددة باليتامى ، حيث أمرت بإعطاء اليتامى أموالهم ، وعدم تبديدها وحسن استثمارها ، وتهديد من يأكل مال اليتيم بالنار وعذابها ، وتذكير الأوصياء بأنهم معرضون لأن يموتوا ويتركوا ورثة ضعفاء ، فهل يرضيهم أن يأكل الناس أموالهم ؟ إذن فليتقوا الله وليستوصوا باليتامى خيراً .

قال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** . (النساء : ١٠) .

وقد كان النبي ﷺ يتيماً ، فأكرمه الله وآواه ، لذلك أمره الله بإكرام اليتيم ، وقد كان ﷺ قدوة عملية فى ذلك ، فرعى أبناء الشهداء والمجاهدين ، وضمهم إلى كفالته ورعايته ، وحين تزوج السيدة أم سلمة - وكان زوجها قد مات شهيداً فى الحرب - قالت : **إبنى ذات عيال** ، فقال لها : **«العيال على الله ورسوله»** .

وفى الصحيح : **«أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين»** ^(١١٨) . وأشار بالسبابة والوسطى .

١٠ - وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ .

ينبغى أن ترد السائل بعباء ولو كان قليلاً ، أو تردّه بكلمة طيبة دون أن تنهره أو تزجره ، وإذا جاء أحد يستفهم عن أمور الدين ، أو يستفهم منك فى أى أمر من الأمور فلا تردّه بالغلظة والجفوة ، وأجبه بالرفق واللين ، فإن إجابة السائل فرض على العالم على الكفاية .

وروى مالك ، وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، عن أبى هارون العبدى قال : **كُنَّا إِذَا أَتَيْنَا أَبَا سَعِيدٍ الْخَدْرَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبِعٌ ، وَإِنْ رَجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا»** ^(١١٩) .

١١ - وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

اشكر نعمة الإيمان والإحسان ، والوحى والعلم والفرقان ، وذلك بالتحدث بها إبلاغاً وتعليماً وتربية وهداية ، ومن التحدث بالنعمة إظهار فضل الله على الإنسان ، وإعطاء المحتاجين ، وشكر من أسدى إلينا جميلاً .

أخرج أبو داود ، والترمذى وصححه ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : **«لا يشكر الله من لا يشكر الناس»** ^(١٢٠) .

قال العلماء المحققون : التحدث بنعم الله تعالى جائز مطلقا ، بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدى به غيره ، أو أن يشكر ربه بلسانه ، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب فالستر أفضل .

فائدة

روى عن الشافعى أنه رأى أن التكبير سنة فى خاتمة سورة الضحى إلى آخر القرآن ، لأنه حين انقطع الوحي ثم نزلت سورة الضحى قال رسول الله ﷺ : «الله أكبر» ، تصديقا لما أتى به القرآن .

وفى القرى المصرية يتوارث القرأء أن يقولوا عقب سورة الضحى وما بعدها : (الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر والله الحمد) وهى سنة عملية من فعلها فحسن ، ومن ترك فلا حرج ، والله أعلم .

قال المفسرون :

ولفظ التكبير إما بأن يقول : (الله أكبر) .

أو يقول : (لا إله إلا الله والله أكبر) .

★ ★ ★

وقد كان الفراغ من تفسير سورة (الضحى) ظهر يوم الخميس ٨ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٢٠٠١/٥/٣١ بمسجد حراء بمنطقة المقطم ، بالقاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الشرح

أهداف سورة الشرح

(سورة الشرح مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الضحى)

مجمل ما تضمنته السورة

- ١ - هيا الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ لتلقى الرسالة الكريمة ، وأفاض عليه من نعمه الجزيلة ، فشرح صدره بما أودع فيه من العلوم والحكم ، حتى حمل أعباء النبوة ، وجعل أمر التبليغ عليه سهلاً هيناً .
- ٢ - قرن الله اسم النبي ﷺ باسم الله العظيم فى الشهادة والأذان والإقامة والتشهد .
- ٣ - بين الله أن ما يصيب النبي ﷺ من شدة ، سيعقبها اليسر والفرج .
- ٤ - طلب الله تعالى من نبيه الأمين ﷺ إذا ما انتهى من تعليم الناس وإرشادهم ، أن يشغل نفسه بعبادة الله .
- ٥ - أمره ألا يسأل أحداً غيره ، لأنه سبحانه وتعالى هو السيد القادر وحده على إجابة دعوة العبد السائل^(١١٩) .

مع السورة

نزلت سورة الشرح بعد سورة الضحى ، وكأنها تكملة لها ، فيها مظاهر الرعاية والعناية الإلهية ، وفيها البشرى باليسر والفرج : ألم نفسح صدرك لهذه الدعوة ونيسر لك أمرها ؟

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ • الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . أَيْ : وَضَعْنَا عَنْكَ عِبَاكَ الَّذِى أَثْقَلَ ظَهْرَكَ حَتَّى كَادَ يَحْطِمُهُ مِنْ ثِقَلِهِ ، وَضَعْنَا عَنْكَ بِبَشْرٍ صَدْرَكَ لَهُ فَخْفٌ وَهَانٌ ، وَبَتَّيْسِيرِكَ وَتَوْفِيقِكَ لِلدَّعْوَةِ وَمِداخِلِ الْقُلُوبِ .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . رَفَعْنَاهُ فِى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ، وَرَفَعْنَاهُ فِى الْأَرْضِ ، وَرَفَعْنَاهُ فِى هَذَا الوجودِ جَمِيعاً ، وَرَفَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا اسْمَكَ مَقْرُونًا بِاسْمِ اللَّهِ ، كَلِمًا تَحْرُكَتُ بِهِ الشَّفَاةُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ .

قال مجاهد في معناه : أئى لا أنكر إلا ذكرت معنى .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . ومع الشدة فرجا ، ومع قلة ذات اليد السهولة والغنى ، فخذ فى أسباب اليسر والتيسير، فإذا فرغت من مهمة تبليغ الرسالة فانصب واتعب فى القيام بواجبات العبادة لنا . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب . واجعل رغبتك إليه ، ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه . وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . (التفابن : ١٣) .

«وتنتهى سورة الشرح كما انتهت سورة الضحى ، وقد تركت فى النفس شعورين ممتزجين :

الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذى ينسم على روح الرسول ﷺ من ربه الودود الرحيم ، والشعور بالعطف على شخصه ﷺ . ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم ، فى هذه الآونة التى اقتضت ذلك الود الجميل .

إنها الدعوة ، هذه الأمانة الثقيلة ، وهذا العبء الذى ينتقض الظهر ، وهى مع هذا وهذا مشرق النور الإلهى ومهبطة ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود» . (١٣٠٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۚ﴾ (١) ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ﴾ (٢) ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۚ﴾ (٣) ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۚ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ۚ﴾ (٤)

المفردات :

أَلَمْ نَشْرَحْ : أَلَمْ نُفْسِحْ بِالْحِكْمَةِ وَالنَّبُوءَةِ ، وَالِاسْتِفْهَامِ لِلتَّقْرِيرِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : قَدْ شَرَحْنَا لَكَ صَدْرَكَ .

وَضَعْنَا عَنكَ ، خَفَّفْنَا عَنْكَ ، وَسَهَّلْنَا عَلَيْكَ .

وَزْرَكَ ، حَمَلَكَ الثَّقِيلَ ، وَهُوَ أَعْيَاءُ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ .

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، أَنْقَلَهُ حَتَّى سَمِعَ لَهُ نَقِيضَ (صَوْت) وَالْكَلَامِ عَلَى التَّمَثِيلِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَحْمِلُ مَهْمًا مَعْنَوِيًّا ، فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِمَنْ يَحْمِلُ حِمْلًا ثَقِيلًا فَوْقَ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ خَفَّفَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَعْيَاءَ النَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ الَّتِي تَثْقُلُ الظَّهْرَ ، مِنْ الْقِيَامِ بِأَمْرِهَا ، وَأَدَاءِ وَاجِبَاتِهَا ، وَحِطِّ اللَّهِ عَنْ ثِقَلِهَا بِأَن صَارَتْ يَسِيرَةً لَهُ .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، بِالنَّبُوءَةِ وَالرِّسَالَةِ ، كَأَن جَعَلْتُكَ تَذَكَّرُ مَعَ ذِكْرِي فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالتَّشْهَدِ وَالْخُطْبَةِ وَغَيْرِهَا .

فَإِذَا فَرَغْتَ ، مِنْ عِبَادَةِ أَدْبَيْتَهَا .

فَانصَبْ ، فَاجْتَهِدْ وَأَتَعَبْهَا بِعِبَادَةِ أُخْرَى ، أَوْ يَعْمَلْ آخَرَ .

فَارْغَبْ ، فَاجْعَلْ رَغْبَتَكَ فِي جَمِيعِ شُؤْنِكَ .

التفسير :

١ - أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ .

الاستفهام هنا للتقرير ، فقد عدد الله تعالى عليه بعض النعم في سورة الضحى ، ثم أتم تعديد النعم في سورة الشرح .

والمعنى :

قد شرحنا صدرك ، أى وسعناه ونورناه بالإيمان والرضا والسرور ، وإنهاب الضيق والآلام .

قال تعالى : أَقَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ ، لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ... (الزمر: ٢٢) .

وقد كان ﷺ فى ألم وحزن من تكذيب قومه لرسالته ، وإعراضهم عن دعوته :

قال تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَطِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ .

(الحجر: ٩٧ ، ٩٨)

كانوا يقولون : ساحر وكاذب ومجنون ، وكانت يد الله تمسح على صدره ، فَهُوَ عَلَى مَا يَلْقَاهُ فِى سَبِيلِ الدَّعْوَةِ ، وَتَدْعُوهُ أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ اللَّهِ فِى الشَّدَّةِ ، وَأَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ دَاعِيَا مَتَّبِعَاتِهِ .

قال تعالى : فَلَعَلَّكَ بِنَشْءِ نَفْسِكَ عَلَى آلِ الرَّهْمِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . (الكهف: ٦) .

وقال تعالى : قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَأْسِ اللَّهِ

يُخْضَعُونَ . (الأنعام: ٣٣) .

وقيل : المراد بالشرح هنا : توسيع الصدر حسياً حين كان يرضع من حليمة السعدية ، فأخذه ملكان فأضجعا وشقا صدره ، وأخرجاه منه حظ الشيطان وملأه بالإيمان .

وقد ورد ذلك فى صحيح مسلم ، وفى كتب السنة أن ذلك الشرح الحسى تكرر وعمر النبى ﷺ عشرون سنة وأشهر ، كما وقع ذلك ليلة الإسراء والمعراج ، والجمهور على أن شرح الصدر هو تنويره بالحكمة ، وتوسيعه لتلقى ما يوحى إليه .

وليس هناك ما يمنع من أن يراد من شرح الصدر الشرح الحسى ، ويكون وسيلة لتطهير قلبه وتخليصه من أى أثر للشيطان ، ويكون هذا الشرح الحسى وسيلة أيضاً للشرح المعنوى ، وهو تحمل أعباء الرسالة ،

والصبر على الأداء ، واحتمال تكذيب القوم ، مع الصبر وانتظار الفرج ، وقد أشار إلى شيء من ذلك الإمام ابن كثير حيث قال :

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . يعنى : شرحنا لك صدرك ، أى نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا .

وقيل : المراد بقوله : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . شرح صدره ليلة الإسراء ، وهذا وإن كان واقعا ، لكن لامنافاة ، فإن من جملة شرح صدره ﷺ ، الذى فُعل بصدرة ليلة الإسراء ، ما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضا . اهـ .

والخلاصة :

إن الله جمع له بين الشرح الحسى من جهة ، ثم أودع فى صدره من الهدى والإيمان والفضائل والحكمة ما لم يُعطه لأحد سواه .

٢ ، ٣ - وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ .

قيل : إن معنى الآية : غفرنا لك ذنبك الذى أثقل ظهرك ، أى ألمك وجعلك تنوء بحمله ، وتؤنّب نفسك على ارتكابه ، وليس المراد بالذنب الكبائر ، فقد عصم الله الأنبياء من ارتكاب شيء منهى عنه ، ولكن المراد منه ارتكاب خلاف الأولى ، مثل أن غيَسَ فى وجه عبد الله بن أم مكتوم ، حين جاء يلجّ فى السؤال وطلب العلم ، وكان ﷺ مشغولا بغيرض الإسلام على مجموعة أو أفراد من كبار المشركين ، طامعا فى إسلامهم .

ومثل أنه أذن لبعض المنافقين بالتخلف عن الجهاد فى غزوة تبوك حين استأذنوه فى التخلف .

ومثل أنه قبِلَ الغدام من كفار مكة فى أسرى بدر ، وقد كان عن اجتهاد منه ﷺ ، ولكن الوحي نزل يبين أن ذلك خطأ أو مرجوح لا راجح ، وأن الأولى به ﷺ أن يختار الوجهة الأخرى التى شرحها القرآن .

والنبي ﷺ من حقّه أن يجتهد ، لأن الله تعالى أعطانا جميعا العقل ، وكلفنا بالاجتهاد ، لكن النبي ﷺ لا يُقرُّ على خطأ ، أو لا يُقرُّ على خلاف الأولى ، وقد ذكر القرآن أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال تعالى : إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَمُتَّعِنَا بِرَحْمَتِهِ وَعَلَيْكَ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا . (الفتح : ١ - ٣) .

قال في التسهيل لعلوم التنزيل : وإنما وُصفت ذنوب الأنبياء بالثقل ، وهى صفات مغفورة لهم ، لهم بها ، وتحسرهم عليها ، فهى ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله ، وهذا كما ورد فى الأثر : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجِبَلِ يَقَعُ عَلَيْهِ ، وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالذَّبَابَةِ تَطِيرُ فَوْقَ أَنْفِهِ» (١٣١) .

ونهب كثير من المفسرين (١٣٢) إلى أن معنى قوله تعالى : **وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ** * **الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ** . أى : يسرنا عليك أعباء النبوة والرسالة ، وبَيِّنَّا لك طريق تبليغ الدعوة ، ويسرنا عليك تحمل الأعباء فى دعوة قوم يصرون على عبادة الأوثان والأصنام ، ويتمهونك بأنك شاعر أو كاهن أو مجنون ، ذلك أن المقام مقام تعديد النعم التى أنعم الله تعالى بها على رسوله ﷺ .

وكان ﷺ قد مكث فى مكة فترة مؤلمة فى بداية الدعوة ، تعرّض فيها هو وأصحابه للأذى الحسى والمعنوى ، ووقفت قريش حجر عثرة فى طريق الدعوة ، بيد أن الله أمدّ رسوله بالعزيمة والهمة والقوة والصبر ، فكان آية فى هذا المجال .

وحين عرض عليه أهل مكة عروضاً منها المال أو الجاه أو الرئاسة أو العلاج من أثر الجن ، ووسطوا عنه أبا طالب ليعرض عليه ذلك ، قال ﷺ : «والله ياعم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أتنفرد منى هذه السالفة» .

قال الأستاذ أحمد المراغى فى تفسيره :

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * **الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ** .

أى : حططنا عنك ما أثقل ظهرك من أعباء الرسالة حتى تبلغها ، فجعلنا التبليغ عليك سهلاً ، ونفسك به مطمئنة راضية ، ولو قيلت بالإساءة ممن أرسلت إليهم. (١٣٣) .

٤ - **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ** .

رفع الله له ذكره ، فحتم به النبیین ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع ، وجعلها باقية إلى يوم القيامة ، وأنزل عليه القرآن الكريم .

وملايين المآذن تردّد الأذان ، وفيه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويتكرر ذلك فى التشهد ، وفى خطبة الجمعة ، وفى كثير من الأمور .

وقد جعل الله على يدى رسوله محمد ﷺ إنقاذ أعداد غفيرة من الناس من رق الأوهام ، وفساد الأحلام ، ورجع بهم إلى الفطرة ، وحررهم من عبادة الأوثان والأصنام والشموس والأقمار .

قال حسان بن ثابت :

وَضُمَ إِلَهُ اسْمِ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَنِّ أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ فِذْوُ الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ

وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة . ١ هـ .

أى : جعل شريعته ورسالته خاتمة الشرائع ، ورفع ذكره في الآخرة حيث أعطاه الله الشفاعة العظمى التي اختصه الله تعالى بها .

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوّه به حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمرُوا أممهم بالإيمان به .

٥ ، ٦ - فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا .

إن مع الشدة فرجا ، ومع الصبر والكفاح نجاحا وفلاحا ، وقد حدثت الدعوة الإسلامية للمسلمين في فجر الإسلام مضايقات من كفار مكة ، فنزلت هذه الآيات تؤكد لهم أن مع العسر والضيق وتكالب كفار مكة على الإسلام ، سيأتى يسر وفرج ، فقد تمت الهجرة وتم نصر المسلمين فى بدر ، وتوالى نصر الله لرسوله ﷺ ، حتى فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

والآية السادسة تكرير وتأكيد للآية الخامسة ، ويحتمل أن يكون لها معنى جديد ، وهو قدوم اليسر والنصر العظيم ، والغنى والفرج والمغانم .

حيث كان كفار مكة يعيرون رسول الله ﷺ والمسلمين بالفقر ، فنزلت الآيات تبشّره بأن الشدة ستزول ، وأن اليسر سيأتى بعد العسر ، وبالفعل أكرم الله رسوله ﷺ وأمتّه ، ففتح الله له البلاد ، ودان له العباد ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا وجماعات ، وبلادًا وأمما .

قال الشاعر :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللَّهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ

كملت فلما استحسنت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

٧ ، ٨ - فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ .

إذا فرغت من شئون الدنيا وأمرها فأتبع ذلك بالنّصب والتّعب فى شئون الآخرة ، وارغب إلى الله فى عبادتك وصلاتك ومناجاتك وتبتك ، وقم إلى العبادة نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة .

وقيل : إذا فرغت من الصلاة المفروضة فانصب في صلاة النافلة ، أو في الدعاء والاستغفار .

وَالْإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب . اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل .

وقد سار النبي ﷺ على هذا الهدى الكريم ، فكان نمونجا يُحتذى في عمله ، وقيام الليل ، وتدريب المسلمين وقيادة الجيوش ، وتربية الصحابة والصحابيات ، وقد اقتدى به أصحابه من بعده ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إني لأكره لأحدكم أن يكون خاليا ، لا في عمل دنيا ولا دين .

وقال عمر أيضًا : إني لأنظر إلى الرجل فيعجبني ، فإذا قيل إنه لا عمل له سقط من عيني .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى تفسير سورة (الشرح) ، ونسأله سبحانه وتعالى العون والتوفيق والفتوح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة التين

أهداف سورة التين

(سورة التين مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة البروج)

والحقيقة الرئيسية التي تعرضها سورة التين هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها .

يُقسم الله سبحانه على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين .

وقد كثرت أقوال المفسرين في التين والزيتون ، فقيل : هما جبلان بالشام ، وقيل : هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما ، وقد أقسم الله بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة .

وَطُورِ سَيْنِينَ . هو الطور الذي نُودي موسى عليه السلام من جانبه ، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ . هو مكة بيت الله الحرام .

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تعديل، بانتصاب قامته وحسن صورته ، واستجماعه لخواص الكائنات في تركيبه .

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

أى : ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة الله عليه أن رددناه أسفل سافلين ، حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم ، لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها على هدى ، بينما هو المخلوق فى أحسن تقويم يجحد ربه ويرتكس مع هواه .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . فطرة واستعدادا . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذى هداه الله إليه ويبنه له .

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... فلهم أجر دائم غير مقطوع ولا منقوص ولا ممنون .

فما يكذبك بالدين بعد ظهور هذه الحقيقة ، وبعد إدراك قيمة الإيمان فى حياة البشرية ؟

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ . أليس الله بأعدل العادلين ، حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟
أو أليست حكمة الله بالغة ؟

والعدل واضح والحكمة بارزة ، ومن ثم ورد في الحديث المرفوع : «إذا قرأ أحدكم : وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ .
فأتى آخرها : أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ . فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين» .

مجمل ما تضمنته السورة

أقسم الله تعالى بأنه أحسن خلق الإنسان ، فجعله منتصب القامة ، متسق الأعضاء والخواص ، وقد
يرده إلى أرذل العمر فيصير ضعيفا هرما .

أو أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفسا وبدنا وعقلا ، إلا أنه تمشيا مع رغباته الأنيمة ، ونزواته
الشريرة ، انحطت منزلة بعض أفرادها ، فصوره الله إلى منازل الخزي والهوان ، واستثنى الله تعالى من هذا
المصير ، أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير مقطوع ، وأشارت السورة أيضا إلى أن الله
تعالى هو أعدل الحاكمين ، وأعلى المدبرين حكما .

حالة النوع الإنسانى خلقاً وعملاً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

المفردات :

والتين والزيتون ، قسم بهما ، وقيل : قسم بمنبتهما من الأرض المباركة .

وطور سينين ، جبل المناجاة للكليم موسى عليه السلام ، وسينين وسيناء علما على الموضع الذى فيه جبل الطور .

البلد الأمين ، مكة المكرمة .

لقد خلقنا ، جواب القسم .

أحسن تقويم ، أكمل تعديل ، وأحسن صورة

رددناه ، رددنا الكافر ، أو جنس الإنسان

أسفل سافلين ، إلى النار ، أو الهرم وأرذل العمر .

غير ممنون ، غير مقطوع عنهم

بالتين ، بالجزاء بعد البعث والحساب

التفسير :

١ - وَالتين والزيتون .

الله تعالى يُقسم ببعض مخلوقاته ليلفت النظر إلى فضلها ، أو يشير إلى منابها وأماكن وجودها ، وقد تعددت آراء العلماء في المراد بالتين والزيتون .

وأقوى الآراء هنا رأيان :

الرأى الأول :

المراد بهما : التين الذى نأكله ، والزيتون الذى نأكله ، وإنما أقسم بالتين لأنه غذاء وفاكهة ودواء ، فهو غذاء لأنه طعام لطيف ، سريع الهضم لا يمكث فى المعدة ، يُلين الطبع ، ويقلل البلغم ، ويطهر الكليتين ، ويزيل ما فى المثانة من الرُّمْل ، ويسمّن البدن ، ويفتح مسام الكبد والطّحال ، وهو خير الفواكه وأحدها ، وفى الأثر : (إنه يقطع البواسير ، وينفع من النقرس) .

وكذلك أقسم الله بالزيتون لأنه فاكهة وإدام ودواء ، يعصر منه الزيت الذى هو إدام غالب لأهل بعض البلاد ودهنهم ، ويدخل فى كثير من الأدوية .

قال تعالى : وَشَجَرَةَ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالنَّهْلِ وَصِيغَ لِلْكَلِمِ . (المؤمنون : ٢٠) .

وقال تعالى : وَزَيْتُونًا تَخْلَأُ . (عبس : ٢٩) .

الرأى الثانى :

أنهما كناية عن البلاد المقدّسة التى اشتهرت بالتين والزيتون ، ويكثر ذلك فى بيت المقدس ، وجبل بيت المقدس الذى بُعث منه عيسى عليه السلام .

وبذلك يكون القسم فى السورة بالأماكن المقدّسة التى أرسل منها الرسل الكرام : موسى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ ، وقد جاء فى آخر التوراة يُذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء (يعنى المكان الذى كلّم الله عليه موسى) ، وأشرق من ساعير (يعنى جبل بيت المقدس الذى بُعث منه عيسى) ، واستعلن من جبال فاران (يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً ﷺ) .

٢ - وَطُورِ سِينِينَ .

هو الجبل الذى كلّم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، ويقال له : طور سَيْنَاءَ بفتح السين وكسرهما ، وقُرئ سَيْنِينَ بفتح السين وسينين بكسر السين ، قيل : هو اسم للبقعة التى بجوار الجبل .

وقال الأخفش : سينين جمع بمعنى شجر ، واحده سينه أى شجرة ، والقسم به لرفع ذكره ، والتذكير بما كان عند ذلك الجبل من الآيات الباهرات التى ظهرت لموسى وقومه ، وما كان بعد ذلك من سنّ الشريعة الموسوية وإنزال التوراة :

٣ - وَهَذَا الْبَلَدُ الْأَمِينُ .

وهو مكة المكرمة ، وأمين بمعنى آمن ، حيث يأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه ، فقد حُرِّم فيه العدوان ، حتى لو وجد الإنسان قاتل أبيه فى مكة فلا يحل له أن يقتله .

قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... (العنكبوت : ٦٧) .

وقد سَمَّى الله مكة بكة ، وسَمَّاها أم القرى ، وسَمَّاها حرمًا آمناً ، وجعلها قبلة المسلمين إلى يوم الدين ، وبها المسجد الحرام ، والكعبة المشرفة ، وبها ولد محمد ﷺ ، ثم هاجر منها ، وعاد إليها فاتحاً منتصراً ، ثم أنزل الله عليه : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... (المائدة : ٣) .

والمعنى : وأقسم بهذا البلد الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً ، والذى ولد فيه محمد ﷺ ، ونزل الوحي عليه ﷺ فى هذا البلد أول مرة بغار حراء ، ثم تتابع الوحي وكملت شريعة الإسلام .

كما قال تعالى : لَا أُقِيمُ بِهِذَا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهِذَا الْبَلَدِ . (البلد : ١ ، ٢) .

٤ - لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ .

هذا هو جواب القسم .

أى : أقسم بالتين والزيتون ، وبجبل طور سينين ، وبمكة البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن ما يكون من التعديل والتقويم ، صورة ومعنى .

فقد خلق الله الإنسان معتدل القامة ، جميل الصورة ، وفى وجهه للنظر عينان ، وللمسمع أذنان ، ولسان وشفتان ، ومنحه الله يدَيْن يبطش بهما ، ورجلين يمشى عليهما ، وعقلاً يفكر به ، ونفخ الله فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وكَرَّمه الله تكريماً عظيماً ، وفضَّله على كثير من مخلوقاته ، فَصَدَّرَ الإنسان آية ، وبطنه آية ، وفرجه آية ، إلى جوار الأجهزة المتعددة الموجودة فى الإنسان كالجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، والجهاز التناسلى ، ثم ميَّزه الله بالإرادة والاختيار ، والعقل والفكر ، وأرسل الله له الرسل ، وأنزل له الكتب .

قال القرطبي : ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالم الأصغر ، إذ كل ما في المخلوقات جُمع فيه . ا هـ .

قال الشاعر :

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وقال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا . (الإسراء : ٧٠) .

هـ - ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

أى . لقد خلقنا الإنسان فى أفضل خلقه ، حسياً ومعنوياً ، لكنه لم يشكر هذه النعمة ، ولم يفتن لهذا الفضل ، فرأيناه يكفر بفضل الله عليه ، فيسجد للأصنام ، ويؤثر هواه ، ويسير وراء نزواته ، ويفضل اللهو والخمر والكفر ، ومعاداة الرُّسل ، فيستحق أن يكون من أهل النار ، وأن يكون فى أقبح خلقه ، وأسفل درجة ، بكفره وعناده ، ثم بدخوله جهنم وبئس المصير .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى كالاتى :

خلقنا الإنسان فى أفضل خلقه ، وينتقل من الضعف إلى القوة والرشد ويلوغ الأشد ، ثم يعود إلى أسفل سافلين ببلوغه مرحلة الكبر والضعف ، فيعود ضعيف القوة ، ضعيف الذاكرة ، وربما وصل إلى مرحلة ضياع الذاكرة وخرف العقل ، أو تغصن الوجه واهتزاز اليد وقلة الحيلة .

وكان ﷺ يستعيز بالله من أن يرد إلى أرذل العمر ، واختار جمع من المفسرين الرأى الأول ، لأنه يرتبط بما قبله وبما بعده .

أى أن الله خلق الإنسان فى أكمل صورة ، لكن الكافر هوى بنفسه إلى مرحلة البهائم ، أو أضل سبيلا ، باختيار الكفر على الإيمان ، والضلال على الهدى .

قال ابن كثير :

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

أى إلى النار ، قال ذلك مجاهد والحسن وأبو العالية وابن زيد ، أى : بعد هذا الحُسن والنضارة مصيره إلى النار ، إن لم يُطع الله ويتبع الرُّسل ، ولهذا قال بعد ذلك : إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...

وقال بعضهم :

ثُمَّ رَدَّدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ .

أى : إلى أَرْدَلِ العمر^(١٣١) . واختار ذلك ابن جرير الطبرى .

ولو كان هذا هو المراد لما حَسُنَ استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهرم قد يصيب بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله تعالى : **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ^(١٣٢) وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** . (العصر : ١ - ٣) .

٦ - **إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** .

أى أن الكافر والعاصى يَرُدُّ إلى أسفل سافلين فى جهنم ، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم فى الآخرة ثواب أعمالهم غير منقوص ، **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخَيْرُ وَزِيَادَةٌ ...** (يونس : ٢٦) . حيث تزداد وجوههم حسناً ونضارة ، وإشراقاً ونوراً ، بسبب النعيم الذى يتمتعون به ، وبسبب رضوان الله عليهم ، وبسبب الشباب والقوة والنعمة التى يمنحها الله لأهل الجنة ، فلهم أن يشبوا فلا يهرموا أبداً ، ولهم أن ينعموا فلا يصيبهم اليأس : **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ** . (فاطر : ٣٤) .

أو المعنى :

لكن الذين كانوا مؤمنين صالحين من الزمنى والهرمى فلهم ثواب متصل دائم لا ينقص بالهرم وقلة العمل ، «جزاء امتثالهم ، وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، ومقاساة المشاق ، والقيام بالعبادة مع ضعفهم ووهنهم» .

أخرج ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس أنه قال فى الآية : إذا كبر العبد وضعف عن العمل كُتِبَ له ما كان يعمل فى شبابه^(١٣٣) .

٧ - **فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الدِّينِ** .

ما الذى يجعلك أيها الإنسان الكافر الجاحد مكذبا بيوم الدين والقيامة والبعث والجزاء ، بعد أن قدمت لك هذه الأدلة على قدرتى ، أليس الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم بقادر على إعادته عند البعث والجزاء ؟

فالمقصود بقوله تعالى: يُكْذِبُكَ: يجعلك مكذبا، أى لا عذر لك فى التكذيب بالحق، وقيل: الخطاب للرسول محمد ﷺ، والمعنى: من الذى يُكْذِبُكَ أيها الرسول الكريم، ويُكْذِبُ بيوم الدين والجزاء بعد أن ظهرت الدلائل على صدقك؟

إن كل عاقل ينبغي أن يصدقك ولا يكذبك، ويتبعك ولا يعرض عنك.

٨ - أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ .

أليس الذى خلق فسوى، وقدر فهدى، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم، وأبدع الكون، وخلق كل شئ فقدره تقديرا، أليس هذا الإله بأعدل العادلين، حكما وقضاء، وفصلا بين العباد؟

قال ابن كثير:

أما هو أحكم الحاكمين الذى لا يجور ولا يظلم أحدا، ومن عدله أن يقيم القيامة، فينتصف للمظلوم فى الدنيا ممن ظلمه.

وقد روى الإمام الترمذى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ منكم: وَأَلَيْسَ وَالزُّيُونِ.

ثم انتهى إلى قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ. فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين».

★ ★ ★

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التين).

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة العلق

أهداف سورة العلق

(سورة العلق مكية ، وهي أول ما نزل من القرآن الكريم ، وعدد آياتها ١٩ آية)

مع آيات السورة

١- ٥ - ورد في كتب الصحاح أن النبي ﷺ كان يتعبد في غار حراء ، فجاءه الملك فضمه ضمًا شديدًا حتى بلغ منه الجهد ثلاث مرات ، ثم قال :

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

اقرأ باسم الله وقدرته ، الذي أحكم الخلق ، وهو بديع السماوات والأرض ، خلق الإنسان من دم متجمد ، يعلق بجدار الرحم ، فسواه من نقطة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ، فكسا العظام لحما ثم أنشأ خلقًا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

اقرأ وربك الأكرم الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم ، يُنعم على عباده بالنعيم ، ويحلم عليهم فلا يعاجلهم بالعقوبة .

ومن الله يستمد الإنسان كل ما علم وكل ما يحلم ، والله هو الذي خلق وهو الذي علّم فمنه البدء والنشأة ، ومنه التعليم والمعرفة .

وقد كان ﷺ أكمل الخلق ذكرًا لله ، وكان ذكره لله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه ، وفي مشيه وركوبه ، وسيره ونزوله ، وسفره وإقامته ، ولقد كان واجب كل إنسان أن يعرف ربه ويشكره ، ولكن الذي حدث غير هذا .

٦ - ٨ - كلا إن الإنسان ليطغاون الحد في التعدي ، أن رأى نفسه مستغنيا ، إن إلى ربك الرجوع والحساب ، فليس هناك مرجع سواء ، إليه يرجع الغنى والفقر ، والصالح والشرير ، ومنه النشأة واليه المصير .

وكان أبو جهل يقول : لو رأيت محمدا ساجدا لوطئت عنقه ، فأنزل الله عز وجل :

٩ - ١٤ - أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَى : أَرَأَيْتَ أبا جهل ينهى محمداً عن الصلاة ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ هذا الذى يصلى على الهدى أو أمر بالتقوى ، ثم ينهاه مَنْ ينهاه مع أنه على الهدى وأمر بالتقوى ؟

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ النَاهِىَ مُكَذِّبًا بِالْحَقِّ مَتَوَلِّيًا عَنْهُ : أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى . ويطلع على أحواله ، ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وسيؤخذ على ذلك ، وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن أبا جهل نهى النبى ﷺ عن الصلاة ، فأغلظ له الرسول القول ، فقال أبو جهل : أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ، أى مجلسا يجتمع فيه القوم والأعوان .

١٥ - ١٩ - وأمام مشهد الطغيان يجىء التهديد الحاسم الرادع الأخير : كلا لئن لم يرجع عما هو فيه ، لنقبضن على ناصيته ، ولنجذبها جذبا شديدا عنيقا ، فهي ناصية كذبت الحق وأخطأت الطريق ، فليدع أهل ناديه لينتصروا له وليمنعوه منا ، سندع الزبانية الشداد الغلاظ ، كلا لا تطع هذا الطاغى ، واسجد لربك واقترِبْ منه بالطاعة والعبادة ، فهو الحصن والملجأ ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

مقاصد سورة العلق

تشتمل سورة العلق على المقاصد الآتية :

١ - حكمة الله فى خلق الإنسان من قطعة لحم علقت بجدار الرحم ، ثم تكوينه خلقا كاملا ، ييسر سلطانه على كثير من الكائنات .

٢ - من كرم الله وإنعامه أن علم الإنسان البيان ، وأفاض عليه الكثير من النعم ، مما جعل له القدرة على غيره مما فى الأرض .

٣ - لقد غفل الإنسان عن هذه النعم ، فإذا رأى نفسه غنيا صلف وتجبر واستكبر .

تمهيد من السنة المظهرة

عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ» - قال - فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق - حتى بلغ - ما لم يعلم».

قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: «زموكني زموكني»، فزموه حتى ذهب عنه الروع، فقال: «يا خديجة، ما لي؟» وأخبرها الخبر، وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: كلاً، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة أخی أبيها، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، ليتني فيه جذعاً، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجي هم؟» فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي^(١٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيٍ ⑥ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑩ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ⑫ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑬ أَرَأَيْتَ إِنْ تَوَلَّى ⑭ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ ⑮ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑯ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑰ فليَدْعُ نَادِيَهُ ⑱ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ⑲ كَلَّا لَا تَطَّعُوهُ وَاسْجُدُوا فَقَرَّبْ ⑳ ﴾

المفردات :

اقْرَأ : أى ما يُوحى إليك ويُتلى .

باسم ربك : مبتدئا ومستعينا باسمه تعالى .

عَلَّقَ : واحد علقه ، وهى قطعة من الدم جامدة هى أصل البويضة ، وفى القاموس : علقت المرأة : حبلى .

الأكرم : له كمال الكرم .

علم بالقلم : جعل الكتابة وسيلة العلم .

علم الإنسان ما لم يعلم : أوجد فيه قوة إدراك المعلومات وطاقت تحصيلها ، ويسر له الدرس .

ك : لا ، للزجر والردع .

ليطغى : يتجاوز حدود ما شرع فيكفر ويظلم .

أن رآه استغنى : أى بسبب غناه أبطرتة النعم .

الرجعى : الرجوع والمصير إلى الله .

عود إلى التفسير

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ .

كن قارئاً للوحي يا محمد ، لا بحولك ولا بقوتك ولكن بقدرة الله الخالق ، فابدأ القراءة ، بِاسْمِ رَبِّكَ .
أى باسم الله الرحمن الرحيم ، فهي بداية مباركة لأجل كلام ، للوحي الإلهي .

الَّذِي خَلَقَ .

فهو سبحانه الخالق الذى خلق فسوًى ، هو الخالق الذى خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، هو الخالق الذى خلق كل شئ ، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . (السجدة : ٧) .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ .

خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وخلق حواء من ضلعه ليسكن إليها ، وزوّجه الله من حواء ، وأسكنه فسيح الجنة ، ونهاه عن الأكل من شجرة معينة ، فَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ وَأَكَلْ مِنْ الشَّجَرَةِ ، ثم تاب الله عليه وهده ، وأنزله إلى الدنيا ليعمر الكون ، وليكسح ويستعمر الأرض هو وذريته ، وجعل خلق ذريته من منى يُعْنَى ، ثم ينتقل المنى من الذكر إلى الأنثى ، ثم يتم الحمل ويتحول المنى إلى علقه ، وهى قطعة لحم تعلق بجدار الرحم وتنشئ به ، وتمسك بقرار مكين فى رحم الأم ، فما أبدع الخالق الذى خلق الكون للإنسان ، وما أكرم الخالق الذى خلق الإنسان من علق ، أى جعل بداية خلق الإنسان من نقطة ، ثم تطورت إلى علقه ، ومرت بمراحل فى بطن الأم إلى أن اكتملت حياة الجنين ، وقد أنشأه الله خلقاً آخر ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . (المؤمنون : ١٤) .

٣ ، ٤ ، ٥ - اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

اقرأ الوحي ، وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . كثير الكرم والفضل ، حين أفاء عليك بالنبوة ، وأنزل عليك الوحي ، وأعطاك الشريعة السّمتة التى ختم الله بها الشرائع ويسرها للناس ، وَيُسِّرُكَ لِلْيُسْرَى . (الأعلى : ٨) .

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ .

وبواسطة القلم كتبت الشرائع والعلوم والفنون ، والآثار والأخبار ، والتوراة والإنجيل ، والزبور والفرقان ، والحكمة والسّنة ، لذلك أقسم الله بالقلم والدواة .

قال تعالى : ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . (القلم : ١) .

وأنزل القرآن ليتلى ويُقرأ ، ثم يكتب ويُسطر ، واختار النبي أمياً ليكون معجزة بارزة ، فهذا الأمي لم يقرأ كتاباً ، ولم يخط بيمينه كتاباً ، ومع هذا يقرأ هذا الوحي المبين الحكيم المعجز ، ويتحدّث به الناس أجمعين ، مما يدل على أنه ليس من صنع بشر ، بل تنزيل من رب العالمين .

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

أفاض الله الوحي والتشريع ، والهدى والقصص ، وأخبار الأولين والآخرين ، ومشاهد القيامة ، وأدب الدنيا والدين في هذا الوحي ، ليعلم به الإنسان كل ما لم يعلمه ، فسبحان المعلم الذي اختار رسولاً وأنزل عليه وحياً ، ليعلم الإنسان ما لم يعلمه إلا بطريق الوحي .

قال تعالى : إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . (البقرة : ٣٠) .

وفي الأثر : (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم) .

يقول أحمد شوقي :

سبحانك اللهم خير معلم	علّمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرسلًا	وابن البتول فعلم الإنجيلا
وقجّرت ينبوع البيان محبداً	فسقى الحديث وعلم التأويلا
الجهل لا تحيا عليه جماعة	كيف الحياة على يدى عزريلا
ناشدتكم تلك الدماء زكية	لا تبعثوا للبرلمان جهولا
فترى الذين بنى المسلة جدّهم	لا يحسنون لإبرة تشكيلا

جاء في تفسير القرطبي ما يأتي :

نبّه تعالى على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان ، وما توتّعت العلوم ولا قيدت الحكم ، ولا ضبّطت أخبار الأولين ومقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين . ١ هـ .

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآيات :

أول شيء نزل من القرآن هذه الآيات المباركات ، ومن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرّفه الله وكرّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به آدم على الملائكة . ١ هـ .

٦ ، ٧ ، ٨ - كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ * أَن رَّأَاهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ .

حقاً إن الإنسان ليتعاضم ويتكبر ، ويأخذهُ الغرور والفخر إذا أحسّ بالاستغناء ، أى بالوفرة فى صحته وماله وقرانه ، ويوشك أن يكر ما قاله قارون : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ... (القصص : ٧٨) .

أيها الإنسان الذى خلقه الله من نطفة ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، وأسدّى إليه الفضل وسائر النعم ، إنك راجع إلى الله فيجازيك بعملك ، وستجد عمك شاخصاً بين يديك ، وكتابك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وفى الآيات تهديد ووعيد لكل عاتر متجبر ، مغرور بالغنى والجاه ، وهى فى نفس الوقت خطاب لكل إنسان بأنه راجع إلى ربه ، وسيعرض عليه بلا حاجز ولا ترجمان ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فليقدم خيراً لذلك اليوم .

وقد ذكر المفسرون أنه ورد فى الحديث الصحيح أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن أتى محمد ﷺ يصلى ليظان على رقبته وليعقرن وجهه ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى ليفعل ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقاً من نار وهو لأجنته ، فقال رسول الله ﷺ : «لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضواً» .

والآية بعد ذلك عامة لكل من تنطبق عليه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٩ ، ١٠ ، ١١ - أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى .

هذه الآيات تعجيب من حال طاغية باغ ، يتناول على إنسان مؤمن ، مستقيم عابد مصل ، ثم يتوجه القرآن بهذا السؤال فيقول : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى . أى : أَرَأَيْتَ يَا كَلِمَةً مِنْ يَتَأْتَى مِنْهُ الرُّوْيَةُ إن كان هذا المصلّى المطيع لله المتفرغ لعبادته ، على هداية من ربه ، قد ألهمه الله الهدى ، أو كان هذا المصلّى أمراً بالتقوى والإيمان والطاعة لله وعبادته ، كيف يُزَجِر وَيُنْهَى عن الخير ؟!

وقد ورد في سبب النزول أن الآيات نزلت في أبي جهل، كان ينهى النبي ﷺ عن الصلاة عند الكعبة، ويتوعده.

قال ابن عطية في تفسيره:

ولا خلاف بين المفسرين في أن المصلّي هو رسول الله ﷺ، والنّاهي هو أبو جهل، حيث قال: لئن رأيت محمداً يصلّي لأطأن عنقه، والإتيان بلفظ (العبد) منكراً لتفخيمه ﷺ، واستعظام النهي، وتأكيد التعجيب منه.

١٣ - أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى

أرأيت يا كل من تتأتى منه الرؤية إن كذب هذا المتكبر (أبو جهل)، وتولّى وأعرض عن الحق والإيمان، وهو تعجب من حال هذا الإنسان الطاغى الشقى الذى أصرّ على كفره، وأثر الخي على الرش، والشرك على الإيمان.

١٤ - أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى

ألا يخاف الله، ألا يتحرك قلبه وضميره، ألا يستعمل عقله وفكره في أنه لا يجوز منع إنسان من الصلاة، وتظل هذه الجملة أو هذه الآية، تهدد كل جبار عنيد إلى يوم الدين، فكفى برؤية الله للظالمين، وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»^(١٢٨).

١٥، ١٦ - كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَلْبِيَةٍ خَاطِقَةٍ

السفع: الجذب بشدة على سبيل الإذلال والإهانة، والناصية: الشعر الذى يكون في مقدمة الرأس. أى: كلا ليس الأمر كما يتصور هذا المغرور الطاغى، ولئن لم يُقْلَع عما هو فيه لنقهرنه ولنذّله، ولنُعَذِّبَه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، وقد كان المعروف عند العرب أنهم إذا أرادوا إذلال إنسان وعقابه، سحبه من شعر رأسه، وقد قُتل أبو جهل في غزوة بدر وسُحب من ناصيته، وصعد عبد الله بن مسعود فوق صدره وجزّ رقبته، وأذّله الله أى إذلال في الدنيا، وينتظره عذاب الآخرة.

نَاصِيَةٍ كَلْبِيَةٍ خَاطِقَةٍ

صاحب هذه الناصية كاذب خاطئ، فنسب الكذب والخطيئة إلى الناصية مبالغة في تعمد هذا الإنسان ارتكاب المنكر، على حد قولهم: نهاره صائم، أى صائم صاحبه، ولأن الناصية هي مظهر الغرور والكبرياء.

١٧ - فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ .

فليدع أهل ناديه ، والمراد أنصاره وأعوانه وعشيرته ، والخطاب هنا للتهديد والوعيد ، فقد صَحَّ أَنْ أباه جهل عندما نهى النبي ﷺ عن الصلاة عند الكعبة ، نهى النبي ﷺ وزجره وأغلظ له القول . فقال أبو جهل : أتهددني يا محمد وأنا أكثر هذا الوادي ناديا ؟ أى : أهلاً وعشيرة وأنصاراً ؛ فأنزل الله تعالى : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ .

١٨ - سَتَدْعُ الزَّبَانِيَةَ .

وتطلق الزبانية فى كلام العرب على رجال الشرطة الذين يرَبِّون الناس ، أى يدفعونهم إلى ما يريدون بمنعهم إليه بقوة وشدة وظلّة ، ومنه قولهم : حرب زبون ، إذا اشتد الدفع والقتال فيها . وناقّة زبون ، إذا كانت تركل كل من يحلبها .

والمراد بالآية : سندعوه زبانية جهنم ، أى ملائكة العذاب ، لأخذه هو وأعوانه .

وجاء فى تفسير القرطبي عن ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته .

١٩ - كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاتَّبِعْ وَاقْتَرِب .

كَلَّا . ردع آخر لهذا الكافر عن الغرور والطغيان ، أى أن هذا الكافر وأهل ناديه وغيرهم أعجز من أن يمنعوك يا محمد عن الصلاة عند الكعبة ، فلا تطعه ، ولا تكثر لئلا تمنعه لك عن الصلاة . واسجد لرَبِّك ، واقترب منه مناجياً وداعياً ومتبتلاً ، فإنه يسمع ويرى .

روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١٣٩) .

اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين ، اللهم حَبِّبْ إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكرِهْ إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، اللهم ارزقنا علماً نافعاً وقلباً خاشعاً ورزقاً واسعاً ، اللهم ارزقنا الخشوع فى الصلاة ، ومُنَّ علينا بالاقتراب منك ، وحضور القلب بين يديك ، واجعلنا متبتكين لك ، راغبين فيما عندك ، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقاك ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى ومعونته وتوفيقه تفسير سورة (العلق) مساء يوم الإثنين ١٢ من ربيع الأول

١٤٢٢ هـ ، الموافق ٤ / ٦ / ٢٠٠١ م .

★ ★ ★

تفسير سورة القدر

أهداف سورة القدر

(سورة القدر مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة عبس)

والحديث فى هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة ، التى سجلها الوجود كله ، فى فرح وغبطة وابتهاال ، ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والمالء الأعلى ، ليلة بدء نزول القرآن على قلب محمد ﷺ . ليلة ذلك الحدث العظيم الذى لم تشهد الأرض مثله فى عظمته وفى دلالته ، وفى آثاره فى حياة البشرية جميعاً ، العظمة التى لا يحيط بها الإدراك البشرى .

وهى ليلة نزل فيها قرآن ذو قدر ، على نبي ذى قدر ، لأمة ذات قدر .

هى ليلة من ليالى شهر رمضان المبارك ، قال تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ... (البقرة : ١٨٥) .

وقد وردت فى تعيين هذه الليلة آثار كثيرة ، منها ما ورد فى البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «إني رأيت ليلة القدر ثم نسيتها أو أنسيتها ، فالتمسوها فى العشر الأواخر من رمضان»^(١) .

ويتوقع طلبها فى أوتار الليالى العشر الأواخر ، أى : ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، وفى كثير من الروايات أنها ليلة ٢٧ من رمضان .

وعظمة هذه الليلة مستمدة من نزول القرآن الكريم فيها ، ذلك الكتاب الخالد الذى وصل الأرض بالسماء ، وكان هداية رب العباد للعباد ، وكان النور والهدى ، والسلامة والسلام للخلق أجمعين .

مع آيات السورة

١ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل منجماً على ثلاث وعشرين سنة ، وبدأ الإنزال فى ليلة مقدرة لها شرفها عند الله ، وزادها شرفاً بدء نزول القرآن فيها .

٢ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . إن شأنها لعظيم عظيمة لا تقدر ، ففيها فاض النور على الوجود كله ، وأسبغ الله فيها السلام والبشرى على البشرية بما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور ، وشريعة وآداب ، تشيع السلام فى الأرض والضمير .

٣ - لَيْلَةُ الْقَدْرِ غَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . أى هى - بما نزل فيها من ذكر وقرآن وهداية - أفضل من ألف شهر من شهور الجاهلية ، أو العبادة والعمل الصالح فيها أفضل من العبادة فى ألف شهر .

روى عن مجاهد أن النبى ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل ليس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله عز وجل : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ غَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ .

٤ - نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ . تنزل الملائكة وجبريل الأمين فى هذه الليلة بالسلام والأمان والرحمة لعباد الله ، وتنزل بأمر الله وتقديره ، من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى عام قابل .

٥ - سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ . هى سلام وأمان ، وثواب موصول ، وعبادة مضاعفة الثواب إلى طلوع الفجر . وفى الصحيحين : «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه» .

فهى ليلة التجرد والإخلاص لله ، ليلة نزول القرآن ، وعبادة الرحمن ، ليلة تغمر الملائكة الأرض بالسلام والأمان من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝ ﴾

المفردات :

ليلة القدر : القدر : الشرف والقيمة والمقام .

ومـا أدراك : المراد بالاستفهام تقرير عظيم شأنها .

خير من ألف شهر : ثواب العبادة فيها خير من ألف شهر ، والعدد لا يفيد التحديد وإنما يفيد التكثير فهي خير من آلاف الشهور في حياة البشر .

الروح : جبريل عليه السلام .

سلام هي : خير كلها .

حتى مطلع الفجر : لا تزال الملائكة متنزلة بالرحمة والمغفرة حتى مطلع الفجر .

التفسير :

١ - إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .

أنزل الله تعالى هذا القرآن الكريم من علياء السماء في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر .

قال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . (الدخان : ٣) .

وقد أضاف الحق سبحانه وتعالى إنزال القرآن الكريم إليه سبحانه تشريفاً لهذا الكتاب ، وتأكيداً لصدق محمد ﷺ حين يبلغ عن ربه ، وأنه حقاً من عند الله .

قال تعالى: **وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... (الإسراء: ١٠٥).**

وسميت بليلة القدر لأن القدر يطلق على الشرف والرفعة ، تقول : فلان ذو قدر ، أى : ذو منزلة عالية وقدر عظيم ، وأيضاً لأنه نزل فيها قرآن ذو قدر ، على نبيّ ذى قدر ، لأمة ذات قدر .
وللقرآن الكريم ثلاثة تنزلات :

النزل الأول : من عند الله تعالى إلى اللوح المحفوظ في السماء السابعة .

قال تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُورْءَانٌ مُّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مُّحْفُوظٍ . (البروج : ٢١ ، ٢٢) .**

النزل الثاني : من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، جملة واحدة في ليلة القدر .

قال تعالى : **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ .**

النزل الثالث : من بيت العزة في السماء الدنيا إلى النبي ﷺ منجماً حسب الوقائع والحوادث في خلال ثلاثة وعشرين عاماً .

قال تعالى : **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . (الإسراء : ١٠٦) .**

وقال تعالى : **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . (الفرقان : ٣٢ ، ٣٣) .**

والسرّ في تكرار نزول القرآن الكريم هو تكريم هذا الكتاب ، باعتباره آخر الكتب السماوية ، فنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، جملة واحدة في ليلة القدر ، إحدى ليالي شهر رمضان .

ثم نزل منجماً أى سورة أو بعض سورة ، أو آية أو آيات ، حتى كمل نزوله في ثلاثة وعشرين عاماً هي مدة رسالته ﷺ ، منها ثلاثة عشر عاماً في مكة وعشرة أعوام في المدينة المنورة ، ثم لقي ﷺ ربه في المدينة وعمره ثلاثة وستون عاماً .

٢ - وَمَا أَزْزَلَكَ مَا تَلِيلَةُ الْقَدْرِ .

أى : ما أعلمك ما شأنها ؟ وما قدرها ؟ وما هو الفضل العظيم لهذه الليلة ، والثواب الجزيل الذى يوزعه الله على العاملين والعابدين فيها ؟

٣ - لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ .

لقد جعل الله ثواب العبادة والعمل الصالح في هذه الليلة أكثر من ثواب العبادة في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وتلك مئذ من الله لا بد أن نحرص على اقتناصها .

وفي الحديث الشريف : «في رمضان ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِمَ ثوابها فقد حُرِمَ» .

فهي منحة ربّانية ، وعطاء إلهي للعاملين والراغبين ، حيث يعطى العطاء الجزيل على العمل القليل .

وقد ورد في الصحيح أنها في العشر الأواخر من رمضان ، روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «إني أريت ليلة القدر ثم نسيتها أو أنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان» ^(١٣١) .

وقد ورد في الأثر أنها في أواخر العشر الأواخر ، أي في إحدى ليالي ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، والسُر في إخفائها أن يجد المؤمن ويحتفى بشهر رمضان لاحتمال أن يصادفها ، فقد كثرت الآراء في تحديدها حتى قيل : إنها في أول ليلة من ليالي شهر رمضان ، وقيل : ليلة ١٧ من رمضان ، والأكثر أن على أنها ليلة ٢٧ من رمضان .

٤ - تَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ .

أي : تنزل الملائكة وجبريل عليه السلام أمين الوحي من السماء ، حيث يستأذنون من ربهم في النزول إلى الأرض إكراماً للمؤمنين ، فيأذن لهم ، ومعهم كل قضاء وأمر قضى الله أن يتم ظهوره وتحققه في هذه السنة ، من ليلة القدر إلى ليلة القدر القادمة ، وهي أمور غيبية نستفيد منها أن الملائكة تنزل من السماء إلى الأرض ، وتنتشر في الأرض ، وقيل : تنزل الملائكة ومعها أربعة ألوية ، فتضع لواء عند الكعبة ، ولواء عند بيت المقدس ، ولواء عند مسجد النبي ﷺ ، ولواء عند طور سيناء ، حيث كلم الله موسى عليه السلام ، وتنتشر الملائكة بنوازع الخير والبر ، والبركة والرحمة ، والهداية والسلام والأمان لكل مؤمن ومؤمنة ، فالموفقون من تطهروا وقاموا بإحياء الليل ، وتلاوة القرآن ، وإخراج الصدقة ، والجهاد في سبيل الله ، والعمل على إعزاز دين الله ، وجمع كلمة المسلمين .

٥ - سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

هي سلام وأمان ، وبركة وثواب وخير ، من أذان المغرب إلى طلوع الفجر .

قال الضحاك في معنى ذلك :

إنه لا يُقدَّر الله في تلك الليلة إلا السلامة ، وفي سائر الليالي يقضى بالبلايا والسلامة .

وروى عن الشعبي : تستمر فيها السلامة ، وتُسَلِّمُ الملائكة على المؤمنين القائمين فيها إلى غاية هي وقت طلوع الفجر ، أي هي ليلة كلها سلام وأمن وخير وبركة ، من مبدئها إلى نهايتها ، أو أن تنزل الملائكة فوجاً بعد فوج متتابعين إلى طلوع الفجر ، والله أعلم .

ملاحظة :

أورد الحافظ ابن كثير في تفسيره ثلاثة فصول في أعقاب تفسير سورة القدر ، من بينها ما يأتي :

اختلف العلماء في تحديد ليلة القدر ، والأحوط ما أخرجه أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : «هي في كل رمضان» .

١ - وقال أبو حنيفة : ترتجى في كل شهر رمضان ، وهو وجه حكاه أبو حامد الغزالي أيضاً .

٢ - قيل : إنها تكون في أول ليلة ، وقيل : ليلة السابع عشر ، وفي صبيحتها ليلة بدر ، وقيل : هي في العشر الأواخر ، خصوصاً أوتارها ، وخصوصاً ليلة السابع والعشرين ، وليلة التاسع والعشرين وختام رمضان .

٣ - قيل : إنها تنتقل في ليالي رمضان ، وقيل : هي في ليلة معينة ، وكان ﷺ يجتهد في العشر الأواخر من رمضان أكثر من غيرها ، وكان يعتكف في المسجد كما ورد في الصحيحين عن عائشة .

وعنها رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا ليله وأيقظ أهله ، وشد المنزر^(١٢٢) .

ومعنى شد المنزر : استعد للقيام والعبادة والطاعة .

وعن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال : «قولى : اللهم إني أعوذُ بحب العفو فاعف عني»^(١٢٣) .

أخرجه أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ، المجلد الثالث (ص ٦٦٢) ، فقد توسع في الحديث عن موضوعات تتصل بليلة القدر ، والله أعلم .

(تم بفضل الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة القدر) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة البينة

أهداف سورة البينة

(سورة البينة مدنية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الطلاق)

وتعرض السورة أربع حقائق تاريخية وإيمانية :

الحقيقة الأولى : هي أن بعثة الرسول ﷺ كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة .

قال تعالى : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ . (البينة : ١ - ٣) .

الحقيقة الثانية : إن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهل ، ولا عن غموض فيه ، وإنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ، وجاءتهم البينة : وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . (البينة : ٤) .

الحقيقة الثالثة : إن الدين في أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ . (البينة : ٥) .

الحقيقة الرابعة : إن الذين كفروا من بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية ، ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيئاً .

مع آيات السورة

١ - لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة ، كان الفساد قد عم أرجاءها كلها ، بحيث لا يُرْتَجَى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة ، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد

أهلها جميعاً ، سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حَرَفُوها ، أو المشركون في الجزيرة العربية وفي خارجها .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة ، فارقة فاصلة .

٢ - رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً . أى : محمد ﷺ - وهو يدل من البينة - يقرأ عليهم من صفحات كتابه المطهرة ، وآياته المقدسة ، ما يشتمل على المضمون الصحيح لكتبهم المنزلة على أنبيائهم ، موسى وعيسى وغيرهما ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

٣ - فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ . يطلق الكتاب على الموضوع ، كما تقول : كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ... أى : يشتمل القرآن على موضوعات وحقائق قيمة ، تحتاج إليها البشرية ، ولا تصلح إلا بها .

لقد كان الفساد قد استشرى في الأرض قبل رسالة محمد ﷺ ، وطمست معالم الحق ، وبهتت حقائق الأديان ، وانسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، واستبد الحكام والملوك ، وعظمت نكايات اليهود بالنصارى ، واشتد تدبير الكيد من النصارى لليهود ، واختلف النصارى حول طبيعة المسيح ، وعذب الحكام طوائف المخالفين .

٤ - وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ، وإنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

٥ - وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنْفَاءً وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ .

وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق : عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ . وهذا هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة ، «وقصارى ما سلف ، أن أهل الكتاب افترقوا في أصول الدين وفروعه ، مع أنهم ما أمروا إلا أن يعبدوا الله ، ويخلصوا له في عقائدهم وأعمالهم ، وألا يقلدوا فيها أباً ولا رئيساً ، وأن يردوا إلى ربهم وحده كل ما يعرض لهم من خلاف»^(١٣٤) .

٦ - **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ .**

لقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض ، لترد الناس إلى الإصلاح ، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة ، الشاملة الكاملة ، فقد تحدد الموقف أمام الجميع بصفة قاطعة . فمن كفر بهذه الرسالة أو أشرك بالله فهو في نار جهنم يصلى نارها ، وهو من شرار الخلق ، جزاء إعراضه عن دعوة الحق ، وعن رسالة الله .

٧ - **إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .** أما من اهتدى قلبه للإيمان ، وكان إيمانه عن يقين وصدق ، فأتبع الإيمان بالأعمال الصالحات ، من عبادة وخلق ، وعمل وتعامل ، والتزام بشريعة الله والحفاظ عليها ، **أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .** وهم صفوة الله من خلقه ، حيث منحهم الهدى ، ويسر لهم العمل بأحكام هذا الدين .

قال تعالى : **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ ... (الأنعام : ٩٠) .**

٨ - **جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ .** لقد أحسن الله جزاءهم في جنات إقامة دائمة ، تجرى من تحتها الأنهار ، في جمال ونعمة ولذة دائمة ، وأسمى من ذلك سعادتهم برضا الله عنهم ، ومحبة لهم ، ثم اطمئنناهم ورضاهم العميق عن ربهم ، وثوابه ونعيمه . وذلك كله متوقف على خشية الله ، والخوف منه والالتزام بأمره .

ملخص السورة

لما بعث الله محمدا ﷺ ، تغير حال اليهود والنصارى والمشركين ، فمنهم من آمن به ، ومنهم من تردد في صحة الدين ، ومنهم من عاند وتكبر ، مع أن الله تعالى ما أمرهم إلا ليعبدوه مخلصين له الدين ، ولكن الفساد كان قد استشرى بين أرباب الديانات السابقة ، وكانت البيئة الواضحة والنور الهادي هو بعثة محمد ﷺ . وقد أوضح الله تعالى أن من كفر به سيصلى نار جهنم ، وأن من آمن به سيمتتع بروضان الله في جنات النعيم .

من فضائل السورة

أخرج أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : **«إن الله أمرني أن أقرأ عليك : لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...»** قال : وسأني لك يا رسول الله ؟ قال : **«نعم»** . قال : فبكي أبي ^(١٣٥) .

أحوال الناس قبل بعثة محمد ﷺ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَرَيْبِكُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾
 رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝٢﴿ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ۝٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۝٥﴾ ﴿

المفردات :

من أهل الكتاب : اليهود والنصارى .

المشركين : عبدة الأصنام .

منفكين : منتهين عما هم عليه .

البينة : الحجة الواضحة ، أو محمد الموعود به في كتبهم .

رسول : بدل من البينة ، وعبر عنه بالبينة للإشارة إلى ظهور أمره ووضوح دينه .

صحفا مطهرة : مبرأة من الزور والضلال ، والمراد بها القرآن .

فيها : في صحف القرآن .

كتب قيمية : مضمون الكتب السماوية الأخرى ، وهي بلا شك لها قيمتها .

وما تفرق : اختلفوا إلى طوائف في الدين .

ما جاءتهم البينة : يتحقق الموعود برسالة محمد ﷺ .

وما أنمروا، أى فى كتبهم .

مخلصين ، جاعلين الدين خالصاً لله .

حنفاء ، مائلين عن زائف العقائد إلى الإسلام دين الحق .

تمهيد :

أرسل الله محمداً ﷺ على حين فترة من الرسل فى وقت اشتد فيه الظلام ، واحتاجت الدنيا إلى رسالة واضحة تبين الحق ، وتفضح الباطل .

كانت الفرس تعبد النار وتسجد لها ، وكانت الروم فى خلاف شديد حول طبيعة المسيح عليه السلام ، وكان الحكام يعذبون المعارضين لدينهم ، وفى أوسع مكان بالقارة الهندية كان الكاهن يختص نفسه بكل عروس فى أيامها الأولى ، زاعماً أنه يبيت فى الزواج البركة والنماء ، وليس الأمر إلا الدنس والفحشاء ، واشتد القتال بين اليهود والنصارى ، وفى بلاد العرب كانت هناك فضائل لكنها اختلطت بالردائل ، ومن بين ردائهم : وأد البنات ، وشيوخ الزنا والربا وشرب الخمر ، وقيام الحروب لأتفه الأسباب ، وكأن البشرية استغاثت بالله أن يرسل لها من يهديها من الظلمات إلى النور ، فأرسل الله تعالى محمداً ﷺ .

التفسير :

١ - لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ .

أى : كان الفساد قد عم أرجاء الأرض ، وأقصى الدين عن الدنيا ، وانكمش رجال الدين فى الصوامع والمعابد ، وكان الكفر قد تطرق إلى العقائد ، بسبب تحريف الكتب السماوية ، وحذف أجزاء منها أو إضافة أشياء إليها ليست منها ، وما كان أهل الكتاب والمشركون لينفكوا ويحولوا عن هذا الكفر الذى صاروا إليه ، إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بيئة واضحة فارقة فاصلة .

٢ - رَسُولٌ مِّنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً .

وهذه البينة الواضحة وضوح الشمس هى النور المبين ، هى السراج الوهاج ، هى محمد ﷺ ، دعوة إبراهيم ، ويسرى عيسى ، ورأت أمه حين حملت به أن نوراً خرج منها أضواء مشارق الأرض ومغاريها ، هذا النبى هو رسول من الله إلى عباده ، ختم الله به الرسالات ، وجعل شريعته خاتمة الشرائع .

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً .

نعم هو رسول الله ، أنزل الله عليه وحى السماء ، فهو يقرأ ما تتضمنه صحف القرآن المطهرة من الخلط والكذب ، والشبهات والكفر والتحريف واللبس ، بل فيها الحق الصريح ، فيها التشريع والإرشاد والهدى والحكمة .

قال تعالى : يَتْلَاهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّبِيرًا .

(الأحزاب: ٤٥ ، ٤٦)

٣ - فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ .

الكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال : كتاب الطهارة ، كتاب الصلاة ، كتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة - وهى القرآن الكريم - مشتملة على كتب قيمة ، أى موضوعات مهمة ، منها : توحيد الله ، بدء الخليقة ، خلق الكون ، أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أحكام البيع والرهن والمعاملات ، آداب السلوك مثل غض البصر ، تحريم الزنا والربا وعقوق الوالدين ، الأمر ببر الوالدين ، صلة الرحم ، إكرام الضيف ، رعاية اليتامى والفقراء والضعفاء ، وغير ذلك من معالم الدين وآدابه ، وشرائعه وأحكامه وهداياته ، وقصصه وأخباره .

٤ - وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ .

كان اليهود والنصارى يقرأون فى كتبهم أن نبياً أظلم زمانه ، بشرت بذلك التوراة والإنجيل ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ... (الأعراف: ١٥٧) .

وكما قال تعالى : وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... (الصف: ٦) .

وفى الحديث الشريف يقول النبى ﷺ : «لو كان موسى بن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعى»^(١٣٧) .

لقد كانوا قبل البعثة المحمدية متفقين على انتظار نبي آخر الزمان ، وأنه النبى الخاتم ، وكان اليهود يقولون لإخوانهم من العرب من الأوس والخزرج : لقد أظلم زمان نبى نعرف صفاته ، فسنستعجه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ... (البقرة: ٨٩) .

لقد آمن بعض أهل الكتاب ودخلوا في الإسلام ، مثل عبد الله بن سلام من اليهود ، وكفر آخرون زاعمين أن محمداً ليس هو النبي الذي بشرت به التوراة والإنجيل ، وأن هذا النبي سيأتي فيما بعد ، لكن القرآن قد صدق في أن محمداً ﷺ كان ، رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ... (الأحزاب : ٤٠) . ولن يأتي رسول بعد محمد ، فإن من أسماه العاقب ، أي الذي يأتي في آخر الرسل .

قال ﷺ : «أنا العاقب فلا نبي بعدى»^(١٣٧)

والخلاصة : أن محمداً ﷺ لما جاءهم بالرسالة الواضحة البينة ، والكتاب الواضح المبين ، اختلفوا : فمنهم من آمن به ، ومنهم من كفر ، مع وجود البينة أي الحجة الواضحة أمامه ، وهي محمد ﷺ وكتابه المبين .

هـ - وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ .

أي : إنهم تفرقوا بشأن محمد ﷺ ودينه ورسالته ، مع أنهم لم يؤمروا في التوراة والإنجيل والقرآن الذي جاءهم من عند الله ، إلا بعبادة الله وحده ، وتكون عبادتهم خالصة لا يشركون بالله شيئاً ، حُنَفَاءَ . مائلين عن كل ألوان الشرك ، أو مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، عند ظهور نبي آخر الزمان ، مع إقامة الصلاة في أوقاتها ، وتمام شروطها وأركانها وخشوعها ، وإخلاص القلب لله فيها ، وإيتاء الزكاة التي أوجبه الله لمستحقيها من الفقراء والمساكين .

وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ .

وهذا هو دين الملة المستقيمة ، الموصلة للعبد إلى رضا الله وجنات الخلد .

وعيد الكفار ، ووعد الأبرار

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شُرُءُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ٦ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ٧ ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ ٨ ﴿

المفردات :

البرية ، الخليفة .

جنات عدن : بساطين خلد ومقام أبدى .

الأنهار : أى الأنهار الموعود بها من لبن وعسل وخمر .

خشى ربه : خافه فى الدنيا فأطاعه ، ونجا فى الآخرة من عذابه .

التفسير :

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شُرُءُ الْبَرِيَّةِ .

إنهم يعرفون أن محمداً آخر الرسل ، وأن كتابه آخر الكتب ، وأنه آخر الأنبياء ، وقد بشرت به التوراة والإنجيل ، فالذين كفروا بمحمد ورسالته من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وكذلك من مشركى العرب عبادة الأصنام والأوثان وكل مشرك بالله ، هؤلاء فى نار جهنم ، خالدين فيها . خلوداً أبدياً سرمدياً ، أُولَئِكَ هُمْ شُرُءُ الْبَرِيَّةِ . هؤلاء هم شر الخليفة ، والبرية هى الخليفة ، إذ هى من برأى ، أى خلق ، والبرائى الخالق سبحانه وتعالى .

٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ .

إن الذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح ، أى بكل متطلبات الإيمان .

قال ﷺ: «ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل» (١٣٨).

أُولَئِكَ هُمُ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ . هؤلاء هم خير خلق الله ، هؤلاء هم الصفوة المختارة ، هم خير أمة أخرجت للناس ، واستجاب لدعوة الله ، وحقت رسالة الإسلام ووحى السماء ، من فكرة نظرية إلى أمة تستمع للوحي وتستجيب للأمر والنهي .

٨ - جَزَأَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جُزْءٌ عَدَنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ .

هذا هو الوسام الأخير على صدر المؤمنين ، إن الجزاء عند الله الغنى القوي الكريم ، هذا الجزاء في الدار الآخرة هو جنات إقامة دائمة في بساطين نضرة ، تجري من تحتها الأنهار ، لسعادتهم وأنسهم مع الخلود الأبدى السرمدي مع رضوان الله عنهم ، ورضاهم عن ربهم ، ويا له من ثواب عظيم .

إن الله العلي الكبير يتفضل بالرضا عن إنسان ، ثم يسمح لهذا الإنسان بالرضا عن ربه سبحانه وتعالى ، هذا الفضل لمن خشى ربه ، وخاف مقامه ، وعلم ما يجب لله من كمالات .

قال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (فاطر: ٢٨) .

اللهم اجعلنا مع المؤمنين الصادقين ، اللهم اجعلنا ممن رضيت عنهم ورضوا عنك ، اللهم ارزقنا خشيتك وحبك والصدق في الإيمان بك ، اللهم ارزقنا الإخلاص والقبول ، اللهم آمين .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

تم بفضل الله تعالى ومعونته وتوفيقه تفسير سورة (البيئة) عصر يوم الأربعاء ١٤ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ٦ / ٦ / ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة الزلزلة

أهداف سورة الزلزلة

(سورة الزلزلة مدنية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة النساء)

وهى سورة تهز القلب هزاً عنيفاً ، يشترك فى هذه الهزة الموضوع والمشهد ، والإيقاع اللفظى ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء فى بضع فقرات قصار ، وهذا هو طابع الجزء كله يتمثل فى هذه السورة تمثلاً قوياً .

مع آيات السورة

١ - ٥ - إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .

تصف الآيات مشهد القيامة حين تضطرب اضطراباً شديداً ، وترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً ، وتزلزل زلزلاً ، وتنفض ما فى جوفها نفصاً ، وتخرج ما يثقلها من الكنوز والدفائن والأموات ، وهو مشهد يخلع القلوب ، ويهز كل ثابت ، ويخيل للسامعين أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور . ومثال هذا ما نراه فى حياتنا من جبال النار الثائرة (البراكين) ، كما حدث فى إيطاليا سنة ١٩٠٩ م من ثوران بركان فيزوف ، وابتلاعه مدينة مسينا ، ولم يبق من أهلها أحد .

فإذا شاهد الإنسان القيامة بأهوالها ، والأرض تتحرك فى زلزال عنيف ، وتخرج ما فيها ، فإنه يتساءل من شدة هول ما يرى : وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . وهو سؤال المتحير الذى يرى ما لم يعهد ، وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنخ معها ، ويحاول أن يمسك بأى شئ يشده ويثبت ، وكل ما حوله يمر موراً شديداً .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . فى ذلك اليوم تنطق الأرض بلسان الحال ، أى أن حالها وما يقع فيها من الاضطراب والانقلاب ، وما لم يعهد له نظير من الخراب ، يُعلم السائل ويفهمه الخبر : بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ

لَهَا . وَأَمْرَهَا أَنْ تَمُورَ مُورًا ، وَأَنْ تَزْلَزَلَ زَلْزَالَهَا ، وَأَنْ تُخْرَجَ أَتْقَالَهَا ، وَأَنْ تُحَدَّثَ أَخْبَارَهَا ، فهذا الحال حديث واضح عما وراءه ، من أمر الله ووحيه إليها .

٦ - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ . في ذلك اليوم الذي تحدث فيه الزلزلة والهول ، يقوم الناس من القبور أشتاتًا متفرقين ، فالمحسنون فريق ، والمسيئون فريق آخر ، ويرى كل إنسان جزاء عمله .

٧ ، ٨ - فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه ، ومن يعمل من الشر ولو شيئًا قليلًا فإنه يجد جزاءه .

مقاصد السورة

اشتملت هذه السورة الكريمة على ثلاثة مقاصد :

- ١ - اضطراب الأرض يوم القيامة ، ودهشة الناس حينئذ .
- ٢ - زهاب الناس لموقف العرض والحساب أشتاتًا متفرقين ليروا أعمالهم .
- ٣ - يكافأ الإنسان على عمله من خير وإن كان مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، ويُجازى على ما عمل من شر مهما كان صغيرًا .

★ ★ ★

فضل سورة الزلزلة

أخرج الترمذى - وقال : هذا حديث حسن - عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : «هل تزوجت يا فلان» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ولا عندي ما أتزوج !! قال : «أليس معك : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ثلث القرآن» ، قال : «أليس معك : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن» ، قال : «أليس معك : قُلْ يَتَّبِعُنَاُ الْكُفْرُونَ .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن» ، قال : «أليس معك : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن ، تزوج»^(١٢٤) . [مختصر تفسير ابن كثير بتحقيق الصابوني] .

★ ★ ★

أَمَارَةُ الْقِيَامَةِ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّسُرُؤَ أَعْمَالِهِمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧ ﴾

المفردات :

زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ : اهتزت واضطربت بعنف وشدة .

زِلْزَالَهَا : المقدر لها ، وذلك عند النفخة الثانية .

أَثْقَالَهَا : ما في باطنها من الموتى .

الْإِنْسَانُ : الكافر أو كل إنسان .

مَا لَهَا : ماذا أصابها من شدة ما يرى .

تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا : ما كان فيها من أعمال العباد من خير أو شر .

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا : تحدث بالأخبار بوحى من الله بما تقول .

يَصْدُرُ النَّاسُ : يرجعون إلى ربهم .

أَشْتَاتًا : جمع شتيت ، أى : متفرقين .

مِثْقَالَ : المثقال ما يوزن به ، ومثقال الشيء ميزانه من مثله .

ذرة ، مثل فى تناهى الصغر .

يسره : المراد يجازى به .

التفسير :

١ - إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .

إذا كان يوم القيامة ينفع إسرافيل فى الصور النفخة الأولى ، فيصعق الناس جميعاً ، وتموت الخلائق ، ويمكثون أربعين سنة ، ثم ينفع إسرافيل فى الصور النفخة الثانية ، فتهتز الأرض اهتزازاً شديداً ، ولا يبقى فوقها جبل ولا مرتفع ، بل تدك الجبال دكاً ، وتضطرب الأرض وتفقد تماسكها .

قال تعالى : يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِرَاءً رُبُكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ « يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » (الحج : ١ ، ٢) .

وقال تعالى : إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . (الباقعة : ٤) .

وشبيه بذلك ما شاهدته البشرية من وقوع الزلازل والبراكين التى تبطل قرى بأكملها ، وينقلب أعلاها أسفلها ، وأسفلها أعلاها .

٢ - وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا .

لفظت الأرض ما فى أحشائها من الأموات والدفائن ، كما قال تعالى : وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ » . (الانشقاق : ٣ ، ٤) .

فخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف ، فيتحسّرُ العصاة إذا نظروا إليها ، حيث عصوا الله بهذه الكنوز ، ثم تركوها لا تغنى عنهم شيئاً ، فلا ينظر إنسان إلى الذهب وبريقه ولمعانه ، بل ولا ينقله من مكانه ، لأنه لا يفيد شيئاً فى ذلك الوقت .

أخرج مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تقىء الأرض أفلاذ كبدها ، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قَتَلْتُ ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رجعى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطعت يدى ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فلا يأخذون منه شيئاً»^(١١٠) .

٣ - وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا .

تعجب الإنسان من أمر الأرض وما عليها ، حيث سَيرت الجبال وصيرت هباءً ، واهتزت الأرض وتمددت ، وألقت ما فى بطنها وتخلّت عنه ، وشاهد الإنسان أهوالاً واضطراباً ، وتبدّلت الأرض غير الأرض والسموات غير السماوات ، فتعجب الناس كل الناس ، وذهب فريق من المفسرين إلى أن التعجب والدهشة تكون من شأن الكافر الذى كان ينكر البعث والحشر والقيامة ، أما المؤمن فيقول : هَلْذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . (يس : ٥٢) .

٤ ، ٥ - يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا .

يومئذ تشهد أحوال الأرض وهيئاتها بأن الله أمرها أن تفعل ذلك ، وهو أمر تكوينى .

قال تعالى : إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

فالحديث الذى تحدّثه الأرض وتشهد به يتم بلسان الحال لا بلسان المقال ، كما يقول إنسان : هذه الدار تخبرنى أنها قريبة العهد بسكنى أهلها فيها ، لما يُشاهد من آثار ذلك .

وقيل : إن الأرض تشهد بلسان أو بكلام أو دلالة تفيد ما وقع عليها ، فتشهد الأرض على القاتل والزانى ، كما تشهد الأماكن والمسكن للعابد والمتصدق والمعلم ، والأمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، أى كما تشهد الجوارح على الإنسان ، تشهد الأرض بما فعله الإنسان عليها .

أخرج الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى - واللفظ له - عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . ثم قال : «أتدرون ما أخبارها» ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها» (١١١) . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وقال الطبرى : إن هذا تمثيل ، والمراد أنها تنطق بلسان الحال لا بلسان المقال .

٦ - يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ آثَاسُ أَسْهَاتٍ يُرَوُّاْ أَعْمَلُهُمْ .

فى ذلك اليوم - يوم الزلزلة الشديدة ، والهول العظيم - يتقدم الناس حال كونهم فرقاً شتى : فريق مؤمن ، النور يسعى بين يديه ومن خلفه ، وفريق كافر ، وفريق فاجر أو عاص ، هؤلاء العصاة يؤخذون

ليشاهدوا أعمالهم ، وبإلها من لحظة حرجة ، لحظة الندم والحسرة والألم على فعل هذه الأمور المخزية ، في وقت يجتمع فيه الأولون والآخرون .

قال تعالى : وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاصِرًا وَلَا يُظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

٧ ، ٨ - فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

فمن يعمل أى خير مهما كان صغيراً فإنه سيلقى الجزاء الحسن من جنس العمل ، ومن يعمل أى شر مهما كان صغيراً ، فإنه سيلقى الجزاء المؤلم من جنس العمل .

وهاتان الآيتان جامعتان للإفادة بالجزاء العادل من الله عن كل صغيرة وكبيرة ، وأن الناس ستجازى بالإحسان وإساءة .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الكافر يُكافأ على الأعمال الصالحة بجزاء دنيوى ، ثم يُعاقب على كفره بجهنم ، وذهب فريق من العلماء كالإمام محمد عبده والقاسمى فى تفسيره والقاشانى وغيرهم إلى أن هاتين الآيتين تفيدان أن كل عامل خير سيلقى جزاء خيره ، وأن كل عامل شر سيلقى جزاء شره بدون استثناء بين كافر ومؤمن .

وجاء فى تفسير المراعى ما يأتى :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

أى : فمن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يجد جزاءه ، ومن يعمل الشر ولو قليلاً يجد جزاءه ، لا فرق بين المؤمن والكافر .

وحسنات الكافرين لا تخلصهم من عذاب الكفر فهم به خالدون فى الشقاء ، وما نطق من الآيات بحبوط أعمال الكافرين وأنها لا تنفعهم ، فالمراد به أنها لا تنجيهم من عذاب الكفر وإن خففت عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم من السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر فلا يخفف عنهم منه شىء ، يرشد إلى ذلك .

قوله تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا

وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

فقوله : فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ... صريح في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء ، وأن كلاً يؤمى يوم القيامة جزاءه ، وقد ورد أن حاتمًا يخفف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يخفف عنه لسورده بولادة النبي ﷺ ، هذا تلخيص ما قاله الأستاذ الإمام في تفسير الآية^(١١٧) .

من تفسير ابن كثير

يَوْمَئِذٍ يُصَادِرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا ...

أى : يرجعون عن موقف الحساب أَشْتَاتًا . أى : أنواعًا وأصنافًا ما بين شقى وسعيد ، وأمور به إلى الجنة ، وأمور به إلى النار .

وقوله تعالى : لِيرَوْا أَغْمَلَهُمْ . أى : ليجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر ، ولهذا قال : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

روى البخارى ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الخير لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر» الحديث . فسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر ؟ فقال : «ما أنزل الله فيها شيئًا إلا هذه الآية الفائزة الجامعة : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ،»^(١١٨) .

وروى الإمام أحمد ، عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي ﷺ فقرأ عليه : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . قال : حسبى أن لا أسمع غيرها^(١١٩) .

وفى صحيح البخارى ، عن عدى مرفوعاً : «اتقوا النار ولو بشق تمر» ، ولو بكلمة طيبة» .

وله أيضاً فى الصحيح : «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تغرق من دلوك فى إناء المستسقى ، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط»^(١٢٠) .

وفى الصحيح أيضاً : «يا معشر نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»^(١٢١) . يعنى ظلفها ، وفى الحديث الآخر : «ردوا السائل ولو بظلف محرق» .

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : «يا عائشة ، استترى من النار ولو بشق تمره فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان»^(١٢٢) .

وروى عن عائشة أنها تصدقت بعنبية وقالت : كم فيها من مثقال ذرة .

وروى ابن جرير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما نزلت : إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وأبو بكر الصديق رضى الله عنه قاعد ، فبكى حين أنزلت ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : يبكينى هذه السورة ، فقال له رسول الله ﷺ : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر الله لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم »^(١٩٤) .

وروى ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . وذلك لما نزلت هذه الآية : وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِمُّونَ أَسْبَابًا . (الإنسان : ٨) . كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشئ القليل إذا أعطوه ، فيجىء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه للتمرّة والكسرة والجوزة ونحو ذلك فيردونه ، ويقولون : ما هذا بشئ إنما نؤجر على ما نعطى ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير : الكذبة ، والنظرة ، والغيبة ، وأشباه ذلك ، يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر ، فرغبتهم فى القليل من الخير أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثُر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثُر ، فنزلت : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ^(١٩٥) . يعنى : وزن أصغر النمل . خَيْرًا يَرَهُ . يعنى : فى كتابه ويسره ذلك ، قال : يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة وبكل حسنة عشر حسنات ، فإذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضا بكل واحدة عشرا ، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة دخل الجنة .

وروى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » ، وإن رسول الله ﷺ ضرب لذلك مثلاً قوم نزلوا أرض قلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود ، حتى جمعوا سوادا ، وأججوا نارا ، وأنضجوا ما قذفوا فيها^(١٩٦) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم^(١٩٧)

★ ★ ★

(تم بحمد الله وفضله تفسير سورة الزلزلة) .

★ ★ ★



تفسير سورة العاديات

أهداف سورة العاديات

(سورة العاديات مكية، وآياتها ١١ آية، نزلت بعد سورة العصر)

تصف سورة العاديات الحرب بين كفار مكة والمسلمين ، وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادرة للشر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة فى وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير فى صفوفه الذعر والفرار . يليه مشهد ما فى النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد ، ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور ، وتحصيل ما فى الصدور ، وفى الختام ينتهى النقع المثار ، وينتهى الكنود والشح ، وتنتهى البعثرة والجمع إلى نهايتها جميعاً .. إلى الله ، فستقر هناك : **إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ** . (العاديات : ١١) .

مع آيات السورة

١ - ٥ - **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۖ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۖ وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۖ فَأَنْزِلُنَّ بِهِ نَقْعًا ۖ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا .**

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة ، منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجرى ، قارعة للصخر بحوافرها ، حتى تورى الشرر منها ، مغيرة فى الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار ، وهى تتوسط صفوف الأعداء على غرة ، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب .

٦ - ٨ - **إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۖ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۖ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ .**

يقسم سبحانه على أن الإنسان كنود جحود ، كفور بنعمة الله ، يعد المصائب وينسى النعم .

«وروى عن النبى ﷺ : «الكنود الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمتنع رفده» . كأنه لا يعطى مما أنعم الله به عليه ، ولا يراف بعباد الله كما راف الله به ، فهو كافر بنعمة ربه . غير أن الآية عامة ،

والمراد منها ذكر حالة من حالات الإنسان التي تلازمه في أغلب أفراده^(١٣١)، إلا من عصمهم الله، وهم الذين رَوَّضُوا أَنْفُسَهُمْ على فعلِ الفضائل وترك الرذائل.

وسر هذه الجملة أن الإنسان يحصر همه فيما حضره، وينسى ماضيه وما عسى أن يستقبله، فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرَّته فَضَّلَتْهُ، ومنعه البخل والحرص من عمل الخير.

وَأِنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ. وإن أعماله كلها لتشهد بذلك، وإنه ليعترف بذلك بينه وبين نفسه، أو إن الله على كُنُودِهِ لشاهد على سبيل الوعيد.

وَأِنَّهُمْ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ. وإن الإنسان بسبب حبه للمال وتعلقه بجمعه وإسارته لبخيل شديد في بخله، ممسك مبالغ في إمساكه، متشدد فيه.

ومن ثم تجيء اللفظة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والشح والأثرة، مع عرض مشهد من مشاهد الآخرة.

٩ - ١١ - أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ * رُحُصَلٌ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ.

وهو مشهد عنيف مثير: بعثرة لما في القبور، بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير، وتحصيل لأسرار الصدور التي ضمنت بها وخبأتها بعيداً عن العيون، تحصيل بهذا اللفظ القاسي، ومفعول الفعل: يَعْلَمُ. محذوف لتذهب النفس في تخيله كل مذهب.

أى: أفلا يعلم الكنود الحريص ما يكون حاله في الآخرة يوم تكشف السرائر؟ أفلا يعلم ظهور ما كان يُخْفِي من قسوة وتحيل؟ أفلا يعلم أنه سيحاسب عليه؟ أفلا يعلم أنه سيوفى جزاء ما كفر بنعمة ربه؟

وتختتم السورة بعدل الجزاء، وشهادة الخير، فتقول: إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ.

فالمرجع إلى ربهم، وإنه لخبير بهم يَوْمَئِذٍ. وبأحوالهم وبأسرارهم، والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال، وإنما خص هذا اليوم بذلك لأن هذه الخبرة يعقبها الحساب والجزاء.

كما قال تعالى: سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا... (آل عمران: ١٨١). مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلاً، والمراد سنجازيهم بما قالوا جزاء يستحقونه.

إن السورة قطعة رائعة لعرض سلوك الإنسان، والوصول به إلى مرحلة الجزاء، في أسلوب قوى أسر معنى ولغظاً، على طريقة القرآن المبين.

المعنى الإجمالى للسورة

- ١ - القسم بخيل الغزاة والمجاهدين .
- ٢ - بيان حال الإنسان إذا خلا قلبه من الإيمان .
- ٣ - ذم الشح والبخل وجحود النعمة .
- ٤ - عرض صورة من مشاهد البعث والحساب والجزاء .

★ ★ ★

القسم بالخيل على جحود الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ①﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا ②﴾ فَأَلْغِيرَاتِ صُبْحًا ③﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④﴾
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦﴾ وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ⑨﴾ وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ
⑩﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪﴾

المفردات :

العاديات : الخيل التي تعدو بسرعة .

الضَّبْحُ : صوت أنفاس الخيل حين الجرى .

الموريات قدحا : هي الخيل تضرب بحوافرها الأرض فتقدح نارًا ، يقال : أورى الزناد ، إذا أخرج النار على هيئة شرار .

المغيرات صبحا : خيل الغزاة تُغير صباحًا .

الإثارة : التهيج وتحريك الغبار .

النَّقْع : الغبار .

فوسطن به جمعا : توسطن جمعا من الكفار ففرقنه وهزمنه .

الكنود : جحود النعم .

شَهِيد : يشهد على جُودِه لسان حاله بأقواله وأفعاله .

الخَيْر : المال .

لشديد ، الحرص عليه .

بعثر ما فى القبور ، أخرج ما فيها من الموتى .

حصل ما فى الصدور ، أبرز المكنون فى الصدور ، وظهرت الأسرار .

لخبير ، بالغ علمه بكل شئ .

التفسير :

١ - وَالْعَلَيْتِ ضِيْحًا .

أقسم الله تعالى بالخيال التى تخرج للجهد فى سبيل الله ، ولها صوت صياح وحممة ، وهو الضبح .

قال ابن عباس : الخيل إذا عدت قالت : أَيْحُ أَيْحُ ، فذلك ضبحها .

وقال أبو السعود : أقسم سبحانه بخيل الغزاة التى تعدو نحو العدو ، وتضبح ضبحاً ، وهو صوت أنفاسها عند عدوها .

٢ - قَالُمُورِيَّتٍ قَدْحًا .

هى نفس الخيل تعدو نحو العدو ولها حممة ، ومن شدة وثبها تقدح الشر بحوافرها من صدم حوافرها للحجارة ، واندفاعها فى سيرها عند الجرى .

٣ - قَالْمُغِيرَاتِ صُحُحًا .

أى : فالخيل تغير على العدو فى الصباح المبكر قبل شروق الشمس ؛ لأخذه بغتة على غير أهبة واستعداد .

جاء فى روح المعانى للألوسى :

هذا هو المعتاد فى الغارات ، كانوا يستعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ، ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون .

٤ - قَاتَرْنَ بِهِ نَفْعًا .

فأثارت الخيل الغبار الكثيف لشدة العدو فى الموضع الذى أغرن به .

قال بشار بن برد :

كأن منار النقع فوق رؤوسنا وأسياقتنا ليل تهوى كواكبها

والمعنى :

أثارت خيلنا غبارًا كثيفًا فوق رؤوسنا كالليل المظلم ، وتحركت سيوفنا لقتال الأعداء وسط هذا الظلام ، فكان بريق السيوف يشبه تساقط الكواكب في ظلام الليل .

٥ - فَرَسَطَنَ بِهِ جَمْعًا .

فتوسطن جموع الأعداء ، ففرقن صفوفهم ، وشتتن شملهم .

قال الألوسي : والفاءات للدلالة على ترتيب ما بعد كل منها على ما قبله ، فتوسط الجمع مترتب على الإثارة ، المترتبة على العدو السريع .

إن نظرة إلى جمال التعبير ، وإقسام القرآن الكريم بالخيال المغيرة التي تصلح ، وبالشر الذي يتطايرو من حوافرها ، وبالإغارة في وقت الصباح الباكر ، وبالغار المتطايرو من سرعة الجرى ، وبالوصول إلى وسط الجموع لتجديدها وتفريقها - كل ذلك ليلفت نظر المسلمين إلى أهمية الجهاد والغزو والكفاح ، والإعجاب بحركة الخيل وعدوها ، واقتحامها المعارك لتشتت العدو وإصابته في الصميم .

وقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة الحث على الجهاد وإعداد العدة .

قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ... (الأنفال : ٦٠) .

وذلك يوجب علينا العناية بالخيال وبسائر الأسلحة اللازمة للحرب ، فلا شيء يمنع الحرب أكثر من الاستعداد لها .

٦ - إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ .

أى : وحق الخيل التي يعتلى صهوتها المجاهدون في سبيل الله ، والتي تجرى بهم في ساحات القتال فيسمع صوت أنفاسها ، والتي تظهر شر النار من أثر صلك حوافرها بالحجارة ، والتي تغير على العدو وقت الصباح ، فتثير الغبار وتمزق جموع الأعداء . إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . أى : من طبيعة الإنسان جحود النعمة والأثرة بها ، فهو يعد المصائب وينسى نعم الله عليه .

وقد ورد في السُّنة أن الكنود هو: «الذى يأكل وحده، ويضرب عبده، ويمنع رُفده». فهو أنانى ليس لديه إيثار أو معونة للآخرين، وهى مُسئَة العشرة يؤذى الخادم والأجير، وهو بخيل شحيح لا يوجد بالخير على المحتاجين إلى معروفه.

٧ - وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ .

أى: إنه إذا خُلِّي بينه وبين نفسه رجع إلى الحق، واعترف أنه لم يشكر ربَّه حقَّ الشكر، ولم يستخدم نعمة الله فيما خلَّقت له، وأنه ضَنَّ بمعروفه على المحتاجين إليه، فهى شهادة بلسان الحال، وهى أفصح من لسان المقال.

٨ - وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ .

وإنه لشديد المحبة للمال، وهو لذلك شديد الحرص عليه، لا يسهل عليه أن ينفقه فى وجوه الخير.

٩ - أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ .

من شأن القرآن أن ينقل الإنسان مباشرة إلى بعض المشاهد لتحريك قلبه، لتنبيه ضميره، لتطهير فؤاده، لإيقاظ العظة والاعتبار فى وجدانه، فهذا الإنسان الكنود الجَّحود، الشديد الحبِّ للمال، الضنين به على مستحقِّيه، ماذا يكون حاله إذا بعثرت القبور، وبُعِثَتِ الأموات، وخرج الموتى سراعًا للحساب والجزاء؟

١٠ - وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ .

ظهر وانكشف كل ما ستره الإنسان فى الدنيا، وأصبح واضحًا مكتشفًا أمام العيان، لا يستطيع إنسان أن يحجب سرائره وخباياه، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. (الطارق: ٩). وتظهر الخفايا، ويُعرض الجميع على اللَّهِ، حفاة عراة غرلاً، لقد بان المستور، وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ. أى جُمِعَ ما فى القلوب من خير اكتسبوه أو شَرَّ اقترفوه.

ومفعول الفعل: يَعْلَمُ. محذوف؛ لتذهب النفس فى تصوُّره كل مذهب، مثل: إن الجزاء سيكون من جنس العمل.

أو أفلا يعلم أنه سيحاسب على ما فعل؟

أو أفلا يعلم أنه سيوفى جزاء ما كفر من نعمة ربه؟

١١ - إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ .

إنه سبحانه عليم بالسر ، وما هو أخفى من السر . وقد قَدِمُوا على العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ، وهو خبير فى كل يوم ، لكنه عبّر بقوله : إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ . ليبين أنه هو المحاسب وهو المجازى ، وهو المعطى وهو المانع فى ذلك اليوم .

قال تعالى : الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (الجانة : ٢٨) .

فهو ربهم ولن يظلمهم ، وهو الحكم العادل ، والمُلك له وحده فى ذلك اليوم ، وهو خبير بمعنى عليم بكل ما فعلوا ، وسيجازيهم جزاء عادلاً .

قال تعالى : وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنْزِلُنَا مَا لَنا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَاذِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى وفضله وتوفيقه تفسير سورة (العاديات) عشاء يوم الجمعة ١٦ من ربيع الأول

١٤٢٢ هـ ، الموافق ٨ / ٦ / ٢٠٠١ م .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة القارة

أهداف سورة القارعة

(سورة القارعة مكية ، وآياتها ١١ آية ، نزلت بعد سورة قريش)

والقارعة اسم من أسماء القيامة ، كالحاقة والصاخة والطامة والغاشية ، وسُميت قارعة لأنها تفرع القلوب بأهوالها . والسورة كلها عن هذه القارعة : حقيقتها ، وما يقع فيها ، وما تنتهي إليه ، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة . والمشهد المعروض هنا مشهد هول ، تتناول آثاره الناس والجبال ، فيبدو الناس في ظله صغارا ضئالا على كثرتهم ، فهم كالفرش المبعوث ، مستطارون مستخفون في حيرة الفرش الذي يتهاافت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه وجهة ، ولا يعرف له هدفاً . وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش ، تتقاذفه الرياح ، وتعبث به حتى الأنسام .

عندئذ يرجح وزن المؤمن وتتقل درجاته ، فيعيش عيشة راضية ، ويخف ميزان الكافر وتهوى منزلته ، فيصطلى بنار حامية .

مع آيات السورة

١ - ٣ - الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَزْزَنُكَ مَا الْقَارِعَةُ .

الْقَارِعَةُ . أى : القيامة ، بدأ بها قرعا للأذهان بهولها .

مَا الْقَارِعَةُ . استفهام عن حقيقتها ، قصد به تهويل أمرها ، كأنها لشدة ما يكون فيها ، مما فزع له النفوس وتدهش له العقول ، يصعب تصورها .

وَمَا أَزْزَنُكَ مَا الْقَارِعَةُ . : أى شئ يعرفك بها ؟ زيادة فى تعظيم تلك الحادثة العظيمة ، كأن لا شئ يحيط بها ويفيدك برسمها ، ثم أخذ يعرفها بزمنها وما يكون للناس فيها .

٤ - يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . أى : يكون الناس من حيرتهم وذهولهم كالفرش الهائم على وجهه ، المنتشر فى الفضاء لا يدرى ماذا يصنع ، قال تعالى فى آية أخرى : كَانَهُمْ جُرَادٌ مُّنتَبِرٌ . (القمr : ٧) .

هـ - وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ . أى : تصبح فى صورة الصوف المنفوش ، فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، وفى سورة (عم يتساءلون) قال تعالى : وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبا : ٢٠) .

٦ ، ٧ - فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ، فَهُوَ لِى عِشَّةٍ رَاضِيَةٍ .

أى : من ثقلت موازينه برجحان كفة حسناته على سيئاته ، فهو فى الجنة . ويقال : ثقل ميزان فلان ، إذا كان له قدر ومنزلة رفيعة ، كأنه إذا وُضع فى ميزان كان له به رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة ، والفضائل الراجحة ، فهؤلاء يُجزون النعيم الدائم والعيشة الراضية .

٨ ، ٩ - وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . يقال : خف ميزان فلان ، أى سقطت قيمته فكأنه ليس بشيء ، حتى لو وضع فى كفة ميزان لم يرجح بها على أختها ، ومن كان فى الدنيا كثير الشر قليل فعل الخير ، يجترئ على المعاصى ، ويُفسد فى الأرض ، فإنه لا يكون شيئاً فى الآخرة ، ولا ترجح به كفة ميزان لو وُضع فيها .

ويرى بعض المفسرين أن الذى يوزن هو الصحف التى تكتب فيها الحسنات والسيئات ، وأن الحسنات تمثل وتقابل بالنور والخير ، وأن السيئات تمثل وتقابل بالظلام والشر ، وأن من كثر خيره كان ناجيا ، ومن كثر شره كان هالكا .

وهذا الميزان نؤمن به ونفوض حقيقة المراه به إلى الله تعالى ، فلا نسأل كيف يزن ؟ ولا كيف يقدر ؟ فهو أعلم بغيبه ونحن لا نعلم .

قال تعالى : وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ . (الأنبياء : ٤٧) .

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . مرجعه الذى يأوى إليه كما يأوى الولد إلى أمه ، أى : فمسكرته ومأواه النار .

١٠ - وَمَا أَذْرَتْكَ هَامِيَةٌ . أى : ما الذى يخبرك بما هى تلك الهاوية ، وأى شيء تكون ؟

١١ - نَارٌ حَامِيَةٌ . هى نار ملتهبة بلغت النهاية فى الحرارة ، يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل .

مقاصد السورة

- ١ - وصف أهوال يوم القيامة ومشاهده .
- ٢ - وزن الأعمال ورجحان كفة المؤمن ، وخفة كفة الفاجر .
- ٣ - السعداء يدخلون الجنة ، والأشقياء يذهبون إلى النار .

★ ★ ★

مشاهد القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ① مَا الْقَارِعَةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ③ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَّاشِ الْمَبْتُوثِ ④ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ⑤
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ⑥ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑦ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ⑧ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ⑨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ⑩ نَارُ حَامِيَةٍ ⑪ ﴾

المفردات :

القارعة : يوم القيامة .

وما أدراك ما القارعة : استفهام عن حقيقتها ، قصد به تهويل أمرها .

الفرش : الحشرات الصغيرة التي تندفع على غير هدى نحو الضوء .

المبثوث : المنتشر المتفرق ، وهو مثل في الحيرة والجهل بالعاقبة .

العنه : الصوف .

المنشوش : الذي نفشته بيده أو بألة أخرى ، ففرقت شعراته بعضها عن بعض .

ثقلت موازينه : بكثرة الحسنات .

خفت موازينه : بقلة الحسنات وكثرة السيئات .

أمه هاوية : مرجعه الذي يأوى إليه هاوية ، أي : مهواة سحيقة يهوى فيها .

التفسير :

١، ٢، ٣ - الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَذْرُكَ مَا الْقَارِعَةُ .

الْقَارِعَةُ . هي القيامة ، وسُميت القارعة لأنها تقرر الناس بأهوالها وشِدَّتِها ، وتسمى الحاقة ، والصاخة ، والطامة الكبرى ، والواقعة ، والقيامة ، وتبدأ بالنفخة الأولى من إسرافيل في الصور ، وتنتهي بفصل القضاء بين الخلائق ، فمنهم شقى وسعيد .

مَا الْقَارِعَةُ .

تهويل لشأنها ، أى : أى شئ هي ؟ وما أعلمك ما شأن القارعة ؟

وَمَا أَذْرُكَ مَا الْقَارِعَةُ .

تأكيد لشدة هولها على النفوس ، كأنه لا شئ يحيط بها ، مهما تخيلت أمرها فهي أعظم من تقديرك وتوقعاتك ، ثم فسر ذلك ، وأبان زمانها وأماراتها ، فقال :

٤ - يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ .

هذا وصف يبين الغزع والجزع ، والقلب المستطار ، والغوادر المشتتة ، والهيام على غير هدى ، وقد شبه الناس في ذلك اليوم بالحشرة الصغيرة ، التي تراها تتراعى على ضوء السراج ليلا ، وبها يضرب المثل في الجهل بالعاقبة ، أو كجميع الحشرات الطائرة ، كالباعوض والجراد ، فالناس في انتشارهم وتفرقهم ، ونهاهم ومجيئهم ، بسبب حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبعوث ، أى متفرق منتشر .

كما قال تعالى : كَانَهُمْ جُرَادٌ مُنْتَشِرٌ . (القمr : ٧) .

أى : كجراد يهيم على غير هدى ، وعلى غير اتجاه موحد .

قال الزمخشري في تفسير الكشاف :

شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة ، والتطاير إلى الداعي من كل جانب ، كما يطاير الفراش إلى النار .

هـ - وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ .

الجبال تصبح رخوة مفتتة متهايلة ، كَالْعِهْنِ . وهو الصوف الْمَنْفُوشِ . الذى نقش بالندف وأصبح خفيفا ، تحركه الرِّيح والآنفاَس .

وإذا كانت الجبال فى الدنيا يُضرب بها المثل فى الرسوخ والتماسك ، فقد صارت فى الآخرة هلامًا رخوا ، متطايرا غير متماسك ، كما قال تعالى : وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ . (التكوير : ٣) .

وكما قال تعالى : وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِلًا . (المزمل : ١٤) .

أى : رمالا متحركة غير متماسكة .

وقال تعالى : وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا . (النبا : ٢٠) .

فالجبال يوم القيامة تقطع من أماكنها ، ويتحوّل تماسكها إلى رمال متحركة متناثرة ، ثم تُدْرَى فى الهواء ، فتتطاير كالصوف المنفوش ، ثم تصبح سرايا لا حقيقة لها ، حيث تسوّى الأرض ، وتبدّل بأرض بيضاء مستوية : لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا . (طه : ١٠٧) . أى : لا ارتفاع فيها ولا انخفاض .

إذا كان هذا حال الجبال ، فما بالك بالإنسان الذى خلقه الله ضعيفا ، إنه يُصاب يوم القيامة بالهلع والمفاجأة وشدة الصدمة .

قال تعالى : يَتْلَاهَا النَّاسُ انْقَرَاءً رُبُكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْجِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ . (الحج : ١ ، ٢) .

وقيل : إن ذلك الهول يصيب الكفار والعصاة من المؤمنين ، أمّا الصالحون المهتدون فتزلزل عليهم الملائكة تطمئنهم وتبشرهم بالجنة ونعيمها .

قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ . (فصلت : ٣٠ - ٣٢) .

٧ - فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ.

أى : من ثقلت موازين حسناته ، ورجحت على سيئاته ، فهو ناجٍ ذاهب إلى الجنة ، فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ .
هنيئة راضٍ صاحبها ، موصوف بالرضا والاطمئنان ، والسرور والسعادة ، ومن شدة رضا المؤمن وصِفَتْ
عيشته بأنها راضية .

قال تعالى : رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ . (البينة : ٨) .

٨ ، ٩ - وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ .

من خفت موازين حسناته أو لم تكن له حسنات أصلاً ، فمآله ونهايته إلى هاوية ، وهى الهالكة حيث
يهوى فيها مع عمق قعرها ، ولأنها نار عتيقة ، حرارتها سبعون ضعفاً بالنسبة لنار الدنيا ، وسُميت جهنم
أُمُّهُ ، لأنه يأوى إليها كما يأوى الطفل إلى أمه .

والمعنى :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، . فمآله ومآواه هاوية فى جهنم .

قال ابن كثير :

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، . أى : رجحت سيئاته على حسناته .

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . قيل : معناه : فهو ساقط هاوٍ بِأَمِّ رَأْسِهِ فى نار جهنم ، وعبر عنه بِأُمِّهِ ، يعنى : دماغه .

قال قتادة : يهوى فى النار على رأسه .

وقيل : معناه : فَأُمُّهُ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ، هَاوِيَةٌ . وهى اسم من أسماء
النار ^(١٠٣) .

١٠ - وَمَا أَذْرَبَكُمْ نَاهِيَةً .

ما أعلمك ما الهاوية ، وأى شئ تكون ؟

١١ - نَارٌ حَامِيَةٌ .

هى نار شديدة الحرارة ، شديدة الإحراق ، شديدة اللهب والتعذيب والإيلام لأهلها ، وهذا دليل على
قوتها التى تفوق جميع النيران .

نُقولُ من مختصر تفسير ابن كثير

روى ابن جرير ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن نُهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ، فيقولون : رُوحاً أخاكم فإنه كان في غم الدنيا ، قال : ويسألونه : ما فعل فلان ؟ فيقول : مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : نُهب به إلى أمه الهاوية ^(١٤٤) .

وقوله تعالى : نَارٌ حَامِيَةٌ . أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهب والسعير . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نار بنى آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » ، قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » ^(١٤٥) . وفي رواية : « كلهن مثل حرها » .

وروى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » ^(١٤٦) .

وروى الترمذى ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة » ^(١٤٧) .

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يارب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها » ^(١٤٨) .

وفي الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » ^(١٤٩) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة التكاثر

أهداف سورة التكاثر

(سورة التكاثر مكية ، وآياتها ٨ آيات ، نزلت بعد سورة الكوثر)

من أسباب النزول :

أخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي بريدة قال : نزلت : **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ** . فى قبيلتين من الأنصار ، وهما : بنو حارثة ، وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبر ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك : **فَأَنزَلْنَا** الله هذه السورة .

هذه السورة صحيحة بالقلب البشرى الغارق فى التفاخر والتكاثر بالدنيا ومظاهرها ، وتنبيه له إلى أن ما تفاخر به إلى زوال ، وأن الدنيا قصيرة ، وأن الغاية إلى حفرة ضيقة ، وهناك ترى الحقيقة الباقية ، واليقين المؤكد ، وتسأل عن هذه الألوان المتنوعة من الملذات ، وعن سائر ألوان النعيم ، عن الشباب والمال والجاه والصحة والعافية ، ماذا عملت بها ؟

«وروى : يُسأل عن التمتع الذى شغله الالتذاز به عن الدين وتكاليفه ، وعن الحسن : يُسأل عما زاد عن كين يؤوله ، وثوب يواريه ، وكسر تقويه» ^(١٦٦) .

مع آيات السورة

١ ، ٢ - **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ** . أيها السادرون الغافلون ، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة ، وأنتم مفارقون ، أيها المدحوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون به وتتفخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر ، استيقظوا وانظروا .. فقد شغلكم حب الكثرة والفخر حتى هلكتم ، وصرتم من الموتى ، ورأيتم الحساب والجزاء .

وفى صحيح مسلم ، عن مطرف ، عن أبيه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : **أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ** . قال : «يقول ابن آدم : مالى ، ومالك ، يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فاذباب وتاركة للناس» ^(١٦٧) .

٣ ، ٤ - كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : ازبدجروا عن مثل هذا التكاثر والتفاخر ، والجأوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم الأخلاق ، والتعاون على الخير والمعروف ، وإنكم سوف تعلمون سوء مغبة ما أنتم عليه .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وهو تكرير للوعيد لتأكيد الجزر والتوبيخ ، كما يقول الإنسان لآخر : أقول لك لا تفعل ، ثم أقول لك لا تفعل .

٥ - كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . أى : ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وأن ما تدعونه علماً ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن ، لا يلبث أن يتغير لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير أن يسمى علماً هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذى يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم عليه السلام .

٦ - تَرَوْنَهَا كَاجِحِمٍ . ولا شك فى رؤيتها ، والمراد برؤية الجحيم : نوق عذابها ، ثم أكد هذا المضمون بقوله :

٧ - ثُمَّ تَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . أى : لترونها رؤية هى اليقين بنفسه ، مهما كانت نسبتكم أو مجدكم ، فلن ينجبكم منها سوى أعمالكم .

٨ - ثُمَّ كَسَمْنَا نَبِيَّكَ مِنَ النَّعِيمِ . لتسألن عنه : من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفى طاعة ؟ أم من معصية وفى معصية ؟ أمن حلال وفى حلال ؟ أم من حرام وفى حرام ؟ هل شكرتم ؟ هل أديتم حق النعيم ؟ هل شاركتم الفقير والمسكين ؟ هل استأثرتهم وبخلتم ومنعتم صاحب الحق حقه ؟

لتسألن عما تتكاثرون به وتتفاخرون .. فهو عبء تستخفونه فى غمرتكم ولهوكم ، ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من أصبح آمناً فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» . ^(١٦٧)

مقاصد سورة التكاثر

- ١ - نَم الانشغال بمظاهر الحياة .
- ٢ - التذكير بالموت والقبر والحساب .
- ٣ - زجر الغافلين والعابثين ، وتذكيرهم بيوم الدين .
- ٤ - لن ينقذهم من النار جاه ولا سلطان ، ولن ينفعهم سوى العمل الصالح .
- ٥ - الحساب على النعيم حق ، فيجب أن يكون النعيم حلالا طيبا .

★ ★ ★

ذمُّ التفاخر بالدنيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۚ﴾

المفردات :

ألهاكم : شغلكم .

التكاثر : التباهى والتفاخر بالكثرة فى الأموال والأولاد والأهل والعشيرة .

زرتهم المقابر : صرتم إليها ودفنتم فيها .

كــــــــــــلا : كلمة يُراد بها الزجر والردع .

سوف تعلمون : خطأ ما أنتم فيه من التكاثر والتباهى ، وكرر الجملة للتأكيد .

لو تعلمون علم اليقين ، المراد : ما ألهاكم ذلك عن الآخرة والعمل لها .

لترؤن الجحيم : تفسير للوعيد السابق المكرر .

عين اليقين : عين هى اليقين نفسه .

التفسير :

١ ، ٢ - أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ .

شغلكم طلب الكثير من المال والجاه والسلطان ، رغبة فى كثرة ما تملكون ، لتكونوا أكثر مالا أو

متاعاً من أئدادكم ونظرائكم ، ولم تلتفتوا إلى عين الحقيقة ، وهى أن المال الحقيقى هو الذى ينفعه الإنسان ،

فى سبيل الله ، وأن الفضل الحقيقى هو عمل الخير والمعروف ابتغاء وجه الله ، لأن ذلك هو الذى ينفعك فى قبرك ، ويعلى درجتك فى الآخرة .

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ .

حتى نهتم إلى المقابر ودُفنتم فيها ، ولم تجدوا أثراً لتكاثر الدنيا ، والتشبع بأموالها .

وفى قوله : حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . إشارة لطيفة إلى أن بيت الإقامة الدائمة هو الجنة أو النار ، أما الزائر فإنه ينتقل عن بيت الزيارة ، فالقبر مدفن مؤقت ، والدار الآخرة هى الحياة الدائمة .

وقيل : إن الآية تحتل معنى آخر ، هو : شغلكم التفاخر والتكاثر بالأحياء حتى زرتم المقابر لتفتخروا بمن مات منكم من عظماء الدنيا على القبائل الأخرى .

أو المعنى : بنيتم مقابر مشيدة تفاخروا بها ، كما قال الشاعر :

أرى أهل القصور إذا أميتوا
بنوا فوق المقابر بالصخور
أبوا إلا مباهاة وفخراً
على الفقراء حتى فى القبور

٣ ، ٤ - كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

كَلَّا : ارتدعوا عن التنافس والتسابق فى شئون الدنيا .

سَوْفَ تَعْلَمُونَ . سوف تعلمون عاقبة جهلكم ، وانشغالكم بما لا يفيد ، إذا دُفنتم فى قبوركم .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .

تأكيد للأول ، وزيادة فى الزجر والتهديد .

قال ابن عباس :

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ما ينزل بكم من العذاب فى القبر .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . أى : فى الآخرة إذا حلَّ بكم العذاب . اهـ .

٥ - كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ .

تكررت كَلَّا . ثلاث مرات ، وهي حرف ردع وزجر ، أي : انصرفوا عن الهوى والتفاخر والتكاثر بمال زائل ، لأنَّ الفخر الحقيقي بالمال الذي تنفقونه في سبيل الله فينفعكم .

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . جواب لَوْ . هنا محذوف ، تقديره : لو تعلمون العلم اليقيني النافع لاذبحرتم واستعددتُم للأخرة .

وإنما حُذِفَ الجواب لقصد التهويل ، ولتذهب النفس في تصوّره كل مذهب .

كقوله تعالى : وَلَوْ تَرَى إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَى الْأَنْهَارِ ... (الأنعام : ٢٧) .

قال المفسرون :

وجواب لَوْ . محذوف لقصد التهويل ، أي : لو عرفتُم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله ، ولما حُدِعتُم بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة وشدائدها .

كما قال ﷺ : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» . (١٣٧) .

٦ - تَرَوْنَ الْجَحِيمَ .

لتشاهدن جهنم مشاهدة حقيقية ، وهذه الآية جواب قسم مضمر ، أي : أقسم وأؤكد أنكم ستشاهدون الجحيم عيانا ويقينا .

قال ابن كثير :

توعدهم الله بهذا الحال وهو رؤية أهل النار ، التي إذا زفرت زفرة واحدة خرَّ كل ملك مقرب ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى في ذلك .

٧ - ثُمَّ تَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ .

أي : ثم لترونها رؤية حقيقية بالمشاهدة العينية ، أي أن ذلك أمر مؤكد ، أن تشاهدوا جهنم مشاهدة حقيقية ، بحيث لا يلتبس عليكم أمرها .

جاء في التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوى ما يأتى :

وقد قالوا إن مراتب العلم ثلاثة :

علم اليقين : وهو ما كان ناتجا عن الأدلة والبراهين .

وعين اليقين : وهو ما كان عن مشاهدة وانكشاف .

وحق اليقين : وهو ما كان عن ملازمة ومخاطبة .

ومثال ذلك : أن تعلم بالأدلة أن الكعبة موجودة فذلك علم اليقين ، فإذا رأيته بعينك فذلك عين اليقين ، فإذا ما دخلت فى جوفها فذلك حق اليقين .^(١٧١)

٨ - ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .

أى : ثم لتسألن يومئذ عن شكر نعمة الله عليكم ، من العافية والرزق والحياة والعقل وسائر النعم ، حتى الشربة الباردة فى اليوم الحار .

ومعروف أن شكر النعمة هو استخدامها فيما خلقها الله له ، فشكر المال صلة الرحم وعمل الخير ، يشكر نعمة النظر غرض البصر عن المحارم ، والتأمل فى كتاب الله وفى خلق الكون .

قال الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم ما يأتى :

ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .

أى : إن هذا النعيم الذى تتفخرون به ، وتعدونه مما يباهى به بعضكم بعضاً ، هو مما لا بد أن تسألوا عنه : ماذا صنعتم به ؟ هل أدبتم حق الله فيه ، وراعىتم حدود أحكامه فى التمتع به ؟ فإن لم تكن الحقوق أدبت ، ولم تكن الأحكام روعيت ، كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

نسأل الله أن يوفقنا لرعاية أحكامه فيما أنعم به علينا . ا هـ .

من هدى السنة

روى البخارى فى صحيحه ، والترمذى فى سننه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «نعمتان

مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ»^(١٧٢)

ومعنى هذا أنهم مَقْصُرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

وقال ابن عباس :

ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ .

قال : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيم استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى :

إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . (١١٧) . (الإسراء : ٣٦) .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة العصر

أهداف سورة العصر

(سورة العصر مكية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة الشرح)

«وفي هذه السورة الصغيرة يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريد لها الله ، وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة .

إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار ، وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها في آية واحدة ، هي الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله .

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي : أنه على امتداد الزمان في جميع العصور ، وامتداد الإنسان في جميع الدهور ، ليس هنالك إلا منهج وأحد رايح ، وطريق واحد ناج هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده وتوضح معالمه»^(١٦٧) .

إن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، وبذلك يصبح الإيمان قوة دافعة ، وحركة وعملا ، وبناء وتعميرا يتجه إلى الله .

أما التواصل بالحق والصبر فيبرز صورة الأمة المسلمة متضامنة متضامّة ، خيرة واعية ، قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتأخر .

مع آيات السورة

١ ، ٢ - وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . أقسم الله بالزمن وهو ماضٍ لا يقف ، متغير لا يقرّ ، على أن الإنسان الذي يهمل إيمانه ومرضاة ربه خاسر مهما كان رابحاً من مظاهر الحياة ، لأنه قد خسر الجنة وخسر الكمال المقدر له فيها ، وخسر مرضاة الله وطاعته .

٣ - إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ .

المؤمن يدرك أنه جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل ، وذو عواطف وجوارح ، وسعادتته فى نمو هذه القوى نمواً متناسقاً ، وفى دور الخلافة الرشيدة للمسلمين تعاونت قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المالية ، فى تنشئة الإنسان الكامل وفى ظهور المدينة الصالحة .

وكانت حكومة المسلمين من أكبر حكومات العالم قوة وسياسة وسيادة ، تزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويساير الرقى الروحى التقدم المادى والحضارى .

وخلاصة السورة أن الناس جميعاً فى خسران إلا من اتصفوا بأربعة أشياء :

الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

«وهذه السورة حاسمة فى تحديد الطريق .. إنه الخسر ، إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ .

طريق واحد لا يتعدد ، طريق الإيمان والعمل الصالح ، وقيام الجماعة المسلمة التى تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر ، وتقوم متضامنة على حراسة الحق ، مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد ، ومن ثمَّ كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة (والعصر) ثم يسلم أحدهما على الآخر ^(١٦٨) .

لقد كانا يتعاهدان على الإيمان والعمل الصالح ، والتناصح بالحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر والتحمل فى سبيل الدعوة إلى الهدى والرشاد .

مقاصد السورة

١ - جنس الإنسان فى خُسْر وضياح .

٢ - النجاة لمن آمن وعمل صالحاً ، وحثُّ على الفضيلة والحق ، وتحلى بالثبات والصبر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

المفردات :

العصر : اسم للدهر ، أى : الزمن الذى يحياه الإنسان ، وقيل : أقسم الله بصلاة العصر لفضلها ، أو أقسم بالعشى كما أقسم بالضحى .

خُسْر : هلاك ، لسوء تصرفه وكثرة آثامه .

تَوَّصَوْا : تناصَحُوا وتعاهدوا .

بِالْحَقِّ : الواجب من فعل الطاعات وترك المحرمات .

التفسير :

١ ، ٢ - وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ .

أقسم الله تعالى بالعصر ، وهو الزمان والدهر ، وفيه الأيام والليالي والصباح والمساء ، والليل والنهار ، وفى الزمان نجد يد الله تَقَلِّبُ الأمور ، فهو سبحانه يُعَزِّزُ وَيُذِلُّ ، ويرفع ويضع ، ويُعَلِّى وَيُخَفِّضُ ، وفى الزمان تبدل الأحداث والدُّوَل ، والأحوال والمصالح .

وقيل : أقسم الله بصلاة العصر تنبيهاً لأهميتها وفضلها ، حيث تكون فى أواخر النهار .

وقيل : يطلق العصر على وقت العشى ، وفيه الغروب والشفق ، كما أقسم سبحانه بالضحى .

ورجَّح الطبرى الرأى الأول ، فالحق سبحانه يريد أن ينبِّه الإنسان إلى أهمية الزمان ، والصباح والمساء ، وكان أهل الجاهلية ينسبون الأحداث إلى الدهر ، فيقولون : زمان جائر أو دهر ظالم ، مع أن الذى يرفع ويضع ، ويعطى ويمنع ، هو الله تعالى وليس الدهر .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر »^(١٧١) .
أى أن الله هو الذى يقلب الليل على النهار ، والنهار على الليل ، وهو الذى يُعز ويُدل .

قال تعالى : قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (ال عمران : ٢٦) .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفَىٰ خُسْرٍ .

أى : جنس الإنسان خاسر خسرانا مبيتا ، عندما يشتري الدنيا ويبيع الآخرة ، عندما يفقد صلته بربه وإيمانه ، واعتماده على تلك القوى الكبيرة ، عندما يأخذ الغرور ويصير من الملحدين ، أو من عبید العلم ، أو عبید المادة الذين هجروا الإيمان بالله واليوم الآخر .

قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ . (الروم : ٦ ، ٧) .

وقيل : إن المراد بالإنسان إنسان معين من رؤوس الكفر .

قال ابن عباس :

أراد بالإنسان جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب .
والأصح أن المراد بالإنسان هنا أنه اسم جنس ، يشمل جميع الناس ، أى أن من طبيعة الإنسان أن يكون فى خسران ، لإقباله على الدنيا ، وإعراضه عن الإيمان والعمل للآخرة ، لأنه يرى الدنيا ويَهْرَجُهَا فيدخل فى دوامتها وينسى الآخرة ودوام ما فيها .

كما قال سبحانه وتعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

٣ - إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّاصَوْا بِالصَّبْرِ .

أى : إن الإنسان لفى خسارة ونقصان وهلاك ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإنهم فى نجاح وفلاح ، ونصر مبین فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

لقد حكم الله بأن جنس الإنسان في خسران إلا من أتى بأربعة أشياء :

١ - الإيمان .

٢ - العمل الصالح .

٣ - التواصي بالحق .

٤ - التواصي بالصبر .

(أ) وعناصر الإيمان ستة :

الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره .

(ب) وعناصر العمل الصالح ثلاثة :

أداء الفرائض ، واجتناب النواهي ، وفعل الخير .

(ج) والتواصي بالحق :

هو التواصي بالثبات على أمور الدين ، وشرائع الإسلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والعمل بالقرآن والسنة ، والبعد عن الزور والبدعة .

(د) والتواصي بالصبر :

هو أن يوصي الناس بعضهم بعضاً بالثبات على الطاعات ، والبعد عن المعاصي ، والرضا بالقضاء والقدر في المصائب والمحن .

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره :

دلت الآية على أن الحق ثقیل ، وأن المحن تلأزمه ، فلذلك قرن به التواصي .

فضيلة سورة العصر

١ - قال الشافعي :

لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم . ١ هـ .

ذلك أن الكمال في معرفة الحق والدعوة إليه ، وفي التواصي بالصبر والثبات عليه ، وذلك بعد الإيمان والعمل الصالح .

قال تعالى : يٰٓبَنِيٓٓ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . (لقمان : ١٧) .

وقال عمر : رحم الله من أهدى إلى عيوبى .

٢ - قال الشيخ محمد عبده :

إنما قال : وَتَوَاصَوْا . ولم يقل : وَأَوْصُوا ، ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، وتقبل الحق عند الوصية به ، فكأن فى هذه العبارة الجزلة قد نص على توأصيهم بالحق ، وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

★ ★ ★

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة العصر) .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الهمزة

أهداف سورة الهمزة

(سورة الهمزة مكية ، وآياتها ٩ آيات ، نزلت بعد سورة القيامة)

فكرة السورة

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية فى حياة الدعوة فى عهدها الأول ، وهى فى الوقت ذاته نموذج يتكرر فى كل بيئة ، صورة اللثيم الصغير النفس ، الذى يؤتى المال فتستطير نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ، ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا فى الحياة ، القيمة التى تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس ، وأقدار المعانى ، وأقدار الحقائق . كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ، لا يعجز عن دفع شيء ، حتى دفع الموت وتخليد الحياة .

ومن ثم ينطلق فى هوس بهذا المال ، يعده ويستلذ تعداده ، وتنطلق فى كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس ، وهمزهم ولمزهم ، وانتقاص قدرهم ، وتحقير شأنهم . وهى صورة لثيمة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة ، وقد نهى القرآن عن السخرية واللمز فى مواضع شتى ، إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع ، يوحى بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله ﷺ وتجاه المؤمنين ، فجاء الرد عليها فى صورة الردع والتهديد والوعيد .

أسباب النزول

قال عطاء والكلى : نزلت هذه السورة فى الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وبخاصة رسول الله ﷺ .

وقال مقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبى ﷺ من ورائه ، ويطعن فيه فى وجهه .

وقال محمد بن إسحاق صاحب السيرة : ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت فى أمية بن خلف .

مع آيات السورة

١ - وَيَلْ كُلُّ هَمَزَةٍ لَمَزَةٍ . ويلٌ وعذاب شديد لكل سبب عيَاب ، ينتقص الناس بالإشارة والحركة ، والقول والفعل .

وبناء الصفة على فُعْلَةٍ يفيد كثرة وقوع الفعل ، وجريانه مجرى العادة .

وعن مجاهد وعطاء : الهَمَزَةُ الذي يغتاب ويظعن في وجه الرجل ، واللمزة الذي يغتاب من خلفه إذا غاب .

٢ - تَلْبِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَدَهُ . إن الذي دعا هذا وأمثاله إلى الحط من أقدار الناس ، ظنه الخاطئ بأن جمع المال ، والمبالغة في عدّه والمحافظة عليه ، مما يرفع قدره ، ويضمن له منزلة رفيعة ، يستطيع بها أن يُطلق لسانه في أعراض الناس ، وأن يؤذيهم بالقول والفعل .

٣ - يَحْسَبُ أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . إن حبه للمال أنساه الموت والمآل فهو يأمن بماله ، ويظن أن هذا المال الذي أجهده نفسه في جمعه ، ويخل به حتى على نفسه ، يحميه من الموت ويورثه الخلود .

٤ - لَا يُنْبِذُ فِي الْحُطْمَةِ . لقد قابل القرآن بين كبريائه وتعاليه على الناس ، وبين جزائه في الحطمة التي تحطم كل ما يلقي إليها ، فتحطم كيانه وكبريائه .

٥ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ . سؤال للتهويل والتعظيم ، أي : أي شيء أعلمك بها ؟ فإن هذه الحطمة مما لا يحيط بها عقلك ، ولا يقف على كنهها علمك ، ولا يعرف حقيقتها إلا خالقها سبحانه وتعالى .

٦ - نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . إنها النار التي تنسب إلى الله الذي خلقها ، وهي موقدة لا تخدم أبداً ، ثم وصف هذه النار بعدة صفات فيها تناسق تصويري يتفق مع أفعال (الهمة للهمة) .

٧ - الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْقِدَةِ . إنها تصل إلى الفؤاد الذي ينبعث منه الهمز واللمز ، وهي تتغلب على الأفئدة وتقهرها ، فتدخل في الأجواف حتى تصل إلى الصدور فتأكل الأفئدة ، والقلب أشد أجزاء الجسم تألماً ، فإذا استولت عليه النار فأحرقتة فقد بلغ العذاب بالإنسان غايته .

والنار لا تصل إلى الفؤاد إلا بعد أن تأكل الجلود واللحوم والعظام ، ثم تصل إلى القلوب ، والأفئدة موطن الإحساس والاعتقاد ، ومن كلمات عمر بن الخطاب للكفار : (حرق الله قلوبكم) . أي : أصابكم بأشد ألوان المحن والألم .

٨ - إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ . إنها مطبقة عليهم لا يخرجون منها ، ولا يستطيعون القرار أو الهرب .

قال تعالى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ... (الحج : ٢٢) .

٩ - فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ . العمد جمع عمود وهو معروف ، والممددة : المطولة ، أى أنه أطبقها عليهم وأغلقها فى عمد طويلة ، تمد على أبوابها بعد أن تؤصد ، وهو تصوير لشدة الإطباق وإحكامه ، وتأكيد لليأس من الخلاص .

قال مقاتل : إن الأبواب أطبقت عليهم ، ثم شُدت بأوتاد من حديد ، فلا يُفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح .

اللهم أجرنا من النار ، ومن عذاب النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

مقاصد السورة

١ - من الناس من يرى مثله الأعلى جمع المال والتعالى على العباد ، وهو نموذج سيئ .

٢ - الويل والعذاب ينتظران كل عيَّاب وسبَّاب .

٣ - المال نعمة من الله ، ولكن العمل الصالح هو الوسيلة النافعة .

٤ - البخيل بالمال المتعالى على العباد له نار متقدة تحرق جسمه وتصل إلى فؤاده .

٥ - هذه النار مغلقة عليه يظل حببساً فيها أبد الأبدین .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَهُ ۝٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخَطْمَةِ ۝٤﴾ وَمَا آدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ۝٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ۝٦﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ ۝٧﴾ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۝٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ ﴿

المضردات :

ويــــــــــــل : خزي وهلاك وعذاب ، وهو لفظ لا يُستعمل إلا في الذم والقبح .

هــــــــــــمزة : من ينتقص الناس بالقول .

لــــــــــــمزة : من يؤذي الناس بالفعل ، فكلاهما طعنان عيَاب .

الذي جمع ما لا وعده ، شُغِفَ بجمع المال وعده والتكاثر فيه ، لا ينفقه ولا ينتفع به .

يــــــــــــحسب : يظن .

أَخْلَدَهُ : ضمن له الخلود في الدنيا .

لَيُبَدِّلَنَ : ليطرحن .

الْخَطْمَةُ : من أسماء النار لتحطيم المعذبين فيها .

الْمَوْقُودَةُ : المستعرة .

تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ : القلوب التي استقرت فيها العقائد الفاسدة .

مُؤَصَّدَةٌ : مغلفة مطبقة .

في عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ : قيل : هي القيود والأثقال ، وقيل : العمد التي تتخذ لإحصاء أبواب جهنم على من فيها .

تمهيد :

ترسم سورة الهمزة صورة زرية لرجل عيَّاب ينتقص الناس ، ويعيبهم بالقول والإشارة .

التفسير :

١ - وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ .

عذاب شديد لكل هُمَزٍ يعيب الناس ، ويغضُّ من أقدارهم ، وينتقص من همهم في حضورهم أو في غيبتهم ، يفعل ذلك بالقول أو بالإشارة .

قال ابن عباس : هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ . طَعْنٌ عِيَّابٌ .

وقال الربيع بن أنس : الهمزة : يهمزه في وجهه . واللمزة : من خلفه .

وسئل ابن عباس مرة أخرى عن (الهمزة للزمزة) فقال : هو المشاء بالتميمة ، المفروق بين الجمع ، المغرى بين الإخوان .

وقيل : نزلت هذه السورة في الأخنس بن شَرِيق ، كان يلمز الناس ويغتابهم .

وقيل : نزلت في أمية بن خلف ، كان يهزم النبي ﷺ ويعيبه .

وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي ﷺ ويغضُّ من قدره الشريف .

ولا يستبعد أن تكون قد نزلت في مجموعة ، منها هؤلاء الثلاثة الذين دأبوا على السخرية والاستهزاء بالفضلاء ، مع اليقين بأن اللفظ عام ، يشمل كل من تنطبق عليه هذه الصفات ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

٢ - الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ .

إنه حريص على جمع المال ، وعلى عدِّه مرة بعد أخرى ، حباً له وشغفاً به ، وتهالكا عليه ، وقيل : جعله أصنافاً وأنواعاً ، كعقار ونقود وماشية ، أو جعله عدَّة لمصائب الأيام وكوارث الدهر .

٣ - يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ .

يظن الجاهل أن ماله سيدوم له أبد الدهر ، فنسى الموت والآخرة ، والثواب والعقاب ، ولم يؤدِّ زكاة هذا المال ، ولم يتبين الحقيقة ، وهي أن مَالَك ما أنفقت في وجوه الخير والنفع ، ورعاية الفقراء

والمحتاجين ، فهذا هو المال النافع ، ونعم المال الصالح للرجل الصالح ، أما ما تتركه في الدنيا ، ولم تكن أدبت حق الله فيه فهو مال وارثك .

فهناك من يملك المال ، وهناك من يملكه المال ، أما من يملك المال فهو من يتقى الله في ماله بالزكاة وصلة الرحم ، والعطف على الفقراء ومساعدة المحتاجين ، أما من يملكه المال فهو النموذج المذكور في هذه السورة ، الذى يجعل المال كلَّ عدته ، وينسى الموت والحساب ، ويظن أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها ، وأوصدها عليه فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى يُعاقب فيها على ما كسب من سيئ الأعمال .

٤ - كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ .

أى : ليرتدع هذا الهمزة للزمة ، كانز المال المعجب به ، المنشغل بتعديده ، فهو ليس مالكا للمال ، بل هو عابد للمال ، أو مملوك للمال ، إن هذا النموذج الرديء سيُرمى ويُنبذ نبد النواة فى جهنم ، التى تحطم كل ما يلقى فيها وتلتهمه ، لذلك سُميت بالحطمة .

٥ - وَمَا أَذْرُكَ مَا الْحُطَمَةُ .

تفخيم لشأنها ، وتعظيم لأهوالها ، أى : ما أعلمك بها ؟ إنها لا يحيط بها إلا الذى خلقها ، إنها الحطمة التى تحطم العظام ، وتأكُل اللحوم حتى تهجم على القلوب .

٦ - نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ .

هى نار الله ، المسعرة بأمره وإرادته ، ليست كسائر النيران ، فإنها لا تخدم أبداً ، إنها تتلمظ غيظاً وغضباً على من عصى الله .

قال تعالى : وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا . (الكهف : ٥٣) .

وروى الترمذى ، عن أبى هريرة مرفوعاً ، والأصح أنه موقوف : أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة^(١٧) .

٧ - الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَاقَةِ .

أى : التى يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها .

قال الشيخ محمد عبده :

وقد قيل : إن معنى الاطلاع ههنا المعرفة والعلم ، أى أن هذه النار تعرف ما فى الأفئدة ، فتأخذ من تعرفهم أهلاً لها من أهل الوجدان الخبيث ، والنار التى تعرف من يستحق العذاب بها لا تكون من النيران المعروفة لنا فى الدنيا بالضرورة^(١٧٦) .

وقال محمد بن كعب : تأكل كل شئ من جسده ، حتى إذا بلغت فؤاده ، حذو حلقة ، ترجع على جسده^(١٧٧) .

٨ - إنها عليهم مؤسدة .

إنها مغلقة على الكفار ، ومطبقة عليهم ، لا يستطيعون الخروج منها لو أرادوا ذلك .

قال تعالى : كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ... (السجدة : ٢٠) .

٩ - فى عملي ممددة .

أى : هم موثوقون فى سلاسل وأغلال ، تشد بها أيديهم وأرجلهم بعد إطباق أبواب جهنم عليهم ، ثم إن إطباق الأبواب عليهم وإغلاقها يعقبه وضع أعمدة طويلة ممتدة على أبوابها ، وهو تصوير لشدة الإطباق وإحكامه ، وتأکید لليأس من الخلاص .

اللهم أجزنا من النار ، ومن عذاب النار ، ومن كل عمل يقرينا إلى النار ، وأدخلنا الجنة مع الأبرار ، بفضلك وكرمك يا عزيز يا غفار .

★ ★ ★

تم تفسير سورة (الهمزة) منتصف ليلة الإثنين ١٩ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١١ / ٦ / ٢٠٠١ م .

والحمد لله حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه ، كما يرضى ربنا ويحب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الفيل

أهداف سورة الفيل

(سورة الفيل مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة الكافرون)

وهي سورة تشير إلى قدرة الله الغالبة ، وحمايته للبيت الحرام ، وقد ولد النبي ﷺ عام الفيل ، وكان حادث الفيل إرهابا بتملأه ، ويناينا لعناية الله بهذا البيت .

قصة أصحاب الفيل

حادث الفيل معروف لدى العرب ، حتى أنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : وُلد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك .

وجملة ما تشير إليه الروايات المتعددة أن الحاكم الحبشي لليمن - في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها - ويسمى أبرهة الأشرم ، كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة ، وجمع لها كل أسباب الفخامة ، ليصرف بها العرب عن الحج إلى البيت الحرام ، فخرج رجل من كنانة فقعدها فيها ليلا ، وقيل : أجبت رفقة من العرب نارا ، فحملتها الريح فأحرقت الكنيسة ، فغضب أبرهة وأقسم ليهدم الكعبة فخرج بالحبشة ، ومعه فيل اسمه محمود وكان قويا عظيما ، واثنا عشر فيلا غيره ، ووسار بجيشه إلى مكة ، وانتصر على كل من قاومه من العرب ، حتى وصل إلى المغصس بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما أتى لهدم البيت ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينتظرون ما هو فاعل ، وأرسل أبرهة إلى سيد مكة ليقابله .

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم ، وهو يومئذ سيد مكة ، فقدم إلى أبرهة ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سزير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه إلى جانبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ قال : حاجتي أن يرد عليّ الملك ما أتى به غير أصابها لي ، فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيته ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في ما أتى به غير

أصبتها لك ، وتترك بيتنا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه ، قال : ما كان ليمنع منى ، قال : أنت وذاك ، فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى باب الكعبة فأمسك بحلقه ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه .

وروى عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لأ يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرُ ما بدا لك

فأما أبرهة فوجّه جيشه وفيله لما جاء له ، فَبَرَكَ الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يُفلحوا .

ثم كان ما أَرَادَه الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصيهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء ، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه ، كما تقول الروايات ^(١٧٣) .

«وكان بين عام الفيل وبين المبعث نيف وأربعون سنة ، وكان قد بقى بمكة من شهد تلك الواقعة ، وقد بلغت حد التواتر حينئذ ، فما ذاك إلا إرهابا للرسول ﷺ» . ^(١٧٤)

وسئل أبو سعيد الخدرى عن الطير ، فقال : حمام مكة منها ، وقيل : جاءت عشية ثم صبحتهم هلكى . وعن عكرمة : من أصابته أصابه الجدرى ، وهو أول جدرى ظهر فى الأرض ^(١٧٥) .

وقد ذهب الأستاذ الإمام محمد عبده إلى أن الذى أهلك الجيش «هو انتشار داء الجدرى والحصبة بين أفرادها ، وقد نشأ هذا الداء من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، بواسطة فرق عظيمة من الطير ، مما يرسله الله مع الريح ، فهي أشبه بالميكروبات الفتاكة التى تعصف بالجسم» ^(١٧٦) .

فالأستاذ الإمام يريد أن يجعل هذه المعجزة الخارقة للعادة أمرا متفقاً مع المعهود فى حياة الناس ، فيرجع الهزيمة إلى انتشار وباء الحصبة أو الجدرى ، حتى يتسنى له إقناع العقول ، وفى نفس الوقت

يتخلص مما ورد في بعض الروايات من المبالغة في وصف هذه الطير ، والحجارة التي حملتها في رجليها وفمها .

ونرى أن الأولى عدم إخضاع الآيات لمألوف الناس وما يحدث في واقع حياتهم ، لأن الآيات تخبر عن خارقة وقعت بقدرة الله القادر ، الذي يقول للشئ كن فيكون .

وإذا سلمنا أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيرا غير معهودة ، كان ذلك أدعى إلى تحقيق العبرة الظاهرة المكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال ، حتى ليمن الله بها على قريش بعد البعثة ، ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته ، وغيرته عليها .

«فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كله ، أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود ، بكل مقوماته وبكل أجزائه ، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر ، في حادث هو في ذاته ويملابساته مفرد قد» . (١٧٣)

ثم إن إصابة الجيش بالوباء ، وعدم إصابة أحد من العرب القريبين منه أمر خارق للعادة ، وما دامت المسألة خارقة ، فعلام الغناء في حصرها في صورة معينة مألوقة للناس ، مع أن السورة تفيد أن أمرا خاصا قد أرسله الله على أصحاب الفيل .

إننا لا يجوز أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة ، بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لننتقل منها مقرراتنا الإيمانية ، ومنها تكون قواعد منطقنا وتصوراتنا .

«وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة ، ولكن معناه أن العقل ليس وحده هو الحكم في مقررات القرآن ، ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة ، فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف نصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى» . (١٧٤)

مع آيات السورة

١ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ تَنْظُرْ أَوْ أَلَمْ تَعْلَمْ عَنِ الْحَالَةِ الَّتِي وَقَعَ عَلَيْهَا عَمَلُ اللَّهِ ، الذي يتولى أمرك ، بأصحاب الفيل الذين حاولوا هدم البيت الحرام ؟ والخطاب هنا للرسول ﷺ ، وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة ، لكنه شاهد آثارها ، وسمع بالتواتر أخبارها ، فالعلم بها مساو في قوة الثبوت للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .

٢ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . لقد دبروا كيدا للبيت الحرام ، ببناء الكنيسة وصرف وجوه الحجاج إليها ، فضلل الله كيدهم بأن أوقع الحريق فيها ، وكادوه فانيا بإرادة هدم البيت ، فضلل الله كيدهم بإرسال الطير عليهم .

ومعنى تضليل كيدهم ، أى إضاعته وإبطاله ، يقال : ضلَّ كيده ، إذا جعله ضالا ضائعا ، ومنه قولهم لامرئ القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلَّ ملك أبيه ، أى ضيعه .

٣ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . أبابيل : جماعات أو طوائف على هيئة أسراب ، أى : أرسل الله عليهم فرقا من الطير .

٤ - تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . السجيل : الطين الذى تحجر ، أو الحجارة المحروقة ، أى : أرسل الله عليهم جندا من جنوده ، وكل لله من جنود لا يعلمها إلا هو ، لقد أرسل الله على أبرهة وجنده جيشا من الطير ، أسلحتهم حجارة صغيرة فى مناقيرها ، ترمى الجندي بها ، فتنفذ من أعلى جسمه إلى أسفله ، فتنهري لحومهم ، وتتساقط متناثرة عن أجسادهم .

٥ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ . العصف : ورق الزرع الذى يبتى فى الأرض بعد الحصاد ، تفتته الريح وتأكله المواشى .

وقال الفراء : هو أطراف الزرع ، وقيل : هو الحب الذى أكل لبّه وبقي قشره .

ووصف العصف بأنه مأكول ، أى فتيت طحين ، حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ، وهى صورة حسية للتمزيق بفعل هذه الأحجار التى رمتهم بها جماعات الطير .

ونهب مقاتل وقادة وعطاء عن ابن عباس إلى أن معنى عصف مأكول ، أى : نبات أكلته الدواب وصار روثا ، إلا أنه جاء على أدب القرآن كقوله تعالى : كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (١٧٨) ... (المائدة : ٧٥) .

مقاصد السورة

- ١ - بيان قدرة الله وحمايته لبيته .
- ٢ - لفت الأنظار إلى ما صنعه الله بأصحاب الفيل .
- ٣ - لقد ضلُّ كيدهم وخاب سعيهم .
- ٤ - أرسل الله عليهم جماعات من الطيور في شكل أسراب .
- ٥ - أصابتهم الطير بحجارة مخلوطة بالطين تحمل الهلاك والدمار .
- ٦ - انتهى الجيش إلى ضياع وهزيمة منكرة ، كما ينتهي الزرع المأكول إلى روث مهمل ضائع .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

التفسير :

١ - أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ .

ألم يصل إلى علمك ما فعله ربك ومرييك وحاميك يا محمد بأصحاب الفيل ، وهم أبرهة الأشرم وجيشه الذى قدم من اليمن ، وانتصر على من قاومه من العرب حتى وصل إلى المغمس بأطراف مكة ، واستولى على إبل مكة .

ثم رغب أبرهة فى الهجوم على الكعبة ، فتقدمت الفيلة ، ورئيسها فيل كبير يسمى محمود ، فَبَرَكَ الفيل قَبْلَ الكعبة وامتنع تماما ، فإذا وجَّهوه جهة اليمن أو إلى أى جهة هروا مسرعا ، وإذا وجَّهوه إلى الكعبة امتنع .

٢ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ .

الكيد : أمر يدبّر فى الخفاء للإيقاع بالعدو .

والتضليل : الضياع والهزيمة .

والمعنى : ألم يجعل تدبيرهم وخروجهم بالجيش الكبير ، ومعهم الفيلة ، لهدم الكعبة فى ضلال

وضياع وخسران ؟

وهو استفهام تقريرى ، معناه : قد حصل ذلك بأن هُزم أصحاب الفيل .

٣- وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ .

وسلَّط الله عليهم جماعات من الطير ، أنتهم مسرعة متتابعة ، وأحاطت بهم من كل جهة . وقد جاءت هذه الطير من جهة البحر ، ولم تَرُ قبل ذلك ولا بعده .

إنها المعجزة ، إنها قدرة الله ، وهو على كل شيء قدير ، فهذا القائد الذى هزم كلَّ من قابله من العرب ، وجاء بالفيل ومعه مجموعة من الفيلة ، سلَّط الله عليه جيشاً من الطير ، كان سبباً فى قهره .

قال تعالى : وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

جاء فى تفسير ابن كثير :

طَيْرًا أَبَابِيلَ . أى : قطعاً قطعاً ، صُفْرًا ، دون الحمام ، وأرجلها حمراء ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحطَّت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال المفسرون : أبابيل ، أى : جماعات متفرقة .

٤- تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ .

سِجِّيلٍ : طين متحجَّر .

وقيل : حجارة من طين طبخت من نار جهنم ، وسجِّيل أصلها سجَّين ، فأبدلت لاماً ، كما فى أصيلا ن بأصيلا ل .

والمعنى :

تقذفهم بحجارة صغيرة من طين متحجَّر ، كالحمصه وفوق العدسة ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى أو الحصية حتى هلكوا .

والأولى أن نقول : إن الطير كانت تقذفهم بحجارة تحمل وياء ، أو تحمل قَدَرًا إلهيا تسبب فى إهلاكهم .

فالأمر كان معجزة ، والمعجزة أمر خارق للعادة ، لقد أراد الله أن يصدَّ هذا الجيش المعتدى عن بيته الحرام ، فجعل هذه الطيور سببا ظاهريا ، فأرسلها جماعات متتابعة تقذفهم بحجارة مهلكة ، والمسبب الحقيقى فى ذلك هو الله تعالى .

هـ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ .

العصف : وَرَقُ زَرْعٍ يَبْقَى بَعْدَ الْحَصَادِ .

مَأْكُول : أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ وَدَاسَتْهُ وَأَفْتَنَتْهُ .

فجعلهم كزرع مأكول ، كان ناضراً مترعراً ، فأكلته الدواب ، فانتهت حياته .

وقال آخرون :

فجعلهم فضلات وبقايا ، مثل ورق الزرع أو الشجر إذا أكلته الدواب ، ثم أخرجته روثاً متفتتاً . والمراد أن الله أهلكهم عن آخرهم .

وفى الصيحين أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»^(٨٨٠) .

قال ابن إسحاق : لَمَّا رَأَى اللَّهُ الْحَبْشَةَ عَنْ مَكَّةَ ، عَظُمَتِ الْعَرَبُ قَرِيشًا ، وَقَالُوا : أَهْلُ اللَّهِ ، قَاتِلْ عَنْهُمْ وَكُفَاهُمْ مَوْئِدَ عَدُوِّهِمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

إحياء السورة

ظهر أن العرب لم يكن لهم وجود قوى قبل الإسلام ، فاليمن كانت تحت حكم الأحباش ، والشام كانت تحت حكم الرومان ، أو تحت حكم دولة عربية موالية للرومان .

أما جزيرة العرب فقد كانت قبائل متعددة متفرقة ، ولم يكن لها وزن دولي ، سواء كانت مجتمعة أو متفرقة .

ولم تكن لدى العرب فكرة عالمية غير الإسلام ، فلما جاء الإسلام على يد نبي عربي أمى قاوموه ، ثم انضموا تحت لوائه ، وجاهدوا في سبيل الله تحت لواء الإسلام ، فجاءهم نصر الله والفتح ، وزلزلوا عروش الأكاسرة والقيصرة .

وحين جاهدوا في سبيل الله لم يجاهدوا في سبيل تكوين إمبراطورية عربية ، إنما جاهدوا ، كما قال ربعى بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزيدجرد : الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام^(٨٨١) .

«وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التى قدّموها للبشرية ، أو يملكون تقديمها ، إذا هم تخلّوا عن الإسلام ؟ إن كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة .

والأمم التى لم تكن تمثل فكرة - كالنتار الذين اجتاحتها الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحتها الدولة الرومانية فى الغرب - لم يستطيعوا الحياة طويلا ، وإنما نابوا فى الأمم التى فتحوها .

والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الإسلامية ، وهى التى رفعتهم إلى مكان القيادة»^(١٨٧).

وبقدر التزام العرب بأحكام الإسلام، نصّا وروحاً ، بقدر ما يكونون أهلاً للنصر والسودد ، والله ولى التوفيق .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة قريش

أهداف سورة قريش

(سورة قريش مكية ، وآياتها ٤ آيات ، نزلت بعد سورة الضحى)

وهي امتداد لسورة الفيل ، فقد حفظ الله هذا البيت من كيد المعتدين ، «وكان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهل وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية . وشجعهم ذلك على إنشاء خططين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب ، وإلى الشام في الشمال ، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف» (١٨٦) .

وكانت حالة الأمن مضطربة في شعاب الجزيرة ، يفتخر الناس فيها بالصلعة والسلب والإغارة والنهب ، ويعتدون على قوافل التجارة ، إلا أن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرانه الأمن والسلامة ، وجعلت لقريش منزلة ظاهرة بين العرب ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول في أمان وسلامة وطمانينة ، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الراجحتين ، فصارتا لهم عادة وإفا . وقد امتنَّ الله على قريش بحادثة الفيل وحماية البيت ، وامتنَّ عليهم بالأمان والحماية لهم ، وسعة الرزق ورغد العيش من ربح التجارة ، وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله .

مع:آيات السورة

إِذَا يَلَفُ قُرَيْشٌ * إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

المعنى : ألفت قريش واعتادت ، أن ترحل إلى ما جاورها من البلاد ، سعيا وراء الرزق ، وجلبا لمعايشهم ، وترويجا لتجاراتهم .

والله سبحانه يمتن عليهم بذلك ، ويقول لهم : من أجل إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال .

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ... وأنقذهم من المجاعات التى تنزل بهم وبأهلهم من سكان البرارى ، وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . العدو ، أو كوارث الحياة . وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف ، وبحسب حالة البيئة أن يكونوا فى خوف ، فأمنهم من هذا الخوف .

فليشكر قومك يا محمد ربهم على هذه النعم ، وليؤمنوا بربوبيته ، وليقرروا بعبوديتهم ، وليعبدوه بما هو أهل له من العبادة .

وقريب من هذه السورة قوله تعالى : أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَىٰ نَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . (القصص : ٥٧) .

مقاصد السورة

- ١ - من نعمة الله على قريش أن منحهم الهيبة والأمان فألفوا رحلة الشتاء والصيف .
- ٢ - من الواجب أن يعترفوا بفضل الله عليهم فى حماية بيته ، وحماية تجارتهم .
- ٣ - يجب عليهم أن يعبدوا ربهم ، وأن يستجيبوا لدعوة النبى الكريم ﷺ فإنه رسول رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِلَّا فِيهِمْ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

المضردات:

إيلاف قريش، إلف الشيء وإلفه: لزومه والعكوف عليه، وقريش اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن
كنانة، وأصل الكلمة تصغير للقريش، وهو نوع من السمك مشهور، ويمتاز بقوته على سائر
الأسماك، كما امتازت قريش على سائر القبائل بخدمة البيت الحرام.

رحلة الشتاء، كانت إلى اليمن.

والصيف، أي: ورحلة الصيف، وكانت إلى الشام يتاجرون فيها ويمتارون.

التفسير:

١ - لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ .

لقد ألفت قريش أن تخرج إلى الشام عند شدة الحرارة في فصل الصيف، لتبيع وتشتري الحبوب
الزراعية، وأن ترحل إلى اليمن جنوباً في فصل الشتاء، لجلب العطور والبهارات الآتية من الهند والخليج،
واليمن بلاد حارة تناسب فصل الشتاء.

قال ابن هشام:

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ .

إلّهم الخروج إلى الشام في تجارتهم، وكانت لهم خرجتان: خرجة في الشتاء، وخرجة في الصيف،
والعرب تقول: ألفت الشيء ألفاً، وألفته إيلافاً، أي: أحببته واسترحت إليه. اهـ.

ومنه قوله تعالى: **وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** . (الأنفال: ٦٣) .

٢ - إِيْلَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ .

هذه الآية بدل من الآية السابقة وشرح لها ، أى : من سبب نعم الله عليها ، أنها ألفت الخروج من أرضها الصعبة التى لا زرع فيها ولا ثمر ، وحُبَّ الله إليها نعمة التجارة ، والخروج فى الشتاء إلى اليمن لجلب الأعطار والأفاوية ، والخروج فى الصيف إلى الشام لجلب الأقوات إلى بلادهم .

وكانت العرب تحترمهم لأنهم سداة بيت الله ، ولأن الله عز وجل قد رُدَّ عنهم أصحاب الغيل ، وأهلكهم قدرته ، فكان ذلك من أسباب عزة قريش ، وسعة أرزاقها ، لمحافظة العرب على تجارتها ، وكان العرب يغيرون على كثير من القبائل ، لكنَّ الله مَكَّنْ لقريش .

قال تعالى : **أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ...** (القصص: ٥٧) .

ونلاحظ أن الله تعالى منَّ عليهم فى السورة السابقة (سورة الفيل) برَدِّ كيد أصحاب الفيل ، وحماية البيت الحرام وأهل مكة منهم ، ثم منَّ عليهم فى هذه السورة بنعمة الأمن والأمان ، وإلِّف السفر والتعود عليه ، وكانت تجارتهم تريح ، والناس تحافظ عليها ، وكان الحجيج يحملون معهم ثمرات بلادهم أثناء الحج والعمرة .

قال تعالى : **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ...** (العنكبوت: ٦٧) .

٣ - فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ .

فلتحتج قريش وأهل مكة إلى عبادة الله رب البيت الحرام والكعبة المشرفة ، بسبب أنه عظيم وكريم ، وصاحب أفضال ونعم .

٤ - الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

إن الله رب البيت العتيق ، هو الذى أطعمهم من جوع ، فيسر لهم التجارة الرابحة التى تجوب البلاد إلى الشام صيفا ، وإلى اليمن شتاءً ، فزادت ثروتهم ، وكانت مكة من البلاد الغنيَّة بسبب التجارة ، وبسبب محافظة الناس على تجارة قريش وأهل مكة .

وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

حيث رد أصحاب الغيل وأهلك جيشهم ، وجعل البيت الحرام منطقة أمان يقام عندها الحج ، ويؤدى الناس المناسك والعبادة .

قال تعالى : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ ... (المائدة : ٩٧) .

أى : يقوم عندها أمر الدين ، وتتم عندها وحولها مناسك الحج والعمرة .

والخلاصة :

لنتَّجه قريش بعبادتها إلى الله وحده ، الذى أنعم عليها بنعم عديدة ، يكفى أن يكون من بينها رحلة الشتاء والصيف ، وليشكروا الله الذى يسر لهم الرزق والأقوات ، كما جعلهم فى أمن بسبب البيت الحرام .

قال تعالى : وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ... (آل عمران : ٩٧) .

قال ابن كثير :

ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه .

كما قال تعالى :

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٨٤) .

(النحل : ١١٢، ١١٣)

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة قريش)

تفسير سورة الماعون

أهداف سورة الماعون

(الآيات الثلاث الأولى من سورة الماعون مكية ، وبقيّة السورة مدنية ،
وآياتها ٧ آيات ، نزلت بعد سورة التكاثر)

وهي سورة ذات معنى أصيل في الشريعة ، تعالج حقيقة ضخمة ، هي أن هذا الدين ليس مظاهر وطقوساً ، ولكنه عقيدة صادقة ، ويقين ثابت ، وإخلاص لله ، ويتمثل هذا اليقين في سلوك نافع ، وحياة مستقيمة . كما أن هذا الدين ليس أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، وإنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره في تحقيق الخير للفرد والجماعة .

مع آيات السورة

١ - أَرَعَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالَّذِينَ . أي : هل عرفت ذلك الذي يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية والشئون الغيبية ، بعد أن ظهر له الدليل القاطع والبرهان الساطع .

قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، كان ينحر جزورين في كل أسبوع ، فأتاه يقيم فسأله لحماً فقرعه بعصاه .

وقال مقاتل : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأفعال القبيحة .

وعن السدي : نزلت في الوليد بن المغيرة .

وقيل : في أبي جهل ، وحكى الماوردي أنه كان وصياً ليتيم فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه ، فدفعه ولم يعأ به ، فأيس الصبي ، فقال له أكابر قريش استهزاء : قل لمحمد يشفع لك ، فجاء إلى النبي ﷺ والتمس منه الشفاعة ، وكان النبي ﷺ لا يرد محتاجاً ، فذهب معه إلى أبي جهل فقام أبو جهل ورحب به وبذل المال لليتيم ، فغيرته قريش وقالوا له : صبأت ، فقال : لا والله ما صبأت ، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حرية ، خفت إن لم أجبه أن يطعنني فيّ .

وقال كثير من المفسرين : إنه عام لكل من كان مكذباً بيوم الدين .

٢ - قَدْ لَكَ الَّذِي يَلْعَنُ الْيَتِيمَ . أى : فذلك المكذب بالدين هو الذى يدع اليتيم ، ويزجره زجراً عنيفاً ، لقد خلا قلبه من الرحمة ، وامتلاً بالكبر والغطرسة ، ولذلك أمان اليتيم وآذاه ، واليتيم مظهر من مظاهر الضعف ، فَقَدْ قَدَّ الأَب الذى يحميه ، والعائل الذى يحنو عليه ، ومن واجب المجتمع أن يتعاون على إكرامه ، والأخذ بيده حتى ينشأ عزيزاً كريماً . إن كل فرد معرض لأن يفاجئه الموت وأن يترك أولاده يتامى ، فليعامل اليتيم بما يحب أن يعامل به أولاده لو كانوا يتامى .

قال تعالى : وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . (النساء : ٩) .

وقد تكررت وصايا القرآن برعاية اليتيم والمحافظة على ماله ، والتحذير من تضييع حقه ، ورد ذلك فى السور المكية والسور المدنية ، وفى هذه الآيات وفى سورة الضحى - وهى من أوائل ما نزل من القرآن - وصية باليتيم ، وفى صدر سورة النساء المدنية تفصيل وإف لرعاية اليتيم بدأ بقوله تعالى : رَاءَانُوا الَّتِي نَمَى أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبْدَلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا . (النساء : ٢) .

وقد وردت عدة وصايا باليتيم فى الآيات : السادسة ، والعاشرة ، والسادسة والعشرين من سورة النساء . كما تكررت الوصية باليتيم فى آيات القرآن ، وأحاديث النبى ﷺ ، فقال ﷺ : «خير بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه ، وشر بيوت المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه» .

٣ - وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . أى : ولا يحث غيره على إطعام المسكين .

قال الإمام محمد عبده : وهو كناية عن الذى لا وجود بشيء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوة ، الذى لا يستطيع كسباً .

وليس المسكين هو الذى يطلب منك أن تعطيه وهو قادر على قوت يومه ، بل هذا هو المُلْحَف الذى يجوز الإعراض عنه ، وتأديبه بمنعه ما يطلب ، وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ولم تجد ما تعطيه ، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه ، وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم ، وهى طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الكتاب

بهذه الآية ، وينحو قوله تعالى فى سورة الفجر : كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحْتَضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . (الفجر : ١٧ ، ١٨) . ونعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء ، وسد شئ من حاجات المساكين .

«إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ، إنما هى تحول فى القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه فى البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية ، والله لا يريد من الناس كلمات ، إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها ، وإلا فهى هباء لا وزن لها عنده ولا اعتبار . وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث فى تقرير هذه الحقيقة التى تمثل روح هذه العقيدة ، وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل»^(١٨٨) .

٤ ، ٥ - قَوْلُ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . أى : إذا عرفت أن المكذب بالدين هو الذى أقفر قلبه من الرحمة ، وأجذب من العدل والمكرمة ، «فويل لأولئك الذين يصلون ، ويؤدون ما يسمى صلاة فى عرفهم من الأقوال والأفعال وهم مع ذلك ساهون عن صلاتهم ، أى غافلة قلوبهم عما يقولون وما يفعلون ، فهو يركع فى ذهول عن ركوعه ، ويسجد فى لهو عن سجوده»^(١٨٩) . وإنما هى حركات اعتادها ، وأدعية حفظها ، ولكن قلبه لا يعيش معها ، ولا يعيش بها ، وروحه لا تستحضر حقيقة الصلاة ، وحقيقة ما فيها .

٦ - الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ . أى : يفعلون ما يرى للناس فقط ، ولا يستشعرون من روح العبادة ما أوجب الله على النفوس أن تستشعره .

«إنهم يُصلُّون رياء للناس لا إخلاصاً لله ، ومن ثم فهم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها ، ساهون عنها لم يقيموها ، والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها ، وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها»^(١٩٠) .

٧ - وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ . أى : يمنعون المساعدة عن المستحق لها ، أو يمنعون ما اعتاد الناس قضاءه وتداوله فيما بينهم ، تعاوناً وتآزراً ، ولا يمنعه إلا كل شحيح يكره الخير .

«إنهم يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم فى البشرية ، يمنعون الماعون عن عباد الله ، ولو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده ، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله»^(١٩١) .

«وأكثر المفسرين على أن الماعون اسم جامع لما لا يُمنع في العادة ، ويسأله الفقير والغنى في أغلب الأحوال ، ولا ينسب سائله إلى لؤم بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل ، كالفأس والقدر والدلو والغريال والقندوم ، ويدخل فيه الماء والملح والنار ، لما رُوى : (ثلاثة لا يحل منعها : الماء والنار والملح) .

وقد تسمى الزكاة ماعونا ، لأنه بسببها يؤخذ من المال ربع العشر ، وهو قليل من كثير .

قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ذلك ، ولا يقتصر على قدر الضرورة ، وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطراره^(١٨٩) .

إن الشرائع السماوية إنما أنزلت لتَهذيب الضمير ، ونقاء القلوب ، وصفاء النفوس ، وتقويم السلوك ، وبذلك تسمو الحياة ، ويسود الحب والتآلف ، والإخاء والتكافل الجميل .

مقاصد السورة

- ١ - الدين ليس رسوماً وطقوساً ، ولكنه عقيدة صادقة وسلوك مستقيم .
- ٢ - الدين الحق صلاة خاشعة ، ورعاية لليتيم ، وحماية للمسكين ، ومساعدة للمحتاجين .
- ٣ - المكذب بالدين له سمات وصفات ، هي : إزلاله لليتيم ، عدم رحمة المسكين ، الانشغال عن الصلاة ، الرياء والنفاق ، منع العون والمعونة عن المحتاج إليها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

المضردات :

أَرَأَيْتَ الذي يكذب بالدين : الخطاب موجه للذنبي ﷺ ابتداء ، والمراد بالدين : الحساب والجزاء

يَدْعُ الْيَتِيمَ : يظلمه ويمنعه حقه ، أو يزجره وينهره لو قصده لعون أو مساعدة .

يَحْضُ : الحَضُّ هو الحثُّ على الشيء والترغيب فيه بشدة .

فَوَيْلٌ : الويل : الهلاك والعذاب ، وقيل : اسم لواء في جهنم شديد العذاب .

الْمَاعُونَ : المراد بالماعون : الزكاة ، ومن معانيه : المعروف ، والماء ، وكل ما يُنتفع به ، أو كل مستعار بين الجيران من فأس وقدر وبلو ونحو ذلك .

التفسير :

١ - أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ .

هل شاهدت هذا الصنف من الناس الذي يكذب بيوم الجزاء ، ويكفر بالبعث والحشر ، والثواب والعقاب ، وقد ورد أنها نزلت في عدد من رؤوس الكفر ، كفروا بالله وملأوكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وظلموا اليتامى وأكلوا حقوقهم ، ولم يعطوا على الضعفاء ولم يساعدوهم ، لذلك نجد فريقاً من المفسرين يقول : إن الآيات الثلاث الأولى تتحدث عن الكافرين ، والآيات الأربع الأخيرة تتحدث عن المنافقين .^(١) وفريقاً آخر يرى أن الآيات الكريمة في سورة الماعون تنطبق على المسلمين الذين يزعمون أنهم مسلمون ، لكن تصديقهم بالدين أصبح ضعيفاً أو باهتاً ، بدليل حبس أموالهم ومعروفهم : عن اليتيم والمسكين ،

ودخلهم في الصلاة بدون قلب حاضر ، وإنما هو الرياء والتظاهر ، ولا يهتمون بالتعاون لرفع مستوى معيشة الفقراء والمساكين^(١٩١) .

وعند التأمل نجد أن السورة يمكن أن تنطبق على الكافرين والمنافقين كما ذهب الفريق الأول ، كما يمكن أن تشمل ضعفاء الإيمان الذين لا يقومون بحق الله كاملاً ، ولا يؤدون حقوق العباد على الوجه السليم ، كما ذهب الفريق الثاني .

٢ - فَاذْكُ الْذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ .

أى : إن أردت أن تعرفه فهذه صفاته ، فذلك هو الذى يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً بجفوة وغلبة ، ويقهره ويظلمه ولا يعطيه حقه .

٣ - وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ .

أى : إنه لا يطعم المسكين ، ولا يحث غيره على ذلك ، والسبب هو ضعف الإيمان باليوم الآخر ، وعدم اليقين بالجزاء العادل من الله ، فلو أن الإيمان بالله كان ثابتاً في القلب لرأيت صاحبه رحيماً باليتيم ، متعاوناً مع غيره لإطعام المسكين ، وفيه إشارة إلى أن الإنسان إذا عجز عن مساعدة المسكين ، كان عليه أن يحث غيره من القادرين على ذلك ، ويدعوه إلى فعل الخير .

٤ ، ٥ - فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

عذاب شديد للمنافقين المتصنفين بهذه الأوصاف القبيحة ، وهى عدم الاهتمام بالصلاة ، وأنهم لا يستحضرون قلوبهم وخشوعهم فيها .

قال ابن عباس : هو المصلى الذى إن صلى لم يرج لها ثواباً ، وإن تركها لم يخش عليها عقاباً^(١٩٢) .

أى : إنهم من أهل الصلاة ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكليّة ، أو إخراجها عن وقتها .

وقال عطاء بن دينار :

الحمد لله الذى قال : عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . ولم يقل : فى صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

فيؤخرونها إلى آخر الوقت ، أو لا يؤدونها بأركانها وشروطها ، من الخشوع فيها والتدبر لمعانيتها ، فاللفظ يشمل ذلك كله ، كما ورد فى صحيح البخارى ، وصحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة

المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً ، لا يذكر الله فيها إلا قليلاً^(١٣٣) .

فالإيمان غير وثيق في قلبه ، وذكر الله ضعيف باهت عنده ، ولعل الذي حمله على الصلاة هو الرياء .

قال تعالى : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخْلِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَالِدُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . (النساء : ١٤٢) .

قال ابن عباس : يعنى المنافقين الذين يُصَلُّونَ فى العلانية ولا يُصَلُّونَ فى السر^(١٣٤) .

٦ - الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ .

يتظاهرون بالعبادة والصلاح أمام الناس ، وقلوبهم خاوية من التقوى والإيمان والإخلاص لله تعالى .

٧ - وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ .

أى : يمنعون الزكاة عن أصحابها ، أو يمنعون الصدقة والمعروف .

وسئل ابن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم من القاس والقدر والدلو ، وأشباه ذلك من متاع البيت .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال ، وأدناه المنخل والدلو والإبرة . ١ هـ .

أى أن الماعون يشمل كل معونة كبيرة أو صغيرة ، للفرد أو الجماعة ، فالمؤمن نافع لإخوانه ، مهتم بشئون المسلمين ، ولهذا جاء فى الحديث : «كل معروف صدقة» .

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الماعون)

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الكوثر

أهداف سورة الكوثر

(سورة الكوثر مكية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة العاديات)

وهي سورة خالصة لرسول الله ﷺ ، فقد كان أعداؤه يملكون المال والجاه والسلطان ، ويُعيرونه بأن أتباعه من الفقراء ، وكانوا يرون أن أبناءه الذكور يموتون صغاراً ، فيُعيرونه بأنه أبتر ، لا عقب له من الذكور ، وكانت هذه الأقاويل تلقى من يستمع إليها ويردها ، في بيئة تزد البناات ، وتحتكم إلى السيف والقوة ، وترى الفقر سبباً ومنقصة ، فنزلت هذه السورة تدافع عن النبي الكريم ﷺ ، وتفيد أن الله أعطاه من الخير الكثير ، لقد أعطاه الله النبوة والهدى ، وأيده بالصحابه الأوفياء ، وجعل سيرته عطرة منتشرة ، وشريعته باقية خالدة ، وآلاف الملايين تردّد ذكره ، وتشهد له بالرسالة :

وضمّ الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشيق له من اسمه ليُجعله فذو العرش محمود وهذا محمد

مع آيات السورة

١ - إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ . الكوثر صيغة مبالغة من الكثرة ، ومعناه : الشيء البالغ من الكثرة حد الإفراط ، وهو مطلق غير محدود .

وقد ورد أن سفهاء قريش ، ممن كانوا يتابعون الرسول ﷺ ودعوته بالكيد والمكر ، وإظهار السخرية والاستهزاء ، من أمثال العاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبى لهب ، وأبى جهل وغيرهم ، كانوا يقولون عن النبي ﷺ إنه أبتر ، يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده ، وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهى أمره ؛ فنزلت هذه السورة لتشير إلى عطاء الله تعالى للنبي الكريم ﷺ ، وهو عطاء كثير لا حد له .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة تفيد أن الكوثر نهر في الجنة ، أوتيّه رسول الله ﷺ .

«وأخرج البخارى ، وابن جرير ، والحاكم ، وابن عساكر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الكوثر : الخير الذى أعطاه الله تعالى إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد : فإن ناسا يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل إياه ، عليه الصلاة والسلام ، ويروى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً»^(١٩٤).

وفى تفسير النيسابورى أنه وردت عدة أقوال فى معنى الكوثر :

القول الأول : الخير الكثير ، إلا أن أكثر المفسرين خصّوه فحملوه على أنه نهر فى الجنة .

القول الثانى : أن الكوثر أولاده من نسل فاطمة ، أى أن الله يعطيه منها نسلًا يبقون إلى آخر الزمان .

القول الثالث : الكوثر هم علماء أمته ، فهم رحمة إلى يوم القيامة .

وروى أن الكوثر هو النبوة والرسالة وكونه خاتم المرسلين^(١٩٥) .

كما روى أن الكوثر هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ، وقيل : هو الإسلام ، وقيل : هو التوحيد ، وقيل : هو العلم والحكمة ، وقيل : هو الفضائل الكثيرة التى وهبها الله تعالى إياه .

«فقد أسرى به ليلاً ، وانشق له القمر ، وكثر الزاد ببركة دعائه ، وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل ، وأعطاه الله القرآن هدى ورحمة للعالمين»^(١٩٦) .

٢ - فَضْلُ لِرَبِّكَ وَآخِرُ . أى : فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك ذاكراً اسم الله ، مخلصاً لله فى صلاتك ونحرك .

كما قال تعالى : قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَلِيِّ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ . (الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣) .

«والأكثر من على أن المقصود بالصلاة هنا جنس الصلاة ، لإطلاق اللفظ ، وقال الآخرون : إنها صلاة عيد الأضحى ، لاقتربانها بقوله : وَآخِرُ . وكانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فأمرؤا بتأخيرها عنها ، والواو تفيد الترتيب استحساناً وأدباً وإن لم تفده قطعاً»^(١٩٧) .

٣ - «إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْبُتْرُ» أى: إن مبغضك - كائنًا من كان - هو المقطوع ذكره من خيرى الدنيا والآخرة.

إنهم لم يبغضوه لشخصه ، فقد كان الصادق الأمين ، ولكنهم أبغضوه لما يحمله لهم من الرسالة والهدى ، فأثروا أهواءهم ، وتخطوا فى ضلالهم ، حتى خذلهم الله وقطع أثرهم «فقد جرهم الخذلان إلى غاية الخسران ، ولم يبق لهم إلا سوء الذكر لبعضهم ، والنسيان التام لبقيتهم ، بخلاف النبى ﷺ ومن امتدى بهديه فإن ذكرهم لا يزال رفيقًا ، وأثرهم لا يزال باقياً فى نفوس الصالحين»^(١٩).

مقاصد السورة

١ - أعطى الله محمدًا ﷺ الخير الكثير ، فرفع ذكره ، وأعلى شأنه ، ونصر دعوته ، وبارك فى أمته .

٢ - ينبغى إخلاص الصلاة والعبادة والنحر لله سبحانه وتعالى .

٣ - من أبغض النبى ودعوته انقطع أثره وباء بالخذلان ، بينما بقى ذكر النبى ﷺ ودعوته على مر الأزمان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝﴾

المفردات :

الكوثر ، الخير الكثير .

فصل لربك ، فاعبد ربك الذي أعزك وشرقك .

وانححر : لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفاً لعبدة الأوثان .

شائنك : مبغضك .

الأبتر : المنقطع من كل خير .

التفسير :

١ - إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ .

الكوثر : الخير ، وهو مبالغة من الكثرة ، والعرب تسمى كل شيء كثير كوثرًا .

قال الشاعر :

وأنت كثيرٌ يا ابن مروان طيبٌ
وكان أبوك ابنُ العقائل كوثرًا

والمعنى :

إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، والفضل الوفير ، ومن ذلك : نزول الوحي والقرآن الكريم ، والرسالة الخاتمة ، والإسراء والمعراج ، وأنت أول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع مشفع ، وكتابك مهيمن على

الكتب السابقة ، وشريعتك خاتمة الشرائع ، وأعطيت الخنيفية السمحة ، وأعطاك الله الحكمة والعلم ، والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الأتباع ، والنصر على الأعداء .

وقد ورد في الصحيح أن النبي ﷺ فسر الكوثر ، فقال : «فإنه نهر وعذبه ربِّي عز وجل في الجنة ، حافته من ذهب ، ومجره على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل»^(٢٠٠) .

٢ - فَصْلُ رَبِّكَ وَانْحَرُ .

اجعل صلاتك خالصة لوجه الله ، واجعل نحرك الإبل لله وحده .

كما قال سبحانه وتعالى : قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (الأنعام : ١٦٢) .

وقد كان المشركون يُصلُّون في البيت الحرام بالتصفيق ، ويذبحون ذبائحهم للأصنام ، فأمره الله تعالى وأمرنا أن تكون صلاتنا خالصة لله ، وأن تكون ذبائحنا لله وحده لا شريك له .

وقيل : المعنى : صل صلاة عيد الأضحى وانحر الأضحية .

٣ - إِنْ شَارَيْكَ هُوَ الْأَبْتَرُ .

مبغضك هو المقطوع الأثر ، وقد روي أنه لما مات القاسم شمت كفار مكة ، وقال العاص بن وائل : دَعُوهُ فإنه رجل أبتَر لا عقب له ، ولا نسل له من الذكور ، فإذا مات انقطع ذكرك ، فأنزل الله تعالى هذه السورة توضح أن محمداً ﷺ في عز من الرحمن ، ومنعة من المسلمين ، ودينه في انتصار ، وأن المسلمين جميعاً من زمانه إلى يوم القيامة في منزلة أبنائه وأحفاده ، فهو كالوالد لهم ، أما أعداؤه فهم مبتورون من رحمة الله .

أما محمد ﷺ فقد أبقي الله ذكرك على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على

دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد^(٢٠١) .

★ ★ ★

تم بحمد الله وفضله وتوفيقه تفسير سورة (الكوثر) مساء الثلاثاء ٢٠ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٢ / ٦ / ٢٠٠١ ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الكافرون

أهداف سورة الكافرون

(سورة الكافرون مكية ، وآياتها ٦ آيات ، نزلت بعد سورة الماعون)

وهي سورة تصدح بالحقيقة ، وترفض أنصاف الحلول ، وتعلن أن الإسلام إسلام ، وأن الكفر كفر ، ولن يلتقيا .

أسباب النزول

رُوي أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف في جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم ، أتوا النبي ﷺ فقالوا له : هلم يا محمد فاتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركك في أمرنا كله ، تعبد آللهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شاركناك فيه وأخذنا حظاً منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شاركتنا في أمرنا ، وأخذت حظك منه . فقال : «معاذ الله أن تشرك به غيره» ، وأنزل الله رداً على هؤلاء هذه السورة ، فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه المأمن قريش ، فقام على رؤوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فيئسوا منه ، وآذوه وصحبه ، حتى اضطر إلى الهجرة إلى المدينة^(١) .

فكرة السورة

لم يكن العرب يجحدون الله ، ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه ، وهي أحد فرد صمد ، فكانوا يشركون به ، ولا يعبدونه حق عبادته ، كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء ، أو يرمزون بها إلى الملائكة ، ويقولون : مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... (الزمر : ٣) .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب الذين كانوا يعيشون معهم في

الجزيرة .

ولحسم هذه الشبهات نزلت هذه السورة بهذا الجزم ، وبهذا التوكيد ، وتوضح أنهم كافرون مشركون ، قد نبذوا التوحيد ، وخرجوا عن جادة الصواب ، فلن يعبد النبي ﷺ ما يعبدون من أصنام و أوثان .

قال تعالى : قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . (الزمر : ٦٤) .

مع آيات السورة

١ - قُلْ يَتَّبِعُهَا الْكَافِرُونَ . قال لهم : يا أيها الكافرون ، ناداهم باسمهم وحقيقتهم ، ووصفهم بوصفهم ، إنهم ليسوا على دين وليسوا بمؤمنين ، وإنما هم كافرون .

٢ - لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودى غير معبودكم ، وأنا لا أعبد أصنامكم ، ولا أسجد لآلهتكم ، وإنما أعبد إلهاً واحداً منزهاً عن النظير والمثيل : لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١)

٣ - وَلَا أَتَمُّ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ . وإنكم لكاذبون فى دعواكم أنكم تعبدون الله ، لأن الذى تزعمونه رباً تتخذون له الشفاعة ، وتجعلون له زوجة من الجن تلد له الملائكة^(١٠٦) ، وتنسبون إليه ما يتنزه عنه الله . فهذا الذى تعبدونه لن يكون إلهاً مستحقاً للعبادة .

٤ - وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . تكرير وتوكيد للفقرة الأولى فى صيغة الجملة الاسمية ، وهى أدل على ثبات الصفة واستمرارها ، وقد كرر نفى عبادته آلهتهم قطعاً لأطماعهم وتبئيساً لهم .

٥ - وَلَا أَتَمُّ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ . تكرر لتوكيد الفقرة الثانية ، كى لا تبقى مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر ، بكل وسائل التكرار والتوكيد .

قال أبو مسلم الأصفهاني : معناه : لا أنا عابد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتى .

وخلاصة ما سلف : الاختلاف التام فى المعبود ؛ والاختلاف البين فى العبادة ، فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، إن عبادتى خالصة لله وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

٦ - لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .

لَكُمْ دِينُكُمْ . مختص بكم لا يتعداكم إلى ، فلا تظنوا أنى عليه أو على شئ منه .

وَلِيَ دِينِ . أى : دينى هو دين خاص بى ، وهو الذى أدعو إليه ، ولا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

مقاصد السورة

١ - إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ولا يلتقيان .

٢ - المؤمن لا يسجد للصنم ، ولا يعبد ما يعبد الكافر .

٣ - الكافر لا يعبد الله ، بل ضلَّ طريقه إلى عبادته .

٤ - المؤمن واضح صادق فلن يعبد عبادة الكافر ، كما أن الكافر لا يعبد عبادة المؤمن .

٥ - سيلقى المؤمن ثوابه ، وسيلقى الكافر جزاءه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

المفردات :

ماتعبدون : من الأصنام وغيرها .

دينكم : أى : الشرك بعبادة الأصنام .

ولى دين : دين التوحيد .

التفسير :

١ - قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ .

هى فى الأصل نداء لكفار مكة ، لكنها عامة ، أى : يا محمد ، يا رسول الله ، يا صاحب رسالة الإسلام ، إنك مكلف أن تقول فى كلمة التوحيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهؤلاء يعبدون الأصنام والأوثان ، ويجعلونها شفعاء لله ، والله تعالى واحد أحد ، منزّه عن الصاحبة والولد ، وعن الشريك والمثيل ، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... (البقرة : ٢٥٥) .

لذلك أعلنها النبى ﷺ ، وبَيَّن أنهم كافرون بالله ، وعبادتهم للأصنام تخرجهم من الإيمان ، أى : قل يا محمد لهم : يا أيها الكافرون بالله الواحد الأحد .

٢ - لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ .

لا أعبد آلهتكم ، ولا أسجد لأصنامكم ، ولا أشارككم فى عقيدتكم .

٣ - وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .

وأنتم لا تعبدون الله الواحد الذى أعبده ، فعبادتكم للأصنام فى ضياع وهباء .

قال تعالى : وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا . (الفرقان : ٢٣) .

٤ - وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ .

الظاهر أنه تكرر للتأكيد .

قال الفراء : إن القرآن نزل بلغة العرب ، ومن عادتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام ، فيقول المجيب :

بلى بلى ، والممتنع : لا ، لا .

ومنه قوله تعالى : كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . (التكوير : ٣ ، ٤) .

وهو كثير نظماً ونثراً ، وفائدة التوكيد هنا قطع أطماع الكافرين ، وتحقيق أنهم باقون على الكفر

أبدًا ، والرسول ﷺ باقر على عبادة ربه أبداً .

٥ - وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ .

أى : ولا أنتم عابدون عبادتى ، فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة .

أنا أعبد الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن النظير والمثيل ، أَوَّلُ بلا ابتداء ، وآخر بلا انتهاء ،

بيده الخلق والأمر ، لا حدود لقدرته ، فهو على كل شيء قدير ، إذا أراد أمراً كان وحصل ، فقال لما يريد : إِنَّمَا

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

أما معبودكم فهو هذه الأصنام والأوثان ، وعبادتى خالصة لله الواحد الأحد ، وعبادتكم تشويها

أفكار ملفقة ، حيث تدعون أن الله تزوج من أغنياء الجن فولدوا له الملائكة ، وتدعون أن الأصنام تقربكم

من الله ، وهى أصنام صماء لا تسمع ولا تنفع ، ولا تجيب ولا تعقل شيئاً .

٦ - لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .

لكم شرككم ولى توحيدى ، ودينكم مختص بكم لا يتعداكم إلى ، فلا تظنوا أنى عليه ، أم على شىء

منه .

وَلِيَّ دِينٍ.

ولى رسالتى ودعوتى ، وهى خاتمة الرسالات ، وخاتمة الشرائع ، اشتملت على تنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، وعلى أنه تعالى متصنف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وله الأسماء الحسنى ، فهو سميع قدير ، متكلم مريد ، لطيف خبير قهار ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ١٦) .

قال المفسرون :

معنى الجملتين الأوليين : الاختلاف التام فى المعبود ، فإنه المشركين الأوثان ، وإله محمد الرحمن . ومعنى الجملتين الأخيرتين : الاختلاف التام فى العبادة ، كأنه قال : لا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة .
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

★ ★ ★

(تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة الكافرون) .

★ ★ ★

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة النصر

أهداف سورة النصر

(سورة النصر مدنية ، وآياتها ٣ آيات ، نزلت بعد سورة التوبة)

ومع قصرها فإنها حملت البشرى لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، ثم طلبت منه التسبيح والحمد والاستغفار .

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَأَظْهَرَ كَ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَفَتْحَ لَكَ مَكَّةَ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فوجا بعد فوج .. فنزله ربك حامدا إياه على ما أولاك من النعم والمنن ، واستغفر الله لحظة الانتصار من الزهو والغرور والتقصير ، إنه كان ولم ينزل ثوابا كثير القبول للثوبة ، يحب التوابين ويحب المتطهرين . ولما دخل النبي ﷺ مكة فاتحا منتصرا ، انحنى على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها ، وهو يقول : «تائبون آيبون حامدون لربنا شاكرون» .

سورة التوديع

وسورة النصر تحمل بين طياتها إتمام الرسالة ، وأداء الأمانة ، والاستعداد للحاق بالرفيق الأعلى . قال البيضاوى : تسمى سورة التوديع .

ويقال : إن عمر لما سمعها بكى ، وقال : الكمال دليل الزوال .

وروى أن العباس بكى لما قرأها رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : «ما يبكيك» ؟ قال : نعتيت إليك نفسك . فقال النبي ﷺ : «إنها لكما تقول ، وإنما ذلك لأن فيها تمام الأمر» .

كما في قوله تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... (المائدة : ٣) .

وجاء في رواية للبخارى أن عمر رضى الله عنه سأل أشياخ بدر ، فقال : ما تقولون في قول الله تعالى : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا

وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال : ألك ذلك تقول يا بن عباس ؟ قلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له . قال : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . فذلك علامة أجلك . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا . فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول . (٢٠١)

وفى رواية الإمام أحمد ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر فى آخر أمره من قوله : «سبحان الله ويحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه» . (٢٠٢)

مقاصد السورة

- ١ - عند الفتح الأكبر ودخول الناس فى دين الإسلام ، ينبغى شكر الله والاستغفار من كل تقصير ، فإن باب الله مفتوح ، وهو صاحب الطول ، ويقبل التوبة من جميع التائبين .
- ٢ - وفى السورة إيدان بأداء النبى ﷺ للرسالة العظمى ، وانتهاء المهمة الكبرى ، وتوجيه له بأن يستعد للموت بالاستغفار والتوبة وشكر الله والتسبيح بحمده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۚ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ نَوَّابًا ۝﴾

المضردات :

الفتح : المراد به : فتح مكة .

أفواجا : زمرا وجماعات .

سبح : نزهه وقده .

واستغفره : مما قد يكون منك ، وهو لتعليمنا .

توابا : كثير المتاب والغفران لمن تاب .

تمهيد :

جاء في كتب التفسير والحديث أن أحياء العرب كانت تتلوم (تنتظر) بإسلامها فتح مكة ، فلما فتحت مكة قالت العرب : إن الله منع أطحاب الفيل من دخول مكة ، ولم يفتحها لمحمد إلا لأنه رسول الله ، فأقبل الناس على الدخول في الإسلام ، جماعات جماعات .

وهناك عدة روايات في كتب السنة تفيد أن هذه السورة القصيرة قد نعت إلى الرسول ﷺ حياته ، فإنه إذا نجح في أداء الرسالة ، وفتحت مكة ، وعم الإسلام بلاد العرب ، يكون قد أدى مهمته في الدنيا ، وحان الموقت أن يلحق بالرفيق الأعلى .

التفسير :

١ - إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ .

إذا كنز نصرك على العباد ، وفتح الله لك البلاد ، وفتحت مكة أم القرى .

ونلاحظ أن الله أضاف النصر إليه ، فهو نصر الله ، لقد مكث المؤمنون في مكة ثلاثة عشر عاما ، يتعرضون لأقسى ألوان الاضطهاد ، ثم هاجروا إلى المدينة ، وخاضوا مع النبي ﷺ غزوات وسرايا ، بلغ عددها اثنتين وخمسين غزوة وسرية خلال عشر سنوات ، كلها كفاح وجهاد ، يُمسون ويُصبحون في الحديد ، أي في الدروع والسيوف وآلات الحرب ، وكانت النفوس تتشوف إلى نصر حاسم ، وكان الله تعالى يدخر ذلك لحكمة يعلمها ، وهو العليم الحكيم .

قال تعالى : حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . (يوسف : ١١٠) .

٢ - وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .

كان الناس يدخلون في الإسلام أفردًا ، فلما فتحت مكة ودخل أهلها في الإسلام ، وخضعت أم القرى ، جاء الناس أفواجا وجماعات للدخول في دين الله تعالى ، وهو الإسلام .

٣ - فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .

عند مجيء النصر والفتح والغلبة ، ينبغي أن تشكر الله تعالى وتلجأ إليه ذاكرا شاكرًا ، مستغفرا تائبًا ، متجردًا من الغرور أو الإعجاب بالنصر .

فالنصر نصر الله ، والدِّين دين الله ، وأنت عبد الله ورسوله ، فعليك بذكره وتسبيحه واستغفاره ، ولما نزلت هذه السورة كان ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» . يتأول القرآن ^(٢٠١) .

والمعنى :

إنه كان يجمع هذه الأوامر في صيغة تجمع معانيها ، فيقول : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي» ، فهي ذكر وشكر ، واعتراف لله بالفضل ، ورغبة في التوبة والمغفرة .

روى مسلم ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله أتوب إليه» ^(٢٠٢) .

سيد الاستغفار

اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (النصر) ظهر يوم الأربعاء ٢١ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ،
الموافق ١٣/٦/٢٠٠١ م .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, surrounding the title text.

تفسير سورة المسد

أهداف سورة المسد

(سورة المسد: مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد الفاتحة)

وتسمى سورة تبت ، وسورة أبى لهب ، وسورة المسد لذكرها فيها .

مقصود السورة

قال الفيروزبادي :

مقصود السورة : تهديد أبى لهب على الجفاء والإعراض ، وضياح كسبه وأمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذم زوجه فى إيذاء النبی ﷺ ، وبيان ما هو مدخر لها من سوء العاقبة .

مع السورة

سورة المسد ، وتسمى أيضا سورة أبى لهب ، وأبو لهب - واسمه عبد العزى بن عبد المطلب - هو عم النبی ﷺ ، وإنما سُمى بأبى لهب لإشراق وجهه ، وكان هو وامراته أم جميل من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به .

أخرج البخارى بإسناده ، عن ابن عباس أن النبی ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : «يا صباحاه» ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : «أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ، أكنتم مصدقي» ؟ قالوا : نعم ، قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا .

فأنزل الله السورة : **كَيْتَ إِذَا أَبَى لَهَبٍ وَتَبَّ** . والتباب : الهلاك والبوار والقطع ، وتبت الأولى دعاء ، وتبت الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء : هلك نفس أبى لهب ، وقد هلك ، ما نفعه ماله وما كسبه بماله من الريح والجاه ، سيدخل ناراً ذات لهب ، وتجد هنا تناسقا فى اللفظ ، فجهنم هنا ذات لهب يصلها أبو لهب .

ومضمون السورة : خسر أبو لهب ، وضل عمله ، وبطل سعيه الذى كان يسعاه للصد عن دين الله ، ولم يغن عنه ماله الذى كان يتباهى به ، ولا جده واجتهاده فى ذلك ، فإن الله أعلى كلمة رسوله ، ونشر دعوته ،

وأنواع ذكره . وسُعِذَ أبو لهب يوم القيامة بنار ذات شر ولهيب وإحراق شديد ، أعدها الله لمثله من الكفار المعاندين ، فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ودحض عمله ، وسُعِذَ معه امرأته التي كانت تعاونه على كفره وجمده ، وكانت عضده في مشاكسة رسول الله ﷺ وإيذائه ، وكانت تمشي بالنميمة للإفساد ، وإيقاد نار الفتنة والعداوة .

وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . أى : وسُعِذَ أيضا بهذه النار امرأته أروى بنت حرب ، أخت أبي سفيان بن حرب ، جزاء لها على ما كانت تجترحه من السعي بالنميمة ، إطفاء لدعوة رسول الله ﷺ .

والعرب تقول لمن يسعى في الفتنة ويفسد بين الناس : هو يحمل الحطب بينهم ، كأنه بعمله يحرق ما بينهم من صلوات ، وقيل : إنها كانت تحمل حزم الشوك والحسك والسعدان وتنثرها بالليل في طريق رسول الله ﷺ لإيذائه .

في جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسْكِ . في عنقها حبل مما مسد به من الحبال ، أى أحكم فتله ، وقد صورها الله بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها في جديدها ك بعض الحطابات المتهنات ، احتقاراً لها ، واحتقاراً لبعْلِها ، حين اختارت ذلك لنفسها .

وقصارى أمرها أنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة للإفساد بين الناس ، وإيقاد نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حاملة الحطب التي في جديدها حبل خشن تشد به ما تحمله إلى عنقها ، حين تستقل به ، وهذه أبشع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب وهى على تلك الحال .

«ويرى بعض العلماء أن المراد ببيان حالها وهى في نار جهنم ، إذ تكون على الصورة التي كانت عليها في الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك إيذاءً لرسول الله ﷺ ، فهي لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال في جديدها حبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ، فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، فأعقبتها الله في جديدها حبلاً من مسد النار» (٢٠٨)

«وكل امرأة تمشي بالفتنة والفساد بين الناس لتفرق كلمتهم ، وتذهب مذاهب السوء ، فلها نصيب من هذا العذاب ، وجزء من هذا النكال» (٢٠٩)

مقاصد السورة

- ١ - هلاك لأبى لهب ثم هلاك .
- ٢ - لن ينفعه ماله وجاهه ، ولا سلطانه وأولاده .
- ٣ - سيصطلى بنار جهنم ويحترق بلهيبها .
- ٤ - ويكون معه زوجه فى صورة مهينة مزرية ، إذ تحمل الحطب وفى عنقها حبل من ليف ، أشبه بالمرأة المهينة ، أو الحمارة الكادحة .

★ ★ ★

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن
مَّسَدٍ ⑤ ﴾

المضردات :

تَبَّتْ : التَّبَّ : الهلاك والبوار ، وهو دعاء عليه .

أبى لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب ، عم النبي ﷺ ومن أشد الناس إيذاء له والمسلمين .

ما أغنى ، ما نفعه ولا أفاده لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وما كسب : المراد به الولد ، لأن الولد من كسب أبيه ، أو المال والجاه .

ذات لهب : لتأججها واستعارها .

امراته : هى أم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان .

الحطب : المراد : الأشواك التى كانت تلقىها فى طريق النبي ﷺ والمؤمنين إيذاء لهم ، أو هو كناية عن إلقاء

الفتنة بين النبي ﷺ والمشركين .

جيدها : عنقها .

مسد ، هو الليف ، أى : فى عنقها حبل من ليف تجمع فيه الحطب وتحزمه .

تمهيد :

ثبت فى كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يتبع القبائل لدعوتها إلى الإسلام ، وخلفه عمه أبو لهب

يقول : يابنى فلان ، هذا يريد منكم أن تنسلخوا من اللات والعزى وحلفائكم من الجن إلى ما جاء به من

البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، وكانت زوجته أم جميل من سادات مكة ، وقد وقفت مع زوجها

تؤاخره ، وتشدّ أزره فى عداوة محمد ﷺ ، وتلقى الفتن بين محمد ﷺ وبين قبائل مكة ، وباعت قلايتها لتتفق ثمنها فى عداوة محمد ﷺ ، فنزلت فى زوجها وفيها هذه السورة التى تتلى إلى يوم القيامة .

التفسير :

١ - كَيْتَ يَدًا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .

أى : خسرت يداه ، وخسر هو ، ومعنى خسرت يداه : بطل كل كبير عمله .

وقال ابن جرير :

كَيْتَ يَدًا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ .

دعاء عليه من الله .

وَتَبَّ .

هذا خبر من الله ، أى : تحقق هلاكه .

٢ - مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ، وَمَا كَسَبَ .

ما نفعه ماله ولا جاهه ولا منزلته ، ولا ميراثه الذى ورثه عن أبيه وكسبه .

قال المفسرون :

مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ، ...

ما نفعه رأس المال الذى يملكه .

وَمَا كَسَبَ . وما استفاد من الريح والمكسب ، لأن ماله إلى جهنم وينس المصير ، والدنيا التى يملكها لا تزن عند الله جناح بعوضه .

أو المعنى : سيلقى العذاب النفسى فى الدنيا ، وعذاب النار فى الآخرة .

٣ - سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ .

سيصطفى بنار جهنم يوم القيامة ، والسورة نموذج من الأدب الرفيع ، فى توازن آياتها ، وحرف القافية فيها ، فالمعذّب اسمه أبو لهب ، ووسيلة العذاب نار ذات لهب .

٤ - وَأَمَّا حَمَّالَةُ الْحَطَبِ .

كانت زوجته أم جميل تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ إلى صلاة الفجر ، وكانت تشيع عنه سوء ، وتمشي بالنميمة ، ويقال لمن يفسد العلاقات بين الناس : إنه يحمل الحطب ، أى : يشعل النار ويقطع أواصر المودة .

٥ - فَبِى جِدِّهَا حَبْلٌ مِّنْ مُّسَدٍّ .

فى عنقها حبل من ليف ، أى هى فى جهنم بصورة زرية ، تحمل حطب النار على ظهرها ، وفى عنقها حبل من نار ، شأن حاملى الحطب الذين يربطون حبلاً فى أعناقهم ، ويلقون فيه ما يجمعون .

لقد كانت نموذجاً للعداوة هى وزوجها ، وقد أَلَمَّتْهَا هذه السورة ونالت منها ، وذهبت للنبي ﷺ وفى يدها حجر لتلقفه به ، فأعمى الله بصرها عن النبي ﷺ ، فلم تشاهد غير أبى بكر الصديق .

والسورة تبين عدالة الإسلام ، فأقرب الناس إلى الرسول ﷺ ذم القرآن ودم زوجته بسبب أعمالهما ، وقد مات أبو لهب حزينا كئيها بعد هزيمة بدر ، ثم نصر الله رسوله محمدا ﷺ ، وخلد ذكره .

A decorative frame with a scalloped, ornate border surrounding the title text.

تفسير سورة الإخلاص

أهداف سورة الإخلاص

(سورة الإخلاص مكية ، وآياتها ٤ آيات ، نزلت بعد سورة الناس)

وتشتمل هذه السورة على أهم أركان الإسلام التي قامت عليها رسالة النبي ﷺ ، وهذه الأركان ثلاثة :

الأول : توحيد الله وتنزيهه .

والثاني : بيان الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات .

والثالث : أحوال النفس بعد الموت وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ، وصفة اليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ، وحساب وجزاء ، وصراط وميزان ، وجنة ونار .

وأول هذه الأركان هو التوحيد والتنزيه لإخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، ولهذا ورد في الحديث أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن ، لاشتمالها على التوحيد وهو أصل أصول الإسلام .

وفى كتب التفسير : أن هذه السورة نزلت جواباً للمشركين حين سألوا رسول الله ﷺ أن يصف لهم ربه ويبين لهم نسبه ، فوصفه لهم ونزهه عن النسب ، إذ نفى عنه أن يكون والداً أو مولوداً أو أن يكون له شبيه ومثيل .

هُوَ . ضمير تفسره الجملة التالية . اللَّهُ أَحَدٌ . وهو يدل على فخامة ما يليه بإيهامه ثم تفسيره ، مما يزيد تقريراً .

اللَّهُ أَحَدٌ .

اللَّهُ . علم دال على الذات العلية دلالة مطلقة تجمع كل معاني أسمائه الحسنى ، وما تصوره من التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والجلال والكمال .

أَحَدٌ . صفة تقرر وحدانية الله من كل الوجوه ، فهو واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وفي عبادته ، أما أحديته أو وحدانيته في ذاته فمعناها أنه يستقل بوجوده عن وجود الكائنات والمخلوقات ،

فوجودها حادث بعد عدم ، وهى محتاجة إلى علة توجدها وتظل قائمة عليها حافظة وجودها طوال ما كتب لها من بقاء . أما وجود الله فوجود أزلى ، وجود لذاته ، ومنه انبثق كل الوجود ، إنه واجب الوجود الذى لا أول لوجوده ولا آخر ، والفرد الذى لا تركيب فى ذاته .

اللَّهُ أَحَدٌ . فلا إله سواه ولا شريك معه ، وكانوا قد عبدوا آلهة متعددة مثل الشمس والقمر ، واللات والعزى ، ومناة ونسر .

وكان منهم من اتخذ الإلهين : إلهما للنور ، وإلهما للظلمة ، ومنهم مَنْ قال : إن الله ثالث ثلاثة من الآلهة وقد أعلن القرآن الكريم النكير على من اتخذ إلهاً غير الله تعالى ، وقرر القرآن أنه لا شريك له ولا مثيل .

قال تعالى : **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا** . (النساء : ١١٦) .

ووحداية الصفات تعنى تنزيه الله عن صفات المخلوقين من البشر وغير البشر ، فهو متفرد بصفاته تفردة بذاته : **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ... (الشورى : ١١) . لا فى الذات ولا فى الصفات .

وقد تعددت صفات الله فى القرآن ، ولأنها ذاتية دعاهها أسماء إذ يقول : **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ... (الأعراف : ١٨٠) . ويقول تعالى : **هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ... (الحشر : ٢٤) .

وهذه الصفات منها ما يصور عظمة الله وجلاله ، مثل : العظيم ، المتعال ، الحميد ، المجيد ، القدوس ، ذى الجلال والإكرام . ومنها ما يصور خلق الكون وصنع الوجود ، مثل : البارئ ، المصور ، الخالق ، البديع . ومنها ما يصور القدرة الإلهية ، مثل : القوى ، القادر ، القهار ، المهيم . ومنها ما يصور العلم الربانى ، مثل : العليم ، الحكيم ، الخبير . ومنها ما يصور رحمة الله بعباده ، مثل : الرؤوف ، الرحيم ، الرحيم .. إلى غير ذلك من صفات قد تلتقى بصفات البشر ، ولكنها تختلف عنها فى الجنس والنوع ، هى وكل ما يتصل بالذات الإلهية .

ووحداية الله فى أفعاله : هى التفرد فى خلق الكون والقيام عليه وتدبير نظامه المحكم بقوانين ماثلة فى جميع الأشياء .

يقول الحق سبحانه : **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَتُذَكِّرُ لِلْعَبْدِ غَيْبٍ** . **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**

مُبْرَكًا فَأَنْبَتَا بِهِ جَنَّتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلُ بَاسِقَتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رَزَقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ. (ق: ٦- ١١).

وهذا الكون العظيم بنظامه البديع وناموسه الرائع يدل دلالة واضحة على وحدانية الله وتفريده بالألوهية.

قال تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (الأنبياء: ٢٢).

وقال سبحانه: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ. (المؤمنون: ٩١).

ومضمون هذه الآيات أنه لو تعددت الآلهة في الكون لفسد نظام السماوات والأرض ، ولاحتل تماسكها القائم على وحدة نظام ، ووحدة تسيير ، وبما أن الكون لم يفقد نظامه ولا تماسكه فدل ذلك على نفى الآلهة وثبوت وحدانية الحق سبحانه . قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

اللَّهُ الصَّمَدُ .

الصَّمَدُ . هو المقصود في الحوائج وحده ، فهو الملاذ وهو الملجأ ، وهو المستعان وهو المستغاث ، ولا حول ولا طول لسواه ، إنه الخالق الصانع الحافظ الوهاب النافع الضار ، كل شيء بيده وفي قبضته ، يُعطى ويمنع ، ويبسط ويقبض ، ويثيب ويعاقب ، وكل شيء في الكون متجه إليه يتلقى منه الوجود ، إنه المحيي المميت ، الذي يهب كل حي حياته ، وكل حي بل كل كائن ينقاد إليه شاعرا بضغفه وعجزه ، وأنه محتاج إلى بره وتفقده له ، فهو الكالئ الحافظ بالليل والنهار وعلى من الزمان ، وهو الراعى المربى الذى يفقر إليه كل شيء فى الوجود وينقاد بأزمته ، وفى ذلك يقول جل ذكره : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ مِنْ ذَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فِرْقَتِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (النحل: ٤٩ ، ٥٠) .

قال الإمام محمد عبده :

وقوله : الصَّمَدُ . : يُشعر بأنه الذى ينتهى إليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع ، وهو فى ذلك يخالف عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء ، وكثير من أهل الأديان الأخرى يعتقدون بأن لروسانهم منزلة عند الله ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم فيلجأون إليهم أحياء وأمواتا ، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهم خاشعين خاضعين ، كما يخضعون لله بل أشد خشية (٣١)

وقد نفى القرآن كل وساطة بين العبد وربه ، ويبين أن باب الله مفتوح على مصراعيه ، للضارعين والتائبين والسائلين ، فهو قريب من عباده لا يحتاج إلى وساطة أو شفاعة .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة : ١٨٦) .

ويذكر نرى أن الله يرفع كل حجاب بينه وبين عباده ليتجهوا إليه بالمسألة حين تنزل بهم بعض الخطوب ، أو حين تصيبهم بعض الفواجع ، أو حين يلتمسون أى مقصد من مقاصد الدنيا أو مقاصد الآخرة .
قال تعالى : أَذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... (غافر : ٦٠) .

وقال سبحانه : أَذْعُوا رَبُّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . (الأعراف : ٥٥) .

وعلى ذلك فالإسلام يُنكر بيع صكوك الغفران ، لأن المغفرة بيد الله وحده ، ويُنكر الإسلام الاعتراف بالذنوب لرجل الدين حتى تصح التوبة ويُمحى الذنب ، إذ أساس الإسلام أن الله وحده هو المقصود فى كل شيء . وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ... (الشورى : ٣٦، ٢٥) .

وقد جعل الدين الدعاء مع العبادة ، لأن الدعاء اعتراف ضمنى بقدرته الله وعظمته وأنه الخالق البارئ الرازق الفعال لما يريد ، وأن بيده الخير والأمر والنفع وأنه مسبب الأسباب . وللدعاء آداب منها :

التوبة النصوح ، وأكل الحلال ، وأداء الفرائض ، واجتناب المحرمات ، والتزام التضرع والخضوع فى مناجاة الله ودعائه ، واليقين الكامل بأن الله تعالى هو النافع الضار ، لا راد لقضائه ولا معقب لأمره :
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) .

وتمكننا لهذه العقيدة الإسلامية فى النفوس ، علّمها رسول الله ﷺ إلى ابن عمه عبد الله بن عباس وهو غلام صغير وقد كان راكباً خلفه .

فمن عبد الله بن عباس قال : كنت رديف النبى ﷺ على بغلته فقال لى : «يا غلام ، هل أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فى الدنيا والآخرة ؟ » قلت : بلى يا رسول الله علمنى . فقال لى : «يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن

يضررك بشيء ما ضرورك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(٣١١) . رواه أحمد ،
والترمذى ، وهو حديث صحيح .

وحيث يعلم المؤمن هذه الحقيقة ويحىي في فكره وقلبه صمدية الله تعالى ، فإنه لا يرجع في أمر
من أموره إلا إليه سبحانه ، ولا يتقرب بأى قربى إلا قربى تدنيه من طاعة ربه ومرضاته ، وتثبينا لحقيقة
صمدية الخالق من حقائق صفات الألوهية ، قال سبحانه : **اللَّهُ الصَّمَدُ** . أى : الله هو الغنى فى ذاته وفى
صفاته غنى تاما ، وهو الذى يُصمد إليه ، أى : يُرجع إليه فى كل أمر صغر أو كبر .

قال أبو هريرة فى تفسير كلمة الصمد : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

لَمْ يَلِدْ . لم يتخذ ولدا . **وَلَمْ يُولَدْ** . ليس له والد يكنى به . والقرآن بهذا يذره الله العلى العظيم عن الشبه
بالآدميين الفانيين الذى يوجدون بعد عدم ، ويعيشون وينجبون الولد والأولاد ، ثم تشتعل رؤوسهم شيبا
ويبلغون من الكبر عتيا ثم يموتون ، وبذلك يكون الإنسان والدا ومولودا فى آن واحد ، أما الله سبحانه
فتعالى علوا كبيرا عن أن يلد أو يولد ، فهو منزّه عن مجانسة الآدميين فى اتخاذ صاحبة أو الزوجة واتخاذ
الأولاد .

قال تعالى : **يَدْبِقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صُلْبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ
يُدرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** . (الأنعام : ١٠١ - ١٠٣) .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

الكفاءة معناه المكافئ والمماثل فى العمل والقدرة ، وهو نفى لما يعتقد بعض المبطلين من أن لله
ندا فى أفعاله يعاكسه فى أعماله ، على نحو ما يعتقد بعض الوثنيين فى الشيطان مثلا ، فقد نفى بهذه
السورة جميع أنواع الشرك ، وقرر جميع أصول التوحيد والتنزيه .

« وقد جعل الله الآية الأخيرة خاتمة للآيات قبلها ، فبعد أن قرر وحدانيته وعظيم سلطانه ، وأنه ملاذ
الكون ومخلوقاته ، وأنه منزّه عن مشابهة الإنسان ومماثلته لتفرد به وأزليته ، قال فى صيغة عامة
إنه ليس له مثيل ولا نظير من الخلق فى أى صفة ولا فى أى فعل ولا فى أى شيء من الأشياء»^(٣١٢) .

وقد سقاه القرآن في مواطن كثيرة من جعلوا لله أندادا من المخلوقات ، وبين أنه سبحانه الصانع الأعظم ، وما من كائن إلا ويفتقر إليه في وجوده .

وفي معنى سورة الإخلاص يقول الله سبحانه : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَخَصَّنَّهِمْ وَعَدْنَهُمْ غَدًا * وَلَهُمْ عَائِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا . (مريم : ٨٨ - ٩٥) .

وقال سبحانه : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ، بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يُسْقِطُونَهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَمْرُهُ يُفْعَلُونَ . (الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ③ ﴾
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④ ﴿

التفسير:

١ - قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

قل لهم يا محمد : هو الله أحد .

هو الله أحد ، أى : واحد فى ذاته ، ليس له شريك ولا مثيل ، وهو واحد فى صفاته لأنه كامل القدرة ، كامل الإرادة ، كامل الرحمة ، كامل القهر ، كامل الصفات الكاملة التى يتصف بها وحده .
وهو واحد فى أفعاله ، بمعنى أنه خالق الكون ، وغيره لا يقدر على أن يفعل مثل أفعاله .

قال تعالى : أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (النحل : ١٧) .

وهذه الجملة تكفى المؤمن حين ينطق بها ، ويتمثل معناها ومبناها ، ويتأكد أن الكون له إله واحد ، هو المقصود ، وهو المعبود ، وهو خالق الوجود ، لذلك قالوا : من وجد الله وجد كل شيء ، ومن فقد الله فقد كل شيء .

٢ - اللَّهُ الصَّمَدُ .

هو المقصود فى الحوائج ، والصمد بمعنى المصمود ، أى المقصود مباشرة بدون وسيط أو شفيع ، فهو غنى عن الوسائط ، يفتح بابه لكل سائل .

وفى الحديث الصحيح يقول النبى ﷺ : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه هل من طالب حاجة فأقضيها ، حتى يطلع الفجر » . (٢١٧) .

إن الله فى الإسلام ليس بعيدا عن خلقه ، ولم يخلقهم ويتركهم ، إنه يسمع ويرى ، وهو قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو الرقيب والحسيب والمحصى .

قال تعالى : أَحْصِنَّ اللَّهُ أَلَّهُ وَنَسُوهُ ... (المجادلة : ٦) .

وقال سبحانه وتعالى : وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يُنظِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف : ٤٩) .

قال أهل اللغة : الصَّمَدُ . هو السيد الذى ليس فوقه أحد ، الذى يصمد إليه الناس فى حوائجهم وفى أمورهم ، وعن أبى هريرة : هو المستغنى عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد .

إن الله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وكان من دعاء الإمام زين العابدين : يا من ليس له بواب يُرجى ، ولا حاجب يُرشى ، صل على محمد وآله ، واغفر ذنوبى ، واستر عيوبى ، وتقبل رجائى . اللهم آمين .

٣ - لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

لم يلد ولذا ، ولم يولد من أب ، فهذا شأن المخلوق ، أن يكون مولودًا ثم شابا ، ثم يتزوج ويولد له ، ويصبح أبًا ، وهذا شأن البشر ، أما الإله فهو منزّه عن ذلك .

قال تعالى : أَنَّى يَكُونُ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، صُلْحَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الأنعام : ١٠١) .

أخرج البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولذا وهو يرزقهم ويعافيههم » ^(٢١١) .

وأخرج البخارى أيضا أن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله عز وجل : كَذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُ إِبْرَاهِيمَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِبْرَاهِيمَ فَقَوْلُهُ : اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ أَكُ وَلَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْوًا أَحَدٌ » ^(٢١٢) .

٤ - وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفْوًا أَحَدٌ .

وَكُفْوًا : أصلها كفوا .

والكُفْءُ : هو المكافئ والمماثل والمشابه لغيره فى العمل أو القدرة .

أى : ولم يكن أحد من خلقه مكافئًا ولا مشاكلا ولا مناظرًا له تعالى ، فى ذاته أو صفاته أو أفعاله .

قال تعالى : كَيْسَ كَيْفُهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . (الشورى : ١١) .

وقد ورد في السُّنة الصحيحة أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن ، لاشتمالها على التوحيد ، وتأكيد وحدانية الخالق ، ونفى التعدد بقوله سبحانه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

ونفى عن ذاته النقص والاحتياج ، وأثبت حاجة الخلق كلهم إليه بقوله : اللَّهُ الصَّمَدُ .

ونفى عن ذاته أن يكون والدًا أو مولودًا بقوله عن شأنه : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ .

ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه والنظراء بقوله تعالى : وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

فالسورة الكريمة إثباتٌ لصفات الجلال والكمال ، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص .

ومن أصول عقيدتنا أن الله تعالى يتصف إجمالاً بكل كمال ، ويتنزه إجمالاً عن كل نقص ، ويتصف تفصيلاً بصفاته الكاملة ، مثل : القدرة ، والإرادة ، والوحدانية ، والقيام بالنفس .

وفى الحديث الصحيح : «إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، والله تعالى وتر يُحب السوتر ، من أحصاها دخل الجنة» .^(٢١٧)

قال العلماء : من حفظها دخل الجنة .

وقال المحققون : الإحصاء : هو الإحاطة بمعانيها علماً وعملاً ، فإذا أيقنت أنه الرزاق أخذت بالأسباب ، وعلمت يقيناً أن المسبب الحقيقي هو الله تعالى .

★ ★ ★

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (الإخلاص) مساء الأربعاء ٢١ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ،
الموافق ٢٠٠١/٦/١٣ .

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الفلق

أهداف سورة الفلق

(سورة الفلق مكية ، وآياتها ٥ آيات ، نزلت بعد سورة الفيل)

وسورة الفلق توجيه من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين جميعاً ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بجاهه من كل سوء ، والاعتصام بقدرته والاحتماء بجلاله من شرور مخلوقاته ، وما عسى أن يصدر عنهم من إك وجسد .

مع آيات السورة

١ ، ٢ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ .

الفلق هو الصبح ، وقال جمع من المفسرين : إن الفلق هو الموجود الممكن كله ، أى : قل : أستعيذ برب المخلوقات وبفالق الإصباح من كل أذى وشر يصيبني من مخلوق من مخلوقاته جميعاً .

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافاً يكثر وقوع الأذى منها :

٣ - وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . أصل المعنى فى مادة غسق : السيلان والانصباب ، وأصل الوقب : النقرة فى الجبل ونحوه ، ووقب بمعنى دخل دخولاً لم يترك شيئاً إلا مر به .

والمراد من الغاسق هنا : الليل ، ووقب : أى دخل وغمر كل شيء كأنما انصب عليه واشتدت ظلمته .

أى : أستعيذ بالله من شر الليل إذا دخل وغمر كل شيء بظلامه . وأستعيذ بالله من الظلام الحالك ، وما يختبئ فيه من حشرة مؤذية ، ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء ، أو من ظلمات النفس وغلبة الشك والحيرة .

وعن ابن عباس : هو ظلمة الشهوة البهيمية إذا غلبت داعية العقل (٢١٧) .

٤ - وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . أى : ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة ، ويبددون شمل المودة ، «والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لأنها تُحوّل ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة

خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق إذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للحفاظ من النمام ، فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلا بد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه»^(٢١٨) .

أو النفاثات فى العقد : الساحرات الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس ، والتأثير فى المشاعر ، وهن يعقدن العقد فى نحو خيط أو منديل ، وينفتن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء .

ويصح أن يُراد بالنفاثات فى العقد : النساء الكيادات اللواتى يفسدن عقد الزوجية ، بصرف الزوج عن زوجته واستمالته حتى يهجر زوجته الأولى ، فكأن الثانية أفسدت عقد الزوجية بين الزوج وزوجته الأولى^(٢١٩) .

هـ - وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ . والحسد انفعال نفسى إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها ، وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعى لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيط ، أو وقف عند حد الانفعال النفسى ، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسياً معيناً إلى المحسود ، فإن شراً يمكن أن ينفذ إلى المحسود عن طريق العين أو النفس ، ونحن نستجير بالله ونستعين به ، ونلجأ إلى رحمته وفضله ، ليعيذنا من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .

وقد روى البخارى بإسناده ، عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٢٢٠) . وهكذا رواه أصحاب السنن .

مقاصد سورة الفلق

- ١ - الالتجاء إلى الله والتمسك بقدرته من شر الخلق .
- ٢ - ومن شر الظلام إذا انتشر وغطى الكون .
- ٣ - ومن شر النساء الكيادات صاحبات الحيل ، ومن شر أهل الفتنة والنميمة .
- ٤ - ومن شر الحسود إذا وجه كيده للحسد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾
وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾

المضردات :

اصود ، ألجأ وأتحصن .

الفلق : الصبح ، أو جميع الموجودات .

ما خلق : من الشر أو الأضرار .

غاسق : هو الليل المظلم .

وقب : دخل ، شمل ، غمر .

النفاثات : النفث : النفخ مع شيء من الريق .

العقد : ما أحكم ربطه حساً كعقدة الحبل ، أو معنى كعقد البيع والنكاح ، والمراد : عقد السحر أو النجيمة
والفتنة بين الناس التي تقطع روابط الألفة .

تمهيد :

سورة الفلق وسورة الناس سورتان كان النبي ﷺ يتعوذ بهما كل ليلة وكل صباح .

أخرج الترمذی ، والنسائی ، وابن ماجه ، عن أبی سعید أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان ،
ومن أعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما^(٣٢١) . وقال الترمذی : حديث حسن
صحيح .

وأخرج مالك ، ورواه البخاری ، وأبو داود ، والنسائی ، عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى
يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء
بركاتها^(٣٢٢) .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، أن النبي ﷺ أمر أحد أصحابه أن يقرأ بهن كلما نام وكلما قام .
وفى حديث عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهن وينفث فى كفّيه ويمسح بهما رأسه ووجهه وما
أقبل من جسده . (انظر تفسير ابن كثير) .

التفسير :

١ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ .

قل يا محمد : أعوذ وألوذ برَبِّ الفلق ، أى برَب المخلوقات ومبدع الكائنات ، أو قل : أعتصم برَب
الصباح الذى يتجلى عنه الليل .

٢ - مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ .

من كل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر الإنس والجن والشياطين ، وشر السباع والهوام ، وشر النار ، وشر
الذنوب والمعاصى ، وشر النَّفْس ، وشر العمل ، ومن شر الثقلين وغيرهما .

٣ - وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ .

ومن شر الليل إذا اعتكر ظلامه ، وعمّ سواده كل شيء ، أو من شر القمر إذا دخل فى الكسوف واسودّ ،
أو دخل فى المحاق فى آخر الشهر ، وقيل : الغاسق إذا وقب : الحية إذا لدغت ، أو الشهوة إذا غلبت داعية العقل .

٤ - وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ .

المرأة الساحرة أو الكيّادة التى تُفسد عقدة الزوجية بين الرجل وزوجته ، أو تتزين وتتلون وتحسّن
أمام الزوج حتى يميل إليها ويتزوجها ، ويطلق زوجته الأولى .

وذهب الزمخشري فى تفسير الكشف وغيره من المفسرين إلى أن المراد من النفّاثات فى العقد : من
يمشون بين الناس بالنميمة ليقطعوا روابط المحبة ، ويبددوا شمل المودة ، فقد أفسدوا عقدة الصداقة ،
وحولوا الأحبة إلى العداوة أو الجفوة .

٥ - وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ .

والحسد : هو تمنى زوال نعمة الغير ، وكذلك العائن الذى ينظر بعينه للشئ فرىما آذاه بدون قصد ،
والحاسد يتمنى زوال النعمة قاصداً ، وهو بلاء ومرض .

وقد صُحِّ في الحديث الشريف النهي عن الحسد وعن الاشتراك فيه ، فقال ﷺ : « لا تحادقوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ، وكونوا عباد الله إخواناً »^(٢٢٣) .

وقال ﷺ : « إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »^(٢٢٤) .

السَّحَر

تكلم العلماء كلاماً طويلاً عن السَّحَر ، و خلاصة كلامهم رأيان :

الرأى الأول : أن السحر خيال وخداع أو خفة يد ، أو وهم يوهم به الساحر الآخرين ، وقد ذهب إلى ذلك المعتزلة ، وقلدَّهم بعض العلماء .

الرأى الثانى : أن السحر يؤثِّر حُبّاً ويُغضِّا ، وقد ذُكر فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ... (البقرة : ١٠٢) .

وقد علمنا الإسلام أن نلجأ ونتحصن بالله تعالى ، ويتم ذلك بما يأتى :

١ - قراءة سورة الفاتحة .

٢ - قراءة آية الكرسي .

٣ - قراءة خواتيم سورة البقرة ، الآيتين الأخيرتين : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ... » (البقرة : ٢٨٥) .

٤ - قراءة الآيتين الأخيرتين من سورة (ن والقلم) ، وهما : « وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ » وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . (القلم : ٥١ ، ٥٢) .

٥ - قراءة : « بسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » .

٦ - قراءة : قل هو الله أحد ، قل أعوذ برب الفلق ، قل أعوذ برب الناس .

٧ - إخراج صدقة .

٨ - دعاء الله بالحفظ ، مثل : « قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » . (يوسف : ٦٤) .

٩ - اليقين الجازم بأن كل أمر بيد الله ، فهو سبحانه المسبب الحقيقى ، والمخلوق ما هو إلا سبب ، قال

تعالى : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ... (البقرة : ١٠٢) .

اللهم احفظنا من كل سوء ، اللهم احفظنا من السحر والحسد ، ومن شر كل نفس أنت آخذ بناصيتها ،
ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن .

خاتمة في أدعية النوم

اللهم غارت النجوم ، ونامت العيون ، وبقيت أنت يا حي يا قيوم ، اغفر ليلي وأنم عيني .
اللهم رب السماء وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، والشياطين وما أضلت ، كن لي جازاً من شرار خلقك
عزّ جارك .

★ ★ ★

تم بفضل الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة (الفلق) بعد منتصف ليلة الخميس ٢٢ من ربيع الأول
١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ .

★ ★ ★

A decorative frame with intricate scrollwork and floral patterns, enclosing the title text.

تفسير سورة الناس

أهداف سورة الناس

(سورة الناس مكية ، وآياتها ٦ آيات ، نزلت بعد سورة الفلق)

وهى سورة يلجأ فيها المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى ، ويعتصم به من وساوس الشيطان ، الذى يوسوس فى صدور الناس خفية وسراً ، وهو أنواع ، منه شياطين الأنس ومنه شياطين الجن .

مع آيات السورة

- ١ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . أَلْجَأٌ وَاتَّحَصَّنَ بِاللَّهِ خَالِقُ الْخَلْقِ ، وَالمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِمُ بِالنَّعْمِ وَالْجُودِ .
- ٢ - مَلِكُ النَّاسِ . فهو ملكهم وآخذ ناصيتهم بيده ، وهو الخالق الرازق ، مرسل الرسل ، ومنزل الشرائع ، والحاكم المتصرف الذى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون .
- ٣ - إِلَهُ النَّاسِ . هو معبودهم بحق ، وملاذهم إذا ضاق الأمر .
- ٤ - مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . أصل الوسوسة : الصوت الخفى ، وقد قيل لأصوات الحلى عند الحركة : وسوسة ، و **الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ** . هو الشيطان الموسوس الذى يوحى بالشر ، ويهمس بالإثم .
والخنوس : الاختفاء والرجوع . والخناس هو الذى من طبعه كثرة الخنوس . أى : نعوذ بالله من وسوسة الشيطان الذى يغرى بالمعاصى والمفاسد ، ويلقى بالشرور فى قلوب الغافلين ، ويغرى بانتهاك الحرمات عن طريق الشهوات .
- ٥ - الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . أى : يجول فى الصدور ، ويجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وخص الصدور بالوسوسة لأنها محل القلوب ، والقلوب مجال الخواطر والهواجس ، وإن ذلك الشيطان الذى يجثم على قلب ابن آدم ويتسلط عليه إذا أصابته الغفلة ، هو من الضعف بمكان ، فإذا ذكرت الله خنس ورجع ، وإذا حكمت عقلك وانتصرت للحق ضعف كيد الشيطان .

قال تعالى : **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** . (النساء : ٧٦) .

وقال تعالى : **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال تعالى : **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ، **إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** . (النحل : ٩٩ ، ١٠٠) .

٦ - **مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ** . هذا الوسواس الذي يغرى بالشر قسمان :

القسم الأول : الجنة الخفية تخطر للإنسان في صورة خواطر ، توغز بالشر وتغري بالإثم ، وتزين الخطيئة .

القسم الثاني : الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشيطان ، ومنهم : رفيق السوء الذي يجر رفيقه إلى الانحراف ويغريه بالفساد .

وحاشية الشر : التي توسوس لكل ذي سلطان ، حتى تتركه جباراً طاغياً مفسداً ظالماً .

والنفس الواشى : الذي يزين الكلام ويزينه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح .

وبائع الشهوات : الذي يتدسس من منافذ الغريزة ، في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله .

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، وهم شر من الجنة وأخفى منهم ديبياً .

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية ، ومن ثم يدلُّه الله على عدته وجنَّته وسلَّاحه في هذه المعركة الرهيبة . والمؤمن يستمد قوته من يقينه بربه ، وثقته بقدرته ، وتحصنه بحماه ، واستعاذته بالله من شر الوسواس الخناس ، الذي يخنس ويضعف أمام قوة الإيمان والاستعانة بالرحمن .

قال تعالى : **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ** . (الحجر : ٤٢) .

إن الصراع بين الخير والشر مستمر في هذه الحياة ، وهناك جنود للرحمن هي المعونة والتثبيت ، وشرح الصدر للإيمان واليقين ، والعزيمة الصادقة ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر . وهناك طريق للشيطان ، يتولى بها على الضعفاء ، وتستظل هذه المعركة ما بقيت السماوات والأرض .

يحاول الشيطان أن يُضل الناس ويؤسوس لهم ، وينصب الله للناس أدلة الهدى والرشاد من العقل والحكمة ، والرسالات السماوية ، وأئمة الحق ، والدعاة والهداة .

وقد ذكر القرآن ذلك فى كثير من الآيات .

قال تعالى : يَنْبِئُكَ إِذْ أَنْتَ لَا تَعْلَمُهُمْ السَّيِّئُونَ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنْ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ ابْنِهِمَا إِنَّهُ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا مِنْ خِثْلٍ لَا يَصْلَحُ مِنْ خِثْلٍ لَا تَرَوْهُمْ بِإِنَّا جَعَلْنَا السَّيِّئِينَ قُلُوبًا غَافِلِينَ . (الأعراف: ٢٧) .

وقال تعالى : إِنَّ السَّيِّئِينَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر: ٦)

وقال تعالى : قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعَذِّبُنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ . (ص: ٧٩ - ٨٣) .

وقال تعالى : يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّعِبُوا عِطَافَ السَّيِّئِينَ وَهُمْ يَتَّبِعُ عِطَافَ السَّيِّئِينَ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ... (النور: ٢١) .

وقال جل ذكره : إِنَّ السَّيِّئِينَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَذْوًا مُبِينًا . (الإسراء: ٥٣) .

وقال سبحانه : وَمَنْ يَكُنِ السَّيِّئِينَ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا . (النساء: ٢٨) .

وقال تعالى : وَمَنْ يَتَّخِذِ السَّيِّئِينَ وُليًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خَسْرَانًا مُبِينًا * يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ السَّيِّئِينَ إِلَّا غُرُورًا . (النساء: ١١٩ ، ١٢٠) .

مقاصد سورة الناس

١ - التحصن بجلال الله وقدرته والاعتصام به : وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا يُخْرِجْهُ مِنْ كُلِّ ضَيِّقٍ يَأْتِيهِ مِنَ الْضَيِّقِ وَالْجَبْرِ وَالْجَبْرِ وَالْجَبْرِ . (آل عمران: ١٠١) .

٢ - الشيطان يوجه همته وجنوده لإغراء بنى آدم .

٣ - رفقاء السوء ودعاة الشر هم أعوان الشيطان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾

المفردات :

أعوذ : أطلب العون وأستجير .

الرب : هو المربي والموجه والراعي والحامي .

الملك : هو الملك الحاكم المتصرف .

الإله : هو المستعلى المستولى المتسلط ، المعبود بحق .

الوسواس : الشيطان يوسوس للناس ويزين لهم الشر والمعصية .

الخناس : صفة الشيطان ، من الخنس وهو الابتعاد والاختفاء عند ذكر الله .

يوسوس في صدور الناس : بالإغراء بالمعاصي ، والحض على الشر .

من الجنة والناس : أي : من شياطين الجن والإنس .

التفسير :

١ - قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ .

هذه السورة نزلت بعد سورة الفلق ، وقد ورد في الصحيح فضل السور الثلاث : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، والسور الثلاث لم يَرُ مثلهن ، كما في صحيح مسلم ، أي أنهن التجاء وتحصن بالله تعالى وقدرته .

والآية الأولى أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ولكل مؤمن أن يلجأ ويتحصن ويستعين برَبِّ آقاسٍ. أى: مرييهم ومالك أموالهم بإفاضة الخير عليهم ودفع ما يضرهم.

٢ - مَلِكِ النَّاسِ.

إن الملوك يملكون بعض شئون الأرض، والله تعالى هو المَلِكُ الدائم المَلِكُ، صاحب التصرف الكامل والقهر والسلطان.

٣ - إِلَهِ النَّاسِ.

إنه الخالق المتصرف، وهو المستعلى المستولى المتسلط، فهو سبحانه ربُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء، ولكن ذكر الناس هنا يجعلهم يدركون القربى والانتماء، والاعتماد والتحصن برب كل شيء ومليكه وإلهه، فالله تعالى يوجِّه عباده إلى التحصن به سبحانه.

٤ - مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ.

والوسوسة: الصوت الخفى.

والخنوس: الرجوع والاختباء والنكوص.

والخَنَّاس: هو الذى من طبعه كثرة الخنوس.

وقد ذكر البخارى، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «الشیطان جائم على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس».

إن السورة تعليم لنا أن نتحصن بالله من شرِّ الشيطان الذى يوسوس لنا بالشرِّ، ويزين لنا المعاصى، ويُغرينا بالمخالفة، فإذا ذكرنا الله تعالى ضعف هذا الشيطان وخنس ورجع وتصاغر، وأيس من الإنسان.

وقد ورد فى الصحيح أن الشيطان يهرب عند سماع الأذان والإقامة^(٣٢٤)، ثم يعود يوسوس للإنسان فى صلاته، يقول له: اذكر كذا، اذكر كذا، اذكر كذا، حتى ينتهى من صلاته.

وتجارب الحياة وأوامر الدين ترشدنا إلى أن الصلاة تحتاج إلى مشاركة ومراقبة ومحاسبة، ومعاقبة ومعاقبة، شأنها شأن الحياة، فأنت تشرط على نفسك أن تلتزم بطاعة الله، ثم تراقبها وتحاسبها، وإذا أخطأت تعاقبتها، وإذا تكررت الخطأ تعاقبها، وكذلك فى الصلاة تقول لنفسك: أريد الإخلاص فى الصلاة والخشوع، والتأمل فى قراءة الفاتحة والسورة، وتسبيح الركوع والسجود، وحضور القلب، وكلما انصرفت

تلوم نفسك ، وتجدد الشرط والمراقبة لنفسك ، حتى تصبح لك عادة ، هي حضور القلب فى الصلاة ، والتركيز أثناء الصلاة ، وترك سائر شئون الدنيا ، ويعينك على ذلك أن تذكر أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وأن متاع الدنيا قليل ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن تستعبد بالله من الشيطان الرجيم ، وأن تقرأ : قل هو الله أحد والمعوذتين .

٥ - الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ .

تلك وظيفة الشيطان ، أن يتحسس ويتدسس إلى صدرك بصوت خفى ، وإغراء بأمور تصرفك عن الصلاة ، أو تزين لك الشر ، فهو عدو مبين ، أخرج أباك من الجنة ، ويريد أن يخرجك عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان .

الشيطان ابتلاء واختبار ، ورغبة فى إغواء بنى آدم ، وأنت أيها الإنسان تملك قهره وزجره ، والاستعاذة بالله منه ، فلا تضعف ولا تستسلم ، بل قاوم الشيطان بالإيمان وذكر الله .

قال تعالى : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . (فاطر: ٦) .

وفى يوم القيامة يقف الشيطان خطيباً فى أهل جهنم ، فيلقى عليهم اللوم ويبين أنه لم يجبرهم على الكفر أو ارتكاب المعاصى ، إنما زين لهم فقط ، لكنهم استجابوا وأهلوا عقولهم ، وأطاعوا نزواتهم وشهواتهم ، فاللوم عليهم .

قال تعالى : وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ... (إبراهيم: ٢٢) .

٦ - مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ .

أى : إن الذى يوسوس فى صدور الناس صنفان :

الأول : الجنّة ، وهم شياطين الجن ، ومهمتهم الوسوسة والإغراء والتزيين .

الثانى : شياطين الإنس ، الذين يزينون المعاصى للكبير والصغير والمرأة والرجل ، وهم قرناء السوء ، ورفقاء الشر ، ومن الواجب أن نستعبد بالله منهم ، وأن نحذرهم ، وأن نتخير الرفيق الصالح الذى إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك .

ومن رفقاء السوء الثَّمام الواشى المفسد للعلاقات ، ومن رفقاء السوء بائع الهوى والشهوات ، وذو الوجهين والمنافق .

قال تعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (الأنعام: ١١٢) .**

تلك سورة الناس ، ذكر الله تعالى فيها الناس ثلاث مرات ، فى ثلاث آيات تنتهى بحرف السين ، وهو حرف مهموس ، يناسب الصبى الصغير فى النطق ، ويُيسر عليه الحفظ .



فى أعقاب تفسير سورة الناس

١ - جاء فى صفوة التفسير ما يأتى :

قال المفسرون : إنما خصَّ الناس بالذكر - وإن كان جلت عظمته رب جميع الخلائق - تشريفًا وتكريماً لهم ، من حيث إنه تعالى سخر لهم ما فى الكون ، وأمدهم بالعقل والعلم ، وأسجد لهم ملائكة قدسه ، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق . **مَلِكُ النَّاسِ** . أى : مالك جميع الخلق حاكمين ومحكومين ، **مَلِكًا تَامًّا** : شاملاً كاملاً ، يحكمهم ، ويضبط أعمالهم ، ويدبر شئونهم ، فيُعزِّز ويُدَلِّ ، ويُغنى ويُفقر : **إِلَهُ النَّاسِ** . أى : معبودهم الذى لا ربَّ لهم سواه .

قال القرطبي : وإنما قال : **مَلِكُ النَّاسِ** **إِلَهُ النَّاسِ** . لأن فى الناس ملوكاً فذكر أنه ملكهم ، وفى الناس من يعبد غيره فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذى يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه دون الملوك والعظماء .

وترتيب السورة بهذا الشكل فى منتهى الإبداع ، وذلك لأن الإنسان أولاً يعرف أن له رباً ، لما يشاهده من أنواع التربية . **رَبِّ النَّاسِ** . ثم إذا تأمل عرف أن هذا الرب متصرف فى خلقه ، غنى عن خلقه فهو الملك لهم : **مَلِكُ النَّاسِ** . ثم إذا زاد تأمله عرف أنه يستحق أن يُعبد ، لأنه لا عبادة إلا للغنى عن كل ما سواه ، المفتقر إليه كل ما عداه . **إِلَهُ النَّاسِ** . وإنما كرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتف بالضمير ، لإظهار شرفهم وتعتيهم والاعتناء بشأنهم ، كما حسن التكرار فى قول الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبقُ الموتَ شيء نَعَصَ الموتُ ذا الغنى والفقر

قال ابن كثير : هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل : الربوبية ، والملك ، والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، وجميع الأشياء مخلوقة ومملوكة له ، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات (٣٣٣) .

٢ - أوضحت السورة أن الموسوس إما شيطان الجن ، وإما شيطان الإنس .

قال الحسن : هما شيطانان ، أمّا شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأمّا شيطان الإنس فيأتى علانية .

وقال قتادة : إن من الجنّ شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجنّ .

٣ - جاء في تفسير فخر الدين الرازى ما يأتى :

يلاحظ أن المستعاذ به في سورة الفلق مذكور بصفة واحدة ، وهى أنه : رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع ، وهى : الغاسق . والنّفّاثات . والحاسد .

وأما قى سورة الناس فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث ، وهى : الربُّ ، والملك ، والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهى : الوسوسة^(٣٣٧) .

وفى التحصّن من الوسوسة سلامة الدين ، ومن سلم دينه سلم له كلُّ شيء .

دعاء يورث الإخلاص

«اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه ، وأستغفر لك ما لا أعلمه» .

دعاء يورث السعادة

«اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىّ حُكْمك ، عدلٌ فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبى ، ونهاب غمى وحزنى»^(٣٣٨) .

دعاء من صحيح البخارى

«اللهم إنى أعوذ بك من الهمِّ والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدّين وقهر الرّجال»^(٣٣٩) .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد النّبى الأمّى وعلى آله وصحبه وسلم ، اللهم لك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه كما ترضى ربنا . وتحب ، اللهم اجعل هذا العمل خالصاً لوجهك الكريم ، اللهم انفع به كلَّ من تعلّمه ووقفه للعمل الصالح ، وللمسير على الصراط المستقيم ، اللهم اختم لنا بالإيمان والإسلام ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَلَهُ الْكَرْبُ بَرَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(الجاثية: ٢٧، ٢٦)

مدد الله العظيم

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

مَكُنْتُ في تفسير النصف الاول من القرآن الكريم ١٥ عاماً ، كنت أفسّر في كل سنة جزءاً من القرآن ، حيث كنت أعمل أستاذاً ورئيساً لقسم الشريعة الإسلامية في كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ثم في كلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان .
ثم تفرغت تماماً لتفسير النصف الثاني من القرآن الكريم لمدة خمس سنوات ، من ١٥ / ٦ / ١٩٩٦ إلى ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ .

وتم بحمد الله تعالى الانتهاء من تفسير القرآن الكريم مساء يوم الخميس ٢٢ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٤ / ٦ / ٢٠٠١ م .

وتمت مراجعته بحمد الله فجر يوم الجمعة ٢٣ من ربيع الأول ١٤٢٢ هـ ، الموافق ١٥ / ٦ / ٢٠٠١ م .

اللهم لك الحمد ولك الشكر ، ولك النعمة ولك الفضل ، ولك الشاء الحسن الجميل ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .
اللهم لك الحمد ، اللهم هذه دموعي أسكبها شكراً لك وعرفاناً بفضلك ، اللهم لك الحمد يا ولي التوفيق ، يا أول يا آخر ، يا ظاهر يا باطن ، اللهم اجعل ذلك العمل خالصاً لوجهك الكريم . وَنَمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . (الأنعام : ١١٥) .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، وذهب غمنا وحرنا ، اللهم أكرمنا بالقرآن ، وبنور القرآن ، وبركة القرآن ، وتلاوة القرآن ، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، وَعَاخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . (يونس : ١٠) .

د/ عبد الله شحاتة

القاهرة في ١٥ / ٦ / ٢٠٠١

دُعَاءُ خَيْرِ الْقُرْآنِ

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي بِالْقُرْآنِ وَاجْعَلْهُ لِي إِمَامًا وَنُورًا وَهُدًى وَرَحْمَةً
 اللَّهُمَّ ذَكِّرْنِي مِنْهُ مَا نَسِيتُ وَعَلِّمْنِي مِنْهُ مَا جَهِلْتُ وَارْزُقْنِي بِلاَ وَتَهُ
 آفَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ وَاجْعَلْهُ لِي حُجَّةً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ○
 اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عَصَمَهُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا
 مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي
 فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ ○ اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عَمْرِي
 آخِرَهُ وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ وَخَيْرَ أَيَّامِي يَوْمَ الْقَاكِ فِيهِ ○ اللَّهُمَّ إِنِّي
 أَسْأَلُكَ عِيشَةً هَنِيئَةً وَمَيْتَةً سَوِيَّةً وَمَرَدًّا غَيْرَ مُخْذَرٍ وَلَا فَاصِحٍّ ○ اللَّهُمَّ
 إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَسْأَلَةِ وَخَيْرَ الدُّعَاءِ وَخَيْرَ النَّجَاحِ وَخَيْرَ الْعِلْمِ وَخَيْرَ
 الْعَمَلِ وَخَيْرَ الثَّوَابِ وَخَيْرَ الْحَيَاةِ وَخَيْرَ الْمَمَانِ وَثَبَّتْنِي وَقَبَّلْ مَوَازِييَ
 وَحَقِّقْ إِيْمَانِي وَارْفَعْ دَرَجَتِي وَقَبَّلْ صَلَاتِي وَاغْفِرْ خَطِيئَاتِي

وَأَسْأَلُكَ الْعِلَامَ مِنَ الْجَنَّةِ ○ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمِكَ
وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِشْمٍ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ
وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ ○ اللَّهُمَّ أَحْسِنْ عَاقِبَتَنَا فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا
وَأَجِرْنَا مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ○ اللَّهُمَّ أَقِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ
مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَمَعَصِيَتِكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا نُبَلِّغُهَا بِهَا جَنَّتَكَ وَمِنْ الْيَقِينِ
مَا نَهْوِي بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَمَنْعِنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوتِنَا
مَا حَيَيْنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا وَانْصُرْنَا
عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرُ هِمًّا
وَلَا تَمْلِكْ عَلَيْنَا وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا ○ اللَّهُمَّ لَا تَدْعُ لَنَا
ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ وَلَا دَيْنًا إِلَّا قَضَيْتَهُ وَلَا حَاجَةً
مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ○ رَبَّنَا
آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَآصْحَابِهِ
الْأَخْيَارِ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثلاثون)

خرج أحاديثه
الأستاذ
محمد صالح المنجد

(١) فى غلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب ، ٦/٣ .

(٢) يخرج عنق من النار :

رواه الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٧٤) وأحمد فى مسنده (٨٢٢٥) من حديث أبى هريرة بلفظ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصر بهما» .

(٣) تفسير الطبرى المجلد ١٢ تفسير سورة النبأ ص ٤٣٤ دار الغد العربى .

(٤) ورد هذا المعنى فى سورة الزمر فى الآية ٦٨ حيث يقول سبحانه ﴿ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ .

(٥) يرحم الله موسى لقد أودى :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٣٦) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بلفظ: «يرحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر ...» الحديث .

(٦) طوى : علم للوادى ، وهو واد بأسفل جبل طور سيناء .

(٧) إن أحدمكم يجمع خلقه فى بطن أمه :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٨) وفى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢) وفى القدر (٦٥٩٤) ومسلم فى كتاب القدر (٢٦٤٣) والترمذى فى القدر (٢١٣٧) وابن ماجه فى المقدمة (٧٦) وأحمد فى مسنده (٣٦١٧) من حديث عبد الله بن مسعود بلفظ: «إن أحدمكم يجمع خلقه فى بطن أمه فى أربعين يوماً ثم يكون ...» الحديث .

(٨) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، دار ومطابع الشعب ص ١١ وقد ورد هذا المعنى فى تفسير القرطبى ، وغيره من كتب التفسير .

(٩) من خاف أدلج :

رواه الترمذى فى صفة القيامة والرقائق (٢٤٥٠) من حديث أبى هريرة بلفظ: «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله ...» الحديث .

(١٠) متى الساعة :

رواه أحمد فى مسنده (١٢٢٨١) من حديث أنس بن مالك بلفظ: متى الساعة ؟ فقال رسول الله : «وما أعددت لها ؟ فقال الأعرابى ...» الحديث .

(١١) ما المسئول عنها بأعلم من السائل :

رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ، وفى تفسير القرآن (٤٧٧٧) ، ومسلم فى الإيمان (٨ ، ٩) ، والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٩٠ ، ٤٩٩١) ، وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) ، وابن ماجه فى المقدمة (٦٣ ، ٦٤) ، وأحمد (٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١) من حديث أبى هريرة ، وعن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٢) بحث أنا والساعة هكذا :

رواه أحمد في مسنده (١٣٩٢٤، ١٤٠٢٢، ١٤٥٦٦) والنسائي في صلاة العيدين (١٥٧٨) والدارمي في المقدمة (٢٠٦) وابن ماجه في المقدمة (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : «أما بعد ، فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وإن أفضل الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة» . ثم يرفع صوته وتجمر وجنتاه ويشدد غضبه إذا ذكر الساعة كأنه منذر جيش ، قال : ثم يقول : «أتنتكم الساعة ، بعثت أنا والساعة هكذا - وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى - صحبتكم الساعة ومستمكم ، من ترك مالا فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلى وعلى» . والضياع يعني ولده المساكين .

ورواه أحمد في مسنده (٢٢٤٣٨) من حديث بريدة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني» .

(١٣) متى الساعة :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (١٠) .

(١٤) تفسير النيسابوري ٢٦/٣٠ .

(١٥) أتري بما أقول بأساً :

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٣١) من حديث عائشة بلطف : أتري بما أقول بأساً ، فيقول : لا ، ففي هذا أنزل ... الحديث .

(١٦) الماهر بالقرآن مع السفارة :

رواه البخاري في تفسير القرآن (٤١٣٧) من حديث عائشة بلطف : «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفارة الكرام ...» الحديث .
ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين (٧٩٨) والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٤) وأبو داود في الصلاة (١٤٥٤) وأحمد في مسنده (٢٥٧٦٤) وابن ماجه في الأدب (٣٧٧٩) من حديث عائشة بلطف : «الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة والذي يقرؤه...» الحديث .

(١٧) سلمان منا أهل البيت :

ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٤٦٩٦) ونسبه للطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرک من حديث عمرو بن عوف . وصححه .

(١٨) قدمت أنا وأخي من اليمن :

رواه البخاري في المغازي (٤٣٨٤) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (٢٤٦٠) والترمذي في المناقب (٣٨٠٦) من حديث أبي موسى بلطف : قدمت أنا وأخي من اليمن فكنا حيناً وما نرى ابن مسعود ... الحديث .

(١٩) تحشرون حفاة عراة غرلاً :

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٣٢) من حديث عبد الله بن عباس بلطف : «تحشرون حفاة عراة غرلاً» . فقالت امرأة : أبصر أو يرى بعضنا ... الحديث .

ورواه البخارى فى الرقاق (٦٥٢٧) ومسلم فى الجنة (٢٨٥٩) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٤٤) من حديث عائشة رضى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «تحشرون حفاة عراة غرلا» . قالت عائشة : فقلت : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : «الامر أشد من أن يهتمهم ذلك» .

ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم فى الجنة (٢٨٦٠) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٣) وفى تفسير القرآن (٣٣٣٢) والنسائى فى الجنائز (٢٠٨١) والدارمى فى الرقاق (٢٨٠٢) وأحمد فى مسنده (١٩١٦ ، ٢٠٩٧) من حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا» ، ثم قرأ : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم وإن أناسا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى أصحابى ، فيقول : إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ، فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي...﴾ إلى قوله : ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

ورواه الدارمى فى الرقاق (٢٨٠٠) من حديث ابن مسعود أن النبى ﷺ قيل له : ما المقام المحمود؟ قال : «ذلك يوم ينزل الله تعالى على كرسيه ينط كما ينط الرجل الجديد من تضايقه به وهو كسعة ما بين السماء والأرض ، ويحياكم بحفاة عراة غرلا فيكون أول من يكسى إبراهيم يقول الله تعالى : اكسوا خليلي فيؤتى بربطتين بيضاوين من رباط الجنة ثم أكسى على إثره ثم أقوم ثم يعين الله مقاما يغطىنى الأولون والآخرون» .

(٢٠) روى غضب غضبا لم يغضب قبله مثله :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى دعوة فرقت إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة وقال : «أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون بم يجمع الله الأولين والآخرين فى سعيد واحد فيصبرهم الناظر ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم ، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس : أبوك آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ، فيقول : ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ، انهبوا إلى غيرى ، انهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا أما ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك فيقول : ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى ، انثوا النبى ﷺ فيأتونى فأسجد تحت العرش فيقول : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه» .

(٢١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٣/٤٨٢ .

(٢٢) فى ظلال القرآن دار الشروق المجلد ٦ ص ٣٨٣٩ .

(٢٣) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، دار الشعب ص ٢٢ .

(٢٤) فى حديث بالتليفزيون فى برنامج «نور على نوره» ، وقد سجلته شركة صوت القاهرة للصوتيات ، وطرحته للبيع .

(٢٥) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده .

(٢٦) تفسير جزء عم ، كتاب الشعب ص ٢٣ .

(٢٧) التفسير القرآن للقرآن ، عبد الكريم الخطيب ، المجلد الثامن ص ١٤٧٢ .

(٢٨) قارن بكتاب : فى رحاب التفسير عبد الحميد كشك المجلد التاسع ص ٧٨٨٠.

(٢٩) تفسير النسفى ٢٥٣/٤ .

(٣٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٤٩١/٣٠ .

(٣١) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : الله والعلم الحديث ، للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

(٣٢) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٣٣) تفسير فى ظلال القرآن نقلا عن كتاب : الله والعلم الحديث .

(٣٤) فى ظلال القرآن : نقلا عن كتاب (الله والعلم الحديث) مع التلخيص والتصرف .

(٣٥) ثلاث من كن فيه وجدا حلوة الإيمان :

رواه البخارى فى الإيمان (١٦، ٢١) وفى الإكراه (٦٩٤١) ، ومسلم فى الإيمان (٤٢) والترمذى فى الإيمان (٢٦٢٤) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٨٨) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٣٣) وأحمد فى مسنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «ثلاث من كن فيه وجد حلوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار» .

(٣٦) يعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار :

رواه البخارى فى مواقيت الصلاة (٥٥٦) ، وفى التوحيد (٧٤٨٦ ، ٧٤٢٩) ، ومسلم فى المساجد (٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦) ، ومالك فى النداء للصلاة (٤١٣) ، من حديث أبى هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة النهار...» ، ورواه البخارى فى الأذان (٦٤٩) ، وفى تفسير القرآن (٤٧١٧) ، ومسلم فى المساجد (٦٤٩) ، والترمذى فى التفسير (٣١٣٥) ، والنسائى فى الصلاة (٤٨٦) ، وابن ماجه فى الصلاة (٦٧٠) ، وأحمد (٧١٤٥ ، ٧٥٥٧ ، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضا بلفظ : «فصل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح» . يقول أبو هريرة : أقره وإن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ .

(٣٧) يابى هاشم أنقلوا أنفسكم من النار :

رواه مسلم فى الإيمان (٣٠٣) ، والترمذى فى تفسير القرآن (٣١٠٩) ، والنسائى فى الوصايا (٣٥٨٤) ، وأحمد (٨٠٥١ ، ٨٣٧٢ ، ١٠٣٠٧) .

(٣٨) اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٠٦ ، ٦٣٢٣) والنسائى فى الاستعانة (٥٥٢٢) وأحمد فى مسنده (١٦٦٦٢) من حديث شاذ بن أوس بلفظ : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ... الحديث .
ورواه ابن ماجه فى الدعاء (٣٨٧٢) من حديث بريدة بلفظ : «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ... الحديث .

(٣٩) قال الترمذى : حسن صحيح ، وللحديث روايات أخرى بألفاظ قريبة فى المعنى .

(٤٠) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراهي ، ط ٣ ، مصطفى البابي الحلبي ، ٣٠ / ٨٢ .

(٤١) تفسير جزء عم ، للأستاذ محمد عبده ، الطبعة السادسة مطابع الشعب ، ص ٣٧ .

(٤٢) قوموا إلى سيدكم :

رواه البخاري في الجهاد (٣٠٤٣) ومسلم في الجهاد (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد - هو ابن معاذ - بعث إليه رسول الله ﷺ وكان قريباً منه فجاء علي حمار ، فلما دنا قال رسول الله ﷺ : «قوموا إلى سيدكم» . فجاء فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال له : «إن هؤلاء نزلوا على حكمك» ، قال : فإني أحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبي الذرية ، قال : «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» .

(٤٣) من أحب أن يمثل له الرجال قياماً :

رواه أبو داود في الأدب (٥٢٢٩) والترمذي في الأدب (٢٧٥٥) عن أبي مجلز قال : خرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير فقال معاوية لابن عامر : اجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أحب أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» .

(٤٤) تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراهي المجلد العاشر الجزء ٣٠ ص ٧٥ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

(٤٥) تفسير القرطبي وفيه مزيد من القول في ذلك الموضوع .

(٤٦) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ، دار الشعب ص ٣٨ .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني المجلد الثالث ص ٦١٧ .

(٤٨) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٩٨/٣٠ .

(٤٩) رواه الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن الزبير عن عائشة ، وهو صحيح على شرط مسلم ولم يخرج .

(٥٠) من نوقش الحساب هلك :

رواه البخاري في العلم (١٠٣) وفي التفسير (٤٩٣٩) وفي الرقاق (٦٥٣٦) ومسلم في الجنة (٢٨٧٦) وأبو داود في الجنائز (٣٠٩٣) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٦) وفي التفسير (٣٣٣٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦٨٠) من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : «من حوسب عذب» . قالت عائشة : فقلت : أو ليس يقول الله تعالى : ﴿وَسَوْفَ يَحْسَبُ حِسَابًا﴾ يسيراً قالت : فقال : «إنما ذلك المعص ، ولكن من نوقش الحساب يهلك» .

(٥١) اللهم حاسبني حساباً يسيراً :

رواه أحمد في مسنده (٢٣٦٩٥) من حديث عائشة بلغظ : «اللهم حاسبني حساباً يسيراً» ، فلما انصرف قلت : يابني الله ... الحديث .

(٥٢) سترها عليك في الدنيا :

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤١) ومسلم في التوبة (٢٧٦٨) من حديث صفوان بن محرز الزاماني قال : بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما أخذ بيده إذ عرض رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى فقال : سمعت

رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهداء: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين».

(٥٣) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني ٣ / ٦٢٠.

(٥٤) جاء في تفسير البحر المحيط ما يأتي:

وإنما ذكر الأوصاف التي يستحق بها تعالى أن يؤمن به، وهي كونه (عزيزاً) أي: غالباً قادراً يخشى عقابه. (حميداً) أي: منعماً يجب له الحمد على نعمه ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ أي: وكل من فيهما يحق عليه عبادته والخشوع له، وإنما ذكر ذلك تقريراً، لأن ما تقوم به منهم هو الحق، ولا ينقمه إلا مبطل منهمك في النفي والضلal.

(٥٥) في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب، دار الشروق المجلد ٦ ص ٣٨٧٤.

(٥٦) يقرأ في العشاء الآخرة:

رواه أحمد في مسنده (٨١٣٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء، يعني: ذات البروج، والسماء والطارق.

(٥٧) أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء:

رواه أحمد في مسنده (٨١٣٣) من حديث أبي هريرة بلفظ: أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء.

(٥٨) وقال الضحاك: هم قوم من النصاري كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، أخذهم يوسف بن شراحيل ابن تبع الحميري، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وحفر لهم أخدوداً وأحرقهم فيه.

(٥٩) تفسير ابن كثير: ٤ / ٥٤٩.

(٦٠) للتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي دار الفكر المعاصر ببيروت لبنان، الجزء ١٥٢ / ٣٠ - ١٥٤.

(٦١) تفسير المراغي ٣٠ / ١١٥ نقلاً عن تقرير للدكتور عبد الحميد العراقي وكيل مستشفى الملك سابقاً.

(٦٢) في ظلال القرآن ٣٠ / ١١٩.

(٦٣) كتاب الله فيه نأ ما كان قبلكم:

رواه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٦)، والدارمي في فضائل القرآن (٣٣٣١)، وأحمد (٧٠١) من حديث علي بن أبي طالب. قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال. قال السيوطي في «اللدن»: وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن علي.. فنذكره.

(٦٤) نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً :

رواه البخارى فى النكاح (٤٨٤٢) ، ومسلم فى الإمارة (٣٥٥٧ ، ٣٥٥٨) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٣٩٥) ، وأحمد (١٣٦٧٦) .

(٦٥) ومن طوارق الليل والنهار :

رواه مالك فى الموطأ كتاب الجامع (١٧٧٣) من حديث يحيى بن سعيد أنه قال : أسرى برسول الله ﷺ فرأى غفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار كلما التفت رسول الله ﷺ رآه فقال له جبريل : أفلا أعلمك كلمات تقولهن إذا قلتهم طفنت شعلته وخر لقيه ، فقال رسول الله ﷺ : «بلى» . فقال جبريل : فقل : أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات اللاتى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها ، وشر ما ذرأ فى الأرض وشر ما يخرج منها ، ومن فتن الليل والنهار ، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن .

(٦٦) يقرأ فى العيدين وفى الجمعة يسبح :

رواه مسلم فى الجمعة (٨٧٨) من حديث النعمان بن بشير قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة يسبح اسم ربه الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، قال : وإذا اجتمع العيد والجمعة فى يوم واحد يقرأ بهما أيضاً فى الصلاتين .

(٦٧) كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة :

رواه أحمد فى مسنده (٧٤٤) من حديث على رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ .

(٦٨) تفسير جزء عم ، سورة الأعلى ، ص ٥٢ .

(٦٩) اجعلوها فى ركوعكم :

رواه أبو داود فى الصلاة (٨٦٩) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (٨٨٧) وأحمد فى مسنده (١٦٩٦١) من حديث عقبة بن عامر قال : لما نزلت ﴿سبح باسم ربك العظيم﴾ قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى ركوعكم» ، فلما نزلت ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «اجعلوها فى سجودكم» .

(٧٠) فى ظلال القرآن ٣٠ / ١٢٤ .

(٧١) فى ظلال القرآن ٣٠ / ١٢٥ نقلا عن كتاب (الإنسان لا يقوم وحده) للعالم «أ. كريس موريسون» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، وقد ترجم الكتاب الأستاذ الإمام محمود صالح الفلكى بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .

(٧٢) تفسير جزء عم ، للأستاذ محمد عبده ، سورة الأعلى ص ٥٢ .

(٧٣) لن يشاهد الدين أحد إلا غلبه :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٩) والنسائى فى الإيمان (٥٠٣٤) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة» .

(٧٤) لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم :

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٤) من حديث سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة في زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فإذا هو يصلي صلاة خفيفة دقيقة كأنها صلاة مسافر أو قريب منها ، فلما سلم قال أبي : يرحمك الله ، رأيت هذه الصلاة المكتوبة أو شيء تنقلته قال : إنها المكتوبة وإنها لصلاة رسول الله ﷺ ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه . فقال : إن رسول الله ﷺ كان يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فثلك بقاياهم في الصوامع والديار » ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ﴿ ثم غدا من الغد فقال : ألا تتركب لتنظر وتعتبر ؟ قال : نعم ، فركبوا جميعاً فإذا هم بديار باد أهلها وانقضوا وفنوا ، خاوية على عروشها ، فقال : أتعرف هذه الديار ؟ فقلت : ما أعرفني بها وبأهلها ، قال : هذه ديار قوم أهلهم البغي والحسد إن الحسد يطفئ نور الحسنات ، والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان والغرج يصدق ذلك أو يكذبه .

(٧٥) المنبت : هو الذي يجهد دابته في السير حتى تموت .

(٧٦) إن المنبت لا أرضاً قطع :

نكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٥٠٩) ورمز لضعفه . قال المناوي في الفيض : قال الهيثمي : وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل وهو كذاب . انتهى . ورواه البيهقي في السنن من طرق وفيه اضطراب روى موصولاً ومرسلًا ومرفوعاً وموقوفاً واضطراب في الصحابي أو عائشة أو عمر؟ ورجح البخاري في التاريخ إرساله . قال العجلوني في كشف الغطاء : رواه الزبيري والحاكم في علومه والبيهقي وابن طاهر وأبو نعيم والقضاعي والعسكري والخطابي في العزلة عن جابر مرفوعاً بلفظ : «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله ، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» واختلف في إرساله ووصله .

(٧٧) رحم الله رجلاً إذا باع :

رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٣) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «رحم الله رجلاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى» .

(٧٨) المؤمن يألف ويؤلف :

رواه أحمد في مسنده (٢٢٣٣٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله ﷺ : «المؤمن مألفة ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

ورواه أحمد في مسنده أيضاً (٨٩٤٥) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

(٧٩) اللدد في الخصومة : تجاوز الحد والتقول على الخصم بالحق والباطل . وفي البخاري : «ثلاث من كن فيه كان منافقاً: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» . وفي رواية : وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . وفي القرآن ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام﴾ (البقرة : ٢٠٤) . والتجور في الخصومة هو الشدة واللدد والادعاء على الخصم بالحق والباطل . والمؤمن نزيه وصادق حتى في خصومته .

(٨٠) إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم :

رواه البخارى فى المغالام (٢٤٥٧) ومسلم فى العلم (٢٦٦٨) من حديث عائشة رضى الله عنها ، عن النبى ﷺ قال : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» .

(٨١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ٧٣/٣٠ ، طبعة بولاق .

(٨٢) تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ، سورة الأعلى ص ٥٤ .

(٨٣) يشربوا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : «يسروا ولا تعسروا ، ويشربوا ولا تنفروا» ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بحث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال : «يشربوا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا» . ورواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) وفى المغازى (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢) ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) من حديث أبى موسى قال : لما بعث رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما : «يسرا ولا تعسرا ، يشربا ولا تنفرا وتطاولعا» قال أبو موسى : يا رسول الله ، إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتع . وشراب من الشعير يقال له المزز . فقال رسول الله ﷺ : «كل مسكر حرام» .

(٨٤) ما أنت بمحدث قوما حديثا :

رواه مسلم فى المقدمة من حديث عبد الله بن مسعود قال : ما أنت بمحدث قوما حديثا لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

(٨٥) حدثوا الناس بما يعرفون :

رواه البخارى فى العلم (١٢٧) قال : وقال على : حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله . حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف بن خربوذ عن أبى الطفيل عن على بذلك .

(٨٦) إن القور إذا قلذب به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ أفمن شرع الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ فقلنا : يا رسول الله ، كيف انشراح صدره؟ قال : «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح» . قلنا : يا رسول الله ، فما علامة ذلك؟ قال : «الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت» . قال العراقى فى تخريج الإحياء : رواه الحاكم فى المستدرک من حديث ابن مسعود .

(٨٧) من أحب دنياه أضرب بآخرته :

رواه أحمد فى مسنده (١٩١٩٨) من حديث أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «من أحب دنياه أضرب بآخرته ، ومن أحب آخرته أضرب بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفتنى» .

(٨٨) تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ٨ .

(٨٩) في ظلال القرآن ، نقلا عن فصل التناشق الفني في كتاب التصوير الفني في القرآن . بتصرف .

(٩٠) للتفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم الخطيب المجاهد الثامن الجزء ٣٠ من ١٥٤٠ .

(٩١) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ، سورة الفجر .

(٩٢) تفسير المراغي ، للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ١٥٠/٣٠ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

(٩٣) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٥٧/٣٠ ، بتصرف .

(٩٤) يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل :

رواه البخاري في مؤاقت الصلاة (٥٥٥) ، وفي التوحيد (٧٤٢٩ ، ٧٤٨٦) ، ومسلم في المساجد (٦٣٢) ، والنسائي في الصلاة (٤٨٥) ، وأحمد (٢٧٣٣٦ ، ٩٩٣٦) ، ومالك في النداء للصلاة (٤١٣) ، من حديث أبي هريرة بلفظ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ...» الحديث .

(٩٥) ما من أيام العمل الصالح فيهن :

رواه الترمذي في الصوم (٧٥٧) وأبو داود في الصيام (٢٤٣٨) وابن ماجه في الصيام (١٧٢٧) من حديث عبد الله بن عباس بلفظ : « ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه ...» الحديث .

(٩٦) اللهم غارت النجوم وهذأت العيون :

قال الهيثمي في المجمع : عن زيد بن ثابت قال : أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : «قل: اللهم غارت النجوم وهذأت العيون وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم أقم عيني وأهدئ ليلي» فقلتها فذهب عني . وقال : رواه الطبراني . وفيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك . وذكره مالك في الموطأ كتاب النداء للصلاة فقال : وحدثني عن مالك أنهم بلغهم أن أبا الدرداء كان يقوم من جوف الليل فيقول : نامت العيون وغارت النجوم وأنت الحي القيوم ... فذكره هكذا من قول أبي الدرداء . وقال الحافظ ابن حجر : لم أقف على من وصله ، ولا أسنده ابن عبد البر مع تتبعه لذلك ... إلخ . الفتوحات الربانية ١٧٧/٣ .

(٩٧) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير ، باب قوله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴾ (٤٤٠٩) ، ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» قال : ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴾ .

(٩٨) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

انظر ما قبله .

(٩٩) أنا وكافل اليتيم :

رواه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤) ، وفي الأدب (٦٠٠٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩١٨) ، وأبو داود في الأدب (٥١٥٠) ، وأحمد (٢٢٣١٣) ، من حديث سهل بن سعد ، وقال الترمذي : حسن صحيح . ومالك في الجامع (١٧٦٨) بلاغاً .

(١٠٠) خير بيت في المسلمين :

رواه ابن ماجة في الأدب (٣٦٧٩) من حديث عبد الرحمن بلفظ: «خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشرب بيت...» الحديث .

(١٠١) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ٩٣/٣٠ .

(١٠٢) انظر تفسير النيسابوري للسورة ٩٣/٣٠ .

(١٠٣) انظر تفسير النسفي ٢٦٧/٤ .

(١٠٤) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ٩٦ مطبعة الشعب .

(١٠٥) تفسير جزء عم للشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

(١٠٦) إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم :

رواه أبو داود في الأدب (٥١٥٨) والترمذي في البر والصلة (١٩٤٥) وابن ماجة في الأدب (٣٦٩٠) وأحمد في مسنده (٢٠٩٠٠) من حديث جندب بن جنادة بلفظ: «إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يديه...» الحديث .

(١٠٧) ترى المؤمنين في ترادهم وتراحيمهم وتعاطفهم :

البخاري في الأدب (٦٠١١) ، ومسلم في البر والصلة والأدب (٢٥٨٦) ، وأحمد (١٧٦٤٨ ، ١٧٦٣٢) من حديث النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» ؛

(١٠٨) من نفس عن مؤمن كربة من كرب :

رواه مسلم في الذكر (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(١٠٩) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٧٠/٣٠ .

(١١٠) في ظلال القرآن ١٧٠/٣٠ .

(١١١) كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها :

رواه مسلم في الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٨٢) والنسائي في الزكاة ، وابن ماجة في الطهارة باب الوضوء شرط الإيمان (٢٨٠) والدارمي في الطهارة (٦٥٣) ، وأحمد (٢٢٣٩٥) . من حديث أبي مالك الأشعري . وتامم لفظه : «الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماوات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها» .

(١١٢) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان يتزلان :

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبى الدرداء .

(١١٣) اعملوا فكل ميسر لما خلق له :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٤٩) ، وفى التوحيد (٧٥٥١) ، ومسلم فى القدر (٢٦٤٧ ، ٢٦٤٩) ، والترمذى فى القدر (٢١٣٦) ، وفى التفسير (٣١١١) ، وأبو داود فى السنة (٤٧٠٩) ، وابن ماجه فى المقدمة (٧٨ ، ٩١) ، وفى التجارات (٢١٤٢) ، وأحمد (٢٠ ، ٦٢٢ ، ١٣٥٢) ، من حديث على ، وعمر ، وعمران بن الحصين ، وأبى حميد ، وسراقه ، وأبى بكر الصديق .

(١١٤) أياكم مال وارثه أحب إليه من ماله :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٤٢) من حديث عبد الله بن مسعود : «أياكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا : يا رسول الله ... الحديث» .

(١١٥) دراسات فى السيرة النبوية د. حسين مؤنس ص ٧٨ طبعة بنك فيصل الإسلامى .

(١١٦) أنا وكافل اليتيم :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٩٩) .

(١١٧) إن الناس لكم تبع :

رواه الترمذى فى العلم (٢٦٥٠) وابن ماجه فى المقدمة (٢٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرضين ... الحديث .

(١١٨) من لا يشكر الناس لا يشكر الله :

رواه أبو داود فى الأدب (٤٨١١) والترمذى فى البر (١٩٥٤) (٧٤٥٢ ، ٧٨٧٩ ، ٨٨٠١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه الترمذى فى البر (١٩٥٥) وأحمد فى مسنده (١٠٨٨٧) من حديث أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . ورواه أحمد فى مسنده (١٧٩٨١) من حديث النعمان بن بشير قال : قال النبى ﷺ على المنبر : «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب» . ورواه أحمد فى مسنده (٢١٣٣١) من حديث الأشعث بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .

(١١٩) للتفسير الغريد للقرآن المجيد للدكتور محمد عبد المنعم الجمال . ص ٣٣٢٥ .

(١٢٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ١٨٩/٣٠ .

(١٢١) إن المؤمن يرى ذلوه :

رواه الترمذى فى صفة القيامة والرقائق (٢٤٩٧) وأحمد فى مسنده (٣٦٢٢) من حديث عبد الله بن مسعود : «إن المؤمن يرى ذلوه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع ... الحديث» .

(١٢٢) انظر تفسير المراغي ، وتفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ، وتفسير جزء عم للشيخ محيي الدين عبد الحميد ، وقد رجح هذا الرأي د. محمد سيد طنطاوي فى تفسيره الوسيط ، وكذلك التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية ص ١٩٥٤ .

(١٢٣) تفسير المراغى ، أحمد مصطفى المراغى ، الجزء الثلاثون ص ١٨٩ .

(١٢٤) روى هذا القول عن ابن عباس وعكرمة ، حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، واستشهدوا بقوله تعالى : ﴿ ومن نعلمه ننكسه فى الخلق ﴾ (يس : ٦٨) . وقول تعالى : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ (النحل : ٧٠) . حيث يتحول الإنسان من القوة إلى الضعف ، وحيث يتقوس ظهره بعد اعتداله ، ويبيض شعره بعد سواده ، ويضعف سمعه ويصره ، فمشيه دليق كالمقيد ، وصوته خافت .

قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (الروم : ٥٤) .

(١٢٥) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٦٥٥ .

(١٢٦) التفسير الوسيط تأليف لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر .

(١٢٧) أخرجه الشيخان والإمام أحمد واللفظ له . وانظر مختصر تفسير ابن كثير اختصار وتحقيق محمد على الصابونى المجلد الثالث ص ٦٥٦ .

(١٢٨) يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٧٧) ، وأحمد (١٥٤/٥ ، ١٦٠ ، ١٧٧) ، والترمذى (٢٤٩٥) ، وابن ماجه (٤٢٧٥) ، وعبد الرزاق (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر .

(١٢٩) أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

رواه مسلم فى الصلاة (٤٨٢) وأبو داود فى الصلاة (٨٧٥) والنسائى فى الافتتاح (٢٢٦/٢) .

(١٣٠) إني أريت ليلة القدر ثم أنسيها :

رواه البخارى فى صلاة التراويح (٢٠١٦) من حديث سعد بن مالك بلفظ : «إني أريت ليلة القدر ثم أنسيها أو نسيتها فالتمسوها ...» الحديث .

(١٣١) إني أريت ليلة القدر ثم أنسيها :

انظر ما قبله .

(١٣٢) إذا دخل العشر أحيا الليل :

رواه البخارى فى صلاة التراويح (٢٠٢٤) ومسلم فى كتاب الاعتكاف (١١٧٤) وأبو داود فى الصلاة (١٣٧٦) وأحمد فى مسنده (٢٣٦١١) من حديث عائشة بلفظ : إذا دخل العشر أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المنزر ... الحديث .

(١٣٣) قولى اللهم إنك عفو كريم :

رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥١٣) وابن ماجه فى الدعاء (٢٨٥٠) وأحمد فى مسنده (٢٤٩٦٧) من حديث عائشة بلفظ : «قولى اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني...» الحديث

(١٣٤) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٢١٥/٣٠ مطبعة مصطفى البابى الحلبي ، الطبعة الثالثة .

(١٣٥) إن الله أمرني أن أقرأ عليك :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٥٩) ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٩٩) من حديث أنس بن مالك بلفظ : «إن الله أمرني أن أقرأ عليك لم يكن الذين كفروا ...» الحديث

(١٣٦) لو كان موسى حيا :

أخرجه على القارى فى الأسرام المرفوعة (٨٣ ، ٢٩٢) .

(١٣٧) وأنا العاقب :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٩٦) ومسلم فى الفضائل (٢٣٥٤) والترمذى فى الأدب (٢٨٤٠) وأحمد فى مسنده (١٦٩٢) من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لى أسماء ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس علي قدمي ، وأنا العاقب .»

(١٣٨) ليس الإيمان بالتمنى :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٧٠) وعزاه لابن النجار والديلمى فى مسند الفردوس عن أنس . وقال السيوطى فى «الدر المنثور» : وأخرج ابن أبى شيبة عن الحسن قال : إن الإيمان ليس بالتحلى ولا بالتمنى ، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . فذكره هكذا موقوفاً .

(١٣٩) هل تروجت يا فلان :

رواه الترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٩٥) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه : «هل تزوجت يا فلان» ؟ قال : لا والله يا رسول الله ولا عندي ما أتزوج به ، قال : «أليس معك قل هو الله أحد» ؟ قال : بلى ، قال : «ثلث القرآن» ، قال : «أليس معك إذا جاء نصر الله والفتح» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن» ، قال : «أليس معك قل يا أيها الكافرون» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن» قال : «أليس معك إذا زلزلت الأرض» ؟ قال : بلى ، قال : «ربيع القرآن» قال : «تزوج» .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

(١٤٠) تقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان :

رواه مسلم فى الزكاة (١٠١٣) والترمذى فى الفتن (٢٢٠٨) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا .»

(١٤١) أتدرون ما أخبارها :

رواه الترمذى فى صفة القيام (٢٤٢٩) وفى التفسير (٣٣٥٢) وأحمد فى مسنده (٨٦٥٠) من حديث أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ «يومئذ تحدث أخبارها» قال : «أتدرون ما أخبارها» قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا قال فهذه أخبارها» . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(١٤٢) تفسير المرائى : أحمد مصطفى المرائى ، الجزء الثلاثون ص ٢٢٠ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، وقد ورد ذلك موسعا فى تفسير جزء عم للإمام محمد عبده .

(١٤٣) أخرجه الشيخان واللفظ للبخارى .

(١٤٤) أخرجه أحمد والنسائي .

(١٤٥) أخرجه البخاري .

(١٤٦) أخرجه البخاري أيضاً .

(١٤٧) أخرجه أحمد .

(١٤٨) أخرجه ابن جرير .

(١٤٩) أخرجه ابن أبي حاتم .

(١٥٠) أخرجه الإمام أحمد .

(١٥١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق الصابوني المجلد الثالث ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ .

(١٥٢) تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ١٠٩ ، مطبعة الشعب الطبعة السادسة .

(١٥٣) مختصر تفسير ابن كثير محمد على الصابوني المجلد الثالث ص ٦٧٠ .

(١٥٤) أخرجه ابن جرير .

(١٥٥) أخرجه مالك ورواه البخاري ومسلم بنحوه .

(١٥٦) أخرجه الإمام أحمد .

(١٥٧) أخرجه الترمذي وابن ماجه .

(١٥٨) أخرجه في الصحيحين .

(١٥٩) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٦٧٠ .

(١٦٠) تفسير النسفي ٢٧٩/٤ .

(١٦١) يقول ابن آدم مالي مالي :

رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٨) والترمذي في الزهد (٢٣٤٢) وفي التفسير (٣٣٥٤) والنسائي في الوصايا (٣٦١٢) وأحمد في مسنده (١٥٨٧٠) من حديث مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : يقول ابن آدم مالي مالي ، قال : وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأَمْضيت .

(١٦٢) من أصبح منكم آمناً في سربه :

رواه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه في الزهد (٤١٤١) من حديث سلمة بن عبيد الله بن محسن الخطمي عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية . وحيزت : جمعت .

(١٦٣) انظر تفسير القرطبي للآية .

(١٦٤) التفسير الوسيط د. محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر ، الجزء الثلاثون ، سورة التكاثر ص ٦٩٨ .

(١٩٥) نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ :

رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) والترمذي في الزهد (٢٣٠٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٠) والدارمي في الرقاق (٢٧٠٧) وأحمد في مسنده (٢٣٣٦ ، ٢١٧٩) من حديث ابن عباس يرفعه : «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ» .

(١٦٦) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ص ٦٧٣ .

(١٦٧) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٥١/٣٠

(١٦٨) في ظلال القرآن ٢٤٣/٣٠ ، بتصرف .

(١٦٩) لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر :

رواه مسلم في الأنفاظ من الأدب (٢٢٤٦) وأحمد في مسنده (٨٨٩٢) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» .

(١٧٠) أوقد على النار ألف سنة :

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٩١) من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة» .

وقال الترمذي : حدثنا سويد أخبرنا عبد الله بن المبارك عن شريك عن عاصم عن أبي صالح أو رجل آخر عن أبي هريرة نحوه ولم يرفعه ، قال أبو عيسى : حديث أبي هريرة في هذا موقوفاً أصح ، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن أبي بكير عن شريك .

(١٧١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده دار ومطابع الشعب ص ١١٨ .

(١٧٢) مختصر تفسير ابن كثير ٦٧٥/٣ .

(١٧٣) انظر تفسير النسفي ٢٨٠/٤ ، وفي ظلال القرآن ٢٤٨/٣٠ ، وتفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده ص ١٢٠ ، وتفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٢٤٢/٣٠ .

(١٧٤) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ١٦٤/٣٠ .

(١٧٥) المرجع السابق ١٦٥/٣٠ .

(١٧٦) تفسير جزء عم للأستاذ محمد عبده ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(١٧٧) في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٦٩/٣٠ .

(١٧٨) المرجع السابق ، بتصرف ، ٦٧٢/٣٠ .

(١٧٩) الآية ٧٥ من سورة المائدة وتماها : ﴿يَا مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مِمَّا فِي آيَاتِكُمْ خُذُوا ذُرَىٰ الرَّحْمٰنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

والمراد أنهما من جنس البشر كانا يأكلان ويتخلصان من فضلات الطعام بالبول والغائط ، ومن كان كذلك كان إنساناً محتاجاً للأكل والشرب وقضاء الحاجة ، والاحتياج نقص والنقص على الله محال .

(١٨٠) إن الله حبس عن مكة الفيل :

رواه البخارى فى اللقطة (٢٤٣٤) ومسلم فى الحج (١٣٥٥) وأبو داود فى المناسك (٢٠١٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٠١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما فتح الله على رسول الله ﷺ مكة قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين فإنها لا تحل لأحد كان قبلى وإنها أحلت لى ساعة من نهار وإنها لا تحل لأحد بعدى فلا يغير صيدها ولا يختلى شوكها ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يقدى وإما أن يقيد» ، فقال العباس : إلا الإنخر فإننا نجعله لقيورنا ويبيوتنا ، فقال رسول الله ﷺ : «إلا الإنخر» ، فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال : اكتبوا لى يا رسول فقال ﷺ : «اكتبوا لأبى شاه» . قلت للأوزاعى : ما قوله : اكتبوا لى يا رسول الله ؟ قال : هذه الخطبة التى سمعها من رسول الله ﷺ .

(١٨١) البداية والنهاية لابن كثير .

(١٨٢) انظر فى ظلال القرآن ، الجزء الثلاثون ، ص ٦٧٤ ، ٦٧٥ . (اقتباس واختصار) .

(١٨٣) فى ظلال القرآن ٦٧٦/٣٠ .

(١٨٤) مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثالث ٦٨٠ . تحقيق محمد على الصابونى دار القرآن الكريم دمشق .

(١٨٥) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٦٨٠/٣٠ .

(١٨٦) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٢٤ .

(١٨٧) فى ظلال القرآن ٦٨١/٣٠ .

(١٨٨) المرجع السابق .

(١٨٩) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ١٩٧٤/٣٠ ، طبعة بولاق .

(١٩٠) صفوة التفاسير محمد على الصابونى ٦٠٨/٣ - ٦٠٩ .

(١٩١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده مطابع الشعب ١٢٤ .

(١٩٢) التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازى .

(١٩٣) تلك صلاة المنافق :

رواه مالك فى النذاء للصلاة (٥١٢) ومسلم فى المساجد (٦٢٢) وأبو داود فى الصلاة (٤١٣) والترمذى فى الصلاة (١٦٠) والنسائى فى المواقيت (٥١١) وأحمد فى مسنده (١١٥٨٨) من حديث العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس ابن مالك فى داره بالبصرة حين انصرف من الظهر وداره بجنب المسجد فلما دخلنا عليه قال : أصليتم العصر ؟ فقلنا له : إنما انصرفنا الساعة من الظهر قال : فصلوا العصر ، فقمنا فصلينا فلما انصرفنا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا» .

ورواه البخارى فى المواقيت (٥٤٩) مختصرا ولم يذكر فيه شاهد الحديث : «تلك صلاة المنافق ...»

(١٩٤) صفوة التفاسير محمد على الصابونى ٦٨١/٣ .

(١٩٥) تفسير جزء عم ، للإمام محمد عبده ، ص ١٢٦ ، وقارن بتفسير النيسابورى ١٧٥/٣٠ .

(١٩٦) تفسير النيسابوري ١٧٦/٣٠ ، وقد أورد صفحات عدة في فضائله ﷺ ، وقد جمع الله له جميع خصائص الرسل أجمعين ، فقد أعطاه الله كتابا خالدا ، وكتاب آدم كان كلمات ، وأعطى إبراهيم وموسى صحفا محدودة ، وكتاب محمد ﷺ مهيمن على الجميع .

(١٩٧) المرجع السابق .

(١٩٨) تفسير النيسابوري بهامش تفسير الطبري ١٧٩/٣٠ .

(١٩٩) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ص ١٢٨ ، مطبعة الشعب ، الطبعة السادسة .

(٢٠٠) نهر وعذبة ربي عز وجل :

رواه مسلم في الصلاة (٤٠٠) وأبو داود في الصلاة (٧٨٤) وفي السنة (٤٧٤٧) والنسائي في الافتتاح (٩٠٤) من حديث أنس قال : بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما قلنا : ما أضحكنا يا رسول الله ؟ قال : «أنزلت على أنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر» . ثم قال : «أتدرون ما الكوثر» ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : «فإنه نهر وعذبة ربي عز وجل خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة أتيت به عدد النجوم فيخلج العبد منهم فأقول : رب إنه من أمتي فيقول : ما تدرى ما أحدثت بعدك» . زاد ابن حجر في حديثه : بين أظهرنا في المسجد ، وقال : ما أحدث بعدك .

(٢٠١) مختصر تفسير ابن كثير المجلد ٣ ص ٦٨٤ . تحقيق محمد علي الصابوني .

(٢٠٢) انظر تفسير النيسابوري والبيضاوي ، وتفسير العراغي ، وتفسير الطبري ٢١٤/٣٠ .

(٢٠٣) قال تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون﴾ . (الصافات : ١٥٨) .

وقال سبحانه : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا لشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون﴾ . (الزخرف : ١٩) .

(٢٠٤) هو أجل رسول الله :

رواه البخاري في المغازي (٤٢٩٤) وأحمد في مسنده (٣١١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال بعضهم : لم تدخل هذا الفتى معنا ولينا أبناء مثله ؟ فقال : إنه ممن قد علمتم قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال : وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال : ما تقولون في ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾ حتى ختم السورة فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وقال بعضهم : لا ندرى أولم يقل بعضهم شيئا فقال لي : يا ابن عباس ، أكذلك تقول ؟ قلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ فتح مكة فذاك علامة أجلك ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .

(٢٠٥) يكثر في آخر أمره من قول سبحان الله ويحمده :

رواه أحمد في مسنده (٢٣٥٤٥) ومسلم في الصلاة (٤٨٤) من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول سبحان الله ويحمده استغفر الله وأتوب إليه ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما لي أراك تكن من قول سبحان الله ويحمده استغفر الله وأتوب إليه ، قال : «إني ربي عز وجل كان أخبرني أنني سأرى علامة في أمتي وأمرني إذا رأيتهما أن أسبح بحمده واستغفره إنه كان توابا فقد رأيتهما ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا» .

(٢٠٦) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده :

رواه البخارى فى الأذان (٨١٧) وفى التفسير (٤٩٦٨) ومسلم فى الصلاة (٤٨٤) من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى» بتأول القرآن .

(٢٠٧) يكثر من قول سبحان الله وبحمده :

تقدم تخريجه ، انظر هامش (٢٠٥) .

(٢٠٨) تفسير المراعى للأستاذ أحمد مصطفى المراعى ، ٢٦٣/٣٠ .

(٢٠٩) مقتبس من تفسير جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده ، ص ١٣٣ .

(٢١٠) تفسير جزء عم ، للأستاذ محمد عبده ، ص ١٢٥ ، مطابع الشعب .

(٢١١) يا غلام إني أعلمك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : «يا غلام ، إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ : كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال : «يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله - الحديث ، وفيه : قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ : «يا أبا عبد الله ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ...» وذكره مطولاً بسند ضعيف ، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالاً وأقوى ، قال فى المقاصد : وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين .

(٢١٢) دكتور شوقى ضيف ، سورة الرحمن وسور قصار ص ٣٨٠ ، مطابع دار المعارف .

(٢١٣) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة :

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥) ، وفى الدعوات (٦٣٢١) ، وفى التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦) ، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣) ، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦) ، وفى الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٤٥٧ ، ٧٥٢٨ ، ٧٥٦٧ ، ٣٧٣٣ ، ٨٧٥١ ، ٩٩٤٠ ، ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٣ ، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى . ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على .

(٢١٤) لا أحد أصبر على أذى :

رواه البخارى فى الأدب (٦٠٩٩) ، وفى التوحيد (٧٣٧٨) ، ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٤) ، وأحمد (١٩٠٩٢) ، (١٩١٣٦) . من حديث أبى موسى مرفوعاً : «ليس أحد أوليس شئ أصبر على أذى سمعه من الله» الحديث .

(٢١٥) كذبى ابن آدم ولم يكن له ذلك :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) والنسائى فى الجنائز (٢٠٧٨) وأحمد فى مسنده (٨٣٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : «قال الله : كذبى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقول : لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من إعادته وأما شتمه إياى فقول : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد» .

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٨٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : «قال الله : كذبى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان وأما شتمه إياى فقول : لى ولد ، فسبحانى أن اتخذ صاحبة أو ولداً» .

(٢١٦) إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٦) وفى التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦) ، (٣٥٠٨) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة» . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة ، هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار ...» الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان بن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ولا نعلم فى كبير شئ من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث وقد روى آدم بن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٢١٧) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى ، ٢١٤/٣٠ .

(٢١٨) تفسير جزء عم للإمام محمد عبده ، ص ١٣٨ .

(٢١٩) وفى الحديث : «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صفحاتها» .

أى : لا ينبغي للمرأة أن تطلب من الزوج طلاق زوجته لتحل محلها ، وتأكل فى إنائها وتحمل مكانتها . ومن النساء من يحلو لهن إفساد ما بين الزوج وزوجته ، أو خطف الرجل من امرأته وهو كيد تستعبد بالله منه .

(٢٢٠) كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠١٨) وأبو داود فى الأدب (٥٠٥٦) والترمذى فى الدعوات (٣٤٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٤٣٣٢) من حديث عائشة أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نثت فيهما قرأاً فيهما : قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الخلق وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

(٢٢١) كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان :

رواه الترمذى فى الطب (٢٠٥٨) والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٩٤) من حديث أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما .

قال أبو عيسى : وفى الباب عن أنس ، وهذا حديث حسن غريب .

(٢٢٢) كان إذا اشتكى ثلث على نفسه بالمعوذات :

رواه البخارى فى المغازى (٤٤٣٩) ومسلم فى السلام (٢١٩٢) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نثث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذى توفى فيه طلقت أنثث على نفسه بالمعوذات التى كان ينثث وأمسح بيد النبى ﷺ عنه .

(٢٢٣) لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا :

رواه مسلم فى البر (٢٥٦٤) والترمذى فى البر (١٩٢٧) وأحمد فى مسنده (٧٦٧٠ ، ٨٠٤٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ها هنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

(٢٢٤) إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات :

رواه أبو داود فى الأدب (٤٩٠٣) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب » .

ورواه ابن ماجه فى الزهد (٤٢١٠) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب والصدقة تطفى الخليفة كما يطفى الماء النار والصلاة نور المؤمن والصيام جنة من النار » .

(٢٢٥) إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان :

رواه البخارى فى الأذان (٦٠٨) ومسلم فى الصلاة (٣٨٩) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضى التلويح أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى » .

(٢٢٦) صفوة التفاسير أ . محمد على الصابونى ، المجلد الثالث ص ٦٢٢ .

(٢٢٧) انظر التفسير المغير أد . وهبة الزحيلي ٤٨٣/٣٠ .

(٢٢٨) اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمك :

رواه أحمد فى مسنده (٣٧٠٤) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحدكم قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمك ناصيتي بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا » ، قال : فقيل : يا رسول الله ، ألا نتعلمها ؟ فقال : « بلى ينهى لمن سمعها أن يتعلمها » .

(٢٢٩) اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن :

رواه البخارى فى الدعوات (٦٣٦٩) من حديث أنس بن مالك قال : كان النبى ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال » .

محتويات الكتاب

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	جزء عم	٦٢٩٩
—	تفسير سورة النبا	٦٣٠١
—	أهداف سورة النبا	٦٣٠٢
١	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾	٦٣٠٦
٢	﴿عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ﴾	٦٣٠٦
٣	﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾	٦٣٠٦
٤	﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾	٦٣٠٦
٥	﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾	٦٣٠٦
٦	﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾	٦٣٠٦
٧	﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾	٦٣٠٦
٨	﴿وَحَالِقَنَا كُمْ أَزْوَاجًا﴾	٦٣٠٦
٩	﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَكُمْ سَبَاتًا﴾	٦٣٠٦
١٠	﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾	٦٣٠٦
١١	﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾	٦٣٠٦
١٢	﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾	٦٣٠٦
١٣	﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾	٦٣٠٦
١٤	﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾	٦٣٠٦
١٥	﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾	٦٣٠٦
١٦	﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾	٦٣٠٦
١٧	﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾	٦٣١١
١٨	﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾	٦٣١١
١٩	﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾	٦٣١١
٢٠	﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سُرَابًا﴾	٦٣١١
٢١	﴿إِنْ جِهِشْتُمْ كُنْتُمْ مَرْمِثًا﴾	٦٣١١
٢٢	﴿لَا طَائِفِينَ مَاءً بَرًا﴾	٦٣١١
٢٣	﴿لَا يَبْقَى فِيهَا أَحْقَابًا﴾	٦٣١١
٢٤	﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾	٦٣١١
٢٥	﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾	٦٣١١
٢٦	﴿جَزَاءً وَفَتْحًا﴾	٦٣١١
٢٧	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾	٦٣١١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٨	﴿وَكَذِبُوا بِآيَاتِنَا كَذِبًا﴾	٦٣١١
٢٩	﴿وَكُلْ شَيْءٌ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾	٦٣١١
٣٠	﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾	٦٣١١
٣١	﴿إِنْ لَمْ يَتَّقِينَ مَغَارًا﴾	٦٣١٧
٣٢	﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾	٦٣١٧
٣٣	﴿وَكُنُوزًا أَتْرَابًا﴾	٦٣١٧
٣٤	﴿وَكُنُوزًا أَهْبَابًا﴾	٦٣١٧
٣٥	﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾	٦٣١٧
٣٦	﴿جِزَاءَ مَنْ رَكَّ عَطَاءَ حِسَابًا﴾	٦٣١٧
٣٧	﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ...﴾	٦٣١٩
٣٨	﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ...﴾	٦٣١٩
٣٩	﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا يَآءٍ﴾	٦٣١٩
٤٠	﴿إِنَّا أَنْشَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ...﴾	٦٣١٩
—	تفسير سورة النازعات	٦٣٢١
—	أهداف سورة النازعات	٦٣٢٢
١	﴿وَالنَّازِعَاتُ غُرُقًا﴾	٦٣٢٧
٢	﴿وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا﴾	٦٣٢٧
٣	﴿وَالسَّابِحَاتُ سَبْحًا﴾	٦٣٢٧
٤	﴿فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا﴾	٦٣٢٧
٥	﴿فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا﴾	٦٣٢٧
٦	﴿يَوْمَ تَجْرُفُ الرَّاجِفَةُ﴾	٦٣٢٧
٧	﴿تَتَّبِعُوهَا الْرَّادِفَةُ﴾	٦٣٢٧
٨	﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾	٦٣٢٧
٩	﴿أَبْصَارٌ خَاشِعَةٌ﴾	٦٣٢٧
١٠	﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمُرِيدُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾	٦٣٢٧
١١	﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾	٦٣٢٧
١٢	﴿فَالْوَاكِلُ إِذَا كُرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾	٦٣٢٧
١٣	﴿فَإِنْ مَاهِي زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾	٦٣٢٧
١٤	﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾	٦٣٢٧
١٥	﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾	٦٣٣١

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦	﴿إِنْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾	٦٢٣١
١٧	﴿وَأَنهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾	٦٢٣١
١٨	﴿فَنَقَلَ هَلْكَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى﴾	٦٢٣١
١٩	﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾	٦٢٣١
٢٠	﴿فَنَآرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾	٦٢٣١
٢١	﴿فَنَذَبَ وَغَصَصَى﴾	٦٢٣١
٢٢	﴿فَنَسَمَ أَدْبِرَ سَمْعَى﴾	٦٢٣١
٢٣	﴿فَنَحْشَرَ فَنَنَادَى﴾	٦٢٣١
٢٤	﴿فَنَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾	٦٢٣١
٢٥	﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾	٦٢٣١
٢٦	﴿وَإِنْ فَسى ذَلِكْ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى﴾	٦٢٣١
٢٧	﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خِلَافًا أَلَمْ السَّمَاءَ بَنَاهَا﴾	٦٢٣٤
٢٨	﴿رَفَعَ سَمُكَهَا فَسَوَاهَا﴾	٦٢٣٤
٢٩	﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾	٦٢٣٤
٣٠	﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾	٦٢٣٤
٣١	﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾	٦٢٣٤
٣٢	﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾	٦٢٣٤
٣٣	﴿فَتَنَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾	٦٢٣٤
٣٤	﴿فَلِإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾	٦٢٣٧
٣٥	﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾	٦٢٣٧
٣٦	﴿وَيُرْزَقُ الْجَحِيمَ لِمَنْ يَرَى﴾	٦٢٣٧
٣٧	﴿فَنَامًا مِنْ طَغَى﴾	٦٢٣٧
٣٨	﴿وَأَنْزَلَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾	٦٢٣٧
٣٩	﴿فَنِإِنَ الْجَحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى﴾	٦٢٣٧
٤٠	﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾	٦٢٣٧
٤١	﴿فَنِإِنَ الْجَنَّةَ هِىَ الْمَأْوَى﴾	٦٢٣٧
٤٢	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاهَا﴾	٦٢٣٧
٤٣	﴿فَنُفِيمَ أَنْتَ مِنْ نَذَرِهَا﴾	٦٢٣٧
٤٤	﴿إِلَى رَبِّكَ مِنْ نَفْسِهَا﴾	٦٢٣٧
٤٥	﴿وَإِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾	٦٢٣٧
٤٦	﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾	٦٢٣٧

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة عبس	٦٣٤١
—	أهداف سورة عبس	٦٣٤٢
١	﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾	٦٣٤٦
٢	﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾	٦٣٤٦
٣	﴿وَمَا يَدْرِي لَعَلَّهِ يَنْزِلُ﴾	٦٣٤٦
٤	﴿أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً فَاعْلَمْ﴾	٦٣٤٦
٥	﴿أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَنَى﴾	٦٣٤٦
٦	﴿فَإِذَا أَنتَ لَبِيتَهُ﴾	٦٣٤٦
٧	﴿وَمَاعِمْ لَكَ إِلَّا يَنْزِلُ﴾	٦٣٤٦
٨	﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾	٦٣٤٦
٩	﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾	٦٣٤٦
١٠	﴿فَإِذَا أَنتَ عَنْ يَتَاكِفَى﴾	٦٣٤٦
١١	﴿كَذَلِكَ إِنَّا تَتَذَكَّرُ﴾	٦٣٤٦
١٢	﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾	٦٣٤٦
١٣	﴿فَنَسِيَ حَافَةَ كَرَمَةٍ﴾	٦٣٤٦
١٤	﴿فَرَفَعَهُ طَهَّرَهُ﴾	٦٣٤٦
١٥	﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾	٦٣٤٦
١٦	﴿كَرَامَ بِهِ رُوحَةٍ﴾	٦٣٤٦
١٧	﴿فَتَلِ الْإِنْسَانَ مَا أُكْفِرَهُ﴾	٦٣٥٢
١٨	﴿مَنْ أَيُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾	٦٣٥٢
١٩	﴿مَنْ نَطَقَهُ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾	٦٣٥٢
٢٠	﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾	٦٣٥٢
٢١	﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾	٦٣٥٢
٢٢	﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾	٦٣٥٢
٢٣	﴿كَذَلِكَ لِمَا يَكْضِي أَمْرَهُ﴾	٦٣٥٢
٢٤	﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾	٦٣٥٤
٢٥	﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾	٦٣٥٤
٢٦	﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾	٦٣٥٤
٢٧	﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾	٦٣٥٤
٢٨	﴿وَعَنَبْنَا بِهَا عِنَبًا﴾	٦٣٥٤
٢٩	﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾	٦٣٥٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣٠	﴿وحدائق غلبا﴾	٦٣٥٤
٣١	﴿وفناكم﴾	٦٣٥٤
٣٢	﴿متاعا لكم ولأنعامكم﴾	٦٣٥٤
٣٣	﴿فإذا جاءات الصاعقة﴾	٦٣٥٦
٣٤	﴿يوم يفر المرء من أخيه﴾	٦٣٥٦
٣٥	﴿وأمنه﴾	٦٣٥٦
٣٦	﴿وصاحبته﴾	٦٣٥٦
٣٧	﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾	٦٣٥٦
٣٨	﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾	٦٣٥٦
٣٩	﴿فصاحكة مستبشرة﴾	٦٣٥٦
٤٠	﴿وجوه يومئذ عليها غيرة﴾	٦٣٥٦
٤١	﴿تترهاق تيرة﴾	٦٣٥٦
٤٢	﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾	٦٣٥٦
-	تفسير سورة التكويد	٦٣٥٩
-	أهداف سورة التكويد	٦٣٦٠
١	﴿وإذا الشمس كسفت﴾	٦٣٦٥
٢	﴿وإذا النجوم انكدرت﴾	٦٣٦٥
٣	﴿وإذا الجبال سنبرت﴾	٦٣٦٥
٤	﴿وإذا السعشار عطلت﴾	٦٣٦٥
٥	﴿وإذا السحوش حشت﴾	٦٣٦٥
٦	﴿وإذا البحار سجرت﴾	٦٣٦٥
٧	﴿وإذا النيران فوس زوجت﴾	٦٣٦٥
٨	﴿وإذا الممودة سملت﴾	٦٣٦٥
٩	﴿بأي ذنب قتلت﴾	٦٣٦٥
١٠	﴿وإذا الصراف نشرت﴾	٦٣٦٥
١١	﴿وإذا السباع كسفت﴾	٦٣٦٥
١٢	﴿وإذا الجحيم سعرت﴾	٦٣٦٥
١٣	﴿وإذا الجنة أزيلفت﴾	٦٣٦٥
١٤	﴿عالمات أنفس ما أفضرت﴾	٦٣٦٥
١٥	﴿فلا أقسم بالخنس﴾	٦٣٧٣
١٦	﴿الخنس﴾	٦٣٧٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾	٦٣٧٣
١٨	﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾	٦٣٧٣
١٩	﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾	٦٣٧٣
٢٠	﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾	٦٣٧٣
٢١	﴿مَطْمَاحِئٍ لَّهُمْ أُمَمِينَ﴾	٦٣٧٣
٢٢	﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾	٦٣٧٣
٢٣	﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْئُقِ الْمَغْبِيِّنَ﴾	٦٣٧٣
٢٤	﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾	٦٣٧٣
٢٥	﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾	٦٣٧٣
٢٦	﴿فَأَيُّنَ تَدْعُهُمْ بَنُونَ﴾	٦٣٧٣
٢٧	﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾	٦٣٧٣
٢٨	﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾	٦٣٧٣
٢٩	﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾	٦٣٧٣
-	تفسير سورة الانقطار	٦٣٧٩
-	أهداف سورة الانقطار	٦٣٨٠
١	﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾	٦٣٨٥
٢	﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾	٦٣٨٥
٣	﴿وَإِذَا الْبُحُورُ فَجَرَتْ﴾	٦٣٨٥
٤	﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾	٦٣٨٥
٥	﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدِمْتُ وَأُخِرْتُ﴾	٦٣٨٥
٦	﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾	٦٣٨٥
٧	﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَ﴾	٦٣٨٥
٨	﴿فَفَى أَىْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾	٦٣٨٥
٩	﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِاللَّيْلِ﴾	٦٣٨٩
١٠	﴿وَأَنْ عَلَّيْكُمْ الْخِيفَةُ﴾	٦٣٨٩
١١	﴿كَرَامَاتٍ كَاتِبِينَ﴾	٦٣٨٩
١٢	﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾	٦٣٨٩
١٣	﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾	٦٣٨٩
١٤	﴿وَأِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾	٦٣٨٩
١٥	﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾	٦٣٨٩
١٦	﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾	٦٣٨٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٧	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ الْيَوْمِ﴾	٦٣٨٩
١٨	﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْيَوْمِ﴾	٦٣٨٩
١٩	﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾	٦٣٨٩
-	تفسير سورة المطففين	٦٣٩٥
-	أهداف سورة المطففين	٦٣٩٦
١	﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾	٦٤٠٢
٢	﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾	٦٤٠٢
٣	﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾	٦٤٠٢
٤	﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾	٦٤٠٢
٥	﴿لِّلْيَوْمِ عَظِيمٍ﴾	٦٤٠٢
٦	﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾	٦٤٠٢
٧	﴿كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجَرٍ﴾	٦٤٠٦
٨	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجَرٍ﴾	٦٤٠٦
٩	﴿كَتَابٍ مَّرْقُومٍ﴾	٦٤٠٦
١٠	﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾	٦٤٠٦
١١	﴿الَّذِينَ يَكْذِبُونَ بِيَوْمِ الْيَوْمِ﴾	٦٤٠٦
١٢	﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كَلٌّ مَعْتَدٌ ثُمَّ﴾	٦٤٠٦
١٣	﴿إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾	٦٤٠٦
١٤	﴿كَأَلَا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	٦٤٠٦
١٥	﴿كَأَلَا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُونَ﴾	٦٤٠٦
١٦	﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾	٦٤٠٦
١٧	﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾	٦٤٠٦
١٨	﴿كَأَلَا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾	٦٤٠٩
١٩	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيِّينَ﴾	٦٤٠٩
٢٠	﴿كَتَابٍ مَّرْقُومٍ﴾	٦٤٠٩
٢١	﴿يَشْهَدُهُ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾	٦٤٠٩
٢٢	﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾	٦٤٠٩
٢٣	﴿عَلَى الْأَرْثِ يُنْظَرُونَ﴾	٦٤٠٩
٢٤	﴿تَعْرِفْنَ فِي وَجْهِهِمْ نُجُورَ النَّعِيمِ﴾	٦٤٠٩
٢٥	﴿يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾	٦٤٠٩
٢٦	﴿خَتَمَهُ مَسْكَ وَفَى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾	٦٤٠٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٧	﴿ومزاجه من تسنيم﴾	٦٤٠٩
٢٨	﴿عينا يشرب بها المقربون﴾	٦٤٠٩
٢٩	﴿إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾	٦٤١٣
٣٠	﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾	٦٤١٣
٣١	﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾	٦٤١٣
٣٢	﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾	٦٤١٣
٣٣	﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾	٦٤١٣
٣٤	﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾	٦٤١٣
٣٥	﴿عسى الأراك يَنظرون﴾	٦٤١٣
٣٦	﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾	٦٤١٣
-	تفسير سورة الانشقاق	٦٤١٧
-	أهداف سورة الانشقاق	٦٤١٨
١	﴿وإذا السماء انشقت﴾	٦٤٢٢
٢	﴿وأذنت لربها وحققت﴾	٦٤٢٢
٣	﴿وإذا الأرض مُدَّت﴾	٦٤٢٢
٤	﴿وألقت ما فيها وتخلت﴾	٦٤٢٢
٥	﴿وأذنت لربها وحققت﴾	٦٤٢٢
٦	﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه﴾	٦٤٢٢
٧	﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه﴾	٦٤٢٢
٨	﴿فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا﴾	٦٤٢٢
٩	﴿وينقلب إلى أهله مسرورًا﴾	٦٤٢٢
١٠	﴿وأما من أوتى كتابه وراء ظهره﴾	٦٤٢٢
١١	﴿فسوف يدعوه واثبورًا﴾	٦٤٢٢
١٢	﴿ويصل إلى سعيرًا﴾	٦٤٢٢
١٣	﴿إنه كان فى أهله مسرورًا﴾	٦٤٢٢
١٤	﴿إنه ظن أن لن ينحرور﴾	٦٤٢٢
١٥	﴿بإلى إن ربه كان به بصيرًا﴾	٦٤٢٢
١٦	﴿فلا أقسم بالشفق﴾	٦٤٢٨
١٧	﴿والليل وما وسق﴾	٦٤٢٨
١٨	﴿والسقمر إذا اتسق﴾	٦٤٢٨
١٩	﴿لتركبن طبقًا عن طبق﴾	٦٤٢٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿فَمَالَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾	٦٤٢٨
٢١	﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾	٦٤٢٨
٢٢	﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾	٦٤٢٨
٢٣	﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾	٦٤٢٨
٢٤	﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾	٦٤٢٨
٢٥	﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾	٦٤٢٨
—	تفسير سورة البروج	٦٤٣٣
—	أهداف سورة البروج	٦٤٣٤
١	﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾	٦٤٣٨
٢	﴿وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ﴾	٦٤٣٨
٣	﴿وَشَاهِدَ وَمُشْرِكٍ﴾	٦٤٣٨
٤	﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْجَدِ﴾	٦٤٣٨
٥	﴿الْإِنْرَارِ ذَاتِ الْوَقْعِ﴾	٦٤٣٨
٦	﴿وَإِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾	٦٤٣٨
٧	﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾	٦٤٣٨
٨	﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾	٦٤٣٨
٩	﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	٦٤٣٨
١٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ ...﴾	٦٤٣٨
١١	﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ ...﴾	٦٤٣٨
١٢	﴿إِنَّ بِسَبْطِ رَبِّكَ لِشَيْءٍ لِّبَدِيدٍ﴾	٦٤٤٣
١٣	﴿إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّلُ وَيُبَدِّلُ﴾	٦٤٤٣
١٤	﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾	٦٤٤٣
١٥	﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾	٦٤٤٣
١٦	﴿فَعَالِ الْإِمَارِ﴾	٦٤٤٣
١٧	﴿هُوَ أَتَاكَ حَدِيثَ الْجَنَّةِ﴾	٦٤٤٣
١٨	﴿فَرَعُونَ وَثُمَّ فَرَعُونَ﴾	٦٤٤٣
١٩	﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ﴾	٦٤٤٣
٢٠	﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾	٦٤٤٣
٢١	﴿بَلِ هُوَ قَرِيبٌ مِّجِيدٌ﴾	٦٤٤٣
٢٢	﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾	٦٤٤٣
—	ملحق بتفسير سورة البروج	٦٤٥٠

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة الطارق	٦٤٥٣
—	أهداف سورة الطارق	٦٤٥٤
١	﴿وَالسَّمَاءِ وَالسَّطْرِ سَاقٍ﴾	٦٤٥٨
٢	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا السَّطْرُ﴾	٦٤٥٨
٣	﴿الْبَنِينَ جِمْ السَّاقِبِ﴾	٦٤٥٨
٤	﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾	٦٤٥٨
٥	﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خَالِقٌ﴾	٦٤٥٨
٦	﴿خَالِقُ مَنَّ مَاءٍ دَافِقٍ﴾	٦٤٥٨
٧	﴿يَخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾	٦٤٥٨
٨	﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾	٦٤٥٨
٩	﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾	٦٤٥٨
١٠	﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾	٦٤٥٨
١١	﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْوَرْدِ﴾	٦٤٦٢
١٢	﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدُوعِ﴾	٦٤٦٢
١٣	﴿إِنَّهُ لَنَاقٍ فَصَلِّ﴾	٦٤٦٢
١٤	﴿وَمَا هُوَ إِلَّا هَزَلٌ﴾	٦٤٦٢
١٥	﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾	٦٤٦٢
١٦	﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾	٦٤٦٢
١٧	﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾	٦٤٦٢
—	دعاء التصبر	٦٤٦٥
—	تفسير سورة الأعلى	٦٤٦٧
—	أهداف سورة الأعلى	٦٤٦٨
١	﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾	٦٤٧٥
٢	﴿الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى﴾	٦٤٧٥
٣	﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾	٦٤٧٥
٤	﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾	٦٤٧٥
٥	﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾	٦٤٧٥
٦	﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾	٦٤٧٥
٧	﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾	٦٤٧٥
٨	﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾	٦٤٧٥
٩	﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى﴾	٦٤٧٩

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٠	﴿سَيَذَكِّرْهُم مِّنْ يَّخْشَى﴾	٦٤٧٩
١١	﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾	٦٤٧٩
١٢	﴿الَّذِي يَصَالِي النَّارَ الْكُبْرَى﴾	٦٤٧٩
١٣	﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾	٦٤٧٩
١٤	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾	٦٤٧٩
١٥	﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾	٦٤٧٩
١٦	﴿بَلْ تَوَثَّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾	٦٤٧٩
١٧	﴿وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾	٦٤٧٩
١٨	﴿إِنْ هَذَا لَفِي الصَّحْفِ الْأَوَّلَى﴾	٦٤٧٩
١٩	﴿صَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾	٦٤٧٩
-	تفسير سورة الفاشية	٦٤٨٥
-	أهداف سورة الفاشية	٦٤٨٦
١	﴿مَلَأْتُكَ حَدِيثَ الْغَاشِيَةِ﴾	٦٤٩٠
٢	﴿وَجِوْهُ يَوْمَئِذٍ مُّشَاعِيَةٌ﴾	٦٤٩٠
٣	﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾	٦٤٩٠
٤	﴿تَصَالَى نَارًا حَامِيَةً﴾	٦٤٩٠
٥	﴿تَسْقَى مِّنْ عَيْنِ أَنْيَّةٍ﴾	٦٤٩٠
٦	﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِّنْ ضَرِيحٍ﴾	٦٤٩٠
٧	﴿لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنَى مِّنْ جُوعٍ﴾	٦٤٩٠
٨	﴿وَجِوْهُ يَوْمَئِذٍ مُّزَاعِمَةٌ﴾	٦٤٩٠
٩	﴿لَسَعِيْهَا رَاضِيَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٠	﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾	٦٤٩٠
١١	﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَافِيَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٢	﴿فِيهَا عَائِنٌ جَارِيَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٣	﴿فِيهَا سُرُورٌ مُّرفُوعَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٤	﴿وَأكْوَابٌ مُّبْهُوْضَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٥	﴿وَنُجُومٌ مُّزْفُوفَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٦	﴿وَزَادَافٌ مُّبْثُوثَةٌ﴾	٦٤٩٠
١٧	﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾	٦٤٩٥
١٨	﴿وَالسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾	٦٤٩٥
١٩	﴿وَالسَّجَابِلِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾	٦٤٩٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٠	﴿والى الأرض كيف سطحت﴾	٦٤٩٥
٢١	﴿فذكر إنمما أنت مذكر﴾	٦٤٩٥
٢٢	﴿لست عابيهم بمصيطر﴾	٦٤٩٥
٢٣	﴿إلا من تولى وكفر﴾	٦٤٩٥
٢٤	﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾	٦٤٩٥
٢٥	﴿إن البيننا إياهم﴾	٦٤٩٥
٢٦	﴿فم إن علينا حسابهم﴾	٦٤٩٥
—	تفسير سورة الفجر	٦٤٩٩
—	أهداف سورة الفجر	٦٥٠٠
١	﴿والى فجـر﴾	٦٥٠٥
٢	﴿والى عرش﴾	٦٥٠٥
٣	﴿والشـفـع والـوتـر﴾	٦٥٠٥
٤	﴿والى ل إذا يسـر﴾	٦٥٠٥
٥	﴿هل فى ذلك قسم لذى حجر﴾	٦٥٠٥
٦	﴿ألم تركىف فعل رىك بعمار﴾	٦٥٠٥
٧	﴿إرم ذات الـعمـاد﴾	٦٥٠٥
٨	﴿اللى لم يخلق مثلاً فى البلاد﴾	٦٥٠٥
٩	﴿وئمود الذين جابوا الصفر بالواد﴾	٦٥٠٥
١٠	﴿وفرعون ذى الأوتـاد﴾	٦٥٠٥
١١	﴿الذين طغوا فى البلاد﴾	٦٥٠٥
١٢	﴿فأكثروا فيها الفساد﴾	٦٥٠٥
١٣	﴿فصب عابيهم رىك سنوط عذاب﴾	٦٥٠٥
١٤	﴿إن رىك لى بالمرصاد﴾	٦٥٠٥
١٥	﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه...﴾	٦٥١١
١٦	﴿وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى﴾	٦٥١١
١٧	﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾	٦٥١١
١٨	﴿ولا تحاضون على طعام المسكين﴾	٦٥١١
١٩	﴿وتأكلون الترات أكلاً لمـا﴾	٦٥١١
٢٠	﴿وتحبون المال حباً جماً﴾	٦٥١١
٢١	﴿كـلا إذا دكت الأرض دكـاً دكـاً﴾	٦٥١٤
٢٢	﴿وجاء رىك والمالك صفـاً صفـاً﴾	٦٥١٤

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢٣	﴿وَجِءَ يَوْمَهُمُ يَوْمُئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾	٦٥١٤
٢٤	﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾	٦٥١٤
٢٥	﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾	٦٥١٤
٢٦	﴿وَلَا يُوَلِّقُ وُثْقًا أَحَدًا﴾	٦٥١٤
٢٧	﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾	٦٥١٤
٢٨	﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾	٦٥١٤
٢٩	﴿فَنَادَىٰ فِي فَسْحٍ غَايٍ﴾	٦٥١٤
٣٠	﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾	٦٥١٤
—	تفسير سورة البلد	٦٥١٩
—	أهداف سورة البلد	٦٥٢٠
١	﴿لَا أَقْسَمُ بِهِذَا لِلْبَلَدِ﴾	٦٥٢٤
٢	﴿وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾	٦٥٢٤
٣	﴿وَوَالْبَلَدِ وَمَنَازِلِهِ﴾	٦٥٢٤
٤	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾	٦٥٢٤
٥	﴿أَبَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾	٦٥٢٤
٦	﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ﴾	٦٥٢٤
٧	﴿أَبَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾	٦٥٢٤
٨	﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾	٦٥٢٤
٩	﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾	٦٥٢٤
١٠	﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾	٦٥٢٤
١١	﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾	٦٥٢٩
١٢	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾	٦٥٢٩
١٣	﴿فَك رَقَبَةٌ﴾	٦٥٢٩
١٤	﴿أَوْ إِنْطَاعٌ فِي يَوْمٍ تُسْفَفُ﴾	٦٥٢٩
١٥	﴿يَتَّبِعُ مَاذَا مَقَرَّبَةً﴾	٦٥٢٩
١٦	﴿أَوْ مَسْكِينًا زَا مَقَرَّبَةً﴾	٦٥٢٩
١٧	﴿فَمَ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ...﴾	٦٥٢٩
١٨	﴿أَوَلَمْ تَكُ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ﴾	٦٥٢٩
١٩	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾	٦٥٢٩
٢٠	﴿عَلَيْهِمْ نَارُ مُوقَدَةٍ﴾	٦٥٢٩
—	تفسير سورة الشمس	٦٥٣٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	أهداف سورة الشمس	٦٥٣٦
١	﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾	٦٥٣٩
٢	﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها﴾	٦٥٣٩
٣	﴿وَالنَّجْمُ إِذَا جَلَاها﴾	٦٥٣٩
٤	﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾	٦٥٣٩
٥	﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا﴾	٦٥٣٩
٦	﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَرَاهَا﴾	٦٥٣٩
٧	﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾	٦٥٣٩
٨	﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾	٦٥٣٩
٩	﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾	٦٥٣٩
١٠	﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾	٦٥٣٩
١١	﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾	٦٥٤٣
١٢	﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾	٦٥٤٣
١٣	﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾	٦٥٤٣
١٤	﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾	٦٥٤٣
١٥	﴿وَلَا يَخَافُ عَذَابَ آفَاقِهَا﴾	٦٥٤٣
—	تفسير سورة الليل	٦٥٤٧
—	أهداف سورة الليل	٦٥٤٨
١	﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى﴾	٦٥٥١
٢	﴿وَالنَّجْمُ إِذَا تَجَاسَى﴾	٦٥٥١
٣	﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾	٦٥٥١
٤	﴿إِنْ سَأَلْتَهُنَّ لَمَنِ الشَّيْءُ﴾	٦٥٥١
٥	﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾	٦٥٥١
٦	﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾	٦٥٥١
٧	﴿فَسِنَّى سِرَّهُ لَاسِىرى﴾	٦٥٥١
٨	﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾	٦٥٥١
٩	﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾	٦٥٥١
١٠	﴿فَسِنَّى سِرَّهُ لَاسِىرى﴾	٦٥٥١
١١	﴿وَمَا يَفْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾	٦٥٥١
١٢	﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾	٦٥٥٥
١٣	﴿وَلِإِن لَّنَا لَلْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾	٦٥٥٥

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤	﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾	٦٥٥٥
١٥	﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾	٦٥٥٥
١٦	﴿الْبَذَى كَذَبٌ وَتَوَلَّى﴾	٦٥٥٥
١٧	﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾	٦٥٥٥
١٨	﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾	٦٥٥٥
١٩	﴿وَمَا لَاحِدٌ عَنْدهُ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْزَى﴾	٦٥٥٥
٢٠	﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾	٦٥٥٥
٢١	﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾	٦٥٥٥
-	تفسير سورة الضحى	٦٥٥٩
-	أهداف سورة الضحى	٦٥٦٠
١	﴿وَالضُّحَى﴾	٦٥٦٢
٢	﴿وَالْأَيْلُ إِذَا سَجَى﴾	٦٥٦٢
٣	﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾	٦٥٦٢
٤	﴿وَلِأَخْرَجَ خَيْرَكَ مِنَ الْأُولَى﴾	٦٥٦٢
٥	﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾	٦٥٦٢
٦	﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾	٦٥٦٢
٧	﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾	٦٥٦٢
٨	﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾	٦٥٦٢
٩	﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾	٦٥٦٢
١٠	﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾	٦٥٦٢
١١	﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾	٦٥٦٢
-	تفسير سورة الشرح	٦٥٦٩
-	أهداف سورة الشرح	٦٥٧٠
١	﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾	٦٥٧٢
٢	﴿وَوَضَعْنَا عَنَّا وِزْرَكَ﴾	٦٥٧٢
٣	﴿أَلَمْ يَذْأَنْقَضْ ظَهْرَكَ﴾	٦٥٧٢
٤	﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾	٦٥٧٢
٥	﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾	٦٥٧٢
٦	﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾	٦٥٧٢
٧	﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾	٦٥٧٢
٨	﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾	٦٥٧٢

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
—	تفسير سورة التين	٦٥٧٩
—	أهداف سورة التين	٦٥٨٠
١	﴿والتين والزيتون﴾	٦٥٨٢
٢	﴿وطور سين﴾	٦٥٨٢
٣	﴿وهذا البلد الأمين﴾	٦٥٨٢
٤	﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾	٦٥٨٢
٥	﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾	٦٥٨٢
٦	﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾	٦٥٨٢
٧	﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾	٦٥٨٢
٨	﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾	٦٥٨٢
—	تفسير سورة العلق	٦٥٨٩
—	أهداف سورة العلق	٦٥٩٠
—	تمهيد من السنة المطهرة	٦٥٩٢
١	﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾	٦٥٩٣
٢	﴿خلق الإنسان من علق﴾	٦٥٩٣
٣	﴿اقرأ وربك الأكرم﴾	٦٥٩٣
٤	﴿الذي علم بالقلم﴾	٦٥٩٣
٥	﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾	٦٥٩٣
٦	﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾	٦٥٩٣
٧	﴿أن رآه استغنى﴾	٦٥٩٣
٨	﴿إن إلى ربك الرجعى﴾	٦٥٩٣
٩	﴿أرأيت الذي ينهى﴾	٦٥٩٣
١٠	﴿عبدا إذا صلى﴾	٦٥٩٣
١١	﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾	٦٥٩٣
١٢	﴿أو أمر بالتقوى﴾	٦٥٩٣
١٣	﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾	٦٥٩٣
١٤	﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾	٦٥٩٣
١٥	﴿كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية﴾	٦٥٩٣
١٦	﴿ناصية كاذبة خاطئة﴾	٦٥٩٣
١٧	﴿فإن ادع ناصيه﴾	٦٥٩٣
١٨	﴿سندع الزبانية﴾	٦٥٩٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩	﴿كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾	٦٥٩٣
-	تفسير سورة القدر	٦٦٠١
-	أهداف سورة القدر	٦٦٠٢
١	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾	٦٦٠٤
٢	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾	٦٦٠٤
٣	﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾	٦٦٠٤
٤	﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾	٦٦٠٤
٥	﴿سُبْحَانَ مَنْ هُوَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾	٦٦٠٤
-	تفسير سورة البينة	٦٦٠٩
-	أهداف سورة البينة	٦٦١٠
١	﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى...﴾	٦٦١٣
٢	﴿وَرَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾	٦٦١٣
٣	﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾	٦٦١٣
٤	﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾	٦٦١٣
٥	﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾	٦٦١٣
٦	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...﴾	٦٦١٧
٧	﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾	٦٦١٧
٨	﴿جَزَاءُهمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عِدْنُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾	٦٦١٧
-	تفسير سورة الزلزلة	٦٦١٩
-	أهداف سورة الزلزلة	٦٦٢٠
١	﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾	٦٦٢٢
٢	﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾	٦٦٢٢
٣	﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾	٦٦٢٢
٤	﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾	٦٦٢٢
٥	﴿بِأَنَّ رِيكَ أَوْحَى إِلَهَا﴾	٦٦٢٢
٦	﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾	٦٦٢٢
٧	﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٦٦٢٢
٨	﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	٦٦٢٢
-	تفسير سورة العاديات	٦٦٢٩
-	أهداف سورة العاديات	٦٦٣٠
١	﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾	٦٦٣٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿فَالْمَمُورَاتِ قَدْ حَا﴾	٦٦٣٣
٣	﴿فَالْمَقِيرَاتِ صَبَّحَا﴾	٦٦٣٣
٤	﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقَعَا﴾	٦٦٣٣
٥	﴿فَوَسْطُنَ بِهِ جَمَعَا﴾	٦٦٣٣
٦	﴿وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾	٦٦٣٣
٧	﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾	٦٦٣٣
٨	﴿وَإِنَّهُ لَحَبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	٦٦٣٣
٩	﴿أَفَنُفْلِئُكُمْ إِنَّا بَعَثْنَا فِي الْقُبُورِ﴾	٦٦٣٣
١٠	﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾	٦٦٣٣
١١	﴿وَإِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾	٦٦٣٣
—	تفسير سورة القارعة	٦٦٣٩
—	أهداف سورة القارعة	٦٦٤٠
١	﴿إِلَاقَةُ﴾	٦٦٤٣
٢	﴿مَالِاقَةُ﴾	٦٦٤٣
٣	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾	٦٦٤٣
٤	﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾	٦٦٤٣
٥	﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾	٦٦٤٣
٦	﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾	٦٦٤٣
٧	﴿فَنُفِثَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾	٦٦٤٣
٨	﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾	٦٦٤٣
٩	﴿فَأُمِّئَتْ هَوَاوِيَّةٌ﴾	٦٦٤٣
١٠	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هَوَاوِيَّةٌ﴾	٦٦٤٣
١١	﴿نَارُ حَامٍ أَمِيزِيَّةٌ﴾	٦٦٤٣
—	تفسير سورة التكاثر	٦٦٤٩
—	أهداف سورة التكاثر	٦٦٥٠
١	﴿أَلَمْ يَكُنِ الْتَكَاثُرُ﴾	٦٦٥٣
٢	﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾	٦٦٥٣
٣	﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾	٦٦٥٣
٤	﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾	٦٦٥٣
٥	﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾	٦٦٥٣
٦	﴿لَتَتَرُونَ الْجَحِيمَ﴾	٦٦٥٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٧	﴿ثم لترونها عين النيقين﴾	٦٦٥٣
٨	﴿ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾	٦٦٥٣
—	تفسير سورة العصر	٦٦٥٩
—	أهداف سورة العصر	٦٦٦٠
١	﴿والعصر﴾	٦٦٦٢
٢	﴿إن الإنسان لفسق﴾	٦٦٦٢
٣	﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾	٦٦٦٢
—	تفسير سورة الهمزة	٦٦٦٧
—	أهداف سورة الهمزة	٦٦٦٨
١	﴿ويل لكل همزة لمزة﴾	٦٦٧١
٢	﴿الذي جمع مالا وعدده﴾	٦٦٧١
٣	﴿يحسب أن ماله أخلده﴾	٦٦٧١
٤	﴿كلا لينبذن في الحطمة﴾	٦٦٧١
٥	﴿وما أدراك ما الحطمة﴾	٦٦٧١
٦	﴿نار الله الموقدة﴾	٦٦٧١
٧	﴿التي تطلع على الأفئدة﴾	٦٦٧١
٨	﴿إنها عليهم مؤصدة﴾	٦٦٧١
٩	﴿ففي عمد ممددة﴾	٦٦٧١
—	تفسير سورة الفيل	٦٦٧٥
—	أهداف سورة الفيل	٦٦٧٦
١	﴿ألم تتركب فعل يرك بأصحاب الفيل﴾	٦٦٨١
٢	﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾	٦٦٨١
٣	﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾	٦٦٨١
٤	﴿فرمىهم بحجارة من سجيل﴾	٦٦٨١
٥	﴿فجعلهم كغصف آكول﴾	٦٦٨١
—	تفسير سورة قريش	٦٦٨٥
—	أهداف سورة قريش	٦٦٨٦
١	﴿إلا قريش﴾	٦٦٨٨
٢	﴿إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾	٦٦٨٨
٣	﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾	٦٦٨٨
٤	﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾	٦٦٨٨

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
-	تفسير سورة الماعون	٦٦٩١
-	أهداف سورة الماعون	٦٦٩٢
١	﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالذِّينِ﴾	٦٦٩٦
٢	﴿فَإِذَا كُذِبَ عَلَيْهِ يَسْتَعْجِلُ سَعْيَهُ﴾	٦٦٩٦
٣	﴿وَلَا يَحْضُ عَلٰى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾	٦٦٩٦
٤	﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾	٦٦٩٦
٥	﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	٦٦٩٦
٦	﴿الَّذِينَ هُمْ يَرِءُونَ﴾	٦٦٩٦
٧	﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾	٦٦٩٦
-	تفسير سورة الكوثر	٦٦٩٩
-	أهداف سورة الكوثر	٦٧٠٠
١	﴿إِنَّا عَظَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	٦٧٠٣
٢	﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾	٦٧٠٣
٣	﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾	٦٧٠٣
-	تفسير سورة الكافرون	٦٧٠٥
-	أهداف سورة الكافرون	٦٧٠٦
١	﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾	٦٧٠٩
٢	﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾	٦٧٠٩
٣	﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾	٦٧٠٩
٤	﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾	٦٧٠٩
٥	﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾	٦٧٠٩
٦	﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾	٦٧٠٩
-	تفسير سورة النصر	٦٧١٣
-	أهداف سورة النصر	٦٧١٤
١	﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾	٦٧١٦
٢	﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾	٦٧١٦
٣	﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾	٦٧١٦
-	تفسير سورة المسد	٦٧١٩
-	أهداف سورة المسد	٦٧٢٠
١	﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	٦٧٢٣
٢	﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾	٦٧٢٣

رقم الآية	أول الآيات	رقم الصفحة
٣	﴿سبح على نارا ذات لهب﴾	٦٧٢٣
٤	﴿واقرأه حمالة الخطب﴾	٦٧٢٣
٥	﴿فى جيبها حبل من مسد﴾	٦٧٢٣
—	تفسير سورة الإخلاص	٦٧٢٧
—	أهداف سورة الإخلاص	٦٧٢٨
١	﴿قل هو الله أحد﴾	٦٧٣٤
٢	﴿الله الصمد﴾	٦٧٣٤
٣	﴿لم يلد ولم يولد﴾	٦٧٣٤
٤	﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾	٦٧٣٤
—	تفسير سورة الفلق	٦٧٣٧
—	أهداف سورة الفلق	٦٧٣٨
١	﴿قل أعوذ برب الفلق﴾	٦٧٤٠
٢	﴿من شر باغيا لاق﴾	٦٧٤٠
٣	﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾	٦٧٤٠
٤	﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾	٦٧٤٠
٥	﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾	٦٧٤٠
—	تفسير سورة الناس	٦٧٤٥
—	أهداف سورة الناس	٦٧٤٦
١	﴿قل أعوذ برب الناس﴾	٦٧٤٩
٢	﴿ملك الناس﴾	٦٧٤٩
٣	﴿إله الناس﴾	٦٧٤٩
٤	﴿من شر الوسواس الخناس﴾	٦٧٤٩
٥	﴿الذى يوسوس فى صدور الناس﴾	٦٧٤٩
٦	﴿من الجنة والناس﴾	٦٧٤٩
—	فى أعقاب تفسير سورة الناس	٦٧٥٢
—	خاتمة	٦٧٥٤
—	دعاء ختم القرآن	٦٧٥٥
—	تخريج أحاديث وهوامش	٦٧٥٧
—	فهرس الكتاب	٦٧٧٩

تم بحمد الله تعالى الجزء الثلاثون .

ولله الفضل والمنة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه الانتهاء من إصدار
«تفسير القرآن الكريم» كاملاً لفضيلة الدكتور عبد الله شحاتة
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ؛ بمطابع
«دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع» بالقاهرة بإشراف الأستاذ
هاني أحمد غريب رئيس مجلس الإدارة وذلك تحقيقاً لرغبة المغفور
له الحاج أحمد غريب - رحمه الله - في نشر تفسير القرآن الكريم
جعله الله خالصاً لوجهه الكريم في ميزان حسناته ومغفرة له وسبباً
في الخير والثواب والسعادة وفتحة خير لأبنائه وأحفاده
وللمسلمين أجمعين .

و«دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع» إذ تقدم للأمة الإسلامية أغلى
هدية وأثمن كتاب «تفسير القرآن الكريم كاملاً من سورة الفاتحة وحتى سورة
الناس» - في ١٥ مجلداً في ثوب قشيب وطباعة فخمة أنيقة ، تتمنى للأمة
الإسلامية العزة والانتصار والسير على نهج القرآن الكريم والتمسك بسنة النبي
الأمين ﷺ جيلاً بعد جيل ، وتعد القارئ الكريم أن تكون دائماً عند ثقته وتقدم
دائماً كل جديد ومفيد ونافع للمكتبة الإسلامية خدمة للأجيال المقبلة راجين أن
يقبل الله منا هذا الجهد .

ويُعد هذا التفسير إضافة جديدة وجيلية للمكتبة الإسلامية استغرق مؤلفه
في كتابة تفسير النصف الأول من القرآن الكريم ١٥ عاماً والنصف الثاني استغرق
فيه خمسة أعوام متفرغاً تماماً لتفسير القرآن الكريم كتابةً .

وكان الفراغ منه في مساء الخميس ٢٢ ربيع الأول ١٤٢٢ من هجرة
المصطفى ﷺ الموافق ١٤ يولية عام ٢٠٠١ من ميلاد السيد المسيح عليه السلام .
اللهم افق بهذا العمل كل من قرأه وتعلمه واغفر لكل من ساهم في إخراجهِ
للنور ، واختم لنا بخاتمة السعادة يا كريم وصلى اللهم على سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين

